الموسوعة الشاملة

في تاريخ الحروب الصليبية

المجلد التاسع



تأليف وتحقيق وترجمة

د. سهيل زكار

الموسوعة الشامية في
تاريخ الحروب الصليبية

مشاريع ما بعد الحملة السابعة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء السادس والثلاثون

دمشق ١٤٢٠ / ١٩٩٩

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١ — استرداد الأرض المقدسة لبييردوبوا

٢ — من كتاب الأسرار لمارينوسانوتو

١
استرداد الأرض المقدسة
تأليف بيير دوبوا

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

كان للحروب الصليبية أبعدالأثار على أوربا الغربية بشكل خاص، وقد فتحت هذه الحروب آفاق المعارف العقلية والجغرافية أمام الاوربيين، وأخرجتهم من الواقع الإقليمي الضيق، إلى الانفتاح العالمي، ومن ظلام العصور الوسطى إلى نور المعرفة، والاستعداد إلى دخول عصور النهضة، ومن الصراع بين الامبراطورية والبابوية إلى قيام مشاريع الدول القومية وتراجع البابوية، وقاد هذا كله نحو تأسيس الجامعات وانتشار الثقافة، وظهور عدد كبير جداً من الفلاسفة و المحامين و المفكرين السياسيين الذين تأثروا كثيراً بمعطيات الحضارة العربية، عن طريق الترجمة و الاحتكاك المباشر، وعن طريق الذين هاجروا من اسبانيا وسواها إلى فرنسا نتيجة لحروب الاستغلاب ومحاكم التفتيش.

وترافق هذا مع النشاط الهائل للدول الإيطالية، وبوادر مشاريعها الاستعمارية الاقتصادية، التي تجلت باحتلال القسطنطينية، واقطاع الطليان أحياء خاصة في مدن الشام، ذات امتيازات واعفاءات، أي مايشبه المستعمرات و المستوطنات، وكانت أوربا قد تفوقت بحريا على كل ماسواها، واستحوذت على البحر المتوسط، بعد الاستيلاء على جزيرة صقلية وبعض شواطىء المغرب، وذلك بالاضافة إلى ما كان بيد الفرنجة من شواطىء الشام.

وتزامن هذا كله مع ظهور المغول كقوة فاعلة في المشرق العربي، ومع هذا كله، ظلت الوحدة التي تأسست أيام نور الدين بين مصر والشام تؤتي أفضل الثمار، فبجيوش الوحدة تحقق النصر في دمياط ثم في

المنصورة، وبعدها في عين جالوت وحررت أنطاكية ثم طرابلس، وأخيراً عكا عام ١٢٩١م، وهنا بدأت العقول الأوربية تحاول استيعاب الدروس المستفادة من قرني الحروب الصليبية، وظلت الأصوات عالية تنادي بحملة صليبية جديدة، لكن الآن حلت العقلانية في التخطيط محل الانفعال و التحريض والإثارة، وشرع بعض رجال الفكر من علمانيين وكهنة في تقديم دراسات ومذكرات من أجل عمل صليبي أوربي موحد، وفي سبيل تحويل احتلال الأرض في الشام إلى احتلال دائم، ولتحويل العرب إلى الكاثوليكية أوافنائهم، واهتمت هذه الدراسات بمصر، وآمنت أن الطريق إلى القدس لابد وأن يمر عبر مصر، وأراد الأوربيون احتلال مصر، لكن بحملات جانبية، بعد اخفاق الحملات الجبهوية، وكثيرة هي الكتابات الأوربية التي خرجت إلى النور في مطلع القرن الرابع عشر حول هذا الموضوع، وأبرزها وأهمها جميعاً كتابي«استرداد الأرض المقدسة» للمحامي الفرنسي بيير دوبوا، وكتاب «الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدسة» للايطالي مارينو سانوتو.

ففي الوقت الذي جرى فيه تصنيف هذين الكتابين، كان جوانفيل قد كتب كتابه عن حياة لويس التاسع، ولأهمية مطلع القرن الرابع عشر، هناك مدخل دراسي واسع حول هذا الموضوع في مطلع كتاب«الاسترداد» لدوبوا، ونجد في هذه الدراسة وفي نصي الكتابين، صورة عقلية الغرب الأوربي، هذه العقلية التي استمرت على المنهج ذاته حتى القرن العشرين، وتساور المرء الشكوك حول تغييرها في القرن المقبل.

والمناداة بدمج المنظمات العسكرية، وبالقيام بأعمال تبشيرية منظمة وبالاهتمام بالعربية، وبالعمل على تحويل المسلمين عن دينهم، التي نجدها في الكتابين هي الأمور التي طبقتها أوربا تحت عناوين التبشير

والاستشراق والاستعمار، وهي الأفكار التي على أساسها قامت الحركة الصهيونية، ولنتذكر دوماً أن الغرب هو الذي أوجد إسرائيل، وما برح يمدها بأسباب الحياة.

ومهما تحدثت عن محتوى هذين الكتابين في هذه التوطئة، سيكون ذلك قاصراً لا يفي بالغرض، والذي يفي بالغرض هو قراءة النصين بتمعن، ومن ثم استعراض ما وقع منذ القرن الرابع عشر حتى الآن، وليس غرضي هنا كربلاوياً فيه النحيب والشكوى من الاستعمار ومن الغرب، بل الغرض المعرفة، والقول بأن حوادث التاريخ هي حوادث صراعات بين الشعوب، والمسألة ليست مسألة عدل وظلم، لكنها قضية قوي وضعيف، ودائماً مصدر القوة الوحدة، ومصدر الضعف التمزق، فقد أخفقت كل مشاريع أوربا مجتمعة قبل القرن الرابع عشر، بفضل وحدة مصر والشام ، هذه الوحدة التي شكلت المكافىء لكل أوربا، وشكلت المرجعية العلمية والشرعية، فقد كانت الخلافة العباسية في القاهرة تشكل رمز الشرعية، وعمل الأزهر وشغل دور المرجعية العلمية، وسبيل الحفاظ — الآن — على مصالح الأمة العربية ومعها الشعوب الاسلامية، مرتبط بإعادة بعث هذه الوحدة وهذه المرجعية، فإذا اتحدت مصر والشام أمكن للعرب أن يتلاقوا، ولقاء العرب وتوحيد إرادتهم هو السبيل الوحيد أمام المسلمين في قرن مقبل، القول الفصل فيه، والانتماء إلى الثقافات، فالثقافة الآن هي التي تحدد الهوية، وكانت مصر والشام قد اتحدتا أيام نور الدين لغايات جهادية عربية اسلامية، وبالفعل حققت هذه الوحدة العديد من المعجزات، والجهاد في سبيل البقاء العربي، وفي سبيل تحرير الأرض، وفي سبيل رفع الضيم عن المسلمين، وفي سيل إنسانية أفضل وأكثر سعادة، وأقل سفكاً للدماء، يستدعي الحال الآن بإلحاح كبير، إعادة الوحدة مابين الشام — كل الشام — وأرض الكنانة.

ويثير الكتـــابان عـــدة أمــور تتعلق بشكل رئيسي بطائفتــي الداوية والاسبتارية وبالشؤون العسكرية، ولهذا عزمت على أن ألحق بموسوعتنا ثلاث دراسات حديثة : عن الحروب الصليبية المتأخرة، أي حتى معركة وادي المخازن، وعـن فن الحرب حتى تحرير عكا، وعن طائفتي الداوية والاسبتارية.

والله المعين والموفق إلى السداد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق ٤ — ربيع الأول ١٤٢٠هـ / ١٧ — حزيران ١٩٩٩ م

مدخل

ترجمة مختصرة لبيير دوبوا

معلوماتنا عن حياة بيير دوبوا Pierre Dubois وأعماله قليلة جداً، فلم يترك لنا مجلد مراسلات شخصية أو رسمية، مثلما فعل بيرودیلافینا Vigna الذي كان سكرتيراً ومستشاراً لفردريك الثاني، وما من أحد سواه من بين الأسرة الرسمية للملك فيليب الجميل، بقي تقريباً من دون ذكر داخل كتلة مواد الوثائق، التي مكنت هولتزمان بأن ينشر مجلداً حول وليم أوف نوغاريت Nogaret ، وقد جرى نشر أوراقه الكثيرة في الغالب مجهولة بين منتجات قلمه المتنوعة التي بقيت لنا، وظهر اسمه بمثابة كاتب معروف في عمل واحد فقط، أما ملاحظات أعماله القليلة المتفرقة فقد ظهرت في مدونات رسمية جرى تمحيصها بشكل جيد من قبل س.ف لانغلويس Langlois ، والاحتمال ضعيف بوجود المزيد من المواد الهامة لم يتم اكتشافها، ولهذا يتوجب أن نضيف هذه المعلومات القليلة إلى ما أخبرنا به عن نفسه في أوراقه وما يمكن أن نستخلصه مصادفة من خلال البيانات المقدمة هناك.

ونعرف من هذا كله بأنه قد ولد في شمال فرنسا، وربما في، أو على مقربة من كوتانسيز Coutances في نورماندي، وهذا واضح من أسلوبه الكتابي والأدبي، ومن معرفته بأعيان تلك المنطقة من أمثال: هنري دي ري Rie فيزكونت كين Caen، ورتشارد لينيفو Leneveu ومن حقيقة أن سكان كوتانسيز الذين كانوا أبناء منطقته قد عبروا عن ثقتهم به مرتين لتمثيلهم في مجلس الأعيان العام Estates General ، ويرجح أنه كان من أصل برجوازي، ويدلل على هذا اختياره لمهنته، وانعدام أية إشارة في كتاباته إلى أنه من أصل

نبيل أو فلاحي، ولقد أخبرنا أنه في أيام تلمذته في باريس استمع إلى محاضرات ألقاها توماس الأكويني وسيغر دي برابنت Brabant ، وكان توماس يحاضر في باريس في ١٢٦٩ — ١٢٧٢، وسيغر في حوالي ١٢٦٦ إلى ١٢٧٦ ، وبناء عليه يمكننا القول بأن تاريخ ميلاده كان فيما بين ١٢٥٠ و١٢٥٥ حين جرى تنظيم جامعة باريس أمميا، ويحتمل أن دوبوا اصطنع لنفسه معارف خلال أيام دراسته مع عدد من أبناء منطقته النورمانديين، الذين صاروا فيما بعد أصدقائه في المحكمة، وتشيرمعارفه بالقانون المدني الروماني إلى أنه لابد قد درس هذا الموضوع في مكان آخر غير باريس، ولعل ذلك كان في أورلين، لأن باريس لم يكن فيها كلية قانون كافية.

ومن الممكن أن نفترض، أنه بعدما أكمل دراسته، بدأ بممارسة مهنته في كوتانسيز، والحقبة المؤكد معرفتها في حياته، والتالية لهذه هي الفاجعة التي نزلت بفيليب الثالث في حملته ضد أرغون سنة ١٢٨٥ ، وقد توفي الملك لإصابته بالمرض في أثناء تراجعه، وكان دوبوا الآن ناضجاً بما فيه الكفاية، وصاحب خبرة كي يعمل بالمسائل العامة، ويبدو أن هذه الحادثة قد تركت تأثيراً عظيماً عليه، هذا وتوفر صداقته مع هنري دي ري، والأعيان الآخرين في بلاط فيليب الرابع توضيحاً لمعرفته بقضايا الدولة، وتمكن من التعمق في أحوال المملكة، في الخمس عشرة سنة التالية، التي أصبح فيها ثرياً تماماً، واحتل منصب المحامي الملكي في منطقة مسقط رأسه، وكانت نتائج هذه الخبرات والتأملات جهوده البكر في الحصول على الانتباه الشعبي لأفكاره الإصلاحية، حيث وجه سنة ١٣٠٠ مذكرةً إلى فيليب الرابع تحت العنوان الصارخ التالي:«خطة مختصرة ودقيقة من أجل الحملة السعيدة، ولاختصار الحروب، ومقاضاة ملك فرنسا»، ولانمتلك أي دليل على أن مقترحاته كان لها أي تأثير على السياسة الملكية.

ومهما كان نوع الاستقبال الذي تلقته هذه المذكرة لعام ١٣٠٠(هناك نسخة خطية منها وحيدة تعود إلى القرن الخامس عشر) فإن شهيته للشهرة العامة قد شحذت، وقد أعطاه تفجر الصراع بين فيليب وبونيفيس الثامن الفرصة، فقد أرسل في اليوم الذي تقدم على نشر مرسوم Ausculta Fili بشكل رسمي، مذكرة مختصرة إلى صديقه في باريس رتشارد لينيفو، بعنوان«مناقشات لاتقبل الجدل»، ولم تعد هذه المذكرة موجودة، وأمكننا التعرف إلى محتوياتها من خلال ملخص دقيق قدمه دوبوا نفسه، في كتابه«استرداد الأرض المقدسة»(الفصل الحادي عشر)، ولا يوجد دليل على أن هذه المذكرة قد وصلت إلى الملك، ووجه في ١٥ شباط ١٣٠٢ فيليب دعوة لاجتماع الأعيان، وكان هذا أول مجلس أعيان عام نمتلك عنه سجلاً أصيلاً، وتأكدت سمته الوطنية بضمه — للمرة الأولى — ممثلين من الدرجة الثالثة، كان بينهم المحامي النورماندي الطموح بيير دوبوا، فقد اختير ليمثل بلدته كوتانسيز.

وقام واحد من الأذكياء في حاشية فيليب بتقديم نص مكثف لـ Ausculta Fili مع افتتاحية Deum Time ، واقتبس اصطلاحات مسيئة لفيليب، وعرض الادعاء البابوي وقدمه بلغة أكثر إثارة من الأصل، وتوقف دوبوا عند واحد من المقاطع المتناقضة بسبب التزييف، وقام بسرعة بكتابة رد بعنوان:«تقدير لمعايير ينبغي تبنيها»، ولا نمتلك بينة بأن هذا الرد قد جرى توزيعه بين الأعيان، لكن أن يكون قد وصل إلى علم البلاط، فهذا مبرهن عليه من خلال حقيقة أنه قد عثر عليه، مع بعض المناشير الأخرى التي كتبها دوبوا، داخل مجموعة من الردود الجدلية القاسية، جرى نسخها لصالح الوثائق الملكية بتوجيه من بيير دي ايتامبز Etampes ، حافظ الوثائق من سنة ١٣٠٧ حتى ١٣٢٤.

ولانعرف شيئاً عن نشاطات دوبوا كعضو في مجلس الأعيان، فقد كان في ذلك الحين«محامي القضايا الملكية في وكالة كوتانسيز والمحامي

الرسمي عن الجماعة في تلك المنطقـة»، ومن المعقول أن نفترض أنه كان له دوره في إثارة أعضاء منطقته للقيـام بتبني قرارات لصالح «الأهداف الملكية»، وهناك بينة حول هذ ا الاسهـام قد ظهرت سنة ١٣٠٤، داخل منشور آخـر، جاء هذه المرة بصيغة وطنيـة هي:«التماس الشعب الفرنسي إلى الملك ضد البابا بونيفيس الثامن»، ويشير استخدامه للغة الشعبية إلى جهد التماس موجه بشكل خاص إلى الأعيان من المرتبة الثالثة.

ولم يوقف تعليق مجلس الأعيـان العـام نشاطاتـه، فقد ذكـر دوبوا في (الفصل ١١٧) من كتـاب الاسترداد، أنه عهد في كانـون الثاني ١٣٠٤ إلى جين دي لى فـــوريت برســالة عنـوانها:«حـــول تقصير الحروب والتكتيكات المتعلقة بها»، كـان من المفترض تسليمها إلى فيليب، عنـدما كان ذلك الملك في طولوز، وتحتوي اقتراحاً من أجل غلبة الامبراطورية الإغريقيـة من قبل شارل أوف فـاليوس Valois ، بمساعـــدة الملك الفـرنسي ، وخطة مفصلة حول السيـاسـة العسكرية المتـوجب اتباعهـا، وهذه الرسـالة، رسالة سنة ١٣٠٤ قـد فقـدت، ولعلها صيـاغة جـديدة لمذكرة«الخطة المختصرة» لسنة ١٣٠٠.

وكتابه الرئيسي هو«استرداد الأرض المقدسـة»، وقد كتب في وقت ما فيما بين تكريس كليمنت الخامس، ووفـاة إدوارد الأول، وكـان كليمنت قـد توج بابا في الخامس من حزيران سنة ١٣٠٥، ومـات ادوارد يوم ٧ تموز ١٣٠٧، ولن نكون مخطئين كثيراً إذا ما قلنا بـأن سنة ١٣٠٦ كانت السنة التي ألف فيهـا كتـاب الاسترداد، فقـد توجـه في مطلع الكتـاب بالخطاب إلى ادوارد الأول، ووصف المؤلف هنا نفسـه بقـوله:«المحـامي المتواضع لقضـاياه(ادوارد) اللاهوتية في تلك الدوقية»(أكـوتين)، ويبدو أن التعـارض بين مركـزه كمحامي لفيليب وخـدمته لصـالح ادوارد، لم يسبب له مصـاعب كبيرة .على الرغم من العـداوة المريرة التي كـانت قـائمة آنذاك بينه وبين فيليب، وبحكم كـون ادوارد دوقـاً لأكوتين فقـد

كان من أتباع فيليب، ومما لاشك فيـه، أنه في وقت ما بعد إبرام الصلح في سنة ١٢٩٩ بين ادوارد وبين فيليب، عمل دوبوا مستشاراً لادوارد في بعض من قضـــاياه الكثيرة التي أثـارت صراعـاً فيها بين القضـــاء المدني والقضاء اللاهوتي في أكـوتين، ويبدو أن استخدامـه من قبل ادوارد كان في مناسبـات كثيرة، وقـام س . ف لانغلويس بالتحـري الـدقيق لوثائق الممالك الغسكونية لادوارد الأول، فلم يعثر على أي ذكـر لدوبوا كعامل ملكي في أكـوتين، هذا ولم تكن الخدمـة المزدوجـــة فـريدة في بابها بأي حال من الأحـوال، فقد قام محامـون آخرون من ذلك العصر بمثل هذه الأعمال ومن هؤلاء كان غليوم دي بريول Breuil .

وبعد ظهـور«الاسترداد»بقي قلمنا الكاتب للمناشير بدون نشاط لمدة عـامين، ويبدو أنه كـان قـد عاد إلى نـورماندي، ليمارس مهنتـه وليرعى مصالح جماعتـه المحلية، وقـد ورد ذكره في رسـائل ملكية تاريخهـا شهر أيار عـــام ١٣٠٧، فيهـا تخلى فيليب، بناء على طلب بيير دوبـوا، محاميـه الملكي في وكالة كوتانسيز عن بعض الاستحقـاقات العائدة له عند كهنة تلك البلـدة، وسعى رينان إلى التعـــرف على وجـــوده مـع بطرس دي بوسكو Bosco ، الذي ورد ذكره بتاريخ ١٣ شباط لعام ١٣٠٧ ، فوق ألواح من الشمع حـول الحسابات الملكيـة، لقيـامه بشراء منازل للفـريق الملكي، أثناء زيـارة فيليب لنورمـــاندي، وهــذا أمـــر مشكوك به كثيراً، فواحد بمكانة دوبوا في ذلك الحين، كان من الصعب توجيه الدعوة إليه للعمل بمثل هذا العمل المتواضع.

ومنحـه الهجوم على الداوية فـرصة جـديدة، فقـد جرى اختيـاره مع واحد فريزي ثانية ليمثل منطقتـه في مجلس عام للأعيان، عقد في تور في سنة ١٣٠٨ ، وجاء وصفـه في وثيقة انتخابه:«محامي للقضـايا اللاهوتية الملكية في وكـالة كوتانسيـز»، وقد أنتج في ذلك العـام خمس رسائل، في اثنتين منهن حملة مختصرة على الداوية، وكانت إحداهن عامية، أما الثالثة

فكانت نسخة جديدة من الاسترداد، وهي مفقودة الآن، وكانت قد قدمت إلى الملك في شينون Chinon في ٢٣ أيار ١٣٠٨ ، بعد تعليق المجلس، وجاءت معرفتنا بها من خلال إشارات قام بها دوبوا في مذكرات تالية، ووجهت هذه بشكل رسمي إلى البابا، مثلما جرى توجيه النسخة الأصيلة من الاسترداد إلى الملك ادوارد الأول، وجاء صلب الموضوع هو نفسه إلى أبعد الحدود، والخلاف هنا عن النص الأصيل هو اقتراح تقدم به من أجل تمتين المنظمات العسكرية وتعيين ملك قبرص في القيادة.

وكان الدافع لكتابة الرسالة الرابعة لعام ١٣٠٨، ذات عنوان«مشكلة الأرض المقدسة»، هو أحداث ألمانيا، فقد جرى اغتيال الامبراطور ألبيرت الأول في ١ — أيار، وانتهز كاتبنا المتشوق للشهرة الفرصة ليقترح على فيليب الرابع أن يطلب من البابا تعيينه امبراطوراً، وقد أباح دوبوا هنا واحدة من انعدام التزامه المتكرر، وتغييره لمواقفه، فقد كان معروفاً أنه خلال النزاع بين ألبيرت صاحب النمسا وأدولف صاحب ناسو Nassau من أجل العرش، قد راج اقتراح بأن يتولى البابا بونيفيس الثامن عملية تعيين الامبراطور، وكان دوبوا قد أنكر آنذاك امتلاك البابا لمثل هذه السلطة، لكن الآن، عندما بدت الظروف وهي تقدم فرصة لزيادة حجم مملكة الملك الفرنسي مع سمعته، اقترح أن يقوم كليمنت الخامس باستخدام السلطة نفسها التي رفضها في حالة بونيفيس الثامن، ويبدو أن دوبوا قد عدّ البابا فرداً عادياً بلا سلطة عندما كان إيطالياً معادياً لفرنسا، لكن عندما كان فرنسياً، له عواطف جيدة نحو الملك، فهنا عدّه دوبوا صاحب سلطات رسمية غير محدودة، ولم يقم فيليب بأي عمل جدي في هذا المنحى، لكنه اتخذ خطوات لضمان انتخاب أخيه شارل أوف فاليوس.

وكان الانتاج الأخير لهذا العام رسالة وجهت إلى فيليب، اقترح فيها

إيجاد مملكة في الشرق الأدنى من أجل ابنه الثاني، فيليب الطويل، وتسوغ محتوياتها عدّها بمثابة ملحق «للاسترداد» ولهذا ترجمت وألحقت بترجمة المجلد الحالي.

وبعد هذا النشاط المثير لعام ١٣٠٨، أخلد دوبوا إلى الراحة لمدة خمس سنوات، فالمصادر لا تشير إلى أي أثر من النشاط الأدبي قام به من جانبه، لكن هل أنتج رسائل أخرى لم تبق لنا ولم يتم التعرف عليها؟ وهل شعر بالاحباط لأن جهوده لم تأت بأي استجابة من الملك؟ أم أن سياسات فيليب حققت ما يكفي من نجاحات حتى لم تبق هناك حاجة إضافية للتوجه نحو الرأي العام؟ ولقد استمر وليم نوغاريت No-garet في خضم المعركة ينشر منشوراً لتسويغه، لكن المحاكمة المخفقة لبونيفيس في سنة ١٣١٠ أخفقت في إثارة المحامي النورماندي لانتاج أي أثر أدبي، ولم يثر مجمع فينا، الذي حلّ منظمة الداوية أية ردات فعل من قلمه.

واستطاعت عين س . ف . لانغلويس الثاقبة، والخبيرة تماماً بالخصوصية الأدبية لدوبوا، التعرف إلى أنه مؤلف رسالة صغيرة، كتبها فيما بين تشرين أول ١٣١٣ وأيام الصوم الكبير في سنة ١٣١٤، بعنوان«مبارزات ومنازلات»، ولم تنظر الكنيسة قط بعين الرضا إلى المعارك الصورية، التي أحبتها قلوب الفرسان كثيراً، وكانت الملكية أيضاً تميل نحو التقطيب تجاهها لأن عدداً كبيراً من الرجال ومن الخيول هلكوا مما سبب صعوبات في الحفاظ على قوات فرسان إقطاعية كافية، وقبل القيام بالصليبية المقترحة، قام كليمنت الخامس في ١٤ — أيلول سنة ١٣١٣ بإصدار مرسوم Passiones Miserabiles ، الذي أدان بشدة المبارزات والمنازلات، وفي تشرين الأول قام النائب البابوي في فرنسا بشكل رسمي بتحريم جميع المبارزات مع التهديد بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي والتكفير، وجاء الاعتراض من النبلاء الذين احترموا

المؤسسة القديمة التي كان يمكنهم من خلالها إظهار براعتهم وشجاعتهم، ومن حشد الموظفين الصغار، الذين كانت المبارزات بالنسبة إليهم مصدراً للدخل، وكذلك من العامة الذين وجدوا في مثل هذه المشاهد خروجاً مرحباً به على رتابة حياتهم، وجاءت مذكرة دوبوا مجرد طلب غير رسمي إلى البابا حتى يعلق المرسوم، وأمام مختلف الاعتراضات من الأسرة المالكة جرى تعليق المرسوم، ومن ثم ألغي أخيراً.

وعبر دوبوا في بعض رسائله عن الخوف من الأعداء الذين من الممكن قيامهم بازعاجه بسبب الأفكار التي نشرها، وبهذا أعطى مسوغاً لإبقاء اسمه مجهولاً، ويبدو أنه توفر القليل من الأساس الفعلي لمثل هذا الخوف، وعاش دوبوا بعد سيده الذي ابتغى برغبة شديدة خدمته، لكن لم تكن هناك محاولة للنيل منه، وكان الذين تعرضوا لثقل عاصفة النقد الشديد هم بعض موظفي فيليب ومستشاريه، وخاصة انغراند دي ماريني Enguerrand de Marigni ، الذي كان وزير ماله، فهذا أيضاً كان ممن تحمل عاصفة النقد التي ثارت بعد وفاة الملك، وازدادت الكراهية الشديدة لماريني بإثارة النورمان لتدبر انتخاب ابن عمه نيقولا ليكون بابا، وغياب نقد دوبوا فيه بينة إضافية على أن جهوده لنصح فيليب لم تتلق اعترافاً رسمياً.

وأصبح دوبوا بعد سنة ١٣١٤ شخصية مغيبة في الظل، ومن المحتمل أنه تابع نشاطه بمثابة محامي للتاج، إنما في منطقة أرتوا، وجاء في سجلات برلمان باريس لدورة كانون الأول ١٣١٩ اسم«المعلم بيير دوبوا» بين أصحاب تقارير التقصي، وجرى تعريفه على أنه وكيل الكونتسة ماهوت صاحبة أرتوا، ويبدو أنه قبل وفاة فيليب(٢٩ تشرين الثاني ١٣١٤) دخل دوبوا في خدمة الكونتسة، وقد أعدت في يوم فصح ١٣١٤ من أجل الشراء في باريس لتسعة أذرعة من القماش من أجل

مستشارها«المعلم بيير دوبوا»، وكان آخر ظهور لدوبوا في التاريخ — إذا كان في الحقيقة هو — في مادة في وثائق باس — دي — كاليس Pas - de - Calais ، حيث ورد ذكره مع آخرين شاركوا في التحقيق في بثيون Bethune في ٢٣ شباط سنة ١٣٢٠ ، وكان قد وصل آنذاك إلى سن السبعين أو ما يقارب ذلك، ولاشك أنه توفي بعد ذلك بوقت ليس طويل.

الاحتكام إلى الرأي العام

من الصعب الحديث عن وجود رأي عام — حسب الاصطلاح الحديث — في العصور الوسطى، ومع ذلك ثارت اهتمامات الرأي العام بين آونة وأخرى إلى حيث لجأ المتنافسون من على الجانبين، وابتغوا الحصول على شيء من التأييد الشعبي، وجرى بالضرورة توجيه مثل هذا الاحتكام إلى جزء صغير جداً من مجموع السكان، وتكون السواد الأعظم من الناس من فلاحين جهلة، الذين لم يكن لهم وزن، حتى لو افترضنا أن أحد الناس قد امتلك الوسائل، في إثارة هذا السواد نحو موقف ما.

وكان الالتجاء الجدي إلى الرأي العام يمكن توجيهه نحو فئات من المرغوب نيل مساندتها لسبب أو لآخر، وذلك من أمثال أعضاء المجلس الاستشاري الملكي، وأشخاص يفترض أن لهم نفوذهم وتأثيرهم على أعمالهم، وأعضاء من البلاط البابوي، أو أعيان من الهيئة اللاهوتية أدنى منزلة، ونزولاً من هؤلاء إلى مؤيد يدهم من الأدنى مكانة، ومع قيام الطبقة البورجوازية العليا وارتقائها إلى المكانة الهامةسياسياً واقتصادياً، صار من الممكن إضافة مجموعة ثالثة، من الممكن الاحتكام إليها مع بعض الأمل بالنفع.

وفي غياب اجتماعات مجالس منتظمة تضم أعضاء متمكنين من

الشعب، أخـذ الاحتكام إلى الرأي العـام شكل مـذكـرات ونشرات أو رسـائل، تمت كتابتهـا أحياناً من قبل وكـلاء جرى تعيينهم لهذه المهمـة، وأحيـاناً من قبل متطوعين، وبالطبع لم تكن هناك وسـائل تقنيـة للنسخ السريع، ولاخـدمات للتـوزيع، وحققت الأفكار التي حوتها المذكـرات الانتشار بواسطة الفم في الغالـب، أو بوضع المذكرة في مكان معروف، مثل أبواب الكنـائس، ووصلنا عـدد كبير من هـذه المنشـورات بنسخ خطية فريدة، تمّ حفظهـا في بعض دور الوثائق الرئيسة أو اللاهوتية، أو تم نسخها كليـاً أو جزئياً من قبل بعض المؤرخين، الذين عـدّوا القضية جديرة بالتدوين.

ومن الممكن القول بأن المنشورات من هذا النوع في العصور الوسطى تعـود إلى ثلاث حقب، أو ربما أربع حقـب متميـزة، و جـاءت الحقبـة الأولى وولدت من خلال الصراع حـول تقليد المناصب، التي بدأت مع محاولات البابـا غريغوري السـابع لاصـلاح الكنيسة في ألمانيا، ولتـأكيد الاستقـلال اللاهوتي عن الاشراف الـذي فـرض مـن قبل الامبراطور هنري الـرابع، واتسـع الصراع وتطور إلى مشكلة تعلقـت بادعـــاءات التنافس على السلطة بين القـوى الروحيـة والقـوى المادية، واستمـر هذا الخلاف طويلاً بعـد اختفاء الذين أثاروه على مسرح الأحـداث، وأخيراً تم الوصول إلى تسـوية في وفاق وورمز Worms (١١٢٢) ، وظهر في أثناء الصراع عـدد من المناشير، حـاول فيهـا مـؤيدو كـلاً من الفئتين المتنازعتين الاستناد على نصـوص مقتبسة من الكتـابات المقدسـة، ومن آباء الكنيسـة، ومن تقـاليد الكنيسـة، ومن القـوانين الكنسيـة، واكتشف مـؤيدو الامبراطورية مخازن من الذخـائر متـوفـرة في مناقشات القـانون المدني الرومـاني، الذي كـانـت دراسـاته المنبعثـة قـد بدأت في المدارس، وكـانت المناقشات من هـذا المصدر قـوية جـداً إلى حد جعلت فيـه من الكونتسة مـاتيلدا صاحبة توسكانيا — وكـانت من الحزب البابوي —

أداة في إيجاد مدرسة للدراسات القانونية حيث يمكن دراسة القانون الروماني من الوجهة الصحيحة، أي من وجهة النظر البابوية، وووجهت أعمال الاقتباس للقوانين أحياناً، بتهمة بأن القانون المنقول لم يكن أصيلاً، وغالباً ما تمّ تبادل هذا الاتهام من على الطرفين، وبدأ المفكرون من الناس يسألون:«أين يمكن إيجاد الحقيقة»؟ و«هل هناك حقيقة مطلقة» ؟.

وتغطي الحقبة الثانية الصراع فيما بين أباطرة أسرة هوهنزتوفن والبابوات، ولاسيما جهود الامبراطور فردريك الثاني للحفاظ على منصبه في وجه العداء المرير من جانب البابوين: غريغوري التاسع، وانوسنت الرابع، وكان فردريك الثاني كرجل دولة أكثر وضوحاً بالرؤية من كل من هنري الرابع أو هنري الخامس، وقد رأى أن خير سبيل أمامه هو نيل تأييد الملوك الأوربيين الآخرين، ومن أجل هذا بعث برسائل متوالية إلى الحكام وإلى مرؤوسيهم الرئيسيين، لكن ذلك كان بلا فائدة، وقد ترك لنا سكرتيره ومستشاره بيروديلا فينا — وكان معلماً في الأسلوب اللاتيني الرفيع — مجموعة من الرسائل اتخذت نماذج في تدريس الـ Ars dictominis ، وطبعاً قد تضمنوا إشارة إلى مشاكل فردريك، وكانت هذه المجموعة متوفرة في دار الوثائق الملكية، ومن المؤكد أنه كان بإمكان رجال الدعاية البارعين لدى فيليب استخراج إشارات نافعة من محتوياتها المقنعة، وهذا أمر لم يبرهن عليه بشكل قاطع، لكن يمكن للانسان أن يتعرف إلى توفر تطور واضح المعالم لأفكار الامبراطوريين الذين كانوا في خدمة فردريك، وذلك من خلال الذين كانوا في حاشية فيليب، ومن ثم إلى الوضع الدفاعي الذي اتخذه المدافعون عن لويس صاحب بافاريا في القرن الرابع عشر.

وتقع الحقبة الثالثة خلف النطاق الزمني لهذا المجلد، ذلك أنها بدأت مع تفجر الخلاف حول الانتخاب الامبراطوري في سنة ١٣١٤، وعندما

هزم لويس صاحب بافاريا خصمه في سنة ١٣٢٢، اتخذ البابا جون الثاني موقفاً أفاد أنه وحده امتلك الحق ليقرر الخلاف حول الانتخاب، ودعا لويس إلى عرض دعواه أمام مجلس الكرادلة في روما، ورفض لويس ذلك، وحرم كنسياً، وتعقد الصراع المتجدد بين الامبراطورية والبابوية بصراع البابا جون وخصومته مع الفرنسيسكيين الروحيين، الذين انضموا إلى صف لويس، وكانت عروض كلا الطرفين عالية الصوت، لكن عندما يقارن هذا مع الصراع الأبكر، نجد أن هذا كان معركة أقزام، والذي جعل هذا الصراع هاماً هو أنه دفع بجهود بعض الكتاب مثل : وليم أوف أوكهام Ockham وجين أوف جاندون Jandun، ومرسيليوس أوف بادوا Padua ، إلى توجيه ضرباتهم نحو أسس البابوية بالذات.

وأوضحت الدراسات المنشورة في مجال السياسات الفرنسية خلال حكم فيليب الرابع، أنه توفرت آنذاك حقبة واضحة رابعة للمنشورات، قد عادت من حيث التأريخ إلى ما بين الحقبتين الثانية والثالثة المشار إليها أعلاه، وقد كتبت الأعداد الكبيرة من المنشورات التي دبجها قلم وليم أوف نوغاريت وقلم بيير دوبوا، لغاية محددة هي كسب التأييد الشعبي لسياسات فيليب، وظهرت المحاججات التي التمست تأييد وعطف الطبقة الوسطى بشكل أكثر تعاطفاً وتكراراً مما كانت عليه في الحقب الأبكر، وسبب ذلك أن البرجوازية قد صعدت الآن إلى مكانة بات من المرغوب فيه كثيراً نيل تأييدها، وهذه حقيقة أدركها الملوك الوطنيون، ففي أيام الامبراطورية، حتى في أيام لويس صاحب بافاريا، كانت هناك دواعي أقل لمثل هذه التوجهات بالالتماسات، لأن الامبراطورية حافظت على التنظيم الاقطاعي الذي ترك فرصة صغيرة للطبقة الوسطى للقيام بدور سياسي من هذا القبيل، وعلى العكس كان فيليب الرابع بارعاً بما فيه الكفاية لإدراك أهميتها، وهكذا طور آلية

أعطى فيها أعضاء الطبقة البورجوازية قدراً من الاعتراف السياسي، مثلما حدث بالنسبة لمجلسي أعيان سنة ١٣٠٢ وسنة ١٣٠٨، فهنا حوضر عليهم من قبل عملاء فيليب، ووزعت عليهم المنشورات التي تؤيد القضية الملكية، وكان بيير دوبوا حاضراً في كلا المجلسين، وقد كان أيضاً قد تولى كتابة بعض المنشورات، وظهرت الرسالة التي نتولى الآن ترجمتها فيما بين اجتماعي المجلسين العامين.

خلفية تاريخية

ظهر بيير دوبوا على مسرح الأحداث التاريخية في لحظة حاسمة في الصراع فيما بين البابوية والدول الوطنية البطيئة الظهور آنذاك، وفي الوقت الذي انحصر فيه دور دوبوا في هذا الصراع في فرنسا إلى أبعد الحدود، كانت المشكلة نفسها أوسع بكثير، حيث تورط فيها بالفعل كل ملك وطني قد حاول أن يحكم ممتلكاته بمثابة سلطان متحرر من جميع أنواع التدخل من قبل سلطة خارجية، وحقق الوضع الجغرافي وحقائق أخرى في انكلترا، درجة من الوحدة الوطنية كانت أبكر مما حصل في فرنسا، وقد كانت مشكلة السيادة هذه قد انبعثت من قبل من وقت إلى آخر، لكن نادراً ما كانت حادة الشكل مثلما كانت عليه أثناء حكم ادوارد الأول (١٢٧٢ — ١٣٠٧)، وبناء عليه إن الصراع بين فيليب والبابوية، الذي نشط دوبوا خلاله، وكان له دوره فيه، هو وإن كان متواضعاً، ينبغي على هذا النظر إليه بمثابة جزء من صورة أكبر، وحوت هذه الصورة، أكثر من الصراع حول السيادة، لقد شملت الروح المتوثبة وغير القانعة بالأشياء حسبما بدت مؤشراتها في القرن الرابع عشر، وعمل دوبوا باهتماماته المتنوعة بمثابة واحد من أكثر المتحدثين فصاحة حول هذه التوثبات وعدم الرضا والقناعة، ومن أجل فهم مناسب لأفكاره ولأهميتهم من الضروري تقديم عرض وإن كان مختصراً عن الخلفية المباشرة للعصر الذي عاش فيه وكتب.

ولقد وصلت الاسمية الحسنة التنظيم للحياة في العصور الوسطى ذروتها في القرن الثالث عشر، وشهد هذا القرن فرض الواجهة المدرسية التي حققت كمالها الأعظم في عمل القديس توماس الأكويني، وشهدت شارة انتصار البابوية في الصراع الطويل والمتداخل ضد خصمها الرئيسي، أي الامبراطورية الرومانية المقدسة، وكانت الجامعات في الشمال والجنوب تقوم ببلورة تنظيماتها الإدارية في أشكال استمرت بلا علامات تغيير لمدة قرون، ووصل الأدب الفردي للفروسية والملحمة، والرومانسية، إلى ذروته، وكان هناك نمط من الأدب الأقرب إلى العامية، وفي الغالب اسطوري سفيه، قد بدأ يحقق ظهوره.

واحتوى القرن الثالث عشر هذا نفسه في داخله بذور حركات تولت في النهاية تدمير كثير مما بدا أنه قوي التأسيس، فالحماسة التقسوية التي دفعت بآلاف للقيام بالرحلة المرهقة لإنقاذ الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين، بدأت بالزوال، ليحل محلها السعي وراء المطامح التي بدأت بالظهور منذ أيام الحملة الصليبية الأولى، والوصول أخيراً إلى شعور بالخيبة بسبب اخفاق الحروب الصليبية، وصحيح أن الناس تابعوا الحديث والتخطيط لصليبيات جديدة، وهذا هو الموضوع الأساسي في مذكرة دوبوا الرئيسية، التي جاءت بمثابة نداء لصليبية جديدة، واحتوت على اقتراحات تفصيلية لبرنامج اصلاحي جديد يمكنه أن يضمن نجاحها، صحيح هذا لكن صحيح أيضاً أن النداءات من البابوات ومن القادة العلمانيين قد وقعت على آذان صماء، ذلك أن أوروبا الغربية كانت مهتمة أكثر بمسائل مادية، فقد ربحت المدن الايطالية مرابح هائلة من الاتصالات التجارية مع الشرق الأدنى، وقد ضمن لها موقعها الجغرافي احتكاراً فعلياً لهذه التجارة المربحة، وهناك دليل على رفض احتكارهم هذا من قبل الذين توجب عليهم دفع ما اختاره الايطاليون وطلبوه ثمناً لبضائعهم، من تعليقات دوبوا على

جشع التجار (الفصل ٦٧)، فهل ياترى اهتم التجار الايطاليون بأمر أن الذين زودوهم بالبضائع كانـوا كفاراً؟ لا، ذلك أنه حتى الكافر التركي كان من الممكن أن يبرهن أحياناً على أنه حليف مفيد.

وكانت الآفـاق العقلية لأوربا الغـربية آخذة بـالاتساع، وسيكون من الخطأ أن نعزو سبـب ذلك كله إلى الحروب الصليبية، أو أن نعـزو إليها النصيب الأوفى في عمليـة التغييرات التي كـانت قـائمـة، ولقـد كـانت الحروب الصليبية حقيقة هامة في تحريك الأوربيين الغربيين، ونقلهم من الواقع المقاطعاتي الضيق، وكانـوا قد تعلموا الدرس الثمين في أن ما كل ما علموه كان صحيحـاً، ومن الأدلة على ذلك ماقاله ستيفن أوف بلوا، الذي كان من قادة الحملة الصليبيـة الأولى، حيث كتب إلى زوجته وقال وهو يشعـر بشيء من اليأس: «إن مـاقاله بعضهم حـول استحـالة تحمل حـرارة الشمس في أرجاء سـورية غير صحيح، لأن الشتاء هناك مشـابه جداً لشتائنا في الغرب».

وكـان الأفق الجغـرافي آخـذ أيضـاً بالاتسـاع، فمع نهاية القـرن كـان ماركـو بولو قد عاد مـن الشرق الأقصى، بعد غياب هناك امتـد حوالي العشرين سنة، عاد وقـد حمل معه حكايات عن ثروات للتمتع بها، وعن مناظر رائعة تستحق أن تشاهد، ولم يكن ماركوبولو وحده هو الذي قام بمثل هذه الرحلة الطـويلة والمرعبـة، فقـد قـام عـدد كبير من الأفـراد، بعضهم كـان مجهـولاً، وبعضهم الآخـر كـان مشهـوراً، بالارتحال مثل ماركوبولو، وعدد قليل منهم تركـوا لنا روايات مدونة حول مغامراتهم، وكـانت البابـوية تحلم حول إقـامـة حلف مع الخان الكبير، الذي ينبغي عليه تدمير المسلمين، لأنه كـان حاكما عملاقاً، وجـرى إرسال المزيد من البعثات إلى الشرق لتعميق المشروع، وتمّ بالفعل تأسيس رئاسـة أساقفة في بكين سنة ١٣٠٧.

وهناك أدلة واضحـة حـول وجـود شغف ثقـافي، فقـد كتب روجـر

بيكون بشيء من الازدراء عن كتابات علماء كبار، قدموا إلى الانسانية طرائق جديدة للمعرفة، التي ادعى أنه كان شخصيا المعلم فيها، وجعل المترجمون في اسبانيا وفي جنوبي إيطاليا المعارف الاسلامية متوفرة إلى العالم الغربي، وكان خصوم المعارف الجديدة، من أمثال سيغردي برابنت، يثيرون المناقشات الحية في قاعات المحاضرات في باريس، ومراكز التعليم الأخرى.

أما في مجال الادارة الحكومية، فقد شرعت حقائق جديدة بالظهور، ربما كانت أقل بداهة، لكن لها أهمية قصوى بالنسبة للآفاق السياسية، فقد دخلت الامبراطورية المقدسة في مرحلة كسوف بعد وفاة فردريك الثاني في سنة ١٢٥٠، ثم انتعشت فيها بعد في ظل أسرة هابسبورغ، لكنها ظلت قائمة على القواعد الاقطاعية القديمة، وكانت أهم التغييرات قائمة وآخذة بالحدوث في المملكتين الاقطاعيتين القديمتين، أي في انكلترا وفرنسا، وعوضاً عن أن يكون الملك في أي منهما مجرد «الأول بين قرناء»، بدأ الملوك فيهما في تأكيد الحقوق والامتيازات الملكية، وكان هذا يختلف تماماً عن السيادة القديمة المعترف بها على الأتباع، وبدأ في انكلترا نظام جديد يتعلق بالقانون العام، تولت ممارسته المحاكم الملكية، وكان هذا الذي بدأ في أيام حكم هنري الأول (١١٠٠ — ١١٣٥) قد أخذ شكله النهائي في ظل حكم هنري الثاني (١١٥٤ — ١١٨٩)، وقد تقلص هذا في ظل سلوك رتشارد قلب الأسد، ثم في ظل أخيه الضعيف الملك جون، وتوقف ذلك كله بشكل فعلي بسبب ثورات البارونات أيام هنري الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢)، غير أن هذا النظام جرى توسيعه واتمامه من قبل ادوارد الأول (١٢٧٢ — ١٣٠٧)، الذي يدعى أحيانا باسم جستنيان الانكليزي، ومع سنة ١٣٠٠ كان الملك والشعب يحكمان معا من قبل القانون، وقد أصبحت انكلترا أمة.

وفي فرنسا سعدت أسرة كابيه بشكل منفرد، وذلك منذ وصول هيوكابيه إلى العرش في سنة ٩٨٧ حتى وفاة لويس العاشر في سنة ١٣١٦، فما من ملك فرنسي قد مات دون أن يترك وريثاً ذكرا مباشراً ليخلفه، وخلال الحقبة نفسها أخذ كل اقطاع فرنسي هام، يدخل في وقت أو آخر، في الاملاك الملكية، ومع وصول فيليب الرابع إلى العرش في سنة ١٢٨٥، كانت المناطق التي حافظت على استقلالها الاقطاعي هي: كونتيه فلاندرز، ودوقيات: بريتاني، وبيرغندي، وأكوتين، وكانت دوقية أكوتين مملوكة من قبل ادوارد الأول ملك انكلترا.

وترافق تأسيس السلطة المركزية الملكية مع قيام الطبقة الوسطى، التي وجدت بشكل عام أن مصالحها تتوفر أكثر بوجود ملك واحد قوي، بدلاً من وجود مجموعة متداخلة من السادة الاقطاعيين، ووجد الملوك بدورهم في الطبقة الوسطى حليفاً راغباً وثميناً لجهودهم في سبيل تأسيس سيطرة على النبلاء الاقطاعيين، أما في فرنسا فقد توفر اسهام ملحوظ قامت به الطبقة الوسطى في سبيل هذه الغاية، وتم هذا على أيدي طبقة جديدة من المحامين المحترفين الذين تدربوا على القانون المدني الروماني، في احدى مالايقل عن ست جامعات، وبدأ ظهورهم كطبقة مع إعادة التنظيمات القانونية التي تولاها لويس التاسع، وازداد رواج القانون الروماني، الذي دعمت أسسه بقوة المطالب الملكية، وانتشر إلى الشمال من بولونا Bologna ومن الجامعات الايطالية الأخرى، وقام بشكل تدريجي — لكن لامفر منه — بتدمير النظام القضائي الاقطاعي القديم، وقدم الاختصاص الجديد فرصاً لمهن حياتية مربحة، وكان من الممكن لمحام قدير، أن يأمل حتى — كما فعل دوبوا — في أن يدخل إلى الوسط المغري لمستشاري فيليب الرابع المقربين، الذي كان من بين أعضائه قانونيين لامعين من أمثال ماريني، وبلازيان Plasian، ووليم أوف نوغاريت.

وكـان فردريك بربروسـا قـد استخدم علماء من مـدرسة الحقـوق في بولونا من أجل التوسع بسياسته الايطاليـة، وقدمت مدارس الحقوق في أورلين وفي أماكن أخـرى أدوات مماثلة إلى لويس التاسـع، الذي أضاف إلى إدارتي الوكيـل والنائب القـــديمتين ادارة جـــديدة هـي الـ en-quetuers، وقد حل هؤلاء محل الرهبان المتسولين كأداة للاشراف على الوكـــالتين القـديمتين، وكـــان هؤلاء الموظفين الجدد علمانيين من أصل برجوازي، أصبحـوا ليس قضاتاً فقط بل رجال دولة أيضاً، وسـاعدتهم معـرفتهم الدقيقـة بالقـانون المدني على تلفيق الأسلحـة للدولة الوطنيـة الصـاعدة، وقـد أصبحوا بشكل فعلي أيـام فيليب الرابع نبلاء للقـانون، وقد أشير إليهم بمثابة milites legum أو Militesregis، وكان هذا نوعـاً من نبالة الثـوب، وبحكم كونهم خـدماً مخلصين وأقويـاء للملكية عـارضوا حكم الدولة من قبـل كل من النبلاء الاقطاعيين أو الكنيسـة، ووقف ضــدهم وتحزب رجـــال الشريعـــة الكنسيـــة، مع مفهـــومهم وتصورهم لدولة دينية ينبغي أن تكون ذات سلطة عليا.

وأسهمت الطبقـــة الـوسطى بدور هام في المســـائـل العسكرية، لأن الجيـوش الاقطاعية لم تعـد كافيـة لتلبية الحاجـات المتزايدة للملكيـات الوطنيـة، والتي كـانت منذ زمن طويل تتـزود بالدعم من قبل جيـوش مـرتزقة تشكلت بشكل رئيسي من غيرالنبـلاء، ومع أن جيوش المرتزقـة هذه دفع لها بشكل سيء، لكن تـوجب على كل حـال اطعـامهـا، وألقى الاستخدام المتـزايد لوحـدات مدفوع لها ثقـلاً عظيماً على كاهل خـزائن المال المختنقـة لتلك الأيام، ولكي يـواجـه الملوك الطلب المتـزايد على السيـولـة النقـدية لجأوا إلى زيـادة الضرائب، وجميع الأشكال الماليـــة المواتمـة، الأمر الذي قـادهم أحيـانا إلى صراعات مع الطبقـة الوسطى، المتكلة لثـروة قد فـرضت عليهـا الضرائب، وأحيانا مع الكنيسـة التي كانت أغنى مؤسسات العصور الوسطى.

ومع وجـود ملك أجنبي مثل ادوار الأول مسيطر على أكوتين بمثـابة تابع للملك الفرنسي، كـان لابد لسياسة التـوسع لفليب الرابع من إثارة صراع معـه، وفي سنـة ١٢٩٤ تفجـر الخلاف بالمصـــالح هذا وتطور إلى حـرب مفتوحـة، وبحث كل فـريق عن حلفـاء، وعرض فيليب تقـديم العـــون على سكوتلندا، وبذلك أرسـى أسـاس الروابـط بين سكوتلندا وفـرنسـا التي استمـرت حتى أيام مـاري ملكة السكوتلنديين في القـرن الســادس عشر، وبرهن أدولف أوف نـاسـو، حليـف ادوارد، أنه قليل النفع، وأعظم أهميـة منه كـان كونت فـلاندرز، الذي رأى في التحـالف الانكليزي فـرصة لصـد هجوم فـرنسي ممكن، واستمـرت الحرب لعدة سنوات، ومالبثت أن أنهكت المصـادر المالية للفـريقين المتصارعين، ولجأ الفـريقان وهما في حـالة يأس إلى فـرض الضرائب على رجـال الدين في ممالكهم المحترمـة، وجـرتهما هذه السياسـة الى صراع مع البـابا بونيفيس الثامن.

الخلاف مع بونيفيس الثامن

شعـر بونيفيس الثـــامن عندمـا أصبح بابا، بعـــد استقـالة سيليستين الخامس بأنه مـدعـو إلى إعـادة البـابوية إلى سـالف قـوتها ومجدها الذي تمتعت به في ظل حكم إنوسنت الثـالث، عندما عبر كل رأس متـوج في الغـرب المسيحي عن خضوعـه إلى ذلك البـابا القوي، وكـان بونيفيس، وهو مـا يزال كاردينالا، قـد اصطدم وتخاصـم مع اثنين من الكرادلة من أسره كولونا Colonna ، وهما جيمس وبيتر، وكانا قـــد أنكرا صحة انتخابه، وبناء عليـه جردا من منصبيهما وحـرما كنسيـا، وكان بونيفيس، مثله مثل أسلافه، يأمل بقيام حملة صليبية يتولاها العالم المسيحي المتحد، وعمل في سنة ١٢٩٥ في سبيـل إنهاء الحرب فيها بين اداورد وفيليب عن طريق إعلان هدنة، الأمـر الذي تجاهله الفريقـان، ولهذا أصدر بونيفيس مـرسـوم Clericis Laicos (شبـاط ١٢٩٦) حـرم فيـه على العلمانيين

فرض الضرائب على رجال الدين.

ومن حيث الواقع النظري كـان الافـرادمـن اللاهوتيين مع ممتلكاتهم معفيين من المحاكمات العلمانية، ومن الضرائـب، وفي الحقيقة سمح البابا في عـدد كبير من المناسبـات للسلطات العلمانيـة بفـرض ضرائب على رجال الدين في أيام الطوارىء، وقيام التاج بجبايتها، وكانت هذه المبالغ بعيدة عن مقاصدهم الأصيلة، ولقـد قام كل من ادوارد وفيليب بفرض ضرائب ثقيلة على رجال الديـن المحليين دون الحصول على إذن بابوي، وقد وجد المحامون البارعون مع وزراء المال طرقاً لتمويه هذه الضرائب من أجل تجنب الصدام مع حرفية القانون.

وعدّ بونيفيس — الـذي كان جيد المعـرفة بشرعيـة القوانين — هذه الضرائب غير عـادلـة، وأنها تتـولى سلب الكنيسـة، وقـــرر إيقـاف هذه الممارسـة، ولم يحرم المرســوم جميع الضرائب من هـذا النوع، لكنه وضع شرطاً أسـاسياً هو الحصـول المسبق على الموافقـة البابوية، وجـرى تحريم فـرض الضرائب غير الموافق عليهـا من قبـل البـابا، على رجـال الدين، وأرفق ذلك بتهـــديد الحرمـــان الكنسي وبفـــرضـــه على كل مـن الدافع والجابي، وجرى بشكل محدد وواضح منع جميع الأسـاقفة ورجال الدين من دفع مثل هذا النوع من الضرائب، مهما كان اللون الذي تموهت به.

وكانت النتيجة واضحة، هل كانت الدولة الوطنية ذات سيادة؟ وهل يمكن للبابوية المنتصرة في صراعهـا مع الامبراطـورية تحقيق نصر مماثل على الدولة الوطنيـة الناهضـة؟ وكـان الخيـار أمـام ادوارد وفيليب إمـا الانحناء لإرادة البابـا بونيفيس العجوز المتصلب، أو الرفض ومـواجهة قـــوة يمكنهـــا الافتخـــار بتحقيقهـــا سلسلة لا يمكـن مقـــارنتهـــا من الانتصارات في صراعات مماثلة، وكـانت النتيجة من حيث المبدأ محصلة قـديمـة، لكن خصم البـابوية لم يكن هذه المرة الامبراطورية الاقطاعيـة الضعيفة، بل كانـت الدولة الوطنية الصاعدة، المدركـة تماماً لشخصيتها،

ويقودها ملك كـان يعمل في سبيل الوصول إلى مقاصـد عليا، وله مستشارين بارعين، ورجال فيهم مضاء، لايمكنهم التردد في الوصول إلى غاياتهم، وعمل فيليب الرابع على حشد الرأي العام لتأييده، من خلال وساطة مجالس الأعيان العامة، والمجالس الأدنى مرتبة، ودعمت هذه الجهود بمناشير تطوعية كتبت في الغالب من قبل مجهولين، لابد أن دوبوا كان من بين أبرز الممثلين.

ورد إدوارد بسرعة، فعندما عرض رئيس أساقفة كانتبري مرسوم Clericis Laicos وطالب بتطبيقه، وأقنع رجال الدين برفض الضرائب المفروضة، أمر ادوارد مسؤول العدالة لديه بأن يرفع بشكل رسمي حماية القانون المدني عن رجال الدين، وتجاهل الملك تهديد رئيس الأساقفة له بالحرمان الكنسي، ولم يكتف بذلك، بل طلب من المخاترة لديه الاستيلاء على بعض الممتلكات الكنسية العائدة لرئيس أساقفة كانتربري، وعندما تشكى رجال الدين إلى المحاكم، جرى إخبارهم أنه بناء على الأمر الذي صدر عن المسؤول الأعلى عن العدالة، ليس لهم مكان في المحكمة ولايمكن الاستماع إليهم، وانحنى رجال الدين ورضخوا — مع استثناءات — إلى ما لابدّ منه، وربح ادوارد الجولة الأولى.

وكانت ردات فعل فيليب أيضاً فورية وقوية، فقد أمر المحامين لديه بوضع مشروع أمرين، يمنع أولهما جميع الأجانب من دخول فرنسا، وبذلك منع أي مندوبين من قبل بونيفيس، قد يرسلهم لفرض مرسومه، وحظر الثاني تصدير أي ذهب أو فضة أو خيول، أو مؤن، أو ذخائر حربية من دون الحصول على إذن حربي مكتوب، واستهدف الحظر على الأعتدة والمؤن إنكلترا، وسدد منع تصدير المعادن الثقيلة ضربة شديدة إلى الموارد المالية للبابوية، التي كانت فرنسا مصدراً هاماً لها.

وواجه بونيفيس حزب كولـونا القوي في روما، ووجدت انكلترا غير الصديقة في الخارج، أنه عملاً سياسياً غير مفيد القيام بتشجيع معارضة ملك فرنسا الحازمة، هذا الملك الذي كان مدعوماً من قبل عدد كبير من رجال الدين الفرنسيين، وبعد مراسـلات حادة مخففة مع فيليب، أصدر البـابا مـرسـوم Inefabilis amor (٢٥— ايلول ١٢٩٦) اعترف فيـه بمشاعـر الصداقـة العظيمة نحـو فرنسـا، وأعلن أنه ليس لديه اعتراض على فـرض الضرائب على رجال الدين أثناء الطوارىء الوطنيـة، وذلك إذا مـا تم الحصـول على موافقتـه أولاً، وأعقب هذا تنازل آخـر ورد في مـرسـوم Romana mater (٧ شبـاط ١٢٩٧) الذي أبطل مـرسـوم Clericis laicos بالسماح بتقديم هبات تطوعيـة من قبل رجال الدين إلى الملك قبل الحصـول على الموافقـة البـابوية، وجـاء التنازل الأخير في مرسـوم Etsi de statu (٣١ تموز ١٢٩٧) الذي أعطى فيليب الحق في تقرير وجـود طوارىء وطنية تسوغ فـرض ضرائب على رجال الدين دون الحصـول على مـوافقة سلفيـة من البـابا، وجـاءت خطوة مصـالحة أخـرى بتطويـب الملك لويس التـاسع، جـد فيليب الرابع (١١— آب ١٢٩٧).

وبهذه التنازلات أصبح فيليب أكثر انفتاحـاً نحو الجهود التي تولاها بونيفيس للتـوسط في الحرب مع ادوارد، وحرص المتصـارعان على عـد الوسيط الحكم بينهما، أنه شخص بلا منصب وأنه هـو بينيديتـو كايتـاني Benedetto caetani وليس البـابا بونيفيس الثامن، ووضعـا أخيراً حداً للحرب بينهما وأنهياها في سنة ١٢٩٩.

وكـان كل شيء على السطح نقياً، لكن كـانت هناك عـاصفة هوجـاء تختمر وتتشكل، ذلك أن المشكلة الأساسية المتعلقة بالسيادة، وهي نقطة الخلاف الأولى بين فيليب وبونيفيس كـانـت مـاتزال معلقـة دونما حل، ولقد رحب فيليب بالكاردينالين كولـونا، اللذين نفاهما بونيفيس، ولقد

توليا نشر مختلف حكايات القذف والنيل من البابا، واحتجا ضد قانونية انتخابه، وطالبا بعنف بعقد مجمع كنسي للحكم عليه، وانتقم في الوقت نفسه فيليب لنفسه من كونت فلاندرز، بتأمين اعتقاله شخصياً عن طريق الخيانة، وبناء عليه أعلن أن الاقطاع يخص العرش (١٣٠٠)، وقام بعد ذلك بزيارة المنطقة المتملكة حديثاً للمرة الأولى، وازداد نهمه وارتفع شرهه لدى رؤية الثروات والأبهة التي عرضها البرجوازيون الفلمنك الأثرياء مع زوجاتهم، وقد وجد هناك مصدراً غير مستغل حتى الآن لتأمين الموارد للخزينة الملكية.

ومهما كانت الشكوك التي ساورت نفس بونيفيس بشأن قدرته على التعامل مع الملكين الحرونين، فقد استطاع ضبط الأمور والحصول على التهدئة . من خلال النجاح الكبير الذي تحقق في الاحتفالات الدينية التي تمت في سنة ١٣٠٠، وأعطى تدفق آلاف الحجاج على المدينة الخالدة لنيل المباركة البابوية، بونيفيس الانطباع بأنه يتمتع بالتأييد الجماعي للعالم الكاثوليكي، وكان لكميات الهبات الهائلة التي انصبت فوق المذابح الرومانية، الفضل بدعم الخزينة البابوية، وهكذا بات، إذا كان المتوجب وضع حد لقوى الملوك الوطنيين، فالآن حل الوقت الموائم.

ويبدو أن فيليب قد اعتمد على التعديلات المتنوعة لمرسوم Clericis Laicos، وبذلك تشجع ومن ثم لم تتوفر لديه نية في ايقاف سياسة بفرض الضرائب على رجال الدين، وعندما تشكى رجال الدين الفرنسيون إلى روما، قرر بونيفيس العمل، لكنه آثر أن يرسل في البداية رسالة انذار إلى الملك، وقد وقع اختياره على أن يكون حامل الرسالة غير المرحب بها، شخصية كانت هي الأسوأ سمعة، لقد اختار برنارد ساسيت Saisset ، أسقف بامير Pamiers ، وكان عدواً لدوداً لفيليب، وجرى في سنة ١٣٠١ اعتقال برنارد، وألقي به في السجن

بتهمة الخيانة.

وكان هذا بالنسبة لبونيفيس إهانة لايمكن التغاضي عنها، وقد أصدر في الرابع والخامس من كانون الأول ثلاثة مراسيم، وكان المرسوم الأول هو Salvatos mundi، وقد ألغى فيه التعديلات التي تناولت مرسوم Clericislaicor، وكان المرسوم الثاني وهو الأهم هو مرسوم Ausculta Fili ، وفيه تم التأكيد فيه بعبارات واضحة على أن سيادة البابا هي سيادة عالمية على جميع الملوك والممالك، وأطلق عبارة هرطقي على كل واحد يغامر بالرفض، وأضاف ثبتاً عدد فيه كثيراً من الاعتداءات التي اقترفها فيليب ضد الكنيسة، واستدعى المرسوم الثالث الأساقفة الفرنسيين إلى الاجتماع والتشاور في روما، لإيجاد الوسائل لاصلاح كل من ملك ومملكة فرنسا ووجهت الدعوة إلى فيليب للحضور.

وقابل فيليب هذا التحدي بمنع رجال الدين الفرنسيين من الذهاب إلى روما، وذلك عن طريق تحديد الحظر على توجيه الأموال إلى روما، ولكي يتصدى لمؤثرات اقتراح عقد المجمع الكنسي في روما، توجه نحو ارضاء العواطف الفرنسية بدعوة مجلس الاعيان العام إلى الاجتماع، وجرى توزيع مناشير هوجم فيها بونيفيس بين النواب، واستمع هؤلاء إلى خطب رنانة ألقاها عملاء فيليب، ويبدو أن جهوداً واعية قد بذلت لتجاوز مرسوم Deum Time المزيف، والقول بأنه أصيل، فقد تولى بيير فلوت Flotte ، الذي كان واحداً من كبار مستشاري فيليب، قراءة الوثيقة المزيفة إلى مجلس الأعيان.

وكانت محصلات مؤثرات هذه الجهود لصالح فيليب إلى أبعد الحدود، فقد تبنى النبلاء وأعيان الدرجة الثالثة قرارات حماسية أيدوا فيها القضية الملكية، ووجه رجال الدين رسالة إلى بونيفيس، لصالح فيليب، يرجون فيها البابا أن يقوم، في سبيل الصالح العام والوئام،

بسحب الدعوة للمؤتمر في روما، ثم كان أن نزلت مصيبة بفيليب من جهة غير متوقعة، فقد وصلت المكوس المالية التي فرضها على البورجوازية الفلمنكية إلى حد ما عاد من الممكن تحمله، ولذلك قام الفلمنكيون في صيف عام ١٣٠٢ بالثورة، ولكي يسحق هذه الثورة بعث فيليب بقوة مرعبة من الفرسان الاقطاعيين، ورفض رجال المدينة الشجعان الانهزام لدى اقتراب الفرسان، وسحبوا صف قتالهم الموجود عند كورتراي Courtrai إلى ما وراء المستنقع، وفي ١١ تموز حمل الفرسان وفقاً لعاداتهم على صف أهل المدينة،وغرقت خيولهم وغاصت في المستنقع، واضطر الفرسان إلى الترجل، وبهذا تمكن رجال المدينة بكل سهولة من تمزيق أعدائهم الغائصين بالوحل.

وكانت هذه الهزيمة الماحقة، وهي أولى الهزائم التي تلقاها فيليب، بالفعل انتكاسة خطيرة، واحتاج فيليب إلى وقت طويل لتعويض الجيش المباد في كورتراي، وكان بييرفلوت،الذي كان أفضل مستشارية وأعظمهم قدرة بين القتلى، وبات هكذا السلم الصعب المعقود مع ادوارد الأول من الممكن خرقه في أي لحظة، وألقى بونيفيس قفاز التحدي، وبات جاهزاً للعمل في كل اتجاه لنيل المنافع.

واجتمع المجمع الكنسي الذي دعا بونيفيس إليه في ٣٠ — تشرين أول لعام ١٣٠٢، وعلى الرغم من الحظر الذي فرضه فيليب، كان عدد كبير وهام من الأساقفة الفرنسيين بين الحضور، وصادق المجمع على اصدار مرسومين، أمر أولهما باصدار الحرمان الكنسي بحق كل واحد يقوم بالتدخل مع الأشخاص الذاهبين إلى روما أو الآيبين منها، وكان المرسوم الآخر هو مرسوم unam Sanctam الشهير وتاريخه ١٨ — تشرين الثاني ١٣٠٢،وهو الذي أرسى حق الادعاء البابوي بالسلطة الروحية والدنيوية، بعبارات واضحة تمام الوضوح، ولم يحدث من قبل قط مثلما حدث الآن في عرض الموقف البابوي بمثل هذا الوضوح

اللغوي، «ولهذا فإن كل من السيفين الروحي والدنيوي، هما تحت سلطة الكنيسة وفي يدها..... زيادة على هذا، من الضروري أن يكون أحد السيفين تحت السيف الآخر، وأن تكون السلطة الدنيوية تحت السلطة الروحية.... ولهذا نحن نعلن، ونقول، ونؤكد على أن الخضوع من قبل كل انسان إلى أسقف روما هو كله ضروري من أجل خلاصه»، وفي نيسان ١٣٠٣، أخبر بونيفيس فيليب بأنه قد حرم كنسياً لمنعه رجال الدين الفرنسيين من حضور المجمع.

وعند الوصول إلى هذه الحالة جرى ابداع استراتيجية في البلاط الفرنسي، وهذه الاستراتيجية تشير إلى أن الملكية قررت أن لاتترك حجراً إلاّ وتقلبه في جهودها لإلغاء تأثير المراسيم البابوية، ولاندري في عقل من جرى تصميم الخطة، ولعل ذلك كان في عقل فيليب نفسه، لابل من المرجح أكثر في عقل وليم أوف نوغاريت، وقضت الخطة الأصيلة باعتقال بونيفيس، وأن يقوم النائب البابوي بالدعوة إلى عقد مجمع يتولى محاكمة السجين، وبما أن المتآمرين كانوا واعين تماماً ومدركين لأهمية تأييد الطبقات الثلاث في فرنسا، جرى تعديل الخطة، إلى واحدة يرغم فيها بونيفيس نفسه على الدعوة إلى عقد مجمع، وهذه سابقة كان من الممكن أن تنال تأييد رجال الدين الفرنسيين، وكذلك الطبقات العلمانية، لأنه كان من الممكن أن يتردد رجال الدين في الاعتراف بمجمع يدعو إليه انسان آخر لايحمل اللقب البابوي، وبدأ العمل بالمؤامرة في آذار ١٣٠٣، وللحيلولة دون أي تدخل منْ قبل ادوارد الأول، جرى إبرام معاهدة معه في ٢٠ — أيار أعاد إليه بموجبها فيليب أكوتين، وكانت الخطوة الثانية هي تحضير الرأي العام، ودشن هذا في اجتماع باريس لمجلس مستشاري الدولة في ١٢ أيار، ففيه أقلع نوغاريت بهجوم حاد على بونيفيس، وقد تبنى الحجة التي أعلنها المنفيان من أسرة كولونا، في أن بونيفيس، لم يكن بابا حقيقياً، لأن لقبه

يعتمد على قانونية استقالة سيليستين الخامس، وكانت النظرية تقول بأن أصوات الكرادلة أثناء الانتخابات البابوية تمليها بالعادة الروح القدس، وعلى هذا كان من معاني استقالة البابا القول بأن الروح القدس قد أخطأت، وهذا وضع لاهوتي لايمكن تقبله.

وتم التوسع بالاتجاه نحو الرأي العام خلال اجتماع عقد في اللوفر في ١٣— حزيران ١٣٠٣، وجرى أمام هذا الاجتماع الموسع والجمهور العريض تجديد الهجوم على بونيفيس، وقد قرأ بلازيان لائحة فيها تسعاً وعشرين تهمة مؤكدة ضد البابا، وأعلن فيليب عن قناعته شخصيا بضرورة عقد مجمع عام، وتبنى رجال الدين قراراً أعلنوا فيه عن تأييدهم للعرش ضد جميع الخصوم، وأيدوا أيضاً مطلب عقد المجمع.

ولم يكن بونيفيس خصماً جباناً على الرغم من تقدمه بالسن، وجاء رده في عقد مجلس في أناني Anagni في آب، أصر فيه بشكل مهيب على براءته من التهم التسع والعشرين التي أثيرت ضده بشكل عدواني، من قبل الفرنسيين، وهناك جرى الاعلان أنه يمكن فقط للبابا الشرعي أن يدعو إلى عقد مجمع عام، وتمّ توجيه الانذار إلى فيليب أنه ما لم يتب ويقلع عن أعمال عصيانه، سوف يتحمل أقسى عقوبة من الكنيسة.

ووصل بالوقت نفسه نوغاريت، مسلحاً برسالة اعتماد من فيليب ومزوداً بمبالغ ضخمة، إلى إيطاليا، حيث شكل تجمعاً مع حزب كولونا، وفي ٧— إيلول ١٣٠٣، دخل المتآمرون إلى أناني، بمساعدة أعضاء من الحرس البابوي تمت رشوتهم، وشقوا طريقهم إلى حجرة النوم البابوية، ورفض البابا المسن التنازل وقبول مطالبهم، وأصر على موقفه، وفي اليوم الثالث جرى طرد المتآمرين من قبل سكان المدينة.

وصحيح أن حياة البابا حفظت، لقد برهنت صدمه الهجوم أنها كبيرة جداً بالنسبة إلى هذا البابا العجوز، ولقد وجد هذا الرجل الذي

خيل إليه قبل ثلاث سنوات أن العالم راكع عند قدميه، نفسه مطوقاً من قبل الأعداء، فقد تدمرت معنوياته، وفقد أعصابه والقدرة على التحمل، وهنا التمس المساعدة من أسرة الكاردينال أورسيني Orsini في روما، وهكذا جرت مرافقته إلى هناك، ولقد كان متعطشاً للانتقام من فيليب، وسببت جهوده في سبيل الحصول على حلفاء لتحقيق هذه الغاية معاداة أسرة الأورسيني، فاحتفظ هؤلاء به سجينا بشكل فعلي في الفاتيكان، وهناك في الفاتيكان لفظ أنفاسه الأخيرة في ١٢ تشرين أول ١٣٠٣.

وترك موت بونيفيس البابوية في وضع حرج، فهل سيكون هناك خلاف طويل في الاجتماع السري للكرادلة، وهل سيعطي هذا فيليب الفرصة لتقوية أوضاعه من دون تدخل؟ وهل سينتخب الكرادلة رجلاً سوف يتابع الأخذ بالسياسة المتصلبة لبونيفيس التي تبرهن على أنها مأساوية جداً، أم أنهم سوف يختارون واحداً سوف يتبع سياسة المصالحة، ويتولى التسوية مع فيليب؟ وعمل مجلس الكرادلة بسرعة، واختاروا في ٢٢— تشرين الأول الرجل صاحب الأخلاق اللطيفة، والذي كان القائد العام لطائفة الدومنيكان، وكان البابا الجديد هو الحادي عشر الذي اتخذ لنفسه لقب بندكت، ولعله رغب من وراء ذلك أن يقدم إيماءة بأنه يخطط لاتباع سياسة مصالحة.

وتركت المحاولة المخفقة لاعتقال بونيفيس نوغاريت في وضع خطير، فقد صدر بحقه حرمان كنسي فرضته الواقعة بسبب محاربته البابا شخصيا، ولم يكن وضع فيليب بالأحسن، فهو كان مايزال محروماً كنسياً، كما مابرحت مراسيم بونيفيس المتعددة ضده قائمة وقوية، ولكي يمارس الفرنسيون الضغط على بندكت الحادي عشر، تبنوا استراتيجية تجديد التهم ضد بونيفيس، وهي التهم التي رفعت في حزيران المنصرم، وأصروا على أن حادثة أناني قد نتجت عن تصلب بونيفيس ورفضه المستمر للمطلب القانوني لعقد المجمع، وبات الحال إذا ما أمكن اقناع

بندكت بالقيام بالدعوة إلى مجمع، فلابد من الاستماع للقضايا والتهم المرفوعة ضد بونيفيس، وإذا ما تمكن الفرنسيون من البرهنة على صحة التهم التي رفعوها، فهذا كان سيعني تبرئة كاملة لكل من فيليب ونوغاريت، الذي سوف يكون في وضع انسان مسيحي جيد، قد حاول تحريك آلية الكنيسة ضد مغتصب شرير، وكان من معاني إدانة بونيفيس إلغاء جميع قراراته ومراسيمه، وكون بونيفيس كان قد توفي ودفن، ما كان له ليغير المسألة القانونية ذات الشأن، وهكذا بدأت الحملة على ذكرى بونييفيس.

وكانت خطوة فيليب الأولى ضرورية لتدبير مصالحة مع البابا الجديد، بندكت الحادي عشر، ومن أجل هذا الهدف عين فيليب بعثة مؤلفة من أربعة أشخاص، كان نوغاريت فيها، هو العضو الرابع، وأعطى إلى أعضاء هذه البعثة لائحتين من التعليمات، وكانت أول التعليمات التي أعطيت إلى الأعضاء جميعاً باستثناء نوغاريت هي أن «يتلقوا» ولا «يطلبوا» التحليل للملك من كل حرمان كنسي قد فرض عليه في الماضي لأي سبب كان، وكانت هذه مسألة بسيطة لاتحتاج إلى عقل نوغاريت البارع، وخولهم التباحث بشأن جميع القضايا القائمة فيما بين فيليب وبونيفيس، ذلك أن مهمة نوغاريت الماكرة كانت الحاجة ماسة إليها، بعد وفاة بيير فلوت، الذي كان أكثر مستشاري فيليب موثوقية.

واستجاب بندكت بسرعة للمطلب الأول، ففي ٢٥— آذار ١٣٠٤ جرى تحليل الملك وأسرته بشكل رسمي من كل حرمان موجود، وكان الآن بندكت حراً للتباحث مع فيليب دون مضايقة لنفسه واحراج بالتعامل مع شخص محروم كنسياً، وعندما ظهر نوغاريت أمام البابا، رفض بندكت الاعتراف به، بما أنه كان تحت الحرمان، وقام نوغاريت بالطلب من خلال زملائه منحه «تحليل مشروط»، وجدد طلبه من أجل

عقد مجمع للحكم على بونيفيس، ولكي يتجنب بندكت المضـايقة بالقيام بالحكم على سلفه، قـدم تنازلات اضافية، فقـد ألغى في سلسلة من المراسيم أصدرها في ١٨— نيسان، و١٣— أيار، مراسيم بونيفيس ضد الجامعات الفرنسية والكنائس، ومحا جميع المراسيم القائمة ضـد حقوق الملك الفرنسي، وحلل الأساقفة الفرنسيين، الذين أطاعوا أوامر فيليب بعدم حضور المجمع الروماني لعام ١٣٠٢، وعلن الحرمان الذي أعلنه بونيفيس ضد ليون وبامير، وبالاضافة إلى ذلك منح فيليب العشر لمدة عـامين، مع حق التعيين في الوظائف الكنسية التي ستشغر في السنوات الثلاث المقبلة.

وبعدمـا تنازل بندكث لفيليب واستجاب لكل مطالبه، قرر أن يجعل مثلاً من الذين شاركوا شخصياً في عملية الاقتحام في أناني، فقد أصدر في ٧ حزيران ١٣٠٤ مرسوم Flagitiosum scelus ، الذي أدانهم فيه بجميع العبارات القاسية جداً، ووضعهم تحت الحرمان، وجرى استدعاء المجرمين للظهور أمامه، لسماع الحكم بحقهم.

مـا الذي كـان لفيليب أن يفعله؟ فقـد كـان نصره الشخصي تقـريبـاً كامـلاً، وكان نوغـاريت الوكيل الملكي الهام، الوحيد الـذي ترك خارج التسوية، فهل سيفسد الملك التسوية التـي صنعها مع البابوية باستمراره في دعم نوغـاريت، أم أنه سيرميـه إلى الذئـاب؟ وعمل فيليب بسرعـة قصـوى وبشكل حاسم، فقـد جـرى الاحتفـاظ بنوغاريت في الخدمـة، ومنح جـائزة مـالية كبيرة «من أجـل خدمـاته المخلصة في قضـايا ذات أهمية قصوى للعرش وللدولة»، وقبل أن يتمكن بندكت من اتخاذ المزيد من الخطوات الاجرائية ضد نوغاريت والمتورطين معه، توفي في ٢٧ تموز ١٣٠٤، كما يقال لأكله كميات كبيرة من التين الناضج.

وكان من الممكن تأمين المزيد من المنافـع بانتخاب بابا مطواع للارادة الفرنسيـة الملكية، وكان هذا في ذهن فيليب، فقـام بممارسة الضغط على

الكرادلة الفرنسيين، وقام الاثنان من أسرة كولونا بممارسة بعض التأثير على زملائهما المتقدمين، وذلك على الرغم من عدم اعادتهما بعد إلى مجلس الكرادلة، وكان المؤيدون لتوجيهات بونيفيس الثامن كثر إلى حد قدرتهم على منع الاختيار الفرنسي، لكنهم لم يكونوا قادرين فيما بينهم على الاتفاق حول مرشح، ومضى شهر تلو شهر بدون أمل في الوصول إلى اتفاق، وأبدع أخيراً الكاردينال نابليون أورسيني خطة، اتفق بموجبها عشرة من الكرادلة على اختيار واحد من ثلاثة مرشحين يتولى تسميته، والذي جرت تسميته من بين هؤلاء كان برتراند دي غوت Got، رئيس أساقفة بوردو، وكان على هذا من الرعايا الانكليز، وكان يدين بترفيعه إلى بونيفيس الثامن، وكان قد تخاصم مع أخي فيليب، شارل أوف فاليوس Valois، وقد حضر المجمع الروماني لعام ١٣٠٢، على الرغم من رغبات الملك.

ثم ما الذي تبع هذا ليس واضحاً تمام الوضوح، وقد جاءت من عند فيلاني Villani حكاية ذكرت أن واحداً من عملاء فيليب أسرع متوجهاً نحو الشمال حاملاً الأخبار، وأن فيليب قد عقد اجتماعاً سرياً مع برتراند وعده فيه بالبابوية مقابل بعض التعهدات المحددة، وبعض الخدمات الأخرى سيكشف عنها فيما بعد، هذا وهناك حاجة إلى بينات مقنعة لحكاية فيلاني هذه، وفي الحقيقة هناك بعض الأدلة التي تقول العكس، إنما مما لاشك فيه أن برتراند يدين بانتخابه إلى نفوذ الملك، وكان فيليب رجلاً صلباً، وكان من غير الممكن له شخصياً أن يقدم مثل هذا التأييد، من دون نوع من التفاهم معه، ومهما كانت حقائق الأمور، لقد جرى اختيار برتراند بابا في ٥— حزيران ١٣٠٥، وقد اتخذ لنفسه اسم كليمنت الخامس،، وعلى الرغم من هلع الكرادلة الطليان الكامل، دعا مجلس الكرادلة إلى الاجتماع في ليون من أجل تتويجه (١٤— تشرين الثاني ١٣٠٥) واتخذ أخيراً سكناً له في أفينون في عام

١٣٠٩، وهكذا بدأ السبي البابلي.

قضية الداوية

عندما وصلت مشكلة بونيفيس إلى هذه المحطة، تمازجت مع الهجوم على طائفة الداوية، وكانت علاقات فيليب بالداوية علاقات حميمة حتى سنة ١٣٠٥، وكان مقرهم الحصين في باريس قد اتخذ مستودعاً للموارد الملكية المالية حتى بعد تأسيس الخزانة الملكية في اللوفر، وجرت العادة لدى مواجهة الملك الفرنسي لمشاكل مالية ومصاعب (وكانت هذه هي الحالة الطبيعية للملكية الفرنسية) اقراضه المال، وقد أيد الداوية الملك فيليب ودعموه في صراعه مع بونيفيس الثامن سنة ١٣٠٢م، لابل إنه عندما سادت الفوضى العامة، اتخذ لنفسه ملاذاً في احدى قلاع الداوية.

لكن لماذا انقلب فجأة ضدهم، هذا أمر ليس من السهل تأكيده، ومن الصعب أن نصدق أن انسانا امتلك سمات فيليب وعبقريته وفطنته كان من الممكن أن يصدق الحكايات التي أشيعت حول الداوية، فيما يتعلق بانحطاطهم الخلقي، لابل فيما يتعلق باتهامهم بالهرطقة، ومهما يكن الأمر، لقد أمسك الملك بلهفة بمثل هذه الاشاعات، واتخذها ذريعة من أجل تدميرهم، ويتوصل الانسان إلى نتيجة أنه عندما انتشرت هذه الاشاعات المشوهة للسمعة والتآمرية، ووصلت إلى الانتباه المباشر، إما انتباه فيليب أو انتباه واحد من العقول اليقظة بين مستشاريه، رأى الفرصة المناسبة لربح التاج مالياً بمهاجمة هذه الطائفة الشاذة القابلة للمهاجمة، وفي الوقت نفسه إزالة عقبة كبيرة في وجه السلطة الملكية المطلقة، ولم يكن من الممكن من حيث المنطلقات للقيام بمثل هذا الهجوم تقديم سبب قانوني عادي من التاج، فذلك لم يكن له من وزن، وكان ذلك ممكنا فقط كاثوليكيا عن طريق البابا، فهنا كان من الممكن لفيليب أن يأمل بشيء من النجاح لحملته ضد مؤسسة بدت بالمعايير المعاصرة آنذاك معصومة تماماً.

وتم إعـداد المؤامرة ضـد الداوية وتأصل ذلك في سنة ١٣٠٥، حيث يقال، كما يبدو، بأن فرداً مجهـولاً اسمه اسكوي دي فلويرانو أوف بيزير Esquieu de Floyrano of Beziers قـد قـدم إلى جيمس الثـاني صاحب أراغـون بعض البراهين حول ممارسات شـاذة يمارسها الداوية، وكان يأمل من وراء ذلك الإخبـار نيل جائزة ماليـة، وقد برهن جيمس الثـاني على حـذره، فـذهب اسكوي إلى فـرنسـا حيث قـدم الصراع بين الملك والبابوية فـرصة أفضل له، وحملت هنا اتهاماته لتـوضع أمام الملك فيليب الرابع، الذي عمل هو ونوغاريت على تحويلهم لصالح العرش.

وكـــان كليمنت الخامس، مثلـه مثل بابـوات ذلك العصر، مهتما في تجديد مشـاريع الحروب الصليبية، ففي خـلال إقامته في ليـون من أجل التتويج جرى التبـاحث حول حملة صليبية بينه وبين فيليب، وحمل الملك معــه الاشـاعــات لتي سمعهـا، وكــان من البــديهي إذا أريد بالفعل التخطيط لحملة صليبية، من الضروري التشـاور مع المنظمات العسكرية، وبناء عليـه استـدعى كليمنت للاجتماع به في سنة ١٣٠٦ المقـدم الأعلى للاسبتـارية مع جـاك دي مـولي مقدم طائفـة الداوية، ولعقـد مـؤتمر في بواتيـه، وفي نيسـان ١٣٠٧، وضع فيليب الاتهامات ضـد الداوية أمـام المجلس الملكي، بهدف نيل تـأييـد أعضـــاء المجلس في حملة تشن ضـــد الطائفة.

وفي الوقت الذي كـان فيليب فيـه متظاهـراً بالبحث في مسألة الحملة الصليبيـة مع كليمنت ودي مـولي، ويعبر عن اهتمامه بشـأن الاشاعـات المتعلقة بالطائفة، كان نوغاريـت يعد الأرضية من أجل هجوم مكشوف ضد الداوية، وكـان أن يقوم التاج بالمبادرة في تقـديم الاتهامات، يمكن أن يعـرض فيليب لاتهامـات مضادة، من أنـه كان يقـوم بعمل تآمـري، ولهذا قام نوغاريت في ١٣٠٥ بهدوء بالإعـداد لاعتقال اثنين من أعضاء الداوية السـالفين، وذلك بدون أدنى ضجـة، وكان من المفترض تقـديم

هذين الداويين السالفين في اللحظة المناسبة للشهادة، وبذلك يوفران على فيليب حرج المبادرة بتقديم التهم.

ومارس فيليب في صيف ١٣٠٧ المزيد من الضغط على البابا ليتخذ اجراءً في قضية الداوية، وكان الملك منذ وقت انتخاب كليمنت يطالب أن يقوم البابا باستدعاء مجمع كنسي عام ليتولى محاكمة بونيفيس الثامن المتوفى، بتهم كان نوغاريت مع رجال الملك الآخرين يقومون بإعلانها ونشرها على رؤوس الأشهاد، هذا ولم يكن كليمنت قط قوي الارادة جداً، ولم يكن أيضاً بصحة جيدة، ولهذا أمل بتجنب هذا الوضع المحرج بتقديم المزيد من التنازلات لفيليب، وبناء عليه وافق في آب على البحث في قضية الداوية، وبذلك ربح فيليب نقطته الأولى.

وكان القيام بالبحث والتقصي بشكل بطيء ومنظم من قبل البابوية لايلبي الرغبات الملكية، وكانت التهم الموجهة للداوية تتضمن شكوكاً بالهرطقة، الأمر الذي يعني احضار المتهم أمام محكمة للتفتيش، ولم تكن محاكم التفتيش ذات حظوة في فرنسا، وكان فيليب نفسه قد نال بعض الشعبية باصداره مرسوماً في كانون الثاني سنة ١٣٠٤، عين بموجبه لجنة ملكية توجب عليها فحص قضايا جميع المسجونين من قبل محكمة التفتيش، وتحرير كل من توفرت أرضية كافية لتحريره، وكان إذا ماتضمنت الشكوى ضد طائفة الداوية وأفرادها تهمة الهرطقة، فان الاجراء القانوني يتوجب أن يكون تحت ادارة محكمة التفتيش التي كان على رأسها همبرت كاهن فيليب،وكان من المؤكد أن واجب الملك المسيحي القيام بإزالة الهرطقة من ممالكه، ويمكن للانسان أن يتخيل رؤية فيليب ونوغاريت وهما يضحكان مرحاً باللسان وبالتعابير، لتمكنهما بوسائلهما وخداعهما من تحويل الاجراءات القضائية للعصور الوسطى لصالح مقاصدهما المظلمة.

وأخذت الاشاعات تنتشر وتقول بأن أعضاء طائفة الداوية سوف

يمثلون أمام محاكم التفتيش، وهكذا قيل بأن عـدداً قليلاً من الداوية قد بادروا إلى الفرار، ولهذا بات من الضروروي اتخاذ اجراء سريع، وجرى ترفيع نوغـاريت إلى مـرتبة الحافـظ للختم العظيم، وذلك من أجل هذا المقصد، وقد أدى دوره بشكل جيد، وختم بتاريخ ٢٢— ايلول ١٣٠٧ صيـاغـة (فعليـا قبل اسبـوع) تعليمات وزعـت على جميع السلطات المسؤولة، قضت باعتقـال جميع أفراد الداوية في فـرنسا، ووقعت الضربة في الصباح البـاكر ليوم ١٤ تشرين أول، وكـان هناك قليل من الفارين، ولم تتـوفـر أعمال مقـاومـة، وسجن المعتقلون من الداويـة في سجـون منفـردة مغلقـة، دون توفـر الفرصـة للتشـاور مع بعضهم بعضـاً أو مع رؤسـائهم، وكان من بين المعتقلين دي مـولي، المقدم الأعلى، الذي كـان قبل يومين بصحبـة فيليب، حـاضراً مـأتماً أقيم من أجل زوجـة شـارل أوف فاليوس.

وأوجدت المفاجأة في العمل وأثارت دقتـه غضباً عاماً، ولكي يطمئن الجمهـور الشعبي، ومن أجل إثارة مـواقف معـادية ضـد الداوية، دعـا فيليب في اليـوم نفسـه الذي جرى فيـه الاعتقـال إلى اجتماع في نوتردام ضم أعيان رجال الكهنوت والعلمانيين، حيـث جرى استعراض المشكلة كلهـا، وتم الاعـلان عن التهم، وعقـد في اليـوم التـالي اجتماع مماثل في اللوفر كان أكثر شعبية بشخصيات الحضور.

وكـان استخـدام التعـذيب لانتـزاع الاعترافـات، في أثناء محاكمات الهرطقـة أمـراً قـانونيـا تمامـاً، وهكذا توجب على ذوي الحظ السيء من الداوية، الذيـن كـانوا مضرب المثل بأنفتهم وبتكبرهـم، أن يخضعـوا إلى آلام مجريات محكمة التفتيش، وفي ظل هذه الضغوط، أو بمجرد التهديد باستخدامها اعترفـوا بكل نوع من أنواع الجرائم، من ذلك مثلاً أنه لدى قبول المرشح الجديـد كان عليه إنكار المسيح ثـلاث مرات، وأن يبصق على الصليب، كما كان العضـو القديم يتعـانق مع المرشح الجديد بشكل

غير لائق، يضاف إلى هذا كان الحزام الذي يلبسونه كجزء من لباسهم النظامي، مكرساً للكفر، لأنه كان يلف حول رأس صنم كانوا يتولون عبادته في بيعهم، ومعنى هذا كان رهبان الداوية لايؤمنون بقداسة المذبح، وكان مطلوباً منهم جميعاً الحصول على الأملاك لصالح الطائفة بأية وسيلة من الوسائل، عادلة أو ظالمة، وأعلن بعضهم البراءة شخصياً، ومع هذا اعترفوا بأن الانتهاكات المذكورة أعلاه كانت عامة وشأنا عادياً داخل الطائفة.

وكان كليمنت قد استبد به الرعب، ليس بسبب لائحة الانتهاكات، التي كان يعرفها من قبل من خلال مؤتمرات كان قد عقدها مع الملك، بل بسبب السرعة في استخدام السلطات المدنية وبشكل عنيف جداً ضد طائفة كانت من الناحية الشرعية تحت الاشراف القضائي للبابا، ولا شك أنه حين وافق مكرهاً على التحقيق مع الطائفة، لم يكن يتوقع مثل هذه الاجراءات القاسية جداً من قبل التاج، ولهذا علق في أوائل عام ١٣٠٨ أعمال محاكم التفتيش، ونقل المتهمين من الداوية ليكونوا تحت سلطانه القضائي المباشر، وأمر كذلك بنقل بعض الشخصيات الرفيعة من الداوية ليكونوا تحت حفظه الخاص في بواتييه، ولسوء حظ كليمنت، تعرضت استراتيجيته الأخيرة هذه إلى انتكاسة، فقد تمكن واحد من الداوية من الفرار من بواتييه في شباط، وبات إذا كان البابا عاجزاً عن الاحتفاظ بحفنة من رجال الداوية خلف الباب والقفل، فكيف له أن يسوغ مطلبة باعتقال المئات وسجنهم، وهم الذين كان فيليب ملقياً بهم في سجن لا أمل بالخلاص منه؟ وأمر كليمنت بسرعة بالبحث عن الفار، وقدم جائزة قدرها عشرة آلاف فلورين من أجل اعتقاله.

والآن وقد باتت قضية الداوية تحت الاشراف المباشر للبابوية، كانت الخطوة الثانية التي اتخذها فيليب هي توجيه استفسار إلى جامعة باريس،

سائلاً: تحديد صلاحيات السلطات المدنيـة في قضايا هرطقية صـارخة، وسأل أيضـــاً عما إذا كـــان الجرم المعترف به مـن قبل الداويـة يشمل امتيازاتهم اللاهوتيـة، وهل يجوز السماح للطائفة بالبقاء في حـالة العثور على عـــدد ضئيل من أفـــرادها أبرياء في مقـــابل المئات الذين اعترفـــوا بجـــرمهم، ومـا الـذي ينبغي فعله بالنسبـــة لممتلكاتهم، فهل يتـــوجب تكريسهـا لهدفهـا الأصيل، أي الأرض المقـدسـة، أو من الممكن في ظل الظروف القائمة مصادرتها من قبل السلطة العلمانية، وردت الجامعة برد حذر، حيث ذكّـرت فيليب بأن طائفة الداوية كانت طائفـة دينية، وهي على هذا تحت الاشراف القضـــائي اللاهوتي، أي أنـه يمكن للسلطات المدنية في حالات الطوارىء اعتقال هراطقة، لكن مع النية بتسليمهم إلى محكمـة لاهوتية، أي أن الاعترافـات كلهـا تسوغ تحقيقـاً داخل الطائفـة نفسهـا، أي أن الذي ينبغي القيـام به هو اتخاذ اجـراءات للتأكـد من أن الذين اعترفوا بالجرم لم يفسدوا الرهبان المحتملة براءتهم، وهذا يعني أنه بات من الضروري حـراسـة ممتلكـات الطائفـة، لضمان تطبيق الأهداف التي من أجلها كرست بالأصل.

وكان هذا كـافياً بالنسبة إلى فيليب، ففي اليوم نفسـه الذي تسلم فيه الجواب من الجامعـة، وجـه الملك الدعـوة لاجتماع مجلسـه العـام الثـاني للأعيـان في تور في أيار ١٣٠٨، ومثلما كـان عليه الحال بالنسبـة لمجلس ١٣٠٢، جـرى استـدعـاء هذا المجلس لـلاجتماع ليس من أجل تقـديم النصيحـة إلى الملك، ولا من أجل تأمين موارد مـاليـة، بل كانت مهمـة المجلس الآن أن يعمل بمثـابة صوت دعـائي عـريض لتمجيد الملكيـة، التي هي المدافع عن الإيمان، ولحشـد تأييد وطني من أجل الهجـوم على الداوية، ومعلوماتنا عن مجريات أعمال الاجتماع ضئيلة، والذي نعرفه أن الطبقـــة الثـالثـة كـانت حسنة التمثيـل، وكـان رجـــال الدين مكرهين بالمشـاركة في الهجوم على طـائفة دينية، لكنهم خـافوا من معـاداة الملك،

وكان عدد كبير منهم ممثلاً بالتفويض وبالنيابة، وأخبر نوغاريت، الذي عمل وكيلاً لعدد من رجال الدين، الملك فيليب بأن المجلس قد أيد الموقف الملكي بالاجماع تقريباً.

وكان من بين أعضاء الطبقة الثالثة الذين كانوا حضوراً في تور، بيير دوبوا، وكان قد صار أكبر جرأة، وذلك بتقدم السنوات، وقد أمسك بسرعة حقيقة أن أمل فيليب بالنجاح في قضية الداوية قائم في ارغام كليمنت، فكتب رسالة باللغة العامية بعنوان «احتجاج الشعب الفرنسي»، وكان صلب هذه الرسالة مجرد هجوم على كليمنت بسبب موقفه المعيق في قضية الداوية، وأشفع ذلك بنقد حاد لموقف المحاباة الذي اتخذه البابا، وهاجم في منشور آخر كتبه في السنة نفسها، حمل عنوان «قضية الداوية» طائفة الداوية بعبارات قاسية جداً، ودعا الملك لاتخاذ اجراءات شديدة جداً ضدهم.

ومن جديد تراجع كليمنت أمام الضغط، ففي اجتماع كنسي عام عقد في القصر الملكي في بواتيه يوم ٢٩— أيار ١٣٠٨، بحضور الملك، وأعيان الكنيسة والدولة، جرى عرض الموقف الملكي بشكل رسمي ضد الداوية، وتولى عرضه بلازيان، ووقف نوغاريت المخطط الاستراتيجي الرئيسي في الخلف لأنه كان مايزال تحت الحرمان البابوي، واستعرض بلازيان القضية كلها، وأوضح أن فيليب كان مكرهاً في تصديق التهم، ولذلك اضطر لأن يطلب من محكمة التفتيش التحقيق بالقضية، وأعلن أن فيليب الذي هو الملك الأقوى على وجه الأرض، قد عمل بموجب دوافع سامية، ومقاصد عليا، فلقد كان واجبه المسيحي يملي عليه اتخاذ اجراءات ضد الطائفة، التي تبرهن على إجرامها بالاعترافات التي أداها أفرادها، وليست لديه نوايا نحو ممتلكات الداوية، بل تولى بكل بساطة المسؤولية حتى يتم التوصل إلى حل مناسب بشأنها، وختم بلازيان كلامه بتهديد مبطن لكليمنت، فيها

إذا تقاعس بالعمل، وعندما تولى كليمنت الرد، استعرض أخبار السمعة الجيدة التي تمتع بها الداوية من قبل، ووعد بإقامة محكمة خاصة من أجل محاكمة الداوية، لأنه ليس من عادة الكرسي المقدس العمل بتهور، فعندما تنهي المحكمة تحقيقاتها، سوف يصدر الحكم، ويعلنه شخصياً.

وتم تشكيل المحكمة وأعطيت الصفة الشرعية، وشرعت في تفحص المزيد من الداوية، وبما أن فيليب كان يستهدف إدانة الطائفة، وليس الأعضاء فيها فقط، جدد اصراراه على تجريم بونيفيس، وطالب باخراج جثته من القبر حتى توضع بالعراء ومن ثم تحرق، ويلقى رمادها بالهواء، وطالب أيضاً بتحليل نوغاريت، مع تعهد من كليمنت بعدم مغادرة فرنسا، وازداد الضغط على كليمنت برفع قضية ملكية ضد الأسقف غوشارد Guichard أسقف تروي Troyes، وتم العثور على شاهد اتهم الأسقف بالمسؤولية (في ٢ نيسان ١٣٠٥) عن موت الملكة الفرنسية جين أوف نافار، وقد ذكر هذا الشاهد بأنه رأى الأسقف، يقوم بمساعدة ساحر، بصنع تمثال من الشمع عمّده على أنه جين، وقام الساحر بعد ذلك بطعن التمثال ومن ثم جرى رميه في النار، وقد قيل بأن هذا الحادث قد وقع قبل وقت قليل من وفاة الملكة في ١٥— آب ١٣٠٨، وجرى اعتقال غوشارد من قبل رئيس أساقفة باريس، الذي بعث به إلى الملك.

وقام كليمنت بتقديم المزيد من التنازلات، بأمل ارضاء فيليب، وذلك مع أنه حافظ على اجراء يتعلق باستقلاليته بإصراره على أن مصير الطائفة نفسها، يمكن أن يتقرر فقط من خلال مجمع كنسي، وافتتحت محكمة لسماع الاتهامات ضد بونيفيس في أفينون يوم ١٦— آذار ١٣١٠، حيث استنفد المحامون طاقاتهم وعبقرياتهم، في استئنافات واستئنافات معاكسة لمدة سنة كاملة، ووافق فيليب أخيراً على اسقاط التهم، التي جاءت بمثابة مجرد وسائل ضغط على كليمنت، وفي المقابل

أصـدر كليمنت يوم ٢٧ نيسـان ١٣١١ مرسـوم Rex gloriae ، وهو مرسـوم أكد فيه بالتحديد براءة فيليب وحسن نواياه، وأمر بالغاء جميع العقوبات المتعلقـة بواقعة أناني، وشطبها من السجـلات البابوية، وتلقى نوغاريت absolutio adcautelam مشفوع بـ Poenitentea ad Cautela ، وقد توجب عليه حتى يكسب الشرعية لتحليله المشاركة في الحملة الصليبيـة التي كـان يجري التخطيط لها، وأن يبقى في فلسطين حتى يتم الافراج عنه بعفو بابوي، وبالإضافة إلى هذا كان عليه، أو على ورثته القيام ببعض رحلات الحج المحددة .

وجرى بعـد مرور عـدة أيام التوصل إلى تسوية سياسية، فقـد جرى عقد تحالف بين الامبراطور هنري السـابع، وروبرت صاحب نابل Na-ples ، وكـان هذا الحلف معـاديا للمصالح الفـرنسيـة، فبمـوجبه كـان روبرت سيتسلم الأرليت Arelate ، وهو الإجراء الذي عطله كليمنت بتحـريمه التنـازل عن الأرليت لأي جهة إلاّ للكنيسـة، وقبل أن يغـادر كليمنت أفنون دفع مبعوثو الملك إليه مائة ألف فلورين، مقابل جهوده.

وتقـرر مصير طائفـة الداوية من قبل مجمع فينـا، الذي افتتح في يوم ١٦ تشرين أول ١٣١١، وألغى مرسوم Vox inexcelso (٢٢— آذار ١٣١٢) بشكل رسمي الطائفـة، وقـد تلي أمـام المجمع في ٣— نيسـان، وكان وقتها فيليب جالساً على يمين البـابا، وما من أحد تجرأ على الجهار بالمعارضة، وقد بقي أربعـة من كبار رجالات الداوية، بما فيهم دي مولي وكـارناي Charnai في السجن حتى ١٩— آذار ١٣١٤، عنـدمـا جـرى تعيين لجنـة بابوية لتقـرير مصيرهم ، وحكمـت اللجنة عليهم بالسجن مـدى الحيـاة، وتلقى اثنان من الـداوية الحكم عليهما بصمت، بينما احتج دي مـولي وكـارناي بصـوت مـرتفـع، وأعلنا عن براءتهما، وأوضحـا أن اعترافاتهما قـد انتزعـت منهما بالتهديد بالموت، وبدا الأمـر وكأن اللجنة قـد تأثرت، فقـررت معـاودة الاجتماعـات بنيـة تفحص

القضية بشكل أعمق في اليوم التالي، وأعيد الداوية بشكل مؤقت إلى السجن لدى عمدة باريس، وجرى إخبار فيليب بهذا التطور الجديد، وبعد التشاور مع مجلسه الاستشاري الملكي، بغياب أعضائه اللاهوتيين، أمر بإحراق الداويين المتمردين، وجرى تنفيذ الأمر في ذلك المساء بالذات قبل أن تتمكن اللجنة البابوية من اتخاذ أي اجراء إضافي.

وربحت الملكية الوطنية في صراعها مع البابوية نصراً ساحقاً مثلما كانت البابوية قد حققت ونالت من الامبراطورية منذ مضي نصف قرن، فالآن لم يقتصر الأمر على تقرير حل كل نقطة من القضية لصالح الملكية، بل جاءت ترقية الكرادلة الفرنسيين لتضمن — كما بدا— استمرار خط التعاطف البابوي تجاه الفرنسيين، ذلك أن البابوات سوف يستمرون في السكنى في أفينون تحت ظل الملكية الفرنسية، وجاء الحادث التاريخي في انقطاع خط ولادات الذكورة في أسرة كابيه بوفاة أولاد فيليب ليشكل حقيقة هامة في تدمير كثير من صورة واجهة الواقع السياسي الذي أوصله فيليب الرابع إلى الكمال، ومع هذا، إنه على الرغم من الفوضى التي أعقبت مائة سنة من الحروب الأهلية والخارجية نجحت الملكية الفرنسية في الحفاظ على بعض معايير الوضع التي تمّ الحصول عليها أثناء حكم فيليب.

ولدى تفحص أعمال فيليب ومستشاريه، تتملك الانسان الدهشة تجاه اللامبالاة الدينية ومظاهر الرياء، مما يتواءم أكثر مع الروح العلمانية لعصر النهضة، من توائمه مع التقوى التي ضرب بها المثل في العصور الوسطى، ولايمكن عدّ إصرار نوغاريت على الحصول على التحليل عملاً معاكسا وبينة مضادة لهذا التفسير، فقد كانت الأعراف السائدة تجعل من الانسان المحروم كنسياً منفياً اجتماعياً، ولهذا أراد رفع الحرمان، هذا ولاتوجد أدنى بينة أنه اهتم بخلاص نفسه، وبما أنه أنذر من قبل البابا بأن قانونية تحليله وتطبيقه يعتمد على تنفيذ بعض

الشروط، جاء تحركه الوحيد لخدمه هذا المقصد باصدار مذكرة جديدة بالحث على الحملة الصليبية،والقول بأنه لو عاش أطول (مات في نيسان ١٣١٣) لأمكنه انجاز أكثر، قول غير مقنع في ضوء أعماله ونشاطاته.

في مثل هذه الأجواء عاش بيير دوبوا، وكتب مناشيره، وسعى نحو قبول اقتراحاته بالاصلاح، ولم يتسلم دوبوا قط منصباً له مسؤوليته في الدولة، مثلما فعل بيير فلوت وبلازيان، ولم يكن مستشاراً مقرباً من الملك مثلما كان نوغاريت، هذا ولم يكن دوبوا قادراً على إدراك ضرورة قيامه بقصقصة أطراف أشرعته حتى يستطيع الإبحار والجواز وسط معيقات وعقبات تيار السياسات الأوربية، ولأنه كان متدينا على عكس نوغاريت الذي كان لامباليا، فقد عبر عن أفكار كان من شأن قبولها القطع عميقاً والمضي داخل التنظيم الأوربي، أكثر من أي شيء جرى اقتراحه من قبل معاصريه الذين كانوا في مواقع أكبر للمسؤولية، فقد بذل نوغاريت غاية جهده للدفاع عن السلطة الملكية في فرنسا وللرفع من شأنها، وكان دوبوا يود أن يجعل من الملك الفرنسي سيداً لكل من الشرق والغرب، وقاتل فيليب مع مستشاريه التدخل البابوي في السياسات الوطية، وبناء عليه أراد دوبوا انزال الكنيسة وارجاعها إلى وضع أسقفية بدائية فقيرة، وجعلها مجرد قوة روحية.

أفكار في كتاب استرداد الأرض المقدسة

يتألف كتاب الاسترداد من قسمين، ويحتوي القسم الأول الفصول من ١— ١٠٩ ، وهو حين وجهه إلى ادوارد الأول ملك انكلترا، قد أراد بشكل واضح انتشاره العام بين الحكام الأوربيين، مع تحفظ من جانب الملك الفرنسي، وكان هذا أمراً من السهل تدبره وترتيبه بتغيير بعض العبارات هنا وهناك، وقيد دوبوا أفكاره وحصرها في القسم الأول من الرسالة للحديث عن اقتراحات ذات طبيعة عامة، مثل موضوع الحملة الصليبية، والسلام،، واصلاح الكنيسة، والتعليم،

وتحدث بعبارات لايمكن أن تسيء إلى المشاعر الوطنية في البلدان الأخرى، فنادراً ما ذكر فرنسا وملكها، وكان القسم الثاني الذي حوى الفصول من ١١٠ حتى ١٤٢، ذا طبيعة خاصة قصد أن يطلع عليه فيليب وحده، وهنا أطلق دوبوا العنان لغلوه بالوطنية الفرنسية، وأوضح كيف أن مملكة فرنسا وحكامها سوف يستفيدون من تبني اقتراحاته، وبين اجراءً يمكن أن يجعل الملك الفرنسي سيداً لكل من الشرق والغرب، بما في ذلك الامبراطورية الاغريقية وبلاد الشام والمشرق العربي.

ومن حيث التكوين كان كتاب الاسترداد كتاب التماس ودعوة إلى حملة صليبية لاستخلاص فلسطين من أيدي المسلمين، لكن هل رغب دوبوا بالفعل وبشكل أصيل بقيام حملة صليبية، أو أن شكل دعوته لم يكن سوى مجرد مركبة موائمة للتعبير عن أفكاره حول حشد من المسائل لها ارتباط بعيد بمثل هذا الهدف؟ ومن خلال دراسة أفكاره واستعراضها في ضوء الحوادث المعاصرة قد أقتنعت أن رغبته من أجل حملة صليبية كانت أصيلة، لكنها كانت مرفقة برغبة مساوية بالأصالة للرفع من شأن الأمة الفرنسية وملكها، فقد أسهم الفرنسيون بدور هام جداً في جميع الحملات الصليبية المتقدمة، وليس دون سبب مسوغ قام بونارBongars باعطاء ما جمعه من مواد حول الحروب الصليبية عنوان Gesta dei Per Francos ،فمن كان في سنة١٣٠٠ من القوى الأوربية غير الفرنسية يمكنها أن تأخذ بزمام المبادرة في حملة صليبية جديدة؟ وإذا ماقام الملك الفرنسي ووضع نفسه على رأس مثل هذا الجهد،أولا يكون وقتها جديراً بنيل بعض المنافع المادية من خلال بذل الدماء الفرنسية مع الأموال؟ وليس من الضروري تبيان أنه كان هناك حديثاً عالمياً حول حملة صليبية،لكن السؤال كم من ذلك كان أصيلاً؟ وأن نقول بأن رجال الدولة والملوك قد تولوا رعاية التفكير في جهد عام

لإنقـــاذ الأرض المقـدســـة، في ذلك مجافـــاة كبيرة للحقيقـــة، ومع هذا مسؤوليتنا محصورة هنا مع مخطط نظري وليس مع رجل دولة.

وبعد سقوط عكا (١٢٩١)، كان جل الدعاة إلى حملة صليبية جديدة مدركين أن هجـوماً جبهويا على ساحل فلسطين، سيكون محكومـاً عليه بالاخفاق، وقد حولوا انتبـاههم إلى امكانية التحرك على الجناح، وجرى تحويل بعض هـذه الأفكار إلى عمل، فقبل خمس عشرة سنة مـن كتـابة دوبوا للاسترداد، جهـز البـابا نيقولا الـرابع اسطولاً مكونا من عشرين غليـونا، وقـد اندمج هذا الاسطول واتحد مع اسطول آخـر تألف من خمسة عشر غليـونا قدمها هنري الثـاني صاحب قبرص، وشن الاسطول الموحـد هجومـاً غير ناجح على سـاحل آسيا الصغـرى عند سكاندالور Scandalore (آلانيـا Alanya الحاليـة)، ثم أبحــــر إلى مصر في محاولة مثلها مخفقة للاستيلاء على الاسكندرية، وبعد مضي عشر سنوات قـامت مجمـوعة من النسـوة الجنويات الثـريات ببيع مجوهراتهن لتجهيـز اسطول، كـان من المفترض أن يتعـاون مع المغــول، الذين كـانوا آنذاك يسيطرون على دمشق، وكـان الاسطول جاهزا للإبحـار في سنة ١٣٠١، لكن الذي حـدث هو أن المغـول كـانوا قـد تخلوا عما استـولوا عليـه في ســـورية، وبذلـك تمّ التخلي عن المشروع، وفي سنة ١٣٦٥ هـاجم بيتر الأول دي لوزغنان، حـــاكم قبرص، الاسكندرية ونهبهـا لكن دون أن يحقق أية منافع ضد الاسلام.

وقامـت خطة دوبوا من أجل حملة صليبية جـديدة— على الرغم من عباراته الطنانة بكيل المديح لادوارد الأول صاحب انكلترا— وتأسست على قاعدة أن يتولى الفرنسيون القيادة، وكانت لديه فكرة متحمسة جداً حـول الموارد التي تمتلكهـا المملكة الفـرنسيـة (الفصل ١١٢)، وسـوف يتشكل الجيش من متطـوعين مع الذين تم نفيهم إلى الارض المقـــدســة كعقوبة لشنهم الحرب ضد جيرانهم، أما بالنسبة للرهبانيات العسكرية،

لابد من اتخاذ تقدير خاص لهم، بحكم اختصاصهم بالأعمال العسكرية، وعليه يمكن وضعهم في المقدمة في القتال ضد المسلمين، وتتم اثارة الحماس بين المتطوعين باستخدام الأزياء الموحدة وبوساطة الموسيقى العسكرية، وبهتافات المشاهدين في أماكن حشد القوات، وينبغي إقامة معسكرات للاستراحة في الأرض المقدسة، حيث يمكن استرداد شجاعة وحماسة الجرحى والمتعبين في أجواء عادية.

وكان تمويل الحملة الصليبية برأيه قضية سهلة، فالهبات التي تقاطرت من قبل على الرهبانيات العسكرية، ينبغي استخدامها من أجل الحملة الصليبية الجديدة، ويجري تدعيم ذلك بفرض ضرائب دخل ثقيلة على رجال الدين، وضرائب على المواريث، والاستيلاء من أجل ذلك الغرض على الأموال التي بلا أصحاب في مختلف المجالات وعلى جميع المستويات، وكان فطنا بما فيه الكفاية ليدرك أن سمة الانفعالية في الحملات الصليبية المتقدمة والجهود السابقة كان السبب الرئيسي لاخفاقها، ولهذا حث على استعمار الأرض المقدسة بوساطة مسيحيين مدربين ومخلصين من الغرب، وكان حريصاً على أن يبين المنافع الاقتصادية لمثل هذه الخطة بالنسبة للغرب الأوربي المتعطش للحصول على المنتجات الشرقية.

وكان الشرط الأساسي لحملة صليبية ناجحة هو إقامة السلام في أوربا، وقد لاحظ وجود نمطين من الحروب: حروب صغيرة بين السادة الاقطاعيين، وحروب بين القوى ذات السيادة، وكان العلاج بديهياً، في أن نجعل جميع الرجال يقسمون بالحفاظ على السلام، وإذا ما تفجرت حرب ما، لابد أن ذلك سيكون عملاً اقترف من قبل أحد المعتدين، ومن الممكن التعرف على المعتدي من خلال أعماله، وعندها يتوجب اخضاعه إلى مقاطعة اقتصادية، واجاعته بسرعة حتى يستسلم، ووقتها سوف تتوقف الحروب في أوربا، لأن ما من واحد سيمتلك

الجرأة ليبدأ حرباً عدوانية في وجه مثل هذه العقوبات المرعبة والتي لايمكن تجنبها، أما الحروب بين القوى ذات السيادة، مثل الحروب المتفجرة بين الملكيات الوطنية الناشئة في أيامه، فمن الممكن منعها بإقامة آلية تحكيم، تولى دوبوا وصفها بشيء من التفصيل. (الفصل ١٢).

والشرط الأساسي الثاني للقيام بحملة صليبية احداث اصلاح دقيق في الكنيسة في الرأس وفي الأعضاء، وبعد ردع الأساقفة عن انصرافاتهم الدنيوية وعن شرههم، وعن المثل السيء الذي يقدمونه لمن هم دونهم من رجال الكنيسة وإلى الناس، بعد هذا، أوصى دوبوا بالاستيلاء على أموالهم الدنيوية، وتحويلها إلى وقف دائم، على أرضية أنهم لم يكونوا الملاك، بل مجرد مشرفين إدارياً على أملاك الكنيسة،علماً بأن هذه الأملاك يمكن إدارتها بكفاءة أعظم من قبل سلطات مدنية.

أما بالنسبة لرجال الدين النظاميين، فقد كان لدى دوبوا ما يقوله للمتسولين،مع أنه رأى جوب تمويلهم بطريقة تجعل التسول عملا غير ضروري، واتهم الرهبان بشكل عام بأنهم لم يحافظوا على تعهداتهم بالفقر، والعيش كذلك، ولتقديم الاحسان، والطاعة، وقد انتقدهم ووصفهم بالفوضوية، وقال عنهم بأنهم جماعة من شذاذ الآفاق، عصاة على رؤسائهم، راغبون في جمع الذهب والفضة، التي عهدوا بها إلى رجال علمانيين خارج الديرة من أجل تأمين الأرباح لهم، وقد صوّر تعهدهم بحياة العذوبية بأنه مجرد مصيدة، نصبت بغباء من أجلهم من قبل آباء الكنيسة القدماء، وتمت رعايتها والعناية بها فقط عن طريق خرقها، واقترح دوبوا إعادة تأسيس مبادىء الحياة في الديرة، بإلغاء الرعاة من غير الرهبان، حيث هناك عدد قليل من الرهبان يعيشون حياة ترف، وكسل ورخاء، وهؤلاء ينبغي تقويمهم وانزال دخلهم المالي إلى الحد الأدنى، وما يتوفر من المال ويزيد يتوجب تكريسه لمنافع الأرض المقدسة، ومن الواجب تقييد عمل الراهبات وحصر أعداد القاطنات في

الديرة، فالأفضل هو تحويلهم وإرسالهم إلى مدارس الفتيات.

وكتب دوبوا الاسترداد قبل هجوم فيليب على الداوية بشكل معلن، ولهذا لم يقم بجهد للتمييز بين الاسبتارية والداوية،بل أوصى بدمج جميع منظمات الرهبانيات الدينية في منظمة واحدة، تحت قيادة واحدة، ويتوجب أن يطلب من جميع أعضاء هذه المنظمات العيش في الارض المقدسة، وأن يجري تحويل جميع ممتلكاتهم في أوروبا إلى المدارس التي يتوجب تأسيسها وذلك كجزء من برنامجه الاندماجي المقترح للتعليم.

وإذا كان الأساقفة بحاجة إلى الاصلاح هم والكهنة النظاميين، فبالحري حاجة البابوية إلى ذلك، وقال دوبوا بأن ميراث القديس بطرس كان السبب الأساسي في تراجع البابوية، لأن البابوات حرضوا على الحرب وخاضوها، وانشغلوا بواجبات إدارتهم الدنيوية فلم يتوفر لديهم الوقت للقيام بواجبهم الرئيسي، وهو العناية بالأرواح والنفوس، وقد اقترح بأن العلاج بسيط لكنه شديد مؤلم، وهو أن يتم تحويل الميراث وموارده إلى الملك الفرنسي مقابل ضمان عطاء سنوي، وبذلك يمكن للبابا أن يكرس وقته كاملاً لأعماله الروحانية، وهو عندما يتحرر من مسؤولياته الدنيوية الثقيلة، يمكنه وقتها إحداث إصلاح شامل ودقيق للكنيسة.

ومن أهم ملامح خطط دوبوا كان نظام التعليم الجديد، البعيد عن المدارس والجامعات التي كانت موجودة، وقد اقترح إقامة مؤسسة عملاقة يكون واجبها الرئيسي هو تأسيس مدارس للصبيان وللبنات في كل مقاطعة من مقاطعات فرنسا، وأن يكون الهدف الرئيس لهذه المدارس هو تدريب الشباب من الجنسين للخدمة في الشرق، وقد أعطى لثلاث نقاط أهمية خاصة: وأولى هذه النقاط، التمكن من معرفة اللغات الأجنبية، فبدون هذه اللغات من الصعب جداً نجاح الجهود التبشيرية وإدارتها في الشرق، والنقطة الثانية: وضع برنامج للدراسة متسارع،

حتى يمكن إكمال التـدريب المطلوب في سن مبكرة، والنقطة الثـالثة: تأمين خبرة عمليـة، سـواء في الـوعظ والتبشير أو في مجالات التطبب، والأعمال الأخرى المرتبطة، أو القانون، وينبغي إقامة مـدارس منفصلة من أجل مـواضيع دراسـات أكثر تخصصاً، مثل دراسـات القـوانين والشرائع المدنية، والفلك، واللاهوت، والأعمال المتقدمة في الطب.

وباستثناء مثل هذه الموضوعـات الاختصاصية، كـان من المتوجب أن يتبع تعليم الفتيـات بشكل أسـاسي القـواعـد نفسهـا المتخـذة لتعليم الصبيـان، إنما مع إلحاح خـاص على الطب والجراحـة، وينبغي الاهتمام أيضاً بتأسيسهـم بشكل جيد بمبادىء الإيمان الكاثـوليكي، وبعد اكتمال تدريبـاتهم، من الممكن تبني هذه الفتيات الجميـلات الناضجات بمثـابة بنات وحفيـدات لأمراء الغرب وأعيـان الرجال فيـه، ومع التمتع بمثل هذه السمعـة الاجتماعية والمكانة السـامية، وبعـد إلباسهن على حسـاب المؤسسـة، وقتها يصبحن جـاهزات لتزويجهن من أسـاقفة ورجـال دين شرقيين، ومن أمـراء مسلمين وأثـرياء، فمن الممكن نجـاح مثل هذه الزوجات في تحويـل قرنائهن إلى الايمان الرومـاني، كما يمكنهن الحصول على فتيات مدربات مثلهن ليكن زوجات لأولادهن.

واحتـاجت الاجـراءات في المحكمـة، وكـذلك دراسـة القـانون إلى الاصلاح، وكان دوبوا، بحكم كـونه محامياً مجرباً، على دراية بآثار الخدع الخطابية ومـؤثرا ت الصوت والحركـات التي كان المحـامون البـارعون يستهـدفـون من استخـدامهـا التـأثير على الذين يستمعـون إليهم، ولهذا أوصى بتقـديم جميع الالتماسات والمرافعـات كتـابة، يعني أن تكون هذه الأشكال المكتوبة محصورة بالشكاوى، وبردود الدفاع، ورد المدعي، ورد الدفـاع على المدعي، وينبغي أن يمتلـك القـاضي السلطـة على رفض القضايا التي ليس لها عـلاقة، والمقحمة، وكـان دوبوا قانعـاً بأن طريقته سـوف تزيل إطالة القضـايا القضائيـة، وستكون مـوائمة بشكل خـاص

للتبني حالاً في مسألة الاستيلاء على الأرض المقدسة، لأن الخلافات سوف تتفجر، وسوف تثور، لو أن كل مجموعة من المجموعات القومية العديدة أصرت على استخدام طرائق الاجراءات المعتاد استخدامها في بلدانها الخاصة بها.

وكان القسم الثاني من كتاب الاسترداد، مصمماً لرؤيته من قبل الملك فيليب ومستشاريه المقربين فقط، ولهذا حول دوبوا انتباهه هنا إلى المشاكل الفرنسية، ومع أنه كان بلا خبرة عسكرية، فقد ناقش بشيء من الطول الاجراءات المتوجب اتخاذها في الدفاع عن المملكة، وحسب شرحه لهذه الاجراءات يمكن للملك في الوقت الذي يرغب به، توجيه الدعوة إلى الإقطاعيين التابعين له، المتوجب عليهم تقديم خدمات عسكرية على حسابهم، ويمكنه في أوقات الطوارىء استدعاء المتملكين لاقطاعات حرة، الذين هم بالعادة معفيين من تلك الواجبات والالتزامات، وتكون الخطوة التالية هي«الاستنفار العام»، ويمكنه أخيراً في أوقات الضرورات القصوى والطوارىء الاستيلاء على ممتلكات الكنائس، والمؤسسات اللاهوتية، وهذه الخطوات جميعاً — باستثناء الأولى — مسوغة فقط في أوقات الطوارىء الوطنية.

وكان دوبوا قانعاً بأن الملك، قد ضلل من قبل مستشاريه الذين تغاضوا عن المراوغة في تطبيق الالتزامات الاقطاعية، فالتجأ بالغالب إلى اتخاذ الاجراءات الاضطرارية غير المسوغة قانونياً، وبهذه الطريقة كانت الكنيسة مستبعدة، وتمت مقابلة الأعباء المالية الإضافية — ثانية بناء على نصيحة المستشارين العاجزين أو الأشرار — بتخفيض عيار العملة، مما يلحق الضرر برعايا الملك، وأصر دوبوا على أن من الممكن تجنب هذه الشرور بسهولة، وذلك بفرض الالتزامات الاقطاعية وتطبيقها بحزم، وإذا ما تم تنفيذ هذا، سيمتلك الملك من ورائه قوة عسكرية لا يمكن مقاومتها، وسيكون بإمكانه القيام بمشاريع عسكرية واسعة، وهو ما

كان دوبوا يحثه على القيام به.

فما الذي كانته هذه المشاريع؟ لقد كانت بشكل مجمل إقامة سيطرة فرنسية على الغرب والشرق، فبالاستيلاء على ميراث القديس بطرس، سيتمكن الملك الفرنسي من ممارسة سلطانه على أتباع البابا، الذين كان من بينهم ملوك إنكلترا، وأراغون، وصقلية، وإلى مملكة صقلية ينبغي إضافة مملكتي القدس وسردينيا، ثم إنه بدعمه لأبناء ابن خاله في الخلاف العائلي في كاستيلا، سيتمكن من نيل السيادة على تلك المملكة، كما أن رعايته لحملة صليبية ناجحة سوف يمنحه السيطرة على الأرض المقدسة، ومن الممكن للجيش الصليبي المنتصرالعودة عبر طريق القسطنطينية، حيث سيمكن أخا الملك، شارل أوف فاليوس من الاستيلاء على الامبراطورية الاغريقية، وبالقيام بترتيبات مع البابا الفرنسي الجديد(كليمنت الخامس) من الممكن إقناع الناخبين الألمان بإعطاء أصواتهم إلى عضو من الأسرة الفرنسية المالكة، وأيضاً من الممكن الحصول على الأرليت والضفة اليسرى للراين من خلال مناقشات ودية مع الامبراطور الألماني، وتوقع دوبوا بذكاء احتمال قيام البابا كليمنت الخامس بتعيين ما يكفي من الكرادلة الفرنسيين لضمان أكثرية فرنسية، وبذلك يمكن للبابوية أن تبقى فرنسية الملامح، واقترح في منشور متأخر خطة من أجل السيطرة على مصر، ويمكن للانسان أن يقول معقباً: لو أن جميع هذه المشاريع قد تحققت، وقتها كان فيليب سيتطلع فقط لعوالم أخرى ليستولي عليها!

تقويم نقدي لدوبوا

في الحديث عن المؤثرات المتنوعة التي أسهمت في صياغة أفكار دوبوا، نجد بلا شك أن أهمها كان القانون، فهو لم يكتف بتلقي تدريبات دقيقة في هذا الموضوع، بل أمضى حياته في ممارسة العمل القانوني كمحترف، ومن هذا الميدان استقى مقارباته القانونية وأحياناً

غير الواقعية للمشاكل التي اهتم بها شخصياً، ويتوجب على الذين عدّوه مجرد مصلح اجتماعي خيالي أن يلاحظوا أنه حتى أكثر خططه تناقضاً قد منحت ثوباً عملياً، ولدى النظرة إلى الموضوع نظرة إجمالية، نجد أن رسالته لا تترك الانطباع أنه كان يتولى صياغة شكل دولة مثالية، بعيدة عن مملكة الواقع الممكن، فقد صاغ كل اقتراح وعبّر عنه بعبارات عملية، تستخدم في أوضاع كانت تماماً معروفة بالنسبة لمعاصريه، وكان دوماً متوقعاً حجج خصومه، ولديه حل جاهز وواضح لكل مشكلة، ولم يأخذ بالتأمل الفلسفي حول السيفين، أو الشمس والقمر، وغير ذلك من التشابيه التي راجت كثيراً في الكتابات السياسية لمعاصره الكبير، دانتي، فقد ظل دوبوا دوماً مرتبطاً بالأرض، وقد تحدث بعبارات عملية يمكن للأحاسيس العامة للأفراد فهمها وتقبلها.

وكان المؤثر الثاني، الذي يمكن عدّه معاكساً للأول، هو التأمل الفلسفي العلمي، الذي استقاه أثناء أيام دراسته في باريس، وشحذت المناقشات في ساحات الجامعة، التي لا شك أنه شارك فيها قدرته على الجدل، التي هي ضرورية لممارسة مهنته، ومن المحتمل أنه هناك تعلم القياس المنطقي الذي استخدمه من وقت إلى آخر، للوصول بالمناقشة إلى مبتغاه، ففي الجامعة استمع إلى محاضرات توماس الأكويني الذي كان أعظم علماء وقته، غير أن دوبوا لم يكن مفكراً عميقاً، ويبدو أنه افتقر إلى ما يكفي من التبصر الفلسفي حتى يتفهم استخدامات الفلسفة التوماسية، وصحيح أنه نقل عن توماس وذكره بالاسم مع الموافقة والتأييد، نجده ينقل في مرحلة تالية بالتأييد نفسه والموافقة عن سيغربرابنت، الذي كان ممثلاً لمدرسة من التفكير مناهضة للمدرسة التوماسية.

وفي أثناء الاقامة في باريس كان دوبوا عضواً في الأمة النورماندية في الجامعة، وفي أثناء المناقشات التي ثارت في الجامعة واستعرت بين

مدارس الفلسفة المتعارضة كان موجوداً، وتبنت الأمة النورماندية بشكل عام موقف الرشدية الذي مثله بقدرة سيغردي برابنت، واقترح دوبوا في عرض موجز دراسة العلوم الطبيعية، وأوصى بالتحديد بالعودة إلى كتابات سيغر(الفصل ٧٢)، وعنه نقل في مكان آخر على أنه مفسر معتمد للأرسطوطالية(فصل ١٣٢)، وقدمت المدرسة الرشدية في التفكير المنطقي المؤثر الثالث، الذي أثر على دوبوا خلال سنوات تكوينه.

وتأثر عقل صاحبنا المحامي — الذي كان عقلاً علمياً — بالدرجة الرابعة«بالمدرسة التجريبية» التي كان روجر بيكون الشارح لها، ولعله عرف بيكون شخصياً، وهو على كل حال أظهر معرفة كبيرة بكتابات هذا الراهب، التي نقل عن بعضها بالعنوان وباسم الكاتب، ويبدو أن بيكون قد لقي اهتماماً قليلاً في أيامه، ومع أن دوبوا كان رجلاً علمانياً في حقل الفلسفة، يعدّ واحداً بين الندرة من معاصريه الذين نقلوا عنه بالاسم، وقدموا براهين على أنهم قرأوه، ويبرهن على أنه تأثر كثيراً وبعمق بأفكار بيكون تكرار إصراره على قيمة التجارب العملية، وبإظهار رغبته في ضغط نصوص كتب المجلدات الكبيرة الرائجة والشروح، وإخراجها بحجم معقول، وباهتمامه الكبير بالقيمة العالية لمعارف اللغات المعاصرة، وكان أيضاً متفقاً مع بيكون حول قيمة ومكانة دراسة العلوم والرياضيات، وبلغ به الحماس لهذا الأمر إلى حد التوصية بالأخذ بتوصية بيكون الحماسية من أجل استخدام المرايا في الأعمال القتالية.

وأخيراً في مقابل التأثر العملي بمدرسة روجر بيكون«المدرسة التجريبية»، وقع دوبوا تحت تأثير الأفكار الكيماوية لريموند لول Lull، هذا ومن الممكن أن الرجلين قد عرفا بعضهما شخصياً، ففي أيام حياة دوبوا، أمضى لول خمساً وعشرين سنة في نشر أفكاره، بشكل كبير

في فرنسا، ولقد كان موجوداً في مجمع فينا في سنة ١٣١١ ، حيث ربح الموافقة على خطته من أجل دراسة اللغات الشرقية في مجمع الكرادلة وفي الجامعات، وقد أراد لول من دراسة اللغات الحديثة الإفادة من استخدامها في أعمال التبشير، في حين أراد دوبوا استخدام اللغات من أجل عظمة فرنسا، وكان في ذهن كل واحد منهما استخدام عملي من أجل اللغة، وأصرّ في الوقت نفسه بيكون مثلهما على دراسة اللغات، لكن بالدرجة الأولى من أجل استخدامات علوم فقه اللغات، وكانت مقاربة لول مقاربة علمية، فقد بدأ يقول في كتابه Liber de ac-quistione Terra Sanctae الذي وجهه إلى فيليب الرابع في سنة ١٣٠٩ :«إنه من أجل الحصول على الأرض المقدسة هناك ثلاثة أمور أساسية هي : القوة، والحكمة، والاحسان»، وبدأ كتاب Liber nat-alis ، الذي أيضاً وجهه إلى فيليب في سنة ١٣١١، بوصف ست نساء مزعومات نثرن المديح على فيليب، ومن خلاله يمكن أن نلاحظ خطط لول، والمقصود هنا قمع الرشدية، وزيادة احترام الكنيسة وحسن سمعتها، وتحويل الكفار، وهزيمة المسلمين، ولاشك أن مثل هذه المقاربة لم تكن واردة عند دوبوا وبعيدة عن تفكيره.

وهذه المؤثرات المتنوعة، اللائي يمكن تقصي أثرهن لدى دوبوا، عبارة عن دليل أنه عاش على اتصال مع جميع التحولات الفكرية الهامة لعصره، فمن هذه التيارات المتنوعة وذوات التأثير المتضاد المتداخل، استقى ما حكم عليه بأنه سوف يوسع مشاريعه، ومع هذا هو لم يكن مجرد ناسخ لأفكار الآخرين، فقد أبدى استقلالية بالتفكير مدهشه، واستعداداً للخلاف وللابتعاد عن مصادره المحترمة التي نقل عنها، فقد كان محامياً، وغدا ثرياً من خلال المشاركة في الاجراءات القضائية لأيامه التي كانت طويلة وبطيئة مرهقة، ومع هذا نادى باصلاح قانوني، أعلن أنه لو طبق لكان من معانيه خسارة مالية لأبناء حرفته، وقد توفر لديه

احترام عظيم للقوانين وللاجراءات القضائية، لكنه آمن بضرورة تغيير القانون وأن هذا واجب عليه، ولهذاعرض خدماته لإعادة النظر بالقوانين القائمة، ولإزالة ما هو حتمي ومتناقض، ومع أنه تدرب على العمل العلمي في باريس، عبر عن انعدام صبره تجاه دقة وبراعة العلماء، وقد أعلن عن نفسه تلميذاً لسيغر دي برابنت، وحملت أفكاره بصمة من التأثيرات الرشدية، لكنه رفض مجاراة سيغر والرشدية في إنكارهما للفضائل الفردية، وللمسؤولية الشخصية والارادة الحرة للانسان، وفي مجال العلم والرياضيات نقل عن روجر بيكون مع الاحترام، لكن عواطفه المعبر عنها حول القانون والاجراءات القانونية تعارضت بشكل حاد مع أفكار الراهب بيكون الذي عدّ العمل القضائي معيقاً لتقدم التعليم، وكان ريموند لول قد اقترح صيغة أو تركيبة تمكن الانسان من الحصول على جميع المعارف، وبالمقابل ألح دوبوا بشيء من الطول على أنه من غير الممكن الحصول على جميع المعارف(الفصل ٨٤)، وكان لول عدواً شديداً للرشدية، وعبر دوبوا عن ودّ واضح نحو عدد من أفكار الرشدية.

وكان من بين معاصري دوبوا الذين نقل عنهم ألبرتوس ماغنوس Albertus Magnus ، وهيرمان الألماني، الذي ترجم«الأخلاق» لأرسطو، وكان دوبوا على معرفة بمعظم كتّاب العصور الوسطى، ومع هذا لم ينقل عن مؤلف كان حيّاً بالاسم، فعلى سبيل المثال، هو لم يذكر ريموندلول، مع أنه من الواضح بأن دوبوا كان يعرف أفكاره، وفي القائمة نفسها أجيدوس رومانوس Aegidius Romanus ، الذي كان قد أهدى كتابه De regimine Principum إلى فيليب الرابع، قبل اعتلاء ذلك الملك الشاب للعرش، وقد أمر فيليب إثر تتويجه مباشرة بترجمة تلك الرسالة إلى الفرنسية، وكان أجيدوس على صلات وشيجة بفيليب ومقرباً منه، ولم تتأثر علاقاته هذه كثيراً ولم تفسد

بظهـور كتـابه De eules iastica Potestate المؤيد لبـونيفيس،في أثناء الخصـام بين الملك وبين البـابا، وبناء عليـه من المحتمل كثيراً أن دوبوا قـد عـرف الرسالة المبكـرة، ويتدعم هذا الاحتمال بـوجود أوجـه تشابه بالتفكير وفي التعبير.

وجل المصـادر التي اعتمدها دوبوا ونقل عنهـا كانت أرسطوطاليـة، وكذلك من الكتـاب المقدس، ومن الشريعة المدنية والقـوانين، مع نقول قصيرة وقليلة من الكتب الكلاسيكيـة، واعتمـد في النقول على ذاكـرته، وهذا أمـر واضح، لأن النصوص التي اقتبسهـا نفسهـا، اقتبسها أحيـاناً ثانيـة بتغيرات بالأفعـال، وكـان المفضل لـديه بين مجمـوعـة كتب أرسطو«الأخلاق» و«السيـاسة» ، ومن الصعـب تقرير صحـة القـراءة، لأننا لا نستطيع بـأي طـريـق من الطـرق تحديـد أي مخطـوطات كتـب أرسطو قـد استخدم، وسيكون من الظلم مطالبتـه بالعودة إلى نصـوص محققـة بعناية، ومن الممكن القـول بدون تجاوز: إنه غالبـاً مـا اقتبس من كتـاب أرسطو طالي خاص، وفي حـالات قليلة تبرهن أن اقتباسـاته من رســالة أخــرى غير التي ذكــرهـا، وكثيراً مــا قــام بدمج عبـارات أرسطوطاليـة بعيـدة عن بعضهـا، وقدمهـا ضمن أفكاره بمثـابة عبـارة واحدة، وأكثر من هذا كان يضيف إقحامات من الواضح أنها من عنده، وهذا مـا يجعلنا نتوجس أن مـا كـان يستهدفـه من الاقتباسـات الكثيرة إظهار أنه كان رجلاً صاحب ثقافـة عالية، ذلك أن الاقتباسات كثيراً ما نجدها لا علاقة مباشرة لها بالموضوع المعروض للمناقشة.

وصيغة اقتباساته من الكتابات المقـدسة قريبة جداً من صيغ الطبعات الحديثـة من الترجمات الشعبيـة، والاختــلافـات البسيطة التي تظهـر في بعض النصوص مردها إلى ضعف محققي الطبعـات اللاهوتية الحديثة في ميـدان اللهجات الشعبيـة وقام دوبوا مـرة أو مـرتين بإقحام عبـارة من عنده في وسط نص توراتي، وقـام مراراً بالمزج مـابين نصوص مختلفـة،

وغالباً ما نقل عن العهد القديم بذكر اسم الكتاب أو الكاتب، اللهم إلا باستثناء واحد، ونقل عن العهد الجديد بشكل مبهم تحت عنوان«الرسول» و«الرب»أو«المخلص»، والغلطة الوحيدة التي لاحظتها في إحالته لواحد من نصوص أعمال الرسل مع أنه من الانجيل، وساد معيار الصحة نفسه بالنسبة لنقوله من قانون الشريعة، وقد ابتعد في مناسبات قليلة عن النص كما ورد في طبعة فريدبيرغ Friedberg الحديثة، ووجدته مصيباً في الأماكن التي أتعب نفسه فيها لتحديد نص قانوني محدد قام بنقله أو اقتباسه، ونقوله من القانون المدني موزعة بالتساوي فيما بين الـ Digest والـ Novellae ، وكان يشير إليهما معاً بدون تمييز باسم«القانون المدني» ومعيار الصحة في الاقتباس من القانون المدني أدنى من الذي بدأه لدى التعامل مع الكتابات المقدسة، ومع قانون الشريعة، وعزا في مناسبة واحدة(الفصل ١٢٤) نصاً نقله، إلى القانون المدني، مع أنه كان في الحقيقة من كتاب«الأخلاق»، ويمكن أن نعزو هذا إلى إمكانية العجز أحياناً وعدم القدرة على التعرف على مصدر بعض النقول القليلة من هذا النوع.

وبذل دوبوا جهوداً جبارة من أجل الدخول إلى دائرة مستشاري فيليب المقربين، ونجد برهاناً على عدم نجاحه في هذه الجهود بكلماته، فقد ذكر مراراً بأنه مقبل على إرسال هذه الرسالة أو تلك إلى صديق يعمل في البلاط حتى يجري تقديمها إلى الملك(الفصول ١١١ — ١١٧)، كما عرض مراراً خدماته للقيام ببعض الاصلاحات المقترحة، ولوأنه كان عضواً من المستشارين المقربين من فيليب ما كان ليلجأ إلاّ في النادر لمثل هذه الطريقة من العرض، وصحيح أنه أظهر أحياناً دراية كبيرة بما كان يجري في البلاط، ووضح هذا في الـ Summaria وفي الاسترداد(الفصل ١١١٦)، نقرأ في اتفاقية فوكلر Voucouleurs بين فيليب الرابع والامبراطور البيرت شروطاً كانت بعيدة عن تفكير

الملكين، وكان هنا لمستشار معتمد أن يخطىء مرة، لكن من الصعب جداً أن يكرر الخطأ بعد ست سنوات في مذكرة سرية خاصة، يضاف إلى هذا انتقد مستشاري الملك وحط من شأنهم لأنهم ضللوا الملك في المسائل العسكرية(الفصلان ١٢٨ — ١٢٩)، وعدّهم مسؤولين عن المشورة الخاطئة بانقاص معيار العملة، ومن غير المعقول أن يقدم عضو في المجلس الاستشاري الملكي على استخدام مثل هذه الوسائل من أجل إلحاق الضرر بزملائه حتى يجلب انتباه الملك إليه، ونلاحظ أخيراً أن أسماء المقربين من فيليب من أمثال: بلازيان، وبيير فلوت، ووليم نوغاريت قد ظهرت في الوثائق الرسمية للدولة، في حين لم يظهر اسم دوبوا قط.

وأظهر دوبوا في سعيه في سبيل اقتراحاته الكثيرة للاصلاح شجاعة قناعاته، وعندما يقرأ الانسان الـ Summaria ، يمكن أن يحكم من خلال كلماته أن شقة الخلاف بين فيليب وبونيفيس باتت واسعة جداً، وكانت هذه الرسالة قد كتبها في سنة ١٣٠٠ قبل الصراع الأخير الذي تقدم صدور مرسوم Ausculta Fili ، وذلك في وقت كان بونيفيس فيه في أوج قوته، ففي الأشهر التي تدفق فيها الآلاف على روما ليركعوا أمام خليفة القديس بطرس، كان دوبوا يقترح مصادرة ميراث القديس بطرس، وأنه ينبغي أن يقنع البابا بعطاء سنوي، وعلى الرغم مما عبر فيه عن إخلاصه للملك، الذي كانت سلطته ستتحسن كثيراً بنجاحات اقتراحات دوبوا، نجد هذا المحامي النورماندي لم يتردد في توجيه النقد إلى الملك لأخذه ببعض الآراء غير الحكيمة، ولقد طالب فيليب بوجوب إدارة مملكته ليس من أجل منافعه الخاصة، بل من أجل منافع رعيته، وأكثر من هذا ذكر بصريح العبارة أن تراخيه في تطبيق الواجبات الإقطاعية، كان يسبب الأذى العظيم لرعيته،(الفصلان ١٢٨ — ١٢٩)، ولم يكن دوبوا مصراً دوماً في جرأته، على كل حال، ليس حتى

قام فيليب بإظهار الطريقة التي اتبعها من أجل إزالة طائفة الداوية.

ونلاحظ من جرأته وطبيعة كثير من اقتراحاته التي كانت تحتاج إلى وقت طويل، أن دوبوا أخفق بكل وضوح في أن يكون رجل دولة، وتظهر اقتراحاته من أجل توسيع السلطة الفرنسية ضعف في الرؤية بوضوح وبفهم واقع السياسات الأوربية، فما من رجل دولة حقيقي كان من الممكن أن تبلغ به السذاجة إلى حد الافتراض أن التخلي عن مملكة الأرليت، والضفة اليسرى من نهر الراين، ومن ثم حصول الفرنسيين عليها من خلال مباحثات ودية مع الامبراطور، ومثل هذا بالسذاجة كان اعتقاده أن معظم المشاكل كان من الممكن حلها بالطريقة البسيطة في وضع البابا تحت الوصايةالفرنسية ومن ثم استخدام النفوذ البابوي لزيادة المنافع العائدة لفرنسا ولملكها، وكان مدركاً تمام الإدراك وبفطنة عرف الفاجعة التي نزلت بالقوات الفرنسية في الحملة ضد أراغون في سنة ١٢٨٥، ومع هذا كان بإمكانه أن يكتب بشكل عفوي عن السهولة التي يمكن بها لفيليب إخضاع مدن اللومبارد، دون التلميح حتى إلى مصاعب الملك مع مدن فلاندرز، وهي حالة لا بد أنها كانت معروفة بالنسبة إليه.

أما في مجال النقد التاريخي، فقد أظهر دوبوا نفسه في أسوأ الأحوال، حيث أخفق في التسامي فوق السذاجة والخطأ، وهي السمة التي طبعت كتّاب العصور الوسطى، وكانت معارفه بالتاريخ المعاصر له أدنى بكثير من معارف دانتي، وقد كرس رسالته وأهداها إلى ادوارد الأول، لكنه أظهر أنه يمتلك معارف ضئيلة عن إنكلترا، وأن ما عرفه عنها لم يتجاوز أنها كانت إقطاعية بابوية، وكان لدى تعامله مع تاريخ الماضي اقترف عدداً من التناقضات، فقد أشار إلى شارلمان على أنه قد حكم مائة وعشرين سنة، وعدّه الجد الذي انحدر منه الملوك الفرنسيون، ولعله من الممكن أن يغفر له قبوله بأسطورة قيام شارلمان

بحملة صليبيـة إلى القــدس، وهي أسطورة ظلت حيـة حتى العصـور الحديثـة، هذا وأتى على ذكر صـلاح الدين وعدّه ملكاً للآشـوريين، كما أنه ذكـر بيبرس وعزا إليـه الاستيـلاء على عدد من البلدان كـانت ملكاً لملك الآشوريين.

وقبل دونما مناقشة كثيراً من الحكايات الخيالية الشعبية لعصره، وآمن بأن مسلمي الأرض المقـدسـة كـانوا يتلقـون العـون من قبل حشـد من الشيـاطين، الذين منحتهم معـرفتهم الكاملة بأحـداث الماضي حكمـة لم تتـوفر لدى النـاس الفانين، وجـرى تصـوير الشيطان الذي يسيطر على جيش كبير، وهو يقوم بالقتال بفعاليـة ضد المسيحيين بشكل عام، وضد أفكاردوبوا بشكل خاص، وآمن بـأن تفكير الناس وأعمالهم متأثرة بشدة بالنجوم وبحـركاتها بالسماء، مع أنه لحسن الحظ لا تستطيـع هذه القوى إعـاقـة إرادة الانســان الحرة،أو أن تحول بينه وبين قـدرة التفكير بشكل منطقي، وجـرى تصوير فـرنسـا، وبشكل خاص باريس على أنها واقعـة تحت رعايـة كتل وعناصر سماوية، ولهذا فإن الناس الذين ولدوا هناك، وهناك نشأوا، كـانوا متفوقين على النـاس الآخرين، ولهذا كـان واجب الملك الفــرنسي البقـاء في الوطن لانجـاب الصبيـان في هـذه الأجـواء الموائمة، وعدم المخاطرة الآن أو في المستقبل بأن يأخـذ على عاتقه القيام بحمـلات شخصية إلى مناطـق نائية، ولا شك أن مـرد هذه العـواطف يعود في قسم منه إلى غلو دوبوا بالوطنية الفـرنسية، ومن الصعب أحياناً تقرير المدى الذي تأثر به إيمانه بالنجوم بغلوه الوطني(شوفينيته).

سوابق لأفكار دوبوا

هل كـانت الأفكـار التي عبر عنهـا هذا المحـامي النـورمـاندي ممثلة لعصره، أو هل كـان عبقرياً إلى حـد أن أفكاره كانت متـوائمة أكثـر مع القرون المقبلة؟ وقد تحدث رينان عن :

« Idees originales, Penetrantes, hardies, sortant si
. « complement de la routine

وصوره ج. ت فكز Figgis على أنه كان متقدماً كثيراً على تفكير معاصريه،« du temps » وقال :«كان دوبوا بما امتلكه من جرأة كبيرة، وفي إقدامه، وفي الطبيعة الواسعة لخططه، وفي القدرة التي عرض بها هذه الخطط، وفي الأصالة التي جعلت من عظمة فرنسا وملكها محوراً لإصلاح لاهوتي ولجعل العالم كله مسيحياً، كان بالحري هو الأشبه بعدد من الثوريين العقائديين من أمثال: روبسبير Robespierre أو لاسال Lassalle وليس من القانونيين العميان أو المتقيدين بالنص، للقرنين الثالث عشر والرابع عشر، وذلك حسبما تعلمناه لنتصوره»، وعدّه ديلافيلا لى رولكس الانسان الذي كان الملهم لسياسات فيليب، وكان بإمكان الآنسة إيلين بور أن تقول عنه:«الأكثر جرأة والأعظم أصالة بينهم جميعاً، وبلغت به المعاصرة إلى حدّ بدا فيه وكأنه كان يكتب للويس الرابع عشر، أو إلى نابليون».

وللوهلة الأولى عندما ننظر إلى كثير من أفكاره يبدو لنا أنها بعيدة عن إنسان غطت حياته النصف الثاني من القرن الثالث عشر، لكن إذا ما انبرينا نحو كتابات معاصريه، والسلف الذين عاشوا قريباً من أيامه، نجد تقريباً أن كل واحدة من أفكاره — التي كثير منها مثيرة وغير عادية كما بدت — قد جرى التعبير عنها من قبل آخرين، لكنه دفع بين آونة وأخرى بعض المفاهيم خطوة نحو الأمام، معطياً إياها مظهراً جديداً، وكان هذا أمراً متوقعاً، فما من عصر كان متجمداً ثقافة بالمرة، ومن المؤكد أن القرنين الثالث عشر والرابع عشر لم يكونا راكدين تماماً، وإذا جاز الحديث عن ممثل لعصر من العصور بقيامه بالتعبير عن أنواع واسعة من الأفكار والمفاهيم التي كانت رائجة في أيامه، عندها نقول كان دوبوا الممثل لعصره، ولقد تبرهن أن«أصالته المدهشة» و«عصرنته»

أشبه بالأسطورة.

وكان المحور الفكري لرسالته لعام ١٣٠٦، هو استرداد الأرض المقدسة، ومن أجل تجنيد جيش صليبي، لم يكن لدى دوبوا شيئاً يقدمه أفضل من نظام تطوعي(الفصل ١٠٧)، مردوف بالقوى التي تم تكوينها من الذين سببوا القلاقل في أوربا، ونظام التطوع الذي نادى به قد اختلف قليلاً عن النظام الذي جرى اتباعه في الحملات الصليبية المتقدمة، حيث كان التطوع آنذاك يجري بوساطة التحريض والإثارة التي قام بها المبشرون، مثل برنارد أوف كليرفو في التحضير من أجل الحملة الصليبية الثانية، أما الحديث عن خدمة المعاقبين لآثامهم في فلسطين فإن التبشير فيه يعود قديماً إلى القرن الحادي عشر، وكان اقتراحه بتنظيم الجيش الصليبي، وجعله في سرايا كل واحدة منها تتألف من مائة رجل، ويقود كل واحدة منها قائد مائة(الفصلان:٢٣ — ٢٤) مشابهاً لخطة فردريك بربروسا بتقسيمه إلى مجموعات في كل واحدة منها خمسين رجلاً، وكذلك لكل مجموعة قائدها، كما أنه لم يكن هناك شيئاً جديداً بشأن الموسيقى العسكرية كوسيلة لتقوية العزائم، أما توصيته بأن يرتدي الصليبيون أزياء موحدة، فقد سبقه بها الانكليز في غنت Ghent في سنة ١٢٩٧، وكذلك من قبل البرجاسيةالفلمنك في كورتراي في سنة ١٣٠٢، وكان الملك شارل الثاني ملك صقلية في ١٢٩٢ قد اقترح خطة من أجل حملة صليبية، وقد تضمنت الخطة وصفاً تفصيلياً للزي الموحد الذي اقترح أن تتزود به الجيوش الصليبية، أما معسكرات الراحة من أجل أن يسترد الجيش معنوياته بعد المعركة(فصل ٢٠)، فهو اقتراح تبنى فيه القاعدة التي أخذ بها فرسان التيوتون وطبقوها منذ زمن بعيد.

وبعد سقوط عكا في سنة ١٢٩١، لم تكن هناك من حاجة إلى قوة بصيرة عظيمة لتدرك أن النقطة الأساسية القائمة وراء فقدان المسيحيين

الغـربيين لفلسطين كانت هي إخفـاقهم بالاحتلال الفعلي للبـلاد، فكثير جداً من الصليبيين قـاموا بالوفاء بنذرهـم بزيارة الضريح المقدس، ومن ثم عـادوا على الفور إلى أوطانهم، ولقـد أراد دوبوا أن يجعل الاحتـلال مستمـراً أبدياً عن طريق تشجيـع الغـربيين على الاستقـرار في الأرض المقـدسة، وكـانت المدن الايطالية سبقتـه إلى هذه الفكرة إلى حد مـا — بشرهـا للحصول على حصـة في التجـارة الرابحـة للشرق — بقيامهـا بعقــد صفقـــات مع الصليبيين للتخلي لهم عن مناطـق في البلدان التي جـرى الاستيلاء عليهـا حديثـاً، وصحيح أن الحملة الصليبية الرابعـة لم تكن تماماً مغـامرة استعمارية، كان ما نجم عنهـا تأسيس دويلات لاتينية في الشرق الأدنى، عـاشت لأجيـال، وكـانت الرهبـانيــات العسكرية بمقارها الدائمة وقواعدها في فلسطين مكافئاً للحاميات العسكرية التي اقترحهـا دوبوا من أجل حماية الأرض المقـدسة ضـد أي ثورة عسكرية يقوم بها المسلمـون في المستقبل(الفصلان ١٠٤ و ١٠٨)، وعندمـا كتب دوبوا عن المنافع الاقتصادية التي سوف يتم جنيها من احتلال فلسطين، كان هدفه هو تـأمين حصة هامة لفرنسا في التجـارة التي كانت من زمن طويل تجلب الثراء إلى المدن الايطاليـة، أما مسألة الفوائـد التجارية التي يمكن تحصيلها بالهجوم الجانبي على مصر، فقد كان قد تحدث عنها من قبل وأوضحهـا الراهب الفرنسيسكاني فيـدنس — Fidence — أوف بادوا في سنة ١٢٩٢ .

وتماشيــاً مع عــدد كبير من الذين تفحصـــوا بدقــة مسألة الحروب الصليبيـة، أدرك دوبوا تمامـاً أنه من غير الممكـن لحملة صليبيـة جـديدة تحقيق النجـاح مـادام سـلام أوربا يتعـرض للخـرق المستمـر عن طريق الحروب بين السـادة الاقطاعيين، وتتشـابه اقتراحـاتـه من أجل منع مثل هذه الحروب مـع الخطة التي اقترحـت في أوائل القـــرن الحادي عشر، ونعني بذلك خطة«هدنة الرب» التي تضمنت شرطاً قضى بإقامة حلف

معقود بـالأيمان للسلام ولنفي مثيري الحروب إلى الأرض المقـدسة(١)، ففي سنة ١٢٠٣، وفي مؤتمر عقـد في موزون Mouzon قام كل من روبرت التقي ملك فرنسا والامبراطور هنري الثـاني ببحث فكرة إقامة سلم عالمي يشمل أولاً فرنسا وألمانيا، ثم جميع العالم المسيحي.

أما قضيـة تسوية الخلافات بين الملوك والحكـام بوساطة لجنة تحكيم، فيبدو أن فكرة دوبوا هنا بلا سـابقة واضحة، ونعني بذلك إقـامة مجلس من رجــال الدين ومن العلمانيين يتــولى تعيين هيئة محكمين واسعـة، وصحيح أنـه لم يوضـح بشكل محدد مــــدة هـذه اللجنة، مـن الممكن للانسـان أن يستخلص أن دوبوا أراد أن تكون اللجنة الواسعـة دائمـة، هذا وتوفرت من قبل جهود للتحكيـم بمثل هذه الخلافات ونفذت من خـلال إقـدام المتخـاصمين على تعيين فـرد أو عـدة أفـراد للتحكيم فيما بينهم، وهناك أمثلة كثيرة جــداً حـول التحكيم كمبـــدأ، سـواء كعمل تطوعي من قبـل الفئات ذات العـلاقــة، أويفـرض ذلك من قبـل قـوة متفـوقة، ففي رسـالة إلى رجـال الدين الفرنسيين في ١٢٠٤، دافع البـابا انوسنت الثـالث عن حقه ليقوم بالتحكيم فيما بين ملكي إنكلترا وفرنسا، مع أنه كان حريصاً على التنصل من أية محاولة تتعلق بالنيل من سلطات الملك الفـرنسي، وفي سنـة ١٢٤٦ جـرت تسميـة الملك لويـس التـاسع والنائب البـابوي يودس أوف شـاتور Chateauroux ليكونا حكمين

١ ـــ نظمت الكنيسة في حـوالي سنة ١٠٠٠ في بواتييه حلفـاً للسلام ضم كلاً مـن رجال الدين والاقطاعيين المدنيين، قرر اتخاذ إجـراء موحد ضـد أي إنسان يثير الاضطراب، وفي سنة ١٣٠٨ جمع رئيس الأسـاقفـة أيمـو أوف بورغ Aymo of Bourges أسـاقفتـه في مجمع ديني، قضى بوجوب أن يقسم كل مسيحي بلغ الخامسة عشرة من عمره على مواجهة أي خرق للسلام بقوة السـلاح إذا اقتضى الأمر، ولم يعف رجـال الدين من أداء هذا الواجب لكن طلب منهم قيـادة أتباعهم ضد الذين يخرقـون السلام، بأعلام خفاقة فوق رؤوسهم، وبالفعل قـاد رئيس الأساقفة قـوة للقتال كـان فيهـا أكثر من سبعمائـة رجل دين، وفي سنة ١٠٤١ راسل بعض رجـال الدين الفرنسيين الأساقفة الايطاليين ودعوهم إلى الانضمام إلى«هدنـة الرب» القائمة في فرنسا، وقضى الحلف الفـرنسي بتجريم كل من يقترف جـريمة قتل أيام هدنة الرب، وأن ينفى نفيـاً طويلاً إلى القدس.

من أجل تسوية قضية الخلافة لحكم فلاندرز وهينلوت، وفي سنة ١٢٦٣ وضع هنري الثالث وبaronاته مسألة الخلاف حول مؤن أكسفورد للتحكيم من قبل لويس التاسع، وأخيراً لا بد أن دوبوا كان بكل تأكيد على دراية بحقيقة أنه قبل سبع سنوات فقط من كتابته «الاسترداد» عمل بونيفيس بمثابة حكم بين فيليب الرابع وادوارد الأول.

أما فيما يختص بقضية الحديث عن الاصلاحات اللاهوتية، فقد كان دوبوا على أرض معروفة، فقد كرر التهم المتداولة كثيراً فيما يتعلق بالاهتمامات الدنيوية، والسيمونية، والشره، وفساد الأخلاق، وهي أمور كلها — أو أكثر منها — يمكن للانسان أن يجدها في كتابات بعض رجال الكنيسة من ذوي السمعة الأرثوذكسية النزيهة، وكان دوبوا قانعاً أنه يمكن التخلص من الدنيوية وإزالتها بالطلب من رجال الدين التخلي عن ممتلكاتهم الدنيوية، ووضعها تحت وصاية دائمة، مع احتفاظهم بحصة من الدخل، وينبغي أن تدار هذه الوصاية من قبل رجال علمانيين، يكونوا بالعادة أكثر كفاءة، وأكثر استعداداً لتقديم الحساب من رجال اللاهوت (الفصلان ٥٢ — ٥٣)، وكانت سابقة الادارة المدنية للشؤون اللاهوتية من قبل الرجال العلمانيين قد أرسيت قواعدها من زمن طويل بوساطة الـ Negociatores Ecclesiae ، وكان هناك أيضاً الوكلاء التجاريين الرحالة للديرة الذين لم يشجع مساكنوهم على الارتحال من أجل أعمال دنيوية، وقدمت الاقتراحات من أجل المصادرة الكاملة للأملاك اللاهوتية في أثناء الصراع من أجل انتخاب البابوات، فقد اقترح البابا باسكال الثاني على هنري الخامس بشكل رسمي وجوب تخلي رجال الدين عن جميع السلطات الحكومية والامتيازات التي هم مدانون بها للملوك العلمانيين، وكان هذا يعني شمول تسليم جميع الممتلكات اللاهوتية، التي ليست فعلياً

ضمن«الهبات والممتلكات الوراثية» للكنيسة،وقد ذهب غيرهوه فون ريكرسبيرغ Gerhoh von Reichersberg (حوالي ١١٥٠) إلى القول بأن الأمير يمتلك الحق في حرمان الأسقف من ممتلكاته بسبب أي خرق للالتزامات الاقطاعية، وفيما يختص بميراث القديس بطرس، قام في سنة ١٢٧٣ سفراء فيليب الثالث بالاقتراح على غريغوري العاشر، بأن يتولى الإشراف عليه وإدارته من قبل واحد من الملوك الأقوياء، وأجاب غريغوري بأنه سيرحب بمثل تلك الترتيبات، وأن الملك الفرنسي سوف يكون شخصاً موائماً لتولي الاشراف والإدارة.

والتاريخ الديري متخم بالجهود في سبيل الاصلاح، ومعظم الرهبانيات التي تأسست في أثناء العصور الوسطى تأسست وهذا في الذهن، وعندما اقترح دوبوا إلغاء جميع الديرة غير الرهبانية، واستخدام جميع موجوداتها لحماية الأرض المقدسة(الفصول ٥٤ — ٥٧) كان يردد فقط التوصيات المحددة التي قدمها همبرت القائد الأعلى لطائفة الدومنيكان في كتابه Liber de Tractan dis Inconcilio Lug-dunensi الذي كتبه من أجل عرضه على مجمع ليون في سنة ١٢٧٤، وكان وليم دورانتي Duranti قد كرر الاقتراح نفسه قبل انعقاد مجمع فيينا في سنة ١٣١١ في رسالته Tratatus de modo alebrandi concilii et corruptelis in eulesia Reformandis ، هذا ولم يتضمن اقتراح دوبوا تحويل الرهبانيات النسائية إلى مدارس للبنات(الفصل ١٠٢) فكرة إلغاء هذه الرهبانيات، وفي الحقيقة لعل فكرته كانت مجرد عملية تبني لممارسة كانت قائمة، ذلك أن مدارس النحو المرتبطة بالديرة لم تكن أمراً اعتيادياً، فقد كانت هذه المدارس مدارس علمانية يتولى التعليم فيها معلمون علمانيون، وكانت متميزة تماماً عن المدارس المخصصة للرهبان، ومن المحتمل وجود مدارس مشابهة للبنات كانت مرتبطة برهبانيات النساء، ولاقت انتقاداته لعزوبية

رجال الدين التـأييد من كتلة كبيرة من الرأي العـام الفرنسي، وذلك إذا ما أخـذنا بمثابة دليل الانفعـالات العاطفيـة التي وردت في الجزء الثاني من الكتـاب الشعبي واسع القـراءة Roman de la Rose ، الذي تولى كتابته واحد من رجال الدين في حوالي سنة ١٣٠٠، وخرج آرنولد أوف فيـلانوفا، الذي كـان طبيب بونيفيس الثامن باحتجـاج قوي جـداً ضد عزوبية رجال الدين، وفي أثناء الصراع فيما بين فيليب والبابا تداول الناس Quia nonulli ، وهو مـرسـوم مـزيف قيل صـدر عـن البـابا بونيفيس، وتضمن هجـومـاً على عزوبيـة رجـال الدين، وأوصى بزواج رجال الدين من البـابا إلى كهنة الأبرشيات ، بحكم مـا ورد في الكتاب المقدس، ولعل هذه المقترحات من أجل تغيير الوضع الرسمي المفروض على رجـال الدين بالنسبـة للزواج، قـد جرى تحريكه بوسـاطة تيـارات المحادثات التي كانت قائمة من أجل الاتحاد مع الكنيسة الاغريقية، التي لم يمارس رجـال الدين فيهـا العـزوبيـة، ونقل وليم دورانتي عن العهـد الجديد، ومن ثم اقترح على مجمـع فينا الاهتمام الزائـد بإمكانيـة إلغـاء عزوبية رجال الدين، وتبني المبـادىء الممارسة منذ أمد طويل في الكنيسة الإغريقية.

ولم يتجرأ دوبوا على اقتراح إلغـاء رهبانيـة الداوية حتى أعلن فيليب الرابع هجـومــه على هذه الطائفـة بشكل معلن ومكشـوف، فقبل سنة ١٣٠٨ قيـد نفسـه بـاقتراحـات من أجل دمج الرهبـانيـات العسكرية، ومصادرة أمـلاكهم في الغرب، ويمكن هنـا ذكر عدد كبير من السـوابق لمثل هذه المقترحات، ففـي سنة ١٢٢٩ قام فردريك الثـاني بطرد الداوية من صقلية، وصادر ممتلكاتهم ومقتنياتهم، وعندما استدعاهم للعودة فيها بعد لم يعـد إليهم ممتلكاتهم، وكان البـابا غريغوري العـاشر قد اقترح في مجمع ليون سنـة ١٢٧٤، دعم الرهبانيـات العسكرية، وقام البـابا نيقولا الرابع في آب ١٢٩١، لدى سماعه بالأخبار من عكا ، بتـوجيه البطارقة

ورؤساء الأساقفة لعقد مجمع ديني إقليمي، حيث ينبغي دراسة مسألة دمج الرهبانيات العسكرية وتقويتها، وعندما طالب بالعون المالي من أجل حملة صليبية جديدة، من الأساقفة الألمان، عبّر هؤلاء عن موافقتهم على مشروع دمج الداوية والاسبتارية وفرسان التيوتون في رهبانية عسكرية واحدة، على أساس أن سقوط عكا جاء نتيجة للخلافات فيما بينهم، وكان ريموند لول قد اقترح مراراً عملية الدمج هذه، وكذلك كان شارل الثاني، ملك صقلية، قد اقترح ذلك في سنة ١٢٩٢، والفكرة الوحيدة الجديدة المعزوة إلى دوبوا في هذا المجال كانت اقتراحه بوجوب تكريس الممتلكات المصادرة التي كانت عائدة إلى هذه الطوائف، لصالح المدارس التي كان ينادي بها كسمة أساسية لخطته من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها.

أما اقتراحه من أجل تأسيس مدارس لإعداد الغربيين من الشباب من الجنسين للخدمة في الشرق الأدنى، فقد كان جديداً من حيث الدرجة وليس من حيث الفكرة، فبعض هذه الخدمات سيكون إدارياً من أحد الجوانب وتبشيرياً من جانب آخر، وكان بعضهم قد بحث في المفهوم التبشيري،ففي ٢٢ حزيران وجه البابا انوسنت الرابع مرسوماً إلى رئيس جامعة باريس، طلب فيه بشكل رسمي إرسال بعض الشباب الذين تعلموا اللغات الشرقية، إلى الجامعة من أجل التدريب اللاهوتي، وإرسالهم بعد ذلك إلى الشرق لتعليم الآخرين الايمان الصحيح وتحويلهم إليه، ولقد شرعوا في تنفيذ هذا المشروع بالفعل، ودليلنا على ذلك، تشير إليه حقيقة أنه في التاريخ نفسه حرر البابا انوسنت راعي دير القديس بيير دي تشارترز مع الرهبان، من واجب دفع الأموال لدعم هؤلاء الشباب، كما كلف بارسال سفارة إلى التتار من أجل تحويلهم إلى الايمان المسيحي.

أما مدارس النحوذات النموذج العام الذي دعا إليه دوبوا، فقد

كـانت موجـودة في كل مدينة تقـريباً، وكـذلك في بعض المراكز الهامـة، وكان عملهـا الأساسي هو تزويد الطلبـة بالتدريبـات الأساسيـة إعداداً للدراسة الجامعيـة، وكان من المفترض تأسيس مـدارس مماثلة في باريس من أجل الفتيـات، وكـان المرتل في نـوتردام يمارس الاشراف عليهم، فيقوم بمنح إجازات إلى معلمي مدارس الصبيان، وإلى معلمات مدارس البنات، وأورد راشدول Rashdall قائمة فيها أسماء اثنين وأربعين معلماً، وإحدى وعشرين معلمة، نالوا جميعاً الاجازات.

ولم يكن دوبوا قانعـاً بالمدارس القائمة، لكن منهـاجه أخفق في تحقيق أية تغييرات أساسية، وكان من حيث الجوهر متطابقاً مع منهاج الدراسة الذي كان مـوجوداً في جامعة باريس، والمصـادر النصية التي أوصى بها بالاسم(الفصل ٧١) كـانت هي الكتب المتعـارف عليهـا والمستخدمـة، وقـد انتقـد بعضاً من هذه الكتـب لطول نصوصهـا، وأوصى بتكثيفهـا للتـوفير على الطالب الوقـت والمال، وفي حقيقـة إتيـانه على ذكـر بعض النصـوص المختصرة لكتب مشهـورة، دليل على أن آخـرين قبله قـد حاولوا الأخـذ بحل مشابه، وبما أنه كـان مشغوفاً بأهميـة الخبرة العملية — وهي فكرة لعله استقـاها من روجـر بيكون — كان يرغب بتسـارع برنامج الدراسات إلى حد يتمكـن فيه الطالب من إكمال تعليمه النظري في سن مبكرة.

وكـان من بين أهم مـلامح منهـاجـه التعليمي نقطة أولاها اهتمامـاً خاصـاً، قضت بدراسة اللغـات الأجنبية الحديثة المستخـدمة في الشرق، وبشكل خاص الاغريقية والعـربية، وكانت بعض الجهود في هذا الاتجاه قـد بذلت من قبل، لكن ليس على مستـوى الفهم الذي نادى به دوبوا، فقـد جرى في سنة ١٢٥٤ تأسيس مـدرسـة في إشبيلية من أجل دراسـة اللاتينيـة والعـربيـة، وفي حـوالي سنة ١٢٧٥ أقنع ريمـوند لول ملك مايوركا بالقيـام بإنشاء دير مزود بما يكفي من المال، من أجل دعم ثلاثة

عشر راهباً من الشباب كان عليهم دراسةالعربية، من أجل القيام بعمل تبشيري بين المسلمين، وبعدما حصل هؤلاء الرهبان على بعض المعارف المتعلقة بالعربية من عبد عربي، ذهبوا إلى أفريقيا، غير أنهم طردوا من هناك بوساطة المسلمين، وأسس ريموند بينافورت، الذي كان القائد العام الثالث للدومنيكان مدارس في الديرة الأفريقية والإسبانية من أجل هذا الغرض، وكان قائد عام آخر للدومنيكان هو ريموند مارتيني مشهوراً لمعارفه بالعبرية والكلدانية والعربية، إلى حد أنه كتب عملاً لاهوتياً ضد الاسلام بالعربية، وكان روجر بيكون، الذي كان اهتمامه باللغات الحديثة منصباً على فقه اللغات أكثر منه على العمل التبشيري قد كرس القسم الثالث من كتابه Opus maius على هذا الموضوع، كما أنه ألف بالنحو الاغريقي.

وبالنسبة لتعليم النساء، فقد كان دوبوا متقدماً خطوة أو خطوتين على معاصريه، وورد من قبل ذكر وجود مدارس للفتيات، لكن النساء كن ممنوعات من دخول الجامعات التي تمتعت باحتكار التعليم العالي النظامي، وجرت العادة بالنسبة لمن رغبن بالحصول على تعليم فوق التعليم الابتدائي، تأمين معلمين خاصين، وقد ورد ذكر عدد من النساء حصلن على تعليم جيد، منهن على سبيل المثال هروتسفيثا أوف غندرشيم Hortsvithaof Gandersheim في القرن العاشر، وهيلوياس Heloise في القرن الثاني عشر، لكن هاتين كن استثناء، وكان بين المعلمات العلمانيات في فلورنسا سنة ١٣٠٤، امرأة متزوجة، اسمها كليمنتيا Clementia ، وقد حملت لقب Doctrix Puer-orum، وقد تولت تدريس مبادىء اللاتينية، وكان من غير المعتاد تماماً بالنسبة للنساء النبيلات الحصول على بعض التدريبات في الطبابة والجراحة، وقد أراد دوبوا قبول الفتيات بشكل منتظم في مدارس تدريبية للخدمة في الشرق، وكان سيقدم لهن الدورات نفسها تقريباً التي

تقترح للدراسة من قبل الصبيان، إنما مع تركيز الاهتمام على الأدوية والجراحة ومبادىء الإيمان الكاثوليكي، وقد أقرّ — على كل حال — أن قدرتهن على استيعاب مثل هذه التدريبات كانت محدودة، ولهذا لم يقترح قبولهن في مدارسه المتقدمة للطب، والعلوم، والقانون، واللاهوت، ويبدو أن اقتراحه بأن يتزوجن رجال دين إغريق ومسلمين من أجل تحويلهم، كان مجرد جهد لإعادة تطبيق ما قام به سليمان الأمر الذي أشار إليه في الفقرة التالية(الفصل ٦١).

وعرّف دوبوا نفسه في الجمل الافتتاحية لكتاب الاسترداد بمحامي الاستئناف للقضايا اللاهوتية العائدة لأدوارد في أكوتين، وعلى هذا لقد كان مدركاً للنزاع الطويل الأمد بين القضاء اللاهوتي والقضاء الملكي، وكان يعرف أن القضية لاتحتاج إلى البحث هنا، وقد امتلك بحكم كونه محامياً ممارساً خبرة من الطراز الأول بالإجراءات المملة المتعلقة بالأعمال القانونية في القرن الثالث عشر، وقد ضمن الـ Summaria مقترحات للاسراع بالاجراءات القانونية، واقترح في«الاسترداد» بأن هذا من الممكن إنجازه بالطلب من الادعاء ومن الدفاع تقديم التماساتهم كتابة(الفصول ٩١ — ٩٥)، وحين طالب بالمزيد من الاجراءات الكتابية كان يتماشى تماماً مع التيارات الجارية، ففي النصف الثاني من القرن الثالث عشر أحدث تأثير القانون الروماني والقانون الشرعي تطبيقاً تدريجياً لتسهيل الاجراءات القانونية، والتي زادت من استخدام الوثائق المكتوبة، وزادت بالتالي من أهمية المحامين وكتّاب العدل، وبدأ التغيير بالظهور في المحاكم الملكية مع سنة ١٢٥٠، وفي سنة ١٢٩٠استخدمت الطلبات المكتوبة في برلمان باريس، وفي الوقت الذي كان دوبوا يكتب فيه الاسترداد، كانت حتى بعض المحاكم الاقطاعية تتبع الاجراءات الجارية في المحاكم اللاهوتية والمحاكم الملكية، وفي سنة ١٣٠١ كتب يودس صاحب مقاطعة السين دليلاً في القانون هو -Sum

ma de Judiciis Possessoriis ، أسسه على القانون الروماني، وقد اقترح فيه خطة من أجل تبسيط الإجراءات القانونية وتقصيرها في القضايا المدنية.

وإذا ما تطرفنا كثيراً في أن نصف للفرنسيين روح الوطنية في أوائل القرن الرابع عشر، وقلنا بأنها كانت بالفعل قريبة من روح القرن التاسع عشر، نجد دوبوا يعبر عن أنشط مشاعر الوطنية الفرنسية، فمع أنه كان من حيث الجوهر رجل سلام، شعر بنفسه بأنه مؤهل لتقديم النصيحة لملكه حول القضايا العسكرية، وكانت هذه النصيحة بالفعل أكثر قليلاً من التوصية بأن على الملك أن يطبق بدقة نظام الالتزامات الاقطاعية القائم فيها يتعلق بالخدمة العسكرية، وكان دوبوا قانعاً أنه إذا ما طبق هذا، لن يحتاج الملك إلى التردد بالقيام ببرنامج التوسع الذي طرحه عليه في كتاب الاسترداد، وكان هذا التوسع قائماً وآخذاً طريقه قبل أن يكتب دوبوا، فقد تم الاستيلاء على نورماندي ولانغدوك قبل تتويج فيليب الرابع، وفي سنة ١٣٠٠ أُخذت فلاندرز، وكانت الخطوة المنطقية التالية في هذا الاتجاه الضفة اليسرى من الراين، وفي الاتجاه نحو الجنوب الشرقي لم تكن هناك حاجة لكاتب منشور ليظهر الرغبة بالاستيلاء على مملكة آرل، وكان فيليب الرابع منذ بعض الوقت راغباً في مدّ نفوذه فوق الامبراطورية، ففي سنة ١٣٠٨ اقتنص الفرصة التي تهيأت باغتيال ألبيرت الأول، للقيام بحملة فعالة من أجل اختيار أخيه شارل أوف فاليوس، وقد تزوج شارل في سنة ١٣٠١ كاترين أوف كورتناي، التي كانت وريثة امبراطورية القسطنطينية اللاتينية الميتة، وأعطاه هذا حجة للمطالبة بمملكة شرقية، الأمر الذي حاول أن ينفذه ويجعله حقيقة قائمة، وكان التوسع بالنفوذ الفرنسي بالحفاظ على مصالح أسرة كابيه في إيطاليا وإسبانيا وهنغاريا، أمراً طبيعياً إلى حد أن الفكرة كانت ملكاً للجميع، وقد هيأ انتخاب البابا الفرنسي(كليمنت الخامس) مجالات

جديدة للتوسع بالنفوذ الفرنسي، فلو أن البابا أقدم على تعيين ما يكفي من الفرنسيين الكرادلة، فمن الممكن بقاء البابوية ذات هوية فرنسية، ففي سنة ١٣٠٥، أي قبل أن يقترح دوبوا هذا الأمر في الاسترداد، بدأ كليمنت سلسلة من الترفيعات ضمنت أكثرية فرنسية في مجمع الكرادلة.

ولم يكن الغلو بالمشاعر الوطنية حكراً بأي حال من الأحوال على الفرنسيين فقد أعلن جوردانوس أوف أوسنابروك Jordanus of Osnabruck في سنة ١٢٨٠ في كتابه De Praerogativa Romani Ipmerii ، أن من واجب البابا تقديم العون إلى الامبراطور للحفاظ على مكانته السامية والإضافة إليها، وأعلن أنه بواسطة الترتيبات الربانية جرى منح السلطة الامبراطورية العائدة للرومان، أي المملكة العالمية، إلى الألمان، وينبغي عدم بقاءها مع الرومان، الذين ينبغي أن يكونوا راضين بالحفاظ على البابوية وقانعين بها، وكذلك يتوجب عدم ذهابها إلى الفرنسيين الذين لابد أن تكون الهبة الربانية بالتعليم كافية لهم.

وعلى هذا يمكننا الوصول إلى محصلة مفادها أن أفكار دوبوا الأصيلة حقاً تتضمن القليل فقط أكثر من خطته المحددة من أجل نظام للتحكيم العالمي مع اقتراحه من أجل تأسيس نظام للمدارس، يمكنه أن يقبل بالتدريج نساءً من أجل التدريبات الاحترافية، وهذا لايعني مطلقاً أنه نقل عن وعي جميع أفكاره المستعارة الأخرى، فلعله توصل نحو الكثير من الأفكار مستقلاً، وهذا يعني أن جميع الأفكار التي أطلقها كانت بعضاً، لا بل كلاً من اهتمامات عصره، أي أنه لم يكن «متقدماً بقرون على عصره» بل كان ممثلاً حقيقياً له.

مكانة دوبوا وأهميته

وإذا لم يكن دوبوا مفكراً أصيلاً، فأين تكمن أهميته، قطعاً ليس في

تأثيره على عصره أو العصور التالية، التي كانت منعدمة على الرغم من الآراء التي عبر عنهـا رينان وديلافيـلا لى رولكس، وتكمـن أهميتـه في الحقيقة عينها في أن أفكاره لم تكن أصيلة، فقد عمل بمثابة مرآة عكست حشداً هائلاً من الأفكار التي كانت رائجـة في عصره، وليس هاماً أبداً كم بدت لنا معظم أفكـاره غير واقعيـة ووهميـة، إن هذه الأفكار هامـة لأنها ترينا كيف نظر إنسان مثقف ومنطقي ، وحسن المعـرفة إلى مشاكل السياسات العالمية في مطلع القـرن الرابع عشر، وهو ما كان معاصراً له، وهنا لدينا إنسان متفرد، فقد كـان علمانياً مع ميول صحفية للتعبير، وقد تدرب في أفضل جـامعـة في أيامـه، وكـان رجـلاً عمليـاً في مـواجهـة المشـاكل، وقـد تماشى مع التفكير المعـاصر له، وقـد حصل على الثـروة وعلى بعض الاعتراف والتقدير في ممارسة القانون، وكان أيضاً رجلاً قد تأثر بعمق بالتيـارات التي كانـت متجهة نحـو تأسيس ملكية قـوية، في داخل الدولة القومية التي كانت آخذة بالظهور شيئاً فشيئاً، وقد أراد أن يحرك هذه التيـارات ويزيد من اتساعهـا، بإثارة الرأي العـام لصالحهـا، وكان إنسـاناً، قد شعـر — كما يبدو — بشكل غير واضح، بـروح عدم الاستقرار، وعدم الرضا عن الحياة الرتيبة المشبعة بالأوهام للقرن الثالث عشر، التي ما لبث القـرن الرابع عشر أن انفجر ضدها بثورة مفتـوحة، وكان رجـلاً قد شعـر بأن«الوقت يفلت من بين الأيدي»، وهو قـد قدم برامج للاصلاح كانت واسعة ومتماسكة إلى حد ما، ودعا إلى تطبيقها.

وقـد امتلك قدرة على استيعـاب أفكار الآخرين وجعلهـا أفكاراً له، وأن يقـوم أحيـاناً بنسج الأفكار المتعـارضة، ومن ثم إخـراجهـا على شكل خطة موحـدة من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفـاظ عليها وسبيل زيادة عظمـة فـرنسا وملكهـا، ومن المحتمل أنه لم يكن واقعيـاً لكنه كان جاهزاً مع اقتراحات للاصلاح وللتحسين في عدد من الميادين المختلفـة، وقـد اندفع إلى داخل ربما مـا خشيت مـلائكة أيامـه من

السير خطوة فيه، فقد قاتل ضد عزوبية رجال الدين، ودعا إلى قمع السلطة البابوية الدنيوية، وإلى مصادرة الممتلكات اللاهوتية من قبل التاج، وإلى إصلاح النظام الرهباني، وإلى إعادة تنظيم المنظمات العسكرية، وإلى التحويل الجزئي للرهبانيات النسائية إلى مدارس للفتيات، حيث يدربن على الطبابة والجراحة، ويتزوجن من منشقين دينياً ومن كفار من أجل تحويلهم، ورأى أنه يمكنه ضمان سلام دائم بوساطة نظام تحكيم دولي، وتأسيس فيدرالية أوربية تحت السيادة الفرنسية، وأراد تأسيس هيئة من المدارس بدورات متسارعة الدراسة تستهدف إعداد شباب فرنسا من أجل استعمار البلدان النائية وإدارتها، وكان يرغب في إعداد كتب دراسية نصية جديدة، وتنقيح المجموعات القانونية، وتحسين الاجراءات القضائية في المحاكم، ومع أنه عدّ الحرب شراً، كان جاهزاً ومعه خططه لإعادة تنظيم النظام العسكري الفرنسي، في سبيل إعادة تأهيل القوات وتحسين سوقيتها، ومن أجل إدارة الحروب وتوجيهها في البحر وفي البر، وهنا قد توفرت لديه اهتمامات كاثوليكية بارى فيها اهتمامات كل من روجر بيكون ودانتي.

مخطوطة وطبعات استرداد الأرض المقدسة

وصلنا نص كتاب الاسترداد في مخطوط واحد، هو المخطوط اللاتيني رقم ١٦٤٢ في مكتبة الفاتيكان، وهو موجود على ورق رق مسطرته ١٧ x ٢٢ سم، والمخطوط بحالة جيدة، ويحتل مخطوط الاسترداد الأوراق ١ — ٤١ من المجلد، والمخطوط مكتوب في القرن الرابع عشر، والخط جيد تماماً، لكن أضيفت له مختصرات لا حد لها عددياً، وأحياناً هي غريبة، وأظهر الناسخ شواهد على أنه قرأ الكتاب بعناية، لوجود عدد من الاضافات في الهامش، وجاء بعضها عبارة عن شروح أضافها الناسخ، ولم تكن تصحيحات ولا أعمال حذف، وأنا لم أستطع تفحص المخطوط الأصلي مباشرة، لكن تلطفت مكتبة الفاتيكان

فـزودتني بنسخـة مصورة عنـه رائعة، وقـد قـارنتهـا بالنص الذي تولى تحقيقه لانغلويس.

وكـان قد جـرى تحقيق هذه الرسالة من قبل بونغـارس Bongars على أنها مجهولة المؤلف، وقد نشرها في كتابه -Gesta dei Per Fran cos (جـزءان — هانوفـر ١٦١١) جـ٢ ص ٣١٦ — ٣٦١، ولم يتـول لانغلويس حين عمل على إخراج طبعة جديدة للكتاب — كما يبدو — شخصياً تفحص مخطوط الفـاتيكان، بل كان قـد كلف بذلك واحداً من تلامـذته، واسمه كـولون Collon ، فقـد تولى كولون مقـــارنة نص بونغارس بالأصل، وكـانت النتيجة اكتشـاف عدد كبير من الأخطاء مع إسقـاط عـــدد من الجمل، هذا وقـــامت طبعـة ١٨٩١ التـي تولاها لانغلويس على نسخـــة أخـذت عن مخطوطـة الفـاتيكان، تولى كـولون نسخها، وهذه تحتـوي على عدد غير هام من التصحيفـات، وجرى على الأقل إسقاط كلمة واحدة من النص، والأهم والمتعب والمحير للمترجم هو المزج بين حـــرفي«S » و«F »، ويغير هذا في بعض الحالات المعنى كلياً ومـادياً، وأقسى ما جـرى توجيهه من نقد إلى طبعـة لانغلويس هو حـذفـه المتعمـد لجزء من الوثيقـة القصيرة لعـام ١٣٠٨ التي وردت في المخطوطة اللاتينية رقم ١٠٩١٩، الموجودة في المكتبـة الوطنية، وكان قد نشر هذه الوثيقـة بمثـابة ملحق لكتاب الاسترداد، وهناك فقـرة ناقصـة موجودة في الطبعة التي تولاها بالوز Baluze وأودعها في كتابه Vitea Puparum Avenionensium (جـزآن باريـس ١٦٩٣) جـــ٢ ص ١٩٥، وقـد تولى لانغلويس نقلهـا، وكـان بالوز مسـؤول بدوره عن إلغـاء ثلاثة فقـرات مـوجـودة في المخطوط، وهي التي تحتـوي على حكايات تآمـرية ضد بونيفيس الثـامن، وعندما أخـرج مولات Mollat طبعتـه الجديدة من بالوز(٤ — أجزاء، باريس ١٩١٤ — ١٩٢٧) عـاد إلى المخطوطة اللاتينيـة رقـم ١٠٩١٩، حيث وجـد الفقـرات الناقصـة،

فأعـاد إدخالهن إلى نصـه المطبوع(جـ ٣ ص ١٥٤ — ١٦٢)، ولابد أن لانغلويس كان يعـرف المخطوطة اللاتينية ١٠٩١٩، لأنه نقل منهـا عدة مرات، ولعله حـذف ما حذف بسبب ما تذوقـه ورآه مناسباً، غير أنه لم يقم بالاشارة إلى أن نصه ناقص.

وباستثناء هذه العيوب، تعدّ طبعة لانغلويس طبعـة رائعة، فبدونها ما كان بالامكان إخراج الترجمة الحالية، وقد تم تبني حواشيه بشكل كامل تقريبـاً مع شيء طفيف من التعديلات للتحـديث فقط، وأمد لانغلويس طبعتـه وزاد عليهـا نقـولاً كثيرة مـن كتب دوبوا الأخـرى، ولاسيما من كتـاب Summaria الذي لم يكن محققـاً بعـد، وقــد تضمنت الترجمة الحالية هذا كله،مع إضافات كان لانغلـويس قد أهملها لتوضيح المعاني، وقد التزمت الترجمة بالنص المخطوط، ولم تبتعد عنه.

وكـان بونغـاريس عندمـا حقق الاسترداد قسمـه إلى فصـول، وكـان الناسخ قبله قـد اعتمـد وسيلة أكثر إحكـاماً، بوضع إشـارات لبـدايات الفقــرات، وقـد حـافظ لانغلويس عليهــا عن طريـق الترقيم، مع أن الوسيلتين لاعلاقة مباشرة لهما بالأصل، ولا بترتيب موضوعات النص، وقـد حـافظنا في هذه الترجمة على نظام الترقيم من أجل الاحـالات على الطبعـات التي تقـدمـت على طبعـة لانغلويس لسنة ١٨٩١، وأشير إلى أرقام فصول بونغاريس بالأرقام العربية بين حاصرتين، أما أرقام فصول لانغلويس فأشير إليها بالأرقام الهندية.

استرداد الأرض المقدسة

استرداد الارض المقدسة
القسم الأول

إلى أدوارد الأمير المسيحي الأعظم، والأكثر تألقاً، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا واسكوتلندا، وسيد ايرلندا، ودوق أكوتين، والمشهور أكثر لقدراته العسكرية منه في ألقابه الأخرى كلها، يرسل إليه المحامي عن قضاياه اللاهوتية في تلك الدوقية، بتحياته، باسم الذي من خلاله يحكم جميع الملوك والأمراء، وهو منذ زمن طويل متشوق لخدمة جلالتكم الملكية، ويدفعه نحو ذلك تقدير طبيعي أصيل، واعجاب بفضائل جلالتكم، وليس بدافع مادي، لأنه ليس هناك من طلب أو عرض، وهو بإخلاص يأمل بأن يتمتع جلالتكم بمزيد من الانتصارات.

١[1]: إنني أعرف بشكل جيد، أنكم كونكم ملكاً عالي التفكير، وممجدا ومشرعاً حقيقياً، ليس منذ بداية حكمكم، بل من اللحظة ذاتها التي بدأتم فيها حياتكم العسكرية، فأنتم منذ تلك الساعة تبذلون عظيم الجهد لصنع رجال جيدين من بين جميع رعاياكم، ومن المقربين منكم، ومن المرتبطين بكم، ولقد أنجزتم هذا ليس عن طريق مجرد التهديد بالعقوبة، بل عن طريق إدامة تقديم الأعطيات الثمينة، والآن وقد انتهت جميع حروبكم بنجاح، بفضل من الرب ملك الملوك، الذي منه جميع المباركات تصدر، لم تبحثوا عن الراحة التي اعتاد بقية الأمراء على طلبها، بعد مثل هذا المجهود الذي بذلتموه، لابل بعد جهد حقيقي، وعمل لطيف، أنتم عوضاً عن ذلك تقومون بالتخطيط لتكريس طاقاتكم الرائعة من أجل استرداد الأرض المقدسة، وفي سبيل تحريرها من أيدي المسلمين، فعلى الرغم من تزايد السنوات، ومراغمة للميول الطبيعية لبني البشر، فإن رغبتكم هي بالحصول على المثلث الحقيقي للشجاعة، بالتصدي لجميع المخاطر التي تهدد بالموت الجسدي، لكن تقدم وعداً بحياة خالدة للنفس، ومع أنني أقل الناس تأهيلاً لتقديم النصيحة والمشورة، لقد تأصلت نصائحي في رحمة الرب المانحة

للحكمة، لأنه هو وفي نفسه جيد إلى درجة أن جميع الأشياء الخيرة هي جزء من طبيعته وجوهره، وكل شيء في العالم، بصرف النظر عن طبيعته، هو بدرجة ما جيد تبعاً لدرجة المشاركة في جوده الكلي، وهذا ليس رأى الكاثوليك وموقفهم لوحدهم، بل هو موقف كل من يستخدم قليلاً من المنطق الفلسفي، وإنني مدفوع برغبات طبيعية— التي تبعاً للفلسفة ينبغي ألا تكون عبثية— وبما أنني متعاطف كلياً مع مطامحكم، وبعون من فضل الرب، الرب الذي لاحدود لحكمته سوف أتابع الآن لأضع باختصار، أمام واحد مجرب جداً وحكيم بفن الحرب، وهو جلالتكم الملكية بعض المقترحات التي بدت لي ضرورية، وموائمة، ومناسبة من أجل استرداد الأرض المقدسة، والحفاظ عليها.

٢[2] وبديهي أن هذا المشروع لايمكن أن يتحقق من دون مساندة صديقكم الأب المقدس، الذي هو بفضل النعمة الربانية الحبر الأعظم للكنيسة الرومانية المقدسة والمسكونية، ومن الضروري أيضاً الحصول على موافقة مجمع عام لجميع الأمراء الكاثوليك والأساقفة، الذي ينبغي أن يتولى إزالة جميع العوائق، وأن يقدم كل مساعدة، وجميع الإعدادات الموائمة، لأن تلك البلاد، تبعاً لما صرح به الرب، أغنى من جميع البلدان الأخرى، ومسكونة بكثافة من قبل المسلمين الذين استولوا عليها، وهؤلاء يمارسون طريقة شهوانية للحياة، تمكنهم حسبما يريدون من انجاب وتربية كل ما يستطيعونه من أطفال، إلى حد أن كثيراً من الممالك والمقاطعات الواقعة في شرق وغرب وجنوب الأرض المقدسة لم تعد كافية لتلبية حاجاتهم، ولهذا تراهم يهاجرون من هذه البلاد وفق طرائق التتار، وإذا حدث الآن وتراجعوا لسبب ما، من خلال الخوف من واحد من الأمراء مثلكم شخصياً، يمكنهم بسرعة وبسهولة أن يتجمعوا على شكل حشد كبير من الناس من هذه الممالك المجاورة، ووقتها عندما يعلمون بأن قواتكم على وشك العودة إلى الوطن، تجد هؤلاء المسلمين،

وهم أشد وأحد من أي وقت كانوا، وهم في أعداد كبيرة جداً، سوف يعودون على الفور، أي في لحظة مغادرة قواتكم، يحثهم على ذلك الشياطين الذين يفضلون السكنى في تلك البلاد، ولسوف يقتلون من تبقى، ويجعلون على الفور من أنفسهم ملاكاً لتلك الأرض اللطيفة وسادة، وظهر هذا التفضيل من قبل الشياطين من خلال حقيقة، أنه عندما أراد الرب شفاء رجل في تلك البلاد، كان مسكوناً بروح شريرة، فقال لتلك الروح: «ما هو اسمك»؟ وأجابته الروح: «اسمي لجئون لأننا كثيرون»، وأضاف «لاتنفينا أيها المولى إلى أرض نائية، بل ابعث بنا إلى الخنازير لندخل فيها» حيث كان هناك منها قطيع كبير جداً، وهكذا هاجت الخنازير، واندفع «القطيع من على الجرف إلى البحر» [مرقس٥/ ٢—١٣] ولهذا لايمكن الاستيلاء على تلك البلاد، ولا الاحتفاظ بها لدى الاستيلاء عليها، إلاّبوساطة أعداد كبيرة جداً من الناس.

[3] وفي سبيل اقناع عدد كاف من الناس للارتحال إلى هناك، والبقاء في تلك الديار سيكون من الضروري -جداً أن يعيش الأمراء المسيحيين بوئام، وأن يتجنب أحدهم الحرب مع الآخر، لأن الناس الذين ارتحلوا إذا ما سمعوا بأن أوطانهم قد هوجمت وتعرضت للإفساد، سوف يتخلون عن ميراث الرب للعودة من أجل الدفاع عن ممتلكاتهم، وقد وقع هذا -مراراً في الماضي، ولهذا بات من الضروري إقامة السلام بين جميع المسيحيين، أو على الأقل بين الذين يطيعون الكنيسة الرومانية، ومن المتوجب أن يتأسس هذا السلام على قاعدة ثابتة، حتى يتمكن المسيحيون من إقامة اتحاد مندمج بقوة ولايمكن شطره، لأن«كل مدينة منقسمة على ذاتها تخرب»، (متى ١٢ / ٢٥)، وذلك حسبما قال الرب، وإذا ما انقسمت يتعين علينا — بسبب هذا الانقسام بالذات — أن ندعم الدفاعات عن الأرض المقدسة، حسبما سيظهر ذلك فيما يلي، ولقد

رأينا الألمان والإسبان، مع أنهم مشهورين كمحاربين، قد توقفوا — بسبب الحروب المتواصلة بين ملوكهم— منذ زمن عن القدوم لتقديم العون إلى الأرض المقدسة، كما أنهم لن يتمكنوا من فعل ذلك بالمستقبل، والحروب القائمة فيها بين الكاثوليك مؤسفة جداً، لأن عدداً كبيراً من الناس سوف يلاقون حتفهم في مثل هذه الحروب، وهؤلاء ستكون أوضاعهم في الحياة المقبلة غير مؤكدة.

ويطلب الذين غالباً ما لجأوا إلى الحرب، الشروع بحرب جديدة، لأنهم ينظرون إلى الحرب كمسألة عادة، أكثر من عدّها وسيلة من وسائل التحسين، ولا يسعون إلى السلام بعد الحروب، ولابوساطة الحروب، ولايضبطون أنفسهم ولايخافون من تجديد الحروب، وبذلك تراهم وقد أخفقوا بالأخذ بها قاله الفيلسوف أستاذ الملك الاسكندر:«جميع الحروب شريرة في نفسها، وهي غير شرعية، إلى حد أن الذي يطلب الحرب من أجل الحرب، يكون قد وصل إلى الحد الأقصى من الشرور»، وعلى كل حال عندما يكون من غير الممكن ضمان السلام، إلاّبوسيلة الحرب، ـفوقتها مسموح للرجال الصالحين طلب الحرب، لابل مسموح لهم التحريض على الحرب، من أجل أن يحصل الناس على الطمأنينة في سبيل تحصيل الفضائل والمعارف بعد انتهاء الحرب، وبعد إقامة سلام دائم، وإلا فإن جميع الحروب— باستثناء هذا الهدف وحده— هي غير شرعية وهذا ما يقول به أيضاً أساتذة القانون المدني.

ومع أن آباءهم وأجدادهم تورطوا في حروب غير شرعية، نرى أن الأبناء الأحياء، وأرامل الموتى، مهما كانت الوعود التي وعدوا بها، يبدأون فوراً بالاستعدادات لحرب انتقام، وقد وقعت هذه الأحداث بسبب أن صانع الخلافات بوسائل الإغواء لديه، والاقناع، والخداع اللامحدود، والغش، قد بذل جهوده لزيادة عدد المدانين الآثمين معه،

وليثبط جهود استرداد الأرض المقدسة وإعاقتها، ولهذا إنه غير راغب بالسماح للقوى الكاثوليكية بالاتحاد، بسبب ماقاله الفيلسوف: «كل قوة متحدة أقوى من القوة نفسها متفرقة أو ممزقة».

هذا وإن الملائكة الأشرار، حسبما شهدت بذلك الكتابات المقدسة، حكماء جداً إلى درجة ربما معرفة الحوادث المستقبلية، لأنهم استوعبوا المعارف ودرسوا النجوم منذ بداية الدنيا، وهم على دراية بأسباب جميع الأشياء، والنتائج الناجمة عن هذه الأسباب، وهم يتذكرون كل شيء، ولاينسون شيئاً، وهم يرون أن الأسباب الفاعلة الآن ربما تنتج بعض النتائج المحددة، وبما أنه كما قال سليمان: «ليس تحت الشمس جديد» [الجامعة: ١/ ١٠]، يمكنهم الحكم والتقدير ورؤية الأحداث المستقبلية، بالتذكر بأذهانهم النتائج التي نتجت في مناسبة مضت عن أسباب مشابهة، ويمكنهم القيام بهذا بدقة أعظم مما يستطيعه الشيوخ الذين تقدمت بهم السن، لأنه صحيح أن الشيوخ يمكن أن يكونوا رأوا وجربوا كثيراً، إن معارفهم وتجاربهم هي لاشيء عندما تقارن مع معرفة الأسباب والخبرة الطويلة المتوفرة لدى الأرواح الشريرة، التي تعرف كل الأسباب والمحصلات منذ بداية الخليقة، حتى خبرة شارلمان، الذي يقال بأنه حكم مدة مائة سنة وعشرين سنة هي لاشيء عندما تقارن بخبرتهم، وقال حول هذا الموضوع الفيلسوف في الكتاب الثالث من سفر «الموضوعات»: «ما من أحد يختار الشباب قادة» لاسيما في الحرب «لأنهم يعدّون بلا تجربة، وأعطى في الكتاب السادس من سفر «الأخلاق» سبب هذا عندما قال: «نحن نرى كثيراً من الشباب المتبحرين بمعارف ما جاء بالكتب، لكنهم يفتقرون إلى حسن المحاكمة والقرار الصحيح في القضايا التجريبية، لأن استخلاص معرفة ما حدث في هذا العالم، يمكن الحصول عليها فقط من خلال التجربة الفعلية».

ويحتاج الحصول على الخبرة إلى وقت طويل، ومعروف أن الشباب قد

عاشوا حقبة قصيرة من الوقت، ورأوا من الأشياء القليل، وحصلوا من الخبرة على الأقل، ولهذا السبب مـا من واحـد صاحـب عقل صحيح يمكن أن يختارهم قـادة في الحرب، وينبغي أن يكون قـادة الحرب أهل السن من الرجال وأهل الخبرة، وأن يكونوا استراتيجيين وذوي رأي في الحرب، وبالنسبة للشباب، فإنهم ينبغي أن ينفـذوا أعمال الشجاعة تحت قيادة وتوجيه الأسن منهم، ومع هذا إنه إذا ما توفر رجل حسن، يمكنه بسبب طول تجربتـه، وذاكـرته الجيـدة أن يكون أفضل قـدرة من رجل شـاب، لأن يحكم على المستقبل، ويتـوقع مـا سيكـون به، لابد من أن نفترض بعقلانية أكبر، أن ملائكة الشرّ، يمكنهم الحديث عما سيكون في المستقبل بتأكيد أعظم مما يمكن أن يفعله أكثر الرجال شيخـوخة وتقدماً بالسن، ومن الواضح في ضـوء هذه الحقيقـة، أنه يمكن لملائكة الشر أن يقوموا عن طريق الاقناع، والاغـراء، وبشكل خاص عن طريق المشورة الشريرة، بإعـاقـة جهود حتى عقـلاء الرجـال، وذلك إلى الدرجـة التي يكونون فيهـا ذوي فـائـدة للآخـرين الماهرين في الفنون المحظورة، من الذين يستشيرونهم عندما يرغبون.

ومثل هـؤلاء الأشخـاص كثـرة كثيرة بين المسلمين، لأن شرائعهم لاتمنع مثل هذه الممارسـات، بل تؤيدهـا وتوافق عليهـا، ويدفع هؤلاء الملائكة الأشرار، مع التحـركـات في السمـوات وتأثير النجـوم الناس بشـدة لاقتراف الآثام، والرجس، والتخـويف، والمحظورات، وأعمال أخـرى يمكن أن ينجم عنهـا حظوظ خيرة أو شريرة، ولحسن الحظ أن هذه القـوى لاتستطيع أن تكبح إرادة الانسـان، ولا أن تعطل حكم العقل المنطقي، ويمكن من خلال ممارسة الإرادة لدى الانسان مقـاومة الاغراءات، والميول الشريرة،بتثبيت التوجه والاهتمام نحو الخالق، ونحو قيم الخير لديه، والإغـراء الأعظم، والقـوة الأكثـر دفعـاً نحـو التحـرك والمتملكة للتأثير هي قوة السمـوات، والرب في السموات يحتفظ بأعظم

الجوائز لمن يقاوم حباً بالشرف والاستقامة، وهو يمنح المزيد من الفضائل من أجل هذه المقاومة، وقد شهد الفيلسوف— أرسطو— لصالح هذا التوجه في الكتاب الأول من كتاب «القيم» بقوله:«قال هرقل مصيباً بأن الفضيلة تتقد دوماً في وجه المصاعب الكبرى، ونحن لانستحق لا المدح، ولا النقد، ولا المكافأة من أجل مواهبنا الطبيعية».

٣[4] ومن أجل استرداد الأرض المقدسة والدفاع عنها ضد مثل هذه الاعداد الهائلة، الذين اتخذوا الشياطين مستشارين لهم، يصفقون لهم استحسانا ويشاركونهم، سوف تكون الصلوات المخلصة جداً للكنيسة المسكونية، ولسوف تتم معالجة هذه القضية فيما بعد، ويتوقف الصالح العام للمؤمنين المسيحيين الذين يدينون بالولاء للكنيسة الرومانية على اتحادهم معاً بروابط للسلام، وبالاتحاد، وهكذا يتوجب على جميع الكاثوليك الامتناع عن إثارة الحرب، أحدهم ضد الآخر، وإذا ما لجأ بعدها أي انسان إلى الحرب، متحدياً هذه الوحدة، فإن ذلك العمل بالذات سوف يوجه نحو استرداد الأرض المقدسة والدفاع عنها، ومن الممكن عرض هذا وتنفيذه وفق الطريقة التالية.

عندما يعطي الحماس من أجل تحرير الأرض المقدسة ثماره في عقد مجمع كنسي، يمكن وقتها لجلالته الملكية الواسعة الخبرة الطلب من خلال السيد البابا، أن يتبنى الأمراء والأساقفة [المجتمعين هنا] نظام ما، يمكن بموجبه تأمين عدالة تامة، وفقاً للشرائع المحلية والعادات، ومنحها على الفور دونما تأخير إلى جميع من ادعى لحاق ضرر به أو أذى، ومن المتوجب ممارسة أعمال العدالة من قبل قضاة محليين قد جرى تعيينهم، أما في الأماكن التي لم يتم تعيينهم بعد، فيتوجب اختيارهم وفقاً للطريقة التي سيجري شرحها فيما بعد، فينبغي أن لايندفع كاثوليكي إلى حمل السلاح ضد كاثوليكي آخر، ولايجوز لأحد أن يسفك دماً معمداً، وإذا مارغب أي انسان في شن حرب، ليكن غيوراً

متحمساً في شن الحرب ضد أعداء الإيمان الكاثوليكي، وضد أعداء الأرض المقدسة، وجميع الأماكن التي قدسها الرب، ولابد من عدم تمكينه من امتلاك الفرصة بتسبيب الموت الجسدي، أو الروحي لأخوانه بالإيمان بإثارة الحرب ضدهم.

٤— وكل جماعة تقوم مراغمة لهذا التنظيم الشامل فتغامر بشن حرب ضد أخوانها الكاثوليك، سوف يطبق بحقها عقوبة حرمانها من ممتلكاتها، وينبغي إنزال هذه العقوبة بجميع الذين قدموا العون لها، سواء أكان هذا العون بالقتال الفعلي، أو بإمدادها بالعتاد والمؤن، والسلاح أو الذخائر الأخرى أو بضروريات الحياة، وعندما تنتهي الحرب، من المتوجب نفي جميع الذين بقيوا أحياء بصرف النظر عن السن، والجنس، أو الوضع، وينبغي أن يكون النفي دائميا من البلاد ومن الممتلكات، كما ينبغي تجريدهم من ممتلكاتهم هم وأولادهم والذين يمكن أن ينحدروا منهم، ويجري ارسالهم للسكنى في الأرض المقدسة، وفيما يتعلق بالممتلكات التي انتزعت منهم، ومنها حرموا، إنهم إذا ما قاموا عن طواعية بتنفيذ أمر المغادرة إلى الأرض المقدسة، يمكنهم الاعتماد على هذه الأملاك لتأمين النفقات الضرورية للرحلة.

وعلى السيد البابا معاقبة الذين يشنون الحرب مع الذين نعلم أنهم قدموا بأية طريقة من الطرق العون أو الدعم لمثيري الحروب، أو تعاملوا بتزويدهم بأية نوع من التجهيزات أو المؤن، أو الماء أو النار، أو أي نوع من أنواع ضروريات الحياة، ويتوجب عليه عدم حرمانهم كنسياً، أو تجريمهم لاهوتيا، بل ينبغي تجنب تعريض خلاص أرواحهم إلى المخاطر، خشية أن يزداد عدد المدانين، وسوف يكون أفضل بكثير إنزال عقوبة مؤقتة بهم من العقوبة الدائمة، والعقوبة المؤقتة، مع أنها ألطف بكثير من العقوبة الدائمة، سوف تكون مخشية أكثر، وسوف تكون أكثر نفعاً إلى الأرض المقدسة، وسوف تكون أقل ضرراً بالنسبة

لأقرباء المجرم وذوي الارتباط به.

٥[5]: ويتعلق السؤال الآخر الذي يواجهنا هو: هل يمكن بسهولة إخضاع مثيري الحروب وهل سيكون من المفيد نفيهم إلى الأرض المقدسة؟، ودعونا نفترض أن دوق— أوكونت— بيرغندي شن حرباً على ملك فرنسا، الذي هو مولاه، فإن الملك، الذي لايعترف بسيد له على وجه الأرض، سوف يتخذ على الفور خطوات لمنع أي انسان من جلب أي شيء إلى أراضيهما من المؤن، والسلاح والتجارات، أو أي حاجيات أخرى، حتى ولو كانت مستحقة لهما لسبب من الأسباب، وبموافقة المجلس، الذي سوف يتألف من أمراء ورجال لاهوت، سوف يجري تطبيق هذا الحرمان ليشمل جميع الكاثوليك، تحت التهديد بالعقوبة المماثلة، ولسوف يطلب الملك مصادرة جميع أراضي المجرمين وممتلكاتهم وذلك من أجل استخداماته الخاصة، ولهذا عليه القدوم عندما يكون الموسم جاهزاً للحصاد، أو أبكر، وأن تكون معه قوة عظيمة من أتباعه ومن المناطق المجاورة، حتى يمكنهم حمل المحصول كله، وكل مالايمكن حمله أو استخدامه المباشر في المناطق المجاورة ينبغي تدميره، وكل ما يمكن حمله وحفظه ينبغي تكريسه من أجل إمداد الحصون العائدة للجيران المخلصين للملك والذين عانوا من خسائر في الحرب، وبهذا سوف يكونوا قادرين في المستقبل على الحفاظ على أنفسهم، وهم بحالة الاستنفار للحيلولة دون فرار صانعي الحرب، وخشية قيامهم بتدمير المناطق المجاورة، ومن المتوجب تجنب حصار الحصون التي هي بالعادة محمية، وذات وضع دفاعي جيد، في بلاد العدو، وإذا ما تحصن المجرمون في داخل قلاعهم، الأمر المحتمل كثيراً، ولم يغامروا بالتورط في معركة مكشوفة، فمن الممكن العيث بجميع أريافهم من قبل الجيش وحشود الناس الذين معه من غير المقاتلين، ويمكن للجيش كله مع أتباعه العيش من الأسلاب، وكل ما لايمكنهم

حمله ينبغي تدميره، وبذلك لن يبقى شيئاً لدعم الحياة، وإذا لم يقم المجرمون بمقاومة فعالة، بل تحصنوا داخل قلاعهم، خلف أسوارها في الجبال أو في المستنقعات، على الانسان عدم طلب إماتتهم خشية أن تذهب أرواحهم، وتنزل إلى الجحيم لتبقى إلى الأبد، ولسوف يبرهن التجويع أنه عقوبة أعظم فعالية، لأنه سوف يؤثر ليس بالمعتدين فقط، بل بكل انسان من العظيم إلى الصغير، وكل واحد سوف يشعر بالعقوبة، فهكذا أمر الرب وقضى من خلال النبي بإنزال العقوبة بالملك أجاج وجميع رعيته من أول رجل فيهم إلى آخر رجل، كما أن الملك شاول الذي رقي بأمر من الرب ودهن ليحكم على بني اسرائيل، قد حرم من مملكته، لأنه بعدما منحه الرب النصر، احتفظ بحيوانات الملك أجاج الضخمة والسمينة من أجل القيام بتضحيتهم للرب، وجرى استدعاء داود، الذي كان يتولى حفظ أغنام أبيه، ودهن ليكون ملكاً عوضاً عنه، وبهذه الصورة تمت عقوبة الملك شاول لعدم طاعته، وجرى إخباره من قبل النبي الذي حمل العقوبة إليه: «لأن الطاعة أفضل من الأضحية» (الملوك ١/ ١٥/ ٢٢. صموئيل ١/ ١٥/ ٢٢).

٦: وعاقب بالطريقة نفسها الرب القدير أبناء إسرائيل، لإقترافهم الذنب العظيم بخيانتهم ربنا يسوع المسيح، وقتله، فأنزل بهم مجاعة كانت من القسوة بمكان أنها دفعت بالأمهات لشوي أولادهم الصغار وأكلهم، فهذا ما حكاه يوسفيوس في كتابه عن التاريخ القديم، حيث تحدث عن دمار القدس.

٧: وينبغي إعطاء غفران كامل من قبل المجلس الكنسي إلى جميع الذين ساعدوا على تنفيذ مشروع عقوبة مثيري الحروب ونفيهم إلى الأرض المقدسة، وينبغي تأكيد هذا الغفران من قبل الذين سوف يتعاقبون على شغل منصب الحبر الأعظم للكاثوليك، وينبغي أن يتولى دوما الذين أرسلوا إلى الأرض المقدسة، عن طريق العقوبة، قيادة

الحملات على الاراضي المعادية، وبذلك يمكن أن يخدموا بمثابة سور للدفاع بالنسبة للآخرين، بما أنهم رحبوا متطوعين بإثارة الحرب وشنها بناء على إثارة من الشيطان، ويتوجب إجبارهم -مرغمين على القتال في المقدمة من أجل قتال عباد الاوثان، وأعداء السلام، والوقوف ضد الذين أنفسهم حرضوهم من قبل على الحرب.

٨: ومن الممكن كثيراً أن التهديد بعقوبة التجويع والنفي الدائم، سوف تكون بنعمة الرب مخيفة جداً، إلى حد يجعل التماسات زوجات أمراء الحرب وأولادهم الصغار، وآبائهم المسنين وأجدادهم، وكذلك رهبانهم، وأساقفتهم، ورجال الدين الآخرين، تنجح بالسيطرة على أمراء الحرب هؤلاء العنيدين والمتهورين، وتؤثر على الحماس الضال لشبابهم، وفي ظل التهديد بمثل هذه العقوبة ما من أحد سوف يغامر بشن الأعمال العدوانية.

٩[6]: وإذا ما صار الكاثوليك بحالة سلام بين بعضهم بعضاً، فإن المقاتلين سوف يتدفقون من كل اتجاه نحو الأرض المقدسة، مع كل الاحتمالات بتمكنهم من استردادها والدفاع عنها.

١٠— ومضت جمهوريات: جنوى، والبندقية، وبيزا، من دون عقوبة من أجل خصوماتهم التي لم تتوقف، وحروبهم البحرية، التي غالبا ما أعاقت في الماضي استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، ولسوف تحافظ هذه الجمهوريات، ومثلها ستفعل كومونتا لومبارديا، وتوسكانيا، والمقاطعات الأخرى، على سلام دائم، كل قوة مع القوة الأخرى، إذا ما تقرر إمكانية قيام أي واحد من جيرانهم بتقديم شكوى -ضدهم على هذه الشاكلة.

١١— وإذا ما رغب الحكام في إيقاف النزاعات بين هذه المدن، وإنزال العقوبة بهم، يمكن لأي واحد من هؤلاء الحكام أن يستولى على

بضـائعهم وأموالهم الموجـودة في مملكتـه والاحتفـاظ بها لنفسه،وإذا مـا أخفق إثرها بشن الحرب عليهم فوراً، ينبغي استخدام أملاكهم المصادرة وكل ما يمكن العثور عليه من بضائعهم، على الفور من أجل تمويل، أو ميزانية تتعلق بالأرض المقدسة.

وينبغي على الكرسي الرسـولي والأمـراء الذين تفجـرت في أراضيهم مثل هذه الحروب، ارغـام الذين لديهم بضائع وأمـوال عائـدة لمجرمين، على التجاوب مع هذه الاجـراءات والأخذ بها، في ظل التهـديد بعقوبة مصـادرة ممتلكاتهم، وتحويلها إلى التمـويل أو الميـزانيـة نفسها، وإذا مـا تبرهن أن هؤلاء الأمراء كـانوا مهملين في تنفيذ واجباتهم، بعدمـا جرى إبلاغهم من قبل المتولين لإدارة التمـويل المذكور، يتوجب أن يتعـرضوا لحرمان مماثل، ولمصادرة جميع ممتلـكاتهم، التي سوف يتم تحويلـها إلى التمويل نفسه.

١٢[7]: لكن مـاذا عن هـذه المدن وعـدد كبير مـن الأمـــراء الذين لايعترفـون بوجـود سلطة عليـا على الارض فـوقهـم، تمتلك السلطة لتحكمهم تبعاً للشرائـع المحليـة والعـادات؟ وعندمـا ينخـرط هؤلاء الأمراء وهـذه المدن في الخلافات والصراعات، إلى مـن سوف يقـدمون شكاويهم ويلتمسـون الإجراءات القضـائية؟ ويمكن للانسـان أن يجيب بأن المجمع ينبغي أن يقـرر اختيـار محكمين: رجـال دين أو آخـرين، يكونوا رجالاً حكماء ومجربين، وأهلاً للثقة، وبعدما يقسم هؤلاء الأيمان يتـولون اختيار ثلاثة من الأسـاقفة للعمل بمثـابة قضاة، وثلاثة آخـرين لكل جـانب من أجل المناقشـات، وينبغي أن يكونـوا رجـالاً أقـوياء متماسكين، لهم أخـلاق مستبعـد إفسـادهـا بالحب، أو بالكراهيـة، أو بالخوف، أو بالجشع، أو بأي وسيلة أخرى، ويـتوجب اجتماعهم في مكان مناسـب لهذا الغـرض، وأن يؤخـذ عليهـم العهـد بأيمان محددة صارمـة، وينبغي أن تقدم إليهم مختلف مطالب الشـاكي والدفاع بشكل

مختصر وبسيط، وأن يتم ذلك قبل اجتماعهم، وبعد رفضهم أولاً لما ليس له عـلاقـة بالقضية ومقحـم فيهـا، عليهم تلقي الشهـادات والوثائق والبينات، وتفحصها بدقة متناهية وبوعي كامل، وينبغي فحص أي شاهد والاستماع إليه بحضور مالايقل عن اثنين من الرجال العلماء الذين هم موضع ثقة عن طريق القسم حسبما بينا من قبل، ويتوجب عرض الشكاوى كتابة، وعلى القضاة الاحتراز وفحصها وصيانتها من التزييف، ومنع أي غش من الدخول إليها أو تزوير.

وينبغي أن تكون نفقات اجتماع القضـاة معتدلة، ويتـوجب أن يؤخذ بالحسبان أن لاتتجاوز هذه النفقات القضائية أكثر مما قـد ينفقه القضاة لو أنهم مكثـوا في البيت، وإذا مـا كـان مرغـوبـاً يمكنهم الاستعـانة بمقومين في إعلان الحكم، على أن يكونوا رجالاً معروف أنهم ثـقة إلى أبعد الحدود، مع معرفة جيدة باللاهوت، وبالقانون، وبالشريعة المدنية.

وإذا كان واحـداً من الطرفين غير قانع بالحكم، يتـوجب على القضاة الذين بـتوا في تلك القضـية، إرسال سجل بالاجراءات إلى الكرسي الرسـولي، مع قـراراتهم، لتعـديلهـا وتغييرها من قبل البـابا الذي هو بالسلطة، إذا ما كانت تلك التعديلات عادلة، وإذا كانت الأحكام كما هي عـادلة، ولم يحدث أي تغيير، سـوف يتم تثبيـت الحكم بشكل لائق من أجل السجل الدائم للقضيـة، ومن ثم تدخل إلى سجلات الكنيسـة الرومانية المقدسة.

١٣[8]: ويوفر تغيير الحكـام بالامبراطورية، بالعادة، فـرصاً لاتحصى من أجل الصراع في ألمانيا من خلال أعمال التدخل في إجراءات انتخاب الامبراطور، وبسبب الفـوضى التي رافقت هذه الحالة في الماضي، غالبـاً ما أعـاقت استرداد الأرض المقدسة والحفـاظ عليها؛ ولعل توفـر سلام دائم في الامبراطورية الرومانية المقـدسة سوف يسهم كثيراً في بلورة هذا الهدف، وذلك إذا مـا أخـذنا بعين التقـدير الأعمال الجيـدة التي أتيح

للملوك الألمان القيام بها، والتي من الممكن لهم القيام بها أثناء حياة الناس الأحياء، لو أنهم ورثوا المملكة والمجد الامبراطوري بدون صراع، بما في ذلك قوة جبارة، وخزائن مليئة محببة لهم ومخزونة من قبل آبائهم، ووقتها لن يكون هناك شغور بالعرش، ولا انقطاع بالحكم أو توقف، وإذا ما أخذنا أيضاً بعين التقدير الأعمال الجيدة التي قام بها الأباطرة، كما قيل في الأيام الخوالي، قبل ظهور هذه المعيقات الحديثة، وذلك من أجل إيقاف الحروب المؤذية للجسد وللروح، وهي حروب قامت من خلال الطموح للحصول على الملك وعلى المجد الامبراطوري، هذا وإنه بتجنب الخسائر الثقيلة المعتادة، يمكن أن يأتي من المملكة ومن الامبراطورية عون كبير جداً من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، ومن أجل كثير من المنافع الدنيوية الكثيرة، التي كان من الممكن لنا الحصول عليها منذ زمن بعيد، من تلك البلاد، فضلاً عن هذا كله، ينبغي عدم زوال ازدهار وتقدم الصالح العام لتلك المملكة، ولإمبراطورية ذلك الشعب النبيل، وينبغي اتخاذ خطوات لمنح مملكة ألمانيا وامبراطوريتها بشكل دائم إلى ملك جديد، وللازدهار الذي سوف يرافقه، فهو قد يقدم بعض التنازلات الطفيفة حول مسألة الممتلكات والامتيازات والإعفاءات العائدة للامبراطورية من أجل تجنب الخلافات، ولإسكات الناخبين واشباع رغباتهم، زد على هذا يتوجب على الملك الجديد، الذي سوف يكون الامبراطور أن يشترط على نفسه، وأن يعد بتقديم دعم سنوي من أجل مصالح الأرض المقدسة ومنافعها، مادامت هي بحاجة إلى ذلك، وينبغي أن يأخذ هذا الدعم شكل قوة عسكرية كبيرة، يتوجب أن تكون على حسابه الخاص، وأن ترسل إلى الموانىء البحرية مسلحة تماما ومجهزة، مع أغطية مناسبة لمثل هذه الحملة، ومواتمة لإقامتها في الأرض المقدسة.

١٤[9] : وأن يقوم الامبراطور والأمراء الآخرين بتأمين الأعتده

والسفن من أجل ارسال عساكرهم عبر البحر، سيكون ذلك مكلفاً جداً، وبناء عليه إنه من الأفضل تأمين ذلك إلى المحاربين بشكل إفرادي، متى جاءوا، ويبدو أن هذا الهدف من الممكن الوصول إليه بسهولة وفق الطريقة التالية، وهي طريقة عرضة للتغيير والتصحيح من قبل السلطات المسؤولة:

يمتلك الداوية والاسبتارية والتنظيمات الأخرى التي تأسست من أجل مساعدة الأرض المقدسة، موارد كثيرة، وبضائع، وممتلكات على هذا الطرف من البحر المتوسط، الذي كان ذا فائدة قليلة حتى الآن للأرض المقدسة.

وكانت هذه التنظيمات في أوقات الحاجة القصوى منقسمة بين بعضها بعضاً، ولهذا كانت معاقة ومعطلة وبيوتها عرضة للسخرية، ومن ثم إلى فضائح شنيعة، ومن هنا إذا كان في وجود هذه التنظيمات أية فوائد للأرض المقدسة، إنه لمن المرغوب فيه، ومما يُنصح به، دمجها في منظمة واحدة، بالنسبة للمظهر، والملبس، والرتب، والممتلكات، وذلك حسبما يراه المجمع المقدس مناسباً، وعليهم أيضاً البقاء في الأرض المقدسة، يعيشون على واردات ممتلكاتهم هناك وفي قبرص، إلى أن يتمكنوا من استرداد استملاك ممتلكاتهم بسلام، وممتلكات من هذا النوع تكون كافية لإحتياجاتهم، مع مؤن يمكن تزويدهم بها من مصدر ما آخر.

١٥: وينبغي أولاً أن توضع ممتلكاتهم الموجودة في كل مكان على هذا الجانب من البحر المتوسط، تحت الوصاية هي ومواردها، وذلك لمدة ثلاث سنوات أو أربع ، وأخيراً ، أو على الفور، ينبغي تحويل هذا إلى وقف، إذا أمكن الوصول إلى ترتيبات شروط مرضية، ويمكن بهذه الوسيلة تحصيل مالايقل عن ثمانمائة ألف ليرة تورية سنوياً من الداوية والاسبتارية.

وينبغي احصاء الأموال التي جرى جمعها منذ سقوط عكا، واضافتها إلى الأموال الأخرى، ومن الممكن استخدام هذه الأموال لشراء سفن، ومؤن وبقية الحاجيات الضرورية الأخرى إلى المحاربين الذين سيقومون بعبور البحر، ويمكن بهذه الطريقة ضمان عبور حر ومريح في المستقبل، وسيكون ذلك متوفراً لجميع الذين يرغبون بالعبور، حتى بالنسبة إلى أفقر الناس، ويمكن للسفن أن تجلب معها من الأرض المقدسة مايلزم من منتجاتها وماهو مطلوب هنا، وحمل منتجاتنا إلى هناك، ذلك أنه سيكون من السهل آنذاك شحن البضائع من بلد إلى بلد آخر، وحين نأخذ هذه الأمر بعين التقدير، سوف يندفع المسيحيون الذين يعيشون على هذا الطرف من البحر، أو في مكان آخر، بشكل طبيعي للتفكير للدفاع عن الأرض المقدسة، ولحماية سلامتها، ومن الممكن أن يحمل بهذه السفن من المناطق الخصبة في الجزر وعلى سواحل البحر المتوسط كثيراً من المؤن والحاجيات الأخرى، وبذلك لن يعاني من النقص بالمؤن أحد من المحاربين أو من الذين تمركزوا في كل مكان قرب البحر، وينبغي إلقاء أعضاء التنظيمات المتقدمة الذكر، الذين شعروا حتى الآن أنه من غير المواتم لهم عبور البحر والعيش هناك، في ديرة طائفة السسترشيان وفي ديرة الطوائف الأخرى المزدهرة، لقضاء العقوبة على تجاوزاتهم، وعليهم أن يعيشوا هناك مع الرهبان، ولسوف تتلقى هذه الطوائف قليلاً من المساعدات، من أجل الانفاق على هؤلاء الداوية وسواهم، ويستمر ذلك حتى يأتي الوقت الذي يمكن تحريرهم فيه من هذا العبء، أي عبء دعم أعضاء هذه التنظيمات العسكرية والانفاق عليهم.

ولسوف يكون الدخل السنوي من هذا المصدر كبيراً، وبوساطة ضخامته سوف يكون سوء المعتقد لدى الداوية والاسبتارية واضحاً، وسوف يغدو مرئياً كيف أنهم قاموا حتى الآن، من أجل هذا الدخل،

بخيـانة الأرض المقـدسة، وأخفقـوا بالقيـام بواجبهم نحـوها، وعندمـا تصبح الأمـور مـوائمـة وواضحـة فإن هـذا الدخل السنوي سـوف يتضاعف بشكل فعـال بوساطة تبرعـات المؤمنين، والممتلكات المصادرة العائدة إلى الذين أثاروا الحروب العدوانية، ومن مصـادر أخرى كثيرة، ولسوف يجري توضيح هذا أكثر فيما يلي:

١٦[10]: لقد كانت الأرض المقـدسة حتى الآن سيئة التزويد بالمؤن بسبب الصراع الكبير بين الشعوب، ولهذا فإن الأب المقدس، الذي قيل بأن هذه القضية هـي شغله الشاغل، سوف يقـوم بحث كل نائب له أن يرسل إلى هناك أكبر عدد من المقاتلين، وذلك بقدر ما تسمح له موارده، وسوف يجري تصنيف هؤلاء بوساطة زي موحد متميز بالنسبة للفرسان وكـذلك بالنسبـة للرجّـالة، وأن يجري تزويد كل فئة بـرنك واحـد مع الراية العـائـدة إلى الحاكم الـذي أرسلهم، وسـوف يتـولى السيـد البابا الاشراف على تنفيذ هذا الأمر، وأن يلتزم بتنفيذه الأمراء العلمانيين، وأن يتولوا القيادة شخصياً إذا كان يمكنهم هذا بدون صعوبة، وإلاّ على كل منهم تعيين شخص مناسب يتولى قيادة القوات عوضاً عنهم، وأن يكون مجهزاً برنوك الإمارة وشعاراتها وأعـلامها، وبهذه الوسيلة سوف تتمكن جميع الشعـوب المحليـة لمملكـة أي أمير من الأمراء، بصرف النظر عن وضع الذين أرسلوهم إلى هنـاك، من تشكيل جيش واحـد، وإذا لم تكن أعـدادهم كـافيـة لذلك، يتـوجب أن يضـاف إليهم أناس من الأقـرب إليهم، الذين يفهمـون لغتهم، وتكون الزيادة بأعـداد كـافيـة لتشكيل جيش، وينبغي تشجيع الرجـال مـن كل مـرتبـة، لابل حتى النسـاء من الأرامل وكذلك ا لمتـزوجات على إرسال رجـال مجهزين بما فيـه الكفاية يرتدون الزي نفسـه مع الشعـارات والرنوك ذاتها، وعلى الوكـلاء أن يبعثـوا بفـرقهم النظاميـة للمـوسيقـى العسكرية، للقيـام بالمرور بالمدن، وبالبلدات والطـواف مع أصـوات الأبواق، وأصـوات بقيـة الآلات

الموسيقيـة والأغـاني، وأن تكون معهم الـرايات البراقـة، فـذلك سـوف يحرك مشاعر الناس ويشجعهم جميعاً، ويؤثر عليهم بقوة من أجل عبور البحر، أو ارسال آخرين بتجهيـزات موائمة، وسوف يزيد هذا التجييش أعداد االمحاربين إلى ما فوق حدود التصور.

١٧: وينبغي اقناع الأمراء والأعيان الآخرين الذين يشاركون بالحملة بأن يتعهـدوا، أنهم إذا مـاتركـوا جيـوشهم بسبب الموت أو المرض، أو العودة إلى الوطن، أو مهما كان المحرض والسبب، أن يتركوا هناك عدداً محدداً من العسـاكـر مع أسلحتهم ورنـوكهم وراياتهم، ومع نفقـة حتى تمكنهم من العيش بشكل منـاسب، ولسـوف تتلقى هذه النفقـة زيادات حتى تصبح كافية، وذلك من مصادر التمويل العائدة للأرض المقدسة.

١٨: وينبغي اقناع أي شخص متمكن وقـوي من كـلا الجنسين، أن يعد بالقيام، بعد ضمان سـلامة الطريق، بارسال— على الأقل— نفقات العدد الذي يمكنـه من العساكر، وذلـك في السنوات التالية، مـع أموال لمساعدتهم أكثر، ويتوجب نقل هـؤلاء العساكر مع زوجاتهم، عبر البحر حتى يقـوموا بسكنى الأرض المقـدسة، وأن يشحنوها بالناس على قـدر الحاجة للاستيلاء على تلك البلاد والاحتفاظ بها.

١٩: زيادة على هذا ينبغـي أن يبقى فـرسـان ذوي تجربة، وحكماء، ونشطاء، بحيث يحملـون رنوك بعض الأمـراء الكاثـوليك، وأن يكون معهم حملة للرايات.

٢٠: وينبغي أن يسمح لكل مملكـة كـاثوليكيـة، لابل بـالحقيقـة لكل منطقة واسعة أيضاً، باحتـلال إحدى المدن، أو القلاع، أو المواقع الهامة هناك، مع بعض المناطق المتاخمة، وأن يكون حجم المنطقة المحتلة متماشياً مع عـدد الأتبـاع الذين شـاركـوا في الحملة، وبذلك يتمكن القـادمـون الجدد، بعدمـا انهكتهم مصاعب الطرقـات، ومختلف أنواع أماكن النوم،

والنقص في أشياء أخرى، يتمكنون وقتها من نيل البهجة والسرور في أماكن وأجواء معتادين عليها، وذلك بعد حزنهم، ومتاعبهم، وأساهم،ومن الواجب تغيير أسماء تلك الاماكن، واختيار أسماء جديدة لها بموافقة الأكثرية تحمل ذكرى، أو الاشارة إلى المملكة أو المدينة الرئيسية، التي جاء منها السكان الجدد، وسيمنح هذا كثيراً من الطمأنينة إلى المتأخرين بالوصول، بعد معاناتهم من التعب والشدائد، وسيتمكن الضعفاء من الواصلين، وسط هذه الراحة وهذا السرور، من استرداد عافيتهم بسرعة أكبر، أما الأقوياء الذين ألم بهم الضعف الطارىء فسوف يستردون نشاطهم بسرعة أكبر، وسوف يستعيدون قواهم الطبيعية وحماستهم، وعندما يعودون من القتال مرضى أو جرحى، سوف يشفون بسرعة بمساعدة الأطباء والجرائحيين، الذين يتولون العناية بهم بحرص وتيقظ، وبفضل الراحة والمنافع والأسباب الأخرى التي تقدم لهم، ولاسيما إذا ما كانوا بين أبناء بلدهم، فوقتها سيتعافون بسرعة أكبر، بسبب الآمال التي يقدمها لهم أبناء بلدهم مع الراحة والعناية، ولسوف يعودون إلى القتال وهم أقوى، وأكثر شجاعة، وبدون خوف بفضل الراحة التي نالوها.

٢١[11] : وفي سبيل تجنب أي خرق للنظام الجيد، أو للحقوق المتبادلة، فيما يتعلق بالتخطيط للحملات، وفي تعيين الأماكن للاستقرار في الأرض المقدسة، ينبغي أن يتقرر، أن الذين نفيوا بسبب إثارة الحروب، أو بعثوا إلى هناك عقوبة لهم للقيام بأعمال مشابهة، مشاركتهم في الحملة الأولى، أو الحملات، وسوف تكون أماكن استقرارهم بالحري قريبة من الأعداء، وفيما يختص بالذين جاءوا من بعدهم، فليعين إلى هؤلاء الحدود الجبهوية نفسها.

٢٢: وخشية من قيام خلافات ونزاعات بين الأمم حول مسائل اختيار المدن الكبيرة، مثل القدس وعكا ومن ثم احتلالها، يبدومن

المواثم، ومن المنطقي، أن يسمح لأناس من مختلف البلدان بالدخول إليهما، لابل أن يسكنوا فيهما إذا مارغبوا بذلك، وستكون الترتيبات نفسها معقولة في حالة المواقع الهامة الأخرى على شاطىء البحر، أو القريبة من البحر، حيث تكون قد تجمعت هناك مختلف التجارات من مختلف البلدان.

٢٣: وينبغي أن يكون لكل مدينة مع المنطقة المعينة لها، قائداً عسكرياً مع قادة مئات أدنى منه، وتحت إمرته، ويتوجب تقسيم كل مائة رجل أوكلت قيادتها إلى كل قائد مائة إلى ثمانية حضائر، يكون في كل حضيرة بالعادة اثني عشر رجلاً، وفقط قائد المائة سوف يكون معه في حضيرته خمسة عشر رجلاً، وبهذه الطريقة سيعرفون دوماً إذا ما كانوا يمتلكون قواهم الكاملة، وعلى كل واحد أن يحرس الآخر بعناية، ويدافع كل واحد عن الآخر حتى الموت.

٢٤: وينبغي بعد هذا أن يتقرر كم عدد المقاتلين الذي يمكن أن تقدمه كل مدينة للجيش، وعلى قائد كل مائة أن يتفقد الرجال الذين تحت إمرته، ويتأكد أنهم قد تدربوا على استخدام السلاح، الذي يتوجب عليهم استخدامه وفقاً للتوجيهات الصادرة عن القائد الحربي لمدينتهم.

٢٥: وقد روي بأن التتار الذين يشنون الحرب وفقاً للطرائق والعادات التي كانت في أيام الاسكندر، (تبعا لسيرة الاسكندر، اعتاد القادة الفرس في تلك الآونة على مركزة كل أسرة من الأسر تحت السلاح) لايستخدمون المال، ولايشترون المؤن، وإنما يأكلون من الأسلاب التي يحصلون عليها من الأعداء، وعلى الميرة والأطعمة التي جمعوها من قبل، وعلى ما ينتجه الأعداء، وهم لم يتولوا قط إلقاء الحصار على موقع حصين، وفي احدى المرات تجمعوا خلال خمسة أيام أو ستة واحتشدوا من كل اتجاه في الساعات الأولى من النهار، للقيام بهجوم بمختلف الطرق وفقاً لأساليبهم، وظلوا كذلك حتى المساء،

فوقتها عادوا إلى أكواخهم وإلى أزواجهم، وأولادهم، وإلى ذويهم، وليس من المفيد الإصرار على مثل هذه الطرائق، حيث ينبغي تنوع التكتيكات وفقاً للزمان والمكان، والعدو، وعساكرنا وبقية الحقائق، وذلك حسبما مارس قادة الحرب لدينا ويمكن أن يقرروا.

٢٦ [12]: وفي العادة يعتري التعب العساكر مع مطاياهم، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للرحلات البحرية، وذلك لعدم توفر مراكب قادرة على نقل أعداد كبيرة جداً من الناس في وقت واحد، كما ولا يوجد ميناء في أي مكان من الممكن أن يصعدوا منه على عدد من السفن في وقت واحد، كما لايمكنهم النزول من السفن إلى الميناء في وقت واحد أيضاً، ومن الممكن في ظل هذه الظروف، أن يكون من السهل تمزيق الأعداد القليلة التي وصلت في وقت واحد من قبل العدو الشرس، الذي تساعده ملائكة الشر التي تعادي هذه الحملة التي تسعى إلى الحد من قواهم، وفي سبيل تجنب مثل هذه المأساة، يبدو أنه من المفيد اتباع طريقة ذلك المقاتل الجبار، وأعني به شارلمان، بجعل الجزء الأكبر من الجيش يأخذ الطريق براً، وذلك بعد الحصول على الأذن من باليولوغوس -Pa laeolagus] امبراطور بيزنطة— أندرنيكوس الثاني ١٢٨٢— ١٣٢٨] ومن الأمراء الآخرين الذين سوف يزحف الجيش من خلال أراضيهم، وينبغي أن يطلب من هؤلاء الأمراء إعطاء مدخل آمن إلى بلادهم، وممر فيها ومخرج منها، وكذلك السماح للمسافرين الأفراد، مع تمكينهم من الحصول على ضمان تأمين الميرة والمأوى بالسعر العادي المتداول، الذي يدفعه السكان المحليون، كما يتوجب على الأمراء المحليين السماح بدون مقابل، مع تسريع أعمال، نقل المؤن من كل اتجاه، إلى الطرق المختارة من أجل العبور، وذلك بوساطة تعليق بعض، لابل كل، الضرائب، ومع أن هذا الطريق طويل أكثر، فإن عدداً كبيراً من الناس سيقع اختيارهم عليه ممن لايتجرأون على السير على الطرق

الأخرى، أو هم غير قادرين على فعل ذلك.

ولسوف يكون من المفضل كثيراً توجيه الضربات إلى العدو من كثير من النقاط بدلاً من نقطة واحدة، ويمكن للألمان، وللهنغار، وللاغريق، ولكل الذين يعيشون إلى الشمال منهم، السير على هذا الطريق نفسه المذكور أعلاه، ولقد قرأت في «تاريخ القدس» بأن الامبراطور فردريك بربروسا قد سار على هذا الطريق، وهو الذي غرق في واحد من أنهار أرمينيا، بينما كان يستحم بسبب الحر، وقد حدث هذا في أيام صلاح الدين ملك الآشوريين [كذا]، الذي هرب من أمام الامبراطور، وتخلى له عن كثير من البلدان والمواقع الحصينة.

ومن الممكن قبول كل انسان من ممالك انكلترا، وفرنسا، واسبانيا، ومن جميع الذين يعيشون على هذا الطرف من الجبال، للانتقال بحراً، وكذلك اللومبارد، والتوسكان، والأبوليين، والغلاطيين، والصقليين، وذلك مع الذين يقطنون الجزر الأخرى من ذلك البحر، ويمكن للذين يخافون من البحر اختيار الطريق الأطول على حسابهم وبجهودهم.

٢٧[13]: وبديهي إن التعاون من أجل مهمة استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، أمر هام جداً، ويقتضي الأمر كذلك أن تكون قوى جميع أعضاء الكومنولث الكاثوليكي متوائمة وموحدة، وسيكون من الضروري بالدرجة نفسها، السعي من خلال الأدعية التقوية للكنيسة العالمية نحو الحصول على المنافع الكبرى للسلام، وعلى الاسترداد، والوقاية من الرب الذي تتدفق منه البركات، وهو الرب والمولى للجيوش، وهو وحده سبب السلام والنصر، ولايمكن مطلقاً استرداد الأرض المقدسة، والاحتفاظ بها، إذا ما عدّ قادة الحرب والعساكر الذين تحت امرتهم، أن الاعتماد على قواهم الخاصة كافياً للحصول على نصر عظيم من هذا النوع، والحفاظ على ثماره بشكل دائم، فبهذه الوسائط لن يكونوا قادرين مطلقاً على مقاومة ملائكة

الشر، الذين يناضلون ضدهم، ولن يكونوا قادرين أيضاً على مقاومة إغراءاتهم وإغواءاتهم، لأنه من المعتقد أنهم سوف يتمكنون ببراعتهم من إعاقة المقترحات، المطروحة أعلاه، بقدر ما يستطيعون .

ولهذا السبب يبدو أنه من الموائم السعي من خلال المجمع احداث إصلاح وتغيير في أوضاع الكنيسة المسكونية، بحيث يمتنع الأساقفة، من الكبير إلى الصغير، عن ممارسة المحظورات، التي حرمها الآباء المقدسون، ويمكنهم بذلك الإصغاء إلى مثل، وشرائع، وآراء الآباء، والأخذ بها ومراعاتها تماشياً مع قول النبي: «حد عن الشر واصنع الخير. اطلب السلامة واسع وراءها»[المزامير: ٣٤/ ١٥]، ووقتها عندما يتملكون السلام في قلوبهم، فإن جميع الكهنة، مع رجال الدين قاطبة، والناس الواقعين في عهدتهم، سوف يقومون بشعور روحي واحد بتشكيل جسد سياسي واحد، ووقتها سوف تتحقق كلمة الرسول: «وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة» [أعمال الرسل: ٤/ ٣٢]، أو حسب تعبير الفيلسوف: «جميع الفضائل متحدة أقوى منها متفرقة وموزعة»، ويمكنهم وقتها من خلال تقواهم، وتواضعهم، وصلواتهم المتواصلة الحصول على هبة النصر الدائم على الكفار، من الرب، الذي عندما سأله سليمان منحه الحكمة وحدها، أعطاه أيضاً الذهب والفضة وبقية الثروات الدنيوية بحيث تفوق على جميع الذين سكنوا في القدس قبله.

وكون هذا الإجراء أمراً ينصح به، يمكن استخراجه من حوادث حروب يهوذا المكابي ذلك المحارب الرائع مع أخوانه، فطوال الوقت الذي اعتمدوا فيه على قواهم الخاصة استمروا في الاخفاق في القتال،لكنهم حصلوا على النصر عندما طلبوه من السماء، والتمسوه من الحاكم الأعلى على جميع الجيوش، وهكذا تحقق ما قاله الرسول:«لأن كل ما سبق فكتب كتب لأجل تعليمنا»(روما: ١٥ / ٤)، وعلى هذا

يتوجب علينا الافادة من حكمة الكتابات المقدسة، وليس من حكمتنا الخاصة، وذلك تماشياً مع نصيحة سليمان حيث قال:«يابني على فهمك لاتعتمد»(الأمثال:٣ / ٥)، وعلى هذا تأسس القانون الذي قال:«لايجوز لأي إنسان أن يعتمد على فهمه».

[15]: ولهذا ينبغي أن نسعى في سبيل سلام عالمي، وأن نلتمسه من الرب، وبذلك يمكننا بوساطة السلام، وفي حقب السلام الحصول على فضيلة كاملة، ومعرفة، لايمكن بوسيلة أخرى الحصول عليها، وقد أدرك الرسول هذا عندما قال:«وسلام الرب الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركم»(فيلبي ٤ / ٧)، أفكاركم التي هي نفوس منحت عقلاً، والتي هي بالعادة تتدمر بالحروب، ولاتنال الحماية، وكذلك بالفوضى، وبالتشاحن المتواصل في المحاكم، الذي بالسوء مثله مثل الحرب، ولهذا ينبغي على كل إنسان جيد أن ينأى بنفسه عن هذه الشروط بقدر الإمكان وأن يتجنبها، وعندما يضطر الانسان إلى اللجوء إلى هذه الوسائل، لأنه يكون غير قادر على انقاذ حقوقه بوسيلة أخرى، ينبغي أن يختصرها بقدر الامكان، وأن ينشد السلام وتحصيل حقوقه بهذه الوسائل، بقلب سماوي فقط، وهذا ما بشر به الفيلسوف عندما قال:«الحرب هي وفي نفسها خطأ فادح، وشر مستطير، وكل من يسعى وراء الحرب من أجل الحرب، يكون قد وصل إلى أقصى حالة الشرور»، ومثل هذا، لكن ليس بالدرجة نفسها من التطرف، شرور الصراعات الأهلية، والاضطرابات.

٢٨ — والهدف الذي نسعى إليه الآن، والذي هو غايتنا الرئيسية، هو السلام العالمي، وحسبما قال الفيلسوف:«غاية كل عمل ـقائمة أولاً في مقصده، وأخيراً في تنفيذه»، وعلينا أن نقوم أولاً بإزالة ـكل عائق في وجه السلام العالمي، واحتمالات فرص هذه العوائق، وبذلك نتبع الأسس التي عبر عنها الفيلسوف بقوله:«على كل من يؤيد توكيد هرقل

أن يتخلى ويتنازل عن كل شيء سيتخلى عنه هرقل ويتنازل لو أنه كان حاضراً»، أي عن كل سابقة ومحصلة للتوكيد، لأن التنازل، أو التخلي، عن أي شيء معارض للاقتراح الأول، سوف ينتهي بدحض مشين جداً.

٢٩[15] : يشغل الأسقف الأعلى(أي البابا) — مرآة الدنيا كلها — منصب بطرس المبارك أو كرسيه، وبطرس المبارك هو أمير الرسل، ونائب ربنا يسوع المسيح،المخلص والأب للأرواح كلها، وإذا ما أراد البابا أن ينقذ الأرواح كلها، ويحفظها ومن ثم إعادتها إلى أبي جميع الأرواح، عليه أن يسعى جاهداً إلى إز الة كل حرب من الحروب، وكل ثورة، وكل نزاع، وأن يعلن أن هذا ما ينبغي القيام به، كما يتوجب عليه أن يبدأ بنفسه وبأخوانه الكرادلة، والأساقفة، أي أن يقوم بامتثال ما قد كتب وينفذه وهو:«يسوع ابتدأ يفعله ويعلم به»، (الأعمال: ١ / ١)، وكما قال الرسول:«دعونا نعمل الخير لجميع الناس، بقدر ما نعمله لأنفسنا، ولاسيما للذين هم من أهلنا من أهل الايمان»، (غلاطية :٦ / ١٠، بتصرف)، وعليه أن يتفحص البطاركة، ورعاة الديرة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، وبقية الكهنة والذين يشغلون مناصب دوقيات، أو كونتيات، أو بارونيات، مع بقية ذوي المناصب الدنيوية، وأن يعرف كيف يعملون، وكيف ينخرطون في أعمال القتال، وكيف هم أنفسهم يثيرون الحروب، التي فيها كما نرى، يلاقي الكثيرون الموت بمشاعر دنيوية — حسبما يحكم الناس — وأيضاً بمشاعر دينية، وأن يرى كيف أن الأساقفة الذين يتورطون بالحرب، يكرسون وقتاً طويلاً للعناية بحروبهم، ويهتمون بها، أكثر من اهتمامهم بخلاص أرواحهم، وأن يرى كذلك كيف أنهم يبددون الكثير من الوقت والمال على هذا النوع من الأشياء، وبالتالي يخفقون في مراعاة ما كتب، حتى في القانون المدني، من أن الاهتمام بمصالح النفوس البشرية هو الأولى بأن يعطى الأفضلية على

كل شيء آخر، وفي البلدان التي لا ينشغل فيها هؤلاء الأساقفة بأعمال القتال، كما هو الحال في إنكلترا وفرنسا، يمكن للانسان أن يرى كيف أنهم يوقفون أوقاتهم على النزاعات الناشئة عن الممتلكات الدنيوية، وكيف أنهم أهملوا العناية بأرواحهم، وانصرفوا نحو أعمال التحكيم المتواصلة، وإلى إدارات الأموال، وإلى الذين يحيطون بالأمراء من أجل تعويضات معتدلة، وكيف أنهم يناضلون ويبذلون جهودهم في سبيل سادتهم وأولياء أمورهم مع الخاضعين لهم لكي يبددوا في هذه القضايا ممتلكات الكنيسة التي هي ملك لفقراء يسوع المسيح، وكيف أنهم يدفعون تعويضات وجوائز للمحامين، وللوزراء، ولقضاة القانون البشري أعلى بكثير مما يدفعونه إلى المختصين بالقانون اللاهوتي، وكيف أنهم يهجرون كنائسهم، ويترددون على القصور ورفقة الملوك من أجل أن ينالوا البراعة والخبرة في مناقشات المنتديات، وكيف أن التلاميذ الشباب، يقومون بعد مشاهدتهم لعادات ولأعمال الأساقفة، بإهمال دراسة الفلسفة، والقانون اللاهوتي، ويتدفقون جميعاً على مدارس القانون المدني، ولاينالون في هذه المدارس: بوساطة البراعة القانونية، المنافع الكبيرة فقط، بل الأسقفية العليا أيضاً، وهم بذلك إنما يحذون حذو الكثيرين الذين نجحوا في استحواذ الأسقفيات الكبرى من خلال معارفهم وممارساتهم للقانون المدني، أو لم نصل إلى نقطة بات فيها الكهنة النظاميون الذين يمتلكون معارف في الفلسفة والشريعة اللاهوتية هم قلة فقط؟

أولا غالباً ما يمضي الأساقفة وقتاً سنوياً أطول للعناية بالمسائل الدنيوية والاهتمام بها، والعمل بمزيد من الوقت من أجل منافعهم الخاصة في هذه المسائل أكثر من العمل من أجل خلاص الأرواح التي عهد بها إلى عنايتهم؟ وعندما يكون هناك كاهن كان قسيس كنيسة ثم صار أسقفاً، كم من المرات نراه مكرساً طاقاته للاستحواذ على منافع

دنيوية، بدلاً من أن يعمل أكثر من ذي قبل في سبيل خلاص الأرواح؟ أو لا يبقى الأساقفة، عندما ينشغلون بقضايا قضائية حول مسائل دنيوية، أقل نشاطاً أو بدون عمل تقريباً؟ أو لا يعيشون في رفاه عظيم، أعظم من رجال الدين الآخرين، وأعظم مما عاشوه هم أنفسهم قبل الوصول إلى منصب الأسقفية؟ وعندما يتولى الأساقفة الوعظ أحياناً والمطالبة بسلوك حسن، أو لا يحدث مراراً أن الشعب الذي يستمع إليهم، يقوم بتوجيه النقد إلى محبي القضايا القضائية المدنية واتهامهم، ومعهم المجرمين المدانون بالشره، والنهم، والظلم، أو لم يعتد الذين تعذبوا، أو أرغموا، على القول:«نحن نسمع هؤلاء الناس يتفوهون بكثير من الكلمات الطيبة، لكننا نراهم يفعلون العكس؟ ونستطيع نحن أن نشملهم بكلمات المخلص التي قال فيها:«على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون. فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون»(متى : ٢٣ / ٢ — ٤)و«من ثمارهم (أي من أفعالهم) تعرفونهم»(متى : ٧ / ١٦) وفي إشارة إلى هذا الموضوع قال الفيلسوف في كتاب القيم:«الذي يتفوه بكلمات طيبة ويصنع الشر يعبر عن نفسه ويعلن أنه معلم زائف».

٣٠[16]: ويتوجب على الأسقف الأعلى أيضاً أن ينتبه ويراقب كيف يقوم رعاة ديرة طائفة القديس بندكت — الذين يتوجب عليهم إدارة ممتلكات الدير والعناية بها — بالعيش بشكل عام في بيت الرب، وكيف يراعون بشكل عام أيمانهم حول الفقر،والرهبان الذين لايمكنهم الاستحواذ على أية ممتلكات خاصة من دون اقتراف ذنب عظيم، هم أثرياء، ويسعون وراء الحصول على الهبات في داخل الدير، وفي خارجه، ويعهدون بها إلى أصدقائهم، وعندما يموتون، يرث هؤلاء الأصدقاء الممتلكات مما يقود إلى دمار أرواح كل من المعطي والآخذ، ويعدّ الأكثر حكمة بين هؤلاء الرهبان، الرهبان الذين في أكياس نقودهم المال

الأكثر، وذلك مراغمة لأيمان رهبنتهم، ولدى هؤلاء الرهبان أيضاً خارج الديرة عدداً من الرعاة غير الديريين، يتعاملون برساميل كبيرة ويبذلونها، لصالح اثنين أو ثلاثة من الرهبان، فبعدما يزودوهم بالطعام وبالكساء، يقوم رعاة هذه الأماكن الملحقة بإيداع كل المتبقي في أكياس أموالهم، مع أنها من أملاك فقراء المسيح، ويستخدمون هذه الأموال الفائضة لتقديم دعاوى وشكاوى ضد رؤسائهم الديريين، أو لغايات شريرة، أو في أحسن الأحوال للحصول على إعفاءات من واجبات أخرى، حتى من أداء صلواتهم، فهم ماداموا يتولون مهام الرعاية،تراهم يتولون خرق أيمانهم وتعهداتهم، وهي ذنوب نادراً — أو مطلقاً — ما يقومون بالتوبة والاقلاع عنها أو بالاستغفار منها، في أوقات تالية.

٣١ : فضلاً عما تقدم غالباً ما يمارس الرهبان في هذه الديرة حياة كلها رفاهية، ومجون واحتساء للخمور، مع أشكال أخرى من حياة الفجور، وفي بيرغندي يترهبن أبناء النبلاء أحياناً، بقصد الحصول على الرعوية من هذا القبيل، ليتمكنوا ليس فقط من الحياة براحة لا بل حتى للحياة برفاهية في الجامعات، وقد سمع السيد البابا عن كثيرين ممن يفعلون هذا، ومن المعتقد أنه على دراية جيدة بهذه الممارسات من خلال حياته في المدن الجامعية، وكثيراً ما كان رؤساء الديرة مع المسؤولين الآخرين في الطائفة نفسها مهملين، تقاعسوا عن تقويم مثل هذه الشرور، وهم يترددون في تصحيح الأخطاء لخوفهم من المنازعات والخصومات مع الذين ينبغي أن لا يخافوا منهم.

٣٢ : زيادة على هذا، هناك عدد كبير من الرهبان الشبان، يثيرون المشاكل والخصومات، ومن ثم يكونوا راضين في إرسالهم إلى الزنزانات، فقط على أمل بعثهم إلى مثل هذه الديرة، حيث سيتملكون المزيد من الحرية ومن ثم ممارسة حياة كلها فسوق.

٣٣ [17] : وعلى السيد البابا أيضاً رؤية كم كثير من الحروب الكبيرة

والمرعبة، قد أنشبها أسلافه من البابوات، أو ما أن تفجر بعضها حتى أيدوها للدفاع عن ميراث بطرس المبارك، وكم هو كبير عدد الكاثوليك الذين أصدروا بحقهم أحكام الحرمان الكنسي والتكفير، لقيامهم بغزو هذا الميراث، وقد مات كثير من هؤلاء الكاثوليك وسط ذنوبهم، دون وجود أية علامة على التوبة والاستغفار، وعليه أيضاً أن يعرف كم هي المبالغ التي أنفقتها الكنيسة في مثل هذه الحروب، أو بسببها، ولربما تتطلع إلى إنفاق آخر في المستقبل.

٣٤ : وعلى البابا أيضاً أن يهتم بالأصوات التي ترتفع في كل مكان في الأراضي الخاضعة للكنيسة الرومانية، عندما يجري اتهام إنسان ما بالسيمونية.

أو لا ترون كيف يتقبل السيد البابا والكرادلة الهدايا من كل واحد أضفيت عليه المنافع، ولا سيما الذين منحوا منصب الأسقفية؟ وكيف يقومون من خلال عملائهم، بتدبر إقراض الأموال التي استخرجوها منهم، ولاسيما من الاعفاءات، إقراضها إليهم مقابل فائدة باهظة جداً؟ وألا ترون كيف، عندما يجري انتخاب اثنين إلى المنصب نفسه، وواحد منهما فقط يمكنه شغله، فيقومان بالعادة بتقديم التماس إلى مجلس الكرادلة، ثم بعدما يتحملان نفقات ثقيلة، ويمنحان الأعطيات، ويعانيان من المصاعب ومن المخاطر على الطريق، وعند الكرادلة، يجري رسم الاثنين وتسليمهما المنصب نفسه، وأحياناً يرغم أحدهما على التخلي عن حقه، ووضع القضية كلها بين يدي السيد البابا؟ وكيف اعتاد الناس على أن يؤمنوا للآخر كنيسة أو ديراً؟ وكيف أنه بات من عادة الذي هو من هذا القبيل، أن يستعد لأن يقدم إلى هيئة الكرادلة مبلغاً كبيراً من المال، يكون أحياناً سبعة آلاف، أو ثمانية آلاف، أو عشرة آلاف ليرة، يقترضه مقابل فائدة ثقيلة، يتولى تحصيلها، الذين يسمون أنفسهم بشكل مكشوف وكلاء البابا المصرفيين، ويقال بأنهم يتسلمون أموال

البابا، ويتولون العناية بها، ويقرضونها مقابل فائدة.

٣٥[18]: وعلى السيد البابا أيضاً أن يقدر أنه بما أن الكرادلة يشغلون مناصب عالية جداً، فإنه من الضروري بالنسبة لهم إنفاق مبالغ كبيرة من المال للمحافظة على مستوى العيش الحديث، وبالوقت نفسه ليس لديهم موارد البتة، تتناسب مع ألقابهم، لذلك بات من الضروري بالنسبة لهم — مثلهم مثل المرتزقة — أن يعيشوا من وراء السلب فكيف يمكن لهؤلاء الذين اعتادوا — أو أرغموا على التعايش مع مثل هذه الارغامات — أن يكونوا مقومين مناسبين للقاضي الأعلى، أو العمل قضاة تحت إدارته؟ ففي مثل هذه المسائل من المفترض أن يمارس الأغنياء استخدام سلطاتهم الرسمية بطريقة محمودة، والعكس هو الذي يمارس في قضية الفقير، لأن الفيلسوف قد قال«الأضداد تولد الأضداد وتسببها»، والذين يختلفون بشكل واسع يقدمون المتناقضات، وتفسد العدالة بشكل عام بوساطة الرشوة، والوساطات، والخوف، والكراهية ، والشره، وشرور مماثلة، وذلك حسبما تحدث آباء الكنيسة من خلال خبرتهم، وحسبما كتبوا في القانون الكنسي، وكل إنسان يعتقد ويقول:«الهدايا تقبل مشروطة»، ومثلما كتب المعلق على ابن رشد:«ما من شيء شاع بين الناس، كان كله زائفاً».

٣٦[19] :وهذه الذنوب والفرص من أجل اقتراف الخطايا، وكذلك الأشياء الأخرى تعرفها جلالتكم الملكية عظيمة التجربة، تمام المعرفة، وينبغي أن تجتث في المستقبل بشكل كامل،آخذين بعين التقدير الذي كتب في القانون الكنسي، والذي هو مقبول في كل مكان، والمقصود بذلك:«إن الذي يعمله الأساقفة يتخذ مثلاً يحتذى من قبل الرعية»، وإذا لم تعالج هذه الشرور، يمكن للظلم أن يظهر، عندما ينبغي أن تأخذ العدالة مجراها، ولسوف تهتز الأعمدة، وبذلك ستسقط الواجهة كلها، ولهذا كُتب:«إذا ما أذنب الكاهن المرسوم، فإنه سيؤدي بالناس إلى

الوقـوع بالخطأ»، ويمكن لـلأسـاقفـة، الذين ينبغي أن يبرهنوا على أنهم أنفسهم أطبـاء النفـوس بالقـول والعمل، أن يسببـوا انتشـاراً واسعـاً للمـرض نفسـه الذي يتـوجب عليهـم معـالجتـه، فلمعـالجة مثل هذه الأمـراض أطلق عليهم اسم آباء الأرواح، وجـرت ترقيتهم إلى مناصب رفيعة، ومن ثم منحوا كل شيء جيد في هذا العالم.

افترض أن طبيباً تعين لمعالجة الابن الوحيد للملك وولي عهده،لا بد من أن يتلقى كثيراً من الجوائـز، والترقيـات، والتشريفـات، ومثله حـال أسقف من الأسـاقفـة حيث يتلقـى مـا يتلقـاه من أجل حفظ الأرواح، ولنفترض أن الأسقف وقتهـا سوف يجلس أمـام المريض الشـاب فمن خلال إهماله سيكون سبباً لمرضـه، ومن ثم سبباً لوفاته، عن طريق شربه أو أكله بحضـــوره شيئاً رغب الطفـل بتناوله، غير أنه كـــان قـــاتلاً له، وافترض أن الصبي قام بتقليده، وخيل إليه خطأً أنه سوف يكون أقوى بتناوله الطعـام والشراب الذي يتمتع به الطبيب، أو أن يقوم بتـذوق ما هو محظـور، ويكون هذا سبباً لمنيته، فما هو وقتها واجـب الملك وحقه نحـو مثل هـذا الطبيب،ألا ينبغي أن يقـول نه:«لقـد حـرمت على ابني تناول الطعام والشراب المميت الذي رغب به، لكن لأنك تذوقت ذلك بحضوره فإنه رغب بذلك أكثر من ذي قبل، لأنه وثق بأعمالك أكثر من وثوقه بكلامك، ولقد تذوق ذلك، ومات من هذا السبب، أو لا تعرف أن الذي يهيء الفرصة للأذى يعد مسـؤولاً وكأنه مارس الأذى بنفسه؟ وأن التعليم بالأفعـــال أفضل من التعليم بـالكلمات؟ وأوليست قـــوة الرغبـة عندما يكون مـوضوعهـا مرئيـاً، أكثر إثارة ودفعـاً منها عندمـا يكون مـوضوعها غير مـرئي؟ أو لم تلاحظ هذا الشيء في ميـول فحول الخيل والثيران نحـــو الإناث مـن جنسهـــا؟ أو لم تقل الكتـــابات المقـدسـة:«رفقـة المرأة واصطحـابها ينبغي استبعـادهـا حتى يكونوا أقل رغبـــة»، ولقـد أجـزت نفسك لدي على أنـك بارع ومجرب، غير أنك

أذنبت بحقي في هـذا، فقـد أقمت الفـخ الذي تذوق فيـه ولدي هذا الطعام المميت، ومات منه، فأنت مسؤول أخلاقياً من أجل موته، ولهذا ينبغي أن تموت»، فمن الذي يمكنه أن يقول بأن الملك حكم بشكل غير عادل في هذه المسألة؟.

أولا نرى بوضوح بأن الأساقفة غالباً ما يكونون متغيبين ومهملين القيام بواجب العناية بالمسائل الروحية، بسبب إنشغالهم بالمسائل الدنيوية التي هي ذات محصلات وفوائد قليلة، والتي بدونها سوف يعيشون مهما كانت الأمور — بشكل جيد؟ أولا تراهم يبدون اهتماماً أكبر وعناية أعظم بالذين يدافعون عن مصالحهم الدنيوية، من الذين يهتمون بمصالحهم الروحية، أو لا يجيزون هؤلاء بجوائز أكبر، وهم لم يعتادوا على فعل ذلك بشكل علني؟.

(٢٠) وعندما يرى رعاة الأرواح الأدنى مرتبة رؤساؤهم يتصرفون هكذا، أولا تراهم يميلون إلى تقليدهم وفعل الأشياء نفسها، لكن بطريقة فجة أكثر، أولا يتماشى هذا مع مبدأ أن اليقظة تجذب يقظة، وبالتالي يوّلد الإهمال الإهمال؟ أولم يقل المخلص:«لأنني أعطيتكم مثالاً حتى كما أحببتكم أنا، تصنعون أنتم أيضاً»(يوحنا :١٣ / ١٥)، وإلى هذا أشار الرسول بقوله:«ينبغي أن يكون كل عمل من أعمال المسيح أمراً لنا»، أولايتوافق القانون المدني مع هذا عندما يقول:«ليس مهماً فيما إذا عبر الشعب الروماني عن إرادته بالكلمات أو بالأفعال نفسها، والحقائق هي ذاتها»؟ أو لاينبغي على الأساقفة أن يكونوا متيقظين — كما يقول القانون — من أجل أنفسهم، خشية اقترافهم للخطأ، وخشية أن يبدون صناعاً للخطأ، وبذلك يجلبون لأنفسهم سمعة سيئة؟ ومن أجل الذين عهد إليهم بأمر العناية بهم، ومن أجل جيرانهم، وأقربائهم، خشية أن يقلدهم هؤلاء ويحذون حذوهم.

أولا نعرف — تبعاً لما بشر به الآباء المقدسون — أنه ينبغي أن

تتضمن أعمال الأساقفة الأشياء التالية، وهي قراءة الكتابات المقدسة وتعليمها، وأن يزيلوا بصلواتهم ذنوب الرعية التي وضعت تحت عنايتهم، وفي حالات الذين لا يكون هذا الاجراء كافياً، يتم اللجوء إلى اللوم والتأنيب، والتقويم، ومعاقبة الذنوب المعروف والمتداول أنها اقترفت، تاركين الذنوب الخفية إلى حكم الرب وحده؟ أولا نرى أن الأساقفة الكبار غالباً ما يتوقفون عن أداء واجباتهم ، لأنهم يكونوا مشغولين بالمسائل الدنيوية؟ أولا نرى أي نوع من أطباء الأرواح اختار هؤلاء الرجال ليكونوا معاونين لهم، وبأي اعتبارات قد تأثروا، مع أنهم يعملون في هذه القضية عوضاً عن الرب؟ ثم ما هي سمعتهم وما هو احترامهم؟ أو لم يحلوا روابط الدم، والروابط الاقليمية، والخدمات الدنيوية، فوق العقلانية، والحكمة، والخبرة، لدى الأطباء الذين عينوهم مكانهم؟، وبناء عليه أولايتبصرون ويرون كيف يمكنهم السداد إلى الرب الواحد، عندما يكونون مرضى تماماً، ويسعون لتأمين خدمات هذا الطبيب الفرد، وأولا يحق له الذي زودهم هكذا بالواحد المتوفر، أن يطلب تزويده بقبول الشرط الذي تسلموه من المسيح، الذي يرى الجميع؟.

افترضوا وجود ملك أو امبراطور كان على وشك الشروع بحرب كبيرة، فيها مخاطرة بفقدانه مملكته أو امبراطوريته، إذا ما أخفق بالحصول على النصر، وافترضوا أيضاً أنه يمكنه اختيار قائد فرد واحد من أجل هذه الحرب، وأنه سيعهد باختياره لواحد محدد من بين رجاله كان قد أعطاه عطايا كثيرة، مثل أنه كان رجلاً فقيراً جداً، فرقّاه لأن يكون رئيس أساقفة كرسي كولون بوساطة الامبراطور، ولنفترض أن رئيس الأساقفة ذاك، الذي سيكون اختياره ضرورياً للدعم — مهما كانت النتائج — سوف يرى أن قائد الحرب ذاك سيغتني كثيراً، وافترضوا أنه على هذا الأساس وقع اختياره على شاب قريب منه برابطة الدم، أو

بالخدمة، أو بالقومية، وأهل بذلك رجلاً مسناً مجرباً، قد اعتاد على أعمال الحرب، لكنه لم تكن له روابط برئيس الأساقفة، لو أنه قام بهذا الاختيار، وفضل غير المجرب على الرجل المجرب، والجاهل على الرجل الحكيم، أو لن يلعن من قبل كل إنسان؟.

أو لم يعهد المسيح — أبو الأرواح كلها، وهو راغب أن يكونوا جميعاً منتصرين في الحرب ضد الشيطان — باختيار القادة لهذه الحروب التي هي من أخطر الحروب إلى الأسقف الأعلى، الذي هو نائبه الممنوح سلطات واسعة جداً، ودعا الأساقفة الآخرين كل حسب حصته من المهمة، وكل أسقف في أسقفيته الخاصة، وإذا ما قام هؤلاء الأساقفة بأعمال اختيار غير عقلانية حكيمة بسبب اعتبارات دنيوية، وإذا ما رفضوا الشخص المنتخب انتخاباً صحيحاً، من أجل تأمين العمل والمنافع لشخص آخر، يحبونه أكثر، أولأنهم يتوقعون أن ينالوا منه الجوائز، وإذا ما أخفقوا في تزويد الكنائس وإمدادها برجال أحسن، لأنهم يفضلون آخرين لأنهم يعلمون أنهم أقل فضلاً، وسمحوا لأنفسهم بأن تقتنع باعتبارات غير اعتبارات إنقاذ الأرواح، أولا يمكن للمسيح وقتها أن يدينهم بدون أدنى شك باقتراف جريمة عظمى ضد الرب؟ ولقد أغنى المسيح الأساقفة إلى حد كبير، إلى درجة أنهم لن يجدوا مسوغاً للحديث عن نقص بالممتلكات الدنيوية، ولا أن يتأثروا بأي مقدار للاتجاه نحو مثل هذا الاختيار، بموقف السواد الأعظم من الناس ورأيهم، أو ليس من الممكن للأسقف المتقدم ذكره، أو الدوق، أو الكونت، الذي اغتني بمثل ذلك، لأنه الذي عهد إليه باختيار القائد، أن يعدّ منطقياً مجرماً ـ جريمة عظمى بحق الرجل وضده عندما يعاني قائد الحرب من هزيمة مأساوية، بسبب اضطرابه، وطريقته غير المجربة في تنظيم الجيش وقيادته؟.

٣٧ : أوليس صحيحا أو حقيقياً أن المؤامرات الخطيرة التي تفجرت

في كنيسة الرب، وبين الشعب المسيحي كله هي من نوعية طريقة الحياة التي مارسها الأساقفة المتقدم ذكرهم، والرهبان، والساقطين الآخرين والمتجاوزين؟ أولم يقل الرسول حول هذه المسائل:«إذا كان أخي يعثر، فلن آكل لحماً»(كورنثوس :٨ / ١٣) وأولم يستشر مصنف القانون كلياً بهذا فقال:«لكي تتجنب العثار، ينبغي أن يكون كل شيء يتوجب القيام به أو إسقاطه هو الذي يصنع أو يسقط من دون اقتراف ذنب عظيم»، ونقرأ في مكان آخر من القانون:«حتى ينقذ الانسان حياته الدنيوية على المرء أن يفعل كل مايمكنه فعله دون أن يعرض للخطر حياته الأبدية، لأنه لا يجوز لأي إنسان من أجل إنسان آخر، أن يعرض نفسه لاقتراف ذنب عظيم، يتلقى بسببه عقوبة أبدية».

إذا أمكن تجنب الفضائح داخل جماعة صغيرة، وإذا أمكن من أجل هذه الغاية أن يصنع ما ينبغي صنعه، أو أن يترك بدون صنع، الخ، كم هو أهم تجنب الناس الفضائح في أسقفيه، أو في مقاطعة أو حتى في مملكة كاملة؟ أو ليس يظل أعظم أهمية أن يتجنب الناس الفضائح، أي جميع الناس الذين هم رعايا للكنيسة الرومانية، وأن يتجنبوا سوء السمعة، الأمر الذي يمنح الجميع الفرصة للتخلص من سوء ما اقترفوه؟

٣٨ [٢١] ومن هو هناك، عارف بشكل جيد بالأحوال الحالية في الكنيسة المسكونية ومدرك لأوضاعها الفوضوية في القضايا المعروضة أعلاه، والتي هي متباينة تماماً، وتختلف كلياً عن الأساس الذي وضعه أباء الكنيسة المتعلمون والمقدسون، ولايعتقد أن الصلوات الحارة والأدعية العالمية التي تتدفق على الرب من أجل عون الأرض المقدسة، سوف تكون فعالة أكثر بكثير من ذي قبل، لو أن الأوضاع المتقدمة الذكر في الكنيسة المسكونية جرى اصلاحها؟ ومن المؤكدأن الأدعية المخلصة للأساقفة، ورجال الدين والناس جميعاً هناك حاجة إليها من

أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، فالقدرة البشرية لن تكون كافيـة، ولا الأسلحة الدنيوية والسيوف، وهذا هو مقصـد القانون الذي حـذرنا بقـوله: «أعطي الناس بسبب ذنوبهم حكامـاً فاسـدين أحيـانا، وأساقفة أشراراً»، ولأن ذنوب الناس تقـف معترضة في الطريق، فهؤلاء الناس غير جـديرين بأن يكـون لهم حكامـاً صـالحين، ولا أسـاقفـة مستقيمين، وتتـوافق الشريعـة الربانيـة مـع هذه المقـولة، عندمـا تقـول: «بسبب ذنوب الناس، سأجعل المنـافق حـاكماً»، وبناء عليـه عندمـا نرى أمراء أشراراً، وأساقفة فاسدين، من المحتمل كثيراً أن هذا بسبب ذنوب الناس»، ومثل هذا، وللسبب نفسه، قد نكـون متأكدين أكثر، أن الناس أشرار، بسبب ذنوب الأسـاقفـة، والمثل الشرير الذي يضربونه،وذلك أن الناس يستندون إلى أفـعالهم أكـثر من استنادهم إلى أـقوالهم، وذلك على عكس ما شرعه الرب ودعا إليه عنـدما قال: «على كرسي موسى جلس الكتبـة والفريسيـون. فكل ما قـالوا لكم أن تحفظوه فـاحفظوه وافعلوه، ولكـن حسـب أعمالهم لاتعملـوا لأنهم يقـــــولـون ولايفعلـون» [متى:٢٣/ ٢—٣] .

٣٩ [22]: إن مـا تقدم وكـذلك المناسبات الأخـرى من أجل هلاك الأرواح، وأيضـاً العـوائق التي تقف في وجه استرداد الأرض المقـدسـة والحفاظ عليهـا، معروضة أمام تقـديركم الدقيق، وإذا — كما هو معتقد بشكل عـام— كـان اقتراحكم للعمل بشكل فعـال مـن أجل مثل هذا الاسترداد والحفاظ، صـادر فقط عن حماسكم من أجل نيل جزاء أبدي، لعل يرضي جلالتكم الملكيـة العالية التجـربة، التلطف بطلب العون من الأب الأكثر قـداسة، كليمنت السيد الحاكـم، والذي هو بفضل الحكمة الربانية هو الحبر الأعظم للكنيسـة المسكونية الرومانية المقـدسة، والذي يعتقد أنه منصرف نحـو عون تلك الأرض والاهتمام بها أكثر من جميع المسـائل الأخـرى، أرجـوكم، التمســوامنه، أن يكرس نفسـه لإصـلاح

أوضاع الأساقفة، والناس جميعاً وكهنة المسيحية جميعاً، من أجل أن يتحدوا بفضائلهم الدينية والدنيوية، (وهذا ما ينبغي أن يفعلوه)وأن يتكرسوا روحياً ودنيوياً، بالقتال بشكل متواصل، فبذلك سيكون من الممكن — بفضل الرب— تسريع نيل تلك البلاد بوساطة نصر يدوم بشكل مستمر، على أعداء الإيمان الكاثوليكي.

ومن مثل سليمان يبدو أن هذا ممكن الصنع، بوساطة سؤال رب الجيوش إعطاء الحكمة الحقيقية والوحيدة، ولسوف يمنحنا هذا، إذا لم نطلب— وينبغي أن لانطلب— المزيد من واردات الذهب والفضة، بل السلام الحقيقي في القلوب والأجساد، ومن ثم سلام المعرفة، وفهم وإدراك كامل، وكذلك فضائل أخلاقية.

٤٠ [23]: وينبغي أن يكون السعي للوصول إلى غاية اصلاح الأوضاع مسعى تقوياً عالياً، والحبر الأعظم مثقل جداً، ومشغول كثيراً بالعناية بالمسائل الروحية، إلى حد أنه من الصعب أن نتصور أن لديه متسعاً من الوقت لإدارة أموره الدنيوية من دون الحاق الضرر بواجباته الروحية، ولهذا يتوجب أن يعهد بادارة شؤون الحاصلات، والموارد، والدخل الذي يبقى بعد أعمال الانفاق وبعد دفع الأجور المعتادة وحسمها، والذي يصله بشكل معتاد، ويبقى بين يديه، إلى ملك كبير، أو أن تحول إلى أمير كبير، أو إلى أشخاص آخرين لتكون بمثابة وقف دائم، ويتوجب اتخاذ الاحتياطات المحكمة، حتى يمكن التفكير باتخاذ ضمانات من أجل البابوات المستقبليين، بحصولهم على عطاء سنوي دائم وبدون نقصان، وينبغي أن يحصل الدفع في أحواز ميراث الوقف البطرسي، وذلك حسب الوقت الذي يراه مناسبا، أو يقوم باختياره، وعندها ينبغي للبابا، الصانع للسلام العالمي والمرتقي به، أن لايقوم بإثارة الحروب، وأن لا يكون سبباً لموت الناس فجأة، أو للموت في حرب مرعبة، وسوف يكون لديه وقت وافر للصلاة، ولأعمال

الاحسان، وللدراسة، وللقراءة، ولتعليم الكتابات المقدسة، ومن أجل اصلاح الذين هم دونه، ووقت وافر لإدارة العدالة، ولرؤية أن العدالة تقدم إلى جميع الكاثوليك، ووقت وافر لتأمين سلام دائم إلى جميع المؤمنين بالمسيح، وبذلك يمكنهم العيش بسلام أحدهم مع الآخر، وأن يجاهد بأمانة من أجل استرداد ميراث الرب المصلوب وحمايته، ولن يجاهد البابا المقدس بعد هذا من أجل جمع الثروات، ولن يعاق في تأديه واجبه بالعناية بالأشياء الروحانية، ولسوف يمارس حياة تأملية، وكذلك حياة نشطة، بعون الرحيم معطي جميع الأشياء الجيدة.

٤١[24] : على السيد البابا أن يتقصى أيضاً حول دخل الكرادلة والموارد المالية المتنوعة التي يتمتعون بها بلا مساءلة أو ريبة، أو فضائح أو عار، وعليه أن يفرد لهم— وهذا ما يستطيعه بكل سهوله— ما يكفيهم للعيش من وقف ميراث بطرس المبارك، في ظل شروط مشابهة لشروطه، وإذا ما تبرهن عدم كفاية ذلك، يمكن للسيد البابا أن يحصل لهم على تعويض كاف من أملاك الكنيسة المسكونية، وبالتحديد من أملاك الديرة المعفاة، وأملاك الأساقفة الذين يتلقون سيامتهم ومباركتهم من الكرسي الرسولي، ومقابل هذا يمكن لهؤلاء الكرادلة أن يوفروا على أنفسهم الانشغال بخدمات عديدة، وبنشاطات كثيرة، مما اعتادوا على القيام به في مجلس الكرادلة، وكذلك الاهتمام بقضايا الانفاق، مادام ذلك قد سحب من مجلس الكرادلة، ولن يعودوا بحاجة بعد الآن إلى مقاربة هذا الموضوع من أجل هذا الغرض، ويمكن أيضاً للكنيسة المسكونية أن تسهم في مسيرة معايير النظام الجديد الذي يجري تفحصه من أجل أن يكون نافعاً للكنائس، ولسوف يضع هذا حداً للقضايا المديدة المتعلقة بالمرشحين في الانتخابات والطلبات الأخرى لمجلس الكرادلة، التي غالباً ما يجري الاحتفاظ بها هناك لمدة طويلة بسبب الهدايا التي يستمرون بمنحها، ولقد اعتاد هؤلاء الكرادلة على

الانفاق على مراكزهم والاحتفـاظ بها من خلال هذه الهدايا غير المنتظمة والرسوم.

٤٢[25] :وبعد تنفيـذ هذه الاصلاحات، ينبغي اتخاذ قـرار أنه إذا ما قام البابا أو الكرادلة بتحصيل هدايا أخـرى إضافية، ينبغي انزال عقوبة قـــاسيـــة بهم، كما أنـه لايجوز لهم الاحتفــاظ بالهدايـا إذا منحت لهم، والمتوجب هو انزال أقسى العقوبات بمقدمي الهدايا وبالذين يتسلمونها، وينبغي أيضاً تحديد عدد المطايا مع الخدم لدى الكرادلة.

وينبغي أيضاً الإعـداد بوجوب تخصيص جـزء من ممتلكات وأوقاف جميع الكرادلة المتـوفين والأسـاقفـة، من الكبير إلى الادنى، وأن يكرس هذا الجزء ليضاف إلى التمويل المعدّ من أجل الأرض المقدسة، حتى يتم تحريرها بـالكامل، وتحصينهـا كليـاً، وإلى هذا ينبغي أن يضـاف جميع الممتلكات العـائدة إلى رجـال الكهنوت الذين يتـوفـون بدون وريث أو وصية.

٤٣ : وينبغي أيضـاً أن يطلب من جميع رجـال الدين المنتفعين إعطاء ربع ممتلكاتهم إلى التمويل المذكور.

٤٤ : كما ينبغي أن يحول إلى التمويل المذكـور جميع الأملاك المهجورة، أو التي ليست داخلة ضمن ملكية واحد من الأفراد، أو التي هي محولة إلى شخص غير معروف، أو هي ديون غير مقرر أمرها لأنها حق لأناس ميتين من غير الممكن ايجاد ورثتهم، أو هي منـح صـارت إلى أشخـاص غير معروفين، وتركـت بدون مالك محدد، وأملاك أخـرى لايمكن بأية طريقة الاحتفاظ بها أو الحصول عليها من دون إلحاق الأذى بإنسان ما.

٤٥[26]: وينبغي أيضـا العمل على تحويل وقف مـواريث عـدد من الأسـاقفة، لأن هذه الأوقـاف قد استحـوذوا عليهـا من أجل خدمـات عسكرية، وأمكنهم المقـاضاة من أجلهـا في المحاكم المدنية، نعـم تحويلها

بالطريقة نفسها إلى لجنة وصاية وحفظ مناسبة، مقابل عائد مالي سنوي دائم، وإذا لم يمكن إيجاد المستحقين الحقيقيين لهذه الأوقاف على الفور، ينبغي تسلمها ووضعها مع دخولهم المقررة تحت الوصاية لمدة سنتين أو ثلاث سنوات، من أجل التمكن من معرفة قيمتها بشكل أفضل، وبذلك يمكن تجنب امكانية التزييف بتقدير القيمة من قبل الذين حولوا المواريث إلى شكل دائم، وعلى كل من يتسلم اقطاعات عائدة إلى أساقفة، أن يسجلوا أملاكهم الخاصة لتكون بمثابة ضمان إذا لم يقم بدفع الاعانة السنوية المتفق عليها، يجري تحويل الضمان إلى الكنيسة ليكون ملكاً دائماً لها، وسيضمن هذا الاجراء الكنيسة من التعرض للخسارة في دخلها بوساطة التزييف.

وفقط لو أن العدو القديم أخذ يعاني، من المتوجب تنفيذ هذه الاصلاحات، فوقتها سيرى أنه قد خدع بهذه الأعمال الإجرائية، وأن أحابيله، وإغواءاته قد أعيقت بذلك كثيراً، وإذا ما امتلك الأساقفة بوساطة هذه الإجراءات، دخلاً أقل من ذي قبل، فإنهم لن يخسروا شيئاً لأنهم سوف يوفرون أكثر بكثير— حتى من الجانب المالي— عن طريق رواتب المحامين، والوكلاء، وفي النفقات الشخصية من أجل رؤساء المحاكم، ومسائل أخرى كثيرة، هم بالعادة يثقلون بها بسبب أراضيهم الموروثة.

وبعد تفحص هذه الاقتراحات بعناية— مثلما فعل كاتب هذه الرسالة شخصيا، وتفكر فيها— لاشك أن الأساقفة سيكونوا قادرين على استغلال هذه الاصلاحات من أجل زيادة الموارد العظيمة التي تتدفق على أكياس نقودهم، إلى حدود لم يتمعوا بها حتى الآن، ومع ذلك سوف يتمتم بعضهم— وقد أثارهم الشيطان— ضد هذه الاقتراحات، ويسعون عبثاً للحصول على مسوغات وأعذار كلامية وفذلكات أخرى حتى يتمكنوا من تجنبهم: آمل من الذي يعرف الأشياء

جميعاً منذ الأبدية، أن يتفضل بنعمته بالقتال ضد هذه الاعتراضات.

وبهذا الاصلاح، سوف يجد بعض الأساقفة الذين اعتادوا على الانفاق على عشرين أو أكثر من عشرين من الحاشية والخدم، وعلى نفقات أخرى كثيرة، سوف يقتصرون على الانفاق على أربعة.

وسوف يكون بعض المحامين العاملين في المحاكم المدنية هم الأكثر خسارة بهذا الاصلاح، لأن الأساقفة، الذين سوف يستحوذون على أوقافهم من الآن فصاعدا على شكل مبلغ سنوي محدد، لن يكونوا بعد الآن مسؤولين عن الدفع لهم الرواتب المعتادة والنفقات الأخرى، التي اعتاد هؤلاء المحامون على تسلمها من مصادر كثيرة، وبطرق متعددة مباشرة وغير مباشرة.

٤٦[27]: وإذا ما تحققت هذه الاصلاحات فإن جميع مصالح ومنافع الذين يعبدون المسيح سوف تكون قد تأسست بمثابة هدف واحد هو ذلك الهدف، وبذلك يتجنبون نشوب النزاعات ووقائعها، ولسوف تتوجه جميع جهودهم نحو دعم الايمان المسيحي والرفع من شأنه، وسوف يكون هذا متماشياً مع المنطق لأن الفيلسوف يقول: « العالم هو وحدة، مثلما الجيش هو وحدة»، ويعدّ الجيش وحدة بسبب اتحاد تنظيمه، لأن هدف الجيش الذي يسعى إليه القادة، ويعملون من أجله هو النصر، وعلى كل رجل في الجيش أن يأخذ بهذا الهدف ويناضل بكل قواه من أجل الوصول إلى هذه الغاية، وإذا ما نفذ هذا كما ينبغي، فنادراً — إن لم يكن مطلقاً — ما سيخفق الجيش في مساعيه وتحقيق أهدافه.

ووفق هذه الطريقة ينبغي توجيه قوى العالم نحو هدف واحد، أي نحو الخالق الجبار للسموات وللأرض وللأشياء كلها، وحسبما يقول بوثيوس Bothius كل إنسان يسعى من أجل هذا الهدف، غير أن عدداً كبيراً من الأشخاص الأشرار يقترفون الخطأ، وينشدون ذلك

الهدف في الحانات، وفي بيوت الدعارة، وفي أعمال اللصوصية وفي النهب، وفي السيمونية، وفي الأعمال الأخرى غير القانونية، ويقترف هؤلاء الأشخاص الأخطاء باتساع، ومثلهم مثل الذي يسعى لاصطياد السمك في الجبال، ولصيد وحوش الأرض في البحر، والذي ينشد ذلك الهدف، ويبحث عنه حيث هو يجده، وبما أن هؤلاء هم — أو هكذا ينبغي — أكثر الناس كمالاً، مثل الأساقفة، عليهم السعي وراء هذا الهدف ونشدانه لا في الحروب، ولا في الأعمال القضائية، ولا في المشاحنات، ولاسيما حول المسائل الدنيوية، بل في قراءة الكتابات المقدسة وفي تعليمها، وفي الصلوات، والأعمال المتعلقة بيوم القيامة، وذلك حسب طرائق مريم ومرتا، والذي عليهم السعي في سبيله هو السعادة الدينية والدنيوية، وذلك حسب عبارة الفيلسوف، وإذا ما قاوموا الاصلاحات المقترحة، وناضلوا من أجل العودة إلى مشاحناتهم الدنيوية، ومشاغلهم الآنية، فإن الكلمة التي قالها المخلص عن مثل هؤلاء الناس يمكن تطبيقها عليهم، وأعني بذلك قوله:«ليس أحد يضع يده على المحراث، وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الرب»،(لوقا: ٩ / ٦٢).

٤٧ [28] : ولسوف يكون هذا الاصلاح ممجداً جداً، ومتوائماً مع أوامر الرب القدير،«الذي ينبغي أن يكون عمله أوامر بالنسبة لنا»، وذلك تماشياً مع قول الرسول، ذلك أن هذا العمل يمكن البرهنة على أنه حاسم.

وإنني أعتقد أن ما كتب في العهد القديم هو نموذج وأساس للعهد الجديد.

وأعتقد أبعد من هذا بأن الرب أعطى أرض الميعاد — التي صارت تعرف بالأرض المقدسة، لأنها تقدست بحضور الرب وعمله ودمه بها — إلى الأسباط الاثني عشر من بني إسرائيل، لأنهم خدموه، وحافظوا

على عقيدته، وشريعته ووصاياه.

وأعلن أيضاً عن إيماني بحقيقة أن أبناء لاوي من كهنة ولاويين، قد بشروا بشريعته وراعوها،وخدموا الرب بعناية أكبر من الآخرين، ومع هذا قضى الرب أن يكون لهم حصة في توزيع هذا الميراث، بل أمر يوشع بتقسيمه بين الأسباط الأحد عشر، وجرى تعيين سبط لاوي للقيام بعبادة الرب، وتوجب عليه أن يرضى بنيل عشر حاصلات الأسباط الأخرى، وقد فعل هذا حتى لا ينشغلوا ويبتعدوا عن عملهم اللاهوتي بالعمل في زراعة الأرض.

٤٨: وبناء عليه إذا ما حصل الأساقفة مقابل ميراثهم الوقفي على ما يكفيهم من المال للعيش — بالحقيقة بقدر ما كانوا يحصلون عليه من قبل بعد اقتطاع النفقات والرسوم المعتادة وإذا ما رفضوا هذا بسبب أنهم ربما يمكن أن يحصلوا على ثلاثة أضعاف أقل مما اعتادوا الحصول عليه في ظل النظام القديم،(وهذا ما لا أعتقده، لكنني مقتنع تماماً أنهم سيحصلون على دخل أكبر من ذي قبل)أو لن يكونوا غير متوائمين مع قواعد تعاليم الرب؟ وإنهم إذا ما وضعوا جانباً تعاليم الرب وحكمته، بسبب أن موقفهم يسير بالاتجاه المعاكس، أو هو مضاد لأعمال الرب ولتعاليمه، أو لن يرفضوا بحق من قبل الرب الذي سوف يقول لهم:

«لقد رفضتم الفرصة التي قدمت من أجل خلاص أرواحكم، وخلاص أرواح الذين أنتم مسؤولون عنهم، واخترتم طريق الهلاك لأرواحكم، ولأنكم هكذا، انظروا إلى الخلف، فأنتم لاتستحقون ملكوتي، وبتصرفكم هكذا أنتم لم تصغوا إلى أوامري، ومبادئي، وآرائي، وقد رفضتم أن تحبوني، وأن تحبوا جيرانكم من كل قلبكم، وسعيتم وراء تسويغ لإخفاقكم الواضح في أن تحبوا من صميم قلبكم، وإنكم لم تدركوا أن الفيلسوف، الذي يستخدم المنطق المجرد قد كتب:«الذي يقدر التهنئة من أجل سعادته التأملية، يستحق الطعام، واللباس،

والأشياء الأخرى الضرورية لقوام الحياة، لكن لبس هناك من حاجة لأن يكون سيد البر والبحر»، وإنكم حتى لم تدركرا أنه في قانون الآباء المقدسين، قد ضرب مثل جيد بسقراط، ذلك الرجل الذي جاء من طيبة، وألقى الثروات في البحر، من أجل أن يتمكن من التفكر والتعبد وهو غير مشغول البال، وهو لم يرفض الشروات فقط، بل إنه لم تتوفر لديه الرغبة فيها، مع أنه كان مشغولاً دوماً بالمشاحنات، والمحاكمات، والحروب، ولقد رفضتم ثروة سلام ستكون بدون أدنى شك أقل إعاقة للتأمل».

فكيف يمكن للأساقفة أن يجيبوا، وكيف يمكن لهم أن يسوغوا أنفسهم، إذا ما رفضوا القيام بتنفيذ اقتراح الاصلاحات؟.

[29]: وإذا ما جرى تبني هذه الاقتراحات، لن يتمكن أعداء السلام، كما يبدو، من تقديم مسوغات مقبولة لإعاقة مثل هذه الاصلاحات، ولسوف يشعرون بالاحراج، ومن المحتمل كثيراً أنهم سيخدعون برغباتهم، وذلك على الرغم من قدرتهم على رؤية كل شيء وتذكره في الحاضر، وفي الماضي منذ بداية الدنيا، وإذا ما حاول أي إنسان الاعتراض، سوف توجه إليه النصيحة بأن يقوم بمحاولته بحجة تعدد القراءات، وأخطاء النساخ في الكتابات المقدسة، علماً أنه لا يمكن نشر الكتابات المقدسة، من دون أن تكتب في أوقات مختلفة، حتى من قبل الكاتب نفسه، ولا من دون أخطاء إضافات أو حذف، وذلك حسبما يقول القانون المدني، ومرد هذا إلى وثام الحركات في السموات، مع تبدل توجهاتها، وكذلك إلى الأجسام السماوية،ولكن بما أنه بالنسبة للهدف الذي ننشده«لايوجد تغيير، ولا أثر للتبديل» فإن الأساقفة لن ينظروا إلى قراءات متنوعة، وإذا ما رغبوا في استخدام وسائل المقارنة هذه، ولسوف يجري توجيههم من قبل المنطق الصحيح، وليس بالأمثلة، والقول:«لقد تولى آباؤنا المقدسون الكثيرون، وأساقفة الكنيسة

الرومانيَة المقدسة، والكنائس الأخرى، والذين كانوا أقدم منا وأكثر حكمة، تولوا إدارة المواريث الوقفية على هذه الشاكلة، ونحن نرغب في تقليدهم بالعيش، في ولاية المواريث الوقفية بالطريقة نفسها»، ومن الممكن إجابتهم كمايلي:«هذا ليس بقياس، لأن الآباء المقدسين كانوا من ذوي العزم، وقد أداروا شؤونهم الدنيوية والدينية بشكل مقنع، وعندما تتبع المحدثون مثلهم كان ما فعلوه هو زيادة المشاحنات زيادة كبيرة وذلك مع الأخطاء الانسانية، ووفقاً للقانون المدني ليس علينا إعطاء اعتبار«لما صنع في روما، ولما لم يصنع، بل علينا أن نهتم بما صنع، وبما ينبغي أن يصنع»، و«علينا أن لا نتردد في تبني طرائق جديدة، عندما تكون فوائدها واضحة».

[30] أو لم يقل ابن رشد بأن العرب قد عانوا من الشرور، لأنهم اعتقدوا بوجوب إطاعة شرائعهم عالمياً، ولا يجوز تعديلها بأي حال من الأحوال؟ أولم يتشكل كل قانون وكل نظام للشريعة المدنية وفقاً لما هو جيد ومفيد؟ وفي الحقيقة نادراً ما يمكن إيجاد كل شيء في هذاالعالم يمكن أن يكون جيداًونافعاً في كل مكان، وفي كل زمان، ولكل إنسان، وعلى هذا تتنوع قوانين البشر وشرائعهم، وفقاً للمكان وللزمان، وللحالات الفردية، وقد قال كثير من الفلاسفة بأن هذا ينبغي أن يكون هكذا عندما تتطلب المنافع ذلك بوضوح، ولقد غير الرب، الذي هو رب المعارف كلها، والذي هو معلم الآباء المقدسين، والفلاسفة، في العهد الجديد أشياء كثيرة، كان قد أمر بها في العهد القديم، ليعلمنا أن نعمل مثلها، وأن نفعلها من دون تحريف، وقال القانون الرسولي، الذي جرى إعلانه من قبل الآباء المقدسين المتقدمي الذكر، هذا في كثير من الكلمات من ذلك:«ينبغي أن لا نعد أنه أمراً مشجوباً، أن القوانين البشرية تتغير أحياناً مع تغير الوقت، لأنه حتى الرب نفسه غيّر أشياء كثيرة في العهد الجديد، كان قد أمر بها في القديم»، وعرض القانون

المدني الأمر وحدّده على الصورة التالية:«كل تحديد في القانون المدني هو خطير، لأن الذي لا يمكن تغييره هو غير كاف»، وتقول قاعدة أخرى:«في شريعتنا مبادىء عامة تتعدل بالاستثناء».

وبما أن الأمر كان هكذا، فينبغي أن يكون الأسلوب لوضع القوانين: بما أن القانون العام قد سنّ من أجل الصالح العام، فإنه إذا بدا أن أي شيء فيه كان قاسياً بلا مسوغ أو مختل، أو هناك نتائج ظالمة من تطبيق ذلك القانون بدقة في قضيةخاصة تحت القاعدة، لئن كان، وينبغي أن تكون القاعدة في مثل هذه الحالة، اتخاذ قرار مخالف مباشرة، خشية أن ينشأ ظلم من القانون العام، أي أن تقول ينبغي تطبيق قانون خاص على قضايا خاصة، وبحدود، وتعديل القانون المنشور بشكل عام عندما تستدعي ذلك حالة خاصة.

أولم يقرر القديس أوغسطين — معلم الانكليز، حسبما يُقرأ في قانونه — أنه لن يقوم بسيامة أي رجل دين، ما لم يقم هذا الرجل بالتخلي عن ممتلكاته، ومن ثم ممارسة الحياة الدينية بمثابة راهب؟ وقد وجد فيما بعد، أن عدداً كبيراً، كانوا من أجل أن تتم سيامتهم، يتظاهرون بأنهم سيفعلون ذلك، لا بل يفعلون،وبالفعل كانوا غير ذلك، ولهذا، ولكي يتجنب نتيجة النفاق الشريرة قال:«من المؤكد أنني أنا الذي قررت، أنه لن تجري سيامة أي واحد ما لم يفعل كذا وكذا، ولكن بما أنني علمت أن عدداً كبيراً هم مخادعين، اشهدوا أمام الرب، وأمامكم، أنني مغير لقانوني، وهكذا غير هذا الرجل القديس قانونه في وقت قصير، وتشريعه بسبب سوء تطبيقه،ولقد كان القانون قانوناً جيداً، فقط لو أن رجال الدين لديه راعوه بشكل جيد.

واعتاد كثير من الأساقفة على الدفاع عن مواريثهم الوقفية، متخذين ذلك حجة من أجل الانخراط في الحروب، وفي المحاكمات، ولقد أهملوا واجباتهم الروحية، أو على الأقل أعطوا إهتماماً أكثر لمواريثهم الوقفية،

وبسببهم تحملوا المزيد من النفقات، وبذلوا المزيد من العناية، والجهد، أكثر مما كرسوهْ لواجباتهم الروحية، فلماذا لا يعهدون بواجب الدفاع إلى آخرين، محتفظين بالدخل المعتاد لأنفسهم بعد دفع النفقات والأجور، ويكونوا بذلك مثل أولئك الأساقفة الذين عهدوا بمهمة صيد الحيوانات الضارية إلى آخرين، وعملوا من خلال آخرين، في حين احتفظوا بغنيمتهم؟.

٤٩[31]: وإذا ما اعترض إنسان قائلاً:«هناك بعض الأساقفة الذين لايهملون العناية بواجباتهم الروحية من أجل الدفاع عن أمورهم الدنيوية»، يمكن للانسان أن يرد على هذا بالقول: إن هذا مما لايحتج به، فقد اعتاد الذين تولوا صياغة الشرائع والقوانين على الاهتمام بالأشياء التي تحدث باستمرار، وليس بشكل نادر، وصحيح أن بعض الأساقفة يهتمون أكثر من آخرين بهذه الانحرافات، والذي يهتم أكثر وأكثر، وبمواظبة أكثر يكرس نفسه للحروب وللمحاكمات، والذي هو ممدوح أكثر في أعين العيون الدنيوية، إنه هو الذي حكمته جنون بنظر الرب، ومثل هؤلاء الناس قد دفعوا وتأثروا بهذه الاعتبارات إلى حد أنهم نظروا إلى مجدهم الدنيوي، على أنه جائزتهم الكلية، وقد اقتنع آخرون بتقليدهم بطريقة تستحق اللوم، وفي الوقت نفسه يتابع العدو القديم للسلام بكل الاعتبارات، وعدو الأرواح، يتابع أعماله وجهوده مع جيشه المتحد، ويبذل كل جهد مستطاع لديه من أجل تدمير أرواح الناس.

وإذا كان الشيطان يستثير الأرواح السبعة التي هي أسوأ منه شخصياً،من أجل جذب وإفساد فرد واحد، كم سيجمع من الحشود أكثر، ومن قوى جيشه، من أجل إعاقة هدف هذه الرسالة، التي سوف تقاوم فرصة عظيمة لا مثيل لها من أجل دمار الأرواح؟ فهو يرى كل شيء في الحاضر، ويتذكر كل ما حدث من قبل، وبارع في علم

استخـــلاص المستقبل من الماضي ومـن الحاضر، ولســوف يكـون من الصعب جداً تجنب جيشه من الشياطين مع جميع إغراءاتهم، ومعيقاتهم، وإغـواءاتهم، لكن كما ذكـرنا من قبـل إن هذا لن يكون مستحيـلاً، لأن الشيطان نفسه الذي يعدّ والد الكذب، وجميع الكذابين هم أولاده،(مثلما الرب هو الصدق، والأشخـاص الصادقون، مادامـو كذلك هم أولاده) يكذب في كثير من الطرق عندمـا يتــولى إقناع الأسـاقفـة بمناقشـة من الواضح أنها متناقضـة، ويخدعهم من خلال الكذب، مثلما خـدع والدنيا الأولين، ومن المؤكد أن هذه أزمة أخلاقية، ولهذا فإن النتيجة الحقيقة لا يمكن الوصول إليـها بوسائل التظاهر والمراءاة، ولقد ـجرت العادة بين القوانين العامـة أولاً، ثم عندما ينجم أي تناقض أو ظلم مضر في قضية خاصـة تحت مبادىء أو قـواعد قـانون جـرى تطبيقه بحـذافيره، جرت العـادة صياغـة قـانون خاص يتـولى تعديـل القانون العـام، ومثل هذا، عندمـا تظهـر تناقضـات أو شرور أخرى تتبع وتـأتي عادة من مـراعـاة شريعة أو قـانون عالمي، ففي العادة، والأمـر الأفضل، إتمام إعادة النظر الدقيقـة من قبل الذي لديـه السلطة لفعل ذلك، وبناء عليـه على المشرع الأعلى للقـوانين أن يقـرر أولاً مـا هـو مطلوب من أجل تقـدم الأرض المقدسة، وإنقاذ المصالح العليا العامة للكاثوليك.

٥٠[32]: وتحتاج الأوضـاع بين الأساقفة أيضـاً إلى الإصلاح حيث ينبغي في المقام الأول، أن يقوم الأساقفة بالاستحواذ على جميع الادارات والأعمال ذات الطبيعة العلمانية، وأن يضعوها في أيديهم، وينتزعوها من الرهبـان، ثم أن يأمـروا بإدارتها من قبل هيئة إداريين علمانيين، يمكنهم أن يتولوا اختيارها بناءً على نصيحة ثلاثة أو أربعة من رهبانهم، ممن هـم حكماء ومجربين، ومتميـزين على البقيـة، وزيادة على هذا على الأسـاقفـة النظاميين، ومثلهم الأسـاقفة المدنيين — لأسبـاب قوية جـداً — عليهم فوراً وبدون تأخير، تشكيـل هيئة وصاية على شؤونهم الدنيـوية، وسبب

هذا، أنهم اعتادوا مـن وقت إلى آخر أن يشغلوا أنفسهم حـول المحاكم، وبذلك ابتعدوا عن تأملاتهم الدينية.

٥١ : وإذا مـا احتج كل من الأساقفـة المدنيين والأساقفـة النظاميين، أنه مضر لمصـالحهم أن يقـومـوا بعمليـة التحـويل هذه إلى هيئة وصـاية دائمـــة، من الممكن إقناعهـم بالقبــول مـن قبل أباطرتهم، وملـوكهم، وأمرائهم، حيث يمكن لهؤلاء النظر نحـو الخلف ومن ثم أن يروا بأنهم قد صرفوا شطراً كبيراً من دخلهم، ومنتجاتهم، وموارد ممتلكاتهم — في كل سنة ـمن السنوات — في إدارة أراضيهم، وفي الـــفاع عنــها، وفي مباشرة أمــور العـدالة، وإصـدار الأحكام، ولقــد سمعت أن مـوارد ومنتجات مملكة نافار، تصل إلى مبلغ خمسين ألف ليرة تورية، وبصعوبة بالغة قد يصل إلى ملك الفرنسيين — لأنه يحكم من خلال الآخرين — مبلغ خمسين ألف سولدي Solidi، بعد حذف نفقـاته، ونفقات الإدارة والدفاع.

٥٢ : وافترضوا أن واحداً من الناس قـال للملوك وللأمراء:«إذا كان أي واحد منكم طلب سن مثل هذا القانون ضد الأساقفة، عليه الالتزام بهذا القــانون نفسـه، ولنفترض أنكم أول مـن قـام بتحــويل ممتلكاتهم الدنـيو-ية، وبذلك ضربتم مـثلاً جـيداً للأ-سـاقــفة، وإلاّ ـحافظوا على الصمت تجاه هذه القضيـــة، وربما يمكن أن يجيــب، إنه مثلما لا يستطيع الأسـاقفة الخلاص من مسـؤولياتهم بالعهـدة إلى آخرين بإدارة الأشيـاء الروحية، كـذلك الأمر بالنسبة إلى الأمراء فيما يتعلق بالأشيـاء الدنيوية، لأنه مثلما أعطيت ثروات الكنائس إلى الأسـاقفـة، وعهـد إليهم بها، من أجل تقديم العون بكل وسيلة لتوجيه الأرواح وقيادتها، كذلك أعطيت الممتلكات الدنيوية إلى الأمراء، وعهد بها إليهم، من أجل أن يتمكنوا في كل مكان من حـراسة السـلام في بلدانهم، والدفاع عنهـا، ومقاومـة كل شر مهما كان نوعه، وإصدار الأحكام، وممارسة العدالة بمكافأة المحسن

في كل مكان، ومعاقبة الشرير وتقويمه، والأمراء — لاسيما الذين لا يرون، ولا يعترفون بمن هو أعلى منهم على الأرض في المسائل الدنيوية لديهم سلطات قضائية، ولقد اعتادوا على التفوه بأحكام أشد قسوة في قضايا تتعلق بتقصير موظفيهم، وأعنف منها في قضية أي من الآخرين، فهم يرون عزل هؤلاء الموظفين من مناصبهم بسبب ذنوب صغيرة اقترفوها، وذلك وفقاً لطرائق الرهبان الذين هم في ظل الخوف من العزل،والعقوبات التي ينزلها المقومون والمحققون من خلال إجراءات قصيرة، ولايمكن إنزال مثل هذه العقوبات بشكل جاهز بالذين يشغلون مناصبهم بوساطة ولاية دائمة، ولهذا من الأحسن جعل مثل هذه التعيينات أكثر جاهزية للعقوبة، وأقل جدية في اقتراف الاعتداءات الجدية، مع تحريات أقل، ويمكن نقلهم باستمرار أكثر.

وحيثما كان الأساقفة متورطون، إنه أفضل بكثير أن يحكم عليهم من قبل آخرين بدلاً من أن يقضى عليهم من قبل أنفسهم، وأن يتولى ممارسة أعمالهم الادارية آخرون، فمن الممكن بيسر استخراج أدلة ضد شخص ما ممن يتولى ممتلكات لصالح الأسقف، من استخراجها من الأسقف مباشرة، وفي الحقيقة أصر عدد كبير من الأساقفة في عدد كبير من القضايا على أنه لا يجوز معاقبتهم من قبل أمير دنيوي، من أجل جريمة، بسبب أعمالهم الشخصية(لابل إنهم يقولون بأنه لا يمكن معاقبتهم من قبل مثل هؤلاء الأمراء) بسبب أي عمل شخصي مهما كان نوعه.

٥٣ : فضلاً عما تقدم، إنه أسهل إبداع طريقة إجراءات قضائية ضد الآخرين الذين بين أيديهم ممتلكات لصالح الأساقفة، من القيام بذلك ضد الأساقفة أنفسهم، فالآخرون سوف يخافون خوفاً شديداً من النفقات، والغرامات، والعقوبات.

زيادة على هذا،سوف يبقى الأمراء بلا عمل، ما لم ينشغلوا بحكم

رعاياهم، وهكذا يمكننا أن نفترض أنهم غالباً ما سيمتلكون الوقت من أجل تبديده في الحروب وفي أعمال شهوانية مما يمارسه الناس الذين ليس لديهم أعمال، ومثل هذه الفرص ينبغي بالحري تجنبها، بدلاً من السعي من أجلها، واختيارها.

٥٤ [32] : وينبغي القيام بمحاولة استدعاء جميع الرهبان المتسكعين في الأماكن وفي الرعويات غير الرهبانية، للعودة إلى ديرهم، من أجل أن يمارسوا الحياة الرهبانية هناك، وخشية من أن تتناقص الصلوات في مثل هذه المؤسسات غير الرهبانية، ينبغي تعيين قسيس في كل واحدة من بيعهم، وينبغي أن يعيش هؤلاء القسس حياة متواضعة، كما عليهم تأدية الواجبات الدينية هناك كل يوم.

٥٥ — ما الذي ينبغي أن يصنع بممتلكات الرعويات غير الرهبانية، أو التي فيها مجرد ثلاثة رهبان أو أربعة فقط؟ فإذا كان الدير بحاجة إلى رعاية رهبانية كافية من أجل نقل الرهبان المقيمين إليه في بعض الأحيان، لأسباب محلية تتعلق بسوء السلوك في الدير، فلابأس من تأسيس دير رهباني مع مؤن قليلة جداً من أجل رهبانه، ووقتها سوف يخشى الرهبان من الإرسال إلى ها هنا، وسوف يسلكون ويتصرفون بشكل أحسن في ديرهم خوفاً من إرسالهم للعيش في دير، الدخل المعين له قليل جداً.

٥٦: لكن إذا كان الدير ليس بحاجة إلى مثل هذه الرعاية الرهبانية، وكان عدد رهبان الرعوية قليل جداً، من المتوجب تحويلهم إلى دير، ليتولوا خدمة الرب داخل الدير المغلق.

وينبغي أن يعين من أملاك الرعويات المحولة لصالح الديرة مبلغ يعادل النفقات الفعلية لعدد كبير معلوم من الرهبان كل سنة، وعلى هذا سوف تكون القداسات وتنفيذها بداية وممارسة ذات شكل أفضل،

ولسوف تتمكن الديرة من استرداد أولادها الذين كانوا يحومون من خارج الدير وإليه، فهم لن يعودوا بعد الآن مثقلين بالمسائل الدنيوية، ولسوف يمارس الرعاة والرؤساء كثيراً من العناية المفرطة من أجل الخسائر الروحية، وسوف يتغلبون على متاعب كثيرة جداً.

وبهذه الطريقة سوف تكون جميع ممتلكات دير ما بأيدي شخص واحد، أي بأيدي الذي من واجبه إدارتهم، وهو لن يخشى من تقويم أبنائه أو إرغامهم على مراعاة النظام بسبب أموال مخبأة في أكياس أموالهم عن طريق الممارسات المنحرفة التي تقدم ذكرها، فبوساطة مثل هذه الأموال كانوا قد اعتادوا على النضال، والعصيان والتمرد من أجل خلع رعاتهم، وإثارتهم، والتشكي ضدهم، فبهذه الطريقة يكونوا قد بددوا معظم الممتلكات الديرية، وأودعوها في أكياس أموالهم، وذهبوا بها، بعدما يكونوا قد كرسوها في خارج الدير، وغالباً ما يخسرونها مع أرواح كل من المودع والمتسلم، وقد حرضت هذه المخالفات الروحية الكبيرة، كاتب هذه الكلمات لأن يفكر، ولأن يكتب من أجل الصالح العام، مع أنه قد تسلم، ولربما سوف يتسلم في المستقبل أجوراً كبيرة وكثيرة من مثل هذه الممتلكات، إذا ما أعطاه صانع الحياة حياة مديدة.

٥٧[34] : وما الذي سوف يصنع بممتلكات مثل هذه الديرة التي بقيت بعد القيام بعمليات الحسم المقترحة؟ قد يجيب إنسان: إنه وفقاً لمبادىء الآباء المقدسين، ليس رجال الدين النظاميين وغير النظاميين أصحاب أملاك لاهوتية، لكنهم يتولون إدارتها فقط، ويمكنهم أن يتسلموا منها — بقرار من الكنيسة — الطعام، واللباس، والأشياء الأخرى الضرورية لقوام الحياة، والمتبقي هو ملك للفقراء، وهو من أجلهم، وكل الذي احتفظوا به عن طريق الاداريين هو إجحاف بحق الفقراء، أو أنه استخدام من أجل استعمالات غريبة، أو جرى الاحتفاظ به من أجل إيذاء المسيح والفقراء الذين هم رعاياه، وهذا كله سرقة،

واختلاس، ودنس.

وتبقى الحقيقة هي أن هؤلاء الرعاة البعيدون، وتقريباً جميع رجال الدين يسيئون استخدام ذلك المتبقي من الممتلكات العائدة إلى الكنيسة وإلى الديرة، وبناء عليه ينبغي أن يفقدوا طوال الوقت الامتيازات،أو — لنتكلم بصدق أكثر — فرصة إدارة ممتلكات من هذا النوع، وفقاً لرغباتهم، ولسوف يمنع هذا الكهنة العلمانيين من كنز مثل هذه الثروات الهائلة، من أجل إيذاء الفقراء الذين غالباً ما يرونهم قرب كنوزهم، غير أنهم لا يشفقون حتى على التعساء الذين ربما كانوا يهلكون من البرد والجوع.

ويتوجب أيضاً أن يطلب من المجمع المقدس أن يرسم بوجوب تحويل الجزء الأكبر من ممتلكات الأشخاص المتوفين، مع المتبقي من الممتلكات العائدة إلى الرعاة المتقدمي الذكر، تحويلها إلى المراكز الواسعة المتقدمة الذكر، من أجل الأرض المقدسة وما يتعلق بها، مما يساعد على إصلاح الكومنولث الكاثوليكي كله، وتوحيده حقاً، وهذا الهدف ربما سيكون الأسرع تطبيقاً وفق الطريقة الموضحة أدناه.

[35] : لقد جرت أعلاه مناقشة الاجراءات المطلوبة من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، لكن الاجراءات التي سوف تتطلب راحة سكان تلك البلاد لم يجر عرضها ولا بحثها.

ولنفترض أن الناس الذين سكنوا في تلك البلاد، عاشوا عيشة نكداء،(فقد كتب: لاتعطي الأمكنة الحصانة للناس، لكن الناس يعطون الحصانة إلى الأمكنة)، فكيف يمكن لمملكة ولسلطة مقترفي الشرور البقاء، ولنفترض أن الناس اجتمعوا هناك بشكل عملي من جميع أقطار العالم تقريباً، وشرعوا في ممارسة حياة شريرة، وعودوا أنفسهم على مثل هذا النمط من العيش؟ وعوضاً عن تغييره، ثبتوه بمثابة عادة، هي ذات

طبيعة أخرى، بما أنها تغير الطبيعـة، ومن أجل تجنب هذا الشر، يبدو أنه مفيد جـداً إلى كل إنسان أن يعثـر على من يعترف له، قادر على الحديث بلغته الخاصة، وعالي الثقافة، أي أن يكون طبيباً للأرواح.

٥٨ : وطبيباً أيضاً من أجل داخل الجسد وخـارجه كذلك، ونادراً ما يمكن العثـور على أنـاس من هذا القبيل بيننـا محنكين وبارعين في مثل هذه المسائل، وبسرعة ـسوف يصبح هؤلاء أثرياء بيننا، ولن يعبروا إلى هناك بأعداد كافية، لأنه لا يوجد حتى ما يكفي من أجلنا.

٥٩ [36] : ولسـوف يكـون مفيـداً بالنسبـة للذين على رأس مملكة القدس أن يتوفر لديهم كثيراً من الكتـاب الذين يعرفـون اللغة العـربية ويحسنون الكتابة بها، مع معرفة لغات العالم الأخرى، وقد قيل يوجد في البلدان الشرقيـة بعض الناس من الكاثوليـك، هم ليسـوا تحت طاعـة الكنيسـة الرومـانية، وهـم لا يتفقـون معنا في بعض أركـان الايمان التي تتمسك بها الكنيسة الرومـانية، ويدعى أسقفهم الأعلى الذيـن هـم جميعاً تحت طاعتـه، مثلما نحن تحت طاعـة الأسقـف الرومـاني، البطريرك، ويحكى أن لديه تحت طاعته تسعمائة أسقف، وإذا صح هذا، يكون تحت سلطانه أكثـر مما لدى السيـد البـابـا، وسـوف يكون نافعـاً لو أن هؤلاء الأسـاقفة، قـاموا مع أتبـاعهم، وعدد كبير آخـر ممن ابتعد عن الكنيسـة الرومانية، ولم يعودوا مطيعين لها، بالسعي للاتحاد مع الكنيسة الرومانية، وتقديم الطاعـة لها، والدخول في حظيرتها الإيمانيـة، ولسوف يكون هذا الأمل عبثـاً، ما لم تمتلك الكنيسـة الرومانيـة كثيراً من الرجال، يجيـدون معرفـة لغاتهم، فمن خلال هؤلاء يمكنهـا التواصل معهم، ولن تستطيع الأرض المقـدسـة وحكـامهـا الحصـول على منفعـة كـاملة من عـونهم وتعاونهم مـا لم يستحوذوا أيضاً على عدد كبير من الأشخـاص المجيدين للغاتهم، أي مثلما قال أفلاطون حول هذا الموضوع:«أعطي الكلام لك، لأنه من خـلاله يمكن التـوصل بسرعة إلى تحقيـق موقف واحـد وإرادة

متبادلة».

ولقد قضى الرب وقرر أن يكون الحبر الروماني، نائبه، وخليفة بطرس على الأرض، هو الرأس للكنيسة المسكونية، وأن يطيعه الجميع، وذلك حسبما أعلن المتحدث باسم الآباء المقدسين وأوضح، وبناء عليه يتبع هذا أن الرب قد قضى، ومازال قاضياً، بأن يتم تأمين كل شيء ضروري ويفضي للوصول إلى هذه الغاية، وإلاَّ يكون ما قضى به لم يتحقق تماماً، وإذا ما قلت العكس سوف تكون هرطقياً.

لكن كيف يمكن للحبر الروماني -جذب هؤلاء الناس الشرقيين، إلى الوحدة، وهم أيضاً لا يمكنهم، وكيف يمكنه إزالة الأخطاء من قلوبهم، ما لم يكن ذلك من خلال مترجمين عقلاء وأمناء، ينبغي أن يفهموا أولاً لغة الجانبين، وأن ينقلوا الرغبات المتبادلة للطرفين؟ ويتوجب على هؤلاء المترجمين أن يعرفوا كيف يمكنهم التجاوب بعقلانية كبيرة مع اعتراضات البرابرة حتى يمكن تدمير مواقفهم العدوانية الخاطئة، وينبغي أن يكونوا قادرين على إقناعهم بنقاشات وحجج لا تقبل الجدل، وبقوة جذب حقيقة الإيمان المسيحي.

وسوف تكون هناك إصلاحات أخرى كثيرة توصل إلى هذه الغاية، وهي سوف تظهر مما سيأتي، وبوساطة الخطة التالية — مع معونة الرب — سيكون من الممكن الوصول إلى هذه الأهداف أخيراً، لكن ليس على الفور.

وبما أن البابوات الرومان يتسلمون بالعادة مناصبهم السامية في سن متقدم، وهم منشغلون كثيراً بالعناية بالرعية الكبيرة التي عهد بها إليهم، ولا يمكنهم — بالإضافة لما لديهم من أعمال — تعلم اللغات مثل هؤلاء الناس، حتى لو أن البابوات كانوا يحسنون هذه اللغات، فإنهم لا يمكنهم الارتحال إلى هؤلاء الناس، كما لا يمكن لهؤلاء الناس القدوم

إلى عند البابا، هذا ولا يوجد ـتراجمة معدين من أجل هذه المهمة، كما لا يمكن تحصيلهم مقابـل كل أموال الدنيا، مـا لم يكن قد جـرى إعدادهم من قبل، ولعلهم لن يكونوا قـادرين على إظهار أية نتـائج فعالة خـلال حياة الذي بدأ بتنفيـذ هذه الخطة، وهكذا فعل موسى، فهو لم ير أرض الميعاد، بل — كما كتب — عمل من أجل الاستيـلاء عليها من الخارج، وعلى كل حـال، ينبغي — على هذا — على الحبر الأعظم عـدم إهمال وضع هـذه الخطة المرحب بها مـوضع التنفيـذ، ولو أن الـرب سبب الإصـابة بالأمـراض، وبعـث بالموت بسبب الذنوب، هل سيقـوم أبو الرحمة — لسبب قـوي — بإطالـة حيـاة الذي بـاشر هذه الخطة، لأن أهدافهـا وغـاياتها جـديرة بالثناء، أو لم يكتب :«تعلـم وكأنك ستعيش أبداً، وعش كأنك ستموت غداً».

٦٠[37] ويسعى الأب الأعلى قـداسـة، السيد بابا رومـا، كليمنت الخامس من أجل إقـامـة وحدة حقيقيـة للديانة المسيحيـة، الأمـر الذي لايمكن تحقيقه على الفـور بجهود الناس، ومن أجـل الحصول على هذه المنافع، ومنافع أخرى لايمكن تعدادها، ولايمكن تصـورها كلها مسبقاً وذكـرها، ولعله يرضيه أن يأمر — بعـون الرب — بزيادة المقترحـات التـاليـة، وإتمامهـا، أو تغييرها، وذلك حسبما يرى الأمـر مناسبـاً هو مع مستشاريه العقلاء، الذين يعرفون تمام المعرفة أوضاع العالم.

ويتوجب تأسيس مـدرستين أو أكثر من أجل الأولاد، والعـدد نفسه للبنات، في كل مقاطعـة، وذلك وفقاً للامكانيـات المتوفرة والمتـاحة من أجل هـذا الهدف، وحسب حجم السكـان، على ممتلكات ديرة أمثـال الداوية والاسبتـارية، فهناك ينبغي تأسيس هذه المدارس التي هي أفضل شيء مناسب لهذا الهدف، والطلاب الـذين سيجـري اختيـارهم للتعلم هناك، ينبغي أن يكـونوا في الرابعـةِ أو الخامسـة من أعمارهم، ويجري اختيارهم من قبل فلاسفة عقلاء، يمكنهم إدراك إمكاناتهم الطبيعية من

أجل التقـــدم في تعلم الفلسفــة ودراستهــا، وينبغــي أن يقبل في هذه المدارس أطفـال من أصل نبيل من الجنسين، إذا مـا وجـدوا، وبقدر مـا يمكن توفرهم، ويجري بعـدهم قبول الأطفـال الآخرين، وهؤلاء ينبغي تعليمهم بشكـل متــواصل، وفـق المنهج المبين أدناه، وهو منهـج يمكن تغييره، وإتمامه، وتحسينه من قبل رؤوس حكيمة، وسـوف يجري قبول هؤلاء الأطفال مع شرط أنهم لن يعودوا مطلقاً إلى أبويهم، ما لم يسددوا جميع النفقات التي أنفقت عليهم، وسيجري إرسال بعضهم من مدرسة إلى ـمدرـسة، وأخيراً إلى الأرض المـقدـسة، وإلى أراضي أـخرى تـتولى الكنيسـة الرومـانية المقـدسـة تحديدها، من خـلال الذين جـرى تعيينهم للقيـام بهذا العمل، وسيجـري الانفاق على الطلبـة وعلى أسـاتذتهم من أملاك الديرة المذكـورة، ومن خلال مراكز الأمـوال الموقفة على الأرض المـقدـسة، والتي ورد ذـــكرها من قبل، ويجري تعيين الاداريين المشرفين على المراـكز المالية، ـمن قبل رؤساء الأـساقـفة المحليين، وذلك بناء على نصيحـة الأسـاقفـة المسـاعـدين، ذوي الخبرة، فهـؤلاء سيرون من هو مناسب للعمل.

٦١ : وأول مـا ينبغي تعليمه إلى هؤلاء الأطفـال هو اللغة اللاتينيـة، حتى يتملكوها بشكـل جيـد، أو على الأقل حتى يحسنوها، وبعــد هذا ينبغي تدريب بعضهم على تعلم اللغة الاغريقية، تدريباً دقيقاً، وبعضهم على اللغة العـربية، وهكذا بالنسبـة إلى اللغات الأخـرى، لاسيما اللغات المستخدمة من قبل الشعـوب الكاثوليكية في الشرق، وسيكون بالامكان في النـهاية، بمسـاعدة هؤلاء الشـباب، الذين تدربوا على الحديث وعلى الكتابة بلغـات جميع الشعوب، للكنيسة الرومانيـة، وللأمراء الكاثوليك أيضــاً، الاتصـــال من خـــلالهم بجميع النـاس، وجــذبهم إلى الإيمان الكاثوليكي، وإلى الاتحاد مع رأسها.

وينبغي تدويـن أسماء جميع الشبــاب الذين تـدربوا على النحــو، مع

تفضيل للأصغر سناً، وإذا ما توفر بعض الذين تدربوا على المنطق، فذلك هو الأفضل، وينبغي اختيار بعض هؤلاء وتعليمهم بكل سرعة مبادىء الإيمان، والقداسات، والعهد القديم والعهد الجديد، وما أن يكملوا دورة الدراسة هذه حتى يمكن إرسالهم إلى الأرض المقدسة، من أجل التقدم في دراسة الكهنوت، وبذلك يتولون العناية بالأرواح، ومن بين صفوفهم يمكن تزويد الكنائس والناس فبعضهم ينبغي تدريبهم في ميدان الطب، وآخرون في كل من الجراحة الإنسانية والحيوانية، وبهم يمكن تقديم العون إلى الجيش، وإلى جميع السكان من كلا الجنسين.

[38] : وينبغي تعليم الفتيات الطب والجراحة، والمواضيع الضرورية التي تشكل مقدمة إلى هذا، ومع هذه التدريبات، ومعرفة الكتابة، سوف يجري تبني هذه الفتيات، اللائي من أصل نبيل، والأخريات اللائي هن متميزات بالبراعة، واللائي هن جميلات وجذابات بالوجه وبالقوام، تبنيهن كبنات أو حفيدات ـمن قبل الأمراء الكبار في بلدانهن، وفي الأرض المقدسة، وفي البلدان الأخرى المجاورة لها هناك، وبعد هذا يجري إلباسهن على حساب المراكز المالية المتقدمة الذكر، حتى يظهرن كأنهن بنات أمراء، وإثر هذا يمكن تزويجهن بشكل موائم من قبل الأمراء الكبار، ورجال الدين، والأعيان الأغنياء الآخرين،وعليهن أن يعدن ويتعهدن أنهن بعد أن يتزوجن من هؤلاء الرجال القياديين أو الأعيان الآخرين، سوف يقمن — أثناء حياتهن إذا كان ذلك ممكناً — بتسديد المبالغ التي أنفقت عليهن، إلى المراكز المالية المتقدمة الذكر، وإذا كن غير قادرات على فعل ذلك، ينبغي أن يوافقن على إعداد ترتيبات للتسديد، أو تسديد أي جزء ترك من دون دفع عند موتهن، وبهذه الوسيلة يمكن لهذه المراكز المالية أن تتزايد بدون حدود، ويبدو أنه سيكون أمراً رائعاً بالنسبة للأساقفة الشرقيين أن يتخذوا مثل هذه الزوجات، لأن من عادتهم الزواج، ولم يرتضوا مطلقاً بتقليد الرومان

وبقية رجال الدين الغربيين في التخلي عن امتيازاتهم بالزواج.

وزوجات قد امتلكن مثل هذه الثقافة، واستحوذن على أسس الإيمان مع الأسرار المقدسة وفقاً للاستخدامات الرومانية، لا شك أنهن سيتولين تعليم أولادهن وأزواجهن من أجل الارتباط بالايمان الروماني، وللاعتقاد والتضحية وفقاً لها، ولسوف يستخدمن المناقشات ويستغللن الفرص بشكل فعال أكثر ومؤثر من الخداعات التي مورست من قبل زوجات سليمان عليه، الذي مع أنه كان أحكم الرجال وأعقلهم، قدنه نحو عبادة الأوثان، وعلى هؤلاء النسوة، القيام — من خلال حبهن لأوطانهن الأصيلة — باتخاذ ما يلزم من ترتيبات من أجل زواج عدد كبير من الفتيات من هذه المدارس، من أولادهن، ومن شخصيات قيادية أخرى في البلاد، وبشكل خاص إلى كهنة سوف يترقون في المستقبل إلى مرتبة الأسقفية، وينبغي أن يكون لديهن شمامسة يتولون أعمال القداسات والغناء وفقاً للطقوس الرومانية، ولسوف يتولين بوساطة هذه الأساليب ويتمكن من جذب السكان في تلك المناطق إلى الطقوس الرومانية، وهن سوف يؤثرن بشكل خاص على النساء، اللائي سوف يتلقين مساعدتهن من خلال ممارسة الطبابة والجراحة، ولاسيما في أحوال وهنهن السرية واحتياجاتهن، ومن غير الممكن أن يحدث سوى — وقد تفوقن على غيرهن من العقائل، وكن أكثر نبلاً وثروة، وبتن معروفات في كل مكان ومشهورات بمعارفهن في الطب والجراحة، والعلوم التجريبية — أن يجذبن سيدات القوم اللائي بحاجة إلى مشورتهن، وينلن إعجابهن لبراعتهن وفوائدهن لهن، فيحببنهن لهذه الأسباب، ومن ثم يقمن بجذبهن، أو بالحري للاتصال بهن، ومن ثم سوف يكن مسرورات بالاتحاد معهن والتوافق على الأخذ بأركان الإيمان والقداسات.

٦٢ [39] : وأيضاً على أي بابا مستقبلي، عندما يحين الوقت وتتيسر

الأمـور، ويصير لديه أشخـاص يتقنون لغـات الكاثوليك الشرقيين، أن يقوم باستخدام عدة أفـراد من هؤلاء في مجلس الكرادلة ممن تتوفر فيهم الفـصاـحة والمـقدرة الأدبـية، فمن ـخلال هؤلاء يمكنه أن يكتب إلى الأساقفـة، وإلى الشخصيات القيادية الأخـرى في تلك البلاد، هذا ومن الممكن بسهولة الحصول على متدربين علمياً بالاغريقية، فعندما يتوفر في بعض المدارس البعيـدة، عـدد من التـلاميـذ المؤسسين بشكل جيـد بالاغـريقية واللاتينيـة، وقتهـا يتوجب اختيـار الذين يبـدون بينهم أنهم واعـدين أكثـر، ولديهم قـابليـة أكبر للتعلم من الآخـرين، اختيـارهم للدراسـة والسماع، وفيما بعـد لتعلم مـواضيع أخـرى، بحيث يتعلم بعضهـم القانون الكنسي والقانون المدني، وآخـرون للفلك مع عدة علوم في ميـادين الرياضيـات والطبيعيـات، وآخـرون بالطبـابة، وآخـرون باللاهـوت، وينبغي فصل المدارس المكرسـة لهذه العلـوم إحـداها عن الأخـرى، خشية أن يعقن بعضهن بعضاً من خـلال التحاسـد، أو من خلال أمور أخرى، لأن الفيلسوف قـد قال في كتاب الخطابة:«الفلاسفة متحاسـدون بشكل طبيعي»، ووقتها إذا مـا أراد البابا أن يرسـل واحداً من النواب، في مهمة صعبة إلى بلاد الإغـريق — وأعتقد أنه ينبغي تبني السياسة نفسها في ـحالة اللغات الأخرى والبلدان — عليه أن يبعث في الوقت نفسه مع النائب اثنين أو عدد أكبر من الأشخاص البارعين جداً في كل فرع من فروع المعارف، فهؤلاء سيتفوقون على خبراء تلك البلاد في المناقشـات، وفي تقديم النصـائح، والمبـاحثات، وفي كل سبيل آخـر، وبذلـك لن يكون هناك مـن يستطيع أن يتصـدى لحكمـة الكنيسـة الرومانية، وسوف يقـوم الذين يعتمدون في الشرق على المنطق، بامتداح حكمـة الرومـان والخوف منهـا، مثلما أطرت ملكة الشرق(سبأ) حكمـة سليمان.

٦٣ [40] : وإحدى نتـائج تأسيس مدارس من هـذا النوع، وإرسال

أشخاص متعلمين من كلا الجنسين، وإرسالهم إلى الشرق، سوف توفر إرسال السلع الثمينة، الوافرة في تلك المناطق، لكن النادرة بيننا وذات القيمة العظيمة، ولسوف تشحن إلينا إلى الغرب، بكميات كافية، وبأسعار معقولة، وسيكون هذا فور غدو العالم ـ كاثوليكياً، وهناك كثير من المنتجات التي تعدّ نادرة وثمينة، لعدم توفرها لدينا، هي وافرة جداً في أماكن أخرى، وينظر إليها هناك على أنها قليلة القيمة.

وإذا ما سعى الانسان إلى معرفة سبب هذه الحقيقة، سيجد الجواب هو نفسه الذي ـ قدمه الفيلسوف حول ـ ما يتعلق بأسباب وضع العناصر الأربعة بقوله: «لم يقض الرب المبارك والممجد، الذي خلق للانسان كل ما هو موجود في العالم السفلي، بأي شيء عبثاً، وهكذا تولى توزيع هباته في هذا العالم».

وإذا ما أراد إنسان، إرضاء لرعونته، وتنفيذاً لإرادته الشرهة، أن يمتلك في هذا العالم كل شيء أراده، سوف يفضل البقاء هناك بالأسفل، بدلاً من التحليق نحو وطنه في الأعالي، لأن رغبته ستكون مثبتة على المركب الأكثر انخفاضاً، وهكذا سوف يمارس الانسان من هذا القبيل حياة مضطربة، لأنه لم يجر توجيهه نحو الخالق، أولم يوضح بوثيوس Boethius هذا جيداً عندما قال: «إن الذي ينبغي أن يعترف بوجوده لوحده في العالم هو الذي يبقي على النظام ويحافظ على الطبيعة»؟ وبناء عليه قال بهذا الصدد: شرار الناس غير موجودين بالفعل، والذنب هو لا شيء، ومن هنا قرر أحكم الرهبان توماس الأكويني — كما سمعته يقول في إحدى مواعظه: «كل من يقترف ذنباً هو عبد للذنب، وكل عبد هو أدنى من سيده، وبما أن كل ذنب هو لا شيء، فإن كل مذنب أقل من لا شيء»، وعرض الفيلسوف هذا كمايلي بقوله: «العالم هو وحدة بسبب توحد منظمه، مثله في ذلك مثل جيش»، فواجب الذي يدمج جيشاً في وحدة أن يفعل ذلك من خلال وحدة الهدف الذي يسعى من

أجله ويناضل، وهو النصر، وهذا من حيث المبدأ يقع على كاهل قائد الجيش ورئيسه، ومثل هذا إن واجب جعل العالم وحدة، يقع بشكل رئيسي على كاهل ملكه.

[41] : وعلى كل حال، إنني أشك أن يكون هناك رجل ذي عقل سليم يمكن أن يعتقد في هذه الأيام، وفي هذا الجيل، يمكن توفر ملك دنيوي واحد لكل العالم، يمكنه أن يحكم كل شيء، ويمكن للجميع أن يطيعوه على أنه رئيسهم الأعلى، وإذا ما توفر ميل نحو هذا الاتجاه، سوف تكون هناك حروب، وثورات، وتمزقات بدون نهاية، ولن يكون هناك أحد قادر على قمع هذه الاضطرابات بسبب كثرة الناس، ومسافات المناطق المتورطة، والفوارق المحلية، وميل الناس الطبيعي نحو الصراع، ومع أنه كان هناك أشخاص أطلق عليهم اسم ملوك الدنيا، أنا لا أعتقد أنه وجد أي إنسان قد أطاعه الناس جميعاً منذ أن شغل بنو البشر الأرض وسكنوها، وكما أعتقد، ما من إنسان قرأ أن الغربيين على هذا الجانب من بلاد الاغريق قد كانوا رعاياً للملك الاسكندر، أو خضعوا لسلطانه، لكن من المعقول بالنسبة للمسائل الروحية، يمكن أن يوجد — لابل ينبغي أن يوجد — أمير واحد، وملك، يمكنه أن يسوس بمشاعر روحية ممانعة سلطوية في الشرق، وفي الغرب ،وفي الجنوب، وفي الشمال، ولايمكنني أن أرى كيف لهذا أن يحدث، مالم تتوفر الاعدادات من أجل تعلم اللغات، إما وفق الطريقة التي عرضت أعلاه، أو وفق طريقة ما أفضل، حتى الرب القدير نفسه الذي قد ضرب لنا مثلاً عندما علم بالأعداد وبالأمثلة وأنواع أخرى من الأحاجي، قد أعطى في موعظته لحوارييه ورسله، معرفته بجميع اللغات وبجميع أنواع الحكمة، لأن هؤلاء كانوا سيتولون التبشير بالانجيل إلى جميع الناس، وقد قال لهم:«عندما ستظهرون أمام الملوك والحكام لا تهتموا كيف أو بما تتكلمون، لأنكم تعطون في تلك الساعة

ما تتكلمون به»[متى :١٠ / ١٨ — ٢٠ ، باختزال].

٦٤ : لم يوجد، ولا يوجد، ولن يوجد، أي واحد إلى جانبه، يمكنه أن يعطي مثل هذه الأعطيات العظيمة، ومثل هذه الفضائل العظيمة، فله وحده حفظت قدرة صنع المعجزات، وبالنسبة له ما من شيء مستحيل، يمكن أن يتماشى مع طبيعة الأشياء، وطبعاً هو لا يمكنه صنع أي شيء يكون في الوقت نفسه موجوداً وغير موجود، لكن وجود الافتراضين المتعارضين في الوقت نفسه أمر صحيح، وكذلك تعارضهما بالنسبة إلى الحقيقة، وفي الحقيقة، لم يوجد قط مخلوق كان بإمكان ذاته صنع أقل المعجزات، لكن الرب القدير، أعطى بطريقة إعجازية المبشرين الذين اختارهم ليرسلهم إلى جميع أرجاء العالم، معرفة جميع اللغات والقدرة على التحدث بها، كما لو أنهم كانوا من السكان المحليين لعدة مناطق، وفعل هذا من أجل أن يجعل الناس جميعاً يؤمنون، ويتعمدون، ومن ثم ليكونوا رعايا لبطرس، أمير الرسل، جاعلاً من جميع المؤمنين كومنويلساً واحداً.

٦٥ : لايمكن لخليفة بطرس، نائب المسيح، والذي دون سواه المقلد الوحيد له، أن يمنح المعرفة بشكل مفاجيء وإعجازي، فلماذا إذن لا يقوم بإتخاذ إجراءات للتزويد بالمعارف اللغوية والقدرة على التحدث في أي منها، بعدما أطلع على وسائل لجعل الطلاب يعرفون، ويفهمون، ويمكنهم التكلم بجميع اللغات، حتى يجري إرسالهم إلى الخارج للقيام بأعمال التبشير؟ وهذه الوسائل لن تكون متوفرة له فقط، لا بل من السهل الحصول عليها، وقليلة التكاليف، وفيما يتعلق به، قليلة المتاعب، وسيقدم هؤلاء إلى الناس الذين سيبشرون بينهم منافع أخرى، وفوائد ليس فقط إلى أرواحهم بل أيضاً إلى أجسادهم، التي سوف تنتفع بشكل خاص من الطبابة ومن الجراحة، ولسوف ينال مؤسس ومنظم هذا العون وهذه الخدمة أعظم جائزة أبدية وسيتمتع بها، حتى وإن لم يكمل

— أو لم يصل إلى — هدفه المنوي بقيام اتحاد كامل للمسيحيين بالايمان وبالطاعة، ولسوف تبارك الرحمة السماوية بداية هذا العمل ومتابعته، وإكماله.

٦٦ : ومن أجل أن يحقق مصمموا هذا المركز الموصوف به أهدافهم، ينبغي إصدار أمر بوجوب تلاوة مزمور كل يوم في كل واحدة من مدارس المركز على انفراد لصالحهم، شرط أن تكون تلاوة معتدلة، ومثل هذا قداس للأحياء وآخر للأموات، وبذلك يأمل كل واحد من المؤسسين ومن الموصين من الأحياء ومن الأموات بنيل غفران يومي.

٦٧ [42] : ولسوف تكون المنافع الاقتصادية الناتجة عن المركز المقترح ذات فوائد عظيمة لجماعات سكان تلك البلدان الشرقية، فهم سوف يصدرون منتجاتهم، وبذلك سوف يربحون من ذلك أكثر بكثير مما لو كرست هذه البضائع بشكل تقوي إلى الفقراء، الذين إن وجدوا سوف يكونوا نادرين، آخذين بالتقدير من جانب أول العدد الهائل للمعدمين، ومن جانب آخر ندرة التوابل والمنتجات الشرقية الأخرى التي نحتاج إليها، وسوف يجري تأمين هذه السلع إلى جميع الكاثوليك بأسعار معتدلة، ولسوف يتم صنع هذا دون مضايقة أي إنسان وإيذائه بشكل فعال، لأن كثيراً من المخاطر المعروفة والمصاعب في البر وفي البحر سوف تتوقف، فبعد إتمام سحق العدو في الأرض المقدسة، والقضاء عليه بنعمة من الرب، يمكن لحاكم تلك البلاد، أن يأمر — وأن يشرف على التنفيذ — بشحن جميع منتجات تلك البلاد بمراكبها إلى هذا الجانب من البحر، وبذلك تصبح التوابل وبقية المنتجات متوفرة، وبالمقابل من الممكن نقل منتجاتنا إلى هناك، ويمكنه أيضاً تنظيم أسعار الشراء وأجور النقل، وبذلك يكون بالإمكان تقدير أسعار عدد كبير من السلع، وكذلك الحد من زيادة الأسعار اليومية مع جشع التجار.

٦٨ : ويمكن للسيد البابا، والكرادلة، ورجال الدين الكبار، وكذلك الملوك والأمراء الذين ستوضع المدارس في مناطقهم، وأيضاً رعاة الديرة الذين من ممتلكاتهم سوف ينفق جزئياً على هذه المدارس، يمكنهم من خلال طلبة هذا المركز تحصيل ليس التوابل فقط، بل كل شيء نادر وثمين يرغبون بالحصول عليه من الشرق، وبالنظر لما تقدموا به من قبل من كرم وإحسان، سوف يجري تزويدهم بهذه المنتجات بدون تكاليف تقريباً.

[43] : لماذا علي أن أكتب حول منافع هذا المركز، إذا كان مؤسسوه وطلابه يرغبون بالانتفاع منه ومن امتيازاته في توزيع المنتجات، فمن غير الممكن أن يتصور إنسان حي لوحده جميع منافعه أو أن يكتب عن ذلك، مثلما قال الفيلسوف:«لا تتكاثر الشياطين بشكل طبيعي، بل بطرائق غير طبيعية».

٦٩ : في الوقت الذي يتبع فيه بعضهم سياسة إنزال الأذى بالمسلمين، بشن الحرب ضدهم، والاستيلاء على أراضيهم، وسلب ونهب ممتلكاتهم الأخرى، لعل الفتيات المدربات في المدارس المقترحة، يمكن أن يعطين بمثابة زوجات إلى القادة المسلمين، إنما مع احتفاظهن بإيمانهن، خشية من مشاركتهن أزواجهن في الكفر، وبجهودهن — مع عون الرب — وبتبشير الرسل — وبذلك يمكن أن ينلن مساعدة من الكاثوليك، لأنهن لا يمكن لهن الاعتماد على المسلمين — يمكن أن يتمكن من إقناع أزواجهن ، وجرهم إلى الإيمان الكاثوليكي، وهكذا قليلاً قليلاً، من الممكن جعل عقيدتنا معروفة بينهم، ولسوف تناضل زوجاتهن بحماس شديد من أجل هذا، لأن لدى كل واحد منهم كثيراً من الزوجات، فجميع الأثرياء وذوي السلطان بينهم يمارسون حياة شهوانية، هي لغير صالح زوجاتهم، اللائي ترغب كل واحدة منهن أن يكون لها زوج خاص بها(وهذا مالا يجب أن نندهش منه) بدلاً من

مشاركة سبعة زوجات أو أكثر في زوج واحد، ولهذا السبب — حسبما سمعت مراراً من التجار الذين يترددون على بلادهم — من الممكن بسهولة التأثير بقوة على نساء تلك الطائفة، وجذبهن نحو طرائق الحياة لدينا، من أجل أن يكون لكل رجل زوجة واحدة.

٧٠ [44] : عندما يتحقق إقامة سلام عالمي ووئام بين جميع الكاثوليك الخاضعين للكنيسة الرومانية، وفق الطريقة المقترحة، وعندما تتناقص الحروب والمخاصمات بالوسائل التي سيأتي شرحها، وكذلك من خلال التأثير الذي قضى به موجد الأشياء كلها، سوف يكون إثر هذا الكاثوليك في أوضاع أكثر قدرة فيها على إخضاع الأمم المختلفة، فهم لن يكونوا بعد الآن قادرين على شن الحرب أحدهم على الآخر، ولن يخشوا من إمكانية مثل هذه الحروب، بسبب العقوبات القاسية المعدّة لهم، والمعني بذلك: فقدانهم لأراضي أسرتهم مع ممتلكاتهم الأخرى، ولهذا السبب، من المحتمل كثيراً، أن يقوم الأمراء المتحمسون، على الفور، بدمج قواهم وتوحيدها ضد الكفار، أو على الأقل إرسال جيوش لا تحصى من المحاربين من جميع الاتجاهات، حتى تبقى بمثابة حاميات دائمة في الأراضي التي سوف يتم الاستيلاء عليها، وبهذه الطريقة سيزداد كومنولث الكاثوليك الخاضعين للكنيسة الرومانية زيادة عظيمة جداً، في وقت قصير،وذلك في مواجهة جميع الآخرين الذين يفتقرون إلى تنظيمات اتحادية، وإحسان نحو الرب، ونحو جيرانهم.

ولا شك أن الاهتمام بدراسة الفلسفة، والحض عليها بقوة في جميع أرجاء كومنولثنا، من الممكن أن يسهم كثيراً في الوصول إلى هذه الغاية، فلقد شايعت زهرة الروح العسكرية التعلم والتمذهب من مملكة إلى مملكة: من الهنود إلى الآشوريين، ومن الآشوريين إلى الإغريق، ومن الإغريق إلى الرومان، ومن الرومان إلى شعوب شمالي الألب (Cismon tane)وذلك حسبما نقرأ في تواريخ الأقدمين، وإذا ما قامت الطائفة

الكاثوليكيـة بتكويـن كـومنـولث واحـد في جميع الممالك والأمـاكن، وشجعت الدراسـة في جميع الأمـاكن الموائمة، ينبغي أن تكون النتيجة امتـلاك هذا الكومنولث خـلال مـدة من الزمن السلطة على العـالم كله، وستتعـاظـم هذه السلطة وستـزداد صـلابة مع مـرور السنوات، ومن المؤمل — لا بل من الممكن التحقيق — أن هذا سيتبلور في ظل المملكة الروحية وطاعتها وليس في ظل المملكة الدنيوية.

٧١ [45] : من الممكن — لا بل من المتـوجب — أن يحدث طلاب هذه المؤسسات تقـدماً كبيراً أكثر من الآخـرين، وهذا واضح من حقيقة أن أساتذة المركـز البارعين والمجـربين، سوف يبحثـون عن تبني برنامج متسـارع بسماته، وبطرائقه، وبدراسـاته، وبوسائل الحصـول على الخبرة، ويتـوجب اختيـار صبيـان في الرابعـة، أو الخامسـة، أو السـادسـة من أعمارهم، أو أسن مـن ذلك، تكون رؤوسهم حسنة الشكـل والتكوين، وهم أهل للتـقدم، على شرط أن يكونوا ممن لن يـعادوا إلى آبائهم، إلاّ بإذن من المركـز، ويتوجب أن يتلقى مـائـة، أو أكثر من هؤلاء الصبيـان تدريباتهم في مكان واحد، مجهز بشكل جيد من أجل هذه الغاية

وأن يدرسوا أولاً ويتـدربون على ترتيل المزامير، وأن يقومـوا فيما بعد في الجزء الثـالث من النهـار، بالغناء وبأعمال قـريبـة من ذلك ومشـابهة، ويتوجب تعليمهم في ساعات أخرى من النهار مبادىء النحو اللاتيني(الدوناتيـزية Donatus) وأن يكون ذلك وفق الطـرائق والعـادات الرومانية، وأن يتعلمـوا أيضاً الفروع الأخرى من فـروع النحو، وعندما يستمع أحـد الصبيان كتاب كـاتو Cato وكتب نصوص صغيرة أخـرى، عليـه أن يحضر أربعـة دروس طويلة في اليـوم، أو إنهاء هذه الدروس، وعليه أن يصغي إلى بعض النـصوص الرئيسية، وبعد هذا إلى واحـد آخر يقـوم بإعـادتها، وعليه أن يردد وراء المعيـد، مثلما يفعل إزاء النصـوص التي يتقنهـا، والـذي ينبغي أن يقـرأ له أولاً تصريف الأسماء

وأحكام اللهجـات، وبعد هـذا عليه أن يعيـد تلاوة كل مـا يطلب منه، وأن يفعل ذلك على الفور، وفقط في المسـاء يقوم بكتابة مـواضيع إنشاء باللاتينية.

وعندمـا يبدأ الصبيـان في إحـراز قليلاً من التقـدم في هذا، عليهم أن يتكلمـوا دومـاً باللاتينيـة، فيعـوّدوا أنفسهم على هذا في جميع الأوقـات والأماكن، وبعـد الانتهاء من النصـوص الصغيرة، يتوجب عليهم سماع الـتوراة في أشكال أولـية، وليكن ذلك ثلاث ـمرات أو أربع ـمرات في اليوم الواحـد، وأن يكتبوا مواضيع إنشـائهم من مؤرخيه ومن شعـرائه على التوالي، بما أنهم سيكتبـون مجرد تدريبات، وعندمـا تحل الأيام المعدة للإعراب، عليهم أن يعـربوا أولاً [أغاني] Gradualما بعد الـ Bre-viary ، إنما ليس الـ Missal، باستثناء مـا هو مـوجـود في التـــوراة، وبعد الانتهـاء من الـ Breviary عليهمّ إعراب الحكايـــات الذهبية للقديسين[ليعقوب دي فورين Voragine المتوفى حوالي سنة ١٢٩٨]، وبعض الأشعار القصيرة، المنتخبة من حكايـات الشعراء، وعليهـم كتابة مقالات قـائمة على هذه الحكايات، ويظلِ أفضل نقلها إلى اللاتينيـة مرة ثانيـة، وبهذا سـوف يكونوا أكثـر اعتيـاداً عليهم في المستقبل، أكثـر من التمارين المعتـادة التي هي بلا فائـدة، وبهذا لن يكونوا قـد ضيعوا وقتـاً حتى الآن، ولسـوف تكون المقـالات التـي كتبـوها ذات فـوائـد دائمـة بالنسبة لهم، وبعدما يكونوا قـد فرغوا من سماع التوراة كلها، عليهـم أن يعيدوا اثنتي عشرة صفحـة منه كل يوم، ومثل هذا حكايات القديسين، وبالنسبـة للشعـر عليهم نظم بعـض الأبيـات البسيطة، لكن ليكن ذلك لوقت قصير، وعندمـــا يأتي الوقـت أخيراً، ويصبحـوا جــاهزين لسماع المنطق يتـوجب إسماعهم الأعمال الشعـرية خـلال ثلاثة أشهـر الصيف، وليكن ذلك أن يستمعـوا في اليـــوم الأول كـاتو Cato، وفي اليــــوم الثاني ثيودولوس Theodulus ، وفي الأيام الثلاثة التالية توبياس

Tobias ، وهكذا بالنسبة للشعراء الآخرين، وعليهم الاستماع لستة دروس في كل يوم من أستاذين، وينبغي عليهم فهم هذه الأشعار من قبل أنفسهم، كلهم تقريباً، وذلك بسبب أن القصص والشروح سوف تقدم بلغة بسيطة، لأن الذي هو مطلوب من هذه الكتب تراكيب الجمل فقط، وأشكال من المعرفة صالحة لأي شاب، عندما يبدأ بصنع بعض التقدم، ويمكنه أن يقرأهم ويفهمهم، ولديه الجاهزية لتقبلهم كأشعار رومانسية، وإذا ما أبدى بعض الشباب الاستعداد للتقدم، عليهم العمل في هذا المجال ليلاً ونهاراً لمدة سنة كاملة، إنما باستثناء الأوقات المخصصة للراحة، ولسوف يتمكن معظمهم، بعون الرب، من إكمال هذه التدريبات في جميع فروع المعرفة قبل وصولهم إلى سن العاشرة، أو على الأكثر سن الحادية عشر، وآخرون في سن الثانية عشر على الأكثر، وفي أثناء دراسة الموضوعات الموصوفة آنفاً، على الصبيان سماع[رسالة] دكتورنيل Doctrinale [النحوية]، وليكن ذلك في أوقات يختارها أساتذتهم، وليركزوا بشكل خاص على ما يتعلق بالضمائر والأفعال، وآخر ما عليهم تعلمه هو [رسالة] Graecismus [النحوية حول التفاعيل السداسية]، وليقتصر ذلك على فهم معانيها الأدبية، لكن من دون الإصرار على أية جوانب أخرى.

٧٢ [46] : ولدى إكمال الطلبة لهذه الدراسات، ينبغي تحويلهم إلى مدرسة أخرى، حيث يبدأون دورات تعلم المنطق، وعليهم أن يشرعوا في الوقت نفسه بتعلم الإغريقية أو العربية، أو أي لغة أخرى، حسبما يوجههم المؤسس الجديد للمدرسة ويختار لهم، ولدى دراستهم لأي لغة جديدة، عليهم أن يتعلموا أولاً أشكال كلماتها، مع بنائها النحوي.

أما فيما يتعلق بالمنطق، فعليهم أن يتعلموا أولاً الرسائل المعيارية، والشروح الموجزة لها، وينبغي اتخاذ احتياط أن يتولى شخص بارع بهذا

الفن اختصارهم لهم وايجازهم، وأن يوضح المسألة الإشكالية التي طرحها الفيلسوف في كل واحد من كتبه حول المنطق، وأن يكون هذا الايضاح محكماً، وبذلك لن تحتاج الرسائل بعد سماعها خلال دورة الدراسة مرتين أو ثلاثة، إلى شرح مكتوب، وبعد هذا يتوجب أن يستمعوا إلى الكتب مرة أخرى على شكل محاضرات منتظمة، وينبغي إنجاز هذا كله مع بلوغهم الرابعة عشرة من العمر .

وليشرعوا بعد هذا بتعلم العلوم الطبيعية، وبسبب إسهاب هذا الموضوع وعمقه يستحسن اعتماد كتاب «الطبيعيات للراهب ألبيرتوس[ماغنوس Magnus]، الذي يحتوي فعلياً جميع ما فكر به الفلاسفة مع إضافات كثيرة، واستطرادات، وينبغي اختصار هذا الكتاب بقدر الامكان، إنما شريطة أن يكون هذا الاختصار واضحاً بقدر يستطيع فيه الانسان المهتم أن يفهم هذا المختصر، من دون العودة إلى النص الكامل، وعلى الشباب الاستماع لهذا المختصر كاملاً خلال العام الأول على شكل أربعة محاضرات في اليوم، من دون أسئلة، ثم يستمعون إليه مرة ثانية مع أسئلة، ثم يقومون بعد ذلك بسماع الكتب حسبما جرت العادة بقراءتهم في المدارس.

ولسوف يكون أيضاً مفيداً لهم أن يتوفر لديهم أسئلة مختارة من كتابات الراهب توماس[أوف كانتمبري Cantimpre ، نشط ما بين ١٢٢٨ — ١٢٤٤] وسيغر [دي برابنت، ت ١٢٨٣] وباحثين آخرين، وينبغي أن تدمج كتاباتهم كلها في مصنف واحد، حول المسائل الأساسية: أشكالها، وتكوينها، وعمومياتها، وفسادها، وحول جميع مشاعرها ووظائفها، وحول مزايا الأرواح، وأعمالها وطبيعتها، وحول عناصر الطبيعة وأعمالها، وحول الأجسام السماوية، وطبيعتها، وتأثيراتها، وحركتها، وبعض المواد وفق هذا التسلسل واستيعابها بسبب ترتيبها، ولسوف يكون من الصعب -جداً ترتيب المادة وفق هذه الطريق، علماً

بأن ذلك سوف يكون مفيداً جداً على الطريق إلى التعلم، هذا التعلم الذي من الممكن تحصيله بسهولة، وفي وقت قصير، بهذه الوسائل، وما أن يحصل الانسان على هذا التعلم، سوف يتمكن من الاحتفاظ به، وتذكره بعقله متى شاء.

٧٣: وعندما تكتمل هذه الدراسات، عليهم الشروع بسماع محاضرات في علوم القيم والأخلاق، والمقصود بهذا : القيم (المونوستيكا -Mono stica)، والأخلاق، والخطابة، والسياسة، وتكون هذه المحاضرات مثلما تقدم فيها خلاصات واختصارات، فلقد رأيت الأخلاق في عشرة كتب اختصرها المعلم هيرمان الألماني(كان نشطاً سنة ١٢٥٠)، وبعد هذا العرض المبدئي، سوف يستمعون إلى نصوص الكتب التي تشكلت من قبل من محاضرات، مع أسئلة أعدت مثلما حدث من قبل بالنسبة للأسئلة الطبيعية، وذلك مع قليل من المناظرات قد كتبت من كل واحد من العلوم، لأن الحشد من المحاضرات قد يفضي إلى الفوضى في الثقافة وفي إصدار الأحكام الصحيحة، أكثر مما يقود إلى المعرفة.

٧٤ : وبعد إكمالهم لهذه الدراسات خلال عام واحد، عليهم الشروع بالاستماع إلى محاضرات بنصوص التوراة المشروحة، مرتين في اليوم، وذلك مع كتاب الـ Summae في الصباح، مع أسئلة متجاوزة الأسئلة المتعلقة بالطبيعيات، ويتبع الذين سوف يصبحون مبشرين هذه الدورة التعليمية لمدة عامين أو ثلاثة أعوام، وإذا ما قام بعضهم بذلك، سيكون كافياً للآخرين اتباع هذه الدورة مرة واحدة لمدة سنة، أو حتى لمدة أقصر، وبعد هذا يتوجب على بعض الأفراد استماع محاضرات بالقانون لمدة عامين، مما يمكنهم من سماع المجلدات الخمسة كاملة، وعليهم بعد هذا استماع نص الـ Decretum والـ Decretals الـ Decretum مرتين في اليوم، والـ Decretals مرة واحدة، ويمكن للذين خططوا ليعيشوا بمثابة رجال دين في بيت الرب، التخلي

عن دراسة القوانين، لكن لا يجوز لهم التخلي عن الـ Decretum والـ Decretals، ويمكن للذين خططوا لحياة مدنية التخلي عن دراسة الطبيعيات، وأن يهتموا أكثر بالقيم، وبالقانون المدني والقانون الكنسي، وعلى كل من أراد الاستماع إلى محاضرات بالطب، أن يفعل ذلك بعد الفراغ من محاضرات الطبيعيات، مع أنه سيكون مفيداً أن يتجاهلوا التوراة والـ Summae، بما أن هذين الكتابين يتعاملان مع المبادىء التي هي أسس جميع العلوم، وحسبما قال الفيلسوف:«جميع العلوم متداخلة»، ولسوف يكون مفيداً جداً أن تكون عارفاً بمبادىء جميع فروع المعرفة، أو على الأقل أن لا تكون جاهلاً بها جهلاً تاماً، علماً بأنه سيكون مفيداً جداً لو أنهم حملوا الكتب معهم، وعلينا أن نفترض أن بعض المستمعين سوف تكون الكتب معهم، وأن بعض هؤلاء الذين ليست لديهم الكتب سوف يحصلون عليها، زيادة على هذا، لأنهم امتلكوا أساساً ممتازاً في العلوم، سوف يتقدمون كثيراً من خلال الكتب التي تعلموها اعتماداً على أنفسهم، بعد تركهم المدرسة.

٧٦ : ولسوف يكون مفيداً بالنسبة للطلاب الذين نالوا تدريباً قصيراً، والذين سوف يكونون قضاة وحكاماً لمدن كبيرة ولشعوب، أن يكون معهم قوانينهم في مجلد واحد، كتبت فيه القوانين بشكل واضح ومختصر، وبوضوح لمرة واحدة من دون تكرار للقضايا المتشابهة، ويحتوون على أقوال باتة، من الممكن قراءتها وفهمها من دون شرح أو تعليق، ومن الممكن صنع هذا، بوضع جميع القوانين التي هي من نوع واحد تحت عنوان واحد، بطريقة يتمكن فيها أفراد ذوي ثقافة جيدة من فهمهم وتملكهم من دون أستاذ، وسيكون مفيداً امتلاك الـ De-cretum والـ Decretals بشكل مختصر، بحيث يتمكن الطلاب الذين لديهم وقت قصير من تناولهم وفهمهم بشكل مختصر، بعيداً عن القو انين المتداخلة والمضطربة، والقوانين العامة والقوانين الخاصة حول

أي موضوع من المواضيع مهما كان، وسوف يتمكنون بمساعدة هذه المختصرات، مضاف إليها الخبرة، من حكم أنفسهم والآخرين بمثابةمواطنين جيدين بتوافق مع القوى العامة والخاصة المثبتة بوساطة العادات، ومع الإفادة من هذه الخبرة، يمكنهم متابعة دراساتهم حتى الاكتمال وذلك بعد حصولهم على كتب القانون.

ولسوف تكون هذه المختصرات والمختارات بمثابة كناشات للطلاب الفقراء، وللذين هم بالعادة منشغلين بفروع المعارف الأخرى، مثل الفلسفة واللاهوت، ممن لا يمكنهم تكريس الوقت المعتاد والضروري من أجل تملك مواد مجلدات كبيرة، فحياة الانسان حقبة قصيرة، ونادراً ما تسمح له مشاغله بالمسائل الروحية والمسائل الدنيوية بإكمال دراسته ومعارفه حول التفاصيل الكثيرة جداً المتعلقة بالقانون المدني والقانون الكنسي، وذلك بالاضافة إلى الفلسفة واللاهوت، ومع هذا يمكن لأشخاص تحقيق إكمال ما يصبون إليه من معرفة، بمتابعة دراساتهم، وفق الطريقة المقترحة من قبل، ويستطيعون قبل وصولهم إلى سن الثلاثين أن يصبحوا بارعين جداً في القانون المدني، والقانون اللاهوتي، وخبراء بطرائقهم في الوعظ، وعندما تكون دراسة الكتابات عن العهدين القديم والجديد، وحياة القديسين قد استكملت في مرحلة الطفولة، ثم جرى تكرارها في محاضرات رسمية حول كتاب الـ Summae لمدة سنة، وقتها يمكن حسبما تقدم الوصف، بعد دراسة الفلسفة، أن يصبحوا منذ الطفولة جاهزين بشكل كبير لفهم، ولتقديم، ولتنفيذ ما يلزم في عدد من طقوس أعمال الوعظ، في كثير متنوع من أيام الأعياد، ولسوف تصبح طرائق الوعظ لديهم عادية جداً إلى حد أن تصير وكأنها طبيعة ثانية، وينبغي أن يترافق هذا ويتماشى مع الأ خذ بما جاء في القصة الفلسفية التي حكت كيف درب أ فلاطون الأطفال على أعمال الفضائل، حتى غدت هذه الأعمال بمرور الأيام طبيعة ثانية لهم،

وقد اندفعوا للقيام بهم وتنفيذهم، وكأن ذلك عملاً طبيعياً، وقد أوضح ذلك بقوله:«العادة طبيعة أخرى»، أي أنها تغير الطبيعة.

[48] : لقد أعلنت عدة قوانين مقدسة عن الخبرة، أنها سيدة الأمور، وقد وضح أنها هي التي توجب على الأساقفة الذين هم قادة الكنيسة، أن يتدربوا بشكل دقيق في الفلسفة وفي اللاهوت،وفي القانونين، وفي استخدام وفي ممارسة المعرفة من هذا النوع وهذا واضح بالنسبة للذين لاحظوا عجز الأساقفة الذين تعلموا، وبشكل متقن جداً، القانون المدني فقط، من دون القانون الكنسي، والشريعة اللاهوتية.

٧٧ : ويصح الشيء نفسه وينطبق على الذين أتقنوا فقط القانون الشرعي، مثل اتقان بعضهم فقط للقوانين الناظمة للرهبان.

٧٨ : وينطبق الحال نفسه ويصح بالنسبة للذين حصلوا على معرفة الفلسفة واللاهوت، ويتوجب على الأسقف القيام بهذا شخصياً، وليس من خلال الآخرين، وذلك من أجل ممارسة الأعمال التي لها علاقة بالتأمل، والأعمال المفيدة، من أجل أن يكون أكثر تأثيراً، وتهذيباً، وأن يكون أكثر خشية، وتوافقاً مع كلمات الانجيل:«يسوع ابتدأ يفعله ويعلم به»[أعمال : ١ / ١]، ومع أنه كتب من قبل المحامي الأعظم:«فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن ينزع منها»،[لوقا : ١٠ / ٤٢]، إن هذا لا يكفي من أجل الأساقفة في علاقتهم مع الخاضعين لهم وتحت طاعتهم.

وإذا ما أراد أسقف أن يتفرغ كلياً للتأمل وفق أسلوب مريم وطريقتها، عليه أن يدخل في إحدى طوائف الرهبنة الديرية، أو أن يعيش في الصحراء، تاركاً للآخرين عصا الأسقفية، وإذا ما كان بعض الأساقفة مكرهين على أن يكونوا عاملين في منحيي الحياة، وأن يتباركا وفقاً لهما، يتوجب عليهما أن ينالا من التدريب ما فيه كفاية من أجل

حاجتيهما في المسائل المرتبطة باتجاهي الحياة هذين، وذلك بقدر ما يمكن للطبيعة البشرية أن تتفهم وتحصل من مبادىء المعرفة، ولا يجوز لأي إنسان عندما يحصل على ما يكفي من معلومات، أن يحدد غايته النهائية بالحصول على الكمال، حتى يستريح عندما يصل إليها، لأنه لا يمكن أن يوجد في العالم إنسان بهذا الكمال، بل الذي يوجد هو الذي يحصل المزيد من الفائدة من المزيد من التعليم، والرب وحده هو الذي يمكنه تحقيق الوصول إلى غاية الكمال.

٧٩ [49] : ولسوف يكون مفيداً بالنسبة لبعض طلبة هذا المركز أن يتعلموا في مجال علوم الرياضيات — بقدر ما يراه الاختصاصيون في هذه العلوم موائماً وكافياً، وبشكل مختصر — بسبب كثير من تطبيقاتها العملية — وينطبق هذا بشكل خاص على المسائل التي تناولها الكتاب الصغير الذي صنفه الراهب روجر بيكون، بعنوان «حول منافع الرياضيات»، وبيكون من رهبان طائفة الـ Minorites ، ويتوجب الاهتمام الزائد والخاص بالموضوعات التي يمكن أن تكون ذات فائدة من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، ومن المتوجب على كل كاثوليكي، خاصة المتعلمين، أن يعرفوا مظهر، ووضع، ومكان العناصر، وحجمها وسماتها، وتراكيب الأجرام السماوية وحجمها، وسرعة الشمس وحركتها وتأثيرها، وكذلك القمر، والنجوم الأخرى، وأن يعرفوا كم الأرض صغيرة، إذا ما قورنت بها، وكم هي عظيمة إذا ما قورنت بالانسان، وهذا كله من أجل الانسان عندما يتعجب من هذه الأشياء، يمكنه أن يحمد خالقها، وأن يقمع رغباته الدنيوية وأن يتشامخ ويتكبر بسبب الأشياء الدنيوية، لأن جميع الأشياء في هذا العالم، والأشياء التي هي هنا من تحت، تعدّ لا شيء عندما تقارن به، وهكذا ينبغي أن تقدر.

٨٠ [50] : لنفترض أن أحدهم سوف يعترض، وسيقول مثل عدد

كبير آخر:«إن طرائق التعليم التي اتبعت حتى الآن كانت كافية لآبائنا، الذين ربطات أحـــذيتهم، الكاتب الحالي لهذا العمل غير جـــدير بفكها»،وسيكون الجواب: الاقرار بأني بالفعل غير جدير بفكها، ومع هذا إنه قـد تحرك برغبة طبيعية من أجل استرد د الأرض المقدسة والحفاظ عليها، وغالباً ما قام كاتب هذا العمل بالتذكر والتأمل حول ما هو ـضار وـما هو مفيد لهذا المقـصد، مثل ـحدائقي ـقام أولاً بـتدمير النباتات الضارة، ثم الأشـواك، ثم الأعشاب، وقام بعد ذلك بزراعة الحبوب ومزروعات أخرى، استهدف أن يحصدها عندما ستثمر، ولهذا بحث بهذه المسائل، وبالطرائق المتقدمة الذكر المتعلقة بالتعليم، كوسائل مفضية للمساعدة على الحفاظ في الأرض المقدسة، وللإستيلاء عليها، ففي تلك البلاد سوف يكون الطلاب غير قادرين على نيل أي تقدم، أو القدرة على امتلاك الوسائل من أجل إحداث التقدم، حتى تصبح البلاد غير مضطربة ومتحررة من الحروب، وأيضاً لن يتمكنوا بسهولة من إيجاد أساتذة يقومون بتدريبهم من أجل إحداث تقدم سريع في ميادين العلوم العملية النافعة، لأن كل أستاذ سوف يرغب[في ظل النظام القائم]بأن يبقي الطلبة يتعلمون منه لوقت طويل.

وسيعتقد كل أستاذ بشكل عام بأن موضوعه هو الأكثر أهمية ومنفعة من جميع الموضوعات الأخرى، وفوق هذا يعتقد كل واحد بشكل عام بأن المعلومات التي يمتلكها، والتي يرغب بتملكها بشكل كامل هي كافية لأن تقوده هو شخصياً مثلما هي كافية للعالم أجمع، ولقد نسي أنه ليست المعارف العظمى لوحدها ضرورية لقيادة العالم بل أيضاً الخبرة العملية.

كما أن معرفة موضوع من المواضيع مشفوعة بالخبرة العملية لموضوع آخر لن تكون كافية، ـمالم يكن الموضوعان متصلان ببعضهما بعضاً، ولا يمكن تحقيق هذه القرابة والصلة، مالم يتم اختزال طريقة الدراسة

ووقتهـا، للسماح للذين لديهم معلومـات نظرية بالحصـول على الخبرة العمليـة بسرعـة كبيرة حتى يتمكنوا من تملكهـا واستخـدامهـا لوقت طويل، قبل أن يبـدأوا بالعمل بشكل أحمق من خـلال انحـدار قـواهم العقليـة، وقدرتهم على إعطاء حكم سليم، فقـد قال الفيلسـوف:«تشيخ أدوات المشاعـر، لكن الفضائل لا تشيخ»، ولهذا علينا أن نكـون قادرين على إدراك ضرورة الاحتراز ضـد الأحـلام المجـردة، علماً بأن المعـرفـة ليست أدوات طاقة، بل هي حـاجات للأدوات، وتنحدر هذه الأدوات وتضعف بسرعـة من الرطوبة ومن البرد، وهي تضعف أكثـر في البلدان البـاردة، من ضعفها في البلدان الدافئة، ولهذا يمتلك الشيـوخ في المناطق الدافئة مشاعر عامة أكثـر، وقدرة أفضل على التذكر، وتجميع الأمور من الذين يعيشـون في بلدان باردة، وبين جميـع المناطق، المناخ المعتـدل هو المفضل، بما أن التطرف في المحيط يضعف القوى العقلية للانسان.

٨١ : وللأسـباب المذكورة من قبل، يتـقدم الشباب بسرعة كبيرة في العلوم ويصلون إلى الخبرة العملية بنشاط كـامل، ومع توقع حياة مديدة توافقـاً مع مسلمات القـانون، والطبيعـة، وبعـد نيلهم أولاً للمعلومـات النظرية، وبعـد ذلك للخبرة العمليـة، المسـاندة للمعلومـات النظرية، سوف يكونوا وقتـذاك قادرين على حكم عقول وأجسـاد الآخرين، لمدة طويلة، بسبب تـدريبهم الخاص من أجل المهمـة، لأنه كما كتـب«مـا من أحد يصبح متفوقاً بشكل مفاجيء».

٨٢ : يتوجب على الوقحاء أن لا يكونوا متـشوقين لعدم الموافقة على الشروع بمثل هذه التحسينـات العظيمـة، بل الـذي بالحري عليهم — بفضل نعـمة الرب — السعي ـجا هدين لتحسين وإكمال العمل غير الكامل من أجل المنفعة العامة، أو إذا مـا طرحنا القضية جانباً، يتوجب عليهم وقتها بذل الجهد في سبيل شيء أكثر مواءمة، وأكثر فائدة عملية، بقـدر مـا يسمح الهدف الأسـاسي، وعليهـم الحث على ذلك بلطف

وفصاحة، وقد قال الفيلسوف مؤيداً لهذا — مع أنه قد اكتشف شخصياً بالبراعــة طرق الحكمــة، ومبــادىء رفض القيــاس المنطقي — :«من الصعب اكتشاف مبــادىء أساسية، إنما ما أن يتم اكتشافهــا سوف يكون من السهل الإضــافــة إليهــا»، وتماشياً مــع هذا وتوافقــاً قــال المشرع القانوني:«إن الذي يقوم ببراعة بتحسين الــذي جرى اكتشافه، ليس أقل جدارة بالمدح من الذي عمل الاكتشاف أولاً».

٨٣[1 5] : ولسوف يكون مفيــداً إبقاء الضعفاء جــداً، غير القادرين على عبور البحــر، في كل مدرسة من مدارس هذا المركــز، وعندما يتعلم هؤلاء أكثــر من برامج الدراســة الموصــوف، وذلك بقــدر مــا تسمح به الظروف، يمكنهم القيــام بتعليم الآخــرين، وأن يصبحــوا في النهــاية رؤســاء للمــدارس، وينبغــي طلب عــدد كبير من أســاتذة الاغــريقيــة والعــربية والكلــدانية، مع أســاتذة آخــرين للغــات أخــرى تعدّ مفيــدة، وعليهم القيــام بتعليم آداب لغاتهم إلى أكثــر طلابنا ألمعية، وإلى آخــرين، يمكن أن تكفيهم دراســات أدنى لــلأدب وإلى اللغــة الأم، بقــدر مــا يمكنهم من العمل كمترجمين ــكلاميين لغير المتعلمين، وأعتــقد، أنه كما نرى بين لاتينياتنا عدة لغات أم متنوعــة، موجودة تحت آداب كل لهجة، ســوف يكون مفيــداً بالنسبــة للذين يرون أن لــديهم القــدرة على تعلم اللغات الأجنبية، أن يتعلموا اللغات العمــومية الأكثر بين هذه اللغات، مثل الفرنسية بين لاتينياتنا.

٨٤[52] : وينبغي تعليم التــلاميذ الأشد بنيــة بين تلاميذ هــذا المركز الفنون العسكرية، وبالنسبــة للآخــرين الذين يتبين مع مــرور الأيام أنهم متخلفين في دراســة الآداب، ينبغي تعليمهم الفنون الميكانيكيــة، خاصــة الفــروع النافعــة منهــا، والمفيــدة لفن الحرب، مثــل فن الحدادة، وفن النجــارة، ذلك أن الفيلســوف يقــول:«فن الحرب أكثــر نبــلاً من جميع الفنون الميكانيكيــة، وذلك بسبب نبل الهدف الذي يسعى مجتهداً نحــوه،

والذي هو السلام»، وينتمي إلى فن الحرب أكثر من سواهم: الحداد. ومنتج الأسلحة، ومثل هذا واضح أن فن النجارة من أجل فن الحرب يعتمد على هذين الفنين.

وينبغي أن يتعلم كيفية صناعة مختلف الأدوات، مثل المرايا المحرقة، والأدوات الأخرى المفيدة في أثناء القتال، واعتماداً على الاقتراحات التي وردت في الكتاب الصغير المتقدم الذكر، أي كتاب«حول منافع الرياضيات»، من الممكن تحقيق هذا وصنعه بمعونة كل من فني الرياضيات والعلوم الطبيعية، فبوساطة هذه الفنون يمكن صنع أشياء لم يسمع بها قط في هذه المناطق الغربية.

ومن الممكن أيضاً أن يتدربوا على كثير من الحرف اليدوية المفيدة من أجل استرداد الأرض المقدسة، والاستيلاء على المناطق المجاورة لها، لأن عدداً كبيراً من الرجال البارعين وذوي الخبرة في هذه المسائل قد ارتؤي أنه ـمرغوب فيهم، ومن غير الممكن أن يكون إنساناً واحداً ـقادراً على إتقان هذه الحرف اليدوية كلها، وهذا واضح مما رأيناه دوماً نحن وأجدادنا.

ومن المؤ كد والواضح لكل ذي بصيرة، وما لا يمكن لانسان أن لا يلاحظه، أ نه من النادر و جود إنسان بارع في حرفتين يدويتين، ولم يوجد قط من أتقن ثلاثة حرف، فكيف على هذا أن يوجد إنسان بارع في جميع الحرف، التي هي بيننا لا يمكن تعدادها؟ وإذا ما انعدم هذا في الحرف اليدوية، انعدم أيضاً في جميع مقاصدها، وأسبابها، وتنوعها، ويتبع هذا القول أنه لا يمكن لإنسان واحد أن يتولى تدريس جميع الحرف اليدوية، أو أن يكون مؤلفاً لها جميعاً، ويبدو أن مرد هذا وسببه هو أن صانع الطبيعة، قد رغب في إزالة كل مناسبة من مناسبات التشامخ والرغبة في السعي وراء الأشياء المتوفرة في هذا العالم، وأن يعطي تسويغاً، وسبباً، ومناسبة لكل إنسان، لاحتمال أن يكون هو

نفسـه ممتلكاً لممتلكات ومخترعـاً لحرف يدويـة من دون توفـر المزيد من الشره والحسـد، فـوق الحد المقبـول، وبـذلك جعل الأشيـاء اللامحدودة مسـؤوليـة إنسانيـة، مثلهـا في ذلك مثل اللغـات — والآداب وكـذلك العامـيات — والأماكن والمناطق، وضاعف أيـضاً الحرف إلى حد أن لا إنسانـاً واحداً، ولا مـائة، ولا ألفاً، ولا مـائة ألف، ولا مـائة مـرة ألف ألـف، يمكن أن يكون فيهم كـفاية للـصالح العام، والازدهار الـعام، في إطار المعنى العام للعبـارة، لن يكون رجال منطقـة واحدة، أو مملكة، أو ثلاث ممالك، أو عشر ممالك فيهم كفاية لبعضهم بعضاً.

وهذا صحيح، إلى حد يبـدو الأمر فيه أن جميع رجـال هذا العالم هم بشكل عام مسهمون بشكل متبادل في خيرهم العام، ويتبع هذا أن على الناس أن يكونوا متسـامحين، وبـلا شره ولا حسـد لأي إنسـان في حظه السعيـد الطبيعي، وأن يكونوا مثل الحيـوانات الأليفـة التي تتسـامح مع بعضهـا بعضـاً، وهكذا قـام مخلص الأرواح جميعهـا بالتعبير عن إرادته، عن طريق أفعاله أكثـر منه عن طريق أقواله، وقـد وجهنا بكلمته وفعله بما يتطابق ويصح مع ما قاله الرسول:«كل عمل من أعمال المسيح ينبغي أن يكون توجيهـاً لنا»(من روما : ١٥ / ٤)، وقـد جاء حـول رسالتـه، وكتب حول تعليمه:«ابتدأ يسوع يفعله ويعلم به»(أعمال: ١ / ١)، وقد حذرنا القـانون المدني بقوله:«ليس مهماً كيف عبر الشعب الـروماني عن إرادته، سواء أكان ذلك بالكلام، أم بالأوامر والأفعال ذاتها».

وبناء عليـه ينبغي تعليم تـلاميـذ المركـز مختلـف أنواع الحرف التي ستكون ذات فا ئدة في استرداد الأرض المقدسة، والمـحافظة عليها، وفي سعـادة سكانها، بحكم كونهم المؤسسين لنظـام يكون مناسباً في أوقـات الحـاجة الماسة، وعلى هذا التجهز وشراء مـعدات من مناطق نائـية عبر البحر، تكون مفيـدة جداً لتلك البلاد، وهي معدات نادراً مـا توجد — إن وجـدت — في داخل حدودها، ولقـد قيل بشكل عـام أن كل شيء

نادر، يعدّ ثميناً، ويحدث أن جميع الأشياء الضرورية والمفيدة لوجود الانسان ولسعادته، قد تتوفرْ بكثرة في بعض الأماكن وتنعدم في مناطق أخرى، فهكذا خلق الرب العظيم والرائع جميع هذه الأشياء للانسان، وهكذا وزعهم حتى لايجعلهم الانسان المعاق بالأضاحي هدفاً له، ورغبة لأن يعيش دائماً هنا بالأسفل.

٨٥ [53] : وينبغي تعليم جميع فتيات المركز، مثلهن مثل الذكور، النحو اللاتيني، والمنطق بعد ذلك، ولغة أجنبية واحدة، وينتقلوا بعد هذا إلى تعلم أسس العلوم الطبيعية، وأخيراً إلى الجراحة والطبابة، والذي أعتقده أن مثل هذه التدريبات — باستثناء النحو و الجراحة — ينبغي أن تعطى إلى الفتيات اللائي يظهرن أكثر قابلية للتعليم، ولديهن امكانات أفضل من سواهن، وينبغي أن يتعلمن أيضاً من كل علم من العلوم الأجزاء التي لها علاقة بالطبابة وبالجراحة، وبطريقة قابلة أكثر للفهم، وأكثر وضوحاً، وأكثر سهولة أيضاً، آخذين بعين التقدير ضعف جنسهن، ولأنهم ينضجن بسرعة اكبر من الذكور، ويحصلن بسرعة أعظم على مثل هذا الكمال، مما هو ممكن للذكور، ونرى الشيء نفسه في الاشجار وفي النباتات الأخرى، ويؤيد هذا ماقاله الفيلسوف، لدى حديثه عن هذه القضية في كتابه«حول الحيوانات» : «ينضج الذين أعمارهم أقصرَ بسرعة أكبر» .

ويمكن لبعض البارعات من هؤلاء الفتيات اللائي يظهرن أنهن قد لايتحملن عبور البحر، البقاء هنا بشكل دائم حتى يتولين المسؤولية عن الأخريات، وبمساعدتهن يمكن الاهتمام بالأخريات بإخلاص أكبر، وأن ينلن قسطاً وافياً أكبر في تعلم كل المعارف النظرية و العملية المتعلقة بالجراحة وبالطبابة، وبالمسائل التي يعرف أنها ذات علاقة بفن، وبحرفة التمجيد والتأليه.

٨٦: بالنسبة للفتيات المقرر أن يتزوجن ممن غير آخذ بمبادىء

ايماننا، التي تتمسك بها الكنيسة الرومانية، وتبشربها، وتراعيها، ينبغي أن يتعلمن المبادىء حسبما تأخذ بها الكنيسة الرومانية، وأن يحملن معهن جميع المبادىء مختصرة، وقد كتبت بوضوح، وبطريقة يمكنهن فهمها بها فيه الكفاية، ولن تكون المعرفة نفسها مضرة لا بل قد تكون مفيدة، لعدد كبير من تلاميذ المركز المتقدم الذكر، الذين لم يتلقوا تعليماً وافياً في اللاهوت، زيادة على ما تقدم، سوف يكون مفيداً أن يبقى في المدارس العديدة الخاصة بالطبابة والجراحة، التي تأسست من أجل الفتيات،، فتاتين، برعن في تعلم الطبابة والجراحة أكثر من البقية، وغدون أكثر خبرة في هذين الفنين، أن يبقين للقيام بالخدمة، ولسوف يتولين تعليم الأخريات في كل من الأمور النظرية والتطبيقية، وبذلك عندما تقوم الفتيات بمغادرة المدرسة، يمكن وقتها أن يمتلكن بعض الخبرة العملية، وذلك بالإضافة إلى المعارف النظرية، ومن الممكن لهن أن يتعلمن في المدرسة — وليس بعد ذلك — بسهولة أكبر، وأن يحصلن على كثير من الخبرة، التي بدونها سوف تكون المعارف النظرية ذات فوائد ضئيلة، ويؤيد هذا ما قاله الفيلسوف:«لقد رأينا في الشؤون البشرية أن الذين لديهم خبرة من دون معارف نظرية يتقدمون أكثر من الذين لديهم معارف نظرية في موضوعهم، من دون خبرة تطبيقية».

٨٧[54] : وبالطريقة نفسها سوف يكون مفيداً إذا ما نال الطلبة الذكور لهذه الموضوعات بعض الخبرة العملية فيهم، وهم ما يزالون في المدرسة، وينبغي إقامة حانوت صيدلي هناك، حيث يجري إعداد الأدوية، حتى يتعرف الطلبة إلى الأعشاب والعقاقير الطبية الأخرى، وإلى كيفية إعداد الأدهان، واستخراج الزيوت، والوصفات الأخرى العامة، وبذلك عندما يتركون المدر سة سيكون لديهم الاستعداد الكافي لممارسة هذه الخبرة.

٨٨ : ويتوجب إعطاء طلاب المعارف اللاهوتية بشكل خاص،

فرصاً وافرة لممارسة ذلك الفن بالقيام بوعظ رفاقهم الطلبة، وبتقديم القداسات إلى الأسن منهم، وبعقد المقارنات القصيرة بين النصوص بين آونة وأخرى.

٨٩[55] : وقد يسأل الانسان كيف يمكن إعطاء طلاب القانون في وقت قصير ما يكفي من الخبرة العملية التي تمكنهم من إصدار الأحكام ورفع الالتماسات، وهذا يحتاج إلى وقت طويل خاصة للحصول على مثل هذه الخبرة، فهذا ما يعرفه تماماً الذين أنفسهم يعملون بالممارسات هذه، وإذا لم يكونوا من العاملين، لا بد أنهم قد رأوا أعمال الآخرين، وقدموا الاهتمام الأعظم من أجل التعلم منهم، وهذا واضح ومشروح من قبل رأي هوغتون Hugution المعروف كثيراً، ذلك أنه كان أستاذ قوانين كبير، حيث قال:«سعيد هو الذي يجعله رعب الآخرين حذراً».

ويبدو من الصعب جداً إيجاد مخرج فيه كفاية ومواءمة، يكون سهلاً وليس ثقيلاً جداً، ومع هذا إنه من الممكن الانجاز، لكن مع صعوبة، ولهذا قال الفيلسوف:« ليس للمسألة المبدئية شكلاً في ذاتها، لكنها هامة بالنسبة إلى جميع الأشكال»،وبناء عليه استفاض وزاد فقال:« المسألة هي التي في حال الفعالية، وهي التي تشكل الفعل والاتمام لأي شيء جرى ترتيبه بانتظام»، فنحن نرى مصباحاً من الشمع، مهما كان شكله، يتلقى جميع اشكال الفعالية الهامة بشكل متعادل من خلال براعة النحاتين، وليس من خلال تقديم الأشكال الأخرى.

٩٠: وهكذا قضى خالق الأشياء كلها، أنه بالنسبة للفعالية في كل شيء، من الممكن تملكها في وقت قصير عن طريق خبرة قصيرة تأتي بو ساطة ممار سة للمسائل و للأسباب، روحياً ودنيوياً، وذلك مثلما الحال في كثير من الأشياء الأخرى التي ماكانت بسبب انعدام الفنيين أن تأتي إلى الوجود، ويستهدف الإسراع بالحصول على الخبرة العملية،

في إصــدار الأحكام، وفي تقـديم الالتماســات، ويتطلع نحــو ازدهار الأرض المـقدسة مع سكانها، ومع أنه مناسب وصحيح أن يستولي على تلك البــلاد أناس من كثير من البلدان، لكـن إذا مـارغب كل إنســان وسعى إلى تطبيق عــاداته وشرائع بلاده التـي جــاء منهــا، أن يمارس إجراءاتها القانونية، سوف يحدث اضطراب عظيم بين السكان، ولسوف ينجم عنه مناسبات لاعـدّ لها ولا حصر من الخلافات، وإنه لأمـر مقرر بشكل عام أن يفضــل كل إنسان تفضيلاً عظيماً، شرائع بـلاده التي جاء منها، وعاداتها، ونظمـها، مع أنها قد تكون أقل مواءمة ـمما هو عائد إلى بلد آخر، وهذا ما عبر عنه أوفيد بقوله:

لست أدري بأي سحـر جميل، الموطن يجذب جميع الناس، ولا يسمح لهم بنسيانه

وقد كتب الفيلسوف يقول:«كل شيء ليس هو عادة مؤلم»، ولسوف ينظر الإنكليز، والألمان، والإسبان، بعين عدم الـرضا، إذا ما جرى تبني عادات الفرنسيين وطرائقهم المتعلقة بالقضــاء، وستنجم خلافات لا عدّ لها ولا حصر من التباينات بين عادات ومذاهب الإجراءات، وفي النهاية ـسوف تتفـجر الحروب بين الأـخوة، الذين ينبغي أن يكونوا واـحداً في المسيح، وعلى وفاق مع ما قاله الرسول:«وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة»، [أعمال:٤ / ٣٢].

ولهذا، يبــدو من الموائم مـن أجل تجنب منـاسبــات الاضطـرابات والحروب، التخلي عن العـادات الخاصة والطرائق العـائدة لأية شعـوب هاجرت إلى هناك حديثاً، واستبـدال ذلك بطرائق للإجراءات القضائية، هي قبل كل شيء سهلة، وأقل إرهاقـاً، وأقل تبديداً[للجهـد وللوقت]، وأقصر، ويمكن لسكان الأرض المقدسة — المتمـركزين في وسط أعداء السـلام — أن يجدوها أسهـل من الجميع بالفهم والتـذكـر، والتـدرب عليهـا، ومن الممكـن من خـلالها الحصـول بسرعــة على خبرة عمليـة،

ويمكنهم بعد هذا اتباع طريقة الإجراءات القضائية نفسها في المحاكم المدنية واللاهوتية، ويمكن وقتها تحديد الأسئلة وفقاً للشرائع المكتوبة، والقوانين المدونة، كما يمكن إزالة المعيقات، والحيل، وإطالة الإجراءات القضائية الموجودة بالعادة في كل مكان آخر، إزالة كاملة.

وبوساطة هذه الطريقة — التي سيجري شرحها بالتفصيل أكثر فيما بعد — يمكن لطلاب هذا المركز، الحائزين على خبرة في ممارسة القانون — حسبما تقدم البحث — أن يصبحوا على الفور قضاة لديهم ما يكفي من الخبرة، ومرافعين عن قضايا في أية محكمة من المحاكم، وهذا أمر لم يسمع بمثله من قبل، ويمكن بوساطة هذه الطريقة لذوي المراتب من الكهنة أن يكونوا مستشارين ومرافعين في بعض القضايا القانونية، وأن يفعلوا ذلك أثناء مكوثهم في كنائسهم، أو في منازلهم، ومن دون أن يدخلوا إلى أماكن المحاكمات، ولن يتمكن المرافعون العموميون من إفراغ أكياس أموال المتقاضين، كما هي العادة في كل مكان آخر، ولن يأخذ البت في القضايا أمام المحاكم وقتاً طويلاً، قد يتجاوز عمر الانسان، كما أنهم لن يكونوا قادرين لمدة طويلة على إعاقة الاهتمامات بالعلوم وبالفضائل، وبالأعمال الأخرى المتعلقة بالسلام.

٩١[56] : وسوف أقوم الآن بشرح هذه الطريقةالموائمة -جداً في متابعة القضايا القضائية: على أي صاحب ادعاء في قضايا هامة، أن يقوم بعد استدعاء الدفاع إلى مكان القضاء، أن يضع أمام القاضي نقاط الاتهام نقطة نقطة، مما يود أن يبرهن على صحته، ومثل هذا في القضايا الأقل أهمية، عندما يكون الدفاع قد استدعي وهو موجود:

لقد ادعى«ب» ويريد أن يبرهن على صحة دعواه ضد«ت»، ويطلب أن يصدر حكم من قبلكم على«ت» نفسه، إلى حد ما يستطيع البرهنة عليه، أي أن«ب» نفسه قد أقرض«ت» المذكور مبلغ مائة مارك من الفضة الاسترلينية بعد ما عدّ المبلغ وسلمه إياه.

٩٢: بند: ــقام«ت» المذكور بحضور«ب» المذكور، بالاعتراف في أوقات أخرى بأن ما ورد أعلاه صحيح. بند: أقر «ت» المذكور، أنه سوف يعيد إلى«ب» المذكور مائة مارك استرليني صحيح، للسبب المتقدم. بند: لقد رفض«ت» المذكور إعادة دفع المال نفسه، مع أنه قد طولب به مراراً.

٩٣: هذا هو جوهر الشكاية كلها، ومن الضروري الانتهاء عند هذه النقطة، حيث يتوجب على القاضي نقل بنود الشكاية إلى الدفاع، من أجل أن يقوم بعد استعراض القضية كلها، بالإقرار بالجرم، أو برفض التهمة بالطريقة التي يرغب بها،فإذا كانت التهمة زائفة بسبب أن المال لم يجر تعداده قط ولم يجر بالتالي دفعه إلى المتهم، فوقتها يمكنه إنكار كل التهم، وينتظر من المدعي تقديم البراهين.

فإذا كان المال قد جرى إقراضه بالفعل، وتمّ الدفع بالفعل، لكن القرض قد ألغي، وهناك إيصال به، وقد سدد، أو تمت ترتيبات أخرى مع أشخاص آخرين، مع نية تجديد القرض ، يمكن للدفاع أن يقول: إن«ت» مقر بأن قرضاً مقداره مائة مارك من الفضة، قد دفع له منذ سنة خلت، وأنكر بالوقت نفسه جميع التهم الأخرى، وقال إنها غير صحيحة من جوانب أخرى، حيث عزم على أن يبرهن ضد«ب»، أنه دفع من بعد وسدد القرض إلى«ب» نفسه أو أن«ب» قد أعفاه من الدين، بنية جعله هبة، أو أن «ب» قد حلله من جميع التزا مات الماضي أو أنه عين مثل هذا المبلغ نفسه إلى آخر، مع نية تجديده وبذلك فرض على نفسه عدم المطالبة بالدين المذكور، وعلى هذه الشاكلة يسير الاستئناف وذلك وفقاً لما تتطلبه طبيعة الحقائق.

وإذا مارغب المدعي تقديم أي شيء عن طريق الدفاع، عندما يكون رد واستئناف الدفاع قد قدم إليه، على هذا المدعي القيام بتقديم إضافات إلى دعواه، وتقديم هذه الإضافة إلى الدفاع، ووفق الطريقة

نفسها يمكن للدفاع أن يضيف مايود إضافته، سواء أكان سنداً لقضيته أو غير ذلك، وتقديمه إلى المدعي، وأخيراً يتوجب على القاضي التأكد أن الحقائق نفسها لم تقدم بشكل مكرر، وأنه لم يتقبل مسائل لاعلاقة لها بموضوع الدعوى أو مقحمة فيها، وإذا وجد شيئاً من هذا القبيل، عليه رفضه، مع أية عبارات غير لائقة أو فيها إهانة، أضيفت من قبل المحامين، بعد هذا ينبغي تقديم البراهين ذات العلاقة من قبل الطرفين:أولاً بعرض الاتهام، ثم الاتهام المعاكس، وليتم ذلك تحت القسم، وبعد هذا يأتي دور تقديم الشهود ووثائق البرهان، وإذا ما أراد الطرفان المتنازعان، تقديم أسانيد إضافيه، بعد تقديم هذه الوثائق و الشهادات، ينبغي السماح لهما بفعل ذلك للمرة الثانية، التي ستكون بالفعل الإبراز الثالث للشهادة من كلا الطرفين، ولدى اكتمال هذه الاجراءات، على القاضي إصدار الحكم.

٩٤ : وقد يقول إنسان:«من الواضح أن طريقة الاجراءات هذه بعيدة عن الموائمة، وأدنى من الطريقة المعتادة التي كانت متبعة بشكل عام فيما مضى، ولا يبدو أن تحصيل الخبرة العملية في طريقة الاجراءات الجديدة من الممكن نيلها بسرعة»، وأنا مقتنع أن ذلك ممكناً، وأننا بتبني الطريقة المقترحة سنوفر كثيراً من الوقت، ومن خدع المحامين، ومن الواضح من جانب واحد فقط أن قصر الأمور على الكتابة، يجعل شكوى مكتوبة واحدة كافية للادعاء، وللمناقشات ولفحص الشهود، ومع إمكانية إبداع طريقة رسمية لرفع الشكاوى فهي لن تطوي المناقشات، والنقاط التي حولها سيجري فحص الشهود، وقد تعوّد الطلبة على التعايش بسهولة أكبر مع الشكايات، وأسرع من القدرة على استيعاب المناقشات والشهادات، ويمكن لهذه الأمور كلها أن تصبح معروفة بالطريقة نفسها، عن طريق المذهب المقترح.

٩٥ : فضلاً عن هذا: من الممكن للقضايا التي تقدم بها الطرفان أن

تدخل في الكتاب السنوي للقضاة، ومن الممكن صنع نسخة منه، بعد إدخال الخلاصات النهائية فيها، لتخصص للاستخدام من قبل رجال الإدعاء، وأخرى من قبل رجال الدفاع، وبهذه الطريقة نفسها يمكن توفير نسختين إضافيتين، وجعلهما تحت تصرف الشهود من أجل إيداع شهاداتهم، حيث من الممكن فحص الشهود العائدين لكلا الطرفين، وأخذ شهاداتهم في الوقت نفسه.

٩٦: وسوف تكون هذه الطريقة في تسيير الأعمال القضائية مفيدة جداً للشاب في تحصيل الخبرة العملية في وقت قصير، بلا جهد تقريباً، وإذا كان السيد المقدس الحبر الروماني يرغب في الأخذ بطريقة الاجراءات هذه، فإن كاتب هذه الرسالة على استعداد لتقديم إجراءات للإدعاء والدفاع في كل قضية قد ناقشها اللورد روفريدوس -Rof fredus في كتابه الصغير حول القوانين، وذلك مع جميع القضايا المثارة من قبل، ولم يتعين لها حل، أو من حوادث نجمت حتى الآن، وهذه الخطة عرضة للتصحيح من قبل الرؤوس الحكيمة بالمساعدة مع المصنف، وإذا ما استكملت ووضعت للتنفيذ، فإن الأرض المقدسة سوف تنال المنفعة عن طريق أن يصبح سكانها جميعاً متعلمين للقانون بشكل جيد، وخبراء في أعمال الإدعاء، وفي إصدار الأحكام، وفي الوعظ، وفي التألق بالحكمة اللاهوتية، ويمكنهم الحفاظ على هذه الدرجة العالية من الكفاية لمدة طويلة، في الحقيقة للجزء الأكبر من حياتهم، وذلك عوضاً عن الإخفاق بسرعة، فقط لدى الشروع بالتقدم، كما رأينا مراراً في الماضي، وما زلنا نرى.

ولسوف تسهم الخطة المقترحة بتملك العلوم واستخدامهم بشكل يختلف عن الطرائق المستخدمة حتى الآن، وذلك بتقديم تأثير كبير على الوئام في إدارة الأرض المقدسة، وبعد إعطاء التقدير المستحق لجهود هذه الخطة، والاهتمام الزائد بالتدريبات والخبرة العملية التي تعطيها،

وذلك مع فوائدها، وبعد تكريس المزيد من الجهد لها أكثر مما يقدره أي إنسان، إنني أعتقد — أنه بعون الرب — أن الكومنولث الروماني كله، لاسيما الخاضعين إلى الكنيسة الرومانية، سوف يتبنون هذه الطريقة لاختصار الاجراءات القضائية، وتلطيفها بقدر ما يراه أكثر الناس حكمة مفيداً.

٩٧[57] : ومن الممكن حشد حججاً قوية ضد هذا الاقتراح — وهو احتمال قد يتمتن بخدع الشيطان وحيله، مع معاونيه الذين لا عدّ لهم ولا حصر — ومع ذلك على سبيل المثال :«أنك بالطريقة المختصرة التي وصفتها، والتي شددت على التوصية بها بمثابة طريقة مختزلة من أجل تسريع الأعمال القضائية، إنك تقوّم عن سابق تصور وإصرار كثيراً من القوانين التي سنت بعد صعوبات جمة، فهي ستصبح وقتها بلا فائدة، وبدون هدف، ولا حاجة لشغلها صفحات الكتب».

ومن الممكن مواجهة هذه الحجة بطرق عدة، فبعض القوانين قد أظهرت كيف يمكن بها تسوية القضايا القضائية، فهذه لم تتغير، وكذلك لم تتغير صلاحياتها، ولم تدمر عدم فائدتها بهذه الخطة، لكن هناك قوانين أخرى، تميل نحو إثارة المشاحنات، وتسبب لأسباب أخرى إثارة التناقضات، ويتبع ذلك عدد لا يحصى من الاحراجات التي تتولد من تطبيقها في أيامنا، ومن المفترض أن يتولد المزيد في المستقبل، لأن الشرور لدى بني البشر في تزايد، ومثل هذه القوانين سوف تمحق بوساطة هذه الخطة، إذا ما وضعت قيد التنفيذ، إنما لن يجري محق القوانين التي هي موجودة في«مجموع القوانين المدنية»، فهؤلاء يشكلون قاعدة جيدة من أجل الحجج القانونية، وهي أفضل من القوانين التي سوف تلغى، بكل ما تعنيه الكلمة، وهؤلاء أيضاً سيكونون موائمين كثيراً لعدد كبير من القضايا القضائية، هذا ولن يكون انحرافاً، في ظل مثل هذه الظروف، الابتعاد بعض الشيء عن بعض المواد النظامية في

هذه الشرائع والقوانين.

وبهذه الخطة سوف تصبح سلطات هذه القوانين عظيمة جداً في الأرض المقدسة، لأنهم لن ينالهم التعديل بوساطة العادات بالمحاكم المدنية، مثلما حدث للقوانين حتى الآن هناك، ولسوف يحافظون على مكانهم أكثر من ذي قبل، لأنهم سوف يتغلبون على العادات، وسوف يجري اتباع الطريقة نفسها من الاجراءات في كل من المحاكم اللاهوتية والمدنية، وسوف تكون الطريقة الاجرائية في تسيير القضايا القضائية رسمية واحدة في جميع أرجاء تلك البلاد، لأن تسوية القضايا القضائية، وسن القوانين التي سوف تحكم بموجبها مثل هذه المسائل سوف لن تتغير، ولسوف تتم المحافظة على صرامة القانون دونها إفساد أو تلف، ولن يجري تحديد المواد التي تستخرج منها الأحكام، ولن يسمح لهذه الأحكام بالصدور ما لم تصدر عن براهين هذه المواد، محصلاتها وبراهينها التالية، وهكذا يمكن للجدليين المنطقيين أن يقولوا عن القياس المنطقي، عندما يطرحون القاعدة المطلقة بأنه لا يمكن الوصول إلى نتيجة عندما يمكن لمحصلة معاكسة الوقوف مع السابقة، وإليكم ما يقوله المشرعون : من مائة برهان يظل خمسون يتوالدون أو بكلمات أخرى، ولنستخدم هنا تعبيراً عاماً:«الحقيقة المفقودة، لا يبرهن فقدانها على أنها موجودة».

وعلى الانسان مراعاة هذه القاعدة بدقة، كلما كان من الضروري إصدار حكم، سواء استمرت الشكاية أو جرت البرهنة على صحة ما قاله المدعي أو ما قاله الدفاع، وإذا ما تركنا إصدار الحكم يعتمد على الحظ، نكون قد اقترفنا غلطة بحق طبيعة الحكم بالذات، وإذا ما ظهرت هذه الغلطة، يصبح الحكم الصادر لاغياً بوساطة القانون نفسه، ولهذا قال الفيلسوف:«في قليل جداً من القضايا تكون الأصداء وبالتالي الأحكام منطقية، وتظهر بشكل جيد»، وهذا واضح من حقيقة أن كل

محاججـة تنبني وتتبرهن بناء على قـوة القيـاس المنطقـي، والذي ينهي المحاجـجة هو الأشد اختصاراً بينها جميـعاً، وتأتي بالضرورة بالقضية إلى محصلة ذات شكل وبنيـان ينتمي إلى جميـع المحـاججـات، ولهذا السبب طرحنا من قبـل أن على طلاب هذا المركـز أن يتعلمـوا فن المحــاججـة والمناظرة، مع قليل من الفلسـفة، حتى يمكنهم مـعرفة طبيـعة البراهين وفن المقارنة، مع كيفية إيصال القضايا إلى محصلاتها، بمقارنة المحصلات التي عرضها المتشاركون، وأن يعـرفوا كيفية تقرير فيما إذا كانت الأسس صحيحـة، وفيما إذا كـان من الممكن أن نستخـرج من صحــة الأسس صحـــة المحصلة التي من الضروري أن تتماشـى مع الأحكام المقــررة أعلاه، ومن هذا المنطلق حدث أن كثيراً من القضاة البارعين في القانون، لكن غير القادرين على دراسـة العديد من القضايا القضائيـة، قد اعتادوا على إحالة القضايا إلى آخرين أقل براعة وأقل خبرة، وهكذا بعدما تقدم إليهم تقارير حولها، يصدرون أحكـامهم على أساس الخلاصات الموجزة للاقتراحـات وللبراهين، وبذلك يفـرضون حكماً متسـاوقـاً مع البرهان، ومتناسباً.

لأنه كما يـــقول الفيلـسوف:«العـقل البشري بسيط وغير مجزأ، وإلى حيث وجهت اهتمامـه توجـه بشكل كلي»، ولهذا السبب يفهم في وقت واــحد شيـئاً واــحداً فقط، أي في كل لحـظة من اللحظات، ولهذا على الانسان أن يقـدر السبب وراء طلب الانصاف القضـائي، وفيما إذا كان هذا الطلب قـانونياً، ومتسـاوقـاً مع القانون وغير متعـارض، ثم فيما إذا كـان قـد بني على حقيقـة، وأخيراً، إذا مـا تبرهنت صحتـه، هل صحـة المحصلة المطلوبة والمستخـرجـة من الضروري اتباعهـا؟ وبوسـاطة هذه التحريات والتقديرات لا يمكـن للعقل البشري أن ينخدع لدى إصدار الحكم، عنـدمـا تكون الشكاوى، والبراهين، والالتماســات الواردة في المحصلة قد عرضت وفق هذه الطريقة.

ولقـد قيل بأن معظم الأحبار الرومـان الأعظم قداسـة، قد اعتـادوا على التفوه بالأحكام مرفقة بالمنطق الأصح، وبالبراعة الفلسفية، مع أنهم لم يتـولوا قط دراسة القضـايا القضـائيـة، ولعل سبب هذا أنها أعطيت إليهم وسلمت مـن الأول الذي بدأ يفعل ذلك، أو أن ذلـك ولد فيهم، أو وهب إليهم بنعمة ربانية.

٩٨: ومع أن المنطق يجهـز ويعلم طـرائق صحيحـة للتعلم، وللفهم، ولمعرفـة جميع العلوم، ولتعليمها، مع ذلـك يحدث في حالات نادرة، أن إنسـاناً مـا، بحكم مـواهبـه الطبيعيـة، يمكن أن يمتلك حكماً صحيحـاً صادراً عن منطق طبيعي، إلى حد أن قدرته القضـائية، وطريقته المنطقية في التفهم هي متفوقـة، وأكثر سمواً من براعة الآخـرين، أو مساوية لها، ومن الممكن سـوق برهان على صحـة ذلـك مما قيل بأن جـالينوس قـد كتب به إلى أبوقـراط قـائـلاً:«مـا مـن إنسـان يمكنه، أو أمكنه، فهم فن الطبـابة، ما لم يعـرف المنطق أولاً، باستثناء أبوقـراط وحده لأنه متفـوق جداً بالذكاء».

وينبغي على الملوك، والأمـراء الآخـرين الكبـار، والقضـاة، التفـوه بالأحكام وفـقاً لنظام منطقي ما، وعليهم ـعدم الاصغاء إلى المـشاكسين المنحرفين والمخادعين، ولا إلى الخدع المتغيرة للمـدعين، ولا إلى كلامهم المعسول والبارع الذي يتفوهون به بطلاوة وبراعة، مع طرائقهم الخاصة بالكلام وبالضحك، ولا بحـركـاتهم وبـإيماءاتهم التي تنم عن التـوسل، أثناء أحـاديثهم، والتي إذا مـا دونت سـوف تصل إلى شيء لا يتجـاوز كـلاماً أجـوفاً وفـارغاً قصـد به التأثير، وترافق مع تغيير بالنبرات، مثل الصراخ الذي يشبه الرعد أحيـاناً، وعوضاً عن هذه الطرائق، إنه أفضل بكثير أن يجري تحري القضيـة من خـلال، وبوسـاطة سجل مكتـوت بشكل دائم، وذلك بدلاً من الاعتماد على الكلام العـابر، فوقتهـا يمكن تقديم جـواب محدد لشكاوى محددة وليس مجرد كلام انبعـث على الفور

ثم زال وتبدد.

٩٩ [58]: تقـدست الأرض المقـدسـة بـالدم الثمين، وبالأعمال، وبالحضور الجسدي لمولانا يسوع المسيح، ولهذا من المناسب بأن تكون آمنة مستقرة أكثـر من غيرها جميعاً، لأنها الأقـرب والأحب إلى ملك السلام، الـذي يقال بأنه أعطى لا شيء سوى السلام إلى حوارييه وإلى أخوانه، وعندما بفضل نعمة ورحمة ذلـك المخلص نفسه، سوف تتوقف الحرب في تلك الأرض، لا بل حتى مع استمـرار الحرب، يبـدو من المناسب كثيراً أن تتـوقف المشـاجـرات بين الكاثـوليك المقيمين هناك بوسـاطة الطريقة المتقـدمـة الذكر، أو بطـرائق أقل إرهاقاً وأذى، وأكثر فعالية وسرعة.

وجميع مسـاعي إعـاقتهم وتأخيرهم مسـاعي شريـرة، ويوجـد الآن شرين أو أكثـر، أحـدهما لا يمكـن تجنبـه، والأقل هـو الذي ينبغي أن يفضل، ولهذا يتـوجب بمـوجب ذلك على الأب الكبير، أن يتفحص، وأن ينتخب وأن يتبنى نظاماً للاجراءات القضائية يكون أسهل وأقصر، وأقل كلفـة، وإرهـاقـاً وأذى لأبنائـه، وفي ضـوء هذه الحقيقـة، وبما أن السكان الجدد للأرض المقدسة لن يكون لديهم لا شرائع، ولا عادات، ولانظم خـاصـة بهم، يتـوجب على الحبر الرومـاني المقـدس، الذي هو الأب لجميع الكـاثوليك، أن يتفضل ويتلطـف بتأسيس النظام المتقـدم الذكر إليهم، أو نظاماً أفضل، يتولى تسـوية جميع خلافاتهم في أي محكمة من المحاكم، وبهذه الوسائل يكون قـد فعل ما ينبغي لإخماد خلافاتهم، ثم عليـه أن يغتنم الفرصـة التي تهيأت بوساطة الاقتراحـات المعروضـة أعـلاه، فيسعى للاقلاع بإصـلاح عام روحيـاً ودنيوياً للأوضـاع داخل الكومنولث المسيحي، وذلك حسبما يلهمـه أبو الضياء، وينبغي أن يقـوم بإصلاحاته بطريقة تعيش فيها هذه الاصلاحات لجميع الأوقات.

وإذا كان من المتوجـب عليه إزالة الخلافات وإقامة السـلام في مدينة

واحدة أو أسقفية،أو أكثر في مقاطعة، أو حتى أكثر في مملكة، أو ربما في عشر ممالك — كم عليه أن يعمل من أجل سلام دائم: روحياً ودنيوياً بين جميع الكاثوليك؟ ومن غير الممكن تحقيق هذا الاقتراح العظيم والرائع إلاّ من خلال الملك المحب للسلام، بما أنه صادر من عند الرب العظيم، ومن خلال الذي عهد إليه وحده بكامل قواه على الأرض، وبهذا الخصوص قال المانح المشهور للقانون المدني:«لأننا كنا مشغولين بالاهتمام بالكومنولث كله لم يقع اختيارنا على شيء هام جداً» ، إلخ.

١٠٠[59] : على الرغم من حقيقة أن الكاتب الحالي لهذه الرسالة سوف يتخلى عن المبلغ الكبير الذي يأتيه من خلال عمله مستشاراً في القضايا التي تخص السيدين الملكين الرائعين، ملكي فرنسا، وإنكلترا، وفي قضايا قضائية لاهوتية أخرى، وسوف يضطر لعدم الاستمرار في موطنه الأصيل، إنه على الرغم من هذا كله على استعداد للقيام بتنظيم القضايا المذكورة أعلاه، لا سيما المدارس العائدة للمركز المقترح، وبمعونة الرب، وفضله سوف يقدم المساعدة في هذا العمل بكل ما أوتيه من قوة، لعله يكون شريكاً مسهماً في هذا المقصد الهام جداً، ومن ثم يغني مع المزمور قائلاً:«أنا رفيق لكل الذين يتقونك ولحافظي وصاياك»[مزامير : ١١٩ / ٦٣]، وأتفق مع الرسول عندما يقول:«فلنعمل الخير إلى جميع الناس بقدر مانستطيع»[غلاطية : ٦ / ١٠ بتصرف]، وأتفق أيضاً مع الذي اقترح القانون بقوله:« على الانسان أن يعمل كل مايستطيعه لإنقاذ الحياة الأرضية لإنسان آخر، دون أن يعيق خلاصه الأبدي».

١٠١ : وإذا ما بدا أنه من المناسب إقامة حلف للسلام العالمي، وفق الطريقة التي جرى شرحها، ينبغي أن يكون هناك قراراً جماعياً من قبل مجلس للأساقفة وللأمراء يقضي بوجوب أن يحلف جميع الأساقفة مهما كانت مراتبهم، وكذلك الفرسان، العلمانيون حسب خدماتهم، أن يحلفوا

أيهاناً مهيبة بالمحافظة، بكل ما يملكونه من قوة، على حلف السلام هنا، وعلى فرض عقوباته، ومراعاتها بكل سبيل من السبل، وكل من يتمنع، أو يهمل هذا القسم، ينبغي أن ينال عقوبة الحرمان الكنسي الرئيسية، ويتولى فرض ذلك عليه بوساطة السلطات الرسولية، وبوساطة المجمع المقدس، وكل من يخرق في المستقبل حلف السلام هذا يتوجب مهاجمته بكل ـحدة بقوى جميع فرسان العساكر الدنيوية والروحية، حتى لا يمكنه المقاومة.

١٠٢ [60]: وبعد الانتهاء من هذه المسائل، إن الهم الثقيل الثاني للكاتب الحالي، متركز حول توجيه راهبات طائفة القديس بندكت، وهي جماعة من الممكن أن تتملص من إصلاح أحوال الكنيسة المعروض أعلاه، فبعد تقويم عادي للمخاطر الناجمة عن حياة العزوبية، وتكاليف الحفاظ على أرواحهن، وعلى التبريكات غير العادية التي يمكن أن يحصلن عليها، يبدو أنه من الموائم أن يقوم الحبر الأعظم، بناء على طلب من الأمراء الذين غالباً ما أسسوا الديرة من أجل الراهبات المكرسات، أو قدموا الهبات لهن، أن يقوم باتخاذ قرار في المجمع، إنه في الوقت الذي تتوفر فيه نفقات كافية للديرة الحاوية للعذراوات المعترفات، ينبغي إنقاص أعدادهن حتى لا يكون في المستقبل في الدير الواحد أكثر من ثلاث عشرة راهبة.

ومن المتوجب إنفاق الهبات المخصصة لديرة من هذا القبيل لصالح الفتيات اللائي سوف يتدربن وفق الطريقة التي تقدم عرضها، وينبغي إضافة أعداد الفتيات اللائي يحسن القراءة والغناء إلى أعداد الراهبات، ولسوف يكون هذا العدد كبيراً جداً، وبذلك لن تعاق القداسات اللاهوتية مطلقاً، ما لم يتناقص العدد وفقاً لطريقة طائفة المبشرين، وينبغي حماية المنح المعطاة إلى هذا النوع من الديرة والدفاع عنهـا، بوساطة المسؤولين داخل المركز العتيد المقترح، ومن المتوجب استخراج

مبلغ كاف لتقديمه للانفاق على الراهبات وعلى رؤسائهن حسبما كان الأمر من قبل، لكن ينبغي إيقاف جميع النفقات التي يمكن تجنبها، وكذلك النفقات التي هي بلا فائدة، وعلى الفتيات ذوات الحياة المدنية، اللائي يتبعن النظم المدرسية التي أوجدها مديروا المركز، المشاركة في الصلوات الصباحية وفي القداسات، ومن الممكن إعفاء الفتيات اللائي يبرهن أن تعليمهن أسهل من هذا الواجب.

وسوف تضع السمة الأخيرة لهذه الخطة حداً لكثير من الشرور المعتادة، ولا سيما ممارسة قبول الراهبات مقابل دفع المال، أو لاعتبارات أخرى، وكذلك اختيار الدير لشخصيات ذكية ليكن راعيات أو رئيسات، والترخيص بعدد كبير من التجاوزات الطبيعية وغير الطبيعية، وينبغي الاستمرار بالطقوس التعبدية في الديرة كما هي من قبل، وإجراء هذه الطقوس خارج الديرة بمساعدة الفتيات المغادرات للدير، وينبغي استخراج ما يزيد على ثلاثين ألف ليرة تورية سنوياً إلى صالح المركز المذكور، وإذا جاء المبلغ المستخرج أقل من هذا المبلغ العظيم، من الممكن، لدى وفاة الولاة الحاليين، ردفه من المبالغ المخصصة لهذه الديرة، وذلك بعد حذف نفقات نواب الأساقفة، وكذلك من واردات ومنتجات كثيراً من الكنائس الغنية، التي تحت إشراف هؤلاء.

ومن الممكن أن يحاول إنسان — بناء على تحريض من الشيطان — تعطيل هذا الاقتراح على أنه اقتراح شرير، قائلاً إنه من هذا الشر سوف تنبع شروراً أخرى كثيرة، وإذا ما أراد أن يدعم معارضته بوساطة مثل هذه المحصلات غير الممكنة، والمتناقضة، وغير المهمة، من الممكن إجابته بإقرار أن كثيراً من الشرور يمكن أن تنجم عن شيء جيد، إنما مع هذا، لا يجوز للانسان تجنب فعل الخير.

وحسبما ذكرنا من قبل، إنه لمن الواضح من آراء جميع الفلاسفة الذين علقوا على هذه المسائل، أنه من غير الممكن وجود صلاح كامل بين

الناس الذين يستخدمون قدرة حرية الارادة الممنوحة إليهم من قبل الخالق، ولهذا من المستحيل صياغة قانون عام يمكن من خلاله عدم اتباع كثير من الشرور، علماً بأن القانون بحد ذاته هو خير.

[61] : ويمكننا بوساطة إجراءات بارعة وحكم منطقي، أن نقرر أياً من هذين الخيارين سوف يكون أكثر مواءمة، وأعظم خيراً، ولنفترض أن لدينا بيتاً للداوية وبيتاً آخر للاسبتارية، ورعوية تابعة للقديس لعازر، وديراً للفتيات، مثل الذي رأيناه حتى الآن، ولنقم من جانب أول بتقويم الخير الذي يمكن أن يصدر عنهم، والشرور التي ترافق سوء استخدامهم، ولنقم من الجانب الآخر، بالطريقة نفسها، بتقويم الخير والشر الذي سوف يصدر عن الخطة التي تقدم وصفها، أو يمكن افتراضاً أن يصدر، ثم دعونا بعد هذا نعقد مقارنة بين شرور وشرور، وبين خير وخير، وبذلك يمكننا أن نختار بين شرين أو بين شرور أكثر — مهما كان عددها — الشر الأقل، وأن نختار بين سمات الخير المتنوعة أحسنها وأفضلها.

وبمناقشتنا المسألة بهذه الطريقة، ولدى وصولنا إلى محصلة من خلال المحاكمة المنطقية، وبعدما قدرنا الخير والشر تقديراً صحيحاً وعادلاً وصادقاً، ألن يقع اختيارنا وفقاً لهذا المنهج على الشر الأقل والخير الأكثر؟ وما من أحد يمكن أن يكون صالحاً ما لم يقم أولاً بالتخلي عن جميع الشرور، وفعل الخير بعد ذلك، ولهذا دعونا نقدر الخيروالشر الذي يمكن أن يصدر عن هذا الجانب وعن ذاك، ومن الممكن أن نعهد بسلطة الحكم والاختيار إلى طائفة الواعظين، وإلى طائفة القلة، لأن رجال هاتين الطائفتين، أكثر من سواهم من بين الناس الأحياء معرفة بأوضاع الجانبين، فبعد الاصغاء إلى الحجج المختلفة من كلا الجانبين، وبعد تفحص جميع الوثائق، والبراهين الاضافية، التي باتوا عارفين بها، إنني أعتقد أن من الممكن أن نحصل منهم على الرأي المعتمد والأكثر

صحـة، وبهذه الطـريقـة — كما أعتقـد — يمكننا الحصـول على أصح الأحكام المنطقية، وذلك بقدر ما تسمح قوانا البشرية الهشة به.

وبالتمسك بهذه الطريقة من الاجـراءات، يبدو من غير المحتمل إيجاد أي شيء، وتقـديم أي شيء يثار ضد الكتّـاب، والرغبـات الطيبـة لهذا الاقتراح بالتغيير.

ومن المؤكـد أن الذين يختـارون الالتـزام الدائم بمقترحـات القـانون اللاهوتي حالهم أكثر كمالاً من الذين اختاروا الالتزام بظلاله فقط، ومن المؤكد أيـضاً أنه جـيد بها فـيه الكـفاية الالـتزام تمـامـاً بظلاله، لكنه شر الالتزام بأقل من المقترحـات، وعليه يذنب الذين لا يلتزمـون تماماً بهذه المقترحات ويسقطون، ولـذلك ينبغي أن لا يختار الانسـان موقع الكمال التام، ما لم يعدّ نفسه قـادراً بشكل صحيح على الالتزام به تماماً، ونتيجة لهذا على بني البشر في أيـامنا — لا سيما مـن عنصر النســـاء لضعفهن المشهـــور — أن يختـاروا الجزء الأسلم، خشيــة أنه في غيــاب الراعي وعصاه ســوف تتيه الشياه قـرب الغابة، فيفترسهـا الذئب إذا ما دخلت إليــها، لكن إذا بقيت في الخارج فــسوف تتلقى المدح والمكافأة، وإذا لم تفعل ذلك فسـوف تفترس، فأين هو الانسـان العـاقل والمجـرب الذي سيتطوع بإخضاع أولاده وتعريضهم لمثل هذا الخطر وهذه العقوبة؟

وكما قال الفيلسوف:«الحركات الأولى ليست في قدرتنا»، ففي الوضع الحالي للمشروع المرغوب به، من النادر أن يتمكن أي إنسان من مقاومة طغيان الشهوانية وقدرتها، ومقاومة الأقلية أدنى احتمالاً بتعويض أرض الآباء السماوية من انعدام المقاومة من قبل عدد كبير من المحتمل قيامهم بإلحاق الضرر بها، ولوفقـط أن الآباء المقــدسين — قبل إقــامتهم لهذه المصـائد — التي صنعـوها بمقـاصد طيبـة، عندمـا زادت من الذنوب وضاعفتها بحيث تجاوزت تعـاليم كل من العهدين القديم والجديد - لو أنهم فقط رأوا آنذاك هذه المصائد كما يرونها الآن، وهي مصائد نصبوها

متطوعين، وكذلك لو رأوا أعداد الـذين أدينوا بسببها!، وبما أن الطبيعة البشرية نزاعـة للابتعـاد عـن الإيمان، وميـالة نحـو الاعتـداءات، ينبغي الابتعـاد عن إغواءات الوقـوع بالذنب، وأيضـاً عن تدمير قطيع المسيح من خلال الابتعاد دوماً عن الذنب.

وبناء عليــه يبـدو أنه مـن الموائم تقـديـم حل لطيف ومسـاعـدات لطوائف الـرهبـان المتســولين — مع أنهم لا ينشـدون ذلـك — من ممتلكات الكـومنولـث لكل مـن رجـال الـدين والعلمانيين، وبـذلك يتحـررون من كثير من الأفعـال التي يقومـون بها تحت ضغط الحاجـة، ويمكنهم بذلك الحصـول على الوقت مـن أجل التأمل، ويتـوقفـون من الآن فصاعداً عن التسول، فقـد أمر الرب بتأمين موارد العيش إلى سبط لاوي، دون أن يكون لهم نصيب في ميراث آبـائهم، مع أنهم استحقـوا ذلك أكثـر من الآخـرين، وحبـذا لو تقـوم الكنيسـة بتـزويد الرهبـان المتسولين بالخبز، والخمرة، وبما يكفي من الألبسة، والأحذية، مع فرصة نيل بعض الأعطيات، فلعل ذلك يكون كـافياً لسد حاجـاتهم الأخرى، آخذين بعين التقدير، العقل، والحكمة، والخبرة لدى بعض أفرادهم.

ولعله يكفي إتيـاننا على ذكر هذه المسـائل، وطرح الوسائل الوحيـدة بالتخطيط بشكل فعـال للوصول إلى الغـاية التالية، ذلـك أن يقوم ذوي العقـول الحكيمـة بينهم، بتقـدير الشر والخير النـاجم عن فقـرهم، وأن يختاروا الحل الأسلم، ومن ثم يضعونه أمام المجمع في ضوء معلوماتهم، وعندمـا يتناقش المجمـع المقـدس حـول مستقبل الأمـور غير المؤكـدة، يمكنه أن يقرر المنهج الأكثر فائدة.

١٠٣[62] : وإذا ما أخفق المجمع في اتخاذ إجراء تهدئة للصراع الذي تفجـر بين ورثة مملكة كـاستيل، فقـد يعيق ذلك فعليـاً استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليهـا، وقد قيل بأن الذي يتملك المملكة الآن، موقفه غير عـادل تمامـاً، فقـد عقـد اتفـاق بين الابـن الأسن للملك— الذي

انتخب امبراطوراً في أيـام الصراع — وبين ابنة القــديس لـويس، ملك فرنسا، وكان قد عقد اتفـاق، وجرت تسوية، أنه إذا ما مات ذلك الولد قبل والده، فإن الحفيد ينبغي أن يتولى العرش، وقد وافق على هذا الملك نفسه، وأساقفة وبارونات مملكته، ومـراغمة لهذه الاتفاقية، لابل مراغمة للعدالة العامة وللقـانون الطبيعي والإلهي، عندما مات هذا الولد، مخلفاً ولدين، قام الأب نفسه، أي جـد الولدين،فتوّج ابنه الحي، وبذلك حرم حفيـديه، وخـرق تعهده، وحنث بعهـده وبكلمـة الشرف التي أعطاها، فـذلك الابن المتوج لا حق له شرعيـاً بالمملكة، وهو متمسك بها بشكل مضر لخلاصه الآ-خروي ولخلاص المؤيدين له، وفي ذلك إيذاء أيضاً إلى الوريث الحقيقي.

وهذا الذنب العظيم، واضح من خـلال جميع أدلة الحقيقة ذاتها، وهو مـشاهد بو ضوح من قبل جميع الذين يقـفون إلى جانب المغتصب، ولا يمكن لأي منهم ادعـاء الجهل، ولهذا عمل والدهـم الروحي، الذي هو غير جاهل بالحقائق، ومن واجبه تقديم حل، خشية أن يطلب دمهم من يديه، وربما يمكن إنجـاز هذا بسهـولة، ومن دون أي اضطراب، باتهام المغتصب بذنب الاغتصاب العظيم، وبأنه يقـوم بمراعاة المسلمين الذين يتـولون مملكة غـرناطة بتفـويض منه، مقـابل الجزية، والذين غـالبـاً مـا يقـومون بقتـل المسيحيين، ويمكن للمولى البـابا أن يقـول لهذا الذي هو تحت هذه التهمـة الشديدة، والمهدد:«مـن أجل صالح الأرض المقـدسة، نحن نرغب بمختلف الوسائل أن تقيموا السلام فيما بينكم».

ويبــدو أن هذا الخلاف من الممكن فضـه بكـل سهـولـة:بأن نجعل الحفيد الأول ولادة يتولى مملكة غرناطة، وأن يتولى أخاه مملكة البرتغال، أو مملكة أخــرى مـن الممالك الكثيرة التي هي بيــد المغتصب، ويمكن للمغتصب الاحتفاظ شخصياً بمملكة كـاستيل، بشرط أن يقوم بما لديه من قوات من الفـرسان والرجالة بتقديم العـون إلى مملكة غرناطة لطرد

جميع المسلمين منهـا، ولمقـاومـة المنفيين أينما تطلبت الحاجة، وعليه الالتزام بهذه الشروط تحت تهديد فقدانه لمملكة كاستيل أيضاً، وسوف تكون خطة مفيدة القيام بإقناع الملوك المجاورين لتلك البلاد، وأقصد بذلك ملوك أراغون، ونافار، ومايوركا، والحكام الآخرين حيثما كانوا في إسبانيا، بمساعدة ملك غرناطة الجديد، والقيام بمحاصرة المسلمين والضغط عليهم من كل اتجاه، وبذلك يمكن طردهم بكل سرعة، وإثر هذا يترك الآخرون من ملوك إسبانيا وأمرائها، ملك غرناطة ليقوم بالدفاع عن بلاده، ويقومون هم، مثلما هو مطلوب من الآخرين، بالعبور إلى الأرض المقدسة، وتقديم مساعدة كبيرة هناك، وبهذه الوسيلة من الممكن للانغدوك حشد جيش كبير، يمكنه العبور إلى سردينيا، ليحررها من فردريك صاحب أرغون، الذي يتوجب عليه وقتها إعادة مملكة صقلية إلى ملكها الشرعي.

١٠٤[63] : ومن أفضل الطرق لتنفيذ هذا المشروع القيام بتنظيم أربعة جيوش، تتوجه ثلاثة منها وتسافر بحراً، أما الرابع وهو الأكبر فيتوجه عبر الطريق البري، وبذلك يحذو حذو شارلمان، والامبراطور فردريك الأول، وغودفري دي بولليون، ولقد قام أعداء الإيمان بحصار عدة أماكن والتضييق عليها، ولهذا فإن قواهم متفرقة، ولذلك من الممكن طردهم بسرعة أكبر، ومن المحتمل أنهم عندما يسمعون بأخبار حلف السلام المذكور من قبل، وأنه قد أقيم من أجل محقهم، وأن هناك حشوداً عظيمة من الناس تزحف ضدهم وسوف تزحف، وقتها من المحتمل أن يتخلوا عن طواعية عن جميع أرض الميعاد بلا حرب، وإذا ما فعلوا هذا من دون تدمير للقلاع ولأماكن السكنى الأخرى، ومن دون سلب الكنائس ونهب ما فيها من آثار وآنية مقدسة، يمكن إعفاءهم من نيل موت عنيف، والعكس سوف يكون إذا ما أبدوا أية مقاومة، فوقتها سيجري سحقهم كلياً، ولن يترك لهم مكان في البلاد.

وبعد هذا، سوف يحسن الأمراء صنعاً، في أن يتركوا في الأرض المقدسة قوة كافية للدفاع عنها، وأن يعودوا عبر طريق بلاد الاغريق، فوقتها سوف يكونون — بناء على نصيحة الكنيسة الرومانية — على استعداد للقتال بشدة لصالح اللورد شارل أوف فاليوس، ضد المغتصب غير الشرعي باليولوغوس[أندرونيكوس الثاني — ١٢٨٢ — ١٣٢٨]، ما لم يكن على استعداد للتخلي عن السلطة، وينبغي أن يكون هناك اتفاق سلفي، بأن يقوم اللورد شارل — بعد الحصول على النصر، وبعد تملكه للامبراطورية الاغريقية — بمنح فرصة لمعونة الأرض المقدسة، والدفاع عنها، كلما قامت الحاجة، لأنه سوف يكون الأقرب إليها من غيره من الأمراء،وعلى هذا سوف يكون حمله أخف بكثير، من حمل الأمراء الأبعد مسافة منه، كما سيكون مفيداً لملك ألمانيا، ولجميع الحملات المستقبلية المسيحية التي سوف ترسل لمساعدة الأرض المقدسة، حيث أيضاً من الممكن تنظيمها بشكل أكثر فعالية.

١٠٥ : وعندما — بنعمة من الرب — تكون هذه المشاريع قد نفذت، ـسوف يكون الكاثوليك من العقلية نفسها ـقد صاروا متملكين لشاطىء البحر المتوسط كله، الممتد من الغرب طوال الطريق إلى الشرق على الطريق الشمالي، مع الجزء الأعظم المصاقب لأرض الميعاد في الجنوب،ووقتها لن يكون بمقدور العرب الإزدهار بشكل ـمادي، ما لم يشاركوا مع الكاثوليك في تجارات منتجاتهم، وينطبق هذا على أحوال الشعوب الشرقية وعلى منتجاتها.

١٠٦[64] : ويتوجب أولاً فحص هذه الخطة المتصورة من قبل المشرعين المسيحيين مع نائب المولى يسوع المسيح على الأرض، وخليفة المبارك بطرس، أمير الرسل، وسوف تصل إلى حد الكمال بتوجيه من الرب الذي هو قائد الجيوش، ولعله يرضي صاحب الجلالة الملكية المجربة، فيتلطف بعد انتهاء هذه الحروب بنجاح، أن يطلب بصنع هذه

الأشياء، وأن يشرف على تنفيذها، مع الأفكار الإضافية التي قد تأتي إلهاماً من ينبوع الحياة، الذي عنه تصدر جميع المباركات.

ويبدو من المرغوب فيه، من أجل تنفيذ هذا المشروع، الالتماس من البابا أن يعقد مجمعاً عاماً على هذا الجانب من الجبال، من أجل تفحص هذه المسائل، وعليه أن يدعو إلى هذا المجمع الأساقفة، والأمراء الكاثوليك المطيعين له، لا سيما الملوك والآخرين الذين لا يعترفون بسيد لهم على الأرض، دون أن ينسى الباليولوغوس المغتصب لعرش القسطنطينية، ومغتصب مملكة كاستيل، وولدي أخيه اللذان يناضلان في سبيل العرش، وملك ألمانيا وناخبيه، فمن هؤلاء سوف يتلقى المشورة، والعون، والاقتراحات المساعدة في قضية الاسترداد، والاصلاح، والحفاظ على الأرض المقدسة، وكذلك حول كل ما يفيد الكومنولث المسيحي العالمي.

وبعد تحسين هذا الكتاب الصغير من قبل العقول المفكرة لخيرة الخبراء من قادة الحرب، ينبغي تقديمه إلى المولى البابا، من قبل رجال عقلاء جداً، وخبراء بالشؤون الانسانية، يمكنهم الرد على جميع الاعتراضات، وتجنب تحريضات ملائكة الشرور، ويتوجب اتخاذ التدابير التي تضمن أن يعرض فقط على الخبراء والمستشارين المقربين من السيد البابا، لأن من المؤكد أن هذا الكتاب التقوي الصغير، سوف يلقى — بتحريض من الشيطان ومن حشده الشائن — كثيراً من الخصوم الذين لا قيمة لهم، والذين سوف يعارضونه، ولسوف يقاتل الشيطان مع مؤيديه بشراسة ضد هذا الاندحار، الذي هو أعظم ما عانوه منذ حادثة آلام، وقيام الكلمة المجسدة، ولا أعتقد أن الطبيعة البشرية لأي إنسان حي مستعصية على مثل هذه الإثارات ما لم تلق الدعم من أبي الضياء الأبدي، من خلال ثبات ونشاط قدرته التي لا حدود لها.

وسوف يلاقي هذا المشروع، الذي هو بحدود طبيعة الأشياء الممكنة،

النجاح، إذاً — بنعمة من الرب — ما تعاون بحرارة، من أجل تحقيق هدف هذه الخطة، ولدى تنفيذها، الوصي الرئيسي على سلامة الكومنولث هنا على الأرض[البابا]، وأكثر الأمراء خبرة في فن الحرب، وفي استخدام وممارسة الأعمال العسكرية[إدوارد الأول]، وذلك من أجل إطالةعمر، ليس فقط الحياة الروحية بل أيضاً الحياة الدنيوية، ومن أجل الرغبات السعيدة للانجاز لدى هذين الاثنين اللذان يحافظان بتقوى عظيمة على مصالح الأرض المقدسة، ويعتنيان بها، وسط كثير من مشاغلهما واهتماماتهما، وينبغي على كل واحد يهمل في سبيل هذا الهدف الرائع الاستمرار على الاعتماد بقلوب مؤمنة تقية وبصوت واحد، على الخالق الأعلى للحياة، الذي من خلال نفوذه وعنايته وحفظه تعيش جميع الأشياء وتستمر تبعاً لطبائعها، وبالاستمرار بالأخذ بالنهج الذي منحهم كل الفضائل التي يمتلكون.

١٠٧[65] : وبعد الفراغ من هذه المسائل، تقفزبحدة إلى الذهن حقيقة أن الناس سوف يشعرون بعدم الرضا، وسوف يتمتمون، لأنه لا في الماضي ولا في الحاضر، بدا أن الهبات التي منحت إلى الأرض المقدسة مع المبالغ الأخرى التي جمعت من أجل عون الأرض المقدسة باسم الداوية والاسبتارية، وبطرق أخرى متنوعة، بدا بوضوح أنها لم تستخدم لصالح ما جمعت من أجله، ويستحسن إلغاء، أو توزيع المنح التي أديرت بإهمال،بشكل نهائي.

ومن أجل إيقاف هذه المخالفات، سوف يكون مفيداً إقامة صندوق تبرعات عام في الكنيسة الكاتدرائية لكل أسقفية، أي إنشاء غرفة خزينة، يجري فيها حفظ الأموال التي كرست لهذا الهدف، وحيثما توفرت الحاجة لأية مساعدة، من الممكن تقديم الأموال ومنحها إلى المقاتلين الذين يستعدون للذهاب إلى تلك الأرض، ويكون ذلك بناء على توصية من الأسقفية المحلية، ومن إدارة المركز المتقدم

الذكر،والمقصـود بالمقاتلين هنا، المقاتلين الذين ينتمـون إلى الأسقفية، أو إلى أسقفيات أخـرى، وهـم على نية عبور البحـر، وينبغي أن يبقى أعيان الناس في تلك الأسقفيـة، أو المقاطعـة، أو المملكة، على دراية بالأمـور، وأن تجري استشـارتهم مـع الأسقفيـة،وإذا مـا جـرى تنفيـذ هذه الاصلاحات، سـوف يجري تقديم المزيد — لا بل الكثير الكثير — من الهبات إلى المركز المتقدم الذكر، وينبغي إخراج الديون المستحقة له إلى النور، وهي الديون التي كانت قـد فقدت من قبل نظراً للسكوت عنها، وبالنظر لتزايد الأموال ـسوف يمكن العثور على المقاتلين الجاهزين في كل مكان، وعندما تتوفر الحاجة إليهم.

ومن أجل تحقيق نتائج أكثر جـاهزية، ينبغي اتخاذ قرار داخل المجمع يقضي بأن يعمل الأساقفة المحليـون، وغيرهـم من الأساقفة، والمبشرون، والـ Minorites، على حث وإقناع كل الناس مهما ـكانت مشاربهم في الحيـاة، على تطويع الناس البـارعين من كـلا الجنسين المفيـدين للأرض المقـدسـة، ومن حيثما جـاء هـؤلاء الناس،يجب إرسـالهم إلى السـواحل مجهـزين بجهاز حسـن على حساب الذين طوعـوهم، أو إذا تعـذر ذلك ليكن على حسـاب بعض المحسنين الأتقيـاء، وهبات أخـرى، ولسـوف يجري إرسـالهم عبر البحـر على حسـاب المركـز المتقـدم الذكـر، وينبغي إرسالهم على شكل مجموعـات في كل مجموعة مائـة رجل، قد ارتدوا زياً مـوحـداً، والأعـلام فـوق رؤوسهـم، والأبواق تصـدح أمـامهم، وبهذا يمكنهـم الذهـاب بشجـاعـة وحماسـة، وبذلك يـؤثرون على كثير من الآخرين حتى يلحقوا بهم، ويتوجب على الذين ينتمون إلى المدينةنفسها وإلى الأسقفية ذاتها، الاحتشاد في وقت واحـد ومكان واحد، وفي مكان واحـد فيما بعد للذين هم من الاقليـم الواحد نفسـه، وعلى الذين معهم زوجـاتهم، الاحتشـاد في جماعـة واحـدة، وينبغي أن يكون لكل جماعـة ضابط رئيس واحد، يقدم الجميع إليه طاعة مطلقة.

وإذا ما كان لدى بعض الذين يودون العبور بعض الأطفال الصغار، عليهم إرسال القابلين للتعليم منهم إلى المركز المذكور حتى يتعلموا فيه على حسابه، وعندما يكملون تدريباتهم ويتعلمون، يمكنهم اللحاق بآبائهم ومن المتوقع أن تكون مختلف المقاطعات، والمدن، والأماكن متشوقة للاستيلاء على المناطق التي ستمنح لهم في الأرض المقدسة، وأن ترسل عدداً كبيراً من المستوطنين لكي يستولوا عليها ويستقروا بها بكل سرعة، ومن أجل أن يكون هؤلاء كافين للدفاع عنها، وينبغي أن يكون جميع الذين أرسلوا إلى هناك مدربين، حتى يكونوا قادرين على الفور القتال بكفاءة كجنود رجالة.

١٠٨ [66] : ولدى توزيع المدن والمناطق، سوف يكون مفيداً عدم نسيان المبادىء التالية،وذلك من أجل الصالح العام، والمعني بهذه المبادىء أن يكون هناك اتفاق في داخل المجلس من البداية،أن يجري تخصيص المدن الحدودية والحصون القائمة على الجبهة في الأرض المذكورة، إلى الرجال الأعظم نشاطاً، والذين اعتادوا في مواطنهم على القتال[ضد المسلمين] من أمثال الإسبان وآخرين كثر، وبذلك فإنهم بقتالهم من وراء الدفاعات ضد العدو — بقدر ما تتوفر الحاجة — يمكنهم حماية حدود الأرض المقدسة، ومدنها، وحصونها، وأن يكونوا مستعدين دوماً لاستدعاء النجدات من الآخرين، إذا ما اقتضت الحاجة، وهكذا عندما تحاط الأرض المقدسة بسياج من المقاتلين الشجعان، من الممكن الدفاع عن حدودها بشكل فعال وتتمكن المناطق الداخلية من الازدهار، ويتوجب أن تحكم الأرض المقدسة — بمعونة الرب — بعناية وتقوى فيما يتعلق كلياً بالسيفين: الروحي والدنيوي، وباحترام الأماكن المقدسة كما ينبغي، وبإجلالها، وبإقامة القداسات فيها بشكل متواصل، سوف يكون من الممكن تهدئة غضب مخلصنا، الذي، برحمته غير المحدودة، ارتضى أن يعاني الموت جسدياً هناك، من أجل

إنقاذ الجنس البشري.

[67] : إنه لمن الواضح، ومما يمكن البرهنة عليه من الكتابات المقدسة، وبوساطة حجج دامغة، أن إصلاح الأوضاع الخلقية والقيم في الكنيسة العالمية ضروري، وذلك إذا ما أريد إيقاف الحروب، واسترداد الأرض المقدسة — ذات السحر الخاص الذي تبرهن الكتابات المقدسة صحته — وإسكانها من قبل المسيحيين.

إن ذنب إنسان واحد هو سبب ضعفه، ومن خلال التكرار، سيكون سبب موت المذنب، ومن الممكن البرهنة على هذا من خلال كلمة الرب عندما قال إلى الإنسان المريض:«لا تخطىء أيضاً لئلا يكون لك أشرّ»[يوحنا : ٥ / ١٤]، وبوساطة الفتوى المبنية عليها، وللسبب نفسه إن ذنب مدينة، أو ذنوب شيوخها هو سبب الخلافات، والحروب، والموت، والشيء نفسه ينطبق على ذنوب المناطق، والمهالك، والامبراطوريات، لأنه مهما كانت العلاقة بين جزء وجزء، كذلك العلاقة بين كل وكل هي نفسها، والعكس هو صحيح، وحيث تتوفر الأسباب نفسها يتوفر الحق نفسه، وحيث يكون السبب نفسه، يكون التأثير نفسه، وذلك حسبما تعلن الشرائع، ويناضل منطق الفيلسوف في سبيله، وحسبما قال الرسول:«لأن كل ما سبق فكتب كتب لأجل تعليمنا»،[رومية: ١٥ / ٤]، ونحن نرى أن الكتابات المقدسة، التي هي وسائل الفهم، الذي هو، إيمان، تحتوي في سفري المكابيين أنه لمدة تزيد على سبعين سنة كانت هناك ذنوب كثيرة، وموت كثير، وأحزان عظيمة، كلها قد حدثت من أجل الخير، بسبب ذنوب الناس الأشرار، فكيف يمكن لرئيس الكهنة، الحاكم على الكنيسة كلها، الشاغل لكرسي بطرس، نائب مولانا يسوع على الأرض، الذي ناضل بحماس من أجل خلاص المذنبين،كيف يمكن له أن يفكر أن الأرض المقدسة يمكن استردادها وإسكانها من قبل المذنبين وذلك في الوقت الذي كتب فيه

من قبل النبي:«الأماكن لا تمنح القدسية للناس، لكن الناس يمنحون الأماكن القدسية»؟.

أولا يرى أن الكتابات المقدسة، التي تمقت الحروب، والوعاظ الذين يعلنون هذا بالطول وبالعرض، أنهم غير مؤثرين الآن، كما كانوا في الماضي؟ ولو أنهم كانوا مؤثرين الآن وفيما بعد، أو لن تكون هذه الأمثلة نادرة جداً، لو أن جميع العالم الخاضع له أخذ بعين التقدير؟، أولا تظهر أعداد لا تحصى من إيضاحات الماضي وتجاربه منذ بداية خلق الدنيا، وتري وتبرهن — ما حرمه الرب — على بصيرة النظام الذي في الرؤوس الرئيسية لمثل هذا العدد من الأعضاء؟ ولسوف تستمر هذه الحالة المتردية من الأوضاع، ما لم يسعى في سبيل — ويحقق بأقصى سرعة ممكنة إيجاد — سلام صحيح، وكامل ومستمر، وإصلاح لأوضاع الكنيسة العالمية، وجميع كومنولث المسيحيين الخاضعين له، بحكم كونه أبوهم الأعلى، ولقد جرى تقديم خطة محكمة إليه، ومع أنها غير كاملة ومختصرة، من الممكن إيصالها إلى حالة الكمال من قبله، أو أن يقدم بإلهام رباني خطة أخرى أفضل منها،

١٠٩ [68] : يتوجب على الكاهن الرئيس، الراعي لجميع الناس، بحكم واجبه المتقيد به، أن يؤسس، وأن يضاعف جميع الروابط الممكنة لإتمام السلام، بين أبنائه، فذلك سوف يليه قيام سلام عالمي دائم، ومن الممكن البرهنة على الصحة المطلقة لهذا الاقتراح، ليس فقط بوساطة الاصلاحات اللاهوتية، بل أيضاً بوساطة الاصلاحات الفلسفية، لأن من المعروف أن الفلاسفة يعتمدون على القانون الطبيعي، ويرفضون القانون الموسوي، الذي منح روحياً إليهم من قبل بني إسرائيل، وبقياسهم الأمور منطقياً للوصول إلى محصلة ضرورية، وبإقامتهم مناظرتهم على السبب والتأثير، توصلوا إلى محصلة لا يمكن دحضها، بأن هناك فاعل أو رئيس، هو الذي يتولى تحريك جميع الأشياء لكنه لا

يحرك من قبل أحد منها، وهو المسبب لجميع الأشياء، وهو نفسه غير مُسبب، قد حقق وجوده فقط من خلال ذاته، وهي ذات خيرة، وبتوزيعها لخيراتها — وليس بشكل آخر — جعلت كل الأشياء تتسلم الخير منها وتشارك به، ومن جوهرها جاءت جميع الأشياء الخيرة والصادقة، والشيء نفسه ينطبق على جميع الفضائل التي قدرت في المحصلة، وندعو هذا الرئيس والمسبب الأول باسم الرب.

وفي أثناء حديث الفيلسوف في كتابه On meteors عن الرئيس، وحيث اقترح سبباً لتكوين العناصر قال هو الرب،وقال:«هكذا أوجدهم الرب الرائع والعظيم»، وقال في كتاب«حول السماء والأرض»:«لا يوجد شيء خلف السماء الأولى، غير مكان إقامة الرب، والأرواح، والفضيلة، والمجد إلى أبد الآبدين»، وأعتقد أن الرسول جيمس هو الذي قال عنه:«الذي معه لا يوجد تغيير، ولاأثر للتبديل»، والآن إنه هو الملك وصانع السلام ووالده، والشيطان هو والد وصانع الخلافات، والآثام، والكذب، ويتبع هذا بالضرورة أن جميع محبي السلام، والناس ذوي الفضائل، مهما كانت طبيعة الفضيلة أو سموها الخلقي، التي حصلوا عليها أو تمثلوها، يدعون أفاضل لأنهم شركاء في فضيلة الرب نفسه، وقد وصلوا إلى هذه الغاية قرباً أو التصاقاً تبعاً للدرجة التي شابهوه فيها، وشاركوه فيها بطبيعته، التي هي غاية بالبساطة، ومع هذا تحتوي وتتضمن جميع الأشياء ليس بسبب أنها كاملة، بل لأنها الأعظم كمالاً، والآن بسبب الاسم نجد أن الكمال هو الذي لا ينقصة شيء، ولهذا السبب القوي إن غاية الكمال، فريدة، لأنها تنطبق على واحد فقط، وذلك حسبما جاء في تعريف متفوق في الكتاب الخامس من«الميتافزيك»« يحتوي الكمال على كل شيء دونما نقصان».

ولهذا اعتقد جميع الفلاسفة أن جميع الفضائل في الرب في جوهره نفسه، والفضائل معه، وتصدر عنه، ويتشارك بها الناس من خلال

شبههم به، لكن الفيلسوف يقول:«الفضيلة عادة ليس من السهل تغييرها»، ونجد شهادة على صحة ذلك في الكتابات المقدسة حيث جاء«في حين يقارب الجميع الفضائل من أجل المكافأة، الذي يحافظ عليها وحده يتوج»، فقليلة هي المنفعة التي يحصل عليها المخفق في صنع أعمال جيدة بما أن المقترف في نقطة واحدة يعد مذنباً بالجميع.

ليقم أبو الأرواح جميعاً، الرسول الرئيس، بقراءة كيف أن الناس، منذ بداية الخليقة حتى الوقت الحالي، قد حرضوا بكل سهولة وأثيروا نحو الآثام والحروب، فهل يرغب بجعل جميع الكاثوليك يعيشون بسلام، وأن يكونوا بالتالي أبناء الرب، وأن يبتعدوا عن الخضوع للشياطين؟ وبما أن الوعظ والعقوبات المعتادة غير فعالة، عليه أن يمعن التفكير، بحكم الوظيفة المسندة إليه، وأن يسعى في سبيل سلام شامل، ثابت ومتين الأحوال، في كل مكان من العالم، سلام يمكن أن يستمر وأن يعيش أبداً، وعليه أن يقوم بتثبيت العقوبات من أجل خرق السلام، وأن تكون عقوبات يخشى منها، لكن أن تكون عملية، ونافعة، وقليلة الأذى، بالنسبة لاسترداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، وأن تفيد بالوقت نفسه كمذكر ومحذر دائم.

[69] : إذا كانت عقوبة النفي الدائم، وفقدان جميع الممتلكات سوف تكون مخشية أكثر من أي شيء آخر، لأنها سوف تطبق ليس على فاعلي الحروب بل على آبائهم، وأولادهم، وزوجاتهم،، وإذا كانت ستزيد من تقديم الرغبة المقترحة لمعونة الأرض المقدسة، دعونا إذن نختار رباط السلام، نظراً لتفوقه على غيره جميعاً، وإذا ما وجد رباط آخر أفضل، ليتم اختياره ،وكان بريسشان Briscian [النحوي ٥٠٠ ق.م] قد قال:« إنني أفترض أن ما من شيء في النوازع البشرية يمكن أن يكون كاملاً من جميع الجوانب»، وأعلن الفيلسوف العظيم في كتابه«السياسة»، أن هذاالذي ينبغي أن يفعل، وذلك عندما قال:«لأن ما ناله الناس من

معلومات ومن قناعات حول ما هو جيد وما هو عادل، لم تكن كافية، لقد وجد أنه من الضروري أن يتأسس في الدول قوة القسر لدى القاضي، من أجل أن يفعل الناس ما هو جيد وعادل لجيرانهم ولمعاصريهم، والذي قاله الفيلسوف نفسه في كتاب الأخلاق ويتماشى مع هذا هو:«لو أننا جميعاً أناساً عادلين(شرح: من الواضح أنه أراد الشعور الداخلي بالعدالة، الذي هو هبة وكمال العقل المنطقي) لما احتجنا إلى العدالة،(شرح: من الواضح أن العدالة في العلاقات الخارجية هي إجبارية من خلال القوة العسكرية)».

وهكذا لم تستطع لا أقوال الكتابات المقدسة، ولا وعظ الواعظين المستخرج من الكتابات المقدسة، ولا النحيب المتدفق، ولا صراخ الوعاظ، ولم تنجح في إيقاف الحروب المتوالية للكاثوليك، مع الموت الروحي والمادي لعدد كبير من عظماء الرجال، الناجم عنها، فلماذا لا يتبرهن أن اقتراح تقديم العون إلى الأرض المقدسة في النهاية هو مخرج جديد لاستخدام القوة العسكرية، وهذه عدالة من الضروري فرضها، كما هي، حسبما رأينا من الفرضيات الموضحة، ومما شهدت به الكتابات المقدسة إنها موجودة منذ بداية الخليقة؟.

وهذا طرح من المستحيل إجابته، متحدثين أخلاقياً وأدبياً، لأن«المناقشة ينبغي أن تكون متوافقة مع القضية قيد المناقشة»، فهذا ما قاله الفيلسوف، وجرى عرضه في القانون المدني، وعلى هذا الأساس قال الفيلسوف:«يخطيء الذي يطلب برهاناً واضحاً من الكلام المنمق، وحجة منطقية من الهندسة»، ولدى استخراج برهان ما من خلال الأسباب، من الضروري الاستخلاص والوصول إلى نتيجة، والنتيجة هي«عَرفَ»، إنما لدى الحديث بأدب من خلال فرضيات منطقية نحن نستخرج«حدساً» من الماضي والحاضر نحو المستقبل، فلقد قال الفيلسوف:«يحدد أي شيء بأنه جميل جداً عندما يعطى تحديد الأشياء

بشكل متوافـق مع السمات الظاهرة إلى جميع العقول»، ونقـرأ في القانون المدني:«في القضايا غير المؤكدة هناك مكان للحدس»، ويفترض أن ذلك ليس في جميع القضـايا بشكل مطلـق، بل فقط في القضـايـا المنطقيـة والممكنة.

ونحن نرى أنه وفقاً للسبب العادي المتوفـر للطبيعة الناس الفاسدين وميـولهم نحـو الشر، والانغماس باللذات، والشره هم دومـاً بازدياد، وذلك في مقابل أننا نجد أن التقوى، والفصاحة، وتأثير معارف الوعاظ الذين يمقتون الحروب دوماً في نقصـان، وإذا لم تتمكن تقوى، ومواعظ وفصاحـة الآباء المقدسين من وضع حـد للحروب المرعبة للكاثوليك، كيف يمكن لـلأب الرسـولي أن يفترض أن بـلاغـة ومـواعظ رجـال الكنيسة الحاليين والمستقبليين، سـوف تتمكن في المستقبل من وضع حد للـحروب، وللانغماس باللذات وللشره الذي تسبـبه الحروب؟ وإذا لم يمكن إيجاد بعض العقـوبات الأخـرى التي من الممكن أن تكون مخيفـة أكثـر، وأعظم نفعـاً، ينبغي تطوير هذه العقـوبة ووضعهـا قيـد التنفيـذ، فبـوساطتهـا سـوف يزودنا ملك السـلام بفضله ورحمتـه برجال عقـلاء ومجربين، وبالقداسات المستمرة، وبالصلوات الدائمة المقدمة من الكنيسة المسكونية، ويمكن للمجمع المقـدس للأساقفـة، والأمراء أن يجتمع من أجل مناقشـة، وإكمال، وتعديل، وتغيير هـذه المقترحات، بشكل مـوائم جداً في طولوز، وذلك تفضيلاً لها على أية أماكن أخرى.

[انتهى هنا جـزء الرسـالـة الذي جـرى توجيهها إلى أدوارد الأول، وجرى توجيه الجزء التالي إلى فيليب الجميل].

القسم الثاني

استرداد الأرض المقدسة
القسم الثاني

١١٠ : أرسلت الوثيقة المتقدمة إلى السيد ملك إنكلترا، مع رسائل مختومة، تلفت انتباهه باختصار إلى فوائدها في المسائل الروحية، وتحثه على أن يقوم بفحصها باهتمام وبسرية، من قبل رجال حكماء ومخلصين له وللرب، ويمكن أن يكونوا من المبشرين أو من القلة « Minorites »، ومن الممكن حذف كل ما ينبغي حذفه أو إسقاطه،وأن يضاف كل ما يبدو موائماً إلى جلالته الملكية المجربة والحكيمة، وإلى مستشاريه العقلاء، الذين بعقلانية سيطلب منهم —بفضل من الرب — وسيعهد إليهم بمهمة الفحص، والتصحيح، والتقويم، وعليه بعد هذا أن يقوم من دون تأخير بتحويل هذا المشروع، مع مشورة كاملة من قبل سفراء مخلصين، وعقلاء، ومجربين إلى السيد البابا، وأن يكون هؤلاء السفراء سريين، والغاية من هذا الإرسال أن يستفيد منه المجمع الذي سوف يعقد وفق طريقة جرى شرحها بما يكفي في الوثيقة المتقدمة.

١١١[70] : لدى الكاتب موهبة ربانية طبيعية بالميل نحو سرعة الخاطر، التي هي — تبعاً للفيلسوف — البراعة في إيجاد المصطلحات الوسيطة، أي أسباب الأشياء التي ما زلنا نراها عقلياً فقط، ولسوف يذكر فقط وبشكل محدد المنافع التي ينبغي أن تحصل من الاقتراحات المتقدمة الذكر، وترتبط بالمشجعين الرئيسيين لها، وأعني بذلك أصحاب السيادة: البابا، والملك الفرنسي، وأخوانه وأولاده، وملكي صقلية وألمانيا، وفردناند صاحب إسبانيا وأخيه[ألفونسو].

وعندما تنتهي الحروب بالوسائل المقترحة هنا، وعندما من جهة أخرى يعهد — مقابل عطاء سنوي مضمون — بحكومة البابا، وبممتلكاته، وبما يشغله بالأمور الدنيوية، بشكل دائم إلى السيد ملك فرنسا، لتدار من قبل أخوانه وأولاده حسبما يراه مناسباً، وعندما تتوقف المؤامرات المؤذية للرومان واللومبارد، وقتها من الممكن جداً، أن يكون السيد البابا قادراً على أن يتمتع بحياة سليمة طويلة في موطنه الأصيل،

الذي هو مملكة فـرنسـا، وأن يمتلك الـوقت الكافي ليكرس انتبـاهه إلى حكم الأرواح فقط، ويتجنب بهذا أجـواء روما العـاصفة، التي لم يعتـد عليها منذ ولادته، وسوف يكون في هذا منفعـة لا يمكن تقديرها، وهي دائمة، إلى جميع أصدقـاء السيد البابا، وجيرانه وأقربـائه، وبشكل خاص إلى مملكة فــرنسـا كلهـا، بما أن رجـــال الدين الطليـان لـن ينالوا دخل المصالح الغنية العائدة إلى الكنائس الفرنسية والألمانية — حسبما كانوا في الماضي — من أجل بناء قــلاع لأنفسهم ولأقـربائهـم، بسلب الكنائس حتى على حساب القداسات الربـانية، كما أنهم لن يتابعوا الاشراف على هذه المصـالح الغنية، التي لن يستحـوذ عليها بعـد الآن رجال الكنيسـة الكبار، عـوضاً عن الفرنسيين، حسبما كـانت العادة من قبل بسبب دهاء الطليـان وبراعتهم الطبيعيـة،وهؤلاء الطليـان راغبـون في تشـامخهم أن يدوسوا على إنسانيـة الفرنسيين، ولقد حاولوا أن يقـوموا بما لم يسمع به قط من قبل، والادعـاء بالحق الدنيـوي لحكم المملكة الفرنسيـة، ولحكم أميرها الأعلى، يريدون من وراء ذلك تعـريـض هذه المملكة التي تعيش في سلام وفي وئام إلى فتنة دائمة، وعصيان مستمر، ولحسن الحظ خمدت العـاصفة التي ثارت مع هذه التطلعـات، لأن ملك السـلام منح وفاقـاً عظيماً، وأخمد هذه الخلافات.

وبما أن البابا الروماني قـد أساء استخدام سلطاته، وفعل ذلك بسبب الرومـان، إنـه لمن الأفضل والأصح، ومما يتـوافق كـذلك ويتماشى مع رغبات ومراسيم الآباء المقدسين، أن يقوم الرومان في سبيل حفظ المجد البـــابوي وزيادتـه بالسماح — ولو مكرهين — بـأن يجري التمتع بهذا الشرف العظيم بشكل دائم من قبل أفـراد لن يكونوا راغبين بالسرقـة، على حســاب الفخـار الأســاسي لأعظم الأمــراء المسيحيين، الذي لن يتجاوز الحدود التي أرساها الآباء المقـدسون، والذي سوف يسمح لأي قيصر أن يحكم في مملكته، ولأن يدير ممتلكـاته وأن يتمتع بها، وقد علمنا

مخلصنا هذا وقال بوجوب فعله، حسبما جاء ذلك موثقاً في الانجيل، فهو قد قام حتى يتجنب الخلاف، بتوجيه بطرس لدفع الضريبة المستحقة عنه شخصياً وعن بطرس، وقد أخبر بطرس بالمثا ل التالي ليبقى إلى خلفائه حيث قال:«أعطوا لقيصر الأشياء التي لقيصر، وللرب الأشياء التي للرب»(متى : ٢٢ / ٢١)، وعندما قام بغسل أقدام حوارييه قال:«لأني أعطيتكم مثالاً حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً»(يو حنا :١٣ / ١٥).

وبسبب انفعالات ما قد طرح، قد يواجه كاتب هذه الكلمات معارضة، وقد توقع هذا عندما تعرض لهذه المسائل في كتابه«حجج لا تدحض»، الذي كتبه في باريس في يوم السبت الذي تقدم على يوم الأحد الذي شهد نشر مرسوم البابا الظالم[Ausculta Fili]، وأرسل في اليوم نفسه إلى صديقه[رتشارد لينيفو] الذي هو الآن أسقف بيزير Bezier[في ذلك الكتاب المذكور] يقول بأن القاضي الأعلى، الخفية قراراته، قد قضى بوسائل مشاحنات الرومان، أن يسند منصب الحبر الأعظم إلى رجل بمثل هذه الأخلاق العالية، حتى يتم من خلاله سحب هذه السلطة التي توجب سحبها منذ زمن طويل من أشخاص أشرار بسبب ذنوبهم وطغيانهم، وأن يبقى مع آخرين ليسوا متشوقين لسرقة حريات الآخرين وانتزاعها، وبعد هذ ا عليهم أن يدركوا أن السلطة التي منحت على الأرض إلى بطرس أمير الرسل، قد سحبت بهذه الطريقة منهم بسبب ذنوبهم البغيضة، لأن الملك شاول عندما جاء تعيينه بأمر الرب، ومسح ملكاً، لم يصغ إلى الرب، ولم يأخذ بأوامره، بل استخدم منطقه، عوضاً عن منطق الرب، أو منطق الكتابات المقدسة، فكان أن تلقى أمراً خاصاً من الرب بفقدانه مملكته.

ويصدر الرب الآن مثل هذه الأوامر من خلال الكتابات المقدسة، ومن خلال تفاسيرها، ففيهم، وبوساطتهم ينبغي أن ننشد الأسباب

المعقولة والممكنة لجميع المحصلات التي ينبغي أن نراعيها، ويتماشى هذا مع ما قاله الرسول:«لأن كل ماسبق فكتب كتب لأجل تعليمنا»[روما : ١٥ / ٤]، فلماذا غالباً ما نقرأ في الكتابات المقدسة نصوصاً تبين كم هي عظيمة ومتنوعة الشرور التي وقعت بسبب مختلف الذنوب، وإذا لم نخف من أمثلة مثل هذه الأحداث، من اقتراف ذنوب فإن الشرور، لا بل الأسوأ منها، سوف يتبع؟، لأنه كما قال الفيلسوف:«إذا كنا جميعاً عادلين(أي بمعنى الشعور الداخلي بالعدل) سوف لن نحتاج إلى العدل(أي بمعنى العدل الخارجي)»، وبسبب الذين لم يمنعهم الخوف من الرب ولاحبه من الشر، والذين لم يرغمهم على الابتعاد عن الشر، العصا الفولاذية مطلوبة لهم أحياناً،وهي التي بعث بها الرب — حسبما جاء في كلماته:«أنت سوف تحكمهم بقضيب من حديد»[المزامير :٢ / ٩]، والذين لا يصغون إلى أسباب مثل هذه القضبان، هم يشبهون فرعون بقسوة قلبه، ولهذا سوف يعاقبون دنيوياً، وفي النهاية أبدياً، وذلك إذا لم يثوبوا إلى رشدهم، ولهذا يتوجب علينا التحري بإخلاص حول جميع الأسباب الممكنة لجميع المحصلات التي نشهد وقوعها، وليكن هذا تماشياً مع القول المشهور الذي حذرنا فيه هوغوتون:«سعيد هو الذي يمكنه فهم أسباب الأشياء».

وقال الفيلسوف:«لأنهم بدأوا يتساءلون، بدأ الكهنة في مصر أولاً يشغلون دور الفيلسوف، فطلبوا الأسباب المعقولة، ومن ثم النتائج المحتملة لما رأوه، ولقد أذنبوا ضد مبادىء ما جاء في الكتابات المقدسة، التي تعزو الشرور إلى الفرص وليس إلى الذنوب، أو لم يقل الرب:«بسبب ذنوب الناس سأجعل الفاجر يملك»[أيوب : ٣٤ / ٣٠ بتصرف كبير]، وكذلك ألم يرد في القانون الأوغسطيني:«بسبب ذنوب الناس أعطيوا أحياناً ملكاً شريراً، وأسقفاً شريراً»، لأن الناس لا يستحقون أميراً جيداً ولا أسقفاً جيداً؟ وللسبب نفسه ينبغي الخوف من

الأمـراء ومن الأسـاقفـة خشيـة من جعل الناس أشراراً بسبب ذنوبهم، ومن ثم يثـورون ضـدهم، فعلى كل إنسـان أن يتهم نفسـه، ولا يسـوغ أعماله.

١١٢ : وإذا بقي السيد البابامدة طويلة في مملكة فرنسا، ربما سيتمكن من إيجاد عـدد كبير من الكرادلة من تلك المملكة، وبذلك سـوف تبقى البابوية معنـا، ونتخلص كلياً من أيدي الرومـان،وسيكون هذا واضحاً، حتى ينتبهـوا في المستقبل ويتجنبوا انتـزاع حقـوق الآخرين والاستيـلاء عليها، خشية أن يحل بهم مصيراً أسوأ.

١١٣ [١٧١]: ومن البديهي أن ملك صقليـة سوف يحصل على منافع كبيرة من الترتيبـات المقترحة، ولسـوف تكون مملكة القدس ذات قيمـة أعظم، بالنسبـة له، من جميع مـا يمتلكه الآن، لأن جميع الأراضي يمكن وضعهـا تحت جـزية سنوية، والمملكة سـوف تنـال الدعم من ممتلكات الداوية، والاسبتـارية، والآخـرين الذيـن ورد ذكـرهم مـن قبل، وهو سيسترد أيضاً مملكة صقلية، ومملكة سردينيا سوف تكون من نصيبه بعد تحريرها من فردريك[أوف أراغون]، حسبما ذكرنا من قبل.

١١٤ : ولسـوف يمتلك ملك ألمانيـا الذي هـو الآن ملك مـؤقت وبشكل عـابر، المملكة، ومنصب الامبراطور الشرفي لنفسـه ولورثتـه بشكل دائم.

١١٥ — ويمكن للورد شارل[أوف فـاليوس] عندمـا تنتهي حروب المسيحيين الخاضعين للسيـد البابا، أن يستـولي — بعـون الرب — على امبراطورية القسطنطينية، ووفق الترتيبات المقترحة سيكون لديه مقاتلين لهذه الغاية، ومن المحتمل أنه من دون ذلك لن يكون لديه أحداً.

١١٦ وإذا ما وقعت هذه الأمور كلها هكذا بشكل موائم، هي الآن، وستكون من بعـد أعظم فائـدة لمولانا السـامي، ملك فرنسـا، ولأولاده

ولأخـوانـه،ولازدهاره العـام، وسيكون هذا الازدهـار أعظم مما يمكن كتابته، وإذا مـا جرى تنفيذ هذه الاقتراحات بنجـاح، سيكون قادراً على التحـالف مع جميع الملوك والأمـراء الخاضعين للكنيســة الرومـانيــة، والتحـالف سيكون معـه شخصيـاً، ومع أخيه، الـذي في ضوء فـرصـة الاستيلاء على امبراطورية الإغريق، مـن دون اضطراب في مملكة فرنسا، عليه أن لا يتأخر في الشروع في الحرب ومواصلتها حتى الموت.

ولسوف يكون مصدراً لكثير من المجـد والمنفعة إلى المولى ملك فرنسا إذا ما تمكن من الحصول على مملكة ألمانيـا وامبراطوريتها لأخيه، ولأبناء أخيـه بشكل دائم، وسيكون مفيـداً تحقيق اتفـاق حـول هذه المسألة مع الملك الحالي، قبل أن يسمع بالخطة الجديدة للسلام.

وحسبما جرى — كما قيل — الاتفـاق من قبل في مكان آخـر، وقتها سيحصل الملك لنفسه ولورثته على جميع المنطقة القائمة على هذا الطرف من الرايـن عند كـولون، أو أن يحصل في جميع الأحــوال على سيــادة مبـاشرة، وإشراف على مناطق بروفـانس، وسـافـوي، مع جميع الحقـوق التي يمارسهـــا الامبراطور في لومبـــارديا، وفي مـــدن ومنـاطق جنوى والبندقيـة، وبهذه الطريقـة سـوف يحصـل السيـد الملك على ممر حـرّ إلى لومبارديا، وينبغي عقـد هذه الاتفاقيـة بشكل سري بين ملك الفرنسيين وملك ألمانيا، مع موافقة البـابا وتأييده، وهكذا عندما يجري الاتفاق على هذه الصورة، ويتأكـد، سوف تتأكد تبعيـة الامبراطورية إلى ملك ألمانيا، وسيكون ذلك لصـالحه ولازدهاره، ومن الممكن تقـديم الأعطيـات إلى نـاخبـي[الامبراطـور] أو على الأقل إلى النـاخبين العلمانيين، مـن أجـل الحصـول على مـوافقتهم ويمكن للبـابـا بنجـاح أن يطلب من الناخبين اللاهوتيين تقـــديم الموافقــة، ذلك أنه سيكون لصـــالحهم من كثير من الجوانب أن تتوقف الحروب المعتادة للامبراطورية ولرعاياها.

ثم يقوم البـابا، مقابل الحصول على عطـاء سنوي دائم، بتحويل جميع

الميراث الـوقفي للكنـائس إلى المولى الملـك، مع الاشراف الـدنيـــــوي القضائي على الأتبـاع الإقطاعيين لهذا الميراث، الذين سيكون بينهم كثير من الملوك، ويمكن أن يشترط ويتـم الاتفـاق على أن يقـوم المولى الملك بتعيين واحـداً من أخـوانه أو أولاده سيناتوراً رومـانيـاً وسيكون هذا الفرد، في أثناء غياب الملك نفسه، هو السلطة القضائية العليا في الميراث، ومن الممكن تقديم استئنافـات ضد قراراته إلى السيد البـابا، الذي يقوم بعـد تفحصه للاجـراءات في القضايـا التي يحق له التدخل فيهـا، بنقض القرارات، أو تأكيدها، أو أن يتولى تعديلها.

وإذا مـا كـان اللومبـارد، والجنويـون، والبنادقـة غير راغبين بتقـديم الطاعــة إلى الملك، وبدفع الجزية والضرائب التـي كـانوا يدفعــونها إلى الامبراطور من قبل، ينبغي على الفور منعهم من التعامل مع الكاثوليك المطيعين إلى المولى البـابا، والذين يـراعـون تطبيق خطة السـلام الجديدة ونظامها، ولسـوف يحظر عليهم أيضاً المتاجـرة بجميع البضائع، ويمكن للملك أن يدخـل بحـريـة إلى لومبـارديا عبر طريق ســافـوي، ويأتي السيناتور، والامبراطور، وملك صقلية من الاتجاهات الأخرى، وبذلك يخضعـونها تمامــاً، وينبغي بعـد هذا إرسـال المتمـــردين إلى منفى دائم، وبسبب نظام السلام الجديد، المحظور انتهاك حرمته، والذي تأسس من قبل الخلفـاء، سوف لن تستمـر رعـونتهم المعتـادة، لكنها سـوف تسقط بالضرورة، ومثل ذلك رعــونة الرومـــان، والتـوسكان، والشـــامبنيين، والأبوليين، والكالبريين، والصقليين، وجميع الممالك الأخرى والمقاطعات المطيعة للبابا.

وبهذه الوسـائل سيكون ملوك إنكلترا، وأراغـون، ومايوركـا طائعين للمـــولى الملك، مثلما هو مطلوب منهم الآن طـاعــة البــابا في المســائل الدنيوية، ومن الممكن عقد اتفاق مع الملك المستقبلي لغرناطة، فهو أيضاً ينبغي أن يطيع الملك، وبـالمناسبـة يمكن اتخاذ إجـــراءات في المجمع بأن

يقوم المغتصب ظلماً لمملكة كاستيل — مع احتفاظه لنفسه بتاج كاستيل وبمواردها — بالقبول بالالتزام بتحكيم البابا، الذي يمكنه آنذاك صنع بعض الترتيبات من أجل الآخرين،لأن المغتصب قد أذنب ذنباً عظيماً ضد ابن أخيه البكر لأبيهما، باحتفاظه بالمملكة مراغمة للعدالة العامة، لا بل حتى مراغمة للاتفاقيات التي عقدت بين الملك القديس لويس، وبين والد المغتصب المتهور، والأساقفة والبارونات في مملكة كاستيل، وكان قد تقدم عقد اتفاق زواج فيما بين الولد البكر لملك كاستيل، والأميرة بلانشي، ابنة القديس لويس، اشترط فيه أن تكون ولاية العهد في المملكة إلى أولاد الولد البكر، إذا — كما حدث — ما مات أبوهم قبل جدهم.

ثم تترك كاستيل لمتملكها المتهور، الذي يمكنه أن يعطي مملكة غرناطة إلى ابن أخيه الذي خرق الاتفاقية معه، ومملكة أخرى إلى ابن أخيه الآخر، على شرط أن يطيعا الملك الفرنسي من أجل الحصول على مساعدته ضد المسلمين، وبهذه الطريقة سيصبح الملك الفرنسي في وضع يمكّنه من احتلال مملكة كاستيل، وسوف لن يكون غريباً إذا ما سعى ملك فرنسا — مع استثناء السيادة الصحيحة لإسبانيا — نحو الحصول على ولاء وإخلاص بلاد، حصل عليها جده شارلمان لدى طرده المسلمين، والتي تحق له أيضاً بالوراثة من أم القديس لويس، وبالنسبة لهذه القضية سوف يقوم البابا باتخاذ قرار نهائي حول مصير مملكة كاستيل، وذلك بعد تثبيت الترتيبات الأخرى، وسيقوم في الوقت نفسه السيدان فرناند[دي لى سيردا Cerda] وأخوه بالاستيلاء على مملكتيهما بدون عوائق، وسوف يبتهج المولى الملك في تملكه المتبقي من الأراضي المستولى عليها والمتقدم ذكرها.

١١٧ [72]: وفي المجمع ينبغي أن يسعى السيد الملك مع أخيه، بقدر ما هو ممكن في طلب، وفي تأكيد التحالف مع جميع الأمراء الذين

اجتمعوا هناك، من أجل الحصول على معونة الجميع في الحصول على امبراطورية الاغريق، وذلك بعد فتح طريق إلى الأرض المقدسة، وسوف يكون ملك صقلية — أو ينبغي أن يكون — أول من يفعل هذا، وهو راغب تماماً، ومعه جميع قواته، ولا سيما لصالح الذين سوف يقدمون لمساعدته بالشكل الرائع الذي تقدم ذكره، ويمكنه أن يفعل هذا بوساطة الوعد بتقديم العون بجميع قوى سفنه، ورجاله، وإمداداته.

ووقتها سوف يميل الجميع للوعد، ومن ثم لتقديم العون بجاهزية أكبر مما كانوا سيفعلونه لو أن التعهد العام لم يصنع مطلقاً.

وعندما تهدأ الحروب المعتادة بين الكاثوليك وتتوقف، وقتها يمكن بسهولة أكبر إقناع رجال الحرب، الذين بقيوا بالحري بدون عمل في بلادهم، بالاستعداد لتقديم العون الحربي إلى بلاد نائية، وإذا ما جرى تبني الاقتراحات المتقدمة الذكر، من الممكن للذين يعيشون بين الغرب وبين بلاد الاغريق، على هذا الجانب من البحر المتوسط — أو على الأقل الذين قرب الساحل — أن يحشدوا المقاتلين لديهم مع التجهيزات البحرية.

وسيكون مفيداً مهاجمة بلاد الاغريق وامبراطوريتهم من كثير من الاتجاهات براً وبحراً، وذلك باتباع تفاصيل التكتيكات الشاملة التي جرى شرحها مطولاً في الكتاب الصغير الذي عنوانه«حول اختصار الحروب والتكتيكات المتعلقة بها»، فقد جرى إعداده من قبل الكاتب الحالي، وقد بعث به إلى صديق الملك المخلص والمحنك، جين دي فورت، وكان ذلك في طولوز، عندما كان صاحب الجلالة الملك مع أخيه شارل[أوف فاليوس] هناك، وصنع هذا بمقصد إقناع اللورد شارل ومستشاريه وأصدقائه، للقيام بتقدير هذه التكتيكات، والاقتراحات الأخرى المتعلقة بها، بدرجة من الاهتمام، ومن ثم تبنيها.

وبعـد فحص ذلك الكتـاب الصغير، واغتنام الفـرصـة المناسبـة التي يوفـرها، ينبغـي على جـلالة الملك وأخيـه شـارل، ومعهما الأصـدقـاء المتدربين على ممارسـة الحروب والبارعين في فنون القتـال، عليهم توجيه بعـض الرجـــال الحكماء والخبراء والمخلصين لهم لـلاشراف بعناية وباستمرار على جميع الترتيبات التي أعدت لهذه الغاية، وواضح مما تقدم من قبل، ومن الكتـاب الصغير المشـار إليـه، أنـه سيكون من الصعب الإقامة في بلاد لغتها الأدبية، وجميع اللهجات المتحدث بها، غير معروفة إلى جميع الفرنسيين، وسيكون من الصعب أيضـاً طلب صداقة وتحالف السكـان المحليين، الـذين بشكـل طبيعـي يكـرهـون اللاتين، ومـن ثـم حكمهم إذا ما خضعوا، والاختلاط بهم، وينبغي على الأمير الجيد أن لا يستهـدف تدمير جميع الناس، وإذا ما كـانت هذه غـايته، فإن قضيتـه لا تستحق النجاح، ثم إنه لن يكون قادراً على تحقيق هدفه والوصول إليه.

فكيف على هذا يمكـن للانســان أن يحصل على حب الـذين بقيــوا أحياء؟ وكيف يمكـن أن يحكموا من قبل الذين لا يفهمـونهم، أكثر من فهمهم لصيـاح الطيـور في الهواء،ولزئير الوحـوش، ولفحيح الأفـاعي، ولن تتحقق الكفـاية بالمترجمين الأجـانب للغـاتهم، بما أنه سيكون خطراً الوثوق بهم، كما أنه لـن تتوفـر الكفـاية في الأشخـاص إن عـدداً أو حكمة، من أجل إدارة امبراطورية، وسيكون الناس من البـلاد الأجنبية — الذين يعـدون برابرة في أعين الفـرنسيين، مثلهـم في ذلك مثل جميع الناس الذين يفهمـون لغة الإغريق — متـأثرين تماماً، وقـد ارتشوا، من أجل خيانة و خداع الذين أيضاً يعدون من قبلهم برابرة في تلك البلاد.

وقد عـرف بولص المبارك مع الرسل الآخرين — الذين كـانوا جميعاً يهوداً — اللغـة العبرية فقط، التي كـانت اللغـة الأدبيـة، وكـذلك لغـة الحديث في المنطقـة المحيطة بالقدس، فكيف استطاعـوا الوعظ والتبشير بإنجيل الرب بشكل معقـول إلى جميع الشعـوب البربرية، لولا أن الرب

نفسه قد منحهم القدرة على استخدام جميع اللغات؟ حيث لم يكن بإمكانهم التفاهم بوسيلة أخرى مع البرابرة، وينصح بكل سبيل من السبل، لا بل هو أمر ضروري، الحصول مقدماً على أناس يجيدون اللغات وقد نالوا تدريبات جيدة فيها،ولايمكن الحصول على مثل هذا التدريب وابتياعه بالذهب والفضة أو بالأحجار الكريمة، لذلك من المرغوب اتخاذ إجراء قبل أن تتوفر الحاجة، إما وفق الطريقة التي عرضت من قبل، أو وفق طريقة أخرى أسهل وأحسن.

١١٨[73] : وفيما يخص السيد الملك شخصياً، من المؤكد أن كثيرين سوف يعترضون، ويتمتمون، بأنه لا يمكنه بشكل جيد تحمل متاعب القيام بمثل هذا العدد الكبير من أعمال الاستيلاء، ولا إخضاع هذه الكثرة الكثيرة من البلدان المحبة للحروب، ولهذا عليه عدم القيام بمثل هذه المشاريع العملاقة، ويمكن للانسان أن يرد منطقياً ويجيب بأن من المرغوب به للملك أن يكرس الوقت من أجل المسائل الهامة، وأن يقلع بها، آخذين بذلك بالمبدأ الذي أعلنه المشرع جستنيان في بداية كتابه حيث قال:«على الرغم من أننا كنا مشغولين بالعناية بالكومنولث كله، فقد اخترنا عدم عدّ أي شيء ليس هاماً» إلخ، ولو أن كل أمير، كان — كما هو متوجب — سامي التفكير، وشهماً، وكريماً، من المؤكد أن هذا الأمير ينبغي أن يكون هو أكثر من الآخرين بين هذا النوع، وصحيح أنه من الصعب، وقضية خطيرة، بأن يقوم مثل هذا الملك العظيم شخصياً بتجهيز الحملات، وأن يشترك في المعارك العامة، حيث يمكن لواحد من أخوان هذا الأمير، أو أبنائه أو أقربائه، القيام بذلك وفعله بنفقات أقل، ومخاطر أدنى مما لو قام هو بذلك، وبعدد أصغر من المقاتلين — النصف أو الثلث أو ما يقارب ذلك — لكن لن يكون أمراً سلبياً ولا ينصح به محاولة القيام بذلك، إلا بالارتباط مع الخطة المقترحة من أجل سلام عالمي شامل.

ومن المستبعد أن يجد العصاة حلفاء، لأن الجميع سوف يعانون من العقوبة ومن الحرمان الكنسي، وسوف يكون قادتهم ومقدميهم مجرمين بالحنث باليمين، وعلى هذا سوف يوصمون بالعار، وبسبب ذلك سوف يسقطون في ازدراء أبدي، وينبغي عدم الاعلان عن الاستيلاء على الأراضي — باستثناء تحويل ميراث المبارك بطرس — قبل تسوية مشكلة الأرض المقدسة، وعليهم الالتزام بروابط السلام العالمي الدائم، الذي أعلن في كل مكان، وذلك بشكل تلقائي، وذلك بسبب الحماس والضغط من أجل الذهاب إلى معونة الأرض المقدسة، ولسوف يقسم على روابط السلام من قبل جميع الأمراء،والأساقفة والنبلاء، وتصبح سارية بموجب وثائق رسمية، بطريقة تربط ورثتهم وترغمهم على أداء أيمان مشابهة، وعندما تجلب هذه الوثائق إلى قاعة الخزينة التابعة للكنيسة الرومانية من أجل حفظها، وتدخل في السجل العام وتدون فيه، وقتها يمكن للحملة إلى الأرض المقدسة أن تبدأ، وأن تلقى بمعونة الرب نهاية ناجحة.

ثم يمكن لأصحاب السيادة البابا والملوك إنذار جميع الرعايا في المناطق المستولى عليها حديثاً بوجوب طاعة الأحكام الملكية، وإلاّ سوف يتعرضون إلى جميع العقوبات التي يمكنهم فرضها، وسوف ينال المتمردون طبقاً لميثاق السلام العقوبة على الفور وبالقسوة الممكنة، وهكذا يتدبر الأمر بأن تلقي العقوبة المفروضة على عدد قليل الرعب في قلوب الكثيرين، وبذلك يصبح جميع الناس جيدين: الذين لديهم الاستعداد الجيد بالترغيب بالجوائز، والأشرار بالخوف من عقوبة دائمة لهم شخصياً ولجميع ذريتهم.

ويتوجب على الأمير المسؤول المباشر إخضاع الذين قاتلوا ميثاق السلام، وإرسالهم إلى الأرض المقدسة للدفاع عنها، والعمل الفوري لهذه الغاية ضروري، حتى لا يتجرأ آخرون، على تقديم المساعدة لهم،

وذلك خوفاً من العقوبة، ويبدو من غير المحتمل أن يقدم عن طواعية جميع الأساقفة والنبلاء العائدين لأي منطقة، على اقتراف مثل هذا الخرق، ومن الممكن — على هذا — أن ينقسموا ضد بعضهم بعضاً بوساطة المعلمين والمستشارين العائدين للملوك الآخذين بالسلام:«فكل مملكة منقسمة على نفسها سوف تتمزق ولن تدوم»، فهذا ما حدث عندما تحالف الامبراطور[فردريك الثاني] مع حزب المعارضة في كل مدينة من مدن لومبارديا رفضت طاعته، ودعا حزبه باسم حزب الغبلينيين، ودعا الحزب الآخر الذي وقف إلى جانب البابا باسم حزب الغولف، ولقد تمكن بمساعدة الحزب الذي تحالف معه، بكل سرعة، من إخضاعهما معاً، ويتضح من هذه الحادثة أن حزب الغبلينيين، الذي تعاون مع السيد الحقيقي،كان أعقل من الحزب الذي أخضع نفسه إلى البابا، وابتعد عن الخضوع وتقديم الطاعة إلى أميره.

وحدث أيضاً، منذ وقت طويل مضى، أن قام اللومبارد بسبب رعونتهم، وثروتهم، والدفاعات المتوفرة في مدخل بلادهم، بالانفصال، وبادروا بتهور إلى إعلان العصيان، وأنكروا الخضوع إلى الامبراطور، دون أن يتمكنوا من الحصول على استثناء قانوني، وبذلك خرقوا بشكل عنيف وجدي قانون السيادة اليولياني، ولقد استحقوا لهذا العدوان هم وذريتهم جميعاً العقوبة بمصادرة جميع ممتلكاتهم، وإذا ما غامر البابا، في ضوء جريمتهم العظمى بالدفاع عنهم ضد الأمير، الذي هو راعيه ومؤسس ومعطي جميع الميراث الوقفي الكنسي، سيبدو البابا وقتها — إذا جاز القول وجازت الكتابة — عاقاً، مقترفاً لجناية ينبغي أن ينال تجاهها عقوبة قانونية.

١١٩[74]: وسوف يكون متماشياً تماماً مع المنطق، أن يبقى السيد الملك بدون نشاط، ليمتلك الوقت من أجل إنجاب الأولاد، ومن ثم القيام بتنشئة أولاده وتعليمهم، وللتفوه بالأحكام، وليتولى شخصياً

فض القضايا الهامة، والتعامل مع المسائل الخطيرة، أو أن يأمر آخرين بالقيام بها، وأن يوجه الحملات من خلال توكيل أقرب القادة العسكريين إليه، وأكثرهم ثقة، وأن يجهز الجند، وأن يوفر الامدادات الضرورية والنافعة لمتابعة الحرب، وهذا واضح مما قاله الفيلسوف في كتابه«السياسة»:«الرجال ذوي الذكاء الوقاد هم بشكل طبيعي الحكام والسادة على الآخرين»، كما قال أيضاً في الكتاب السابع من«الفيزيك Physic » :«يصبح العقل الهادىء منطقياً وحكيماً»، وهكذا مكث القديس داود بدون نشاط، متمتعاً بالوقت من أجل التأمل، وأرسل بالوقت نفسه بني إسرائيل لمباشرة الحملات العسكرية.

ويمكن لقادة الحرب الذين أرسلوا وفق هذه الطريقة أن يقوموا بالحركات العسكرية بسرعة، وأن يبدأوا القتال بشكل مفاجىء، وأن يزحفوا ببراعة، يتنقلون من هنا إلى هناك بالنهار وبالليل لمضايقة العدو، وأن يعتمدوا إلى أبعد الحدود في الانفاق على أنفسهم من أسلاب العدو، ولا يمكن لملك عظيم أو أمير أن يفعل هذا، لأنه لا يليق به أن يذهب إلى الحرب لصالح قلة، فيهمل إدارة عدد كبير لا يقارن من الناس، وسيكون مؤذياً أن يقوم أمير عظيم من هذا القبيل بإهمال واجباته الادارية الهامة والكثيرة جداً، وأن يعرض نفسه للخطر، ولإمكانية الموت من خلال حادث مفاجىء من الحوادث، خشية«أنه عندما يصاب الراعي بتحريض من الشيطان تتفرق شياه القطيع».

ومن المفيد جداً للأمير عندما يرسل جيشاً إلى إحدى المقاطعات بهدف إخماد ثورة ما، أن يأمر، أنه إذا ما صدف ومات القائد، أو جرح، أو وقع مريضاً، أو بات عاجزاً بشكل ما آخر، بقيام آخر بالحلول محله على الفور: بدون شرط أو تراجع إذا ما كان القائد قد مات، لكن إذا كان عاجزاً فقط، يكون ذلك حتى يشفى.

وعلى القائد البديل متابعة النشاط على الفور، وفي الوقت المناسب،

تبعاً لخطة متفق عليها، ولسوف يكون عيباً قاتلاً في الأوضاع التنظيمية لجيش كبير، أن يبقى بدون نشاط ومشلولاً وممزقاً، بسبب عجز فرد واحد.

وقال بيوثيوس Boethius :«في هذا العالم يجري الحديث فقط عن المحاسن التي أمرت بها الطبيعة، والتي تخدمها»، ومثل هذا قال الفيلسوف:«مثلما العالم هو وحدة، من خلال وحدة المطلب الذي يستهدفه الجميع، والذي ندعوه بالمقام الأول باسم الرب، كذلك الجيش هو وحدة بموجب هدفه، الذي هو النصر، الذي يسعى من أجله قائد الحرب، والذي يتوجب على كل رجل في الجيش أن ينشده»، وكان مفيداً للأمير أن يوجه طاقاته نحو هذا الهدف، أي هدف الحصول على سلام دائم، لأنه في وقت السلم يمكن للناس أن يمتلكوا وقتاً كافياً، وحراً، وتاماً، للحصول على الفضائل وعلى العلوم، وقد بين الفيلسوف أن«الذي يطلب الحرب من أجل الحرب فقط هو الغاية في الشر»، والذي ينشد بتواضع النصر والسلام بوساطة قدرة الرب، وليس بوساطة جهوده، سوف يجد السلام في الرب، الذي هو كما قال الرسول:«يفوق كل عقل»[فيلبي: ٤ / ٧].

١٢٠ :إذا لم يمتلك أمير عظيم مثل ملك فرنسا سوى ولد واحد ليخلفه على العرش، لا يجوز أن يعينه قائداً لحرب خطيرة، من دون مواجهة خوف عظيم من إمكانية تعرضه لمكروه، لكن إذا ما جرى تعيين مثل هذا الولد الوحيد، عليه عدم مقاربة رعب الحرب من دون اهتمام وتفكر، وكأن لديه عدة أخوة، ولهذا ينبغي أن يتملك الملك وابنه البكر الوقت لانجاب الأولاد، وأن يجري تعيين الأبناء الآخرين والأخوة قادة للحرب، فقد قال الفيلسوف:«الشجاعة التي تجعل جميع الجنود رائعين وجيدين، وممتازين، هي الاقتراب من رعب الحرب، ومن تهديد الموت، من أجل الصالح العام، وليس من أجل صالح فرد فقط»،

وزاد على هذا فقال في كتاب «السياسة»:«إن أميراً يحكم من أجل منفعته الخاصة وليس من أجل المنفعة العامة ينبغي أن لا يدعى أميراً، بل طاغية»، لكنه إذا ما توجه بتواضع نحو الرب، وأراد من خلال قدرته، الصالح العام، أي سلامة الكومنولث وحده، فإن منافعه الخاصة ومصالحه سوف تتبع، مثلما جاءت جميع الأشياء الجيدة في العالم إلى سليمان، وكذلك الحكمة التي طلبها لوحدها من الرب.

[75] : لقد طرحت هذه المسائل مع وسائل اختزال الحروب في العصور الحديثةوجعلها أقصر مما كانت عليه من قبل، في كتاب«حول اختزال الحروب والدعاوى القضائية في مملكة فرنسا، وإصلاح أوضاع الكومنولث العالمي للمسيحيين»، فهناك كتبت هذه الاقتراحات، ليس بسبب أنني اعتقدت أنها تغطي كل شيء، بل من أجل إعطاء الرجال الحكماء والمجربين الفرصة لإنجاز عمل كامل حول هذه المواضيع والمواضيع المرتبطة بها، وقليلة هي الأشياء في هذا العالم التي صنعت بشكل جيد، حيث لا يمكن أن يخطط ولا ينفذ بكمال أكثر، ولا بطريقة موائمة أحسن مما نفذ، ولسوف يرى المولى الملك هذا، إذا ما توقف عن التفكير كم سيخفف عن نفسه وعن شعبه عندما يشن الحرب، إذا ما اتبع ونفذ الخدمة العسكرية التي هي حق له وفق الطريقة التالية، وليس وفق الطريقة المعتادة.

١٢١[76] : صحيح أن واجب الخدمة العسكرية من أجل الدفاع عن المملكة قد ألقي على عاتق الاقطاعيات الأكبر والأهم، فهذه الخدمة العسكرية هي الواجب الإقطاعي المعتاد، المفروض على كل من لديهم إقطاعات، أو بواسطة أناس آخرين مناسبين، ليس بشكل منتظم كل سنة، بل فقط عندما تتطلب الحاجة، ومسؤولية الدفاع عن المملكة هي مسألة لا تخص فقط المولى الملك، والذين بأيديهم إقطاعات مقابل مثل هذه الخدمة، بل تخص أيضاً الأعداد الكبيرة من الآخرين الذين بأيديهم

إقطاعات حـرة غير مثقلة بخدمـات خاصـة، وهي أيضاً تخص — لكن ليس كثيراً جداً — كل الذين بأيديهم إقطاعـات، هي في معظم الأحيان أقل قيمة، وهي أيضاً مثقلة بمبالغ تدفع سنوياً، وهذه المبالغ في كثير من الأحيان تساوي القيمة الإجمالية تقريباً للإقطاع سنوياً، أوتساوي نصف القيمة.

١٢٢: والدفـاع عن المملكة هـي أيضـاً مسـألة تخص رجـال الدين الأدنى مـرتبـة بسبب امتيـازاتهم المعتبرة روحيـاً ودنيـوياً، وهكذا ينبغي استدعاء جميع المتوجب عليهم أداء خدمات عسكرية لمقصدين ولسببين، لهما وزنهما من أكثـر من جانب، والمقصـود بذلك هو أن عليهم أداء هذه الخدمـة عندما تستـدعي حالة الطـوارىء، فهم قد نالوا مـا بأيديهم من إقطاعات مقابل أداء هذه الخدمة، وكان السيد الملك آنذاك الذي منحهم إقطاعيـــات، قـد منحهم إيّاهـا وفق هذا الشرط، وهو قـــد دافع — ومطلوب منه أن يدافـع — عن كل واحـد منهم، ضـد أي واحـد قـد هاجمهم بقـوة السلاح، ولذلك إنه لصـالحهم تقديم كل خـدمة متـوجبة عليهم، لأنهم بدون ذلك لن ينالـوا السـلام، كما أنهم لن يحظوا بالوقت للتمتع بممتلكاتهم والحصول على محاسن العلوم وفضـائلها،ولهذا عندما يقوم تهديـد بحالة طوارىء، ينبغي استـدعاؤهم أولاً، وإذا كـان العون الذي عليهم تقديمه هو — أو يعتقد أنه — كاف، وقام الملك باستدعاء الذين ليس متـوجبـاً عليهم شرف خدمتـه، يكون بهذا العمل قـد سعى بالحري إلى إلحاق الضرر بهم، بدلاً من تقـديـم العـون إلى نفســه، ويتبع هذا، إنه بموجب مواد القانون، يعـد ذلك عدواناً لا يغتفر، ويصبح هو مذنباً بجرم عظيم، لأنه استـدعى وتحكم بهؤلاء الذين كان من المتوجب عدم استدعائهم، لأنهم ليسـوا خاضعين للتكليف.

١٢٣ : وإذا ما عمل السيد الملك وفق أفضل النصـائح المتوفرة، عليه أن يقنع أن عـون جميع الذين يدينون له بـالخدمـة العسكرية هي كـافيـة،

ويمكنه أن يقوم بعملية استدعاء Levee en masse ، أي أن تقول العون الأول للذين بأيديهم إقطاعيات حرة، وإذا كان ذلك كافياً عليه أن يقنع، وإذا كان غير كاف، عليه استدعاء عون الشعب، أي جميع الذين يقفون خارج العلاقات الاقطاعية، إلى الحد الذي يرى فيه تقدير أمين أنه قد حصل على حاجته.

[77] : وإذا ما افترض أن موارد السيد الملك والاقطاعيين الآخرين الذين يدينون له بواجب الخدمة، مع الذين ذكروا أعلاه ممن بأيديهم إقطاعات حرة، سواء أكانوا يدينون له بواجب الخدمة أم لا يدينون، افترض أنها غير كافية من أجل الدفاع، وقتها في أحوال الضرورة للدفاع عن المملكة — وخروجاً على القانون — يمكن للملك أن يفرض ضرائب على ممتلكات الكنائس وعلى المؤسسات اللاهوتية، أو الاستيلاء عليها، وذلك بحدود ما يحتاجه من وسائل من أجل الدفاع الكافي، وهذا هو المصدرالنهائي والأخير الذي يمكن للملك أن يلجأ إليه، وكون كفايته واضح من حقيقة أنه نادراً — أو مطلقاً — ما جرى الاستيلاء على مثل هذه المساعدة من الكنائس ومن المؤسسات اللاهوتية، ومرد هذا إلى سبب أنها في أية مرة جرى الاستيلاء عليها، جاء هذا الاستيلاء مضاداً للموقف العام، وموقف القانون الكنسي وموقف القانون المدني، ولهذا يعد هذا العمل جناية عظمى، ما لم يتوفر قانون، يمكن بموجب فضيلته ومنطقه القيام بمثل هذا الاستيلاء، ولا يوجد هنا سوى قانون واحد فقط، وأعني به الضرورة الملحة للدفاع، وهذه الضرورة ليست حتمية، بمعنى أنها ضرورية من أجل أن تشرق الشمس، إنها مشروطة، بمعنى أن التغذية للحيوان شرط ضروري إذا ما أريد إنقاذه، وبقائه حياً، وهذا ما نقرأه في الكتاب الخامس من الـ Analytics في فصل«حول الضروريات».

١٢٤ : وبناء عليه إنه من حق الملك، ومن واجبه أن يطلب

الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة من أجل الدفاع عن المملكة، على أن يكون ذلك الملاذ الأخير، عندما يتبرهن أن موارده، ورديفها من الضرائب الاقطاعية ومن الـ Levee en Masse غير كافية من أجل المهمة، لكن دعونا نفترض أن مائة ألف مارك فضي كافية من أجل هذا الدفاع، وأن الملك سوف يستولي على مائتي ألف مارك، فهل يمكنه أن يفعل ذلك دون اقتراف لجناية عظمى؟ من المؤكد لا، لأنه عندما يتوقف السبب تتوقف المؤثرات، فجميع العلوم توافق على هذه النقطة وتضفي عليها الشرعية.

ونتيجة لما تقدم، عندما يصبح سبب الاستيلاء هذا غير شرعي، فإنه لا يجوز للملك الاستيلاء على شيء، ما لم يكن راغباً بشكل مكشوف أن يسرق وينهب، وبالمنطق نفسه، إذا ما كان بحاجة إلى مائة ألف مارك من الفضة أو من الذهب، وقام بالاستيلاء على الأكثر، فإنه يكون قد مارس النهب والسرقة، بكلمة مزيفة وبفعل أخرق، عندما ادعي وجود حاجة ضرورية وهي لم تكن موجودة، وإذا ما فعل الملك هذا وهو على دراية كاملة بواقع الحال، يعدّ كاذباً، وبسبب ذلك الكذب — الذي يحرمه الرب — تنكر للرب وصار ابناً للشيطان، الذي هو والد الكذب، وجميع الكذابين أولاده: مثلما يدعي الذين يقولون الصدق — في هذا المجال — أبناء الرب.

وقد تبرهن هذا في عدد من نصوص الكتاب المقدس، خاصة في الرسالة إلى تيطس، ومن ثم عدّ ذلك قانوناً شرعياً، وهكذا جاء في السبب ٩، والسؤال ٣ والفصل [٧٨]:« يفسد الحكم بأربعة طرق» وكذلك في الفصول التالية، ومن الواضح إلى جميع المرتبطين بالإيمان الكاثوليكي، أن استخراج الضرائب فوق الحاجة جنايةعظمى، لا يمكن غفرانها، ما لم ترد الأموال المستخرجة لغير الضرورة، وإذا كان هذا صحيحاً بالنسبة إلى جميع المال المستخرج، إنه على هذا صحيح أيضاً

بالنسبة للجزء، لأنه حسبما جاء في تحذير القانون المدني «هناك العلاقة نفسها بين الكل والكل كما هي بالنسبة للجزء إلى الجزء».

[78]: وواضح مما تقدم أنه صعب جداً بالنسبة للسيد الملك أن يحكم بإنصاف في قضية الضرورة هذه، وصعب بالدرجة نفسها بالنسبة لمساعديه ومستشاريه أن ينصحوه بشكل عادل حول هذه القضية، باختيار حل وسط تبعاً لحصص الهندسة الحقيقية وليس تبعاً لحصص الرياضيات.

وإذا ما قضى الملك بشكل صحيح في هذه المسألة، وقدم له مستشاروه نصيحة عادلة وصحيحة، فإنهم بذلك يفعلون خيراً وفضيلة، إذا لم يكن بعض الشّر قد أضرّ بهم من جهة أخرى، وبما أن الخير والشر شيئان متضادان، حسبما قال الفيلسوف، لايمكنهما التعايش والوجود في الموضوع نفسه، وبناء عليه يفسد شر واحد ويدمر جميع الفضائل العائدة للموضوع الذي وجد فيه، ولهذا قدّر الفيلسوف تقديراً عالياً ما قاله هرقل، وعبر عن ذلك بشكل جيد عندما كتب:« تضيء الفضيلة دوما عندما تكون المجريات صعبة جداً»، وأضاف قائلاً:«إنه بالنسبة لنا صعب جداً أن نكون جيدين»، وينبغي بالنسبة لناأن نلتزم بدون انحراف بالطريق الوسط، متجنبين الإسراف الشديد، والعوز، وأيد الفيلسوف هذا بإشارة مشابهة بقوله:«هناك مسلك واحد، هو المسلك المستقيم، الذي يأخذ السهم إلى هدفه، والخطوط التي تتشعب من الخط المستقيم، هي معوجة وهي غير محصورة العدد ،وقال إنه بناء على ذلك، أن يلتزم الانسان بالخط الوسط في ممارسة الفضيلة هو صعب بقدر صعوبة إطلاق سهم، يقوم بخرق الهدف، ولا ينحرف عن الخط المستقيم.

١٢٥ : وبعد لفت الانتباه الدقيق لما تقدم، ربما سيرغب صاحب الجلالة الملكية، لأن يقدّر، ولأن يحكم بعدل، بدون إلحاق ضرر بأي

إنسان، فيما إذا من الممكن إبداع وسائل أخرى، يمكنه بها بشكل عادل وقانوني أن يستخرج بقوة من الناس المتمنعين العون العائد لـ Levee en Masse ، وللكنائس.

١٢٦ : ومن البديهي أن السيد الملك، الذي هو مسؤول بعمق أكثر، وبطرق أيضاً أكثر، لا بد له من الدفاع عن مملكته، وعليه أن يكون مستعداً للدفاع عنها عندما يهددها الخطر، وأن يقاتل ليس تقديراً لمملكته فقط — كما فعل أجداده من قبل — بل كما يليق برتبته، وبتقدمه، وبثروته.

١٢٧ : ومن الممالك، والدوقيات، والكونتيات، والبارونيات، والقلاع، والاقطاعيات الأخرى، التي استحوذ عليها الملك في هذا الجانب[من الألب] في ماضي مئات السنين، منها جميعاً ينبغي أن يطلب على الأقل العدد المقرر من العساكر المتوجب على أوضاعهم حسبما تقضي بذلك حقوقه الاقطاعية، وعلى السيد الملك إجبار كل واحد من أتباعه الاقطاعيين والدوقات والكونتات، والبارونات، وأصحاب القلاع، والفرسان، وبشكل عام كل واحد يدين له بخدمة ثابتة، إجبارهم جميعاً على تقديم هذه الخدمات وتأديتها دونما غش أو نقصان، وعليه أن لا ينقص أو أن يتخلى عن أي جزء من هذه الخدمات أو إهمال فرضها، وذلك بغية معاقبة الذين تتوجب دعوتهم فقط من خلال Levee en Masse .

١٢٨ : غير أنه يحكى بأن السيد الملك غير متفكر بهذا، وقد أودع نفسه وأحكامه بأيدي مستشاريه، الذين اعتاد على دعوتهم لمساعدته في الحرب، أحياناً على حسابه، هذا وينبغي على هؤلاء الكونتات، والبارونات، والفرسان، والأتباع — بحكم وجوب تقديمهم خدمات عسكرية — أن يقوموا بحملات على حسابهم، وأن يسددوا تعويضات بخدمات عسكرية مقابل إقطاعياتهم فضلاً عن هذا، يقوم الدوقات،

والكونتات، والبارونات، والفرسـان، والآخرون المتوجب عليهم تقديم خدمات عسكرية، يقومون غير راغبين بأداء الحملات وتقديم الخدمات وحـدها، فاعتـادوا على أن يأخـذوا معهم، وعلى أن يستبقوا بخدمتهم آخـريـن كثـر على حســابهم، في حين أن المتـوجب على هؤلاء تقـديم خـدمـات على حسـابهم مستحقـة عليهم، وفي هذا يتركـون بدون عمل آخـرين من الشجعـان ومن النبلاء الأقـوياء يكونون مسرورين بالقيـام بحملات على حساب الآخرين لو جرى استدعاؤهم لذلك.

وفي ظل هذه المعطيات حدث مراراً، أن يقوم الفارس الذي عليه أداء خـدمـة عسكرية، بإرسـال واحـد مـن أولاده مع ثلاثة أو أربعـة من الرجال، ويبقى هو شخصياً في مسكنه مع خيوله وسلاحه، ويقوم الابن الذي يتـولى أداء الخدمـة المتوجبـة على أبيـه، وعلى حسـاب هذا الأب، باستخراج مال يـدفع له من فارس جار لأبيه، ليتـولى أيضاً أداء واجباته عنه، وعلى هذا نراه قد عمل عوضاً عن نفسه وعن جاره، ونراه فيما بعد ينجح في وضع نفسـه في خدمـة مدفوعـة لدى واحد من الكـونتات أو البارونات، وكذلك على حساب واحد من النبلاء يقوم باستقباله، وعلى هذا تراه يقـوم بتأدية واجب خدمة عسكـرية مزدوجة عن كـل من أبيه وجاره، وبذلك يحصل على أجر مضاعف.

وبمثل هذا التراخي والإهمال في الالتـزام بالحقيقة، وفي التهـرب من الخدمة العسكرية مـن قبل عدد كبير ممن يتوجب عليهـم ذلك، وقيامهم في كثير من المناسبـات باستهلاك نفقـات الخدمات المدانين بها إليـه، قام السيد الملك بفرض الـ Levee en Masse ، في حالات توجب فيها عدم الـدعوة، وعدم الفـرض، وبقيام الملك بغض النظر عـن الخدمات المتـوجبة، وبإيجاب الخدمـة على الذين غير متـوجبـة عليهم، يثقل بذلك نفسه روحيـاً بشكل رهيب، ويثقلهم دنيوياً، ومثل هذا حـدث بالادعاء بوجـود ضرورة في قضية الكنائس، فبناء على ذلك الافتراض استخـرج

العـون منهم، مع أن الحقيقـة معروفـة، حيث لم تتـوفر الحاجـة، أو على الأقل لم تكن حـالة الطـوارىء عظيمـة بها فيـه الكفـاية، وهكذا اقترف جناية عظمى باستخراجه العون بدون حاجة.

١٢٩ : فكيف على هذا، يمكن لأمير أن يستفيـد من الحرب، وكيف يمكنه الاحتفـاظ بالممتلكات التي صـادرها من أجل حـروبه، في وقت تجاهل فيه أحكام القانون والعادات، بقيـامه بظلم عدد كبير من الناس، وبالتخلي إلى الأثرياء — غير شـاكرين له، لعدم فهـم الأوضاع — عن الجزء الأعظم أو عن كـل الذي استخـرجـه مـن الفقـراء ؟ ومع أن الكنيسـة لم تدرك هذا كله، مع هذا عـدّت نفسهـا متأذية، فتـوقفت عن تقـديم صلواتها المعتادة لصـالح السيـد الملك، ومع أن الملك لم يتبع هذا الطريق برغبة ذاتية منه، بل اقتيد إليـه من قبل مستشاريه، يبدو لي أنه ما كـان له ليفعـل ذلك، بسبب أن عليـه أن ينجح أمـام الرب الذي يرى الجميع، ذلك أنه كان مهملاً، بـالأخذ بنصيحة رديئة، وأخفق في السعي وراء مشـورة صحيحة جيـدة، بالتنازل إلى المدانين له عما استخـرجـه من الذين غير مـدانين له، وهكذا يتـوجب طلـب عـون الـ Levee en Masseوعـون الكنيسـة، وتسلم ذلك، فقط عندمـا يسمـح مـذهب الاجراءات الموصوف أعلاه ويجري اتباعه.

١٣٠ [79] : وواضح مما تقـدم أن عليـه أن يسير وفق الخطة التـاليـة التي عليه تبنيها، لأن من المتـوجب وجود نظام في كل مكان(باستثناء في جهنم، حيث كما قـال القـديس : لاترتيب، بل رعـب مقيم دائم — أيوب :١٠ / ٢٢)، فعندمـا توجد حـالة طوارىء، ولكي يتجنب الملك ظلم رعـاياه، عليـه أن يسعى أولاً للحصـول لنفسـه على مـا يكفي من العساكر الاقطاعية والتجهـز بهم، مثلما اعتاد أجداده على تزويد أنفسهـم قبل حصولهم على دوقية نورماندي ومـا شابهها من الدوقيات الأخرى، والكونتيات، والبـارونيات، والاقطاعيات التي تم الحصـول عليها قبل

وصـوله إلى العرش، وإلى هؤلاء ينبغـي أن يضاف الضرائب الاقطاعيـة المفـروضة على المناطـق التي حصل هو عليها شخصيـاً في أثناء حكمـه، وعليـه بعـد هذا أن يجهـز من الاقطاعيـات التي سيتم عليهـا الحصـول الآن، مثلما سوف يفعل الدوقـات، والكونتات، والبـارونات، ويجهزون أنفسهم، لو أنها مـا زالت في أيديهم، وعليـه أخيراً ستـدعـاء الذين غير المتوجب عليهم تقـديم الخدمة العسكرية، لكن وفق طريقـة لا يبدو بها مضراً برعيتـه، ولامنزلاً الظلم بها، أي بطلبه عـونها في وقت لا حاجـة لذلـك فيـه، وعلى الانسـان أن لا يخاف من فعل الشر فقط، بـل من التظاهر بفعل الشر، وعنـدمـا يكون قـد استعـد بشكـل وافـر يمكنه أن يستدعي إلى حربه النبلاء، والكونتـات، والبارونات، وأية رجال آخرين مدربين.

١٣١ : وينبغي على الملك أيضاً أن يتنبه إلى جميع رعاياه الذين عليهم تأدية خدمـات مسلحة، أن يظهـروا مع العساكـر كلها من أجل ضرورة تأدية واجب الخدمـة العسكرية الملـزمين به، أي أن يجندوا وفق طريقـة، بحيث مـا من أحد يدخل في الوحـدة التي عليـه تأدية الخدمة فيهـا على حسـابه الشخصي، أو أن يكون بدلاً عـن آخـر، وباتبـاع هذا الاجـراء، وباستخـدام كاف فقط لسلطاته العليـا والملكية، سـوف يكون مع الملك جميع — أوتقريباً جميع — نبلائه، ولن يستولي بوسائل الـ Levee en Masseعلى مـا اعتـاد أن يتنازل عنه إلى الذين عليهم تأدية خـدمـات مسلحة، وكذلك لن يثقل كـاهل الكنيسة، ولن يتوقف الناس عن تأدية صلواتهم المكرسة، بفضله وحده — وليس بقـواهم — الذي اعتاد قادة الجيوش على نيل النصر.

١٣٢[80] : وإذا مـا رغب أي إنسـان في إدانة هذه الطريقـة في تعبئة جيش من الجيوش — لأن أجـداد السيد الملك لم يعتادوا في الماضي على فرض الخدمة العسكرية بهذه الطريقة — من الممكن أن نجد الجواب في

تحذير القانون المدني بقوله:«على الانسان أن لا يولي الاهتمام لما حدث في روما، بل لما ينبغي أن يحدث»وقوله ثانية:«على الانسان أن لا يحكم بناء على الأمثلة، بل بموجب الشرائع»، ويتماشى هذا مع ما قاله أستاذ الفلسفة الكبير، المعلم سيغر دي برابنت، الذي كنت تلميذه آنذاك، وقرره على قاعدة أرسطو في«السياسة»:«إنه لأفضل بكثير أن تحكم الدولة بشرائع عادلة، من أن تحكم برجل عادل مستقيم»، ذلك أنه لم يكن، ولا يمكن أن يكون هناك رجل مستقيم إلى حد لا يمكن إفساده فيه بالغضب، وبالكراهية، وبالحب، وبالخوف، وبالجشع، فهذا ما نبهنا إليه قانون الشريعة في السبب ١١،السؤال ٣، الفصل[٧٨] بقوله:«يفسد الحكم بأربعة طرق»، وكذلك بما قاله في الفصول التالية، ووافقه الفيلسوف عندما قال في كتاب «السياسة» المتقدم الذكر أعلاه:«حكمت في البداية بعض الدول من قبل الملك، أي بإرادة شخص كان السيد بينهم، لكن بما أن الملوك يعاقبون أصدقائهم بعقوبات خفيفة، وأعداءهم بعقوبات ثقيلة عندما يعتدون، من هنا انبعثت الشقاقات والحروب، ولهذا، ومن أجل إنهاء هذه الشرور بدأ الناس يحكمون بشكل أكثر عمومية بوساطة القوانين والنظم التي لا توفر أحداً.

١٣٣ : ومرة أخرى الناس في هذه الأيام أكثر شرهاً وسوءاً مما كانوا من قبل، وأكثر دهاء وبراعة في المكر،وقد قال الفيلسوف في«السياسة»: « يفكر الرجل الحكيم الذي استسلم إلى الشر، بمختلف أنواع الشر، ويمارسها».

١٣٤: وقال ثانية في الكتاب نفسه:«تبلغ العداوة أسوأ أوضاعها لدى اللجوء إلى السلاح»، أي سلاح الحكمة، وجاء في مدونة الامبراطور جستنيان:«لايوجد أسوأ من إنسان حكيم استسلم إلى الشر، فهو لا يمكن نصيحته»، ولهذا من التدبير الحسن اللجوء إلى وسائل معالجة جديدة ضد الأعمال الشريرة للناس المتوجب عليهم القيام بخدمات

عسكرية، لكنهم لا يقومون بها، مما يلحق الضرر الكبير بأميرهم الرئيسي وبالعدد الأكبر من أتباعهم، ثم إن هذه الخطيئة العظيمة، التي سوف يصدر عنها كثيراً من الذنوب، والأخطاء، وأعمال الظلم، سوف تتوقف في المستقبل، وسيتم أيضاً محق العدوى المهينة لهذه الخطيئة، التي أصابت عدداً كبيراً جداً من الأرواح، بموافقة من السيد الملك، ورجال الدين والشعب، وسيكون هناك بعض التعويض للمظلومين ، لكن ليس للظالمين.

١٣٥[81]: من إيقاف الخدمة العسكرية، عندما تبدو الحاجة أنها قامت لذلك، ومن توفر الحاجة إلى إنقاص عيار العملة في المملكة، التي يتسلم كل إنسان في المملكة بها دخله، فإن الأكرية سوف تفقد في البداية ربع قيمتها ودخلها، ثم الثلث، وبعد ذلك النصف، وأخيراً الثلثين، ولقد حسبت أنا كاتب الرسالة الحالية، وعرفت من خلال تناقص سعر العملة المستمر، أنني قد فقدت على الأقل خمسمائة ليرة تورية، وكان هذا بعد الشروع بإنقاص عيار العملة، وإذا ما قدرنا كل شيء، أعتقد أن السيد الملك قد فقد، وسوف يتابع الفقدان والخسارة بإنقاص عيار العملة أكثر بكثير مما حصله من منافع أويمكن أن يحصله في المستقبل، وبسبب إنقاص عيار العملة هذا، ارتفعت أسعار الحاجيات كثيراً، إلى حد أن الأسعار ربما لن تنقص وتعود إلى المستوى القديم، ومن أجل التعويض على الناس الذين عانوا من هذه الشدائد العامة، يتوجب معاقبة الذين خططوا، وصنعوا، ونفذوا مثل هذا الحل، وأنقصوا عيار العملة مراغمة لجميع مبادىء وقواعد القانون، وأيضاً مراغمة لعادات مملكة فرنسا التي تبرهن أنها ظلت بلا خرق منذ ما قبل ما يستطيع الناس الأحياء أن يتذكروه، وسيكون مفيداً لفت انتباه صاحب الجلالة إلى هذه المسألة: ذلك أن التجاهل بلاهة وغباء، ولايمكن مطلقاً أن يكون تسويغاً مقبولاً للخطيئة، لأن الجريمة الكبرى موجودة على معيار

مع نية شريرة.

وفي الحقيقة، هناك لـوم عظيم بالبقاء جـاهلاً بما يعرفه الجميـع بلقبه، وذلك حسبما حذرنا القانون المدني، وأنـا لا أعتقد أن إنساناً بعقل سليم يمكنه — أو ينبغي — أن يعتقـد أن الملك كـان سيقـوم هكذا بتغيير نقوده وإنقـاص عيارها، لو اعتقد أنه سيصـدر عن ذلك مثل هذا القدر من الشرور، ثم لأنه نشأ وسط رفاه عظيم، وثراء كبير، واعتاد دوماً على ذلك، لايمكنه أن يدرك شخصيـاً تمامـاً النقص والحاجة، وأنواع العـوز والفقـر التي لا تحصى، وهـو على هذا مثل الذين عـاشـوا زمناً طويلاً دون المعاناة مـن أي مرض، ولهذا ليس لديهم ميل للخـوف من أسباب المرض ومن مصادره، لأنهم لم يتذوقوا الطعم المرّ للمرض.

ولقـد قـرأنا عن عـدد كبير من الأمـراء الذين حصلوا على الخبرة، بتجريب جميع ألـوان الحياة من أجل ا لوصول إلى معـرفة أحـوال العالم وأوضاعـه، وصحيح ما قاله الفيلسـوف أن«الحكمة الدنيـوية» التي أكد أنها ملكة جميع الفضـائل الخلقيـة، لأنها تتضمنهم جميعاً«نحصل عليهـا بالتجـربة»، لكن هناك حـاجة إلى وقت مـديد للحصـول على الخبرة في الشؤون الانسانيـة، وعلى هذا خلص إلى القول بأن ما من عقل صحيح يختـار الشبـاب قـادة، بسبـب أنه لم يعـدّهم حكماء، لأنهم لا يمكنهم الحصول على تجربة واسعة ومعرفة كبيرة في وقت قصير.

١٣٦[82]: ولهذا إنـه على الملك أن يـدرك وأن يتـأمـل ميـــول مستشـاريه، نحـو فـرض الخدمـة العسكرية، وكيف أنهم يقـومـون سراً بشطبهـا عن الذين يتـوجب عليهم القيـام بها، ويستخـرجـون مـا ليس ضرورياً من خلال الـ Levee en masse ومما فرض على الكنيسة، ومن آخرين، مـا كان من المفترض استخراجـه من الذين عليهم واجب أداء الخدمة العسكرية،وعليه أن يبحث عن الذين أغنوا أنفسهم بوساطة هذه الاعفاءات، وعن الذين مع أنه متوجب عليهم القيام بحملات على

حسابهم، وأن يؤدوا خدمات عسكرية مقابل إقطاعياتهم، قاموا بحملات على حساب جيرانهم الذين بقيوا في مساكنهم، وعن السادة الذين دعوهم لاكمال تعداد مقاتليهم، وبعدما حصلوا على كثير من المال بهذه الطريقة، وبعدما أثروا أنفسهم من أثاث الفقراء، عادوا أخيراً إلى نسائهم، ومن الطبيعي أن أمثال هؤلاء الناس يرغبون بأن يقوم الملك دوماً بحشد جيش كبير، وإذا ما أراد السيد الملك التحري بدقة حول صدق الأمور المتقدمة الذكر، سوف يجد أن هذه الممارسات قد طبقت.

ولا أريد أن يعرف بأنني حرضت على القيام بمثل هذا التحري، بسبب أنني أعتقد أن ذلك إذا ما بات معروفاً فلن أنجو من التآمر ضد حياتي شخصياً، وأنه سوف يجري التأثير بشدة على أصدقائي ليكونوا ضدي، ومع هذا أردت عرض هذه القضايا وإثارتها، آخذا بمذهب الفيلسوف الذي قال:«على الذين يؤمنون بالصدق أن يلتزموا بقوة ويقرب بالصدق، وليكن ذلك أكثر من الصداقة»، وكذلك بمبادىء الانسان العاقل اللذين هما مبدآن: أولهما أن لا يتكلم بشكل زائف عما يعرفه، والثاني أن يكون قادراً على كشف الذي يتكلم بشكل زائف»، وقد قرأنا في القانون:«أن تعاني من الذل في سبيل الصدق أفضل من نيل المنافع عن طريق النفاق».

ومن المؤكد أن جميع الذين يزيفون من أجل ضرر آخرين، يقترفون إثماً عظيماً، وهم أبناء الشيطان، وهم ينكرون الرب بأعمالهم، مثلما قال الرسول وأكد بأنهم مثل الذين يعترفون بأنهم يعرفون الرب، لكن ينكرونه بكل عمل شرير من أعمالهم، وعلى العكس يدعى جميع الذين يقولون الصدق، بأبناء الرب، وبما أنني محامي استئناف لقضايا الملك،ومرتبط به باليمين، سوف أعدّ نفسي مقترفاً لذنب عظيم، لدى سكوتي عن حقيقة ما تقدم بالنسبة للضرر الروحي والدنيوي لمولاي وللعدد الذي لا يحصى من رعاياه، لأنه كما قال

الفيلســـوف:«الشجـاعــة»التي هي فضيلة نبيلة، وتليق بشكل خـــاص بالأمـراء، وبالفرسـان هي:«الهجوم على الأوضـاع المرعبة، حيث يتـوفر التهديد بـالموت، وذلك من أجل الصالح العـام»، وقد جـاء في الكتاب المقـدس:«حينما يحفظ الـرجل القـوي بلاطه، تكون جميـع الأشيـاء التي يتملكها بسلام»[لوقا : ١١ / ٢١ — بتصرف].

١٣٧ : الذي وقع في الماضي لا يمكـن إعـادته، وذلك حسبما قـال القـانون:«ما أن تتقـرر القضـايا لا يمكن إعادة فتحهـا من أجل خـاطر العـدالة»، وينبغي على كل حـال على السيـد الملك أن يفهم الماضي وأن يتعلم منه، وعليه أن يتبنى سياسة جديدة حتى لا تتكرر المخالفات التي ورد ذكرها أعلاه في المستقبل، وعليه شخصياً، بناء على نصيحة الكنيسة وأعقل مستشـاريه، أن يعـد بتعـويض رجـال الدين والشعب،فبـذلك يقنعهم بعدم متـابعة إيقـافهم تزويده بصلواتهم الحارة، وبذلك سيتمكن من إنهاء غضب الرب، حيـث أننا نقـرأ في القـانون:«الخوف من الاثم دليل على قلب جيـد، حتى حيث لا يوجـد إثم»، وإذا مـا ابتغى أمير الحصول على الحكمـة وسعى من أجلها، في سبيل حب خالقـه، وإذا ما كـرس جميع طاقـاته من أجل تقـديم العـدالة في وقتها، وإذا مـا مـارس الرقابة على قضاته من أجل البت بالقضـايا بسرعة وبعدل، وبذلك يوفر برحمة على رعايـاه الأذى، والاضطرابات والنفقات،وقتهـا سوف يكون مثل سليمان، الذي تلقـى جميع خيرات هذه الدنيـا، مع هبـة الحكمـة الحقيقية والعدل، ولسوف يتحرك الناس نحو غفران جميع الأخطاء التي عانوا منها.

وسيكون مثل هـذا الحل مـرغـوب به كثيراً، لأنـه سيكون من غير الممكن التقـدير تمامـاً مـدى الضرر الذي عـانى منه كل واحـد من التجاوزات التي ورد ذكرها أعلاه، وأعتقد بشكل أكيد أن رجال الدين والناس بشكل عـام سوف يكونون على استعـداد للمـوافقة على إجـراء

يقوم بموجبه السيد الملك — من أجل خلاصهم — بتكريس جميع ما استخرجه من رعاياه فوق واجباتهم، من أجل مصلحة الأرض المقدسة، وذلك ما يعادل جميع الأضرار التي ألحقها بهم بإتباعه آراء الآخرين، ومن السهل الحضول على موافقتهم بالدعوة إلى حمل الصليب، مع منح الغفران المطلق من السيد البابا.

١٣٨ : ويمكن أيضاً للسيد ملك إنكلترا، والأمراء الآخرين، والأعيان، والذين سوف يعبرون إلى الأرض المقدسة، أو يرسلون آخرين إليها، يمكنهم أن يسعوا من أجل تسوية مماثلة، وأن يضعوها قيد التنفيذ، وليكن ذلك مع جميع الذين لهم ديون عليهم لم تتم تسويتها، والتي هي غامضة، أو غير محددة لأي سبب آخر، ووفقاً لقواعد إيماننا، لايمكن غفران ذنب من الذنوب ما لم تتم إعادة ما سلب، وإذا كان الذين سيذهبون للقتال من أجل استرداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، كانوا مثقلين وموسومين باحتفاظهم بممتلكات الآخرين، ولهذا واقعين في شرك ذنب عظيم، فإن ذنوبهم سوف تعيق أعمال الآخرين الجيدة.

ولهذا يتوجب على التائب الحقيقي والمعترف، أن يقوم قبل كل شيء بالانفاق هناك لصالح المدان لهم، وأن يسدد لهم كل ما يطلبون تسديده، وبهذه الوسيلة يمكن لكل إنسان أن يمتلك الغفران، وبذلك سوف تكون جهود الجميع مؤثرة وقتالهم فعالاً، وسيمكن وقتها إزاحة العدو القديم وطرده، وهو الذي يمسك بيديه بسجلات مثل هذه الآثام ويحتفظ بها، ويؤخر ويعيق محوها بقدر ما يمكنه، وذلك خشية أن تنجو الأرواح من مصائده، وإنني أعتقد بشكل جازم أن كل إنسان سوف يصغي إلى الوعظ المرتبط بالغفران البابوي سوف يغفر للسيد الملك كل ما يدعيه ضده.

وإذا ما وجد هناك أي واحد أراد أن يقلد فرعون بقسوة قلبه،

وسـوف يرفض التخلي عن ادعـاءاته، على أساس أنه يستحـق تعويضـاً أعظم، على القضاء الملكـي المحلي الموجود لهذه الغاية، مـع محاكم أخرى يجري تعيينهـا للقيـام بهذه المهمة، عليهـا القيـام بتسجيل أسماء المدعين، وبمطالبهم، وبالأسباب، وبذلك يمكن القيام بتعويضهم بقدر ما يكون ذلك مرضياً وعادلاً، وينبغي عدم إرغام أحد من الناس على التخلي عن دعواه من أجل تقديم العون إلى الأرض المقدسة.

١٣٩[83]: كـان جند المملكة الفـرنسيـة حتى الآن، ومن المفترض استمـرارهم بأن يكونوا، الحقيقـة الدائمـة في استرداد الأرض المقـدسـة والحفـاظ عليهـا، ولايمكن لهذه القـوات البقـاء هناك إذا — لا سمح الرب — ما مـات الملك، مثلما حدث للقـديس لويس، أو أن ينتقل إلى الرب أثناء الزحف، أو أن يعـود إلى الوطن لسبب مـا، ولهذا ارتأيت أنه سيكون من الأفضل، والمرغـوب به، بقـاء الملـك وابنه البكر في الوطن، لامتـلاك الوقت من أجل إدارة المملكة، ولانجـاب الأولاد، ولتربيتهم وتدريبهم، ومن أجل تجهيز النجدات السنوية لإرسالها عبر البحر، لدى توفر الحاجة لذلك، وبسبب أعمال الاستيلاء التي تمت الإشارة إليها من قبل، وكثـرة وتنوع واجبـاتها الادارية، سوف يكون مفيـداً للسيـد الملك ولابنه البقـاء طويلاً في مملكتهما، والموت فيها، بدلاً من الوفـاة في أرض أجنبية، وينبغي عليهما إنجاب أولادهما في المناطق المجاورة لباريس، من أجل أن يلدوا هناك، وهناك يتربـوا، لأن من المعـروف أن تلك المنطقـة واقعـة في ظل مؤثرات أجسـام سماوية أكثـر فـائدة من أي مكان آخـر، ولهذا السبب، حسبما لوحظ في الماضي، إن الرجـال الذين تمّ الحمل بهم هناك وولدوا كذلك هناك هم أفضل تكويناً، واختصاصـاً، وموهبة، من أي من الذين ولدوا في مناطق أخرى.

١٤٠ : وسـوف تكون خطة جيـدة أيضاً، عندمـا تتـوفر الحاجـة، أن يقوم الملك بتـوجيه حملته، بقيادة الجيش من خـلال شخص أخ آخر له،

أو من خلال ابن أصغر له، من أجل أن يتجنب إمكانية تقصير حياته، وذلك في ضوء الحوادث والأسباب التي سرّعت موت أجداده الثلاثة الأواخر(١)، فعلى مثل هذا الأمير عدم تعريض نفسه لمخاطر الصدف والحظوظ، ولا يمكنه القيام بحملة من دون كتلة كبيرة من العساكر، كما لا يمكنه تحريك قواته والزحف بسرعة مثل الآخرين، الذين يعملون أحياناً ليلاً ونهاراً، ثم إننا لا نمتلك في الأرض المقدسة، لا مدناً ولا حصوناً،ولا أماكن أخرى معدّة، حيث يمكن فيها الإتقاء من أشعة الشمس المحرقة، وأشعة المريخ والنجوم الأخرى، والاحتماء من المناخ المتقلب الذي لن يكون موائماً لهم البتة.

١٤١: وقد يعترض إنسان فيقول :«إنك بهذا تعيق تقدم الأرض المقدسة»، وله أجيب قائلاً: لن تكون هناك إعاقة، ما دام السيد الملك سيكون قادراً، وسوف يطلب إرسال جيش كبير مع أخوانه أومع ابنه الثاني، وكأنه هو شخصياً سيذهب، ويمكنه أن يرتب استلام عدة قادة الإمرة أحدهم بعد الآخر، وذلك إذا ما مات أحدهم، أو أصيب بالعجز لسبب ما، فوقتها يمكن لآخر أن يتسلم الإمرة على الفور، وسيطيعه الجميع وكأنه الملك بذاته، ويبدو أنه لن تكون هناك مخاطرة ظاهرة إذا ما ذهب ملك إنكلترا، أو ملك آخر إلى هناك، خاصة الملوك الشيوخ الذين توقفوا إلى أبعد الحدود عن إنجاب الأولاد، وإذا ما مكث السيد ملك فرنسا في الوطن، يمكنه أن يتولى تجهيز فرق العساكر الموعودة، المكونة من كل من الرجّالة والفرسان، وتقديم السلاح أيضاً وفقاً لطلبات وتقديرات قادة جيشه، ومن الصعب على الملك الذي ولد في قصر فخم، ونشأ في مناخ معتدل، أن يتحمل مشاق الحملات،

١ — توفي لويس السابع بالاسهال في سنة ١٢٢٦، أثناء عودته من حملة صليبية ضد الألبينيين Albigensians ، وتوفي لويس التاسع بالطاعون سنة ١٢٧٠، عندما كان محصوراً في معسكره في تونس، وسقط فيليب الثالث نتيجة إصابته بالحمى في سنة ١٢٨٥ أثناء حملته ضد بدرو الثالث صاحب أراغون.

في أراض متغيرة الأنواء، وبذلك يتعرض — من دون حماية كافية — إلى أشعة الشمس المباشرة،وإلى الأجسام الأخرى، ولم أذكر أنني قرأت عن أي أمير قام بحملات في بلدان أجنبية أو نائية غير شارلمان الذي قام بحملات شخصية لمدة مائة عام وأكثر، وبذلك لم يكن له نظير، فبعدما حصل على البراعة في القتال من خلال الخبرة الطويلة، تقدم كثيراً خلال الاثني عشر عاماً التي أمضاها امبراطوراً للامبراطورية الرومانية، وكان ذلك أكثر مما عمله خلال الأربعين سنة المتقدمة، وذلك حسبما تشهد على أفاعيله أكثر من منطقة.

١٤٢ : على الملك أن يقوم بشكل خاص باستعراض الماضي، واستباق الحاضر وتوقعات المستقبل، أي مستقبل أوضاع المملكة، ومعرفة أي السبل يرغب في اختياره، بين جميع السبل النافعة والمتوفرة لديه، من أجل الحملة إلى الأرض المقدسة، ومن أجل مملكته، وذلك وفقاً للخطة التي تم عرضها هنا، وينبغي استكمال هذه الخطة وتعديلها من قبل أكثر مستشاريه وأعيان دولته حكمة وعقلاً، وعليه أن ينتهز الفرصة، التي توفرت بسعادة له وبوساطة الخطة المتقدمة الذكر، وأن يناضل في سبيل سلام ثابت ودائم في جميع أرجاء الكومنولث المسيحي، وذلك وفق الطريقة المقترحة، أو وفق طريقة أخرى أفضل، وعليه القيام — بعد الحصول على موافقة البابا وجميع الأمراء الآخرين — التلطف في السعي الحثيث في أن تكون الارادة الطيبة وسلطة الكومنولث الكاثوليك المطيعين للسيد البابا، موجهة نحو الاسترداد السعيد للأرض المقدسة والحفاظ عليها، وكذلك الاستيلاء على امبراطورية القسطنطينية، وأن يتقرر الوصول إلى الهدف المنشود بكل سرعة تحت قيادة الرب قائد الجيوش كلها.

ملحق

رأي واحد يحث ملك فرنسا للعمل على الاستيلاء على مملكة القدس، وقبرص، من أجل الثاني من أولاده، ومن أجل غزو مملكة مصر.

١: قـال الرسـول:«كل عمل من أعمال المسيح ينبغـي أن يكون من أجل تعليمنا، وكل مـا تقدم فكتب كتب لأجل تعليمنا»[رومـا : ١٥ / ٤، ثيمـوثاوس : ٣ / ١٦، بدمج وتصرف]، ونقرأ في السفـر الأول من أخبار الملوك، أنه عندما طلب شعب إسرائيل — الذي أحبه الرب أكثر من غيره من الشعـوب — من الرب أن يعطيهـم ملكاً، أعطاهم الرب شـاول ليكـون ملكاً عليهم، فتشـامـخ برأسـه وكتفيـه فـوق جميع الشعب،وقد عرف الرب أنه لن يكون مطيعاً له، ولهذا السبب لن يعيش ملكه طويلاً، ويبـدو أن الرب قـد تحرك لإختيـاره من أجل أن يعطينا حجة واضحـة من أجل توجيهنا، أي عندمـا يتوجب اختيـار ملك، قد نقوم نحن الذين نجهل حوادث المستقبل بين الناس، والذين في أذهاننا، التميـز الرائع، والتقوى المفترضـة والكامنة في السمات الحسنة، قد نقـوم باختيـار وتسميـة شخص مماثـل للملكة العظمى للقـاهرة ومصر، التي تدعى مملكة الآشوريين، ونترك الباقـي لإرادة الخالق وترتيبه، فهو الذي يعـرف جميع الأشيـاء من البـداية، ومثل هذا الشخص هو المولى فيليب، الابن الثاني ولادة للمـولى ملك فرنسا، وسيبدو أمراً بعيـداً عن السعادة إذا لم يدع لتسلم واحد من المناصب الشرفية لهذا العالم.

وبما أنه كتب في القانون:«ينبغي أن لا يأخذ إنسان الشرف لنفسه، بل ليأخـذ ذلك الذي يُدعى من قبل الرب، مثلما كان هرون»، وقـد ارتأى واحـد من محبي سـلامـة الكومنولث المسيحي كله، أن فضـائل العـالم المذكورة أعلاه، وفضائل أخرى كثيرة، ينبغي أن توضع قيد الاستخدام، لأنها تسـاعد كثيراً، وهي مـرئية بشكل طبيعي، فهـو قد وضع الصـالح العام قبل سـلامته، ومربحـه، كما سوف يظهر من كتـاباته الكثيرة، فبعد التأمل في هذه القضـايا، وتقليبهـا في ذهنه، قـد رغب في عـرض أفكاره

وتقـديمها، بسبب قلقـه من أجل الملك المذكـور، ومع تجنبـه الأطناب، رغب في الوقت الحاضر أن يكتـب باختصـار، وأن يبرهـن بشكل مقنع ضد أي خصـوم، بأن السيد الملك يمكنه بسهـولة تشريف ابنه الشريف وإغنائـه، وجعله أعلى من جميع الناس الأحياء من دون أن يؤذي أحـداً من الناس، وأن يتجنب بالوقت نفسه اقتراف ذنب عظيم، كما ينبغي أن يفعل في كل نشاطاته.

٢ — ومن المعـروف بشكل جيـد أن مملكة عكـا شـاغـرة منذ وقت طويل، ذلك أن كـونت دي إيو هو المتـوقع، وقـد أهمل هذا الكونت وأجـداده قد أهملوا الآن ومنذ وقـت طويل حكم هذه المملكة، ولذلك السبب يمكن القـول بأنهم فقـدوا الحق في مـواردها، لكن لتجنب أي شك، يمكن للملك أن يسأل الكونت، الذي لن يخيبـه، بل إنه سيتنازل لابن الملك عن أي حق من حقـوقه، إذا كان لديه أية حقـوق، وهو أمر يعتقد بعـدم وجوده، ولدى اكتمال التخلي،يمكن للملك أن يتـدبر مسح ابنه وتتويجه ملكاً من قبل البابا، ومن الممكن أن يتنازل له سراً عن ملك عكا، والقاهرة، ومصر وآشور، مـا لم يكن السلطان على استعداد لإعادة الأرض المقدسة إلى الكنيسة الرومانية والتنازل عنها بشكل سلمي، وأن يشمل التنـازل التخلي عن الإشراف القضـائي على سكانها، مـع ثمن وارداتها ومنتجاتها التي حصل عليها بشكل غير عادل.

ولدى الفـراغ من هذه الترتيبـات، أو عندما يبـدو أنها سـوف تترتب بشكل جيد، على السيـد الملك أن يسعى، لابل أن يبذل غـاية جهده من أجل عقـد مجمع يضم الأمـراء الكاثوليك والأسـاقفـة، من أجل العمل على استرداد الأرض المقـدسة، والمحـافظة عليهـا، وإيجاد حكومة جيـدة لها، ولاتخاذ قـرار حول هذه الأمـور، ولوضعـه قيد التنفيـذ باتخاذ جميع الاجـراءات اللازمـة لذلك، وينبغـي تبني هذه الإجـراءات، ليس فقط حسبما وضعت في الرسـالة إلى البـابا، والتي أرسلت إلى الملك في شينون

أثناء الاحتفال الأخير بصعود الرب، بل يبقى من الأفضل بكثير ما يراه السيد الملك أنسب للتبني بناء على نصيحة الرجال الحكماء والمجربين.

٣ : بالاضافة إلى المقترحات الواردة في الرسالة المشار إليها، يبدومن الموائم، في ضوء الادعاء الذي يدعيه ملك صقلية بالنسبة لمملكة القدس بحجة شرائه حقوق الأميرة مريم المقدسية، تأمين تعويض كبير يخصص له من قبل المجلس، مقابل ادعائه ونفقاته، وينبغي أن يكون هذا التعويض مناسباً مع أنه قد قيل، بأن بارونات المملكة يرون بأن بيعاً من هذا القبيل كان غير قانوني، وأن الحق بالمملكة يعود إلى ملك قبرص.

ومن أجل الصالح العام للعالم كله، من المفيد دمج طائفة الاسبتارية بالطوائف الأخرى التي وجدت لمصلحة الأرض المقدسة،في طائفة واحدة، باستثناء الداوية ، ومن المتوجب تأجير جميع ممتلكات الداوية في الأرض المقدسة وقبرص إلى المستأجرالذي يدفع أكثر، مقابل أجر دائم، وينبغي إقناع ملك قبرص بالانضمام إلى الطائفة المقترحة، وأن يتخلى لها عن جميع ممتلكاته، ولاسيما ادعائه — إذا كان له أي ادعاء — بالحق في مملكة القدس، وينبغي إحلال طائفة رهبان عسكرية ملكية محل الطوائف المذكورة، وأن يوضع ملك قبرص في القيادة، حسبما ورد في الرسالة المشار إليها، وأن تؤول القيادة من بعده إلى أي ملك كاثوليكي للقدس، هو من أفراد الطائفة، ويتوجب على مثل هذا الملك — بناء على توجيه من البابا ومن ملك فرنسا — أن يستخدم جميع قواته من أجل تقديم العون إلى ملكي القاهرة، وعكا والملوك الكاثوليك الآخرين، في الحروب ضد جميع الكفار والمنشقين، وعليه أن يقدم سنوياً حساباً حول المبالغ المتبقية، أي أية مبالغ زائدة عن نفقات الطائفة الملكية، وبذلك لن يثقل رهبان الطائفة — مثل يهوذا المجنون — الذين لديهم أكياس مال، وكاهل الطائفة، وكذلك من أجل تجنب إلحاق الأذى بكومنولث المسيحيين، والملوك المذكورين، وأيضاً عدم إثقال

الممتلكات الصحيحة المكرسة من أجل حفظ الكومنولث وبقائه.

٤ : وأمـا بشأن الممتلكات التي قيل بأنها عـائـدة إلى الداوية، أي بضـائعهم القابلة للتحـرك، ودخـولهم، ومستحقاتهم بالنسبـة للسنوات الخمس أو الست المقبلة، فمن الممكن أيضاً تكريسها لمساعدة الطائفة الجديدة، ومن الممكن مضايقة السلطان بوساطة مائة غليون أو أكثر مع قـوة مناسبـة من الجنود المجهـزين بشكل جيـد، وأيضـاً حماية البحـر، ويمكن أيضاً بذلك مضـايقة المناطق القـريبة من البحـر وإفقارها، وهي المناطق التي قيل بأنها تمتد ما يساوي رحلة ثلاثين يوماً، وبهذا العمل لن يتمكن السلطان من مقاومـة الحملة العامـة التي سوف تأتي، وفي الوقت نفسـه، بما أن الأعداء سـوف يكونون من دون المسـاعـدات التي تأتيهم عبر البحـر، ومن دون البضـائع التي اعتادوا على تلقيهـا بوسـاطة الماء، وقتهـا سيكـون بالإمكان — بعـون الرب — هزيمتهـم بكل يسر وقهرهم ، ويقول الفـرسان المحنكين والعقلاء من الذين ولدوا في تلك المناطق، والـذين هم على دراية بـأحـوال القـاهرة ومصر، وسكانها، سيقولون بعد تفحص دقيق لهذه الخطة، بأنها خطة ممكنة.

٥ : ويبـدو مفيـداً — مع نصيحـة المجمع — القيـام بتـدمير طائفـة الداوية كليـاً، ذلك أن محصـلات العدالة تقضي بحلهـا تمامـاً، وتكريس ممتلكاتها لصالح الحملة العامة حسبما ورد أعلاه.

٦ : يبـدو أنها مسألة صعبـة، إحداث تـرتيبات دائمـة حـول تملكات أراضي من هذا النوع بعـد الحملة، مع تجنب النزاعـات والخلافـات بين الأمراء المحليين، ويبدو من المفيد بالنسبة للوقت الحالي، بعد تقرير قيمة مثل هذه المناطق القيام بعـرضها للايجار بشكل دائم، وينبغي إيداع ريع الايجار الذي يأتي من هذه الممتلكـات في أمـاكن خـاصـة، فعندمـا تهدد حـالة طوارىء ملوك مصر، وعكا، والقـدس، أوأي ملوك كـاثوليك آخـرين خـاضعين بتقـوى للكنيسـة الرومانيـة، ينبغي اختيـار عسـاكـر

مناسبين في كل مملكة، ومقاطعة أو إقليم، ويتوجب تزويد هؤلاء الجند من الأموال المذكورة أعلاه بأسلحة جيدة، وبوسائط نقل تتوافق مع رتبهم، وهم في حالة ابتهاج مع الأبواق ومع عتاد مناسب، إرسالهم إلى الأرض المقدسة، أو أية مناطق أخرى عبر البحار، مع تمويل كاف لرحلتهم، وبالنسبة لممتلكات العساكر الذين يموتون أثناء الزحف أو خلال حملة عسكرية، ينبغي أن تكرس كاملة إلى الأحياء، وبذلك يمكن الاستمرار في تحويلها لتستخدم لصالح الحملة.

وسوف يجمع الملوك الشرقيون بوساطة هذه الخطة — إذا ما عاشوا بسلام لسنوات طويلة، ثروات كبيرة جداً على هذا الجانب من البحر، في قبرص وفي أرض الميعاد، فإذا ما قامت حالة طوارىء، وقتها لن يعانوا من قلة المال، بل على العكس سوف يحصلون من كل منطقة للداوية فيها ممتلكات، على نجدات تتكون من حشود كبيرة من المقاتلين الشجعان، ومن كميات هائلة من السلاح، وينبغي أيضاً أن يتم الاتفاق بين الملوك المعينين حديثاً بمساعدة أحدهم الآخر بعدد محدد من المحاربين، وبحصة من أساطيل كل واحد منهم، وعليهم أيضاً إعداد أماكن على طول السواحل حيث تتوفر أخشاب رائعة، وحيث هي ليست متملكة من قبل أحد، وتخصيص هذه الأماكن لبناء الغلايين ومراكب التحميل، ليجلب بها الحديد والمنتجات الوافرة الأخرى من الشمال، والتي هي نادرة وغالية الأسعار في الجنوب، وعلى هذا يمكن جلب هذه المنتجات من هناك، وكذلك الأسلحة غير الجاهزة، لكن من السهل ابتياعها من هناك، مع أشياء أخرى مناسبة للعيش وكذلك للقتال بكفاية، وعلى هذه المراكب حمل العساكر في أوقات السلام، خشية أن يبقوا كسالى، ويمكنها أن تحمل معها في طريق العودة توابل عطرية، وحاجيات أخرى مفيدة لنا.

٧ : وإذا ما اعترض معترض وقال بأنه سوف يكون من الصعب

مهاجمة القاهرة ومصر، سيجيبه الرجال الحكماء والمجربين بأن ذلك لن يكون صعباً، بما أن الرجال الذين ولدوا في تلك البلاد متخلفين في استخدام السلاح، ومشهورون بأنهم بلا شجاعة، وسهل فقط وصول الجيش إلى تلك البلاد بوساطة البحر، فمصر التي تمتد مسافة عشرين يوماً سفراً، والتي عرضها على محاذاة النيل أربع مراحل أو أكثر في بعض الأماكن، هي مطوقة بصحارى غير مسكونة، ولا يمكن اجتيازها، إلا باتجاه أرض الميعاد، وآنذاك سيكون ذلك وسط مصاعب كبيرة ومخاطرة، لأنه لمدة سفر ستة أيام هناك لا يمكن الحصول على أية أطعمة باستثناء الماء، ولهذا إنه من الأفضل مهاجمة تلك البلاد بوساطة البحر وذلك بجيش كاف، وذلك بعد أن يكون قد جرى أولاً توجيه جيش كبير نحو عكا، وبذلك يصبح من السهل الاستيلاء على بلاد القاهرة ومصر، وذلك عندما يجري تجريدها من العساكر، وما أن يتم الاستيلاء عليها حتى ستكون ذات فائدة عظيمة إلى السيد الملك، أكثر منها لمملكة فرنسا، بما أن جميع سكان الأرياف هم عبيد، والبلاد خصبة جداً.

٨ : ولا يحتاج السيد الملك إلى التردد بإصدار الأمر بمهاجمة هذه البلاد، وذلك خشية منه أنه لن يرى ابنه ثانية، ذلك أن هذا الولد يستطيع أن يعود إلى أرض أبيه، حيث يترك قائد الجيش هناك، لأن تلك البلاد سيكون من السهل الدفاع عنها، لاسيما بعدما يكون قد جرى إخضاع أرض الميعاد، واستولى عليها الكاثوليك.

٩ : وإذا ما تم الاتفاق على ملاحظات السلام الدائم، حسبما جرى اقتراحها في الرسالة المشار إليها، سوف يكون مناسباً للسيد الملك البقاء في مملكته، ومع أنه قد يكون قد حمل الصليب، فبإمكانه أن يرسل إلى هناك أخاه اللورد لويس، كبديل عنه، مع جيش كبير، ومعه ابنه المتقدم الذكر(فيليب الذي صار فيليب الخامس، ١٣١٦ — ١٣٢٢)، وسيكون

هذا المنهج مسوغاً لأسباب كثيرة، فـالسيد الملك الذي تزوج ثانية، عليه أن يمتلك الـوقت، بـأسرع وقت ممكـن، من أجـل إنجـــاب الأولاد، وتربيتهم، وتدريبهم، وعليه البقـاء في مملكته من أجل إدارتها، مثل ملك بلاد التتـار، الذي لم يغـادر بلاده قط، بل عين ملكاً من الجيش، وأعطاه البـلاد التي عليـه احتلالها، ويمكن للسيد الملك بهذه الطريقـة أن يزود أخاه وابنه بـالعساكر، لترسل إليهما بين وقـت وآخر، وذلك حسبما يجد ذلك ضرورياً.

وبسبب خطر الموت، والمرض، والفوضى في إدارة مملكته، ارتؤي أنه نافع أكثر، وأكثـر سلامة إلى الملـك، أن يبعث، ولايذهب شخصياً، وفي تلك الحالة من الضروري جـداً البقاء في الوطن، وذلك تبعـاً للفيلسوف الذي قال:«نحـن نحصل على الحكمة في هذا العـالم من خلال الخبرة في الشـؤون، وتحتـاج الخبرة إلى وقت طويل»، ولهذا سـوف يكون خطراً جـداً بالنسبة لمملكـة فرنسـا — مثل أي مملكة أخـرى — أن تحكم من قبل رجل شـاب، ويتوافق هذا مع قـول آخر للفيلسـوف نفسه:«مـا من أحد يختار الشباب قادة، لأنه لا يعدهم حكماء»، وعلى الأبوين الملكيين، اللذان يحبـان أولادهما الشبـاب، أن يسعيـا لإطالة عمـريهما، خشيـة أن يتركا إلى الفتيان مخاطر واجب الحكم.

وعلى الملك مـا أن يجد الوقت، أن يقـوم على الفـور بقـراءة الرسـالة المشار إليها، وأن يأمر بتصحيحها، وبتغييرها، وإتمامها من قبل واحد أو أكثـر من اللاهوتيين المتفـوقين في ميـادين المعرفـة، ممن لا يتطلعـون إلى مناصب الأسقفيـة، ويؤيد هذا القـانون الأوغسطيني، ذلك أن الشهـوة تفسد وتشوه الحكم المنطقي، وإذا ما جرى الأخذ بالمقترحات الواردة في تلك الرسـالة، سيكون من الواضح تماماً أن المقترحـات المتقدمـة يمكن بسهولة وسرعة وضعها مـوضع التنفيذ، وينبغي أن تكون ذات ديمومة، حتى يكون بإمكـان السيـد الملك، بهذه الطريقـة، تأمين الإمـدادات إلى

الأرض المقدسة من خلال ميناء صغير وبنفقة ضئيلة، وما أن يجري تأمين الإمدادات هكذا بشكل جيد، وبأن تدوم — بعون الرب — أبداً دائماً، سيكون ذلك بالنسبة إلى المستقبل، له فائدة أعظم لجميع بني البشر، روحياً ودنيوياً، ولكي يعيشوا بسلام ووئام، أعظم من كل ما قرأنا حوله، أو جرى تنفيذه، أو تصوره منذ بداية الدنيا، ولسوف تدوم ذكرى ذلك الأمير الذي أثار، ونفذ مثل هذا المشروع الواسع جداً، وستبقى إلى الأبد من خلال صلوات المؤمنين.

١٠ : وبات من السهولة بمكان أن يرى كل إنسان أعطي تقديراً للأحداث الممكنة في المستقبل، أن التخلص من الممتلكات التي منحت، إلى الداوية لهدف لم يتحقق، أمراً مسوغاً، ولهذا السبب إنها منحة يتوجب إبطالها، ولا يجوز تحويل هذه المنحة إلى استخدامات مدنية، بل ينبغي أن تستخدم بدون تردد في سبيل غرضها الأصيل، وسيكون هذا له منافعه إلى الأساقفة، وإلى جميع الناس عن طريق تعويض النفقات التي تحملوها لدى قيامهم بتنفيذ مشروع إزالة الطائفة ومعاقبة أفرادها، وإن فحصاً للعشور وللمساعدات الخيرية، مع القيام بالتقدير المعتاد للقيام بحملة صليبية، يري أن مشروع معونة الأرض المقدسة سيمتلك وقتها الوسائل لدفع المرتبات، أوتأمين ما هو ضروري للعساكر، ولن يحتاج الأمراء الكاثوليك من بلدان نائية إلى الارتحال إلى هناك، وبالتالي إهمال إدارة أراضيهم، وتقصير حيواتهم، وذلك كما يحدثنا التاريخ، وكما وقع مراراً، وقد تحملت مملكة فرنسا نفقات هائلة على مثل هذه الحملات، التي أنجزت قليلاً، لأن أعمال احتلالاتهم الجزئية لم تدم، هذا وإن المبالغ التي سوف تجمع من وقت إلى وقت، من أجل الأرض المقدسة، في ظل الخطة المقترحة، سوف تكون ذات فائدة إلى الأمراء المحليين، فإذا ما كانوا بحاجة إلى المال، عندما تتفجر الحرب بشكل مفاجيء، يمكنهم الاعتماد على المبالغ المجموعة والسحب منها، وعليهم

أن يكونوا متيقظين أنـه عندمـا يطلب منهم إعـادة الـدفع، يدفعـون، وسيكون إرسـال الجند إلى جيرانهم من دون تكاليـف، وستكون هناك مسـاحات تفـريج ومجالات للشبـاب الذين لم يجدوا مجالاً للقيام بحيـاة شريفة في البلدان التي ولدوا فيها.

وسيكون من الممكن بسهولة، بوساطة الطريقة المقترحة، تحويل أفراد الشعب المصري إلى العقيدة الكاثوليكية، وبـذلك يتحررون من العبودية ويرتقـون إلى الحرية، فمن خلال نشـاط يوسف وبصيرته — الذي جمع الحبوب خلال سبع سنوات خصبة — كان فـرعون قادراً بوساطة خزنه للحبـوب، أن يضع الآباء والأبناء على أرضية متسـاوية، ومن ثم أنزلهم إلى مـرتبـة العبيـد، ولهذا السبب يتسلم الناس كميـة ضئيلة فقط من الأطعمـة والألبسـة، من بين الكميـات الـوافـرة لمنتجـات لتلك البـلاد الخصبـة، وقال الـذين كانوا هنـاك بأن السلطان يتسلم من الشعب، كل سنة أكثر من ستمائـة ألف دينار ذهبي، كل دينار منها يساوي قيمـة ستة فلورينات.

وبعدمـا يجري الاستيلاء على أرض الميعاد من قبـل الكاثوليك، وبعد حكمها بكفاءة من البديهي إمكانية حراسة مصر بعدد قليل من الرجال، وبنفقات معتدلة في غياب صاحبهـا، لأن العدو سوف يكون قادراً فقط على دخول البلاد بوسـاطة البحر قرب القاهرة، نظـراً لحصانة القلاع في الصحراء، وحسبما جرى التبيـان في الرسالة، عندما يجري إقـامة السلام بين الأمـراء الكاثوليك، ويتم تـأمين مسـاعـدات متبـادلة ونجـدات في وقتهـا، ما من أحـد سوف يتجـرأ على شن أية حـرب ضدهم، وإذا مـا فعل أحد ذلك، سوف يحاصر، ويرغم على الفرار بوساطة عدد كبير من الحمـلات من أمـاكن مجاورة له، وسـوف يحصل ملك مصر على العـون من طائفة الرهبـان الملكيين ومن الأمراء الآخرين، ولسوف تتـدفق عليه حشود من العسـاكر الجبارة من أجل الحصول على الثـروة، لأنه بانعدام

الحروب في الوطن سوف يجلسون بلاعمل في أراضيهم المحلية، غير قادرين على العيش بشرف، بدون فقر، وسوف يتمكن — بعون الرب — من أن يضع تحت إشرافه الشعوب الشرقية، حتى الذين يعيشون فيما وراء البحر المتوسط حتى الغرب، وأن يجذبهم إلى العقيدة المسيحية، هذا وإن إيجاد العلماء الذين تقدم ذكرهم في الرسالة المتقدمة، سوف يكون له فائدة كبيرة في هذا المجال.

وبسبب التأثير الطيب للوئام السماوي، فإن الذين حمل بهم، وولدوا، ونشأوا في مملكة فرنسا، خاصة في أحواز باريس، سيكونون بشكل طبيعي متفوقين بالسمات، وبالشجاعة، وبالقوة، وبالأخلاق، وبالجمال، على الذين ولدوا في بلدان أخرى، وعلى هذا ينبغي بقاء ابن ملك فرنسا — الموهوب طبيعياً والمتفوق على جميع الآخرين — في فرنسا بشكل دائم، حتى يكون، قبل مماته، قد ترك عدداً كبيراً من الأولاد، من أجل تنشئتهم وتدريبهم هناك، وقبل أن يموتوا يكونوا أيضاً بدورهم قد فعلوا مثل متقدميهم، وبهذه الطريقة من الممكن حمل، وولادة، وتنشئة، وتعليم ملكي عكا ومصر، وامبراطور القسطنطينية — إذا توفرت الرغبة بوجود خلفاء للامبراطور الحالي — في فرنسا، ولسوف يحظون بشكل دائم بحصة من الأجواء الرائعة لملك فرنسا، ومن شجاعة وجمال السكان المحليين، ولسوف يحبون ملك فرنسا، وأميرها الرئيسي، وأولاده، وجميع الفرنسيين من بارونات وشعب، ولسوف يبذلون أقصى جهودهم لتأمين البضائع الشرقية الثمينة وتجهيز المملكة كلها بها، ولهذا قيل يمكن للابن أن يعود إلى السيد الأب، دون التعرض لمزيد من المخاطر، ويمكن لحفيد أن يخلف أباه في قيادة الجيش، وبناء عليه سوف تحظى شعوب الشرق بأن يكون حاكمها في ريعان شبابه وجماله الطبيعي، وسيرغبون فوق كل شيء برؤيته، ولسوف يخافون منه عندما يرون الشاب المتألق يقوم بحملة شجاعة مثل رجل بالغ تماماً.

١١ : وإذا ما قال إنسان :« ربما سيرفض ملك قبرص الأخذ بالمقترحات المتقدمة أعلاه»، يمكن إجابته بأن هذا مستبعد تماماً، بما أن ليس لديه لا زوجة ولا ولد،وهو يعيش مثل راهب في بيته، وقد اعتاد على ممارسة حياة التأمل،وأخوه وخليفته المتوقع إذا ما مات ملفوظ وليس له وصية، لأنه سرقه، ونهب الثروات التي جمعها ذلك الملك من أجل استرداد الأرض المقدسة، وقد بذل دوماً أقصى جهوده من أجل غزو تلك المملكة ومن أجل انتزاعها وسرقتها، جاعلاً بذلك نفسه آثماً، وغير مؤهل شرعياً لخلافة أخيه، فقد تآمر مراراً من أجل إماتة ذلك الملك، وحاول أن يتدبر اغتياله، وبناء عليه سوف يكون مفيداً أن يتم الاتصال بملك قبرص هذا، بسرعة وبسرية لصالح السيد البابا، بوساطة رجل عاقل مع وكيل الملك الموجود داخل هيئة الكرادلة الرومان، الذي اسمه الفارس بومندوس Bomundus الذي يدعى بونين Bonin ، وهكذا من الممكن صنع كل شيء باتفاق عام، مع تجنب كامل للخلاف، وبعد دخول الملك في الطائفة والتخلي عن ملكه، سيكون مفيداً منح أخو الملك منطقة جيدة في أرض الميعاد أو في مكان آخر، حتى يبقى هادئاً، وإذا ما رفض ملك قبرص الدخول في هذا المشروع، يمكن وقتها لملك صقلية أن يمارس حقه، أو أن يحوّله إلى إنسان آخر، أو أن يقوم كونت أوف بريين بالسعي وراء حقه الذي قيل بأنه يمتلكه في مملكة قبرص، إذا كان ما يزال موجوداً، ففي ذاكرة الناس منذ وقت طويل أن مملكة قبرص حق لهذا الكونت لو أنه ذهب إلى هناك، وبعد الاستيلاء على مملكة القدس من قبل ملكها والكاثوليك الآخرين — إن شاء الرب — وبمعونة ملك صقلية، يمكن لملك صقلية هذا، بالإضافة لنيله ثمن مملكة القدس، أن ينال وعداً بنيل مملكة تونس، القائمة على مقربة كبيرة من صقلية، إلى حد أنه لا بد لواحد من هذين البلدين من الاستيلاء على الآخر.

وبعد وضوح ردة وكفر الداوية، الأمر الذي كان ظاهراً منذ تأسيس هذه الطائفة، ولهذا يبدو أنه سيكون عملاً مشرفاً جداً، وله فوائد دائمة وعظيمة لمملكة فرنسا ولملكها — الذي برهن بنفسه وبأعماله أنه أكثر المسيحيين دعماً للكنيسة — أن يقوم بشكل شرعي وقانوني بإزالة الهرطقة الفاسقة للبابا بونيفيس، ولايمكن لخليفة بونيفيس أن يعلن بوضوح بأن بونيفيس هذا كان مهرطقاً، إلاّ من خلال مجمع عام، وبناء على نصيحة ذلك المجلس وموافقته، ويبدو أن هذا الإجراء لا يمكن اتخاذه قانونياً بطريقة أخرى، لذلك يبدومن المناسب عقد مجمع لهذه الغاية، وسيكون في الوقت نفسه مفيداً إعدادا الشهود، ومواد الشكوى التي ينبغي برهنتها، لأنه بذلك عندما يكون كل شيء قد جرى تحضيره بشكل جيد وبات جاهزاً، من الممكن التوصل إلى محصلة بكل سرعة، وسيغدو مثل هذا الظلم مرعوباً من قبل الجميع، أما المحرض على تدمير الهرطقة فسيكون محموداً في كل مكان، ومن قبل كل إنسان، ويمكن بسهولة أكبر تحقيق مطالبه، مهما كانت نوعية هذه المطالب.

وقد قيل أنه بينما كان بونيفيس المذكور يلفظ أنفاسه، كان هناك أربعة رهبان يتولون رعايته، وقد قال أحدهم له على مسمع من الآخرين:«أبانا المقدس، أودع روحك في أيدي العذراء مريم المباركة»، فأجابه:«الزم الصمت أيها الشقي، نحن لا نثق بتلك الأتان ولابفلوها».

ويحكى أنه تلقى خمسين ألف فلورين حتى يلزم الصمت تجاه خطيئة الداوية، التي كان على دراية بها، ولذلك ينبغي قبل أن يموت الداوية، أن يجري إحضارهم واتخاذهم شهود عيان على ذلك، خشية أن يختفي البرهان معهم، أي مع الذين على دراية بهذه المسألة وبمسائل أخرى.

ولأن البابا[كليمنت الخامس] يقترح الانسحاب من السيد الملك، لعله يرضي ذلك السيد الملك أن يجعل نفسه على الفور عارفاً بالحقائق المقدمة هنا، وهكذا إذا ما رأى مناسباً يمكنه أن يتحاور مع البابا

-٣٤٠٧-

ويتشاور حول هذه القضـايا، وليكن ذلك بينهما على انفراد، وعلى شكل معلن، تماشيــاً مع كلمــة ربنا يســوع الـذي قـال:«سيروا مــا دام لكم النور»[يوحنا : ١٢ / ٣٥].

جريدة المصادر المعتمدة

-٢٤١١-

List of Works Cited

I. THE WRITINGS OF PIERRE DUBOIS

[1300] *Summaria brevis et compendiosa doctrina felicis expedicionis et abreviacionis guerrarum ac litium regni Francorum.*

From the Cod. Lat. No. 6222C, fols. 1–34, in the Bibliothèque nationale. Edited by Hellmut Kämpf. Leipzig and Berlin: Teubner, 1936. 'Quellen zur Geistesgeschichte des Mittelalters und der Renaissance,' ed. W. Goetz, Vol. IV.

Summary: The first part deals with the art of war, to which the author's attention was attracted by the disastrous expedition of Philip III against Aragon in 1285. After suggesting improved war tactics, he points out the advantages of his new method to the king and people of France. By following the precedent of Charlemagne the king might make himself master of Italy, assume the temporal power now wielded by the pope, and then go on to make himself master of Germany, eastern Europe, and the Greek Empire.

The second and longer part is devoted to a discussion of various reforms. Ecclesiastical infringements on civil jurisdiction should be halted; specific suggestions are made for accomplishing this. Considerable space is devoted to improved and shorter methods of court procedure. These reforms may readily be effected by royal decree, models for which are included. Ecclesiastics are scolded for their hypocrisy; their lives are in sharp contrast to their moral preaching. If the king will only enforce the suggested reforms, the French people will enjoy peace and prosperity.

[1302] *Raciones inconvincibiles.* Lost.

Known only through a brief summary in chapter 111 of the *De recuperatione.* Written at Paris 'on the Sabbath day preceding the Sunday of the publication of the papal iniquity [the bull *Ausculta fili*],'[1] and entrusted to Richard Leneveu, bishop of Béziers, for transmission to the king.

Summary: The Supreme Judge, because of the wickedness and avarice of the Romans, will withdraw the papacy from them and grant it to a man of high character who will not emulate his predecessor (Boniface VIII) by snatching at others' liberties. For similar disobedience to divine precepts King Saul was punished by the loss of his kingdom.

[1] The bull *Ausculta fili* was dated December 5, 1301, but did not reach France for formal publication there until 1302. Its bearer, the archdeacon of Narbonne, sought to present it formally to Philip IV on February 10, but was interrupted. From this chronology of events it seems fair to assign the composition of the tract to 1302.

The title appears in the manuscript, but in another ink and another hand. Lizerand entitled it *Populi Franciae ad regem supplicatio*.[3]

Summary: A difference has arisen between the king and the pope in the matter of punishing the Templars. Certain laws have been cited in support of the papal position, but these laws apply only to those who with some show of reason are separated from the Roman Church, such as the Greeks, and not to manifest heretics. Moses followed the proper procedure when, without the consent of the high priest Aaron, he put to death twenty-two thousand for worshiping the golden calf. The king should follow his example. The Templars are all homicides, guilty of consorting with apostates and assassins; by apostolic example all should be punished so that the punishment of one may rouse fear in others. Moses was a lawgiver, not a priest, for a priest would not have put the people to death. The Lord forbade David to build the temple, because he was a man of blood. One should not listen to those who pervert Scripture for their argument; one should rather apply to the most Christian king the beatitude, 'Blessed are they that keep judgment and do justice at all times' (Ps. 105:3).

[1308] [A revised version of the *De recuperatione*.] Lost.

It was addressed to the pope and forwarded to Philip IV during his stay at Chinon. Dubois referred to it briefly in chapters 2 and 9 in the document translated as an Appendix in the present volume, and also in the *Pro facto Terre Sancte*.

Summary: Repeats the suggestions in the *De recuperatione* for the recovery and maintenance of the Holy Land, the establishment of peace among Christians, and the foundation of schools for the training of prospective colonists. The only new point is the recommendation for the unification of the military orders under the headship of the king of Cyprus.

[1308] [*Pro facto Terre Sancte*].

From the MS Lat. 10919, fol. 109*v*, in the Bibliothèque nationale. Edited

[3] There is some question about the tracts against the Templars. Langlois, in his Introduction, p. xii, refers to *three* tracts of 1308 against the Templars, citing Boutaric's article in *Notices et extraits*, XX, 175–81, as his source. But these pages contain only *two* tracts, the *Remontrance* and the *De facto Templariorum*. *Pro facto Terre Sancte* (pp. 186–89, Document No. XXX), the third tract which Boutaric attributed directly to Dubois, makes no mention of the Templars. These three tracts are found in the MS Lat. 10919. Boutaric also edited another tract of 1308 against the Templars (pp. 182–86, Document No. XXIX), which he entitled *Quaedam proposita pape a rege super facto Templariorum*. This is not found in the MS Lat. 10919, but in a manuscript which Boutaric identified as Or. Arch. de l'emp. J 413, No. 34. It purports to be a letter addressed by Philip IV to the pope, but is obviously not by Philip, for it speaks of the king in the third person, and does not close with the date and provenance as a genuine letter would. Renan (*Histoire littéraire*, XXVI, 483 f.) ascribed it to Dubois; Boutaric is noncommittal. In my opinion it is not by Dubois, despite the fact that it includes Dubois' favorite reference to *Leviathan testiculi*. The style is terse and direct, well organized, unlike the diffuse style characteristic of Dubois. I have therefore concluded to reject it.

by Boutaric in *Notices et extraits*, XX (1862), Part II, 186–89, Document No. XXX.

Written during the interregnum between the death of Emperor Albert I (May 1, 1308) and the election of Henry VII (October 28, 1308).

Summary: The king of France, with the support of the pope and the cardinals, might readily gain the Empire for himself and his heirs. The pope could suspend the power of the electors; they should be punished for having elected emperors hostile to the Church, just as the imperium was taken from Constantinople and given to Charlemagne. The archbishops can be coerced by the pope, who has the right to withdraw the elective power from the other electors; their goodwill may be secured by the grant of lands and money from the tithes of German churches. The electors would probably not refuse such terms; the new Emperor could recover any losses from Lombardy, Genoa, and Venice. This would give him a land route to the Holy Land, necessary because of the shipping shortage. The establishment of universal peace through the means suggested elsewhere by the author would make it possible for the French king to govern both France and the Empire. He ought also to take over the papal patrimony, thereby gaining suzerainty over the pope's vassals. The proud Italians would be humbled. Germany, teeming with people, would populate the Holy Land and Greece with loyal citizens. If conquered, the Holy Land can be maintained only by a large influx of people; for such an influx the land route through Germany, Hungary, and Greece is necessary.

[1308] [*Oppinio cujusdam suadentis regi Franciae ut regnum Jerosolimitanum et Cipri acquireret pro altero filiorum suorum, ac de invasione Egipti.*]

From the MS Lat. 10919, fols 82*r* to 86*r*, in the Bibliothèque nationale. First published, with an omission, by Baluze, *Vitae paparum Avenionensium* (Paris, 1693), II, 186–95, from which Langlois republished it, with further omissions, as an Appendix to the *De recuperatione*. It is given complete in Mollat's edition of Baluze (Paris, 1914–27), III, 154–62.

The title is in a fifteenth-century hand and is therefore not contemporaneous with the manuscript. The tract is translated in its complete form as an Appendix to the present volume.

[1313] *De torneamentis et justis.*

From the MS Reg. Lat. 1642, fols. 41*v* to 42*v*, in the Vatican Library. Analyzed and edited in part by C. V. Langlois, 'Un Mémoire inédit de Pierre Du Bois, 1313: *De torneamentis et justis*,' *Revue historique*, XLI (1889), 84–91.

Summary: A bull has recently been issued prohibiting tournaments under pain of excommunication. The royal family and the nobility ask for its temporary suspension. If not suspended, grave scandal will arise, for the French knights will ignore the prohibition and others will follow their example. The projected crusade will fail if led by men under

Works Cited

the ban. Of two evils, choose the lesser. Tournaments should be permitted, just as excessive eating is permitted on the approach of Lent. Ecclesiastical discipline should aim to chastise and heal rather than to precipitate into error; those who have concubines are not required to abjure them lest they may, at the devil's instigation, return to fornication and thus become perjurers. The Church should make exceptions; kings are not to be treated like other men. If an unbearable burden is placed on a youth's shoulders, he either drops it or breaks under the strain. The prayers of a king should be listened to, for the wrath of a king is the messenger of death. Tournaments are not *per se* illicit, and the prohibition is not founded on canon law. Tournaments prepare the knights to fight the infidel; why not reserve the privilege for prospective crusaders? Let the penalties remain in force as a caution against killing men or injuring souls. The pope need not fear to change his mind; God changed much in the New Testament which He had commanded in the Old. Even St. Paul changed his mind on circumcision of the Jews.

II. WORKS ON DUBOIS AND HIS TIMES

Adamson, John William. 'The Illiterate Anglo-Saxon' and Other Essays on Education, Medieval and Modern. New York: Macmillan, 1947.
A sprightly summary of Dubois' ideas, pp. 77–91.

Aegidius Romanus. De ecclesiastica potestate. Ed. Richard Scholz. Weimar: H. Böhlaus Nachfolger, 1929.

—— De regimine principum. Ed. Jerome Samartanius. Rome: Bartholomaeus Zannettus, 1607.
A thirteenth-century French version has been edited by Samuel P. Molenaer (New York and London: Macmillan, 1899).

Alexander de Villa-Dei. Das *Doctrinale* des Alexander de Villa-Dei. Kritisch-exegetische Ausgabe, mit Einleitung, Verzeichnis der Handschriften und Drucke nebst Registern. Ed. Dietrich Reichling. Berlin: Hofmann, 1893. 'Monumenta Germaniae paedagogica,' Vol. XII.
One of the textbooks recommended by Dubois.

Andrieu-Guitrancourt, Pierre. Eudes Rigaud et la vie de l'église au XIIIe siècle, d'après le *Registrum visitationum*. Paris: Librairie du Recueil Sirey, 1938.

Atiya, Aziz S. The Crusade in the Later Middle Ages. London: Methuen, 1938.
A significant contribution to the history of the later crusades and of the theorists who proposed new crusades.

Bacon, Roger. Opera quaedam hactenus inedita. Ed. John S. Brewer. London: Longman, Green, Longman & Roberts, 1859. 'Rolls Series,' No. 15.
Includes the *Opus tertium*, the *Opus minus*, and the *Compendium studii philosophiae*.

Works Cited

—— The *Opus majus* of Roger Bacon. Ed. John H. Bridges. New ed. 3 vols. London: Williams & Norgate, 1900.
Vol. III of the new edition contains a revised text of the first three parts as they appeared in the Oxford edition of 1897, with corrections, emendations, and additional notes. The English translation by Robert Belle Burke (2 vols.; Philadelphia: University of Pennsylvania Press; London: Humphrey Milford, Oxford University Press, 1928) is based on the revised text. My citations are to the edition of 1900 and to Burke's translation.

Baeumker, Clemens: *see* Siger de Brabant.

Baluze, Etienne. Vitae paparum Avenionensium; hoc est, Historia pontificum Romanorum qui in Gallia sederunt ab anno Christi MCCCV usque ad annum MCCCXCIV. Ed. Guillaume Mollat. 4 vols. Paris: Letouzey et Ané, 1914–27.
Originally published in 1693. Mollat consulted the original manuscripts, which enabled him to rectify certain errors and omissions in the original edition.

Baudouin, Adolphe: *see* Philip IV.

Beazley, Charles Raymond. The Dawn of Modern Geography: A History of Exploration and Geographical Science. 2d ed. 3 vols. London: H. Froude; Oxford: Clarendon Press, 1905–6.
Originally published in two volumes (London: J. Murray, 1897–1901). Volumes I and II of the second edition were published by Froude; Volume III was published by the Clarendon Press.

Beck, Henry J. G. 'William Hundleby's Account of the Anagni Outrage,' *Catholic Historical Review*, XXXII (1946), 190–220.
William of Hundleby served as procurator at the Roman *curia* for John Dalderby, bishop of Lincoln, 1300–20. He wrote this letter September 27, 1303. Latin text with English translation.

Berthier, André. 'Les Ecoles de langues orientales fondées au XIIIe siècle par les Dominicains en Espagne et en Afrique,' *Revue africaine*, LXIII (1932), 84–103.

Beugnot, Arthur A., Comte, ed. Les Olim, ou registres des arrêts rendus par la cour du roi sous les règnes de saint Louis, de Philippe le Hardi, de Philippe le Bel, de Louis le Hutin, et de Philippe le Long. 3 vols. Paris: Imprimerie royale, 1839–48. 'Collection de documents inédits sur l'histoire de France,' No. 65.

Bientinesi, Giuseppina. 'Vincenzo di Beauvais e Pietro Dubois considerati come pedagogisti,' *Atti della reale accademia delle scienze di Torino*, LI (1915–16), 1411–30; LII (1916), 191–207.

Bigwood, Georges. 'La Politique de la laine en France sous les règnes de Philippe le Bel et de ses fils,' *Revue belge de philologie et d'histoire*, Brussels, XV (1936), 79–102, 429–57; XVI (1937), 95–129.
A thorough study of export dues, a chapter in the financial history of the reign of Philip IV.

Works Cited

Boase, Thomas S. R. Boniface VIII. London: Constable, [1933]. 'Makers of the Middle Ages.'

Bongars, Jacques. Gesta Dei per Francos sive orientalium expeditionum et regni Francorum Hierosolimitani historia, a variis, sed illius aeui, scriptoribus, litteris commendata. 2 vols. in 1. Hanover: John Aubrius, 1611.

Although almost wholly superseded by the magnificent *Recueil des historiens des croisades*, there are still a few writers whose works are not available in any edition later than that of Bongars. Copy in the New York Public Library.

Borrelli de Serres, Léon. Les Variations monétaires sous Philippe le Bel et les sources de leur histoire. Paris: Picard, 1902.

Boutaric, Edgard Paul. La France sous Philippe le Bel: étude sur les institutions politiques et administratives du moyen âge. Paris: H. Plon, 1861.

—— 'Les Idées modernes chez un politique du XIVe siècle: Pierre Du Bois,' *Revue contemporaine*, sér. 2, XXXVIII (1864), 417–47. (Whole number, Vol. LXXIII.)

A reprint of his paper read before the Académie des inscriptions et belles-lettres on February 5, March 4 and 11, 1864, which appeared under a different title in the Academy's *Comptes rendus*, VIII (1864), 84–106. Dubois' ideas are discussed in the light of contemporary events in Italy and the Near East.

—— Institutions militaires de la France avant les armées permanentes, suivies d'un aperçu des principaux changements survenus jusqu'à nos jours dans la formation de l'armée. Paris: H. Plon, 1863.

—— 'Mémoire sur la vie, les œuvres et les doctrines politiques de Pierre Dubois, légiste du quatorzième siècle,' *Comptes rendus de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, VIII (1864), 84–106.

An analysis, with historical background, of the *De recuperatione*.

—— 'Notices et extraits de documents inédits relatifs à l'histoire de France sous Philippe le Bel,' *Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque nationale et autres bibliothèques*, XX (1862), Part II, 83–237.

Includes the earliest, and sometimes the only, edition of certain minor pamphlets by Dubois.

Brandt, Walther I. 'Pierre Dubois: Modern or Medieval?,' *American Historical Review*, XXXV (1930), 507–21.

Contends that nearly all of Dubois' ideas may be found in the writings of his contemporaries or near predecessors.

Bréhier, Louis. L'Eglise et l'Orient au moyen âge: les croisades. 4th ed. Paris: Lecoffre, 1921. 'Bibliothèque de l'enseignement de l'histoire ecclésiastique.'

Useful for an account of the later crusading efforts. The edition of 1928 was not available.

Brocard. Directorium ad passagium faciendum per Philippum [VI]

regem Franciae in Terram sanctam anno 1332. Ed. Kohler, in *Recueil des historiens des croisades, documents arméniens*, II, 367–517.

Callery, Alphonse. 'Les Premiers États Généraux: origine, pouvoirs et attributions,' *Revue des questions historiques*, XXIX (1881), 62–119.

Holds that summoning the estates was a recognition of feudalism, not a denial of it.

Capitanovici, Georgius J. Die Eroberung von Alexandria durch Peter I von Lusignan, König von Cypern, 1365. Berlin: R. Heinrich, 1894.

Carlyle, Sir Robert W., and Alexander J. Carlyle. A History of Mediaeval Political Theory in the West. 6 vols. Edinburgh and London: Blackwood & Sons, 1903–36.

Carter, Thomas F. The Invention of Printing in China and Its Spread Westward. Rev. ed. New York: Columbia University Press, 1931.

Cato. The Distichs of Cato: A Famous Medieval Textbook. Translated from the Latin by Wayland W. Chase. Madison, Wis.: University of Wisconsin Press, 1922. 'University of Wisconsin Studies in the Social Sciences and History,' No. 7.

One of the textbooks recommended by Dubois.

Chartularium universitatis Parisiensis. Ed. H. Denifle and E. Chatelain. 4 vols. Paris: Delalain, 1889–97.

The standard collection of source material on the medieval University of Paris.

Chénon, Emile. Histoire générale du droit français public et privé, des origines à 1815. 2 vols. Paris: Recueil Sirey, 1926–29.

Relies heavily upon the earlier work of Tardif.

Christensen, Heinrich. Das *Alexanderlied* Walters von Châtillon. Halle: Buchhandlung des Waisenhauses, 1905.

Chronicles and Memorials of the Reign of Richard I. Ed. John S. Brewer. 2 vols. London: Longman, Green, Longman & Roberts, 1864–65. 'Rolls Series,' No. 38.

Chronicles of the Crusades, Being Contemporary Narratives of the Crusades of Richard Cœur de Lion, by Richard of Devizes and Geoffrey de Vinsauf, and of the Crusade of St. Louis, by Lord John de Joinville. London: H. G. Bohn, 1848.

Colonna, Egidio: *see* Aegidius Romanus.

Corpus chronicorum Flandriae. Ed. J. J. de Smet. 4 vols. Brussels: M. Hayez, 1837–65. 'Collection de chroniques belges inédites,' ed. J. H. Borgnet *et al.*, No. 3.

Corpus juris canonici. Editio Lipsiensis secunda post Aemilii Ludouici Richteri curas ad librorum manu scriptorum et editionis Romanae fidem. Ed. Aemilius Friedberg. 2 vols. Leipzig: Tauchnitz, 1879–81.

My citations are from the 1928 reprint.

Corpus juris civilis. Ed. P. Krüger, T. Mommsen, *et al.* 3 vols. Berlin: Weidmann, 1872–95.

This standard edition of Roman civil law comprises the *Institutiones*,

the *Digesta*, the *Codex*, and the *Novellae*. It has frequently been reissued in whole or in part.

Coulton, George G. Five Centuries of Religion. 4 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1923–50.

Crowley, Theodore. Roger Bacon: The Problem of the Soul in His Philosophical Commentaries. Louvain: Institut supérieure de philosophie, 1950.

Written in 1939. See especially chap. i, 'Roger Bacon's Life and Works,' pp. 17–78.

Curley, Sister Mary Mildred. The Conflict Between Pope Boniface VIII and King Philip IV, the Fair. Washington, D.C.: Catholic University of America, 1927.

A useful feature is the English translation of a number of documents not otherwise readily accessible.

Delaville le Roulx, Joseph M. La France en Orient au XIVe siècle: expéditions du maréchal Boucicaut. 2 vols. Paris: E. Thorin, 1886. 'Bibliothèque des Ecoles françaises d'Athènes et de Rome,' fasc. 44–45.

Valuable for the later crusading movement. Based in part on manuscript materials as yet unedited.

Delhaye, Philippe: *see* Siger de Brabant.

Delisle, Léopold Victor. 'Le Clergé normand au XIIIe siècle, d'après le *Registrum visitationum archiepiscopi Rothomagensis*; Journal des visites pastorales d'Eude Rigaud, archevêque de Rouen, 1248–1269,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, sér. 2, III (1846), 479–99. (Whole number, Vol VIII.)

—— 'Mémoire sur les opérations financières des Templiers,' *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XXXIII (1889), Part II, 1–246.

Pages 95–246 comprise documents, with brief explanatory notes. Sets forth the important role played by the order in the public finances of France in the thirteenth century.

Della Vigna, Piero: *see* Piero della Vigna.

Devic, Claude, and Jean J. Vaissete. Histoire générale de Languedoc. Ed. Edouard Dulaurier *et al.* 16 vols. Toulouse: E. Privat, 1872–1904.

Digard, Georges A. L. Philippe le Bel et le Saint-Siège de 1285 à 1304. Ouvrage posthume publié par Françoise Lehoux. 2 vols. Paris: Recueil Sirey, 1936.

Sums up the results of a generation of research.

Documents historiques inédits tirés des collections manuscrits de la Bibliothèque royale et des archives ou des bibliothèques des départements. Ed. [J. J.] Champollion-Figeac *et al.* 4 vols. Paris: Firmin Didot frères, 1841–48. 'Collection de documents inédits publiés par ordre du roi et par les soins du ministre de l'instruction publique. Mélanges historiques.'

Donatus. The *Ars minor* of Donatus: For One Thousand Years the Leading

Works Cited

Textbook of Grammar. Translated from the Latin by Wayland J. Chase. Madison, Wis.: University of Wisconsin Press, 1926. 'University of Wisconsin Studies in the Social Sciences and History,' No. 11.
One of the textbooks recommmended by Dubois.

Dupuy, Pierre. Histoire de la condamnation des Templiers, celle du schisme des papes tenans le siège en Avignon et quelques procès criminels. Ed. M. Gurtler. 2 vols. Brussels: Foppens, 1713.
Copy in the Library of Congress.

[——]. Histoire du différend d'entre le pape Boniface VIII et Philippes [*sic*] le Bel, roy de France, où l'on voit ce qui passa touchant cette affaire, depuis l'an 1296 iusques en l'an 1311 sous les pontificats de Boniface VIII, Benoist XI & Clement V; ensemble le proces criminel fait a Bernard evesque de Pamiez l'an MCCXCV; le tout iustifié par les Actes et mémoires pris sur les originaux qui sont au Tresor des chartes du Roy. Paris: Sebastien Cramoisy, 1655.
This compilation is not readily accessible, but it is nevertheless indispensable for a study of the period. It includes the only edition of two of Dubois' pamphlets. The pagination is confusing. It begins with a narrative account of the affair in French and in Latin, each paged separately. This is followed by an elaborate table of contents, of ten unnumbered pages. The all-important Actes et preuves' begins with a third separate numbering, which extends through the sources for Boniface VIII, Benedict XI, and Clement V, and continues unbroken through the sources for the trial of Bishop Guichard and the *Quaestio de potestate papae*, at one time attributed to Dubois. It is generally catalogued under 'Dupuy,' although his name does not appear on the title page. Copy in the Harvard Library.

—— Traitéz concernant l'histoire de France; sçavoir la condamnation des Templiers, avec quelques actes; l'histoire du schisme; les papes tenans le siège en Avignon; et quelques procez criminels. Paris: Dupuy, 1654.
Copy in the New York Public Library.

Duval, Frédéric Victor. De la paix de dieu à la paix de fer. Paris: Paillard, 1923. 'Gesta pacis. Etudes historiques sur la question de la paix.'

Easton, Stewart C. Roger Bacon and His Search for a Universal Science: A Reconsideration of the Life and Work of Roger Bacon in the Light of His Own Stated Purposes. Oxford: Basil Blackwell; New York: Columbia University Press, 1952.

Eberhard of Béthune. Eberhardi Bethuniensis Graecismus. Ad fidem librorum manu scriptorum recensuit lectionum uarietatem adiecit indices locupletissimos et imaginem codicis Melicensis photolithographicam. Ed. Joh. Wrobel. Breslau: Koebner, 1887. 'Corpus grammaticorum medii aeui,' Vol. I (no more published).
One of the textbooks recommended by Dubois. Copy in the Columbia University Library.

Works Cited

Ehrle, Franz. 'Ein Bruchstück der Acten des Concils von Vienne,' *Archiv für Literatur- und Kirchengeschichte des Mittelalters*, hrsg. von H. Denifle und F. Ehrle, IV (1888), 361–470.

Includes a number of pertinent documents illustrating the jurisdictional strife between the secular and ecclesiastical authorities.

Esmein, Adhémar. A History of Continental Legal Criminal Procedure, With Special Reference to France. Trans. John Simpson. Boston: Little, Brown, 1913. 'Continental Legal History Series,' [Vol. V].

—— Le Mariage en droit canonique. Ed. Robert Génestal and Jean Dauvillier. 2 vols. Paris: Recueil Sirey, 1929–35.

Originally published in 1891.

Fawtier, Robert. 'L'Attentat d'Anagni,' *Mélanges d'archéologie et d'histoire* (Ecole française de Rome), LX (1948), 153–79.

Contends that Nogaret was not responsible for the violence at Anagni. Fawtier's position is challenged by M. Melville, 'Guillaume de Nogaret et Philippe le Bel.'

—— Les Capétiens et la France: leur rôle dans sa construction. Paris: Presses universitaires de France, 1942.

—— L'Europe occidentale de 1270 à 1380: première partie, de 1270 à 1328. Paris: Presses universitaires de France, 1940. 'Histoire générale, publ. G. Glotz; Histoire du moyen âge,' Vol. VI, No. 1.

Integrates English, French, and Spanish history. Criticizes the chief theories as to the origins of national assemblies. Contends that Philip himself was the directing force in French policy, that Philip actually considered Boniface VIII to be a usurper, and that the Templars were guilty as charged.

Figgis, John N. 'A Forgotten Radical [Pierre Dubois],' *Cambridge Review*, XXI (1900), 373–74.

Finke, Heinrich. Acta Aragonensia: Quellen zur deutschen, italienischen, französischen, spanischen, zur Kirchen- und Kulturgeschichte, aus der diplomatischen Korrespondenz Jaymes II, 1291–1327. 3 vols. Berlin: W. Rothschild, 1908–22.

An invaluable collection of documents, mostly from the archives of Barcelona. Vols. I and II are paged continuously, Vol. III separately.

—— Aus den Tagen Bonifaz VIII: Funde und Forschungen. Münster: Aschendorff, 1902. 'Vorreformationsgeschichtliche Forschungen,' Vol. II.

Useful for the number of documents printed in full.

—— Die Frau im Mittelalter; mit einem Kapitel, 'Die heiligen Frauen im Mittelalter,' von Dr. Lenné. Kempten: J. Kösel, 1913.

—— Papsttum und Untergang des Templerordens. 2 vols. Münster: Aschendorff, 1907.

Hans Prutz took issue with some of Finke's conclusions, and a lively

Works Cited

literary controversy ensued. Bibliography in E. Zeck, *Der Publizist Pierre Dubois*, pp. xi–xvi.

—— 'Die Stellung der Frau in Mittelalter,' *Internationale Wochenschrift für Wissenschaft, Kunst und Technik*, IV (1910), 1243–58, 1285–1302.

Based on lectures delivered by the author in Freiburg-im-Breisgau during the winter of 1909–10.

—— 'Zur Charakteristik Philipps des Schönen,' *Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung*, XXVI (1905), 201–24.

Fliche, Augustin. Etudes sur la polémique religieuse à l'époque de Grégoire VII: les prégrégoriens. Paris: Société française d'imprimerie et de librairie, 1916.

Fournier, Paul. 'Guillaume du Breuil, juriste.' In *Histoire littéraire*, XXXVII (1938), 120–46.

—— Le Royaume d'Arles et de Vienne (1138–1378): étude sur la formation territoriale de la France dans l'est et le sud-est. Paris: Picard, 1891.

Funck-Brentano, Frantz. 'Mémoire sur la bataille de Courtrai (1302, 11 Juillet) et les chroniqueurs qui en ont traité, pour servir à l'historiographie du règne de Philippe le Bel,' *Mémoires présentés par divers savants à l'Académie des inscriptions et belles-lettres de l'Institut de France*, sér. 1, X (1893), 235–325.

—— Les Origines de la guerre de cent ans: Philippe le Bel en Flandre. Paris: Champion, 1897.

Extensive bibliography, pp. xi–xxii.

Funke, Paul. Papst Benedikt XI. Münster: H. Schöningh, 1891. 'Kirchengeschichtliche Studien,' hrsg. von Knöpfler *et al.*, Vol. I.

Gautier de Châtillon. Alexandreis. Ed. Friedrich A. W. Müldener. Leipzig: Teubner, 1863.

An older edition is reprinted in Migne, *Pat. Lat.*, CCIX, 463–572. From this poem Dubois derived much of his knowledge of ancient history.

Gewirth, Alan. Marsilius of Padua: The Defender of Peace. Vol. I. New York: Columbia University Press, 1951. 'Records of Civilization, Sources and Studies,' No. XLVI.

A detailed analysis of Marsilius' ideas in the light of medieval philosophy; a supplementary volume will comprise the translation of the *Defensor pacis*.

Gilles de Rome: *see* Aegidius Romanus.

Giordano, Carlo. *Alexandreis*, poema di Gauthier de Châtillon. Naples: Federico & Ardia, 1917.

Gmelin, Julius. Schuld oder Unschuld des Tempelordens. Kritischer Versuch zur Lösung der Frage. Stuttgart: Kohlhammer, 1893.

Goldast, Melchior, ed. Monarchia s. Romani imperii. 3 vols. Hanover and Frankfort: Conrad Biermann, 1611–14.

This excessively rare publication is still the only source for editions

of a number of treatises illustrative of late medieval political thought. Copy in the Columbia University Library.

Gottron, Adam. Ramon Lulls Kreuzzugsideen. Berlin and Leipzig: W. Rothschild, 1912. 'Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXXIX.

Grabmann, Martin. 'Neu aufgefundene *Quaestionen* Sigers von Brabant zu den Werken des Aristoteles (Clm. 9559).' In *Miscellanea Francesco Cardinale Ehrle*, I, 103–47.

—— 'Neu aufgefundene Werke des Siger von Brabant und Boetius von Dacien,' *Sitzungsberichte der bayerischen Akademie der Wissenschaften, philosophisch-philologische und historische Klasse*,' Jahrgang 1924, Part II, 1–48.

Graefe, Friedrich. Die Publizistik in der letzten Epoche Kaiser Friedrichs II: ein Beitrag zur Geschichte der Jahre 1239–1250. Heidelberg: C. Winter, 1909. 'Heidelberger Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXIV.

Grauert, Hermann. 'Aus der kirchenpolitischen Traktatenliteratur des 14. Jahrhunderts,' *Historisches Jahrbuch*, XXIX (1908), 497–536.

A detailed discussion of the anonymous *Tractatus de iurisdictione imperatoris et imperii*, also known as *Determinatio compendiosa de iurisdictione imperii*.

—— 'Dante und die Idee des Weltfriedens,' *Historisch-politische Blätter für das katholische Deutschland*, CXLI (1908), 112–38.

Originally a 'Festrede' delivered before the Academy on December 14, 1907. Also issued separately in revised form: Munich: K. b. Akademie der Wissenschaften, 1909.

—— [A lengthy critical review of Langlois' edition of the *De recuperatione*], *Historisches Jahrbuch*, XII (1891), 807–15.

Grosseteste, Robert. Roberti Grosseteste episcopi quondam Lincolniensis epistolae. Ed. Henry R. Luard. London: Longman, Green, Longman & Roberts, 1861. 'Rolls Series,' No. 25.

Grundmann, Herbert. Alexander von Roes, *De translatione imperii*, und Jordanus von Osnabrück, *De prerogativa Romani imperii*. Leipzig: Teubner, 1930. 'Quellen zur Geistesgeschichte des Mittelalters und der Renaissance,' Ed. W. Goetz, Vol. II.

Jordanus von Osnabrück expressed a German patriotism quite as blatant as the French chauvinism of Dubois.

Gualterus ab Insulis: *see* Gautier de Châtillon.

Guilhiermoz, Paul E. 'De la persistance du caractère oral dans la procédure civile française,' *Nouvelle revue historique du droit français et étranger*, XIII (1889), 21–65.

—— Enquêtes et procès: étude sur la procédure et le fonctionnement du Parlement au XIVe siècle. Paris: Picard, 1892.

Guillaume le Maire. Livre de Guillaume le Maire. Ed. Célestin Port. In *Mélanges historiques*, II, 189–537. 'Collection de documents inédits sur l'histoire de France,' No. 52.

Works Cited

Guillaume le Maire, bishop of Angers, died in 1314. The volume includes his *De reformandis in ecclesia.*

Guillaume de Nangis. Chronicon, et continuator prior. In *Recueil des historiens des Gaules et de la France*, ed. Bouquet, XX, 544–646.

Habel, Edwin. 'Johannes de Garlandia, ein Schulmann des 13. Jahrhunderts,' *Mitteilungen der Gesellschaft für deutsche Erziehungs- und Schulgeschichte*, XIX (1909), 1–34, 118–30.

Haller, Johannes. Papsttum und Kirchenreform: vier Kapitel zur Geschichte des ausgehenden Mittelalters. Berlin: Weidmann, 1903.
Planned as a longer work, but only Vol. I appeared.

Hamilton, George L. 'Theodulus, a Medieval Textbook,' *Modern Philology*, VII (1910), 169–85.

Haskins, Charles H. Studies in the History of Mediaeval Science. Cambridge: Harvard University Press, 1924.

Hauréau, Jean B. '*De recuperatione Terrae Sanctae:* traité de politique générale par Pierre Dubois, publié par Ch. V. Langlois, 1891,' *Journal des savants*, 1894, 117–23.
A lengthy review of Langlois' edition of the *De recuperatione.*

—— 'Richard Leneveu, évêque de Béziers.' In *Histoire littéraire*, XXVI, 539–51.

Hearnshaw, Fossey J. C.; *see* Power, Eileen.

Heber, Max. Gutachten und Reformvorschläge für das Vienner Generalconcil, 1311–1312. Leipzig: Fischer & Wittig, 1896.

Hefele, Karl Joseph von. Conciliengeschichte: nach den Quellen bearbeitet. 2d ed. 9 vols. Freiburg-im-Breisgau: Herder, 1873–90. Vols V and VI edited by A. Knöpfler; Vols. VIII and IX by Cardinal Hergenröther.

Heidelberger, Franz. Kreuzzugsversuche um die Wende des 13. Jahrhunderts. Berlin and Leipzig: W. Rothschild, 1911. 'Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXXI.

Henri d'Andeli. Battle of the Seven Arts. Ed. and trans. Louis J. Paetow. Berkeley: University of California Press, 1914. 'Memoirs of the University of California,' Vol. IV, No. 1.
This thirteenth-century trouvère lists a number of the textbooks which Dubois recommended for his 'modern' curriculum.

Henry, Abel. 'Guillaume de Plaisians, ministre de Philippe le Bel,' *Moyen Age*, V (1892), 32–38.

Hervieu, Henri. Recherches sur les premiers états généraux et les assemblées représentatives pendant la première moitié du XIVe siècle. Paris: Thorin, 1879.

Heyck, Eduard. 'Moderne Gedanken im Mittelalter,' *Die Grenzboten*, LI (1892), Part II, 18–27.
A popular and superficial analysis of the *De recuperatione.*

Heyd, Wilhelm von. Histoire du commerce du Levant au moyen-âge. Edition française refondue et considérablement augmentée par l'au-

teur, publiée sous le patronage de la Société de l'Orient latin, par Fourcy Raynaud. 2 vols. Leipzig: Harrassowitz, 1885–86.
Reprinted in 1923.

Hill, Sir George: A History of Cyprus. 3 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1948.

Histoire littéraire de la France. Paris: Imprimerie nationale, 1733—.
Vol. XXXVIII appeared in 1949. Title and imprint vary.

Höfler, Constantin R. von, 'Die romanische Welt und ihr Verhältnis zu den Reformideen des Mittelalters,' *Sitzungsberichte der kaiserlichen [Wiener] Akademie der Wissenschaften, philosophisch-historische Klasse* XCI (1878), 257–538.
A brief summary of Dubois' ideas, pp. 318–22.

Holtzmann, Robert. Französische Verfassungsgeschichte von der Mitte des neunten Jahrhunderts bis zur Revolution. Munich and Berlin: R. Oldenbourg, 1910. 'Handbuch der mittelalterlichen und neueren Geschichte,' Vol. III.

—— 'Philipp der Schöne von Frankreich und die Bulle *Ausculta fili*,' *Deutsche Zeitschrift für Geschichtswissenschaft*, Neue Folge, II (1897), 16–38.
Contends that the bull was publicly burned.

—— Wilhelm von Nogaret: Rat und Grosssiegelbewahrer Philipps des Schönen von Frankreich. Freiburg-im-Breisgau: J. C. B. Mohr, 1898.
A detailed and well documented account of the part played by Nogaret in his royal master's struggle with the papacy.

Huberti, Ludwig. Studien zur Rechtsgeschichte der Gottesfrieden und Landfrieden. Ansbach: C. Brügel & Sohn, 1892.
One of the best treatments of the general subject.

Humbertus de Romanis: *see* Michel, Karl.

Jacobus de Voragine. The Golden Legend of Jacobus de Voragine. Trans. and adapted from the Latin by Granger Ryan and Helmut Ripperger. 2 vols. New York and London: Longmans, Green, 1941.
This late thirteenth-century author was recommended by Dubois for study in his proposed schools.

Jarrett, Bede. Social Theories of the Middle Ages, 1200–1500. London: Benn, 1926. 'The Library of European Political Thought,' ed. Harold J. Laski.
Reprint: Westminster, Md.: Newman Book Shop, 1942.

John of Garland. *Morale scolarium* of John of Garland (Johannes de Garlandia), a Professor in the Universities of Paris and Toulouse in the Thirteenth Century. Ed. Louis J. Paetow. Berkeley: University of California Press, 1927. 'Memoirs of the University of California,' Vol. IV, No. 2.
Includes a prose paraphrase in English, which is virtually a translation. The Introduction and wealth of footnotes provide much information about schools and textbooks of the thirteenth century.

Works Cited

John of Paris. Tractatus de potestate regia et papali: Interdum contingit. In M. Goldast, ed., *Monarchia s. Romani imperii*, II, 108–47.

Brief selections from this pamphlet by a contemporary of Dubois are translated in Carlyle, *Mediaeval Political Theory*, V, 428*n*, 434*n*.

Jordanus von Osnabrück. 'Des Jordanus von Osnabrück Buch [*De prerogativa Romani imperii*] über das römische Reich, herausgegeben von G. Waitz,' *Abhandlungen der königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen, historisch-philologischen Klasse*, XIV (1869), 1–91.

Text and Introduction.

Jourdain, Charles. 'Un Collège oriental à Paris au treizième siècle,' *Revue des sociétés savantes des départements*, sér. 2, VI (1861), 66–73.

—— 'Mémoire sur les commencements de la marine militaire sous Philippe le Bel,' *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XXX (1881), Part I, 377–418.

—— 'Mémoire sur l'éducation des femmes au moyen âge,' *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XXVIII (1874), 79–133.

Reprinted in his *Excursions historiques et philosophiques à travers le moyen âge* (Paris, 1888), pp. 463–509.

Kämpf, Hellmut. Pierre Dubois und die geistigen Grundlagen des französischen Nationalbewusstseins um 1300. Leipzig: Teubner, 1935. 'Beiträge zur Kulturgeschichte des Mittelalters und der Renaissance,' hrsg. von W. Goetz, Vol. LIV.

The title is a misnomer. Actually, it is a study of the rise of French national consciousness, illustrated by numerous citations from contemporary writers, among them Dubois.

Keil, Heinrich G. T.: *see* Priscian.

Kelsen, Hans. Die Staatslehre des Dante Alighieri. Vienna and Leipzig: F. Deuticke, 1905. 'Wiener staatswissenschaftliche Studien,' Vol. VI, No. 3.

Kern, Fritz, ed. Acta Imperii, Angliae et Franciae ab anno 1267 ad annum 1313: Dokumente vornehmlich zur Geschichte der auswärtigen Beziehungen Deutschlands, in ausländischen Archiven gesammelt. Tübingen: J. C. B. Mohr, 1910.

—— Die Anfänge der französischen Ausdehnungspolitik bis zum Jahr 1308. Tübingen: J. C. B. Mohr, 1910.

—— Grundlagen der französischen Ausdehnungspolitik. Leipzig: Hirschfeld, 1910.

Kervyn de Lettenhove, Joseph B. M. C. 'Etudes sur l'histoire du XIIIe siècle,' *Mémoires de l'Académie royale des sciences, des lettres et des beaux-arts de Belgique, classe des lettres*, XXVIII (1854), 1–105.

A lengthy footnote on p. 84 comprises the text of the false bull *Quia nonnulli*, in which Boniface VIII is supposed to have abolished the principle of clerical celibacy.

—— Histoire de Flandre. 6 vols. Brussels: Vandale, 1847–50.

There is a fifth edition: 4 vols. Bruges: Ch. Beyaert, 1898.

Works Cited

Memoirs of the Crusades, by Villehardouin and Joinville. Trans. Sir Frank Marzials. London and Toronto: J. M. Dent; New York: E. P. Dutton, 1908. 'Everyman's Library,' No. 333.

Merriman, Roger Bigelow. The Rise of the Spanish Empire in the Old World and in the New. 4 vols. New York: Macmillan, 1918–34.

Meulen, Jacob ter. Der Gedanke der internationalen Organisation in seiner Entwicklung. 2 vols. in 3. The Hague: Nijhoff, 1917–40.

I, 101–07 on Dubois. Cites a few passages of the *De recuperatione* in German translation.

Meyer, Emil H. Die staats- und völkerrechtlichen Ideen von Peter Dubois. Marburg: Adolf Ebel, 1908. 'Arbeiten aus dem juristisch-staatswissenschaftlichen Seminar der königlichen Universität Marburg,' hrsg. von Walter Schücking, Vol VII.

Despite its title, of minor importance.

Meyer, Hermann. Lupold von Bebenburg; Studien zu seinen Schriften: ein Beitrag zur Geschichte der staatsrechtlichen und kirchenpolitischen Ideen und Publizistik im 14. Jahrhundert. Freiburg-im-Breisgau: Herder, 1909. 'Studien und Darstellungen aus dem Gebiet der Geschichte,' Vol. VII, Nos. 1, 2.

—— Textkritische Studien zu den Schriften von Lupold von Bebenburg. Munich and Freiburg-im-Breisgau: Herder, 1908.

Lupold von Bebenburg was a doctor of canon law, who became bishop of Bebenburg in 1353; died 1363.

MGH: *see* Monumenta Germaniae historica.

Michel, Karl. Das *Opus tripartitum* des Humbertus de Romanis, O.P.: Beitrag zur Geschichte d. Kreuzzugsidee und d. kirchliche Unionsbewegung. 2d ed. Graz: Universitätsbuchdruckerei, 1926.

This is the *Libellus* written for the use of the council of Lyons (1274).

Migne, J. P., ed. Patrologiae cursus completus. Series latina. 221 vols. Paris: J. P. Migne, 1844–64. Cited as Migne, *Pat. Lat.*

Mirbt, Carl. Die Publizistik im Zeitalter Gregors VII. Leipzig: Hinrichs, 1894.

One of the earliest studies of pamphleteering during the Middle Ages.

Miscellanea Francesco Ehrle: scritti di storia e paleografia pubblicati sotto gli auspici di S. S. Pio XI in occasione dell'ottantesimo natalizio dell' e.mo Cardinale Francesco Ehrle. 5 vols. Rome: Biblioteca apostolica Vaticana, 1924.

Möller, Richard. Ludwig der Bayer und die Kurie im Kampf um das Reich; Forschungen. Berlin: E. Ebering, 1914. 'Historische Studien,' Vol. CXVI.

Mohler, Ludwig. Die Kardinäle Jacob und Peter Colonna: ein Beitrag zur Geschichte des Zeitalter Bonifaz' VIII. Paderborn: F. Schöningh, 1914. 'Quellen und Forschungen aus dem Gebiete der Geschichte,' Vol. XVII.

Works Cited

Mollat, Guillaume. 'Guichard de Troyes et les révélations de la sorcière de Bourdenay,' *Moyen Age*, sér. 2, XII (1908), 310–16 (whole number, Vol. XXI).
—— Les Papes d'Avignon, 1305–1379. 2d ed. Paris: Lecoffre, 1912. 'Bibliothèque de l'enseignement de l'histoire ecclésiastique.'
A ninth edition appeared in 1950.
Monumenta Germaniae historica. Deutsche Chroniken, 1877—; Leges, 1835—; Scriptores, 1826—; Scriptores rerum Germanicarum, nova series, 1922—.
Moranvillé, Henri. 'Les Projets de Charles de Valois sur l'empire de Constantinople,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, LI (1890), 63–86.
A group of documents bearing on the subject.
Moser, Max. 'Der Brief *Realis est veritas* aus dem Jahre 1304,' *Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung*, XXIX (1908), 64–87.
Material on Richard Leneveu, pp. 84–87.
Müller, Eugen. Beiträge zur Kenntnis der öffentlichen Meinung während des Interregnums. Heidelberg: C. Winter, 1912.
Part of his longer work on Peter of Prezza, below.
—— Peter von Prezza, ein Publizist der Zeit des Interregnums. Heidelberg: C. Winter, 1913. 'Heidelberger Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXXVII.
Müller, Ewald. Das Konzil von Vienne, 1311–1312: seine Quellen und seine Geschichte. Münster: Aschendorff, 1934. 'Vorreformationsgeschichtliche Forschungen,' Vol. XII.
Müller, Karl. [Review of Francesco Scaduto, *Stato e chiesa negli scritti politici dalla fine della lotta per le investiture sino alla morte di Ludovico il Bavaro, 1122–1347*, and of Baldassare Labanca, *Marsilio da Padova*], *Göttingische gelehrte Anzeigen*, 1883, Part II, 901–26.
Discusses the authorship of certain pamphlets attributed to Dubois.
Mullally, Joseph P.; *see* Peter of Spain.
Neumann, Wilhelm A. Ueber die orientalischen Sprachstudien seit dem 13. Jahrhunderte, mit besonderer Rücksicht auf Wien. Vienna: A. Hölder, 1899.
Norden, Walter. Das Papsttum und Byzanz: die Trennung der beiden Mächte und das Problem ihrer Wiedervereinigung bis zum Untergange des byzantinischen Reichs, 1453. Berlin: B. Behr, 1903.
Notices et extraits des manuscrits: *see* Boutaric.
Oman, Charles W. C. A History of the Art of War in the Middle Ages. 2d ed. 2 vols. Boston: Houghton Mifflin, 1924.
Palestine Pilgrims Text Society. The Library. 13 vols. London: Committee of the Palestine Exploration Fund, 1897 [1890–97].
English translations of accounts by western travelers to Palestine during the Middle Ages.

Works Cited

Pasolini, Pier Desiderio. I tiranni di Romagna e i papi nel medio evo. Imola: Galeati, 1888.

Peers, Edgar Allison, trans. A Life of Ramón Lull, Written by an Unknown Hand About 1311. Translated from the Catalan with Notes and an Appendix. London: Burns, Oates & Washbourne, [1927].

—— Ramon Lull: A Biography. London: Society for the Promotion of Christian Knowledge, 1929.

Peter of Spain [Pope John XXI]. The *Summulae logicales* of Peter of Spain. Ed. J. P. Mullally. Notre Dame, Ind.: University of Notre Dame, 1945. 'Publications in Mediaeval Studies,' Vol. VIII.
Edition and translation of the seventh and final tract.

Petit, Joseph. Charles de Valois (1270–1325). Paris: Picard, 1900.

Philip IV (the Fair). Lettres inédites de Philippe le Bel. Publiées par l'Académie des sciences, inscriptions et belles-lettres de Toulouse. Ed. Adolphe Baudouin. Paris: Champion, 1887.

Picot, Georges M. R., ed. Documents relatifs aux états généraux et assemblées réunis sous Philippe le Bel. Paris: Imprimerie nationale, 1901, 'Collection de documents inédits sur l'histoire de France,' No. 35.

Piero della Vigna. Petri de Vineis judicis aulici et cancellarii Friderici II imperatoris epistolarum, quibus res gestae ejusdem imperatoris aliaque multa ad historiam ac jurisprudentiam spectantia continentur libri VI. Ed. Joh. Rudolphus Iselius. 2 vols. Basle: Joh. Christ, 1740.
This collection of letters left by the chancellor of Frederick II was available in the French royal archives in Dubois' day, and may possibly have offered hints to Philip's propagandists. Copy in the Columbia University Library.

Pirenne, Henri. 'La Version flamande et la version française de la bataille de Courtrai,' *Bulletins de la Commission royale d'histoire de Belgique*, sér. 4, XVII (1890), Part I, 11–50.
Also printed separately. Brussels: Hayez, 1890.

Poole, Reginald Lane. Illustrations of the History of Mediaeval Thought. 2d ed. New York: Macmillan, 1920.
First published in 1884.

Portable Medieval Reader, The. Ed. James B. Ross and Mary M. McLaughlin. New York: Viking Press, 1949.
Includes English translation of chapters 1–4, 13, 27, 101, 104–07, 111, of the *De recuperatione*. Confuses Edward I with Philip IV by ignoring the fact that the work is in two parts.

Potthast, August, ed. Regesta pontificum Romanorum inde ab anno post Christum natum 1198 ad annum 1304. 2 vols. Berlin: R. de Decker, 1874–75.

Power, Eileen. 'Pierre Du Bois and the Domination of France.' In F. J. C. Hearnshaw, ed., *The Social and Political Ideas of Some Great Mediaeval Thinkers* (London: G. Harrap, 1923), pp. 139–66.

Works Cited

An otherwise excellent essay, marred by the contention that Dubois' ideas were 'modern' and not in harmony with his age.

Powicke, Frederick M. 'Pierre Dubois, a Medieval Radical.' In Thomas F. Tout and James Tait, eds., *Historical Essays* (Manchester: Manchester University Press, 1907), pp. 169–91.

An excellent essay, conceding that many of Dubois' ideas were not original with him.

Priscian. Institutiones grammaticae. In H. Keil, ed., *Grammatici latini* (Leipzig: Teubner, 1857–80), Vols. II and III.

Prutz, Hans Georg. Entwicklung und Untergang des Tempelherrenordens. Berlin: G. Grote, 1888.

—— Die geistlichen Ritterorden: ihre Stellung zur kirchlichen, politischen, gesellschaftlichen und wirtschaftlichen Entwicklung des Mittelalters. Berlin: Mittler & Sohn, 1908.

—— 'Zur Genesis des Templerprozesses,' *Sitzungsberichte der Bayerische Akademie der Wissenschaften zu München, Philosophisch-philologischen und der historischen Klasse*, [XXIV] Jahrgang 1907, 5–67.

Raoul Glaber: *see* Rodulphus Glaber.

Rashdall, Hastings. The Universities of Europe in the Middle Ages. Ed. F. M. Powicke and A. B. Emden. 3 vols. Oxford: Clarendon Press, 1936.

Originally published in 1895. Powicke and Emden preserved the original organization, making their revisions and corrections principally by means of footnotes.

Recueil des historiens des croisades. Documents arméniens. 2 vols. in 3. Paris: Imprimerie impériale, 1869–1906.

Recueil des historiens des Gaules et de la France. Ed. Dom Martin Bouquet *et al.* 24 vols. Paris: Aux dépens des librairies associés, 1738–1904.

Some volumes have been reprinted from time to time. Publisher varies. The work is sometimes cited by its Latin title, *Rerum Gallicarum et Francicarum scriptores.*

Registres de Boniface VIII, Les: Recueil des bulles de ce pape publiées ou analysées d'après les manuscrits originaux des Archives du Vatican. Ed. Georges Digard *et al.* 4 vols. Paris: Boccard, 1904–39. 'Bibliothèque des Ecoles françaises d'Athènes et de Rome,' 2 sér., Vol. IV.

Issued in 16 fascicles. Fasc. No. 1 of Vol. I was issued in 1884. Publisher varies.

Reinach, Salomon. 'L'Enigme de Siger,' *Revue historique*, CLI (1926), 34–46.

Renan, Ernest. 'De divers pièces relatives aux différends de Philippe le Bel avec la papauté.' In *Histoire littéraire*, XXVII, 371–81.

Some of this material is on Pierre Flotte.

—— Etudes sur la politique religieuse du règne de Philippe le Bel. Paris: C. Lévy, 1899.

Works Cited

A reprint of the author's articles on William of Nogaret, Pierre Dubois, and Bertrand de Got, in *Histoire littéraire*, Vols. XXVI, XXVII, and XXVIII.

—— 'Guillaume de Nogaret, légiste.' In *Histoire littéraire*, XXVII, 233–371.

—— 'Pierre Du Bois, légiste.' In *Histoire littéraire*, XXVI, 471–536.

A long and brilliant study, with detailed summaries of several of Dubois' pamphlets. Dubois' authorship of a few of the treatises here attributed to him has been repudiated by later scholars.

—— 'Un Publiciste du temps de Philippe le Bel, 1300–1308 [Pierre Dubois],' *Revue des deux mondes*, XCI (1871), 620–46; XCII (1871), 87–115.

A reprint, without citation of authorities, of the article in *Histoire littéraire*, XXVI.

Ribbeck, Walter. 'Gerhoh von Reichersberg und seine Ideen über das Verhältniss zwischen Staat und Kirche,' *Forschungen zur deutschen Geschichte*, XXIV (1884), 3–80.

—— 'Noch einmal Gerhoh von Reichersberg,' *Forschungen zur deutschen Geschichte*, XXV (1885), 556–61.

Gerhoh von Reichersberg, who lived *ca.* 1150, had ideas on the confiscation of ecclesiastical property which resemble those of Dubois.

Richard, Jules M. Une Petite-Nièce de saint Louis, Mahaut, comtesse d'Artois et de Bourgogne (1302–1329): étude sur la vie privée, les arts et l'industrie en Artois et à Paris au commencement du XIVe siècle. Paris: Champion, 1887.

Dubois spent his last years in the service of the countess.

Rigaud, Eudes. Registrum visitationum archiepiscopi Rothomagensis [1248–69]: Journal des visites pastorales d'Eude Rigaud, archevêque de Rouen. Ed. Th. Bonnin. Rouen: A. le Brument, 1852.

Presents a picture of monastic life in the thirteenth century which affords some justification for the criticisms leveled against monasticism by Dubois.

Rigault, Abel. Le Procès de Guichard, évêque de Troyes, 1308–1313. Paris: Picard, 1896. 'Société de l'Ecole des chartes, mémoires et documents,' Vol. I.

Rivière, Jean. Le Problème de l'église et de l'état au temps de Philippe le Bel: étude de théologie positive. Louvain: Spicilegium sacrum Lovaniense bureaux, 1926. 'Spicilegium sacrum Lovaniense; études et documents,' fasc. 8.

Rocquain, Félix. La Cour de Rome et l'esprit de réforme avant Luther. 3 vols. Paris: Thorin & fils, 1893–97.

—— 'Philippe le Bel et la bulle *Ausculta fili*,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, XLIV (1883), 393–418.

Contends that the story of the burning of the bull lacks adequate documentary evidence.

Works Cited

Rodulphus Glaber. Raoul Glaber: Les cinq livres de ses histoires, 900–1044. Ed. Maurice Prou. Paris: Picard, 1886. 'Collection de textes pour servir à l'étude et à l'enseignement de l'histoire.'

An account of the Peace of God in France in 1034 is found in iv. iv, v.

Ross, J. B., and M. M. McLaughlin: *see* Portable Medieval Reader.

Rymer, Thomas, ed. Foedera, conventiones, litterae, et cujuscunque generis acta publica inter reges Angliae et alios quosvis imperatores, reges, pontifices, principes, vel communitates: ab ingressu Guilelmi I in Angliam A. D. 1066 ad nostra usque tempora habita aut tractata. Ed. Adam Clarke and Fred. Holbrooke. 4 vols. in 7. London: G. Eyre & E. Strahan, 1816–69.

Sandys, John Edwin. A History of Classical Scholarship. 3 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 1903–8.

Vol. I, which covers the Middle Ages, is in a third edition (1921).

Sanudo, Marino, senior. Secreta fidelium crucis super Terrae Sanctae recuperatione et conservatione. In J. Bongars, *Gesta Dei per Francos*, II, 1–288.

Part xiv of Book iii is translated in Palestine Pilgrims Text Society, *The Library*, XII, 2–70.

Sarti, Mauro, and Mauro Fattorini. De claris archigymnasii Bononiensis professoribus a saeculo XI usque ad saeculum XIV. Ed. C. Albicinius and C. Malagola. 2 vols. Bologna: Merlani fratres, 1888–96.

Originally published 1769–72.

Sarton, George. Introduction to the History of Science. 3 vols. Baltimore: Williams & Wilkins, 1927–48.

Schlauch, Margaret. Medieval Narrative: A Book of Translations. New York: Prentice-Hall, 1928.

Includes a version of the Alexander legend, pp. 281–331.

Schnürer, Gustav. 'Das Projekt eines internationalen Schiedsgerichts aus den Jahren 1307/8,' *Historisch-politische Blätter für das katholische Deutschland*, CXLI (1908), 279–84.

Quotes chap. 12 of the *De recuperatione* in German translation.

Scholz, Richard. Die Publizistik zur Zeit Philipps des Schönen und Bonifaz, VIII. Stuttgart: F. Enke, 1903. 'Kirchenrechtliche Abhandlungen,' Vols. VI–VIII.

The outstanding study of pamphleteering during the reign of Philip IV. Pp. 32–129 were published separately under the title *Aegidius von Rom* (Stuttgart, 1902).

'Studien über die politischen Streitschriften des 14. und 15. Jahrhunderts,' *Quellen und Forschungen aus italienischen Archiven und Bibliotheken*, XII (1909), 112–31.

Includes some unedited material on William of Ockham.

Unbekannte kirchenpolitische Streitschriften aus der Zeit Ludwigs des Bayern (1327–1354). 2 vols. in 1. Rome: Loescher, 1911–14. 'Bib-

liothek des kgl. preuss. historischen Instituts in Rom,' Vols. IX–X.

Schottmüller, Konrad. Der Untergang des Templer-Ordens. Mit urkundlichen und kritischen Beiträgen. 2 vols. Berlin: Mittler & Sohn, 1887.

Schraub, Wilhelm. Jordan von Osnabrück und der *Tractatus de praerogativa Romani imperii.* Heidelberg: C. Winter, 1909.

An extract from his longer work, published in 1910.

—— Jordan von Osnabrück und Alexander von Roes: ein Beitrag zur Geschichte der Publizistik im 13. Jahrhundert. Heidelberg: C. Winter, 1910. 'Heidelberger Abhandlungen zur mittleren und neueren Geschichte,' Vol. XXVI.

Schücking, Walther. Die Organisation der Welt. Leipzig: Alfred Körner, 1909.

Chap. iii deals with Pierre Dubois and George Podiebrad as forerunners of pacifism.

Schulte, Johann Friedrich von. Die Geschichte der Quellen und Literatur des canonischen Rechts von Gratian bis auf die Gegenwart. 3 vols. Stuttgart: F. Enke, 1875–80.

A work of fundamental importance.

[Scott, Samuel P.]. The Civil Law, Including the Twelve Tables, the Institutes of Gaius, the Rules of Ulpian, the Opinions of Paulus, the Enactments of Justinian, and the Constitutions of Leo. Translated from the Original Latin, Edited and Compared with All Accessible Systems of Jurisprudence, Ancient and Modern. 17 vols. in 7. Cincinnati: Central Trust Co., [1932].

Siger de Brabant. Die *Impossibilia* des Siger von Brabant: eine philosophische Streitschrift aus dem 13. Jahrhundert. Ed. Clemens Baeumker. Münster: Aschendorff, 1898. 'Beiträge zur Geschichte der Philosophie des Mittelalters; Texte und Untersuchungen,' Vol. II, No. 6.

—— Questions sur la Physique d'Aristote, texte inédit, par Philippe Delhaye. Louvain: Edition de l'Institut supérieure de philosophie, 1941.

The complete commentary on Books I–IV and VIII of the *Physics.* Comprises a total of 141 questions.

Souchon, Martin. Die Papstwahlen von Bonifaz VIII bis Urban VI und die Entstehung des Schismas 1378. Brunswick: Goeritz, 1888.

Useful for lists of the promotion of cardinals.

Steenberghen, Fernand van. Siger de Brabant d'après ses œuvres inédites. 2 vols. Louvain: Editions de l'Institut supérieur de philosophie, 1931–42.

Based on the materials discovered by Grabmann in 1923.

Strayer, Joseph R. 'The Laicization of French and English Society in the Thirteenth Century,' *Speculum,* XV (1940), 76–91.

Strayer, Joseph R., and Charles H. Taylor. Studies in Early French Taxation. Cambridge: Harvard University Press, 1939. 'Harvard Historical Monographs,' Vol. XII.

Works Cited

'Consent to taxation under Philip the Fair,' pp. 3–105, discusses the various financial expedients adopted by the crown.

Stubbs, William. The Constitutional History of England in Its Origin and Development. 3 vols. Oxford: Clarendon Press, [1926–29].

A new impression of a work originally published 1874–78. Each volume has gone through several editions.

Tardif, Adolphe. Histoire des sources du droit français: origines romaines. Paris: Picard, 1890.

—— La Procédure civile et criminelle aux XIIIe et XIVe siècles, ou procédure de transition. Paris: Picard, 1885.

These studies by Tardif are useful in judging the significance of Dubois' proposed legal reforms.

Taylor, Charles Holt. 'Some New Texts on the Assembly of 1302,' *Speculum*, XI (1936), 38–42.

Taylor, Henry Osborn. The Mediaeval Mind: A History of the Development of Thought and Emotion in the Middle Ages. 3d (American) ed. 2 vols. New York: Macmillan, 1919.

Theodulus. Theoduli Ecloga. Ed. Joannes Osternacher. Urfahr: Verlag des bischöflichen Privatgymnasiums am Kollegium Petrinum, 1902. 'Jahresbericht des bischöflichen Privat-Gymnasiums am Kollegium Petrinum in Urfahr,' Vol. XV.

One of the textbooks recommended by Dubois. Theodulus wrote in the ninth century.

Thorndike, Lynn. A History of Magic and Experimental Science. 6 vols. New York: Macmillan, (Vols. I-IV), Columbia University Preco (Vols. V-VI), 1923–41.

—— University Records and Life in the Middle Ages. New York: Columbia University Press, 1944. 'Records of Civilization, Sources and Studies,' No. XXXVIII.

Includes English translation of chapters 60–63, 71–76, 79, 83–88, of the *De recuperatione*, which deal with education.

Throop, Palmer A. Criticism of the Crusade: A Study of Public Opinion and Crusade Propaganda. Amsterdam: Swets & Zeitlinger, 1940.

A study of the loss of papal prestige from the failure of the crusades. Limited to the thirteenth century. Has neither bibliography nor index.

Tosti, Luigi, conte. History of Pope Boniface and His Times, with Notes and Documentary Evidence, in Six Books. Trans. Eugene J. Donnelly. New York: Christian Press Association Publishing Co., [1911].

Originally published in 2 vols. (Paris, 1854). The translator has made no attempt to bring the scholarship up to date.

Tout, Thomas F. The History of England from the Accession of Henry III to the Death of Edward III (1216–1377). London: Longmans, Green, 1905. 'The Political History of England,' ed. William Hunt and Reginald L. Poole, Vol. III.

Tout, Thomas F., and James Tait,: *see* Powicke, Frederick M.

Works Cited

Vehse, Otto. Die amtliche Propaganda in der Staatskunst Kaiser Friedrichs II. Munich: Verlag der Münchner Drucke, 1929. 'Forschungen zur mittelalterlichen und neueren Geschichte,' Vol. I.

Verdier, Fernand. 'Origine et influence des légistes,' *Mémoires de l'Académie de Nîmes*, sér. 7, XVIII (1895), 179–201.

Traces the origin and rise of the lawyer class to the time of Louis IX.

Vesnitch, Milenko Radomir. 'Deux précurseurs français du pacifisme et de l'arbitrage internationale,' *Revue d'histoire diplomatique*, XXV (1911), 23–78.

Compares Pierre Dubois with Emeric Crucé, author of *The New Cyneas*, published 1623.

Vigne, Pietro delle: *see* Piero della Vigna.

Villani, Giovanni. La cronica di Giovanni Villani annotata ad uso della gioventú. Ed. Celestino Durando. 5 vols. Turin: Libr. Salesiana, 1879.

Selections from the first nine books have been translated by Rose E. Selfe (2d ed. London: Constable, 1906).

Vinogradoff, Sir Paul. Roman Law in Mediaeval Europe. London and New York: Harper, 1909. 'Harper's Library of Living Thought.'

Wailly, Joseph Natalis de. 'Mémoire sur un opuscule anonyme intitulé *Summaria brevis et compendiosa doctrina felicis expeditionis et abbreviationis guerrarum ac litium regni Francorum*,' *Bibliothèque de l'Ecole des chartes*, sér. 2, III (1846), 273–315 (whole number, Vol. VIII).

A paper read before the Academy at the séances of February 5 and 12, 1847. The same paper also appeared in *Mémoires de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, XVIII (1849), Part I, 435–94. Marks the nineteenth-century 'discovery' of Dubois.

Walter of Châtillon: *see* Gautier de Châtillon.

Wenck, Karl Robert. Clemens V und Heinrich VII; die Anfänge des französischen Papstthums: ein Beitrag zur Geschichte des XIV Jahrhunderts. Halle: Niemeyer, 1882.

—— 'Französische Werbungen um die deutsche Königskrone zur Zeit Philipps des Schönen und Clemens' V,' *Historische Zeitschrift*, LXXXVI (1901), 253–69.

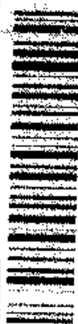
—— Philipp der Schöne von Frankreich: seine Persönlichkeit und das Urteil der Zeitgenossen; im Anhang, urkundliche Beiträge zur Geschichte der Erwerbung Lyons für Frankreich. Marburg: Elwert, 1905.

—— [Review and comment on Langlois' edition of the *De recuperatione*], *Historische Zeitschrift*, LXXI (1893), 151–56.

—— 'Staat und Kirche am Ausgang des Mittelalters,' *Zeitschrift für allgemeine Geschichte*, I (1884), 592–606.

Wieruszowski, Helene. Vom Imperium zum nationalen Königtum: vergleichende Studien über die publizistischen Kämpfe Kaiser Friedrichs II und König Philipps des Schönen mit der Kurie. Munich and Berlin: R. Oldenbourg, 1933. 'Beiheft der Historischen Zeitschrift,' No. 30.

المحتوى


Bibliotheca Alexandrina
0414610

الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن والثلاثون

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

مشاريع ما بعد الحملة السابعة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء السادس والثلاثون (٢)

دمشق ١٤٢٠ / ١٩٩٩

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١ — استرداد الأرض المقدسة لبييردوبوا

٢ — من كتاب الأسرار لمارينوسانوتو

— ٢ —

من كتاب الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال:

أحدث تحرير عكا سنة ١٢٩١ أثراً هائلاً شمل الغرب الأوربي كله، وهنا شرع رجال الكنيسة، ورجال السياسة والحكم، ورجال الفكر والقلم، كل بدوره يعمل في سبيل الإعداد لمشروع حملة صليبية جديدة، تتوفر لها سبل النجاح، وتوفرت هناك قناعة شاملة أن الطريق إلى فلسطين يمر الآن عبر مصر، وهذه القناعات كانت قد تأسست بالفعل منذ أحداث الحملة الثالثة، ومعروف أنه جرت عدة محاولات لاحتلال مصر جبهوياً، كلها باءت بالاخفاق، ولهذا وجد من اقترح الهجوم على مصر جانبياً، وهذا ما حاوله لويس التاسع، لدى نزوله القاتل له، على الساحل التونسي، وراجع الأوربيون خططهم أكثر من مرة، وسعوا إلى الاستفادة من دروس ما وقع خلال قرنين من الزمن، وسلف لنا في القسم الأول أن تعرفنا إلى«كتاب الاسترداد» الذي كتبه المحامي الفرنسي بيير دوبوا، ورأينا مشروع هذا الكتاب مشروعاً أكبر من استرداد الأرض المقدسة، مشروعاً قصد بالفعل إقامة دول كاثوليكية ليس في أوربا الشرقية، بل بالمشرق العربي كله مع تونس في المغرب، وأن ترتبط هذه الدول كلها مع باريس، مقر المملكة الفرنسية، وأراد دوبوا أيضاً تحويل البابوية من روما إلى فرنسا لتكون حكراً على الفرنسيين.

وندع دوبوا ومشروعه الاستعماري الهائل لنتحول نحو إيطاليا، ففي إيطاليا عاصر دوبوا كاتب من رعايا البندقية اسمه مارينو سانوتو Marino Sanuto وشهر بلقب تورسيللو Torsello, كتب بعد تحضيرات استمرت سنوات طوال كتاباً اسمه«كتاب الأسرار للصليبيين

الحقيقين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدسة» قدمه في سنة ١٣٢١، إلى البابا يوحنا الثالث والعشرين، (ويذكر أحياناً باسم الثاني والعشرين).

ولد سانوتو[١٢٧٠ — ١٣٤٣] في مدينة ريفوالتي Rivoalti من أعمال جمهورية البندقية، في منطقة سينت سيفرو Seivero ،وكان والده من وجهاء البندقية وعضواً في مجلس شيوخها، وقد شغل أدواراً هامة في حياة البندقية وشؤونها البحرية.

ونشأ سانوتو نشأة دينية، وغالباً ما مارس العزف في الكنيسة على آلة موسيقية جديدة، ألمانية المنشأ عرفت باسم تورسيللوTorsello ،ولاختصاصه بالعزف على هذه الآلة بات يعرف بلقب تورسيللو.

وتقلد سانوتو عدة مناصب، من ذلك مستشاراً في محكمة بلرم ثم في البندقية نفسها، وبحكم الأجواء التي عاشها شارك بالاهتمام بالحروب الصليبية وبأوضاع الأرض المقدسة، وازداد هذا الاهتمام منذ سنة ١٣٠٧، أيام البابا كليمنت الخامس، وإلى هذا البابا قدم مذكرة حول أفكاره وما يراه من مشاريع وكان ذلك سنة ١٣٠٩، وتقدم ورأينا من قبل، في المدخل إلى كتاب دوبوا أن هذا البابا عدّ فرنسياً، وفي فرنسا عاش، وكان قد وصل إلى عرش البابوية سنة ١٣٠٥، أي أن سانوتو تحرك بمشروعه بعد بيير دوبوا بوقت قصير، وعلى هذا عبر مع دوبوا عن تيارات جيلهما، ولا بد هنا من افتراض وجود مؤثرات متبادلة غير مباشرة بين الرجلين.

وكان ملك فرنسا آنذاك — كما رأينا — فيليب الجميل، حفيد القديس لويس، وصحيح أن هذا الملك لم يعرف جده، لكنه حاول أن يتلبس شخصيته، ولا سيما في المجال الديني، والمشاعر الصليبية، وقد

وصف نوغـاريت الذي كان المستشـار الرئيسي لفيليب من ١٣٠٣ حتى ١٣١٣، مليكه بقـوله:«كان مليئـاً بالنعمة، محسناً، تقيـاً، ورحيماً، يمارس دومـاً العدل ويتبع الصـدق، ولم يكن بذيئاً في كلامـه، مؤمناً متحمسـاً، ومتديناً في حياته، ويبني الكنائـس، وينشغل في أعمال التقوى»، ويذكرنا هذا الوصف بأوصـاف جـوانفيل للقـديس لويس، وكان جـوانفيل قـد كتب كتابه أيضاً في هذه الآونة.

وكان فيليب الجميل في الثالثة من عمـره عندما توفي جده، وقد تسلم العـرش سنة ١٢٨٥ وهـو في السـابعـة عشرة من عمـره، وحين تسلم السلطة كـانت المملكة الفـرنسيـة مثقلـة بالديون، وتحتـاج إلى أكثـر من ثلاثمائة سنة لوفـاء مـاعليها، لهذا عمـد إلى إنقـاص عيـار العملة، وإلى فـرض ضرائب ثقيلة على البورجـوازية في مملكته، وإلى محاولة مصـادرة ممتلكات الكنيسـة، وقـام بتصفيـة طائفـة الداوية واستـولى على ثرواتها، وفعل ذلك وهو يتـذكـر كيف تمنع الداوية عن مسـاعـدة جـده في دفع المتوجب عليه من فدية بعد فكاك أسره من المنصورة.

وأدت أعمال فيليب هذه، وصراعـاته مع إدوارد الأول ملك إنكلترا، ونشاطاته الأخرى في سبيل الاستقـلال الدنيوي إلى الصراع مع البابا بونيفيس الثـامن، وإلى تبادل التهم والرسـائل القاسيـة، لا بل إلى محاولة اعتقـال هذا البـابـا في سنة ١٣٠٣ في أناني، وكتب فيليب في إحـدى المرات إلى بونيفيس يقـول:«من فيليـب، بفضل الرب ملك فـرنسـا، إلى بونيفيس العامـل بمثابة حبر أعظم، قليلاً من الصحـة أتمنى لكم، أو لا شيء، لتكن حماقتكم العظمى معروفة واعلموا أننا في المسائل الدنيوية لا نخضع لأحد أبداً».

وقـام البابا بونيفيس بحـرمـان الملك الفرنسي كنسيـاً، وقد مـرت بنا بعض تفاصيل أخبـار الصراعات بين البابا والملك، وكـان البابا «يمارس الجنس بنوعيـه، ولا شك أنه كـان كـاثوليكيـاً في تذوقـه الجنسي، فقـد

احتفظ بامرأة متزوجة مع ابنتها بين العاملين على خدمة فراشه، وحاول أن يغوي عدداً من الشباب ذوي الطلعة البهية، والقوام الممشوق، ويبدو أنه نجح في ذلك إلى أبعد الحدود، وقد نقل عنه قوله في تعريف الجنس وممارسته، أن هذه الممارسة(لا يتعدى إثمها قيامك بفرك يديك ببعضهما)، ولا شك أن بونيفيس قد مارس الزنا واللواطة»، وكانت هذه الممارسة القاعدة التي استند عليها نوغاريت في حملته عليه، وقد رأينا أصداء ذلك لدى دوبوا، وفي التشدد على ضرورة الاصلاح الكنسي الشامل، وأن هذا شرط أساسي لاسترداد الأرض المقدسة.

ولا شك أن سانوتو الايطالي الذي عمل في الكنيسة قد عاش هذه الأجواء، وتأثر بها، لكن ذلك لم يثبط من عزيمته، على أساس أن الدعوة الصليبية كفيلة بإحداث التغييرات الداخلية الشاملة في العالم الكاثوليكي، وفي سبيل مشروعه ارتحل سانوتو إلى بلدان المشرق، فزار أرض الشام والاسكندرية، ويحتمل أنه زار أيضاً تونس ثم منطقة القبائل في الجزائر الحالية، وعرف الأراضي البيزنطية واهتم كثيراً بدولة أرمينيا في كليكية الشامية، وأثارته حملات السلطان بيبرس ضدها.

واكتمل مشروع كتابه سنة ١٣٢١ حيث قدمه إلى البابا، فشكل البابا لجنة لفحص هذا الكتاب، الأمر الذي حدثنا سانوتو عنه في مطلع كتابه، وبعد ذلك تابع عمله، وقدم نسخاً عن كتابه سنة ١٣٣٣، إلى بعض ملوك وحكام عصره.

وكنا لدى التعامل مع كتاب بيير دوبوا، قد عددناه مرآة لعصره، وقلنا أنه من الصعب الحديث عن تأثير هذا الكتاب على السياسة الفرنسية الرسمية، لأن دوبوا عجز عن الدخول إلى دائرة المستشارين الملكيين، وعلى عكس دوبوا، أثر كتاب سانوتو على السياسة البابوية وعلى مشاريعها الصليبية، ومثلما وضح لدينا أن أفكار دوبوا قد نهلها من مصادر عصره وسواه ولم يبتكرها، كذلك نجد أن سانوتو قد نهل

من كتابات معاصيه، ولاسيما مما كتبه الراهب الفرنسيسكاني فيدانزيو دي بادوفا, Fidenzio de Padova الذي كتب عن تحرير الأرض المقدسة.

هذا وتزوج سانوتومتأخراً، ورزق بولد واحد، كما أنه كتب رسائل أخرى مع بعض الكتب غير كتاب الأسرار، وجاء كتاب الأسرار بمثابة موسوعة كبيرة ليس كل ما فيها يهم موضوع الحروب الصليبية بشكل مباشر، لذلك وقع الاختيار على المهم من الكتاب، إنما جرت المحافظة على ثبت محتوى الكتاب كاملاً، وكان قد جعل كتابه في ثلاثة كتب، كل كتاب منها في عدة أقسام وفصول، ولعله يكفي القول أنه توجب على العرب التعرف إلى هذا الكتاب منذ زمن طويل، فنحن نرى فيه أسس المشروع الصهيوني الذي طبق في مشرقنا العربي، كما نرى فيه نصاً أخطر بكثير من«بروتوكلات حكماء صهيون»، وليس من الغلو بمكان أننا نرى فيه مخططاً تاريخياً لما حدث في كامب ديفيد، وما يحدث في هذه الأيام.

والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

كتاب الأسرار للصليبيين الحقيقيين

وموضوعه الحفاظ على المؤمنين وطرد الكفرة واضمحلالهم، وكذلك العمل من أجل استراد الأرض المقدسة، والمحافظة عليها هي ومناطق أخرى كثيرة، وإبقاء الجميع بسلام وأمان .

المؤلف هو مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، الذي هو من مدينة ريفوالتي، ومن منطقة سينت سيفرو، من أعمال البندقية.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي
آمين

في ٢٤ أيلول لعــام ١٣٢١، أدخلت أنا مــارينـو سـانـوتو، الملقب بتورسيللـو، من البندقية، بنعمـة غامرة، إلى حضرة أبينـا، قداسة البـابا، وقدمت له نسختين من رسالة حـول استرداد الأرض المقدسة، والحفاظ على المؤمنين، نسخة مغلفـة باللون الأحمر، والثانيـة بصليب، وقدمت له أيضـاً أربعة مصـورات أرضية، الأول عن البحـر المتوسط، والثـاني عن الأرض والبحر، والثالث عن الأرض المقدسة، والرابع عن أرض مصر، وكل مـا كنت عـازمـاً على قـوله لـه، سلمتـه إياه مكتـوباً، كما هو وارد فيمايلي:

وقبل الأب الأقـدس كل الذي ذكرته أمـامـه، بكل لطف وعرفـان، وأمر بـأن تتلى عليه المقدمـة،وجزء مـن المحتوى وبعضاً مـن النصوص بحضوري، ولم يكتف بهذا بل سألني عن عـدد من القضايا واستوضح حولها، وقد أجبته على كل مـا سألني عنه، وفي الختام قال لي مايلي:«أريد إخضاع هذه الرسـالة للفحص»، فأجبته بكل احترام:«هـذا ما يطيب لي على أن يتسم الفـاحصـون بالأمـانة»، فأجـابني:«لا يسـاورك أدنى شك حـول هـذا الشأن»، وأضـاف مطمئناً لي يقـول:«يمكنك الذهاب حيثما ترغب»، وعندها غـادرت، وتلطف بـذاته فـاستـدعى بوانتيـودي است Boentio de Ast ،وكان من رهبنة الدومنكان، ونائبـاً أسقفياً في بلاد أرمينيـا، ويعقـوب دي كـامـرينوJacob de Camerino ،من رهبنة طائفـة الفرنسيسكان الملتحين، وكان عـائداً من زيارة لأخـوانه في بلاد فارس، ومتى القبرصي، وبولينو مـن التابعين للبندقية، وكـانا أيضاً من طائفة الرهبـان الفرنسيسكان، وناولهم نسخة الرسـالة المغلفة بشكل

صليب، وطلب القيام بتفحصها بكل دقة، وأن يرفعوا تقريراً حولها إليه، وانصرف الجميع نحو دراسة الرسالة بدقة وأمانة، وأكبوا على عملهم في بيت بولينو Paulino ، وكتبوا تقريرهم ورفعوه بالاجماع، وبعد مضي ثلاثين يوماً، من تسلم البابا التقرير، وفي يوم السبت من بعد الظهر استدعى الرهبان المذكورين، ثم قابلني أنا أيضاً بترحاب، وسأل الرهبان المذكورين مراراً:«هل أنتم على رأي واحد بهذا الصدد»؟ فأجابوه باحترام:«نعم أيها الأب الأقدس، نحن على رأي واحد، ومتفقين وقد كتبنا رأينا حول الموضوع»، وسألهم البابا أسئلة أجابوه عليها، وأجبت أنا على بعضها، ثم أنهى الجلسة بقوله:«لقد تأخر الوقت، اتركوا تقريركم الخطي هنا، ولسوف نستدعيكم من بعد»، وهكذا غادرنا وبقيت الرسالة عنده مع التقرير.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي
آمين

أنا مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، من تابعية البندقية، أتقدم إلى قداستكم بكل تواضع وتقوى، بشأن الموضوع الذي مثلت من أجله في حضرتكم، وهو الموضوع المتعلق بشكل خاص بالصالح العام للمسيحية جميعاً في الماضي والحاضر، وأنا لست مدفوعاً من قبل أي ملك أو أمير، أو جماعة، أو محرض من قبل أي شخص على الاطلاق، بل مدفوعاً بمحض إرادتي ورغبتي، ذلك أنني بعد التأمل ملياً حول الخير العميم، وحول المحصلة التي من الممكن لقداستكم تحقيقها بنفقة زهيدة، لابل من دون أية نفقة أو إنفاق، والتمكن من إذلال كبار أعداء الايمان المسيحي وإبادتهم، وخاصة سلطان القاهرة، وأزبك خان التتار المتحكمين بالبلاد الجنوبية، وهوالذي انتشر خبره لدى عدة شعوب على أنه قوي جداً، ومثله الترك الذين هاجموا بلاد الامبراطورية البيزنطية حتى تخوم جزيرة المورة، التي هي تحت حكم اللاتين، يضاف إلى هذا أنه من الممكن مساندة سلطان التتار الحاكم في توريز(تبريز)، وفي بلاد العجم، ذلك أنه عدو لكل من سلطان القاهرة وخان الجنوب، وقد حدث فيما مضى أنه دافع بكامل قدرته عن مملكة أرمينيا ضد المسلمين المعتدين.

ولقداستكم تقدير ضرورة إبادة الأمة الإسلامية، التي نشرها محمد(ﷺ)، ولتعلم قداستكم أن هذا أمر ممكن تحقيقه، حسبما سيتضح الأمر لكم من خلال ما جاء في هذا الكتاب، وسترون أنكم ستتمكنون — بعون الرب — بسهولة ويسر من احتلال أرض الميعاد المقدسة، ومعها باقي المناطق المجاورة، وسيكون بإمكان قداستكم إعادة الاغريق

وباقي الهراطقة إلى حضن الكنيسة الرومانية الأم، وأستطيع أنا أن أقول بكل تأكيد: لقد تشوقت نفسي إلى مثل هذا اليوم، اليوم الذي أُجاب فيه إلى ما أنتظر، وأستطيع فيه المثول أمام حضرتكم، لأهدي إليكم كتبي كلها.

وكنت، في سبيل مشروعي هذا، قد عبرت البحر خمس مرات، حيث ذهبت مرة إلى قبرص، وثانية إلى أرمينيا، وثالثة إلى الاسكندرية، كما ذهبت إلى رودس، وكنت قبل أن أقوم بهذا كله قد أقمت مدة طويلة في كل من الاسكندرية وعكا، وذلك دون خرق للحظر الذي فرضته الكنيسة، وقضيت على كل حال وقتاً طويلاً من أيام حياتي في جزر بلاد الاغريق، ولهذا أعدّ نفسي مطلعاً بشكل جيد على أحوالها، ولاسيما على الأوضاع في إمارة المورة، وقدمت الآن حتى أضمن وضع هذه الكتب أمام قداستكم، من البندقية، عبر طريق البحر إلى بروغو Brugu، ثم أخذت طريقي براً إلى بلاطكم، وكلي أمل أن تنظر قداستكم في أمر هذه الكتب، أو تتكرموا بتسليمها إلى من يتفحصها، كما يطيب لكم، راجياً من الخالق العلي، ومن علمكم الشائع، ومن لطف قداستكم المعروف في كل مكان، أن تعملوا ما هو نافع وصالح في هذا المقام.

أيها الأب الأعظم قداسة، لقد صليت دوماً وما برحت أصلي وأدعو طالباً من خالق الجميع، أن يتلطف فيحفظ قداستكم طويلاً في كنيسته المقدسة، وأن يمنحكم النعمة لتنجزوا بتوفيق الذي هو نافع لمجده ولحمده، ولانتشار الإيمان المسيحي.

وبالنسبة لي إنني خاضع لأوامركم دوماً، حسبما هو متوجب على مسيحي مؤمن، آمين.

تقرير الأخوة الرهبان

حول رسالة مشروع الأرض المقدسة

حول موضوع الكتاب الأول:

أيها الأب الأقدس: بعد تفحصنا الرسالة بكل دقة، اتضح لنا أنه اعتماداً على محتوى الكتاب الأول، من الممكن تجهيز كل ما هو لازم، بطريقة لائقة، من أجل ركوب البحر، والعبور إلى مصر، ولاشك أن موارد السلطان ستضعف، وستنشل قواه ومقوماته، هذا وإن المواد التي نستوردها من البلدان الخاضعة للسلطان، من الممكن الحصول عليها من بلدان أخرى، وعندنا أن هذا سهل تحقيقه، إذا ما نظرنا إلى الماضي، وإلى ما برح يحدث الآن، ذلك أنه من الممكن الحصول على تلك المواد من توريز ومن بغداد، عبر البحر الكبير، وبراً عبر أرمينيا الصغرى، ويبقى السؤال متعلق بمادة الكتان، حيث لا نعلم هل ينبت الكتان في غير مصر أم لا.

وبين الكتاب أنه للوصول إلى الهدف يتوجب الأخذ بثلاث إجراءات:

الاجراء الأول : أن تكون أوامر الحرمان الكنسي أشد مما اعتيد عليه، وقد تظهر الأوامر متشددة للغاية، غير أن ذلك هو الأنفع، وقد طالب المؤلف في القسم الرابع — الفصل الثاني ، بملاحقة المخالفين، مثلما يلاحق الهراطقة، وأن تطبق على من يدعمهم أو يمنحهم المأوى والحماية العقوبات نفسها التي تفرض بحق الهراطقة، ولانجاح المشروع، ينبغي تعيين مفتشين يتولون ملاحقة أمثال هؤلاء الناس، وإنزال العقوبات بهم.

وبشأن ما قاله في الفصل الخامس من القسم عينه:«ليكن محظوراً على أي إنسان — تحت طائلة العقوبات الواردة أعلاه — شراء أية بضائع يخمن — أو يعرف — أنها قادمة من الأراضي الخاضعة للسلطان» فالذي نراه أن هذا الاجراء سوف يسدد ضربة ماحقة لبلاد السلطان، كذلك كان قد قال في«المختصر الوجيز» بوجوب إلزام أي عامل، أو وكيل، أو جماعة(كومونة) بملاحقة من يخالف قرارات الكنيسة، تحت طائلة الحرمان الكنسي الكبير، وهنا نجد من الضروري التشديد على عبارة«جماعة»، لأن من النادر أن تقوم مدينة بكامل عناصرها بالمخالفة، ثم إنه لم تجر العادة بإنزال العقوبة بمجموعة بشرية كلها، يضاف إلى هذا أنه ورد في المكان نفسه : أن على كل من اطلع على هذا الأمر وجوب التشكي على كل مخالف للقوانين تحت طائلة الحرمان الكنسي، ونحن نرى أن هذا قاسٍ جداً، حيث لم يستثن أية حالة خاصة أو وضع منفرد.

الاجراء الثاني : يتعلق بقوله في الفصل السابع من القسم الرابع بوجوب إعداد عشرة غلايين لمراقبة البحر، ثم يخفض العدد وينزل إلى سبعة غلايين تتولى مراقبة البحر لمدة ثمانية أشهر فقط، والذي نراه أن عشرة غلايين هي بلا ريب ضرورية وأيضاً كافية، لأنه ينبغي مراقبة البحر على مدار أشهر السنة كلها، حيث تعود الناس في أيامنا على ركوب البحر في الشتاء أكثر مما كانوا يفعلونه فيما مضى.

الاجراء الثالث: هو المتعلق بتعيين قبطان واحد يكون رجلاً صالحاً مجرباً، وعظيم المقدرة، والذي نراه أنه من الضروري بسبب الطوارىء التي تحدث بكثرة يومياً تزويد هذا القبطان بمستشارين أمناء، وصالحين، ورجالاً ذوي خبرة ومعرفة بشؤون البحر، وبعادات التجار، وأن يعمل كل شيء بعد التشاور معهم، ذلك أنه إذا ما حدث حدث ما، بدافع من التعجرف، أو الشره، أو لسمة شريرة وجائرة، وعمد إلى

استخراج الغرامات من غير حق من التجار الشرفاء، قد تنهار التجارة بكل سهولة، وقد تطرق المؤلف إلى هذا الموضوع في الفصل الأول من الكتاب الثاني، والذي نراه أنه يكفي أن يكون في كل غليون رجلاً نزيهاً يتولى عمل المشرف الأعلى.

حول موضوع الكتاب الثاني:

نرى أنه بالنسبة لما جاء في الجزء الأول، أن الحل الأمثل هو أن على قائد الجيش الثاني، أي الجيش المكون من خمسة عشر ألف رجل، مع ثلاثمائة فارس، أن«يختار قاعدة له في أحد المراسي المصرية، حتى يستقبل هناك جماعات العابرين بحراً»، وبهذا المقام نتساءل:أي مرسى سيكون هذا المرسى، على الرغم من سماعنا عن شواطىء تتوافق مواصفاتها مع التي وردت في الكتاب؟

ونحن نقرّ الجزء الأول، باستثناء قوله:«أن تتم الدعوة للحملة الصليبية في السنة الثانية أو الثالثة»فالذي نراه وجوب الشروع بذلك الآن على الفور، وطبعاً بعد الإعداد الموائم.

وفيما يتعلق بما قاله في خاتمة الجزء الثاني من أنه«ينبغي عدم قيادة جيش الرب مباشرة بطريق البر إلى المرسى المصري المشار إليه أعلاه»، نرى وجوب أن يضاف هنا إلى ما تقدم أن الملك القديس لويس، لما عبر البحر في المرة الأولى، أخذ طريق قبرص، في حين أنه لما قام بحملته الثانية كان — بعدما اختبر ما هو الأفضل — عازماً على قصد مصر مباشرة، غير أنه بدّل الطريق واتجه نحو تونس، ومن هناك عبر إلى السماء، وكان سبب ذلك أنه لم يؤمّن وصول الميرة والامدادات الأخرى، وحصل الشيء ذاته مع الأمير إدوارد ، الذي صار فيما بعد ملك إنكلترا، فإننا نقرأ أنه بعد تفحص الأماكن والشؤون البحرية، وقع اختياره على ما اختاره[الملك الفرنسي]، مع أنه كان أيضاً عازماً في

البداية على الاستيلاء على الأرض المقدسة، وأن يقوم في مرحلة لاحقة بالاستيلاء على مملكة القسطنطينية وتاجها.

وبشأن قوله في خاتمة الجزء الثالث:«على المقاتلين المسيحيين بعد التمركز والتحصن البقاء بشكل دائم»، يبدو لنا أن هذا صحيحاً، إذا ما تحقق ما قيل من قبل حول المرسى المصري.

وتضمن الجزء الرابع وصف أساليب القتال، وأنواع الأسلحة والاحتياطات البحرية، وهذه أمور لا خبرة لنا فيها، ولسنا مؤهلين بما فيه الكفاية لإصدار الرأي حولها، ويبدو لنا — مع ذلك — أن ما قيل عنها متوازن ومرتب ترتيباً حسناً.

حول موضوع الكتاب الثالث:

الكتاب الثالث كتاب تاريخي، رسم الماضي لإعطاء تحذير للمستقبل، وجاء في القسم ما قبل الأخير وصف للترتيبات المتعلقة بمملكة سورية ومصر، وخاصة الأرض المقدسة، وحوى الجزء الأخير أمثلة كثيرة تعلقت بالجيش وبالاحتياطات المتوجب اتخاذها أثناء الحرب، وجاء في النهاية عرض لقانون ملوك القدس.

ويساعد كل ما تقدم على المحافظة على البلاد، أكثر مما يساعد على الاستيلاء عليها، وأبحاث الكتاب أبحاث طويلة ومسهبة جداً، مما دفعنا إلى عدم تفحصها كلها، ومهما يكن الحال، الذي نراه هو أن الأسلوب أسلوب جيد، وجدير بالثناء.

أسرار الصليبيين الحقيقيين

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي

آمين

مـذكـرة مرفـوعـة إلى جـلالة الملك، بكل احترام وخضـوع، من قبل مـارينو سانتـو، المعروف بلقـب تورسيللو، من البندقية، الذي قـدم إلى جلالتكم الكتب والمصورات الأرضية من أجل احتلال الأرض المقدسة والمحـافظة عليهـا مع المناطق المجـاورة لها، وهو يقـول: إنه لن يكون لجلالتكم مجد من جـراء الاستيلاء على العـالم ونيل الفـردوس، أدنى مما ناله الاسكندر الذي استولى على العـالم، ويمكن أن يتم لكم ذلك باتباع الترتيب التالي، والطريقة الموضحة فيمايلي:

أولاً: على جلالتكم الشروع برحلة عبور البحر، وفق الطريقة المعدة، أو وفق أية طريقة قد تروق لجلالتكم، وإذا ما تعذر تنفيذ ذلك فوراً مع عـدد كبير من الناس، فليكن ذلـك — على الأقل — بوسـاطة عشرة غلايين، كل غليون منها مشحون بمائتين وخمسين رجلاً، للتحكم بالبحر ومراقبته، وثلاثمائـة فارس، وألف من الرجـالة الشجعان للحفـاظ على بلاد أرمينيـا، ذلك أنه سيكون أذى عظيماً وعـاراً كبيراً على المسيحيـة كلها، إذا ضاعت تلك البلاد.

ثانياً : ينبغي إعداد ترتيبـات مع قداسة البابا كي يرسل مـوفدين من قبله، مع مبعـوثين من قبلكم إلى جميع البلدان المسيحية،لإبلاغها أنه إذا مـا توجب الاحتفـاظ بالأرض المقـدسـة تحت السلطة المسيحيـة، فإنه مطلوب من كل بلـد منهـا الاسهـام، وسـوف يخصص لكـل بلد منهـا نصيب من البلاد بقدر ما كان قد ساهم به، وجميع المكاسب التي سوف تتجمع من جـراء ذلك، سـوف توضع في مكان آمن ومضمـون، ولا

يصرف شيء منها، إلاّ لتمويل العبور المقدس.

ثالثاً : حبذا لو تلطفت جلالتكم بعقد ميثاق صداقة مع دوج البندقية وحكومتها.

رابعاً : وأتمنى أن تعينوا من قبلكم قائداً للجيوش، ممن ترونه لائقاً، على شرط اتباع الترتيبات الموضوعة في الكتب التي رفعتها إلى جلالتكم، وإذا ما أنجزت — بعون الرب — جلالتكم هذه الترتيبات، فإنني أعتقد أن الملك روبرت، والملك فردريك صاحب صقلية، وامبراطور القسطنطينية سيكونوا طائعين لكم في كل ما هو معقول، وبهذه الطريقة ستتمكنون من احتلال الأرض المقدسة والبلدان المجاورة لها، لابل كل ما بقي من العالم لن يستطيع الصمود أمام جلالتكم، ويمكنكم التأكد من هذا كله من خلال الكتب ومصورات الأرض المشار إليها من قبل.

وبخصوص البند الأول، إنه إذا ما اعترض معترض وقال بأن القوة المسلحة سوف تكون ضئيلة جداً، فإن مارينو سانوتو يجيب بأن تلك سوف تكون — بعون الرب — كافية للقيام بهذه المهمة، لأنها سوف تجد في قبرص وفي رودس وفي غيرهما من جزر اليونان نحو عشرة غلايين جيدة التسليح سوف تنضم إلى أسطولكم، فضلاً عن هذا، يمكن للجزر المذكورة تجهيز عشرة غلايين أخرى في زمن وجيز، ويضاف إلى هذا، إنه غالباً ما يوجد في ذلك الجزء من البحر عدد من السفن العائدة للتجار، من الممكن الاستعانة بها لا يقل عن عشر سفن منها، شريطة التحكم بالبحر بشكل جيد، بعون الرب.

أما جزيرتا قبرص ورودس فيمكنهما بيسر تأمين ثلاثمائة وخمسين فارساً، يتولون بلا انقطاع حماية منطقة أرمينيا، وعندما سيسمع المسيحيون بالأمر، فإن عدداً كبيراً منهم سوف يهبون لتقديم العون

والنجدات.

وهكذا نجد بشكل منطقي أن بلاد أرمينيا وقبرص ورودس وغيرها من جزر البحر، ستنال حراسة كافية، وبذلك سوف تتضاءل كثيراً موارد السلطان ولسوف يلحقه ضرر عظيم من جراء ذلك، وستجد الشعوب المسيحية القانطة من رؤية أي عمل مفيد، تشجيعاً كبيراً، ولسوف تتبرع بما لديها بسخاء أعظم للتفريج عن الأرض المقدسة ومساعدتها، وإذا لم تتم المبادرة باتخاذ إجراء سريع وفعال، سوف يلحق الشعوب المسيحية اليأس، وسيحدق بالمسيحية كلها خطر عظيم، وخاصة بالمسيحيين القاطنين في تلك البقعة من البحر إذا لم تبادر جلالتكم(*) فتتلطف بتقديم العون وسبل الخلاص.

* — يرجح أن هذا الخطاب قد رفع إلى فيليب الجميل ملك فرنسا.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي
آمين

هناك في الوقت الحالي ثلاثة إجراءات ملحة لصالح المسيحية هي:

١ — المحافظة على منطقة أرمينيا.

٢ — إحداث تنظيم على الأرض وفي البحر بشكل دائم لليوم وللمستقبل، والقيام بملاحقة المخالفين. وتعيين مشرفين لهذه الغاية.

٣ — شحن غلايين لمراقبة البحر، مع وجوب تطبيق عملها حسبما هو موضح ضمن هذا الكتاب.

وقد يسأل سائل:«كم من الجند سوف يلزم للحفاظ على أرمينيا»؟ وله أجيب باحترام، أنا مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو من البندقية قائلاً: إنه يلزم للحفاظ عليها ثلاثمائة فارس وألف من الرجالة، وعشرة غلايين، جيدة التجهيز، تمولها الكنيسة الرومانية بالاشتراك مع مملكة قبرص وجزيرة رودس، وجزر بلاد الاغريق، لأنه إذا ما تأمنت الحراسة البحرية بوساطة الغلايين المذكورة، وغيرها من أنواع السفن التي تكون هنا وهناك، سوف يكون بإمكان مملكة قبرص أن تؤمن باستمرار إرسال الامدادات إلى أرمينيا، هذا وفيما يتعلق بفرسان الاسبتارية، إنه بسبب إنخفاض النفقات التي تقتضيها حماية جزيرة رودس ، وبسبب الامدادات المرسلة من قبرص ومن أرمينيا، يمكنهم بيسر تأمين نفقات مائة وخمسين فارساً من المجهزين للذهاب إلى أرمينيا، وسوف يبادر العديد من الكاثوليك من بلدان عدة — لدى سماعهم بالعون الذي تقدمه الكنيسة — إلى المساهمة، وكذلك سيفعل الأرمن حسب إمكاناتهم، ذلك أنهم سيتوقفون وقتها عن دفع الجزية إلى

السلطان، ويسخرون من جهة أخرى إمكاناتهم لتجهيز جيش خاص بهم.

ومن الممكن عقد آمال عالية — دون الخشية من الانتكاسة — بالحصول على موافقة التتار، ومساعدة الذين يحكمون في بلاد فارس وفي بلاد الكلدانيين، حتى وإن كانوا بغالبيتهم من أتباع تلك العقيدة المنبوذة، ذلك أن المرجح هو تطلعهم أولاً إلى ما هو مفيد لصالحهم قبل صالح الآخرين.

وللوصول إلى غاية هذا كله، سوف تتكلف الكنيسة مبلغ مائة وخمسين ألف فلورين ذهبي، وبالمقابل سوف يلحق بالسلطان خسارة سنوية مقدارهامليون فلورين ذهبي، فضلاً عن بقية الأضرار التي سوف يتحملها هو والشعوب التي تحت سيطرته، شريطة أن تستمر الكنيسة بملاحقة المخالفين بوساطة المشرفين التي تولت تعيينهم.

وإذا ما سئلت لماذا يقوم سلطان مصر بشن هذا العدد من الحملات ضد منطقة أرمينيا، طالما أنه يتسلم من الأرمن جزية أعظم من المبالغ التي يجبيها من مملكته ومن الخاضعين له، فضلاً عن أن هذه الحملات، تستدعي الكثير من النفقات؟ أجيب إن لذلك أسباب ثلاثة:

أولها : إنه بعمله هذا يقوم بتحويل طريق التجارة التي كانت تمر عبر أرمينيا إلى أراضيه.

وثانيها : هو أن أرمينيا تقع فيما بين تركيا المدعوة بآسيا الصغرى، وبين الأراضي الخاضعة للسلطان، فإذا ما استولى عليها سوف تتضاعف قدرته وإمكانات الأتراك وغيرهم من المسلمين الموجودين في بلدان مجاورة، ويجعله هذا يضمن أن بمقدوره الوقوف في وجه التتار، المتسلطين على بلاد فارس وبلاد الكلدانيين، ولهذا السبب حاول العديد من المسلمين مراراً توحيد كلمتهم، وقد ساعدهم في ذلك بعض التتار

مع بعض الأرمن.

وثالثها: الرغبة في تدمير قوى المسيحيين الموجودين في الجزء المقابل من البحر، فإذا لم نبادر ونتخذ أسباب الحيطة، فإن أرمينيا لن تتمكن من البقاء طويلاً تحت سلطان المسيحيين، ولن تكون الوحيدة في مواجهة هذا المصير، بل ستتعرض للمخاطر نفسها قبرص ورودس وما تبقى من جزر بيزنطة.

وإذا ما حدث — لا سمح الرب — وتحالف — كما هو متوقع — السلطان والأتراك فإنهم سينالون العون من التتار الذين يحكمون بلاد الخزر(القبيلة الذهبية) وغيرها من المناطق الجنوبية، ذلك أن إرادتهم اليوم غير موحدة، ومع ذلك يخشى أن يتبدل حالهم في المستقبل، لهذا نتمنى على قداستكم إيجاد العلاج المناسب الذي ترونه.

الألقاب التي تطلقها رعايا السلطان عليه

السلطان الأعظم، السيد الأجل، السلطان الناصر، الشاهنشاه، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، سلطان الاسلام والمسلمين، فلان الدنيا والدين، مبيد الطغاة والبغاة والكفار، ولي أمير المؤمنين، سلطان العرب والعجم والترك، فاتح الأقطار، وهازم جيوش التتار، اسكندر الزمان، ومولى الاحسان، ملك البحرين، مملّك أصحاب المنابر والأسرة والتيجان، سيد الملوك والسلاطين محمد ابن السلطان الملكي، سلطان البسيطة، السلطان الملك قلاوون».

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي
آمين

أول رسالة كتاب الأسرار للحفاظ على المؤمنين، ولطرد الكفرة ولاضمحلالهم، وللعمل كذلك من أجل استرداد الأرض المقدسة، والمحافظة عليها، هي وغيرها من المناطق، وإبقاء الجميع بسلام وأمان.

إلى قداسة مولانا البابا، الحبر الأعظم للكنيسة المسكونية الرومانية، من مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، الذي هو من مدينة البندقية، ومن منطقة سينت سيفرو، من أعمال البندقية.

بعد لثم قدميكم المقدستين بتواضع واحترام.

في سبيل مجد الرب القدير، وإكراماً لمولانا يسوع المسيح، ومن أجل إعلاء شأن الايمان المسيحي، قد أخذت على عاتقي القيام بعمل شاق، وقد سهرت الليالي الطوال كي أعثر على سبيل يقود إلى استرداد أرض الميعاد المقدسة، والحفاظ عليها، بشكل أعظم ضماناً من الماضي، ففي تلك الأرض جرى خلق العالم، وفيها كان خلاصه حسبما جاء في الكتابات المقدسة، ففي الخليل(حبرون) تكوّن آدم، الأب الأول للبشر، وفي القدس صلب الرب لفداء العبد والبريء بدلاً من المذنب، وبدّل الرب الطينة، وهناك أيضاً كما ذكر يوئيل قول الرب :«أجمع كل الأمم وأنزلهم إلى وادي يهوشافاط، وأحاكمهم» [يوئيل : ٣ / ٢].

ومرد هذا كله محبة الأرض المقدسة في كل قلب لامس شغافه حب الرب وحب موطنه، واسترداده وزيارته، وخير الرب وجلالته واحترامه، والخوف والرعشة الدنيوية، وأداء الحساب الأخير.

لأول عشق سحر خاص وجاذبية، وهكذ يبحث المولود حديثاً عن أمه وعن ثدييها، وكذلك ترجع الأنهار إلى البحار، أي إلى حيث

خرجت، وأيضاً يجذب المغناطيس، لأن في المغناطيس طاقة تجذبه دوماً إلى القطب الذي جاءت منه بدايته.

ومثل هذا لا يستطيع المؤمن صم أذنيه لدى سماعه الرب وهو يقول ليعقوب:«قم اخرج من هذه الأرض وارجع إلى أرض ميلادك»[خروج:٣١ / ١٣]، فبدلاً عن ذلك عادت إلى هناك تلك الأمة الآثمة المفسدة، التي لم توجه قلوبها قط نحو الرب، ولا أسلمت إليه عقولها، بل مثل الصل، أصمت آذانها.

ويتوجب الآن على المسيحيين الحاليين التحرك بدافع العرفان للمخلص وإكراماً له، فهو الذي صعد على الصليب، مثلما يصعد على سفينة، وكان قد أوضح للذين فداهم بدمه ضرورة حمل الصليب ذلك أنه هو الذي قال:«من لا يحمل صليبة ويتبعني ليس جديراً أن يكون لي حوارياً»، ولهذا عندما صعد إلى السفينة(لحقه حواريوه) وكان ذلك صورة ورمزاً ليسوع الذي صعد السفينة، ثم ذهب إلى مدينته(حسبما سيأتي في الفصل الثاني)، وهكذا لن نتمكن من الذهاب إلى تلك المدينة إلاّ على سفينة الصليب، والخوف والرعشة من الحساب الصارم سوف تخيم علينا عندما يأتي الديان غاضباً، وعندما يأتي يكون كل شيء أمامه مكشوفاً ومعرى بما في ذلك القدس حيث قال:«ويكون في ذلك الوقت أني أفتش أورشليم بالسرج»[صفنيا : ١ / ١٢]، فهل يا ترى سيبقى أي شيء مغطى في مصر، عندما يفتش الرب بسرجه كل شيء في القدس،؟ ولسوف يدعو صوت الملاك جميع الخلق إلى وادي شعفاط منادياً:«قوموا أيها الموتى، وهلموا إلى الحساب»، فلنبادر بالذهاب إلى هناك، إما شخصياً، أو بالمساهمة بما نتبرع به، ومن الأفضل أن نمضي إلى هناك قبل أن نسبق، ولنبذل قصارى جهدنا للحصول على قطعة من تلك الأرض، إما بالحرب، أو بالمال، حتى لا نكون يوم القيامة ضيوفاً وغرباء بل من سكان بيت الرب وأتباع القديسين، لأنه كما قال زكريا:«من لا يصعد

من قبـائل الأرض إلى أورشليم ليسجـد للملك رب الجنود، لا يكون عليهم مطر»[زكريا : ١٤ / ١٧].

وبالنسبة لي لقد أثارتني هذه الأمـور، فكان أن عمدت إلى كتابة هذه الرسـالة حول أرض الميعـاد المقـدسة، ونسقـت كتبها ورتبت أجـزاءها لأرفعها إلى صاحب الكرسي الرسـولي المقدس، حتى ينظر إلى محتوياتها، ويستـدرك مـا فيهـا من نقـائـص ويصلحهـا عند الضرورة، ويقـرر مـا سيكون نافعاً لمجد الرب، ولمجد كنيسته المقدسة.

وإكراماً للثـالوث الأقدس قمت بتقسيم هذه الرسالة إلى ثلاثة كتب، لأنه عندما يكون الجسم عليلاً يعطى ثلاث وصفات سريعاً:

١ — بلسـم لتحسين أوضـاعه، لأن الدواء لا يعطي مفعـولاً، إلا إذا كانت استعدادات المريض موائمة.

٢ — الدواء الموائم، لإزالة المرض، وإعادة الصحة.

٣ — وللمحافظة على الصحة يعطى راتباً غـذائياً موائماً، يتجنب فيه كل ما هو مضر حتى وإن كـان شهياً، ذلك أن علينا اختيار مـا هو مفيد للصحة حتى وإن كان مراً.

وبناء عليـه يحتوي الكتـاب الأول على نوع من الشراب، أي على مـا يلزم لتحـرير الأرض المقدسـة ومعـالجة أمورها، ذلك أنها رازحـة منذ زمن طويل كـالسقيم المقعد تحت سلطان شعب فـاسد، ويقـود الكتاب الثاني إلى الصحة، وإلى التحرر التام، وأما الكتاب الثالث، فهو يرشد إلى كيفية العمل للمحافظة عليها حتى لا تقع مجدداً تحت حكم الكفار،

والكتب مقسمة بدورها إلى أقسـام عامة، تسهل استيعـاب مضمونها بسرعة وإيجاز، ومثل هذه الأقسام مجزأة إلى فصـول تساعد على فهم كل موضوع يجري بحثـه بوضوح وبدقة، وهكذا نجوز مما هـو شامل إلى ما

هو مفصل، أمـا محتـوى تلك الكتب والأقسام، والفصـول فقـد رتبناها كمايلي:

الكتاب الأول حول مشروع الأرض المقدسة

ويحتوي على الاجراءات والاستعدادات المتوجبة لاسترداد الأرض المقدسة، وهو في خمسة أقسام:

القسم الأول: ويشتمل على طرق إضعاف قدرة السلطان، وتبيان كيف أن باستطاعة المؤمنين بالمسيح الحصول على المنتجات اللازمة دون الاضطرار إلى الذهاب إلى الأراضي الخاضعة للسلطان، وتقدير للأذى العظيم وللأضرار الكبيرة التي سيتكبدها الكفار أتباع السلطان، إذا توقف التعامل البحري معهم، وهذا القسم في ستة فصول:

الفصل الأول: تبيان للأرباح التي يجنيها السلطان وشعبه من المنتجات القادمة من الهند، مع أسماء المراسي إلى حيث تشحن تلك المنتجات، وكيفية تحويلها عن المناطق الخاضعة لنفوذ السلطان.

الفصل الثاني : إيضاح كيف أن المنتجات التي نحتاجها، والقادمة إلينا من بلاد السلطان، يمكن الحصول عليها من بلاد المسيحيين.

الفصل الثالث: تبيان طريقة لمنع عبور الأفاوية والكتان والقنب والأقمشة المنسوجة، من مصر إلى البحر المتوسط فأوربا، ذلك أن الإتجار بها يعود بأرباح كبيرة على السلطان وعلى الشعب الخاضع له.

الفصل الرابع : ذكر للأضرار التي سوف تلم بالسلطان وبالشعب الخاضع له في حال إيقاف تصدير الذهب والفضة والحديد وبقية أنواع المعادن وغير ذلك من المنتجات إليهم.

الفصل الخامس: تبيان للخسائر الفادحة وللنفقات الكبيرة التي ستتوجب على السلطان وتنزل به إذا أوقف تصدير المواد الغذائية، والمنتجات المتنوعة، من بلاد المسيحيين إلى بلاده.

الفصل الســادس : وصف بلاد مصر، وتبيــان الضرر العظيم الذي ســوف يلم بمصر إذا مــا انقطعت عنهــا السفن مع بــاقي الأصناف المحتاجة للملاحة البحرية.

القسم الثـاني: ذكـر كيف أن أحـدى المناطق الخاضعـة للسلطان قـد تعرضت للضعف، وهو في فصلين:

الفصل الأول: شرح كيف تضـاءلت ثروة إحــدى المناطق الخاضعـة للسلطان، والمعني بذلك المنطقة الواقعـة خلف البادية وكذلك في بعض أرجاء سورية.

الفصل الثـاني : يوضح كيف أن عــدد السكان وخـاصــة الرجـال المقاتلين، قد تضاءل في الأراضي الخاضعة للسطان .

القسم الثالث: ذكر للبضائع التي يحتاجها المسلمون، والتي لا بد لهم من الحصول عليها من الخارج، ويقع هذا في فصلين:

الفصل الأول: الأسبـاب الداعيـة لمنع تصـديـر السفن وباقي اللوازم المحتاجة للملاحة إلى المسلمين في مصر.

الفصل الثاني: تبيان للطـرق والاجراءات التي يتخذهـا المسلمون في مصر للمحـامـاة عن منطقتهم، ولكي يحصلوا من البلدان الأخـرى على الغلمان والجواري.

القسم الرابع: وجوب إيجاد إجراء للمقاطعة أنفع من الاجراء الحالي، وكيفية إعـداد الغلايين اللازمة للدفـاع عن المسيحيين الساكنين في تلك المناطق من البحـر، وبالوقت نفسـه لتدمير المسلمين، وكيفيـة العمل لمنع أية أعمال تجارية على الإطلاق مع البـلاد الخاضعـة للسلطان عبر البحـر المتوسط، ويحتوي هذا القسم على سبعة فصول:

الفصل الأول : لماذا يتــوجـب منع أي اتجار مع المسلمين الخاضعين

للسلطان من دون استثناء، أو اتصال بهم، أو سفر إلى بلادهم.

الفصل الثاني: لماذا يتوجب على جميع المسيحيين مطاردة المخالفين لأوامر الكنيسة في هذا المجال، في كل مكان، وليس فقط في البحر بل وفي البر.

الفصل الثالث : وجوب إغلاق الطرق في وجه البضائع التي اعتاد التجار على نقلها من الأراضي التابعة للسلطان، عبر أفريقيا كلها، ثم عبر الأندلس حيث يقيم المسلمون.

الفصل الرابع: أسباب وجوب أن يشمل هذا الحظر حتى الشمال من نهر سيحان حتى آني Annia .

الفصل الخامس: الأسباب المسوغة لمنع أي مسيحي من شراء أية بضائع مجلوبة من البلدان الخاضعة للسلطان، مهما كانت الطرق التي جاءت منها.

الفصل السادس: العقوبات المتوجب إنزالها بالأمراء وبحكام المناطق وبالجماعات التي لا تلتزم بهذه الإجراءات، فتستقبل تلك البضائع في مراسيها، أو في أراضيها.

الفصل السابع : مراقبة البحر وحراسته، وكيفية تأهيل الجهاز الأمني الأول للمسيحيين — أي الجيش — للحرب، ومقدار التكاليف.

القسم الخامس: الأسباب المسوغة لتوجب يقظة الكنيسة في هذا المجال وهو في ثلاثة فصول :

الفصل الأول: الحث على متابعة تنفيذ هذا المشروع بعد الإقلاع به مباشرة.

الفصل الثاني: التوجه بشكل ملح بنداء نحو المسيحيين في البلدان الأوربية وطلب النجدة منهم ومن زعمائهم وملوكهم.

الفصل الثالث: خاتمة فيها خلاصة كل ما ورد في الكتاب الأول.

بدايةالكتاب الثاني من هذه الرسالة.

ويحتوي على الطرق الواجب اتخاذها والوسائل

المتوجب استخدامها لاسترداد الأرض المقدسة

وهو في أربعة أقسام

القسم الأول : تنظيم الجيش المسيحي الثـاني وشكله، وهو في أربعـة فصول:

الفصل الأول : وجـوب وجـود قبطان واحـد، مـع المؤهلات التي ينبغي توفرها فيه، وعدد معاونيه والأماكن المتوجب عليه الرسو فيها.

الفصل الثاني : الدولة البحرية الأكثر مواءمة لتنفيذ هذا المشروع.

الفصل الثالث: الإعداد للإبحـار، والتجهيزات الواجب تهيئتهـا من أجل عبـور مجمـوعـة من الجنود، وتحضير الامـدادات، وسبل اكتسـاب صداقة التتار.

الفصل الرابع: كمية النفقات اللازمة لجيش قوامه خمسة عشر ألفاً من الرجالة وثلاثمائة من الفرسان، والعطاء الواجب أن يؤمن لهم.

القسم الثاني: تحديد الطرق التي يرى بعضهم أنها أكثر مواءمة ليركبها الجيش تحت راية الكنيسـة، وتسميـة أفضل طريق بحـرية للوصـول إلى مصر، وهو في عشرة فصول.

الفصل الأول : في أنه لا يجوز أن تسلك راية الكنيسة طريق البر.

الفصل الثاني : ردّ رأي القائلين بوجـوب رفع هذه الراية على أرض أرمينيا أو سورية أو القدس في الأرض المقدسة، أولاً.

الفصل الثالث: رفض رأي القائلين بوجوب الإنزال البحري في قبرص، أولاً.

الفصل الرابع: التحصينات وملحقاتها، وحديث حول التفكير الدأوب لدى البابا ولدى أخوانه بشأن حشد هذا الجيش من رعيته ومن المؤمنين بغية ضمان التحصينات، والذي تم في الماضي للاستيلاء على تلك التحصينات، وما ينبغي الآن القيام به للغاية نفسها.

الفصل الخامس: مثل رمزي يتعلق بشجرة يتوجب اقتلاعها، وما هو متعلق بها، وبالينابيع التي ترويها، وبالثمار التي تعطيها وتنتجها، وحول الذين يذهبون لشراء ثمارها، وكذلك حول الأمراء الأتقياء الذين لم يريدوا ولا أرادوا ومازالوا يريدون اقتلاعها، وحول ما تمّ ويمكن أن يتم بهذا الشأن.

الفصل السادس: حديث حول التحصينات وما لف لفها.

الفصل السابع: حديث حول الشجرة وتوابعها.

الفصل الثامن: ضرب مثل فيه برهان على ضرورة محاربة المسلمين في مصر، إذا ما أردنا استرداد الأرض المقدسة، وهو برهان مقتبس مما جرى بين أهل البندقية، والسيد بطريرك أكويلا أثناء الخلاف حول النمسا.

الفصل التاسع: سوق برهان آخر باهر، صدوراً مما حدث في مصر أيام القديس ملك فرنسا، وفي أيام اثنين من ملوك القدس اللاتين.

الفصل العاشر: الذي ينتظره الذين يطبقون — بعون يسوع المسيح — تدابير هذه التوصية.

القسم الثالث: بناء سور أمني في مصر البحرية، واختبار تطبيقي للقدرة على محاربة المسلمين، وهو في أربعة فصول.

الفصل الأول: حول الوسيلة التي يستطيع المسيحيون بوساطتها الاستمرار في تحصينات مصر البحرية، وذلك وفقاً لما قامت به البندقية التي تمكنت من الصمود في وجه الغالبين حين زحفوا ضدها، وكذلك في وجه الأفارقة والقبارصة وأتيلا، واللومبارد، وسواهم.

الفصل الثاني: حول الاستعدادات التي يمكن للمسيحيين بوساطتها حماية أنفسهم في مصر، ضد جيرانهم المسلمين، مثلما فعل البنادقة.

الفصل الثالث: كيف يمكن للصليبيين أن يزعزعوا أركان مصر، ضرب مثل بما تمكن من صنعه البنادقة وأصحاب المدن، والأماكن القائمة على مستنقعات وعلى أنهار.

الفصل الرابع: جواب مقنع لما قد يثار من شكوك.

القسم الرابع: ويدور حول الخطة والأسلوب والترتيب والاحتمالات الممكن حدوثها في حال نشوب المعارك وما يتعلق بها، وذلك من أجل تحقيق مشروع الأرض المقدسة بنجاح، وفيه إيضاح على أن المسلمين والمنشقين لن يتمكنوا بشكل منطقي من الدفاع عن الأرض، وفيه تسع وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: ما يثار من اعتراضات حول قدرة الجيش المسيحي، وحول العوائق المفترضة، التي قد تحول بينه وبين الوصول إلى النتيجة المتوخاة، وجواب منطقي لتلك الاعتراضات.

الفصل الثاني : بعض الحجج حول إمكانية أن يهاجم السلطان من جهة النيل، والإجابة لهذه الحجج.

الفصل الثالث: المثل الذي ضربه قورش ملك الفرس، ووثائق الجيش الصليبي.

الفصل الرابع: التساؤل عما إذا كان عدد المراكب التي عند المسلمين

على النيل يمكنها مقاومة جيش الصليبيين، وإيجاد حل لهذه المشكلة.

الفصل الخامس : حول المؤن والدفاع وتجهيز سفن الجيش الصليبي.

الفصل السادس : ما يفترض أن تكون عليه السفن حتى تكون صالحة لعبور البحر، وتحقيق مشروع مصر بنجاح.

الفصل السابع: حول السفن المؤهلة لنقل الامدادات وباقي الأشياء المناسبة للجيش سواء عن طريق البحار، أو عن طريق الأنهار، وحول كيفية الملاحة في المياه العذبة، وحول ما هو أكثر فائدة لإنجاز المشروع المذكور.

الفصل الثامن : أصناف الأسلحة وتعدد أشكالها من دفاعية وهجومية، وذلك مما يحتاجه الجيش الصليبي.

الفصل التاسع: كيف يقوم القبطان بتنظيم عناصر ذلك الجيش، وكيفية توزيع المؤن عليها، حتى يسير كل شيء بنظام وبوئام.

الفصل العاشر: كميات الميرة، والطرق المتبعة لدى أهل البندقية لتوزيع الميرة على العاملين في غلايينهم، وعدد الأفراد المستخدمين، والزمن،والوزن، والعيارات، والمقاييس، وكل ما يناسب منطقياً إكماله.

الفصل الحادي عشر: عدد الغلايين التي يحتاجها الجيش الصليبي، وأشكالها، في أعماله البحرية لكي يستولي على بلاد مصر، وكيف على القبطان التصرف لإنجاح ذلك.

الفصل الثاني عشر: الأسلوب الفني المتبع لصناعة الأدوات للملاحة، والزمن المحتاج، والترتيب المأخوذ به لحفظها ولتكون أسرع وخاصة المجاذيف.

الفصل الثالث عشر: حول أنواع باقي السفن التي يحتاجها الجيش الصليبي لنقل الميرة وبقية أشكال المواد اللازمة للصليبيين الذين

سيعبرون البحر فيها بعد، وحول الأماكن وأسمائها وعددها، والترتيب الواجب اتباعه لإيصال الميرة، وحول الأماكن التي يتوفر وجودها، أو يمكن الحصول عليها. وفي هذا الفصل إيضاح أن السفن العائدة للكنيسة الرومانية المقدسة لاتناسب ولا تفيد.

الفصل الرابع عشر: إيضاح كيف أنه للا بحار إلى مصر ينبغي توفر رؤية جيدة، ومناخ مناسب، وإيضاح لفوائد مناخ مصر وكثرة المياه فيها.

الفصل الخامس عشر: المواصفات المطلوبة من الأشخاص الذين يمكن للكنيسة الرومانية المقدسة أن تتعاقد معهم لقاء عطاء، حتى يتحقق هذا المشروع.

الفصل السادس عشر: حول شكل تبديل عناصر الجيش وطريقة ذلك، وحول المشافي للمرضى، وكيف ينبغي تأمين كل شيء سلفاً، وحول النساء المتزوجات المرافقات لرجالهن، وحول شؤون الأرامل والورثة وغير ذلك من الأمور الواجب أخذها بعين التقدير.

الفصل السابع عشر : حول المناطق الأماكن التي يمكن أن يتوفر بها ملاحون مهرة للملاحة في المياه العذبة مثلما في البحار.

الفصل الثامن عشر: حول الملاحين القاطنين في الشطر الآخر من ألمانيا، وهم من حيث المبدأ صالحون لإعطاء إرشاداتهم، ومفيدون في الإسهام في إنجاح الحملة .

الفصل التاسع عشر: حول التبشير من أجل حملة صليبية عامة، وأنواع العساكر اللازمين لاحتلال مصر.

الفصل العشرون: حول عدد الرجال اللازمين لكل غليون، لتأمين الحماية الموائمة له، ووظائف هؤلاء الرجال، وأعمالهم، والمرتبات،

والوقت، ونفقات الأطعمة اللازمة لثلاثمائة فارس وأجورهم.

الفصل الحادي والعشرون: إيضاحات وتنبيهات، وأوامر، وإجراءات احتياطية متعلقة بذلك الجيش.

الفصل الثاني والعشرون: حول صناعة الأعتدة، والأسلحة، وخاصة آلات الرمي، والمقذوفات، وكل ما من شأنه تطوير تلك الأسلحة.

الفصل الثالث والعشرون: كيف يمكن للمأجورين من قبل الكنيسة الأم المقدسة، القيام، بعد نزولهم على شواطىء مصر البحرية، بإرباك المنشقين والمسلمين بوساطة غلايينهم، وتكبيدهم الأضرار الكبيرة والخسائر الفادحة، وذلك قبل وصول جحافل الصليبيين.

الفصل الرابع والعشرون : إعدادات متقدمة وتنظيمات واحتياطات موائمة تماماً تتعلق بالأسطول البحري.

الفصل الخامس والعشرون : وصف المناطق البحرية الخاضعة للسلطان وأسماء الشواطىء والمراسي البحرية، والجزر، والفوارق بين مكان وآخر مع وصف للشواطىء التونسية التي هي امتداد بحري لها.

الفصل السادس والعشرون : وصف للمناطق البحرية الواقعة تحت سيطرة أرمينيا وصولاً إلى المناطق الخاضعة للسلطان، وكذلك المناطق التابعة لتركيا من جهة الشمال.

الفصل السابع والعشرون : حول دور الصليبيين المأجورين من قبل الكنيسة الرومانية المقدسة، لدى نزول الجيش المسيحي على الشاطىء المصري،وحول ضرورة الاستيلاء على نهر النيل، وتبيان لكيفية الاستيلاء على جزيرة رشيد، وكم ينبغي أن يبلغ تعداد أولئك الصليبيين، وفيه إيضاح على أن من المتوقع منطقياً اضطرار المسلمين إلى التخلي عن أرض مصر للمسيحيين.

الفصل الثامن والعشرون: أسئلة وأجوبة حول الاعتراضات المثارة ضد قدرة المسيحيين: أي هل سيستطيعون بعد إخضاع أرض مصر مجابهة قوات السلطان، لابل وقوات المسلمين جميعاً، ومن ثم متابعة العمل للاستيلاء على أرض القدس وسورية، وإيجاد حلول للمشاكل الناجمة عن مجاورة القدس وسورية، ووسائل اكتساب صداقة التتار.

الفصل التاسع والعشرون: مذكرة خاصة بالأمراء والأعيان الذين يفكرون بهدوء وعقلانية حول شؤون السلاح والحروب.

بداية الكتاب الثالث من هذه الرسالة

ومنه يمكن أن نعرف كيف ينبغي العمل للحفاظ على

أرض الميعاد المقدسة في حالة جيدة وسليمة

مطمئنة، وذلك بعد إخضاعها للسلطة المسيحية،

في سبيل مجد الرب وشرف الكنيسة الكاثوليكية

ويتألف هذا الكتاب من خمسة عشر قسماً

القسم الأول: حول الأمم المتعددة التي توالت على الحكم في الأرض المقدسة، ويتألف من أربعة عشر فصلاً.

الفصل الأول: تبيان الأسباب التي جعلت أرض الميعاد المقدسة عرضة لهجات جميع الأمم، ولماذا حدث لأهلها أن نكبوا مراراً، وطردوا من أرضهم.

الفصل الثاني : كيف بدأ أبناء حام بزراعة أرض الميعاد، ولماذا طردوا منها.

الفصل الثالث: كيف زرع بنو إسرائيل المنحدرين من سام من خلال إبراهيم، لوض الميعاد، بعدما طردوا منها أبناء حام أو استبعدوهم.

الفصل الرابع: كيف كان سلوك بنو إسرائيل في أيام القضاة الأربعة عشر.

الفصل الخامس: كيف أخذ الشعب ينصب لنفسه ملوكاً، وكيف انقسمت المملكة إلى مملكتين، مملكة يهوذا، ومملكة الأسباط العشرة، ونهاية المملكة الثانية.

الفصل السادس: تطور مملكة يهوذا — أي القدس — ونهايتها.

الفصل السابع: موت إرميا وحزقيال، سبي من بقي من يهوذا إلى بابل، وكيف احتل قورش بابل.

الفصل الثامن: نهاية السبي، والعودة أيام الكاهن يشوع، والشروع بإعادة بناء الهيكل.

الفصل التاسع: أخبار يهوديت، وعزرا، ونحميا، وإستير ومآثرهم في أيام الكاهن الأعظم يواكيم إيليا، وفي أيام يهوذا.

الفصل العاشر: الضغينةا لتي أظهرها الكاهن يوحنا ثم خلفه جاد، وموت الاسكندر أيام أونيا، اضطهاد بطليموس لليهود، وترجمة الكتاب المقدس على يد السبعين مترجماً أيام الكاهن الأعظم أليعازر.

الفصل الحادي عشر: الخلافات بين اليهود أيام أونيا، والحروب التي شنت عليهم من سورية ومن مصر، واضطهاد سلوقس وأنطيخوس ملكي سورية لليهود، وخلع أونيا وموته، وكذلك أخبار المكابيين وبطولاتهم.

الفصل الثاني عشر: عودة حكم الملوك إلى أرض الميعاد.

الفصل الثالث عشر: الجريمة الفظيعة التي اقترفها اليهود لدى ملاحقتهم للمسيح ولرسله.

الفصل الرابع عشر: دمار القدس، وطرد اليهود ونفيهم من تلك الديار على أيدي الرومان أبناء يافث.

القسم الثاني: بداية قيام الكنيسة الشرقية وهو في أربعة فصول.

الفصل الأول: البداية المجيدة للكنيسة الشرقية.

الفصل الثاني: فتور الحماس الأول في الكنيسة، وما تبع ذلك من أحزان على يد كسرى.

الفصل الثالث: انتصار هرقل على كسرى.

الفصل الرابع: الاضطهاد الاسلامي للكنيسة الشرقية، وتبيان أوضاعها المقلقة حتى قدوم الحملة الصليبية الأولى بقيادة غودفري دي بولليون، وبطرس الناسك، وهو في ثمانية فصول.

الفصل الأول: وقوع هرقل في الهرطقة، واحتلال عمر خليفة محمد(ﷺ) للأرض المقدسة.

الفصل الثاني : بداية ظهور محمد(ﷺ) وكيفية استيلائه على البلدان.

الفصل الثالث:حياة محمد(ﷺ) وموته واقتسام إرثه.

الفصل السادس: حملة شارلمان للتفريج عن الأرض المقدسة.

الفصل السابع: رجوع شارلمان ومعه الآثار المقدسة.

الفصل الثامن: تدهور أوضاع أرض الميعاد المقدسة، لا سيما بعد اندحار امبراطورية القسطنطينية.

القسم الرابع: حول النهضة الرائعة لشعوب الغرب من أجل تحرير الأرض المقدسة أيام بطرس الناسك، وهو في أربعة عشر فصلاً.

الفصل الأول: ابتهال من القلب من أجل الخلاص، وبداية الخلاص

المؤمل.

الفصل الثاني: معاودة الاحتشاد بسرعة من أجل العبور إلى الأرض المقدسة.

الفصل الثالث: زيارة غالتيري Gualteri للقدس، ومواكبته حتى القسطنطينية.

الفصل الرابع : الحج الذي قاده بطرس الناس حتى القسطنطينية وضم حشداً كبيراً من الناس.

الفصل الخامس: أخبار الحجاج ومآثرهم أثناء وجودهم في الضفة الأخرى من بحر الروم المسمى ذراع القديس جرجس(البوسفور).

الفصل السادس : تدمير الحشود الفوضوية التي قادها إلى الحج الكاهن كاندسكوكو Condescauco.

الفصل السابع : الاخفاق التام للحشود الشعبية التي توجهت إلى الحج بدون أن يكون على رأسها قائد مسؤول.

الفصل الثامن: حج هيوج الكبير ووقوعه بالأسر، وكيف أن بوهيموند قد عزم على التوجه إلى الحج.

الفصل التاسع : حج غودفري دي بولليون، وإطلاق سراح هيوج الكبير.

الفصل العاشر: شجار بين الحجاج وبين امبراطور القسطنطينيةثم مصالحة.

الفصل الحادي عشر: زحف بوهيموند نحو القسطنطينية.

الفصل الثاني عشر: حملة كونت طولوز(صنجيل) مع أتباعه وما جرى له مع الامبراطور.

الفصل الثالث عشر: الاستيلاء على مدينة نيقية، ووصول بقية البارونات.

الفصل الرابع عشر: الانقسامات بين صفوف الحجاج وهجوم التركمان عليهم.

القسم الخامس: حول انتصارات الحجاج في مملكة القدس، والشقاقات بينهم حتى أيام الملوك، وهو في ثمانية فصول.

الفصل الأول: انتصارات تانكرد وبلدوين، اللذان وصلا قبل سواهما، ونشوب خلاف بينهما، ثم مصالحتهما.

الفصل الثاني: انتصارات ناجحة يحققها بلدوين في الشمال.

الفصل الثالث: زحف الجيش الأساسي ضد أنطاكية.

الفصل الرابع: وصف مدينة إنطاكية، وحصارها.

الفصل الخامس: التحصينات المتنوعة عند المهاجمين وعند المدافعين، والحملات المتبادلةبينهما.

الفصل السادس : سقوط إنطاكية، واكتشاف حربة المخلص التي طعن بها جنب المسيح، وهزيمة كربغا.

الفصل السابع: زحف الحجاج نحو القدس.

الفصل الثامن: حصار القدس وسقوطها.

القسم السادس : تحرير كامل الأرض المقدسة، وتطور مملكة القدس في أيام ملوكها اللاتين، وهو في أربعة وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: اختيار غودفري دي بولليون ملكاً على القدس، وغيرته على الدين.

الفصل الثاني: نصر وهبه الرب للحجاج على حشود لاتعد من الأمة الماكرة.

الفصل الثالث: عودة الحجاج وبقاء عدد ضئيل منهم، وشجاعة مدهشة في الاستيلاء على يافا، ورام الله، وغزة، وكيف حصل بطريرك القدس على ربع المدينة المقدسة.

الفصل الرابع: تتويج بلدوين الأول، والاستيلاء على أرسوف، وقيسارية، وانتصار مزدوج على المصريين، والاستيلاء على كل من طرطوس وعكا.

الفصل الخامس: وقائع وأحداث في كونتية الرها، وفي إمارة أنطاكية، وفي طبرية.

الفصل السادس: الاستيلاء على جبيل وعلى طرابلس، وعصيان بلدوين، وموت تانكرد، وبرترام.

الفصل السابع: نجاح جوسلين، وانتصار روجر على التركمان.

الفصل الثامن: بناء قلعة الشوبك، والحصن المسمى اسكندرون، وموت الملك.

الفصل التاسع: انتخاب بلدوين ملكاً.

الفصل العاشر: انتصار التركمان على الملك، ووقوعه بالأسر، وأسر الكونت جوسلين.

الفصل الحادي عشر: انتصارات على التركمان، ومعاهدة بين السريان وبين دوج البندقية.

الفصل الثاني عشر: وصف لأوضاع صور ولموقعها والاستيلاء عليها.

الفصل الثـالث عشر: إطلاق سراح الملك، وانتصـارات كبيرة على التركمان.

الفصل الرابع عشر: موت الملك بلدوين، وتنصيب فـولك ملكاً ثالثاً على القدس.

الفصل الخامـس عشر: الموت المشرف لجوسلين، وانتصـــــار كبير للملك، وبناؤه الحصنين.

الفصل السـادس عشر: مـوت كـونت طـرابلس، وزحف امبراطور القسطنطينية نحو أنطاكية.

الفصل السـابع عشر: بعض الطرق التي سلكهـا الامبراطور ومـوته، والاستيلاء على مدينة بانياس.

الفصل الثامن عشر: الثناء على الملك فولـك وعلى انتصاراته، تنظيم المنطقة الساحلية كلها، وموت هذا الملك .

الفصل التاسع عشر: بعض مآثر الملك بلدوين الثـالث ملك القدس، وقدوم الامبراطور كونراد، والملك لويس ملك فرنسا، وإنجازاتهما.

الفصل العشرون: موت أمير أنطاكية وكونت طرابلس، وموت الملك بلدوين وحملات متكررة قام بها التركمان.

الفصل الحادي والعشرون: انتصار عمـوري على المصريين، والمعاهدة معهم ضد سلطان دمشق، وبعض مـا جرى في أنطاكية، واغتيـال خليفة مصر.

الفصل الثاني والعشرون: حصار كل من القاهرة ودمياط.

الفصل الثالث والعشرون: حماسة الملك عمـوري وغيرته على الملك، وكيف أراد الموارنة العودة إلى الإيمان الصحيح.

الفصل الرابع والعشرون: مـآثر الملك بلدويـن المجـذوم الذي نصب ملكاً سابعاً، وظروف الانشقاق من أجل تنصيب غي ملكاً ثامناً.

القسم السـابع : صـورة الأوضـاع المزدهرة في الأرض المقـدسـة أيام الملوك اللاتين، وهو يقع في ثلاثة فصول.

الفصل الأول: كيف أثمرت أرض الميعاد بأمراء وبيارونات.

الفصل الثاني: كيف أثمرت الأرض المقـدسة، أرض الميعـاد، برجال دين وبأساقفة، وتقديم وصف لمدينة القدس.

الفصل الثالث:كيف أثمرت الأرض المقدســة، أرض الميعاد، برهبان، ومتقشفين وبنساك.

القسـم الثامن: أسباب دمـار أرض الميعاد المقـدسة، وفقـدانها في أيام صلاح الدين، وفيه ستة فصول.

الفصل الأول: الطقوس الدينية لدى الروم السريان من سكان أرض الميعاد.

الفصل الثـاني: عـادات الذيـن يدعـون باسم البـوليسيين، وكـذلك الموارنة.

الفصل الثالث: الطقوس الدينية لدى الجورجيين والأرمن وعاداتهم.

الفصل الرابع: الطقوس الدينية لدى اليعاقبة والنساطرة والمستعربين.

الفصل الخامس: انحطاط أخلاق كثير مـن الغربيين الذين قـدموا إلى الأرض المقدسة.

الفصل السادس: تدهور أحوال رجال الدين والرهبان.

القسم التاسع: ضياع أرض الميعاد المقدسة في أيام صلاح الدين، وفيه ثمانية فصول.

الفصل الأول: عقاب الرب العادل الذي أنزله بالسكان الفاسدين في الأرض المقدسة.

الفصل الثاني: كونتية الرها، وأسر كونتها وحاكمها الشقي، وقلعة عرقة ومدينة بانياس.

الفصل الثالث: كيف تمكن صلاح الدين من التملك على مملكتين هما، مملكة مصر ومملكة دمشق.

الفصل الرابع: حظر مجمع اللاتيران لنقل الأسلحة وما شاكلها إلى المسلمين. مذبحة مروعة اقترفها صلاح الدين بحق الشعب الصليبي.

الفصل الخامس: ضياع المنطقة الساحلية بكاملها تقريباً.

الفصل السادس: خسارة كل من مدينتي القدس وعسقلان.

الفصل السابع: بكاء راثي لضياع مدينة القدس المقدسة.

الفصل الثامن: كيف حاصر صلاح الدين مدينة صور.

القسم العاشر: النجدات التي قدمت من البلدان الغربية إلى الأرض المقدسة، أيام صلاح الدين، وفيه تسعة فصول.،

الفصل الأول: ردات الفعل المدهشة التي عبر عنها الغربيون، واهتمام الحبرين الأعظمين بتنظيم حملة جديدة.

الفصل الثاني: سفر امبراطور روما، وموته[غرقاً]، وأيضاً حصار عكا من قبل غي ملك القدس.

الفصل الثالث: وصول نجدات إلى الصليبيين وإلى المسلمين سواء، ووقوع وقائع هائلة.

الفصل الرابع: وصول كل من ملكي فرنسا وإنكلترا، والاستيلاء

على مدينة عكا.

الفصل الخامس: الأوضاع البحرية في المنطقة، ونشوب خلافات مؤسفة بين الملكين المسيحيين، وعودة ملك فرنسا إلى بلاده.

الفصل السادس: خطة الحشد الصليبي لحصار القدس، ثم تراجعه عن متابعة تنفيذ المشروع، وإعادة بناء عسقلان، والطنطورة.

الفصل السابع: إعلان غي ملكاً على قبرص.

الفصل الثامن: عودة ملك إنكلترا نحو بلاده، وتتويج أول ملك على أرمينيا، حج الألمان، وموت صلاح الدين، والحكم في الأرض المقدسة حتى تسلمه من قبل عموري ملك قبرص.

الفصل التاسع: خلافات وانقسامات بين المسلمين، ونص اتفاقات الهدنة.

القسم الحادي عشر: حملات جديدة إلى الأرض المقدسة، شرح لأوضاعها وتقلب الأوضاع، وتداول الحكم فيها منذ وفاة صلاح الدين حتى صليبية القديس لويس، وفيه ستة عشر فصلاً.

الفصل الأول: انطلاق أعداد كبيرة من الصليبيين إلى الجانب الآخر من البحر، بفضل دعوة فولكون Fulcone.

الفصل الثاني: خرق الهدنة من قبل المسلمين.

الفصل الثالث: تمزقات داخل الجيش الصليبي، وإعادة النظر في الهدن. موت الملك عموري، وعقد مؤتمر من أجل زواج وارثة العرش.

الفصل الخامس: وصول جين دي برين وتتويجه، وهجوم المسلمين على عكا وعلى من فيها من الصليبيين.

الفصل السادس : الحشد العام للعبور إلى عكا، والذي أنجز في أرض الميعاد.

الفصل السابع: حصار دمياط،و الصراع بين النائب البابوي والملك، ثم فقدان مدينة القدس المقدسة.

الفصل الثامن: الاستيلاء على دمياط، وسرعة الانغماس في الرذيلة والآثام.

الفصل التاسع: اشتباكات متفرقة، وخيبة الحشد الصليبي، وخسارة دمياط.

الفصل العاشر: قلق الحبر الأعظم واهتمامه مع الكرادلة بإرسال الامدادات إلى الأرض المقدسة، انتقال مملكة القدس إلى كونراد بن الامبراطور فردريك الثاني.

الفصل الحادي عشر: عبور الامبراطور على رأس قوة صغيرة، على الرغم من معارضة الكنيسة، والذي صنعه في قبرص.

الفصل الثاني عشر: أعمال الامبراطور في الأرض المقدسة، وتجديد الهدنة.

الفصل الثالث عشر: تقديم طلب إلى الامبراطور بإرسال ابنه كونراد إلى مملكة القدس. ونقل النائب الفاسد.

الفصل الرابع عشر: نقض المعاهدة المعقودة بين[أهل الأرض] وبين الامبراطور فردريك حول مملكة القدس.

الفصل الخامس عشر: عبور ملك نافار إلى الشرق، وإعادة النظر في بقية الهدن.

الفصل السادس عشر: عبور رتشارد دي كورنبي أيضاً، وانتقال ملك

مملكة القدس إلى أيدي الملكة إليزابث.

القسم الثاني عشر: القديس لويس وحملتيه، مشاكل متواصلة ومتنوعة في الأرض المقدسة، حتى طرد الصليبيين منها، وفيها اثنان وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: كيف حمل لويس ملك فرنسا الصليب، معارك الصليبيين في الأرض المقدسة، ضياع القدس المدينة المقدسة.

الفصل الثاني: عبور الملك لويس واحتلاله لمدينة دمياط.

الفصل الثالث: وقوع الملك لويس بالأسر، وإعادة دمياط.

الفصل الرابع: أوضاع الأرض المقدسة يوم كان القديس هناك.

الفصل الخامس: خلافات بين أهل جنوى وأهل البندقية والبيازنة.

الفصل السادس: حروب التتار ضد المسلمين،وضد المسيحيين أيضاً.

الفصل السابع: مطالبة إليزابث بمملكة القدس من النائب هناك. تدمير بعض المناطق من قبل الصليبيين ومن قبل المسلمين.

الفصل الثامن: حملات متفرقة لسلطان مصر ضد الصليبيين، ومؤامرات متبادلة بين الجنويين وبين البنادقة.

الفصل التاسع: حملات متفرقة من البندقداري ضد الصليبيين، وفقدان مدينة أنطاكية.

الفصل العاشر: عبور ملك فرنسا، القديس لويس إلى تونس وموته. معاهدة فيها بين ملك صقلية وبين ملك تونس.

الفصل الحادي عشر: حملات البندقداري ضد الصليبيين، وكيف حرض الصليبيون التتار ضده، ومحاولة للتهادن غير موفقة.

الفصل الثاني عشر: مغادرة الأمير ادوارد للأرض المقدسة. إرسال بعض الامدادات من قبل الكنيسة ومن قبل ملك فرنسا، وحوادث متفرقة.

الفصل الثالث عشر: اهتمام مجمع ليون بإرسال حملة إلى الأرض المقدسة.

الفصل الرابع عشر: خلافات داخلية وخارجية بين المسيحيين في الغرب حول إرسال حملة إلى الأرض المقدسة.

الفصل الخامس عشر: البلاط الروماني يضع حداً للخلاف ما بين ملك قبرص والآنسة مريم، وتنازل الأميرة مريم عن حقوقها لصالح شارل ملك صقلية.

الفصل السادس عشر: وصول نائب عن الملك شارل إلى عكا، وتقديم أهل المدينة الولاء له.

الفصل السابع عشر: حروب وموت البندقداري، شقاق بين أمير أنطاكية وبين الداوية، ومحاولة ملك قبرص الاستيلاء على عكا.

الفصل الثامن عشر: مؤتمر للصليبيين والمسلمين في المرقب.

الفصل التاسع عشر: موت هيوج ملك قبرص وهو في طريقه إلى صور، وحصول ابنه هنري على عكا.

الفصل العشرون: ضياع اللاذقية وطرابلس.

الفصل الحادي والعشرون: ضياع مدينة عكا.

الفصل الثاني والعشرون: ضياع باقي أجزاء الأرض المقدسة.

القسم الثالث عشر: بعض الأحداث والنتائج التي أعقبت الفقدان الكامل للأرض المقدسة، وهو في أحد عشر فصلاً:

الفصل الأول : انتقام السماء من المسلمين .

الفصل الثاني: خلافات بين الأمراء البحرية الذين لم يغادروا البلاد.

الفصل الثالث: الأصل المخزي للتتار وبداية الحروب.

الفصل الرابع: انتصار التتار على الأتراك.

الفصل الخامس: توسع مملكة التتار باتجاه الغرب وباتجاه الجنوب.

الفصل السادس: قبول منغوخان المغول للعماد بوساطة ملك أرمينيا، وإرساله لأخيه هولاكو ضد المسلمين.

الفصل السابع: استيلاء هولاكو على بلاد فارس وقتله لخليفة بغداد، واستيلائه على شطر من سورية.

الفصل الثامن: مسلك خلفاء هولاكو مع المسيحيين ومع المسلمين.

الفصل التاسع: سمات التتار ومهارتهم في الحروب.

الفصل العاشر: بعض بطولات القبارصة ضد المسلمين. حملة غازان ضد المسلمين والمقاومة التي جوبه بها.

الفصل الحادي عشر: انتزاع حكم قبرص ظلماً من الملك هنري.

القسم الرابع عشر:وصف أوضـــاع الأمـــاكـن، وبشكل رئيسي في الأرض المقدسة.

وهو في اثني عشر فصلاً.

الفصل الأول: وضع الأقاليم التي تحد الأرض المقدسة.

الفصل الثاني: المنطقة الساحلية لسورية كلها.

الفصل الثالث: وضع الأماكن الرئيسية في أرض الميعاد المقدسة.

الفصل الرابع: أوضاع الجبال في المنطقة الواقعة فيها وراء الأردن نحو الشرق .

الفصل الخامس : وضع الجبال الرئيسية على هذا الجانب من الأردن.

الفصل السادس: مجاري المياه والأنهار في الأرض المقدسة.

الفصل السابع: الحج من عكا خلال الناصرة حتى القدس.

الفصل الثامن: الحج خلال مدينة القدس المقدسة وجبل صهيون.

الفصل التاسع: الحج إلى الأماكن المقدسة من حول القدس.

الفصل العاشر: الحج إلى الأماكن المنسية في القدس.

الفصل الحادي عشر: الحج إلى بيت لحم وإلى الخليل.

الفصل الثاني عشر: أوضاع مملكة مصر.

القسم الخامس عشر: الإجراءات الموائمة للحفاظ على الأرض المقدسة، مع تجنب العثرات والأخطاء الكثيرةالتي ورد ذكرها، وهو في خمسة وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: الإجراء الضروري للاحتفاظ بها، دراسة للخطط العسكرية، وللقيام بتدريب متواصل على استخدام الأسلحة.

الفصل الثاني: الفائدة الكبرى للعازمين على الذهاب إلى قتال العدو، بعدم كشفهم عن مقاصدهم وخططهم.

الفصل الثالث: ضرورة الاهتمام بمعرفة خطط أعدائهم.

الفصل الرابع: أمثلة عديدة حول ضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتجنب المخاطر الكثيرة التي تتعرض الجيوش لها بالعادة وهي على طريقها.

الفصل الخامس: كيفية إقامةالمخيم.

الفصل السادس: توضيحات وأمثلة تدلل على خطورة ترك العدو يستدرجنا إلى خوض المعركة.

الفصل السابع: مواصفات المكان الموائم لخوض المعركة.

الفصل الثامن: الاحتياطات الواجب اتخاذها لدى قيادة الجيش لخوض المعركة.

الفصل التاسع: بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لهزم جيش العدو.

الفصل العاشر: بعض الإجراءات الاحتياطية والأمثلة لإعادة تنظيم الجيش في حال إصابته بانتكاسة.

الفصل الحادي عشر: بعض الإجراءات الاحتياطية والأمثلة لنصب كمائن للعدو.

الفصل الثاني عشر: بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لقطع طريق الفرار على العدو.

الفصل الثالث عشر: بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لإخفاء الكمائن.

الفصل الرابع عشر بعض الاجراءات الضرورية اتخاذها في حال تحقيق النصر في المعركة، وإجراءات احتياطية ضد الفارين.

الفصل الخامس عشر: طرق متعددة لإلقاء الحصار، والإجراءات الاحتياطية اللازمة.

الفصل السادس عشر: توصيات مفيدة للعساكر والتعليمات.

الفصل السابع عشر: وجوب الاكتفاء بملك واحد بعد الاستيلاء

على أرض الميعاد.

الفصل الثامن عشر: يتوجب على الملك الامتناع عن النفقات غير الضرورية وغير ذلك من الأباطيل.

الفصل التاسع عشر: الجرم الذي يقترفه الملك الفاسد الأخلاق، ضد المملكة.

الفصل العشرون: كيف ينبغي على الملك، بدافع من القناعة وبإرشاد من العقل لجم شهواته وملذاته الجسدية.

الفصل الحادي والعشرون: كيف يمكن للملك لجم شهواته وملذاته الجسدية، وتأمين الثروات الوافرة.

الفصل الثاني والعشرون: اهتمام الملك بشريعة الرب وغيرته عليها، وطاعته لوصاياه.

الفصل الثالث والعشرون: تقوى جلالة الملك ولطفه وعطفه على رعيته.

الفصل الرابع والعشرون: عدالة الملك وإنصافه وصحة أحكامه.

الفصل الخامس والعشرون: إعادة موجزة لكل ما قيل بشأن الحفاظ على الأرض المقدسة.

بداية الانجيل المقدس للقديس يوحنا

«في البـدء كـانت الكلمـة، والكلمـة كـانت عند الرب، وكـان الرب الكلمـة، هذا كـان في البـدء عند الرب.كل شيء به كـان وبغيره لم يكن شيء مما كان. فيـه كانت الحياة، والحيـاة كانت نور الناس. والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه.

كان إنســان مرسل من الرب اسمـه يوحنا. هذا جاء للشهـادة ليشهد للنور لكي يؤمـن الكل بواسطتـه. لم يكن هو النور، بـل ليشهـد للنور. كـان النور الحقيقي الذي ينير كل إنســان آتيـاً إلى العـالم. كـان في العـالم وكون العالم به، ولم يعرفه العالم. إلى خـاصته جاء وخاصته لم تقبله. وأما كـل كل الـذين قبلـوه فأعطـاهم سلطـاناً أن يصيروا أولاد الـرب، أي المؤمنون باسمـه، الذين ولـدوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسـد، ولا من مشيئة رجل، بل من الرب.

والكلمة صـارت جسداً، وحل بيننا، ورأينا مجده مجداً كما لـوحيد من الأب مملوءاً نعمة وحقاً»[يوحنا: ١ / ١ — ١٤]

من إنجيل مرقس

قال يسوع في ذلك الزمان لحوارييه:

«فأجـاب يسـوع وقـال لهم، ليكن لكم إيمان بالرب.لأني الحق أقـول لكم إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحـر ولايشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقـوله يكون، فمهما قال يكون له. لذلك أقـول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم. ومتى وقفتم تصلون فـاغفـروا إن كـان لكم على أحـد شيء لكي يغفـر لكم أيضـاً أبوكم في السموات زلاتكم. وإن لم تغفروا أنتم لا يغفر أبوكم الذي في السموات

أيضاً زلاتكم»[مرقس : ١١ / ٢٢ — ٢٦].

من إنجيل لوقا

قال يسوع في تلك الأيام لحوارييه:«وأنا أقول لكم اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم».[لوقا : ١١ / ٩]

من إنجيل متى

«لما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيلبس(بانياس) سأل تلاميذه قائلاً: من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟. فقالوا، قوم: يوحنا المعمدان وآخرون إيليا، وآخرون إرميا، أو واحد من الأنبياء، قال لهم:وأنتم من تقولون إني أنا؟. فأجاب سمعان بطرس وقال: أنت هو المسيح ابن الرب الحي. فأجاب يسوع وقال له: طوبى لك يا سمعان بن يونا، إن لحماً ودماً لم يعلن لك، لكن أبي الذي في السوات. وأنا أقول لك أيضاً : أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات».[متى : ٦ / ١٣ — ١٩].

ارحمنا يا رب، أبانا الذي في السموات

«أمل أذنك يا إلهي واسمع، افتح عينيك وانظر خربنا والمدينة التي دعي اسمك عليها لأنه لا لأجل برنا نطرح تضرعنا أمام وجهك، بل لأجل مراحمك العظيمة. يا سيد اسمع، يا سيد اغفر، يا سيد اصغ واصنع، لا توخر من أجل نفسك يا إلهي لأن اسمك دعي على مدينتك وعلى شعبك».[دانيال : ٩ / ١٨ — ١٩].

بسم الأب والابن والروح القدس
آمين

سنة الرب ١٣٠٧.

في سنة ١٣٠٧ لتجسيد ربنا يسوع المسيح، الذي هو نورنا وحياتنا، وفي شهر كانون الثاني، باشرت بتصنيف هذا الكتاب، وبالملخص الموجز الأول المتعلق بالأرض المقدسة، لأن الحقيقة هي من الروح القدس، وغير مهم على لسان من يعلنها.

في سبيل إضعاف قوى السلطان مع الشعب الخاضع له، يتوجب تطبيق الحظر بجدية أكبر وبفعالية أعظم مما كان عليه الحال في الماضي، بحيث أن لا يتمكن أي إنسان من الوصول إلى البلدان الخاضعة للسلطان، حسبما سنري فيمايلي في الفصل الأول من القسم الرابع، على أن يسري ذلك ليس على البحر فقط، بل على البر أيضاً، كما سنبين في الفصل المقبل، وأن يجري إنزال عقوبات بالذين يخالفون وكذلك بالذين يتعاملون معهم، لا سيما في حقل التجارة، وأن تكون هذه العقوبات مثل التي تطبق ضد الهراطقة، وليكن على الجميع محرماً تحت طائلة عقوبة مماثلة، تسلم بضائع واردة من أفريقيا، لابل حتى من إسبانيا من المناطق المقطونة من قبل المسلمين، وكذلك أية سلع قادمة من الهند عبر المناطق الخاضعة للسلطان كما سنرى في الفصل الثالث من القسم الرابع.

وليكن محرماً بالطريقة ذاتها على أي إنسان شراء المنتوجات المذكورة أعلاه من البلدان الشمالية، الممتدة من حدود أرمينيا إلى تخوم آني، كما سنوضح في الفصل الرابع من القسم الرابع.

وليحرم أيضاً، بالشكل نفسه على أي إنسان شراء أو تسلم البضائع التي مصدرها الأراضي الخاضعة للسلطان، سواء أتم ذلك في بلاد اليونان أو جزرها، أو في أي بقعة من العالم، وأن يشمل ذلك أيضاً البضائع التي تأتي تسللاً، وذلك كما سنوضح في الفصل الخامس من القسم الرابع.

وليكن هذا أيضاً محظوراً، تحت طائلة العقوبة الجسيمة التي يتم تحديدها، والتي ينبغي إنزالها بحق سادة المناطق والجماعات والتكتلات البشرية، وبحق كل من يخالف ما رسمته الكنيسة، وينبغي ملاحقة هؤلاء وعدّهم هراطقة، وملاحقة كل من يود دعمهم بمساعدة أو بمشورة، أو بمنح امتياز، حسبما هو وارد في الفصل السادس من القسم نفسه.

وليصدر أيضاً أمر بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بحق كل من يعرف بوجود أفراد أو أشخاص خالفوا هذه الأوامر، ولم يبادروا إلى الإبلاغ عنهم بأسرع ما يمكن، وبطريقة مشروعة.

ويشترط هنا بشكل مطلق عدم إفشاء اسم الشاكي لا للمشتكى عليهم ولا لأي إنسان كان، وإذا صدر الحكم بعدم وجود ما يدعو لإنزال عقوبة الحرمان الكنسي، أو مهما كان الأمر، ينبغي إعطاء الشاكي ثلث ما ينتزع من المشتكى عليه، ومهما يكن من أمر يبقى سريان الالتزام بالسرية كما بينا أعلاه.

وإذا راق لقداسة الحبر الأعظم التنفيذ الفعلي لهذه القرارات، فليعمد إلى تطبيق الأمر الكنسي بكل دقة، ودونما إهمال من قبل أي إنسان، وذلك بأن يعلن عنه في جميع المدن البحريةفي أيام الآحاد والأعياد، لأننا نرى بالواقع أن الأوامر المتقدمة التي صدرت عن المجامع المقدسة أو عن البابوات، طواها الزمن ونسيت، لأنه لم يعلن عنها في الكنائس،

- ٣٥٠١ -
حتى أن رجالاً مثقفين ما برحوا يعتقدون أن تصدير البضائع العادية إلى البلدان الخاضعة للسلطان أمراً جائزاً.

والطريقة الأفضل للاعلان عن ذلك القرار الكنسي، كما نرى هو أن يجري ذلك بعد تلاوة الانجيل، وقبل الشروع بالصلاة، فهذا أجدى وأنسب، فهو الوقت الذي يكون الشعب بالعادة مجموعاً به ومهيئاً أكثر.

ولتنفيذ هذا المشروع هناك حاجة إلى غلايين، كما هو مبين في الفصل السابع من القسم الرابع من هذا الكتاب، ومن الضرورة بمكان تعيين مشرفين رسميين يتولون إنزال العقوبة بحق من يخالف هذه القرارات.

بسم الرب الأزلي
آمين

سنة الرب ١٣٠٦

في السنة ١٣٠٦ لميلاد مولانا يسوع المسيح، وفي شهر آذار، وبشكر للرب الكلي القدرة، وفي سبيل مجد اسمه القدوس وإكرامه، ومن أجل كرامة سيدنا وأبينا البابا الحبر الأعظم، وأيضاً من أجل رفع شأن الإيمان المسيحي، ولخزي السلطان وكل من يتبع محمداً(ﷺ)، وفي سبيل عودتهم ورجوعهم إلى الكنيسة الأم الحنون، ومن أجل ازدهار الإيمان بالصليب الفادي المحبوب، باشرت العمل بهذا الكتاب، بنعمة منه تعالى، أنا مارينو سانوتو، المشهور بلقب تورسيللو، من منطقة سينت سيفرو، ومدينة ريفوالتي من أعمال البندقية، وأنا أيضاً خادم أمين متواضع، كنت ملتحقاً من قبل بخدمة أبينا ومولانا في المسيح، الطيب الذكر، الذي كان معيناً كردينالاً شماساً على كنيسة القديس يوستاكي Eustachii .

فلقد ظل يقلقني طوال حياتي همّ واحد هو القيام بإجراء أبحاث حول المعطيات التي وجدت فيها الأرض المقدسة مع باقي مناطق ما وراء البحر، سواء في البحر أو البر، وهذا ما سأعرضه بكل نشاط ومحبة، منحنياً بتواضع عميق، جاثياً على ركبتي، كمسيحي أمين.

بداية الكتاب الأول حول مشروع الأرض المقدسة

وهو يتضمن الترتيبات اللازمة والاستعدادات لاسترداد الأرض المقدسة وهو في خمسة أقسام.

القسم الأول

ويشتمل على طرق إضعاف السلطان، وتبيان كيف أن باستطاعة المؤمنين بالمسيح الحصول على المنتجات اللازمة دون الاضطرار إلى الذهاب إلى الأراضي الخاضعة للسلطان، وتقدير للأذى العظيم والأضرار الكبيرة التي سيتكبدها الكفار أتباع السلطان، إذا توقف التعامل البحري معهم، وهذا القسم في ستة فصول:

الفصل الأول: تبيان للأرباح التي يجنيها السلطان وشعبه من المنتجات القادمة من الهند، مع أسماء المراسي إلى حيث تشحن تلك المنتجات، وكيفية تحويلها عن المناطق الخاضعة لنفوذ السلطان.

ينبع القسط الأكبر من العظمة والهيبة، والمداخيل التي ينعم بها السلطان والشعوب الخاضعة له، من كون الأصناف النادرة، والبضائع الكثيرة، لا تنتج كلها في أراضي السلطان والبلدان الخاضعة له، بل في بلاد الهند وأراضيها، وهي تعبر من المحيط الهندي نحو الغرب بطريق البحر،ولهذاالمحيط في تلك المناطق مرسيان هما: المليبار، وكولم، ذلك أن الأصناف النادرة والمنتجات الواردة من الهند ترسل إلى هذين المرسيين،ومن هناك تحمل من جديد على مراكب من أجل تصديرها نحو الغرب، انطلاقاً من أربعة مراسي، ثلاثة منها واقعة في الأراضي والشواطىء التي يسيطر عليها التتار سادة بلاد فارس، وواحد من هذه

المراسي موجود على اليابسة، واسمه هرمز، والثاني موجود في جزيرة صغيرة اسمها كيش، والثالث عند مصب النهر النازل من بغداد، وكانت الكمية الأكبر من الأصناف النادرة ومن المنتجات التي كانت تصدر في الماضي نحو الغرب، تمر عادة ببغداد، ومن هناك إلى أنطاكية وكليكيا على البحر المتوسط، وكانت الأصناف النادرة في ذلك الزمن مع غيرها من منتجات الهند، تصل بكميات أكبر، وبأسعار أرخص مما هي عليه الآن.

أما المرسى الرابع فهو الذي اسمه مرسى عدن، وهو قائم في شبه جزيرة ثابتة في بلاد المسلمين، وتشحن الأصناف النادرة والبضائع القادمة من الهندمجدداً من ذلك المرسى، وترسل من هناك عبر أراضي المسلمين في رحلة تستغرق تسعة أيام على ظهور الجمال، حتى تصل إلى مكان اسمه قوص، وتنقلها القوافل من هناك إلى القاهرة عن طريق نهر النيل خلال خمسة عشر يوماً، ويفيض النيل في حوالي تشرين الأول ولهذا فإن الأصناف النادرة والبضائع النازلة إلى القاهرة عبر ذلك النهر، تنقل عبر تعرجات طولها ما بين القاهرة والاسكندرية حوالي المائتي ميل، وتسهيلاً للسفر تواكب المراكب الضفة اليسرى التي يسيطر عليها المسلمون، ومن القاهرة تتوجه الأصناف النادرة وغالبية البضائع القادمة من الهند، إلى الغرب، عبر طريق الاسكندرية، ويستوفي السلطان عند مختلف مواقع التعشير مبالغ تساوي ثلث مداخل خزينته، هذا عدا عن المرابح والمنافع التي يجنيها التجار والشعب.

وهناك كمية أقل من الأصناف النادرة ومن البضائع المرسلة إلى الغرب، تنزل الآن باتجاه المراسي الثلاثة المذكورة أعلاه، والواقعة في المناطق الخاضعة للتتار، ومن هناك ترسل إلى بغداد، ومن بغداد هناك طرق كثيرة يمكن لتلك البضائع أن تنقل عبرها نحو البحر المتوسط، وهذا ما يجري الآن فعلياً، دون المرور مطلقاً بالمراسي أوبالشواطىء، أو

بالأراضي الخاضعة للسلطان.

وبناء عليه ينبغي الوقـوف في وجه الذين يسعـون نحو بلاد السلطان لابتياع الأصناف النادرة، وبقية أنواع البضائع، ومن ثم نقلها عبر البحر المتوسط، ومن المتوجب منع هؤلاء، حسبما تقـدم الذكر في الموجز، ففي هذا الموجز جرى التركيز على وجوب منع أية بضائع قادمة من الأراضي الخاضعة للسلطان، بشكـل قطعي ودقيق، وقتذاك سـوف تتحول جميع هذه الأصناف النادرة والبضائع عن مساراتها المعتادة، لتسلك طرق بلاد التتار، لأنه مثلما تنساب المياه طبيعياً إلى الوديان، كذلك تتدفق البضائع عبر الطرق التي يوجد عليهـا عدد أكبر ممن يشتريها، وبناء عليـه سيجد الشعب المسيحي الكميات الكافيـة من كل ما يلزمـه من تلك البضائع، ويجني التجار نصيبهم الكامل من الأرباح.

ثم مـاذا بعـــد هذا؟ بعـد هذا يمكن للتجـــار المسيحيين سلوك ذلك الطريـق، أي الاتجاه إلى الهند عبر طريـق بلاد التتـــار، وبالفعـل يمكن لكثيرين القيـــام بهذه الرحلـة، ذهاباً وإياباً، ذلـك أن السلطان لا يسمح لمسيحي واحـد بالمرور بأراضيـه إذا كـانت لديه نيـة بالذهاب إلى الهند، والذي يحدث الآن فعليـاً يبرهن لنـا على صحـة هـذا الطرح، فعندمـا توضع عراقيل في وجه انتقال البضـائع، وحواجز تحول دون وصولها إلى مكان ما عن طريق واحد، نجـد التجار، وهـم الساهرون على مصالحهم الذاتية يفكرون ويبحثون عن طريق آخر يمكن ركوبه،حتى يتمكنوا من توصيل بضـائعهم إلى ذلك المكان ذاته، وقـد قيل:«التـاجر الصـالح هو المدرك للمصالح»،فهـو لا يمنح نفسه طعم الـراحة مالم يكتشف طـريقاً للوصول ببضـائعه إلى حيث الحاجة إليهـا أكبر، وبالتالي إلى حيث يمكنه جني أكبر قـدر من المرابح، ويمكن لقـداستكم أن تتبين بشكل جيد مـا أعنيـه، فكل واحـــد يعـرف أنه من جهـة التتـار، أي عـن طريق بغـداد وتوريز كانت البضائع تسير منذ زمن بعيد ولاتزال تسير حتى اليوم كل

البضائع تقريباً نحو البحر المتوسط، ولاسيما البضائع التي خفّ وزنها وارتفع ثمنها، من أمثال التوابل والقرفة والجوز هندي وغير ذلك.

أما ما تبقى من بضائع هي أكثر وزناً وأقل ثمناً مثل الفلفل والزنجبيل والبخور والقرفة وغيرها فإنها تحمل من عدن إلى الاسكندرية، بكميات أكبر من تلك التي تحمل عبر الطريق الآخر المشار إليه من قبل.

هذا وإن البضائع المحمولة عن طريق بلاد فارس والكلدانيين — حسبما أشرنا من قبل — هي أفضل نوعية بها لا يقاس من البضائع التي تحمل إلى الاسكندرية، وخاصة الزنجبيل والقرفة أيضاً.

وواقع الحال أن الزنجبيل المحمول عن طريق التتار هو من نوع أفضل وأعلى ثمناً من ذلك المحمول إلى الاسكندرية وذلك بنسبة تتراوح ما بين عشرة بالمائة إلى عشرين بالمائة، وسبب ذلك هو أن البضائع الأعلى جودة تحمل عن طريق التتار، لأن حمل تلك البضائع عبر ذلك الطريق وإن استوجب نفقات أعلى للحمل والنقل غير أن المكوس ضئيلة، في حين أن نفقات نقل البضائع من جهة مصر زهيدة،لأن المراكب تسير على محاذاة الضفة اليمنى للنهر بكل سهولة، لكن المكوس التي تدفع إلى السلطان هي أعلى.

ولهذا يختار التجار للطريق الأول بضائع أعلى جودة، لأنهم يعرفون جيداً جميع هذه الميزات، ويعرفون أن نفقات النقل هي هي سواء أكانت البضائع ثمينة أم لا، فضلاً عما تقدم، إن الزنجبيل المحمول إلى الاسكندرية مجفف وفيه كثير من التلف والتسوس، وهذه النسبة أعلى منها بالنسبة لما يحمل عبر الطريق الآخر، ويعتقد أن مرد ذلك هو أن الطريق البحري أطول من طريق بلاد التتار، لأن من المعروف أن الزنجبيل صنف يتعرض للفساد بسهولة.

الفصل الثاني: إيضاح كيف أن المنتجات التي نحتاجها، والقادمة إلينا من بلاد السلطان يمكن الحصول عليها من بلاد المسيحيين.

يبلغ إنتاج الحرير والسكر من بلدان السلطان كميات كبيرة لا يستهان بها، ويجني السلطان ومثله المسلمون من ذلك أموالاً كثيرة كرسم مرور وكضرائب فإذا توقف المسيحيون عن استيراد ذلك، فإن هذا يلحق بالسلطان، وبالمسلمين ضرراً كبيراً بالغاً، لاسيما وأنه من الممكن إنتاج الكميات التي نحتاجها من السكر في قبرص، ومن هنا يمكن للمسيحيين تأمينها، يضاف إلى هذا يجري إنتاج السكر في رودس والمورة ومالطة، وكذلك في صقلية وغيرها من البلدان، وعلى هذا يمكن تأمين ما نحتاجه من سكر وإنتاجه إذا ما تمّ الاهتمام بالموضوع، ومن الممكن كذلك إنتاج الشرانق في أبوليا وفي صقلية، وكريت وجزر اليونان وقبرص، وذلك بكميات وافرة، وإذا ما طبق أمر الحظر بشدة أكبر مما جرى في الماضي، وقتها من الممكن إنتاج الشرانق بكميات أكبر في هذه المناطق وفي غيرها من البلدان التي من الممكن أن يعيش فيها دود القز، وبناء عليه إذا ما أمعنا النظر في الأمور، يمكن للمسيحيين إنتاج ما يكفيهم من الحرير، ولن يعانوا كثيراً في سبيل تأمين ما يلزم من سكر.

الفصل الثالث: تبيان طريقة منع عبور الأفاوية والكتان والقنب والأقمشة المنسوجة من مصر إلى البحر المتوسط فأوربا، ذلك أن الاتجار بها يعود بأرباح كبيرة على السلطان وعلى الشعب الخاضع له.

ينبت الكتان في مصر بكميات كبيرة، ومنه تصنع أنواع كثيرة من الأقمشة، كما أنهم ينسجون الكتان ممزوجاً بالحرير، وتصنع ثياب الحرير الخالص في مصر، مع أن مصر لا تنتج الحرير، هذا وتحمل تلك الأقمشة مع الكتان والبضائع المذكورة أعلاه، باستمرار عبر تركيا أو عبر أفريقيا على مراكب مسيحية وإسلامية حتى البحر الأبيض الكبير

والبلدان الأوربية، ومع أن الكتان متوفر بوفرة في البلدان المسيحية،غير أنه أدنى جودة من الكتان المصري الذي يصدر إلى الغرب، وبما أن الكتان المصري هذا من غير الممكن إنزاله إلى السوق بشكل مربح عبر المتوسط، إذا ما طبق الحظر بشكل دقيق، وكانت هناك مراقبة صارمة للبحر، وبذلك سوف يتكبد السلطان مع مسلمي الأندلس خسائر جسيمة، ولنتذكر هنا أيضاً أن الأراضي الخاضعة للسلطان تنتج بشكل خاص الأفاوية والقرفة بكميات كبيرة في مصر، ويصدر من هذه الأصناف كميات كبيرة جداً إلى بلدان مختلفة من العالم عبر المتوسط.

الفصل الرابع: ذكر للأضرار التي سوف تلم بالسلطان، وبالشعب الخاضع له، في حال إيقاف تصدير الذهب والفضة والحديد وبقية أنواع المعادن وغير ذلك من المنتجات إليهم.

بما أنه لا يوجد في البلدان الخاضعة للسلطان لا ذهب ولا فضة خالصة ولا قصدير ولا معادن أخرى، يضاف إلى هذا لايوجد فيها لامرجان ولا عنبر فكل هذه الأصناف تصل إلى بلاده عبر الطرق البحرية، ويفرض السلطان عليها في الاسكندرية مكوساً عالية.

وكان الرسم الذي يستوفى في الماضي على الذهب الواصل إلى السكة ستة وثلاثين بالمائة، وحيث أن أسعار الذهب عالية جداً في الغرب، فقد جرى في هذه الأيام إهمال الذهب، والاعتماد على الفضة التي ازداد استيرادها، ويستوفى في الاسكندرية عن تجارة الفضة رسم يبلغ أربعة ونصف بالمائة، لكن حصل بعض التجار في أيامنا هذه على امتياز أن لا يدفعوا عن الفضة سوى رسم مقداره ثلاثة ونصف بالمائة، ويتقاضى السلطان على جميع الفضة المستوردة لصالح السكة في القاهرة رسماً مقداره العشر، أما النحاس فإن الرسم المستوفى عليه في الاسكندرية وغير الاسكندرية من المركز قد يصل إلى ما يقارب الربع، أما القصدير فإن الرسم المفروض عليه في مختلف مراكز التعشير فقد يصل إلى

الخمس، هذا وبالإضافة إلى ما يستوفيه السلطان من مكوس عالية على القصدير والفضة الصرفة، ويستوفي أيضاً مثل ذلك على المرجان والعنبر، ويجري توزيع هذه البضائع كلها في مصر امتداداً إلى الحبشة وإلى الهند.، ولا شك أن في هذا مرابح وافرة لصالح السلطان والتجار لديه ولشعبه.

الفصل الخامس: تبيان للخسائر الفادحة وللنفقات الكبيرة، التي ستتوجب على السلطان وستنزل به، إذا أُوقف تصدير المواد الغذائية والمنتجات المتنوعة من بلاد المسيحيين إلى بلاده.

فضلاً عما تقدم يحمل التجار إلى الإسكندرية وإلى الأراضي الخاضعة للسلطان كميات كبيرة من الزيت والعسل والأعلاف للمواشي، واللوز وأنواع الصمغ، وباختصار إن عائدات السلطان في مختلف مراكز التعشير هي الربع، ويحمل التجار أيضاً الحرير والأقمشة والصوف، والمنسوجات الحريرية أو المنسوجات الكتانية مع أشياء أخرى كثيرة كلها يدر على السلطان وعلى شعبه أرباحاً وفيرة وقد يحدث في بعض الأحيان قصور بفيضان النيل، وبذلك فإن الأراضي التي لا يلحقها الفيضان لا تعطي غلالاً، وذلك مثلما حدث بعد مدة قصيرة من سـ عكا وسورية، ولولا إمدادات القمح التي بعثت إلى المصريين لاضـ وقتذاك في غالبيتهم إلى الموت أو ترك البلاد.

الفصل السادس: وصف بلاد مصر، وتبيان الضرر العظيـ سوف يلم بمصر إذا ما انقطعت عنها السفن مع باقي الا المحتاجة للملاحة البحرية.

لما كانت الأخشاب غير متوفرة في مصر، وأيضاً لا يوجد فيه ولا القار، وهذه هي المواد التي تتحكم بتطور الملاحة البـ وبجودتها، وبما أن المسلمين لا يقدرون على الحصول عليها ... بر

المتوسـط، فإنه إذا لم تكن لديهم سفن فمن الصعب أن تتمكن مصر من الصمود، ولا سيما القاهرة، ومثلها في ذلك مثل المناطق المكتظة بالسكان في بلادهم.

ومرد ذلك إلى أن القاهرة قائمـة على ضفاف نهرالنيل، والمسافة من القـاهرة إلى البحـر تبلغ قـرابة المائـة ميل، ونهر النيـل يصب في البحـر المتوسط، وله أربعة فروع، واسم الفرع الأول منها فرع تنيس، من جهة الصحـراء، واسم الفـرع الثاني فـرع دميـاط، واسم الفرع الثـالث فـرع البرلس، وأمـا الفـرع الرابع فهـو فـرع رشيد، وفـرع رشيـد قـريب من الاسكندرية وهو من جهتها، وبين هذه الفروع الأربعة اثنان أكبر حجماً وأهميـة وهما فرعـا دمياط والبرلس، ولأحـد الفرعين الآخـرين المسمى فرع تنيس حـوض أعمق، وهو قادر على استقبـال السفن الأكبر حجماً، والأكثـر ثقلاً، حيث يوجـد داخل الحوض بحيرة كبيرة وفسحة واسعـة تسمح لعـدد كبير من السفن أن ترسـو فيهـا، والميناء مـوجـود في الميـاه المالحة، وأمـا الفرع الآخـر المدعـو البرلس، فإن حـوضه أقل عمقـاً من الثـلاثة الآخرين، ويستقبل سفناً أقل ضخـامة، هذا وتستطيع الغـلايين دخوله في موسم الفيضان، وبعده بمسـافة وجيزة بحيرة ثانية، واحد من أجـزائها تارة عـذباً وتارة أخرى مـالحاً، ويبلغ داخل الزوايا الأربع لهذه الفـروع نزولاً من الدلتا حتى البحـر مائـة وعشرين ميلاً، وإذا مـا سرنا من دمياط إلى الاسكندرية بمحـاذاة البحر فـالمسافة مـائتي ميل، وإذا ما سايرنا مجرى النيل من القاهرة نحو الجنوب، يقال إن الذي تحت سيطرة السلطان يبلغ مسافة مائة ميل، وللنيل الواقع تحت حكم السلطان فروع عديدة، حولها بحيرات كثيرة، ومستنقعات وتشعبات وأقنية كثيرة تجري في أرض مصر وتتدفق فيها وتسقي الأراضي وتؤمن ريها.

وعلى ضفـاف النيل وفـوق ميـاهه عـدد كبير من المحطات، ولهذا السبب تنقل البضـائع والأغذية، ومختلف أنواع البضـائع والمنتجات على

السفن، وحركة النقل والتجارة هذه نشطة جداً، هذا ويستوفي السلطان مكوساً على الأخشاب والحديد والقار التي تحملها السفن هنا وهناك ما يعادل ربع قيمتها، ولا شك أن هذا مبلغاً كبيراً، ويستوفي السلطان على كل مركب مبحر سواء أكان كبيراً أم صغيراً ثلاثة دنانير ذهبية، وهي تعادل ثلاثة فلورينات ذهبية ونصف فلورين.

ويتضح من هذا كم هو مهم عدد السفن التي تمر في موسم الفيضان عندما يجري حمل القمح إلى القاهرة، فوقتها تزداد كثافة حركة الملاحةعلى النيل وعلى بحيراته ذهاباً وإياباً، وإذا ما تأملنا كثافة حركة الملاحة وكثرة الرحلات، نرى بالفعل ما يثير الدهشة.

ويسكن في القاهرة مجموعات كبيرة من التجار والحرفيين، ويحكم في قلعة القاهرة السلطان ويقيم بها قادته وأعوانه، وتمتد سلطته لتشمل مساحة قدرها نحو ألفي ميل، وأعداد المسلمين في مصر كبيرة، وبما أن سلطة السلطان متمركزة في مكان واحد، فهو على ذلك السيد الوحيد الذي يحكم مصر كلها مع الصحراء والمناطق التي خلفها امتداداً إلى أرمينيا والمياه الباردة المتاخمة للأراضي الخاضعة للمغول، وهكذا إذا ما حرم المسلمون من القدرة على الملاحة، لن يعود بالإمكان نقل البضائع والمؤن والامدادات لا إلى القاهرة ولا إلى القلعة، لأنه وقتذاك تصبح كلفة النقل أعلى من ثمن تلك البضائع، آخذين بعين الاعتبار أنه لا يمكن نقلها عن طريق البر.

ولهذا إنه من المناسب أن يتشتت سكان القاهرة وجند القلعة، والشعب الموزع بينهم، في جميع أرجاء مصر، التي هي مناطق شاسعة واسعة، فإذا تشتتوا في أنحاء مصر، يغدو من الطبيعي وقوعهم منطقياً تحت حكم سلطات متعددة مما يثير المنازعات بينهم، وحيث يستبد التشتت تسود التفرقة، وقد كتب«كل أمة منقسمة على ذاتها تخرب».

القسم الثاني :

ذكر كيف أن إحدى المناطق الخاضعة للسلطان قد تعرضت للضعف وهو في فصلين:

االفصل الأول: شرح كيف تضاءلت ثروة إحدى المناطق الخاضعة للسلطان، والمعني بذلك المنطقة الواقعة خلف البادية، وكذلك في بعض أرجاء سورية.

كانت — فيما مضى — المناطق الخاضعة لحكم السلطان خارج مصر، فيما وراء الصحراء باتجاه أرمينيا، وصولاً إلى المياه الباردة، الموجودة على حدود البلاد الخاضعة للتتار، أكبر، وأقوى، وأغنى منها اليوم، أي لما كان الصليبيون يسكنون في عكا وسورية، وأسباب هذا التراجع عائدة إلى أن منتجات السكان المحليين وبضائع وتجارات غيرهم من الشعوب، التي كانت تعبر من عكا ومن سورية قد بقيت في كانها في البلاد الاسلامية، لأن الذين كانوا يستلمون تلك البضائع نوا من المسيحيين،ولأن شعب المسلمين شعب خامل كسول.

الفصل الثاني: يوضح كيف أن عدد السكان، وخاصة الرجال المقاتلين قد تضاءل في الأراضي الخاضعة للسلطان.

لقد تفضل الرب وتكرم في تنصيب رجل حازم سيداً على أرمينيا هو الأخ يوحنا، من رهبان طائفة الفرنسيسكان ليذل السلطان والمسلمين وليردعهم. فقد عمل بدهاء ولمدد طويلة من أجل تحريض التتار وإثارتهم ضدهم، وكانت محصلة ذلك حرمان أرض المسلمين الممتدة إلى مصر، لحقب طويلة من عدد كبير من الرجال، ومن كميات لا تحصى من الثروات، وكانت المحصلة ضياع وتشتت غالبية جنود السلطان، وإفلاس الشعب المسلم، لأن الكثيرين منهم غادروا البلاد، وباتت الأحوال في الوقت الحاضر ووصلت إلى حد أنه لم يعد في هذا الجزء من

البلاد لا رجال ولا ثروات، مقارنة بما كانت عليه الأوضاع فيما مضى، ولولا المساعدات التي يبعث بها السلطان إلى هناك، لما كان قد بقي أحد أو أي شيء على الاطلاق.

القسم الثالث

ذكر للبضائع التي يحتاجها المسلمون، والتي لا بد لهم من الحصول عليها من الخارج، ويقع هذا القسم في فصلين:

الفصل الأول: الأسباب الداعية لمنع تصدير السفن وباقي اللوازم المحتاجة للملاحة، إلى المسلمين في مصر.

يمكن لكل إنسان أن يرى بكل وضوح ما حدث في الماضي عندما قررت حكمة سلفكم تعميم قرارها الرسمي بحظر تصدير الأخشاب والحديد والقار إلى بلاد المسلمين لأن الايرادات والأرباح من الرسوم التي يستوفيها السلطان في أرض مصر، كانت بالكامل وما تزال مرتبطة بالذين يديرون أعمال الملاحة، وبفضل هذه الملاحة نال السلطان وما برح ينال ثروات ثمينة، وإذا ما تمعنا بالدراسة، نتيقن بأن سلطته قائمة فقط بفضل المرابح التي يجنيها من أعمال الملاحة.

الفصل الثاني: تبيان للطرق والاجراءات التي يتخذها المسلمون في مصر للمحاماة عن منطقتهم، ولكي يحصلوا من البلدان الأخرى على الغلمان والجواري.

فضلاً عما تقدم إن الناس الذين يولدون في أرض مصر وأحوازها غير صالحين إطلاقاً لحمل السلاح، مقارنة بالمجلوبين من مناطق أخرى، فقد استغل السلطان والقادة لديه الثروات المجنية من وراء الملاحة بالبحر، وأخذ السلطان يرسل تجاراً يشترون من عدة بلدان غلماناً مسيحيين، ووثنيين سواء، وذلك من أي مكان يستطيعون ابتياعهم فيه بالمال، وكانوا بعد الحصول عليهم يدربونهم على استخدام السلاح، ويعلمونهم فنون القتال، وهم الآن بالفعل سادة المناطق المصرية، والبلدان الخاضعة للسلطان، وبهم يحفظ السلطان بلاده ويحميها،

-٣٥١٧-

وبفضل قـــوتهم طرد السلطان الصليبيين من أرض الميعــاد، ويجلب في الوقت نفسـه إلى البلدان الخاضعة للسلطان جـواري من مختلف المناطق سواء أكـانت مسيحية أم وثنيـة، فهم يحصلون عليهن للمتعة الجسـدية، ويخضعوهن — هلاكاً لأنفسهن — لشريعة محمد(ﷺ).

القسم الرابع

وجوب إيجاد إجراء للمقاطعة أنفع من الإجراء الحالي، وكيفية إعداد الغلايين اللازمة للدفاع عن المسيحيين الساكنين في تلك المناطق من البحر، وبالوقت نفسه لتدمير المسلمين، وكيفية العمل لمنع أية أعمال تجارية على الاطلاق مع البلاد الخاضعة للسلطان عبر البحر المتوسط، ويحتوي هذا القسم على سبعة فصول:

الفصل الأول: لماذا يتوجب منع أي إتجار مع المسلمين الخاضعين للسلطان من دون استثناء، أو اتصال بهم، أو سفر إلى بلادهم.

للاقلاع بها العمل المقدس الهادف إلى استرداد الأرض المقدسة التي روّاها بدمه الغالي مولانا يسوع المسيح، الابن الوحيد للرب الحي، ولإكمال ذلك من الضروري تماماً أن يعمم الحظر رسمياً في العالم كله، أي الاعلان بشكل عام إنه ممنوع أن يرسل إلى هناك الخشب والحديد والقار، وأن يؤخذ من هناك بشكل عام أي صنف من الأصناف، وسبب ذلك هو مايلي:

عندما يود المسيحيون استلام المنتجات الخاصة والسكر والحديد، ومختلف أنواع البضائع من المشرق، يذهبون إلى هناك، ويعودون، ومعهم البضائع التي من المؤكد أنها غير مخالفة للحظر، وهنا يحدث أن المسيحيين المخالفين ومثلهم كذلك المسلمين، الذين يمتلكون هم أيضاً سفناً خاصة بهم، أنهم يقدمون إلى الغرب محملين بالبضائع ومن ثم يعودون وهم يحملون على سفنهم الأخشاب والحديد والقار، والرقيق، إلى مصر والأراضي التابعة للسلطان، وهكذا يحدث أن المسيحيين الذين يريدون أن يكونوا طائعين للكنيسة، يتورطون في تقديم المساعدة إليهم، وإنه لمن الأفضل لهؤلاء المسيحيين المخلصين أن يتجمعوا على البحر أو

على اليابسة، في المراسي، أو في أي مكان، وأن يحتشدوا سوية مع سفن المسيحيين المخـالفين، وهناك لا بد من وجـود المسلمين مع سفنهم المحملة خشباً وحديداً وقاراً، ورقيقاً، وإذا ما غضوا النظر عنهم، يكونوا قد ساعدوهم وأنقذوهم وسهروا على سلامتهم، ودعموهم.

وإذا مـا تصرفنا على عكس ذلك، يتـوجب إلقـاء القبض على الأشخاص التابعين للبلدان والأراضي الخاضعة للسلطان، ومصادرة بضائعهم، ووقتها لن يتجرأوا ثانية على ركوب البحر من جديد.

وبناء عليه يتضح تمام الوضوح أنه في حال الاعلان الرسمي عن هذا الحظر في العالم كله، وفي حال تطبيقه بشدة، أي أن يكون واضحاً تماماً لكل من يعمل في قطاع البحر،أنه ممنوع تمام المنع السفر إلى الأراضي التابعة للسلطان، وأن كل من يخالف هذا الحظر، خرقاً لأوامر سادتهم وجماعـاتهم سينال العقـاب، ولسوف يلقى القبض على المسيحيين المخالفين وعلى المسلمين غير الملتزمين بهذا المشروع المقدس، ووقتها سيكون الذين أوكلت إليهم أمور الإشراف والرقابة على البحر على استعداد لتأدية مهامهم طواعية وعن طيبة خاطر، ومن ثم فرض الالتزام بهذا التدبير المفيد.

وعلينا على كل حال أن نتذكر أنه لما ضاعت عكا وسورية أعلن رسمياً الحظر على الذين يذهبون إلى الأراضي الخاضعة للسلطان، أو الذين يعودون منها محملين بالبضائع، وكان الحظر قد قضى بالإعلان بأن الذين يخالفونه هم سفلة، ويعدّون محرومين من الوصية، أي إنهم لا يستطيعون كتابة وصاياهم، ولا وراثة ما ترك لهم في وصايا غيرهم، مع الإعلان أنهم غير مؤهلين للقيام بأي حصر إرث سواء أكان ذلك من جهة المعطي أو من جهة المستفيد، ثم طردهم من جميع الوظائف العامة التي يشغلونها، ومنع منحهم أية وثيقة شرعية، وبشكل عام يتوجب مصادرة جميع ممتلكاتهم، وإذا ما ألقي القبض عليهم يتوجب إبقاءهم

سجناء تحت حراسة الذين ألقوا القبض عليهم.

الفصل الثاني: لماذا يتوجب على جميع المسيحيين مطاردة المخالفين لأوامر الكنيسة في هذا المجال، في كل مكان، وليس فقط في البحر بل وفي البر:

كان الحظر فيما مضى يطبق في مجالات البحر فقط، أي كانت تجري ملاحقة المخالفين بحراً لا براً، والآن إذا قررت قداستكم بإلهام من الروح القدس تنفيذ الأوامر المذكورة أعلاه، وأعلنت أنه مقدس وموائم تماماً التشدد في تطبيق هذا الحظر — أقول بكل تواضع بشكل دائم — على الأرض وفي العالم كله، وقتها من الممكن تطبيق إجراء ملاحقة المخالفين بشكل أشد وأكثر جدوى، ذلك أن مراقبة البحر لوحده لا يكفي، ولا يمكن منع هذا أو ذاك عن الابحار كلياً، أو عبور البحر حتى الأراضي التابعةللسلطان، ومرد ذلك إلى أن الغلايين لا يمكنها البقاء في عرض البحر أمام العواصف، ولا حتى عندما يكون البحر هادئاً، ثم إنه في بقائها في فصل الشتاء ليلاً خارج الميناء خطر، يضاف إلى هذا لايمكنها البقاء في فصل الصيف لأيام طويلة في عرض البحر، من دون التردد على الشاطىء للتزود بالماء للشرب وللاستخدامات الأخرى، هذا ومن غير الممكن مراقبة البحر مراقبة عامة مجدية بوساطة البوارج حتى وإن شحنت بالمقاتلين، لأن البحر واسع جداً، وما أن تبتعد عن الشاطىء إلى عرض البحر حتى تتمكن سفن المخالفين من الابحار أيضاً، ومن ثم في مرسى من مراسي بلاد السلطان ترسو به ، وستجد الترحيب والمعاملة الطيبة، لأن الناس هناك بحاجة إليها، ومثلما يكون بمقدور هؤلاء المنافقين الذهاب إلى الأراضي الخاضعة للسلطان، يكون أيضاً بمقدورهم العودة منها إلى بلادهم، وبناء عليه إذا أردنا أن يعطي الحظر النتائج المتمناة، يجب إيقاف أي تحرك تجاري نحو الأراضي والأماكن الخاضعة للسلطان وفوقها أيضاً، والقيام من ثم بمطاردة

المخـالفين ومصـادرة بضـائعهـم سـواء في البر أو في البحـر، ونظراً لأن هؤلاء المسيحيين المنافقين الآثمين، كـانوا في تلك الأزمـان — أي لما بدأ العمل بـذلك الحظر — لدى عـودتهم إلى بلدانهم سببـاً للأذى ولمحنة شيطانيـة لجماعات عـديدة، فبسبب كثرة البضـائع والأرباح التي كـانوا يعـودون بها، جـاء عملهم بمثـابة محرض لغيرهـم لكي يخالفـوا مثلهم، وذلك لهلاك أنفسهـم، ومن جـراء ذلك أقـدم العـديد على المخـالفة وراحـوا ورجعوا عـدة مرات،وبذلك افتتحـوا المسيرة اللعينة لهذه العـادة البـائسـة، لذلك فإن هؤلاء يستحقـون أن يعـاملوا معـاملة الهراطقـة لمخـالفتهم هذا الأمـر المجيـد، كما ينبغـي مـلاحقتهم هم وبضائعهم في العالم كله كيلا يصبحوا مثلاً شريراً يقتدى به، وكيلا يدفع مـوقفهم أناساً آخـرين إلى التشكك، وذلك بسبب ما اقترفـوه في الماضي من شرور، ولهذا يتوجب معاقبتهم عقاباً رادعاً ليكونوا عبرة لمن اعتبر، ولاشك أن الرعب سـوف يحل في قلـوبهم إذا مـا جـرى نشر عـدد من الغلايين التي ترفع علم الكنيسـة، ويساعـد هذا على تنفيذ هذا المشروع المقدس والمفيد.

الفصل الثالث: وجـوب إغلاق الطرق في وجـه البضـائع التي اعتـاد التجار على نقلها من الأراضي التابعة للسلطان عبر أفريقيا كلها، ثم عبر الأندلس حيث يقيم المسلمون.

من المواثم إيقـاف حركـة نقل البضائع القـادمة من الأراضي التـابعة للسلطان، وبناء عليـه من الضروري منعهـا مـن المرور من جبـال برقـة المجاورة للأراضي الخاضعـة للسلطان، وكذلك من أراضي ملك تونس، ومن الأراضي الـواقعـة تحت سيطـرة المسلمين في الأندلس، وكـل من يتجـرأ على تسلم أية بضـائع أو أصنـاف نادرة أو منتجـات قـادمـة من الهند، أو شرانق الحرير أو السكر أو الكتـان، ينبغي إنـزال العقـوبات نفسهـا المقررة على من يتلقى بضـائع واردة من أراضي السلطان وبلاده،

وبذلك لن يتجرأ هؤلاء المسلمون المغاربة من الجنوب على ركوب طرق أراضي السلطان لكي يبتاعوا منها تلك الأصناف والبضائع، وهذا ما وقع في الماضي يوم كان تطبيق الحظر تطبيقاً شديداً وأكثر دقة.

الفصل الرابع: أسباب وجوب أن يشمل هذا الحظر حتى الشمال من نهر سيحان وصولاً حتى آني:

وأيضاً ليكن من جهة الشمال عند تخوم كليكية، المدعوة في هذه الأيام أرمينيا، من النهر المسمى سيحان، مروراً حتى الشاطىء التركي الذي كان فيما مضى تابعاً لبيزنطة، ونزولاً حتى آني، ليكن محظوراً على أية بضائع قادمة من الهند أو من أراضي السلطان المرور، وبالطريقة نفسها هذه المتقدمة الذكر بخصوص بلاد المغرب، وينبغي أن يكون ذلك تحت طائلة الحرمان الكنسي، وسبب ذلك أنه في تلك المناطق حركة نشطة، وخاصة في منطقة كلايا وأضاليا، لبيع الخشب والقار والرقيق من الغلمان والجواري من المسيحيين والوثنيين، وكذلك الحرير وغير ذلك من البضائع التي تنقل جميعاً إلى هناك من الأراضي التابعة للسلطان، وبشكل خاص من مصر، ذلك أن هذه البضائع تفرغ هناك، ومن ثم يعاد تصديرها وبيعها، وإرسالها مجدداً إلى تركيا، كما يجري إرسال السكر والكتان والتوابل وأصناف أخرى كثيرة، فبهذه السلع يجري إغراق تلك المناطق، ونظراً لوفرتها يجري شحن الفائض منها بحراً نحو البلدان الأوربية.

وكما تقدم بنا القول، وإنه نزولاً من آني يقضي بالوصول حتى سكوتاري Scutari الواقعة في الوسط مقابل القسطنطينية، لأن الأتراك — الذين هم أسوأ الخلق بين المسلمين — قد استولوا على جميع البلاد الواقعة فيما وراء أويدوس Auedos شرقاً، وقد قتلوا العديد من الاغريق، وأسروا الكثيرين، وباعوهم في أسواق النخاسة،فضلاً عن هذا عاد أولئك الأتراك من جديد، فأخذوا يمخرون عباب البحر، وقد

دمروا جزراً عديدة في المنطقة بكل وحشية مذهلة، إلى حد أن تلك الجزر قد خربت تماماً.

ويلزم الانتباه إلى أن الشخص الذي سوف تتولى كنيسة الرب المقدسة، الأمر بتعيينه قائداً، قد يتمكن من أن يوجب على المسلمين القاطنين في تلك المناطق الامتناع عن تصدير أو استيراد أية سلعة من الأراضي التابعة للسلطان، وسوف يلتزم هؤلاء بالأوامر، لأنهم أنفسهم يحتاجون إلى القمح وبضائع غيرها كثيرة، فضلاً عن هذا سيخافون من الغلايين المسيحية، وإذا لم يلتزموا، يتوجب تطبيق الحظر ذاته المطبق تماماً ضد كل مسيحي يتجرأ على الذهاب إلى الأراضي التابعة للسلطان، على الذين يقدمون على قصد المناطق التركية وسيلحق هذا بالأتراك أذى عظيماً، لأن الأتراك هم أسوأ المسلمين الذين لهم علاقة بالمسيحيين الأشرار ويتعاملون معهم تجارياً، مخالفين بذلك قرارات الكنيسة ومعطلين لأوامرها أكثر من أي شعب آخر في العالم.

الفصل الخامس: الأسباب المسوغة لمنع أي مسيحي من شراء أية بضائع مجلوبة من البلدان الخاضعة للسلطان، مهما كانت الطرق التي جاءت منها.

ينبغي ألا يتجاسر أحد من الناس، في أية بقعة من بقاع الدنيا، ولا سيما في بلاد الاغريق، وفي الجزر التابعة لها على شراء أو تسلم أية أصناف نادرة أو بضائع من الهند، ولا شرانق حرير ولا سكر ولا كتان، إذا ما خمن، أو تأكد أنها مجلوبة بحيلة أو وسيلة من الأراضي التابعة للسلطان، وإذا فعل تنزل عقوبة الحرمان نفسها، وسبب ذلك أنه في الماضي عندما كان المسيحيون يمتنعون من الذهاب إلى بلاد السلطان، أكثر مما يفعلوه اليوم، كانت جزراً ومناطق بحرية كثيرة تستقبل المهربين الواصلين محملين بضائع من بلاد السلطان، ونجم عن ذلك أن غالبية من التجار المسيحيين في المناطق البحرية، كانوا يحملون — في ظل هذه

الأوضاع — البضائع الموائمة، ويستخدمون الأراضي التابعة للسلطان، فيعبرون إلى تلك الجزر والمناطق، وكانوا من هناك يسمحون لأنفسهم — بضميرهم الواسع — بإرسالها إلى البلدان المسيحية في الغرب.

الفصل السادس: العقوبات المتوجب إنزالها بالأمراء وبحكام المناطق وبالجماعات التي لا تلتزم بهذه الاجراءات، فتستقبل تلك البضائع في مراسيها، أو في أراضيها.

ومن أجل أن تطبق هذه القضية المقدسة تطبيقاً كلياً لمجد سيدنا يسوع المسيح، وحمده، ولكي تنزع من أمام الجناة فرصة الخطيئة، ليتلطف الأب الأقدس وليوافق على أن يزاد على هذا الحظر: إن على كل حاكم أو مسؤول عن منطقة أو أي شخص معهود إليه القيام بمثل تلك المهمة، أن يتعهد ألا يقبل بأي شكل من الأشكال على أراضيه أو أراضي أتباعه، الذين ينتهكون هذا الحظر، أو حدوث شراء لبضائعهم هناك، أوأن يقدم لهم النصح أو أي عون أو منحة أونجدة،أو بأن يدعموا بأية طريقة من الطرق، وذلك تحت طائلة العقوبة نفسها، التي يستحقها الذين يدعمون فساد الهراطقة أو يشايعونهم.

فإذا ما تم ذلك كله، فإن الرب سوف يفتح الطريق لتحقيق هذا المشروع كله، أما إذا لم يرق لقداستكم إنزال هذا النوع من العقوبة بحق هؤلاء الناس، فإنني أعتقد أننا لن نستطيع قهر الكفرة غير المؤمنين ونفيهم، ومثلهم أيضاً المنافقين الذين اغتصبوا من المؤمنين ملكية الأرض المقدسة، ما دمنا غير قادرين على إلزام حتى التابعين لنا بالتنفيذ، وعاجزين عن منعهم بأن يحملوا إلى أعدائنا مثل هذه المساعدة، وهذا الامتياز، لكن إذا راق لقداستكم فرض هذا الالزام، وهذا الحظر، فكل شيء يمكن أن يتم بسهولة ويسر.

الفصل السابع: مراقبة البحر وحراسته، وكيفية تأهيل الجهاز الأمني

الأول للمسيحيين — أي الجيش — للحرب، ومقدار التكاليف.

ما أن توافق قداستكم على الحظر المذكور في الموجز المتقدم، أتمنى أن تتكرم قداستكم بالهام من الروح القدس، أن تأمروا بالاعلان عن ذلك في كل مكان، من أجل مراقبة البحر، لملاحقة المسلمين والمسيحيين الآثمين الذين يروحون ويغدون من وإلى الأراضي التابعةللسلطان، وكل من يخرق هذا الأمر المحق تماماً، من أمثال هؤلاء، ينبغي أن يتولى مطاردتهم في كل مكان، وبشكل دائم القائد الذي تعينه كنيسة الرب المقدسة، وعلى ذلك القائد اتخاذ التدابير الكفيلة بعدم دخول الحديد وبقية أنواع البضائع إلى أرمينيا، وذلك عندما يتأكد أنه من الممكن إعادة تصديرها من هناك إلى البلدان الخاضعة للسلطان، والسبب هو مايلي: إن أرض ملك أرمينيا متاخمة لبلاد السلطان وبلاد غيره من المسلمين، ومن المتوجب إعطاء قبطانكم — أقول دوماً بكل تواضع — عشرة غلايين، يوجهها إلى الجهة التي تأمر بها قداستكم، وذلك من أجل العبور الكبير، ويشترط تسليح تلك الغلايين، ويقصد منه إنجاح مشروعكم لحمد الرب ومجده، وعلى هذا ينبغي أن يتحلى الذي سيكون القبطان بمؤهلات لا تدع مجالاً لأي مسيحي مطيع القيام بمعارضته مطلقاً.

ويتوجب شحن تلك الغلايين لمدة تسعة أشهر وتزويدها بطاقم مدرب وأن تكون أحوالها جيدة، فيها كل ما يلزم من مؤن وسلاح، وينبغي على القبطان القيام بمراقبة البحر لمدة سنة، وأن يمنح امتياز أن كل ما يستولي عليه هو ورجاله الذين تحت إمرته يكون له ولهم، وبهذه الوسيلة سيزدادون يقظة، وغيرة من أجل الكشف عن كل من تسول له نفسه مخالفة هذا الأمر المقدس وملاحقته، ونيل هذه الأسلاب أمر ضروري لهم تماماً من أجل الانفاق على عيشهم، وأداء مهمتهم.

وإذا ما رغبت قداستكم في معرفة كم سيكلف هذا كله، نجيب أن

شراء الغلايين وشحنها بالعتاد والسلاح سوف يحتاج إلى مبلغ خمسة عشر ألف من الفلورينات، مقابل الرواتب ونفقات الأطعة وبعض الحاجيات الأخرى على أساس أن يكون على ظهر كل غليون مائتين من الرجال مع مشرف أعلى يكون شهماً وكفئاً، يمكن للقبطان أن يجد لديه، وقت الحاجة، النصيحة والمساعدة والدعم، ويضاف إلى المجموع مبلغ ألفين وخمسة وتسعين من الفلورينات، وإذا ما أضفنا إلى هذا كله رواتب تسعة أشهر ، يصبح المجموع سبعين ألفاً من الفلورينات، على أساس أن كل فلورين يساوي سولديين من نقود البندقية الفضية.

وجدير بالأخذ بعين التقدير، أننا إذا ما أردنا أن نكون مسلحين بشكل جيد، وأن تكون طواقم الغلايين مدربة بما فيه الكفاية حول شؤون البحر والملاحة فمن الضروري الشروع بتوقيع العقود منذ أيام عيد الميلاد، وفي الحقيقة تبدأ كل المؤسسات التي تريد إرسال سفن إلى بلدان مختلفة باكراً باختيار الطاقم المناسب، وهكذا إننا إذا ما تأخرنا نحصل على عناصر أدنى كفاءة، ويزيد مثل هذا التأخير في كلفة الغلايين.

وإذا رأت قداستكم في البداية أن نفقات هذه الطواقم عالية جداً، فبإمكانكم الاكتفاء بسبعة غلايين ضمن المواصفات والشروط المبينة أعلاه، وإذا شكك أحدهم بإمكانية توفر قبطان يتمتع بالمؤهلات المطلوبة، نجيب بأنه من المنطقي العثور عليه، لا سيما عندما نغريه بالراتب وبالحصة التي سينالها من الغنائم، التي نقدر عقلانياً سوف تكون كبيرة جداً على الأرض، وفي البحر، وبذلك تكون كلفة هذا الجيش نحواً من خمسين ألف من الفلورينات، ما عدا كلفة الغلايين وتجهيزها وتسليحها، والمهم في الأمر أن يحقق المشروع النتيجة المتوخاة.

ومن المؤكد أن هذه الغلايين ستكون ضرورية جداً للدفاع عن الأراضي الأوربية نفسها، ولضمان سلامة المؤمنين الساكنين فيها،

وللانطلاق بنية مهاجمة المسلمين، وبشكل خاص الذين يركبون البحار ويتاجرون مع المناطق التابعة للسلطان، ولملاحقة المسيحيين المخالفين والمنشقين والمسلحين وجميع أنواع الكفرة المتبقين، لمنعهم من استيراد السلع والتجارات إلى الأراضي المذكورة، أو تصديرها، ولسوف تكون النتيجة أعظم فعالية إذا طبقت الإجراءات ذاتها على البر، وإذا عمل بالأسلوبين معاً، فوقتها ستكون النتيجة أفضل بكثير، وباختصار إنني كلما تفحصت المسألة وتأملتها ملياً، وتفكرت بالفوائد والمنافع التي ستنتج عن الالتزام بهذه الاجراءات على الأرض، وعن ملاحقة من يخالفها مع بضائعهم، وإذا ما أخذنا بعين التقدير العون الذي يمكن أن تقدمه الغلايين التي تستطيع قداستكم الحصول عليها من جزر اليونان وقبرص وغيرها، وإذا ما رسمت قداستكم الرسولية السامية هدفاً أولياً ورئيسياً لتحقيقه، أعتقد أنه بخمسة غلايين فقط، سيكون — كما تقدم وقلنا — من الممكن في الوقت الحالي، الحصول على النتيجة المرتقبة، بما فيه الكفاية.

وستبلغ نفقات هذه الغلايين الخمسة خمسة وثلاثين ألفاً من الفلورينات كل سنة، دون أن نحسب ثمن الغلايين وتجهيزها وتسليحها، وفي الحقيقة إذا كانت الغلايين مسلحة بشكل جيد، وإذا ما أنزلت الكنيسة أوامر حرمان كنسية أشد مما كان في الماضي، فمن الممكن بيسر الحيلولة دون نشوب خلافات ونزاعات بين رجالات الأمراء والجماعات البحرية وبين الكنيسة، وذلك حسبما توقع الكثير حدوثه، مثلما وقع ما بين فرسان الاسبتارية وأهل جنوى في أيام الراهب فولكونيس دي فيلاريتو Fulconis de Vilareto الذي كان يشغل آنذاك منصب المقدم الأعلى للفرسان الاسبتارية، وبدون ذلك لن يكون تنفيذ مراقبة البحر أمراً ممكناً، وبناء عليه سيكون تطبيق هذه دون تلك ناقصاً، وهذا ما أوضحناه في القسم الرابع.

أما بخصوص الغلايين اللازمة في البلدان الأوربية:

إنه إذا ما رغبت قداستكم في تنفيذ المشروع على الأرض، ومن ثم إرسال بعض الغلايين التي جرى الحديث عنها من قبل، من أجل حراسة البحر، وأن يمتلك القبطان الذي يتسلم إمرة الأسطول، الصلاحيات المطلقة للعمل أين يرى وكيف يتدبر، من الممكن له بسهولة تأمين العدد الكافي والجيد من الغلايين، حيث يمكنه الحصول على غليون من جنوى من عند آل زكريا، الذين هم سادة جزيرة كايوس القريبة من تركيا، وعلى غليون آخر من البندقية من عند السيد وليم سانوتو، وآل غيزو Guise الذين هم في الجزر المجاورة، ويؤمن الغليون الثالث من بطريرك القسطنطينية مع إكليروسه، وبعض سادة جزيرة نغروبونتي Negroponte ، إذا طلب منهم ذلك على أن لا تكون شروطهم أقسى من الشروط التي وضعوها في الماضي، أما الاسبتارية فإنهم سيقدمون اثنين من الغلايين، وذلك من الجزر التي بحوزتهم، وسيتولى رئيس أساقفة كريت تسليح الغليون السادس بمعاونة إكليروسه والأعيان الذين في الجزر المحيطة بهم، ومعهم رجال الاقطاع وسواهم من أهل كريت، إذا ما طلب ذلك منهم خطياً، وإذا ما منحوا الغفران المعتاد منحه في الأحوال المماثلة، وفيما يتعلق بجلالة ملك قبرص وأساقفة الجزيرة وأعيانها، فيمكنهم منطقياً القيام متطوعين بتسليح أربعة غلايين، فهذا أمل معقود عليهم، ذلك أنهم سلحوا فيما مضى أكثر من أربعة غلايين، هذا ولا يمكن للذين يتولون تسليح هذه الغلايين الادعاء بأي حق عليهم، والمفهوم أنهم قد تخلوا عنها لصالح الجميع ولخدمتهم، وبفضلها يمكن تأمين سلامة أعظم ضد غارات الأتراك، وضد النشاط العدواني لغيرهم من المسلمين، كما يمكنهم التحصن ضد الحلف المعقود بين الكاتالانيين وغيرهم من الأشرار المجرمين.

وسوف يكون كل واحد من هذه الغلايين مجهزاً بطاقم يتكون من مائتين وخمسين رجلاً، وهي لن تكلف خزينة الكنيسة الرومانية أية نفقات ،لأن صيانتها واقعة على عاتق من جهزها وقدمها، ويمارس القبطان المعين من قبل الكرسي الرسولي سلطانه على هذه الغلايين وعلى سواها، ويستطيع في المستقبل ملك قبرص والاسبتارية وباقي سادة الجزر اليونانية — إذا دعت حاجة كبيرة وواضحة — تأمين غلايين أخرى وفرساناً ورجالة لبعض الوقت، يضاف إلى هذا من الممكن العثور في تلك المناطق على غلايين يتولى تسليحها التجار، وهذه يمكن في بعض الأحيان وبعض المناسبات استخدامها، لاسيما عندما تلتحق كلها بباقي الغلايين، وهكذا يمكن بعون من بيده تدبير كل شيء وإرادته تحقيق خير كبير، شرط أن تتولى قداستكم تشغيل هذه الغلايين، بقيادة قبطان جيد.

القسم الخامس

الأسباب المسوغة لتوجب يقظة الكنيسة في هذا المجال، وهو في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الحث على متابعة تنفيذ هذا المشروع بعد الإقلاع به مباشرة.

إذا حسن في ناظري قداستكم الوصول إلى الغاية المتوخاة مما تقدم، فإن ذلك سيكون مؤشراً واضحاً على أن الرب شاء الشروع بتحقيق استرداد الأرض المقدسة، تلك التي رواها بدمه الثمين مولانا يسوع المسيح، وأنه بالفعل قد بدأ بذلك بشكل ملموس، فبناء على طلب صاحب أرمينية، ذلك المسيحي الصالح قامت دولة غريبة، ووجهت ضربة صاعقة إلى السلطان وإلى المسلمين، نعتقد أنها انتقام من عند الرب، بسبب القسوة المتناهية التي ارتكبها السلطان والمسلمون بحق المؤمنين بالمسيح في كل من عكا وسورية، عندما اجتاحوهما، ودمروهما، وخربوهما، وسبوا الكثيرين من أهلها، ويدلل ما حدث على أن الرب — كما قيل — قد شاء الشروع بتدمير قسم كبير من أرض السلطان وبلاد المسلمين، فأنتم أيها الأب الأقدس، يا من تمثلون الرب، سوف تبذلون كل جهد مستطاع بغبطة وسرور، ونحن واثقون من أن ذلك لاسترداد الأرض المقدسة التي تئن وتنوح بمرارة، ذلك أنها ميراثكم الحي، وميراث الدين المسيحي بأجمعه.

وهذا ما ينتظره أيضاً المتبقي من المناطق التي احتلها السلطان وما يزال يحتلها مع المسلمين المجرمين، وإنني أعلن بكل احترام أيها الأب الأقدس أن في التأخير خطر، ونحن نجد مثلاً ونقرأ:«إن تأجيل ما كان جاهزاً ما كان قط جائزاً»، هذا ومن الضروري التمعن بأمر، وهو أن

المناطق التي يسكنها الكاثوليك تتقلص باستمرار.

ففي آسية لم يعد ممن يؤمن بالمسيح غير كليكية، التي يدعوها عامة الناس باسم أرمينيا، وهي على كل حال في وضع كئيب وتعيش في ظل خطر عظيم،وذلك حسبما سنوضح الوضع في الفصل الرابع، هذا ولا يزال في أماكن متفرقة هنا وهناك من آسية مسيحيون، أما في إفريقية فلم يعد في حوزة المسيحيين غير جزيرة جربة، ومع هذا ما يزال هناك بعض المسيحيين يسكنون في أفريقيا، وهم مكبوتون تحت نير المسلمين، ويحتل المسلمون في أوربا عينها مملكة غرناطة، ويوجد في أجزاء كبيرة من أسبانيا التي يسكنها المسيحيون الكثير من المسلمين واليهود، وإن كانوا يعيشون تحت سلطان المسيحيين وحكمهم، ويعيش في جزر اليونان الروم المنشقون، لكن زمام الأمور والحكم هناك في بعض المناطق هي بأيدي المؤمنين.

ويتبع البلغار وملك صربيا عقيدة الروم، لكن يعتقد بوجود بعض الكاثوليك في ألبانيا وبعض مناطق الشاطىء، إنما عددهم صغير مقارنة بعدد غيرهم من الطوائف الأخرى، والبوسنة هي وكر الهراطقة، وتابع الروتان Ruteni الانشقاق، ويعيشون مع غيرهم من الملل تحت نير تتار بلاد الخزر المتاخمين لمسيحيي بولونيا والمجر، ويحكم الليتوان مع رئيس أساقفة ريجنسي Rigensi. والأسرة الألمانية المالكة أراضيهم بأنفسهم، وبهذا يتضح لنا كم تبقى من الأراضي التي يسكنها الكاثوليك، وألفت النظر بشكل خاص إلى أنه لم يبق ولا واحد من الكراسي البطريركية الهامة في حوزة المؤمنين بالمسيح.

الفصل الثاني: التوجه بشكل ملح بنداء نحو المسيحيين في البلدان الأوربية وطلب النجدة منهم ومن زعمائهم وملوكهم.

نلتمس من حنانكم وعطفكم التلطف بإلقاء النظر على مملكة المؤمنين

الأرمن الرازحين تحت نير أنياب أربعة وحوش ضارية:

فمن الجهة الأولى هناك الأسد — أي التتار — الذين يستوفون من ملك أرمينيا جزية كبيرة، ومن جهة ثانية هناك الفهد — أي السلطان — الذي يبدد في كل يوم المسيحيين والمملكة،وهناك من الجهة الثالثة الذئب — أي الأتراك — الذين يدمرون الممالك والممتلكات، وهناك من الجهة الرابعة الأفعى — أي قراصنة البحر المتوسط — الذين يهشمون يومياً عظام المسيحيين شروعاً من أرمينيا.

ولتتلطف قداستكم أيضاً بإلقاء نظرة فيها شفقة، على المسيحيين الرازحين منذ زمن طويل، وهم يعانون من العبودية في أراضي السلطان، ومن الشقاء بعد سقوط عكا وسورية.

ولتتلطفوا أيضاً بالنظر إلى المسيحيين الساكنين في النوبة وفي الحبشة، التي هي أبعد أراضي السلطان، والذين هم العبيد السود، الذين لاقوا ومازالوا يلاقون من السلطان الاضطهاد والويلات.

ولتتكرم تقواكم بإلقاء ناظريها على جزيرة قبرص، حيث يعيش أولادكم المؤمنون في خطر كبير من قبل الكفار، وأيضاً على جزر اليونان حيث يلاقي اللاتين الضيم على أيدي الأتراك، ويرغمون على دفع الجزية إليهم.

الفصل الثالث: خاتمة فيها خلاصة كل ما ورد في الكتاب الأول:

بناء على ما تقدم إنه إذا ما أعلن قداسة مولانا البابا ذلك الحظر المقدس حسبما بيناه أعلاه، وإذا ما أُخذ بهذا الحظر في العالم كله، وإذا ما أرسلت الغلايين لمراقبة البحار من أجل هذه الأهداف المبينة، فإن قوة السلطان والأتراك — بعون النعمة الربانية — سوف تضعف، وسيكون بالإمكان منع السفارات والبعثات والاتفاقيات الثنائية بين امبراطور الروم والسلطان، وكذلك منع تبادل الهدايا الكبيرة التي تجحظ لرؤيتها

عيـون العقلاء، وتجتـذب قلوب الأبرار، وتوهنهـا ،ذلك أن الامبراطور والسلطان كثيراً مـا يتبـادلان الهدايا كالسـلاح، وشقق الحرير والكتـان، والسكر والعطور، والجواهر والـذهب، والفضـة، والحجـارة الكريمـة وغيرها من المجـــوهرات، ومن الممكن بسهــولة مــداهمة هذه الهدايا والاستيــلاء عليهـا، فبــوســاطة هذه السفــارات والبعثـات المتبـادلة والمراسـلات توصل السلطان إلى استمالـة خـاقـان التتـار المدعـو أزبك، الذي يحكم بلاد الخزر وباقي البلدان الشماليـة إلى درجـة أن هذا الحاكم قد اتبع شريعة محمد(ﷺ) وأخـذ قسم من شعبه يميل إلى الفساد نفسه، ومن ثم صـارت الخشية كبيرة إذا مـا استمـرت هذه الحالة طويلاً بينهم على هذا الوضع، فإن تلك الشريعة المفسـدة ستنتشر بشكل تصاعدي في تلك المنـاطق الشماليـــة، وفي هـذا ضرر كبير وخطر بالنسبـــة للإيمان المسيحي، ذلك أن مصـادر موثوقـة تؤكد أن أزبك هذا يمتلك أعـداداً هائلة من الخيـول، وجيشـه مقسم إلى مجمـوعـات، كل عشرة أفـراد في مجمـوعـة، وإذا مـا أخذنا فقـط ثلاثة أعشـار ذلك الجيش يتكون عندنا جيش جـرار، يمكن تعبئتـة بشكل يصعب تصـديقـه، فإذا قطعت جميع المواصـلات البحـرية بينهما وأغلقت كما تقـدم وبينا، نكون قـد وجـدنا الدواء الفعال والكـافي، ذلك أنه أسهل على المرء المقاومة في البـداية من أن يتمكن من تبـديل مـا ترسخ بعـد بدايتـه على مـرور الزمن، ووقتهـا سيكون البحر مع المؤمنين الـذين على هذا الجانب من البحر أكثـر أماناً، وسيجني المنافع من ذلـك مسيحيـو شـواطىء البحـر المتـوسط، لا سيما الأقوى بينها والأنشط، وهي التي يسافـر سكانها بحراً أكثر من غيرهم، وستكون هذه المنافع كثيرة، وبـذلك سـوف يبـدلون مـواقفهم الخاطئة، وكذلك سيفعل العلمانيـون والأكليروس والرهبان، فهؤلاء أيضـاً سوف يجنون من وراء ذلك خيراً عظيماً.

ولسوف تكون حقيقـة الأوضـاع حسبمايلي: إذا مـا تعذر الذهاب من

الأراضي المسيحية بحراً مع الذهب والفضة والمجاذيف والنحاس، والزعفران والصموغ وشقق الصوف والحرير والكتان وغير ذلك من البضائع، لإيصالها إلى الأراضي التابعة للسلطان، بسبب الحظر الذي أعلنه الكرسي الرسولي، وإذا أيضاً لم يعد بالإمكان الحصول من أراضي السلطان على الشرانق والسكر والكتان والتوابل، وباقي الأصناف النادرة والبضائع القادمة من الهند، وإذا ما عُرف في كل مكان أن الذين ينقلون تلك البضائع ويتداولون فيها، باتوا عرضة للملاحقة والمحاكمة وإصدار الحرمان الكنسي بحقهم من قبل قداستكم، فإن غالبية الساكنين في الأراضي الساحلية سيبقون في وضع خطير بسبب المشاحنات المتواصلة فيما بينهم وبين من تقدمهم من المخالفين الأوائل.

وفي جميع الأحوال ستزداد أرض أرمينيا ازدهاراً، لأنها تنتج بدورها كميات كبيرة من الشرانق، ولأن الأصناف النادرة والبضائع القادمة من الهند، ستمر من مدينة بغداد نحو شواطىء المتوسط، سوف يجني نصارى أرمينيا من وراء ذلك مرابح كبيرة، تساعدهم في الدفاع عن مملكتهم ضد المسلمين أعداء الكنيسة.

ونظراً لتدمير قسم كبير من أراضي السلطان على أيدي التتار، حسبما أوضحنا من قبل، فإن هذا مؤشر، أنه بعون الرب، وبرضى قداستكم من الممكن تدمير أرض مصر وغيرها من الأراضي في وقت قصير، وسيكون من السهل عبور الحملة الصليبية لتحويل السلطان والمسلمين[إلى الكاثوليكية] ولاسترجاع مدينة القدس التي هي مدينة الرب المقدسة، وإعادة عمارتها، وكذلك لمواساة أولادكم المسيحيين الذين يعيشون في تلك البلدان، ولنيلهم الحرية، وكذلك من أجل ازدياد الإيمان المسيحي في كل مكان.

ومن أجل هذه الأهداف جميعاً، إنني أصلي بتواضع وإخلاص، وأسأل الرب القدير على كل شيء،والعذراء مريم، والرسل القديسين:

بطرس، وبولس، وأندراوس، والقديس مـرقص، وكل المجمع اللاهوتي السماوي، أن يؤول كل ما تعملونه في هذا المجال وفي غيره من مجالات، لحمـــد اسم ذلك الرب القـــدير ومجده، ولكرامتكـم أنتم يا ســـادتنا القـديسين، ومن أجـل خـلاص نفـوس ذويكم كلهم، وجميـع رفـاقكم أحياءً وأمواتاً، آمين.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي

آمين

ليرحمنا الرب وليبـاركنا، ولينير بوجهه ويتجلى علينا، حتى نعـرف في الأرض طريقك، وفي جميع الأمم خـلاصك، ولتعترف لك الشعـوب يا رب، لتعترف لك جميعها، ولتفـرح الأمم، ولتغني لأنك تدين الشعوب بالاستقـامـة وتهدي الأمم في الأرض، لتعترف لك الشعــوب يا رب، لتعترف لك جميعهـــا، الأرض أعطت ثمــرتها، فليبــاركنـا الرب إلهنا، ليباركنا الرب، ولتعم خشيته أداني الأرض وأقاصيها.

المجد للأب، إلخ .... ارحمنا يارب، أبانا الذي في السموات.

مدخل إلى الكتاب الثاني

لتمجيد مولانا يسوع المسيح أصلي، وأسأل القديسة مريم البتول أمه والقديسين: بطرس وبولس، والقديسين يوحنا المعمدان، ويوحنا الانجيلي والقديس مرقص، والقديس جرجيوس ونيقولا، وكل الحشد السماوي، أن يصلوا إلى الرب ليمن عليّ بنعمته حتى أكتب وأقول في هذه الصفحات ما يفضي إلى تمجيد اسمه وتكريمه، وما يرضي مسامع قداستكم، ويؤدي إلى ازدهار الإيمان المسيحي وترسيخه.

وقد تبدو جرأة من عبد حقير مثلي واعتداد، أن يذكّر مولاه السامي بأمور شاقة شديدة، لكن إيمانه وتقواه يدفعان عنه هذه الملامة، وقد تقدم لسلفكم القديسين المثابرة وهم يتطلعون إلى استرداد الأرض المقدسة، وذلك حسبما أعلن عن هذا رسمياً، ونحن أيضاً على ثقة ويقين أن قداستكم تواقة إلى ما يصبو إليه كل مسيحي ورع.

وبقيت أنا مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، ابن السيد ماركو سانوتو، من منطقة سينت سيفرو، ومن مدينة ريفوالتي، من أعمال البندقية، أفكر وأتأمل حتى تمكنت من وضع كتاب ثان حول شؤون الأرض المقدسة، وكان ذلك خلال شهر كانون الأول لعام ١٣٠٨، وهو متمم للكتاب الأول، ومثبت له وداعم، موضحاً فيه الوسيلة والأسلوب لاسترداد الأرض المقدسة، من أجل تسبيح الرب، وفي سبيل مجد كنيسته المقدسة ومجد قداستكم .

وقد فرغت من تصنيف الكتاب، في شهر كانون الأول لعام ١٣١٢ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، في مدينة كلارنسيا Clarentiae .

بداية الكتاب الثاني من هذه الرسالة
ويحتوي على الطرق الواجب اتخاذها
والوسائل المتوجب استخدامها لاسترداد
الأرض المقدسة. وهو في أربعة أقسام

القسم الأول

تنظيم الجيش المسيحي الثاني وشكله. وهو في أربعة فصول:

الفصل الأول: وجوب وجود قبطان واحد، مع المؤهلات التي ينبغي توفرها فيه، وعدد معاونيه، والأماكن المتوجب عليه الرسو فيها.

عندما قررت وضع هذا الكتاب، وقمت بتنفيذ العمل فيه، كان السبب والمقصد والدافع: إضعاف قدرات سلطان مصر، والحيلولة بين كثيرين وبين فرصة التعاون مع أعداء الصليب مراغمة لأوامر الكنيسة، وأيضاً من أجل استرداد الأرض المقدسة، وذلك بمطاردة المخالفين على الأرض، وفي سبيل تسليح تلك الغلايين العشرة أو السبعة، كما تقدم وأوضحنا، وذلك بهدف منع أي تعامل تجاري بين هاهنا وهناك، ويمكن أن تتلطف قداستكم بإصدار الأوامر بهذا الشأن، في الوقت، وحسب الشكل الذي يراه تدبيركم البابوي، بتوجيه من الروح القدس، فإذا عزمت قداستكم على أن تدخل تلك الأوامر حيز التنفيذ، وراق ذلك للأب الأقدس، من أجل التدمير الكلي للسلطان، وبعد انقضاء السنة الثانية أو الثالثة من اتخاذ ذلك التدبير، الذي يحدد المواد التي جرت العادة بحملها إلى أرض السلطان مراغمة لأوامر الكنيسة المقدسة، من الضروري اختيار رجل نشيط، يخشى الرب، وحسن السمعة وعاقل كتوم، وكريم واسع الأفق، وقوي ثابت، وحاسم عادل وعامل لما فيه الصالح العام للمسيحية جميعاً، ومفضل لمصلحتها على مصلحته الذاتية، وأن يكون حائزاً على صداقة أهل البندقية ورضاهم، حتى يتمكن وإياهم من إجراء أعماله، ولكي يجد بالقرب منهم النصيحة والمساعدة.

ويحتاج هذا القبطان إلى ما مجموعه خمسة عشر ألفاً من الرجّالة،

وثلاثمائة من الفرسان، بشرط إذا غاب منهم واحد قام مقامه آخر، وينبغي أن يكونوا جميعاً مأجورين، يتقاضون أجورهم من الكنيسة، وكذلك ميرتهم، ولوازمهم في البحر، وكل ما هو ضروري لهم، وينبغي اسناد القيادة إلى قبطان واحد فقط، لأن العمل المنضبط يتطلب رأساً واحداً، ويتوجب أن يقود القبطان هؤلاء جميعاً إلى الشواطىء المصرية، حتى يستولي هناك على بقعة من الأرض، وفيها يتولى إقامة معسكر حسب النصيحة التي ينالها من قوم خبراء، حيث عليه أن يتولى هناك حشد أسطول بحري ونهري، كي يتمكن بوساطته من الانقضاض على أعداء الايمان في الزمان والمكان الذي يراه موائماً.

الفصل الثاني: الدولة البحرية الأكثر مواءمة لتنفيذ هذا المشروع.

أما ما يتعلق بقبطان ذلك الأسطول، أي قائده الوحيد، فينبغي اختياره من أي مكان نحصل عليه بسهولة،لأن عناصر الجيش والغلايين وسفن النقل إذا اجتمعوا وهم مسلحين من جهات متعددة، لايمكن ضبطهم بسهولة ،وانسجام بعضهم مع بعض بيسر، وتحمل كل فريق منهم الفريق الآخر، وهكذا سرعان ما تقع بينهم الخلافات، وتكون نتيجة ذلك إحباط المهمة كلها.

والذي نراه أن ذلك الأسطول ينبغي أن يكون بشكل رئيسي من رجال البندقية لأسباب عديدة:

أولاً: لأن أهل البندقية رجال صدق، وليس لهم مثيل في العالم في تنفيذ ما يعدون به بشكل جيد.

ثانياً: لأنه يوجد في البندقية وفي أحوازها عساكر وبحارة للملاحة البحرية وللملاحة النهرية سواء، وبأعداد أوفر من أي مكان آخر، وتعمل هذه الكثرة من البحارة لصالح البندقية، ليس فقط في أراضيها،وإنما أيضاً في أحوازها، حيث الكثير من الأنهار والبحيرات،

أراضيهـا،وإنما أيضـاً في أحـوازها، حيث الكثير من الأنهار والبحيرات، ولذلك هناك وفرة بالبحارة الماهرين في الملاحة النهرية.

ثالثـاً: لأن مـا يحتـاجـه الأسطول سـواء للمـلاحـة أم لغيرها من الحاجيات من الممكن توفرها في أي وقت من الأوقات في البندقية، وفي أراضيها وأحوازها بكميات كبيرة.

رابعاً : لأن أهل البندقيـة ولدوا على الماء وعلى الماء تربوا، وغالبـاً ما تعـاملـوا مع جيرانهم عبر الماء وبوسـاطـة الماء، لذلك لهم في ذلك خبرة ومهارة، ويمكن لكم يا صـاحب القداسة التأكد من ذلك من خـلال ما صنعـوه مع جيرانهم ومـا زالوا يصنعـون، وعلى هذا إنهم إذا مـا جـرى تكليفهم بتنفيذ مشروعنا الحاضر بنجاح، لا شك أنهم سينجحون.

خامسـا : أهل البندقيـة بين أهل البحـر الموجودين في الغـرب، وبين الذين يصلحـون لمثل هذا العمل، هم أكثـر من تعـوّد على الملاحة نحـو بلدان المشرق، إمـا لقلة البحـار عندهم، أو لقصر طـريقهم إلى هناك، ولأن لهم مـراسي موزعـة هنا وهناك، حتى في جـزر اليـونان، وطرقهم البحرية قصيرة جداً، ولاسيما في الشتاءبوساطة غلايينهم.

سادساً: لأنه يوجد في مقـاطعة البندقية، في مـدينة كلوغيا Clugia (هي اليـوم شيوغيـا Chioggia) رجـال ذوي بأس شديد، بأعـداد كبيرة،، لهم خبرة ودراية وأهليـة للحفـر سـواء في اليـابسـة أو في المستنقعـات، وبجـرف الأتربة من الأمـاكن المائيـة، وبإيصـال الميـاه إلى الأماكن الجافـة، ولهؤلاء فوائد جمة بالنسبة للاستعـدادات ولتنفيذ المهمة المذكـورةأعـلاه، ذلك أنهم رجـال مـلاحـة صـالحون للعمل في الأنهار والبحيرات، وهم أيضـاً عساكـر مهـرة في استخدام الأسلحـة، ويمكن الاستعانة بجيرانهم،أي أهـل بادوفا Padova وأهل فراريا Ferraria، وخـاصـة أهل سـاروي Cerui وكـذلك أهل كلوغيـا Clugia ، من

أجل تنفيذ المهمة المذكورة.

سابعاً: بسبب أن الشواطىء البحرية، أي شواطىء البندقية من غرادو Grado، وبالتحديد من القلعة المسماة بلفورت مسايرة للشاطىء حتى مدينة فراريا، ومن الشواطىءالمنطلقة من رافينا Ra-vennae، وسيرفيا Cervia وصولاً إلى أريمينوم Ariminum، وطول جميعها مائتين وسبعين ميلاً، تشبه الشواطىء المصرية كثيراً، سواء أكان ذلك على ضفاف البحر أو في البحيرات والسباخ والخلجان.

وبناء عليه إنه لكثرة ما اعتاده أهل البندقية من الذهاب والإياب يومياً على تلك الشواطىء، فإنهم في المناطق المصرية أفضل من يمكن استخدامه، وهم جديرون ومؤهلون للاستيلاء على أرض مصر أكثر من أي شعب آخر، يمكن إرساله إلى هناك.

وعلى الرغم من هذا كله، ومع الاقرار حتى بحقيقة ما ذكرته هنا عن أهلية أهل البندقية، إذا رأى مقامكم الرسولي السامي أن هناك شعباً آخر مؤهلاً للإرسال، فلا مانع من ذلك، لأن المهم هو أن يتم بعون الرب نجاح المهمة المطلوبة، شرط أن لا يكون ذلك الشعب مكوناً من جنسيات متنوعة، لكل منها عاداته المختلفة، أو من سلوكه شائن في بلاده، لأنه إذا كثر التباين اشتدت الخلافات، ولأن الشيطان الحسود لكل عمل ناجح، لن يتوقف عن إثارة أسباب الخلاف في داخل الجيش.

الفصل الثالث : الإعدادات للإبحار، والتجهيزات الواجب تهيئتها من أجل عبورمجموعة من الجنود، وتحضير الإمدادات، وسبل اكتساب صداقة التتار.

بعد إعداد هذا كله، سوف يكون من المناسب أن يعمد القبطان المذكور وجماعته إلى تجهيز أكبر عدد من المراكب، وخاصة الزوارق النهرية، وذلك على نفقة الكنيسة وبرضاها، وأن يؤمنوا الميرة وجميع ما

يحتاجه الذين سيقدمون فيما بعد من الغرب، وقتذاك، إذا ارتأت قداستكم، يمكن الدعوة إلى الحملة الصليبية، في السنة الثانية أو الثالثة، وعندما يجري حشد عدد كبير من الرجال الأشداء الجاهزون للذهاب إلى هناك، فإنهم سيجدون أنه قد تم تحضير الميرة والمعسكر والمراكب للانقضاض على الأعداء،، الذين تقدم إضعافهم في البر وفي البحر، وبهذه الطريقة يمكن الاستيلاء على أرض مصر، لاسيما أن المسيحيين السود الساكنين في النوبة، وفي غيرها من المناطق في صعيد مصر وما وراءها، عندما يشاهدون هذه النجدة القوية القادمة إليهم، لاشك أنهم سينقضون من جانبهم، وسيفعل مثلهم التتار، فيهجمون من مناطق سورية، ولهذا سوف يكون مفيداً جداً اكتساب صداقة التتار، والمحافظة عليها بكل عناية، بوساطة تبادل الهدايا والرسائل الطيبة والتحيات.

فإذا ما طبق هذا المنهج، لابد ـ بعون الرب — أنه في خلال أربع سنوات أو خمس من الاقلاع بهذه المهمة المجدية، ستكون أرض مصر قد أخضعت لسلطانكم، ووقتذاك يمكن لقداستكم تسليم إدارتها إلى الذي — أو الذين — تريدون، وفي أغلب الظن أنه إذا ما أُخضعت مصر، فإن أرض الميعاد المقدسة ستعجز بدورها عن الصمود، ومن ثم ستسقط بدورها تحت سلطتكم، وفضلاً عن هذا كله، سوف تستسلم لسلطتكم أيضاً باقي الأراضي التي اعتادت في الماضي أن تكون للفرنجة، وستتحرر من سلطة المسلمين، لأنه إذا اجتثت الجذور يبست الأغصان حتماً.

الفصل الرابع: كمية النفقات اللازمة لجيش قوامه خمسة عشر ألف من الرجالة، وثلاثمائة من الفرسان، والعطاء الواجب أن يؤمن لهم.

وإذا ما رغبت قداستكم أن تعرف كم ستبلغ سنوياً نفقات أولئك الخمسة عشر ألفاً من الرجالة، والثلاثمائة من الفرسان لإبحارهم ولمؤونتهم ولباقي حاجياتهم، والكلف الموائم صرفها في هذا السبيل على

التتار، أجيب بدقة:

إنها ستبلغ إحـــدى وعشرين مــرة ضعف مبلـغ مــائـــة ألف من الفلورينات، على أســاس أن كل فلورين يسـاوي سـولـديين من نقـود البندقيــة، أي مـا يعــادل ستمائـة ألف من الفلوريـنات الذهب، وذلك لتغطية نفقـات الرجالة والفـرسان والطعـام المناسب مع المبالغ التـي قد تتوفر الحاجـة إليها للمحافظة على صداقة التتـار، حسبما تقدم بنا الذكر، وعلى أسـاس أن النفقـة ستكون هي ذاتها في كل سنة، وكـذلك سـوف تبلغ النفقات اللازمـة للسفن، والحبال، والعدّة، وكل مـا سوى ذلك مما هو ضروري لبناء المسـاكن وسواها، مما قـد يستوجبـه القتال وتعـويض الخيــول التي تعقــر أ و تنفق أثناء الخدمــة، ستبلغ ثلاثمائـــة ألف من الفلورينات الذهب للمدة المذكـورة، وبناء عليه سيبلغ مجمـوع النفقات إحــدى وعشرين مــرة ضعف مـائـــة ألف من الفلـورينات، وفي تلك السنوات الثـلاث، أي سيكون لكل سنة سبعمائـــة ألف فلورين، وذلك شروعاً من السنة الأولى وما بعد.

وبعـد أن يكون المسيحيون قـد استـولوا في مصر البحرية على مـوقع يعسكرون فيـه ويتخـذونه مقـراً لهم، يمكــن لقــداستكم الاستفــادة من مداخيل يمكن تحصيلها من أرض مصر ومن مياهها.

أما بشأن باقي المؤن، ولوازم الملاحة اللازمة للحشد الذي سيأتي من الغـرب حسبما بينا، لابد من العمل وفق مـا تكون قداستكم قـد اتخذته من إجـراءات، وإذا رغبت قـداستكم أن تعـرف فيما إذا كـان بالإمكان إنجـــاز هذه المهمـة بمثل هـذا العـدد الصغير من الناس، وبهذا القـــدر الضئيل من النفقات، أجيب بتـواضع واحترام، أنه ممكن، لكن إذا قدرنا أن شـــؤون الحرب تتطلب الضمانة الكليــة الممكن تـوفيرها لها، وأنه لا يجوز التـوفير في هذا المضمار حتى تتـوفر الضمانات، وإذا مـا قـدرنا أن قـداستكم ستكون قـادرة على تـأمين هذا القـدر من النفقـات، وإذا مـا

تأكـدنا من ضرورة كون الرجـال المكلفون بتثبيت مـوقع السكن — أو مـواقع — وتحصينه، أشـداء وذوي خبرة في العمل في الميـاه المالحة، وفي المياه العـذبة، فإنني أعلن بكل تأكيد أن الذي تكـون له السيطرة في المياه العذبة، ويستطيع أن يذهب إلى هنا ويعود من هناك حسب هواه مع قلة من الرجال، الذين يمكنه بشارة منـه أن ينزلهم إلى اليابسة، هذا بلا شك قادر بدون رادع أن يكون مسيطراً على الأرض أيضاً في وقت قصير.

وسبب إعلاننا هذا هو أن معظم أرض مصر موزعة حول نهر النيل، وهي أرض طويلة جداً وضيقة، بحيـث لا يمكن حمايتها مهما بلغ تعداد الناس الموجودين فيها، وكـذلك لا يمكن منع الدولة المهاجمة عن طريق الماء والحيلولة بينها وبين الاستيلاء عليها، والاحتفاظ بها، أو تدميرها.

القسم الثاني

تحديد الطرق التي يرى بعضهم أنها أكثر مواءمة ليركبها الجيش تحت راية الكنيسة، وتسميـة أفضل طريق بحرية للـوصول إلى مصر. وهو في عشرة فصول:

الفصل الأول: في أنه لا يجوز أن تسلك راية الكنيسة طريق البر.

إنه لمن الواضح والجلي مما تقـدم، ومما سيأتي تبيانه بشكل خـاص، أنه ليس مـن الضروري لجيش الحملـة أن يسلك طـريق البر، كما صنـع فيما مضى بعض القـادة الأبطال، ولا مجال للذهاب براً بسبب عقبات عـدة وعـوائق قـد يتعـرض لها الجيش، وبسبـب طول الطريق ووعـورته، وبسبب تعـداد البلدان والحواجـز والعقبـات التي يمكن أن تنشأ على الطريق في وجـه العـابرين، وأيضـاً بسبب الشـح بالأغـذية، وغيرها مما نعـرفه ضرورياً للجيش، ورب قـائل قـد يقول: لقـد تم بنجاح عبـور الراهب بطرس الناسك، ومثله الأمير غـودفري دي بولليـون عن طريق البر، فأنا أجيب أن نجاحهما لم يكن بفضل التدابير أو القوة البشرية، بل

بفضل توجيه من عون الرب، ونجز ذلك بفضل نعمة من عليين .

الفصل الثاني: ردّ رأي القائلين بوجوب رفع هذه الراية على أرض أرمينيا، أو سورية، أو القدس في الأرض المقدسة، أولاً.

قد يرى بعض الناس نزول جيش الحملة المسافر بحراً، في أرمينيا، لأنه يوجد هناك مرفأ صالح، ومناخ معتدل، وإمكانية للاستراحة والاستجمام، ومن هناك يتم استئناف الزحف لخوض الحرب في منطقة أنطاكية وسورية، والدخول من هناك إلى الأرض المقدسة، وحول هذا أقول: إنه لا يجوز النزول في أرمينيا لأسباب كثيرة:

أولها: أرض أرمينيا أرض موبوءة، وسينجم خطر انتشار الوباء في الجيش وموت عدد كبير من المقاتلين، وهنا من الضروري التذكير بأن التتار قد تدفقوا مراراً عن طريق البر، واستولوا على معظم مناطق سورية، إنما لاستحالة عبورهم إلى مصر إلاّ عن طريق الصحراء التي تؤدي إلى هناك، ولتعذر اقترابهم من المناطق المصرية، اضطروا إلى التخلي عن الأراضي التي استولوا عليها، وهكذا كان السلطان يستعيدها في كل مرة، وهو ما يزال مستولياً عليها ويتولى حكمها كما كان الوضع في الماضي، وإذا ما قيل بأن التتار أرغموا على التخلي عما استولوا عليه، بسبب أنهم لم يستطيعوا في أيام الصيف البقاء لشدة الحر، ولهيب المناخ،وبسبب نقصان المراعي وانعدامها حيث حرمت خيولهم وقطعانهم ومواشيهم الكلأ، في حين يستطيع المسيحيون إرسال إمدادات الطعام وغير ذلك من الحاجيات يومياً عن طريق البحر، كما أنهم قادرون على بناء القلاع والحصون.

أجيب متسائلاً أولاً: كيف يستطيع المسيحيون فعل ذلك، ومقابل أية مخاطر، وأية نفقات، لابل حتى لو أنهم توصلوا إلى ذلك، ما عساهم يفعلون؟

فبداية من الضرورة بمكان عدم الاستهانة بقدرات السلطان، فالكل يعلم أنها عظيمة، وخاصة في تعداد العساكر، وإذا رغبت قداستكم في معرفة كم عدد العساكر التي يُقدّر أنها اليوم تحت إمرة السلطان، إنها حسبما يجمع العارفون تبلغ ستين ألفاً من الفرسان، وهؤلاء وإن كانت مهاراتهم متفاوتة فإن ما لا يقل عن عشرين ألفاً هم من النخبة، وعشرين ألفاً من مرتبة الوسط، والمتبقي من النوع الأدنى، كذلك لدى السلطان في مناطق سورية حشوداً عديدة من المسلمين المدربين والماهرين في فنون الرماية: منهم فرسان نبالة، ومنهم رجالة، وسيتقاطر هؤلاء على الحدود الرئيسية للتصدي لجيش المسيحيين.

لذلك من المنطقي أن يكون لدى المسيحيين الموجودين هناك قوة كبيرة من الفرسان ومن الرجالة، وعدداً كبيراً من المراكب تحمل المؤن والقمح اللازم إليهم، بحراً، بوفرة، بغية تمكينهم من مجابهة قوى السلطان، بدون أي عوز، حتى يحتلوا أرض سورية بكل شجاعة، وأن يبنوا فوقها الحصون والقلاع، وهذا كله لا يمكن إنجازه من دون نفقات كبيرة، وخسائر جسيمة بالأرواح، حتى وإن افترضنا أن التوفيق قد حالف المسيحيين في هذا كله، واستطاعوا إخضاع تلك المناطق كلها لسيطرتهم، وقتها ترتاح خواطرهم، وسيقلعون عن مطاردة أعدائهم، ومن المنتظر أن الشطر الأكبر منهم سيعود إلى بلاده، وستبقى أرض مصر تحت سلطة السلطان، فما عساه سيحل وقتها بالمسيحيين الذين تخلفوا في تلك المناطق؟ من المؤكد أنهم سيعيشون والمخاطر تحيق بهم، وستستبد بهم مشاعر الخشية من أن يطردهم السلطان والمسلمون مثلما طردوا غيرهم، وألقوا بهم خارج تلك المناطق ونفوهم، ولهذا لا يصح أبداً أن يحدث الانزال في منطقة أرمينيا أو في سورية، بل يتوجب أن يكون ذلك في أراضي مصر البحرية، حسبما أوضحنا من قبل.

وهناك عامل آخر أيضاً: وهو أن احتلال مصر سيجعل المسيحيين

الموجودين في الشرق أكثر استعداداً للحرب، والشعوب الأوربية أعظم حماساً لتقديم المساعدة، عندما توضع أمامهم المرحلة الأساسية من المشروع، ألا وهي استرداد الأرض المقدسة، ويعرفون أن المهمة المقدسة سوف تنجز بوساطة رجال الحرب، ورجّالة الجيش، مع عدد لابأس به من الفرسان، وبقدرة الذي يتم هذا العمل لمجده، وسينجز ذلك بنفقات أقل، وبضمانة أعظم، لأنه من غير الممكن تعرض المسيحيين لخوض معركة في ظل المخاطر، إلاّ على الماء في وقت خارج عن إرادتهم، فضلاً عن هذا إنه مثلما الرجال في سورية أشداء ومهرة في فن الرماية، ومدربون على القتال، في المقابل رجال مصر ضعفاء وخاملون، ومع هذا إذا حسن لقداستكم حراسة مملكة أرمينيا وحمايتها، بإرسال فرق من الفرسان والرجالة من أجل ذلك فليكن، ويبقى الخير الأعظم والمنفعة الأكبر التي يمكن جنيها تتمثل في إيقاف دفع الجزية إلى سلطان مصر وإلى قواده وموظفيه، ولسوف نحكي في الكتاب الثالث المقبل أخبار ما حدث في الماضي لمدينة عكا ولسورية بكاملها، عندما كان المسيحيون يقطنون تلك البقاع، فتاريخ الماضي أفضل معلم لصنع المستقبل، فعوضاً عن الناس المزمع إرسالهم لحراسة تلك المملكة وحمايتها، والذين سيتعرضون للوباء المنتشر في ذلك الإقليم، والذين سيتغير عليهم نمط الحياة، من الممكن اللجوء إلى الطريقة التي يأخذ بها الأمراء المقيمون محلياً، وهي قضاء فصل الشتاء في الساحل، وما أن يطل الصيف حتى ينتقلون إلى الجبال حيث الينابيع العذبة، والمياه الصافية والباردة على الرغم من شدة الحر، وحيث الأعشاب الوافرة والمراعي الخضراء والهواء المنعش، وإذا ما اضطر أولئك القوم إلى النزول إلى الساحل في أيام الصيف فليتجنبوا ضربة الشمس، وعليهم الالتزام بالاعتدال في المآكل وفي شرب الخمرة، وفي المضاجعة في أوائل الخريف وقت تسميد الأرض وهذه النصائح مفيدة جداً سواء في آخيا Achaia أو في الجزء الأكبر من مناطق بلاد اليونان.

ولنعد الآن إلى مشروعنا، لنقول: إن مملكة أرمينيا،جديرة — على كل حـال — أن تنال من سمـوكم الـرسـولي، عناية أكبر، ذلك أنها الأرض الوحيـدة في آسيا كلهـا، أي في الجهـة الشرقية من البحـر، التي بقيت في هذه الأيام تابعة للإيمان الكاثوليكي.

الفصل الثـالث: رفض رأي القـائلين بوجـوب الانزال البحـري في قبرص، أولاً.

هناك من يرى وجـوب أن يأخـذ العبور الكبير طريق البحـر، ويتجه أولاً إلى قبرص، للاستراحـة هناك والاستجمام بعـد كثير من المتـاعب والمشاق التي يكون الجيش قد تكبدها أثناء الابحار والعبور، ويباشرون بعد ذلك محاربة أعداء الايمان، ويستندون في هذا إلى رأي الملك القديس لويس وتجربتـه في الأرض المصرية، لابل ربما في أراضي سـورية التي لا تبعـد كثيراً عن جـزيرة قبرص، وعلى هذا أجيـب بكل احترام: إنه لا يجوز سلوك ذلك الطريق، لأسباب هي:

أولاً: أرض مصر أسلم صحيـاً من أرض قبرص، وميـاههـا أفضل، وفيها كميات وافرة من الأسماك لتغذية الشعب.

ثانياً: إذا انعطف الجيش نحو قبرص أولاً، ليستأنـف من هناك سفره إلى الأراضي المصرية، وذلك قبل أن يتـولى مهاجمة الأعداء، فـالأفضل له الذهاب مباشرة إلى الأرض المنوي الاستيلاء عليها.

أما بشأن فكرة العبـور من خلال إسبانيا، والانتقـال منها عبر مضيق جبل طارق إلى مـدينة سبتة، ومنها إلى تونس، أو عبر أي جـزء من بلاد المغرب، فإني أوثر عـدم الوقوف عندها، فإنه انطلاقـاً مما قلناه، ونقوله، ومـا يمكن أن يقـال، إن هذه الطرق غير مناسبـة، وغير صالحة للسفـر نحو الأرض المقدسـة، وبالتالي إلى احتلالها، خصوصـاً بسبب الصحارى الواقعة في وسطها، ومن جانب آخر، حدث أنه عندما أبحر الملك النبيل

القديس لويس، ملك فرنسا، إلى تونس هو وابنه جين تريستان، مع نائب الكرسي الرسولي، ومعهم عدد كبير من الأمراء من مرتبة كونت وبارون، حدث أنهم وقعوا ضحية الوباء الذي أودى بهم، وبعدد كبير من الشعب المسيحي، حسبما سنذكر ذلك بالتفصيل، في الفصل العاشر من القسم الثاني عشر من الكتاب الثالث.

وكثيرة هي الطرق التي جرى الكلام حولها من أجل استخدامها لمهاجمة أعداء الإيمان الكاثوليكي، ولاسترداد الأرض المقدسة، والذي نراه هو: إن الطرق التي وصفناها من قبل هي الأفضل والأجدى، ولذلك قيدتها وقارنت فيما بينها وبينت أن الطريق البحرية إلى مصر هي الأفضل، لكنني أدع دوماً لفطنة قداستكم تقرير اختيار الطريق.

الفصل الرابع: التحصينات وملحقاتها، وحديث حول التفكير الدأوب لدى البابا ولدى أخوانه بشأن حشد هذا الجيش من رعيته ومن المؤمنين بغية ضمان التحصينات، والذي تمّ في الماضي للاستيلاء على تلك التحصينات، وما ينبغي الآن القيام به للغاية نفسها، مع مثل رمزي يلزم تطبيقه حول موضوع قلعة من المتوجب احتلالها.

هناك قلعة كبيرة جداً، وجميلة محصنة بأسوار وأبراج، وحولها حفائر وخنادق كبيرة وسواتر رملية، والقلعةمشحونة بالرجال، ويدافع عنها وعن الخنادق والسواتر عناصر ممتازة من الرجّالة، وأبراج القلعة محصنة وتشرف على جميع الخنادق والسواتر، وهذه القلعة مجهزة بممرات تربط ما بين الأبراج والخنادق، ومن الممكن سلوكها ذهاباً وإياباً، ولهذه الممرات أبواب حديدية قوية، وإلى جانب ذلك لتلك القلعة باشورة كبيرة، يبقى الباب خلفها لوحده مفتوحاً بشكل دائم، ينقل عبره حراس القلعة كل ما يحتاجون إليه، ولا سيما الضرائب والجزية، والأتاوات التي

يدفعها الملوك والبارونات والفرسان، والأعيان الأثرياء يومياً، وكذلك البضائع التي يجلبونها.

وهناك أيضاً سيد قديس، يمتلك عدداً من الأخوان والأبناء والأتباع والمؤمنين، وهو كان ومابرح يفكر مع إخوانه المذكورين، ويسهر ليله ويقضي نهاره وهو يفكر ويتأمل كيف سيتمكن من حشد جيشه، ومن ثم كيف يمكنه الذهاب إلى تلك القلعة للاستيلاء عليها، طالباً من المؤمنين ومن أتباعه المعونة والمشورة، ليعرف أي طريق يركب، وأية خطة يطبق، حتى يتمكن هو وشعبه من الاستيلاء على تلك القلعة.

فماذا نجيب، وما الذي نقوله، ومن أي منطقة يمكن أن نذهب للاستيلاء على تلك القلعة؟ وإذا قيل لنا علينا الذهاب من الجهات التي فيها الخنادق والسواتر الرملية والممرات، لن يكون من الصعب مطلقاً القول علناً بأن ذلك سوف يكلف مشقة كبيرة، لأن عبور الخنادق والسواتر بغية الوصول إلى الأسوار والأبراج خطير جداً، ويكلف المهاجمين كثيراً، وسيجد أولئك السادة القديسين أنفسهم متعبين ومرهقين في النهاية، بسبب المشاق التي تكبدوها أثناء عبور الخنادق والسواتر، للحملة على تلك الجماعات ببسالة، ولو أنهم كانوا في داخل القلعة لهانت عليهم العملية والمحاولة، ولكان أقل خطراً عليهم، وأدنى ضرراً مما لو أنهم خسروا كل ما كانوا قد ربحوه، فهذا ما تمت البرهنة عليه، وصار واضحاً من خلال هذا المثل.

وأوضح من هذا كله هو أن نزاهة الذين تقدموا وبسالتهم مكنتهم من دخول تلك القلعة المنيعة، إنما أرغموا على الانسحاب، بسبب النصح الفاسد، وبسبب انعدام النظام لاحقاً، وهكذا خسر ورثتهم كل ما كانوا قد ربحوه تقريباً، وأرسل السيد الأقدس مجدداً أفواجاً من النبلاء والسادة ليقدموا النجدة إلى الذين تقدموهم، ولكي يساعدونهم

على اقتحـام تلك القلعـة، وقـد توقف بعضهـم عند الشروع بالمحـاولة، ومضى آخرون لاسترداد القسم الأكبر مما كان متقدموهم قد فقدوه، ثم رجعـوا إلى أهليهم وإلى ممتلكاتهم، ودخل بعضهم الآخر إلى القلعـة من الباب، لكنهم لم يأبهوا بالنصيحة الحكيمة التي قدمت إليهم، ولم يسيروا حسب النظام المقرر، فـألقوا بأنفسهم بين أيدي أعدائهــم، وعجزوا عن الاستيلاء على القلعة، وأرسل بعد ذلك الأب الأقدس، إمدادات بشرية عديدة، على دفعات متواليـة، لكن الجميع عجزوا في النهاية عن الدفاع، وهكذا خسروا كل ما كانوا قد اكتسبوه.

ولهذا توجب القول، أنه كان عليهم الدخول من باب الباشورة الذي كان ومـا برح مفتوحاً، لأنه الطريق المتوجب سلوكـه طالما لا يوجد أي عـائق يعترض السبيل، ووجب بعـد ذلك حراسـة ذلك البـاب، بشكل يحول بين الضرائب والأتـاوات والبضـــائع وجميـع الحاجيـــات، وبين الوصــول إلى تلـك القلعـــة، وبذلك لن يستطيـع حماتها وسكانها تجديد أسلحتهم.

وإذا ما أعطى الرب السيـد الأقدس نعمة عظمى تمكنه من حشـد ما يريده من العسـاكر والجنود القـادرين على المرور بانتظام وثقـة من ذلك الباب، ومجابهة الأعـداء، ومحاربتهم برجولة وببسـالة شبراً شبراً، فإن ما كان يبدو مستحيلاً سيغدو ممكناً إذا ما تقرر تنفيذه، ولهذا سيكون السيد الأقدس محموداً إذا ما استمع إلى نصيحـة العقلاء وأخذ برأيهم، بإرسال من يقتحم القلعـــة من البـاب المذكـور، فـذلك أفضل بكثير، وأضمن وأيسر بها لا يقاس من أن نذهب إلى تلك القلعة من الجوانب، التي فيها الخنادق والسواتر حيث ستكون المقاومة شديدة.

الفصل الخامس: مثل رمـزي آخر يتعلق بشجـرة يتـوجب اقتلاعهـا، ومـــا هـو متعلق بها، وبالينـابيع التـي يرويها، وبالثمار التـي تعطيهـــا وتنتجهـا، وحول الذين يذهبـون لشراء ثمارها، وكـذلك حول الأمـراء

الأتقياء الذين أرادوا وما زالوا يريدون اقتـلاعها، وحول ما تم، ويمكن أن يتم بهذا الشأن.

كانـت هناك شجرة عظيمـة جداً، وارفـة الأغصان، وكثيرة الأوراق، وكـانت الأغصـان وارفة ممتـدة كثيراً، تغطي بأوراقهـا الأرض، وتروي تلك الشجــرة ينابيع لا تنضب، ويغــذيها بشكل خـاص نهر، يعطيهــا باستمرار الغـذاء الغزير، ولولا ذلك النهر لما كـان بإمكان تلك الشجرة البقـاء بسهولة على حـالها، ولا تعطي تلك الشجـرة أية ثمار، لكن تنبت تحتهـا وتنمـو ثمار كثيرة طيبـة، ومع ذلك من رغـب بالذهاب إلى هناك لقطف بعض تلـك الثمار، فإنه يسير أشبـــه بمغمض العينين، لأن تحت تلك الشجـرة ظـلمات كبيرة، غير أن جـودة الثمار اجتـذبت العـديد من الناس للذهاب إليهــا، وبالفعل توجــه كثيرون إلى هناك، وكثيرون هم الذيـن يرغبـــون بالذهاب إلى هنـاك، ومع أنهم لا تدفعهم أيـة ظروف شخصية أو مصلحة، مع ذلك يذهبون.

ولقـد فكر السيــد الأقـدس مع أخـوانه وأبنائـه وأتبـاعـه المؤمنين الخاضعين له باقتلاع تلك الشجرة واجتثـاثها، حتى يكون ممكناً الذهاب على ضــوء وبحــرية لجمع الثمار الموجــودة تحتهـا، وكـان أبنـاؤه أيضـاً وأتباعـه، والمؤمنون الخاضعون له يرغبون بالذهاب هم أيضـاً، وامتلاك ثمار تلك الشجـرة من دون معـارضة، ولذلك التمـس العون والمشـورة لاجتثاثها من جذورها، وتبديدها، فأشير عليه بإرسال رجال ذوي خبرة كبرى إلى هناك مع فـؤوس مشحـوذة ومناشير، وأدوات أخـرى تمكنهم من التعامل ببأس مع تلك الشجرة، وهذا ما حصل.

وشرع الرجــال يقطعــون مـا أمكنهـم من أغصـانها، وتجريـدها من أوراقها، وأتوا على شطـر كبير منها، واقتربوا كثيراً من جـذعها، غير أن هؤلاء الرجال الـذين تولوا العمل وباشروه تعبوا والتمسـوا الاستراحة، وتوقفــوا عن العمل، فكانت النتيجــة أن عـادت تلك الشجــرة التي

تسقيها الينابيع المذكور، وخاصة ذلك النهر باستمرار وحيث هناك خيرات كثيرة، وحيث أن ساقها قائم في أرض طيبة وخصبة، عادت تلك الشجرة للنمو والامتداد، واستعادت وضعها كما كانت من قبل.

وعاود السيد الأقدس الكرة وأرسل مجدداً المساعدة والنجدة إلى الذين تقدم وأرسلهم لقطع تلك الشجرة، وعاودوا هم عملهم من جديد يقطعونها ويقطعون أغصانها ويبترون أوراقها، ويحفرون الأرض التي تغطيها تلك الشجرة، وحدث في النهاية أن هؤلاء أيضاً، الذين أرسلوا مؤخراً، وجدوا أنفسهم متعبين، وقد عادوا إلى البلاد التي ولدوا فيها، قبل إنجاز العمل، ناشدين للراحة من العمل.

وتكرر المسلك نفسه على مر الأيام مع غيرهم كثيرين، غير أن الشجرة التي قلنا بأنها مروية بدون انقطاع، وخاصة من ذلك النهر الكبير ، وأن جذوعها غارقة في أرض خصبة وجيدة، عادت إلى حالتها الأولى، مثلما تقدم وعملت مراراً، والآن ماذا نقول؟ وأية نصيحة يمكن أن نسديها إلى السيد الأقدس، الذي يطلب تقديم العون له والنصيحة لاجتثاث تلك الشجرة من أصولها؟ والرأي الأفضل هو تغيير الطريقة المتبعةحتى الآن، بنسيان الأسلوب الذي جرى تطبيقه، وهذا واضح مما جرى ، طالما أن رجالاً أشداء تقدم وذهبوا إلى تلك المنطقة بهدف اجتثاث تلك الشجرة وإزالتها كلياً، وأخفقوا في الوصول إلى مآربهم، علماً بأنه يصعب اليوم وجود رجال لهم مزاياهم، فأية نصيحة نعطي بعدما عجزت تلك القوة الباسلة عن القيام بإنجاز ما أسند إليها؟ ومن الضروري إرسال مساعدة إلى تلك القوة، وهذا يتطلب علماً وبراعة، وإذا توفر هذان العنصران، فالأمل بالرب ستجتث تلك الشجرة بكاملها.

وبالطريقة الجديدة، ووفق الشكل الجديد الذي نقترحه، ينبغي أولاً قطع ذلك النهر الكبير الذي روى تلك الشجرة، ولا يزال يرويها

باستمرا ر.

ويجب بعد هذا توفر رجل واسع الخبرة، يتدفق بالأصالة، غير ميال إلى الطمع بمكاسب مادية، يسانده رفاق صالحون، يقوم — بنعمة من الرب وبمهارته — فيحمل معه كميات كبيرة من الديدان، فيضعها على جذوع تلك الشجرة وفروعها، وأن تكون نوعية تلك الديدان، بحيث أنها وقت وصولها إلى هناك، تبدأ بقضم جذع تلك الشجرة وفروعها، والأمل بالرب كبير، بأن تفقد تلك الشجرة في وقت قصير جذعها وفروعها، وتسقط بسرعة مع أغصانها وأوراقها.

وبعد يمكن لقداسة البابا أن يأمر بأن يتولى كل واحد انتزاع مايريده من جذع تلك الشجرة، ثم إفساح المجال للشعب الخاضع لقداسته لقطف الثمار التي كانت تنبت تحتها، دون أن يعترض سبيلهم معترض، وأن ينعموا بها بسلام، ويحتفظوا بها على الدوام، وليقدنا إلى ذلك من يحيى ويملك إلى أبد الآبدين، آمين.

إن ما قيل، وسرد ، وعبر عنه برموز وأمثال دامغة وصادقة ومتشابهة تماماً، من شأنه حملنا على إظهار الحقيقة التالية: إن الطريق البحرية إلى مصر هي بكل تأكيد أفضل الطرق جميعاً، وهو الباب الصالح الذي ينبغي الدخول منه لإبادة ملة محمد(ﷺ)، بادئين ذي بدء بقطع الدرب والمنبع الذي تصل منه الموارد المالية باستمرار حسبما ذكرنا من قبل، وذلك عن طريق ملاحقة المخالفين، وتسليح الغلابين، وذلك حسبما سنوضح في الفصول التالية:

الفصل السادس: حديث حول التحصينات وما لف لفها.

ولتجنب إثارة أي شك، فإنني أوضح باحترام وخشوع واعتذار قصدي من كل ما أخبرت به قداستكم في الأمثلة المتقدمة، فقد عنيت بالقلعة المشار إليها أرض مصر، التي ظلت منذ زمن بعيد الحصن

الحصين في المشرق للذين يتبعون ملة محمد(ﷺ)، وقصدت بالدهاليز والستائر الرملية الصحراء الشرقية التي تحيط بأرض مصر من جهات مملكة القدس وسورية، ومثلها الصحراء الغربية من جانب أفريقيا، والتي لها تخوم مع مملكة تونس ومن ثم الصحراء الكبرى، أما الأسوار العالية والأبراج الكبيرة والستائر التي حولها،ففيها إشارة إلى تلك الصحراء الواسعة وإلى أن عبورها يوازي بمشقته تلك الأسوار والأبراج، وهو عبور مرهق، وصعب وشاق جداً، وهكذا الحال بالنسبة لعبور الصحراء الممتدة على مسافات طويلة، وكما ذكرنا من قبل أن سلوك تلك المعابر، مرهق وخطير جداً بالنسبة لأي جيش كان وعالي التكاليف، أما الخنادق ونقاط الدفاع في تلك الأرض، فمن الممكن تسميتها قلاع سورية وتركية المشحونة بعناصر جيدة من الرجّالة هم أمهر من الذين في مصر، أما أسوار القلعة المذكورة، والمشرفة على الخنادق ونقاط الدفاع، فالمقصود بها صحراء مصر التي ضمنت دوماً في الماضي أمن القلعة وسلامة حاميتها، وقد سيطرت هذه الحامية في الماضي وما تزال تسيطر اليوم على خنادق ونقاط دفاع هي حصون مملكة القدس وسورية، فهذا ما اتضح من خلال حملات الفرنجة الذين قدموا في الماضي إلى مملكة القدس وسورية، ويتجلى هذا بشكل أبين مما جرى للتتار.

والمقصود بالعبّارات والجسور التى تربط بين الخنادق والأبراج، الطرق والمسالك التي تربط ما بين الصحراء وبين مملكة القدس وسورية، وعلى هذه الطرق اختزن المصريون ببراعة كميات كافية من الماء، اعتادوا على الاحتفاظ بها لحاجتهم، فقط عندما يضطرون إلى عبور تلك الصحراء.

أما الأبواب الموصدة بمغاليق حديدية فهاكم تفسيرها:

عندما يريد أولئك السكان إخفاء تلك المياه أو إتلافها حتى لا

يكتشفهـا الأجـانب، يفعلون ذلك كلما أرادوا، ومن الواضح أنه يتعـذر على أي إنسان عبور تلك الفيافي مع جيشه من دون ماء، وهذا هو الذي دفعني إلى تسمية تلك المعابر بالأبواب الحديدية.

وأمـا باب القلعة الكبير الذي يبقى دومـاً مفتـوحاً، فإنني أؤكـد أنه مصر البحـرية، الذي تصل عبره إلى المصريين جميـع الحاجيـات المناسبـة وخـاصة الضرائب والرسـوم والبضائع التي يرسلهـا الأمراء والأعيـان والعسـاكر من جميع بلدان العـالم وشعـوبه، ولا سيما أصحاب الثـروات الذيـن يأتون بالشكـل والأسلوب الذي سـوف أتحدث بكل تـواضع ومنطق عنه، ذلـك أنه من المعـروف، ومما لا شك فيـه أن جميع السلع والمنتجات التي اعتاد التجار على إنزالها يومياً إلى الأسواق لعرضها على مستهلكيها، يدفع عنها التجـار القادمون إلى الأراضي الخاضعة للسلطان رسـومـاً كبيرة في مصر، وينفقـون أيضـاً مبـالـغ كبيرة لحماية سفنهم ومـراكبهم، ويتحمل هذا كله مستهلكي تلـك الأصناف، حيث يضطر التجـار إلى بيعهـا بأثمان مرتفعـة جـداً، وهكذا يمكن القـول بأن الذين يقدمون من عند ملوك الأرض والأمراء والأعيان يحملون إلى السلطان ضرائب مـالية كبيرة جمعت من الرسـوم والمكوس التي يستوفيهـا منهم عن البضائـع التي تخرج باستمرار من تلك القلعـة، وتستهلك في أجزاء عـديدة من العـالم، لابل بالحري أن نقـول: تستهلك من قبل المؤمنين الخاضعين للكنيسـة الرومانيـة المقـدسـة ذلك أن مناطقهم هي بلا شك أكثر عدداً، وأعظم ثروة من المناطق الغربية، وهي تستهلك كميات أكبر من الأقمشـة ومـن الأصناف النادرة والبضـائـع الواردة من الأراضي التـابعـة للسلطان، وهي أكبر مما يستهلكه أي شعب من شعـوب العـالم الأخرى.

وإذا مـا طلب مني أحـد أن أوضح عن أي بضـائع ومنتجـات تدفع تلك الضرائب من قبل أتبـاع الكنيسة الـرومانيـة المقدسـة إلى السلطان،

أستطيع أن أبين بأنها تدفع في الوقت الحالي عن: الفضة، وألواح القصدير، والرصاص، والفضة الصافية، والزيت، والأعلاف، وشقق الصوف، والحرير، وأقمشة الكتان، والمرجان، وأثواب المنسوجات، والزعفران، وغير ذلك من البضائع التي لم نذكر هنا، لكن أسهبنا في ذكرها في الكتاب المتقدم.

ويستخدم المصريون هذه السلع، وهي عندهم بوفرة، أما الفائض من الفضة، والقصدير، والزعفران، والمرجان، وأثواب المنسوجات، فكلها تنقل إلى الهند، حيث يتاجر بها المصريون، ويشترون التوابل وأنواعاً من الأصناف النادرة، ويعودون بها إلى أرض مصر للمتاجرة بها، وهكذا يتضح بشكل جلي أن الفضة والمواد المتقدم ذكرها تستبدل بغيرها، أي أن تلك المعادن وسواها تسمح للمصريين بالحصول على التوابل والأصناف الهندية الأخرى مقايضة، ومن ثم تشحن كلها إلى قلعة المصريين المذكورة، وللحصول عليها يسافر التجار إلى هناك حاملين معهم من بلدان الشمال — عبر البحر الكبير — الغلمان والجواري، الذين يسميهم المصريون المماليك، فضلاً عن هذا يحمل التجار معهم من البلدان المذكورة ولاسيما من جزر اليونان وبلاد الصقالبة[السلاف]: الخشب والحديد والقار، ويعبرون بهذه البضائع البحر، ويقايضون بها في القلعة المذكرة، أي أنهم يحصلون عوضاً عنها على السكر والكتان، وعلى التوابل بشكل خاص، وكذلك على أصناف نادرة من الهند، وهذا ما يصنعه التجار من كلايا وأضاليا، ذلك أنهم يحملون بشكل كبير أكثر من سواهم الغلمان والجواري إلى أرض مصر، وغالباً ما يأخذونهم من أرض اليونان، وبات الآن واضحاً أكثر من ذي قبل، أن الفضة والقسم الكبير من البضائع التي يصدرها المؤمنون الساكنون في الغرب تطلب يومياً في مصر، لأنها تتحول لصالح تجارة المماليك المرعبة، ذلك أن المماليك عبارة عن جواري وغلمان من أصل مسيحي أو وثني، ومثلها

تجارة الخشب والحديد والقار، وهي البضائع التي تصدر بشكل دائم إلى ذلك الحصن الذي هو أرض مصر، ولأجل ذلك تتضح صوابية رأي الذين أشاروا بحظر وصول الذهب والفضة والنحاس والقصدير والمرجان إلى أرض مصر، ذلك أنه من المؤكد أن هذه السلع سوف تنتقل إلى المقاطعات المصرية، دون الاكتراث بالحظر الصادر عن الكنيسة الرومانية المقدسة، وبرأيي أنه بسبب حاجة مصر للسلع التي تأتي من مصر، فإنها تنتظرها دوماً، ويقوم السلطان والخاضعون له باستمرار بأخذ قسم كبير منها، مما هو لازم لقوتهم ولحياتهم، وبدون الاتجار بها لا يمكنهم الحصول على التوابل، ولا على غير التوابل من الأصناف النادرة، وغير ذلك من بضائع الهند، وكذلك لن يمكنهم الحصول على المماليك والحديد والأخشاب والقار، وإذا ما حصلوا على ذلك، يكون ذلك دون الكميات المرغوبة، وبناء عليه إن الذي يتأمل بالطريقة المواتمة حتى يمنع ويحول دون نقل المماليك والحديد والأخشاب والقار إلى هناك، عليه أولاً أن يحظر شحن الذهب والفضة وصفائح القصدير والنحاس، والزعفران، والمرجان، وما شابه ذلك، إلى مصر، لأن أهل مصر يبادلون هذه البضائع، بالسلع، والأصناف، والمنتجات الهندية، وإذا قيل: ألم يتقدم وأصدرت الكنيسة الرومانية المقدسة أوامر حظر وعقوبات بحق من يخالفون إجراءاتها؟ أجيب بأنني موافق على هذا، فلقد صدرت قوانين وقرارات وأوامر ومراسيم وغير ذلك، وهي بالفعل كلها مقدسة وصالحة، وبدأت تعطي بعض النتائج المفيدة، والذين أصدروها آباء روحانيون صالحون وقديسون، وحكام وسادة علمانيون شرفاء، إنما هذه التشاريع لا تجدي نفعاً إذا لم يوجد من يكلف بتطبيقها وفرضها، ولذلك يمكن أن أقرر حولها الحكم التالي: إنه على الرغم من أوامر الآباء القديسين والمبجلين، وعلى الرغم من العقوبات الصادرة بحق من يخالفونها، فيسافرون بحراً مع سلعهم وبضائعهم، إلى الأراضي الخاضعة إلى السلطان، فإنه لم يوجد أبداً بين أولئك الزعماء

الروحيين أو العلمانيين ، من سعى إلى تطبيق تلك العقوبات أو أوامر الحرمان، وتنفيذها، ولذلك إنني أستطيع أن أقول بكل صراحة وتواضع إنه كان في ذلك ليس فقط احتقاراً للكنيسة المقدسة، بل أيضاً إهانة بحق الخالق، وضرراً عظيماً لشعبكم، وأذى للمؤمنين الذين يفترض على الأب الأقدس تدبر ما يراه أنسب لهم وأسلم، وإذا اعترض أحدهم متسائلاً:

هل جرى تعيين أحد وتكليفه بتطبيق تلك الاجراءات الرادعة وتنفيذها؟ أجيب بكل احترام وتواضع وتقوى: إنه لم يوجد أحد قط تولى مطاردة مخالفي تلك التدابير مطلقاً، لا في البحر ولا في البر، وخاصة على الأرض، ولهذا بما أن العدل لم يأخذ مجراه أبداً في هذا السبيل، كثيرون — لا بل بالحري — ما أكثر الذين ذهبوا إلى هناك، لذلك من الموائم أن تعمد قداستكم، أيها الأب الأقدس، إلى معاملة جمهورهم بشدة وبالطريقة الموائمة لخلاص أنفسهم، ولصالح استرداد الأرض المقدسة.

وفي الحقيقة، إذا أمرت قداستكم بتنفيذ ما جاء في كتابنا الأول، وأعلنت رسمياً أوامر الحظر والحرمان، وسلحت الغلايين، حسبما بينا أيضاً، وقتذاك الذي يكون قد سقط في تلك الخطيئة، بذهابه إلى الأراضي التابعة للسلطان، وبعودته منها أيضاً، أو تكون قد وجدت بحوزته بعض البضائع المستوردة من هناك، تتخذ بحقه الاجراءات المقررة دونما شفقة، وحسبما ترى قداستكم أنه محق ومنطقي، وبما أن«الطامع بخيرات هذه الدنيا يخشى من العقاب الآني أكثر من العقاب المقبل»، لذلك إن من لا يردعهم خوف الرب ويمنعهم من مقاربة الشر، من الواجب والضروري ردعهم وصدهم عن الخطيئة بوساطة العقوبة الدنيوية.

وإنه بالنسبة للأب الأقدس، السيد المبجل الذي له إخوة كثر وأبناء

عـديدون، أعني قـداسة أبينا ومـولانا البـابا، الذي مع إخـوته الكرادلة المكرمين، ومع أسـاقفة كنيسـة يسـوع المسيح، يسهر ليـلاً ويعمل نهاراً، ويصلي طالبـاً باستمـرار العـون والنجـدة من المؤمنين ومن أتبـاعـه من الملوك والأمـراء والبـارونات، وبشكل عـام من الشعب المسيحي كله، حتى يتمكن من اقتحام تلك القلعـة، لاسترداد أرض آبائه، أي الأرض المقدسـة، التي وطئها السيد المسيح بقدمـه، ورواها بدمه الثمين، ليغسل خطايانا ويمحوهـا، إنه بالنسبة إليه أية نصيحـة أفضل نقدم إليـه؟ لقد ضربنا في الماضي مثـلاً حـول نتيجة المرور من جهـة الخنـادق وأمـاكن الدفاع، أي عبر سـورية وتركيا، لما عبر خـلالها الراهب بطرس الناسك والدوق غودفـري دي بولليون، مع غيرهما من الكونتـات والبارونات، واحتلوهما، وأخضعـوهما — بنعمة من الرب — أيضـاً المدن والحصون حتى صحـراء مصر، وبلغت بعـد هذا قـوة عمـوري الألماني الذي تولى عـرش القدس بعـد بلدوين، وبراعته وبسـالته، أنه اقتحم تلك القلعـة، ودخل القـاهرة، وضرب الحصـار الشـديد على الجيـزة، ولولا مشـورة خـاطئة لكـان استـولى عليهـا مع أرض مصر كلهـا، وذلك كما ورد في كتاب الاسترداد، وفي الحقيقـة لقد أخذ بنصيحة خـاطئة، فكان أن دحر وطرد خارج تلك القلعة، وفي النهـاية خسر الذين خلفوه المدن والقلاع وكل ما كان بأيديهم في مملكة القدس وسورية.

فضـلاً عن هذا،انطلق الامبراطور السـامي والمعظم فـردريك عبر طريق البر بقـوة جبـارة، وعلى رأس جيش عمـلاق من المقـاتلين، فعبر تخوم ألمانيـا إلى بلاد المجر ثم إلى بلغـاريا واليـونان، ونفذ خـلال أراضي المسلمين بذراع قـوية ممدودة، واستـولى على قـونيـة، وعلى فيلومليـون، وعدد كبير آخر من المدن حتى وصـل إلى أرمينيا، وهناك في حر الصيف ذهب ليستحم في نهر يسميـه السكان«النهر الأسود»، فغـرق واختنق في الماء، وكانت تلك خسارة هائلة للمسيحية جمعاء، وعقاباً للخطايا.

وبعد مرور بعض الوقت عبر عن طريق البحر سادة عظام شرفاء مثل فيليب ملك فرنسا، وكذلك السيد رتشارد دملك الانكليز، وكان معهما عدداً كبيراً من الدوقات والكونتات والبارونات، وقد نفذا كثيراً من البطولات حسبما قرأنا في كتاب الاسترداد، غير أنهما عادا إلى بلديهما تاركين المسألة معلقة غير منتهية.

ومثلهما فعل عدد كبير آخر من كونتات وأمراء وبارونات، فقد قدموا إلى هناك — كما تحدثنا كتب التاريخ وأخبار الأيام — وظلوا يتدفقون إلى أيام القديس لويس ملك فرنسا، الذي ألقى الحصار على مدينة دمياط، وشدد الخناق عليها ومعه عدد لا يحصى من المقاتلين، ومع هذا أنحني باحترام وأقول: هلكت غالبية ذلك الجيش، لأنه افتقر إلى المهارة والنظام، وكان آنذاك في أشد الحاجة إلى ذلك، وبالتالي لم يتمكن من الاستيلاء على تلك القلعة.

ووجه الأب الأقدس بعد ذلك، مراراً وتكراراً، النجدات والاعانات، والعديد من المحاربين الأبطال والشرفاء، وجه هؤلاء نحو الأرض المقدسة للاستيلاء عليها، ولانتزاعها من أيدي الكفرة، لكن في النهاية ضاع كل شيء، وخسروا كل ما سلف واحتلوه.

وبناء عليه أعاود القول: إنه لمن الضروري مهاجمة تلك القلعة، لابل اقتحامها بجرأة وإقدام من الباب الكبير — أي من مصر البحرية — فهذا الباب هو الذي بقي دوماً مفتوحاً، وإنه لموائم كثيراً، أن يقتحم بشكل يحقق إيقاف وصول البضائع إلى سكان تلك الأرض، وتحصيل المكوس عليها، ومن ثم منع المصريين من مقايضة تلك البضائع بغيرها من الحاجيات اللازمة لهم، ومنعهم أيضاً من إعادة تسليح شعبهم.

ومن الممكن أن يتم هذا في وقت قصير، إذا ما جرى الأخذ بما جاء في الكتاب الأول حول ملاحقة المخالفين، وحول تسليح الغلايين، وإذا

طاب لخالق الجميع منح هذه النعمة إلى نائب يسوع المسيح، فيأمر بحشد ذلك العدد من العناصر، حسبما هو وارد في مطلع الكتاب الثاني هذا، ذلك أن الفرسان والرجّالة سوف يتمكنون من عبور الباب الثاني — أي شاطىء مصر — بنظام جيد، وهم مزودين بإرشادات أفضل وبكل ما يلزم أو يناسب أولئك الفرسان والرجّالة، وأيضاً متنبهين إلى ضرورة الالتـــــــزام بذلك الترتيب، وبذلك الأسلوب الذي وضعناه،ووصفناه في هذا الكتاب الثـاني، ونحن على ثقة بالرب، ومتوكلون عليه حقاً، وواثقون بأنه سيمن بنجاح هذا المشروع السعيد والحميد.

الفصل السابع: حديث حول الشجرة وتوابعها:

ملة محمد(ﷺ) هي الشجرة المشار إليها أعلاه، وهي العقيدة التي نشرها في أيامه، ويُراد بها أيضاً شعبه والبلدان التابعة لهم، وهذه العقيدة هي الجذور والأساس الذي تغلغل في أرض مصر وترسخ فيها، وأما أغصان تلك الشجرة، فهي البلدان والقادة التي يحكمونها خاصة في تركيا وسورية، وأرض الميعاد، لابل في المغرب في مملكة تونس، وعلى طول شاطىء أفريقيا كلها، وفي سائر بلدان العالم التي تدين بعقيدة محمد(ﷺ) وتخضع لشريعته، أما أوراق تلك الشجرة، فهي شعوب تلك البلدان الساكنة فيها، وضخامة الشجرة وقدمها هي تجذر المصريين وقوتهم، فمصر ظلت دوماً هي الأقوى بين جميع أتباع تلك العقيدة، وخاصة في الشرق، أما الينابيع التي تروي الشجرة وتغذي جذورها وفروعها، فهي بدون شك المنتجات والثمار التي تستخرج من أرض مصر، أما النهر الذي يروي تلك الشجرة، ويجعلها موئلاً للجميع، فهو المعبر الذي تنقل الخيرات بكثرة خلاله إلى السكان وسواهم، مما يجعلهم اليوم يمتلكون جميع الأصناف النادرة، وبضائع الهند، التي لولاها لما كان بإمكان السكان المقيمون في مصر تأمين سبل عيشهم، أو تنظيم

شؤون حياتهم، واستهدفنا من قولنا بأن الشجرة لا تعطي أية ثمار، تبيان أنه لا يمكن أن يقطف من عقيدة محمد(ﷺ) أية ثمار صالحة، أو ينتج أي عمل صالح، أما الثمار الجيدة التي تنبت تحت الشجرة فهي الثمار التي تنتجها البلدان التابعة للسلطان والخاضعة لسيطرته، والبضائع التي تنزل في هذه البلاد يومياً،ذلك أن هذه البضائع بحد ذاتها صالحة، أما الذين ينتقلون وعيونهم مغمضة، ويقبعون في الظلمات الدامسة، فهم بدون شك الذين يعطلون بصائرهم وأبصارهم عن رؤية أوامر الحرمان والعقوبات التي فرضتها كنيسة يسوع المسيح، ويختلف عنهم الذين لا يريدون الذهاب إلى هناك لكونهم صالحين، وقد وضعوا نصب أعينهم حب الرب ومخافته، وطاعة يسوع المسيح.

أما ذلك السيد القديس، فهو أبونا ومولانا قداسة البابا، وأخوانه هم السادة الكرادلة المبجلون والأساقفة، والأبناء هم المؤمنون، والخاضعون لقداسته هم الملوك، والكونتات والبارونات، لابل جميع الشعب المسيحي من رجال دين وعلمانيين، ممن يلتزمون بسبل كنيسة الرب المقدسة بأمانة وتواضع، ويفكرون ليلاً ونهاراً حول كيفية إزالة تلك الشجرة، أي عقيدة محمد(ﷺ)، واسترداد مملكة القدس، وانتزاعها بشدة من أيدي أولئك الأشرار، وهم يلتمسون باستمرار ويتوسلون لإرسال النجدة والعون وفق الطريقة المبينة أعلاه، لزعزعة تلك الشجرة ومن ثم لاجتثاثها من جذورها مع أغصانها وفروعها كلياً، حتى يزول من على وجه الأرض ذكرها، وأما ساق تلك الشجرة فهي أرض مصر، وأما أغصانها فباقي البلدان التابعة لمن يعتنقون تلك العقيدة ويتبعونها، أي البلدان وشعوبها، وقد قدمت فيما مضى منذ زمن بعيد النصيحة إلى الأب الأقدس، لكي يرسل رجالاً مدربين، ومقاتلين أشداء، لاجتثاث تلك الشجرة، تمهيداً لاستنقاذ الأرض المقدسة من أيدي المنافقين، وإعادتها إلى ملكية المسيحيين بشكل سليم وآمن، وهكذا كان إرسال

الراهب بطرس الناسك، وغودفري دي بولليون وغيرهما ممن تبعوهما فيما بعد، ولقد ذهبوا مزودين بالفؤوس والمناشير — أي بالأسلحة — واقتطعوا بعضاً من الشجرة، واستولوا ببسالة على جذعها، وجاء من بعدهم عموري ملك القدس، الذي كان مستقيماً وشجاعاً وبطاشاً، ومحطماً للأعداء، وقد قيل بأنه زحف حتى يحتل القاهرة، أي القلعة — لكن بسبب سوء النصيحة التي أسديت له، أخفق هو أيضاً في إخضاع القاهرة — أي القلعة — وسائر مصر، وأن يجعلهم تحت سلطانه — حسبما سنرى في الكتاب الثالث — ولما عجز ذلك الملك العظيم الباسل، ومعه خاصته والقادة في جيشه وباقي المقاتلين الشرفاء، عن اجتثاث جذور تلك الشجرة، وانتزاعها من أيدي الكفرة، عادوا إلى القدس، وكانت النتيجة أن استرد السلطان ذلك الينبوع الكبير — أي البحر — حراً سالكاً، واستعاد قدراته إلى حد أنه تمكن بعد أمد وجيز من استرداد جميع الأرض التي خسرها، ولم يكتف بذلك بل ذهب إلى حرب السيد العظيم غي لوزغنان، ملك القدس، واقتاده معه أسيراً، وهذا مما نقرأ عنه أيضاً في كتاب الاسترداد المذكور.

ومجدداً عمد الأب الأقدس إلى إرسال النجدات والمساعدات إلى هناك، أي أرسل صاحب الجلالة والسمو، فردريك امبراطور الرومان، وكذلك ملوكاً آخرين عظماء وشرفاء مثل جلالة فيليب، ملك فرنسا، ورتشارد ملك إنكلترا، وكان معهما شخصيات كبيرة، كما سلف بنا الذكر، وقد قطع هؤلاء أغصاناً عديدة من أغصان تلك الشجرة ومن فروعها، أي أنهم احتلوا ببسالة مدينة عكا وغيرها من مدن وقلاع في تركيا وسورية، وفي أرض الميعاد، حسبما بينا في الكتاب المذكور.

وإنما مات بعضهم في النهاية، وعاد بعضهم الآخر إلى وطنه واحداً تلو الآخر، وذهب بعد ذلك إلى هناك عدد كبير من الأمراء والبارونات والسادة، واستمر ذلك إلى أيام القديس لويس ملك فرنسا، الذي عبر

البحر للاستيلاء على دمياط وإخضاعها لسلطة المسيحيين، ومآثره مدونة أيضاً في المصدر نفسه، وتوجه بعده أيضا كثيرون لكن دونما محصلة، فقد ظلت الشجرة التي ذكرناها ذاهب ساقها وجذورها في الأرض الطيبة، وظلت مروية بدون انقطاع بذلك الينبوع الكبير، أي البحر الذي ظل ينميها، لأنه بقي مفتوحاً بشكل دائم، وسالكاً تماماً، تعبر عليه ذهاباً وإياباً الخيرات الكثيرة، من ذهب وفضة وصفائح قصدير ونحاس، وغير ذلك من المعادن ومن المرجان والزعفران، والصموغ، وأثواب الأقمشة ، وشقق الحرير وغيرهما مما يشبهها أو يختلف عنها ، وإليها يحمل المماليك والحديد والقار، وكذلك الأخشاب، وسمح هذا كله للسلطان بتنمية قدراته التي ازدادت فأعطت إلى أغصانه وفروعه قدرة وعزة، حتى أنها عادت إلى متقدم أوضاعها، أي أن السلطان قد استرد مدن: طرابلس، وعكا، وصور، ودحر حكامها الأشراف، وأعاد كل ما تبقى من الأرض المقدسة، فوضعه تحت سلطانه.

وهكذا بعدما جرى إرسال ذلك العدد الكبير من الرجال الأشراف والمقاتلين الشجعان إلى هناك، ولم يتمكنوا من تحقيق الهدف الذي كان مطلوباً وضرورياً، كما ذكرنا من قبل، وبما أنه يصعب جداً إيجاد من يضاهي أولئك بأساً وجلداً، يتضح لنا اليوم أمر وهو وجوب اللجوء إلى أسلوب آخر، ومنهج جديد، لتحقيق مشروع لإسترداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، يكون من شأنه أن يقدم إلى قوة المسيحيين وبسالتهم عوناً ودعماً، باعتماده على كل من البراعة والفن، فإذا ما جمعا معاً — والأمل بالرب كبير، والاتكال على عونه — إن تلك الشجرة سوف تجتث وتقتلع دون الخوف من أن تنبت مجدداً في المستقبل، شريطة أن يتم العمل على هذا النحو ووفق الطريقة التالية: ينبغي أولاً وعلى الفور قطع ذلك الينبوع الكبير المتقدم ذكره أعلاه، وهو الذي روى ومازال يروي تلك الشجرة بغزارة، ومن الممكن أن يتم هذا بسهولة،

بمنع الدخول والخروج البحري نحو الشجرة المذكورة، ويتحقق هذا كلياً عندما يتم تنفيذ ما جاء في الكتاب الأول حول الحظر والملاحقة، وكذلك حول الغلايين، ويلزم بعد هذا العثور على ذلك الرجل النزيه المتميز بالأخلاق الحسنة، وبالدماثة والحكمة والنزاهة، وذلك حسبما أوضحنا في مطلع كتابنا الثاني هذا، لأن الشعب كله يدار بشكل جيد حين يوجد حاكم نزيه وعاقل، وإلاّ فإنه يصير إلى الدمار، ويتوجب على هذا القبطان المعين بنعمة من الخالق أن يحمل معه الديدان الكثيرة، أي المراكب والرجال البارعين في فن الملاحة في المياه المالحة، وفي المياه العذبة، والقادرين على أن يمدوا بعضهم بعضاً بجرأة وإقدام، في البحر وفي الأنهار، وأن يحمل معه غير ذلك من العتاد المناسب، حسبما جاء في الكتاب الثاني.

وعلى هؤلاء الرجال — فرساناً ورجّالة سواء — التصرف بفطنة ومقدرة أثناء طوارىء الحرب، وغير ذلك من الظروف، بحيث يكون بإمكانهم — بعون الخالق وبمهارة القبطان — الابحار نحو الشاطىء المصري، ومن ثم النزول هناك، كما يفعل المقاتلون البارعون وذوو الاقدام، وبعد هذا يذهبون لاجتثاث جذور وأصول تلك الشجرة — أي القاهرة والقلعة — فيلقون الحصار عليها، ويقتحمونها ويخضعون لسلطانهم بلاد مصر بكاملها.

وهكذا — مع الأمل بالرب والتوكل عليه — سوف تتساقط جميع أغصان الشجرة وأوراقها ستيبس، وبعدما ينفذ هذا كله ليتلطف قداسة أبينا ومولانا البابا، نائب يسوع المسيح، وليصدر أوامره، وليوضح إرادته، وليبين ماذا يريد أن يعمل بجذع تلك الشجرة، أعني بعد إخضاع مصر، إلى الشعب الخاضع للحبر الأعظم، ذلك أنه مما لا شك فيه — بتوجيه من الرب القدير — سوف تنهار سورية ومملكة القدس وأفريقية، والأجزاء المحتلة من إسبانيا،وباقي مناطق العالم التي يحتلها

أتباع محمد(ﷺ) وستضمحل — بعون الرب وقدرة نائبه — وسيواجه الروم المنشقون المصير نفسه.

وللوصـــول إلى الأهداف — التي ذكـرنـاها — في مصر، ولقطف ثمارها بوفرة، وللتمتع بها بحرية، ولاحتلالها دوماً بسلام، يجب التفكير ملياً، والتقدير بوجوب إخضاع الأرض للمسيحيين، وبشكل خاص إلى أهلهـا الأصليين والموجـودين فيهـا، وكـذلك للغـربيين، الذين يمكنهم التجـول فيها لقطف ثمارها بكل حـرية، وليـوصلنا إلى ذلك، نحن وكل الذين يتمنون كرامة الكنيسة الرومانية، الرب الذي يملك ويحيى إلى أبد الآبدين.

الفصل الثامن: ضرب مثل فيه برهان على ضرورة محاربة المسلمين في مصر، إذا مـا أردنا استرداد الأرض المقـدسـة، وهو برهـان مقتبس مما جـرى بين أهل البندقيـة، والسيـد بطريرك أكـويلا، أثناء الخلاف حـول النمسا.

ارتأى المبجل بطريرك أكويلا ومعه كونت غريسيا أن ينتزعا من أهل البندقية مدينة يوستنبولي، في بلاد النمسـا، وقد جرى تنفيذ ذلك، حيث هاجم بعـــد أربع سنوات — أي سنة ١٢٨٢ — البطريـرك والكونت تلك المدينة بجيش كبير، مع أنها كـانت تابعـة في الماضي للبندقيـة، وهنا ازداد الاضطراب في بلاد النمســا، فعمــد الزعيمان إلى حشــد قــوات عسكرية براً وبحـراً، وجـرت صـدامات كثيرة ومتـواليـة، ومن منطقـة فاروجـولي Faro Julii — حيث المقر البطريركـي — كان البطريرك، ومثله كونت غـريسيا يستقدمـان التعزيزات والامدادات مـرتين أو أكثر كل عام، وكانا يلحقان الشرور والأضرار الجسيمة بالمدن وبالقلاع التي كـانت من قبل بحــوزة البندقيـة، وهما تحمـلا أيضـاً مع شعبيهما الكثير الكثير، كما هي الحال في جميع الحروب، وقد حـدث لهما أن منيا بالهزيمة أحيـاناً، وهكذا تتـابعـت الحمــلات لمدة عشر سنوات و أكثـر، ومع

الحملات أعمال النهب والحرائق والتدمير، وما شاكل ذلك، ليس على الأرض فقط بل وفي البحر أيضاً، ولم يتمكن البنادقة طيلة تلك المدة من وضع حد للشرور، وفي الوقت الذي كانت الأمور تتأزم فيه هكذا في النمسا، حدث أن بعض أشراف كامينو Camino اضطروا إلى الدفاع عن موقع لهم، كان قائماً على نهر لكيونسيا Liquentia، واسمه لاموتا Lamota ضد خصومهم سادة ترويزيو Teruisio فاستنجدوا بالبندقية، وكان هذا الموقع في أول مقاطعة فاروجولي، وتدخل البنادقة وأجروا مصالحة بين أولئك الأشراف وخصومهم، وشرع أهل البندقية يمارسون نشاطهم، فبعثوا إلى لاموتا عساكر من الرجالة والفرسان، يعملون خلال فاروجولي لمهاجمة خصومهم، ولما رأى البطريرك المذكور، ومعه كونت غريسيا وسادة فاروجولي، أن بلادهم تتعرض للحرائق، ومدنهم للنهب، وأرزاقهم ومواشيهم للسلب،لم يتحملوا السكوت على هذه التجاوزات في الداخل، المشابهة للأضرار التي كانت تقع في الخارج في النمسا، فاضطروا في ذلك العام إلى التفاوض مع أهل البندقية.

ومثل هذا إن أرض الميعاد مجاورة لمصر، مثلما أرض فارو جولي مجاورة للنمسا، ومثلما لدى بطريرك النمسا رجّالة صالحين، ويفتقر إلى الفرسان، هكذا لدى السلطان في سورية رجّالة صالحين، وهو يفتقر إلى الفرسان،ولدى السلطان في مصر نخبة من الرجّالة لكن فرسانه من النوع الرديء، لذلك إن مهاجمة السلطان في مصر مثل مهاجمة البطريرك في فاروجولي ، لأن مصر هي الدولة الأساسية للسلطان، إذا قهر فيها تحطم كلياً، وإذا لم يغلب كلياً، فإنه بسبب الضائقة القريبة منه بهذا الشكل، والواقعة في داخل مملكته، سوف يطلب الصلح مرغماً، حسبما رأينا في المثل المعروض أعلاه، وكما سنرى في الفصل المقبل.

الفصل التاسع : سوق برهان آخر باهر، صدوراً مما حدث في مصر أيام القديس لويس ملك فرنسا، وفي أيام اثنين من ملوك القدس

اللاتين.

كان الشعب المسيحي قد هاجم مصر مراراً من جهة دمياط، وكاد أن ينجح ثلاث مرات لو أنه لقي النصائح السديدة، ولم يفتقر إلى المؤن وإلى غيرها من الحاجات الضرورية.

وكانت المرة الأولى أيام جين ملك القدس، الذي كان كونت بريين، وأيام بيلاغيو نائب البلاط الروماني، فبعد حصار دام سنة وسبعة أشهر جرى الاستيلاء على دمياط سنة ١٢١٩، وتقدم الصليبيون بحرية من هناك إلى فرع النيل الذي اسمه تنيس، والمنحدر من هناك إلى دمياط، لكن الشح في المؤن — وأكثر من ذلك خطاياهم وما استحقوه من عقاب، كما ورد في الفصل التاسع، من القسم الحادي عشر من الكتاب الثالث — جعلهم ينسحبون، وبعد ذلك في أيام القديس لويس، ملك فرنسا، جرى الاستيلاء على دمياط مجدداً عام[١٢٤٨]، وأراد السلطان كسب رضى الملك، فقدم له الهدايا الكثيرة، وعرض عليه معاهدة يتخلى له بموجبها عن دمياط وعن الأرض المجاورة لها ليعطيها للمسيحيين العديدين الساكنين في أرض مصر، والذين يعرفون باسم مسيحيي الطوق، وتخلى له أيضاً عن أماكن كثيرة في القدس وفي سورية، لكن الملك لويس رفض الاصغاء إلى مثل هذه الاقتراحات، ذلك أن هدفه كان الاستيلاء على مصر بكاملها، فتابع مسيرته المظفرة حتى المنصورة، كما هو مذكور في الفصلين الثاني والثالث من القسم الثاني عشر من الكتاب ذاته، وقد أعمى المحاربين المسيحيين من جانب الطمع بالمال، ومن جهة ثانية ضايقهم الشح في المؤن، وتوالت عليهم هجمات الأعداء، ولخوفهم من نفاد الطعام اضطروا إلى التراجع.

وبعد أن سقط الملك بالأسر، فكر المصريون بفداحة المخاطر المحيطة بهم إذا بقيت دمياط في أيدي المسيحيين، فعرضوا عليهم بأن يطلقوا سراح الملك والبارونات والقادة المسيحيين كافة، وأضافوا بعد هذا إلى

عـروضهم شروطاً أخـرى كثيرة لمنفعـة المسيحيين — كما هو واضح في المصـدر نفسـه، وهذا أيضاً مشروح في كتـاب«مـرآة التـاريخ» للمصنف فنستتي Vincenty ، في المكان الذي وصف فيـه أسر القـديس لويس السعيد الذكر مع إخوانه، ثم إطلاق سراحهم.

وحـدث قبل هذا أن زحف عمـوري ملك القدس ضـد مصر، لكن السلطان استغـواه بالمال، فـاستمع إلى النصيحـة السيئة التي قـدمهـا له ميلون دي بلانتي، فرفع الحصار وانسحب(الفصل الثاني والعشرون — القسم السـادس — الكتـاب الثـالث)، ومثله فعل هنري ملك إنكلترا، فبعدمـا درس الأوضاع على الأرض قـرر أن يهاجم مصر أولاً(الفصل الأول — القسم الحادي عشر — الكتاب الثـالث)، وكذلك كـان البابا إنوسنت قد قرر توجيه جيش مسيحي إلى مصر.

الفصل العاشر: الذي ينتظره الذين يطبقـون — بعون يسـوع المسيح — تدابير هذه التوصية.

إنها لحقيقة مقررة أن كل شيء هو في قدرة الخالق، لذلك ينبغي دوماً التماس العـون والنصح من عنده لحمـده ولشكره ومجده، وإننا نستطيع على ضـوء الماضي أن نحكم على المستقبل، وأن نقـرر مـا هو ضروري للغد، وكل عمل نبـدأ به ينبغي أن يقود إلى النتيجة الصـالحة والحميدة، لذلك أقول — وأنا أستميح العذر من قداستكم — إذا تلطفتم فقررتم الأخـذ بما جـاء في الكتـاب الأول، ليعمل بمـوجبـه بحـزم فيما يتعلق بملاحقة المخالفين، وبتسليح الغـلايين، فإن الكثيرين ممن خالفوا أوامر الكنيسـة المقـدسـة ويخالفـونها، سـوف يتـوبون — بعـون الرب — أو يعودون إلى الطريق القـويم، ويقرعون باب قداستكم طالبين منهـا تنفيذ قـرار احتـلال الأرض المقـدسـة، هذا وإنه لـواجب وضروري إرشـاد أولئك النـاس في الوقت الحالي، حتى يعـودوا هـم أنفسهم فيما بعـد ملتمسين من حلمكم، لابل متـوسلين بتـواضع كلي، الاسراع في تنفيـذ

ذلك المشروع دونما إبطاء، وبذلك تكون النهاية مناسبة لإجراء مصالحة بين المؤمنين المختلفين مع بعضهم بعضاً، وهذا هو تقديرنا، بعون من يد العلي الأعلى.

وفي الحقيقة يمكن أن نقول بصدق بهذا الخصوص الكلمة التي قالها الرب في سفر رؤيا يوحنا:«من غضب إثمها — أي مصر —شربت جميع الأمم»، فلمعالجة هذا المرض العضال، والوباء الذي تفشى دون تمييز بين الجميع، حيث شارك الجميع بالمحرمات بدون ورع، وليس هناك من دواء يمكن مزجه في الطعام ليشفي من هذا الداء، لأنه إذا ما أعطي المريض دواء مضراً، سيكون الوضع أسوأ، ومن النادر أن يتمكن المرضى من استعادة صحتهم، وعلى العكس من ذلك، إنهم إذا ما التزموا بحمية عن المأكولات، فغالباً ما يتعافون، ولهذا إذا امتنع المؤمنون عن تناول ذلك الطعام المضر، كما سلف وبينا، فإنني متيقن تماماً ومؤمن أن الرب سوف يهب المسيحيين بهذه النعمة، وسوف يزيل بشكل خاص الخلافات من بينهم، وبما أن السلطان وشعبه ينالون من جراء ذلك الطعام، العون والاستفادة، كما هو واضح في الكتاب الأول، وفي الكتاب الثاني هذا، ليكن معلوماً أن كل من يشتري البضائع المجلوبة من أرض السلطان، أو يستهلكها، يقدم للمخالفين سبباً للذهاب. وابتياع الحاجيات الضرورية، والأصناف النادرة، وشتى أنواع البضائع من أراضي الكفرة، والخاضعين للسلطان، لنقلها من هناك إلى البلدان الغربية.

وبناء عليه إذا ما امتنعنا عن شراء البضائع واستهلاكها، لن يعاود المخالفون الذهاب إلى هناك للتبضع، وإذا ما سقط المخالفون في الخطيئة، فإن كل واحد يقدم لهم فرصة للسقوط في الخطيئة، ينصب نفسه شريكاً في الخطيئة، لذلك أقول — بكل تواضع وتقوى — إنه لمن الضروري، إما منع هذا الاتصال كلياً — كما تقدم وبينا — وأن لا

يكون هناك أي تأخير في ذلك مطلقاً، وإما أن نتغاضى عن الموضوع كلياً، أي أن يسمح لمن أراد بالذهاب والإياب بحرية، وأن يبتاع ما طاب له من بضائع من الأراضي التابعة للسلطان، وأن نتوقف كلياً عن ذكر استرداد الأرض المقدسة،والذي أراه أن هذا سوف يكون شراً أخف من أن يبقى المؤمنون على الوضع الحالي، لأن هذا الوضع خطير جداً، على جميع المسيحيين المؤمنين، فلتقرر قداستكم — بنعمة من الرب — الذي تراه مناسباً بهذا الشأن.

وعلى كل حال، إذا وافقت قداستكم على الشروع بتنفيذ ما جاء في الكتاب الثاني، فليتم تعيين — من قبل قداستكم — رجل صاحب بأس واستقامة يكون قائداً لحشدكم، ليذهب إلى مصر البحرية بغية الاستيلاء على قطعة من الأرض هناك، وليكن معه خمسة عشر ألفاً من الرجالة، وثلاثمائة من الفرسان، حسبما ورد في القسم الأول من الكتاب الثاني، وليشرع هناك ببناء الحصون، وتشييد البيوت، وبذلك يُحرم المصريون آنذاك مما هو ضروري، ومن تصدير بضائعهم ويتعرضون لمضايقات ومناوشات من أعدائهم بحراً ونهراً وبراً، ووقتها سوف يشعرون بالضيق العظيم الذي حاق بهم، وكما علمتنا تجارب الماضي، أي لما أخضع المسيحيون دمياط لحكمهم، خاصة لما استولى القديس لويس ملك فرنسا عليها، وحسبما ورد في هذا القسم، من المؤكد أن سلطان مصر سوف يطلب خلال مدة لن تزيد عن السنة، عن طواعية عقد معاهدة ثابتة تتعلق بإعادة أرض الميعاد إلى قداستكم بكاملها نهائياً، وأن يلتمس من قداستكم عدم متابعة العمل على تحطيمه، وهذا التحطيم قد يجعل السلطان وشعبه معه يرتدون إلى الايمان.

وفي الختام، وكما يؤكد القدامى، عندما يداهم خطر الموت فجأة واحداً من الناس، فإن الطبيعة بحذاقتها تهب على الفور إلى مساعدة مصدر الحياة، أي القلب، فتسحب الدم من الأطراف، وتقدم له الدعم

والحماية، وهـذا يوضـح لنا لماذاعندمـــا يعتري النـاس الخوف تشحب وجوههم، وترتعـد أطرافهم، لأنها فرغت من الـدم، وهذا ما سيحصل للمسلمين، لأن مصر هي قلب المسلمين ومـركـز حيـاتهم، وإذا مـا هوجمت ستلاقي الدعم على الفور، والمسـاندة من أطرافها، من غرناطة، مثلاً ومن مناطق أخرى، لكن تلـك الأطراف لن تتلقى بعد الآن العون والمساعـدة من القلب — أي عندما ينقطع عنهـا المال الذي تحصل عليه حالياً— وبالتالي سـوف تبقى وكأنها خائرة ترتجف بلا قوى، وإذا تزامن ووجد واحد من ملوك إسبانيـا المؤمنين، فاستغل هذه الظروف الموائمة، وهاجم إحدى تلك الأطراف، فإنه سوف يصل إلى الغاية المنشودة بكل سهـولة، ويحقق المرغوب به، ولهذا السبـب لن يستطيع المسلمون نجـدة قلبهم، الذي هو مصر، كما سنبين في القسمين الثالث والـرابع من كتابنا الثاني هذا.

وأملنا دائماً بالرب، واتكالنا على عـونه، بأننا سنصل قريبـاً إلى النهاية الصالحة والحميدة والسعيدة، فهـذا هو رأيي، ما لم يخالفه رأي أصحاب الخبرة، شرط أن لانتأخر بالمباشرة به، فإن من لا يبدأ، لن ينتهي مطلقاً، وستخفق النهاية حيث لا توجد بداية.

القسم الثالث

بناء سور أمني في مصر البحرية، واختبار تطبيقي للقدرة على محاربة المسلمين، وهو في أربعة فصول:

الفصل الأول: حـــول الوسيلة الأمنيـــة التي يستطيع المسيحيـــون بوســـاطتهـا حماية أنفسهم في مصر، ضــد جيرانهم المسلمين، مثلما فعل البنادقة.

كنا قـد تعرضنا فيها تقـدم — الفصل الثـاني من القسم الأول — إلى الشبه الكبير القـائم ما بين مصر البحـرية، وشواطىء البندقيـة البحرية، لذلك من المؤكد أننا نستطيع النظر — كما في مـرآة صافية — إلى وضع الناس الذين يبنون ويقطنـون الجزر في ميـاه البندقيـة، وفي مستنقعـاتها، لنتعرف إلى كيفية يمكن للذين يبنون البيـوت ويشيدون القلاع في أرض مصر البحرية أن يصدوا هجمات المسلمين(انظر أيضاً الفصل الثالث من القسم الأول من الكتاب نفسه).

وحسب عهـدة رواة التـاريخ، كـان الاغـريق أول مـن سكن جـزر البندقيـة وكـانوا من أهل طـروادة، ففي سنة ١٧٨٤ لخلق العـالم، قـدم جمهـورهـم تحت قيـادة بريام الثـاني ابن لامـدونتيس Lamedontis أخت الملك بريام الأول، وقـد قـدموا بالسفن، وعند وصـولهم إلى تخوم البحر الأدرياتيكي، شـاهدوا الجزر، ومن حولها اليـابسة الثابتـة، فقرروا حفاظاً على حـرية تعودوا عليها، بناء مساكنهم فـوق الجزر، مقدرين أنه لا يجوز أن تكون جماعتهم معرضة لأن يحكمهـا الآخرون، ولم يخفقوا في مسعاهم لذلك حق لهم القول:

«إننا ... لم نستعبد لأحد قطّ»[يوحنا : ٨ / ٣٣]، فاختاروا لأنفسهم قائـداً هو الرب وحده، ولم نقرأ قط أن أحـداً سواه بسط سلطانه عليهم

يوماً، وقد مرت جماعات الغاليين بذلك الجزء من البندقية البحرية، يتقدمهم قائدهم برينو Breno ، وكان ذلك سنة ٣٥٧٥ لخلق الدنيا، فتركوا القسم المسكون سالماً واحتلوا كل ما بقي من حولها، وبنو فينيسيا، وفيرونا، وتريدنت، وبريكسيا، وبرغاما، وكوماس، ومديولانا Mediolana ، وسيناس Senas وسنغاليا، وذلك بعدما قتلوا شعب روما، وأحرقوا المدينة، وذبحوا أعضاء مجلس الشيوخ وهم على مقاعدهم، ومن بعدهم جاء كذلك الأفارقة الذين قدموا من الجنوب والسيبرورو Cybroru ، الذين زحفوا من الشمال، ومن شواطىء ألمانيا، وقد انقضوا مثل العاصفة على المدن الإيطالية، لكنهم لم يتعرضوا للبندقية، وهكذا جرى مع أتيلا الأوسدروبالي Osdrubalis ، ابن ملك المجر، وولي العهد فيها، فقد كانت شراسته صورة للزلزال وللصاعقة، وبعد أن دمر بلاد الغاليين التفت نحو إيطاليا، فوقع الرعب على المدينة وعلى العالم، ذلك أنه وصل على رأس خمس وتسعين ألف مقاتل، وعندما وصل إلى تخوم المستنقعات والجزر التابعة للبندقية، لم يترك هذا الوحش الضاري شيئاً إلا وافترسه، قبل العودة إلى حيث اعتزل، ومع هذا لم يستطع إلحاق الضرر بالأجزاء المبنية على المياه، لابل لم يتمكن أيضاً من إلحاق أي أذى لا بالسكان ولا بأرزاقهم ولا بقدرتهم، حتى أن أهل أكويلا مع البطريرك والأمهات مع أطفالهن، بادروا مسرعين واحتموا في قلعة غرادو Grado ، ثم إنهم خرجوا من كونكورديا Concordia ، وبنوا كبرالا Caprala على شاطىء البحر، ومن ألتينو Altino — التي كانت تدعى أنتيريورايدز Anterioraides ، لأن الذي بناها هو أنتيريورايدز — وبنى الذين هربوا إلى الجزر مدناً جديدة هي إسول تورسللو Esul torsello ، وبورانو Burano ، ومازوربو Mazorbo ، ومورانو Murano ، وتوزعت جماعتهم بين ثلاث أسقفيات ما تزال قائمة حتى اليوم، وبطريركية، وقد لجأ أيضاً إليها عدد كبير من بادوا،

ومن ريفوالتي، ومن ماتاموكو Mathamauco، وغـــدت هذه المدن الأربع المجاورة لمدينة البندقية وشواطئها، مدناً مشهورة، لكنها دمرت من أساساتها، أما الذين كان يسكنون في الجزر، فقد ازدادوا قدرة وعدداً، وشرعوا يتخذون لأنفسهم قادة، وذاع صيتهم، وقدرتهم، حسبما نرى ذلك اليوم، وبالحري ليس اليوم فقط بل على أيام ايزلينو Ezelino ،عندما دمرمنطقة ماركا Marcha ، وترويزو -Terui so وقسماً من لومبارديا، فالذين تعرضوا للاضطهاد، نجوا إلى البندقية، ومكثوا فيها بأمان تام، ولم يتمكن الطاغية من أن يلحق بهم أدنى أذى حتى ضرب المثل بهم، وصار يقال:«أمن خصومه لأنفسهم حمى في الشاطىء»، ودمرت في أيامنا هذه منطقة بادوا على يد«الكلب الكبير الذي قدم من سكالا Scala »، وقد هرب شعبها إلى تلك المناطق سنة ١٣١٨، وبقي سالماً، وقد حل الأمر نفسه بشعب ترويزينا Teruisina في السنة ذاتها، وهرب هذا الشعب، ولجأ إلى المنطقة البحرية نفسها.

وكان اللومبارد — الذين عرفوا من قبل باسم غينولي Guinuli — قد قدموا من جزيرة اسكندنافيا إلى أقاصي شواطىء ألمانيا، ووصلوا إلى بانونيا Pannonia ، ثم استولوا بعد ذلك على الجزء المتاخم لجزر البندقية، على أيام ملكها ألبينو Albuino وكان ذلك في سنة ٥٧٢ لتجسيد الرب، وعاثوا بإيطاليا كلها، ومع ذلك لم يتمكنوا من إلحاق الأذى مطلقاً بالبندقية، ولولا تدخل القوات الفرنسية في أيام بيبنونانو Pipino nano ، لما كان بإمكان البابا ستيفن إطفاء مطامع ملكهم أستيلفو Asttulfo الذي أراد فرض جزية على كل شخص فرداً فرداً.

واضطر البابا هدريان، أثناء تضييق الخناق على إيطاليا من قبل دزيدرو Desiderio ابن أستيلفو، إلى طلب العون من شارلمان،

لحماية ممتلكات الكنيسة ولدحر الطاغية، وأسفرت الأمور عن نفي دزيدرو مع زوجته وأولاده إلى داخل فرنسا، وبذلك سقطت مملكته في سنة ٧٧٤ لتجسيد الرب، ولما غضب شارلمان نفسه على البندقية، قاد قواته حتى شاطىء ماتاموكو ، ولم يستطع قطع الامدادات عن البندقية.

الفصل الثاني: حول الاستعدادات التي يمكن للمسيحيين بوساطتها حماية أنفسهم في مصر، ضد جيرانهم المسلمين، مثلما فعل البنادقة.

ولم يبق سكان الجزر المذكورة آمنين فقط ضد الشعوب الهمجية التي اجتاحت إيطاليا، بل أيضاً ضد الشعوب التي كانت تتعامل دوماً معها، حاسدة لها منذ القدم، ما كسبته من مجد ورفعة، وكانت تبحث دوماً عن طرق ووسائل لإيذائها، ومع هذا تمكنت هذه من درء أذيتها، ورد هجماتها، ونكتفي بضرب مثل بأهل بادوا، فقد حشدوا جيشاً كبيراً وحاصروا برجاً قائماً في مكان اسمه بايبا Byba ، فقد كان يخيل إليهم أنهم سيتمكنون من القتال، لكنهم وجدوا أنفسهم في وسط مياه البحر، وكان مثل ذلك في سنة ١٢١٥، تماماً ما حدث للصليبيين في مياه النيل(انظر الفصل التاسع من القسم الحادي عشر، من الكتاب الثالث)، هذا وقد أرغم أهل بادوا على الاستسلام إلى أهل البندقية، ومثلهم فعل الصليبيون مع المسلمين في ظل شروط معينة، ومؤخراً أراد أهل بادوا أن يعملوا لأنفسهم ملاحات قرب كلوغيا Clugia على بعد قرابة أربعة أميال، وبناء حصن بالقرب من السباخ لحمايتها، لكن أهل البندقية أقاموا تلة في وسط المياه عند مصب أحد الأنهار، ولم يكتفوا بذلك بمنع وصول المياه المالحة إلى الملاحات، بل حولوا إليها المياه العذبة، وفي النهاية تفجر خلاف، واحتشد أهل بادوا لإزالة تلك التلة، فدحرهم قلة من أهل البندقية، واستنجد أهل بادوا بأهل فينيسيا، وفيرونا، ومانتوا، وبعيداً استنجدوا كذلك بأهل باليستاري لكن ألفاً وخمسمائة من أهل البندقية تمكنوا من مقاومة ثلاثين ألفاً من الجنود المهاجين، وعندما

أشرفوا على احتلال الحصن فرضوا عليهم في قلب أراضيهم الشروط التي أرادوها، وكان ذلك سنة ١٣٠٥.

وقبل ذلك ببعض الوقت، أي في سنة ١٢٧٠، تجمع أهل بولونيا واحتشدوا ومعهم أعداد كبيرة من جميع مدن رومانديولا Ro-mandiola تقريباً، وهاجموا قلعة للبنادقة قريبة من نهر البو(بادوم Padum)، وكانت تبعد عن البحر ثمانية أميال، فلم يفلحوا، وقرر أخيراً أهل بولونيا ومن معهم — أخذاً بنصيحة أحد الناس — بناء حصن مقابل مصب ذلك النهر، لمنع أهل البندقية من الذهاب والإياب إلى قلعتهم عبر النهر، لكنهم أخفقوا في منعهم، مع أنهم دفعوا بكل قواتهم، وقاموا بمحاولات عديدة خلال ثلاث سنوات وخمسة أشهر، وتركوا بعد ذلك الحصن الذي شيدوه شاغراً، وعادوا مرغمين إلى بلادهم، وكالعادة استولى أهل البندقية على الحصن الذي بناه سواهم.

وهناك أيضاً قلعة للبنادقة اسمها«رأس شقعة Caput Aggeris » كانت قائمة على نهر أتيسنسيتو Aticensito التي ينحدر من فيرونا إلى البحر، وقد تجمع لاحتلالها جماعات ورجالات لومبارديا، وماركيا Marchia ، وترويزيو Teruisio، فلم يفلحوا في انتزاعها من أهل البندقية، وعلى الرغم من بعد تنتو Tento عن البحر حوالي أحد عشر ميلاً، فقد صمد أهلها في وجه خصومهم بعدد قليل من المقاتلين وبنفقات زهيدة، مقارنة بما أنفقه خصومهم، وهم ما برحوا صامدين حتى اليوم في وجه كل تحد، لابل إنهم لم يكونوا قادرين على حماية أنفسهم وممتلكاتهم فحسب، بل تمكنوا من إجبار القراصنة على الخضوع لسلطانهم، حسبما نرى في معظم أرجاء البحر الجنوبي، وخاصة في البحر الأدرياتيكي، حيث كان القراصنة يعيثون فساداً كما تذكر كتب التاريخ، وأكثر من هذا كان البنادقة قد مدوا سلطانهم بعيداً نحو أجزاء نائية وشرقية، وهم وحدهم اليوم لا يحمون أنفسهم فقط

مع أرزاقهم، بل ويحمون أيضاً ما هو لغيرهم.

مما تقدم نستطيع أن نرى على ضوء أوضح، أي أمان يمكن أن يحصل عليه الشعب المسيحي، إذا ما بنى قلاعاً في مصر البحرية، ومدى القوة التي سيضمنها لنفسه لدحر المسلمين، وأية نجاحات سيلقى في احتلال الأراضي.

الفصل الثالث: كيف يمكن للصليبيين أن يزعزعوا أركان مصر، ضرب مثل بها تمكن من صنعه البنادقة وأصحاب المدن، والأماكن القائمة على مستنقعات وعلى أنهار.

لقد ضربنا أمثلة مقنعة، تظهر مدى الأمان — بعون الرب — الذي سيكون به جنود الكنيسة، إذا ما بنوا قلاعهم في مصر البحرية، ويمكننا بالتالي أن نرى من خلال المرآة، أو من خلال المثل ذاته، كم سيكونوا مؤهلين لإلحاق الأذى بأعداء الصليب والإيمان المسيحي، فالبنادقة، إذا ما نشبت خصومة بينهم وبين مدينة من مدن لومبارديا، أو ترويزيو، أو ماركيا، فإنهم يلحقون الأذى بأعدائهم بطريقتين:

الأولى وهي الطريقة الأخف: لا يستولون على أسلحتهم، ولايتعرضون للأشخاص، ولا ينهبون ممتلكاتهم، بل يمنعون كلياً وصول المؤن والبضائع إلى أية مدينة من مدن تلك المناطق، أو إلى أي مكان واقع تحت سيادتها، أو أن تنقل إليها من أي مدينة أو منطقة تابعة للبنادقة، ولا يتخيلن أحد أن هذا لن يجدي نفعاً، فكثيراً ما يحدث أن تصاب تلك المدن في لومبارديا وترويزيو وماركيا بالانهاك، ومن ثم تقوم بإرسال مفاوضين إلى البندقية، وتضطر مرغمة على التعايش معها وفق شروط محددة.

وسيكون هذا الأسلوب للاضرار بالمسلمين في مصر فعالاً، وسيضعف قوة السلطان، وقد شرحنا ذلك بإسهاب في الكتاب الأول

المتقدم أعلاه.

أمـا الطريقـة الثـانية: فهي أعظـم خطورة، وستكون لدى مناصبتهم الحرب بالرجـال وبالعتاد، وبما أنهم معتـادون على القتال، ولديهم قـدرة على صنع السفن المنـاسبـة والآلات الحربيـة حسبما تقتضيـه أوضـاع الأماكن وأنواع المعارك، فإنهم سيقتحمـون بالطرق الموائمة، المواقع التي بنيت على الأنهار أو في السبـاخ، وهكذا وجـدناهم في سنة ١٢٣٩، قـد انتـزعوا — بطلب من الكنيسـة — مدينة فـراريا من أيدي سالينغـويرا Salinguerra ، وأعـادوها إلى السيـد غـريغـور، مندوب الكرسي الرسـولي، مع أنه كـان قـد تقـاطر على ذلك المكان مقـاتلون من أمـاكن عـديدة، ومع ذلك لم يتمكنوا مـن دون أسطول البنادقـة ومهـارتهم من إنجـاز شيء، وكـانت المحصلة أن المعـاهدات والامتيـازات التي كـانت للبنادقة في فراريا قد ترسخت وازدادت قوة.

ومثل هذا حـدث في الماضي البعيد، عندمـا تمكنت الكونتسة مـاتيلدا من استرداد فراريا بمسـاعدة أسطول البندقية، واتضحت مؤخـراً فعالية البنادقة في سنة ١٣٠٨، في حادثة فراريا، بالسيطرة على الأنهر، وكان من المذهل رؤية ذلك العـدد الصغير مـن المقـاتلين يسرح ويمـرح في بادوم Padum ، وليس هناك من هو قادر على صدهم ومنعهم من تهديم المواقع المجـاورة، وتحويل مجرى ميـاه النهـر إلى أراضيهـم وتخريب الممتلكات بالماء والنار.

ومثل هذا يمكن لجيش الـرب أن يروح ويجيء فـوق نهر مصر حتى القاهرة والقلعـة، وأن يستولي على كل شيء حسبما يريـد، وسوف يكون وضعـه أفضل، كلما كـان مجرى النهـر أوسع، والذي يسيطر على النهـر ويتصرف عليه بحرية، يمكنه أن يسيطر بسهولة على الأرض — كما بينا في الفصل الرابع من القسـم الأول — فما هو دور أهل البندقيـة في هذا المشروع؟ ونجيب على ذلك: إنه لما وقع إثم ضـد جمال العدالة، وتجاسر

واحد على أن يحصد ثمار غيره، أي لما احتل الكافر إزلينو Ezelino ، منطقة ماركيا وترويزيو وغير ذلك من مناطق لومبارديا، لبى البنادقة طلب موفد الحبر الأعظم، سماحة رئيس أساقفة رافينا، المطران فيليب، فانقضوا من سباخهم ومن موقع بايبا، الذي تقدمت الإشارة إليه، وقادوا عن طريق النهر الذي حشده ذلك الموفد، وأمدوه بالرماة والميرة بكثرة، وكان ذلك سنة ١٢٥٦، واستولوا على كل ما حول النهر، ولم يكتفوا بذلك بل تقدموا حتى مدينة بادوا، وبعد معارك طاحنة استردوها من يدي إزلينو.

ولقد سقنا هذا كله على سبيل المثال، لنبين المدى الذي سيكون فيه جيش الرب بأمان في مصر البحرية، ومقدار ما يمكن أن يحققه من إنجازات ضد أعداء الإيمان.

الفصل الرابع: جواب مقنع لما قد يثار من شكوك.

هناك من يشكك بإمكانية قيادة جيش الصليبيين عبر النيل، حتى القاهرة، بسبب طول المسافة، وأجيب هنا على هذا التشكيك، بأن أهل البندقية قد قطعوا طريقاً أطول، عندما دخلوا مجرى نهر أدوا Adua ، بسفن محصنة وبرماة، وقد حطموا بعنف ست سلاسل ضخمة جداً، ونسفوا الجسر الذي عبر عليه إزلينو لاحتلال ميديولانو Medio-lano، واحتلوا كل شيء بشدة، مما جاء مقدمة لأسر ذلك الطاغية، وموته، فإنه حيل بينه وبين الوصول إلى مآربه، ولدى عودته، شرع بحصار الجسر المحصن بكل عناية، وقتذاك أصيب بسهم في رجله ففقد قدرته المعتادة على قيادة الجيش، وهزم بالحرب، ومات بالأسر سنة ١٢٦٠ لتجسيد المسيح.

أما القول بأننا ببناء قلاع وتحصينات نكتفي بمنع المواد الغذائية وغيرها من الوصول إلى المسلمين في مصر، فإنني أجيب : إن من

الممكن وصـــولها عبر طريـق البر، وأضيف، إن القــائلين لهذا الكلام يجهلون مـوقع الأرض المصرية، حيث يوجد من البحـر المتوسط امتـداد على طول الشاطىء نحو الجنوب، من الجهة الشرقيـة ومن الجهة الغربية على السواء صحارى واسعـة شبه خالية، بنى فيهـا الآباء القديسون — خـاصـة في الجهـة الغـربيـة — أديـرة، وعـاش بعضهم في حيـاة نسك وانعـزال، هذا ومـن جهـة الغـرب، أي من مملكـة تونس، لايمكن حمل البضائع من هناك، بسبب سعة الصحـراء ووحشتها ولا يمكن الحصول على شيء من جهـة الشرق، باستثناء التـوابل، وتفتقـر المنطقـة من جهـة الجنوب إلى كل شيء تقـريباً، ويقطن هنـاك مسيحيو النوبة، وهم أعـداء لهم، وقـد تقدمت الإشـارة إلى ذلك في الكتـاب الأول، وأما من جهـة الشمال، أي من جهة مملكـة القدس وسورية، فيمكـن الحصول — لكن بمشقـة — على بعض الكميـات من: الشرانق، والصابـون، والتفـاح، والإجاص، وعلى كميـة من الزيت، وبناء عليه صحيح مـا قلناه، إننا إذا أغلقنا أمـامهم طـريق المتـوسط، نكون قـد أقفلنا بوجـــوههم الأغـذية ومختلف أنواع البضائع ما عدا التوابل، وقد يتساءل بعض الناس: كيف يمكن للمسيحيين الحصـــول على مـا يكفيهـم من المواد الغـذائيـــة، إذا احتشـــدوا في أطراف مصر البحـرية، وذلـك إذا تفشى الجوع بين الذين يسكنون أرض مصر؟ وأجيب على هذا بسهـولـة: سـوف تتقـاطر المواد الغـذائيـة وباقي الحاجيـات على المنطقـة البحـرية، إذا توفـرت المداخيل والأمـوال اللازمة للشراء، مثلما نرى في مـدينة البندقيـة نفسها، فعندمـا ينتشر القحط في الأراضي اليـــابســـة المجـاورة، يحملـون المؤن وجميع الحاجيـات عن طريق البحـر، ويوزعـونها على كل من يحتـاج إليهـا من جيرانهم.

القسم الرابع

ويدور حول الخطة والأسلوب والترتيب والاحتمالات الممكن حدوثها في حال نشوب المعارك وما يتعلق بها، وذلك من أجل تحقيق مشروع الأرض المقدسة بنجاح، وفيه إيضاح على أن المسلمين والمنشقين لن يتمكنوا بشكل منطقي من الدفاع عن الأرض، وفيه تسع وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: ما يثار من اعتراضات حول قدرة الجيش المسيحي، وحول العوائق المفترضة، التي قد تحول بينه وبين الوصول إلى النتيجة المتوخاة، وجواب منطقي لتلك الاعتراضات.

ويمكن لأحدهم أن يعترض على ما عرض أعلاه فيقول: لقد شاهدنا من خلال الأمثلة التي ضربت عن البندقية، بأية أعداد يمكن احتلال أرض مصر البحرية والإقامة فيها، وأنه بإمكان هذه الأعداد البقاء هناك آمنة من شرّ القاطنين في أرض الكفرة، ومع ذلك لن يتمكن المسيحيون من إلحاق الأذى بالمسلمين، إلى درجة يمكنهم فيها إذلالهم وإخضاعهم بعد إلحاق الهزيمة بهم، للأسباب التالية:

أولاً: إذا أردت صعود نهر النيل مع أسطولك المسلح، فإن في ذلك النهر نقطة يضيق فيها كثيراً، بحيث يمكن رشق السفن بسهام حارقة من كلا الضفتين، مما يعرض سفنك وعساكرك لخطر عظيم.

ثانياً: قد يمدّ المسلمون السلاسل، أو قد يرمون بحسك الحديد أو بقطع حديد مدببة طويلة، أو قد يبنون الجسور فوق الممرات المائية، مثلما حدث في فرانكولينو Francolino في منطقة فراريا، وقد يتدبرون هذا الأمر بيسر بأن يتحصنوا على إحدى ضفتي النهر، ويرفعون من الجهة المقابلة رأس جسر ينزلونه متى شاءوا، ويؤمنون

بالوقت نفسه حراسة شديدة على الضفتين معاً، وهكذا إذا ما اقتربت مجموعة مسيحية بسفنها من سلسلة أو من جسر عائد إلى المسلمين، فإنهم ينزلون رأس الجسر المعلق، وبذلك يصير جسر المسلمين على مستوى مجرى ماء النهر، وبذلك تتوقف سفن المسيحيين عنوة، وتجنح نحو الأرض، وهكذا يصبح بمقدور المتحكمين هناك بالأرض قتل رجال تلك السفن كما يشاؤون، وعلى هذا نردّ أيضاً:

ونقول بالنسبة للنقطة الأولى أولاً:

على شعبك التبصر والتنبه، وأخذ الحيطة، وأن يحمل معه كل ما يلزمه لإطفاء النيران، بحيث إذا ما أطلقت عليه سهام محرقة يتمكن من إطفائها، وينبغي إطفاءها، حيث لايجوز لجيش المسيحيين التوقف لهذا السبب عن الذهاب والمجيء، وإنجاز مهامه.

ونجيب على النقطة الثانية فنقول:

إذا وضع المسلمون تلك السلاسل، أو قطع الحديد المدببة أو الجسور، فلا بد لهم من تجهيز حراسة مشددة حولها، ومركزة عدد غير قليل من العساكر لحراسة تلك الجسور والسلاسل وقطع الحديد المدببة من على الضفتين، وفي مناطق عديدة، وخاصة على ضفاف النهر العائدة لفرعي دمياط ورشيد، لكونها عريضة، وعلى كل حال، عندما يريد المسيحيون المضي نحو تلك العوائق الحديدية، أو السلاسل أو الجسور مع أسطولهم ومعداتهم، عليهم عدم الذهاب عندما يكون النهر فائضاً، وسريع الجري، بل على القبطان مثله مثل أي إنسان مدبر، أن ينتظر حتى تكون مياه النهر منخفضة وغير سريعة الجريان، وعندما تهب رياح قوية من جهة البحر، بحيث تعمل لصالحه، وتدفع بمياه البحر إلى الدخول إلى مصبات الأنهار، لأن جريان النهر يكون في تلك الآونة بطيئاً، تخف سرعته أو تنعدم كلياً إلى أبعد الحدود، ووقتذاك عليه أن

يستغل الريح المناسبة، فيرسل، بعض سفنه المجهزة والمشحونة، حتى تتمكن من الاقلاع بسرعة كبرى وهي منصوبة الأشرعة، وأن يكون مع هذه السفن جميع تجهيزاتها، فتنقض وقتها على الجسور المذكورة وعلى السلاسل والعوائق الحديدية بكل عنف فتحطمها وتدمرها كلياً، وعندها من الممكن متابعة تحركهم إلى حيث أرادوا، فسيسيطرون على ذلك النهر، ويخضعوه لارادتهم — بحراسة من الرب وعونه — وقد تقدم لغيرهم من الصليبيين أن فعلوا ذلك في دمياط، ولا بد لنا من أن نتذكر أن فرقة الكرسي الرسولي سوف تكون مشكلة من خمسة عشر ألفاً من الرجالة، وثلاثمائة من الفرسان المأجورين، وبعدما يكون هؤلاء قد اتخذوا لأنفسهم موطىء قدم على الأرض، وقبل انتهاء السنة يكون قد لحق بهم خمسة آلاف غير مأجورين، ولسوف يبادر هؤلاء إلى هناك مسرعين مع المواد الغذائية، ومع كل ما يلزم ويفيد، وسيكون هؤلاء جميعاً متأهبين للعمل متى وحيثما يناسب، ومن الممكن القول بأن عددهم سوف يفوق العشرين ألفاً، ومما لاريب فيه أن جماعتكم ستحقق الكثير بعون الرب.

الفصل الثاني : بعض الحجج حول إمكانية أن يهاجم السلطان من جهة النيل، والإجابة لهذه الحجج.

إضافة لما تقدم، إذا اعترض أحدهم وقال. لدى ذلك السلطان أعداد غفيرة من البشر، وعنده إمكانات كبيرة ليصنع الكثير، من ذلك مثلاً:

أولاً : قد يستطيع تحويل مجرى النيل، ومنعه من الصب في البحر المتوسط، وأن يجعله يصب في المحيط، وهكذا لن يعود هناك أي مجال للذهاب على رأس أسطول يسلك طريق المياه العذبة.

ثانياً: إنه إذا لم يشأ، أولم يستطع تتميم ذلك، فإن بإمكانه أن يصنع شيئاً آخر، وهو: بعدما يكون الجيش الصليبي قد بنى لنفسه أماكن

سكنى، وبعض الحصون قريباً من أطراف نهر النيل، يمكنه تحويل مجرى النهر، فيجعله يصب بعيداً عن معسكر الجيش الصليبي لأن الشواطىء البحرية المصرية منبسطة ومتسعة، وبناء عليه إن في تنفيذ هذه الخطة إنزال أضرار ليست بالقليلة.

ثالثاً : يستطيع السلطان أن يصنع ما هو أسوأ من ذلك بكثير، حسبما يلي: بعدما يتحرك قائد المعسكر المسيحي النازل في مصر البحرية، ويجهز أسطول غلايينه، ويصعد رجاله بالمجاذيف إلى سفنهم فوق مياه النهر، وقتها سيكون بإمكان السلطان ورجاله العمل على تحويل مجرى النهر، من حيث يكون الأسطول قد انطلق، وجعله يصب في نقطة أخرى، ويكون الحال أن أسطول الصليبيين، سيجد نفسه — بعد انعدام الماء — محجوزاً فوق الأرض اليابسة ولن يكون بإمكانه الصمود أمام الحشود والقوات التي سيدفع بها السلطان ولن يكون أمامه من منجاة من بين أيادي الكفرة إلا بالموت أوبالأسر.

وعلى الاعتراض الأول يمكن أن نجيب:

من المستحيل أن يستطيع السلطان تحويل مجرى نهر النيل، ويمنعه من أن يصب في البحر المتوسط، وجعله يصب في البحر المحيط، ولوافترضنا أن ذلك ممكناً، فقد تقدم لنا أن بينا بوضوح — في الكتاب الأول — أن أرض مصر سوف تتدمر كلياً، وتصير قفراً، ومن غير الممكن تصور أن الكفار سوف يرضون بتدمير أنفسهم، طالما بإمكانهم تجنب ذلك بسبيل آخر من السبل.

ويمكن على الاعتراض الثاني الوارد أعلاه أن نجيب:

ينبغي أن تكون الحصون والمساكن التي ستقام فوق أرض مصر البحرية بادىء ذي بدء من الجبال والخيم فقط، بحيث تكون المستنقعات والمياه مصدر منعة تلك المساكن والحصون، وهكذا عندما

يشرع المصريون بتحـويل فـرع من فـروع ذلـك النهـر، حيث نصب الصليبيـون حصنهـم، يمكنهم فـوراً الانسحـاب مـن هناك بسفنهم مع جميع أمتعتهم، والتوجـه نحو نقطة يرونها تفيـدهم، وتناسبهم أكثر، علماً أنه من باب المستحيل أن يتمكن الكفـار من تحويل فرع النهـر الذي هو في دمياط أو في رشيـد كلياً، وبذلـك لن يستطيع المسلمـون — بعـون الخالق — إلحاق ضرر يذكـر بالصليبيين، لابل حتى وإن استطاعـوا تحقيق شيء من هذا القبيل، سـوف يتكبـدون مضـار وأذى أعظم بكثير من الصليبيين.

ومن الممكن الإجابة على الاعتراض الثالث بمايلي:

يتوجب على القبطان ويليق به أن يكون متنبهاً لكل شيء، وأن يكون حكيماً، وإلاّ تكبد المسيحيـون ضرراً جسيماً لغفلته وقلـة حكمته، والمراد بهذا أن لا يبـاشر بالابحـار، ولا أن يدفع نحـو الأمـام جماعتـه بأعـداد كبيرة، قبل التأكـد من أوضاع أعـدائـه وأحوالهم، وقبل أن يتعـرف على المستجـدات، حتى يتصرف بحذر فيما سيتخـذه من تدابير، فحيثما يكون الخطر أعظم، تلزم الحيطة أكثـر، ومع هذا لو افترضنا أن القبطان اكتفى فقط بالبقـاء متحصناً مع قـواته في مصر البحـرية، فإنه يكون قـد حقق الجزء الكبير من مهمتــه، ولا حــاجـة إلى التسرع، فعلى مـن يطبق هذه الخطة، وهـذا الأسلوب أن يبحث دومـــاً عن المعلومـــات الجديدة، والأكيدة والصادقة عن أعـدائه، ولا بد له — بعون الرب القدير على كل شيء — من الوصول إلى النتيجة الصالحة والمفيدة.

الفصل الثالث: المثل الذي ضربه قورش ملك الفرس، ووثائق لجيش الصليبين.

ينبغي أن نعيد إلى الذاكرة ما جـاء في الكتاب المقدس، من أن قورش ملك الفرس والميـديين ، قرر بعدمـا مدّ سلطانه على الشرق بأكمله، أن

يحاصر بابل عاصمة تلك المملكة، ليستولي عليها، وبينما كان مرة مع واحد من جنوده يعبر نهر الغانج — الذي يقال بأنه واحد من أنهار الجنة الأربعة — جرفته قوة التيار، فغرق الجندي، وقد حزن قورش لهذا المصاب، وأراد أن ينتقم من النهر، فجفف أربعمائة وأربعين فرعاً من فروع ذلك النهر وروافده، حتى جعل المواشي نفسها تعبر قاع النهر مشياً.

وحول بالطريقة ذاتها مجرى نهر الفرات، الذي كان يمر في وسط مدينة بابل، وهكذا استولى على تلك المدينة، وكانت أقوى المدن جميعاً، وجاء استيلاء قورش عليها بعد مرور ألف وأربعمائة سنة على بنائها، وهنا لست أدري هل يمكن لسلطان مصر تقسيم نهر النيل إلى أنهار كما فعل قورش؟ وعلى افتراض أنه قرر وأراد صنع الشيء نفسه بنهر النيل، فإن ذلك لايمنع من متابعةمشروع الذهاب إلى أرض مصر البحرية، والاستيلاء عليها كما قلنا، للسبب الذي سنعرضه، لأنه على افتراض أن السلطان كان بمقدوره تحويل مجاري فروع ذلك النهر، فإنه سيعجز عن إزالة البحيرات والسباخ التي في المنطقة، أو تجفيفها لأنها تمتلىء باستمرار من مياه البحر، فضلاً عن هذا سيكون بإمكان المسيحيين تكوين سباخ أو بحيرات اصطناعية حيثما شاءوا، وذلك بأن يقيموا سدوداً طويلة، مثلما فعل أهل البندقية في أثناء الحرب التي وقعت بينهم وبين أهل بادوا بخصوص الملاحات — حسبما ذكرنا في القسم الثالث من كتابنا الثاني هذا — وستكون هذه السدود مجهزة بأبواب صالحة، حتى عندما ترتفع مياه البحر وتجري بغزارة أكبر، يسهل عليها الدخول دون أن ترجع من جديد، وبذلك تتجمع هذه المياه البحرية مع المياه النهرية المتدفقة باستمرار من أرض مصر، وبذلك تبقى في المستنقعات وفي غيرها من الأماكن المذكورة، وبهذه الطريقة تزداد هذه المياه وتفيض في تلك الأماكن فتزيد تلك الأبواب منعة، وتحول دون أن يحطمها

أحد، وإلى داخل هذه السباخ، وإلى داخل البحيرات أيضاً يمكن للسفن الدخول والتجول حسبما يرى قائد الجيش، وذلك بغية إلحاق الأذى والضرر بالكفار، وإذا لم يتمكن من تحقيق هذا الهدف بالشكل المذكور، ووفق الطريقة المقترحة، فإنه سوف يحتاج إلى عدد أكبر من الفرسان والرجّالة، مما لو كان النهر سالكاً ومفتوحاً كما هو في الوقت الحاضر، ويمكن للقائد توزيع هذه الأعداد من الفرسان والرجّالة على أماكن محدودة قرب المرسى مع السفن، ويبقون هكذا إلى أن يحين الوقت ويصير ممكناً لهؤلاء الفرسان والرجّالة الصعود نحو القاهرة والقلعة من أي جهة من جهات النهر، يتبين لهم أنهم لن يلاقوا فيها أية عوائق أو مقاومة، ولدى توجه هؤلاء القوم بالاستعدادات اللازمة لتحقيق الهدف المرجو لدى وصولهم إلى القاهرة والقلعة لحصارهما، من المنطقي يلزمهم — بعون من يسوع المسيح— السيطرة على ذلك النهر، حتى يتصرفوا به كلياً حسبما يريدون، وإذا ما تم ذلك، وتحقق المشروع بنجاح — فأملي بالرب الذي أضع فيه كامل ثقتي — بأن الكفرة لن يتمكنوا من الدفاع عن أرض مصر، ولن يحولوا دون سقوطها — بفضل قوتكم — بين أيدي الصليبيين.

الفصل الرابع : التساؤل عما إذا كان عدد المراكب التي عند المسلمين على النيل يمكنها مقاومة جيش الصليبيين، وإيجاد حل لهذه المشكلة.

إضافة إلى ما تقدم إذا أراد أحدهم أن يقول معترضاً: لدى المسلمين أعداد كبيرة من الناس والمراكب، ويمكنهم مجابهة جيش الصليبيين عسكرياً في النهر؟.

نجيب كما قلنا من قبل: لايصلح الشعب المصري إلاّ قليلاً، أو بالحري لايصلح بتاتاً، لحمل السلاح وممارسة الحرب، ولا مجال للتخوف منه إطلاقاً، وإذا ما جلبوا فرساناً لهم وحشوداً من سورية عبر الجهة الثانية من الصحراء، أجيب بأنهم غير صالحين لهذا، وأن هذا

الشعب غير معتـاد لا على الميـاه ولا على المراكب، وإذا أراد أحـد أن يقول: إنهم سوف يستدعون بعض المسلمين من أفريقيا أو مـن إسبانيا، أو من مناطق أخرى يكون فيها بحارة ومقاتلون مناسبون، أجيب: بأن هذا بعيـد المنال، وإذا استقـدمـوا بعضهم، فإن شعبكـم — نظراً لاستعداداته وخبرته ونزاهتـه، وقد عبر عن ذلك في مناسبات عدة — سـوف يقـاتلهـم بشـدة ويوقفهم عند حـدهـم بعـون الرب، وذلك إذا تعرض لمجابهتهم ، علماً بأننا لا نعتقد أنهم سوف يفعلون.

وأضرب لكم مثلاً حول هذا في واقعة فراريا عندما احتشد الكثيرون ضـد أهل البندقية، ولم يكـونوا وقتها أكثـر من ستـة آلاف، وحققوا مـا عـرفتـه قـداستكم وكـان ذلك عقـاباً من عند الرب ضـد أولئك لأنهم تمردوا ضـد الأوامر الرسـولية، ومعـروف أنه لا يمكن لأحد أن يسـوغ أمـام الرب، ولا قـدرة لأحد ضـد إرادة الرب، ذلك أن الذين يقفـون ضـد الكنيسـة هم بلا شك يقفـون في وجـه الرب، وهكذا للتقـديرات ذاتها، يتوفـر الأمل، بأن شعبكم سوف يصل إلى غايته المقـدسة ويتغلب عليهم في تلك المناطق.

الفصل الخامس: حول المؤن والدفاع وتجهيز سفن الجيش الصليبي.

من المفضل لأجل قـوة الجيش الصليبي وسـلامته، أن يتـدبر القبطان أمره، فيشحن في الغلايين عـدداً كافياً من الرجال، بقـدر ما تستطيع أن تستـوعب، وكلما انحصر مكان عسكرة ذلـك الجيش زادت قـوته، ومن الضروري التطلع إلى نوعيـة الغلايين، أكثـر من النظر إلى عـددها، فأنا أفضل أن يكون لدي غـلايين قليلة وجيدة التسليح، مع عناصر مـدربة، على أن يكون عـددها أكبر، لكن بدون هذه الصفـات، سيكون الرجـال الموزعـون في غـلايين قليلة أقـوى وأفضل سـواء إن كـان للدفـاع أو للهجوم مما لو كانوا كثرة ومتفـرقين، كذلك من المفيد أن يكون القبطان قـادراً على استبـاق الأمور، فيكون اسطولـه قادراً ومـدرباً على الملاحـة

ومنظما بكل دقـة، وأن يكون سريع الحركـة والتنقل، ذلك أن سرعـة الغلايين ورشـاقتها عندما تدفع بالمجـاذيف تؤدي إلى نتيجة أضمن وإلى سلامة أكبر، كذلك ينبغـي أن نبين أن الملاحة في النهر، عليها الانطلاق صعـوداً على عكس التيار وبمـواجهته بقـوة، وبقدرة المجـاذيف، لذلك يتـوجب أن تكـون الغـلايين المسيرة بالمجـاذيف مـدربة على النمـوذج الثـلاثي، أي أن يكون على كل مقعـد ثلاثة مجذفين ينسقـون حـركـاتهم بالتوازن.

ولاحـاجـة لأن نكرر هنا ماتقـدم وذكـرناه من أن يكون كل غليـون مجهـزاً ببحارة على المجـاذيف، يكون كل ثلاثة منهـم على مقعد واحـد، ومع هذا من المناسب أن نذكـر على سبيل الاعـلام، أنه في سنة ١٣١٦، أجـرى أهل البندقية اختبـاراً جعلوا بمـوجبه عـدد المجذفين أربعـة على نسق واحد، فـوق كل مقعد، ونجح الاختبار وعد مفيـداً سواء للسفينة أو لطاقمهـا، وثبت أن الملاحة مع أربعـة مجذفين على نسق واحد، فـوق كل مقعـد، أسرع وأرشق من الملاحـة التقليـدية التي تعتمـد الاسلوب الثـلاثي للمجذفين، وقـد عقـدت شخصيـاً مشاورات بهذا الصـدد مع الذين اختبروا هذه الطريقة، ومع بعض المهندسين والمعلمين والملاحين، وتأملت شخصيـاً أنا بذلك، فـوجـدناها صـالحة تماماً ومفيـدة شرط أن يرضى بها مستشـاروا القبطـان المذكـور، أي أن تكون جميع الغـلايين والسفن الكبرى المعـدة للميـاه العـذبة— التـي تستيطيع حمل الشعب المذكـور— مجهـزة وفق هذه الطريقـة، بأن يكون على كل مقعـد أربعـة بحارة يجذفون على نسق واحد، خاصة وأن المراكب الكبيرة سوف تسير على الماء صعـوداً، ضد مجرى التيـار، وبذلك يلزمهـا ثلاثة صفـوف من المجذفين، لابل أربعة.

وسبب ما تقدم وقلناه:

هو أن المطلوب من الغـلايين المدفوعـة بالمجاذيف أن تكون سريعـة،

وأن يتحكم بها الذين عليهـا، وأن يكون بإمكـانهم الشروع بمحـاربة أعدائهم متى أرادوا، ويمكنهم تجنبهم فجـأة متى أرادوا، وبذلك يتقون مخاطر كثيرة يمكن أن تحدق بهم في وقت قصير من الـزمن بسبب هيـاج البحـر وعواصفـه، ولاسيما من أجل عبـور البـوارج الممرات التي فيهـا تيـارات، والتي نادراً مـا تخلو من الخطـر، ولكي يصل من يسـافـر على متنهـا إلى المرسى بسلام، ولهذا كله لما رأيت المحـاسن الكثيرة، وتأملت الضمانات التي يمكن أن يحصل عليها طاقم السفن، أكدت على جودتها، متمنياً أن يصـادق عليها قبطان قداستكم، وبناء عليـه محمود كثيراً، وإنه لأمـر ينصح به بإلحاح، أن يكون المجـذفـون على كل مقعـد ليس فقط أربعة بل خمسـة، إذا كان ذلك سهل التطبيق، وممكنا، مـن أجل الإبحار على ظهـر المراكب الكبيرة، ويفترض بالقبطان أن يطلب المشـورة وأن يتبع مـا يـراه هو الأفضل، بخصـوص الغـلايين، وكـذلك بخصـوص الملاحة في الميـاه العذبة، ومن المعـروف أنه في سنة ١٢٩٠ كانت تقـريباً جميع الغـلايين التي تعبر البحـر، تستخـدم مجذفين اثنين على كل مقعـد، وأدرك بعد ذلك رجـال أكثر حذاقـة بأنه يمكن استخدام ثلاثة مجذفين، وهذا هو الاسلوب المتبع اليـوم بشكـل عـام، وليس لأحـد أن يرى أنه ضرر إذا وضعنا أربعـة أو خمسـة على نسق واحـد فـوق كل مقعـد في السفن الكبرى، وذلك بعـد مـاجـرى اختبـار فعـاليـة هذا الاسلوب وجـودته، وبالفعل توجـد في كتـب الأقـدمين أنه كـان في أيام الرومـان يجلس ثلاثة رجال للتجـذيف على كل مقعد، وقد ورد في كتـاب ريجتيو Regetio حـول الشـؤون العسكرية، والذي تناول المعـارك الكبرى في البحر، أن مـلاحاً اسمـه ليبورناس Liburnas ، كان يصف المجذفين واحداً واحـداً، وعلى المراكب الأكبر بقليل أجلسهم اثنين اثنين، أما على المراكب الاكبر— وكل حسب قياسها— فقد رتب المجذفين فيها ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة، أو حتى خمسة خمسة، والذي أراه أنه لايجوز القول إن في هذا مبالغة كبيرة، عندما نقرأ أنه اشتركت في معارك الأيام الماضية

سفن أكبر بكثير من سفن هذه الأيـام، وذلك وفق الطريقـة التي رتبهـا فيها الشيوخ القدماء.

الفصل الســادس: مــا يفترض أن تكون عليــه السفــن حتى تكون صالحة لعبور البحر، وتحقيق مشروع مصر بنجاح.

وفيما يلي شكل السفـن اللازمــة واسلـوبها لتسهيل نجــاح المهمــة المذكورة.

أولاً: إن أفضل السفن لعبـور البحـر هي الغـلايين، التي تعتمـد على التجـذيف، وهي مـراكب خشبيـة مستديرة، تماثـل تقريبـاً مـا يستعمله البنادقـة في هذه الأيام، أي هي غلايين ضخمـة، تنقل أكبر حمولة ممكنة، وذلك بقدر مـا تستطيع المجاذيف أن تلبيهـا، ويضاف إليهـا أيضاً سفن أصغـر حجماً، تسير أيضاً بالتجـذيف، وعلى كل حـال إن أية سفينة من حجم آخر تفيد أيضاً، إذا كانت من صنع جيد، وتسير أيضاً بالتجذيف، لكن ينبغي أن تكون رشيقـة وسريعـة، هـذا ومن الممكن ادخـال بعض التعـديلات على تلك السفن من أجل تحسين وضعهـا، وأخص بالذكـر السفن التي تسير بقوة دفع المجاذيف، ومن هذه التعديلات، نصب برج في وسط كل منهـا يبلغ طوله عشرون قـدمـاً، ويكون عـرضـه بمقـدار عرض السفينة التي تحمله، ويكون علوه بقدر يسمح بمرور الرجال من تحته مع المسلحين، وهم منتصبوا القامة، ومفيد أن يوضع في مؤخرة كل سفينة بعض المعدات الحربيـة، وليكن ذلك حسب نصيحة أناس حكماء وخبراء في هذا الحقل، مثل أنواع مـن الحسك المدببـة الرؤوس، وتصف هذه من المؤخرة حتى الأمام وحول جوانب السفينة، هذا وجرت العادة بوضع بعض آلات الرمـاية على مقدمة المقـاعد، بأي عـدد يعد ضروريا ومفيـداً، ويتـوجب ترتيب جميـع آلات الرمي والبرج والحسك ومختلف المعدات الحربية بطريقة فنية، وبشكـل يسهل معه ازاحتها وإعادة نصبها حسب المقتضى، ونـرى أن يجري اختيــار بعض هذه السفـن من النوع

الكبير الحجم، لها مستودع في باطنها، ولها بـاب يفتح في مؤخرتها، لنقل المؤن، ولتسهيل إصعـاد الخيول إليهـا، هذا ويحتاج اسطول الغـلايين إلى بعض السفن الكبيرة جـداً لنقل الميرة، والعتـاد، والذخـائـر، والخيـول اللازمة للجيش، وأفضل أنواع السفن لحمل المواد الغـذائية والأخشاب هي السفن المربعـة التـي يستعملهـا الآن أهل جنوى في بيرا Pera لأن حمولتهـا كبيرة، وعـدد بحـارتها قليل، ويمكنهـا أن تنشر أشرعتهـا بكل سرعة ومن ثم تمخر عباب البحر، لكن من الواضح أن المراكب الطويلة التي اسمها أورسا orsa لها قدرة على الصمود أفضل وهي عندما تهب عليها الرياح المناسبة موائمة أكثر من السفن القصيرة.

الفصل السابع: حول السفن المؤهلة لنقل الامـدادات وباقي الأشياء المناسبـةللجيش سواء عن طريـق البحار، أو عن طريق الأنهار، وحـول كيفية الملاحة في الميـاه العذبة، وحول ما هو أكثر فـائدة لانجاز المشروع المذكور.

أقترح تخصيص سفينتين يحتـاجها الجيش للملاحة عبر النهـر، بشكل أنها تنصبـان أشرعتها، وتنـدفعـان بشـدة، حتى تتمكنـان من تحطيم الجسور المنصوبة على النهر والموانع الحديدية والسـلاسل، أو أي هدف آخـر مقـام، ولاحظت أنه بين مختلف أنواع السفن المخصصـة للميـاه العذبة، أن النوع المستخدم على نهر البو Po، قد برهن أنه أفضل وأكثر نجـاعة، وأحسن نتـائج مما عـداه، خـاصة بينهـا النوع المسمى بلاكتـارا Plactara وهو نوع يستخـدم للشحن على نهر البـو، لكن ينبغي أن لايبلغ علو رؤوسها العلو المعهـود، بل أن تكون هذه الرؤوس مبسوطة أكثر للمـلاحة في المياه العـذبة، ويجب على كل حال أن تكون أجسـامها أطول، وبخصـوص عددهـا ينبغي تأمين ما يكفي لحاجـة نقل الخيـول، ويتـوجب دوماً مـراعـاة شرط أن تكون هذه السفن بحالة جيـدة، وأن تكون صـالحة للسير بوساطة المجـاذيف، وأن يكون لها في المقدمـة دقل

يعمل بمثابة دفة، وأهم من هذا كله لابد أن تكون هذه السفن مغطاة ما عدا من جهة المقدمة والمؤخرة، من أجل أن يكون الرجال المكلفون بالعمل بالمجاذيف محميين كليا من مخاطر نشاب العدو، وتوضع الخيول في أقبية تلك السفن، وتوضع فوق الظهر الأبراج بمهارة واحدها فوق الآخر، كما يتوجب تزويد بعض السفن بآلات، وأيضاً مركزة بعض المهرة من الرماة بالقرب منها.

وألح دوما على أن تكون السفينة والأبراج والآلات بحالة جيدة، ومع هذا كله هناك حاجة مؤكدة تقضي بتأمين مراكب أصغر، وأيضاً مراكب أصغر بكثير، يمكنها دخول فروع النهر، على أساس أن الكمائن إذا نصبت في مكان ما، تنصب حيث تكون مياه النهر قليلة العمق، ومن المعتقد أن المراكب الصغيرة سوف تكون مفيدة وعملية في مناسبات عديدة، خاصة لحراسة السفن العملاقة وحمايتها، حتى إذا ما صدف وحاول بعض رجال العدو الوصول إليها سباحة تحت الماء، يستحيل عليهم النزول إلى النهر، وقد حدث في الماضي أن تسللوا ليحدثوا خروقاً في سفن الصليبيين، هذا وهناك احتمال كبير أنهم لن يتجرأوا على النزول إلى النهر لسرعة جريانه وعنفه، وبسبب وجود التماسيح في النهر المذكور، وفضلاً عما تقدم يحتاج ذلك الجيش أيضاً إلى أن يكون مع اسطوله بعض المراكب المصفحة، أي أن تكون محاطة بنوع من السواترالدفاعية، حتى يأمن رجالها من رمايات الحجارة من مجانيق العدو وعراداته، ويحسب عدد هذه السفن حسب حاجة الجيش، وفوق هذا يحتاج الجيش أيضاً إلى سفن موائمة تكون قوية جداً وكبيرة، تقتصر مهامها على نقل المعدات والآليات المناسبة واللازمة لتنفيذ بعض المهمات، وذلك حسبما يراه المشرفون على الجيش، وأيضاً ينبغي أن تكون هذه السفن مجهزة بكل ما يلزم لاتقاء النيران، أي أن تكون ملفومة بالجلود، وفي سبيل إلقاء الرعب في قلوب الأعداء ينبغي أن تكون سفن

البحر أو الأنهار ذات ألوان ساطعة، مزينة بالرسوم، ترفرف فوقها الأعلام والرايات في المقدمة وفي المؤخرة، وأن يوجد عليها رسوم مرعبة، توضع على الجوانب بشكل خاص.

ولكي لاينقص المشروع أي شيء، ويكون كاملاً حتى يحقق الهدف المرجو، والغاية الحميدة، يلزم أن يكون مع كل جيش— وخاصة على الأنهار— أبواق، ونفر، وطبول وكوسات، وكل أنواع الآلات الموسيقية القوية الأصوات، وأن يكون عددها كبيراً بقدر الامكان، من أجل بعث الحماس، وشد عزائم الأصدقاء، حتى توزع الفرح في قلوبهم، ولكي يدب الرعب في قلوب الأعداء الماكرين.

الفصل الثامن: أصناف الأسلحة، وتعدد أشكالها من دفاعية وهجومية، وذلك مما يحتاجه الجيش الصليبي.

من الطبيعي هناك حاجة للتزود بالأسلحة الكافية لحاجات رجال الجيش حتى يدفعوا عن أنفسهم، ولمهاجمة أعدائهم، وفق مايلي:

أولاً: يحتاج كل رجل من ذلك الجيش إلى سيف صالح، وجاهز لسحبه سريعاً من غمده.

ثانياً: يجب أن يكون في كل سفينة عدد كبير من الدروع الواقية للصدر، وأغطية للرأس، وسواتر للرقبة، يزود بها جميع العناصر، أو على الأقل الثلثان منهم، وذلك على الرغم من أن المراكب المعدة للملاحة على النهر ستكون كما تقدم وأشرنا مدرعة، وذلك بغية إتقاء رمايات الأعداء.

ثالثاً: من الضروري أيضاً أن يكون كل عنصر من عناصر الجيش مزوداً بخوذة من الحديد أو غيره من المعادن الخفيفة، والمهم أن تكون له خوذة خاصة به تبقى معه.

رابعاً: من المتوجب أن يكون مع الجيش عدد كبير من الترسة، بحيث يكون لكل عنصر ترسه الخاص به في المكان والزمان المقرر، وأفضل أنواع الترسة تلك التي يستعملها أهل كاتالونيا، بسبب جودتها وخفة وزن كل منها، والحاجة إلى الترس دائمة، فقد يحدث أن يترجل المقاتلون، ولايكون وقتها بمقدورهم حمل الدروع، متذكرين أن المسلمين مؤهلون للاقلاع بحملات متوالية، فإذا ما اضطر الجندي إلى ارتداء الدرع ثم بعد ذلك إلى خلعه، قد يتعرض لخطر داهم، وهو يلبس أو وهويخلع، وهكذا عندما يكون مع كل رجل سابغته وخوذته وترسه وما يحمي به رقبته وصدره وجسمه، حسبما تتطلب الظروف، في ذلك كفاية لقمع جرأة الماكرين، وينبغي أن يكون معه علامة مميزة جميلة المنظر، وحذاء متين ومفيد، وكل ما هو لازم لإطفاء النار.

وإذا ما التفتنا نحو الأسلحة الهجومية نقول: يلزم لكل واحد سيف وغمده، وبالاضافة إلى ذلك هناك حاجة إلى:

أولاً: أن يحمل كل عنصر قنا حديدية.

ثانياً: أن يزود كل واحد من الرماة بكمية من النشاب، وأن يحمل معه قوسين، قوس أشد من الآخر، يستخدم الشديدة عندما يتمركز في نقطة ثابتة على الارض، ويستخدم الثانية أثناء التقدم والتراجع حسبما يقتضي الحال.

ثالثاً: ينبغي تزويد كل غليون بقناة طويلة من المعدن معقوفة الأطراف، وأيضاً برماح طويلة، وبحراب، وبسلاسل ضخمة تحمل في نهاياتها كلاليب، وأن توضع بشكل خاص في مؤخرة كل سفينة.

رابعاً: وينبغي أيضاً أن يكون في كل مركب رماح طويلة ورماح قصيرة، وكميات من الحجارة كبيرة بدون عدد.

خامساً: ويتوجب أن يكون في السفن كلاليب حديدية مربوطة إلى

سلاسل حديدية من أجل عندما يرى الملاحون أنفسهم أنهم تفوقوا على الأعداء يلتقطون مراكبهم بهذه الكلاليب ولايدعونها تفلت.

سادساً: من المفيد جداً أن تحمل كل سفينة معدة للملاحة فوق المياه العذبة منجنيقاً كبيراً بإمكانه الرماية بالتتابع نحو كل الجهات، وأن يكون هذا المنجنيق مجهزاً بكل ما يحتاجه، وأن تحمل عدة عرادات، يكون عددها وفقاً لما يستحسنه قائد الجماعة، حتى وإن تطلب ذلك عدداً إضافياً من المحاربين، وسيكون ذلك مفيداً للغلايين أيضاً، ومن الموائم أيضاً توفر كميات كبيرة من النشاب، لاسيما من النوع الذي يدعوه العامة باسم العقار.

سابعاً: تحتاج تلك السفن إلى منصات للمجانيق الخشبية، ومنصات أيضاً إلى آلات للرماية أبعد مدى، أي مجانيق مدعمة، مع كل ما يقتضيه الأمر من رجال مدربين لتشغيلها.

ثامناً: من المفيد، والمستحسن أن يثبت من الطرفين في مؤخرة كل غليون دعامة خشبية طويلة، يستعملها الغليون والبحارة سواء كرأس كبش مثل الذي يستخدم لتحطيم أبواب المدن المحاصرة.

تاسعاً: تحتاج كل سفينة إلى جرار كبيرة تكون مملوءة بالكلس، ومثل ذلك إلى أواني كثيرة تكون مملوءة بالصابون الطري، وينبغي أن يوضع بين الجرار والأواني أدوات حديدية يدعوها العامة «الحراقات» ذلك مع غيرها من التجهيزات اللازمة لاشعال النيران، وأيضاً لرمي النشاب، وأشياء أخرى كثيرة حسب النصائح التي يقدمها خبراء الجيش، ويتوجب على القبطان الذي هو القائد العام لذلك الجيش أن يختزن أكبر كمية ممكنة من هذه الأسلحة، نظراً لأن كثيراً منها ينكسر، أو يتلف، أو يفقد أثناء استخدامه من قبل الرجال.

الفصل التاسع: كيف يقوم القبطان بتنظيم عناصر ذلك الجيش،

وكيفية توزيع المؤن عليها، حتى يسير كل شيء بنظام وبوئام.

وأتوسل أيضاً إلى قداستكم أن يعمد القبطان الذي — بنعمة من قداستكم — توليتم تعيينه قائداً على ذلك الجيش، إلى إيلاء تنظيم جميع الذين معه والعاملين في الجيش كامل العناية والاهتمام واليقظة، وأن يوزع عناصر الجيش المأجورة، وجميع الموجودين فيه لسبب أو لآخر، ويقسمهم إلى مجموعات بعضها مكون من ألف عنصر، وثانية من مائة عنصر، وثالثة من خمسين عنصر، ورابعة من عشرة عناصر، وأن يولي على كل مجموعة قائداً أو رئيساً مسؤولاً، وأن يعطي القبطان أولئك المسؤولين التعليمات الواجبة حسبما يراه مناسباً، كل حسب مقامه وخبرته، وعلى قائد الجيش المسيحي أن لايولي هذه المسائل لوحدها العناية والاهتمام، بل عليه أكثر من ذلك أن يسهر ويحرص على وصول الطعام إلى جميع أفراد جيشه بانتظام، سواء منهم الذين يعملون لقاء راتب، أو الذين بدون راتب، وليكن ذلك حسب كرمه، وحسبما يحكم بفطنته أن ذلك لازم وضروري لهم، وذلك للحيلولة دون الاستيلاء على الأطعمة خلسة وخفية من قبل أتباعه، ويخيل لي أنه من المستحسن والمفيد للحفاظ على الجيش ولرفع معنوياته أن ينظر القائد ومستشاروه الذين على كل سفينة من السفن بمفردها هل يناسب بالاضافة إلى التوزيع العام لكل ما هو ضروري على الذين في الجيش، خاصة المأكل والملبس، أن تكون هناك أشياء يمكن بيعها، لكن بسعر عادل، شرط أن لايتولى البيع إلاّ الذين كلفهم بذلك القبطان أو مستشاروه، ومن الممكن بيع بعض السلع بالدين، وذلك حسب أوضاع الأشخاص، على أن يجري التسديد بعد يوم دفع الرواتب، فيومذاك ينبغي تسديد جميع الديون تماماً، بشكل يصل فيه كل انسان إلى حقه دون غش أو خديعة، ودون أن تكون هناك أية شكوى من فرض علاوات أو ضرائب وترصد جميع أرباح المبيعات لما فيه المصلحة العامة للجيش، هذا ومن

الضروي تطبيق النظام العـام جملة وتفصيـلاً في جميع المجالات المتبقيـة، والتقديم في النظام القويم هو دوماً للسلاح، وعلى السلاح لايعلو شيء.

الفصل العـاشر: كميـات الميرة، والطرق المتبعـة لـدى أهل البندقيـة لتـوزيع الميرة على العـاملين في غـلايينهم، وعـدد الأفـراد المستخـدمين، والزمن والوزن، والعيارات، والمقاييس، وكل ما يناسب منطقياً إكماله.

من الضروروي إعطاء كل رجل يوميـاً ليبرة واحدة (الليبرة تسـاوي ٤٥٣,٦٠ غ) ونصف الليبرة من البقسماط، وعلى اعتبـار أن عـدد أيام الشهـر هي ثلاثين يوماً وأشهـر السنة هي اثني عشر شهـراً، وبما أن كل شهر مكون من ثلاثين يوماً، ينقص مـن كل سنة خمسة أيام وربع اليوم، وذلك بعـد ضم السنة الكبيسـة إلى تعـداد باقي السنوات؛ وينبغي أخـذ العلم أن كل جوالق من البقسماط يزن تسعين ليبرة، وأن كل جوالق من الدقيق الجيـد يعطي مـائـة وخمس ليبرات من البقسماط، وفي هذا زيادة سـدس على مايفـرضه أهل البندقيـة، وبناء عليـه يحتاج كل فـرد تسعين ليبرة كل شهرين أي بمعـدل جوالق واحد، وبالنسبة لسنة كـاملة مؤلفة من اثني عشر شهراً وخمسة أيام وربع اليوم ستكون هناك حاجة إلى ستة جوالق من الدقيق، وسبع ليبرات، وإحدى عشرة أو نصة (الأونصة هي ٢٨,٣٥ غـرام) ونصف الأونصـة، وتسـاوي هذه الجوالق ٥٤٧ ليبرة بقيـاس أهل البندقيـة للجـوالق الـواحـد، هذا ويسـاوي كل ألف ستـة قناطير بعيار أهل أبوليا ونابولي.

ويعطى أيضـاً يوميـاً لكل واحـد ممن يتقـاضـون رواتـب كأسـاً من الخمـــرة، بحجـم ربع ليبرة، وإذا ضربنا كـل ليبرة بسبعين نحصل على المقياس المسمى عند العامة «برميل صغير»، وكل برميل صغير مضروب بأربعة يسـاوي تماماً «برميل كبير» حسب قياس أهل البندقيـة، ويساوي كل برميل كبير برميلاً واحداً Veges وثلثاً من عيار نابولي، وبناء عليه تكون حصـة كل رجل في السنة الكـاملة— كما قلنا— برميـلاً واحـداً،

واحدى وعشرين ليبرة، وربع وستة عشر جزئاً من الليبرة حسب قياس أهل البندقية.

ويعطى كل واحد ممن ورد ذكرهم أونصة واحدة من الجبن يومياً، أي يعطى على مدار السنة ما مجموعه ثلاثين ليبرة وخمس أونصات وربع أونصة تماماً، وكذلك يعطى لكل واحد ثلاث ليبرات وثلاث أونصات من لحم الخنزير المملح كل ثلاثين يوما، أي ماجموعه تسع وثلاثين ليبرة وست أونصات وأربع Sagys كل سنة، ويوزع أيضاً يومياً على كل واحد من المقاتلين المأجورين لقاء راتب: فول أو أية حبوب أو بقول بمقدار جزء من أربعين من ربعية (كوارتا رولاQuartarola) حسب عيار أهل البندقية، ولكي يكون كل شيء واضحاً، تجدر الاشارة إلى أن كل أربع ربعيات تساوي ربعاً واحداً (Quarsta) وكل ربع مضروب بأربعة يساوي جوالق واحد من عيار أهل البندقية، وكل ثلاثة جوالق من عيار أهل البندقية، تساوي سالما Salma واحدة من عيار أبوليا، سواء أكان ذلك من الحبوب أو من الدقيق.

وبناء عليه تكون حصة كل رجل لكل سنة كاملة نصف جوالق من الحبوب، وربعية واحدة وخمسة وأربعين جزءاً من الربعية.

مايجب تقديمه من طعام لعشرة رجال

١٥ — ليبرة من البقسماط	حصة عشرة رجال لليوم الواحد
٥ — جوالق	حصة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٦٠ جوالق	حصة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
٧٨ ليبرة وتسع أونصات	حصة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم
١/٢ ٢ ليبرة خمر	حصة عشرة رجال لليوم الواحد
برميل صغير واحد وخمس ليبرات	حصة عشرة رجال لثلاثين يوماً
١٢ — برميل صغير و ٦٠ ليبرة	حصة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
١/٨ ١٣ — ليبرة	حصة عشرة رجال لخمسة أيام وربع
١٣ — أونصة لحم	حصة عشرة رجال لليوم الواحد
١/٢ ٣٢ ليبرة	حصة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٤٩٠ — ليبرة	حصة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
٥ — ليبرات و٩ — أونصات	حصة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم
١٠ — أونصات جبنة	حصة عشرة رجال لليوم الواحد
٢٥ — ليبرة	حصة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٣٠٠ — ليبرة	حصة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
١/٢ ٤ أونصات	حصة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم
١/٤ ربعية حبوب	حصة عشرة رجال لليوم الواحد
١ — ربع ١/٢ ٣ ربعية	حصة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٥ جوالق و ١٠ ربعيات	حصة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
١/٤ ١١ ربعية ١٦ جزء من الربعية	حصة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم

ما يجب تقديمه من طعام لمائة رجل

١ ٢/٣ — جوالق بقسماط	في اليوم الواحد لسفينة تحمل مائة رجل على أن يحسب الجوالق تسعين ليبرة
٥٠ — جوالق	لثلاثين يوماً
٦٠٠ — جوالق	لاثني عشر شهراً
٨ — جوالق و ١/٢ ٧٧ ليبرة	لخمسة أيام وربع اليوم
٢٥ ليبرة خمرة	حصة المائة رجل يومياً
١٠ — برميل صغير و٥٠ ليبرة	حصة المائة رجل لثلاثين يوماً
٣٢ — برميل كبير و٤٠ ليبرة	حصة المائة رجل لاثني عشر شهراً
١ — برميل صغير و٦٠ ليبرة	حصة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم
Fieta واحدة من النبيذ	تعطى لهم كذلك بمثابة حصة يومية.
٨ ليبرة و ١/٤ أونصة جبنة	حصة المائة رجل يومياً
٢٥٠ ليبرة	حصة المائة رجل لثلاثين يوماً
٣٠٠٠ ليبرة	حصة المائة رجل لاثني عشر شهراً .
٤٣ ليبرة و٩ أونصات	حصة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم.
١٠ — ليبرة و١٠ أونصات لحم	حصة المائة رجل يومياً.
٣٢٥ ليبرة	حصة المائة رجل لثلاثين يوماً.
٣٩٠٠ ليبرة	حصة المائة رجل لاثني عشر شهراً.
٥٦ ليبرة و ١/٢ ١٠ أونصة	حصة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم.
١/٢ ٣ ربعية فول أو حبوب	حصة المائة رجل يومياً.
٤ — جوالق و ١١ ربعية	حصة المائة رجل لثلاثين يوماً.
١/٢ ٥٦ جوالق	حصة المائة رجل لاثني عشر شهراً.
٤ — ربع و ١/٨ ١١ ربعية	حصة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم

مايجب تقديمه من طعام لألف رجل

١٦ جوالق و ٦٠ ليبرة بقسماط	حصة ألف رجل لليوم الواحد
٥٠٠ جوالق	حصة ألف رجل لثلاثين يوماً
٦٠٠ جوالق	حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً
٨٧ جوالق و ٤٥ ليبرة	حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٣ براميل صغار و٤٠ ليبرة خمرة	حصة ألف رجل ليوم الواحد
٣١ برميل كبير و٣ براميل صغار و٤٠ ليبرة	حصة ألف رجل لثلاثين يوماً
٣٢١ برميل كبير وبرميل واحد صغير و٤٠ ليبرة	حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً
١٨ برميل صغير	حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٨٣ ليبرة وأربع أونصات جبنة	حصة ألف رجل لليوم الواحد
٢٥٠٠ ليبرة	حصة ألف رجل لثلاثين يوماً
٣٠ ألف ليبرة	حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً
١/٢ ٤٣٧ ليبرة	حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
١٠٨ ليبرة وأربع أونصات لحم	حصة ألف رجل لليوم الواحد
٣٢٥٠ ليبرة	حصة ألف رجل لثلاثين يوماً
٣٩ — ألف ليبرة	حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً
٥٦٨ ليبرة وتسع أونصات	حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
جوالق واحد فول و٢ — ربع وربعية واحدة	حصة ألف رجل لليوم الواحد
٤٦ جوالق و ٣ — ربع و٢ ربعية	حصة ألف رجل لثلاثين يوماً
١/٢ ٥٦٢ جوالق	حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً
٧ جوالق و ١/٤ ٣ ربعية	حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم

ما يجب تقديمه من طعام لعشرة آلاف رجل	
١٦٦ جوالق و٦٠ ليبرة بقسماط	حصة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد
٥٠٠ جوالق	حصة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً
٦٠٠٠ جوالق	حصة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً
٨٧٥ جوالق	حصة عشرة آلاف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٨ برميل كبير،و ٣ — براميل صغار، و٥٠ ليبرة خمرة	حصة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد
٢٦٧ برميل كبير، و٣ — براميل صغار، و٣٠ ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً
٣٢١٤ برميل كبير، وبرميل واحد صغير، و١٠ ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً
٤٧ برميل كبير، و٣ براميل صغار، و٣٥ ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٨٣٣ ليبرة جبنة و٤ — أونصات	حصة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد
٢٥ ألف ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً
٣٠٠ ألف ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً
٤٣٦٥ ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
١٠٨٣ ليبرة لحم وأربع أونصات	حصة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد
٣٢ — ألف ليبرة وخمسمائة ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً
٣٩٠ ألف ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً
٥٨٠٧ ١/٢ ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
١٥ — جوالق فول(أو حبوب)	حصة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد
٤٦٨ جوالق و٣ — أرباع	حصة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً
٥٦٢٥ جوالق	حصة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً
٨١ جوالق و٣ — أرباع و ١/٢ ١ ربعية	حصة عشرة آلاف رجل لخمسة أيام وربع اليوم

ما يجب تقديمه من طعام لمائة ألف رجل

١٦٦٦ جوالق بقسماط و٦٠ — ليبرة	حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد
٥٠ — ألف جوالق	حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً
٦٠٠ — ألف جوالق	حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً
٨٧٥٠ جوالق	حصة مائة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٨٩ برميل كبير، وبرميل واحد صغير، و١٠ ليبرات من الخمر	حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد
٢٦٨٧ برميل كبير، و٢ برميل صغير وليبرة	حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً
٣٢١٤٢ برميل كبير، و٣ براميل صغيرة و٣٠ ليبرة	حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً
٤٧٤ برميل كبير	حصة مائة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٨٣٣٣ ليبرة وأربع أونصات من الجبنة	حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد
٢٥٠ليبرة	حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً
٣٠٠٠ — ألف ليبرة(ثلاثة ملايين)	حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً
٤٣ ألف و٧٥٠ ليبرة	حصة مائة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
١٠٨٣٣ — ليبرة وأربع أونصات من اللحم	حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد
٣٢٥ ألف ليبرة	حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً
٣٠٠٠ — ألف ليبرة(ثلاثة ملايين)	حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً
٥٦٨٧٥ ليبرة	حصة مائة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
١٥٦ جوالق وربع واحد من الفول(الحبوب)	حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد
٢ / ١ ٤٦٨٧ جوالق	حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً
٥٦٢٥٠ جوالق	حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً
٨٢٠ جوالق وربع واحد، وربعية واحدة	حصة مائة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم

طريقة توزيع الأغذية

يتولى كتاب الغلايين توزيع الأغذية على الرجال وفق الشكل التالي:

أولاً : يوزن راتب البقسماط وفق ما ذكرناه أعلاه لمدة يوم أو يومين أو ثلاثة أو أربعة أيام، ويوزع على الرجال بقدر ما يتبين أن العناصر قادرة على الحفاظ عليه بشكل جيد، علماً بأنه من الممكن توزيع أيضاً راتب يومين يومين.

ثانياً: يوزع الجبن على جميع الرجال راتب ثمانية أيام أو خمسة عشر يوماً.

ثالثاً :يوزع راتب اللحم المملح كل أسبوع، ويعطى لكل عنصر تسع أونصات كمايلي: يوزعها المكلفون بهذه المهمة على خمسة أيام بحيث يعطون ليوم الأحد لكل رجل ثلاث أونصات، و يعطونه في الأيام الأربعة المتبقية، أي : الاثنين والثلاثاء والأربعاء و الخميس، نصف ما كان أخذه يوم الأحد المتقدم، وتطبخ هذه اللحوم مع الحبوب، لكن لا يشارك في تقديم اللحوم للطبخ إلاّ نصف الموجودين على ظهر الغليون وإن كانوا جميعاً يحصلون على حصتهم من الطعام المطهي، ويقدمون النصف الثاني للطبخ لاحقاً، ومن جديد يتشارك الجميع في الطعام المطهي، ويحصلون بهذه الطريقة على اللحم ثلاث مرات في الأسبوع، ويستفيدون خمس مرات من طبخ اللحم، أما في باقي أيام الأسبوع أي في يومي الجمعة والسبت، فيكون الطبخ حبوباً، وتقدم مسلوقة لكل عنصر من الموجودين في الغليون، وإذا صدف ووافق يوم من أيام توزيع اللحم، وكان يوم صيام قبل يوم العيد لواحد من الأعياد الكبيرة، فتوزع الحبوب، وتحفظ اللحوم لتوزع على الرجال في أول يوم عيد يأتي، ويظل الأكل في يومي الجمعة والسبت من الحبوب حسبما جرت

العـادة، ونذكـر هنـا أنه من الضروري أن يكون على ظهـر كل سفينة مسـؤول يتولى أعمال الطبخ مـرة في اليوم لصـالح رجال الغليـون، وهو بالعادة يتسلم من الكتّاب الحبوب اللازمة للطبخ، وكذلك اللحوم التي تؤكل فيها اللحوم، وذلك قبل يوم حتـى يتاح له الوقت لإعدادها ومن ثم إطعام من في الغليون، ويجري تكليف ثلاثة رجـال لاستلام الأطعمة وتوزيعها، يقف أحدهم في مقدمة الغليون والثاني في وسطه، والثالث في مؤخرته، ويرافق هؤلاء الرجال الثلاثة رجل يتولى الإشراف والتأكد من حصـول كل رجل على حصتـه، ويستحسن تبـديل الموزعين بين آونة وأخـرى، ويبقـى هذا حسبما يراه المرافق الـذي هو مـدبـر الغليـون، وبالحري يعـود ذلك إلى رأي القبطان، أي القـائد العـام للجيش، فإليـه أوكلت مسؤولية العدالة وتطبيقها، والمهم بالأمر عدم الإخلال بوصول حصة كل إنسان من الطعام إليه.

ورب سائل يقـول:هل يكفي هذا الراتب من ا لطعـام لهذه الجماعة؟ وأجيب نعم، بما أن القوم يتسلمـون من الموزعين البقسماط بكفاية، علماً بأنه عند الاقتضاء يمكن لأحدهم الاحتفاظ بمقدار خمس عشرة أونصة أو اثنتي عشرة أونصة بقسماط يومياً، وأضيف أنني وجدت شخصياً في أحد الجيـوش أنه لم يكن يوزع سوى تسع أونصـات للشخص الواحد، لكن هذا هو الحد الأدنـى في أوقـات الضيق وفي العـادة عندمـا تزول الضـائقـة — حسب ظروف الزمـان والمكان — يجري التعـويض على الناس مـا نقصهم إما بدفع مبلـغ من المال، أو بإعطائهم مواد أخـرى، علماً بأن أولئك الناس يستطيعـون أن يبتاعـوا بمالهم الخاص متى وحيث يريدون الخمـرة والطعـام، حسبما يروق لهم ويطيب، وذلـك عندمـا يصلون إلى مكان تتـوفـر فيـه تلـك المواد، هذا ويقـدم للرجـال في أيام الصوم الكبير بدلاً عن اللحم وعن الجبن طعـام آخر يوازي بقيمته ثمن ذلك اللحم والجبن.

تخمين منطقي لأسعار المواد الغذائية المتوجب تأمينها:

في البداية من المفيد التعرف ولو قليلاً على النظام النقدي المتبع في البندقية:

تساوي كل قطعة فضية كبيرة Grossus من نقود البندقية اثنان وثلاثين ديناري صغير، وبناء عليه إن كل ٧١/٢، قطعة فضية كبيرة تساوي عشرين سولدي صغار، وتساوي كل عشرين سولدي كبار من نقود البندقية اثنتان وثلاثين ليبرة صغيرة، وهكذا دواليك.

ولنفترض أن البقسماط الذي يزن الجوالق الواحد منه تسعين ليبرة يساوي ثمنه ٣٢١/٢ سولدي صغار، يكون ثمن ليبرة ٤١/٢ ديناري، وطبعاً يلزم لكل رجل يومياً من ذلك البقسماط ١١/٢ ليبرة، وبذلك يكون ثمنها١/٢ ٦ ديناري، ويكون الثمن في ثلاثين يوماً ١٦ سولدي وثلاثة ديناري صغار، مقابل ٤٥ ليبرة من البقسماط، أما في اثني عشر شهراً فيكون ثمن ستة جوالق من البقسماط ٦ سولدي كبار، وقطعة فضية كبيرة، وأربع قطع صغار.

وثمن البرميل الكبير من الخمرة ١٥ — ليبرة و١٥ سولدي، ويساوي ذلك بعملة البندقية ٩ سولدي كبار، و١٠ قطع فضية كبيرة، و٤ ديناري، وبناء عليه يكون ثمن البرميل الصغير ٣ ليبرة، و١٨ سولدي، و٩ ديناري صغيرة، ويكون ثمن ليبرة الخمرة ١/٢ ١٣ ديناري، ويعطى يومياً للفرد ربع ليبرة ثمنها ٣٣/٨ ديناري، مما يعادل في الشهر ثلاث قطع فضية كبيرة و ١/٤ ٥ ديناري، ويساوي هذا في اثني عشر شهراً ٣٧ قطعة فضية كبيرة و ٣١ ديناري.

أما ثمن اللحم المملح فهو للألف ليبرة، ٥٠ ليبرة صغار أي ٣١ سولدي و ٣ قطعة فضية كبيرة، وحصة الرجل يومياً هي ١,٣٩ —

أونصة، ثمنها ٥/١ ١ دينار، ويعادل هذا بالشهر الواحد ٣٩ — أونصة ثمنها قطعة فضية كبيرة واحدة و٧ ديناري صغيرة، وبموجب ذلك تكون حصة الفرد في اثني عشر شهراً ٣٩ ليبرة من اللحم ثمنها ١٤ قطعة فضية كبيرة و٢٠ ديناراً.

وتحسب الألف ليبرة من الجبن بخمسين ليبرة، ويلزم للفرد الواحد يومياً أونصة جبن واحدة، ثمنها ديناري واحد، ويساوي هذا في ثلاثين يوماً ٢/١ ٢ ليبرة و٣٠ ديناري، وفي ١٢ شهراً ٣٠ ليبرة و٣٠ سولدي، تعادل ١١ قطعة فضية كبيرة وربع القطعة.

أما جوالق الفول فنفترض ثمنه ٢/١ ١٢ قطعة فضية كبيرة، وهكذا تكون قيمة ١٦/١ منه واسمها ربعية ٢٥ ديناري، ويحتاج الفرد في اليوم الواحد إلى ٤/١ ربعية ثمنها ٨/١ ديناري، ويعادل هذا في الشهر ٤/٣ ٣ ديناري، وفي اثني عشر شهراً ١٨ سولدي و ٩ ديناري صغار،أي ٧ قطع فضية وديناري واحد.

وعلى هذا يكون ثمن الراتب اليومي للرجل الواحد عن البقسماط واللحم المملح والفول والخمرة ٥/٤ ١٢ ديناري، وعن الشهر المكون من ثلاثين يوماً ١٢ قطعة فضية كبيرة، وعن السنة المكونة من اثني عشر شهراً ١٢ سولدي كبار.

وهكذا إذا أخذنا بعين التقدير سدس البقسماط الفائض، وإذا قدرنا — بعون الرب — أن بالإمكان أن نحصل محلياً على أصناف رخيصة بسهولة، أو بالأسعار المذكورة أعلاه، بعد التذكير أننا حسبنا الأسعار بمقياسها الأعلى، لهذا كله لم نحتسب الخمسة أيام وربع اليوم الزائدة على اثني عشر شهراً.

الفصل الحادي عشر: عدد الغلايين التي يحتاجها الجيش الصليبي وأشكالها، في أعماله البحرية، لكي يستولي على بلاد مصر، وكيف على

القبطان التصرف لإنجاح ذلك.

أيها الأب الأقدس: يحتاج القائد العام عند الانطلاق لتنفيذ هذا المشروع إلى خمسين غليون وفق الأحجام المشار إليها من قبل، أي: عشرين من الحجم الكبير، مما يسير بالمجاذيف، وعشرين من الحجم الوسط، وعشرة من حجم قادر على الخدمة، وطبعاً هي أيضاً مما يسير بالمجاذيف، وأتمنى الأخذ بالرأي الداعي إلى استخدام أربع مجذفين على نسق واحد فوق كل مقعد، حسبما بينت في الفصل الخامس، ووقتها لن نكون بحاجة إلا إلى أربعين غليوناً من النموذج المذكور في الفصل الحادي والعشرين من القسم الرابع، أما شكل الغلايين فهو كمايلي:

١ — *الغلايين الكبيرة*: الطول ٢٣ خطوة ٢ — قدم، والفتحة من الأمام(العرض) ١/٢ ١٥ قدم، والارتفاع من وسط أرضيتها ٧ أقدام و٣ أصابع، وعمقها(الغاطس) ١/٢ ٩ قدم، وأخيراً علوها من المؤخرة ١/٢ ٩ قدم، ومن المقدمة ١/٢ ١٠ قدم.

٢ — *الغلايين من الحجم الثاني*: الطول المطلوب ٢٣ خطوة و٢ — قدم، وفتحتها من الأمام ١/٣ ٢٠ قدم، وعلوها ٧ — أقدام وإصبعين حتى ثلاثة أصابع، وعمقها١/٢ ٩ قدم، وعلو مؤخرتها ١/٢ ٩ قدم، ومقدمتها ١/٢ ١٠ قدم.

٣ — *الغلايين الصغيرة*: وأخيراً إن قياسات هذا النوع هي: الطول ٢٣ خطوة وقدم،وفتحتها من الأمام ١/٢ ١٤ قدماً، وعلوها من الوسط ١/٢ ٦ قدماً وعمقها ١/٣ ٩ من الأقدام، وعلوهاعند المؤخرة ٩ من الأقدام، وعند المقدمة ١٠ — أقدام. وحتى يتمكن المجذفون الجالسون أربعة أربعة على نسق واحد فوق مقعد واحد من العمل بشكل أفضل، ولاسيما إذا جرى اعتماد أسلوب خمسة خمسة في الغلايين الأكبر حجماً، من المتوجب أن تكون المجاذيف من أفضل أنواع الخشب، ويستحسن

أن تكون من خشب بيرونادا Pironada ، وأن تكون مربوطة ببعضها، ومصنوعة بشكل خاص لتتحمل عناء التجذيف وشدته وعنفه، ومن المحبذ وجود سفينتين لهما عشرة زوراق، مثل ما يستعمله أهل جنوى في القسطنطينية وبيرا — المسماة قديماً غلاطية — .

وبرأينا إنه من المفيد وجود — فضلاً عما تقدم — خمسة غلايين كبيرة لحمل المعدات ذهاباً وإياباً، وأن تكون غير مسلحة، وتسير بقوة دفع المجاذيف لحمل العناصر والخيول والمؤن، ولحمل الأخشاب وجميع الأسلحة اللازمة لأولئك القوم، ويمكن لهؤلاء أن يسيروا بسلام وفرح كبير نحو الشواطىء المصرية، ويستولون هناك — كما بينا من قبل — بكل بساطة وبطش على الأرض، وعليهم أن يكونوا حاملين معهم لتلك الحملة مراكب معدة للملاحة في المياه العذبة، الموجودة في تلك المناطق، ولغيرها من المياه العذبة التي قد تكون موجودة في بلدان الشرق، ولتكن تلك المراكب من النوع الثلاثي، وأن تكون هناك الخمسة غلايين الضخمة جاهزة باستمرار للذهاب والاياب لحمل جميع لوازم الجيش، وتبقى الغلايين الخمسون أو الأربعون مع الغلايين المذكورة مع الجيش المعدّ للابحار في المياه المالحة والمياه العذبة المذكورة حتى تنقض على أعداء الإيمان الكاثوليكي، وتنزل بهم الرعب وتلحق بهم الويلات، وبناء عليه يقومون في السنة التالية لاحتلالهم قطعة من أرض مصر البحرية فيتقدمون في المياه العذبة، ويكون هناك عشرون غليوناً جاهزين لنقل جميع الأشياء اللازمة ولتمكين الغلايين غير المسلحة من شحن كل ما يلزم.

الفصل الثاني عشر: الأسلوب الفني المتبع لصناعة الأدوات للملاحة، والزمن المحتاج، والترتيب المأخوذ به لحفظها، ولتكون أسرع، وخاصة المجاذيف.

ولكي لا يطرأ أي عطل، أو يقع نقصان في صناعة السفن، مما يسبب

للجيش بعض الضرر ويعيقه في حملتـه، تقصيت بإلحاح، وسألت رأي الذين يفترض أن يكونوا خبراء في هذا المضمار، لأنهم اعتادوا على قطع الأشجار من الغابات، وعلى صنع السفن، فإنهم أجمعوا على القول: إنه لا يصلح أبداً قطع الأشجار من الغابات في شهر آذار أو نيسان، وأن شهري تشرين الثاني وكانون الأول هما أفضل زمن خلال السنة لقطع الأشجار، شريطة أن لا يقع ذلك بين الخامس عشر والثاني والعشرين من القمر.

فإذا ما قطعت الأشجار في الوقت المذكور،يقولون إنه لا يجوز الشروع على الفور بصنع السفن، بل يتوجب أو لاً لتقطيع الجذوع إلى ألواح، وأن تترك بعض الوقت لتجف، إنه إذا صنعت السفن من أخشاب أو ألواح خضراء، لم تجف بعد فإن الألواح لا تنطبق تماماً على بعضها، ولن تصلح لمنع تسرب الماء كلياً، وإذا هبت عاصفة في البحر فإنها تلتوي — كما يقول العامة — وبذلك تنسحب الدسر بسهولة من وسط الألواح، وإن في ذلك لخطر جسيم على من في السفينة، وتسير أيضاً ببطء كبير، ومع التسليم بصحة هذه المعلومات، يبقى المفيد أكثر أن تصنع السفن من ألواح وأخشاب لاتزال خضراء، أو نصف جافة، حيث تجمع قبل أن تجف تماماً، سوية وتعطي للسفينة الشكل الموائم، وبهذه الطريقة — كما يقول الخبراء — تكون الألواح أنسب وأصلح سواء للسفينة أم للملاحة، لأن الأخشاب الخضراء تطاوع أكثر عند العمل وتضبط أكثر، وعندما توضع على طبقتين تكون أقوى وأمتن مما لو كانت طبقة واحدة،لأن الطبقة الأولى هي أساس للثانية، وللحفاظ على السفن المسيرة بالمجاذيف والعناية بها، ولكي تكون أسرع هي بحاجة إلى«معجونة»، ولاسيما النوع المعدّ منها لخوض مياه البحر، ويلزمها من حيث المبدأ كل شهرين على الأكثر في أيام الصيف، عندما يكون الحر على أشده، وكل ثلاثة أشهر في أيام الشتاء، أن تحف بفرشاة،

وبمحرقة ومن ثم ترمم، لأن السفن تحتاج إلى الاصلاح في ذلك الموسم من السنة، وبعد هذا تنزل وتغطس في أعماق الماء حسبما يكون مناسباً لكل واحدة منها، وتحتاج كل سفينة، كل مرة لتتميم الصيانة إلى خمس وتسعسن ليبرة من المعجونة».

وبعد مرور شهر — على كل حال — وفي أي أسبوع، وبعدما تكون السفينة قد طليت وتمعجنت تماماً، بحوالي مائة ليبرة من المعجونة، يجب تمييلها لبعض الوقت على الجهة اليمنى وبعض الوقت الآخر على الجهة اليسرى، حتى تدلك بالأيدي من الخارج وتنظف تحت الماء بفرشاة مصنوعة من شعر الخنازير، لكن بشكل لايزيل المعجونة عن الألواح.

وتجفف السفن غير المسلحة المعدة لركوب البحر، ولنقل الحمولات الثقيلة مرتان في السنة، وترمم قطعة قطعة، وتطبق الأعمال نفسها على السفن المعدة للمياه العذبة، ولكي تكون سريعة ومصانة، يجب — كما ذكرنا أعلاه — أن تطلى وتنظف وترمم، ويجب أيضاً معجنتها بطبقة من المعجونة بقدر ما يحكم أنه ضروري ومفيد، ومفيد أن نعلم أن السفن يمكن حفظها بشكل أسهل في المياه العذبة مما في المياه المالحة، ولا يتمكن السوس من نخرها، علماً بأنها إذا ما أنزلت وهي مسوسة في المياه المالحة، فإن السوس يؤذيها أكثر، ويمكن أن يتغلغل فيها بسرعة أكبر، لاسيما إذا بقيت من دون حراك، في المكان نفسه، في المياه المالحة.

وإذا حدث وتقشرت المعجونة عن إحدى السفن، لا يجوز معجنتها كما ذكرنا من قبل، بل ينبغي أن تجفف أولاً ثم تحف بالفرشاة بشدة حتى يُزال من عليها جميع الأوساخ والأعشاب العالقة بها، ومن المناسب أن يتم ذلك شهرياً، وكلما تبين أنه ضروري، ويجب التنبه إلى أن على كل سفينة أن تكون متأهبة وجاهزة في أيام الصيف أكثر منها في أيام الشتاء، لأن الأضرار التي تلحق بها في الصيف أعظم، هذا ولا يجوز التوقف عند الطريقة التي يرفع فيها الأذى عن السفينة، بل ينبغي

الاعتماد على الطريقة التي تضمن صيانتها حتى تقوم بالمهمة المكلفة بها، ولتكون سريعة الابحار، وإذا اتضح أنه غير مناسب لسفينة ما ألا تعمل لبعض الوقت، لأنها تحتاج إلى الصيانة، ينبغي جرها إلى مكان مغطى حتى تنظف ويزال عنها الأذى، وذلك بعد التشاور مع الأعيان والجماعات، هذا وإن المكان الذي تحفظ فيه السفن يعرف عند العامة باسم«دار الصناعة»، وقد تتوفر أسباب أخرى تدعو للمحافظة على بعض السفن، لكن إذا لم يكن بالامكان حفظها في دار الصناعة لوقت طويل، من الأفضل عدم تعريضها للشمس والمطر، والندى في مكان آخر.

الفصل الثالث عشر: حول أنواع باقي السفن التي يحتاجها الجيش الصليبي لنقل الميرة، وبقية أشكال المواد اللازمة للصليبيين الذي سيعبرون البحر فيها بعد، وحول الأماكن وأسمائها وعددها، والترتيب الواجب اتباعه لايصال الميرة، وحول الأماكن التي يتوفر وجودها، أو يمكن الحصول عليها، وفي هذا الفصل إيضاح أن السفن العائدة للكنيسة الرومانية المقدسة، لاتناسب ولاتفيد.

وإذا ما حظي الذي ذكرته أعلاه بما يستحق للمباشرة به ومن ثم إتمامه، فإنه ينبغي — أيها الأب الأقدس — من أجل إنجازه وإتمامه تجهيز أسطول آخر عدا عن الذي سلف وذكرناه في الفصل المتقدم، فالفضل كل الفضل ليس بالشروع والمتابعة إلى منتصف الطريق، بل إنه بإتمام تلك البداية ومتابعة المسيرة حتى يتم الوصول إلى الغاية، وعندئذ يكون المدح والثناء، ويكون هذا الأسطول لحمل المؤن والأخشاب، وباقي العتاد اللازم لذلك الجيش المذكور، وكذلك بكميات كبيرة للصليبيين الذين سوف يلحقون بهم، حسبما ذكرنا أعلاه، وأيضاً لمحاربة أهل الأندلس الذين يحاربون في المناطق الواقعة من هذا الجانب من البحر، أي في إسبانيا، فهؤلاء سيداسون بالأقدام بسرعة، وستجتث

شرور أتباع محمد(ﷺ)، ونحن حين نتحدث عن أسطول آخر، غير الذي نحن بصدده، فهذا لا يعني أن ذلك الأسطول الثاني سوف يكون ذا عدد كبير، أو أنه سوف يجهز على نفقة الكرسي الرسولي، ومن الممكن إيضاح ذلك على الوجه التالي:

إذا ما استمرت جزيرة كريت — بنعمة من لدى العلي القدير — تحكم نفسها، كما هو حالها اليوم، من الممكن التفاوض مع أهل البندقية حتى يتولوا نقل القمح والحبوب والحاجيات الأخرى لصالح جيش قداستكم، عن طواعية، إلى الجزيرة المذكورة، ومن هناك يجري نقلها إلى شواطىء مصر، وإذا لم يتوفر عند أهل البندقية الكميات الكافية من القمح والحبوب، فإنه من الممكن الحصول عليها من أبوليا، لتنقل منها إلى تلك الجزيرة، بالكمية التي تقررها قداستكم، ويناسب هذا أهل البندقية كثيراً، لأنهم سينقلون تلك المواد من مكان مناسب وقريب، ولاشك أنهم سيلبون هذا المطلب إذا ما عرض عليهم الأمر، علماً بأن قمح أبوليا أفضل نوعية من النوع الذي في كريت، ومنه يستخرج دقيق يعطي خبزاً أفضل، وبكمية أكبر من ذلك الذي في كريت، ومن الممكن الحصول أيضاً على كمية كافية من الخمر من تلك الجزيرة، وعلى الكثير من الجبن، وعلى عدد كبير من المواشي الصغيرة، وعلى الأخشاب وخاصة أخشاب الوقود، أيضاً على المجاذيف، وعلى عدد كبير من قرون الغزلان لاستخدامها في صناعة القسي، ويمكن عدّ هذه المواد وكأنها موجودة في مصر نفسها، لقرب موقع كريت منها، ومن جزر بحر ايجة، شرط أن لايكون الأتراك قد تقدموا من مواقعهم الحالية إليها وخربوها، فمن هذه الجزر يمكن الحصول على كمية كبيرة من الأخشاب والمجاذيف وعلى أعداد وافية من المواشي الكبيرة والصغيرة، لتحمل إلى ذلك الجيش على غرار الأخشاب والحاجيات الأخرى المجلوبة من جزيرة كريت.

وفضلاً عما تقدم يمكن الحصول من جزيرة ميلو Melo ، الواقعة أيضاً في بحر إيجة، على عدد كبير من أحجار الطواحين، فالطواحين لازمة ومفيدة جداً لخدمة ذلك الجيش، وإذا طاب لقداستكم، يمكن أن يعمد قائد الجيش المعين إلى التعامل مع الأتراك القاطنين على الشاطىء التركي، وأن يسايرهم ويتصرف معهم بصداقة، وخاصة مع ذلك القسم منهم المسيطر على الأرض الممتدة من كاندلورو Candeloro حتى ماكروم Macrum ، فيعطيهم بعض المال حتى — كما أرجو من الخالق العلي — يتركوا رجال ذلك القائد يقطعون الأشجار، ويشترون القار، وكافة أنواع المواشي لحملها إلى مصر، وعليه أيضاً التعامل مع جزيرة قبرص الخضراء، حسبما جرت العادة، حيث تتدفق منها كميات الحبوب والخمرة، والمواشي والحيوانات كبيرة وصغيرة، وأيضاً الملح، وهذا كله يمكن شحنه بالشكل المناسب إلى الجيش في مصر.

وهذه الجزر وهذه الأراضي قريبة جداً من بلاد مصر، وفضلاً عن ذلك يمكن لجزيرة نغروبونتي، ومثلها دوقية أثينا، ومقاطعة المورة أيضاً، أن تؤمن الأخشاب مع أصناف وحاجيات عديدة مناسبة للجيش المذكور، هذا ومن الممكن شراء الدقيق من بلاخيا Blachia ، ومن غيرها بوفرة، ومن ميناء أميرو Amiroومن ميناء ميثريد Mith-riade، ومن ميناء لادي Lade ، كذلك بكميات كبيرة، إذا عاد إلى سالف عهده، لأن كونت دي بريان قد دمره كلياً، أثناء تسلمه الحكم على الكتلان Catelani وكذلك يمكن الحصول على الأخشاب والحديد والحبوب وغير ذلك من المواد بكميات وافية، من الأراضي التي يحكمها الروم الذين في القسطنطينية حالياً، وليس من هناك فقط بل من مناطق البحر الكبير من جهة الشمال، فمن هذه المناطق يمكن أيضاً الحصول على القمح بكميات كبيرة، وعلى«المعجونة Sepo »، وعلى جلود البقر، وحاجيات أخرى عديدة من هذا القبيل، وكذلك من

أرض ديسبوتي Despoti ، ومن منطقة فالوني Valonae ، ودوراتي Durati، وكذلك من بلاد صربيا، فمنها يمكن استخراج الأخشاب بكميات كبيرة جداً، ولاسيما خشب السنديان، مع مواد أخرى كثيرة، وأعداد كبيرة من المواشي، ويمكن أيضاً الحصول على القمح بكثرة مع النبيذ والزيت، واللحوم المملحة، والجبنة وثمار الأشجار، من مملكة صقلية، ومن دوقية أبوليا، ومن مقاطعة كابوا Capua ، وكل هذه الأراضي — ما عدا الواقع منها إلى شمال البحر المتوسط — ليست بعيدة كثيراً عن أراضي مصر البحرية، ومن المعقول كذلك القول إنه إذا ما اتبع الترتيب المذكور لن يحتاج الأسطول إلى عدد كبير من الغلايين، لأن الذين يسافرون على تلك السفن، ويزورون تلك الأقاليم يمكنهم الذهاب والإياب مراراً كثيرة، وأما الأراضي المسماة سيغنا Signa ، وغيرها من أراضي بلاد الصقالبة فيمكن أن تجلب منها الأخشاب الكثيرة واللحوم المملحة، ويؤخذ من البندقية — بالطبع — الحديد والخشب، خصوصاً خشب الشربين، وخشب الصنوبر، وهما من أفضل أنواع الأخشاب بالعالم، وهذا كله مفيد جداً ومناسب للجيش المذكور، ويمكن أيضاً الحصول من ماركيا Marchia ، وأنكونا Anchona ، ودوماندیولا Domandiolaعلى الكثير من الخمرة، التي هي من الصنف الجيد.

وإذا راق لقداستكم أن يعين في المراكز الأهم لهذه المناطق، التي هي محكومة من قبل واحد من أبنائكم المؤمنين، وكيلاً أو وكلاء يشترون ما هو لازم ومناسب لذلك الجيش، ولتأمين حاجياته، فسيكون هذا مفيداً وعملياً، ولا يقتصر على تلك المناطق، بل إذا ارتأى قداستكم حبذا تعيين وكلاء آخرين في مناطق أخرى، إنما إذا لم تعمد قداستكم إلى تعيين وكلاء في تلك البلدان والمناطق، يمكن إصدار الأوامر إلى التجار بالإبحار بأسرع ما يمكن إلى أرض مصر البحرية، من اليوم الذي تقلع

الحملة به إلى هناك، هذا وإذا قررت قداستكم تطبيق الإجراءان معاً، أي تعيين وكلاء، وتوجيه التجار نحو مصر، فإن المشروع سوف يلاقي خدمة كبيرة، ولا شك أنه سوف ينجز بوقت أسرع، أما طريقة إيجاد وكلاء مناسبين وصالحين لهذا النوع من العمل، فهي واضحة بما فيه الكفاية ولا لبس حولها، أي : أن يعمد الذين تكلفهم قداستكم بإنجاز هذه المهمة، إلى التفتيش في الأراضي التي يسكنها مؤمنون مسيحيون، والسؤال والتحقق، والاستعانة بغيرهم للتفتيش عن رجال أمناء معروفين، وأغنياء وحكماء في آن واحد، ولديهم خبرة في هذه الشؤون، وذلك من أجل تأمين كل ما يتطلبه المشروع المذكور، أما بالنسبة للبلدان والمناطق التي يتم التعرف فيها إلى وجود رجال بالصفات المطلوبة، لابأس وقتها بإرسال عدد من الأشخاص إلى هناك، بقدر ما يراه الذين كلفتهم قداستكم، بغية القيام بما هو لازم، آخذين بعين التقدير أنه إذا كان الوكلاء صالحين — وهؤلاء يمكن العثور عليهم بعون الرب — فإن المشروع سيصل إلى الغاية المرجوة، ويجري تأمين كل ما هو مناسب وموائم.

وبالإضافة إلى جميع ما تقدم ينبغي إبلاغ تلك المناطق ما مضمونه: إن كل من يريد حمل المواد الغذائية وسوى ذلك إلى جيش قداستكم، هو آمن لدى المؤمنين جميعاً للذهاب والإياب والإقامة.

وينبغي دراسة هذا الأمر، وإصدار قرار من قداستكم يقضي بالسماح لأي كان أن يحمل من أية بلد أو مكان الأخشاب والمواد الغذائية، وغير ذلك مما يحتاجه الجيش، وينقله إلى شواطىء مصر، دون أن تفرض عليه أية أتاوة أو ضريبة في تلك الأماكن والبلدان والتجمعات البشرية، وفوق ما تقدم يحتاج الجيش على سبيل الأمان والحيطة في البقعة المعسكر فيها من أرض مصر، أن يجمع كمية كبيرة من الذرة، وأن يختزنها، وأن تصل الكمية إلى مقدار مائتي ألف جوالق من مقياس أهل

البندقية، أي ما يساوي سبع وستين ألـف«سالما» من مقياس أبوليا، لأن الذرة تبقى محفـوطة لمدة طويلة، ويمكن إطعـام الجيش منهـا إذا طرأت ظروف استثنائية، ومن الممكن الحصول عليها من بلدان البحر المتوسط، وهي في مناطق الشمال أفضل منهـا في مناطق أخرى، والذي أراه مفيـداً ومنطقياً أنـه إذا ما احتاج الجيش إلى عـدد من السفن فوق العـدد الذي ذكرته لقـداستكم، وذلك من أجل نقل المؤن، يفضل استئجار مثل هذه السفن بدلاً من استخـدام السفن العائدة لبـلاطكم، وسبب هذا واضح تماماً، وهو أن أصحـاب السفن التجارية هـم دوماً ساهرون ومتـأهبون للعمل في سبيل منافعهم الشخصية، وهم يهتمـون بذلك كثيراً، أكثر من اهتمامهم بالأمانة وبما يعـود للمصلحة العامة للكنيسـة، لذلك لا خشية — بعـــون يســوع المسيح — مـن أن يحتـاج ذلك الجيـش إلى السفن الضرورية، لأنه حالما ينتشر خبر الحاجة ويصل إلى مسامع التجار، حتى تراهم ينظمـون سفن النقل بكفـايـة وسرعـة من أجل تحقيق الكسب والمنفعة.

الفصل الرابع عشر: إيضـاح كيف أنه للابحـار إلى مصر ينبغي توفـر رؤية جيـدة، ومناخ مناسب، وإيضاح لفـوائـد مناخ مصر، وكثرة الميـاه فيها.

ومن المفيد أن نعـرف هنا أخيراً ما سـوف أقوله وأشرحـه عن جودة مناخ مصر: من حيـث المبـدأ، على الذي يـريد الذهاب إلى الشـواطىء المصرية سواء من الغرب أو من الجزر اليونانية، عليه أن يرسو في جزيرة كريت، طبعـاً عند رأسها الشرقي، وهناك يُعطى شـارة الصليب المميزة، لكي يقلع نحو مصر عندما تكون الرياح شمالية وشرقية.

وبسبب التيارات التي تتدافع نحو الغرب في تلك المناطق، يلزم هناك التـوجـه إلى وسط مجرى الريح، والسير بوضع مقـدمــة السفينة باتجاه الشرق مقــدار الربع من الريح الشرقيـة، وبعـد ذلك من وسط مجرى

الريح حتى الاسكندرية مع الريح بخط مستقيم، ويقدر هذا العبور مع مجرى الريح بأربعمائة وخمسين ميلاً، وهناك من يؤكد أن هذا العبور مع مجرى الريح يبلغ خمسمائة ميل، وبما أن جزيرة كريت تتمتع بمناخ جيد، لكن كثيراً ما يتفاجأ الذين يعبرون من هناك بحراً أنهم كلما اقتربوا من مصر أن المناخ يتحسن ويتبدل ويغدو صافياً ونقياً، وتبدو زرقة السماء، علماً بأن مصر البحرية تسقط فيها الأمطار باعتدال كبير، لكن بكفاية، إنما كلما مضيت في داخل مصر نحو القاهرة والقلعة وماوراءها نحو الصعيد، هناك لا تسقط الأمطار إلاّ بالنادر، وإذا سقطت لا تكاد تبلل الأرض ، وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد بكل تأكيد، أن مناخ مصر، بسبب هذه المواصفات هو مناخ جيد، لا بل ممتاز، ويمكن البرهنة على هذا من خلال الأعلاف، فإنها إذا ما حملت إلى مصر، وقد أصيبت بالعفونة، أو بدأت تتلف، تصح وتستعيد جودتها، نتيجة لجودة ذلك الهواء، وجدير بالتنويه أن المياه غزيرة بمصر، وهي من أفضل مياه العالم، وخير ما فيها أنها خفيفة تساعد على الهضم.

ولذلك لا يجوز مطلقاً التراجع عن هذا المشروع، بل يلزم إنجاز كل ما يمكن عمله، حتى تتحقق آمال جميع من يسعون في سبيل مجد الرب وكنيسته، ولكي يتمتعوا بتلك الأرض بسلام وأمن.

الفصل الخامس عشر: المواصفات المطلوبة من الأشخاص الذين يمكن للكنيسة الرومانية المقدسة أن تتعاقد معهم حتى يتحقق هذا المشروع.

فيمايلي الشروط المطلوب توفرها بالرجال الذين ستتعاقد الكنيسة معهم لقاء عطاء ثابت:

أن يكون كل قبطان وكل مسؤول من الذين يتقنون قيادة السفن والابحار بها في المياه المالحة وفي المياه العذبة، وأن يكون قادراً على تأمين

العدد الكافي من المجذفين، لأنه كثيراً ما ينقص هذا النوع من العناصر في سفن الجيش، وتتعرض السفن للمخاطر بسبب ما يطرأ من حوادث تهدد أولئك الرجال، وتقود إلى النقص في تعداد المجذفين، ويلزم أيضاً وجود كتّاب يتولون شؤون السجلات، وتوزيع المواد الغذائية، وتسليم الأسلحة، وباقي اللوازم يومياً، وهناك حاجة أيضاً إلى نجارين للأخشاب بعدد كبير، وأن يكون معهم عدد كبير من المعلمين الحرفيين، يحسنون الحرف المتعددة، وأن يكون هناك أيضاً أكبر عدد ممكن من المرممين والمنظفين والعاملين بالمعجونة والطلاء، لإعداد كل ما تحتاجه السفن في كل وقت.

وبعد هذا أعرض على قداستكم ثبتاً سريعاً بأنواع الباقين المحتاج إليهم:

يحتاج ذلك الجيش إلى نجارين وإلى حدادين يكونون قادرين على إنجاز جميع أعمال الحدادة والنجارة التي يتطلبها الجيش، وهناك أيضاً حاجة إلى معلمين لمختلف الحرف مما بإمكانه تقديم المساعدة للسفن ولطواقمها، أما الباقون من القوم الذين هم رجالة، فيجب أن يؤخذ منهم رماة وحملة رماح قادرون على قتال الأعداء ببسالةسواء على وجه الماء أو على وجه الأرض، وأن يدحروا أعداء الايمان المسيحي بكل رجولة، ولدعم هذا المشروع، وتوفير سبل النجاح كما ينبغي، من المناسب أن يرافق الأسطول أساقفة، ورهبان وعاظ من رهبنة النساك، ومن رهبنة الكرمل، وغيرهم من الأكليروس العلماني حتى يتولوا تعليم رجال ذلك الجيش الديانة والأخلاق القويمة، ولكي يقدموا لكل محتاج أسرار الكنيسة المقدسة، وذلك في سبيل مجد الرب، وفي سبيل العبادة الحقة في كنيسته.

الفصل السادس عشر: حول شكل تبديل عناصر الجيش وطريقة ذلك، وحول المشافي للمرضى، وكيف ينبغي تأمين كل شيء سلفاً،

وحول النساء المتزوجات المرافقات لرجالهن، وحول شؤون الأرامل والورثة، وغير ذلك من الأمور الواجب أخذها بعين التقدير.

فضلاً عما تقدم، يتوجب تأمين العطاء الشهري لجيش الكنيسة الذي سوف يغادر من مناطق الغرب وجهاته، دون أي نقصان، وذلك إلى جميع الرجال والمقاتلين، مهما كانت ظروفهم أو أوضاعهم، حسبما جاء في الفصل المتقدم، وكلما طلبوا أن يدفع لهم، وكذلك إلى الذين سوف يرسلون إلى ذلك الجيش مع الغلايين غير المسلحة، وذلك بأقصى ما يمكن من سرعة، ودونما إبطاء.

والسبب هو أنه في الجيوش البحرية، يهلك بالعادة قوم كثيرون، إما بسبب الحوادث المألوفة في الحرب، وإما بسبب حوادث الغرق التي كثيراً ما تحدث في المياه، وإما أيضاً بسبب تكبد مشاق لا تطاق، يتحملونها ليلاً ونهاراً، ولذلك تنهار قواهم ويقهرهم المرض، ولهذا إن التأخير في دفع المستحقات لا يرضي بعض هؤلاء القوم، كذلك إن ذلك قد يساعد على تعويض النقص في أعداد الجند المسيحي، وعلى تجديد الجيش، وهذه طريقة ناجعة، لا تحتاج إلى نفقات عالية.

ثم إن ما يعطى للمأجورين من أعطيات وأطعمة، هو وسيلة لهم لمتابعة حياتهم بأمان وكرامة، وليتمكنوا بنفسية غير قلقة من الخضوع لأوامر الكنيسة الرومانية المقدسة، ولتعليمات قائد الجيش، ونخص هنا بالذكر قباطنة السفن والملاحين، والمكلفين بتوزيع الأغذية، حتى لا يتوفر أمامهم مجال — بسبب منفعة ما — لإلحاق الأذى، أو لإنزال أي ضرر بجمهور الجيش المذكور، لكن إذا ما تجرأ واحد من أولئك القباطنة، أو الملاحين، أو المسؤولين عن توزيع الأطعمة، وأقدم على اختلاس أو احتكار شيء من الأطعمة أو الأعطيات، فليعاقب بشدة، حتى يكون عبرة لغيره، لأن هؤلاء يتقاضون أجوراً عالية.

ويتلاشى بهذه الوسيلة شر الذين يختلسون أو يغشون، أو يطمعون بما هو لغيرهم، ويتم ضمان حق الضعفاء، وبذلك يبقى الجيش بدون أية مشاكل طيلة المدة التي تقررها قداستكم، هذا وينبغي أن لا تكون أعطيات رجال ذلك الجيش، والمبالغ التي تسلم إلى الموزعين، أدنى مما يتقاضاه الذين يتعاقدون لقاء أجر مع سفن أهل البندقية، حسبما أوردنا في الفصل العاشر من هذا القسم، وفضلاً عما تقدم إنه ضروري ومفيد تخصيص أول بيت يقيمه الجيش على الأرض، ليكون مشفى، أي أن يعد لاستقبال المرضى، حيث يقدم لهم كل ما يلزم لخلاص أرواحهم، ولشفاء أجسادهم.

وبالنسبة للنساء اللائي سوف يكن مع الجيش بحكم ارتباطهن بعقود زواج مع رجالهن. فإنهن يأخذن رواتب أطعمة مثل الرجال، وكل من يحدث ويموت زوجها، يغدو وضعها القانوني وضع المترملات، وعليها أن تحافظ على العفة، وتستمر في أخذ راتبها من الطعام، ولا يجوز مطلقاً أن يقطع عنها الطعام والزاد.

وإذا حدث وانهارت قوى واحد من عناصر الجيش، بسبب مرض أو غير ذلك، فيتوجب إبقاء أجره كما هو حسب العطاء الذي كان يتقاضاه وهو معافى، مع الانتباه دوماً لعدم ارتكاب أي غش أو خديعة، لأن رجالاً كثيرين يتهربون من المخاطر، ويتجنبون الأعمال الشاقة، لذلك ينبغي التنبه لهذا حتى يسير كل شيء بشكل منطقي حسب ما يرام .

وبالنسبة إلى الذين فقدوا حياة الجسد، وعند أحدهم زوجة وأولاد، فإن كل متطلبات الحياة، وكل ما كان يقدم له أثناء خدمته، فيبقى ساري المفعول ويقدمه المكلفون بالتوزيع لتلك الزوجة وللأولاد حتى يتمكنوا من العيش، وذلك إلى أن يصل الأولاد إلى سن الرشد.

لكن في حال وفاة الأم، على المسؤولين عن تنظيم الجيش قبول

الأولاد ووضعهم في مكان يمكنهم فيه تلقي التربية الصالحة والتعليم والتدريب على الأخلاق القويمة، وذلك حسبما يقتضي النظام الطبيعي، أي إلى أن يصل الصغار إلى سن الفتوة، ويجتازوا سن المراهقة، وإلى أن يستحقوا بعلمهم وفضيلتهم وأعمالهم تدبر شؤون حياتهم بالشكل المرضي، وطبعاً يستمرون خلال ذلك كله بتسلم النفقات والمصاريف حسبما ورد أعلاه.

وهذا كله يجعلني أتكل على الرب، الذي بيده الخلاص الحقيقي للذين يؤمنون به ويتكلون عليه، وهو بحلمه، سيتكرم — بالنظر إلى فضائلكم — فينير قداستكم بنور الحقيقة يوماً فيوماً، من الآن وإلى اليوم الذي سوف تتحقق فيه أمور الأرض المقدسة بنجاح وغبطة.

الفصل السابع عشر: حول المناطق والأماكن التي يمكن أن يتوفر بها ملاحون مهرة للملاحة في المياه العذبة، مثلما في البحار.

لا شك أيها الأب الأقدس أن يسأل بعضهم، أو يتمنون السؤال: من أين يمكن العثور على مثل هذا العدد الكبير من البحارة للملاحة في المياه العذبة وكذلك في المياه المالحة، وأن يكونوا بالوقت نفسه صالحين لحمل السلاح، وجاهزين للقتال ببسالة على الأرض وعلى وجه الماء؟ وعلى هذا السؤال يمكن أن نجيب بإيجاز:

ليس مهماً من أي مكان أو من أية جهة قدم الذين يريدون الالتحاق بالجيش الذي تولت قداستكم حشده، المهم أن يكونوا صالحين، لديهم أهلية الملاحة فوق مياه البحار، وأن يكونوا قد جاءوا من مناطق مسيحية، وتمّ التعاقد معهم على أجر، ولقيادة السفن والاتجاه بها إلى حيث يناسب سوف نجد أعداداً وافرة من الرجال القادرين على الملاحة في البحار، أي في المياه المالحة.

وفيما يتعلق بالملاحين الذين برعوا بالملاحة في المياه العذبة، فيطيب لي

أن أعرض على قداستكم وأن أبين بتواضع: إنه من الممكن التجول فوق سطح المياه العذبة والمالحة بواسطة المراكب من البحر الأدرياتيكي، وخلال مناطق كثيرة من فاروجولي ومن ماركيا تروزينيا - Marchia Teruisina ومن مناطق كثيرة من لومبارديا، بل منها جميعاً تقريباً، ومن روماندیولا Romandiola ،ومن جهة أخرى لتتلطف قداستكم وتعيد إلى ذاكرتها أنه يوجد في المناطق والأماكن المذكورة، وفي أحوازها بحيرات كبيرة وصغيرة عديدة، نخص بالذكر منها: بحيرة بيناكوس Bi-nacus ، التي ينحدر منها نهر مانزوم Manzum ، ومن هذا النهر تتكون بحيرة مانتوا Mantuae ، والبحيرة المدعوة بحيرة ليزوس Liseus ، وهي في مقاطعة أسقف بركسيا Brixia ، ثم بحيرة مرغوتي Mergoty ، أو بحيرة ماريودكتوس Mariodictus ، بسبب اتساع حجمها، وبحيرة كومي Comi وبحيرة لوغام Logam ، وهناك أيضاً فيما وراء الألب بحيرة لوسيرا Lucera ، وبحيرة كوستانتيا Costantiae ، التي بسبب اتساعها سماها المحيطون بها البحر الألماني، وتوجد أيضاً في برغنديا بحيرة لوزان، وهناك أيضاً بحيرات أخرى كبيرة وصغيرة يعيش على ضفافها أناس هم بحارة صالحون، ورجال حرب شجعان، بواسل في القتال، والبحارة الذين يسكنون في هذه المناطق، أعدادهم كبيرة جداً، ومن المؤكد أنه يتوفر بينهم العدد المرغوب لا بل أكثر من المرغوب، ممن معدّ للملاحة في المياه العذبة وفي المياه المالحة، وهم أيضاً مدربون على السلاح، ووجدانهم المسلكي جيد، ومع توفر الأعدادا المطلوبة في المناطق التي ذكرنا أنها تكثر فيها البحيرات، هناك مناطق مسيحية أخرى توجد بها أنهار ومستنقعات، وبحيرات كبيرة وصغيرة، ولا سيما في جهات الشمال حيث هناك أمم متعددة متنوعة، رجالها يتقنون الملاحة في المياه العذبة، من الممكن لقداستكم توجيههم إلى مصر، ليحققوا بعون يسوع المسيح ذلك المشروع الذي تتطلع إليه المسيحية جمعاء.

الفصل الثامن عشر: حول الملاحين القاطنين في الشطر الآخر من ألمانيا، وهم من حيث المبدأ صالحون لإعطاء إرشاداتهم، ومفيدون في الاسهام في إنجاح الحملة.

مع أنني سمحت لنفسي من قبل أن أذكر لقداستكم أشياء كثيرة عن الرجال الذين يصلحون لحمل السلاح، والذين هم شجعان ولديهم خبرة في الملاحة في المياه العذبة والمياه المالحة، تراني الآن أقدم على سبيل التذكرة بعض الاضافات لعلها تكون ذات فائدة ومنفعة للمشروع، أو أنها فاتتني ولم أذكرها فيما تقدم أعلاه، والذي أريد استدراكه وقوله هو: إنه يوجد في أقاليم ألمانيا أمم متعددة تسكن هناك، قد تكون نافعة جداً، لا بل ضرورية لتدعيم مشروع العبور إلى مصر، وأخص بالذكر سكان ترمارتي Tremarty، الذين يسكنون في الأطراف البحرية من أسقفية برمان Bremen ، ومثل هؤلاء الفريزيون الذين يسكنون الناحية السفلى من وستفاليا قرب البحر، وهناك أيضاً شعوب في مناطق دولاندا Dulanda وسيلاندا Sylanda ، يسكنون في الناحية السفلى من جهة البحر في إمارة غيلارا Gellera وغلوا Gleuae حيث من المفترض أن يكون هؤلاء القوم صالحين للمشروع ومفيدين كونهم لديهم مساكن في الجزر وعلى شواطىء البحر، وكذلك منهم من يقطن على ضفاف أنهار كبيرة، تمر عبر أقاليمهم وأراضيهم، ولذلك يفترض بهم إتقان الملاحة في المياه المالحة والعذبة على السواء، وهكذا نجد عندهم النصائح السديدة والعون الأفضل، وأيضاً هناك غيرهم في هولساتيا Holsatia ، وسكلويا Sclaiua ، إلى حيث ذهبت شخصياً، ومازال هناك مناطق كثيرة شهيرة، إليها يتوافد الكثير من الناس،حيث يبنون مساكن ممتازة على ضفاف الأنهر، وشواطىء البحيرات مثل: أمبورغ Amburg ولوبيك Lubek ، وفيزمار Visimar ، وروستوك Rostoc ، واكسوندس Xundis وغوسنبال Guspinal ،

وسكتن Sectin، ومن الممكن أخذ أعـداد كبيرة من الناس الجديرين من هناك، وفي الحقيقـة ليس من هناك فقط، لابل من داشيـا، وسـويتيـا Suetia، ونورويا Norueia، حيث هناك الكثير من المسـاكن المقـامـة على شاطىء البحر، أو في الجزر، وفيها أعداد كبيرة من البحارة الأشداء البـواسل، ولايسـاورني شك أنهم جميعـاً يصلحـون لمشروعنا العظيم، وفضـلاً عن هذا كله هناك أيضـاً في تلك المناطق أقـاليم وبقـاع أخـرى كثيرة لم يتسع المجال هنا لذكرها بالتفصيل.

لذلك أغبط قـداستكم وأنصحكم، بكل مـا أمتلك من الاحترام، أن يجري التعـاقـد مع بعض هؤلاء القـوم، لكـن ليس معهم فقط وإنما مع غيرهم من أمثـالهم من مختلف المنـاطق المسيحيـة، أي من حيث يتـوفـر وجـودهم بعـدد وافر، ويـرسلون بعد التعـاقـد للعمل في سبيل إنجـاز مشروع مصر مع ذلك الجيش، ويسهمـون بتقـديم النصـائح الطيبـة والصائبة، ولدي معلومات أكيـدة تفيد بوجود أعداد كبيرة من الملاحين الكاثوليك يسكنون على الشـواطىء من جهـة البحـر المحيط ومن جهـة البحـر المتـوسط، ذلك أنني عندمـا كنت أكتب هذا الفصل، وصل عبر البحر من البندقيـة إلى ميناء كلوزا Clusa في فلاندرز غـلايين، وقد عرفت منها عبر مصادر موثقة، كما أنني شاهدت بأم نفسي أن شواطىء ألمانيـا حيث يقع الميناء المذكـور شبيهـة جـداً بشـواطئنا في البندقيـة، ووجدت أن سكان تلك الأرض يمكن عدهم أشـداء جداً وشجعاناً في استخدام السـلاح، وأكثرهم من البحـارة، والباقون فـلاحون ملتـزمون بفلاحة الأرض وزراعتها، والبحـارة مهرة ومؤهلون للعمل، ومن جهة أخـرى أحـوالهم المادية جيـدة، وهذا مستسحن، ويمكنهم أن يتجـاوبوا بدافع من التقـوى كبير لدعم مشروع الأرض المقدسـة، وأعتقد أنهم إذا اتفقوا مع أهالي البندقية على احتـلال بلاد مصر، فإن ذلك سوف يكون رائعاً، مثلما حـدث في حملة صليبية تقدمت، عندما جرى الاستيلاء على

القسطنطينية على يد كونت فلاندرز، وغيره من بارونات فرنسا وبيرغندي، مع عدد من النبلاء، والمركيز دي مونتفرات، وكان ذلك بمعونة البنادقة، وقد عقدت وقتذاك أواصر صداقة متينة بين كونت فلاندرز والبارونات والنبلاء من جهة وأهل البندقية من جهة أخرى، ولم يكن ذلك بلا فائدة، لأنه بعد الاستيلاء على القسطنطينية، وبعد وفاة ذلك الكونت، وعلى الرغم من توالي الحكام من بعده فإنه لما انتقل حكم القسطنطينية أخيراً إلى السيد بلدوين، الذي كان مايزال يافعاً، عقدت معاهدة جرى توثيقها بالأيمان، بموجبها انتقلت السلطة إليه من ابنة الامبراطور إكزاغوراروس Exagoravus، وكان هذا الامبراطور في ذلك الحين رجلاً غنياً جداً وقوياً، فقد خطبت ابنته الى ذلك الشاب، وبهذه الخطبة عظم شأن بلدوين وترسخت سلطته وتمتنت، وكان هذا الامبراطور قد قطع عهداً لبلدوين أنه سيستعيد له كل أراضي بيزنطة على حسابه وبوساطة رجاله، وهي الأراضي التي كان أسلافه قد خسروها في المناطق الغربية، ووقتها خشي البارونات من أن يقوم بلدوين،بعد أن يرسخ سلطانه فينقلب عليهم بسبب الإهانة الكبرى التي اقترفوها بحق سلفه، فتآمروا ضده، ونصحوه بأن يرفض الزواج من ابنة الامبراطور، وأن يتزوج من ابنة جين ملك القدس وقتذاك، ولم يتنبه بلدوين إلى هذه الخديعة الماكرة، فتعرف إلى تلك الابنة، وأخذ بتلك النصيحة دون أن يستشير أحداً، وبعد ذلك توجه البارونات وأجلسوه على عرش القسطنطينية، فانزعج الامبراطور إكزا غوراروس كثيرا مما حدث وغضب، فزوج ابنته إلى ملك الروم الذين هم في جهة الشرق، وبناء عليه تم التحالف بين الاثنين ضد بلدوين وضد البنادقة براً وبحراً، وتقدمت جيوشها ضد بلدوين وضد أهل البندقية، واستولت هذه الجيوش على مدنهم وعلى جميع حصونهم تقريباً، ولم يبق لهم سوى حصون القسطنطينية، ونكلوا به بمختلف الطرق لمدة طويلة بشتى السبل، حتى قام أعيان القسطنطينية ضده وأرغموه على تسليم

ابنه فيليب ورهنه مقابل مبلغ محدد من المال، ولكي يحفظ بضمانة أكبر أرسلوه فيما بعد إلى البندقية، واضطر بلدوين إلى تجريد بعض قصوره التي كانت مغطاة بالرصاص منذ زمن بعيد، كما أنه أرغم على القيام بأعمال غيرها لاتتناسب مع كرامته كامبراطور، وذلك في سبيل أن يعيش.

أما أهل البندقية، فإنهم طيلة الوقت الذي رزح فيه الامبراطور بلدوين تحت نير الفقر، وتعرض فيه أيضاً لهجمات الاعداء فقد دافعوا عن القسطنطينية على نفقتهم، وكان ذلك خدمة لمصالحهم من جهة، ومن جهة ثانية لصداقته، واستمر ذلك حتى خسروا تلك المدينة، وعمل أهل البندقية بعد سقوط القسطنطينية. بإخلاص لمدة ثلاثين سنة وأكثر، في سبيل استرجاعها، واستنجدوا لتحقيق ذلك بجميع ملوك بلدان الغرب وحكامها تقريباً، وخاصة بألفونسو ملك قشتالة، لكنهم لم يحصلوا منه على أي تنفيذ، وتحالفوا أخيراً من أجل هذا الغرض وتعاقدوا مع شارل الأول ملك صقلية، الذي لم يتمكن من تلبية طلبهم بسبب خسارته لصقلية، ثم كان أن تحالفوا مع شارل دي فاليوس، حيث كان مرشحاً لتولي الامبراطورية بعد موت زوجته، إنما هنا كانت المحصلة أيضاً ضئيلة أو شبه منعدمة، ومع هذا استمر أهل البندقية لوحدهم أحيانا وأحيانا أخرى مع حلفائهم يحاولون استرداد الامبراطورية من البيزنطيين ويشنون ضدهم الحملات المتوالية.

ويتضح من جميع ما تقدم مدى أواصر الحب الوثيق ما بين التيوتون (الالمان) والفرنجة من جانب وبين أهل البندقية من جانب آخر، فهم شاركوا من قبل في تلك الحملة الصليبية، ولذلك من الموائم قدوم أهل المناطق الالمانية المشار إليها إلى البندقية، ومن هناك يعبروا مع البنادقة، وإذا أرادت شعوب أخرى أن تصنع صنيعاً طيباً، فما عليها سوى التفاهم مع الألمان وأهل البندقية، ومن ثم الانتقال بوساطة غلايين أهل

البندقية، وسيكون هذا مفيداً لرجال هذه الشعوب، علماً بأنهم يمكنهم أن يتركوا نساءهم وأولادهم في البندقية، لكن أجد من الضروري أن أبين إحدى سمات ذلك الشعب الالماني حتى يمكن التعامل معه بسلامة، فالالمان شديدوا التضامن فيما بينهم، لأنهم ولدوا في مناطق باردة، لهذا يتوجب أخذ الحيطة واعتماد اليقظة، أنهم إذا ما انتقلوا إلى منطقة حارة، أن يقوموا بسبب عظيم تقواهم، وبسبب إرادتهم في أن يرتحلوا ويبحروا على شكل جماعات كبيرة، فيثور فيهم حب السيطرة والطمع، وقد ينجم عن هذا نتائج غير محمودة وتكون هناك بلبلة كبيرة، لاسيما أن أهل البندقية يريدون أن يكونوا معهم شركاء لا أسياد، ويستطيع القائد العام— بنعمة من الرب— لكونه مستقياً وحكيماً أن يتخذ ما يلزم من تدابير، وأن يوجد العلاج المناسب لهذه المسألة.

وكنت لا أريد في الوقت الحاضر ايضاح حكاية الإهانة التي حصلت، ولاسببها، إذ لا دخل لها بهذا الموضوع، لكن عددت ضرب هذا المثل يمكن أن يفيد في المستقبل، لذلك حكيته على حاشية هذا الكتاب وهامشه:

كان في امبراطورية القسطنطينية بارون كبير وشريف من سلالة أمراء بيرغندي، وكان قد خطب سيدة شريفة من أسرة كبيرة، وكانت على قسط كبير من الجمال، وقد وعدها بالاقتران بها، وكان امبراطور القسطنطينية، المدعو هنري، وهو أخ كبير لبلدوين، لما رأى جمالها، ولأنها كانت جذابة في نظر الجميع، قد اتفق مع أمها على تزويجه إياها، وفضلت الأم — بدافع من عاطفة الأمومة — أن يكون صهرها امبراطوراً على أن يكون باروناً، وهكذا نفذت رغبة الامبراطور، وقد أثار هذا حفيظة البارون، فأقدم ليلاً مع أقربائه وأصدقائه على اقتحام القصر عنوة، وقبض على الامبراطور الصهر وأغرقه في البحر، وترك بذلك عرش الامبراطور ية شاغراً، وهكذا أصبحت نار صغيرة ناراً

عظيمة، ولهذا عندما مات هنري لم يجر أي انتقام لهذا العمل الرهيب، وورث بلدوين عرش الامبراطورية، ولم ينل البارونات الذين شاركوا في العملية العقاب، مع أنهم استحقوا ذلك، وجرت فيما بعد مفاوضات، سوف نأتي على ذكرها في سياق هذا الكتاب.

الفصل التاسع عشر: حول التبشير من أجل حملة صليبية عامة، وأنواع العساكر اللازمين لاحتلال مصر.

بعد أن يكون الجيش الممول من قبل الكنيسة المقدسة، قد احتل أرضاً على شواطىء مصر، وبعد أن يكون شيد بعض المساكن، واتبع المنهاج والأسلوب الذي ذكرناه من قبل، يحتاج هذا الجيش إلى الدفاع عن وجوده، وأن يؤمن لنفسه المواد الغذائية والسفن وكل ما سوى ذلك مما يحتاجه المسلحون لأنفسهم، ولباقي الحشود التي ستلحق بهم لتمدهم بالدعم، وفي هذه الحقبة من الزمن يمكن لقداستكم الاعلان في أثناء احتفال رسمي كبير عن الدعوة إلى حملة صليبية، وأن ينادى بهذه الدعوة في جميع أنحاء العالم بين أتباع المسيح كافة وفي هذه الأثناء سيكون — إذا وافقت قداستكم — مفيداً أن تترافق الدعوة لحمل الصليب بأساليب صالحة وبطرائق عملية للاسراع بجباية الأموال دونما إبطاء، سواء من الأمراء أو من البارونات، أو من جماعات المدن، وأن يفرض الدفع أيضاً على الجميع بلا استثناء، وخاصة على الذين استثمروا أو ما زالوا يستثمرون أوقاف الكنيسة، سواء أكانوا من رجال الدين أو من العلمانيين، وذلك بهدف إنجاز هذا المشروع المقدس.

وسبب هذا واضح، فإذا كان على الصليبيين العبور — كما قلنا — إلى شاطىء مصر، فإن الذي قد صرف على العبور المتقدم لن يكون كافياً، ويلزم لهذا العبور عدداً كبيراً من أرباب السفن وملاحيها، يكونون قادرين على قيادة السفن والابحار بها،بعضهم في المياه العذبة، وبعضهم الآخر في المياه المالحة، ويحتاج هذا الأسطول أيضاً إلى عمال

تجذيف بعــدد كبير، ذلك أن عمل التجـذيف مهمــة شـاقــة، يتحمل المجذفون من جرائها متاعب لا تطاق، ولذلك لا يؤخذ لمثل هذا العمل الذي لا يطاق، إلاّ من كان منتخباً ومختاراً، شريطة أن يؤمن له بالتمام ما يرضيه من أجرة.

ويفترض توفر رماة قسي عقارة صـالحون وبعدد كبير جداً، علماً بأن الفوارق بين القسي العقـارة والرماة العاديين كبير جـداً، فإن رماة القسي العقـارة يشـدون القوس بقـوة، ويرمـون نشـابهم إلى مسافـات بعيـدة، ويسـددون ضربات شـــديدة، تنقض كـالعـاصفــة ويصيبـون أهدافهم بجـراحة أو يقتلونها، ونادراً مـا تذهب رمـاياتهم عبثاً، وتلقي رشقـاتهم الرعب والهلع في قلوب أعـدائهم، وعلى عكسهم الرمـاة الخاملون وغير المدربين، تراهم غير قـادرين على شـد أوتار قسيهم القـوية، ويضيعـون السهـام سـدى، وإذا قـدر لهم الرمـاية تأتي رماياتهم ضعيفـة، مما يجعل خصومهم يزدادون جرأة، ويتشجعـون وينقضون على مثل هؤلاء بإقدام كبير، ومن الممكن أن نقـول القول نفســه عن حاملي الرمـاح والحراب، وكما تقـدم وقلنا يحتاج ذلك الجيـش إلى عدد كبير ممن يصنعـون القسي، ومن المعلمين المهنيين، ومثل هذه العناصر لايمكن الحصـول عليهـا من دون بذل للمال، كـونهم أناس فقراء، وينبغي التنبـه إلى عدم التعاقـد مع مثل هؤلاء، حتى وإن طلبوا ذلك، إذا ما انخـرطوا في جيش الصليبيين بسبب الفقر والفاقة، وإذا جـرى التعاقد مع هؤلاء فليكونوا الأقلية بين من يحتاجهم الجيش، هذا وهنـاك حاجة مـاسة للتعاقـد مع جماعات من الذين يعرفون جيداً أساليب حفر الأرض، أما بشأن الفرسان فأنا أعتقد — بعد التمعن — أن العدد الأكبر منهم سيكون من النبلاء والأشراف الجديرين بحمل رايـة الصليب، وبالالتحـاق بالجيش المذكــور، وبدعم مهمتـه، ومنطقيــاً لا يمكن بالطبع إصـدار الأوامــر إلى هؤلاء من قبل المسؤولين عن الجيش بـالطريقة نفسها فيما لو كـانوا يتقاضـون أجورهم

من أموال الكنيسة، ولا ينطبق هذا على هؤلاء النبلاء فقط، بل على من هم من الطبقة الشعبية أيضاً، بما أنهم تطوعوا بمطلق إرادتهم للحاق براية الصليب، فهؤلاء يتمتعون بالحرية في ذهابهم وإيابهم، وأقول هنا بكل احترام، مذكراً قداستكم وتقواكم أن من أراد أن يحمل الصليب ويبحر على نفقته الخاصة، ثم أبحر مع جيش الكنيسة، عليه برأيي أن يعطي إلى الكنيسة المبلغ الذي كان عليه أن ينفقه، أو أن يعطيه لمن جرى تكليفه من قبل الكنيسة لجمع ما يلزم من مال للأجور وللأعطيات، وأن يمنح مقابل ذلك صك غفران حسبما ترتئي قداستكم منحه في مثل هذه الظروف.

وفي العادة يصغي العساكر إلى الأوامر الصادرة إليهم من القائد ويطيعونها، أكثر مما لوكانوا متطوعين صليبيين، وإذا كان القائد صاحب فطنة — وهذا هو المطلوب — وإذا كان حسن الارادة، وكانت العناصر المعهود إليه بقيادتها مطيعة، فسيكون ضرباً من المستحيل أن تخفق نيته وتحبط مقاصده، وإذا حدث أن من معه أو بعضاً منهم لم يؤدوا الطاعة له بسهولة، وقتها تتحول عدم الطاعة إلى كارثة كبيرة، ينجم عنها خطر جسيم، فلتتدبر عنايتكم هذا الأمر حسبما ترونه مناسباً.

الفصل العشرون: حول عدد الرجال اللازمين لكل غليون، لتأمين الحماية الموائمة له، ووظائف هؤلاء الرجال وأعمالهم، والمرتبات، والوقت، ونفقات الأطعمة اللازمة لثلاثمائة فارس، وأجورهم.

يلزم لتجهيز مناسب لغليون واحد مائتين وخمسين عنصراً، يتقاضون الأعطيات، ويكونوا موزعين من أجل تنفيذ هذه المهمة كما سأذكر:

أولاً : يحتاج كل غليون إلى قبطان واحد، راتبه الشهري المعقول خمسة عشر سولدي كبار.

ثانيـاً: يحتـاج إلى ثمانيـة مـلاحين الراتـب الشهـري لكل منهم سبعـة سولديات كبار أي ما يساوي ستين كروسي Grossi كبار(قطع فضية كبار).

ثالثاً : من المناسب تماماً أن يكون في كل غليون نجـار واحد، وعامل طلاء ومعجنة، لكن لحسن سير الأوضـاع في الغـلايين يفضل أن يكون في كل منها نجارين وعـاملي طلاء ومعجنة، ويكون راتب هؤلاء شهرياً ثلاثين كروسي كبار من عملة البندقية.

رابعـاً: من المستحسن أن يكون في كـل غليـون اثنان منْ الكتــاب، يتوليان توزيع الطعـام على جميع من في الغليون وذلك في الزمان والمكان المحـددان، واثنان غيرهما أيضاً من الكتـاب يتـوليان حـراسة الأسلحـة وتوزيعهـا على كل عنصر من العناصر، ويكون الراتب الشهــري لكل واحد من هؤلاء سبعـة سولدي ونصف السولدي كبار، أي مـا مجموعه ثلاثون ســولدي كبــار شهـريـاً، ولا يجوز لجميع هؤلاء، أي القبطان، والبحـارة، والكتـاب والنجـارون وعمال الطلاء والمعجنـة، المطالبـة بأية علاوة غير أجـورهم، لا شخصياً ولا عن طريق غيرهـم، أو بفرض أية أتاوة مهما كانت الطرائق أو المسـوغات، والمفترض تطبيق شرط الاكتفاء بالراتب، وذلك تحت طائلة الاقتصاص من أموالهم ومنهم شخصياً.

خـامسـاً : من الموائم أن يكون في كل غليـون طبـاخ واحـد، براتب شهـري مقـداره أربعـة سـولديات كبـار، ليعـد الطعـام إلى كل من على الغليون الذي يكون فيه.

ســادسـاً: ينبغي أن يكون على كل غليــون خمسـون من رمـاة القسي العقـارة، براتب شهـري للواحـد منهم خمسـة سـولديات كبـار، أي مـا مجمـوعه شهـرياً مائتين وخمسين سـولدي كبار، وأن يكون هناك أربعـة ينفخون بالأبواق والنفر والمزامير، ويحسنون الضرب على النقارة والطبل

والكوسات، وأن يكـون هناك أيضاً رجل آخر يتكفل بضبـط المجاذيف وإصلاحها.

سـابعـاً: من المستحسن أن يكون هناك أيضـاً عشرة مجذفين سريعين عند مقدمة كل غليون، براتب شهـري مقداره ستة سولديات كبار لكل واحد منهم، أي ما مجوعه ستين سولدي كبار.

ثامناً: من المناسب أن يكون هنـاك عشرين مجذفـاً سريعـاً للتجـذيف وهم جـالسون على المقـاعـد التي في مقدمـة الغليـون، إذا توفر المجـال هناك، ولكل واحـد منهم راتب شهري مقـداره خمسة سولديـات كبار، أي ما مجموعه مائة سولدي كبار.

تاسعـاً: أن يكون هناك ثلاثين مجذفـاً من الأشـداء أيضـاً، لكل منهم راتب شهري مقداره خمسة سولديات كبار، أي ما مجموعه مائة وخمسين سولدي كبار من عملة البندقية.

عاشراً: أن يكون هناك أيضاً مائة وعشرين مجذفاً، براتب شهري لكل واحد منهم قـدره أربعة سولديات كبـار أي ما مجموعـه أربعمائة وثمانين سـولدي كبـار، وهكذا يغـدو الجميع على العمـوم، ملزمـون جميعـاً بالتجذيف عندما تصدر الأوامر إليهم بذلك، ومن المناسب تجهيز واحد من بين الغلايين بنظام التجذيف الثلاثي.

حادي عشر: من المفيـد اكتراء رجلين مقـابل راتب شهـري مقـداره عشرة سولديات كبار ونصف السولـدي، تكون مهمتها القيام بتنفيذ أية مهمة يرتئيهـا القائـد أو القبطان في الغليون، ومـا يراه مفيداً أو ضرورياً لصـالح الجيـش، وهكذا يكون مجمـوع الرجـال اللازمين على متن كل غليـون مائتين وخمسين رجـلاً، وكما قلنا من قبل تبلغ رواتبهم الشهـرية سبعين ليبرة كبـار من عملة البندقيـة، ويكون بذلك مجمـوع الرواتب لاثني عشر شهراً لكل غليون حسبمايلي:

يتقاضى القبطان تسع ليبرات كبار، ويلزم للملاحين الثمانية ست وثلاثين ليبرة، وللكتاب الأربعة ثمان عشرة ليبرة، وللنجارين الاثنين تسع ليبرات، ولعاملي الطلاء والمعجونة تسع ليبرات، وللطباخ ثمانية وأربعين سولدي كبار، وللرماة الخمسين مائة وخمسين ليبرة، وللعشرة المجذفين السريعين ست وثلاثين ليبرة، وللعشرين من المجذفين السريعين ستين ليبرة كبار، وللثلاثين من المجذفين العاملين في المؤخرة تسعين ليبرة، وللمجذفين المائة والعشرين مائتين وثمان وثمانين ليبرة، وأيضاً للرجلين الموضوعين تحت تصرف القائد أو القبطان اثنتي عشرة ليبرة، وأحد عشر سولدي كبار.

وعلى هذا يكون المجموع العام للرواتب لمن على متن الغليون المذكور سبعمائة وعشرين ليبرة كبار لمدة اثني عشر شهراً، ما عدا نفقات الأكل، ويعادل هذا سبعة آلاف ومائتين من الفلورينات، إذا حسبنا أن كل فلورين يساوي سولديين كبار.

راتب طواقم عشرة غلايين في الشهر

١٠ — قبطان أجرهم في الشهر الواحد	سبع ليبرات كبار ونصف الليبرة
٨٠ — ملاح أجرهم في الشهر الواحد	٣٠ ليبرة كبار
٤٠ — كاتب أجرهم في الشهر الواحد	١٥ ليبرة كبار
٢٠ — نجار أجرهم في الشهر الواحد	سبع ليبرات كبار ونصف الليبرة
٢٠ — عامل طلاء ومعجونة أجرهم في الشهر الواحد	سبع ليبرات كبار ونصف الليبرة
١٠ — طباخين أجرهم في الشهر الواحد	٤٠ سولدي كبار
٥٠٠ — رماة أجرهم في الشهر الواحد	١٢٥ ليبرة كبار
١٠٠ — مجذف سريع أجرهم في الشهر الواحد	٣٠ ليبرة كبار

٢٠٠ — مجذف سريع أجرهم في الشهر الواحد	٥٠ ليبرة كبار
٣٠٠ — مجذف في المؤخرة أجرهم في الشهر الواحد	٧٥ ليبرة كبار
١٢٠٠ — مجذفون أجرهم في الشهر الواحد	٢٤٠ ليبرة كبار
٢٠ — رجل تحت تصرف القائد أجرهم في الشهر الواحد	عشر ليبرات كبار ونصف الليبرة

مجموع النفقات التي ذكرت أعلاه يساوي ستمائة ليبرة، ما عدا الأكل، ويساوي هذا ستة آلاف من الفلورينات الذهب.

راتب طواقم عشرة غلايين في السنة الواحدة

يتبين مما ورد أعلاه أن جميع رجال الغلايين العشرة يلزمهم رواتب لمدة اثني عشر شهراً مبلغ قدره الإجمالي سبعة آلاف ومائتي ليبرة كبيرة، أي ما يعادل اثنان وسبعين ألف فلورين ذهب.

راتب طواقم ستين غليوناً في الشهر الواحد

سيكون الراتب المعطى إلى ستين قبطاناً	٦٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى أربعمائة وثمانين ملاحاً	١٨٠— ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى مائتين وأربعين كاتباً	٩٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى مائتين وعشرين نجاراً	٩٠ — ليبرة
وإلى مائتين وعشرين عامل طلاء ومعجونة	
سيكون الراتب المعطى إلى ستين طباخاً	١٢ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى ثلاثة آلاف من الرماة	٧٥٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى المجذفين السريعين الأوائل	١٨٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى المجذفين السريعين الباقين	٣٠٠ — ليبرة

سيكون الراتب المعطى إلى ألف وثمانمائة مجذف في المؤخرة	٤٥٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى سبعة آلاف ومائتي مجذف	١٤٥ — ليبرة كبار

وتعطى هذه المبالغ في شهر واحد إلى جميع المذكورين حسبما تقدم أعلاه، ويلزم إلى المائة والعشرين الذين تحت تصرف القائد ثلاث وستون ليبرة، أي عشرة سولدي كبار ونصف سولدي، كل شهر للواحد، وعلى كل واحد منهم مساعدة الآخر، فيكون العدد الاجمالي للغلايين الستين خمسة عشر ألف مقاتل، يلزمهم شهرياً ثلاثة آلاف وستمائة ليبرة كبار أي ما يعادل ستة وثلاثين ألف فلورين ذهب، بمعادلة سولديان كبار لكل فلورين.

راتب طواقم الغلايين الستين سنوياً

ويتضح لنا كذلك أن راتب اثني عشر شهراً لطواقم ستين غليوناً سيكون مجموعه ثلاث وأربعون ألفاً ومائتي ليبرة كبار، أي ما يعادل أربعمائة ألف واثنان وثلاثين ألف فلورين، كما بينا أعلاه، أي أن التكلفة اليومية مائة وعشرين ليبرة كبار أي ألف ومائتي فلورين ذهب.

راتب ثلاثمائة فارس وخدمهم

هناك حاجة إلى ثلاثمائة فارس لكل واحد منهم خادمان مدربان على السلاح براتب مقداره أربعمائة سولدي كبار لكل واحد، وتعادل الأربعمائة سولدي كبار مائتي فلورين ذهب، وذلك دون أن نحسب نفقات العلف للخيول — إلاّ إذا نفقت أثناء الجري أو في البحر — ويلزم للخيول عن اثني عشر شهراً ستة آلاف ليبرة كبار، أي ما يعادل ستين ألف فلورين، وعليه يكون مجموع ما يدفع للفرسان مع خدمهم خمسمائة ليبرة كبار، وهي تساوي خمسة آلاف فلورين ذهب.

ويتضح مما تقدم أن نفقات الفرسان في اليوم الواحد سوف تبلغ ١٦

ليبرة و٢١٣ سولدي و٤ ديناري كبار، وهي توازي ١٦٦ فلورين، و١٦ كروسي(قطعة فضية كبيرة)، وعليه يمكن القول إن كل فارس من الفرسان المتقدم ذكرهم سيتقاضى يومياً مع خادميه ٣١٣ كروسي من عملة البندقية، وبذلك تكون كلفة الخمسة عشر ألفاً من المقاتلين مع الفرسان الثلاثمائة وخدمهم ٤٨,٢٠٠ ليبرة كبار، أي ما يعادل ٤٨٢٠٠٠ فلورين، وكل فلورين يساوي ٢ — سولدي.

ويفيد كذلك كثيراً ذلك الجيش، أن يصطحب على سبيل الاحتياط عدداً من الأساقفة والكهنة العلمانيين، والرهبان الواعظين، والرهبان الدومنيكان، والرهبان الفرنسيسكان والرهبان الكرمليين، ورهبان غيرهم من بقية الطوائف، وكما ترتئي قداستكم، على أن يصل مجموع عدد هؤلاء إلى المائة، ويحصلون على طعامهم من الغلايين، ومما يقدمه لهم الشعب من هبات أو تبرعات، يحسب بمثابة راتب لهم، ويكون ما يقدم لهم من الطعام ستة عشر ألف وجبة تكلف ثمانمائة ليبرة كبار، أي ما يعادل ثمانية وخمسين ألف فلورين ذهب، ويكون هذا المبلغ هو إجمالي النفقة للسنة كلها، حيث يكلفون كلهم تسعة آلاف وستمائة ليبرة كبار، أي ستة وتسعين ألف فلورين ذهب، فيكون هذا مجموع راتب أولئك الناس لمدة اثني عشر شهراً فقط، لأن ذلك المجموع يكلف ٥٨,٨٠٠ ليبرة كبار، أي ما بين ٩٥ ألف و ٩٤ ألف فلورين ذهب.

وينبغي التنبه أيضاً إلى أن من الضروري أن يكون بين هذه المجموعة من يعرف ويلتزم بحفر الأرض، وليصير ممكناً اكتشاف الماهرين منهم، يعطى إلى هؤلاء علاوة على رواتبهم لكل واحد منهم ١٢ — كروسي شهرياً على الأقل، ويجب أن لا يقل عدد هؤلاء عن ألف حفار، يتقنون أعمال الحفر كما قلنا، ويكلف هؤلاء سنوياً ٦٠٠ ليبرة كبار، أي ٦٠٠٠ فلورين ذهب، وكذلك للأعلاف اللازمة للخيول، والبالغة أربعة جوالق من الشعير كل شهر، أي ما يعادل سالما واحدة وثلث من

عيارات أبوليا، أي ما مجموعه ١٨٠٠ سالما، تكلف حسب السعر المعقول ١٨٠٠ فلورين ذهب، أي أن الثمن لكل سالما فلورين واحد ذهب، وهي واصلة إلى مصر مسلمة على شاطئها، وهنالك القش الذي يحتاجه أولئك الرجال لنومهم ولخيولهم، وكذلك الحطب اللازم للجيش وللوقود، وذلك حسبما يقرر إرساله قائد الجيش، فإن قيمة ذلك تبلغ ٣٢٠٠ فلورين ذهب.

وهناك مسألة المؤن التي على القائد القيام بتخزينها احتياطياً، فهذه ستكلف ٢٠٠٠ فلورين ذهب سنوياً، وبعدما تولينا تبيان كل نفقة على حدة، سوف يكون الانفاق الإجمالي العام ٦٠٠,٠٠٠ فلورين ذهب، أي ما يعادل ٦٠,٠٠٠ ليبرة كبار، وذلك باستثناء عطاء القائد العام، فهذا يترك تقديره لقداستكم.

الفصل الحادي والعشرون: إيضاحات وتنبيهات، وأوامر، وإجراءات احتياطية متعلقة بذلك الجيش.

ونحن إن كنا قد ذكرنا في الفصل المتقدم أسطولاً مكوناً من ستين غليوناً، فهذا لايعني أن كل الرجال يجب أن يوضعوا داخل تلك الغلايين الستين، بل في داخل خمسين، إذا ما جرى اعتماد النمط الثلاثي للتجذيف، ومن بقي سواء من الرجالة أو من الفرسان، فينبغي عليه الانضمام إلى السفن العادية، التي أشرنا إليها في الفصل الثاني عشر، وإذا ما عمل بالرأي القائل، بأن يكون المجذفون أربعة أربعة على نسق واحد، على مقعد واحد، وهذا أسلوب قد امتحن — كما ذكرنا —ووجد ناجحاً، وينتج عن اعتماد هذا الأسلوب، لابل يلزم أن يوضع جميع الرجال المذكورين في أربعين غليون، ويجري تنظيم الأسطول العادي حسبما يناسب، أي أن تحمّل عشرين من السفن الكبار، ذوات الحجم الكبير، وتدبر شؤون ثلاثمائة رجلاً، وتحمل وتتدبر شؤون مائتين وخمسين رجلاً إلى مائتين وسبعين رجلاً في السفن الخمس الأصغر

بشكل معقـــول، ويكون لهذه السفـن، أي للصغيرة مـــائتين وعشرين مجذف، يجلسـون أربعـة أربعـة على نسـق واحـد، فـوق مقعـد واحـد، وينصرف الباقون إلى أعمال أخرى.

وقد يلاحظ أنه في الجزء المتقـدم لم نأت إلاّ على ذكر اثني عشر شهراً في السنة، وأغفلنا ذكـر الخمسـة أيـام وربع اليـوم الإضـافيـة فيما يتعلق بالأجر المالي والمعيشة، وسبب ذلك هو مايلي:

أولاً : حسبت أسعار نفقات المعيشة ليـس على أساس السعر المتداول فقط بل على أســاس السعـــر الأعلى، بحيث أن الأشهـــر الاثني عشر المذكورة، حسبما رتبناها على مدار السنة تكفي للسنة كلها، وتزيد بوفرة.

والسبب الثـاني هو أن القطاع الرسمي في البندقية يحسب الشهـر على أسـاس ثلاثين يوماً، أمـا في القطاعات غير الرسميـة، فإن الناس الذين يتـولون شحن السفن بالرجـال يذكـرون في العقـود بشكل صريح أنهم يحسبون جميع الأشهر على أساس أن الشهر ثلاثة وثلاثين يوماً، وإذا زاد في نهاية العـــام يومـــان أو ثلاثة، فإنهم لا يدفعـــون أجـــور تلك الأيام الزائدة،وهذا ما تصنعه كومـونة البندقية أيضاً، فضلاً عن هذا ينبغي ألا يغـرب عـن البـال، أن الذينن يتقـــاضـون أجـورهم مـن الكنيسـة الأم المقـدسة، يبرمـون عقودهم ليس حسب الأشهـر، بل حسب السنوات، وهنا إذا رأت قـداستكم أن بالإمكان حسـاب رواتب اثني عشر شهـراً حساب سنة، فليكن.

هذا ويبقى دومـاً من صـلاحيـات القـائـد صرف بعض الرجـال من الخدمـة، أو الاحتفـاظ بهم، حسبما يرى ذلك منـاسبـاً، وسبب ذلك هو — على سبيل المثـال — أن عنصراً مشـاغباً في الجيـش يعد مـذنبـاً مثل العنصر الخائن، فمشاغب واحد، قـد يثير البلبلة فجأة في أوساط الجيش كله، بدون حســاب، فعلى القـائـد المتحلي بـالحكمـة أن يأخـذ بأسبـاب

الحيطة الكبرى في هذا المجال.

وتجدر الاشارة إلى أنه بعدما يبحر الجيش من الغرب، ويأخذ طريقه، لا بد من تأمين المعـاشـات للأفـراد لمدة أشهـر عـديدة، حتى يمكن اجتـذابهم بسهـولة من بيـوتهم، وليتمكنوا من الإفـادة مما هو ضروري، وتأمين مـا هـو لازم لهم في الحاضر وفي المستقبل، وينبغـي أن تتمتع الأمـوال التي يتقـاضـونها بالحماية والحيطة المطلوبة لكـل من يتقـاضى الرواتب، ومفيـد إعطاء الرواتب في البـداية شهراً شهـراً إلى أن يتمكنوا من ترتيب أمورهم على شواطىء مصر، وبعد هذا لابأس بدفع الرواتب كل ثلاثة أشهر.

ويتوجب اعتماد التفتيش اليومي العام، على مدى أيام الشهر، ولاسيما في الليل حسبما جرت العادة، وفي أثناء هذا التفتيش ينبغي إنزال العقوبة بحق من تثبت بحقهم المخالفة.

وينبغي توزيع المائة والعشريـن رجلاً الموضوعين تحت تصرف القـائد العام، حسبمايلي، إذا ما وافق هو على ذلك.

١ — أدميرال(أمير ماء) بحري: إثنان.

٢ — مستشارون يستعين برأيهم: ستة.

٣ — مفتشون يراقبون الطعام والكتاب: أربعة.

٤ — مشرفان رئيسان مسؤولان مباشرة عن الأسلحة.

٥ — ثلاثة أطباء صحة، وثلاثة جرائحيون.

٦ — حرفيون من الدرجة الأولى، ومعلمون في النجارة.

٧ — حرفيون اختصاصهم قطع الأخشاب: أربعة.

٨ — حرفيون في الأقمشة وصنع الأشرعة: ثمانية.

٩ — حرفيون بالجلود، ينبغي معرفتهم بصناعة أغطية للرأس.

١٠ — حرفيون يتقنون صناعة المجاذيف، وأن يعرفوا أيضاً صناعة أقنية الرماح والحراب وغير ذلك من الأدوات اللازمة للجيش: خمسة عشر.

١١ — حجارون يحسنون نقب الحجارة، وحفر الأنفاق تحت الأرض، ووضع قواعد حجرية للآلات وغير ذلك مما يحتاجه ذلك الجيش: عشرة.

١٢ — صانعوا نشاب: ويتوجب اختيار هؤلاء من أمهر المعلمين أينما وجدوا بحدود : عشرة.

١٣ — موسيقيون ينفخون بالأبواق والنفر، ويقرعون على الطبول، ويضربون على النقارات ويحسنون استخدام سائر الآلات الموسيقية الناعمة مثل الرباب والقيثارة، والكمنجة الكبيرة، بقدر ما يرى أن في ذلك فائدة للجيش: عشرون.

ويجري توزيع العشرين المتبقين من المائة والعشرين إما على أعمال أخرى أو يجري تحويلهم إلى مساعدة هؤلاء المائة المذكورين أعلاه.

وبما أنه جرت الإشارة في الفصل المتقدم إلى توزيع حوالي ستة عشر ألف حصة، ينبغي التنبه إلى أنه مع اقتراب نهاية السنة، أو لدى مرورها، وبعدما يكون القوم قد نزلوا على شواطىء مصر، واستولوا على الأرض، وتمركزوا فيها، سيتدافع الناس إلى هناك من مختلف المناطق، وستكون أعدادهم كبيرة، يريدون السكنى قريباً من تلك النقاط، خاصة وأنهم لن يشكوا أنه ستقدم إليهم حصة من الطعام تؤمن معيشتهم، مع تدبر ما يلزمهم من خدمات، ولا شك أن هؤلاء سوف يفيدون، وستكون الحاجة كبيرة إليهم سواء للقيام بحراسة الأماكن الدفاعية، أو بتقديم الخدمات لرجال ذلك الجيش، أو القيام بما يلزم من أعمال

محتاجة ومفيدة، وبموجب ذلك سوف يتقاضى هؤلاء الناس جميعاً، أو أكثريتهم الأجور، وسيكون بإمكانهم البقاء مع الأسطول، لإلحاق المزيد من الأضرار والأذى بالأعداء، ولحراسة البحر والأنهار والبحيرات، وأخيراً سوف تنظر قداستكم بفطنة إلى كل ما هو مناسب عمله، وإلى إعطاء القائد العام ما تراه قداستكم موائماً من تعليمات وتوجيهات.

الفصل الثاني والعشرون: حول صناعة الأعتدة، والأسلحة، وخاصة آلات الرمي، والمقذوفات، وكل ما من شأنه تطوير تلك الأسلحة.

كنا قد شرحنا أعلاه وقدمنا وصفاً مجملاً ومفصلاً لأي نوع من الناس هناك حاجة لإنجاز هذا المشروع المقدس، وكذلك بينا الذي يحتاجه الأسطول المرتقب، وبعدما تكلمنا عن الأسلحة اللازمة لهذا الأسطول، رأيت أن الذي قدم أقل من المحتاج وأنه كان ينبغي التوسع بهذا المجال، ولهذا سوف أقوم بمايلي بالتطرق — ولوبإيجاز — إلى أمور جديدة أخذت بشأنها، رأي بعض الخبراء، ومع هذا إن ما سأقوله سوف يكون موجزاً، ومن الممكن إجراء بعض التعديلات عليه، حسب رأي ذوي الاختصاص بهذا الموضوع.

أولاً — بخصوص الأسلحة الدفاعية:

يجب أن تكون خفيفة، حتي يتمكن الرجال من التنقل والتحرك بسهولة، وأن يكون عددها كافياً، كما تقدم وقلنا.

ثانياً — الأسلحة المعدة لإلحاق الأضرار بالعدو:

المطلوب أيضاً أن يستطيع المقاتلون استعمالها بطريقة جيدة وسريعة، وفي هذا المجال هناك نوعان من الأسلحة الهجومية هما : الضرب بوساطة سلاح قاطع، أو الرشق بسلاح ثاقب، كما ذكرنا من قبل.

ويلحق بالعادة بالعدو أضرار كبيرة، ويكون عرضة لمخاطر هائلة عن

طريق استخدام الآلات الثاقبة، ويكون ذلك أعظم مما يلحقه عن طريق استخــدام آلات التجـريح فقط، ويبقـى على ذوي الدراية في الجيش أن يأمروا باستخدام أنواع الآلات التي يقدرون أنها الأفضل لجماعتهم.

وجديـر بالتذكير أن الهجوم على الأعـداء عن بعد أضمـن للمهاجمين من استخدام الأسلحـة ضدهم عن قـرب، والبرهان على ذلك أن جميع الأدوات أو الآلات أو القسي العقـارة فعـالـة بحسب مقـدرتها على الإصـابة عن بعد، ولتحقيق ذلك يتـوجب على المهندسين وذوي الدربة في الجيش أن يشغلوا تفكيرهم، لأن المقذوفـة سواء أكـانت من الحجارة أو من السهام أو من أي نوع من الآلات، تفيد أكثر إذا كان مجال الرمي عندها أطول من مجال الرمي لدى مقـذوفات الأعـداء، وهي تحتفظ لمن يملكهـا بـأولوية زمـام المبـادرة،ة فإذا كـان بإمكـان نشـاب المسيحيين الوصول إلى جيش الكفار، ولا يستطيع نشـاب أولئك الأعداء الوصول إلى جيش المسيحيين، فمن المؤكــد أن النصر سيكون حليف المسيحيين، ولسوف يهزمون أعداءهم على الأرض وكذلك في البحر.

وإذا ما اعترض معترض وقال: إذا تراجع الكفرة إلى الوراء، وتدبروا أمـرهـم كـي يطال نشـابهم جيش المسيحيين، يمكنني الإجـابة على هذه الحجج والرد قائـلاً: إنه مع ذلك يبقى زمام المبادرة بيد المسيحيين، لأن الضربات التي تسـددها آلات المؤمنين بيسوع المسيح سـوف تبقى أقوى من التي تسدد إليهـم من قبل الكفرة، حتى وإن لم يكونوا بعيـدين جداً عنهم، ولهذا ينبغي — كما أوضحنا من قبل — السعي بكل جهد ممكن لاكتشاف مهندسين متفوقين، واستخدام أجود أنواع الأخشاب لصناعة القنطاريات، وصناديق لـلآلات، ولقسي النشـاب للمحـافظة دومـاً على تفوق المبادرة.

ولكي يتـوصـل المهندسـون إلى النتيجـة الأفضـل في أعمالهم، سـوف أوطد بهذه المقدمة لأتكلم عن آلة المنجنيق العـادي، حتى يتم التمييز ما

بين المنجنيق العادي وبين المنجنيق البعيد المدى.

كيف يمكن صنع المنجنيق العادي

يجب أن يكون القسم الأسفل من هذه الآلة، أي قاعدتها من حيث الاتساع بقدر ما سيكون عليه ارتفاعها داخل حصن من الحصون، وينبغي أن تكون الآلة مفتوحة من الأسفل في قاعدتها بين الذراعين الاثنين، وأن يكون الجزء الثالث أصغر، بمعنى آخر: إنه إذا رفعت الآلة داخل حصن بارتفاع أربعة وعشرين قدماً،ينبغي أن يكون ارتفاع هذه الآلة عند القاعدة ستة عشر قدماً، ويقسّم العارفون آلة الرمي هذه من قاعدتها إلى رأسها إلى خمسة أو ستة أقسام، ويوضع جسم الهيكل بين الجزء الخامس والسادس، أي إذا كانت الكفة يبلغ طولها ثلاثين قدماً من الأسفل إلى القمة، يكون الخمس ستة أقدام، والسدس خمسة أقدام، لذلك يوضع الهيكل على بعد خمسة أقدام ونصف القدم من هيكل الرأس المشار إليه أعلاه.

كيف يمكن صنع المنجنيق البعيد المدى

يجب أن يوضع مرتكز جسم الهيكل على بعد خمسة أقدام من الكفة، إذا كان طول الكفة ثلاثين قدماً، أي عند سدس الكفة، علماً بأن القياس يؤخذ من مرتكز جسم الهيكل صعوداً إلى رأس الكفة، وعليه ينبغي أن توضع هكذا: يؤخذ خط من عند وسط ذراع الكفة، ويمد ذلك الخط إلى زاوية قبضة مرتكز جسم الكفة، حتى يتلامس ذلك الخط نصفياً من الجهة الثانية مع الخط ذاته الذي هو في وسط مرتكز جسم الهيكل.

وينبغي شد جوانب جذع المنجنيق نحو مرتكز جسم هذه الآلة، ويمدّ فوقها غطاء يبلغ قياسه نحو قدمين أو أكثر، لا بل حتى أقل، وذلك حسب تلك الآلة، بحيث يأتي مرتكز الهيكل من الأسفل أوسع، لكي تأخذ الكفة توازناً وثباتاً أعظم، ويجب أن يكون الصندوق أكبر

وأطول بالقـدر الذي يمكن للمعلمين صنعـه، فبقـدر مـا يعظم وزن المنجنيق بقـدر مـا يكون ثبـاته أعظم، وبقـدر مـا يكون أكبر، بقـدر مـا يقذف أكثر، وأبعد، وأثقل.

ولأجل ذلك ينبغـي أن يكون المنجنيق قـوياً من كـافـة أجـزائـه، في:الصندوق، وفي الكفـة، وفي مـرتكـز جسم الهيكل، ويجب أن تكون الكفـة ممتلئة غير نحيفـة الذراع لا سيما في وسطهـا وشبـه منفـرجـة من جهتهـا الأماميـة، ويتـوجب أن يكون للصندوق نابض قـوي يمكنه أن يدفع الصندوق إلى الجهة الخارجية.

ومن جديد: بقدر ما يكون المنجنيق أكبر، بقدر ما يمكنه قذف أوزان أثقل، وإيصـال الرمـايات إلى مسافـات أعلى وأبعـد، فبقـدر ما يقـذف الحجر إلى علو أكبر، وإلى مسافة أبعد، بقدر ما يكون وقع سقوطه أشد، وأكثر تدميراً.

وإذا أراد أحد أن يصنع المنجنيق البعيد المدى، يمكنه أن يضع الفوهة فـوق الجانب وأن يصنع كفـة طويلة الذراع إلى حـد الوصـول إلى قعـر السفينة، وعليه أن يجعل هذا الذراع يرتكز فوق قعر السفينة، وأن يجعل الصندوق يصل إلى قـريب حدود الذراع، وينبغي تصنيع جميع المجـانيق التي تجهز بها السفن بقـوة ومتانة بحيث يصل ما ترميـه من حجارة من وزن ومـدى إلى الشيء نفسـه الذي كـانت ستصـل به لو كـانت الكفـة مـركزة على سطح الأرض، فضـلاً عن هذا، ينبغي الأخذ بعين التقـدير أنه حتى تقـذف المجـانيق بخـط مستقيم وإلى مـدى بعيـد، ولتستـوعب القذيفة كما يجب، فإن ذلك مرتبط بحجم المنجنيق، وبقدر وزن صندوق الهيكل، وكـذلك بقدرة التمكن من صنع حجـارة مستديرة، وهو أيضـاً مرتبط بنوعيـة كفة ذراع الرمي، التي تمسكهـا مجموعـة التهديف، ولابد من أن تكون معقـوفـة حتى تتماشى مع مـا يريده الرجـال من الرمي صعـوداً أو إلى مـدى بعيـد، ويتـوجب على المهندسين ومعلمي الحرف

تشغيل عقـولهم حـول هذه الأسلحـة حتى يمكن تشغيلهـا بالشكل الأفضل.

كيفية تصنيع القسي العقارة

لصنع القسي العقـارة(الجروخ— الزنبـورك) سـواء أكـان ذلك من الخشب، أو من القرون، يفضل توفر معلمين ماهرين مع الخشب الجيد، ويظل أفضل نوعيـة من الأنواع الخشبيـة تلك التي تصنـع من القـرون العظميـة، بحيث تلصق القـرون إلى بعضهـا بالغـراء، وتلف بالجلود أو بمادة الأوتار، وفعالية هذه القسي أعظم في المناطق الجافة منها في المناطق الرطبة، وتطلق في أيام البرد إلى مسافـة أبعد منها في أيام الحر، وكثيراً ما تم اختبار ذلك.

أما بالنسبة لقسي النشاب العادي فتصنع بالعادة من الخشب، ولاسيما الخشب الذي يسميه الناس ناسوس Nassus وأفضل مكان يتوفر فيه هو في جزيرة كـورسيكا، علماً بأنه توجد منه أنواع هنـا وهناك في أماكن وبلدان أخـرى، وينبغـي قطع ذلك الخشب من الاحـراش في الوقت المناسب الذي ذكـرناه، وهو الوقت الموائم لقطع سائـر الأخشاب، وإذا شدت أقواس النشاب الخشبيـة بالطول وطويت قليلاً، فإنها تغدو قادرة على الرمي إلى ارتفاعات أكبر، وتقذف بسهامها إلى مسافات أبعد، ومن المقـرر اعطاءها دومـاً القيـاسات المفترضـة، ومن المفيـد أيضـاً— بما ان المطلوب هو رمي السهام إلى مسافة أبعد— أن تكون أوتارها لدنة بقدر مـا يمكن حتى تستطيع تحمل شـد الضغط والتفـويق، ولذلك ينبغي أن تكون مصنوعة من القنب الجيد، والمتقن الصنع، ويظل المطلوب ايصال السهام التي يرميها القوس المذكور الى أبعـد مسافة ممكنة، ويفضل وقتها أن تكون نصـال السهـام وقضبـانها متناسبـة مع القـوس، لابل من الضرروي أن تكون النبال مريشة، أو أن تأخذ نهاياتها مثل هذا الشكل.

أما عن مقبض القوس، وكبدها، وسيتها، ونعلهـا، وظفرها، فأكتفي بهذه الاشارة السريعة إليها، وكل ما قيل عن صنعها كامل وجيد بدون شك، وذلك سواء قوس النشاب أو ما يتعلق به شرط أن يصنع من خشب جيد، وبطيء الاحتراق، ومن المستحسن أيضاً إعطاء الذين يشدون الأقواس أوتاراً جيدة، وعريضة، وأن تكون الأجزاء الخلفية من تلك الأوتار واسعة، وقد اعتاد الرماة على استخدام الأوتار سواء وهم يفوقون أو وهم يرمون، فالعادة تعطي الرجال قوة كبيرة للشد، وتتحول العادة إلى طبيعة حسب المثل المأثور.

ويجب— على كل حال— على الرماة حفظ أقواسهم، سواء أكانت من خشب أو من قرون وحمايتها من الشمس والمطر والريح، ومن الندى أيضاً، وأن تبقى دوماً مغطاة إلاّ وقت تشغيلها، وعلى الرامي في كل سفينة أن يغطيها بجوالق مفتوح، وأن يبقيها في مكان منخفض، أو أن يعين لها مكان يضعها فيه، وتحفظ معلقة كما جرت العادة، ويجب التذكر أن القسي الأصلح هي التي تشد بالأرجل، وبالتحديد برجلين وليس برجل واحدة، فهذا أضمن لفعالية القوس العقار(الزيار)، ولهذا ينبغي استخدام القوس العقار في المكان الذي يكمن فيه الرماة ثابتين لإنزال الأذى بالعدو، سواء على الأرض أو في السفن، وأن يأتي هذا الاستخدام من قبل رجلين، أما باقي الأنواع فتكون كما أوردنا في الفصل الثامن، وفضلاً عن هذا قد يحدث أن تكون بعض الأقواس قادرة على اطلاق ما يسميه العامة موسكيت Muschette، والأقواس المستقيمة التي تخصص لها هذه المقذوفات هي أقواس الزنبورك، وهذا النوع يتوجب على خبراء الجيش التوصية بصنعه، وأن يعلموا المكلفين بالرماية على طريقة استعمالها، خصوصاً العناصر التي يرون أنها ذات فائدة أكبر للجيش المسيحي، وليفعلوا ذلك بخصوص الأقواس العقارة، حسبما ذكرنا في الفصل الثامن.

لذلك يجب — أيها الأب الأقدس — على القائد المكلف من قبل الكنيسة الأم المقدسة أن يدرس طريقة صناعة تلك الآلات، سواء أكان المنجنيق أو الأقواس، مع كل مايلزم للقيام بوظيفته، وخاصة لصناعة المجانيق البعيدة المدى، وكما بينا إنه عند الوصول إلى تلك المناطق والشروع ببناء المراكز المناسبة لتنفيذ المشروع، فإن الأعداء سوف يخافون منها كثيراً، وبسبب رعبهم وخوفهم سوف يضطرون إلى الانسحاب وإخلاء الساحة.

الفصل الثالث والعشرون: كيف يمكن للمأجورين من قبل الكنيسة الأم المقدسة، القيام، بعد نزولهم على شواطىء مصر البحرية، بإرباك المنشقين والمسلمين بوساطة غلايينهم، وتكبيدهم الأضرار الكبيرة والخسائر الفادحة، وذلك قبل وصول جحافل الصليبيين.

إنه — على كل حال — قبل وصول الصليبيين المتطوعين، أو الجماعات المأجورة والممولة من الصليبيين، كما بينا في الفصول المتقدمة، أتشوق بكل احترام وتواضع وتقوى أن أبين لقداستكم أن هؤلاء القوم، الذين يتقاضون أجورهم من الكنيسة، أعني الخمسة عشر ألفاً من الرجالة والثلاثمائة من الفرسان، بعدما يكونوا قد وطئوا شواطىء مصر، يمكنهم أن يتابعوا محلياً صناعة تلك الاسلحة، كما أنهم يقدرون على الانضمام إلى الغلايين وغيرها من السفن، التي يمكن توجيهها لمراقبة الشواطىء الخاضعة للسلطان كي لاتقترب قواته من المنطقة التي يكون قد استولى عليها الاسطول، وبذلك يلحقون الأضرار والخراب بسكان تلك الشواطىء وبغيرهم من جيرانهم الكفرة، وبعد مرور سنة على اليوم الذي تمت فيه تعبئة القوات المذكورة، وبعد أن يكونوا قد بنوا لأنفسهم مساكن وحصون على تلك الشواطىء لضمانة إقامة اسطولهم بأمان، يمكنهم أيضاً أن يرسلوا في كل سنة عشرين غليوناً خارج المعسكر في الوقت المناسب، أي منذ منتصف نيسان حتى منتصف

تشرين الأول.

ويجب ان يكون على ظهر هذه الغلايين ما لايقل عن خمسة آلاف من الرجالة المسلحين مع مائة وخمسين من الفرسان، يجوبون في نواحي الأراضي الخاضعة للسلطان للقيام بأعمال المراقبة والتفتيش، ويقومون بالشيء نفسه في نواحي ملك التونسيين والتركمان والروم البيزنطيين المنشقين، وفق الطريقة التي يرونها الأمثل، ويمكن القول بصدق إنه مثلما الحديد يسيطر على المعادن كلها— على الرغم من أنه يلوى وينكسر— هكذا سوف تكون وظيفة تلك الغلايين، وأولئك الرجال فيها، أي قهر، وتدمير، وقمع المنشقين في تلك المناطق، ومثلهم باقي الكفرة الممكن وجودهم خارج المدينة أو القلعة، وإليكم برهان على امكانية تنفيذ ماذكرناه: على تلك الغلايين أن تكون مثل الريح، أو أن تشبه البرق والعاصفة التي تهب فجأة، وأفضل بأن تكون مثل الزلزال، حيث تكون جاهزة ومتأهبة للسير بالمجاذيف، وعليها طاقم سهران متيقظ، وأن لايكون بإمكان أحد أن يسبقها ويباغتها، بسبب الطريق الطويل القادرة على سلوكه، ففي الوقت الذي يخيل فيه للكفار أنها ماتزال في سورية، إذا بها قد صارت في تركيا، ويمكن في الحقيقة القول إن البحر هو أكبر متاهة موجودة في العالم، وبينما يكون أولئك الرجال على ظهر غلايينهم، إذا بهم ينتقلون فجأة إلى الأرض التي يريدون غزوها أو عبورها، وبطرفة عين— إذا صح التعبير— يمكن العودة إلى عباب البحر، بشكل لايتركون مجالاً فيه لأعداء الايمان المسيحي، ليكتشفونهم، طالما تكون الشمس غائبة، فعلى هؤلاء الرجال القيام بأعمال الاستطلاع في النهار، وانتظار الليل، ومن ثم السير بشكل يوصلهم إلى هدفهم قبل انقشاع ظلمات الليل بشكل كلي، فهناك ينزلون قسماً من الرجالة ومن الفرسان إلى اليابسة ليروا ما الذي يمكن صنعه على الفور، ووقتها يكون الكفار المذكورين أو الروم المنشقون — إذا لم

تكن قد وصلتهم أية معلومات مؤكدة— في غفلة عما هو مبيت، وعندها يمكن للجيش الصليبي أن ينفذ بالسلاح مايريد تنفيذه، وما يكون الرب قد قدر له أن يصنع.

وقد يحدث أن تصل تلك الغلايين ليلاً إلى جانب رأس أو جزيرة، إما لتؤمن حاجتها من مياه الشرب، أو لتبقي متخفية هناك، دون أن يصل الخبر أو العلم إلى المسلمين، أو إلى المنشقين الروم، وبالتالي يبحرون من هناك في الوقت المناسب كما يطيب لهم نحو أرض الكفار، أو يتصرفون وفق طريقة أخرى، حسبما أشرنا أعلاه، وبهذه الطرق وبغيرها من الأساليب الخفية— حسبما تتطلب شؤون الحرب— تكون الغلبة لصالح أصحاب تلك الغلايين والسفن، ويسيطرون على أعدائهم الكفرة، وعلى المنشقين على السواء، وينكلون بهم في أيام الشتاء والصيف، ومن ثم يرغمونهم على اخلاء القسم الكبير من الاراضي الواقعة على الشواطىء البحرية والتخلي عنها، وتحقق بذلك قداستكم ما يطيب لها، وذلك عدا ما قلناه أو يمكن أن يقال، أو يصير، مما هو بمتناول المجموعة التي سترسلها إلى أنهار مصر، أو إلى غيرها من المناطق البحرية، وهكذا سيحدث بنعمة من الرب، أن الذين عطشوا، ومازالوا يتعطشون إلى الدم المسيحي، سوف يقتلون بسيف المسيحي، وسيهوون من شاهق كبريائهم إلى حضيض الذل، أما الذين انشقوا عن الكنيسة الرومانية المقدسة، سيتخلون— بقوة وبطش ذلك السيف الذي يطاردهم— كلياً عن انشقاقهم، ويعودون بتواضع نحو سلوك الطريق القويم الذي سار عليه أجدادهم.

الفصل الرابع والعشرون: إعدادات متقدمة، وتنظيمات واحتياطات موائمة تماما تتعلق بالأسطول البحري.

إن من بين الذي ينبغي معرفته هو أن الجيوش المحاربة التي تسير بحراً تواجه مخاطر مثل التي اعتادت عليها الجيوش البرية، فقد يحدث

أن تتعـرض لهجوم مفـاجيء، أو أن تقـوم بذلك فتهجم فجأة، وترعب الأعداء، وتتغلب عليهم بسهولة، وهكـذا يكون الوضع في البحر، فبعد عبـور الغـلايين لعـدد من الجزر، أو المحطات الصخـرية البحـرية، قـد يحدث أن ينقض المقـاتلون البحـريون فجأة على عـدوهم ويهزمـونه بسهولة، ولذلك يتوجب على القائـد أن يرسل دوماً أمام الجيش سفينتي استطلاع، تكونا من أفضل الغلايين التي عنده وأسرعها، وتكون مسيّرة بقـوة التجـذيف ذهاباً وإياباً، وتتقـدم واحـدة على الأخـرى وتسبقهـا، وكلتاهما تسيران للاستطلاع وكشف أحـوال الجزر والصخور، ومـراقبة الخلجان، فإذا تبين لهما مـا يريب ووجود مكيـدة ما، تنضمان إلى بعضهما وتصدران اشـارات محددة لانذار الجيش والاسطول حتى يتدبر ما يلزم صنعـه، ويأخذ بأسبـاب الحيطة، وإذا حدث والتقت سفينتـا الاستطلاع بسفن من غلايين العـدو، ورأتا أن عددها عـاجز عن الصمـود في وجه حملة الجيش المسيحي، وقتهـا يأمر القـائد العـام بارسال اشـارات متفق عليهـا تتلقاها غـلايين الجيش المسيحي،وذلك حسب مـا تلقـاه هو من سفينتي الاستطلاع، حتى يعرف كل انسان مـا الذي عليه القيام به، وما عليه تجنبـه، إذ أن عليه أن يوجه إلى كل نقطـة من هو مكلف بها، سواء إن كـان من جهـة اليمين أو جهة اليسـار، وهكذا يسير كل واحـد وفق الأوامر الصادرة إليه، وعلى القائد العام أن يجعل شكل الجبهة مستديرة مثل ترس، أو على شكـل هلال، أو أي شكل حسبما يراه مـــوائماً، وأن يأمـر بتجهيـز الدفـاع والسـلاح الحربي المنـاسب استعماله، وليفتش عن طريقة إنشاب المعركـة، وعندما يتهيأ كل شيء ويترتب حسب الأصول، وقتها يأمر القائد العام قواته بالاقتراب من العدو بهدوء وسكينه.

لكن إذا أراد القائـد العام أن يترك تلك الجبهة في ظل مـراقبة معينة، فليتـــدبر أمـــره بحيث يجعل ربع الغـــلايين أو خمسهـا، مـن التي بدأت بخوض المعـركة تلتف فجأة، وتدور لتهـاجم سفن العدو من الخلف أو

من الجوانب، أو أن تنتقض لتدعم الجهة التي تكون هي الأنسب، ولتنفيذ ذلك ببراعة وحيطة، ففي هذه الأمور بقدر ما تكون الحيطة بقدر ما يخف الخطر، وهناك اسلوب آخر للهجوم على الأعداء، وهو ان تمدّ الغلايين أشرعتها، وتنتقض بجرأة وبسالة على سفن الأعداء، لكن غالباً ما يكون هذا الاسلوب خطيراً، وأنا لا أنصح به مطلقاً، إلاّ إذا كانت المبادرة واضحة والتفوق ظاهر بشكل مؤكد، حتى وإن حدث وتغلبت بعض الأساطيل، لأنها كما يظن أخذت بهذا الاسلوب واتبعته، مثلما حدث بين أهل جنوى وأهل البندقية، فحسبما نقرأ في مدونة أياشيوم Aiacium كانت معظم سفن البندقية كبيرة وقوية، ومعبأة لشن الهجوم، وكانت الرياح الآتية من البحر لصالحها، وكانت سفن أهل جنوى أصغر وأضعف من سفن خصومهم، وكانت واقفة على مقربة من الشاطىء، ومقدمتها مهيأة وكانت ناصبة لأشرعتها بعكس الريح، وكانت كلها تشكل جبهة واحدة متماسكة مع بعضها ومربوطة ببعضها، بشكل أنه كان بوسع الرجال التنقل على سطح السفن ذهاباً وإياباً من سفينة إلى أخرى، وكان لدى أهل البندقية طريقة أخرى لانهاك قدرة أهل جنوى، وبالنهاية اقتحامها، وهي أنه كان بإمكانهم— ما لم يلجأ وا إلى الاستعجال، الذي قد يفيد أحيانا، لكنه قد يعيق مرات أكثر بكثير— إرسال بعض سفنهم، أو سفن غيرهم، واضرام النيران فيها، ومن ثم ارسالها وهي محترقة من خلف سفن العدو، فبهذه الطريقة كان من الممكن إغراق اسطول أهل جنوى وتبديده كلياً، وكان من المنتظر— ما لم تكن إرادة الرب مغايرة— الحاق الهزيمة بأهل جنوى، لو أخذ البنادقة بهذه الحيلة، وكانوا سيتحكمون بساحة القتال، لكنهم لم يفعلوا ذلك، فقد كانوا قد حشدوا ثمانية وعشرين غليوناً، وعندما باتوا على مقربة من أعدائهم، أنزلوا الأشرعة ولفوها، ولم ينتظروا حتى تنتظم صفوفهم، بل حملوا نحو الجنوية بكل سرعة بواسطة قوة دفع المجاذيف، وقاموا أخيراً بالهجوم على أهل جنوى، ونتج عن ذلك أن بعض سفن

البنادقة هاجمت سفن الأعداء بخط مستقيم، وكان ذلك إما بسبب شدة الريح، أو بسبب هيجان البحر، أو للسببين معا، وحين فعلوا هذا تركوا جوانب سفنهم ومؤخراتها مكشوفة، وتلاحم البنادقة مع اثنتين وعشرين سفينة معدة ومهيأة وكانوا في أثناء حملتهم قد تركوا سفن الوسط مكشوفة وعاجزة عن تقديم أي دعم، أو الحاق أي أذى بالعدو، وهذا ما جعل القسم الأكبر من سفن أهل البندقية يقع بين أيدي أهل جنوى، الذين أحرزوا النصر، وكان ذلك في آذار عام ١٢٩٣، وبهذا الاسلوب، أو بما يشبهه لحقت الهزيمة بأهل البندقية قرب كورسولا Cursola في سلافونيا، والسبب هو أنهم استداروا بشكل صارت فيه أشعة الشمس أمام أعينهم، وكان تعداد اسطول جنوى هو ستين سفينة، وكان بالمقابل مع أهل البندقية نحو تسعين سفينة، لكن أحجام سفن الجنوية كانت أكبر من التي عند البنادقة، وعليها عدد أكبر من الرجال.

وفي عودة إلى موضوعنا ينبغي القول:إنه على قائد الاسطول المذكور، أن يتنبه— قبل الشروع بالقتال— فيدير ظهره هو وجماعته كلهم للشمس، فذلك يمنحه فرصة أفضل لحسن القتال.

فهذا ما وقع في مكان اسمه ميلورا Melora ، فلسرعة البنادقة بالهجوم، ولعزمهم الشديد، لم يتجنبوا مواجهة أشعة الشمس، التي كانت تجرح عيونهم وتؤذيهم باستمرار في أثناء القتال، ولهذا هزمهم أعداؤهم، وفي النهاية قهروا، وأحرز أهل جنوى الذين كانوا يديرون ظهورهم للشمس نصراً مؤزراً، وقد حدث ذلك في حوالي شهر آب سنة ١٢٨٢ للميلاد، ويؤكدون أن عدد سفن البنادقة كان حوالي التسعين، في حين بلغ عدد سفن الجنويين حوالي المائة.

فضلاً عن كل ما تقدم يلزم الاسطول ويفيده أن يوجه وفق الشكل التالي عندما يتقدم لمجابهة الأعداء: أن تبقى السفن منضمة إلى بعضها بعضاً، وأن تظل مجتمعة على نسق واحد، بحيث تكون لوحات

المجاذيف مقابلة لبعضها بعضاً، كيلا يترك أدنى مجال لأي من سفن العدو، للتمكن من التغلغل بأي شكل من الأشكال بين صف مراكب المسيحيين، وينبغي على ربان كل سفينة إطاعة أوامر القائد العام تحت طائلة فقدانه لحياته، وأن لايقدم على الانسحاب طالما المعركة لم تنته بعد، ويتوجب أيضاً على جميع المتدربين على الرماية من الموجودين في السفن، والمتدربين على القوس والنشاب، وكل المتبقين من أصحاب الوظائف كل بحسب مؤهلاته، أن يعملوا جميعاً بانتظام، حسبما يكون ذلك أفضل، وأعظم فائدة برأي المسؤولين.

ولايجوز لهم الاقدام على الانسحاب من مراكزهم قبل انتهاء المعركة، وذلك تحت طائلة العقوبة نفسها، وليكن أيضاً مع الجيش المذكور، أي في الأسطول نحو أربعة مراكب إشراف ومراقبة صغيرة تكون مهمتها بتكليف من الكنيسة الرومانية المقدسة، بحيث تسهر على بقاء الأسطول مجموعاً حسبما يرتئي القائد، ولتكن لدى الجيش خططاً متعددة للمعارك، فذلك أضمن للجيش المسيحي، مما لو ذهب إلى الحرب، وهو مزود بخطة واحدة.

وإذا حدث وكان عدد جيش المسلمين أو المنشقين أكبر عدداً، بحيث لا يمكن للجيش المسيحي مجابهته، فإنه لن ينسب إليه العيب إذا ما تراجع ولاذ بالفرار من أمامهم، فإن مهارة الخبراء تقضي حسب الظروف إما بالحرب، أو بالفرار، أو بالمطاردة، وهذا ما يمارسه التتار بالفعل، وهم الذين استولوا بهذه الطريقة على جزء كبير من العالم، لذلك يلزم أن يعمد القائد العام للجيش المسيحي، إلى إعطاء شارة معينة، يجري تعميمها على جبهة تقضي بالرد فقط على من يهاجمهم، وأن لا يتفرقوا إطلاقاً، وتصدر الأوامر بشكل خاص إلى الرماة بالنشاب في كل الجيش المسيحي ليتدبروا ما يناسب عمله في مثل هذه الظروف، عندما يباغتهم العدو ويقترب منهم، ومن المعروف أن نبال المنسحبين

ونشابهم، وهم هاربين تجرح الأعداء، بينما نبال العدو هي بدون جدوى في أثناء المطاردة.

لهذا، لن يتعرض الجيش المسيحي — بإذن الرب — للخطر إلاّ نادراً، ما دامت السفن موائمة كما ذكرنا، وإذا حدث وقامت سفننا بمطاردة سفن الأعداء، فيلزم وقتها التنبه وأخذ الحيطة، بأن تتقدم السفن التي هي أخف من على الجوانب، وأن تضغط على العدو وأن ترميه من أقرب مسافة ممكنة، وأن تتصرف بالشكل الذي تراه هو الأنسب، وإنه لمن الضروري والمفيد والحسن، أن يكون في كل سفينة من السفن — طوال مدة بقاء الأسطول في البحر ليلاً — وفي كل مركب من المراكب علامة متفوقة خاصة، يوزعها القائد عليهم، حتى إذا تغلغل بينهم أي غليون أو أية سفينة للعدو، يتعرف عليها الباقون، وإذا ما بقي الأسطول ليلاً في أحد المرافىء، ينبغي تخصيص بعض السفن — ما عدا أثناء المناخ العاصف — للحراسة باستمرار، ولا يجوز إهمال تلك الخفارة بدقة على الإطلاق، كذلك على القائد العام في النهار، أثناء توقف الأسطول في أحد المرافىء أو قرب أرض صخرية، أن يفرز من السفن المعدة للمراقبة خفراء ينزلهم إلى اليابسة، حتى يستطلعوا جميع الجهات، من البحر، وعلى اليابسة، ويؤمنوا السلامة الكاملة لأسطولهم، فإذا ما شاهدوا أحداً يحاول التقدم نحو الأسطول ليلحق به الأذى ، ترسل فرقة المراقبة تلك إشارات معينة إلى الأسطول، ثم تهرع نحوه، وتعطي الإشارات مجدداً، كي لا يلحق أي أذى بسفن الأسطول، أو بالذين يجوبون تلك المنطقة، ولكي يتأهب الجميع لإلحاق الهزيمة بالعدو.

ولا يجوز مطلقاً إهمال أمر مهم جداً، وهو تأمين مياه الشرب لرجال الجيش، وينبغي إيلاء هذه المهمة كامل العناية، وتخصيص جماعة تتولى تأمين هذه المياه، وقد تقدم وهلكت جيوش كثيرة وكبيرة بسبب فقدانها

للماء، ويتوجب أيضاً تأمين الحطب لطبخ الأطعمة لكل من في الأسطول، فبدون ذلك لن يتمكن الجيش من نيل أطعمته، وفي الحقيقة كثيرة هي الاحتياطات التي يتوجب على القائد التنبه إليها، من تنظيم وترتيبات واحترازات، يطول بنا المجال هنا لوصفها وشرحها، علماً بأن الكثير المهم بهذا الشأن قد تمّ تبيانه وشرحه هنا أو هناك، وسيكون مفيداً أيضاً ونافعاً أن يكون مع القائد العام رجال حكماء، ذوي نزاهة، ولديهم دربة ومراس على هذه المواضيع المتقدمة الذكر.

الفصل الخامس والعشرون: وصف المناطق البحرية الخاضعة للسلطان، وأسماء الشواطيء والمراسي البحرية، والجزر، والفوارق بين مكان وآخر، مع وصف للشواطيء التونسية التي هي امتداد بحري لها.

من مرعش إلى الاسكندرونة خمسة عشر ميلاً، إذا ما أبحرنا بريح شرقية، وتقع مرعش حالياً عند الحدود بين أراضي ملك أرمينية وأراضي السلطان، ومن الاسكندرونة إلى أرسوز، بريح غربية وباتجاه الجنوب، والمسافة عشرة أميال، ومن رأس الخنزير إلى مصب نهر العاصي، باتجاه جنوب شرق، عشرين ميلاً، ويصب العاصي في السويدية على ساحل جبل اللكام، ومن ميادون على بعد نصف ميل من مصب العاصي حتى الوادي المسمى تاندرا عشرة أميال باتجاه الغرب، وفي ذلك الوادي مرسى اسمه قرابجاك، ومن مصب العاصي حتى برج الإسلام عشرين ميلاً باتجاه الغرب، ومن برج الإسلام حتى رأس البسيط عشرين ميلاً باتجاه الجنوب الغربي، ومن رأس البسيط إلى اللاذقية عشرة أميال باتجاه الشرق، وللاذقية ميناء جيد تغلقه سلسلة، ولهذا الميناء مدخل من جهة الجنوب، وعند مدخله باتجاه الجنوب يوجد أيضاً برج يدعى برج أوغاريت، وهو محصن من جهة الغرب، ومن مرفأ اللاذقية إلى مصب نهر السن باتجاه الجنوب عشرة أميال، ومن مصب هذ النهر إلى بانياس خمسة أميال باتجاه الجنوب، ومرسى بانياس

مرسى صالح، ويفتح من جهة الجنوب، ومن بانياس إلى حصن المرقب خمسة أميال، والمرقب قلعة حصينة، باتجاه الجنوب،وهذا هو ساحل سورية، أي شواطئها البحرية: من المرقب إلى طرطوس باتجاه الجنوب الغربي عشرين ميلاً، ومن أوغاريت المتقدمة الذكر إلى طرطوس باتجاه الجنوب أربعين ميلاً، ولمدينة طرطوس ميناء جيد، ينفتح من جهة الشاطىء على جزيرة أرواد، ويمكن التوقف هناك نحو الرأس من جهة الجنوب، كما يمكن الدخول إلى ذلك المرفأ من كل الجهات، ويبعد هذا المرفأ عن اليابسة مقدار ميلين تقريباً.

ومن طرطوس، وكانت قديماً مدينة مشهورة إلى طرابلس، باتجاه الجنوب الغربي عشرين ميلاً، ولطرابلس ميناء جيد، ومقابل ذلك المرفأ، وعلى مسافة أربعة أميال توجد عدة جزر، اسمها جزيرة الأرانب، وإذا حدث ووصل إنسان إلى ذلك المرفأ، فليترك تلك الجزر باتجاه الجنوب، ويبتعد عنها باستدارة واحدة ونصف، ثم ليتجه شرقاً على مسافة ميل واحد،ثم باتجاه الجنوب مسافة ميلين، فسيجد بقعة صخرية القعر، فليتخذها مرسى، وهذا المرسى بعمق ثلاثة قامات، ولينتقل من هناك نحو الجزيرة، بمقياس مقداره طول الحبل الذي يربط السفينة باليابسة، وفي داخل الأرض الواقعة خلف طرابلس، هناك جبال عالية جداً، توجد عليها الثلوج باستمرار.

ومن طرابلس حتى أنفة(نفين) خمسة أميال باتجاه الجنوب، ومن أنفة إلى بئر خليج المري خمسة أميال باتجاه الجنوب، وهذا الخليج ملجأ صالح، وهو رأس متوضع في البحر، واسم هذا الرأس، رأس شقعة، ومن رأس شقعة إلى البترون ستة أميال باتجاه الجنوب، وفي جبيل مرفأ للمراكب الصغيرة، وهو مقفل بسلسلة، ومن جبيل إلى بيروت خمسة عشر ميلاً، باتجاه ربع دائرة جنوباً، وعند ذلك الرأس باتجاه الشرق توجد مدينة اسمها بيروت، وفيها قلعة...، وقريباً من هناك يوجد نحو

الشرق ميناء صالح، وعلى ميل باتجاه شمالي غربي هناك جزيرتان مع مرفأ، ويجب الابحار مروراً بميل واحد بعيداً عن رأس تلك الجزيرتين، وعند مدخلهما نحو الشمال الغربي، يقابل مرفأ بيروت جزيرة الزيري، وهو يبعد عنها عشرين ميلاً باتجاه الجنوب، ومدخل مرفأ هذه الجزيرة نحو الغرب، ومن الممكن إلقاء المرساة هناك والتوقف.

أما المرفأ المقابل لليابسة، فمدخله من جهة الجنوب، وهو قليل العمق، وفوق الزيري توجد منطقة صيدا، وهناك جبل يسميه العامة مذراة صيدا.

ومن صيدا إلى الصرفند جنوباً مع ربع استدارة عشرة أميال، ومن الصرفند إلى صور خمسة أميال، ولصور مرفأ صالح، لكن هناك عدة صخور باتجاه الجنوب، ينبغي تجنبها من جهة الجنوب، حيث ينبغي على الجميع الدخول من جهة الشمال، أي من عند الصخرة المعروفة من جهة الغرب، مع الابتعاد عن تلك الصخور باستدارتين ونصف الاستدارة، ويجب أخذ الحيطة لأنه عند جميع هذه الممرات العمق قليل، ويمكن باستدارة واحدة البقاء هناك قرب أسوار تلك المدينة، التي تعرف باسم مدينة صور، ويرى القادم من البحر تلال صيدا من جهة الغرب، ثم جبالاً عالية، يسميها العامة لبنان، وهي تمتد نحو الجنوب.

ومن صور إلى البياضة(الرأس الأبيض) عشرة أميال باتجاه الجنوب، وهذا الرأس مرتفع، ويليه أيضاً جبال عالية جداً، يسميها سكان تلك المنطقة بلينا Bellina ، ومن رأس البياضة إلى عكا عشرة أميال باتجاه الجنوب حتى الوصول إلى صخور خلف قلعة لمبرتو(حصين — قرب الناقورة)، ثم تنحرف إلى الجنوب الغربي من تلك الصخور، حتى مدينة عكا، حيث هناك خليج جاف طوله حوالي الثلاثة أميال، ولعكا مرفأ هو عند رأس، يمكن الوصول إليه باستدارة واحدة، وإلى الشرق منها برج الذبان، ومن أراد القدوم إلى هذا المرفأ، عليه القدوم بحراً من

بعيـد، من عند بيعة القـديس اندراوس، ويبقى بخط مستقيم حتى يرى البيت الذي كـان يسكنـه فـرسـان الاسبتـارية في بـرج الذبان، وآنذاك يمكنه أن يأخــذ طريقــه إلى داخل ذلك الميناء،وإذا أراد اجتيــازه حتى يصل إلى قلعـة حيفا، فعليـه أن يوجه نصف مقـدمة السفينة نحـو تلك القلعة، ونصف مؤخرتها نحـو برج الذبان، وبهذه الطريقة يمكنه دخول الميناء بأمان، ومن أسـوار تلك القلعة حتى مـوقع الكرمل عشرة أميال، والكرمل جبل مـرتفع، وهو مستطيل الشكل في مقـابل البحـر، ويظهـر وكأنه جزيرة طويلة، ورأسه فوق البحر، وهو يتجه نحو الجنوب، وعلى قمته كنيسة اسمها كنيسة القديسة مرغريت، ومن جهة الشمال بقعة تمتد على طول ميل واحد.

ومن جبل الكرمل حتـى عثليت(قلعـة الحجـاج) خمسـة أميـال باتجاه الجنوب، ومن عثليـت إلى قيسـارية عشريـن ميـلاً بـاتجاه الجنوب، ومن قيسارية إلى أرسـوف خمسة عشر ميـلاً باتجاه الجنوب، ومن أرسوف إلى يافا، باتجاه الغرب، عشرة أميال.

ومن جبل الكرمل حتى دميـاط، لا يوجـد عند الشـاطىء أي جبل، وكلها أرض منبسطة، فيها صخور رملية بيضاء.

وأما في داخل البلاد صعوداً من الشاطىء، فهناك جبال اسمها جبال القـــدس، ومن الممكـن رؤية هذه الجبـــال حتـى جبل الكـرمل على سلسلتين.

الشواطىء البحرية الممتدة من يافا إلى دمياط

أولاً: من يافا إلى قلعة أشدود، باتجاه الجنوب عشرة أميال.

ومن أشدود حتى عسقلان عشرة أميال، باتجاه الجنوب الغربي.

ومن غــزة إلى الدارون(دير البلح) خمسـة عشر ميــلاً باتجاه الجنوب

الغربي.

ومن دير البلح حتى رأس أشدود ثلاثين ميلاً، وذلك من عند خان يونس باتجاه الغرب.

رأس أشدود إلى آخر خليج خان يونس ثلاثين ميلاً باتجاه الشمال، ومن ذلك الرأس باتجاه شمال غربي ثلاثين ميلاً، ومن ذلك الرأس إلى رأس رفح باتجاه الغرب ثلاثين ميلاً، وعند هذا الرأس خليج يستدير على مسافة عشرين ميلاً، ومن رأس رفح إلى العريش باتجاه الغرب خمسين ميلاً، ومن العريش إلى الفرما باتجاه الغرب ثلاثين ميلاً، ومن العريش إلى نهر تنيس خمسة وعشرين ميلاً، ومن نهر تنيس إلى دمياط خمسة وعشرين ميلاً وربع درجة شمالاً، ودمياط هي مدينة لها نهر كبير، لون قاعه أحمر، وعمق مصبه عندما تكون المياه شحيحة لا يقل عن ستة أذرع، لكن عندما تكون المياه قوية، وقتها يقدر العمق بنحو أحد عشر ذراعاً، ويقتضي الابحار من مدينة عكا إلى دمياط، باتجاه الغرب، قطع مسافة قدرها مائتين وخمسة وسبعين ميلاً.

الشواطىء البحرية من دمياط إلى الاسكندرية

أولاً: من دمياط حتى بحيرة نستراوة(البرلس) باتجاه الغرب سبعين ميلاً، ومن البرلس إلى مصب نهر نستراوة شاطىء يمتد على طول ثلاثين ميلاً غرباً، وهذا الشاطىء مستدير، ويلتف على ثلاثين ميلاً، وله مصب عريض، وعلى بعد خمسة أميال باتجاه الشمال من مصب نهر نستراوة إلى مصب نهر رشيد أربعين ميلاً باتجاه الغرب، ونهر رشيد كبير، وعمق المياه فيه عشرة أذرعة، وحوله أراضي جافة كثيرة، وعندما ترتفع مياه ذلك النهر فإن عمقه يبلغ خمسة عشرذراعاً، ومن رشيد إلى جزيرة أبي قير خمسة وعشرين ميلاً غرباً، وعلى تلك الجزيرة برجان، بالقرب منهما مجال صالح للنزول.

ومن أبي قير إلى مدينة الاسكندرية ثمانية عشر ميلاً باتجاه الغرب، والاسكندرية مدينة كبيرة وجميلة، لها من الجهة الخارجية صخرة متقدمة، تضربها مياه البحر يومياً، وعلى ظهر تلك الصخرة برج يسميه الناس المنارة، وهي التي تسمح بمعرفة موقع المدينة.

فإذا قدم أحد بحراً من الشرق أو من الشمال، يمكنه أن يرى تلك المنارة، كذلك إذا قدم إنسان من الشمال الغربي، يمكنه أيضاً رؤية برج تلك المنارة، وأما المدينة فلها مرسيان، الأول شرقي، ويشرف عليه ذلك البرج، ومن يصل إلى المرسى يمر بجوار صخرة يسميها الناس ميمون Memon ، وهي مجاورة لبرج المنارة، ومن ثم يذهب باستدراة واحدة، ويلازم تلك الصخرة على طولها، وهناك في الجنوب أرض جافة، ومن الممكن البقاء باستدارة واحدة نحو صخرة ميمون، والمرسى الثاني للاسكندرية هو من الجهة الغربية ومدخله من الشاطىء الغربي، ومن أراد دخول ذلك المرسى من ذلك الشاطىء، عليه مسايرة الشاطىء، لأن دخول ذلك المرسى يتم عبر أقنية.

والمسافة من عكا إلى الاسكندرية هي أربعمائة وأربعين ميلاً، باتجاه الشمال الشرقي من الريح الثالثة، وبالنسبة لنهر نستراوة، فإن لون قاعه أحمر، وعلى النهر بساتين نخيل تنتج البلح، ومن الاسكندرية حتى برج العرب، باتجاه الغرب، ثلاثين ميلاً، ومن برج العرب، إلى خليج العرب باتجاه الغرب خمسين ميلاً، ومن وسط خليج العرب إلى الخروبات بالاتجاه الشمالي الغربي أربعين ميلاً.

ومن الخروبات إلى التلال البيضاء عشرين ميلاً باتجاه الغرب، والعلامة المميزة للتلال البيضاء هي: ظهور أرض بيضاء مقسمة إلى تلال عدة، وهي تطل على الخروبات تلك من الشرق، حيث تشاهد قناطر كثيرة واسعة بين الأبنية المهدمة والصخور البيضاء، ويوجد على بعد ميلين من خليج رشيد جزيرة مسطحة، وهي إلى الشمال من

الصخـور البيضـاء ولها مـرسى جيـد، وله عمق مسطـح يبلغ ست خطوات، ومن الممكن الدخـول إلى الجزيرة وإلقـاء المرسـاة على أرض ثابتـة، ومن تلك الجزيرة إلى خليـج رشيـد عشرين ميـلاً، لمن يبحـر مع الريح الرابعة غرباً باتجاه الموقع المسمى Beleze .

ومن خليج رشيـد إلى مـرفأ السلطـان مـائـة ميل وعشرة أميـال من الشرق أيضاً، ولهذا المرفأ مـدخل ضيق، يتولى حراستـه جنود مسلمون، وهو في داخله عريض جداً، يمكن أن تصطف فيه سفن وغلايين كثيرة، ومـا بين ذلك الخليج وذلك المرفأ، لا يوجـد أي مكان يصلح للرسـو، والعمق سيء ومملوء بـالنتـوءات، وتمتـد هناك شـواطـىء مسطحـة ومساحات جافة كثيرة.

ومن مرفأ السلطان إلى جـزيرة الحمام عشرة أميال، باتجاه شمالي غربي، وهي في داخل البحـر على مسافـة ميل من الشـاطىء، ومدخلهـا شرقي شمالي والفتحـة التي يمكن الدخـول عبرها من الغـرب، ولها شـواطىء كثيرة جافة، وتمتد هذه الشواطىء الجافة من الساحل حتى تلك الجزيرة، والفتحة التي يمكن الدخول عبرها من الشرق نظيفة، ويلزم السير منها إلى الجزيرة قطع مسـافـة ميل ونصف الميل، ومن الزاوية الشرقيـة يصل العمق إلى عشر خطوات، وينبغي الانتظار بعيـداً عن الجزيرة، مع إعطاء استـدارتين للغـلايين، وهذه الصخـور محميـة ضـد كل الرياح، باستثناء الريح الشرقية التي تهب من الشاطىء، وتلك الجزيرة مسطحة ولاتظهر إلاّ عن بعـد عشرة أميال في البحر، ولا يمكـن معرفتها إلاّ مـن خلال قصر موجـود على الشاطىء من جهـة الشرق، وإذا قدم أحـد من البحر إلى الشاطىء، فإنه يجد المياه العذبة في تلك الجزيرة.

ولايوجـد من جـزيرة الحمام حتى رأس رمـدا Rameda أي مكان يصلح للرسو فيـه،لأنه تنتصب هناك مرتفعـات جبلية من جهـة البحر، ومن جـانب الجزيرة على طول شـاطـىء البربر، ومن رمـدة حتى مـرفأ

السلوم عشرين ميـلاً، باتجاه جنوبي غربي، وهو مـرفأ جيد، وله مـدخل صالح، ومن مرفأ السلوم إلى مرسى مات Mat عشرين ميلاً، باتجاه غربي جنوبي، ومـن مرسى مات إلى رأس لـوقيا Luchia خمسة عشر ميلاً، بـاتجاه جنوبي غربي، ورأس لوقيـا جاف ممتـد نحو الخارج مسـافة نصف ميل، ومـن رأس لوقيـا إلى مـرفأ طبرق ستين ميـلاً، مع ربع استـدارة نحو الغـرب، ولهذا المرفأ أرض جـافـة عند رأس سن، والذي يصل إلى المرفأ عليه أن يسلك جهة الشاطىء الشرقي، ومن ميناء طبرق إلى جـزيرة البطريرك أربعين ميـلاً، مع ربع استـدارة نحـو الشمال، ومن جـزيرة البطريرك حتى رأس تينـي ثلاثين ميـلاً باتجاه الشمال الشرقي، ولهذا الرأس امتداد من الأرض اليابسة مقداره نصف ميل.

ومن رأس تيني إلى الفوارة Faura عشرة أميال، مع ربع استدارة نحو الغرب، ومن الفوارة إلى فورسيللو Forcello عشرة أميال، مع ربع استدارة نحـو الغرب، ومن فـورسيللو إلى كارسي Carse عشرين ميـلاً، بـاتجاه شمالي شرقي، ومن كـارسي إلى بـوننديا Bonandrea خمسين ميـلاً باتجاه الشمال الشرقـي ولبوننديا مـرسـى محمي من جميع الرياح باستثناء الريح الشرقيـة، ومن بوننديا إلى جزيرة سـوسة عشرين ميلاً، من جهة الشمال الشرقي، وهذه الجزيرة مكان صالح للرسو.

ومن جـزيرة سـوسـة إلى رأس هـاينة عشرين ميـلاً من جهـة الشمال الشرقي، وتنصب مـن رأس تلك الجزيرة في البحـر أربعـة أنهار ميـاه عـذبة، ومن رأس هاينة إلى طلميثة مـائة ميل من جهـة الشمال الشرقي، وعند رأس طلميثة صخرتان صغيرتان، ومن طلميثة إلى برنيق(بنغازي) سبعين ميـلاً مع ربع استـدارة نحـو الجنوب، وفي برنيق ميناء جيـد، ويوجد على مسـافة نصف يوم من المينـاء بقعة يابسة، ومن يـريد دخول ميناء برنيق هذا عليه أن يساير الشاطىء الشرقي.

الفصل السادس والعشرون: وصف للمناطق البحـرية الواقعـة تحت

سيطرة ملك أرمينيا وصولاً إلى المناطق الخاضعة للسلطان، وكذلك المناطق التابعة لتركيا من جهة الشمال.

من مرعش إلى جبل كايبو Caybo عشرين ميلاً باتجاه الشمال، ومن جبل كايبو إلى لايكيوم Laiacium خمسة عشر ميلاً غرباً، ومن لايكيوم إلى مرفأ المجاذيف عشرة أميال غرباً، وأمام لا يكيوم قطعة أرض يابسة يمكن تسميتها رأس، ومن الممكن الاستدارة حوله ورمي المرساة والتوقف، ومن مرفأ المجاذيف إلى مصب نهر جيحان عشرة أميال غرباً، وجدير بالذكر ينبغي أن يكون الاقتراب من رأس مرفأ المجاذيف على مسافة نصف ميل، ومن أراد الدخول إلى ذلك المرفأ سيجد هناك انفراجاً يبقى دوماً مفتوحاً، وليحذر من التقدم كثيراً من رصيف ذلك المرفأ.

ومن مصب نهر جيحان إلى مالو عشرة أميال باتجاه الشمال — الغربي، ولمالو ميناء أمامه جزيرتان صغيرتان تبعدان ربع ميل عن اليابسة، ويجب الاستدارة عندها، وإلقاء المرساة حتى قعر الأرض الصلبة، حيث عمق المياه هناك خطوتين أو ثلاث خطوات.

ومن مالو، وهي نوع من أنواع القلاع إلى مصب نهر أذنة عشرين ميلاً باتجاه شمالي غربي، ومن مصب نهر أذنة إلى مصب نهر طرسوس عشرين ميلاً باتجاه الشمال الغربي، ومن مصب نهر طرسوس(البردان) إلى كركوم Curcum إلى الصخرة عند مصب نهر سيحان عشرة أميال باتجاه الغرب، ومن نهر سيحان إلى لينا دي لاباغاكسا Lena de Labagaxaعشرة أميال بالاتجاه الشمالي الغربي، وتلك البقعة منبسطة جداً، وفي قعرها رمال، ومياهها في البحر قليلة على مسافة ميل.

ومن لينا دي لا باغا كسا إلى مرسى بينو Pino خمسة عشر ميلاً باتجاه جنوبي شرقي، والمرسى واسع، وله قعر جيد، ومن مرسى بينو إلى

ميناء الفرسان عشرة أميال مع ربع استدارة نحو الغرب، وفيه مكان للرسو، وله قعر جيد، ومن مرفأ الفرسان إلى مرفأ رأس برودنساليوم، Prodensalium خمسة عشر ميلاً، وهذا الرأس بالاتجاه الشمالي الشرقي، ولهذا الرأس مكان داخلي للرسو، قعره عميق جداً، وعند ذلك الرأس أسوار مما يجعله مناسباً للرسو.

ومن رأس برودنساليوم حتى سقوين Sequin عشرين ميلاً، مع ربع استدارة غرباً، ويلزم تثبيت المراسي، وأن تكون محمية من الرياح، وفيها نهر يصب هناك في البحر، ومن سقوين إلى ستالليموري Stal-limuri عشرين ميلاً باتجاه الشمال الشرقي، وهناك يمكن إلقاء المراسي، حيث تكون محمية من الرياح.

ومن ستالليموري إلى كالاندرو Calandro ثلاثين ميلاً باتجاه الشمال الغربي، وفيها ميناء جيد، ومن كالاندور إلى سلمودا Salmoda خمسة وعشرين ميلاً باتجاه الشمال، ومن سلمودا إلى أنطاكية عشرين ميلاً باتجاه الشمال، ومن أنطاكية إلى قلعة اللومبارديين خمسة عشر ميلاً باتجاه الشمال، ومن قلعة اللومبارديين إلى كانديلورو Candeloro عشرة أميال باتجاه الجنوب الشرقي، ولمدينة كانديلورو مرسى جيد محمي من الرياح الغربية، ومن كانديلورو إلى رأس القديس فوكاس ثلاثين ميلاً باتجاه الشمال الغربي.

ومن رأس القديس فوكاس إلى أضاليا القديمة أربعين ميلاً باتجاه الغرب، ومن أضاليا القديمة إلى أضاليا الجديدة أربعين ميلاً مع الريح الشرقية، وأضاليا الجديدة مدينة كبيرة، ولها في مقابلها بقعة صخرية على مسافة ثمانية أميال، واسمها أغوباندي Agopandi ، وفيها موضع للرسو.

ومن أضاليا الجديدة إلى ريناثيا Renathia خمسة عشر ميلاً،

ولأضاليا الجديدة مرسى جيد في داخل البحر، وهو محمي، ويصب عنده نهر، ومن ريناتيا إلى كبيرمايوت (البند البحري) عشرة أميال، وهناك مرسى جيد في جزيرة، وهو مأمون من جهة البحر واليابسة، وفيه مياه نهر غزيرة، ومن كبيرمايوت إلى مرسى الجنوية عشرة أميال، وهو مرسى أمين يتجنبه الأتراك من جهة البحر واليابسة، وعلى شواطئه مياه نهرية وافرة.

ومن مرسى الجنوية إلى شيباسكو Chipasco ثمانية أميال، وهناك مرفأ جيد ونهر، لكن ينبغي أخذ الحذر مما يمكن أن يحدث من جهة اليابسة، ومن شيباسكو إلى كامبروكسا Cambruxa ستة أميال، وهناك مكان للرسو، ومياه بكثرة، وتقابله جزيرة في البحر على بعد ثلاثة أميال.

ومن كامبروسكا إلى رأس الخيلدونيين Childoniis عشرة أميال، لكن مكان الرسو صغير، ولا مكان لإلقاء المراسي، والذي نراه إن التوقف من جهة البحر خطر، مع أنه آمن من جهة اليابسة، ومن رأس الخيلدونيين إلى ميناء مار اسطفان ثلاثة أميال، وهناك مرسى صالح، ومياه غزيرة، لكن تبقى هناك ريبة من جهة الناس الذين على اليابسة.

ومن ميناء مار اسطفان إلى رأس فينيغيا Finighae خمسة عشر ميلاً، وهناك مرفأ جيد بين صخور الرأس، وهو قريب إلى أرض فيها مياه عذبة نهرية، وهناك خشية من جهة المنطقة الداخلية، وعلى بعد ستة أميال من المرفأ قلعة كبيرة، ويسكن في الجبال المجاورة يونانيون وأتراك.

ومن فينيغيا إلى القديس نيقولا دي ستاميريس Stamiris خمسة عشر ميلاً، وهناك مرفأ جيد ومأمون من جهة البحر، وأما من جهة البر فيلزم الحذر، ومدخل ذلك المرفأ جيد، وتصب هناك في البحر مياه غزيرة وعذبة.

ومن القديس نيقولا دي ستاميريس إلى ككابوم Caccabum خمسة أميال، ولها مرفأ صالح، وبين الصخور مياه آبار، ومقابل المرفأ شاطىء رملي، ومن الضروري التزام الحذر، بسبب شراسة السكان من جهة البر، ومن ككابوم إلى جزيرة المهرولين Correntibus عشرين ميلاً، ولها مرفأ جيد للرسو، وأمين من جهة سكان البر، وفيها مياه آبار بوفرة، ومن جزيرة المهرولين حتى غيام Ghyam أربعة أميال، ولهذا الموقع ميناء صالح وأمين من جهة البحر، وحذر من جهة البر، وتوجد مياه على ضفاف النهر، ومن غيام إلى قلعة روزي Rozi خمسة عشر ميلاً، ولها مرفأ صالح، ومياه وفيرة، ولا خوف من جهة اليابسة، والمرفأ قريب من شاطىء رملي، وحوله أقسام كثيرة جافة، ومن قلعة روزي إلى جزيرة بولسللي خمسة عشر ميلاً، وفيها ميناء جيد وآمن من جهة اليابسة، وإنما ليس هناك مياه عذبة، وبين تلك الجزيرة والأرض اليابسة هناك أقسام صلبة بعمق ثلاث قامات تحت الماء.

ومن جزيرة بولسللي إلى ميغراديكو Megradico تحت بترا Patra خمسة عشر ميلاً، ولها مرفأ صالح من جهة الشرق، لكن الماء معدوم فيها، وينبغي أخذ الحذر من جهة اليابسة، ومن ميغراديكو إلى برديكياس Perdichias ثلاثين ميلاً، وفيها ميناء، صالح ومياه غزيرة، ولا خوف من جهة الأرض، ومن برديكياس إلى القديس نيقولا دي ليوكسو أربعة أميال، وهناك ميناء صالح، ومياه وفيرة، ولاحذر من أية جهة من الجهات، ومن سان نيقولا دي ليوكسو إلى رأس تراكيلو Trachilo خمسة أميال، ولا خوف من جهة اليابسة.

ومن تراكيلو إلى ميناء منطقة ماكري Macre خمسة عشر ميلاً، وهذا الميناء ميناء جيد، والأرض صلبة عند مدخل المرفأ على عمق قامتين أو ثلاث، ومياه الشرب هناك غزيرة، ولا خوف على الاطلاق من جهة البر، ومن ماكري إلى جزيرة كوبي Copi عشرة أميال، ولها ميناء صالح

وآمن سـواء مـن جهـة البحـر أو من جهـة البر، وفي الجزيـرة ميـاه آبار وفيرة، ومن كوبي إلى جزيرة غويا Guia عشرين ميلاً، ومن غويا إلى بريبيا Prepia عشرين ميلاً، ولها في الصيف مـرفأ صالح، وآمن من جهـة اليـابسـة، وبعـد ذلك يصير الـدخـول إلى نهر عمق ميـاهه سبعـة قـامـات، وبهذه الطريقـة يصير الضغط شـديـداً على السفن التي تحمل الأخشاب إلى مصر.

الفصل السـابع والعشرون: حـول دور الصليبيين المأجـورين من قبل الكنيسـة الرومانيـة المقدسـة، لدى نزول الجيش المسيحي على الشـاطىء المصري، وحـول ضرورة الاستيـلاء على نهر النيـل، وتبيـان لكيفيـة الاستيـلاء على جـزيرة رشيـد، وكم ينبغي أن يبلغ تعـداد أولئك الصليبيين، وفيه إيضاح على أن من المتـوقع منطقياً اضطرار المسلمين إلى التخلي عن أرض مصر للمسيحيين.

وينبغي الآن الشروع بالتفكير بعمق، والتأكد مما سـوف ينجزه جيش المتطوعـون الصليبيـون وكـذلك الذيـن جندتهم الكنيسـة المقـدسـة من الأموال التي تبرع بها المؤمنون لأجل الحملة الصليبيـة، حسبما ذكرنا من قبل، فبعـد أن تكون الدعـوة إليهـا قـد بدأت في جميع أقطار العـالم المسيحي، وعندما سيجد الجيش نفسه مستعداً ومجهزاً بالسفن، وبكل ما يلزم أو يفيـد المقاتلين، وبعـد أن يكون قـد تزود بالمياه العـذبة سينطلق وقـوامـه بدون تمييـز خمسـون ألفـاً من الرجـالة، وألفـان من الفـرسـان الملتـزمين مقـابل أجـر، وخمسـة عشر ألفـاً من الرجـالة مع ثلاثمائـة من الفرسان الذين أتينا على ذكرهم في القسم الأول من الكتاب الثاني هذا، والأمل بالرب، والاتكـال دون أي شك عليـه، أنهم بعـونه، وهوالذي يقوم باسمـه المشروع، لابد من أن يسيطروا على مصب نهر النيل، وبعد سقوط مصب نهر النيل والاستيلاء عليه، سيتمكنون على الفور، وبدون جهد، من الاستيلاء على جزيرة رشيد، وهي ذات أهمية عظمى، وبدون

تأخير سيكون بإمكـانهم بناء قلعـة حصينـة، ومن ثم يقيمـون فيهـا كما يطيب لهم، وينفذون ما يـرونه مناسباً، خصوصاً بالنسبـة للمنطقة العليا القـريبة مـن القاهرة ومن قلعتهـا، وبناء عليـه يتـوجب النظر أنه بسبب التنظيم الجيـد، والتخطيط الموفق، والقوة الضـاربة عند جيش الصليبيين وأسطولهم، ســوف يتم في وقت قصير الاستيـلاء على مـا تبقى من الأقـاليم المصرية، وتصير مصر خـاضعـة لقـداستكم، وإذا لم تتمكن قـداستكم من حشـد العدد المذكـور أعـلاه، فإنه بالإمكان اتمام مشروع مصر بوسـاطة أربعين ألفـاً من الرجـالة، وألف من الفـرسـان، تكون أجـورهم، كما بينـا من قبل، هذا إذا بقـي الوضع على النيـل مثلما هو اليوم، وقد يعترض معترض فيجـادل قائلاً: بعملك هذا أنت تفكر أنك تؤمن مصالـح التتر وبالتالي ستستميلهم إليك، لكنهم قـد يأخذون منك موقفاً معادياً لأن قسماً كبيراً منهم قـد انقلب إلى عقيدة محمد(ﷺ)، وقد يقـدم هؤلاء التتار إلى مصر لنجـدة أهل هذه العقيـدة، ومساعـدة تلك الملة، وهـم أيضـاً منتشرون في مناطـق عـدة من المشرق، وهؤلاء سـوف يهبون أيضـاً للمساعدة وتقديم العـون، ومثلهم سيفعل العرب، وبعض المسلمين في أفـريقيا، فهـؤلاء جميعاً سـوف يقـدمون بالذات، أو سـوف يرسلون الامدادات إلى المصريين.

وعلى مثل هذا الاعتراض يمكن أن نجيب:

إنه بعـون من الرب، ينبغي منطقيـاً احتلال نهر النيل بهذا العـدد من المقـاتلين، بفضل تنظيمهم ومعداتهم، حسبما تمت الإشارة إلى ذلك من قبل.

وإذا مـا امتلكوا السيطرة على ذلك النهـر، فإنهم سـوف يحتلون جلّ أرض مصر، ولسـوف يدمرونها برمتهـا تقـريباً، وعلى الرغم من وجـود هذا العدد الكبير من المسلمين في مصر، فإن العمليـة الحميدة سوف يتم إنجـازها بسرعة خـاطفـة، وبعد هذا لن يتمكـن المصريون من حراسـة

مصر ولا الدفاع عنها. لأن المسيحيين سوف يحطمونهم ويبددون شملهم، خاصة وأنه لن يعود لدى المسلمين إمكانية التموين، والحصول على ما يلزمهم للعيش، ولن يكون بالإمكان نقل المواد الغذائية إلى مصر عن أي طريق من الطرق بسبب ما حولها من صحارى، كما لا يمكن لمصر أن تستنجد عن طريق البحر، لأن مفاتيح البحر بيد جماعتكم، فهي التي تؤمن الحراسة والحماية، ولن تصل الإمدادات إلى المصريين من أعالي النيل، ولا من النوبة، ولا من أي مكان آخر بالكميات التي يحتاجها سكان مصر، ووقتها لن يبقى أمام المصريين من مجال سوى الانسحاب وإخلاء تلك البلاد بسبب الجوع، ويتضح من كل ما تقدم أن الكفرة عاجزون عن المدافعة عن الأرض المصرية، أو مجابهة قوة حشودكم القادمة بالأعداد المذكورة، وإذا تفضل الرب القدير على شعبكم أن يتم بإخلاص الأعمال التي رجاله بصددها، أي أن يحتلوا مصر باسمكم ولحسابكم، فإنهم سوف يتمكنون من استغلال كنوز تلك البلاد، بشكل لا يمكن تصوره أو التعبير عنه، ذلك أن أرض مصر بالذات فيها منتوجات جمة، وتمر عبرها من مختلف المناطق بضائع ضخمة قادمة من الهند، حيث تصل إلى مصر، ومن هناك تصدر بسهولة إلى البلدان الغربية، وبفضل رضاكم سوف يبقى في مصر العدد الذي تريدونه لتولي الحفاظ على الأرض المكتسبة، بحيث يصير الحال أنه ليست أرض الميعاد المقدسة فقط، التي رزحت طويلاً مستبعدة من قبل الكلاب، ودفعت الجزية للمسلمين، سوف يحررها جيشكم — بعون الرب — بالقدرة والعنف، بل إن باقي الكفرة والمنشقين سوف يخضعون بدون شك للسلطة المسيحية، وسيعودون — بعد تركهم كلياً لمفاسدهم وتخليهم عن انشقاقهم، شاءوا أم أبوا إلى عبادة اسم يسوع المسيح، بينما يطاردهم سيف الصليبيين.

وإذا ما تفضل أحدهم وسأل مستوضحاً بدقة: كم ستكون كلفة

هؤلاء الفرسان والرجالة، بما في ذلك الأجور والمؤن وغير ذلك، في كل شهر، وكم ستكون كلفة السنة الأولى؟ أجيب بكل احترام: يكلف كل واحد من ثلاثين ألفاً من المسلحين ثلاثة فلورينات ذهب شهرياً، أي ما مجموعه تسعين ألف فلورين ذهب لهم جميعاً كل شهر، ويضاف إلى هؤلاء عشرة آلاف رجل، كل واحد منهم يساعد الآخر، وكلفة الواحد منهم خمسة فلورينات، أي أن مجموعهم تبلغ نفقاته خمسين ألف فلورين، وسوف تكون نفقات إطعام أربعين ألف مقاتل بالشهر الواحد عشرين ألف فلورين، أما الفرسان فمن الممكن حساب تكاليفهم مع الأجور والإطعام والأعلاف للخيول بثلاثين ألف فلورين ذهب كل شهر، أما بالنسبة للرسل الذين سوف يبعثون إلى التتار، مع ما سيحملونه من هدايا، فيمكن تقدير كلفة ذلك بخمسة آلاف فلورين شهرياً، وهكذا يكون المجموع العام شهرياً مائة وتسعين ألف فلورين أي في السنة اثنتين وعشرين مرة ضعف هذا المبلغ، ويبلغ ذلك كله ١٨٠,٠٠٠ فلورين، شرط — كما قلنا من قبل — أن يكون الناس من الصنف الجيد، أما نفقات السفن والأخشاب لصنع المساكن، والأسلحة، والتجهيزات كلها، للمحافظة على الجيش الموسوم بشارات الصليب، فإن ذلك قد يرتفع إلى مبلغ قدره ٢٠٠,٠٠٠ فلورين ذهب، وإذا ما أضفنا إلى هذا ما يصرف للأساقفة والرهبان، والكهنة العلمانيين، وللمرضى وللنساء وللغرباء، وغير ذلك من النفقات الواجب صرفها بكرم وسخاء، عندما يكون ذلك مناسباً، فلربما تصل النفقات في السنة الأولى إلى ٣٢٠,٠٠٠ فلورين، ولدى حديثي عن إطعام أربعين ألف رجل، فإن من المنطقي والطبيعي أن يكفي ذلك الإطعام خمسين ألف رجل،فيكون المبلغ الإجمالي العام ثمانية وعشرين مرة مائة ألف فلورين في السنة الأولى، إنما في السنة التالية، فالأمل بالرب، أن يكون مشروع مصر قد انتهى، ولن يكلف هؤلاء الرجال وسفنهم أكثر من اثنتين وعشرين مرة مائة ألف فلورين ذهب، وذلك لأسباب عدة، يمكن

الإشارة إليهـا في الوقت والمكان المناسبين، وبذلك تكون الكلفة الكاملة للسنتين خمسين مـرة مائـة ألف فلورين ذهب، على أساس أن قيمـة كل فلوريـن — كما أوضحنا في القسم الأول من كتـابنا الثـاني هذا — تسـاوي سـولديان فضـة كبار من نقـود البندقيـة، وهذا يكفي منطقيـاً، ويزيد عما هو مطلوب لإنجاز المهمات المذكورة.

الفصل الثامن والعشرون: أسئلة وأجـوبة حول الاعتراضـات المثارة ضـد قدرة المسيحيين: أي هل سيستطيعـون، بعد إخضـاع أرض مصر، مجابهة قـوات السلطان، لابل وقـوات المسلمين جميعـاً، ومن ثم متـابعـة العمل للاستيـلاء على أرض القدس وسـورية، وإيجاد حلول للمشـاكل الناجمة عن مجاورة القدس وسورية، ووسائل اكتساب صداقة التتار.

ولعل هناك من يرتـاب ويرغب في أن يسأل تـائـلاً: لقـد عـرضت وجهـة نظرك حـول طريقـة الاستيـلاء على مصر، وبينت كيفيـة ذلك، لكن، كيف يمكن احتـلال الأرض المقدسـة وسـورية، وهذا هو الهدف الذي يجب أن يوجـه إليه كل الانتبـاه، لا سيما وأنك لم تأت حتى الآن، إلاّ بشكل عام وعابر على ذكر هذا الهدف؟

هذا وإنه لأمـر معروف لدى الجميع أنه لا في القـدس ولا في سورية كلهـا أنهار وبحيرات وسبـاخ تجعلنا نعقـد الأمل على إمكانيـة تنفيـذ المشروع كما نرغب، وفق الطريقة الموصلة إلى نتيجة صالحة، كما قلت إنه سوف يحدث في مصر؟

وعلى هذا أجيب قـائـلاً: على كل مسيحي مخلص أن تكون لديه نيـة صـافيـة ومجردة، وهدف رئيسي يبتغيــه من هذا المشروع، وهو استرداد الأرض المقدسة كلياً، وإمكانية الحفاظ عليها بحالة آمنة ومزدهرة، ولهذا كله قلنا إنه ينبغي أن يبـدأ المشروع من شواطىء مصر، فبـدون ذلك لا مجال على الإطلاق لاحتلال الأرض المقدسـة، ولا للحفاظ عليها بسلام

من قبل المؤمنين، أمــا بشأن مـا قيـل بأنه لا يوجــد في القـدس ولا في سـورية أنهار ولا سبـاخ يمكن لجيشنا أن يتغلغل من خـلالها حتى ينزل الضربات المدمرة من أجل احتلالها في النهاية، فنقرّ أن ذلك لا يخلو من الصحـة، لكن يوجد هناك أيضـاً البحر، فتلك المناطق قـريبة جـداً منه، ومدنها إمـا موجـودة أيضاً، على شـاطىء البحر، أو بأمـاكن قريبـة منه، وعبر ذلك البحـر من الممكن القيام بأعمال كثيرة تجر الويلات الجسيمـة على الأعـداء، هذا ولئن تمت الأعمال المذكـورة ونجزت، سـوف يتحتم على قداستكم الاحتفـاظ بعدد لايستهـان به من الفرسان ومـن الرجالة البـواسل من أجل الاستيلاء بقـوة على القدس وعلى سـورية، كما ينبغي الاحتفاظ كـذلك بأسطول بحري من أجل نقل الخيـول بوساطة السفن المسيرة بالمجـاذيف، وكـذلك لحمل بقية العتـاد اللازم إلى تلك القـوات ومجدداً يمكن الاعتراض والقول:

كم هو عدد الرجـالة، والفرسـان الذين ينبغي نقلهم إلى القدس وإلى سـورية، حتى يمكن التغلب برجـولة على الذين قـد يكونون هربوا من مصر، وعلى الذين في القدس وفي سـورية، وعلى جميع الذين يكونون قد احتشدوا من جميع بلدان الكفرة، وانضموا إلى من هم أصلاً سكان تلك البـلاد، مع العلم أن قوة التتـار عظيمة، وكـذلك باقي الأتراك المسلمين القاطنين في الشرق، وفي أفـريقيا، ولا سيما إذا شعـرتم أن قواتكم بدأت تتناقص؟

وعلى هذا يمكننـي أن أجيب وأن أقـــول بكل صـــدق، مثلما قلت وأجبت مفصلاً في القسم الثاني من هذا الكتـاب، أي الكتاب الثاني: إذا قصد التتار أرض الميعاد وأرض سورية في أيام الشتاء، فإنهم في الصيف لن يكون ممكناً لديهم الاستمرار هناك بسبب شـدة الحر، الذي يسود في تلك البقـاع، وبسبب انعـدام المراعي، التـي لن تكون متـوفـرة لإطعـام مـواشيهم، ومن الممكن إعطاء الحكم ذاته بخصوص الأتراك وسـواهم

من الشعــوب والأمم التي قــد تأتي من الشمال لنجــدة تلك الأرض، خــاصــة أولئك الذين يتكلون في معيشتهم على الثروة الحيــوانيـة، كما ذكرنا.

فضلاً عما تقـدم، إنه إذا ما قدم إلى أرض الميعـاد التتار أو غيرهم من الشعوب الغريبة عن تلك الأرض، لتقديم النجدة والمساندة للمسلمين، فإن قدومهم بالذات سينقلب إلى هلاك لهم، أكثر من أن يكون ذا فائدة، إذ أنهم لن يستطيعـوا أكـل غـلات تلك الأرض، وإفـراغهـا من المواد الغذائية.

وعلى العموم يتوجب على قائد الجيش الصليبي التصرف بفطنة، وأن يرى مـا ينبغي عمله بالمكان والزمـان المناسبين، فيجـوب المدن في فصل الصيف، ويتـولى إقـامـة الأماكن الدفـاعيـة وبـ كل خـاص ورئيسي في المواقع القائمة على شاطىء البحر، وأن يضـع لحمايتها عدداً من الفرسان والرجـــالة، بأفضـل حــال ، بحيـث تكون مهمتهم الذهــاب والإياب والتجــول حسب الـزمـــان والمكان، وكما يطيب لـرغبــاتهم، فيتلفــوا المحـاصيل والمواد الغـذائية، وينـزلوا الدمار في تلـك الأقاليم بقـدر مـا يستطيعون.

وإذا مـا سأل سائل: كيف يمكـن اقتحام الأمـاكن الحصينة والكبيرة التي هي بحـوذة السلطان وجماعتـه في القدس وفي سـورية والاستيـلاء عليها؟

أجيبـه باختصار: إذا مـا أتلفت المواد الغـذائيـة في تلك المناطق، فإن الحاجة القصوى سوف تستبد بهم وتقهـرهـم، وفي النهاية بعد أمد قصير تراهم وقد تحتم عليهـم التخلي عن الأرض وعن الحصون، والجلاء عن البــلاد بسبب الجوع، ذلك أنه من غير الممكن أن يصـل إليهم أي دعم من أي مكان، بعـدمـا يكون المسيحيـون قـد سيطروا على البحـر، وعلى

أرض مصر، لأن أرض الميعاد المقدسة وسورية واقعتان هذه الأيام تحت سيطرة السلطان، وهذه البلاد مجاورة لمصر، كما أنها نتيجة لموقعها موجهة نحو الغرب، أي أنها واقعة تحت حكم البحر، لأنها محاطة من جانبين: من الجنوب ومن الشرق، بصحراء كبرى.

وإذا أضاف أحدهم ملحاً: أو ليس بالإمكان الإقامة في تلك الصحاري؟ فأجيب قائلاً: نعم وخاصة في البادية، فإن أرض حلب تنتهي حيث يسكن العرب الذين يدعون بالبدو، فقد سكن هؤلاء باستمرار منطقة البرية، وجميع مناطق البادية، وقد اتخذوا أماكن إقامتهم تحت الخيم، ويعيشون في معظم الأوقات اعتماداً على المواشي التي يربونها ويرعونها، ولدى هؤلاء خيولاً جيدة، وسريعة الجري،وهم تراهم تارة يؤيدون المسلمين الذين هم في مصر، ويؤيدون تارة أخرى التتار، الذين يتاخمونهم، خاصة في منطقة بغداد، حيث يسيطر أولئك التتار.

أما الأرض التي يحكمها السلطان من جهة الشمال، فإنها متاخمة للمناطق التي يسيطر عليها ملك أرمينيا، وفوقها المياه الباردة، المتاخمة لمنطقة التتار، حسبما تقدم بنا الذكر، وتمتد تلك المناطق من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، وجميع الأنهار الموجودة في تلك المناطق، واقعة في هذه الأيام تحت حكم السلطان، لذلك فإنه لا التتار، ولا أي شعب من تلك الشعوب، يمكنه أن يؤمن لهم الدعم، إلا بعد عناء شديد، وتكبد لنفقات هائلة.

وإذا ما اعترض معترض وقال: كيف يمكنك أن تدمر أرض الميعاد وسورية والسلطان مسيطر عليهما بعدد كبير من الناس، ولا شك أنك لن تتمكن من مجابهته في البسائط، وكيف سيكون بإمكانك إعادة بناء تلك المدن وتحصينها، وإنشاء الحصون حتى تتمكن من مجابهة طاقات السلطان وقواته؟.

وعلى هذا يمكن الإجابة والقول: بعد أن يكون البحر قد صار بأيدي رجالنا، وبعد أن يكونوا قد تمكنوا من التجول فيه بأمان، بأسطول يحمل أعـداد كبيرة من الناس، ناقلين معهم مـا يشـاءون من أعـداد كبيرة من الفرسان والرجـالة، وأن ينزلوا إلى الأرض التي يريدون الوصول إليها، ولاشك أنهم — بعون الرب — سيتمكنون مـن التنقل بأمان، والنزول إلى الأرض، وانتزاعها من الأعداء ببساطة، ومن ثم التمركز هناك بقوة، وبشكل لن يعود بإمكان أحد مقاومتهم فيه، أو إلحاق الأذى بهم.

ويمكنهم بالطريقـة نفسهـا مركـزة فـرسان ورجـالة على الأرض كما يرون ذلك مناسباً، وأن يشنـوا الغـارات على الأعـداء، وبهذه الطريقـة سيكون بإمكانهم تدمير المنطقـة وإتلافها بشكل لن يعـودوا قادرين فيـه على إيجاد طعـام، لأن شواطيء سـورية يقدر طولها بأربعـة آلاف ميل، وهذا يعنـي أن المسلمين لن يستطيعـــوا، بما لديهم من عنـاصر بشرية، حراسة السواحل ضد المؤمنين، الذين يستطيعون تدميرها متى أرادوا.

ولما تقـدم من أسبـاب، ولأسبـاب غيرهـا يمكن إضـافتهـا في المكان والزمان المناسبين، أقول بكل تواضـع واحترام: إنه قد اتضح بجلاء تام أنه بعد الاستيلاء التام على أرض مصر لن يتمكن الكفار من الدفاع عن القـدس وعن الأرض المقـدسة وسورية ضـد الصليبيين إذا مـا اتبعـوا الأسلوب والمخطط الذي ذكـرناه، وأيضاً كما بينا عن المناطق المذكـورة، وكذلك يندرج القول نفسه على كثير غيرها من الأراضي والمناطق حيث يسيطر الكفـار والمنشقــون، والسبب هو أنه عندمـا تصـــدر قـداستكم الأوامـر بتجهيـز ذلك الأسطول الكبير، وبإعـداد السفن المطلوبة لنقل الخيول، وأسطول آخر لنقل باقي العتاد اللازم للجيش، ولنقل الفرسان والرجالة، كي ينزلوا على الأرض كما يرغبـون، طالما أن السلاح مؤمن، والحماس مـرتفـع، وذلك حسب قـرارات قـــداستكم، وبعـدمـــا تكون سلطتكم الأبوية قـد وفـرت ما يمكــن من عون، ومـا يمكن استغـلاله

أيضاً من أرض مصر،وكذلك ما يمكن لقداستكم أن تأخذه من المؤمنين، ومن الخاضعين لسلطانكم، وإنه لا شك أن جميع المناطق الواقعة تحت سلطة بيزنطة، وهي هامة، وكذلك التي يحتلها الأتراك، أو تلك التي يحامي عنها اليونانيون المنشقون وغيرهم من الشعوب الذين يحكمون بعض المناطق ويخضعونها لسلطانهم، هذه كلها سيتمكن — بعون الرب — جيشكم المنظم — كما ذكرنا أعلاه — مع الأسطول، من إخضاعها، ومن ثم تدميرها، وبناء عليه سوف يسقط سكان تلك البلدان نهائياً تحت سلطانكم، وكما قلنا عن مملكة بيزنطة، مثل ذلك يندرج القول عن بلاد المغرب مع سائر الأقطار الأفريقية، وبعدما تكون قداستكم قد استولت على أرض مصر، من الممكن إدخال أسطول إلى بحر الهند، ليسيطر على ذلك البحر، وليخضع لسلطانه الأجزاء والأراضي الواقعة على شواطئه، وعلى مقربة منها.

وكذلك الأمر نفسه في أفريقيا، في ذلك الإقليم الذي كان موطناً للقديس أوغسطين ذلك الأسقف والأب المبجل، والعلامة النابغة.

وسيصير كذلك بالإمكان الحج إلى أماكن عديدة مكرمة ومقدسة، سكنها قديسون وأقاموا فيها، ولاسيما تلك التي تكرم يسوع المسيح فوطئها بقدميه المقدسيتن من أجل خلاصنا، هذا ومع مرور الأيام سوف يمكن لقداستكم تحقيق رغباتكم فيها، وبشأنها.

وكما سلف وبينا لن يستطيع التتار مجابهة المؤمنين إلاّ بمقاومة هزيلة، ومع هذا إنني أحبذ، وبالتالي أنصح باكتساب صداقة هؤلاء القوم، إذا كان ذلك ممكناً، حسبما جاء في القسم الأول من هذا الكتاب، حتى وإن تطلب ذلك عدم التقتير بالإنفاق، ولا يكفي أن نلتمس مودة التتار وصداقتهم، بل يحسن تحريضهم هم وسائر غيرهم من الشعوب لما يكون ضرورياً أو مفيداً لهذا المشروع، فإنه في مجال الحروب وعمل الجيوش جميع الضمانات مطلوبة وكذلك كل الاحتياطات والمبادرات

التي يشير بها الحكماء، وأهل الخبرة.

ولإنجاز كل هذه الأمور الصعبـة، لكن المثمرة، لايجوز مطلقاً التقتير في الإنفاق في سبيل هذه الغـاية الساميـة، كما أنه لا يجوز إرهاق الكنيسة المقدسة بأعباء هذه النفقات، فالأمل معقود على كل مسيحي مؤمن، مع الثقـة المتـوجبـة، حتى نستحق الـوصـول بسرور إلى تحقيق تلك الغـاية المتوخاة والسعيدة.

الفصل التاسع والعشرون: مذكـرة خاصـة بالأمراء والأعيـان الذين يفكرون بهدوء وعقلانية حول شؤون السلاح والحرب.

تأتي النعم كلهـا والهبـات من عند الرب، وبدونه لا يوجـد أي خير، ولهذا إن الانسان لا قيمـة له، ولا يعرف إلاّ بقـدر ما يوهـب،ولا يقدر إلاّ بمـدى ما يعطى من قبل الرب، وبالتـأكيد إن قـائد الجيش ومنظمـه بحاجة ماسة إلى نعمة الرب، ويلزمه أيضاً:

أولاً: سرعــة البـديهة، والاهتمام الحثيث والأخــذ بما يحقق النتيجــة الحسنة.

ثانياً: كرم وسخاء مع الانضباط اللازم.

ثالثـاً: عـدم الاستهـانة بأعـدائــه، مما يتحتم عليـه التنبـه والتجسس والإصغاء بعناية كبرى لأخبار كل ما قد يكون مضاداً له أو مؤذياً.

رابعاً: المحافظة على أتبـاعه وعدم تعريضهـم للخطر مهما كـان قليلاً، وعدم خوض معركة إلاّ إذا كانت المبادرة وجميع المعطيات لصالحه.

خامساً: أخذ الحيطة سلفاً لكل ما يكون ضرورياً، وخاصة فيما يتعلق بالقمح، فإن مشاريع كبيرة ممتازة قد أخفقت بسبب انعدام الخبز.

ســادسـاً: تقـدير الرجــال ومحبتهم والاهتمام بهم أكثر من الاهتمام بالأشياء.

سابعاً: تسيير الأمور وفق الطريقة التي تراها قداستكم نافعة، وأن لا يحيد عن الهدف المرسوم له.

ثامناً : إبداء الشفقة نحو الجميع، وعدم الاقدام على عمل لا يرتضيه لنفسه، وأخذ الحيطة والانتباه إلى شحن السفن في أرضكم بجميع ما يلزمها نوعاً وكماً.

تاسعاً: عدم إهمال الأمور الكبيرة بالانشغال بالأمور الصغيرة.

عاشراً: النظر بعناية إلى أوضاع شعبكم، أي إلى نوعية وأحوال الذين هم من سكان أرضكم، والاهتمام بالمحتاجين أكثر من الاهتمام بالمترفين.

حادي عشر: الالتزام بمبدأ أن البداية الصالحة، والطرق الثابتة، تنتج النهاية الحسنة.

ثاني عشر: إيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، فهذا ما حقق إزدهار روما، وتنفيذ أكبر قدر ممكن حسب المنطق، وليس حسب واقع الحال فقط.

ثالث عشر: الإصغاء إلى الجميع، والتقرير بعد ذلك مع القليلين.

رابع عشر: مكافأة الصالحين، و معاقبة الأشرار، فهذا ما سبب اتساع الامبراطورية الرومانية، ذلك أن الاسم الطيب خير من الثروات الكبرى.

خامس عشر: إكرام رجال الكنيسة المقدسة، ومعاملتهم باحترام، واستقبال التجار، والتعامل معهم بكياسة ولطف.

وحمداً للرب وشكراً له، وبركته على كل ما يتكرم به ويمن من نعم، آمين.

بسم يسوع المسيح الحي والحق

آمين

بعض أمور تتوجب معرفتها

التكتم رأس الفضائل، والبوح بالأسرار أس الرذائل، نكران الجميل ريح حارقة، تجفف ينبوع التقوى، وندى الرحمة، ونبع الحنان، ومن لا محبة لديه، لا يملك شيئاً.

يقول القديس[يوحنا] فم الذهب:«لا تنبني الحكمة على معرفة أقوال الرب، بل على العيش حسبها»،والطمع مصدر جميع الشرور، وما من فضيلة أعلى من الصبر، وأي شيء أفضل من الذهب: اللازورد، وأي لازورد؟المشاعر، وأية مشاعر؟ العقل وأي عقل؟ إنه الأسلوب.

وعندما يقدم الوثنيون إلى الكنيسة، ليصيروا مسيحيين، ينبغي ختم ما يتلونه من وصايا الرب بالحكم التالية:

الذي لا تريد أن يصنع لك، لاتصنعه لغيرك.

ينبغي النظر قبل كل شيء إلى الأمور حسب العقل، والتأكد بعد ذلك منها بالاختبار، حتى يتأكد العقل بالاختبار، أو بمثل حقيقي.

الإقدام بدون عقل، مثل سيف بيد مجنون.

يحكى عن أرسطو أنه بينما كان يسير اقترب من جبل، فسأله تلاميذه إعطاءهم إحدى الحكم، فقال: دخلت إلى هذا العالم باكياً، وعشت فيه قلقاً، وأغادره مضطرباً جاهلاً بلا معرفة.

يطلب مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، من أعمال البندقية، لنفسه ولذويه بخشوع وتواضع رضا قداستكم الممنوحة لكم من الرب إلهنا.

بداية الكتاب الثالث من هذه الرسالة

ومنه يمكن أن نعرف كيف ينبغي العمل للحفاظ على أرض الميعاد المقدسة في حالة جيدة وسليمة مطمئنة، وذلك بعد إخضاعها للسلطة المسيحية، في سبيل مجد الرب، وشرف الكنيسةالكاثوليكية.

ويتألف هذا الكتاب من مقدمة، ومقسم إلى أقسام وفصول.

عندما يتم بنعمة من الخالق احتلال أرض مصر،وأرض الميعاد المقدسة،وسورية بكاملها حتى«المياه الباردة» — حسبما ذكرنا في القسم الرابع من الكتاب الثاني،من هذه الرسالة — وبعد إخضاع الجميع للسلطة المسيحية، ذلك أنها الآن بأكملها تحت سيطرة سلطان مصر، ينبغي الانتباه، وتدبير الأمور أيضاً، بحيث تستمر المحافظة على تلك الأرض التي انتزعت من قوة الكفار، وذلك في سبيل مجد الرب، وازدهار الكنيسة الرومانية، ولكي ينعم جميع المؤمنين المسيحيين القاطنين هناك بحياة سليمة مستقرة، ومزدهرة مثمرة لشؤونهم الجسدية، وبالتالي لخلاص نفوسهم، هذا وقد قررت الحديث في هذا الكتاب أحياناً روحانياً، وأحياناً أخرى دنيوياً، وسأمزج أحياناً بين الأمرين حسبما تقتضي المادة ويستلزم الموضوع.

وبما أن ذلك لا يمكن أن يتم، أو أن ينفذ من دون عون القدير، المتوجب طلبه، ليس فقط للأمور الهامة والكبرى، بل أيضاً لأصغر الأمور، ومن يريد الحصول على تلك الحكمة، عليه أن يلتمسها بكل قواه مع عون المولى، أي أن يحب الرب فوق حب كل شيء، وأن يقدم الطاعة له والاجلال، وذلك حسبما نقرأ بحق في إنجيل القديس يوحنا الانجيلي الرسول قوله:«إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي

وعنده نصنع منزلاً. الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي»[يوحنا : ١٤ / ٢٣ — ٢٤]، وكما تكلم في المزامير قـائلاً:«إن لم يبن الرب البيت فبـاطلاً يتعب البناؤون، إن لم يحفظ الرب المدينة فباطلاً يسهر الحراس»[المزامير: ١٢٧ / ١ — ٢].

ولهذا حتى تتحقق المطلوبات بكاملها، وتستمر بثبات كما قلنا، ينبغي أن نخـاف الرب في كل شيء، وأن نقـدم له الاجـلال، حتى يتمكن كل من هو مخلص للرب، أن يسير بموجب هذه الطريقة وهذا الترتيب.

هذا وينبغي الاعتراف، والتأكـد من أن الضربات التـي نزلت بالناس منذ بداية الخليقة حتى اليوم، إنما نزلت بإذن من الرب، وقـد قُدرت إما لزيادة أجـرنا في الحيـاة الدنيـا، كما يقـول بولص الرسـول المجيـد:«وإنه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الرب»[أعمال : ١٤ / ٢٢]، أو أنها نزلت بسبب الخطايا الجسيمة، والآثام القبيحة التي تقترف فعـلاً في هذا العالم.

وعندمـا نقـول:إن المحن والمصـائب قـد أنزلت من قبل الرب، حتى نكسب أجراً أكبر في الحيـاة الدنيا، فإن هـذا ينطبق على أفراد معينين، لا على مجمـوع الناس ، وبناء عليـه إن النوازل والمحـن التي تنزل عـادة بسكان مملكة مـا، أو بـإقليم، أو بمـدينة، فإن نزولها هو عقـاب للآثام والذنوب القبيحة المقترفة هناك، كما نقرأ في الكتابات المقدسة.

فقد حل في أيام نـوح الطوفان بالمسكونة كلها، بأمـر من الذي يحكم من عليائه،وكذلك احترقت في أيام لوط خمس مدن فجأة، وخسفت إلى أسفل الأرض، وكان ذلك بسبب الخطايا، التي كانت وما برحت سبب جميع النوازل والمصائب والضربات.

وبناء عليه ينبغي تجنب الخطايا الجسدية والروحية، طالما أننا لا يمكن أن نحصل منهـا على منفعـة مفيـدة، أو على أية ثمـرة صـالحة، وبما أن

الأرض المقـدسـة تفوق بمكانتهـا كل مـا سـواها من الأراضي، ولأجل خـلاص الجنس البشري الذي أراد فـادينا أن يحققـه فيهـا، ولأنها سرة الأرض، يتوجب إجلالها أكثر من أية أرض غيرها في الدنيا، وهي أيضاً التي اختارها الرب، ولذلك بقدر ما نتجنب الخطايا فيها بعزم شديد — حتى لا نغضب الرب — بقدر ما يحبها بغيرة شديدة.

ولكي أستطيع الوصول إلى هدفي، وتحقيق مشروعي، خصصت جزءاً من هذه الرسـالة لذكر ما دونه بعـض العلماء وسواهم — وهم كثيرون — من معلومـات عن التـواريخ الشرقيـة، وخـاصـة تاريخ الأرض المقـدسـة، ولسـوف أدخلها في كتـابي هذا بإيجاز، وسأضيفهـا لإظهـار الحقيقة بجلاء أعظم.

بداية الكتاب الثالث من هذه الرسالة
ومنه يمكن أن نعرف كيف ينبغي العمل للحفاظ على
أرض الميعاد المقدسة في حالة جيدة وسليمة
مطمئنة، بعد إخضاعها للسلطة المسيحية،
في سبيل مجد الرب، وشرف الكنيسة الكاثوليكية.
ويتألف هذا الكتاب من خمسة عشر قسماً.
وسنكتفي بذكر عناوين الأقسام، باستثناء القسمين
الرابع عشر والخامس عشر، حيث سنوردهما كاملين.

الكتاب الثالث

في التعليم الأكيد والصادق لأجل امتلاك أرض الميعاد المقدسة، وتنميتها وحفظها

عناوين الأقسام

القسم الأول: حول الأمم المتعددة، التي توالت على الحكم في الأرض المقدسة، ويتألف من أربعة عشر فصلاً.

القسم الثاني: بداية قيام الكنيسة الشرقية، وهو في أربعة فصول.

القسم الثالث: الاضطهاد الاسلامي للكنيسة الشرقية، وتبيان أوضاعها المقلقة حتى قدوم الحملة الصليبية الأولى بقيادة غودفري دي بولليون، وبطرس الناسك، وهو في ثمانية فصول.

القسم الرابع: حول النهضة الرائعة لشعوب الغرب من أجل تحرير الأرض المقدسة، أيام بطرس الناسك، وهو في أربعة عشر فصلاً.

القسم الخامس: حول انتصارات الحجاج في مملكة القدس، والشقاقات بينهم حتى أيام الملوك، وهو في ثمانية فصول.

القسم السادس: تحرير كامل الأرض المقدسة، وتطور مملكة القدس في أيام ملوكها اللاتين، وهو في أربعة وعشرين فصلاً.

القسم السابع: صورة الأوضاع المزدهرة في الأرض المقدسة، أيام الملوك اللاتين، وهو يقع في ثلاثة فصول.

القسم الثامن: أسباب دمار أرض الميعاد المقدسة، وفقدانها في أيام صلاح الدين، وفيه ستة فصول.

القسم التاسع: ضياع أرض الميعاد المقدسة في أيام صلاح الدين، وفيه

ثمانية فصول.

القسم العاشر: النجدات التي قدمت من البلدان الغربية إلى الأرض المقدسة، أيام صلاح الدين، وفيه تسعة فصول.

القسم الحادي عشر: حملات جديدة إلى الأرض المقدسة، شرح لأوضاعها، وتقلب الأوضاع وتداول الحكم فيها، منذ وفاة صلاح الدين حتى صليبية القديس لويس، وفيه ستة عشر فصلاً.

القسم الثاني عشر: القديس لويس وحملته، مشاكل متواصلة ومتنوعة في الأرض المقدسة حتى طُرد الصليبيون منها، وفيه اثنين وعشرين فصلاً.

القسم الثالث عشر : بعض الأحداث والنتائج التي أعقبت الفقدان الكامل للأرض المقدسة، وهو في أحد عشر فصلاً.

القسم الرابع عشر: وصف أوضاع الأماكن، وبشكل رئيسي في الأرض المقدسة، وهو في اثني عشر فصلاً.

القسم الخامس عشر: الإجراءات الموائمة للحفاظ على الأرض المقدسة، مع تجنب العثرات والأخطاء الكثيرة التي ورد ذكرها، وهو في خمسة وعشرين فصلاً.

(القسم الرابع عشر)

الفصل الأول

وضع الأقاليم التي تحد الأرض المقدسة.

أرض الميعاد المقدسة موجودة في سورية التي تحتوي جميع البلاد من الدجلة حتى مصر، ويحدها من الشرق نهر الدجلة، ومن الجنوب الخليج العربي، ومن الغرب البحر المتوسط ومن الشمال أرمينيا وكبدوكيا، وهذه

البلاد، التي اسمها العام، هو سورية، مقسمة إلى عدة أجزاء أصغر، أولاها، سورية الأولى، وهي قائمة ما بين الدجلة والفرات، وهي تمتد طويلاً نحو الشمال ونحو الجنوب، أي أن نقول: من جبال طوروس حتى الخليج العربي، وهي تعرف أيضاً باسم سورية الجزرية، ومن أجل عرض حولها انظر القسم الخامس — الفصل الأول، وفيها تقع الرها، التي دعي فيها توبيت باسم راغس Rages ، وتعرف بشكل عام باسم«الرسا» Resse ، وهي واقعة على مسافة أربع عشرة فرسخاً فيما وراء الفرات، بين جبال طوروس وجبال القوقاز Caucasus ، ومن أجل عرض حولها انظر القسم الخامس — الفصل الثاني، وقد اتخذ هذا القسم الشمالي لنفسه اسم المنطقة كلها، وصار يعرف بشكل دقيق باسم سورية الجزرية، وفي هذه المنطقة أيضاً نينوى وبابل، وزيادة على هذا، سورية هذه مقسمة إلى مقاطعات هي، ميديا، وأكاد، وفارس، كما هو موضح على المصور.

أما سورية الثانية، فتعرف باسم سورية المجوفة(البقاع)، وهي ممتدة من جبال طوروس حتى نهر أبانا، الذي يدخل البحر عند مدينة بانياس، أمام قلعة المرقب، وأنطاكية هي المدينة الرئيسية في سورية هذه.

وتدعى سورية الثالثة باسم«فينيقية» وهي تبدأ عند نهر بانياس المتقدم الذكر، وتمتد جنوباً حتى خربة دستري، التي تعرف باسم دستركتوم Districtum ، تحت جبل الكرمل، وهي تعرف الآن باسم قلعة الحجاج(عثليت)، وتمتد نحو الشرق حتى مدخل حماه، وبناء عليه إنها تحتوي على كفر نعوم(كفر لام)، والمرقب، وطرطوس، ومدن أخرى، والمدينة الرئيسية فيها هي صور.

وتدعى سورية الرابعة باسم سورية دمشق، لأن المدينة الرئيسية فيها هي دمشق، وتدعى أيضاً باسم سورية لبنان، لأنه يوجد فيها جبل لبنان المشهور، كما أنها تدعى بالغالب ببساطة باسم سورية، كما يقول

إشعيا:«رأس سورية(آرام) دمشق»[إشعيا :٧ / ٨]، فضلاً عن هذا تدعى ثلاثة أجزاء من فلسطين بالسورية، وبناء عليه إن الجزء الخامس من سورية هو فلسطين، وهو يدعى بشكل صحيح باسم الفلسطيني، والمدينة الرئيسية في هذا القسم قيسارية، وهو يبدأ عند قلعة الحجاج[عثليت]، ويمتد نحو الجنوب، مماشياً لساحل البحر المتوسط حتى غزة.

وسورية السادسة، هي فلسطين الثانية، التي المدينة الرئيسية فيها هي القدس، وهي تحتوي جميع المنطقة الهضبية حتى البحر الميت، وإلى قفار قادش — بارينا Barnea ، وبشكل دقيق تعرف هذه المنطقة باسم اليهودية، وهو اسم جزء أطلق على الجميع.

وسورية السابعة هي الجزء الآخر من فلسطين، والمدينة الرئيسية فيه هي مدينة بيسان، عند سفح جبل جلبوع، قرب الأردن، ويضم هذا الجزء الخليل، وسهل جزريل الكبير، ومثل هذا تدعى الأجزاء الثلاثة من العربية باسم السورية، وبناء عليه هناك سورية الثامنة، التي المدينة الرئيسية فيها هي بصرى، وهي تعرف الآن باسم بصريث، وفي قديم العصور باسم برسا، ويحدها منطقة الطرخونية بوساطة الايطورية في الغرب، وتمتد حدودها في الشمال تقريباً إلى دمشق، ونظراً لقرب هذا الجزء من العربية من دمشق، فقد دعي في بعض الأحيان باسم سورية الدمشقية، ولهذا السبب عرف أرتاس[أرتاس الأول — المكابيون ٢ / ٥ / ٨] باسم ملك العربية، في حين أنه كان في الواقع ملك دمشق.

وسورية التاسعة، هي منطقة العربية، التي المدينة الرئيسية فيها هي البتراء، وهي قد عرفت بالقديم باسم النبطية، وأر، وآريوبولس، وهي قائمة عند بركة أرنون ، وعند حدود المكابية والعمورية، وهي قد احتوت مملكة صهيون ملك هشبون، ومملكة عوج ملك باسان، وجبل جلعاد، وتتصل في الجنوب بالعربية الأولى.

وسـورية العــاشرة، هي التي في العـربيـة، ومـدينتهـا الرئيسيـة هي مـدينة(مـونريال» التي تعـرف الآن بـاسم الكرك، وقـد عـرفت هذه في الأيام الخوالي باسم البتراء في القفار، وهي قـائمة فيها وراء البحر الميت، ولها السلطان فـوق أراضي مـآب، التي قد تعـرف أحيـاناً باسم سـورية سـوبال Sobal، وتحتـوي في داخلهـا على جميع منطقــة أدوم، التي هي جبل سعير مع جميـع الأراضي حــول البحــر الميت ، حتى قــادش — بارينا، وإلى عـزيون — جـابـر، وميـاه الصراع، على الطريق الذاهب إلى البحر الأحمر، وعبر القفار الشاسعة، حتى إلى الفرات، وهذه هي العربية الكبيرة، والأولى، وتعرف أيضـاً بالعربيـة الأدومية، أي المقدسـة، ففيها توجد مدينة مكة، وهي المدينة التي يُعبد فيها محمد(ﷺ)(كذا).

الفصل الثاني

المنطقة الساحلية لسورية كلها

لدى خـروج الانسان من آسيـا الصغرى، يجد درباً ضيقـاً بين الجبال وبين البحر، وهـو الذي يدعى باسم بوابة سورية[عمـود يوحنا، أو ممر بيــلان]، وبعـد سفــر نصف يوم من هذا المكـان باتجاه الجنوب، يصل الانســان إلى اسكنـدرونة، وخلف هذا يعبر الجبل الأســود(اللكام أو الأمانوس)، وبعد سفر نصف يوم آخر يصل الانسان إلى قلعتي بغراس ودربسـاك عند سفح الجبل(اللكـام)، ويقـوم البحـر على مسـافـة عشرة أميـال من أنطاكيــة، وهناك ميناء اسمـه السـويديـة، أو ميناء القـديس سمعـــان، ومن أجل عــرض حـوله، انظـر القسم الخامس — الفصل الرابع، والقسـم السـابع — الفصل الأول، ومن ميناء القديس سمعـان إلى رأس البسيط عشرين ميلاً، ومن البسيط إلى أوغـاريت عشرين ميلاً، ومن أوغاريت إلى اللاذقية عشرة أميـال، ومن اللاذقية إلى جبلة عشرة أميال، ومن جبلة إلى بـانياس خمسة أميـال، وعلى بعد خمسـة أميال وراء بانياس، وعلى فرسخ واحد عن البحر، تقوم قلعة المرقب الحصينة جداً،

التي امتلكهـــا فيها مضى الاسبتــاريــة، وعند النهــر الـذي يمــر عبر بانياس(انظر الفصل الأول) تنتهي إمارة أنطاكية، وتبدأ كونتية طرابلس، والمسافة من المرقب إلى طرطوس عشريـن ميلاً، وتعرف طرطوس باسم أنطروس، لأنها قائمـة أمام أشعة الشمس، [كـذا والصحيح لأنها مقابل أرواد]، وأرواد جزيرة قـائمة في عمق البحـر، على مسافـة نصف فرسخ من اليـابسـة، وهناك عليهـا مـدينة بنيت من قبل أراديوس ابن كنعـان، وفيها وجد القديس بطرس أم القـديس كليمنت، وكان القديس بطرس في طريقـه إلى أنطاكيـة، وقـد بنى هناك[في طرطوس] كنيسـة صغيرة كـرسها على اسم العـذراء المباركـة، وقد قيل بأن هذه أول كنيسـة بنيت على شرفهـا، ولهذا قامـت أم الرب المباركـة بكثير من المعجـزات هناك، ولهذا فإن هذه الكنيســة مبجلة حتى مـن قبل الكفـار، وإلى جـــانب طرطوس، وعلى بعـد نصف فرسخ إلى الشرق هناك جبـال، يسكن فيها بعض المسلمين، وتدعى هذه المنطقـة باسم بلاد الحشيشية، وفيهـا حكم من قبل شيخ الجبـل، وهو الذي ســوف نتحـدث عنه فيما بعــد، وعلى مسافة ثمانية فراسخ من طرطوس تقوم قلعـة عرقة، التي بناها عرقة ابن كنعـــان، (القســم الامس — الفصل الســـابع)، وهنا تنتهـي سلسلة لبنان[الغربية] وكذلك سلسلة لبنـان [الشرقية]، وعلى بعد نصف فرسخ من قلعـة عرقـة تقع بلدة سين[مـوقع غير معـروف — التكوين :١٠ / ١٧] التي بنيت من قبل سينوس بـن كنعـان، ويدعـو بعض الناس هذه القلعة سينوكيم Sinochim ، ويمتد من هذه البلدة والقلعة سهل جميل وخصب ليصل حتى قلعة الكرك، التي كانت فيها مضى بيد الاسبتارية، ويمتـد هذا السهل لمسـافة عشرة فـراسخ حتى طرطوس، ويحتـوي على عـدد كبير من القــرى، والحدائق الجميلـة التي فيهـا أشجــار التين، والزيتـون، ومـا شـابه ذلـك، وفيهـا أعـداد كبيرة من الجداول والمراعي الخصبة، ولها السبب يسكن هناك في الخيـام التركمان، والمدينيين والبدو، مع أزواجهم وأولادهم وقطعـانهم، والجانب الشرقي من السهل محدود

بجبال ليست كبيرة الحجم، وتبدأ من هناك من مقابل عرقة، وتمتد بعيداً حتى بعلبك، ويسكن هناك مسلمون يدعون الباطنية، وهم جماعة شجعان بواسل يكرهون الصليبيين، وعلى بعد مسافة عشرين ميلاً من طرطوس تقوم مدينة طرابلس، التي يمكن أن نقرأ حولها في الفصل السادس الفصل الثامن عشر، وعلى مسافة خمسة أميال من طرابلس تقوم أنفة(رأس شقعة جنوب طرابلس — نفين)، وعلى خمسة أميال من نفين تقوم البتروم التي تعرف بشكل عام باسم البترون، وعلى بعد أحد عشر ميلاً من البترون تقوم بيبلوس، التي تعرف بشكل عام باسم جبيل، وهي إيفيا Evea القديمة التي أسسها إيفيوس بن كنعان، ومن أجلها انظر الفصل السادس — القسم الثامن عشر، وعلى بعد خمسة أميال من جبيل تقوم مدينة بيروت، التي من أجلها انظر القسم السادس — الفصل السادس، وعلى مسافة ثلاثة فراسخ من هناك، باتجاه البترون، وبواسطة النهر(الذي يعرف باسم نهر الكلب)، هناك مكان يعرف باسم ممر الكلب، وهنا تقوم الحدود بين بطريركية أنطاكية، وبطريركية القدس، وليس بإمكان إنسان اجتياز ذلك الممر أبداً، إلا برضا المسلمين، لأن بإمكان عدد صغير منهم الدفاع عن ذلك الممر والتحصن به ضد أي عدد كان، لأن الممر هناك قائم بين جرف جبلي حاد والبحر، وعرضه ليس أكثر قامة واحدة، وطوله حوالي ثلاثة أرباع الفرسخ، ومن أجل الحصول على عرض حول هذه الأماكن انظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، وتقوم صيدا على مسافة عشرة أميال من بيروت، التي تدعي بشكل عام باسم ساغيتا Sageta ومن أجلها انظر القسم السادس — الفصل السادس، وعلى بعد فرسخين من صيدا تقوم الصرفند، التي تقدم وصفها، وعلى فرسخين من الصرفند يقوم نهر الليطاني، الذي ينبع من إيطورة، عند لحف حاصور، وهو يجري أولاً باتجاه الشرق، ثم باتجاه الغرب، ويجري مجتازاً قلعة كوكب، قرب جبل الشيخ، الذي إلى حده طارد يشوع الأربعة والعشرين ملكاً[يشوع :

١١]، وإلى هذا المكان نفســه طارد يوناثان ديمتريوس(المكـابيـون: ١ / ١٢)، وهو الذي يمركـز البحر بين الصرفند وصـور، وعلى بعـد ثلاثة فراسخ من نهر الليطاني تقـوم صور، التي دفن فيهـا أورجين، وفي صور كثير من آثار القديسين، لأنه في أيام ديوكلتيان، الرب وحده يعرف عدد الذين تسلموا تاج الشهادة هناك، وقد تحدثنا الكثير عن صور في القسم السادس — الفصلين: الحادي عشر والثاني عشر، وفي القسم السابع — الفصل الأول، وعلى بعد فـرسخ واحد وراء صور يقوم«بئر مـاء الحياة» المشهـور، ويقـوم على مسـافـة قـرابة رميـةسهم الطريق الذي يؤدي إلى الأماكن التـاية. والتي تأتي مياهه(Cant, 4 - 15) على شكل جدول من لبنان، ومع أنه يدعى بئر، بـالمفرد، هناك أربعـة آبار بالشكل نفســه، لكن تختلف بالحجم، وواحـد منها مـربع وطول جـوانبه أربعين ذراعـاً، بينما مقيـاس الثلاثة الأخـريات حـوالي خمسـة وعشرين، وكلها مسيجـة بأربعـة جـدران من حجـارة كبيرة جـداً،وقـد بنيت بشكل من المتعـذر تهديمــه، وهي بارتفـــاع رمح، لابل أعلى، وهكذا تتجمع الميـــاه فيهم، وتجري من هناك بكل اتجاه خارج الجدران، ومثل هذا هناك مجاري مياه عميقـة وعريضـة بقدر خطوة إنسـان، ومياه هذه المجـاري تروي سهل صور، وتبعد هذه الينابيع مقـدار رمية سهم عن البحر، ومع ذلك تحرك دواليب ستة طواحين، وعلى هذا النبع ينطبق قول الالهي تماماً(الالهيات : ٢٤ / ٣١):« إنني ســوف أروي أفضل حــدائقي، ولســوف أسقي بكميات وافـرة أرض حديقتي، وانظروا لقد أصبح جـدولي نهراً، وغدا نهري بحراً»، وقد تقدم وصف هذا أعلاه في القسم السادس — الفصل الثـامن عشر، وعلى مسافـة تزيد قليلاً عن فـرسخ واحد عن البئر تقـوم قلعــة اسكندرون، التي تقـدم ذكــرها في القسم الســادس — الفصل الثـامن، وعلى بعد ثـلاثة فراسخ من اسكنـدرون، وبعد عبـورك لرأس الناقـورة، وعند لحف الجبل هناك تقـوم قلعـة حمصين(لمبرتي — امبرتي) وذلك على شاطىء البحـر، والمكان هناك مكان مليء بالحدائق، والكروم

والمياه الجارية، وعلى بعد أربعةفراسخ خلف قلعة حمصين تقوم عكا، التي تدعى أيضاً بتولمياس وأبيرون، ولم يتملك بنو إسرئيل هذه المدينة قط، ومن أجل عرض حولها انظر القسم السادس — الفصل الرابع، وعلى بعد ثلاثة أميال من عكا تقوم مدينة حيفا، الواقعة عند سفح جبل الكرمل، وفي جانب الشمال، وعلى فرسخ من حيفا هناك الطريق الذي يقود إلى قلعة الحجاج[عثليت]، وبعد حوالي نصف فرسخ، وعلى جبل الكرمل نفسه يوجد كهف إيليا، ومسكن اليشع، والبئر حيث قطن أبناء هذا النبي، وفيها بعد سكن الرهبان الكرمليون فوق جبل الكرمل، وعلى مسافة ثلاثة فراسخ من حيفا تقوم قلعة عثليت، التي امتلكها فيما مضى فرسان الداوية، وهي قلعة على درجة عظيمة من الحصانة، كما أنها قائمة في أعماق البحر، وبعد ثلاثة أميال من قلعة عثليت تقوم قيسارية فلسطين، ويقدر إطار هذه المنطقة بعشرين ميلاً، ومن أجل عرض حولها، انظر القسم السادس — الفصل الرابع، وعلى مسافة فرسخين من قيسارية يقوم حصن أرسوف أودورا[الدورة هي الطنطورة إلى الشمال من قيسارية]، ومحيط هذه المنطقة خمسة عشر ميلاً، وكانت بالعادة ملكاً للداوية، الذين اعتادوا — حتى بعد فقدانهم لها — على دفع ثمانية وعشرين ألف دينار سنوياً إلى صاحب أرسوف، ومن أجل عرض حولها، انظر القسم الثالث — الفصل الرابع، وعلى بعد ثمانية فراسخ من أرسوف، تقوم يافا، الواقعة على شاطىء البحر، ومن أجل عرض حولها، انظر القسم السادس — الفصل الثالث، وعلى بعد عشرة أميال من يافا(؟) تقوم قلعة بيروالد Beroald (خرائب إلى الجنوب من يبنى اسمها مينة القلعة) وعلى مسافة عشرة أميال من قلعة بيروالد تقوم عسقلان، ومن أجل عرض حولها انظر القسم السادس — الفصل الثامن، وعلى مسافة خمسة عشر ميلاً من عسقلان تقوم غزة، ومن أجل عرض حولها. انظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، ومن غزة إلى الدارون(دير البلح) خمسة عشر ميلاً، ومن أجل عرض عن

الدارون، انظر الكتاب الثاني — القسم الرابع — الفصل الثامن عشر، وهنا نهاية أرض الميعاد، وقد تقدمت بعض الاشارات إلى الأماكن السالفة الذكر في الكتاب الثاني — القسم الرابع — الفصل الخامس والعشرون.

الفصل الثالث

وضع الأماكن الرئيسية في أرض الميعاد المقدسة

تمتد أرضُ الميعاد طولياً من دان، القائمة عند سفح جبل لبنان، في الشمال، إلى بئر السبع، القائمة قرب قفار مصر، ومقدار ذلك ثلاثة وثمانين فرسخاً، أما عرضياً فتمتد من البحر المتوسط في الغرب، مسافة ثمانية وعشرين فرسخاً نحو الشرق، ودعونا نتصور أن أرض الميعاد مقسمة بوساطة خطوط مستقيمة إلى ثمانية وعشرين قسماً، تمتد من جبل لبنان إلى القفار، التي من خلالها تذهب إلى مصر، وتقسم مثل هذا إلى ثلاثة وثمانين قسماً بوساطة خطوط مستقيمة ممتدة عبر الخطوط المتقدمة من الغرب إلى الشرق، وبذلك يحصل لدينا عدد كبير من المربعات، مساحة كل واحد منها فرسخ واحد أو ميلين، وفي الفراغ الأول، أو الفراغ الأخير، الذي هو باتجاه الشرق، ويبدأ في الشمال ويمضي نزولاً نحو الجنوب توجد«أر» التي هي الآن ايروبولس أو بترا، ويوجد في المربع السادس والسبعين بتراء القفار،أو الكرك، ومن أجل عرض حولها انظر القسم السادس ـ الفصل الثامن والفصل الثامن عشر، وفي الفراغ الثاني، والمربع الثاني عشر، توجد بصرى التي هي الآن آدوم، وفي الفراغ الثالث، والمربع الخمسين توجد حسبان، وفي المربع الحادي والستين توجد القريات، وفي الفراغ الرابع والمربع السادس والثلاثين توجد الماخور، أو محانيم التي هي الآن حيلون(كذا وحيلون واقعة إلى غربي البحر الميت)، وهذا هو المكان الذي اختبأ به داود، وسجن به يوحنا المعمدان، وفي الرابع عشر عير AYR أو أنوث سير Anothseyr

[تيروس — عراق الأمير — في جنـوب جلعاد]، وفي السادس سيـزين Sethyn ، وفي الفـراغ الخامس والمربع الثـامن بعلجـاد، وفي الحادي والعشرين جدر[أم قيس] وهي مـدينة مسورة مشهورة على جبل سنير، ومنها يمـر الطريق الذي يمضي من آخون Achon مماشياً الشاطىء لبحيرة طبرية، ويعبر جدر إلى آرام، ولهذا دعـاه اشعيا — ٩ — «طريق البحر» لأنه يمضي مسايراً شاطىء بحيرة طبرية، ويعبر الوادي في أرض عـاشر، الذي يدعـى الآن وادي القـديس جـرجس، الذي تقـع مدينة السلط على جـانبـه الأيسر[البعنة شرقي عكا — مزار الخضر]، ويدعى هذا القسم باسـم «جليل الأمم»، ويدعى أيضـاً: مـا وراء الأردن، لأنه يقود إلى ما وراء الأردن أي إلى البلاد التي اسمها آرام، ويقال أيضاً بأن هذه المنطقـة واقعـة في جليل الأمم، لأن الجليل نفسهـا تنتهي هناك عند الأردن، وفي الفــراغ الســادس والمربع الثــالث عشر، منطقـــة السـواد(الجولان)، التي جاء منهـا بلداد السـوادي، وقرب أسـوار هذه المدينة، وفي الناحية المتجهة نحو جدر، اعتاد المسلمون من دمشق، وبلاد الرافدين، وحران وسورية، ومآب، وعمان، ومن جميع أجزاء الشرق على الاجتماع معاً، حـول نبـع مـزيريب Phiale ، ولأن المكان جميل هناك كانوا يقيمـون سوقـاً يدوم خلال الصيف، وينصبـون الخيام من مختلف الألوان، التي تعطي منظراً جميلاً جـداً للناظر من مدينة جـدر، وعرفت هذه الخيـام في مـزامير سليمان باسم خيـام جـدر، وفي المربع التـاسع والثـلاثين تقـوم بيسـان، وفي المربع الثـالث والخمسين جـازر، والفـراغ السـابع والمربع الحادي عشر يوجـد ضريح يعقـوب(الشيخ سعـد في حوران — سورية) وعلى فرسخ واحـد من هناك يبدأ الصعود إلى جبل سنير، وفي المربع الرابع والعشرين تقـوم جـدر، وفي الثـالث والثـلاثين عفريم Ephraim (عفرون)، وفي السادس والعشرين فانويل Pha-nuel (بنويل) وفي الثامـن والثلاثين يابسlabes (جبش جلعاد)، وفي الخامس والأربعين العـال، وفي الخمسين سرتان Sartan (زرتان شرقي

الأردن)، وفي الثامن والخمسين كنيسة القديس يوحنا المعمدان، عند المكان الذي جرى تعميد المسيح فيه(قصر اليهود)، وفي الثاني والستين عين غليم(عين حجلة) عبر البحر الميت، وفي الفراغ الثامن، والمربع الثلاثين تقوم فحل، وفي الحادي والأربعين أرنون، وفي الزابع والأربعين بيت جشموت(السويمة)، وفي الحادي والستين بيت حجلة(قصر حجلة) فهناك بكى بنو إسرائيل على أبيهم يعقوب، عندما جلبوه من مصر، وهو بعيد عن الأردن مقدار فرسخ واحد، وفي الفراغ التاسع، والمربع الثاني والعشرين كورزيم Chorazim (خرسا) وذلك عند بداية بحيرة طبريا، وفي السابع والعشرين خرسا(جرش) التي منها أخذت منطقة جرش اسمها، وفي الثامن والثلاثين اسكوت(تل درعلة)، وفي الثامن والخمسين أريحا، التي تقدم وصفها في القسم الأول — الفصل الثالث، وفي الثالث والثمانين طلعة الدم [Afasantomar ?] ، وفي الفراغ العاشر والمربع الثامن والثلاثين توجد سليم، وقد بنى في الحادي والأربعين مذبح بحجم مدهش، وفي التاسع والأربعين توجد عين دوك، ويوجد خلفها في الجانب الشمالي بلاد تمبني Tampne [هضبة إلى الشرق من جبال السمرتان شروعاً من تمون جنوباً]، وفي عين دوك أسر بطليموس بن أبوبوس سمعان المكابي[المكابيون : ١ / ١٦ ١٥ — ١٦] بعمل خياني، وهناك من عين دوك منظر بهي نحو الشرق باتجاه بسغا Pisgah وإلى الجنوب حتى إلى أريحا، وفي السادس والخمسين تقوم جلجل، وهو المكان الذي خُتن فيه بنو إسرائيل، وأقاموا لمدة طويلة، وعلى مقربة من جلجل يأتي وادي عكور Achor (في وادي القلط)، وفي الفراغ الحادي عشر تنفصل لبنان عن جبل الشيخ، حيث تقوم دمشق بعيداً عن سفحه في الجهة الشمالية، وقد تقدم وصف دمشق في القسم السادس — الفصل التاسع عشر، وفي هذا الجزء من الجبل هناك الطريق الذي يقود إلى حماه، وفي المربع العشرين هناك جبل يعرف باسم«جبل المائدة»، حيث أطعم الرب هناك وأشبع خمسمائة رجل،

وهناك وعظ بقـداس فـوق الجبل، وأمضى الليل في الصـلاة، ويستطيع الإنسـان أن يرى من هذا الجبل جميع المنطقـة من حـوله لمسـافـة عشرة فراسخ وأكثر، وهذا الجبل طوله رميتي سهم وعرضه رمية حجر، وعند سفحـه هناك نبع، قـرب بحيرة طبريـة[منيـة، أو عين تبغـه] وعلى بعـد ثلاثين خطوة منهـا، المكان الذي يدعـونـه باسم عـرق النيل، لأنه ينتج سمك Corconus الذي هو غير مـوجـود في أي مكان آخر سـوى في النيل، وعلى بعـد عشريـن خطوة من ذلك النبع، وعلى طـول سـاحل بحيرة طبرية، ظهر المسيـح لسبعة من حوارييـه، عندما كـانوا يصطادون السمك، وعلى مسافة عشر خطوات بعد ذلك هناك المكان، الذي أشعل فيه الحواريون النار، بعد خروجهم من السفينة، ووضعوا سمكة فوقها، وفي المربع الحادي والعشرين توجد كفرنـاحوم[تل — حوم]، وهي على مقـربة من الشواطىء الشمالية لبحيرة طبرية، على بعـد فرسخين، ففيـه اعتـاد النـاس على رؤية البيت والمكان الذي اعتـاد معشرو الملك على الجلوس فيـه(بيت صيـدا)، ومنـه استـدعي متى من قبل المسيح، وفي الحادي والخمسين تقـوم فصيـل(عين فصيل)، وذلك على بعـد ثلاثة فراسخ من الأردن في منطقة منبسطة، حيث يجري جدول كيرث Che-rith نازلاً من الجبل، فهناك سكـن إيليـا عندمـا جلبت الصقـور اللحم له(الملوك ١ — اصحـاح ٢١)وفي السـابع والخمسين جبل القـرنطل، حيث صام المسيح، غير أنهم أعلنوا أنه أغوي فـوق جبل آخر، على بعد فـرسخين، نحو بيت إيل وعـاي في الجنوب، ودون جبل القـرنطل على بعـد رميتي سهـم منه هناك نبع اليشع، الذي جعل ميـاهه حلوة، وهو يتـدفق حـول جلجل على الجانب الجنوبي من هناك، ويدير هناك ثلاثة طواحين، وينقسم بعـد هذا إلى مجريين للماء، يسقيـان كثيراً من الحدائق، ويصبان أخيراً في الأردن، وفي الفراغ العشرين، والمربع الثاني والعشرين تقوم بيت صيدا، التي هي مـدينة بطرس، وأندرو، وفيليب، وهي قائمة إلى جانب طريق يقود من سورية إلى مصر، إلى حيث يبدأ البحر ينعطف

نحـو الجنوب، وفي الثامـن والعشرين طبريا، التي منهـا نالت البحيرة اسمهـا فصارت تعـرف باسم بحيرة طبريا، التي كـانت تعرف بالقـديم باسم جنسارث، وهي تمتد بعيداً على طـول شاطىء البحر، ويوجد على الجانب الجنوبي حمامات دوائية، وعند طبرية تنتهي المنطقة المعروفة باسم منطقـة المدن العشرة، التـي حـدودها: مـن الشرق بحيرة طبريا، ومن الغرب صيدا، وهذا هو عرضها، أو طولها فيمتد مسايراً شاطىء البحيرة من الشمال، انطلاقـاً من طبرية نفسهـا حتى دمشق، وقـد عـرفت باسم منطقـة«المدن العشرة» بسبب مـدنها العشرة الرئيسيـة، التي هي: طبرية، صفـد، قادش، نفتـالي، حـاصور، قيسـارية ،كفـر ناحوم، جتـابرة، بيت صيدا، جـرزيم وبيسان التي تعـرف أيضاً باسم سكيـزوبولس، ويطلق على هذه المنطقة عـدة أسماء مختلفة، ذلك أنها تعرف أيضـاً باسم «منطقة المدن العشرة» وايطورية، والراحـوب، وكـابول، وجليل الأمم، ومهما يكن الحال تصل ايطـورية حتى بيروت، التي هـي قـائمـة على بعـد عشرين فرسخاً إلى الشمال من صيدا، وفي المربع التاسع والخمسين تقوم قلعة ادوم(طلعـة الدم)، التي تقوم على الجانب الأيمن، على الطريق من القـدس حتى أريحا، وفي المربع الثـاني والسبعين توجـد هيروديوم(جبل الفـريـديس) حيث كـان هيرود قـد دفن، وفي السـابـع والستين تقـوم مسعـدة، التي هي قلعـة حصينة لا ترام، بنيت من قبل هيرود فـوق تلة حقيلةHachilah ، وفي الفـراغ الثـالث عشر، والمربع الرابع والعشرين، تقوم المجـدل، التي هي قلعة مريـم المجدلية، وهي تمتلك سهـلاً واسعاً موائماً للرعي، وذلك على طرفيها الغربي والشمالي، وفي السابع والأربعين توجد عمان، القائمـة في مكان بديع، مليء بجميع أنواع الأشياء الجيدة، — وفي السـادس والخمسين تقـوم عـاي، التـي تقـدم ذكـرها في القسم الأول — الفصل الثالث، وفي التاسع والستين تقوم مدينة الزيب، وعلى مقـربة من القفار، وهي تعـرف باسم الزيف، فهناك أخفى داود نفسـه، ويقع إلى الجنوب منها مباشرة قفار معين، التي يوجد فيها جبل الكرمل،

حيث سكن نابال Nabal ، وفي الفراغ الرابع عشر، والمربع الثاني توجد صوبا، التي دعيت في مزمور سليمان باسم برج لبنان، وفي الخامس عشر قادش — نفتالي(قدس) التي جاء منها برق بن أبي نعوم، الذي قاتل ضد سيسرا فوق جبل الطور، وكانت هذه إحدى مدن اللجوء، وكانت خصبة جداً، وفي الثالث والأربعين بيت أوليا، وفي الحادي والثلاثين قلعة كوكب الهوا Belvoir وفي الرابع والثلاثين بيسان التي تعرف أيضاً باسم سكيزوبولس، وهي قائمة فيما بين جلبوع والأردن، وعلى أسوارها كانوا قد علقوا رؤوس شاؤول وأولاده، وفي الثالث والأربعين تل أوزه(أوتياسير — شمال شرق شكيم) حيث حكم ملوك إسرائيل أولاً، وفي الرابع والخمسين تقوم بهوريم Bahurim وصخرة بوهان Bohan ، وفي الثالث والستين تقوم تقوع، حيث ولد عاموس، وهناك دفن بعدما طعنه الملك آحازيا بمدية في جبهته، وتقع هذه المدينة على مقربة من قفار تقوع، وبين تقوع وعين الجدي يقوم وادي التبريك، حيث هزم يهوشافاط(شعفاط) الأدوميين وبني عمون، وفي الفراغ الخامس عشر والمربع الثلاثين (يوجد المكان حيث) قاتل برق ضد سيسرا، وفي الثالث والثلاثين(مكان) آخر معارك شاؤول، وفي الرابع والخمسين توجد شجرة نخيل دبورة التي نقرأ عنها في سفر القضاة: ٤ / ٥(نخلة دبورة في عطارة شمالي البيرة) وفي الخامس والخمسين بيت إيل أو لوز،حيث رأى يعقوب السلم، وفي السابع والخمسين عفريم(عفرة — الطيبة)، وفي التاسع والخمسين بيت حاني، وفي الثاني والستين مجدل عدر، وفي السابع والستين بيت صور، وفي الفراغ السادس عشر والمربع التاسع عشر، توجد صفد، وفي الثاني والعشرين نفتالي — توبيت، وفي الخامس والعشرين دوثان[خان جب يوسف]، عند سفح جبل بيت أوليا، وهو مكان غني بأشجاره ومروجه، وفي هذا المكان يمكن رؤية الجب الذي ألقي فيه يوسف، وهو على مقربة من الطريق الذي يقود إلى جلعاد، وهو الذي يتصل في بيت صيدا بالطريق

الذاهب من سورية إلى مصر، ويصعد هذا الطريق من دوثان قرب جبل بيت أوليا، ومن هناك يستمر عبر سهل أسدرايلون(مرج ابن عامر) وذلك على طول سفح جبل الطور، وعلى الجانب الأيسر عبر سهل مجيدو، حيث يصعد جبل عفرة، ويمر عبر غزة إلى داخل مصر، وتطلق كلمة دوثان على كل من البلدة والوادي، وحدث في وادي دوثان أن قام السوريون بالإحاطة باليشع(الملوك ٢ — اصحاح ٦)، وقد قادهم إلى وسط السامرة، وفي السابع والثلاثين البيرة، وفي الخامس والأربعين دان، حيث كان العجل الذهبي، وفي السادس والخمسين رامه، وهم يعتقدون بأن هذا المكان قد ذكر من قبل إرميا:«في الرامة سمع صوت»، وهناك رامه أخرى قرب تقوع، على الطريق الذي يقود إلى الخليل، وأخرى في منطقة سبط نفتالي، ليس بعيداً عن قلعة صفد، وأخرى قرب Sepploni، وكذلك أخرى قرب شيلوه، وهؤلاء جميعاً يقعن فوق تلال، وهناك أيضاً رامة أخرى قرب اللد، حيث تقدم ذكرها في القسم السادس — الفصل الرابع، وفي التاسع والخمسين القدس — المدينة المقدسة، التي تقدم وصفها في القسم السابع — الفصل الثاني، وفيما سيأتي في الفصل السابع، وفي الحادي والستين قبر راحيل، وفي السبعين الخليل، وذلك إلى اليمين من ممرا، وتقوم الخليل القديمة حيث حكم داوود لمدة سبع سنوات، فوق رابية على اليمين، وهي مهدمة، وعلى بعد ثلاث رميات سهم إلى الجنوب من هناك تقع الخليل الجديدة، حيث يوجد الكهف المزدوج، وعلى بعد رمية سهم طويلة إلى الغرب من الكهف يوجد حقل دمشق، الذي تقدم ذكره أعلاه(القسم السابع — الفصل الثاني)، وعلى رمية سهم نحو الجنوب، حيث يحفرون في الحقل، يوجد المكان الذي قتل فيه قابيل هابيل، وعلى بعد رميتي سهم من هذا الحفير نفسه، وذلك إلى الغرب، على تلة إلى الجانب الجنوبي من الخليل القديمة، هناك وسط الصخور كهف قياسه ثلاثين قدماً بالعرض، والقياس نفسه بالطول، حيث ناح آدم وحواء على هابيل، ومن الممكن

رؤية مكان فـراشهما هنـاك، مع نبع مـاء يتـدفق هنـاك، وفي الثـالث والسبعين دبير أو قريات — سفير(الظاهرية)، وفي الفراغ السابع عشر، والمربع السـادس توجـد لكش التي استـولى عليهـا أبناء دان، وسمـوها ليسدان Lesedan ، اشتقاقاً من اسم أبيهم، وهي تعرف أيضاً ببساطة باسم دان فقط، وقيسارية فيليب، وتعرف الآن باسم بانياس،وأمام باب هذه المدينة يلتقي(نهرا)«أر» و«دان» ويشكـلان نهر الأردن، وفي الثـالث عشر خيمة حابر القيني، وفي السـابع عشر كابول(النبي سبلان)، ويطلق المسلمون على هذا المكـان اسم قلعة زبلون، واسمها هذا لا يتـوافق مع مـا جـاء في الملوك الأول — الاصحـاح التـاسع، وفي الرابع والعشرين إربد، وفي الحادي والثلاثين المكان الذي قـاتل فيه جدعون ضـد أمالك Amalek ، وفي الثالث والأربعين سبسطية أو السامرة، وكان منظر هذه المدينة في غـاية الجمال ويشرف على منظـر بهي فـوق البحـر، وهي الآن نابلس، على بعد رميتـي سهم من بئر يعقوب، حيث نقـرأ عنه في يشوع — الاصحـاح الرابع(؟)، وعلى الطرف اليمين تقـوم جـرزيم، التي من المعتقد أنها المكان الذي أشـارت إليه المرأة السامرية عندمـا قالت:«تعبد آباؤنا في هذا الجبل»، وعلى الجانب الأيسر البلدة التي يعتقـد أنها شكيم القديمـة، أما شكيم الثانيـة فمن المعتقد أنها قـرية طوباس، وهما تبعدان عن بعضهما بعضاً مقـدار رميتي سهم، فضلاً عن هذا فإن الأرض التي منحهـا يعقـوب إلى يـوسف مـلاصقـة لهذا البئر، وهـي واد طويل، وخصب، وفـائـق الجمال، وقـد دفنت عظام يوسـف في شكيم، وفي الخامس والخمسين جبعه شاؤول حيث قتلت الـزوجة اللاوية(القضاة : ١٩ / ١٤)، وحيث كـان شـاؤول قـد ولد(صمـوئيل الأول : ١٠ / ٢٩)، وفي السـابع والخمسين Astaroth (? Anathotl) [عند عطارة قـرب جبعـة]، وفي الحادي والستين بيت ساحـور العتيقـة، وفي الثـالث والستين بـزت(غـــربي بيت لحم)، وفي الســـادس والستين بيـت هكاريم(جبل الفريديـس)، وهي مدينة قائمـة فوق رابية مـرتفعة،حيث

يمكن منها رؤية العربية كلها حتى جبل سعير، وأماكن اختباء داود، وجميع المناطق المحيطة بالبحر الميت حتى جبل عبريم، وإلى الغرب جميع شاطىء البحر من رامة الخليل حتى بئر السبع وقفار شور، وفي التاسع والستين ممرا حيث سكن إبراهيم، وكانت هناك البلوطة التي حدثنا إرميا بأنها بقيت حية حتى أيام الامبراطور ثيوديوس، وقد تابعت باستمرارنموها، وغدوها أكبر، ومنها نمت البلوطة التي يمكن رؤيتها في هذه الأيام هناك، والتي هي محل تبجيل، وهذه الشجرة، وإن كانت جافة، لقد تبرهن أنها دوائية، لأنه إذا ما حمل فارس قطعة منها معه، فإن فرسه لن يصاب بالعرج، وفي الفراغ الثامن عشر، والمربع الحادي عشر، توجد حاصور، وهي مدينة حصينة جداً(يشوع ١١ / ١)، وفي الحادي والعشرين تقوم NAASON في الوادي، وتقوم في الثلاثين عين دور، وفي الخامس والثلاثين جرزيل، على الجانب الغربي من جبل جلبوع، وذلك فوق مكان مرتفع بعض الشيء، وهي تعرف الآن باسم زرعين، وأمام أبوابها يمكن رؤية كفر نابوت، وينبع إلى جانب المدينة نبع، وعلى بعد رمية سهم عن جرزيل هناك مشهد فائق الجمال، إنه مشهد الجليل كله حتى جبال فينيقية وجبال الطور والكرمل، وجبل عفريم، وفي الثامن والثلاثين توجد زمين أو زليم(سيا) حيث شفا المسيح المصابين بالجذام(لوقا : ١٧ / ١٢)، وفي السادس والأربعين هناك الهيكل فوق جبل جرزيم، الذي تقدم ذكره أعلاه(القسم الأول — الفصل العاشر) وهناك يوجد أمامها عيبال حيث بنى يشوع مذبحاً وقدم ضحايا إلى الرب، وكتب أيضاً سفر التثنية، وتبعاً لبعض الروايات الوصايا من واحد من الاثنين، وقد وضع قسماً من الشعب مع كاهن ولاويين فوق عيبال، وقسماً آخر مع كهنة ولاويين فوق جرزيم، وقد طلبوا التبريكات واستنزلوا اللعنات بالتناوب حسبما أمرهم موسى، وفي التاسع والأربعين لبنه(في خان لُبّن)، وهي قرية جميلة، وهناك لبنة أخرى في منطقة سبط يهودا، وفي الثامن الخمسين تقوم بيت عور التحتا،

وفي الحادي والستين بيت زكريا،(كذا والصحيح أن بيت زكـريا في عين كـارم) حيث حيث مـريم ايزابل، وفي الفـراغ التـاسع عشر والمربع السادس والعشرين تقـوم رومة حيث كان يونـه قد دفن ومن هناك نقل إلى المشهد (Ravenna) ، وفي الثامن والعشرين الطور،وفي الثلاثين نين، حيث أقـام المسيح ابن الأرملة من الموت، وفي الثالـث والثلاثين قاتل أهاب ضـد السوريين. وفي الخامس والثلاثين قتل الفرعـون نيخو Necho يوسيا Josiah ، وفي السادس والخمسين شيلوه فـوق رابية، ويعـرف هذا المكان الآن باسم النبي صمـوئيل، وهو على بعد أكثـر من فرسخ من جبعة شاؤول، والمسافـة نفسها من الرام، وهناك رقد التابوه، وخيمـة العهـد، الذي صنعـه مـوسى، وفي السـابع والخمسين الجيب(جبعـون) الذي جاء منه الجبعـونيـون، وعقـدوا معـاهدة مع يشـوع(يشـوع: ٢٢) عند سفح رابيـة، وفي الثـامن والخمسين بيت نوبة(صموئيل الأول: ٢٢ / ١٩)، حيث أمر شاؤول بقتل الكهنة، وفي الثـامن والستين ناحـال اشكـول(وادي اشكول) حيث حمل رجـلان عنقـوداً من العنب(العـدد : ١٣ / ٢٢)، وفي الفـراغ العشرين، والمربع الرابع والثلاثين سـولم[شولم] على لحف جبل الشيخ، وذلك على الجانب الأيسر للطريق الذي يقـود إلى جـرزيـل، وغـالبـاً مـا طرق اليشع هذا المكان وهو على طريقـه من الكرمل إلى جلجل[الملوك الثـاني: ٤ / ٨]، وعبر من هناك من خلال بيسان في المنطقة السهلية للأردن، لأن الطريق أقل مـرتفعـات، ومن شـونم جـاءت أبيشج الشـونميـة، الفتـاة التي احتضنت داود[الملوك الأول:١]، وفي السـادس والأربعين كفر حـارث، حيث دفن يوشع، وفي الثـامن والخمسين تقـوم سكوز Succoth ، وفي التـاسع والخمسين عمـواس، التي هـي سيكـوبولس (Nicopolis)Sycopolis ، وبصعـوبة تـدعى بيـت لحم، بيت لحم اليهودية، لتمييـزها عن الأخرى الموجـودة في عفريم(عين شمس)، وفي السـادس والستين زكـلاج Ziklag [في تلال الخليل]، وفي الفـراغ

الحادي والعشرين، والمربع التاسع عشر القديس جرجس(اللد)، حيث من المعتقد أن ذلك القديس قد ولد، وهي قرية قائمة في منطقة تلية، في وادي جميل وخصب يمتد حتى بحيرة طبريا في منطقة سبط أشير، التي قيل عنها في سفر التكوين:«أشير خبزه سمين»[تكوين :٤٩ / ٢٠]، وفي السابع والعشرين توجد الناصرة، وفي الثلاثين المزرعة، وفي الحادي والثلاثين قلعة الفولة، ورامة الفولة، ووراء الطريق الذي يقود إلى جرزيل، وفي سهل جرزيل الكبير أو سهل مجيدو، وهو أيضاً يدعى باسم سهل الفولة، أو الجليل الأدنى، أو سهل منطقة الجليل، ويمتد هذا السهل من طبريا مروراً ببيت لحم إلى مجيدو وجبل عفريم ثم يعود عبر جبل الطور وبيت أوليا إلى طبريا، وفي الثالث والخمسين عين عريك(إلى الغرب من النبي صموئيل)، وفي السابع والخمسين قريات — جيريم، وفي الحادي والستين المكان الذي جرى تعميد الخصي فيه(عين — حنينا)، وفي الثاني والعشرين، والمربع الرابع عشر توجد تيرون(تبنين)، وهي قلعة حصينة جداً بنيت من قبل صاحب طبرية من أجل الدفاع ضد صور، وهي على سبعة فراسخ من صور، ومن أجل صور انظر القسم السادس — الفصل الخامس، وفي الثاني والعشرين قانا الجليل، وفي الخامس والعشرين الصفورية، التي من أجلها أنظر القسم السابع المقبل، وفي الخامس والخمسين مسيدا Maceda [أو مكيدا Makkedah شرقي اللد، وربما قرب وادي عجلون]، وفي السابع والسبعين تل الصافي[قرب بيت جبرين]، التي من أجلها أنظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، وفي الفراغ الثالث والعشرين، والمربع الثامن والعشرين القلعة الملكية(معليا في التلال شرقي عكا)، وكانت ملكاً لطائفة فرسان التيوتون، وهي مليئة بالفواكه وجميع الأشياء الجيدة، والفواكه قليلة من حولها، وفي الخامس والثلاثين مجيدو أو الزوبا(في مرج ابن عامر)، وفي السابع والخمسين لكش Lachish (شرقي الرملة)، وفي الثاني والستين قبر المكابيين(المعروف أنه قرب

اللطرون)، وهذا يمكن رؤيتـه من البحر،لأن المكان يقف مـرتفعاً، وفي الثـاني والسبعين تمنه(تبنه)، وفي الفراغ الرابع والعشرين، والمربع الثـامن عشر تقع قلعـة مـونت فـورت(القـرين)، وفي المربع التـاسع عشر هناك قلعة كـانت ملكاً لفرسان طائفة التيـوتون، فوق جبال سهل ابن عـامر، وفي التـاسع والعشرين تـل القيمـون، حيث قتل لامخ قـابيـل بوسـاطة سهم، وفي السادس والثـلاثين قاقون، أو منحته(كـذا ولا علاقة بينهما)، وفي الخمسين شـارون(سهل يـافـا)، فـوق جبل شـارون، وفي التـاسع والخمسين بيـت شمـس، وفي الســـــادس والسبعين بئر السبـع أو جبلين(بيت جبرين)، وقـد تقـدم وصف هذا المكان في القسم السـادس — الفصـــلان الخامس عشر، والثـــامـن عشر، وفي الفـــراغ الخامس والعشرين والمربع الحادي والخمسين تقـــوم اللـد أو ديوسيبـــولس، وفي الفـــراغ الســـادس والعشريـن، والمربع الخامس والخمسين رامتـــايم صـوفيم(صمـوئيل الأول: ١)، التي هي الرملة الآن(كـذا) وقـد تقـدم وصفهــا في القسم الســادس — الفصل الرابع، وفي الفـــراغ الســابع والعشرين، والمربع الســابع صرفنـد الصيـداويين، وأمـام البـاب الجنوبي يمكن رؤية بيعـة قـائمـة في المكـان الذي جـاء فيـه النبي إيليـا إلى المرأة الصرفندية، وسكن هنـاك، وأقـام ابنهـا مـن الموت، زيادة على هذا، من الممكن رؤيـة الغـــرفـــة الصغيرة التي سكن فيهـــا، وفي الخامس عشر اسكندرون، التي تقـدم وصفهـا أعـــلاه في القسم الســادس — الفصل الثـــامن، وفي الســـادس والعشرين المكان الذي قتـل فيـه إيليـــا أنبيـــاء بعل(الملـوك الأول: ١٨)، وفي الحادي والستين عقـــرون، وفي الخامس والستين أشدود، التي من أجلها انظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، وفي الفـراغ السـابع والعشرين، والمربع الثـــالث صيـدا، التي هي مدينة عظيمة، كانت قائمة في سهل طويل، يمتد من الجنوب إلى الشمال، عند سفح جبـال لبنان الغـربيـة، وقـد بني بين خـرائبهـا مـدينة أخـرى صغيرة، لكنها حصينة، وهي قائمة من أحد الجوانب في البحر، ولها من

جـانبيهـا قلعتين حصينتين، تقـوم إحـداهما في الشمال فـوق صخـرة في البحـر، وقد بنيت هناك من قبل حجـاج ألمان، أمـا الثانيـة ففي الطرف الجنوبي، فـوق تلة، وامتلك فيها مضى هاتين القلعتين مع البلدة فرسـان الداوية، والأرض هناك خصبـة جداً، والهواء لطيف جـداً، وفي الثالث عشر، صور ، وفي الثـامن عشر عكا، وفي السابع والعشريـن حيفا، التي من أجلها انظر القسم السـادس — الفصل الثالث، وفي الثـلاثين قلعة الحجاج[عثليت]،وفي الأربعين قيساريـة، وفي السابع والأربعين أرسوف أو الطنطورة أو Antipatris ،وفي الثـالـث والخمسين يـافـا، وفي الخامس والخمسين ميناء اليهـود(مينة روبين — شمالي يبنا)، وفي السـابع والسبعين غزة، ومن أجل هؤلاء جميعاً انظر الفصل المتقدم.

الفصل الرابع

أوضاع الجبال في المنطقة الواقعة فيها وراء الأردن، نحو الشرق

يمتـد جبل الشيخ فيها وراء الطريق الذي يقـود إلى حماة، الذي تقـدم وصفـه في الفصل السـالف، وانتبـه إلى أن في لبنان وجبل الشيخ وسعير أو سنير(كذا وسنير هو جبل الشيخ) وجلعاد، والمنطقـة التلية حول نبع أرنون، والهضاب بين عمان ومآب والعمـورية، كلها جبل واحد متصل، مع أن أجزاء متعددة منه تحمل أسماء مختلفة بسبب ارتفاع قممها، وأعلى هؤلاء جميعاً هو جبل جلعاد، وبنـاء عليه يمكننا الاستماع إلى إرميا وهو يقول:«جلعاد أنت لي، رأس من لبنـان»[ارميا : ٢٢ / ٦]، ونقبل صحة ذلك حرفياً، ويمتد جبل الشيخ المتقدم الذكر حوالي عشرة فراسخ، ومن بعـد ذلك تنعطف سلسلة الجبـال وتستـدير نحـو الجنوب، ويدعى أول هذه الجبـال باسم جبل سعير أو سنير، وهـو ينتهي عند سفـوح جبل جلعـاد عند مكان يطل مواجهـاً مدينة بيسـان وجبل جلبوع، وآخـرهم ويدعى أيضـاً سعير، وهـو ينتهي قـرب القفـار، عند النهـاية الجنوبيـة لأرض الميعـاد، وهناك حسبما جـاءنـا الخبر في سفـر التكوين[١٤ / ٦]

ضرب كدر لعومر والملوك الآخرين الذين معه الحوريين في جبلهم سعير،لكنه لم يكن آنذاك يعرف باسم سعير، ذلك أنه حمل اسم سعير لأن عيسو الذي حمل الجبل اسمه منه لم يكن قد ولد بعد، ولهذا من المعتقد أنه دعي بهذا الاسم عن طريق التوقع واستباقاً للحدث، ونقرأ في سفر التثنية — الاصحاح الثالث(كذا):«أنتم مارون بتخم أخوتكم بني عيسو الساكنين في سعير»[التثنية : ٢ / ٤]، وقد قيل هذا في قادش — بارينا، عندما كانوا على وشك القدوم إلى جبل سعير هذا،لأننا لم نقرأ أن بني إسرائيل قد جاءوا في ذلك الوقت إلى جبل سعير هذا، الذي هو قريب من دمشق، وقد سكن عيسو في هذا الجبل عندما رجع يعقوب من بلاد الرافدين، حسبما قرأنا في«التكوين:٣١»، وذلك عندما أمسك لابان بيعقوب عندما أستلب على جبل جلعاد، وكذلك ما جاء في الاصحاح التالي من أن يعقوب عندما كان على طريقه التقى ملاك الرب وقال له:«هذا معسكر الرب»، فالمكان موجود على ذلك الجبل نفسه، ومن هناك أرسل رسلاً إلى عيسو،وعاد الرسل إليه وأخبروه بأن عيسو كان قادماً لمقابلته، ومعه أربعمائة رجل، وبناء عليه أمضى يعقوب في المعسكر — أي محنايم — تلك الليلة، وأرسل هدايا إلى أخيه، ونهض باكراً، وأخذ زوجتيه وأولاده، واجتاز مخاضة يبوق، التي تبعد حوالي ثلاثة فراسخ عن محنايم، وفي الاصحاح الثاني والثلاثين، رأى عيسو قادماً، إلخ، وجاء بعد هذا:«فرجع عيسو ذلك اليوم في طريقه إلى سعير»(تكوين:٣٣ / ١٦)، وهذا لا يمكن فهمه حسبما أشير إلى سعير، الذي هو قرب القفار، إلى الجنوب، لأنه بعده يزيد على مائة ميل، وذلك بسبب مختلف الزوجات اللائي تزوج منهن، فقد كانت عنده زوجه هي أهوليبامة بنت عنى بنت صبعون الحوي، الذي سكن في سكيزوبولس أو بيسان قرب بحيرة طبرية وغير بعيد عن جبل سعير، وزوجة أخرى هي بسمة ابنة إسماعيل، وأخت نبايوت، وقد سكن أبناء حوز في جبل آخر اسمه سعير ليس بعيداً عن قفار فاران، على مقربة من

مكان إسماعيل، جدهم لأمهم، الذي أخبرنا عنه في«التكوين ٢١» بأنه سكن في القفار، وصار رامياً بالقوس، وهناك أيضاً جبل ثالث اسمه سعير على حدود أشدود وعسقلان، في حصة ميراث سبط يهوذا، والذين سكنوا هناك عرفوا باسم الأدوميين، وإليهم ينتسب أنتباس Antipas، وابنه هيرود، وكل من ينتمي إلى عسقلان يدعى أدومي، ويمكننا أيضاً أن نقسم جميع الأرض فيما وراء الأردن هكذا: وأول منطقة إلى الشمال هي الطرخونية، وقد عرفت بهذا الاسم بسبب قلة ماء المطر، غير أنهم يجمعون ماء المطر في صهاريج وبرك وينقلونه من مكان إلى آخر بوساطة طرخونات(أنابيب مثل الأفاعي)، وعرفت هذه المنطقة في«يشوع ١١» باسم سهل لبنان، وهو يمتد حتى جمالا(الحصن شرقي بحيرة طبريا) وإلى بحيرة طبريا، وهناك في المقام الأول أرض عوص، وفي القسم التالي إلى الجنوب نصف سبط منشا، ثم يلي ذلك سبط جاد عند سفح جبل جلعاد، ثم سبط رأوبين، بما في ذلك مملكة سيحون ملك هشبون، ويلي هذا منطقة مآب السهلية دون جبل عبريم، في شطيم، حيث نزل بنو إسرائيل هناك لمدة طويلة أمام أريحا، وتمتد أرض مآب حتى البتراء في القفار، مسافة عشرين فرسخاً تقريباً، ويأتي أخيراً جزء من أرض عمون التي تمتد طولياً لتغطي طول البحر الميت، ويصل طرفها الجنوبي حتى ما حول جبل سعير، بقفار فاران قرب قادش — بارينا، وهناك على هذا الطرف قفار سيناء والبحر الميت، غير أن منطقة مآب ومنطقة عمون لم تكونا جزءاً من أرض الميعاد.

الفصل الخامس

وضع الجبال الرئيسية على هذا الجانب من الأردن

يبدأ لبنان بعد جبل الشيخ(انظر الفصل الثالث) وجبال لبنان الشرقية حيث حاصور على نهر الليطاني(القسم السادس — الفصل السادس)، وتمتد هذه لمسافة سفر خمسة أيام، وخمسة فراسخ دون طرابلس، ودون

هذا إلى الجنوب، يـأتي جبل شـارون(جبل يافـا)(انظـر الفصل الثـاني المتقـدم) وعلى مسافـة فـرسخ طويل واحـد من عبلين Abilene يقوم جبل بيت أوليا حيث قتلت يهوديت هولوفرنس، ومن الممكن رؤية هذا الجبل من جميع أجزاء الجليل تقريباً، ويمتد باتجاه الغـرب ليصل إلى قانا الجليل، وعلى مقربة منه في الجهة الجنوبية الوادي في سهل دوثان، حيث غسلت يهوديت نفسها، وهو الذي اجتازته عندمـا عادت إلى بيت أوليا، ودون هذا الجبل نفسـه، في جهـة الجنوب، يوجـد سهل يمتـد من قـانا الجليل حتى صفـورية، وهوسهل خصب وجميل، ويأتي بعده جبل آخـر نحـو الجنوب، وهو الذي يمتـد من الناصرة في الغـرب حـوالي الثمانيـة فـراسـخ إلى الشرق، حيث دوثان(خـان جب يوسف)، وعلى بعـد فـرسخين من الناصرة يقـوم جبل الطور، الذي سيأتي وصفـه فيمايلي في الفصل السابع، وفيما وراء جبل الطور، نحـو الشرق يقوم وادي شوى، الذي هو وادي الملك، وعلى بعـد فـرسـخ واحـد من جبل الطور يقـوم جبل النبي ضـاحي(حـرمـون الصغير)، وهو هضبـة صغيرة، روابطهـا حرمـونية، وهي أرض مرتفعـة وليست جبلاً، وهي متصلة بجبل الطور وفـوقهـا عين دور، حيث سكنت المرأة التـي كـانت فيهـا روح عـادية(صموئيل الأول:١٨)، ويمتـد حـرمون، الذي على طرفـه الشمالي نعيم Naim، حوالي أربعـةفراسخ حتى نهاية بحيرة طبرية، وعند سفح جبـال الناصرة، والطور، وحـرمـون، وإلى جـانب البحـر، يقـوم جبل الكرمل، الذي في نهايتـه القصوى، وذلك نحـو الجنوب الشرقي قتل لامخ قـابيل بسهم، ومـن أجل وصف للكرمل انظر مـا تقـدم، وإلى الجنوب خلف حـرمـون هناك جبـال جلبوع، وهي تمتـد من بيسـان إلى جرزيل نحو الشرق لمسافة ثلاثة فراسخ، وعلى بعد قرابة رمية سهم من هذا المكان، ينبـع نبع جـرزيـل، حيث نصب الفلسطينيـون معسكرهم عندما كان شاؤول في جلبوع، وهناك مجرى مـاء آخر يسيل من حرمون بين هذا النبع وبيسـان، ويجتمع بهذا النبع، ويتـدفقـان معاً عبر وسط

الوادي إلى الأردن، ومقياس هذا الوادي حوالي الفرسخين بالعرض، وفيه قاتل جدعون ضد مدين Midian [القضاة: ١٢]، وقاتل أهاب ضد السوريين[الملوك الأول:٩] وكان ذلك في هذا السهل أيضاً، على الجانب المتجه نحو الأردن، لأنه الوادي المشهور، الذي يمتد بعيداً حتى البحر الميت، وبعد جلبوع ونحو الجنوب، تأتي البيرة، حيث تبدأ جبال السامرة، وبين هذه الجبال والأردن حوالي الثلاثة فراسخ، وتقع فيها أرض تمنه(تمّون)، التي تحتوي على جبال عالية جداً، وهي تمتد نزولاً إلى المنطقة السهلية للأردن، وأما الجبل الذي تقوم عليه البيرة،فيبعد مقدار فرسخين، وهو ينشطر إلى جبلين باتجاه الجنوب، وعلى أحدهما، وهو الذي قائم في الغرب، والذي هو جبل مرتفع، وضع فيه يربعام واحداً من العجلين الذهبيين، ووضع العجل الآخر على بعد نصف فرسخ، على جبل أعلى قائم باتجاه الشرق، ومهما يكن من أمر، فإن بعضهم يعتقد بأن ذلك قد كان في دان، التي تدعى ليش Laish ، وتقوم في الوادي بين هذين الجبلين شكيم التي هي نابلس الآن، وهي مكان فائق الجمال، لكن لا يمكن تحصينها لأن الحجارة من الممكن رميها من الجبلين هناك، ومن أجل عرض عن هذين الجبلين، انظر الفصل الثالث، ويأتي بعد هذا إلى الجنوب المنطقة التلية لليهود ية والقدس، ومن أجل عرض عن القدس، وصهيون، والجوار، انظر الفصل السادس، والفصل السابع، ومن أجل القرنطل، انظر الفصل الثالث، وتقع عين الجدي وراء القرنطل باتجاه الجنوب، وعين الجدي جبل مرتفع كثيراً على الشاطىء الغربي للبحر الميت، ولهذا الجبل شكل غريب حيث فيه شعاب صخرية منزلقة ووديان، وفي عين الجدي اعتادت نباتات البلسم على النمو، لكن في أيام هيرود صاحب عسقلان، أخذت الملكة كليوباترا هذه النباتات إلى مصر، بفضل مساعدة مارك أنطوني، وفي مصر يستطيع المسيحيون فقط العناية بها، وعند نهاية عين الجدي يقوم جبل الكرمل، حيث سكن نابال، ووراء ذلك تقوم عمالق -Am

alek، وبعد ذلك بـاتجاه البحر الأحمر تقوم قـادش — بارينا، التي منها أرسل مـوسى الجواسيس، وقد أقـام بنو إسرائيل هناك لمدة طويلة، ومن هناك أمروا بالارتحال حول جبل سعير الموجود في أدوم قرب قفار تل معين، نحـو الجنوب — الشرقي، ومن هناك رجعوا بوسـاطة طريق البحـر الأحمر، وجرى وصف قفـار تل معين في الفصل الثـالث، وجبل بيت لحم في الفصل العـاشر، وجبل رامـة في الفصل الثـالث، وليكن في هذا كفاية فيما يتعلق بالجبال.

الفصل السادس

مجاري المياه والأنهار في الأرض المقدسة

ينبع الأردن من سفح جبل لبنان(الفصل الثـالث)، ويقـولون بأن نهر دان ينبع من نبع اسمــه بركـة الرام(Phiale) التي تراها دومـــاً مليئة لكنها لم تفض قط، وهي قـائمة في الفراغ السـادس والمربع الثامن عشر، ويقــولـون بأن سبب هذا، لأنهم وضعـــوا قشـاً في ذلـك النبع فـوجـدوه ثانيـة في دان، ولهذا السبب قالـوا بأن ذلك هو النبع الحقيقي للأردن، ولهذا السبب أطلـق المسلمـون على ذلـك النبع اسم«ميـدان»، وهذا ترجمة لكلمــة معناها«مـاء دان»، وقـد دعـاه القـديس مـرقص دلمانوتة(مرقص:٨ / ١٠)، وسماه القديس متى مجدل(متى :١٥ / ٣٩)، وحين بدأ نهر الأردن على هـذه الشـاكلة فقــد فصل الايطوريـة عن الطراخونيـة، وهو يتدفق في البـداية ويسير باتجاه الشرق، لكن بعد ذلك باتجاه الجنـوب، وفي منتصف الطريق بين منبعـــه وبحيرة طبرية يـدخل وادياً حيث ينتشر هناك فيتحول إلى مستنقعـات، وخاصـة عندما يذوب الثلـج مـن على جبل لبنـان، ويعـــــــرف هذا المكـان بـاسـم بحيرة ميرون(الحولة)، وهـو المكان الذي تحارب فيــه يشـوع مـع يبين ملك حـاصور وأربعـة وعشرين ملكاً آخـرين، ويجف هذا الماء كله تقريبـاً في الصيف، وتنمو النباتات، حيث الأسود والدببة، وأمثالها من المخلوقات

تمتلك بيوتها، ومن ثم يمكن إقامة صيد ملكي هناك، ويجري نهر الأردن من هناك ليدخل بحر الجليل فيما بين كفرناحوم وكورزين، وعرف هذا البحر بهذا الاسم لأنه مجاور للجليل، وهو أيضاً يعرف باسم بحر طبرية، اشتقاقاً من أقرب مدينة منه، ويعرف أيضاً باسم بحر جنسارث، وذلك حسب رواية بيد Bede وتتولّد أمواجه الملتوية من الريح، أو من قطعة الأرض الصغيرة التي اسمها جنسارث، التي يجري عبرها متدفقاً، وتبعاً لبيد فإن طوله مائة وأربعين ستاديا، وأربعين ستاديا هو عرضه، ويتدفق الأردن بعد هذا ويجري باتجاه الجنوب، ويدخل إلى البحر الميت، الذي يفصل العربية عن اليهودية، وهو يمتد نحو الجنوب قرابة خمسة وثلاثين فرسخاً، أي أنه يمتد حتى قادش — بارينا وقفار فاران، ويعتقد بعضهم بأنه يمتد حتى البحر الأحمر، هذا والمسافة بين هذين البحرين تقدر بسفر خمسة أيام، ويعتقد الناس أن المياه على الطريق، التي ورد ذكرها في الخروج ١٥، والتي اسمها مياه مارة تأتي من هذين البحرين، وأعلن بعضهم أن مياه الأردن لا تدخل إلى البحر الميت، لكنها عندما تصل إلى هناك تبتلعها الأرض، لكن الذين يعرفون يقولون بأن هذه المياه تدخل إليه وتخرج منه، وأن مياه الأردن بالأخير تبتلع من قبل الأرض على مسافة ليست بعيدة من هناك، ولهذا ترتفع مياه البحر عندما ترتفع مياه الأردن، وذلك عندما يذوب الثلج من على جبل لبنان والجبال الأخرى، وعندما تكون هناك أمطار غزيرة، ولون هذا البحر دخاني بشكل دائم، وهو مظلم كأنه مدخنة الجحيم، ويصب نهر يبوق Jabbok في الأردن من الجهة الشرقية، وهو ينبع في الفراغ الثاني، والمربع الخامس والأربعين، ويجري أحياناً إلى الغرب وأحياناً إلى الشمال، وهو يدخل إلى الأردن على بعد ثلاثة فراسخ من بحيرة طبرية، وهو يشبه نهر أرنون الذي ينبع من جبل بسغا، ويدخل إلى الأردن تحت جازر، ومثل هذا يدخل نهران صغيران آخران إلى البحر الميت، أحدهما عند بدايته وثانيهما بعد ذلك بقليل على مسافة

تسعـة فـراسخ إلى الجنوب، وفي الغـرب النهـر الصغير الذي دعـاه يوسفيوس الأردن الصغير، من هناك يدخـل إلى البحر الميت، وهو ينبع عند القلعة الملكيـة (معليا)، وهو متصل بنهر صغير آخـر يأتي من قرب كـابول [الملوك الأول: ٩/ ١٣]، وهو يـدخل إلى بحيرة طبرية عند بيت صيـدا، وقـريب من المكان نفسـه، ولكن أكثـر نحـو الجنوب، هناك نهر صغير آخر يدخل فيها، ويأتي هذا النهـر من ينابيع موجودة على أطراف دوثان، وإلى جانب مجدله هناك نهر صغير آخـر يأتي من جبل بيت أوليا، ويدخل إلى البحـر، وينبع نهر قيشـون الصغير أيضـا عند سفح الطور، على الجانب الشرقي حيث قـاتل برق ضـد سيسرا، ويتشكل هذا النهـر من ميـاه الأمطار التي تتساقط على جبل الطور، وجبل الشيخ، والتـلال الصغيرة لجبل الشيخ، ويجري جـزء منـه وينزل حتى نهاية بحيرة طبرية، بينما يجري الشطر الآخـر ليصب في البحر المتـوسط على بعد ميل واحـد من حيفـا، وثلاثة أميـال من عكـا، وهو يدخل إلى البحـر قـرب المكان الذي قتل فيـه ايليـا كهنة بعـل (الملوك الأول: ١٨)، ويتلقى هذا النهـر كثيراً من الماء من جبل عفـريم، ومن الأماكن التي هي حـول السامـرة، ومن جميع سهل جـزر يل العظيم، وجبل قـابيل (تل قيمون)، ومجيـدو، وهناك نهر صغير آخـر يتـدفق من الجانب الشمالي لجبـل الشيخ، وهو يصب بالنهـر الذي يجري متـدفقـاً من نبع جـزريل، ويصب في الأردن دون بيت لحم، ويصب نهر يبوق أيضاً، وهو الذي تقـدم ذكره أعلاه - الفصل الثـالث - في الأردن مقابل العـال، ويجري نهر كيرث نزولاً من الجبل الذي أطعم فيـه ايليـا من قبل الصقـور، ويعبر إلى الشرق قـرب الفصيل، وقـد تقـدم وصف جب اليشع في الفصل الثـالث، فضـلاً عن هذا تجتمع المياه الموجودة حـول القدس بالمياه التي تسيل نازلة من جبل عين الجدي، وتدخل الى البحـر الميت عند بدايتـه، دون المكان الذي يصب نهر الأردن فيه.

وأول الأنهار التي تصب في البحر المتوسط، وهو موجود بالشمال: نهر الليطاني، الذي من أجله انظر أعلاه الفصل الثاني، ويأتي بعده باتجاه الجنوب «بئر مياه الحياة»، الذي تقدم وصفه أعلاه في القسم السادس— الفصل الثامن عشر، ويلي ذلك النهر الذي يجري قريباً من القلعة الملكية (معليا)، الذي يتدفق فيما بين القرين ويودين Iudyn ، ويدخل إلى البحر ويصب فيه قرب لمبرتي (حمصين)، ثم يلي ذلك— قرب عكا نهر يصب في البحر وهو ينبع على بعد خمسة أميال، ثم يأتي بعد ذلك نهر قيشون، الذي تقدم للتو وصفه أعلاه، ثم يجري بعد ذلك نهر من قرب سيسلك Sycelec ، وهو الذي يصب في البحر فيما بين قيسارية وأرسوف، ويأتي بعد ذلك نهر يجري من موضع بين بيت زكريا وعمواس خلال وادي ريفائيم Rephaim ، ويمر قرب الرملة، ويصب في البحر قرب يافا، وبعد هذا هناك نهر يجري نزولاً من قرب بيت صور، ويسير أولاً باتجاه الغرب، ثم ينعطف جنوباً، ويجتمع مع النهر القادم من عين حقور في لحي، والذي يجري من الشمال، وقرب هذا المكان كان قد جرى تعميد الخصي (عين حنينا)، وهو يجري من هناك نزولاً إلى ستاؤل Staol قرب عسقلان، من جهة الغرب، ومن ثم يصب في البحر، ويأتي أخيراً نهر بيصور Besor ، الذي ينحدر من جبل الكرمل، فيما وراء بير السبع، وينعطف باتجاه غزه، ومن ثم إلى البحر.

الفصل السابع

الحج من عكا خلال الناصرة حتى القدس

كل من يود زيارة الأماكن المقدسة في أرض الميعاد المختارة، عليه أن يبدأ من الناصرة، حيث بدأ مخلصنا، ويبعد هذا المكان سبعة فراسخ عن عكا، وعلى الطريق إلى صفورية يجد الانسان قلعة، قيل ولد فيها جيمس ويوحنا ابنا زبدي [قلعة شفا عمرو]، ويرى الانسان في الناصرة المكان

الذي أعلن فيه ملاك الرب جبريل، إلى العذراء مريم المباركة بأن القدر الذي رسم منذ البداية من أجل مخلص العالم قرب موعد تنفيذه،وحول هذا وللمزيد من المعلومات انظر القسم السابع- الفصل الثاني،ويوجد في البيعة التي بنيت هناك ثلاثة مذابح،وقد نحتت هذه البيعة من الصخر،وذلك مثل بيعتا المهد والقيامة،وفي الحقيقة جزء كبير من المدينة القديمة قد نحت في الصخر،وهذا ما يمكن رؤيته في هذا اليوم،وهناك من الممكن رؤية الكنيس،الذي جعل منه الآن كنيسة، حيث تسلم المسيح سفر إشعيا، وقرأ منه«روح المولى الرب علي»[اشعيا: ٦١ / ١]، وعلى بعد رمية أربعة أسهم إلى جنوب المدينة يقوم المكان الذي يدعى«قفزة الرب»،وهو حيث أراد اليهود أن يرموه إلى مكان سحيق، لكنه نجا من بين أيديهم، ورؤي فجأة على طرف الجبل المقابل، وعلى بعد رمية سهم المكان الذي يمكن أن يرى فيه طبعة جسده على الصخرة، ومن ذلك الجبل يمكن للإنسان أن يرى جبل الطور، وجبل الشيخ(حرمون) الأصغر، وحرمونيم، وقرى: عين دور، ونين، وجرزيل، وعرض جميع سهل مرج ابن عامر الكبير وعمقه، وعلى بعد فرسخين من الناصرة تقوم الصفورية، وهي مكان ولادة القديسة حنة، وهناك قلعة جميلة جداً فوق البلدة، ويقال بأن يواكيم قد ولد هناك، وهذا المكان موجود في ديار سبط أشير قرب وادي الكرمل(وادي الملك)، وعلى مسافة فرسخين ونصف الفرسخ من صفورية تقوم قانا الجليل، التي جاء منها سمعان القاني وناثائيل، وفيها من الممكن رؤية المكان الذي وقفت عليه جرار الماء الست، حيث حوّل المسيح الماء إلى خمرة، وغرفة الطعام حيث كانت المائدة قائمة، وهذه الأماكن مثلها مثل الأماكن الأخرى التي عمل فيها المسيح معجزات، كلها تحت الأرض، وينزل الناس درجات كثيرة إليها، ويدخلون إلى كهف، مثلما يدخلون إلى موضع البشارة، والمهد، وأماكن أخرى كثيرة، ويبدو أن سبب هذا هو الهدم المتوالي للكنائس، حيث علت خرائبها فوق الأرض، وبعد

تسوية هذه الخرائب أقيمت فوقهـا أبنية أخرى، وبناء عليه بنى المؤمنون أدراجاً تقود إلى الأماكن الأصيلة، ومن ثـم قاموا بزيارة الكهوف، وعلى مقربة من هـذه المدينة، وفي جانب اليمين هناك رابية طـويلة ومستديرة، تقوم على سفوحها وجـوانبها المدينة، ودونها، نحو الجنوب، يوجد سهل جميل، وخصب، وممتع، وهو يمتـد نحـو الصفـورية، والنظام الذي على الحجاج اتباعه في زيارة هذه الأماكن هو الذهاب من عكا، والسير خمسة فـراسخ نحـو الشرق حيث تقـوم قـانا الجليل، ومنهـا إلى الجنوب عبر الصفـوريـة والناصرة، وعلى فـرسخين من الناصرة يقـوم جبل الطور، حيث تبدلت هيئة الرب، وهناك من الممكن رؤية خـرائب ثلاثة هياكل، بنيت بناء على رغبة بطرس، وهناك أيضـاً خرائب أبنية كثيرة، حيث هي الآن بيـوت للأسود وللحيـوانات المفترسـة الأخرى، وعلى هذا يوجـد هنا أيضـاً مكان مناسب للصيـد الملكي، والجبل صعب الارتقـاء، وهو مرتفع جداً، ومـوائم للتحصين، وعند سفحه، في الجانب الجنوبي، وعلى الطريق الذي يقـود من سـورية إلى مصر، يوجد المكـان الذي قابل فيـه مليكصـادق إبـراهيم، وهو عـائـد من قتل الملوك الأربعـة في المنطقـة المجاورة لدمشق، وعند سفحه في الجهة الغربية، في مقابل الناصرة، تقوم البيعة التي بنيت فوق المكان حيث قال المسيح لحوارييه:«لا تخبروا أحداً بالذي رأيتمـوه»، إلخ، في حين يسيـل من سفحـه، على الجانب الأيسر، نهر قيسـون، وعلى فـرسخين من الطور، نحـو الجنوب الشرقي، توجـد نين، حيث أقام المسيـح ابن الأرملة من الموت، وعلى مسافـة خمسة عشر فـرسخاً من هناك توجـد الناصرة، ومن هناك إلى القـدس طول الطريق مائة وثلاثة(؟).

الفصل الثامن

الحج خلال مدينة القدس المقدسة وجبل صهيون

عندمـا تزور هذه الأماكن الأعظم قـداسة، التي لا يكاد يكفيهـا يوم واحد، عليك أن تدخل من باب بنيـامين، أي من باب القديس ستيفن، ثم عليك قبـل كل شيء أن تزور كنيسـة الضريح المقـدس، الذي هو المكان الأكثر قداسة في العالم، وهذه الكنيسة دائرية، وقطر الدائرة، ثلاثة وسبعين قدماً بين الأعمدة، من دون احتساب الأجـزاء نصف الدائرية التي مقيـاسها ثلاثين قـدماً، وهي قـائمة حـول دائرة الأعمـدة، وحول ضريح الرب القـائم في وسط هـذه الكنيسـة نفسهـا، هناك استـدارة مفتوحة، وبذلك جميع القسم الداخلي من كنيسة الضريح المقدس مفتوح نحـو السماء، وكنيسـة الجلجلة مجاورة لهذه الكنيسـة وهي ذات شكل مستطيل، وهي بمثـابة شرفـة لكنيسـة الضريح المقـدس، ولها سقف منخفض بعض الشيء، غير أن الكنيستين تحت سقف واحـد، وقبل أن يتسلم المسيحيون الحكم في هذه الأجزاء، بنيت كنيسة بحجم بيعة فوق المكان الذي صلب فيه المسيح، وحيث وجد الصليب، لكن عندما تملك المؤمنون هذه الأجزاء لقد اعتقـدوا أن هذا كان صغيراً، وضيقاً، ولذلك قامـوا بتشييد بناء جـديد، وعالي النفقـات، وجميل، وقوي متين، ضم في إطاره جميع الأمـاكن المقـدسـة، وباب الضريح المقـدس منخفض كثيراً وصغيراً، وقد جرى وصف شكل الضريح المقدس في القسم السابع — الفصل الثاني، وهو كهف من دون أية فتحات، ولهذا لا يوجد فيه مكان يمكن للضوء أن يدخل منه إليـه، وهناك تسعة مصـابيح تؤمن الاضاءة الدائمـة، وهناك أيضـاً كهف آخر أمـام هذا الكهف الذي فيـه الضريح المقدس، وله الطول نفسـه، والعرض والشكل، وهذان الكهفـان يبدوان وكأنهما كهف واحـد، حيث يدخل الانسان من أحـدهما إلى الآخر، وإلى داخل هذا الكهـف الخارجي دخلت النسـاء عندمـا قلـن:«من الذي سيزيح الحجرة من باب الضريح»؟ وقد انزاحت هذه الحجرة حتى باب الكهف الداخلي، وفي هذا اليوم هناك جزء كبير مـوجود أمام هذا الباب المتقدم الذكر، وقد نقل الجزء الباقي منها إلى جبل صهيون، حيث يستند

عليها أحد المذابح، وإلى جانب خلوة الضريح المقدس هناك عمود يحمل صورة تمثل القديس بانتاليون Pantaleon ، وكان عندما قام واحد من المسلمين باقتلاع عيني هذا التمثال، سقطت عيناه فوراً على الأرض، ويقوم جبل أكرا(الجمجمة) حيث صلب الرب على بعد مائة قدم وثمانية أقدام عن موضع الضريح المقدس، وعلى الانسان أن يصعد تسعة عشر قدماً فوق رصيف الكنيسة، إلى المكان الذي نصب فيه الصليب، والصدع الموجود في الصخرة حيث جرى تثبيت الصليب، يبلغ من الحجم مقدار ما يتسع لاستيعاب رأس إنسان، وهو عميق مفتوح من المكان الذي وضع فيه الصليب حتى رصيف الكنيسة، أي مقدار تسعة عشر قدماً، ومايزال لون دم مولانا يسوع المسيح ظاهراً حتى هذا اليوم في الصدع في الصخرة، وكان هذا الصدع موجوداً تحت يده اليسرى، وجرى بناء مذبح فائق الجمال قرب هذا المكان، حيث كانت يده اليسري، وقد زين بالرخام، وقد عملت أرضية هذه البيعة ورصفت أيضاً بالرخام، أما الجدران فقد غطيت بالرخام، وزينت بأعمال الفسيفساء، والمكان الذي جرى تثبيت الصليب فيه عبارة عن فتحة عمقها كفان، وهي واسعة بما فيه الكفاية لاستيعاب رأس إنسان، وعلى بعد عشرة أقدام من الجمجمة، وعلى الجانب الأيسر، هناك مذبح يوجد تحته عمود، عنده جرى جلد الرب، وقد جلب إلى هذا المكان من بيت بيلايطس، وجرت تغطيته بحجر المذبح بطريقة يمكن بوساطتها لمسه، ورؤيته، وتقبيله من قبل المؤمنين، وهو حجري من نوع الرخام السماقي الداكن، مع بعض البقع الحمراء الطبيعية، وهي التي يدعوها العامة بقع دم المسيح، وقد جرى نقل جزء آخر من هذا العمود إلى القسطنطينية، وهناك مثل هذا مكان آخر، على الجانب الأيسر من الكنيسة، فيه عمود اسطواني صغير، يقال بأن يسوعاً قد ربط إليه وجلد، وعلى بعد اثني عشر قدماً إلى الشرق من المذبح، يذهب الانسان من أمام العمود، وينزل ثمان وأربعين درجة إلى المكان الذي وجدت فيه هيلانة(حنة)

الصليب، ويوجد هناك بيعة مع مذبحين، تحت الأرض، ففي هذا المكان تم العثور على الصليب، ومن المعتقد أنه كان واحداً من خنادق المدينة القديمة، التي كانت تطاح إليها الصلبان بعد إنزال الأجساد من عليها، والمكان الذي وقفت فيه العذراء المباركة قرب الصليب مع النساء الأخريات لم يكن تحت الذراع الشمالي للصليب، حسبما يعتقد كثيرون، بل أمام وجه الابن، تقريباً في مواجهة الغرب، ومن الممكن رؤية هذا المكان عند سفح الصخرة المتقدمة الذكر، وعلى مقربة منها يمكن رؤية المكان الذي غسل فيه يوسف الرامي ونيقوديموس يسوعاً بعدما أنزلاه من على الصليب، ويقال بأن الرب يسوع قد أشار إلى هذا المكان، وأعلن أنه كان وسط العالم، وهو يقوم في وسط شرفة جوقة المنشدين، وعلى الجانب الأيسر من شرفة جوقة المنشدين هناك موضع سجن المسيح، وقرب هذا المكان الذي قابل فيه مولانا مريم المجدلية، وذلك عندما قام من الموت، وقد افترضت أنه الحدائقي فقالت له:«سيدي، إذا كنت أنت قد حملته من هناك، أخبرني أين مددته، فأنا سوف أنقله»، وقد أقاموا في هذا المكان مذبحاً، ذكرى لهذا الظهور،وذلك فوق في مقابل الضريح المقدس، ويذهب الانسان من هناك إلى الباب الغربي، حيث تحولت القديسة مريم المصرية إلى الإيمان، بسبب أنها لم تستطع أن تدخلها مع بقية المسيحيين الآخرين، ويوجد أيضاً في هذه الكنيسة عدد كبير من المذابح المبنية بشكل جيد، والحسنة التزيين.

ويتوجب بعد هذا على الحاج أن يذهب إلى جبل صهيون، وعلى الطريق هناك — عبر مايقابل برج داود — يجد الانسان المكان الذي قتل فيه هيرود أغريبا جيمس أخو يوحنا بالسيف، ويقترف خطأ من يقول بأن رأسه قد جلب إلى هناك بأيدي الملائكة من يافا، ودفن هناك، وأول ما يجد الانسان على جبل صهيون كنيسة القديس المخلص،التي كانت في يوم من الأيام بيت كيفياس، ففيه سكن المسيح وأقام حتى

الصباح، بعدما اعتقل، وحدث هناك أيضاً أن قام رؤساء الكهنة مع جميع أعضاء المجلس بالبحث عن شهود زور ضد يسوع، في سبيل قتله، وفي هذا المكان حدث أن قام الكاهن الأعلى، وقال له:«أستحلفك بالرب الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الرب» وقد أجابه يسوع قائلاً:«من الآن تبصرون ابن الانسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء»[متى:٢٦ / ٦٤ — ٦٥]، ثم قام الكاهن الأعلى بتمزيق ثيابه، لكن ما يشبه مئزر المسيح لم يمزق، الأمر الذي يرمز إلى نمط تهديم الكنيس وقوة الكنيسة، ثم أعلنوه مجرماً يستحق الاعدام، وبصقوا في وجهه، وضربوه ولكموه، وسخر آخرون منه واستهزأوا به وهم يضربونه، ولطموه على وجهه وضربوه وغطوا عينيه قائلين:«تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك»؟ وشتمه آخرون كثر منهم، وتفوهوا بالتجديف وهم يخاطبونه وفي العادة من الممكن رؤية جزء من العمود الذي ربط إليه حتى الصباح وجلد، وهناك أيضاً في هذا المكان من الممكن رؤية السجن، الذي سجن المسيح فيه بعد ارفضاض مجلس التعذيب، وبقي فيه حتى الصباح، حيث سمع ما لا يحصى من الشتائم وتحمل كثيراً من الاهانات من عبيد لا يساوون شيئاً، وهناك أيضاً حجر كبير فوق المذبح، وقد قيل بأنه الحجر الذي كان موضوعاً فوق ضريح المولى يسوع وعلى رمية حجر نحو الجنوب من هذا المكان، هناك المكان الذي سكنت فيه العذراء مريم الرائعة، بعد صعود ابنها إلى السماء، وهناك أيضاً العلية التي فارقت فيها هذه الحياة، وهناك أيضاً كنيسة القديس يوحنا الانجيلي، التي قيل بأنها أول كنيسة بنيت في العالم، وفي هذه الكنيسة اعتاد هذا الرسول على إقامة القداس لتلك الملكة الأكثر قداسة مادامت حية، واعتاد الناس أن يروا في هذا المكان صخرة حمراء، كانت تستخدم بمثابة مذبح، وقد أعلنوا بأنها جلبت من جبل سيناء على أيدي الملائكة، وذلك استجابة لدعاء القديس توما، وهو عائد من الهند، وعلى مقربة من المكان المتقدم الذكر قاعة العشاء الأخير، وهي بناء كبير

مبلط، فيه تعشى المسيح مع حوارييه، وغسل أقدامهم، وأعطاهم جسده ودمه، وظهر إليهم عدة مرات بعد قيامته، وقد جرى بناء بيعة تحتها، وهنا جرى اختيار متى حوارياً، وقد أنزلت الروح القدس على الحواريين، وجرى اختيار القساوسة السبعة، كما جرى رسم القديس جيمس الأصغر أسقفاً للقدس، ومن الممكن رؤية هذه الأماكن جميعها كل واحد منها على حدة، وهنا من الممكن رؤية الجرن الذي صب فيه المسيح الماء، لغسل أقدام حوارييه، وعلى مقربة قريبة من هناك قبور سليمان، وداوود، وملوك اليهودية الآخرين، جزئياً داخل كنيسة جبل صهيون، وجزئياً خارجها، في الطرف الشمالي، وليس بعيداً عن هناك ضريح القديس ستيفن، الشهيد الأول، الذي دفن فيه بعد العثور على جسده.

الفصل التاسع

الحج من عكا خلال الناصرة حتى القدس

عندما ينحدر الانسان قادماً من جبل صهيون، يجد المكان الذي عندما كان الحواريون يحملون العذراء الرائعة إلى قبرها في وادي شعفاط، أراد الكاهن الأعظم لليهود أن يختطف جسدها، لكن يده تيبست مباشرة، وهناك أيضاً كنيسة تعرف باسم كنيسة صياح الديك، حيث توجد حفرة عميقة فيها بكى بطرس بمرارة، ويمضي الانسان من هناك إلى الجنوب إلى الحقل الذي شري مقابل الثلاثين قطعة من الفضة، وهو المبلغ الذي باع فيه يهوذا المسيح، ثم يذهب الانسان إلى نبع سلوان، عند سفح جبل صهيون، على مقربة من قصر سليمان، ويتدفق منها الماء إلى البركة التحتا، وإلى بركة استحمام سليمان، ولا تتدفق هذه المياه بشكل دائم لكن بين آونة وأخرى، وتتلقى البركتان كلتاهما الماء من نبع جيحون، الذي ينبع في حقل القصار حيث حمل ربشاقة -Reb shakeh ضد الرب لدى سماعه بالناس على السور، وإلى الشرق وعلى

مقربة من هاتين البركتين يجري نهر قدرون، الذي يتغذى من المياه المتجمعة من الأراضي المرتفعة، من ذلك: من رامة، ومن عين توت Anathoth ، ومن ضريح ملكة عديابين Adiabene ، ويمكن للانسان أن يسمع خرير اندفاع الماء وهو يتدفق من مكان بعيد من تحت ضريح العذراء، وهكذا تجتمع هذه المياه مع بعضها وتجري منحدرة إلى وادي جهنم Gehinnon ، الذي يدعى أيضاً باسم محلة توفت Toph-et ، وفي هذا الوادي أيضاً صخرة زحلت Zoheleth ، وجب روجل Rogel ، حيث صام أدونيا Adonijah عندما حاول أن يجعل نفسه ملكاً، فالحدائق والبساتين تسقى بمياه نهر سيحون، وعندما يمضي الانسان قاطعاً شعفاط وذلك انطلاقاً من نبع سلوان، في مقابلة الهيكل، يمكنه أن يرى عند سفح جبل الزيتون ضريح يهوشلفاط(قبر زكريا حالياً) ملك اليهودية، حيث يوجد فوقه أهرام جميل جداً، وعلى بعد أكثر من رمية حجر إلى الشمال من هذا الضريح يوجد المكان الذي صلى المسيح فيه، وبعد ذلك على مسافة رمية حجر، توجد كنيسة جيسماني، حيث الحديقة التي دخل المسيح إليها مع حوارييه، وذلك على جانب جبل الزيتون، وهي مرتبطة بالصخرة المجوفة التي تطل من الجبل، فتحت هذه الصخرة جلس الحواريون، عندما قال المسيح لهم:«اجلسوا هنا وصلوا حتى لا تتعرضوا للإغواء»، ومن الممكن رؤية المكان الذي جلسوا فيه في هذا اليوم، ومن الممكن أيضاً رؤية المكان الذي أخذته فيه الحشود، وحيث جرت خيانته من قبل يهوذا بوساطة قبلة، ومن الممكن رؤية علامة رأسه الأجرد على الصخرة المنزلقة، وكذلك آثار شعره، ومن الممكن رؤية علامات أصابعه على الجانب الآخر من الصخرة، وكأنهم قد طبعوا فوق عجين، ويقال بأن هذه العلامات قد حدثت لدى محاولته تسلق الصخرة عندما اعتقل من قبل الحشود، وهذه حكاية مدهشة، حيث تحدث الناس الذين عانوها، وحكوا أنهم لم يتمكنوا بالأدوات المعدنية ليس فقط من قطع أية قطعة من هذه الصخرة لا بل

لم يتمكنوا من خدشها وإثارة الغبار منها، ومثل هذا، نجد في المكان الذي صلى فيه، وبما أنه كان متألماً صلى لوقت طويل، وأخذ عرقه يتساقط مثل الدم فوق الأرض، كما أن علامات ركبتيه ويديه قد انطبعت فوق الصخرة، علماً أنه لا يمكن قطع شظية من هذه الصخرة ولا من الصخرة الأخرى، ويمر الطريق الصاعد إلى جبل الزيتون بين هذا المكان وجيسماني، مقابل كنيسة العذراء المباركة، والمسافة من باب الكنيسة المتقدمة الذكر، أي كنيسة جيسماني إلى باب البيعة الذي يقود إلى الكنيسة التي فيها ضريح العذراء الرائعة، خمسين خطوة، وذلك باتجاه الغرب، لكن في قلب الوادي، لابل على طول سفح جبل الزيتون، وكانت هذه الكنيسة قبل خراب القدس فوق سطح الأرض، غير أنها الآن دون سطح الأرض بشكل سحيق، لأن الرومان — كما أخبرنا يوسفيوس — حاصروا المدينة من هذا الجانب، وقطعوا أشجار جبل الزيتون، والأشجار الأخرى، وملأوها (أو ملأوه — أي الوادي؟) بالركام الذي نتج هناك، وبعد ذلك، أي بعد الاستيلاء على المدينة، تمت تسوية جبل موريا نفسه، وذلك خشية ترك هذا المكان الحصين قائماً، وأمر هدريان برمي أنقاض الهيكل وساحاته في نهر قدرون، وبذلك سبب إغراق المدينة بالملح، ونتيجة لامتلاء الكنيسة، ولأنها كانت عالية، ومقببة وذات أقواس، فقد تمت تغطيتها بالكامل، وصار ما فوقها أرضاً مسطحة، مع طريق عام فوقها، ومع هذا فقد بقي فوق سطح الأرض بناء مثل البيعة، الذي يمكنك الدخول منه، ومن ثم النزول حوالي الستين درجة تحت الأرض إلى الكنيسة نفسها، وهو من الرخام، مزين بشكل بديع، غير أن الكنيسة رطبة جداً، لأن نهر قدرون يمر من تحتها، وهو مليء بالماء من الأماكن المتقدم ذكرها، وهو أيضاً محتفظ بمجراه القديم، وعندما تكون هناك أمطار غزيرة، يفيض النهر المتقدم الذكر، ويملأ الكنيسة، إلى حد أنه غالباً ما تغطي المياه جميع الأدراج، وتتدفق المياه من باب البيعة القائمة عند رأسهم، والكنيسة منارة بنوافذ موجودة

في الطرف الشرقي، وإذا ما قدرنا شكل الأرض، نراها قد وضعت بشكل جيد، من أجل تلقي النور من جهة جبل الزيتون، وإلى جانب ضريح العذراء هناك ضريح القديس جيمس الأصغر، لأن المسيحيين قد دفنوه هناك، بعدما ألقى اليهود به من الهيكل، ولقد تقدم وصف ضريح الملكة حنة(هيلانة)، ولم تكن حنة هذه أم قسطنطين، بل ملكة عديابين، التي أطعمت أخوانها في القدس، عندما كانت هناك مجاعة في القدس في السنتين الرابعة والحادية عشرة من حكم القيصر كلوديوس، وبعدما ينهي الحاج زيارة هذه الأماكن عليه المضي عبر الطريق الذي قلنا بأنه يمر قرب ضريح العذراء، وبذلك يتبع المسيح، ويحذو حذوه، عندما جاء إلى القدس على ظهر أتان، في يوم أحد السعف، ويتوجب عليه أن يصرخ بصوت مرتفع مع حشود المؤمنين:«المجد لابن داود، مبارك الذي يأتي باسم الرب، سلام في السماء(كذا)، ومجد في الأعالي»، وقد دخل المسيح إلى القدس من خلال الباب الذهبي، ويقوم على مسافة رمية قوس من ها هنا، هيكل الرب، فوق جبل موريا، وفي هذا الهيكل كان يسوع موجوداً، عندما كان طفلاً عمره أربعين يوماً، فغنى سمعان له قائلاً:«الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام»[لوقا:٢ / ٢٦]، وجاءت النبية حنة[لوقا:٢ / ٣٦] وتحدثت إليه، وإلى جميع الذين كانوا يتطلعون نحو فداء في إسرائيل، وكان وقتها طفلاً في الثانية عشرة من عمره وقد وقف في وسط رؤساء الكهنة والكتبة وأخذ يعلمهم بواسطة أسئلته الحكيمة بدلاً من التعلم منهم، وهناك — عندما بلغ إلى حد الرجولة — تولى طرد الذين كانوا يبيعون ويشترون إلى خارج الهيكل، وقلب موائد الصيارفة، ومقاعد باعة الحمام قائلاً لهم:«لاتجعلوا بيتي مغارة لصوص»،[متى :٢١ / ١٢]، وهناك غفر للمرأة التي أخذت وهي تزني، وشملت مغفرته العقوبة والذنب، وهناك قذفه اليهود بالحجارة عندما قال:«أنا وأبي واحد»، وهنا فضل فلسي الأرملة على المنح الكبيرة للآخرين، وقد سوغ العطاء الشعبي

المتـواضع، وأذان الفريسيين المتكبرين، وقـام بعدة أعمال أخـرى تساعـد على خـلاصنا، والشكـل الداخلي للهيكل شكل مـربـع، ومسـور من الداخل، ومقاسـه أكثر من رمية سهم في الطول وكـذلك بالعرض، وله من الجهة الغـربية بابان، يدعى أحدهما بـاسم الباب الجميل، ومن أجل عـرض حوله، انظر مـا تقدم: القسم الأول، الفصل الثامن، وعند هذا الباب تولى بطرس شفاء الرجل الأعـرج(أعمال:٣)، وليس للباب الآخر اسم يعـرف به، ويوجد على الطرف الشمالي باب، وهناك باب آخـر على الجانب الشرقي يدعى باسم البـاب الذهبي، ويقوم فـوق كل واحد من هذه الأبواب برج مـرتفع، اعتـاد كهنة المسلمين على ارتقـائه والاعـلان عن شريعة محمد(ﷺ) وما من إنســان يتجرأ على الدخول إلى هذا المكان المغلق،إلاّ وهو نظيـف القــدمين، ومن أجل هذا الأمــر جـرى تعيين حـافظي الأبواب أو البوابين، ويوجـد في وسط هذا المكان المغلق مكان مغلق آخـر، وهـو مـربع وأعلى من المكان الخارجي، وإليـه تصعـد من جهتي الغرب والجنوب بوساطة عدد متواصل من درجات السلالم، وفي وسط هذا المكان المغلق جرى بناء الهيكل، وذلك على المكان الذي شُري من قبل داود، وهو أرض بيدر أرونا اليبـوسي، وذلك من أجل أن يبني مذبحاً للرب، وهو المكان الذي أقام فيه الوباء الذي هاجم الناس، ومن أجل هذا انظـر سفــر صمـوئيـل الثـاني، وللهيكل ثماني زوايا وثمانيـة جوانب،وجـدرانه مغلفة بالرخـام ومزينة بأعمال الفسيفسـاء، ويقال إنه على مقربة من هيكل الرب يوجـد هيكل سليمان الذي فيه هيكلان، وما من مسيحي يمكنه الدخول إليه مالم يُسمع دعاؤه وفقاً لكلمات سليمان، وإذا لم يرد الحاج أن يدخل من خـلال البـاب الذي دخل المسيح منه إلى الهيكل، دعه يـدخل من خلال باب الوادي، الموجـود على مسافـة قرابة رميـة حجـر مـن السـاحـة المغلقـة الكبيرة في الهيكل، وذلـك من جهـة الجنوب، وقبل أن يدخل الباب سـوف يرى على جهة يمينه المكان الذي ربط فيـه القديس ستيفن، عندمـا رجم بالحجـارة، وفي هذا المكان صلى

وهو راكع على ركبتيه من أجل قتلته قـائلاً:«يا رب لا تجعل هذا الذنب في حسابهم».

الفصل العاشر

الحج إلى الأماكن المنسية في القدس

عندما تكون قـد دخلت إلى باب الوادي المتقدم الـذكر، ستمـر أولاً على جهة يمينك على كنيسة القديسـة حنة، حيث سترى فيها القبو الذي ولدت فيـه العـذراء مريم الرائعـة، وذلك في المكان الذي قـام فيـه بيت يواكيم والقديسة حنة، وعلى مقـربة من البركة الكبيرة التي تعرف باسم البركة الداخلية، والتي صنعت من قبل حزقيا، وفق الطريقة التالية: فقد أوقف المجـرى الأعلى لجيحـون، وجلبه مبـاشرة إلى الجانب الغـربي من مدينة داود، حيث حفـربصعوبة بالحديد في الصخـر، وذلك حسبما نقرأ في الإلهيات:٤٨ / ١٧، وقاد المياه في وسط المدينة إلى البركة، وذلك من أجل أن يتمكن الناس وقت الحصار من الحصول على ماء الشرب، وأن لا يكون بمقـدرة الآشوريون إعـاقتهم، لكنه قـاد نبع مياه جيحـون إلى البركة العليا، التي هي فوق بـركة استحمام سليمان، وكان هذا العمل قد بدأه آحـاز، لكنه لم يكمله، وأتى إشعيـا(٧ / ٣) على ذكـر هذه البركـة والنبع، وذلك لدى قـوله:«إخـرج وتقـدم الآن... إلى طرف قناة البركـة العليا، إلى سكة حقل القصار»، ودُعيت هذه باسم البركـة العليا، تقديراً لسليمان، ومن أجل ذلك أنظر الاصحـاح الثامن، وهناك بركـة رابعة في المدينة على جهة اليسـار من باب الوادي المتقدم الذكـر، حتى وإن كانت القديسة حنة على اليمين، وتعرف هذه باسم بركة الضأن، على مقربة من مذبح الهيكل، ففيهـا اعتاد التينميين Nethinims على غسل الضحايا، ومن ثم إحضارها إلى الكهنة، من أجل تقـديمها في الهيكل، ويرى هذا حتى هذا اليـوم، مع قناطرها الخمسة، التي اعتـاد المرضى على الانتظار تحتهـا حتى تتحـرك المياه، لأن كل من خطـا أولاً إلى داخلها بعـد تحرك

الميـاه يصبح معافى،(يوحنا: ٥ / ٤)وهنا شفى المسيح الرجل الذي كـان يعاني من العجز منذ ثمان وثلاثين سنة، ويقول بعضهم بأن البركة الأولى التي هي قرب القـديسة حنة هي بركـة الضأن، لكنني لا أرى ذلك، ولم نقرأ عن مزيد من البرك في القدس، أو من حولها القريب، وبعد رؤيتك لهذه الأشيـاء من على جهتي اليمين واليسـار، امض بشكل مستقيم على طول الطريق إلى الباب الذي أمـامك، الذي يدعى باب القضاء، وهناك سوف تجد بيت بيـلايطس، حيث جرى جلـد حمل الرب البريء وسخر منه من قبل الجنود، وحيث لكم، وبصـق عليه، وتوّج بتـاج من شـوك، وأدين أخيراً وحكم عليه بـالإعدام، وهنا يوجد الطريـق الذي يقود إلى الهيكل، وهـو الذي مـن تحتـــه قـــدم اليهـــود من الهيكـل وهم يصرخون:«اصلبوه،اصلبوه»، وعلى مقربة من بيت بيلايطس يوجد بيت حنة، الذي اقتيد المسيح إليـه أولاً، بعدما جرى اعتقـاله من قبل الحشود في جيسماني، وهنا جـرى استجوابه حـول عقيدته، وكأنه معلم هرطقـة، وقـد لطم بكف يد عبـد شريـر، ومن هناك أرسل وهو في الأغـلال إلى كيفيـاس على جبل صهيـون، ومن أجل وصف لهذا البيت، انظر الفصل الثامـن، وعلى مقربة من بيت حنة هناك كنيسـة القديسـة مريم صـاحبة البجعـة، وذلك في المكان الذي أغمي فيـه على العـذراء المباركـة لحزنها، لدى رؤيتهـــا ولدها البريء، وهو يحمل صليبـه، وقـد اعتراه الاعيـــاء بسبب وزنه، وإلى هذا اليـوم هناك صخرتـان بيضاويتـان عظيمتان، قـد بنيتـا في داخل القنطرة في مكان مـــرتفع، فعلى هاتين الصخـرتين ارتاح الرب عندما كان يحمل الصليب، ولدى متـابعة السير على طول الشارع المتقدم الذكر، يجد الانســان على جهة اليمين الطريق الذي يقود إلى باب القديس ستيفن، الذي عندمـا كان اليهود يقودون يسوعـاً عبره، صدفوا رجـلاً اسمـه سمعـان القيرواني قـادمـاً من الريف، فأرغمـوه على حمل الصليب، وقد حمله حتى جبل أكرا(الجمجمـة) حيث تولوا صلبه(كذا)، ومن أجل عرض حـول هذا المكان، انظر الفصل الثامـن، ولقد قيل بأن

قصر الملك هيرود قد كان قائماً قرب كنيسة القديسة مريم صاحبة البجعة، وليس بعيداً عن قصر هيرود، من الممكن رؤية بيت يهوذا الخائن، حيث سكن مع زوجته وأولاده.

الفصل الحادي عشر

الحج إلى بيت لحم وإلى الخليل

بعد الحج إلى القدس، وجبل صهيون، والأماكن من حولها، عليك الذهاب عبر باب داود إلى بيت لحم، التي تبعد نحواً من فرسخين، باتجاه الجنوب، على جهة اليد اليسرى للطريق إلى الخليل، غير أنها تقوم على بعد رمية سهم عن الطريق، وفي منتصف الطريق هناك توجد كنيسة حيث قام إيليا ببعض أعمال التوبة، وعلى مسافة ميل من بيت لحم يوجد ضريح راحيل، وهو موجود على جهة اليمين، قرب الطريق، وهو مغطى بقبة جميلة، قد بنيت من قبل يعقوب، الذي وضع تحتها، فوق قبرها اثني عشر صخرة عظيمة، وذلك تبعاً لعدد أسباط بني إسرائيل، وهذه الحجارة باقية حتى هذا اليوم، وعلى مقربة من ضريح راحيل يوجد حقل البازلاء الحجرية، حيث يقال بأن المولى يسوع، كان يجتاز مرة من هناك، فسأل رجلاً رآه يحصد البازلاء، عن الذي كان يحصده، فأجابه«حجارة»، وبناء عليه قال له الرب:«ليكونوا حجارة»، وهكذا تحولت البازلاء إلى حجارة، وإلى هذا اليوم من الممكن العثور على بازلاء متحجرة هناك، وقد اعتاد الحجاج على جمعها، ويصل الإنسان أخيراً إلى بيت لحم، التي تقوم فوق جبل لابأس بارتفاعه، غير أنه جبل ضيق، وهو يمتد شرقاً وغرباً، والمدخل موجود من جهة الغرب، ويوجد إلى جانب الباب الجب الذي اشتاق داود أن يشرب منه، عندما كان معوقاً هناك، ويوجد على الباب الشرقي هناك، كهف في الصخر قرب سور المدينة، وهو يبدو حسب أساليب تلك المنطقة، أنه اسطبل مع معلف منحوت بالصخر، حسبما هي العادة في تلك الأجزاء، ولا

أدري كيف يمكنني أن أمـــدح هذا الاسطبل، فهـــو المكـان الذي ولد المسيح فيـه، ولد من العـذراء ، فكـان شمسـاً من نجمــة، وهناك نبع الصدق من الأرض، وأعطت أرضنا المزيـد؟ وبأي كلمات سوف أصف مجد ذلك المعلف الذي بكى فيـه الطفـل الرضيع، وقـد لفّ بقطع قماش رثة، أو لم يكن هو الـذي صنع السمـوات، وكـذلك المعجـزة الرائعـة، فصرخت الملائكة، وركـض الرعـاة ليروا، ولمعت النجــوم من عليين، وارتعب هيرود، وارتجت القـدس؟ يا بيـت لحم، مـدينة داود، تمجـدي بميلاد داود الحقيقي، صاحب يد جبّـارة، ومظهر وسيم، وكانت المدينة مدينة صغيرة، غير أنها غدت عظيمة بالرب، والذي كان من قبل عظيماً، جعلهـا هناك عظيمة، فأي مـدينة مـوجودة لـن تحسدها، عندمـا تسمع بإسطبلها الثمين، وبمجـد معلفها؟ ولقـد قيلت حولك أشيـاء مجيدة في كل مكان، فأنـت مـدينة الرب، وفي كل مكان يغنـي الناس:«ولسـوف يحكى بأنه ولد فيهـــا، والعلي الأعلى سـوف يثبتهـا»[المزامير: ٨٧ / ٥]، وانتبه إلى أنه على مقربـة من الصخرة المتقدمة الذكـر، وتحته قام المعلف، الذي تمدد فيه ذلك الطفل الجميل المولـود حديثاً، والملفـوف بثياب رثة، تمدد إلى جانب الثور والأتان، ويبدو أنهما كـانا كهفاً واحداً، وفقط قسم إلى قسمين بوساطة باب أقيم فيـه، وبين الأدراج هناك واحد يصعد من البيعـة إلى شرفة المرتلين، وقـد حمل القش من المعلف إلى رومـا من قبل الامبراطورة هيــلانة، وهو محل تقــديس وعناية في كنيســة القـديســة مـريم[المجــدليـة] الكبيرة، وقـد دفن القـديـس جيروم على مقـربة من المعلف، وينزل الانســان من الكنيســة إلى مكان المهــد الأعظم جمالاً، بوساطة عشرة درجات، تقود إلى البيعـة، وداخل هذه البيعة معمول كله من الفسيفساء،وهي مبلطة بالرخام، وقـد بنيت بشكل عالي النفقات إلى أبعـد الحدود، ومن الممكن إقـامة قـداس فـوق المكان الذي ولدت فيـه العذراء المباركة، وذلك فوق ألواح من الرخام وضعت هناك، هذا ومن الممكن رؤية بعض الصخـور الجرداء التـي ولد عليهـا المسيح، وكـذلك

جـزء من المعلـف الذي مـدد فيـه، حيث ترك دونها تغطيــة، وتزار هذه الأمـاكن بتقوى عظيمـة واحترام، ومن الصعب أن يجد الانسان كنيســة أجمل منها في العالم، أو واحـدة تعادلها بالقداسة، هذا ويـوجد فيها أجمل الأعمـدة الرخاميـة، مـوضـوعة على شكل أربعـة صفـوف، وهي جميلة متميزة ليس لعددها فقط، بل أيضـاً لحجمها، فضلاً عن هذا إن القناطر الموجودة فـوق الأعمدة معمولة بأكثر الفسيفسـاء جمالاً وأروعه، حيث يمثل برسومه التـاريخ كله منذ خلق العالم حتى قدوم المسيح للحكم في العالم، زيادة على ذلك جميع رخـام الكنيسة معمـول من الرخام المختلف الألوان، وقد زين بوساطة تصاميم متنوعة رائعة، وجرت العادة على أن يحتفظ في كنيسـة القـديسة مـريم في بيت لحم، وعلى الجهـة اليسرى من الجدار، في مكان مخصص، بحبل الصرة العـائـد للرب وبغـرلتـه، وعلى الجانب اليمين من الســدّة، أي في الجانب الجنوبي، هنـاك الموضع الذي دفن فيه الأبرياء المقدسين، ومن الممكـن رؤية مذبح مقام هناك، غير أن الشطر الأعظم منهم كــانوا قـد دفنـوا في مكان يبعـد ثلاثـة أميـال إلى الجنوب من الكنيسة، وكان واحداً مـن السلاطين قد أمر بحمل الألواح الرخامية الثمينة لهذه الكنيســة المبجلة مع أعمدتها، إلى القاهرة، ليبني بها قصراً، لكن عندمــا مثل العمال مع أدواتهم في حضرة السلطان، لتنفيــذ أوامره، خرج من الجدار السليم غير المهـدم، الذي لا يمكن إدخال إبرة فيه، ثعبـان له حجم مدهش، فقـام بعضّ أول لوح وصل إليـه، فما كان من اللوح إلاّ أن تفتت، وفعـل الشيء نفسـه باللوح الذي يليــه، وتابع ذلك حتـى وصل إلى اللـوح الأربعين، ووقف الجميـع مندهشين، وإثـر ذلك صرف السلطان نيتـه وألغى قصــده، وبناء عليه اختفى الثعبـان، وبقيت الكنيسة منذ ذلك الحين، وهي باقيـة حتى هذا اليوم، مثلما كانت في البـداية، ويحترم المسلمـون جميع الكنائس المكرسـة للعـذراء الرائعـة، وهم يجلون هذه فـوق جميع المتبقي، ومـن الممكن حتى هذا اليـوم رؤية أثرالثعبــان على كل واحــد من الألواح، وكأنها قــد حـرقـت بالنار،

وبالإضافة إلى جميع ما تقدم إنه لمدهش حقاً، كيف تمكن الثعبان من المرور فوق الألواح، وذلك لدى رؤية الجدار كم هوناعم ومصقول كأنه زجاج، وعند الباب الشمالي لهذه الكنيسة، يوجد دير للرهبان، يصعد إليه الانسان بوساطة عدة درجات، ومن الممكن أن يرى في الكهف الزنزانة التي تاب فيها القديس جيروم، وقام بكثير من أعمال الترجمة والشروح المتعلقة بالكتابات المقدسة، وكذلك يمكن رؤية فراشه، وغرف العمل في الدير الذي كان رئيساً له، وعلى رمية حجر باتجاه الشرق بالنسبة للكنيسة المتقدمة الذكر تقوم كنيسة القديسة باولا وابنتها يوستوخيوم Eustochium، وقد بنيت فوق المكان الذي تابتا عليه، وفيها يمكن رؤية ضريحيهما، ويوجد تحت الكنيسة المتقدمة الذكر كهف عظيم، يوجد فيه بيعة، قد قيل لنا بأن العذراء قد جلست هناك مرة مع ابنها، وذلك من أجل أن تمتلك منفردة المزيد من المتعة بالنظر إليه، وهو الذي رغب الملائكة بحمله، ربٌّ ربٌّ، جالس فوق البراءة بجلالته، جالس فوق عرش مرتفع، مساو بالمظهر للأب، وذلك وسط مجد القديسين، وقد ولد قبل ظهور نجم الصباح، ويقال بأنها عصرت في هذا المكان فوق الأرض ما كان في صدرها بشكل كامل، ولذلك فإن الأرض هناك بيضاء، وتبدو وكأنها حليب متخثر، ولقد قيل إنه إذا ما فقدت امرأة حليبها، يمكن أن تستعيده مباشرة، إذا ما وضعت قليلاً من تراب هذه الأرض في كأس ماء، وشربت ذلك، وعلى بعد ميل من بيت لحم، كان الرعاة — حسبما جاء الخبر في الانجيل — يقيمون في الحقل، يرعون قطعانهم طوال الليل، ولقد كان بإمكان رعاة آخرون الحفاظ على القطعان التي عهد إليهم بالعناية بها في تلك الأرض نفسها، لولا أن خرج أسد من الغابة، والمعني بهذا قوى صلاح الدين، فذبحهم وكذلك لولا ما فعل البندقداري، وهو ذئب المساء، حيث بدد شمل ما أبقاه الأسد، ثم كذلك لولا ما فعله الملك المنصور، وهو فهد سريع، متشوق لصنع الشر، مثلما الفهد متشوق لسفك الدماء، فاستولى على

المدن التي كانت قد تركت لوحدها، وعلى بعد ثمانية أميال إلى الجنوب من بيت لحم، يقدم الانسان إلى الخليل، التي تقدم وصفها أعلاه في الفصل الثاني، ووصف وضعها ومكانها في القسم السابع، الفصل الثاني، وفيما يتعلق بأوضاع وأحوال الأماكن الأخرى في الأرض المقدسة، يمكن العودة إليه فيما تقدم في الفصل الثالث، وكذلك في الفصل الرابع.

الفصل الثاني عشر
أوضاع مملكة مصر

بما أنه قد قيل ما فيه الكفاية حول سورية وأرض الميعاد، حان الوقت لتحويل قلمي نحو مصر، ولقد رسمنا حدود أرض الميعاد عند الدارون في الفصل الثاني، ومع أننا مررنا مسايرين لساحل مصر في الكتاب الأول، القسم الأول — الفصل الخامس عشر، وباتساع أكبر في الكتاب الثاني، القسم الرابع — الفصل الخامس والعشرين، ومع أن الإشارة قد كانت حول هذه البلاد نفسها، يمكننا أن نقول إن المسافة من الدارون إلى قفط الـ Berouldi هي ثلاثين ميلاً، ومن هناك إلى السبخة المعروفة باسم سبخة بردويل ثلاثين ميلاً، ثم من هناك إلى نهاية خليج هذه السبخة ثلاثين ميلاً، ومن هناك إلى رأس القصرون خمسين ميلاً، ومن هناك حتى الفرما ثلاثين ميلاً، وكانت هذه المدينة فيما مضى حسنة التحصين بالأسوار، غير أنها فيما بعد لحقها الخراب،وصارت مسكناً للأفاعي، ومن الفرما إلى نهر تنيس خمسين ميلاً، لكن مدينة تنيس وراء النهر، وتبعد عنه حوالي خمسة وعشرين ميلاً، وهي قائمة فوق البحيرة، وقد وردت الإشارة إليها في المزمور ٧٨ / ١٢ قوله:«صنع أعجوبة في أرض مصر في بلاد صوعن»، فهناك كان موسى وهارون قد سكنا مع بني إسرائيل، وفي بلاد جوشن Goshen ، وحولها أخبر يوسف أخوته وأبيه بقوله:«سوف تقولون لفرعون: إن عبيدك هم رعاة، نحن،

وكـذلك آباءنا، قولوا هذا، حتى يمكنكم أن تسكنوافي أرض جـوشن»، ومن أجلها انظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، وكانت تنيس مدينة قديمة، ومحصنة بشكلٍ جيد، وقد بنيت فوق أرض حصينة، لكنها في هذه الأيام مـدمـرة كليـاً، ويعيش في خـرائبهـا فقط البـداة، بسبب مـراعيهـا، وثراء ريفهـا، فضـلاً عن هـذا هي مليئة بالطيـور الكثيرة وبالأسماك، ومن أجل عـرض عنهـا انظر القسم السـادس — الفصل السـابع عشر، ومن نهر تنيس إلى دميـاط مسـافـة أربعين ميـلاً بوسـاطة البحر، وكانت هذه المدينة تدعى قديماً باسم ممفيس، ومن أجلها انظر ما تقدم: القسم السادس — الفصل الثاني والعشرين، وعلى بعد فرسخين من البحـر بنى المسلمـون قرية طـويلة بدون تحصينات، وذلك من أجل ركوب السفن فيها، ومن أجل خزن بعض التجارات، وهذا المكان مليء بالفواكـه، والحبوب، والأشياء الأخـرى الجيدة، وذلك حتى مثل تنيس، ويجري واحـد من فـرعي النيل بين هذه المدينة ومـدينة دميـاط، ويتـابع جـريانه نحو تنيس، ويجري من هناك من خـلال قناة اسمها البحـرية، إلى الفـرمـا، ويدخل البحـر هنـاك، وهذا هو الميناء المصري الأول باتجاه أرض الميعاد، ومن دمياط إلى البرلس مسافة سبعين ميلاً، ومن هناك إلى مصب النهر في رأس البر Sturio، وعـرض هذا المصب خمسة أميـال، وطوله ثلاثين ميلاً، وهو كله حـوالي الثلاثين ميلاً مسـاحة، ومن مصب رأس البر إلى مصب رشيـد وفرع النيل هناك أربعين ميـلاً، ومن مصب رشيـد إلى برج أبي قير خمسة وعشرين ميـلاً، ومن هناك إلى الاسكندرية ثمانية عشر ميلاً.

وواضح مما تقدم أعلاه وقيل، بأ ن المسافة من الفرما إلى الاسكندرية هي مـائتين وثمانية وستين ميـلاً، وهذا هو عرض المنطقـة الساحليـة من مصر، لكن مملكة مصر تمتـد حتى ميناء السلطـان، وهو ميناء يقع بعيـداً عن الاسكندرية، ويبعـد عنهـا سبعين ميلاً باتجاه الغـرب، وذلك حسبما

تحدثنا في الكتاب الثاني، القسم الرابع — الفصل الخامس والعشرين، والمسافة من الاسكندرية إلى الفسطاط هي مائتين وثلاثين ميلاً، وذلك عبر نهر النيل، والمسافة من الفرما، عبر تنيس ودمياط إلى الفسطاط هي مائتي ميل فقط، وذلك على سطح نهر النيل مثلما تقدم، ومن الفسطاط إلى أسوان — التي هي أقصى جزء من مصر باتجاه الجنوب واتجاه الحبشة — هي مائة وأربعين ميلاً، ومن مدينة أسوان المتقدمة الذكر إلى المكان الذي يعرف باسم قوص، عبر النيل، جاءت المسافة مائتين وستين ميلاً، وفي قوص تشحن السفن بالبضائع القادمة من عدن، وتعرف الحبشة المتقدمة الذكر بشكل صحيح باسم النوبة، وهي مسكونة كلياً، من قبل المسيحيين، الذين اهتدوا بوساطة القديس متى، وإذا ما مضى الانسان صعوداً فوق النيل من دمياط يصل أولاً إلى بدالة، ثم إلى المنصورة، حيث ينقسم النيل، والفرع الأصغر هو الذي يجري إلى الفرما، لكن المكان الذي ينقسم فيه النيل انقساماته الرئيسية، ويجعل من الجزء الأكبر من مصر جزيرة، يدعى باسم الدلتا، وذلك لأن شكل الجزيرة شكل مثلث، وهو مثل حرف دلتا، ويجري الفرع الأكبر نحو الاسكندرية، والفرع الأصغر نحو دمياط، ومن الدلتا إلى عين شمس ثلاثة أميال، ويجري فرع النيل من هنا باتجاه الشمال نحو مدينة بلبيس، التي عرفت فيما مضى باسم Pelusium (تل الفرما)[القسم السادس — الفصل الثامن عشر]، ويجري من هناك خلال القفار نحو الأرض المقدسة، ويدخل البحر قرب مدينة العريش، وهي على مسافة سفر يوم من غزة وبير السبع، وهذا ربما الذي ورد ذكره في العهد القديم باسم «وادي مصر»[الملوك الأول: ٨ / ٦٥، الملوك الثاني / ٢٤ / ٧]، وهناك كانت حدود ديار سبط يهوذا(العدد...) لكن لايمكن الملاحة به، وعين شمس بلدة جميلة جداً، غير أنها ليست محصنة، ومثلها كذلك جميع بلدان مصر الأخرى، باستثناء الإسكندرية والقاهرة، ومن الممكن أن يُرى في عين شمس والفسطاط الأماكن التي سكنت فيها العذراء

الرائعة مع ابنها عندما هربت إلى مصر خوفاً من هيرود، وبما أنها لم يكن لديها مكان تدخل إليــه للاستراحـة، فإنها دخلت إلى معبـد كـان فيـه ثلاثمائة وخمسة وستين وثناً، حيث كـان يحتفل طقوسياً تشريفاً لها في كل يوم من أيام السنة، إنما لدى دخول المسيح والعـذراء مريم سقطت جميع الأوثان، وبذلك تحققت كلمـة إشعيـا(الاصحـاح ١٩) في قـوله:«هو ذا الرب راكب على سحـابـة سريعـة وقـادم إلى مصر، فترتجف أوثان مصر من وجهــه»، وعندمــا حملت هذه الأخبــار إلى أفـرودوسيــوس Af-rodosius ، قــدم إلى المعبـد ومعــه كل جيشــه، واقترب من الطفل الرضيع وتعبـده، وقال لجيشه:«لولا أن هذا هـو رب الأرباب، لما سجد هؤلاء أمـامـه، ولهذا إذا لم نكن حـريصين بأن نفعل مـا نرى أربابنا قـد فعلوه، لسوف نصاب بالرعب مثلما حدث لفرعون»، وهكذا فإن الرب المقـدس، الذي تفكر بالرحمة أثناء غضبـه، فأرسل ابنه إلى مصر، وبذلك قـدم برهاناً على غفـرانه، شفـى بذلك العـلاج جميع أوبئة مصر العشرة، وعلى مسافـة سبعة فـراسخ من عين شمس تقوم مـدينة الفسطاط،وهي مدينة محصنة بشكل جيد وعظيمة جـداً، وتقوم على الضفة الشمالية لنهر النيل، هذا ويجري وسط المدينة فرع كبير من ذلك النهر، وكذلك وسط مـدينة القاهرة(القسم السـادس — الفصل الثـاني والعشرون)التي هي مرتبطة بالفسطاط، وفي القاهرة يعود هذا الفرع إلى النهر الأساسي ثانية، ويوجـد إلى جانب القـاهرة شجرة نخيل قـديمة جـداً، وهي التي حنت نفسهـا للعـذراء المبــاركـة حتى تتمكن من قطف التمـر منهـا، ثم إنها انتصبت وعادت إلى وضعهـا ثانية، وعندما رأى الكفـار ذلك قطعوها، لكنهـا التحمت بأجـزائهـا ثانية في الليلة التـاليـة، ووقفت منتصبـة من جديد، ومن الممكن رؤية آثار القطع حتى هذا اليوم، ويوجد حول هذه المدينة كثيراً من الحدائق الرائعة، وعلى بعـد ميل واحد منها يقـوم بستان البلسم، التي هي شجــرة بحجم نصف شجــرة Mansus ، وحجم أغصـانها بقدر حجم داليـة عنب عمرها ثلاث سنوات، وأوراقهـا مثل

ورقة ثلاثية الوريقات صغيرة، أو مثل ورقة الفيجن، لكن لونها أشد بياضاً، وعندما تصبح ناضجة وذلك في حوالي شهر أيار، يتفجر لحاء الأشجار، ويتم جمع الماء في أوعية زجاجية، ثم يوضع في وسط روث حمام ويجفف، وبهذه الوسيلة يجري صنع البلسم الحقيقي، ويقال بأن هناك طريقة أخرى لجمعه، وهي باقتلاع الأوراق الموجودة على الجهة المتوجهة نحو الشمس، ذلك أن الأوراق تلتصق بالساق، وعندما يجتمع عدد منها فوق بقعة واحدة من الأرض، يمتلكون ساقاً واحدة، وعندما تنتزع الأوراق يتدفق من الساق مباشرة سائل شفاف جداً وطيب الرائحة، ويأخذ بالتنقيط، وهذه الحديقة يمكن سقايتها من نبع ماء واحد فقط، التي قيل بأن العذراء المباركة قد غسلت فيها قماش قماط الطفل يسوع، ويجتمع الناس من مسلمين ومسيحيين في أيام عيد الغطاس عند هذا النبع، ويغسلون أنفسهم تبركاً وصدوراً عن التقوى، وهناك معجزة أخرى تحدث هناك، وهي أن الثيران التي تقترب من الماء المتقدم ذكره، لا تقترب من أي ماء آخر فيما بين منتصف يوم السبت حتى الساعة نفسها من يوم الأحد، حتى لو حاولت سلخها حية، وفي الفسطاط هناك أعجوبة أخرى جديرة بالتدوين، ففي دير بني هناك وكرس على اسم القديس يوحنا المعمدان، هناك صندوق يحتوي على آثاره، وقد اعتادوا على حمل الصندوق المتقدم الذكر، والنزول به فوق النيل مسافة خمسة أميال إلى كنيسة رهبان أخرى، بنيت وكرست على اسمه أيضاً، وبعد القداس يضعون الصندوق في النهر، لمعرفة أي مكان رغب هذا القديس بأن ترتاح آثاره فيه، أي في هذا المكان أم في المكان المتقدم، وما أن يضعوه، حتى يأخذ الصندوق بالتحرك أمام أعين الجميع، ويسير بسرعة فائقة على عكس التيار، ويبلغ من سرعة التحرك أن راكب فرس يجري به بسرعة كاملة لا يمكنه أن يسبقه، وعلى بعد خمسة فراسخ من الفسطاط هناك بعض الأهرامات الثلاثية الشكل، وهي ذات ارتفاع شاهق، وقد قيل بأنها كانت أهراءات قمح يوسف،

وعلى بعد فرسخين منهم هناك خرائب مدينة طيبة، التي منها جاءت الفرقة الطيبية، ومرتبط بها قفار طيبة التي كان فيها في الأيام الخوالي حشد من الرهبان.

ويجري النيل من خلف الفسطاط، ويتدفق كله نهراً واحداً من أسوان، المكان المتقدم الذكر، وتبعد أسوان عن الفسطاط مائتين وأربعين ميلاً، ومن أسوان إلى مدينة مرواو مائتين وستين ميلاً، وتقوم مدينة أسوان تحت خط الاستواء،ولذلك لايشاهد فيها ظل عندما تكون الشمس في المحطة الأولى من برج السرطان، وتلقي مرواو في ذلك الوقت بظلها نحو الجنوب، وعليك أن تتنبه أنه صحيح أن المسافة من الفسطاط إلى أسوان، ومن أسوان إلى مرواو، هي مسافة طويلة، مع ذلك فإن الأرض ليس لها عرض إلاّ بالنادر، لأن هذا الطريق كله يساير النيل، الذي يمتلك جبالاً على كلا الجانبين، ولا يمكن العثور على منابع النيل، فيما يتعدى الجبال الموجودة على الجهة اليسرى من النوبة، التي يجري بينها، فخلف ذلك منطقة لا يمكن اجتيازها، ومن النادر حماية مصر من جهة البحر، ويوجد إلى الغرب منها ويحدها بلاد المغرب، التي تدعى برقة، وهناك قفار بينهما تحتاج إلى رحلة خمسة عشر يوماً، وإلى جهة الجنوب هناك قفار الحبشة، والرحلة إلى النوبة تحتاج إلى اثني عشر يوماً أو أكثر، وعلى الجانب الشرقي هناك فيافي طيبة، التي تمتد حتى البحر الأحمر، والرحلة تحتاج إلى ثلاثة أيام إلى مكان يدعى البرلس(كذا)(رأس بناس)، فهذا هو الميناء الرئيسي لمصر على البحر الأحمر، لأنه بالنسبة للذين يرغبون بالابحار نحو الهند، ونحو الجنوب الغربي، ونحو الشمال، هناك قفار واسعة تمتد حتى الأرض المقدسة، وهي التي تاه فيها بنو إسرائيل لمدة أربعين سنة، ولا يستطيع الانسان عبور هذه القفار إلى سورية بأقل من ثمانية أيام، وعلى هذا نجد مملكة مصر محاطة من كل جانب — باستثناء ساحل البحر — بالرمال

والقفار، والمناخ في مصر صحي، والطعام جيد، والأرض أكثر اعتدالاً منها في فلسطين أو سورية، مع أنه من خلال وضعها، قد يخيل للانسان أنه سوف يجد العكس، وتسقى أرض مصر بمياه النيل فقط، ويبدأ النيل بالزيادة اعتباراً من عيد ميلاد القديس يوحنا(٢٤ — حزيران)، ويتابع الزيادة حتى أيام عيد تمجيد الصليب المقدس(١٤ — أيلول)، ويبدأ بالتناقص من هذا التاريخ حتى أيام عيد الغطاس، فوقتها تظهر الأرض الجافة، ويأخذ الفلاح برمي بذاره، والحصاد سوف يكون في آذار، ويقوم في وسط النهر عمود رخامي، فوق جزيرة صغيرة(جزيرة الروضة) وذلك خارج مدينة مصر القديمة، التي هي على مقربة من مدينة القاهرة، ووضعوا على ذلك العمود علامات، يعرفون من خلالها فيما إذا كان الموسم المقبل سوف يكون جيداً أم سيئاً، ويتم جمع الفواكه والخضار شروعاً من أيام عيد القديس مارتن(١١ — تشرين الثاني) حتى آذار، وتحمل الشياه والماعز مرتين في السنة.

ووصف الطريق من أرض الميعاد إلى القاهرة براً، وعبر القفار هو كمايلي:

من غزة إلى الدارون ثلاثة فراسخ، والطريق جيد مع مياه كثيرة، ووفرة من الأعشاب، ومن هناك إلى رفح مسافة فرسخين، والطريق جيد، ووفرة من المياه مع جميع الأشياء، ومن هناك إلى Zasque أربعة فراسخ، ولا يوجد هناك رمل كثير، والطريق طريق كثير الأعشاب، وفيه كثير من المياه الجيدة، ومن هناك إلى الحسي Heus أربعة فراسخ، والطريق هو فوق الرمال، وفيه مياه جيدة إلى حد ما، ومن هناك إلى العريش أربعة فراسخ، والطريق كله فوق الرمال، وفيه مياه كافية، ومكان للبيع وللشراء ، ومن هناك إلى Burelaui أربعة فراسخ، وينقسم الطريق هنا إلى إلى طريق علوي، وطريق سفلي، والطريق السفلي هو الطريق الأكثر استخداماً، وهو يعبر مكاناً اسمه سبخة البردويل،

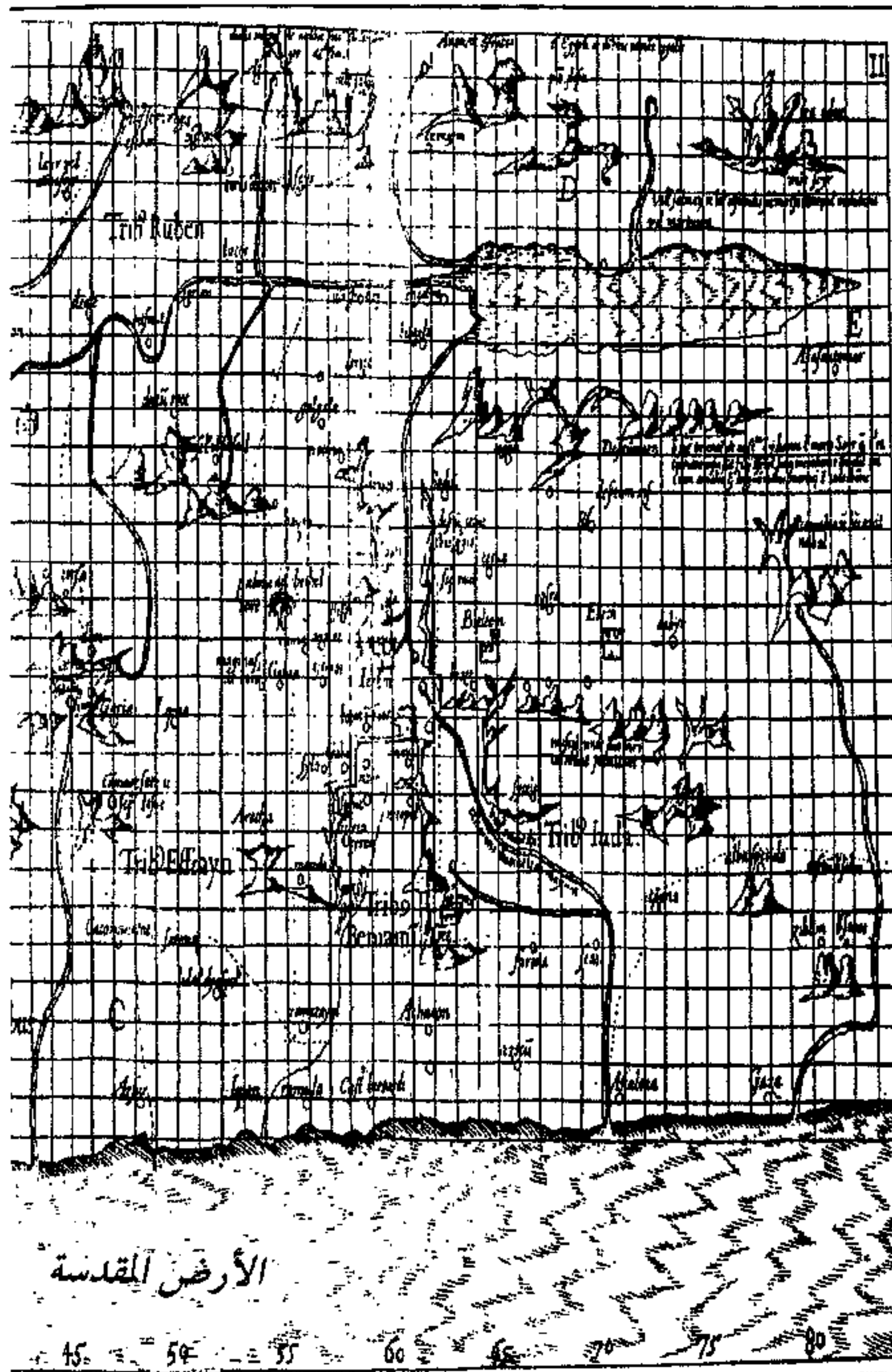
وهو المكان الذي فيه مات الملك بلدوين، ومن Bouser إلى Tarade فرسخين، وهناك كثير من الأعشاب وماء جيد، كما ويوجد سوق هناك، ومن هناك إلى Asbede أربعة فراسخ، وهناك كذلك كثيراً من الرمال، ووفرة من الأراضي المعشوشبة، وهناك أيضاً سوق، ومن هناك إلى Viteleb خمسة فراسخ، وهناك الكثير من الرمال، والقليل من الأعشاب، وماء سيء جداً، لكن هناك الكثير منه، ومن هناك إلى Nah-er Lersibia أربعة فراسخ، وهناك كثير من الرمال، لكن مع ماء جيد، ومن هناك إلى قطيا(كذا)...فرسخ، وهذه قرية جيدة، فيها ماء جيد إلى حد ما، وينقسم الطريق هنا إلى طريقين: علوي وسفلي، والطريقان معاً يقودان إلى [بركة] الحبش Habesse ، وهي قرية رائعة، والطريق السفلي هو الطريق الأكثر استعمالاً بين الطريقين.

والطريق الأعلى هو كمايلي: من قطيا(كذا) إلى العرس خمسة فراسخ، وهناك كثير من الرمال ومن الماء، لكنه ماء سيء، ومن هناك إلى بير أبي روق أربعة فراسخ، وكثير من الرمال، وماء سيء جداً، ومرّ ومالح، ومن هناك إلى Hucar أربعة فراسخ [حيث كثير من الرمال، والعشب، والماء الجيد، ويوجد سوق هناك] ، ومن هناك إلى Hesiuone أربعة فراسخ] حيث كثير من الرمال، وماء جيد من نهر، ومن هناك إلى Masinach ثلاثة فراسخ وهناك كثير من الرمال، ومياه جيدة من نهر، وتبدأ بعد Sbesbie أرض مفلوحة، ومن هناك إلى Vacaria — وهي قرية جيدة — فرسخين طويلين،وهناك كثير من الماء من نهر، ومن هناك إلى[بركة] الحبش abesse ثلاثة فراسخ، والطريق جيد، والأرض خصبة، والقرية مليئة بجميع الأشياء الجيدة، ومن هناك إلى بلبيس ثلاثة فراسخ، والأرض هناك صالحة للزراعة، والقرية واسعة وخصبة، ومن هناك إلى Abirelcara ثلاثة فراسخ، وهي أرض خصبة، ذات مياه جيدة، وفيها الكثير منها، ومن هناك إلى Hus أربعة

فراسخ، حيث الأرض خصبة، والماء جيد، وهناك كثير منه، ومن هناك إلى Quiriai ثلاثة فراسخ، حيث الأرض خصبة وكثيرة الثمار، ومن هناك إلى القاهرة ثلاثة فراسخ والطريق جيدة.

والطريق السفلي: من قطيا إلى الغرابي أربعة فراسخ، حيث كثير من الرمال، وقليل جداً من الماء، وهو ماء مالح، ومن هناك إلى القصير خمسة فراسخ، حيث كثير من الرمال، وكثير من المياه، لكنها مياه سيئة جداً، ومن هناك إلى بيرخيس أربعة فراسخ، وليس هناك الكثير من الرمال، وهناك وفرة من الماء، لكنه ماء مالح، ومن هناك إلى الصالحية — وهي قرية جيدة — أربعة فراسخ حيث الكثير من المياه الصالحة، ومن هناك إلى [بركة] الحبش Habesse ستة فراسخ، وهو طريق جيد فيه وفرة من الماء الجيد من نهر، ومن هناك إلى القاهرة، كما من قبل، وعلى هذا تمتد القفار إلى حوالي السبعين فرسخاً، والأرض المفلوحة إلى حوالي العشرين أو أكثر، ما بين غزة والقاهرة.

القدس


Trib⁹ Ruben
Trib⁹ Iuda
Trib⁹ Effraym
Tribo Beniamin
Belem
Gaza
الأرض المقدسة
45
50
55
60
65
70
75
80

ecca S Catharine

mons Synai

Ydumea

mons Seyr

Sragnum

Rasegazaren

Damiata

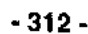
Babilonia

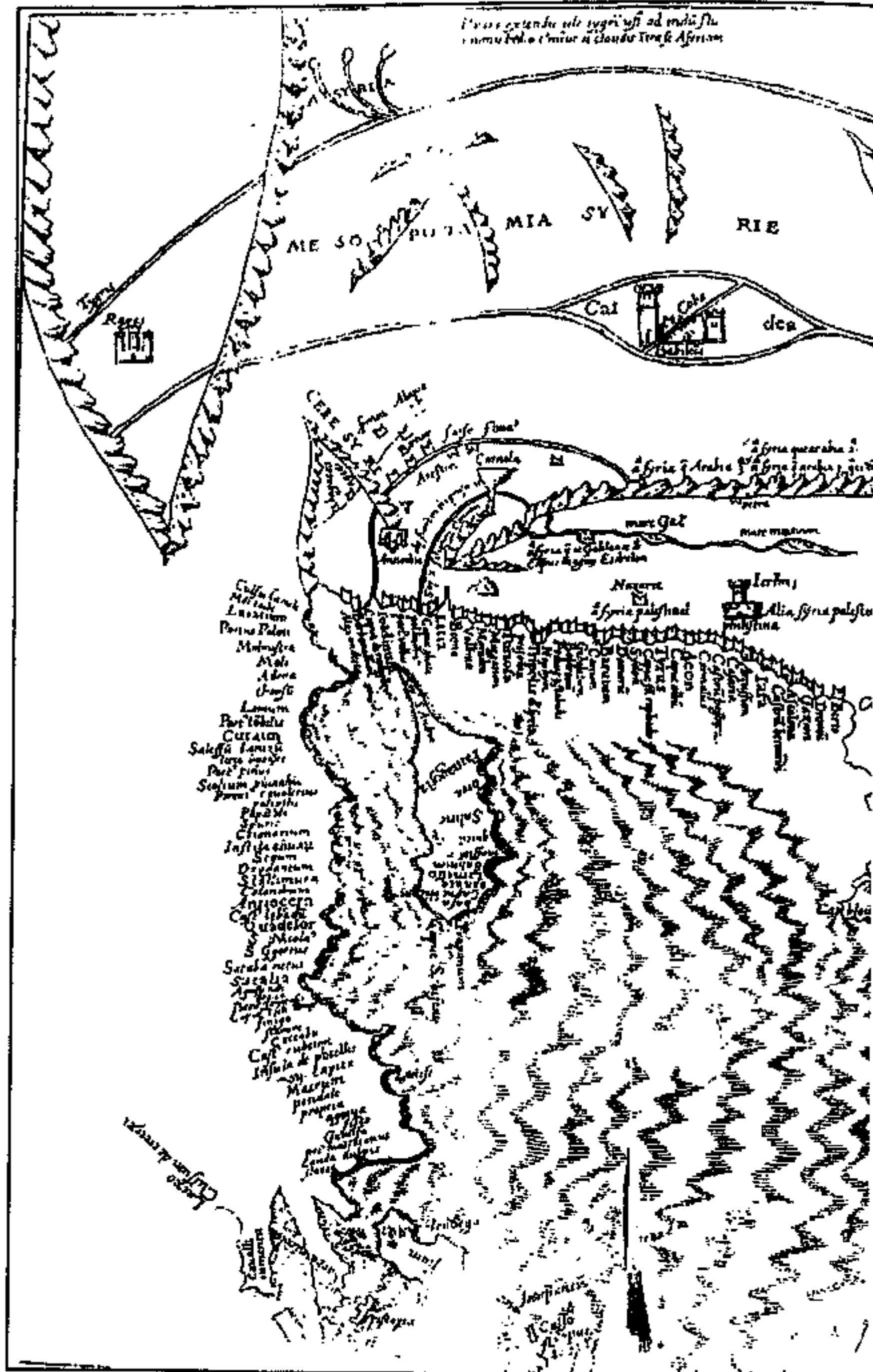
Alexandria

Caput album

Portus Ramadas

الهلال الخصيب ومصر




ME SO PO TA MIA SY RIE
Cal dea



القسم الخامس عشر

الاجراءات المواتمة للحفاظ على الأرض المقدسة، مع تجنب العثرات والأخطاء الكثيرة التي ورد ذكرها، وهو في خمسة وعشرين فصلاً.

الفصل الأول

الاجراء الضروري للاحتفاظ بها، دراسة للخطط العسكرية، وللقيام بتدريب متواصل على استخدام الأسلحة.

شرحنا فيما تقدم معائب كثيرة سواء في الحياة الخلقية أو في الانضباط العسكري، حيث ارتكب الشعب المسيحي في مجالها أخطاء كثيرة في أرض الميعاد، ولهذا زال من هناك كل وجود كاثوليكي، ولكن«لأن سماع خبره فقط يخيف» كما يقول إشعيا ٢٨ / ١٩، ولأن الشرور الماضية تساعد على تجنب المستقبلية، وتقدم الحيطة المناسبة مما لحق من مساوىء، نحاول بحق أن نقطف ما هو نافع، أي الأمان من المخاطر والأغلاط، وكذلك أن نقدم ناموساً للحياة، وطريقة للسلوك، وهنا نجد أولاً أن المؤمنين قد قصروا في الانضباط العسكري مراراً كثيرة، ونجد أن الصليبيين كثيراً ما تحرشوا بالمسلمين وأثاروهم عندما كانوا مرتاحين غير هيابين، مما جعلهم ينفرون بأعداد كبيرة، فيحرقون القرى أحياناً مع القلاع والمدن، وعندما كانوا يقعون في ضيق لم يكونوا يحسنون التخفي، أو إرسال رسل للتهادن، غير متنبهين لما أوصى المسيح به في لوقا ١٤ / ٣١ — ٣٢«وأي ملك إن ذهب لمقاتلة ملك آخر في حرب لايجلس أولاً و يتشاور هل يستطيع أن يلاقي بعشرة آلاف الذي يأتي عليه بعشرين ألفاً، وإلاّ فما دام ذلك بعيداً يرسل سفارة ويسأل ما هو للصلح»، لاسيما عندما يشهدون أن العدو هو أغنى وأكثر ثروة وأعظم دهاء، وأشد ضراوة، وأقوى بالعدد والعُدد، وتطلب إرادة الرب

في مثل هذه الظروف منا التواضع بسبب الخطايا وعندئذ إنه لضرب من الحماقة أن نتعجرف ولا نقدم على عقد اتفاقية منقذة، ونحذوا حذو ما فعله يواكيم وصدقيا، كما جاء في القسم الأول — الفصل السادس، وما فعله الملك اللاتيني الثاني في القسم السادس — الفصل الرابع، فقد اختار هؤلاء، على الرغم من قلتهم القتال ضد عدو شرس وكثير العدد — انظر القسم الثاني عشر — الفصل الأول، ذلك أنهم حتى بعد أن احتلت مدنهم كانوا لا يعرفون إلى أين المهرب، وهكذا يروى بأن البندقداري قال لبعض المسيحيين بعد احتلاله لأنطاكية:«حقاً أيها المسيحيون إنكم أغبياء وبلا فطنة، لأنكم لا تعرفون كيف تقاتلون، ولا كيف تعقدون الصلح، ولا كيف تهربون في الوقت المناسب»، ولهذا إنه بعد احتلال الأرض المقدسة، نرى بين الأمور المطلوب المحافظة عليها، من المناسب تماماً درس الانضباط العسكري والتمرين المتواصل عليه، ويتوجب اتخاذ قرار علني بفرض تعليم فيجيتيوس Vegetius في مقرر الشؤون العسكرية، وأن تتم قراءة غيره في المدارس من قبل معلمي فن الحرب، وذلك في أمكنة موائمة، وذلك كما كان الرومان يعملون قديماً، وبموجب ذلك يعلمون العسكريين والمهتمين بشؤون الحرب، لأن عليهم التمرين المتواصل، حتى إذا طرأ طارىء يكونوا متأهبين لمجابهة المخاطر، وآخذين حذرهم، لأنه كما يقول فيجيتيوس:«في الحرب ليس المهم العدد، بل الفن والتمرين هما يعطيان بالعادة الغلبة»، وهكذا نجد أن أماتوس روفوس Amatus Rofos عندما ضايقته الأعداد الكبيرة من الداشيين Dacis ، أمر القلة التي معه، أنها إذا رأت المعركة تنقلب نتائجها ضده، بالانقضاض من خلف العدو، وبالظهور في قمم الجبال وهم يصدحون بالأبواق، على أمل أن يرعب هذا الأعداء، فيديرون ظهورهم.

ويتوجب اتخاذ قرار، تحت طائلة عقوبة محددة: إن على جميع سكان

القـدس، لا بل أيضـاً على جميع سكـان مملكة القـدس الالتـزام — على الأقل مـرة في الاسبـوع — أن يتمـرنوا على الـرمـاية بالقـوس، أو على الرماية بالمنجنيق، سـواء أكانوا في المدن أم في القـرى، ومثل هذا نقرأ في سفر الملوك الثاني أن داوود قد أمـر أن يتعلم يهوذا الرماية بالقوس،لأنه سمع أن الملك شـاؤول وابنه يوناثان قد أصيبـا برشقة سهـام، وكذلك قـــال الأب الأكبر لليهـــود في(سفـــر التكويـن:٤٨ / ٢٢)[لابنه يوسف]:«وأنا قـد وهبت لك سهماً واحداً فـوق أخوتك أخـذته من يد الأموريين بسيفي وقوسي»، وكذلك لم يكن سكيبيو Scipio الإفريقي يرى أن بإمكانه إحراز النصر إلاّ إذا وزع على جميع الجهـات رماة قوس منتخبين ، يطلقون السهـام من بعيد فيرعبون الأعـداء، وإذا كان بعض الناس يتمتعـون بالتدرب على الحرب بالرمـاح الطويلة، فليعكفوا أيضـاً على التـدرب على الرمي، فكثيراً مـا تكون إسهـامـاتهم مفيـدة جـداً في الحروب، وهكذا للدفـاع عن أرض الميعـاد المقـدسـة يصير الشعب المسيحي بارعـاً، وفي الوقت نفسـه يتم تجنب كسل المقـاتلين، ذلك أنه بؤرة لجميع الرذائل، فقـد نادى حـزقيـال هكذا وأعلن عن إثم اليهـود قـائـلاً:«هذا كان إثم أختك سـدوم الكبرياء والشبع من الخبـز وسـلام الاطمئنان»(حـزقيـال:١٦ / ٤٨)، وقـد جعل التـدرب على السـلاح الرومـان يخضعـون العـالم — حسب فيجيتيـوس — وإلاّ مـاذا كـان بمقدور تلك القلة مـن الرومان ضد حشـود الغاليين والإسبـان، وضد مكر الأفارقـة، وفطنة اليونانيين، ففي جميع الميادين يتفـوق التدريب على الجرأة، وقلة متـدربة هـي الأسرع نحـو النصر، والكثـرة الجاهلة هي الأسرع نحو الفـرار، ولايظنن أحد أنه ضـد القداسـة انصراف الانسان نحـو الجندية للدفـاع عن الحق والوطن، فقـد قال هيرونيمـوس Her-onymos في رسالتـه إلى بونيفـاسيوس Bonifacius :«إياك أن ترى أنه غير ممكن للمـــرء أن يرضي الرب إذا كـــان يقـــاتل بـالســلاح في الحروب»، ففي هذا الميـدان كـان الملك داود القـديس، وغيره كثير من

الأبرار في تلك الأيام، وكـان هذا أيضاً وضـع الجند الذين سألوا يوحنا المعمدان عما يتـوجب عليهم أن يفعلوا،فأجابهم قائلاً:«لاتظلمـوا أحداً، ولا تشوا بأحد، واكتفوا بعلائفكم»[لوقا: ٣ / ١٤]، فهو لم يحرم عليهم القتال تحت السلاح، بل أمرهم بالاكتفاء بأعطياتهم.

الفصل الثاني

الفائدة الكبرى للعازمين على الذهاب إلى قتال العدو، بعدم كشفهم عن مقاصدهم وخططهم.

قـد روي بأن واحـداً من الشعـراء قد قـال:«إذا فهمك العـدو، فقـد خسرت المعـركة»، ولذلك كـان القـادة أصحاب الفطنة يبـذلون أقصى جهـودهم حتى يخفـوا عن العـدو مقـاصـدهـم، وبناء عليـه عندمـا ألح أحدهم على ميتليـوس بيوس Metellius Pius بالسؤال قـائلاً:« ماذا ستصنع غـداً»؟ أجـابه«لـوأجـابك على ذلك قميصي لأحـرقتـه»، ورأى بورتيـوس كـاتو Portius cato أن المدن الاسبـانيـة التـي قهـرها في الحرب قد تتمـرد عليه، اعتماداً على كـونها محصنة، فكتب إلى كل واحدة منهـا، يهددها بالحرب إذا لم تهدم تحصيناتها على الفـور، وأمـر أن ترسل الرسائل إلى كل واحـدة منها في يوم واحـد، وبإخفائه مقـاصده، فكرت كل واحـدة من تلك المدن أن الأمـر قـد صـدر إليهـا وحـدها، وكـان يستهدف منعهـا من التحالف ضد أوامره، وعندمـا ذهب ج . ليليوس G. Lelius إلى سفاقس، أخـذ معه وفداً من القـادة ومن أمراء السرايا، على أساس أنهم عبيد، فيما هم في الحقيقة كانوا جواسيس، وكان إذا ظن أن أحـدهم معـروف من قبل الأعـداء، كـان يؤدبه بالعصـا مثل تأديب العبيـد، حتى يخفي وضعــه، وهكذا نجح مخططه، وكـان ميثـريدات Mithridates عندمـا حـاصره بومبي، قد فكر بـالهرب في اليوم التـالي، ولكي يخفي نواياه وعـزمه على ذلك، تقـدم على جبهة واسعـة، واقترب من مـواقع العدو، وعقـد اجتماعـات عـدة حتى لا يلفت انتباه العـدو،

ولكي لا يثير الريبـة لدى العـدو أمـر بـإشعـال النيران الكثيرة في جميع أرجـاء المعسكر، وقـام بعـد ذلك عند الهجيع الثـاني مـن الليل بقيـادة جيشه، فعبر من خلال وسط معسكر العدو.

ولدى وقـوع جيش لوسيـوس فيريوس Lucius Furius في مأزق خطير، أخفى قلقه لئلا يخاف الباقون، وارتد بعد ذلك بقليل كما لو كان سيهـاجم العدو من كل صـوب، ثم لف جيشـه واقتاده سـالماً، والجيش نفسه لم يكن يعرف مـاذا يجري، وتعلمنا هذه الأمثلة بما فيه الكفاية، كم هو مجدي لقـائد المعـركـة إخفاء نـواياه سواء لإلحاق الأذى بالعـدو، أو لتأمين سـلامـة جماعته، والتتـار هم أكثـر من يلجأ إلى الأخـذ بأسبـاب الحيطة، حيث يروى عنهم أنهم لايدعون أحداً يدخل إلى معسكرهـم أو يخرج منه دون موافقتهم حتى لا تنكشف مقـاصدهـم إلى الأعداء، وهذا مـا لم يفعلـه الصليبيـون عندمـا استـولوا على دميـاط، وهكذا عنـدمـا انكشفت خططهم جُرحوا وأسروا ، ثم اضطروا إلى إرجاع دمياط(انظر القسم الحادي عشر — الفصل التـاسع) ومثلهـم كـان أهل عكا، فإنهم عندما نصبوا الكمائن لم يعـرفوا كيف يخفون خططهم فقتلوا(انظر القسم الثاني عشر — الفصل الثامن).

الفصل الثالث

ضرورة الاهتمام بمعرفة خطط أعدائهم.

المسلمون كثيرو الاهتمام بمعرفـة مقاصد أعدائهم، وأكثـر ما يسعون نحوه هو معـرفة ما يجري بين المسيحيين، ليس فقط في الأماكن القـريبة منهم، بل في الأماكن النائية عنهم.

وكان م. كاتو M. Cato عندما أخفق بطريقـة من الطرق بالتعرف إلى ما كـان يدبره الاسبان، أمر ثلاثمائـة من جنوده بالهجوم على معسكر الأعـداء، ليجلبوا سـالماً بأحدهم، وكـان بعـدما عـذبوه أن اعترف بكل

أسرارهم، وباح بها، ذلك أن معرفة مخططات الأعداء تفيد في تجنب المخاطر، لأنه كما قال القديس غريغوريوس:«تجرح السهام المنتظرة أقل، وتحتمل الشرور أكثر إذا تسلحنا ضدها بترس الاحتراز المسبق»، ولذلك أرسل أهل قرطاج إلى الاسكندر هملقار وبعثوا رجلاً قاسياً، انتقل إلى عنده وتظاهر بأنه منفي ليكسب صداقته، وليتمكن بذلك من الكشف عن خططه، فيأمن أذيته، ويهيء ما يلزم ضدها.

وكذلك عندما رأى القنصل أميليوس عن بعد كثرة من الطيور قد طارت من الغابة أدرك أن كمائن تنصب هناك ضده، وهكذا لما كشف مخطط الأعداء أفلت من المخاطر، وتصلح هذه الطريقة أيضاً لمضايقة العدو، وخاصة عندما يتم الكشف عن نقاط الضعف لديه، وهكذا فعل سكيبيو الافريقي، عندما بعث مع ليليوس إلى سفاقس قادة وأمراء سرايا منتخبين، وهم يرتدون ألبسة العبيد حتى يراقبوا بكل دقة قوات ذلك الملك، ولكي يتفحص هؤلاء مواقع الجيش المعادي بحرية أكبر، أفلتوا جواداً عن عمد، وطاردوه كما لو كان هارباً، وداروا يبحثون عنه في كل مواقع المعسكر، ولدى عودتهم تحدثوا عن كل ما شاهدوه، وهنا بعدما عرف سكيبيو كيف عليه أن يهاجم العدو ، أنشب المعركة.

ويفيد هذا لطمأنة النفس أيضاً، ويحكى أنه عندما كان القنصل ج. ماريوس محتاراً حول حرب سمبروكو Cympruco مع الغاليين واللغاريين Ligurii، أرسل إليهم رسائل أمرهم في مطلعها أن عليهم قبل نهار حدده لهم النظر فيما جرى معهم من الالتزام بالمعاهدة، وكرر بعد وقت بعث الرسائل إليهم، وعندما تأكد بأن الرسالة الأولى قد وصلت إليهم، أدرك أنهم يضمرون شن الحرب ضده، وقتها ارتاح من الشك الذي ارتابه.

وهكذا قصّر الصليبيون كثيراً في التنقيب عن أسرار المسلمين، وهذا يمكن ملاحظته من خلال أخبار الأحداث التي سردناها من قبل، فلقد

وجـدنا مـرة أن واحـداً من البـداة المسلمين دل الصليبيين على معبر بالنهـر(راجع القسم الثـاني عشر — الفصل الثـاني)، وهكذا عندمـا لم يكن بين الصليبيين مخبرون بل خونة، حل بهم مـا حل بحق لأنهم كانوا يقبلون أن يخالطهم دون تمييز الهراطقة والكفرة(أرثوذكس ومسلمين).

الفصل الرابع

أمثلة عديدة حول ضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتجنب المخاطر الكثيرة التي تتعرض الجيوش لها بالعادة وهي على طريقها .

مع أن كل مـا هو متعلق بالعدو، ومـا هو مختص به ينبغي البحث به بسرية مطلقـة — حسبما أوردنا في الفصل الثـاني المتقـدم — إن من بين الأمور الواجب إتمامها بسرية أكبر أمر تنقلات الجيش وتحركاته، وهكذا نجـد الاسكندر الكبير قـد تمكن من احتـلال اليـونان، لأنه وصل قبل الوقت الذي كان متوقعاً وصوله فيه، وبالطريقة نفسها احتل التتار مدناً عـديدة، لا سيما دربند، أو باب الأبـواب ، ولتجنب المكائـد والمخـاطر ينبغي التنقل بالجيش بسرية، وإذا تمّ ذلـك ببراعة من قبل القـائـد، فإن مخاطر كثيرة يمكن تجنبها.

وهكذا نجد قستوريوس Questorius عندما كان في إسبانيا، ضغط عليه العـدو من الخلف، لذلك توجب عليه عبور نهر هناك، فقـام فحفر عند ضفته خندقـاً على شكل هلال، ثم ملأه بمواد مشتعلة، وأوقـد فيه النيران، ومن ثـم عبر النهـر بحـرية، في حين كـان ذلك متعـذراً على أعدائه.

وكـذلك عندما عجـز غريسـوس Gressus عن عبور نهر من محل كان قليل المياه، ولم يستطع أيضاً بناء جسر، حفر قناة من وراء معسكره، وحـوّل إليها مجرى النهـر، ومثل هـذا عندمـا وجـد هرقـل مـوفـد

سرتوريوس Sertorius في إسبانيا، نفسه محصوراً بين الجبال، وقد أقبل إليه عـدد كبير من الأعداء، ووجد أن طريقه للافلات صعب وطويل، قام بحفر خندق بالعرض بين الجبال، وملأه بمواد مشتعلة، ثم أوقد فيه النيران، وبذلك أقام حاجزاً بينه وبين العدو، وأفلت.

وعندما وجد بركليس Pericles الأثيني نفسه مطوقـاً من قبل العـدو، وجميع الممـرات مغلقـة في وجهه،إلاّ مخرجـان، أقـدم على حفـر خندق عميق وكبير، كما لو أنه كان يستهدف عزل العدو، هذا من جهة، وتظاهر من جهة أخرى بأنه عـازم على الانقضاض على الأعداء، فتركوا جميعاً جهة الخندق وتجمعوا أمام المخـرج الآخر، وعند ذلك مدّ جسوراً فوق الخندق، وعبر ومعه جيشه.

ولكي يخدع داريـوس شعب السكيـت Schytas ، انسحب من معسكره، وترك فيـه الكلاب والحمير، فلما سمعـوها تنبح وتنهق، خُيّل إلى هؤلاء الأعداء أن داريوس مابرح هناك.

ومثله غيره ربطـوا الثيران إلى الأشجـار، فتراءى للنـاس من سماع خوارها الكثير أن أصحابها مـايزالون هناك، وكان آنو Anno عندما حـاصره الأعداء قـد اختـار مكاناً مناسبـاً جداً لـلافلات، فجمع مـواد خفيفة أضرم فيها النيران، ووقتها تجمع أعداؤه لحراسة بقية المنافذ، وهنا أمـر جنوده بالعبور من خـلال تلك النيران، بعدمـا أمرهم بأن يضعـوا أمام وجوههم الترسة، وأن يغطوا سيقانهم بالثياب.

وعندما ضغط فابيوس Fabius على هانيبعل، وحاصره في مكان شديد الخطر، ربط في قرون الثيران حـزماً وأضرم فيها النيران وأطلقها، فأخذ القطيع الهائج يركض هنا وهناك، وأشعل النيران في الجبل من كل جهة، فخاف القـائد الروماني من الكمائن والمصائـد، فجمد جنده حيث هم، وهكذا أفلت المغربي سالماً.

وصـــدف أن قـــاد القنصل إميليـــوس بولس Aemilius Paulus جيشـه في طريق ضيق جـداً عند الشاطىء، فحمى جـوانب جيشـه بأن صف الأسرى على الأطراف، وبسببهم امتنع العدو عن رمايته بالسهام.

وعندما كـان بورو Poro يمنع الاسكندر المقـــدوني من عبور نهر ايداسبن Idaspen ، أمر أتباعه أن يركضوا بعزم نحو الجهة المقابلة من النهر، فتبعهم بـورو، خشية منه أن ينفذوا العبـور من هناك، وعند ذلك أمر الاسكندر جيشه بالعبور من الجهة العليا.

وهكذا إذا كان القادة البارعين قد تخطوا المخاطر، بأخذهم بإجراءات احترازية متنوعـة وقـادوا جيـوشهم سـالمة، على عكس ذلك تصرف بلدوين الأول ملك القدس عندما أقبل ليـواجه ثلاثين ألفاً من المسلمين بين اللد والرملة، فأوقع نفسه مع أتباعه في موقع حرج جداً، وفعل مثل هذا أيضاً قرب جبل الطور.

الفصل الخامس

كيفية إقامة المخيم

يتـوجب دومـاً أن يقـام المعسكر — خاصـة إذا كـان على مقـربة من العدو — في مكان آمن حيث تتوفر كمية من الأخشاب والعلف والماء، ولهذا عندمـا خـدع الخونة امبراطور ألمانيـا ومعـه ملك فـرنسا وملك القدس أثناء حصارهم لدمشق، فبدلوا موقعهم المناسب بموقع آخر لا ماء فيه، دحروا وتخلوا عن حصار دمشق، وبالطريقة نفسها هزم صلاح الدين غي لوزغنان وأسره.

وإذا كـانت الإقامـة ستطول يتـوجب اختيار المكان الصـالح، والمناخ الجيد، لنصب المعسكر، كذلك ينبغي تجنب أن يكون هناك جبل قريب، ولا بأس أن يكون المكان مـرتفعـاً حتى لا يسهل على العـدو احتـلاله، ومن غير المناسب أيضاً أن تكون هناك كثـرة من سواقي المياه، فإن أهل

دمشق قد دحروا التتار بسبب ذلك، كذلك ينبغي تجنب حصر الجيش الكبير في مكان ضيق، أو زج الجيش الصغير في مكان ممتد أكثر من اللازم، ويجب نصب المعسكر حسب المعطيات والظروف، بحيث يكون أحياناً مربعاً، وأحياناً مثلثاً، وأحياناً على شكل نصف دائرة، وذلك حسبما يقتضي وضع المكان،هذا وإن الشكل المربع والمستطيل أنسب في حالة الدفاع، وللشكل المستدير مفعولاً أكبر، وإذا لم تكن هناك ضرورة قصوى ينبغي عدم تثبيت الأوتاد في الأرض،بل ليصنع منها ما يشبه الجدار بارتفاع ثلاثة أقدام فوق سطح الأرض، وأن يكون أمامها خندق عرضه تسعة أقدام وعمقه ثمانية أقدام، إنما ينبغي إحاطة النقاط التي يكون ضغط العدو عليها شديداً بخندق عرضه اثني عشر قدماً وعمقه تسعة أقدام، وأن تحاط قمة الخندق بسواتر خشبية متينة جداً، هذا وقد اعتاد الجنود أن يحملوا كمية منها معهم، وأن يكوم منها على الأرض تلة يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام، لكن إذا حالت مقاومة العدو دون ذلك، فلينظم الفرسان جميعاً مع الرجالة في الوسط على شكل جبهة قتال، في حين يتبعهم الباقون، وهكذا نجد يوليوس قيصر أثناء الحرب الأهلية، عندما قاد قواته ضد أفرانيوس Afranius ، ووجد نفسه غير قادر على التقدم دون التعرض للخطر، صف جيشه على شكل ثلاثة صفوف الواحد وراء الآخر، وحفر خندقاً عمقه خمسة عشر قدماً، لجأ إليه مع جنده عند غياب الشمس.

ويلزم فوق كل شيء أخذ الحيطة في أن لا تتم مواجهة الأعداء من جهتين في وقت واحد، فإن ذلك يعرض لأكبر خطر داهم، ويترك المجال واسعاً للخوف ، وكذلك ينبغي السهر الشديد على حراسة المعسكر، وينبغي إضاءة الأماكن الهامة لتوفير الرؤية من بعيد، لئلا ينقض العدو فجأة، وعلى كل عنصر أن يكون سلاحه جاهزاً بالقرب منه.

وينصب المسلمـون معسكراتهم حسب نظام دقيق، حيث يضعـون في الوسط سرادق السلطان، ومن حـوله الأشراف والرجـالات الأشـداء حيث يكون تعـــدادهم حـــوالي الألفين،ويـدعى هؤلاء باسـم الحلقـة السلطانيـة، ثم يوزعـون مـا تبقى ويرتبـونـه حسب تلك الدائـرة، وهم يتبعون هذه الطريقـة وينفذونها جميعاً، وهـي مناسبة، ذلك أن كل مسلم يعـرف في أي دائرة هو، وفي أي دائـرة ينبغي أن يكون، ومكان خيمتـه بالتمام والكمال.

الفصل السادس

توضيحات وأمثلة تدل على خطورة ترك العدو يستدرجنا إلى خوض المعركة.

لاتترك الأوضـاع في الحرب مجالاً للمغـالطة، والمغـالطة هي أن تفيـد عــدوك، وتدعـــه يؤذيك، ولذلك ينبغـي أن لا تصنع أي شيء حسب هوى عـدوك،لئلا تكون أنت نفسك عـدواً لنفسك، ويؤذي هذا أكثـر ويضر وقت التحام الجيـوش، من ذلك مثلاً نجد روجـر أمير أنطاكية، قـد انطلق بتحريـض من المسلمين وإثارة، دون أن يكون لديه أدنى أمل بوصول نجدة مرتقبـة، فقتل بسيف الأعداء هو وكامل الجيش الصليبي تقـريباً، وفي الحقيقـة لإنشاب القتـال ينبغي اغتنام الفـرصة المناسبـة، لا الخضـوع إلى إرادة العـدو، على هذا عندمـا بلغ سكيبيـو في إسبـانيـا أن جيش أسـدروبعل، قـد زحف إلى القتـال صبـاحـاً دون تناول للطعـام، ضبط جنوده، وأمـرهـم بالجلوس وبتناول الطعـام، وعندما حل بالعـدو التعب من الوقوف الطويل تحت السلاح، وعرف أن الأعداء قد جاعوا وعطشوا، أخرج جيشه وتقدم به، فأحرز النصر.

ومثل هذا حدث في إسبانيا مع متللوس Metellus ، فقد زحف هرقل ضده عند شروق الشمس في وقت من السنة شـديد البرد، وتقدم

نحو خنادقـه، فضبط متللوس قواته، وانتظر حتى الظهـر، وإذ شعر بأن الأعداء قد تعبوا انقض عليهم ، وانتصر.

وكذلك عندما كان بوستوميوس Posdtumius في صقلية يقاتل ضد البونيين،(أهل قرطاج) جعلهم يتقدمون كل يوم مسافة ثلاثة آلاف قدم منه، حيث كـان يقاومهم برخاوة ودونها شـدة عند خندقه ويشتبك معهم بمعارك خفيفة، واستمـر الوضع هكذا حتى سئم أهل قرطاج من هذه الرتابـة، وكـان هو قـد ترك جنده داخـل الخنادق وكل شيء معهم جاهز تماماً، وفي النهـاية تمكن مع جيشه المرتاح من التغلب على جيشهم الذي هدّه التعب وأرهقه العوز.

ولاحظ أبقـراط الأثيني أن أعداءه يتناولون الطعـام دوماً في السـاعة ذاتها، فأطعم أتباعه في ساعة مبكرة، وهاجم أعداءه وهم يتناولون طعام الإفطار، وأمسـك بهم فجأة، بحيـث لم يترك لهم مجالاً للحــــرب، ولا للانصراف، وعنـد اقتراب حلول الظـلام أرجع جنـده، وتركهـم تحت السلاح، وبينما أعـداؤه يتناولون طعام العشـاء وهـم غير معبئين للقتال، هجم عليهم، ومثل هذا فعل فولك ملك القدس، فهـو عندما عرف أن المسلمين يرتاحون بين أنطاكية وحلب، من أجل تضييق الخناق على أهل أنطـاكيــــة، سبقهم ليلاً، وهم مايزالون في خيامهم داخل معسكرهم، وبطش بهم، وكذلك عندما وجد صلاح الدين الحشد الصليبي في مكان خطير، وهو يعـاني من العطش الشـديد، هاجمه قبل أن يصل أفـراده إلى الماء، وانتصر على الملك وعلى الجيش الصليبي.

الفصل السابع

مواصفات المكان الموائم لخوض المعركة.

مثلما يجب لدى إقـامـة المعسكر أخذ الحذر، وعـدم تمكين العـدو من أخـذ الأمـاكن المرتفعـة (انظر الفصـل الخامس، المتقـدم أعـلاه)، هكذا

يجب، عندما يلتحم القتال، اختيار المكان الأعلى، ووفق هذا اختار كنويوس بومبيوس Cneus Pompeius في كبدوكية مكاناً مرتفعاً لمعسكره، حيث ساعد انحدار المكان جنوده في هجومهم، فتغلب بسهولة على عدوه بفضل عملية الانحدار، ومثله فعل يوليوس قيصر عندما ذهب للحرب ضد فرناس Farnace ابن ميثريدات Mithridatis فنصب محلته على رابية، وكان هذا تدبيراً موفقاً منه، أمن له الانتصار، ذلك أن الجرف المطل من الرابية فوق البرابرة وهم في الأسفل، ردهم فوراً على أعقابهم، وكان هانيبعل عندما ذهب للحرب ضد مارسيليوس، قد هاجمه من جانب الطرق المنخفضة ومن المرتفعات، واستعان بوضع الأرض كحصن، وبذلك تغلب على ذلك القائد الشهير؛ ولاحظ هانيبعل أيضاً عندما كان قرب بلدة كان Ca-nas أن الرياح جنوبية، وأنها تثير عند الصباح الرمال وتنشر الغبار، فنظم صفوفه بشكل جعل فيه قوة الرياح تضربه بمجملها من الظهر، في حين تصدم الرومان وتصفعهم في وجوههم وعيونهم، وهكذا بسبب ما لحقهم من ضيق أحرز عليهم نصراً حاسماً مشهوراً، وأقدم كليومنس اللاكدموني Cleamenes Lacedaemonius عندما كان يحارب ضد هسبياس Hyspias الأثيني، الذي كان يتفوق عليه بعدد الفرسان، أقدم على قطع عدد من الأشجار، ورماها في الميدان الذي كان ينوي أن يخوض المعركة فيه، وبذلك جعله غير صالح لحركة الخيول، وأيضاً عندما خاف الايبيريون في إفريقية أن يحاصرهم الحشد الغفير من الأعداء، مع أنهم كانوا أشجع منهم، استداروا من خلف النهر، وانقضوا على من كان قريباً منهم، وبذلك حطموا بالنهاية الحشد كله، وكذلك عندما لاحظ أنطيبيوس Antipus اللاكدموني أن الأفارقة فاقدين للامل، وكانت قواتهم معتمدة على الخيول والفيلة، وكانوا يسلكون طريق التلال، فيما كان الرومان يمسكون بالسهول، وتعتمد قواتهم على الرجالة، عند ذلك قلب مصير

الحرب، بمجرد تبديل الأماكن، حيث قاد الأفارقة نحو السهل، فتمكن بوساطة الفيلة من تبديد صفوف الرومان.

وكان إبامنداس Epaminundas قائد الطيبيين في أثناء مواجهته لأهل لاكدمونيا قد أمر خيالته بأن يركضوا ذهابا وإيابا حتى يتعالى الغبار، وفي هذه الأثناء استدار مع الرجالة، وانقض على الأعداء من الخلف وهم غارون، فصرعهم.

ومما تقدم، وبناء عليه، على قائد الجيش أن يتنبه لاختيار المواقع المناسبة، وعليه أيضاً أن يدفع بالعدو إلى حيث البقاع الخطرة، وأن يتقصى بعناية لدى اختياره للأماكن حتى يكون على معرفة تامة بها، وبما أن الخطر أثناء الحروب ليس أقل منه أثناء السفر في البحار وعلى ظهر المراكب، عليه أن يسعى لامتلاك خرائط مكتوبة أو مرسومة، قد دون عليها تعرجات الطرق، مع ايضاح الأخطار بقدر ما يكون ذلك ممكنا.

وليكن لديه أيضا مستشارون أمناء، فإنه بسبب عدم أمانتهم نقرأ بأن الاسكندر خذل في الهند، ومثل ذلك حدث مع امبراطور ألمانيا، ومع فولك ملك القدس، كما كاد خليفته الملك بلدوين أن يهلك بسبب صعوبات المكان، لولا أنه أنقذ بأعجوبة ربانية، ولحقت الهزيمة بغي لوزغنان على يدي صلاح الدين، نتيجة للنصيحة الفاسدة التي تلقاها من كونت طرابلس، حيث دله على موقع غير مناسب.

الفصل الثامن

الاحتياطات الواجب اتخاذها لدى قيادة الجيش لخوض المعركة.

كان بامكاننا أن ندرك من الفصل المتقدم، بما فيه الكفاية، وأن نتوصل إلى أنه من المستحسن عدم انشاب القتال بلا روية، ويفضل ذلك على أن يسلم المرء نفسه للحظ دون أن يتخذ الاحتياطات الموائمة،

لذلك يتوجب قبل خوض المعركة، الالتزام فوق كل شيء ، بالأوامر والأنظمة، لأنه حيث تكون هناك مجموعة بلا نظام وأوامر، يكون هناك الخزي، يضاف إلى هذا أن النظام والتعبئة في أثناء المعركة يرعب الأعداء، وجاء في الكتاب المقدس في شعر نشيد الانشاد، (٦/ ٤): «مرهبة كجيش بألوية»، ولقد كان التتار ينظمون قواتهم تحت قيادة أمراء عشروات، وأمراء مئات ، الخ... وبذلك تمكنوا من بسط سيطرتهم على الهند، وينبغي كذلك أن يعين لكل كتيبة راية خاصة بها، حتى إذا ضل أحد الجنود سبيله يعود إليها بسرعة، ولهذا السبب ذاته من المفيد أن يشار إلى أمراء العشروات وإلى أمراء المئات، على خوذهم أو في مكان آخر بعلامة مميزة لهم؛ وليكن مع الصليبيين رماة قسي ورماة مجانيق كثرة، يكونون مختلطين بهم، يردون هجمات المسلمين، ويكونوا متنبهين جيداً لعقر خيولهم الخفيفة، ذلك أن المسلمين ليسوا من الرجالة الجيدين، وليحذروا من اطلاق السهام طائشة بلا هدف أو جدوى، وكذلك ليكن عدد الرجالة كبيراً، بحيث إذا لم يكن بمكنتهم مرافقة جميع الفرسان. يكونوا وقتها من حولهم مع رماح طويلة، وليكن هؤلاء متكتلين ومجتمعين مع بعضهم في كتلة واحدة، بشكل لايتمكن فيه أحد من الدخول بين صفوفهم، وليكن بينهم حملة رماح يردون عنهم بالترسة نشاب المسلمين، ويؤمنون لهم التغطية، ويتوجب على هؤلاء أن يكونوا من الخارج أشبه بجدار، أما في الداخل فيجب أن لايكونوا مكتظين حتى لايضايق بعضهم بعضاً، ولكي يتركوا لرماة النشاب المجال للتصرف بحرية، ذلك أن هؤلاء هم الذين يعرقلون حملات المسلمين، وعلى هذا ينبغي أن يحملوا معهم الرماح والخناجر والسهام والنشاب المتنوع بوفرة، وليحذروا كل الحذر أن تتخلخل صفوفهم وأن يتباعدوا عن بعضهم، حتى لايقعوا بسهولة تحت سيطرة الأعداء ومكايدهم فيقهرون، وعليهم أن يتعلموا مما يفعله المسلمون، في العودة والانضمام إلى بعضهم، وذلك إذا ما حدث طارىء فصلهم عن

بعضهم، وليعاودوا رصّ صفوفهم، ومستندين إلى الاشارة التي تصدر إليهم، وبهذا سوف يتجنبون المخاطر، وسيكونوا مرهوبين أكثر من قبل المسلمين.

وإذا كان قصدهم الأخذ بخطة دفاعية فقط، فلتكن صفوفهم على شكل دائرة، وينبغي أن تكون كثيفة لئلا تتفكك، على أن يوضع في الواجهة الذين هم أحسن تسليحاً حتى يتحملوا الضربات، لكن إذا كانت خططهم هجومية، فلتكن صفوفهم على شكل هرمي، ففي هذه الحالة لايمكن ضعضعتها بسهولة، وإذا ما تبين أن عدد الأعداء قليل، فقد يكون من المفيد العمل على تطويقهم، ووقتها ينبغي أن تكون الصفوف مفتوحة من الامام، ومقفلة عند الساقة، بحيث تأخذ شكل كماشة، أما تشكيلة الصفوف المربعة فإنها لاتفيد أصلاً أحداً من الناس، وعلى قائد المعركة التنبه إلى أحوال الطقس وإلى أوضاع المكان، وذلك حسبما ذكرنا في الفصلين المتقدمين، وليتتبه أيضاً إلى معرفة من عنده عدد أكبر من الفرسان والرجالة هو أم الاعداء، وفي العادة يدافع الفرسان عن أنفسهم في السهل بشكل أفضل، أما في التلال والأحراش فالمشاة أفضل، وليحاول أن يعرف أين موقف الاشداء من الخصوم، وأين الركيك فيهم، وأين الاكثر قوة، وأين الأشد ضعفاً.

وكان ج. سكيبيو عندما ذهب إلى إفريقية ليقاتل هنون، قد لاحظ أن الإسبان قد وقفوا عند الجناح الأيمن، وكان يعرف أنهم أشداء، لكنهم يعملون لمصلحة غيرهم، ووقف الأفارقة عند الجناح الأيسر، وكانوا أدنى قوة، لكن أشد شكيمة، فرتب صفوف جنوده بحيث وضع عند الزاوية اليسرى نخبة جنوده، وخفف عن الجهة الأخرى وأرسل الجند من هذا الجانب للوقوف ضد صفوف الأفارقة، وهكذا عندما تمكن من تبديدهم وهزيمتهم، استطاع بسهولة الحصول على استسلام الإسبانيين. وكان الملك فيليب المقدوني عندما لاحظ أن مقدمة جبهة العدو متراصة

ومكونة من الجنود النخبة، قد أمـر باقتحام الجهة الضعيفة، وهكذا بلبل الجبهة.

وعندما جابه برمانس Parmenes الطيبي صفوفاً قوية جداً من الفـرس، درّب ضعفـاء جيشـه، وأوصـاهم أن يلوذوا بالفـرار عند أول صـدمـة، ومن ثم الاختبـاء داخل الأحـراش وبين الأمـاكن الصخـرية والمتعـرجة الوعـرة، أمـا هو فقـد اتجه مع نخبة قـواته نحـو من هم أقل عدداً، وهكذا اختل ميـزان القوى بين صفوف الفـرس، فأحاط بالجيش كله وبدده.

وكان سكيبيو الإفـريقي عندما توجه لمحاربة أسـدروبعل في إسبانيا، قد سار بجيشه بانتظام لمدة أيام متـواصلة، وقد ترك النخبة في الوسط، وكان أعداؤه يزحفـون أمامه باستمرار وفق النمـط ذاته، فبدل سكيبيو تعبئة صفوف قواته، ووضع الأشداء من النخبة على الجناحين والضعفاء في الوسط، وفي الساقة، وتولى بنفسـه قيادة الجناحين، وتقدم على شكل هلال، وبذلك استطاع بكل سهولة أن يدحر الفئات الضعيفة من جيش عدوه، وحقق الانتصار.

ومثل هذا لما اكتشف ميتللوس في إسبـانيـا أن هرقل قـد مـركـز في القلب فرق المحـاربين الأشداء، خفف القوات المتمـركزة في الوسط من جيشـه، وجعلهـا لا تنشب القتـال مع قلـب قـوات العـدو، قبل تحطيم الجناحين، فعند ذلك يحاط القلب من كل جانب ويدمر.

وعندمـا قدم كـاسترونيوس Castronius اللاكدمـــوني إلى نجدة المصريين ضد الفـرس، ولمعرفتـه أن الفرس يرهبـون الإغريق أكثـر من سواهم، قـام بتغيير التعبئة، فوضع الاغـريق في الصفوف الأولى، وبدّل ســلاحهم وزيهم، ووضـع خلفهم المصريين، وقـــاوم حملة الفـــرس بضراوة، والفرس يعتقـدون أنهم يقاتلون ضـد المصريين، وعندما أطلت

بعـد ذلك صفـوف المصريين وحشـودهـم خيل للفـرس أنهم الإغـريق فتراجعوا.

ولكي يثير سيلا Silla الخلل بين صفوف العـربات التي أرسلت ضـده لضعضعـة صفـوفـه، أثار البلبلة بينهـا بغـرز أوتاد على طريقهـا، وبالطريقة نفسها أوقف يوليوس قيصر عربات الغاليين المسننة.

ووضع استياغس Astiages ملك الميديين في أثناء حربه ضد الفرس المقاتلين الأشداء في مؤخرة جيشه، وأبلغهم أنهم إذا لم ينتصروا، لن يعاود وضعهم في المقدمة، وبذلك دحر الأعداء.

الفصل التاسع

بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لهزم جيش العدو.

فيما كـــان ابـن القنصل بابيريـوس كيرســـور Papirius Cursor يقاتل ضـد السانيت Sanites ، وهـم يبدون صـــلابة في القتال، أمربعض راكبـي البغال أن يجروا على الأرض آلات ضجيج، وأن يثيروا بها ضجـة عظيمة، ولما رآها صرخ لقـد بات النصر حليفنا، وذلك حتى يتحمس جنده وينالوا مجد تلك المعـركـة، وبالفعل استعاد الرومـان عند هذا العمل ثقتهم بأنفسهم، وارتعب العـدو، ولاذ بالفرار، وعندمـا كان القنصل فابيوس Fabius يقاتل ضد السـانيت، فصل عن صفوف قواته حملة الرماح، وأمرهم بالصعـود إلى ظهر تلة كانت هناك، كان من الممكن النزول منها إلى ساقة جيش السانيت، وبذلك هزمهم.

وعندمـــا اشتـد الضغط على أميتيـوس روفـوسAmitius Rufus من قبل الداشيين Dacis ، وكان عـددهم كبيراً، أمر قلة ممـن معه، أن يقومـوا حالما يرون أن المعـركة قـد احتدمت بالإطلال على مـؤخرة الأعـداء من جبل كـان هناك، وأن يمـلأوا الجبل بأصـوات الأبواق، وبهذا خـــاب أمل الداشيين وأداروا ظهـــورهـم لأعـــدائهـم، وصنع

سيلبيتيوس Sulpitius الشيء نفسه ضد الغاليين، وفي أثناء حرب جوغارتا Jugarta ضد ج. ماريوس ركض أمام صفوف الرومان، وهو يصرخ أنه قتل ماريوس، وبهذه الوسيلة هزم الحشد الروماني الكبير، ويمثل هذا هزم فاليريوس ليفينوس Valerius Levinius الأعداء، عندما ركض وهو شاهر سيفاً يقطر دماً وينادي كاذباً: لقد قتلت بيروس Pyrrhus .

وعندما كان ميرونيدس Mironides الأثيني يشك بنتيجة القتال ضد أهل طيبة، أطل فجأة على الجناح الأيمن لجيشه، وصرخ بأنه قد فرغ لتوه من دحر الجناح الأيمن للعدو، فثار حماس جنوده، ودبت النخوة بين صفوفهم، والخيبة في صفوف العدو، وبذلك انتصر.

ولدى مواجهة كريسوس Cressus لخيول أعدائه، وكانت قوية جداً، تصدى لها بقطيع من الجمال فارتعبت الخيول من منظرها غير المألوف، وجفلت وهي مرعوبة، ولم تكتف بأن رمت من كان على ظهورها، بل نشرت الفوضى بين صفوف الرجالة.

وكذلك كثيراً ما استعان ملك إبيروتي Epeyroti في حروبه ضد الرومان بالفيلة، وكذلك فعل البونيون القرطاجيون.

وربط الاسبان أثناء حربهم ضد هملقار حزماً من القش مشبعة بالقار والكبريت ووضعوها في عربات كانت تجرها الثيران، وعند إعطاء الشارة ببدء المعركة أضرموا النيران بالعربات، ودفعوا بالثيران نحو الأمام، فنشروا الفوضى بين صفوف الأعداء وضعضعوها.

وفي أثناءحرب التركيونس Traquinenses ضد الرومان، تقدم عدد كبير من حشدهم بلباس الكهنة، وهم يحملون المشاعل، وانتشروا بشكل مرعب بين صفوف الرومان، فأثاروا الفوضى فيها.

الفصل العاشر

بعض الاجراءات الاحتياطية، والأمثلة لإعادة تنظيم الجيش في حالة إصابته بانتكاسة.

الذي يستطيع إعـادة تنظيم جيشه، عندمـا يبدأ بالتفكك والانحـلال هو كمن ينقذ أتبـاعه من براثن الموت، ففي تلـك الظروف ينبغي إظهار القسط الأكبر من الحنكـة، ذلك أن الفـــرار من صفـــوف القتـــال ينشر الرعب في النفوس، ولقـد أجبر المسلمون أحيـاناً الصليبيين على الفرار، إتقاء لرشقات خفيفة من النشاب، مع أن المؤمن الحقيقي يبعد عن نفسه الخوف وينفيه، لعلمـه بأنه يقاتل في سبيـل قضية محقة، وأنه بعـد التعب سوف ينال المكافأة، وهل من قضية محقة أكثر من إزالة العار عن المسيح وعن الشعب المسيحي، أو ليس من المخجل بالنسبة للشعـوب المسيحية أن تسكت شريعـة الإنجيل، وأن تعلن شريعـة أخـرى واحـدة فقط، في أرض حملت فيهـا العذراء بالمسيح الرب، وفيهـا هناك ولد، وهناك تألم، وهنـاك أُنزل إلى القبر، وهنـاك تدبـر الخلاص في وسط الأرض، حيـث يمكننا أن نردد مع سفـر المكـابيين١ / ١:«صـار اسم القـدس غـريبـاً، وهجرها المولودون فيها، وبقدر ما كان عزها صار عارها».

ليته يهب واحـد من الناس مثل يهوذا المكابي، يساعـده أخوته كلهم، فيحـاربون حـرب الرب بفرح، وليلبس يهوذا الحديد كـالجبـار، وليكن كـالأسـد الذي لا يخاف قـدوم أي كان، وقـد قـال الرسـول بولص في رسالته إلى العبرانيين(الاصحـاح: ١١ / ٣٢ — ٣٤):«جدعون وباراق وشمشـون ويفتـــاح وداود وصمـوئيل والأنبيـاء الذيـن بالإيمان قهـروا ممالك،صنعـوا بـراً، نالوا مـواعيـد، صـاروا أشـــداء في الحرب، هزمـوا جيـــوش غـربـاء»، وهل أفيـد وآمـن من ذلك الموت الذي يحصل فيـــه الانسان على غفران لكافـة خطاياه؟ وبموت مثل هذا لا تفنى أجسادنا، بل تتبـدل إلى مـا هو أحسن، ويقـول صـاحب سفـر الرؤيا(الاصحـاح الثاني:١٠):«كن أميناً إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة».

وحـدث أنه عندمـا احتل البندقـداري صفـد، قـام بإعطاء الأمـان للمؤمنين إذا استسلم إليـه من في القلعة، وضمن مـواكبتهم حتى مدينة عكا، وبعدمـا تسلم القلعة دعا المسيحيين إلى اعتناق شريعـة محمد(ﷺ) وتملق إليهـم، وفي الغـداة هددهم بـالموت، لكن اثنان مـن الرهبـان الفـرنسيسكان الصغـار قضيـا الليل يشـدان من عـزيمتهـم بالنصـائح المقدسـة، فاختاروا إكليل الشهادة، وسـال عند منحدر الجبل ليس قليل من الدم بل نهر، ويحكى أنه تكلل بالاستشهـاد في ذلك اليوم مـا لا يقل عن خمسمائة شخص.

وأمـر بعد هذا بتجـريد هذين الراهبين، واسـم أحدهما يعقـوب دي باديو Padio ، واسم الآخر جيروم دي جـانوا Janua ، وكان معهما مقدم فـرسان الداوية، ثم أمـر بجلدهـم بكل قسـوة، واقتيدوا أخيراً إلى حيث استشهـد البـاقـون، فهناك أكمل استشهـادهم بقطع رؤوسهم، وغطى ذلك الملك الهمجي أجسـادهم المقـدسـة بالردميـات، ومع ذلك كان يشـاهد في ساعات الليل، على مـرأى من المسلمين، نوراً عظيماً كان يشع مـراراً منهم، ولـذلك لا مسـوغ للمسيحيين أن يخافـوا في الحرب، وإذا قوي الضعف البشري على القائد، فليعمد إلى الاقتفاء بأعمال القادة الكبار.

من ذلك أن سيرفيـوس توليوس Servius Tullius الفتى، عندما رأى حملة الرايات لديه في أثناء الحرب التي شنهـا الملك تاركينوس ضد السابيين Sabinos، يقاتلون بـاسترخاء كبير، انتزع إحـدى الرايات، وأرسلها إلى بين الأعـداء، ولاسترجاعها قاتل الـرومان بشجاعة فـائقة، حيث استردوها وأحرزوا النصر.

وأعلن سكيبيو، عندما رأى جيشه بدأ يتخـاذل، أنه يعدّ عدواً له كل من يرجع إلى المعسكر، وفي حالة مماثلة قـال ق.فوريوس Q.Furius ، أنه لن يدع أحـداً يعـود إلى المعسكر إلاّ إذا كـان منتصراً، وهكذا أعـاد

جنوده رص صفوفهم وأحرزوا النصر.

وأمر فوليوس بريسكوس Fuluis Priscus لما تردد حامل رايته في تنفيذ أوامره بالهجوم على العدو، بقتله، ولما تمّ ذلك ونفذ خاف الباقون، وانقضوا على الأعداء، وصنع كوسوس كورنليوس Cosus Cornelius، قائد الفرسان، مثل هذا، وعندما بدأ بعض الجنود في قوات القنصل ق.أتيليوس Q. Attilius بالهرب إلى المعسكر، حيث تصدى لهم بصفوف جيشه، وأعادهم إلى ساحة القتال ضد العدو، وعندما تراجعت كتائب دي سيلا D. Silla أمام ميتريتكو Mitritico ، استل سيفه، واندفع نحو مقدمة الصفوف وخاطب الجنود قائلاً:«إذا سألكم أحد أين تركتم الامبراطور قولوا تركناه يقاتل في بوشيا Boe-tia»، فخجلوا من ذلك، ورجعوا كلهم وتبعوه.

وخاف فيليب أن لايتمكن أتباعه من الصمود أمام هجمات السكيت، فمركز في المؤخرة الفرسان الأكثر إخلاصاً له، وأمرهم أن لا يدعوا أحداً من المقاتلين يهرب من ساحة الوغى، وإذا أصر أحد على ذلك وتمادى بفعلته فليقتلوه، ولهذا فضل أتباعه أن يقتلهم العدو على أن يصرعهم رفاقهم، وبذلك أحرزوا النصر، وقد قيل الشيء نفسه عن أستياغس Astiages ، في الفصل الثامن أعلاه.

الفصل الحادي عشر

بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لنصب كمائن للعدو.

من الممكن معرفة كم هي الكمائن مفيدة للمقاتلين من خلال الأمر الذي وجهه الرب إلى يشوع، إذ قال له:«اجعل كميناً للمدينة من ورائها»[يشوع:٨ / ٢]، وعندما تظاهر يشوع بالهرب، لحق به سكان المدينة، بحيث لم يبق واحد منهم فيها، وعندها انبعث الذين كانوا مختبئين في الكمائن، ودخلوا المدينة، وأفنوها بالحرائق».

وعندما كـان سكيبيو الإفريقي يواجـه معسكران: أي جيش سفاقس وجيش قـرطاج، أضرم النيران في المعسكر الأول، حيث كـانت هناك مواد كثيرة قابلة للاحتراق، فهرع رفـاقهم لنجدتهم، وقد خيل إليهم أن النار اشتعلت قضاء وقدراً، فقتلهم بالكمائن.

وعندما كـان بومبي في إسبانيا، شرع بتركيـز عناصر تخرج من جيشه سراً، وتظاهر بالخوف واستدرج العدو المطارد له إلى أماكن موبوءة، وفي المكان الذي كـان يرغب به استدار وهاجمهم من الأمـام ومن الجوانب، وظل يوقع بهم الضربات حتى أبادهم.

وعندما سمعت الملكة تاماريز Tamaris بموت ابنها، أخذت تبحث عن طريقة تروي بها غليـل انتقامها، فأحـاطت الأعداء بالكمائن خدعـة، وتظاهرت بالانسحاب تغـريراً، واستدرجت قـورش إلى مكان ضيق، فقتلته وقتلت معـه نحواً من عشرين ألفـاً من الفرس، ووضعت رأس الملك في قـربة مليئة بـالدم وألقت بها وهي تقـول مخاطبـة إيّاه بشكل وحشي:«اشرب من الدم الذي طالما تعطشت إليه، فقد كنت دائماً تتعطش إليه».

وفي أثناء حـرب بومبي ضد ميثـريدات Mithridate ، صف في الغـابة ثلاثة آلاف جندي وعبـأهم على شكل رتلين، ووضع معهم قسماً خفيفاً من الفـرسان المسلحين، وتظاهر بالخوف، واستـدرج الأعداء إلى أبعـد من مـوقـع الكمائن، ثم ضربهم من المجنبتين، إذ صـار الهاربون يصطدمون ببعضهم وجهاً لوجه.

وكان ملانتوس Melantus قائد أثينا، قـد تحداه وطلبه للمبارزة فـرداً مقـابل فـرد، فاستجـاب وعندمـا وصل إليـه سمع عـدوه يقـول له:«أنت مجرم، كيف تـأتي ضـدي أنا وحـدي، ومعك رفيـق»، فـالتفت ليرى من الذي يرافقه، فصرعه عدوه بضربة واحدة.

وأخرج أبقراط الأثيني من السفن فرقة من الجنود لديه، ووضعها في كمائن، وأمر بعد ذلك السفن بالإقلاع وكأنها محملة بالجنود، وأن تبحر علناً، فاطمأن اللاكدمونيون، وهنا أقدم على حين غرة، فضربهم من الخلف، وأذلهم في الطريق.

وعندما كان هانيبعل في كان أمر ستمائة من الجنود البدو بالفرار، ولكي يصدقهم الرومان تخلوا لهم عن ترستهم وسيوفهم، وعندما وصلوا إلى الفرقة الأخيرة، فإنهم مثلما فروا راكضين، كروا مرتدين نحو أعدائهم، حيث استلوا السيوف القصيرة التي كانوا قد أخفوها والتقطوا ترستهم من على الأرض، وضربوا صفوف الرومان.

وتجسس هانيبعل نفسه أيضاً على معسكر القائد الروماني فوليوس Fuluius ، فوجده مهملاً للتحصين، ثم علم بعد ذلك أن لا جرأة كبيرة لديه، ولهذا أظهر لحراس المعسكر الروماني قبل بزوغ الفجر، والظلام ما يزال مخيماً، قلة من الفرسان، وللحال سحب فوليوس جيشه، وقتها احتل هانيبعل المعسكر الروماني بمهاجمته من الجهة الخلفية، وانقض على الرومان من وراء ظهورهم، فقتل ثمانية آلاف من نخبة جنودهم، وقتل معهم قائدهم.

وبعد أن كان فرياتوس Veriatus لصاً صار قائداً للكلتبيروس Celtiberos في الحرب ضد الرومان، وفي إحدى المعارك تظاهر بالانهزام أمام الفرسان الرومان، واستدرجهم إلى مكان وعر ومرتفع، وبعد أن أفلت هو عبر ممرات كان يعرفها واعتاد عليها، دفع بالرومان إلى مستنقع غرقوا فيه وقتلوا.

ولاحظ ج فوليوس G.Fuluius عندما وصل إلى تخوم الرومان أن جيش الفلسيكي Falsici كان أكبر من جيشه بكثير، فنصب معسكره، وبعث ببعض جنوده لحراسة بعض الأبنية القريبة من

معسكره، حتى يظن الفلسيكي أن جماعتهم قد فعلوا ذلك، فتفرقوا للنهب.

وعندما أرسل أهل قرطاج هانيبعل ضد الأفارقة، علم أن أولئك القوم يتشوقون إلى شرب الخمرة، ولذلك شن عليهم هجوماً خفيفاً ثم توقف، وتظاهر بعد ذلك في ساعة متأخرة من الليل بالفرار، بعد أن ترك في معسكره خوابي مليئة بالخمرة الممزوجة باللُفان، وهي مادة مفعولها ما بين السمية وتسبيب النعاس، فانتشى الأفارقة فرحاً واحتلوا المعسكر، واحتسوا الكثير من تلك الخمرة المزيجة، فما لبثوا أن ارتموا مثل الأموات، وهنا ارتد عليهم فأسر منهم من أسر، وقتل من قتل.

وتظاهر المسلمون عندما كان الصليبيون يحاصرون عكا، ويعانون من الجوع، تظاهروا خديعة بالهزيمة، فاستدرجوهم إلى نهب المواد الغذائية وسواها، وفيما الصليبيون راجعون قد أثقلتهم المنهوبات، ارتد عليهم المسلمون ووجهوا إليهم ضربة قاضية.

وعندما لاحظ القائد هانيبعل نفسه عدم وجود الحطب في منطقة صحراوية، ترك القطعان الكثيرة التي كانت معه في أحد الوديان، وجاء الرومان وحملوا معهم اللحوم نصف نيئة، فما كان منه إلاّ أن أعاد جيشه ليلاً وشدد الضغط عليهم بكل عنف.

وكان أهل هي HY في حرب مع الأريتيريين، فقبضوا على واحد منهم قدم إليهم متجسساً، وقتلوه فوق مكان مرتفع، ثم ألبسوا واحداً منهم ثيابه، وأعطى إشارة إلى الأريتيريين من فوق ذلك المرتفع، أن يهجموا، ففعلوا فوقعوا بالفخ.

الفصل الثاني عشر

بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لقطع طريق الفرار على

العدو، أو لتسهيل فراره.

كان الاغريق قد عقدوا العزم على منع ملك الفرس خسرو Xerxes من الانسحــاب عن طريق تحطيم الجسر القــائم على طريقــه، لكن تيميستكل Themistocles خشي من دفـع الأعـــداء إلى اليأس، فيبذلون وقتهـا كل قواهم، فأرسل خـادمه إلى خسرو حتى يحتل الجسر، ويعجل بالهرب.

وعندما حاصر قيصر الألمان، وصـاروا يقاتلون ببسالة بسبب يأسهم، أمر بتركهم يذهبون، وطارد بعد ذلك الفارين.

وعندمـا وصل الخبر إلى جيـش ت. مـارتيـوس T.Martius بأن القـادة البونيين قـد قتلوا، وإذ شرع أفـراد جيش قرطاج يقـاتلون بعنف حتى يحققوا الانتقام، أخلى السبيل أمامهم وتركهم يتفرقون، حيث خلى بينه وبينهم مسافة كافية للهروب، ثم كرّ عليهم وقتلهم دون أن يعرض جماعته للخطر.

ولما عاد القنصل مانيليوس Manilius من ميدان القتال، وجد أن المعسكر الرومـــاني قــد احتلـه المتمــردون، وأن جميع أبـوابه محاصرة، والأعداء في الداخل، فانقض عليهم كالمسعور حتى أنه سقط في القتال، وعندمـــا لاحظ بعـض رجـــاله ذلك وكـــانوا في الطـرف الأقصى من المعسكر، فتحوا منفذاً ليخرج منه المتمـردون، وبعد أن خرجوا وتبددوا، وصل القنصل الثاني، وطاردهم.

ومثل هــذا فعل بنو إسرائيل عنـدمــا اشتــد القتـــال ضــد سبط بنيامين(القضــاء:٢٠) تركوا لهم مكاناً يهربون منه، حتـى يقعوا في كمائن قد نصبوها لهم من قبل.

وبعدمـا احتل بيروس Pyrus ملك إبيروتا Epirota إحدى المدن، رأى أن سكانها قد ضـاق بهم الأمر، وأغلقـوا الأبواب، وأخذوا

يحاربون بشدة، فبادر ففتح لهم منفذاً، وترك لهم مجالاً يهربون منه.

وترك بيروس نفسه في جملة ما ترك من وصايا وأوامر قوله: «لاتقاوموا العدو المصر على الفرار، ليس فقط حتى لا تحرجوه بسبب المضايقة، وتدفعوه لبذل مقاومة أشد، بل لكي يسهل عليكم قتله فيما بعد، ولكي لا تكونوا من الظافرين الذين دأبوا على الشر».

الفصل الثالث عشر

بعض الاجراءات الاحتياطية، والأمثلة لإخفاء الكمائن، ولتضليل الأعداء.

بقدر ما يكون أحدهم مقدراً ذا قيمة كبيرة لدى الأعداء، بقدر ما يخسر من الجرأة والبسالة، ولذلك من الضروري أن تخفي على العدو كل النواقص الضرورية.

فلدى خوض توليوس هوستليوس Tullius Hostilius ملك الرومان الحرب ضد الفيغنت Vegentes وصل الألبان إلى بعض التلال القريبة بعدما تخلى عنها الرومان، وهنا أعلن جهارة أن ذلك تم بأمر منه حتى يطوق الأعداء، فهدأت نفوس الرومان المضطربة وتحطمت قلوب أعدائهم.

وعندما عرف سيلا بوجود من يتآمر في جيشه للاستسلام، أرسل مبعوثين من قبله يطوفون في أرجاء الجيش كله، وقال بأن ذلك يتم بتدبير منه، وبذلك أخفى مظاهر الهزيمة الواضحة، وشدّ من عزائم الجنود.

وكان هانيبعل قد جلب معه ثلاثة آلاف نجار إلى إيطاليا، وعند وصوله تخلوا عنه وهجروه، فما كان منه — حتى لا يضطرب الباقون — إلاّ أعلن أنه هو الذي صرفهم، ولهذا السبب كسب الذين بقيوا

معه.

وعندما لاحظ لوكولوس Lucullus أن الفرسان المقدون الذين كانوا معه لمساعدته، اتفقوا سوية والتحقوا فجأة بالأعداء، أمر بالنفخ بالأبواق، وأرسل الفرق التي كانت تحت إمرته، وشن بها الهجوم على الأعداء، وفضل ملاحقة الفارين بالنبال، فاضطروا إلى العودة إلى الرومان، وهاجموا العدو معهم.

وعندما انهزم الرومان الذين كانوا مع القنصل ت. كونتوس كابيتولينوس T. Quintus Capitolinus كذب مصرحاً، قبل أن تفلت الأمور، بأن قنصلاً آخر على الجناح الآخر قد هزم الأعداء، فتماسك من كان معه، وأحرز النصر.

ومثله فعل ج. مانليوس G. Manlius في حربه ضد المتمردين، فعندما جُرح زميله فابيوس Fabius الذي كان يقود الجناح الأيسر، أقبل مع مجموعات من جنده نحو المنهزمين، صارخاً في وجوههم بأن زميله حي، وأنه موجود في الجناح الأيمن، وقد حقق النصر، وبرباطة الجأش هذه استرد معنويات جنده، وانتصر.

الفصل الرابع عشر

بعض الاجراءات الضروري اتخاذها في حال تحقيق النصر في المعركة، وإجراءات احتياطية ضد الفارين.

بعدما غلب ج. ماريوس التيوتون في الحرب، حاصر فلولهم، وكان الليل قد حل، فترك من جيشه جماعة ترعبهم، وتتركهم طوال الليل بدون نوم، فنتج عن ذلك أنه تمكن في اليوم التالي من هزيمتهم بكل سهولة، كونهم لم ينعموا بالراحة.

وعلى عكس ذلك تصرف بلدوين الرابع، ملك القدس، بعد أن هزم

نور الدين(كذا)، فصرف بعض البارونات، ولذلك عندما عاد المسلمون لم يسلم المسيحيون من الإبادة إلاّ بالفرار، وبالطريقة ذاتها، وللسبب نفسه لحقت الهزيمة عند قلعة هنزيط ببعض البارونات الواصلين من فرنسا.

وبعدما غلب نيرو Nero البونيين رمى برأس أسدروبعل في معسكر هانيبعل، حتى يحطم معنوياته ومعنويات جيشه بالبكاء على أخيه، ولكي يدركوا أن لا أمل بوصول النجدة إليهم.

وأرسل جوسلين أيضاً برأس بلك إلى الصليبيين المحاصرين لمدينة صور، وبذلك اغتم المسلمون وحزنوا كثيراً،

وأمر ل. سيلا L. Silla برفع رؤوس القادة المقتولين في الحرب على أسنة الرماح، حتى يراها الواقعون تحت الحصار في مدينة بنسترا Penestrae ، وبذلك حطم تصلب المتصلبين.

وبعدما تغلب إرموكراتس Ermocrates السرقسطي على القرطاجيين في المعركة، أعاد معه عدداً كبيراً جداً من الأسرى، ولخوفه من أن تخفف الحراسة عليهم وأن تتدنى، لأن المنتصرين بطروا بسبب النصر، ومالوا نحو المآكل، وركنوا إلى الطمأنينة، نشر إشاعة بأن جيشاً من الفرسان قادم في الليلة التالية، وكانت نتيجة ذلك الاحتراز والانتباه أكثر للحراسة.

وينبغي أن لا يتوزع المنتصرون حالاً لجمع الغنائم وللنهب.

فهكذا فعل التيوتون بعد انتصارهم، فتفرقوا للنهب، فانقض عليهم شارل ملك صقلية، وهم متفرقين، وانتصر عليهم بسهولة، وهذا ما فعله يهوذا المكابي عندما انتصر على جناح من جيش جورجياس(المكابيون الأول:٤) فقال لشعبه:«لاتطمعوا بالغنائم لأن الحرب ما تزال قائمة بيننا»، وأطلت وقتها مع جورجياس فرق الجيش

تراقب مـن الجبل، ورأت هذه الفـرق مـا يحدث، وأن يهوذا واقف في السهل مستعـد للقتال، فحـل بين صفوفهـا الرعب، وهربت، ووقتـذاك فقط رجع يهوذا إلى المعسكر ليأخذ الأسلاب.

ومثل هذا الاحتراز ضروري لا بل ضروري جـداً بالنسبـة إلى الذين يقـاتلون ضـد المسلمين، ذلك أن المسلمين يحسنون الفـرّ والانصراف، ويعـرفون بـالوقت نفسه أيضـاً، ويحسنون الكرّ، حيث يقـومـون بجمع بعضهم بعضاً للعودة، لأنهم يقفون عن بعد، ويقومون بمراقبة ما يعمله الصليبيون، فإذا رأوهم قد تفـرقوا وانشغلوا بالغنائم والأسلاب يكرون عليهم وينتصرون.

ولهذا يمدح الغاليون، لأنهم عندما ذهبـوا للحرب ضد أتيلا، سلموا إلى بعض الحراس كل ما كان معهم من ذهب وفضة، وهكذا إذا تقلبت حظوظ القتال، وكان اليوم عليهم، يكونوا قد أنقذوا كنوزهم، وتركوها للناجين من أصحابهم.

كذلك فعـل تريفون Tryphon ملك سورية عنـدما هرب من أمـام أنطيخوس، حيث ذر المال ونثـره على طول الطريق، وبذلك أفلت من جنود أنطيخوس، لأنهم تمهلوا لالتقاط الدراهم.

وعندمـا هزم كونت متللو بيـو Metello Pio في المعـركة ضـد ق.سرتوريوس Q.Sertorius ، أمر سرتوريوس جنوده بالانصراف متفرقين، ولكي لا يعتقدوا أن في الفرار أمن، أوصاهم بأن يتجمعوا من جديد في مكان عينه لهم.

ولم يصنع الصليبيـون صنيعـاً مماثلاً عندمـا وقعـوا أسرى مع الملك لويس قـرب القلعـة المسماة سرياقوص، ولم نقـرأ أنهم لجأوا في مـرة من المرات إلى مثل هذا التدبير والاحتياط.

الفصل الخامس عشر

طرق متعددة لإلقاء الحصار، والاجراءات الاحتياطية اللازمة.

يأتي الضرر الأعظم إلى المحاصرين من خلال النقص بالمياه، لذلك ينبغي أثناء الحصار المراقبة بكل عناية لمعرفة من أين تصل المياه، فعندما حاصر أولفرنس Olofernes بتوليا Bethulia أمر بكسر قناة الماء، فجال جنده يفتشون عنها، ولما اكتشفوها وضعوا حراسة مشددة على الينابيع، مما جعل رئيس الكهنة، يقرر بعد خمسة أيام استسلام المدينة.

وكذلك يجب محاصرة الطرق ومراقبتها من حيث تصل المواد الغذائية، وقبل وقت حصاد الغلال، فهكذا فعل فابيوس ماكسيموس Fabius Maximus حيث أقدم على تدمير حقول الكامباني Campani ، ثم انسحب حتى يزرعوها من جديد، ويفقدوا البذار، وعندما أنبتت أتلفها، هذا ونجد أن أساليب متنوعة قد استعملت من أجل سحب الحبوب من المحاصرين، من ذلك أن ديونيسيوس Dio-nysius ، أراد — بعدما احتل مدناً كثيرة — أن يهاجم الريجينيوس Reginos ، الذين كانت لديهم غلال كثيرة، فتظاهر بالمسالمة، وطلب أن تقدم المواد الغذائية إلى جيشه، وعندما استنفد القمح الذي كان عند أهل المدينة هاجمها.

وكان عندما حاصر الاسكندر لوكاديا Leycadia ، وكانت غنية بالمؤن، بدأ باحتلال القرى التي في جوارها، وسمح أن يهرب إليها السكان حتى تنفد المؤن التي فيها بسرعة.

وتظاهر فالاريس أغريجنتنوس Fallaris Agrigentinus بأنه تعاقد مع إحدى الجماعات التي أراد إخضاعها، ووضع عندها كميات من القمح برسم الأمانة،لكي تأكل قمحها بدون حذر، ولما نفد ما

عندها، طلب استرداد ما أودعه، ومن ثم تغلب عليها عن طريق التجويع، هذا وهناك المزيد من الأساليب لخداع المحاصرين.

فلقد احتل هانيبعل مدناً كثيرة في إيطاليا، وهو يرتدي ألبسة الرومان ويتكلم لغتهم، لأنه تعلمها من كثرة الاستعمال أثناء تلك الحروب الطويلة.

وهكذا احتل المسلمون مدناً كثيرة للمسيحيين، عندما بدا لهم أنهم قد انتصروا.

وكان قائد جيش أثينا قد أحرق هيكل ديانا خارج إحدى المدن، فخرج أهل المدينة للعمل على إطفاء النيران تاركين المدينة بلا دفاع فاحتلها.

وفي أثناء قيام ألسيبيادس قائد جيش أثينا بحصار مدينة أغريجنتيا Agrigentia الجيدة التحصين، سأل مجلس المدينة أن يتداول معهم حول بعض الشؤون العائدة للمصلحة العامة، وفيها كانت جماعة المجلس مجتمعة معه، تاركين مدينتهم بدون حراسة، هاجمها جيش أثينا، وكان مستعداً لتلك المهمة، واحتلها.

وألقى أنطيخوس في كبدوكيا القبض على مكاريين كانا يحملان على البغال حنطة لقلعة محاصرة، وألبس اثنين من جنده لباس المكاريين، وسلمها وظيفتهما،وبالطريقة ذاتها دخل الأرمن إلى إحدى القلاع، وهم يخفون سلاحهم،وخدع المسلمون قرب عكا مسيحيين كثيرين.

وعندما أدرك ب. كورنليوس صعوبة الاستيلاء على مدينة دلفينا Delvina، لأن كل من كان في أحوازها كان يهب للدفاع عنها، شرع باحتلال بلدات الأحواز، فاستدعت كل منها مقاتليها للدفاع عنها، وعندما باتت دلفينا من دون من يهب لنجدتها، استولى عليها.

وعندما عجز القنصل كورنليوس روفينوس Cornelius Rufinus عن احتلال بلدة كروتونا Crotona ، تظاهر بالانسحاب، وبعدما صرفت الذين قدموا لعونها، عاد فاحتلها عاجزة.

وبعدما غلب مانغو Mango، قائد جيش قرطاج القائد بيزون Pisone ، شاهده يطل من أحد الأبراج، فخشي أن تكون هناك نجدات قادمة إليه، فأطلق سراح أحد الأسرى لديه ليقنع النجدات القادمة أن بيزون وقع أسيراً، فخاف هؤلاء وهربوا وبذلك أكمل نصره.

وعندما كان ثليوبيداس Theleopidas الطيبي يهاجم بلدتين معاً في آن واحد، أمر أن يرسل إليه أربعة فرسان مكبلين بسرعة كبيرة، وأضاف إلى هذه الخدعة أنه أمر بإشعال النيران في غابة كانت بين البلدتين، ليعطي انطباعاً ووهماً أن المدينة تحترق، وأمر بالوقت نفسه بجر بعض الرجال وهم يلبسون زي تلك المدينة.

وأرسل فابيوس مكسيموس عندما كان الأربوس Arpos منشغلين في مساندة هانيبعل ستمائة فارس ليتسلقوا في ليلة دهماء الأسوار من الجهة الأقل تحصيناً في المدينة، وقد ساعدتهم أصوات المياه المتساقطة، ولدى إعطائه إشارة متفق عليها، هاجم الأربوس من الجهة الأخرى.

وأمر كاتو Cato بمهاجمة إحدى المدن من قبل أكثر الجنود ركاكة لديه، وترك المحاصرين ينتصرون ويطاردون المهاجمين بحماس، وعند ذلك قام مع الكتائب الجيدة التي احتفظ بها ، باحتلال المدينة التي فرغت من المقاتلين.

وهكذا فعل سكيبيو في سردينيا، حيث تظاهر بالفرار، فلحق به أهل المدينة، وعند ذلك استولى على المدينة بوساطة فرق كان خبأها على

مقربة من هناك.

واستولى هانيبعل على جميرا Gemera بالأسلوب نفسه.

وتظاهر بنو إسرائيل أيضاً بالهرب(انظر سفر القضاة) عندما عقدوا اجتماعاً لقلع أبناء بنيامين من المدينة، وبذلك احتلوا جبعة، وقتلوا خمسة وعشرين ألف مقاتل منهم.

ولم يصنع عموري، ملك القدس، هكذا عندما كان يحاصر دمياط مع جيش امبراطور القسطنطينية بل إنه اضطر بعد انتظار طويل إلى الانسحاب بسبب الجوع والبرد.

وعندما ذهب الملك هيغ Hugo مع الأمير ادوارد لهدم مدينة كاكو Caco ، عدلا عن ذلك ولم يحاصراها لأنهما وجدا غنائم.

الفصل السادس عشر

توصيات مفيدة للعساكر وتعليمات.

من المفيد توجيه قادة الحروب وتزويدهم ليس فقط بالأمثلة، بل إعطائهم أيضاً قواعد ثابتة، وتعليمات غير قابلة للخطأ أبداً، ففي الحروب والحملات العسكرية هناك قاعدة هي: كل ما يفيدك أنت، يضر عدوك، وكل ما يضرك أنت، يفيده هو.

لاتعمل شيئاً يجرك العدو إليه، ولاتخفيه، واختر ما يبان في رأيك أنت أنه الأفضل والأنسب اختياره، واحذر أن تعمل ضد نفسك إذا بدأت تقتدي بما يعمله العدو لنفسه، وفي الحرب من يكون أكثر سهراً في الشدائد، ومن يثابر على إجراء التمارين للجنود، يكون الأقل تعرضاً للخطر، ولاتكلف جندياً بأمر صعب ما لم يكن كفؤاً للقيام به، وعند الوقوع في ضيق، وأثناء الارتباك والكمائن، من المفيد أكثر أن تدرأ عدوك لا أن تقاتله، وفي تلك الظروف الحظ أقوى من الشجاعة،و

المخطط الأنجح لإنجاز مهمة ما، هو معرفة ما من شأنه أن يحول دون نجاحها، وفي العادة يفيد أكثر أن يكون المقاتل صاحب قضية عادلة، من أن يكون صاحب مهارة في القتال، وعند ملاقاة العدو، أو مهاجمته، عنصر الثقة هو المهم، في حين يلحق الهاربون بالعدو ضرراً أعظم ويحطمونه أكثر من القتلى، والاحتفاظ باحتياط كبير في مؤخرة الجبهة، أفضل من نشر الجنود على جبهة واسعة في المقدمة، ومن الصعب التغلب على من يستطيع الانتقام، أكثر ممن معه جحافل الأعداء، وقلة مدربة مقدمة للنصر، والمحصلة الحتمية لجمهور غشيم هي في العادة الهرب، وكثيراً ما يكون المكان والزمان أهم من المهارة في الحرب، وقلة هم الذين يلدون رجالاً أقوياء، وكثرة هم الذين يصيرهم التدريب كذلك، ولا تصفّ قواتك للقتال مالم يكن عندك أمل بالانتصار، ولا شيء يثمر أكثر من التقدم بانتظام، وينبغي التقيد به، إلاّ إذا تعلم الجيش الزحف السريع المتوازي، ودوماً يتعرض للخطر الجيش غير المنظم والموزع، ويتوجب أخذ أقصى حيطة حتى لا يحل شيء بمن ليس عندهم خبرة، إذا ما حصلت شدة، ولا يغلب العدو بالسلاح المحلى والمزين، بل بالمهارة في استعماله، وبالرعب، ويمكن الاصلاح في باقي الحالات، بعد ارتكاب الخطأ، أما الغلطة في الحروب فلا يمكن تداركها، ذلك أن عقوبتها تنزل حالاً، وخضع العالم للشعب الروماني ولمجلس شيوخه، بفضل التدريب على السلاح، وخبرة الجيش، والانضباط في المعسكر.

ويزيد الانضباط العسكري الشجاعة والخبرة في القتال، ومن اعتاد على الحياة الخشنة، فذاك الذي الخوف عليه من الموت أقل في الحرب، ولا شيء يفيد ويجدي أكثر من ترتيب المعدات في المعسكر، ومن أن يقضي الناس هناك الليل والنهار وكأنهم قد حملوا مدينتهم معهم، وهكذا إذا حلت بهم شدة، ووقعوا في الخطر، يجدون ملاذاً، ولا يقتلون

مثل البهائم، ويقهر بدون سيف من لا يجهز القمح وباقي الحاجيات.

ما ينبغي أن يكون، ابحثه مع كثيرين، واعلم أن الحكماء هم أعين القادة، وما تريد أن تعمله ابحثه مع قلة، بل الأفضل أن تبحثه مع نفسك فقط، ولا يعمد القادة الصالحون إلى القتال العام، إلاّ في بعض الظروف الاستثنائية، أو عندما تضطرهم حاجة كبرى.

ويُطلب من الجندي: الكفاءة بالعمل، والسرعة، والقوة، والتدريب على السلاح.

ومن الموائم أن يُضم إلى الجيش: حدادون، ونجارون، وجزارون، وصيادون.

ومن شيم فرقة النخبة أن لا تهرب بسهولة، وعدم إغفال الشهامة تجعل الجندي مؤهلاً، والخجل من الفرار يجعله منتصراً.

والمطوقون تزداد بسالتهم بدوافع اليأس.

ولا مسامحة لمن يستسلم للاهمال، عندما تكون المعركة للخلاص.

ولاتُطلب كثرة العدد، إذا كانت الفرائص ترتعد فوراً، وإذا كانت النفوس لا تسعى فقط إلى التهرب من سهام العدو بل من مواجهته.

ويكفي حتى الآن ما ذكّرنا به حول الانضباط العسكري، وعلى كل حال، كل ما لم يرد ذكره هنا من قواعد وأمثلة يعوض عنه في المدارس.

الفصل السابع عشر

وجوب الاكتفاء بملك واحد بعد الاستيلاء على أرض الميعاد.

يجب بعد الاستيلاء على أرض الميعاد تنصيب ملك يتأمر على الجميع، ويحكم شعبه بفطنة وعدل، ويهزم الأعداء ويرعبهم، وذلك حسبما يوصي الكتاب المقدس إذ يقول سفر التثنية في الاصحاح السابع

عشر:١٤ — ١٥: «متى أتيت إلى الأرض التي يعطيك الرب إلهك وامتلكتها وسكنت فيها، فإن قلت أجعل عليّ ملكاً لجميع الأمم الذين حولي فإنك تجعل عليك ملكاً الذي يختاره الرب إلهك».

واستخدم كلمة ملك لا ملوك، وكما قلنا من قبل إنه ينبغي اختيار قائد واحد للجيش، حتى يستتب السلام، وتتحقق الوحدة بشكل أعم، حيث يجب فوق كل شيء تجنب الانقسام، والانقسام قد يحلّ بسهولة بين المؤمنين، إذا حصلوا على انتصار، وذلك بسبب تنوع لغاتهم، وتعدد بلادهم، واختلاف تركيباتهم الاجتماعية، وشبه سلطان مصر نفسه بأفعى لها ذنب واحد وعدة رؤوس، علماً أنه لا يمكن لذنب واحد أن يتبع عدة رؤوس لها رغبات متنافرة، وذلك بشهادة المسيح في قوله:«لايمكنكم خدمة ربين»،وبناء عليه، ينبغي انتخاب ملك واحد، لكن ليس كيفما كان، أو بدون مبالاة، بل اختر الذي اختاره لك الرب إلهك، بحيث يكون ممن يكره ما هو عيب، ومتحلياً بالفضائل، ويؤثر ما هو نافع، ويمقت الإثم، وليكن مثل داوود آخر، مسحه الجميع بقلب واحد في حبرون(سفر صموئيل الثاني — الاصحاح الخامس)، وانتزع نير الجزية من يد الفلسطينيين، وضرب مآب وأذل المآبين، وجعلهم عبيداً يدفعون الجزية، وانتشر صيته، وعندما رجع ضرب السوريين في وادي صوبا، وصارت أدوم بكاملها تخضع لداود.

وليكن مثل سليمان آخر، الذي كانت الأرض تشتاق لرؤية وجهه، وكان بفضائله أعظم من سمعته وصيته، وقد استولى على جميع المنطقة الواقعة عبر نهر الأردن، وخضع له كل ملوك تلك المناطق، وفي كل مكان حوله كانت له مشاركات(سفر الملوك الثاني — الاصحاح الرابع)، وكان سكان يهوذا وإسرائيل يعيشون بدون خوف، كل واحد منهم تحت كرمته وتحت تينته، وكذلك حصّن حزقيا المدينة، وجرّ إليها المياه، فبالحديد نقب الصخور وحفر بئراً(أخبار الأيام الثاني: ٣٠، سفر

ابن سيراخ: ٤٨)، وأخيراً ليكن مثل يوآش الذي أرسله الرب ليعيد الشعب إلى التوبة، وفي أيامه أزال جميع الأرجاس، ودعم التقوى(أخبار الأيام الثاني: ٢٤ / ١. ابن سيراخ:٤٩).

على هذه الشاكلة ينبغي أن يكون ملك القدس، حتى يتمكن الشعب المسيحي هناك من النمو عدداً، والارتقاء مرتبة، وقد أحسن الشاعر أنتي كلاديوس Anticladius حين قال:«الناس على شاكلة ملوكهم، والقرارات التي تدغدغ أحاسيس الناس لا تستميلهم، بل الذي يستميلهم هو حياة حكامهم».

فهكذا كان غودفري المختار من الرب والمحبوب، وكذلك الذين خلفوه، الذين جبوا الجزية من سلطان مصر ودمشق.

الفصل الثامن عشر

يتوجب على الملك الامتناع عن النفقات غير الضرورية وغير ذلك من الأباطيل:

ومثلما قدمنا من قبل بعض الارشادات المفيدة المتعلقة بالانضباط العسكري، من المفيد أن نضيف إليها أيضاً — فيمايلي — بعض النصائح المرتبطة بالمثل الأخلاقية والحياة المستقيمة، ونحن إذا قرأنا بوعي ما تقدم وذكرناه، نلاحظ أن الصليبيين قد افتقروا إلى الخلتين، وسلف أن أشرنا أعلاه بشيء من الايجاز إلى أن الشعب يكون بالعادة مثلما ملكه، وأنه كما يكون حاكم المدينة يكون سكانها(ابن سيراخ:١٠)، وتقدم بنا القول«بأن الناس في العادة على شاكلة ملوكهم».

ولا يظنن الملك أنه معفى من تطبيق الشريعة عليه(سفر التثنية — أعلاه)، بل عليه الالتزام بطاعة الناموس المعطى له من السماء، وعندما يتوج ملكاً:«لايكثر لنفسه الخيل»[التثنية ١٧ / ١٦]، لكن هذا لا يعني عدم اقتناء الخيول الجيدة، والفرسان لحماية المملكة، بل المحظور هو

الاكثـار للأبهة والجاه مثلما حدث مع سليمان[الملوك الأول: الاصحـاح الرابع] حيث ورد أنه كـان لدى سليمان أربعين ألف مزود لخيل مـراكبه واثني عشر ألف فارس، وجاء في موضع آخر أنه كان لديه عشرين ألف فارس.

فلتمنع عن الملك هذه العجـرفـة وهذا الاسراف كي لا يثقل شعبـه، ويصبح هو صلفاً جباراً، ذلك أن الذي قصده المشرع بكلمة«الخيل» هو «الحشم» والحاشيـة وكل ما يمت إلى الملك، وقـد تطرف سليمان وتجاوز الحدود في ذلك، حيث كـان طعـامـه«لليوم الواحـد ثلاثين كـرّ سميـذ، وستين كرّ دقيق. وعشرة ثيران مسمنة، وعشرين ثوراً من المراعي،ومائة خروف ما عدا الأيائل والظبـاء واليحامير والأوز المسمن»، وعمل مجنباً من ذهب مطروق، وثلاثمائة مجن من ذهب، كل ذلك لإظهار أبهة ملكه وبذخه، وهذه كـانت كلها من استخدامات الحرس الذين كـانوا ينامون عند باب الملك، وكان يتقدمهم لدى خروج الملك فرسان شبان، يتولون توزيع العطـور من حـوله، وكـانوا يفعلون ذلك حتى عند مـرابض الخيـول، ويحلّون أسلحتهم ويطلونها بـالذهب حتى إذا ضربتهـا أشعـة الشمس تبرق لمعـاناً، وقـد أرهق هـذا الاسراف كله الشعب الذي كـان خاضعاً لسليمان، وعبر عن ذلك سفـر الملوك الأول — الاصحاح الثاني عشر، عندما صرخ النـاس من أفراد الشعب إلى ابنه رحبعـام قائلين:«إن أباك قسى نيرنا،وأمـا أنت فخفف الآن من عبـودية أبيك القاسيـة ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا فنخـدمـك»، وعندمـا أجـابهم بعكس مـا طلبوه وهددهم بما هو باهظ أكثر، خسر الأسباط العشرة،وجرّ الانقسام إلى المملكة.

وما الذي يفيد الملك الفائض من السلاح أو المسلحين؟ وكان لما رأى أفلاطون ديونيس Dionys طاغية صقلية وقد أحاط نفسه بالحرس، قـال لـه:«أي شر صنعـت حتى لـزم أن تقيم حـولك هـذه

الحراسة»؟!وقال سناكوس Senecus في كتابه إلى نيرون عن الرحمة:«حصن واحد لا يمكن اقتحامه هو محبة الشعب»، فلينتبه الحكام والبارونات إلى هذا:إذا كان لا يجوز للملك أن يكثر من الخيل والفرسان من أجل الجاه، فكم هو بالحري أن لا يكثروا من الكلاب والطيور الجارحة، والقردة، والحيوانات البرية المختلفة، التي تهبها الطبيعة.

ولعلهم أخطأوا، وتمادوا أكثر من اللازم في هذه الأمور، ذلك أنهم تعودوا كثيراً على التعلق بالمهرجين، وصرفوا أنفسهم عن الاستماع إلى من وعظهم بالحقيقة، وقالوا: إنه شرف للزعماء أن يتمرنوا على الصيد للترفيه، وأن يلاعبوا طيور السماء، وأن يجمعوا الخيول السريعة، والمخمل المطرز، وغير ذلك من المقتنيات، فهل هناك من يجهل كم كل هذا التنعم هو من عفونة الكسل والاستخفاف؟

وقال الفيلسوف تيموستكل Themistocles :«ينبغي إبعاد القضاة عن اللعب وعن كل ما ليس فيه رصانة، لئلا يبدو أن المصلحة العامة هي لعبة يلتهون بها».

الفصل التاسع عشر

الجرم الذي يقترفه الملك الفاسد الأخلاق، ضد المملكة.

إذا كان يتوجب على ملك القدس الامتناع عما هو باطل وغير رصين، كونه بؤرة للخطايا، بات متوجباً عليه أيضاً أن يقدر مدى العناية التي عليه أن يتجنب بموجبها الخطايا الأكثر جسامة التي من شأنها، أن تجلب آخرته، ليس وحده فقط، بل وآخرة المملكة كلها، لابل والشعب كله، وتجر على الجميع عدم التوفيق والخطر، ولذلك من الموائم أن يلتزم بذاته بالقاعدة التالية:«ألا يرجع الشعب إلى مصر بسبب كثرة الخيل»، ذلك أن البذخ والباطل لدى الملك يقودان إلى الخطيئة،

وخطيئة الملك تعيد الشعب إلى مصر، أي إلى ظلمات الخطايا، فقد قال أمبروز Ambros في رسالته إلى الرومانيين: «يعمل الأدنى ما يرى الأعلى يفعله»، وقال ايرونيموس أيضاً إلى الأسقف هليودوروس: «إقامتك في البيت هي كمن هو واقف أمام المرآة، وهي معيار للانضباط العام، فكل ما يعمل هناك يظن الناس أن عليهم الاقتداء به»، وهكذا قاد يربعام عشرة أسباط إلى عبادة الأصنام كما لو كانوا في مصر، ولهذا السبب تم تدمير المملكة على أيدي الآشوريين، وكذلك أفسد يوشع ملك القدس نخبتها، عندما زاغ عن وصايا الرب وابتعد، (انظر الفصل المقبل)، ولذلك لم يعد كلام الرب يخرج لا من دبير Dobyr ، ولا من إفود Ephod ، وبسبب خطيئة داود، عندما أجرى الاحصاء للشعب جرى قتل الآلاف العديدة (صموئيل الثاني: ٢٤)، وهكذا يتضح صدق ما جاء في سفر ابن سيراخ — الاصحاح العاشر قوله: « مثلما يكون قاضي الشعب يكون الخادمون له، ومثلما يكون رئيس المدينة يكون جميع سكانها».

ولأن نتائج الخطيئة تشمل الشعب مع الملك، فإنهم بحق يتسربلون بالعقوبة المشتركة، وعن هؤلاء قال الرب في سفر حزقيال: «الملك ينوح، والرؤساء يتسربلون بالدهش، وأيدي الناس معفرة بالأرض، وما يفعلونه يذهب سدى».

وهكذا عدّ الملك متحملاً لمسؤولية الذين أعادهم إلى مصر (إلى الخطيئة) بمثله السيء الذي ضربه لهم، ولهذا توجب على الملك أن يتحلى بالفضائل، حتى يضرب لشعبه المثل الأعلى بالأخلاق الفاضلة، ويحثهم عليها، مثلما يفعل الرأس في الأعضاء، حتى لا يستحق التوبيخ الذي وجهه إيليا إلى آحاب بقوله: «أنت مقلق إسرائيل، أنت وبيت أبيك»، ولكي لا ينتحب الشعب في النهاية ويردد ما جاء في المراثي: «هددني وساقني في الظلمة وليس في النور»، ثم يستطرد فيقول (مراثي: ٥ /

٥):«نتعب ولا راحة لنا، أعطينا اليد للمصريين والآشوريين لنشبع خبزاً».

الفصل العشرون

كيف ينبغي على الملك، بدافع من القناعة، وبإرشاد من العقل لجم شهواته وملذاته الجسدية.

مثلما يمتثل الجميع، في المدينة الحسنة التنظيم،لأوامر الملك الواحد، ويطيعونها، هكذا يتوجب على من يريد العيش باستقامة أن يخضع كافة شهواته لسلطان العقل، وألا يسعى أبداً وراء شهواته(ابن سيراخ:١٨)، بل عليه لجم نفسه، وإبعادها عن الملذات التي نتشارك بها مع البهائم(كتاب الأخلاق الثالث)، والذي يسعى خلفها دونما رادع ليس مؤهلاً لأن يحكم على غيره، بل بالحري أن يكون تحت حكم غيره، ممن يتبعون حكم العقل، مثلما قال الرب على لسان نوح، عندما أوصى أولاده في سفر التكوين — الاصحاح التاسع(٢:):«ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض»، فإنه ذكر«الحيوانات» ولم يذكر «البشر» حتى لا يخاف العقل، بل تخاف البهيمية من تسلط الانسان، فالرذيلة هي من الأمور القابلة للاشتهاء(الأخلاق الثالث)، ومثلها عدم القناعة، وهي تشبّه بالطفل«والويل لأرض ملكها طفل وحكامها يأكلون منذ الصباح»(ابن سيراخ ١٠)، وعلى هذا من الضروري أن تدار الحواس وقوة الغرائز بوساطة العقل، فالعقل ضروري مثلما المعلم ضروري للطفل، وقد قال بولس الرسول في رسالته إلى تيطس ـ الاصحاح الثالث(الصحيح إلى ثيموثاوس: ٣ / ٥):«وإنما إن كان أحد لا يعرف أن يدبر بيته، فكيف يعتني بكنيسة الرب»؟ وعلى هذا على ملك أرض الميعاد المختارة أن يتعلم بطريقة عمله ونمط سلوكه، كيفية

إدارة شـؤون جميع شعبـه، وأن يكون حسبما قـال كلـوديانو Clau-diano في قصيدة عن الأخلاق:

«إذا استولى عليك الرعب، إذا استحـوذت عليك شهوات كثيرة، إذا استدرجوك إلى الغضب»

«إذا طغت عليك الرذائل وأرهقتـك، وإذا ثارت في داخلك رغبـات آثمة فتحملها»

«وإنك حقاً ستمسك بزمام جميع الأمور»

«عندما تتمكن من أن تكون سيد نفسك وملكها».

ويقـول بلوتارخ Plutarchus في وصـاياه إلى تـراجـان:«لن تصنع شيئاً باستقامـة تامة ما لم تتخلى عـن نفسك، وإذا ما لزمت ذاتك بالسير حسب الفضيلة، فإن كل ما سينتج سيكون مستقيماً».

وبما أنه بين الملذات الحسية، تعدّ الملذات الجنسيـة أهمها، فإنها ذكرت باسمها عندمـا حـرمها قـانون الملـوك في سفـر التثنيـة:١٧ / ١٧ في قوله:«ولا يُكثر له نساء لئلا يزيغ قلبه».

وعلى هذا الأسـاس كم هو بالأحرى تحريم اقتراف الزنا، أو الاتيـان بأية قباحة، وإذا اعترض معترض، انطلاقاً مما ذكر عن داود الملك، وابنه سليمان، اللذان اتخذا زوجـات كثيرة نجيب: لما فهم داود المثل الذي ضربه له ناثان، أقر بأنه ابن الموت(صموئيل الثاني:١٣...)،وعن سليمان قـال سفـر ابن سيراخ: ٤٧(/ ٢١) بعـدمـا تحدث عن عظمتـه وعن أعماله:«أمال فخذيه إلى النساء فكان وصمة في مجده»، وحين اتخذ هيرود هيروديا خلافـاً للناموس، أمر بقطـع رأس يوحنا(متى:١٤. مرقس:٧)، وحين لم يأبه بلدوين الأول، أول الملوك اللاتين على القدس، بهذا الأمر، حل رباط الزوجية الذي يلتزم به الانسـان نحو الآخر منذ البدء، وأقفل

على الملكة وألقاها في أحد الديرة، في دير القديسةحنة، قرب بركة الضأن، وعلى مقربة أيضاً من باب شعفاط، وتزوج كونتسة صقلية، التي كانت تمتلك الأملاك الكثيرة، وكانت مطلقة روجر أخو روبرت غويسكارد، وحين فعل ذلك ضربه المرض، وخسر أخيراً مملكة صقلية وأبوليا، وعرّض مملكة القدس وأملاكها للانقسام والكراهية لمدة طويلة.

وكذلك ايزابيلا[ابنة عموري الأول] التي خلفت أختها الملكة سيبيلا، تخلت عن همفري، وتزوجت من كونراد، بل لنقل إنها تمرغت في الزنى، لأنه بشهادة المعلم معلم الحق«كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني»[لوقا: ١٦/ ١٨) هذا من جهة ومن جهة ثانية:«وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزني»، وإنه لأمر بشع لا يليق بشرف الملوك، لابل إنه لا يكاد يترك للضالين، أن يفسخ إنسان الزيجات المعقودة، أو أن يضاجع نساء غير شرعيات، أو أن يربط واحداً بكثيرات، خلافاً لوصية الرب، ولما حرمته الكنيسة، ولهذا على الملك أن يلجم شهواته وميوله، تحت سلطان العقل حتى لا تنزلق نفسه إلى الخطيئة، ولئلا تتلطخ نصاعة سمعة الملك بأوحال الخطيئة، وتفسد سيرته الشعب، في حين إنه لوبقي على الفضائل، لأمكنه إبقاء الشعوب الكافرة المقيمة من حوله تحت نير الجزية، ويقول توليوس Tullius ، في كتابه عن المتناقضات:«هل هناك من لا يستطيع أن يلجم شهواته»؟.

فليلجم الملك أولاً شهواته الجنسية، وليحتقر الملذات، وليبعد الوصيات عن نفسه، وعندها ليبدأ بالحكم، وذلك بعدما تأمر على أسياد مكروهين، وعلى ما يجر العار والمخجلات».

الفصل الحادي والعشرون

كيف يمكن للملك لجم شهواته وملذاته الجسدية وتأمين

الثروات الوافرة.

كما أن جميع الأشجار قابلة للتطعيم في الجذع المناسب، هكذا جميع الآثام مطعمة بالبخل حسبما قال[بولس] الرسول في رسالته الأولى إلى تيموثاوس — الاصحاح السادس(١٠:):«لأن محبة المال أصل لكل الشرور الذي إذا ابتغاه قوم ضلوا عن الايمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة»، ثم عاد فقال:«وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فيسقطون في تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبية ومضرة تغرق الناس في العطب والهلاك»، ذلك أنه«ليس هناك من هو أكثر إثماً من البخيل»(سفر ابن سيراخ)، ولا نتحدث هنا فقط عن الطمع بالثروات، وهو الجذع الذي تطعم عليه كل الشرور، بل نريد أيضاً الطمع بالثروات الحسية والشهوانية، التي يتوجب على الملك الامتناع عنها(انظر الفصل المتقدم)، ويقول كتاب الأخلاق عن داء الحب:«الحب الشهواني يتغذى بالثروات»، ولذلك لانتزاع وصمة جميع الرذائل ومنبع الرذائل الجنسية خاصة، قضي في قانون الملوك:«وفضة وذهباً لايكثر له كثيراً»[التثنية:١٧ / ١٧]،وذلك حتى لا يقوم مجد الملك على مصائب الكثيرين الذين يرغمون على حرمان أنفسهم من الضروريات في حين كان الأنسب لهم الاستفادة منها، والقادرون على عمل الخير لغيرهم يستحقون فخر تسميتهم ملوكاً، وإلاّ بأي حق يكدس الثروات من يملكها باسم غيره؟ ولا يجوز أن يفرض ضرائب خاصة ذاك الذي يعترف بأنه يفرض ضرائب عامة، وبما أنه يلزم التخفيض من الامتيازات لا توسيعها، يجب أن نتأمل بعناية — بعد استرداد الأرض المقدسة — وننظر ما هو الأكثر فائدة للاحتفاظ بالمملكة، وهل يجب تحويل مداخيل تلك الأرض إلى ضريبة تغذي صندوق الملك، حتى تصرف في وقتها على الرجال المحاربين، وذلك حسبما يتدبره الملك، وكما يتصرف سلطان مصر حتى الآن، أم أنها يجب أن توزع بعد احتلال الأرض على البارونات والجنود

ورجـال الحرب، الذين يخدمـون الملك والمملكة لقـاء رواتب محددة، وتحفظ المداخيل الفـائضـة عند الملك حتى يتمكن من أن يقـدم بسخـاء المسـاعـدات لـرجـال الدين وللرهبـان وللعلمانيين، وخـاصـة المعـاقين والمعوزين، وبشكل أخص إلى الذين يكونوا قد تعبوا في احتلال الأرض المقـدسـة، أو خـدمـوا في بلاط الملك، وكـذلك لبنـاء الكنائس والديرة ولترميمها، وللعناية بالمرضى، والمحرومين من المساعدة الزمنية، وإذا تم التـوصل إلى رأي أنه أجدى وأكثـر فـائـدة القيام بتـوزيع المداخيل على المدن والقـلاع، فلربما يكون ذلك أكثـر فـائدة لمدن بعض المجمـوعـات القوية في أوربا أن تقيم توأمـة مع تلك المدن، بحيث يكون لها مداخيل الاقطاع نفسـه تحت الولاء لها، وبذلـك يكون لها عليهـا سلطة إدارية، وتعطي لكـل ذي حق حقــه، وتدفـع إلى الملك وإلى المملكة شيئاً من رسومات ملاحتها، أو ترسل له بعض الجنود، أو تقدم له الخدمتين معاً، لأن كل إنسان يسعى بجهد أكبر للمحـافظة على ما هو له، وبالفعل إننا نرى أن بعض أقسام بيزنطة يحافظ عليها أهل البندقية حتى اليوم بفضل تلك الطريقة، وبما أنه يلزم بناء القلاع ورفع التحصينات وإشادتها ليس فقط في الأرض المقدسة، بل في العـربية وفي الداخل السوري وفي مصر، وذلك ليس فقط من أجل الدفاع عن المملكة بل أيضاً من أجل الكسب الكبير، وللخيرات الدنيـوية التـي سـوف تتـدفق بوفـرة، عندمـا تنفتح أمامها شواطىء مصر وسـورية، ومهما كانت الطريقة — من بين الطرق التي ذكـرناها أعـلاه — التي سـوف تعتمـد بخصـوص الترتيبـات في المملكة، يحتفظ الملـك في جميع الحالات دومـاً لنفسـه بمنطقــة تكون ضريبتهـا له حتى «يكـون له مثـاقيل كثيرة مـن ذهب ومن فضــة» ولكي «لايعلق قلبه بها» [مزمور: ٦٢ / ١٠] إذا كثرت بتدبير من الرب.

ولقـد خسر موريتيـوس Mauritius الامبراطورية بسبب تمسكه بالذهـب، لأنه عندمـا وجـد في أرض معـادية له، ورفـض أن يدفع

للجنود أعطياتهم، طلبوا فوقاس فانتزع الراية الامبراطورية وهرب موريتيوس مع زوجته وأولاده الخمسة إلى إحدى الجزر، وأمر فوقاس بقتلهم.

ولطمع شاؤول بغنائم العمالقة استدرج إلى عصيان أوامر الرب، فخلع من الملك، وبعد اقتراف آخاب لجريمة القتل، لأنه كان يشتهي ضم كرم نابوت، سمع الرب يقول له على لسان إيليا:«هل قتلت وورثت أيضاً، ثم كلمه قائلاً: هكذا قال الرب: في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس دمك أنت أيضاً»[الملوك الأول:٢١ / ١٩]، ويقول سفر ابن سيراخ(٣١):«طوبى للغني الذي لا يسعى وراء الذهب، ولا يتكل على كنوز الفضة، من هو ذاك فنمدحه»؟، ومثلما الملك يلحقه الدمار بسبب بخله، مثل هذا أيضاً إنه يشع خاصة بسبب كرمه».

وكان بوليكراتس POlicratis ، ملك أهل جزيرة ساموس، الذي اشتهر أثناء حياته بكرمه وبصنعه الخيرات، قد تمكن من الوصول إلى الهند، لأن كل من اشتهى أن يقطف من عنده ثمرة شيء، كان يهبه إياها، وعلى هذا ليسع ملك القدس، وأرض الميعاد، وأن يتصرف بكرم وسخاء وذلك حيث يلزم ويناسب، حتى يتجنب كراهية حشمه أو الخاضعين له ولسلطانه، وبذلك يدفع الخطر عن نفسه وعن مملكته، وعند انتشار هذه السمعة عنه، يجذب الشعوب الغريبة إلى عنده، ويرعب أعداء المسيح والشعب المسيحي.

الفصل الثاني والعشرون

اهتمام الملك بشريعة الرب وغيرته عليها، وطاعته لوصاياها.

يقول سفر الحكمة:«الملك الحكيم ثبات الشعب»، ويقول سفر ابن سيراخ:١٠ / ٣ :«الملك يدمر شعبه، وتعمر المدينة بعقل ولاتها» ،

ويقول الشاعر بواتيوس Boetius مخاطباً الفلسفة في كتابه الأول، في «التعزية»:«أنت قررت على لسان أفلاطون أن الجمهوريات ستكون سعيدة إذا تسلم إدارتها من يدرسون الحكمة باستمرار، أو صدف وكان حكامهـا ممن دأبوا على الحكمـة»، وعلى هذا تقـول الحكمـةفي سفـر الأمثـال:«بي أنا يملك الملوك، وبي يشرع المشرعـون القـوانين العـادلة»، ودون تلك القـوانين ثيودسيوس، وجستنيـان،وليون، فكانوا مـن عالم لم يكن له شكل عـالم آخر، وذلك عندمـا كرسـوا العدالة للعـالم، وأتحفوه بشرائع كما لو كان هيكلاً.

وبما أن كل الشرائع باطلة وغير فعـالة، إذا لم تأخـذ شكل الشريعـة المقدسة، وبناء على هذا عن حق ما جرى تدوينه في سفر التثنية، قوله في قـانون الملوك:«وعندمـا يجلـس — الملك — على كـرسي مملكتـه يكتب لنفسـه نسخـة من هذه الشريعـة في كتـاب»[التثنيـة: ١٧ / ١٨] وأضـاف:«أيها الملوك اتعظـوا وتعقلوا بشريعـة الرب، وتأدبـوا يا قضـاة الأرض، إن شريعـة الرب كاملة، وترد النفس، وشهـادة الرب صادقـة تعطي الحكمة للصغار»[المزامير:٢ / ١٠ ،١٨ / ٨].

ولايقطع التشريـع الصـادر عن القيصر، أو عـن الناس، دابـر كل خطيئة، لا بل قـد يجيز في بعـض الأحيان مخالفـة مـا معينة، أما شريعـة الرب، فهي التي لا عيب فيها، وهي تحرم الخطايا جميعاً، وتجمد الشريعة البشرية اليد، ولا تجمـد النفس، وتبدل شريعة الرب النفـوس وتعيدها، وبسبب تنوع الأعمال البشريـة لا يمكن للشريعـة البشرية أن تتناولها بما فيه الكفـاية، في حين تعطي شريعة الرب، شهـادة أمينة، ومعرفـة كاملة حتى للصغار، وبعدما تبحر فيلادلفوس Philadelphus بنقاء تلك الشريعـة وكمالها، طلب من المؤمنين بالرب الحصـول على نسخـة منهـا، حتى يفهم بوضـوح أكبر مـا يتعلق بالرب، ويحكم شعبـه بعـدالة أكبر، وإذا كـان الملـك قـاصراً في السن، أو كـان بسبب إهمال أهله لا يحسن

القراءة والكتابة، فليحضر لمساعدته ناتان النبي، وصادوق الكاهن.

ولهذا أضاف في قانون الملوك:«ليتخذ لنفسه نسخة من هذه الشريعة في كتاب من عند الكهنة اللاويين»[التثنية:١٧ / ١٨]، وهكذا ساند يهويا داع يوآش، فعاش باستقامة لكن لما رفع عنه المساندة اقترف الخطيئة(انظر ما تقدم القسم الأول — الفصل السادس)، وكان ملوك الوثنيين يتخذون الفلاسفة معلمين لهم، فلقد اتخذ الاسكندر أرسطو، واتخذ نيرون سناكوس Senecus واتخذ تراجان بلوتارخ، وإلى الاسكندرصاحب العبقرية الرفيعة كتب أرسطو كتاب«أسرار الفلسفة»، ولنيرون صاحب النفس المجرمة، كتب سناكوس عن«الرحمة»، وكان تراجان قد وصل إلى السلطة دون أن يطمح إليها، وإليه كتب بلوتارخ مجلداً لطيفاً عن التنظيم السياسي عرف باسم«معهد تراجان»، وهكذا عرف معلمون مشهود لهم تطبيق كلامهم حسب الأمكنة والأزمنة والأشخاص بالشكل الموائم، فليسع ملك القدس إلى الحصول على مثل هؤلاء الحكماء والوعاظ له ولشعبه، حتى يتولوا جعل الناس يكرهون الآثام ويصرخون ضد الرذائل باستمرار، مثلما صنع زكريا بن يهوياداع مدفوعاً بروح الرب، إذ وقف فوق الشعب وقال:«لماذا تتعدون وصايا الرب فلا تفلحون»[أخبار الأيام الثاني:٢٤ / ٢٠] لماذا تفعلون ذلك، وما الذي أحوجكم للمخالفة، طالما أن حفظ الوصايا سهل، وقد جاء في سفر التثنية:«الوصايا التي أنا آمرك بها هي ليست فوق طاقتك»، لماذا طالما عدونا لا يتغلب إلاّ على من يريد، ولأي طمع، طالما أن السعادة بحفظ الوصايا، ويقول المسيح في متى:«إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا»[متى: ١٩ / ١٧]، فالمدين يرد الفائدة إلى الدائن، وتعطي الأرض المزروعة بذاراً ثمارها لواحد ثلاثين ضعفاً، ولآخر ستين، ولآخر مائة، ولسوف ترد الحقيقة ما وعدت به، فإنه قال:«تأخذون مائة ضعف وترثون الحياة الأبدية»، ولكن لماذا أيضاً؟

وبأي خسارة؟ إذ إن هناك مخالفات تستوجب العقاب.

وقال المزمور:١٩ / ٢١:«انتهرت المتكبرين الملاعين الضالين عن وصاياك»، وقال الديان في متى:٢٥ / ٤١:«اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته»، فهم يذهبون إلى النار ويزداد عذابهم بقدر ما خسروا مكافأتهم، وبحق قال:«إلى النار الأبدية» فهذا لم يحدث عرضاً بل جاء تنفيذاً منطقياً، ذلك أن الملاحق ليس هو المجرم، بقدر ما هي الجريمة، وعلى هذا إن المتوجب هو البحث عن الذنب، ولا يجوز إخفاء مادته، وكذلك إن الخطيئة التي لا توضع نهاية لها تحترق في نار لا نهاية لها، وبما أنه ليس هناك أمل، إذ أنه ليس بإمكان أحد أن يَعِد بالنهاية بعد أزمنة طويلة، فإنهم سوف يشعرون بالألم في الوقت الحاضر، وفي كل الأجيال التي ستتبع، فعودوا إلى قلوبكم أيها الزائفون، أنتم يا من من أجل ملذات عابرة خالفتم وصية الوقت، فلماذا أنتم معرضون ذاتكم لمثل هذه الأنواع القاسية من العذاب، وهي أنواع غير منتهية، لا يكفي كلام للتعبير عنها؟ ونحن نرى أنه من أجل اتباع الوصايا بعناية وكما ينبغي، من المفيد — بالإضافة إلى المواعظ والارشادات المألوفة والمعطاة إلى العموم — إجراء تدريس نصوص الكتابات المقدسة، في مدارس اللاهوت، باللغات الشعبية على أيدي بعض الرهبان، وقد تمّ اختبار هذا الأسلوب في البندقية، وثبت أن الناس أخذوا يتجمعون بتقوى منذ الصباح الباكر، ليسمعوا القداس، وللمشاركة في الوظائف بعناية أكبر بعد الانتهاء من القداس الرباني، حيث تعطى لهم في ساعة مناسبة إرشادات متعلقة بالإيمان والأخلاق والوصايا، وعندما يجري تكرار ذلك يومياً، ويعاد إلى الذاكرة، يصيرون مؤهلين أكثر ليشرحوا لكل من يستوضح عن حقائق الإيمان، حتى يتجنب ما هو مؤذي ويتبع ما هو مفيد وأكثر جدارة، وقد أضاف قانون الملوك بعد أمره بأن يتخذ الملك لنفسه نسخة من كتاب الشريعة

فقال:«فتكون معه، ويقرأ فيها كل أيام حياته لكي يتعلم أن يتقي الرب إلهه، ويحفظ جميع كلمات هذه الشريعـــة، وهـذه الفـــرائـض ليعمل بها»[التثنيـة:١٧ / ١٩]، أما ما هو أجل وأدق، فإنه يبحث بالحوار مع من هم متعلمون ومختصون.

الفصل الثالث والعشرون

تقوى جلالة الملك ولطفه وعطفه على رعيته منذ بداية الخليقة.

لم يُسلط الانسـان على الانسان، لأن الرب قـال في سفـر التكوين — الاصحاح الأول(٣٦):«وقال الرب نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحـر وعلى طير السماء، وعلى البهـائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض»، ولم نقرأ عن ذكر للعبـوديـة إلاّ عندمـا انحـرف الكـافـر حـام عن طـريق العقل ليعيش كـالبهيمة، وسخـر من سوءة أبيـه السكران، لذلك ليعلم ملوك الأرض والمتسلطون عليها أن المتـوجب عليهم هو التحكم بغرائـزهم وبرذائلهم أكثـر من تحكمهم برجـالهم، ولا يصير أحـد تحت حكم غيره،طالما هو سـائـر في الطريق المستقيم، وملتـزم بمنهج العـدالة، وعلى هذا نقـرأ في قـانون الملوك قـوله:«لئلا يرتفع قلبـه على أخوته»[التثنيـة: ١٧ / ٢٠]، وإنه لأخ حقـاً ذاك الذي لا يتجاهل تقلبـات الطبيعة المخلوقـة، والذي يُمنّ عليـه بذلك التراث، ومن لا تفصله الخطيئة عن مجموعـة المؤمنين، وبناء عليـه قـال المسيح في متى:٢٣[٨]:«وأنتم جميعـاً أخـوة»، ذلك أن جميع المؤمنين يـدعــون أخـــوة المسيح، وقــد جـــاء في الرســـالة إلى العبرانيين:«لأن المقـدس والمقدسين جميعهم مـن واحد فلهـذا السبب لا يستحي أن يدعـوهم إخـوة»[٢ / ١١]، ولينتبه الملك وليأخـذ بنصـائح ابن سيراخ(في الاصحاح ٣٢).

فالاحتياط والحذر هو شـأن الطغاة، ولا يجوز للملوك أن يخافوا وأن

يرتعدواحتي يستمروا آمنين، ولايؤمنوا سلامتهم بالسلاح، بل بالمعاملة الحسنة، فهذا ما قاله سناكوس في كتابه عن الرحمة:«ليس هناك من تليق به الرحمة أكثر من الملك، وعليه أن يكون حليماً، لأن شيم النفوس الكبيرة أن تكون هادئة ومطمئنة، وأن لا تأبه بالشتائم والاهانات، والنحل سريع الغضب وهو يترك إبرته مغروسة في مكان القرصة، وهكذا يكون بوضعه الاعتيادي، فإذا رمى بسهم الغضب بقي بدون سلاح، وينطبق هذا المثل على الملوك الكبار، ويقول كلوديانوس:«الحلم وحده يجعل منكم دائماً متساوين أمام الآلهة »، وحاول ثيودوسيوس إقناع الآخرين بفعالية الحلم إذ قال في مجموعة القوانين:«إذا خيل لأحد أن على أسمائنا أن تتمزق، فنحن لن نكتفي برفض الخضوع للعقوبة،لكن إذا صدر ذلك عن خفة فنحن نزدريها، وإذا كانت طبعاً منذ الطفولة فهي تستحق الشفقة، وإذا كانت صدرت عن إهانة، فنحن نسامح»، وعلى هذا إذا جرح الملك، فليعف عن أهل بيته، وعن من هم تحت سلطته.

ويقول سناكوس في الموضع ذاته أعلاه:«ولمنح العفو عن الذنب، إذا استطاع ذلك بأمان وإلاّ فليخفف من العقوبة»، وليكن أرحب صدراً في العفو عن الاساءات لدى المقربين إليه أكثر مما لدى الأغراب، وليس كريماً كبير النفس من يُكرم سواه من مال غيره، لأنه يعطي مما هو لغيره،وإن كان يتنزعه عن نفسه، ومثل هذا إنني لا أعدّ حليماً من يميل بسهولة إلى مشاركة غيره في المهم، بل الحليم الذي لا ينقاد بسهولة إلى الغرائز التي تحركه، وضعف الطبيعة البشرية هو نداء موجه إلى الملك كي يكون حليماً، وكذلك يدفعنا الميل المولود معنا نحو الخطيئة إلى الاشفاق على كل ما هو بشري، وهذا ما توحي به الطبيعة مع تبدل الظروف.

وكان ابن ملك الليديين قد بقي صامتاً إلى الوقت الذي أرادوا فيه

صلب أبيه، حيث صاح بقورش قائلاً: «اعف عن أبي يا قورش، واتعظ مما يحلّ بنا، ذلك أنك أنت أيضاً إنسان».

الفصل الرابع والعشرون

عدالة الملك وإنصافه وصحة أحكامه.

إذا فقد النظام وانعدمت العدالة تكاثرت اللصوصية، لذلك يتوجب على ملك القدس، أن يسن — بعد الدراسة والاستشارة الخبيرة — قوانين توائم الأرض، والأحوال، والأشخاص، ذلك أن تطبيقها يضمن الاستقرار للمملكة، والاحترام للملك، والطاعة لدى الشعب، والسلام للجميع، ولقد كانت المدينة المقدسة يسودها السلام(مكابيون:٢ / ٣) عندما كانت الشرائع تطبق فيها بدقة بسبب أونيا، الكاهن الأعلى، وبما أن رذيلة الجسد الممقوتة لدى الرب، والتهافت نحو الرغبات، كانا في أكثر الأحيان — حسب الكتب — سبب خراب أرض الميعاد المقدسة، وبما أنه من الثابت أن أكثرها سعيراً هو التمرغ في وحول الجنس، والسكر الدائم، لاسيما في الحانات الليلية حيث الغانيات اللائي يحرضن على الخطيئة، بالآلات الموسيقية، والرقصات، و الحركات الخلاعية، حسب عادات البلد، يجب إلغاء هذا كله بقرار ملكي، على أن تبقى الفنادق كما هي الحال في البندقية، لاستقبال الضيوف المسافرين، الذين ليس لديهم بيوت خاصة بهم، كما يمنع أن يكون عند الناس زمارين ونادبات، يجلبونهم يوم دفن الأشراف للبكاء والنحيب على زوال المجد الباطل، فالمسيح لم يرض إقامة البنت المتوفاة بحضور تلك النسوة(متى:٩ / ٢٣ — ٢٤)، ومن الأفضل لو سنحت الفرصة إبدالهن، حتى لا يحرم الميت من الصلاة، وأن توجه إليهن كلمات المخلص:«لاتبكين عليّ، بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن»[لوقا: ٢٣ / ٢٨]، أما أنا الذي أتلوى في العذاب، فليس هذا الذي يمحو خطاياي، بل الأدعية الربانية، وذبيحة القداس، والصدقة المخبأة في

حضن الفقير، وكافة أعمال التقوى.

وهناك من يمارسون — وخاصة النساء بينهن — أعمال السحر والشعوذة المتنوعة، فهؤلاء يشاركون المنشقين والهراطقة والملحدين، ويتعلمون أعمالهم، التي كثيراً ما تحولت إلى تشكيك، وخراب، وهناك رذائل كثيرة كانت سبب الدمار، وسبب خسارة أرض الميعاد المقدسة، هي من الضروري اقتلاعها، ومحوها كلياً بتدابير ناجعة.

وعلى الملك السهر حتى يطبق الجميع القوانين المشروعة، وذلك بكل عناية، وبدون استثناء كما هو مدون في البند الأخير من قانون الملوك، وهو قوله:«ولئلا يحيد عن الوصية يميناً أو شمالاً»[تثنية: ١٧ / ٢٠]، والمقصود«بيميناً» الأقوياء، «وبشمالاً» الضعفاء أو الغرباء، فقد جاء في سفر التثنية قوله:«احكموا بين الناس بما هو عدل، وسواء أكانوا من أهل البلد، أو من الغرباء»، وينبغي أن لا تكون هناك محاباة لأحد، بل كما تسمعون للكبير اسمعوا كذلك للصغير، وقد يكون أراد«بيميناً» التوزيع بدون تمييز، «وبيساراً» القساوة بدون عنف، حيث يتوجب على الملك، اتخاذ الموقف الوسط في أحكامه، ويكون هذا باعتماد العدالة التي تلطف الرحمة قساوتها، وهكذا فعل المسيح حين ضرب مثلاً بمعالجة السامري، حيث قام هذا السامري لدى معالجته للجرح بمزج الخمرة التي تحرق وتعض بالزيت، والزيت هو لطافة الرحمة، ومثل هذا جمع في تابوت العهد مابين عصا القساوة، والمنّ، الذي هو العذوبة والحلاوة، ويقول غريغوريوس في الكتاب العشرين من قانون الأخلاق — الباب الخامس والأربعين:«تفقد صرامة النظام ورحمته من قيمتيهما إذا صار التمسك بواحدة دون الأخرى»، ذلك أن المطلوب من الحاكم نحو شعبه استعمال الرحمة التي تفيدهم بالحق، والنظام الذي يقسو عليهم بحب».

الفصل الخامس والعشرون

- ٣٨٠٩ -

إعادة موجزة لكل ما قيل بشأن الحفاظ على الأرض المقدسة بعد استردادها.

مثلما حدث في الماضي، وطرد اليبوسي واليهودي، وفيما بعد المسيحي، بسبب إهانتــه الخالق، كما تقـدم وقلنا في القسم الأول كلـه، وأيضـاً في الثامن والتاسع من هذا الكتاب، هكذا نرى أن احترامه للرب والحرص على حفظ وصـاياه، سـوف يحفظهـا كاملـة، ويحفظها للعبـادة المسيحيـة وللاسم المسيحي، وبدون ذلك سيكـون كل مـا يصنع عبثاً، ولن يكون ضمانة، كما بينت جميع أجـزاء هذا الكتـاب، فلقــد بحثنا واسترسلنا في سرد الوقائع بجد وبإسهاب لتـوضيح هذه المسألة، ثم إنه بعـد احتلال الأرض ينبغي إدارتها بفطنـة، وبشكل مفيــد، حسبما ذكــرنا أعـــلاه، ويتوجب بناء قلاع وتحصينات في مواضع موائمة، لصد الهجمات المباغتة من قبل الكفــار، وخـاصـــة في مصر والعـربيــة، وحـوران، والأردن، وأنطاكية وكليكيـة، ودمشق، وذلك مثلما بنى الأقدمون ضـد عسقلان، أو المصريين قلعة زبليم Zebelim حيث كانت مــدينة بئر السبع من قبل، والمغـارة البيضاء، وغـزة، وجبليم Jbelim أي جت Geth ضد سوبعل Sobal السوري، والمونيين، ومونتريال، أي الكرك، وهو الموقع الذي كـان يعــرف من قبل باسم بتراء الصحـراء، وبنو ضــد طرابلس شقيف تيرون، وكذلـك صفد بين طبريا وعكا، والقرين على مقـربة من جبل الطور .

ويلزم في كل وقـت انتــزاع الأسلحـــة من المسلمين، وكـل مـــا هو ضروري بقـدر مـا يكون ذلك ممكناً بسهولـة، وهناك حاجـة للتـدريب المتـواصل للمـؤمنين السـاكنين هناك على القـوس وعلى المنجنيق، وعلى اتخاذ كـافة الاحتيـاطات الحربيـة، كما قيل في مطلع هذا القسم، وعليهم كـذلك ممارســة أعمال المحبـة، والالتـزام بالتقــوى، التي تكاد التمارين الجسدية أن تكون بلا قيمة إزاءها.

ولقد جاء في الرسالة الأولى إلى تيموثاوس قول[الرسول بولس]:«وروض نفسك للتقوى»[٤ / ٧]، وعلى هذا يتوجب عليهم بناء مشفى في كل مدينة يعمرونها، كما قيل من قبل، وعليهم أيضاً عندما يشرعون بتناول طعامهم أن يحسبوا حساب الفقراء، وأن يرسلوا حصة للمحتاجين، حتى يكون للمؤمنين جميعاً قلب واحد، ونفس واحدة، وعلى الأمراء والبارونات نبذ البدعة، وأن يتصرفوا كرجال، وأن لا يحتفظوا بالأولاد كالنساء مع زوجاتهم، بل بالحري ليتولوا إرسالهم إلى البلاط، عندما يبلغ أحدهم العاشرة من عمره،ليعيشوا مع البارونات، ولكي لا يتشربوا الأخلاق النسائية، وليحكم الملك شعبه بالحلم، فقد قال أحدهم:«إذا كان الملك متمهلاً في العقوبة، فليكن سريعاً بالمكافأة»، وليتذكر دائماً أنهم سوف يكونون معه في المستقبل ملوكاً، وورثة في الملكوت السماوي، وليقض بالعدل للجميع حسب الحق، ولتكن عنده شدة خاصة ضد الذين يستغلون القادمين الجدد لنجدة الأرض المقدسة، ولمعاقبة الآثام الجنسية، بل الذي عليه هو محوها من الأرض المقدسة، فقد جاء في سفر التثنية:«لاتكن بغي بين بنات إسرائيل، ولا زنيم بين أبناء إسرائيل»، وليكن الجميع أكثر من باقي الشعوب الكافرة«خاضعين للملك، يعتمد عليهم، أما بالنسبة للولاة، فهم بمثابة مرسلين من قبله للانتقام من فاعلي الشر، وللثناء على فاعلي الخير»، وبما أنه من الصعب أن نرضي الرب دون الإيمان(عبرانيون:١١، كورنثوس الأولى:١٥)، ولأن الأحاديث الشريرة تفسد الأخلاق الحميدة يتوجب الحفاظ على نقاوة الايمان والأخلاق، وبعد أن يكون قد جرى طرد المسلمين، وكذلك الباقين الذين على شاكلتهم، من الذين خلعوا نير الطاعة للكرسي الروماني المقدس، ولم يعودوا يخضعون له بكل تواضع واحترام، وكذلك الذين بطقوسهم المختلفة ابتعدوا عن الكنيسة فيما هو جوهري في الايمان، إلاّ إذا عادوا إلى القطيع وإلى حضن تلك الأم الحنون، وذلك بعد أن يكونوا قد تركوا لهم المجال،

ويجب أيضاً أن يقتلع من الأرض العرافون، وأيضاً المنجمون، والسحرة كلهم، لأن كـلامهم ينتشر ويتسرب كـالسرطان، وكثيراً مـا يتفشى، فيصيب الأبرياء، ولا يجوز قبـول من هم خطاة معروفـون، ولا الرجال أصحاب الآثـام الفظيعة، من القادمين مـن بلدان الغرب، فقد تقـدم لنا إيضاح أنهم سببوا أكثر من سواهم دمار الأرض المقدسة وخرابها.

وللحفـاظ على هذا كله بالتمام والكمال، ينبغـي إقـامـة آباء للكنيسـة ورعاة لها، يتـولون رعاية قطيع الرب بالعلم والمعرفـة(إرميا:٣)، وتكون حيـاتهم وأعمالهم قـانونيـة، ويحافظون على الأكليروس في حيـاة لائقـة، وينبغي كذلك اعتماد رهبان نظاميين، من النخبة المجربة، فيجري إرسال بعضهم للوعظ والتعليم حسبما قلنـا أعـلاه، وللتبشير بنامـوس الحيـاة، والملـك الحسـن، على أن تكـون لـديهم غيرة على الـرب وعلى الايمان، فيتولون مـلاحقة الهراطقة والمنشقين، والسحـرة، والعرافين، وذلك بكل عناية وجرأة، ملقين جانباً كل مجال للخوف.

ولا يتصـورن أحد أنه سيكون قـاسياً إذا لاحق الهراطقـة هناك بمثل هذه الطريقـــة، لأنه فضـــلاً عما ذكـرناه أعـــلاه يقـــول الرســـول في غـــلاطيـة:٥(/ ٧ —٩)«كنتم تسعـون حسناً، فمن صـــدكم حتى لا تطاوعـوا للحق، هذه المطاوعـــة ليست من الذي دعـاكم. خميرة صغيرة تخمر العجين كله».

وهؤلاء هم الذين قـال عنهم المسيح:«احذروا الأنبيـاء الكذبة الذين يأتون إليكم بثيـــاب الحمـلان»، ذلك أنه مـا من شيء يدمـــر أكثـر من التظاهر بالخير، فإن الشر، عنـدمـا يكون مخفيـاً تحت ستـار الخير لا يثير الريبـة، طالما أنه غير معروف، وثيـاب الحمـلان هي كلمات التملق التي يتفوه بها الهراطقة، وهي كافة مظاهر التدين والتقوى، وهي التي جعلت الشرقيين يحيدون عن حقيقة الانجيل، وكأنها ثوب لبسوه واختفوا تحته، حتى يضلوا غير المتيقظين، بينما هـم في الداخل ذئـــاب خـاطفـــة، وفي

داخلهم حقـد لا يخمـد، وجشع لا يشبـع لتمـزيق نقـاوة الايهان عند القطيع، فيخطفون الحقيقـة وينتزعـونها من قلوب المؤمنين، ولكي تعلم أنك لن تجني من ذلك أية فـائـدة أضـاف:«هل يقطف من الشـوك عنب،أو من العـوسج تين»؟، وهكذا إنك لن تقطف ثمرة الحيـاة لا من الهراطقـة، ولا من أي من غير المؤمنين، وفي هذه الأثناء يجري اجتـذاب الكاثوليـك إلى صفـوفهم الممقـوتة، بسبب الانقطاع عـن الطقـوس الكنسيـة، وبسبب عـدم الرغبة بسماع شيء عن الـرب، وأيضـاً بسبب بعض مكاسب الثروات التي تتمازج مـع اجتماعاتهم، ومع الزيجات التي يعقدونها، والتي كـانت من أسباب تزعـزع متانة الإيمان في قبرص، وفي جـزيرة كريت، وفي إمـارة آخيا، وهذا مما لا شك فيـه عند الكثيرين من الشعب، لابل حتى أيضاً عند قسم من الجنود.

ولا يعترض أحـد فيقـول:«لايهلك الانسـان إذا وجـد بالقـرب من الخطر، ومع ذلك إنه أضمن له أن لا يكون قـرب الخطر، وعندما يكون الأمـر متعلقـاً بأمـور الايهان وبضرورة الخلاص، ينبغي اختيـار مـا هو أضمن.

وأخيراً، ينبغي — بعـد طرد الكفرة مـن الأرض المقدسـة — العمل على اجتـذاب الكاثوليك والمؤمنين من كافـة أنحـاء المعمورة، اجتـذابهم وكأنهم غرسـات جديدة، غـذتهم مياه النعمـة، فيعطون ثمار الحياة،«لأنه هكذا قـال الرب لرجال يهوذا ولأورشليـم احرثوا لأنفسكم حـرثاً ولا تزرعوا في الأشواك»[إرميا:٤ / ٣].

ولكي يتشجع القـادمـون الجدد للمجيء عن طيبـة خـاطر ويكونوا مفيـدين، رأينا أنه من الموائم ومن النافع، لو قـام الحبر الرومـاني، نائب المسيح بتحريض الذين يريدون الابحار إلى الشرق، على البقاء في الشرق مهما كـان جنسهم — ذكوراً وإناثـاً — ومهما كانت حـالتهم، شرط أن لايكون بينهم مـن هو خـاطـىء معـروف ومشهـور، أو مجرم، حتى

نتجنب، — كما قلنا أعلاه — امتلاء الأرض بمثل هؤلاء، لا بل حتى لا نفسد بهم، على أن يترك الأمر إلى حكم الأساقفة، وأن يمنح البابا القادمين الصفح والغفران الكامل عن خطاياهم، وأن يتم ذلك بوساطة مبشري الإيمان، الذين يعلنون كل هذا، وينشرونه في كل مكان، وأن يتدبر بالطريقة المناسبة شؤون سفرهم، ومساعدتهم المناسبة، لئلا ينقطعوا بسبب الفاقة عن متابعة هذا المشروع التقوي.

وعلى الملك، وعلى سائر الذين يمتلكون الأرض المحتلة، أن يؤمنوا للقادمين الجدد أراضي للإقامة فيها، ولبناء بيت وبستان وكرم، وذلك مقابل مبلغ سنوي محدد يدفعونه، وبعد هذا تكون هذه العقارات ملكاً أبدياً لهم ولورثتهم، وإذا وجد أنه من الأنسب منحهم أراضي زراعية يعتنون بها، وتقدم لهم المساعدة في سبيل ذلك وفي سبيل اقتناء المواشي، وسائر الأشياء المحتاجة والمناسبة فليفعل.

فهكذا اجتذب الملك بلدوين الأول الكثيرين ليسكنوا في القدس، ويجب أخذ الحذر خاصة في البداية، حتى لا توضع العراقيل أمام المؤمنين القادمين إلى الأراضي المحتلة مع بضائع وحاجيات أخرى، وأن تفرض عليهم مكوس وأتاوات، وأن يسمح لهم بكل حرية أن يستثمروها كما يطيب لهم، وبهذه الطريقة تتوافر الخيرات، وتكثر المتاجرات، ولا سيما مع تدفق الآخرين بغية السكن في الأراضي المقدسة، ووقتذاك سوف تتدفق على سكان الأرض الحاجيات الضرورية بكثرة، ويلقون من وراء ذلك المنفعة، فهذا ما احتاط له في مدينة القدس بلدوين دي بورغ.

ولهذه الأسباب، ومع مرور الزمن، ولأن المكوس، ليست في نظر العامة إلاّ سرقة وسلب لابسة ثوباً قذراً، لايحل فرضها إلا في حال الضرورة القصوى، وبعد مداولات طويلة، وباعتدال كبير.

وهذا مختصر لما عـددناه مساوىء ينبغي تجنبها، ومحاسـن يتـوجب اتبـاعها حتى نمتلك أرض الميعـاد المقـدسـة بفائـدة وأمـان، وسـلام، واستمرار، وراحة، وليت ربنا يسوع المسيح يشفق على دموع وتوسلات الشعب المسيحي، فيهبه إياها، لعـزته ومجده، ولتحقيق الأمنية التي طالما انتظرتها الكنيسة المقـدسة، والذي«هو مع الأب والروح القـدس يمجد ويعبد، إله واحد»، آمين.

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

رحلات غربية
(١١٨٧ — ١٣٥٠)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء السابع والثلاثون   دمشق ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١ — بيد المزيف (حجاج مجهولون) ١١٨٧ م

٢ — أرنــول ١١٢٢٠م

٣ — بورتشارد ١٢٨٠ م

٤ — لودولــف ١٣٥٠ م

١

بيد المزيف(حجاج مجهولون) ١١٨٧ م

حجاج مجهولون

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

لم يتوقف الارتحال إلى فلسطين منذ انتشار المسيحية في العالم، وغالباً ما جاء الارتحال إليها لأسباب دينية، وازداد الاقبال على الحج إلى فلسطين بعد انتصار عبادة الايقونات، مع الارتحال لزيارة الآثار المقدسة، وقد رأى الفرنجة الذين شاركوا في الحروب الصليبية، أنهم أنفسهم حجاجاً، وليسوا غزاتاً.

ونتيجة لهذا قام عدد كبير من الحجاج بتدوين أخبار رحلاتهم، وتركز اهتمامهم على مدينة القدس، واهتموا بالأماكن الأخرى في فلسطين مثل بيت لحم، والخليل، وسبسطيه ونهر الأردن،وما دونه الرحالة من أوربا هام جداً، ووثائقي، أفسده فقط محاولات المطابقة مع أخبار العهد القديم.

ومن كتب الرحلات، يمكن التعرف إلى خطط القدس وأهم الكنائس والبيع فيها، والأسواق واختصاصاتهاوأصحابها، ومن هذه الكتب نرى أن القدس في القرن الصليبي الأول كانت —على الرغم من إبادة سكانها من قبل الحملة الأولى — عربية من جميع الجوانب، إنها تحت الاحتلال الفرنجي، وأن الفرنجة ظلوا دوماً يشعرون في قرارة أنفسهم أنهم غرباء، ولذلك لم يقاوموا صلاح الدين سنة ١١٨٧ م إلاّ قليلا، ونشدوا سلامتهم، وسلموا القدس إلى المحرر المسلم.

وصحيح أن مدينة القدس حظيت من كتابات الرحالة بالنصيب الأكبر، لكن الأوصاف التي وصلتنا عن بقية أجزاء فلسطين والشام الجنوبي هامة جداً من الجوانب السكانية الاجتماعية، والزراعيةوالمائيةوالاقتصادية.

وأقـدم في المجلد الحالي اثنتي عشرة رحلة تمت مـا بين ١١٨٧ — ١٣٥٠، أجملتها تحت أربعة عناوين، وهذه الرحـلات فيهـا مواد هامـة جـداً من الممكن ادراك قيمتهـا لدى التعـامل معهـا، وهناك في هذه الرحـلات مشكلة ضبط الأسماء، وتدقيـق المعلومـات حيث لا شك أن بعض الرحـالة نقل عن بعضهم الآخـر، فضـلاً عن هذا لم تكن ثقـافـة الرحـالـة كلهـا على مستـوى واحـد، بل تفـاوتت خـاصـة فيما يتعلق بمحتويات العهدين القـديم والجديد، وهنا نجد شيئاً كثيراً من التفاوت بمـواد الأوصـاف من حيث الحجم والـدقـة، وضبط الأسماء، لكن هذا لايقلل كثيراً من قيمـة المواد الأسـاسيـة وأهميتهـا للبـاحثين والقـراء المهتمين.

ويلفت الانتبـاه أن الرحـالة جميعاً على كثـرتهم، لم يشيروا إلى وجـود أحـد من اليهـود في فلسطين في القـرون: الثـاني عشر والثـالث والرابع عشر، ونستخلص من كل الرحـالة بأنهم شعـروا بأنفسهم غـرباء عن سكان فلسطين والشـام الجنوبي من عـرب مسلمين ومسيحيين، كما أنهم لم يشيروا إلى وجـود تناقضـات أو صراعات بين الفئات العـربيـة، وكما سلف بي القـول نظروا إليهـم نظرة واحـدة، وحملوا نحـوهم مشـاعـر واحـدة، فـالمسيحيين العـرب كـانوا في أبسط الحالات بالنسبـة إليهم هراقطة، أما المسلمين العـرب فكانوا بالنسبة إليهم غير مـؤمنين، وطبعاً الفوارق بين الهرطقة وانعدام الايمان ليست كبيرة.

وبرحلات هذا الجزء أكون قد قدمـت جل الرحلات المعروفة خلال قرني الحروب الصليبيـة مع نصف القرن الرابع عشر، والمتبقي لدي، هو ثلاث رحلات، اثنتـان قصيرتان نسبياً، وواحدة طويلة جـداً، جاءت في أربعـة أجـزاء، وهـي رحلة كتـاب عجـائب، وقـد حملت اسم فيلكس فابري، وقد أبدأ بتقديم نص هذه الرحلة بعد هذا الجزء مباشرة، أو بعد جـزء تاريخي، يحوي مـا نسب إلى متى البـاريسي، ذلك أنني مـا برحت

أسعى للحصول على نسخة من هذا الكتاب منذ ثلاث سنوات، وبذلت في سبيل ذلك جهوداً مضنية، أثمرت مؤخراً في بشائر بالحصول على صورة لأول طبعة لهذا الكتاب صدرت في منتصف القرن الماضي، وعلى طبعة جديدة صدرت عام ١٩٨٤، وطبعة أحدث، أعاد ناشروها النظر في عنوان الكتاب وحجمه ونسبته إلى مؤلفه.

وأعترف أن الحصول على المصدر مرهق مادياً ومعنوياً، لكن مع المثابرة والاخلاص يأتي التيسير من عند الله، ولولا تيسير الله وعونه ما كان بالامكان انجاز ما أنجز من مشروع هذه الموسوعة وتأمين مصادرها من مختلف أرجاء الأرض.

فلله الحمد دائماً وأبداً، ومنه أستمد العون والسداد، والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ٢٠ شعبان ١٤٢٠ هـ ـ ٢٨ تشرين ثاني ١٩٩٩ م

سهيل زكار

١ — حاج مجهول
(الشطر المبكر من القرن الحادي عشر)
هنا بداية وصف الأماكن المقدسة

١ — الذي هو من الأجزاء الغربية من العالم، ويرغب بالذهاب إلى القدس، عليه أن يديم توجهه نحو الشرق، من حيث تشرق الشمس، ولسوف يجد أماكن الصلوات في القدس كما هي موصوفة فيمايلي:

٢ — في القدس حجرة مغطاة بحجرواحد، حيث المكان الذي كتب فيه سليمان كتابه بالحكمة، وهناك أيضاً جرى سفك دم زكريا، فيما بين المعبد والمذبح، وليس بعيداً عن هذا المكان، توجد الصخرة، التي يقدم إليها اليهود في كل عام، فيدهنوها، وينوحون، ثم يعودون وهم ينوحون، وهناك بيت حزقيال، ملك اليهودية، الذي إليه منح الرب ثلاث مرات، إطالة عمره خمس سنوات، وهناك أيضاً بيت كيفاس، والعمود الذي ربط إليه المسيح، ومن ثم جلد، وعلى مقربة من باب نابلس(باب دمشق الآن) توجد قاعة محكمة بيلايطس، حيث جرى الحكم على المسيح من قبل كبار الكهنة، وليس بعيداً عن هناك توجد الجلجلة، أو مكان أكرا(الجمجمة) حيث جرى صلب المسيح ابن الرب، وحيث أيضاً دفن آدم، الذي هو الإنسان الأول، وحيث قدم إبراهيم ضحية إلى الرب، وعلى بعد رمية حجر طويلة من هناك، باتجاه الغرب، يوجد المكان الذي فيه دفن يوسف الرامي الجسد المقدس للمولى يسوع، وهناك كنيسة جميلة البناء، شيدت من قبل الامبراطور قسطنطين، ومن جبل أكرا، وعلى بعد ثلاثة عشر قدماً باتجاه الغرب، يوجد وسط العالم: وعلى جهة اليسار، يوجد السجن الذي يقال بأن المسيح قد سجن فيه، وعلى جهة اليمين(اليسار) يوجد الضريح، وبجواره تماماً، هناك دير

لاتيني مكرس للقديسة مريم العذراء، وقد بني حيث كـان بيتها يقوم، ويوجـد في هذا المكان نفسه مـذبح، قـائم فوق المكان الذي وقفت فيـه مـريم أم الرب، ومريـم كليفاس، ومـريم المجـدلية معهـا، وقفن يبكين وينحن، لأنهن رأين المولى فـوق الصليب، وهنا قال يسـوع لأمه«انتبهي أيها المرأة إلى ابنك»، وقال لحواريه:«انتبـه لأمي»، وعلى بعد رميتي سهم من هذا المكان، باتجاه الشرق، يوجد هيكل الرب، الذي كان قد بني من قبل سليمان، والذي جـرى تقـديم المسيح فيه من قبـل سمعان العـدل، فعلى جهة اليمين لهذا الهيكل، بنى سليمان هيكله، وبنى فيما بين الهيكلين رواقاً جميلاً بأعمدة رخامية، وإلى اليسار من هناك توجد بركة الضأن.

٣ — وعلى بعـد حـوالي الميل من هناك، بـاتجاه الشرق، من الممكن رؤية جبل الزيتون، حيث صلى الرب يسوع إلى أبيـه قائلاً:«أبي، إذا كان ذلك ممكناً» إلخ، وكتب دعاء الرب فوق صخرة، ومن هنا ك صعد إلى السماء، قائـلاً لحوارييه:«اذهبـوا، وعلموا جميع الأمم» إلخ، ويـوجد فيما بين هيكل الرب وجبل الزيتون، وادي شعفاط، حيث جرى دفن مريم العـذراء من قبل الحواريين، وهو الـوادي الذي سـوف يحكم فيـه الرب بين الناس يوم الدينونـة، وعلى مقـربة منه هناك قـرية اسمهـا جيسماني، وهناك، خلف بركة قدرون، توجد الحديقـةالتي جرت فيها خيانة يسوع من قبل يهوذا، وعلى مقـربة من هـذا المكان يوجـد ضريح النبي إشعيـا، وعلى بعد ميل من هناك توجـد قرية بيت عنيا، حيث أقـام المولى العازر بعـدما مضى على مـوته أربعة أيام، وفي المنطقـة نفسها، وعلى بعـد ثلاثة عشر أو ثمانيـة عشر ميـلاً على الطريق إلى أريحا، توجد شجـرة الجميـز، التي تسلقها زكريا علّه يرى المولى يسوع، وفي الجهة الأخرى، وعلى بعد ميل من أريحا، يوجـد نبع إيليـا، الذي تولى مبـاركتـه، ورش فيـه الملح، وعلى مسافة خمسة أميال من هناك يوجد نهر الأردن، حيث جرى تعميد الرب، وذلك على بعد ثمانية فـراسخ عن القدس، وليس بعيداً عن هناك

يوجد الجبل، الذي حمل منه إيليا إلى السماء.

٤ — وتستغرق الرحلة من الأردن إلى جبل سيناء ثمانية أيام، حيث تجلى الرب لموسى داخل العليقة وأعطاه الشريعة، ويوجد في هذا المكان إبريق ماء عظيم، يتدفق بالزيت بدون توقف، وعلى مسافة سفر ثلاثة أيام من القدس، يوجد جبل الطور، حيث تحول شكل الرب، ويقال إنه يوجد عند سفح هذا الجبل: الجليل وبحر طبرية، الذي ليس بحراً، بل بحيرة، يتدفق منها نهر الأردن.

٥ — وعلى جهة اليمين لمدينة القدس، وعلى بعد رميتي سهم، يقوم جبل صهيون، حيث بنيت فوقه كنيسة من قبل سليمان، وهناك تعشى المولى يسوع مع حوارييه، وهناك أيضاً أنزل عليهم الروح القدس، وهناك أيضاً انتقلت مريم العذراء من هذا العالم، وأسلمت الروح، وحمل الحواريون جسدها الأعظم قداسة، من هناك إلى وادي شعفاط، وعند سفح هذا الجبل توجد بركة نبع سليمان، التي يتدفق الماء منها وينبع من الأرض.

٦ — وليس بعيداً عن هناك توجد شكيم، حيث بحث يوسف عن إخوته عندما جاء من وادي الخليل، وتوجد هناك الأرض التي أعطاها يعقوب إلى ابنه يوسف، وهناك دفن جسده، وعلى بعد ميل من هناك تقوم شيكار Sichar، حيث تحادث الرب مع المرأة السامرية، وليس بعيداً عن هناك المكان الذي تصارع فيه يعقوب مع الملاك.

٧ — وعلى بعد أربعة أميال عن القدس، باتجاه الجنوب، تقوم بيت لحم، وفي بيت لحم كنيسة بنيت بأعمدة من الرخام، وذلك في المكان الذي ولد فيه المسيح، وليس بعيداً من هناك، وعلى جهة اليمين، يوجد معلف الرب، وعلى بعد اثني عشر ميلاً من هناك توجد قلعة إبراهيم،التي تدعى باسم قلعة تقوع حيث دفن إبراهيم نفسه، وإسحق،

ويعقـوب، مع زوجاتهم، ويوجـد على جهة اليسـار جبل يدعى -Dom inus Vidit ، حيث تحدث الرب مـع إبراهيم، وحيث أراد إبـراهيم أن يضحي بابنه اسحق.

٢ — حاج مجهول
(قرن ثاني عشر)

١ — الذين يذهبون عبر الطريق العـالي من عكا إلى المدينة المقدسة، يصلون إلى مدينة الناصرة، وعلى فـرسخين من هناك يوجد جبل الطور، حيث تحول شكل المسيح، وقـرب هذا المكان نفسـه تقوم مـدينة طبرية، التي يجاورها بحر الجليل، حيـث صنع الرب كثيراً من المعجزات، وعلى بعد حوالي الفرسخين فوقها توجد المائدة، حيث أشبع الرب خمسة آلاف رجل بخمسـة أرغفـة وسمكتين، ويأتي بعد ذلك مـدينة سبسطيـة، التي ينبغي احترامها، بسبب آثـار القديس يوحنا المعمدان، ويـذهب الانسان من هناك إلى البئر، حيث جلس الرب، عندما تحادث مع المرأة السامرية.

٢ — ويذهب الانسان من هناك إلى المدينة المقدسـة، فيدخلها، وأول مـا يدخل إلى كنيسة القـديس اسطفـان، وهي قـائمة فـوق المكان الذي رجم فيه، ومن هناك يذهب الانسـان إلى كنيسة الضريح المقدس، وأولاً إلى مكان الجمجمــة(أكــرا)، حيث عــانى المسيح وتألم، وهناك يقــوم الحجاج بعد تعبدهم له مع صلبـانهم، برمي صلبانهم على الأرض ثانية، إشارة إلى أنهم قد أكملوا تعهـدهم ووفوا بنذرهم، ويذهب الانسان من هناك إلى مذبح، من المعتقد أنه مبني فـوق قطعة من العمود، الذي ربط المسيح إليه وجلد، وهناك في الجوار، مكان منخفض، وجد فيه الصليب المقـدس، وهو عبـارة عن كهف تحت صخـرة معلقـة، والمذبح قـائم في الوسط، وهو مكرس للقـديسـة حنة، أمـا المذبح الموجـود على اليسـار فمكرس للقديس قرياكوس Quiriacus ، الذي كان اسمه أيضاً يهوذا،

وهو الذي أرى الصليب إلى الرجل الميت، ولدى رؤيته له، حدثت المعجزة فعاد إلى الحياة ثانية، واهتدى، وأقيم أسقفاً للقدس، وفي وسط شرفة الكهنة، هناك مكان يستحق احتراماً خاصاً، لأن المسيح، بعد إنزاله من على الصليب مدد هناك، وذلك قبل حمله إلى الضريح، ويوجد هنا مصباح دائم الاشتعال، أما المذبح العالي فمكرس إلى القديسة مريم، ويصل الانسان بعد هذا إلى الضريح المقدس، ولهذا الضريح مذبح موجود في جهة الجنوب(جهة الشمال)، وكنيسة جميلة، مكرسة للصليب المقدس، حيث جرى حفظ الصليب المقدس، وإلى جانب هذه الكنيسة هناك كنيسة أخرى، عائدة إلى السريان، يحتفظون هم بداخلها بصليب مقدس أيضاً، وفي نهاية هذه الكنيسة تقريباً، على الجانب الجنوبي(الشمالي) يوجد المكان الذي يدعى باسم«السجن»، حيث جرى سجن المسيح، في الوقت الذي جرى فيه إعداد مكان الصلب فوق الجبل، وتحت الأعمدة الخمسة للكنيسة جرى دفن الأربعين شهيداً، الذين نعرفهم من خلال عيدهم الذي يكون يوم الثامن من آذار، وعلى مقربة من مكان الجمجمة، يوجد مكان مغلق الباب، يقول القديس جيروم بأن آدم قد دفن فيه، ويقول بعضهم بأن آدم تلقى(من الصليب) في فمه نقاطاً من الدم، الذي سال نحو الأسفل، وبفعل ذلك قام من بين الأموات، ويوجد هناك ثلاث بيع صغيرة ملاصقة للكنيسة من جهة الجنوب، أقربها إلى الكنيسةمكرس للثالوث المقدس، أما أقصاها، وهي التي تطل على الطريق، فمكرسة للقديس جيمس الكبير، ويقال بأن الرب قد جلس في المكان الذي يقوم فيه المذبح الأوسط، وأن القديس يوحنا جلس على يمينه، والقديس جيمس على يساره، ولذلك تمنت أمهم ورجت أن يجلس أحدهم على يمينه، والآخر على يساره في ملكوته، ولقد قيل أيضاً بأن القديس يوحنا وقف فوق البقعة القائم عليها مذبحه، عندما أوكل المسيح إليه أمر العناية بأمه، ووقفت هذه العذراء الأعظم مباركة نفسها، تراقب آلام ابنها، فوق البقعة ، التي

يوجـد عليهـا المذبح العـالي، وخـارج الكنيسـة الكبيرة، وإلى جـانب الجمجمة، هناك بيعـة صغيرة، مكرسة لمريم المجـدلية، وهي قائمـة فوق المكان الذي وقفت فيه المريمات الثلاث، وقت آلام الصلب.

٣ — وتقوم كنيسة القديس يوحنا المعمدان في المواجهة تقريباً، وهي تقابل الكنيسـة الكبيرة، وهي جديرة بالاحترام والتشريـف لأمرين هما: بسبب آثارها الأكثر قداسة، وبسبب فضائلها المتفوقة الشهرة، حيث من الممكن أن يرى الانسـان هناك تنفيـذ ستة(سبعـة؟) أعمال مسـاعـدة ورحمة(هي إطعام الجائع، وسقي العطشان، وإلبـاس العريان، وإيواء من لا مأوى لـه، وعيـادة المريض، وزيارة السجين، ودفـن الموتى)، وعلى مقربة منهـا يوجد كنيسـة القديسة مـريم للاتين، المتميزة بسبب قـدمها، وللقيمة الجديرة بآثارها، ففيها يوجد رأس القديس فيليب، مع شيء من شعر القديسة مريم.

٤ — ويوجد على جبل صهيون المكان الذي ظهـر فيه الروح القدس للحـواريين على شكل ألسنة نارية، وأنـار قلوبهم، وهناك غسل(المسيح) أقدام حوارييه، وجعل توماس يلمس طرفه، وهناك تعشى المسيح أيضاً، وهناك المائدة نفسهـا التي تعشى عليها، وأمام البـاب يوجد المكان الذي يعـرف باسم:«مكان الروح القـدس»، وهناك على الجانب الجنوبي المكان الذي يعـرف باسـم الجليل، وهوحيث قـال:«إنني سـأذهب قبلكم إلى الجليل»، وفي مقابل هذا المكان وفـوقه، في الجانب الشمالي، يوجد المكان الذي فارقـت فيه مريم المبـاركة هذا العـالم، وفي نهاية هذا القسم، باتجاه الشرق، يوجـد مـذبح، جرى تحتـه دفن القـديسين: اسطفـان، وجماليل، وأبيباس، ونيقـوديموس، وخارج سـاحة الكنيسـة في جهة الشمال هناك كنيسـة مكرسـة إلى القـديس بطرس، وذلك فـوق المكان الذي قيل بأن المحاكمـة قد جـرت فيه، وفي خـارج المدينة توجد كنيسة تـدعى«كنيسة القـديس بطرس عند نداء الديـك»، وذلك فـوق المكان الذي بكى فيـه

القـديس بطرس بحـرقـة ومـرارة بعـد الانكار الثـالث للمسيح ونداء الديك، ذلك أنـه أخفى نفسـه هناك، وفي داخل الأســوار، هناك أيضـاً كنيسة هي «كنيسة القديس بطرس في الأغلال» ، وذلك في المكان الذي احتفظ به هيرود مربوطاً بسلسلتين.

٥— وفي عــودة الانســان إلى معبـد الرب، فـإن المكان الأول الذي يواجهه هو مكان الحضـور المقدس، وإلى جـواره يوجد المكان الذي نام فيـه يعقـوب ورأى السلم، وتصـارع مع الملاك، وأقـام صخـرة لتكون عموداً، ويوجد تحت السدة، في الجانب الجنـوبي، قبو منحوت بالصخر، وهو يعـرف باسم«مكان الاعتراف»، لأنـه هناك قـابل المسيح المرأة التي قـال لها:«ما من إنسـان قد أدانـك»إلخ، وعند رأس الهيكل توجد بيعـة القديس جيمس، القائمة فوق المكان الذي ألقي من عاليه، ومن ثم قتل بعصـا القصار، وكـان جيمس هذا هو ابن ألفاكـوس Alphacus ، وهو قد كان الأسقف الأول للقدس، وليس بعيداً عن هناك من الممكن رؤية الأبواب الذهبية، التي دخل منها الرب إلى القدس، عندما جاء من جبل الزيتون يركب على ظهر أتان، ووقتهـا صرخ الأطفال:«المجد لابن داود»، وتفتح هذه الأبـواب يوم أحـد السعف فقـط، وفي يوم تمجيـد الصليب المقدس، ويرى الانسان بعـد هذا المهد، والحمام، وقبر سمعان، في مكان يقـال بأن المسيح قـد سكـن فيـه مع سمعـان لمدة سنة ونصف السنة.

٦ — وعلى مقــربة من باب المدينة، الذي يطل على وادي شعفــاط، توجد كنيسـة القديسة حنة أم القـديسة مـريم، التي ولدتها هناك وربتها ورعتها عندما كانت تسكن هناك، وعلى مقـربة منها توجد بركة الضأن، التي لها خمسـة أعمدة، وهذا هو المكان الذي شكل فيـه خشب الصليب لمدة طويلة ممراً للذيـن ذهبـوا إلى البركـة، ومهما يكن الأمـر فإن الداوية يعرضـون بركة أخرى، يقولون بأنها بركـة الضأن، ويذهب الانسان من

هناك إلى وادي شعفـاط، حيث يوجد ضريح القـديسـة مريم، ويوجـد هنا، أمـام باب الدير مباشرة، مكـان يعرف باسم جيسماني، حيث خـانه يهوذا، وهناك صخرة قيـل بأنها استسلمت ولانت أمام ضغط أصـابعه، ويوجد في هذه البيعة نفسها أربعة أمـاكن منفصلة، حيث وجد حوارييه نيام، كل ثلاثـة في مكان، وفي خارج ساحـة الكنيسة، وعلى بعـد حوالي رميـة سهم، هناك كنيسـة مكرسـة للمخلص، بنيت فـوق المكان، حيث صلى ثلاث مرات، وبدأ تعرقه الدمـوي يتقاطر منه، وعلى مقربة من دير شعفاط تجري مياه نبع قدرون، ويوجد هناك في هذا المكان، حيث عاش النسـاك، كنيسـة مكرسـة للقـديس جيمس، ويوجـد عند نهاية وادي شعفاط حقل الدم، وهو الحقل الذي شري بمبلغ الثـلاثين قطعة فضية، لدفن الغرباء فيه، لأنه لا ينكر على أحد الدفن هناك.

٧ — ولدى صعود الحجـاج لجبل الزيتون يصلـون أولاً إلى الكنيسة التي تعـرف باسم كنيسة الصـلاة الربانية، لأنها تقـوم حيث تولى المسيح تعليم حوارييـه الصلاة الربانية، وهناك صخـرة تحت المذبح كتب عليها بإصبعـه شخصياً الصـلاة الربانيـة، ويلي هذه الكنيسـة كنيسـة القديسـة بليجيـا، ومـن الممكن رؤية مكان الصعـود إلى السماء في الكنيسـة التي بنيت فـوق قمـة الجبل، وعلى مقـربة منهـا تقـع قـرية بيت فـاجي(بيت الفك)، ويذهب الانسان من هناك إلى بيت عنيـا، ومن بيت عنيا يذهب الانسـان إلى نهر الأردن، وأولاً إلى أريحا، حيث توجد حـديقـة إبراهيم، ويجري هنا النهـر الذي تتـدفق ميـاهه من نبع إليـاس... في المكان الذي كان فيه اثني عشر بئراً وسبعين شجـرة نخيل، وعندما يصل الانسان إلى هناك، يجد على جهة اليسـار، مكاناً جرى تحصينه من قبل رجـال الدين، وهو المكان الذي يعـرف باسم القـرنطل، لأن المسيـح صـام هناك لمدة أربعين يوماً، ويوجد عند قمة الجبل الذي حاول الشيطان أن يغويه فيه، ومن هناك يذهب الانسان إلى الأردن.

٨ — وهناك أيضاً مكان خارج مدينة القدس، يدعى«مقبرة الأسد»، حيث جرى دفن عدد كبير من القديسين، وبعد هذا هناك دير للجورجيين يدعى(عند الجذل» أو«عند بقية الجذع»، لأنه كما يحكى، جرى قطع خشبة الصليب المقدس في ذلك المكان، ويقوم المذبح حيث كان الجذل ، ويوجد على الطريق الذي يقود إلى بيت لحم قبر راحيل، والمكان الذي يبجل فيه إلياس، وهناك كنيسةمكرسة له قد بنيت هناك، وهناك المكان الذي ولد فيه الرب.... وهناك دفن جيروم، وهناك آثار كثيرة للأبرياء المقدسين، وليس بعيداً عن هناك يوجد المكان الذي يدعى باسم«المجد في الأعالي»، لأنه عندما ولد الرب سمعت الملائكة وهي تغني«المجد للرب في الأعالي»، ولدى ذهاب الانسان نحو القديس إبراهيم في الخليل يواجه جذور البلوطة، بلوطة(جبل) ممرا، ويوجد في هذا المكان أيضاً كنيسة مكرسة للثالوث المقدس، وفي الخليل يوجد المكان الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل، وهناك أيضاً الجبل الذي قدم عليه كل واحد منهما تقدمة إلى الرب فيها أول ثماره، وكذلك من الممكن رؤية الأرض التي صُنع منها آدم، وفي العودة لابد للانسان من أن يمر من خلال كنيسة القديس يوحنا المعمدان، وذلك فوق البقعة التي بشر فيها بالقفار، بالتعميد والتوبة، ويوجد في ذلك المكان نبع ماء لايتوقف عن التدفق، وهو قد اندفع من الأرض أثناء صلاته، وقت القيام بتبشيره، ويمضي الانسان من هناك إلى القديس زكريا، أي إلى المكان الذي اعتاد على العيش فيه مع القديسة ايزابل، وذلك عندما كان يؤدي واجبه ككاهن، وفي ذلك المكان قامت مريم المباركة بتحية ايزابل، فقفز الطفل وتحرك داخل رحمها، ويذهب الانسان من هناك من قلعة تدعى عمواس إلى المدينة المقدسة.

٩ — وعلى مقربة من المدينة يوجد موقع صهيون، حيث يقوم الآن دير إغريقي، وعلى جهة اليسار، على مقربة من جبل الزيتون هناك دير

للسريان، وفي الوادي فيما بين جبـل الزيتــون وجبل صهيــون...، ومن الممكن للانسان أن يرى من على جبل الزيتون البحيرة التي تدعى باسم البحر الميت، حيث دفنت المدن الأربع، أي: سدوم، وعامورة، وبقيتهم، وتم ابتلاعها، ويدخل الأردن إلى البحيرة، وهناك يضيع.

١٠ — ويوجــد في المدينة هناك دير لليعــاقبـة، حيث يوجــد رأس القـديس جيمس، وذراع القـديس اسطفان، اللذان كـانا أول الشهـداء، ويمتلك اليعاقبـة أيضاً كنيسة القـديسة مـريم المجدلية، حيث يعـرضون هناك بعضـاً من شعـرها، وبالنسبـة لكنيسة الضريح المقـدس إن البـاب الذي يطل على البيعة ملك للسريان، حيث يحتفظون بالصليب المقدس، وفي ذلك الباب بالذات وقفت القديسة مريم المصرية، ولم يكن بإمكانها الدخول إلاّ بعد توبة حقيقية.

٣ — حاج مجهول

(القرن الثاني عشر)

هذا هو الطريق إلى الأرض المقدسة

١ — يعبر الانسان البحر أولاً من ميناء برنديزي، وبرنديزي هي مدينة في مملكة أبوليا، وبعد سفر ثلاثة أيام، وثلاث ليال يصل الانسان إلى مدينة كلارنس Clarence التي تقوم في جزيرة رومانيا، ويوجد هناك خمرة صافية ورائعة، وهضاب معشوشبة، ووفرة من الهواء العليل، ويوجد في تلك الجزيرة مائة وثلاث وعشرين مدينة جيدة، ونساء جميلات،ويرتحل الانسان من كلارنس مسافة مائة ميل في البحر إلى قلعة مدينة ثورون Thoron حيث هناك جزيرة جيدة، وكثيراً من البلدات، والحدائق.

٢ — ويمضي الانسان من ثورون بوساطة البحر إلى مدينة الخندق[في كريت]، التي هي جزيرة يمتلكها الاغريق، وهي تبعد عن ثورون مسافة ثلاثمائة ميل، ويوجد في هذه الجزيرة اثني عشرة مدينة رائعة، وكروم جيدة، وأشجار مثمرة تحمل صمغاً ثميناً، ومختلف أنواع الأعشاب الطبية، والعقاقير العطرية وكثيراً من الجواهر الثمينة، والثياب الفاخرة، ويسافر الانسان من الخندق بوساطة البحرمسافة ستمائة ميل إلى قبرص، التي هي مدينة فوق جبل مرتفع جداً، مع جزيرة صغيرة فيها تسع مدن، وكروم جيدة، ونباتات متنوعة، ويمضي الانسان من قبرص بوساطة البحر، ويسافر مسافة مائة ميل إلى ميناء مدينة بافا Baf-fa ،التي تمتلك السلطة على أكثر من مائة واثنتي عشرة جزيرة في البحر، ويوجد هناك كروم رائعة، وأعشاب عطرية، وأحجار ثمينة، ومختلف الأنواع من البضائع التجارية، والرجال الحرفيين البارعين

والنسـاء الجميـلات، البارعـات في شغل الابرة، والتقيـات المخلصـات جـداً، وبشر في هذا المكان القديس مـرقص الانجيلي، وعمل كثيراً من المعجـزات، زد على هذا تستغرق الرحلة إلى بافـا Bapha (كذا) إلى ليماتزو Lymatzu(ليماسـول) مـدة يومين براً، التـي هي مـدينة مقـر طائفـة فـرسان (الاسبتـارية) القـديس يوحنا المعمـدان(كـذا والصحيح يوحنا المعطاء) وأيضـاً مـركـزاً لفرسـان الداوية(١)، وكـذلك تستغـرق الرحلة من ليماسـول إلى فيماغوستـا يومـاً واحـداً بالبحر، ويوجـد هناك مركز طائفـة فرسان القديس ألعـازر، والروح القدس، ويذهب الانسان أيضـاً من نيقوسيـا، ويرتحل بحـراً مسافـة مـائة ميل إلى مـدينة قبرص، ويوجد في تلك الجزيرة مائة وثلاثين مـدينة، مع قلاع جيدة، ونبيذ حلو رائع، ورجال عليهـم مسحة من الجمال والرشـاقة، وهم أقويـاء ورجال شجعان، وهي مملكة عظيمة، وعلى درجـة كبيرة من الثراء، وصنع هناك القـديـس باتريك Patrick كثيراً من المعجـزات خـلال حيـاته، وهناك مـدفون أيضـاً القـديس يوحنا الذي ذهب مع المسيح إلى صلبـه، ويذهب الانسـان أيضاً من جـزيرة قبرص إلى قلعـة أساريمـوم -Asar imum (؟)، ويرتحل بوسـاطة البحر نحـو مملكة أرمينيـا، هذا ويبلغ محيط منطقة قبرص كلها ستمائة ميل.

٣ — وإذا ما رغب الانسـان بالسفر أبعـد نحو مدينة القـدس، عليه أن يغادر ميناء مدينـة فاموم Phamum (فيماغوستا؟)، وأن يرتحل بوسـاطة البحر مسـافة ثلاثمائـة ميل إلى مـدينة يافا، فهناك بداية البـلاد

١ — يفيـد هذا أن هذه الرحلة قـد كتبت بعد طـرد الصليبيين من الأرض المقدسـة، أو كما يرى بعض الكتـاب، كـان ذلك أيام رتشـارد قلب الأسـد، الذي احتـل قبرص لدى قـدومـه للمشاركـة في الحملة الثالثة، ذلك أنه باع هذه الجزيرة إلى طائفـة فرسان الداوية، ثم أعـاد بيعها إلى غي لوزغنان، ملك القدس، الذي وقع بالأسر أيام حطين، ثم أطلق سراحـه صلاح الدين، وحرره من الأسر.

الأساسية، أي أن تقول أرض الميعاد، ويسافر الانسان من يافا إلى القدس براً، فيمر بالرملة، التي تبعد مسافة اثني عشر ميلاً، وهي مدينة جميلة.

٤ — وكذلك إن المسافة من الرملة إلى القدس — المدينة المقدسة — هي ثمانية وثلاثين ميلاً، وذلك عبر البر، ويوجد في القدس ضريح المسيح، وهناك كنيسة عظيمة مستديرة، لها ثلاثة أبواب فائقة الجمال من الرخام، ويوجد في هذه الكنيسة الآن موضع الجمجمة، وهي صخرة عظيمة يبلغ طولها طول رجل، ويوجد في هذه الصخرة فتحة، قيل بأنها هي وسط الأرض، وفي هذه الفتحة كان صليب الرب قد وضع، وقد دفن المسيح بجوار الجمجمة، والصخرة التي وضعت على فم قبره هي صخرة كبيرة حمراء، ويوجد فوق ضريح الرب مصباح دائم الاشتعال والإضاءة، وهو مزين بشكل رائع، ويشتعل من قبل نفسه كل سنة في الساعة التاسعة من يوم الجمعة الحزينة، ويشتعل من قبل نفسه ثانية يوم عيد الفصح، في ساعة قيام المسيح، ويقال بأن هذا المصباح قد وضعه هناك، تشريفاً للضريح المقدس، كل من مرثا مع أخيها ألعازر.

٥ — ومن القدس أيضاً مسافة سفر يوم واحد، أو أربعة أميال، إلى مدينة بيت لحم، وكان المسيح قد ولد في بيت لحم، لكن خارج المدينة، وقد بني في ذلك المكان كنيسة، جرى تكريسها للعذراء الرائعة، وهذه الكنيسة موجودة الآن داخل المدينة، ويوضع في هذه الكنيسة الذين تلبسهم الشيطان، وجميع الذين وقعوا مرضى، حيث يحظون بالشفاء أمام أعين الناس جميعاً، كما ويتم صنع عدد آخر من المعجزات هناك يومياً، فضلاً عن هذا، يحدث سنوياً في منتصف الليل، وفي الساعة التي ولد فيها المسيح، أن تقوم جميع الأشجار الموجودة حول مدينة بيت لحم بطأطأة أغصانها وانحنائها نحو الأرض باتجاه المكان الذي ولد فيه المسيح، وعندما تشرق الشمس تقوم برفعهم بشكل تدريجي، وتعيدهم

إلى وضعهم الطبيعي ثانية.

٦ — وكـذلك تحتـاج الرحلة من بيت لحم إلى نهر الأردن، إلى سفـر يوم واحـد ، وذلـك إلى حيث جـرى تعميـد المسيح من قبـل يوحنا، وكذلك تستغرق الرحلة من الأردن ميـلاً واحداً..... إلى جبل الزيتون، وبين جبل الزيتـون وجبل صهيـون، وادي شعفــاط، وهو مكان فـائق الجمال.

٧ — وكذلك تستغـرق الرحلة من القدس إلى النـاصرة مدة يومين، وفي الناصرة بشر الملاك جبرائيل العـذراء مـريم بالمسيح، ويـوجـد هنا أيضـاً كنيسة جميلة تدعى كنيسـة البشارة إلى مـريم ، مبنية هناك، وفيهـا جرى صنع عـدد كبير من المعجزات، وما برحت هذه المعجـزات تظهر هناك حتى في هذه الأيام.

٨ — ومثل هذا يوجـد في وادي شعفــاط كنيسـة عظيمـة بنيت من الحجـارة، يوجد فيهـا ضريح المعبـودة العذراء مـريم، وكـذلك مذبحـاً عاليـاً، منحوتاً كله من صخـرة واحدة، حيث يقال بأنـه قد صنع بأيدي الملائكة، وفي تلك الكنيسـة رائحـة قديمـة لا مثيل لها بالطيبـة، علماً أنه ليس بإمكان جميع الرجـال شمهـا، بل يستطيع ذلـك فقط العـذراوات المخلصات والتقيـات، ولقد قيل يوجـد في هذه الكنيسة غفـران عظيم، يمنح لكل واحـد مـؤمن بالمسيحيـة، سـوف يأتي إلى هناك أثناء حجـه، وذلك في يوم عيد رفع العذراء الرائعة، على أن يكون قد اعترف وأعلن التـوبة من جميع ذنوبه، يضـاف إلى هذا هو سـوف يحلل من ذنوبه ومن العقوبة التي يستحقها بسببها.

٩ — أيضـاً تستغرق الرحلة من الناصرة إلى مـدينة أريحا مدة خمسـة أيام، وأريحا مكان جميل، فيـه وفـرة مـن الكروم، والتربة هناك خصبـة، وهناك أعـاد الرب البصر إلى عيني رجل أعمى كان يصرخ على جـانب

الطريق، وبني على هـذه البقعـة كنيسـة تـدعى باسم كنيســة معجـزات المسيح.

١٠ — وأيضـاً تستغـرق الرحلة من أريحا إلى مـدينة السامـرة أربعـة أيام، وهناك يوجـد جب يعقـوب، وإلى جـانـب هذا الجب حـدث أن عطش الرب وهو على طريقه، فطلب الماء من امرأة كانت مذنبة.

وكذلك من السامرة...

٤ — حاج مجهول
(ليس أبكر من القرن الثاني عشر)

١ — يصل الانسـان على الطريق الأقصر من فيماغوستـا إلى الأرض المقدسـة،في: اليوم الثالث إلى عكا، وإلى يافـا في ثلاثة أيام وثلاث ليال، وتقع عكا في منطقـة أدنى، ويذهب الانسان أول مـا يذهب من قبرص عبر البحر إلى مدينة يافا، في خـلال ثلاثة أيام وثلاث ليال، والمسافة من يافا إلى الرملة ثلاثة أميال ألمانية.

٢ — ويستغرق السفرأيضاً من الرملة إلى مدينة القدس المقدسة يوماً واحداً، وقد بنيت مدينة القدس فـوق جبل صهيون، ويوجد في القدس الضريح المقـدس للرب، كما ويوجـد خــارج المدينة ثلاثة أمـاكن، صلى فيهم المسيح للرب، وهناك مكان مرئي هناك، تحت جبل الزيتون نفسه، حيث جلس حـواريوه وهم نـائمين نومـاً عميقـاً، كما يمكن هناك رؤية المكان الذي اعتقل فيـه المسيح داخل الحديقـة، كما يمكن أن يرى هناك بيت حنة، الذي جلب إليه المسيح أولاً، وهو مـوجود داخل المدينة، كما يوجد هناك بيت كيفاس، كما وهناك أيضـاً بيت بيلايطس، وكذلك بيت هيرود، وأيضاً هناك المكـان الذي جرى فيه جلد الرب، وكـذلك المكان الذي وجد فيه مجرماً وحكم عليـه بالاعدام، يضاف إلى هذا حمل الرب صليبه من خـلال الباب الحديدي، عندمـا ذهب إلى موته، وهنـاك أيضاً المكان الذي قابلت فيه العذراء الأم ابنهـا، ولم تكد تعرفه بسبب الاعياء الشـديد والاضطراب، ويوجـد هنـاك الخمس عشرة درجـة التي مضى عليهـا الرب إلى مـوضع الجمجمـة، ويوجـد هناك أيضــاً المكان الذي صلب فيــه، والمكان الذي ثبت فيــه الصليب في الصخــرة، كما وهناك المكان الذي مُـدد فيه الرب بعـد إنزاله من على الصليب، وهناك أيضـاً

المكان الذي لفّ فيه الرب بقماش كتاني جيد، ومن ثم مدد في الضريح الأكثر قداسة، وهناك أيضاً المكان الذي ظهر فيه الرب أولاً إلى مريم المجدلية، وكان ذلك بعد قيامته، وهناك أيضاً المكان الذي وجدت فيه القديسة حنة(هيلانة) الصليب المقدس للرب، وأيضاً هناك المكان الذي مدد فيه صليب الرب، فوق رجل ميت فعاد إلى الحياة من جديد.

٣ — وهناك أيضاً المكان الذي ظهر فيه الرب لحوارييه، عندما كانوا جالسين فوق جبل صهيون في مكان منعزل والأبواب مغلقة عليهم، وكان ذلك بعد القيامة، ويوجد أيضاً فوق ذلك الجبل نفسه المكان الذي حدث فيه أن وضع توماس إصبعه على جنب المخلص، ويوجد على ذلك الجبل نفسه المكان الذي أرسل الرب فيه وأنزل الروح القدس على حوارييه، ويوجد أيضاً على ذلك الجبل نفسه المكان الذي تعشى فيه الرب مع حوارييه يوم خميس الغسل، وقد دفن على ذلك الجبل نفسه الملك داود، كما يوجد على ذلك الجبل نفسه بيت القديسة مريم، الذي عاشت فيه بعد قيامة ابنها المحبوب، وهناك أيضاً المكان الذي مرضت فيه تلك العذراء الممجدة نفسها وماتت.

٤ — ويوجد هناك أيضاً بيت القديسة حنة أم(جدة) الرب حيث هناك حملت بالعذراء الرائعة، وهناك أيضاًبيت سمعان المجذوم، حيث غفر لمريم المجدلية ذنوبها الكثيرة، وأيضاً هناك التماثيل الأربعة التي تعرقت دماً، وما زالت تفعل ذلك حتى هذا اليوم، وذلك تعاطفاً مع الرب، وأيضاً دخل الرب إلى المدينة يوم أحد السعف من خلال الباب الذهبي.

٥ — وهناك أيضاً خارج المدينة وادي شعفاط، حيث يوجد فيه ضريح مريم العذراء، وهناك أيضاً بركة سليمان، التي استحم فيها الرجل الذي ولد أعمى، وهو الذي رد الرب البصر إليه، كذلك يوجد في داخل المدينة هيكل سليمان، وبركة الضأن، كما أنه يوجد خارج

المدينة حقل الفاخوري، أي حقل الدم.

٦ — كـذلك ظهر الرب على جبـل الزيتون لحوارييـه، بعـد قيامتـه، وأيضاً صعد الرب من على ذلك الجبل نفســه إلى السماء، ويوجد كذلك في ذلك المكان نفسه ضريح القديسة مريم المصرية.

٧ — وهناك أيضـاً يافا، التي ولد فيهـا كل من الرسولين المقـدسين: جيمس، ويوحنا الانجيلي، وهي تبعـد مسافة رحلة يـومين عن القدس، باتجاه الشمال.

٨ — وهناك أيضـــاً جبل القــرنطل، حيث صـــام الرب، وحـــاول الشيطان إغواءه، وهو يبعد عن القدس مسافـة خمسة أميال ألمانية وافية، ويوجـد في ذلك المكان نفسه أيضـاً، حديقـة إبراهيم، وذلك حيث دفن هذا النبي المقـدس، وهناك نهر الأردن حيـث جـرى تعميـد الرب فيـه، وهو على بعد حوالي الاثني عشر ميلاً ألمانياً عن القدس.

٩ — وهناك أيضاً الناصرة، التي جرى التبشير بالرب فيها، وفيها تمّ الحمل به، وهي تبعـد حوالي سفـر ثلاثة أيام عن القدس، وهناك أيضـاً عكا، حيث يوجـد حقل الرب، وهي تبعـد عن القـدس مسـافـة رحلة ثلاثة أيام، وذلك على الطريق نفسه إلى الناصرة.

١٠ — وهناك أيضـاً وادي الخليل، حيث يقـال بأن آدم دفن فيـه... على ميل واحد عن القدس، والخليل أبعد بأربعة أميال.

١١ — وهناك أيضاً بيـت عنيا، حيث أقام الـرب ألعازر من الموت، وهي على مسـافة خمس عشرة غلوة عن القـدس، وعلى بعد رميـة حجر من أمـام واجهـة قلعة بيت عنيـا، يوجـد المكان الذي التقت فيـه مـرثا ومـريم بالرب، لترجـوانـه لإقـامـة ألعـازر من الموت، ويوجـد في بيت لحم(بيت عنيا) بيت سمعان، الذي دعـا إليه الرب، وهناك أيضاً البيت، الذي جــرى استضــافــة الرب به، وعمل هــذا البيت كنيســة تشريفــاً

للأختين، وهناك أيضاً ليس بعيداً عن ذلك البيت نفسه تقوم بيعة مبنية من الرخام، فوق البقعة التي قام ألعازر فيها.

١٢ — وقد رأينا الممر المنحدر من جبل الزيتون حيث صرخ أطفال العبرانيين وهتفوا إلى الرب قائلين: «المجد في الأعالي»، وحيث بكى الرب على المدينة، ويذهب الانسان من هناك ويسير بين مكان صلاة يسوع، والمكان الذي اسمه جيسماني، حيث جرى اعتقاله، وأخذه إلى الجلجلة.

١٣ — ويحمي وادي شعفاط، الذي يوجد فيه ضريح سيدتنا، المدينة من جانب واحد، ويوجد في ذلك المكان الآن كنيسة، غير أنها قائمة على عمق ستين درجة تحت الأرض، وهناك بيعة الضريح، وذلك أمام حجر المذبح، وتحت هذه البيعة، يوجد نهر قدرون الصغير، وهي كنيسة رطبة، وليس بعيداً عن هناك، على بعد خمسين قدماً من باب تلك البيعة، يوجد باب كنيسة أخرى، تدعى جيسماني.

١٤ — وعند سفح جبل صهيون هناك نبع سليمان، يليه بركة استحمام سليمان، وعلى رمية حجر من هذين الموضعين هناك حقل الدم، وهو مقبرة الغرباء، التي يوجد فيها كثيراً من القبور المشهورة، وهناك جرى دفن اشعيا، وكان قد شطر إلى نصفين قرب نبع سليمان، ويقوم ضريحه على مسافة أبعد قليلاً من رمية حجر من نبع سليمان هذا.

١٥ — وكنيسة الضريح المقدس، ولها التفوق والمكانة السامية، قطرها أربعة وسبعين قدماً بين الأعمدة، دون أن نحسب النتوءات التي طولها اثنتين وثلاثين قدماً على طول الدائرة، وقائمة خلف الجدار الخارجي للكنيسة، ويوجد فوق ضريح الرب، القائم في منتصف الكنيسة، فتحة مستديرة، والضريح مغلف من كل مكان في الخارج بالرخام، لكنه من الداخل صخرة عارية، مثلما كانت أيام محنة الآلام.

ويدخل الانســـان إلى الضريح من خـــلال باب منخفض وصغير، موجود على الجانب الشرقي، والقبر موجود في الضريح على جهة اليمين بالنسبـة إلى الانســـان لدى دخـوله، وذلك في مـــواجهـة الجدار، وهو معمـول من الرخام الرمـادي، وطوله ثمانية أقـدام، وهو مغلق من جميع الجوانب، ولا يمكن لضـوء النهـار أن يدخـل إليـه، لأنه لا يوجـد فيـه نافذة، لكن هناك فيه تسعة مصـابيح معلقة، وهي تتولى إضاءة الضريح، وهناك كهف آخـــر، قبل أن يأتي الانســان إلى كهـف الرب، وله الطول نفسه والعرض، والترتيبات نفسها في الداخل وفي الخارج، وعندما يخرج الانسان من هذين الكهفين، يبدوان له من الخارج، وكأنهما كهف واحد، لكن عندمـا تدخل تـرى أنهما منفصـلان أحـدهما عن الآخـر، بوسـاطة جدار، ويدخل الانسان في البـداية إلى الأول، ثم يدخل إلى الآخر الذي هو الضريح، وإلى الكهف الخارجـي دخلت النسـوة، عندمــا قلن:«من يدحرج الصخرة ويزيحها لنا»، وهذا ما حدث، ودحرجت هذه الصخرة وأزيحت حتى باب الكهف الداخلي، وإلى هذا اليوم جزء كبير منها ممدد أمام البـاب نفسه، وحمل الجزء الآخـر إلى جبل صهيون ليكون مـذبحاً، ويبعد جبـل الجمجمة مائـة وثمانية أقـدام من الضريح، ومكان الصليب عبـارة عن فتحـة عمقهـا شبريـن، وعـرضهـا الشيء نفسـه، ويمكن أن تستوعب رأس إنسان.

٥(١) حاج مجهول

(وفقاً لـ و.نيومان W.Neumann الرحلة المعروضة في٥(١) و٥(٢) هي أقدم من سنة ١١٨٧، ولكن الكتاب لم يكتب قبل سنة ١١٩٨، أو قبل بداية القرن الثالث عشر، أي أبكر قليلاً من ثيتمار Theietmar).

١ — ذهبت من عكا إلى حيفا، القائمة عند سفح جبل الكرمل، حيث عاش النبي إيليا، ومضيت من هناك إلى قيسارية، ومن ثم إلى أرسوف، ومن هناك إلى يافا، ومنها إلى الرملة، ومن هناك إلى بيت نوبة، ومنها إلى القدس، حيث يدخلها الانسان من باب اسطفان، حيث جرى رجمه بالحجارة.

٢ — ويدخل الانسان من هناك إلى ضريح الرب، حيث هناك دائرة، قال الرب عنها بأنها وسط العالم، ويقع على يمين السدة جبل أكرا(الجمجمة) حيث تألم الرب وعانى فوق الصليب، ودون ذلك الجلجلة، حيث شق دم الرب الصخرة، وسقط فوق رأس آدم، وقبيل موقع الجلجلة كان ملوك القدس قد دفنوا، وخلف(قبر) المذبح العالي هناك عمود ربط إليه الرب، وجلد، وإلى جوار ذلك، بعد أن ينزل الانسان أربعين درجة، هناك المكان الذي وجدت فيه القديسة حنة(هيلانة) الصليب المقدس، وعلى جهة اليمين من السدة هناك سجن الرب وسلسلته، وعند المدخل إلى الضريح المقدس، وبعد النزول أربعين درجة، هناك بيعة للاغريق، فيها تمثال لمريم العذراء المباركة، وهو الذي تكلم مع القديسة مريم المصرية، وحولها إلى المسيحية، وعلى مقربة من ذلك المكان هناك طريقاً واحداً إلى بيعة السجن المقدس، وفوق هناك، في مقابل الضريح المقدس، في جهة الجنوب، هناك مشفى القديس

يوحنا، وإلى جانبه من جهة اليمين، هناك دير للراهبات. وبجوار هذا هناك دير آخر، يدعى دير القديسة مريم للاتين: ففي هذا المكان مزقت مريم المباركة مع المريمتين الأخرتين شعورهن، عندما كان الرب يموت فوق الصليب.

٣ — وعلى رميتي سهم من هذا المكان، هناك هيكل الرب، الذي يمتلك أربعة مداخل، واثنين وعشرين باباً، وفي وسط هذا المعبد هناك صخرة عظيمة مقدسة، فهناك جرى تقديمه(في الهيكل)، وهنا من الممكن رؤية آثار طبعات قدم يعقوب، وهنا رأى يعقوب الملائكة يصعدون وينزلون، وهنا قدم إبراهيم أضحية إلى الرب عن ابنه اسحق، وتحت الصخرة المكان الذي يدعى باسم قدس الأقداس، حيث كتب الرب باصبعه فوق الأرض، وحيث غفر للمرأة ذنوبها، وهي التي اعتقلت لممارستها البغاء، ويوجد على جهة اليمين المكان الذي ظهر فيه الملاك للنبي زكريا، ويدعى الباب الذي يطل نحو الغرب باسم الباب الجميل، والذي يطل نحو الشرق باسم باب الفردوس، وهو الذي تكلم النبي عنه بقوله:«رأيت ماءاً»[حزقيال:٤٧ / ١].الخ.

٤ — وعلى الطريق خروجاً، من قرب الساحة الداخلية للهيكل، توجد بركة الضأن، التي نزل إلى مائها ملاك الرب عدة مرات، وعلى مقربة من هذا المكان توجد كنيسة القديسة حنة وضريحها، وبركة ضأن ثانية، وفي طريق صعود الانسان نحو الضريح هناك قاعة قضاء بيلايطس التي وقفت في مقابلها العذراء المباركة، في مكان خفي في الشارع، وقفت تبكي، وهي تنظر ما الذي سيحصل لابنها.

٥ — وفي عودة نحو الهيكل، فإن الباب الذي يطل نحو الشرق، يدعى باب القدس، وعلى طول هذا الممر من الممكن رؤية طبعات حافر الأتان التي امتطاها الرب، ودون ذلك هناك الأبواب الذهبية، ويوجد أمام هيكل الرب، من جهة الجنوب هيكل سليمان، وهناك عند زاوية

المدينةعمود الرب، وحمّامه.

٦ — ويوجد على مقربة من برج داود بيعة هي ملك للاغريق، حيث تضم آثار القديسين:يوحنا كريسوستوم Chrysostom ، وديمتريوس، ومارتن، وإلى جوار هذه البيعة بيعة هي ملك للأرمن، حيث جرى قطع رأس القديس جيمس بن زبداي.

٧ — ومن هناك يتخذ الانسان طريقه إلى جبل صهيون، ففي الكنيسة الموجودة في هذا المكان انتقلت العذراء المباركة من هذا العالم، وهناك بيعة فوق المكان الذي حكم فيه على الرب، وجلد، وتوج بتاج من شوك، وكان هذا فيما مضى بيت كيفاس وقاعة القضاء، وفوق الكنيسة العظمى العائدة لجبل صهيون هناك بيعة الروح القدس، التي نزلت على الحواريين في يوم عيد الحصاد، ويقوم المذبح فوق البقعة التي تعشى الرب فيها مع حوارييه، وفي الأسفل يوجد المكان الذي غسل الرب فيه أقدام حوارييه، وإلى هذا المكان قدم الرب إلى حوارييه، بينما كانوا جالسين داخل باب مغلق عليهم، وقال لهم«سلام لكم».

٨ — ويوجد في الوادي عند سفح جبل صهيون بيعة تعرف باسم«الجليلية» وهي قائمة فوق المكان الذي كان القديس بطرس فيه عندما صاح الديك، وبجوارها هناك بركة استحمام سليمان، حيث أعاد الرب البصر إلى رجل كان أعمى منذ ولادته، وفي هذا المكان جرى دفن النبي إشعيا، وخلف بركة استحمام سليمان يوجد حقل الدم، وهو مكان دفن الغرباء.

٩ — ويجري دون الباب الذهبي نهر قدرون الصغير، حيث التقط داود خمس حجرات، وقتل جالوت بهن، وعلى مقربة منه مكان شعفاط وضريح مريم العذراء المباركة، الذي رفعت منه إلى السماء، وعلى مقربة من هذا المكان توجد جيسماني، حيث جرى اعتقال الرب، وهناك

يمكن رؤية آثار أصابعه فوق الجدار، وعلى بعد رمية حجر تقوم كنيسة المخلص، حيث صلى لأبيه، وكان عرقه يتصبب مثل... وفي أسفل وهو حاد.... دفن الملك شعفاط، ولهذا دعي المكان باسم وادي شعفاط، ويقوم إلى جانب هذا الوادي جبل الزيتون، الذي صعد الرب منه إلى السماء، وهناك صخرة من الممكن أن يرى عليها آثار قدميه حتى هذا اليوم، وعلى مقربة منها بيعة للاغريق فيها يستريح جسد القديسة بيليجيا، وهناك أيضاً بيعة أخرى قائمة فوق المكان الذي أدى الرب فيه الصلاة الربانية.

١٠ — وهناك مسافة ميل واحد من جبل الزيتون إلى بيت عنيا، حيث أقام الرب ألعازر من الموت، وغفر لمريم ذنوبها، ومن هناك مسافة اثني عشر ميلاً إلى القرنطل، حيث صام الرب لمدة أربعين يوماً وأغوي من قبل الشيطان، وعند سفح الجبل توجد حديقة إبراهيم، وتقوم هذه قرب أريحا، التي تبعد أربعة أميال عن نهر الأردن، ومن هناك إلى سيناء رحلة تستغرق سفر ثمانية أيام.

١١ — ويقوم دير القديس إلياس على بعد ميلين إلى الجنوب من القدس، وعلى مقربة منه يقوم «حقل الزهور»، وهناك إلى جانب الطريق قبر راحيل، وعلى بعد ميل واحد من ذلك المكان توجد بيت لحم، وعلى جهة اليمين من السدة هناك بئر، يحكى بأن نجماً قد سقط فيه، وعلى جهة اليسار هناك[قبور] الأبرياء المقدسين، وتحت الحرم الداخلي، يوجد ضريح القديس جيروم، والمسافة من هناك إلى المكان الذي أقام فيه الرعاة خلال الليل، مسافة ميلين، وحيث الملائكة غنت«المجد للرب في الأعالي»، والمسافة اثني عشر ميلاً من بيت لحم إلى موضع القديس إبراهيم(الخليل)، فهناك صنع الرب آدم، وبكى آدم على ابنه هابيل لمدة مائة سنة، وهناك أيضاً مدفن أجساد البطارقة المقدسين، والمسافة هي ميل واحد فيما بين القدس وبين المكان الذي نمت فيه[شجرة] الصليب

المقدس، والمسافة من القدس إلى عمواس ستة أميال.

١٢ — المسافة أربعة وعشرين ميلاً من القدس إلى السامرة ، التي تعرف الآن باسم نابلس، وفي هذا المكان يوجد جب يعقوب ، حيث تحادث الرب مع المرأة، وبعد أربعة أميال من هناك يصل الانسان إلى سبسطية، وهو المكان الذي أعدم فيه يوحنا المعمدان وقطع رأسه، ومن هذا الموقع إلى جبل الطور المسافة ثلاثة وعشرين ميلاً، والمسافة من هناك إلى الناصرة ستة أميال، والمسافة من الناصرة إلى الصفورية تساوي ميلاً واحداً، وهناك ولدت القديسة حنة، ومن هناك مسافة ستة أميال إلى قانا الجليل، حيث حول الرب الماء إلى نبيذ، ومن الصفورية المسافة ستة أميال إلى شفا عمرو، حيث ولد القديس يوحنا، والقديس جيمس ابنا زبداي، والمسافة من عكا إلى طرطوس تستغرق رحلة ستة أيام، حيث بنى الحواريون بيعة على شرف العذراء المباركة.

٥(٢) حاج مجهول
(قبل سنة ١١٨٧)

١ — تقوم منطقة القدس في وسط الأرض، وهي منطقة جبلية بشكل رئيسي، ومع ذلك هي ليست جرداء بدون نتاج، ويحدها من الشرق العربية، ومن الجنوب مصر، أما من الغرب فيحدها البحر الكبير، ويحدها في الشمال سورية وبحر قبرص، وقد كانت هذه المنطقة منذ أقدم العصور أرض عموم آباء جميع الأمم، وهي تشهد قدوم الناس إلى هناك للعبادة في الأماكن المقدسة من كل جزء من أجزاء العالم، وذلك حسبما نقرأ في أعمال الرسل حول إرسال الروح القدس، لشعوب من«فرثيين، وميديين، وعيلاميين»الخ، غير أن الناس يسكنون الآن فيها، ويمتلكون بيوتاً وأماكن للعبادة فيها.

٢ — وبعض هؤلاء مسيحيين، وبعضهم ليسوا كذلك، وهناك

أجناس من مختلف الشعوب المسيحية، وهم منقسمون إلى طوائف متنوعة، ويتصدر هؤلاء الفرنجة، الذين يصح أكثر دعوتهم باللاتين، وهم رجال حرب، ممارسون لأعمال القتال، وهم عراة الرؤوس، ووحدهم من بين جميع الشعوب هناك، هم الذين يحلقون لحاهم، وهم يدعون جميعاً باسم اللاتين، لأنهم يستخدمون اللسان اللاتيني، وهم جميعاً كاثوليك بلا استثناء.

٣ — وآخرون هم من الاغريق(الروم الأرثوذكس)، الذين هم منفصلون عن روما، وهم بارعون جداً، وليسوا ماهرين كثيراً في استخدام السلاح، وهم مذنبون بالابتعاد عن الايمان الحقيقي، وعن قواعده وأركانه، لاسيما وأنهم يقولون بأن الروح القدس ليس من الأب والابن، بل من الأب وحده، وهم يستخدمون الخبز المخمر في القربان المقدس، وهم أيضاً مذنبون في كثير آخر من المسائل، ولهم ألفبائية خاصة بهم.

٤ — وآخرون هم السريان، وهؤلاء بلا فائدة في الحرب، ولا يدعون في معظم الحالات لحاهم تطول مثلما يفعل الاغريق، بل يتولون قصها بعض الشيء، وهم لا يمارسون الطقوس لا اللاتينية ولا الاغريقية، وهم موجودون في كل مكان، يدفعون الجزية إلى الأمم الأخرى، وبالنسبة لإيمانهم ولقداساتهم يتوافقون في جميع المجالات مع الاغريق، وهم يستخدمون الأبجدية العربية، وهم في جميع المسائل الروحية والدنيوية مثلهم مثل الاغريق.

٥ — والآخرون هم الأرمن، وهم يمتلكون بعض البراعة في استخدام السلاح، ويختلفون في كثير من المجالات عن اللاتين والإغريق، وهم يصومون مدة أربعين يوماً، في أيام ميلاد المسيح، وهم يحتفلون بعيد ميلاد المسيح في يوم التجلي(٦ — كانون ثاني)، ويعملون أشياء كثيرة أخرى مضادة لأحكام الكنيسة، وهم يمتلكون

لغة خاصة بهم، وهناك كراهية لا يمكن إزالتها بينهم وبين الاغريق، وقد وعدوا مؤخراً بتقديم الطاعة لكنيسة روما، بسبب أن ملكهم قد تسلم التاج من يدي رئيس أساقفة مينز Mainz ، نائب الكرسي المقدس.

٦ — وآخرون هم من الكرج(الجورجيون)، وهم يعبدون القديس جورج وفق طقوس مهيبة، وهم يدعون شعورهم وشعور لحاهم دونما حلاقة، ويلبسون قبعات ارتفاع كل منها ذراع، وهم جميعاً من رجال دين وعلمانيين يتركون قسماً حليقاً من رؤوسهم، أما لدى رجال الدين فشكل هذا القسم دائري، أما لدى ما سواهم من العلمانيين فالشكل مربع، وهم يستخدمون الخبز المخمر في القداسات، ويقلدون الاغريق في جميع المجالات تقريباً، لكنهم يمتلكون أبجديتهم الخاصة.

٧ — وآخرون هم اليعاقبة، الذين تولى تضليلهم واحد اسمه جيمس، وأخذهم إلى الهرطقة النسطورية، وهم يذنبون كثيراً، ويستخدمون الأبجدية الكلدانية(السريانية).

٨ — وآخرون هم النساطرة الذين هم هراطقة في إيمانهم، ذلك أنهم يقولون بأن مريم المباركة كانت مجرد أم إنسان، ويذنبون في كثير من المسائل الأخرى، ويستخدمون الأبجدية الكلدانية(السريانية).

٩ — فضلاً عن هذا، اللاتين منقسمون إلى عدة أمم، منها:الألمان،والاسبان، والغاليين، والطليان، والأمم الأخرى التي أنجبتها أوربا، وثلاثة من الشعوب الايطالية هي قوية وفعالة بشكل خاص ومفيدة في بلاد القدس، وهم: الجنويون، والبنادقة، والبيازنة، وهم بارعون في استخدام السلاح متفوقون في البحر، ويمارسون كل نوع من أنواع القتال، وبارعون في فن التجارة، وهم جميعاً يمارسون شرائع خاصة بهم يطبقوها على أنفسهم، غير أنهم فيما بينهم يغارون من

بعضهم بعضاً ويتخاصمون بشدة، إلى حد أن المسلم أسلم لديهم أكثر من سلامة أحدهم لدى الآخر، أو معه.

١٠ — ويوجد في هذه البلاد بيتان دينيان،ونعني بذلك: الداوية والاسبتارية، وهما يمتلكان أموالاً وثرواتاً هائلة جداً، لأن لديها ممتلكات يحصلان منها على موارد مالية في كل جزء من أجزاء أوربا، ولدى الذهاب إلى الحرب، يقاتل الداوية في الجناح الأيمن، ويقاتل الاسبتارية في الجناح الأيسر.

١١ — والداوية هم الأفضل بين جميع الجنود والأكثر روعة، ويرتدون أردية بيضاء وصلبان حمراء، وعندما يذهبون إلى الحرب، يحملون فوق رؤوسهم راية ذات لونين اسمها بالزوس Balzaus ، ويلتزمون الصمت أثناء زحفهم، وحملتهم الأولى هي الأكثر إرعاباً وفتكاً، وهم لدى الهجوم الأوائل، ولدى الرجوع الأواخر، وهم ينتظرون أوامر مقدمهم ويتقيدون بها، وعندما يرون من المواثم الحملة، ويصدح البوق، ينشدون معاً مزمور داود الذي يقول:«ليس لنا يا رب»[المزمور:١١٥] ويعملون بإصرار على سفك دماء الأعداء وقطع رقابهم، إلا إذا أرغموا عساكر الأعداء على الانسحاب جميعاً، أو تمكنوا من تمزيقهم إرباً إرباً، وإذا حدث وأدار أي واحد منهم ظهره للعدو، أو عاد حياً من هزيمة من الهزائم، أو شهر سلاحه ضد المسيحيين، فإنه يتعرض إلى عقوبة شديدة: حيث ينتزع منه الرداء الأبيض مع الصليب الأحمر، اللذان هما علامة فروسيته، وحين ينتزعان منه يكون ذلك بشكل مهين، ويطرد من طائفته، ويتناول طعامه على الأرض، دون صدرية أو منديل مائدة، ويكون ذلك لمدة سنة، وإذا ما حاولت الكلاب إزعاجه أو مضايقته، هو لايتجرأ على طردها أو إبعادها، ومع إنتهاء السنة إذا ما رأى المقدم وأخوانه بأن عقوبته باتت كافية، يردون إليه نطاق فروسيته السابقة، ويعيش هؤلاء الداوية في ظل نظام ديني

دقيق، يطيعونه بكل تواضع، وبما أن ما من واحد منهم يمتلك ممتلكات خاصة، تراهم يأكلون أقل الطعام وأخشنه، ويلبسون الملابس الرديئة، ويسكنون في الخيم.

١٢— ويحمل الاسبتارية صليباً أبيض فوق أرديتهم، وهم فرسان جيدون، ويقومون بالاضافة إلى أعمالهم في ميادين القتال بالعناية بالمرضى والمحتاجين، وهم يعيشون تحت قانون ونظام خاص بهم.

١٣— فضلاً عن هذا، تمتلك بلاد القدس، بطريركاً خاصاً بها، مسؤول عن الايمان وعن المسيحيين، وهو نائب يسوع المسيح، ولدية أربعة رؤساء أساقفة: واحد في مقاطعة Pale- Tine ، والمعني بهذا رئيس أساقفة قيسارية، وآخر في مقاطعة فينيقية، أي رئيس اساقفة صور، والثالث في مقاطعة الجليل، والمقصود بذلك رئيس أساقفة الناصرة، وأما الرابع ففي مقاطعة مآب، أي رئيس أساقفة البتراء، يعني الكرك، ولرئيس أساقفة قيسارية أسقف مساعد واحد، والمعني بذلك أسقف سبسطية، وهوالمكان الذي عاش فيه كل من يوحنا المعمدان، وإيليا، ودفن فيه النبي عوبيديا، أما رئيس أساقفة صور فلديه أربعة أساقفة مساعدين هم: أسقف عكا، وأسقف صيدا، وأسقف بيروت، وأسقف بانياس، التي هي قيسارية فيليب، ولرئيس أساقفة الناصرة أسقف مساعد واحد، هو أسقف طبرية، في حين ليس لرئيس أساقفة البتراء أسقف لاتيني مساعد، بل واحد اغريقي فوق جبل سيناء.

١٤— ويمتلك البطريرك تحت رئاسته المباشرة أساقفة: بيت لحم، واللد، والخليل، حيث جرى دفن آدم وحواء والآباء (البطارقة) الثلاثة.

١٥— وفي كنيسة الضريح المقدس للرب هناك كهنة أوستنيين Austin، ولهم مقدمهم، غير أنهم قد تعهدوا بالطاعة للبطريرك وحده، ويوجد في هيكل الرب راعي دير وكهنة نظاميون يخضعون

لنظام القــديس أوستن، وينبغي ان نعــرف الآن أن هيكل الرب شيء، وهيكل فـرسان الـداوية شيء أخر، فـالهيكل الأول هيكل رجـال دين، والهيكل الثاني هيكل عساكر، ويوجد في كنيسة جبل صهيون راعي دير، وكهنة نظاميون، وكـذلك يوجد في كنيسة جبـل الزيتون هناك راعي دير وكهنة نظاميـون، ويوجـد في كنيسة وادي شعفـاط راعي دير، ورهبـان سـود، ويعـاون جميع الذين تقـدم ذكـرهـم مع الأسـاقفـة البطريرك في القداسات.

١٦— فضلاً على ما تقدم هناك المدن التاليـة، التي ليس فيها أساقفة: عسقــلان، الخاضعـة إلى أسقف بيت لحم، ويـافـا، الخاضعــة إلى كهنة الضريح المقـدس، ونابلس الخاضعة لراعي دير الهيكل، وحيفـا التي هي خاضعة لرئيس أساقفة قيسارية.

١٧— وفي جميع الأحـوال، إن بلاد القـدس كلها مقـدسـة ومبجلة، ذلك أنها شهدت الأنبياء، والرسـل، كما شهدت الرب يمشي فيها، ومع ذلك هناك بقــاع خـاصــة يتعبـدها النـاس ويجلونها أكثر من ســواها ويحيطونها بقـدسيـة متميـزة، ولسوف نأتي على ذكـرها، وتبيـان أسمائهـا وفضائلها:

١٨— وفي الناصرة، ولدت العـذراء الأم المباركـة، وفيها تماشيـاً مع رسـالـة الملاك، جـرى الحمل برحمهـا بابن العلي الأعلى، وكــذلك نشأ وتربى حتى بلـغ مبلغ الرجــال؛ وبيت لحم هي المكان الذي ولد فيهـا خبز السماء، وإليهـا جلب الحكماء— وقد قـادهم النجم— الهدايا، وهي أيضاً حيث دفن جيروم، الذي تولى ترجمة الكتـاب المقدس إلى اللاتينية، والأردن، هو النهر الذي تعمد فيه المخلص، وبتعمـده فيه أرسى قواعد الخلاص البشري، وحيث رؤي فيه الروح القدس على شكل طائر حمام، وحيث سمع صوت الآب، وهناك مكان الصـوم الذي يدعى القرنطل، فهناك صــام المسيح لمدة أربعين يومــاً، وبذلك أرسـى شريعـة القيــام

بالصـــوم الكبير، وحيث أيضــاً أغــوي من قبل الشيطان، أمــا بحيرة جنسـارث، فهي الموقع الذي مشى كثيراً على شـواطئه، وصنع كثيراً من المعجزات، واستـدعى حوارييه، وبالنسبـة لجبل الطور، فهو حيث تحول شكله أمام حوارييه وبحضورهم، وحيث ظهر له موسى وإلياس.

١٩— ويوجــد في القـدس الكثير من الأمـاكـن المبجلة، مثل هيكل الرب، حيث جـرى تقـديمـه، ومن حيث طـرد الذين كـانوا يبتـاعـون ويشترون، وهو المكان الذي جـرى رمي جيمس أخـو الرب من أعـلاه نحــو الأسفل، وجبل صهيـون هـو المكان الذي تعشى فيــه الرب مع حـوارييه، وقـرر فيـه شريعـة العهد الجديد، وهنا ظهـر الروح القـدس بشكل مرئي فـوق الحواريين، ومن هنا أيضاً عبرت العذراء المبـاركة من هذا العـالم، والجمجمـة (أكـرا) هي الموقع الذي تألم الرب فيـه من أجل خلاصنا، ومات فوق الصليب، أما الضريح المقدس، فهو الموضع الذي جـرى تمديد جسـده فيـه، ومنه قــام مجدداً، وعلى جبل الزيتـون جـرى الترحيب به والتأهيل من قبل الأطفال، أثناء ركوبه على ظهر أتان، ومن عليه جـرى صعوده إلى السماء بشكل إعجـازي، وبيت عنيا هو الموضع الذي أقــام فيـه ألعــازر من الموت، وعند سلـوان رد البصر إلى الرجل الذي ولد أعمى، ووادي شعفاط هو المكان الذي يعرف باسم جيسماني، فهناك جـرى اعتقاله من قبل اليهـود، وهناك أيضـاً جرى دفن العـذراء المبـاركـة، وكنيسـة اسطفـان هي حيـث جـرى رجمه، وإذا مـا نظرنا إلى كتابات العهدين القديم والجديد، لم يرد فيهما من البداية ذكر أي وادي، وأي نهر، وأية بحيرة، إلاّ وشهد ذلك المكان صنع معجزة من المعجزات من قبل واحـد من الأنبيـاء، أو الرسـل، وطبعـاً من قبل المسيح نفســه، وجب يعقـوب مـوجـود في بلاد السـامـرة، وهـو الذي يتغير لونه أربع مـرات في السنة، حيـث يكون مـوحـلاً، ثـم أحمر مثل الدم، ثم أخضر، وأخيراً شفافـاً نقياً، ولايجري نبع سلوان، الموجود قـرب جبل صهيون،

كل يوم، بل فقط ثلاثة أيام في الاسبوع، ويوجد في بلاد القدس بحيرة الشيطان على الحدود بين العربية وفلسطين، حيث كان فيها مضى خمس مدن، جرى ابتلاعها بسبب ذنوب سكانها، ولايمكن لأي كائن حي أن يغرق في هذه البحيرة، وعندما سمع فسبسيان بهذا، أمر أن يرمي فيها سبعة رجال لايحسنون السباحة وقد قيدت أيديهم وأقدامهم، وقد مكثوا هناك ثلاثة أيام ولم يموتوا، وهناك حول البحيرة بعض الأشجار التي تحمل فواكه جميلة جداً، وهذه الفواكه تغرق، إنها تغرق فور قطفك لها، وهي تغرق، وتتحول فوراً إلى رماد.

٢٠— وهذه هي الجبال الرئيسية في بلاد القدس: لبنان، والطور، وحرمون، وجلبوع، والكرمل، وجبال لبنان مرتفعة جداً، وتفصل سورية عن فينيقيا، وفيها أشجار طويلة جداً، ومع ذلك لايوجد الكثير منها كما كان في القديم، وبالنسبة لجبل جلبوع،، ليس صحيحاً، كما يحكى عبثاً لنا بعضهم، بأن المطر لاينزل عليه مطلقاً، بسبب لعنة داود.

٢١— وتحتوي هذه البلاد نفسها على عدد من الحيوانات الضارية، فهناك: الأسود، والفهود، وهناك حيوان ضار جداً يدعى النمر الأبيض، لايمكن لأحد أن ينجو سليماً من غضبه، وهم يقولون بأنه حتى الأسد يخاف منه، وهناك أيضاً السعادين، التي يسمونها الكلاب المتوحشة، وهي أحد من الذئاب، وهناك أيضاً الجمال والجواميس بكثرة.

٢٢ — وهناك أشجار فائقة الجمال، من كل نوع، وهي تنمو فوق الأرض: فهناك أشجار النخيل بثمارها، والأشجار التي تدعى أشجار الفردوس، والتي لها أوراق طول كل منها أكثر من ذراعين، وعرضها نصف ذراع، وشكل ثمارها مستطيل، وينمو مائة منها على غصن واحد، أحدها يلامس الآخر، ومذاقها مثل مذاق العسل،وهناك أيضاً أشجار الليمون، التي طعم ثمارها حامض، وهناك أشجار أخرى تحمل فواكه اسمها تفاح آدم، حيث من الممكن أن يرى عليها علامات أسنان

آدم بوضوح، وهناك أيضاً قصب السكر، ونباتات تزرع مثل زراعة القمح، ومنها يجري جمع القطن، وفي القديم لم يكن هناك بلسم في العالم كله إلاّ في بلاد القدس، وبلاد أريحا، وجاء المصريون فيما بعد إلى هناك،وأخذوا هذا النبات إلى مصر، وزرعوه في مدينتهم باب اليون(مكان القاهرة)، حيث هناك المكان الوحيد الذي يوجد فيه البلسم، وليس هناك شيء مثير في هذه الأشجار، إلاّ إذا ما زرعوا من قبل إنسان غير مسيحي، لايحملون الثمار، ويحكم عليهم بالعقم الأبدي، وهناك أيضاً أشجار الأرز، التي تحمل ثماراً خضراء كبيرة مثل رأس الإنسان، وهي مستطيلة بعض الشيء، ولهذه الثمرة ثلاثة مذاقات هي: أولها في اللحاء حيث الطعم مرّ، وثانيها تحت اللحاء في اللب حيث الطعم لا شيء، وثالثها في النوى، وهنا الطعم حامض، وعليك أن تعرف أن أرز لبنان عبارة عن أشجار عالية جداً، وهي لا تحمل ثماراً، غير أن أشجار الشواطىء الساحلية هي أصغر وتحمل ثماراً، وهناك أيضاً نوع من أنواع شجر التين، مما لا يحمل ثماره بين أوراقه بل على الجذع وحده.

٢٣ — ولقد تغيرت أسماء المدن والأماكن بشكل تدريجي بسبب تغير الأمم، التي سكنت في أوقات مختلفة في البلاد: فقد كانت القدس تعرف أولاً باسم«يبوس»، وبعد ذلك باسم«سالم» ومن هناك باتت تعرف باسم«أورشليم»، وبعد ذلك باسم«أورشليما»، ودعيت بعد هذا باسم«إيليا» اشتقاقاً من اسم إيليا الروماني(إيليوس هدريانوس) الذي تولى فيما بعد إعادة بنائها، بعد تهديمها من قبل تيتوس، وذلك في المكان القائمة فيه الآن، وعرفت حبرون(الخليل) أولاً باسم«أربعة»، ثم باسم قرية ثمانية Cariathiarim ، ثم باسم«حبرون»، وبعدها باسم«الخليل»، لأن (خليل الرحمن) إبراهيم قد دفن هناك،وحملت«عسقلان» أولاً اسم «فلسطيم»، لأنها كانت مدينة

الفلسطينيين، وعـرفت «غزة» دومـاً بهذا الاسم، وما يعـرف هذه الأيام باسـم«القـديس جـرجس»، كـان يعـرف مـن قبل باسـم«اللد»، وعرفت«قيسـارية» أولاً باسم«دور»، ثم باسم«برج ستارتور»، وتعرف الآن باسم«قيسـاريـة» وذلك تشريفـاً لقيصر، وعـرفت«حيفـا» أولاً باسم«بورفيريا» Porfiria ، ودعيت«عكا» مؤخراً باسم«بطليمياس»، أمـا«صـور» فقـد عـرفت دومـاً بهذا الاسـم، وكـانت فيها مضى مـدينة عظيمـة، حكم فيهـا أغينور، ومنهـا جـاء ديدو، وتعـرف«صيـدا»الآن باسم«سـاغيتـا» Sagitta ، وتعـرف«الصرفند» الآن باسـم«سـافيرا» Saffera ، وعـرفت«بيت لحم» أولاً باسم«إفراتا»، وعـرفت نابلس أولاً باسم«شيكار»، أمـا «سبسطية»، فقـد عرفت باسم «السـامرة»، أمـا ماكوميرا Machomeria، فعرفت أولاً باسم«لـوزة»، ثم بعد ذلك باسم«بيت إيل»، أما التـي تعرف الآن باسم«بلنياس»، فقـد عرفت أولاً باسم«بانياس»، وفيها بعد باسم قيسارية فيليب.

٢٤— وبين العجـائـب الأخـرى التي ينبغي ألا نكـون صـامتين نحوها، هـو أنه يوجد في يافـا على شاطىء البحر صخـرة آدم، التي هي كبيرة جـداً، تلوذ بها أعـداد لا تحصى من حشـود سمك يدعى سمك سلمون، ويكون ذلك في أيام الصيـف، وتسير وهي تحمل على ظهورها خطوطاً صفـراء طويلة، وبعدمـا تقوم بتقبيل الصخـرة، وكأنها في مكان مقدس، تعـود أدراجها مسرعة، ويحكي صائـدو السمك في تلك البلاد، أنه عندما أمـر الرب، أخاه القديس جيمس بـالذهاب إلى الجليل، أجابه القديس جيمس بقـوله:«إنني سوف أذهب إذا مـا ذهبت تلك الصخرة معي»، ومن ثـم انشطرت الصخـرة إلى شطـرين، ذهب شطر منهـا إلى طبرية، حيث تزار من قبل الحجـاج حتى هذا اليوم، وتدعى باسم رمية جيمس، في حين مكث الجزء الآخر هناك.

فضلاً عما تقدم في القدس ملك لاتيني، الذي هو سيد...

وحول الملك وباروناته، والأعيان والبارونات، وحول المدن العائدة للمملكة، وحول أمير أنطاكيةوكونت طرابلس، وحول مختلف أنواع الكفار، واليهود، والصادوقيين، والسامرة، والحشيشية، والبدو...

حاج مجهول(٦)(بيد المزيف)
(القرن الثاني عشر)
هنا بداية رواية بيد عن الأرض المقدسة.

١ — دعونا نجعل انطلاقنا من حبرون(الخليل)، التي هي عبرون، المدينة الحاضرة، وكانت عبرون في القديم مدينة الفلسطينيين وعاصمتهم، وموضع سكنى العمالقة، ولقد كانت في ديار سبط يهوذا، وكانت مدينة الكهنة، ومدينة ملجأ، وقد بنيت عبرون في الحقل الذي صنع منه ربنا القدير، صانع الأشياء كلها، الأب الأول، وعرفت حبرون باسم«قرية أربعة»، والتي معناها بالاغريقي والعربي«مدينة أربعة»، لأن قرية بالإغريقية(كذا) معناها«مدينة» و Arba بالعربية تعني«أربعة»، لأن هناك أربعة رجال يستحقون العبادة، قد دفنوا في كهف مزدوج هناك، وهؤلاء هم: آدم الانسان الأول، وإبراهيم، واسحق، ويعقوب، دفنوا مع زوجاتهم وهن أمهاتنا الأربع: حواء، وسارة، وربقة، وليا، وتقوم عبرون قرب وادي الدموع، وقد عرف وادي الدموع بهذا الاسم، ودعي به، لأن آدم بكى هناك على ابنه هابيل لمدة مائة سنة، وعرف هناك ـ بناء على تنبيه من ملاك، حواء ـ وأنجب شيث، الذي من ذريته جاء المسيح.

وعلى بعد ميلين من عبرون، يوجد ضريح لوط، الذي كان ابن أخي إبراهيم.

ويوجد في عبرون الحقل الذي تربته حمراء، وهو الذي تحفر أرضه، ويؤكل ترابها من قبل السكان هناك، ويصدرونها إلى مصر للبيع، وهي تشترى بمثابة عقار ثمين جداً، لأنه يقال بأنها الأرض الحقيقية التي صنع منها آدم، الإنسان الأول، ويجري حفر الحقل المتقدم الذكر

بالعرض وبالعمق، ومع ذلك بقضاء من الرب، تجده في نهاية السنة، قد عاد وامتلأ كما كان من قبل.

وإلى جانب عبرون يقوم جبل ممرا، الذي نمت عند سفحه شجرة البلوط، التي تدعى باسم«دلبة» يعني«بلوطة» أو «سنديانة»، فقد عاش تحتها إبراهيم لزمن طويل، فهنا رأى الملائكة الثلاثة، والمعبود الواحد، وقدم لهم ضيافة على أفضل ما استطاعه، وجعلهم يرتاحون، وأطعمهم، ولهذا السبب دعي حسب طرائق الاعتقاد القديمة باسم«العدل» .

وظلت البلوطة المتقدمة الذكر قائمة حتى أيام الامبراطور ثيودوسيوس، فهذا ما رواه جيروم، ومنها نبتت البلوطة الموجودة الآن هناك، والتي هي موضع تبجيل في أيامنا الحالية، وعلى كل حال، مع أن هذه الشجرة جافة، لها خصائص طبية، حسبما تبرهن بمايلي: كل من يحمل قطعة منها معه، فإن حصانه لن يكبو به، وإنه إلى عبرون جاء كالب ويشوع مع رفاقهما العشرة أولاً، عندما كانوا يتجسسون حول أوضاع أرض الميعاد، وفي عبرون وجدوا أبناء عنق وقبيلة العمالقة.

٢ — وعلى بعد عشرة أميال عن عبرون، باتجاه الشرق، توجد بحيرة اسفلت، التي تعرف أيضاً باسم البحر الميت، وقيل له الميت لأنه لا يتلقى شيئاً حياً، ولهذا هو ملك للشيطان، وبناء عليه فإنه بتوجيهه لقيت المدن التعيسة جداً مصيرها، وهذه المدن هي:سدوم، وعامورة، ودومه، وساعور، وكانت قد أصرت على اقتراف الآثام، فأحرقت بفيض من نار الكبريت، ومن ثم غرقت في تلك البحيرة.

ومعنى كلمة سدوم«القطيع الصامت» أو«العمى»، وأما معنى كلمة عامورة فهو الخوف أو«فساد الناس»، أما معنى كلمة ساعور فهو«البحر» أوميناء البحر، وأما معنى كلمة دومه فهو الرغبة، وفوق بحيرة اسفلت، وأنت صاعد للدخول إلى اليهودية، هناك صغور،

ولصغـور ثلاثة أسماء: فهي تـدعى بلع Bala، الذي معناه «ابتلع»، وزوآر وهو اسم سرياني، وهي قد عـرفت باسم بالزوآر بمزج الاسمين العبري والسرياني معاً، وهي دعيت بـاسم«صغـور» الذي معناه«الشيء الصغير»، وقد أنقذت«صغور» بوسـاطة دعاء لوط، فلم تحترق أو تغرق في الماء، ومن الممكن رؤيتهـا حتى هذا اليـوم، وفيما كانت زوجـة لوط خـارجة من«صغـور» تحولت إلى عمـود من ملح من الممكن رؤية آثاره حتى اليوم، ويوجد على شواطىء البحر المتقدم الذكر الكثير من الشب، ومن القطران، حيث يعثر عليه السكان المحليون، ويتم جمعه من قبلهم، ويستخرج من البحر«الحمـر» الذي يدعى باسم«الزفت اليهودي»، وهو مفيد في بعض أنواع الأعمال، وتعـرف«صغور» الآن باسم بلدة النخيل، وذلك من قبـل شعب البـلاد، وتفصـل بحيرة اسفلت اليهـوديـة عن العربية.

٣ — وعندمـا جـاء بنو إسرائيل إلى العـربية، كـانت قفـاراً لا يمكن سلوكهـا، وبدون مـاء، وقـد حفظ الرب شعبـه من بني إسرائيل فيهـا، وجعلهم يتخـذون اثنين وأربعين منزلاً، وقـد مكثـوا فيهـا مـدة أربعين سنة، وخـلال ذلك لم تهترىء ثيـابهم، وقـد أطعمهـم من ندى السماء والمن، وأعطى كل واحد منهم من ذلك بقدر حـاجته، وكذلك أعطاهم لحماً حسب رغبتهم.

وقـد توليت تدوين أخبـار ومعـاني أسماء هـذه المنازل، هنا في هذا الكتـاب، ويتـوجب على العبراني المتشوق لأخـذ طريقـه من الأرض إلى السماء، أن يجتازهم، وأن يخلف وراءه مصر هذا العالم، فيدخل إلى أرض الميعاد، وإلى منزله السماوي.

المنازل الإثنان والأربعون

كـان المنزل الأول هو رعمسيس، وهي مـدينة مصرية، حيث اجتمع

بنو إسرائيل مع بعضهم بعضاً، وقد دخلوا إلى الفيافي في اليوم الثاني بعد عيد الفصح، على مرأى من المصريين، الذين استلبوهم ببراعة وسرقوا أوانيهم الذهبية والفضية، وجرت ترجمة كلمة رعمسيس الى «فوضى» أو «صاعقة».

وكان المنزل الثاني هوسكوت، الذي يعني«أكواخ» أو«خيم العهد».

وكان المنزل الثالث هو إيشام في الفيافي، حتى تدبر الرب استجابة لمطالب شعبه، فأقام عموداً من نار خلال الليل، وحيث يتمكنوا من رؤية جميع ما يريدون أن يصنعوه في النهار، وأقام غمامة في النهار تخفيهم وتظلهم، ومعنى ايثام«شجاعة» أو«كمال».

وكانت «مارا» المنزل الرابع، بعد عبور البحر الأحمر، ومعنى«مارا»«مرارة».

وكان المنزل الخامس هو حيروث، وذلك على مقربة من بعل صفون، ومعنى هذا الاسم هو:«رب الريح الشمالية».

وكان المنزل السادس هو إيليم Elim، حيث وجدوا الاثني عشر بئراً، والسبعين شجرة نخيل.

وكان المنزل السابع إلى جانب البحر الأحمر، حيث يخرج الخليج عن مساره.

وكان المنزل الثامن في فيافي سين، التي من خلالها يذهب الانسان حتى جبل سيناء، ومعنى كلمة سين عليقة،أو«كراهية»[الأصح:قمر].

وكان المنزل التاسع في دفقة، التي تعني«نبضة».

وكان المنزل العاشر في ألوس، التي تعني«مخمر»، ففي الفيافي تضجر بنو إسرائيل واشتكوا من الجوع، وأكل«السلوى» في المساء، والمن في الصباح.

وكـان المنزل الحادي عشر هو رفـديـم، التي تعني غلبـة الشجـاع، أو«الخسارة»، وهنا تفجر نبع ماء من حورب، لصالح الشعب العطشان، وهنا غلب يشـوع أمـالك وأطاح به، وهنا جـاء يثـرو إلى مـوسى، وهنا تشكى الشعب ضــد الرب، وفي أثناء غيـاب مـوسـى، صنعـوا العجل الذهبي، وتعبدوه.

وكـان المنزل الثاني عشر في قفـار سيناء، وقد تمت ترجمة هذه الكلمـة إلى«عليقة»، وذهب مـوسى في هذا المنزل إلى الرب في جبل سيناء، وهنا جـاء الـرب ونزل إليـه، وأعطاه الشريعــة مكتـوبة بإصبعــه على ألواح حجرية اقتطعت من ذلك الجبل، وعمل موسى هناك وأنجـز صوماً دام أربعين يوماً وأربعين ليلة، وفي هذا المنزل تمّ صنع خيمة العهد.

وجــرى تعليمهم فـوق ذلـك الجبل أي نوع من الأضــاحي عليهم تقديمـه، وأي نوع من الأواني عليهم استخدامـه في التضحية، وأي نوع من الألبسـة يتــوجب على الكهنة أن يلبسـوا، وأي نـوع من الطقـوس ينبغي أن يؤديها الكهنة واللاويين، وهنا مسح مـوسى هارون، واختـاره كـاهناً، وألبسه درع القضـاء وثوب الكهنوت Ephod ، وبناء عليه كـان أول إنسان دعي باسم«المسيح» أي«الممسـوح»، وهـنا جرى تعـداد الشعب واللاويين، ومن ثم جرى تقسيمهم إلى عـدة أسباط، وهنا أيضاً جرى تدوين هدايا الأمراء، كما جـرى صنع بوقين من الفضة، من أجل تقـويض المعسكـر، وهنا أيضـاً صـدر الأمـر إلى المدنسين الذين لم يكن بإمكانهم أكل قـربان الفصح في الشهر الأول، أن يجتمعـوا ليفعلوا ذلك في الثــاني، وهناك جــرى منع الناصريين من شرب النبيــذ أو الخمــرة القـوية، وأن يأكلوا الزبيـب، أو الخل المصنوع من الخمـرة، وهنا جـرى إخراج المجذومين والذين في أجسـادهم قروح، من المعسكر، وهنا أيضاً صـدر الأمر إلى اللاويين بالقيـام بخدمـة خيمـة العهد شروعـاً من سن الخامسـة والعشرين، وأن يتولوا حـراسـة الآنية من سن الخامسـة، وهنا

جــرى صنع بوقين من الفضـــة، على صـوتها كــان يتــوجب على بني إسرائيل الاستعداد للقتال.

وكان المنزل الثالث عشر عند«قبـور الشهوة» حيث كان الاسرائيليون قـد ملـوا من الطعـام السماوي وسئمــوا، واشتـاقـوا إلى قــدور اللحم المصرية، ولهذا التهمت نار مفـاجئة كثيراً منهـم، وهنا نزل الرب بالغمام فـوق الشيوخ السبعين النخبـة، وأخـذ الروح التي كـانت فوق مـوسى وأعطاها إلى الشيوخ السبعين.

وكــان المنزل الـرابع عشر هو حضيروت حيث اتخذ هـرون الكاهن وأخته مريم مـوقفاً عدائياً من أخيهما مـوسى، ورميا بأسنانه، لأنه تزوج امرأة أجنبية، ولهذا فإن معنى حضيروت«اعتداء».

وكـــان المنـزل الخامس عشر هـو رتمـــة، التـي معناهـا«ضجيج» أو«اندفـاع»، ومن هناك جرى إرسـال الاثني عشر جـاسوسـاً إلى أرض الميعـاد، وجلبــوا معهم عنقـوداً من العنب من هنـاك، وهناك ثار داثان وأبيرام ابنا قوره ضـد موسى وهارون، فـانشقت الأرض وابتلعتهم هم وأسرهـم وجميـع خيمهم وأثاثهـم وثرواتهم، وهنا حملـت عصـــا هرون فـاكهة وأوراقـاً، وهنا جـرى قتل إنســان من قبل الناس، لأنه تولى جمع عصي، في يوم السبت.

وكان المنزل الســادس عشر«فرز الرمان» الذي يعنـي باللاتينية«توزيع الرمان».

وكان المنزل السابع عشر«لبنه» الذي يعني«التبييض».

وكان المنزل الثامن عشر هو رسه، الذي يعني«الجم».

وكان المنزل التاسع عشر«كليزه»، الذي يعني«كنيسة».

وكـان المنزل العشرون عند جبل شـافـر، الذي يعني«الجمال»، أي أن

تقول:«المسيح».

وكان المنزل الحادي والعشرون«عرضه»الذي يعني«معجزة».

وكان المنزل الثاني والعشرون مقهيلوت الذي يعني«في الاجتماع» أي في الكنيسة.

وكان المنزل الثالث والعشرون في تاحت الذي يعني «الخوف».

وكان المنزل الرابع والعشرون في تاسي الذي يعني «استهزاء» أو«مرعى».

وكان المنزل الخامس والعشرون في مثقة الذي يعني«حلاوة».

وكان المنزل السادس والعشرون في أسموله الذي يعني باللاتينية«سرعة».

وكان المنزل السابع والعشرون في أسيروك الذي يعني«أغلال» أو«عقوبة».

وكان المنزل الثامن والعشرون في بني يعقان الذي يعني«الأولاد يحتاجون»أو«ضجة».

وكان المنزل التاسع والعشرون في جد جاد الذي يعني«رسول» أو«تحريم» أو«ختان».

وكان المنزل الثلاثون في يطبات الذي يعني«الجودة» أي«المسيح».

وكان المنزل الحادي والثلاثون في عبرون الذي يعني«عبور».

وكان المنزل الثاني والثلاثون في عصيون جابر الذي يعني«عظام إنسان».

وكان المنزل الثالث والثلاثون في قفارسين، التي هي قادس، وتعرف

أيضاً باسم قادس القفار، لأنه جرت ترجمة كلمة سين إلى«مقدس» من قبل«جسد دعي»، وذلك مثل ucus ، وهي حديقة، دعيت كمايلي Quia Minime Luceat ، لأنها لا تشع.

وهنا ماتت مريم أخت موسى وهارون ودفنت، وهنا أغضب موسى الرب بسبب كلمة تجديف تفوه بها، ولهذا جرى منعه من عبور نهر الأردن، وهنا التات عقله بسبب نحيب الناس، وضرب الصخرة بشك مرتين، وكأن الرب غير قادر على جعل الماء ينبع من الصخرة، ويجري الآن جدولان من هناك، يسقيان جزءاً من العربية.

وكان المنزل الرابع والثلاثون عند جبل هور في بلاد أدوم، وهو الجبل الذي صعد هرون إليه بناء على أمر من الرب، ومات في مكان كان اسمه بيروث، وقد دفن في جبل هور، وقد خلفه في منصبه ككاهن أعلى ابنه العازر، وعندما سمع عكان بأن الاسرائيليين قد باتوا على مقربة، أنشبوا قتالاً فوق البقعة التي أخاف فيها الجواسيس الناس بإخبارهم عن حجم وتعداد أبناء عكان، وقد هزم الاسرائيليون، لكنهم قاتلوا ثانية، وتمت هزيمة المنتصرين في المكان نفسه الذي انتصروا فيه من قبل، وأرغموا على الفرار.

وكان المنزل الخامس والثلاثون صلمونه.

وكان المنزل السادس والثلاثون فينون، وهذان المنزلان ليسا موجودين في السياق التاريخي، وفيهما تشكى الناس بعد وفاة هرون، ضد الرب وضد موسى، ذلك أنهم كرهوا المن، ولهذا جرى عضهم من قبل الأفاعي.

وكان المنزل السابع والثلاثون أوبوت الذي قيل معناه«ساحر» أو نبية».

وكان المنزل الثامن والثلاثون عبر في بلاد مآب، الذي معناه «كوم من

الحجارة عبرت».

وكان المنزل التاسع والثلاثـون ديبون جاد حيث أنشب الاسرائيليون القتال مع سيحون ملك العموريين، ومع عوج ملك بيسان، وقيل معنى سيحون«إغواء العيون»، ومعنى عوج«الحبس»، ومعنى بيسان«فوضى».

وكان المنزل الأربعون بعد ديبـون جاد في علمون دبلاتاريم التي قيل معناها«إغواء» أو«خجل الطرقات»، وعلى مقربة من هناك، باتجاه أريحا، يوجـد المكان الذي اسمه ثافـون حيث كتب مـوسى سفر التثنيـة، وهنا أيضـاً المكان الذي اسمـه قدمـوس، الذي أرسل مـوسى منه رسـلاً إلى سيحون ملك العموريين.

وكـان المنزل الحادي والأربعـون هو جبل عباريم الموجـود في مقـابل نبـوب، ومعنى اسم جبل عبـاريم هـو«جبل الذين عبروا» فهناك مـات موسى، وتم تشريفـه من قبل الرب بدفنه هناك، وعلى كل حال من غير الممكن رؤية قبره في أي مكان، وقـد خلفه في منصب القيـادة يوشع بن نون، ولهذا أطلق عليه أولاً اسم يشوع.

وكـان المنزل الثاني والأربعـون في المنطقـة السهليـة لبلاد مـآب، على ضفـاف نهر الأردن، على مقربة من أريحا، حيـث نصبوا خيمهم، وامتـد معسكرهم من القفار حتى بيتسرثيم فـوق جبل مآب، وفيها الناس هناك جـرى لعنهم مـن قبل بلعـام المقـدس، الذي اكتراه بلك مقـابل ثمن، ولعنهم من على كـرنيم، فـوق جبـل مـآب، لكـن اللعنات تحولت إلى مباركـات، وكان بلعام جـالساً على ظهر أتانه، عندمـا رأت ملاك الرب واقفاً أمامهـا، وبيده سيف مشهور، وقد تكلمت معـه بشكل إعجازي، ويوجد كهف كـرنيم المتقدم الذكر في جبل مـآب، وقد دعي هذا الجبل باسم«المقطوع» وذلك بسبب انحداره الشـديد، وفي ذلك السهل المتقدم الذكر، وضـع بلك — بناء على نصيحة بلعام — امـرأة في داخل بيت،

وبنى مذبحاً أمام الأبواب هناك، من أجل إمكانية قدوم الاسرائيليين إلى هناك للتضحيـــة لـلأوثان، ومن ثـم اقتراف الزنا مـع بنات مـــآب، وضـلالهم، لكن فنحاص، الكـاهن الغيور، طعن زمبري وعـاهرته معاً بسكين، حتى يمكن إبعاد غضب الرب، وجرى تعداد الناس هنا للمرة الثانية، وكذلك تعداد اللاويين، ومضى الناس من هناك لإنشاب القتال ضـد المدينيين، ومـات بلعـام، ولـدى اقتراب بني إسرائيل من ميـاه نهر الأردن، تراجع النهر، ووقف، وتجمعت مياهـه أمام تابوت عهد الرب، وذلك حتى عبروا جميعـاً، وبعـد هذا، بما أن سبط راؤبين ونصف سبط منشا، قد امتلكا الكثير من الحيـوانات حول الأردن، كانا أول من دخل إلى هناك وتملك، وقـد جلبـوا من قبل يشـوع بمثـابة ضيـوف إلى أرض الميعـاد، إلى الجلجـال، حيث وضعـوا خيمـة عهـد الرب مع خيـام بني إسرائيل.... وجرى بعد هذا إصـدار تحذير إلى بني إسرائيل بعدم جلب أية أوثان إلى الأرض المقـدسـة، أو أن يمتلكوا أياً منهـا هناك، وعـرفت جلجال بمعنى«الدحـرجة» أو«الكشف»، واستـولى بعد هذا سبط يهوذا على اليهودية، واحتلها سبط بنيامين معهم، وكـانا قد استوليا على أريحا، ليس بوساطة الخوف من السيف، وليس أيضاً بضربها بالكباش الناطحة للأسوار، أو باستخدام الأسلحة، بل سقطت أسوارها وتهاوت بعد حمل تابوت عهـد الرب والطواف به سبع مـرات حـولها، ولم يبق فيها أحـد حي باستثناء راحـاب، والذين اختـارتهم للبقاء أحيـاء، واستـولى نصف سبط منشـا وسبط افـرايم على السامـرة، واستـولى سبط زبلون، وسبط نفتـالي، وسبط آشر على الأجزاء العلوية مـن الجليل، وبالطريقة نفسهـا استولت الأسباط الأخـرى على جميع بلاد الملوك الاثنين والثلاثين مابين فلستيا وأدوم.

وعلى بعد ثلاثة أميال من أريحا وعلى ميلين من نهر الأردن تقوم بيت أجلا، وقد ترجمت هذه التسمية بأن معناها«مكان الانعطاف»، لأن أبناء

يعقـوب وأهل بيتـه تحلقوا حـول جسـده، على شكل النائحين، وذلك أثناء جلبهم إيّاه من مصر إلى حبرون، وفي القفـار الواقعة خلف أريحا، توجـد عين الجدي، حيث أخفى داود نفسـه، وقـد قيل بأن عين الجدي الواقعة قـرب البحر الميت، هي البلاد التي جرت العـادة بأن يجلب منها البلسم، حيث يحكى بأنه كـان ينمـو هناك، ولهذا أطلق عليـه اسم«نبيـذ عين الجدي»، وقـرب أريحا وليس بعيداً عن جلجـال يوجد أم كنخـور، وقيل بأن معنى هذا الاسم وادي عخور — أي للفوضى وللحشود — حيث جـرى رجم عخان حتى الموت، لأنه أخـذ أشياء ملعـونة، ووراء أريحا القـديمة، وعلى الجهـة الشرقية من هناك، يوجـد الجلجال المتقـدم الذكـر، حيث قـام يشـوع بختـن الناس للمـرة الثـانيـة، واحتفل بعيـد الفصح، وهنا انقطع المن عن بني إسرائيل، واستخـدمـواخبـز الطحين، وأقـامـوا في هذا المكان الصخـور التي جلبوهـا بعد إخـراجهـا من نهر الأردن، وبقي تابوت العهـد هناك لمدة طويلة، وفي المنطقة الواقعـة فوق بحيرة اسفلت توجـد شوى، وهي مـدينة قـديمة سكن فيهـا فيما مضى شعب قوي، تمّ قهره من قبل كدرلعومر.

وفي العـربية فيما بين عبريم وحـور توجـد الكرك، ومعنى هذا الاسم الأسـد الشجاع وفيهـا أقام بلدويـن أوف بولليون، الذي كـان الكونت الأول للرها، وأول ملوك الفـرنجـة في القـدس بعـد ذلك، أقـام قلعـة حصينة من أجل الاستيلاء على العـربية ووضعها بأيدي الصليبيين، وأن تكون ركيـزة لمملكـة داوود، وباتجاه الجنوب، يوجـد في العــربيـة جبل فاران.

وتتصل العربية بأدوم في بلاد بصرى، التـي هي بوزور التي جاء منها برختيل البوزوري.

وهناك بوزور أخــرى في جبـال أدوم، وهـي التي قـال عنهـا إشعيـا:«من هو ذاك الذي جـاء مـن أدوم في ثيـاب ملونة من بصرى»؟

ووراء بصرى إلى الجنوب، وباتجاه دمشق، توجد منطقة الطرخونية أو الإيطورية، التي كان حاكمها فيليب، وذلك وفق ما جاء في الانجيل.

وتتصل أدوم بسدراخ، التي هي سورية الدنيا(التحتى)، والمدينة الرئيسة في سورية هي دمشق، ولدمشق ثلاثة أسماء هي: دمشق، وآرام، وأرفاد، ودمشق هي المدينة المبجلة وعاصمة سورية، ويفصل لبنان فيما بين سدراخ وفينيقية، وفي فينيقية توجد مدينة صور التي هي Tyre، وهي أهم حاضرة للفينيقيين، وهي التي — حسبما أخبرنا السريان — لم ترض باستقبال المسيح، عندما سار في المناطق القائمة على شاطىء البحر، والتي — وفقاً لما ذكرته الكتابات المقدسة — قدمت عدداً كبيراً جداً من الشهداء، الذين يعرف الرب وحده عددهم، وفي صور قبر أورجين، ويوجد أمام صور صخرة رخامية كبيرة، عليها جلس المسيح، وقد بقيت هذه الصخرة على حالها دون أن يلمسها إنسان منذ أيامه حتى تاريخ إخراج المسلمين من المدينة المقدسة، لكن بعد ذلك أخذ الفرنجة والبنادقة يقتطعون قطعاً منها، وقد جرى بناء بيعة تابعةلكنيسة المخلص فوق الذي بقي من هذه الصخرة، وكان أبولونيوس ملكاً على صور عندما كان أنطيخوس يحكم في أنطاكية، وكان روا Reu وحيرام ملكان على صور، عندما كان سليمان يحكم في القدس، وقد استولى الاسكندر الكبير على مدينة صور بوساطة وصل أسوارها بالبر الرئيسي، لأنه في ذلك الوقت كان البحر يجري من حولها كلها، واستطاع البطريرك واريامندوس Wariamendus صاحب الذكرى المباركة، بفضل وقاية نعمة الرب، بشجاعة حصار صور، بمساعدة البنادقة براً وبحراً، في أيام المملكة الفرنجية، واستولى عليها، وهكذا تمكن بشكل مجيد من توسيع رقعة مملكة داوود.

وعلى بعد ثمانية أميال من صور، باتجاه الشرق، وعلى شاطىء البحر تقع الصرفند، وهي صرفند الصيداويين، وهنا سكن مرة النبي إيليا،

وأقـام مـن الموت يونه ابن الأرملة التي استضـافتـه بلطـف، ومنحتـه الراحة وأطعمته.

وعلى بعد ستة أميال من الصرفند، تقـوم صيدا، التي جاء منها ديدو، الذي بنى قـرطاج في أفـريقيـا، وفسر اسم صيـدا على أنه يعني «السعي وراء الأسقف»، واسم صور «التجارة»، ومن هذه المناطق التابعة لصور وصيـدا، جـاءت المرأة الكنعـانيـة إلى يسـوع،عندمـا كـان يسير في تلك الأجـزاء، وتحدثت إليـه، وتحدث يسـوع إليهـا، وهناك في جبـال صيـدا والصرفند يوجد بلدة جاث حيفر Gath-heper ، التي جاء منها النبي يونه.

وعلى مسافـة ستة عشر ميلاً من صيدا تقـوم بيروت، التي هي مدينة غنية جـداً، ووجد في بيروت تمثال لمخلصنا، صنعـه نيقوديمـوس بيديه، وعندما جرى بعـد أمد قصير من آلام المسيح صلب هذا التمثال وطعنه من قبل بعض اليهــود، من أجل توجيـه إهانة له، تـدفق منه دم ومـاء، وبناء عليـه آمن كثير من الناس بالذي صلب حقـاً، فضـلاً عن هذا فإن كل من جـرى دهنه بالذي تدفق من ذلك التمثـال شفي من أي مـرض كان يعاني منه، مهما كان نوعه.

٤ــ وبنيت دمشق من قبل ألعـازر، خادم ابراهيم، وكـان ذلك فوق المكان الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل، وبناء عليه إن معنى كلمة دمشق «نقطة دم» أو «قبلة دم»، ودمشق موجودة في سـورية، وقد فسرت كلمة سورية بأنها تعني «العالي» أو «المبلل»، وسكن في المنطقة المحيطة بدمشق عيسو، وهي المنطقة التي عرفت أيضاً باسم سعير، أي «الرجل صاحب الشعر الكثيف»، ومعنى كلمة أدم «الرجل الأحمر»، أو «الرجل صاحب الشعر الأحمر»، ومعنى كلمة عيسو «تكسير».

وهناك جـزء من سـورية يدعـى في هذه الأيام أدوم، وهو الذي ورد

ذكره في المزامير بقـوله: «فوق أدوم سـوف ألقي بحذائي»، وقـد دعيت أيضاً باسم أدوم لأن إشعيا قد قال: «من هو ذاك القادم من أدوم، وهو يلبس ثيـاباً ملونة من بصرى»، ويوجد في أدوم جبل سعير، الذي تقـوم دمشق تحته، وسكن في سعير كوريوس الذي قتل كدرلعومر، وفي أرض أدوم، وعلى بعـد ميلين من نهر الأردن، يوجد نهر يبـوق، الذي خاضـه يعقوب عندما كان راجعاً من بلاد الرافدين، وهناك أيضاً حيث تصارع مع الملاك، وغير اسمه من يعقوب إلى إسرائيل.

وعلى بعـد ميلين من دمشـق، يوجـد المكان الذي ظهـر فيـه المسيح لشاول، وهو يقول: «شاول، شاول، لماذا أنت تعذبني»؟، وأشع في ذلك الوقت ضوء عظيم جـداً من السماء حول شاول، وفي دمشق قـام حنانيا بتعميـد شـاول، ومنحـه اسم بولص، وفي دمشق استرد بولص بعـد تعميـده بصره، ومن فـوق أسـوار دمشق أنزل بـولص في داخل سلة، وبذلك هرب من نافذة ونجا من غضب معذبيه ومطارديه.

وقيل إن معنى كلمة «لبنان» «البياض»، وقـد ورد ذكر لبنان في أغنية سليمان في قـوله: «هلمي معي من لبنان ياعـروسي»، وأمـام لبنان ودونه (سلسلة) لبنان الشرقيـة، التي تطل على منطقـة دمشق، وينبع عند سفح لبنان نهرا: أبانا، وفرفر، وهما نهرا دمشق.

ويجري نهر أبانا خـلال جبـال لبنان وسهل عرقـه، ويصب في البحـر الكبير قرب المكان الذي انسحب إليه القديس يوستاخيوس بعد فقدانه لزوجته ولأولاده .

ويجري فـرفـر في سـورية إلى ربله، ثـم إلى أنطاكيـة، ومن هناك يسير مسـافـة عشرة أميـال بعيـداً عن هذه المدينة ليصب في البحـر عند ميناء السويدية.

وجـاء القـديس لـوقـا الانجيلي من أنطـاكيـة، ولهذا السبب عـرف

بالسوري من حيث الانتماء إلى أمة، ومن أنطاكية أيضاً جاء أصل الذنوب، الملك أنطيخوس، وأنطيخوس المشهور، الذي عانى تحت سلطانه المكابيون السبعة مع أمهم... وقد دفنوا مع بعضهم في أنطاكية في كنيسة مبجلة مكرسة على أسمائهم، وفي أنطاكية عانت القديسة بربارا، وعلى شرفها جرى بناء كنيسة جميلة هناك، زينت بالذهب وبأعمال الفسيفساء، وبكثير من الرخام، المختلف الألوان، وفي أنطاكية جلس القديس بطرس على عرش البابوية لمدة سبع سنوات من بابويته، وقد خلفه القديس يوديوس Eudius ، الذي خلفه القديس إغناطيوس، الذي حمل إلى روما مكبلاً بحبل، وقد مات هناك كشهيد، وفي أنطاكية دعي المسيحيون بهذا الاسم للمرة الأولى، لأنهم كانوا يعرفون من قبل باسم الحواريين[الجليليين].

وينبع من سفح لبنان نهرا«أر» و«دان»، وهما الأصلان اللذان يتشكل منهما عند سفح جبل جلبوع، نهر الأردن، وفي الأردن، على بعد ثلاثة أميال من أريحا، رضي المسيح، وتفضل بأن يجري تعميده من قبل متقدمه، وذلك في مكان زأر كالرعد فوقه صوت أبيه، قائلاً:«هذا هو ابني المحبوب، الذي أنا راضٍ عنه تماماً:استمعوا له»، ونزل الروح القدس في هذا المكان على المسيح على شكل حمامه، واغتسل في الأردن نعمان السوري سبع مرات، وذلك بناء على أمر من إيليا، وبذلك شفي من جذامه، ويدعى الوادي الذي يجري فيه نهر الأردن من جبال جلبوع إلى بحيرة اسفلت باسم«الغور»، ويعرف هذا الوادي أيضاً باسم أولون Aulon ، وهذه كلمة عبرية، وهو وادٍ واسع مع سهول منبسطة، وهو مسيج على كلا الطرفين بجبال تمتد طوال الطريق من لبنان إلى قفار فاران، ويمتد وراء أولون وادي بيسان، ويوجد خلف أولون، وعبر الأردن مدينة بعل، وهي مدينة سبط راؤوبين.

وفي وادي أولون، خلف الأردن مدينة بعل معون التي بنيت من قبل

بني راؤوبين، وفي أولـون، فيما وراء الأردن، هناك بيت رام، الـذي بني من قبل سبط جاد.

وفسرت كلمـة أردن، وقيل معناها هـو«النزول»، وهو يفصل الجليل عن أرض بصرى، التي هي المدينة الرئيسـة في العربيـة، ويجري نهر دان تحت الأرض طوال الطريق من نبعـه حتى سهل ميـدان، حيث يظهـر مجراه بشكل مكشوف، وأطلق اسم ميدان على هذا السهل، لأن نهر دان موجود في وسطه، وفي العربية يطلـق اسم ميدان على الفسحة المفتوحة، التي يقابلهـا باللاتينية«السهل» أو«السـاحة»، وعـرف ميدان بهذا الاسم لأنه كان يجتمع فيه كل صيف أعداد لا تحصى من الناس، يجلبون معهم كل شيء يمكن أن يبـاع أو يشترى، ويتـلاقـون مع بعضهم، ويقيمـون هناك، ويكون هنـاك أيضـاً الكثير من الجند الفـرثيين والعـرب لحماية الناس ولاطعام قطعانهم في هذه المراعي الخصبة جداً، وتتألف كلمة دان من اجتماع كلمتي«مي» و«دان»، و«مي» في العـربية تعني«الماء»، و«دان» النهر، ومن هذا السهل يحول دان نفسه إلى نهر، ويمر من خلال السواد، حيث نصب يعقوب المبـارك مايزال قائماً، وهـو مبجل من قبل الاغريق والشعوب الأخـرى، والسواد هذا هو جـزء من بلاد عوص، التي جاء منها يعقوب، ومن السواد جـاء بلداد السوادي، وفي عوص مدينة ثمان، التي هي المدينة الرئيسـة في أدوم، ومن ثماني جاء علفـاز الثماني، ويوجد في عوص أيضاً مـدينة نعمان التي جاء منها سوفـر النعماني، وكان هؤلاء الثـلاثة أصـدقـاء يعقـوب الذين واسـوه، وينعطف دان مستـديراً نحـو طبرية، وذلك دون مـدينة جـدر، قـرب الحمامـات الطبيـة، ويجري عبر مـوضع الأشـواك ليلتقي بالأر، ويشكـل الأر بحيرة ليس بعيـداً عن بانيـاس، ثم يشكل بعـد ذلك بحـر الجليـل، القـائم بين بيت صيـدا وكفرناحوم.

٥ — ومن بيت صيـدا جـاء: بطرس، وأنـدرو، وجيمس، ويوحنا،

وجيمس بن ألفيوس، وعلى أربعة أميال من بيت صيدا تقوم كوروزين، التي سوف تنجب المسيح الدجال الذي سوف يخدع الدنيا، وعن كوروزين وبيت صيدا قال الرب:«الويل لك كوروزين والويل لك بيت صيدا».

وعلى بعد خمسة أميال من كوروزين، تقوم المدينة العظيمة جداً، وهي مدينة جدر، التي قال عنها في المزمور:«ويل لي إذا ما أعقت... عن الحصول على مسكن بين خيام جدر» ومعنى كلمة جدر«الظلام».

وتقوم كفر ناحوم عند رأس البحر، على الجهة اليمنى، وكانت هذه مدينة قائد المائة الذي شفى يسوع ابنه، ولهذا قال عنه:«أنا لم أجد مثل هذا الايمان في إسرائيل»، وصنع الرب كثيراً من المعجزات في كفرناحوم، وغالباً ما علّم في الكنيس، ومعنى كلمة كفرناحوم«البلدة البيضاء»، أو«البنت الأعظم جمالاً»، أو«ابنة الجمال»، وهي كلمات تصف الكنيسة المقدسة، وبناء عليه فإن جميع الذين نزلوا من لبنان، الذي هو بياض الفضائل، صاروا أكثر بياضاً بها وفيها.

وعلى ميلين من كفرناحوم، يوجد الطريق النازل من ذلك الجبل، حيث وعظ الرب الحشود وعلمهم، وعين حوارييه، وشفى هنا المجذوم، وعلى بعد ميلين من ذلك الطريق نزولاً، يوجد المكان الذي أطعم فيه خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة وسمكتين، ولهذا يدعى ذلك المكان باسم«المائدة»، وكأنه كان مكاناً لتناول الطعام، ودونه يقوم المكان الذي ظهر المسيح فيه لحوارييه بعد قيامته، وأكل معهم من سمكة مشوية، وكان ذلك على شاطىء البحر، ومشى الرب على وجه ذلك البحر جاف القدمين، وذلك عندما ظهر حوالي الساعة الرابعة إلى كل من بطرس وأندرو، وكانا آنذاك يصطادان، وهناك أيضاً قال يسوع لبطرس عندما حاول أن يمشي على وجه ماء البحر وأخذ يغرق:«يا ضعيف الإيمان لماذا شككت»؟، وهنا أيضاً في وقت آخر عندما ظن

حواريوه أن أنفسهم بخطر فوق سطح سفينة، جعل البحر يسكن، وعلى شاطىء هذا البحر هناك المكان الذي اسمه جرجوسيا، حيث شفى يسوع على ظهر الجبل، الذين تلبستهم الشياطين، ومنه قامت الخنازير الذين دخلت إليهم الشياطين المتقدمة الذكر، بناء على أوامره، وألقت بأنفسها نحو مكان سحيق، ويوجد عند رأس البحر هوة على جانب اليسار هي جنسارث، المكان الذي يولّد الرياح التي يتم الشعور بها حتى في هذه الأيام، ومن هذه الهوة نالت بحيرة جنسارث اسمها.

وعلى بعد ميلين من جنسارث توجد بلدة المجدل، التي جاءت منها مريم المجدلية المباركة، وهذه هي منطقة جليل الأمم في بلاد سبط زبلون، وسبط نفتالي الذي منه جاء طوبيا، وفي الأجزاء العلوية من هذا الجليل كانت المدن العشرين التي قدمها الملك سليان هدية لصديقه حيرام، ملك صور، وعلى بعد ميلين من المجدل تقوم مدينة سينيرث، التي أطلق عليها اسم طبرية اشتقاقاً من اسم القيصر طايبروس، وهي المدينة التي اعتاد يسوع على التردد عليها في أثناء فتوته، ومنحت هذه المدينة اسمها إلى بحيرة طبرية، وعلى بعد أربعة أميال من طبرية تقوم مدينة بيت أوليا، التي جاءت منها يهوديت، وهي الأرملة الجيدة، التي أنقذت شعبها، وبحذر تولت قتل البابلي اولفرنس، بسكينتها، وكان ذلك بخيمته، وحملت رأسه، وظلته الحريرية المنسوجة بالذهب والأحجار الكريمة، وعادت بها بيديها إلى المدينة، وعلى بعد أربعة أميال عن طبرية باتجاه الجنوب، توجد دوثيم(كذا)، حيث رأى يوسف أخوته يطعمون قطعانهم، وهم الذين لكراهيتهم له، باعوه هناك إلى الإسماعيليين، ومعنى كلمة دوثيم«الطعام»، أو الجزء الأخضر منه.

٦ — وعلى بعد اثني عشر ميلاً من طبرية تقوم الناصرة، وهي مدينة الجليل، ومدينة مخلصنا، لأنه هناك تمّ الحمل به، ونشأ وتربى، ومعنى كلمة ناصرة«الزهرة»، أو «النبتة» وليس هذا من دون سبب، فقد

شهدت فيها هناك نمو الزهرة التي أشبعت ثمرتها العالم أجمع، وتلك الزهرة هي مريم العذراء، التي أعلن لها رئيس الملائكة جبرائيل في الناصرة أن ابن العلي الأعلى ينبغي أن يلد، قائلاً:«حييت يا مريم، المليئة بالنعمة، الرب معك» وله أجابت مريم:«إنني جارية الرب، ليكن بي ما يتوافق وكلمتك».

وعلى بعد ميلين من الناصرة تقوم مدينة الصفورية، وذلك على الطريق الذي يقود إلى عكا، ومن الصفورية جاءت القديسة حنة أم أم يسوع، وعلى بعد ثلاثة أميال من الناصرة، وميلين من الصفورية باتجاه الشرق، في بلاد سبط آشر، توجد قانا الجليل، التي جاء منها فيليب، الذي إليه قال الرب:«يافيليب، إن الذي يراني، يرى أبي أيضاً»، ومثله ناثانئيل الذي عنه قال الرب:«إنه إسرائيلي حقيقي، لا يمكنك أن ترى فيه دنساً».

وفي قانا الجليل، قام يسوع أثناء جلوسه مع أمه في احتفال أحد الأعراس، بتحويل الماء إلى نبيذ، ويوجد في الناصرة جب صغير، اعتاد يسوع في طفولته، أن ينضح منه الماء لاستخدامات أمه، واستخداماته هو نفسه، وعلى بعد ميل من الناصرة باتجاه الجنوب، هناك المكان الذي اسمه«حافة الرابية»، الذي دونه كاد والداه أن يرمياه(يسوع) عندما كان يافعاً، لأنهما غارا منه بسبب حكمته، غير أنه مرّ من بينهما واختفى في لحظة، وعلى بعد أربعة أميال من الناصرة باتجاه الجنوب، يقوم جبل الطور، الذي على ظهره قام يسوع بتغيير شكله، وذلك بحضور حوارييه:بطرس، ويوحنا وجيمس، وكان معه موسى والياس، وهنا أيضاً سمع صوت الآب، وأشع جلالته من حول يسوع، قائلاً بصوت كالرعد:«هذا هو ابني المحبوب، الذي أنا عنه راضٍ تماماً»، وهو قد منع أيضاً بطرس وجون وجيمس من إخبار أي إنسان عمّا رأوه، حتى يقوم ابن الانسان من الموت، وهنا أيضاً قال بطرس:«دعنا نقيم هنا ثلاثة

هياكل، واحد لك، وواحد لموسى وواحد للياس»، وعلى بعد ميلين من الطور، باتجاه الشرق يقوم جبل الحرمون، الذي عنه قال المزمور:«الطور وحرمون سوف يغتبطان باسمك»، وهناك أيضاً حرمون آخر في أدوم قرب لبنان، وعندما كان إبراهيم نازلاً من جبل الطور ، قابل ملكيصادق، الذي كان كاهن وملك سالم، وكان إبراهيم عائداً من قتل أمالك، وقدم له خبزاً ونبيذاً، الأمر الذي يمثل التقدمة التي تعمل عند مذبح يسوع المسيح تحت النعمة.

ومعنى كلمة ملكيصادق«الملك العادل»، وعلى بعد ميلين من الطور توجد مدينة[نعيم] نين التي أقام يسوع عند بابها ابن الأرملة، وردّه إلى الحياة، وفوق نين توجد عين دور، وفي سهل نين بين عين دور والطور يوجد كدوميم، الذي هو جدول قيسون، فعلى ضفاف هذا الجدول، قامت النبية دبورة — بناء على مشورة باراخ بن أبينوئي وتوجيهه بإلحاق الهزيمة بالأدوميين، وذلك في الأيام التي قتل فيها سيسرا من قبل يئيل زوجة حابر الكنتي، وطارد باراخ ذئب وزيح وصلمناع عبر الأردن، وقتلهم بالسيف، وانهزم جيشهم في عين دور، ولهذا قال المزمور:«من الذي هلك جيشه في عين دور، وصار مثل وحل الأرض»، وعلى بعد خمسة أميال من نين توجد مدينة إزرائيل، أي زرعين، ومعنى كلمة إزرائيل«الرب قد زرع»، ولهذا فإن إيزابل، تلك الملكة الشريرة جداً، التي استولت على كرم نابوت، قد رميت أيضاً بسبب أفعالها الشريرة، من أعلى قصرها وماتت، وما تزال آبدتها قائمة، ومن الممكن رؤيتها في هذا اليوم، وقرب يزرائيل يقوم سهل مجيدو، حيث هزم الملك يوشع وقتل من قبل ملك السامرة، وقد حمل من هناك إلى صهيون ودفن هناك، وعلى جبال جلبوع، تقوم القرية التي تدعى زلبوس Zel-bus .

وعلى ميلين من جلبوع تقوم سكيزوبولس، التي هي المدينة الرئيسية

في الجليل، والتي هي بيسان، أي بيت أو مدينة الشمس، وهي التي علقوا على أسوارها رأس شاؤول، ومن نولون Naulon على الأردن، وعلى بعد ثمانية أميال من بيسان تقوم نمّون Nemmon وبيت عنيا، حيث فيها عمّد القديس يوحنا، وذلك حسبما نقرأ في الانجيل، وتوجد في الجليل زرعون، التي إليها أشار إشعيا بقوله: زرعون موجودة في منطقة السباخ، ولهذا فإن المنطقة ما بين الطور وسينارث تدعى زرعون.

والطور قائم في وسط الجليل، وهو جبل طويل ومستدير بشكل رائع، وعلى بعد خمسة أميال من يزرابل توجد مدينة جمنون[كذا]، وبين جنينوم(جنين) ومجيدو موضع الغور حيث قتل ياهو ملك إسرائيل أخزيا ملك يهوذا.

٧ — وعلى بعد عشرة أميال من جنين تقوم السامرة، التي تدعى أيضاً باسم سبسطية وأوغسطة التي جاء منها سمعان مجوس، وفيها دفن اشبين ومتقدم الرب، أي يوحنا المعمدان، الذي أعدم بقطع رأسه من قبل هيرود عبر الأردن في قلعة مكرونتا، قرب البحر الميت، وقد جلب من هناك من قبل تلاميذه، ودفن بين إليجا وإيليا، وقد أخبرنا فيما بعد أن جسده قد نبش عنه وأخرج من قبل يوليان المرتد، وأحرق، وذر رماده في الهواء، وذلك باستثناء رأسه، الذي كان قد نقل قبل هذا إلى الاسكندرية، ومنها نقل بعد ذلك إلى القسطنطينية، ومنها إلى بواتيه في فرنسا، وأيضاً باستثناء إصبع السبابة، التي أشار بها إلى يسوع عندما كان قادماً للتعميد قائلاً:«انظروا حمل الرب، انظروا إلى الذي سوف يزيل ذنوب الدنيا»، وجلبت العذراء تقلا المباركة معها سبابته إلى الألب، وحفظتها هناك وسط تبجيل عظيم جداً، في كنيسة القديسة جين دي مورين، والسامرة هو الاسم الذي يطلق على كل من المدينة والمقاطعة، وفي السامرة توجد شونام Sunam ، حيث منها جاءت المرأة

الشونامية، وتلفظ كلمة شونام شنيم Sanym، وفي السامرة توجد تيرسيليا Tersilia التي جاء منها مناهن، وعلى مسافة أربعة أميال من سبسطية توجد مدينة نابلس، التي تدعى أيضاً باسم شكيم، ومن شكيم جاء أبو عمور، وهي قائمة بين دان وبيت إيل، ومن شكيم حملت تلك البلاد اسم بلاد شكيم، وكانت شكيم مدينة عمور الذي ضاجع دينة ابنة يعقوب، وذلك عندما كانت تسير في تلك المنطقة إثر عودتها من بلاد الرافدين، وقد جلبت عظام يوسف واستعيدت من مصر إلى شكيم، ودفنت هناك، وعلى مقربة من الجب الموجود في شكيم صنع يربعام العجلين الذهبيين، مما جعله يتسبب بعبادتها من قبل العشرة أسباط الذين أضلهم، واقتادهم معه بعيداً عن القدس، وقد وضع واحداً من هذين العجلين في دان، ووضع الثاني في بيت إيل، وقد دمر أبناء يعقوب مدينة شكيم هذه وقتلوا عمور لغضبهم من مضاجعته لأختهم دينه، وتدعى شكيم في هذه الأيام باسم نابلس، أي«المدينة الجديدة». وقرية شيكار واقعة خارج شكيم، وذلك قرب البلاد التي أعطاها يعقوب إلى ابنه يوسف، وفيها يوجد نبع يعقوب، الذي هو أيضاً بئر، وهو الذي — تبعاً لرواية الانجيل — جلس يسوع إلى جانبه عندما كان منهكاً بسبب سفره، وتحادث مع المرأة السامرية، وقد بني الآن فوق تلك البقعة كنيسة، وعلى مقربة من شكيم توجد شجرة البطم، التي أخفى يعقوب تحتها أصنامه، ويؤكد السامريون أن مدينتهم مظللة بجبلين مشهورين هما جبآل في الشمال، وجرزيم في الجنوب، لكن جيروم نقض هذا التأكيد وأعلن أن هذين الجبلين في أرض الميعاد في مقابل أحدهما الآخر، فأحدهما فوق أريحا(أي جبآل) عند المكان، الذي بنى فيه يوشع — بناء على أوامر من موسى — مذبحاً للرب بحجارة غير منحوتة، وجرزيم على مقربة من هناك، وقد قال بأن أصوات الرجال وهم يباركون ويلعنون مسموعة من أحدهما إلى الآخر، الأمر الذي من غير الممكن القيام به وحدوثه فوق

الجبلين المطلين على نابلس.

وعلى بعد ثمانية أميال من شكيم، باتجاه الجنوب، تقوم مدينة تمنة، وهي مدينة يوشع، حيث مات فيها، وحيث ضريحه ما يزال موجوداً، وعلى مسافة ميل من شكيم توجد بيت إيل، التي كانت تعرف من قبل باسم لوزة، وهي تدعى باسم أولام Olam في العبرية، وقد عاش هنا إبراهيم لمدة طويلة، وهنا أيضاً رأى يعقوب أثناء نومه السلم الواصل إلى السماء، والملائكة يصعدون وينزلون، وبناء عليه أفاق على الفور وقال:«هذا المكان في الحقيقة مقدساً، وهذا هو باب السماء».

وقد أقام هناك صخرة تخليداً لما رآه، وصب عليها زيتاً، وصار المكان يعرف باسم بيت إيل، وهو المكان الذي كان اسمه قبل لوزة، وفي بيت إيل كان إبراهيم — بناء على أمر من الملاك — على وشك التضحية بابنه اسحق(؟).

وعلى بعد اثني عشر ميلاً عن شكيم، وأربعة أميال عن القدس، وعلى الطريق الذي يقود إلى اللد، يقوم جبل شيلوه، ومدينة راما، حيث أقام تابوت العهد وخيمة العهد هناك بانتظار قدوم بني إسرائيل، لابل حتى أيام الملك داود، والنبي صموئيل.

وعلى بعد أربعة وعشرين ميلاً من شكيم، وستة عشر ميلاً من اللد، وستة عشر ميلاً من حبرون، وثلاثة عشر ميلاً من أريحا، وأربعة أميال من بيت لحم، وستة عشر ميلاً من بير السبع، وأربعة وعشرين ميلاً من عسقلان، ومثل ذلك من يافا، وستة عشر ميلاً من الرملة، تقوم مدينة القدس، وهي العاصمة الأعظم قداسة في اليهودية، والتي هي صهيون، ولهذا قيل عنها:«قد قيل بك أمجاد يا مدينة الرب»[مزمور: ٨٧ / ٢] ، وهي أيضاً تعرف باسم إيلياء، اشتقاقاً من اسم إيليوس هدريانوس، الذي أعاد بناءها.

٨ — وعلى بعد أربعة أميال عن القدس، تقوم مدينة بيت لحم، وذلك باتجاه الجنوب، وهي التي قيل عنها:«أما أنت يا بيت لحم، لست بأي حال من الأحوال الأقل بين أمراء اليهودية»[ميخا:٥ / ٢ مع فرق كبير]، وكانت أيضاً تعرف باسم إفراته، ولهذا قيل عنها في المزمور:«هو ذا قد سمعنا به في إفراته»[مزمور:١٣٢ / ٦]، ومعنى كلمة إفراته«المغبرة»، وكانت بيت لحم مدينة يسي:«وزهرة سوف تنبع من جذوره».

وكانت هذه مدينة داود، الذي كان نموذجاً عن المسيح، فقد كان داوود قوي الذراع، ومتورد الوجنات، وقد قتل داود جالوت، وقتل المسيح الشيطان، وكان داود جميل الوجه، وكان المسيح أجمل من جميع أبناء الناس، ومعنى كلمة بيت لحم هو«بيت الخبز»، وهي فعلاً كذلك، ذلك أنها شهدت جلب زهرة الناصرة حيث أنجبت هناك ثمرة الكرمة من العذراء مريم، والمقصود بهذا ابن الرب الحي، الذي هو خبز الملائكة، وحياة العالم كله، ويوجد في بيت لحم قرب مكان المهد، المعلف الذي تمدد فيه الطفل يسوع، ولهذا قال النبي:«الثور يعرف صاحبه،وتعرف الأتان مزود صاحبها»، وقد حمل التبن من ذلك المزود، الذي تمدد فيه الطفل ، إلى روما من قبل الامبراطورة حنة، وأنعم به بشكل مشرف على كنيسة القديسة مريم العظيمة.

وعلى بعد ميل من بيت لحم، باتجاه الشمال، أشع النجم على الرعاة، عندما ولد الرب، وظهر الملاك فيما بينهم وهو يقول:«المجد للرب في الأعالي وعلى الأرض السلام، وللناس المسرة»، وجاء الرجال الحكماء إلى بيت لحم من الشرق، يقودهم نجم جديد، ليعبدوا عمانويل الذي ولد، وليتعبدوه بمثابة ملك الملائكة، وقدموا له هدايا من الذهب، والبخور، والمر.

وأصدر هيرود أمراً بقتل الأطفال الأبرياء في بيت لحم والمناطق

المجاورة، وقد دفن القسم الأعظم منهم على بعد ثلاثة أميال من بيت لحم باتجاه الجنوب، وعلى بعد ميلين من تقوع، وعلى بعد ميلين من بيت لحم، باتجاه الغرب، تقع الرملة، ولهذا عنها كتب:«سمع صوت في رامه»، وتحت الكنيسة في بيت لحم، ليس بعيداً عن مهد الرب، مدفون جسد القديس جيروم، وكذلك فإن الأرملة باولا ويوستاخيوم، الذي كتب جيروم شخصياً رسالة إليه، مدفونان في بيت لحم، وعلى بعد أربعة أميال من بيت لحم باتجاه الجنوب، تقوم كنيسة القديس كاريوث، الذي عندما مات، مات معه رهبانه، لأنه كان راعياً تقياً لهم، وبما أنهم كانوا أتقياء فقد تلقوا إنذاراً مبكراً من الرب بذلك، لأنه كان أباً رحيماً لهم،وهم لم يرغبوا بالعيش بعد موته، في هذا العالم، فقد كان حبهم له عظيماً جداً، وكانوا يهيمون به.

ومن الممكن رؤية قلاياتهم المتعددة في الكنيسة المتقدمة الذكر، على حالها مثل وقت قتلهم لأنفسهم لدى فقدانهم لأبيهم، وقد نقلوا فيما بعد إلى القدس، حيث ترقد أجسادهم كلها في مدفن فخم واحد.

وعلى بعد ميل من بيت لحم، على الطريق الذي يقود إلى القدس، والذي يعرف باسم قبراتا، ومعناه إما«فراش» أو«ثقيل»، هناك موضع قبر راحيل، حيث ماتت بعد وضعها لابنها بنيامين، وحيث أيضاً تولى دفنها زوجها يعقوب، وهناك هي ترقد، وقد بنى يعقوب فوق قبرها كومة مؤلفة من اثني عشرة صخرة عظيمة، وذلك تخليداً لذكرى أولادها الاثني عشر، وقبرها مع هذه الصخور باقٍ حتى هذا اليوم.

٩ — ومدينة القدس، التي هي الحاضرة الرائعة لليهود، قائمة في وسط العالم، ومنها طرد داود شاول، ومن ثم حكم لمدة ثلاثين سنة ونصف السنة، وعن داود قال الرب:«لقد وجدت رجلاً وافق قلبي»، وفي القدس ولد النبي اشعيا، الذي وجد في أيام حكم منشا، ملك اليهودية، وهو الذي تنبأ عن المسيح بشكل أعظم وضوحاً مما فعله غيره

من الأنبيــاء، وقــد مــات شهيــداً، ذلك أنـه شطر إلى قسمين، بسبب الكراهيـة التي نالها، ويوجـد في القـدس جبل مـوريا، الذي عليـه رأى داوود الملاك، وهو يضرب بسيفــه المجـرد، وقــد أنـزل بشعب الرب ضربات مـؤلمة، وخشيـة منه أن ينتقـم الملاك منه شخصيـاً، ومن المدينة أيضاً، لأنه قـام بتعداد الناس، خـرّ على وجهه سـاجداً على الأرض، في توبة صحيحـــة، وأسف عميق، وهنا سمع مسـاحمة الرب لـه وغفـرانه، وقـام فوق جبل مـوريا في أيام حكم داوود أرض بيدر أرونا اليبـوسي، وهذه الأرض أراد داوود أن يشتريها منـه، حتى يتمكـن أن يبني بيتــــاً للرب، لأنه نال غفـرانه وعفـوه في ذلك المكان، ووفره مـلاك الرب ولم ينتقم منه، وكــذلك وفـرّ المدينـة، وأوقف يديه عن القتل هناك، وقــد اشترى داود أرض البيـدر، غير أنه منع من قبل الرب من البناء عليهـا، لأنه كـان رجلاً دمـوياً، ولهذا السبب قام بإعـداداته لابنه سليمان، الذي إليـه منح الرب الإذن بالقيـام ببناء بيت للرب، وعندمـا توفي أبوه، قـام سليمان ببناء هيكل في بيت إيـل، وبنى أيضـاً مـذبحـاً، وكـرس الهيكل للرب، بعـدما أنفق عليـه أموالاً كثيرة جـداً، وقام بإيمان مهيب وتقـوى فسأل الرب أنه كلما طلب منه مطلباً أن يصغي له، وقد منحه الرب هذا الرجاء، ولهذا السبب حمل بيت الرب هذا الاسم«بيت الدعـاء»، وأقول بأن هذا الهيكل قـد جرى تدنيســه وسلبه من قبل الفـرعون نيقـو، ملك مصر، وكـان ذلك في أيام رحبعـام، ابـن سليمان المتقـدم الذكـر، وتمكن نبوخذ نصر في أيام صدقيا، بوساطة كبير طباخيه نبوزردان، من أن يهدم أخيراً كل من الهيكل والمدينة، وقــد أمـر بأن يحمل إليـه كل شيء ثمين كـان هناك في الهيكل أو بالمدينة، وذلك بعـد سلبـه، وأن ينقل إلى بابل، وأمر أيضاً بحمل الملك صدقيا والشعب.

وأعيــد فيما بعـد بناء الهيكل أيام الملـك قـورش من قبل إســدراس الكاتب، ونحميا الكاهن، وأعيد الناس، وأرجعوا تحت قيادة زيروبعل،

ويوشع الكاهن الأعلى، وجرى تدنيس الهيكل فيما بعد وتهديمه من قبل أنطيخوس، ثم أعيدت عمارته في أيام المكابيين، وكذلك جرى تدنيسه من قبل بومبي، الذي أقام فيه، عندما كان فاراً من أمام يوليوس قيصر، وجرى أخيراً تهديم الهيكل للمرة الثالثة، وقلب عاليه سافله حتى أساساته في أيام حكم تيتوس وفسبسيان.

ولسوف أدون في هذه الرسالة — بقدر ما أستطيع — لصالح جميع القراء لهذا الكتاب، الحقيقة حول الوضع الحالي لبيت إيل: إنه في جميع الأحوال ما من أحد يعرف بشكل أكيد من قبل أي أمير، أو في عهد حكم من أعيدت عمارته، فبعضهم يقول: أعيدت عمارته في أيام حكم الامبراطور قسطنطين من قبل أمه هيلانة، وذلك صدوراً عن احترامها للصليب المقدس الذي وجدته هناك، ويقول بعضهم الآخر: لقد أعيدت عمارته من قبل الامبراطور هرقل، صدوراً عن احترامه لصليب الرب، الذي أعاده بشكل ممجد من فارس بعد انتصاره، ويقول آخرون بأن عمارته قد أعيدت من قبل الامبراطور جستنيان، ويقول آخرون: لقد بني من قبل واحد من حكام ممفيس(مصر) تشريفاً«لله الكبير» أي الله العلي الأعلى،ويبرهن على صحة ذلك الكتابات العربية الموجودة عليه، وبناء على هذا كله: إن هذا الهيكل المبجل بتقوى من قبل جميع الناس من جميع الألسن سواء، يستحق أن يدعى باسم الهيكل الرابع، وفي الهيكل الأخير الذي كان موجوداً قبل هذا، جرى ختن الطفل يسوع، في اليوم الثامن من تاريخ ولادته، وجرى عرض جلدة غرلته في الهيكل في القدس من قبل ملاك من السماء، ثم حملت من قبل الملاك، وقدمت هدية إلى الملك شارل الكبير(شارلمان)، وقد نقلت من قبله إلى آخن في غاليا، وبعد هذا نقلت من قبل شارل الجريء، ابن لويس التقي إلى الكنيسة التي بناها على شرف المخلص في كارو Charroux في أكوتين، في مقاطعة بواتيه، وقد أوقف عليها ممتلكات عظيمة، عهد

بإدارتها للرهبان، حيث تعبد هناك بمهابة، من ذلك الوقت حتى اليوم الحالي، وفي يوم طهارة العذراء كان يسوع حاضراً مع أمه في الهيكل، وجرى استقباله وتسلمه من قبل سمعان المبارك، الذي قال له:«الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام»الخ«نور إعلان للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل»[لوقا:٢ / ٢٩ — ٣٣]، وفي الهيكل حرر المرأة من إثمها، بعدما اعتقلت وهي تمارس الزنا، وقال:«دعو الذي بلا ذنب يرمي أول حجر عليها» وقال للمرأة:«أيتها المرأة اذهبي بسلام، ولا تذنبي بعد».

وفتح في الهيكل سفر إشعيا، وشرح بعضاً مما جاء فيه لليهود، ومدح في الهيكل تقدمة الأرملة الفقيرة، التي رمت بها في صندوق الخزينة،لأنها قدمت كل ما كانت تمتلكه.

واعتاد يسوع أثناء إقامته في القدس على تعليم اليهود في هذا الهيكل، وكانوا على كل حال يغارون منه.

وحدث أنه على أعلى زاوية الهيكل، وقف الشيطان ليسوع، يحاول إغواءه وقال له:«إذا كنت ابن الرب ألق بنفسك من هنا»، فأجابه الرب قائلاً:«قف خلفي أيها الشيطان، إنك لن تغوي الرب إلهك»، ومن هذا الهيكل جرى إلقاء القديس جيمس من أعلاه، وهو الذي كان الكاهن الأعلى الأول تحت الغبطة في القدس، وفي الهيكل في القدس جرى إخبار زكريا من قبل الملاك بولادة ابنه يوحنا المعمدان، ولقد حدث مقتل الشهيد زكريا بن براخيا فيها بين الهيكل والمذبح، ولقد اعتادوا في ظل العهد القديم على أن يضحوا على هذا المذبح بثلاث حمائم وطيور، وقد صنع المسلمون من هذا المذبح مزولة، يمكن رؤيتها في هذه الأيام.

وحدث أنه عندما كان بطرس ويوحنا يمران من خلال الباب الجميل العائد لهذا الهيكل، أنه قال للرجل الذي كان محمولاً يطاف به

هناك، لأنه كان أعرجاً منذ ولادته:«إن ما لدي، أعطيك إياه».

ويوجد في القدس بركة الضأن، الذي اعتاد ملاك الرب في أيام يسوع، أن يثير الماء فيها في أوقات محددة، وعندها فإن أول شخص مريض يدخل إلى الماء بعد تحركه، يشفى من أي مرض كان يعاني منه.

وفي الاغريقية معنى كلمة Probatan باللاتينية«ملك الضأن»، لأنه بعد التضحية اعتاد الناس على غسل أحشاء الأغنام هناك، وهذه الأحشاء تكون بالعادة لونها أحمر بسبب دماء الضحايا، وأمام بركة الضأن شفى يسوع المريض وأعاد صحته إليه حيث قال له:«احمل فراشك وامش»، وفي وسط القدس أقام يسوع الفتاة من الموت، وفي القدس جرى سجن بطرس من قبل هيرود، وأطلق بعد هذا سراحه من قبل ملاك الرب، وحمل إلى خارج المدينة من خلال الباب الحديدي، الذي انفتح لهما من قبل نفسه.

وفي أحواز القدس، في وادي أبناء عمون، هناك مكان توفت Toph-et حيث لم يخجل الاسرائيليون من عبادة الأوثان العائدة للأمم، وفي أحواز القدس أيضاً، فيما بين مكان توفت، وحقل القصار، وحق الدم، دون قصر سليمان، وعلى جانب جبل صهيون، وتقريباً في وادي شعفاط توجد بركة استحمام سلوان، التي إليها أرسل يسوع الرجل الأعمى، بعدما ردّ البصر إليه، وقد أرسله إلى هناك حتى يغسل عينيه، وبالفعل غسل عينيه واسترد بصره، وبناء عليه قيل بأن معنى كلمة سلوان«أرسل»، وتأتي مياه سلوان — تبعاً لتقاليد السريان — من شيلوه، ويتدفق نبع سلوان بصمت، لأن مياهه تجري تحت الأرض، وعلى بعد أقل من رمية حجر عن سلوان يوجد جب روجل، وعلى مقربة من روجل توجد صخرة زوحلت Zoheleth ، حيث ضحى أدونيا Adonjiah بأضاحيه.

وفي وادي شعفـاط جرى دفن القـديس جيمس، ونقل بعـد ذلك إلى القسطنطينيـة، ويرقـد في وادي شعفـــاط الملك شعفـاط تحت هرم حـاد الرأس.

وعلى بعـد ميلين من القـدس، وعلى الطـريق الذي يقـود إلى شكيم، يقوم جبل جبعة، وذلك في ديار سبط بنيامين.

وعلى بعد ميلين من القدس، وعلى جانب جبل الزيتون، وذلك باتجاه بحيرة اسفلت تقـوم بيت عنيا، وإلى جانـب جبل الزيتون، وبمـلاصقته يوجد جبل العدوان، وهما منفصـلان عن بعضهما بوساطة الطريق الذي يسير من وادي شعفـاط، ومن خـلال بيت فاجي، إلى بيـت عنيا، وقـد عـرف باسم جبل العـدوان، لأن الملـك سليمان أقـام عليـه صنم ملوخ Moloch وعبده، وبيت عنيا هي القرية التي جاء منها سمعان المجذوم، الذي غالباً مـا استضاف كل من يسوع ومريم، ومـرثا، وتولى خدمتهم بكل إخــلاص وتقـوى، وفي بيت عنيـا غسلـت مـريم قـدمـي يســوع بدموعهـا، ومسحتها بشعرها، ودهنتها بدهن، فنالت الغفـران لذنوبها، ومـدح في بيت عنيـا كل من مـرثا ومـريم، وكـانت مـرثا مهتمـة كثيراً بخدمته، واهتمت مريم بالاصغاء إلى كلماته، وقد أثير بأدعيتهما وبكائهما فأقـام من الموت أخـاهما ألعـازر، وذلك بعـدمـا مضى على مـوته ودفنه أربعة أيام، وقيل بأن معنى كلمة بيت عنيا هو«بيت الطاعة».

وكـانــت بيت فـاجي أيضــاً قـرية كهنة، وهـي«بيت الفـم» أو «بيت الفك»، وجبل الـزيتــون هو جبل الدهـن«المسح» أو جبل الأضحيــة، ووادي شعفـاط هـو وادي الحكم، وفسرت كلمـة القـــدس بأن معناها هو«رؤيا السلام»، وفسرت أيضاً كلمة صهيـون بأن معناها«برج مراقبة» أو «مراقبة».

ومن خـلال هذا الطريق ذهب يسوع إلى القـدس، وكان جـالساً على

ظهـر أتان، وذلك في اليـوم الذي احتفل فيـه بأحـد السعف، ووفق الطريقة نفسها على كل كـاثوليكي يطيع أوامر العلي، أن يمثل في حضرة الكهنة، الأوصياء في عالم الرب، وذلك بغية أن يتسلم منهم التقويم، ثم يمضي في وادي الحكم، أي أن تقـول:ندم التـوبة الحقيقيـة، حتى يحكم على نفسـه هنـاك، ويقـرع البـاب الشرقي، الـذي هو المسيح، الشرق الصحيح، وذلك من أجل أن يتمكن بجـدارة من الدخـول إلى القـدس المقـدسة، وإلى صهيـون السماوية، لكي يتـزين بثـوب السرور، وليحكم معه إلى الأبد.

وعلى جبل صهيـون كـان يسـوع قـد غسل أقـدام حـوارييـه،وهو يقول:«افعلوا هذا وأنتم تتـذكرونني»، وعلى جبل صهيـون تعشى يسوع مع حوارييه.

هنا نهاية وصف بيد للأرض المقدسة.

حاج مجهول

(قرن ثاني عشر)

وصف الأرض المقدسة

على كل من يود الدخول إلى القدس، أن يؤم الشرق دوماً، وأن يدخل من خلال باب القديس اسطفان: فهناك في خارج الباب جرى رجم القديس أسطفان، وعليه أن يسأل في القدس عن الأماكن وفق ترتيبها الصحيح.

ويوجد في القدس ضريح الرب، وعند المدخل إلى أبواب كنيسة الضريح المقدس، ووراء الباب الخارجي، توجد كنيسة أكرا (الجمجمة)، حيث كانت مريم المباركة واقفة، وحيث كان القديس يوحنا واقفاً أيضاً، وذلك عندما قال الرب «انتبهي أيتها المرأة هو ذا ابنك..... يابني هو ذا أمك»، ويوجد خارج باب الكنيسة، على جهة اليسار، مذبح القديس يوحنا المعمدان، ومن داخل الباب، يوجد ثانية على جهة اليمين جبل أكرا (الجمجمة) حيث جرى صلب الرب، ودونه توجد الجلجلة، حيث سقط دم الرب فوق الصخرة، وكان هناك رأس آدم، وهناك قدم إبراهيم أضحيته، وعلى الطرف الآخر عند سفح جبل أكرا يقوم المكان والعمود، حيث جرى جلد الرب، وعلى مقربة منه باتجاه الشرق، وبعد النزول أربعين درجة، يوجد المكان الذي وجدت فيه القديسة هيلانة الصليب المقدس، ويوجد في الكنيسة ضريح الرب، وهناك على مقربة منه، على الطرف الشرقي، وفي وسط السدة هناك، يوجد وسط العالم، حيث تمدد الرب، عندما أنزله نيقوديموس من على الصليب، ويوجد على جهة اليسار سجن الرب، وبالجوار هناك المكان الذي يتعبد فيه الصليب المقدس.

وعلى مقربة من كنيسة الضريح المقدس، تقوم كنيسة القديسة مريم، التي تعرف باسم كنيسة القديسة مريم للاتين، وذلك فوق المكان الذي قيل بأن القديسة مريم المجدلية، والقديسة مريم زوجة كيفاس، قد مزقتا فيه شعريهما، عندما وضع الرب على الصليب، ويوجد هناك مشفى القديس يوحنا المعمدان.(المعطاء)

وعلى بعد رميتي سهم من ذلك المكان يوجد هيكل الرب، الذي بني من قبل سليمان، وله أربعة مداخل، واثني عشر باباً، ويوجد في وسط الهيكل صخرة عظيمة، حيث جرت العادة بوضع التابوت وخيمة العهد عليها، وكان في التابوت آنذاك عصا ابراهيم، وألواح الشريعة، والشمعدانات الذهب، ووعاء المن التي سقطت من السماء، وكانت هناك نار القربان، ومن هناك مايزال يتدفق الزيت الذي جرت العادة أن يمسح به الملك والأنبياء، وعلى مقربة من هذا المكان جرى تقديم ابن الرب، ورأى يعقوب السلم نازلاً من السماء، وعلى جهة اليسار من السدة يوجد النقش التالي:

«ملك الملوك الذي ولد من أم عذراء،

جرى تقديمه هنا، هذه أرض مقدسه.

هنا رأى يعقوب السلم، وهنا بنى

مذبحه. علّنا نتمكن من تعليق أعطيات حوله».

ويوجد على جهة اليمين المكان الذي ظهر فيه الملاك لزكريا، ودون ذلك مكان الاعتراف، الذي كان فيها مضى قدس الأقداس، وهو المكان الذي أطلق فيه الرب سراح المرأة التي أمسكت متلبسة بالزنا، وقد نقش هناك:

«من الذنب حررت أنا الناس

إذا ما اعترفوا بذنوبهم لي».

وهناك جرى الاعلان عن ولادة القديس يوحنا المعمدان، وهناك أيضاً عمود يجري تعبده من قبل المسلمين، حيث يقال بأنه قائم في المكان الذي قام عليه المذبح الذي أقيم فوق البقعة التي أراد ابراهيم أن يضحي فيها بابنه، وهناك أيضاً كنيسة فوق الموضع الذي ألقي عليه القديس جيمس من أعلى الهيكل، ووراء هذا، في خلف الهيكل هناك مذبح قرب المكان الذي قتل فيه القديس زكريا، والباب الجميل هو الباب الذي يؤدي إلى صحن الهيكل.

وعلى الجهة الأخرى من الهيكل، فيما بين الهيكل والباب الذهبي هناك أشجار، فهناك حمل الأطفال الأغصان، عندما ركب الرب على ظهر أتان، وهناك قرب هيكل سليمان، عند زاوية المدينة، توجد عليّة المسيح (المهد؟) وفراش أمه وحمامها، وهناك ضريح القديس سمعان.

وعلى الجهة الشرقية، قرب الهيكل، يوجد الباب الذهبي، وإلى الشمال هناك بركة الضأن، وهناك أيضاً على مقربة منها كنيسة القديسة حنة، والبئر الذي يذهب الحجاج إليه، وعلى مقربة من كنيسة القديسة حنة هناك كنيسة القديسة مريم المجدلية، وباتجاه الشمال، على مقربة من الضريح المقدس هناك كنيسة القديس شارتون.

وعلى جهة الجنوب هناك جبل صهيون، حيث توجد كنيسة جميلة بنيت تشريفاً لمريم المباركة، ففيها فارقت الدنيا ومضت إلى السماء، وقد حمل جسدها الأكثر قداسة إلى وادي شعفاط، وعلى جانب اليسار من هذه الكنيسة هناك بيعة قائمة حيث كانت قاعة القضاء والحكم على المسيح، وعلى جهة اليمين هناك الجليلية، حيث ظهر الرب لكل من سمعان (بطرس) والنساء، وفوق، قرب السدة يوجد المكان الذي نزل فيه الروح القدس على الحواريين، وفي تلك الكنيسة نفسها توجد المائدة

التي تعشى المسيح عليهـا، وذلك عندمـا قال: «خـذوا، وكلوا، هذا هو جسـدي»، ودون ذلك يوجـد المكان الذي غسل فيـه أقـدام حـوارييـه، وهناك يوجـد الحوض الذي حـوى الماء، وفي هذا المكان نفسـه وقف يسـوع عندما قـال: «سلام لكم»، وهنا أيضـاً لمس القديس توما جنب الرب، وعلى طرف اليسـار يوجد مذبـح القديس اسطفان، وذلـك فوق المكان الذي دفن فيه.

وفي خارج الكنيسة هناك كنيسة صغيرة فوق المكان الذي دفن فيه.

وفي خارج الكنيسـة هناك كنيسة صغيرة فوق مكـان قاعة المحـاكمة، حيث جلد الرب، وتوج بتـاج من شـوك، وسخـر منه، وهنا كـان بيت كيفـاس، وخلف جبل صهيون هناك كنيسـة فـوق المكان الذي فرّ إليـه القديس بطرس، وذلك عندما أنكر الرب، وصاح الديك، وباتجاه وادي شعفاط، هناك بركة استحمام سلوان، حيث جرى دفن النبي إشعيا.

ويوجـد فيما بين القدس وجبل الـزيتون، وادي شعفـاط، حيث دفن الحواريون مـريم المباركـة، وهناك يوجـد جـدول قدرون، وهناك أيضـاً البيت الاقليمي الذي كان اسمه جيسماني، فمن هناك أبعد الرب بطرساً وبقية الحواريين، بينما أخـذ يصلي ويدعو قائـلاً: «هل من الممكن يارب» الخ، وهناك أيضـاً الحديقـة، حيث ألقـي القبض عليـه من قبل اليهـود، وعلى مسافـة رمية حجـر من هناك المكان الذي صلى فيـه، وأخذ عـرقه يتصبب منه على الأرض مثل نقـاط كبيرة مـن الدم، وقـرب هذا المكان يوجد ضريح الملك شعفاط، الـذي منه حمل الوادي اسمه، وهناك أيضاً كنيسة فيها دفن القديس جيمس وزكـريا الشيخ العجوز المقدس، وليس بعيداً عن هناك يوجد حق الدم، أو موضع دفن الغرباء.

وصعـد الرب إلى أبيـه من على جبل الزيتـون، وهناك أمر حـوارييـه بالتبشير بالإنجيل إلى جميع المخلـوقـات، وليس بعيـداً عن هناك توجـد

كنيسة صغيرة، فيها تمت تلاوة صلاة الرب، وتحت يوجد كنيسة فيها ضريح القديسة بيلاجيا، بين جبل الزيتون وبيت عنيا تقوم قرية بيت فاجي، التي إليها أرسل بطرس ويوحنا لجلب أتان، وإلى جوارها في بيت عنيا، أقام الرب ألعازر وغفر للمرأة الخاطئة ذنوبها، وهناك كان بيت سمعان المجذوم، وإلى جوار ذلك كنيسة القديسة مرثا، حيث التقت هي ومريم بالرب.

ويمر الطريق الذاهب من القدس إلى بيت لحم من خلال باب داوود، ويمر بكنيسة القديس إلياس، التي بنيت فوق البقعة التي وقف عليها، ويوجد إلى جانب الطريق قبر راحيل، وفي بيت لحم ولد المسيح، وهناك ضريح القديس جيروم، والبئر الذي سقط فيه النجم، وهناك أيضاً صورة تظهر القديسة مريم مع الملوك الثلاثة، وفي الساحة الداخلية هناك قبور الأبرياء، وفي قبو كنيسة العذراء المباركة هناك مذبح قائم فوق المكان الذي ولدت فيه، وليس بعيداً عن بيت لحم هناك الكنيسة القائمة فوق المكان الذي ظهر فيه الملاك إلى الرعاة، وهناك أيضاً كنيسة فوق المكان الذي استراحت القديسة مريم فيه عندما كانت حاملاً بالرب، وعند شرقي هذه الكنيسة يوجد الطريق الذي يقود إلى قبر إبراهيم في حبرون، وذلك على بعد خمسة فراسخ عن القدس، وصنع الرب في هذا المكان نفسه(حبرون) آدم، وليس بعيداً عن هناك كان بيت قابيل وهابيل، وعلى مقربة منها يوجد المكان الذي ظهر الرب فيه لإبراهيم بين ثلاثة، وباتجاه الشرق(الغرب) يوجد المكان الذي حيث فيه مريم إيزابل، وحيث ولد يوحنا المعمدان، وحيث أيضاً سكن زكريا، وعلى بعد ميلين من هناك توجد قلعة عمواس.

ويوجد خارج باب القدس كنيسة الضريح المقدس، وذلك فوق المكان الذي جري قطع خشبته فيه، وفي القدس مكان سجن فيه القديس بطرس، ويوجد في الهيكل نبع ماء الحياة، ولهذا قال النبي:«لقد

رأيت مياهها تخرج»الخ(حزقيال:٤٧ / ١).

وعلى بعد سبعة أميال من القدس يقوم جبل القرنطل، وعند سفح ذلك الجبل هناك حديقة إبراهيم، وعلى مقربة من ذلك المكان توجد مدينة أريحا، وعلى بعد فرسخين من هناك يوجد نهر الأردن، والمسافة من ذلك النهر إلى جبل سيناء تحتاج إلى سفر ثمانية عشر يوماً.

والمسافة من القدس إلى السامرة(شكيم) التي اسمها الآن نابلس هي اثني عشر ميلاً، حيث يوجد البئر الذي تحدث الرب عنده مع المرأة السامرية، وهناك أيضاً الجبل الذي كان إبراهيم سيقدم عليه ابنه، وعلى بعد فرسخين من ذلك المكان توجد سبسطية، حيث جرى إعدام القديس يوحنا المعمدان بقطع رأسه، وحيث رماده محفوظ حتى هذا اليوم.

وعلى بعد فرسخين من هناك يوجد جبل الطور، حيث تغير شكل الرب، وعلى مقربة منه يوجد جبل حرمون، حيث تقوم مدينة نين، التي أقام الرب من الموت، أمام بابها، الابن الوحيد لأمه، وباتجاه الشرق يوجد بحر الجليل، حيث أطعم الرب خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة وسمكتين، وإلى الغرب توجد مدينة الناصرة النبيلة، حيث فيها تمت البشارة إلى العذراء المباركة من قبل الملاك، فهناك كان يوجد بيتها.

وينبغي تعبد هذه الأماكن وأماكن أخرى من قبل المؤمنين.

حاج مجهول
(قرن ثاني عشر، ربما سنة ١١٨٥)
حول بلاد ماوراء البحار

كل من سيزور أرض الميعاد سوف يرى الأماكن التالية كمايلي:

يأتون أولاً إلى مدينة الناصرة، فهناك أعلن الملاك البشارة إلى مريم المباركة، وحملت هي بوساطة روح القدس.

ثم يأتون إلى مدينة القدس، وهناك سوف تجدون في خارج الأسوار المكان الذي رجم فيه القديس اسطفان، ومن هناك سوف تقصدون الضريح المقدس، القائم في وسط مدينة القدس، وعند المدخل إلى كنيسة الضريح المقدس، وعلى جهة اليمين، يوجد المكان الذي عهد الرب فيه بالعناية بالعذراء المباركة إلى القديس يوحنا، وسوف تجدون هناك في داخل الكنيسة الجلجلة، وفوقها يوجد جبل أكرا، حيث جرى صلب ربنا، وسوف تذهبون من هناك إلى المكان الذي عثر فيه على الصليب المقدس، ثم في سدة الكهنة النظاميين ستجدون المكان الذي مدد ربنا عليه بعد إنزاله من على الصليب، ومن ثم لف(بكفن) من كتان، ويقال بأن هذا المكان موجود في وسط العالم، وقد حمل من هذا المكان إلى الضريح المقدس، وعند مدخل الضريح المقدس يوجد المكان الذي جلس الملاك فيه عندما كان ربنا في الضريح.

ونصل بعد هذا إلى جبل الزيتون حيث توجد بيعة القديس المخلص، التي تدعى باسم«قاعة قضاء بيلايطس»، ففي هذا المكان جرى تتويج ربنا، وربط، وبصق عليه، وحكم عليه من قبل بيلايطس، ولسوف تصلون بعد هذا إلى المكان الذي فارقت منه العذراء المباركة الحياة، ثم

إلى مكان عشـاء الرب، حيث أصـدر أوامره إلى حـوارييـه، وغسل أقـدامهم، وهناك أيضاً المكان الذي كـرس فيه جسده، وإلى حيث عـاد إليهم بعـد قيامتـه، وكـانوا جلوسـاً وراء باب مغلق، وخـاطبهم بقـوله:«سلام لكم»، وفي ذلك المكان نزل الروح القـدس على الحواريين في يوم عيـد الحصـاد، وسـوف تجدون بعـد هذا قبر الملك سليمان وقبر القـديس اسطفـان، الذي كان الشهيـد الأول، والمكان الذي جـرى فيـه رسم القـديس اسطفـان، ثم سـوف تأتون إلى المكان الـذي أخفى فيـه القديس بطرس نفسه، عندما أنكر المسيح.

ثم تأتون بعد هذا إلى نبع سلوان، حيث غسل الرجل الأعمى عينيه، واسترد بصره مبـاشرة ومن هناك تمضـون إلى هيكل الرب حيث جـرى تقـديـم المسيح، وقـد تسلمـه هناك سمعـان، وتذهبـون من هناك إلى القديسة حنة.

ومن ذلك المكان إلى وادي شعفاط، حيث سوف تجدون ضريح مريم العـذراء المبـاركة، وبجـوار ذلك المكان، يوجـد الموضع الذي ربط فيـه الرب، ثم إنكم تصعـدون إلى جبل الزيتـون، حيث ستجـدون المكان الذي صعد منه ربنا إلى السماء، وهناك أيضاً كنيسة تدعى«كنيسة الصلاة الربانيـة»، ومن هناك تذهبون إلى بيت عنيـا، حيث أقام ربنا ألعـازر من الموت، وهناك كنيسة القديسـة مريم المجدلية، وهناك صخـرة كان الرب جالساً عليها عندما جاءت مرثا إليه، وتمضون من هناك إلى نهر الأردن.

ومن ثم إلى بيت لحم، حيـث ستجـدون المكان الذي ولد فيـه ربنا، وهناك المعلف الذي تمدد فيـه، وبعـد هذا إلى الموضع الذي حمل إليـه الملاك البشائر الطيبة، والسرور العارم إلى الرعيـان(لوقا:٢) قائلاً:«المجد للرب في الأعـالي، وعلى الأرض»الخ، ومن هناك إلى مكـان البطريرك إبراهيم المقـدس، وبعـد ذلك إلى المكان الـذي ولد فيـه القـديس يوحنا المعمـدان، ومن بعـد إلى البئر الموجود في عمـواس، حيث كـان ربنا يوم

- ٣٩٠٩ -

عيد الفصح، وقد عرفوه من خلال كسر الخبز.

ومن هناك إلى جبل الطور، حيث تغير شكل ربنا.

والذي مع الرب الآب، ومع الابن، باتحاد مع الروح القدس، سوف يحكم إلى أبد الآبدين، آمين.

٢
أرنول
(١٢٢٠ م)

مدينة القدس

وصف أوضاع مدينة القدس والأماكن المقدسة في هذا اليوم

نظراً لرغبــة أحسن المسيحيين في الحديث عن مـدينـة القـدس، وعن الأماكـن المقدسة التـي عاش فيها يسـوع المسيح ومـات، ولتوفر الـرغبة بالسماع عنهـا، سوف نحـدثكم عنها، كيف كـانت أيام استيلاء صـلاح الدين والمسلمين عليها، وانتزاعهـا من المسيحيين، ولعل هناك العديد من الناس الذين يرغبـون بسماع هذه الأشيـاء، أمـا الـذين لن يسرهـم ذلك، فيمكنهم المرور مرور الكرام بهذا المكان.

— ١ —

جبل صهيون — دير وكنيسة سيدتنا — البيت الذي صنع فيه يسوع عشاءه، والمكان الذي ظهـر فيه لحوارييه، حيث أراهم جـروحه، وحيث صعد إلى السماء، وحيث أرسل الروح القدس، وحيث توفت سيدتنا.

لم تعد مدينة القـدس الممجدة قائمة في المكان الذي كانت قـائمة فيه، عندما كان يسوع المسيح على الأرض، وعندمـا صلب، وعندما قام ثانية من الموت وعاد إلى الحياة، فعندما كـان يسوع المسيح على الأرض،كانت مـدينة القدس قـائمة فـوق جبل صهيون، غير أنها لم تعـد قائمـة هناك، والذي هناك الآن هو فقط دير للـرهبـان، وفي هذا الدير توجـد كنيسـة مـريم المقدسـة، ولقد أخبرنا، أن المكـان الذي تقوم الكنيسـة فيه، كـان البيت الذي تعشى فيه يسوع المسيـح مع حوارييه في يوم خميس (Jeudi Absolu)وشرع فيـه القـداس على المذبح، [وفي هـذه الكنيسـة يوجـد المكان الذي ظهـر فيــه لحوارييـه في يوم عيـد الفصح عندمــا قـام من الموت]، وفي هذه الكنيسـة المكان الذي أرى فيه الجروح التي كـانت في يديه وقدميـه وجانبـه، أراهم إلى القديس تومـاس في اليوم الثـامن لعيد الفصح، وأخبره أن عليـه أن يعطيه إصبعه حتـى يضعه على جانبـه، من

أجل أن يصدقه بثبات ودون أدنى شك، ولكي لا يكون غير مؤمن، بل أن يكون مؤمناً، وهناك أيضاً ظهر في يوم صعوده لحوارييه، عندما جاء لوداعهم، وليعرج إلى السماء، وقد رافقوه من هنا إلى جبل الزيتون، من حيث صعد إلى السماء، ثم عادوا من هناك إلى مكانه نفسه وانتظروا الروح القدس، وفقاً لما أمرهم به يسوع المسيح، فقد أمرهم بوجوب العودة إلى المدينة وأن عليهم انتظار الروح القدس، التي وعدهم بقدومها، وأرسل إليهم وهم في هذا المكان نعمة روح القدس، وذلك في يوم عيد الحصاد، وكذلك يوجد في هذه الكنيسة المكان الذي توفيت فيه مريم المقدسة في الجليلية، ومن هناك حملها الحواريون إلى وادي شعفاط، ووضعوها في ضريحها.

— ٢ —

ضريح وكنيسة سيدتنا في شعفاط، وكنيسة سيدتنا على جبل صهيون، ودير الكهنة النظاميين.

يوجد فوق موقع ضريح مريم المقدسة كنيسة يدعونها باسم كنيسة مريم المقدسة في شعفاط، وهي تمتلك ديراً للرهبان السود، وتدعى كنيسة جبل صهيون باسم كنيسة مريم المقدسة لجبل صهيون، ولها دير كهنة نظاميين، وهذان الديران موجودان خارج أسوار المدينة: واحد فوق الجبل، والآخر في الوادي ، والدير الموجودعلى جبل صهيون، قائم على يمين المدينة، في جهة الجنوب تماماً، والذي في وادي شعفاط ، قائم باتجاه الشرق، بين جبل الزيتون وجبل صهيون.

— ٣ —

كنيسة الضريح المقدس والجمجمة

كانت كنيسة الضريح المقدس وجبل أكرا(الجمجمة) حسب وضعها الحالي، في أيام يسوع المسيح، عندما صلب، خارج الأسوار، في حين هي

الآن في وسط المدينة، والمدينة كـذلك قائمـة على السفـوح المتجهة نحـو جبل الزيتون في الشرق خلف وادي شعفاط.

— ٤ —

الأبواب الأربعــة — باب وبرج داود — البـاب الخلفي نحــو جبل صهيون — كنيسة القديس جيمس أوف غاليشيا Galicia .

يوجد في مدينة القدس أربعة أبواب رئيسية، متصالبة، كل واحد منها أمام الآخر، وذلك بين أبواب خلفية، وسأتولى الآن تقديم أسماءهم لك حسبمايلي:

باب داود، هو باتجاه الغرب، وهو يواجه تمامـاً الباب الذهبي، المتجه نحو الشرق، وذلك خلف «كنيسـة الهيكل»، وهذا الباب عـائد إلى برج داود، ولهذا السبب دعـي باسـم باب داوود، وتنعطـف من داخـل هذا البـاب نحــو اليمين، إلى شـارع هناك، ومن قــرب برج داوود يمكنك الذهاب إلى جبل صهيـون،[وذلك بوساطة باب خلفي مـوجود هناك]، ويوجــد في ذلك الشـارع، وأنت ذاهب نحــو البـاب الخلفـي، كنيسـة القديس جيمس الغاليشي، الذي كان أخاً للقديس يوحنا الانجيلي، وقد قيل بأن رأس القديس جيمس قـد قطع هناك، ولهذا جرى بناء الكنيسة في ذلك الموضع.

— ٥ —

شـارع داوود — شـارع البطريرك — باب بيت الاسبتـارية وكنيسـة الضريح المقدس — شـارع جبل صهيون — شارع العشـابين — سوق السمك — السـوق الكبير — حـوانيت الصـاغـة — الحجـاج مما وراء البحر — دير القديسة مريم الكبير — دير القديسة مريم للاتين — بيت الاسبتارية.

الطريق الكبير هو الطريق الذي يمضي مباشرة من برج داوود إلى الباب الذهبي، ويدعى هذا الطريق[من هناك حتى نقطة التبديل] باسم طريق داوود ، ويوجد في الجهة الشرقية من برج داوود منطقة واسعة يبيعون القمح فيها، ولدى سير الانسان نزولاً مسافة أبعد قليلاً عن طريق داوود هذا، يصل إلى طريق قائم على جهة اليسار، يدعى باسم طريق البطريرك، لأن البطريرك يسكن في رأسه، وهناك باب قائم على جهة اليمين من شارع البطريرك ، من خلاله يمكن للانسان الدخول إلى بيت الاسبتارية، ويوجد بعد هذا باب ، يدخل الانسان منه إلى كنيسة الضريح، لكن هذا ليس الباب الرئيسي.

وعندما تأتي إلى التحويلة، حيث نهاية طريق داوود، هناك طريق يدعى طريق جبل صهيون، لأنه يمضي مباشرة إلى جبل صهيون، ويوجد على يسار التحويلة طريق مغطى، وهو طريق مقنطر، اسمه طريق العشابين، حيث يبيعون الأعشاب، وجميع فواكه المدينة وتوابلها، ويوجد عند رأس هذا الطريق مكان يبيعون فيه السمك، ويوجد خلف هذا السوق الذي يبيعون فيه السمك، مكان واسع جداً، على جهة اليسار، يبيعون فيه الجبن، والدجاج، والبيض، والطيور، وعلى جهة اليمين لهذا السوق توجد حوانيت الصاغة السوريين، ويبيعون هناك سعف النخيل التي يجلبها الحجاج من بلاد ما وراء البحر.

وعلى جهة اليسار من السوق حوانيت الصاغة اللاتين، وعند نهاية هذه الحوانيت هناك دير للراهبات، يعرف باسم دير القديسة مريم الكبير، وبعد دير الراهبات هذا يوجد دير للرهبان السود، اسمه دير القديسة مريم للاتين، ثم يلي ذلك بيت الاسبتارية، وهنا يقوم باب الاسبتارية الرئيسي.

— ٦ —

البـاب الرئيسي ومكان الضريح المقـدس — كنيسـة القـديس جيمس لليعـاقبـة — أكـرا — الجلجلة — برج الناقـوس — بيعـة الثـالوث المقدس.

على يمين المشفى هناك الباب الرئيسي للضريـح، وأمام باب الضريح هذا هناك ساحـة مفتوحة جميلة جداً، وهي مبلطة بالرخـام، ويوجد على جهـة اليسـار للضريح كنيسة تـدعى كنيسة القـديس جيمس لليعـاقبـة، وعلى جهة اليمين، ومـلاصق لباب الضريح هذا، يوجد درجـات يصعد الانسـان بوساطتهـا إلى جبل أكـرا، ويوجد على قمـة الجبل بيعـة فائقـة الجمال، وهناك باب آخـر في هذه البيعة، يدخل الانسـان منه ويصعد إلى كنيسة الضريح، وذلك بوسـاطة درجات أخرى مـوجودة هناك، وذلك كأن الانسان يدخل إلى الكنيسة.

وعلى جهـة اليمين، وتحت جبل أكـرا، هناك الجلجلة، وعلى جهـة اليسار يوجـد برج الناقوس العائـد للضريح، وبيعة كـانت تعرف باسم بيعة الثـالوث المقدس، وهذه البيعة واسعـة جداً، ذلك أنها المكان الذي يجري فيـه زواج جميع نسـاء المدينة، وهناك الجرن الذي يجري تعميـد أطفـال المدينة فيـه، وهذه البيعـة مـلاصقـة للضريح، ولهذا هناك باب يشكل مدخلاً إلى الكنيسة.

— ٧ —

آبدة الضريح — كنيسـة الضريح المقدس — سـدة جوقـة المرتلين في الضريح المقدس — مذبح الاغريق — البوصلة.

يوجـد على يمين هذا البـاب الضريح، وفي هذا المكان، حيث يوجـد الضريح، نجـد أن الكنيسـة مستديرة تمامـاً، وهي مفتـوحـة من الأعلى، بدون أي غطـاء، وفي داخل الآبـدة هناك صخـــرة الضريـح، والآبدة

مقنطرة من الأعلى، وعند رأس هذه الأبدة، أي تماماً عند رأس مذبح هناك في الخارج مذبح يطلقون عليه اسم«المطهر»، وينشدون هناك يومياً قداساً عند شروق الشمس، ويوجد هناك مكان جميل جداً، كله مستدير حول الضريح، وهو بأكمله مبلط: وبذلك يمكن للناس القيام بمسيرة حول الضريح، وبين الشرفة حيث يغني الكهنة النظاميون وبين الأبدة، هناك مذبح، عنده يتولى الاغريق الانشاد، ويوجد مكان مغلق بين الجهتين، وهناك بينهما يمضي الانسان من خلاله من مكان إلى آخر، وفي وسط شرفة الكهنة النظاميين هناك قطعة من الرخام، تدعى«البوصلة»، ويقرأون هناك الانجيل.

— ٨ —

أكرا(الجمجمة)

وعلى جهة اليمين للمذبح العلوي لهذه الشرفة يقوم جبل أكرا، وفي أثناء تلاوة قداس القيامة يقوم الشماس عندما يقرأ في الانجيل كلمة«صلب» بالتوجه نحو جبل أكرا، ثم يلتفت نحو الضريح وذلك عندما يقول:«Surrexit, non est hic»، ثم يشير بإصبعه عند الوصول إلى قوله:«Eue Locus ubi Posuerunt eum»، ثم يعود إلى الكتاب، وينتهي من قراءة الانجيل.

— ٩ —

الكهنة النظاميون ومكاتبهم الوظيفية — الرواق المغلق — بيعة القديسة حنة(هيلانة) — المهجع والمطعم.

يوجد عند رأس الشرفة باب يدخل منه الكهنة النظاميون إلى أماكنهم: وعلى جهة اليمين بين هذا الباب وجبل أكرا هناك حفرة عميقة، ينزل إليها الانسان بدرجات، ويوجد هناك بيعة اسمها بيعة القديسة هيلانة، فهناك وجدت القديسة هيلانة الصليب، والمسامير

والمطرقـة، والتاج، وكـانوا قد اعتـادوا في أيام وجود يسـوع المسيح على الأرض على رمي الصلبـان في الحفـرة، بعـدمـا يفـرغـون من صلب اللصوص، وكـذلك الأطراف التي كانوا يقطعـونها من المجرمين، وبناء عليـه أطلقـوا على هذه التلة اسـم جبل أكـرا(الجمجمـة)، لأنهم كـانوا ينفذون هناك الأحكام، ومـا كانت تأمر به الشريعة، وكـانوا يلقون على هذا الجبل الأطـراف التي كـانوا يقطعـونها لدى تنفيـذ الأحكام على المدانين من قبل الشريعـة، وعندمـا يخرج الكهنة النظاميـون من الضريح المقـدس، هناك على جهـة اليسـار مهجعهم، وعلى جهـة اليمين المطعم، الذي هو مـلاصق لجبل أكـرا، وبين هـذين المكتبين هناك رواقهم المغلق وأرضهم التي يمشون عليها، ويوجد في وسط هذه الساحة مكان واسع مفتوح، منه يستطيع الانسان أن ينظـر إلى علية هيلانة في الأسفل، وغير ذلك لا يستطيع الانسان أن يرى شيئاً.

— ١٠ —

شارع العشابين — شارع الطبيخ — الشارع المغطى

أمـا وقد أخبرتكم عن الضريح وحـدثتكم كيف هو، سيكون مفيـداً العـودة إلى التحـويلة، فقبل التحويلـة وملاصق لشـارع العشـابين(الآن سـوق اللحم) هناك شارع اسمـه شارع الطبيخ(الآن سـوق العطارين)، وهـم يطبخــون في الشــارع الطعــام للحجــاج، ويبيعــونه، ويغسلون رؤوسهم، ويوجـد أمـام شـارع الطبيخ هذا شـارع يدعى الشـارع المغطى(الآن ســوق الخواجــات)، وهناك يبيعــون الأمتعــة، وهو كله مقنطر، ويذهب الانسان من خلال هذا الشارع إلى الضريح المقدس.

— ١١ —

شـارع الهيكل — مـوضع الجذارين — المشفى — الجسر — كنيسـة صنجيل — الباب الجميل.

سنترك التحويلة الآن، وسوف نذهب إلى الباب الذهبي، والطريق الذي يأخذ الانسان من التحويلة إلى الباب الذهبي، هو طريق الهيكل، وقد أطلق على هذا الطريق اسم طريق الهيكل، لأن الانسان يأخذ هذا الطريق إلى الهيكل، وكذلك إلى الباب الذهبي.

ولدى مضيك نزولاً عبر هذا الطريق تصل إلى موضع الجذارين، وذلك على جهة اليسار، وذلك حيث يبيعون لحم البلدة، ويوجد على جهة اليمين هناك شارع آخر، يذهب الانسان من خلاله إلى المشفى الألماني، ولذلك يدعى هذا الطريق باسم طريق الألمان، وعلى جهة اليسار، يوجد على الجسر كنيسة صنجيل، وعلى رأس هذا الشارع هناك باب يدعى باسم الباب الجميل، وذلك لأن يسوعاً المسيح دخل من هذا الباب إلى مدينة القدس عندما كان موجوداً فوق الأرض، وهذا الباب موجود في السور فيما بين سور المدينة والباب الذهبي.

— ١٢ —

الهيكل — البلاط — قصر سليمان — مسكن الداوية — كنيسة الهيكل والدير هناك.

الهيكل قائم بين سور المدينة، وسور الباب الذهبي، وهناك ساحة واسعة طولها أكثر من رمية سهم وعرضها أكثر من رمية حجر، موجودة قبل أن يدخل الانسان إلى الهيكل، وهذه الساحة مبلطة ولهذا السبب عرفت باسم البلاط، وإذا ما قدمنا من الباب القائم على جهة اليمين، نجد هيكل سليمان، وهناك يعيش رهبان الداوية، وفيما بين الباب الجميل والباب الذهبي هناك كنيسة الهيكل، وهذه مرتفعة، لذلك يصعد إليها الانسان بدرجات، ولدى الصعود على هذه الدرجات يجد الانسان منطقة واسعة كلها مبلطة بالرخام، تشكل رصيفاً عريضاً، ويمتد هذا الرصيف حول إطار كنيسة الهيكل بشكل كامل، وكنيسة

الهيكل مستديرة تماماً، ويوجد على جهة اليسار للرصيف المرتفع العائد للهيكل، مكان سكنى راعي الدير، والكهنة النظاميين، ويوجد في هذا الجزء هناك درجات، يصعد الانسان عليها إلى الهيكل، ويكون صعوده من الرصيف المنخفض إلى الجزء العلوي.

— ١٣ —

البيعة المقامة حيث استشهد القديس جيمس — المرأة التي كانت مذنبة — الباب الذهبي — باب سليمان — باب شعفاط.

باتجاه الشرق وإلى جوار كنيسة الهيكل، هناك بيعة القديس جيمس[الرسول] الصغرى، لأنه هناك استشهد، عندما رماه اليهود من أعلى الهيكل، وفي داخل هذه البيعة يوجد المكان الذي أنقذ فيه يسوع المسيح المرأة المذنبة، التي كانوا على وشك القيام بقتلها، لأنهم أمسكوها وهي تزني، وقد سألها عندما حررها:أين هؤلاء الذين اتهموك؟ وقد أجابته بأنها لا تعرف، ثم إنه قال لها بأن عليها الذهاب، وأن لا تذنب بعد الآن، وعند نهاية الرصيف، باتجاه الشرق، يذهب الانسان نزولاً بوساطة بعض الدرجات حتى يصل إلى الباب الذهبي، وبعد نزوله هذه الدرجات يجد فسحة واسعة، تمتد حتى الباب الذهبي، وكانت هذه هي الساحة التي صنعها سليمان، وما من أحد يمكنه المرور من هذه الأبواب لأنها مغلقة، اللهم إلاّ مرتين في العام، عندما تجري إزالة الجدار المغلقة به، ويكون ذلك في يوم أحد السعف، وذلك عندما يمضون في مسيرة، لأن المسيح قد مرّ من هناك أثناء مثل هذا اليوم، وجرى استقباله بمسيرة. وكذلك يكون الأمر يوم عيد الصليب المقدس، وذلك في شهر أيلول، لأن الصليب جلب إلى القدس من خلال هذا الباب، وكان ذلك بعدما انتصر الامبراطور هرقل على فارس، وأعاده وأدخله من خلال هذا الباب إلى المدينة، فآنذاك استقبل من قبل مسيرة، وبما أنه ما من أحد قد خرج قط من المدينة من خلال هذا الباب، هناك باب

خلفي مــوجـود على الطـرف، يدعى باب شعفــاط، والذين يرغبــون بالذهاب إلى خــارج المدينة من هذه المنطقـة، يذهبـون من خـلال هذا البـاب الخلفي، وهذا الباب الخلفـي موجـود على جهـة اليسار بالنسبـة للباب الذهبي.

— ١٤ —

الكنيسـة المسماة بكنيسـة المهد — كنيسـة الهيكل — الأبواب الأربعـة — الدير.

تنزل من جهـة اليمين من الرصيف الأعلى العـائـد للهيكل إلى الجزء المنخفض، ومن هنـاك يذهب الانســان إلى هيكل سليمان، وعلى جهــة اليســار، ولدى مضيك في الأسفل مـن الرصيف الأعلى، هناك كنيســة تدعى كنيسـة المهـد(سرير عيسى في الزاوية الجنوبيـة الشرقيـة للحـرم)، وكـان يوجد هناك المهـد الذي عـاش فيه الرب خـلال طفولتـه، وذلك حسبما يقـولون، وتمتلـك كنيسـة الهيكل الآن أربعـة أبواب متصــالبـة، ويواجه البـاب الأول الغرب، وهو الباب الـذي يدخل منه الانسان من المدينة إلى الهيكل، ويمكنك أن تدخل بوساطة الباب الآخـر المتجه نحو الشرق إلى بيعة القديس جيمس، ومن خـلال هذا الباب يمضي الانسان أيضـاً ويخرج إلى البــاب الذهبي، ويمكنك أن تذهب بوســاطة البـاب المتجـه نحو الجنوب نحـو هيكل سليمان، أمـا الدخـول إلى الدير فيكون بوساطة الباب المتجه نحو الشمال.

— ١٥ —

البـاب الذهبي — باب القـديس اسطفان وكنيستـه — الاسطبل — بيت المجذومين — باب القديس ألعازر الخلفي.

أمــا وقـد وصفت لـك الهيكل والضريح حسبما هما الآن، والمشفى، والشـوارع التي تنطلـق من باب داود إلى البـاب الذهبـي، وهما البابان

اللذان أمام بعضهما بعضاً، أولهما متجه نحو الشرق، والآخر متجه نحو الغرب، ولسوف أحدثك الآن عن البابين الآخرين، اللذان أحدهما فوق الآخر، وبينهما: إن الباب المتجه نحو الشمال اسمه باب القديس أسطفان، ومن هذا الباب يدخل الحجاج إلى المدينة، وكذلك جميع القادمين من عكا إلى القدس، وأيضاً الذين يقدمون براً من النهر القائم إلى جانب البحر من جهة، وإلى جانب عسقلان من الجهة الأخرى.

ولدى دخول الانسان لهذا الباب، يجد في الخارج، على جهة اليمين كنيسة القديس أسطفان حيث يقال بأن القديس اسطفان قد رجم هناك، وأمام هذه الكنيسة، وعلى جهة اليسار هناك بناء كبير جداً، وكان اسمه الاسطبل Anerie ، فهنا جرت العادة بإيواءالحمير،والخيول الموسومة، العائدة للاسبتارية، ولهذا أطلق على المبنى اسم الاسطبل، وقد جرى هدم كنيسة القديس اسطفان هذه من قبل صليبيي القدس، قبل حصارهم، لأن الكنيسة كانت ملاصقة للأسوار، ولم يجر هدم الاسطبل، بل استخدم فيما بعد لخدمة الحجاج الذين جاءوا إلى القدس أثناء الهدنة، وذلك عندما كانت المدينة بأيدي المسلمين، لأن المسلمين كانوا لا يسمحون لهم بالإقامة داخل المدينة، ولهذا السبب كان مبنى الاسطبل له فوائد عظيمة، وكان على جهة اليمين لباب القديس اسطفان، على مقربة من السور، يوجد المشفى المخصص للمجذومين في القدس، وكان إلى جوار المشفى باب خلفي اسمه باب القديس لادر Ladre الخارجي، وهنا يتولى المسلمون قيادة المسيحيين لإدخالهم إلى المدينة،حتى يمكن أخذهم محروسين إلى الضريح، لأن المسلمين لا يرغبون في أن يرى المسيحيين أعمال المدينة وشؤونها، ولهذا السبب يسمحون لهم بالدخول من خلال الباب الموجود في شارع الضريح المقدس، ولا يسمحون لهم بالدخول من الباب الرئيسي.

[وافهم جيداً أن الحجاج المسيحيين الذين يرغبون بالذهاب إلى

الضريح والأماكن المقدسة الأخرى، يستخرج المسلمون منهم أتاوات عالية، وهدايا وخدمات، ويفرض المسلمون على كل واحد ثلاثين بيزنطة Bezants، غير أنه جرى فيها بعد حرمان جميع المسيحيين الذين دفعوا أموال كراء، أو خدمات أو أتاوات، أو تعويضات، مقابل زيارة الأماكن المقدسة، ولهذا لم يعد المسلمون يتلقون مبالغ كبيرة كما كانوا قد اعتادوا].

— ١٦ —

باب الثالوث الخلفي — شارع القديس اسطفان — شارع وبيت الضريح المقدس — شارع كنيسة الضريح المقدس — تحويلة السريان واللاتين — الشوارع الثلاثة — الشارع المغطى — شارع العشابين، وشارع الطبيخ — شارع قنطرة يهوذا — كنيسة القديس مارتن والقديس بطرس،

لدى دخولك إلى المدينة من خلال باب القديس اسطفان تصل إلى شارعين، أحدهما وهو القائم على اليمين، يذهب إلى باب جبل صهيون، القائم في الجنوب تأكيداً، وباب جبل صهيون قائم فوق في مقابل باب القديس اسطفان، ويمضي الشارع الموجود على جهة اليسار مباشرة إلى باب خلفي يدعى الدباغة، ويستمر ماضياً باستقامة تحت الجسر، وهذا الشارع الذي يمضي إلى باب جبل صهيون يدعى باب شارع القديس اسطفان، حتى تصل إلى التحويلة السريانية.

ولدى قدوم الانسان بوساطة التحويلة السريانية، يجد على جهة اليمين شارع الضريح،(خط الخانكاه)، وهنا يوجد باب بيت الضريح، ومن هناك يدخل الذين يعملون في الضريح إلى مساكنهم، وأمام هذه التحويلة، وإذا ما انعطفت نحو اليمين يوجد شارع مقنطر مغطى، يمضي الانسان بوساطته إلى كنيسة الضريح، ويبيع السريان في هذا

الشـارع الأمتعـة ويصنعـون الشمـوع، ويبيعـون أيضـاً أمـام التحـويلة السمك، وعلى هذا فإن هذه التحـويلـة تصل بين ثلاثة شـوارع، وتصل أيضاً التحويلة اللاتينيـة ، ويدعى واحد من هذه الطرق الطريق المغطى، وهناك يبيع اللاتين أمتعتهم، واسم الشارعين الآخرين: شارع العشابين، والثـالث شـارع الطبيخ، ولـدى سيرك على طول شـارع العشـابين إلى شـارع جبل صهيـون، تجد نفسك قـد وصلت إلى باب جبل صهيـون، وذلك إذا ما عبرت شارع داوود.

وتمضي بوسـاطة الطريق المغطى ومن خـلال التحـويلة اللاتينيـة، إلى شارع يدعى شارع قنطرة يهوذا، ولـدى عبورك لشارع الهيكل، فإن هذا الشارع يمضي مباشرة إلى باب جبل صهيـون، ويدعى هذا الشارع باسم شـارع قنطرة يهوذا، ذلك أنهم يقـولون بـأن يهوذا قـد خنق على هذه القنطرة الحجريـة، وعلى جهة اليسار لهذا الطريـق توجد كنيسة القـديس مارتن، هذا وكنيسـة القديس بطرس هي على مقـربة من هذه الكنيسة ، على جهة اليسار، ويقولون بأن يسوعاً المسيح قد صنع هناك الطين الذي وضعـه على عيني الرجل الذي لم يبصر قط، وأمـره بالذهاب وأن عليـه أن يغتسل في بركة سلوان، فإذا فعل ذلك فلسوف يبصر، ونفذ الأوامر، وصار قادراً على الرؤية بعينيه.

— ١٧ —

خـارج باب جبـل صهيـون — الطرق الثـلاثة — بـركـة سلوان — كنيسة القديس بطرس في الجليلية.

يوجد خارج جبل صهيون ثلاثة طرق، يقود أولها، وهو الموجود على جهة اليمين، إلى دير جبل صهيـون وإلى كنيسته، وكـان يوجد بين الدير وبين أسـوار المدينة فسحـة كبيرة، وكنيسة في وسطهـا، ويسـاير الطريق الموجـود على جهـة اليسـار سـور المدينة حتى البـاب الذهبي: وينزل

الانسـان من هناك إلى وادي شعفاط، وإلى نبع سلوان، وعلى مقـربة من هذا البـاب، على جهـة اليمين لهذا الطريق كنيسـة القـديس بطرس في الجليليـة، وكـان هناك حفـرة عميقـة في هذه الكنيسـة، قيل أخفى فيهـا القديس بطرس نفسه عندما أنكر يسـوعاً المسيح، وسمع صياح الديك، وبكى هناك، ويمضي الطريق المستقيـم من هذا البـاب، إلى الجنوب عبر الجبل، وذلك حتى يتم جواز الدير، ولدى اجتيازك الدير يمكنك المضي نزولاً، ومن هناك إلى بيت لحم.

— ١٨ —

البركـة الألمانيـة — حقل الدم — بركـة البطريرك — أرض مـدفن الأسد.

مـا أن تنزل مـن الجبل حتى تصل إلى بركـة في الوادي، تـدعى باسم البركة الألمانية(بركة السلطان) لأن ألمانيا، فيها جمع المياه التي كانت تنزل من أطراف الجبال، وقت الأمطار وتسقي مياه هذه البركة خيول المدينة، وفي جزء آخـر من الوادي — على جهة اليسـار — هناك على مقربة من هذه البركـة أرض للـدفن اسمهـا(حقل الدم) حق الـدم، فهناك يدفنون الحجـاج الذين يتوفـون في مشفى القـدس، وكانت قطعـة الأرض هذه الحاوية للمـدفـن قـد شريت بالمال الذي باع فيــه يهوذا جسـد المسيح، وذلك وفقـاً لما جـاء في الكتـابات المقدسـة، وكـان يوجـد خـارج باب داوود، باتجاه الغرب، بركـة تدعى باسم بركة البطريرك، كـانوا يجمعون فيها الميـاه، ويسقون بها الخيـول، وعلى مقربة من هذه البركـة كان هناك أرض دفن، كـانت تدعـى باسم«مقبرة الأسـد»، ولسـوف أخبركم الآن لماذا عرفت بهذا الاسـم ودعيت هكذا: فقد حـدث — حسبما قالوا — في يوم من الأيـام الغـابرة، أن نشبت معــركــة، بين مكان الـدفن هذا والقدس، قُتل فيهـا عدد كبير من المسيحيين، وكـان أهل المدينة على نية القيـام بإحـراق جثث هؤلاء المسيحيين في اليـوم التـالي، بسبب الروائح

الكريهة التي وجـدت، وجاء — على كـل حال — أسـد في الليل ونقل الجثث جميعاً إلى حفرة هناك، وفوق هذه البقعة(بركة ماملا + قبة العبد) جرى بناء كنيسة كانوا يصلون فيها يومياً.

— ١٩ —

دير الجورجيين(الكرج) حيث عثر على جـزء من الصليب، وأي نوع من القوم هم.

وعلى مقربة من هذا الموقع، وعلى بعـد فرسخ واحـد، كان هناك دير الجورجيين، الذي قالوا بوجود قطعة من الصليب فيه، تمّ العثور عليها، وكان قد جرى العثور على الجذع القائم للصليب أمام الهيكل، لأنه كان قد بقي على مقربة من الهيكل، لأنه كـان قد جلب من لبنان مع الخشب من أجل الهيكـل، لأنهم لم يكن بإمكانهم إيجاد مكان منـاسب لوضعــه، لأنه كان إما طويل جداً أو قصير جداً، ولذلك حدث، أن الناس عندما كـانـوا يقـدمـون إلى الهيكل، وأقــدامهم مغطاة بالطين، كــانوا يحكون أقدامهم عليـه، وحدث كـذلك أيضاً في أحد الأيـام أن ملكة مرت من هناك ورأته مغطى بالطين فنظفته بثيابها وتعبدته.

وســوف أحــدثكـم الآن عن هذه القطعــة من الخشـب، ومن أين جاءت، وذلـك كما يتحدثون في هذه البـلاد، فقد حدث أنه عنـدما تمدد آدم على فـراش مـوته، رجـا واحداً مـن أولاده باسم الرب أن يجلب له غصناً صغيراً من شجـرة الفـاكهة التي أكل منهـا عندمـا أذنب، وجلب الابن له الغصن، وأخـذه آدم ووضعه في فمـه، وعندمـا وضعه في فمـه عضـه بسرعة، ففـارقت روحه، ولم يستطيعـوا بأي سبيل من السبل نزع هذا الغصن مـن بين أسنانه، ولهذا دفنوه معــه، وصــار للغصن — كما قـالوا — جذراً، وغـدا مع الأيام شجـرة جيدة، وعندمـا جاء الرسـول اقتلع هذه الشجرة من جذورها، ومن هناك حملت إلى جبل لبنان ، ومن

بعـد ذلك أعيـدت إلى القـدس مع مـواد أخـرى من أجل بناء الهيكل، وكانت أخشاباً قطعت من جبل لبنان، وحدث أيضاً — كما يقولون — أنه عندمـا وضع يسوع المسيح على الصليب، كـان رأس آدم داخل تلك القطعـة من الخشب، وعندمـا تدفقت دمـاء يسوع المسيح مـن جراحـه، خـرج رأس آدم من قطعـة الخشب وتلقى الدم، وهذا هو السبب في أن جميع الصلبـان التي يصنعـونها في بـلاد القـدس ويضعـونها عند قـدمي الصليب هي على شكل رأس، وذلك تذكراً لرأس آدم.

ولسوف أحـدثك الآن عن الجورجيين الموجودين في الدير، حيث تمّ العثـور على قطعـة من الصليب، ومـن أي نوع من القـوم هم، وإلى أي البلاد ينتمون، وأمـا البلاد التي جاءوا منها فتـدعى أفيجيا Avegia (الكرج)، ويوجـد هناك ملك وملكـة، ولهذا يدعـو بعـض الناس هذه البـلاد باسم بلاد النســاء، لأن الملكة تركـب وتذهب إلى الحرب، ولها جيش خاص بها من نسـائها مثلما الملك لديه جيشـه الخاص من رجاله، وللنساء في هذه البـلاد ثدي واحد فقط، وسأخبرك عن السبـب: عندما تلد فتـاة، ثم تنمـو وتغـدو فتـاة صغيرة يقـومـون بتـدمير ثديها الأيمن بوسـاطة حـديدة محماة حتى الاحتراق، ويتركـون لها الثـدي الأيسر من أجل إرضـاع ولدها، والسبـب الذي يدعـوهم إلى تدمير هذا الثـدي الأيمن، حتى لا يعيقهن ولا يؤلمهن أثناء مـدّ القـوس وتفـويقه عندمـا يكن في المعركة.

— ٢٠ —

عمواس

على بعد ثلاثة فراسخ من القـدس، وباتجاه الغرب، هناك نبع، يدعى نبع عمـواس، وقـد كـان هناك قلعـة، وقـد حـدث، أنه وفقـاً لما حكاه الانجيل، أن ربنا ذهب إلى القلعة مع اثنين من حوارييه، وكان ذلك بعد

قيامـه من الموت، وقد جلس عند هذا النبع ليأكل، وهم لم يعـرفوه حتى قـام بكسر الخبز، ثم إنه اختفى ويـاتـوا غير قادرين على رؤيتـه، ومن ثم عادوا إلى القدس إلى الحواريين ليعلموهم كيف أنه تحدث إليهم.

— ٢١ —

الشارع الذي يمضي إلى الباب الخلفي للدباغـة — شارع شعفاط — الميـــدان — بـاب دولوروس Dolorous. الجدول — كنيســـــــة القديس يوحنا الانجيلي — دير الراهبات في بيت عنيا.

وأعود الآن إلى باب القديـس اسطفان، وإلى الشارع الذي يجري على جهة اليسار ويصل إلى الباب الخلفي للدباغة، وبعد سيرك بعض الشيء على طول هذا الشـارع، سـوف تجد شارعـاً مـوجـوداً على جهة اليســار اسمـــه شـارع شعفـــاط، وبعـد مسـافـة قصيرة يجد الانســـان طريقين متصـالبين، حيث أن الطريق الكائن على جهـة اليسـار بينهما هو الطريق القــادم من الهيكل ويذهـب إلى الضريح، وعند نهاية هذا الطـريق هناك موجود فوق في مـواجهة الهيكل، باب اسمه باب دولوروس، وعبر هذا الباب يسوع لـدى خروجه عندما أخذوه إلى جبـل أكرا ليصلبوه، ولهذا السبب يدعى باب دولوروس، وكان يوجد على جهة اليمين عند تقاطع الطريق، جدول، أتى الانجيل على ذكره، حيث حكى بأن ربنا قد عبره عندما أخـذ للصلـب، وتوجد كنيسة القـديس يوحنا الانجيلي هنا، وهي لها بيت للسكنى كبير، وتعود ملكية البيـت والكنيسة إلى راهبات بيت عنيا، اللائي سكن هناك عندما كانت هناك حرب ضد المسلمين.

— ٢٢ —

حارة اليهـود — كنيسة القـديسة مـريم المجدليـة — باب خلفي — كنيسة الاستراحة — السجن — بيت بيلايطس — باب خلفي آخر.

وأعود الآن إلى شارع شعفاط — وبين شارع شعفاط وأسوار المدينة

على جهة اليسار هناك شوارع ممتدة حتى باب شعفاط، وهي مثل مدينة، ويسكن هناك معظم سريان القدس، وكانت هذه الشوارع تدعى باسم حارة اليهود، وكان في حارة اليهود هذه كنيسة القديسة مريم المجدلية، وعلى مقربة من هذه الكنيسة كان هناك باب خلفي، لا يمكن للانسان أن يخرج من خلاله إلى الخارج حيث الحقول، بل يذهب إلى ما بين السورين، وعلى جهة اليمين لشارع شعفاط كانت هناك كنيسة الاستراحة، حيث يحكى بأن المسيح قد استراح هناك عندما جلبوه للصلب، وكان هناك السجن الذي وضع فيه خلال الليل، بعد اعتقاله في جيسماني، وبعد قليل نحو الأمام، وذلك على جهة اليسار لهذا الشارع كان هناك بيت بيلايطس، وكان يوجد قبل هذا البيت، باب جانبي يمكن للانسان أن يدخل منه إلى الهيكل.

— ٢٣ —

دير القديسة حنة — بركة الضأن.

يوجد على جهة اليسار، قرب باب شعفاط، دير للراهبات، اسمه دير القديسة حنة، وأمام هذا الدير هناك نبع اسمه البركة، وكان يوجد فوق النبع كنيسة، ولم يعد هذا النبع يتدفق، لكنه يرشح دون الكنيسة وتحتها، وحدث في أيام يسوع أن الملاك كان يأتي أحياناً إلى هذا النبع لتحريك الماء، وأول من يدخل للاستحمام في داخله بعدما يكون الملاك قد حركه، يشفى من أي مرض أو عجز كان به، وكان لهذا الماء خمس قناطر، ويتمدد أمام هذه القناطر كثير من المرضى والأشخاص العاجزين، وهم ينتظرون تحرك المياه، وحدث في إحدى المرات أن يسوعاً المسيح جاء في أحد الأيام، ووجد هناك رجلاً، وسأله يسوع المسيح عما إذا كان يرغب في نيل الشفاء، فأجابه:«ياسيدي لا أمتلك إنساناً يساعدني على الذهاب والنزول إلى داخل النبع، عندما يتولى الملاك تحريك الماء، وقد بذلت جهدي لأنزل من على فراشي والذهاب

إلى الماء، غير أنني وجدت إنسـاناً آخر قد استحم قبلي»، ثم جـاء يسوع المسيح وأخبره أن عليه أن يحمل فـراشه ويذهب لأنه قـد شفي، فما كان منه إلاّ أن قفـز معـافى ومضى مغادراً، وكـان اليـوم الذي وقع فيـه هذا الحادث يوم سبت حسبما روى الانجيل.

— ٢٤ —

دير وادي شعفاط — كنيسة وضريـح سيدتنا — كنيسة جيسماني — كنيسة القديس المخلص — النساك والسياح في وادي شعفاط.

يذهب الانسـان من باب شعفـاط نزولاً إلى وادي شعفـاط، ويوجـد على جهة اليمين لهذا الباب، البـاب الذهبي، وكان في وادي شعفاط دير الرهبان السود، وكان في الدير كنيسة القديسة مريم، وفي الكنيسة يوجد الضريح الذي دفنت فيــه، وهي مـا تزال فيـه هناك، وعنـدمـا استـولى المسلمـون على المدينة هدمـوا الدير، وأخـذوا الحجـارة لتحصين المدينة، لكنهم لم يهدموا الكنيسة، وأمـام هذه الكنيسة، عند سفح جبل الزيتون، كانت هناك كنيسة في الصخـور، كانت تعرف باسم جيسماني، ففي ذلك المكان جرى اعتقـال يسوع المسيح، وكان يوجـد على الطرف الآخر من الطريق، لدى صعـودك لجبل الزيتـون، وعلى بعـد حوالي رميـة حجـر، كنيسـة المخلص المقدس، فهنا ذهب يسـوع المسيح ليصلي في الليلة التي اعتقل فيهـا، وهنا أخذ عـرقه يتقـاطر مثل الدم، وكان يوجـد في وادي شعفاط نسـاك وسواح على الطرف الآخر مـن الوادي، بأعداد أكبر من أن أخبركم بها، وذلك امتداداً حتى بركة سلوان.

— ٢٥ —

دير جبل الزيتـون — كنيسـة الدعاء الالهي — شجـرة التين الملعـونة — بيت فاجي.

كان على ذروة جبل الزيتون دير للرهبان البيض، وعلى مقربة من هذا

الدير، كـان على جهة اليمين طريق يقـود إلى بيت عنيا، ممتـداً على طول طرف الجبل، وعند انعطاف هـذا الطريق على جهـة اليمين كـانت هناك كنيسة القديس الدعاء الإلهي، فهنا يحكى بأن يسوعاً المسيح عمل الدعاء الإلهي وعلمـه إلى حوارييـه، وعلى مقربـة من هناك كانت شجـرة التين التي لعنهـا الرب عندمـا ذهب إلى القـدس، لأن الحواريين ذهبـوا لجمع التين، ولم يجدوا شيئاً عليهـــا، ولم يكن الـوقت هو وقت الموسـم الذي يفترض وجـود تين عليها، وفي هذا اليـوم نفسه رجع يسـوع المسيح من القـــدس ليـذهب إلى بيت عنيـــا، وذهب الحواريون إلى شجـــرة التين، فـوجدوها قـد يبست، وبين كنيسة القـديس الدعاء الالهي وبيت عنيـا، وعلى طرف الجبل، كـانت هناك كنيسـة تـدعى بيت فـاجي، وإلى هناك جـاء يســوع المسيح في يوم أحـــد السعف ومن هنـاك أرسل اثنين من حـوارييــه ليجـدوا لـه الأتان، ومن هناك ذهب على ظهـــر الأتان التي جلبوها له إلى القدس.

— ٢٦ —

لم يذكر الكاتب أسماء الديرة والكنائس غير الخاضعة لروما

لقـــد تحدثـت عن البيع والديـرة الموجــودة في داخل القــــدس وفي خـارجهـا، وفي الشـوارع اللاتينيـة، لكنني لم أذكـر أسماء ديرة وكنائس السريان، أو الاغريق، أو اليعاقبة، والكرج Boamins ، والنساطرة، والأرمن، ولابقيـة الشعوب، ممن لايقـدم الطاعة إلى رومـا، وهـم الذين امتلكوا كثيراً من الكنائس والديرة في المدينة، لأنني لم أرغب في قول أي شيء عن هؤلاء الناس الذين لا يقدمون الطاعة إلى روما.

القسم الثاني

— ١ —

حول الحج في الأرض المقدسة

لقد حدثتكم عن أحوال المدينة المقدسة، في الأيام التي استولى فيها صلاح الدين وبقية المسلمين عليها، وانتزعها من الصليبيين، وبعد هذا سوف نتحدث عن الحج، وعن كيفية كان الحجاج يذهبون إليها، وفي الحقيقة يتوجب على الناس من الغرب، أي من مملكة فرنسا مثلاً، ومن ألمانيا، ومن البلدان الأخرى الموجودة في تلك الأجزاء من العالم، أي الذين يرغبون في الذهاب إلى الأرض المقدسة، عليهم أخذ الطريق المباشر إلى الشرق.

ويذهب الانسان أولاً من عكا إلى حيفا التي هي على بعد أربعة فراسخ، وقرب هذه المدينة يوجد جبل الكرمل، حيث كان السيد القديس دنس، الذي كان قد ولد في بلدة اسمها Franchville، حيث يوجد الآن في ذلك المكان بيعة، كما ويوجد تحت المذبح كهف صغير، وذلك حيث كان قد ولد، وكان المكان ما يزال يرى حتى الآن، ويوجد إلى جانب البيعة واد صغير، وعلى بعد رمية حجر هناك نبع السيد القديس دنس، وهو الذي وجده، وعمله بيديه، وهو مكان جميل جداً، وهو أجمل مكان يصلح للانسان فوق الجبل كله.

ويوجد على هذا الجبل نفسه دير القديسة مرغريت، وهو دير للرهبان الاغريق، وهو أيضاً مكان بهي، ويوجد في هذا الدير آثار جيدة، وعلى السفوح يوجد المكان الذي قطن فيه القديس إلياس، وفي هذا المكان هناك بيعة بين الصخور، وعلى مقربة من دير القديسة مرغريت هذا، على سفح الجبل نفسه، هناك مكان جميل وبهي حيث يسكن النساك

اللاتين، الذين يدعـون بـاسم الأخـوة الكرمليين، حيث توجـد كنيسـة صغيرة لسيدتنا، وفي خـارج هذا الجزء هناك الكثير من الماء الجيد، الذي ينبع من صخور الجبل نفسـه، والمسافة هي فـرسخ ونصف الفرسخ من دير الاغريق إلى النساك اللاتين.

ويوجـد بين القديسـة مرغـريت وأخـوان الكرمل مكان فوق البحـر اسمـه حنة، حيث هناك المسـامير التـي صنعت والتي استخـدمت في صلب ربنا، ومـا يزال المكان الـذي عثر فيـه على هذه المسـامير مـرئي، وعلى مقربة من جبل الكرمـل هذا، فيما بين النساك اللاتين، هناك مكان يدعى القـديس يوحنا الصوري، ويوجـد هنا كنيسة إغـريقية، فيهـا آثار جميلة، وقـد عمل هنا القديس يوحنا معجـزات جيدة، وعلى مقـربة من هذا الموضع باتجاه قلعة عثليت هناك قرية اسمها كفر ناحوم(كفر لام؟) حيث ضرب الفلس الذي بيع به الرب.

والمسافة من حيفا إلى قلعة عثليت هي ثلاثة فراسخ، وهي قائمة على شاطيء البحـر، وهي عائدة من حيث الملكيـة إلى طائفة الداوية، وهناك ترقد القديسة يوفيميا العذراء الشهيدة.

والمسافة من قلعـة عثليت إلى مدينة قيسارية خمسة فـراسخ، وقيسارية مدينة قائمة على شاطيء البحر، وهي عائدة بملكيتها إلى بارون المملكة، ويوجد خـارج أسوار المدينة بيعة فيهـا يرقد القديس كـورنليوس، وهو الذي عمده القديس بطرس، وهو الذي صار بعد السيد القديس بطرس رئيس أسـاقفـة لهذه المدينة، ويوجد إلى جـانب هذه البيعـة صخـرة من الرخام جميلة جـداً، وكبيرة وطويلة، يدعونها باسم مائـدة يسوع المسيح، وهناك أيضاً صخـرتين صغيرتين، هما مستديرتان، وكبيرتان من الأسفل ومدببتـان من الأعلى، وهما تعرفـان باسم شمعداني ربنا، ويرقـد في هذه البيعـة أبناء السيـد القـديس فيليـب، الذي تولى هداية وتعميـد الخصي، وعندما قام بتعميده أمسكه الرب وحمله إلى أرسوف، ومن أرسوف جاء

يبشر باسم ربنا امتداداً حتى مدينة قيسارية.

وعلى مقربة من ها هنا وإلى جهة اليسار، وقرب بلدة اسمها Pein Perdue (نهر التماسيح) تقوم بيعة سيدتنا، وهي قائمة عبر مستنقع، وإلى هذه البيعة غالباً ما يقدم الناس من قيسارية برحلة حج، لأن المكان جميل، وأهل للتقوى العظيمة، ويوجد في هذا المستنقع كثير من التماسيح، التي وضعها هناك صاحب قيسارية، بعدما جلبهم من مصر.

والمسافة من قيسارية إلى أرسوف هي تسعة فراسخ، وقلعة أرسوف على مقربة من قلعة قائمة فوق رابية رملية، وهذه القلعة ملك للاسبتارية، وعلى طريقها الأعلى صخرة مقطوعة(Roche - Tail- lie ، نهر الفالق)، ويوجد هناك ممر شيطاني، فهناك يسكن أناس بلا إيمان، من أجل نهب الناس الذاهبين إلى يافا، وقطع الطريق عليهم.

والمسافة من أرسوف إلى يافا هي ثلاثة فراسخ، ويافا بلدة وقلعة، والقلعة موجودة على مقربة من البحر، وهي كونتية، ووجد في يافا، دون القلعة، في كنيسة القديس بطرس رداء القديس جيمس الغاليشي.

والمسافة من يافا إلى عسقلان هي ثمانية فراسخ، وهي قائمة على شاطىء البحر، وجرت العادة بدعوة أسقف بيت لحم باسم أسقف عسقلان، لكن لمكانة بيت لحم العلية نقلت الأسقفية من عسقلان إلى المكان المقدس في بيت لحم، وما يزال هناك كرسي الأسقفية في كنيسة السيد القديس بولص، مع كل ما يعود إليه.

والمسافة من عسقلان إلى غزة هي ثلاثة فراسخ، والمدينة القائمة على شاطىء البحر تدعى غزة، وهي المدينة التي دمر فيها شمشوم الجبار أبوابها وحملهم إلى الرابية بعيداً عن البلدة، وهناك مسافة ثلاثة فراسخ من يافا إلى الرملة، والرملة مدينة وأسقفية، وفي سهل الرملة خرج بلدوين ملك القدس، ومعه خمسة من الفرسان ضد صلاح الدين الذي

كان معه ثلاثين فارساً، وإلى هناك جلبوا معهم الصليب المقدس الحقيقي، وهو الصليب الذي تألم عليه ربنا وعانى الموت عليه في القدس، وهناك شوهد السيد القديس جرجس بشكل مكشوف أثناء القتال، وذلك حيث هزم الملك بلدوين المسلمين، وحدث القتال في هذه المعركة في يوم عيد القديسة كاترين.

ومن الرملة إلى بيت نوبة خمسة فراسخ، وبيت نوبة بلدة واسعة.

ومن بيت لحم إلى جبل البهجة[جبل صموئيل] خمسة فراسخ، ويوجد على جبل البهجة كنيسة القديس صموئيل النبي، وهناك على اليمين يتوجب وجود الضريح المقدس لربنا.

— ٢ —

حول القدس

وعلى مقربة من شرفة المرتلين، حيث وسط العالم، كما حدده ربنا، يوجد أيضاً المكان الذي وضع فيه كل من نيقوديموس ويوسف الرامي، جسده المقدس، عندما دفن، بعد آلامه المقدسة[وعندما كان قد وضع على الصليب جرى دهنه ولفه بوساطة أقمشة قبرية]، ولدى الخروج نحو الخارج، يجد المرء على الجهة اليسرى للشرفة، جبل أكرا، حيث وضع الرب على الصليب، وتحت ذلك الجلجلة، وذلك حيث تساقط الدم الثمين لمخلصنا فوق رأس آدم[وهناك ضحى إبراهيم إلى ربنا، وهنا أيضاً قال ربنا للص الذي تاب وطلب الرحمة: Amendico Tibi أي سوف تكون معي في الفردوس، وهناك تسلم لونجينوس Lon-ginus رغبته من ربنا المقدس، الذي رآه بعينيه].

وعلى مقربة من الشرفة، وبجانب المذبح العالي، تحت جبل أكرا، يوجد عمود حيث كان ربنا قد ربط وجلد، وإذا ما ما نزلت من هناك أربعين درجة، تجد المكان الذي وجدت فيه سيدتنا القديسة حنة

الصليب الحقيقي، وإلى جـانـب السـدة، وصـدوراً من جهـة اليمين للضريح، المقـدس، يوجـد سجن ربنـا، وهناك ينبغي أن تكون السلسلة التي ربط بها،[وقـد ظهـر في هذا المكان للمـرة الأولى لمريم المجـدليـة، وكـان ذلك بعـد قيـامتـه]، وهنـاك على الجانب الآخـر عند المدخل إلى الضريح المقـدس، اثنتين وأربعين درجـة إلى بيعة الاغـريق، وهي البيعـة التي جـرت العـادة أن يكون فيهـا الصليـب الحقيقي، حيث عثـر عليـه هناك، وصـورة سيـدتنا التي تكلمـت إلى مـريـم المصرية، وحـولتهـا إلى المسيحيـة،[وإلى يمين المذبح العـالي، وفي الأعلى كله كـان هناك الصليب الحقيقي، وفي مساء عيد الفصح، بعد مضي آخـر ساعات القمر، وعندما تلامس أشعة الشمس ذراع صورة القـديس جبرائيل، التي رسمت فوق الضريح، وقتها تأتي النار المقدسة من السماء فتشعل واحداً من المصابيح العائدة للضريح].

والتـالي في مقـابل هذا الطريق خـروجـاً من الضريح، وباتجاه الشمال الشرقي تقـوم كنيسة القـديس كاريستـو Caristo (شارتون)[الذي رقـد في الأرض ثمانمائـة سنة]، وبـاتجاه الجنوب وعلى مقـربـة من هذه الكنيسة، توجـد كنيسة سيدتنا للاتين، وهي أول كنيسة لاتينيـة وجدت في القـدس، ولهذا السبـب عـرفت باللاتينيـة، والرهبـان فيهـا رهبـان سود[ويحكـى بأن القديسـة مريم المجـدلية، وكذلـك مريم كيفـاس، قد مزقتا هناك شعريهما عندما وضع الرب على الصليب]، وعلى مقربة منها بيت فرسان القديس يوحنا[الاسبتارية].

وقبل الضريح، وعلى رميتي سهم باتجاه الشرق، يوجـد هيكل الرب، حيث له أربعة مداخل واثني عشر باباً، وهناك في وسط الهيكل الصخرة الكبيرة المقـدسـة، حيث وضع تابوت ربنا في أيـام داوود، وكـان هناك العهد القديم، وعصا هرون، والشمعـدانات الذهبية السبعة، ووعاء المن الذي نزل من السماء، والنار التي اعتـادت أن تلتهم قرابينهم التي كـانوا

يقدمـونها هناك، وألواح الميثاق القديم، والزيت الذي كـان يتقاطر هناك ويمسح به الملـوك والأنبيـاء، وعلى هذه الصخـرة نام يعقــوب، ورأى الملائكة وهم يصعــدون إلى السماء وينزلون بـوسـاطـة سلم[وعلى هذه الصخرة، ظهـر الملاك، عندما تولى داوود تعـداد الشعب، وبيده السيف حيث قتل به الناس، وهناك جلس ربنا ووضع نفسه عندمـا أراد اليهود اعتقـاله، وجاء نجم ونزل نحـوه وأعطاه نوراً، وفي داخل الباب المتجـه نحـو الجنوب، كـان هناك نبع، الذي يغنون حـوله فيما بين عيـد الفصح وعيد الحصاد:

" Vidi aquam egredientem de Templo a latere dextro » الخ وعلى زاوية الهيكل تعرض ربنا للمحنة، حيث حاول الشيطان إغواءه، ومـن زاوية الهيكل جرى إلقاء القـديس جيمس، وهو الذي كـان أول أسقف للقــدس، وكـان على رصيف الهيكل في الخارج هناك مذبح، حيث كان اليهود، يضحون بثلاث حمامات وطيور، وذلك حسب الشريعة القـديمة، وجرى على طرف الصخـرة تقديم ابن الرب، وكان تحتها قدس الأقـداس، وهناك غفر الرب ذنوب المرأة التي أخذت وهي تزني، وهناك كان الاعلان عن يوحنا المعمدان، وبجوار هذا المكان تقـوم بيعة القـديس جيمس ، الذي كـان أول أسقف للقـدس]، وهناك خـارج الهيكل مـذبح حيث جـرى قتـل زكـريا بن براخيـا، أي مـا بين الهيكل والمذبح، وعند مـدخل الهيكـل هناك البـاب الجميل وذلك باتجاه الغـــرب، وهناك بـاتجاه الجنوب هيكل سليمان، وإلى جــانـب هيكل سليمان، باتجاه الشرق حمام ربنا، وذلـك في زاوية المدينة،[أي في القــرنة داخل صحن الهيكل] ويوجـد إلى الشرق من هيكل الرب البـاب الذي اسمـه القـدس، وظاهر هناك في الخارج عـلامـات حـوافـر الأتان التي ركبها الرب يوم فصح الورود، ويوجد في الأسفل الأبواب الذهبية.

وعند المخرج الشمالي الشرقي للهيكل يوجـد باب الفردوس والنبع،

وعلى هذا الطرف وإلى جانب جدار الهيكل هناك بركة الضأن[وكانت هذه البركة صهريج اعتاد الملاك على دخول الماء فيها وتحريكه من أجل شفاء أول شخص مريض يدخل إلى الماء، وعلى مقربة من ها هنا القديسة حنة وضريحها، ويقول بعضهم أن هذا المكان هو بركة الضأن، وخلف القديسة حنة توجد كنيسة القديسة مريم المجدلية.

وباتجاه الجنوب، هناك فوق مدينة القدس جبل صهيون، وكان هناك كنيسة كبرى، هدمت، وذلك حيث توفيت سيدتنا، ومن هناك حملها الرسل إلى شعفاط، وقبلها هناك بيعة، حيث جرت محاكمة ربنا، وضربه، وتعذيبه، وعذب بالشوك وبه توج، وهنا قاعة كيفاس وبيته، ودون الكنيسة التي هدمت هناك بيعة الروح القدس، فهناك نزل الروح القدس على الحواريين، وهناك المكان الذي غسل فيه ربنا أقدام حوارييه، ومكان وعاء الماء ما يزال هناك موجوداً، وإلى هناك دخل الرب، مع أن الأبواب كانت موصدة، وقال لهم : «سلام لكم»، ثم أنه قال للقديس توماس:«ضع عليّ إصبعك ويدك ولاتكن غير مؤمن»، وعلى جبل صهيون جرى مسح سليمان.

ويوجد هناك في أسفل المدينة بركة سلوان للسباحة، وإلى جانبها يرقد القديس إشعيا، وعلى مقربة من هناك حق الدم، أي المكان الذي شري بمبلغ ثلاثين فلساً، وهو المبلغ الذي دفع ثمناً لربنا، وهو المدفن الذي يدفنون فيه الحجاج.

وتحت الأبواب الذهبية، يجري في الوادي جدول، يدعى قدرون، ومن هناك جمع داوود الأحجار الخمسة، التي قتل بها جالوت، وهناك في شعفاط المكان الذي رقدت فيه سيدتنا، وعلى مقربة من هناك يوجد جيسماني، وهو المكان الذي اعتقل فيه ربنا: وهناك من الممكن رؤية أثر الأصابع العشرة لربنا على الصخرة، وهناك ترك القديس بطرس، والقديس جيمس، وبقية الحواريين والرسل، عندما ذهب يصلي للرب

الآب، وهناك، على بعد قرابة رمية حجر، المكان الذي صلى الرب فيه للرب الآب، وهناك تساقط العرق منه نقاطاً من دم، نحو الأرض، وهناك رقد القديس بطرس، والقديس جيمس، والقديس سمعان، والنبي زكريا، ويوجد على سفح هذا الوادي قبر الملك شعفاط، الذي منه نال الوادي اسمه، وفوق، باتجاه الشرق، يوجد جبل الزيتون، واعلم أنه من على جبل الزيتون مضى يسوع المسيح إلى السماء في يوم الصعود، حيث ما تزال طبعة قدمه الأيمن ظاهرة حتى الآن على الصخرة، وهناك أمر حوارييه بأن عليهم الذهاب والتبشير بالانجيل إلى جميع المخلوقات، ودون ذلك يوجد كهف، وذلك حيث استشهدت القديسة بيلجيا، وعلى السفح المتجه نحو الجنوب هناك بيعة، حيث عمل يسوع المسيح الدعاء الالهي.

— ٣ —

حول الأماكن القريبة من القدس

بين جبل الزيتون وبيت عنيا تقوم قرية بيت فاجي، حيث أمر ربنا القديس بطرس والقديس جيمس وبقية الحواريين بالذهاب وإحضار أتان له مع فلوها.

وعلى بعد فرسخ من القدس تقوم بلدة بيت عنيا، التي فيها بيت سمعان المجذوم حيث غفر ربنا لمريم المجدلية ذنوبها، وهناك أقام ألعازر من قبره.

ومن القدس إلى القرنطل سبعة فراسخ، وهناك صام ربنا لمدة أربعين يوماً، وعلى مقربة من هناك أريحا، ومن أريحا إلى نهر الأردن سبعة فراسخ، وهناك جرى تعميد ربنا من قبل يوحنا المعمدان[والمسافة من هناك هي سفر يوم إلى الكرك، ومنها أيضاً المسافة نفسها إلى الشوبك]، والمسافة من نهر الأردن إلى جبل سيناء هي سفر ثمانية أيام، فهناك أعطى

ربنا شريعـة موسى، وترقـد هناك القديسـة كاترين، العـذراء والشهيدة، وذلك في ضريح رخامي جميل جداً، وهذا الضريح مقدس إلى درجة أن نوعاً من الـزيت يخرج منه وهو يشفي كثيراً من الأمراض، وقـد ظهرت نعمة الرب هناك وشـوهدت إلى درجة أن كثيراً من الحيـوانات الضارية الموجـودة في الجبل هناك، هـي لا تعيش على شيء، سـوى لحس ضريح سيـدتنا القديسـة كـاترين، وذلك بالإضـافة إلى المن الذي يتسـاقط على الجبل.

والمسـافة هي فـرسخ واحد من جنوب القـدس إلى القديس إليـاس، الموجـود على مقربة منه حقل الورود، وإلى جـانبه يوجـد ضريح راحيل زوجة يعقـوب، وفوق في مقابل هذا المكان، يوجـد على الجانب الآخر، وعلى رابية، مدينة بيت لحم، والمعلف الذي مـدد فيه ربنا، وذلك عندما ولد، وقـد لفّ بقطع قماش صغيرة، ويوجـد هناك مكان المهـد، والمكان الذي وجد فيـه الملوك الثلاثة، وهم:[كسبر، ومليكور، وبلطسـار]، وقد جـاءوا مـن الشرق، وتعبـدوا ربنا، وذلك عندمـا قـدمـوا له الذهب، والبخور، والمرّ، ويوجد هناك على جهة اليمين من السدة، المدينة، حيث الجب الذي سقط فيه النجم، الذي قاد الملوك الثلاثة، ويرقد على اليسار الأبرياء، ويوجـد تحت السـاحة الداخليـة لضريح القـديس جيروم[على بعـد فرسخ من بيت لحم كنيسـة، وذلك حيث أعلن الملاك للرعـاة عن ميلاد ربنا، وهنـاك غُني للمرة الأولى:«المجد للـرب في الأعالي»]، وعلى مسافـة صغيرة، فوق بيت لحم، توجد بيعـة القديس إبراهيم في حبرون، فهناك صنع ربنا آدم وحـواء، وعلى مقربة من هناك بيت قـابيل وهابيل، وبجوار هذا المكان الموضع الذي أظهر الرب فيـه نفسه للقديس إبراهيم على شكل ثالوث، ولقـد رأى القـديس إبراهيم ثلاثة أشخـاص، وعبـد واحداً،[وهناك دفن الآباء الثلاثة مع زوجاتهم].

وباتجاه الشرق[الغرب] الموضع الذي حيت فيه سيدتنا ايزابل، وهناك

ولد القديس يوحنا المعمدان، وزكريا والده، وعلى مسافة ميلين من هناك توجد قلعة اسمها قلعة عمواس، وظهر هناك ربنا إلى القديس لوقا وإلى كليفاس بعد قيامته.

وعلى مقربة من القدس باتجاه الغرب، وعلى بعد فرسخ موضع القديس الصليب، فهناك نمت الشجرة التي منها صنع الصليب المقدس، والمسافة من القدس إلى السامرة، التي اسمها نابلس، اثني عشر فرسخاً، وهناك تحدث ربنا إلى المرأة السامرية، عند جب يعقوب، والمسافة من هناك هي فرسخين إلى سبسطية، فهناك جرى إعدام القديس يوحنا،[وهناك يوجد رماد جسده]، والمسافة من هناك إلى جبل الطور هو عشرة فراسخ.

— ٤ —

الحج من عكا

أما وقد تحدثنا عن الأرض المقدسة للقدس، والمنطقة المحيطة بها، فإننا نصل الآن إلى عكا، وهناك يوجد حجاج يحتاجون إلى من يتولى إرشادهم، وعلى كل من يريد التوجه إلى الأماكن المقدسة، أن يمضي مباشرة من عكا إلى الناصرة، والمسافة بينهما سبعة فراسخ، ويوجد على الطريق شفا عمرو، التي تبعد عن عكا مسافة ثلاثة فراسخ، وهي التي على جبلها كنيسة القديس جيمس، والقديس يوحنا حيث ولدا، وما تزال البقعة، التي ولدا عليها مشاهدة، والمسافة من شفا عمرو هذه إلى الصفورية هي ثلاثة فراسخ، والمسافة من هناك هي فرسخ واحد إلى الناصرة.

وهناك جاء ربنا إلى العذراء مريم، وهناك أيضاً المكان الذي أعلن الملاك فيه عن قدومه، وكان ذلك داخل صخرة مجوفة، هي موجودة في الكنيسة على جهة اليسار، وقد بني في ذلك الموضع بيعة تشريفاً

لسيدتنا،[وهناك المكان الذي سكنـت فيه، وهناك النبع الذي حملت الماء منه، وهو الماء الذي سقت به مـولانا، وفي بركة ميـاه هذا النبع، غسلت سيدتنا الأقمشـة التي قمطت بها ربنا، وأرسلت سيدتنا ربنا ليجلب الماء من هذا النبع عندمـا كان قـد كبر بعض الشيء، وكان هذا بعـد عودتهما من أرض مصر]، وعلى مقـربـة من هناك وعلى رميــة سهـم هناك نبع القديس جبريل، ومن الناصرة إلى قفزة ربنا المسـافة فرسخ واحد، وعلى طرف هذا الطريق توجد بيعـة القديس زكريا، وهي عـائدة إلى الأرمن، وهي مكان جميل.

والمسـافـة من النـاصرة إلى قـانا الجليل هي ثلاثة فـراسخ، وفي قـانا الجليل حدث عرس آرخيتركلينوس Architriclinus ،[رئيس المتكأ] وفي هذا العرس جعل الرب الماء نبيذاً، وما يزال من الممكن رؤية المكان الذي حدث فيه هناك، ومن قانا الجليل إلى البئر الذي جلب منه الماء إلى عرس أرخيتركلينوس، مقدار رمية سهم.

والمسـافــة من الناصرة إلى جبل الطور هي ثلاثة فـراسخ،وعلى هذا الجبل حوّل الرب شكل ذاته أمام حوارييه، وتوجد هناك كنيسة للرهبان اللاتين السـود، ومن جبل الطور إلى جبل حـرمـون[جبل الضـاحي، أو حرمـون الصغير] مسافـة فرسخ، حيث توجد مـدينة نين(نون)، وهناك أقـام ربنا طفــلاً من الموت أمـام باب المدينة، ومن مقــربة هذا المكان، وباتجاه الشرق، المسافة ثلاثة فراسخ إلى بحر الجليل.

[وبحر الجليل ليس أكثر من مجرد بحيرة ماء عذب، تشكلت من مياه نهر الأردن ومن مياه ينابيع أخـرى تتجمع هناك، وعلى بحر الجليل هذا أكل ربنا مع حوارييه بعدمـا قام، وقد أكل ظهور بعض الأسماك، ولهذا بقيت عظام الظهور كلها عارية، وبقيت بقية الأسماك كلها كاملة، ثم إنه ألقاهم ثـانية في الماء، فتحركت الأسماك على الفـور، وذهبن يسبحن مع بقيـة الأسماك بدون ظهـور إلاّ العظام التي كـانت عـارية تماماً، وهذه

الأسماك هي بحجم — إن لم تكن أكبر — أسماك الروش، التي نحتفظ بها في المياه العذبة في فرنسا]، وتقوم إلى جانب البحر مدينة طبرية حيث صنع فيها ربنا كثيراً من المعجزات، وهناك أمر ربنا السيدين: القديس بطرس والقديس أندرو، اللذان كانا في القارب، برمي شبكتيهما في البحر، وعلى وجه هذا البحر مشى ربنا عاري القدمين نحو القديسين بطرس وأندرو، اللذان كانا في القارب، وكان هذا عندما كان القديس بطرس خائفاً، لأنه ظن أن هناك عاصفة.

وعلى مقربة من هناك كفر ناحوم، وعلى الجهة المقابلة يوجد مستنقع جنسارث، ويوجد على جهة اليمين جبل مغطى بالعشب، فهناك وعظ ربنا الحشد من الناس، وعلى مقربة من هناك المكان الذي أطعم فيه ربنا خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة مع سمكتين، وعلى مقربة من ها هنا في الأسفل يوجد السجن الذي وضع فيه ربنا حتى دفع الضريبة من أجل مروره، وهناك أمر الرب القديس بطرس باصطياد سمكة، وعندما أخذها، أمر ربنا بفتحها، فكان فيها درهم من الفضة، دفع به ربنا الضريبة المتوجبة عليه.

ومن طبرية إلى صفد مسافة ثلاثة فراسخ، وعلى الطريق يوجد الجب الذي ألقي يوسف فيه، عندما بيع إلى الاسماعيليين، وفي صفد كهف توبيت، حيث دفن الميت، وعلى جسر صفد توجد الصخرة التي عليها ارتاحت سيدتنا،

ومن صفد إلى القديس جرجس[مزار الخضر — مجدل كروم] المسافة خمسة فراسخ، وهناك كنيسة للرهبان السود، ومن القديس جرجس إلى عكا أربعة فراسخ، وفي طبرية يوجد المشعل الذي رماه اليهود نحو ربنا، عندما أراهم كيف ينبغي أن يموتوا، وقد أصابت النار الجدار، وهناك ينمو الآن شجرة كبيرة.

— ٥ —

حول الحج إلى الأماكن الأخرى النائية

[إن جميع أماكن الحج تلك التي أتينا على ذكرها موجودة في مدينة القدس المقدسة وفي أرض الميعاد المقدسة، ولسوف أحدثكم الآن عن أماكن الحج الأخرى التي هي في أماكن نائية.

فعلى مقربة من دمشق يوجد جبل، وعلى هذا الجبل كنيسة سيدتنا، سيدة الصخرة كما يدعونها، ويوجد في هذه الكنيسة اثنتي عشرة راهبة وثمانية رهبان، ويدعى هذا المكان باسم سردانيس Sardaines [صيدنايا]، وبعض الناس يدعونها سردينيا Sardenai ، ويوجد في هذه الكنيسة مائدة من خشب، حيث أن طولها ذراع وعرضها نصف ذراع، وكان قد رسم على هذه المائدة صورة سيدتنا القديسة مريم، وقد حفرت بالخشب، ويصدر من هذه الصورة أطيب الزيوت رائحة، وقد مسح كثير من الناس أنفسهم به، فلم يعانوا بعد ذلك من أي مرض من الأمراض، ولم يتوقف هذا الزيت عن الصدور مطلقاً، وذلك مهما أخذ منه، وإلى هذه الكنيسة يأتي المسلمون من الأحواز المجاورة، ويكون ذلك في أيام عيد سيدتنا في شهري آب وأيلول، فهناك يصلون ويتعبدون ويعملون النذور، وكانت هذه الصورة قد صنعت في القسطنطينية وبطريرك القدس هو الذي أخذها من هناك، وقد طلبتها راعية الدير فأعطيت لها، وحملتها إلى حيث أخبرتكم أنها موجودة.

وفي طرطوس أول كنيسة بنيت تشريفاً لأم الرب، وسيدتنا، والقديس بطرس الرسول هو الذي بدأ ذلك أولاً.

وكان في مدينة بيروت تمثالاً ليسوع المسيح، وكان قد صنع بعد وقت قصير من صعوده إلى السماء، وقام اليهود بصلب هذا التمثال سخرية بربنا، وطعنه اليهود في جانبه بحربة، وتدفق من هذا الجانب ماء ودم،

وبهذه المعجـــزة آمن كثيرون بربنا، واعتـــادوا أن يدهنوا بهذا الماء والدم المرضى ويعالجوا أمراضهم.

وفي مـــدينة بابل الجديدة التي هـي مـوجــودة في مصر، عند مـــدينة القاهرة(بابليون هي المدينة والقاهـرة هي القلعة)، في بابليون هذه يوجد نبع، وقـد اعتادت سيـدتنا أن تغسل في هذا النبع مـلابس ابنها العـزيز، عندمـا كانـا في مصر، بسبب هيرود، ويقدر المسلمـون هذا النبع تقـديراً عظيماً ويأتون إليه عن طواعية ورغبـة للاغتسال هناك، وبمياه هذا النبع تسقى الأشجار التي تحمل البلسم الحقيقي.

وعند قلعة القاهرة، يوجد حتى هذه الأيام شجرة نـخيل تحمل التمر، وجـاءت سيدتنا في أحـد الأيام إلى تحت هذه النخلة ورغبت بالحصـول على بعض تمرها، لكن النخلة كـانـت عـاليـة جـداً، ومـا كـان بإمكانها الحصـول على التمر، فـانحنت النخلة نحـو قـدميهـا، وأخذت السيـدة الرائعة من هذه الفاكهـة، ثم نهضت النخلة ثانية ووقفت منتصبة، ورأى كثير من المسلمين والكفـار ممن كـانوا هناك آنذاك هذا المشهـد، ثم قـام الكفـار بقطع هذه النخلة، غير أنهم وجـدوها في اليـوم التـالي منتصبـة، وسليمة تماماً، لم يظهر عليها أي قطع أو خدش، فما كان منهم من ذلك الوقت فصاعداً إلاّ أن قدموا احتراماً عظيماً لهذه الشجرة].

رواية إرنول عن فلسطين

لقد سمعتم عن صلاح الدين الذي يتولى الآن حصار الكرك، وبناء عليه سوف نتحدث عن نهر الأردن، ونبين من أين ينبع، وكيف يجري، وأين ينتهي.

يقسم هذا النهر فيما بين بلاد المسلمين وبلاد المسيحيين، ويحصل ذلك بجريانه، فأرض المسيحيين قائمة على هذا الجانب، واسمها أرض الميعاد، واسم الأرض العائدة للمسلمين«العربية»، ويدعون في أرض الميعاد جميع المجاري المائية باسم أنهار (Fluns)، وينبع عند سفح الجبل نبعان، اسم أولها«أر» واسم الثاني«دان»، ولسوف أحدثك الآن عن هذا الجبل، وأبين لك الاسم الذي يعرف به: إن الاسم الذي يعرف به هذا الجبل، هو جبل لبنان، ويمتد هذا الجبل مسافة أربعة أيام طولاً، وذلك إلى قلعة قائمة فيما وراء طرابلس يطلقون عليها اسم عرقة، فهناك جرى صنع سفينة نوح، ومن جبل لبنان هذا أخذ ت إلى البحر، ولهذا السبب، عرفت هذه القلعة باسم عرقة، لأن سفينة نوح صنعت هناك، وهذا الجبل جزء من بانياس ومن البلاد المسيحية، ويمتد من مقابل طرابلس ويساير الساحل، ويقوم الجزء المسيحي من هذا الجانب، وأما الجزء الآخر فهو التابع لبانياس.

ويوجد في هذا الجبل كثيراً من البقاع الجيدة، والبلدات الحسنة، يتقاسمها المسلمون والمسيحيون نصفين فيما بينهما، وتجد في أحد الأماكن جميع السكان مسلمين، وتجد في مكان آخر جميع السكان مسيحيين، وبين هذين الجبلين(السلسلة الغربية والسلسلة الشرقية) يوجد وادٍ، يطلقون عليه اسم وادي البقاع، وإليه ذهب رجال الاسكندر للاحتشاش عندما كانوا يحاصرون صور، هذا وإن الذين يحبون السجع وصنعة الكلام يحبون إطلاق اسم وادي يوسفاس Josaphas عليه.

والآن أمـا وقـد أخبرناكم عـن جبل لبنان، الذي ينبع النبعـان من سفحه، سوف أحدثكم عن مدينة قائمة دون سفح الجبل وفوق النبعين، اسمها بـانيـاس، وكـانت هـذه المدينةمسيحيـة في أيام غـودفـري دي بولليون، هذا ولا يمكنني إخباركم في أيام من من الملوك جرى فقدانها، غير أن الملوك الفرنجـة قاموا فيها بعـد بتحصين قلعتين قامتـا على مقربة منهـا، اسم أولاهما تبنين، وكـانت هـذه قلعـة الملك، وهي على مسـافـة خمسة فراسخ مـن صور وأربعة فراسخ من مدينة بـانياس، واسـم القلعة الثـانية صفـد، وكـانت هذه بيـد الداوية، وهي تبعد أربعـة فـراسخ عن مدينة بانياس.

ولسوف أحدثكم الآن عن بانياس، وأبين لكم أي بلدة هي، وما هو اسمها القـديم، فهي التي تعرف باسم فيليبون، وقد عـرفت أيضاً باسم قيسارية فيليـب، وكان فيليب هذا أخاً لهيرود، وأعنـي هيرود الذي أمر بإعـدام يوحنا المعمـدان، وكـان هو زوج المرأة التي كـانت عند هيرود، عندما أمر بإعدام القـديس يوحنا، وكان ذلك بسبب أنه قال لهيرود بأنه يتوجب عليـه أن لا تكون زوجة أخيه عنده، ولذلك أمر بإعـدامه، وفي قيسارية أعطى ربنا مفاتيح الفردوس إلى القديس بطرس، وبذلك يمكنه أن يفتح وأن يغلق، وهذه المدينة قريبة من الجليل.

ولسوف أحـدثك الآن عن هذين النبعين، اللذان تجري ميـاههما نحو بحر الجليل، وقبل أن يدخلا إلى البحـر يتحدان، ويصبحان نهراً واحداً، ويحمل أول النبعين اسم«أر» أمـا الثـاني فيعـرف باسم«دان»، وعندمـا يتحدان يصير اسمهما الأردن، ويدخل هذا الماء إلى البحر على مقربة من بانيـاس، ويجري في وسط البحـر، وإلى جانبـه هناك جسر يعـرف باسم جسر طبرية، وعندما يجتاز هذا الجسر يصير اسمه «نهر الأردن».

ولسوف أحدثكم الآن عن هذا البحر، وأبين لكم أي بحر هو، فهذا البحر ليس بحـراً مالحاً، بل هو بحر عذب وجيـد للشرب، وهذا البحر

هو مجرد أربعة فراسخ بالطول وفرسخين بالعرض، وتطلق الكتابات المقدسة على هذا البحر، اسم بحر الجليل، كما تطلق عليه في أماكن أخرى اسم بحر طبرية، لأن مدينة طبرية قائمة على هذا الجانب من البحر، وهو الجانب العائد للمسيحيين، هذا وتطلق الكتابات المقدسة في بعض الأماكن الأخرى على هذا البحر اسم بحر الناصرة.

ولقد كان على هذا الجانب من البحر حيث جعل يسوع المسيح الماء نبيذاً، وذلك عندما كان في عرس رئيس المُتكأ في مدينة طبرية، وبين طبرية وبانياس موضع يدعونه باسم المائدة، وذلك على مقربة من بحر الجليل، ففي هذا المكان أطعم يسوع المسيح الحواريين وخمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة من الشعير مع سمكتين، حتى أنهم تركوا سلتين من الفتات وعلى جزء آخر من البحر وباتجاه بانياس توجد مدينة اسمها كفر ناحوم، فهناك فيها ولد كل من القديسين بطرس وأندرو، وهناك أيضاً صنع يسوع المسيح عدداً كبيراً من المعجزات، فقد شفى عدداً من الناس مثل ابن الملك وآخرين.

وعلى مقربة منها هناك مدينة اسمها نين، وإلى هناك أيضاً، ذهب يسوع المسيح في أحد الأيام، لقد ذهب هو شخصياً ومعه حواريوه، وعندما اقترب من المدينة، واجه سيداً، كان قد حملوه وأتوا به لدفنه، ثم أقبل يسوع المسيح نحوه، وقال بأن عليه أن يقوم، فاستجاب وقفز قائماً لأن يسوع المسيح قد أقامه، وعلى بعد خمسة فراسخ من هذا البحر، بحر طبرية، تقوم مدينة اسمها الناصرة، وهي تبعد ستة فراسخ عن مدينة عكا، ففي هذه المدينة ولدت سيدتنا القديسة مريم، وإلى هذه المدينة نفسها جلب الملاك لها رسالة تفيد بأن يسوع المسيح يتوجب أن يأخذ شكل وجسد آدم من خلالها، وعندما كانت سيدتنا القديسة مريم مع الطفل، أي مع ابن الرب الآب، ذهبت إلى جبل قريب من الناصرة، مع ابنة خالة لها سكنت هناك، وكان اسمها ايزابل وكانت حاملة بطفل هو

السيد القديس يوحنا المعمدان، ويوجد في ذلك المكان دير يطلقون عليه اسم دير القديس زكريا، لأن زكريا قد سكن هناك، وهو أيضاً كان والد القديس يوحنا المعمدان.

وعلى مقربة من الناصرة، وعلى مسافة نصف فرسخ، هناك جبل جميل، اسمه باللاتينية: Montem Excelsum Valab ، وفي اللغة الرومانسية«القفزة»، لأنه يوجد على طرف هذا الجبل شعب منحدر، إليه كانوا يقودون الناس من أهل الناصرة الذين استحقوا الموت، ليرغموهم على القفز من هناك نحو الأسفل، وحدث الآن في إحدى المرات أنهم عندما اقتادوا يسوعاً المسيح إلى هناك لإرغامه على القفز نحو الأسفل بسبب كلمة قالها لليهود في الناصرة، أنه اختفى من بينهم وجلس مع ذلك على صخرة كانت موجودة هناك، ولذلك لم يكن بإمكانهم رؤيته أو العثور عليه.

وهذا الجبل المشرف على الجرف، هو الجبل الذي حمل الشيطان يسوعاً إليه، عندما جلبه من القرنطل حيث كان قد صام، وجاء حمله إلى الهيكل أولاً، ومن الهيكل حمله إلى الجبل، وأراه جميع البلاد والمنطقة، والثروات التي كانت في الأرض، وقال له بأنه سوف يعطيه كل الذي رآه لو أنه قام بعبادته، فقال يسوع المسيح له بأن عليه المغادرة وأن لا يحاول إغواءه ثانية، وغادر الشيطان، وحضر الملائكة إلى هذا الجبل.

وتحت هذا الجبل جبل آخر ليس مرتفعاً مثل الجبل الذي تحدثت عنه أعلاه، وهناك سهل جميل جداً بين الاثنين، واسم هذا الجبل الآخر جبل الطور، وإلى هذا الجبل جلب الرب مرة القديس بطرس، والقديس جيمس، والقديس يوحنا، وتحول شكله أمامهم، ولهذا السبب يحافظون في كثير من البلدان، على الاحتفال بعيد تحويل الشكل، ولقد نسيت أن أخبركم عندما كنت أتحدث من قبل، كم يبعد عن القدس ذلك الجبل الذي حمل الشيطان يسوعاً المسيح إليه، إنه واقع على مسافة سفر يومين.

ولسوف أحدثكم الآن عن نهر الأردن، وأبين كيفية جريانه، وأين يصب، فهو عندما يخرج من بحر الجليل، يجري نحو الجنوب، ويستمر بالجريان لمسافة رحلة ثلاثة أيام في الطول، ثم ينتهي في البحر الذي يدعونه باسم بحر الشيطان، وهو يعرف من قبل العالم ومن قبل الكتابات المقدسة باسم بحر الملح،لوجود جبل من الملح على الشاطىء باتجاه الكرك، ولأنه مالح جداً، إلى حد أن ما من شيء يمكن أن يقارن بملوحته وبمرارته،فملوحة البحر الكبير ومرارته هي لا شيء بالنسبة له، وهذا البحر لا يجري بأي اتجاه، بل هو أشبه ببحيرة، ولكن بدون أسماك، لأن الأسماك لا يمكنها الإقامة هناك، ولا حتى كما كان مرة، في جميع المنطقة التي كان البحر فيها، وتقوم هذه المنطقة فيما بين مدينة الخليل والكرك.

ولكي أتمكن من إخباركم المزيد حول هذا البحر، سوف أحدثكم عن المكان الذي تقوم فيه الكرك، إنها تقوم في العربية، فعلى مقربة منها يقوم جبل سيناء، وذلك في المنطقة التابعة لصاحب الكرك، ويقع جبل سيناء هذا فيما بين البحر الأحمر والكرك، فهناك أعطى الرب الشريعة إلى موسى بعد عبورهم للبحر الأحمر، وإلى هذا الجبل، وإلى حيث جرى إعطاء الشريعة، حمل الملائكة جسد القديسة كاترين، وذلك عندما قُطع رأسها في مصر، وهي ترقد هناك في الزيت الذي يخرج من جسدها، ويوجد هناك فوق البقعة دير للرهبان الاغريق، لكن الدير الرئيسي لتلك الطائفة ليس هناك، بل موجود عند سفح الجبل، ويوجد هناك دير وصومعة، ولا يستطيع أحد أن يصعد الجبل على ظهرحصان، أو أن يحمل معه لحماً، من أجل معيشة الموجودين فوق.

ويوجد فوق ثلاثة عشر راهباً، يعيشون حياة قاسية، حيث يحملون إليهم إلى هناك الخبز، ولا شيء آخر، ويأكل بعضهم ثلاث مرات في الأسبوع خبزاً مع الماء، وهناك بعضهم الذين يأكلون الأعشاب

والنباتات البرية مع خبزهم، وذلـك مما يجدونه هناك، وصام موسى على هذا الجبل لمدة أربعين يوماً، ولم يأكل حتى أعطيت الشريعة له.

ولسوف أحـدثكم الآن عن البحر الأحمر، الذي هو قـريب، فهذا هو البحر الـذي ضربه موسى بعصـاه، فانشطر البحـر، وصار بمثابـة سياج على هذا الجانب وعلى الجانب الآخـر، وهذا هو البحر الذي اجتـازه بنو إسرائيل بأقدام جافة، عندما قدموا من مصر، وعندما عبروا جاء الملك فـرعون وراءهم، ودخل البحـر وهو يريد أن يقتلهم وأن يعتقلهم لكنه هلك هو وجيشـه كله، فقد حـرك مـوسى عصاه، وضرب بها البحـر ، فانغلق البحر، وغـرق فرعون هو وجيشه كله، ولم ينـج أحد منه، ونجا بنو إسرائيل،لأنهم كانوا قد عبروا قبل أن ينغلق.

وكـان الأمير أرناط قـد بنى على شاطـىء هذا البحر خمسـة غـلايين، وعندمـا اكتملت عمارتهم أمـر بإنزالهم إلى البحر، ووضع فيهـم فرسـاناً وعسـاكر، ومـا يكفي من أطعمـة، وكـان هدفه أن تقـوم هذه الغـلايين بجـولة شاملة هناك، لمعـرفـة أي قوم من الناس يسكنون شـواطىء هذا البحر في الأجزاء الأخرى، وقد غادرت الغلايين عندما صارت جاهزة، ومخرت أعماق البحر واجتازت إليـه، ولم يسمع أحد من الناس ما الذي حـدث لهذه الحملة منذ أن غـادرت(*)، ويجري في وسط البحـر الأحمر هذا نهر الفردوس، فهو عندما غادر البحر يجري في وسط أرض مصر، واسم هذا النهر في الكتابات المقدسة سيحون(بيسون)، لكنه يعرف من قبل الناس باسم نهر النيل.

والآن وقد قلنا ما قلناه عن النيل، سوف أحدثكم عن مدينة الخليل،

* — كان هذا سنة ١٢٨٣، وكـان صلاح الدين عندما سمع بهذه الحملة، أمـر واليه على مصر بتحريك أسطول، برئـاسة القائد لؤلؤ، فقـد أدرك لؤلؤ الأسطول الفرنجي، فأحرقـه بالروحاء، ولاحق من كان فيه، فقتل بعضهم، وأسر آخرين، ثم عاد سالماً غانماً.

القائمة خلف بحر الشيطان، وهي التي أشرت إليها من قبل في أرض الميعاد، ففي هذا المكان تقوم مدينة اسمها حبرون، فهنا تحدث القديس إبراهيم وسكن بعدما جاء من حرّان، فهناك كان قد ولد، وهي المكان الذي اسمه في الكتابات المقدسة«آرام»(*)، وكان ذلك لدى الحديث بأن الرب قد أخبره بأن عليه المضي نحو الأمام، وعليه أيضاً أن يسكن في البلاد التي سوف يخبره عنها، وقد اشترى في هذا الموضع حقلاً من الأرض من أجل دفن نفسه وجماعته، وبالفعل هناك دفن مع ابنه اسحق، ومع يعقوب ابن اسحق، الذي توفي في مصر، والذي كان والد يوسف، فعندما مات والداه في مصر، أمر بنقلهما ودفنهما مع أخوانه في حبرون، وبعدما مات يوسف، جلب بنو إسرائيل عظامه معهم عندما قدموا من أرض مصر إلى أرض الميعاد ، وقد دفنوه مع أبيهم، [تذكر التوراة أنه دفن في شكيم]، وعندما سكن إبراهيم هناك لم تكن هناك بلدة، غير أنهم فيها بعد أقاموا تلك المدينة هناك التي أسموها الخليل، لأن خليل الرحمن إبراهيم سكن هناك، وتتبع هذه المدينة صاحب الكرك، وهي تبعد خمسة فراسخ عن بيت لحم، حيث ولد يسوع المسيح.

وبيت لحم هي مدينة لكنها ليست كبيرة، حيث يوجد فيها شارع واحد، والمسافة من بيت لحم إلى القدس هي فرسخين.

ويوجد بين بيت لحم والقدس دير، يوجد فيه رهبان إغريق، واسم هذا الدير دير«المجد للرب في الأعالي»، فهناك كان الملائكة قد غنوا عندما ولد يسوع المسيح، وقد تحدثوا إلى الرعيان وأعلنوا أن مخلص العالم قد ولد، وقالوا بأن عليهم أن يذهبوا إلى القدس(بيت لحم) حيث كان موجوداً، ولسوف يجدونه مقمطاً بقطع قماش، وقد ذهبوا فوجدوا كل شيء حسبما أخبرتهم الملائكة، ونحن نقدم الشكر والحمد إلى يسوع

* — الرائج انعدام العلاقة بين آرام وحران، وأن إبراهيم عليه السلام ولد في أور في العراق.

المسيح، لأنه قضى بالأمور أن تكون هكذا، وإلى جانب هذا الدير هناك أرض حقل يدعى«حقل الزهور».

أما وقد فرغنا من هذا، سوف أحدثكم عن مدينة تقع على مسافة فرسخين من النهر، وهي التي حصنها أهل البلاد عندما سمعوا من يقول بأن بني إسرائيل أخذوا يدخلون أرض الميعاد، وأنهم لا بد مارون من هناك، واسم هذه المدينة أريحا، وكانت مسورة بحجارة صماء، وبعدما عبر بنو إسرائيل النهر حاصروها، لأنها كانت المدخل إلى أرض الميعاد.

وعلى مقربة من هذه المدينة حقل مليء بالثعابين، ويمسكون هناك الثعابين، التي يُصنع منها المرهم، ولسوف أخبركم كيف يمسكونها، فالرجل الذي يتولى إمساكها يقيم سياجاً حول الحقل، ويسير مردداً عبارات سحره وتعاويذه، ويقوم بالغناء من حول السياج، وتقدم جميع الأفاعي التي تسمعه نحوه، فيتولى إمساكهن بسهولة وكأنهن خرفان، ويأخذهن لبيعهن في المدينة إلى الذين يصنعون المرهم، هذا وهناك بعض الأفاعي العاقلة بين هذه الأفاعي، فهؤلاء البعض عندما يسمعونه وقد بدأ بالغناء، يضعون واحدة من أذنتيهم على الأرض، ويمنعون السماع عن الأخرى بوساطة الذيل، وبذلك يتوقفون عن السماع، وبهذا المرهم الذي يصنعونه من هذه الأفاعي من الممكن معالجة جميع أنواع السموم.

ولسوف أحدثكم الآن عن نوعين من الأفاعي، موجودين في العربية، وكذلك في الصحراء البعيدة، والذي يتوفر من هذين النوعين فقط ثعبانين، ولا يمكن أن يكون هناك أكثر، وهما حاميان جداً، ولهما رائحة نتن هائلة إلى درجة أن ما من طائر يمكنه أن يحلق فوقهما في المكان الذي يلتقيان به، بل يسقطون موتى من الحرارة ومن رائحة النتن الصادرة عنهما، كما أنه لا يوجد إنسان أو حيوان يشم نتنهما إلا ويسقط ميتاً، وسوف أحدثكم الآن كيف يلدان، وكيف ينشآن، ففي ذلك

موتها، فعندما يحل الوقت الذي يلتهبان به، يأتي الذكر ويضع رأسه في فم الأنثى، وبذلك تحمل، وعندما تحمل تغلق فمها وتعض بأسنانها فتقطع رأس الذكر، وبذلك يموت، وعندما يحين وقتها تقوم بالولادة، والذي تلده هو ذكر واحد وأنثى واحدة، وهذا ما يتكرر كل مرة.

وهناك على الطريق أعطى المسيح البصر إلى الرجل الذي صرخ له، لأنه كان بلا عينين، ومن هناك على بعد فرسخ واحد عن أريحا، يوجد القرنطل، حيث صام الرب على الجبل.

ويوجد عند سفح الجبل نبع جيد وجميل، وقد كان هذا النبع في أيام النبي إيليا له طبيعة شاذة، بحيث لم يوجد تحت أديم السماء مكان لمسته مياه ذلك النبع إلاّ ومات فيه كل ما هو أخضر من أنواع النباتات، ولم يكن هناك امرأة في العالم شربت منه ثم أنجبت ولداً، وكذلك لم تكن هناك أنثى حيوان شربت منه ثم كان لها أولاد، ثم جاء إيليا وعالجه، فوضع ملحاً فيه، وبعدما عالجه لم يعد يؤذي، بل صار جيداً، وروى جميع تلك الأرض والحدائق وصولاً إلى النهر، والقرنطل حيث صام الرب، هو موضع في الصحراء على هذا الجانب من النهر، وأما الصحراء التي عاش فيها القديس يوحنا فموجودة عبر النهر، وقرب النهر قام بتعميد الذين جاءوا إليه للتعميد، وهكذا عمّد يسوعاً المسيح، وعلى طرف النهر حيث جرى تعميده هناك دير للرهبان الاغريق، اسمه دير القديس يوحنا.

ويوجد بين أريحا والقدس مكان اسمه الصهريج الأحمر، وكان يوجد هناك خان كان ينزل به الذين يذهبون من القدس إلى أريحا، وإلى النهر، وهناك حمل السامري الرجل الذي وجده قد سُرق على الطريق، وهو الذي تحدث عنه يسوع المسيح عندما سألوا:«من هو جاري؟»[انظر لوقا:١٠/ ٢٥ — ٣٧].

والآن وقد تحدثت إليكم عن بحر الجليل، وعن النهر، وعن هذا الجانب وذلك الجانب، وعن الخط بين المسيحيين وبين المسلمين، ذلك أنني أخبرتكم بأن المسلمين قد عبروا النهر عندما كانوا في أحد الأيام في فوربلت Forbelet ، ومضوا إلى حصار الكرك.

وعندما سمع بلدوين ملك القدس خبراً أفاد بأن صلاح الدين كان قد بعث خلف رجاله للقدوم إلى البلاد، جمع جيشه كله، وعسكر بهم في مكان اسمه ينابيع الصفورية، والسبب الذي جعلهم يطلقون عليهم اسم ينابيع الصفورية، هو قربهم من بلدة اسمها الصفورية، ففي هذه البلدة ولدت القديسة حنة أم سيدتنا القديسة مريم، وعند هذه الينابيع أقام الملك أيام الصيف عندما لم تكن هناك هدنة مع المسلمين، وقد أقام هو وجميع فرسانه والداوية والاسبتارية وجميع بارونات البلاد، وسبب إقامتهم هناك هو أن المسلمين جاءوا إلى البلاد، وكانوا جاهزين للزحف للتصدي لهم، وهذا المكان الذي توجد فيه الينابيع يبعد فرسخاً عن الناصرة، وخمسة فراسخ عن طبرية، وكذلك خمسة فراسخ عن عكا، وهناك أقام ملك القدس لمدة ثلاثة أشهر هو وجيشه، وذلك حتى جاء صلاح الدين إلى البلاد، وإلى أن حشد قواته.

وعندما حشد صلاح الدين جيشه، وجمع قواته في دمشق، قام بالزحف، وقطع كثيراً من طريقه وعبر النهر وأقام في مكان فيه نبع اسمه نبع عين طبون Tabaun ، وهي موجودة عند سفح الجبل تحت صخرة، ويبعد هذا الجبل مسافة أربعة فراسخ عن ينابيع صفورية، وذلك حيث كان ملك القدس مع جيشه، وفرسخين عن قلعة اسمها زرعين(يزرعئيل)، وهذه القلعة موجودة في مكان اسمه دوثان، وفي هذا الموضع الجب الذي ألقى فيه بنو إسرائيل أخاهم يوسف، وباعوه إلى تجار أخذوه إلى مصر.

ولسوف أحدثكم الآن عن نابلس، وأبين لكم كيف هي، وأين تقوم،

فالتي كانت موجودة عندما كان المسيح على الأرض لم تكن هي نابلس بعد، وهنا سكن السامرة أولاً، وتقوم نابلس بين جبلين، وأهل البلاد يطلقون على أول هذين الجبلين اسم جبل قابيل، وعلى الآخر اسم جبل هابيل، وجبل هابيل دائماً أخضر في كل من الشتاء والصيف، وذلك من خلال العدد الكبير من أشجار الزيتون التي تنمو هناك، وأما جبل قابيل فدوماً جاف، ذلك أنه كله صخري وحصوي(*)، وعند سفح جبل قابيل تقوم مدينة اسمها عسكر(شيكار)، وتتجه هذه المدينة نحو الشرق، وإلى جانب جبل هابيل، وباتجاه مشرق الشمس، هناك جبل اسمه جبل القديس إبراهيم، وعلى هذا الجبل مكان يدعونه باسم بيت إيل، وهذا هو المكان الذي جلب إليه إبراهيم ابنه اسحق ليضحي به، وكان ذلك عندما أمره الرب، وهنا أعدّ الملاك له كبشاً ليضحي به عوضاً عن ابنه.

وإلى جانب هذا الجبل، وباتجاه الشرق، هناك مدينة، كانت — عندما كان يسوع المسيح على الأرض — تعرف باسم السامرة.

وكان دون هذه المدينة سهل كان اسمه سهل شكيم، وكان هناك بئر عمله يعقوب وأعطاه إلى ابنه يوسف، وإلى هذا البئر يذهب أهل المدينة للشرب، ويبعد هذا البئر مسافة نصف فرسخ عن نابلس.

وجرى تدمير مدينة السامرة هذه تماماً، بعد أيام يسوع المسيح، وذلك عندما كان فسبسيان على الأرض، ولم يكن هناك مدينة على الأرض أطول منها، وهناك أديرة السامرة حيث يقدمون قرابين فصحهم، وذلك أنه لا يمكنهم التضحية في أي مكان آخر، مثلما لا يمكن لليهود

★ — هذا الجزء فيه غلط غريب، ويبدو أن المصنف قد نقله عن رواية أخرى لم يفهمها جيداً، فجبل هابيل هو جبل عيبال، وبناء عليه ينبغي أن يكون جبل قابيل هو جبل جرزيم، وعلى هذا وضعت بيت إيل على جبل هابيل، هذا وجبل جرزيم فيه وفرة من المياه، لكن جبل عيبال جبل جاف.

التضحية إلاّ في القدس، وإلى هناك جاء السامرة من بلاد مصر، ومن بلاد دمشق، ومن جميع بلاد بنيم Paynim، ويأتي هؤلاء القوم إلى ها هنا في يوم عيد الفصح، ويكون موعد عيد الفصح لديهم متوافقاً مع الموعد الذي يتخذه اليهود، وهناك يقومون بالتضحية.

وعلى بعد خمسة فراسخ عن نابلس هناك قلعة اسمها بيت هرون، وحدث مرة في غابر الأيام أن واحداً من قادة نبوخذ نصر، الذي كان ملكاً لفارس، قام بحصار هذه القلعة، وكان اسم هذا القائد هولوفرنس.

وعلى بعد فرسخين عن نابلس، هناك مدينة اسمها سبسطية، وهي قائمة على الطريق الذي يمضي من نابلس إلى الناصرة، ففي هذا المكان كان قد دفن جسد السيد القديس يوحنا المعمدان، فإلى هناك جلب حواريوه جسده، بعدما أمر هيرود بقطع رأسه، وبعد أمد وجيز من ذلك، وعندما سمعت زوجة هيرود بأنه قد دفن، بعثت إلى هناك وأمرت بإخراج عظامه من الأرض، وأحرقتهم، وباعت الرماد، ولهذا السبب ما برح الأطفال في ليلة عيد القديس يوحنا يشعلون ناراً من العظام، لأن عظامه قد أحرقت.

والمسافة من نابلس إلى القدس هي اثني عشر فرسخاً، ومن نابلس إلى الناصرة هي اثني عشر فرسخاً، وكذلك فإن المسافة من نابلس إلى قيسارية هي اثني عشر فرسخاً، ومن نابلس إلى نهر الأردن هي خمسة فراسخ، لكن ليس إلى المكان الذي جرى تعميد يسوع المسيح فيه، ذلك أن المسافة من نابلس إلى المكان الذي عمّد فيه أبعد بكثير، مع أن النهر هو نفسه.

— ٣ —

بورتشارد راهب دير جبل صهيون

استهلال:

كـان بورتشارد راهب دير جبل صهيـون ألمانيـا، إما من أهالي مـدينة ستراسبـورغ أو مـدينة مجديبـورغ، وقد عـاش في القـرن الثـالث عشر، وصـار راهبـاً من رهبـان طائفـة الدومينيكان وذهب إلى الشرق في سنة ١٢٣٢م، وقد زار مصر، وسـورية، وماعرف باسم أرمينيـا، التي كانت تعرف قديماً باسم مملكة كليكيـا، ويقال بأنه أمضى عشر سنوات في دير جبل صهيون في القدس، ولم يعـد إلى أوربا حتى تقدمت به السن كثيراً، هذا وتاريخ وفاته غير معروف.

ومن لهجة كتـابته، يمكن أن ننظر إلى العصر الذي عـاش فيه على أنه عصر تسامح، وقـادت صحة أوصافـه في كثير من الأحيان م.دي.أنفيل Annville ، للاعتماد عليـه كـدليـل، وقـدأعلن ج.س.م لورانت — الذي اعتمدت على طبعتـه في هذه الترجمة — أنه أعظم الحجاج في جميع العصور الوسطى وأشهرهم، ومع هذا يلاحظ أن شهرته التي دفعت إلى تحقيق كتابه أكثر من عشرين مرة، أن مـا من طبعة من الطبعات المتقدمة أعطتنا نصـاً كـامـلاً، وأنه لم يكـن هناك وفـاق حـول اسمـه الذي ورد بأشكال متنوعـة منهـا:بوركـاردوسBorcardus ، وبروكـــاردوس Brocardus ، وبرغـادوسBerghadus . وذهب لورانت إلى القـول بأن بورتشارد نفسـه قد أخـرج الكتاب مـرتين، ففي المرة الأولى قدمـه كنشرة خاصة أخـذت شكل رسالة مـرفقة بخريطة، وقـاد نجاح هذه النشرة إلى إخراج نسخة مصححـة نشرت على شكل كتاب، وظهر منذ ذلك الحين تعـارض عظيم في النص، وذلك عندما نقـارن طبعة منه بأخرى، فعلى سبيل المثال نقل العقيـد كوندر الكلمات التالية من ص١٢ من هذه السلسلة حول مدينة القدس:

"Relictis Tamen Prioris concavitatis Vestigiis"

مظهـراً أن وادي[السيل] تيروبوان Tyropoeon لم يكن مليئاً مثلما هو الآن، ولم ترد هذه الكلمات في نص لورانت، غير أننا نقرأ في الفصل الثامن نصاً مشابهاً جاء فيه:«في هذه الأيام جميع مجرى وادي السيل ملىء تماماً، ومع هذا فإن آثاره، يمكن تتبعها وفق هذه الطريقة».

ونقل لورانت نصين عن طبعة هنريكوس كـانيسـوس، الذي حقق الطبعة المبكرة من كتاب مصنفنا هذا، فقد أشار بورتشارد في هذين النصين بشكل اعتيادي إلى أماكن في مجديبورغ ومن حولها، وذلك كمقياس للمسافات، ومن ذلك اعتقد لورانت أننا نستطيع من دون خطر أن نفترض أنه كان ألمانياً، إن لم يكن من أهالي تلك المدينة.

وأكثر أهمية تقدير تاريخ كتابته وزيارته لفلسطين، فالحوادث التي أتى على ذكـرها تبرهن أنه كتب بعـد سنوات:١٢٦٠ و ١٢٦٣و١٢٦٨،و١٢٧١، وقبل سنتي ١٢٩١ و١٢٨٥، وعلى هذا فإن تاريخ سنة ١٢٨٣ يبدو صحيحاً، مع أنه لم يذكره بنفسه، وذكر بعض الكتاب أنه أمضى عشر سنوات في الأرض المقدسة، أي من سنة ١٢٧٥ حتى ١٢٨٥(انظر م. لى كلارك — التاريخ الأدبي لفرنسا: ٢١ / ١٨٢)، والمؤكد هو أنه أمضى عامين هناك، ونستخلص هذا مما قاله في الفصل الرابع، فقد كان هناك في أيام حكم الملك المنصور قلاوون(١٢٧٩ — ١٢٩٠)، سلطان مصر وخليفة بيبرس، وقد كتب قبل ثماني سنوات من انتهاء الحروب الصليبية، وكان ذلك في أيام هنري ملك قبرص والقدس، وفي أثناء هدنة العشر سنوات، التي أبرمها قلاوون في سنة ١٢٨٢ م، مع الداوية والاسبتارية، ومن المفترض أن لقب De monte Sion الذي حمله، قد جاء من إقامته الطويلة في الدير هناك، لكن من الواضح أننا لا نمتلك برهان قوي يبرهن هذا ويؤيده.

وكان بورتشارد مخلصاً في تحرره من التعصب، مع أنه كما يبدو، كان

على المستوى الشخصي تقياً، وكانت رعايته ومساعدته للطوائف الأخرى مدهشة، ويبدو أن قراءاته كانت ضخمة،وقد أظهر كثيراً من الذكاء، في تعلمه ما أمكنه تعلمه أثناء رحلاته، وكذلك في استيعاب المعلومات التي تلقاها، وقد عاش فيها بين هراطقة وكفار، وبين نساطرة وأرمن وسريان، وكأنهم إخوان له، وقد أظهر أكثر من أي كاتب معاصر له مزيجاً غريباً من الشجاعة والتواضع، والإيمان، وحب المعرفة، ويبدو أن هذا كان من سمات الصليبيين في القرن الثالث عشر، وهي حقبة البطولة في العصور الوسطى، ولقد كان قادراً على زيارة بلدات هي الآن مدمرة، ومناطق كانت مزدهرة هي الآن مشعثة، ولم يكن بالطبع خلواً من السذاجة حيث قام بمزج الحكايات الخارقة، وردد أصداء الملاحم، فلقد كان حسبما وصفه م.ف.لى كلارك بقوله:

"il Faut reconnaitre chez ce religieux un esprit fort eleve, qui, au moment ou les croisades Finissent, raconte avec unenaivete admirable ce quil a vu ou cru voir. No us devonsa sa, curiosite attentive des abservations importantes de geographie et d,histoire naturelle" (التاريخ الأدبي لفرنسا:٢١/ ١٨٢).

وأتى فابري(١/ ٤/ ١٧) على ذكر بورتشارد بالاسم، ونقل مارينو سانوتو صفحات كثيرة من كتابه، قام بانتحالها حجاج آخرون، وفي هذا كله اعتراف مخلص بها قدمه، واعتماداً على بورتشارد قام الجغرافيون باستقاء المعلومات حول التقسيم الجغرافي لفلسطين، وسورية، والعربية، وعن مكانة دمشق الأبدية في سورية، وكذلك الكلام المضطرب حول الايطورية والطرخونية، الذي رددوه بصواب أعلى أو أدنى، ولقد كتب بورتشارد بلاتينية وسيطة جديدة، ونقل عن هوراس وكذلك عن جيروم ويوسيبوس، ولسوء الحظ أنه تولى وصف الأرض المقدسة

بوساطة خطوط تقسيم كثيرة، انطلاقاً من مدينة عكا، وهذه خطة لم تكن مجدية تماماً في التوضيح والتحديد، لكنها نقلت مع أشياء أخرى كثيرة من قبل مارينو سانوتو.

وصف بورتشارد راهب جبل صهيون للأرض المقدسة

تمهيد:

أخبرنا القديس جيروم أننا نقرأ في تواريخ قديمة حول رجال زاروا بلداناً، وعبروا بحاراً، إلى حد أننا يمكن أن نتصور معهم ونرى الأشياء التي قرأنا عنها في الكتب ورأوها بأنفسهم، وهكذا زار أفلاطون الكهان المتنبئين في ممفيس، وذهب أبولونيوس إلى مصر، ودخل إلى بلاد فارس، وعبر إلى القوقاز، وبلاد الألبان، والسكيزيين، والمسغيتيين -Mes sagetae، والهنود، والبراهمانيين، وذلك حتى يمكنه رؤية ياركاسlarchas ، وذهب أخيراً إلى مصر، حتى يمكنه رؤية مائدة الشمس الشهيرة في الصحراء الرملية، فما وجه العجب على هذا، إذا ما تشوق المسيحيون لرؤية الأرض التي تحدثنا عنها جميع كنائس المسيح، ولزيارتها؟ فقد بجل الناس القدماء قدس الأقداس، لأنه كان هناك تابوت العهد، والخيمة الملائكية مع كرسي الرحمة، والمن، وعصا هرون التي أزهرت، وهذا كله يشكل نماذج عن الأشياء التي ستأتي، وأوليس ضريح المسيح يستحق العبادة منا أكثر من أي شيء آخر، لأن أي إنسان كلما دخل إلى هناك، ومهما كان عدد المرات، سوف يتصور بعقله وبصيرته المخلص ممدداً هناك وملفوفاً بأقمشة كتانية؟ وإذا ما تقدم أكثر قليلاً، سوف يرى الصخرة وقد دحرجت وأزيحت، والملاك جالس عليها وهو يري النساء المنديل وأقمشة القبر، وأي مسيحي، بعد رؤيته لهذه الأشياء، لن يبادر مسرعاً بالذهاب إلى بيت لحم، ليرى الطفل الوليد وهو يبكي في المعلف، فقد جاءت مريم لتأوي إلى النزل الذي كان موجوداً تحت صخرة مجوفة، من الممكن رؤيتها في هذا اليوم.

وكان الملائكة يغنون: المجد للرب، والسلام للناس، وكان ذلك

بحضور الرعاة، وأكثر عجباً من هذا كله، رؤية الحكماء الثلاثة بأبهتهم يركعون أمام المعلف، من دون سقف فوق رؤوسهم، إلاّ الصخرة الممتدة نحو الأمام؟، ودعه يعود من هناك إلى القدس، عله يرى يسوعاً ويسمعه وهو يعظ في الهيكل، ويعلم حوارييه على جبل الزيتون، ويتعشى على جبل صهيون، ويغسل أقدام حوارييه، ويعطيهم جسده ودمه، ويصلي في جيسماني، ويتعرق دماً، ويقبّل الذي خانه، ومن ثم يعتقل ويجر بقوة إلى السجن ويسخر منه، ويبصق عليه، ويحكم عليه، ويحمل صليبه، ويغرق تحت وطأة وزن الصليب أمام باب المدينة الذي من الممكن رؤيته في هذا اليوم، ثم يساعده سمعان القرني، وبعد ذلك قيامه بالاحتفال بأسرار قداس آلامه فوق أكرا، وما برحت ذكرى كل واحدة من هذه الأحداث، وكل واحد من هذه الأماكن كاملة وتامة، كما كانت عندما حدثت هذه الأشياء ها هنا، وفي الحقيقة هناك في المدينة أماكن كثيرة تقدست بأحداث آلام ربنا، إلى حد أن يوماً واحداً لن يكون بأي حال من الأحوال كافياً لزيارتها جميعاً بشكل نافع، وبالاضافة إلى هذا كله، هناك أشياء أخرى تثير الناس في تلك الأماكن وتدفعهم إلى درجة عالية من الانفعال العاطفي، ومن هو الذي يمكنه أن يذكر كم هو عدد الرهبان والراهبات من جورجيا، ومن أرمينيا الصغرى والعظمى، ومن بلاد الكلدان، وسورية، وميديا، وفارس، والهند، وأثيوبيا، والنوبة، وكذلك الأنباط، والموارنة واليعاقبة، والنساطرة، والاغريق، والسريان، ومن الطوائف الأخرى، الذين يتجولون في هذه الأيام في تلك البلاد على شكل جماعات، كل منها مكون من مائة أو مائتين، أو أكثر أو أقل، وهم يزورون كل مكان مقدس، ويقبلون بعاطفة جياشة القلعة، ويتعبدون البقاع التي سمعوا بأن يسوعاً الجميل جلس عليها، أو وقف، أو عمل أي عمل؟ تراهم يضربون صدورهم، وهم يبكون أو يتنهدون، ويغنون بالدور، ويعبرون بمظاهرهم الجسدية عن مشاعرهم الدينية التي يمتلكونها بدون أدنى

شك، وعمق هـذه المشـاعـر كـان يستـدر عطـف الكثيرين حتى أن المسلمين كـانوا يبكون لذلك، فلقـد رأيت أيها المولى الـرب، إبراهيم، يسرع — كما حدثنا المؤرخون القـدماء — بمغادرة بلاده، وترك أسرته، وبيت أبيـه، ليقدم مسرعـاً إلى هذه البلاد، فينصب خيمتـه فيما بين بيت إيل، وبين عـاي، ويقيم بعض الوقـت في جـرار Gerar ، وبئر السبع، وحبرون، وإنني أرى حـزقيـال يغـادر ميـاه بابل، ويُحمل بشعـر رأسه فيما بين السماء والأرض، وهو يشق طريقـه إلى القدس، وما الذي يمكنني قوله عن العذراء الرائعـة، التي، بعد الاعلان الذي عمله الملاك لها، ووعدها، قد عرفت بأن رحمهـا قد عمل بيتاً للرب،فلم تكن راضية بسهول الجليل الواسعة والجميلة، بل بادرت مسرعة للصعود إلى المنطقة المرتفعـة في اليهـودية، وذلك لـرغبتهـا في أن تكون أقـرب إلى الأمـاكن المقـدسـة؟ ومـا الذي يمكنني قـوله عن البطريـرك يعقـوب، ويوسف وأخـوانه، الذين، لأنهم لم يستطيعـوا السكنى في تلـك الأرض أثناء حياتهم، اختاروا أن يدفنوا فيها بعد مماتهم؟.

ومـا الذي أحتاجـه للقـول أكثر؟ من الممكن أن نتنهـد وننزعج تجاه انعـدام الحماسـة لدى المسيحيين في أيـامنا، الذين لـديهم أمثلة كثيرة مضروبة أمام أعينهم، ويترددون في العمل على انتزاع البلاد التي قدسها يسوع بدمه، من أيدي الأعداء، مع أنهم يغنون يومياً بحمده في الكنائس خلال العـالم كله: لأنه لا يوجد يوم أو ليلةعلى مـدار السنة لايغني فيها كل مسيحي تقي، أو ينشد، أو يتلو، أو يعظ، أو يتفكر، أو يقرأ حول ما جرى أو كتب في هذه البلاد، وفي مدنها وأماكنها المقدسة؟.

وعندمـا رأيت أن بعض الناس قـد تملكتهم الرغبـة في أن يتصـوروا هذه الأشياء بعقـولهم، وهي الأشياء التي لم يكونوا قـادرين على رؤيتها بأعينهم، ورغبة مني في تلبية رغباتهم، بقـدر ما أمتلك من طاقة، فكرت بقدر ما أستطيع، في أن أكتب بكل عناية وصف ما أشاهده، وأن أصف

بدقة متناهية تلك البلاد، التي مررت ماشياً عليها مراراً، ذلك أنني أريد أن يعرف القارىء أنني لم أضمن أوصافي إلاّ ما رأيته بأم عيني، عندما كنت في المكان الموصوف نفسه، أو إذا لم أستطع الوصول إليه، كنت أراه من فوق أحد الجبال المجاورة، أو من مكان موائم آخر،ولقد دونت بدقة الأجوبة التي قدمت إلي من قبل السريان أو المسلمين، أو من قبل قوم آخرين من سكان البلاد، وذلك بعدما سألتهم بدقة متناهية.

وفي الحقيقة، لقد قلت: إنني إما مشيت على قدمي وطفت على البلاد كلها من دان إلى بئر السبع ومن البحر الميت إلى البحر المتوسط، فتلك هي حدودها، أو أنني تقصيت فبحثت بعناية حول الأماكن التي لم أستطع الوصول إليها.

ولدى تفكري وتقديري كيف يمكنني القيام بوصف هذه البلاد بشكل نافع ومفيد، ولكي يتمكن عقل قارئي بسهولة من فهم ما سأخبره عنه، رأيت اختيار نقطة مركزية ومن ثم إعداد البلاد كلها وترتيبها من حولها، وفق تنظيم صحيح، ولقد وقع اختياري على مدينة عكا لتكون هي المركز، لأنها معروفة أكثر من أي مكان آخر، ومع هذا فإن هذه المدينة ليست واقعة في وسط البلاد، بل هي قائمة على شاطىء البحر في الجزء الغربي من حدودها، وقد مددت من هناك أربعة خطوط، كل واحد منها متجه إلى إحدى اتجاهات العالم الأربعة، ولقد قسمت كل ربع إلى ثلاثة أجزاء، حتى تتوافق هذه الأجزاء الاثني عشر مع الرياح السماوية الاثني عشر، ووضعت في كل قسم من هذه الأقسام المدن والأماكن التي ورد ذكرها في الكتابات المقدسة، حتى يمكن بيسر وسهولة إيجاد موضع كل مكان، وجزء العالم الموجود فيه.

هنا بداية القسم الأول من البلاد المقدسة

١ — عليكم أن تعرفوا في البداية أن ما ندعوه باسم الأرض

المقدسة، هو ما وقع حصة لأسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وقد عرف أول الأقسام باسم مملكة يهوذا، وكان حصة سبطي يهوذا وبنيامين، وعرف القسم الآخر باسم مملكة السامرة، وهو الذي يعرف في هذه الأيام بتبعيته لمدينة سبسطية، التي كانت عاصمة ديار الأسباط العشرة المتبقية، وهي التي عرفت باسم إسرائيل، وقد أطلق على هاتين المملكتين مع جميع بلاد فلسطيا، اسم فلسطين، وكانت فلسطين إحدى مقاطعات سورية، وذلك مثلما سكسوني أو فرانكونيا، مقاطعتين من بلاد ألمانيا، ومثلما لومبارديا وتوسكانيا مقاطعتين في إيطاليا.

ويمكن فهم هذا بقدر أكبر، إذا عرفنا بوجود عدد كبير اسمه سورية، وكل منها حمل اسماً مختلفاً، ومع هذا فإن مجمل البلاد الواقعة فيما بين نهر دجلة ومصر تدعى بشكل عام سورية، والجزء الأول من هذه البلاد هو الواقع ما بين نهري الفرات والدجلة، وهو الممتد طولياً من جبل طوروس حتى البحر الأحمر، ويدعى هذا الجزء باسم سورية الجزرية، لأنها تقوم في وسط المياه، وتحتوي على كثير من الشعوب، منهم مثلاً: الفرثيين والميديين، ويحدها من الجنوب بلاد الكلدان التي توجد فيها مدينة بابل، ومرة أخرى إن حدودها من الجنوب العربية، التي تمتد حتى البحر الأحمر، وهو الذي يدعى في هذه الأجزاء باسم الخليج العربي، هذا وإن الجزء الأول من هذا القسم الجزري كله، هو الجزء الذي يمتد نحو الشمال، وهو الذي اسمه بشكل خاص الجزيرة السورية، وفي هذا الشطر تقوم مدينة الرها، التي كانت تعرف في القديم باسم راسيس Races والآن باسم راسك Rasc فهذه هي سورية الأولى.

وسورية الثانية هي سورية المجوفة، التي تبدأ عند نهر الفرات، وتنتهي عند نهر بانياس الذي يجري عابراً قلعة المرقب، ويصب في البحر المتوسط عند مدينة بانياس، التي هي مقر أسقف، وتبعد فرسخاً واحداً

عن القلعة المتقدمة الذكر، وفي مقاطعة سورية المجوفة هذه تقوم مدينة أنطاكيةمع ملحقاتها، مثل اللاذقية وأفاميا وسواهما كثير.

وسورية الثالثة هي سورية فينيقية، التي تبدأ في الشمال عند النهر المتقدم الذكر، أي نهر بانياس، وتمتد جنوباً حتى بترا إنشيسا Incisa ، أو القفار عند سفوح جبل الكرمل، ويدعى هذا المكان في هذا اليوم باسم قلعة الحجاج(عثليت) وهي من أملاك فرسان الداوية، وفي سورية الفينيقة هذه كثيراً من المدن، من ذلك مثلاً: المرقب، وطرطوس، وطرابلس، وبيروت، وصيدا، وصور، وعكا، وكفر ناحوم، وقد عرفت هذه المنطقة باسم سورية الفينيقية صدوراً عن اسم ابنة أغينور التي كانت أختاً لقدموس، فهو الذي بنى صور، وجعلها المدينة الرئيسية في هذه البلاد، وأطلق اسمه على البلاد، فعرفت به.

وسورية الرابعة هي سورية دمشق، حيث مدينة دمشق هي العاصمة هناك ،وسورية هذه متصلة بسورية الثالثة، أي سورية فينيقية، وذلك من الجهة الشرقية هناك، وتدعى سورية الرابعة هذه أيضاً باسم سورية لبنان، لأن جبل لبنان المشهور موجود فيها.

والتالي لسورية الرابعة هذه، أي سورية فينيقية(كذا) فلسطين، التي يتوجب دعوتها باسم فلسطيم Philistiim ، بسبب وجود فلسطينيات ثلاثة، وهؤلاء الثلاثة جميعاً أجزاء من سورية الكبرى، وهي كمايلي: فلسطين الأولى، وهي المقاطعة التي عاصمتها مدينة القدس، وذلك مع جميع المنطقة التلية الموجودة هناك حتى البحر الميت، لابل حتى القفار وإلى قادش بارينا(القفار)، وعاصمة فلسطين الثانية هي قيسارية فلسطين، التي تعرف أيضاً باسم قيسارية القائمة على شاطىء البحر، وذلك مع جميع بلاد فلسطيم شروعاً من بترا انشيسا، أو قلعة الحجاج(عثليت)، وذلك امتداداً نحو الجنوب حتى بيسان، وفلسطين الرابعة هي تلك التي عاصمتها بيسان، وذلك على مقربة من نهر

الأردن، عند سفح جبل جلبوع، وكانت هذه المدينة تعرف فيما مضى باسم سكيزوبولس، والصحيح هو دعوة فلسطين هذه باسم الجليل، أو مرج ابن عامر الكبير.

وهناك مثل هذا ثلاث عربيات، هي بالطريقة نفسها أجزاء من سورية الكبرى، والعربية الأولى هي التي عاصمتها بوستروم، التي تعرف الآن باسم بُزريث Buzereth ، وفي القديم باسم بصرى، ويحد هذه المقاطعة من جهة الغرب الطرخونية والإيطورية(الجيدور)، كما يحدها من الشمال دمشق، ولهذا السبب عرفت سورية دمشق باسم«العربية»، وهذا يعلل لماذا أطلق على أرتاس Arethas اسم ملك العربية، في حين كان هو في الحقيقة ملك دمشق، والعربية الثانية هي المنطقة التي عاصمتها هي البتراء، التي كانت تعرف بالقديم باسم ربّاث Rabbath على جدول أرنون Arnon، وكانت هذه العربية هي بلاد أبناء عمون، ومهما يكن من أمر فإن مدينة عار Ar كانت في بلاد مآب، وهي تحتوي على مملكة سيحون ملك حشبون، ومملكة عوج ملك بيسان وجبل جلعاد، وهي تحد العربية الأولى من جهة الجنوب، والعرية الثالثة هي التي عاصمتها الشوبك، والتي تعرف أيضاً باسم الكرك، وهي التي عرفت فيما مضى باسم القفار، وهي قائمة على مقربة من البحر الميت، وتحتوي هذه العربية على بلاد مآب، التي ينبغي أن تدعى باسم سورية سوبال، وتحتوي أيضاً على جميع أدوم التي هي جبل سعير، وعلى جميع المنطقة القائمة حول البحر الميت حتى قادش بارينا، وعصيون جابر، وباتجاه البحر الأحمر عبر الجزء الأعرض من القفار حتى نهر الفرات، وهذه هي العربية الكبرى التي فيها مكة، المدينة المدفون فيها محمد(ﷺ)(كذا).

وليكن ما قيل حتى الآن عن البلدان المصاقبة للأرض المقدسة كافياً، ولقد أخذت الجزء الأكبر مما قدمته من كتابات الأب المبجل في الرب،

اللورد جيمس دي فيتري، نائب الكنيسة الرومانية المقدسة في الأرض المقدسة، ومهما يكن الحال، لقد رأيت معظم هذه الأماكن بأم عيني.

ودعوني الآن أحول قلمي إلى وصف خاص للبلاد التي صارت من نصيب الأسباط العشرة.

٢ — وينبغي أن تعرفوا أولاً وقبل كل شيء، كما قلت من قبل، بأنني قد قسمت الأرض المقدسة إلى أربعة أقسام، وذلك تماشياً مع الأقسام الأربعة للسماء، أي: الشرق، والغرب، والجنوب والشمال، وبناء عليه فإن مجمل القسم الغربي متجه نحو البحر المتوسط، ومثل ذلك أجزاء القسمين، الجنوبي والشمالي، التي هي متصلة بالقسم الغربي. وعلى هذا سوف أبدأ مع الخط المستقيم لمدينة عكا، التي كانت تعرف قديماً باسم بطولميس، وأن أسير باتجاه الشمال لأصف المدن والأماكن القائمة على شواطىء البحر المتوسط.

وسوف نشرع على هذا بوصفنا من مدينة عكا، ونمضي من هناك بخط مستقيم نحو صور، ثم إلى المدن التاليةلها، فهذه سنتولى وصفها في أماكنها، لكن من المعروف أن هذه المدينة لم تكن قط جزءاً من الأرض المقدسة، كما لم يتملكها بنو إسرائيل في يوم من الأيام، وعلى كل حال إنهم عندما اقتسموا البلاد فيما بينهم أعطيت إلى سبط آشر، غير أن سبط آشر لم يتملكها قط، فهي واقعة في مقاطعة فينيقية، وعلى بعد أربعة فراسخ نحو الجنوب يقوم جبل الكرمل، ومدينة حيفا، التي تقوم عند سفح هذا الجبل نفسه، خلف جدول قيسون، حيث قتل النبي إيليا كهنة بعل.

وتمتد مقاطعة فينيقية، أو سورية الفينيقية، مسافةثلاثة فراسخ باتجاه جنوب هذا المكان حتى بترا إنشيسا، التي تعرف باسم قلعة الحجاج(عثليت)، فهذا المكان هو الحد الجنوبي لفينيقية.

ومـدينـة عكا محصنة بالأسـوار، وبتحصينات خـارجيـة، وبأبراج، وخنادق، وشرافات وسـواتر قوية جداً، وهي مثلثـة بشكلها مثل ترس، حيث يطل طرفـان منها على البحر المتـوسط، أما الطرف الثـالث، فيطل على السهل المحيط بها، وعرض هذا السهل أكثـر من فرسخين في بعض الأجـزاء، وفي بعـض الأجـزاء أقل، وهو خصـب جـداً، في المروج وفي الأرض المفلوحة، وفيـه كروم وحدائق، ينمـو فيها جميع أنواع الفـواكه، ويوجـد في المدينة عدد من الأمـاكن الحصينة والقلاع والحصـون ممتلكة من قبل فرسـان طوائف: الاسبتارية، والداوية والتيـوتون، وهذه المدينة من أمـلاك ملك القـدس، ولها ميناء واسع جـداً، وذلك على الجانب الجنوبي حيث يمكن للسفن أن ترسو.

وعلى بعـد أربعـة فـراسخ باتجاه الشمال مـن عكا تقـوم قلعـة ايمبرتي[حمصين] على شـاطىء البحـر، وهي مثل ذلك فيهـا وفـرة من الكروم والحدائق، والمياه الجارية، وذلك عند سفح جبل شارون.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من هناك، وبعدما يعبر الانسان جبل شارون، تقوم قلعـة اسكندرونة[جنوب صور]، التي يقـال بأن الاسكندر الكبير قد بناها عندما كان يحاصر مدينـة صور، وقد أعاد بلدوين ملك القدس عمارتها، وأسند حفظها إلى بعض النبلاء الذين نالوا ألقـابهم منها، وفيها وفـرة من المروج، والمراعي، وحقول التين، والزيتـون، والكروم، وذلك وسط مياه جارية وحدائق.

وعلى بعد أكثر من فرسخ بقليل من هذه القلعة، يوجد بئر مياه الحياة الرائع(رأس العين) وذلك على بعـد رمية سهم بعيـداً عن الطريق الذي يقود إلى صـور، ومياه هذا البئر قـادمة من لبنان، وذلـك حسبما جاء في نشيد الانشاد، ومع أنه يدعى بئراً بالمفـرد، هناك أيضاً أربعة آبار أخرى، لها الشكل نفسـه، لكن لها أحجام مختلفـة، والبئر الرئيسي بينهـا مقياسـة أربعين ذراعاً بالطول وكذلك بالعرض، وذلك حسبما قسته أنا شخصياً،

أما مقياس كل واحد من الثلاثة الأخرى فهو حوالي خمسة وعشرين ذراعاً، وهذه الآبار كلها مسيجة بأسوار قوية جداً من حجارة قاسية جداً، وهذه الأسوار متصلة ببعضها آخذة شكل بناء لا يمكن تدميره، وارتفاع الأسوار مقدار رمح أو حتى أعلى من ذلك، وتتجمع المياه في هذه الآبار ثم ترتفع، فتتدفق من فوق الأسوار من كل جانب، وهناك مجرى ماء ينطلق من هذا المكان، ويسوق الماء داخل أقنية عميقة ومرتفعة بقدر قامة إنسان، فلقد جربت هذا وعرفته بنفسي، وذلك عندما دخلت إلى مجرى الماء الذي تجري فيه المياه، ويجر أهالي صور هذه المياه إلى جميع أجزاء السهل، حيث يسقون بها الحدائق والبساتين، والكروم، وقصب السكر، الذي ينمو هناك بكميات عظيمة، ومنه يتلقى صاحب صور مداخيل كبيرة، وتقوم هذه الآبار على بعد أكثر بقليل من رمية سهم بعيداً عن شاطىء البحر المتوسط، ومياههم هذه تدير في تلك المسافة الضيقة دواليب ست طواحين ذوات حجم كبير، وتصب بعد هذا في البحر، وواضح أن هذه الينابيع تتوافق تماماً مع ما جاء في الالهيات[٢٤/ ٣١]:«سوف أسقي حديقتي الأفضل، وسوف أروي بوفرة أرض حديقتي، وانظروا لقد صار جدولي نهراً، وصار نهري بحراً»، وهذه المياه موائمة كثيراً ومفيدة للسكان.

وعلى بعد أقل من فرسخ واحد عن هذا البئر تقوم مدينة صور، وهي واقعة على شاطىء البحر، وقد نالت المدح والاطراء بها فيه الكفاية من قبل حزقيال، وإشعيا، وارميا، ومن أسفار العهد القديم الأخرى، وكان من المعتاد امتلاكها لجدول من مياه الحياة المتقدمة الذكر، جلب من هناك من خلال أنابيب مدهشة، وأهرامات ما تزال آثارها مشاهدة حتى هذا اليوم، ولقد زرت هذه الأماكن ورأيتها بعيني.

ويحكى بأن مدينة صور قد بنيت من قبل تيراس بن يافث، وكان ذلك بعد الطوفان، ثم أعيدت عمارتها من قبل فينيق، كما تقدم القول،

وصارت عاصمة فينيقية، ولها أسوار واسعة محيطة بها، هي كما أعتقد أعظم من أسوار مدينة عكا، وهي ذات شكل مستدير، تقف في البحر، فوق صخرة قاسية جداً، محاطة تقريباً من جميع الجهات بالبحر، وذلك باستثناء الجهة الشرقية، من المدينة، وهي منها قام نبوخذ نصر أولاً، ثم الاسكندر فيما بعد، بوصلها باليابسة، وذلك لمسافة مقدارها رمية حجر، وهي مسيجة في هذا المكان بثلاثة أسوار، قوية وعالية، وسماكتها خمسة وعشرين قدماً، وقد جرى تمتين هذه الأسوار كثيراً بوساطة اثني عشر برجاً حصيناً، هي الأحصن بين ما شاهدته، حيث لا مثيل لها في جميع أنحاء العالم، والقلعة متصلة بهذه الأبراج، وهي قلعة فائقة القوة والحصانة، قائمة فوق صخرة في البحر، ومحاطة أيضاً بأبراج مع أماكن حصينة، ولا يمكن للعالم كله أن يستولي على هذه المدينة بغير خيانة، وفي هذه المدينة آثار مقدسة كثيرة، وذلك حسبما نعلم من خلال التاريخ اللاهوتي، حيث حدثنا عن الشهداء الذين تألموا هناك في أيام ديوكلشيان، فالرب وحده يعلم كم هو عددهم، ويرقد أورجين مدفوناً هناك، في قبر مبني في جدار كنيسة الضريح المقدس، فلقد رأيت ضريحه هناك، ويوجد هناك أعمدة من الرخام والحجارة الأخرى، بأحجام عظيمة يقف الانسان مندهشاً لدى رؤيته لها.

ويوجد في هذه المدينة كرسي رئاسة أسقفية، فهي المدينة المطرانية لفينيقية، ولرئاسة الأساقفة فيها نواب ومساعدون منهم أساقفة بيروت، وصيدا، وعكا، وتمتد رعوية هذه المطرانية حتى بترا انشيسا، أو قلعة الحجاج(عثليت) التي تقدم ذكرها.

وقد أمضيت هناك مرة عشرة أيام، وقمت في مرات كثيرة بفحصها بكل دقة وبقدر ما استطعت.

وعلى الرمال، على مسافة رميتي سهم، خارج بابها الشرقي، يعرضون مكاناً، يقولون بأن المسيح قد وعظ فيه، حيث رفعت امرأة كانت بين

الحشد صوتها،وقالت:«بورك الرحم الذي حملك»الخ، ويعرضون أيضاً هناك صخرة عظيمة، كان المسيح قد وقف عليها آنذاك، وهذا المكان لم تغطه الرمال قط، مع أن الرمال في ذلك المكان خفيفة، وتتطاير هناك مثلما يتطاير الثلج في الشتاء في البلدان الغربية والشمالية، ولدى تطاير الرمال بوساطة الريح تتكوم هناك الأسيجة والأماكن المشابهة، غير أن هذا المكان، وإن قام في وسط الرمال، قد بقي دوماً غير مغطى في الصيف وفي الشتاء، وذلك حسبما رأيت بعيني.

ويوجد في ذلك المكان أيضاًعمود مرمي على الأرض، مشكلاً علامة، قد قيل بأن تلك البقعة هي المكان الذي جرى فيه قتل بعض الحجاج لدى زيارتهم لتلك المنطقة، وقد قتلوا بشكل خياني من قبل المسلمين.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ قصيرة، إلى الشمال من صور، يجري نهر الليطاني، ويصب في البحر المتوسط، وإلى هذا النهر وصل يوناثان أثناء مطاردته للملك ديميتريوس، وذلك حسبما نقرأ في سفر المكابيين الأول، وينبع هذا النهر من ايطورية أو جليل الأمم، وذلك من منطقة كان اسمها في القديم بلاد الراحوب، وصار فيها بعد كابول، وهو يجري قاطعاً قلعة الشقيف، التي يمتلكها فرسان الداوية، وذلك على مقربة من رامه، التي هي المكان الذي إليه طارد يوشع الملوك الواحد والثلاثين، وذلك حسبما نقرأ في سفر يوشع.

وعلى بعد فرسخين من هذا النهر تقوم صرفند الصيداويين، التي يرى الناس أمام بابها الجنوبي بيعة أقيمت فوق المكان الذي جاء إليه النبي إيليا إلى المرأة الصرفندية حيث سكن، ثم أقام ابنها من الموت، والعلية التي استراح فيها ما تزال مشاهدة هناك حتى الآن، ولا تحتوي الصرفند على أكثر من ثمانية بيوت قائمة، وتدل خرائبها على أنها كانت فيما مضى مدينة عظيمة.

وعلى بعد فرسخين تقوم صيدا، التي هي مدينة عظيمة في فينيقية، ويبرهن على ضخامة حجمها حتى هذا اليوم خرائبها، وكانت عظيمة إلى حد أنني لو أردت الكتابة عنها، فإن ذلك سيكون صعب التصديق، وكانت قائمة فيما مضى وسط سهل مستطيل الشكل، يمتد من الشمال إلى الجنوب عند سفح جبل لبنان الغربي، فيما بينه وبين البحر، وكانت مدينة فائقة الجمال، ولقد بني من وسط خرائبها مدينة أخرى، وصحيح أنها مدينة صغيرة بالفعل، لكنها حصينة، فهي أشبه بالحصن، وهي قائمة جزئياً على ساحل البحر، ولها على جانبيها قلعتين حصينتين جداً، الأولى قائمة في الشمال قائمة على صخرة في البحر، وقد بنيت هذه القلعة هناك من قبل حجاج من ألمانيا، وتقوم القلعة الثانية في جهة الجنوب، فوق رابية، وهي جيدة الحصانة، وهاتين القلعتين مع المدينة أيضاً تحت سلطان فرسان الداوية.

والمنطقة المجاورة خصيبة جداً، وفيها وفرة عظيمة من الأشياء الجيدة، ولها مناخ صحي تماماً، وهناك قصب سكر ممتاز، وكروم.

وأمام الباب الشرقي للمدينة القديمة، التي هي خرائب الآن، تقوم بيعة فوق المكان الذي جاءت إليه امرأة كنعانية، والتمست عونه من أجل ابنتها التي تلبسها الشيطان، وكان ذلك على الطريق الذي يقود إلى الايطورية وإلى قيسارية فيليب(بانياس).

وتقع سلسلة لبنان الغربية على بعد فرسخ واحد إلى الشرق من صيدا، ويبدأ هذا الجبل، عند نهر الليطاني الذي تقدمت الاشارة إليه، ويمتد إلى مسافة سفر خمسة أيام، أي خمسة فراسخ فيما وراء طرابلس، وهو لا يبعد مطلقاً أكثر من فرسخين عن البحر، باستثناء قرب طرابلس، حيث أنه يبعد نحواً من ثلاثة فراسخ، ويصل في بعض الأماكن إلى قرب البحر، إلى حد عدم توفر طريق للعبور، وهو مليء بكروم رائعة، وذلك مثلما كتب عنه:«والرائحة هناك ستكون كخمر

لبنان»[هوشع:١٤/ ٧ — مع فوارق]، وتصنع الخمرة الجيدة على طول الطريق إلى قلعة المرقب.

وعلى بعد تسعة فراسخ فيما وراء صيدا، تقوم مدينة بيروت القديمة والجليلة، حيث يقال بأن الرب قد بشر ووعظ، وصنع اليهود تمثالاً من صلصال سخرية منه، وعندما صلبوا هذا التمثال سال منه كثيراً من الدم، مازال محفوظاً بإجلال حتى هذا اليوم في أماكن كثيرة.

والأسقف في هذه المدينة هو نائب لرئيس أساقفة صور، مثله في ذلك مثل أسقف صيدا، ويمتد الكرسي المطراني لمدينة صور لمسافة ثلاثة فراسخ بعد بيروت، أي إلى ممر نهر الكلب،فهناك يصب هذا النهر في البحر، ومثل ذلك تنتهي هنا حدود بطريركية القدس، وهنا تبدأ بطريركية أنطاكية وكونتية طرابلس، ويدعى هذا المكان باسم ممر الكلب، ولا يمكن عبوره إلاّ بإذن من المسلمين، لأن عدة رجال فقط يمكنهم أن يمنعوا العالم كله من العبور هناك.

وعلى بعد ستة فراسخ من بيروت، وعلى شاطىء البحر، تقوم مدينة بيبلوس[جبيل]، وهي أول مدينة في بطريركية أنطاكية، ولهذه المدينة أسقف خاص بها، وقد أشار حزقيال إلى هذه المدينة أثناء مدحه لمدينة صور حيث قال:« شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك قلافوك، جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك»[حزقيال:٢٧/ ٩]، وصاحب جبيل هو من أتباع كونت طرابلس، واسم هذه المدينة في هذه الأيام جبيل، وهي مدينة صغيرة جداً.

وعلى بعد أربعة فراسخ من جبيل تقوم البترون، وهي مدينة كانت فيما مضى غنية جداً بإنتاج خمر رائع، لم يكن في الدنيا أجود منه، غير أنها مدمرة الآن تماماً.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ تقوم قلعة[أنفة] راس شكا، التي معظمها تقريباً قائم في البحر، وهي من ممتلكات أمير أنطاكية، ولقد رأيت فيها اثني عشر برجاً، والموقع بالفعل حصين جداً، والخمرة في هذه البلدة هي الخمرة الأكثر شهرة في جميع هذه الأماكن.

وعلى بعد فرسخين من راس شكا، وخلفها تقوم مدينة طرابلس، وهي مدينة جميلة جداً، قائمة كلها تقريباً في البحر، مثلها في ذلك مثل صور، وهي مليئة بالناس، حيث يسكن فيها الاغريق واللاتين والأرمن، والموارنة والنساطرة، وآخرون كثر، وكثير من الأعمال تعمل فيها من الحرير، وسمعت بشكل مؤكد أن فيها نساجون للحرير، ولوبر الجمل، ولأقمشة أخرى مماثلة.

ولاشك أن المنطقة المحيطة يمكن دعوتها باسم الفردوس، بسبب وجود ما لاحدود له من الكروم الجميلة، ومغارس الزيتون، والتين، وقصب السكر، ولا أذكر أنني رأيت مثل هذا في أي مكان آخر من العالم.

وطول السهل القائم أمام المدينة فرسخ، وعرضه نصف فرسخ، ويوجد في هذه البقعة حدائق، فيها مختلف أنواع الفواكه بوفرة كبيرة، حتى قيل بأن دخل أصحابها منها كل سنة يبلغ ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ وراء هذه المدينة يقوم جبل لبنان، الذي ينبع عند سفحه«نبع الحدائق»(نهر قاديشا)، وهو نبع لمياه الحياة، وجداول من لبنان، نقرأ عنها في نشيد سليمان، ويظهر هذا النبع أنه ينبع قليلاً، لكنه يقوم فجأة بجمع قواه، فيعمل نهراً قوياً وفائق العظمة، وهويسقي جميع الحدائق والسهل بين طرابلس وبين لبنان، ويزيد من ثراء المنطقة بشكل رائع، ومياهه ممتازة، حيث أنها باردة وعذبة، ويوجد على ضفته كثيراً

من الصــوامع، كما جــرى بناء الكثير من الكنائس، وينبع كما قلنا من سفح الجبل، ويلتف جـزئيـاً حول جبل النمـور، ثم يسـاق بين الحدائق لسقايتها، هذا ولن نقوم بذكر الجداول الأخرى التي مثل هذا تصب في البحر، في أمـاكن مختلفة، ومـؤكد مـا جاء في سفـر إستير وقيل عن هذا النبـع«ومن نبـع صغير صنعـت فيضـــاً عظيماً، ومـــاء كثيراً»، [استير:١١/ ١٠].

وعلى فــرسخين من طرابلس يقــوم جبـل النمـور، الـذي له شكل مستـدير، وهو مـرتفع بعض الشيء، قـائم على بعـد فـرسخ واحـد من لبنان، ولقـد رأيت عند سفحـه، في الجانب الشمالي كهفـاً فيـه قبر طوله اثني عشر قدمـاً، ويزور المسلمون هذا المكان بتقـوى، ويقولون بأنه قبر يوشع، وهذا مالا أعتقد أنه صحيح، لأن العهـد القديم قال بأنه دفن في تمنه — حـارس[القضاة: ٢ / ٩] إلى جـانب جبل افرايم، قـرب شكيم، والذي أميل للاعتقـاد به أن هذا هو قبر كنعان بن حـام بن نوح، أو قبر واحد من أولاده، الذي من الممكن البرهنة على أنه سكن في ذلك المكان نفسه، وذلك حسبما سنتحدث فيما بعد.

وعلى بعـد حوالي ثلاثة فـراسخ إلى الشمال من هذا الكهف تقع نهاية جبل لبنان وسلسلة جبـال لبنان الشرقيـة، ويرى الانســان عند المكان الذي يلتقيان فيـه قلعة عـرقة، وهي القلعـة التي بناها عرقـة بن كنعان، وأطلق عليها اسمـه، فهذا مـا نتعرف عليه من سفـر التكوين:١٠، ومن أخبـار الأيام الأول:١/ ١٥، وهذه الأرض الذي ينتهـي بها جبل لبنان رائعـة جـداً وجميلة، وخصبــة، أمـا من أجل وضـع وطول جبل لبنان فلسـوف أحدثكم عن ذلك لدى الحديـث عن قيسارية فيليب[بانيـاس] ونبع نهر الأردن.

وعلى بعد نصف فرسخ إلى الشرق من قلعة عرقة، تقوم السن، وهي بلدة بنيت من قبل سينوس بن كنعان، وهو أخو عـرقة، وكان ذلك بعد

الطوفان، وليس بعيداً عن عرقة، وذلك حسبما جاء الخبر في شروح سفر التكوين، ومهما يكن من أمر، فإن النساطرة الذين يسكنون هناك قد أخبروني، بعدما سألتهم،، بأن البلدة قد حملت اسمها من سينوكيم Synochim، ولقد حصلت على الجواب نفسه من مسلمي ذلك المكان.

ودون قلعة عرقة وبلدة سينوكيم، يوجد سهل كبير، فائق الجمال والخصوبة، ويمتد حتى الكرك[حصن الأكراد]، التي كانت فيها مضى من ممتلكات فرسان الاسبتارية، وذلك امتداداً حتى أنطرطوس التي تعرف الآن باسم طرطوس، وطول هذا السهل حوالي أحد عشر فرسخاً، وستة فراسخ عرضاً، ويحتوي هذا السهل على الكثير من القرى، والحدائق الجميلة، وأشجار الزيتون، وأشجار التين، وبقية أنواع أشجار الفواكه من مختلف الأنواع، إلى جانب الكثير من الأخشاب، فضلاً عن هذا كله، في هذا السهل وفرة من الجداول، والمراعي، ولهذا يسكن التركمان، والمدينيين Midianites ، والبدو هناك في الخيم مع زوجاتهم وأولادهم، وقطعانهم وجمالهم، ولقد رأيت هناك قطيعاً كبيراً جداً من الجمال، وأعتقد أنه كان هناك عدة آلاف من الجمال.

ويحد هذا السهل من جهة الشرق جبال مرتفعة لكن ليس كثيراً، وترتفع هذه الجبال على مقربة من عرقة، وتمتد حتى الكرك، ويسكن في هذه الجبال قوم اسمهم الباطنية جفاة، وأناس قساة يكرهون الصليبيين، والمسافة من بلدتي عرقة وسينوكيم، عبر ذلك السهل إلى طرطوس هي ثمانية فراسخ، وعرفت طرطوس بهذا الاسم لأنها تقوم في مقابل أرواد.

وأرواد هي جزيرة في أعماق البحر، وذلك على بعد نصف فرسخ عن اليابسة، وقام فيها وما يزال حتى أيامي هذه مدينة جميلة، ورد ذكرها لدى حزقيال في قوله:«بنو إرواد مع جيشك على الأسوار من حولك»[حزقيال:٢٧/ ١١]، وقد جاء في الشرح قوله:«أرواد مدينة

قائمة في البحر في مقابل طرطوس وعلى مقربة من صور»، وفي الحقيقة إن المسافة فيما بينها وبين صور سفر خمسة أيام، وأسس هذه المدينة أراديوس، وهوابن كنعان، وكان ذلك بعد الطوفان.

ولنلاحظ هنا أن حام بن نوح، قد ولد كنعان، بعد الطوفان، وولد كنعان صيدون، الذي كان أول أولاده، وكذلك حثيا،واليبوسي، والأموري، والجرجاشي، والحوي، والعرقي، والسيني، والأروادي، والصماري، والحماني[التكوين:١٠/ ١٥ — ١٨]، ومن هؤلاء انتشرت أسر الكنعانيين في الخارج، وأربعة من الأحد عشر ولداً من أولاد كنعان، وأعني بذلك: صيدون، بكره، وهو الذي بنى صيدا، وعرقة وهو الذي أسس عرقة، وسينوس وهو الذي أسس سينوكيم، وأرواد وهو الذي أسس أرواد، وكما قلنا، إن هؤلاء الأربعة قد بقيوا في تلك البلاد القائمة عند نهاية لبنان، وذلك حسبما حكي لنا، غير أن السبعة الآخرين، أي:حيثا، ويبوس، وأمور، وجرجاش، وحوي، وعرقة، وحماني، قد تركتهم يارب إسرائيل لأنفسهم، حتى يتعلموا كيف يقاتلون، هذا وأوابد وأضرحة الأولاد الأربعة الأول مرئية في هذه الأيام على بعد فرسخ واحد قبل أن يصل الانسان إلى طرطوس، وهي فائقة الثراء ولها حجم رائع، ولقد رأيت الحجارة هناك، وقمت بقياس إحدى الحجارة فوجدت طولها أربعة وعشرين قدماً وعرضها مثل ارتفاع رجل طويل، وعلى هذا إنه لأمر رائع النظر إليها، فكيف جرى رفع هذه الأحجار ومن ثم استخدامها في البناء، فهذا كله فوق فهم الناس وإدراكهم.

وإلى جانب طرطوس، وعلى بعد نصف فرسخ إلى الشرق منها، هناك بعض الجبال، غير أنها ليست عالية جداً، كما أنه ليس من الصعب الوصول إليها، وهؤلاء في البلاد التي اسمها بلاد الحشيشية، الذين سوف نأتي على وصف طقوسهم بشكل مطول أكثر فيما بعد.

وقد بشر القديس بطرس لمدة طويلة في طـرطوس، وذلك عندما كان في طريقه إلى أنطاكية، فهذا ما نقرأ عنه في رحلة القديس كليمنت.

فهنا وجـد كليمنت أمه، وهنا أيضـاً بنى القديس بطرس أول كنيسـة تشريفاً للعـذراء المباركة، وهذه الكنيسـة موجودة حتى هذا اليـوم، وقد احتفلت فيها بقداس، لأنني أقمت هناك لمدة ستة أيام.

وعلى بعـد سبعة فـراسخ من طرطوس تقـوم قلعـة المرقب، التي هي من أملاك رهبـان الاسبتارية، أي فـرسان مشفى القـديس يوحنا، وهذه القلعة مطلة على مدينة بانياس، وعلى بعد فرسخ واحد عن البحر، وهي محصنة بشكل جيد، وقـائمة فوق جبـل مرتفع جداً، وقـد نقل الآن مقر الأسقف الذي كـــان في بانيـــاس، إلى القلعـــة، وذلك بسبـب إهانات المسلمين، والأسقف هناك هو نائب لرئيس أساقفـة أفاميا، مثله في ذلك مثل أسقف عرقة.

وتشكل مدينة بـانياس، والنهر الذي يحمل الاسم نفسـه، وهو الذي يجري مجتازاً لها، حـدود مملكة القدس، وهنا، بـالوقت نفسه، تبـدأ إمارة أنطاكية، وهنا أيضاً تنتهي كونتية أنطاكية، والآن، إنه على كل حال، لقد سافـرت إلى ما وراء هذا المكان، ورأيت البـلاد، ومع هذا لم أكتب شيئاً عنها، لأنني لا أنوي أن أكتب شيئاً، إلاّ عن الأرض المقدسة.

وليكن ما قد قيل فيه كفاية عن القسم الأول.

هنا بداية القسم الثاني من الأرض المقدسة

٣ — ينطلق القسم الثـاني من عكـا نحـو الشمال، وأول مكان يصل الانسان إليـه، إذا ما انطلق من عكا باتجاه الشمال تمامـاً، هو القلعة التي كـانت تعـرف باسم قلعـة القـرين، والتي كـانت فيها مضى من أمـلاك فرسان التيوتون، وهي الآن مهدمة تماماً.

وعلى بعد أربعـة فراسخ منها، وبالاتجاه نفسه تقـوم قلعة تبنين، وهي مكان حصين جـداً، قــد بنيت من قبل صـاحـب طبرية، وذلك لضبط مـدينة صـور، عندمـا كـانت صـور بأيدي المسلمين، وهي تبعـد سبعـة فراسخ عن مدينة صور.

وعلى بعـد أربعة فـراسخ من هناك تقـوم مـدينة حـاصور[قـرب نبع الليطاني] القديمة، حيث سكن هناك الملك القوي يابين، الذي قاتل ضد يوشع وإسرائيل مع الملوك الواحد والثلاثين عند ميـاه ميروم، ولقد جاء في سفر يشـوع:١١، بأن يوشع قـد أحرق مدينة حـاصور القـوية بالنار، ويشهد على شهرة هذه المدينة حتى هذا اليوم خرائبها، وآثارها.

وعلى بعـد حـوالي الستة فـراسخ إلى الشمال من هناك، توجـد مـدينة بانياس، وذلك عند سفح جبل لبنان، وكـانت هذه، حسبما قرأنا في سفر القضاة، تعـرف أولاً باسم ليش Laish ، وبما أنها كانت بعيـــدة عن صيـــدا، مسـافـة تقـارب الأحـــد عشر فـرسخـــاً، وبما أنها لم يكن لها حلفاء(كـانت موجـودة في الوادي المجـاور لبيت راحوب) فقـد استولى أولاد دان عليها، وأطلقـوا عليها اسم لشـم — دان[يشوع:١٩/ ٤٧]، وذلك صـدوراً عن اسم أبيهم دان، وغـالبـاً مـا أطلق عليهـا فقط اسم دان، وذلك تماشياً مع مـا جاء في التوراة قـوله«يجتمع إليك كل إسرائيل من دان إلى بئر السبع»[صمـوئيل الثـاني:١٧/ ١١]، ذلك أن هذه المدينة تشكل الحد الشمالي للأرض المقـدسـة، مثلما تشكـل بئر السبع الحد من الجنوب، وعلى هذا نقرأ في سفـر الملوك الأول:١٩/ ٣ بأن:«إيليا أتى إلى بئر السبع التي ليهـوذا»، ثم نقـرأ بعد هذا أنه هـو نفسه:«سـار في البرية مسيرة يوم»، ولا شك أن هذا يعني بجـوار تلك المدينة، واسمهـا الآن بيت جبرين(كـذا)، هذا وعندمـا كـان فيليب طيطـراخ الايطورية مع منطقـة الطرخـونيـة، رغب في أن تحمـل مـدينة بانيـاس — أو دان — اسمـه، وأن يصبح اسمها قيسـارية فيليب، ويطلق عليها الاغـريق اسم

بانيـاس، وهذ الأسماء كلها باتت منسيـة الآن، وهي تدعى بشكل عـام باسم بلنياس.

وفـوق هذه المدينة، من على الجانبين هناك نبعـا نهري«الأر» و«دان»، وذلك عند سفح جبل لبنان، وهما يلتقيـان أمـام باب المدينة، ويشكلان نهراً واحداً، وهو نهر الأردن.

لكن لاحظ أن هذا ليس نبع الأردن الحقيقي، لأن يوسفيوس أخبرنا — وما قاله صحيح — أنه على بعد مائة وعشرين غلوة من ذلك المكان هناك نبع اسمه فياله Phiale [بركة الرام] هو مليء بشكل دائم، ولم يفض قط، بل يجري تحت الأرض إلى ذلك المكان، وهناك يتـدفق، ومن ثم يعرف باسم دان، وقـد تبرهن هذا في كثير من الأحيان برمي قش في فياله، والعثور عليهم بعد ذلك في نبع دان، ولا يطلق المسلمون على هذا النبع اسم فيـاله بل ميدان، أي مـاء دان، كأن تقول هذه ميـاه دان، لأن معنى كلمـة«مي» في العـربيـة«مـاء»، ودان«تـل القـاضي» هو اسم النبع المتقـــــدم الـذكـــــر، ويطلـق القـــــديس متـى على هذا المكـان اسم«مجدل»[متـى:١٥/ ٣٩]، واسمـــــه عنـد القـــــديس مـــــرقص دلمانوثة[مـرقص:٨/ ١٠]، وهو ليس بعيـداً عن مـدينة[أرض] السـواد، قرب آبدة أيوب المبارك[الشيخ سعد] وذلك في منطقة الطرخونية، وهذا سوف يجري شرحه بشكل أطول فيما سيأتي.

وبعد دوران طويل من هذين النبعين، يلتقي هذان النبعـان أمام باب بانيـاس، ويشكلان نهر الأردن، ويفصل هذا النهـر فيما بين الطرخـونيـة والايطوريـة، وأخيراً يصب في بحـــر الجليل فيما بين كفـــر ناحـــوم وكورزين، على بعـد أربعة فـراسخ من مدينة قيدار، القـائمة فـوق رابية مطلة عليه.

وفي منتصف الطريق فيما بين بانيـاس وبحر الجليل، يدخل النهـر إلى

وادي، حيث يشكل بركـة في أثناء الوقـت الذي تذوب فيـه الثلوج من على جبل لبنان، وتدعى هـذه البركـة باسم ميـاه ميروم Merrom حتى هذا اليـوم، وهنا تحارب يوشع مع يابين ملك حـاصور والملوك الواحـد والثـلاثين الآخـريـن، وهزمهم وطاردهم حتـى ميـاه مسرفـوت وإلى صيدون العظيمـة، وذلك لمسافة تقـارب ثمانية فـراسخ[يشوع:١١/ ٨]، وتجف هذه المياه كلهـا تقريباً في أيام الصيف، والشعـراء والنباتات التي تنمو هناك كثيفـة جداً، حيث مـآوي للأسود والدببـة وأنواع الحيوانات الضارية الأخـرى، مما يجعلها مكاناً للصيـد الملكي، ويقع النصف الأول من هذا الوادي في القسم الثاني المتجـه نحو الشمال، ويقع النصف الثاني في الثلث التـالي، والجزء الثالث، الواقع خلف هذا الوادي، والممتـد على طول الضفـة الشرقيـة لنهر الأردن حتى لبنان وذلـك على جهة اليسـار، وإلى جبل حرمـون نحو الجنوب الشرقي، وإلى مـدينة بصرى إلى الشرق فوق جبل سنير، المتصل بجبل حرمون، إنه السهل المعروف باسم سهل لبنان، أو منطقة الطرخـونية، وذلك حسبما جاء في سفـر يشوع، وسبب التسمية بالطرخونية، هو أن هذه المنطقة كلها قليلة المياه الجارية، ولذلك قام سكانها بجمع مياه الأمطار داخل أقنية وصهاريج، وقاموا بعد ذلك بنقلهـا إلى مكان آخـر بوسـاطة طراخين، أو أنابيـب، وذلك من أجل سقاية أنفسهم مع حيواناتهم.

وبما أننا أشرنا إلى جبال: حرمون، ولبنان، وسنير،بات من الضروري هنا، التحـدث إليكم بشكل أطول حـولهم، لأن بذلك يمكن للمسـائل الأخرى أن تفهم، وعلى هذا، عليك أن تعرف أن الجبال التي إلى جانب بركة أرنون، والتي بين عمان ومـآب والأموريين، وكـذلك جبل جلعاد، القـائم في بلاد عوج، ملك بيسـان، وجبل سنير، وجبل حـرمون، فـوق بعل — جاد، وبحـر الجليل، وجبل لبنان أن تعرف أن كـل هذه الجبال هي جبـال متصلة، تحمل أسماء متنوعـة في أماكن متعـددة، مثلما يمكن

رؤية ذلك في أي يوم في جبال الألب، التي تفصل ألمانيا عن لومبارديا، ومهما يكن الحال، إن جبل جلعاد هو الأعلى بين هذه الجبال جميعها، ويبدو بالفعل كأنه رأسهم جميعاً، وعلى هذا أعتقد أن ما قاله إرميا(٢٢/٦):«جلعاد أنت لي. رأس من لبنان»هو صحيح تماماً، وجبل سنير متصل بجبل جلعاد، وهو أيضاً يعرف باسم سعير، لأن عيسو، أو سعير، قد سكن فيه، وذلك كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد، وهو قائم فيما وراء بحر الجليل، وهو من حصة نصف سبط منشا، ويتصل في المكان نفسه بجبل حرمون، الذي يحد منطقة الطرخونية، ويمتد حتى دمشق، التي يتصل قربها بلبنان، بين بانياس ودمشق، وبالنسبة إلى لبنان نفسه، فالذي أعتقده، هو أن أعلى مكان فيه هو حيث يجتاز مدينة بانياس، وهذا المكان أعلى من أي مكان آخر في السلسلة كلها التي تدعى باسم سلسلة لبنان، والسلسلة في هذا المكان تبعد فرسخين عن مدينة صور، ومن الممكن رؤيتها بوضوح من صور، وفي الحقيقة لقد رأيتها أنا نفسي من هناك تشع منيرة في وسط الليل، وطول السلسلة رحلة سفر خمسة أيام، وقمتها طوال تلك المسافة مغطاة بالثلج، وهي تقترب أكثر فأكثر من شاطىء البحر، وهكذا حتى نجدها عند السفح، أي فوق بانياس، تبعد اثني عشر فرسخاً عن البحر، وتبعد عند النهاية، أي قرب عرقة ثلاثة فراسخ عن البحر، والذين يسافرون بحراً من صور إلى طرطوس يرونها طوال الطريق، ودونها تقترب سلسلة لبنان الشرقية من البحر أكثر من أي مكان آخر، وهناك وديان خصبة في كل من لبنان وسلسلة لبنان الشرقية، كلها تفلح بشكل جيد، وهناك وفرة من المروج، والكروم، والحدائق والبساتين، وهناك— بكلمة موجزة— جميع الأشياء الجيدة في العالم، ويقطن فيهما كثير من الاقوام، كما قلنا من قبل، من أمثال: الموارنة والارمن، والاغريق، والنساطرة، واليعاقبة، والجورجيين، الذين هم جميعاً مسيحيين، وهم حسبما يقولون خاضعون جميعاً لكنيسة روما.

هنا بداية القسم الثالث من الأرض المقدسة

٤— يمتد القسم الثالث من عكا إلى الجنوب الشرقي، وعلى ثلاثة فراسخ على هذا الامتداد تقع قلعة جدّين [شرقي عكا]، وهي قائمة على جبل شارون، وكانت هذه القلعة فيما مضى من أملاك طائفة التيوتون، غير أنها مهدمة الآن.

وبعد مسافة ثلاثة فراسخ تقوم قلعة الملك (معليا) في وادٍ، وكانت أيضاً فيما مضى ملكاً للطائفة نفسها، وفيها وفرة من جميع الأشياء الجيدة، وفواكه من أنواع موجودة في تلك المنطقة ونادرة الوجود في مناطق أخرى، وهي الآن بأيدي المسلمين.

وعلى بعد أربعة فراسخ باتجاه مياه ميروم هناك وادي صعننيم، حيث نصب حابر القيني خيمته، وذلك ليس بعيداً عن مدينة حاصور، وكانت زوجته التي اسمها ياعيل هي التي قتلت سيسرا، قائد جيش ملك حاصور، بغرس وتد الخيمة في صدغه، وذلك حسبما نقرأ في سفر القضاة [٤/ ١١—٢٤].

وعلى مسافة فرسخين يقع وادي كابول [جنوب شرقي عكا] الذي يدعوه المسلمون باسم زابول، وأطلق على المنطقة اسم كابول، لإظهار عدم السرور، وذلك حسبما نقرأ في الإصحاح الثالث من سفر الملوك [الأول: ١٢—١٣]

وعلى مسافة فرسخين من هذا المكان تقوم قلعة صفد وكذلك مدينة صفد، وقلعة صفد —بتصوري— هي الأجمل والأكثر حصانة بين جميع القلاع التي رأيتها قط، ذلك أنها قائمة فوق صخرة عالية جداً، وكانت بالعادة ملكاً لفرسان الداوية، غير أنها سقطت بشكل خياني مخجل، فيه إيذاء وألم لجميع الصليبيين، لأنها مادامت بأيدي السلطان، فهو المسيطر على جميع الجليل، أي على جميع ديار أسباط: زبلون، ونفتالي، وآشر،

ويساكر، ومنشّا وجميع البلاد حتى عكا، وصور، وصيدا.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشمال من صفد، وليس بعيداً عن سهل صعننيم تقوم قادش نفتالي، التي جاء منها باراق بن أبينوعم، الذي قاتل ضد سيسرا على جبل الطور، وكانت هذه مدينة ملجأ في ديار سبط نفتالي، وكانت مليئة بجميع الأشياء الجيدة، ويرى في هذا المكان حتى اليوم خرائب واسعة، وأضرحة فائقة الجمال.

ويوجد على بعد فرسخين وراء قلعة صفد، حيث ينزل الانسان من الجبل باتجاه الشرق، وعلى بعد رمية حجر من بحر الجليل، وفوق الطريق الذي يقود نحو الشرق، يوجد درب فوق ذلك الجيل، غالبا ما صعد يسوع المسيح عليه، إلى حيث— كما حدثنا القديس متى— كان يعظ ويقيم القداسات، وهناك أشبع خمسة آلاف انسان من خمسة أرغفة وسمكتين، وإلى هناك اعتاد الصعود والصلاة، بعد ما كان يبعد عنه الحشود، وإلى هناك هرب عندما أرادوا جعله ملكاً، وهنا علم حوارييه الصلاة، وهنا أمضى الليل في الصلاة، وحدث عندما كان نازلاً من هذا المكان، أن قام قائد المائة بالتوسل إليه لمساعدة خادمة المشلول، وإليه إلى هناك جاء حشد كبير من المرضى، ومن الذين تلبستهم الشياطين، وهنا لمس المجذوم فشفاه، وهناك وقف وسط الحقل مع حوارييه، ويمكن للانسان أن يرى من هذا الجبل بحر الجليل، والايطورية، ومنطقة الطرخونية بعيداً حتى لبنان، وأن يرى كذلك سنير، وحرمون، وبلاد زبلون، ونفتالي، حتى قيدار وجميع منطقة جنسارث حتى دوثان وبيت أوليا، وأماكن أخرى كثيرة، وطول هذا الجبل حوالي رميتي سهم، ورمية حجر أو أكثر عرضه، وهو معشوشب وجميل، وموائم لأعمال الوعظ والتبشير، ومشاهد هناك حتى هذا اليوم، الصخرة التي جلس عليها يسوع المسيح، عندما قام بالوعظ، وأيضاً الأماكن التي جلس فيها الحواريون، (واسم هذا المكان لدى المسيحيين: المائدة).

وعند سفح هذا الجبل، على مقــربة من البحـر، أي على بعـد حـوالي الثلاثين خطوة، هناك نبع لماء الحيـاة، مسيج بجدار، ويطلقون على النبع اسم عرق النيل (عين التبغه)، لأن سمك الـ Coracinus يتكاثر فيها، وهذا السمك ليس مــوجــوداً في مكـان آخــر، واسم هـذا النبع عند يوسفيـوس «كفـرناحـوم»، لأن السهل كلـه الواقع بين ذلك النبع ونهر الأردن» أي على مسافة قدرها فرسخين، يدعى كفرناحوم.

وعلى بعد حوالي العشرين خطوة من ذلـك النبع، وعلى شاطىء بحر الجليل، يوجد الموضع الذي وقف يسوع عليه على الشاطىء، بعد قيامه، وقال لسبعـة من حوارييه كـانوا يصطادون السمك هناك: «أيها الاولاد هل لديكم أي شيء نأكله»؟، وعنـدمـا كنت في هذا المكان في يوم عيـد القـديس أوغسطين [٢٨— آب]، رأيت ثلاث طبعـات لخطوات الرب يسوع قـد طبعت على صخرة، لكن عندمـا عدت إلى هناك ثانيـة في يوم عيد البشارة، وجدت أن المسلمين قد أخذوا الصخرة.

وعلى بعد عشر خطوات من هناك، يوجد الموضع، الذي عندما خرج الحواريون من السفينة، رأوا فيـه نار فحم، وسمكة مـوضـوعة فـوقهـا، وخبزاً، (ويدعى هذا المكان من قبل المسيحيين باسم المائدة).

وعلى بعد مسافة فرسخ واحد نحو الشرق من هذا المكان، توجد كفر ناحوم، التي كانت فيما مضى مدينة جليلة، غير أنها متواضعة جداً الآن، ليس فيهـا سـوى سبعة بيـوت لصيـادي سمك فقـراء، وبشأنها تحققت كلمة الرب يسوع المسيح في قوله: «وأنت ياكفرنـاحوم المرتفعة إلى السماء ستهبطين إلى الهاوية». [متى ١١/ ٢٣].

وعلى بعــد فــرسخين من ذلك المكـان يدخل نهر الاردن إلى بحــر الجليل، وعلى الشـــــاطىء الأقصـى منه، مـن الممكن حتـى الآن رؤية خرائب مـدينة كورزين، وذلك على شـاطىء بحر الجليل. وعلى مسـافة

فرسخ واحد وراء ذلك المكان، أي كـورزين، يبدأ صعود جبل سنير— المعروف أيضاً باسم سعير— والمدخل إلى الايطورية.

ويعـد هذا بمسـافة ثلاثـة فراسخ، تقـوم قيـدار، وهي مـدينة جليلة، بنيت في موقع حصين، على الطرف الشرقي لجبل سنير، ويمر من خلال هذه المدينة، الطريق الذي— كما تقـدم القـول— يسـاير شـاطىء بحـر الجليل، ويجري نحـو الغـرب، وذلك حسبما جـاءت الرواية في توبت: ١/١، واسم الطريق في اشعيـا: «طريق البحـر» [اشعيـا: ٩/١]، لانه يسير على طول شـاطىء البحـر، وأضاف اشعيـا بقـوله: «عبر الاردن» لأنه يقود إلى مـاوراء الاردن إلى المنطقة التي تدعى آرام، وتـدعى أيضاً بـاسم «جليـل الأمـم» لأنه عنـد ذلك المكـان، الجليـل محدود من قبـل الأردن.

وإنه على بعد أربعـة فراسخ من هذا المكان، الموضع الـذي يصب فيه الأردن في بحـر الجليل ويجري حتى قادش نفتـالي، وفي منتصف الطريق بينهما يوجد نصف آخر من مياه ميروم، المتقدمة الذكر، ويمر نهر الأردن خـلال وسط وادي ميـاه ميروم، وعنـدمـا يخرج من هناك يعطف مجراه أولاً باتجاه الشرق، ثم باتجاه الجنوب، وهكذا يصب في بحر الجليل.

وعلى بعـد أربعـة فـراسخ إلى الشمال من مصب نهر الأردن، ومـدينة كورزين، تقوم مدينة السواد، التي جاء منها بلداد، الوارد ذكره في أيوب باسم السـوادي، وعلى مقربة منهـا، وعلى الجهـة الشرقية يوجـد ضريح أيوب.

وعلى السهول القريبـة من هذه المدينة، وذلك على الجانب المتجه نحو مـدينة قيـدار، اعتـاد المسلمـون من بلاد آرام، والجزريون، وأهل حماه، وسورية، ومآب، وعمان، وجميع أجزاء بلاد الشرق، اعتادوا على التجمع هناك حول نبع فياله، المتقدم الذكر، وكـانوا يعقدون سوقاً يستمر طوال

أيام الصيف وذلك بسبب جمال المكان ولطافته، وينصبون الخيام ذوات الألوان المتنوعة، التي تقدم مشهداً جميلاً جداً لأهل قيدار لدى النظر إليه من فوق الرابية، وهذه الخيم هي التي ورد ذكرها في نشيد انشاد سليمان [١/ ٥] تحت اسم «خيام قيدار».

وعلى بعد أربعة فراسخ الى الشرق من مدينة كورزين تقوم مدينة قيدار، فوق رابية مرتفعة، ويطلق يوسفيوس عليها اسم جمالا (الحصن)، لأن الجبل الذي تقوم عليه شكله يشبه شكل الجمل، مع تلعة في الوسط تشبه سنامه، وهي تنتهي بانخفاض يشبه شكل ذيله.

واعرف هاهنا— كما سلف بنا القول— أن المنطقة الموجودة قرب الأردن، وعلى الضفة الشرقية منه، والممتدة حتى جبل حرمون وبصرى، تعرف باسم منطقة الطرخونية، أو باسم «سهل لبنان» ويعرف الجانب الغربي من ضفة نهر الاردن باسم جليل الأمم، أو باسم الايطورية، أو كابول، أو «المدن العشرة»، ويمر «طريق البحر» في الوسط هناك، أي الطريق المنطلق من عكا والمار خلال وادي ديار سبط آشر، وهو الذي يعرف الآن باسم وادي القديس جرجس [الخضر في البعنة]، والممتد إلى جبال منطقة الطرخونية، التي عبرها تقوم بلاد آرام، وبناء على هذا جاء في الشرح على قوله: «كان رجل في أرض عوص اسمه أيوب» (أيوب: ١/ ١): الخبر التالي: «ولد آرام— أبو السوريين، الذي اسس مدينة دمشق— عوص، الذي أسس منطقة الطرخونية، وهو الذي حكم فيما بين سورية المجوفة وفلسطين، وهي التي حملت اسمه فعرفت باسم بلاد عوص، وبناء عليه نقول فلان سكن في بلاد عوص، أو هو عوصي البلاد.

وحُكمت هذه المنطقة من قبل الطيطراخ فيليب، ومثلها أيضاً الايطورية، القائمة على هذا الجانب من بلاد الاردن، باتجاه الغرب، والممتدة حتى جبال الصيداويين، والسريان، وأهل عكا، وهي التي

تفصلهـا عن فينيقيـة، فكلتـاهما في هذا الثلث وفي النصف المتقـدم، ويحدها من الشمال لبنـان ومن الشرق نهر الاردن، ومن الجنوب بحـر الجليل، ومن الغرب جبال فينيقية.

هنا بداية القسم الرابع

٥— يبدأ القسم الرابع من عكا، ويمضي نحو الشرق تماماً، ويمر من قرب قلعـة صفد، ويدعها قـائمة على يساره، ومن هناك يسـاير شاطىء بحر الجليل، حيث يمر من أمام مدينة كفر ناحوم، من قبل المكان الذي دعـا فيـه الرب متى من مـوضع استـلام العشـور، ومن الممكن في هذه الأيام رؤية بيت متى، والمكان الذي اعتاد على الجلوس فيه، على الطريق السلطاني، ثم إن الطريق يمضي صـاعـداً جبـال حـرمـون، على الطرف الأقصى من الأردن.

ويوجد في هذا القسم المدن التالية:

والمكان الأول، ويبعد مسـافة خمسـة فراسخ عن عكا، هو عبـارة عن قـرية اسمها القـديس جـرجس (البعنه)، حيث من المعتقد أن القـديس جـرجس قد ولد في هذا المكان، وتقـوم هذه القرية في واد واسع جـداً، وخصب، وجميل بين التـلال والروابي، ويمتـد هـذا الوادي الممتع حتى يصل إلى بحر الجليل، وكان بالعادة تـابعاً لسبط آشر، ويمتد حتى صفد بطول يبلغ حوالي العشرة فراسخ، وما جاء حوله في سفر التكوين: ٤٩، هو صحيح تمـاماً، وذلك بسبب جماله، وذلك قـوله: «آشر خبـزه سمين وهو يعطي لذات ملـوك» (٢٠)، وهذا القـول صحيح تمامـا فيما يتعلق بحصة هذا السبط.

وعلى بعد مسـافة أربعة فـراسخ من هناك، وباتجاه الجنوب، لكن مع بعض الميل نحـو الشرق هناك قـرية نعسون (حـاصـور) العائـدة لسبط

نفتالي في واد، وقد قرأنا عن هذا المكان في سفر توبيت.

وعلى بعد مسافة ثلاثة فراسخ من هناك باتجاه الجنوب، تقوم دوثان، حيث وجد يوسف إخوته، ودوثان قائمة عند سفح جبل بيت أوليا، وعلى بعد فرسخ منه، وهي بلدة فائقة الجمال، مليئة بالكروم، والزيتون، والتين، والمراعي الخصبة.

ومابرح يرى في هذا المكان، في الحقل الجب الذي وضع فيه يوسف من قبل إخوته، ولقد رأيته هناك إلى جانب الطريق الذي يمضي من جلعاد، ويتصل في بيت صيدا بالطريق الذي يذهب من سورية الى مصر، ويصعد هذا الطريق من دوثان الى مقربة جبل بيت أوليا، ثم يعبر مرج ابن عامر، ويمر بجبل الطور على جهة اليسار، وذلك عبر سهل مجيدو، ثم يمضي صعوداً لجبل إفرايم، ويدخل الرملة، ومن هناك إلى غزة فمصر، وعبر هذا الطريق جاء الاسماعيليون الذين اشتروا يوسف.

ونقرأ في سفر الملوك الثاني حول بلدة دوثان هذه، بأن السوريين التفوا حول اليشع هناك، وقادهم هو من هناك الى وسط السامرة، الواقعة على قرابة سفر يوم واحد. واعلم أن دوثان ليس فقط اسم البلدة، بل تحمل المنطقة الاسم نفسه صدوراً عن اسم البلدة، وهذه المنطقة كانت منذ القديم تابعة لهذه البلدة، وهي منطقة منبسطة، مسيجة من كل جانب بهضاب منخفضة، وهي مروية بينابيع، ولذلك فيها مراعي جيدة، صالحة لإطعام المواشي.

وعلى بعد فرسخين إلى الشرق من نعسون، وعلى مسافة حوالي الثلاثة فراسخ إلى الشرق من دوثان، توجد مدينة نفتالي(قدس)، التي جاء منها طوبياس، وهي قائمة في مكان حصين، لأنه يوجد على جانبها الغربي جبل فائق الارتفاع، لايمكن لإنسان أن يتسلقه، ويمكن فقط تسلق قطعة صغيرة منه على الجهة الشرقية، وأعتقد أن هذه المدينة كانت

تعرف باسم جتباتا Jotapata ،(جفات جنوب غربي صفد) في أيام استئصال اليهود، وذلك وفقاً ليوسفيوس، ففيها جرى حصار يوسفيوس نفسه من قبل الرومان، ووقع بأيديهم أسيراً، حسبما أخبرنا هو نفسه، واسمها في هذه الأيام سيريم Syrim(ميرون؟)، وهي على بعد أكثر من فرسخ بقليل عن صفد.

وعلى بعد فرسخين من نفتالي، عند زاوية بحر الجليل، حيث يبدأ بالانعطاف من الشمال نحو الجنوب، تمتد بيت صيدا(قرب المينة عند شيخ سياد) التي هي مدينة أندرو، وبطرس، وفيليب، ولا يتجاوز حجمها في هذه الأيام سبعة بيوت، وتقوم على طرف الطريق من سورية إلى مصر، وكان لديها في العصور القديمة مجرى ماء من النهر، دعاه يوسفيوس باسم الأردن الصغير، وهو يصب في بحر الجليل في منتصف الطريق بينها وبين كفرناحوم، وآثار هذا المجرى يمكن رؤيتها حتى في هذا اليوم.

وعلى بعد مسافة فرسخين نحو الجنوب تقوم المجدل التي هي قلعة مريم المجدلية، التي رأيت بيتها ما يزال قائماً هناك، وقد ولجت إلى داخله، وتقوم المجدل على شاطىء البحر، وذلك على بعد حوالي ثلاثة فراسخ إلى الجنوب من بيت أوليا، ويوجد على جانبيها الغربي والشمالي سهل معشوشب كبير.

واعرف أن هذا القسم الرابع ليس فيه المزيد من البلدات على هذا الطرف من بحر الجليل، غير أنه يوجد على الشاطىء الآخر كثيراً من المدن والقلاع، العائدة لهذا القسم، وذلك في بلاد الجرسانيين الموجودة في مقابل هذا مباشرة.

ففي هذا المكان هناك كثير من المدن، منها على سبيل المثال: جرسه، وجدر، وفحل، والسواد مدينة بلداد السوادي، وتمان التي جاء منها

علفاز التيماني، وعدد كبير آخر.

وتقوم الآن بلدة جرسة(خرسة) على شاطيء بحر الجليل، عند سفح جبل سعير، تقريباً في مقابل طبرية، لكن نحو الشمال قليلاً منها، وكانت هذه بالعادة من أملاك نصف سبط منشا، الذي جاءت حصته عبر الأردن.

واعرف بأن هذه البلاد الواقعة عبر بحر الجليل كثيرة الجبال، وذلك كما بدا لي، لكنني لم أكن فيها قط، وقد كانت جزءاً من مملكة باشان، ويعرف شطر منها باسم جبل سعير، لأن عيسو قد سكن هناك، وذلك كما سأخبركم بعد قليل، وعرفت في مكان آخر باسم جبل سنير،لأنه كان هناك، وعرفت أيضاً باسم جبل حرمون، لأنه كان هناك أيضاً، وهكذا عرفت أماكن متعددة وجبال في هذه البلاد بأسماء مختلفة، ومع أن الجميع هو عائد لنصف سبط منشا، لكن نصف سبط منشا لم يتملكها قط، لأن أبناء عيسو سكنوا في هذه الأجزاء، ومازالوا يسكنون حتى هذا اليوم، وهم يعرفون بشكل عام باسم المسلمين، لأنهم لا يختلفون عنهم لا باللغة أو العادات، إلاّ — ربما — في الطريقة التي ينظمون بها شعورهم، وكذلك بالألبسة التي يرتدونها.

لكن مع هذا عليك أن تعرف أن هناك جبل سعير آخر، أو أدوم، وذلك في مقابل قفار البحر الأحمر، حيث نقرأ في سفر التكوين:١٤، كيف هزم كدرلعومر والملوك الآخرون الذين كانوا معه الحوريين في جبل سعير، فوقتها لم يكن هذا الجبل يعرف باسم جبل سعير، لأن عيسو الذي كان يدعى باسم سعير، ومن اسمه نال الجبل اسمه، لم يكن قد ولد بعد، وعلى هذا علينا أن نعتقد بأنه دعي بهذا الاسم مقدماً من قبل، وهكذا نقرأ في سفر التثنية:٢(٤):«أنتم مارون بتخم لإخوتكم بني عيسو الساكنين في سعير فيخافون منكم، فاحترزوا جداً» وقد قيل هذا أولاً لبني إسرائيل، عندما قاموا خارجين من مصر، وذلك عندما كانوا

في قادش بارينا(القفار)، وكانوا على وشك القدوم إلى جبل سعير، الذي هو قريب من قادش بارينا، المكان الذي كانوا فيه آنذاك، لكن من المؤكد أن بني إسرائيل لم يأتوا قط إلى تخوم جبل سعير هذا، القائم عبر بحر الجليل، لأن بحر الجليل هذا متصل بدمشق، إلى حيث لم يصلوا مطلقاً.

وجبل سعير الآخر، الذي قرأنا عنه أنه متصل ببريه فاران، هو الجبل الذي تجول حوله بنو إسرائيل لأيام كثيرة، لأن الرب حرم عليهم الدخول إلى هناك، ونقرأ عن جبل سعير هذا في سفر التثنية:٢(١٢):«وفي سعير سكنوا قبلاً».

وفي جبل سعير هذا الذي هو قريب من بحر الجليل، ومن جبل جلعاد، كان يسكن عيسو في الوقت الذي عاد فيه يعقوب من بلاد الرافدين إلى سورية، فنحن نقرأ في سفر التكوين:٣٦، بأن عيسو الذي كان بلا شك ساكناً مع أبيه في بير السبع، أخذ كل ما امتلكه، وذهب للسكنى في منطقة أخرى، وهذا مما لا شك فيه، وقد فصل نفسه عن أخاه، ولقد التقى بيعقوب، لدى عودته من بلاد الرافدين عند مخاضة جدول يبوق، المتصل بتلك البلاد باتجاه الجنوب، ونقرأ في سفر التكوين:٣٢/ ٣١،أنه:«عندما عبر يعقوب فنيئيل أشرقت له الشمس»،ونقرأ أيضاً بعد:«ورفع يعقوب عينه ونظر وإذا عيسو مقبل»[٣٣/ ١]الخ، وهذا المكان الذي اسمه فنيئيل مرئي حتى هذا اليوم، ومعروف بالاسم نفسه، ليس بعيداً عن سكوت، في المنطقة الشرقية عبر الأردن، فإلى هناك — كما قرأنا — جاء يعقوب فيها بعد مباشرة، وهذا المكان نفسه موجود عند سفح جبل سعير المتصل ببحر الجليل، وأما بالنسبة لجبل سعير، الذي سكن فيه الحوريون قديماً، والذي فيه يسكن أبناء عيسو الآن، هو بعيد سفر عدة أيام عن هذا المكان، ولم يكن بإمكان عيسو القدوم بشكل مفاجيء لرؤية أخاه، لأنه

بعيد جداً، وواقع وراء البحر الميت، وعلى مسافة سفر خمسة أيام منه، ومرد وجود هذه الأسباط المختلفة من أبناء عيسو، والأماكن المختلفة التي سكنوا فيها، مرد هذا الأمر كما أعتقد، وسببه هو أن عيسو امتلك عدة زوجات، وعلى هذا سكن الأولاد الذين أنجبهم من محلة ابنه إسماعيل وأخت نبايوت[تكوين:٢٨/ ٩] في جبل سعير الذي هو قريب من برية فاران، وذلك في المنطقة نفسها التي سكن فيها ختنه، الذي نقرأ عنه في سفر التكوين:٢١، بأنه صار رامياً، وسكن في برية فاران، فهناك — جاءنا الخبر — بأنه سكن مع ذريته، هذا وتزوج عيسو زوجات أخرى إلى جانب زوجاته الأول، كان من بينهن:أهو ليبامة ابنة عني بنت صبعون الحوي، وكان هذا الحوي ابن كنعان، ومما لا شك فيه أنه سكن في منطقة بيسان في الجليل، على مقربة من جبال جلبوع، ليس بعيداً عن بحر الجليل، وعلى مقربة من هذا المكان نفسه هناك جبل سعير آخر، سكن فيه عيسو، في الوقت الذي كان يعقوب راجعاً فيه من بلاد الرافدين، وعلى هذا كان من السهل جداً عليه لقاء أخيه هناك، وذلك حسبما يشير النص، لأننا نقرأ في سفر التكوين:٣٢،أنه بعدما ترك لابان، أخذ طريقه وقابل ملائكة الرب، وقال:«هذا جيش الرب»، وأطلق على ذلك المكان اسم محنايم، أي«المحلة»،(هذا المكان موجود في هذا اليوم عند سفح جبل جلعاد، في ديار سبط جاد)، ومن هناك بعث برسل إلى أخيه، وقد عادوا إليه إلى هناك، وبناء عليه — كما قرأنا بعد — عزل جانباً بعضاً من قطعانه هدية إلى أخيه عيسو، وقد بعث بهذه الهدية مع رسله، وهكذا قرأنا:«فاجتازت الهدية قدامه. وأما هو فبات تلك الليلة في المحلة.(أي في محنايم) ثم قام في تلك الليلة وعبر مخاضة يبوق،(التي ما تزال مرئية هناك) وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر»إلخ، ونتابع القراءة بأن«يعقوب دعا ذلك المكان باسم فنيئيل»، وما يزال هذا المكان قائماً حتى هذا اليوم على ضفتي مخاضة جدول يبوق، أيضاً في ديار سبط جاد،«وأشرقت له الشمس إذ عبر فنيئيل»

وبعد هذا«رفع يعقوب عينيه ونظر وإذا عيسو مقبل»الخ، وعلى هذا إننا نعرف الأماكن التي جاء عيسو إليه بها، وكلها على مقربة من جبل سعير، القائم وراء بحر الجليل.

وهناك أيضاً جبل سعير ثالث في منطقة أشدود وعسقلان، التي وقعت حصة لسبط يهوذا وقت اقتسام البلاد، لكن ما هو السبب في تسميته كذلك، إنني لا أتذكر أنني قرأت حول ذلك، غير أن السكان هناك يدعون باسم:آدوميين، مثلما دعي أبناء عيسو الآخرين باسم الأدوميين اشتقاقاً من اسم أدوم، ولهذا السبب أطلق على أنتيباتر وابنه هيرود العسقلاني اسم الأدوميين.

ويكفي ما قيل عن هذا الموضوع.

ويوجد هذا الجبل في حصة جاد في جبل جلعاد، في مقابل المكان الذي يخرج فيه نهر الأردن متدفقاً من بحر الجليل، وذلك ليس بعيداً عن جبل جلبوع، على مقربة من مدينة بيسان، ومن هناك نزولاً من الضفة الشرقية للأردن، توجد ديار سبطين ونصف سبط، وهي تمتد نزولاً حتى مراعي أرض مُآب عند سفح جبل عبريم في شطيم في مقابل أريحا، وإذا ما تابعنا السير نحو الجنوب على طول ضفة الأردن نفسها في بلاد مآب، نصل حتى البتراء في القفار، التي تعرف الآن باسم الكرك، ويأتي بعد هذا جزء من بلاد عمون، وذلك مسايرة لجميع طول البحر الميت، مع الاحاطة بنهايته الجنوبية، وصولا حتى جبل سعير، المتصل ببرية فاران، قرب قادش بارينا، حيث هناك على الطرف قفار سيناء والبحر الأحمر.

هنا بداية القسم الثاني من الربع الشرقي

٦ — في القسم الثاني من الربع الشرقي الذي يبدأ من عكا نحو الجنوب الشرقي، عندما يقطع الانسان أربعة فراسخ يصل إلى قانا

الجليل، حيث حوّل الرب الماء إلى نبيذ، وهذا المكان مرئي حتى هذا اليوم، حيث تقوم أجران الماء الستة، وغرفة الطعام حيث كانت المواد فيها.

هذا وإن جميع هذه الأماكن، مثلها في ذلك مثل جميع الأماكن الأخرى التي صنع فيها الرب أي عمل، هي موجودة تحت الأرض، ويمضي الانسان إليها بوساطة عدد كبير من الدرجات حيث يفضي إلى قبو، وهذا هو الوضع في موضع البشارة، والمهد، وفي قانا الجليل هذه، وفي أماكن أخرى كثيرة،كلها مشاهدة تحت الأرض، والسبب الوحيد الذي يمكنني أن أجده لهذا، مرده إلى التدمير المتتابع للكنائس التي بنيت فوق هذه المواضع، فقد سترت الخرائب بالأتربة التي تراكمت فوقها، وبعدما جرت تسوية الخرائب بلا عناية، تمت إقامة أبنية جديدة فوقها، وبناء عليه بات على المسيحيين الذين تشوقوا لزيارة هذه الأماكن، ورغبوا بالوصول إلى البقعة نفسها التي شهدت وقوع الحدث، أن يقوموا بأعمال تنظيف الأماكن هذه، وإقامة سلالم تقود نزولاً إليها، ولهذا السبب بدت غالبية هذه الأماكن على شكل أقبية، وإلى الشمال من قانا الجليل هناك جبل مرتفع وطويل، وعلى سفوح هذا الجبل تقوم هذه البلدة، وفي أسفل الجبل، يوجد على الجانب الجنوبي سهل جميل جداً، أطلق عليه يوسفيوس اسم سهل الكرمل(وادي الملك)، وهو يمتد بعيداً حتى الصفورية، وهو فائق الخصوبة والجمال.

وعلى بعد حوالي الفرسخين إلى الجنوب من قانا الجليل، وذلك على الطريق من الصفورية إلى طبرية، هناك قرية اسمها رومه(شمال المشهد) فيها يقال جرى دفن النبي يونه، وتقف هذه القرية تحت الجبل المقبل من الناصرة، ويحدها الوادي المتقدم ذكره، أي وادي الكرمل من الجانب الجنوبي.

وعلى بعد حوالي الفرسخ إلى الشرق من رومه هناك قرية واسعة،

يبدو أنها دعيت فيما مضى آبل — محولة، حيث نقرأ في سفر يودث بأن هولوفرنس قد قدم إليها عندما كان متوجهاً إلى بيت أوليا، ولابد أنه فعل ذلك، فبسبب وعورة تلك الأماكن لم يكن متوفراً طريق آخر هناك، ومن المعتقد أن هذه القرية قد كانت موضع مسقط رأس النبي إيليا، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الأول، وهي قائمة في المنطقة التي كان اسمها دوثان، وذلك على بعد نصف فرسخ إلى الغرب من تلك القرية، ويوجد فيها عدد كبير من الأعمدة الرخامية، وخرائب كثيرة، وكلها يدلل على أنها كانت فيما مضى مدينة رائعة، وهي قائمة فوق مكان مرتفع وحصين.

وعلى بعد فرسخ واحد من آبل — محولة يقوم جبل بيت أوليا، حيث قتلت يودث هولوفرنس، ومن الممكن رؤية هذا الجبل من خلال الجليل كله تقريباً، وهو جبل فائق الجمال وحصين، ومازال عليه هناك كثيراً من البيوت وكثيراً من الخرائب، وعند نهاية هذا الجبل هناك قرية قد بنيت لحماية الجبل،وهناك آثار معسكر هولوفرنس موجودة حتى هذا اليوم في حقل قرب دوثان، وهناك أيضاً الوادي الذي غسلت فيه يودث نفسها، وهو الذي عبرته في طريق عودتها إلى بيت أوليا، وقد تفحصت هذا كله بقدر ما أمكنني من دقة، لأنني أمضيت في دوثان ليلة واحدة.

وعلى بعد فرسخين طويلين إلى الجنوب الشرقي من بيت أوليا، وذلك على شاطىء بحر الجليل، هناك مدينة طبرية الجليل الرائعة،التي من اسمها عرفت البحيرة وأطلق عليها اسمها أحياناً، وكانت هذه المدينة تعرف في العصور القديمة باسم جنسارث، ولهذا السبب ومن اسمها أطلق على هذا البحر اسم بحر جنسارث، لكنها مع الأيام، استولى عليها هيرود، طيطراخ الجليل، وأطلق عليها اسم طبرية تشريفاً للقيصر طايبيروس، وهي مدينة طويلة جداً، وقائمة فوق طرف طويل

من شاطىء البحر، وعند نهايتها الجنوبية هناك حمامات طبيـة، وخرائب كثيرة، وتنمو هناك أشجار نخل عظيمـة، وكروم عنب، وبساتين زيتون، والتربة هناك خصبة جداً.

واعلم أن المنطقـة التي تعـرف باسم منطقـة المدن العشرة تنتهي عند مـدينة طبرية هذه، وقـد كتب اللورد جيمس دي فيتري، الذي كـان بطريرك القـدس، ونائب كـرسي رومـا، في كتـابه الذي كتبـه حـول الاستيـلاء على هذه المنطقة يقـول مايلي:«إن حـدود أونهايات بلاد المدن العشرة موجودة على البحـر في الشرق، وصيدا الكبرى في الغرب، وبناء عليـه كان هذا هو عـرضهـا، أما طولها فيمتـد من مـدينة طبرية، وجميع الشاطىء الشمالي لبحـر الجليل حتى دمشق، وعرفت باسم المدن العشرة صدوراً عن المدن الرئيسية الموجودة هناك، وهي:طبرية،وصفد،وقادش، ونفتـالي، وحـاصـورة، وقيسـارية فيليب، وكفـر نـاحـوم(التي يدعـوها يوسفيـوس باسم جوليـا) ولوتاباتا، وبيت صيـدا، وكورزين، وبيسـان، التي كان اسمهـا أيضاً سكيزوبولس، هذا وهناك مـدن أخرى كثيرة إلى جانب هذه المدن.

ولنلاحظ على كل حال، أن هذه البلاد قـد عرفت بأسماء مختلفة حتى هذا اليـوم، وكما تقـدم القول عـرفت أحيـاناً باسـم الايطورية، وأحيـاناً أخرى باسم بلاد الراحوب، وأحيـاناً باسم كـابول، وهي كلها واحـد، والمنطقة نفسهـا، ومع أنها دعيت بأسماء عديدة ومتنوعـة، هي لاتتجاوز رحلة سفـر يوم واحـد في الطول، أو في العـرض، كما أنني لاأظن أنها طويلة كثيراً في عـرضهـا، لكن فيها وراء بلاد صيـدا، والجبـال التي بيننا وبين المسلمين الذين يعرفون باسم البقاعية، وأيضاً الذين يسكنون حول ممر الكلب، تقوم الايطورية الأصيلة، وذلك في واد اسمـه وادي البقاع، وبسبب طوله، نجـده يمتد حتى سفح جبـل لبنان، ويعرف باسم غـابة لبنان.

وفي عـودة مـن طبرية، وعلى مسـافـة سـتـة فـراسخ نحـو الغـرب، وفرسخين إلى جنوب قانا الجليل توجد صفورية، وهي بلدة جميلة جداً مع قلعة مـوجودة فـوقها، ويقال بأن يواكيم، والد العـذراء المباركـة قد ولد هناك، وهي قائمة في ديار سبط آشر، على مقربة من وادي الكرمل.

وعلى مسـافة فـرسخين إلى الجنوب من الصفـورية، أو بالحري باتجاه الشرق، توجد الناصرة، التي هي المدينة المباركة للجليل، حيث كان فيها فـرع من أبناء يسي، فبعدمـا تلقت التحية من الروح القـدس، حملت في رحمهـا المبارك يسـوعـاً المسيح، وتبعد الناصرة سبعـة فـراسخ عن عكا، وفيهـا مـايزال مـوجـوداً المكان حيث جلب الملاك جبرائيل بشـارة الخلاص إلى العـذراء المباركـة قائـلاً:«حييت أيتها المليئة بالنعمـة، الرب معك، بوركـت أنت من بين النسـاء»، وقـد رتّلتُ هناك عـدداً من القـداسـات، وكـان بعضهـا حتى في اليـوم نفسـه، أعني يوم البشـارة المقـدسـة، وذلك عندمـا صار الرب جسـداً، ليبـارك اسم الرب يسـوع المسيح، إلى الأبد، وإلى الأبد.

وهناك ثلاثة مذابح في البيعة، التي نحتت من قلب الصخر، مثلها في ذلك مثل مكان الـولادة، والآلام والقيـامـة، وفي القـديـم جـرى نحت الجزء الأكبر من الناصرة من الصخـر، وهذا مـا يمكن رؤيتـه في هذا اليوم، ومـايزال حتى هذا اليوم الكنيس قائم هناك، بعدمـا جرى تحويله الآن إلى كنيسـة، وهو الذي عندمـا كان يسـوع يعلم فيـه، قرأ من سفـر إشعيـا النبي، وذلك لدى مناولتـه إياه، والذي قـرأه هو:«روح الرب فوقـي، لأن الرب مسحني»الخ، فضلاً عن هذا يوجـد عند نهاية المدينة، في كنيسة جبرائيل، جب، هو مبجل من قبل السكان، حيث يقال: غالباً ما قام الطفل يسوع بنضح الماء منه عندما كان يخدم أمه.

وعلى بعـد مسافـة أربع رميـات سهم، إلى الجنوب من المدينة يوجـد المكان المعروف باسم«قفزة الرب»، وذلك حيث أرادوا رمي يسوع نحو

الأسفل، غير أنه مـرّ من بين أيديهم، وشـوهد فجـأة — حسبما مـرئي هناك — على طرف الجبل، على مسافة رمية سهم، ومن الممكن أن يرى الانسان هناك على الصخرة طبعة مـلامحه وملابسه، ويمكن للانسان أن يرى من ذلك الجبل، جبل الطور، ورابيـة حرمـون الصغيرة(جبل النبي ضاحي)، وقـرى:عين دور، ونين، ويزرعيل، ورؤية كل مـا حواه سهل ابن عامر.

وعلى بعـد فـرسخين من النـاصرة، باتجاه الشرق، هناك جبل الطور، حيث تحول شكل الـرب، وهناك من الممكن حتى الآن رؤيـة خـرائب ثلاث بيع، أو مزارات، كانت قد بنيت تنفيذاً لرغبة بطرس، وفضلاً عن هذا هناك خـرائب على غاية مـن العظمة هناك، تشمل أمـاكن، وأبراج، وأبنية عادية، هي الآن أماكن مأوى للأسود وللحيونات الضارية، وعلى هذا يتـوفـر هناك مكـان للصيـد الملكي، والجبـل صعب التسلق، وهو شاهق الارتفاع، وهو موائم لبناء قلعة عليه.

ويوجد على سفحه، على الجانب الجنوبي، هناك مقابل قرية عين دور، وذلك إلى جانب الطـريق الذي يقود من سوريـة إلى مصر، يوجد المكان الذي يقـال بأن مليكصـادق قـابل فيـه إبراهيم، وذلك لدى عـودته من القتال ضد الملوك الأربعة قرب دمشـق، وعند سفحه، في الجهة الغربية، في مـواجهـة الناصرة، هناك بيعـة بنيـت في المكان الذي قـال الرب فيـه لحوارييـه، لدى نزوله من الجبل:«لاتخبروا أحـداً بالذي رأيتمـوه»، ومن سفحـه في الشرق يجري جدول قيشـون، وذلك حيث قـاتل باراق ضـد سيسرا، وغلبه، وأرغمه على الفرار، ويتشكل هذا الجدول من مياه جبلي الطور، وحـرمـون، وتجري هذه الميـاة باتجاه بحـر الجليل، وتصب على مقـربة من قلعـة كـوكب الهوا(بلفيـور Belvior)، التي هي من ممتلكات فرسان مشفى القديس يوحنا.

وعلى مسافـة فرسخ واحـد إلى الشرق من جبل الطور، توجد قـرية

عين دور، القائمة على هضبة حرمون الصغيرة(كذا)، وهذه الحرمونية ليست جبلاً مستقلاً بذاته، بل كتلة مرتفعة من الأرض، نازلة من جبل حرمون، وهي باتجاه جبل الطور وملتصقة به، وفوقها تقوم قرية عين دور، حيث نقرأ في المزمور:«بادوا في عين دور»[مزمور:٨٣/ ١٠]، وسكنت في هذه القرية المرأة التي كانت صاحبة جان، والتي لدى حادثة شاؤول أصعدت صموئيل، وذلك حسبما نقرأ في سفر صموئيل[الأول:٢٨/ ٧ — ١٨]، وصموئيل يرقد الآن مدفوناً في راماثيم — زوفيم، الموجودة على مسافة سفر يومين من ذلك المكان.

وعلى بعد فرسخين من الناصرة، وأكثر من فرسخ واحد عن جبل الطور، توجد رابية حرمون الصغيرة، الموجود على طرفها الشمالي مدينة نين، التي أقام الرب أمام بابها ابن الأرملة من الموت.

ويبلغ طول هذا الجبل وامتداده أربعة فراسخ في مقابل بحر الجليل، وينتهي ليس بعيداً عن المكان الذي يتدفق فيه نهر الأردن خارجاً من بحر الجليل.

هنا بداية القسم الثالث من الربع الثالث

٧ — في القسم الثالث من الربع الثالث، الذي يسير باتجاه الجنوب، إن المكان الذي يصادفه الانسان بعد مغادرته لعكا، هو الجزء الأول من جبل الكرمل، وذلك على بعد مسافة أربعة فراسخ من عكا، وهنا يوجد المكان الذي قتل فيه النبي إيليا كهنة بعل، عند جدول قيشون، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الأول:١٨/ ٤٠، وعلى بعد مسافة قصيرة يصب جدول قدرون في البحر المتوسط، وذلك على مسافة فرسخ واحد عن مدينة حيفا، إنما على بعد حوالي الثلاثة فراسخ عن مدينة عكا.

وفيما يتعلق بجدول قيشون هذا، يلاحظ أنه وإن بدا في الحقيقة أنه جدول واحد، وهكذا جرى الكلام عنه أنه واحد، مع ذلك ينبغي عدّه

مـزدوجـاً، لأنه يجري باتجاهين، فــالفـرع الأول منه يجري باتجاه الشرق ليصب في بحـر الجليل، ويجري الفـرع الآخــر باتجاه الغـرب ليصب في البحر المتـوسط، ويقوم هذا المجرى المزدوج من جبلي الطور وحـرمون، لأنهما ليسـا بعيـدان عن بعضهما بعضـاً، وكل واحـد منهما له رابيـة قـد أرسلهـا باتجاه الآخـر، وعلى هذا بدا الجبلان وكـأنهما متصلان أحـدهما بالآخـر عند السفح، والرابية هي أعلى من جـانب جبل حرمـون، وهي تعرف باسم الحرمـونية، وقـد تقدمت الاشارة إليهـا، فعليها تقـوم قرية عين دور، وتعيق هذه الرابيـة مياه الأمطار التي تتساقـط على كل واحد من الجبلين، والتي تجري نـازلة بالاتجاه نفســه، لكن شطراً منهــا يجري باتجاه الشرق، ويصب في بحـر الجليل، ليـس بعيـداً عن مـدينة بيســان، وعند جـدول قيشون هذا تحارب باراق مع سيسرا، وذلك حسبما قـرأنا في سفر القضاة: ٥، ويجري الشطر الآخر باتجاه الغرب ليصب في البحر المتوسط، وعند فرع قيشـون هذا قتل إيليا كهنة بعل، وذلك حسبما قرأنا في سفـر الملوك الأول:١٨/ ٤٠، وهو الشطـر الذي يجري باتجاه الغـرب وترفده مياه من جبل عفريم والمناطق المجاورة له في السامرة، ومن جميع بقاع سهل ابن عامر، وجبل قابيل، ومجيدو،[في عزبوية قرب التعنه].

وعلى بعـد ثلاثة فـراسخ من المكـان الذي قتل فيـه كهنة بعل، تقـوم القلعـة المبنيـة فـوق جبل قـابيـل، واسمهـا تل كمـون، وفي نهاية جبل الكرمل تماماً، هنـاك المكان الذي قتل فيه لامخ قـابيل حين رماه بسهم، وذلك حسبما جـاء الخبر في سفـر التكـوين:٤/ ٢٣، قـولـه:«فإني قتلت رجلاً لجرحي».

وعلى بعـد ثلاثة فـراسخ إلى الجنوب من جبل قابيـل، توجد مجيـدو، التي اسمها في هذه الأيام سبورب Suburbe ، فهناك مات أحازيا ملك يهوذا، الذي أصـابه ياهو ملك إسرائيل بوسـاطة سهم، ورمـاه في حصـة حقل نابوت اليزرعيلي، وفي مجيـدو هذه نفسها جـرى قتل يوشع

ملك يهوذا من قبل فرعون ملك مصر، عندما كان زاحفاً نحو نهر الفرات.

واعرف هنا أن حقل مجيدو، وسهل ابن عامر، وسهل الجليل هم واحد والشيء نفسه، وكل هذه الأسماء قد زالت من الوجود، وهي الآن تعرف باسم سهل الفابا(الفولة) الذي يقوم على بعد ثلاث رميات سهم عن مدينة أفيق، ولكن في الحقيقة الكاملة أن هذا هو سهل الجليل الذي يحده من الشرق بحر الجليل والأردن، ومن الجنوب جبل عفريم والسامرة، ومن الغرب جزئياً من قبل جبل الكرمل، ومن الشمال بحر فينيقيا ولبنان، ويبدو أن طول هذا السهل هو عشرة فراسخ، وعرضه ستة فراسخ أو أكثر،وهو في بعض الأماكن خصب جداً بالقمح، والزيت، والخمرة، وملىء بجميع الأشياء الجيدة في العالم، وبناء عليه لا أعتقد أنني رأيت قط أرضاً أفضل، لولا أن مساوئنا وذنوبنا حالت دون زراعتها من قبل الصليبيين.

وعلى بعد أكثر من فرسخين إلى الشرق من جبل قابيل توجد قرية المزرعة(قرب الفولة) وهي قائمة على شاطىء جدول قيشون، وذلك على بعد فرسخ واحد من سفح جبل حرمون.

وعلى بعد فرسخ إلى الجنوب من المزرعة تقوم قلعة اسمها قلعة الفولة، وعلى الطرف الغربي وعلى بعد ثلاث رميات سهم، وذلك على جهة اليمين من طريق يزرعيل، من الممكن رؤية خرائب مدينة أفيق، فهناك قاتل السوريون ضد أخاب، ملك إسرائيل، وقالوا في ذلك الحين:«إن آلهتهم آلهة جبال.... وإذا حاربناهم في السهل فإننا نقوى عليهم»(الملوك الأول:٢٠/ ٢٣).

وعلى بعد فرسخ إلى الشرق من أفيق، وذلك على الجهة اليسارية من الطريق إلى يزرعيل، وعلى الجهة الجنوبية من جبل حرمون، يمكن

للانسان أن يرى مدينة شونيم(سولم إلى الشرق من الفولة)، فإلى هناك غالباً ما ذهب إيليا عندما كان على طريقه من الكرمل إلى الجلجال، أو الأردن، لأن هذا الطريق كان الطريق الأقل وعورة وارتفاعاً بالنسبة له عندما كان يريد الذهاب إلى أريحا، حيث أقام مع أبناء الأنبياء، وكان يذهب من الكرمل، أي أن تقول من خلال شونيم إلى بيسان، ومن هناك على طول سهل الأردن إلى الجلجال، ولهذا نقرأ في سفر الملوك الثاني:٤/ ٨، كيف أنه احتاج كلما ذهب إلى الأردن إلى المرور بشونيم، ولهذا اعتاد على الاقامة مع المرأة الشونيمية، وحدث أنه من هذه المدينة نفسها، جاءت إليه هذه المرأة ذاتها عندما توفي ولدها، جاءت إليه إلى الكرمل، التي تبعد مسافة أربعة فراسخ عن ذلك المكان، وقام إيليا بإقامة ولدها من الموت، وهنا نصب الفلسطينيون معسكرهم عندما جاء شاؤول من جلبوع، ومن مدينة شونيم هذه جاءت أبيشاغ Ab-ishag الشونيمية التي رعت الملك داوود العجوز، واحتضنته ومددته على صدرها.

وعلى بعد فرسخين إلى الشرق من شونيم، أو بالحري إلى الجنوب الشرقي، تقوم مدينة بيسان، الموجودة بين جبل جلبوع والأردن، إنما على بعد نصف فرسخ عن الأردن، فعلى أسوارها علق الفلسطينيون جثث شاؤول وأولاده بعدما قتلوهم على جبل جلبوع، وكانت بيسان هذه تعرف من قبل باسم سكيزوبولس، وذلك حسبما أخبرنا يوسفيوس، لكن الناس جميعاً يدعونها الآن باسم بيسان، وهي موقع فائق الجمال والبهاء.

وفوقها، على الجانب الغربي، يقوم جبل جلبوع، الذي يمتد حتى يزرعيل، وذلك على بعد فرسخين نحو الغرب.

وعلى بعد فرسخين إلى الغرب من بيسان هناك ينابيع، ونبع عظيم على فرسخين فوق بيسان، وهذا هو«النبع الموجود في يزرعيل»[عين

جـــالوت دون يزرعيل إلى الشرق]، الـذي ورد ذكــره في صمـــوئيل الأول:٢٩/ ١، حيث ضرب الفلسطينيــون مخيمهم، عندمــا كــانوا في جلبوع، بين ذلك النبع وبيسان.

وعلى مسافـة قريبـة، هي حوالي رميتي سهم، عن ذلك النبـع، توجد مـدينة يزرعيل(زرعين)، وهي قائمة فوق رابية مرتفعـة بعض الشيء، وقـد كــانت فيها مضى إحـدى المدن الملكيــة في إسرائيل، لكن في هذه الأيام ليس فيهـا أكثر من ثلاثين بيتـاً، واسمهـا الآن الذي تدعى به هو زرعين، وهي قـائمـة عند سفح جبل جلبـوع، على الجهة الغـربيـة منه، وتبعـد عن مدينة شـونيم فرسخين قصيرين، وشـونيم قائمـة إلى الشمال منها، وذلك على الطرف الجنوبي من جبل حرمون.

وهذان الجبلان — أعني جبل حـرمون وجبل جلبوع — متـوضعان بشكل جاء فيه موقع جبل جلبوع إلى الجنوب منها، وحرمون إلى الشمال منها، مـع وجود فـراغ بينهما قدره فرسخين قصـار، وهما يمتدان طـولياً من الشرق إلى الغـرب، وكـلاهما ينتهي في الشرق عند الأردن، وطولهما فرسخان أو أكثر.

وفيما بينهما جرت معارك كبيرة، فهنا قاتل جدعون ضد مدين، وقاتل شـاؤول ضد الفلسطينيين، وأخـاب ضـد السوريين، وفي الأيام الحاليـة قاتل التتار ضد المسلمين هناك.

[وليلاحظ فيما يتعلق بجبل حـرمون هذا، أن هناك جبـلاً آخر يحمل الاسم نفســه، يقع وراء الطرخـونيـة، وعلى مقـربة من جبل سنير، وهو أعظم بكثير وأعلى من هذا الجبل، وفي كثير مـن الأمـاكن من الكتـابات المقدسة، الإشارة إلى حرمون هذا وليس إلى حرمون[الصغير] ذاك.

وفي السهل فيما بين هـذين الجبلين يبـــــدأ الوادي الـذي يعـــــرف باسـم«الوادي المشرق»[مــــوره أو وادي يزرعيل]، وذلك بسبـب جماله

وخصبـه، وهو يمتـد مـن ذلك المكان مســايراً نهر الأردن نزولاً حتى البحـر الميت، وقبل أن يدمـر الرب سـدوم وعمـوره، كـان هذا الوادي المشرق«مروياً بشكل جيد في كل مكان، وكأنه بستان الرب، وذلك مثل أرض مصر»، فهذا ما نقرأه في سفر التكوين:١٣/ ١٠.

ومن يزرعيل هنـاك مشهـد جميل يغطي جميع الجليـل، حتى الكرمل، وجبـال فينيقيـة، وجبل الطور، وجبل جلعـاد، والمناطق الواقعـة عبر الأردن، وجميع جبل إفرايم حتى الكرمل.

ويساير الطريق من جبل جلعاد إلى يزرعيل، الطرف الجنوبي من جبل جلبوع، وذلك من الأردن، ويمر عبر عين نون وساليم[يوحنا:٣/ ٢٣]، حيث أجـرى يوحنا التعميـد، وحـدث أيضـاً أنه عبر هذا الطريق جـاء ياهو من راموت جلعـاد(الملوك الثاني:٩/ ١٧)، عندمـا قال الرقيب:«إني أرى جماعة»الخ، وليس صحيحاً ما يقـوله بعضهم من أنه لا الندى ولا المطر يتسـاقط على جبـال جلبوع، لأنني عندمـا كنت هناك في يوم عيـد القديس مارتن[١١— تشرين ثاني] تسـاقطت الأمطار حتى تبللت ثيابي كلهـا ووصل البلل إلى الجسد، فضـلاً عن هذا امتلأ الوادي بميـاه تلك الأمطار، ومع هـذا صحيح هناك بعض الأمـاكـن في هذه الجبـال هي صخرية، وجافة، وجرداء، مثل بقية جبال اسرائيل.

وعلى بعـد أربعـة فـراسخ إلى الجنـوب من يزرعيل تـوجـد عين جنيم(جنين)، وهي بلدة كـانت فيها مضـى مسـورة، لكن أسـوارها قـد تداعت، وهي قـائمـة عند سفح جبـل إفـرايم، وتنتهي عند هذه البلدة منطقة الجليل، وتبدأ منطقة السامـرة، وتقع جنين على بعد حوالي السبعة فراسخ إلى الغرب من الأردن.

وتُحد هذه المنطقة من الجنـوب ببلاد تمّون[إلى الشمال — الشرقي من شكيم]، التي فيها جبال مرتفعة جداً.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الجنوب من مدينة جنين تقوم مدينة سبسطية، التي عرفت فيما مضى باسم السامرة، وذلك عندما كانت عاصمة لمملكة الأسباط العشرة، التي عرفت باسم إسرائيل، وجعلتها ذنوبها لاتمتلك ما يساوي مقدار بيت واحد، لكن هناك كنيستان بنيتا على شرف القديس يوحنا المعمدان، ولقد قام المسلمون بتحويل واحدة من هاتين الكنيستين إلى مسجد، وكانت تلك التي كانت هي الكنيسة الرئيسية، وكانت فيما مضى كاتدرائية الأسقف، وفعلوا هذا بشكل خاص بضريح يوحنا المعمدان نفسه، الذي كان معمولاً من الرخام، ويشبه ضريح الرب، ذلك أنه رقد مدفوناً هناك بين إيليا وعوبيدا، وتقوم هذه الكنيسة على طرف الجبل، في المكان الذي ينحدر الانسان منه وينزل، ويقدر المسلمون القديس يوحنا المعمدان تقديراً عظيماً، ومكانته لديهم هي التالية لمكانة المسيح والعذراء المباركة، وهم يولونه اهتماماً عظيماً، وهم عن حق يعلنون بأن المسيح هو كلمة الله، لكنهم يقولون إنه ليس رباً، وهم يقولون بأن العذراء المباركة قد حملت من روح القدس، وقد حملت به كعذراء وبقيت عذراء، وهم يقولون بأن يحيى كان نبياً عظيماً وفائق القداسة، ويقولون أيضاً بأن محمداً(ﷺ) كان رسول الله، وقد أرسل من قبله لهم فقط،وقد قرأت شخصياً هذا في القرآن [الكريم] الذي هو كتاب شريعتهم.

وتقف الكنيسة الثانية على حافة الرابية، وذلك حيث قام قصر الملك فيما مضى، ويقطن هناك رهبان إغريق، ومسيحيون، استقبلوني بلطف، وأعطوني طعاماً، وأراني أولئك الإغريق أنفسهم في تلك الكنيسة، المكان الذي قالوا بأن يوحنا قد سجن فيه، ثم قتل فيه صبراً، وهذا ما بينت أنه خطأ جسيم، لأن المؤرخين، ويوسفيوس، وحكايات القديسين، وكاتب التواريخ، والتاريخ اللاهوتي، كلهم مجمعون على القول بأنه قتل صبراً في مخرونتا Macherunta [مخور شرقي البحر الميت]، التي

تعرف الآن باسم هيلون Haylon ، عبر الأردن، زيادة على هذا، كان هيرود الذي أعدم يوحنا طيطراخ الجليل، والبلاد الواقعة عبر النهر، وهي بلاد جلعاد، أو بالحري بلاد السبطين، ولم تكن له سلطة في السامرة، التي كانت تحت إدارة بيلايطس، وذلك حتى القدس، أو اليهودية، وبناء عليه لم يكن بإمكانه لاسجن يوحنا ولا إعدامه، لأنه لم تكن لديه سلطة هناك، لكن بعد إعدامه في مخروننا — كما قلنا من قبل — دفن جسده في السامرة من قبل حوارييه، بين النبيين المتقدمي الذكر، غير أن رأسه قد دفن في القدس، هذا ولم أشهد في أي مكان من الأرض المقدسة خرائب عظيمة مثل التي في السامرة، فهناك رأيت خرائب كبيرة جداً، ووضع هذه المدينة لايتوافق مع ما ذهب إليه كاتب التواريخ، في تعليقه على قول النص التالي:«هكذا تفعل بي الآلهة، وهكذا تزيدني، إن كان تراب السامرة يكفي قبضات لكل الشعب الذي يتبعني»[الملوك الأول:٢٠/ ١٠]، ويبدو أنه قد خيل إليه أن أسوار المدينة وقمة الجبل كانا على ارتفاع واحد، وأن الأبنية قد شيدت فوق القمة، لكن الحال لم يكن كذلك، لأن أسوار المدينة كانت عند سفح الجبل، وكانت حصينة ومدعمة بأبراج فائقة الحصانة، وكان الجبل في داخلها، ويرتفع بشكل تدريجي، وقد انتشرت عليه الأبنية وتوزعت مثلها في ذلك مثل عنقود من العنب، وكانت الأبنية مرتفعة إلى درجة قاربت فيها القمة، وكان القصر على قمة الجبل، وكان فائق الجمال، ومن الممكن أن يشاهد حتى هذا اليوم كثيراً من الأعمدة الرخامية التي دعمت أماكنه وأروقته، وحول الجبل كله، وتحت القصر، ودون بيوت الأعيان، وفي موقع الساحة العامة، أو السوق للبيع والشراء، يجد الانسان حتى في هذه الأيام، من حول الجبل كله، أعمدة رخامية واقفة في داخل الأسوار، وكانت هذه الأعمدة، فيما مضى، تدعم قناطر الشوارع، لأن شوارع هذه المدينة كانت مقنطرة، وفقاً لعادات الأرض المقدسة، وباختصار ليس لدي المزيد لأقوله حول هذه المدينة، التي

أصبحت الآن في حالة بائسة، حيث غدت في الحقيقة حديقة للأعشاب، مثلما أراد أخاب ملكها، وطلب أن يعمل كرم نابوت اليزرعيلي،لأنه كان قريباً من بيته[الملوك الأول:٢١/ ٢]، وفي الحقيقة، تحول في هذه الأيام، بسبب قضاء الرب العدل، ليس ذلك الكرم، بل قصر الملك نفسه أيضاً، إلى حديقة أعشاب، وكان وضع هذه المدينة وضعاً رائعاً للغاية، حيث منها من الممكن رؤية البحر قرب يافا، حتى رأس العين، وقيسارية فلسطين، وعبر كل جبال إفرايم إلى رامات — زوفيم، وإلى الكرمل بوساطة البحر قرب عكا، وهو مليء بالينابيع، والحدائق، والكروم، وجميع الأشياء الجيدة التي يطلبها الانسان في هذا العالم.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشرق من السامرة، تقوم مدينة تيرزه Ti-razah (لعلها التياسير إلى الشمال الشرقي من شكيم) فوق رابية عالية، وقد حكم هنا ملوك إسرائيل لبعض الوقت قبل بناء السامرة، وقد كانت في حصة سبط منشا.

وعلى بعد ستة فراسخ إلى الشرق من تيرزه، وعلى الطريق الذي يقود إلى الأردن، تقوم بلاد تفوه Tappuah [عين تفوح]، التي تحتوي على عدد من الجبال، بينها جبل مرتفع جداً، وكان هذا أيضاً في حصة منشا، ويمتد حتى سهول الأردن عبر مواجهة مخرونتا(مخور شرقي البحر الميت).

وعلى بعد فرسخين جنوبي السامرة، وذلك قرب الطريق الذي يقود إلى شكيم وعلى الجهة اليمنى لجبل مرتفع، يقوم جبل بيت إيل(بيتين)، الذي عليه وضع يربعام بن نبط، ونصب العجلين الذهبيين، مما جعل إسرائيل تقع في الاثم، ويصحف المسلمون اسم هذا الموقع، ويدعونه بوثيل Bothil لأنهم لايقدرون على تلفظ كلمة بيت إيل.

ويوجد على بعد نصف فرسخ من هناك، وذلك على الجانب الأيسر

من الطريق، جبل أكثر ارتفاعاً من الأول، ويدعى هذا الجبل باسم دان، وهو قائم فوق مـدينة شكيم، ويقول بعضهم بأن العجل الذهبي الآخر قد نصب هناك فـوقه، هذا ويقول بعض آخـر بأنه نصب في مدينة دان، التي اسمها الآن بلنيـاس، أو قيسارية فيليب، ويبـدو أن هذا بالحري ما قصده جيروم، ويمكن للانسان أن يختـار ما يرضيه، والذي هو على كل حال مؤكد، أن هذا الجبل، عرف باسم جبل دان.

وتقوم بين هذين الجبلين مدينة شكيم، التي اسمها الآن نابلس، وهي مدينة فائقة الجمال، ومليئة بالأشياء الجيدة، لكنها غير محصنة، كما أنه من غير الممكن تحصينها بأية وسيلة من الوسائل، وكل ما يمكن للسكان أن يفعلوه هو أنه إذا جـاء عـدو إلى أول البـابين، القيـام بالهرب إلى البـاب الآخـر، وذلك إذا كانوا أقل عـدداً: لأن المدينة قائمـة في واد بين جبلين عاليين جداً، ولذلك يمكن لأي إنسان أن يرميهابالحجارة بيده.

وعلى بعد حوالي رميتي سهم من بـابها الجنوبي، يوجد جب يعقوب، وذلك إلى جـانب الطريق الـذي يقـود إلى القـدس، وهنا يوجـد مقعـد يعقوب، وذلك حين جلـس إلى جانب الجب، وسأل المرأة السـامرية أن تعطيه شربة ماء.

وفـوق هذا الجب، على جهـة اليمين، يوجـــد جبل مـرتفع له قمتين، تعرف أولاهما باسم جبل جـرزيم، وتعرف الأخـرى باسم جبل عيبال، وقد بنى يوشع مذبحاً على جبل جـرزيم، وكتب سفر التثنية(؟) ووقفوا يبـاركون ويلعنـون، ويجيبون من جبل إلى آخـر، وذلك حسبما أمـروا في سفر التثنيـة:٢٧، ويشاهد فوق جبل جـرزيم هناك في هذه الأيام هيكل قديم جداً، كان قد بناه سنبلاّت Sanballat ، حاكم المنطقة الواقعة عبر الأردن، تكريماً لجوبتير أولمبيوس، وجعله شبيهـاً بالهيكل الموجود في القـدس، وقـد بناه من أجل صهـره منسّـه، الذي أراد أن يكون كـاهناً أعلى، ومـايزال هذا الهيكل قـائماً هناك، حتـى أيام الدمـار الذي قـام به

الرومان، وآثاره وخرائبه ماتزال مرئية حتى هذا اليوم، ومن المعتقد أن هذا الجبل وهذا الهيكل هو ما عنته المرأة السامرية وأشارت إليه، عندما قالت للرب:«أباؤنا سجدوا في هذا الجبل»[يوحنا:٤/ ٢٠].

ويوجد على جهة اليسار لهذا الجب بلدة كبيرة، غير أنها خرائب ، وهي التي أعتقد أنها كانت شكيم القديمة، لأنه يوجد هناك خرائب عظيمة جداً لقصور رخامية، وأعمدة تستحق الاعجاب، واقفة على بعد رميتي سهم من جب يعقوب، ومكان الاستراحة، وذلك فوق موقع جميل جداً، سوى أنها بدون ماء، هذا وإنني لم أشاهد قط مثل هذه البقعة بخصبها وغناها، وهي تبعد رميتي سهم عن المدينة، التي اسمها نابلس، وإنني أعتقد أن نابلس هذه قد كانت بلدة تاباص(طوباس)، ويقع إلى جانب هذا الجب قطعة الأرض التي أعطاها يعقوب إلى ابنه يوسف، خصيصاً له دون إخوته[يوحنا:٤/ ٥]، وإنها طويلة وخصبة، وهي في الحقيقة واد جميل جداً، وأنا لا أعرف أي واد آخر مساوياً له في غناه.

وفي شكيم دفنت عظام يوسف، وقد جلبت إلى هناك من مصر.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الجنوب من شكيم، قرب الطريق، وعلى جهتك اليمنى وأنت ذاهب إلى القدس، تقع قرية لبنه(خان لبّن)، وهي موضع جميل جداً، وهناك لبنه أخرى في ديار سبط يهوذا، لكن هذه كانت موجودة في ديار سبط إفرايم.

وعلى بعد خمسة فراسخ إلى الجنوب من لبنه توجد بلدة مخماس، وهي بلدة واسعة نسبياً، وقد كانت تشكل حدود ديار سبط إفرايم باتجاه الجنوب، واسمها الآن البيرة(وهم) وكانت فيا مضى من أيام ملكاً لفرسان الداوية، وعلى مقربة من طرفها الجنوبي، تقوم الحدود بين ديار سبط إفرايم، وديار سبط بنيامين.

وعلى بعد فرسخ واحد إلى الجنوب مـن مخماس توجد جبعة شاؤول، حيث جـرى إغضـاب زوجـة اللاوي التي جـاءت من بيت لحم، ومن أجل هذه الفعلة جرى تدمير تقريباً كل سبط بنيامين، وقد كانت مسقط رأس شاؤول بن قيس، الذي كان أول ملك لإسرائيل.

وعلى بعد فرسخ واحد إلى الجنوب من جبعـة، تقوم قرية(رامه)الرام، وهي قائمة فوق رابية، وذلك ليس بعيداً عن طرف الطريق، وذلك على جهة اليسـار، وأنت ذاهب إلى القدس، ومن المعتقد أن إرميـا قصد هذا المكان بقوله:«سمع صوت في رامه».

وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب من رام، تقوم مـدينة القدس الرائعة، التي لن أقول عنهـا هنا شيئاً، لأنني أرغب بالعـودة إلى شكيم، وسوف أذكـر أولاً المدن القائمـة عند زاوية جبل إفـرايم، وأوقف وصفي حيث أتجاوزها.

واعـرف على كل حال أن هناك كثيراً من القـرى في الأرض المقدسـة اسمها رامه، واحدة منها قرب تقوع، على الطريق من هناك إلى حبرون، وأخـرى في ديار سبط نفتـالي، والثـالثة ليست بعيـدة عن قلعـة صفـد، والرابعة هي شيلوه، التي تعـرف أيضاً باسم رامـه، وفسر اسم رامه بأنه يعني«ارتفاع»، وفي الحقيقـة تقوم جميع هذه القرى فوق هضـاب مرتفعة جداً.

والآن، إذا مـا مضى الانسـان جنوباً(كـذا) من شكيم باتجاه الأردن، فإن المكان الأول الذي سـوف يلقاه هو إيمـون(كفرعـانا إلى الشمال من بيت إيل)(كفر العموني)[يشوع:١٩/ ٢٤]، وهي بلدة جيـدة جداً، قائمة في مكان جميل، فيه وفرة من جميع سلع الدنيا، وقد كانت في حصة سبط إفرايم.

وعلى بعـد أربعة فـراسخ من إيمـون، لدى نزولك من جبل إفـرايم،

على السهل، وعلى بعد فرسخين عن الأردن، توجد قرية الفصيل Phe-sech، وذلك عند المكان الذي يجري فيه جدول كيرث Che-rith لدى نزوله من الجبل، وهنا أقام إيليا عندما جلبت الصقور الطعام له في الصباح وفي المساء.

وعلى بعد فرسخ واحد من الفصيل، على جهة اليسار، باتجاه بلاد تفوه، توجد قلعة عين دوك Docus ، حيث قتل بطليموس بن أبوبوس، سمعان المكابي بشكل خياني، ويستطيع الانسان من هذا المكان أن يرى بوضوح بلاد جلعاد، وبلاد السبطين ونصف السبط، وبلاد هشبون والمنطقة المرتفعة لبلاد مآب، وجبال عبريم، وفسغه، ونبو.

ومن هناك ينزل الانسان إلى سهل الأردن، ويمتد هذا السهل حتى أريحا، وعبرها، طوال الطريق نزولاً مع الأردن حتى البحر المالح، ويقوم جبل عبريم، وفيغير Pheger ، وفسغه مباشرة في مواجهة هذا المكان، وذلك عبر الأردن، وعليك أن تعرف أيضاً أن نهر الأردن يمتلك سهولاً جميلة على ضفتيه، وذلك امتداداً من منابعه عند سفح جبل لبنان حتى برية فاران، بطول حوالي مائة ميل وأكثر، فضلاً عن هذا، هناك فوق هذه السهول نفسها جبال عالية جداً، على كلا الجانبين، ممتدة حتى البحر الأحمر.

وعلى بعد خمسة فراسخ باتجاه الجنوب، لكن مع انحراف قليل نحو الشرق من فسغه، يقوم موقع الجلجال، حيث أقام بنو إسرائيل معسكرين لمدة طويلة، بعد عبور الأردن، وهناك جرى ختن بعضهم.

وعلى بعد نصف فرسخ عن الجلجال، على الطريق إلى أريحا، وذلك على جهة اليمين من الطريق، هناك جبل يدعى جبل القرنطل، فهناك صام الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة، وهو جبل مرتفع جداً، وصعب التسلق، وقد أغوي على جبل آخر،ببعد ثلاثة فراسخ عن هذا الجبل،

وهو قائم في القفار، على الجانب الجنوبي لبيت ايل وعاي.

وعلى بعد حوالي الرميتي سهم تحت القرنطل، ينبع نبع إيليا[رأس العين]، وتتدفق مياهه وتسير، وهي المياه التي عالجها إيليا، لأنها كانت مالحة، وعقيمة، ويجري هذا الجدول قرب الجلجال، على الجانب الجنوبي، ويدير طواحين كبيرة، ويتوزع بعد هذا على عدة أقنية، ويسقي قصب السكر، والحدائق والبساتين حتى أريحا، وماوراء أريحا، ثم يصب في الأردن.

وعلى مقربة من الجلجال، وعلى بعد نصف فرسخ إلى الجنوب، يوجد وادي عكور (وادي القلط) وذلك عند سفح جبل، وفي هذا الوادي جرى رجم عاخان، لأنه سرق أشياء ملعونة.

وعلى بعد فرسخ واحد إلى الشرق من الجلجال تقوم أريحا، التي كانت فيما مضى مدينة مجيدة، في حين لايوجد فيها الآن أكثر من ثمانية بيوت، ويوجد هناك آثارقرية بائسة، هذا وقد جرى هناك تدمير جميع الأوابد والأماكن المقدسة، تدميراً كاملاً.

ويوجد على بعد فرسخين من أريحا، إلى جانب الأردن، بيعة[قصر اليهود]، التي بنيت على شرف القديس يوحنا المعمدان، وذلك فوق البقعة التي من المعتقد أن تعميد الرب قد جرى فوقها، ومع هذا يرى بعضهم بأن التعميد كان في ساليم[يوحنا:٣/ ٢٣]، غير أن التقاليد الكنسية تنكر هذا.

هذا وإن الذي حدث في أريحا معروف كثيراً، ولهذا لاأرى تدوينه هنا.

وعلى بعد فرسخين من أريحا، وذلك على مقربة من البحر الميت توجد بيت أوله(قصر حجله) حيث ناح بنو إسرائيل لوفاة يعقوب أباهم، وذلك بعدما جلبوا جسده من مصر، ويبعد هذا المكان فرسخاً

واحداً عن الأردن، وهناك يسكن رهبان إغريق(أرثوذكس).

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من أريحا، وفرسخ واحد عن بيعة القديس يوحنا القائمة قرب الأردن، يوجد البحر الميت، الذي يدعى أيضاً باسم بحيرة اسفلت، أي بحر الحمر، أو بحر الملح، وهو يفصل العربية عن اليهودية، ويوجد على شواطئه الشرقية بلاد مآب، وعمون، وجبل سعير، وهو مما حدثتكم عنه من قبل، وهو يمتد حتى قادش بارينا(القفار)، وبرية فاران.

وفي حوالي منتصف الطريق، على شاطئه الشرقي من الممكن رؤية الشوبك(الكرك)، التي كانت تعرف في القديم باسم البتراء في القفار، وتعرف الآن باسم الكرك، وهي قلعة فائقة الحصانة بنيت من قبل بلدوين ملك القدس، بقصد توسيع حدود مملكة القدس، لكنها مملوكة الآن من قبل السلطان، ويضع فيها جميع خزائن مصر والعربية.

وعلى مسافة سفر يومين إلى الجنوب الشرقي من الكرك توجد ايريوبولس(ربّه) التي اسمها الآن البتراء، وهي المدينة الحاضرة لجميع العربية الثانية، وذلك حسبما أوضحنا من قبل، وكانت في القديم تعرف باسم عار، وهي قائمة على جدول أرنون، على حدود المآبيين، والعمونيين، والعموريين، وعلى هذا الشاطىء نفسه، يوجد الموضع الذي اقتيد منه بلعام إلى جبل مآب ليتولى لعن بني إسرائيل.

وعلى بعد خمسة فراسخ إلى الجنوب الغربي من أريحا توجد بلدة صغور(الزويرة)، وذلك عند سفح جبل عين الجدي، ويقوم بين هذا الجبل والبحر الميت عمود الملح، الذي يحدثنا سفر التكوين بأن امرأة لوط قد تحولت إليه، ولقد حاولت مراراً رؤية هذا العمود، لكن المسلمين أخبروني بأن المكان غير آمن، بسبب الحيوانات الضارية والأفاعي، والهوام، وبشكل خاص بسبب البدو الذين يسكنون في تلك

الأجـزاء، وهـم شجعــان جـداً وذوي جـرأة عظيمــة، ورجـال أشرار، وأبقتني هذه المناقشـات متشـوقـاً للـذهاب إلى هناك، لكن علمت بعـد ذلك أن الأمر لم يكن كذلك.

وقياس عـرض البحر الميت هو ستـة فراسخ مـن الشرق إلى الغرب، أمـا طولـه من الشمال إلى الجنوب فهـو سفـر خمســة أيام، وذلك حسبما أخبرني المسلمون، وهو دائماً يصـدر الأبخرة الدخانيـة، وهو مظلم جداً مثل مـدخنة الجحيم، وقـد كتب حـول هـذا وقيل كثيراً من قبل مختلف الناس، وقد تعـرفت على كثير مما هو متداول، ومع هذا عليك أن تعلم بأنني لن أخـاف إخبـاركم بالذي رأيتـه بأم عيني، ومعي آخـرون كثـر، والذي وضح لي أن جميع الوادي، الذي كـان يـدعى بحق باسم الوادي المشرق، وذلك من نهاية هذا البحـر التي هي برية فاران حتى إلى سفـر نصف يوم، أو مـا يقـارب ذلـك، وراء أريحا، قـد صـار قـاحـلاً بسبب الأبخـرة الدخانيـة لهذا البحـر، وهكذا هو لاتنمـو فيه لاالنبـاتات ولا الأعشـاب من أي نوع من الأنواع، في جميـع عـرضـه، الذي هو خمسـة فـراسخ وفي بعض الأمـاكن ستة فـراسخ، وذلك باستثناء مـدينة أريحا، حيث يوجــد قصـب السكر، والبســاتين والحدائق المروية مـن قبل نبع إيليا، وهذا في الحقيقـة قضاء مرعب من قبـل الرب، الذي عاقب هكذا منذ قرون كثيرة ذنوب السدوميين، ذلك أنه حتى الأرض نفسها دفعت ومازالت تدفع العقوبة منذ عدد كبير من آلاف السنين.

وفوق البحر، على جهة اليمين، وكـذلك على جهة اليسار هناك جبال جرداء، وقـاحلة مشعثة، وهي مسكونة فقط من البرابـرة، وذلك امتداداً لأميــال كثيرة، وذلك بعيداً حتى أقصى مكان يمكن أن تصله الأبخـرة الدخانية عندما تساق من قبل الريح.

وأعلن بعضهم أن نهر الأردن لايمـزج مياهـه بمياه ذلك البحـر، بل تتولى الأرض ابتـلاع مياه هذا النهـر قبل أن يصل إلى مياه البحـر، لكن

المسلمين أخبروني أن الحقيقة هي أن كلاهما يدخلان البحر، ويتركانه كذلك، لكن بعد مغادرتها له بوقت قصير يبتلعان من قبل الأرض.

ويفيض هذا البحر في بعض الأوقات، ومرد ذلك إلى ذوبان الثلوج من على جبل لبنان والجبال الأخرى، وفيضان اليرموك، وجداول كل من:يبوق، وحرمون(اقرأ:أرنون) وزارد(العدد:٢١/ ١٢)، وكذلك مياه الأمطار المتساقطة على الجليل، وعلى جبل جلعاد، وفي بلاد مآب، وعمون، وسعير، فالمياه تتجمع من هذه الأماكن كلها وترفد نهر الأردن، الذي يصب في هذا البحر، فضلاً عن هذا يتم العثور على الحُمر فيه، ويستخرج من داخله، ويتجمع هذا الحُمر عندما تحرك الرياح مياه البحر، ويتعلق ببعضه، ومن ثم يقذف إلى الشواطىء بكميات كبيرة، وهذا الحمر قوي، ودوائي، ولايمكن إذابته إلاّ بدماء الطمث، ويطلق اسم الحمر اليهودي عليه، ولهذا دعيت البحيرة باسم بحيرة اليهودية، أو بحيرة اسفلت، أي أن تقول بحيرة الحمر، وقد أخبرنا سفر التكوين:١٤، أنه كان هناك كثيراً من«آبار حُمر» أو الحفر الطينية، في وادي سدوم،الذي هو الآن بحر الملح، ويوجد الآن كثير منها على شاطئه، ويوجد هناك دوماً أهرام مبني قرب كل بئر، وهذه الأمور رأيتها بنفسي، وليكن ما قلته عن هذا البحر فيه كفاية.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من موقع الجلجال المتقدم الذكر، والمسافة نفسها من نبع إيليا، نحو الشمال، في الجبال، وذلك على الجانب الشمالي من جبل القرنطل، تقوم مدينة عاي، التي استولى عليها يوشع عنوة، وقتل ملكها، وذلك حسبما أُخبرنافي سفر يشوع(٨).

وعلى بعد فرسخ واحد إلى الشمال، إنما قليلاً إلى الغرب من عاي،توجد مدينة بيت إيل(بيتين)، التي حملت فيما مضى اسم لوز، وذلك في ديار سبط بنيامين، وقد حدث هناك أنه عندما كان يعقوب ذاهباً باتجاه الشرق، وهارباً من أمام وجه أخيه عيسو، أن نام متخذاً

صخرة وسـادة له، ورأى سلماً مقاماً فوق وجـه الأرض، وذروته ممتدة حتى السماء وواصلة إليهـا، وهكذا إلى آخـر مـا رآه، حسبما نقـرأ في سفـرالتكوين، وقـد نصب هناك صخرة، لتكون بمثـابة عمـود، وأطلق على المكان اسم بيت إيل، هذا وإن الذين يقولون بأن هذا قـد حدث في القـدس مخطئون، لأن مليكصادق كـان آنذاك يحكم في القدس، وكـانت وقتذاك مدينة جليلة، وكذلك لم يكن من الضروري بالنسبة ليعقوب أن ينام هناك في الحقل، ولا أن ينـام مطلقـاً على جبل مـوريا، الذي كـان آنذاك — كما هـو الآن — متصـلاً بالمدينـة، زيادة على مـا تقـدم إن البراهين على هذا الأمر مـرئية في بيت إيل في هذا اليـوم:فهناك الصخرة المقـامـة بمثـابـة عمـود، وقبر كـل من دبورة ومـرضعـة رفقـة[التكوين:٣٥/٨] وذلك تحت المدينـة في الوادي، ومع هذا يقـول بعضهـم:لقد أطلق على القدس اسم بيـت إيل، ويستندون بحماقة على ما جاء في هذين البيتين:

«سوليما، وبيت إيل، وأورشليم، ويبوس، وإيلياء،

بهذه الأسماء دعيت مدينة القدس المقدسة، وباسم سالم أيضاً».

ولسوف أكـون مسروراً أن أتعلم من هؤلاء الناس، في أية أماكن من العهدين القـديم والجديد، قد وجـدوا برهاناً على أن القـدس قد دعيت باسم لوز، أو بيت إيـل، اللهم مـالم يكونوا قـد قصـدوا تسميـة الهيكل ببيت إيل، أي بيت الرب، وزيادة على ما تقدم إننا عندما نقرأ ما جاء في سفـر التكوين:١٣/ ٣ قوله:«وسـار إبراهيم في رحـلاته من الجنوب إلى بيت إيل»، نجد أن جيروم الذي شاهـد المكان، قدم الشرح التالي:«بيت إيل مـدينة تبعـد إثني عشر ميـلاً عن القـدس، وواقعـة في ديار سبط بنيـامين، على يدك اليمين وأنت ذاهب إلى نابلس»، ونابلس هي شكيم، قـرب لـوز، الواقعـة في ديار سبط إفـرايم، وتمر الحدود فيما بين سبطي بنيامين وإفرايم من خلال الوسط هناك.

وعلى بعد فـرسخ واحد إلى الشمال من بيت إيل، باتجاه رامـه، توجد نخلة دبورة، زوجـة لفـدوت Lapidoth ، التي كـانت قـاضيـــة إسرائيل، وأرسلت باراق للقتال ضد سيسرا على جبل الطور.

وعلى بعد فرسخين من بيت إيل، وفـرسخ واحد من القدس، وليس بعيـداً عن رامة بنيـامين، توجـد عناتا Anathoth ، وهي قرية كهنة صغيرة، وكانت مسقط رأس النبي إرميا.

وإلى الشرق والجنوب من عناتـا تبـدأ القفـــار القـائمــة بين القـدس وأريحا، والتي يطلق الآن عليهـا اسم قفار القـرنطل، وتمتد إلى مـا وراء الجلجال حتى القفار الموجودة مقابل تقوع وعين الجدي.

وعلى مقـربة من البحر الميت، على شـاطئه الغـربي، وعلى بعد فـرسخ واحد عن الزويرة Zoar ، تصعد إلى جبل عين الجدي، إلى حيث تخبأ داوود، عندمــا بحث شـاؤول عنه ليقتله، وذلك حسبما قــرأنا عن ذلك.

وكـان على هذا الجبل ومن حولـه حديقـة بلسم، لكن في أيام هيرود الكبير، قامـت كليوباترا ملكة مصر، كـراهية منهـا لهيرود ،وإيثاراً لمارك أنتـوني، فنقلت هذه البستـان إلى بـابليـون في مصر، ولقـد رأيتهـا هناك عندمـا أتيت إلى مصر إلى السلطان، الذي أخذني إلى هناك، وقـد جلبت معي كثيراً مـن خشب البلسـم، واغتسلت بميــــاه البئر الـذي يسقي الحديقـة، وقد أخبرني الحدائقي أن الثيران لا تقـوم بنضح الماء من ذلك البئر، من ظهيرة السبت حتى الاثنين، ولو قطعت تقطيعاً.

وطول هذه الحديقة رميتي سهم، ورمية حجر أو أكثر عرضاً، وتفلح حـديقـة البلسم في مصر من قبل حـدائقيين مسيحيين فقط، وتسقى من البئر الذي هو هناك، وهو الذي يقال بأن العـذراء مريم غالباً مـا قامت بتغطيس الطفل يسوعاً فيه.

ومع هذا ما يزال هناك حتى هذا اليوم فوق عين الجدي بعض الكروم الرائعة الصالحة لإنتاج النبيذ، لكن المسلمين لا يدعونهم، ولا يوجد هناك مسيحيين ليتولوا رعايتهم.

وتحت عين الجدي، وعلى جانب البحر الميت هناك أشجار فائقة الجمال، لكن ثمارها عندما تقطف تكتشف بأنها كلها رماد ومجرد غبار في داخلها.

وجبال عين الجدي مرتفعة جداً، وذات شكل غريب ولها شعاب صعبة وعرة، ووديان، بشكل أنا لم أشاهد نظيراً له، وهي تبعث الرعب إلى الذي ينظر إليها ويتأملها.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الغرب من أريحا، وذلك على الطريق إلى القدس، إلى اليسارمن القرنطل تقوم قلعة أدوميم Adummim [عند طلعة الدم]، وذلك في المكان الذي وقع فيه الرجل بأيدي اللصوص عندما كان نازلاً من القدس إلى أريحا، وقد حدث مثل هذا مراراً فوق البقعة نفسها في الأيام الحالية، وقد نال المكان اسمه من الدم الذي سفك مراراً هناك، وفي الحقيقة إنه لأمر مرعب أن يكون الإنسان هناك، وخطر جداً ، مالم يرتحل الإنسان ويسافر برفقة حراسة.

وعلى بعد فرسخين إلى الغرب من أدوميم توجد بحوريم Bo-hurim في ديار سبط بنيامين، وكانت هذه مدينة شمعي بن جيرا، الذي شتم داوود عندما هرب من أمام أبشالوم، وذلك حسبما قرأنا في سفر صموئيل الثاني: ١٦/ ٥، وهي قلعة جميلة، وقائمة فوق هضبة عالية.

وفي الوادي تحت، يوجد على الجهة الشرقية من الطريق السلطاني العام، الذي يخرج من أدوميم، صخرة بيئون Beon (بوحان Bo-han)(دبوس العبد، حجر لتحديد المسافات من العصر

الروماني)العائد لأبناء سبط رأوبين، وهي كبيرة مثل قِدْر، ويبدو أنها من الرخام.

وعلى بعد رميتي سهم إلى الغرب من بحوريم، تقوم بيت عنيا، على منحدر رابية هناك، وببيت عنيا هي قرية:مرثا، ومريم، وقبل بابها، وعلى بعد أقل من رمية حجر، وعلى مقربة من بركة هناك في حقل، من الممكن مشاهدة المكان الذي جاءت إليه مرثا أولاً، ثم تبعتها إليه مريم- بناء على دعوتها- وذلك للقاء الرب عندما جاء الى بيت عنيا.

وما برحوا يرون في بيت عنيا، بيت سمعان المجذوم- الذي جلس فيه معه الى المائدة، ومثل ذلك بيت مرثا،الذي كان فيه ضيفاً مراراً،وقد عمل هذا البيت الآن وصار كنيسة مكرسة لهما،ويشاهد هناك أيضاً قبر العازر،الذي قام منه، وهو ليس بعيداً عن الكنيسة،وقد بني في هذا المكان بيعة بهية وجميلة من الرخام، وآبدة ضريح مغطاة بالرخام، كنت قد نزلت إليها، ويبجل المسلمون هذا الضريح كثيراً، بسبب معجزة القيام من الموت التي صنعها الرب هناك.

ولدى مغادرتك لبيت عنيا، لايمكنك رؤية القدس أولاً، بسبب وجود جبل الزيتون، الذي يقف بينهما،والذي عليك هو الارتقاء الى مكان مرتفع، وعندها يمكنك رؤية جزء من المدينة المحبوبة وجبل صهيون، يا إلهي، كم من الدموع التقية سكبت في هذا المكان من قبل الذين قدموا إليه، ثم تملكوا بهجة الدنيا كلها، حيث رأوا مدينة الملك العظيم،وكم هو ممتع أن ترى مكان مجدك، أيها اليسوع المبارك،وكذلك عندما نرى مكان خجلك واضطرابك بمثل هذا السرور! لكن دعونا الآن نضع هذه الأمور كلها جانباً، ونمضي بقدر ما نستطيع من سرعة الى القدس .

وعندما ننزل الآن من الجبل، ستكون المدينة ثانية محجوبة عن

أنظارنا،فضلاً عن هذا، هناك على الجهة الشرقية من جبل الزيتون، قرب بيت فاجي، قرية صغيرة جداً، نمر من قربها من على مسافة رمية حجر، وذلك على جهـــة اليســـار في الـوادي، وذلك عنـد سفح جبـل العـدوان[الجزء الجنوبي من جبل الزيتـون]،ونأخـذ الطريق الذي يسـاير الجهة الجنوبيـة من جبل الزيتون، ونستـدير حوله،فنصل الآن الى المكان الذي ركب فيه ربنا ظهر أتان،وعلى الفور تشرق أمامنا وتشع المدينة،مع الهيكل، وكنيسـة الضريح المقدس،والأمـاكن المقـدسةالأخـرى، ونكون الآن قـد وصلنا الى نهاية الانحـدار من جبل الزيتـون، حيث رأى الرب المدينة، وبكى بحرقـة عليها،في حين مضت الحشـود وسارت من أمـامه ومن خلفــه، وهي تصرخ«المجـد لابـن داوود»، وهي أيضـاً مبتهجــة لقـدومه المبـارك، ودعـونا نتـابع سيرنا، ونمـر عبر جدول قـدرون، بين مكان صـــلاته عندمـــا كـــان يعـــاني من آلامــــه ومن أسره في جيسماني،ولنتبعـه،إذا صـدف وتمكنا من معـــاناة الوصـول إلى الجلجلة، حيث سمـرت قـدمـاه على الصليب، وكـــان الدم يسيل منهما،فـدعـونا نموت هناك مع المسيح، حتى يمكن أن نبعث معه ثانية.

القدس

٨ — والآن، القدس، المدينة الأسمى لدى الـرب، حيث هناك أشياء رائعة جـداً، قد جرى الحديث حـولها، وما يجري يومياً، وهي متـوضعة على أرض جبلية، فالجبال قـائمة من حولها، ومع هذا تمتلك بلاداً جيدة وخصبة في أحوازها، وذلك مـا عدا في الشرق باتجاه الأردن، وهي تبعد ستة وثلاثين فـرسخاً عن عكا، القـائمة إلى الشمال، وستة عشر فـرسخاً عن سبسطية أو السـامرة، وثلاثة عشر عن شكيم، وسبعـة وثلاثين عن الناصرة، وجميع هذه الأمـاكن واقعـة إلى الشمال منهـا، وهي تبعـد ثلاثة عشر فرسخاً عن يافـا، القائمة قليلاً إلى الشمال الغـربي منها، وهي أيضاً تبعد ستـة فراسخ عن أريحا، القـائمة إلى الشرق منهـا، وكذلك هي على

فـرسخين عن بيت لحم، وثمانيـة عن تقـوع، وثمانيـة عن حبرون، وهذه الأماكن واقعة إلى الجنوب منها.

وهي قـائمة على شكل مـزدوج على منحدر رابيـة، أي أن تقول على طرفيها الجنوبي والغربي، ففي الاتجاه الجنوبي هي قائمة على امتداد طرف جبل صهيون، أو بالحري جزء منها هـو على جبل صهيون نفسه، وجزء على سفوحه هناك، ويمتد طولها من جبل صهيون باتجاه الشمال، ويوجد على جانبهـا الغربي جبل جيحون، ومنه تمتد عـرضياً باتجاه الشرق، حتى تصل إلى جدول قدرون، أو وادي شعفاط، الذي هو الشيء نفسه.

وهي مدينة واسعة إلى حد ما، وذلك حسبما سأحدثكم فيمايلي، وهي لاتقــوم —كما يحاول عبثاً بعضهم أن يقــول — في مكان مختلف عما كانت عليه في أيام آلام الرب، وهم يحاججون قائلين بما أن معاناة الرب كانت خارج الباب، والمكان الآن هو في داخل أسوار المدينة، وبناء عليه لابد أن المدينة كانت قائمة في مكان مختلف، غير أنهم لايعرفون ما الذي يقولونه، ويريدون أن يظهر ما لم يرونه، فـالمدينة قائمة الآن حيث قامت دومـاً، لأنه بما أن هيكل الرب قـائـم داخل أسـوار المدينة، سيكون من الحماقـة، لابل من غير الممكن مطلقاً نقلـه إلى مكان آخر بسبب أسـواره المحيطة به من كل جانب، فضلاً عن هذا من غير الممكن كونه في مكان مناسب آخـر، لكن الحقيقة المقررة هي إن المدينة تـوسعت نحو الخارج، وذلك بالعرض وليس بالطول، وجميع المدينة القـديمة مع جبل صهيون مـوجـودان الآن داخل الأسـوار، ومسكونان، لكن في هذه الأيام عـدد السكان قليل بـالنسبـة لمدينة مـن هذا الحجم الكبير، لأن السكان فيهــا يعيشـون في رعب متــواصل، ولقـد قمت، بقـدر مــا أستطيع بالبحث والتقصي عن وضعها القديم.

ففي الزمن القـديم، مثلما الحال في هذه الأيام، يشرف جبل صهيـون جـزئيـاً فـوق المدينة، لأنه مكان رحب، من الممكن في داخله استيعـاب

مدينة واسعة إلى حد ما، وهذا الجبل موجود عند باب الماء، أو باب نبع سلوان، على الطرف الشرقي، وهويشكل نصف دائرة حولها بوساطة الطريق الممتد من الجنوب إلى الطرف الغربي، حيث كان برج داوود موجوداً، وكان موجوداً خلال جميع هذه الدائرة صخوراً منحدرة، وقناطر تشبه القناطر نصف الدائرية والمسماة ميلو Mello ، ولكي يتم ملء ما كان بين جبل صهيون والجزء المنخفض من المدينة نقرأ بأن ملوك اليهودية بذلوا جهوداً كبيرة، ويقوم برج داوود على الطرف الغربي، وذلك فوق رابية مرتفعة بعض الشيء أكثر من سور الصخرة المنحدر، أما بشأن مجرى السيل الذي يأتي من الجانب الجنوبي لجبل صهيون، ويتدفق جارياً نحو الطرف الغربي، فإنه ينعطف مباشرة، ويستدير من الغرب إلى الشرق مباشرة، فور وصوله إلى البرج وتطويقه له، وعلى هذا يقوم البرج فوق صخرة موجودة عند منعطف مجرى السيل، وانقسم الوادي، أو مجرى السيل، الذي التف دائرياً هناك، إلى واديين عميقين، يمضي أولهما باتجاه الشمال، ويمضي الآخر باتجاه الشرق، ويصنع هذان الواديان قرنة أخرى في مقابل القرنة حيث يقوم برج داوود، وهي التي كانت قرنة المدينة التحتا، حسبما سنوضح فيمايلي:

ويمر هذا الوادي الذي يقبل منحدراً من برج داوود، ويسير على طول الطرف الشمالي لجبل صهيون حتى جبل موريا، حيث كان الهيكل، فاصلاً بذلك جبل موريا والمدينة التحتا كلها عن جبل صهيون، ويمضي مجرى السيل هذا أبعد بعد ليصل حتى جدول قدرون، وذلك من خلال المكان الذي يقوم فيه باب الماء الآن، فيما بين جبل صهيون وقصر سليمان، الذي كان قد بني على الطرف الجنوبي من جبل موريا، وعلى هذا كان مجرى السيل هذا يطوق في العصور القديمة جبل صهيون من كل جانب، وهذه كانت مدينة داوود، وفي هذه الأيام جميع مجرى السيل ممتلىء، ومع ذلك فإن آثاره يمكن تحديدها وفق هذه الطريقة.

ويجري مجرى السيل الثـاني، أو الذي انفصل عنه، عند برج داوود، حسبما قيل من قبل، يجري باتجاه الشمال، ويشكل خندق المدينة على الجهة الغربية، وذلك على طول امتداد المدينة، حتى نهايتها الشمالية، وكان الطريق كله على طولها معاقاً من الجانب الداخلي بوساطة صخرة اسمها عند يوسفيوس أكرا Acra ، وعلى هذه الصخرة جرى بناء سور المدينة، ويحيط هذا السور بالمدينة من الغرب، حتى باب إفرايم، حيث ينعطف ويلتف ثانية إلى الشرق، وذلك حتى باب الزاوية، وهو الذي كان قائماً عند زاوية المدينة، وهي الزاوية الشمالية الشرقية، وينعطف السور هنا ثانية من الشمال مستديراً شرقاً إلى الجنوب، ويجتاز خارج منطقة الهيكل، ويحيط بها وببيت الملك، وبباب النبع أو الماء قرب جبل صهيون في الشرق، وهذا هو إطار المدينة، وبما أن الصخرة المتقدمة الذكر، أي التي بني عليها سور المدينة الغربي، كانت عالية جداً، وخاصة عند الزاوية التي يلتقي فيها الجزء الغربي من السور بالجزء الشمالي، فقد غدا هذا المكان أعلى بكثير من البقية، وهنا جرى بناء برج[قلعة جالوت — أو قلعة البيازنة] دعي باسم نبولوسا -Neb ulosa وذلك مع قلعة حصينة جداً، ماتزال خرائبها موجودة هناك، ومنها يمكن للانسان مشاهدة العربية، والبحر الميت، وأماكن أخرى كثيرة، ومع هذا قد يقول بعضهم بأن برج نبولوسا كان قرب الهيكل، بيد أن هذا أمر ينفيه شكل الأرض والسفوح والمنحدرات الموجودة هناك، ومن هذه الصخرة العالية جداً والقائمة في الجهة الغربية، حسبما قلنا من قبل، يأخذ عرض المدينة بالانحدار تدريجيا نحو السور الشرقي، القائم فوق جدول قدرون (وادي جهنم)، وكان هذا المكان، وكذلك هو الآن، الجزء الأعظم انخفاضاً في المدينة، ولهذا من المعتاد أن تجري فضلات المدينة وتعبر باب الروث لتصب في بركة قدرون.

وعبر مجرى السيل، أ و الوادي، المتقدم الذكر على الجهة الغربية من

المدينة، وذلك على جهة يسارك وأنت خارج من الباب القديم أو باب القضاء، هناك جرى صلب الرب، وبعد آلامه بوقت طويل امتلأ مجرى السيل، وأقيم سور جديد حول برج داود، ويمتد إلى باب إفرايم، الذي يعرف الآن باسم باب اسطفان.

وعلى هذا يمكنك أن ترى أن المدينة معلقة ناتئة على جهة الجنوب بوساطة جبل صهيون وعلى جهة الغرب بوساطة تلك الصخرة، وجزء من جبل جيحون، الذي ينبعث مرتفعاً ارتفاعاً عالياً على طول الجهة الغربية، وعلى هذا فإن المدينة كلها قائمة— كما كانت— على السفوح نحو الاتجاه الشرقي والاتجاه الشمالي، عند أسفل هذين الجبلين.

وكان جبل موريا— حيث قام هيكل الرب، وحيث كان قصر الملك قد بني— أعلى بعض الشيء من المدينة، وهذا ما هو مرئي بوضوح من وضع الهيكل وساحاته، وذلك حسبما وصفهم يوسفيوس، فكل منهم موصوف في تواريخه، غير أنه من المعتقد أن جميع هذه الأماكن هي الآن مسواة تماماً ومهدمة، وهي جميعاً تقريباً أكثر انخفاضاً من أي جزء من المدينة، لأن الجبل قد هدم من قبل الرومان ورمي في جدول قدرون [وادي جهنم] وذلك مع جميع خرائب الهيكل وساحاته، وذلك حسبما هو مرئي في هذا اليوم، ومنطقة الهيكل مربعة، وهي أكثر من رمية سهم طولاً وعرضاً، ويلامس الهيكل المبني الآن هناك سور المدينة تقريباً، وهو ليس الهيكل الحقيقي والقديم، لأنه وجدت أربعة هياكل بينه وبين السور، وهو الآن لايبعد تقريباً أكثر من مائة قدم عن السور وعن جدول قدرون.

وليس بعيداً، كأن تقول، أقل من رمية حجر إلى الشمال من منطقة الهيكل، يوجد باب الوادي الذي دعي هكذا لأن الانسان يذهب منه وينزل إلى وادي شعفاط، وقد عرف هذا الباب أيضاً باسم باب الضأن، لأن من خلاله كان يؤتى بالمواشي للتضحية في الهيكل، وإلى جانبه يقوم

برج اعتقد بعضهم بأنه برج نبولوسا، أو برج حنانئيل Hananeel، غير أنه في الحقيقة هو برج فاسليوس Phaselus، الذي من الممكن مشاهدة خرائبه حتى الآن.

وبالدخول من باب الوادي أو باب الضأن، ومن ثم السير بشكل مستقيم، سيجد الانسان على مقربة من منطقة الهيكل بركة الضأن حيث اعتاد الـ Nethinims على غسل قرابينهم ومن ثم اعطاءهم إلى الكهنة لتقديمهم في الهيكل، ومن الممكن رؤية استمرار هذا من خلال وجود القناطر الخمسة التي — حسبما حدثنا القديس يوحنا— اعتاد الناس المرضى على الرقود تحتها، انتظاراً لاضطراب الماء وتحركه.

وعلى الجهة اليمنى للطريق، ولدى دخولك عبر الباب المتقدم الذكر إلى كنيسة القديسة حنة، ترى هناك بركة أخرى كبيرة تدعى «البركة الداخلية»، وقد صنع هذه حزقيا وفق الطريقة التالية: أوقف المجرى العالي لوادي جيحون، وساق مياهه تحت الأرض إلى غربي برج داود، وذلك من خلال الوادي المتقدم الذكر، بحفره الصخر الصلب بالحديد، وذلك حسبما نقرأ في الإلهيات، وساق الماء من خلال وسط المدينة إلى هذه البركة، وكانت الغاية من ذلك أن يتوفر الماء لشرب الناس في أيام الحصار، ولكي لايتمكن الآشوريون من اعاقتهم [إشعيا:٧/ ٣، ٢٦/ ٢. الملوك الثاني: ١٨/ ١٧]، أما بالنسبة لنبع ماء جيحون، القائم قرب حقل القصار، فقد ساق مياهه إلى البركة العليا، الموجودة فوق بركة سلوان [إشعيا: ٧/ ٣]، ذلك أن هذه البركة عرفت باسم البركة العليا، بالنسبة لموضع بركة سلوان للاغتسال، التي كانت تتلقى الماء من هذه البركة، ومن نبع سلوان، ذلك أنها منخفضة بوضعها أكثر منها.

واعرف الآن هذه البرك المختلفة وأسمائها، وكانت البركة الرئيسية التي هي البركة الأولى في القدس، بركة الضأن، وكان لها خمس قناطر، وقد عمل سليمان هذه البركة، من أجل خدمة الهيكل ، وكانت البركة

الثانية على مقربة منها، في الجهة الشمالية، في كنيسة القديسة هيلانة، وقد دعيت باسم البركة الداخلية، والذي صنعها هو حزقيا، وقد تقدم وصفها الآن من قبل، والبركة الثالثة هي بركة سلوان للاغتسال، التي كانت قائمة عند سفح جبل الزيتون مع جبل صهيون، قرب حق الدم، وهي تحصل على مياهها من نبع سلوان، وحزقيا هو الذي صنع هذه البركة أيضاً، والبركة الرابعة هي البركة العليا، التي ذكرناها قبل قليل، والتي صنعها حزقيا أيضاً، وإذا ما وجدت في أي مكان قد ذكر بأن هذه البركة الرابعة قد كانت في داخل المدينة فإن ذلك غير صحيح، لأن ذلك كله غير ممكن، وأعرف أن الانسان يقرأ في شرح وفي نص: «فتستقون مياها بفرح من ينابيع الخلاص» [اشعيا: ١٢]، بأن البركة العليا كانت في المدينة، وأن مياهها كانت تأتي إليها من نبع سلوان، لكن هذا من غير الممكن مطلقاً، لأن المدينة أعلى بأكثر من أربعمائة ذراع من نبع سلوان، ولايمكن للماء أن يجري نحو مثل هذا العلو العظيم، ومع هذا صحيح أن مياهها تحصل عليها من نبع سلوان، ومن نبع جيحون المنخفض، ليس بعيداً عن بركة سلوان للاغتسال، هذا ولم أر بركاً أخرى، كما أنني لم أقرأ عن وجود شيء من هذا القبيل، أو أنه وجد في القديم أية برك أخرى في القدس، ما لم يرغب انسان في عدّ «البحر النحاسي» القائم أمام الهيكل، بركة من البرك، وجرى على كل حال، في الأيام المعاصرة بناء بعض أماكن الاستحمام في داخل المدينة، وذلك ليس بعيداً عن بيت البطريرك، ومشفى القديس يوحنا، وهما لم يرد ذكرهما في الكتابات المقدسة.

ويحيط وادي شعفاط أيضاً بالمدينة، ويسير على طول الجانب الشرقي عند سفح جبل الزيتون، ومع أن هذا الوادي عميق نسبياً، هو بالفعل ممتلىء تماماً، لأن الرومان— وفق ما أخبرنا به يوسفيوس— قاموا، عندما كانوا يحاصرون المدينة من ذلك الجانب، بقطع أشجار الزيتون

والأشجار الأخرى، وصنعوا منها سواتر دفاعية لأنفسهم، وقد ملأوا الوادي بالسواتر الدفاعية، فضلاً عن هذا، بعد ما جرى الاستيلاء على المدينة،أمر إليوس هدر يانوس بجميع الخرائب العائدة لساحات الهيكل، فرميت في وادي قدرون، وأمر أيضاً بتسوية جبل موريا، حتى لايمكن تحصين المكان مرة ثانية، كما أمر أيضاً بفلاحة المدينة بالملح، وهذه الأشياء كلها بديهية بالنسبة لأي إنسان يكون في الموقع، لأن ضريح العذراء الرائعة، القائم في وادي شعفاط، ليس في قعره، لكن عند سفح جبل الزيتون، لم يكن أبداً أعلى من قعر الوادي، أو فوق وجهه، وذلك في الأيام التي كانت القدس فيها مسكونة، أي قبل التدمير، وهو الآن عميق جداً تحت الأرض، وهكذا فإن الكنيسة كلها، مع أنها كانت عالية ومقنطرة، هي الآن تحت الأرض تماماً، ومغطاة كليا، والوادي فوقها كامل الاستواء، وهكذا هناك طريق يمكن للانسان أن يمشي عليه فوق سطح الكنيسة وهناك على كل حال على وجه الأرض بناء على شكل بيعة، تدخلها، وتنزل من خلالها درجات كثيرة تحت الأرض إلى الكنيسة نفسها، وبذلك تأتي إلى ضريح العذراء الرائعة، وأعتقد أن هناك ستين درجة، والضريح قائم في وسط السدّة، أمام المذبح، وهو من الرخام ومزين بشكل رائع، ولقد دخلت إلى هذه الكنيسة، وكنت بها، ورأيت الضريح، لكن هذه الكنيسة رطبة جداً في داخلها، لأن وادي قدرون يجري تحتها، وهو مغطى بالركام الذي أشرنا إليه أعلاه، وفي أي وقت يكون هناك فيضان من مياه الأمطار، يتفجر هذا الوادي الذي مايزال يجري في القناة القديمة تحت الركام، وينبع، وبذلك يملأ الكنيسة، وهكذا تجري المياه فوق جميع الدرجات، وتتدفق من فم البيعة فوق ذروتهم، وفي أرض مقبرة الكنيسة، ليس بعيداً عن بابها، ينضح الناس من السكان المحليين الماء من بئر سماه نحميا (٢/ ١٣): «عين التنين»، وهذه العين موجودة أمام باب الوادي، أو باب الضأن، وتضاء كنيسة العذراء المباركة من الداخل بوساطة نوافذ

شرقية، تطل على جبل الزيتون، حيث من طبيعة الأرض يمكن للضوء أن يدخل من خلالهن.

وباتجاه الشرق— ليس بعيداً— أن تقول حوالي الخمسين قدماً عن باب البيعة الذي يقود إلى الكنيسة، هناك باب كنيسة أخرى، اسمها جيسماني، حيث كانت الحديقة التي دخل إليها الرب مع حوارييه، وهي قائمة على طرف الجبل، ومبنية مقابل صخرة مجوفة معلقة وناتئة من الجبل، وتحت هذه الصخرة كان الحواريون جالسين عندما قال الرب لهم: «اجلسوا ههنا حتى أمضي وأصلي هناك» [متى:٢٦/ ٣٦]، والمكان الذي جلسوا فيه مرئي في هذا اليوم، ومرئي أيضاً المكان الذي أُعتقل فيه من قبل الحشد، وحيث قام يهوذا بخيانته بوساطة قبلة، ومن الممكن رؤية طبعة جمجمته فوق الصخرة الناتئه، وعلامات رأسه وشعره، ويحكى بأنه عمل هذه العلامات، لدى امساكه بالصخرة، عندما اعتقله الحشد، واعرف أنه من غير الممكن استخراج غبار من هذه الصخرة، أو اقتطاع جزء منها، فلقد عملت طويلاً بوساطة أدوات حديدية، حتى أتمكن من اقتطاع شظية منها، ومع هذا فإن الطبعات المشار إليهن أعلاه من الممكن رؤيتهن بكل وضوح، وكأن الصخرة قد كانت عجيناً.

وعلى رمية حجر إلى الجنوب من جيسماني يوجد المكان الذي صلى فيه بعيداً عنهم، وأخذ عرقه يتصبب على الأرض مثل نقاط من دم، وهنا أيضاً توجد صخرة من النوع نفسه عليها أيضاً طبعات لركبتيه ويديه.

وبين هذا المكان وبين جيسماني، وفي مقابل كنيسة العذراء المباركة، يمر الطريق الذي يقود إلى جبل الزيتون، وبيت عنيا، والأردن.

وعلى أكثر من رمية حجر نحو جنوب المكان الذي صلى الرب فيه، في مقابل الهيكل، وعند سفح جبل الزيتون، في وادي شعفاط، يقوم قبر

ذلك الملك، الذي يمتلك آبدة فائقة الجمال قد بنيت فوقه.

وعند سفح جبل صهيــون، وفي مقــابـل قصر سليمان، وذلك على الجانب الغربي من وادي شعفـاط، يوجد نبع سلوان ، الذي تتـدفق منه الميـاه من خـلال أنابيب إلى البركـة العليـا، وإلى بركـة استحمام سلوان، ويكون هذا عندما يفيض النبع بالمياه، لأنه لايتدفق بشكل متواصل، بل بين آونة وأخرى.

وكل من هاتين البركتين مـوجـودتين عنـد سفح جبل صهيـون، بينه وبين حق الدم، وتصب المياه كذلك في هاتين البركتين من نبع جيحـون المنخفض (بركـة السلطان)، الـذي ينبع تحت حقل القصـار، وذلك على مقربة من المكان الذي وقف فيه ربشكا Rabshakeh، وجدف ضد الرب.

وعلى مقربة من هاتين البركتين، أي على مسافة لاتتجاوز رمية حجر، على طول الـوادي إلى الجنوب، يوجـــد حقـل حق الدم، وذلـك حيث يجري دفن الحجاج، وهـوالذي شري بالثلاثين قطعة فضيـة التي باع بها يهوذا الرب، ويوجـد في هذا الحقـل كثيراً من الاضرحـة ذات النفقـات العالية.

ودون البركتين وحقل حق الدم، وذلـك على الجهـة الشرقيــة منهم، يجري جدول قدرون، وذلك مع المياه التي يجلبها معه من أجزاء علوية، نذكـر منها: رامـه، وعناتا Anathoth، وضريح ملكة عبادين، ومن الممكن سماع أصـوات خـرير الميـاه الجارية عميقاً تحت كنيسـة العـذراء المباركـة، وهي تتدفق إلى هذا المكان، فضلاً عن هذا نجـد أن المياه التي تفيض من هاتين البركتين تلتحـق بها، وهكذا تتـدفق هذه الميــاه جميعـاً لتصب في وادي جيسماني، الذي عرف أيضاً بمـوضع توفت، ويوجد في هذا الوادي صخـرة زوحلت، وكـذلـك بئر روجل(عين أيوب)، حيث

أقام أدونيا حفلاً عندما حاول أن يكون ملكاً، وهناك أيضاً جرى دفن إشعيا، الذي قطع إلى نصفين قرب نبع سلوان، والموقع على بعد أكثر من رمية حجر عنه، وكل هذه الأماكن فائقة الجمال، مع حدائق ونباتات خضراء، وهي مليئة بالفواكه الجيدة، وتسقى بمياه جدول قدرون.

وفوق هذا المكان يوجد جبل العدوان، وكان في هذا الوادي حديقة، وكانوا قد اعتادوا على تعبير أولادهم هناك من خلال النار، وعبادة الأصنام.

وليكن ما قيل فيه كفاية بالنسبة لوصف الأماكن حول المدينة.

واعلم الآن أن هناك كثيراً من الأماكن المقدسة في المدينة، تحرك الانسان نحو التقوى، وهي كثيرة إلى حد أن يوماً واحداً لايكفي لزيارتها جميعاً، ومهما يكن من أمر، تحتل كنيسة الضريح المقدس المكان الأول بين جميع هذه الأماكن.

وهذه الكنيسة مستديرة، ومقاييس قطرها بين الأعمدة هو ثلاثة وسبعين قدماً، دون حساب النتوءات الخارجية، التي قياسها ثلاثين قدماً من حول سور الكنيسة، ويوجد فوق ضريح الرب، القائم في وسط الكنيسة، هناك فتحة مستديرة، وعلى هذا فإن مجمل قبو الضريح قائم في الهواء الطلق.

وإلى جوار هذه توجد كنيسة الجلجلة، وهي مستطيلة، ومتصلة بشرفة كنيسة الضريح المقدس، غير أنها منخفضة عنها بعض الشيء، لكنهما معاً قائمتان تحت سقف واحد.

وطول الكهف الذي يوجد فيه ضريح الرب ثمانية أقدام، ومثل ذلك ثمانية أقدام عرضه، وهو مغلف كلياً بالرخام في الخارج، لكنه في الداخل مجرد صخرة عارية، كما كانت أيام دفنه، والباب الذي يؤدي إلى مدخل هذا الكهف موجود من الجانب الشرقي، وهو منخفض كثيراً،

وصغير.

ويجد الانسان لدى دخوله على جهته اليمنى قبر الضريح المقدس، وذلك مقابل الجدار الشمالي، وهو من الرخام الرمادي، وعلوه ثلاثة أشبار فوق سطح الأرض المبلطة، وطوله ثمانية أقدام، ومثله مثل القبو أوالكهف نفسه القائم في داخله، مغلق من كل جانب، ولايوجد ضوء خارجي يتسرب إلى داخله، لانعدام وجود نافذة تجلب الضوء إلى الداخل، لكن هناك تسعة مصابيح معلقة فوق ضريح الرب، وهي تعطي الضوء في داخل المكان، وهناك أيضاً كهف آخر خارج هذا الكهف، له الطول نفسه والعرض والاعداد والتنظيم في كل من الخارج والداخل، ويبدو أن هذان الكهفان من الخارج كأنهما كهف واحد، لكن عندما تدخل سوف تجد أنهما منقسمان ومنفصلان في الوسط أحدهما عن الآخر، ويدخل الانسان أولاً إلى الأول، ومن ثم إلى الثاني، الذي يوجد فيه الضريح، وإلى الأول دخلت النسوة عندما قلن:«من سيدحرج هذه الصخرة لنا»الخ، وقد دحرجت هذه الصخرة نحو مواجهة الباب في الكهف الداخلي، وفي هذه الأيام قسم كبير منها ممدد أمام باب الكهف الداخلي، الذي نحوه وإلى مقابله قد دحرجت، وذلك في الوسط هناك، وقد نقل الجزء الآخر منها إلى جبل صهيون لدعم المذبح هناك، وقد رأيت هذه القطعة أيضاً هناك، في ذلك المكان.

ويبعد جبل أكرا(الجمجمة) حيث جرى صلب الرب فوقه، سبعين قدماً عن مكان الضريح، ويصعد الانسان ثمانية عشر قدماً فوق سقف الكنيسة المبلط إلى المكان الذي ثُبت فيه في الصخرة، والفتحة —أو الصدع — في هذه الصخرة نفسها التي فيها جرى تثبيت الصليب واسعة بقدر رأس إنسان، وتمتد طولياً ثمانية عشر قدماً، وذلك من مكان الصلب نزولاً حتى البلاط في الأسفل، وإلى هذا اليوم من الممكن رؤية لون دم مولانا يسوع المسيح في صدع الصخرة، وكان هذا الصدع

تحت يده اليسرى، وقد بني في هذا المكان، حيث كانت يده اليسرى ،مذبح رخامي جميل جداً، وقد رتلت هناك قداساً حول الآلام، وقرأت خبر الآلام وفقاً لرواية القديس يوحنا، في قداس جرى الاحتفال به في المكان نفسه لآلام المسيح.

وهذه البيعة مبلطة كلها بالرخام، وجدرانها مغطاة بالرخام، ومزينة بأعمال الفسيفساء من الذهب الخالص،

وعلى بعد أربعة وعشرين قدماً إلى الشرق من الجمجمة، هناك مذبح، يوجد تحته قطعة من العمود، الذي جُلد الرب عنده، وقد حملت إلى ها هنا وجلبت من بيت بيلايطس، وهي مغطاة بحجارة المذبح، إنما بطريقة يمكن بها لمسها، ورؤيتها، وتقبيلها من قبل المؤمنين، والعمود قطعة من صخرة رخامية سماقية داكنة، فيها نقاط حمراء طبيعية، يعتقد العامة أنها لطخ من دم المسيح.

ويقال بأن شطراً آخر من هذا العمود قد نقل إلى القسطنطينية.

وعلى بعد عشرة أقدام إلى الشرق من مذبح هذا العمود، ينزل الانسان أربعين درجة إلى المكان الذي وجدت فيه هيلانة الصليب.

ويوجد هنا بيعة مع مذبحين عميقاً تحت الأرض.

ويبدو لي أن المكان الذي استخرج منه الصليب قد كان واحداً من خنادق المدينة، فيه كانت ترمى الصلبان، بعد إنزال الأجساد عنها، وفيه أيضاً كانت ترمى جميع فضلات المدينة التي تراكمت فوق الصلبان، وبقي الأمر كذلك حتى جاءت هيلانة فنظفت المكان ووجدت الصليب، لأن مكان الآلام كان على مقربة من المدينة، وكانت هناك حديقة في ذلك المكان.

هذا وإن المكان الذي وقفت فيه العذراء المباركة على مقربة من

الصليب مع المرأتين الأخرتين، لم يكن ذراع الصليب في جهة الشمال، بل أمام وجه ابنها في الجهة الغربية، أو قريب من هناك، والمكان الذي وقفت فيه أمام وجه ابنها، وهو معلق فوق الصليب، مرئي عند سفح الجبل مع الصخرة التي جرى تثبيت الصليب عليها، وهو مبجل من قبل المؤمنين، وغالباً ما رأيت هذا المكان، فضلاً عن هذا، عندما كان المسيح معلقاً فوق الصليب أدار وجهه نحو الغرب،وليس نحو الشرق، كما ذهب بعضهم إلى القول، وهذا واضح لأن مجرى السيل الذي تقدم ذكره، والذي خدم بمثابة خندق للمدينة على الجهة الغربية، كان خلف الصليب، وقد ألقي الصليب فيه، وفيما بعد تم العثور عليه هناك حسبما تقدم القول.

وهناك عدد كبير من المذابح المزينة في هذه الكنيسة.

وقبل الباب الغربي لهذه الكنيسة، يوجد المكان، الذي صلت فيه مريم المصرية أمام تمثال العذراء المباركة، وذلك بعدما حاولت دخول الكنيسة، فدفعت بشكل اعجازي ولم تمكن من الدخول إليها، ثم تمت تعزيتها باستجابة العذراء المباركة لصلواتها.

وبالذهاب من هناك نحو برج داود وجبل صهيون، يوجد المكان الذي قتل فيه صبراً القديس جيمس من قبل هيرود أغريبا، وذلك حيث المكان الذي سخر فيه اليهود من المسيح، وأيضاً المكان الذي سجنوه فيه حتى الصباح، وهو المكان صار يعرف باسم سجن الرب، وعلى رمية حجر من هذا المكان يوجد الموضع الذي انتقلت إليه مريم العذراء المباركة وسكنت فيه طوال المدة التي عاشتها، بعد صعود الرب إلى السماء، وعلى مقربة من هذا المكان الذي القاعة الكبرى للعشاء، حيث تعشى الرب مع حوارييه، وغسل أقدامهم، وأعطاهم جسده ودمه، وظهر لهم مرات عديدة بعد قيامته، وحيث جرى اختيار متى رسولاً من قبل الجميع، وحيث نزل الروح القدس، وتم أيضاً صنع أشياء

رائعة كثيرة.

واعلم أن مدينة القدس قائمة فوق أرض عظيمة الارتفاع، يمكنك منها رؤية جميع العربية، وجبل عبريم، ونبو، وبسغة، وسهل الأردن، وأريحا، والبحر الميت، حتى البتراء في الفيافي، وأنا لم أشهد قط أية مدينة أو مكان، امتلك مشهداً أجمل، ويمضي الانسان صعوداً إليها من كل جهة، لأنها قائمة فوق البقعة الأعلى في البلاد، وذلك باستثناء شيلوه، الموجودة على بعد فرسخين من هناك.

وبالنسبة لحجم المدينة المقدسة، عليك أن تعرف، أن قياس محيط المدينة حوالي ثلاث وثلاثين غلوة، وذلك من دون حساب جبل صهيون، فهذ ا ما ذكره يوسفيوس، أما هي كلها مع جبل صهيون: فإن السور الخارجي— أي أن تقول السور الثالث، أيضاً تبعاً ليوسفيوس نفسه— فيه تسعين برجاً، ويقع كل برج على مسافة مائتي ذراع— أي أربعمائة قدم— مما يجعل بين كل برج وبرج مسافة ستين خطوة، وإذا ضربنا هذه الستين خطوة بالتسعين برجاً، فإن النتيجة سوف تكون خمسة آلاف وأربعمائة خطوة، وتشكل هذه إطار الدائرة حول المدينة، وإذا حسبنا الآن أن خمسمائة خطوة وخمس وعشرين خطوة تساوي غلوة، فإننا إذا قسمنا خمسة آلاف وأربعمائة على مائة وخمس وعشرين، فإن المحصلة هي أربعين غلوة، وهذه تساوي خمسة أميال، فهذا كان محيط المدينة في أيام تدميرها من قبل الرومان، حسبما أخبرنا يوسفيوس، لكن منذ ذلك الوقت قام المسيحيون بتوسعة المدينة، وأدخلوا مكان ضريح الرب إلى داخل الأسوار، وقال اللورد المبجل الأب جيمس دي فيتري، بطريرك القدس في كتابه حول الاستيلاء على الارض المقدسة، بين أشياء وقضايا أخرى: «غالباً ماذكر، وعلينا أن نذكر دوماً، أن المدينة قائمة كلها فوق جبل مرتفع، وهي محاطة من جميع الجوانب بسور قوي، وهي ليست منزعجة بضيق المساحة الشديد، ومثل هذا ليست مضطربة

بسبب وجود فائض بالحجم، فمقاسها أربع رميات سهم من السور إلى السور المقابل، وتمتلك على الجهة الغربية حصنا قد بني بالحجارة المربعة، وهذه الحجارة ملتصقة مع بعضها بعضاً بشكل غير قابل للكسر، وجاء ذلك بوساطة الملاط والرصاص، ويقوم هذا الحصن من أحد الجوانب بدور سور المدينة، وهو يعرف باسم حصن برج داوود، وهو الذي يسميه بعضهم باسم برج أنطوني، وهناك على جانبه الجنوبي جبل صهيون، وذلك حيث بنى داود لنفسه بيتاً، وحيث أيضاً جرى دفنه مع الملوك الآخرين، وهو الذي أطلق عليها اسم مدينة داوود، غير أن جبل أكرا، الذي صلب فوقه الرب، قد قام خارج أسوار المدينة، على الجانب الغربي، وتولى على كل حال إيليوس هدريانوس إعادة بناء المدينة التي هدمها تيتوس وفسبسيان، وقد وسعها كثيراً، بحيث أنها شملت موضع الصلب والضريح، وباتت هذه الأماكن داخل إطار الأسوار، ومع هذا بقي الشكل العام كما كان من قبل»، وبهذا أكون قد فرغت من اقتباس كلمات اللورد جيمس.

ودعونا الآن نتولى وصف أبوابها، ووصف الجبال المحيطة بها، مع أهم أماكنها البارزة:

وكان أول أبوابها هو باب داوود، وهو الباب الذي كان موجوداً في الجهة الغربية لجبل صهيون، وذلك حيث توجد قرنة المدينة التحتا، في مقابل برج داوود، عند المكان الذي يتشعب فيه مجريا السيل، وينفصل أحدهما عن الآخر، حيث اتجه أولهما نحو الشمال، واتجه الآخر نحو الشرق، وكان هناك بناء مقنطر قبل الباب، إنما على الجانب الأقصى من الوادي، الذي من خلاله كان الطريق يقود الى خارج المدينة، وعلى الجانب الأيمن لهذا البناء المقنطر شنق يهوذا نفسه على شجرة جميز، وكان هذا الباب يعرف باسم باب السمك، لأن من خلاله يمر الطريق من يافا واللد، وشاطىء البحر، الذي اعتادوا على جلب السمك عبره،

وعرف هذا البـاب أيضاً باسم باب التجـار، لأن من خلاله مـرّ الطريق إلى بيت لحم، وحبرون، وغزة، ومصر وإثيوبيا، كما أطلق عليه اسم باب داوود، لأن برج داوود مشرف عليه، وكذلك مدينة داوود مطلة عليه.

وكان البـاب الثاني الذي تلا في التعداد موجـوداً في الجانب نفسه من السور — أي أنه متجـه نحو الغرب — غير أنه كان على مسـافة ضئيلة إلى الشمال من الأول، وقد عـرف باسم الباب القديم،لأنه كان مـوجوداً هناك منذ أيام اليبوسيين، وكان يطلق أيضـاً عليه اسم باب القضاء،لأن أحكام القضـاء كانت تصـدر أمامـه، وبعد إصدار الأحكـام كان يجري تنفيذها خـارج هذا الباب، وخارج هذا البـاب جرى صلب الرب، لأن البـلاط، أو موضع القضـاء، في داخل سـور المدينة القديم، وفي السـور الجديد الذي أحاط بضريح الرب بالسور الجديد، واسم هذا البـاب الآن باب القـديس اسطفـان، حيث أن هناك باباً جـديـداً حل محل القـديم، وأطلق عليـه الاسـم نفسـه، وهو يقــود إلى شيلـوه وبيت حـورون، وجبعون.

ويقوم البـاب الثالث إلى الشمال من هذا، ويدعى باسـم باب إفرايم، لأن الطريق إلى جبل إفـرايم يمـر مـن خـلاله، وعند هذا البـاب يلتقي السور الجديـد الذي بنيَ للإحاطة بضريح الرب، لأنه رجم خـارج هذا الباب، وهو يقود إلى: شكيم، والسامرة، والجليل.

ويقوم الباب الرابع إلى الشرق من هذا الباب، وهو موجود عند قرنة المدينة فـوق جدول قـدرون، واسمـه باب الزاوية، ويدعى أيضـاً باسم باب بنيامين، لأن من خـلاله يمر الطريق إلى عناتـا وبيت إيل، والقفار، والمدن الأخرى القائمة في ديار(سبط) بنيامين.

وكان البـاب الخامس قائماً إلى الجنوب مـن هذا الباب، وكـان اسمه باب تلة الروث، أو بـاب الروث، وهو قـائـم فـوق جـدول قـدرون،

والطريق من خلاله يقود إلى الصحراء، ولم يكن هذا الباب كثير الاستخدام، بسبب أن الأماكن التي يقود إليها كانت غير حضارية.

ومثل هذا كان الباب السادس إلى الجنوب من هذا الباب، وكان اسمه باب الضأن، لأن الأغنام التي كانت تستخدم للأضاحي في الهيكل، كانت تساق من خلاله، وذلك بسبب وجود بركة الضأن على مقربة منه، وكان يعرف أيضاً باسم باب الوادي، بسبب أن الطريق الذي يمر من خلاله يقود إلى وادي شعفاط، وضريح العذراء المباركة قائم على بعد رمية حجر عنه، وكان يشرف عليه البرج الذي اسمه برج فاسيلوس، الذي بني من قبل الملك هيرود، وعرف أيضاً باسم باب بئر التنين، لأن في خارجه كان هناك بئر اسمه بئر التنين، ويمضي الانسان عبر هذا الطريق إلى بيت عنيا، وإلى جبل الزيتون، وإلى الأردن.

والباب السابع قائم أيضاً إلى الجنوب من هذا الباب، ويعرف أيضاً باسم الباب الذهبي، وهو قائم فوق جدول قدرون، غير أنه كان موجوداً في ساحة الهيكل، لكن انتبه أن هذا لم يكن باباً للمدينة، بل باباً للهيكل، وعلى كل حال يمر من خلاله طريق يقود بانقطاع قصير من جبل الزيتون على الطرف الأقصى لوادي شعفاط، يمر من خلال قنطرة، وفي داخله كان باب الهيكل الذي عرف باسم الباب الجميل، ومن هذا الباب هناك طريق يقود إلى بيت عنيا، وأريحا والأردن.

وكان الباب الثامن إلى الجنوب من هذا الباب الذي قام فوقه، وهو كان قائماً في الوادي فوق جدول قدرون، فيما بين جبل صهيون، وجبل الهيكل، وكان اسمه باب نبع سلوان، أو باب الماء، لأنه كان يقود إلى نبع وبركة سلوان للاستحمام، ووادي جهنم، وحق الدم، وحديقة الملك، وعلي أن أميل إلى الاعتقاد أن هذا كان باب الروث، وليس الباب المتقدم ذكره، وذلك بسبب وضعه، كما أنني لاأعتقد أنه وجد المزيد من الأبواب في القدس، لأنه من خلال وضع المدينة، لم تكن

هناك حاجة إلى المزيد منهم حول جبل صهيون كله، وإذا كان قد توفرت الحاجة إلى باب، لم يكن من الممكن امتلاك باب هناك،لأن شكل الأرض التي هي شديدة الميلان من كل جانب، تحول دون ذلك.

وكانت الجبال من حول القدس كمايلي:

كان هناك إلى الشرق من المدينة جبل الزيتون، المشرف عليها، ذلك أنه أكبر وأعلى من الجبال الأخرى، الموجودة من حولها، وقد بنيت على قمته كنيسة، فوق المكان الذي صعد منه الرب إلى السماء، وهذا المكان في وسط الكنيسة، وفوقه توجد فتحة، حيث يبقى الفراغ الهوائي الذي من خلاله صعد مفتوحاً أيضاً، وصحيح أن الصخرة التي وقف عليها أثناء صعوده، والتي تحتوي على طبعات قدميه، قد وضعت هناك للذكرى، أيضاً إن هذه الصخرة قد وضعت بقصد إغلاق الباب الشرقي، لكن من دون ملاط، لذلك يمكن للانسان أن يضع يده بسهولة، ويلمس طبعات القدمين، غير أنه يستطيع رؤيتهم، ويوجد على الجهة الجنوبية بيعة متصلة بهذه الكنيسة، حيث دفنت في داخل كهف هناك بيليجيا، التي كانت محظية معروفة، عليها أضفى الرب مراراً نعمة المغفرة، وجعلها مثلاً للمذنبات، ولقد قيل بأن ما من إنسان يعيش مع ذنب عظيم يمكنه أن يمر فيها بين ضريحها وبين السور بجانبها، لكنني لاأعرف مدى صحة هذا، فلقد رأيت كثيرين يمرون من هناك.

ويوجد على هذا الجبل نفسه، على أقل من رمية حجر نحو الجنوب، كنيسة أخرى، اسمها بيت الخبز، فهناك علّم الرب حوارييه الصلاة، وكتب صلاة الرب على صخرة هناك.

وجبل العدوان مجاور لجبل الزيتون في الجنوب، وهو مرتفع إلى حد ما، والجبلان منفصلان عن بعضهما بوساطة واد قائم بينهما، وأطلق عليه اسم جبل العدوان بسبب أن سليمان أنشأ هناك هيكلاً لمردوخ

Moloch في مواجهة الهيكل، وبذلك أثار غضب الرب.

وعند سفحه في الجهة الجنوبيــة، يوجد موضع توفت، أو جهنم Ge-hinnon وإلى الجنوب الشرقي من المدينة يقــوم حقل حق الدم، مع جبل مـرتفع جداً فـوقـه، يدعى بالاسم نفســه، وهو يغطي تقريباً جميع الطريق الممتد في مقابل الجانب الجنوبي من المدينة.

وحقل القصار متصل بهذا الحقل من الجهة الغرية، ويوجد فوقه جبل يساوي بالارتفاع الجبل المتقدم الذكر.

ويوجـد على الجهـة الغـربيـة من المدينـة جبل جيحـون، وهو متصل بحقل القصار، هذا ويمـر بينهما الطريق القادم من باب داوود، ويشرف جبل جيحون هذا على الطـرف الغربي من المدينة، لكن ارتفاعـه يتناقص بالتدريج، حتى يصبح في مقابل الباب القديم ليس كبير الارتفاع.

وعلى كل حال، الأرض باتجاه الغرب والشمال هضبية، وذلك امتداداً حتى ضريح هيـلانة، القائم في مـواجهة باب بنيـامين، الذي يتجه نحـو جدول قدرون ويشرف عليه.

وعبر جدول قدرون، في الجهـة الشمالية من جبل الزيتون، هناك جبل آخر، هو أيضــاً مرتفع جداً مثله مثل جبل الزيتـون، وهو على بعد أربع غلوات عـن القـــدس، وهناك بنى سليمان هيكـلاً لشمش، وهـو وثن المآبيين، وقـد بني عليـه في أيام المكابيين والـرومـان قلعـة، انزعج منهـا سكان القدس وغضبوا كثيراً، وماتزال آثارها هناك حتى هذا اليوم.

وهذه الجبـال جميعاًعلى مقـربة من أسـوار المدينة، لكن ليس كثيراً إلى حد يمكن فيه الهجوم على المدينة منهم بوساطة الآلات الحربية.

وليكن الذيَ قلناه عن وضع القدس، فيـه كفاية، وكذلك عن أبوابها وعن الجبال التي من حـولها، ودعونا نلتفت عـائدين إلى وصف المتبقي

من البلاد.

٩ — وعلى بعد فرسخين نحو الشمال — الغربي للقدس يوجد جبل شيلوه[سيلون]، الذي اسمه الآن جبل القديس صموئيل، وهو أعلى الجبال في الأرض المقدسة، وقمته أعلى من قممهم جميعاً، وهو على بعد أكثر من فرسخ من جبعة شاؤول، وأقام هنا لمدة طويلة تابوه الرب، وخيمة العهد، أي العهد الذي عمله موسى في القفار.

وعلى بعد فرسخ من هناك توجد جبعة[الجيب]، وهي مدينة بنيامين، وهي قائمة على الجبل نفسه، وعلى هذا كان مقدّم الأماكن المرتفعة قد وجد — كما قيل — هناك، وقد أرسل أهل هذه المدينة رسلاً إلى يوشع في الجلجال، وأقاموا سلماً معه بالبراعة، حيث تظاهروا بأنهم كانوا يسكنون في بلاد نائية.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الغرب من القدس، توجد عمواس، حيث سار الرب مع الحواريين كغرباء، وصار معروفاًبالنسبة لهم عن طريق كسر الخبز، واسمها الآن نيكوبولس Nicopolis .

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الغرب من القدس، وعند سفح جبل شيلوه، توجد بيت حورون التحتا(بيت عور التحتا)، التي ورد ذكرها في سفر المكابيين(الأول:٧/ ٣٩).

وعلى بعد أربعة فراسخ ونصف الفرسخ إلى الغرب من القدس، وعلى الطريق إلى اللد، توجد قرية بيت جيريم(عرما)، التي كانت إحدى مدن الجبعونيين، حيث أقام التابوه لمدة عشرين سنة، بعدما أخذ إلى بلاد الفلسطينيين، وفي الغرب من قرية جيريم توجد لكش(تل الحسي)، التي كانت أيضاً إحدى مدن الجبعونيين، وقد حوصرت من قبل سنحريب في أيام حزقيال.

وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب، أو ما يقارب ذلك، من قرية بيت

جيريم، توجـد بلدة بيت شمش، التي علينا أن نميزها عن الأخرى الموجـودة في ديار سبط نفتـالي، والتي عـرفت باسم بيت شمش اليهودية[عين شمش]، مع أنها في الحقيقة، قد كانت في ديار سبط دان.

وإلى الحقل العائد لتلك البلدة تولت البقرتان الحلوبان جر العجلة التي كان عليها تابوت الرب، وذلك عندما كان أهالي بيت شمس يحصدون موسم الحنطة في الوادي، وقد مات سبعون ألفاً من الناس، لأنهم رأوا تابوت الرب مكشوفاً.

وعلى عشرة فراسخ من القدس توجد رامـاثيم زوفيم(الرملة)، التي كانت جزئياً في ديار سبط بنيامين، وجزئياً في ديار سبط إفرايم، وهي قائمة فوق جبل إفرايم، وبناء عليه أطلق هذا الاسم على السهل، ومهما يكن من أمر، هو ليس جبلاً بل سهلاً، وقد عرفت باسم أريمثا Ar-imathea ، فمنها جاء يوسف المستشار الشريف، الذي تولى دفن الرب، وكان النبي صموئيل قد ولد هنا ودفن أيضاً هنا، وهي تعرف في هذه الأيام باسم الرملة.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الغرب من الرملة تقوم مدينةيافا، التي منها ذهب يونه على ظهر سفينة إلى ترشيش، أي إلى جزائر البحر، منذ حضور الرب.

ودون يافا توجد يبنا، التي هي ميناء آخر لليهودية على بعد فرسخين، نحو الجنوب، وقد استولى يهوذا المكابي على هذا الميناء وأحرقه.

وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب من القدس توجد بيت لحم، المدينة التي تشرفت بميلاد داوود الحقيقي، وهي قائمة على جهة يسار الطريق الذي يقود إلى حبرون، إنما على بعد رمية سهم عن الطريق، وقبل هذا، يصل الانسان — على كل حال — إلى ضريح راحيل، على جهة اليمين لطرف الطريق، وهناك في مقابل بيت لحم برج عدر، أو القطعان، حيث

أقـام يعقوب لبعض الوقت، وأطعم قطعـانه بعد وفـاة راحيل، وفي هذا المكان، عندما كان الرعاة أيضـاً يحرسون قطيعهم خلال الليل، في ساعة ميــلاد المسيح، رأوا الملائكة وسمعــوهم وهم يغنون«المجــد للرب في الأعالي»، وكانوا يبشرون بميلاد المخلص.

وتقـوم بيت لحم فــوق جبل، هو مـرتفـع بعض الشيء، لكنه ضيق، ويمتـد من الشرق إلى الغـرب، ولها باب على الجانـب الغـربي، ويوجـد هناك على مقــربة من البـاب البئر الذي تشــوق داوود إلى الشرب منه، عندما كان محاصراً هناك.

ويوجـد عند النهاية الشرقيـة للمـدينة، تحت الصخرة القـائمة قـرب ســور المدينة، مـابدا — تبعـاً لعـادات تلـك البـلاد — مكاناً جــرى استخـدامـه بمثـابة اسطبل، تمّ نحت معلفـه بـالصخـر، وذلك حسب عـادات تلك المناطق، وولد يســوع المسيح، شمس العـدالة المشرقـة على الدنيـا، من أم عـذراء، وباختيـاره لمثل هذا المكان القـذر، لأن يلد فيـه، ولأن يشرق منه، أظهر بميلاده بأنه سوف يزيل قذارة العالم وظلامه.

وعلى مقـربة من تلك الصخرة المتقـدمة الذكـر، توجد صخـرة أكبر، وذلك على بعـد أربعـة أقـدام عنها، كـان تحتهـا المعلف الذي مـدد فيـه الطفل الحلو، المولود حـديثاً، أمام الثـور والأتان، وهو ملفوف بـأقمشة بالية، هذا ويبـدو لي من المؤكد أنه كان هناك في البداية صخـرة واحدة، لكن جرى فتح طريق في وسط الصخـرة، من خلاله يذهب الانسان إلى سدّة هـذه البيعة، ويذهب الانســان من الكنيسة إلى مكان ميـلاد الأكثر حلاوة بالنزول بالدرجات، وذلك لأسبـاب جرى شرحها أعلاه، وهذه البيعة مغطاة بأكملها بأعمال الفسيفساء، ومبلطة بالرخام، وبنيت بسخاء كبير، وفوق المكان الذي ولدت فيـه العذراء المبـاركة، من الممكن تلاوة قـداس هناك، فـوق لوح من الرخـام ممـدد هناك، ومن الممكن أن يرى الانسان هناك الصخـرة العارية التي ولد عليهـا المسيح، ومثل هذا ترك

جزء من المعلف، الذي ولد فيه المسيح، غير مغطى، ويجري تقبيل هذين المكانين بتقوى عظيمة من قبل المؤمنين، ومررت في إحدى الليالي بهذين المكانين، وتوليت تقبيل المكان الأول ثم المكان الآخر، وأنا لم أشاهد، أو سمعت أحداً قط يقول بأنه رأى كنيسة أكثر قداسة من هذه في أي مكان في العالم، ويوجد هناك أربعة صفوف من الأعمدة تستحق الاعجاب، ليس فقط بسبب عددها، بل بسبب حجمها الرائع، فضلاً عن هذا، فإن صحن الكنيسة كله الموجود فوق الأعمدة حتى السقف، مزين بأجمل أعمال الفسيفساء[حيث عرض فيها جميع أحداث التاريخ منذ خلق الدنيا حتى قدوم الرب إلى يوم الحساب]، ومثل هذا فإن الكنيسة كلها مبلطة برخام من مختلف الألوان، وهي مزينة برسوم تحتوي جميع أحداث التاريخ منذ خلق الدنيا حتى قدوم الرب يوم الحساب، وقال رجل بأن تكاليف هذه الرسوم لايمكن تقديرها، ويمكن للانسان أن يكتب أشياء تفوق التصور حول عمل هذه الكنيسة، ويجل المسلمون جميع الكنائس المكرسة للعذراء المباركة، لكنهم يجلون هذه الكنيسة فوق الجميع، ورأيت في هذه الكنيسة معجزة تستحق الذكر، فعندما رأى السلطان التزيينات الثمينة جداً، وألواح الرخام وأعمدة الكنيسة، أمر بنزعهم جميعاً وحملهم إلى القاهرة، ذلك أنه رغب ببناء قصر بهم لنفسه، وياللمعجزة، فعندما جاء العمال مع أدواتهم، وكان السلطان نفسه مع آخرين كثر واقفاً هناك يراقب، خرج من الجدار السليم الأصم، الذي لايمكن للإبرة أن تخرقه، ثعبان بحجم هائل، وقام بعض أول لوح وصل إليه، فتحطم اللوح، وفعل الشيء نفسه باللوح الثاني، ثم بالثالث فالرابع، حتى الثلاثة عشر، وقد ألم بالألواح جميعاً الشيء نفسه، واستولت الدهشة على الجميع، فأقلع السلطان نفسه مباشرة وتخلى عما نواه، وهنا اختفى الثعبان، وهكذا بقيت الكنيسة، ومازالت باقية حتى هذا اليوم، كما كانت من قبل، ومع هذا من الممكن رؤية بعض آثار جسد الثعبان حتى هذا اليوم على كل

لوح مرّ عليه، فقد بدت الألواح وكأنها قد أحرقت بالنار، وفوق هذا كله يبدو أنه أمر خارق، كيف تمكن هذا الثعبان من النفاذ من خلال الجدار، الذي هو ناعم وملمع كأنه زجاج.

وعند الباب الشمالي لهذه الكنيسة هناك دير مغلق للرهبان، وذلك حيث يوجد بئر القديس جيروم، وفراشه، وضريحه، وغرفة المخزن العائد للدير، الذي نقرأ بأن القديس جيروم كان رئيسه، ويمكن أن يرى على الجانب الجنوبي للسدة مكاناً — كما قيل — جرى فيه قتل شطر كبير من الأبرياء ودفنهم.

وعلى بعد حوالي رمية حجر إلى الشرق من هذه الكنيسة هناك كنيسة القديستين: باولا، ويوستوخيوم، وهناك أيضاً ضريحهما.

وعلى بعد نصف فرسخ إلى الغرب من بيت لحم توجد قرية اسمها بزق Bezek التي فيها وفرة من النبيذ الفاخر، الذي لايمكن أن تجد أفضل منه في البلاد، والناس في هذه القرية مسيحيين جميعاً، وهم يتولون العناية بكرومهم وبكروم قرى جيرانهم في وادي رفائيم، وذلك حتى جدول أشكول،[العدد:١٣/ ٢٤]، وقد تسلموا من السلطان امتياز السكنى هناك والعناية بهم، ومنهم يدفعون إلى السلطان مبلغاً كبيراً.

وعلى بعد ستة فراسخ شرقي بيت لحم، على شاطىء البحر الميت، يوجد جبل عين الجدي الذي تقدم وصفه أعلاه.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الجنوب من عين الجدي، توجد هضبة أخيلا Achila وهي التي عرفت فيما بعد باسم مسعده، وذلك عندما بنى هيرود هناك قلعة لاترام، ويحكى أنه هناك أقام داوود مختبئاً، عندما هرب من أمام شاؤول.

وعلى بعد فرسخين عن بيت لحم، وباتجاه أخيلا، توجد مدينة تقوع، وهي قائمة فوق جبل، وهذه كانت مدينة النبي عاموس، الذي جرى

دفنه هناك أيضاً، وعاموس هو الذي ضربه آحازيا ملك القدس، أثناء الليل، ضربة على صدغيه وقتله.

وبجوار هذه المدينة، توجد قفار تقوع.

وفيما بين تقوع وعين الجدي يمتد وادي بريكوت، حيث تحارب يهوشافاط، ملك اليهودية مع الأدوميين، وبني عمون، وهزمهم.

وعلى بعد فرسخ عن هناك، توجد قلعة بنيت من قبل هيرود الكبير، واسمها هيروديوم[عند جبل الفريديس]، وهي قائمة فوق أرض مرتفعة، وفيها — تبعاً ليوسفيوس — جرى دفن هيرود نفسه.

وعلى خمسة فراسخ إلى الجنوب الشرقي من تقوع، توجد مدينة الزيف[تل الزيف]، وذلك قرب قفار تحمل الاسم نفسه، فهناك — حسبما قرأنا — أقام داوود مختبئاً.

وبجوار هذه المدينة، في جهة اليمين، توجد قفار[تل] معين، وذلك حيث يوجد جبل الكرمل، وأيضاً حيث سكن نابال الكرملي، الذي طرد رسل داوود.

وبجوار قفار معين، في جهة الجنوب، هناك بلاد أمالك Am-alek ، وفي مقابل لسان للبحر الميت، توجد قادش بارينا(القفار)، التي منها أرسل موسى اثني عشر جاسوساً.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الجنوب من بيت لحم، على الطريق الذي يقود إلى حبرون، يوجد بيت — حكريم Haccerem، وهي قرية قائمة فوق بقعة مرتفعة، وبجوارها في الجنوب هناك قرية أخرى اسمها رامة(رامة الخليل،) وهي على درجة عظيمة من الارتفاع، وقد وقفت هناك فوق رابية عالية مع كثير من المرافقين، ورأيت جميع بلاد العربية حتى جبل سعير، وجميع الأماكن الموجودة من حول البحر الميت،

وكـذلك جميع مخابىء داوود، وأيضاً الأردن حتى شطيم(عـدد:٢٥/ ١)، وجبل عبريم، ورأيت باتجاه الغرب جميع شاطىء البحر المتوسط من يافا إلى غزة، وبير السبع، حتى فيـافي شور Shur ، وزيادة على هذا جميع بلاد الفلسطينيين من الرملة مروراً بغث Gath ، وعقرون، وأشدود، ويبنا وعسقـلان، مع جميع السهل الموجـود عند سفـح المنطقـة التليـة لليهودية.

وعلى بعد أكثر من فرسخ مـن رامه، وعلى جهة اليمين، قرب الطريق السلطاني العام الذي يقود إلى حبرون، توجد ممرا، حيث سكن إبراهيم لمدة طويلة، وحيث عندما جلس أمام بيت خيمته إلى جانب بلوطة ممرا، رأى الرجال الثلاثة واقفين إلى جانبـه، وهكذا نجد حسبما قرأنا في سفر التكوين، بأن شجـرة البلوط مـاتزال مـرئية حتى هذا اليـوم، أمـام باب خيمـة إبراهيم، وعلى كل حال، لقـد ماتت الشجـرة القديمـة، ونبع من جذورها شجرة بلوط جديدة.

وعلى بعد نصف فرسخ من بلوطة ممرا، وعلى جهة اليمين، إلى جانب الطريق، تـوجـد حبرون، وهي المدينة القـديمـة، التي عـرفت مـرة باسم«قرية أربعة»، فهناك حكم داوود لمدة سبع سنوات، وكـانت قائمة فـوق يمين جبل مرتفع، وحصين، لكنهـا الآن مـدمرة كليـاً، وخرائبهـا كثيرة، ويبدو أنها كانت مدينة جليلة!.

وعلى بعد رمية سهم جنوبي هذه المدينة، توجد حبرون الجديدة، وقد بنيت فـوق المكان الذي كـان فيـه الكهف المزدوج، المدفـون فيـه: آدم ، وحـواء، وإبراهيم، وسارا، واسحق، ورفقـة ويعقـوب، وليه، وقـد بنى المسلمـون حصناً قوياً جـداً حـول الكهف المزدوج هذا، وفي داخل هذا الحصن هناك الكنيسـة الكاتدرائيـة، ولقـد رأيت في أسـوارها حجـارة مقياس كل منهـا ستة وعشرين، وثمانية وعشرين، وثلاثين قـدماً، وأنا لم أشاهد مكاناً بمثل هذه الحصـانة، قد بني فوق أرض مسطحـة بلا ماء،

ولقد زرت قبور الآباء هناك، وأمضيت ليلة في ذلك المكان.

وعلى بعد رمية سهم إلى الغرب من الكهف المزدوج، يوجد حقل دمشق، الذي من ترابه جرى تشكيل آدم، وفي الحقيقة التربة في هذا الحقل شديدة الحمرة، ومن الممكن قولبتها مثل الشمع، وقد أخذت منها كمية كبيرة معي، ومثل ذلك يفعل الحجاج الآخرون والمسيحيون الذين يزورون هذه الأماكن، فضلاً عن هذا يحمل المسلمون هذه التربة على ظهور الجمال إلى مصر، وأثيوبيا، والهند، وأماكن أخرى، ويبيعونها مقابل توابل ثمينة، ومع هذا يبدو هناك أن كل ما حفر هو مجرد حفرة صغيرة في ذلك المكان، ويقال إنه مع نهاية السنة، قد تكون حفرة كبيرة قد حفرت، نجدها قد امتلأت بشكل إعجازي ثانية، ولقد نسيت أن أبحث عن مصداقية هذا الأمر، والذي يمكنني قوله هو هذا فقط: فعندما كنت هناك، كانت الحفرة حفرة صغيرة، إلى حد أنه كان من الصعب لأربعة رجال الجلوس فيها، ولم تكن أعمق من حد الوصول إلى كتفي، ويقال بأن ما من حيوان يهاجم أو يعتدي على الذي يحمل أياً من هذه التربة، وأنها تحمي الانسان من السقوط، وهذا الوادي القائم في مقابل حبرون خصب جداً وجميل.

وعلى بعد رمية سهم إلى الجنوب من المكان الذي تحفر فيه الأرض، يوجد الموضع الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل، وكذلك على بعد رميتي سهم إلى الغرب من المكان الذي تحفر به الأرض، وعلى رابية على طرف حبرون، هناك كهف في الصخور، هو المكان الذي بكى فيه آدم وحواء على ابنهما هابيل لمدة مائة سنة، ففي الكهف يوجد فراشهما حتى هذا اليوم، ونبع ماء في داخل الكهف، منه كانا يشربان.

وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب من حبرون توجد دبير Debir (عند الظاهرية) أو قرية سفر، أي مدينة كتاب، التي استولى عليها عثنئيل بن قناز أخو كالب، فأعطاه عكسة ابنته زوجة (يشوع: ١٥/ ١٥ — ١٧).

وعلى بعـــد فـــرسخين إلى الشمال مـن حبرون، توجـــد نيل[ناحـال]إشكول، التي معنـاها جـدول العنقـود، أو وادي الدمـوع، الذي منه جلب الجواسيس الغصـن مع عنقـود واحـد من العنب، وقـد حملوه بين اثنين على عصا،[العدد:١٣/ ٢٣].

وعلى بعـد نصـف فـرسخ إلى اليســار من هـذا الوادي، يجري الجدول[عين حنينا]، الذي عمّد فيه فيليب الخصي.

وعلى بعْد أربعـة فراسخ من نيل إشكول، باتجاه القـدس، يوجد بيت زكـريا[عين كـارم]، الذي دخلتـه العـذراء المبـاركـة، حيث حيّت هناك ايزابل، وهناك أيضاً ولد القديس يوحنا المعمدان.

وعلى بعد فـرسخين إلى الشمال من هذا البيت توجد بيت نوبة، وهي مـدينة الكهنـة، ففيهـا أعطى الكاهن أبيمالك إلى داوود سيـف جـالوت صاحب غث Gath .

وعلى بعد أكثر من فرسخ عن بيت لحم، على الطريـق الذي يقود إلى تقوع، يوجد ضريح القديس كريوث Karioth (القديس شارتون)، راعي دير(خريتـون) وذلك مع رهبانه، الذين فـارقوا الحياة جميعـاً معه، وقد اعتادت حشود من الناس على زيارة هذا المكان.

هنا بداية القسم الأول من الربع الجنوبي

١٠ — ويبـدأ القسم الأول من الربع الجنـوبي من هنا، مثله في ذلك مثل بقية الأقسـام، ونجد أولاً أنه على بعد أربعـة فراسخ عن عكا، تأتي مدينة حيفا، وذلك عند سفح جبل الكرمل.

وعلى بعـد أربعـة فـراسخ إلى الجنوب مـن حيفـا توجـد قلعـة الحجـاج(عثليت) وهي بأيدي فـرسان الداوية، وهـي من أكثر الأمـاكن حصانة بين جميع الأمـاكن التي استولى عليها الصليبيون، فهي قـائمة في

قلب البحر، ومحاطة بأسوار، ودفاعات أخرى مثل السواتر الحصينة والشرافات والأبراج، حتى أن العالم كله قد يعجز عن الاستيلاء عليها.

وعلى بعد فرسخ عن حيفا، على جهة اليسار للطريق إلى عثليت، وفوق جبل الكرمل، يوجد كهف إيليا ومسكن يوشع وبئره، وذلك حيث عاش أبناء الأنبياء، وحيث يعيش الآن الرهبان الكرمليون، فلقد سكنت معهم هناك.

وعلى بعد خمسة فراسخ من قلعة عثليت، توجد قيسارية، التي هي حاضرة فلسطين، والتي كانت فيها مضى مقر رئاسة أساقفة، وكان اسم هذا المكان أولاً دور Dor، وبعد ذلك فرغوس ستراتون Pyrgos Stratonis، وقد أعاد هيرود الكبير عمارتها، وسماها قيسارية، وقد كتب يوسفيوس مطولاً حول أبنيتها ودفاعاتها، ويحدها من جهة الغرب البحر المتوسط، ومن الشرق سباخ لمياه عذبة عميقة، فيها أعداد كبيرة من التماسيح، ووقعت في هذا المكان في خطر عظيم، لكن الرب برحمته أنقذني، وللمدينة وضع دفاعي قوي، لكنها في هذه الأيام مدمرة كلياً، وكان لفيليب وبناته دار هناك، ومثل هذا فيها عمّد بطرس قائد المائة كورنليوس، الذي كان أول أسقف لقيسارية، فضلاً عن هذا، في هذه المدينة حاجج بولص ببراعة وفصاحة عظيمة ضد الخطيب تيرتولوس Tertullus، بحضور الملك أغريبا وفيلكس.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الجنوب من قيسارية، توجد قرية اسمها أرسوف، وقد عرفت من قبل باسم أنتيباتر، صدوراً عن أنتيباتر، والد هيرود الكبير، وكان هذا المكان بأيدي فرسان الاسبتارية، غير أنهم فقدوه، ومع هذا يدفعون سنوياً مبلغ ثمانية وثلاثين ألف دينار ذهبي إلى صاحب أرسوف وإلى ورثته.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشرق من أرسوف توجد مكمثة -Mic

methah، التي اسمها الآن قـاقون، وهي قائمة فـوق السهل الموجود عند سفح جبل إفرايم، وذلك ليس بعيـداً عن جبل شارون، وقد شحن المسلمون هذا المكان بالجند لمراقبة قلعة عثليت.

وعلى بعد أربعة فراسخ من هذه تـوجد بلدة سارون التي ورد ذكرها في أعمال الرسل:[٩/ ٣٥].

هذا والمسـافـة فيما بين أرسوف ويـافا هي ثمانيـة فـراسخ، ويافـا هي القائمة على شاطىء البحر، والتي تقدم وصفها أعلاه.

وعلى بعد أربعة فراسخ من يافا توجد غث(قرب يبنا أوابلين)، وهي قائمة ليس بعيداً عن لمبحر، وقد كانت إحدى مدن الفلسطينيين.

وعلى بعد فرسخين عن غث توجـد بيتشمش[عين شمس] اليهودية، التي تقدم وصفها.

وعلى بعـد فـرسخين إلى الجنـوب من بيتشمش، وليس بعيـداً عن البحـر، توجـد عكـرون(عكر)، التي هي المدينـة الثـانيـة بين مـدن الفلسطينيين الخمس، وهي الآن قرية صغيرة.

وعلى بعد أربعة فـراسخ إلى الجنوب من عكرون توجد أشدود، التي هي المدينة الثالثة بين مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي الآن قرية صغيرة.

وعلى بعـد فرسخين عن يافـا توجـد اللد أو ديوسبولس، التي تقـدم وصفها أعلاه، وعلى بعد فرسخين إلى الشرق من هذه توجد لبنه، التي كـان يوشع قـد استـولى عليهـا[يشـوع:١٢/ ١٥]، والتي حـاصرها سنحريب، وهناك على بعد فرسخ من هنا، على الطريق إلى جبعة، توجد بلدة عـزيقة وبلدة مقيـدة، وهاتان البلدتان استـولى عليهما يوشع بعدمـا فـرج عن أهل جبعة، وهنا المكان الـذي اختبأ فيه الملوك الخمسـة داخل كهف[يشوع:١٠/ ٥ — ٢٥]، وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الشرق من ها

هنا، وليس بعيداً عـن بيت نوبه توجـد شـويكـة اليهـودية، وذلك على مقربة من وادي تربنت، وذلك حيث قتل الفتى داوود جالوت صاحب غث بمقلاعه وحجره.

وعلى بعـد ثلاثة فراسخ من بيت نوبه توجـد عمواس، التي تعـرف الآن باسم نيكوبولس.

وعلى بعد فـرسخ ونصف الفرسخ عن عمـواس يمضي الانسان عبر وادي رفـائيم، مروراً بجـانب بيت زكـريا، الذي يودعـه المسافـرون إلى القـدس على يسـارهم، وعلى فـرسخ ونصـف الفـرسخ من ذلك البيت هناك قلعـة حصينة جـداً، هي قلعـة بيت صـورا(صوبا)، القـائمـة على طرف جبل في مقابل بيت سيخ وبيت لحم.

وعلى بعد ستـة فراسخ إلى الجنوب من أشدود توجـد عسقلان، التي كـانت المدينة الرابعـة بين مـدن الفلسطينيين، وهي قائمـة على شـاطىء البحر، على شكل نصف دائرة، وهي محصنة بشكل قوي جداً.

وعلى بعد خمسـة فراسخ إلى الجنوب من عسقلان توجد مـدينة غزة، على شاطىء البحر، وهي تعرف بشكل عام باسم تل الجزر Gazara ، (تداخل).

وعلى بعد خمسـة فراسخ من غزة توجـد بئر السبع، التي اسمها الآن جبلين، وهي تشكل حدود اليهودية وأرض الميعاد، وذلك في الجنوب.

وبعد هذه الأجزاء من أرض الميعاد التي وقعت في حصة سبط يهوذا، تأتي القفار الكبيرة، التي تمتـد حتى نهر مصر، وأقام بنو إسرائيل في هذه القفار لمدة طويلة، ينتقلون من مكان إلى مكان.

وليكن ما قيل عن البلاد وعن الأماكن التي فيها، فيه كفاية.

طول الأرض المقدسة وعرضها

١١ — دعوني أضيف الآن عرضاً عن طولها وعن عرضها محسوباً وفق أفضل ما أستطيعه.

وعليك أن تعلم، بعدئذ، أن طول الأرض المقدسة يبدأ من سفح جبل لبنان، حيث تقوم قيسارية فيليب، ويمتد جنوباً حتى بير السبع في اليهودية، الموجودة في الجنوب، وطولها وعرضها هو حيث سكنت الأسباط الاثني عشر، وهو ليس عظيماً جداً، وذلك وفقاً لأفضل مالاحظته عندما رأيتها بأم عيني، ومشيت فوقها بقدمي، وقد بدت لي من حيث الاتساع بقدر ماسأبين فيمايلي، إنما لابد من القول أنني مضيت فقط قليلاً فيما وراء الأردن، ولم أعبر خلال بلاد السبطين ونصف السبط، ولهذا لم أقم بذكر ذلك وتبيانه، ويبدو لي أن طولها الذي يمتد من رأس بحر الجليل في الشمال حتى جدول أرنون، حيث تنتهي، هو حوالي سبعة وأربعين فرسخاً، وأما بالنسبة لبلاد الأسباط العشرة على هذا الجانب من الأردن، فقد تولى يوسفيوس وصف طولها وعرضها:

فلقد امتلك سبط يهوذا المنطقة الفوقا، التي تمتد طولياً من مصر إلى القدس، وقد قيل إنها تحتاج إلى سفر اثني عشر يوماً، ويمتد عرضها من البحر الميت حتى البحر المتوسط في الغرب، والمسافة هي خمسة عشر فرسخاً.

وأعطي سبط شمعون شطراً من حصة سبط يهوذا، هو القريب من مصر، فوق جبل عبريم.

وحصل البنياميون على البلاد الواقعة فيما بين الأردن والبحر المتوسط، وطولها خمسة عشر فرسخاً، وعرضها من القدس إلى بيت إيل(بيتين) ما يساوي أربعة فراسخ.

وحصل سبط إفرايم على البلاد الواقعة فيما بين نهر الأردن وجدرة،

وطولها خمسة عشر فرسخاً، وعرضها حتى السهل الكبير، حيث بداية الجليل، ويساوي ذلك ثلاثة عشر فرسخاً.

وامتلك نصف سبط منشا حصته على هذا الطرف من الأردن فيما بين نهر الأردن والبحر المتوسط، وطول هذه الحصة اثني عشر فرسخاً، وعرضها حتى بيسان، ويساوي ذلك خمسة فراسخ.

وحصل سبط زبولون على مابين الكرمل قرب جبل قابيل إلى جنسارث، وطول ذلك تسعة فراسخ، أما عرضها فهو من جبل الطور عبر وادي الكرمل، ويساوي ذلك خمسة فراسخ.

وحصل سبط أشير على جميع البلاد الممتدة من الكرمل إلى صيدا، وهي منطقة طولها عشرين فرسخاً، وعرضها تسعة فراسخ، ويمتد من البحر المتوسط إلى نعسون وكابول.

وحصل سبط نفتالي على الأجزاء الممتدة باتجاه الشرق حتى دمشق والجليل، وطولها عشرة فراسخ، وعرضها من بحر الجليل حتى لبنان، ويساوي ذلك سبعة فراسخ.

وحصل سبط دان على الوادي الممتد نحو غروب الشمس قرب البحر المتوسط، وحدوده هي أشدود في الجنوب ودورا في الشمال، وهذا كان طوله، ولم أذكر قياس عرضه.

وتبعاً للوصف المتقدم أعلاه لجميع الأرض المقدسة على هذا الجانب من الأردن، نجد أن عرضها لم يتجاوز في أي مكان الأربعين فرسخاً، أي فيما بين الأردن والبحر المتوسط، وذلك من الشرق إلى الغرب، أما طولها من الشمال إلى الجنوب فقياسه أقل من تسعين فرسخاً، فهذا كان حسب قياسي وحسابي.

واعرف أنك تمتلك هنا وصفاً صادقاً لجميع البلاد، بطولها وبعرضها،

وبكل ما هو موجود فيها.

وأعتقد أن هذا الوصف عظيم الفائدة بالنسبة لقراءة الأسفار التاريخية، لابل في الحقيقة، لجميع الكتاب المقدس، وذلك إذا ما أريد فهم ذلك كله، وأيضاً من أجل تحديد كل مكان على حده، ومعرفة كل شيء حول جميع الأماكن.

ثمار الأرض المقدسة وحيواناتها

١٢ — وعلينا أن نعرف الآن كيف كانت جميع الأرض المقدسة، وكيف هي في هذا اليوم، ذلك أنها أفضل جميع البلدان، وعلى كل حال يقول بعضهم، ممن لم يقدروها حق قدرها، العكس، فهي خصبة جداً بالنسبة للقمح، الذي ينمو بعد فلاحة قليلة ودونها تعب، وتنتج التربة كثيراً من الأعشاب، وتنبت الشمرة، والمريمية، والسذاب، والورود، في كل مكان من قبل نفسها في السهول.

وينمو القطن فوق بعض الشجيرات، التي يبلغ طولها حتى ركبة الانسان، وهي نبتة سنوية، وأوراقها مثل أوراق الكرمة، لكنها أصغر، وينمو فوقهم جوزات في داخلهن القطن، ويتم جنيهن في أيام عيد القديس ميكائيل(٢٩ — أيلول).

وينمو قصب السكر أيضاً هناك، وهن مثل القصب العادي، لكنهن أكبر، ويوجد في قلبهن تجويف، لكنه مليء بمواد ليفية تشبه ما يجده الانسان في الأخشاب القديمة، وهذه الألياف كثيرة الماء، ويجمع القصب ويشطر طولياً ويقطع إلى قطع تساوي إحداها نصف شبر، ثم تعصر بالمعصرة، وبعد هذا يتم غلي العصير المستخرج منهن في غلايات نحاسية وعندما يصبح سميكاً يجمع في سلال ويصنع على شكل قوالب مستديرة، وعلى الفور يصبح بعد هذا جافاً وقاسياً، وهذه هي الطريقة التي يصنّع بها السكر، وقبل أن يجف يترسب منه سائل لزج اسمه عسل

السكر، وهو لذيذ جداً، وجيد من أجل تحلية أنواع الحلوى، فضلاً عن هذا إنهم يقطعــون القصب قطعــاً كـل منهــا بطول إصبع الانســان، ويفعلون ذلك لتكون العقــدة في وسط كل قطعــة، لأنه يـوجـد في كل قصبة سكر عـدداً كبيراً من العقد، ويدفنون هذه القطع في أيام الربيع في أرض رطبـة، ومن هذه القطع تنمــو القصبـات الجديدة، اثنتين من كل قطعة، وذلك من كل جـانب من جانبي العقدة، فهـذه هي الطريقة التي يزرعوهن بها.

وعليك أن تعـرف أن الانسان لايكاد يجد في هذه البـلاد: الاجاص، والتفـاح، والكرز، مثلما الحال على هذا الطرف مـن البحـر، ويتم جلب بعض الفـواكه من دمشق، غير أنها تكون لينة تماماً وطرية، بسبب الحر العظيم عندما تكون الثمار على الأشجار، وبسبب حرارة البلاد.

ومع هذا هناك بعض الفـواكه التي تبقى على الأشجـار طوال السنة، ويأكل الناس منهن في جميع الفصول السنة، ويجد الاسنان على الأشجار في الوقـت نفســـه كـل من أزهـار الثمار، والثمار نصف النـاضجـــة، والناضجـة، والناضجـة فوق حـدها، وعلى هذا قـد يمتلكون في بعض الأحيـان، أربعـة أنواع من الثمار معـاً، وهذه الثمار هو مـايدعـونه باسم البرتقال والليمون، وتفاح آدم، الذي يصنع منه السكان المحليون المخلل ليأكلوه مع الفـراخ، والسمك، والأطعمـة الأخـرى، ويصنعون أطعمـة لذيذة المذاق جداً.

وهناك أيضاً فـاكهة اسمها الدراق، يصنعون منهـا في عكا محفوظات فاخرة جداً.

وهناك أيضـاً فاكهـة أخرى اسمهـا تفـاح الجنة(الموز)، وهي فاكهـة رائعة جـداً، وهي تنمو مثل عنـاقيد العنب، فيها حبـات كثيرة، وحجم العنقود أحيـاناً وكبره مثل سلة كبيرة الحجم، وفيه أحياناً ستـون حبة أو

أكثر، وهـذه الحبات مستطيلة في شكلها، وطـول واحدتها ستة أصـابع، وهي سميكة مثل بيضـة الدجـاجـة، ولهذه الثمـرة قشرة سميكة مثل غـلاف الفـول، إنها ذات لون أصفـر لطيف، ويرمـي الانسـان القشرة، ويتناول الثمرة ويأكلها، ذلك أن مـذاقها كثير الحلاوة، مثلما زبدة جيدة وعسل من قرص العسل، ولايوجـد في هذه الثمار بذور، بل تؤكل كلياً، وتحتـاج هذه الثمـرة إلى أكثر من سنـة واحدة للنمـو، ولاتعيش الثمـرة سوى وقت قصير — سنتان في أبعد الحدود — ثم تذبل وتجف، ولكن عندما تبدأ بالذبول تنبع منهـا مباشرة شجرة أخـرى، ويكون ذلك من جـذورها، وتفعل مثلما فعلت الشجـرة الماضيـة، وأوراق هذه الشجـرة طويلة، قد تبلغ طول إنسان، وهي كذلك عراض بحيث يمكن لورقتين أن تغلفا جسم إنسان بشكل كامل.

ويوجد في الأرض المقدسة كثيراً من الكروم، ويمكن أن يكون هناك أكثر، لكن بما أن المسلمين الذين يتملكون البلاد الآن، لايشربون الخمرة — باستثناء بعضهم بشكل سري — لـذلك يقـومـون بتـدمير الكروم، باستثنـاء القليل منهـــا، ربما كـــروم الذين يسكنـون على مقــربـة من الصليبيين، فهم يزرعـونهم من أجل الفائـدة، وكـروم الأرض المقدسـة جيـدة جداً، ومشهـورة، وبشكل خـاص كروم المناطق حـول بيت لحم، وفي وادي رافـائيم، وهكذا، وذلك من حيث حمل بنو إسرائيل العنقـود على عصا، وهناك كروم جيدة حول صيدا، وعبرها على طول لبنان، وفي طرطوس والمرقب، وعلى طـول شـاطىء البحـر، وذلك حتى كليكيـا وكبـدوكيـة، واليـونان، وهنغـاريا، هذا ولقـد رأيت شيئاً رائعـاً في طرطوس، حيـث أخبرني سكان البـلاد هناك أنهم يجنون مـن الكرمـة الواحـدة نفسها ثلاثة مـواسم في السنة الواحـدة، وفق الطريقـة التاليـة: عندمـا يرى في وقت الربيع الذين يتـولون خـدمـة الكروم، أن الداليـة الواحـدة قـد أعطت كميـة من عناقيـد العنب كما تفعل كل داليـة وكل

غصن حسب العـادة، يقـومـون عندها بقطع جميع الأغصـان المتبقية والزائـدة على العناقيد ورميها جـانباً، ويفعلون هـذا في آذار، وفي نيسان تنمـو أغصان جـديدة تحمل عناقيـد من العنب جـديدة، وعندمـا يرون ذلك يقـومون بقطع جميع الأغصـان التي تتعـدى بنموها عناقيـد العنب هذه، ويعطي جـذع الكرمـة في أيار أغصـاناً جـديدة للمرة الثـالثـة مع عناقيد جديدة من العنب، وعلى هذه الصورة يحصلون على ثلاثة مواسم من العنب، كلهـا تنمو مثل بعضهـا، ولكن الذي يزهر في آذار يجمع في آب، والذي أزهر في نيسـان يجمع في أيلـول، ومـا أزهر في أيار يجمع في تشرين أول، وبـذلك يحصلون على ثلاثـة مـواسم من العنـب في سنة واحدة.

والتين والرمـان، والعسل والزيـت، والأعشـاب والخضـار من جميع الأنواع مثل:اليقطين والخيـار وأنواع أخـرى من الثمار متـوفـرة بكثـرة هناك.

وهناك كثـرة كثيرة من الخنازير المتـوحشـة ،والظبـاء، والأرانب، والحجل، والسلوي، وإنه لشيء ممتع أن تنظر إليهم، وهناك أيضاً الكثير من الأسـود ، والدببة، ومختلف أنواع الوحـوش الضارية، فضلاً عن هذا توجـد أعـداد لاتحصى مـن الجمال، والجمال وحيـدة السنام، والوعـول، والجواميس، وباختصـار يوجـد هناك جميع الأشيـاء الجيدة المتـوفـرة في العـالم، والبـلاد تتـدفق بالحليب والعسـل، غير أن الذين يسكنون هناك لايمكن أن أدعوهـم رجالاً شجعان، بل تحتوي البلاد على أسوأ الأنواع وأحطهـا من المذنبين، وبناء عليـه إنـه لأمـر رائع أن تستطيع البـلاد تحملهم.

أنواع الديانات في الأرض المقدسة

١٣ ــ يسكن في داخل الأرض المقـدسـة أناس من كـل أمـة تحت

السماء، ويتبع كل إنسان عقيدته، وفي الحقيقة لابد أن أذكر، أن قومنا، من اللاتين، هم أسوأ من الشعوب الأخرى كلها في البلاد، وسبب هذا كما أعتقد هو أن أي إنسان اقترف إثماً أو جريمة مثل:اللواطة، والنهب،والسرقة، والزنا، يعبر البحر كعقوبة، أو لخوفه على نفسه، حيث لايتجرأ على البقاء في موطنه، ولهذا يقدم الناس إلى ها هنا من جميع الأصقاع: من ألمانيا، وإيطاليا، وفرنسا، وإنكلترا، واسبانيا، وهنغاريا، ومن جميع أجزاء العالم، ومع هذا فإن كل الذي يفعلونه هو مجرد تغيير أجوائهم المناخية، لكن ليس عقلياتهم، لأنهم بعدما يصبحون هناك وينفقون ما جلبوه معهم، يبات عليهم كسب المال، ولهذا يعودون ثانية إلى دنسهم، ويقترفون آثاماً أسوأ مما اقترفوه من قبل، حيث يتولون إسكان الحجاج الذين هم من شعوبهم في بيوتهم، وإذا لم يعرف هؤلاء الناس كيف يعتنون بأنفسهم، يثقون بهم، فيفقدون كل من مقتنياتهم وشرفهم، ويقومون أيضاً بإنجاب أولاد، يتولون تقليد جرائم آبائهم، وهكذا ينجب الآباء السيئون أبناء أعظم سوءً منهم، ومن هؤلاء ينحدر أحفادهم الأكثر شروراً وفساداً، وهؤلاء يدوسون على الأماكن المقدسة بأقدام ملوثة، ولهذا السبب كان ما وقع، هو أنه لذنوب السكان في البلاد ضد الرب، تعرضت البلاد نفسها، وموضع مخلصنا إلى العار والشنار.

وإلى جانب اللاتين عدد كبير آخر من مختلف الأجناس، من ذلك على سبيل المثال: المسلمون، الذين يؤمنون(بنبوة) محمد(ﷺ) ويطبقون شريعته، وهم يقولون بأن ربنا يسوع المسيح كان أعظم الأنبياء، ويعتقدون بأن حمله جاء بوساطة روح القدس، وأنه ولد من العذراء مريم، غير أنهم ينكرون بأنه قد تألم ودفن، بل اختاروا أن يقولوا بأنه صعد إلى السماء، وأنه يجلس على يمين الآب، لأنهم يعترفون به أنه ابن الرب(كذا)، وهم أيضاً يقولون بأن محمداً(ﷺ) يجلس على يساره، وهم

غير نظيفين كثيراً، ويتخــذون عــدداً كبيراً من الزوجــات بقــدر مــا يستطيعون إطعـامهن، وهـم يمارسون ذنوباً غير طبيعية، ولديهم مـاخور في كل مدينة، هذا وهم كرماء جداً ومضيافين، وأدباء ولطفاء.

وإلى جـانب هؤلاء هناك السريـان، والبـلاد كلهـا مليئة بهؤلاء، وهم مسيحيون، لكنهم على غير وئـام مع اللاتين، وهم يلبسون بشكل بائس جـداً، وبخـلاء لايقدمـون صـدقـات، وهم يسكنون بين المسلمين، وفي معظم الأحيــان كـأنهم خــدم لهم، ويرتدون من الملابـس مثلما يرتدي المسلمون، ويتميزون عنهم فقط بحزام صوفي.

ومثل هذا نجــد أن الاغــريـق مسيحيين، لكنهم هراطقــة منشقين، باستثناء أن عـدداً كبيراً منهم قـد عـادوا إلى طاعـة الكنيسـة إثر المجمع المسكوني الذي عقده مولانا غريغوري العاشر(مجمع ليون ١٢٧٤)، وفي الكنيسـة الاغريقيـة جميع رجـال الدين رهبـان، وهم رجال ذوي حيـاة صارمة جداً وأصحاب فضائل رائعة.

والاغـريق أتقيـاء بشكل كبير ويحترمـون في غـالب الأحيـان رجـال الكنيسـة لديهم ويبجلونهم، ولقـد سمعت واحـداً من بطاركتهم يقـول بحضـوري:«إننا على استعداد لأن نعيش تحت طاعـة كنيسة رومـا، وأن نحترمها، لكنني مندهش إزاء ترتيبنا بالدرجات دون أدنى رجال الدين، مثل رؤساء الأسـاقفة والأسـاقفة، فبعض رؤساء الأسـاقفة والأسـاقفة يريدون مني وأنا بطـريرك، أن أقبل أقـدامهم، وأن أكـون خـادمـاً لهم، الأمر الذي لاأجد نفسي متوجب عليها القيام بذلك، وعلى كل حال أنا على استعداد للقيام بهذا مع البابا، لكن ليس مع أي إنسان آخر».

وهناك أيضاً الأرمـن والجورجيين، والنساطرة، والنوبيين، واليعـاقبة، والكلدانيين، والميـديين، والفــرس، والإثيـوبيين، والمصريين، وشعـوب أخرى كثيرة، كلهـا مسيحية، ويوجد مـن هؤلاء أعداد لاتحصى، ولكل

منهم بطريرك خاص بهم يطيعونه، وأعلن رجال الكنيسة لديهم أنهم على استعداد للانضمام إلى كنيسة روما عن طواعية، وبين هؤلاء نال النساطرة، واليعاقبة أسماءهم من خلال بعض الهراطقة، الذين تقدم وكانوا رؤساءهم، فضلاً عن هذا يوجد في الأرض المقدسة المدينيين، الذين يعرفون في هذه الأيام باسم البدو والتركمان، وقد أوقف هؤلاء أنفسهم على رعاية قطعان الماشية والجمال، التي يمتلكون منها أعداداً كبيرة جداً، ولايمتلك هؤلاء الناس مكاناً دائماً للإقامة، بل حيثما علموا بوجود مراعي يقصدونها وينصبون خيمهم، وهم مقاتلون متفوقون ويحبون الحرب، مع أنهم يستخدمون السيف والرمح في المعركة، ولايستخدمون النشاب، ويقولون إنها دناءة بلا حدود أن تنتزع حياة إنسان بوساطة سهم، وهم شجعان في الحرب، ويرتدون فقط قميصاً أحمر، وفوقه عباءة فضفاضة، ويغطون رؤوسهم بقطع قماش فقط، وسورية كلها مليئة بهم، لكن أكثريتهم يسكنون من حول نهر الأردن، ومن لبنان حتى قفار فاران، لأنه يوجد هناك جبال للأغنام والماعز، وسهول للقطعان وللجمال، والأغنام في هذه المناطق، ولاسيما الكباش كبيرة جداً، ولهم أذناب ذات حجم كبير إلى حد أن ذيلاً واحداً يبلغ من الكبر أنه يحتاج إلى اثنين أو ثلاثة ليستطيعوا أكله.

ومن حول قلعة عرقة، عبر طرابلس، حتى قلعة الحصن، يسكن مسلمون اسمهم الباطنية، ويجاورهم المسلمون الذين يعرفون باسم الحشيشية، الذين يسكنون الجبال القائمة وراء طرطوس على مقربة من قلعة المرقب، وهم يمتلكون عدداً من القلاع والمدن مع أرض خصبة، ويقال إن لديهم أربعين ألف رجل مقاتل، ولديهم مقدم واحد، لايلي منصبه بحق الوراثة، بل بحق الفضائل الشخصية، ويطلق عليه اسم شيخ الجبل، وذلك ليس بسبب سنه، بل بسبب حكمته، ويقال بأن هؤلاء الناس كانوا من أصل فارسي، ولقد مررت خلال جزء من هذه

البلاد، وهم مطيعون إلى درجة الموت، ويقومون بناء على أوامر مقدمهم بقتل أي إنسان مهما كان، ويقولون إنهم بفعلهم ذلك يحصلون على الجنة، حتى وإن قتلوا، قبل أن ينفذوا أوامرهم، ورغبوا قبل عدة سنوات مضت أن يصبحوا مطيعين لكنيسة روما، ومن أجل هذا المقصد أرسلوا سفيراً إلى عكا، الذي حقق بالمباحثات كل ما رغب به، لكنه قتل، وهو على طريق عودته إلى موطنه، من قبل مرافقيه، وكان ذلك قبل دخوله إلى بلاده، مما سبب خسارة للكنيسة ككل، لأن الآخرين عندما رأوا بأن الصليبيين لايمكن الوثوق بهم، انسحبوا على الفور وتراجعوا، والحدود بين بلاد هؤلاء القوم وبلاد الصليبيين معلمة ببعض الأحجار، محفور عليها من جهة الصليبيين صلبان، وعلى جهة الحشيشية خناجر، ولم يستطع أي واحد من السلاطين حتى الآن إخضاعهم، بل إنهم اتخذوا لأنفسهم شرائع وعادات يتبعونها كما يرغبون، وهم مرعبون بالنسبة إلى جميع الأقوام من حولهم، بسبب حدتهم المتناهية العظمة.

ولابد أن نعرف الآن مسألة حقيقية، أن بعض الناس الذين يروق لهم الحديث عما لم يروه قط، قد أعلنوا أن الشرق كله الواقع عبر البحر المتوسط وخلفه، وذلك امتداداً حتى الهند وإثيوبيا يعترفون بالمسيح ويبشرون باسمه، وذلك باستثناء المسلمين فقط، وبعض التركمان الذين يسكنون في كبدوكيا، وبناء عليه أعلن بكل تأكيد، حسبما رأيت أنا شخصياً، وسمعت من آخرين يعرفون،إنه يوجد دوماً مسيحيين في كل مكان ومملكة إلى جانب مصر والعربية، حيث يسكن المسلمون والأتباع الآخرون لمحمد(ﷺ) بشكل رئيسي، ولسوف تجد ثلاثين مسيحياً مقابل مسلم واحد، لكن الحقيقة هي أن جميع المسيحيين وراء البحر هم مشارقة من حيث الأمم، وصحيح أنهم مسيحيين، غير أنهم بوضعهم الحالي غير معتادين كثيراً على استخدام السلاح، وعندما يهاجمون من

قبل المسلمين،أو الأتراك، أو أي شعب آخر مهما كان، يستسلمون لهم، ويشترون السلام ويدفعون الجزية بكل هدوء، ويعين المسلمون والسادة الآخرون نوابهم عليهم، ويجمعون منهم الضرائب، ولهذا راج بين الناس وقيل بأن ممالكهم عائدة إلى المسلمين، مع أن الحقيقة الواقعية هي أن جميع الناس مسيحيين، باستثناء هؤلاء النواب وجباة الضرائب وأسرهم، فهذا مارأيته بنفسي في كليكيا، وفي أرمينيا الصغرى، اللتان الآن تحت حكم التتار، فلقد عشت مدة ثلاثة أسابيع في قصر ملك أرمينيا وكليكيا، وقد كان في بلاطه عدد ضئيل من التتار لكن بقية حاشيته وأهل بيته من المسيحيين، ويصل عدد هؤلاء حتى قرابة المائتين، فلقد اعتدت على رؤيتهم مراراً في الكنيسة، يستمعون إلى القداسات، ويجثون على ركبهم، ويصلون بتقوى، فضلاً عن هذا، كان كلما رآني واحد منهم ومعي مرافقي كان يبدي نحوي احتراماً عظيماً بنزع قبعته والانحناء باحترام لنا، والتسليم، والقيام باحترام لنا لدى اقترابنا، كما أن كثيراً منهم يخافون عندما يعلمون أنه في البلدان فيما وراء البحار، يسكن النساطرة، واليعاقبة، والموارنة، والجورجيين، وطوائف أخرى نالت تسمياتها من هراطقة أدانتهم الكنيسة، ولهذا السبب من المعتقد أن هؤلاء الناس هم هراطقة، ويتبعون آثام الذين نالوا تسمياتهم منهم، وليس هذا صحيحاً بأي شكل من الأشكال، والرب يحرمه:ذلك أنهم أناس بسطاء، أتقياء في حياتهم، مع أنني لاأنكر وجود حمقى كثر بينهم، رائياً أنه حتى كنيسة روما نفسها ليست خلوة من الحمقى، ولنعلم أن جميع الشعوب المتقدمة الذكر، وشعوب أخرى كثيرة، يحتاج أمر الكتابة عنهم إلى وقت طويل، لهم رؤساء أساقفة، وأساقفة، ورعاة ديرة، ورجال دين آخرين، مثلما لدينا نحن أنفسنا، ويدعونهم بالأسماء نفسها، وذلك باستثناء النساطرة، الذين يدعى رئيسهم الديني باسم الجاثليق، فهو البابا الخاص بهم، وقد علمت بشكل مؤكد أن سلطان رعويته يمتد عميقاً في الشرق، أكثر من كل أملاك الكنيسة الغربية،

ويدعى بقية رجال الدين لدى هذه الطائفة باسم رؤساء أساقفة، مثلما الحال في تسمية رجال الدين لدينا.

ويطلق على الرئيس الديني للأرمن والجورجيين، اسم الجاثليق، وقد مكثت معه مدة أربعة عشر يوماً، وهو معه عدد كبير من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورجال دين آخرين، وبالنسبة لمأكله وملبسه وأسلوب حياته، هو مثالي تماماً، فأنا لم أر قط أي إنسان مثله سواء بين رجال الدين أو العلمانيين، وأعلنت بكل صدق، أن جميع ما يرتديه من ملابس هو بتقديري لايساوي أكثر من خمسة دراهم، مع أنه يمتلك قلعة حصينة جداً، وموارد مالية عظيمة، وكان ثرياً أكثر مما يحسبه أي إنسان، وكان يرتدي فروة جلد غنم خشنة حمراء، ومهلهلة وقذرة جداً، ولها كمين واسعين، وارتدى تحتها قميصاً رمادياً، عتيقاً جداً، وقد اهترأ تقريباً، وارتدى فوق هذا وشاحاً أسود، وعباءة رخيصة خشنة، ولقد رأيت ملك أرمينيا وكليكيا مع نبلائه جالساً بتواضع وباحترام عند قدميه، وغالباً ما اصطحب الملك معه أكبر أبنائه سناً، وكان يستمع بكل تقوى لما كان يتفوه به من كلمات الرب، وقد اعتاد هو وجميع رجال الدين لديه على الصوم جميع أيام الصوم الكبير على الخبز والماء، وهكذا فعل الملك وجميع نبلائه، باستثناء يوم عيد البشارة، فوقتها سمح الجاثليق — بحضوري — لنفسه، بأن يأكل السمك وشرب بعض النبيذ، واستمعت في ذلك اليوم إلى قداس بحضور الجاثليق نفسه، والملك والملكة، وطقوس تقوية إلى أبعد الحدود: وقد ارتدى كهنتهم وأساقفتهم ملابس وأردية مثلنا، وقد استخدموا في قداسهم خبزاً غير مخمر(فطير) وأنشدوا في القداس الرسائل، والأناجيل، والمقدمات، والـ Sanctus ، و Pater Noster و Agnus Dei ، وذلك بالكلمات نفسها كما نفعل، إنما بلغاتهم وحروفهم، لأنهم يمتلكون لغة خاصة بهم مع أبجدية أيضاً خاصة بهم، والجاثليق

وجميع رجال الدين الآخرين من ذوي المراتب هم رهبان، وفي جميع بلاد الشرق ما من أحد من أي أمة يمكن أن يكـون رجل دين له مرتبته مالم يكن راهبـاً، وجميع الرهبـان يحظون باحترام كبير وتشريف، وليس للقسس والكهنة أية سلطات، ومـا من أحد يوليهم أدنى تقـدير، وليس لديهم من واجبات سـوى أداء بعض الخدمات اللاهوتيـة، فهم ينبهون إلى مرور جميع الساعات الرسمية بالقرع على لوح أو قطعة من الخشب، لأنه لايوجد لديهم نواقيس، وعندما ترسل إشارة حلول الليل، يمضون إلى الدعوة إلى الصلاة الليلية، ويفعلون ذلك لدى مـرورهم بالطرقات، وينبهون النـاس إلى ذلك، وبعد انقضـاء الصلاة الليلية، لايـذهبون إلى النوم ثانية، بل يجلسون في الكنيسة ويعلمـون الناس حتى الفجر، عندما يرتلون القداس الأول، أوحتى السـاعة الثالثة، إذا كان اليـوم يوم عيد، وليس لديهم سلطات ومسؤوليات غير هذه، بـاستثناء ما يعهد به إليهم من قبل الراهبـات، وجميع الكهنة متـزوجـون، ومـا من أحـد يسمح له بقيـادة قـداس أو عمل تعبـدي آخر، مـا لم يكن متـزوجـاً، ولايقيمـون قداسـات في يوم الاثنين، ولابعد ذلك حتى يوم الجمعـة، ويشمل ذلك أيام الأعيـاد التي تحل في هذه الأيـام مهما كـانت عظيمـة، ولهم الحرية وقتهـا بالتحـادث مع زوجاتهم، إنما في يومي السبـت والأحد فيقيمـون قداسـات بشكل مهيب، وبعد وفـاة زوجة أحـد الكهنة، عليه أن يكون قـانعاً، وأن لايتـزوج زوجة ثانيـة، وإذا ما اقترف إثم الفسـوق أو الزنا، لابد له من فقـدان كنيستـه ومنصبـه، ولايمكن تقـديم أي تعـويض أو غفـران لصالحه، وإذا مـا اقترفت زوجة الكاهن جـريمة الزنا، عليـه أن يقنع بذلك، أو أن يفقد منصبـه وكنيسته، ولابد أن تفقد زوجتـه أنفها، وأن يخصى عشيقها، حتى وإن كـان رجلاً متزوجاً، وقـد نفذ هذا وفعل بحضـوري، وعندما يمـوت أحد الكهنة، على زوجتـه أن تقنع وتعيش حياة عفة، إنما إذا ما تزوجت ثانيـة، فينبغي إحراقها وهي حية، لكن إذا مـا أصبحت بغيـة، فما مـن أذى يمكن أنزاله بها، ولديهم الآن ميثـاق

جديد فيما بينهم يقضي بأن يحصل الكـاهن — مثل أحد الرسل — على زوجـة عذراء، ويتميـز الكهنة الأرمن والجورجيين عن العلمانيين بوضع قطعة من الكتان الأبيض يلفونها حول رقابهم وأكتافهم.

وبالنسبـة إلى اللصـوص الذيـن يدانون باقتراف سرقـات صغيرة، أو باقتراف أعمال شريرة أخـرى، أو جـرائم أدنى نوعـاً، فإنهم يتعـرضـون للخصي، لكي لاينجبـوا أولاداً يقلدون ابـاءهم في اقتراف الآثام، وهذا هو السبب بالنسبـة لي الذي يعلـل وجـود هذا العـدد الهائل من البغـايا هناك، لأنه يوجـد عـدد كبير من الخصيـان، وكلهـم يعمل في خـدمـة سيـدات نبيلات، وأعتقـد أن ملكة أرمينيـا كان لديها أكثـر من أربعين خصيـاً، عندما كنـت في قصرها، وما من إنسـان يتـولى زيارتها إلا بإذن خـاص من الملـك، ويقـوم الملك بتسميـة واحـداً مـن الخصيـان ويعينه لمرافقته ومـراقبته، وهذه هي العادة بالنسبة إلى جميع السيـدات النبيلات سواء المتزوجات منهن أو الأرامل.

ولدى جميع الملوك والأمراء والنبـلاء رغبة عارمـة بالاستماع إلى كلمة الرب، ولهذا اسبب يذهب كل يوم بعض الحكماء أو الرهبان في السـاعة الثـالثة إلى البـلاط، أي بلاط كل ملك أوأمير، ويـأتي الأمراء أو السـادة مباشرة إليهم شخصياً مع أولادهم والأعيان لديهم، ويتم جلب بعض أسفار الكتابات المقـدسة، حيث تقرأ بحضورهم بـاللغة الدارجة، لأنهم لايعْرفـون لغة أخرى، أو يتولى الرهبـان شرح النص عليهم، وكلما شعر العلمانيـون بوجـود شك مـا أو يقـومـون بطرح سـؤال، يقـوم الرهبـان بإيضـاح الأمـور لهم وتوجيههـم وفقـاً لكلمات القـديسين، وقـد سألت هؤلاء الرهبـان عن أسماء الشخصيـات المرجعيـة، التي يتبعـونها، وقـد أجـابـوني بأن مـراجعهم الـرئيسيـة المعتمـدة هـم: جـون خـريستـوم، وغـريغـوري الناصري، وسيريل الاسكندري، وكـل من رجـال الدين والعلمانيين أتقياء جداً في الكنيسـة، ولايفعلون هناك شيئاً سوى الصلاة

أو الانشاد، أو أي شيء آخر عليهم أن يعملوه هناك، ولم أشهد هناك قط إنساناً يضحك أو يتصرف شخصياً بشكل غير لائق في الكنيسة.

ويتم أداء القداس في كنيستهم بشكل تقوي ، ويوضع الكأس على الجهة اليسرى من المذبح في مكان أعدّ خصيصاً له في الجدار، ولدى صلاة التقدمة يرفعها الخوري، المرتدي لثياب حريرية ثمينة، بكل احترام فوق رأسه، ويكون هناك معه شماس يحمل مبخرة، كما يكون هناك قندلفتين يحملان الشموع ويسيران أمامه، ويدورون حول خلف المذبح وذلك باتجاه الطرف اليمين منه، ويعد هذا يأخذها الأسقف بكل احترام ويقدمها، وذلك مثلما يفعل الكهنة لدينا، ويقف إثنان بشموع مضاءة خلف الكاهن أثناء قراءة قانون القداس، وإلى جانبهما اثنان بمباخر، وهما يرتديان ثوبان كهنوتيان طويلان، ويقف شماسان على طرفي اليمين واليسار للمذبح، ويصليان بتقوى وقد ضم كل منهما يديه واتجه بوجهه نحو جسد المسيح، وهو يغني بصوت شجي وتقي مؤثر ويردد ما يغنيه مع الآخر، وفي الحقيقة إنه لأمر هو الأكثر تقوى وقداسة أن تشاهده وتسمعه.

ولقد رأيت كثيراً من الممارسات العامة الرائجة كثيراً في تلك البلاد، بين العلمانيين، وبين رجال الدين، والرهبان، التي من النادر الأخذ بها أو ممارستها في بلادنا.

ولقد سافرت عبر هذه البلاد كلها حتى كبدوكيا وسلوقيا، وكان ذلك بوساطة البحر، وأبحرت من هناك إلى قبرص، وتجولت عبر الجزء الأعظم من تلك المنطقة، ومن هناك أبحرت إلى سورية، وقدمت إلى صور، وبعد مضي عدة أيام أبحرت من هناك على طول ساحل فلسطين، ومررت بحيفا، وجبل الكرمل، ودورا، وقيسارية فلسطين، وأنتباتر، ويافا، وعكرون، وأشدود، وعسقلان، وغزة، وجميع الصحراء الرملية حتى مصبات نهر النيل، ومن هناك مضيت إلى دمياط، التي كان

- ٤٠٧٣ -

اسمهـا القديم ممفيس، وهذه هي بلاد جـوشن Goshen ، حيث أقام بنو إسرائيـل في القــديم، وخـــدمــوا الفــرعـــون في عمل الملاط واللبن[الخروج:١/ ١٤]، وفي هذه البلاد جرى فيها بعد رجم إرميا.

مبارك هو الرب، والقديس متى، آمين.

— ٤ —

لودولف فون سوخم

وصف الأرض المقدسة

١٣٥٠م

تمهيد للودولف دي سوخم

ما من شيء كما يبدو هو معروف عن لودولف، زيادة عما يمكن جمعه من كتابه، ففي تكريسه الاهدائي أخبرنا بأن كان قسيساً في أبرشية كنيسة سوخم، في أسقفية بادربورن، لكن أين كانت سوخم، وهل علينا أن نلفظها سودهيم Sudheim؟ وقد أعلن الدكتور ف. دايك Deycks أنها بالحري راثل Rathsel ، وكان الدكتور دايك أستاذاً في الأكاديمية الملكية في مونستر Munster ، وهو الذي تولى تحقيق كتاب لودولف في عام ١٨٥١، لصالح النصوص الأدبية لستوتغارد، وعلى هذه الطبعة اعتمدت هذه الترجمة، فضلاً عن هذا تحدث لودولف عن بلدوين فون ستينفورت Steinfurt أسقف بادربورن، الذي شغل منصبه من سنة ١٣٤٠ حتى سنة ١٣٦١، ووصفه بأنه سيده المنعم عليه، وقال في خاتمة مخطوطه بأنه كتب هذا الكتاب صدوراً عن الحب والاحترام اللذان يكنهما له، ولربما ساعده الأسقف بلدوين على كتابة كتابه، ولعله كان واحداً من السادة النبلاء الذين عاشوا معه أثناء إقامته لمدة خمس سنوات في الأرض المقدسة، فقد كان هناك من سنة ١٣٣٦ حتى سنة ١٣٤١، ولم يعد إلى هناك — كما يخيل لبعضهم — وعاد لودولف إلى الوطن سنة ١٣٤١،

وتعرض مرتين لخطر عظيم وهو في البحر، وأشار في نهاية كتابه إلى مهاجمة اليهود في ألمانيا في سنة ١٣٤٨ — ١٣٤٩، وهذه الحادثة الجديدة، تتماشى مع كتابه على أنه صنف في سنة ١٣٥٠.

ومنهج لودولف يختلف عن منهج الرحالة بورتشارد المتقدم، وهو أقرب إلى منهج فيلكس فابري الذي سماه بالعجائب، فقد ردد أصداء بعض الحكايات التي كانت متداولة في الشرق، بين الفرنجة بشكل

خاص، لاسيما ما تعلق بشخصية برسترجون، التي سوف نتعرض لها بتوسع لدى الحديث عن العلاقات المغولية الفرنجية، ومعروف أن حكاية برسترجون قد تفرعت عنها فروع كثيرة بعد ظهور جنكيز خان، ثم بعد قدوم حفيده هولاكو نحو العراق وبلاد الشام.

ومهما يكن من أمر تأتي ترجمة كتاب لودولف في سياق عملنا في ترجمة نصوص جميع الرحلات المتعلقة بالحروب الصليبية، وآثارها المباشرة في القرن الرابع عشر،هذا ومن المقرر أن كتاب لودولف يحوي أفضل الرحلات الغربية في هذا القرن الهام.

لودولف فون سوخم
وصف الأرض المقدسة
هنا بداية كتاب لودولف حول الحج إلى الأرض المقدسة

إهداء مع جميع الاحترام الجدير، إلى الأب المبجل، والسيد في المسيح، مولاي المنعم بلدوين أوف ستينفورت، أسقف بادربورن، من لودولف القسيس في الكنيسة الأبرشية في سوخم، في أسقفية بادربورن.

لقد كتب عدد كبير من الرجال بشكل طويل جداً حول بلاد ما وراء البحر، وحول أوضاع وأحوال الأرض المقدسة والمقاطعات الموجودة فيها، وفعلوا ذلك بعد مرورهم بها لمرة واحدة، أما أنا فلقد أقمت في تلك البلدان مدة خمس سنوات دونما انقطاع، كنت خلالها ليلاً ونهاراً بصحبة الملوك، والأمراء، والمقدمين، والنبلاء، والأعيان، وقمت فضلاً عن ذلك بزيارة بلدان ماوراء البحر والسفر خلالها عدة مرات، وصدوراً مني لاحترامكم وتبجيلاً لمحاسن أبوتكم، ولأنكم لم تنسوني، امتلكت رغبة عظيمة لأن أكتب رواية عن أوضاع تلك البلدان، وعن أحوالها، وقراها، وأماكنها الحصينة، ومدنها ،وقلاعها، ورجالها، والأخلاق والطباع فيها، وأماكن التعبد، والأماكن العجيبة، ولم أكتف بالكتابة عن بلاد ماوراء البحر، بل عن العجائب التي يراها الذين يعبرون البحار، ومع أنه قد توفرت لدي الرغبة في تنفيذ هذه الرغبة، غير أنني لم أستطع فعل ذلك وإنجازه، لأنني كنت معوقاً بأعمال مختلفة وثقيلة، ومع ذلك بقيت مفكراً بالكتابة، والآن وقد امتلكت الوقت، فقد قررت أن أصف الأوضاع التي رأيت فيها بلدان ما وراء البحر في سنة ١٣٣٦، وكذلك الأوضاع التي تركتها فيها في سنة ١٣٤١، وأن أكتب تاريخاً مختصراً عنها، وبشكل مكثف، وذلك وفقاً لفهمي

المتـواضع، ولقـدرتي، ولضعف ذاكـرتي، وعلى كل حـال، يتـوجب أن لايفترض إنســان أنني قـد رأيـت كل واحـد من الأمــاكن العــديدة، والأشياء التي أنوي الكتـابة عنها في هذا الكتـاب، بل إنني قمت سعيداً باستخراج بعض المعلومات من كتب التـاريخ القديمة، وذلك مع بعض الأشياء التي سمعتها من شفاه أناس صادقين، وبشأن جميع ما كتبوه عن أي مكان، أووجــدوه، لقـد قـررت الاعتماد على حكـم القـارىء وعلى فهمـه، وفي الحقيقـة كان من المفـروض أن أكتب أكثـر، عندمـا كنت في تلـك البلدان وعملـت الرأي أن أكتـب عنهـم بعض الـروايات، وعـن أوضــاعهم الأبكر، هذا وبـإمكاني في هذا اليــوم كتـابـة المزيد،ولكنني تجاوزت ذلك بسبب بعض المعترضين التافهين والسـاخرين، وخشية أن أتحدث عن أي شيء لايمكن أن يصـدقـوه، ومن ثم عـدّي بسبب ذلك كاذباً، لأن المعترضين التـافهين الجاهلين والساخـرين الذين لايستحقون أن يعرفوا شيئاً من الأشياء مطلقـاً، كل شيء بالنسبة إليهم هو بعيد عن التصديق، ومن غير المعقول الأخـذ به، وبناء عليه إنه بسبب مثل هؤلاء الأشخـاص، أرغمت من أجلهم على التخلي عن ذكــر جميع الأشيــاء الجيـدة، وكـذلك أشيـاء أخـرى كثيرة، لولاهـم لقمت بالكتـابة عنهـا، وإيداع ذلك في كتابي.

١ — *حول الأرض المقدسة.*

إن الأرض المقـدسة، هي أرض الميعـاد، التي وعد الرب بأن يعطيهـا إلى إبراهيم وإلى ذريتــه، وهي المحبــوبـة من الرب، والممــدوحــة من الملائكة، والمعبـودة من قبل الناس، لأن ربنا يسوع المسيح قـد تلطف في تكريس هذا الشيء نفســه، بدمه الثمين جـداً، وأن يشرفها بحضـوره في كل مـن شكل ضعفنا الفــاني، وفي الأيـام الخوالي — حسبما نقــرأ في التاريخ التـوراتي — بمجده الرباني وجلالتـه، وزيادة على هذا بحضوره إلى هناك لتخليص الجنس البشري، من الإدانة واللعنة الدائمة، ومع هذا

فإن هذه البـلاد، قـد ضربت من قبل الـرب بمختلف أنواع الضربات، وذلك بسبب الذنوب المتنوعة لسكانها، ولم تقتصر الضربات التي تلقتها على ما حدث في أيام المسيحيين، بل كان ذلك منذ أقدم العصور، حيث سُكنت من قبل شعوب مختلفـة، وفقدت ثم استردت من قبلهم، وذلك حسبما يمكننا القـراءة في كثير من التواريخ وفي الكتـاب المقدس، ولقـد قـام يسوع المسيح، دون مبـالاة بآلامـه الرائعة، بتقـويم المسيحيين هناك بوسـاطة عصـا التقـويم الأبوي، وبنـاء عليـه، عندمـا تنتهي ذنوب المسيحيين، وعندما يكون راضياً في إرجاع البلاد وردها إلينا، فإنه سوف يحفظ جميع أماكنهـا، ومدنها، وقراها، وقـلاعها، ومعـابدها، كأن نقول: بدون أذى، حتى هذا اليـوم، وذلك من أجل إمكانيـة الدفـاع عنهـا، وسكناها، واستردادها، وإعادة كل ما فيهـا إلى أوضاعه الأصيلة، وذلك على الرغم من أن بعض الأماكن والمعابد قـد تعرضت للتشويه والتغيير بشكل مـؤلم من قبل المسلمين، لأنه مثلما العين هي أغلى جـزء في جسم الانسان وأكثـره لطفاً، ولايمكنها أن تتحمل وجود جسم غـريب فيها، كـذلك الأرض المقـدسـة، هـي مثل العين للرب، ولهذا السبب لايمكنه تحمل ذنوب لايمكن غفرانها فيها.

وعلى كل من يود السفـر إلى الأرض المقـدسـة المذكـورة، أن يكون متنبهاً، حتى لايسافـر إلى هناك من دون إذن من الأب الرسولي، لأنه ما أن يلمس شـواطىء بلاد السلطان سيكون عـرضـة لأن يغدو مشمـولاً بقـرار البـابا، لأنه منذ أن أصبحت الأرض المقـدسـة في أيدي السلطان كانت، ومـازالت محرومة كنسيـاً، ومثلها جميع الذين يسـافرون إلى هناك من دون إذن بابوي، وذلك خشيـة أن المسلمين لدى أخذهم جـزية من المسيحيين، أن يندفعوا نحـو الاستخفاف بالكنيسـة، ولهذا السبب عندما يتسلم أي مسافـر جوازه للسفر إلى هناك من الأب الرسـولي، يوجد إلى جـانب الأذن الذي منح له، هناك شرط في المرسـوم يقضي أنه يتـوجب

عليــه أن لا يشتري أي شيء أو أن يبيع أي شيء مهما كــان في الدنيــا، باستثناء الطعام واللباس، والحاجات الجسدية، وإذا ما خالف هذا، عليه أن يعرف أنه انتكـس ثانية ووقع تحت عقوبـة الحرمان الكنسي، ويمكن لبعض الناس أن يسـافـروا إلى هنـاك من دون أذن، من ذلك على سبيل المثال إذا كان المسافر رجل دين أو عضواً في إحدى الطوائف الدينية، أو والداً، أو والدة، أو صـــديقــاً لرجل مــريض هنـاك، أو رجل واقع في الأسر، فـوقتها يمكنه السفـر إلى هناك بدون أذن،حتى يعمل على فكاك أسرهم، كما يحق السفـــر بدون أذن لأي واحــد بعـث إلى هناك لصنع ســلام، أو للإعـــداد لاسترداد أي شيء آخــر مفيــد، وفي عــودة إلى موضــوعي، إنه يتوجب على أي إنسان يود السفر إلى الأرض المقـدسة، أن يذهب إلى هناك إما براً أو بحراً،فإذا أراد السفر براً، فقد سمعت من بعض الذين يعرفون الطريق جيداً، أن أفضل الطرق هو الذي يمر من خـلال هنغـاريا، فبلغـاريا، فمملكة تـراقيـا، غير أنهم يقـولون بأن هذا الطريق طريق متعب جداً، وعلى كل حـال إن الذي يمكنه تحمل المشاق والوصول سالماً، سوف يصل بوسـاطة البر — وليس بوساطة البحر — إلى القسطنطينية، ولسوف أذكر بعض الشيء حول هذه المدينة.

٢— *القسطنطينية.*

القسطنطينية فائقـة الجمال، ومدينة عظيمة جداً، وقيـاس محيطها ثمانية أميـال، وقد بنيت على شكل مثلث، وأبنيتهـا في شكلهـا وهيكلها تشبـه أبنيـة روما، ويمتـد جانبـان منهـا على ضفتي ذراع بحري، اسمـه ذراع القديس جرجس(البوسفـور) في حين يقوم الجانب الثالث على الأرض، والمدينة مــزينة بتــزيينات متنوعــة ومختلفــة، وهي قـد بنيـت من قبل الامبراطور قسطنطين، الذي سماها القسطنطينيـة، ويدعوها الاغـريق في هذه الأيام باسم بولوس Bolos ويوجـد في هذه المدينة كنيســة ذات حجم رائع وجمال فائق، ولاأعتقد أنه يوجد في العالم كنيسة أعظم منها،

لأن سفينة مع جميع أشرعتها ممدودة تستطيع أن تدير نفسها أمامها هناك، وأنا لاأجرؤ على الكتابة عن اتساعها بشكل كامل، وهذه الكنيسة مكرسة على شرف القديسة صوفيا وذلك بالاغريقية، ومعنى ذلك باللاتينية«تغيير الرب لشكله»، وهي مزينة بكثير من الآثار المهيبة من مختلف الأنواع، من ذلك:المعطف الذي لانظير له، ومسامير ربنا(العائدة للصليب)، والليفة، والقصبات، وهي متوجة بآثار أخرى لمختلف القديسين، ويقف في وسط هذه الكنيسة، عمودكبير من الرخام، عليه تمثال برونزي جيد التذهيب للامبراطور جستنيان على ظهر حصان،وهو مزين بالتاج الامبراطوري، وبالملابس الملكية، ويوجد في يده اليسرى صولجان ذهبي، وفقاً للطريقة الامبراطورية، ويشير إلى الشرق بيمناه، وذلك بمثابة تهديد للعصاة الذين في ذلك المكان، ويوجد في هذه الكنيسة قطعة من العمود الذي جلد المسيح عنده، وعدد لايحصى من أجساد القديسين، والبابوات الرومان الراقدين هناك، وقد يكون هذا صحيحاً لأنه في أيامي جاء بعض السادة من كاتالونياإلى هناك، وخدموا امبراطور القسطنطينيةمقابل أجر، وعندما غادروا سألوا الامبراطور منحهم قبل كل شيء آثاراً مقدسة، وقد وافق على التماسهم، وفرز عدداً من أجساد القديسين بقدر عددهم، ووقف السادة على بعد، واختار كل منهم جسداً بدوره، وذلك وفقاً لمراتبهم، ونال كل واحد منهم ما استحقه، وكان ذلك جسداً كاملاً لواحد من القديسين، وعادوا جميعاً راضين وإلى بلادهم مسرورين، وأنا لاأتجرأ على قول المزيد حول التزيينات الأخرى العائدة لهذه الكنيسة، ويعيش في هذه المدينة امبراطور الاغريق بشكل دائم، والذي كان امبراطوراً في أيامي(أندرونيكوس الثالث) كان قد اتخذ قرينة له أخت الدوق هنري أوف برونزوك Brunswick، وبعد وفاتها تزوج من ابنة كونت سافوي، ويسكن في هذه المدينة أيضاً بطريرك الاغريق، الذي يطيعه الاغريق في كل شيء، مثلما يطيع اللاتين البابا، كما أنهم لايقيمون أدنى تقدير للأب الرسولي،

كما أنهم لايهتمون بأي من أوامره، باستثناء مايرضيهم أنفسهم، فمنذ أن انفصل الاغريق عن كنيسة روما من خلال الهرطقة، أقدموا على اختيار هذا البطريرك، وهم يطيعونه مثل إطاعة البابا حتى هذا اليوم، وفي القسطنطينية تباع جميع الأشياء مثل: الخبز، واللحم، والسمك، ومايشبه ذلك بأزهد الأسعار، ذلك أن ما من شيء غالي الثمن فيها سوى النبيذ، الذي يجلب إليها من نابولي، ويسكن في هذه المدينة عدد من الشعوب المختلفة، ويوجد هناك أيضاً كثيراً من المناخ البارد، ولهذا السبب يجري تمليح اللحم هناك، الأمر الذي لايمكن القيام به في أي مكان آخر في آسيا بسبب الحر، وهناك أيضاً أسماك التربوت حيث تصطاد وتجفف، وتصدر من هناك إلى جميع أجزاء آسيا، ويوجد في هذه المدينة أيضاً قصر الامبراطور القديم، الذي فيه بعض الكؤوس الحجرية التي تمتلىء من قبل نفسها بالماء، ثم تفرغ نفسها مباشرة، ثم تملأ نفسها ومن ثم تصبح فارغة، وبالإضافة إلى هذا هناك كثيراً من اللآلىء الممتازة، بكميات كبيرة، وهي رخيصة جداً، وينبغي أن يعرف القارىء أن امبراطور الاغريق والشعب الاغريقي حكموا فيما مضى جميع آسيا، أي كل من آسيا الصغرى، وآسيا الكبرى، وتملكوها، لكن منذ أن انشقوا عن كنيسة روما بالهرطقة، فقدوا تقريباً جميع هذه المناطق،لأن حكماً قد صدر بحقهم قضى أن كل واحد يأخذ أيًا منهم أسيراً، يمكنه قانونياً أن يبيعه وكأنه من السائمة، وكل لاتيني يمكنه أن يستولي على أرض هناك، يمكنه أن يتمسك بها حتى يعودوا إلى صدر الكنيسة الأم ويتحولوا، ولهذا السبب فقدوا أجزاء واسعة من أراضيهم وممالكهم، وذلك حسبما سأحدثكم فيما بعد.

٣ — *الطريق(إلى الأرض المقدسة) براً، ومملكة الغرب*

وفي عودة إلى موضوعي ، وتاركاً القسطنطينية، التي يمكن للانسان أن يذهب منها إلى الأرض المقدسة براً، وذلك إذا كان الترحال من بين

الأتراك والتتار آمناً، ولاتوجد معيقات أخرى، هذا وعلى المسافر بحراً من القسطنطينية أن يعبر إلى مملكة قبرص، وذلك حسبما سأخبركم فيما بعد، ويقود الطريق الذي أتيت على ذكره، إذا ما اتجه الانسان براً دوماً نحو الشمال، إلى القسطنطينية، ومن القسطنطينية، إذا ما توفر الأمن والتسهيلات، يمكن للانسان أن يسافر براً إلى أي جزء من أجزاء العالم كله، وذلك باتجاه الجنوب، وعلى هذا لن تكون هناك حاجة للذهاب بوساطة البحر.

وبطريقة مماثلة، يمكن للانسان أن يكون قادراً على الذهاب(إلى الأرض المقدسة) من خلال الشمال الأفريقي، والمملكة الغربية، ومملكة غرناطة، غير أن المغاربة لن يسمحوا للمسيحيين بالمرور من ديارهم، مع أن المسلمين الذين يسكنون في إسبانيا وأراغون يرتحلون عبر هذا الطريق عندما يودون زيارة مقامات نبيهم محمد(ﷺ)، لكن المسيحيين لايمكنهم العبور من خلال هاتين المملكتين، لأن مملكتي المغرب وغرناطة قويتان جداً وغنيتان، وهما مسكونتان من قبل مسلمين لايكترثون بالسلطان، وهم على خلاف دائم مع ملك إسبانيا، ويقدمون العون دائماً إلى ملك المغرب، الذي هو مسلم، والذي تقوم مملكته على حدود إسبانيا، أي على ذلك الجزء من البحر الممتد في مواجهة ملك إسبانيا، وعليك أن تعرف أن مملكة المسلمين على ذلك الطرف من البحر ما تزال قائمة، وهي معروفة باسم مملكة الغرب، وهي فائقة القوة، وقائمة على الحدود الاسبانية، كما تقدم القول، وهي تمتلك عدداً من المدن العظيمة وأماكن حصينة، وبلدات، والذي أعتقده أن ملك الغرب أكثر قوة من السلطان، لأنه إذا ما توفرت حاجة، يمكنه أن يحشد في نصف ساعة أكثر من مائة ألف رجل مسلح قوي، وهو الذي تصارع ومايزال يتصارع حتى هذا اليوم مع ملوك إسبانيا وكاستيل، كما غالباً سمعت وعرفت، ومثل هذا في جميع مدن أراغون وبلداتها

مسلمون ساكنون فيها، وفي كل واحدة من المدن والبلدات يمتلك الملك قلعة عالية مشحونة بالجند الذين يبقون متيقظين، حتى لايقوم المسلمون بإثارة أي مشكلة أو القيام بعمل مضر، وعندما يرغب حاكم أية بلدة في إرغام المسلمين على تنفيذ أي عمل، يعطيهم خنازير لإطعامهم وسوقهم إلى المرعى، وهو أمر محرم في شريعتهم، وبهذه الوسيلة وبوسائل أخرى كان يرغم المسلمين على تنفيذ أوامره.

٤ — *بلاد ساحل الجزائر وباجة*

بلاد ساحل الجزائرهي بلاد معظمها رمال وصحراء، والذين يسكنون فيها هم أثيوبيون سود، ويوجد على مقربة من بلاد ساحل الجزائر بلاد أخرى صغيرة، ليست أكثر من ستة أميال(ألمانية؟) من حيث الاتساع، اسمها باجة، حيث يجري تربية القردة وامساكها، وجميع السكان هناك لهم وجوه مثل وجوه القردة، ويشمل ذلك كل من النساء والرجال، وهم يحتفظون بالقردة في بيوتهم، مثلما يفعل الذين هم من هذه المناطق باحتفاظهم بالكلاب والطيور، وينتجون من هذه القردة، قردة صغار، يتولون بيعها، وبثمنها ينفقون على عيشهم، ولهذا السبب يقومون بخصي صغار القردة حتى لايجري تربيتها في مكان آخر، ومع هذا فإنني غالباً ما رأيت قردة صغار في مناطق مختلفة، وينبغي أن نعرف أن البحر المتوسط يتدفق إلى المحيط، فيما بين إسبانيا والمغرب، ويأتي تدفقه خلال مضيق لايتجاوز عرضه ربع ميل(الزقاق)، ولضيقه تقف على ضفته هنا امرأة مسيحية، وتقف على الضفة المقابلة امرأة كافرة، تقومان بغسل ملابسهما، وتتشاتمان وتتخاصم إحداهن مع الأخرى، ويطلق على هذا المضيق البحري من قبل السكان المحليين اسم مضيق جبل طارق، أو مضيق المغرب.

وبعدما يعبر الانسان هذا المضيق الصغير يمكنه الذهاب إلى جميع أنحاء الدنيا،براً، باتجاه الجنوب، وكما قلنا من قبل لاتوجد معيقات على

هذا الطريق، وبعبور هذا المضيق البحري يقدم كل من ملكي الغرب، وغرناطة لتقديم المساعدة إلى ملك الغرب، لأنهما يعبرانه بكل سهولة، ومثلما يصب البحر المتوسط في المحيط من خلال هذا المضيق القائم فيما بين إسبانيا والمغرب، يقوم هذا المتوسط بالطريقة نفسها فيصب في بحر بنطش، قرب أسوار القسطنطينية، وذلك من خلال مضيق اسمه ذراع القديس جورج(البوسفور)، الذي بالعرض نفسه، مثل المضيق المتقدم الذكر، وينبغي أن يكون معلوماً، أنه لاتوجد أية مناطق جافة من الأرض في بحر بنطش ولا أحد يعرف بوجود مثل ذلك، إلاّ باستثناء جزيرة واحدة إسمها خيرسون Cherson ، إليها نُفي البابا القديس كليمنت، وقد أُغرق بالبحر نفسه، ولقد قرأنا أنه يوجد في هذا البحر هيكل رخامي ينفتح إليه ممر في يوم عيده، لكن في هذه الأيام لاينفتح، إنما في الأيام الغوابر كان كذلك، ذلك أن جسد القديس كليمنت راقد في روما، والجزيرة مهجورة، وعلى كل حال يجري منها تصدير أجمل الرخام وأفخره، [وهناك بحر آخر باتجاه الشرق وراء مدينة مدينة غارا Gara ، التي هي بأيدي تتار بلاد الكومان، واسم هذا البحر «بحر الخزر»، وهذا البحر غير متصل بكل من المحيط، أو البحر المتوسط، أو بحر بنطش بوساطة أي مضيق مرئي، ويقول بعضهم بأنه متصل بالبحرين الآخرين، ويفصل ذراع القديس جورج الذي تحدثت عنه أوربا عن آسية الصغرى، التي هي مقاطعة من آسيا العظمى، وغالباً ما يطلق على هذا المضيق اسم فم القسطنطينية، لأنه هناك على الشاطىء الأوربي، تقوم مدينة القسطنطينية الجليلة، التي تعرف أيضاً باسم روما الجديدة، كما تقدم القول].

٥ — *البحر المتوسط*

البحر المتوسط هو البحر الذي يبحر الانسان عبره إلى الأرض المقدسة، ويطلق عليه اسم البحر المتوسط لأنه يمتد نحو شرقي آسيا،

حيث يشكل حـدودها، وأيضـاً إلى غـرب وشمالي أوربا، وإلى الجنوب الأفـريقي، حيث تنفصل بلدانهم عن بعضهـا بوسـاطة مضـائقه، ولقـد سمعت بأن أفريقيا وأوربا تنفصـلان عن بعضهما بوساطة نهر اسمه اندا Inda ، الذي فيـه أغـرق الأربعين شهيـداً،ويمـر هذا النهـر نفسـه بمدينة اسمهـا بتريس Biterris وقد أطلق عليهـا هذا الاسم لأنها قائمة فيما بين برين، والمعني بذلك: أفريقيا، وأوربا، ويطلق على أسقفها اسم أسقف بتريس، ولقـد قـام الفلاسفـة الرومـان الذين قسموا العـالم ووزعـوه بين الـرومـان، ببناء هذه المدينة منذ أيـام خلت، وذلك في أيام هانيبال، وقاموا أيضاً ببناء مدينة أخرى إلى جانبها اسمها نربونة، ويطلق على أسقفهـا اسم أسقـف نربونه، وكثيراً مـا زرت تلـك البـلاد، ولكن دعونا نعـود إلى موضـوعي، حيث عليك أن تعرف بأن البحـر المتوسط تتحـرك مياهه نحـو الداخل والخارج، وذلك حسبما سمعت، وفيه مـد وجـزر، وبلا شك هو لايعـرف الاستقـرار، كما هو واضح بالرؤية، فيما بين كالبيرا(قلورية) وصقلية، ففيما بينهما يتدفـق البحر بشدة بلغت حداً، أن ما من بحـار يجرؤ على الابحار هناك من دون مـرشد مختص، ومثلما يمكن رؤية مثل هذا بوضوح في أمـاكن أخرى كثيرة، وينبغي أن نعرف أن البحـر المتوسط ليـس له العرض نفسـه في جميع الأجـزاء، بل هو في بعض المواضع أعـرض وفي بعضها أضيق من أمـاكن أخرى، وأعـرض مكان فيـه من الغـرب إلى الشرق هو الممتـد من اسبـانيـا إلى غـاليشيـا، وقطلونيا وجزئياً إلى بروفـانس، وأضيق مكان فيه من الغرب إلى الشرق هو الممتد من كالبيرا، وأبوليا، ونابولي، والبندقية، وأحواز هذه الأماكن.

٦ — *مخاطر البحر المتنوعة*

وهكذا يتـوجب على الذي يود السفـر إلى الأرض المقـدسة بحـراً أن يركب سفينة من أية منطقـة أو مـدينة، أو ميناء، يقع اختياره عليـه،وأنا أدع هذه المسألة إلى حـريةاختياره، أمـا بالنسبة إلى الطعـام، فليأخذ معـه

بقـدر مـايستطيع، أو بقـدر مـالديـه، وعلى العمـوم اعتـاد الناس الذين يبحـرون من الغـرب إلى الشرق على التـزود بأطعمـة تكفي لمدة خمسين يومـاً، على أنهم عندما يبحـرون من الشرق إلى الغـرب قد اعتـادوا على التـزود بأطعمة تكفي لمدة مـائـة يوم، لأن السفينة تطير وهي قادمـة من الغـرب إلى الشرق بريح طيبة، حيـث أنها تقطع في الليل مسافـات أكبر منها في النهار، حيث أنها تقطع مسافة خمسـة عشر ميلاً في كل ساعة من اليـوم، وسبب هذا أن البـلاد الغـربيـة باردة جـداً، وكثيرة الرياح، وفي المقابل فإن البـلاد الشرقية حارة جداً، وهي جميعـاً بلا رياح، وبناء عليه يبحر الانسان ببطء أكثر على سطح البحر عندما يكون عائداً، منه عندما يكون ذاهباً إلى هناك، وخاصـة أن السفن الكبيرة الذاهبة من الغرب إلى الشرق اعتـادت على العـودة في شهـري أيلول وتشرين أول، وتبـدأ الغـلايين والمراكب من هذا النوع بالاقـلاع من هناك شروعاً من شهـر آب، عندما يكون البحـر هادئاً، لأن ما من مـركـب يمكنه أن يعبر البحر في تشرين الثاني، وكانون الأول، وكانون الثاني، بسبب العواصف، وعلى كل حـال مـا من مـركب يستطيع — إلا بالنـادر — العـودة من دون تعب، ورعب، وخوف، وانزعـاج، وحول هذا أنا متأكد وعـارف تماماً، لأنني عشت مـراراً ورأيت نفسي وسـط العـواصف العنيفـة في البحـر، وهي عواصف يصعب وصفها كلياً[لأن ما من إنسان يمكنه أن يصف ذلك تمامـاً، كما أن مـا من إنسـان يمكنه أن يصـدق بوجـود مثل هذه العـواصف الشديدة جـداً في البحـر]، وفي الحقيقة إنني أعـرف أن ذلك صحيحاً، لأن ما من صخرة أو رمل في قاع البحر إلاّ ويتحرك، إذا كان قـابلاً للتحرك، وذلك عندمـا يثور البحـر ويتقاذف هكذا، وقـد تبرهن على صحة هذا الأمر بين الجزر، حيث يكون البحر ضيقاً، وحيث يكون هنالك عـدداً هائلاً من الصخـور يجري قذفهـا من شاطىء إلى شـاطىء أثناء العواصف، وحـدث في إحدى المرات أن رجلاً كان مسـافراً قرب الساحل الأرمني بوساطة غليون، فثـارت فجأة عاصفة في الليل، بسببها

جرى فقدان ثلاثة رجال، ووجدوا في الصباح أن الغليون كان مغطى برمل سماكته أكثر من ذراع، مما رماه البحر أثناء هياجه، وفيما يخص برعب البحر ومخاوفه التي تنشأ من أسباب متنوعة، رأيت من المفيد الحديث بعض الشيء حولهم.

٧ — *الخطر الذي اسمه غولف* Gulph

وتصدر المخاوف أولاً عن الرياح الطبيعية، وذلك كما سلف القول، ومثل ذلك عن الرياح الشديدة جداً، التي يطلق البحارة عليها في البحر اسم«غولف»، وهي التي تسير من الفجوات في الجبال، وهي لاتؤذي السفن مالم تكن قريبة جداً، ففي سنة ١٣٤١ لتجسيد ربنا، وفي ليلة أحد، حيث كان يجري غناء Laetare Jerusalem (الأحد الرابع من الصوم الكبير)، وكنا وقتها مبحرين من الشرق، وكان لدينا ريح شرقية جيدة جداً، وبناء عليه انطلقت السفينة بأشرعة ستة منشورة، تطير طوال الليل، لكن حدث عند الصباح المبكر، وكنا مبحرين نحو جبال أضاليا، وكان البحارة جميعاً نيام، أن قذف هذا الغولف نفسه السفينة مع أشرعتها وضربها بعنف على جانبها، ودفعها نحو البحر، بحيث أن جميع الأشرعة تبللت، وسارت السفينة مائلة على طرفها إلى مسافة طويلة، ولو أن السفينة دفعت أكثر وجنحت على طرفها، لغرقنا جميعاً، وقطعنا على كل حال جميع الحبال، وربطنا جميع الأشرعة ، حتى وازنت السفينة نفسها بعض الشيء، وهكذا نجونا بفضل نعمة الرب من ذلك الخطر العظيم.

٨ — *الخطر الذي اسمه غروب* Grup

وهناك أيضاً مخاطر أخرى في البحر، تصدر عن رياح غير طبيعية، ويطلق عليها البحارة اسم«غروب»، وهي تنشأ عن التقاء ريحين، وبسهولة يراها الرحالة قادمة، هذا ولقد ارتعبت كثيراً منها حتى بعد

انتهــاء رحلتي، فضــلاً عن هذا هناك مخاوف أخــرى في البحــر، من القـرصـان أو لصـوص البحـر، الذين يهاجمون واحـدة من السفن مثلما يهاجم المقاتلون قلعـة من القلاع، لكن هذا الرعب تناقص كثيراً منذ أن اختارت مدينة جنوا لنفسها دوجاً.

٩ — *الرعب من الأماكن القليلة العمق*

وهناك أيضاً مخاوف أخرى في البحر، يدعـوها البحارة باسم الأماكن الضحلة، وبالنسبـة لهذا الموضوع عليك أن تعلم أن البحـر ليس بالعمق نفسه في كل مكان منه، لأنه يوجد في البحـر جبال، وصخور، ونباتات، وحشائش خضراء مثلما هو موجود على اليابسة، وهذه الجبال والصخور هي عـالية في بعض الأمـاكن، ومنخفضـة في أماكن أخـرى، ففي بعض الأماكن نادراً ما تكـون الصخور والجبال مغطاة بشبر أو ذراع من الماء، ولهذا السبب مـا من أحـد يتجـرأ على الابحـار جنوباً باتجاه بلاد البربر، لوجـود صخـور كثيرة، وأماكـن ضحلة قليلة العمق مغطاة بالماء، وهذه المخـاطر مرعبـة بشكل كبير في البحـر، لأنه في مثل هذه الأوقـات يتم العثور على كتل من أنواع النباتات مرمية على الشاطىء، وكذلك بعض المرجان، مما تقـرص فروعـه عندما تقـذف من قاع البحـر، لكنها تصقل بعــد ذلك مـن قبل معلمي الحرف، والمرجــان في البــدايـة هو أبيض ويقـرص، لكن جاذبيـة الشمس وأشعتها على قعـر البحر، حيث ينمـو، تجعله أحمر، والمرجان ينمو على شكل نبتة صغيرة لها ثمرة واحدة عالية، وعندمـا يجري رمي المرجـان هكذا بكميات كبيرة وقـذفهم من البحـر، يقـوم الناس بجمعهم وبيعهم وهم مايزالون يقـرصون، ولقـد رأيت في أحد البيـوت من المرجان أكثر ممـا يستطيع خمسين حصاناً حمله، ولاأتجرأ أن أقول المزيد.

١٠ — *المخاوف من السمك*

ومثل هذا يوجد في البحر مخاوف أخرى، نادراً ما تقع إلاّ للسفن الصغيرة، والمعني بهذا المخاوف من الأسماك الكبار، وحول هذه الأسماك عليك أن تعرف سمكة خاصة يدعوها الاغريق باسم ترويا Troya البحر، ومعنى هذا الاسم أفعى البحر،وهي ينبغي أن تخاف كثيراً من قبل المراكب الصغيرة، لأن هذه نادراً — أو مطلقاً — ما تسبب أي أذى للسفن الكبيرة، ما لم يكن مضغوط عليها بسبب الجوع، وفي الحقيقة إذا ما أعطاها البحارة خبزاً تفارق وهي راضية، لكنها إذا لم تفارق، فوقتها يمكن أن تكون مخيفة، ومن الممكن جعلها تهرب برؤية إنسان غاضب وله وجه متجهم، وعلى كل حال على الانسان أن يكون على درجة عالية من الحذر، عندما ينظر إلى السمكة هكذا، وأن لايكون خائفاً منها، بل عليه أن يحدق بها بوجه جريء ومظهر مرعب، لأن السمكة إذا ما رأت الانسان خائفاً فإنها لن تفارق، بل تقوم بعضّ السفينة وتمزيقها بقدر ما تستطيع، وعلى كل حال، إذا ما نظر الانسان بجرأة، وبتوحش نحو السمكة مع ملامح وجه غاضب، فإن السمكة تشعر بالرعب وتغادر وتبتعد عن السفينة، ولقد حدثني بحار متميز جداً، أنه عندما كان شاباً، واجه الرعب مع هذه السمكة في مركب صغير، وكان معه في السفينة شاب اعتقد بنفسه أنه فائق الشجاعة وحاد، وبناء عليه عندما قابل السمكة لم يعطها خبزاً، بسبب الشجاعة التي اعتقد أنه يمتلكها، وأنزل نفسه بوساطة حبل من السفينة إلى الماء، ليحدق بالسمكة بوجه غاضب، كما هي العادة، غير أنه عندما رأى السمكة ارتعب على الفور وصرخ لرفاقه ليسحبوه ويرفعوه بوساطة الحبل، ولدى رؤية السمكة الرجل الخائف، قفزت من الماء وهو يسحب نحو الأعلى، وبعضة واحدة التهمت نصف الرجل من أمعائه نحو الأسفل، ومن ثم ابتعدت عن السفينة، ومع هذا قد قيل بأن هذه

السمكة ليست طويلة بقدر ما يستطيع أن يرمي إنسان حجرة، كما أنها ليست عريضة لكن رأسها ضخم جداً وعريض، وكل الأذى الذي تلحقه بالسفن تلحقه بعضها وبتمزيقها.

وسمعت أيضاً من بحار آخر صادق جداً، كان يعرف جميع ممرات البحر تقريباً، وهو أيضاً كان قد تعرض إلى عدد لايحصى من المخاوف المرعبة، من مختلف الأنواع في البحر، وقد أخبرني هذا الرجل نفسه أنه قد أرغم بوساطة ريح معاكسة، على الابحار في أماكن كان الابحار فيها مرعب جداً، وذلك بسبب الصخور، وقرب قاع الأرض التي كانت بالكاد مغطاة بالماء، وعندما لم يكن بعيداً عن مثل هذه الأماكن، لم يكن قادراً على ايجاد قعر عميق على بعد عشرة آلاف ذراع، وعندما كانت السفينة مبحرة في هذه الأماكن مع أعظم قدر ممكن من الخوف والخطر، حدث أن السفينة مرت على سمكة اسمها عند الفرنسيين Melar ، كانت مختبئة بين الصخور هناك، وعندما شعرت السمكة أن السفينة مقبلة نحوها، تصورت أنها وحش عظيم من الممكن ابتلاعه، وفتحت فمها، وأعطت السفينة عضة كبيرة جداً، ومع أن السفينة كانت محملة كثيراً، فقد دفعت إلى الخلف مسافة كبيرة. واستفاق الناس، الذين كانوا على ظهرها بسبب تلك العضة والصدمة، وعندما أدرك البحار أن السفينة اصطدمت بعقبة لايمكن تجاوزها، صرخ إلى الناس الذين كانوا في السفينة ليصلوا إلى الرب من أجل أرواحهم، وكان قد اعتقد بأنه لم يكن هناك أمل ببقائهم أحياء، حيث كان موقناً بأن السفينة لابد أنها اصطدمت بصخرة عظيمة، وعلى الفور نزل البحارة والخدم التابعين للسفينة إلى قبوها، راغبين في أن يروا المكان الذي خرقت فيه السفينة، فوجدوا أن سن سمكة سميك عريض مثل جذع شجرة، وطوله ثلاثة أذرعة قد خرق السفينة، وقد حاولوا أن ينتزعوا ذلك الجزء من السن بأدوات معدنية، فلم يستطيعوا، فقاموا بقطعه بالمنشار على سوية طرف

السفينة، وليس هنالك من شك أن السفينة كانت ستتحطم لولا أن هذا السن كان حاداً إلى درجة مكنته من خرقها بذلك الشكل المدهش، وفي الوقت الذي أتأمل فيه حول طول وعرض مثل هذه السمكة، أخبرني البحار نفسه بأن لا أندهش، لأن في البحر سمكة طولها ميل، وعرضها أربعة آلاف وستمائة ميل(ذراع؟) وذلك في أضيق مكان فيها، وهناك أيضاً في بركة صغيرة لايتجاوز عرضها رمية سهم توجد سمكة طولها ذراع، وهي غالباً ما تصاد، ولقد رأيت ثلاث سمكات من هذا النوع خارج سردينيا، وكانوا يندفعون خارج الماء أثناء تنفسهم إلى مسافة بعيدة، أكثر مما يستطيع قوس أن يرمي نشابته، وكانوا يصدرون صراخاً مثل الرعد، فضلاً عن هذا، في أيامي، عندما كنت قريباً من جزيرة طرطوس، كانت هناك سمكة، حينما أخذت بالاصطدام بسمكات أصغر رمت بنفسها على اليابسة، وساقت أمامها موجة عظيمة من الماء، وعندما عادت المياه إلى البحر، بقيت السمكة على اليابسة، وأطعمت جميع السكان هناك في تلك المناطق بلحمها ودهنها، لكن ليس بعد أمد طويل، عندما ازدادت درجة حرارة الشمس، تسممت المنطقة كلها بنتن السمكة عندما تعفنت، ولمدة طويلة كان من الممكن رؤية الهيكل العظمي للسمكة عن بعد، مثل بيت كبير، وأطراف منه تحركها الرياح، وبعد بعض الوقت تحطم هذا الهيكل ونقلته العواصف والزوابع نحو الأسفل ولقد سمعت من كثير من الناس من أهل المعرفة أنه يوجد في البحر حوت طويل جداً.

١١ — *أنواع الأسماك*

ومثل هذا يوجد في البحر كثير من أنواع السمك، من مختلف الأشكال، من الكبير والصغير، بعضها لها ألوان واحدة، ومظهر، وشكل، وترتيب، وبعضها بأجنحة، وبعضها بلا أجنحة، ولايمكن فهم طبيعة هؤلاء جميعاً من قبل العقل البشري، وبين هذه الأنواع جميعاً

هناك أنواع بالفعل مدهشة جداً،يرفعن أنفسهن مسافة طويلة جداً خارج الماء، ويمكن لبعضهن أن يجرين طائرات على مستوى وجه الماء لمسافات طويلة مثل الخفاشات، لكنني لست متأكداً كم يستطعن أن يطرن، وإلى أية مسافة.

ولقد سألت بإلحاح البحارة العارفين: من أين تأتي هذه الأسماك؟ وقد أجابوني أنه ينمو على شاطىء البحر في إنكلترا وايرلندا أشجار جميلة جداً تحمل فاكهة تشبه التفاح، ويعيش في هذه التفاحات حشرات، وعندما تنضج التفاحات، يسقطن على الأرض، فيتحطمن بعملية السقوط هذه، وتطير من داخلها حشرات، لأن لها أجنحة مثل النحل، والحشرات اللائي يلمسن الأرض أولاً يغدون مخلوقات هوائية، ويطرن هنا وهناك مع الطيور السماوية الأخرى، لكن ما أن تلمس هذه المخلوقات الماء حتى يتحولن إلى مخلوقات مائية ويسبحن مثل الأسماك، غير أنهن يجلن في أماكن أخرى ويدربن أنفسهن على الطيران، لكن يبقى هل يخلقن هكذا على الأشجار، إنني لاأعرف أكثر مما سمعته في هذه الحكاية، إنما هن يؤكلن مثل الأسماك، ويرون وهن طائرات من قبل الناس الذين يرتحلون في البحر.

١٢ — *هجرة الطيور*

وعليك أن تعرف أنه في موسم محدد، تقوم أعداد عظيمة من الطيور من جميع الأنواع، من كبير وصغير، بالارتحال عبر البحر من الغرب إلى الشرق، وتعود ثانية، وبشكل خاص طيور: السنونو، والسلوى والغرنوق، وأعداد لاتحصى من الطيور من جميع الأنواع والألوان، سواء ما كان منها كبيراً أو صغيراً، الله وحده يعرف أسماءها وأعدادها، وهم يطيرون على طريقهم من جزيرة إلى جزيرة، ويصبحوا ليسوا أكثر من عظم وريش، ويبلغ بهم حد الانهاك إلى عدم الاهتمام بالحجارة والنشاب، وقد أمسكت بعضاً من طيور السنونو ... على ظهر السفينة،

لكن سرعـان ما مـاتوا، ومع هذا إنني لم أر مطلقـاً في جميع المناطق التي كنت فيها فيما وراء البحار طائر اللقلق، لكن رأيت مرة في دير للموارنة لقلقاً، عددته مـدهشاً في حجمه، ولقد سُئلت دومـاً عما إذا كانت طيور السنونو تقضي الشتـاء في بلادي، فأجبت: لا، إنما بالنسبة لبـلادي، تأتي هذه الطيور إليها في آذار، إنما وهذه الطيور هنـاك ما من أحد يعرف من أين جاءت، وقد حدث في مرة من المرات، أنه في واحد من قصور أحد السادة الكبار، كان الحاجب نائماً فوق منضدة عندما جاء اثنان من طيور السنونو، وهما يتخاصمان حول عش، ووصـلا في التخاصم إلى حد أنهما أخذا بعضّ بعضهما بعضـاً، وهكذا سقط كلاهما على وجهـه وهو نائم، فأمسك بهما بشـدة، ثم وضع حـول كل واحـد منهما طوقـاً، وقـد كـانا يأتيـــان في كل سنة ويعـــودان إلى عشهما مع هذيـن الطوقين نفسيهما، وبإمكاني أن أروي حكايات طويلة جداً حـول أنواع أخرى من الطيور، من الصغير والكبير، ممن يقوم بعبور البحر في أوقاتهم الخاصة، إنما لابد لي من العودة إلى موضوعي، وأن لاأكتب المزيد حول مثل هذه المسائل.

١٣ — *الرحلة عبر البحر — طروادة والجزر*

وعلى هذا كل من يود زيارة الأرض المقـدسة، أو أي مكان من بلاد ما وراء البحـار، لابد له من السفر إلى هناك بسفينة أو بغليـون، وإذا ما سافـر في سفينة، فإنه وقتها يجوز مباشرة عبر البحـر، دون أن يتوقف في أي ميناء مـالم يكن مرغماً على فعل ذلـك، بسبب رياح مضادة، أو طلبـاً للأطعمة، أو وجود قضية ضرورية جداً، وهكذا فإنه يخلّف بلاد الجزائر على يمينه باتجاه الجنوب، ويترك بلاد الاغـريق على يساره باتجاه الشمال، ويحصل على مشهـــد عن بعـــد لكثير من الجزر الشهيرة مـن ذلك: كورسيكا، وسردينيـا، وصقلية، ومـالطة، وغوي Goy ، وسكارب Scarpe، وكـريت ورودس، وجزر أخـرى كثيرة، صغيرة وكبيرة، لكنه إذا ما أراد العبور في غليـون، عليك أن تعرف أن الغليون هو نوع

من المراكب المستطيلة، التي ترتحل من شاطىء إلى آخر، وتبقى مبحرة على مقربة من الشاطىء، وتتوقف في مرسى على الشاطىء في الليل، ولها ستين مقعداً على كل جانب، ولكل مقعد ثلاثة من البحارة معهم ثلاثة مجاذيف، ورامي قوس واحد، وعلى ظهر الغليون يجري دوماً أكل أطعمة جديدة، وهذا أمر لايمكن القيام به على ظهر السفينة، وعندما يكون الغليون على هذه الصورة على محاذاة الشاطىء، يمكن للانسان أن يرى مالايحصى من الأماكن الفائقة الجمال، والمدن، والبلدات، والقلاع، وخاصة تلك الأماكن كلها التي يمكن رؤيتها من السفينة عن بعد، فهي الآن تشاهد من خلال الغليون عن قرب، وهي تمر أمام العين دقيقة دقيقة، وعلى هذا، من الممكن القول تقريباً، أنه في الغليون من الممكن رؤية شواطىء ما حول الجزء الشمالي من العالم، وذلك كما سنرى فيما بعد، وأما والانسان مسافر هكذا في غليون من مكان إلى مكان آخر، ومن ميناء إلى مياه آخر، يمكنه الوصول الى القسطنطينية التي كنت قد حدثتكم عنها، وبعد مغادرة تلك المدينة، يصل الانسان وهو نازل على محاذاة ساحل آسيا الصغرى إلى المكان الذي قامت فيه فيما مضى مدينة طروادة الجليلة جداً، والتي لم يبق منها أثر يمكن رؤيته، اللهم إلا باستثناء بعض الأساسات تحت ماء البحر، وكذلك في بعض الأماكن بعض الحجارة القليلة وبعض الأعمدة الرخامية المدفونة في الأرض، التي عندما يعثر عليها يجري نقلها وأخذها إلى أماكن أخرى، وفي هذا المقام عليك أن تعرف، أنه لايوجد في البندقية عمود حجري أو أي حجرة جيدة القطع والصنعة لم تكن قد جلبت إليها من طروادة، هذا وقد بني إلى جانب المكان الذي قامت فيه طروادة فيما مضى مدينة صغيرة، اسمها أيوس ياموس Ayos Yamos، وذلك باللغة الاغريقية، وكانت مدينة طروادة قائمة على شاطىء البحر في منطقة اسمها فريجيا، وهي ليست بعيدة عن خلقدونية، لكن كما يبدو لم تملك ميناء جيداً، وعندما يسافر الانسان في غليون من طروادة يرى شواطىء

لومبارديا، وشمبانيا، وكلبيرا، وأبوليا، ويصل الانسان إلى جزيرة اسمها كورسيكا، وحدث أنه قرب هذه الجزيرة جرى اغراق سفينة القديس بولس الرسول، وذلك بعدما قدم التماساً إلى قيصر، بعد ما جرى اعتقاله في اليهودية، وهناك أيضاً، حدث في المساء، عندما كان جالساً أمام النار في النزل جرى قرصه من قبل أفعى خبيثة، ونجا دون أن يصاب بأذى، وذلك كما نقرأ في أعمال الرسل، ومازال يسكن في تلك الجزيرة أناس يتفاخرون بأنهم من أسرة صاحب النزل، الذي نزل في نزله ما نزل من هذه الأشياء بالقديس بولس، وهؤلاء الناس قد منحوا القدرة على الشفاء ببصاقهم أي واحد جرى قرصه من قبل أفعى أو صلّ، وعندما يريدون ممارسة هذه القدرة مع أي انسان، يأخذون أولاً كاساً مليئاً من الخمرة، ويشربون منها أولاً ثم يضعون فيها كمية من البصاق، وإذا ما كان الذي أعطيت الكأس له قد رفضتها نفسه وأصيب بالغثيان، يمزجون تربة مع الخمرة، ويعطونها إلى المحتاج إليها، حيث يتلقى هذه القدرة، أو النعمة وهو يقول: «خذ ياهذا القدرة والنعمة التي أضفيت علينا من قبل الرب وعلى أولادنا، تشريفاً لبولس الرسول، الأمر الذي نمنحك إياه ونضفيه عليك باسمه، حتى يكون بمقدورك إذا ما قرصت من قبل أفعى أو صلّ، أو من قبل أي من الهوام السامة والمؤذية، أن تشفي نفسك ببصاقك، وتعالجها، إنما دون أن تعالج شخصاً آخر، ونقوم بمنحك هذا من دون أخذ أية مكافأة مقابل ذلك، ونحن نعطيك ذلك من أجل الرب، باسم الآب والابن وروح القدس، آمين»، وإذا ما قام أي انسان بمعالجة انسان آخر إلى جانب نفسه يفقد على الفور قدرته، إنما في الوقت نفسه تفيد الذي تولى معالجته، ويبحر الانسان من جزيرة كورسيكا هذه إلى سردينية، وهي جزيرة جليلة جداً، ذات تربة جيدة وخصبة، مليئة بالقطعان، والسائمة، لكنها من دون خمرة، حيث تجلب إليها من أماكن أخرى، ومن المقرر أن جسد القديس اوغسطين يرقد في هذه الجزيرة، لكن (لوتبراند Luitprand)نقله

(في سنة ٧٢٥) إلى بافيا Pavia ، وقد ولد في هــذه الجزيرة أيضاً القـديس مكاريـوس الذي كـان بارزاً جـداً بين النســاك، وكـانت هذه الجزيرة تابعـة للبيازنة، لكن ملك أراغـون انتـزعها منهم بالقـوة، وهي لاتحتوي على كثير من المدن، بل فيها مدينة واحـدة اسمها قلعة دي كال Cal، وإلى جـانب هذه المدينة قلعة اسمهـا بونايرBonayr، وكنا في يوم الصعـود من سنة ١٣٤١، قد دفعنـا بقوة نحـو هذه الجزيرة، وذلك من قبل ريح عاصفة شديدة وقـاسية ثارت بشكل مفاجيء، وكنا وقتها في سفينة كبيرة جـداً، وإثر هذا اقتضى منا الأمـر خمسة عشر يومـاً حتى عوضنا المسـافة التي كنا قد سرناها قبل العـاصفة منذ الساعة السـادسة حتى وقت العشـاء، ولايتذكـر الشيـوخ في أيامنا هذه عاصفـة مثل هذه العاصفـة العظيمة في البحـر، وفي الليلة التي دفعنا فيها إلى هنـاك، وجد ثلاث وأربعـون سفينـة أخـرى كبيرة قـد تجمعت هناك، وكـانت مثلنا أنفسنا، قـد دفعت إلى هناك من مختلف أطراف البحـر، وذلك مع عـدد لايحصى من المراكب الأخرى، من الأحجام الصغيرة والكبيرة، وبعضها كان قد رمى بحمولته، وبعضهـا الآخر كان قد تحطم، وبين تلك السفن جميعاً جاءت أعظم سفينة في العـالم من نابل، وكانت محملة بألف برميل من الخمر، وذلك من ذوات الحجم الأكبر من نوعه، مع أكثر من ستمائة رجل ومختلف أنواع التجارات، وكـانت آخذه طريقهـا إلى القسطنطينية، غير أنها صـدت بقوة العـاصفـة وعنفها، وجـزيرة سردينيـا هذه مجاورة لجزيرة أخرى صغيرة اسمهـا سوبر Sauper ، أي أن تقول جزيرة القديس بطرس، حيث يوجـد عليها خيول وحشيـة، وهي صغيرة جداً، وعظيمــة الجمال، ولسرعتهـم من غير الممكن امســاكهـم، إلاّ من قبل اللصــوص الذين يطلقـون السهـام عليهم ويأكلـونهم من أجل التمتع بلحم الطرائـد، والبحر بين هذه الجزيرة وبروفانـس خطير جداً، ويطلق البحــارة على هـذه المنطقــة اسم خليـج ليـون، ومعنى ذلـك «غضب الأسـد»، لأنه إذا كان من الممكن أن تستطيع سفينة مـا الابحار بسـلام

على ظهر بقيـة البحر، إنها لن تتمكن من عبـور هذا المضيق البحري من دون مـواجهـة عـواصف عظيمـة، ومخاطر، ورعب، ولهذا السبب أطلق على هذا المكان نفســه اسم خليج ليــون، ومن جــزيرة سردينيــة هذه يستطيع الناس الإبحــار إلى جــزيرة صقليــة، وهي بلاد جليلة جــداً، مساحتهـا حوالي الثمانين ميـلاً، وهذه مملكة عظيمة جـداً، وهذه الجزيرة أعظم خصباً من جميع البـلاد المجاورة، لأنه عندمـا يكون هناك انحباس للمطر، وجفاف وقحط في جميع بلدان وأقطار ما وراء البحر، نجد هذه المناطق يجري اطعامها ومساعدتها من قبل صقلية لوحدها.

١٤— جزيرة صقلية

وفي مملكة صقليـة سبع أسقفيات ومطـرانية واحـدة، مطرانها رئيس أسـاقفـة مـونريال، الذي هو في أيـامي راهب مـاروني، فضـلاً عن هذا تمتلك صقليــة عــدداً كبيراً من المدن الحصينة جــداً والجليلة، والمواقع الحصينة والبلـدات، ولاسيما المدن الأكثــر جمالاً والأعظـم حصــــانة الموجودة على شـاطىء البحر،فكل واحـدة من هذه المدن لها ميناء، ومن هـذه المدن: مسينـا، وبلـرم، وطبرمين، والقنطـرة، ويسكـن في القنطـرة رهبان دومينكان، لديهم صـورة للعذراء مـريم المباركـة في أيام البشارة، وهذه الصـورة يبجلهـا أهل المدينة كثيراً، ومثلهم يفعل الذين يبحـرون على ظهر البحر، لأن مـا من سفينة تعبر من هناك إلاّ وتقف على مسافة محددة لتقـدم التبجيل لهذه الصـورة ولـزيارتها، ويخبرون الانســان— ويعتقـدون بشكل حازم— أن أية سفينـة ستعبر دون تحية هذه الصـورة أو زيارتها، سـوف لن تصل إلى وطنهــا، من دون أن تواجـه عـاصفـة، وواجهت القديسـة أغاثا في مدينة القنطرة الشهادة، وجسـدها كله راقد هناك، وهي محترمــة كثيراً، وتحرس بعنايـة كبيرة، لأنه بفضل محاسنهــا يصنع الرب يوميـاً كثيراً مـن المعجـزات في جميع أرجـاء صقليـة، وعلى مقـربة من مـدينة القنطرة هذه يقـوم جبل منفـرد عـالي الارتفـاع كثيراً،

ويطلق عليه الذين يسكنون هناك اسم جبل بيل Bel، أي أن تقول الجبل الجميل، ولايتوقف هذا الجبل عن اصدار اللهب والدخان وكأنه فرن ناري، ويقذف صخوراً محترقة بحجم بيت صغير، ويطلق عليها سكان تلك المناطق اسم أحجار الخفاف، وبها يجري صقل الرق للكتابة، وهذه مع المقذوفات الأخرى التي يرمي بها الجبل تتجمع وتتكوم بوساطة الريح، حتى تشكل ما يمكن دعوته جبالاً عظيمة وطويلة، ومن هذا الجبل تدفق نهر النار الذي قرأنا عنه في آلام القديسة أغاثا، حيث قالوا: «وقد أقاموا ظلة حاجزة لإبقاء النار بعيداً»، ومن الممكن رؤية مجرى هذا النهر بوضوح في هذه الأيام، وعلى كل حال لقد تدفق نهر من النار مشابه مراراً منذ أيام القديسة أغاثا، وإلى هذه الأيام نجده يتدفق أحياناً، وفي الحقيقة جرى دمار جزء كبير من صقلية بأنهار النار هذه، وبأحجار الخفاف، التي قذفت من الجبل، لأنه عندما يبرد النهر، تصبح هذه الأحجار قاسية، من غير الممكن تكسيرها بأدوات حديدية أو أية أدوات مهما كان نوعها، ولقد قيل يوجد في هذا الجبل فم الجحيم، وما من شك يوجد بعض الحقيقة في هذه الحكاية، فلقد تبرهن وتقرر بوساطة عدد من الأصوات، والمعجزات، والأمثلة في اليوم الحاضر، وفي التواريخ القديمة للمملكة، أنه في أي وقت وجدت فيه أية معارك كبيرة، في أي مكان، يرسل الجبل نفسه اللهب عالياً حتى عنان السماء نفسها، وبناء عليه فإن الذين يسكنون صقلية يعرفون أن هناك معارك حقيقية يجري القتال فيها في بعض أقطار العالم.

ولقد أخبرني راهب ماروني، قد سكن لوقت طويل في جزيرة صقلية، أن فيما لديه من معلومات حدث أنه عندما كان الامبراطور هنري [السابع]، صاحب الذكرى الطيبة والبيازنة يقاتلان ضد الملك روبرت في جبل كاشيم Cachym [سنة ١٣١٥]، وهي الحرب التي قتل فيها أخو الملك روبرت، وهو مدفون حتى هذا اليوم في بيزا تحت

ضريح الامبراطور المتقــدم الذكـر، ففي تلك الليلـة التهب هذا الجبل، وكـان مضيئاً طوال ليلة المعركـة إلى حـد أن رهبان مسينا، الواقعـة على مسافـة عشرين ميلاً عن هذا الجبل، قد قـرأوا نصوص قداسـات المساء لديهم على ضوء ذلك اللهب.

وقد أعلن أن الشيء نفســه قد وقع بالذات عندما كـانت هناك حرب بين الفلورنسيين والبيـازنة في جبـال الألب، وقـد حـدثني هذا الراهب بكثير من الحكايات المدهشـة حـول هذا الجبل، تحتـاج إلى وقت طويل لحكايتها، ولهذا السبب هناك مثل سائر في صقلية يقول: «إنني أفضل أن أكــون في جبـل بيل مع الملوك والأمــراء على أن أكـــون في السماء مع المعـاقين والعميـان»، والمعنى هنا واضح، لأن الرجـال هنا أشرار بالمرة، لكن النساء جميلات جداً، وموضع اعجاب عظيم، ويمارسون في صقلية ثلاثة أنواع من العبـادات مختلفـة: ففي القسم الأول يمارسون الطقـوس اللاتينيـة، وفي القسم الثـاني يمارسـون طقــوس الاغـريق، وفي الثـالث يمارسون شعـائر المسلمين، ومع أنهم جميعـاً مسيحيين، هم على كل حال مختلفون وغير متفقين في عقـائدهـم وممارساتهم، وإنه لأمـر مدهش كثيراً أن تكون صقليـة إلى هذه الدرجـة بلاداً خصبة وجـذابة، مع أنها تعـاني دومـاً من مثل هذا الدمار المرعب من هذا الجبل، لأنه يحدث أن يقـذف كميـات هائلة من الرمــاد في يوم أو يومين، فـلاتستطيع السـائمـة لمدة طويلة أن تجد أي مرعى، وزيـادة على هذا، يحدث في بعض الأحيان أن تتـدفـق عـدة أنهار من النار واللهب، وكـــذلك من الأشيــاء الأخـرى المرعبـة، وتنحـدر من الجبل، ولهذا يقـوم الذين يسكنون هناك بالصــوم وتقـديم النـذور، متـوقعين أنهم سـوف يؤخــذون سريعـاً إلى الجحيم، وتجري هذه الأنهار منحـدرة من الجبل مثل نحـاس ذائب يغلي، وتتـولى النار استهلاك كل شيء تجده على طريقهـا، سواء أكان حجـراً أم خشباً، وذلك مثلما تتـولى الميـاه الحارة تذويب الثلج وإزالته، وتـدمر البـلاد في

بعض الأماكن لمسافة ميلين، وذلك حسب طبيعة الأرض منخفضة كانت أو مرتفعة، وتجعلها صحراء، لايمكن سكناها إلى الأبد، وعلى هذا إن صقلية بلاداً فائقة الجودة، ومع هذا هي مرعبة أن تسكن فيها.

١٥ — *جبل البركان*

ومثل هذا يوجد على مقربة من صقلية جزيرة أخرى صغيرة، فيها جبل واحد فقط، وعند سفح هذا الجبل هناك حديقة هي الأكثر جمالاً وبهاءً، واسم هذا الجبل لدى السكان المحليين جبل البركان، وهو يقوم فجأة مثل فرن بصب اللهب المحرق، بشكل أكثر إرعاباً من جبل بيل، وقد قرأنا بأن هذا الجبل كان يقوم فيما مضى في صقلية، غير أنه بفضائل الرسول القديس برثلميو رمى نفسه في البحر، ونقل نفسه من اليابسة، ولهبه مرعب إلى أقصى الحدود والعنف، وهو يقذف بصخور الخفاف التي من حجم بيوت صغيرة في الهواء، مثلما يفعل المنجنيق، وذلك بقوة هائلة إلى حد أنهن يتفجرن بالهواء مثل التفاح، وتسقط بعض القطع في البحر على بعد حوالي النصف ميل عن هناك، فتقذفها الأمواج على الشاطىء، وتتجمع هناك، وحجارة الخفاف هذه هي التي يستخدمها الكتاب في صقل الرق للكتابة، والذي يذكره بعضهم أنه يتشكل من زبد البحر، هو غير صحيح، حسبما جرى اخبارك، وحدث مرة قبل أن أذهب إلى صقلية، أن النار تفجرت في الحديقة عند سفح جبل البركان، وكان مقدار اتساعها رمية حجر، ولمدة أربعة أيام وأربع ليال ظل اللهب يتصاعد إلى السماء، من الطول ومن العرض، وذلك بشكل مرعب إلى حد أن جميع الناس خيل اليهم أن السماء حقاً والأرض كانتا تشتعلان، وأنه جاء ميعاد اليوم الذي سيفارقون به الحياة، وعندما توقف اللهب، استمر الرماد يتساقط لمدة أربعة أيام وأربع ليال أخرى، إلى حد أن كثيراً من الأماكن والبلدات والمدن هجرها الناس، وغادروها مع كل ما يملكون، وهربوا إلى الجبال ليخبئوا أنفسهم وليحموها من

الرماد حسب أفضل ما هو بإمكاناتهم، ولقد هلكت جميع القطعان وأعداد كبيرة جداً من الناس في السهول بفعل الرماد، وغدت مدن كثيرة، لايمكن رؤيتها البته، لأنها غطيت بكثافة بالرماد، وجف كثير من الانهار بفعل الرماد، وكان لذلك حزن وأسى في صقلية كلها في ذلك الحين، بشكل لايمكن لانسان أن يتذكر مثيله، أو تحدث التاريخ القديم عن مثله، ولهذا قام الصقليون فعقدوا النذور للرب، وأعلنوا الصيام، وأسلموا أنفسهم إلى أعمال التوبة، وصلوا إلى الرب حتى يزيل عنهم غضبه، وأن يقوم من أجل فضائل القديسة أغاثا بتحريرهم من هذا الغضب العظيم، وبناء عليه انتهى الرعب والاضطراب على الفور، ولم يشعروا بعد ذلك بأي من هذا النوع، وقاموا بعد ذلك بتحريم صنع عدد كبير من الأعمال الشريرة التي كان مسموحاً بها حتى ذلك الحين تحت تهديد إنزال أقسى العقوبات.

١٦ — مدينة سرقوسة

ويوجد في صقلية مدينة أخرى، اسمها سرقوسة، فيها واجهت القديسة لوسيا Lucia الشهادة، وفيها يرقد جسدها كله، هذا ويوجد هناك أيضاً عدد لايحصى من آثار القديسين المبجلين، ولسوف أحتاج إلى وقت طويل جداً لأحدثكم عن المزيد من عجائب صقلية، وعن أمجاد وقصور الامبراطور فردريك، وعن اصطياد السمك الذي اسمه الطون، وعن المصادر الأخرى لثرواتها وازدهارها.

وعلى مقربة من صقلية هناك جزائر أخرى كثيرة، كبيرة وصغيرة، مسكونة من قبل المسلمين، ويوجد على مقربة منها هناك جزيرة أخرى اسمها مالطة، وفيها أسقفية واحدة، وقد زرتها مراراً أثناء العبور، وعلى مقربة منها هناك جزيرة أخرى اسمها كولمات Colmat، فيها حفر كثيرة للأرانب، إلى حد أنه لم يبق للسكان ما يكفيهم من أرض للعيش عليها، وعلى مقربة منها هناك ايضاً جزيرة أخرى صغيرة اسمها سكولا

Scola وما من أحد يزور هاتين الجزيرتين الصغيرتين إلاّ الذي يقوم برحلة خاصة إليها، وإلى جانب هاتين الجزيرتين، هناك أيضاً جزيرة أخرى اسمها غوي Goy (غوزو Gozo) يوجد فيها كثير من القطعان، ومنتجات الحليب، وقد أبحرت مرة بين هذه الجزيرة والجزيرة الأخرى في حالة رعب كبيرة، وكنت في سفينة كبيرة، في أثناء أكثر العواصف عنفاً، وما من أحد يتذكر أن سفينة بمثل هذا الحجم الكبير قد سارت قط خلال ذلك الطريق.

١٧ — آخيا

ولدى متابعة السفر من صقلية، يعبر الانسان خليج البندقية، الذي يفصل البندقية عن اليونان، ولدى ابحار الانسان على محاذاة شواطىء بلاد اليونان وملتفاً حولها، يصل إلى آخيا ومقدونية، ومناطق أخرى من بلاد الاغريق، يطلق عليها اسم رومانيا، وعليك أن تعرف أن البلاد التي كانت تعرف باسم آخيا اسمها الآن المورة، وقد استولى القطالونيون على هذه البلاد بالقوة، وفصلوها عن بلاد الاغريق، ويوجد هناك مدينة جميلة اسمها بتراس Patras فيها واجه القديس أندرو الشهادة، فضلاً عن هذا فإن القديس انطوني وعدد كبير آخر من القديسين قد سكنوا فيما مضى هناك، أو ولدوا في تلك البلاد، وليس بعيداً عن بتراس توجد أثينا، التي ازدهرت فيها فيما مضى مدارس الاغريق، ولقد كانت هذه في الأيام الخوالي مدينة جليلة جداً، لكنها الآن تكاد أن تكون مهجورة، هذا ومن النادر أن تجد في أي مكان في جنوا عموداً رخامياً أو قطعة جيدة من الحجر المنحوت، هي لم تجلب إلى هناك من أثينا، فالمدينة كلها قد بنيت من أحجار أثينا، مثلما بنيت البندقية من حجارة طروادة، ويوجد في أراضي آخيا هذه نفسها مدينة كورنثا الفائقة الجمال والحصانة، وهي قائمة على ذروة جبل، ومثل هذه المدينة بحصانتها وقوتها نادراً ما سمع بشبيه لها، لأنه لو قام العالم كله

بحصارها، لن تشعر مطلقاً بالحاجة إلى القمح، والخمر، والزيت والماء، وإلى هذه المدينة كان القديس بولس قـد كتب عدداً من الرسائل، وليس بعيداً عن كورنثا تقوم مـدينة غلاطيـة التي إليها كتب القـديس بولس رسـائلاً، و«غـلا» بالاغريقيـة تعني مـا تعنيه كلمـة لاك Lac (حليب) باللاتينيـة، ذلك أن الذين يسكنـون هناك هم أكثـر بيـاضـاً من الأناس الآخرين من حـولهم، وذلك من طبيعة المكان، هذا وإن هذه المدينة التي عرفت فيما مضى باسم غلاطية، تعرف الآن باسم بيرا Pera، فضلاً عن هذا يسكن في آخيا— أو المورة— رهبان مـن طائفة التيوتون، وهـم يمتلكون هناك قلاعاً في غاية الحصـانة، وهم دوماً على خلاف مع دوق أثينا والاغريق، وعنـدما يتابع الانسـان ترحاله من آخيـا، أو المورة، يمر بعـدد من الجزر الاغريقيـة، وذلك لدى ابحـاره على طول ساحل آسيـا الصغـرى، ويصل الانسان إلى جـزيرة اسمهـا كيوس، التي هي جـزيرة متميزة بشكل خاص، فهناك ينمـو المسطكى، ولاينمو في مكان آخر في العالم، حيث صحيح أن أشجارها تنمو بها فيـه الكفاية في أماكن أخرى، لكن لايوجـد عليهـا ثمار، وينمـو المسطكى مثل الصمغ، ويتسـاقط من الأشجار، ومن هناك يرسل إلى جميع أنحاء العالم، ولهذه الجزيرة أسقف، كان في أيامي من طائفـة الدومينيكان، وقد انتـزعت هذه الجزيرة بالقوة من امبراطور القسطنطينيـة من قبـل أخـوين جنويين، وفيما بعـد وقع خصام بين هذين الأخوين، فتخلى واحـد منهما سراً عن حصته وأعادها إلى الامبراطور، واعتقل أخـاه، وأبقـاه لمدة طويلة في السجن، فـانتـزع الامبراطور الجزيرة منهما معـاً، لكنه في أيامـي أدخل الأخ السجين في حظوته، وجعله قائـداً لجيشه، وأعطاه بعض القلاع، ومن كيـوس يبحر الانسان إلى جزيرة بطمس Patmos، التي إليها جرى نفي القديس يوحنا الانجيلي من قبـل دوميشيـان، وهناك رأى السمـوات مفتـوحـة فكتب سفر الرؤيا، ويمكنك الابحار من بطمس على محاذاة ساحل آسيا الصغـرى، والوصول إلى إفسـوس إذا كنت ترغب بذلك، وهذه البـلاد

التي كانت تعرف من قبل باسم آسيا الصغرى، تعرف الآن باسم تركيا، لأن الاتراك انتزعوها من الاغـريق، وعليك أن تعرف أن الأتراك رجال سود طوال، وهم مسلمون متحمسـون، مع انهم ليسوا من أصل عربي، وهم بالحري مسيحيـون مـرتدون، وهـم يشبهـون مـن جميع الجوانب الفـريزيين، ويسكنون إلى جانب شـواطىء بحـر الشمال (كذا) في قـلاع حصينة جداً، انتزعوها من الاغـريق، وليس لديهم سلاح سوى القوس والنشاب، ويعيشـون على الحليب وما شابهه، ويتجـولون هنا وهناك مع قطعانهم، وفي كل اتجاه، وهم لهم عادات الفريزيين نفسها.

١٨— مدينة إفسوس

عليك أن تعرف أن مـدينة إفسوس الحقيقية تبعد أربعـة أميال قصيرة عن البحر، ويوجـد في هذه المدينة كنيسة جميلة بنيت على شكل صليب، وهي مسقـوفـة بالرصـاص، وهي مـزينة بشكل بهي بأعمال الفسيفسـاء والرخام، وهي موجودة حتى هذا اليوم، وهنا حدث أن ذلك الرسول المحبوب عندما تخبأ لعيد من الأعياد، دخل إلى ضريح، كان الظلام مخيماً عليـه، ولم ير بعــد ذلك مطلقـاً، وهذا الضريح على مقـربـة من مـذبح مـرتفع، والمكـان الذي حفـر فيـه الصخـر ونحت ظاهر مــرئي للذين يريدون الدخــول إليـه شرط أن يدفعـوا أولاً فلسـاً إلى الأتراك، ويبيع الأتراك الآن في الكنيسة الحريـر، والصوف، والقمح وماشـابه ذلك من البضـائع، وكـانت مدينة إفسـوس تقـوم فيما مضى وفق شكل غـريب، وذلك بين جبلين،وعلى هـذا فإن طرفيهـــا كـــانا على جبلين ووسطهما وادي، والكنيسة التي فيهـا ضريح القديس يوحنا، كانت على بعـد رمية سهم عن هذه المدينـة وكـانت قـائمـة على رأس جبل، وبما أن البقعــة القريبة من الكنيسة هي أكثر حصـانة، فقد جرى نقل مدينة إفسوس من قبل الأتراك خـوفاً من المسيحيين، والمدينة القـديمة هي مهجـورة الآن، وفي أيامي كان يسكن هناك سيدة نبيلة كـان زوجها يمتلك المدينة كلها،

وكان هناك رجلاً اسمه زلابين Zalabin ، وهو تركي، انتزع المدينة منها، وبموافقة منه سكنت السيدة النبيلة تحت قلعة إفسوس، وقد حصلت على إجازة منه لبيع الخمر إلى التجار، وبحزن وأسى عظيم أباحت لنا عن أحزان قلبها لفقدانها زوجها ومدينتها، وعلى مقربة من مدينة إفسوس هناك نبع صغير مستدير، فيه أسماك رائعة بأعداد كبيرة، ويندفع الماء من هذا النبع بكميات كبيرة كافية لسقاية جميع المروج والحدائق والأراضي التي هي هناك، وعليك أن تعرف أن المدينة التي عرفت فيما مضى باسم مدينة إفسوس، أطلق عليها من قبل الاغريق اسم ثيولوغوس Theologos(آيا سلوق)، وهي تعرف الآن باسم ألتيلوت Alttelot ، أي المكان المرتفع(Altus - Locus) ، لأن المدينة — كما أخبرتكم قد نقلت إلى مكان مرتفع حول الكنيسة، وعلى بعد حوالي أربعة أميال من هذه المدينة القديمة، أعني مدينة إفسوس، قد جرى بناء مدينة جديدة، وذلك على شاطيء البحر ، حيث يوجد الميناء، وقد سكنت من قبل مسيحيين،كانوا قد طردوا من لومبارديا أثناء نزاع، ولدى هؤلاء الناس كنائس، ورهبان فرنسيسكان، ويعيشون مثل المسيحيين، وعلى كل حال كانوا قد أنزلوا فيما مضى من أيام بالمسيحيين أضراراً كبيرة بالتعاون مع الأتراك، وعلى مقربة من مدينة إفسوس الجديدة هناك نهر مثله بالاتساع مثل نهر الراين، وهو يجري خلال بلاد تركيا قادماً من بلاد التتر، وتنحدر على هذا النهر ويجري نقل كثيراً من التجارات من مختلف الأنواع، وذلك مثلما يفعل على ظهر الراين في هذه المناطق، وفي هذا النهر اعتاد الأتراك، والذين يدعون زيفاً باسم المسيحيين، على جمع سفنهم، وأسلحتهم، وعتادهم، عندما يقررون القتال ضد المسيحيين، وعلى هذا النهر و عبره يلحق بالمسيحيين كثير من الأذى والضرر.

١٩ ـــ*جزر متنوعة في البحر وأولها جزيرة رودس*

من إفسوس يمكن للانسان أن يستأنف إبحاره إلى عدد كبير من الجزر الأخرى المختلفة، وعليك أن تعرف أنه يوجد في تلك المنطقة من البحر أكثر من سبعمائة جزيرة صغيرة وكبيرة، مسكونة ومهجورة، لبعضها فضائل خاصة، وبعضها مليء بجميع أشكال الأشياء الجيدة، بينما بعضها مليء بينابيع سامة، ومخلوقات ضارة جداً، وبين هذه الجزر هناك جزيرة صغيرة فيها نبع مياه حارة جداً، وهي تغلي مثل مياه في قدر، وهي سامة إلى حد لو أن طائراً طار فقط فوقها لمات، وإلى جانب هذه الجزيرة هناك جزيرة أخرى، لايتجاوز قياس محيطها الميلين، تقوم عليها كنيسة صغيرة، وعلى هذه الجزيرة وعول وحيوانات برية أخرى، وهم من الكثافة بمكان إلى حد أنه لايخلو مكان في الجزيرة منهم، ونزل رفاقي في إحدى المرات في هذه الجزيرة، فوجدوا في الكنيسة رماحاً وترسة، وقسياً عقارة مع كثير من السلاح، ومخزوناً كبيراً من اللحوم المجففة، كانت قد جلبت إلى هناك من قبل قرصان البحر واللصوص فيه، ولعل ذلك كان بعد الاستيلاء عليها مرة إثر أخرى، فقد خزنوها هناك، وقد انتظر رفاقي هناك طوال اليوم متوقعين قدوم اللصوص، وذهبوا إلى الصيد، لكنهم لم يمسكوا أي شيء، ولكن صدف عند حلول المساء، أن واحداً منهم كان جالساً بين صخرتين، فجاء وعل ليمر من فوقه، فقطع رجله اليمنى وجرح اليسرى بضربة من سيفه، وهكذا حصلوا على الوعل وغادروا، ويوجد إلى جانب هذه الجزيرة جزيرة أخرى، لايوجد فيها أية حيوانات باستثناء بعض الحمير الوحشية، وهي تعطي فرصة جيدة لرياضة صيدها، لكن ليس لديها لحوم جيدة للأكل مثل لحوم الطرائد الأخرى، وليس بعيداً عن هذه الجزيرة هناك جزيرة أخرى اسمها بيرا Peyra ، وهي جزيرة جيدة، يوجد فيها ثلاثة أشكال من الحجارة اسمها Alun ، بكميات كبيرة جداً، ولهذا تصدر

هذه الحجارة من هناك إلى جميع أنحاء العالم، ومنذ وقت غير طويل استولى الجنويون على هذه الجزيرة وانتزعوها من الأتراك بالقوة، وفعلوا خيراً بإعادتها إلى أسقفيتها وإلى أحوالها الأصيلة، وهذه الجزيرة على مقربة من تركيا، وبينها وبين تركيا جسر، لو استطاع الأتراك لما سمحوا لأحد بعبوره، سواء أكان الحال فيما بينهم حالة حرب أو سلم، وتجدهم عدوانيين كثيراً لدى خسارتهم للجزيرة، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل لإخباركم حول الجزر الأخرى، وإذا ما ترك الإنسان هذه الجزر، يبحر ثانية عائداً إلى شواطىء آسيا الصغرى أو تركيا، ويصل إلى باترا Pa-tara، التي كانت فيما مضى مدينة جليلة، وفائقة الجمال، وقد جرى تدميرها الآن من قبل الأتراك، وولد في هذه الجزيرة البابا التقي نيقولا، ويبحر الانسان من باترا ليصل إلى مدينة أخرى كانت جليلة جداً أيضاً، غير أنها مدمرة الآن، اسمها ميرا Mirrhea ، فيها جرى انتخاب البابا نيقولا المجيد بشكل رائع أسقفاً، وهو الذي أنار تلك البلاد كلها بمعجزاته الكثيرة وبمحاسنه وفضائله، ومن ميرا — إذا ما اخترت — يمكنك متابعة الابحار، ولسوف تصل إلى جزيرة جيدة جداً ومشهورة اسمها كريت، وهي التي كانت فيما مضى مملكة قائمة بنفسها، غير أنها لاتحتوي على كثير من المدن المحصنة، واسم أعظم مدنها الخندق ويحرق في الجزء الأعظم من هذه الجزيرة القصعين من أجل استخدامات نار الحطب، وقد استولى البنادقة على هذه الجزيرة بالقوة، وانتزعوها من الاغريق، ومن كريت يبحر الانسان إلى جزيرة أخرى جميلة جداً ومتميزة، وصحية ولطيفة، وقد كان اسمها فيما مضى كولوس Co-los، ولها حاضرة اسمها كولوسينسيس Colossensis ، ولهذه الجزيرة كان القديس بولس قد كتب رسالته(إلى أهل كولوسي)، وتعرف هذه الجزيرة باسم رودوس، بسبب إقليم المناخ السابع للعالم، الذي تقف هذه الجزيرة لوحدها فيه، وهي تفصل بين أقاليم المناخات وتميزها.

ومن هذه الجزيرة كان قـد جاء الدمـار أولاً إلى مدينة طروادة النبيلة، لأنهم قـالوا عاش هناك الكبش مع الخاروف الذهبي، الذي قـرأنا عنهما مطولاً في تواريخ طروادة، وجزيرة رودس هذه جزيرة ثمينة جداً، ذلك أنها جبلية، وقـائمة وسط رياح صحية جـداً، وهي مليئة بحيوانات برية اسم واحـدهـا الأيل الأسمـر، فضـلاً عن هذا، إنـك من أي مكان من البحر أبحرت لابد من أن تمر برودس أو بالقرب منها، وفي هذه الجزيرة هناك مـدينة اسمهـا رودس، وهي فـائقـة الجمال وحصينة، ولها أسـوار عـاليـة وأبراج منيعـة بنيت من أحجـار كبيرة جـداً، تبعث على العجب كيف استطاعت اليد البشرية وضعها في أماكنها، ولدى فقدان عكا، قام مقـدم فرسـان اسبتارية القـدس مع رهبانه بالاستيـلاء على هذه الجزيرة بالقـوة، وانتزعـوها من الاغـريق، وقـد حاصروهـا لمدة سنة، وما كـان بإمكانهم الاستيلاء على المدينة، لولا أنهم كسبـوا سكانها إلى جانبهم عن طريق الرشوة، وهكذا سلموا الجزيرة برضاهم، ولهذا قام رهبان الطائفة باتخاذها مقراً قيادياً لهم، وفيها سكنوا ومازالوا حتى هذا اليوم، وهناك ثلاثمائـــة وخمسين راهبـاً مع مقـــدم الطـائفـــة، الذي كـــان في أيامي ايلينوس(دي فيـلانوفي ١٣٢٧ — ١٣٤٦)، وهو رجـل متقـدم بالسن كثيراً، وبالغ الشـح، وقـــد جمع ثروة لاتحصـى، وبنى كثيراً في رودس، وحرر الطائفـة من جميع ديونها الواسعة، وتقوم هذه الجزيرة على مسـافة عن تركيا تسـاوي قدر مايبلغـه صوت إنسان، فهي مفصـولة عن تركيا بوسـاطة مضيق بحـري وتجبي الجزية مـن كل المناطق المحيطة بها، ومن تركيا ثلث منتجات تلك البلاد، ولها في تركيا قلعة صغيرة، لكن حصينة جداً، وبين هؤلاء الرهبان وبقية تركيـا هدنة على اليابسة، ولكن ليس في البحـر، ولا في الأمـــاكن التي يؤذون فيهـا المسيحيين، ويمتلـك رهبـان فـرسان الاسبتـارية هؤلاء أنفسهم جزيرة أخـرى حصينة اسمها لانغـو Lango ، مليئة بـالقمح، والخمـــــرة، والـزيت مـع كثير من الثمار ويسكن فيهـا خمسين من فـرســان الاسبتـاريـة، من رودس، ويمتلك

الفرسان جزيرة ثالثة كـذلك صغيرة، وخصبة اسمها قلعة روسو Ros-so ، التي تولى الأتراك نهبها في إحدى المرات، غير أنها مسكونة الآن بشكل جيـد من قبل الفرسـان ومرتزقتهم، ويوجـد فيها قلعـة حصينة جداً وعـالية، منها يمكن رؤية كل سفينة تبحر إلى أية جهـة من جهات البحر لمسافـة خمسين ميلاً تقريباً، ووقتها يرسلون الشـارات إلى الفرسان في رودس ولانغــو، وإلى المسيحيين الآخــرين في ذلـك المحيط، وذلك باستخـدام الدخـان بالنهـار، واللهب في الليل، ويخبرونهم بعـدد السفن الموجـودة في البحـر، وبنـاء عليـه يقـوم الفـرســان والمسيحيـون باتخاذ اجـراءات الاستعـداد للقتـال والدفـاع وفقـاً لعـدد السفن التي تلقـوا شـارات عنها، وهـذه الجزيرة نافعة جـداً بالنسبـة للمسيحيين، فمنذ أن امتلك الاسبتــاريـة الجزيرة والقلعـــة، لم يقم الأتـراك بإلحاق الأذى بالمسيحيين بسفنهم، فضـلاً عن هذا اعتـادت جزيرة رودس مع جـزيرة لانغـو، وجميع الجزر، والبلاد المسيحيـة هناك على دفع الجزية إلى الأتراك قبل أيام الاسبتــارية في رودس، لكـن الآن بفضل نعمـــة الرب عكس الاسبتارية الوضع تماماً، وكان الأتـراك عندما سمعوا بأن جزيرة رودس جرى الاستيـلاء عليها من قبـل فرسان القـديس يوحنا، حشـدوا جيشاً كبيراً، وأرسلوا أولاً سفــارة مهيبـــة تطالب في البــدايـة بشكل لطيف وبعرض سلمي بـدفع الجزية المستحقة لهم على الاسبتارية، مع الاعلان أنهم سيقومـون عن طواعية بإبرام سـلام وعقد معاهـدة مع الاسبتارية، وفي جميع الأحــوال عليهم دفع الجزيـة لهم، ولم يكن للطائفـــة في ذلك الوقت مقدم لأن الراهب فـولك دي فيلارت Villaret ، الذي كان مقدم الطائفة،كـان قد جرى خلعه من قبل الفـرسان إثر خلاف ونزاع، غير أن واحداً من الرهبـان من بازل Basle وكان شجـاعاً جـــداً، وفارساً أميناً، كان وقتذلك الوصي على الطائفة، عمل الجواب وتقدم به إلى الأتراك، راجيـاً منحه فـرصـة ثلاثة أيام من أجل التفكير والتقـدير، وأن تكون هـذه الأيام بمثـابـة هدنة، الأمـــر الذي رحب بـه الأتراك

ومنحـــوه إياه، وأمـروا جيشهم بـأن يكون على أهبـة الاستعـداد، وفي الوقت نفسـه تابع هذا الوصي ذاته الاحتفـال يومياً مع الأتراك، ووجـد ببراعة كل مـا كان بحـاجة إليه حـول جيشهم، وأحواله ووضعـه، وما الذي ينوي فعله، وحشد في الوقت نفسه أكبر عدد من السفن والرجال أمكنه توفيرهم، وتظاهر في اليـوم الثالث أنه على وشك مغـادرة رودس للقتال ضـد الاغريق، وسأل الرسل الأتراك بالدخول إلى بيتـه خشية أن يلحقهم بعض الأذى على أيدي المسيحيين، والبقـاء هناك حتى عـودته، وفعل الرسل مـا طلب منهم، وقـام إثر ذلك هذا الفـارس، الذي هو الوصي على الطائفة بـوضع حرس حول الرسل بشكـل سري من ثقاته، وأقلع إثر هذا مع جيشـه وبات في وسط البحر، وانقض في فجـر اليوم التالي على جيش الأتراك، وفتك به وقتل أفراده من دون تمييز بين رجل وامـــرأة، وشـاب وشيـخ، لأن من عـادة الأتـراك والتتـار اصطحـاب أزواجهم وأولادهـم الصغار وجميـع مقتنياتهم معهم في الجيش، إلى حيثما توجهـوا وقصدوا، وهكذا بعـدمـا قتلوا جميع الناس وحصلوا على جميع مقتنيـاتهم وقطعانهم، عـاد هؤلاء الفرسـان إلى رودس في اليوم الثـالث وسط بهجة عارمة.

ولقد سمعت من بعض الذين كانوا حضوراً، أنهم حصلوا على كثير من الأسـلاب، حتى أنهم حـزمـوا هذه الأسـلاب وجـروها في البحـر بوسـاطة حبـال، شـدوها إلى السفن، وعندمـا كمل هذا كله، استـدعى الوصي على الطائفـــة الرسل الأتـراك، وأخبرهـم بأن الاسبتـــارية على استعـداد لإقامـة هدنة ولعقد معـاهدة مع الأتراك، ثم تركهم يغـادرون على الفـور، فقامـوا باليوم نفسـه، وسط بهجـة عظيمة، بالرسـو بالمكان الذي تركـوا فيـه جيشهـم، غير أنهم وجـدوا أن جيشهم قـد قتل كله حديثاً، وأجساد أفـراده معراة ومسلوبة، وأن جميع الممتلكات قد أخذت بعدما سلبت، وعندما رأوا هذا كله، ذهبوا إلى موطنهـم حزينين بقدر ما

كانوا مسرورين، ونقلوا ما لديهم من أخبار إلى بقية الأتراك، ومنذ ذلك الحين لم يطلب الأتراك الجزية من التتار من فرسان القديس يوحنا أو من المسيحيين في رودس حتى هذا اليوم.

وفي رودس هناك الكثير من الآثار المبجلة، من بينها الصليب النحاسي، المعتقد أنه صنع من الجرن الذي غسل فيه المسيح أقدام حوارييه، هذا وللقوالب الشمعية المصنوعة بوساطة هذا الصليب قوة هائلة في تهدئة العواصف في البحر، وكان هذا الصليب مع آثار أخرى مبجلة، هي الآن لدى فرسان الاسبتارية، كانت ملكاً فيما مضى لفرسان الداوية، ذلك أن جميع مقتنياتهم وقلاعهم هي الآن ملكاً للفرسان المتقدم ذكرهم، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل للحديث عن بقية أمجاد رودس الأخرى، وكذلك عن جميع الانتصارات المتنوعة للفرسان المتقدمي الذكر، ويبحر الانسان من رودس إلى قبرص.

٢٠ — *قبرص*

قبرص جزيرة جليلة جداً، وشهيرة، وفي غاية الثراء، إلى درجة لايمكن مقارنتها مع جميع جزائر البحر الأخرى، وهي خصبة بجميع الأشياء الجيدة، ومتفوقة على سواها، وقد قرأنا بأنها سكنت أولاً من قبل يافث بن نوح، وبالنسبة إلى حجمها، هي متفوقة على جميع البلدان الأخرى، والمدن الساحلية في الجوار، ذلك أنها محاطة بما يشبه الطوق ببلاد مصر، وسورية وأرمينية، وبلاد الاغريق، والمسافة من قبرص إلى جميع هذه البلاد ليست أكثر من سفر نصف يوم بالبحر، وذلك كما سأذكر فيمايلي.

وكانت هذه الجزيرة المجيدة فيما مضى ملكاً للداوية، الذين باعوها إلى ملك القدس، ثم إنه عندما فقدت عكا مع الأرض المقدسة، وجرى تدميرها، انتقل ملك القدس، والأمراء،والنبلاء وبارونات مملكة القدس

إلى قبرص وسكنوا هناك، وهم يسكنون هنـاك حتى هذا اليـوم، وهكذا غدت قبرص مملكة، وفي قبرص ثلاثة أسقفيات هي أسقفيات: بافوس، وليماسول، وفيماغوستـا، وفيها مطرانية واحدة، رئيسهـا أسقف نيقوسيا، الذي هو في أيامي راهب ماروني اسمـه الياس، وقد صـار كاردينالاً من قبل البابا كليمنت السـادس(١٣٤٢ — ١٣٥٣)، وأقدم مدينةفي قبرص هي مـدينة بافـوس، التي كـانت فيما مضـى مـدينة جليلة جـداً، ومكاناً عظيماً، وهي قائمـة على شاطىء البحر مباشرة في مـواجهة الاسكندرية، وقـد تولى بولـس وبرنابا هداية هذه المدينة إلى الايمان بـالمسيح، ومنهـا اهتدت الأرض كلهـا وتحولت إلى العقيدة، وذلـك حسبما جاء في أعمال الرسل(١٥/٣٩)، وقـام فيما مضى على مقـربـة من بافـوس قلعـة فينوس،حيث اعتـادوا على عبـادة صنـم فينوس، وكـانـوا يرتحلون من بلدان نائيـة لزيارة أبوابها، وهناك كـان يجتمع نبـلاء السادة والسيـدات، والشـابات مع بعضهم في تلـك القلعـة، وفي هذا المعبـد اتخذت الخطوة الأولى نحو تدمير طروادة، لأن هيلين قد أسرت عندما كانت في طريقها إلى هذا الهيكل، فضـلاً عن هذا اعتـادت جميع الشـابات والفتيـات على قطع العهـود في هذا المعبد بالنسبـة للزواج وللأزواج، ولهذا السبب فإن الرجـال في قبرص جنسيين بـالطبيعـة أكثـر من ســواهم في البلدان الأخـرى، لأنه إذا مـا وضع تراب من قبرص، وبشكـل خـاص من الموضع الذي كـانت قلعـة فينوس قـائمـة فيـه، تحت رأس إنسـان لدى نومه، فإن ذلك سوف يدفعه إلى ممارسة الجنس طوال الليل، وعلى مقربة من بافـوس يوجـد المكان الذي اعتاد القـديس هيـلاري Hilary أن يسكن فيه، وهناك صنع كثيراً من المعجزات، وهناك أماكن أخرى كثيرة اعتـاد قـديسـون آخـرون على السكنى فيهـا، وبشكل خـاص القـديس زيزونيمـوس Zyzonimus ، والقـديس ممّا Mamma ، الذي ولد في ألمانيا، وإليـه اعتاد الاغريق على الصلاة بتقـوى عظيمة من أجل التخلص من الدمامل.

٢١ — كرم عين الجدي

ويوجد في أسقفية بافوس هذه نفسها كرم عين الجدي، الذي لانظير له في العالم، وهذا الكرم قائم فوق جبل عظيم الارتفاع، وطوله ميلان، وهناك شعاب شاهقة تحيط به من كل جانب مثل سور، وله مدخل واحد ضيق، وهو منبسط تماماً على الذروة تماماً، وينمو في هذا الكرم كثير من العنب، وهناك دوالي من مختلف الأنواع، وبعضها ينتج عنباً الحبة الواحدة كبيرة بحجم حبة الكمثرى الكبيرة، وينتج بعضها الآخر عنباً الحبة منه صغيرة مثل حبة الكمثرى الصغيرة، وتنتج بعض الدوالي عناقيد عنب واحدها كبير مثل عدة جرار، وبعضها الآخر عناقيد صغيرة جداً، وتعطي بعض الدوالي عنباً أبيض، وبعضها الآخر عنباً أسود، وبعضها عنباً أحمر، وتعطي بعض الدوالي عنباً من دون بذور، وبعضها الآخر أعناباً مستطيلة، شكلها مثل شكل جوزة البلوط، وبعضها شفافاً، كما هناك أنواع أخرى لاتحصى من الدوالي والأعناب من الممكن رؤيتها في هذا الكرم، وكان هذا الكرم فيما مضى ملكاً لفرسان الداوية، لكنه الآن ملكاً لفرسان القديس يوحنا في رودس، وكان هناك في أيام الداوية دوماً مائة من الرقيق — أعني من أسرى المسلمين — موجودين بشكل دائم، ليس لهم من واجبات أو عمل مفروض عليهم، غير العناية بهذا الكرم ورعايته، ولقد سمعت من عدد كبير من الرجال ذوي الخبرة العظيمة، أنه لايوجد تحت الشمس أكثر جمالاً من هذه الجوهرة، وأعظم جلالاً، أو روعة ، وقد خلقها الله من أجل فائدة الانسان، وذلك مثلما نقرأ عن الشيء نفسه في نشيد إنشاد سليمان قوله:«حبيبي بالنسبة لي مثل عنقود كافور في كروم عين جدي»(١/ ١٤).

وليس بعيداً عن بافوس تقوم ليماسول، التي كانت فيما مضى مدينة جميلة، غير أنها الآن مدمرة كثيراً بسبب الزلازل، وتدفق المياه بشكل

مفاجىء من الجبال، وهذه المدينة قائمة على الساحل، وهي تقابل بشكل مباشر، صور، وصيدا، وبيروت، وعندما فقدت عكا سكن هذه المدينة فرسان مشفى القديس يوحنا، وفرسان الداوية، والنبلاء الآخرون، ومن الممكن رؤية قصورهم الكثيرة وقلاعهم حتى هذا اليوم، وعلى مقربة من ليماسول هناك كرم آخر اسمه كرم عين الجدي الصغير، وفيه ينمو كثير من الدوالي، لايمكن للانسان أن يقيسها بذراعيه، غير أنها ليست طويلة جداً، ولاتعطي كثيراً من الثمار، وفي موضع من هذه الأسقفية اسمه برافيمانت Pravimunt(بنينانت Peninunt) يسكن رهبان من فرسان طائفة التيوتون، وكذلك بعض الانكليز من طائفة القديس توماس أوف كانتربري، ويوجد في هذه الأسقفية أيضاً جبل عظيم الارتفاع، قائم منفرد بذاته، يشبه كثيراً جبل الطور، ويقوم على ذروته دير جميل، فيه رهبان من طائفة القديس بندكت، وفي هذا الدير الصليب الكامل الذي صلب عليه اللص على يمين المسيح، وقد أحضر إلى ها هنا من قبل القديسة هيلانة، وهي أيضاً تولت بناء هذا الدير مع تكريسه، وتجري تحية هذا الصليب والسلام عليه بكل تقوى من قبل جميع البحارة وهم في البحر، وذلك عندما يقتربون من هذا الجبل، وقد صنع الرب كثيراً من المعجزات على الجبل، بسبب فضائل الصليب المذكور، ومن الممكن رؤية جبل لبنان بوضوح من هذا الجبل.

٢٢ — *مدينةفيماغوستا*

واسم المدينة الثالثة في قبرص هو فيماغوستا، وهي قائمة على شاطىء البحر، وفيها الآن ميناء لجميع البحر، وللمملكة كلها، وهناك لابد من تجمع التجار والحجاج، وتقوم هذه المدينة مباشرة في مواجهة أرمينيا وتركيا،وعكا، وهذه أغنى جميع المدن في قبرص، وسكانها أثرياء إلى أبعد الحدود، وفي إحدى المرات كان واحداً من أهالي فيماغوستا يزوج ابنته، وقد قال الفرسان الفرنسيون الذين كانوا يبحرون معنا بأن

الجواهر التي وضعتهم فوق رأسها كانوا أفضل من جميع جواهر فرنسا، وكـان في هذه المدينة تاجـراً باع إلى السلطان كرة سلطـانية ذهبيـة بمبلغ ستين ألف فلورين، وتحتـوي هذه الكرة على أربعة أحجـار كريمـة فقط هي من: العقيق الأحمر، والياقوت الأزرق، واللؤلؤ، والزمرد، ومع هذا ذهب إليه فيها بعـد والتمس أن يسمح له بشراء تلك الكرة ثانيـة مقابل مـائـة ألف فلوريـن، لكن التماسـه رفض، فضـلاً عن هذا كـان لدى قسطلان القدس أربع لآلىء، كـانت زوجته ترتديهم على شكل«بروش»، كـان بإمكانه متى أراد، وحيثما رغب، أن يـرهنهم مقـابل ثلاثمائـة ألف فلورين، وكـان في مخزن هذه المدينة أكثـر من حمولة خمس عـربات من خشب الصبر، ولن أقـول شيئاً عن التـوابل، لكثـرة تداولها وانتشـارها، فهي مثل الخبز هنا، وهي تمزج بشكـل عادي وتباع، وكـذلك لن أجرؤ على أن أقول شيئاً أكثر حول الأحجار الكريمة، والثياب المذهبة، وأنواع الثـروات الأخـرى، لأنه يـوجـد في تلك المنـاطق مخازن منهم لم يسمع بمثلهـا، ولايمكن تصـديقهـا، ويسكن في هذه المدينة عـدد كبير من المومسات الثريات جـداً بشكل لايحصى، ذلك أن بعضهن يمتلكن أكثر من مائة ألف فلورين، وعن ثرواتهن لا أتجرأ على قول المزيد.

٢٣ — *سلامينا ونيقوسيا*

وعلى مقـربة من فيماغـوستـا هنـاك مـدينة سـاحليـة أخـرى اسمهـا كونستـانتيا، أو سلامينا، وهذه كـانت فيها مضى مدينة جليلة، وشهيرة، وجميلة، فعلى ذلك تدلك خـرائبها، وقد عـاش في هذه المدينة رجل رائع في قداستـه، اسمه القديس ابيبفـانيوس Epiphanius ، وقد انتخب أسقفـاً بشكل إعجـازي ودفن هناك، وولدت في المدينة نفسهـا العـذراء القـديسة كـاترين، وتقوم بيعتهـا حتى هذا اليـوم فوق مـوضع ولادتها، وواجه في هذه المدينة القديس برنابا الرسـول الشهادة، وعلى مقربة منها جـرى إحراق جسـده ودفنه، وقد مجد القـديس ابيبفانيـوس هذه المدينة

وجميع المنطقة من حولها بكثير من المعجـزات، غير أن هذه المدينة مدمرة الآن بشكل كلي.

ويوجد في قبرص مـدينة أخرى عظيمـة جداً اسمها نيقـوسيا، وهذه المدينة هي حـاضرة قبرص، وهي قـائمـة وسط سهـل هناك عند سفح الجبـال، وفي وسط هواء صحي جـداً، ويسكن في هذه المدينـة ملك قبرص والأسـاقفـة ورجـال الكنيسـة الآخرون، الذيـن هم من أهل المملكة، وذلك بسبب هوائها الصحي، ويعيش أيضاً هناك القسم الأكبر من الأمـراء الآخرين، والكونتـات، والبارونات، والفـرسان، ويمتعـون أنفسهم كل يوم بالمباريات والمنازلات، وبالصيـد بشكل خاص، ويوجد في قبرص كباش برية، ليست مـوجـودة في مكان آخـر في العـالم، ومن الممكن اصطيـادهم بوسـاطة الفهـود، ومن غير الممكن اصطيـادهم بأية وسيلة أخرى.

والأمـراء والنبـلاء، والبـارونات، والشعب في قبرص هم الأغنى في العالم، لأن الانسـان الذي يمتلك فيها مورداً قـدره ثلاثة آلاف فلورين، ينظر إليـه أقل من الانسـان الذي دخله في هذه المناطق أقـل من ثلاثة ماركـات، غير أنهم ينفقون ثرواتهم على الصيـد، فأنا أعرف واحـداً من كـونتـات يافـا لديه أكثـر من خمسمائـة كلب صيـد، وكل زوج من هذه الكلاب له خـادم خـاص بهما، — كما جرت العـادة في هذه البـلاد — ويحافظ الخادم عليهما نظيفين، ويحممهما، ويدهنهما، فهذا مـايحتاج للقيام به بالنسبة لكـلاب الصيد في هذه البلاد، وكـان أيضاً أحـد النبلاء لديه على الأقل عشرة صقـور، أو اثني عشر صقراً، وقـد رصـد لهم ميزانيـة خاصة بهم للانفـاق عليهم، وأنا أعرف عدداً كبيراً من النبـلاء الفرسان في قبرص بإمكان كل واحـد منهم تجنيـد أكثـر من مـائتين من الرجـال المسلحين والانفـاق عليهم مبلغاً أقل مـن المبلغ الذي ينفقه على كـلاب صيـده أو صقوره، لأنهم عندمـا يخرجون إلى الصيـد يبقون أحيـاناً لمدة

شهر في الغـابات وفي الجبال، يتجولون مـع خيامهم من مكان إلى مكان آخـر، يتمتعـون ويتسلون بالصيد مـع كلابهم وصقـورهـم، وينامـون في الغابات والحقـول في خيمهم، ويحملون معهم كل مـا يحتاجون إليـه من مؤن وعتاد على ظهور الجمال مع حيوانات التحميل.

وعليك أن تعرف أن جميع الأمراء، والنبلاء، والبارونات، والفرسان، وأفراد الشعب في قبرص، هم الأفضل والأغنى في العالم، وهـم يسكنون الآن هناك مع أولادهم، وكـانوا قـد اعتـادوا من قبل على السكنى في أراضي سـورية ومدنها، وفي اليهـودية، وفي مدينة عكا الجليلة، لكن أمـا والآن قد تمت خسارة الأراضي والمدن السورية وكذلك اليهودية ومدينة عكا الجليلة، فقـد هربوا إلى قبرص، وسكنوا هناك ومـايزالون يسكنون حتى الآن، ويوجـد في قبرص أنـاس أغنيـاء جـداً، وتجار، ولاعجب في ذلك، لأن قبرص موجودة في أقصى(الشرق) بـالنسبة للبلدان المسيحية، ولهذا لابد لجميع السفن الصغيرة والكبيرة، ولجميع التجارات مهما كان نوعها، ومن أي بلد جاءت، لابد أنها محتـاجة إلى القدوم أولاً وقبل كل شيء إلى قبرص، حيث لايمكنهـا بأي شكـل من الأشكـال تجاوزها، فضلاً عن هذا يحتـاج جميع الحجاج القادمين من جميع أنحـاء العالم ومن أي بلد كـان، عنـدمـا يتجهـون إلى البلدان القـائمـة فيما وراء البحـار، يحتـاجون إلى القـدوم إلى قبرص، وفي كل يوم منذ شروق الشمس حتى غيـابها يسمع الانسـان ببعض الأقـاويل وببعض الأخبـار هناك، وفي قبرص من الممكن أيضاً سماع جميع اللغـات المحكية في العـالم والتحدث بها، وكذلك تعليمهـا في مدارس خـاصة، وتنمو في قبرص كـروم رائعة فـوق الجبال العـاليـة، قد تعـرضت لأشعـة الشمس، وتكون خمور هذه الأعناب في البـداية حمراء،لكن بعد مكوثهـا في جرار فخاريـة لمدة أربعة أعـوام، أو ستة، أو عشرة، أو عشرين، تغـدو بيضاء، ومهما كـانت المدة التي مكثت فيهـا طويلة، لن تفقـد قـوتها، بل تزداد كل يوم، حتى يبلغ

الأمـر أن تسعـة عيارات مـن الماء تضاف بالعـادة إلى عيـار واحـد من الخمر، وإذا ما أقـدم إنسان على شرب دن من تلك الخمرة هو لن يسكر فقط بل ستحترق أحشـاؤه في الداخل وتتمزق، ومع ذلك مفيـد صحياً أن تتناول بعضـاً من هذه الخمـرة من دون مـزج وتشربها على معـدة فـارغـة، ولايوجـد في أي مكان شـاربي خمرة أفضل أو أكثر تناولاً من الذين في قبرص، وفي قبرص تنمو جميع الأشجـار والأعشاب مثلما تنمو في الأرض المقـدسـة، وكـان في قبرص في أيـامي عـدد كبير من النبـلاء والبـارونات، والفرسـان، الذين تركـوا ألمانيـا، أذكر من هؤلاء: كـونت فيـــاندن Vianden، وكـــونت سكــــاورتزنبيرغ -Schwart zenberg ، ولـورد أوف سيلـد Sleyde، وأمير أوف لختنستين Lichtenstein، وعدد كبير آخر.

يضاف إلى هذا أن جميع الأماكن السـاحلية في تركيا والمناطق المحيطة بها تدفـع الجزية إلى ملك قبرص، والمقصـــود بهذا: كـانـديلور -Can delor ، وسكالنون Scalnun ، وسيكي Sicki ، وأضـاليـا، والأماكن الأخرى والأحواز القريبة منهم، ويوجد في مدينة أضاليا هذه ثلاثة شعـوب من الهراطقـة، والمدينة مقسمـة بأسـوار وخنادق إلى ثلاثة أقسام، ويسكن في القسم الأول منهـا الاغريق، الذين يحافظون على يوم الرب المقدس(الأحـد)، ويسكن في القسم الثاني اليهـود الذين يحافظون على يوم السبت المقـــدس، وفي القسم الثـالث الأتـراك، الذين يحافظون على يوم الجمعـة، ويرونه مقـدساً، ويـوجد في القسم الاغـريقي صـورة العذراء مـريم المباركة، مـرسومة على رقيم، ويوجـد في العالم ثلاثة رقم من الشيء نفسه هي: الأول في رومـا، والثاني في القسطنطينيـة، والثالث في أضاليا، وهـم جميعاً بالحجم نفسه، والشكل، والمظهر، ومن المعتقد أن القـديس لوقا قـد رسـم هذه الصور الثـلاث مباشرة عن شخص مـريم المبـاركــة، وصـدوراً عن الاحترام لهذه الصـــور، صنع الرب كثيراً من

المعجـزات هناك، ويحتاج إلى زمـن طويل جداً للحـديث عن بقيـة ثراء وجلالة قبرص.

٢٤ — المدن القائمة على شاطىء البحر

وفي عودة إلى مـوضوعي، يبحـر الانسان من قبرص، إلى واحـدة من المدن القـائمـة على شاطىء البحـر، وذلك إمـا إلى مصر أو إلى سـورية، وهذه المدن هـي كمايلي: الاسكندرية، طرابلـس، بيروت، جبيل، يافـــا، صيدا، صور، وعكا، وقبل المضي أكثر سوف أتحدث بعض الشيء حول هذه المدن، حتى يمكنك أن تتعـــرف إليهم، وهم جميعـاً أعطيـوا أسماء مختلفة عن الأسماء التي حملوها في الماضي، وذلك بعـدما فقدت الأرض المقدسـة واستردت كثيراً من المرات، ولذلك سوف أتحدث قليـلاً عنهم حتى تعـرف بحصـــة من وقعت هذه المدن عندمـــا استـولى عليهـــا الصليبيون.

وعليك أن تعـرف أن مـا من واحـدة مـن هذه المدن تبعـد أكثـر من سفـــريوم واحـــد عـن قبرص، واعلم أولاً أن الاسكندرية هـي المدينة البحرية الأولى لمصر، وواحدة من أحسن مدن السلطان، وهي قائمة من الجانب الأول على نهر النيل، الذي هو نهر الفـردوس، والذي يصب في البحر بجـوارها، ويقع جانبهـا الآخر على شاطـىء البحر، وهذه المدينة فائقـة الجمال وحصينة، ومحاطة بأبراج عـالية وبأسوار تبـدو أنها لاترام، وقـد سكنت فيها مضى من قبل المسيحيين، وأمـا الآن فهي مسكونة من قبل المسلمين، وهي في الداخل في غـــاية النظافـة، فهي كلهـا مغسـولة ناصعة، ويوجد في قرنة كل شـارع نبع ماء يجري خلال أنابيب، وجرت المحـافظة على نظافـة المدينة بكل عناية من قبل مـراقبين، الذين واجبهم هو منع رمي أية أوسـاخ في الشـوارع أو بـالينابيع من قبل أي إنســان، ويبقي السلطان في هذه المدينة على جنود مـرتزقة مع حـرسه الشخصي، حيث يتولون حـراسة المدينة مع الميناء، وكان القـديس مرقص الانجيلي

بطريركاً في هذه المدينة، وقد استشهد هناك، وخلافة له مايزال هناك بطريرك مسيحي فيها، وفي هذه المدينة مايزال قائماً حتى هذا اليوم كثيراً من الكنائس الأخرى، فيهم ترقد أجساد كثير من القديسين، ويوجد هناك كثيراً من المسيحيين والتجار يعيشون فيها، وتبدو هذه المدينة بالنسبة للعين البشرية أنها لاترام، ومع ذلك من السهل الاستيلاء عليها، وأنا لا أجرؤ على قول المزيد حول هذه المسألة.

ومدينة الاسكندرية هذه، التي عرفت بالقديم باسم الاسكندرية، تدعى الآن باسم اسكندرية، من قبل سكانها، وعلى مقربة من الاسكندرية يوجد الموضع الذي قطع فيه رأس القديسة كاترين، ومن هناك حملتها الملائكة إلى جبل سيناء، على بعد سفر حوالي ثمانية أيام، ويوجد في هذه المدينة كثرة كثيرة من الأماكن المقدسة وأماكن العبادة في تلك المدينة.

وليس بعيداً عن الاسكندرية هناك قرية سكانها جميعاً من المسلمين الحرفيين، الذي يتولون نسج البسط الرائعة بأشكال مختلفة، وببراعة مدهشة غريبة، ويقوم في هذا المكان أو القرية كنيسة صغيرة جميلة، فيها قبو صغير، ومن المعتقد أنه في هذا القبو جرى قطع رأس القديس يوحنا المعمدان، ومن المعتقد أن هذا القبو كان سجناً، وهو معروف بسبب وضع المكان، حيث أنه قائم على حدود مصر والعربية، ويتولى هؤلاء الحرفيون المسلمون أنفسهم حراسة القبو بعناية فائقة وباحترام كبير، ويقومون بإضاءته بمصابيح وشموع، ويدفع كل واحد منهم حسب قدراته ووسائله بعضاً من دخله الخاص إلى الكنيسة وإلى القبو، لأنهم يعتقدون بكل تأكيد، وأنه قد تبرهن بالتجربة، أنهم إذا لم يحافظوا على الكنيسة بمثل هذا الاحترام، وإذا ما تركوها غير مضاءة لليلة واحدة، سوف تخرج الجرذان من الأرض وستمزق إلى قطع وتتلف جميع البسط المعمولة من قبلهم، ويقولون إنه كلما أظهر أي إنسان المزيد من الاحترام

للكنيسة والقبو المتقدمي الذكر، كلما نجح أكثر في عمله، وكان هذا المكان الذي تقوم فيه الكنيسة الآن يدعى قديماً بالعربية باسم النصرونية(؟) Metharonta .

وأقرب مدينة إلى مصر اسمها طرابلس، وهي قائمة على شاطىء البحر، عند سفح جبل لبنان، وهي منطقة، أعطيت إلى كونت طولوز، بعد استرداد الأرض المقدسة من قبل الصليبيين، وهذه المنطقة أو الكونتية خصبة، ومشهورة بسبب مزروعاتها، ومروجها، ومراعيها، وأعشابها وأشجارها وفواكهها، وهي بذلك أكثر شهرة من جميع البلدان من حولها، وأعظم جمالاً، ولهذا تدعى دون سواها من البلدان باسم الجنة الثانية، وفيها ما هو محبوب وجميل فوق تصور البشر وفهمهم، وجرى تدمير هذه البلاد أوالكونتية المكونة من الحدائق بوساطة سيل تدفق من ذرى الجبال العالية للبنان، وذلك باندفاع مخيف، حتى أن صوته كان يمكن سماعه عن بعد أكثر من ميل، والذي كان واقفاً إلى جانبه صار أطرشاً لمدة تزيد على ثلاثة أيام، ومثل هذا هناك بئر ماء يجري خلال هذه المنطقة أو الكونتية، كما وينبع هناك نبع يتدفق دوماً من الأرض المنبسطة، ولم يتناقص قط بكمياته أو شكله، وهو في جميع الجوانب مثله مثل النبع الموجود في مدينة بادربورن، والذي يدعى باسم بادر Padere، وبمياه هذين الجدولين، أي النبع والبئر تتم سقاية جميع الأرض، وهذين هما الجدولين اللذين نقرأ عنهما في[نشيد الأنشاد:٤/ ١٥]:«ينبوع جنات بئر مياه حية وسيول من لبنان».

وعليك أن تعرف أن جبل لبنان جبل طويل جداً، وهو في بعض الأماكن مرتفع كثيراً، وباعتقادي هو يشبه من جميع الجوانب الجبل الموجود في هذه المناطق واسمه اوسننغ Osning ، ويمتد جبل لبنان من بداية أرض الميعاد بعيداً حتى كليكيا، وهو جبل مليء بأجمل الأشجار، وأطيب الفواكه، والحشائش ومما يمكن لقلب الإنسان أن

يتصـوره، والجبل كـذلك مليء بها لايحصى من البلدات والقـرى، فيهـا جميعاً يسكن مسيحيون، يسيرون وفق الطقـوس اللاتينية، وهم يتطلعون شوقـاً يومياً لقـدوم المسيحيين(بحملة صليبية)، ولقـد رأيت عدداً كبيراً من أساقفتهم يسيرون وفق الطقوس اللاتينية.

وعليك أن تعلم أن البلاد التي يصل إليهـا هذا الجبل، قد عرفت فيما مضى باسم كليكيـا، لكنهـا تعـرف الآن باسم أرمينيـا الصغـرى، لأن الأرمن استـولوا على تلك الأرض وانتـزعـوها من المسلمين بالقـوة، وتحاربوا معهم وتخاصمـوا لمدة خمسمائـة سنة بـدون انقطاع، وفي هذه المنطقة تقوم مـدينة طرسوس الجبلية، التي كان القـديس بولس الرسول قد ولد فيها.

وفي عودة إلى مـوضوعي: هناك مـدينة بحرية أخـرى اسمها بيروت، وهي مدينة جميلة وكثيرة السكان، وكانت عندمـا استولى الصليبيون على الأرض المقـدسـة صـارت من نصيب لـورد أوف ستـاركنبيرغ -Star kenberg، وقد ورد ذكـر هذه المدينة لدى الامبراطور جستنيان في مقدمة مختصر مدونته القانونية، ذلك أن دراسة القانون قد ازدهرت فيها فيما مضى، ويقوم في هذه الكنيسة كنيسة جميلـة مكرسة للقديس نيقولا، وهي كنيسـة تحظى باحترام خـاص لدى المسيحيين، وكـان القـديس جورج قد حول هذه الجزيرة إلى عقيدة المسيح، وقتل التنين الذي كانت تعـاني منه، وأنقـذ ابنـة ملك المدينة من التنين، ومجّد البـلاد بكثير من المعجزات، وبئر التنين مـايزال من الممكن رؤيته بوضـوح، ويلتقي جميع الحجاج المتـوجهون إلى القدس مع بعضهـم في هذه المدينة، ويمرون من خلالها.

وليس بعيـداً عـن هذه المدينة، هناك مـدينة أخـرى جيـدة التحصين وقويـة اسمها جبيل، التي آلت بعـد الاستيلاء على الأرض المقـدسة إلى

فـــرســـــان الداويـة، ويقـــرأ الانســـــان عن هذه المدينـة في سفـــر الملوك(الأول:٥/ ١٨) قوله:«والجبليون وهيأوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت»، وكانت هذه المدينة تعـرف وقتذاك باسم بيبلوس، واسمها الآن جبيل.

وليس بعيداً عـن هذه المدينة، تقوم مـدينة أخرى على شاطـىء البحر اسمها يافا، التي ماتزال مسكونـة بشكل جيد، وكان طريق الحجاج فيما مضى يمـرعبر هـذه المدينة، لكن قبل أيامي بوقـت قصير قـام السلطان بتخريب مرسى هذه المدينة، خشية من ملك فرنسا.

ويوجـد على مقـربة من هذه المدينة مـدينتـان أخريتـان جميلتـان هما: الرملة، التي ولد فيها النبي صمـوئيل وعسقلان، وتبعد يافـا سفر ثلاثة أيام عن القـدس، أو مايقارب ذلـك، وهي كونتيـة، وكونت يافـا أيضاً مارشـال مملكة القدس، وصاحب الرملة وعسقلان، وهكذا يذكـر نفسه ومـرتبتـه، وفي أيامي تزوج كـونت يافـا وهنري دوق برنزوك Bruns-wick من أختين.

وليس بعيـداً عن يافـا توجـد مـدينة جميلة جـداً، قائمـة على سـاحل البحر، وهي جيدة التحصين بوساطة خمسـة أبراج جيدة وبأسوار، لكنها مـدمـرة تمامـاً، واسم هذه المدينة صيـدا، وإثر الاستيـلاء على الأرض المقـدسـة صـارت من حصـة فـارس اسمـه دي نيبـولي Neapoli ، وكانت هذه المدينة تعـرف فيما مضى باسم صيدون، وتدعى الآن باسم ساغيت Sagette .

وعلى مقربة مـن هذه المدينة توجد مـدينة أخرى فـائقة الجمال، وهي بالوقت نفسه جيدة التحصين بوساطة أبراج جيـدة وأسوار، وهي قائمة بمفردها فوق جزيرة في البحـر، واسم هذه المدينة صور، وهي الآن شبه مهجـورة، وكـانت عندمـا جـرى الاستيلاء على الأرض المقـدسـة، قـد

صارت من حصة بلدوين أخو غودفري دي بولليون، وهذه المدينة التي عرفت فيما مضى باسم Tyre ، تدعى هذه الأيام باسم صور.

ويقوم فيما بين صيدا وصور كنيسة جميلة، بنيت فوق المكان الذي دعت فيه المرأة الكنعانية الرب، ويتحدث الانجيل عن هذا بقوله:«ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا، وإذا امرأة كنعانية»الخ،[متى:١٥/ ٢١ — ٢٢].

٢٥ — مدينة عكا المجيدة

وعلى مقربة من صور، وعلى مسافة سفر يوم واحد على طول شاطىء البحر، تقوم مدينة عكا المجيدة، التي كانت فيما مضى محط الحجاج، وجميع المسافرين الآخرين، وهي تبعد مسيرة ثلاثة أيام عن القدس، وقبل المضي إلى أي أمر آخر، لابد من أن أقول شيئاً ما حول مدينة عكا هذه، لكن مع هذا عندما أنظر إلى أوضاعها الحالية أفضل النحيب والبكاء على أي شيء آخر، فأي قلب لن يذوب حزناً، ويستطيع أن يصمد، لدى رؤيته لخراب ولدمار هذه المدينة الجليلة والعظيمة؟ وتقوم مدينة عكا المجيدة هذه — كما قلت — على شاطىء البحر، وقد بنيت بحجارة منحوتة مربعة، حجمها أكبر من المعتاد، مع أبراج عالية وفائقة الحصانة والقوة، ولايبعد كل برج عن البرج الآخر أكثر من مسافة رمية سهم، وذلك على طول محيط الأسوار كلها، ويقوم كل باب من أبواب المدينة بين برجين، والأسوار هناك عظيمة إلى حد يمكن لعربتين أن تمر إحداهما بالأخرى بسهولة فوق أعلاها، كما هو الحال في هذه الأيام، ومن الجهة الأخرى أيضاً، باتجاه اليابسة، المدينة محاطة بأسوار متميزة، وبخندق عميق جداً، وهو مجهز بشكل موائم بغطاسين وعمال ومدافعين وبوسائط موائمة للحراسة.

والشوارع في المدينة في داخلها مرتبة جداً ومنظمة، حيث أن جدران

البيوت كلها لها ارتفاع واحد، وكلها متشابهة البناء من حجارة منحوتة، مزينة بشكل رائع بنوافذ زجاجيـة ورسوم، وفي الوقت نفسه لم تبن جميع القصور والبيـوت في المدينة لمجرد تلبيـة حاجيات الـذين يسكنون فيها، وإنما لتزودهم بالرفاه الانساني وبالسرور والمتعة، وكل قصر متفوق بقدر الامكان على القصر الآخـر بتزجيجه، وبـرسومه، وبقـاعاته، وبوسـائل التزيين الأخـرى، التي أسس فيها في الداخل، والتي جمّل بها في الخارج، وكانت شوارع المدينة مغطاة بأقمشة حـريرية، أوبأقمشة ووسائل أخرى جميلة،لتمنع أشعة الشمس وتبقيهـا نائية، ولقد قـام في زاوية كل شارع برج فائـق القوة، محاط بباب حـديدي وبأسوار حـديدية، وسكن جميع النبلاء في قلاع حصينة وفي قصـور على طول الطرف الخارجي للمدينة، وذلك تبعـاً لحرفتهم ونوع أشغـالهم، وعـدّ جميع سكـان المدينة، مثل النورمان القـدماء، أنفسهم نبلاء، وتصرفـوا بذواتهم مثل النبلاء، وذلك مثلما كـانـوا بالفعل فيما مضى، وأول سكان المدينة هناك ملـك القـدس وأخوانه مع عدد كبير من نبلاء الأسرة، وأمراء الجليل، وأمراء أنطاكية، والقائد الرئيسي لملك فرنسا، ودوق قيسـارية وصاحب صور، وصـاحب طبرية، وصـاحب صيـدا، وكـونت طرابلس، وكـونت يافـا، وصـاحب بيروت، وصاحب يبنى، وصاحب بيسان، وصاحب أرسوف، وصاحب فوس Vaus ، ونبلاء تل الصافية.

وكـان جميع هؤلاء الأمـراء، والدوقـات، والكـونتـات، والنبـلاء، والبارونات يسيرون في الشـوارع ويعرضـون أنفسهم بأبهة ملكية،حيث الزينة الذهبيـة فـوق رؤوسهم، وكل واحـد منهم كأنه ملك، ومعـه فرسانـه، وأتباعه، ومرتزقته، وحاشيته، وثيابه وفرسـه الحربي وقد تزين بشكل رائع بالذهب والفضـة، وكل واحد منهم كان يتبـارى مع الآخر بالجمال وبالابداع والاختراع، وقـد اعتنى كل رجل منهم باظهار نفسـه وعـرضها بعناية فـائقـة، وكـانوا في كل يوم يدربون أنفسهم ويشغلونها

بالمبـــارزات، وبالصيــد، وبالمنازلات، وبكـل نوع من أنواع العــروض العسكرية، ولقد اختص كل واحد منهم أو امتاز بقطعة من الأرض إلى جانب قصره أو قلعته.

وسكن هناك أيضـاً من أجل القتـال ضد المسلمين، ولصـالح الايمان الكاثوليكي مقـدم رهبان فرسـان الداوية مع فرسـان مسلحين، وكذلك مقدم رهبان طائفة القديس يـوحنا للقدس، مع فرسان مسلحين، وأيضاً مقدم رهبان بيت طائفة التيوتون مع فرسان مسلحين، ومثل ذلك مقدم رهبـان طائفـة القديـس توماس أوف كـانتربري مع فـرسـان مسلحين، وكذلك مقدم وفرسان طائفة القـديس لعازر مع فرسان مسلحين، ولقد سكن هؤلاء جميعـاً في عكا، وكانت مقـار قيادات طوائفهم هناك، وقـد قاتلوا هم وأتباعهم ليل نهار ضد المسلمين.

وسكن أيضاً في عكا هناك أغنى التجـار تحت قبة السماء، وقد تجمع هؤلاء واحتشدوا معاً هناك من جميع أمم الأرض، فقد كان هناك بيازنة، وجنويين، ولومبـارد، الذين ضاعـت المدينة بسبب خصومـاتهم اللعينة، لأنهم عدوا أنفسهم وتصرفـوا مثل النبلاء، وقطن هنـاك أيضاً تجار على درجة عـالية من الثراء من الشعـوب الأخرى، لأنه من شروق الشمس حتى غيابها كانت تجلب جميع أجزاء الدنيا التجارات إلى ها هنا، وجرت العادة بجلب كل شيء كان موجوداً في العالم ونظر إليه على أنه رائع أو غـريب إلى هذه المدينة، وذلك بسبب النبــلاء والأمــراء الذين سكنوا هناك، وسيحتـاج الأمر إلى وقت طويـل للحديث عن الأمجاد الأخرى لعكا مع مفـاتنهـا ومحاسنهــا هناك، ولايستطيع أي إنسـان أن يتحـدث بشكل كامل عنهم.

ولقد كـانت هذه مدينة عكا الواسعة الشهـرة، التي عرفت فيما مضى باسم بطولميس، التي جـرى فيها قتل يهوذا(؟) المكابي بشكل خيـاني من قبل تريفـون، وذلك حسبما جاء في سفـر المكابيين، وبالوقت نفســه هذه

كانت مدينة عكا التي كان فيها وثن بعل زبوب، وكان ذلك في الوقت الذي سقط فيه آحاز، ملك إسرائيل من عليته التي في السامرة فمرض، فقال لخدمه: «اذهبوا واسألوا بعل زبوب إله عقرون إن كنت أبرأ من هذا المرض»؟ وذلك حسبما جاءت الرواية بالتفصيل في سفر الملوك(الثاني:١/ ٢).

٢٦ — *فقدان مدينة عكا وضياعها*

وبعدما تحدثت عن مجد عكا وجمالها، سوف أتحدث إليكم الآن بشكل موجز عن سقوطها وخرابها، والسبب في خسارتها، وذلك حسبما الحكاية تحكى من قبل رجال مستقيمين وصادقين، وكانوا يتذكرونها بشكل جيد، ففي الوقت الذي كانت فيه الأعمال الكبيرة ماضية في عكا حسبما تحدثت عنها، تفجر بإثارة من الشيطان خلاف في لومبارديا بين حزبي الغولفيين والغيبلينيين، الأمر الذي جلب جميع الشرور على الصليبيين، فاللومبارد الذين كانوا يسكنون في عكا تحزبوا واتخذوا مواقف في هذا الخلاف هي نفسها، ولاسيما البيازنة والجنويين، ذلك أنه لكل واحد من الفريقين كان هناك حزب قوي جداً في عكا.

وعقد هؤلاء الناس معاهدات وهدن مع المسلمين، من أجل أن يتفرغوا بشكل أفضل لقتال بعضهم ضد بعضهم الآخر في داخل المدينة، ولدى سماع البابا أوربان (١) بهذا حزن كثيراً من أجل الصليبيين ومن أجل الأرض المقدسة، وبعث باثني عشر ألفاً من العساكر المرتزقة عبر البحر لمساعدة الأرض المقدسة والمسيحية.

وعندما جاء هؤلاء الرجال عبر البحر إلى عكا، لم يفعلوا شيئاً مفيداً،

---

١ — حكم أوربان الرابع من ١٢٦١ حتى ١٢٦٤، وعلى هذا لايمكن لهذه الأحداث أن تكون قد وقعت في أيامه، والمقصود هنا هو جيروم دي أسكولي الذي حكم باسم نيقولا الرابع ١٢٨٨ — ١٢٩٢.

بل أقـاموا ليـلاً ونهاراً في الحانات وفي الأماكن سيئة السمعـة، واعتقلوا التجـار ونهبـوهم وفعلوا الشيء نفسـه مع الحجـاج في المناطق العـامـة، وخرقوا المعاهدة، واقترفوا كثيراً من الشرور.

ولدى سماع الأشرف خليل سلطان القـاهـرة بهذا، وكـان قـد عـرف بالصراع الكريه بين سكان عكا، وبما أنه كـان رجـلاً حكيماً جـداً، و في غاية القـدرة والقوة العسكرية، وشجـاعاً في أعماله، دعـا إلى اجتماع عام لمستشاريه، كما عقـد مجلساً عـاماً للشورى في القـاهرة، حيث تشكى بأن الهدنة قد خـرقت مراراً وتـم تجاهلها، مما ألحق الضرر به وبشعبـه، وبعد نقاش عقـد حول هذه القضية، حشـد جيشاً عملاقـاً، ووصل إلى مدينة عكا دون أن يلقى أية مقـاومـة، وذلك بسبب خصـامات الفـرنجـة مع بعضهم بعضاً، وقام بقطع جميع الكروم وأشجـار الفاكهة، وشعث جميع البسـاتين والحدائق التي كـانت جميلة وممتعة هناك، وعنـدما رأى مقـدم الداوية هذا، وكـان رجـلاً حكيماً جـداً، وفارسـاً شجـاعـاً خشي من أن سقوط المدينة بـات وشيكاً، بسبب النزاعات بين سكانها، فعقـد اجتماعاً مع رهبانه حول إيجاد طريقة، يمكن بها إعادة السلام، وخرج من المدينة لمقابلة السلطان، الذي كان صديقاً خاصاً به وقريباً منه كثيراً، ليسأله عما إذا كـان من الممكـن بأية وسيلة مـن الوسـائل إعـادة العمـل بالهدنة المخروقة، وقد حصل على هذه المطالب من السلطان، وكان ذلك بسبب حبـه للسلطان، والتقدير الذي أبداه السلطان نحـوه، وبات من الممكن إعـادة العمل بالهدنة المخروقـة شريطة أن يدفع كل إنسان في عكا بنسـاً بندقيـاً، وعلى هذا كـان مقـدم الـداوية مسروراً، وترك السلطان، ودعـا جميع السكان، وألقى فيهم موعظة في كنيسة القديس الصليب، وبين لهم كيف أنه بالتماساته، تمكن من إقناع السلطان، بالموافقـة على إعادة العمل بالمعاهدة المخروقة، بأن يدفع كل واحـد من الشعب بنساً بندقياً واحداً، فبـذلك يمكـن تسـوية كل شيء وإعـادتـه إلى السكون، ونصحهم بكل

وسيلة بأن يفعلوا ذلك،وأوضح أن الصراعـات بين سكان المدينة يمكن أن تجلب أسـوأ الشرور على المدينة، لابل أكثـر مـن هذا، وهذا مـا وقع بالفعل.

لكن عندما سمع الناس هذا، صرخوا بصـوت واحد، بأنه كان خائناً للمدينة، وأنه كان مجرماً يستحق الموت، وعنـدما سمع المقدم هذا، غادر الكنيسـة، وبصعـوبة نجـا حيـاً من أيدي الناس، وحمل جـوابهم إلى السلطان، وعنـدمـا سمع السلطان هـذا — وكـان يعلم أنـه بسبب النزاعات بين الناس مـا من أحد منهم، سوف يقدم أية مقـاومة — أمر بنصب خيمـة، وأقـام ستين آلة، وحفـر كثيراً من الانفـاق تحت أسـوار المدينة، وهاجـم المدينة لمدة أربعين يومـاً، ليـلاً ونهاراً، بدون تـوقف، بالنار، والحجارة، والسهام، حتى بدا الهواء يابساً من كثرة السهام، ولقد سمعت واحداً من الفرسان الصـادقين جداً يقول بأن جميع الحراب التي كـانت على وشك الرمي بها من أحـد الأبراج بين المسلمين، قـد عطلت بوسـاطة نشـاب المسلمين، قبل أن تترك يـده، وكـان آنذاك في جيش السلطان ستمائة ألف رجل مسلح، كـانوا مقسمين إلى ثلاث مجموعات، وعلى هذا كان هناك دوماً مائة ألف تولت حصار المدينة، وعندمـا كان هؤلاء يشعرون بالتعب، كـانت مائة ألف جـديدة تأخذ مكانهم، وهكذا دواليك، ومثل هذا وقف مائتا ألف أمـام أبواب المدينة جاهزين للقتال، وكـان واجب المائتي ألف المتبقين تزويدهـم بكل شيء كـانوا يحتـاجـون إليـه، ولم تكن الأبواب مغلقـة ولم تغلق أبداً، ولم تكن هناك سـاعـة من النهار من دون بعض القتال الحاد،الذي قـاتلوا به ضد المسلمين، وذلك من قبل الداوية وفـرسـان الطوائف الأخـرى التي كـانت مقيمـة هناك، لكن أعداد المسلمين تزايـدت بسرعة فائقـة، فبعد مقتل مـائة ألف منهم حل محلهم مائتي ألف جدد، ومع هذا ما كـان الفرنجة ليفقدوا المدينة، أمام هذا الحشـد كله، لوأن أحدهـم عاون الآخر بإخـلاص، ذلك أنهم

عندما كانوا يحاربون خارج المدينة،كانت فئة ما تهرب وتترك الفئة الأخرى لتواجه القتل، أما في داخل المدينة فإن إحدى الفئات كانت تتأبى الدفاع عن قلعة أو قصر يعود إلى فئة أخرى، لابل أكثر من هذا كانت عن قصد تترك قلاع الفئة الأخرى، وقصورها، وحصونها، يجري اقتحامها والاستيلاء عليها من قبل الأعداء، وكان كل واحد همه أن يعرف أن قلعته، وموضعه قوي حصين، ولايهمه قلعة أو حصن أي إنسان آخر.

وفي أثناء هذه الفوضى دافع مقدمو الطوائف مع فرسانهم عن أنفسهم، وقاتلوا دونها توقف ضد المسلمين، وذلك حتى قتلوا كلهم تقريباً، وفي الحقيقة سقط مقدم ورهبان طائفة التيوتون مع أتباعهم وأصدقائهم، أمواتاً في وقت واحد، وساعة واحدة كانت هي نفسها.

واستمر هذا، وجرت عدة معارك، ووقع عدة آلاف قتلى على كل طرف من الطرفين، وحل أخيراً وقت الجزاء بالنسبة لذنوبهم، واقترب موعد سقوط المدينة، وحلّ مع مجيء اليوم الأربعين للحصار، وكان ذلك في سنة ألف ومائتين واثنتين وتسعين(الصحيح: إحدى وتسعين) لتجسيد ربنا، وفي اليوم الثاني عشر من شهر أيار، في هذا اليوم جرى الاستيلاء على مدينة عكا، المدينة الأكثر جلالة ومجداً، والتي هي زهرة، ورئيسة، وفخر جميع مدن الشرق، وعندما سمع سكان المدن الأخرى، أي مدن: يافا، وصور، وصيدا، وعسقلان، بهذا تركوا جميع ممتلكاتهم خلفهم، وهربوا إلى قبرص.

وعندما استولى المسلمون على عكا أولاً، دخلوا إليها من خلال ثغرة أحدثوها في السور على مقربة من قلعة ملك القدس، وبعدما صاروا بين الناس في داخل المدينة، ظلت كل فئة تتأبى تقديم المساعدة للفئة الأخرى، بل تابعت كل فئة الدفاع عن قلعتها وقصرها، وواجه المسلمون حصاراً أكثر طولاً،وتوجب عليهم القتال بتقدم أقل، وهم في

داخل المدينة، من تقدمهم عندما كانوا في خارجها، لأنها كانت محصنة بشكل مدهش.

وفي الحقيقة جاء في أخبار سقوط عكا، أنه بسبب ذنوب الناس، قاتلت العناصر الأربعة، إلى جانب المسلمين، فأول كل شيء صار الهواء كثيفاً إلى درجة الظلام، وصار الجو متلبداً مغيماً، إلى حد أنه أثناء اقتحام إحدى القلاع، أو أحد القصور، أو الحصون، أو إحراقه كان من الصعب على الناس الآخرين رؤية القلاع الأخرى والقصور، حتى يجري مهاجمة قلاعهم وقصورهم، وللوهلة الأولى كان بإمكانهم الدفاع عن أنفسهم بشكل جيد، لو أنهم استطاعوا أن يتوحدوا، وقاتلت النار ضد المدينة لأنها ابتلعتها، وقاتلت الأرض ضد المدينة لأنها شربت دماء أهلها، وقاتلت المياه ضد المدينة، لأن الشهر كان شهر أيار، ففي هذا الشهر اعتاد البحر على أن يكون هادئاً جداً.

وعندما رأى أهل عكا بوضوح أنه بسبب ذنوبهم، وظلام الهواء، لم يعد بإمكانهم رؤية أعدائهم، هربوا إلى البحر، راغبين بالابحار إلى قبرص، وفي البداية لم يكن هنالك ريح مطلقاً في البحر، لكن ما لبث أن ثارت عاصفة كبيرة، حالت دون أية سفينة سواء أكانت كبيرة أم صغيرة من الاقتراب من الشاطىء، وكثير ممن كانوا قد شرعوا بالسباحة نحو السفن قد غرقوا، ومهما يكن من أمر، لقد نجا إلى قبرص أكثر من مائة إنسان.

ولقد سمعت من سيد صادق جداً، ومن رجال آخرين موثوق بهم، كانوا آنذاك حضوراً، أن أكثر من خمسمائة من أكثر السيدات نبلاً، ومن الفتيات، ومن بنات الملوك والأمراء، انحدرن نحو شاطىء البحر، عندما كانت المدينة على وشك السقوط، وكن قد حملن معهن على صدورهن أدوات زينتهن من الذهب والحجارة الكريمة التي لايمكن تقدير ثمن لها، وصرخن، ونادين، وسألن هل هناك أي بحار يتولى أخذ

جواهرهن جميعها، واختيار أية واحدة منهن أن تكون زوجة له، شرط أن يأخذهن، ويحملهن، ولوعاريات إلى أي بلد أمين أو جزيرة، واستقبلهن جميعاً أحد البحارة في سفينته، وأخذهن وعبر بهن إلى قبرص، مع جميع أمتعتهن مقابل لاشيء، وذهب بحال سبيله، لكن من كان هو، ومن أين جاء، وإلى أين ذهب، ما من إنسان يعرف حتى هذا اليوم،هذا وتعرض عدد كبير جداً من سيدات نبيلات أُخر وفتيات إلى الغرق أو القتل، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل للحديث عن الحزن الكبير والآلام التي كانت هناك.

وعندما كان المسلمون في داخل المدينة — إنما قبل استيلائهم الكامل عليها — استمر القتال من قلعة إلى قلعة، ومن مكان إلى مكان حصين آخر، وبذلك هلكت أعداد كبيرة من الناس على كلا الجانبين، حتى أنهم مشوا فوق جثثهم، وكأنهم يسيرون فوق أحد الجسور، وبعدما جرى فقدان جميع المدينة الداخلية، هرب الذين بقيوا أحياء إلى قلعة الداوية التي كانت حصينة جداً، وقد جرى حصارها على الفور من جميع الجهات من قبل المسلمين، ومع ذلك دافع الصليبيون عنها بشجاعة لمدة شهرين، وسقط أمامها جميع أعيان وقادة جيش السلطان قتلى، لأنه بعدما جرى إحراق المدينة القائمة بين الأسوار كلها، بقيت أبراج المدينة وقلعة الداوية،التي كانت في داخل المدينة، ولذلك تمكن أهل المدينة من إبقاء المسلمين داخل المدينة، ومنعوهم من الخروج منها، مثلما فعلوا من قبل حين حالوا دون دخولهم إليها، وظل الحال هكذا حتى لم يبق أحد من المسلمين الذين دخلوا إلى المدينة أحياء، ذلك أنهم جميعاً سقطوا بالنار أو بفعل السيف، وعندما رأى أعيان المسلمين أن بقيتهم تمددوا أمواتاً، وأنهم هم أنفسهم غير قادرين على النجاة من المدينة، هربوا لاتخاذ ملاجيء لأنفسهم في الأنفاق التي كانوا قد حفروها تحت البرج الكبير، أملاً منهم بأنهم سوف يجدون طريقاً للنجاة إلى الخارج من

خلال السور، لكن الداوية والذين كانوا في القلعة، عندما رأوا أنهم غير قادرين على إيذاء المسلمين بالحجارة وماشابه ذلك بسبب الأنفاق التي كانوا فيها، لغموا ما تحت البرج الكبير العائد للقلعة، وتركوه ينهار فوق الأنفاق وفوق المسلمين هناك في الداخل، وهكذا هلكوا جميعاً سواء، وعندما رأى المسلمون الآخرون الذين كانوا خارج المدينة جميع ما حدث، أسقط بأيديهم تماماً، وعقدوا بشكل خياني هدنة مع الداوية والصليبيين، على شرط أن يتخلوا عن القلعة، مقابل السماح لهم بأخذ جميع مقتنياتهم معهم، وأنه ينبغي تدميرها، وأن يعيدوا بناء المدينة وفق شروط محددة، وأن يعودوا إلى السكن فيها بسلام كما كان الحال من قبل، وصدّق الداوية والصليبيون الآخرون هذا ووثقوا به، وسلموا القلعة وخرجوا منها، ونزلوا من أبراج المدينة، وعندما استحوذ المسلمون بهذه الوسيلة على كل من القلعة وأبراج المدينة، قتلوا جميع الصليبيين سواء، واقتادوا الأسرى إلى القاهرة، وبذلك بقيت عكا فارغة ومهجورة حتى هذا اليوم.

وفي عكا والأماكن الأخرى تم فقدان مايقارب مائة ألف وستة آلاف رجل قتلاً أو أسراً، ونجا من هناك أكثر من مائتي ألف، أما بالنسبة للمسلمين، فقد قتل أكثر من ثلاثمائة ألف، كما هو تماماً معروف حتى هذا اليوم وأمضى المسلمون أربعين يوماً أولاً في حصار المدينة من الخارج، وخمسين يوماً في المدينة في داخلها، قبل الاستيلاء عليها، وشهرين في حصار الداوية.

وعندما سقطت مدينة عكا المجيدة على هذه الصورة، أنشد جميع شعب الشرق لسقوطها أناشيد البكاء والرثاء، مثلما اعتادوا أن ينشدوا على قبور أمواتهم، وبكوا على جمال عكا، وعظمتها، وعلى مجدها، ومازالوا يفعلون ذلك حتى هذا اليوم، ومنذ ذلك اليوم ترتدي النساء المسيحيات — سواء أكن من السادة أو من العاديين البسطاء — ممن

يسكن على الشاطىء الشرقي(للبحر المتوسط) ثياب السواد حزناً، وحداداً، وتفجعاً على فقدان مدينة عكا العظيمة، ومازلن يفعلن ذلك حتى هذا اليوم.

وعمل المسلمون بعد هذا، لعدد كبير من السنين، وبذلوا كل جهد ممكن، لاجتثاث ولتدمير جميع الأسوار تماماً حتى الأساسات، وفعلوا الشيء نفسه بالنسبة للأبراج والقلاع والقصور، خشية من أن يعاود الصليبيون عمارتهم، لكن كان من المستحيل بالنسبة إليهم تمكنهم من تدمير كل شيء واجتثاثه حتى آخر رجل، وهكذا بقيت جميع الكنائس، والأسوار، والأبراج، وعدد كبير جداً من القلاع والقصور، سليمة إلى أبعد الحدود، وإذا ماسمح الرب، من الممكن — بعناية كبيرة — استردادها وترميمها، وإعادتها إلى أوضاعها الماضية.

ويسكن الآن في هذه الأيام حوالي الستين في المرتزقة المسلمين في عكا، بمثابة حامية للمدينة وللميناء، ويؤمن الانفاق على عيشهم من خلال الحرير والطيور، لأنه يوجد في عكا كثير من الدجاج والحمام، إلى حد أن جميع الطيور التي يمكن رؤيتها في المنطقة لايمكن مقارنتها بهم، وهؤلاء المرتزقة لديهم شغف بالألمان، فعندما يلاحظون وجودهم من خلال مظهرهم، يسيرون إليهم مباشرة، ويشربون الخمرة معهم بعمق، على الرغم من أنها محرمة بشريعتهم.

وبهذا أكون قد حدثتكم كيف تم فقدان مدينة عكا المجيدة بسبب الخصام، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، انتقلت جميع أمجاد الأرض المقدسة، وأمجاد ملوكها، وأمجاد أمرائها، وبقية أعيانها، إلى قبرص، وذلك حسبما سمعتم من قبل.

٢٧ — حول غزة وأشدود

ولأعد الآن إلى موضوعي: يذهب الانسان من عكا إلى غزة، التي

كانت فيما مضى مدينة جميلة جداً، تابعة للفلسطينيين، وهي الآن مهجورة تقريباً، وهي المدينة التي حطم شمشوم أبوابها الحديدية، وحملها معه إلى الجبل، والمسافة من عكا إلى غزة ثلاثة وعشرين ميلاً، ويرى الانسان على الطريق الأماكن التالية، لكن قبل المضي بعيداً، أقترح أن أحدثكم ببعض الشيء حول مدن الفلسطينيين، فحول غزة تقوم بلاد فلسطين، حيث نرى فيها أربع مدن عظيمة جداً، قد وجدت فيما مضى، وقد آل الآن مآلها كلها إلى قرى صغيرة، وذلك باستثناء مدينتان هما: أشدود وغاث، وعليك أن تعرف أن البلاد التي عرفت من قبل باسم فلسطيا، تعرف الآن باسم فلسطين، وأن المدينة التي كانت تعرف فيما مضى باسم أشدود اسمها الآن أرسوف، التي غالباً مارأيت صاحبها النبيل(بالين دي ايبلن في سنة ١٣٦٨) ، والمدينة التي عرفت فيما مضى باسم غاث اسمها الآن اسكندرون (جنوب غربي صور) ، وقد منحها الاسم الجديد بلدوين ملك القدس، عندما كان يبنيها، ففي هذه المدينة كان جالوت قد ولد، وهو الذي قتله داود، ومن الممكن قراءة الكثير من العجائب حول هذه المدينة.

ومن هذه المدينة وبجميع الاتجاهات،نجد أن جميع المدن، والقرى، والقلاع، والأماكن القائمة على ساحل البحر المذكور، وذلك لعمق أربعة أميال في داخل اليابسة، هي جميعاً مشعثة ومدمرة وباقية هكذا حتى هذه الأيام، لأنه بعدما جرى فقدان الأرض المقدسة، وسورية وعكا، ارتأى المسلمون بأن عليهم الحفاظ عليهم وتملكهم بسلام، وأعني بذلك جميع الأماكن المتقدم ذكرها، والمدن، والقرى، والقلاع، القائمة على شاطىء البحر، إنما في ذلك الوقت كان شعب غاث أو اسكندرون قوياً جداً، ورجالها شجعاناً بارعين باستخدام السلاح، وفي الحقيقة لقد قيل بأنه في مثل ذلك المكان الذي امتلك مثل هذه الطبيعة، يلد الرجال أكثر حدة وعنفاً من سواهم من الرجال الآخرين، وأهل

غـاث هؤلاء أنفسهم مـع أن تعـدادهم قليل، حيث هو أقـل من ألف انسـان، هم نبـلاء وشجعـان، ويعـرفـون جميع الطرقـات في البـلاد مع دروبها، لأنهم اعتـادوا على التجـول هنا وهنـاك، والسـلاح بأيديهم، ويعملون بالأجـرة، ويعـرفـون طبـائع وعـادات المسلمين، والداخل إلى هناك، والخارج من البـلاد، وهـم لايعـرفـون الراحـة، بل يغـدون ذهاباً وإياباً، بشكل مستمـر، في البر والبحـر، وفي الليل والنهـار، ويلبسـون ثياب المسلمين، ويخفـون الأسلحة تحتهـا، وعندما يكونون بين المسلمين يتصرفـون بمثـابة تجار مسلمين، ويدخلـون معهم إلى مـدنهم وقـراهم، ويأكلون ويشربـون مع بعضهم بعضـاً، وعندمـا يجدون أنهم يمتلكون فـرصة جيـدة مواتيـة، يأخذونها ويحرقـون البلدة والقرية، التي صـدف وكانوا بها، ويقتلون المسلمين أو يبيعونهم رقيقاً، وعندما وجد المسلمون أنفسهم غير قـادرين على الوقوف ضـد هؤلاء القـوم، هجروا مـدنهم، وقـراهم، وذهبوا بعيـداً، لكن نادراً مـانجوا، وهكذا فإن جميع الأمـاكن القـائمة على طول سـاحل البحر، والمدن، والقـرى، والأماكن الأخـرى حتى عمق أربعـة أميـال في داخل اليـابسـة، قـد غـدت معـزولة تمامـاً ومهجورة حتى هذا اليوم.

ولقد سمعت من رجال صادقين، كانوا مـوجودين عندما كانت هذه الأمـور تحدث، وسمعت أيضـاً مـايروج بين الناس والحكايات حـولهم التي مـاتزال باقية، أن خـوفـاً عظيما حل بساح المسلمين، بسبب رجـال غاث هؤلاء الذين تقـدم ذكرهم، إلى حد أنه حتى مسافـة سفر ستة أيام بعيـداً عنهم، اعتـادت الأمهـات على تهدئـة أولادهم البـاكين بكلمـة «اسكندرون» فضـلاً عن هذا مـامن رجل يتجـرأ على مقـابلة آخـر على الطريق، لأن شعب اسكنـدرون، لايجعلون انسـاناً أميناً على نفسـه من دون تيقظ وحذر.

وفي عـودة إلى موضـوعي أقـول: على مقـربة من عكا هناك نهر ليس

كبير الحجم اسمه نهر النعامين Belen (نهر بعل)ويجرف هذا النهر نوعاً من الرمل الزجاجي، يحمل من هناك إلى بلدان نائية، وهناك نهر آخر، على أحد طرفي عكا، لايمكن لأفعى أو لأي من الهوام العيش فيه، مع أن بإمكانهم العيش والازدهار على الطرف الآخر، وقد تبرهن أنه إذا ماجرى رمي أفعى عبر هذا النهر تموت مباشرة.

٢٨ — *جبل الكرمل*

وعلى مقربة من عكا أيضاً، على الطرف الأيمن، وعلى بعد ثلاثة أميال، وليس بعيداً عن البحر، يقوم جبل الكرمل، الذي هو أملس وعريض، وعلى غاية من الجمال في الذروة، المزينة بكثير من النباتات والأماكن البهية، وقد سكن هذا الجبل النبي إيليا، وصنع كثيراً من المعجزات وعلى هذا الجبل، حدث أيضاً، حسبما تحدث إيليا، ابتلعت نار من السماء قائد الخمسين، التابع لآحاز ملك اسرائيل، وصلى على الجبل إيليا ودعا أن لاتسقط الأمطار على الأرض، وبالفعل لم تسقط لمدة ثلاثة أعوام وستة أشهر، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك، وعلى هذا الجبل من الممكن أن نرى أنه قد قام فيما مضى دير جميل جداً، بني وكرس على اسم القديسة مريم، ويعرف الرهبان الذين جاءت أصولهم من هناك باسم الكرمليين حتى هذا اليوم، وهم رهبان متسولون، ويمكن للانسان أن يرى أنهم امتلكوا فيما مضى خمسين ديراً في الأرض المقدسة.

ويوجد على أول أطراف الجبل نبع نقي تجري مياهه إلى البحر، ومن مياه هذا النبع اعتاد النبي إيليا على الشرب، ولهذا يعرف باسم نبع إيليا حتى هذا اليوم، وفي مكان آخر عند سفح الجبل يمكن للانسان أن يرى أن مدينة قد قامت هناك، كانت ملكاً للداوية، هي الآن مهدمة تماماً، واسمها حيفا، وليس بعيداً عن هذه المدينة هناك نبع صغير، هو الآن واحد من مصادر نهر الأردن، وعند نهاية جبل الكرمل كان هناك فيما مضى مدينة جميلة هي الآن مهدمة، اسمها زرعين، فهنا أقدمت إيزابل

على انتزاع كرم نابوت ولهذا رميت في المكان نفسه، حسبما نقرأ في سفر الملوك(الأول :٢١)، وعلى مقربة من هذه المدينة سهل مجيدو، حيث قُتل يوشع ملك يهوذا، وليس بعيداً عن جبل الكرمل، وعلى طرف جهة اليسار، قامت فيما مضى مدينة جميلة، هي الآن مهدمة، اسمها الصفورية، وكانت قائمة على رابية، ففيها ولدت القديسة حنة، أم مريم المباركة.

وبعد العبور فوق جبل الكرمل، يقوم الانسان بعبور نهر، كان واحداً من روافد الأردن، ويصل إلى قيسارية فلسطين، التي كان اسمها فيما مضى دور، واسمها الآن قيسارية فلسطين، غير أنها مدمرة كلياً، وقدكان في هذه المدينة كنيسة جميلة، بنيت من خلال بيت كورنيلوس، الذي حوله بطرس إلى الايمان الصحيح، وكانت هذه المدينة نفسها، قد آلت، بعد الاستيلاء على الأرض المقدسة، إلى ملكية فارس من هذه المناطق[بلاد المؤلف] اسمه دي هورن Horne ، وكانت أرملة ختنه حية حتى أيامي، لأنني غالباً ما تحدثت معها حول هذا الموضوع.

وإذا ما سافر الانسان من قيسارية، يصل أولاً إلى ما كان فيما مضى مدينة جميلة، لكنها الآن مهجورة، واسمها قلعة الحجاج(عثليت)، وكانت هذه تعرف بالقديم باسم أرسوف (كذا)، وكانت هذه المدينة قد أعطيت إلى الداوية من قبل غودفري دي بولليون، الذي كان أول ملك صليبي للقدس، وذلك حفظاً لذكراه نفسه.

وإذا ما سافر الانسان من أرسوف، أو قلعة الحجاج، يصل إلى مدينة جميلة جداً، وهي مليئة بالسكان حتى هذا اليوم، اسمها عسقلان، ويذهب الانسان من عسقلان ليأتي إلى يافا التي هي مدينة قديمة جداً، وجميلة، وهي قائمة على شاطىء البحر، وإلى مرسى هذه المدينة دخل النبي يونه، عندما حاول أن يهرب من وجه الرب، وهي على بعد سفر حوالي اليومين من القدس، لكن الحجاج لايستطيعون النزول في الميناء،

وعلى اليابسة، ليس بعيداً عن يافـا، تقوم مدينة جميلة، عرفت فيما مضى باسم الرملة، لكن اسمها الآن بعل Bael، وهي قـائمة فوق مـوقع جميل جـداً، وبهيج، وممتع، وهي مسكـونة من قبل المسيحيين وحـدهم، ومن المعتقد أن ما من يهودي أو مسلم يستطيع أن يعيش فيها أو يسكن لمدة تزيد على السنـة، وجميع الخمـر الـذي يشرب من قبل المسيحيين في القـدس والأمـاكن الأخـرى يجلب من هناك، وعلى الجانب الأيسر من مـدينة الرملة هذه، أوبعل، تقـوم مدينة جميلة، حسنة الاسكان، اسمهـا ديوسبـولس ولها اسم آخـر هو اللد، وفي هذه المدينـة واجـه الشهيـد المجيـد، القديس جـرجس الشهادة، وقطـع رأسه، وهناك كنيسـة فائقـة الجمال، حسنة التـزيين بأعمال الفسيفسـاء والرخـام، وفي داخلهـا، في السـدة، يوجـد المكان الذي جـرى إعـدامـه صبراً فيـه، وهو معـروض للناس عموماً.

وبعـد رؤية هذه الأشيـاء جميعـاً، يصل الانسـان أولاً إلى غـزة، التي تحدثت عنهـا بعض الشيء، لأنني تحدثت إليكم بعض الشيء أيضـاً عن المدن الأخرى في فلسطين، والمسافة بين عكا وغزة هي سفر أربعة أيام، ويزور الانسان خـلال السفر جميع الأمـاكن المتقدمـة الذكر، وبعـد سفر الانسان من غزة يصل إلى قلعة اسمهـا بالعربية دار، وهي آخر مكان في سـورية لدى النزول إلى مصر، وإذا ما ذهب الانسـان بهذا الاتجاه يخلّف القـدس على جهة يسـاره، وذلك على بعـد عشرين ميلاً أو قـرابة ذلك، وهذه الطرق ليست طرقـاً عـامة للحجاج، غير أنها طرق جيـدة لرؤية أوائل العربيـة ومصر، وكل ما هو مـوجود هناك، ويذهـب الانسان من قلعـة دار إلى مصر عبر صحـراء رملية، وذلك خـلال سبعـة أيام، وفي هذه الصحراء ليس هناك نقص بأي شيء محتاج، باستثناء الماء، الذي من الممكن حمله في أوعيـة جلدية على ظـهور الجمال، وهناك في نهايـة سفـر كل يوم يمكن العثور على نزل إسـلامية جيدة، حيث يجد فيهـا الانسان

كل ما يحتاجه، باستثناء الخمر.

٢٩ — حول مصر

وبعد عبور هذه الصحراء يدخل الانسان إلى مصر، ولدى دخوله إليها يجد فيها أماكن على درجة عظيمة من الجمال والبهجة، مليئة بجميع الأشياء الجيدة، التي يمكن لقلب الانسان أن يتصورها، وهي مليئة بكل شيء يحتاجه الانسان إلاّ الخمر، ولدى متابعة السفر نحو باب اليون(بابل الجديدة — الفسطاط) يصل الانسان إلى قرية جميلة جداً وممتعة اسمها بلبيس، وبذلك يخلف الاسكندرية ودمياط على ساحل البحر، وإذا فعل ذلك يذهب الانسان على طول الطريق السلطاني العام، فيصل إلى القاهرة وباب اليون، التي تضم الآن مدينتين عظيمتين جداً، ليستا بعيدتان عن بعضهما، وتقومان على طرف النيل، نهر الفردوس، والمدينة التي كان اسمها فيما مضى قاهرة، تدعى الآن القاهرة، وسكن في هذه المدينة في القديم فرعون، عندما تولى تعذيب العبرانيين، وهنا أيضاً آيات ومعجزات، صنعت من قبل موسى وهرون، حسبما جاء بالتوراة، وعلى مقربة من القاهرة، فوق الجبل، الذي هو ليس عالياً، لكن صخري، يقوم قصر السلطان، ويوجد هناك أشياء كثيرة جداً غريبة وعجيبة، وأهم شيء يراه الانسان في هاتين المدينتين، هو الفيلة، وحيوانات الغرفين Gryphons وعليك أن تعرف أن القاهرة أكبر من باب اليون(الفسطاط) وتبعد أكثر من رميتي سهم عنها، ذلك أن باب اليون قائمة على ضفة النيل، لكن القاهرة، قائمة على مسافة لابأس بها عن النيل، والقاهرة الآن أكبر من باب اليون، لأنني سمعت من تجار قدروا أن القاهرة أكبر من باريس بسبع مرات، وفي القاهرة أبنية منخفضة مثل الأفران، ويوجد فيهم مدافىء، ويوضع في الداخل بيض فوق روث، وبوساطة هذه الحرارة تفقس الفراخ، وتخرج من البيض، ووقتها يأخذ المعلم هذه الفراخ، ويعطيها إلى امرأة عجوز، تتولى

العناية بهم وإطعامهم، وتضعهم في صدرها، مثلما تضع الدجاجة الفراخ تحت جناحيها، ويوجد في هذه المناطق أعداد لاتحصى من العجائز ليس لديهن أسباب ووسائل للعيش سوى تربية الفراخ والعناية بهم، ولهذا السبب تجد الطيور هناك كثيرة مثل عدد رمال البحر، وغالباً ما يقوم أحد الفلاحين بسوق خمسة آلاف طير إلى السوق مرة كل أسبوع، مثلما يفعل الراعي حين يسوق أغنامه، ويأخذ معه جملاً أو دابة أخرى مع سلال، يتولى ملأها بالبيض الذي تبيضه الطيور وهي على الطريق، وعندما يأتي إلى السوق المخصص للطيور، لايفقد ولاطيراً واحداً، كما لاتمتزج طيور إنسان مع طيور إنسان آخر، وهذا أمر بالحقيقة مدهش، وخاصة عندما تلتقي آلاف كثيرة من الطيور في مكان واحد، فضلاً عن هذا يوجد على مقربة من باب اليون مكان خصب جداً، فيه مراعي غنية جداً، واسم هذا المكان غوشن Goshen ، فهناك سكن البطريرك يعقوب، بناء على توجيه من يوسف، وكان ذلك في أيام فرعون، فهذا ما رواه الكتاب المقدس لنا.

٣٠ — *حول بستان البلسم*

فضلاً عما تقدم، يوجد على مقربة من القاهرة، باتجاه الصحراء السورية، بستان البلسم، الذي هو من حيث المساحة نصف رمية حجر، وليس مسوراً بشكل جيد، أو كله مسيج، ويوجد في هذا البستان خمسة آبار، تتولى سقاية شجيرات وفروع البلسم، ولكل شجرة أو شجيرة حارس خاص، يتولى تنظيفها، والعناية بها وغسلها، بعناية تامة مثلما يتولى غسل جسده، ولاتنمو شجيرات أو فروع البلسم كثيراً، حيث لايتجاوز طولها الذراعين، ولها أوراق مضاعفة ثلاث مرات، ولدى بداية آذار، عندما يحل وقت النضوج ويصبح قريباً جداً، تصبح العناية بها أكثر، وعندما تصبح ناضجة، يجري قطع الأغصان والفروع وجرحها، وذلك مثل عملية تقليم الدوالي، ويجري ربط الجروح أو

الأماكن المقطوعة بقطع مـن الموصلين، ومن أماكن الجروح والقطع يبدأ البلسـم بالتقـــاطر، مثلما يسيـل الماء من الـدوالي، ويترسب في قطـع الموصلين المربوطة حـول الجروح، ويجري تعليـق كأس من الفضـة تحت كل غصن مجروح، حيث فيه تتقاطر أفضل أنواع البلسم.

وعلى هذا تقطع الأشجـــار عندمــا يسيل البلسم، وفي ذلـك الوقت يكون سلطان القـاهرة مشغـولاً جداً، حيث يكـون شخصياً حـاضراً في البستـان، ويتـولى حـراسته بدقـة، حتـى لايتمكن إنسـان، إلاّ هو، من الحصـول على نقطة من البلسم بأية وسيلة من الوسـائل، وعندما يقـدم نواب البابا، وسفراء بعض الملوك والأمراء من مناطق أجنبية، يعطي كل واحـد منهم قارورة صغيرة من الزجـاج، صنعت خصيصاً لهذه الغـاية، ويكون في داخل هذه القارورة بعض البلســم، ولدى تقديم هذه الهدية، كان يعتقد أنه يعطي أثمن هدية يمكن أن تعطى.

وبعدما يتم ترسيب جميع البلسم الجيـد والحقيقي بهذه الطريقة، يقوم الأوصياء على الأغصـان بقطعها حتى نهاية كل واحد منهـا، ويأخذ كل واحد حصته، ويتولى غليهم بالماء، ووقتها نجد كل الذي بقي من بلسم في نهايات الأغصـــان يذوب مثل الـدهن، ويطوف على وجـه الماء مثل الزيت، ومن هناك يجري جمع هذا البلسم بملعقة، ووضعـه في وعاء، ثم تركه حتى يتماسك، وذلك لبعض الوقت، ويلاحظ أنه حتى هذا البلسم له ثمن مرتفع جداً، ولأن هذا البلسم قد تعرض للغلي، يغدو لونه أحمر مع بعض المزيـج من الأســود، غير أن البلسم الطبيعي الـذي يتقــاطر بشكل طبيعي، له لون النبيذ، وعليـك أن تعرف أن البلسم الطبيعي هو أغلى جوهرة في العـالم، ولهذا السبب نجد البطاركـة المقدسين، كـانوا قد اعتـادوا على مـزجـه بزيت مقـدس من أجل المسح، وأي جسـد لامس بلسماً طبيعياً، لن يتعفن ولن يفسـد مطلقاً، وفي أثناء تقـاطره طازجاً من الشجـرة، إذا وقعت نقطـة بيـد إنسـان، فهي سـوف تسيـل من خـلال

الطرف الآخر، وتمر عبر يده، فضلاً عن هذا، إذا ما جرى وضع أربع نقاط أو خمس من البلسم الطبيعي في عين إنسان، على وشك أن تصبح عمياء، من انعدام الرطوبة، أو تقدم السن، أو أي ضعف آخر، ستبقى هذه العين على الفور، وإلى الأبد، تماماً مثلما كانت لحظة صب البلسم فيها، ولن تتحسن أوضاعها ولن تتدهور، وعلى هذا إنها لمغامرة خطرة أن يحاول الانسان مثل هذا، ما لم يكن الانسان يائساً كلياً من بصره، وهذه الحقيقة واضحة مرئية في عدد كبير من أجساد رجال عظماء من العصور القديمة، التي تمّ العثور عليها سالمة تماماً غير فاسدة، لأنهم جرى دهنهم بالبلسم، ومثل هذا إذا كانت ندبة جرح جديد، عندما يكون قد بدأ ليشفى، إذا مسحت في أحد الأيام بنصف نقطة بلسم، وضع على ريشة، يعود على الفور جلد الجرح كما كان من قبل، ولا يترك أثراً، وما من إنسان يستطيع أن يرى أنه قد كانت هناك آثار ندبة على الاطلاق في ذلك المكان.

وزيادة على ما تقدم، إن البلسم المغلي هذا، هو عقار ممتاز جداً، وهو مفيد جداً من أجل ندب الجروح كما تقدم القول، وهو مفيد جداً بشكل خاص، عندما يسقط إنسان من مكان مرتفع، لأنه إذا ما تناول بعضاً منه، فإن جسده، الذي كان محطماً في الداخل، سوف يعود سالماً ثانية، وللبلسم المغلي أيضاً قدرة عظيمة جداً على العيون، وهو مفيد بدهن اللحوم حتى لاتفسد، ولكنه في جميع الأحوال وبالإجمال أقل قوة من البلسم الطبيعي، لأنه استخرج بالقوة بوساطة الغلي، في حين ترسب البلسم الطبيعي بشكل عادي.

وعليك أن تعرف أن الرجال المسيحيين فقط وحدهم قادرون على العناية ببستان البلسم ورعايتها، لأنه إذا ما حاول رجال آخرون العناية بها ورعايتها، فإنها تذبل على الفور وتموت، كما حدث مراراً وتبرهن على صحته، وسكنت مريم العذراء المباركة مع الطفل عيسى في

الموضع الذي تقـوم فيه بستـان البلسم الآن، وذلك عندمـا هربت إلى مصر من أمام هيرود، وغسلت بشكل مستمـر أغطيتها ومـلابس يسوع في الآبار التي تسقي البستان، ولهذا السبب من المعتقد بشكل صحيح أن البلسم ينمو هناك، لأنه بقـدر مانعلم لايوجـد البلسم في أي مكان آخر في العالم.

وسـوف يقتضي الحال وقتـاً طويلاً للحـديـث حـول فضـائل البلسم الأخـرى وأمجاده، يضـاف إلى هذا أنني لاأستطيـع أن أتذكـرهـم جميعـاً، وكـان في أيامي بين المشرفين المسيحيين أربعـة من الألمان، كـان أحـدهـم من شوارتزنبورغ Schwartzenburg ، وكان فيما مضى مرتداً عن المسيحية وكان آخـر بعين واحدة اسمه نيقولا، وكان رجـلاً جيداً جداً، فهـذا ما أكـده الأسرى المسيحيون، وكـان قد أخـذ أسيراً في عكا، لكن السلطان أطلق سراحه بسبب جودته، وجعله حارساً لسلالم قاعة نومه.

٣١ — *المسيحيون والقبور القديمة*

وعليك أن تعـرف أنه كـان في أيامـي في القـاهرة والفسطاط حـوالي أربعة آلاف أسير مسيحي، وذلك دون أن نذكر عدد الأطفال، وكان لهؤلاء الرجال ثلاثة بطاركة هناك ، ورجال دين، وكنائس، وآثار مبجلة كثيرة للقديسين، وكان على رأس ذلك، الجسـد الكامل للقديسة بربارة، وهي العذراء التي يتوسل إليهـا في أيامي عدد كبير من الملوك والأمراء، وتقـديراً من السلطان لراحـة الأسرى المسيحيين لم يقبل السلطان بقطع واحـدة من أعضـاء جسـدهـا، ويحتفل الأسرى المسيحيـون هناك بعيـد أمسيـة القـديسـة بربارة، مثلما يحافـظ الناس في هذه الأمـاكن على عيـد القديس مارتن حيث يرسلون إلى بعضهم بعضاً بذور مختلف النباتات.

ويقوم على مقـربة من الفسطاط، على الطرف الآخر من النيل، وذلك باتجاه الصحراء المصرية، كثير من القبور ذات أحجـام مدهشة، من بينها

واحد فائق الجمال بني بحجارة كبيرة مربعة، وبين هذه القبور اثنين، هما ضريحان مربعان كبيران جداً، وقد كانا فيها مضى على درجة فائقة من الجمال، ويوجد على جدار أول واحد منهما كثير من النقوش المحفورة باللاتينية، وبالاغريقية على الآخر، وبالعبرية على الثالث، وبالكلدانية، وبكثير من اللغات غير المعروفة على الرابع، ونقش على الجدار الأول باللاتينية الأبيات الشعرية التالية، وهي محفورة، وليس من السهل قراءتها بسبب قدمها:

Vidi Pyramidas sinete, dulcissime Frater,

Et Tibiquod potui Lacrimas hic moesta profudi.

Et nostri memorem luctus hanc sculpo Querelam -

S(C) it nomen Decimi Pyramidis altra,

Pontics, Comitisque tuis, Trajane, Triumphis,

Lustra Sex intra censoris consulis esse

«وحيداً، يا للأسف، أرى الأهرامات

ولايمكنني غير البكاء، يا أخي العزيز، من أجلك.

ولقد حفرت على الحجر، وأنا حزين، اسمك

ويعرف الأهرام العظيم الآن شهرة

أننيوس دوسيموس، الذي قاتل من أجل روما

مع تراجان، وعاد إلى الوطن منتصراً،

وهو الذي قضى حتى قبل ميلاده الثلاثين

وكان أخيراً، كاهناً أعظم، وقنصلاً، ومراقباً للأخلاق أيضاً».

وأدع تفسير هذه الأبيات إلى فهم القارىء وحكمه، ويطلق السكان المحليون على هذه القبور اسم أهراءات فرعون، وهناك عجائب كثيرة جداً من الممكن رؤيتها على مقربة من الفسطاط، وحسبما سمعت من كثير من الرجال الصادقين والتجار، كانت بابل القديمة، حيث كان يوجد برج بابل، تبعد مسافة سفر ثلاثين يوماً، عن باب اليون هذه، وذلك باتجاه الشمال — الشرقي، وهي في بلاد الكلدان على مقربة من بغداد، وعليك أن تعلم أنني قمت خلال مدة خمس سنوات بالتحدث ليلاً ونهاراً مع كل الناس الذين بإمكانهم التحدث بأي لسان بشري، وبعد البحث يومياً بين مختلف الشعوب، كان الذي حصلته هو بعض المعلومات، وهذه المعلومات لم أستطع تحصيل سواها من أي واحد من المخلوقات حول بابل القديمة، حيث كان برج بابل، ومعلوماتي لاتتجاوز مايلي:

٣٢ — *بابل القديمة، أو بغداد.*

يوجد في بلاد الكلدان الشرقية، مدينة فائقة الجمال، وجليلة، وقوية بلا حدود، وهي في هذه الأيام أفضل المدن في الشرق، اسمها بغداد، وهي قائمة على ضفتي نهر الفرات(كذا) الذي هو واحد من أنهار الجنة، ويقول الذين يسكنون هناك ويعتقدون، أنه على نصف ميل منها، أو ما يقارب ذلك، تقوم بغداد القديمة، وقد تبرهن هذا أيضاً بوجود الخرائب الكثيرة، والأكوام الهائلة من الأبنية من مختلف الأنواع، وكذلك من الحجارة، التي لها مشاهد غريبة عن بعد، لاسيا في الموضع الذي قام فيه برج بابل، حيث اختلفت الألسنة وتبلبلت، وهناك برهان آخر على هذا وجود طريق لايمكن قطعه بين الخرائب، وبين بغداد، وأيضاً بسبب وجود مخلوقات سامة، مع وجود كثير من العلامات التي تظهر بأن بابل القديمة قد قامت هناك، وبسبب ما يعتقده السكان المحليون بشكل ثابت تماماً، فهم يؤمنون أنه بسبب وجود هذه

المخلوقات السامة، انتقلت بابل القـديمة، وأطلق عليها اسم جديد، هو بغداد، ولاأستطيع أن أحكي شيئاً آخر صادقـاً حول بابل القـديمة، كما أنني لم أعلم أي شيء زيادة، من أي إنسان في هذه المناطق.

ويوجد في مـدينة بغداد الحالية الآن أغنى التجـار وأحسنهم تحت قبة السماء، ولايوجـد في أي مكان من الشرق مثل هذه التجـارات بكثـرتها وتنوعها مما هو مـوجود هناك، واعتـاد أن يسكن في هذه المدينة الخليفة، أي خليفة محمد(ﷺ)، الذي يقدم المسلمون إليه الطاعة في جميع الأمور، مثلما يفعل المسيحيون بالنسبة للبابا، خليفة القديس بطرس.

وسـوف أحدثكم ببعض الأخبـار حـول خسـارة مدينة بغـداد هذه، وذلك حسبما قرأت حول الموضـوع في مصنفات وتواريخ ملوك أرمينيا، وكما سمعت أيضاً من فارس مستقيم صادق كان هناك في ذلك الوقت.

وفي سنة ألف ومـائتين وثمان وستين لتجسيـد ربنـا(كـذا)، وبعـدمـا استولى التتـار على ممالك الشرق، كان آنـذاك هيتوم Ayco ملكاً على أرمينيـا، وقـد قـام بدافع ذاتي بالسفـر إلى الخان العظيم، أي امبراطور التتـار، من أجـل زيارته، واستقبل هيتـوم من قبلـه بلطف، ولأنه أبدى نحـوه احترامـاً ذاتيـاً وتشريفـاً عظيماً، وذلك من أجـل جعل الملوك الآخرين يقـدمون بدافع ذاتي لزيارته ولمقابلته، ولهذا كـان مسروراً جداً، وشرف الملك بإعطائـه كثيراً من الهدايا، وفي تلك الأثناء، وعندمـا كـان ملك أرمينيـا على وشك العودة إلى الوطن، طلب من الامبراطور منحـه خمسـة مطالب، كـان أولاها، وجوب أن يغـدو الامبراطور وشعبـه كله مسيحيين، وثانيها أن يكون هناك سلام دائم بين التتار والأرمن، وثالثها أن يقـوم بتـدمير جميع مسـاجـد محمـد(ﷺ)، وأن يكرسهم على شرف الرب، ورابعها أن يساعده على استرداد الأرض وإعادتها إلى المسيحيين، وخـامسهـا أن يقوم بحصـار بغـداد، وتهديمهـا، وأن يزيل الخليفـة من الوجود، وأعني بذلك خليفة محمـد(ﷺ)، وأن يمحو اسمه، واستجاب

الامبراطور إلى هذه المطالب جميعاً عن رغبة وطواعية، وأكدها، وكذلك نفـذها في كل مجال من المجـالات، وذلك باستثنـاء المطلب الرابع الذي أعيق بسبب موته.

أمـا فيما يتعلق بالمطلب الخامس، الذي هـو وجـوب تهديم بغـداد، وإزالة الخليفة، فقـد كلف أخاه هولاؤن(هولاكو)، الذي كـان آنذاك قد استـولى على بلاد فارس، وأمـره أنه مـا أن يفـرغ من إقرار أمـور مملكة فارس، ويـؤمن مسألة حمايتها، عليـه الالتحاق بملك أرمينيـا في حصار بغداد، وقد استجاب لهذا بكل رغبة، وبسرعة ما إن فرغ من إقرار أمور بلاد فـارس، حتى نقـل نفسـه إلى مـدينـة نينوى العظيمـة(الموصل)، واستراح هناك خـلال الشتـاء، وعندما جـاء شهـر آذار، ذهب مع ملك أرمينيـا إلى بغـداد، وحـاصر الخليفـة، وكلف قـادته الأربعـة الرئيسيين، الذين كـان تحت إمـرة كل واحـد منهم ثلاثين ألفـاً من التتـار، بالقيـام بحصـار بغـداد، بدون توقف حتـى يتمكنوا من الاستيـلاء على المدينة، وهذا مـا تـم وجـرى تنفيـذه، ذلك أنهم استـولـوا على المدينة في اليـوم الثـلاثين، وقتلـوا جميع السكان من رجل صغير وكبير سـواء، وربحـوا كثيراً من الأسـلاب، من ذهب وفضة، وأحجـار كريمة، وأنـواع أخرى من الثروات، بشكل ومقدار لم يسمع بأن واحداً حصل على مثله من أية مدينة مهما كـانت، وفي الحقيقة صـارت بلاد التتار كلهـا غنية حتى هذا اليوم من هذه الأسـلاب، ولايوجد الآن في بلاد التتـار كأس واحد من الذهب أو الفضة، إلاّ وجلب إليها من بغداد.

وبعـدمـا جـرى قتل جميـع السكان أو أسروا، اعتقلوا الخليفـة حيـاً، وقدموه إلى هولاكـو، مع جميع كنوزه، التي كانت من الكثرة بمكان، أن هولاكو خشي من النظر إليها والتحديق بها، وقال وهو مندهش مخاطباً الخليفـة:«كيف حدث أيها الـرجل التعيس، أن امتلكت مثل هذه الكنوز العظيمة التي خشيت حتى من النظر إليها؟ فبهـا كان بإمكانك أن تقهر

العـالم كله، وتضعــه تحت نيرك، فلماذا لم تجند مـا يكفي من العســاكـر المأجورة للدفـاع عن مدينتك»؟ وأجابه الخليفـة قائلاً:«المشورة الفـاسدة هي التي جلبـت الدمـار عليّ، لأنهم قـالوا لي : حتى النسـاء يمكنهن الدفاع عن المدينة ضـد التتار»، وعندها قال هولاكـو:«إعلم أنك خليفة محمد(ﷺ) والمسؤول عن شريعته، وأنا لاأجرؤ على إلحاق أي أذى بك، كما أنه مـن غير اللائـق أن تعيش أنـت وأن تأكـل مثل بقيــــة الناس الآخـرين، لأنه من فمك تصدر تعـاليم شريعـة محمد(ﷺ) وعقيـدته»، وقــد أمـر به فــوضع في قصر جميل، وصب أمــامـه الذهب والفضــة والحجـارة الكريمة، واللآلىء وقـال له:«من فمك تصـدر تعاليم شريعـة عظيمة وعقيدة، ولـذلك اللائق بك أن تأكل من طعام ثمين مثل هذا»، وهكذا سجن الخليفـة في القصر، وبعد مضي اثني عشر يومـاً وجد ميتـاً من الجوع، ولم يقم من بعــده خليفـة لمحمـد(ﷺ) في بغــداد حتى هذا اليوم.

ويحكم في هذه الأيـام امبراطور التتــار بغــداد، لكـن سكانها بشكل رئيسي من المسلمين، وهم يعيشون تحت جـزية ثقيلة جداً، وسمعت في هذه المناطق وقرأت كثيراً من الحكايات الحمقاء حـول بغداد، وخلاصة ذلك، هو مـا حصلت عليه كتـابة، من أن ملك بغداد بعث برسـائل إلى ملوك هذه البلدان، ودعـاهم إلى أجـراء منازلات ومبارزات هي زائفـة كلها، لأنه ليس هناك من إنسان بإمكانه أن يتذكر منازلات أو مبارزات قــد عقـدت قط في بغــداد، لأن الناس هناك يشغلون أنفسهم بأشيــاء أخرى.

وعلى مقربة من بغداد وعلى بعد سفر أربعة أيام، توجد مدينة أخرى، كان اسمهـا سوسة، فيها ازدهر أحـاسوروس Ahasuerus ، وهذه المدينة التي كـان اسمهـا فيما مضى سـوسـة تـدعى الآن باسم طوروس Thaurus ، ويوجد في هذه المدينة شجرة جافــة، يقال بأنه قد كتب

لامبراطور الرومان أن يعلق ترسه عليهـا، ويقول سكان هذه المدينة بأن ما من يهودي يمكنه أن يعيش فيهـا وأن يقيم، وعلى مقربة من طوروس هناك مدينة أخـرى اسمها Cambeleth ، هي أيضاً مـــن أملاك امبراطور التتار، ولقـد قيل بأن هذه المدينة أغنى وأفضل من جميع مملكة السلطان.

٣٣ — *نهر النيل*

وفي عـودة إلى موضـوعي: النيل واحـد من أنهار الجنة، يجري خـلال مصر، ويمـر قـرب الفسطاط ودمياط، ويصب في البحـر المتـوسط على مقربة من الاسكندرية، وهو بحر أكبر وأعرض من نهر الراين، وموحل كثيراً، بسبب أنه يجري أحيـانـاً في قلب الأرض، وأحيـاناً في الجبـال، ولايرى مجدداً، لمسافة ميلين أو ثلاثة أميـال، ثم يخرج من الأرض ثانية، ويدخلها مجدداً، حتى يصل إلى مصر، حيث يجري بشكل مستقيم، وهو يحتوي على أسماك ممتـازة وسمينة، ومياهه مفيدة وصحية تمامـاً، وعندما تنضح هذه الميـاه أولاً، تجدهـا فـاترة، ولكن عندمـا تـوضع في جـرة في الشمس تغدو باردة، وتسـاعد كثيراً على الهضم، ولم تكتشف ينابيع هذا النهـر قط، وذلـك باستثناء مـاذكـرتـه الكتـابات المقـدســة حـول هذا الموضوع، مع أن محاولات قد جـرت مراراً لاكتشافهم، وفي أيامي أبقى السـلطان سباحين كـانوا قادرين على الحفـاظ على أنفسهم في الماء بشكل طبيعي مثل الأسماك، ووعـد السلطان هؤلاء الرجال بجـوائز كبيرة، إذا مـا اكتشفوا نبـع النهر، وجلبـوا له غصناً أخضر من شجـر الصبر Al-ols كعلامـة، ومضى هؤلاء السبـاحون في وقت واحـد، ولم يعودوا لمدة ثلاثة أعـــوام أو أربع سنوات، ومـات بعضهم على الطـريق، وقـال الذين عادوا أن الذي تبين أخيراً أن النهر ينحـدر من الجبال بقوة هائلة لم يكن بمقدروهم فعل شيء تجاهها وضدها مطلقاً.

ويوجد في هذا النهـر وحش شرير يدعى التمساح، وهو قـوي جداً،

وحاد وسريع، ويسبب كثيراً من الأذى للذين يسكنون على مقربة منه، وكذلك لحيواناتهم، ونظراً للخوف منه، إنه لأمر خطير الابحار على ظهر نهر النيل، وهذا الوحش كبير جداً، ولقد رأيت جلد تمساح، يمكن لثور أن يمر من خلاله بسهولة، ولقد أخبرني واحد من فرسان الداوية أنه حدث في إحدى المرات أن أمسك الداوية تمساحاً صغيراً، واقتلعوا أسنانه، وأنهم ربطوا إلى ذيله صخرة لايستطيع عشرة رجال تحريكها، وقد قام بجرها لوحده إلى مبنى كان قيد الاعمار، ومع هذا تراه يُقتل من قبل حيوان صغير، يكرهه بشكل طبيعي، ويتبعه حيثما ذهب، ويقوم التمساح بابتلاعه مع الأطعمة الأخرى، وعندها يقوم هذا الحيوان بخرق قلب التمساح ويقتله، وهناك أيضاً حيوانات شريرة أخرى كثيرة في النيل.

٣٤ — *حول بلاد مصر وأرضها*

وأرض مصر غنية، ولطيفة، ومبهجة، ومليئة أكثر من البلدان الأخرى في العالم بالأشجار، والفواكه، والأعشاب، والمروج والمراعي، وطولها يساوي سفر خمسة عشر يوماً، وسفر ثلاثة أيام بالعرض، وهي — كما أخبرت — مثل جزيرة، محاطة بالصحراء من ثلاثة جوانب، ويحدها البحر الاغريقي من الجانب الرابع، وعرض الصحراء سفر سبعة أيام في أضيق الأماكن، ومصر بلاد حارة جداً، إلى حد أن الشتاء هناك نادراً ما يمكن تمييزه عن الصيف، والورود والأزهار الأخرى، لاتتوقف عن التفتح، أو نادراً ما تفعل ذلك، مع أنها لاتمطر هناك أبداً، ولدى سكانها عمودين من البرونز عليهما علامات، وقد وضعوا العمود الأول(المقس) بينهما، وأقاموه في وسط النيل، على مقربة من الفسطاط، ونصبوا الآخر في النيل على مقربة من الاسكندرية، وعندما ترتفع مياه النهر إلى مستوى تلمس فيه العلامات على العمودين، سوف لن يكون هناك خوف لمدة عامين مقبلين، ويقوم المصريون هناك بسوق مياه النيل

في ترع وأقنية وممرات، ويدفعون المياه للجري حول أرضهم، وحقولهم، وغاباتهم، وبساتينهم، وحدائقهم، التي تزدهر وتحصل على الري في كل جوانبها، وعندما تتم سقاية الأرض على هذه الصورة خلال الليل، فإن القمح والأعشاب سوف تنمو أكثر من عرض كف عند الصباح، ويبقى المصريون في ذلك الوقت يراقبون المياه طوال الليل، ولايغادرون حتى تتم سقاية الأرض.

ويبدأ هذا النهر كل سنة بالازدياد على هذه الصورة في شهر آب، ويزداد كل يوم حتى يوم عيد القديس ميخائيل، وبذلك يجعل من الأرض الأكثر قحطاً، أرضاً مليئة بالبهجة والخصب، وفي أثناء ازدياد مياه النيل يمسك الناس جميع أنواع الأشجار، والأعشاب، ويلتقطون الطيور الصغيرة في النهر، بوساطة شباك، وأكثر ما يجمعونه بشكل خاص خشب الصبر، وطيوراً صغيرة اسمها البط Ponoquets ، لكن من أين تأتي هذه الأخشاب، ما من إنسان عرف بشكل مطلق، ويبدو أن هذه أشجار قديمة قد يبست بسبب السن، وهي تسقط في الماء من الجبال، ويجمعون في ذلك الوقت من النيل خشب السنط أيضاً، الذي يمكن تقطيعه بسهولة مثل الأخشاب الأخرى، لكن لايمكن حرقه، ويجري إمساك طيور البط الخضراء الصغيرة، مع الأغصان والأشجار التي تعيش عليها، وذلك حسبما قيل، ويقول بعضهم أنهم يلدون في جبال جلبوع، وهذا أمر غير صحيح، ويقولون أيضاً أنهم لايتحملون الماء، وهذا أيضاً غير صحيح، لأنهم ينشأون فوق الجزر وفوق المياه، ولقد رأيتهم يسبحون فوق البحر، غير أنهم لايستطيعون تحمل البرد، ولاالطيران أو السباحة لمدة طويلة، ويمتلك نهر النيل هذا جزراً غنية فيه، مليئة بأنواع المزروعات والأشياء الجيدة الأخرى، وفي مصر أيضاً أعداد لاتحصى من الطيور، كما سمعتم من قبل، وهي التي تفقس في الأفران أوتحت أشعة الشمس، ومثل هذا يوجد في مصر

أعداد لاتحصى من الحجل، وذلك أكثر من جميع الطيور في هذه البلاد، لأنه يجلب في بعض الأحيان فلاح أكثر من عشرة آلاف طائر حجل معه إلى السوق، كلهم يطيرون، وعندما يجلس الفلاح يتوقفون جميعاً معه، وعندما يقوم ويصفق بيديه يطيرون جميعاً معه ثانية، وإذا ما أضاع طائراً منهم في بعض الطرقات يصفر في مزماره، فيعود إليه على الفور، وعندما يأتي إلى سوق الدجاج في المدينة، يبيع منهم بقدر ما يستطيع، ويعيد الذين لم يستطع بيعهم معه إلى مقر سكناه، وهناك أعداد لا تحصى هائلة من الحمام التي يمكن أيضاً رؤيتها في مصر، ولاأعتقد أنه يوجد في أي مكان في العالم مثل ما هو موجود من الحمام بمصر وبقدره، ومن المحظور كلياً إمساك الطيور لأن السلطان مع الأمراء الآخرين يرسلون رسائلهم بوساطة الحمام الزاجل، فبذلك يتعرفون في وقت قصير على الأخبار والأسرار للبلدان البعيدة.

ويوجد في مصر أعداد لاتحصى من الغزلان، ومن الماعز، حتى إنه من الممكن رؤيتهم على الطرقات وفي الحدائق مثل الأغنام الأهلية، ومن الممكن إمساكهم وبيعهم من قبل من يمر بهم.

وفي مصر أيضاً، حتى هذه الأيام، كثير من البيع، والديرة، والكنائس، وصوامع النساك، وهي قائمة على حالها، غير أنها مهجورة، ومرسومة بشكل رائع، لكن رسومها قد شوهت بطرق كثيرة من قبل المسلمين، ومثل هذا مايزال يقوم في الصحراء المصرية حتى هذه الأيام كثير من القلايات وصوامع النساك التي تعود إلى الآباء المقدسين، حيث تتوفر في بعض المناطق بكثرة إلى حد أنه انتشر في مساحة ميلين أو ثلاثة أميال(ألمانية) قلايات وصوامع نساك بين الواحدة والأخرى رمية سهم، وفي هذه الأيام كثير منها مسكون من قبل هنود، ونوبيين وسريان، يعيشون في ظل قانون القديس أنطوني مع القديس مكاريوس، وقد صنع الرب في هذه الصحارى عدداً كبيراً من المعجزات على أيدي الآباء

المقدسين، ولاسيما في مكان كان اسمه أخميم، وبشكل خاص على أيدي القديس أنطوني مع القديس مكاريوس، وذلك حسبما جاء الخبر في«حياة الآباء»، ويوجد في هذه الصحراء مكان تحت صخرة طويلة جداً وضيقة، ففي هذا المكان اعتاد القديس أنطوني على السكنى، وينبع من تلك الصخرة هناك وتتدفق مياه جدول صغير لمسافة نصف رمية حجر، حيث تضيع المياه في الرمال، وحالها مثل مياه جارية في الثلج، ولاتشاهد بعد ذلك، ويزار هذا المكان من قبل كثيرين من أجل العبادة والمتعة، ثم إنه بفضل نعمة الرب وتشريفاً للقديس أنطوني يتم شفاء كثير من المرضى حيث يتخلصون من أمراضهم بمياه هذا النبع، ومن المعتقد أن هذه المياه تدفقت من الصخرة استجابة لصلواته، وهذا أمر حقاً صحيح، لأنه من الواضح أنها لاتتدفق أكثر مما فيه كفاية لإعطاء الماء لقلايته الصغيرة، وحديقته المتواضعة، وسوف يحتاج الأمر إلى وقت طويل للحديث عن بقية أمجاد مصر، وخصبها وجمالها، ويمكنني أن أضيف أن جميع الأغنام والماعز، وما شابه ذلك من الحيوانات يحملن في العام الواحد مرتين، ويلدن في غالب الأحيان توائم لدى كل ولادة.

ويوجد في مصر ثلاث مدن عظيمة جداً،قائمة على جانب النيل، الذي هو نهر الجنة، وهذه المدن هي: الفسطاط، والاسكندرية، ودمياط، ودمياط هذه هي المدينة التي كانت تعرف فيما مضى باسم راغس(وهم وتداخل) وفيما بعد باسم إديسا، والآن دمياط، وإلى هذه المدينة بعث توبيت أوف يور Tobit of Yore ابنه إلى جباعيل[الصحيح بعثه إلى الري قرب طهران]، ورقد في هذه المدينة فيما مضى القديس توما، ومن خلاله صنع الرب كثيراً من المعجزات في المكان نفسه، وكان في هذه المدينة الرسالة التي بعث بها يسوع إلى أبجر، ملك هذه المدينة، ولهذا السبب ما من مهرطق أو كافر استطاع أن يبقى طويلاً فيها، لكن فيما بعد، وبسبب ذنوب الناس، تدنست المدينة، وهكذا آلت في هذه

الأيام إلى لاشيء.

ونقلت المدينة في هذه الأيام بعيداً إلى داخل اليابسة وابتعدت عن النيل، ذلك أنه غالباً ما جرى انتزاعها من أيدي المسلمين، من قبل القديس لويس، ملك فرنسا، ومن قبل صليبيين آخرين، لكن القديس لويس أخذ أسيراً هناك، ولهذا السبب أعيدت المدينة إلى المسلمين، والآن عندما سمع المسلمون أن ما أحد يمكنه العيش في المدينة إلاّ المسيحيين، قاموا بنقل المدينة إلى مكان آخر، صدوراً عن كراهيتهم لهم، والمدينة في هذه الأيام مسكونة بشكل رئيسي من قبل صيادين، ويقدم عدد كبير من التجار إليها مع بضائعهم، ومع سفنهم، ويشترون كميات كبيرة من السمك، بأسعار زهيدة جداً، ويتولون شحن الأسماك إلى جميع أجزاء الدنيا، وهناك عجائب كثيرة أخرى حول هذه المدينة يمكن أن نقرأ عنها.

٣٥- *حول الصحراء وجبل سيناء*

وفي عودة إلى موضوعي: إنه إذا ما سافر الانسان من القاهرة والفسطاط، يصل إلى سيناء في اثني عشر يوما، ففي ستة أيام منها يعبر الانسان على طول الطريق الذي حدثتكم للتو عنه، والذي هو ملء بالناس، وحيث أن هناك أشياء كثيرة للمشاهدة، ثم يعبر الانسان خلال ستة أيام فوق الصحراء، وعليه أن يحمل معه جميع الأشياء التي إليها حاجة على الجمال وعلى حيوانات التحميل، والمراد بذلك: الخبز، والخمر، والماء، واللحم، والبقسماط، والعنب، والزبيب، والتين، وماشابه ذلك، وفوق ذلك كله فراش للنوم عليه أثناء الليل.

وعليك أن تعرف أن الجمال، التي تعبر هذا الطريق في كل يوم، تعرف تماماً طول سفر اليوم، والمحطات والأماكن المناسبة للراحة، وعندما يصلون إلى هذه الأماكن في المساء يتمددون على الارض

لاجترار الطعـام ومضغـه، ولايسيرون مسـافـة أكثـر، وبـذلك كأنهم يقـولون: هـذا يوم حقيقي، وهذا مكان للتـوقـف، وبعـد هذا يجري اطعامهم الخبز والأشـواك، ومن السهل إطعام الجمل، ونادراً ما يشرب مرة واحدة كل ثلاثة أيام، لأنه إذا مـا كان الماء متناسباً مع حجمهم، ما من انسان يستطيع أن يعبر الصحراء معهم.

وبعد عبـورك للصحراء تأتي إلى البحـر الأحمر، وعليك أن تعرف أن الصحـراء ليست سوى ملح وأرض رمليـة، احترقت وجفت إلى أقصى غـاية ممكنة بوسـاطـة حـرارة الشمس، ومن النادر أن تجد شيئاً أخضر فيهـا، وعلى كل حـال ليست الصحـراء كلهـا جـرداء في جميع الأمـاكن سـواء، وإنه لأمـر مدهش وعجيـب أنك تجد صخورها وجبـالها مـالحة جداً، ومع ذلك هناك ينابيع متفجرة فيها مياهها عذبة جداً، وهي ممتازة جداً للشرب، ويوجد الى جانب هذه الينابيع حشائش وأعشاب، وأشياء خضراء مماثلة، ويجد الانسـان على مقـربة منهم آثار أسـود، وتنينات، وحيـوانات مفترسـة خطيرة أخـرى، وهناك بشكل خـاص أرانب برية، وعندمـا يعبر الانسان هذه الصحـراء في ستة أيام، ويشـاهد ما فيهـا من عجـائب، يصل إلى البحـر الأحمر، كما تقـدم بنا القـول، وذلك إذا كـان قادماً من الفسطاط.

وفي البحـر الأحمر أسماك رائعة بكميـات كبيرة، وميـاهه ليست حمراء بل الأرض، مع قعـره هناك لها لون أحمر، وتبـدو الميـاه للناظر إليهـا حمراء، أي للمحدق نحو الأسفل، وذلك بسبب احمرار القعر، لكنها عن بعـد لها اللون نفسـه مثل المياه الأخـرى، وميـاهه نقيـة جداً وصـافيـة، ولذلك من الممكن رؤية بنس مرمي على قعـره من مسافة عشرين غلوة، هذا وإنه بسبب احمرار قعـره وصفاء مـائه، يبدو مثل أصفـى نبيذ أحمر، ويجد الانسان فيه كثيراً من المرجان، وأيضـاً كثيراً من الأحجار الكريمة والأشياء الأخرى، مرمية على شواطئه.

والبحر الأحمر قائم في العربية، وجميع أراضي العربية حمراء، ولهذا السبب فإن الاشياء الحمراء مهما كان نوعها تنشأ هناك فيها وكذلك تلد، وكل شيء هناك أحمر باستثناء الرجال فقط، ولهذا السبب فإن الذهب الخالص يعثر عليه هناك مثل جذور اسطوانية، فضلاً عن هذا يوجد في البحر الأحمر كثيراً من الجزر، فيها تنمو أشجار حمراء من مختلف الأنواع، وبشكل خاص، بين ما يعرف لدينا باسم الشجر البرازيلي Brazil.

والبحر الأحمر ليس بحراً كبيراً جداً، كما أنه ليس طويلاً ولاعريضاً، ولايتجاوز عرضه في المكان الذي عبر منه بنو اسرائيل أربعة أميال أو خمسة، وفي البحر الأحمر هناك قلعة يمتلكها السلطان، فيها مسجون نبلاء أسرى الصليبيين، وفضلاً عن هذا تتولى هذه القلعة الحراسة وتبقى متيقظة، خشية أن يحاول انسان لاتيني، أو رجل من هذه الجهة من البحر، أو واحد ولد في هذه البلدان، العبور بوساطة البحر الأحمر إلى الهند، وذلك خوفاً من أن يجلبوا إلى الوطن أية أخبار عن قوة وأوضاع الشعب في مناطق ماوراء البحر، أو أخباراً عن برسترجون والهنود، أو حمل رسائل منهم، ذلك أنه سوف يكون سهلاً الابحار إلى المحيط والهند من خلال البحر الأحمر، لو أن هذه القلعة لاتقف في الطريق، لكن يمكن للتجار الهنود والتجار المشارقة عبور ذلك الطريق، كلما أرادوا، كما يفعلون غالباً، وعلى كل حال إنني أعرف أساقفة ونبلاء اعتادوا على الدوام على ارسال تقارير عن هذه المنطقة من الشرق، مع جميع أنواع الأخبار، عبر البحر الأحمر إلى برسترجون، ولقد اعتاد رجال هذه القلعة على صنع شباك من أوتار الجلود ورميها في البحر، ثم يدعون المرجان الذي ينمو في البحر، مثل النبات، يتعشعش بين الأوتار، ويسحبونها كل نصف سنة وهي مليئة بها لايحصى عدده من أفضل أنواع المرجان، وبذلك يحصلون على مرابح عظيمة، مقابل لاشيء

مطلقاً، فمن خلال هذا البحر الأحمر، تأتي تجارات ثمينة جداً، من الهند، وتنقل هذه التجارات من خلال فرع البحر، الذي ينطلق من البحر الأحمر، وينزل من خلال النيل إلى جميع أنحاء العالم.

وكما قلت من قبل، بالتجول حول شاطىءالبحر الأحمر، يصل الانسان إلى المكان الذي عبر منه بنو اسرائيل البحر، وكان ذلك لدى مطاردة المصريين لهم، وفي أثناء هذه الرحلة يجد الانسان أشياء نادرة من مختلف الأنواع على الشاطىء، وهكذا بعد ترك عدد من الجبال في الخلف، يصل الانسان الى بئرماره [الخروج: ١٥/ ٢٣] حيث كان الماء مالحاً، وكان ذلك عندما عبر بنو اسرائيل بذلك الطريق، وعندما ألقوا في ذلك الماء غصن شجرة، غدا بأمر من الله عذباً، وبعد مغادرة ماره، والمرور بمناطق مختلفة، وبعد رؤية كثير من الجبال وتوديعها، يصل الانسان إلى إيليم [الخروج: ١٥/ ٢٧]، فهناك عندما عبر بنو اسرائيل ذلك الطريق وجدوا هناك سبعين نخلة، واثني عشر بئراً، وهذا المكان خصب جداً، وفائق الجمال، ويجد الانسان هناك كثيراً من قلايات الآباء المقدسين وصوامع النساك التي كانت فيما مضى قائمة على مقربة من ذلك الموضع، وبعد مغادرة إيليم يصل الانسان إلى قفارسين، وإلى جبل سيناء، وقد بني عند سفح هذا الجبل دير واسع جداً وجميل، وكان ذلك في المكان الذي رأى موسى فيه الشجرة المحترقة (العليقة)، التي لم تستهلكها النار، وقد تكلم الرب إليه من خلال العليقة، والدير مسقوف بالرصاص، ومسيج بأبواب حديدية، ومحصن بشكل جيد من كل جانب، وفيه أكثر من أربعمائة راهب: إغريقي، وجورجي، وعربي، من كل من رجال الكهنوت والعلمانيين، وهم لايقيمون بشكل دائم في الدير، بل تراهم منتشرين في الخارج هنا وهناك، يعملون في مصالح الدير،وبالتعب الكبير، يحصلون على ما هو محتاج لأنفسهم وللحجاج، حيث يقومون بشكل مستقيم وتقوى بتوزيع الشيء نفسه على الحجاج،

وهم يعيشـون بتقـوى عظيمـة، وبانتظـام شـديد، مع حيـاة متقشفـة، ويقـدمـون الطاعـة بتـواضع إلى أسقفهم وكهنتهم، ويعيشـون بقـداسـة وتواضع في كل شيء، وهم نادراً مـا يشربون الخمـرة، إلاّ في أيام أعيـاد خـاصـة، ولايأكلون اللحـوم أبـداً، بل يعيشـون على «السلطة»، والخضروات، والحبـوب، والتمـور، ومـاشـابه ذلك، مع الماء، والخل، والملح، ويأكلون من مـائدة واحدة، من دون منضـدة وأثاث، ويحتفلون بالقداسـات الإلهية بكل تقوى، صبـاحاً ومساءً، وذلك تبعـاً لطقوسهم، وهم يتبعـون في كل شيء قـانون القـديس أنطوني، ويعمل الرهبـان العلمانيـون بنشـاط عظيم، حيث يحرقـون الحطب لتحضير الفحم على رؤوس الجبال، ويجلبون التمور بكميات كبيرة من إيليم، ويحملونها على ظهـور الجمال وحيـوانات التحميل إلى الفسطاط، حيث يتـولون بيعهـا، ويحصلون من هناك على مسـاعـدات كبيرة وهدايا حضرت من أجلهم، من قبل المسيحيين والتجـار الذين يسكنون هناك، وبدون هذا لايستطيع كثير من الناس العيش في مكان صحـراوي، ولايستطيعون الانفـاق على الضيـافـة المكلفـة التي يقـدمـونها بدون مقـابل وبكرم عظيم وبلطف ويعطونها إلى الحجاج، وهم يجلبون التمور من إيليم والفحم من الجبال، أي من مسـافـة تزيد على سفر أكثـر من اثني عشر يومـاً، ويتـولون بيع ذلك كما أخبرتكم.

ويقـوم في هذا الدير كنيسـة فـائقـة الجمال، يحافظون عليهـا ويبقـونها نظيفـة من الداخل، وهي تضـاء بمصـابيـح وبوسـائل إضـاءة متنوعـة، ويقدمون تبجيلاً خاصـاً للمكان حيث يقوم المذبح العالي، وهم يخلعون أحذيتهم قبـل دخولهم إلى هذا المكان، ويجعلون كل واحـد من الحجاج الذين يرغبـون بالدخـول إليهـا يخلع حـذاءه مثلما يفعلون، لأن المكان الذي يقـوم فيه المذبح العالي الآن، قـامت عليه فيما مضى العليقـة، التي كلم الرب من خلالها موسى وقـال له: «اخلع حذاءك من رجليك. لأن

الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة» [الخروج: ٣/ ٥].

وفي هذه الكنيسة، وعلى جهة اليمين للمذبح العالي، إنما في أعلى مكان، يقوم نوع من أنواع الصناديق من الرخام الأبيض، موضوع فيه، ومغلق على رأس وعظام العذراء المجيدة كاترين التي هي مختلطة فيما بينها بشكل فوضوي، وكانت هذه العظام قد نقلت من قمة جبل سيناء، ويجري عرض هذا الرأس والعظام بشكل مهيب جداً من قبل رئيس أساقفة الدير وكهنته، مع مباخر، وشموع، ومساعدي كهنة، وفي هذه الأوقات يطلب الأدلاء المسلمون، وسائقو الجمال، وساسة الخيول الذين يأتون مع الحجاج، ويلتمسون باخلاص أن يسمح لهم أيضاً برؤية هذه العظام المقدسة العجيبة، ويركعون بتقوى عظيمة جداً إلى جانب المسيحيين، ولدى عرض هذه العظام على الحجاج، إذا كان هناك أسقف أو كاهن كبير بين الحجاج، عندما يقوم رئيس الأساقفة أو رئيس الكهنة في الدير، بتناول واحداً من العظام المقدسة بيده، يحكها بشدة بوساطة أداة فضية شكلها مثل شكل عصا، حيث يتدفق بسبب ذلك زيت من المسام مثل العطر، وقد اتخذ في إحدى زوايا الصندوق التي حفظت فيه العظام فجوة فيها يتجمع جميع الزيت الذي يسيل من هذه العظام ويتدفق، ليجمع هناك، وهناك في هذه الفجوة ملعقة فضية، يأخذها بيده الكاهن الذي يتولى عرض العظام، ويملأ قارورة زجاجية صغيرة بالزيت، ويعطي كل واحد من الحجاج قارورة صغيرة فيها زيت.

فضلاً عن هذا، في هذا الدير، هناك آثار مقدسة أخرى كثيرة، ومع ذلك فإن رهبان الدير لايمكنهم الإقامة هناك، إلاّ بنعمة خاصة من الرب، وغيابهم هو لأسباب كثيرة غيرناشئة عن إثارة الشيطان، ولهذا السبب لاتوجد غيرة أو فوضى بينهم، بل تجدهم يؤثرون كل من يراهم، وعلاقاتهم جيدة معهم، وكذلك علاقاتهم مع المسلمين، فهي لاتختلف عن علاقاتهم مع المسيحيين، وبشكل خاص مع السلطان،

الذي يمنحهم كثيراً من الصدقات والمساعدات، وعلى هذا لم يتعرضوا أثناء عملهم أو تجوالهم في الصحـــراء للأذى من قبل أية مخاطر، أو حيوانات مفترسة، كما أنهم لاينزعجون ولايمرضون لا في الصيف ولا في الشتاء، من قبل المناخ غير المتوقع، أو بحرارة الشمس المرتفعة جداً، وأعتقد أنهم حصلوا أيضاً على نعمة خاصة من الرب، بوساطتها لم تدخل المخلوقات القـــذرة قط داخل جدران الدير، وأعني بهذه الحيوانات أمثال: الذباب، والزنابير، والدبابير، والقمل، وماشابه ذلك، فهذه لايمكنها العيش هناك.

وأخبرني راهب من ذلك الدير، كان ذا تعليم نادر، أنه حدث في يوم من الأيام، بإثارة من الشيطان، وبإذن سماوي، أن هذه المخلوقات آذتهم كثيراً، وبقدر ما تستطيع، وعانوا كثيراً جداً من العذاب المضني والأذى الصادر عن هذه المخلوت غير النظيفة من هذه الانواع، إلى حد أنهم فكروا بترك المكان، إنما تشجعوا برأي مقدس لواحد من الرهبان، وصلوا إلى الرب أن يقوم برحمته بطرد وإزالة جميع أمثال هذه المخلوقات وابعادها عنهم، وتمت الاستجابة مباشرة لهذه الصلوات، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، لم يلاحظوا وجود مثل هذه المخلوقات أو أي منها مهما كان داخل أسوار الدير، هذا وفي الوقت نفسه تراهم خارج الأسوار يسببون أذى عظيماً لكل من البشر والحيوانات، فضلاً عن هذا لقد تبرهن مراراً، أن مثل هذه المخلوقات غير النظيفة عندما تحمل حية إلى داخل الأسوار تموت فوراً.

وحصل الرهبان على هذه الامتيازات جميعاً بوساطة حياتهم المقدسة والمستقيمة، لأنهم لايخدمون الحجاج من أجل المال أوطمعاً في شيء، بل إنهم يقدمون الخدمات لكل من يأتي إلى هناك، طوال المدة التي يقيمها مهما كانت، وسواء أكان الزوار أغنياء أم فقراء، عالين أو منخفضين، يعطيهم الرهبان جميعاً كل ما يتملكونه أنفسهم، بكل بساطة ولطف،

وذلك باسم الرب، وإذا مـا حاول أحـد الناس منحهم أو إعطاءهـم، أو أي واحد منهم، أية هدية، يرفضون جميعاً، ويردونها، وإذا ما أخذها أي واحد منهم، سـوف يتعرض إلى عقـوبة شديدة، ومثل هذا أيضـاً عندما يأخذ الحجـاج بمغادرتهم، يقـدمون لكل واحـد منهم، بكل لطف ومن دون أي مقابل، أرغفة من الخبز، وبعض الحبوب، وما شابه ذلك، وفقاً لأفضل ما يقدرون، ويكون ذلك بقدر مايكفي أحدهم كل يوم من أيام سفـره، وذلك حتى يصل إلى الأمـاكن المأهولة بالناس، ويقـدمـون هذا لكل الناس سواء إلى الغني وإلى الفقير، وإلى العالي والوضيع.

ويحتفل هؤلاء الرهبان بعيـد البابا القديس غـريغوري، ويولونه عناية فـائقة خـاصـة، ويهتمـون به أكثر من الأعيـاد الأخـرى، لأنه في الوقت الذي كـان فيـه رأسـاً للكنيسـة دعمهم بـالهبـات من خـزانة الكنيسـة، وشجعهم على السكنى هنـاك، ومنذ ذلك الوقـت فصـاعـــداً، بقيـــوا وعددهم أربعمائة، علماً أنهم كانوا قبل ذلك قليلاً عددهم.

ويطل فـــوق هذا الديـر، ويشرف عليـــه جبل سيناء، الذي يصعـــد الانسـان إلى قمته بوسـاطة عدد كبير من الدرجـات، وبعد تعب شـديد لايمكن للكلمات أن تعبر عنه، وتقوم فوق قمـة هذا الجبل كنيسة، فوق البقعة، التي قال فيهـا الرب لإيليا النبي:« لماذا أنت هنا يا إيليا»؟ وذلك حسبما قـرأنا في سفر الملـوك، وعلى مقربة من هذه الكنيسـة، هناك بيعـة صغيرة، في المكان الذي أعطى الرب فيه الشريعـة إلى موسى، وتجلى مجد الرب عليـه، ومـايزال يشاهد في هذا المكـان فجوة في الصخـرة الصماء، فيها محفور صورة مـوسى كختم، ففي هذه الفجوة مدّ الرب يده اليمنى فـوق موسى عندمـا مـرّ من أمام جـلالتـه، وجعل موسى يرى أطرافـه المعاقة، لأن موسى لم يكن بإمكانه تحمل رؤية وجهه السامي.

وحـدث أنه إلى قمـة جبل آخـر أعلى من هذا الجبل، إلى جـانب وادٍ عميق، في المكان نفسـه، تمّ حمل جسد العـذراء الرائعة كـاترين من قبل

الملائكة من الاسكندرية، وبشكل إعجازي جرى اكتشافه من قبل النساك الذين سكنوا هناك، وهذا الجبل من أكثر الجبال اتعاباً في تسلقه، هذا ولايوجد على قمته بيعة، أو صومعة، أو مكان استقرار، وأعتقد أن سبب هذا أن تسلقه مرهق إلى حد أنه ما من أيدي بشرية يمكنها أن تبني أي شيء هناك، لكن من الممكن رؤية المكان الذي عثر فيه على جسد القديسة كاترين، حيث هناك علامات كتفي إنسان فوق الصخرة، وهذا المكان معلم بوساطة حجارة، وصنع الرب فوق هذا الجبل كثيراً من المعجزات، يحتاج الحديث عنها جميعاً إلى وقت طويل.

وعليك أن تعلم أن جبل سيناء متفوق في ارتفاعه على جميع الجبال في تلك المناطق، وكما قلت يتسلقه الانسان بعد جهد كبير جداً، أكثر من أن يستطيع أي لسان أن يصفه، ذلك أن على المتسلق له صعود عدد كبير من الدرجات الضيقة جداً والمحفورة في الصخر، وهذا الجبل يفقد اسم سيناء باتجاه مصر، ويصبح اسمه حوريب، ومن قمة هذا الجبل، من الممكن رؤية جميع المناطق من حوله، ويمكن بسهولة مشاهدتها، وفي هذا الارتفاع الشديد يتأثر الانسان كثيراً بالهواء، ومن هناك يمكن للانسان أن يتفحص بدقة البحر الأحمر، وإيليم، وهو المكان الذي أمطرت السماء فيه منّاً على بني إسرائيل، كما يمكنه مشاهدة جميع المناطق الأخرى في الجوار، ويوجد عند سفح الجبل سهل جميل، فوقه اعتاد موسى على رعاية قطيع ختنه يثرو Jethro (شعيب) وهناك رأى العليقة، وحدث فوق هذا السهل أن قاتل أيضاً إسرائيل ضد عماليق(الخروج:١٧) في حين كان موسى يدعو بذراعين مرفوعين، ويشوع(هرون) وحور، قد وقفا ممسكين ليديه حتى تبقيا مرتفعتين، ومثل هذا حدث فوق هذا السهل أن صنع بنو إسرائيل لأنفسهم عجلاً مصهوراً، عنه حدثنا الكتاب المقدس،وفوق هذا السهل أيضاً أكلت النار ناداب، وأبيهو(لاويون:١٠/ ١)، وكذلك من الممكن رؤية أماكن

أخرى كثيرة، ورد ذكرها في الكتابات المقدسة.

٣٦ — *حول فيافي سيناء*

ويسافر الانسان من جبل سيناء نحو سورية، عبر الفيافي، خلال ثلاثة عشر يوماً، حيث يأخذ معه بعض الميرة الخاصة به، وذلك مع ما يعطى له من الدير، وهذه الفيافي سيئة جداً وخطيرة، وهي قائمة في العربية، وتدعى هذه البلاد سواء أكانت مسكونة أو مهجورة باسم العربية، وفي هذه الفيافي هناك ندرة عظيمة وشح بالمياه، ويقطن هناك أعداد لاتحصى من الناس هم مثل الحيوانات المتوحشة، وهم يعرفون باسم البدو، ويتجولون هناك على شكل جماعات مكونة من مئات أو آلاف مع بعضهم، وهم يسكنون في خيام مصنوعة من اللباد أو الجلود، وهم يتجولون هنا وهناك إلى الأمام وإلى الخلف حول القفار مع قطعانهم وحيوانات التحميل، حيث ترعى مواشيهم في أية أماكن يمكنهم أن يجدوا فيها ماء، مع أنها مياه قليلة في آبار وفي مجاري، وهم يعيشون على حليب نوقهم ومواشيهم، وهم لايأكلون الخبز، ما لم يصدف ويعطيهم بعض الحجاج بعضاً منه، أو ما لم يجلب إليهم من سفر أكثر من اثني عشر يوماً، ذلك أنهم لايبذرون ولايحصدون، بل يعيشون مثل الحيوانات غير الأليفة، وجوههم مرعبة أن تنظر إليها، حيث هي سوداء وملتحية، وهم شجعان جداً وسريعون، ويمكنهم أن يذهبوا على ظهور جمالهم(وحيدة السنام) إلى أي مكان بعيد يرغبون بالوصول إليه في يوم واحد، حيث ينشدون الأماكن التي من الممكن توفر المياه فيها، وهم يلفون قطعة طويلة جداً من القماش حول رؤوسهم، وذلك بسبب حرارة الشمس التي لاتحتمل، وهم يستخدمون القسي والنشاب، وفي هذه القفار من النادر وجود المياه خلال رحلة يومين أو ثلاثة كاملة، وقد يعثر عليها في مكان في اليوم الأول غير أنها ستجف في اليوم الثاني، فضلاً عن هذا، في هذه القفار، تجد لساعة من

الزمـان أماكـن كلها منبسطة، وفي سـاعـة ثانية، تجد أكـوامـاً من الرمل مـرعبـة قـد تجمعت، أولاً في مكان، ثم في مكان آخـر، ولاتستمـر بالاستقرار في مكـان واحد، وبناء عليه فإن الطريـق عبر القفار لايمكن مطلقـاً معرفتـه، إلاّ بوسـاطة الجبـال، ومن قبل البداة، الـذين يعرفـون ويفهمون الطرقات في القفار مثلما يعرف الناس الطريق حول بيوتهم.

ولايهتم هؤلاء مطلقاً بالسلطان، ولايقـدمون إليه أية طاعـة مهما كان نوعها، لكن السلطان يحاول إغراءهم واسكاتهم بالهدايا حتى وإن كانوا يسكنون بعيداً عنه، ذلك أنهم لو اختاروا لأمكنهم بسهـولة عظيمة جداً أن يستولوا على مملكة السلطان ويخربونها.

وعبرت العذراء مريم هذه الفيـافي مع الطفل يسوع عندما هربت من اليهودية من وجـه هيرود، وينمو على طول الطريق المعتقـد أنها مرت به ورود جافة، يطلق عليهـا في هذه المناطق اسم ورود أريحا، ويجمع البدو هذه الورود من القفـار، ويبيعونها إلى الحجـاج مقابل الخبز، فضـلاً عن هذا، النسـاء المسلمات يكن مسرورات كثيراً، بـأن تكون هذه الورود إلى جـانبهن، وذلك عندما يكن في أوقـات الولادة، فوقتهـا يشربن من الماء الذي جـرى صبه فـوق الورود، وقـد أعلن أن ذلك مفيد جـداً، وثمين أثناء الحمل.

وفي هذه القفار هناك مخاوف أخـرى كثيرة، سوف تحتـاج وقتاً طويلاً لحكايتهـا، وهي صـادرة عن الـرياح، والرمـال، والرجـال المتـوحشين، والأفـاعي، والأسود، والتنينات، والهوام السـامـة الأخرى والحيـوانات المفترسة.

وبعـدمـا يعبر الانسان هذه القفـار، الممتـدة نحـو الجنوب، يصل إلى بداية أرض الميعـاد وذلك إلى مـدينة كـانت فيها مضى جميلة لكنهـا الآن مهجورة، اسمها بير السبع، ويبدو أن هذه المدينة كانت فيها مضى مزينة

بكثير من الكنائس الجميلة، حيث ماتزال بقايا بعضها قائمة حتى هذا اليوم.

٣٧ — حبرون — وادي ممرا — وبيت لحم

وإذا ما انطلق الانسان من بير السبع في منتصف النهار، يصل إلى مدينة جميلة وقديمة، ماتزال مأهولة بشكل لابأس به، اسمها حبرون، وتقوم على جانب رابية قريبة من هذه المدينة، كنيسة جميلة، يوجد في داخلها الكهف المزدوج، حيث دفن فيه البطاركة الثلاثة:إبراهيم، واسحق ويعقوب، مع زوجاتهم، وهذه الكنيسة تعد مقدسة بشكل خاص لدى المسلمين، وهم لايسمحون لأي مسيحي بالدخول إليها، إنها يجعلونهم يصلون عند الباب، ويسمحون لليهود بالدخول حيث كانوا يدفعون في أيامي المال ليفعلوا ذلك، وعلى كل حال من الممكن رؤية هذه الكنيسة من قبل المسيحيين من كل من الداخل والخارج، وهي من داخلها مدهونة بالأبيض، ومزينة بشكل جيد بالحجارة، وينزل الانسان نحو الأسفل وكأنه في قبو، إلى الكهف، حيث قد جرى دفن البطاركة وزوجاتهم.

وعلى مقربة من حبرون يوجد الحقل، الذي صنع آدم من ترابه، وكلما ازداد حفر هذه الأرض ونقل التربة منها، كلما امتلأ مجدداً من قبل نفسه، وتحمل التربة إلى بلدان نائية، ويقول بعضهم إنها تباع، غير أنني لاأعرف شيئاً مؤكداً حول هذا الموضوع.

وعلى مقربة من حبرون أيضاً، يوجد وادي ممرا، حيث جلس إبراهيم عند باب خيمته ورأى ثلاثة، وعبد واحداً.

وكان في حبرون ثلاثة مرتدين من أسقفية Minden حسبما قيل، وكان اثنان منهم من السادة وكان الثالث خادمهما، ويحمل أولهما الماء على كتفيه ويبيعه في الشارع كما هي العادة في تلك المناطق، ويعمل الثاني

بيـديه ليحصل على عيشه حسب أفضل مـايستطيع، وأما الثـالث، الذي كان خادمهما فصار جندياً، لأنه اعتقد أنه أفضل مظهراً للانسان من كل الجوانب أن يكون تابعاً لواحد مـن ضباط السلطان، وعندما سئلوا لماذا تخلوا عن إيمانهم، أجـابوا بأنهم أملوا بـأن يحصل سيـدهم على الثـروة والمكانة، لكنه خيب ظنهم، وأعلنوا، وهـم يتنهـدون حزناً، بأنهم يودون لو يخطفون من هذه البلاد إذا كان ذلك ممكناً، لأنهم كانوا يعيشون حياة بائسة جداً، ولم يمتلكوا الجرأة على الاخبـار والكشف من هم كانوا من قبل، وكان هؤلاء الـرجال الثلاثة أصـدقاء مقـربين كثيراً من فارس من هذه المناطق(بلاد المؤلف) اسمـه وليم بولنزسيل Bolensele (كذا) كـان مقيماً في بلاد مـاوراء البحـر قبل أيامي، وكـان محترمـاً بشكل كبير هناك من قبل السلطان، وقد سمعت بأنه مات في كولون Coolgne .(١)

وإذا ما سافر الانسان من حبرون، يمكنه أن يصل بسهولة خلال يوم واحد إلى بيت لحم، وقـام فيما مضى على طريق سفر اليـوم الواحد هذا دير الراعي القـديس كريوث Karioth الذي عندمـا حلت ساعـــة وفاته، ورأى رهبـانه أنه في آلام الموت قالـوا:«بعد وفاة راعينا القـديس كــريوث، لـن نعيش أبداً على هذه الأرض»، وفي تلك اللحظـة بالذات دخلوا جميعاً في تبـاريح آلام ساعة الموت الأخيرة ومـاتوا، وبقيوا لوقت طويل دون أن تفسد أجسادهم وظلوا واقفين وكأنهم في ساعة آلام لفظ أنفاسهم، هذا ولم يستطع المسلمون تدميرهم، ولقـد حاولوا ذلك مراراً، لكن الدير زال، ولم يبق أدنى أثر منهم.

وبيت لحم جميلة جـداً، وهي قرية ممتعـة، وهي ليست طويلة، قائمـة

١ـــكان وليم فون بولدنسيل Boldinsel قد نزل في صور سنة ١٣٣٢، وكـان في القدس في الخامس من أيار سنة ١٣٣٣، وقـــد كتب كتابه في ربيع سنة ١٣٣٦، وهناك رسالة كتبها في أفينون يوم عيد القديس ميكائيل سنة ١٣٣٧، وقد تحدث في هذه الرسالة عن نيته بالقدوم إلى كولون.

فـوق شعب جبلي، ومسكونة مـن قبل المسيحيين فقط تقـريبـاً، وهي مسيجة:بمـراعي، ومزروعـات وأعشاب، وهي بالحري مسيجـة بشكل جيـد بوديان من حـولها، وهناك اعتـاد ملوك القـدس والصليبيـون على حشـد جيـوشهم مع بعضها، ولـدى سكانها كميات وافـرة من الخمـرة والأشياء الأخرى الجيدة،ويقـوم في بيت لحم كنيسة عظيمة وجميلة جداً، ومحصنة بشكل رائـع بكثير من الأبراج، وأعمال خـارجيـة، حتى كأنها قلعـة، وهي مسقوفـة بالرصاص، ومـزينة بأعمال الفسيفساء، وأحجـار اليشب، والرخـام، والذهب، وكما أعتقـد هي متفوقـة بزينتهـا على كل كنيسـة مـوجـودة تحت الشمس، فهي قـد بنيـت من كل جـانب بشكل ثري، وجليـل، وملكي، وذلـك حسبما تستحق، وهي تمتلـك حـوالي سبعين عمـوداً من الرخـام النفيس، وهي ليست مقنطرة، بل مسقـوفـة تحت الرصـاص، بأفضل أنواع الخشب، وجذوع وعـوارض من خشب الأرز، وجدران الكنيسـة مذهبة تحت الزجـاج، وقد عملت بشكل رائع بزجاج مرسوم.

وأراد المسلمون قبل أيامي أخذ بعض الأعمدة، لكنهم ارتعبوا كثيراً، برؤيا، جعلتهم يتـوقفون ولم يحاولوا قط منذ ذلك الحين أخـذهم، وأمام السدة في هذه الكنيسـة ينزل الانسان بضع درجـات إلى كهف حجري، ليس مبنيـاً بل هو طبيعي، حيث فيـه تحت المذبح العـالي، يوجـد المكان الذي صنع فيـه الـرب من أجلنا إنسـاناً، من أم عـذراء، ويقـوم فـوق الموضع نفسه هناك مـذبح، وليس بعيداً عن المذبح يقـوم المعلف، الذي مددت فيه مريم العذراء المباركة الطفل يسوع، وهو ملفوف بأثمال بالية، وكان المشهد أن الرب نفسه وإنسـان، يبكيان بحكم الضعف الإنساني، مثلما اعتـاد الأطفال على البكاء، وإلى جـانب المعلف مـازال من الممكن رؤية قطع حديدية مثبتـة في الرخام بوساطة الرصاص، حيث كـان فيها حلقـات حديديـة، بها اعتاد رجـال الريف على ربط حيـوانات التحميل

العائدة إليهم مع المواشي، عندما يقدمون إلى السوق.

والمعلف مصنوع من الحجارة، وطوله حوالي أربعة أشبار، وفي ليلة الميلاد تجتمع هناك جميع الأمم الموجودة تحت قبة السماء، كما ينبغي بشكل صحيح جداً، ولكل أمة مكان محدد في هذه الكنيسة معزول لها ومخصص بشكل دائم، لتقيم فيه قداساتها، وفقاً لطقوسها الخاصة بها، ويمتلك اللاتين الآن الموضع الذي عمل فيه الرب إنساناً، ومثل هذا لكل أمة قائمة بذاتها، مكان قائم بذاته لها، وفي أيامي لم يكن النوبيون قد امتلكوا مكاناً خاصاً بهم، ويقوم قبل هذه الكنيسة الدير الذي سكن فيه القديس جيروم، والقديسة باولا، والقديس يوستوخيوم -Eus tochium، وكثير من القديسين الآخرين، وبفضل نعمة الرب صنعت هناك الكثير من المعجزات.

ويسكن الآن مسلم فوق ذلك الموضع، ويتلقى بنساً بندقياً واحداً من أي واحد يريد أن يدخل إلى الكنيسة.

ويوجد أيضاً في بيت لحم بيعة تحت الصخرة، من الواضح أنها تمتلك بابين، ولهذا يستطيع الانسان أن يعبر مباشرة إليها، لكن الآن جرى إغلاق أحد الأبواب وسدّ بالبناء، ففي هذا الموضع والحفرة، التي هي الآن بيعة،اختبأت العذراء المباركة لمدة ثلاثة أيام خوفاً من هيرود، وأبقت الطفل يسوع مخفياً هناك، وحدث أنها أثناء خوفها أن تقاطر بعض الحليب منها على الصخرة في ذلك المكان، وهذا الحليب مايزال موجوداً هناك حتى هذا اليوم، وقد ترشح الحليب من خارج الحجرمثل شيء رطب، فاللون حليبي مع شيء من اللون الأحمر، وكلما مسح المزيد من الحليب وأزيل، كلما عاد بالكمية نفسها، وليس أكثر، وهذا هو الحليب الذي من الممكن رؤيته، وهو معروض للمشاهدة في كثير من الكنائس المختلفة، لأنه يحمل إلى هنا وهناك من قبل الحجاج.

ويوجـد أيضـاً على مقـربة من بيت لحم كهف كبير في الصخـر، فيـه جرى إلقاء عدد كبير من أجسـاد الأبرياء، وقد جرى حمل هذه الصخرة كلها تقريباً، ونقلها من قبل الحجاج، فضلاً عن هذا على بعد ميل واحد من بيت لحم، يوجـد المكان الذي اعتـاد القديس جيروم بشكل خـاص على السكنى فيـه، وهناك قـام بترجمة عـدد كبير من الكتب من العبرية، والكلدانيـة، والاغريقية إلى اللاتينيـة، وعلى مقربة من بيـت لحم أيضاً، أي على بعد نصف ميل باتجاه سدوم وعموره، يوجد الموضع الذي بشر فيه الملائكة الرعيـان بأن الرب قد ولد على شكل إنسان، وقـد جرى في هذا المكان بناء كنيسة مزدوجة وفـائقة الجمال، اسمها«المجد في الأعالي»، وهو مـا أنشـده الملائكة هناك، ولهذ السبب تبـدأ أيضـاً جميع سـاعـات قـداساتها اليـوميـة بـ«المجد في الأعـالي»، تماماً مثلما نفعل بقـولنا«المجـد للرب في الأعالي»، وهـم يفتتحون جميع القـداسات، حتى القداسات من أجل أرواح الموتى بـ«المجد للرب في الأعـالي»، وذلك بطريقـة خاصـة، حسبما رأيت مراراً في كتاب قداساتهم.

وهذه هي مـدينـة بيت لحم، المدينة الأسمى عند الـرب، حيث ولد فيهـا داوود، وهي أيضـاً كما قـال عنهـا النبي ميخـا:«وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغـرى بين رؤسـاء يهوذا»[ميخـا:٥/ ٢ — متى:٢/ ٦]، لأن بيت لحم قـائمـة في وسط يهوذا، ولهذا السبب أطلق على جميع تلك المنطقة اسم اليهودية، ذلك أن البلاد التي عرفت من قبل باسم اليهودية اسمها الآن سورية، واسم سكانها السريان.

ويذهـب الانسان من بيت لحم إلى القدس بوساطة طريق، يوجد على يسـاره قبر راحيل زوجة يعقـوب، وهو المكان الذي حملت فيـه بابنهـا بنيامين، وقد توفيت أثناء الولادة، وعلى مقـربة من هذا الطريق الكنيسة المشـارر إليهـا من قبل، أي كنيسـة«المجد في الأعـالي»، وكـان أيضـاً إلى جانب هذا الطريق، ومـا يزال موجوداً، عدد كبير جـداً من من صوامع

القديسين، والكنائس والكهوف، والديرة، والقبور، العائدة للمسيحيين، وصنع الرب هنا كثيراً من المعجزات من خلال هؤلاء القديسين، وما يزال هناك حتى هذا اليوم عدداً كبيراً جداً من أجساد القديسين غير البالية، الرب وحده يعرف أسماءهم، وهم موجودون في أماكن متنوعة في الكهوف والأقبية.

وأيضاً على مقربة من هذا الطريق يوجد المكان الذي كان فيه البئر الذي ألقي فيه يوسف من قبل أخوته، ومن ثم بيع إلى الاسماعيليين، وبعد رؤية هذه المشاهد الكثيرة كلها مع المشاهد الأخرى، يصل الانسان إلى القدس، والمسافة فيما بين المكانين هي فقط ثلاثة أميال قصيرة من أميال تلك البلاد.

٣٨ — *مدينة القدس المقدسة*

القدس، المدينة المقدسة، التي فيها جرى صنع خلاصنا، وهي قائمة على جبل في وسط هواء صحي، وهي محصنة بشكل جيد، من جهة الشمال: بوساطة أسوار، وأبراج وتحصينات خارجية أخرى، ومن جهة الشرق بوساطة وادي شعفاط، ومن جهة الجنوب والغرب بوساطة وديان أخرى عميقة، وهي تفتقر إلى الماء في داخل أسوارها، وبركها مملوءة بالماء المجلوب من حبرون بوساطة مجاري تسير من تحت الأرض مع أقنية، من الممكن رؤيتها على طرف ذلك الطريق، عندما يسافر الانسان عليه، وهذه المدينة المجيدة ليست فائقة الطول ولا فائقة العرض، وهي ليست كبيرة جداً، كما أنها ليست صغيرة جداً، وهي مبنية بشكل مناسب إلى حد ما، وقد انتقلت بعض الشيء إلى شرق ما كانت قائمة عليه أيام صلب المسيح، وقد أعيدت عمارتها من قبل أليوس هدريانوس، وذلك بعدما هدمت من قبل تيتوس وفسبسيان وتمت إعادة العمارة لإظهار التشريف لموضع الجمجمة.

ويقـــوم في القـــدس هيكـل الرب، وهيكل سليمان، ويحتـل هذان الهيكـلان شطراً كبيراً مـن المدينة، ولايسمـح المسلمـــون للمسيحيين بالدخول إلى هذا الهيكل، وإذا مـا دخلوا عليهم إما مـواجهة الموت، أو التخلي عن عقيدتهم، وحـدث هذا في أيامي، لأن بعض الاغريق دخلوا إليه، وداسـوا على كتب المسلمين، وبما أنهم رفضوا التخلي عـن عقيدتهم شطروا إلى قسمين.

وهيكل الرب مستـدير، وقد بني وفق النمط الاغـريقي، فهو مـرتفع جداً، وواسع ومسقوف بالرصـاص، ومعمول من حجارة كبيرة منحوتة ومصقـولة، ووضع المسلمون فـوق ذروته — وفقـاً لطرائقهم — هلال قمـري، ولهذا الهيكل أربع ساحـات كبيرة، هي ليست مسقـوفة، لكنهـا مبلطةبشكل جيد، ومزينة برخام أبيض.

وعلى مقربة من هذا الهيكل، من جهـة اليمين، هناك كنيسة مستطيلة، ذات سقف رصـاصي، اسمهـا رواق سليمان، ويقدم المسلمـون احترامـاً عظيماً لهيكل الرب، ويحفظـونه نظيفـاً جـداً في الـداخل والخارج، وهم جميعـاً عندما يدخلونه يخلعـون أحـذيتهم، ويسمونه الصخـرة المقدسـة، ولايسمـونـه الهيكل، ولهذا يقـول أحـدهـم للآخـر:«دعـونا نذهـب إلى الصخـرة المقـدسة»، ولايقـولون:«دعـونا نذهب إلى الهيكل»، ويسمـون الهيكل:«الصخـرة المقـدســة» بسبب وجـود صخـرة صغيرة في وسط الهيكل، وهي مطوقة بحـاجز حديدي، ولقد سمعت أنه قـد قيل صدقاً من قبل مــرتـدين مسلمين أنه ليس من المفترض بـأن يلمس أي مسلم الصخـرة، وأن المسلمين يرتحلون من بلدان نـائيـة لزيارة الصخـرة بكل تقــوى، وفي الحقيقـــة تلطف الرب بإظهـــار الاحترام لهذه الصخـــرة بمختلف السبل، وصنع كثيراً من المعجزات هناك فوقها، وهذا ما يشهد عليه الكتاب المقدس بعهـديه القديم والجديد، وأول جميع الأمور، وقبل كل شيء، قـدم مليكصادق على هذه الصخـرة قـرباناً من الخبز والنبيـذ،

وكـان مليكصادق هـو أول الكهنة، وفوق هذه الصخـرة نام يعقـوب، ورأى مجد الرب، وسلماً واقفاً فوق هذه الصخرة، حيث وصل رأسه إلى السماء، وكان مـلائكة الرب يصعدون عليه وينزلون سـواء، وفوق هذه الصخـرة أيضاً رأى داوود الملاك واقفـاً، وسيف يقطر دمـاً بيده، وكـان مـرتاحاً مـن قتل الناس، ومن المعتقد أنه في داخـل هذه الصخرة اعتـاد الكهنة على رمي قرابين الحرق، التي غالباً ما أكلتها نار من السماء، ومن المعتقد أنه في داخل هذه الصخرة أخفـى النبي إرميا بشكل إعجازي في قلبهـا خيمة العهـد، عندما جـرى نقل الناس إلى بابل، وفعل ذلك وهو يقول:«بالنسبة لذلك المكان سيظل غير معروف حتى يحين الوقت الذي يجمع فيه الرب شعبه مع بعضهم بعضاً ثانية، ويتلقاهم في الرحمة»، ومن المعتقد أنها ماتزال موجودة هناك حتى هذا اليوم.

وعلى هذه الصخرة جرى تقديم المسيح عندما كان طفلاً، ووضع بين ذراعي سمعـان العدل، وجـرى تقديمـه من قبله، وفوق هذه الصخـرة تجادل المسيح مع اليهـود عندمـا كان صبيـاً في الثـانية عشرة من العمـر، وضيعه أبواه، ومن فوق هذه الصخرة غالباً ما تولى وعظ الناس.

وقد قرأنا بأن الهيكل قـد بني من قبل سليمان فوق أرض بيدر أرنان، وقد تعرض على كل حـال للتهديم على أيدي كثيرين، ومع هذا أعيدت عمارته دوماً فوق البقعة نفسهـا، بالشكل نفسه، وبالحجارة نفسها، زيادة على ما تقدم شرّف الرب هذا الهيكل كثيراً ومجّده، وأحبه كثيراً.

وفي هذا الهيكل رأى سليمان دخـاناً صاعداً نحـو الأعلى، ومجد الرب مقيماً دوماً فـوقه، وفي هذا الهيكل أورقت عصـا هرون، وفي هذا الهيكل جرى تقـديم مريم العـذراء المباركة، وقـدمت قربانها بعـد خطبتها، وفي هذا الهيكل جرى تقديم المسيح، وجلس فوق منارته العليا، وأغوي من قبل روح(الشيطان)، وإلى خارج هذا الهيكل أيضـاً قذف المسيح بالذين كانوا يبيعـون ويشترون، وغالبـاً ماتولى التعليم هناك والمناقشـة، وصنع

كثيراً من المعجزات، وذلك حسبما جاء في الانجيل، وكرس المسيح أيضاً هذا الهيكل بحضوره المجيد، وعانى فيه، وهو على شكلنا الضعيف كثيراً من الاهانات ومن سوء المعاملة على أيدي اليهود، ومن أعلى هذا الهيكل جرى رمي القديس جيمس الأصغر — أخي ربنا — نحو الأسفل حيث استشهد.

وعلى مقربة من هذا الهيكل، على جهة اليسار هناك، يوجد الباب الذهبي، الذي من خلاله دخل يسوع يوم أحد السعف، وهو راكب على ظهر أتان، وإلى هذا الباب يقوم المسيحيون كل يوم أحد سعف بمسيرة مهيبة قبل شروق الشمس، ويغني الأطفال عبر هذا الباب«المجد لابن داوود» الخ، ثم يدخل رئيس أساقفة الأرمن من الباب على ظهر أتان، ويرحب به من قبل الأطفال والناس، وكأن المسيح كان موجوداً هناك، ويرحب به من قبل اليهود.

وعلى مسافة قصيرة إلى الشمال من هذا الهيكل هناك كنيسة بنيت فوق البقعة التي ولدت فيها مريم العذراء المباركة، وفوق هذه البقعة نفسها ترقد القديسة حنة مدفونة هي وزوجها يواكيم في كهف تحت الأرض.

وأمام هذه الكنيسة تقوم بركة الضأن، التي لها خمس قناطر من حولها، وهناك اعتاد المرضى على نيل الشفاء عندما يجري تحريك الماء من قبل أحد الملائكة، وذلك حسبما تحدث الانجيل وأكد ذلك، وفي هذه الأيام هناك كهف، فيه تتجمع — عندما تمطر — كل مياه أمطار المدينة مع بعضها.

وخارج كنيسة القديسة مريم هذه، بنى المسلمون الآن مسجداً خاصاً بهم، ومع ذلك ما تزال قصة حنة ويواكيم وميلاد مريم المباركة، باقية حتى هذا اليوم مرسومة بجلال بشكل كامل على واجهة الكنيسة، وفي أيامي اعتادت امرأة مسلمة عجوز اسمها ياقوتة على شرحها بتقوى

وتديّن إلى المسيحيين، وكــانت تسكن في مقــابل الكنيســة، وأعلنت أن صـورة يواكيم هي صـورة لمحمـد(ﷺ) وتمثل صـورة الأشجـار الجنة، حيث قبّل فيها محمـد(ﷺ) فتيات، وأشارت إلى الصـورة كلها أن المراد بها محمد(ﷺ)، ولهذا هي باقية إلى الأبد. وتراها تتحـدث بأخبار أخرى كثيرة، مع المزيد من قصص إعجازية حول محمـد(ﷺ) تحكيها والدموع في عينيها.

وليس بعيـــداً عن هيكل الرب، وعلى الجانـب الجنوبي، تحت المدينة، توجـد رابية صهيـون، التي هي أعلى بقليل من بقية الأرض التي تقـوم المدينة عليها، وعلى هذا الجبل قامت في القديم مدينة داوود، التي تشير إليها الكتابات المقدسة.

وعلى جبل صهيون هذا، أو في مدينة داوود، بُنـي في القديم دير فائق الجمال اسمـه دير القـديسـة مريم على جبل صهيـون، حيث عـاش فيـه رهبان نظاميون، وكان في داخل هذا الدير جميع الأمـاكن المقدسة التالية وأول كل شيء: في هذا المكان تعشى المسيح مع حوارييه، واحتفل بأول فصح، وعمل عهـده، وكشف خـائنه، بينما تمدد حـواريوه فـوق صـدره وشربوا في أسرار السماء، وفي هذا المكان أيضــاً غسل المسيح بتــواضع أقدام حوارييه، وجففهم بمنديل، ومـع أنه كان مولاهـم ومعلمهم، فقد أعطاهم مثلاً بالتواضع، وأيضاً زار المسيح مراراً هذا المكان عندما كان مـايزال في الجسد،وظهـر في هذا المكان بعـد مـوته وقيـامته، لحوارييـه، وكـانوا جـالسين وراء أبواب مغلقـة، ثم شـــوهد هناك ثانيـة، وهناك أدخل تومـا الشاك إصبعه في جنبـه، وهناك أيضاً كـانت مريم المبـاركة جالســة مع الحواريين، والأبواب موصدة، خوفـاً من اليهود، وذلك في الوقت الذي تلقـوا فيـه المواسـاة من الروح القـدس، وهنا أيضاً غـالبـاً ماسكنت مـريم المباركة بعـد آلام الرب، وفي هذا المكان سلمت روحها إلى ابنها، واجتمع هنا الحواريون جميعـاً بشكل إعجازي، وفي هذا المكان

أيضاً جرى بشكل عجائبي اختيار القديس متى رسولاً، وهنا أيضاً غالباً ما أقام الحواريون المحبوبون قداسات مع مريم المباركة، وسكنوا هنا مع القديسة مريم والقديس لوقا، حتى وفاة مريم المباركة.

وفي هذا المكان أيضاً جرى دفن القديس ستيفن بين نيقوديموس وأبيبوس، وأيضاً جرى في هذا المكان دفن داوود وسليمان وملوك يهوذا الآخرين، ومن الممكن رؤية قبورهم حتى هذا اليوم، ويسكن في هذا الدير الآن رهبان منوارنة، وهو مزود في أيامي بشكل وافر بجميع الضروريات، من قبل ملكة سانيسا Sancea، زوجة الملك روبرت(١)، ويقومون هناك بإقامة القداسات بشكل علني وتقوي، باستثناء أنه غير مسموح لهم بالتبشير بشكل علني إلى المسلمين، ويتولون دفن موتاهم من دون معرفة حكام المدينة، وكان هؤلاء الرهبان في أيامي رجالاً مزدهرين كثيراً، وقد تولى التجار الأجانب، لابل حتى المسلمون، مدحهم كثيراً، لأنهم يقدمون خدمات جيدة إلى جميع الناس.

ويقوم هناك عند سفح هذا الجبل قلعة فائقة الحصانة، اسمها قلعة داوود، حيث من المعتقد أنها ماتزال باقية منذ أيام داوود، لأنه عندما جرى هدم هذه المدينة من قبل تيتوس وفسبسيان كان جبل صهيون وهذه القلعة قائمان خارج المدينة، وكانت هذه القلعة مملوكة فيما مضى من قبل بطريرك القدس، لكنها الآن مسكونة من قبل واحد من قادة السلطان، وهي محروسة بكل عناية من قبله ومن قبل مرتزقته.

وعند سفح هذا الجبل هناك أيضاً كنيسة، اسمها كنيسة القديس

---

١ — يقول بعضهم بأن هذا الملك، لابد أنه كان إما شارل روبرت صاحب آمحر، وملك هنغاريا، أو روبرت بروس ملك سكوتلندا، والأرجح — بعد قراءة رواية فابري، حول الدير الماروني فوق جبل صهيون — أن يكون لودولف أراد روبرت Rupert ملك أبوليا، وكلبيرا، وصقلية، والقدس.

المخلص، وفيها توجد الصخرة التي دحرجها الملاك، وأزاحها من على الضريح، وهي هناك معروضة للمشاهدة بشكل عام، وعلى مقربة من هذا الجبل أيضاً جرى إعدام القديس جيمس الكبير صبراً، وقد بني فوق تلك البقعة كنيسة، فيها الآن رئيس أساقفة الأرمن، ورهبان نظاميون تحت الطاعة للكنيسة الرومانية، ويوجد كذلك في القدس كنية أخرى اسمها كنيسة القديسة مريم للاتين. فضلاً عن هذا يوجد في القدس كثيراً من الكنائس تابعة للمنشقين والهراطقة، وأماكن أخرى كثيرة مقدسة، ومواضع ظهرت فيها نعمة الوحي.

وفوق جبل أكرا، وضريح المسيح، توجد كنيسة جميلة وعظيمة، قد بنيت هناك، وزينت بالرخام، وبأعمال الفسيفساء، والرسوم، وتزيينات أخرى، ولها أبراج أمام السدة، وفوقها وهي مفتوحة من الأعلى، فوق موضع ضريح المسيح، ويشبه داخل هذه الكنيسة كثيراً كاتدرائية مونستر Munster في وستفاليا Westphalia، وبشكل خاص بالسدة، وفي هذه الكنيسة، على مقربة من السدة، يقوم على الجانب الجنوبي جبل الجمجمة(أكرا) حيث جرى صلب يسوع المسيح، ويصعد الانسان في هذه الأيام إلى هذا الجبل بوساطة بعض السلالم في داخل الكنيسة، وكان من المعتاد فيما مضى على الصعود إلى هناك بوساطة سلالم كانت خارج الكنيسة، غير أن هذا الباب مغلق ومسدود من الخارج.

وهذا الجبل مشكل من صخرة قاسية جداً، وفي أسفل هذا الجبل توجد بيعة النوبيين، قد نجرت من الصخر الأصم، ويوجد على قمة جبل أكرا هناك أيضاً بيعة، يصعد الانسان إليها من داخل الكنيسة، وهناك في المكان الذي جرى صلب المسيح فيه، شق فيه وضع الصليب، ومن الممكن حتى في هذا اليوم رؤية التحول الذي ألم بالصخر الأصم أثناء آلام المسيح، بكل وضوح، وفي هذه البيعة نفسها جرى دفن

الأمراء الممجدين: غودفري، دوق أوف بولليون، وبلدوين أخيه، الذي كان أول ملك صليبي للقدس، والذي نال الأرض المقدسة واستولى عليها بجهد كبير جداً، وبقوة استرد هذه الأرض واحتفظ بها، وألحق بالمسلمين أذى لايقدر بحجمه، ومنح المسيحية وأضفى عليها أعظم الأعطيات، وإنه لأمر مدهش حقاً أن تمكن المسلمون من الاستيلاء على قبور الصليبيين والأجساد التي وضعت فيها لترتاح دونما إزعاج، ومع أنهم رأوا كم قد ألحقوا بهم من أضرار، وكيف أنهم انتزعوا منهم حتى الأرض المقدسة كلها، تجد في لومبارديا عندما يتشاجر المسيحيون فيما بينهم، يلقي أحدهم أجساد خصومه المتعفنة إلى الكلاب.

وكان الأمراء الفرنجة الذين تقدم ذكرهم قد اتخذوا قراراً بوجوب عدم لبس تاج ذهبي، بل أن يلبسوا تاجاً من الشوك، وقد حافظ خلفاؤهم على هذا القرار حتى هذا اليوم، ويجري كل يوم على جبل الجمجمة — عندما يكون أي مسيحي ساكن هناك — قراءة قصة آلام المسيح، وذلك حسبما قرأت بكتاب قداساتهم، وعلى مقربة من جبل الجمجمة، حيث يوجد الآن خزانة، هناك الموضع الذي وقفت فيه أمه وحواريوه والنساء الأخريات، وهناك عهد يسوع بأمه لعناية حوارييه، وهو يقول: «انتبهي يا امرأة لابنك»، ويوجد أمام باب السدة، من جهة اليمين، صخرة سوداء، فهناك الموضع الذي مددوا عليه جسد يسوع عندما أنزلوه من على الصليب، ولفوه بأقمشة كتانية، وتقوم أمام السدة، من جهة الغرب، بيعة صغيرة مزدوجة، لها ثلاثة أبواب، وفي داخلها ثلاثة مذابح قائمة هناك، ويدخل الانسان من البيعة الأولى إلى البيعة الثانية، حيث يوجد ضريح المسيح، ويأتي دخوله من خلال باب منخفض وصغير ومقنطر على شكل نصف دائري، وقد عمل على هذا الشكل حتى يرغم الانسان على الدخول وهو منحني الظهر، وطول هذه البيعة مع الضريح حوالي تسعة أشبار، وعرض البيعة حوالي سبعة

أشبـار، وارتفاعهـا حـوالي اثني عشر شبراً، وضريح المسيح منجـور من صخر أصـم، وخشية من تدنيسه، أو سرقته من قبل الحجاج، هو مغطى بحجارة أخـرى ورخام، وتحتـوي الحجرة التي تغطيـه من الواجهة على ثلاث فتحـات، حيث جرى خرقهـا، ويستطيع الانسان من خـلال هذه الفتحـات أن يقبل الضريح الحقيقي والحجـر الصحيح هناك، وصنعت الحجـارة التي تغلف الضريح ولصقت ببراعـة فـوق الضريح، جعلتهـا تبدو لمن لايعـرف وكأنها كلها حجـرة واحدة، ولهذا السبـب، كما أعتقد أنه لايوجد في أي كنيسة قطعـة من الحجر الحقيقي لضريح المسيح، لأنه باستثناء الأماكن المفتوحة التي سمعتم للتو عنها، إنه قد حفظ، ومحفوظ بعناية عظيمــة ومحروس، وفي الحقيقـة لو كــان من الممكن حمل ضريح المسيح على شكل حبـات الرمل، لتم الفـراغ مـن نقله منذ زمن طويل، حتى لو أنه كـان كبيراً مثل جبل عظيم، ولما كانت قـد بقيت هناك حبة رمل واحدة في تلك البقعة.

أما فيما يتعلق بالمصـابيح والشمعدانات التي قيل هي موجـودة حول الضريح المقـدس، أعلن أنه لايوجـد أبداً أي مصبـاح أو شمعـدان مهما كان نوعـه حول الضريح، لكن يسكن هناك في كنيسـة الضريح المقدس بعض الشيوخ الجورجيين المتقـدمين بالسن، لديهم مفتـاح بيعة الضريح المقدس، وطعـام، وصدقـات، وشموع، وزيت للمصـابيح حتى تشتعل وتضاء حول الضريح المقدس، وقد أعطي ذلك لهم من قبل الحجاج من خـلال نافــذة صغيرة في البـاب الجنوبي للكنيسـة، وإذا مــا توقف هذا وانقطع، سوف يبقى بـدون ضوء مهما كان نوعـه، وبذلك يكون بدون تشريف أو احترام، لأن لـدى المسلمين من الاحترام للضريح المقـــدس للمسيح، بقدر مالدى المسيحيين نحو كنيس يهودي.

ويوجـد في هذه الكنيسة أيضـاً، في مقـابل السـدة، مع مسافـة ضئيلة نحـو الجنوب، هناك الموضع الذي وقفت فيـه المريمات الثلاث، وقـالت

إحـداهن للأخـرى:«من سيـدحـرج هذه الصخـرة لنا ويزيحهـا عن فم الضريح»؟.

وفي هذه الكنيسـة نفسهـا أيضـاً يقـوم شطـر من العمـود الذي ربط المسيح إليه وجلد، والشطر الآخر موجود في القسطنطينية.

وينزل الانسان في هذه الكنيسة أربعين درجة إلى المكان الذي عثر فيه على الصلبـان الثـلاثة، ويوجـد في هذا الجزء المنخفض، في داخل بيعـة هناك، الكرسي الأسقفي لجيمس الأصغـر، الذي اعتـاد أن يجلس عليـه عندما كان أسقفاً للقدس.

وفي هذه الكنيسة أيضـاً توجد الأعمـدة التي كانت مـوجودة في بيت بيـلايطس، أيام آلام المسيح، وهـذه الأعمـدة لم تتـوقف منذ ذلك الحين حتى الوقت الحالي عن رشح مـاء عذب، فضلاً عن هـذا يوجد في هذه الكنيسة الموضع الذي مدد فيه الرجل الميت فوق صليب المسيح، فنهض عائداً إلى الحياة.

وفي هذه الكنيسة يوجـد أيضاً المكان الذي ظهـر فيه يسـوع إلى مريم المجدلية على شكل حـدائقي، وجميع هذه الأماكن مسيجة في داخل هذه الكنيسـة، وتبـدو هذه الكنيسـة كـأنها قصر مستعـد لتلبيـة احتيـاجـات الحجـاج، مع الذين يعيشـون محبوسين في داخلهـا، لأن الحجـاج الذين يزورونها يحبسون هناك في داخلها من السـاعة الأولى لليوم الأول، حتى الساعة نفسها من اليوم التالي، ويمكنهم توقع وجود كل شيء فيه رضى لنفـوسهم، فلمرتين في العـام — أي أن تقول من الجمعـة الحزينة حتى اليـوم التالي للعيـد — يترك المسيحيـون، الذين يسكنون هناك، أنفسهم ويحبسونها في الكنيسـة، بدون شيء، ويغلقون على أنفسهـم، ووقتها يجد الانسان حوانيت في الكنيسة، حيث توجد مختلف الأشياء، وحيث تباع الأطعمـــة، مثلما تجري عمليـات البيع في هـذه البــلاد في الأســـواق

والمعـارض، ووقتهـا يستمع الانسـان إلى أحـاديث وأغـان بمختلف اللغات، وتقوم كل عـدة أمم باحتجاز مكان خاص بها لإقامـة قداساتها وفقـاً لطقوسهـا الخاصـة، ومن بين هذه الأمم يحتجـز اللاتين لأنفسهم المكان الذي ظهر فيه المسيح لمريم المجدلية على شكل حدائقي.

وعلى مقـربة من كنيسـة الضريح المقدس، سكن فيها مضـى فرسـان القـديس يـوحنا للقـدس، وقصرهـم الآن مشفى عـام للحجـاج، وهذا المشفى كبير في حجمـه إلى حـد أنه يستطيع ألف إنسـان أن يعيشوا فيـه بكل سهولة، وأن يحصلوا على كل شيء يريدونه بالدفع مقـابله، وجرت العـادة في هذا القصر أو المشفى، أنه يجب على كل حـاج أن يدفع بنسين بندقيين، وذلك مقـابل استخدام المشفى، وهذا المبلغ لايتغير سـواء أأقام لمدة سنة، فهـو لن يدفع المزيد، أو أقـام لمجرد يوم واحـد فهـو لن يدفع أقل، وفي أيامي كان يسكن هناك في هذا القصر، أو المشفى عقيلة اسمها مـرغـريت الصقليـة، وكـان أخـوها هو الكاهن المسـؤول عن الضريح المقدس واسمـه نيقولا، وكـانت مرغـريت هذه مفيـد ة جداً وخـدومة هناك، ولمعلومـاتي المؤكـدة أنها عانت من شقـاء عظيم ومتـاعب جمة في سبيل محبـة المسيحيين، ولاقت دومـاً تقـديراً خاصـاً من السلطان وعناية بسبب فـائـدتها، وعليك أن تعـرف أن الكهنة المســؤولين عن الضريح المقدس يمتلكون امتيـازات عظيمة وحقوقـاً كبيرة، وذلك حسبما قرأت في كتاب قداساتهم، ويبدأون(القداسـات) لكل ساعة من ساعات النهار بعبارة«المجـد»، وذلك مثلما نفعل عندمـا نقول In adjutorium الخ،علماً بأنهم كـرجال، العـالم كله يشهـد لهم من أقصاه، وهم يقـرأون جميع القضـايـا الرئيسيـة الموجـودة في الانجيـل مع حـركـات جسـدية وإيماءات، وعلى سبيل المثال يقـرأ الشماس في يوم عيد الفصح الانجيل كمايلي:«وجلبت في ذلك الوقـت مـريم المجـدليـة، ومـريم أم جيمس، وســالومي، بعض الحنوط، حتى يمكنهـن الوصـول إلى هنـاك ومن ثم

دهن يسـوع»، وعندمـا يصلون إلى كلمات:«هو ليس هنا، هو قـد قـام»، وقتهـا يشير الشماس بإصبعـه إلى ضريح المسيح، ويفعل الشيء نفسـه في القضـايـا الأخـرى، وفي مقـابل الكنيسـة، على الجانب الغـربي، هناك الصخرة، التي استراح عليهـا يسوع لبعض الوقت، عندما كان حـاملاً لصليبه، وذلك عنـدما خانتـه قواه بسبب عـذابه ووزن الصليب وثقله، وهناك أرغـم اليهود سمعان القرني، الذي كـان قادماً من قريته، أجبروه على حمل الصليب، وقـرب الكنيسة، وعلى مسـافة ضئيلة نحـو الجنوب، توجـد الصخرة التي وقف يسـوع عليها عندمـا قال:«يا بنات القـدس لاتبكين عليّ، بـل ابكين على أنفسكن»الـخ»، ومـن الممكـن رؤية بـلاط منزل بيـلايطس في القدس حتى هذا اليـوم، لكن هذا المنزل كـان آنذاك خارج المدينة، ومثله بيت كيفـاس، حيث اجتمعوا فيه يتشـاورون، وقد تنبأ قـائـلاً:«إنه لمن الموائم أن يمـوت رجل واحــد من أجل الشعب»، وهذا البيت يبعد عن القـدس مسافة ثلاثة أميال من أميـال تلك البلاد، فضـلاً عن هذا، يمكن للانسـان أن يشاهد كثيراً مـن الأماكن العجيبـة والمقدسة، يحتاج الحديث عن كل واحد منها إليكم إلى وقت طويل.

ولدى المضي من القـدس، يصل الانسان إلى مـدينة كـانت فيها مضى جميلة، لكنهـا الآن مهجـورة، وهي قـائمـة في المنطقـة التليـة لليهـودية، واسمهـا زكريا، وهـي تبعد مسـافـة خمسة أميـال عن القـدس،وفي هذه المدينة عاش زكـريا وإيزابل، والدا يوحنا المعمدان، وإليها جـاءت مريم المباركة من الناصرة، وكان ذلك بعدما تلقت كلمة البشارة من جبرائيل، وعندمـا قابلتهـا إيزابل قفـز الولد في رحمها، وقـالت مـريم المباركـة«إن روحي تمجد الرب» الخ.

وقـد بني فوق المكان الـذي التقيتا فيـه وعـانقت إحداهن الأخـرى، كنيسة فـائقة الجمال اسمها«الممجدة» حتى هذا اليـوم، ويبعد هذا المكان عن الناصرة سفـر ثلاثة أيام ونصف اليـوم، بالسفر المستعجل، وهو مـا

قـامت به وقتهـا أم ربنـا، وذلك حسب رواية الانجيل(لوقـا:١/ ٣٩) حيث جـاء قـوله:«فقـامت مريـم وذهبت بسرعة إلى الجبـال في منطقـة اليهودية»، وفي هذه المدينة جرى أيضـاً الحمل بالقديس يوحنا المعمدان، كما تمت ولادته، وفي أثناء عــودة الانسـان من مـدينة زكـريا هذه يرى المكان المعتقد أن شجرة صليب المسيح قد نمت فيه، فضلاً عن هذا يرى الانسـان على جـانب الطريق كثيراً مـن قبـور القـديسين، والنسـاك، والكهـوف، والأقبية، حيث يتم العثـور هناك حتى هذا اليوم على عـدد كبير من أجساد القـديسين كاملة غير فاسدة، الذين يعـرف الرب وحده أسماءهم.

وفي عودة الانسان إلى القدس عبر هذا الطريـق، هناك موجود خارج البـاب الشمالي المكـان الذي جـرى فيــه رجم أول الشهـداء، القــديس ستيفن، ويبدو أنه كان هنا كنيسة جميلة غير أنها الآن مهدمة، وهي قائمة فـوق وادي شعفـاط، وفي وادي شعفـاط هناك كنيسة مقـدسـة، لكنهـا ليست جميلة جـداً، قـد بنيت على شرف مـريم المبـاركـة، فمنهـا ينزل الانسـان ستين درجة فيصل إلى ضريح مـريم المبـاركة، الذي هو مـزين بمصـابيح وشمعـدانات أجمل وأكثر عـدداً مما هو مـوجـود عند ضريح المسيح.

والمكان الذي يقـوم فيه الضريح ليس أوسع مما يستطيع ثمانيـة رجال أن يقفوا فيه بشكل موائم، وشكل ضريـح المسيح وضريح مريم المباركة هو هذا نفسـه، والمكان الذي تقوم فيـه هذه الكنيسـة قد كـان في أيام آلام المسيح بيت عناس، الكاهن الرئيسي، وهناك حدث أن أنكر بطرس المسيح، ويقـوم فـوق البقعـة التي أنكره عليهـا عمـود رخـامي، ليكون بمثابة ذكرى أبدية، ومن المعتقد أن المسيح سوف يأتي إلى هذا الوادي في يوم القيامة، فيكون حكماً عادلاً، يجازي كل إنسان تبعاً لأعماله.

ويجري خـلال هذا الوادي نفسـه، وادي قـدرون، الذي تتجمع فيـه

جميع المياه التي ترشح من المدينة ومياه الأمطار التي تأتي من الهضاب على كلا الجانبين هناك، وعلى مقربة من هذا الوادي، عند سفح جبل الزيتون، توجد الحديقة التي ألقي فيها القبض على يسوع، وذلك حيث تمت خيانته من قبل يهوذا بقبلة، وغالباً مازار الرب عندما كان بالجسد هذه الحديقة مع حوارييه، وتقوم كنيسة جميلة في المكان الذي ألقي القبض فيه على المسيح، لكن المسلمين يربطون الآن فيها قطعانهم وحيواناتهم ويطعمونها.

وعلى مسافة صغيرة من الحديقة، نحو اليسار، وتحت صخرة هناك، يوجد المكان الذي صلى فيه المسيح إلى الآب قائلاً: «أيها الآب، إذا كان من الممكن، دع هذا الكاس يتجاوزني»، وفي أثناء خوفه وضعفه الانساني تعرق دماً.

وعند سفح الجبل المقابل، حيث بنيت القدس، توجد بركة سلوان للاستحمام، والذي هو موجود الآن فيها مجرد مجموعة من المياه الآسنة، وعبر بركة الاستحمام وفي قبالتها يقوم تمثال أبسالوم، وهو مصنوع ببراعة، وله حجم رائع.

وفوق وادي شعفاط، نحو الجنوب، يوجد حقل الفاخوري، أو حق الدم، ويسمى أيضاً حقل الدم، ذلك أنه شري بثمن الدم، من أجل دفن الغرباء فيه، غير أن واحداً من التواريخ الشرقية قد أوضح أن الذي شري منه هو ماتساوي قيمته خمسة عشر بنساً فقط، وهذا بالفعل أمر يمكن تصديقه، لأنه لايستوعب ثلث الحقل.

٣٩ — *حول الثلاثين قطعة من الفضة*

نحن نقرأ في تاريخ ملوك الشرق الذين قدموا أعطيات إلى ربنا، أن تيراح والد ابراهيم كسب مالاً، أو بنسات، وذلك بناء على طلب ملك لبلاد الرافدين اسمه نينوس، وأنه قد تسلم ثلاثين قطعة من الفضة

ايجاراً له، وقـد أعطى قطع الفضة هذه إلى ابراهيم، الذي أنفقهم خـلال أسفاره في المنفى، وجـرى تداول هذه القطع الفضية بين مختلف الأيدي، حتى وصلـن إلى أيدي الاسماعيليين، وبهن جـــرى شراء يوسـف من أخـوته، وفيما بعـد عندمـا صـار يوسف حـاكماً في مصر، رجعت قطع الفضــة هذه إلى أيدي يوسف، وحصلن لـه من أخـوتـه كثمن للقمح، ولدى اعادتهن إلى أخوته، أعطاهن أخوة يوسف إلى حاجبه، الذي بعث بهن إلى سبأ لشراء بضـائع من أجـل فـرعـون، وفي أيام سليمان، عندمـا جاءت ملكة سبـأ من الشرق للاستماع إلى حكمته، قدمـت هذه الثلاثين قطعة فضيـة إلى الهيكل، وفي أيام رحبعام، عندما قام نبـوخذ نصر بنهب الهيكل والاستيلاء على كنوزه، أعطى الثـلاثين قطعة من الفضة والكنوز الأخرى إلى ملك جودوليا Godolia الذي كان معه في جيشه، وهكذا بقيت هذه القطع مع بقية الكنوز في خـزانة ملوك جودوليا حتى وقت ميلاد المسيح.

وانتقلت في ذلك الوقت مملكة جـودوليـا إلى النوبة، وحـدث عندمـا ولد ربنا، أن رأى ملكيور، ملك النوبة في النجوم أن المسيح قد ولد من عذراء، وبناء عليـه أخذ الثلاثين قطعة، لأنه لم يجد مـاهو أفضل أو أقدم بين ذهب خزانته، وبإرادة من الرب منحهم إلى المسيح، وفيما بعد عندما هربت مريم العذراء المباركة إلى مصر لخوفها من هيرود، فقدت الثلاثين قطعـة مع بقية هدايا الحكماء، في مكان هو حيث قـامت حديقـة البلسم الآن، وقد عثـر راعي عليهم واحتفظ بهم لمدة ثلاثين عامـاً، ثم كان أن انتشر صيت المسيح في الخارج، وقــدم هذا الراعي نفســه إلى القـدس، حيث تولى المسيح شفـاء مـرضـه، وعنـدمـا كـان المسيح يعظ في الهيكل ويعلم، منحـه هذا الراعي الثـلاثين قطعـة مع بقـايا هدايا الحكماء، لكن المسيــح رفض أخذهم، وطلب منه منح القطع الفضية للهيكل، ووضع الهدايا الأخـرى فوق المذبح، ونفـذ الراعي هذا، وألقى اليهود الثـلاثين

قطعة في قربان، وأعطوهن فيما بعد إلى يهوذا من أجل خيانة يسوع، ثم لما أعادهن يهوذا ثانية، اشتروا حقل الفاخوري بخمس عشرة قطعة، وأعطوا الخمس عشرة قطعة المتبقية إلى العساكر الذين تولوا حراسة ضريح المسيح، وبعدما صنع بهذه القطع مارسم لهن بالقدر وتقرر، جرى إثر ذلك اقتسامهن ومن ثم تفرقهن هنا وهناك، لكن حتى صنع ذلك الذي تقرر وجوب صنعة بهن، جرى الاحتفاظ بهن معاً كما سمعت، وتطلق الكتابات المقدسة عليهن اسم بنسات فضية،لأنه في القديم أطلقوا على جميع المعادن اسم الفضة، إنما مما لاشك فيه كن من الذهب.

وحقل الدم ليس حقلاً واسعاً حسبما أخبرتك، لكنه يحتوي على حفرة عميقة جداً قد حفرت فيه، ولهذه الحفرة سقف مقنطر فوقها، وهذا السقف مخروق بوساطة فتحات، ومن خلال هذه الفتحات يجري إلقاء أجساد الموتى إلى داخلها، وبعد ثلاثة أيام لايبقى شيئاً سليماً من هذه الأجساد غير العظام، ذلك أن مكاناً ضيقاً بهذا القدر، لايمكنه أن يستوعب مثل هذا العدد الكبير جداً من الأجساد.

وعلى مقربة من هذا الحقل هناك مكان فائق الجمال، وفيه أشجار جميلة جداً، كان الرهبان الدومينيكان يحاولون شراءه، عندما كنت على وشك المغادرة، ولاأعرف إن كانوا قد حصلوا عليه أم لا، وعلى مقربة منه هناك كثيراً من قلايات القديسين وصوامع النساك التي كانت تفيض بالنعمة، لكنها الآن مهجورة، ومثل ذلك على مقربة من هذا الكهف يوجد الكهف الذي أخفي بطرس نفسه فيه بعدما أنكر المسيح، ومن ثم بكى بحرقة، وليس بعيداً عن هذا الكهف يوجد المكان الذي شنق يهوذا فيه نفسه وهو في حالة يأس.

٤٠ — جبل الزيتون

وعلى مقربة من القدس، باتجاه الشرق، يقوم جبل الزيتون، الذي يعرف الآن باسم جبل الضياء، وهو مكان جميل جداً، مع وجود وادي شعفاط فقط بينه وبين القدس، وجبل الزيتون أعلى بكثير من المدينة، إلى حد أن كل شيء في المدينة يمكن رؤيته من قمته، وأطلق عليه اسم جبل الزيتون لأن كثيراً من أشجار الزيتون قد نمت هناك، وكما قلنا يعرف أيضاً باسم جبل الضياء، لأنه في أثناء الليل تشع أضواء الهيكل من فوق في مقابله، والبابان الشرقيان للقدس اللذان يقودان إلى الجبل مغلقان بشكل دائم، لأن وادي شعفاط بين المدينة والجبل منحدر إلى درجة يصعب فيها على الانسان التسلق والصعود إلى الأعلى، والنزول نحو الأسفل على يديه، وعلى قدميه، والذي هناك الآن باب واحد فقط اسمه الباب الذهبي، وتقوم على جبل الزيتون كنيسة جميلة اسمها كنيسة القديس المخلص، وذلك فوق المكان، الذي صعد منه المسيح بتواضع إلى أبيه بعد مضي أربعين يوماً على آلامه، وحيث قالت الملائكة إنه سوف تتوجب عودته ثانية كحكم عادل، ومن الممكن رؤية علامات قدم المسيح على بلاط تلك الكنيسة حتى هذا اليوم، ولقد قرأنا بأن المسيحيين عندما كانوا قد شرعوا ببناء تلك الكنيسة وبتبليطها، كانوا كلما جاءوا إلى المكان الذي كانت فيه طبعات قدم المسيح ووضعوا حجارة فوقها، كانت الحجارة تنبعث عالية مجدداً، وكأن إنساناً يريد أن يخطو، وهكذا بقيت طبعات القدم حتى اليوم الحالي، والكنيسة مفتوحة، لأنه من غير الممكن صنع سقف مقنطر بأي وسيلة من الوسائل فوق المكان الذي عبر المسيح من خلاله إلى عليين، ويوجد على جبل الزيتون أيضاً، وتقوم كنيسة صغيرة أخرى فوق المكان الذي تلا فيه المسيح صلاة الرب، وعلمها لحوارييه، ومازال الكنيسة تدعى باسم«الصلاة الربانية»، وقد قام فيما مضى أيضاً فوق هذا الجبل بيعة أخرى، وهي

الآن مهدمة، وقد قامت فوق المكان الذي رأى المسيح منه المدينة وبكى عليها، وتوجد على هذا الجبل نفسه قرية صغيرة اسمها الجليلية، وهي غالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة، وذلك حيث سكن الحواريون مع بعضهم، وهذه الجليلية هي التي نقرأ حولها: «اذهب إلى الجليلية، وهناك سوف تراه، كما قال لك»، كما نقرأ: «إنني سوف أذهب قبلك إلى الجليلية»، هذا وهناك جليل أخرى التي هي بلاد كبيرة، وتبعد سفر ثلاثة أيام، وذلك حسبما سأحدثكم فيما بعد، وفوق هذا الجبل، هناك أيضاً أماكن سكنى قديسين، وسواح وصوامع نساك بهية.

وعلى مقربة من جبل الزيتون تقوم بيت فاجي، حيث ركب المسيح في يوم أحدالسعف الأتان للذهاب إلى القدس، ولابد أنه كان راكباً جيداً، وإلاّ لايستطيع إنسان أن يخبر مطلقاً أن إنساناً يمكنه وهو راكب على ظهر أتان، أن ينزل على مثل ذلك الطريق، لأن هذا الطريق منحدر جداً، وضيق من جبل الزيتون، وعلى بعد نصف ميل قصير من بيت عنيا تقوم قرية بيت فاجي، التي كانت فيما مضى قلعة جميلة جداً، قائمة على طرف الرابية، وفيها ثلاث كنائس، تقوم أولاهن فوق المكان الذي أقيم اللعازر فيه من الموت، وضريحه مايزال يشاهد هناك، هذا وإن قبور: المسيح، ومريم المبارك واللعازر هي ذات شكل متشابه، وتقوم الكنيسة الثانية في المكان الذي كان فيما مضى بيت سمعان المجذوم، وذلك حيث دعي المسيح إلى غداء، وجاءت مريم المجدلية المباركة، ودهنت شعر المسيح يسوع مع قدميه، ثم غسلتهم بدموعها، وجففتهم بشعرها، فهذا ما تتحدث الكتابات المقدسة عنه وتوثقه، واتخذت الكنيسة الثالثة من قصر مرثا، حيث جرى بالغالب استقبال ربنا وهو في هيئة ضعفنا البشري، وهو جائع، وعطشان، وعريان، ومنهك، فقد استقبل بمثابة ضيف، وجرى تقديم ما احتاج إليه وتمت مواساته عندما كان بلا بيت.

ويربط المسلمون الذين يسكنون الآن هناك ثيرانهم وحيوانات التحميل لديهم، في هذه الكنائس،وفي هذا المكان نصب سليمان صنم مردوخ العائد إليه.

٤١ — أريحا — الصحراء — سدوم وعمورة

ويصل الانسان من بيت عنيا إلى الأردن في يوم واحد، وذلك بعد عبوره لبرية صغيرة اسمها مونتوست Montost ، وقام في هذه البرية القديس يوحنا المعمدان بالتعليم، وأكل الجراد والعسل البري في المكان نفسه، وحدث في هذه البرية أيضاً أن سقط إنسان بأيدي اللصوص، وكان ذلك أثناء نزوله من القدس إلى أريحا، وذلك حسبما حدثتنا الكتابات المقدسة، ويوجد في نهاية هذه البرية الجبل الذي اسمه جبل القرنطل، فهناك فوقه صام يسوع لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة، فكان جائعاً، وهناك أغواه الشيطان ليعمل خبزاً من الحجارة، وفي منتصف الطريق في أعلى الجبل هناك صومعة جميلة قد نحتت في الصخر،فيها صام المسيح، وفيها يعيش الآن رهبان جورجيون، وتسبب في أيامي ملك جزره Gazara بتدمير الطريق، حتى لايتمكن الرهبان من النزول، والحجاج من الصعود إلى هناك، لكن عندما سمع بالسلطان بهذا، تدبر إعادة ترميم الطريق، وسمح للرهبان بالإقامة هناك بشكل أبدي.

وعلى قمة هذا الجبل تقوم كنيسة جميلة، في المكان الذي أغوي فيه المسيح من قبل الشيطان، وعن هذه البرية ذاتها نقرأ:«ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليغوى من إبليس»[متى:٤/ ١].

وعلى مقربة من هذا الجبل،وباتجاه سهل الأردن، هناك نبع، وحديقة فائقة الجمال،فهناك سكن إبراهيم عندما جاء من بلاد الكلدان، وبنى مذبحاً هناك، ودعا باسم الرب،واسم هذا المكان بستان إبراهيم» حتى

هذا اليوم.

وبعـدما يعبر الانسـان هذه الأمـاكن يصل إلى أريحا، التي كـانت فيها مضى مدينة ملكية ومشهورة، وقد تراجعت الآن إلى قرية صغيرة، غير أنها قـائمة في بقعـة فائقـة الجمال وخصبة جـداً، في وادي الأردن، وهذه هي أريحا التي هدم الـرب أسـوارها بمعجـزة، وأعطاهـا إلى يوشع، مع إلقاء اللعنة على من سوف يحاول عمارتها.

وإلى أريحا هذه انتمت راحـاب العـاهرة، وزكّـا الذي كـانت قـامتـه قصيرة، وكـان من أريحا هذه الطفل الذي سخــر من النبي إيليـا بقـوله له:«إذهب يا أقـرع الرأس، امض أنت يا أقـرع الرأس»، وقـد التهم من قبل دبين انتقاماً له، وهذه أمور تتحدث عنهـا الكتابات المقدسة وتشهد على صحتها.

وعلى مقـربة من أريحا يوجـد المكان الذي أعـاد يسـوع فيـه النور إلى عيني الأعمى، وهو عـابر من هناك، وعلى مقـربة من أريحا أيضـاً هناك يجري الجدول الذي جعل النبي إيليـا مياهه عذبة، حيث كـانت من قبل مرة، وعلى مسافة ثلاثة أميال قصيرة من أريحا يوجد البحر الميت، الذي طوله في هـذه اللاد حـوالي الثمانيين ميــلاً، وهناك قــامت فيها مضى مـدن:سدوم، وعـامـوره، ودومه، وسـاعـور العظيمـة، وقد قـام الرب بالخسف بهم وبجميع الأماكن التي كانت بهم، وبما كان بقربهم مع جميع المدن هناك والقــرى والقــلاع والحصــون، وكـان ذلك بسبـب آثامهم الممجوجة.

وما مـن إنسان يمكنه استخدام ميـاه هذا البحر من أجـل أي غرض مهما كان نوعه، لأن لها رائحـة قذرة لايمكن تحملها أبداً وشريرة، ولهذا عندمـاتهب الريح تسمم هـذه الميـاه جميع المنطقـة من حـولها هناك، وفي أوقات العـواصف يقذف هذا البحـر كثيراً من الحصى الجميل، لكن إذا

ما التقطهم أي إنسان، سوف تبقى رائحة يده قذرة جداً لمدة ثلاثة أيام، إلى حد أنه لن يتمكن من تحمل نفسه، ويقول بعضهم أن ما من إنسان يمكنه أن يغطس هناك فيه ويغرق، وعن هذا أنا لاأعرف شيئاً غير الذي قيل لي، وللصدفة ما من أحد حاول ذلك، غير أنني سمعت من بعض الناس من هذه البلدان، أنه في بعض الأماكن من هذا البحر من الممكن رؤية قعره، وفي بعضها لايمكن، أما بالنسبة للأبنية التي كانت قائمة هناك قبل الدمار العظيم، ما من أثر منهم يمكن رؤيته، وفي الحقيقة نادراً ما يقترب إنسان منه بسبب رائحته النتنة التي لايمكن تحملها، ومع ذلك فإن جميع المنطقة من حوله مليئة بالأشجار وبثمار عظيمة، وفائقة الجمال أن تنظر إليها، لكن عندما يجري قطف هذه الثمار وفتحها أو تكسيرها، يجدها الانسان مليئة بالغبار والرماد في داخلها، إلى حد أن يد الانسان الذي يقطفها لايمكنها التخلص من رائحة النتن المقيتة لمدة ثلاثة أيام، لأنه حتى المنطقة حول هذا البحر مليئة بلعنة الرب.

وفي هذه المنطقة الأفعى التي اسمها تيروس Tyrus موجودة ويمكن إمساكها ، ومنها الذي يدعى باسم ترياق قد نال اسمه، لأنه يصنع منها بشكل رئيسي، وهذه الأفعى ليست أطول من نصف شبر، وغلظها مثل إصبع إنسان، ولونا أصفر مزيج بلون أحمر، وهي عمياء وليس هناك دواء معروف لسمها، إلاّ بقطع الطرف المعضوض، وعندما تكون غاضبة تضع فمها مثل لهيب نار، ويخيل للانسان وقتها أنه نار حقيقية، سوى أنها نار لاتحرق المخلوق، ووقتها يقف شعرها فوق وجهها وكأنها خنزير وحشي غاضب، وفي تلك الأوقات يصبح رأسها أضخم، ولولا أنها عمياء أعتقد أن ما من إنسان يمكنه أن ينجو منها، ولقد سمعت من الذين صنعتهم إمساك هذه الأفاعي، أنها إذا عضت حصان إنسان، سيقتلون الممتطي له.

وعلى مقربة من البحر الميت، وعلى جهة اليمين باتجاه سبط إسرائيل، وفوق رابية صغيرة، تقف زوجة لوط، وقد تحولت إلى عمود من ملح، وكان في هذه الأماكن في أيامي بعض فرسان الداوية، الذين أخذوا أسرى لدى سقوط عكا، يقومون هناك بقطع الأخشاب هنا وهناك في الجبال في خدمة السلطان، وهم لايعرفون بأن طائفة الداوية قد جرى قمعها وإزالتها، لأنهم يعملون هنا وهناك في الجبال، ولم يروا إنساناً من هذا الجانب من البحر منذ أن أخذوا أسرى، وجعلنا هؤلاء الرجال نقلع بقوة عن متابعة الترحال على طول ساحل البحر الميت، وذلك إذا كنا نرغب في أن لانفقد حياتنا من خلال نتنه، هذا وقد مكنونا من رؤية تمثال زوجة لوط، الذي كنا قادرين على رؤيته بوضوح عن بعد من هناك.

وفي تلك السنة أطلق السلطان سراحهم مع زوجاتهم وأولادهم، استجابة لتدخل أحد الوسطاء، وقد قدموا إلى بلاط مولانا(البابا)، ومن هناك جرى إرسالهم مشرفين إلى أوطانهم، وقد كان واحداً منهم برغندياً، وكان آخر من طولوز.

وليس بعيداً عن تمثال زوجة لوط تقوم مدينة ساعور، التي بفضل دعاء لوط أنقذت من الدمار.

وفيما وراء البحر الميت، باتجاه الشرق، توجد أحصن قلعة في العالم، وهي التي اسمها باللغة العربية«عربة»، وفي الكلدانية«شوبك»، وفي اللاتينية«مونتريال»، ولقد قيل إنه لايوجد قلعة في العالم يمكن مقارنتها بها، ذلك أنها محاطة بثلاثة أسوار، ففي داخل السور الأول هناك صخرة مرتفعة جداً، فيها ثلاثة ينابيع تتدفق المياه منها، ومياه هذه الينابيع تسقي جميع المنطقة في تلك الأحواز، وفي داخل السور الثاني ينمو ما يكفي من القمح بسهولة للناس الذين يعيشون في القلعة من سنة إلى سنة أخرى، وكان من المعتاد أن ينمو في داخل السور الثالث كثير من الكروم، لكن

هذه الدوالي اقتلعت، وليس بإمكان العالم كله أن يحرم القلعة من هذه الأشياء، باستثناء الأشجار والدوالي، وكانت هذه القلعة فيما مضى ملكاً للصليبيين، لكن ذنوبهم جعلتهم يفقدونها بدناءة كبيرة وبسبب خيانتهم الذاتية، ويحتفظ السلطان الآن دائماً بذخائره في هذه القلعة، وبابنه ووريثه، وإلى هذه القلعة يهرب دوماً حيث يجد الملجأ وقت الحاجة، وعند سفح هذه القلعة توجد قرية اسمها الربض، يسكن فيها أكثر من ستة آلاف مسيحي يتطلعون بشوق إلى إنقاذ الأرض المقدسة.

٤٢ — *حول نهر الأردن*

ويصل الانسان من البحر الميت إلى نهر الأردن الذي هو نهر لايتجاوز عرضه عشر خطوات، ومع أن الأردن نهر صغير، هو عميق جداً وموحل، وهو يفيض أو يتراجع وفقاً للموسم، ففي بعض الأحيان يفيض بمياه الأمطار إلى حد أنه يمكن إبحار سفن محملة عليه، ولهذا النهر قعر موحل جداً، ومياهه عذبة، وفيه سمك رائع، وهو ينبع من حوالي سفر أربعة أيام إلى الشمال من البحر الملعون، وذلك عند سفح جبل لبنان، ويأتي ذلك من جدولين هما«أر» و«دان»، ويمر خلال الجليل، ويأخذ اسمي هذين النهرين، فيصبح اسمه «الأردن»، وهناك عند سفح جبل الكرمل جدول يتدفق من هناك فيصب في«الأر»، وعلى مقربة من البحر الميت، وعلى بعد ميلين قصيرين، وعلى نهر الأردن يوجد المكان الذي جرى تعميد المسيح فيه من قبل يوحنا، ويطلق على هذا المكان اسم مخاضة الأردن، وهنا عبر يوشع مع بني إسرائيل فوق أرض جافة، وهنا أيضاً انقسمت مياه الأردن بناء على أوامر النبي إيليا، وهنا أيضاً انقسمت المياه ثانية عندما ضربها اليشع بعباءة إيليا.

وعلى مقربة من هذا المكان، وليس بعيداً عن ضفة الأردن، جرى بناء دير جميل على شرف يوحنا المعمدان، وهو مسكون من قبل رهبان

إغريق، الذين أعلنوا أنهم يمتلكون ذراع القديس يوحنا، وقد نقل هذا الدير، وابتعد قليلاً عن ضفة النهر، بسبب أن المياه تفيض في بعض الأحيان، ويجتمع مسيحيو البلاد وجميع الحجاج من البلدان النائية مع بعضهم في هذا المكان في يوم عيد الغطاس، ويقرأون هناك من الانجيل باللاتينية:«عندما ولد يسوع في بيت لحم» الخ، ويباركون الماء، ويعمدون الصليب، ويقوم جميع الذين هم وقتها مرضى أو فيهم علة ما، بالقفز إلى الماء، فيبرأ كلهم من عللهم وأمراضهم على مشهد من جميع الناس.

ويوجد في وادي الأردن كومة من الغرلات، حيث مكان الختان، ومكان البكاء والنحيب، وموضع الاثنتي عشر صخرة، التي حملها بنو إسرائيل من أرض النهر، لتكون ذكرى وشهادة، وعن هذه الصخور تحدث يوحنا المعمدان عندما قال:«إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم»[متى:٣/ ٩]، ويدعى هذا الوادي باسم وادي عكان، بسبب أنه جرى هناك رجم عكان، لأنه استولى على ذهب الملك، ومن هذا الوادي جرى أيضاً حمل إيليا ورفعه إلى السماء في عربة من نار.

وليس أبعد من ميلين قصيرين من المكان الذي جرى تعميد يسوع فيه، يدخل الأردن البحر الميت، أو البحر الملعون، ولايرى بعد ذلك، وهناك سؤال في المشرق: لماذا يتوجب على مثل هذا الماء المبارك، دخول مثل هذا المكان الملعون؟ ويقول بعضهم إن لعنة أولهما يمكن أن تزول بمباركة الآخر، ويقول آخرون: إنه يجري ابتلاعه بمجرد دخوله، ومن الممكن تصديق الأمرين، والذي يبدو أكثر احتمالاً بالنسبة لي هو أنه يجري شربه وابتلاعه من قبل الأرض، لأن مياه الأمطار التي تتدفق من جميع التلال المنتشرة هناك تجعل نهر الأردن عظيماً إلى حد أنه يكون من غير الممكن لمثل هذه الكميات الضخمة من المياه أن تصب في البحر من

دون أن تجعله يفيض، ويغمر جميع المنطقة من حوله.

وطول نهر الأردن من نبعه حتى نهايته، هو حوالي خمسة وعشرين ميلاً من أميال هذه البلاد، وإلى جانب نهر الأردن هناك كثيراً جداً من الديرة، والقلايات والصوامع مليئة بالنعمة، ويمكن للانسان أن يرى كل أمسية على ضفاف هذا النهر نفسه وأعداداً لاتحصى من الحيوانات الكبيرة والصغيرة تشرب منه، وخاصة الأسود، والثعالب والظباء، والوعول، والأرانب، والخنازير البرية، وما شابه ذلك، وهي تسير بين الناس، وكأنها حيوانات مدجنة، واعتاد في أيامي أن يكون هناك أسد يقف بشكل دائم في مكان محدد، وذلك على الضفة القصوى من الأردن، وكان يتولى مراقبة الناس وهم يعبرون، حيث كان يحرك ذيله مثل كلب، ولايهرب أو يبتعد، ولايؤذي أحداً سواء في النهار أو في الليل، ورغب واحد من رماتنا أن يخيف الأسد وأن يغضبه، فأطلق نشابة نحوه، ولم يتحرك الأسد بل بدا وكأنه يحدق وينظر نحو السهم، لكن عندما رماه الرجل بسهم آخر، زأر الأسد وصاح بالسهم، وكأنه يريد أن يمسكه بفمه ومخالبه، وبعد هذا لم يعد هذا الأسد يرى في هذا المكان، وأخذ يسبب أذى عظيماً لكل من الناس ولحيوانات التحميل.

وبشأن الحيوانات البرية هناك كثير جداً منها في تلك المنطقة إلى حد أن الناس يسوقونهم إلى السوق مثل الأغنام.

وليس بعيداً عن هناك يوجد المكان الذي اسمه تلال الأردن، حيث بنى أبناء رأوبين، وأبناء جاد ونصف سبط منشا مذبحاً كبيراً ليروه، عندما تدخل هذه التلال بين أملاكهم.

٤٣ — حول رامه — شيلوه — عمواس — شبكار — السامرة والجليل.

ومن الأردن يصل الانسان في ثلاثة أيام إلى الجليل، واليهودية،

والسامرة، وبعد رؤيته لعدد كبير من المشاهد، يخلف القدس على اليسار، ويصل إلى مدينة رامة(صموئيل الأول:٢٥/ ١) القائمة فوق جبل إفرايم، ويسكن في هذه المدينة في هذه الأيام القاضي — أي أسقف المسلمين — وقد واجهنا هناك مرة كثيراً من المتاعب حول بعض المسيحيين الذين اعتقلوا هناك من خلال حماقتهم، وذلك قبل أن نطلق سراحهم.

وكان النبي صموئيل قد ولد في هذه المدينة، وفيها دفن، وعلى مقربة من هذه المدينة حدث أن كان النبي حبقوق حاملاً إلى الحصادين غداءهم، عندما أمسكه أحد الملائكة وحمله إلى دانيال الذي كان في عرين الأسود في بابل، وليس بعيداً عن رامة التي كانت فيما مضى جميلة، لكنها الآن مهجورة، توجد مدينة اسمها الرامة، وهي مسقط رأس يوسف الذي دفن المسيح.

وعلى مقربة من هذا المكان، وعلى بعد ثلاثة أميال عنه، قامت فيما مضى مدينة شهيرة، هي الآن قرية صغيرة، اسمها شيلوه، وفيها توقف تابوت العهد، واجتمع العبرانيون مع بعضهم هناك للصلاة.

وليس بعيداً عن شيلوه توجد عمواس، التي كانت فيما مضى مدينة جميلة، لكنها الآن مهجورة، وفيها ظهر المسيح إلى حوارييه بعد قيامته، واسم هذه المدينة الآن نيكوبولس(كذا — خطأ)، وعلى مقربة من نيكوبولس، على جهة اليمين، كانت تقوم فيما مضى مدن مشهورة جداً، غير أنها الآن مهجورة، نذكر منها:جبعون، وعجلون، وذلك حيث قاتل يشوع ضد خمسة ملوك، وبناء على طلبه أطالت الشمس بقاءها ولم تغب، حتى هزم أعداء بني إسرائيل.

فضلاً عن هذا، قام — ليس بعيداً عن شيلوه، في منطقة السامرة — فيما مضى مدينة جميلة في وادي، وكان اسم هذه المدينة شيكار، ولكن

اسمها الآن نابلس، وهي في هذه الأيام كلها مهجورة، وهناك جرى اغتصاب دينة ابنة يعقوب، وقد انتقم لها أولاده.

وعلى مقربة من هذا الطريق قام فيما مضى كنيسة صغيرة جميلة، هي الآن مهدمة إلى حد كبير، يوجد فيها جب يعقوب، وإلى جواره عندما كان المسيح جالساً منهكاً بسبب سفره في هيئة ضعفنا البشري، وقتها سأل امرأة سامرية اعطاءه الماء ليجدد نشاطه، وقال لها حسبما جاء في الكتابات المقدسة:«لقد امتلكت خمسة أزواج».

وعلى مقربة من هذا الجب، قام يربعام، ملك إسرائيل، بصنع عجل ذهبي، قام بنو إسرائيل بعبادته، وأيضاً في حقل قريب من هذا المكان قتل داوود جالوت، هذا وهناك أماكن أخرى كثيرة مشهورة من الممكن مشاهدتها على طول هذا الطريق، سيقتضي الحال وقتاً طويلاً للحديث عنها.

وإذا ماغادر الانسان نابلس، يصل إلى السامرة، التي كانت فيما مضى عاصمة البلاد كلها، ولهذا السبب تعرف البلاد كلها باسم السامرة، وقد كانت هذه فيما مضى مدينة فائقة الجمال، ومشهورة، وملكية، ومدينة عظيمة جداً، وذلك حسبما تدلك خرائبها على ذلك، وهي في وضعها تشبه من جميع الجوانب مدينة القدس، وقد سكن ملوك إسرائيل فيما مضى في هذه المدينة، وفي هذه المدينة أيضاً جرى دفن القديس يوحنا المعمدان بين النبيين إيليا وعوبيديا.

وعرفت هذه المدينة بالقديم باسم السامرة، وبعد ذلك باسم سبسطية، واسمها الآن إيبلين(يبنى)، ومنها تعرف حتى الآن القبيلة المسيحية الرئيسية في تلك البلاد باسم«الايبلينية»(كذا)، وكان هؤلاء في البداية فرسان فرنسيين، ولدى استرداد الأرض المقدسة وقعت هذه المدينة في حصتهم.

وبعدمـا يكون الانسان قـد فرغ من رؤية المشـاهد المتقدمـة الذكر في السامرة، يمضي إلى سهول الجليل، مخلفاً الجبـال خلفه، والجليل مقاطعة من مقاطعات الأرض المقدسة، وهي مقاطعة جليلة، فيها سهول غنية، وروابي، ومـراعي، وأعشـاب، وأشياء أخـرى جيـدة، مع وديان مثمـرة جداًوجميلة، ويقوم فوق سهولها، وعلى سفوح روابيها المدن التالية: نين، وكفـرناحـوم، وبيت صيـدا، وقـانـا الجليل، لكن هذه المدن جميعـاً الآن مهجورة، أو شبه مهجورة، ولايعطين انطباع أنهن كن قط لهن أي شأن، والأشيـاء التي صنعهـا الرب فيهن عندمـا كـان بالجسـد مثلنا، قـد ورد ذكرها بتوسع في الانجيل، وبناء عليه لست مهتماً بتكرار ذلك.

وعلى مقربة من نين توجـد عين دور، التي عند سفحها يجري جدول قيسـون، ولقـد تمجـدت أرض الجليل هذه وأشرقت بمعجـزات المسيح الكثيرة فيهـا، وعند حـدود الجليل تقوم جبـال جلبـوع، التي هي تلال منخفضـة، مليئة بكثـافة بالأعشـاب الخضراء، والمزروعـات، والمراعي، وعلى هذه التـلال سقط شـاؤول، ويوناثان، وبنو إسرائيل، وعنهم قـال داوود:«يا جبـــال جلبـــوع لايكن طل ولامطـر عليكن»[صمـــوئيل الثـــاني:١/ ٢١]، ويقـــول بعضهم أنه لايسقط عليهـم لاندى ولا مطر، وهذا أمـر غير صحيح، لأن الانسان يمكنه أن يرى أنه قـد قام فـوقهم عدد كبير جداً من الديرة الجميلة، وكان ذلك فيما مضى، وتظهر الرسوم أنهم كانوا ملكاً لطائفة السسترشيان، ولطائفة القديس بندكت.

وفي أحـواز جبال جلبـوع تقوم مـدينة بيت أوليا، التي سكنت فيهـا يودث، التي قطعت رأس هولوفـرنس بصعـوبة، غير أن المدينة مهـدمـة الآن.

ويعدما يرى الانسان كل واحد من هذه الأشياء، يغادر سهل الجليل، ويأتي إلى الناصرة، التي كانت فيما مضى مـدينة شهيرة، وهي جميلة جداً حتى هذه الأيام، قـــائمـــة في وادي مـزهر وجميل، وهـي محاطة من كل

جانب بالجبال، وهي ليست مسورة، لكن بيوتها قائمة بشكل أحدها بعيد عن الآخر، ومع ذلك هي مليئة بالسكان، وتلطف الرب في هذه المدينة بالاعلان من خلال جبريل إلى العذراء المباركة مريم بأنه قد صار رجلاً.

وقد بني في هذه المدينة كنيسة عظيمة جداً وجميلة، ويوجد في داخلها، وعلى مقربة من السدة هناك بيعة جميلة، قائمة فوق البقعة التي أعلن الرب فيها بأنه قد صار إنساناً من أجلنا، ويوجد في هذه البيعة عمود صغير، وقف في مقابيله جبرائيل عندما أعلن عن المسيح، وماتزال صورته مطبوعة على العمود، مثل صورة ختم على الشمع، وهي موجودة حتى هذا اليوم.

ويوجد خلف الكنيسة نبع ماء، منه اعتادت مريم المباركة دوماً على نضح الماء، وعلى مقربة منه غالباً ما تحدث إليها الملائكة وواسوها، وفي أيامي حاول المسلمون كثيراً سدّ هذا النبع مراغمة للمسيحيين والحجاج، لكنهم لم يستطيعوا مطلقاً إيقاف الماء ومنعه من التدفق، ودنس المسلمون أيضاً هذه الكنيسة المقدسة والمجيدة بطرق متنوعة، ذلك أنهم يسلخون الحيوانات الميتة فيها من أمثال:الحمير، والجمال، والكلاب، والثيران، ويرمون ما في أجوافها في داخلها، ولهذا سيتعذر على الانسان زيارة هذه الأماكن العالية القداسة بسبب الروائح النتنة.

ويسكن هناك في الناصرة أكثر المسلمين شروراً، وسوءاً، وأعيان يعرفون باسم دهيس Dehes ، حيث نادراً مايعبأون بالسلطان، لكن حتى يدخل الانسان إلى المدينة يحتاج إلى جواز منهم وأمان، وذلك قبل كل شيء.

وعلى مسافة ميل من الناصرة، هناك صخرة فوق جبل، يطلق عليها اسم«قفزة الرب»، وهي حيث مرّ يسوع من بين وسط اليهود، ومضى

في طريقه، وكان ذلك عندما أرادوا رميه من أعلاها، وذلك حسبما تحدثنا الكتابات المقدسة، وماتزال صورة يسوع مطبوعة حتى هذا اليوم على الصخرة التي عبرها، ومن الممكن مشاهدة ذلك، وكأنها قد طبعت فوق شمع طري.

وإذا ما سافر الانسان من هذا المكان، يصل في منتصف النهار إلى جبل الطور، الذي هو جبل منفرد قائم بنفسه فوق سهل، وهو عالي جداً، لكنه ليس واسعاً، وهو من جميع الجوانب يشبه هضبة اسمها ديزنبيرغ Dezenberg ، في أسقفية بادربورن.

وفوق قمة هذا الجبل تغيرت هيئة يسوع المسيح، وأشع وجهه مثل الشمس، وكان ذلك بحضور:بطرس، ويوحنا، وجيمس، وهنا ظهر كل من موسى وإلياس، وهما يتحدثان إليه، وقد بني فيما مضى فوق البقعة التي تغيرت هيئته عليها دير جليل وملكي، تابع لطائفة القديس بندكت، وكان راعيه يستخدم على مراسيمه ختماً على الرصاص مثل البابا، ولقد رأيت كثيراً من هذه الأختام على مراسيم، وعليك أن تعرف أن عيد تغيير الرب لهيئته محافظ عليه بوقار في بلاد ماوراء البحار، وهو يحل في يوم عيد القديسين فيلكس وآغابيتوس Agapetus[٦ — آب]،ووقتها يحتفل به بنبيذ جديد، وفي ذلك اليوم يلتقي جميع النبلاء وسكان المدينة مع بعضهم في الكنيسة، ويضعون أعلاماً على كنائسهم ويسهرون ويبتهجون طوال الليل، والذي تجري قراءته في القداس هو: Dies sanctificatus الخ، و Domnus dixit ad me filius illuxit ، الخ ومن الانجيل: Assumyist Jesus Petram et johannem, الخ، وقد قام المسلمون باحتلال قمة هذا الجبل مع الدير، لأنه كان فيما مضى محاطاً بشكل جيد بأسوار وأبراج، وكل شيء فوق القمة الآن مدمر ومهجور، لكن الأسوار والأبراج باقية في معظم الأجزاء، ويقرأ الانسان حول هذا الجبل أشياء أخرى كثيرة، تحدثت

عنها الكتابات المقدسة وأتت على ذكرها.

ويوجد عند سفح جبل الطور قلعة حصينة جداً وعظيمة اسمها قلعة تل الصافية، وهي قد بنيت من قبل الصليبيين، للدفاع عن الطريق الذي يقود إلى الجبل، لأن الجبل ظل دوماً مملوكاً من قبل المسلمين، ويوجد في هذه المناطق قبيلة كبيرة وجليلة من المسيحيين، اسمها عشيرة تل الصافية، لأن هذه القلعة كانت قلعتهم، إنما أين ولد آباؤهم قبل الاستيلاء على الأرض المقدسة، ما من أحد يعرف، وغالباً ما سئلت من قبلهم فيما إذا كان في بلادي أي قوم يقولون إن لهم أقرباء في هذه المناطق، أو يحملون رنوكهم فوق ترستهم.

ويذهب الانسان من جبل الطور إلى جبل حرمون، الذي هو جبل جميل وممتع، ويصل إلى سهول واسعة من سهول الجليل، وذلك حيث سقط سيسرا مع جيشه، ثم يصل الانسان إلى شواطىء بحر الجليل، ومدينة سينارت، التي حملت فيما بعد اسم طبرية، واسمها الآن طيبريا، وهي قائمة على شاطىء البحر، وهي مكان بائس، ولم يكن قط أكثر بؤساً، لكن فيما مضى كان لها أسقفاً، لأن صاحبها امتلك الجزء الأعظم من بحر الجليل، وعلى مقربة من هذه المدينة هناك حمامات طبيعية حارة، مثل حمامات آخن في هذه البلاد، ويبدو أنه كان يقوم على شواطىء بحر الجليل كثير من المدن الأخرى والقرى، مع أنه لايوجد عن أي منها روايات كثيرة، وفيها سكن حواريو المسيح، وآخرون من الناس الفقراء وصيادو الأسماك، وهم مابرحوا يسكنون هناك.

وطول محيط بحر الجليل أو بحيرة طبرية عشرين ميلاً من أميال هذه البلاد، وفيها مياه عذبة كثيرة، وأسماك كثيرة، ومياهها فائقة العذوبة، ويصب نهر«الأر» في هذا البحر من جانب،ونهر«دان» من الجانب الآخر، ومن الممكن رؤيتهما وهما يعبران خلال البحر، ويخرجان منه على شكل نهر واحد، عندها يطلق عليه اسم الأردن، وفوق هذا البحر

وبجواره صنع الرب — وهو على هيئة إنسـان — كثيراً من المعجزات، فمن هذا البحر دعا يسوع بطرس وأندرو، وجعلهما حواريين له، وفوق مياه هذا البحـر مشى المسيح حافي القـدمين، وأمسك ببطرس عندما بدأ يغـرق، وعلى ظهـر هذا البحـر نام يسـوع في السفينـة، وأوقف الريح وسكّنه عندمـا ثارت العاصفـة، وأبحـر يسوع فـوق هذا البحر مـراراً عندما كان في هيئة ضعفنا البشري، ومجّده بكثير من المعجزات.

وإلى جانب هذا البحـر ظهر يسوع لحوارييه بعد قيـامته، وأكل سمكاً مشوياً، وقرصاً من عسل النحل، وفي هذا المكان قامت فيما مضى كنيسة جميلة، هي الآن مهدمة، وإلى جـانب هذا البحر هناك جبل، أطعم الرب عند سفحه خمسة آلاف إنسـان، بخمسة أرغفة وسمكتين، وذلك حسبما تحدث الانجيل عن ذلك.

ويوجد على قمة هذا الجبل، في الجهة الشماليـة، قلعة مرتفعة وحصينة جداً، وهي تعرف مع قريتهـا باسم صفد، وفيها في أيامي يسكن يهودي من وستفاليـا مع زوجته، وليس بعيداً عن هذه القلعـة قامت فيما مضى مدينة جميلة اسمهـا دان، غير أنها الآن شبه مهجـورة، وهذه هي النهاية الأخرى لأرض الميعاد، لأن أرض الميعاد تمتد من دان إلى بير السبع، أي من الشمال إلى الجنوب، وطولها حـوالي خمسة وعشرين ميـلاً، وعرضهـا من أريحا إلى يافـا، وذلك من الشرق إلى الغـرب، ومقـدار ذلك حـوالي أحد عشر ميلاً بأميال هذه البلاد، وذلك حسبما سمعت من بعض رسل السلطان، ومن قـوم مـوثوقين جـداً من أهل البـلاد، هم أيضـاً قـامـوا بوصف البلاد.

وليس بعيـداً عـن دان، باتجاه الشمال، توجـد المدينة التـي كـانت فيما مضى جميلة، أي مدينـة بانياس، التي اسمها الآن قيسـارية فيليب، وهي قـائمـة بشكل بهي عند سفح جبل لبنان، لكن سكانها عـددهم قليل، وعلى مقربة منها حدث أن سأل يسوع حوارييه: «من يقول الناس إني أنا

ابن الانسان»[متى:١٦/ ١٣]، فهذا ماذكره الانجيل.

وعلى مقــربة من هذه المدينة هناك نبـع قـريب مـن الجبل، هو الذي يفصل فينيقيـا عن آدوم، ويعـرف هذا النبـع بشكل عـام باسـم السبت، لأنه يتدفق في يوم السبت، وبعـد مشاهدتك لجميع هذه المشـاهد، تقوم بعبور الأردن عند المكـان الذي يغادر فيه الجليـل أولاً، وفي بلاد ماوراء الأردن تلقى سبطان ونصـف سبط ميراثهما، وهنا أيضـاً يفصل الأردن الجليل عن أدوم، ويتابع الانسان سفره فيرى كثيراً من القرى وأماكن لم يرد ذكرها في الكتـابات المقدسـة، ويصل — إذا ما اختـار — إلى قرية دفن فيهـا أيوب، وحـدث على مقربة من هذه القـرية، أن وقع القـديس بولص مصعوقاً وتحول (إلى المسيحية) وهي قائمة على بعد سفر يوم من دمشق.

٤٤ — مدينة دمشق

وإذا ما سافـر الانسان من هذه القرية، فإنه يصل إلى دمشق، ودمشق مدينة فائقة القدم،أسسها دمشق، خادم إبراهيم، وهي قائمة فوق المكان الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل، وهي مدينة فائقة الجلالة، ومجيدة جداً، وعظيمــة الجمال، وغنيـة بجميع أنواع البضــائع، وهي بهيجــة في كل مكان، غير أن حلاوتها مصطنعـة أكثر منها طبيعية، وفيهـا وفرة عظيمة من الأطعمــة، والتــوابل، والأحجــار الكـريمــة، والحرير، واللآلىء، والأقمشة المذهبة، والعطور من الهند، ومن بلاد التتار، ومن مصر، ومن سورية، ومن أمـاكن من جانبنا من البحر المتوسط، وفيهـا جميع الأشياء الثمينة التي يشتهيهـا قلب الانسـان أو يتصـورها، وهي محاطة ببسـاتين وحـدائق، تجري سقـايتهـا بالماء من الداخل ومن الخارج، وبـوسـاطة الأنهار، والجداول، والينابيع، وقـد نظمت ببراعة، من أجل تأمين رفـاه الانسان، وهي مكتظة السكان، وذلك فوق حد التصور، وهي مسكونة بمختلف الصناع والتجـار، ومن الأكثــر براعـة من الحرفيين وأعظمهم

جلالة، وفيها صناع وتجار هم الأكثر نبلاً، وهي مزينة من الداخل، بحمامات عددها فوق حد التصور، وبطيور تغني طوال السنة، وبجميع أنواع المسرات، ووسائل الراحة، وألوان التسلية.

وكل حرفة وتجارة مقيمة بشكل مستقل في شارع خاص، ويقوم كل حرفي — تبعاً لحرفته ولبراعته — بتقديم عرض رائع لأعماله أمام واجهة بيته، ويظهر براعته، وأفضل ما يمكن أن يعمله في ميدان حرفته، ويحاول التفوق على جيرانه إذا كان ذلك ممكناً، ولهذا يزين بيته ويجمله ويجعله فخماً أكثر من التصور، ومما يمكنني إخباركم.

ويعمل التجار مثلهم بتجاراتهم، أما الحرفيون فيعملون هناك بشكل رائع، وببراعة فائقة جداً، غير أنهم يبيعون كل شيء بأثمان عالية جداً، ويمتلك الأغنياء من سكان المدينة جميع أنواع الطيور التي تغني، وأقفاص طيور يعلقونها أمام بيوتهم فيها من الطيور أمثال: العندليب، والسلوى، والقنبرة، والدراج، وما شابه ذلك، فكلهم يغنون بشكل رائع، ومتساوي تماماً طوال السنة كلها، وهم أفضل في أيام الشتاء، منهم في أيام حرارة الصيف، ويمكنك أن تسمع جميع الأنواع الأخرى من الطيور من أمثال: الغربان، والهدهد، والطيور السوداء، وما شابه ذلك، ممن يمكن تعليمهم محاكاة كلام الانسان، وبذلك تجدهم يتكلمون مثل البشر بمختلف الألسنة.

ومع أن المدينة مكتظة بالسكان كثيراً، وكذلك مع أن البضائع تترك تقريباً بلا حراسة، فإنه لايوجد إنسان متقدم السن كثيراً يتذكر أن أي إنسان قد قتل هناك، ونادراً جداً أن جرت سرقة أية بضائع معروضة للبيع هناك، هذا ولكل بضاعة ولكل نوع من الأشياء سوق خاص به لبيعه.

وفي السوق الذي تباع فيه الأطعمة، من الممكن هناك رؤية أعظم

حشد من الناس يمكن رؤيتـه، اجتمع في مكان واحد، ويكون ذلك كل يوم، حيث تتوفر جميع أنواع الأطعمة التي يمكنك أن تتصور وجودها، وكثير منها قـدجرى طبخـه بشكل فاخـر، وهم يعتنون عناية كبيرة بهذه الأشياء، ويبيعون كل شيء بالوزن والميزان، كما وتباع هناك أنواع عديدة من الخبز.

ويوجـد في دمشق قلعـة حصينة جـداً، هي بحـوذة السلطان، وفيهـا يسكن ملك دمشق، وفي سنة ألف وثلاثمائـة وإحدى وأربعين لتجسيـد ربنا، حـدثت في عشيـة يوم عيد القـديس جـرجس مـذبحـة وملاحقـة وتعذيب للمسيحيين من قبل ملك دمشق والرعـاع فيها، مثلما حدث في زمن متأخـر مذبحـة لليهود في هذه البـلاد[بلاد المؤلف]، غير أن أعمال التعذيب لم تستمـر بفضل الرب لمدة تزيد على الشهر، وكله جـرى قمعه والانتقام له من قبل السلطان، كما ستسمع بشكل جيد فيما بعد.

ويوجد في دمشق أعداد كبيرة جداً من الكنائس لكل من الكاثوليك والهراطقـــة، كما هناك أديـرة مليئة بالنعمـــة، ومن هذه الكنـائس أخـــذ المسلمون واحدة من الكنائس الجميلة، واتخذوها كنيسة لأنفسهم، وهي التي يرقد فيها جسـد ذلك الحكيم العالم، والمرجع الموثوق الهام، وأعني به القـديس يوحنا الدمشقي، ويوجـد على واجهـة هذه الكنيسة صـورة جلالة الرب مرسومة بشكل فخم.

فضلاً عن هذا، أمكن بشكل فني جعل نهر فرفر يجري خلال دمشق، حيث يدير ببراعة وإبداع كثيراً من الطواحين، ويوجـد من حول دمشق حدائق وبسـاتين لانهاية لها، فيها تنمـو النباتات والأعشاب، والفـواكه، والورود، والزهور، على مـدار السنة، وهي سـاحـرة بسبب غناء جميع أنواع الحمائم والطيـور، التي تغرد في أيام الشتـاء، أكثر مما تغـرد في أيام حرارة الصيف.

وتحيط هذه البســاتين والحدائق بالمدينة إلى مسـافــة تقـارب الميلين، وجميع البـلاد حتى إلى منـاطق نائيـة فيهـا وفـرة عظيمــة من الفـواكـه الطازجــة، طوال أيام السنة، وبناء عليــه يرددون في الشرق ويقــولون بإجماع:«دمشق هي رأس ســورية»، والاغـريق صـدوراً بشكل دائم عن حبهم لها واحترامهم يطلقـون دوماً على أكبر أبنائهم اسم بولي دامـاس Polydamas ، أي مــدينـة دمشق، وسيقتضي الحال وقتــاً طـويلاً للحديث عن عجائب دمشق الأخرى، وعن جمالها.

والمسـافـة من دمشق إلى الجبل الذي أراه الـرب إلى إبراهيـم، أقل من مسافة نصف يوم وهو الجبل الذي توجب أن يضحي عليه بابنه اسحق، واســم هذا الجبـل، جبل سعير أو جبـل ســــارديـنـي Sardenay (صيـدنايا)،ويعبر الانسـان أولاً نهري دمشق: أبانا وفـرفـر، فيجـد على جبل سعير الوعر هذا، أو سارديني[صيدنايا] ديراً جميلاً، وهو محاط من كل جـانب بأسوار فـائقـة القوة، مثله في ذلك مثل قلعـة، وهو مسكون من قبل رهبـان إغــريق(أرثوذكس) وراهبـات، وفي هذا الـدير، وفـوق البقعة التي كـان إبراهيم سيضحي فيها بابنه اسحق، تقـوم كنيسة جميلة، يوجد في داخلها، خلف المذبح، في قوس نصف دائري، في الجدار، تمثال لمريم المباركـة، وهي ترضع ابنها، وهو مدهون مـرسوم من عند الوسط نحو الأعلى فـوق منضدة خشبيـة، ومسيجة بحـواجز حـديدية، غير أن هذه الصـورة صـارت سوداء داكنة بسبـب الزمن والتقبيل، لذلك بات من الصعب تمييـز الانسـان للصـورة، إلاّ قليـلاً من اللون الأحمر يمكن رؤيته على الملابس، ومع ذلك عمل الرب من خـلال هذه الصورة كثيراً من المباركات والعجائب وأعمال النعمة.

وقـد قـرأنا أنه في الأيـام التي كـان الصليبيـون يحتلون فيهـا الأرض المقدسة ويمتلكونها، رغبت امـرأة أرملة، واختارت أن تخدم الرب، بأن تتخذ صومعة على هذا الجبل، ورغبت في أن لايعلم إنسان بذلك، حتى

لايعاق تكريسها لنفسها وعبادتها بأي عمل دنيوي، وعلى كل حال اتخذت لنفسها عقيلة بشكل سري، كانت تزورها من وقت إلى وقت، وتجلب لها الأشياء الضرورية، وتقوم بخدمتها وصنع القداسات لها، وحدث مرة أن هذه العقيلة التي وثقت بها، كانت على نية القيام بزيارة القدس والأماكن المقدسة الأخرى، فرجتها الأرملة الناسكة بتواضع وتقوى أن تجلب لها صورة لمريم المباركة مرسومة على رقيم، لأنها من صميم قلبها متشوقة لامتلاك مثل هذه الصورة، ووعدتها العقيلة بأن تفعل ذلك، وودعت الأرملة الناسكة، وذهبت إلى مدينة القدس المقدسة، وبعدما زارت الأماكن المقدسة حصلت على لوحة عليها صورة القديسة مريم، وارتحلت عائدة تريد جبل سعير هذا، أو «صيدنايا»، وعندما كانت على مقربة من نهر الأردن هاجمها أسد مخيف، ولم يكن بإمكانها الفرار، بل دافعت عن نفسها بيديها ضد وثبة الأسد عليها، حيث رفعت لوح الصورة وكأنه ترس، وما أن لمس الأسد اللوح حتى تمزق إلى أشلاء، وتابعت العقيلة رحلتها من دون انقطاع، ووصلت إلى الجبل، غير أنها أخفت ما حدث لها، ونزل بها عن الأرملة الناسكة، وقد حدثتها عن أشياء كثيرة حول الأماكن المقدسة، وبعدما أخبرتها بكل شيء سألت الأرملة العقيلة عما إذا كانت جلبت اللوحة التي قد رسم عليها الصورة المطلوبة، وأجابتها العقيلة التي اعتقدت أن اللوحة سوف تمتلك دوماً الفضائل نفسها التي امتلكتها من قبل، وقالت لها بأنها لم تجلبها بل نسيتها، ولدى سماع الأرملة بذلك حزنت كثيراً، وتأسفت، وتحسرت بعمق، حتى أنها لم تستطع منع نفسها من الانفجار بالبكاء، وعندما أصرت العقيلة على موقفها، انغلقت جميع أبواب الصومعة والبيعة، وحبستها بشدة في داخلها، ولدى رؤيتها بأن هذا قد تمّ بإرادة الرب، قامت هذه العقيلة على الفور بالاعتراف إلى الأرملة، حيث أخبرتها بأنها حصلت على اللوحة، وأخبرتها بتفاصيل ما حدث لها أثناء رحلتها فيما يتعلق بالأسد وبأمور أخرى، وعندما

سمعت الأرملة بهذا قدمت الشكر مراراً إلى الرب وتسلمت اللوحة ببهجة، واحترام، وتقوى، ووضعتها في مكان هو الذي تقوم الآن فيه، وبدموع وصلوات قدمت التشريف للمسيح من أجل الصورة، وبعد أمد شرعت هذه الصورة ترشح بشكل واضح بزيت له رائحة طيبة، ويجري الزيت ليصب في حفرة عملت أمام الصورة، ومابرح هذا الزيت يجري حتى هذا اليوم، غير أنه بسبب أعداد الحجاج، يقوم الرهبان في هذه الكنيسة بمزج هذا الزيت بزيت آخر، ويعطونه إلى الحجاج، لكن ما من شك بأن الصورة ترشح بزيت طيب الرائحة، ويتغير هذا الزيت خلال سنة إلى حليب، ثم يتغير الحليب فيها بعد إلى دم، وهو ما رأيته مراراً بعيني، فلقد رأيت في أوقات متنوعة هذا الزيت وقد تغير على هذه الصورة، ومراراً كثيراً امتلكت بعض الزيت الذي تغير هكذا بشكل إعجازي، ولهذا الزيت فضائل عظيمة ضد العواصف في البحر، وذلك عندما يجري تعليقه داخل زجاجة في مؤخرة السفينة، فوقتها تهدأ أشد العواصف وأعنفها على الفور، وهذا ما رأيته مراراً بوضوح.

ومن جهات عدة من الواضح أن لدى الرب محبة خاصة لهذا المكان، أو الجبل، بدليل أنه أظهر لابراهيم أن بإمكانه التضحية بابنه فوقه، لأنه عمل عدداً كبيراً من المعجزات تشريفاً لأمه مريم، التي رسمت صورتها هناك، ولأنه على الرغم من كثير من الاضطرابات والغزوات التي شهدتها البلاد وحدثت فيها، فهذه البلاد قد فقدت بشكل غريب وربحت من قبل شعوب مختلفة، ومع هذا فإن رهبان وراهبات هذا المكان بقيوا دوماً من دون أذى.

ولقد قرأنا — والمسألة ماتزال حاضرة في ذاكرة الناس — أنه بعدما استولى هولاكو على بغداد، الأمر الذي أتيت على ذكره — قام بنهب مصر، وجميع سورية، والمنطقة بأسرها، فخاف رهبان وراهبات هذا

المكان، وفكروا بمغادرته، وهنا ظهر الرب لهم وكذلك العذراء المباركة، بشكل مرئي، وواسوهم، ولذلك لم يبق لديهم خوف مطلقاً، ولم يغادروا المكان، ولأنهم رغبوا بالبقاء على مقربة من الرب والعذراء، اللذان شجعانهم بشكل مرئي، لم يتعرضوا بعد ذلك لأي أذى، أو ضرر من إنسان أو حيوان، أو وحش، بل كانوا في أيامي بنعمة خاصة وحظوة مع السلطان، الذي صنع لهم كثيراً من الأعمال المفيدة، وحماهم من كل جانب مثل أب.

وعند سفح جبل سعير، هناك قرية عظيمة جداً وجميلة، يسكن فيها إغريق(أرثوذكس) وسريان، وهي مليئة بالخمرة الجيدة وبكثير من الأشياء الأخرى الجيدة، وهناك متوفر في كل من الصيف والشتاء، سنة بعد سنة، عناقيد عنب طازج موجودة فوق الدوالي، وهي في الحقيقة محروسة بشكل خاص، ومعزولة لهذا الغرض، وقد صنع الرب فوق هذا الجبل كثيراً من العجائب الأخرى والمعجزات، وهذا كله صادر عن رعاية خاصة به وعاطفة نحوه، وذلك بفضائل تلك الصورة، التي تحتاج إلى وقت طويل للحديث عنها.

٤٥ — *حول وادي البقاع — ولبنان — وبيروت*

ولدى متابعة الانسان السفر من جبل سعير، يمكنه أن يرى أشياء كثيرة لاتحتاج إلى الذكر على الطريق، وإذا ما خلف الانسان مدينتي الرامة وطرابلس على جهة اليمين يصل إلى وادي اسمه البقاع، الذي مايزال حتى هذا اليوم يطلق عليه اسم سهل نوح، لأن نوحاً قد سكن هناك بعد الطوفان، وهذا السهل فائق الخصوبة والغنى، ومليء بشكل عظيم بالمروج، والمراعي، والأشجار والينابيع، والقطعان، والأسماك، والقمح، وهو محصور بين الجبال، ومسكون من قبل فلاحين مسلمين.

وبعدما تكون قد فرغت من رؤية هذا كله، تصل إلى جبل لبنان،

الذي كنت قد أتيت على ذكره أيضاً، ثم تصل إلى الجبل الأسود، الذي يمتد بعيداً حتى أنطاكية، والذي عليه تنمو الأشجار التي منها يجري تصنيع القسي الزيارة، وتحمل هذه الأخشاب من هذه الجبال إلى بلدان نائية ومناطق بعيدة.

ويسكن عند سفح هذا الجبل حشد كبير من المسيحيين المتمسكين بالعقيدة اللاتينية، والمرتبطين بكنيسة روما، وقد رأيت عدداً كبيراً من أساقفتهم الذين جرى رسمهم من قبل رؤساء أساقفة لاتين، والذين هم بغاية الشوق الدائم، والحنين المستمر لقدوم الصليبيين، ولاسترداد الأرض المقدسة.

وبعد رؤية جميع هذه الأماكن، وقرى جميلة، وأماكن، ومزارع يصل الانسان إلى مدينة قائمة على شاطىء البحر اسمها بيروت، وهي مدينة كنت قد أتيت على ذكرها، وهذه المدينة ميناء عام للحجاج، وعلى مقربة منها قتل الشهيد القديس جرجس التنين، وحول المدينة والمنطقة كلها إلى الايمان المسيحي.

ومن بيروت يستطيع الانسان أن يعود إلى أي بلد من البلدان، يود الذهاب إليه على هذا الطرف من البحر المتوسط، وهذه مسألة أدع إقرارها إلى اختياره الخاص.

وهذه هي طرق السفريات والرحلات في الأرض المقدسة، وهي طرق موثوقة، مع أنها لاتتماشى مع طرق الحجاج العامة، وعبرها ومن خلالها رأيت كما أريد، جميع الأماكن المقدسة المتقدمة الذكر، والصوامع وذلك بالوضع والشكل الذي ظهروا فيه في السنوات المذكورة من تجسيد ربنا.

والذي أعرفه أن ما من إنسان حي يمكنه أن يطعن بروايتي بأي حال من الأحوال، لأنني أنا الشاهد على كل ما رأيت، أو سمعت من رجال

صادقين، وهذه الرواية صادقة تماماً، كتبتها صدوراً عن التقوى والاحترام اللذان أنا مدان بهما إلى الأب الجدير بالاحترام، والمولى في المسيح، السيد بلدوين، أسقف كنيسة بادربورن، وباسم الرب كنت قد بدأت، وباسمه أختم الشي نفسه، وله الحمد والمجد إلى الأبد، والأبد، آمين.

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١ — رواية عن الأرض المقدسة

كتبت في حوالي عام ١٣٥٠م

٢ — وصف جون بولونير

للأرض المقدسة(١٤٢١م).

٣ — جولات الراهب

فيلكس فابري ورحلاته.

حوالي

(١٤٨٠ — ١٤٨٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن والثلاثون دمشق ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

لقد لاحظنا فيما تقدم أن أحداث الحروب الصليبية قد تفجرت في ذروة العصور الوسطى في أوربا، وبعد توطد أركان النظم الاقطاعية، وكان للحروب الصليبية آثارها العظيمة على عقلية الانسان الأوربي حيث أخرجته من العزلة الاقطاعية إلى الانفتاح المحلي، فالأوربي فالعالمي، ومنذ ما قبل الحروب الصليبية قدم بعض الحجاج الأوربيين إلى فلسطين، لكن بعدما تأسس الفرنجة في القدس وفي دويلاتهم الأخرى ازداد تدفق الحجاج من أوربا، ولحسن الحظ أن عدداً لابأس به من هؤلاء الحجاج قد تركوا لنا أوصاف مشاهداتهم مع المعلومات التوراتية والانجيلية الجغرافية والتاريخية، وهذا أمر مفهوم الخلفيات، أوضحه عدد من الرحالة، وبينوا أن الهدف الأساسي لهم كان المطابقة بين مشاهداتهم وبين المعلومات الدينية المتوارثة، وأن هذه المطابقة تساعد على فهم النصوص الدينية وتمكن الأوربي الذي لم يزر الأرض المقدسة من تخيلها وتصور أماكن الزيارة فيها.

وارتبط النظام الاقطاعي في أوربا مع نظم الفروسية، وكان الملوك هم الذين ينعمون برتبة الفروسية على أتباعهم الاقطاعيين، لكن مع انحدار العصور الوسطى في أوربا، وسيرها نحو الانغلاق بقيام عصور النهضة، راج بين الأسر الاقطاعية الأوربية، أن الفروسية الحقة هي التي يتم نيلها في كنيسة القيامة على مقربة من الضريح المقدس داخل هذه الكنيسة.

هذا ورأينا من المجلدات الأخيرة التي حوت بعض المواد التي كتبت في القرن الرابع عشر بعد تحرير عكا، أن الحج إلى الأرض المقدسة لم

ينقطع، واعتمد على النقل البحري، الذي تولته البحرية التابعة لدولة البندقية، وقد تساهل المسلمون كثيراً بالسماح للحجاج بالقدوم إلى القدس وسواها، وقدمت الديرة في القدس الخدمات للحجاج، وكانت هناك ترتيبات مرعية بين السلطات الاسلامية والقائمين على الديرة، وعلى العموم توفر الأمن، ولم يهدد أحد سلامة الحجاج، لانعدام التعصب بين صفوف المسلمين.

وكنت فيما تقدم قدمت جل الرحلات الأوربية المعروفة، ونصوص هذه الرحلات بالغة الأهمية وأقوم الآن بتقديم آخر ما توفر لدي من كتب الرحالة، فسأقدم في هذا المجلد، وفي مجلدات ثلاثة تالية له رحلتين قصيرتين من القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وبعد ذلك رحلة فيلكس فابري، التي هي أوسع كتب الرحلات الأوربية قاطبة، جاءت في أربعة مجلدات، فكانت بذلك أشبه بالعمل الموسوعي.

وكان فيلكس فابري راهباً ألمانياً، معتداً بألمانيته، ومتعصباً لها، أكثر من اعتداده بالانتماء إلى رهبنة الدومينيكان، وقد قام برحلتين إلى فلسطين، كانت أولاهما قصيرة جرت في عام ١٤٨٠م، وكانت الثانية طويلة استغرقت عام ١٤٨٣، وقد أودع فابري في كتابه مشاهداته، مع ما قرأه وسمعه، ورحلة فابري هامة جداً، حيث أنها جاءت قبل اكتشاف أمريكا،وانتهاء العصور الوسطى في أوربا بعقد من الزمن، وتمت في أواخر العصر المملوكي، وقبيل استيلاء العثمانيين على بلاد الشام ومصر بحوالي الربع قرن من الزمن.

ومع الفراغ من مجلدات هذه الرحلة، أكون قد قدمت خمسة مجلدات متتابعة كل موادها رحلات، وسأمتلك بعد ذلك الفرصة لتقديم تاريخ متى الباريسي الذي هو آخر النصوص التاريخية اللاتينية الأصل لدي، وهو من أهمها على الاطلاق، وكتاب متى الباريسي نادر الوجود، عانيت كثيراً حتى حصلت على نسخة منه، وهو كبير جداً، ربما سألحق به

واحداً من أصوله الذي اسمه«ورود التاريخ».

وحين أفرغ من العمل بتاريخ متى الباريسي، تكون موسوعتنا هذه قد حققت الشطر الأعظم من أغراضها، وأكثره صعوبة لأن ما لدي من مصادر عربية، جلها — على كثرتها — جاهز للطباعة.

الله تعالى أسأل العون والسداد، وأن تكون موسوعتنا هذه فيها الفوائد المرجوة للقارىء والباحث، وفيها برهان على أن الأمة العربية، وإن تمزقت سياسياً، مابرحت تعطي حضارياً وثقافياً، وأن سورية الصمود، مايزال القلم فيها معانقاً للسيف، فهكذا كانت أرض الشام دوماً، وستظل هي أرض الحضارات والعطاء الذي لاينضب، والجهاد الصحيح الطاهر النقي.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق ٦ — ذي القعدة ١٤٢٠ هـ / ٩ شباط ٢٠٠٠م.

(١)

رواية عن الأرض المقدسة كتبت في حوالي عام ١٣٥٠م

١ — على الذين يرغبون بمعرفة كيفية الحج إلى مدينة القدس المقدسة والمجيدة، وكذلك بقية الأرض المقدسة — كما أرى — السفر إلى الناصرة أولاً، لأن من المناسب أن نبدأ حجنا من هناك، أي من حيث كانت بداية خلاصنا.

٢ — وتقع مدينة الناصرة على بعد أربعة عشر ميلاً إلى الشرق من عكا، والأصح أن نسميها مدينة المخلص، لأن الحمل به كان بها، ، وبها نشأ وتربى، وهناك فيها عاشت العذراء مريم بعدما اقترنت بيوسف، وإليها أرسل الملاك جبرائيل من قبل الرب، ليحمل إليها بشائر خلاصنا.

وهذه هي المدينة المقدسة، والعزيزة على الرب، ففيها تحولت الكلمة إلى جسد، وأينعت الزهرة، التي هي أفضل من جميع الزهور، في رحم العذراء، ولهذا كان من الموائم ترجمة كلمة ناصرة إلى وردة، وهي تتفاخر بهذا الامتياز الخاص على جميع المدن الأخرى، ففيها أعدّ الرب بداية خلاصنا، وفيها تفضل وتنازل لأن ينشأ بها، وأن يكون خاضعاً لوالديه، وهو الذي أخضع له الأب كل شيء هو في السماء وفي الأرض.

٣ — ويوجد هناك عمود رخامي صغير، احتضنته العذراء، خشية منها من الرؤيا المفاجئة، وإلى جانب العمود هناك الموضع الذي وقف فيه الملاك جبرائيل وقال:«حييت، أيتها المليئة بالنعمة، الرب معك»الخ، وهناك خلاص من الألم والذنب.

٤ — وينبع في الناصرة هناك نبع صغير، اعتاد الفتى يسوع أن ينضح الماء منه، ومنه كان يزود أمه.

٥ — وعلى بعد ميل إلى الجنوب من الناصرة مكان اسمه«جبل قفزة»، وذلك حيث رغب اليهود برمي يسوع منه نحو الأسفل، وكذلك حسداً من والديه له على حكمته، وهناك اختفى من أمام

أنظارهم في لحظة.

٦ — وعلى بعد أربعة أميال من الناصرة توجد مدينة اسمها الصفورية، منها جاءت حنة، أم العذراء مريم، أم المسيح، ويوجد بينها وبين الناصرة نبع دائم التدفق بمياه وافرة، وهو يعرف باسم نبع الصفورية، الخ.

٧ — وعلى بعد ميلين من الصفورية، توجد قانا الجليل، التي حول الرب يسوع الماء فيها إلى خمرة، ومنها جاء سمعان القاني، وناتانئيل.

٨ — وعلى بعد ميل واحد إلى الجنوب من الناصرة، توجد يافا، وهي قرية فيها ولد جيمس ويوحنا ولدا زبدي.

٩ — وعلى بعد ستة أميال إلى الشرق من الناصرة، يوجد جبل الطور، وهو جبل عظيم الارتفاع، فعليه تغيرت هيئة الرب، وكان موسى وإيليا حضوراً، وكان ذلك أمام بطرس، وجيمس، ويوحنا، والياس، وبذلك أظهر مجد قيامته المستقبلية.

١٠ — وهناك جاء صوت من السماء قائلاً:«هذا هو ابني المحبوب، الذي أنا عنه راض، استمعوا إليه».

١١ — وفي سبيل تشريف هذا المكان، وتقديم الاحترام اللائق به، بنى المسيحيون في العصور الخالية، ديراً هناك.

١٢ — وهو الذي هدم مؤخراً كلياً من قبل المسلمين، ويوجد هناك إعفاء كامل من الألم والذنب.

١٣ — وعند سفح هذا الجبل التقى مليكصادق إبراهيم، وهو عائد من قتل أمالك، وقدم إليه هدية خبز ونبيذ، مما رمز إلى مذبح المسيح تحت توزيع النعمة.

١٤ — وعلى بعد ميلين من الطور، توجد مدينة نين، وهي قائمة

عند سفح جبل عين دور باتجاه الجنوب، وعند بابها رد يسوع إلى الحياة ابن المرأة الأرملة.

١٥ — وعلى بعد ثمانية وثلاثين ميلاً إلى الجنوب من الناصرة، توجد سبسطية، التي كان اسمها من قبل السامرة، فهناك جرى دفن جسد يوحنا المعمدان، بين النبيين إيليا وعوبيدا، وذلك بعد نقله من مكور فيما وراء الأردن، حيث هو مدفون من دون رأس.

١٦ — وعلى بعد عشرة أميال عن سبسطية تقوم مدينة نابلس، التي كانت تعرف من قبل باسم شكيم، اشتقاقاً من اسم شكيم بن أمور، أو باسم شيكار، وذلك حسبما ورد اسمها في الانجيل، وذلك حيث دفنت عظام يوسف بن يعقوب بعدما جلبوها من مصر، وهناك أيضاً على بعد ميل واحد نحو الجنوب، خارج المدينة، يوجد جب يعقوب الذي جلس يسوع إلى جانبه، وهو متعب من سفره، وذلك عندما طلب الماء من المرأة السامرية، وهناك أيضاً الرابيتين أو الأكمتين، أي: دان وبيت إيل، حيث وضع يربعام العجلين الذهبيين، وأمر بعبادتهما قائلاً:«إن هذين هما إلهيكما يا بني إسرائيل، وهما اللذان أخرجاكم من مصر».

١٧ — والمسافة من نابلس إلى القدس هي خمسة وثلاثين ميلاً.

١٨ — والقدس هي المدينة الأقدس بين المدن المقدسة، وهي سيدة الأمم، والرئيسة على المقاطعات، واسمها مدينة الملك العظيم، وهي قائمة في وسط الأرض، وهي مركز العالم، لذلك من الممكن لجميع الأمم أن تتدفق عليها، وهي مقر البطارقة، وخاصة الأنبياء، ومعلمة الرسل، ومقر خلاصنا، وبلاد الرب، وأم الايمان، مثلما روما أم الصدق، اختارها الرب وقدسها، والمكان الذي وقف عليه الرب بقدميه، والمشرفة من قبل الملائكة، والتي تزورها كل أمة من الأمم تحت قبة السماء.

وقد بنيت فوق جبل مرتفع، مع تلال على كل جانب، وذلك في الجزء من سورية الذي اسمه اليهودية وفلسطين، حيث تتدفق الأرض بالحليب والعسل، وفيها وفرة من القمح، والخمرة، والزيت، وجميع البضائع الدنيوية، لكن هذه البلاد مفتقرة إلى الأنهار، لأنه لايوجد فيها سوى نبع واحد اسمه سلوان، ينبع تحت جبل صهيون، خلال وسط وادي شعفاط ، وهو الذي يقدم أحياناً كميات وافرة من المياه، لكن بشكل عام قليلاً من الماء أو لاشيء، ويوجد في داخل المدينة وخارجها عدد كبير من البرك من أجل جمع مياه الأمطار، ومياه هذه البرك كافية للناس وللبهائم للشرب وللأغراض الأخرى الضرورية.

١٩ — وهناك قناة جر مياه رائعة جداً، قادمة من مدينة اسمها مدينة القديس إبراهيم(الخليل)، قائمة في وادي حبرون، وتبعد عن القدس أربعة وعشرين ميلاً باتجاه الجنوب.

٢٠ — ولهذه المدينة أسماء كثيرة ومتنوعة صدرت عن أحداث تاريخها، وأطلقت عليها من قبل أمم مختلفة بلغات أيضاً مختلفة، فقد عرفت أولاً باسم يبوس، ثم سالم ، ومن مزج هذين الاسمين جاء اسمها الثالث وهو أورشليم، وعرفت أيضاً باسم هيروسوليما، وسوليما، ولوز ، وبيت إيل، كما عرفت أيضاً باسم إيلياء، اشتقاقاً من إيليوس الحاكم الروماني، الذي أعاد عمارتها في المكان القائمة فيه الآن، وكان ذلك بعد تدميرها من قبل تيتوس وفاسبسيان.

هذا ومدينة القدس، هي المدينة التي عرض الرب فيها وهو متجسد أسرار خلاصنا، ولهذا هي متفوقة على جميع الأماكن الأخرى والمدن في امتيازات قداستها، وعلو مجدها، ولهذا تجتذب كثيراً من رجال الدين إليها ذاتها، وذلك «بشم رائحة الحقل كله الذي باركه الرب»،[التكوين:٢٧/ ٢٧]، ويوجد على جهة اليمين منها صهيون، حيث هناك القلعة،وهي التي عرفت باسم مدينة داوود، ويقوم جبل

الزيتون على الجهة الشرقية منها.

٢١ — الحج داخل كنيسة الضريح المقدس وخارجها

٢٢ — عندما تدخل الكنيسة أولاً، سوف تجد حجرة من الرخام الأسود، عليها غسل يوسف الرامي ونيكوديموس جسد المسيح، ورشوا عليه الحنوط، وكان ذلك عندما أنزلوه من على الصليب، وهناك يوجد إعفاء من الألم والذنب.

٢٣ — وتذهب من هناك إلى جبل أكرا(الجمجمة) حيث جرى صلب المسيح، وحيث تصبب الدم من جنبه، فخرق الصخر الصلب ومر خلاله، وترك لون الدم الذي مازال موجوداً حتى الآن، وهناك يوجد إعفاء من الألم والذنب.

٢٤ — ذلك أن الدم ذهب إلى تحت جبل أكرا ، وكان ذلك إلى الجزء المعروف باسم الجلجلة، حيث تمّ العثور على رأس آدم، الانسان الأول، وقد نزل الدم إلى الرأس المتقدم الذكر، أثناء خرقه لتلك الصخرة ومروره بها، وهناك غفران لمدة سبع سنوات،ولسبعة مواسم صوم كبير.

٢٥ — ومن هناك سوف تأتي إلى الضريح المجيد للرب، الذي ظل حتى أيام الامبراطور إيليوس هدريان من دون باب، وقد وسع هذا الامبراطور المدينة كثيراً إلى حد أنه أدخل مكان ضريح الرب، في داخل محيط الأسوار، وفي هذا المكان، بنى المسيحيون فيها بعد — صدوراً عن الاحترام الذي كان لديهم نحو ضريح الرب — كنيسة قيامة الرب الرائعة في داخل المدينة، وكان ذلك وفق عمل محكم ووضع موائم، وشكل مستدير، مع نافذة واحدة مفتوحة في السقف، وتضم هذه بشكل لائق المكان الرئيسي بين المواضع المقدسة والتي لها ذكرها، ففي هذا المكان جرى دفن الجسد الثمين للرب بشكل محترم مع الحنوط،

وهنا استراح حتى اليوم الثالث، ذلك أنه قام في اليوم الثالث، وفقاً لما قال:« في اليوم الثالث سوف أقوم ثانية»، وهناك إعفاء من الألم والذنب.

٢٦ — ثم إنك تأتي إلى المكان، الذي عندما كان ربنا يقوم من الموت، ظهر أولاً إلى مريم المجدلية، عندما خيل إليها أنه البستاني فقالت له:«يا سيد إن كنت أنت قد حملته فقل لي أين وضعته»،الخ[يوحنا:٢/ ١٥]، وقد بني في ذلك المكان مذبح مقدس تشريفاً لذلك الظهور، وهو القائم أمام باب بيعة العذراء المباركة، وهناك إعفاء من الألم والذنب.

٢٧ — ومن هناك سوف تدخل بيعة مريم المباركة، وهناك سوف تجد جزء من العمود الذي ربط يسوع إليه، وطول هذا الجزء أربعة أقدام، فهناك جرى جلده، وهو موضوع كما كان في جزء الجدار على جهة اليمين وأنت داخل إلى البيعة، وهناك إعفاء من الألم والذنب.

٢٨ — وأيضاً يوجد في البيعة نفسها، المكان القائم أمام المذبح، الذي بعث فيه الرجل إلى الحياة بفضل الصليب المقدس، وكان ذلك إثر اكتشافه الرائع، وبحضور حنة(هيلانة) أم الامبراطور قسطنطين، وهناك غفران لسبع سنوات، وسبعة مواسم صوم كبير.

٢٩ — وهناك أيضاً قرب المذبح الموضع الذي وقف فيه الصليب المقدس لوقت طويل، حيث كان يعبد بتقوى عظيمة جداً من قبل المؤمنين المسيحيين، وهناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٠ — ومن هناك سوف تصل إلى المكان الذي سجن فيه المسيح، وربط، وضرب، فهناك يوجد الآن بيعة صغيرة، وهناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٣١ — وعندما تذهب خارجاً من باب تلك البيعة، من أمام مذبح هناك، سوف تجد حجرة إليها ربط يسوع بالأغلال، بينما كان صليبه يجري إعداده، وهناك يوجد غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٢ — وسوف تذهب من هناك إلى المكان الذي تراهن فيه العساكر حول ملابس المسيح، حسبما كُتب:«ومن أجل قميصي تراهنوا»، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٣ — وسوف تذهب من هناك إلى مكان حيث تنزل إلى بيعة بنيت على عمق ثمانية وعشرين درجة فهناك جرى دفن جسدي: مريم أم جيمس، ومريم سالومي، تحت مذبح هناك، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٤ — ويوجد قرب هذا المذبح، على الجانب الأيمن كرسي حجري، عليه جلست القديسة هيلانةعندما دفعت نحو البحث عن صليب الرب المقدس، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٥ — وهناك أيضاً نافذة في الجدار عند الباب الشمالي، من خلالها يتم سماع — كما قيل — صراخ الأرواح في أثناء تطهيرها بعد الموت.

٣٦ — ويوجد أيضاً في البيعة نفسها أربعة أعمدة حجرية، قيل بأنها تتعرق بماء عذب ليلاً ونهاراً بسبب آلام المسيح.

٣٧ — وسوف تنزل من هناك أيضاً اثنتي عشرة درجة إلى بيعة أخرى منخفضة،وهي التي عثر فيها في مكان عميق جداً، على الصليب المقدس، والمكان الذي كان فيه صليب الرب ممدداً، مايزال مرئياً، وهناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٣٨ — ومن هناك تصعد إلى البـــاب الأول، الذي دخلت منه، ولسوف تجد على جانبك الأيسر عموداً رخامياً تحت أحد المذابح، حيث قيل أنه على مقربة منه جرى تتويج يسوع بتاج من شوك، قبل وضعه على الصليب، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٣٩ — وتصل من هنـاك إلى الجلجلة، التي تعـرف باسم البــلاط، وذلك حيث جلس بيـلايطس قبل المحـاكمـة، وعندما اقتـاد يســوع إلى خـارج المدينة، وحسب رواية يوحنـا[٩/ ١٤] كـان اليــوم يوم عيــد الفصح، في حوالي الساعة السادسة منه، والجلجلة مكان موجود تحت جبل الجمجمـة، وكان مقعـراً، وهناك مـايزال الدم مرئيـاً، حسبما تحدثنا من قبل.

٤٠ — ثم إنك تصل إلى بـاب، حيث هناك في وسط السـدة يـوجد المكان الذي يسمى بمركـز العالم، فهناك مدّ الرب يســوع المسيح إصبعه قـائلاً:« هذا هو مـركز العـالم»، ويوجد هناك غفـران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

وينبغي أن يكون معلوماً أنه يوجد عند المذبح الكبير غفران لمدة سبع سنوات،ولسبعة مواسم صـوم كبير، وأن جميع المذابح قد بنيت في داخل الكنيسة.

٤١ — وتصل من هناك إلى عمـود مـوجـود قـرب حجـرة الضريح المقـدس، قد رسـم فوقـه صـورة القديس بـانتاليـون Pantaleon ، وعند هذه الصورة، قيل بأن المعجـزة التالية قد حـدثت فيما مضى: فقد دخل أحد المسلمين إلى كنيسـة الضريح المقدس، ونظر من حـوله، فرأى الصـورة المتقدمـة الذكـر مـرسومـة فـوق العمود، وعنـدما انتـزع عيني الصورة، ما كان من عينيه إلا أن سقطتا فوراً على الأرض.

٤٢ — وتصل من هناك إلى الباب الذي لم تكن مريم المصرية المباركة قادرة على الدخول منه، مع أن المسيحيين الأخرين قد دخلوا، وعندما وعدت بأنها سوف تتوب، سمعت صوتاً يقول لها: «إذا عبرت نهرالأردن سوف تكونين صحيحة بريئة»، وهذا الباب موجود على الجانب الشمالي للضريح المقدس في مكان سري، وتوجد هناك بيعة القديسة مريم المصرية، المتقدمة الذكر ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٣ — ومن هناك سوف تخرج من كنيسة الضريح المقدس، ولسوف تجد على يسارك بيعة صغيرة، هي بيعة العذراء المباركة مريم، وذلك تحت جبل الجمجمة، حيث وقفت تحدق بابنها وهو معلق فوق الصليب، وهناك يتولى النوبيون أعمال القداسات، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٤ — ومن هناك سوف تأتي إلى بيعة القديس يوحنا الانجيلي، وهي ملتصقة ببيعة مريم المباركة، حيث أوصى مخلصنا بالأم العذراء إليه، والتي كانت فعلاً عذراء، ويتولى هناك اليعاقبة أعمال القداسات، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٥ — وتصل من هناك إلى بيعة ملاصقة، بنيت تشريفاً للقديس يوحنا العمدان، والغفران هنا لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٦ — وسوف تجد في مواجهتك بيعة بنيت تشريفاً للقديسة مريم المجدلية، حيث بكت هناك وناحت، مع نسوة أخر، على الرب وهو معلق فوق الصليب، ويتولى هناك المسيحيون المطوقون(الكرج) أعمال القداسات، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٧ — وتأتي من هناك إلى صخرة موجودة أمام أبواب الكنيسة، عليها ارتاح المسيح عندما جاء وهو يحمل صليبه إلى جبل الجمجمة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٤٨ — وجميع الأماكن الفائقة القداسة، المتقدمة الذكر موجودة داخل، أوملاصق الكنيسة المقدسة لآلام الرب، ولضريحه المقدس.

مايتعلق بالحج فوق جبل صهيون المبارك

٤٩ — ونذهب من هناك إلى جبل صهيون، وعلى الطريق سوف تجد كنيسة جيمس المبارك ابن زبدي، وهي المكان الذي وضع فيه فيما مضى رأس جيمس هذا عندما جلب على أيدي الملائكة من يافا، فهناك جرى إعدامه بقطع رأسه، كما يقول بعضهم، بيد أن آخرين يقولون، بأنه أعدم في القدس، في المكان الذي توجد فيه كنيسته، وهذا ما أعتقد أنه أكثر صحة.

٥٠ — ومعروض هناك للمشاهدة عظام جيمس هذا الأعظم مباركة، وكذلك عظام جرجس المبارك والشهيد، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير، والموجود هناك هم رهبان أرمن.

٥١ — وسوف تذهب من هناك إلى كنيسة القديس المخلص في جبل صهيون، حيث المكان كان من قبل بيت كيفاس، الذي إليه جلب يسوع أولاً بعد اعتقاله، وجلد هناك بقسوة، ويوجد هناك خارج باب الكنيسة، جزء من العمود الذي ربط إليه، وذلك في داخل الجدار هناك، وفي المكان نفسه أنكر بطرس المسيح للمرة الأولى«قبل صياح الديك»، وعندما كان جالساً هناك في القاعة مع الخدم قام بتدفئة نفسه على«نار الفحم، لأنها كانت باردة»[يوحنا:١٨/١٨]، وهناك أيضاً السجن الذي ألقي فيه يسوع، وأبقي فيه حتى الصباح، لكن عندما جاء الصباح

أرسلوه مغلولاً إلى بيلايطس، وموجود هناك حجرة كبيرة موضوعة فوق المذبح، وقد قيل بأنها كانت الحجرة التي ألقيت أولاً فوق ضريح الرب،[وهناك قالت النسوة] — تبعاً لرواية مرقص — :«من سيدحرج هذه الصخرة من على باب الضريح»، الخ، ويوجد هناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٥٢ — ومن هناك تأتي إلى المكان الذي كان فيما مضى قلاية مريم المباركة، حيث أقامت فيها لمدة أربعة عشر عاماً، بعد صعود الرب إلى السماء، ومن هناك انتقلت إلى الرب، من هذا العالم الشرير، ويوجد هناك إعفاء من الألم ومن الذنب.

٥٣ — ومن هناك تنتقل إلى مكان ملاصق، حيث كان فيما مضى الكنيسة التي احتفل فيها المبارك يوحنا الانجيلي بقداس بحضور مريم العذراء المباركة، واستمر ذلك طوال بقاء مريم المباركة حيّة في هذا العالم، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٤ — ومن هناك تنتقل إلى المكان الذي انتخب فيه الرسل متى المبارك رسولاً، وكان ذلك في غرفة يهوذا الخائن، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٥ — وهناك أيضاً المكان الذي انتخب فيه الرسل السبعة شمامسة:ستيفن، وفيليب، ونيكابور، وأتباعهم للتبشير بكلمة الرب.

٥٦ — وهناك مكان آخر، فيه انتخب الرسل المبارك جيمس، ليكون الأسقف الأول للقدس، وهو الذي استشهد فيما بعد بضربة من عصا القصار، وغادر إلى المسيح.

٥٧ — ثم إنك تأتي إلى صومعة مريم العذراء المباركة، وذلك على مقربة من أبواب الكنيسة، فهناك اعتادت أن تصلي بعد صعود الرب إلى

السماء، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٨ — ويوجد أيضاً على الجانب الآخر من أبواب الكنيسة، صخرة حمراء، كانت تستخدم بمثابة مذبح، وعلى هذه الصخرة احتفل المبارك يوحنا الانجيلي، بقداس بحضور مريم العذراء المباركة، وقد نقلت من جبل صهيون على أيدي الملائكة، بناء على صلوات المبارك توما الرسول، لدى عودته من الهند، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٥٩ — ثم إنك سوف تدخل إلى الكنيسة، ويوجد قرب المذبح الكبير، في جهة الجنوب، المكان الذي تعشى فيه الرب يسوع مع حوارييه، واتصل بهم قائلاً:«خذوا، كلوا، هذا هو جسدي الذي أعطي لكم، وافعلوا هذا تذكراً لي»، ويوجد هناك إعفاء من الألم ومن الذنب، وقد غسل في المكان نفسه أقدام حوارييه.

٦٠ — ثم إنك تخرج من الكنيسة، وتأتي إلى حاجز، على مقربة منه المكان الذي قال فيه الرب يسوع لحوارييه، عندما جاء«والأبواب مغلقة، ووقف في الوسط، وقال سلام عليكم، ثم قال لتوما: هات اصبعك إلى هنا وأبصر يدي،وهات يدك، وضعها في جنبي، ولاتكن غير مؤمن بل مؤمناً»[يوحنا:٢/ ٢٦ — ٢٨]، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦١ — ثم إنك تصعد فوق الكنيسة بدرجات، حيث هناك المكان الذي سكن فيه الرسل، بعد صعود الرب، وذلك حتى يوم عيد الحصاد، وكانوا ينتظرون الروح القدس بالصوم وبالصلوات،وفي يوم عيد الحصاد تلقوا الروح القدس، على شكل نار، من أجل تقويتهم، وتلقوا معها معرفة جميع اللغات، وجاء صوت من السماء بشكل

مفاجىء، ودوى فوق المكان، ولحق ذلك تـدفق حشد من اليهود، إليهم شرح بطرس المبـارك نبوءة يوئيـل، وحول عـدداً كبيراً منهم إلى الايمان، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

٦٢ — ثم إنك تنزل من هنـاك إلى المقبرة، ويوجـد هناك على مقـربة من الكنيسة على الجهة الشمالية، صخرة، عليها وقف يسوع عندما وعظ الحشد، ويـوجد هناك غفران لمدة سبـع سنوات، ولسبعة مواسـم صوم كبير.

٦٣ — ثم تذهـب من هناك إلى تحت الكنيسـة،حيث هناك يوجـد ضريح الملـك داوود وابنه سليمان، فهنـاك جـــرى دفن جميـع ملوك القدس، وعلى مقـربة من هناك نظم داوود سبعة مـزامير، ويوجد هناك غفران لسبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٤ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي جـرت تدفئة الماء فيـه، من أجل غسل أقدام الحواريين، وقت العشاء الرباني.

٦٥ — ثم إنك تـأتي إلى ضريح اسطفـان المبــارك، الذي كــان أول شهيــد، وهناك دفن جسـده بعــد اكتشــافـه لكنه الآن في رومــا، وفي الناووس نفسه مع جسد لورانس المبارك، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٦ — ولدى نزولك من جبل صهيـون، تجد المكان الذي — عندما كان الحواريـون ينقلون جسد العذراء المبـاركة للدفـن في وادي شعفاط — وضعــوا عليـه النعش، وكــان اليهـود الـذين يعيشـون في القــرية المجـاورة، قــد تجمعـوا في تلـك البقعـة، حتى يمكنهم خطـف الجسـد لاحـراقه، ثـم قام رئيس كهنة اليهـود،وكـان أكثـر جرأة، ووقـاحـة من البقية، فـوضع يديه على النعش، وإثر ذلك تيبست يداه مباشرة، ثم إنه التمس من بطرس المبارك، أن يدعو له، ليعيد يديه إليه، فقال له بطرس

المبارك:«إذا ما آمنت أن هذه هي أم المسيح، وكنت مستعداً للتعميد، فإنك ستجعل سليماً»، فآمن، وعاد إلى سالف صحته، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٦٧ — ثم إنك تأتي إلى مكان، كان فيما مضى كنيسة، تعرف بشكل عام باسم كنيسة«صياح الديك»، حيث كان فيها كهف عميق، فهناك تاب بطرس عندما أنكر المسيح، وبكى بكاء مراً.

٦٨ — ثم يوجد على بعد ثلاثة فرلنغ طويلة(ثلاثة أثمان الميل) إلى الجنوب من هناك، الحقل الذي شري مقابل الثلاثين قطعة فضية التي جرى بيع ربنا بها، وهو الذي يعرف بالعبرية باسم أكلداما، أي حقل الدم، حتى هذا اليوم.

٦٩ — ثم إنك تأتي إلى الحقل المقدس، حيث سكن الحواريون مراراً، قبل آلام المسيح، ومايزال مكان سكناهم مرئياً، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٠ — ثم إنك تأتي إلى بركة سلوان، حيث أعطى الرب البصر إلى رجل ولد أعمى.

٧١ — ثم إنك تأتي إلى مكان مجاور، فيه جرى قطع النبي إشعيا إلى قسمين بوساطة منشار خشب، وذلك من قبل منشا ملك القدس، وهو هناك راقد حيث هو مدفون تحت بلوطة روجل.

٧٢ — ثم إنك تأتي إلى نبع مريم المباركة، حيث غسلت الملابس الصغيرة لابنها المبارك، وهناك يغتسل الآن كل من المسلمين والمسيحيين، وغالباً مايتعافون بذلك من عجزهم، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٣ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي اعتاد أن يعيش فيه جيمس

الأصغـر، وهناك جـرى دفنه بعـدمـا ألقي به مـن أعلى الهيكل من قبل اليهـود،ويوجد هناك غفـران لمدة سبع سنوات، ولسبعـة مواسم صـوم كبير.

مايتعلق بالحج فوق جبل الزيتون

٧٤ — يبعد جبل الزيتون ميـلاً واحداً إلى الشرق من القدس، وهو جبل خصـب، وجبل الزيتـــون جـــدير بكل احترام، فعلى هـذا الجبل المقدس، والجدير كثيراً بالاحترام، اعتاد الرب أن يجلس، مقابل الهيكل، عندمـا ينتظر حواريوه منه رؤية الشـارات عند قـدومه للحكم، وحـول نهاية الحياة، وعلى هذا الجبـل غالباً مـا اعتاد أن يذهب مع حـوارييه من أجل الصلاة، وخاصـة عندما كانت آلامه قد اقترب مـوعدها، ويشاهد هناك في هذه الكنيسة المكان الذي صعـد منه ربنا إلى السماء بشكل مجيد وبحضـور حوارييـه، وماتزال الصخـرة التي كـانت تحت قدميـه تحتفظ بطبيعتهـا، وهذا مـرئي حتى هـذا اليـوم، ويوجـد هناك إعفـاء من الألم والذنب.

٧٥ — ثم إنك تأتي إلى بيعة موجـودة هناك على الجبل المتقدم الذكر، فيهـا تابت بلجيا الأنطاكية، وفيهـا دفنت أيضـاً، ويوجـد حجرة فـوق ضريحها لايمكـن لانسان أن يمر من قـربها، أويدور من حولها مـالم يقم بالاعتراف الكامل، ويقـال بأن مـريم المصرية المبـاركـة قـد دفنت هناك حتى أيام استيلاء اللاتين على الأرض المقدسة، ذلك أنهم نقلوا جسدها من هناك إلى مـاوراء البحر، إلى بلدة اسمهـا بليوس Blois في مملكة فـرنسا، ويوجـد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعـة مواسم صـوم كبير.

٧٦ — ثم تأتي إلى المكان الـذي صـاغ فيـه الرسل مثـال العقيــدة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٧ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة فيها علّم يسوع حوارييه أن يصلوا، قائلاً:«هكذا سوف تصلون» وقال:«أبانا الذي في السماء»الخ، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٨ — ثم إنك تأتي إلى منحدر جبل الزيتون، إلى ثمني ميل باتجاه الشرق، حيث بيت فاجي، التي ترجمة اسمها هو«بيت الفك»، فهناك أرسل ربنااثنين من حوارييه هما:بطرس وفيليب ليجلبا له أتاناً مع فلوها من أجل أحد السعف وقال لهما:«إذهبا إلى القرية التي أمامكما فللوقت تجدان أتاناً مربوطة وجحشاً معها فحلاهما واتياني بهما»[متى:٢١/٢]، ومن هناك من ذلك المكان ذهب على ظهر الأتان إلى القدس وسط التراتيل وأناشيد الحمد، وقد استقبل بالتشريف من أبناء العبرانيين، وهم يحملون سعف النخيل، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٧٩ — ثم إنك تأتي إلى مكان، فيه تسلمت مريم المباركة سعفة النخيل من الملاك، كمؤشر لمغادرتها لهذا العالم وذهابها إلى بيتها المتشوقة إليه،ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٠ — والجبل المجاور لجبل الزيتون على الجانب الشمالي هو جبل العدوان، وهما منفصلان عن بعضهما بوساطة الطريق الذي يذهب من وادي شعفاط إلى بيت عنيا، وقد عرف باسم جبل العدوان لأن الملك سليمان أقام هناك صنم مولوك، وتعبده.[الملوك الأول:١١/٧]، ويعرف هذا المكان باسم الجليل، فهناك ظهر ربنا لحوارييه عندما قام من الموت، وذلك وفقاً لكلمة الملاك الذي قال:«واذهبا سريعاً قولا لتلاميذه، ولبطرس.... ها هو يسبقكم إلى الجليل»، [متى :٢٨/٧] وقد كان هنا من قبل كنيسة، غير أنها دمرت من قبل المسلمين، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨١ — ثم إنك تأتي إلى سفح الجبل، إلى صخرة، وقف عليها يسوع، ووعظ الحشود، وذلك حيث أشار إلى مدينة القدس، وبكى عليها قائلاً:«إنك لو علمت أنت أيضاً حتى في يومك هذا ما هو لسلامك، ولكن الآن قد أخفي عن عينيك، فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة، ويهدمونك وبنيك فيك حجراً على حجر»الخ[لوقا:١٩/ ٤٢ — ٤٤]، وقد تحقق هذا في ظل تيتوس وفاسبسيان، امبراطوري الرومان، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٢ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي رمت فيه مريم المباركة حزامها إلى الرسول توما المبارك، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٣ — ثم إنك تأتي إلى حديقة جيسماني، تحت سفح جبل الزيتون، في وادي شعفاط، حيث سيحكم ربنا على الأحياء والأموات.

٨٤ — وهناك يوجد المكان الذي اعتقل فيه الرب يسوع من قبل اليهود، وذلك حيث قبله يهوذا الاسخريوطي قائلاً:«حييت يا معلم»، وهناك قام اليهود الذين كانوا أمامه«فرجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض»، وكان ذلك لدى سماعهم صوت المسيح، عندما قال:«أنا هو»، وهذا كله حسب رواية يوحنا(١٨/ ٦)، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٥ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي انسحب فيه الرب يسوع من بين حوارييه، «وانفصل عنهم نحو رمية حجر»، وصلى إلى الآب قائلاً:«يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس، ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك»، وفي المكان نفسه:«ظهر له ملاك من السماء يقويه»[لوقا:٢٢/ ٤١ — ٤٤]، وبدأ«عرقه كقطرات دم نازلة على

الأرض»[لوقا:٢٢/ ٤٥].

٨٦ — وهناك أيضاً، الصخرة التي أمسك بها ربنا، وهو يتحرق بسبب آلامه، وطبعات أصابعه عليها ماتزال ظاهرة،ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٧ — ثم إنك تأتي إلى المكان من حيث «أخذ معه بطرس وابن زبدي وابتدأ يحزن ويكتئب» وهو يقول:«نفسي حزينة جداً حتى الموت»، وعاد حيث وجد الحواريين الآخرين نياماً، فقال لهم:«أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة»، [متى:٢٦/ ٣٩ — ٤١] ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٨٨ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة في وادي شعفاط، حيث يوجد ضريح العذراء المجيدة، في مكان عميق جداً، ينزل الانسان إليه بثمان وأربعين درجة، وهناك يوجد إعفاء من الألم والذنب.

وينبغي أن نتنبه إلى أن وادي شعفاط قد نال اسمه من واحد من ملوك القدس، كان اسمه شعفاط، وقد دفن هناك، وقد بني قبره بشكل محكم، وهو مايزال مرئياً هناك.

٨٩ — وسوف تعبر من هناك وادي قدرون، حيث بقيت شارة صليب الرب ممددة هناك لسنين طويلة، وعندما كانت سيبل Sibyl قادمة إلى القدس لسماع حكمة سليمان، رفضت عبور هذا الوادي.

٩٠ — ولسوف تأتي إلى المكان الذي ربط فيه المبارك اسطفان، عندما جرى رجمه من قبل اليهود، ووقتها كان قد ركع فوق الأرض،وأخذ يصلي من أجل الذين كانوا يرجمونه، وهو يقول:«يارب لاتقم لهم هذه الخطية»[أعمال الرسل:٧/ ٦٠]الخ، ويوجد هناك غفران لمدة سبعة أعوام، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٩١ — ثم تأتي إلى البوابات الذهبية، التي دخل منها الرب يسوع في يوم أحد السعف، وكان جالساً على ظهر أتان، وذلك حسب رواية الانجيل،ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

٩٢ — ثم تجد على بعد رمية سهم هيكل الرب، الذي له أربعة مداخل، واثني عشر باباً.

ولايجوز المرور بهيكل الرب المقدس الذي بني من قبل سليمان فوق جبل موريا، على أرض بيدر أورنان اليبوسي، بين الأماكن المقدسة دون إيلائه ما يستحقه من احترام، وكان في الحقيقة قد هدم أولاً من قبل البابليين، ثم بعد ذلك من قبل الرومان، ثم إنه أعيدت عمارته في المكان نفسه، على شكل مستدير،وعلى شكل لائق، ورائع، من قبل عمال أذكياء وبارعين، ومؤمنين، ورجال ربانيين، ويوجد في هذا الهيكل الصخرة، التي وقف عليها الملاك المدمر، وظهر لداوود، وهذا الملاك هو الذي قتل آلافاً لاتحصى من الناس، بسبب الذنب الذي اقترفه داوود، أي بإحصاء الناس وتعدادهم بناء على أمر داوود، وفي الحقيقة يدعو المسلمون حتى هذا اليوم هيكل الرب باسم الصخرة، وهي موضع احترام عظيم لديهم، إلى حد أن ما من أحد منه يتجرأ على تلويثها بأية قذارة، مثلما يلوثون الأماكن المقدسة الأخرى، وهم يقدمون من مناطق نائية للتعبد هناك، ويفعلون ذلك منذ أيام سليمان حتى الوقت الحالي، ومنذ أن استعاد المسلمون ملكية مدينة القدس المقدسة، لايسمحون لأي مسيحي بدخول الهيكل، ومايزال بعضهم يعتقد حتى هذه الأيام، بأن تابوت عهد الرب، موجود في داخل الصخرة المذكورة، ومقفل عليه فيها، وذلك أن يوشع، ملك إسرائيل، تنبأ بما سيلحق المدينة من دمار، فأمر بوضع التابوت في قدس أقداس الهيكل، وتخبئته فيها هناك.

٩٣ — وفي هذا المكان المقدس المحترم، عندما أنهى سليمان العمل،

وكـان يقدم أضحيـة إلى الرب، مـلأت غمامة البيت، وظهـر مجد الرب، و«نزلت نار من السماء، وأكلت تقـدمـة الحرق، والأضـاحي»، ومـلأت جـلالة الرب بيت الرب، و«رأى بنو إسرائيـل جميعـاً النار وهي نازلة، ومجد الرب فـوق البيت» وعندما كـان سليمان جـاثياً على ركبتيه ويداه مبسوطتـان نحو السماء»، دعا بأن تتم الاستجـابة لتوسل كل من يدخل الهيكل طلبـاً للمنفعـة من الرب، وظهـر الـرب له قـائـلاً:«قـد سمعت صلاتك وتضرعك الذي تضرعت به أمـامي: قدست هذا البيت الذي بنيتــه من أجل وضع اسمي فيــه»[الملوك الأول:٩/ ٣]، و«الآن عيناي تكونان مفتــوحتين وأذناي مصغيتين إلى صـلاة هذا المكـان. والآن قـد اخترت وقـدست هذا البيت ليكون اسمي فيـه إلى الأبد»[أخبـار الأيام الثاني:٧/ ١٥ — ١٦].

٩٤ — وعاشت مـريم العذراء المباركـة في هذا الهيكل،حتى اقترنت بيوسف، ولقـد قيل بأنها كانت تصلي هناك مع العـذراوات الأخريات، وكـانت تعمـل على إعـداد أواني الهيكل، وكـذلك مــلابس الكهنة، كما كانت تتعلم الأحرف المقدسـة، وتعيش بعقلانية وتواضع، حيث كانت تصوم، وتتأمل، وتصلي،وتدرس الكتابات المقدسة، وعندما كانت طفلة رضيعـة جلبها والداها لتقـديمهـا إلى الهيكل، ومن أجل تقـديمها أمـام الرب، وهنا — كما يقال — صعدت بنفسهـا جميع الدرجات المؤدية إلى الهيكل من دون أية مصاعب، وهو أمـر بدا مدهشاً في أعين الجميع، ولم يسمع بمثله من قبل عن طفل صغير، وفي هذا الهيكل عندما كـان زكريا المقدس يقدم البخورإلى الرب، ظهر الملاك جبرائيل له، وبشره بأن الرب قد استجاب لأدعيته.

٩٥ — وجرى أيضاً في هذا الهيكل تقديم الطفل يسوع، حيث جرى حمله على ذراعي سمعان العـدل، وعندها عرف سمعـان بوساطة الروح القدس مخلصه، فقال له:«الآن تطلق عبدك»الخ[لوقا:٢/ ٢٩].

٩٦ — وأيضاً في المعبد نفسه أنقذ يسوع المرأة الزانية من أيدي اليهود،[يوحنا: ٨/ ٣] وهناك أيضاً عمل يسوع«سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل، الغنم والبقر، وكب دراهم الصيارف، وقلب موائدهم»، [يوحنا:٢/ ١٥]، وهو يقول:«مكتوب بيتي بيت الصلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص»[متى:٢١/ ١٣].

٩٧ — وهناك أيضاً بالقرب هيكل سليمان، لكن المسيحيين لايدخلون إليه، خوفاً من المسلمين.

٩٨ — كذلك يوجد فيما بين هيكل الرب والباب الذهبي الأشجار التي قطع منها الأولاد الأغصان، عندما جاء الرب إلى القدس، راكباً على أتان، وعلى مقربة من هناك، بجوار هيكل سليمان، في زاوية من زوايا المدينة يوجد — كما قيل — غرفة نوم المسيح، وحمّامه، وفراش أمه، ويوجد هناك أيضاً ضريح القديس سمعان.

٩٩ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة حنة المباركة، التي هي أم العذراء مريم، وهي قريبة من الباب الذي تذهب من خلاله إلى وادي شعفاط، وذلك في جهة الشمال، فهنا يوجد القبو الذي ولدت فيه العذراء مريم، فهو قد كان من قبل بيت يواكيم، وحنة المباركة، زوجته.

١٠٠ — ولايدخل المسيحيون إلى هذا المكان،لأن المسلمين قد بنوا هناك مسجدهم، أي كنيستهم.

١٠١ — ثم إنك تأتي إلى البركة المجاورة لسوق الضأن، التي إليها كان ملاك الرب«ينزل أحياناً في البركة ويحرك الماء، فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض اعتراه»[يوحنا: ٥/ ٤]، ولقد قيل بأنه استقرت في تلك البركة لزمن طويل، خشبة الصليب، وكذلك شفى ربنا في تلك البركة الرجل المقعد منذ ثمان وثلاثين سنة، والمتمدد فوق فراشه، وقال له:«احمل فراشك وامش»[يوحنا:٥/ ٨]،ويوجد هناك

غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

١٠٢ — ثم إنه على مقربة من هناك، تأتي إلى بيت الرجل الشري الذي رفض إعطاء فتات الخبز إلى العازر.

١٠٣ — ثم إنك تأتي إلى بيت عناس، الكاهن الأعلى، وختن كيفاس، الذي جلب إليه يسوع أولاً.

١٠٤ — ثم إنك تأتي إلي بيت بيلايطس، حيث جرى جلد يسوع، والسخرية منه من قبل الجند، والبصاق عليه وضربه بالعصا، وتتويجه بتاج من شوك، وأخيراً الحكم عليه بالاعدام، ويوجد هناك طريق يقود إلى هيكل الرب، جاء اليهود عبره وهم يصرخون قائلين:«اصلبوه، اصلبوه».

١٠٥ — ثم إنك تأتي إلى البيت الذي كانت مريم العذراء المباركة فيه في المدرسة، وعلى مقربة منه يوجد البيت الذي تشاور فيه اليهود لاعتقال يسوع خيانة، ومن ثم قتله.

١٠٦ — ثم تأتي إلى جوار ذلك، إلى الكنيسة التي تعرف باسم كنيسة إغماء القديسة مريم، حيث أغمي عليها بسبب آلام ابنها، عندما شاهدته وهو يحمل صليبه، ويوجد هناك حجران أبيضان عظيمان في القوس، عليهما استراح ربنا، عندما كان يحمل صليبه، ثم التفت إلى الناس وقال:«يا بنات أورشليم لاتبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن»[لوقا:٢٣/٢٨].

١٠٧ — ويقال بأنه كان على مقربة من الكنيسة قصر الملك هيرود، وعلى مقربة من هناك كان بيت يهوذا الخائن، حيث عاش مع زوجته وأولاده.

١٠٨ — ويوجد هناك أيضاً الطريق الذي يقود إلى باب القديس

اسطفان، حيث رجم في خارجه، وعبر هذا الطريق اقتاد اليهود يسوعاً، و«وجدوا إنساناً قيروانياً اسمه سمعان كان آتياً من الحقل، فسخروه ليحمل صليب يسوع»[متى: ٢٧/ ٣٢/ ، لوقا :٢٣/ ٢٦] وحمله إلى الجمجمة حيث جرى صلب يسوع.

١٠٩ — ثم إنك تأتي إلى برج داوود، الذي كان قد هدم، لكن الآن أعيدت عمارته، في المكان نفسه، كقلعة للسلطان.

١١٠ — وهناك جرى سجن يوسف الرامي لمدة أربعين سنة، بعد آلام المسيح، أي حتى قدوم تيتوس وفاسبسيان، امبراطورا روما.

١١١ — ويوجد هناك باب اسمه باب داوود، في خارجه شنق يهوذا نفسه على شجرة جميز.

١١٢ — ثم إنك تصل على بعد رمية سهم إلى كهف الأُسد، حيث تولوا دفن أحد عشر ألف شهيد، قتلوا جميعاً بسبب اسم المسيح من قبل كسرى ملك الفرس.

١١٣ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي قطعت منه خشبة الصليب، فهناك بنيت كنيسة جميلة جداً، ويبعد المكان ميلاً واحداً عن القدس، ويطلق عليه بالعربية اسم[دير] المصلب، أي«أم الصليب».

١١٤ — ثم هناك على بعد ميلين جدول الماء الجاري الذي عمّد فيه فيليب المبارك الخصي الأثيوبي وهو عائد من القدس، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

١١٥ — ثم إنك تأتي على بعد ميل إلى المكان الذي ولد فيه يوحنا المعمدان مع أبيه زكريا، وتوجد هناك كنيسة تبعد أربعة أميال عن القدس، وإلى هناك حدث أن مريم«ذهبت بسرعة إلى الجبال إلى مدينة يهوذا» وسلمت على إيزابل،«وصرخت إيزابل بصوت عظيم وقالت

مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك فمن أين لي هذا أن تأتي أم ربيّ إليّ، فهوذا حين صار صوت سلامك في أذنيّ ارتكض الجنين بابتهاج في بطني»، ثم قالت مريم المباركة:«تعظم نفسي الرب»الخ[لوقا:١/ ٣٩ — ٤٦]، وهناك تنبأ زكريا وقال:«مبارك الرب»الخ، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات، ولسبعة مواسم صوم كبير.

١١٦ — ومن هناك يذهب الانسان إلى نبع زكريا،[عين كارم] الذي يبعد حوالي رميتي سهم عن الكنيسة المذكورة أعلاه.

ما يتعلق بالحج في بيت لحم وحبرون

١١٧ — على ميلين من القدس، باتجاه بيت لحم، هناك كنيسة، قائمة فوق الموضع الذي تاب فيه إيليا واعتكف.

١١٨ — ثم إنك تأتي إلى مكان على الطريق، حيث ظهر النجم ثانية للرجال الحكماء، ذلك أنه كان قد اختفى عندما كانوا في حضرة هيرود.

١١٩ — ثم إنك تأتي إلى البئر الذي وضع إخوان يوسف، يوسف فيه.

١٢٠ — ثم إنك تأتي إلى قبر راحيل، زوجة يعقوب، التي ماتت بعد ولادتها لبنيامين، وهو يبعد حوالي ثمن ميل عن الطريق القادم.

١٢١ — ثم إنك تقدم إلى حقل البيقية الحجرية، الذي يبعد ميلاً عن بيت لحم، لأنه عندما كان الرب يسوع يعبره، رأى رجلاً يبذر بيقية، وعندما سأله الرب عن الذي يبذره، أجابه«حجارة» فقال الرب له:«لتكن حجارة»، وعلى الفور تحولت تلك البيقية إلى حجارة، وحتى الآن يتم العثور على حجارة بيقية هناك.

١٢٢ — ثم إنك تأتي إلى مدينة بيت لحم، التي معنى اسمها«بيت

الخبـز»، التي ولد فيهـا الخبـز الحقيقي الذي نزل من السماء، ويوجـد في هذه المدينة المقدسة والمبجلة، كنيسـة فائقة الجمال، بنيت على شرف مريم العـذراء المباركـة، وفيهـا بيعـة، ولد فيها يسـوع المسيح، مخلص العـالم، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٢٣ — ويوجـد هناك المكان الذي كـان فيه المعلف الذي أكل فيـه الثـور والأتان، فهناك مددته مـريم العـذراء المباركـة، بسبب أنه لم تكن هناك غـرفـة في النزل»، وقـد قيل بأن المعلف مع التبن الذي تمدد عليـه الطفل يسوع موجود في روما في كنيسة القديسة مريم العظيمة.

١٢٤ — وإلى تلك البيعـــة جـاء ثلاثة ملـوك من الشرق: مليكور، وبلشـاسـار، ويسبر، ليقومـوا بعبـادة ابن الرب، وقـد قدمـوا له:«ذهبـاً، وبخوراً،ومرّاً».

١٢٥ — ويوجد أيضـاً في الكنيسة المتقدمة الـذكر، العائدة للقـديسة مـريم، على الجانب الأيسر، المكان الموضـوع فيـه بعض آثار طفـولة ربنا وختـانه، حيث يقـال بأنهم الآن في رومـا في كنيسـة القـديس يوحنا في اللاتيران.

١٢٦ — ويوجد أيضـاً على جهة اليمين المكان الذي جـرى فيه دفن الأبرياء المقـدسين، ويوجـد هناك مـذبح،ويوجـد هناك إعفـاء من الألم والذنب.

١٢٧ — ثم إنك تـأتي إلى باب، حيث هناك الكهـف الذي اعتكف فيه القديس جيروم، وهناك صنف توراته وكتبا أخرى كثيرة.

١٢٨ — ثم مـلاصق ذلك تأتي إلى كنيسـة تلك العقيلة النبيلة، أي باولا المبـاركـة، مع ابنتهـا العـذراء يوستـوخيـوم، فهناك قـامـا بالتـوبة والاعتكاف.

١٢٩ — ثم إنك تأتي إلى كنيسة نيقولا المبارك، وهي ملاصقة لها، وفيها قبو عميق، وهناك يوجد بيعة، يقال بأن مريم العذراء المباركة قد عاشت فيها مرة مع ابنها الوحيد، ويقال بأنها عصرت مراراً هناك فوق الصخرة صدرها الذي تدفق بالحليب، ولهذا السبب أصبحت الصخرة بيضاء مثل الحليب، وهو ما هو مرئي حتى هذا اليوم، ولقد قيل بأن أية امرأة فقدت لسبب ما حليبها، وأخذت قطعة صغيرة من تلك الصخرة، ومزجتها بالماء، وشربتها على شرف العذراء المباركة، سوف يعود حليبها مباشرة، ويوجد هناك غفران لمدة سبع سنوات،الخ.

١٣٠ — ثم إنك تأتي إلى بيعة قرب بيت لحم، حيث ظهر ملاك الرب للرعيان، في صباح ميلاد الرب قائلاً:«لقد أحضرت لكم بشائر ذات بهجة عظيمة، وهي سوف تكون لجميع الناس، ذلك أنه ولد في بيت لحم في هذا اليوم، في مدينة داوود، مخلص العالم».

١٣١ — وعلى بعد اثني عشر ميلاً عن بيت لحم، توجد مدينة حبرون، التي هي مدينة قديمة جداً، وهي حاضرة الفلسطينيين، ومكان سكنى العمالقة، وفي ديار سبط يهوذا،وحبرون قائمة في سهل دمشق، وفي الحقل الذي صاغ فيه الخلاق العظيم للمرة الأولى أبانا آدم«على شكله»، ويوجد في هذه المدينة هيكل له جمال فائق، ويوجد فيه الكهف المزدوج، الذي دفن فيه الرجال الأربعة المحترمين، وهم:آدم، وإبراهيم، واسحق، ويعقوب، مع زوجاتهم، حواء، وسارة ، ورفقة، وليا.

١٣٢ — ولايدخل المسيحيون إلى هذا الهيكل خوفاً من المسلمين، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٣٣ — ثم إنه على مقربة من المدينة، وعلى بعد حوالي رميتي سهم، سوف تصل إلى كهف أو قبو، فيه اعتكف آدم وزوجته لمدة مائة سنة، بعد وفاة ابنهما هابيل، ثم إنه أنذر من قبل ملاك من الملائكة، فعرف

زوجته، فحملت بشيث، الذي من سبطه ولد يسوع المسيح، ابن الرب.

١٣٤ — وأيضاً على مقربة من حبرون يقع جبل ممرا، الذي عند سفحه توجد البطمة، التي تعرف باسم البلوطة، أو السنديانة، فتحتها عندما كان إبراهيم جالساً رأى ثلاثة ملائكة قادمين نحوه، وقد تعبد واحداً منهم.

١٣٥ — وهذه البلوطة جافة الآن، ومع ذلك تبرهن أنها ذات خواص دوائية مؤثرة، لأنه قد قيل إذا ما أخذ أي إنسان قطعة منها وهو راكب، فإن مطيته لن تكبو قط.

١٣٦ — ثم إنك تأتي إلى المكان الذي اعتكف فيه يوحنا المعمدان.

١٣٧ — وإلى حبرون قدم أيضاً الاثنا عشر جاسوساً، كالب، ويوشع ورفاقهما، حيث دخلوا للمرة الأولى إلى أرض الميعاد.

١٣٨ — وفي حبرون أيضاً حكم داوود لمدة سبع سنوات ونصف السنة، وكان ذلك قبل أن يحكم في القدس.

١٣٩ — وعلى بعد ميلين من حبرون، باتجاه بيت لحم، يوجد كوخ صغير فيه سكن النبي يونه بعد قدومه من مدينة نينوى، وهناك مات، ومدد في قبره.

١٤٠ — ويوجد أيضاً في مقابل جبل صهيون، جبل عليه الآن كنيسة القديس سيبريان Cyprian.

مايتعلق بحج بيت عنيا ونهر الأردن

١٤١ — بيت عنيا هي بلدة مريم ومرثا وأخيها العازر، وهي تبعد حوالي الميلين عن القدس، وواقعة وراء جبل الزيتون، وكان هناك من قبل بيت سمعان المجذوم، وفي هذا البيت جلس الرب يسوع لتناول الطعام مع حوارييه، وإلى هناك جاءت المجدلية، لدى سماعها بأن يسوعاً

قد جاء إلى هناك، ووقفت خلفه:«وابتدأت تبل قدميه بالدموع وكانت تمسحهما بشعر رأسها»[لوقا:٧/ ٣٨]، وهناك أيضاً سمعت ما كانت تستحقه عن جدارة الكلمات الحلوة والمجيدة في قوله:«مغفورة لك خطاياك...اذهبي بسلام».[لوقا:٧/ ٤٨ — ٥٠].

١٤٢ — وكانت بالعادة هناك كنيسة كبيرة، لكنها دمرت من قبل المسلمين.

١٤٣ — وهناك أيضاً، الكهف الذي دفن فيه العازر، عندما أقامه الرب من الموت، حيث توجد هناك بيعة الآن، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٤٤ — ثم إنك تأتي على بعد رميتي سهم إلى المكان الذي كان فيه بيت مرثا، والذي بني في موضعه فيما بعد كنيسة، ففي هذا البيت جلس ربنا لتناول الطعام مع حوارييه، عندما قالت مرثا له:«يارب أما تبالي بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي، فقل لها أن تعينني»الخ[لوقا:١/ ٤].

١٤٥ — ثم إنك تأتي على بعد رميتي سهم من هناك إلى الصخرة التي ارتاح عليها يسوع، عندما التقت به مريم ومرثا وهما تبكيان وتقولان:«يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخانا»الخ[يوحنا:١١/ ٢١].

١٤٦ — ومن هناك سوف تسير مسافة ثمانية عشر ميلاً عبر طريق مستقيم إلى نهر الأردن.

١٤٧ — وتشكل نهر الأردن تحت جبال جلبوع من جدولين هما:«الأر»و«دان»، اللذان ينبعان عند سفح جبل لبنان، على مقربة من قيسارية فيليب، ويشتق اسمه وأصله من هذين النبعين، وينحدر إلى بحيرة جنسارث، ومن هناك يخرج نهراً واحداً، يروي المنطقة المجاورة له لمسافة تقارب المائة ميل، ويأخذ طريقه من خلال الوادي الشهير، الذي اسمه وادي الملح، إلى البحر الميت، ولايعاود الظهور ثانية، بل يبتلع هنا

في الأعماق.

١٤٨ — واعتاد الحجاج والسكان المحليون على غسل أنفسهم وغسل ملابسهم في مياه نهر الأردن مع شيء كبير من التقوى، لأنه في نهر الأردن جرى تعميد مخلصنا من قبل يوحنا المبارك.

١٤٩ — وهناك انفتحت السموات، وهناك ظهرت الروح القدس على شكل حمامة، وهناك سمع الآب وهو يقول: «هذا هو ابني المحبوب، الذي أنا عنه راض تماماً».

١٥٠ — وفي هذا النهر برأ نعمان السوري من جذامه، و«عادت بشرته من جديد مثل بشرة طفل صغير».

١٥١ — وشطر إيليا وتلميذه اليشع مياه نهر الأردن إلى شطرين بضربها بردائه، ومن ثم عبرا فوق أرض يابسة، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٥٢ — ثم إنك تأتي على بعد ميل واحد، إلى دير [قصر اليهود] بني على شرف المبارك يوحنا المعمدان وهناك معروض اليد اليسرى للقديس يوحنا نفسه.

١٥٣ — وكان هناك راعي الدير المبارك زوسيماس Zosimas ، فهناك عاش حياته كلها في تبتل واستغفار عظيم، وقد وجد مريم المصرية المباركة عبر نهر الأردن، التي سكنت هناك لمدة ثمانية وثلاثين عاماً غير معروفة من قبل أحد من الناس.

١٥٤ — ثم إنك تصل إلى أريحا، التي تبعد أربعة أميال عن نهر الأردن، وهي التي كانت من قبل مدينة عظيمة، وقد استولى عليها يوشع، قائد شعب إسرائيل، وكان ذلك عندما دخل أرض الميعاد، وبناء على دعواته انهارت أسوار المدينة، وكانت هناك امرأة من أهل المدينة

اسمها راحاب، وكانت عاهرة، استقبلت جواسيس بني إسائيل في بيتها، ولهذ السبب جرى إنقاذها مع جميع بيتها، وكان من بين سكانها رجل آخر اسمه زكّا«كان رئيساً للعشارين»، وقد رغب في رؤية يسوع عندما قدم إلى أريحا،«ولم يقدر من الجميع لأنه كان قصير القامة»[لوقا:١٩/ ٢ — ٣].

١٥٥ — وعلى بعد ميلين من أريحا يوجد القرنطل، وهو جبل مرتفع جداً، ورائع، يوجد في منتصف الطريق إلى أعلاه بيعة جميلة جداً قائمة فوق صخرة، ويمتلكها بعض الاغريق، ويوجد هناك إعفاء من الألم والذنب.

١٥٦ — وفوق ذلك الجبل صام المسيح لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة، وجاع بعد ذلك، وأغواه هناك الشيطان وامتحنه، أولاً بالنسبة لشهيته للطعام حيث قال:«لئن كنت ابن الرب، فأمر هذه الحجارة لتكون خبزاً»، وأغواه في المرة الثانية فوق جبل آخر، ليس بعيداً عن هذا الجبل، بشهوة شريرة حين أراه جميع ممالك الدنيا قائلاً:«جميع هؤلاء سوف أعطيك، إذا قبلت بالسجود إليّ وعبادتي»، وأغواه في المرة الثالثة بمجد عابث، وكان ذلك عندما«جلس له على رأس الهيكل»، وقال له:«إذا كنت ابن الرب، فارم بنفسك نحو الأسفل».

١٥٧ — وتحت القرنطل يوجد النبع الذي حول النبي اليشع ماءه من مالح إلى عذب صالح للشراب.

١٥٨ — وعلى بعد ميلين من أريحا، وفي جهة الشمال الشرقي، تقع بحيرة اسفلت، التي اسمها أيضاً البحر الميت، وفي الحقيقة مناسب تسميتها بالبحر الميت، لأنها لاتستقبل شيئاً حياً، كما لايمكن لشيء حي العيش فيها، وهنا سقطت المدن الأربعة السيئة السمعة وهي: سدوم، وعاموره، ودومة، وزيبويم، فلإصرارها على اللواطة أحرقت بالنار،

وبالكبريت، وغرقت في البحيرة.

١٥٩ — وتوجد ساعور على شاطىء البحر الميت، وهي تعرف أيضاً باسم بلكوروستا Belcorosta ، وهي المدينة الخامسة بين المدن، وهي التي أنقذت من قلب عاليها سافلها بصلوات لوط وهي تعرف الآن بين شعب المنطقة باسم بلدة النخيل.

١٦٠ — وأيضاً يوجد بعد هذه البحيرة أو البحر الميت، وأنت نازل نحو العربية، كرنثيم(الكرك) وهو كهف في جبال المآبيين، إليه اقتيد بلعام ليلعن شعب اسرائيل، وذلك عندما ركب على الأتان التي كلمته.

١٦١ — ويفصل البحر الميت هذا بين اليهودية والعربية.

١٦٢ — والعربية في أيام بني إسرائيل، كانت هي الصحراء التي أبقاهم الرب فيها لمدة أربعين سنة، حيث كان يمطر المن عليهم لكي يأكلوا.

١٦٣ — وفي العربية أيضاً يوجد وادي موسى، الذي فيه ضرب موسى الصخرة مرتين، وبناء عليه تدفق جدولان من الماء لسقاية شعب الرب، وبهذين الجدولين تسقى الآن جميع المنطقة.

١٦٤ — ويوجد في العربية أيضاً جبل سيناء، حيث جرى نقل جسد كاترين العذراء المباركة، على أيدي الملائكة، وجاء النقل من الاسكندرية حيث تلقت ضربة الشهادة.

١٦٥ — وعلى ميلين من أريحا تقع الجلجال، وذلك حيث ولد النبي اليشع، حواري النبي إيليا.

١٦٦ — ويوجد أيضاً بين أريحا والقدس المكان الذي فيه«كان أعمى جالساً على الطريق يستعطي» وهو الذي عندما سمع بأن «يسوع الناصري مجتاز، فصرخ قائلاً: يا يسوع ابن داوود ارحمني... وقال له

يسوع أبصر إيمانك قد شفاك»[لوقا:١٨/ ٣٥ — ٤٢].

١٦٧— وأيضاً المسافة من القدس إلى عمواس أقل من ثمانية أميال، وهناك ظهر يسوع إلى الحواريين اللذان كانا ذاهبين إلى عمواس، وعندما فتح الكتاب المقدس قال:«أيها الأحمقين والبطيئين بالايمان بقلبيكما» وقد «عرفاه من كسر الخبز».. وهذه البلدة قريبة من مودين، مدينة المكابيين، ومدينة الجبعونيين.

١٦٨ — وسوف تذهب من هناك مسافة أربعين ميلاً إلى غزة، على مقربة من البحر، وغزة إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي التي حمل أبوابها شمشوم إلى قمة الجبل[القضاة:١٥/ ٣]، ويمضي الطريق باتجاه الغرب.

١٦٩ — ثم إنك تأتي بعد خمسة أميال إلى قرية كرموت Car-mus (الدارون)، وهناك يصنعون خمرة جيدة جداً، وهناك يعيش المسيحيون المطوقون، وكان هناك فيما مضى مشفى لفرسان القديس يوحنا في القدس، لكن جرى تدميره تماماً من قبل المسلمين.

١٧٠ — ثم إنك تأتي بعد سفر ستة أيام إلى مكان فيه نبع ماء، يدعى نبع مريم المباركة، ذلك أن يوسف تلقى إنذاراً في المنام من قبل الملاك بأن عليه أن يأخذ الطفل وأمه، ويفر إلى مصر، وقد جاءوا إلى هذا المكان، ولم يكن بإمكان العذراء المباركة متابعة السفر لمعاناتها من عطش لايحتمل، ولم يكن لديها ما تشربه، وبالنظر لآلامها المبرحة وضعت الطفل الرضيع على الأرض، وضرب الطفل الأرض بضربات لطيفة صدرت عن قدميه، فتفجر نبع ماء طيب على الفور، وقد شربت واستردت قواها، ويسقي هذا النبع حدائق البلسم حتى هذا اليوم، ويعرف المكان باسم«المطرية» ويستحم هناك كل من المسلمين والمسيحيين سواء.

١٧١ — ثم تأتي بعد خمسة أميـال إلى المدينة الجليلة والغنية والشهيرة التي اسمهـا القاهرة، التي بها أنها البلـدة الرئيسية، يسكن فيهـا السلطان الكبير، الذي هو سيد سـورية ومصر، والعربية، وعلى مقـربة منها يجري النهر، الذي يأتي من الجنة، ويسقي بلاد مصر كلها.

١٧٢ — ثم بعد ميـل تأتي إلى المدينة التي اسمها بابليـون، التي منها جاء دانيـال(كذا) الذي ألقي به في عرين الأسـود، وهناك سكنت مريم المبـاركة في أحـد الأماكن، وفي هذا المكـان توجد الآن كنيسـة القديسـة مريم دي لا سكالا Scala ، ويوجد هناك مكان سري آخر سكنت فيه مريم المبـاركة، ويعرف باسم القديسة مـريم دي لا كافا Cava ، وهناك كنيسـة جميلـة جـداً، وهناك أيضـاً يـرقـد جسـد بربـارا العـذراء المباركة.

١٧٣ — وفي مقـابل القـاهرة، على الطـرف الآخـر من النهـر، باتجاه الغرب، توجد أهراءات فرعون، الذي كان فيما مضى ملك مصر، وهي التي بنيت بناء على نصيحة يوسف بن يعقوب، الذي بيع في مصر.

١٧٤ — ثم إنك بعد سفـرك مائتي ميل تأتي إلى الاسكندرية، وذلك حيث استشهـدت كاتـرين المباركـة، وهي التي نقل جسـدها على أيدي الملائكة إلى جبـل سيناء من أجل دفنـه، وقصرها مـايـزال مـرئيـاً في الاسكندريـة، الذي لايمكـن لمسلم أن يسكـن فيـه بـأية وسيلـة من الوسائل.

١٧٥ — ويوجـد أيضـاً على بعـد ميلين إلى الشرق من الاسكندرية، كنيسة هي حيث استشهـد القديس مرقص الانجيلي، وكـان ذلك عندما كـان يقيم قـداساً في أحـد الأيام، فجـاء واحـد من غير المؤمنين ووضع حبلاً حول عنقه وقال:«خذ الوعل إلى مكان الوعول»، وقد نقل جسده فيما بعـد بشكل سري إلى البندقية، حيث هو مـوجود هناك الآن، فبعـد

نقله إلى هنا، يرقد بشكل مجيد.

١٧٦ — ثم تأتي بعد سفر يومين آخرين إلى دمياط، المدينة التي توفي فيها إرميا النبي المبارك، برجمه بالحجارة.

١٧٧ — ثم تأتي بعد هذا إلى يافا، التي هي الميناء العام للمسيحيين.

١٧٨ — ثم توجد على بعد عشرة أميال الرملة، التي عنها قيل:«صوت سُمع في الرامة، نوح وبكاء وعويل كثير، راحيل تبكي على أولادها ولاتريد أن تتعزى لأنهم ليسوا بموجودين»[متى:٢/ ١٧ — ١٨].

١٧٩ — ثم هناك على بعد ميل واحد اللد، حيث استشهد جرجس المبارك، وفي اللد هذه شفى بطرس المبارك رجلاً أعرجاً كان اسمه انيس Eneas.

١٨٠ — ثم إنك تقدم إلى قيسارية الفلسطينيين، التي جاء منها كورنيليوس قائد المائة، الذي عمده بطرس المبارك، ومن قيسارية هذه جاء المبارك فيليب، الذي كان واحداً من الشمامسة العشرة الذين اختيروا من قبل الرسل.

١٨١ — ثم إنك تأتي إلى أرسوف. التي كانت تعرف من قبل باسم أنتيباتر، وهي التي قامت فيما مضى على البحر بين قيسارية ويافا.

١٨٢ — ثم هناك أيضاً على بعد سبعة أميال من قيسارية، ميناء الحجاج (عثليت) الذي كان يعرف من قبل باسم بترا إنشيسا، التي كانت فيما مضى ميناء مشهوراً على ساحل البحر، وقد جرى نقل جسد يوفيميا المباركة، والعذراء الشهيدة من خلقدونيا، التي هي مدينة في بلاد الاغريق، إلى هنا بشكل إعجازي، حيث هي محاطة باحترام عظيم حتى هذا اليوم.

١٨٣ — ثم إنك تقـــدم إلى عكا، التي كـــانت فيها مضى مـــدينة مشهـورة، حيث كان اسمهـا من قبل بطولميس، وهي تبعـد ثمانية أميـال عن كيفاس(حيفا)، وفي حيفا الموجودة تحت جبل الكرمل، يوجد البيت الرئيسي للرهبـان الكرمليين، وعندمـــا تنزل من الجبل سـوف تصل إلى المكان الذي كان فيها مضى بيت النبي إيليا.

١٨٤ — وعلى بعد ثلاثة أميال عن جبل الكرمل يوجد جبل قيمون، الذي عند سفحـه قتل لامخ قـابيل بسهـم، وكـان ذلك خطأً منه حيث ظن أنه وعل.

ما يتعلق بالحج في طبرية والمناطق المجاورة لها

١٨٥ — نالت مدينة طبرية اسمها من تاييريوس قيصر، وهي قائمة على شاطىء بحر الجليل، وقد اعتاد يسوع أثناء شبابه على زيارتها.

١٨٦ — وحـدث هناك أن الصبي يسـوع كـان متـأخـراً، لكونه مع يهودي كان قريباً له، وغضب اليهودي، فما كان منه إلاّ أن التقط مشعلاً مشتعـلاً، ورمى به نحو الطفل يسـوع، راغبـاً بإصابتـه به، لكن المشعل ضرب الأرض، ونما على الفور شجـرة ضخمة، مـاتزال حتى هذا اليوم تزهر وتثمر.

١٨٧ — وأيضاً يوجد على مقربة من هذه المدينة ينابيع تتدفق بشكل دائم بالمياه الحارة.

١٨٨ — وأيضـاً على بعـد ميل عن طبرية توجـد بلدة المجـدل، التي منها تلقت مريم المجدلية اسمها.

١٨٩ — وعلى بعـد أربعة أميـال عن طبرية توجد بيت أوليـا، وهي مدينة يودث، التي قتلت هولوفيرنس.

١٩٠ — وبحـــر الجليل هو بحيرة قـــائمـة على حـــدود الجليل،

مياهها عذبة جداً وطيبة ولذيذة، وهي ذات حجم كبير بالطول وبالعرض، وعلى مقربة منها مدينة بطرس وأندرو،وهي التي اسمها بيت صيدا، وعليها ألقى الرب النوربحضوره.

١٩١ — ويطلق على هذه البحيرة أحياناً اسم جنسارث، لأن منها يتولد الهواء ويتجمع ليكون ريحاً قوية، بها تضطرب المياه، وتهب العاصفة، مما يسبب في الغالب غرق المراكب.

١٩٢ — وعلى هذه البحيرة مشى الرب جاف القدمين، عندما قال لبطرس — حين رغب في أن يقدم إليه، لكنه بدأ يغرق ويصرخ«يارب أنقذني» — :«آه منك يا قليل الايمان، لماذا شككت»؟، وفي مرة أخرى كان الحواريون في حالة رعب، فجعل مياه هذا البحر تهدأ، ويوجد على الرأس الأيسر من هذا البحر، في فجوة في الجبل، جنسارث، وهي المكان الذي يتولد فيه الهواء، وهو مايزال يشعر به الناس الذين يكونون في تلك البقعة.

١٩٣ — ويبدأ بحر الجليل فيما بين بيت صيدا، وكفر ناحوم.

١٩٤ — وتوجد كورزيم على بعد أربعة أميال عن بيت صيدا، وفي كورزيم سوف ينشأ المسيح الدجال، الذي هو مضل العالم، وعن هاتين المدينتين قال يسوع:«الويل لك بيت صيدا، والويل لك كورزيم».

١٩٥ — وعلى بعد خمسة أميال عن كورزيم تقع قيدار، وهي مدينة رائعة جداً، وعنها كتب في المزامير قوله:«أنا سكنت في خيام قيدار»[المزمور:١٢٠/ ٥].

١٩٦ — وكفرناحوم هي مدينة قائد المائة، وهي قائمة على الشاطىء الأيمن من رأس البحيرة، وفي هذه المدينة عمل يسوع كثيراً من المعجزات.

١٩٧ — وعلى ميلين من كفرناحوم تنزل من الجبل إلى المكان الذي وعظ فيه الرب الجمهور من الناس، وأعطى تعليمات إلى حوارييه، وعلمهم، وهناك شفى المجذوم.

١٩٨ — وعلى بعد ميلين من ذلك المنحدر يوجد المكان الذي أطعم فيه يسوع خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة وسمكتين، وجرى تخليف اثنتي عشرة سلة من الفتات، ويوجد هناك مكان اسمه المنعشة، أي مكان الانعاش، كما أنه فعل كثيراً من المعجزات بين الناس خاصة بين المصابين بمختلف الأمراض.

١٩٩ — وأظهر يسوع نفسه على مقربة من هذا المكان لحوارييه بعد قيامته حيث أكل:«جزءاً من سمك مشوي وشيئاً من شهد العسل»[لوقا:٢٤/ ٤٢]، وذلك حسب رواية يوحنا.

٢٠٠ — وكان في الأجزاء العلوية من الجليل هذه العشرين مدينة، اللائي أعطاهن الملك سليمان إلى صديقه حيرام ملك صور.

٢٠١ — ومنطقة جليل الأمم هذه كلها واقعة في ديار سبطي زوبلون ونفتالي.

مايتعلق بحج دمشق وحدودها

٢٠٢ — وتلتقي حدود العربية وأدوم عند بصرى، وأدوم هي أرض دمشق، فالعزير خادم إبراهيم هو الذي بنى دمشق، وذلك كما يقول بعضهم، ولكن آخرون يقولون بأنها بنيت من قبل انسان اسمه«دمشق» في الحقل الذي قتل فيه قابيل هابيل، وقد سكن عيسو في دمشق، وهو أيضاً يعرف باسم سعير أو أدوم، ذلك أن كلمة سعير تعني الكثيف الشعر، وكلمة أدوم الأحمر، ولهذا السبب نالت البلاد اسم أدوم، هذا وجزء من تلك البلاد اسمه «عوز»، حيث منها أيوب المبارك، الذي وُجد صابراً وكاملاً وسط محنه، ويوجد في أدوم جبل سعير الذي تقوم

دمشق تحته.

٢٠٣ — وعلى بعد ثمانية أميال عن دمشق، وعلى الطريق الذي يقود إلى صيدنايا[داريا]، هناك المكان الذي ظهر فيه الرب يسوع إلى شاول، وهو يقول:«شاول، شاول، لماذا تضطهدني»[أعمال الرسل:٩/ ٤]«صعب عليك أن ترفس مناخس»[٩/ ٦].

٢٠٤ — ويوجد في دمشق كنيسة، فيها تولى حنانيا في أحد الأيام تعميد شاول في جرن المعمودية وسماه بولص، وبذلك حول الذئب إلى حمل، وهناك يتولى المسيحيون المطوقون أعمال القداسات.

٢٠٥ — ويقال أيضاً إنه يوجد في المدينة كهف كبير، يوجد به كنز لاحدود له، وإذا ما مدّ إنسان يده ليأخذ أي جزء من هذا الكنز، تندفع على الفور نار وتتولى تدمير كل ما لمسه، ولقد قيل بأن الاغريق عندما كانوا يتملكون هذه المدينة، بعد الاستيلاء عليها من قبل الامبراطور قسطنطين، بسبب حشود المسلمين التي هاجمتهم، وضعوا كنوزهم في هذا الكهف، وجعلوا كنوزهم بوساطة فن السحر من غير الممكن نقلها حتى نهاية الزمان.

٢٠٦ — وعلى بعد عشرة أميال عن دمشق توجدمدينة صيدنايا، التي يوجد فيها الصورة المبجلة لمريم العذراء المجيدة، والتي جلبت من القدس، وقد تحولت هذه الصورة كلياً إلى تكوين جسدي، لذلك هي لاتتوقف لاليلاً ولانهاراً عن إعطاء زيت مقدس، وهو الزيت الذي يحمل منه الحجاج، الذين يأتون إلى هناك من كل جزء من العالم، قوارير صغيرة من زجاج، وليس بإمكان أي مسلم العيش في هذه المدينة، فهم دوماً يموتون في غضون سنة.

٢٠٧ — وعند سفح لبنان، باتجاه الشرق، ينبع النهران المشهوران:أبانا، الذي يصل نفسه بالبحر،في الشواطيء، التي فقد فيها

يوستاس Eustace زوجته، ومن ثم لدى تخلي أولاده عنه رجع وحيداً، ويجري نهر فرفر(العاصي) خلال سورية إلى أنطاكية، ويتابع جريانه متجاوزاً أسوارها، وعلى بعد عشرة أميال عن أنطاكية يدخل إلى البحر، عند ميناء القديس سمعان(السويدية).

٢٠٨ — وفي أنطاكية تتوجت مرغريت العذراء الثمينة، بتاج الشهادة المجيد، وكان ذلك تحت إدارة المشرف على المدينة أولبريوس Olibrius (٢٥٨م)، وفي أنطاكية شغل بطرس المبارك كرسيه لمدة سبع سنوات، وهو متزين بأثواب الحبرية.

٢٠٩ — وأصل صور مدفون وسط الغموض، ويوجد أمام صور صخرة ليس حجمها صغيراً، عليها وقف يسوع عندما قال:«بل طوبى للذين يسمعون كلام الرب»الخ[لوقا: ١١/ ٢٨].

٢١٠ — وعلى بعد ثمانية أميال إلى الشمال من صور، يوجد على شاطىء البحر الصرفند، التي اسمها صرفند الصيداويين، التي سكن فيها فيما مضى النبي إيليا، عندما أقام من الموت ابن المرأة الأرملة.

٢١١ — وعلى بعد ستة أميال من الصرفند تقوم مدينة صيدا المشهورة، التي في خارج أسوارها شفى الرب الفتاة التي تلبسها الشيطان، وهي التي قالت أمها ليسوع:«والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها»[متى:١٥/ ٢٧]، ومن هذه المدينة كانت الملكة ديدو التي أسست قرطاج في أفريقيا.

٢١٢ — وعند سفح لبنان، وعلى بعد ميلين من صور، يوجد بئر نبع ماء، لكن نبع الحدائق يبعد ستة أميال عن مدينة طرابلس، عند سفح لبنان، باتجاه الغرب، وطرابلس مدينة مشهورة جداً في سورية، مليئة بكثير من المبهجات، وهي قائمة على البحر.

٢١٣ — وعلى بعد أربعة وعشرين ميلاً عن طرابلس توجد مدينة

أنطرسـوس، وهي التي تعرف بشكل عـام باسم طرطوس، ويوجـد في هذه المدينة بيعـة لها حجم كنيسـة كبيرة، وقـد قيل بـأنها بنيت من قبل بطرس ويوحنا، حـواريي الرب، وذلك تشريفـاً لمريم العـذراء المباركـة، ولها احترام عظيم حتى هذا اليـوم، لأنه يوجـد فيها منافع كثيرة، تقـدم بفضل تدخل العذراء المجيدة.

٢١٤ — وعلى بعد ستة أميال عن صيـدا توجد بيروت، وهي مدينة ثرية جداً، كـان فيها تمثـال لمخلصنا، وقد صلب هذا التمثـال بعد وقت قصير من آلامه، وجاء صلبه على يد اليهود سخرية منهم به، فتدفق دماً ومـاء، وبناء عليه فإن هؤلاء الذين صلبـوه، آمنوا عندما رأوا المعجـزة، وكل الذين حملوا مشـاعـر تقـوى صحيحة وكـاملة تجاه هذا التمثـال، برئوا من كل مرض كانوا مصـابين به، وجرى فيها بعد حمل هذا التمثال إلى روما.

٢١٥ — ووضع في كنيسـة القـديس يوحنـا في اللاتيران، حيث هو محاط باحترام وتقوى من قبل الشعب المسيحي.

٢١٦ — وعلى بعـد ميل واحـد عن بيروت يوجـد المكان الذي قتل فيه القديس جرجس — بفضل الصليب المقدس — التنين،وأنقذ عذراء من موت مشين، وأعادها سليمة وبحالة جيدة إلى أبيها، الذي كان ملك تلك البلاد.

— ٢ —

وصف جون بولونير للأرض المقدسة

(١٤٢١م)

تمهيد:

قال الدكتور توبلر Tobler لحسن الحظ أننا نعرف اسم صاحب هذا العمل، ثم تابع يحاجج بأن بولونير كان ألمانيا، وفي المقابل رأى الكونت ب. رينات Riantبأنه كان بولندياً، والبراهين التي أقـام الدكتور توبلر نظريته عليها هي أن المؤلف استخـدم كلمة كلافتيرن Klaftern ، لدى قياسه بالميل الألماني، مع إيضاحه لقرائه كم من الأميال الايطالية تساوي ميلاً ألمانيـاً واحداً، يضاف إلى هذا قـوله بأن فلسطين كانت مقـاطعة في الأرض المقدسـة، مثلما سكسوني واللورين'مقاطعتـان ألمانيتان، أو مثلهما توسكانيا ولومبارديا مقاطعتان من إيطاليا.

وأمكننا معـرفة تاريخ رحلتـه، لأنه هو نفسـه أخبرنا عن ليلة مرعبـة أمضـاها في ميناء بيروت وفي عشيـة عيـد القـديس تومـا سنة ١٤٢٢م، وحـدثنا أيضاً كيف كـان المسلمـون يحصدون على جبل الزيتـون،في يوم عيد القديس جـرجس(٢٣ — نيسان) ١٤٢١م، وبناء عليه من المحتمل أنه ذهب في طريق عودته إلى بيروت، ويتـوافق شرحه من حيث الجوهر — لاغـالبـا — بالكلمات نفسهـا مع كلمات بـوركـارد راهب جبل صهيـون، مع أنها تختلف عنهـا بالترتيب، ولقـد لاحظت وجـود توافق مستمـر بين الأمـاكن التي أريت لبـولنير، وتلك التي أريت لفـابري وغالباً ما جرى وصف هذه الأماكن بالكلمات نفسها، وهنا لانعرف فيما إذا كان فابري قد نقل عن متقدمـه، أو فيما إذا كانا قد كتبا القصة نفسها التي أخبرهم بها الحرس، والقندلفتية.

وترسو أهمية بولونير ومكانته في أنه أول حاج — بقدر ما نعرف — رسم خـريطة للأرض المقدسـة، مع أن خريطتـه لسوء الحظ قـد تلفت، ومع ذلك تمكن الدكتور توبلر من إعـادة رسمها بشكل موفق، واعتماداً

على الاشـارات التي وردت في النص إليهـا، وعلى الخريطة التي نشرها مارينوسانوتو، وليس من السهل في البداية، أبداً، فهم ترتيبات الخريطة، فهي مقسمة بوساطة خطوط، تشبـه خطوط العرض والطول، الموجودة على الخرائط الحديثـة، لكـن يلاحظ أن الخطوط التـي تشبـه خطوط العرض فوق مسـاحة الخريطة عددها ثلاثة وثمانين خطاً، عبرها بالطول ثمانيـة وعشرون خطاً،وأخبرنا الدكتور توبلر بأن ترتيب المربعـات هذه، قـد استخدم من قبل مـوريس البـاريسي، الذي فقدت خـريطته أيضـاً، وقاس بولونير بالمسافـات بين الخطوط، وليس بالخطوط نفسها ، وأطلق على هذه المسافـات اسم المربعات بالنسبـة للعرض، والفراغـات بالنسبة للطول، وهذا يعنـي أن القـارىء لدى عثـوره على مكـان«تحت»كـذا وكـذا«مـربع»، من المتوقع هنـا منه أن يتولى تعـداد المربعـات على طول الحافـة الأطول للخريطة حتى يصل إلى المربع المذكـور، ثم بنظرته تحت أسفل العمود من هناك، سوف يجد المكان، وإذا كـان المذكور موجود في كذا وكذا«مربع»، يتوجب عليه تعداد المربعات على طول نهاية الخريطة، وينظـر على طول الخط، وليـس من السهـل شرح هـذا النظام مـن دون رسم بيـاني، لكن ربما سيكون هذا تكلفاً مـرهقـاً، نرى فيه مـؤلفنا فهيماً تمامـاً وبارعـاً باستخـدام الخريطة الحديثـة، وأخبرنا الدكتـور توبلر بأن موريس الباريسي قد عمل خريطة وفق هذه الطريقة، لكنها فقدت.

ومن الصعب أن نعتقـد أننا نمتلك هنـا رحلة بولونير كلهـا، ومن الصعب جداً أن نقبل بإمكانيـة أن حاجاً حـريصاً مثله، وكاتبـاً تقياً على غـراره، وصف حجـه إلى الأرض المقـدسـة، ومع ذلك لم يقـدم وصفـاً لكنيسة الضريح المقدس، التي كـانت الهدف الرئيسي لرحلته، فضلاً عن ذلك لدى قراءتنا لمطلع كتابه نشعر أننا نتعامل مع قطعة، هذا وليس من الواضح من أي مكـان من نصـه الحالي جـرى فقـدان وصف الضريح المقـدس، مـا لم نفترض أنه كـان في النص فصل مستقل أوقف على هذا

الموضوع، ثم إنه لم يعطنا أية حقائق جديدة مرتبطة بالجغرافية القديمة، ولابد من أن نقنع أنفسنا باستخراج بعض الاشارات التي فيها بعض معلومات مفيدة حول أوضاع كنائس وبيع في الأرض المقدسة والقدس، وقبيل النهاية كرر نفسه، وأعطانا القائمة المعروفة بالأسماء التي نجدها لدى جميع كتاب رحلات الحج الذين استخدموا«الخلاصة الوافية»، وراجع في هذا المقام رحلتي ثيودورك وفيتلوس، اللتان تقدمتا من قبل، وهنا يتضح أنه على الرغم من أن بولونير قد زار الأرض المقدسة في وقت متأخر كثيراً بعد هذين الكاتبين، نجده يقلد عرضهما تقليداً قريباً، وقد نقل المزيج نفسه من سوء الفهم الجغرافي، من المصادر نفسها، أو مصادر مماثلة.

وصف جون بولونير للأرض المقدسة

أبواب مدينة القدس

فيما يلي وصف الأبواب التي كانت موجودة في سور مدينة القدس، والتي ورد ذكرها في نص الكتابات المقدسة، وكان اسم أول الأبواب«باب داوود»، وهو الباب الأعلى للمدينة في الزاوية الغربية، وقد عرف بهذا الاسم لأن برج داوود مطل عليه، وقد عرف أيضاً باسم«باب السمك»، لأن من خلاله يمر الطريق من يافا واللد وساحل البحر، ومن خلاله أيضاً يأتي التجار، جالبين مختلف السلع من أثيوبيا ومصر، وهذا الباب قائم في السور القديم، وهو ملتصق في هذه الأيام بسور الجزء الذي بني من أجل الاحاطة بضريح الرب، ويقود الطريق من هذا الباب إلى ثلاثة اتجاهات: الأول عبر حقل القصار، والثاني وهو الذي كان موجوداً على جهة اليسار، ويقود إلى بيت لحم وحبرون، والثالث هو الذي ينزل نحو جهة اليمين من خلال وادي رفئيم، وذلك تحت قلعة بيت سورا، التي تبعد خمس غلوات عن القدس.

أما الباب الثاني فهو الذي كان اسمه الباب القديم، وكان إلى الشمال من الباب الأول في السور القديم، وهو موجود منذ أيام اليبوسيين، وهو أيضاً يعرف بباب القضاء، لأن محاكم العدالة كانت تعقد هناك، وكل ما كان يقرر بحكم من القضاة، كان هناك يجري تنفيذه.

أما الباب الثالث فهو باب إفرايم، في الجزء العلوي(من المدينة) باتجاه الشمال، ويمر من خلال هذا الباب طريق يقود إلى جبل إفرايم والسامرة، ومن هنا يأتي السور الذي كان قد بني من برج داوود صعوداً إلى هذا الباب من أجل الاحاطة بضريح الرب، وللالتقاء بالسور القديم، ويعرف هذا الباب الآن باسم باب القديس اسطفان، لأن

القديس اسطفان قد رجم خارجه.

وكان الباب الرابع هو باب الزاوية، وكان موجوداً عند الرأس في الطرف الشرقي، وذلك عند زاوية السور فوق وادي قدرون، ولهذا نحن نقرأ في سفر الملوك[الثاني:١٤/ ١٢، أخبار الأيام الثاني:٢٥/ ٢٣]، بأن يوشع ملك إسرائيل قد خرق سور القدس من باب إفرايم حتى باب الزاوية، وذلك لمسافة أربعمائة ذراع، وكان أيضاً يعرف باسم باب بنيامين، لأن هذا الباب يقود إلى عناتا وإلى المدن الأخرى التابعة لهذا السبط.

وكان الباب الخامس هو باب القاذورات، فمن خلال هذا الباب، تنساق جميع قاذورات المدينة في أثناء الأمطار، لتصب في وادي قدرون، ويقود الطريق من خلال هذا الباب إلى القفار القائمة فيما بين القدس وأريحا، وهي الفيافي التي تعرف الآن باسم فيافي القرنطل.

وكان الباب السادس هوباب الوادي، وكان يعرف باسم باب القطيع، لأن من خلاله كانت قطعان الأغنام تساق للتضحية بها في الهيكل، وعلى مقربة منه — وعليها كان يعتمد — كانت بركة الضأن، حيث كان يجري غسل الضحايا، ومجاور إلى هذا الباب كان يقوم برج حننئيل، وهو الذي عرف أيضاً باسم برج السحاب، كما ورد في النص قوله:«ها أيام تأتي، يقول الرب، وتبنى المدينة للرب من برج حننئيل إلى باب الزاوية»[إرميا:٣١/ ٣٨]، وهو الذي كان يعرف باسم باب بنيامين، وكان هيرود الكبير هو الذي أقام هذا البرج وسماه برج أنطونيا، وكان ذلك تشريفاً لأنطونيوس، ويقود الباب إلى جبل الزيتون، وبيت عنيا، والأردن.

وكان الباب السابع هو الباب الذهبي، ولايقود هذا الباب مباشرة إلى المدينة، بل إلى الهيكل من خلال تقاطع قصير من جبل الزيتون، فوق

قوس قائم في وسط شعفاط.

وكـان الباب الثـامن هو باب الماء، وقـد عـرف بهذا الاسم، لأن من خلاله كـان الماء ينقل من بركة سلوان، وكان هذا البـاب قائماً في الزاوية التي يلتقي فيهـا جبل صهيـون بجبل مـوريـا. أو جبل الحشيش، عند زاوية السـوريـن: أي سـور جبل صهيـون، والسـور الذي يحيط ببيت الملك، ويقـود(هذا البـاب) إلى نبع سلوان، ووادي أبنـاء عنون، ونبع روجل، وحقل الدم.

ولاأعتقـد أن المدينة تمتلك أبواباً أخرى أكثـر من هذه الأبواب، لأنه بسبب وضعهـا، لم تتـوفـر حـاجـة إلى المزيـد من الأبواب، وبين هذه الأبواب ثلاثة هي الأكثر شهرة من البقيـة، وهي: الباب الأول، والباب الثالث، والباب الرابع بين الأبواب الثمانية التي تقدم ذكرها أعلاه، ومن جهـة الجنوب وجهـة الشمال تطل حـافـة جبل صهيـون فـوق المدينة، ومعروف أن ذلك الجزء من الأسوار، مع الأبراج ليس فيه أبواب.

ها هي مـدينة الملك العظيم، التـي لم تستطع جميع كنائس العـالم أن تقدم شبيهـاً لها، وهي التي كان فيما مضى قائماً من حـول أسوارها ثلاثة وثمانون برجـاً، وسبـع قـلاع حماية، التي خـرائبهـا من الممكن رؤيتهـا بوضوح كامل في هذه الأيام في الجانب الشمالي ، وفيمايلي:

ترتيب نظام الحج خلال مدينة القدس والأماكن الأخرى التي من حولها

يوجـد في الساحة، خـارج كنيسة الضريح المقـدس، أربع بيع، الأولى بينها مـوجودة على جهـة اليسار، للخارج، وهي بيعـة العذراء المبـاركة، ويوحنا الانجيلي، لأنه ها هنا وقفـا في أثناء الصلب، والبيعة الثـانية هي الأقـرب إلى هذه الأولى،وقـد بنيت في الزاويـة، وهي مكرسـة لجميع الملائكة، والبيعـة الثالثـة قائمـة على الطرف نفسـه، وهي بيعة القـديس

يوحنا المعمدان، والبيعة الرابعة قائمة على جهة طرف اليمين للخارج من الكنيسة، وذلك على مقربة من برج الناقوس، وهي بيعة القديسة مريم المجدلية، والبيعة الأولى هي بأيدي الهنود، أما الثانية فهي بأيدي اليعاقبة، والثالثة بأيدي الجورجيين، والرابعة بأيدي الاغريق.

وفي منتصف الطريق بين هذه البيع الأربع هناك إحدى عشرة خطوة تبعد عن الدرج إلى الجمجمة، وهناك يوجد مكان عليه علامة فوق البلاط، هو حيث استراح الرب يسوع، عندما جلب من بيت بيلايطس، وقد استراح فيه ومعه صليبه، بينما وقف الحرس من حوله.

وعلى مقربة من الساحة المفتوحة أمام الكنيسة يوجد السجن لمقترفي الشرور، وبابه متجه نحو باب الكنيسة، وذلك على بعد عشرين خطوة، ويذهب الانسان من هناك باتجاه الشرق من خلال شوارع المدينة إلى قاعة محكمة بيلايطس، وينبغي أن نعرف أن المسافة من موضع الجمجمة، إلى قاعة القضاء المتقدمة الذكر هي أربعمائة وخمسين خطوة، ذلك أنني قستها بنفسي بكل عناية ممكنه، لأن المسافة هي مائتين وخمس وسبعين خطوة إلى بيت الرجل الغني الذي رفض أن يعطي الفتات إلى العازر عندما كان مريضاً، ومن هناك إلى اليسار خمس وسبعين خطوة إضافية حيث المكان الذي تلتقي فيه الطرقات الثلاثة مع بعضها،ليس بعيداً عن الباب الذي يقود إلى السامرة، وكفرناحوم، وجمالا، وفي هذا المكان نفسه أرغم سمعان القيرواني على حمل صليب المسيح، وفي هذا المكان نفسه قال الرب للنساء النائحات:«لاتبكين يا بنات القدس عليّ»الخ، وبعد أربعين خطوة أخرى نحو اليمين، وعلى مقربة من الطريق، يوجد المكان الذي وقفت فيه العذراء مريم، وهي راغبة برؤية ولدها المحبوب، الذي جلب مع حشد عظيم من بيت بيلايطس، وهو مثقل كثيراً بحمل الصليب، وكان ذاهباً للصلب عندما رأته يبصق وهو مغطى بالدم، وقد نسيت جميع مواساتها المتقدمة، وفقدت وعيها وذهبت

في غيبوبة، وسقطت شبه ميتة، وظلت مرمية حتى تمّ رفعها وحملها بعيداً من قبل النساء الأخريات، ويوجد في هذا المكان نفسه كنيسة بنيت على شرفها، وقد جرى تدميرها من قبل الخونة المسلمين، ومن الممكن رؤية خرائبها في هذه الأيام، وكان اسمها القديسة مريم المغمى عليها.

وعلى بعد ست وخمسين خطوة أخرى، يرى الانسان القوس المقنطر الذي يعبر الطريق، فهنا يوجد مكان البلاط، الذي اسمه جباتا، وفوقه من الممكن رؤية صخرتين بيضاويتين، عليهما وقف الرب يسوع في محكمة بيلايطس، عندما أجاب على أسئلة ذلك القاضي، وهناك يوجد المكان الذي رفع عليه علم الجنود، وتحت القنطرة المتقدمة الذكر من الممكن رؤية مكان مدرسة العذراء المباركة، حيث تعلمت أثناء طفولتها الكتابة، وعلى بعد خمس وعشرين خطوة عن هذه القنطرة توجد قاعة المحاكمة، وهناك يوجد الباب الذي دخل منه، كما يوجد باب آخر خرج منه بعد صدور الحكم عليه، وهذان البابان كلاهما مغلقان، ومبنيان بالحجارة، وماتزال الأساسات القديمة موجودة، وهذا البيت مزين بالفسيفساء،ومنحوت على شكل حلقات الاسطرلاب، وهو نحت لايمكن رؤيته تماماً، وعلى بعد قليل خلف قاعة القضاء يوجد بيت بيلايطس، هذا ويقوم الآن أمام قاعة القضاء هناك بيت، هو في هذه الأيام بيت المحكمة لقاضي المدينة.

وعلى بعد ثلاث وثمانين خطوة إضافية على طول الشارع نفسه، وإلى الشرق من قاعة القضاء المتقدمة الذكر،وعلى جهة يدك اليمنى، يوجد الباب الأول الذي يقود إلى شارع هيكل سليمان، ويوجد ثلاثة من هذه الأبواب في هذا الشارع، موجودة على جهة الشمال، والباب الجميل هو الأقرب إلى الهيكل، وذلك نحو الغرب منه، وعلى مقربة من مشفى الدمشقيين، وليس بعيداً باتجاه جنوب هيكل سليمان[قبة الصخرة]، وفي

داخل الاطار نفسه من الأسوار، يوجد هيكل الرب(الأقصى) الذي كان فيه يجري تقديم أول الأولاد الذكور ولادة، وهناك جرى تقديم يسوع أيضاً، وقد حمله سمعان بين ذراعيه، وله سقف رصاصي، وسدة وفق طرائق المسلمين، متجهة نحو الجنوب، وعشرين نافذة على كل جانب، وهوقائم في الزاوية القصوى للمدينة باتجاه وادي سلوان، ثم ينزل الانسان من شارع قاعة القضاء، ويسير مسافة جيدة إلى اليسار، وهناك ربما يمكن رؤية بيت سمعان الفريسي، فهناك جرى إعفاء المجدلية من ذنوبها.

ثم إذا ما استدار الانسان نحو الخلف ثانية في شارع القضاء، يجد بيت يواكيم، وذلك حيث ولدت العذراء مريم، ويوجد في هذا المكان كنيسة، هي الآن في أيدي المسلمين، وهي تبعد مسافة ثمان وستين خطوة من أول باب من أبواب هيكل سليمان، زيادة على هذا إنه على بعد أربعين خطوة طويلة بشكل مستقيم من بيت يواكيم، يوجد باب القطعان أو الوادي، وفي هذا الطريق توجد بركة الضأن، وهي قائمة على جهة اليمين نحو هيكل سليمان.

والمسافة من هذا الباب نفسه إلى القوس المقنطر فوق قدرون مائة وثلاث وستين خطوة طويلة، وعبر قدرون، كان ممدد فيما مضى شجرة، وهي الشجرة التي تألم المسيح عليها، وقد عرضت هذه الشجرة على ملكة سبأ، التي كانت ملكة الجنوب، وهي التي جاءت من أقصى أجزاء الأرض لتسمع حكمة سليمان(متى:١٢/ ٤٢)، وحول هذا الموضوع يقرأ الانسان في سفر الملوك[الأول:١٠/ ١ — ٢]:«وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل. فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة»، وتحت صورة هذه الملكة يوجد نموذجاً رائداً للكنيسة، جاء من عند الأمم.

وأخيراً هناك، عبر البركة، على جهة اليسار، ونزولاً ثمان وعشرين خطوة تحت وادي شعفاط، ونزولاً أيضاً ثمان وأربعين درجة، توجد كنيسة جميلة، فيها ضريح مريم العذراء المجيدة، بطول ذراعين ممدودين وثلاثة من الأصابع الوسطى متصلة، وفيها ثمانية مصابيح مشتعلة باستمرار، والمذبح الأول، القائم إلى جانب الضريح، هو بأيدي الأرمن، والثاني، الموجود تحت القنطرة المظلمة، هو بأيدي الجورجيين، والثالث، الموجود تحت نافذة في النهاية الشرقية، هو بأيدي الاغريق، والرابع موجود في جهة الشمال، وهو بأيدي الرهبان الفرنسيسكان، والخامس موجود على جهة اليسار للدرجة الأولى للسلم، وهو بأيدي اليعاقبة، وينبغي أن نعرف أنه في الجهة نفسها للسلم، هناك مذبح هو بأيدي الهنود، وترقد في هذا المكان نفسه الملكة ميليساند، وهي التي أمرت ببناء هذه الكنيسة.

وعلى بعد أربع عشرة خطوة باتجاه الشرق من الباب، يوجد المدخل إلى الكهف الموجود تحت الصخور عند سفح جبل الزيتون، فهناك تعرق الرب يسوع، وهو يتألم، نقاطاً من دم، وكان ذلك لدى صلاته ثلاث مرات،وعلى مقربة من الصخرة الكبيرة، على طرف الجبل، وعلى رمية حجر قوية نحو الجنوب من مكان الأسى هذا، جلس الحواريون الثلاثة الذين وجدهم نائمين، وعلى مقربة من هذا المكان، وعلى بعد ثمان خطوات، توجد الحديقة التي اسمها حديقة الورود، وهي متجهة نحوالبركة، وقائمة أمام الباب الذهبي تماماً، ففي هذه الحديقة جرى اعتقال المسيح، وهناك ضرب بطرس خادم الأمير، لأنه غالباً ما التقى بحوارييه هناك، فضلاً عن هذا لقد قيل بأن هذا هو الباب الذي عنه قال حزقيال:«هذا هو باب المقدس الخارجي المتجه للشرق، وهو مغلق، فهو قد دخل من خلاله، ولايدخل منه إنسان لأن الرب دخل منه»[حزقيال:٤٤/ ١ — ٢].

وتوجـد جيسماني، حيث أقـام الحواريـون الثمانيـة الآخـرون، وهي منخفضـة نزولاً نحو الجنوب وعلى بعـد رمية سهم عن الحديقـة، وعلى بعـد خمس وأربعين خطوة صعـوداً من الحديقـة هناك عـلامة الموضع الذي صعـدت منه العذراء المبـاركة إلى السماء، تاركـة حزامها للقـديس توما الذي لم يكن مع رفـاقه الحواريين، عندما جرى حمل جسـد العذراء المجيدة إلى السماء.

ونصعـد الآن إلى جبل الزيتـون بوسـاطة طريق وعـر يقـود إلى باب القطيع، فـوق الوادي وعبره، فهناك المكان الذي بكى المسيح فيه عندما رأى مـدينة القدس، وذلك حسبما نقـرأ في حكاية الانجيل، ويبعـد هذا المكان نفسه مائتي خطوة وعشر خطوات عن المكان المتقدم الذكر، وهذا الطريق هو الذي سار الرب عليه راكباً في يوم أحد السعف، وهو الذي يفصل جبل الزيتون عن جبل الجليل، ويسير الانسان من مكان النحيب مـائـة خطوة وخمس وتسعين خطـوة زيادة إلى المكان الذي جلب إليـه الملاك جبرائيل سعفـة النخيل إلى العـذراء المجيـدة، وأخبرها سلفـاً بمغادرتها لهذا العالم.

ومن هناك يترك الانسـان الطريق، ويمضي صعـوداً مـائـة خطوة وعشرين خطوة إلى اليسـار صعـوداً لجبل الجليـل، حيث فـوق ذلك الموضع ظهـر المسيح للمـرة الخامسـة والأخيرة لحوارييـه، وذلك حسبما وعد، ويـوجد هناك موضـع بني فوقه بشكـل جيد، حيث توفـر غفران وتوبة، وقد أعطى هذا الآن إلى المدينـة المقدسة، حيث يوجـد هناك بيعة مستـديرة، مساحتهـا من المحيط الخارجي ست عشر خطوة، وفي داخل هذه البيعة يمكن للانسان رؤية عـلامة قدم المسيح اليسرى، التي طبعها على الصخرة عندما صعد إلى السماء، ومساحتها بالطول شبر، واصبعتين ملتصقتين من الاصبع الـوسطى، ويقـدم المسلمـون في هذه الكنيسـة صلوات تقـوية، ولديهم صخرة مماثلة، فضـلاً عن هذا لقـد كتبوا فـوق

باب البيعـة نفسها بخط أحمر وبأبجـديتهـم:«أنا باب الرحمة»، وعلى بعـد خطوة واحـدة مـن تلك البيعـة، وعلى مقـربـة من باب مغلق في الجدار الشرقي هناك ترقـد صخـرة لايمكن تحريكهـا، عليهـا جلس المسيح في صعـوده، ووعظ حوارييـه، وعلمهم مـايتعلق بالأشكال السبعـة للروح القدس.

وكـذلك من الجانب الجنوبي لهذه الكنيسة، وفي الخارج يوجـد طريق نازل طوله ثماني عشرة خطـوة إلى بيعـة، فيهـا تابت القـديسـة بلجيـا واعتكفت، وفيهـا ترقد مـدفـونة، مع صخـرة عظيمة مـوضـوعة فـوق ضريحها المرتفع.

فضـلاً عن هذا، على بعـد خمسـة أثمان الميل عن جبل الزيتـون، باتجاه الأردن، أو باتجاه الشرق، من الممكن رؤية مكان منعـزل، قـرب الوادي الذي اسمـــه بيت فـاجي(بيـت الفك)، فمن هذا المكـان بعث المسيح جيمس ويوحنـا ليجلبـا له أتانـا وفلوها، وهذا المكان مـــوجــود على منتصف الطريق من جبل الزيتون إلى بيت عنيا، وإذا ما استدار الانسان نحو الخلف إلى جبل الزيتـون، فإنه يسير على طول الطريق الذي يفصل ذلك الجبل عن جبـل العـدوان، القـائم على جهـة اليســار نحـو وادي جيحون، ففوق هذا الجبل نصب سليمان صنم مولوك وتعبده.

وعلى بعـد عشرين خطوة من بيْعـة القديسـة بلجيـا المتقدمـة الذكـر، يوجـد المكان الذي وضع فيــه الحواريون معـاً واحـداً تلو الآخـر بنود العقيـدة الاثني عشر، وفي هذا المكان مـن الممكن رؤية خـرائب كنيسـة القديس مـرقص، وعلى بعد عشر خطوات أكثـر نحو المدينة، هناك ممدد فوق الأرض صخرة كبيرة، عليها وعظ المسيـح حوارييه وعلمهم حـول السعادات القصوى الثمانية، وأيضاً على بعد اثنتين وعشرين خطوة نزولاً يوجد المكان المحدد، الذي علم عليه الرب يسـوع حوارييه الصلاة، كما نقـرأ في متى:٦، وانتبـه إلى الحجر المحفـور عليـه بأحـرف عبرية، الذي

وضعه المسلمون على عتبة الباب، وإذا ما نزل الانسان اثنتي عشرة خطوة أخرى، يأتي إلى المكان الذي غالباً ما أراحت مريم العذراء المباركة نفسها فوقه، عندما كانت تشعر بالتعب أثناء زياراتها التعبدية اليومية.

وينزل الانسان بعد هذا إلى اليسار، نحو وادي سلوان، فيرى الكنيسة الصغيرة العائدة للصليب المقدس، التي فيها ثلاثة مذابح، وعلى مقربة منها، وعلى بعد ست عشرة خطوة باتجاه الجنوب، يوجد مقر سكنى يهوذا الاسخريوطي، والمكان الذي شنق نفسه فيه، وتحت الصخور قرب المدينة، وعل بعد رمية سهم عن الكنيسة الصغيرة المتقدمة الذكر، يوجد ضريح زكريا، الذي قتل فيما بين الهيكل والمذبح، وملاصق لذلك المكان توجد بيعة يوجد فيها كوة في الجدار لها شكل تنور، فيها أخفى جيمس الأصغر نفسه لخوفه أثناء آلام المسيح وموته، وقد ظل فيها حتى ظهر الرب له.

ومن هذه البيعة هناك طريق إلى نوع من المساكن منحوت في الصخرة التي فوقه، حيث قيل هنا كان بيت الحواريين المباركين:فيليب وجيمس، وعلى بعد خطوتين إضافيتين، فوق في مواجهة زاوية سور المدينة، من الممكن أن نرى بناء مدهشاً حقاً، بدون باب، على شكل بيعة مربعة، وقد قال بعضهم عن هذا البناء بأنه قبر الملك شعفاط، الذي منه نال الوادي اسمه، وأعلن بعضهم الآخر بأنه ضريح ابنة فرعون التي أحبها سليمان بوله، وذكر بعضهم أيضاً بأنه قبر أبسالوم بن داوود.

واعرف أنه من القنطرة الثانية للجسور القائمة فوق وادي قدرون عند هذا المكان، يوجد ستمائة خطوة طويلة وخمس عشر خطوة طويلة، إلى الدرجة الأولى للسلم الذي يقود صعوداً إلى الكنيسة على جبل الزيتون، وعدد درجات هذا السلم عشرين درجة، وقد أضفت هذا حتى يمكنني إظهار الجبل المتقدم الذكر، وفي هذا المكان نفسه تحت

الصخور عند سفح جبل الزيتون يسكن هناك فلاحون ورعاة.

ثم ينزل الانسان بعد هذا إلى قعر مجرى الماء المتجه جنوباً إلى البئر الذي يقال بأن مريم العذراء المباركة قد استحمت بمياهه وغسلت قطع قماش القماط العائدة للرب الرضيع، ويفصل هذا النبع وادي شعفاط عن وادي سلوان، فعلى بعد مائتين وخمس وخمسين خطوة إلى الجنوب من هذا النبع، وعند سفح جبل صهيون، يوجد نبع سلوان، الذي منه تتجمع المياه في البركة السفلى، التي تعرف باسم بركة سلوان للاغتسال، التي عندها جرى شفاء الرجل الذي ولد أعمى، وذلك حسب رواية يوحنا، وعلى بعد رميتي حجر من هذا الجبل نفسه، يمكن للانسان أن يرى كومة من الحجارة، ففي ذلك المكان جرى دفن إشعيا، وهناك أيضاً جرى قتله.

ثم يصعد الانسان إلى جبل مرتفع باتجاه الجنوب، حيث يوجد على جانبه كثيراً من الكهوف والأقبية، فيها أخفى الحواريون أنفسهم في أيام آلام المسيح، وهي التي اعتاد فيها بعد أن يسكن فيها النساك المسيحيون، وعلى بعد ثلاثين خطوة فوق هذه الكهوف يوجد الحقل الذي اسمه أكلداماك(حقل الدم)، الذي شري مقابل الثلاثين قطعة فضية، وله تسع فتحات من خلالها يجري رمي جثث الموتى.

ويوجد فيما بين بركة سلوان وحقل الدم، جدول قدرون الذي يستجر مياهه من الأجزاء العليا للمدينة ومن الجبال، وفي الحقيقة هناك قرب رامـا وعناتا طريق طويل من ضريح العذراء المباركة، يمكن للانسان أن يسمع نواحها تحت الأرض، ويمضي الانسان نزولاً تحت جبل العدوان إلى وادي جيحون أو توفت، حيث يوجد فيه صخرة زوحل، وبئر روجل، وذلك حيث ضحى أدوناي بقرابينه، ويوجد في هذا المكان حقول خصبة، لأن هذه المياه تمر خلالهم، وعندما يكون الانسان قد رأى هذه الأشياء كلها، لابد من عودته نحو المدينة عبر

الطريق نفسه الذي جئنا عليه، وذلك حتى بيعة القديس جيمس الأصغر، التي هي إلى جانب القوس المقنطر فوق قدرون، الذي أتينا على ذكره من قبل، عندما كنا قادمين نزولاً من جبل الزيتون.

والآن يوجد من هذا القوس إلى بيت كيفاس، الموجود على قمة جبل صهيون، سبعمائة وثلاثين خطوة، وفي الصعود إلى أعلى، يمكن للانسان أن يأتي أولاً إلى مكان من الممكن أن يشاهد فيه باب مغلق، منه مرت العذراء المباركة عندما قدمت يسوعاً في الهيكل، ولدى الذهاب صعوداً من هناك، باتجاه الغرب، يصل الانسان إلى المكان الذي اسمه«صياح الديك»، حيث بكى بطرس، وهو يبعد مائة وسبع وثمانين خطوة من بيت كيفاس، ويمضي الانسان صعوداً من المكان المتقدم الذكر، ويسير ثمانين خطوة باتجاه الغرب، وعلى مقربة من باب شارع اليهود، وهو الباب الذي يتطلع إلى خارج المدينة باتجاه الغرب، هناك مكان معلوم، عنده احتشد اليهود وتآمروا ليقوموا بخرق حرمة جسد العذراء المجيدة، عندما كانت محمولة من قبل الحواريين من أجل الدفن.

ويوجد على بعد ست وسبعين خطوة من الباب المتقدم الذكر شارع كنيس اليهود، وهو يمتد لمسافة مائتين وسبع وثلاثين خطوة، أي حتى المدخل إلى الشوارع المسقوفة، ومن هذا المدخل هناك ثلاث وتسعين خطوة حتى برج داوود، ومع أنه كان فيما مضى حي اليهود فإن أعداد كبيرة من المسلمين هي التي تسكن هناك، وفي الشارع التالي لهذا الشارع، يوجد البيت الذي ربط فيه القديس بطرس بالسلاسل، ومكان سجنه هو الآن فرن خباز، وفي هذا الشارع نفسه هناك باب صغير متجه نحو الجنوب، اسمه بلغتهم خرم الابرة، وبناء عليه قال الرب:«إنه أسهل للجمل أن يدخل من خرم الإبرة»الخ، ومن المكان المتقدم الذكر الذي جرت فيه محاولة السرقة العنيفة(لجسد العذراء) إلى المكان الذي توفيت فيه مائة وثلاثين خطوة، حيث توليت تعدادها بقدر ما استطعت

من دقة، وعلى كل حال، أول ما يراه الانسان هو بيت عناس، الذي كان الكاهن الأعلى، حيث توجد كنيسة جميلة بها فيه الكفاية هي للأرمن، وهي مزينة بأضواء ومصابيح، وفيها أربعة أعمدة مستديرة، وعلى بعد رميتي حجر نحو الأعلى يوجد بيت كيفاس، وهو قائم على قمة الجبل، وكما تقدم الذكر، فيه الآن كنيسة صغيرة اسمها بيعة القديس المخلص، وهي جديرة بهذه التسمية، لأنه قد وضع فوق مذبح هذه البيعة الصخرة الكبيرة، التي كان فم ضريح المسيح مغطى بها، فضلاً عن هذا، يوجد خلف المذبح وفوقه، صورة تمثل تغيير الهيئة، وفي هذا المكان نفسه، على مقربة من المذبح، وعلى جهة اليد اليمنى، يوجد سجن المسيح، الذي حبس فيه حتى اجتمع اليهود، وتشاوروا، وأسمعوه الادعاء ضده، وهذه البيعة هي أيضاً بأيدي المسيحيين الأرمن.

ويوجد أيضاً على الجبل نفسه نحو شارع(؟) المكان الذي دفن فيه القديس اسطفان للمرة الثانية، وأيضاً على بعد اثنتين وعشرين خطوة إلى الجنوب خلف سدة(كنيسة جبل صهيون) مكان المطبخ، حيث جرى إعداد خروف العشاء الأخير للأكل، وحيث أيضاً جرى تسخين الماء من أجل غسل أقدام الحواريين، وأيضاً إلى المكان نفسه، الذي هو الآن بيت للسكن، أرسلت روح القدس وأنزلت على الحواريين، وهناك أيضاً جرى دفن داوود وسليمان وعدد كبير آخر من ملوك القدس، ويوجد أيضاً في أرض مقبرة هذه الكنيسة نفسها، مكان معلم، هو المكان الذي وعظ فيه الرب يسوع نفسه في يوم صعوده ووجه اللوم لحماقة حوارييه، وأرسلهم إلى جميع أنحاء العالم، غير أنه ذهب معهم أولاً إلى جبل الزيتون وبعدما منحهم مباركته صعد إلى السماء.

وعلى بعد اثني عشر قدماً من هذه الصخرة المكتوب عليها، هناك صخرة أخرى مثبته في الأرض، فوق المكان الذي جلست فيه العذراء

مـريم، وأصغت إلى مـوعظة ابنها، وأيضـاً على بعـد خمس خطوات من هناك يوجـد المكان الذي قـام فيه بيتهـا، الذي سكنت فيـه بعد صعـود ابنهـا، وأيضــاً على بعـد ثلاث عشرة خطوة عـن هناك، وفي هذا المكان الذي انتخب فيـه القـديس متى من قبل جميع الحواريين، وكـان ذلك في اليوم التالي للصعـود، وفي المكان نفسه جرى انتخـاب السبعة الشمامسة، الذين جـرى بحق تعيينهم لخدمـة الأرامل، وبين هؤلاء الشمامسـة كـان اسطفان هو الأول، وفي هذا المكان نفسه جرى انتخاب القديس جيمس الأصغر من قبل الحواريين ليكون أول أسقف للقـدس، وعلى بعد عشر خطوات أكثر هناك مكان التعبـد، وذلك حيث غادرت العـذراء المجيدة من هذا العالم، وعلى بعد ثمان خطوات أكثـر باتجاه بيت كيفاس، يوجد مكان فيه بيعة.

ومعنى اسم جبل صهيـون هو«برج المراقبـة»، ولاحظ أن البتراء التي هي في الصحـراء، أي في العـربيـة، يمكن مـراقبتهـا ورؤيتهـا من ذلك الجبل، فقـد رأيت من هناك نهر الأردن يـدخل إلى البحــر الميت، لكن ذلك كان في الصبـاح الباكر، لأنه عندما تصعـد الشمس إلى قبة السماء، يبـات من غير الممكن رؤية مجراه، والآن في كنيسة جبل صهيـون، حيث يقف النجم العـالي، في هذا المكان بـالذات تعشى المسيح مع حـوارييـه، وأعطاهم جسده ودمـه، ولهذا السبب أطلق عليها من قبل المسيح، اسم قاعـة العشاء الكبير، وأيضاً هناك مـذبح آخر قـائم في الزاوية على جهة اليمين، في المكان الذي غسل فيه أقدام حـوارييه في الليلة نفسها، وأيضاً يوجد خلف المذبح العالي، في الجهة الخارجية فوق، المكان الذي أرسلت إليـه الروح القـدس،المطمئنة، وكـان ذلـك في يوم عيـد الحصـاد، وذلك حسبما تقـدم الوعد للحـواريين، ومباشرة تحت هذا البناء، في قبـو طوله سبع خطوات، وله نافـذتين صغيرتين في الجهة الشرقيـة، مدفـون داوود وابنه سليمان، ومثل هذا هناك في الطابق السفلي للدير، بيعـة قائمـة فوق

المكان الذي أدخل فيه القديس توما يده في جنب المسيح، وكان ذلك بهدف تقوية إيمانه وتمتينه.

واقتيد حجنا من هذا المكان باتجاه برج داوود، الذي يبعد ثلاثمائة وثمانين خطوة عن قبره، إنما ونحن على طريقنا وصلنا أولاً إلى كنيسة الأرمن، وهذه الكنيسة مستديرة، ولها أسوار قوية، وأقبية على درجة عالية من الحصانة، ولها أربعة أعمدة مربعة في الوسط، وليس فيها نوافذ، سوى نافذة واحدة مزججة في الذروة، غير أن فيها ثلاثمائة مصباح أو أكثر، وفي الحقيقة كان في أيامي مائة وعشرين مصباحاً مشتعلة بالعادة، وموجودة في شمعدان واحد، وأنا لم أشاهد قط ولم أسمع بمثل هذه التقوى العظيمة بين الناس.

ويوجد على جهة اليسار من المدخل المكان الذي جرى إعدام القديس جيمس الأكبر فيه، فهذا المكان من الممكن رؤيته، وهو يبعد مائتين واثنتين وعشرين خطوة عن المكان الذي أقام فيه أخوه يوحنا قداساً، وأيضاً في حدود رمية حجر عن البرج المتقدم الذكر، يوجد المكان الذي قابلت فيه مريم المجدلية، العذراء، وأعطتها بشائر بأن ابنها حي، وقد قام من الموت، وهنا أيضاً ظهر المسيح إلى المريمات الثلاث قائلاً: «التحية لكن جميعاً».

ويوجد في شارع أسقف القدس، بيت القديس زكريا، الذي هو بأيدي الجورجيين، وفي الداخل هناك بيعة جميلة مكرسة للقديس يوحنا المعمدان، وقبل المدخل إلى البيت هناك قبو من الحجر القاتم، وهو بناء قديم جداً في منتصف الطريق، على طول الشارع القائم فيما بين الضريح المقدس وبين برج داوود، ثم يلي ذلك البيت الذي جرى فيه إكرام الملوك الثلاثة، وانتبه إلى الباب، فهو الذي لم تستطع القديسة مريم المصرية الدخول منه، عندما كانت مثقلة بحمل ذنوبها، وهو الباب الذي من الممكن رؤيته في الشارع الذي يقود إلى عمواس، وفيما يلي:

الحج من مدينة القدس نحو الشرق إلى بيت عنيا

أما وقد فرغنا من رؤية الأماكن القريبة، علينا الآن أن نعبر إلى الأماكن التي هي أبعد، فبذلك سوف تتضاعف مشاعرنا التقوية، وأول شيء يعبر الانسان إليه هو إلى بيت عنيا، التي تبعد عن القدس مسافة نصف ميل ألماني — أي حوالي الخمسة عشر فرلنغ(يوحنا:١١/١٨) — حيث من الممكن أن يشاهد تحت القلعة ضريح ألعازر، الذي أقيم من الموت من قبل المسيح، وقد كان هنا فيما مضى كنيسة كبيرة، من الممكن رؤية أعمدتها قائمة حتى هذا اليوم، وتحت قبو مظلم، على بعد عشر خطوات عن ذلك الضريح، يوجد المذبح، فهنا في هذا المكان وقف المسيح عندما دعاه للخروج من القبر، وأيضاً في الخارج، قرب هذا المكان، لكن أعلى، يوجد بيت سمعان المجذوم، الذي فيه صهريجين، فهناك صبت المجدلية الدهن العطري على رأس المسيح، وهو جالس لتناول الطعام، وهو الأمر الذي أغضب يهوذا، وقبل ستة أيام من عيد الفصح تعشى يسوع في بيت عنيا، حيث تولت مرثا خدمته، في حين كانت أمها واحدة من الذين جلسوا إلى المائدة، ولهذا جاء حشد كبير من الرعاع اليهود إلى هناك، راغبين بقتل العازر أيضاً[يوحنا:١٢/٩ — ١٠].

وعلى ست رميات سهم من بيت عنيا، من الممكن أن يشاهد في حقل هناك صخرة عظيمة، عليها كان الرب جالساً عندما قابلته مرثا وقالت له:«ياسيد لو كنت هنا»الخ، وعلى بعد رمية حجر من تلك الصخرة، وعلى رمية سهم من هناك، على جهة اليمين، عند انحدار الهضبة، وباتجاه نحو الجنوب،كان هناك بيت المجدلية، الذي تقوم فوق موقعه كنيسة مهدمة، تحولت الآن إلى حظيرة للماعز، وغالباً ما جرت استضافة الرب يسوع وإطعامه في هذين البيتين، ويوجد على الطرفين واد منحدر، وهو على الجهة اليسرى أكثر الجانبين عمقاً، وفيه يوجد الطريق الذي

عبره الرب، عندما قدم من أريحا صاعداً في طريقه إلى القدس، ويأتي فيمايلي:

الحج من القدس إلى بيت لحم

أول ما يراه الانسان هو بيت سمعان، قرب القدس، على جهة اليمين، بين الكروم، فيما وراء الطريق إلى عين كارم، ويوجد إلى اليسار، على رابية قرب جبل صهيون، بناء على شكل قلعة، يعرف باسم بيت الاجتماع الشيطاني، فإلى هذا الاجتماع ذهب يهوذا ليقترف خيانته، وليصنع اتفاقاً من أجل تسليم المسيح، وكان يوجد في هذا المكان كنيسة جميلة مكرسة للقديس سبيريان، وبعد مسافة لابأس بها خلف هذا المكان، يصل الانسان إلى بئر، ففي هذا المكان أشع النجم الضائع مرة ثانية على الملوك الثلاثة، وعلى شرفه قامت فيما مضى هناك كنيسة جميلة، مايزال بلاطها موجوداً ويمكن الوصول إليه، وبعيداً عن الطريق، وفوق رابية موجودة على جهة اليمين، توجد كنيسة القديس جرجس، وبعد هذا يوجد على جهة اليسار، وليس بعيداً عن الطريق، بناء طويل، وكنيسة جميلة، هي ملك للاغريق، ويوجد بئر قرب جدارها الجنوبي.

وولد في هذا البناء اليـاس، وسكن فيه أثناء حياته، وهو قائم في منتصف الطريق، على طول الطريق فيما بين المدينتين المتقدمتي الذكر، وذلك على بعد ميل ألماني واحد عن كل منهما، وفي أيام إلياس انغلقت السموات لمدة ثلاث سنوات وستة أشهر، وفيما بين القدس، وبيت لحم — أو إفراتا — يوجد جبل قابيل الذي عليه مسح قابيل وتوج، وفوقه بنيت كنيسة القديس سبيريان، كما تقدم الذكر، وبعد ذلك، على مقربة من الطريق هناك آثار برج عظيم، وذلك حيث تصارع يعقوب مع الملاك(التكوين:٣٢)، وبعد هذا، يوجد على جهة اليمين، على مقربة من الطريق الذي يقود إلى حبرون، قبر زوجته راحيل، وهو قد بني

مؤخراً من قبل المسلمين، وهو متجه نحو الجنوب، حيث هناك مقبرة، ويعرف هذا المكان باسم قبة راحيل، وليس بعيداً عن ها هنا يأتي الانسان إلى الحقل الذي تحول بذار الفول أو البيقية فيه إلى حجارة بإرادة من الرب، وهذه الحجارة بحجم وتعداد الفول.

وكان في بيت لحم، على الجانب الغربي كنيسة القديسين كوزماس ودامين، ويوجد على جهة يمين الداخل إلى الكنيسة الكبرى على مقربة من السدة، مذبح هو بمثابة علامة على المكان الذي قتل فيه عدد كبير من الأبرياء، وفي هذا المكان نفسه جرى ختن الرب يسوع، وقرب بئر موجود على الجانب الأيسر هناك، يوجد مذبح، وهو حيث المكان الذي أعد فيه الحكماء أنفسهم بشكل رائع،من أجل تقديم الهدايا إلى الملك الحديث الولادة، ويقال بأن النجم اختفى في ذلك البئر.

ثم ينزل الانسان ست عشرة درجة إلى بيعة تحت السدة، فهناك المكان الذي ولد فيه مخلص العالم، ويوجد في هذا المكان نفسه، على يسار الداخل، هناك مذبح، وعلى بعد سبعة أقدام وثلاث خطوات من هذا المذبح، تحت الصخرة، يوجد المكان الذي مدد فيه الطفل الوليد في المعلف، وقد عبد هناك من قبل الرعيان، واعرف بأن طول هذه الكنيسة هي ست وثلاثين خطوة في الداخل، وعرضها ثمان عشر خطوة، وفيها أربعة صفوف من الأعمدة الرخامية، وفي كل واحد من هذه الصفوف اثني عشر عموداً، بين الواحد والآخر سبعة أقدام، وهي ممتدة حتى السدة، وهي مزدحمة بكل نوع من أنواع الزينة على كل من البلاط والجدران، وهي مغطاة بسقف رصاصي، وفيها نسب المسيح مطبوع بالفسيفساء في الأعلى، على الجانب الأيمن للداخل إليها، وبابها المزدوج هو من خشب السرو، وهو محفور بمختلف الأشكال، وكانت أطراف جدرانها مغطاة بألواح الرخام، وقد انتزعت وأخذت من قبل المسلمين الخونة،وحدث في هذه الكنيسة معجزة جديرة بالتسجيل، حيث قيل بأن

واحـداً من السـلاطين، عندمـا رأى كسـوتها الـرائعـة، فكر بانتـزاعهـا وأخذها، ليكسو بها أو يزين قصره في القـاهرة، وهكذا عندما حل اليوم الذي حـدده مع الحجـارين والنحـاتين، قـاصـداً إلى نزع تلك الحجـارة الجميلة، ظهـر فجأة ثعبـان له حجم مخيف، وخـرج يزحف من خـلال الألواح الحجـرية، وعبر من خـلال وسط هذه الألـواح، ومن الممكن رؤية آثار زحفـه على الجدار حتى هذا اليوم، فهـذا ما رأيتـه بنفسي، فقد وصل ذلك حتى مـذبح الملوك الثـلاثة الموجـود قـرب الجدار المتقـدم الذكـر، وعندما رأى السلطان هذا، امتـلأ رعباً، وغادر ذاهبـاً في سبيله، ومن الصحن الداخلي لهذا الدير في الجهـة الشمالية، ينزل الانسـان تسع عشرة درجة، إلى البيعـة التي اسمها مقر دراسـة القديس جيروم، حيث عمل لمدة خمس وخمسين سنة وستـة أشهر في ترجمة النصـوص المقدسـة، وفي ذلك الجوار، على بعد ثلاث خطـوات، وفي خلال الجدار، في داخل زاوية مظلمـة قـرب المذبح، تحت المعلف، يوجـد القبر الـذي دفن فيـه أولاً، لكن عندما انتقلت البلاد إلى أيدي الخونة، ولم تعـد القدس تعرف من يدافع عنهـا، نقلت عظامـه المقـدسـة وعظام عـدد كبير آخـر من القـديسين إلى رومـا، فضـلاً عن هذا يوجـد على جهـة اليسـار كهـوف متجـاورة تحت صخـور مطلة، فيهـا جـرى رمي عـدد كبير من أجسـاد الأبرياء، وأخفيت فيها.

وطول الطريق من القـدس إلى بيت لحم هو فرسخين، أي مـا يعادل ميـلاً ألمانيـاً واحداً، وعلى طول هذا الطريـق حدثت أحـداث إعجـازية كثيرة، من ذلك: أن إبراهيم وزوجته عبرا معـاً هذا الطريق عندما قـدما من بلاد الكلدان، ومشى لوط وزوجته على هذا الطريق عندما قدما من بلدان مـا وراء الجبال، وغالبـاً ما عبر عليـه البطريرك يعقـوب وزوجته راحيل، وذهبت مريم العـذراء المباركة عنـدما كانت حـاملاً، إلى هناك، وعادت عبر هذا الطريق، وعليـه استراحت عندما كانت متعبـة، وأيضاً

سار الملوك الثلاثة على هذا الطريق نفسه، عندما استهدفوا الوصول إلى الطفل يسوع، وكذلك فعل اليشع وإيليا وعدد كبير آخر من الأنبياء عندما ذهبوا إلى المدينة المقدسة، فهم جميعاً ساروا عبر هذا الطريق، وكذلك فإن العذراء المباركة في رحلتها إلى مصر ثم عودتها من هناك، قد سارت على هذا الطريق مع يوسف.

وعلى رمية حجر من بيت لحم، وذلك باتجاه الشمال، كانت هناك كنيسة، فيها جرى دفن باولا ويوستوخيوم، واسم هذه الكنيسة، كنيسة القديس نيقولا، وأقامت هناك مريم مع الطفل ويوسف في أول ليلة من ليالي الهروب إلى مصر، وانتبه إلى الحليب الذي انصب هناك، ويحتاج الآن الطريق فيما بين بيت لحم والقدس إلى ثلاث ساعات لعبوره، وأيضاً على بعد ربع ميل من بيت لحم، نزولاً إلى الوادي الذي يقود إلى البحر الميت، كان هناك فيما مضى بناء جميلاً مع كنيسة، كان اسمها كنيسة الرعاة، لأنه إلى ذلك المكان جلب الملاك إلى الرعاة بشائر لها بهجة عظيمة، وطلب منهم الذهاب إلى بيت لحم، حيث نظر كل واحد منهم إلى ظهر الآخر، وقال كل واحد منهم للآخر بأن صوت الملاك كان مجرد وهم وضياع، وبدأوا يعودون إلى قطيعهم، ثم جاء الملاك إليهم مرة ثانية، وأرغمهم على إكمال الرحلة التي بدأوها، ويقوم في هذا المكان نفسه كنيسة فيها مذبح واحد، ويقول بعضهم بأن العذراء المباركة قد توقفت خارج الطريق الذي يقود إلى مصر، ولكن الرواية الأولى تتماشى أكثر مع الحقيقة، فضلاً عن هذا، يوجد على بعد فرسخين إلى الجنوب من بيت لحم، قبوراً لاثني عشر نبياً. ويلي هذا:

الحج من بيت لحم إلى وادي حبرون

يشاهد على الطريق من بيت لحم إلى وادي حبرون، المكان الذي رأى فيه إبراهيم الملائكة الثلاثة، وعبد واحداً منهم هو(الرب)، ويرى الانسان في الكنيسة في حبرون كثيراً من الفتحات المزدوجة في الصخر،

وتعـرف إحـدى هذه الفتحـات باسم الكهف المزدوج، فيـه جـرى دفن:آدم، وإبراهيم، واسحـق، ويعقـوب، وزوجـاتهم:حـواء، وسـارة، ورفقة، وليا، وليس بعيداً عن المدينة يوجد حقل دمشق، الذي منه خُلق آدم وحواء، ويلي هذا:

الحج من حبرون إلى القدس

يذهب الانسـان من حبرون إلى القـدس من خـلال المنطقـة التليـة لليهـودية، حيـث من الممكن له أن يرى بيت زكـريـا، الذي فيـه زارت العـذراء المباركـة إيزابل، ويوجـد في هذا المكان كنيستين بنيت إحـداهما فوق الأخرى، غير أن الكنيسة العليـا قد جرى تدميرها، ويرى الانسان في الكنيسـة التحتـا فجوة في الصخـر، وذلك على جهـة اليمين للداخل إليهـا، فهـذا هو المكان الذي أخفي فيـه الطفل يوحنا خـوفـاً من الملك هيرود عندما كان يقتل الأطفال، وعندمـا ينزل الانسان قليلاً من هناك، يشـاهد النبع الذي تفجر على مقـربة من الطريق على جهة اليـد اليمنى، فإلى جانب هناك جلست العـذراء مريم وأراحت نفسهـا، لكونها كانت متعبـة من رحلتهـا وكـان ذلك عندمـا ذهبت لزيارة قـريبتهـا، التي من المعتقـد أنها التقت بها في هذا المكان وقـالت:«من أين لي هذا أن تأتي أم ربيّ إليّ»[لوقـا:١/ ٤٣]، وهنا أيضـاً عملت أم الرب أغنيـة«تعظم نفسي الرب»[لوقا:١/ ٤٧]الخ.

وبعد هذا ينعطف الانسان خارجاً عن الطريق إلى جهة اليد اليسرى، إلى رابية، كان عليهـا فيما مضى كنيسة جميلة، هي الآن ملوثة بالفضلات ومليئة بروث البغال، ولايستطيع أحد من الحجـاج دخول هذه الكنيسة دون دفع للمال، فهـا هنا كـان يوحنا المعمدان ابن زكـريا قـد ولد، وهو الذي قـال:«تبـارك الله ربي»الخ، ومن هناك يذهب الانسـان إلى كنيسـة أخـرى جيدة التـزيين، هي ملك للجورجيين، واسمهـا كنيسة القـديس الصليب، لأن شجرة صليب المسيح، قـامت هناك ونمت، والحفرة التي

فيها قامت من الممكن مشاهدتها في هذه الأيام تحت المذبح، وبعد هذا، وعلى مقربة من الطريق الذي يقود إلى غزة، من الممكن رؤية الماء الذي جرى به تعميد الخصي فيليب(أعمال:٨).

تقسيمات الأرض المقدسة

قسمت البلاد التي عرفت باسم الأرض المقدسة كلها حصصاً بين أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وبالنسبة للجزء الذي عرف باسم مملكة يهوذا، كان هو أرض سبطي: يهوذا وبنيامين، أما بالنسبة للجزء الآخر فقد عرف باسم مملكة السامرة، التي كانت عاصمتها مدينة السامرة، التي تعرف أيضاً باسم سبسطية،وكانت عاصمة الأسباط الآخرين العشرة، وهو الجزء الذي عرف باسم اسرائيل، وهاتين المملكتين معا مع بلاد الفلسطينيين، قد عرفت باسم فلسطين، التي هي مجرد جزء من[الأرض المقدسة]، مثلما سكسوني واللورين جزئين من ألمانيا، ولومبارديا وتوسكانيا جزئين من إيطاليا، واعرف أن هناك ثلاث فلسطينيات، ففي فلسطين الأولى العاصمة هي القدس، وهي تشمل جميع المنطقة التلية حتى البحر الميت، وإلى قادش القفار، وفلسطين الثانية هي التي عاصمتها مدينة قيسارية القائمة على شاطىء البحر، وفيها جميع أراضي الفلسطينيين شروعاً من بترا انشيسا، وامتداداً حتى غزة، فهي الأرض المقدسة المتجهة نحو الجنوب، وفلسطين الثالثة هي التي عاصمتها بيسان، القائمة عند جبل جلبوع، وهذه هي المدينة التي عرفت من قبل باسم سقيثوبولس، وهي المكان الذي جرى فيه شنق أجساد جنود شاؤول.

والأصح أن تدعى فلسطين هذه باسم الجليل، ويوجد فيها مرج ابن عامر، الذي يبدأ عند نهر الأردن الأصغر، وهو الذي تمتد حدوده الجنوبية حتى جينين، وهي بلدة مهدمة، موجودة في المربع ٣٧، فوق رابية، وقد رسمتها على هذه الخريطة باللون الأخضر، وهي عائدة

للسـامـرة، وتبدأ السـامـرة عند جينين المتقـدمة الذكـر، وتمتـد حتى نهر الأردن، وإلى مخمش Michmash في المربع ٥٣، المتصل باليهــودية، وقد رسمت اليهودية ومنطقتها التلية باللون الأصفر، وتبدأ جليل الأمم المتقـدمة الذكـر عند الأردن الأصغـر، وتمتـد شمالاً حتى جبل لبنان، ثم هناك المدن العشرة، التي حـدودهـا في الشرق بحـر الجليل، وصيـداً في الغـرب، ودمشق في الشمال، وفي داخل هـذه الحدود هناك عشرة مـدن، وصـدوراً عن هذا الواقع عرفت هذه المنطقـة باسم المدن العشرة، وهذه المدن هي:طبرية، وبيسـان، وقناتا، وصفـد، وقادش نفتليم، وأرسـوف، وقيسارية فيليب(بانيـاس) وكفرناحوم، وبيت صيـدا، وكورزيم، وهناك على كل حال مـدناً أكثر في هذه المنطقـة، حسبما عرضناهن أعـلاه، وقد تجول الرب يســـوع خـــلال جميع هذه المدن والقــــلاع، يعلم في كنسها«ويكرز ببشارة الملكوت»[متى:٤/ ٢٣].

وطول أرض الميعاد الممتدة من دان الموجودة عند سفح جبل لبنان في الشمال، إلى بير السبع في الجنوب قــرب قفــار مصر، هي اثنين وأربعين ميـلاً ألمانيـا، أو مائتين وعشرة أميـال إيطاليـة، في حين أن عـرضهـا من البحر في الغرب، إلى أطراف جبال العربية هي أربعة عشر ميلاً كبيراً، أو سبعين ميلاً إيطاليـاً، وعلى هذا الأساس، جميع الأرض المقدسـة مقسمة إلى ثمانية وعشرين فراغـاً عرضانيا، وذلك بمـدّ خطوط عبرها، أي فوق الخطوط من الغـرب إلى الشرق، والآن يوجـد في الفراغ الثـاني، والمربع الثـــاني عشر بصرى، في بـلاد بوسترون، التي ورد ذكــرهـا في إشعيـا ٦٢(كذا)، ويقود الطريق من خلال مدينة جدر، في المربع ٢٣، إلى آرام، وبلاد الرافـدين، وهمّام Hammam (همدان)،وهيركانيــاHyrcania وبحر الخزر، وعبر هذا الطريق، إعتـادت هذه الشعوب على الاجتماع في كل سنة على سهل نبع فيالي Phiale ، حيث كـانوا يعقدون ســوقاً طوال شهر أيار، وينصبـون خيامـاً ذوات ألوان متعددة في مـدينة جدر،

فوق الجبل، مما يجعل المشهد جميلاً، وجاء ذكر هؤلاء في نشيد انشاد سليمان قوله:«كخيام قيدار» [نشيد الانشاد:١/ ٥]، وأطلق يوسفيوس على هذه المدينة اسم جمالا، لأن الجبل القائمة عليه له شكل الجمل.

وفي المربع٢٤(٥٣) في الجبال القائمة نحو الشرق توجد ايريوبولسAreopolis [الصفورية؟] التي عرفت فيما مضى باسم أرورAror(Aroer)، وكانت عاصمة العربية الثانية، حيث أنها تبتعد رحلة أربعة أيام عن البتراء في الصحراء، وفي البتراء هذه قال اشعيا:«أرسل يارب الحمل من البتراء في القفار إلى جبل ابنة صهيون»(إشعيا:١٦/ ١)، فعلى هذا الجبل رأى يوحنا الخروف واقفاً[رؤيا يوحنا:١٤/ ١]، وفي البتراء هذه جرى بناء قلعة حصينة لاترام، وكان اسمها الكرك، فيها يودع السلطان كنوز شبه جزيرة العرب ومصر، وفي منتصف الطريق بين البتراء وايريوبولس يوجد جدول سورقSorec ، وجبل عبريم حيث جرى دفن موسى من قبل الملائكة.

وعلى بعد سفر ثلاثة أيام نحو الجنوب من البتراء، يوجد جبل سعير، الذي حدوده موجودة على قفار فاران، التي تعرف باسم بلاد العربية حتى البحر الأحمر، واعرف انه عند طرف جبال العربية الأولى، في أحواز جبل سنير، تبدأ بلاد عوز، التي تعرف أيضاً باسم منطقة الطرخونية، وتمتد حتى جدر وبحر الجليل، لأنها مشكلة جزئياً من قبل منطقة المدن العشرة، ومثل هذا كانت مملكة عوج ملك بيسان، تمتد من طرف جبال العربية الثانية حتى الأردن، ووقعت هذه المنطقة في حصة سبط جاد امتداداً حتى جدول يبوق، وقد رسمت هذه المملكة باللون الأصفر حتى أميزها عن الممالك الأخرى، وكل البلدان القريبة من هذه المملكة جعلتها باللون الأبيض، وهي تعرف باسم بيت عنيا، وذلك حيث تعمد يوحنا، وهي قد كانت مملكة سيحون، ملك حشبون، وقد

كانت في حصة سبط اسكار، ويوجد فيها بين جدول عرنون وسورق، سهل منطقة مآب، وهناك من الممكن رؤية المكان الذي تحادث فيه بلعام مع أتانه، وهناك جرى تصنيف سفر الثنية، هذا وإن المنطقة الواقعة خلف جدول سورق نحو الجنوب، هي التي تعرف باسم بلاد مآب وعمون حسبما تقدم الذكر.

واعرف أن هناك ثلاثة مدن إلتجاء فيها وراء الأردن، أولاها تحت المربع ٢٣، قرب المنطقة التليةالتابعة للعربية والتي اسمها الجولان، والثانية تحت المربع ٣٧، واسمها راموث جلعاد، والثالثة تحت المربع ٣٣، واسمها أفرايم، حيث أقام المسيح مع حوارييه، وهناك ثلاثة مدن التجاء باتجاه البحر الغربي، وأولاها هي حبرون تحت المربع ٦٩، والثانية هي سبسطية تحت المربع ٤٣، والأخيرة قائمة إلى جانب بحيرة ميروم، واسمها قادش نفتالي، في وادي سنين، وهي التي كانت مدينة بلك، وهذه المدن الستة مرسومة على الخريطة، ومعلم عليها بهذه العلامة**، وجرى وضع علامة ٨ تحت المربع ١٩، فهذا هو المكان الذي أشبع فيه الرب أربعة آلاف من الناس بسبعة أرغفة، وتحت المربع ١٩، وعلى مقربة من هذا العلامة ٧ المكان الذي أطعم فيه الرب خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة، وذلك حسبما ورد مكتوبا في يوحنا ٦، وتحت المربع ١٩، قرب العلامة C ، عمل قائد المائة، توسلاً من أجل خادمه، وفي المكان نفسه أبرأ الرب المجذوم قرب بحر الجليل، وعلى مقربة من كفرنا حوم أطلق على: متى: وأندرو، وبطرس، وجيمس، ويوحنا، اسم الحواريين، وتحت المربع٢١، جاء بطرس، وأندرو، وفيليب، من بيت صيدا (يوحنا: ١/ ١٢)، وتحت المربع ٣٦ توجد مكور Machaerunta حيث جرى اعدام يوحنا المعمدان وقطع رأسه.

وفي أيام الصيف تجف معظم أجزاء بحيرة ميروم، ولهذا تتكاثر هناك

الأشجار والنباتات الكثيفة، التي فيها تعيش الأسود والحيوانات الأخرى، وتتوفر هناك أجواء ممتعة للصيد، وعلى بعد قليل نحو الشمال رسم بعلامة سيف المكان الذي حارب فيه يوشع ضد ملك أرسوف مع أربعة وعشرين ملكاً آخر، طاردهم جميعاً حتى صيدا، فآنذاك تضاعف النهار وتوقفت الشمس في مكانها ولم تتحرك، ولهذا أعطي له «مجد لبنان، وبهاء الكرمل وشارون» (اشعيا: ٣٥)، وإلى الشمال من صيدا، وعلى بعد سفر يومين خلف الأرض المقدسة، يوجد ميناء دمشق،متمثلاً بمدينة بيروت القديمة والجليلة، مع أن مرساها مرسى مرعباً، فقد أرغمتنا الرياح الشمالية على الدخول إليه في عشية يوم عيد القديس توما، ففي عشية عيد الميلاد ارتحلنا راجعين إلى الأنهار الكبرى، وأرغمنا عند فجر اليوم الثاني للعيد بوساطة عاصفة على الرسو في ذلك الميناء للمرة الثانية، حيث ألقينا المراسي، ومكثنا في هذه الحالة المحزنة حتى عيد الختان (أول كانون ثاني)، وعلى بعد مائتين وتسعين خطوة من خارج الباب الشرقي لهذا البلد، يمكن رؤية المكان الذي قتل فيه القديس جرجس التنين.

وتحت المربع ٣١ يوجد نبع اسرائيل، الذي نقرأ عنه في سفر صموئيل الأول (١— صموئيل: ١٩/ ١) وذلك حيث نصب الفلسطينيون معسكرهم، وذلك عندما كان شاؤول في جلبوع، ويوجد فيما بين جبل جلبوع وجبل حرمون واد عرضه فرسخين، وطوله تسعة فراسخ، وذلك نزولاً إلى الأردن حيث جرى القتال في عدة معارك، من ذلك: جدعون ضد مدين، واحاب ضد الآشوريين، وفي الزمن الحالي أيضاً التتار ضد المسلمين، وقد رسمت هذا المكان وعلمته بعلامة سيف، ويوجد تحت المربع ١٩ بيت القديس جرجس، وهو المكان المعتقد أن القديس متى قد ولد فيه، وهو قائم بين جبال في واد غني وخصب يصل حتى بحر الجليل، وبسبب جماله قد قيل حقاً عنه: «أشير خبزه

سمين وهو يعطي لذات ملوك» (تكوين: ٤٩/ ٢٠)، وهذا ما تحقق في حصة سبط آشر.

وفي الفراغ ١٦ والمربع ٢٢، توجد نفتالي، التي جاء منها طوبياس، وهي قائمة في مكان حصين، لا يمكن الوصول اليه إلاّ من فسحة صغيرة موجودة على جهة الشرق، وتبعاً ليوسفيوس كانت تعرف باسم يوتابه في أيام دمار اليهود، وهناك جرى حصار يوسفيوس من قبل الرومان وأخذه أسيراً، واسمها الآن سيران Siran.

وتحت المربع ٢٤ توجد قرية عين دور، التي عنها يقول المزمور: «بادوا في عين دور» [مزامير: ٨٣/ ١٠]، وتحت المربع ٥٥ توجد بيت ايل في ديار سبط بنيامين، وذلك حيث أقام يعقوب الصخرة ونصبها لتكون عمودا، وكان ذلك عندما نام هناك، أيام كان فاراً من أخيه عيسو،وقد رأى السلم، الخ، وقد أطلق على المكان اسم بيت إيل، وإلى الشرق من بيت إيل توجد مدينة عاي، التي نقرأ عنها في يشوع٨.

وتوجد تحت المربع ٦٩ ممرا، حيث سكن ابراهيم لوقت طويل، وهناك عندما كان جالساً عند باب خيمته، تحت بلوطة ممرا، رأى ثلاثة قادمين على طول الطريق، الخ، (التكوين: ١٨)، وما تزال هذه البلوطة مرئية حتى الآن عند باب الخيمة، وكانت البلوطة القديمة قد جفت، لكن نمت واحدة جديدة إثر أخرى من جذرها، ويوجد في الفراغ ٢٠ سوكوه التي ليهوذا على مقربة من وادي البطم، حيث قتل داوود جالوت من جت [١صموئيل: ١٨/ ١—٢]، وتقوم سثيم Sethim على رابية تحت المربع ٥٦.

وهنا بداية أرض الفلسطينيين، وعلى هذه الرابية نفسها بنى فولك، الملك الصليبي للقدس، حصنا اسمه ابلين (يبنا)، ليضبط اعتداءات أهل عسقلان، وكانت عسقلان مدينة من مدن الفلسطينيين، وهي قائمة على

شاطىء البحـر، وقد بنيت على شكل نصف دائـرة، ويمكن للانسان أن يقول عنهـا بأنها مدينة مجمع قوى المسلمين كلهـا في تلك البلاد، وتحت المربع ٢٢، وعلى شـاطىء البحر، توجـد عكا، وقد كـانت إحدى مـدن الفلسطينيين، واسمها (الآن) بطوليس، وتوجـد قيسارية O-C في المربع ٤٠ وفي الفراغ ٢٨، وذلك على شـاطىء البحر، وهي قيسـارية البحرية، التي وسعهـا هيرود صـاحب عسقلان تشريفـاً لأغسطس، وقـد كـانت عاصمة الشاطىء الفلسطيني، وقـد كتب يوسفيوس عنها كثيراً، وتمتلك هذه المدينة باتجاه الشرق منهـا بحيرة واسعـة وعميقة ذات ميـاه عـذبة، فيها يوجـد كثيراً من التماسيح، والمدينة نفسها مهـدمة تماماً، وفيهـا عمّد الحواري بطرس كـورنليوس، وبقـي بولس في السجن هناك لمدة طويلة، وكان ذلك عندمـا كان في طريقه إلى روما، ولها ميناء غير مـوائم، لكنها تمتلك كثيراً من الحدائق والمروج، وجـداول جـارية حتى إلى اللد، وإلى بلاد يافـا، وقد رسمت اللد وعلمتهـا بعـلامة قـوس، حيث يمكنك أن ترى في المكان الذي وقفت فيـه، كنيسـة القـديس جـرجس الذي قتل هناك، وأرسـوف قـائمـة على شـاطىء البحـر، واسمهـا القـديم هو أنتبارتس، وكانت من أملاك رهبان مشفى القديس يوحنا المعطاء.

وليس لمدينة يافا ميناء، وفيها سكنت تابيثا Tabitha وصيفة الرسل، ومن هنـاك ذهب يونس على ظهـر سفينـة عندمـا أراد الفـرار إلى طرسـوس، ولم أر في هـذه المدينة أي انسـان حي، وفي الحقيقـة جـرى تدمير الكثير من مدن الساحل من قبل السلطان، عندما سمع بأن مدينة عكا المتقـدمة الذكـر قـد جرى الاستيـلاء عليهـا من قبل ملكي فرنسـا وانكلترا.

وصيـدا هي احدى مـدن فينيقيـا، وفي خرائبهـا الموجـودة هذه الأيام شهادة على عظمتها، وكانت قـد بنيت بشكل مستطيل، فوق سهل يمتد من الشمال إلى الجنوب، عند سفح جبل لبنان،وجـرى بناء مدينة أخـرى

خـارج خـرائبهـا، صحيح أنها صغيرة، غير أنها محصنة، لكن ليس فيهـا رجـال للدفاع عنهـا، ويقوم طرف منهـا على شاطىء البحـر مع قلعتين جيـدتا التحصين، واحـدة منهما على كل جـانب فـالأولى التي هي في الجانب الشمالي، هي التي بنيـت منذ زمن طويل مضى من قبـل حجـاج من ألمانيا، وهي قائمـة على صخرة بجوار البحر، أما الثـانية الموجودة في الجنوب، فهي قائمة فوق رابية، وفيها مضى امتلك فرسان الداوية هاتين القلعتين مع المدينة أيضـاً، وهناك يوجـد قصب السكـر، وكـروم عنب ممتازة جداً، وعلى بعد فرسخين من هناك توجد الصرفند، التي فيها مجرد عـدة بيوت فقط، مع أن خـرائبهـا تشير إلى أنها كانت مـدينة جليلة فيما مضى.

وصور مـوجودة في ديار سبط آشر، ومع ذلـك لم يتملكها الآشريون قط، وخلفها توجد آبار ميـاه للحياة. وتحت المربع ٤٣، توجد سبسطية، التي اسمها السـامرة أيضاً، وهي مدمـرة كلياً باستثناء كنيستين، أولاهما مكرسـة ليوحنـا المعمدان، حيث ضريحه فيهـا مصنوع من الرخـام، على شكل ضريح الرب، فهناك دفن فيها بين اليسع وعوبيدا، وفي الحقيقة قام هناك فيما مضى كنيسة كاتدرائيـة على طرف الجبل، لكن المسلمون تولوا هدمهـا، وأمـا الكنيسـة الثـانيـة فهي الآن قـائمـة على قلة الجبل، وهي مسكونة من قبل رهبـان اغريق، هـم الذين يعرضـون في الداخل المكان الذي قد سجن فيه، لكنني عددت هذا شيئاً لاقيمة له، ذلك أنه كان قد أعـدم في مكور، تحت المربع ٣٦. وتوجـد شكيم تحت المربع ٤٥، وهي التي يطلق الاغريق عليها اسم نابلس، وهي قائمة على بعد رميتي قوس عن جب يعقـوب، هذا وإن عظام يوسف مـدفـونة في شكيم، ويطلق اليهود عليها اسم شوكيم، ويسمون صهيون هرؤن Haraon

المدن والأماكن في الأرض المقدسة

ومـدينة عكا، التي هي موجـودة في منطقة فينيقيـا، هي مدينة جيـدة

التحصين بالأسوار والأبراج، وهي لها شكل ترس، طرفان منه يمتدان خارجاً إلى البحر، وأما الطرف الثالث فهو مطل على اليابسة، ومن حيث الطول فان مساحة إطارها هو ميلين، أي أن تقول ستين فرلنغ، وهي تمتلك حقولاً مثمرة وحدائق، وهي لم تكن قط جزئاً من الأرض المقدسة، ولا ملكاً لبني اسرائيل، ومع هذا فإنها قد منحت إلى سبط آشر عندما جرى توزيع الأرض المقدسة فيما بين الأسباط، وقد كانت إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة القائمة على ساحل البحر، وعلى مقربة منها حدث أن ملاك الرب التقى بحبقوق وهو يحمل إلى الحصادين طعامهم، فحمله إلى بابل، وذلك حسبما نقرأ في سفر دانيال ١٤، وكان يوجد في المكان الذي حمل منه من قبل الملاك بيعة جميلة.

وعلى بعد ثمانية فراسخ إلى الشمال من مدينة عكا هذه، من الممكن مشاهدة البئر الرائع لمياه الحياة، الموجود قرب صور، حيث بني بشكل عالي النفقات، ومع أنه يدعى باسم بئر، بالمفرد، إنه ليس بئراً واحداً، بل هناك ثلاثة ينابيع، لها الشكل نفسه والوضع، مع أنها لاتعطي الكمية نفسها من الماء، والبئر الرئيسي فيها عمقه حوالي أربعة وثلاثين ذراعاً، وعمق الآخرين حوالي اثنين وعشرين ذراعاً، وهم محاطون بجدران مربعة متينة، مبنية من صخور قوية، وتتفجر المياه وتندفع من داخلها بمقدار رمية رمح بالعرض، وتتدفق بشكل تملأ فيه جميع مجاري المياه، حيث تنتشر فوق سهل صور كله، ومنها تشرب الحدائق، والكروم، وبساتين التين، وحقول الزيتون، وقصب السكر، الذي ينمو هناك، ذلك أن هذه الينابيع تبعد مقدار رمية سهم عن البحر.

وعلى بعد فرسخ واحد عن هناك توجد مدينة صور، التي هي قائمة إلى الشمال من عكا، وقد كتب مديحها من قبل بعض الأنبياء، وهي واقفة على شاطىء البحر مع أسوار واسعة تحيط بها، وهذه الأسوار تلامس مياه البحر من جميع الجهات، باستثناء الجهة الشرقية، حيث تولى

نبوخذ نصر أولا، ثم الاسكندر فيما بعد، وصلها باليابسة، وذلك لمسافة مقـدارها حـوالي الرميـة حجـر، وهي محاطة من هذا الجانب بســور مضـاعف ثلاث مـرات وهو عـالي الارتفـاع وله أبراج حصينة وقـوية، وفيها جـرى دفن أورجين، وقد بقي فيها حتى اليـوم كثيراً من آثار عدد كبير من القديسين، كانوا قد هلكوا هناك باسم المسيح، وعلى بعد رميتي سهم نحـو جنوب البـاب، يوجـد المكان الذي فيـه تولى المسيح الوعظ، وهو معلم بوساطة صخرة وقف عليها، حيث بني فوقها كنيسة كرست للمخلص، وهناك أيضاً المكان الذي قالت له فيـه المرأة «بورك الرحم» الخ، وذلك بعـدما أنهى الوعـظ، وهذا المكان لم يغطه الرمل قط، مع أن الرمل هنـاك خفيف ويتطاير هنـاك، مثلما يتطاير الثلج في بـلادنا في أيام البرد الشـديد، ويتوزع فـوق الأمـاكن بوسـاطة الريح، لكن هذا المكان يبقى على الدوام أخضر في وسط الرمـال وعلى بعـد أربعـة فـراسخ عن صـور توجـد الصرفند، وقبل باب هذه المدينة مـن الممكن رؤية المكان الذي ذهب إليه إيليا إلى المرأة الصرفندية، وليـس بعيداً عن هناك توجد بيعة فوق المكان الذي أقام فيه ابنها من الموت.

وعلى بعـد ميلين عن الصرفند توجـد صيـدا، التي كـانت فيما مضى مـدينـة عظيمـة، حيث من الممكن رؤيـة حجمهـا من خـلال خـرائب الأسـوار، وكلها تقـريبـاً قائم في قلب البحـر، ولها على كل من طرفيهـا قلعتـان، بنيت الأولى منهما فوق رابيـة قرب السهل، وأمـا الثانيـة فبنيت فوق صخـرة مجاورة للبحر، وجرى بنـاء هاتين القلعتين من قبل حجاج ألمان منذ زمن طويـل مضى، وعلى بعـد نصف فـرسخ آخـر عن هذه المدينة يوجد جبل لبنان، حيث تنمو كروم فائقة الجودة، ولهذا قال النبي عنهـا: «تكون رائحتهم كخمـر لبنان» [هوشع: ١٤/ ٣]، وعبر صيـدا، وأمام بابها شفى الرب ابنة المرأة الكنعانية.

وخارج الأرض المقـدسة، وعلى بعـد عشرين ميلاً إيطـالياً إلى الشمال

من صيدا، توجد بيروت، وهي مدينة قديمة، لها ميناء بغيض، فيه أمضيت ليلة، لكن ليس من دون خوف، وكان ذلك عشية عيد القديس توماس الرسول في سنة ١٤٢٢، وفي قاعة تحت الأرض في هذه المدينة، معروض فيها للمشاهدة صورة رسمت للمخلص بعد وقت قصير من آلامه، جاء رسمها سخرية واستهزاء، وقد لوثت واعتدي عليها بضربها من قبل الكفار، وظلوا يضربونها حتى خرج منها دم وماء، ونتيجة لهذا اهتدى بعضهم وتحول إلى المسيحية، وجاء نصب هذه الصورة للسخرية وكذلك رسمها، وذلك مثلما حدث في بيت بيلايطس، عندما توجوه بتاج من شوك، وبجّل بمثابة ملك، وقد جرى بناء بيعة هناك فيها مذبح واحد، وإليها ينزل الانسان ثماني عشرة درجة.

ويلي بيروت في الشمال جبيل، التي هي أول مدينة تابعة لبطريركية أنطاكية، وقد ورد حديث عن هذا المكان في حزقيال ٢٧، وذلك خلال اطراء لمدينة صور، وكذلك في الملوك الأول، حيث قيل بأن عمال سليمان قد جاءوا من جبيل(بيبلوس)، وتعرف هذه المدينة في هذه الأيام باسم جبيل، وهي صغيرة بها فيه الكفاية، وعلى بعد ثلاثة فراسخ عن جبيل توجد Botrys (البترون) التي كانت فيها مضى مدينة ثرية، لكنها الآن مدمرة كلياً، وبعد هذا على مسافة ثلاثة فراسخ أخرى تقوم قلعة وقرية نفين(أنفة)، وهي قائمة تقريباً فوق شاطىء البحر، ومحصنة بشكل جيد.

وعلى بعد فرسخين من هناك توجد مدينة طرابلس، وهي مدينة معروفة كثيراً على شاطىء البحر، وهناك يسكن فيها: إغريق، ولاتين، وموارنة، ونساطرةو(أناس) من أمم كثيرة، ويعمل فيها الكثير من المنسوجات الحريرية، وقد سمعت قولاً صحيحاً أنه يوجد فيها اثني عشر ألف حائك للحرير ولوبر الجمل.

وينتهي جبل لبنان على بعد ثلاثة فراسخ خلف طرابلس، وعند

سفحه ينبع نبع الحدائق، وهو النهر الذي يجري سريعاً وهو نازل من جبل لبنان، ويسقي جميع الحدائق والسهل الموجود حول طرابلس، ويوجد على ضفتيه عدداً كبيراً من البيوت الدينية التي بنيت هناك، وكثيراً من الكنائس الاغريقية والأرمنية، وفي الحقيقة إن الذي ورد عن هذا النبع في سفر استير صحيح وهو:«من نبع صغير جرى صنع فيض عظيم، لابل كثيراً من الماء»، وعلى بعد فرسخين عن طرابلس يوجد جبل الفهود، الذي له منظر دائري، وهو مرتفع، ويوجد عند سفحه، في الجهة الشمالية كهف فيه ضريح طوله عشرين قدماً، وهذا الضريح يزوره المسلمون بكل تقوى، حيث يقولون بأنه قبر يوشع، وأنا لاأعتقد بصحة ذلك، لأن النص يقول بأنه دفن على طرف جبل إفرايم، تحت المربع ٤٦، والذي أرجحه وأراه هو أن هذا الضريح هو لواحد من أولاد نوح، أو لشخص ما مثلهم، من الذين يمكن أن نبرهن على أنهم سكنوا في تلك الأجزاء.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ أخرى من الممكن رؤية قلعة عرقة، التي بناها عرقايوس بن كنعان، وهي قد بنيت بعد الطوفان، حسبما جاء في شروح سفري التكوين، وأخبار الأيام الأول، وعبر السهل، وعلى بعد ثمانية فراسخ، يصل الانسان إلى انطرطوس، أو(أمام أرواد) وهذه هي جزيرة تبعد مسافة نصف فرسخ عن اليابسة، وفي أنطرطوس وعظ القديس بطرس لمدة طويلة، عندما كان في طريقه إلى أنطاكية، وذلك حسبما قرأنا في رحلة كليمنت، ووجد كليمنت أمه هناك، وهناك أيضاً دفع القديس بطرس إلى تأسيس وبناء أول كنيسة هناك، كرست على اسم القديسة مريم، وعلى بعد ستة فراسخ عبر أنطرطوس توجد قلعة المرقب، التي كانت ملكاً لرهبان القديس يوحنا(الاسبتارية)، وهي محصنة بشكل جيد، وقائمة فوق جبل مرتفع، وتبعد فرسخاً واحداً عن البحر، وذلك على مقربة من مدينة بانياس، وكان قصر الأسقف قائماً في هذه المدينة،

ولكن بسبب إهانات المسلمين انتقل إلى القلعة.

وتنتهي مملكة القدس مع مدينة بانياس، ومع النهر الذي يحمل الاسم نفسه ويجري من خلالها، وبذلك تبدأ بطركية أنطاكية، ويبعد هذا المكان سفر ثمانية أيام عن عكا، وهناك سفر أربعة أيام منه إلى أنطاكية، وتقوم أنطاكية في سورية المجوفة، التي تبدأ عند نهر الفرات، وتنتهي عند نهر بانياس، الذي ينبع تحت قلعة المرقب، ويصب في البحر الكبير قرب بلدة بانياس، التي كانت — كما قلنا من قبل — مقر قصر الأسقف، ويوجد في المقاطعة نفسها: اللاذقية — وأفاميا — وبلدات أصغر.

وسورية الفينيقية، منطقة مختلفة، وهي تبدأ عند النهر المتقدم الذكر، أي نهر بانياس في الشمال وتصل في الجنوب حتى البترا انشيسا تحت جبل الكرمل، وذلك عند القلعة التي اسمها في هذه الأيام قلعة الحجاج(عثليت)، ويوجد في سورية هذه، المدن التالية:المرقب، وطرطوس، وطرابلس ، وبيروت، وصيدا، وصور ، وعكا، وكفر ناحوم.

وهناك مقاطعة أخرى من مقاطعات سورية، هي مقاطعة دمشق، أو لبنان، وحاضرة هذه المنطقة هي مدينة دمشق، ولجبل لبنان شهرة في داخلها، هذا وتعرف البلاد كلها الممتدة من نهر الدجلة حتى مصر باسم سورية بشكل كامل، وأول جزء منها هو الواقع فيما بين نهري الفرات والدجلة، وهو يمتد طويلاً من الشمال إلى الجنوب، أي أن تقول من جبل طوروس إلى البحر الأحمر، وهو يعرف باسم سورية الجزرية، لأنه قائم في وسط المياه، وهو يحتوي على شعوب كثيرة منها: الفرثيين، والميديين، الذين يحدهم في الجنوب بلاد الكلدان.

ثم يذهب الانسان بعد هذا إلى أنطاكية، التي فيها عرف جميع المؤمنين

الذين كـان اسمهم من قبل الجليليين باسم المسيحيين، وهـم في هذه الأيام يدعـون من قبل المسلمين باسم النصـارى، وفيهـاكـان كـرسي بطرس، وفيهـا ولد جـالينوس، الـذي علم الطب لابن أخيـه(أختـه) القديس لوقا الانجيلي، وكان اسم هذه المدينة ربلة(كذا) حتى أيام الملك أنطيخـوس، وفي بداية سـورية المجـوفـة، وباتجاه الغـرب توجـد مـدينة طرسوس، التي جاء منها القديس بولس.

ويوجد أيضاًعلى بعد خمسة أميـال إلى الشرق من عكا المتقدمة الذكر، قرية اسمهـا القديس جـرجس(اللد)وقد أخبرنا أنه في هـذا المكان كان القـديس جيروم(جـرجس) قـد ولد، وإلى الجنوب منهـا تقـوم مـدينة نعسـون Naason ، التي قـرأنا عنهـا في سفـر توبيت، وعلى بعـد فرسخين عـن هناك توجد دوثيم عند سفح جبل بيت أوليـا، وهي التي أراد هولوفرنس الاستيلاء عليها عنوة.

وعلى بعد فرسخين إلى الشرق من نعسون، وثلاثة فراسخ من دوثيم توجـد نفتليم، التي هي مدينة تـوبت، والتي هي مبنية على شكل قـرية، وعلى بعد أربعة فـراسخ إلى الشرق من نفتليم، وإلى جانب بحر الجليل، توجد بيت صيدا، التي هي مدينة أندرو، وبطرس، وعلى بعد فرسخين عن هذا المكان توجـد قلعـة المجـدل، قـرب بحـر الجليل، التي منهـا أخذت المجدل اسمها.

وعلى بعـد فـرسخ واحـد إلى الشرق من بيت صيـدا، يوجـد المكان الذي وقف عليـه المسيح على شـاطىء البحـر، وقـال لسبعـة من الحواريين:«هل لديكـم، أيها الأولاد، أي طعـام»؟، ومن الممكـن رؤية طبعة قدمه فوق صخرة هناك،وإلى الشرق توجد كفرناحوم، التي عمل فيهـا المسيح كثيراً من المعجـزات(متى:١١)، وعلى فـرسخين بعـد ذلك بـاتجاه الشرق يجري نهر الأردن إلى داخل بحـر الجليـل، وعلى الجزء الأعلى من شاطئه من الممكن رؤية كـورزيم، وفي هذا المكان يبدأ صعود

جبل سعير، وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشرق من كورزيم توجد جدر، التي كانت فيها مضى مدينة محصنة بشكل جيد، ولهذا كتب:«إنني سكنت معهم في جدر».

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشرق من عكا توجد قانا الجليل، فهناك حول المسيح الماء إلى خمرة، ومكان الاحتفال بالعرس هو كهف محفور في الصخر، ويمكنه أن يستوعب عدة أشخاص، ومن الممكن رؤية الأماكن التي وضعت فيها أواني المياه، والمقاعد والمكان الذي نصبت عليه المائدة، وهذه الأماكن موجودة تحت الأرض، مثلها في ذلك مثل كثير من الأماكن الأخرى المقدسة، من ذلك موضع البشارة والمهد، وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب من قانا الجليل توجد مدينة الصفورية، ويوجد عبرها باتجاه طبرية، وذلك فوق دوثيم، جبل بيت أوليا، كما تقدم القول.

وعلى بعد سبعة فراسخ من بيت أوليا، وعلى شاطىء بحر الجليل، توجد طبرية، وقد أطلق عليها اسم طبرية عندما كان هيرود الطيطراخ، ويوجد في ذلك المكان حمامات طبية قائمة على شاطىء البحر.

وإلى الجنوب من عكا، إنما مع الانحراف قليلاً نحو الشرق، توجد الناصرة، المدينة المحبوبة، حيث أينعت الورود التي نبعت من أصل يسي، وهي على بعد سبعة فراسخ عن عكا،وهذه هي مدينة المخلص، وأطلق على يسوع اسم الناصري، لأنه نشأ فيها، وهنا تتدفق مياه نبع صغير، منه اعتاد الصبي يسوع أن ينضح الماء ويجلبه إلى أمه، وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الشرق من الناصرة يوجد جبل الطور، الذي عليه تغيرت هيئة المسيح، ويمكن للانسان أن يبحث هناك عن مكان خيم العهد الثلاث، ويوجد في هذا الجبل أماكن عميقة مع كهوف تحت خرائب أبنية رائعة، فيها الآن مخابىء للأسود وللحيوانات الضارية الأخرى، وعندما يبدأ الانسان بالنزول من الجبل هناك بيعة قائمة على

الجهـة الغربيـة، وذلك عند المكان الذي قـال فيه الرب:«لاتخبروا أحـداً بالذي رأيتموه».

وعبر وادي هذا الجبل، بين الجنوب والشرق، توجـد رابيـة حـرمـون الصغير، الذي ورد ذكـرها في المزامير، وعلى بعـد أربعـة فـراسخ من الناصرة، وفـرسخ واحد من جبل الطور، يـوجد جبل حـرمون الآخـر، الذي تقعُ مـدينة نين على جـانبـه الشمالي، وذلك حيث أقـام الرب ابن الأرملة من الموت،ويمتـد هذا الجبل نحـو الشرق لمقـدار حـوالي خمسـة فراسخ، باتجاه بحـر الجليل، ويتموقع جبلا جلبوع وحـرمون بشكل أن جبل حـرمـون واقع في الشمال، وجبل جلبـوع واقع في الجنوب، وفيما بينهما سهل عـرضـه فـرسخين، وأربعـة فـراسخ طوله، وكـان هناك فيما مضى من أيام حـروباً عظيمـة ومعـارك فـوق هـذا السهل، فهنا هزم جدعـون المدينيين، وهنا لحقت الهزيمة بشـاؤول على أيدي الفلسطينيين، الذي علقوا رأسه فوق أسوار بيسان، القائمة فيما بين الأردن وجلبوع.

والجليل كلها تقـريباً منبسطة وبلاداً سهليـة، وهي تتصل من الجانب الأول بالأرض المقـدسـة، وذلك حيث تقـوم بلـدة بيت صيـدا، وعلى الجانب الآخـر بالسـامرة التي هي منطقـة جبليـة، وفي السـامرة توجـد سبسطية التي كـانت فيما مضى مدينة جليلة لملـوك اسرائيل، لكنها الآن مهـدمـة كليـاً، ومهجـورة باستثنـاء وجـود كنيستين فقط، الأولى بينهما مـوجودة على قمـة الجبل، حيث قـام فيها مضى القصر الملكي، والثانيـة مكرسـة ليوحنا المعمدان، المدفـون هناك فيما بين اليشع وعوبيـدا، حيث من المعتقد أنـه قد جلب إلى هنا من بلدة مكور، القـائمة فيما بين الأردن وسبسطية.

وعلى بعد فـرسخين إلى الجنوب من سبسطية يوجـد جبل بيت إيل، وعلى بعـد فرسـخ آخر يوجـد جبل دان المشرف على مـدينة شكيم على جهة اليسـار، وعلى هذين الجبلين أقام يربعـام العجلين الذهبيين،وجعل

إسرائيل تذنب، وتقوم مدينة شكيم بين هذين الجبلين، التي تعرف أيضاً باسم نابلس، التي هي مليئة بأماكن جميلة جداً، لكنها غير محصنة، ولايمكن تحصينها، فإذا ما قدم العدو من الشمال، وكان سكان المدينة قليلاً عددهم، لايمكنهم أن يفعلوا شيئاً سوى الفرار إلى الجنوب، وإلى شكيم كانت عظام يوسف قد حملت من مصر، ودفنت، وفي الجوار يوجد حقل قطعة الأرض التي أعطاها يعقوب إلى ابن يوسف، وليس بعيداً عن باب المدينة يوجد جب يعقوب، الذي جلس الرب إلى جانبه، والتمس الماء من المرأة السامرية، وفي هذا المكان كانت هناك كنيسة.

وعلى جهة اليمين من شكيم يوجد جبل جرزيم، وفوق هذا الجبل من الممكن أن يرى حتى هذا اليوم معبد يهوه القديم، مع مشفى للغرباء ونزل لهم، وهذا هو الجبل، الذي قيل لنا بأن المرأة قد عنته عندما قالت:«تعبد آباؤنا في هذا الجبل»وعلى بعد فرسخ واحد من شكيم توجد مدينة اسمها لوز، فيها سكن إبراهيم، ويقال بأن يعقوباً قد نام في هذا المكان، ورأى السلم، وذلك عندما قال:«كم هو مرعب هذا المكان»، وأطلق على المكان اسم بيت إيل، علماً بأنه كان يعرف من قبل باسم لوز، ومعنى ذلك وترجمته:«الرب يرى»، لكن بعضهم يقول بأن ذلك كان فوق جبل أكرا، حيث كنت أنا جون بولونير آخر من رأى قصة التضحية مرسومة بأعمال الفسيفساء، في المكان الذي جرى تقديم المسيح فيه، وكذلك يقول بعضهم بأن المكان الذي نام فيه يعقوب ورأى السلم هو جبل موريا، أو الجبل المعشوشب(جبل إبراهيم)، الذي فوقه بنى سليمان فيما بعد هيكل الرب.

ويطلق على السهل القائم فيما بين نهر الأردن وأريحا اسم جلجالا Gilgala، (الجلجال)، وعلى بعد نصف فرسخ عن هناك يوجد جبل القرنطل، وذلك حيث صام الرب لمدة أربعين يوماً، وهناك أغوي من قبل الشيطان، ويقول آخرون بأن ذلك كان على جبل مرتفع قريباً

جداً من بحر الجليل، وذلك على بعد فرسخين عن الجبل المتقدم الذكر، والذي يوجد على قمته بيعة، فقد أراه هنا جميع ممالك الدنيا، وعند سفح هذا الجبل ينبع نبع اليشع وتجري مياهه، وهو الذي حوله من المرارة إلى العذوبة، وجعله ماء سائغاً للشراب.

وعلى بعد ميل واحد عن الجلجال توجد أريحا، التي كانت فيما مضى مـدينة جليلة، لكنها انحـدرت إلى حـد أنه لم يبق أي أثر يدلك على أنها كـانت مـدينة، وكـان زكّـا من هـذا المكان، وعندمـا ينزل الانسـان من القـدس إلى أريحا، وعند نهاية الجبل، وقبل بـداية السهل، يمكنه أن يرى على جـانب الطريق المكان الـذي جلس عليه الأعمى وهو يستعطي، وهنا كـان فيما مضى كنيسة، وعلى الطـريق الذي يقود إلى القـدس، على بعد أربعة فراسخ عن أريحا، وفي قرية قائمة على جهة اليد اليسرى لبرية القرنطل، يوجد المكان الذي وقع فيه الرجل بين اللصوص.

وعلى بعـد ثلاثـة أميـال إلى الجنوب من أريحا، يوجـد ديـر القـديس جيروم، في برية واسعـة، تتعرض لأشعة الشمس الحارقـة، لذلك لم يبق هناك أي شيء أخضر، وكـان قـد سكن هنـاك لمدة أربع سنوات، ومن أريحا هناك فـرسخـان إلى نهر الأردن، حيث مـن الممكن أن نرى هناك بيعـة مكرسـة للقـديس يوحنا المعمـدان، وقـد مشى بنو إسرائيل فـوق الأردن بأقدام جـافة، ونال نعمان المجـذوم البراءة في الأردن، كما وتعمد المسيح في الأردن. وعلى بعـد ثلاثة فـراسخ، أو ستـة أميـال، من أريحا، تقوم ساعور في العربيـة، حيث يوجد تمثال من ملح، إليه تحولت زوجة لوط، الذي هو خطـر للذهاب لرؤيتـه، بسبـب المدينيين الذين يسكنون هناك، ويفيض البحـر في بعض الأحيـان، وترتفع ميـاهه إلى حـد أنها تغطي التمثـال كله، ثم يتناقـص حتى يبات من الممكن رؤية التمثـال، وأحيـاناً رؤيتـه حتى الصـدر، وأحيـاناً أخـرى حتى الركبتين، لأن هذا التمثـال واقف فيما بين ساعـور والبحر الميت، وعـرض هذا البحر ستـة

فـراسخ، وبسبب استمـرار تصاعـد الأبخـرة منه، ورائحـة النتن، فإن الوادي الذي عـرف فيما مضى باسـم الرائع، قـد صـار أرضـاً جـرداء، لمسـافـة سفـر عشرة أيام، فطوال ذلك لاتحمل الأرض أية أعشـاب، ولاينمو عليهـا أي شيء، فضلاً عن هذا جميـع الجبال، على اليمين وعلى اليسـار جرداء لمسـافـة ستة فـراسخ، وفـوق هذا المكان، وأنت نازل إلى العربية يوجد كرنيم، وهو برج مـراقبة للمآبيين، وإليه جلب بلعام ليتولى اللعنة، حيث كلمتـه الأتان، التي كـان راكبـاً لها، ويفصـل هذا البحـر اليهودية عن العربية.

وفي أيام بني إسرائيل كـانت العـربيـة فيـافي، ومكاناً معـزولاً، حيث أبقـاهم الرب هناك لمدة أربعين سنـة، يمطر عليهم المن من السماء، وهنا سـار أمـامهم عمـود من نار أثنـاء الليل، وأظلتهم السحـابة في النهـار، وهناك كـانت المحطـات الأربعين لبني إسرائيل(الخروج، والعـدد ٣٣)، واعرف أن العـربية متصلة بأدوم الموجـودة في جوار بصرى، وأدوم هي بلاد دمشق، ودمشـق هي عـاصمـة سـورية، ويفصـل لبنان أدوم عن فينيقيا، وفي فينيقيا توجد مدينة صـور، وفي العربية يوجد وادي موسى، فهناك ضرب الصخـرة، فنبع الماء منهـا، وفي العربيـة أيضـاً جبل سيناء، فهناك أعطيت الشريعة إلى موسى، وكذلك يوجد في العربية الجبل الذي دفن عليـه هرون، وفي العـربيـة جبل عبريم، حيث دفن الرب مـوسى، الذي لم يشاهد قبره في أي مكان، وفي العـربية يوجـد المكان الذي اسمه بتراء في الفيـافي، أو الشـوبك(الملوك الثـاني:١٤/٧)، وفي مكان مـرتفع وراء الأردن، وعلى مقـربة من مـدينة Rabath التي هي ملك لأبناء عمون، وذلك عنـد نهاية الأرض المقدسة، هنـاك كانت قلعة، هـي قلعة بتراء في الفيـافي(الكرك والشوبك)، وكـانت قوية بما فيـه الكفاية، وقـد بناها بلـدوين، الملك اللاتيني الأول في القـدس، بقصـد الدفـاع عن المملكة.

حول أرض مصر

مصر أرض مستوية ودافئة، ونادراً ما تمطر هناك، لكن البلاد تسقى من قبل نهر جيحون، الذي يعرف باسم النيل، ولهذا النهر سبعة فروع تجري في مختلف المناطق، وفي النيل تنشأ الخيول البرية والتماسيح بأعداد لاتحصى، ويشبه التمساح العظاءة، حيث يمتلك أربعة أقدام، وأرجل قصيرة وغليظة، وفكين حـــادين مثل فكي الدب، ورأس مثل رأس العظاءة، وعندما يخرجون من الماء ويسيرون فوق اليابسة يقتلون أي إنسان أو حيوان قدروا عليه، وخروف أو جدي لايكاد يكفي أحدهم لوجبة واحدة. ويبدأ النيل بالفيضان في عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ويستمر حتى عيد تمجيد الصليب المقدس، ومن ثم يبدأ بالتناقص حتى عيد الغطاس، عندما تبدأ الأرض الجافة بالظهور، ويزرع الفلاح بذاره، ويكون الحصاد في آذار، ويجري جني مختلف أنواع الخضار ابتداءا من عيد القديس مارتن حتى أوائل شهر آذار، والشيء نفسه يحدث بالنسبة لفواكه الحدائق، وتحمل الأغنام والماعز وتلد مرتين في السنة.

وعليك أن تعرف أن هناك ثلاثة مدن اسمها بابل، أولاها قائمة على نهر الدجلة، فهناك كان نبوخذ نصر ملكاً، والثانية موجودة في مصر، وفيها كان يحكم فرعون، وهاتين المدينتين مدمرتين، والمدينة الثالثة، التي نتعامل الآن معها، موجودة أيضاً في مصر، ومتصلة بالمدينة التي اسمها القاهرة، التي يوجد فيها قصر السلطان الملكي، وهي مدينة بابل الجديدة نفسها، ويوجد في هذه المدينة خمسة شعوب هم: الرومان، والاغريق، واليعاقبة المسيحيين، والمسلمين، واليهود، ويوجد هناك كنيسة بطريرك لليعاقبة اسمها كنيسة سيدتنا سيدة لازا Laza ، وهي ذات جمال عجيب، وهي كنيسة بطريرك اليعاقبة، ويوجد فيها عمود، منه صدر صوت يقول:«اذهب وابحث عني.... هذا الرجل ينقل الجبال»،

ويوجد هناك أيضاً كنيسة مكرسة للقديسة بربارا، ويوجد الآن فيما بين بابليون والقاهرة خمس عشرة كنيسة مسيحية، الأولى بينهن هي الأكثر قداسة بين الجميع، ففي هذه الكنيسة بيعة موجودة تحت الأرض، فهناك يوجد المكان الذي سكنت فيه العذراء المباركة مع ابنها يسوع، ويوسف، وكان ذلك عندما هربت من أرض اسرائيل، ويوجد هناك صليب صنع بمثابة علامة للتدليل على المكان الذي اعتاد الطفل أن ينام فيه، وعلى هذا، هذه هي الكنيسة الأكثر قداسة بين الجميع، وهي أسمى مكانة من الكنائس الأخرى، واسمها كنيسة سيدتنا سيدة قانا في بابليون.

وكان يوجد في القاهرة شجرة نخيل معرقة بالقدم، وهي التي حنت نفسها، ونزلت إلى الأسفل إلى العذراء المقدسة، حتى تتمكن من جمع التمر وقطافه منها، ثم نهضت بعد ذلك، ووقفت كما كانت من قبل، ولقد قرأنا بأن برج بابل كانت مساحة إطاره الخارجي من طرف إلى الطرف الآخر ألفاً واحداً وعشرين خطوة، وأن سماكة سوره كانت ثلاثمائة خطوة، لأنهم قصدوا أن يبنوه حتى يحاذي القمر.

وتبعد غزة — أو غزرة — سفر ثلاثة أيام عن القدس، وهي إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة، وقد انتزع شمشوم أبوابها، وحملهم حتى ذروة رابية. وعلى بعد ثلاثة أيام عن غزة توجد مدينة دمياط، وهي مدينة مصرية، فهناك فيها رجم إرميا، والمدينة الثانية هي مدينة عكا، ذلك أنها تعدّ إحدى مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي تبعد عشرة فراسخ عن عسقلان وذلك باتجاه يافا، ليس بعيداً عن البحر، وتقع بير السبع بين المنطقة التلية وبين مدينة غزة. وكانت غاث أيضاً واحدة من مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي قائمة ليس بعيداً عن اللد والرملة، ومن خرائبها جرى بناء قلعة ابلين(يبنا)، وكان ذلك فوق التلة نفسها، وبلدة يبنا هذه وقلعة يبنا(كذا) هي التي كان اسمها في القديم بير

السبع، وقد بنيت قلعة تل الصافية لتوقف أذى العسقلانيين، والملك هيرود، الذي في أيامه ولد المسيح، كان من أهالي عسقلان، وعلى بعد ثلاثة أميال عن عسقلان تقوم قلعة تل الصافية، وعلى شاطىء البحر، ليس بعيداً عن عكا، تقوم يافا التي أقام فيها القديس بطرس تابيثا Ta-bitha من الموت.

(٣)

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته

حوالي

(١٤٨٠ ـــ١٤٨٣م)

القسم الأول

كتاب جولات الراهب فيلكس فابري ورحلاته

مدخل ·

وصف الراهب فيلكس فابري في إهدائه التكريسي الذي تاريخه ١٤٨٤، بعد عودته للمرة الثانية من الأرض المقدسة، كيف أنه سافر إلى هناك مرتين، وكيف سعى جاهداً أثناء ترحاله للوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه لإخوانه الرهبان، في دير أولم Ulm الدومينيكاني بأن يحتفظ بسجل تام ودقيق حول كل ما رآه، وما نزل به أثناء رحلته،وأضاف أنه «إلى جانب ذلك، بذلت في بعض الحالات جهداً كبيراً، لكي أكتب وصفاً دقيقاً وتاماً حول بعض الأماكن المقدسة التي لم أذهب قط إليها، لكنني لم أفعل ذلك دون أن أضيف:أنا لم أذهب إلى هذا المكان، بل سمعت حوله أو قرأت».

وتحدث عن نفسه في توطئة كتابه هذا، على أنه إنسان قد زار ثلاثة أرباع العالم المعروف آنذاك، وحيث أنه كتب قبل عشر سنوات من اكتشاف أمريكا، من المفيد أن نقرأ إشاراته إلى جزر التوابل، وإلى شهرة سيبانجو Cipango التي كان الوصول إليها عبر طريق قصير هو الهدف الأساسي لرحلة كولومبوس، وقد اعتذر أيضاً عن أسلوبه اللاتيني، الذي وصفه الأستاذ س.د.هاسلر Hassler الألماني الذي حقق كتاب رحلته، بأنه أسلوب سخيف الأساس في الـ"Epistolae abscurorum Virorum» ، وقال:كان من المتوجب وقوع كتابه في أيدي الكهنة الذين يهملون الانجيل والأنبياء ليفرغوا لقراءة فرجيل والشعراء اللاتين والخطباء، فوقتها ما كان لينجو من سخريتهم ونقدهم الشديد،لأن هؤلاء الناس يحبون روما الوثنية أكثر من القدس المسيحية، على الرغم من قول بعضهم:«إذا ما نسيتك ياقدس، لينشق

لساني في سقف حلقي»الخ.

ووصف مطولاً رغبته في رؤية الأرض المقدسة، ونقل عن توطئة القديس جيروم لسفر أخبار الأيام، أن الذي يبحر من طروادة إلى صقلية، سيكون بإمكانه أن يفهم بشكل أحسن القسم الثالث من كتاب الإنياد لفرجيل، وعلى هذا الأساس: إن الذي سوف يتمكن من رؤية اليهودية بعينيه، سوف يتملك رؤية أوضح ونفاذاً لما جاء في الكتابات المقدسة، واستطرد القديس جيروم يقول:«ولهذا تحملت أعباء الترحال خلال جميع أرجاء هذه المنطقة، بصحبة أفضل المتعلمين العبرانيين»، وهنا استطرد فابري يقول:«إذا كان القديس جيروم العظيم، الذي كان إنساناً عالي الفهم، ومثقفاً، رأى أن عليه زيارة الأماكن المقدسة، حتى يتمكن بصورة أفضل من فهم الكتابات المقدسة، ولاعجب على هذا إذا ما حاولت أنا ومن هو مثلي، بليد بطيء في الفهم، ببعض الوسائل الحصول على بعض من المعلومات الضئيلة عن الكتابات المقدسة، في الحقيقة إننا نرى في أيامنا هذه مجرد بعض الناس العلمانيين، الذين لايمتلكون معرفة عن الكتابات المقدسة، أنهم بعدما أدوا الحج إلى الأماكن المقدسة، وعادوا من هناك، صاروا قادرين على المناقشة حول الانجيل وحول الأنبياء والتحدث حول مواضيع لاهوتية، ويتغلبون أحياناً على بعض رجال الدين المتعلمين في تفسيرهم لبعض النصوص الصعبة في الكتابات المقدسة،لأنه ما من كاثوليكي قد عاد من هناك من دون أن يصبح متعلماً أكثر وبما أنه على هذا يعود الرجال العلمانيين من الأماكن المقدسة لاهوتيين، لايوجد شك أن رجال الدين من بعض الطوائف ورجال يمتلكون معارف قليلة، سوف يعودون متعلمين بدرجات ليست صغيرة، ولهذا السبب، ولأسباب أخرى كثيرة، شرحتها في مجريات إطرائي للأرض المقدسة، ولأسباب أخرى ليس من الضروري بالنسبة لي ذكرها، عزمت على التوجه إلى القدس، وثبتّ

وجهي نحوها، مثلما قيل عن الرب يسوع في لوقا:٩/ ١٥، وبقدر ما هو مسمـــوح لراهب أن يفعل، وربطـت نفسي بيمين أن أقـوم بالـرحلة، ويشهـد الرب أنني كنت لسنوات متحـرقـاً بلهفـة للقيـام بحجي، وهو الموضوع الذي كنت أفكر به دون سـواه سـواء أكنت مستيقظاً أو نائماً، وأقـول صادقـاً أنني وأنا منشغل بهذه الأفكار، بقيت مستيقظاً أكثـر من ألف ساعة من ساعات الليل ووقت الراحة.

فضـلاً عن هذا، لم يكن من السهل بـالنسبـة لي أن أطلب إذناً لرحلة طويلة جـداً، وجـولات غير اعتيـادية، وبدا لي أنه من المستحيل تقـريبـاً الحصول على هذا الاذن، كما أنه لم تكن لدي أيـة فكرة عن الطريقة التي يمكنني فيهــا تـأمين المال للانفـــاق على مثل هذه الـرحلة العظيمـــة التكاليف، ومع هذا لم أبـق بلا حـراك، وسألت نصيحـة عـدد كبير من الناس، ولم أجد سبيلاً لتجنب الاقامة في الوطن، وعلى كل حال، حملت نفسي أخيراً إلى الأمير المشهـور، كـونت إبرهارد Eberhard الأكبر أوف وورتمبورغ Wurtemburg، الذي كـان موجـوداً في الأراضي المقدسة منذ وقت طويل، والذي هو مرتبط بعهود الفروسية، حيث كان قـد تسلم شــارة الفـروسيـة في كنيسـة الضريح المقــدس، التي هي في القدس.

وطلبت الحصـول على نصيحته الفخمة، حـول كيف يمكنني القيـام بالحج، الأمر الذي تعهدت القيام به، لأنني كنت خائفاً، وشاعراً بالخطر على حيـاتي، كما أنني ارتعبت من البحـــر، الذي لم أره قط بعـد، والذي سمعت عنه الكثير، كما وكنت مـرعـوباً من مخاطر الحج الأخـرى، التي قــرأت عنهـا كثيراً جــداً، ولهذا سعيت إلى هنا وهناك للحصـــول على النصيحـة ، وبعدمـا استمع الكونت إليّ أجابني بشكل اعتيـادي قائـلاً: هناك ثلاثة أعمال في حيــاة الانســان، لايجوز لأحـد أن ينصـح آخـر أن يفعلهـا أو لايفعلهـــا، أولها هو إبرام عقـد زواج، وثانيهـــا الذهاب إلى

الحرب، وثالثها أن يقوم بزيارة الضريح المقدس، وأنا أقول بأن هذه الأعمال الثلاثة جيدة في ذاتها، لكن من السهل تحولها إلى سيئة، وعندما يحدث ذلك، فإن الذي أعطى النصيحة يمكن أن يصبح بسهولة ملوماً وكأنه هو السبب في تحولها إلى سيئة، وهنا استطرد الكونت العاقل يقول بأن الحج الذي أسأل نصيحته حوله هو عمل يمكن أن تكون له فضائله، وهو مقدس، وعمل محمود، ومفيد جداً، إنما فقط للذين يقومون به لحمد الرب وشكره، وهو في الحقيقة مليء بالمخاطر بالنسبة للذين يقومون به عبثاً أو غواية، حيث يكون هدفهم التفاخر في هذا العالم، أو أي أمور فارغة وزائلة أخرى.

وزرت أيضاً نبيلاً آخر كان فارساً حسناً، كان أيضاً قد تلقى شارة الفروسية منذ سنوات طويلة مضت في الضريح المقدس، وسألته ما الذي يمكن أن يشير به عليّ بالنسبة لهذه المسألة، فأجابني من صميم قلبه مباشرة وهو منفعل قائلاً:كن متأكداً ياأخي، لولا أنني معاق بتقدم السن، ما من شيء يمكنه أن يمسكني ويحول بيني وبين العودة للقيام بحج آخر، لأنني لم أتلق النعمة من الرب بمثل القدر الواسع الذي تلقيته في الأماكن التي صُنع بها خلاصنا، لأنني كنت حيثما أخذت نفسي للصلاة ، وأدرت تفكيري، كنت أرى السموات مفتوحة، والعذوبة الربانية والسلوى منصبة على روحي، وهو أمر لانظير له في مكان آخر.

ومضيت بعد هذا إلى واحد من ديرة الراهبات، والتمست الحصول على إذن راعية الدير حتى أتحدث مع فتاة من الراهبات معروفة بتقواها، وتمتعت — كما اعتقد كثيرون — بقداسة استثنائية، وكنت قد تحدثت معها مراراً من قبل حول تنويري وتثقيفي، غير أنني لم أر وجهها من قبل، وأبحت لهذه الفتاة خطتي، فأجابت بسرور غير متوقع قائلة:«أسرع، أسرع في إنجاز رحلتك التي تنوي القيام بها، ولاتقم هنا

أية مـدة أطول، وليكن الرب رفيقك على طريقك»،وتلقيت كلمات هذه الفتـاة، وكأنهن جئن من السماء،وبدأت على الفـور بالاعـداد لجولاتي ورحلاتي، وكان في تلك الآونة في الدير التابع لطائفتنا في روما، والقائم فوق معبد مينيرفا راهب من بلادنا، وهو صديق لي ولي به معرفة جيدة، وله كتبت مخبراً عن نيتي، والتمست أن يحصل لي على إجـازة من أبينا الأعظم قـداسة، البابـا سكتوس Sixtus الرابع، ومن القـائد العـام لطائفتنا المحترم الأب ليـونارد دي مـانسـوتي Mansuetis أوف بيرسيوم Perusium ، الذي بدون الحصول على إذنـه أولاً، ما من أحد في بلادي سيمنحني إجازة بالارتحال، وقام هذا الراهـب، كصديق جيـد، دونما إبطاء، وبسرعـة، بالحصـول على الذي طلبتـه، وبعث إلي برسالة إجـازة موثقة من القـائد العام لطـائفتنا، حيث حذر جميع الناس أن مـا من واحد أدنى منه مـرتبـة يحق له التدخل لإعـاقتي، ومنعي من القيام بهذا الحج.

ولدى تسلمي لهذه الرسـالة، بعثت بنسخـة عنهـا إلى الأب المحترم لمنطقتنا الاقليميـة، وإلى الحكيـم اللاهوتي لـودويغ فـوشي Ludwig Fuchs ، راعي دير أولم، وأريتهما إجـازتي التـي حصلت عليهـا من السيـد البـابا، ومن مقدم طائفتنـا، ورجوتهما أن يقـومـا مثلهما بالتفضل بإعطائي مـوافقتهما، ولدى رؤيتهما رغبتي الشـديدة بالذهاب، لم يكتفيـا بإعطائي موافقتهما، بل منحاني مـالاً ومساعدة من أجل الرحلة، وهكذا حدث أن أصبحت خـلال عدة أيام قليلة وبتّ مـزوداً بشكل رائع بكل مـا هو مطلوب لمثل هذه الرحلة العظيمـة، وعندما بلغ هذا إلى مسـامع أحد النبـلاء والفرسان الشجعـان، اللورد أبوليناريس فون ستين Apol-linaris Von Stein ،الذي كان آنذاك حاكـم بافاريا العليا، ومقيماً في بلدة غندلفنجن Gundelfingen ، أمـر بإحضـاري إليه، وعهـد إليّ بالعناية بابنه السيد جـورج فون ستين، الذي قرر إرسـاله إلى القدس

ليتلقى شارة الفروسية هناك، ووعدني بالتعويض عن جميع نفقاتي، مع أعطيات فوقهن، ورعايته المستقبلية، إذا ما وافقت على أخذ ابنه كمرافق لي في رحلتي.

وقدمت موافقتي عن طواعية لهذا السيد النبيل، واتفقت مع السيد جورج على يوم حددناه، حيث يمكنه أن يجدني فيه في بلدة ميمنجن Memmingen ، فمن ذلك المكان، وفي ذلك اليوم يمكننا أن نبدأ رحلتنا، وبعدما قمت بهذه الترتيبات عدت إلى أولم».

وصف موجز لرحلة الراهب فيلكس فابري الأولى إلى الأرض المقدسة

في أيام الاحتفـال بعيـد الفصح، في سنة ١٤٨٠ لتجسيـد ربنا، وفي اليوم التاسع من شهر نيسان، الذي كان يوم أحد، وهو اليوم الثامن بعد عيـد الفصـح، وهو الذي فيـه يغنى« Quasi modo » الخ في الكنائس، والذي يحتفل فيـه أيضـاً بعيـد تكريس كنيسـة الدومينيكان في أولم، في ذلك اليوم نفسـه، بعد الغـداء، وحسبما جرت العـادة، صعدت المنبر، ووعظت الناس الذيـن كـانوا مـوجـودين بـأعـداد كبيرة، لسماع القداس وللحصول على الغفران، وبعدما أنهيت قداسي، وقبل الاعتراف العـام الذي يقـوم به الناس في مثل هذه المناسبـات، أخبرتهم جميعـاً عن الحج الذي كنت على وشك الشروع به، وسـألتهم جميعـاً، والتمست أن يطلبـوا من الرب في صلواتهم لي عـوداً سليماً، وأن يغنوا معي في ذلك الوقت بسرور مـزمـور قيـامـة الرب، الذي اعتـاد الناس على غنائـه مع بعضهم، مع مزمـور الحجاج بالبحـر، وبعدما قلـت هذا، شرعت أُنشد بصـوت مـرتفع«قـام المسيح»الخ، وعندمـا انتهت هذه الترنيمـة، غنيت مجدداً:

In gottes Nahmen Fahren wir, Seiner gnaden ،

وغنى جميـع الناس الترنيمـــة ورائـي، وهي التـي شرعت بها، غنـوها بأصـوات مرتفعـة وجميلة، وكـرروا ما غنوه مـراراً وتكراراً، كما أنهم لم يضبطوا أنفسهم عن البكاء، وانفجر بعضهم بالبكاء بصوت مرتفع بدلاً من الغناء، لأنه كـان هناك عـدد كبير من الأشخـاص من كـلا الجنسين قلقين ومتوترين، وخائفين، مثلما كنت أنـا نفسي خائفاً من الهلاك وسط هذا القـدر من المخـاطر المرعبـة، وعندمـا انتهى الغناء أودعتهم لعناية

الرب، بأن أضفيت عليهم غفراناً عامــاً، وقويت عــزائمهم بشارة الصليب، وودعتهم، ونزلت من على المنبر.

وبعـدما تلقيت في الصباح الباكر من اليوم الرابع عشر من نيسان المباركة التي تعطى إلى الذين على نية السفر، وبعدما قبلت إخواني وعانقتهم، ركبنا على خيولنا، أنا والمقدم المحترم لودويغ، مع خادم من مدينة أولم، حيث التقيت وفقاً لموعدي مع السيد أبوليناريس فون ستين، وبصحبته ابنه جورج، وعدداً كبيراً من الجنود المسلحين، وعلى الفور أجرينا في اليوم التالي الاستعدادات للمغادرة، وودع الشاب النبيل أباه، وجميع أقربائه وحاشيته، وركب فرسه دونما وجل أو أسى، واندفعت أنا أيضاً إلى بين ذراعي أبي الروحي اللطيف جداً والمحبوب، أطلب منه الوداع، والمباركة الأبدية، إنما ليس من دون حزن وأسى، ظهر منا كلانا بوساطة كثير من الدموع والتنهدات، ولم يكن هناك شيئاً عجيباً حول هذا، لأن الفراق الاجباري للابن عن أبيه وللرجل الصادق عن أصدقائه المخلصين، من الطبيعي هو محزن.

وفي أثناء عناقي وتنهداتي سمعت آخر كلمات أبي المحبوب جداً ونصائحه، بأن لا أنساه في الأرض المقدسة، وأنه إذا ما توفر رسول، بأن أرسل له رسالة من البحر، أخبره فيها عن أحوالي، لكي يتأكد من عودتي سريعاً، وهكذا تركني وهو آسف جداً، وعاد مع خادمه إلى أولم، إلى أبنائه الذين هم أخواني، وبعد مغادرة أبي، استولى عليّ إغواء لايمكن مقاومته، بدلاً عن رغبتي الجامحة لرؤية القدس، والأماكن المقدسة، التي كانت تتوهج في داخلي حتى ذلك الحين، فقد ماتت كلياً في داخلي، وشعرت بأنني أكره السفر والترحال، والحج، فالذي بدا لي حلواً وفضيلاً، ظهر الآن أنه مرهق، ومؤلم، وبلا فائدة، وفارغ وأثيم، وكنت غاضباً من نفسي لإقدامي على الترحال، ونظرت إلى جميع الذين حاولوا ثنيي عن القيام بالرحلة، بأنهم أحكم المستشارين، وأوثق

الأصـدقـاء، وفي الوقت نفسـه عـددت الذين شجعـوني أعـداء حيـاتي، وصرت أرى أنني سأتمتع أكثـر برؤية سـوابيـا من رؤية بـلاد كنعـان، وبدت أولم إليّ أكثر جمالاً من القـدس، فضلاً عن هذا ازداد الخوف من البحـر في داخلي وتضـاعف، وشعـرت بكثير مـن مشـاعـر المعـارضـة والرفض لذلك الحج، إلى حـد أنه لـولا الخجل، لركضت خلف المقـدم لودويغ، وعـاودت الدخـول إلى أولم معــه، وكنت سأشعــر بالسرور الأعظم لفعل ذلك.

وبقي هذا الاغـواء اللعين معي مـوجوداً طوال الرحلـة كلها، وكـان مـزعجـاً جـداً لي، لأنه ذهب بكل السرور، والمتعـة، والرغبـة، فبـذلك يدعم الحاج جهـوده، وذلك يحثـه على الاستمـرار بعمله، وقـد جعلني باهتـاً وبليـداً في كل من مشـاهـدة الأمـاكن الجديرة بالاهتمام في البحـر والبر، وفي كتـابة رواية عنهم، وكان الذي كتبتـه هو ضد مـزاجي، لكن نجحت أحياناً في التغلب على سئمي بالعمل المرهق.

وعلى هذا انطلقت أنا والشـاب السيـد جـورج، وخـادم اختـاره من حاشيـة أبيه، وأقلعنا من ميمنجن، وفي خـلال عدة سـاعات بدأ يصبح صديقاً لي، وعـارفاً بي، وصرت أيضاً أنا صديقاً وعـارفاً به، وقد توافقنا بطباعنا المتنوعـة معاً بشكل جيد، وهذا أمـر مريح جداً للذين يقـومون بالحج مع بعضهم، لأنه إذا مـا كـان مع الانسـان رفيق على غير وفـاق معه، سيلفهما الأسى والويل طوال حجهما.

وهكذا دخلنـا إلى الألب مبتهجين حتـى انسبروك Innspruck ، وبعد مغـادرتنا لذلك المكان، ركبنا وتقدمنا مسرعين، من أجل أن نصل في أقرب وقت إلى البندقيـة، وعندما كنا في الجبال، حـدث حادث معنا أرغب في إخبـاركم عنه، فعندمـا وصلنا إلى قرية اسمهـا أدسكالام Ad Scalam، شردنا هناك وابتعــدنا عن طريقنا الصحيـح، الذي هو الطريق الملكي العام، لأنه كان مـن المتوجب علينا تسلق الجبل، والعبور

من قـرب القلعة القائمـة على قمته، وعلى كل حـال نحن لم نفعل ذلك، بل خلفنا الجبل والقلعة على جـانبنا الأيسر، ونزلنا إلى وادي، من خلال طريق طويل، وممهـد بشكـل جيـد، وعندمـا تملكنا أخيراً إمكانيـة رؤية السهل القائم تحت الجبل، رأينا أمامنا بلدة ذات حجم جيد، الأمر الذي أدهشنا، لأننـا لم نكن نعلم بـأننا سنصل إلى أي بلـدة في ذلك اليــــوم، وعندما وصلنا إلى تلك البلدة وجدنا أنها كانت باسانو Bassano ، وأدركنا بأننـا شردنا عن طريقنـا، وبقينا على كل حــــال هناك لمدة ليلة، وشربنا نبيذاً أحمر، هو الانتـاج الخاص لذلك المكان، وظللنا نفعل ذلك حتى غلبنا النعاس، وكنا على كل حال غير مرتاحين مطلقاً، لأنه لم يكن هناك في النزل أحـداً يمكنه التحـدث بالألمانيـة معنا، وبما أننا كنا نجهل الايطالية، توجب علينا أن نسأل عن كل شيء بالاشارة.

وركبنا في اليـوم التـالي إلى قلعـة فـرانكـو، ومن هناك مـررنا خـلال تريفيسو Treviso ، حيث بعنا خيولنا، وتابعنا السفر على البغال إلى مرغيروم Margerum ، وفي مرغيروم قلنا لليـابسة وداعاً، وسـافرنا بالبحر في بارجة، حيث أبحرنا حتى البندقية ثم إلى فونداكو دي تديتشي Fondaco de Tedeschi ، وسألنـا في فــونـداكــــو عـن نزل للفرسـان والحجاج، وأُخذنا من قبل واحـد من الألمان إلى نزل القديس جورج، الـذي كان نزلاً واسعاً ومحترمـاً، ووجدنا هناك عـدداً كبيراً من النبـلاء من مختلف البلدان، كلهم قـد ربطوا أنفسهم بالتعهدات نفسهـا مثلما فعلنا نحن شخصيـاً، وكـانوا ينـوون عبـور البحـر، وزيارة ضريح الرب يسوع الذي هو أعظم الأضرحة قـداسة، وكان هناك أيضاً بالنزل الأخــرى كثير من الحجــاج من كل مـن الكهنة والرهبــان والرجـــال العلمانيين، والأعيان والعـاديين، من ألمانيا،وغاليـا وفرنسـا، وكان هناك بشكل خاص أسقفان، وهما مـولاي أسقف أورلين، ومولاي أسقف لى ـــ مـانس، مع حـاشيـة كبيرة من التـابعين والخدم، ولقـد كـانوا هناك

ينتظرون إبحار إحدى السفن، وفضلاً عن هذ كان هناك معنا بعض النسوة المتقدمات بالسن، وكن عقيلات ثريات، عددهن ست، يرغبن بعبور البحر إلى الأماكن المقدسة، وكنت مندهشاً تجاه شجاعة تلك النساء العجائز، اللائي كن بسبب تقدمهن بالسن بالكاد قادرات على القيام بأود أنفسهن ومع ذلك نسين ضعفهن، والتحقن من خلال حبهن للأرض المقدسة بفرسان شباب، وتحملن أعباء ومتاعب الرجال الأقوياء.

وعلى كل حال لم يكن النبلاء المتكبرين راضين عن هذا، ورأوا عدم النزول في السفينة التي سوف تسافر بها هؤلاء السيدات، عادين أنها إهانة بالنسبة لهم السفر وتلقي شارة شرف الفروسية برفقة نساء عجائز، وحاول أصحاب هذه الأرواح المتشامخة إقناعنا بعدم العبور في السفينة التي عزمت النساء العجائز على الابحار فيها، لكن الفرسان الآخرين من ذوي الضمائر عارضوا هؤلاء الرجال المتشامخين، وكانوا سعيدين بحضور أولئك النسوة الصبورات، وكانوا يأملون أن قداستهن سوف تجعل رحلتنا آمنة أكثر، وعلى هذا الأساس تفجر نزاع لايمكن فضه بين هؤلاء النبلاء، وقد استمر حتى نقل الرب أولئك الرجال المتشامخين من بيننا، وعلى كل حال هؤلاء النسوة التقيات بقين برفقتنا في كل من أثناء الذهاب إلى هناك، ثم في أثناء العودة.

وكان الآن السيد أوغسطين كونتاريني Contarini ، الذي معنى اسمه هو«كونت الراين»، وهو نبيل بندقي، كان ذاهباً ليأخذ شحنة من الحجاج، واتفقنا معه حول الايجار، واكترينا غليونه، وتسلمنا منه قمرات وأغطية، أي أماكن لكل واحد منا للنوم في الغليون، وأملنا بعبور سريع، ذلك أننا انتظرنا أياماً كثيرة، كان الغليون خلالها يعدّ من أجل البحر، لكن عندما كان كل شيء جاهزاً، ولم يبق شيء لعمله سوى الاقلاع، الذي تشوقنا كثيراً إليه وللقيام به، وصلت سفينة، حملت

أخبـاراً سيئة، بأن امبراطور الأتـراك محمـداً الكبير كـان يتـولى حصـار جزيرة رودس بحـراً، بأسطول كبير في البحر، وبجيش شـاكي السلاح من الفرسان والرجّالة براً، وأن بحار: الإيجي، والكارباثيان Carpath-ian ، والماليـان Malean كـانت تعج بـالأتراك، وأنه على ذلك من غير الممكن القيـام خـلال هذا العـام بعبـور الحجـاج إلى الأرض المقدسـة، ولن يكون سهلاً بالنسبة لي الحديث بأي أسف تلقى الحجاج هذا الخبر وسمعوه، وسيكون مـرهقاً بالنسبـة لي الحديث عن الفوضى، والخلافات والنزاعـات التي تفجرت بين صفـوف الحجاج، وقمت على كل حـال في عمل آخـر، بوصف جميع المصـاعب التـي كـابـدناها في البندقيـة، وكيف انفصـل الفـرنسيـون عنا، مع أنهم كـانوا ينتمـون إلى غليـوننا، واجتمعنا الآن نحن الحجاج الألمان، مع بعضنا، وقـابلنا رئيس مجلس شيـوخ البندقيـة، مع التماس بأن يتكرم اللـوردات هناك بحماية غليوننا مع إعطائه أمـاناً بالمرور، حتى لايؤخذ من قبل الأتراك، ونؤخذ نحن معـه أسرى، وتلقينـا لالتماسنا جـواباً، بأن الغليـون بذاته يمتلك الحرية بـالجواز بين الأسطول التركي، ويمكنه القيـام بـذلك، دون أن يتعـرض للاستيلاء عليـه بفضل المعاهدة بين الأتراك والبنادقـة، غير أن اللوردات كـانوا على غير استعداد لإعطائنا أية ضمانة، فيما يتعلق بحـرية الحجـاج، ولم ينصحـوا بمحاولة العبـور هذا العـام، لكن إذا كنا جميعـاً مصرين على الذهاب، يمكننا الابحار حتى جزيرة كـورفو، حيث يرسو قائـد البحر مع أسطول البنادقـة، ويمكننا هناك أن نتبع بأمـان نصيحته، لأنه يعـرف جميع أعمال الأتراك، وعندمـا وافقنا على فعل هذا، أعطونا رسـائل توصيـة إلى القائـد المتقـدم الذكـر، وأذنوا لنا بالذهاب، وزودوا قبطان سفينتنا بإذن لأن يأخـذنا إلى البحـر، مع أنهم من قبل كـانوا قـد منعوه من أخذنا إلى أي مكان.

وبناء عليـه صعـدنا جميعـاً من حجاج وسـواهم على ظهـر الغليـون،

وكان عدد الحجاج مائة وعشرة، وكان تعداد الناس جميعاً الذين أقلعوا بالغليون ثلاثمائة وثلاثين، ورفعنا مراسينا، ونشرنا أشرعتنا، وأقلعنا باسم الرب، وأبحرنا أمام الريح، التي كانت لطيفة بها فيه الكفاية، وهكذا سرنا في خلال ساعتين مسافة جيدة حيث ابتعدنا عن اليابسة، وصرنا في أعالي البحار، وعلى كل حال لم تستمر ريحنا الطيبة طويلاً، ورسونا في اليوم الثالث في بارنشيا Parentia (Parenzo)

الموجودة في منطقة استريا Istyria التي هي جزء من مملكة دلماشيا.

وأخافنا الناس هناك. بإخبارنا حكايات مرعبة عن الأتراك، ولهذا مكثنا هناك لعدة أيام، لأنهم أخبرونا أننا لن نستطيع الوصول إلى جزيرة كورفو دون التعرض للأذى،لأن الأتراك قد نشروا أسطولهم فوق جميع البحر الأدرياتيكي، واصطادوا واستلبوا جميع الذين قابلوهم، وعلى كل حال غادرنا ذلك الميناء، ووصلنا بعد إبحار بطيء لعدة أيام إلى زارا، ورسونا فيها، وهي مدينة في دلماشيا، إنما لدى سماعنا بأن الطاعون كان متفشياً هناك، ابتعدنا بسرعة عن تلك المدينة، وبعد رحلة بطيئة ومملة وصلنا إلى مدينة ليسينا Lesina ، وعندما كنا على وشك الدخول إلى الميناء، هبت ريح طيبة، لها نشرنا أشرعتنا، وغادرنا ليسينا، وتابعنا الابحار بشجاعة لمدة عدة ساعات، وهبت بعد ذلك ريح هادئة، كانت غير مفيدة بالنسبة لنا، فأردنا التوقف، فأتينا إلى جزء وعر ومهجور من شاطىء كراوشيا Croatia ، وأرغمنا على التوجه نحو ميناء مهجور، و لأن نطوي أشرعتنا في وسط جبال وعرة عالية، ولكي نبدل الأجواء على أنفسنا، ذهبنا إلى الشاطىء بقوارب صغيرة، وفوجئنا بأن رأينا هناك فوق الرمال جسداً قد قذف به البحر، وهو مشوه ومتعفن، وبما أن البحارة كانوا من ذوي الوهم، فقد خافوا إلى حد الموت من هذا الاكتشاف، وبدأوا يتوقعون وقوع الشرور بالنسبة لنا، وأبعدونا عن

الجسـد، ولذلك لم يكن هناك أي واحـد بيننا من امتلك شفقه نحـوه أو تولى دفنه.

* * * * *

هذا وتهب رياح هذه البـلاد أعلى فأعلى، ولقـد بقينـا لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليـالي واقفين راقـدين بين هذه الصخـور، وكنا كلما حـاولنا الانطلاق، كنا نسـاق إلى الوراء عـائدين بقـوة الريح، مما كـان يسبب إزعاجـاً عظيماً لنا جميعاً، وعلى كل حـال لقد أنقذنـا هذا الازعاج، لأنه بعد ثلاثة أيـام هبت ريح لطيفة خارج ذلك المكان، وأخـذنا طريقنا إلى أعـالي البحـار، حيث التقينا بغليـون حـربي بندقي، وعندمـا مـرّ بنا هذا الغليـون، سأل قادتنا عما إذا «حـدث لنا أي شيء في البحـر البارحـة أو قبل البارحة»، وعندما أجبناهم: «لاشيء سوى رياح خبيثة أرغمتنا على اتخاد ملجأ تحت الجبال» فأجابونا: «بوركت هذه الرياح التي دفعتكم إلى أمـاكن للاختبـاء، لأنكم لو كنتم البـارحـة في عـرض البحـر المفتـوح، لوقعتم في أيدي الاسطول المسلح للأتراك، الذي كان مبحراً نحو أبوليا لينهب المسيحيين هناك»، ولـدى سماعنا بهذا حمدنا الرب الـذي أنقـذنا حتى الآن من أيدي الأتراك.

ومضينا على طريقنـا، ووصلنا بعـد عـدة أيام إلى كـورزولا Cur-zola في إيليريا Illyria ودخلنا إلى مينـاءمـدينـة كـورزولا في الصبـاح البـاكر، وسمعنا قـداسـاً هناك، وكـورزولا التي هي مـدينة في إيليريا لها اسم آخـر هو «بريبو في ألتـو Prepo in alto» ، وهي مبنية فوق جبل مرتفع، وهي صغيرة، ومع ذلك مكتظة بالسكان، وهي تحت حكم البندقيـة، كما أنها جيـدة التحصين بالأسـوار والأبراج، وهي مقر أسقف.

وكان السكان جميعاً في حالة رعب عظيمة، من الأتراك الذين رأوهم

يومياً يجوبون البحر بحثاً عما يمكن نهبه، فهم قد ينقضون عليهم، وتساءلوا مندهشين كيف يمكن لنا أن نغامر بالإبحار فوق بحر مرعب وخطير إلى هذا الحد، ونصحنا الأكثر حكمة بينهم بالعودة، غير أننا لم نصغ إليهم، وعاودنا الاقلاع، بعدما اشترينا من هذه المدينة الخمرة، والخبز، وأشياء ضرورية أخرى، وحدث أنهم عندما كانوا يحركون قلع السارية ويرفعونه بدون انتباه من قبل واحد من البحارة، سقط ثانية، فأصاب بحاراً آخر، فقتله في مكانه، وكان مولاي أسقف مانس واقفاً إلى جانب هذا القلع الخطير الذي سقط هناك، وكنت أنا إلى جانبه مع آخرين كثر، وكنا جميعاً على وشك أن نصاب به وأن نقتل، وأما بالنسبة للرجل القتيل فقد لفوه بكفن، وربطوا حقيبة مليئة بالحجارة إلى قدميه، ورموه إلى البحر.

وأبحرنا مسرعين من كورزولا، ووصلنا في حوالي منتصف الليل إلى ايبيداروس Epidaurus، التي اسمها الحديث هو راغوثا Ragusa، وتوقفنا في راغوثا، وألقينا بمراسينا، وأوقفنا سفينتنا ونمنا حتى شروق الشمس، ودخلنا المدينة بعد ذلك، غير أننا لم نجد فيها نزلاً مثلما الحال في بلادنا، وبناء عليه ذهبت أنا مع السيد جورج ستين، وبعض النبلاء الآخرين إلى دير تابع لطائفة الدومينيكان، وسألناهم إعطاءنا شيئاً لنأكله مقابل مال ندفعه، وقد جلبوا لنا ميرة جيدة مع دن خمرة سكلافونية Sclavonian كبير، وعاملونا بشكل لطيف.

وجاء رئيس الدير على الفور، جالباً معه اثنين من الرهبان، هما الراهب فرانسيس دي كاتورو Catoro، والراهب دومونيك، وقد عهد بهما إليّ، وأعطاني إياها ليكونا رفيقي في رحلتي، وذلك لأنهما رغبا بالذهاب إلى القدس برفقتنا، ولقد سررت نحو هذا بشكل خاص، لأنني حتى ذلك الوقت كنت بلا واحد من رهبان طائفتنا، وكانت رفقتهما بالنسبة لي مرغوبة أكثر من الذهب الجيد، وبعدما فرغنا من

تناول طعامنا، ورأينا الدير، تمشينا في أرجاء المدينة ورأيناها، ومثل هذا فعل بقية الحجاج، ولقد رأينا بأن تلك المدينة كانت محصنة بشكل رائع بأبراج وبخنادق عميقة جداً، كان الناس يحفرونها آنذاك، وعجبنا لهذا، وسألناهم عما إذا كانوا هم أيضاً يخشون من التركي، مع أنهم يدفعون الجزية إليه، فأجابوني قائلين: «نحن نخاف منه دوما، ونقوم بتحصين أنفسنا ضده، لأنه وإن كان صديقنا اليوم، سوف يكون عدونا غداً»، وقد وجهوا اللوم إلى تشوقنا للمغامرة فوق البحر في مثل ذلك الوقت المرعب، وذلك في وقت لم يتجرأوا فيه على اظهار أنفسهم في البحر، وحاولوا إقناعنا بالبقاء هناك حتى تأتي أخبار أفضل، ولسوف أصف هذه المدينة والأماكن الاخرى في روايتي لدى عودتي من حجي الثاني.

وعلى كل حال عندما تأخر النهار، صعدنا إلى ظهر غليوننا، وشرعنا منطلقين من ميناء راغوثا في ذلك المساء مع ريح طيبة، وقطعنا مسافة طويلة تلك الليلة، وعند بزوغ الفجر هبت ريح معاكسة قوية، أخرجتنا عن مسارنا الصحيح، ودفعتنا نحو أبوليا، التي رأيناها أمامنا، ولم يستطع بحارتنا ببراعة ضبط مسار سفينتنا لكي نصل إلى الشاطىء عليها، وهكذا وصلنا بعد ابحار طويل إلى جزر نموزا بولس Gqzap-olis، وهناك لم يكن لدينا ريح، كما أننا لم نتحرك، إلاّ بواسطة العمل الكسول للمجاذيف بواسطة البحارة، والمهم أننا تابعنا الزحف ببطىء والتقدم نحو الأمام.

وهكذا وصلنا إلى مكان حيث توجد مدينة فوق جبل، وهي مشرفة على البحر، وكانت مسورة بشكل جيد، لكنها كانت مهجورة تماما بسبب تنفس تنين، وذلك حسبما سأصف ذلك فيها بعد، ووصلنا بعد هذا، بعد رحلة مربكة بين جبال عالية، إلى جزء من البحر، بقي الغليون فيه مثبتاً فوق سطح الماء، ولم يكن بالإمكان تحريكه بالمجاذيف لا إلى اليمين ولا إلى الشمال، بل بقي— كما قلت— ساكناً بلا حراك، لأنه

كـان تحتـه وهدة، يسمونها «متـاهه»، أو فتحـه في الأرض، كـانت تبتلع شطراً كبيراً من البحـر، وحيث كـان الماء يجري نحـو الأسفل في داخل هذه المتـاهة، لهذا وقف الماء فـوقهـا، منتظراً سقـوطه إلى داخل المتـاهة، وعندمـا لايكون في ذلك البحــر مـاءً كثيراً، يدور الماء، وكل من يحاول السبـاحـة فـوقـه هو معـرض لخطر الغـرق، وفي الحقيقـة كـانت السفن معـرضـة للابتـلاع هناك، لولا أن الذين يحركـونها تجنبـوا ذلك، وهكذا وقفنا بلا حراك في ذلك المكان، وبذل بحارتنا جهدهم بأصوات مرتفعة مع كثير من العمل لإخراج الغليـون من هذه الوهدة، غير أن جهودهم تبددت عبثاً.

وعلى كل حال، عندما رأى أهل كوركيرا Corcyra هذا— حيث كنا في مـدى الرؤية لجزيرة ومـدينة كـوركيرا— قـدمـوا لمسـاعـدتنا من كوركيرا، أو كـورفو بغليـونين صغيرين، وقد ربطوا حبـالاً إلى غليوننا، ومدوهم إلى غليونيهما، وتمكنوا بالتجـديف بغليونيهما، وبقوة عظيمة من سحب غليـوننا من بين فكي الوهدة، وذلك خشيـة أن تبتلعنا الأعماق، وبعدما جرى انقاذنا على هذه الصورة، تابعنا سيرنا إلى جزيرة كوركيرا، ودخلنا إلى ميناء المدينة بعـد غيـاب الشمس، الذي كـان مليئاً بالسفن الحربية، لأن— كما تقدم للوردات مجلس شيـوخ البندقية أن أخبرونا— قـائـد البحـر كـان هناك، مع اسطول مسلح للحفــاظ على السـلام في البحـر،وهكذا نمنا حتـى الصبـاح، وعند ظهـور الصبـاح ذهبنا إلى الشـاطىء ومـن ثم إلى المدينة في قـوراب صغيرة، ووجـدنا المدينة تعج بالناس، حيث كان بينهم كثير من الأتراك يسيرون هناك بين المسيحيين، وبعد سماعنا لقـداس هناك، قمنا نحن الحجاج السـوابيون والبـافاريون باستئجار بيت صغير في الضاحية وهناك طبخنا، وأكلنا، وشربنا، ونمنا.

وكـان ذلك البيت صغيراً، مبني مـن جـذوع أشجـار قـديمـة جـداً، وجافـة كثيراً، وهكذا حدث أنه نتيجة للنار العظيمـة التي أوقدناها من

أجل الطبخ هناك، أن المكان التهب مرة تلو أخرى، ولقد استطعنا دوما اطفاء تلك النار، ولذلك لم نواجه أية اضطرابات بشأنها، ولكن لدى حدوث ذلك للمرة الثانية، شاهد الجيران النار وقد أمسكت بالسقف، فركضوا وهم يصرخون ويندبون، وفي الوقت نفسه صعدنا فوق السقف، بواسطة سلالم، وانتزعنا الأطعمة من وسط اللهب.

وكنا في تلك المناسبة في خطر عظيم، لأن النار لو جمعت قوتها لكان المكان كله قد احترق، ووقتها كان السكان الإغريق في كوركيرا قد ضحوا بحياتنا انتقاماً لأنفسهم لفقدانهم بيوتهم، وخسارتهم لها، ذلك أنهم كانوا في الحقيقة عدوانيين جداً نحو الألمان، ومن السهل كثيراً إثارتهم لمقاتلتهم.

وبعدما تناولنا الطعام، قدمنا باحترام الرسالة التي تسلمناها من شيوخ البندقية، إلى قائد البحر،ورجوناه أن يقدم لنا نصيحته ومساعدته للاستمرار برحلة حجنا، ونصحنا، بعدما قرأ الرسالة، بالعودة إلى البندقية، ولكنه عندما أدرك أن هذه النصيحة كانت مفجعة بالنسبة لنا، قال وهو مغضب: «أية حماقة تملكتكم، حتى أنكم تريدون تعريض أنفسكم لمثل هذه المخاطر، تعريض كل من أجسادكم وأرواحكم، وتعريض حياتكم وممتلكاتكم؟، انظروا إلى البحر، إنه مغطى بالأتراك المتوحشين، حيث لاتوجد فرصة لنجاتكم من بين أيديهم، عودوا إلى البندقية، أو أقيموا في واحد من المراسي البحرية حتى تأتي أخباراً أفضل، وإذا ما كنتم مصرين تمام الاصرار على الذهاب إلى الشرق، عليكم أن تتدبروا بأنفسكم عبوراً لأنفسكم، ذلك أنني لن أسمح للغليون الذي قدمتم به بالابحار إلى هناك، لأنه من ممتلكات القديس مرقص».

وعندما سمعنا منه هذا كنا منزعجين جداً، وانصرفنا من حضرته، وطلبنا منه منحنا بعض الوقت للتشاور، وبناء عليه انعقدت عقول

كثيرين، ولاسيما الأسقفين، وأخذا بكلام القائد، وهكذا قررا العودة إلى البندقية مع جميع حاشيتهما، وكان حتى بعض من فرساننا مرعوبين، وكانوا جاهزين للعودة، لكن آخرين كانوا شجعانا فلم يتزحزحوا، والتحقت شخصياً بالمجموعة الأخيرة، وعملت بقدر ما أستطيع على تشجيع وتحميس الأفراد المترددين، بوعظهم وباقتباس بعض النصوص من الكتابات المقدسة بهدف بعث الأمل فيهم بنيل الحماية الربانية.

وحدث في بعض الأيام، عندما كنت غائباً، أن قام السادة الفرسان في جماعاتنا وأخذوا يتحدثون عن مخاوف حجنا، وكان بعضهم ماضياً بالحديث، بينما كان آخرون مترددون ووقفوا صامتين، وقد قال أحدهم:« عليكم عدم الاصغاء مطلقاً إلى كلمات التشجيع التي يقولها الراهب فيلكس لكم، فما الحياة أو الموت بالنسبة له؟ فهو راهب محترف، ليس لديه ممتلكات، ولا أصدقاء، ولا مركز في الحياة، ولا شيء آخر في العالم، مثلما حالنا نحن، وأسهل بالنسبة له أن يموت سريعاً بسيف الأتراك أو المسلمين، من أن يصبح مسناً في ديره، حيث يموت يومياً»، وقد قال أكثر من هذا بكثير محاولة منه لمنع السادة من الاصغاء لي.

وقد أخبرت بهذا كله، فقمت بعد ذلك بتحويل مجرى الحديث، في أن أضع بعض الشجاعة في الفارس نفسه لكي لايمكن اقناعه بالعودة، وأبقانا القائد في كوركيرا لمدة ثمانية أيام، وقد أخبرنا في كل يوم أخباراً أكثر إرعاباً، وكنا نحن الألمان قد اتفقنا جميعاً بوجوب عدم العودة، بل أن نذهب باسم الرب إلى القدس، وأخيراً عندما رأى القائد أننا كنا قد عقدنا العزم على الذهاب وعلى تنفيذ نوايانا، عندها أقلع عن التدخل بحجنا، وبتنا جاهزين للانطلاق، حيث نقلنا أنفسنا إلى غليون آخر، كنا قد قمنا بشرائه.

وعندما بات جميع الذين رغبوا بالقيام بالرحلة مع بعضهم على ظهر

هذا الغليـون، وفي أثناء تحدث أحدنـا إلى الآخر بسرور وبهجـة، ونحن واقفـون على الدكـة إلى جـانب السـارية، طلب واحـد من الشيـوخ منا الصمت، وشرع يخاطبنا قـائـلاً:« سـادتي وأخواني الحجـاج، نحن نقـوم بعمل عظيم، وصعب، ومرهق، بتنفيذ هذا الحج بوساطة البحر، وأقول لكم الصـدق، وأتحدث مـن الجانب الانسـاني باننـا نعمل بشكل أحمق بتعريض أنفسنا لخطر عظيم، ضد نصيحة وقناعة قائد البحر، وضد كل واحد آخـر، ولهذا رأينا السيدين الأسقفين، وغالبية النبـلاء، والأقوياء ، والأعيـان، وربما الأكثـر حكمـة في جماعتنا، قـد تخلوا عن الرحلة، وهم الآن على طريق العودة إلى بلادهم، آخذين بالنصيحة، التي أعطيت لهم، في حين نقف في الاتجاه المعـاكس، والآن، ولكي لاتكـون رحلتنا مجرد حماقة آثمـة، لابد أننا نحتاج إلى إصلاح حياتنا على ظهـر هذا الغليون، وعلينا دوماً أن نطلب حماية الرب القدير وقديسيه، حتى نكون قادرين على أخذ طريقنا بين أعدائنا وبين أسطولهم».

ولدى سماعنـا لهذه الكلمات قـررنا بـالاجماع التـوقف عـن اللعب بالورق أو بالنرد، على ظهـر الغليـون، وعن الخصومـات، وعن الأيمان، وعن التقـاذف بكلمات التكفير، وعـدم السماح بذلك كله، وأن يضيف رجـال الديـن والكهنة صلوات ليليـة لصلواتهم النهـارية المعتـادة، وفي الحقيقـة، نشبت خـلافـات عظيمـة حـول هـذه المسـائل، قبل اتخاذ هذا القرار،لأن الناس كانوا يقامرون صباحاً، وظهراً، وليلاً، وبشكل خاص أسقف أورلين مع حـاشيتـه، وفي أثناء ممارسـة ذلك كـانـوا يقسمـون ويجدفـون بشكل مرعب، ويتخـاصمـون يومياً، لأن الفـرنسيين والألمان كانوا دوماً على خلاف وشجار.

وهكذا حـدث أن واحداً من أتبـاع أسقف أورلين ضرب كاهناً تقيـاً من جماعتنا، فاستحق على ذلك الحرمان الكنسي، وبما أن الفرنسيين قوماً متشامخين، ورجـالاً انفعاليين، لهذا اعتقـدوا أنه كان عمـلاً مصدره الهام

رباني وحكمة، أن انفصلوا عنا، وتخلصت عيونا منهم، لأنه كان من شبه المستحيل الوصول إلى القدس برفقتهم من دون إراقة للدماء ومقتل لبعضنا.

وقد أمضينا ليلة واحدة في كوركيرا، ونمنا على ظهر السفينة، وفي تلك الليلة أصابنا رعب عظيم، لأنه في آخر النهار، وعندما أخذت الدنيا تزداد إظلاماً، وفي الوقت الذي كنا ما نزال فيه واقفين حول السارية نتبادل الأحاديث، اكتشفنا وجود قارب غريب، واقفاً إلى جانبنا، والذين كانوا فيه هم أتراك، وجواسيس، كانوا يحاولون الاصغاء إلى ما كنا نقوله، وعلى الفور فزعنا بأنفسنا إلى الحجارة ، وقمنا برميها عليهم، وخلفهم عندما شرعوا يجذفون مبتعدين عنا، وتمكن على كل حال، القارب من الافلات نحو البحر، والنجاة .

وفي الصباح التالي زعقت الأبواق لدينا، للاعلان أننا كنا على وشك الاقلاع، ورمينا بأربطة الغليون، وأدرنا ظهورنا للميناء ونحن نغني ببهجة، أما الحجاج الذين بقيوا بعدنا، فقد وقفوا على الرصيف يضحكون علينا، وقالوا بأننا كنا رجالاً يائسين — Waghels ، وكانوا يتحدثون بشكل عام في كوركيرا، أننا لابد من أن نقع بالأسر قبل أن نصل إلى مودون Modon ، وهكذا ابتعدنا عن كوركيرا ومضينا نتابع سفرنا بمزيج من البهجة والخوف.

وعاد الأربعون حاجاً الذين خلفناهم في كوركيرا في سفينة مستأجرة إلى البندقية، وعندما وصلوا إلى هناك، قالوا إنه لمن المؤكد أننا اعتقلنا من قبل الأتراك،وتحدثوا بالقصة نفسها في مدن أخرى في إيطاليا، وفرنسا، وألمانيا، وفعلوا هذا رغبة منهم لتسويغ جبنهم، وذلك بالاشارة إلى سوء حظنا، ونتيجة لهذا، عقدت قداسات كثيرة لفائدة روحي في عدة أماكن من سوابيا، لأن الحجاج نشروا هذه الأكاذيب في جميع

أرجاء سوابيا وبافاريا.

وتقدمنا بالوقت نفسه تقدماً حثيثاً، وعبرنا بشكل مـريح إلى مودون، ولم نشهد خـلال الطريق ولاحتى قاربـاً فوق سطح البحر، الأمـر الذي اندهش نحـوه أهل مـودون، لأن جميع العـاملين بالبحر كـانوا خـائفين كثيراً، وحاول الألمان الذين كـانوا يسكنون هناك، بإخلاص عظيم، ثنينا عن محاولة الذهاب مسافة أبعد، وحـدثونا بحكايات كثيرة مرعبة، لكن بالنسبـة إلينا، كنا كما كنا من قبل، فنحن الآن غير خـائفين من الاقـدام على إنجـاز رحلتنـا، ومتـابعـة السير على طريقنا، وبتـوجيـه من الرب وإرشـاد، وصلنا إلى كـريت بسـلام، ودخلنـا بسرور إلى مـرسى مـدينة الخندق.

ولدى وصولنا إلى هناك يمكن للانسان أن يقول بأن أهل المدينة كلها قـد خرجـوا لاستقبالنا،لأنه كـان أمـراً عجباً، لابل إعجـازاً، أن يتمكن غليـون مسيحي من النجاة من الأتراك المتـوحشين، الذين رأوهـم يوميـاً يتجـولون في البحـر في غـلايين مسلحـة ذوات ثـلاثة صفـوف من المجذفين،وذلك بحثاً عما ينهبوه، ولقد دخلنا إلى بيت واحد من الألمان، الذي كان لديـه بيت سيء السمعة، ومع هذا عندمـا وصلنا قام بتنظيف مسكنه، وأبعـد العـاهرات اللائي كن لديه، ذلك أنـه لم يكن هناك نزل آخـر للحجـاج، وفي مقابل هذا البيت كـان هناك بيت آخـر، كـان نزلاً لتجـار أتراك، وكـان به بـالفعل كثير من التجـار الأتـراك الأثرياء، من القسطنطينيـة، وقـد قـال هؤلاء — كما أخبرنـا — لنا:«هؤلاء الرجـال سيضيعون إذا ما حاولوا المضي أبعـد»، وأكثر من هذا جاء بعض هؤلاء الأتراك إلى بيتنا، ونصحـونا بعـدم الابحـار في الوقت الحاضر، لأننا من المؤكد سنقع بالأسر، فضلاً عن هذا حاول دوق الخندق ومستشاروه أن يصنعـوا معنا معـروفـاً، فأرسلوا بخطيب من عندهم لنا، حـاول بكلام لاتيني منمق، أن يوجـه حجـاجنا، وأن يحثهم بكثير من الحجج، على أن

يكونوا ضد متابعة السفر، وأوضح أن المخاطر خلف هذا المكان سوف تكون أعظم من المخاطر التي واجهناها خلال سفرنا إلى ها هنا، لأنه يوجد ما بين كريت وقبرص، جزيرة رودس، التي كانت في تلك الآونة محاصرة من قبل الأتراك، ولا يمكننا في أثناء عبورنا أن نتجنب مواجهة القرصان الأتراك.

وقد بقينا هناك لمدة خمسة أيام، وسمعنا أخباراً أسوأ كل يوم، وعلى الرغم من هذا علونا ظهر غليوننا، وعملنا الاستعدادات للشروع، وأقلعنا مبحرين ونحن خائفين من أن تثور زوبعة، وتحمل الغليون وتضعه بين الأسطول والجيش التركي الذي كان يقوم بأعمال الحصار، وعلى كل حال، ما أن غادرنا الميناء حتى كنا في البحر المفتوح، ورأينا ريحاً قوية جداً قد هبت، إنها موافقة جداً لنا، حملتنا بعيداً عن الجزيرة التي اسمها سيكلادس Cyclades ، حيث ابتعدنا أولاً عن رودس، ودفعنا على المتابعة بقوة مع ريح طيبة، التي ازدادت بشكل مستمر، وزمجر البحر، وهاجت الأمواج، وتبع ذلك عاصفة هوجاء، وغطت المياه جميع الجزء الأعلى من السفينة، ومع ذلك كانت هذه العاصفة مفيدة جداً لنا، لأنها حملتنا نحو الميناء الذي نريد، ولأنها جعلتنا ناجين من المهاجمة من قبل الأتراك، ذلك أنه بات من غير الممكن بالنسبة لسفينتنا أن تقع بالأسر، وهي مبحرة بهذه الدرجة من السرعة.

وقمنا بإزاحة جميع مظاهر الحرب لدينا، من مدافع، ورماح، وحراب، وترسة، وواقيات، وقسي عادية، وقسي زيارة، وحجارة، وسهام، التي كنا قد جهزنا بها أنفسنا في كيركورا، من أجل صد هجمات الأتراك، لأننا رأينا أننا الآن قد نجونا من أعداء صليب المسيح هؤلاء، ووصلنا في اليوم التالي إلى قبرص، ودخلنا إلى ميناء ليماسول، لأن ريحاً مضادة أرغمتنا على التوجه نحو الميناء، وعندما همدت الريح، أبحرنا من هناك إلى ميناء لارنكا، عازمين على البقاء هناك لعدة أيام،

لأن قبطان سفينتنا كان له أخ في نيقوسيا في خدمة ملكة قبرص، وكان لديه بعض الأعمال ليبحثها معه، وطلب منا الانتظار حتى تنتهي هذه الأعمال.

وعندما انتهت أعماله وسويت، رفعنا مراسينا، وبتنا راغبين ومتشوقين للوصول إلى الميناء الآخر، لأنه لم يكن هناك مكان للوقوف فيه، ونحن على مسافة قصيرة من الأرض المقدسة، وأبحرنا بشكل مستقيم، فرأينا الأرض المقدسة في اليوم الثالث، وصدوراً عن البهجة في قلوبنا غنينا: « Tedeum Laudamus »بأصوات مرتفعة، ووجهنا سفينتنا نحو جوبا Joppa ، التي تعرف بشكل عام باسم يافا، وألقينا مراسينا إلى جوار صخرة أندروميدا Andromeda ، ومن هنا بعث قبطان السفينة واحداً من العبيد إلى القدس ليعلن إلى الأب مدير دير جبل صهيون، لكي يقدم مع رهبانه ومع حميره وسائقيهم لحملنا إلى القدس، وبناء على ذلك مكثنا في غليوننا لمدة سبعة أيام ننتظر وصول أدلائنا، ونزلنا بعد هذا في قوارب صغيرة، وأقمنا في غرف مقببة قديمة جداً، وكانت مدمرة وذوات روائح نتنة،حيث مكثنا هناك لمدة ليلة واحدة فقط، وركبنا بعد هذا الحمير التي أحضرت من أجلنا، وعلى هذا جرت مرافقتنا وحراستنا من قبل مسلمين، وغادرنا البحر وقدمنا إلى بلدة الرملة، حيث أقمنا لبضعة أيام، ثم دخلنا إلى القدس، حيث لم نؤخذ إلى مشفى (نزل ضيافة) بل إلى بيت في ميلو Millo حيث أكلنا، ونمنا وهكذا.

ولم نمض أكثر من تسعة أيام في الأرض المقدسة، حيث قمنا بجولة على الأماكن المقدسة المعهودة، بسرعة عظيمة، وكنا نعمل ليلاً ونهاراً لإنجاز حجنا، وهكذا نادراً ما أعطينا وقتاً للراحة، وبعدما أكملنا بسرعة زيارة الأماكن المقدسة، وبعدما تسلم مولاي جورج فون ستين مع النبلاء الآخرين الفروسية في كنيسة الضريح المقدس، أخذنا أدلاؤنا

من المدينة المقدسة عبر الطريق حيث نزلنا إلى البحر، إلى المكان الذي كان غليوننا راسياً فيه.

ولم يبق أحد من الحجاج في القدس، إلاّ اثنان من الانكليز، اللذان رغبا في عبور الصحراء إلى القديسة كاترين (دير جبل سيناء)، وكنت راغبا بالبقاء معهما، لو أنهما عرفا اللغة الألمانية أو اللاتينية، وبما أنني كنت غير قادر على الحديث معهما، وكنت سأتحمل الحاجة إلى لغة عامة مع الصبر،ولولا أنني عزمت على العودة ثانية إلى القدس، لأنه منذ حلول ساعة مغادرتنا للمدينة المقدسة، قررت، وقطعت عهداً على نفسي بأنني سوف أعود بأسرع ما يمكن، وعددت هذا الحج مجرد توطئة للحج الذي أنوي القيام به.

وكان حالي هنا حال تلميذ أراد حفظ بعض النصوص وخزنها بالذاكرة، حيث كان يقوم أولاً بالقراءة دونما عناية، ثم يقوم ثانية بالقراءة ببطىء وتؤدة، ويأخذ من الوقت ما فيه الكفاية لإبقاء النص وحفظه بالذاكرة، وهكذا كنت بالنسبة لما قررته، ذلك أنني لم أكن مقتنعاً بما شاهدته، ثم أنني لم أودع ما رأيته في الذاكرة، بل تركت ذلك لحج مستقبلي.

وعندما وصلنا إلى البحر، كنا جميعاً ضعفاء بسبب ما بذلناه من جهد، وكنا قد أصبنا بالإنهاك بسبب الحرارة، وسهر الليالي، والمصاعب التي تحملناها، وكما كنا مرضى وضعنا على ظهر غليوننا، الذي صار مليئاً إلى حد بعيد بأفراد تعساء، وبعد مضي كثير من الأيام عدنا إلى قبرص، وإثر رحلة طيبة وصلنا إلى ميناء اسمه سالينا Salina، وقمنا من هنا برحلة حج اسبوعية إلى قرية مجاورة ولكن الأثرياء منا قاموا باكتراء خيول وركبوا مع بعضهم برفقة قبطان السفينة إلى نيقوسيا، التي هي حاضرة قبرص والمقر الملكي، وهي تبعد ستة أميال ألمانية عن البحر.

وهناك عـادة قـديمة قضت بأن الذين عملوا فـرسـانا في الضريح المقـدس، عليهم أن يقـدمـوا أنفسهـم إلى ملك قبرص، وعقـد نوع من أنواع معـاهدات الولاء معـه، وهو سيدعـوهم باسم إخـوانه وسيدرج أسماءهم في كتـابه، ويعطي كل واحـد منهم خنجراً فضيـاً وغمـده مع حـزام، ويكون معلقـاً في نهاية الخنجر وردة مصنوعـة من الفضـة، تمثل اللون الأرجواني الذي هو شعار الطائفة.

وبناء على هذا ركب مولاي جـورج فون ستين، الذي لم أفـارقه أبداً، في نيقوسيا معي، ومع النبـلاء الآخرين، ذلك أننا مكثنا هناك لمدة ثلاثة أيام، وبما أنـه لم يكن هنـاك ملك في قبرص، سأل النبـــلاء الملكـة بأن تسمح لهم بالانتماء إلى طائفـة ملـوك قبرص، وقـد دعتهم للحضـور إلى القـاعـة الكبرى، وهناك صفتهم أمـامهـا، وأوصلت إليهم من خـلال مترجم قـوانين هـذه الطائفـة، التي قضت أنه يتـوجب عليهم في وقت الحاجة النضـال للدفاع عن مملكة قبرص، مقدرين ومـدركين أنها واقعة بين المسلمين، والترك، والتتـار، وبعـدمـا أقسمـوا يمين الولاء إلى الملكة بأيديهم، أعطتهم خناجرهم، وسمحت لهم بالمغادرة.

وركبنا بعد هـذا عائدين ثانيـة إلى البحر، ولدى مـرورنا بسفح جبل مرتفع جداً، توجد على قمتـه بيعة، أخبرونا أن فيها صليب اللص الجيد معلق بشكل رائع، وكنت أتمنى رؤيتــه، لكن لم يتـوفـر لـدي الوقت، ولـذلك أجلت هـذا إلى حجي الثـاني، وعنـدمـا وصلنا إلى البحـر وإلى غليوننا، وجـدنا أن اثنين من الحجاج قد ماتا، وكـان واحد منهما راهب من طائفـة الـفرنسيسكان، وكان رجـلاً شجـاعاً ومثقفـاً، وكان الآخـر خياطاً من بيكاردي picardy ، وكان رجـلاً أميناً وجيـداً، وكان عـدد آخـر في سكرات الموت، ونحن أيضاً الذيـن قدمنا من نيقـوسيـا، رمينا أنفسنا على فرشنا مرضى كثيراً، وصار رقم المرضى كبيراً جداً، إلى حـد أنه لم يعد هناك من يتـولى خـدمتهم وتزويدهم بالضروريات وعلى

كل حـال نظرت العقائل المسنات إلينا وإلى تعـاستنا، فتحـركن بعاطفـة ورحمة، وتولين العناية بنا، لأنه لم يكن بيننـا من ليس مريضـاً، وهنا قـام الرب، بوسـاطة قوة هؤلاء العجائـز، بالتقليل من شأن شجـاعة أولئك الفرسان الذين عاملوهن باستخفاف، وكانوا لايرغبون بالابحار معهن، فقـد تنقلن مـن مكان إلى آخـر في جميع أرجـاء الغليـون، أي بين رجل مـريض وآخـر، وخـدمن الذين سخـروا منهـن واستخفـوا بهن، وهم ممددون فوق فـرشهم لايملكون حراكـاً، فضلاً عن هذا استـولى علينا، بالاضـافـة الى مـرضنا وعـذابنـا، الخوف مجدداً من الأتراك، وبدأنا الآن نخاف حتى منهم أكثـر مما فعلنا من قبل، وفي الوقت نفسـه رفع رجال الغليون أربطة الغليـون ومكنوه من الابحار، وعندمـا صرنا في البحر لم نجـد ريحاً تساعـدنا، بل بقينا نسيربيطىء شـديد أمام سـواحل قبرص، ولهذا عـدنـا ثانيـة إلى قبرص، ورسينا في ميناء ليماسـول غير المسكون، حيث انتظرنا بفارغ الصبر هبوب ريـح طيبة، وبعد انتظار يومين انطلقنا مجدداً نحـو البحـر، إنما هبت الآن ريح قـذرة، حيث جـرفتنا إلى داخل البحز، بعيداً عن اليابسـة، وخارج مسارنا، وبقينا ندور لعدة أيام كثيرة، حتى بدأنا نعـاني من نقص في الميرة وفي الحاجـات الضرورية، وفي تلك الأثناء أنهى واحد من الفرسان أيامه بشكل مؤلم جداً، فلففناه بقطعة من القماش، وربطنا جسده بأحجار، ورميناه بالبحر ونحن نبكي عليه.

وفي اليـوم الثالث بعـد هذا، مـات فارس آخـر، بعـد ما فقـد عقله، وعـانى مـن آلام عظيمـة، وكـان يصرخ بشكل مخيـف، وقـد حملناه إلى الشاطـىء في قاربنا الصغير للدفن هناك، لأننا كنا آنذاك على مقربة من شـواطىء قبرص قـرب بافـوس، وكنا في تلك الأثناء غير قـادرين على التحرك بأي اتجاه، وكنا بحـاجة إلى الماء والخبز، وأشيـاء أخرى، وحملتنا الريح الخبيثـــة بعيـــداً عن قبرص، ولمدة ثلاثة أيام وثـلاث ليـــال لم نر اليـابسـة، ثم كـان بعـد هذا أن حملنا عـائـدين إلى ميناء بافـوس، الذي

جـرت الاشـارة إليــه في الاصحــاح الثـالث عشر مـن أعمال الرسل، واشترينا في ذلك الميناء ما نحتاجه من مؤن، وغادرناه مسرعين، وأبحرنا مسايرين شواطىء قبرص دون أن نحرز أي تقدم في سفرنا، وإلى جانب هذه التعاسـات نزلت تعاسة أخرى عظيمـة، في تلك الليلة نفسها، ففي الوقت الذي كان فيه ملاحـو الغليون يتعاملون مع الأشرعة، ويحاولون تحريك الغليـون، حـدثت مفـاجأة، فقـد سقطت قطعـة كبيرة من رأس السارية بشكل مفـاجىء، وأصابت وقتلت أفضل الملاحين لـدينا، وكان رجلاً يطيعه البحـارة بأبسط إشارة تصدر عنه، فقد كـان مطاعاً من قبل جميع الملاحين ومن قبل عبيد الغليون.

وقـد كـان هناك حـزن عظيم ونحيب في الغليـون بسبب مـوت هذا الرجل، حيـث لم يكن هناك على ظهـر الغليـون من يماثلـه ليحل محله، وأبحرنـا بشكل بطيء لمدة أيام كثيرة، وكنا حذرين، نأمل بالوصـول إلى واحـد من الموانىء في كـريت، وأن نمـر دونها إعاقـة من أمـام رودس، لكننا كنا غير قادرين على فعل ذلك، ورأينا في أحـد الأيام، على مسافة بعيدة عنا غليوناً حربياً،قـادماً بسرعة خلفنا، فكنا خائفين بشكل مرعب جداً، لأننا اعتقـدنا أنه كان تركيـاً، وأن الأتراك كانوا قـادمين فيه، لكنه عندمـا اقترب منا عرفنا بأنه كـان غليوناً بندقيـاً، وكنا وقتها قـابعين إلى جـانب أسلحتنا ، التي أمـر قبطاننا بإخـراجها للدفـاع عن أنفسنا ضـد الأتراك، وانتظرنا وصول الغليون حتى يمكن أن نسمع أخباره، وعندما اقترب هذا الغليـون منـا علمنا بأن الأ تراك قـد هزمــوا، وأنهم رفعـوا الحصار عن رودس، وأنهم تراجعـوا باضطراب وفوضى، ولدى سماعنا هذه الأخبـار امتـلأنا بغبطة لايمكن التعبير عنهـا، وغيرنا اتجاه غليـوننا وتركنا مسـارنا المتقـدم، واتجهنا نحو جـزيرة رودس، وعلى كل حـال لم نتمكن من الوصول إليها خلال كثير من الأيام، ذلك أننا أعقنا وتأخرنا بسبب رياح معـاكســة، فضـلاً عن هذا كنا قــد حملنا إلى بلاد الأتراك،

وعبرنا من خـلال قناة حيث كـانت هناك أراضي تركيـة وجبال على طرفينا، وهنا تجددت مخاوفنا، وكنا نخشى إذا ما رآنا الأتراك، سوف ينزلون انتقامهم بنا، بسبب هزيمتهم في رودس، ولم نمتلك ريحاً أيضاً، وعبرنا البـلاد التركية بطريقـة بطيئة جـداً، بوسـاطة العمل البطيء للمجـاذيف، وأخيراً هبت ريح حملتنا بلا معيقـات من هذه الأرض، وجلبت الغليون بشكل مفاجيء إلى جزيرة رودس، غير أننا وصلنا إلى محاذاة ساحل جبلي بعيداً جداً عن مـدينة كـولوسا Colossae، ووصلنا على كل حال إلى نبع ماء للحياة يتدفق عند سفح أحد الجبال، إليه ذهب البحارة في قارب وجذفوا ومعهم براميل، وجلبوا مياه جديدة إلى ظهر غليوننا، وعندما عادوا إلى ظهر الغليون، خرج جميع الركاب يركضـون من حجـرهم وفـرشهم، يحملون الصحـون، والجرار، والأحـواض الصغيرة، والأباريق، والكؤوس، والزجـاجات، يلتمسـون الماء من البحارة ومن رجال القارب.

وكـان هناك صراع وتدافع للحصول على الماء أكثـر مما شهـدته قط، من أجل الخمـرة أو الخبز، وعن رغبة وطواعيـة وسرور ناول أحـدهم بعض الماء إلى الآخـر، وبتـذوق ذلك الماء الجديـد انتعشنا مجدداً، وبدا وكأننا قـد عـدنا للحياة مـن جديد، مثل المزرو عـات والأشجـار التي عطشت وجفت بسبب حـرارة الشمس، فعـادت خضراء من جـديد عندما تبللت بقطرات المطر أو الندى، وانتعش الغليون كله بتذوق هذا الماء، والذين كانـوا من قبل غير قادرين على التنفس إلا بصعـوبة بالغة، بدأوا الآن بالغنـاء، لأن شرب الماء بعـد عطش طويـل يجعل الانسـان مسروراً ولطيفاً مثل المتناول لقطرات من الخمرة.

فأية تعـاسات ومصاعب قـد عانينا منهـا منذ أن غادرنا ميناء يـافا في الأرض المقـدسـة حتى وصلنا إلى هذا المكان، هذا مـا أنا عـاجـز عن التحـدث عنه، وكنت خلال أيـام المعاناة هذه غـالبـاً ما أتسـاءل، كيف

يمكن لأي إنسان يتساهل بازعاج نفسه بالقيام بالتفكير بصوم أربعين يوماً خلال السنة، وهي أيام الصوم الكبير، وأن لايصوم عن الخبز والماء في يوم الجمع الحزينة للرب، لو أنه عانى مثلنا يوماً واحداً من الأيام التي عانينا منها، وأنا لاأقول بأن أجر الصوم الكبير كبير، لابل ليس مثل الأجر المعطى يوم صوم الجمعة الحزينة وزناً وحجماً، ولهذا علينا عن طواعية أن نصوم يوم الجمعة الحزينة، لأن الذين يصومون يوم الجمعة الحزينة يتلقون خبزاً جيداً وجديداً، وماء نقياً، وبارداً، وعذباً، وطيب المذاق، وإذا ما حصلنا على مثل هذا، لابد من أن نشعر بأنفسنا بأننا سعداء، متذكرين أن الذي نلناه على ظهر الغليون، كان ماء قذراً، وآسناً، ولو أن أياً من البحارة كانت لديه مياه غير آسنة، لأقدم الحجاج على شرائها بأسعار أعلى من أسعار الخمرة، وعلى كل حال لقد كان ماءً مليئاً بالديدان، وأبيض ومتغير اللون.

وفوق هذا كله، وما قد يكون غريباً إلى الذين لم يعانوا من مثل هذه الرحلة، ومؤلماً أكثر للذين عانوها، هو أننا كنا في حالة من الحاجة والتعاسة، حتى أن ما كان لدينا من مياه عفنة آسنة عدت ثمينة إلى حد أن قبطان السفينة وملاحيها كانوا في قلق عظيم خشية أن نخسر حتى هذه المياه، ولهذا أعطى القبطان أوامر إلى ساسة الخيول بعدم إعطاء ماء من هذا النوع إلى الحيوانات التي جرى الاحتفاظ بها على ظهر الغليون من أجل ذبحها للأكل، بل ينبغي الاحتفاظ بها من أجل الاستعمالات الانسانية لأنه كان أكثر وحشية أن نموت نحن من العطش وليس البهائم، وعلى هذا بقيت هناك الأغنام والماعز والبغال والخنازير لمدة عدة أيام بلا ماء، وكانت تعاني من الهلاك من العطش، وغالباً ما رأيت في هذه الأيام هذه المخلوقات وهي تلحس ألواح الخشب والحبال، وتمتص ما تجمع عليها من ندى في أثناء الليل.

ومع أنه توفرت لدينا مياه لاحدود لها من حولنا، إن مياه البحر غير

قابلة للشرب بالنسبة للانسان والحيوان سواء، وكان معنى شرب تلك المياه قتل الانسان أو الحيوان بدلاً من إنعاشه، هذا ولم أحدثكم عن الخبز الفاسد، وعن البقسماط المليء بالديدان، وعن اللحوم المتنتة، والطبخ المقيت، وهو ما توجب علينا القبول به، لو أننا امتلكنا ماء نقياً بكميات جيدة كافية، إن لم يكن للناس الأصحاء، فعلى الأقل للمرضى التعساء.

وعانيت في غالب الأحيان من عطش مرعب، وكان بي شوق لايوصف إلى ماء بارد، حتى أنني قلت في نفسي إنني عندما أعود إلى أولم سوف أذهب مباشرة إلى بلوبيرن Blauburen ، وأجلس إلى جانب البحيرة التي تنبع هناك من الأعماق حتى أشبع رغباتي، هذا ولم يكن هناك نقص بالخمرة في الغليون — وفي الحقيقة كان بإمكان الانسان بسهولة الحصول عليها بكميات كبيرة وجيدة — غير أننا لم نتمتع بها من دون مزجها مع الماء، وذلك بسبب قوتها وحرارتها، وهذا يكفي بالنسبة لهذه القضية.

وحدث الآن أن حملتنا بشكل مفاجيء ريح طيبة من المكان الذي شربنا فيه الماء إلى ميناء كلوسوس Clossus ، القائم أمام مدينة رودس، وكان الوقت ليلاً، وكانت الساعة تقارب الساعة التاسعة في المساء، وكنا لانستطيع أن نرى إلى أين نحن ذاهبون بشكل واضح، لولا فضل نور القمر، وعندما كنا نحاول الدخول إلى الميناء، وكان بحارتنا — حسب ما اعتادوا عليه — يعملون بصوت مرتفع لانزال الأشرعة، أشعل الناس الذين كانوا على الشاطيء المشاعل فوق أبراجهم، وأحدثوا ضجة عظيمة، وأخذوا يركضون ذهاباً وإياباً فوق الأسوار، حيث خيل إليهم أننا أعداءهم الأتراك، وأنذرونا بإطلاق نيران مدفع كبير نحونا، وقمنا نحن وسط رعب عظيم بإضاءة عدد كبير من المصابيح، ووقفنا على ظهر الغليون نرجوهم عدم إيذائنا، حيث كنا

نحمل علامـات الصليب، كما كنا أصدقاء للذي صلب، ونعـرف جيداً بأن أعـداءه قد تعـرضـوا قبل وقت قليل للمهـانة والمذلة في هذا المكان نفسه.

وعندمـا سمع حـراس الميناء هـذا، أبعـدوا مجانيقهم التي كـانوا قـد أعدوها لرمي حجـارة ضخمة علينا، وحلوا أوتار قسيهم، وأعقب هذا سعي الناس مع بعضهم من جميع أجــزاء المدينة إلى أعلى الســور وهم يحملون المصابيح والمشاعل، متشـوقين لرؤية غرباء مسيحيين، لأنهم منذ أن صدوا الأسطول التركي لم يروا مسيحياً.

وقـام الآن حـارس من على أحـد الأبراج بالترحيب بنا، سـائـلاً من نحن، ومن أين جئنا، وقـام أحـد البحـارة بإجـابتـه دونها تفكير:«نحن بنادقة، والغليـون ملك للقديس مرقص»،لكن القبطان أمـر بصفعه على فمه، وأمر بحاراً آخراً بأن يصرخ قائلاً:«جاء هذا الغليون من يافا، وفيه فرسان وحجـاج من القدس، ونحن عازمون على الإبحـار إلى إيطاليا»، ذلك أن القبطان كان يخشى أن يكون البنادقة غير مرحب بهم كضيوف، بما أن أهل رودس لايحبون البنادقة، بسبب تحالفهم مع الأتراك.

وعندمــا أخبر الحراس الذين كــانوا فـوق الأبراج الشعـب بأننا كنا حجاجاً، رحبـوا بنا بمثابة أصدقاء، وسمحـوا لنا بإرساء سفينتنا خارج الميناء، غير أنهم لم يأذنوا لنا بـالدخـول إلى الميناء خـوفـاً من خيـانة مـا، وبناءاً عليـه عندما ألقت السفينة مـراسيها، نزلنا إلى أمـاكن نومنا، ونمنا حتى الصباح.

وفي اليوم التالي، وقبل استيقاظنا، قدم بعـض الساد ة من رودس إلينا ليقومـوا بفحص الغليون وليروا الحجاج، وقـد جذفنا داخلين إلى المدينة معهم، وقد مررنا من بين أجساد الموتى الأتراك الذين كانوا مرميين على جانب البحر، حيث كـان الشاطىء مغطى بهم، وعندما دخلنا إلى المدينة

وجدناها مهدمة بشكل مريع، مليئة بطلقات المدافع الصخرية من كبيرة وصغيرة، وهي التي أطلقها الأتراك عليها، حيث كان هناك منها ثمانية آلاف طلقة وطلقة موزعة على الشوارع والأزقة، وكانت الأسوار والأبراج مهدمة بشكل محزن، وقد رأينا أشياء أخرى عنها سأحدثكم عندما أجيء إلى هذا المكان ثانية في حجي الثاني.

ولقد مكثنا في رودوس لمدة أربعة أيام، وأنفقنا كميات كبيرة من المال، لأن كل شيء كان باهظ الثمن لأن الأتراك نهبوا البلاد وهدموها، وقد شريت طائرين لمولاي جورج للعلاج، لأنه كان بحالة صحية سيئة، وكنت أنا مثله، ذلك أنني كنت آنذاك أعاني من إسهال، وكنت تقريباً يائساً من حياتي.

وعندما حان الموعد الذي كان علينا به مغادرة رودس، سافر معنا على ظهر غليوننا عدد من فرسان القديس يوحنا، وبعض ممن كانوا أسرى لزمن طويل بين الأتراك، وكانوا ممن بعث بهم إلى رودس مع الجيش التركي، وقد تخلوا عنه وهربوا إلى تلك المدينة في أثناء الحصار، وحملنا معنا بعضاً من اليهود الذين قاتلوا بشجاعة في أثناء الحصار، وكان من بين الذين نجوا من الأسر من بين الأتراك نبيل نمساوي، وكان في حالة بائسة، وقد أخذه مولاي جورج ووضعه تحت حمايته، وأعاده إلى ألمانيا.

وبصعود هذه الأعداد الكبيرة على ظهر غليوننا، غدا هذا الغليون مزدحماً وغير مريح، وفي أثناء الرحلة جرفنا إلى هنا وهناك من قبل الرياح المعاكسة، وعانينا كثيراً من النقص بالحاجيات حتى دخلنا مدينة الخندق، حاضرة كريت، ومكثنا هناك لعدة أيام، صعدنا بعدها إلى ظهر الغليون في أحد الأيام في آخر النهار عند حلول المساء، وجلبنا مشترياتنا معنا، وكنا عازمين على الإبحار في الليلة نفسها، لكن عندما جاء الصباح، وأطلق الغليون مما كان مربوطاً به، أخذنا بعنف نوجه رأسه

نحو الرياح، وآنذاك اصطدمت عصا التوجيه بالصخور، وتحطمت تحت الماء، وكانت السفينة على وشك أن يصطدم رأسها فوق الصخور الناتئة خارج الشاطيء، وفي تلك الحالة كان الغليون سيتحطم كلياً، وكنا سنغرق، ولهذا صدر صوت مرتفع، وتراكض الناس من المدينة لمساعدتنا، وبما أن عصا التوجيه قد تحطمت، لم يعد بإمكاننا الإبحار، وأرجعنا غليوننا إلى الميناء، إلى المكان الذي كان راسياً به من قبل.

وهنا جاء عامل بحري وقام بالإعداد لاصلاح عصاتنا، وقد نفذ ذلك كما يلي ونحن واقفون ننظر إليه: فقد تعرى حتى سراويله، ثم أخذ معه مطرقة ومسامير، وكماشة، ثم ألقى بنفسه ونزل في البحر، وغطس إلى حيث كانت العصا مكسورة، وعمل تحت الماء، فاقتلع مسامير، وثبت آخرين، وبعد وقت طويل، عندما أصلح كل شيء، ظهر مجدداً من تحت الأعماق، وتسلق صاعداً إلى طرف الغليون إلى حيث وقفنا، ولقد رأينا هذا، إنما كيف كان بإمكان هذا العامل أن يتنفس تحت الماء، وكيف كان يمكنه أن يضرب بمطرقته هناك، وكيف استطاع البقاء مثل هذه المدة الطويلة في الماء المالح، هذا ما لم أستطع فهمه، والذي أعرفه هو أن العقل البشري له سلطة على النار وعلى الماء، حتى مثلما للنجوم سلطة على العقل الإنساني.

وعندما اكتمل اصلاح العصا، وفكرنا بالإنطلاق والسفر، هبت ريح معاكسة، ولذلك لم يستطع الغليون الابتعاد عن الميناء، وقد عدنا إلى مكان رسونا ومن ثم إلى إقامتنا في المدينة، نأكل ونشرب هناك.

وهذا الميناء من أفضل موانيء البحر وأغناها، ومليء بجميع أنواع الأشياء الجيدة، خاصة الأشياء المحلية، لاسيما الخمرة، التي ندعوها باسم مالفويسي Malvoisie ، وهي خمرة مشهورة في جميع أنحاء العالم، هذا وكل شيء رخيص هناك، ولذلك لم نبال بمدة إقامتنا، بل تمتعنا بها، وفي حوالي وقت العشاء استدعينا جميعاً إلى ظهر الغليون،

وجاء بعضهم على الفور، وجاء بعضهم الآخر متأخراً، وكنت أنا شخصياً واحداً ممن صعد أولاً إلى السطح، ووقفت على مدخل الغليون لأنظر فيما إذا كان قد قدم غرباء، إلى جانب الذين التحقوا بنا في قبرص أو رودس، ويريدون الصعود إلى ظهر الغليون، وقد جاء أسقفان إغريقيان، مع آخرين كثر، وبالنسبة لأشياء أخرى أنا رأيتها، أنا لن أقوم بتدوينها، إذا ما أردت أن لاتكون« الرحلات والجولات» قصة مأساوية، لكنني كما وعدت إخواني في تمهيدي التكريسي غالباً ماقمت بمزج الأمور المضحكة والمسلية مع المسائل الجدية، وعلى هذا عندما كنت واقفاً هناك أراقب أولئك القوم الذين صعدوا إلى ظهر الغليون، رأيت كثيراً من حجاجنا واقفين على جانب البحر، فوق حافة الرصيف وهم سكارى يخشون من النزول إلى القوارب، لأن الخمرة الكريتية التي هي حلوة وممتع شربها، تجعل الإنسان فاقداً للوعي عندما يشرب منها كميات كبيرة.

وكانت هناك درجات حجرية على الشاطىء تقود إلى سور المدينة، وينزل على هذه الدرجات من يريد الصعود على ظهر الغليون ويماشيهم قليلاً، ومن ثم يحصل في داخل قارب صغير، يحمله إلى الغليون، وبعد ذلك يغادر الإنسان القارب، ويتسلق بعض الدرجات ليدخل إلى الغليون، وفي ذلك المساء وجد عدد كبير منهم أنه من الصعب كثيراً عليهم القيام بذلك، أي أنه توجب حملهم من الدرجات الموجودة تحت سور المدينة إلى القارب، ومن القارب إلى الغليون، ومن ثم مباشرة إلى حجر نومهم، وجاء بين البقية حاج كان خادماً لواحد من سادة المدينة، وكان هذا الرجل يحمل حقائب سيده، مع بعض دنان الخمر وحقيبة مليئة بالخبز الجديد، وقد كان منحنياً نحو الأسفل بسبب الوزن الذي كان يحمله، يضاف إلى هذا كان مخموراً تماماً، وعندما صار فوق الدرجات، وبدأ يمشي نازلاً عليهم نحو طرف الماء حتى يصل إلى

القارب هناك، وقع فجأة في داخل البحر العميق، مع كل ماكان يحمله، ولدى صدور صوت عن الواقفين هناك، جذف البحارة مباشرة، وساقوا قاربهم إلى المكان الذي سقط فيه، ولدى خروجه من الماء، سحبوه منه، وطافت أرغفة الخبز وكل ماكان يحمله فوقه، وقد تلفوا جميعاً.

وكان هناك حاج آخر، كان كاهناً دلماشياً، وكنت أعرفه معرفة جيدة، وكان قد شرب كثيراً من الخمرة الحلوة، ولذلك عانى من اضطرابات كثيرة حتى يصعد على ظهر الغليون، ويصل إلى موضع السارية، حيث وقف هناك يتحادث مع دلماشي آخر حتى حلول الظلام، وقد وقف على مقربة من البويب الجانبي الذي لايذهب الناس إلى تحته أثناء الليل، بل يفعلون ذلك فقط أثناء النهار، وذلك من أجل أنه عندما يحل الظلام ينزل على السلم الذي يأخذه نحو الأسفل، وبذلك لن ينزعج الذين كانوا نائمين على ذلك الجانب من السفينة بقدوم الناس وذهابهم، وهكذا عندما أكمل هذا الحاج كلامه، وكنا وقتها فوق سطح الغليون الأسفل، متمددين جميعاً في فرشنا ونحن نتبادل الأحاديث، وقد أراد الذهاب إلى مكان نومه من خلال أقرب بويب جانبي، وبما أنه لم يكن متوازناً على رجليه، فقد سقط نحو الأسفل من خلال البويب الجانبي إلى السطح الأسفل محدثاً صدمة كبيرة إلى حد أن الغليون كله قد اهتز، لأنه كان رجلاً كبيراً وسميناً،وتمددنا جميعاً صامتين وخائفين، وانتظرنا لنسمع من الذي كان قد وقع، وقد قام على الفور دون أن يصاب بأذى، وشرع يصرخ مزمجراً قائلاً:« انظروا الآن، لقد وضعت السلم تحت قدمي، ونزلت ثلاث درجات، عندما قام أحدهم بسحبه من تحت قدمي، فسقطت»، وقد أجابه أحدهم قائلاً بأن السلم قد أنزل من قبل منذ ساعة مضت، غير أنه أجاب« هذا غير صحيح، لأنني نزلت ثلاث درجات، وعندما كنت واقفاً على الدرجة الثالثة سحب من تحتي»،

ولدى سماعنا هذا انفجرنا ضاحكين لمعرفتنا بأن السلم قد أنزل من قبل منذ مضي ساعة، وكنت مسروراً بأن رفيقي لم يتعرض للأذى بسبب هذا السقوط الخطير من مكان مرتفع، وضحكت بشكل غير معقول، وعندما رآني أضحك غضب غضباً شديداً مني، وقال:« على هذا إنني أرى بوضوح ياراهب فيلكس من الذي سحب السلم من تحتي، ومن المؤكد أنك لن تغادر هذا الغليون قبل أن أنتقم منك»، وعندما حاولت أن أبرىء نفسي، أصبح أكثر غضباً فأكثر، ولعنني، وأقسم أنه في اليوم التالي سوف ينتقم مني، وعلى كل حال شفا النوم جميع هؤلاء المرضى والرجال السكارى، الذين كانوا هم الأسوأ بسبب الخمرة الكريتية، وقد نسوا في اليوم التالي كل ماتعلق بهذا الموضوع، لكن لو أن ذلك الحاج قد سقط غير سكران، بل صاحياً تماماً، لكان من المتوقع انكسار رجليه، أو اندقاق رقبته، لأنه غالباً مايحدث بشكل عام أنه في الحالات الخطرة يكون السكارى من الناس أحسن — بدون تعليل من الآخرين....

وبعد الليلة التي حدث هذا فيها، أطلقنا غليوننا من الأربطة، وحملتنا الريح إلى خارج الميناء، إنما بعدما مضينا قليلاً في طريقنا هبت ريح معاكسة، وبقينا نتأرجح فوق الأمواج دون أن نتمكن من التقدم، ولهذا حاول البحارة العودة إلى ميناء كريت، ولكن بما أن الريح كانت قذرة، لم يستطيعوا ذلك، فضلاً عن هذا صار البحر فيما بيننا وبين مدينة الخندق هائجاً، وغدت الأمواج عالية ، ورأى الملاحون، أنه سيكون تهوراً تعريض سفينة محملة بهذا القدر إلى قوة الرياح الكاملة والأمواج، ولذلك سعوا جاهدين للوصول إلى اليابسة، بالابحار خلف الريح، وهكذا وصلنا بعد بذل جهود عظيمة إلى الجزء الجبلي من كريت، وكان ذلك على بعد حوالي الميلين عن البلدة، وهناك ألقينا مراسينا في منطقة جرداء مهجورة، وقمنا في الليلة التالية برفع أشرعتنا والانطلاق، فوجدنا أمامنا ريحاً قوية في البحر، وكانت ريحاً قذرة، وواجهنا في تلك

الليلة وفي اليوم التالي عاصفة ثقيلة، وكانت الرياح في الليلة التالية هائجة بشكل مخيف، وقد وافقت تلك الليلة عيد القديس ميكائيل، وكان هيجان البحر أعظم مما شهدناه خلال رحلتنا كلها، وتعهد أثناء هذه العاصفة كثيرون أمام الرب بأمور كثيرة، من ذلك على سبيل المثال، تعهد الذين أمضوا أمسية قداس عيد القديس ميكائيل وهم يعانون من آلام معوية، بأنهم سوف يصومون بقية أيام حياتهم، وانصبت مياه الأمواج على السفينة وفوقنا، وسببت لنا كثيراً من الازعاج، وكنا جميعاً مرضى، وعانينا من الصداع ومن الغثيان، أثناء تحرك السفينة وبسبب ذلك.

وفي أثناء العاصفة، غدت الرياح التي كانت قذرة، رياحاً لطيفة بالنسبة لنا، ولذلك أبحرنا بسرعة كبيرة، واجتزنا أماكن كثيرة، ووصلنا إلى مقربة من مودون، غير أننا لم نتمكن من الدخول إلى الميناء هناك، وخوفاً من أن نساق إلى الخلف ثانية بقوة الريح، دخلنا إلى ميناء مهجور بين جدران من الصخر، وكنا في هذا المكان على بعد قرابة ميل ألماني عن مودون، وحملنا نحن الحجاج حقائبنا إلى الشاطىء، وأخذنا طريقاً إلى مودون براً، وهناك انتظرنا وصول الغليون، وغادرنا من هناك مودون، فوصلنا إلى كوركيرا، بعد عبور سريع، أي إلى المكان الذي تركنا فيه الحجاج الآخرون، وأبحرنا في مساء اليوم نفسه من كوركيرا إلى جزر غوزابولس Gozapolis.

وبينما نحن لانزال في الظلام، وما من نجم من النجوم يمكن رؤيته، وفيما نحن نتجه مع الريح، هبت هناك عاصفة مرعبة جداً، وحدث هياج مخيف في البحر وفي الهواء، وكانت الرياح عاصفة دفعت بنا نحو الأعلى، وكان هناك برق، ورعد يزمجر بشكل مخيف، زيادة على هذا كان هناك من حولنا سقوط لبروق وصواعق مخيفة، حتى ظهرت أماكن كثيرة من البحر، وكأنها اشتعلت بالنيران، وتساقطت الأمطار بشكل

مخيف، وصـــار الحال كـأن مطر الغيـــوم قـــد تجمع كله، وتـدفق علينا، واستمرت التيارات العنيفة تضرب الغليـون، حيث غطته بالمياه، وكانت تدق على الجوانب بشدة مثل حجارة أرسلت من فوق جبال عالية حيث كانت تتطاير على الجنبات.

وغالباً مـاتساءلت عندما كنت في البحر في أوقـات العواصف، كيف يمكن للماء ، الذي هو رقيـق وناعم، وضعيف البنيـة ، أن يســـدد مثل هذه الضربات ضد كل مـايواجهه، لأنه تصـدر عنه زمجرة عندما يسعى ضـد السفينة، وكأن أحجـــار طاحـون قـد تطايـرت ضـدها، ولايمكن للانســـان أن يعجب لتحطيمهـا السفينة حتـى وإن كـانت قـد بنيت من حديـد، وأمواج البحر هـي أكثر ارهاقاً، وأكثـر ضجة، وأكثـر إثارة من أمـواج المياه الأخـرى، وكنت أتمتع كثيراً بالجلوس فـوق الطابق العلوي أثناء العـاصفـة، وأراقب الأمـواج المتـــواليـة من الضيـوف المرعبين من الريح، والإندفـاع المخيف للميـاه، ومـن الممكن تحمل العـواصف أثناء النهـــــار، لكنهم في الليـل أدوات رعب، لاسيما عندمـــــا تكـون هذه العـواصـف عنيفـة، مثل العـــاصفـة التي أتحدث الآن عنهـــا، ذلك أن العاصفـة كانت عاصفـة عنيفة جداً، وكـان الظلام كثيفاً، ولم يكن هناك أي ضوء، سوى الضوء المتتابع الذي ينبعث من البرق.

واستمرت هذه الريح العنيفـة في هز الغليون ونقله صعـوداً وهبوطاً، وإدارته من الجانب إلى الجانب، وهزه حول نفسه خلال ذلك، إلى درجة أن مـامن انسان استطاع أن يتمـدد في مخدعـه، لابل لم يستطع الجلوس، ومطلقـاً لم يستطع الوقـوف، وكنا مـــرغمين على التعلق بالأعمـدة التي وقفت في وسط القمـرة، وكـانت تدعم الأعمال الموجـودة فـوق، أو أن نستند على ركبنا المنحنيـة إلى جانب الصنـاديق، حيث احتضناهم بأيدينا وبأذرعتنا، وبذلك حافظنا على ثباتنا، وكان يحدث أحياناً انقلاب لبعض من الصناديـق الثقيلة والكبيرة مع الرجـــال الذين كـــانوا متعلقين بهم،

ذلك أن الغليون كان يتحرك بعنف وباتجاهات مختلفة مما كان يؤدي إلى قلب كل شيء واقف عليه، والشيء الذي بدا اعجازيا، لكنه صحيح تماماً، هو أنه حتى الأشياء التي كانت معلقة بكلاليب في مقابل الرؤوس الكتلوية، كانت تخرج من أماكن تعليقها وتسقط نحو الأسفل، ومع أن السفينة كانت مغطاة من كل جانب بالزفت وبأشياء أخرى تستخدم لمنع تسرب المياه، وحفظ الداخل من المياه، مع هذا دخلت المياه خلال هذه العاصفة من خلال أماكن غير متوقعة في كل مكان، ولهذا لم يكن هناك شيء في السفينة كلها لم يكن مبللاً، فقد كانت فرشنا غارقة، وتلف خبزنا وبقسماطنا بمياه البحر، وكان في الطابق السفلي رعب وضجيج، وكان على الطابق العلوي تعب واضطراب، ومزقت الريح شراعنا الرئيسي إلى مزق، ولذلك أنزل البحارة نحو الأسفل العارضة التي استند عليها، وربطوه بشراع آخر لاستخدامه في العواصف التي يسمونها Papafigo إنما بعد مارفع البحارة العارضة وأداروها لفوا الشراع معها، وعندما كان البحارة يمدّون العارضة لوحدها ويدعون الأربطة تذهب، نزل الشراع نحو الأسفل، وكان البحارة ممسكين بأيديهم بالحبل الذي ربطت به الزوايا السفلى من الشراع، وقتها اندفعت الريح نحو الشراع، وملأته بقوة عظيمة جعلت قماشه يتمزق بين أيدي الملاحين، وأطاحت به وبالشراع نفسه فوق رأس السارية وفوق القبة Keba أو الرأس، عالياً بالهواء، ورمت به بقوة وعنف في الريح حتى أن العارضة انحنت مثل قوس، والسارية نفسها، مع أنها كانت ضخمة وقوية مصنوعة من عدد من جذوع الأشجار المحزومة مع بعضها، صدر عنها صوت مرتفع وكأنها قد تمزقت وتحطمت.

وكنا في ذلك الوقت في أعظم المخاطر، لأنه لو تحطمت السارية في مثل هذه العاصفة، لتغلب علينا البحر وقهرنا نحن والغليون جميعاً،

فكما أن الطير لايستطيع الطيران من دون ريشه وجناحيه، كذلك السفينة من ذوات الحمل الثقيل، لايمكنها التحرك من دون أشرعة، التي هي بمثابة أجنحتها وريشها، ولهذا عندما تحدث الشعراء عن الخيول المجنحة، كان الذي عنوه هو السفن فقط، من ذلك على سبيل المثال جاء بيرسوس Perseus من بلاد الإغريق على فرس مجنح وأنقذ أندروميدا Andromeda من الصخور عند يافا، الخ، وبناء عليه عملت ساريتنا كثيراً من الأصوات العالية المرعبة، وفعلت العارضة مثل ذلك، وبدا كل شيء في الغليون كله آيل لأن يصبح قطعاً، وما من شيء أرعبني قط في العواصف بقدر الأنين المرتفع للسفينة، الذي كان كثيفاً جداً إلى حد يدفع الإنسان إلى الإعتقاد بأن السفينة لابد أنها محطمة في واحد من الجوانب، كما لايمكن للانسان أن يتمنع من الصراخ بصوت مرتفع بسبب أصوات الأنين هذه المرعبة المفاجئة، وهكذا وقفنا ننظر إلى مشهد محزن، وفي وضع خطير كثيراً.

ولدى تطاير الشراع في الهواء على هذه الصورة، ركض عبيد الغليون والبحارة إلى الأمام وإلى الخلف، وهم يصرخون بقدر مااستطاعوا، وبذلك كانت الضجة عظيمة، وكانوا كمن يركضون بين السيوف، وتسلق بعضهم فوق الغطاء الموجود على العارضة، وحاولوا سحب الشراع نحوهم، وكان بعضهم الآخر على سطح الغليون في الأسفل، يركضون هناك وهم يحاولون الإمساك بقماش القلع ثانية، وقام بعضهم بإدخال حبال من خلال بعض الأثقال، ووضعوا أربطة حول الشراع، وفي الوقت نفسه قام الحجاج والذين كانوا بلافائدة في هذا العمل بالصلاة إلى الرب، وتوجهوا بالدعاء إلى القديسين، وعمل بعضهم اعترافاتهم وكأنهم باتوا على حافة الموت نفسها، وعمل بعضهم تعهدات عظيمة بأنهم سوف يسافرون من هنا إلى روما، وإلى القديس جيمس (في كومبوستالا)، أو إلى بيت العذراء المباركة(في لوريتو Loretto)،

لو أنهم فقط نجو من هذا الموت، لأنه فقط عندما يكون الموت حاضراً أمام أعيننا نخاف منه، ولقد تذكرت الأقوال المأثورة للفيلسوف آنا كاريسيس Anacharsis الذي قال بأن الذين يكونون في البحر، لايمكن عدّهم لابين الأحياء ولا بين الأموات، فضلاً عن هذا لقد قال بأنهم أبعدوا عن الموت بمساحة أربعة أصابع، والأربعة أصابع هي سماكة جوانب السفينة، وأيضاً عندما سئل: أي السفن هي الأسلم؟ أجاب:« السفن الموضوعة فوق أرض يابسة، وليست في البحر»، وبهذا أعلن أنه لايوجد أمن في البحر، بسبب مخاوفه الكثيرة والمفاجئة، وحدث أثناء هذه العاصفة المخيفة مفاجأة، فبدون توقع جاءت استجابة للمساعدة من السماء، ففي وسط أضواء البرق ظهر ضوء مثبت في الأعلى في الهواء فوق قوس السفينة لبعض الوقت، ومن ثم تحرك ببطيء خلال الغليون بطوله حتى مقدمته ثم اختفى، وكان هذا الضوء هو شعاع نار عرضها حوالي الغلوة، وحالما رأى قباطنة الغليون وعبيده، والملاحون الآخرون، وكذلك بعض الحجاج الذين كانوا فوق ظهر الغليون، حالما رأى هؤلاء هذا الضوء حتى توقفوا عن العمل، وأوقفوا صراخهم وضجيجهم وركعوا نحو الأسفل رافعين أيديهم نحو السماء، ورددوا بصوت منخفض لاشيء سوى «قدوس، قدوس، قدوس»، ولم نعرف نحن الذين كنا بالأسفل ما الذي كان يحدث، فارتعبنا لدى هذا الهدوء المفاجيء والصمت، والصلاة غير المعتادة، وتصورنا أنهم تخلوا عن العمل بعدما قنطوا، ولهذا كانوا يصرخون «قدوس»، لأنهم كانوا على حافة الموت، ووقفنا مندهشين ننتظر ما الذي سوف تكون عليه نهاية هذا، وهكذا فتح أحدهم الباب الذي يغطي البويب الرئيسي للغليون، الذي من خلاله يأتي الناس من ظهر الغليون إلى القمرة، وكلمنا بالإيطالية بما معناه:«أيها الحجاج، سادتي، لاتخافوا لأننا في هذه الليلة وفي هذه العاصفة لن نعاني من الشر، لأننا تلقينا عوناً من السماء»، وبعد هذا وبما أن العاصفة استمرت، عاد عبيد الغليون إلى أعمالهم

المعتـادة، ولم يعـودوا الآن يصرخـون كما كـانوا من قبـل، بل عملوا بصرخات بهيجة، لأنهم لايعملون قط بدون صراخ.

وينبغي ألا يفترض أي إنسان أن الذي تحدثت عنه بشأن الضوء هو مـزيف، لأنه صـادق بقـدر كل مـا هو ممكن، ويمكنني أن أبرهن عليـه بأيمان أكثر من مـائتي شاهد، هم أحيـاء في هذه الأيام، لأن ذراع الرب ليست قصيرة حتى تكون غير قـادرة على إنقـاذ، أولئك الذين كـانوا في وضع بائس.

وفي أثناء هذه العـاصفـة قطعنا مسـافة جيـدة على مسـارنا الصحيح، وأخيراً رأينا الريح قد قذفت بنا نحـو الميناء الذي تشوقنا للوصول إليه، واقتضى ذلك جميع تلك الليلة واليوم التالي، وعندما أشرق اليوم التالي، وبما أن العـاصفة كـانت مستمـرة، بقينا هادئين، وتحملنا أحـوالنا بصبر، ذلك أننا كنا بلا مـاء ولاطعـام، ذلـك أنه لم تكن هناك نار في الغليـون، وكـان المطبخ على السطح ملء بالماء، بالإضـافـة إلى ذلك كنا جميعـاً مصـابين بدوار البحـر، وأنفسنا عـائفـة لجميع الأطعمـة والأشربة، لأن معدة كل واحد منا كانت مضطربة غير مستقرة، وفي الحقيقة ما من أحد منا أكل شيئاً في أثناء استمرار تلك العاصفة، وتمكن من إبقاء الطعام في جوفه، بل تقيأه ورماه ثانية، ومـا من شيء أفضل من إبقاء المعدة خاوية أثناء العواصف، فضـلاً عن هذا كان الخبز كله قد فسـد، ولم يكن قابلاً للأكل بالماء المالح، ولهذا كنا مرغمين على الصيام.

وتابعنا الإبحـار في اليـوم التـالي، وقـد خلفنا مـدينة راغـوسـا Ra-gusa على يميننا، وكورزولا على يسـارنا، ووصلنا إلى مدينة ليسينا، حيث نزلناها، فأنعشنا أنفسنـا، وتخلصنا مما كنا نعانيـه من دوار البحـر، وقد بقينا في ليسينا لمدة ثلاثة أيام، لأن الرياح في البحر كانت قوية جداً، مع أنه كـان هواءً لطيفـاً بالنسبة لنا، وانتظرنـا أيضاً حتى تسترد السيـدة الحامل قـواهـا، ذلك أنها عـانت كثيراً، وغـدت ضعيفـة جـداً في أثناء

العاصفـة، وفي الحقيقة كـان أمراً عجباً أنها لم تهلك مـع حملها أثناء ذلك الوقت العصيب، وبعد هذا أبحرنا من ليسينا بريح طيبة.

لكن مع حلول المساء ازدادت الرياح قوة، ورمت بنا جانباً بين أماكن وعـرة، مليئة بالعشب والصخـور، حيث كـان من غير الممكن الابحـار أثناء الليـل، والتجأنا إلى سفـح جبل وعـــر، وألقينا بالـدليل، محاولين العثـور على قعـر يمكن أن نلقي المرسـاة فـوقـه، لأن الظلام حلّ علينا بشكل مفــاجىء، حتى أننـا لم نستطع الوصـــول إلى ميناء، كما لم يعــد بإمكاننا متابعة السير، وفي هذه الأثناء، عنـدما كنا قريبين من الجبل وكنا نحاول إدارة رأس الغليون نحو الريح، تعـرض لضربة قاسية من الريح والأمـواج، وكانت من العنف بمكان أنه لم يعـد من الممكن التحكم به، وبات مهـدداً بأن يمضي قـوسه نحـو الشـاطىء فوق الصخـور الحادة، وكان معنى ذلك تحطم الغليون، وعنـدما رأى رفيق الغليون أن المركب يتأرجح، وصل صراخهم نحـو السماء، وبدأوا يركضون إلى هذا الإتجاه وذاك، واستعدوا للقيام بالنجاة بأنفسهم.

وفي تلك الأثناء كنـا نحن مع الأسقفين جميعــاً في الأسفـل، عندمــا ركض خدم الأسقفين نحو البويب الذي كـان فوقنا، وصرخوا بصوت مخيف ومرعب قائلين:« سادتنا تعـالوا إلى الظهر، المركب قد تحطم وهو يغـرق»، ولدى سماع هذا الصراخ قفـز الأسقفـان وأتبـاعهما، وركضـوا نحو ظهـر المركب في فوضى عظيمة، وذلك مثلما فعل الآخـرون، وكان هناك تصادم على السـلالم المرافقة، واندفـاع سريع نحو مـؤخرة المركب، للحصول في داخل القـوارب التي كانت قـد أقلعت، فقد كان مـلاحوا السفينة مع عبيدها قـد استلوا سيوفهم وقطعـوا بها الحبال التي أمسكت القــوارب، وهكـذا سقطت القــوارب في البحـــر في سبيل أن يتمكن القبطان نفسه مع أخيه وزوجة أخيه وأتباعه، من النجاة أولاً.

وعلى كل حال لم ينزل أحـد إلى القوارب، ولو أن رجـلاً واحداً نزل

إليها لكان هناك مشهداً مرعباً من الفوضى، حيث كان هناك عدداً كبيراً ممن سيحاول القفز إلى القوارب، وبذلك يؤذي الآخرين الذين على ظهر القوارب، وسيقوم هؤلاء برميهم في البحر، وسيستل الذين يكونون في القوارب سيوفهم وخناجرهم ويمنعون الآخرين من الدخول عليهم، لأنه في مثل هذه الأوقات من الرعب، غالباً ماتحمل القوارب أكثر من وزنها وتغرق، ويقوم الرجال الفقراء بمحاولة إنقاذ حياتهم، فيندفعون قبل الآخرين، وبذلك يتعرضون للقتل بسيوف النبلاء وسيوف خدمهم، فضلاً عن هذا فإن الذين يرون المخاطر التي يحياها الذين هم في القوارب، يقومون بسيوفهم فيقطعون أصابع وأيادي الرجال المتعلقين بالمجاذيف وبجانب السفينة لدى عملهم للحصول بالقوارب، وبذلك يسقطون في البحر، ولقد سمعت حكايات مرعبة عن جنوح سفن وتعرضها للغرق، من الذين كانوا في مثل هذه المخاطر، التي بدا أننا كنا على وشك المعاناة منها.

وحدث أيضاً على كل حال أن الرب أنقذنا، فقد هدأت الفوضى، وربطت السفينة إلى الصخور، وطويت الأشرعة، وألقيت المراسي، وبناء عليه، بما أن عبيد الغليون، وصلنا بسبب إهمالهم وعدم اكتراثهم إلى هذه الحالة من الخوف، فقد جرت عقوبتهم بضربهم بشدة، غير أننا نحن الحجاج توسطنا من أجلهم، بعد ماتلقينا الرحمة الربانية التي أنقذتنا، وذلك احتذاء بمثلها، مع أننا لم نكن جديرين بالإنقاذ من الموت، وتابعنا في اليوم التالي السفر على طريقنا، وغادرنا يادرا Iadera، وهي إحدى مدن دالماشيا، وقد خلفناها على يسارنا(كذا)، وتابعنا جرينا أمام الريح، لكن مع حلول المساء، شرعت ريح قوية جداً بالهبوب، ومع ازديادها فيما بعد، أصبح البحر هائجاً، وقد دفعنا إلى خارج مسارنا إلى أماكن جبلية، ومع ذلك لم نتجرأ على الإقتراب من الشاطىء، خشية من أن نصطدم بصخرة سيلا Scylla أو كاريبدس Charybdis،

ووصلنا إلى مجرى هوائي، حيث كـانت الريح فيه ثقيلة جـداً، ومع هذا حاولنا أن نلقي مراسينا في وسط هـذا المجرى، وبناء عليه رمينا بدليلنا، فوجدنا العمق كان هائلاً، ولهذا أبحرنا لمسافة أوسع، ولكن لدى غياب الشمس وحلول الظلام، لم يعـد بإمكـاننا المسير مسـافـة أبعـد من دون مخاطر عظيمة، وأجـرينا عملية القياس مجدداً، ووجدنا القعـر، لكنه كان عميقـاً جـداً، ومع هذا رمينا مـرساتنا الكبيرة، لإمسـاك الغليـون، لكن عندمـا وصلت المرساة إلى القعـر لم تجد لاصخـور ولاحجارة ولارمـال يمكن أن تلتصق بها شعـابها، بل جـرت وراء الغليـون فـوق قعـر الماء، وذلك أثناء متـابعـة الغليون لإبحـاره، مما أقلقنا كثيراً، وبعـد هذا، وإثر بذل جهـد عظيم انتشلـت المرسـاة، وألقي بها في مكان آخـر، ومجدداً جـرت المرسـاة وراء الغليـون، مثلما يجري المحـراث وراء الحصـان، ثم رفعت مجدداً، ورمينا بها في مكان ثالث، حيث أمسكت بصخـرة، ولكن عندما توقف الغليـون، كانت عصـا التوجيه تتحـرك من مكان إلى آخر، مما أدى إلى انزلاق شعبـة المرسـاة من على هذه الصخـرة، وبدأ الغليـون بجـر المرسـاة مجدداً، لكن حـدث فجأة أن وصلت المرسـاة إلى صخـرة أخرى، حيث التصقت بها بشدة، وهكذا بقينا واقفين طوال الليل.

وحملنا نحن الحجـاج أنفسنا إلى فـرشنا، لكن القبطـان بقي مع جميع الملاحين وعبيد الغليـون بدون نوم طوال الليل، متوقعين مـوتهم وموتنا في كل لحظة، لأن الريـح هبت بشكل عنيف، وتأرجح الغليـون كثيراً، لأننا رسونا خـارج ميناء، يحمينا من قوة الريح، وكـان الملاحون— لهذا السبب— يخشون انزلاق المرساة وخـروجها من الصخرة، أو أن ينقطع الحبل، ففي حـال حـدوث أي من الأمـرين سـوف نهلك بدون شك، ذلك أننا كنا في قوارنيرو Quarnero ، الذي كان أخطر خليج في البحر ، وذلك في مقابل ميناء أنكونا Ancona ، حيث كان البحر عالياً جداً وقوياً في سرعته.

ولهذا، وتقديراً من القبطان للمخاطر التي كنا فيها، نذر أنه ما أن يصل إلى ميناء بارنزو Parenzo سوف يبحر مع جميع الحجاج مباشرة إلى جزيرة القديس نيقولا، ليستمع هناك لقداسات تقال وتنشد للشكر على خلاصنا، وهذا مافعلناه، لأننا قمنا بالصباح برفع المرساة، وأبحرنا مروراً بعدد من مدن دالماشيا، ووصلنا إلى بارونزو في استريا، وذهبنا في اليوم التالي مع القبطان، ونفذنا نذرنا، ومكثنا في بارنزو لمدة خمسة أيام، ثم وصلنا إلى ميناء البندقية بعد إبحار يوم واحد، وأخيراً وصلنا إلى البندقية، وتفرق جمعنا، ومضى كل رجل منا إلى موطنه.

وأصبحت في الوقت نفسه مريضاً، لكن ليس إلى حد أن أكون طريح الفراش، ومع ذلك كنت مريضاً جداً إلى حد منعي من المشي، أو ركوب حصان، حتى استرديت عافيتي، ولذلك ذهب مولاي جورج مع النبلاء الآخرين إلى الوطن، غير أنني بقيت في البندقية بين أيدي الأطباء لمدة حوالي خمسة عشر يوماً، حيث عوفيت بعدها واستردیت صحتي، فانطلقت من البندقية برفقة تاجر، واشتريت حصاناً من تريفيسو Treviso وسافرت مع رفيقي حتى ترنت Trent ، وسافرت من ترنت وحيداً حتى وصلت إلى الناصرية Nassereit ، وقد وصلت هناك بعد الظهر، فوجدت بالنزل، أربعة من أخواني الحجاج من الأرض المقدسة، وكانوا من الإنكليز، وقد حيينا بعضنا بعضاً بسرور وبهجة، وكانوا يقومون بالإستعداد للسفر، ويأملون بعبور الجبل الذي اسمه سيريسيوس Sericius في ذلك اليوم نفسه، غير أنني رجوتهم الانتظار حتى الغد، حتى يمكننا السفر إلى أولم مع بعضنا، وقد طلبوا مني أن أركب معهم، لكنني رجوتهم بالبقاء معي باسم حق الرفقة والصداقة، ولكنهم رفضوا، لأنهم— كما أخبروني— قد سمعوا بشكل مؤكد، أنه سوف تصل في ذلك اليوم بالذات مجموعة كبيرة من الفرسان المسلحين، التابعين لبلاط دوق النمسا، إلى تلك القرية والنزل،

وهم يرغبون بتجنبهم، لأنه لم يكن سليماً العيش بين رجال مسلحين.

وهكذا افترقنا، وابتعدنا عن بعضنا بعضاً ثانية، فقد ذهبوا، وبقيت أنا خلفهم، وجاء في المساء إلى النزل عدد كبير من النبلاء المسلحين مع أتباعهم، وكانوا مرسلين من قبل دوق النمسا للدفاع عن قلعة كريجين Kregen التي كان ايبرهارد Eberhard الأكبر صاحب وورتمبورغ Wurtemburg محاصراً لها، ويحاول تدميرها، وعلى هذا كان النزل مليئاً برجال مسلحين أشداء، لكنهم عندما عرفوا بأنني قادم من الأرض المقدسة عاملوني باحترام ككاهن وراهب، وكذلك كجندي من جنود الأرض المقدسة والضريح المقدس، ودعوني لعمل قداس لهم في اليوم التالي، ومن ثم بالسفر معهم، وقمت في اليوم التالي بعمل قداس لهم، وتناولت طعام الإفطار معهم، وعندما انطلقنا لنسافر سددوا الحساب عني، وأخذوني معهم وسط قوتهم بسرور ومتعة وراحة، وعندما وصلنا إلى كمبتن Kempten ، وجدت هناك في نزل التاج الملكي، الحجاج الانكليز الأربعة المتقدمي الذكر، وقد جرحوا، وضربوا وسلبوا كل مقتنياتهم، وكانوا في حالة محزنة جداً، ومخجلة وتعيسة.

فقد انقض عليهم في الغابة على مقربة من كمبتن لصوص، أنزلوهم من على خيولهم مرغمين بالسيوف، وعندما حاولوا صد القوة بالقوة، والدفاع عن أنفسهم، أصابتهم الجراحات بضربات سيوفهم، وقاموا بشد وثاقهم، وجروهم بعيداً عن الطريق العام إلى داخل الجزء الداخلي من الغابة، إلى حقل معزول منفرد، وقاموا هناك بسلبهم وسط إهانات كثيرة، وفتشوا في جيوبهم، وأفرغوا محافظ نقودهم وجعبهم، وعروهم من ملابسهم تماماً، وبحثوا في ملابسهم بكل عناية ليعرفوا فيما إذا كانوا قد خاطوا على شيء من المال فيهم، وأعطوهم أخيراً بعضاً من الملابس السيئة بدلاً عن ملابسهم، وأرغموهم على أن يقسموا يميناً أنهم في

مجال ثلاثة أيام لن يخبروا أحداً بما حدث لهم.

ولقـد أسفت كثيراً من أجل إخـواني، إنما هنأت نفسي لأنني لم أبق بصحبتهم، لأنني لـو بقيت لوقعت مثلهم في أيـدي هؤلاء اللصـوص، ووصلت في اليوم التالي إلى ميمنجن مع هؤلاء الفرسان، وأمضيت ذلك النهار معهم، وفي اليوم التالي الذي كـان يوم عيد القديس أو ثمار -Oth mar [٢٥— تشرين أول]، سـافـرت من ميمنجن إلى أولم بصحبـة كاهن.

ولدى دخولي إلى ديري، استقلبت بسرور ولطف، ومن ثم ذهبت إلى قـلايتي وإلى عملي المعتـاد فيها، ويمكنني القول صـادقـاً، إن هذا الحج الأول الذي قمت به، يعادل مائـة ضعف من حيث المتاعب والمآسي، أو أكثـر، من حجي الثـاني، وهو أعظـم خطراً في كل من البحـر والبر، وكانت جماعتنا في الحج أثناء حجي الأول أكثر فـوضوية، لأنه كان فيها كثيراً من الرجـال الانفعاليين، ولهذا كانـت هناك خصومات يـومية، كما كـان هناك بعض السرقـات الخاصة، وكـان بعضهم دومـاً مريضـاً، وفي الحقيقـة، كـانت رحلتي الاولى هذه في كثير من الجوانب أكثـر حـزناً وتعاسة، في حين كانت رحلتي الثانية أكثـر اتعاباً، وأبعد مسافة، وأعظـم انفاقـاً، وأشد خطراً، ومع ذلـك تحملت أكثر فأكثـر المخاطر اليـومية في رحلتي الثانية.

وبهذا يمكن لجميع الناس أن يروا بـوضـوح، كيف أنه غير صحيح، ماهو رائج بين الناس في قولهم بأن الحج بالبحر من البندقية إلى الأرض المقـدسـة، هو مجرد رحلـة ممتعـة مع مخاطـر قليلة، أو بدون مخاطر على الإطلاق، فيـا إلهي أية رحلة متعبـة وصعبة كـانت رحلتنا، وكم كـانت المعـاناة التي كـابدناها كبيرة ومـزعجة، فلقـد رأيت خـلال هذه الرحلة كثيراً من الشبـاب النبـلاء النشطاء يهلكون، من الـذين تصـوروا في أذهانهم أن بإمكانهم أن يتحكمـوا بأمـواج البحـر، وأن يرفعـوا الجبـال

العـاليـة ويزنوها، لكن الذي مـات بالأخير مـات بقضـاء الله العـادل، وهلك بفعل المصاعب، وكان أمره محزناً في روحه.

أرجـو الرب أن يعطي الذين قـالـوا بأن هذا الحج كـان رحلة سهلة، القدرة على الشعور بالأسف وأن يتعلموا امتلاك الرحمة نحو الحجاج إلى الأرض المقدسة، وذلك حسب مايستحقـونه، فمحاولة هذا الحج تحتاج إلى الشجـاعـة والقـدرة على التحمل، ذلك أن كثيرين يقـدمـون عليهـا ويندفعون نحـوها بتسرع غير مغفور، وبلا شك بفضـول بليد، ذلك أن الوصـول إلى الأمـاكن المقـدسة، ومن ثـم أن يعود الإنسـان إلى مـوطنه نشيطاً ومعافى، هو منحة خاصة من الرب.

هنا نهاية أولى جـولات الراهب فيلكس فـابري ورحـلاته إلى الأرض المقدسة.

الطريقة التي استعد بها الراهب فيلكس فابري لجولته الثانية أو حجه إلى الأرض المقدسة، والقدس، وصهيون، وجبل سيناء

بعد إكمالي لجولتي الأولى، حسبما شرحتها جزئياً، عدت إلى أولم، معافى في بدني، وبدوت سعيداً متحمساً، لكن كنت في قلبي وروحي حزيناً، وغير مستقر، بسبب القلق الذي شعرت به، لأنه كان عليّ تحمل حجاً آخر، وعودة إلى الأرض المقدسة، وعلى كل حال لم أخبر أحداً بهذا القرار، ذلك أنني لم أكن قانعاً بأي حال من الأحوال بحجي الأول، لأنه كان قصيراً إلى أبعد الحدود وسريعاً، وقد ركضنا حول الأماكن المقدسة دون أن نفهم أو نشعر ماذا كانوا، يضاف إلى هذا لم يكن قد سمح لنا بزيارة بعض الأماكن المقدسة في كل من داخل القدس، وفي خارجها، كما أنه لم يسمح لنا بالسير فوق جبل الزيتون، وفي أماكنه المقدسة أكثر من مرة، وقد زرنا بيت لحم وبيت عنيا مرة واحدة فقط، وكان ذلك في الظلام.

ولهذا حدث بعد عودتي إلى أولم، وشروعي بالتفكر حول الضريح الأكثر قداسة لربنا، والمعلف الذي تمدد فيه، ومدينة القدس المقدسة، والجبال التي هناك من حولها، ومظهر وشكل وأوضاع هذه الجبال والأماكن المقدسة الأخرى، ذلك أنها ضاعت من ذاكرتي، حتى بدت لي الأرض المقدسة، والقدس مع أماكنها المقدسة وكأنها مغلفة بالضباب الكثيف، وكأنني قد رأيتهم في المنام، وبدوت شخصياً بالنسبة لنفسي وكأنني أعرف أقل حول الأماكن المقدسة، مما كنت أعرفه قبل أن أزورهم، ولهذا حدث أنني عندما سئلت عن الأماكن المقدسة، لم يكن بإمكاني إعطاء أجوبة دقيقة واضحة، كما لم يكن بإمكاني كتابة وصف واضح لرحلتي، ولهذا السبب كنت حزيناً إلى أبعد الحدود، ولكوني عانيت ما عانيته من متاعب،وشقاء، ومخاوف، وأنفقت مبلغاً كبيراً من المال، وكثيراً من الوقت، دون أن أتلقى أية ثمار، أو مواساة، أو معرفة.

وفي غالب الأحيان عندما كنت أحاول حصر نفسي وتوجيه أفكاري نحوالقدس والأماكن المقدسة، كنت قادراً فقط على تجميع صورة غير واضحة حولهم، ولهذا قلت وأنا مغضب لنفسي:«أرجوك، توقفي عن التفكير حول هذه الأماكن، ذلك أنك كنت هناك بالتوهم والخيال فقط»، ومن هذه الساعة اعتدت على امتلاك رغبة ملحة جداً بالعودة، وبرهنت على صحة هذا غير أن هذا أوجد أسفاً جديداً بالنسبة إليّ وفيّ،لأنني لم أستطع رؤية أي سبيل للرجوع إلى هناك، كما أنني لم أتصور أن ذلك العود ممكناً.

وهكذا بقيت مرهقاً فكرياً، ولم أتجرأ على الحديث حول هذا الموضوع مع أي إنسان، وكنت خائفاً من ذكر هذا الموضوع إلى الأب المحترم السيد لودويغ فوكس، مع أنه كان صديقاً مقرباً مني، وشريكاً لي في جميع أسراري، حيث ما كنت أتردد في إخباره بجميع الأشياء السرية التي كنت أشعر بها بقرارة نفسي، ومع هذا لم أتجرأ على البوح بذلك لأبي بالرب، ولم أذكر له خطتي بالعودة إلى القدس، خشية من إثارته وإزعاجه، وخشية أنه وغيره عندما يسمعون بذلك سيظنون ظن السوء بي، ويحكمون بأنني صاحب عقل خفيف، ومتضايق من العزلة الانفرادية الهادئة، أوربما أعاني من إغواء الشيطان، أو مدان بذنب الفضول المرفوض، أو مصاب بدوافع طائشة ملتهبة جامحة، ولذلك بقيت بلا قرار، ولم أظهر إشارة بما شعرت به سوى أنني عندما سئلت عن القدس وعن الأرض المقدسة، لم يكن بإمكاني الكلام بدون تنهد، أو القول أحياناً:لست أدري فيما إذا كنت قد رأيت القدس حقيقة أم لا، وعندما سألوني، فيما إذا كنت أرغب بالعودة إلى هناك ثانية، أجبت بكل بساطة، نعم أنا أرغب بذلك، وفي الوقت نفسه ألقتني رغبتي في العودة في قلق محموم، ولذلك لم تقدم لي الدراسة، ولا الكتابة أية بهجة أو متعة، إلاّ الحكايات التي وردت في التوراة وفي أماكن أخرى فيها

إشارات وذكر للقدس، ولهذا قرأت بعناية كل شيء تعلق بهذا الموضوع، ووصل إلى يديّ، فضلاً عن هذا جمعت كل حكايات حجاج الحروب الصليبية، والرحلات التي كتبت من قبل حجاج، وكذلك أوصاف الأرض المقدسة، وقرأتهم بعناية، وكنت كلما قرأت أكثر كلما ازداد اضطرابي، لأنني بقراءتي لروايات الآخرين، علمت كم كان حجي، ناقصاً، ومصطنعاً، وغير نظامي، ومضطرباً متداخلاً.

وأمضيت في أعمال القراءات والكتابات هذه سنة واحدة، لكن بعد مضي سنة عدم الاستقرار هذه، قدم إلى منطقتنا القائد العام لطائفتنا كلها، أي طائفة الرهبان المبشرين، وهو سالفوس دي كاسيتا، Salvus de Casseta أوف بالرمو(بلرم)،وقد جاء مرسلاً من قبل الأب المقدس البابا سكتوس الرابع، للتصدي للسيد أندرو، رئيس أساقفة كارنيولا Carniola ، الذي تحرك لاأدري بأية روح، وكان يحاول عقد مجمع عام في بازل، وكان يسكن هناك تحت حماية الامبراطور فردريك الثالث، ومن أجل أن يتمكن رئيس طائفة الرهبان المبشرين المتقدم الذكر، من العمل بشكل فعال أكثر، استدعى أفضل الوعاظ في منطقتنا للاجتماع به في دير كولمار Colmar ، وقد بعثت بين هؤلاء، وقدمت إلى الدير المتقدم الذكر، لكي أسمع أوامره وأطيعها، وهكذا عندما كنت بحضرة رئيس الطائفة، كان بين الأشياء التي قلتها لذلك الأب، وتحدثت بها إليه، أن أخبرت فخامته وحدثته عن رغبتي بالعودة إلى الأرض المقدسة وفلسطين، فما كان منه إلاّ أذن لي بالذهاب مباشرة وبدون عمل أية مصاعب، وأعطاني رسالة سماح مختومة بختم الطائفة، فيها حظّر على كل واحد من المراتب الأدنى منه عمل أية عوائق في طريق إنجاز ذلك الحج.

ولدى حصولي على هذا السماح عدت مسروراً إلى أولم، وأبقيت رسالة الرئيس مكتومة، وانتظرت متشوقاً لفرصة مناسبة حتى أعلن

عنهـا، وليس بعـد مضي أيام كثيرة على هذا، حتى قـدم إلى أولم مـولانا المحترم في المسيح أودالريكـوس غيسلينوس Udalricus Gislinus أسقف أدراميتـوم adramyttium ، ونائب أسقف لمولاي أسقف أوغسبورغ Augsburg ، الذي كان صديقاً لي، وقد شملني بمعـروفـه، وجـاء معـه حكيم باللاهوت، وكـان راهبـاً من طـائفـة الـفرنسيسكان، وكـان راغباً بالذهاب إلى رومـا ليتسلم ترسيمه أسقفـاً، لأن السيـد أسقف فريزيا قـد جعل منه مسـاعد أسقف له، وقـد زرت هؤلاء السادة، ورجـوت الحكيم المتقدم الذكـر أن يتفضل عليّ فيحصل لي من الأب المقـدس البابا، على إجـازة لي لزيارة الأمـاكن المقدسـة فيما وراء البحـر، وهو مـا رجـاه أيضـاً الأب المحترم المتقـدم الذكـر أودالريكوس أن يفعله إكـراماً لخاطره، وهكذا وعـدني بأن يفعل ذلك، وقـد حـافـظ على وعـده وبعث لي رسـالة تحتـوي على الاذن بالسفـر، وعندما حصلت على هذه الرسالـة حافظت على الصمت فقد كنت آمل بتوفر فرصـة موائمة أكثر، وكنت أرجو أن الفرصـة المرغوبة هي ستقدم نفسهـا، وتلبي رغبتي وتشـوقـي من دون أن أطلبهـا، وهذا مـا حـدث بالفعل.

وكان في ذلك الوقت في أولم رجل اسمه كونراد لوخرLocher ، وكان إنسـاناً محترماً يشغل وظيفـة النائب العام للامبراطورية الرومـانية المقدسة في ذلك المكان، وكان معروفاً بشكل جيد من قبل عدد كبير من النبـلاء، وقد نظر إليّ نظرة تقـدير وأولاني عناية خاصـة، وله — بحكم كـونه صـديق مـوثوق — فتحت أولاً قلبـي، وأبحت له خبر رغبتي، والاجـازتين التي حصلت عليهما، ورجوتـه إذاكان يعـرف أي شخص من نبلاء المنطقـة، يرغب بالقيام بالحج إلى الضريح المقـدس في القدس، وهو بحاجـة إلى خادم وشماس، فيـوصي بي إلى مثل هذا الشخص، على أنني إنسـان صاحب تجربة،ومعين في مثل هذا الحج في كل من القضـايا

الروحية والدنيوية.

وبناء عليه نظر الرجل المتقدم الذكر في لائحة نبلاء المنطقة، فوجد السيد ذي الأصل النبيل جون تروخسيس فون وولدبورغ John Truchesess Von Woldpurg ، كان يعدّ العدة للقيام بحج إلى ما وراء البحار مع عدد آخر من البارونات والنبلاء، وقد زار هؤلاء النبلاء، وقام بإخلاص عظيم بالتوصية بي لهم، كما برهنت الأحداث.

لأنه مباشرة بعد هذا، وكان ذلك في سنة ١٤٨٣، وفي يوم عيد القديسة العذراء جيرترود Gertrude ، قام النبيل المتقدم الذكر، أي تروخسيس فون وولدبورغ، بالقدوم إلى أولم مع عدد كبير آخر من النبلاء، ومن أصدقائه، وأرسل على الفور رسولاً إليّ واستدعاني من الدير، وعندما قدمت إليه إلى النزل الذي كان نازلاً به، وبدأ يسألني، وكأنه يطلب مشورتي حول كيف يمكن للذين يرغبون بعبور البحر والقيام بالحج إلى القدس، أن يفعلوا ذلك، وما الذي عليهم القيام به بشأن هذه القضية، وقال:«لقد سمعت بأنك كنت في تلك المناطق فيما وراء البحار، أرجوك، أشر عليّ، ما الذي ينبغي أن أفعله من أجل أن أعود إلى الوطن سالماً»؟ ثم استطرد يقول:«إنني أنوي زيارة الأرض المقدسة، ومدينة القدس المشهورة، ومعلف الرب، الذي هو الأكثر عذوبة، وضريح الرب الأكثر تمجيداً»، وقال:أخبرني، «أرجوك بحرارة، ما هي المصاعب في طريقي،وكيف يمكن تجاوزها»؟، وعندما كنت أجيبه على أسئلته،كان ينظر إليّ بإخلاص عظيم، ومع أنه توقف عن سؤالي مثلما فعل في البداية، لكنه استوضح عما إذا مازلت أمتلك أيةرغبة في العودة إلى القدس، فأجبته أنه لايوجد شيء في العالم أنا متشوق إليه بشدة، في الوقت الحالي، أعظم من رؤية ثانية لهذه الأماكن المقدسة، وبعدما علم هكذا رغبتي بالذهاب، جعلني هذا النبيل أعود إلى ديري، مؤكداً لي، أنه ينبغي أن أذهب إلى القدس برفقته ورفقة

أصدقائه.

وكان النبلاء التالية أسماؤهم قد تعهدوا مقسمين على القيام بالحج مع بعضهم، وهم: السيد جون وورنهير Wornher ، بارون فون كيمبيرن Cymbern ، والسيد هنري بارون فون ستوفل -Stoe fel ، والسيد أورسوس Ursus فون ريخبيرغ Rechberg فون هوهنريخبيرغ Hohenrechberg، والسيد المتقدم الذكر تروخسيس فون وولدبورغ، الذي كان والد جميع المتقدمي الذكر، ومنه تلقوا التحريض والدافع الذي جعلهم يقررون القيام بحجهم.

ومباشرة في الساعة نفسها التي عدت بها إلى ديري، أرسل النبيل المتقدم الذكر رجلاً محترماً مرافقاً بحاشيته الخاصة، ليلقي كلمة يرجو بها السيد المحترم رئيس الدير، باسم البارونات النبلاء الذين تقدم ذكرهم، بأن يتكرم ويحسن بمنح الراهب الذي كان في بلدان ما وراء البحر، والذي وقع اختيارهم عليه بالاجماع لأن يكون شماسهم والقس الذي يعترفون إليه، إجازة بالمغادرة، وإذناً بالسفر من البلاد معهم، ولهذا الغرض أضفت بأن السيد جون تروخسيس قد قدم الآن مع رفاقه والنبلاء الآخرين إلى هذه المدينة.

وعندما سمح رئيس الدير هذا افتعل كثيراً من المصاعب، وأخذ وقتاً لتقدير الجواب الذي ينبغي أن يعطيه، وعندما رأى السيد جون هذا، وخشية منه أن ينتهي النقاش في شيء يضاد رغباته، قام مباشرة في اليوم التالي، وجلب معه جميع النبلاء وأصدقائه، وكذلك النبيل كونت فون كيرخبيرغ Kyrchberg الذي جاء أيضاً معه، ولقد اصطحب هؤلاء جميعاً وذهب إلى مقر محكمة العدالة المدنية، حيث كان جميع أعيان مدينة أولم مجتمعين، وترجاهم لكي يستمعوا له، وعندما جرت الاستجابة لهذا الطلب، توسل إلى القناصل لكي يستخدموا نفوذهم لدى رئيس دير الدومينيكان لكي يدع الراهب فيلكس، الذي اختاره

هو ورفاقه ليكون شماسهم أثناء الحج فيما وراء البحار، يدعه يغادر بدون عوائق، ولاسيما أنهم يعرفون بشكل خاص أنه راغب بالذهاب، وبناء عليه دخل عمدة المدينة مع عدد من القضاة إلى الدير ليلتمسوا من الأب، الموافقة على التماس النبلاء، من أجل خاطر أعيان المدينة، وعندما قال بأنه لايمتلك السلطة ليمنحني إجازة للارتحال إلى القدس، لأن ذلك العمل هو في يدي أبينا المقدس، البابا، وكذلك هو من شأن القائد العام للطائفة، قمت على الفور بتقديم الرسالتين، اللتين هما من البابا، ومن القائد العام للطائفة، وعندما رآهما أعطى على الفور موافقته باسم الرب.

وبناء عليه التقيت بالسيد جون تروخسيس، وتباحثت معه حول المكان وحول اليوم الذي سألتقي به فيه مع سادتي الثلاثة الآخرين، وقام بتحديد يوم خاص، أما بالنسبة للمكان فقد كان بلدة إنسبروك Innspruck حيث مقر دوق النمسا، وبعد إعداد هذا، ذهب سيادته إلى موطنه مع جماعته، واعتباراً من هذا اليوم أطلقت لحيتي، وزينت قبعتي وردائي بصليبين حمراوين، وجرت خياطة هذين الصليبين على ثيابي من قبل عذراوات، مكرسات للرب، اقترن بالذي صلب، وعملت جميع الشارات الأخرى لذلك الحج المقدس، كما ينبغي أن أفعل بشكل صحيح، حيث هناك أربطة خمسة خارجية للحاج هي: أولها صليب أحمر فوق رداء رمادي طويل، مع قلنسوة راهب مخاطة إلى القميص، ما لم يكن الحاج منتمياً إلى إحدى الطوائف التي لاتسمح له بارتداء رداء رمادي، وثانيها قبعة سوداء أو رمادية، عليها في الواجهة صليب أحمر، وثالثها لحية طويلة نامية من وجه حاد وممتقع اللون بسبب متاعبه والمخاطر، ذلك أنه في كل بلد من البلدان، حتى في البلدان الكافرة، يطلق الناس لحاهم ويدعون شعورهم تطول أثناء سفرهم، وإلى أن يعودوا إلى وطنهم، ويقولون إن أول من فعل ذلك هو أوزوريس،

وكان ملكاً قديماً لمصر، وكان مقدساً إلى درجة عدّه رباً، وكان قد ارتحل خلال العالم كله، والرابع هو مخلاة تعلق على الكتفين فيها طعامه القليل مع زجاجة، وهي كافية ليس لرغد العيش، بل لمجرد ضرورات الحياة، والخامس، وهو مايحصل عليه فقط في الأرض المقدسة، وهو أتان، مع سائق مسلم، عوضاً عن عصاه.

وهكذا تطلعت بشوق عظيم إلى يوم مغادرتي، وبصمت وهدوء جهزت نفسي من أجل حجي المقدس، وذلك بسبب المشاكل التي أثارها الذين كانوا قلقين على سلامتي، والذين دأبوا على إزعاجي.

هنا بداية الرحلة الثانية للراهب فيلكس فابري إلى الأرض المقدسة والقدس

الجزء الرئيسي الثاني من الكتاب كله.

سوف أبدأ الآن جولاتي حول حجي الأكثر رغبة فيه والذي كان الأعظم إشراقاً وسروراً، وهو الحج الذي عـزمت على وصفه في اثني عشر فصلاً، تبعاً للاثني عشر شهراً — أكثر أوأقل — التي استغرقها الحج، وقد قسمت كل فصل إلى كثير من العناوين، مثلما هناك أيام في الشهر، وبناء عليه سوف يكون كل شهر في فصل، وكل يوم تحت عنوان.

ولسوف أبدأ بيوم مغادرتي، وأنتهي بيوم عودتي، وسآتي بشكل صادق وأمين على ذكر جميع الأماكن التي رأيناها شهراً تلو شهر، ويوماً تلو يوم، وسأتحدث بصدق عن كل ما نزل بنا في كل شهر، وفي كل يوم، مضيفاً أوصاف جميع الأماكن المقدسة وغيرها من الأماكن، لكي أحسّن روايتي وأشرحها، لأنني لم أر يوماً واحداً، أثناء رحلاتي، دون أن أكتب بعض المذكرات، حتى عندما كنت في البحر، وفي العواصف، أو في البلاد المقدسة، وغالباً ما كنت في الصحراء وأنا راكب على ظهر أتان، أو جمل، أو في الليل عندما يكون الآخرون نياماً، حيث كنت أجلس وأدون كتابة ما كنت قد رأيته.

والآن عندما اقترب موعد المغادرة، وبات عليّ السفر، ترقبت يوماً مناسباً يمكنني أن أغادر فيه أولم، من دون أن ألاحظ، ومن دون تجمع حشد كبير من الناس، لأن رفاقي وذوي النوايا الطيبة نحوي قد انزعجوا كثيراً، وكانوا غير سعداء إلى أبعد الحدود بسبب مغادرتي، وقدأزعجوني كثيراً بنصائحهم التي وجهوها إليّ بالبقاء في الوطن،

وبسبب مخاوفهم الحمقاء، وقد بدا نحيبهم بالنسبة لي مزعجاً جداً، لأنني أحب البهجة ولاأخاف، لأنني كنت ذاهباً لتلبية دعوة إلى الاحتفال مع أعز أصدقائي.

وبناء عليه في الثالث عشر من نيسان، الذي كان يوم أحد ويعرف باسم Misericor dia Domini وذلك في سنة ١٤٨٣، ومع حلول الظلام، جاء إليّ رسول أرسله النبيل السيد فيليب كونت كيرخبيرغ، يطلب مني القدوم في الصباح التالي بدون تأخير لزيارة الكونت والقيام ببعض الأعمال معه، وكنت في وضع الرئيس لجميع أسرتي،لأن جميع آل بيتي اعتادوا على الاعتراف إليّ، من كل من الكونتات والكونتسات، وعندما تتوفر أية مصاعب، يمكنني أن أتعامل معها، كانوا دوماً يكتبون رسالة إليّ، أو يبعثون إليّ للقدوم إليهم، وبناء عليه رتبت مع الخادم بأنني سوف أقدم عليه بصحبته في الغد.

وفي الرابع عشر، الذي كان يوم عيد تيبورتيوس Tiburtius وفالنتاين، وبعد قراءة القداس وتناول طعام الافطار دعوت للاجتماع بي جميع الرهبان، وقلت لهم أنني الآن أرغب في مغادرتهم والسفر، ورجوت بنيل مباركة الحج من أبينا المحترم المقدس لودويغ Ludwig، وقد اقتادني إلى السدة حيث رافقني كل رهبان الدير، وجثوت في وسط السدة بوجود القربان المقدس، وتلقيت المباركة من المذبح، وسط بكاء مرّ ونحيب من رئيس الدير وجميع الرهبان، وبعدما تلقيت مباركتي جعلني بكائي ودموعي غير قادر على القول وداعاً لإخواني الرهبان بالكلمات، لكن دموعي، ووجهي الحزين، وتنهداتي تكلمت عني.

وبناء عليه عانقت وقبلت كل واحد من إخواني، ورجوتهم أن يتذكروني في صلواتهم، غير أنني لم أستطع إلاّ بصعوبة بالغة إقناع الأب المحترم لودويغ بالبقاء مرتاحاً في البيت،لأنه أراد أن يراني سليماً حتى ميمنجن، كما فعل من قبل، لكنني رفضت كلياً أن أسمح له، حتى

لايعاني من ألم جديد واضطراب عندما نفترق، وعلى كل حال كنت لدى انطلاقي لهذا الحج مسروراً ومنتشياً، وروحي مبتهجة، ومع ذلك عندما تركت الأب، الذي هو صديق مخلص جداً، وغادرت إخواني المحبوبين إليّ كثيراً، الذين كانوا حزينين كثيراً ومحبطين، لم أستطع أن أمنع نفسي من ذرف دموعي.

وبعدما جرى جمع الحقائب التي نويت حملها معي، وبعدما وضعتها على ظهر الحصان الذي كنت قد اشتريته، امتطيت حصاني، وبت على نية السير والابتعاد برفقة خادم الكونت، لكن حدث لدى امتطائي لحصاني أن تحلق جميع إخواني الرهبان من حولي، ورجوني أن أتنبه وأن أعتني بكتابة مذكرات عن جميع الأماكن المقدسة التي سأراها، وأن أكتب رواية عنها وأجلبها معي إليهم، وذلك من أجل أن يتمكنوا أيضاً بأفكارهم — طالما لم يستطيعوا بأجسادهم — من الحصول على متعة زيارة الأماكن المقدسة، وقد وعدت إخواني بفعل ذلك، وخرجت برفقة خادم الكونت وقتها من الدير، وسرنا بدون جلبة وكأننا مخفين لأنفسنا، وخرجنا من المدينة، وعبرنا نهر الدانوب عبر الباب الذي يقود إلى جسر الضأن، وصدف أن هذا الحج قد توافق مع الحج الآخر، فيما يتعلق باليوم الذي بدأ به، ذلك أنني كنت قد بدأت حجي المتقدم في يوم عيد القديسين تيبورتيوس وفالنتاين.

وفي الحقيقة بدأت بعد مضي عامين رحلتي الثانية في اليوم نفسه والساعة نفسها، مثل الرحلة الأولى، وسرت أنا وخادم الكونت فوصلنا بسرعة إلى قرية ديسين Dissen ، وصعدنا بعد ذلك إلى القلعة القائمة فوقها، التي سكن فيها مولاي الكونت، وكان السبب في إرساله خلفي هو مايلي: كان يوجد في قرية جيدينشيم Jedensheim أو إيهديمشيم Iheidemsheim ، القائمة عند سفح الرابية التي قامت فوقها القلعة، كان يوجد هناك فتاة قد فقدت عقلها، التي من الممكن

تبيـان أنها متلبسـة من الشيطان، وقـد أراني الفتاة وعـرضهـا عليّ لأنظر إليها وأتفحصها، حتى يمكنني تقرير ما الذي يمكن العمل معها، وكان قراري أنها كـانت فاقـدة لعقلها، ولهذا كـان الأجدى العهـدة بها لعناية أطباء وليس لعناية لاهوتيين.

ومع انتهـاء هذا العمل أخبرت مـولاي الكونت، بأنني قـد بدأت رحلتي، ورجـوتـه أن يبعث معي بخـادم يرافقني حتـى سفح جبـال الألب، لأنه بالنسبة للطريق خـلال تلك المسافة غالبـاً ما يكون خطيراً، وقـد خفت من السير وحيداً، وبناء عليـه غادرت ثيسـا Thyssa في ذلك اليوم نفسه مع الخادم الذي عين لي، وسـافرنا حتى ميمنجن حيث أمضينا الليل.

وسافـرنا في اليوم الخامس عشر مسرعين من ميمنجن حتـى كامبتن Kampten، وهناك تناولنا طعام الغـداء معاً، وبعـد الغداء صرفت الخادم وطلبت منه العـودة إلى سيـده، ذلك أنني خشيت من احتمال أن يغادر مـولاي انسبروك Innspruck قبل وصولي إلى هناك، ولذلك سافرت حتى قرية ريوتي Reutte القائمة على ضفتي نهر ليكوس Licus، وهو الذي يعرف بشكل عـام باسم ليخ Lech، حيث أمضيت الليل هناك.

وغادرت في يوم السادس عشر ريوتي وحيداً، وكان ذلك في الصباح الباكر، وشرعت في تسلق ألب ريهتك Rhaetic، في مكان يقوم فيه المدخل إلى ريهتك الألب، وذلك فوق طريق منحـدر، يكون في أوقات الأمطار سيئاً جـداً للسفـر عليـه، لأنـه عميق ومـوحل، وقـد وجـدت الطريق سيئاً جـداً، لأنه كـانت هناك أمطار في اليـوم المتقدم، وتسـاقط الثلج في الليلة التـاليـة فوق الوحـول، ولهذا لم أستطع رؤية التجمعـات المائية والحفر العميقة، وعلى هذا غرق حصاني الذي قدته طوال الطريق صعوداً حتى بطنه أثناء كل خطوة، وغـرقت أنا مثله حتى ركبتي، فضلاً

عن هذا غرقنا معاً في حفر عميقـة، ومهما يكن من أمر لقد عبرت حتى حدود الريهتك ألب Rhaetic Alps ، التي هي موجودة عند مكان اسمه ايهرنستين Ehrenstein ، ووصلت إلى حيث يقود الطريق صعوداً فـوق مونـز فيريشيوس Mons Fericius، وعندما وصلت إلى قمة هذا المكان ونزلت إلى الجانب الآخر، وجـدت أنه مايزال أمامي جزء من النهار، ولهذا عبرت خلال قـرية الناصرية، وتسلقت ثانية جبلاً عاليـاً جداً ووصلت إلى قـرية Schneckenhusen ، حيث قررت إمضاء الليل.

وجلس في النزل بعـض عمال المناجم من منـاجم الفضـة، وكـانوا يقمـرون،ويشربون ويمتعـون أنفسهم، وقـد نظرت إليهـم نظرة ريبـة، وكنت حذراً في كلامي معهم، ووضعني صاحب النزل في غرفة صغيرة لوحدي، حيث قمت بإغلاق الباب بكل اتقان وحذر، ورحت نائماً.

وفي الصبـاح الباكـر من اليـوم السابـع عشر، عندما استيقظنا جميعـاً، كـانـت هناك ضجـة كبيرة في دار النزل، لأن اثنين من الحمالين كـانا يشتكيان بأنهما فقـدا نقودهما مع أموالهما كلها، لأنهما عندمـا كانا نائمين، دخل عمال المناجم إلى غـرفتهما، وسحبـا حـافظتي نقـودهما من تحت وسادتيهما، وأفـرغاهن ورموهن في الحديقة المجـاورة لدار النزل، ونجوا مع المال، بينما كان كل إنسان نائم.

وعندما أشرقـت الشمس غادرت ذلك المكان، ومضيت مسـافراً على طريقي تخالجني المخـاوف مـن أن يكون أولئك اللصـوص قـد جلسـوا كامنين لي على الطريق، وعلى كل حال لم يلحقني أي ضرر، ووصلت في منتصف النهـار إلى بلدة إينسبروك Innspruck حيث أملت بلقـاء مـولاي، لكن خـاب أملي، ويطلق على إينسبروك اسم بونتينا Pontina في اللاتينية، وذلـك اشتقاقاً من عبـارة بونز إن Pons Ini ، ذلك أن الجسر القـائم على نهر إن Inn ، هو المعنـي بالألمانيـة بـاسم

إينسبروك، ولدى اقترابي من جسر البلدة، وعندما كنت على وشك الدخول إليه، قابلت خمسة رجال مسلحين، كانوا من أتباع موالي، حيث كانوا قد صرفوهم عائدين إلى موطنهم، عندما كانوا أنفسهم قد انطلقوا من اينسبروك في ذلك اليوم نفسه، وكانوا يعملون في بلاط الدوق منذ أيام طويلة، وكانوا متعبين من ذلك، ولذلك ما أن أنهوا أعمالهم هناك، حتى استأذنوا بالانصراف، قبل يوم واحد قبل الموعد الذي كان السيد جون التروخسيس قد حدده للقاء معي، وكانت الأعمال التي كان عليهم تصريفها مع الدوق هي أنه عهد إليهم بالمسؤولية عن كل ما خلفه وراءه هو ومن معه، أي:أزواجهم، وأولادهم، وأراضيهم، وقراهم، وبلداتهم، وقلاعهم، وكونتياتهم وإقطاعياتهم، فضلاً عن هذا كانوا قد تسلموا من الدوق رسائل توصية موجهة إلى أعيان وشيوخ البندقية، وكانوا عندما أكملوا هذا كانوا قد شرعوا بالانصراف.

وبما أنني لم أجد موالي في البلدة، عبرت من خلالها مسرعاً، من أجل اللحاق بهم، وتسلقت الجبال، وبعد عبوري الكثير من الممرات الملتوية بين الجبال، وصلت إلى واد كبير اسمه ماتري Matrae وأمضيت الليل هناك.

وفي يوم الثامن عشر تسلقت جبالاً أكثر علواً، وعبرت الممر الذي اسمه برينير Brenner ، حيث عانيت من البرد القارص، لأنه يوجد هناك دوماً حتى في الصيف جليد، وبخار على شكل صقيع، وذهبت من ذلك الشرف نزولاً إلى الطرف الآخر عبر طريق طويل سرت عليه حتى وصلت إلى بلدة ستيرتزنغ Stertzing حيث وجدت موالي في النزل مع نبلاء آخرين وأتباعهم، والذين وجدتهم هناك كانوا : السيد هينريخ Heinrich فون ستوفل، والسيد جون التروخسيس، والسيد أوسوس فون ريخبيرغ، غير أن العضو الرابع من جماعتنا، وهو السيد جون ويرنر Werner ، بارون فون سيمبيرن، كان قد مضى في

مقدمتهم وسبقهم، من أجل أن يحضر مكان إقامة موائم في البندقية من أجل السادة جميعاً، ومن هم في جماعتنا.

وفي يوم التاسع عشر من نيسان غادرنا ذلك المكان بعد الغداء، ولدى مرورنا بدير نيوستفت Neustift ، العائد إلى طائفة كهنة نظاميين، على مقربة من بركسن Brixen ، خرج راعي الدير لاستقبالنا وأخذنا جميعاً إلى الدير برفقته، وقد فعل ذلك صدوراً عن احترامه للسيد جون التروخسيس، الذي عدّه حاميه، لأنه جاء من وولسي Walsee ، مقر السيد جون التروخسيس، وبفضله جرى تعيينه راعياً لذلك الدير، ولم يرغب راعي الدير المتقدم ذكره بأن يدعنا نذهب، بل أجبرنا على البقاء هناك، وعاملنا باحترام عظيم، ذلك أن الدير كان عظيماً جداً وثرياً، ونادراً ما رأيت في أي مكان آخر مثل الكثرة التي رأيتها هناك من صحون الذهب والفضة في قاعة طعام راعي الدير، ويمتلك هذا الدير كنيسة كبيرة، مزينة بشكل ثري، كما يحتوي على مكتبة جيدة، والرجال هناك متزمتين ومحترمين، ويرعون إقامة القداسات الربانية، ولاأعتقد أنني سمعت في أي مكان آخر مثل صحة غناء الجوقة وجودته في هذا الدير.

وفي يوم العشرين، الذي كان يوم أحد عرف باسم«اليوبيل» بقينا لسماع القداس الرباني، ومن أجل الغداء في نيوستفت، ثم غادرنا الدير، ومررنا مسرعين من خلال بلدة بركسن، لأن السادة قد علموا بأن الطاعون كان منتشراً هناك، وفي مرات مقبلة عندما مررت من هناك أمضيت الليل فيها، ويوجد فيها أسقفية غنية، وكان غالباً ما تنشب إثر وفاة الأسقف هناك صراعات بين النبلاء، حول الأسقفية، وهذه المنطقة كلها مشحونة بالخلافات والصراعات اللاهوتية، وكانت المنطقة كلها محرومة لاهوتياً، ويمكنني أن أتذكر الوقت الذي وضع فيه دوق النمسا الحالي سيغسموند Sigismund ، والمنطقة كلها تحت حرمان واضح

دقيق، وكانوا جميعاً محرومين كنسياً بسبب ما كان يتفجر من خلافات حول الأسقفية، وبناء عليه فإن كل إنسان عبر خلال تلك المنطقة، سواء أكان عارفاً أم جاهلاً، أصبح محروماً.

ويوجد هناك كنيسة كاتدرائية جميلة، فيها وقفت مرة مع واحد من إخواني الرهبان من طائفتي ورددنا الساعات القانونية في تلك الكنيسة، وبناء عليه قام مولاي رئيس تلك الكنيسة والقانوني الكبير فيها، فبعث شماسه إلينا، وسأل عما إذا كنا رهباناً متسولين، وعندما عرف صدق ذلك منحنا صدقات جيدة وسخية، ويمكن لدير لرهبان جيدين أن يكون مفيداً جداً هناك، لأنه لايوجد في الأسقفية كلها دير للرهبان المتسولين، فالرهبان القانونيين هناك متزمتين ومحترمين، ولذلك ليس هناك أي راهب سوى الذين هم في ريكوليت Recollets في نيوستفت، والدير في نيوستفت هو من ممتلكات هؤلاء الرهبان القانونيين، وليس قبل وقت طويل جداً كانت الكنيسة في نيوستفت كنيسة كاتدرائية، لكن عندما نقلت إلى البلدة، جرى وضع الكهنة النظاميين هناك.

وغادرنا بركسن وخلفناها وراءنا، فوصلنا إلى كونترسويغ Kun-tersweg، حيث تابعنا سيرنا من جانبها بسهولة، لأن دوق النمسا قد حصنها بقوة، ويذهب الآن إلى أعلاها وأسفلها بعربات ذوات دواليب، وقد تخلو عن ممرات الخيول القديمة، وكان الدوق المتقدم الذكر يبني لهذا بناءً عالياً بنفقات عظيمة، ليكون بمشابة بيت طويل، وقبل أقل من سنتين مضيتا كان هذا الطريق على درجة كبيرة من السوء، وخطيراً إلى حد أن الانسان يستطيع عبوره وسط أعظم المخاطر، وهو يقود فرسه خلفه، وأنا أعرف درجة المخاوف والمخاطر عبر هذا الطريق عندما مررت به أثناء سفري في حجي الأول، لأنه يوجد على جهة اليمين وديان عميقة جداً، وكان الطريق شديد الضيق،

لوجـود شعاب جبليـة عـالية على يسـاره، ونظراً لأن هذا الطريق كـان ضيقـاً وخطيراً كان الأدلاء الشعبيـون يغنون حـوله، لكن الآن — كما قلت — بذل الدوق جهوداً فنية لكي ينسف الصخور بوساطة البارود، حتى يقطع واجهـات الشعاب الجبليـة، ويجرف بعيداً كميـات كبيرة من الصخور، وجعل بالانفاق العظيم من الأماكن الوعرة أماكن سهلة، ولم يقتصر هذا على هذه المنطقــة فقط، بل شمل منــاطق كثيرة من Rhae-tia التي هي خاضعة لحكمه.

وكـان طول الطريق المتقـدم الـذكـر ميلين ألمانيين، وعندمـا عبرناهما وصلنا إلى بلدة بوتزن Botzen، التي وجـدناهـا لسـوء حظهـا قـد تعـرضت مؤخـراً للحـريق كلياً تقـريبـاً، وفي الحقيقة لم تكن النيران قـد زالت كليـاً، بل إننا رأينا اللهب، وشممنا الدخـان وكان مـايزال ينبعث من بين أكـوام الخرائب، وكـانـت الديرة والكنائس قـد بقيت دون أن تتعرض للنار،وكان دير طائفتنا للرهبـان المبشرين قد تعرض للنار، لكن بفضل جهـود الرهبان الغيـورة، الذين عملوا من فوق الأسطحـة أمكن إطفـاء اللهـب، ومع ذلك تمكنت النيران من الانتشـار بقـوة، حتى أن ديرنا، لم يكن بالامكان إنقاذه إلاّ بأكثـر من العون البشري، لأنه عندما التهب سقف المهجع — كما أخبرني عدد من الشهـود الصادقين — قام رئيس الدير المحترم، الأب نيقـولا مـونخبيرغـر Munchberger، بالركوع على ركبتيه تحت اللهب، ودعا طالباً العون من العذراء المباركة، وهو ما تلقاه.

وكـان قـد حـدث قبل سنين كثيرة مضت، أن جـاءت النار إلى باب المدينة على مـرأى من جميع الناس، وانتشرت خـلال جميع الشـوارع، وأحرقت البلدة كلهـا، ومثلما ساد اعتقاد بأن النار المتقدمـة كانت بكل وضوح قد جـاءت انتقاماً من السماء، كذلك هو الاعتقـاد نفسه بالنسبة لهذه النار الأخيرة، لأن الناس هنـاك آثمين جـداً، سلمـوا أنفسهم إلى

السكر، وإلى المتعة والتكبر بلا حدود ولاقياس.

وفي الحقيقة كل شيء هناك رخيص جداً، وهناك وفرة عظيمة بالأشياء الجيدة، والخمرة هي بشكل خاص جيدة، وجميع الفواكه حلوة، لكن الهواء غير صحي، لأنه قد قيل بأنه يوجد من الجانب الذي من الممكن أن تهب منه رياح جديدة جبال عالية جداً، وقد دلني عليها إخواني الرهبان، وفي الوقت نفسه يوجد في الجزء الذي تتلقى منه البلدة الرياح، مستنقعات آسنة جداً، ونتيجة لهذا كله، هناك دوماً كثيراً من الأشخاص يعانون من أعراض الحمى، ومن الدارج كثيراً المعاناة من الحمى، لأنهم لايعدون الحمى مرضاً.

وعندما يلتقي واحد منهم بصديق، ويراه ممتقع اللون، ووجهه متغير يقول له:«ياصديقي، ما القضية أراك ممتقع اللون ومتغيراً»؟ يجيبه: في الحقيقة ياصديقي، إنني أشكر الرب لأنني غير مريض، لكن الحمى غيرت مظهري»، وهكذا حدث عندما كنت أزور بوتزن في إحدى المرات بصحبة صديق علماني نظر إلى البلدة وقال لي:«انظر إلى هناك يا أخي، أنا لاأعتقد أن هناك بلدة في العالم هي أبرد من هذه البلدة» واندهشت لقوله، فقلت له:«ليس الأمر كذلك، أعتقد أنها من أكثر البلدان دفئاً»، فأجابني:«إنني لم أقدم قط إلى هذه البلدة، حتى في أكثر الأيام حرارة، في أيام الصيف، دون أن أرى دوماً كثيراً من الناس جالسين هناك في فرائهم الشتوية، وهم ممتقعي اللون من البرد، وأسنانهم تصطك»، وقد قال هذا على سبيل المزاح، مشيراً بذلك إلى المعاناة من الحمى، ويعتقد كثير من الناس أن الشعب لايصاب بالحمى بسبب الهواء السيء، بل بسبب الخمرة الجيدة، والطبخ الجيد الذي يلتهمونه بأنفسهم فيصبحون مرضى.

وكانت هذه البلدة قبل سنين قليلة بلدة إيطالية، واللغة الايطالية كانت هي اللغة الرائجة فيها، بين الناس، وفي الحقيقة إنني أعرف كاهناً

إيطالياً، لايمكنه التفوه بكلمة ألمانية، وقد كان في شبابه ساعياً وواعظاً في الدير في بوتزن، لكن مع مرور الأيام، مع ازدياد تعداد الألمان، غدت البلدة بلدة ألمانية، والدير الذي كان من قبل من أملاك منطقة القديس دومينيك Dominic ، قد ألحق الآن بمقاطعتنا.

وقد أمضينا الليل في هذه البلدة، ورأينا كثيراً من الشقاء والتعاسة، لأن كثيراً من الناس كانوا يعيشون بين خرائب بيوتهم بدون أية أسقف، أو مكان للإيواء، وكان عدد كبير منهم يغادرون البلدة كمتسولين، مع أنهم كانوا حتى وقت قريب أناساً أثرياء، والآن يجري إعادة بناء البلدة، والأبنية التي يقيمونها الآن في تكاليفها أعلى من الأبنية التي كانت موجودة قبل النار.

وفي الحادي والعشرين من نيسان غادرنا ذلك المكان بعد سماعنا القداس وتناولنا الغداء في دير طائفتنا، وقد جعلنا على جهة اليمين نهر أثيسيس Athesis أو لافيسيوس Lavisius(أدجي Adige) ، وهو الذي يعرف بشكل عام باسم ايتسخ Etsch ، ورأينا عبر أدجي منطقة هضبية خصبة جداً، مليئة بالقلاع وبالقرى، القرية الرئيسية بينها اسمها ترامينجم Tramingum التي هي قرية واسعة، وعلى مقربة منها هناك كروم تنتج خمرة ممتازة تصدر إلى سوابيا حيث هي معروفة هناك باسم ترامينجر Tramminger اشتقاقاً من اسم القرية.

وكان بيننا وبين أدجي، باتجاه بلدة ميران Meran مستنقعات عميقة، ويوجد خلف هذه المستنقعات في مقابل بلدة ترنت Trent تلال منخفضة، يقوم على قرنتها قلعة قديمة اسمها فيرميانوم Fir-mianum ، منها جاءت وصدرت أصول الأسرة النبيلة للوردات فيرميانوم، الذين رأيت بعضهم، وهذه القلعة مملوكة الآن من سيغسموند دوق النمسا، الذي يعيد الآن عمارتها على مستوى أوسع،

مع أسوار سميكة جداً، محيطاً إياها بأبراج كبيرة وعالية، وقد بلغت سماكة السور عشرين قدماً منتعلاً، وتحتوي في زواياها الأربعة على أماكن إقامة واسعة وقد بنيت بقوة حيث واحدها منفصل عن الآخر بأسوار معترضة وبأبراج، ولكل مكان إقامة وسكن ساحة خاصة، واسطبلات للخيول خاصة، وبناء على ذلك يمكن لأربعة من الأمراء أن يقيموا هناك بأمان، وقد دخلت إلى القلعة، وكنت بها ورأيت كل ما فيها، وليس فيها ماء إلاّ ما ينضحونه بالدولاب من نهر أدجي، الذي يجري عبر الصخرة التي تقف عليها القلعة.

وكان هذا المكان سيء السمعة وممجوجاً كسكن بسبب النتانة الصادرة عن المستنقع، مما كان يسبب بسرعة موت السكان، وبناء عليه ولإزالة هذا كله، قام الدوق بالأمر بحفر مجاري في المستنقع، وذلك من نهر أدجي حتى الجبال، ولذلك يوجد الآن مروجاً جميلة، حيث كان من قبل مستنقع ناعم موبوء، والأقنية أنفسها مليئة بالماء المجرور من المستنقع إلى حد أن الناس يعبرونها صعوداً ونزولاً بالقوارب.

وأمر الدوق بزرع كروم طويلة جداً على ضفاف الأقنية من كلا الجانبين، حيث يجمع منها في موسم الجني حمولة ما يزيد على عشرين عربة من العنب الممتاز، ومع هذا، وعلى الرغم من زوال نتن المستنقع، لقد قيل ليس بمقدور أي إنسان أن يعيش في القلعة أطول من ذي قبل، وسبب هذا كما حدثني مؤخراً حاكم القلعة، هو أنها عالية شامخة، وفيها هواء صحي قوي، يجعل الناس الذين يعيشون هناك يشعرون دوماً بالجوع والعطش، وشهيتهم مثارة بشكل عظيم، حيث لو حاول إنسان أن يشبع فوق حده، يدمر نفسه، لأنه لايوجد خدم هناك، بل المائدة دوماً ممدودة وجاهزة عليها انتشرت الأطعمة، والخمور ليست مخبأة أو مقفول عليها، وتجعل هذه الوفرة المكان ليس عزيزاً على النفس.

وسألت حاكم القلعة عن الغاية التي جعلت الدوق يتكلف هذه

النفقات العظيمة في مثل هذه القلعة المحصنة بشكل غريب، في وقت نجد فيه أن المنطقة هناك من حولها ملك لكونتية تيروك Tyrok ، فأجابني بأنه فعل ذلك، من أجل أنه إذا ما حاول عامة الناس طرد رئيسهم، وتحرير أنفسهم من التابعية الاقطاعية له، مثلما فعل الـ Hel-vetions ، أو السويسريون، فوقتها يمكن للدوق أن يلتجىء إلى تلك القلعة، وبذلك يمتنع من الذين سيرغموه على القبول والرضوخ، لأن القلعة — حسبما يمكن للانسان أن يقول — لاترام، وقائمة في حلقوم ذلك الوادي.

وتابعنا سفرنا، ووصلنا إلى نيومارك Neumark ، التي هي قرية كبيرة واسعة، حيث توقفنا لمدة ساعة في نزل حتى نعلف لخيولنا ونريحها، وجاء في ذلك الحين رجل خادم إليّ، من البيت القائم في مقابلة النزل، وقال بأنه أرسل من قبل واحد من رهبان طائفة الرهبان المبشرين، ليسألني من أنا ومن أين قدمت، فأجبته إذا ما أراد ذلك الراهب أن يعرف من أنا، ومن أين قدمت، يمكنه أن يأتي إليّ، ولسوف أعطيه جواباً أدبياً، ثم قلت:«ذلك لأنني لن أعطي أي جواب لخادم»، وقد قلت هذا له على هذه الصورة لأنني شككت به أن يكون واحداً من الرهبان المتجولين التابعين لطائفتنا، الذين يتجولون حول تلك المنطقة التلية، لأن رهباناً غير راضين وهاربين من طائفتنا والطوائف الأخرى، قد حملوا أنفسهم إلى هذه المناطق وإلى المنطقة التلية، حيث يمكنهم العثور على أفضل أماكن الاختباء سلامة، ولأن كل شيء هناك رخيص ويمكنهم العيش حياة هانئة، وهم يزورون الناس في المنطقة، ويخبرونهم عن قيمة القداسات العالية، ولهذا يشتري الذين يستمعون إليهم القداسات منهم لهم ولأقربائهم الموتى، غير عارفين بأن إثم السيمونية يقترف بمثل هذا العمل، وبناء عليه يعطون هؤلاء الرجال المال حتى يقرأوا عليهم القداسات، ويكون الأفضل منحهم المال بمثابة

هدية وكرم منهم، لأنهم لايقتربون مطلقاً من المذبح لتقديم أي احترام للرب، ولقد رأيت هناك أناساً تعساء من كل طائفة دينية يتجولون في هذه الجبال، ولاحظت أنهم يعاملون بالفعل بشيء من التغاضي من قبل الأساقفة والكهنة.

وسرنا من نيومارك خلال الوادي الذي يقود إلى ترنت Trent ، ويردد العامةقولاً متوارثاً بأنه خلال هذا الوادي أو القناة تدفق البحر حتى ميران Meran، وأن نهر أدجي جرى نزولاً من الجبال فوق ميران، وصب بالبحر هناك، وفي برهان على صحة هذا، أنه يتم العثور حتى الآن في صخور الجبال على حلقات حديدية، كان من المعتاد ربط السفن بها، وعلى هذا فإن المنطقة كلها التي يجري فيها نهر أدجي ليصب في البحر المتوسط، كانت فيما مضى بحراً، بسبب أن البحر كان في العصور القديمة أعلى مما هو عليه الآن.

ووصلنا إلى قرية اسمها نوفا Nova حيث يجري هناك جدول جبلي سريع، يشكل الحدود ما بين إيطاليا وألمانيا، ويقوم فوق الجدول من جهتنا بيعة، جرى فيها دفن ما في جوف القديس أودالريخ Udal-rich أسقف أوغزبورغ Augsburg ، وتذهب الحكاية إلى القول بأن القديس المتقدم الذكر كان في روما، وعلى طريقه إلى الوطن، مرض مرضاً شديداً، لذلك توسل إلى الرب أن يسمح له بالموت في ألمانيا، وليس في إيطاليا، وهذا ما حدث وكان، لأنه ما أن عبر الجسر المقام على هذا الجدول مات، ولذلك جرى دفن أحشائه هناك، لكن جسده جرى حمله إلى أوغزبورغ.

وسافرنا من هذا المكان إلى مدينة ترنت، وأمضينا الليل هناك، وترنت واحدة من المدن القديمة جداً، التي تأسست في هذه الجبال من قبل تراجان الذي جاء إلى هناك بصحبة أنتينور Antenor ويجري نهر أدجي عابراً أسوارها، وهي مقامة في وضع هو الأكثر جمالاً، وهواء،

وصحة، وهي تتألف — كما يمكن القول — من مدينتين، المدينة العليا، والمدينة التحتا، بسبب الجنسين البشريين اللذان يسكناها، ففي المدينة العليا يسكن الطليان، ويسكن في المدينة التحتا الألمان، وهذان الشعبان مختلفان باللغة، وبعادات الحياة، ونادراً ما كان أحدهما بسلام مع الآخر، وفي الحقيقة، غالباً ما جرى تهديم المدينة قبل أيامنا، وجرى تهديمها أيضاً من قبل الطليان صدوراً عن كراهيتهم للألمان، وأحياناً من قبل الألمان أيضاً صدوراً عن كراهيتهم للطليان، وقبل سنوات قليلة مضت، كان الألمان مجرد قلة من الغرباء في تلك المدينة، وهم الآن بيرجوازية المدينة وحكامها، وسيأتي اليوم قريباً — لابل إنه جاء وحلّ بالفعل — عندما سيقوم فيه دوق أثيسيس Athesis(كذا) صاحب إينسبروك بضمها كلها إلى ممتلكاته ومن ثم إلى ألمانيا، مثلما حدث في بوتزن، لأن تعداد الألمان يزداد هناك يومياً، ولكن ما هو سبب هذا التزايد، ولماذا يتوجب على شعبنا الانتشار في بلدان الشعوب الأخرى، بدلاً من انتشارهم في بلداننا؟ هذا ما لم أتفهمه، ما لم نكن قد اخترنا — كما يقال — عدم التعلق ببلادنا، بسبب فقرها وجدبها، ولذلك دفعنا إلى بلدان أخرى، أو بسبب حدة طباع الألمان، الذين لايمكن لشعب آخر أن يتحمل البقاء إلى جوارهم، بل يتهربون من أمامهم، ويفسحون لهم المجال ولايواجهون غضبهم، غضبهم الذي لايمكن لانسان أن يقاومه.

وأقام عبر المدينة وفي مواجهتها، فوق ضفتي نهر أدجي، الرهبان المبشرون ديراً جميلاً حقاً، من حوله أجمل الحدائق، واسمه دير القديس لورانس، وكان هذا الدير قد بني من قبل القديس جوردان Jor-danes الخليفة المباشر لأبينا القديس دومينيك، في رئاسة طائفتنا، لكن لايوجد فيه قداسات أو نظام للحياة، والذي هو موجود فيه مجرد عدد من الرهبان، يسكنون هناك من دون هدف، وفي هذه المدينة جرى

استشهاد الطفل المقدس سمعان في سنة ١٤٧٥، على أيدي اليهود، بعدما عذبوه كثيراً، ولهذا حكم على اليهود بالشنق بعد تعرضهم لعذاب عظيم، وأنا شخصياً كنت قد رأيت أجسادهم الملعونة معلقةعلى المشانق عندما ذهبت في السنة التالية إلى روما، وعندما تم العثور على جسد الطفل المقدس، صار مشهوراً بسبب المعجزات التي صنعها، وهو مايزال مشهوراً، ولهذا يأتي الناس من أجزاء نائية من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا حاجين إلى هناك، ويجلبون معهم تقدمات من الشمع، والأقمشة، وصحون الذهب والفضة، والمال، وكل ذلك بكميات مدهشة عندما تنظر إليها.

ونتيجة لهذا هدموا كنيسة القديس بطرس القديمة، التي من المعتاد حفظ الجسد فيها، وبنوا كنيسة أوسع فوق الموقع نفسه، وأنفقوا عليها من خلال هذه التقدمات، فضلاً عن هذا قاموا بتنظيف بيت الشهيد، وكرسوه كنيسة[من أجل رواية عن استشهاد هذا الطفل انظر ملحق أخبار الأيام — السفر ١٥ص ١٧٧]، وهكذا عندما خلعنا نحن الحجاج ملابس سفرنا، ذهبنا إلى الكنيسة للحصول على غفران، ورأينا في كنيسة القديس بطرس جسد الطفل المقدس، والمكان الذي استشهد فيه، والكنيسة الكاتدرائية القديمة، والبيع الأخرى والكنائس،لأن هذا ما يتم صنيعه من قبل الحجاج المحترمين الذاهبين إلى القدس، أي يتوجب عليهم عندما يتوقفون في أية بلدة على طريقهم، فيسألون عن الكنائس، وعن آثار القديسين ويقومون بزيارتهم، وهذا ما فعله موالي، وفعلت ذلك معهم، حسبما سأتحدث عن ذلك فيما بعد.

وعندما كان الوقت متأخراً، وكنا جميعاً جالسين نتناول العشاء، جاء زمّار، أو بهلواني، ومعه زوجته، وكان يحمل مزماراً، وقد غنت زوجته لحناً جيداً، فيما كان هو يلعب بمزماره، وكان هذا الرجل عاقلاً بما فيه الكفاية، ومع ذلك عمل أثناء لعبه أعمالاً بليدة، وكشر وكأنه كان أحمقاً،

وجعلتنا حماقاته هذه نضحك من صميم قلوبنا، وذلك بالاضافة إلى متعتنا لدى سماع الموسيقى، وعندما فرغ من لعبه تشاور سادتي البارونات، كما جرت العادة، واحدهم مع الآخر، حول ما الذي سوف يدفعونه إلى البهلوان، وعلى كل حال قال واحد من النبلاء إنه لن يدفع، وأوضح بأن الكاهن في أسقفيته، غالباً ما قال في قداساته بأن إعطاء المال أو تسلمه في مثل هذه الحالات هو ذنب مدان، وإثم عظيم، وقال:«وبما أنني الآن في حج مقدس، إنني أكره أن أتلوث بصرف المال بشكل آثم، وإنني سوف أدفع المال إلى الفقراء»، وبناء عليه تفجر نقاش عظيم بين النبلاء،وتناقشوا مطولاً وهم في حالة غضب.

وسألوني أخيراً القيام بفض هذه القضية، وقالوا بأنهم سوف يلتزمون بقراري وحكمي، وبناء عليه أعلنت وقررت بدون خوف وجوب إعطاء المال إلى البهلوان، وبناء عليه أعطوا هدايا إلى لاعب المزمار وإلى زوجته، وبعد عودتي إلى البيت بحثت في كتابات المفتين من العلماء فيما إذا كنت قد قررت بشكل صحيح، وقد وجدت القرار الذي اتخذته مرتين لدى غيرسون Gerson (١) وفي مكانين، عندما عالج الشرور في قضية سبعة ذنوب مهلكة، وفي معارضة المذنبين، أوضح أن اللعب بالمزامير، والاضحاك وأعمال البهلوان لاتستحق الادانة، وأن مثل هذه الأشياء يمكن أن تقال وأن تمارس، دون اقتراف لإثم كبير، ومع أن الكلمات التي قد تقال هي عبثية، وفيها مزاح، وأحياناً فيها أخطاء، لكن طالما أنه ليس فيها ما هو مخجل قولاً، وطالما أنها تعمل لمجرد التسلية، فصحيح ممارستها، إذا كان ذلك للتسلية والربح، ومن أجل تأمين انفراج لدى الأمراء والنبلاء، وعندما يكونون تحت ضغط المسؤولية، وقد اكتشفنا أن هذا هو الحال مع هذا البهلوان، الذي كان حرفياً مقيماً في ترنت، والذي كان لايمارس اللعب بشكل دائم، بل فقط

١ — جون غيرسون، قنصل باريس، كتب في اللاهوت وفي مواضيع أخرى، توفي حوالي ١٤٢٩.

لدى وصـول أمراء ونبلاء، وذلك أنـه عندما كان يعلـم أنهم حجاج إلى الأرض المقدسة، كـان يلعب من أجل تسليتهم، ومن أجل فائدته، ومن أجل أن نضع حزننا وقلقنا جانباً لوقت قصير.

وسمعنا في الثاني والعشرين قداساً عند مذبح سمعان الطفل المقدس، وبعـد تناولنا لطعـام الغـداء في النزل، أسرجنا على خيـولنـا، وغـادرنا المدينة، وخارج باب المدينة مباشرة صعدنا إلى هضبة شـديدة الانحدار، وتخلينا عن الطريق المنخفـض الذي يسـاير وادي أدجي إلى فيرونا Ve-rona، وإلى جانب كون هذه الهضبـة منحدرة، هي مكونة من قطعة واحـدة من الرخـام الأحمر القاسي، ولهذا فإن جميع أسـوار مـدينة ترنت وأبنيتهـا معمـولة من رخـام ثمين وجميل، مع أنه غير مصقـول، وبعـد تسلق طويل، نـزلنا عبر الجانب الآخـر مـن الرابيـة، ووصلنا إلى قـرية فيرسا Persa .

وفيرسا قـرية واسعة، ويقوم على الصخـرة فوق القرية قلعـة عظيمة، كأنها مدينة، ولها أبراج عالية، وسور عظيم يحيط بها، ويتفق معي بالرأي عـدد كبير من الناس، ويرون أنه من اسم هذه القلعـة يمكن أن نعـرف أنها بنيت من قبل فيرسوس Perseus ، أبو النبلاء الاغريق، وهي تعرف في هذه الأيام بـاسم فيرسا صدوراً عن اسمـه، ومثل ذلك مملكة فـارس، وهو اسم اشتق من الاغـريقيـة، ومن استيلاء الاغـريق عليهـا عرفت باسم فارس، ويحتفظ دوق النمسـا دوماً بعدد كبير من الجنود في هذه القلعة، يتولون حراسة كل من القلعة والمقاطعة.

ومـررنا عبر هذه القلعة واجتـزناها، ووصلنا إلى بحيرة، يتدفق منهـا نهر اسمـه برنتـا، وهـو يجري من هناك إلى بادوا، ويصب بعـد هذا في البحر على مقربة من البندقيـة، وعبر هذا وصلنا إلى واد طويل وعريض وخصب، ثم وصلنا إلى بلدة اسمهـا بالعـاميـة الدارجة فـالسيـان Val-scian، حيث توقفنا مـن أجل استراحـة قصيرة، ويـلاحظ أن هذه

البلدة، والمنطقة كلها امتداداً حتى البحر، تتكلم الايطالية، وعلى كل حال كانت غالبية السكان تعرف كل من الألمانية والايطالية، وقد سألت أحدهم عن معنى اسم فالسيان، ولماذا أطلق هذا الاسم على البلدة ، وقد أجابني بأن معنى فالسيان هو«الوادي الجاف»، وقد نال هذا الاسم،لأنه في العصور القديمة جداً، وقبل أن ينزل البحر إلى مستواه الحالي، كان البحر ممتداً حتى هذا الوادي، وكان الوادي بأكمله مليئاً بالماء، ولهذا من الممكن أن نرى على جنبات الجبال، التي تطل على الوادي، من كل جانب حلقات حديدية كانت، لربط السفن حتى يمكن بقاءها مثبتة إلى الصخور، وعندما تراجع البحر، أصبح الوادي جافاً، وهكذا حافظ على اسمه فالسيان.

ومن هذه القصة كنت قادراً على إدراك أن جميع الوديان في هذه الجبال، التي هي متجهة نحو البحر، كانت فيها مضى مليئة بالماء، وكانت هي أقنية تقود إلى البحر المتوسط، مثلما يحدث الآن في أراض مجاورة للبحر، كما قلت من قبل، ويطلق الألمان على فالسيان اسم إن در بورغ In der burg ، لأنه يوجد هناك قلعتان تطلان على البلدة، والبلدة قائمة بين سور القلعة، وتابعنا من فالسيان سفرنا، وسرنا متقدمين، ووصلنا في وقت متأخر في الليل إلى قرية اسمها سبتلي Spiteli ، أي«مشفى صغير» حيث توقفنا لإمضاء الليل.

وفي يوم الثالث والعشرين، كان عيد القديس جرجس، الفارس والشهيد، وسألني السادة في الصباح بأن نحتفل بعمل قداس القديس جرجس لهم، ولجميع النبلاء، الذين ينظرون إلى القديس جرجس بتبجيل خاص، وكانت هناك بيعة واحدة في القرية، بدون كاهن، وواجهت مصاعب جمة للحصول على أدوات القداس العائدة للكنيسة، ولفتح هذه البيعة، والحصول على الأشياء الضرورية لإقامة القداس، وبعدما ارتديت ثيابي الكهنوتية، واجتمع سادتي النبلاء وأهل القرية مع

بعضهم، بوساطة صوت الناقوس، وكما جرت العادة أردت إعداد الخميرة قبل صلاة الاعتراف، فلم أجد لاخبزاً ولارقاقة عجين في الصندوق في الخزانة، كما لم يتوفر شيء من هذا القبيل في القرية كلها، لذلك التفت بذاتي نحو الناس وأخبرتهم بعدم وجود خبز القربان، ولكي لانذهب جميعاً فارغين، قرأت من المذبح القداس لوحده، وجميع أدعية القداس، وتركت ما بعد صلاة التقدمة لوحده، مثلما يفعل تماماً في السفن في البحر، ويطلق على هذه القداسات اسم القداسات«الحارة» أو «الخام» أو «الجافة» أو «الفارغة».

وبعد أداء هذا القداس التفت نحو الناس وقدمت عرضاً قصيراً عن القديس جرجس وكان عرضاً مشجعاً، وعندما كنت أفعل ذلك، وقف أهل القرية ونظروا إليّ بدهشة، لأنهم كانوا طليان، ولعلهم لم يسمعوا قط قداساً يتلى في كنيستهم بالألمانية إلاّ من قبلي، وبعد الفراغ من هذا رجعنا إلى نزلنا لتناول طعام الافطار، وبعد الانتهاء من الطعام، بدأت تمطر، ومع هذا امتطينا خيولنا وغادرنا القرية، وازداد المطر ثقلاً وكثافة، وتبللنا حتى الجسد، وكنا مبللين جداً عندما وصلنا إلى مدينة فلتر Fel-tre ، وبما أنها كانت تمطر بكثافة، دخلنا إلى نزل هناك، وبنيتنا البقاء هناك لمدة ساعة أو ساعتين، ومن ثم نغادر عندما يتوقف المطر، وعلى كل حال ازداد المطر سوءاً فسوءاً، وبذلك كنا مرغمين على البقاء هناك لمدة يوم، كان غير مريحاً، لأن النزل كان صغيراً، وكان مليئاً بإيطاليين من أهل المنطقة، وتحدث صاحب النزل، وصاحبته، وجميع العاملين فيه بالايطالية فقط ،فضلاً عن هذا لم يكونوا معتادين على خدمة النبلاء، ولم تكن لديهم المواد اللازمة لخدمتهم بشكل لائق واحترام،وكانوا على كل حال جيدين، وأناساً بسطاء، وقد فعلوا كل مايستطيعون، الأمر الذي قدرته، لكن خدم النبلاء كانوا غير راضين عنهم.

وفي يوم الرابع والعشرين استمرت تمطر بدون توقف، مثلما فعلت في

اليوم المتقدم وفي الليلة السالفة، وسبب هذا تدفق المياه، وقاد إلى جريان السيول الجبلية، وعلى كل حال، وعلى الرغم من المطر، ذهبنا إلى الكنيسة التي تقوم فوق البلدة، وبعد سماعنا للقداس شاهدنا البلدة نفسها، وكانت إحدى البلدات التي بنيت من قبل أنتينور، من أجل الدفاع عن المنطقة الجبلية، وهي بلدة قديمة جداً، كما تبرهن أبنيتها على ذلك، وهي بلدة طويلة جداً، تمتد على طول جرف جبلي، ولها أسقف وفيها بعض الديرة القائمة عند سفح الرابية التي تقوم عليها المدينة، وعدنا إلى نزلنا، وتناولنا طعامنا، وعندما كنا جالسين إلى المائدة توقف المطر، وهكذا أسرجنا على خيولنا وغادرنا فلتر، وأخذنا طريقنا وسط خطر عظيم، بسبب ارتفاع المياه، لأن أصغر المجاري تضخمت وصارت أنهاراً سريعة، وكانت مجاري الوديان الجافة تفيض بالمياه.

وعلى كل حال صارت أحوال المناخ طيبة، وأخذت المياه تتناقص بشكل تدريجي، وكنا قد غادرنا فلتر قبيل حلول المساء، وقد وصلنا إلى نهر عظيم، عبرنا ضفتيه بوساطة بيت حراسة بندقي، ومن هناك وصلنا إلى بلدة اسمها أوور Ower، حيث أمضينا الليل، وكان نزلنا الآن مثل بقية القرية، قائماً على سفح رابية جميلة مليئة بالأعشاب، وفي الوقت الذي كان يجري فيه إعداد طعام عشائنا، خرجت مع موالي إلى ساحة البيت، وكنا ننظر فيما حولنا عندما قلت:«انظروا لو أن إنساناً كان على قمة تلك الهضبة، لكان بإمكانه رؤية البحر المتوسط»، وعندما سمع موالي هذا قالوا:«دعونا نصعد إلى هناك، لنرى البحر، الذي ربما سيكون قبرنا»، ومباشرة تسلق ثلاثة من موالي مع اثنين من خدمها وأنا، تلك الرابية، التي كانت أعلى بكثير مما تصورناه، وألقينا بأبصارنا باتجاه الجنوب، فرأينا وراء الجبال سهل إيطاليا، وخلف السهل منطقة البحر المتوسط، ولدى رؤيتنا له، وقف موالي، الذين كانوا شباباً ذوي نشأة رفاهية، وقفة فيها شيء من التفكر، مما عكس الشعور بالمخاطر التي

ننظرهم في البحر، وكنت بهدوء قد مددت بصري نحوه، لأنني كنت قد ذقت مرارته، لأنه كما بدا من هذه التلال، كان له مظهراً مرعباً، وبدا قريباً جداً، وتسلطت أشعة الشمس على الجزء الذي كان هو الأقرب منا، وبقية البحر التي لم يكن بإمكان أحد رؤيتها، بدت عالية، وغيوماً سميكة سوداء، على شكل ولون الهواء المظلم.

وبعدما شبعنا بما رأيناه منه، تحولنا بعيداً لننظر إلى الجبال التي قامت من حولنا، وقد شاهدنا عدداً كبيراً من القلاع القديمة المهدمة، وعلى الجبل نفسه الذي وقفنا عليه هناك، كان يوجد تحت أقدامنا خرائب أسوار ضخمة وخندق يطوق شطراً من الجبل، وصهريج جميل مايزال يحتوي على الماء، ورابية لرعاية القطعان، قائمة في الأعلى داخل الأسوار، ومن المعتقد أن هذه القلاع كلها قد بنيت من قبل أنتينور، أو تراجان، الذي بعدما بنى مدينة بادوا في السهل، صعد إلى المنطقة التلية، وبنى البلدات والقلاع للدفاع ضد الشعب الذي كان موجوداً وراء الألب، حيث كان في ذلك الحين مايزال متوحشاً، يعيش في الغابات، مثل الحيوانات الضارية، وعندما كنت أنا وموالي وقوفاً نتحدث فوق الجبل، غابت الشمس، وبدأنا نحن بالنزول، وعندما وصلنا إلى النزل صارت الدنيا أكثر ظلاماً، وتناولنا عشاءنا على ضوء الشموع، ثم أوينا إلى الفراش.

وكان يوم الخامس والعشرين هو يوم عيد القديس مرقص، وتمنينا لو كنا في البندقية، لأنه يحتفل بالعيد هناك، بشكل محكم ورائع الشكل، وسمعنا — على كل حال — القداس من أجل عيد القديس مرقص في القرية، وتناولنا بعد ذلك طعامنا، ومن ثم انطلقنا مسافرين على طريقنا، ويقود الطريق من تلك القرية نزولاً إلى سفوح الجبال، ثم يخلفهم بالوراء، وهكذا وصلنا إلى منطقة منبسطة، وخصبة جداً، ومليئة بالحبوب، وبأشجار الفواكه، والكروم، التي ارتحلنا خلالها حتى وصلنا

إلى قرية تـريفيسو Treviso ، حيث عزمنا على البقـــاء لعدة أيام، وذلك حتى نستطيـع بيع خيـولنـا، ذلك أننا لم نعــد الآن بحـاجــة إلى الخيول،لأننا صرنا مجاورين للبحر.

وكـان يوم السادس والعشرين يوم عيـد القديس ديسيــديروس De-sidrius، الذي هو مـدفون في كـاتدرائية تريفيســو، واحتفل سكان المدينة بالعيـد بشكل فخم بوساطة مسيرة مهيبـة خلال المدينة، وعندمـا اجتمع عامـة الناس في ساحة السوق الأكبر، مثلوا لعبـة المعجزة، حيث ظهر القديس في الحكاية، من خلال الممثلين المدربين لهذه الغاية، بمظهر فخم جداً، نظرنا نحن الحجاج نحوه بإعجاب، ولست أدري فيما إذا كنا قد فعلنا ذلك بتقوى أيضاً.

وجـاء بعـد الغـداء عـدد كبير من الايطـاليين إلى نزلنا، طلبـوا رؤية خيـولنا لابتياعهم، وأثناء بيعنا لهم اختلف الايطاليـون فيما بينهم بشكل مثير، حيث ركضوا نحونا، محاولاً كل واحد منهم إبعاد الآخر، وتدخل كل واحـد منهم بشراء الآخر، وصب كـل واحـد منهم الاهانات على الآخــر، وكـانوا كلهم ســواء، حتى الشيــوخ، والأغنيـاء، والرجـــال المحترمين، حيث كـان كل واحد منهم يتقـاتل مع الآخر مثل الأطفـال، ويعـرض كـل واحـد منهم سعــراً أكبر مما تسـاويـه الخيـول مــراغمـة للآخرين، وكل منهم يعرض عن تعمـد سعراً أكبر من أسعار الآخرين، وبينما كان هذا الشجـار مستمراً وقفنا نحن بدون حـراك، وحافظنا على صمتنا، وبعنا خيولنا بشكل جيد، وهكذا مضى النهار.

ولابدمن أن نلاحظ بأنني وصفت الأمـاكن مـا بين فلتر وإنسبروك، لأننا عندمـــا عـدنـا إلى الوطن ثانيـة، لم أسـافـر عبر ذلك الطريق إلى إنسبروك، بل جئت عبر طريق آخـــر، وذلك حسبما سأتحدث عنه في مكانه الصحيح، وبعــد هذا المكان لن أقـوم بوصـف أي مكان خـلال رحلتنا كلهـــا، بل سأتولى وصف جميع الأمــاكن التي مكثت بها أثناء

رحلتنا عائدين إلى الوطن، ولهذا سوف أحتفظ بوصفي لتريفيسو والمدن الأخرى، حتى يحل موعد عودتي، لأنني الآن متعجل للوصول إلى القدس، التي وجهت نحوها وجهي بشكل ثابت ولن أصرفه وأستريح حتى أرى تلك المدينة الأعظم شهرة، والمرغوبة أكثر من سواها.

وفي يوم السابع والعشرين، الذي كان يوم أحد، واسمه -Can tate، سمعنا قداساً في تريفيسو وتناولنا الطعام ، وبعد تناول الطعام اكترينا بعض الخيول التي يدعونها باسم Martyrs ، لتحملنا نحن أنفسنا وحقائبنا إلى البحر، وانطلقنا نحو شاطىء البحر، ووصلنا إلى بلدة ميستري Mestre ، وكنا راغبين بالمتابعة حتى ملغيرا -Mal ghera التي هي قائمة على شاطىء البحر المتوسط، والتقينا على كل حال في البلدة المتقدمة الذكر بألماني، سأل عما إذا كنا جماعة اللورد بارون فون سيمبيرن Cymbern ، وعندما سمع بأننا كنا نحن هم، أخذنا إلى نزل، وأرانا مائدة ممدودة بالأطعمة والأشربة، وأخبرنا بأن اللورد جون فون سيمبيرن قد أمر بهذا لنا، وأخذنا أيضاً إلى حديقة البيت، وأرانا مركباً ضخماً في النهر الذي يجري هناك نزولاً من الجبال ليصب في البحر، وأن القارب قد أرسل من البندقية إلى ميستري من قبل اللورد بارون فون سيمبيرن، حتى يمكن لنا الابحار إلى هناك عبر النهر، ولدى رؤيتنا لهذا سررنا وتحمسنا بأرواحنا،وجلسنا وأكلنا وشربنا الذي أعد لنا سلفاً، وبعد هذا حملنا جميع حقائب اللوردات إلى ظهر المركب، ثم صعدنا جميعاً على ظهره، فصارت الحمولة ثقيلة إلى حد كبير، لأنه كان هناك عدد كبير منا، وكانت حقائب اللوردات وخدمهم كبيرة الحجم، وإثر هذا قلنا وداعاً لليابسة، وعهدنا بأنفسنا إلى المياه، وكان ذلك بعد إقلاعنا، حيث أبحرنا نزولاً مع النهر حوالي الميل نحو البحر، وعندما وصلنا إلى المكان الذي ينزلق فيه النهر إلى بين فكي البحر المتوسط، عند حافة البحر وحدوده، وأبحرنا داخل البحر المالح المياه، وقتها بدأنا نغني

بصـوت مـرتفع وبنغمات فـرحـة، مـزمـور الحجـاج، وهو الذي اعتـاد المسـافرون إلى الضريـح المقدس لربنا على غنائـه مـرددين:"In gottes Namen Fahren wir, Seiner genaden begehren wir: Nurhelff uns die Gottiche Kraft, und das heylige grab: Kyrie eleyson » والـذي معناه مترجماً عـن اللغـــة اللاتينيـة كمايلي: «باسم الرب نحن الآن مبحـرون، نحن نحتـاج إلى نعمتـه، فلعل قـدرتـه تحمينا، والضريح المقـدس يقينا:« Kyrie eleeson».

وبينما كنا في الوقت نفسـه نقترب من قلعـة ملغيرا Malghera ، ونعبر البرج الذي اسمه«بـرج ملغيرا» التقينا بقارب كان يجذف بـه عدد من الشباب الأقوياء، ويدفعونـه بعنف شديد نحو مارغيروم Margerum ،وقـد اصطدم بقـاربنا، وبذلـك ارتطم قـوسـا قـاربينا ببعضهما بعضاً، واندفع قـاربنا إلى أحد الجوانب بالصدمة، واصطدم بعمـود كان قائماً في وسط الماء، مما هدد بانقلابه، ففي الحقيقة كاد أن ينقلب مع جميع الناس الذين فيـه والأشياء، وكـان ذلك مـرعباً ومـؤلماً، وتبادل بحـارة القاربين الشتـائم فيما بينهم، وهكذا تابعنا السير على طريقنا، وبعد وقت قصير التقينا بقارب آخر على ظهره مجموعة من الناس، سألنا أحدهم:في أي النزل ننوي النزول في البنـدقيـة؟ وعندمـا أخبرناه في نـزل القـديس جـورج، حيث كان اللـورد فون سيمبيرن قـد حجـز غرفـاً لنا فيـه، بدأ يشتم ذلك النزل ويشتم صاحبـه، ووقف على قوس قاربه، محاولاً منعنا من الذهاب إلى هناك، ومشيراً إلى نزل آخر لنذهب إليه، وفيما هو واقف هناك وهو يصرخ محاولاً إقناعنا، أصيب فجأة بحـادث، وسقط من على قوس قـاربه إلى البحر، الذي سحـب منه بوساطة رفـاقه بعد مصـاعب جمة، وبذلك أنقذ من الموت، ومـا لبث أن ارتدى ثياباً حـريرية جديدة، تلقت التعميد معه، مما سبب ضحكاً كثيراً على ظهر قاربنا.

وبعدما سرنا مسافة صغيرة نحو الأمام، وجدنا أمام أعيننا، مدينة البندقية الجليلة، والشهيرة والعظيمة، والغنية، سيدة البحر المتوسط، وهي قائمة بشكل رائع في وسط المياه، بأبراجها العالية، وكنائسها العظيمة، وبيوتها وقصورها الرائعة، ودهشنا لدى رؤيتنا مثل تلك الأبنية المرتفعة والعالية والتي تقوم أساساتها في الماء، وأبحرنا فوراً إلى داخل المدينة، وسرنا عبر القناة العظمى حتى ريالتو Rialto ، حيث رأينا على الجانبين أبنية لها جمال رائع وارتفاع مدهش، وتحت ريالتو خرجنا من القناة العظمى، ودخلنا إلى قناة أخرى، يقوم على ضفتها اليمنى فونداكو دي تديستشي Fondaco de Tedeschi ، من حيث تابعنا سيرنا بين البيوت حتى وصلنا إلى باب نزلنا، الذي يعرف باسم نزل القديس جورج، ويعرف بالألمانية بشكل عام باسم Zu der Fleuten ، ونزلنا هناك، وصعدنا حوالي الستين درجة حجرية من البحر إلى الغرف التي كانت معدة لنا، وقد حملنا جميع حاجياتنا إليها.

واستقبلنا هناك السيد جون، وصاحب النزل، والسيدة مرغريت صاحبة النزل، استقبلونا بسرور وحرارة، وحيوني بعبارات صديقة خاصة، لأنني كنت الوحيد بين فريقنا الذي عرفوه من خلال حجي السالف، حيث كنت ضيفاً في بيتهم لأيام كثيرة، واستقبلنا بقية العاملين، وحيونا وأبدوا تشوقهم للقيام بخدمتنا، وكان جميع العاملين بالنزل بما فيهم صاحبه وصاحبته، وكل الخدم من الرجال، وجميع الوصيفات، من الشعب الألماني ويتكلمون الألمانية، ولم نسمع كلمة إيطالية في النزل، مما سبب راحة كبيرة لنا، لأنه مزعج جداً أن تعيش بين قوم دون أن تستطيع التحدث معهم، وأخيراً جاء بعد الجميع، عندما دخلنا، الكلب الذي يحرس النزل، جاء لتحيتنا، وكان كلباً أسود كبيراً، وقد عبر عن سروره الكبير بتحريك ذنبه، وقفز علينا مثلما اعتادت الكلاب أن تفعل مع الذين تعرفهم، وكان هذا الكلب يستقبل

جميع الألمان بالسرور نفسه، وذلك سـواء من أي جهـة من ألمانيـا قـد قـدمـوا، لكن عندمـا يـدخل إلى النزل إيطاليـون، أو لومبـارديون، أو غاليـون، أوفرنسيون، أو سـلافيون، أو إغـريقيون، أو أي أناس من أي بلد غير ألمانيا، يصبح غاضباً جـداً، إلى حد أنك تظن بأنه صـار مجنوناً، ويركض نحـوهم، وهو ينبح بصوت مـرتفع، ويقفز بحـدة عليهم، ولا يتوقف عن إزعاجهم حتى يقوم أحد الناس بتهدئته.

ولم يتعـود بعـد حتى على الايطاليين، الذين يسكنـون في البيـوت المجـاورة، بل تراه ثائراً ضـدهم، وكأنهم غرباء، وثابر على عـداوته لهم، فضـلاً عـن هذا مـا كـان ليسمح بأي شكل مـن الأشكال لكلابهم بالدخـول إلى النزل، لكنه كـان لايعترض على الكلاب الألمانيـة، وكـان لايهاجم المتسـولين الألمان الذين يقدمـون يسألون الصـدقات، بل كـان ينقض على المسـاكين الايطاليين، الـذين يودون الدخـول للتسـول والحصول على الصدقة، ويطردهم بعيداً، وغـالباً ما أنقذت رجالاً فقراء من بين أسنان هذا الكلب، ويقول الألمان بأن هذا الكلب برهان على أنه طالما هو عـدو غير متهـاون مع الايطاليين، كـذلك الألمان لايمكن أن يتـوافقوا مع الايطاليين من صميـم قلوبهم، وكذلك الطليـان معنا، لأن كل أمـة لديها كراهيـة متجذرة في طبيعتهـا تجاه الأمة الأخـرى، وبما أن الحيـوان غير عـاقل، وتتحكم فيـه انفعـالاته فقط، فإنه يتخـاصم مع الايطاليين لأن طبيعته تأمره أن يفعـل ذلك، ولكن بما أن الانسان قادر على التحكم بمشاعره بمعونة عقله، فهو يستطيع إخفاء مشاعر الكراهية المزيجة بطبيعته.

ووجـدنا في النزل عدداً كبيراً من النبـلاء من مختلف أجزاءألمانيـا، مع بعض من هنغاريا، كانوا جميعاً قد ارتبطوا بالعهد نفسه، مثلما فعلنا نحن أنفسنا، وكانو عـازمين على عبور البحـر إلى أقدس الأضرحة العـائد إلى ربنا يسوع في القدس، وكـان في النزل الأخرى المزيد من الألمان، وكلهم

قد شكلوا أنفسهم في مجموعات كان بعضها كبيراً، وبعضها الآخر صغيراً، وكان الآن في مجموعتنا اثني عشر حاجاً، كلهم مع بعضهم من نبلاء وخدم أسماؤهم هي كمايلي:

اللورد جون ويرنهر، بارون فون سيمبيرن، وكان رجلاً وسيماً، وعاقلاً، ومتميزاً بأخلاقه الرفيعة، وكان يعرف اللغة اللاتينية.

اللورد هنري فون ستوفل، بارون الامبراطورية المقدسة، وكان رجلاً قوياً، وفعالاً، تمتع بسمات الرجولة، مثلما يكون الرجل السوابي النبيل الحقيقي.

اللورد جون تروخسيس فون وولدبورغ، وكان رجلاً نبيلاً، طويل البنية، وكان رجلاً محترماً له أخلاق رفيعة، وجدياً، وكان مهتماً بعمق حول إنقاذ روحه.

اللورد بير Ber (أورسوس) فون ريخبيرغ، وكان رجلاً نبيلاً من أسرة هوهنريخبيرغ، وكان أصغرهم سناً، وأكثرهم حيوية، وشجاعة، وطولاً، وأعظمهم سروراً،والأكثر لطفاً وكرماً في المجموعة.

وكان هؤلاء النبلاء الأربعة معهم رجال حاشيتهم للقيام بخدمتهم، وفيمايلي أسماؤهم مع وظائفهم مرتبة كالتالي:

بالثازار بوخلر Balthazar Buchler ، وكان رجلاً عاقلاً، صاحب خبرة عظيمة، اقتاد بنصيحته جميع اللوردات وتحكم بهم، ذلك أنهم عدّوه بمثابة أب لهم.

آرتوس Artus ، حلاق اللوردات، وكان رجلاً بإمكانه أن يلعب ببراعة وجودة على جميع الآلات الموسيقية، إلى حد أن الانسان لايعتقد أنه من الممكن العثور على مثله في أي مكان.

جون الذي كنيته شمدهانز Shmidhans ، وكان جندياً، قاتل

في معارك كثيرة، وقد جاء في هذا الحج بمثابة خادم للوردات.

كونراد بيك Beck ، وكان رجلاً محترما وعاقلاً، وقد كان من أهل مدينة ميرينجن Merengen، وكان المسؤول عن مؤن اللوردات، كما كان حاجبهم.

بطرس، وكان إنساناً بسيطاً، صبوراً تحت الشدائد قدم من بلدة ولدسي Waldsee ، وقد عمل طباخاً للنبلاء وللجماعة كلها.

أولرك فون رافنزبورغ Ulric von Rafenburg ، وكان رجلاً عمل فيما مضى في البحر بمثابة عبد غليون، وقد عانى كثيراً من المآسي، وكان من حيث اختصاص العمل تاجراً، أما وظيفته فكان ترجمان اللوردات.

جون، وكان مسالماً، متشوقاً لخدمة اللوردات، وكان من قبل معلم أولاد، ورئيس مدرسة في بابنهوزن Babenhusen .

الراهب فيلكس فابري، كاهن من طائفة الرهبان المبشرين في أولم، حاج للمرة الثانية إلى الأرض المقدسة، شماس للوردات ولجميع الذين تقدم ذكرهم.

واجتمع هؤلاء الاثني عشر مع بعضهم منفردين، وعاشوا على الحساب العام للوردات الأربعة المتقدم ذكرهم، وبناء عليه استدعى اللوردات الأربعة صاحب النزل إليهم، وعملوا معه الترتيبات من أجل إقامتهم، ومائدتهم، وجميع الأشياء الأخرى العائدة له، والتي سوف يستخدمونها، وعندما عملت هذه الترتيبات أمامنا جميعاً، فكرت بخطة أخرى من أجلي شخصياً، وبدون معرفة موالي اللوردات، ذهبت بقارب إلى دير القديس دومينيك، وسألت رئيس الدير أن يستقبلني بمثابة ضيف حتى يحين موعد مغادرة غليون الحجاج الميناء، الأمر الذي تمكنت بعد معالجات كثيرة، من إقناعه بعمله، ذلك أنني وجدت أنه من

غير اللائق بالنسبة لي، ومناقض لتفكيري، أن أعيش كلياً بين أشخاص علمانيين، وبناء عليه عدت إلى نزلي، وحزمت أمتعتي، ثم زرت موالي، وأخبرتهم بها نويته، ولم يرضهم هذا الاقتراح، وفي الحقيقة أزعجهم كثيراً، ولم يوافقوا على تركي لهم بأي حال من الأحوال، ومن أجل إمكانية بقائي معهم برضاي، عملوا ترتيبات مع صاحب النزل، فأعطاني غرفة خاصة بي، حيث يمكنني أن أجلس بهدوء لوحدي، ويمكنني أن أنام، وأن أصلي، وأن أقرأ وأكتب، وأن أنجو من ضجيج النزل كله، بحيث أكون كما لو أنني في قلايتي في أولم، وعلى هذا بقيت مع بقية جماعتنا الوقت كله الذي مكثناه في البندقية، لكن غالباً — في الحقيقة مرة كل يوم — ما اعتدت على زيارة دير رهبان طائفتنا.

وخرجنا في الثامن والعشرين من نزلنا في الصباح، وسرنا خلال شوارع التجار، وذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص لحضور القداس هناك، وبعد انتهاء القداس سرنا حول الساحة المفتوحة أمام قصر الدوج، وقام في هذه الساحة، أمام الباب الكبير لكنيسة القديس مرقص، علمان ثمينان جداً، وقد نشرا عالياً فوق رمحين طويلين، وكان لونهما أبيض، ورسمت عليهما علامة صليب أحمر، فقد كانا علما الحج إلى الأرض المقدسة، وأدركنا من هذين العلمين بأنه جرى إعداد غليونين وتعيينهما لنقل الحجاج، ذلك أن سادة البندقية عرفوا عدد الحجاج الذين تدفقوا إلى هناك واحتشدوا مع بعضهم، ولذلك وقع اختيارهم على اثنين من النبلاء من بين شيوخهم، وعهدوا إليهما بالعناية بالحجاج.

وكان اسم الأول من هذين الشيخين: المعلم بطرس دي لاندو Lando ، واسم الثاني المعلم أوغسطين كونتاريني Contarini ، ووقف خدم هذين النبيلين إلى جانب العلمين، ودعا كل واحد منهم الحجاج للابحار مع معلمهم، وبذلوا جهودهم لاقتياد الحجاج

وجـذبهم: فئة أولى إلى أوغسطين والفئة الثـانيـة إلى غليـون بطرس، وأطرت الفئة الأولى وكـالت المديح لغليون أوغسطين، وشتمت غليـون بطرس، وفعلت الفئـة الثـانيـة عكس ذلك، ونتيجـة لهذا غـدا هذان السيدان: أوغسطين وبطرس عدوان أحـدهما للآخر حتى الموت، وشتم أحدهما الآخر، وشهّر به أمام اللوردات والحجاج، وحاول كل منهما أن يجعل من الآخر مكروهاً من قبل الحجاج، وطلب من الناس فعل ذلك.

وبدأ ينشأ عن هذا شر آخـر، هـو أن الحجـاج أنفسهم تحزبوا ووقف كل فـريق منهم مع إحـدى جماعتي هـذين القبطانين، وبات كل واحـد متعصباً لقبطانه وقـائده، واحتار موالي ولم يعرفـوا بعد إلى أي من هذين القبطانيين الأفضل أن يعهدوا بأنفسهم، وسبب ذلك لما سمعوه من آراء مختلفة بشأن كل واحـد منهما، أما أنا شخصيـاً، فقد وافقت على القبطان أوغسطين كونتاريني، الذي عـرفت أنه رجل عاقل، ويمكن الوثوق به، لأنني عبرت البحـر في حجي المتقدم على ظهـر سفينته، لكن الآخـرين شتموه وامتدحوا الآخر، ولذلك ومن أجل خاطر السلام، لم أتدخل في هذه القضيـة، وأعلنـت أن كليهما كـانا قبطانيين جيـديـن، إذا مـا حملانا بسرعـة إلى الميناء الذي نقصده، وأضفت أننـي لو عرفت أي واحـد من الاثنين سوف يكون الأسرع، والمستعد حالاً لـلابحار، فهو الذي سوف أوصي الحجـاج باختيـاره، وعلى كل حـال، وعـد كـلاهما، أنهما سـوف يشرعان برحلتهما فوراً، الأمر الذي عرفت أنه كذب.

وفي يوم التـاسـع والعشرين، الذي كـان يوم عيـد القـديس بطرس الشهيد، لدى طائفة الرهبان المبشرين، أخـذت سادتي إلى كنيسة القديس يوحنا والقديس بولس، حيث كان هناك ديراً في غـاية الفخامة والعظمة للر هبـان المبشرين، واستمعنا هنـاك للقـداس، الذي نفـذ بشكل مهيب جـداً، وكـان هناك اندفـاع كبير للنـاس في هذا اليـوم إلى كنيسـة هؤلاء الرهبان، لوجود عيد هناك، وقـد احتشد الناس ووصلوا بتزاحمهم حتى

أطراف المذبح، فقــد تقـاطر الناس إلى هناك مـن المدينة كلهـا لسماع القـداس، ولتقبيل آثار الشهيـد المقدس، ولشرب مـاء القـديس بطرس، هذه المياه التي بعـد مباركتها باسم الرب، وبعـد لمسها بآثار الشهيـد المقدس، يعتقـد أنها ثمينة ومفيدة للجسد وكذلك للروح، ولهذا يـأخذ المؤمنون من معظم أجـزاء العـالم مـاء القـديس بطـرس هذا، ويعطونه للنساء في أثناء خوفهن لشربه، حيث ينقذهن من خوفهن، ومثل هذا إنه يعطى للمـرضى من الحمى، فبوسـاطتـه يمكن أن يصبحـوا أصحـاء، ويحمله الملاحون أيضـاً في سفنهم، ويصبون قليـلاً منه في الأوعية حيث يجري حفظ الماء، وبفضله تبقـى الميــاه الأخــرى وتحفـظ من أن تصبح آسنة، ومهما كـانت المياه قـديمة، فإنها لاتفسـد أو تتغير رائحتها، إذا مـا صب فوقها بعضاً من هذا الماء، وقد عرف البحارة أن هذا صحيحاً من خلال الممارسات اليومية.

وهكذا بعـدمــا سمعنا القـداس، وقبلنا آثار هذا القــديس، وتذوقنا بعض نقـاط من هذا الماء المانح للحيـاة، عـدنا إلى نزلنا لتناول الطعـام، وبعد تناولنا للطعام، أخذنا مركبـاً وجذفنا في خلال شوارع البلدة حتى القـديس مـرقص، ومن هنـاك ركبنا إلى قصر دوج البندقيـة، على القناة العظمى، حيث رسـا غليونا القبطانين، بغـرض أن نراهما معا، وجـذفنا أولاً نحو غليـون المعلم بطرس دي لاندو، وصعدنا من قـاربنا إلى ظهر الغليـون، ومن إلقاء النظرة الأولى كـان كل من السـادة وأنا راضين عن مظهـر المركب، لأنه كـان غليـوناً له ثلاثة صفـوف من المجـذفين، وهو واسع وعـريض، وبالاضافـة إلى ذلك كـان جديداً ونظيفـاً، وفي الوقت الذي كنا نسير فيـه هناك، جـاء معلم الغليـون بطرس لاندو، الذي هو القبطان، على ظهـر قارب، ورحب بنا باحترام كبير، ومـدّ مـائدة طعـام على مــؤخــرة المركب، حيث قــدم لنا بعض الخمــرة والمربيــات من الاسكندرية، وعـاملنا بكل احترام، وذلك كإنسـان يود أن يأخذنا معـه

كركاب.

واقتادنا بعد هذا نحو الأسفل، عبر بعض الدرجات، إلى القمرة، ثم إلى المكان الذي يجلس فيه الحجاج، ووضع تحت تصرفنا مساحة كبيرة من القمرة، حيث يمكننا اختيار اثني عشر فراشاً لاثني عشر شخصاً على أي طرف نرغب فيه، وبعدما تفحصنا هذا الغليون، أخبرنا القبطان بأننا سوف نعلمه بالغد فيما إذا كنا قد نوينا الابحار معه أو مع انسان آخر، وهكذا عدنا إلى قاربنا ثانية، وجذفنا نحو الغليون الآخر، أي غليون المعلم أوغسطين كونتاريتي، الذي وجدناه جالساً على ظهره، وقد استقبلنا بتواضع كبير، وقادنا حول غليونه، وأعطانا الخيار لانتقاء مكان لاثني عشر شخصاً، وقدم إلينا بعض الخمرة واللحم الحلو، وأكد لنا أنه سوف يتعامل معنا باخلاص، وقد عرفني بشكل جيد، وأشار إليّ كشاهد على صدقه وأمانته قائلاً: «ها هو الراهب فيلكس، شماسكم، الذي يعرف كيف أتعامل مع الحجاج، وأنا أرجوه أن يقول الحق، ولسوف تقررون البقاء معي»، وقد نظرنا جميعاً خلال الغليون، فلم يرضنا مثلما أرضانا الآخر، لأنه كان يحتوي فقط على صفين من المجذفين، ومساحته أقل، ومظهره قديم ورائحته كريهة، وأنا أعرف ذلك شخصياً، وكنت قد عانيت من كثير من المتاعب فيه، وبعد تفحصنا لهذا الغليون عدنا بالقارب إلى نزلنا.

وفي يوم الثلاثين من نيسان، الذي هو اليوم الأخير من الشهر، استمعنا إلى قداس في نزلنا، بسبب وجود لورد كبير من النمسا كان مقيماً هناك، مع أنه لم يكن حاجاً، وبعدما تلا شماسه القداس في البيت، اجتمعنا نحن الاثني عشر مع بعضنا لنتباحث حول مع أي من صاحبي الغليونين سوف نبحر، وأية شروط سوف نعمل معهما، وقرر موالي وجوب ذهابهم مع المعلم بطرس لاندو، في غليونه ذي الصفوف الثلاثة، ومن جهتي أنا، كنت أفضل الذهاب مع القبطان الآخر، وهو

أوغسطين، لكنني نفرت من غليـونه ذي الصفين، وذلك بسبب المتاعب العظيمـة التي عـانيت منهـا على متنه، ولهذا قـررنا الـذهاب مع المعلم بطرس، فضلاً عن هـذا وضعنا عشرين شرطاً، حددنا فيهـا إطار عقدنا معه، وأوضحنا أن القبطان ملزم بتنفيذ ذلك لنا.

وكان الشرط **الأول**: إن على القبطان أن يأخذنا حجـاجاً من البندقية إلى يافـا، وهو ميناء في الأرض المقـدسة، وأن يعيـدنا ثانيـة من هناك إلى البندقية، ولهذا الغرض عليه أن يكون جـاهزاً خلال أربعة عشر يوماً في الخارج، أي أن عليه عدم الإقامة هنا أكثـر من أربعة عشر يوماً بعد هذا اليوم.

والثـاني: هو أن يجهـز الغليـون بشكـل لائق ببحـارة ذوي خبرة، من الذين يفهمـون فن الملاحـة مع أي نـوع من الريح يمكن أن تهب، وأن يكون معـه على ظهر الغليـون ما يكفي من سـلاح للدفاع عن الغليـون ضد هجمات القراصنة، إذا ما حدث شيء من هذا القبيل.

والثالث: على القبطان أن يكون متيقظاً، فـلا يتوقف في أي ميناء غير اعتيـادي أو غريب على طـريقه، بل عليـه أن يتـوقف فقط عند الموانيء التي اعتـاد أن يحصل منهم على الميرة لغليـونه، وأن يأتي توقفـه عبـوراً، ذلك أن عليـه أن يتجنب التـوقف في أي ميناء، بل أن يتـابع المضي على طريقه، ومرغوب منه بشكل خـاص تجنب مملكة قبرص، وعدم التوقف هناك، وإذا ما فعل ذلـك، عليه عدم البقـاء في الميناء لمدة تزيد على ثلاثة أيام، لأن لدينا اعتقـاد متـوارث بأن هواء قبرص غير صحـي بالنسبـة للألمان، وعلى كل حـال، إذا مـا رغـب واحـد من جماعتنا أن يقـدم التحيـات لملكة قبرص ومن ثم خـدمتهـا في نيقوسيـا، وأن يتسلـم منهـا شـارة طائفتها، على القبطان القيـام بانتظاره حتى عـودته، ذلك أن هذه عادة قديمة بين النبلاء ما دام هناك ملك في تلك المملكة.

والرابع: هو إن على القبطان تقديم وجبتين من الطعام والشراب، إلى الحجاج كل يوم بدون انقطاع، وإذا ما حدث لأي سبب أن واحداً منا لم يرغب بالجلوس إلى مائدة القبطان، أو أن يحضر طعام العشاء في المساء، أو اننا جميعا اخترنا البقاء في مخادعنا، على القبطان إرسال الطعام والشراب إلينا من دون إثارة أية خلافات.

والخامس: ويتوجب على القبطان أن يزود الحجاج، أثناء رحلتهم من البندقية إلى الأرض المقدسة، ومن هناك عائدين إلى البندقية، بما يكفي من الخبز الجيد، والبقسماط، والخمرة الجيدة، والماء العذب، الذي وضع حديثاً على ظهر المركب، وباللحم، والبيض، وجميع الأطعمة من النوع نفسه.

والسادس: هو إن عليه في كل صباح، قبل أن نتناول طعامنا، أن يعطي كل واحد منا قدحاً صغيراً من الخمرة المالوفيه Malovoisie، حسبما جرت العادة على ظهر السفن.

والسابع: إذا ما طلب الحجاج انزالهم إلى الشاطىء قرب أي ميناء، توقف الغليون على مقربة منه، دون رغبة في الدخول إليه، أو لأي سبب معقول آخر، مثل الحصول على الماء أو الدواء، أو حاجيات ضرورية أخرى، وقتها القبطان ملزم باعطائنا قارب، وطاقم قارب ليتولى نقلنا إلى ذلك الميناء.

والثامن: إذا ما قام القبطان بالتوقف على مقربة من أحد الموانىء غير المسكونة، حيث لن يستطيع الحجاج الحصول على الضروريات لأنفسهم، هو وقتها ملزم بأن يزودهم بالطعام وكأنهم ليسوا في ميناء، ومن جهة أخرى إذا ما توقف في ميناء جيد، هم ملزمون وقتها بالتزود بما يحتاجونه لطعامهم.

والتاسع: القبطان ملزم بحماية الحجاج، في كل من داخل الغليون

وخارجـه، من الاعتداء عليهم، ومن سوء سلوك عبيـد الغليون، وذلك إذا ما رغب الحجـاج بالجلوس مع العبيد، وهو أيضـاً ملزم بمنع العبيد من السخـرية بهم فوق اليـابسة، وذلـك بقدر مـا يستطيع، وعليه عـدم وضع أية شيء في مخادع الحجاج.

والعـاشر: ينبغي على القبطان أن يترك الحجـاج يبقـون في الأرض المقدسة طوال المدة المستحقة ولـن يستعجلهم كثيراً جداً، وعليه قيادتهم إلى الأمـاكن المعـروفـة، وأن يصـاحبهم شخصيـاً، ونحن نرغب بشكل خـاص أن لايثير أي اعتراض في قيـادتهم إلى نهر الأردن، وهو الأمـر الذي يجد الحجاج دوما صعوبة في تحقيقه والقيام به، وهو سوف يجنبهم وينقذهم من جميع المشاكل مع الكفار.

والحادي عشر: جميع المكوس، وجميع الأمـوال من أجل المرور الآمن، ومن أجل الحمير والنفقـات الأخرى، مهما كان اسم المطـالبة بها، أو أية مـدفـوعـات في أي مكان يتـوجب دفعهـا، هذا كله على القبطان القيـام بدفعـه من قبله وحده لصـالح جميع الحجاج، الذين ينبغي أن لايدفعـوا شيئاً أو أن يطالبوا بأية مـدفوعـات، ومثل هذا عليه أن يدفع الايجارات الكبيرة، وأما الايجارات الصغيرة فنحن سوف نتدبر شأنها بأنفسنا.

الثاني عشر: وفي مقابل جميع هذه النفقات، ومقابل جميع ما سيتحمله القبطان، يتـوجب على كل حـاج أن يدفع إليـه أربعين دوقيـة ducats من النوع الذي اسمه de zecha، أي المسكوكة حديثاً، على شرط، أن يدفع الحاج نصف هذا المبلغ في البندقية، والمتبقي في يافا.

الثالث عشر: وإذا ما حدث وتوفي أحـد الحجاج، لن يتدخل القبطان بأي حال من الأحـوال في أشيائه التي يخلفها بل عليـه ترك هذه الأشياء دون أن يلمسها في حـوزة الشخص أو الأشخاص الذين ترك الميت لهم وصيته.

الرابع عشر: وإذا ما مات أحد الحجاج قبل الوصول إلى الأرض المقدسة، القبطان ملزم بإعادة نصف مبلغ المال الذي تسلمه من قبل، حتى يتصرف به الأوصياء وفقاً لتعليمات المتوفى.

الخامس عشر: وإذا حدث ومات واحد من الحجاج على ظهر الغليون، لن يقوم القبطان مباشرة بالأمر برمي جسده في البحر، بل عليه أن يتدبر أمر أخذه إلى الشاطيء ودفنه في احدى المدافن، وإذا كان الغليون— على كل حال— بعيداً عن اليابسة، سوف يتم الاحتفاظ بجسد الميت حتى تتاح الفرصة للوصول إلى أحد الموانىء، أو أن يوافق رفاق الميت على رمي جسده في البحر.

السادس عشر: إذا ما رغب أحد الحجاج بالذهاب إلى القديسة كاترين في جبل سيناء، يتوجب على القبطان أن يدفع لكل شخص عبّر عن مثل هذه الرغبة عشر دوقيات من المبلغ الذي دفع إليه من قبل.

السابع عشر: قبل أن يغادر القبطان القدس مع الحجاج، عليه باخلاص مساعدة الحجاج الذين سوف يسافرون إلى القديسة كاترين، بأن ينظم اتفاقية صداقة فيما بينهم وبين دليلهم.

الثامن عشر: يتوجب على القبطان أن يعين للحجاج مكانا موائماً على ظهر الغليون، ليحتفظوا فيه ببعض الفراخ والطيور، وأن يسمح طباخيه لطباخ الحجاج باستخدام نارهم ليطبخ للحجاج عندما يرغبون بذلك.

التاسع عشر: إذا ما وقع أحد الحجاج مريضاً وهو على ظهر الغليون، ولم يعد قادراً على البقاء في مخدعه وتحمل روائح النتن، وقتها يتوجب على القبطان أن يعطي مثل هذا الانسان مكانا ليرتاح عليه في الطبقة العليا، أو في القمرة، أو على المؤخرة، أو أن يعطيه واحداً من مقاعد المجذفين.

العشرون: إذا ما ترك شيء وأغفل ولم يرد ذكره في اتفاق التعليمات

هذا، أو وجد أمر لم يوف حقـه بالتعبير عنه، أو لم يشرح بها فيه الكفاية، إنما هو بحكم القانون والعـادة من واجبات القبطان وعليـه فعله، وقتها يعدّ هذا وكأنه قـد ورد ذكره في هذه التعليمات، وسيعـدّ وكأنه قد كتب بينها.

وبعـدمـا وضعنا هذه الشروط وكتبناهـا، بعثنا بها إلى المعلم بطرس، وهو القبطان الذي كـان يتولى انتظارنا في النزل، وقـد قرأ هذه الشروط حسبما وضعناها، وأخبرنـاه إنه إذا كـان راضيـاً بالتعـامل معنا وفقـاً لروحهـا، وعلى استعـداد لأن يقسم يمينا بأن يفعـل ذلك، نحن على استعـداد لعقد عقـد معه واتفـاق كما تقدم القـول، ولدى سماع القبطان بهذا، أخـذ قـائمة الشروط، وقـرأها واحـداً واحـداً بعناية كبيرة، وأمـا بالنسبـة للشرط الأول، فقد قـال: إنه بالنسبة للفقـرة الأولى من الشرط الأول، هو على استعداد لقبـولها، ولسوف يأخذنا إلى يافا ويعيـدنا ثانية، أما بالنسبة للفقـرة الثانية من الشرط فهو لايمكنه الموافقـة عليها وتعلل بعدة أسباب، على أسـاسها كان من غير الممكن له الابحـار خلال شهر أيار، وبناء عليـه هو لايمكنه الاقـلاع بنا خـلال أربعـة عشر يومـاً، ولاحتى خـلال ستـة وعشرين يومـاً، إنما عندمـا تنقضي الأيام الستـة والعشرين، هو سيشرع في أي سـاعة تتـوفـر فيهـا ريح طيبة، وبالنسبـة للشرط الثاني عشر، أعلن أنه لن يأخذ أقل من خمس وأربعين دوقية من كل واحـد من الحجـاج، وتعلـل لهذا بأسبـاب كثيرة، وبالنسبـة للشرط الخامس عشر، قال بأنه سوف يبقي جثة الرجل الميت على ظهر السفينة، غير أنه أوضح أن البحـر لن يسمح بـذلك، وأن ذلك سـوف يعيق رحلتنا، ويمكن للقـارىء أن يرى مـدى الصـدق في هـذا في الصفحـة ١٩٨ المقبلة، أمـا بالنسبـة للشروط الاخـرى فقـد أعلن عن رضـاه بها، وبناء عليه وبعد أحاديث طويلة عقدنا اتفاقاً معه.

وبعدمـا عقدنا اتفـاقنا، أخذنا جميعـا إلى القديس مـرقص حيث قصر

الدوج، وأحضرنا أمام شهود عـدل المدينة، الذين عندما سمعوا السبب الذي حضرنا من أجله أمـامهـم، كتبـوا اسماءنا وأوضـاعنا الحيـاتيـة في كتاب كبير، وكـان اسمي قد كتب فيه مـن قبل، عندما ذهبت في حجي المتقدم، وبذلك تأكد اتفاقنا وتأصل، وبعد الفراغ من هذا كله، ذهبنا في قـارب مع القبطان إلى الغليون، واخترنا مكاناً لاثني عشر شخصـاً على جـانب اليـد اليسرى، وقـام القبطان بتقسيم ذلك الفـراغ إلى اثني عشر مخدعـاً، أو سرير، وكتب اسم كل انسـان على مخدعـه بالحكك،من أجل أن لايأخـذ انسـانا آخـر هذه الأمـاكن، وبالنسبـة لي وافقني حظ طيب، فحصلت على أفضل مخدع، أو سريـر بين جماعتنا، والمخـــدع أو السرير، هو مكان لإنسـان واحـد، يمتـد طوله من رأسـه حتى قـدميـه، يعين له للمنامة، والجلوس، والعيش فيه، سواء أكان مريضاً أو معافى.

وبعدما فرغنا من هذه الإعدادات، جذفنا عائدين الى مقرنا في النزل، ونحن راضين تماماً بكل شيء، إلاّ بأننا كنا مـرغمين على البقاء مثل هذه الأيام الزائدة في البندقية، وهذا كان محزن جداً بالنسبة لنا.

هنا نهاية الفصل الأول .

الفصل الثاني
ويحتوي على أعمال الحجاج خلال شهر أيار

وفر لنا شهر أيار السار والبهيج وقتاً للتعبد التقوي في يومه الأول في عيد القديسين الرسولين: فيليب وجيمس، وبناء عليه في الصباح الباكر، عندما استيقظ موالي وبقية جماعتنا أعدوا أنفسهم للذهاب إلى الكنيسة والاستماع للقداس، وسألوني: في أي الكنائس يتوجب علينا سماع القداس في هذا اليوم؟ فأجبتهم: «أيها السادة، خذوا بعين التقدير، أننا أقلعنا بقصد الحج باسم الرب، وليس من اللائق بالنسبة للحاج الوقوف من دون نشاط، وطالما نحن محاطون بالماء من كل جانب، لايمكننا حبس أنفسنا وتمضية الوقت بزيارة حدائق الورود، أو السهول المشرقة، أو الغابات الظليلة، أو المروج الخضراء، أو الحقول البهيجة، أو الأشجار، والورود، والزهور والليلك، كما لايمكننا التسلي بالصيد، وفي الوقت نفسه ليس من اللائق بنا حضور المبارزات أو احتفالات الرقص، وبناء عليه إن نصيحتي، هي: أننا مادمنا هنا، علينا أن نحج كل يوم إلى احدى الكنائس، ونزور أجساد وآثار القديسين، حيث يوجد حشد عظيم منهم في هذه المدينة، وبذلك يمكننا خلال شهر أيار أن نقطف، ورود وزهور وليلك الفضائل، والنعمة، والغفران»، وعندما سمعوا هذا، وافق الجميع على نصيحتي، وجاءت الموافقة بالاجماع بأن علينا أن نركب في القارب أو أن نسير على الأقدام في كل يوم إلى احدى الكنائس، وإذا لم نذهب نحن جميعاً، ينبغي على الأقل أن يذهب بعض جماعتنا، وأن يفعلوا ذلك، حتى يمكنهم فيما بعد اخبار البقية بما رأوه.

وبناء عليه قمنا في اليوم الأول من شهر أيار باستئجار قارب، ذهبنا به إلى كنيسة الرسولين المقدسين: القديس فيليب، والقديس جيمس،

وحضرنا القداس هناك، وبعد القداس صعدنا إلى المذبح وقبلنا الرأس المقدس للقديس فيليب، الذي كان محفوظاً هناك، والذراع المقدس للقديس جيمس، وكان هناك اندفاع عظيم وضغط شديد بين الناس لرؤية الآثار المقدسة وتقبيلها، وعندما انتهى القداس ذهب الناس، لكننا بقينا نحن حتى يمكننا أن نحصل على مشهد أفضل للآثار دون التعرض للدفع والضغط، ويمكننا أن نلمسهم بمجوهراتنا، لأن الحجاج إلى الأرض المقدسة قد اعتادوا أن يحملوا معهم إلى الأماكن المقدسة خواتم منتقاة من الذهب أو الفضة، أو بعض الحبوب من الحجارة الكريمة من أجل أن يعمل منها رقى أو سبحات، أو يكون المحمول سبحاتهم المصنعة، أو بعض الصلبان الصغيرة من الذهب أو الفضة، أو أي شيء مماثل هو ثمين، وسهل حمله من الحلي، التي عهد بها إليهم من قبل آبائهم أو أصدقائهم، أو أشياء اشتروها في البندقية أو من أي مكان من بلدان ما وراء البحر لتكون هدايا للأشخاص العزيزين عليهم، وكانوا كلما التقوا بأية آثار مقدسة، أو وصلوا إلى أي مكان مقدس، كانوا يأخذون هذه المجوهرات، ويلمسون بها الآثار أو الأماكن المقدسة، علهم يحصلون بذلك على بعض القداسة من عملية اللمس، وبذلك يعودون إلى أصدقاء الحجاج أثمن وأكثر قيمة من ذي قبل.

وكنت أنا شخصياً الأقل بين الجميع، وأفقر واحد في جماعتنا، ومع هذا كان معي كثيراً من الجواهر الثمينة أعيرت إليّ من قبل أصدقائي، أو نصرائي أو نصيراتي، من أجل أن ألمس بهن الآثار والأماكن المقدسة التي سأزورها، ثم سأعيدهن إليهم، وأتسلم جائزة لقيامي بذلك، وكان بين هؤلاء من آخرين صاحب السيادة السيد جون اخنغر Echinger، وكان في تلك الأثناء عمدة أولم، فقد عهد إلي بخاتم ثمين جداً وعزيز لأنه كان خاتم والده جيمس اخنغر، فقد كان قد سحبه من اصبعه في

ساعـاته الأخيرة وأعطاه إلى ابنه، مثلما تسلمه من أبيـه من قبله، وأعتقد مؤكـداً أنه يساوي بـالنسبة إليه أكثـر من مـائة دوقية، وأنـه يقدره الآن بأكثر من مائتي دوقية.

وهكذا بعدمـا انسحب الناس، اقتربنا— كما تحدثت— أكثر، ولمست آثار الرسولين المقدسين، وكان واجبي أن أحمل جميع المجوهرات العائدة إلى الحجـاج العلمانيين في الأماكن المقـدسـة، أو في الأماكن التي كـانت الآثار محفـوظة فيهـا، وبيـدي لمست الأشيـاء المقـدسـة، بكل قطعـة من المجـوهرات، ثم أعدتهم جميعـاً إلى أصحـابهم، لكن بعض النبلاء أبقـوا مجوهراتهم في يدي طوال الحج، وفعلنا هذا في جميع الأمـاكن المقـدسـة، ومع جميع الآثار التي وجـدناها خـلال حجنا كله، شروعاً من سمعـان الطفل المقدس في ترنت، وبناء عليه عندما فرغنـا من هذا كله عدنا إلى النزل لتناول طعام الغداء.

وفي اليـوم الثـاني من أيار ذهبنا في الصبـاح إلى القـديس مـرقص، وحضرنا القداسات في الكنيسة الكبرى للقديس مرقص، وعندما انتهت القداسات ذهبنا إلى قصر دوج البندقية، حتى نقـابله شخصيا لنقدم إليه الرسالـة التي بعثها صاحـب السمو العظيم سيغسمونـد، رئيس دوقات النمسـا، والتي عهد بها إلى مـوالي لتقـديمها إليـه، وذلك حسبما قلنا في الصفحـة ١٥٣، لدى الحديث عن اليـوم السـابع عشر، وهكذا صعـدنا على السلم الحجري من سـاحة القصر إلى الرواق المعمـد، ووقفنا خارج قـاعـة القضـاء، وطلبنا أن يسمح لنا بالدخـول إلى الشيخ Senate، وسمح لنا على الفور بالدخول إلى مكان القناصل، ثم وضعنا في حضره الدوج والشيخ، وقـام اللورد جـون، بارون فـون سيمبيرن وهو حـامل الرسـالة عـالياً، أي رسـالة رئيس دوقـات النمسـا، ومشى نحو الأمـام بطريقة جريئة حتى وصل إلى وسط القاعة، ثم توجه نحو الدوج، وقدم الرسالة إليه باحترام وأدب، ثم عاد.

ونظر الدوج إلى الختم، ولدى تعرفه عليه، قبل الرسالة، ثم ناولها إلى الشيوخ الذين جلسوا معه، حتى يقوموا أيضاً بتقبيلها، ثم أمر بقراءة الرسالة على مسامع جميع الحضور، وعندما استمع إليها وقف الدوج، وعرض— من خلال ترجمان— خدماته على الحجاج، ودعا إليه كل واحد منهم على التوالي، وقدم يده لكل رجل منهم، ثم سحبه إليه وقبله وفق الطريقة الايطالية، والتمس بعد هذا موالي منه رسائل توصية إلى قائد البحر العام، وإلى حكام الجزر، من أجل أنه إذا توفرت الحاجة أن يحصلوا على حماية هؤلاء الأشخاص الذين تقدم ذكرهم، وتمت الاستجابة لهذا الطلب مباشرة، وكتبت الرسائل وسلمت إلينا.

وفي اليوم الثالث، الذي كان يوم عيد اكتشاف الصليب، ذهبنا بالقارب إلى كنيسة القديس الصليب، وبعد سماعنا للقداس هناك، رأينا وقبلنا جسد القديس أثناسيوس، الذي هو راقد هناك، ولمسناه بمجوهراتنا، حسب الوصف الذي قدمناه عن اليوم المتقدم، وكان هذا القديس من أعظم أبطال الدفاع عن الايمان وأقدرهم، وقد كتب ضد الهراطقة وليوقع الاضطراب بينهم عقيدة: «من الذي سوف يتم إنقاذه» الخ، وعدنا بعد هذا إلى نزلنا لتناول الغداء.

وبعد الغداء ذهبنا عبر الماء إلى أعظم ديرة الفرنسيسكان، وشاهدنا البناء، الذي كان كبيراً جداً، وفي بيعة مرتبطة بالكنيسة، هناك حصان قد بني بطريقة فنية رائعة، ذلك أن البنادقة يقلدون عادات الأمم الكافرة، وعلى هذا الأساس قرروا مكافأة واحداً من قادتهم البحريين، كان قد قاتل بشجاعة في سبيل الجمهورية، وربح بشجاعته كثيراً من المناطق الجديدة لصالحها، مكافأته بإقامة نصب تذكاري دائم له، فنصبوا تمثالاً من البرونز للحصان ولراكبه في واحد من شوارع المدينة أو ساحاتها، ومن أجل أن يجري تنفيذ ذلك بأروع ما يمكن، أرسلوا وراء النحاتين الموجودين في بلادهم، وأمروا كل واحد منهم أن يصنع حصاناً من أية

مادة يختارها، وقالوا بأنهم سوف يختارون واحداً من الثلاثة الأفضل من بين الخيول، ومن ثم يأمرون بصب حصان من النحاس حسب النموذج الذي اختاروه، وإلى جانب ثمن هذا التمثال، اقترحوا إضفاء تشريف خاص على الفنان الذي صنع شكل حصان.

وبناء عليه اجتمع النحاتون مع بعضهم في البندقية، وصنع واحد منهم حصاناً من خشب، غطاه بجلد أسود، وهو الحصان القائم في البيعة المتقدمة الذكر، وجاء هذا التمثال مشابها جداً لحصان حي، لكن مع فارق هو أنه جاء بحجم غير معتاد، ولايمكنه التحرك، لأنه حصان مصنوع بشكل فني، وصنع فنان آخر حصاناً من الطين، وشواه في الفرن، وقد جاء بشكل يجذب الاعجاب ولونه أحمر، وصنع الثالث حصاناً مدهشاً بشكله من الشمع، واختار البنادقة هذا النموذج الأخير، لأنه صنع ببراعة أعظم من الجميع، وأجازوا الفنان، لكن كيف سيصبونه، لم أسمع عن ذلك، ولعلهم تخلوا عن المشروع، وبناء عليه، بعد ما رأينا هذا الدير، والأشياء المتقدمة الذكر، عدنا إلى مكان إقامتنا.

وفي اليوم الرابع، الذي كان يوم أحد اسمه Vocem Ju-cunditatis ، وكان ذلك عيد العذراء الأكثر قداسة، أي القديسة كاترين المدفونة في جبل سيناء، وقد عبرنا من مكان الاعتكاف والتوبة للقديس دومينيك إلى كنيسة القديس يوحنا والقديس بولص، ورأينا هناك مسيرة مهيبة، وحضرنا قداساً، وكانت الكنيسة كلها محتشدة بالناس، وكان هناك عدد كبير من النساء قد لبسن مثل الـ Beguines، وعندما انتهى القداس، ذهبت إلى دير الرهبان، ووجدت هناك راهباً من طائفتي، مقيماً هناك وهو مسافر على طريقه، وكان يحمل شارات حاج إلى الأرض المقدسة، وقد جاء من بلاد فرنسا، ومن دير تابع لطائفتنا موجود في جزيرة فرنسا، وكان ينوي الإبحار معنا، ولهذا تعرفت عليه، واتفقنا على أن يتحمل أحدنا صحبة الآخر، وعلى كل حال، هو لم

يسافر على غليوننا نفسه، بل على الغليون الآخر، ومع هذا كان يزورني دوما في القدس، وغالباً مازرته أنا هناك، وقد تحملنا صحبة أحدنا الآخر.

وبعد تناول طعام الغداء ذهبت وحيداً في قارب إلى دير القديس دومينيك، لرؤية كهنة الدير هناك، وقد أروني ذراعاً كاملاً للعذراء كاترين المباركة جداً والمدفونة في جبل سيناء، وكان ذراعاً كبيراً جداً، وجميلاً، وفيه جلده كله وعظامه، وقد قبلت هذا الذراع مرات كثيرة، ووجدت في الدير نفسه راهباً آخر من رهبان طائفتي، قدم من نابل، وكان يحمل شارات الحج، وهو أيضاً لم يبحر في غليوني، وعدت بعد هذا بالقارب إلى النزل.

وذهبنا في اليوم الخامس بالماء إلى جزيرة الامبراطورة القديسة هيلانة، وهناك قرأت قداساً لموالي، وبعد القداس فتح الرهبان قبر القديسة هيلانة من أجلنا، ورأينا جسدها كله، مع آثار أخرى كثيرة، وبعد تقبيلهم ولمسهم بمجوهراتنا، عدنا إلى النزل، وبعد الغداء، ذهبنا في قارب إلى الغليون الذي استأجرناه، ورأينا القبطان قد أمر بوضع ألواح فوق الجزء المنخفض من مخادعنا، وقد اصطدم بعضهم بأقدامنا وكان في المكان الذي أردنا أن نضع فيه أحذيتنا وصندوق آنيتنا، ولهذا أخبرنا الرجال الذي كانوا مسؤولين عن الغليون، أنه ما لم يقم في الغد بنزع هذه الألواح، سنعدّ اتفاقنا ملغى، ذلك أننا رأينا في عملهم هذا مخالفة للشرط التاسع، وبناء على ذلك نشب خلاف فيا بين الحجاج وبين القبطان، وقررنا على كل حال أنه إذا أراد الحفاظ علينا، يتوجب عليه تدمير العمل الذي أقامه، وبعدما فرغنا من تنظيم مخادعنا على هذه الصورة، عدنا إلى نزلنا.

وذهبنا في اليوم السادس في قارب إلى القديسة لوسيا Lucia، وبعدما سمعنا هناك قداساً شاهدنا جسد تلك العذراء وقبلناه، ذلك أنه محفوظ

هناك في ضريح وسط تكريم عظيم، وذهبنا في ذلك اليوم نفسه إلى السوق، واشترينا كل ما يمكن أن نحتاجه في غليوننا من أجل الرحلة، من وسائد وفرش، ومخاد، وشراشف، وأغطية، وحصر، وجرار، وما تبقى من أشياء لكل مخدع، وسألتهم أن يشتروا لي فراشاً محشياً بشعر البقر، وكنت قد جلبت أغطية صوفية معي من أولم، من أجل أن أنام على ظهر الغليون مثلما أنام في قلايتي، لأنني رأيت أنه لايصح بالنسبة لي أن أنام على مكان أنعم فوق ظهر الغليون مما أفعل في قلايتي.

وفي اليوم السابع، الذي يوم عيد انتقال القديس بطرس الشهيد، ذهبنا في قارب إلى خارج البندقية، إلى جزيرة مورانو، واستمعنا إلى قداس دومينيكاني في كنيسة القديس بطرس الشهيد هناك، ثم ذهبنا إلى الكنيسة الأبرشية، وهناك عرض علينا كهنة الأبرشية، الأجساد الكاملة لعدد كبير من الأبرياء المقدسين، وكانوا جميعا ممددين في قبر واحد، حيث قبلناهم، ثم قصدنا إلى أفران صنع الزجاج، حيث يجري هناك صنع آنية من الزجاج بفن عالي الجودة والرقي، ذلك أنه لايوجد مثل أعمال الزجاج هذه في أي مكان آخر في العالم، وهم يصنعون آنية غالية السعر من الكرستال، وأشياء أخرى كثيرة رائعة من الممكن مشاهدتها هناك، وبعدما شاهدنا هذا كله عدنا في قاربنا إلى نزلنا في البندقية.

وفي اليوم الثامن، الذي كان يوم عيد صعود ربنا، ذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص، من أجل حضور القداس هناك، وللتمتع بالمشهد العظيم، ذلك أن أعداداً لاتحصى من الناس تتدفق على هناك وتحتشد في ذلك اليوم، وعندما احتشد الجميع واجتمعوا، سار البطريرك مع إكليروسه ورجال الدين من جميع الديرة، والدوج والشيوخ ونقباء الحرف، ساروا جميعا بعدما وقف كل فريق منهم في مكانه المحدد، وقد لبس كل منهم لباسه الخاص مع شعاراته، وأعلامه، ومشاعله، وذخائره، ومشوا في مسيرة من كنيسة القديس مرقص إلى البحر، وهناك

صعـدوا على ظهـر سفن أعـــدت خصيصاً لهم، وأقلعـوا بها، وصعـد البطريرك مع الدوج والشيـوخ على ظهـر الـ Bucentaur (في اللاتينية Bucephalus ، وسميت هكذا على اسم حصـان الاسكندر الكبير) التي كـانت سفينة عظيمـة تشبه خيمـة العهـد، وكانت مطليـة، ومغطاة بالذهب وبشقق الحرير المعلقـة، وأخـذ هـذا مكانا وسط احتفـال فخم، وقــــرع لجميـع نواقيس المدينـة، وزعق الأبـواق، وغناء مختلـف أنواع التراتيل من قبل رجـال الـدين، وعندمـا ابتعـدت الـ Bucentaur من الشـاطيء بضربات مجاذيفهـــا، التي كـان تعـدادها أكثـــر من ثلاثمائـة، صاحبها ما يزيد على خمسة آلاف مـركب، وقد أبحروا حتى القلاع التي تشكل ميناء البندقيـة، وعندمـا عبرت السفن جميعهـا وصـارت خـارج الميناء في البحر، بارك البطريرك البحر، حسبما جرت العادة بمباركة المياه في مثل هذا اليوم.

ولدى الفراغ من احتفال المباركة، انتزع الدوج خاتماً ذهبياً من اصبعه ورماه في البحر، وبذلك اقترنت البندقيـة بالبحر، وبعد احتفال الخاتم، خلع كثيرون ثيابهم وغطسوا نحـو الأعماق بحثا عن الخاتم، وكان الذي يعثـر عليـه، يحتفظ به لنفسـه، وفـوق ذلك يسكن طوال ذلك العـام في المدينة وهو معفى مـن الأعبـاء التي يخضع لها سكان تلك الجمهـــورية، وفي أثناء القيام بهذا كله تتجمع السفن كلهـا حول Bucentaur، وهي تضغط بشـــدة وتتـأرجح، وتصـــدر أصـــواتاً باطـلاق المدافع، والنفخ بالأبواق وقرع الطبـول، وبالصراخ والغناء، إلى حد بدا فيـه البحر وهو يهتز، وكنا حضوراً أثناء هذا العرض، في مركبنا المستأجر.

وبعد الفراغ من المبـاركة، وعملية الاقتران بالبحر، جـــذفوا بالـ Bu-centaur نحو ديـر القديس نيقـولا على الليدو Lido، ولدى الوصول إلى الشـاطيء هناك، نزلوا جميعاً من جميع السفن، ودخلوا إلى الكنيسـة، التي لم يستطع جـزء من مائـة من الناس الدخـول إليها، مع أنها كـانت

كنيسة عظيمة، ولم يكن بين ذلك الجمهور العظيم ولا امرأة واحدة، ذلك أن الذين نفذوا الاحتفال كانوا من الرجال فقط، وعندما يكون البطريرك سائراً نحو الكنيسة، وهو مرتدياً لثيابه الحبرية، ومعه الدوج الذي برفقته حاشيته كلها، يأتي راعي الدير، وعلى رأسه قلنسوته الحبرية، وبرفقته جميع الرهبان بأرديتهم المقدسة، نحو الخارج لاستقبال الجمهور، ولاصطحاب البطريرك والدوج بيده ولأخذهما نحو سدة الكنيسة حيث يعقدون القداس لذلك اليوم، وسط مهابة عظيمة، ويعودون بعد هذا إلى سفنهم، ويتوجه كل انسان نحو بيته لتناول طعام الغداء.

ولقد رأيت في بعض الأحيان مثل هذه المشاهد في أماكن أخرى، وبالنسبة لذلك انظر الصفحة ٢١٠، في القسم الثاني، وفي خلال الاسبوع الذي يلي يوم الصعود، ينعقد هناك سوق تتوفر فيه مشاهد رائعة.

وذهبنا في اليوم التاسع بالمركب إلى دير اسمه دير الرهبان العكاكزة، وبعد سماعنا للقداس هناك أرونا جسد القديسة بربارة مع كثير من الآثار الأخرى، التي قبلناها باحترام، ثم عدنا إلى نزلنا، وذهبنا في اليوم نفسه إلى بيت، كان موجوداً فيه فيل، الذي هو حيوان ضخم ومخيف، وقد رأيناه، واندهشنا لدى رؤيتنا لمخلوق بمثل هذا الحجم غير الاعتيادي، وقد تلقى تدريبات عظيمة، ذلك أنه كان يقوم بأعمال رائعة، فعلها أمام أعيننا، بإشارة من سائسه، وقد اشترى هذا الرجل هذا الحيوان مقابل خمسة آلاف دوقية، وأخذه من البندقية إلى ألمانيا، وكسب من ورائه مالاً كثيراً، لأنه لم يدع انساناً يراه، دون أن يدفع لذلك، وأخذه بعد ذلك إلى بريطانيا، وهناك رماه البحارة فوق ظهر السفينة أثناء احدى العواصف فهلك.

وفي اليوم العاشر، الذي كان يوم سبت، ذهبنا بالقارب إلى كنيسة

اسمها كنيسة القديسة مريم ذات النعمة، وسمعنا قداساً، وذهبنا من هناك بالقارب إلى كنيسة القديسة مريم صاحبة المعجزات، فهناك قد بنوا كنيسة ذات جمال رائع مع دير جميل جداً، وفي أثناء حجي الأول كان الناس قد بدأوا يتدفقون على ذلك المكان، حيث لم تكن آنذاك بيعة هناك، بل مجرد صورة للعذراء المباركة فوق رافعة مثبته إلى جدار، وقد قيل بأن معجزات قد صنعت هناك، ولذلك أخذت جماعات من الناس تأتي إلى هنا، وتوفرت تقديمات كثيرة، مما أدى إلى بناء كنيسة بنفقات عالية، وهي الكنيسة القائمة الآن هناك في ذلك الموضع، والتي أطلق عليها اسم كنيسة القديسة مريم صاحبة المعجزات، ولسوف أذكر المزيد عنها في القسم الثاني — الصفحة ٢٠٨.

وفي اليوم الحادي عشر، وكان يوم أحد ضمن الأسبوع التالي ليوم الصعود، استمعنا إلى قداس في أقرب الكنائس منا، وكانت واقعة في مقابل النزل الذي نحن فيه، وذهبنا بعد الغداء بالقارب إلى الكنيسة التي اسمها كنيسة القلعة، حيث يسكن بطريرك البندقية، وحيث يتم الحصول في كل يوم على توبة وغفران، وشاهدنا المكان، وكانت الكنيسة واسعة وقديمة، وقد وجدنا هناك واحداً من رهبان طائفة المبشرين، وهو الذي كان يتولى الوعظ، مع أننا لم نفهم ما قاله في القداس، لكن بعد انتهاء القداس رجعنا إلى النزل.

وفي اليوم الثاني عشر، الذي كان يوم عيد الشهداء نيروس Nereus وآخيليس Achilles وبنكرايتوس Pancratius ، ذهبنا عبر الماء إلى كنيسة القديس زكريا، وحضرنا قداساً هناك، وبعثنا بعد القداس برسالة إلى راعية الدير المرتبط بالكنيسة سألناها فيها السماح لنا برؤية الآثار، وهؤلاء الراهبات ثريات ونبيلات، وهن متساهلات جداً بنظامهن، الذي هو نظام القديس بينيت، وقد فتحن لنا الضريح الذي فيه أجساد الشهداء الثلاثة، الذين كنا نحتفل بعيدهم، أي: القديس نيروس،

والقديس آخيليس، والقديس بنكرايتوس، ورأينا في ضريح آخر مصنوع من الفضة الجسد الكامل للقديس زكريا، والد يوحنا المعمدان، وفمه مفتوح، وإلى جانبه جسد القديس غريغوري نازيانزن Nazianzen ، وجسد القديس ثيودور المعترف، وجسد القديسة سابينا، العذراء الشهيدة، ودهشت إزاء ثراء هذه الكنيسة بالآثار، وقد أخبرت بأن ابنة أحد الأباطرة، كانت مرة راعية للدير هناك، وأن الامبراطور، حباً لابنته، جلب هذه الأجساد إلى هناك،وهكذا بعدما رأينا هذه الآثار وقبلناها، عدنا إلى مكان إقامتنا.

وفي اليوم الثالث عشر، ذهبنا إلى الكنيسة الكاريثية Carthusian العائدة للقديس أندرو، حيث يوجد هناك دير عظيم وكبير جداً، وعلى جزيرة خاصة به، مع أربعة أروقة وقلايات جميلة وواسعة، ورأينا هناك كثيراً من الآثار، من ذلك إصبع القديس أندرو الرسول، وذراع القديس لورانس الشهيد، وهكذا كثير، وعدنا بعد هذا إلى مكان اقامتنا.

وذهبنا عبر الماء في صباح اليوم الرابع عشر إلى دير القديس جرجس، القائم في مقابل قصر القديس مرقص، وذلك عبر القناة العظمى، وجعلنا رهبان ذلك الدير يغنون لنا قداساً عن القديس جرجس، وبعد القداس أرونا الآثار المقدسة التي لديهم، وهي: رأس القديس جرجس، وذراعه الأيسر ويده، وكذلك رأس الرسول القديس جيمس الأصغر، والجسد الكامل للقديس بولص، دوق القسطنطينية، وقطعة من الليفة التي منحت لربنا، وأشياء أخرى كثيرة، وعندما فرغنا من رؤية هذه الأشياء، عدنا إلى مقر إقامتنا.

وفي يوم الخامس عشر الذي كان نهاية الاسبوع التي أعقب الصعود، وعدّ مقدساً مثل اليوم الأول من الصعود، ذهبنا باكراً إلى القديس مرقص، وبعدما استمعنا إلى القداس، أمكننا رؤية كنز القديس مرقص، الذي لايمكن تقدير قيمته لا بالذهب ولا بالفضة ولا بالحجارة

الكريمـة، فقـد رأينا هناك ضريح وجسـد القـديس ايزيدور Isidore، وأمـا جسد القـديس مـرقص، الذي جلبـه البنادقـة من الاسكندرية إلى مـدينتهم، فلم نره، لأنه قـد قيل بأن راهبـاً قد استـولى عليـه، وحمله إلى ألمانيا إلى أويا Owia ميجر، وحول هذه المسائل سوف تتوفر رواية أكثر كمالاً، في ص ٢٠٦ من القسم الثاني.

ومن الكنيســة ذهبنا إلى قصر الدوج، حيث تولى واحـد مـن رجـال بلاط الدوج ارشـادنا والطواف معنا حـول الغـرف الـداخليـة للدوج، وشمل ذلك أيضا خزانة الدوج، التي رأيناها، وكـان هذا اليوم يوم عيد خاص للنسـاء، وقد شاهدنا عـرضاً للنساء المزينات بزينة دنيـوية كانت ثمينة جداً، وكان رائعاً مشاهدتهن.

وفي اليـوم السـادس عشر، وبينما نحن في فـرشنا، سمعنا أسرة النزل يبكون وينتحبـون، لأن صـاحب نزلنا المعلم جـون، قـد توفي في الليل، وكـانوا يتجهــزون لدفنه، وبناء عليـه، اعتقـد بعـض منا، أنه ربما هناك طاعون قد نزل هناك، لذلك استأجروا قوارب وأبحروا إلى بادوا، حيث أقـاموا لعـدة أيام، أمـا أنا والذين بقيـوا، فقد ذهبنا عبر الماء إلى كنيسـة القديس روخ Roch ، في مدينة البندقية، وطلبنا عون القديس المتقدم الذكر، الذي هو معين خاص للذين يخافون من الوباء، وذلك خشية أن نصاب بالعدوى.

وفي يوم السابع عشر، الذي كـان عشية عيد الحصـاد، ذهبنا بالقارب إلى دير القـديس يوحنا، العـائد لطائفـة الرهبـان البيض، وهناك حضرنا قـداساً، وقبلنا الآثار، وذهبنا بعـد الغداء إلى مخزن سـلاح المدينة، الذي يسمــونه آرسنال (دار الصناعــة)، ورجـونـاهم السماح لنا بالدخــول، وعندمـا سمح لنا، شـاهدنا كميـات رائعـة من آلات الحرب، مع مخازن تابعـة للدولة لتزويد الرجـال للقتـال في البحر، أو خيـالة، أو رجـالة، وذلك حسبما سيأتي وصف ذلـك في الصفحـة ٢٠٥ من القسم الثـاني،

ومثل ذلك، ذهبنا بعـد هذا إلى بيت الخبـازين، الذيـن يتـولون خبـز البقسماط للاستخـدام في البحـر، ودهشنـا لدى رؤيتنا الأفـران الكبيرة، والنيران، والأعمال والعاملين، وقفلنا بعد هذا كله عائدين إلى النزل.

وفي يوم الثامن عشر، الذي كـان يوم أحد، ويوم عيـد الحصاد،ذهبنا في الصبـاح إلى كنيسـة القـديس بارثلميـو الرسـول، التي هي الكنيسـة الأبرشيـة لنزلنا، واستمعت هناك إلى اعترافـات بعض الحجـاج، وبعـد الحصول على أذن المغادرة من الكاهن الأبرشي للكنيسـة المتقدمة الذكر، توليت إدارة قـداس القربان مـن أجلهم، وبقينا في الكنيسة خـلال جميع وقت القـداس، وذهبنا بعـد الغداء عبر الماء إلى كنيسـة الروح القـدس، التي تدفق عليهـا جمهور كبير للحصـول على الغفران، ولمشـاهدة مسيرة مهيبة للنقابات التي يسمونها مدارس.

وذهبنا في اليـوم التاسع عشر بالماء إلى الكنيسـة التي اسمها القـديسة مريـم ذات الشفقة، التي هي فـائقة الجمال، وهي أيضاً الأغنـي والأكثر قـدمـاً من أية كنيسة أخـرى في المدينة، وحضرنا هناك قـداسـاً، وعجبنا لرؤية الرسـوم والمنحوتات التي زينت بهم، ولدى عـودتنا إلى نزلنا زرنا كثيراً من الكنائس الأخرى، حصلنا فيها على الغفـران، وسيكون مرهقاً لي تولي كتابة أسمائهم جميعاً.

وذهبنا في اليـوم العشرين في الصباح البـاكر، وقبل أن ترتفع حـرارة الشمس، إلى كنيسة القـديسة مـريم الجميلة، وكانت الكنيسـة في الحقيقة واسعة وجميلة: وهكـذا استمعنا هناك قداسـاً، وقفلنا بعد ذلك عـائدين إلى نزلنا، ولم نتجـرأ خلال بقية ذلك النهـار على الخروج، بسبب الحرارة العالية جداً، لأن الحر كان أعظم مما عرفته البندقية قط من قبل، وبسبب هذه الحرارة جفت الآبار، وصـار الماء العذب عـزيزاً جـداً، ذلك أنه لم يعد مـاء الشرب متوفراً هناك، إلا الماء الذي جلبتـه السفن من نهر برنتا Brenta وقد بيـع هذا الماء بثمن مرتفع جـداً، وجرى صبه مـن حول

الآبار، على أمل أن يتصفى خلال الأرض، وينفذ إلى الآبار.

وذهبنا في اليوم الحادي والعشرين بالقارب إلى دير القديس أنطوني، وكان على مقربة من دير القديس دومينيك، وحضرنا هناك قداساً، وخرجنا بعد ذلك نتجول هناك، وشاهدنا الأبنية العملاقة التي كان سادة البندقية يقيمونها هناك في ذلك المكان، واستولى علينا العجب تجاه النفقات الكبيرة لمثل هذه الأعمال، لأنهم كانوا يقيمون جدراناً ضخمة في ماء البحر بالذات، وكان مكلفاً جداً عمل الأساسات هناك، وبسبب هذا المبنى كان الدوج مع أعيان البندقية الآخرين، غاضبين جداً من أخواني رهبان القديس دومينيك، لأنهم طلبوا من الرهبان منحهم نصف أرض حديقة ديرنا، من أجل توسعة دير القديس أنطوني، لكن إخواني الر هبان لم يوافقوا، ووقفوا في وجه الدوج والشيوخ وقفة جريئة مما أثار غضباً كبيراً ضدهم.

ولكي يحصلوا على موافقة الرهبان، عرضوا منحهم المساحة التي أرادوا من الأرض في البحر، باتجاه الشرق، وحسب اختيارهم وقبولهم، وأن يقوموا بارساء الأساسات على حساب الدولة، لكن رئيس الدير، وكان جريئاً، رفض مطلقاً إعطاء الموافقة، وكان سادة البندقية يتولون عمارة هذا البناء بهذه الروعة، مع بيوت جميلة وكثير من الغرف، من أجل استقبال الحجاج الذاهبين إلى القدس، وإقامتهم فيها، لأنهم أدركوا أنه من غير اللائق، أن يقيم الحجاج في نزل عامة، مع أنهم عازمون على القيام بالحج المقدس، وأنه في مثل هذه المدينة العظيمة ليس لديهم من مكان يأوون إليه إلاّ الحانات العامة، لأن سمعة النزل العامة، كانت فيما بينهم سيئة وغير محمودة، ولذلك عندما كانت تزورهم بعض الشخصيات الكبيرة، كانوا يعينون لها بعض البيوت الخاصة، ليحولوا دون نزولها وإقامتها في النزل، فضلاً عن هذا، كانوا غير راضين، أن تذهب وجبات الأطعمة التي كانوا يرسلونها إلى الغرباء المهمين على

الحساب العام، وتؤخذ إلى النزل، وكان إذا ما أرسل شيء إلى أحد النزل، كان كمية صغيرة ورديئة.

وعندما تسلم موالي وجبة أهديت إليهم من قبل الدولة، أخبروهم أنهم لو كانوا مقيمين في أي مكان غير النزل العام، لبعث إليهم أعيان البندقية بالوجبات بشكل متواصل، ولتعاملوا معهم بكرم أعظم، ولهذا السبب كانوا يتولون عمارة هذا البيت بنفقات عظيمة إلى هذه الدرجة، من أجل أن يتمكن الحجاج ذوي المكانة من الإقامة هناك، ولكي ينالوا التكريم على أيديهم، وذهبنا من هناك بوساطة القارب إلى غليوننا، ووجدنا عدداً كبيراً من الرجال يعملون عليه، في تثبيت مقاعد المجذفين، والمجاذيف، والسواري، والأشياء الأخرى المحتاجة، وكانوا يثقلونه ويوازنونه بالرمل، وعندما رأينا هذا ابتهجنا، آملين بالإقلاع في القريب العاجل.

وفي اليوم الثاني والعشرين، ذهبنا عبر الماء إلى الكنيسة التي اسمها كنيسة الرسل، وحضرنا القداس هناك، وبعد القداس أرونا جسد القديسة مريم العذراء، التي يوجد حولها رواية رائعة في القسم الأول من كتاب«حياة الآباء»(ص٤٩)، وبعد الغداء ذهبنا ثانية إلى الغليون، وأخذنا بعض الصناديق والخزائن لوضعها في مخادعنا، وذهبنا في القارب أيضاً إلى المكان الذي ترسو فيه السفن ذات الحجم الأعظم، وصعدنا إلى ظهور هذه السفن، وتملكتنا الدهشة تجاه ما رأيناه، وتساءلنا كيف يمكن تحمل مثل هذه العمائر الضخمة، وهذا الوزن العظيم.

وذهبنا في اليوم الثالث والعشرين عبر الماء إلى كنيسة القديس إرميا، حيث أرينا بعد القداس جسد القديس الأسقف مغنوس Magnus الذي كان أول أسقف لمدينة البندقية، ومضينا من هناك إلى كنيسة القديسة مريم، التي اسمها القديسة مريم صاحبة العذراوات، ورأينا كثيراً من آثار القديسين هناك، وزرنا بيعاً أخرى كثيرة في ذلك اليوم،

نسيت أسماءها.

وفي اليوم الرابع والعشرين الذي هو يوم انتقال القديس دومينيك، ذهبنا عبر الماء إلى كنيسة القديسة آن Anne ، التي هي بالجوار، حيث شاهدنا كثيراً من الآثار، وفي طريق عودتنا إلى مقر إقامتنا، ذهبنا إلى كنيسة القديسة مريم صاحبة الكرمة، فهناك يمتلك الرهبان الفرنسيسكان ديراً جميلاً جداً، هو الذي يعملونه يومياً أكثر نفاسة، وقمنا هناك بتوجيه التحية إلى العذراء المجيدة، وعدنا إلى مقر إقامتنا.

وفي اليوم الخامس والعشرين، الذي كان يوم أحد، وكان أيضاً يوم عيد الثالوث المبارك، نهضنا باكراً، وعبرنا القناة العظيمة إلى كنيسة الثالوث المقدس، حيث يوجد هناك البيت العائد للرهبان الألمان النظاميين، وهناك حضرنا مسيرة وقداساً، ودعينا إلى الغداء من قبل السادة هناك، وكان في هذا اليوم حشداً عظيماً من الناس هناك، وكانت القناة طوال اليوم مليئة بالقوارب فيها أناس قادمون، وأناس ذاهبون، وعندما عدنا إلى نزلنا علمنا بأن السادة قناصل البندقية قد أصدروا أوامر إلى كل من القبطانين بالاقلاع مع حجاجهم في ذلك الأسبوع، وعدم الانتظار مدة أطول، ولدى سماعنا بهذا ابتهجنا، لأننا كنا قد بدأنا نملّ كثيراً من الاقامة في البندقية.

وعبرنا القناة في اليوم السادس والعشرين إلى كنيسة القديس اسطفان، حيث يوجد دير القديس أوغسطين، وسمعنا قداساً هناك، وبعد القداس أرانا الرهبان بعض الحجارة التي من المعتقد أن القديس إسطفان قد رجم بها في القدس، وفي ذلك اليوم أصدر قبطاننا الأوامر بوجوب إحضار جميع خزائننا وحقائبنا ووضعهم على ظهر الغليون، الأمر الذي نفذناه مباشرة وسط سرور عظيم،لأننا كنا نتطلع بشوق عظيم لموعد مغادرتنا.

وذهبنا في اليوم السابع والعشرين إلى كنيسة القديس كارتيانوس CARTIANUS، حيث كانت الكنيسة كنيسة أبرشية، فيها سمعنا قداساً، وبعد القداس أرانا رجال الدين جسد الأسقف القديس مكسيموس، المحفوظ بعناية داخل غلاف فضي، وذهبنا أيضاً إلى كنيسة فيها يرقد جسد راعي الدير، القديس سابا، وبعدما قبلنا هذه الآثار، عدنا إلى نزلنا، وعملنا في ذلك اليوم بنشاط كبير، في إعداد أمورنا على ظهر الغليون، وبدا لنا أن الأيام التي بقيت لنا لنقيم بها في البندقية تكاد لاتكفي لإكمال استعداداتنا.

وفي اليوم الثامن والعشرين ذهبنا باكراً عبر الماء إلى كنيسة القديسة مريم الكرملية، وذلك حيث يمتلك الرهبان الكرمليون ديراً، وبعد سماعنا قداساً عدنا إلى نزلنا بسرعة أكبر مما اعتدنا عليه، ذلك أن موالي قد عينوا موعداً مع طبيب كان سيتناول طعام الغداء معنا،وتسلموا منه أحكاماً مكتوبة ينبغي اتباعها في البحر، وذلك كل رجل حسب أوضاعه الجسدية، وأعطاهم وصفات أدوية، وأخذ كثير منا منه أشربة مطهرة، لأن من الضروري بالنسبة للمسافرين عبر البحر تناول الشراب المطهر قبل السفر.

وفي اليوم التاسع والعشرين الذي كان عيد«جسد المسيح» الأكثر قداسة، ذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص، وحضرنا مسيرة مهيبة هناك، فنحن لم نر قط مثل الفخامة التي رأيناها في ذلك اليوم في البندقية، وكانت المسيرة رائعة، وقد حوت حشداً عظيماً من الرهبان ورجال الدين التابعين لجميع الطوائف، وكانوا جميعاً يرتدون أرديتهم المقدسة، ويحملون آثاراً ثمينة جداً من كل نوع، ومشوا وفق نظام محدد حول الساحة الكبيرة للقديس مرقص، التي كانت مغطاة بأقمشة كتانيةمن جميع جوانب الدائرة التي تحركت فوقها المسيرة من الباب الأول لكنيسة القديس مرقص حتى الباب الآخر، وحمل البطريرك خبز القربان،

ومشى إلى جانبه الدوج، وهو واضع قبعة الدوقية الثمينة جداً، وجاء من بعدهما رعاة الديرة، وهم يرتدون قلنسواتهم، ثم شيوخ البندقية جميعاً، وإلى جانب العرض اللاهوتي، الذي كان رائعاً جداً، كان هاماً رؤية مهابة السادة الشيوخ، وثيابهم الجميلة وغير الاعتيادية، وقد جاء من بعدهم كثير من الأصناف، ثم العامة من الناس، وقد مشى رجال الدين والرهبان من نظاميين وعلمانيين في الطليعة، وسط الغناء وعزف آلات الموسيقى والألحان والمشاهد العرضية من كل نوع، وفي هذه المسيرة ما من دير، أو نقابة ظهروا من دون عرض خاص بهم وأبهة ذاتية لنيل الاعجاب، ولإدخال السرور إلى قلوب المشاهدين، وزين الرهبان المبشرون التابعون للقديس يوحنا والقديس بولص المسيرة بوساطة عروضهم المضحكة وتمثيلياتهم الجميلة، ولقد رأينا هناك كثيراً من الذهب والفضة، وكميات كبيرة من الأحجار الكريمة، والملابس الثمينة، مما لايمكن لانسان أن يقدر أثمانها، والذي كان هناك هو حشود متداخلة تركض وتتدافع في فوضى.

ومضينا بعد الغداء عبر الماء إلى دير جسد المسيح، حيث تقيم سيدات نبيلات وغنيات من البندقية، هن راهبات في طائفة القديس دومينيك، وفي الحقيقة، جاءت المدينة كلها تقريباً، بعد الغداء، عبر الماء إلى تلك الكنيسة، وكان هناك حشد عظيم وضغط شديد من أجل مشاهدة المسيرة، لأن الرهبان التابعين لثلاثة أديرة، هي: دير القديس يوحنا، والقديس بولص، ودير القديس دومينيك، ودير القديس بطرس الشهيد، قدموا جميعاً إلى هناك، وعملوا مسيرة فائقة الجمال مع جسد المسيح، وكانت مسيرتهم طويلة جداً فوق القناة العظمى، وقدموا كثيراً من العروض، ولايمكن لانسان أن يتخيل كم من العروض العبثية قد عرضت وسط هذه المباريات المقدسة، وكم من الملابس العظيمة البذخ التي ارتدتها النساء، وكم من التصرفات غير اللائقة التي صدرت عن

رجـال الدين، والأعمال غير النظـاميـة التي مـارسهـا رجـال الدين النظاميون وغير النظـاميون، هذا كله لايمكن لانسـان أن يتصوره، وأن يتصـور العـدد الهائل من الجمهـور الذي احتشـد هناك، وفيما إذا كـان التشريف المضفـى على القـداس الأعظم مكانة، قـد دنـس على هذه الصورة؟ الرب وحده الذي يعرف الأشياء كلها، يمكنه أن يقول ويخبر، وبعدما انتهى هذا كله، عدنا إلى مقر إقامتنا لتناول طعام العشاء.

وذهبنا في اليـوم الثلاثين إلى القـديس دانيـال، وسمعنا قداسـاً هناك، وأرونا بعد القـداس الجسد الكامل لشهيد اسمـه القديس يوحنا، وقبلنا هذه الآثار، وعـدنا إلى مقـر إقامتنـا، وفي ذلك اليوم بالـذات، قام عـدد كبير من الحجـاج، بعـد تناول طعـام الغـداء بحـزم أمتعتهم، وذهبـوا بوسـاطة القـارب إلى الغليـون، حيث صعـدوا إلى ظهـره، ومن هناك لم يعودوا ثانية إلى المدينة، بل مكثوا على ظهر الغليون حتى أقلع بنا جميعاً.

وفي اليـوم الحادي والثـلاثين الذي كـان اليـوم الأخير في شهـر أيار، نهضنا باكراً، وذهبنا لسماع قـداسات في كنيسـة القديس المخلص، حيث يوجد هناك رهبان نظاميون يتولون مراعاة الأعمال التعبدية بشكل دائم، واستأجرنا بعد هذا مـركباً، وتدبرنا أمر الذهاب إلى الكنائس التي حماتها من القديسين يقدمون خدمات خاصة إلى الذين على نية السفر إلى الحج، لأن موعـد مغادرتنا بات قـريباً، وكنا نرغب بـالتوجه بالـدعاء إلى جميع القديسين من أجل الحصول على عونهم، وبناء عليه ذهبنا أولاً إلى كنيسة القـديس رافـائيل، الذي هو رئيس للمـلائكة، حيث صلينا للرب حتى يرسل إلينا رئيس الملائكة المقدس لديه، ليتـولى قيادتنا مثلما فعل لطوبيا، ومن هناك ذهبنا بالقارب إلى كنيسـة القديس ميكائيل الذي كـان رئيساً للمـلائكـة، ورجـوناه أن يحطم تحت قـدميـه كل شيء شرير يمكن أن يهاجمنا، سـواء أكان من الأعـداء المرئية أو غير المرئيـة، وذهبنا من هناك إلى كنيسـة القديـس كريستـوفـر ورجوناه أن يحملنـا سالمين عبر البحـر

الكبير، ذلك أنه يوجد فيها بين البندقية وجزيرة مورانو جزيرة ، عليها تقوم كنيسة جميلة وجديدة هي كنيسة القديس كريستوفر، وذلك مع دير للرهبان البيض، وفي تلك الكنيسة هناك لوحة قد رسمت عليها خريطة جميلة جداً للعالم.

وذهبنا بالقارب من تلك الجزيرة إلى كنيسة القديسة مرثا، السيدة التي أكرمت الرب يسوع وخدمته، ورجوناها أن تهتم بنا وتزودنا بنزل جيدة ومحترمة، أو في جميع الحالات أن تزودنا بالصبر حتى نتحمل نواقص النزل التي سوف نسكن بها خلال رحلتنا الطويلة، ويسكن من حول تلك الكنيسة راهبات يرتدين أردية بيضاء، وانظروا كيف أننا عندما كنا نقيم في المدينة، لم نستطع منع أنفسنا عن القيام بالحج، ولقد دونت فقط المشاهد الرائعة والمحترمة والجولات التي قمنا بها في مدينة البندقية، وكل ما قمنا به بدافع الفضول، أو استحق المشاهدة، تجاوزت ذكره، مع أننا فعلنا ذلك أيضاً.

وهنا تنتهي جولاتنا في البندقية، وكنا طوال ذلك اليوم مشغولين في إعداد أنفسنا للذهاب والصعود على ظهر السفينة غداً، وعملنا تسوية مع طبيبنا، ودفعنا ما علينا من استحقاقات للسيدة مرغريت، صاحبة نزلنا، وعهدنا بالأشياء التي لافائدة منها في البحر، إلى السيد نيقولا فرج Frig وكان ألمانيا، وكان هو وكيل المؤونة في النزل، وانتظرنا قدوم الغد.

وفيما يلي بعض الأشياء، التي من الضروري تبيانها من أجل فهم جولاتنا ورحلاتنا فوق البحر. وقبل الشروع في تدوين أخبار جولاتنا ورحلاتنا في البحر، رأيت من الضروري التمهيد لذلك ببعض الايضاحات الضرورية، لتبيان كثيراً من المصاعب التي لابد من أن تقوم أثناء الحج في البحر، لأن الحج إلى الأرض المقدسة، ينفذ جله عبر البحر، ويتم تمضية الجزء الأكبر من الوقت في الرحلة البحرية، ولذلك عزمت على كتابة ثلاثة تماهيد لذلك.

والتمهيد الأول: حـول أنواع البحار الكثيرة، وطبيعتهم، والمخـاوف فيهم.

والتمهيد الثـاني: حـول الغليـون ذي الصفوف الثـلاثة للمجـذفين، وتراتيبه.

والتمهيـد الثـالث: حـول النظام وطبيعـة الحياة على ظهـر الغليـون، ونصيحة إلى الذين يبحرون في غليون.

وعندما يجري فهم هذه التهاهيد بشكل صحيح، فإن الانسان الذي لم ير البحر قط، يمكنه أن يرتاح راضياً، [أي أنه سوف يفهم حكايتي].

حول أنواع البحار الثلاثة

يتألف البحـر بطبيعتـه من ثلاثة أنواع هي: البحـر الكبير، والبحـر الأكبر، والبحر الأعظم، والبحر الكبير هو البحـر المتوسط، الذي يطلق عليـه اسم بحرنـا، والبحر الأكبر هو بحـر بنطش، والبحـر الأعظم هو المحيط الذي يمتـد حول العـالم، وسوف نقـوم أولاً باستعراض مـوجز للمحيط، وبعـد ذلك للبحـرين الآخـرين، والمحيط، أو البحـر المحيط الأعظم، هو الذي يحيط بالعـالم كله ويغلفه، ويلتف حـوله مثل الخاتم، وهو يسمى بالمحيط من قبل كل من الإغريق واللاتين، لأنه يجري حول العالم، وجاء ذلك إما بسبب سرعته، لأن معنى محيط هو يجري Ocius، أي يسرع، أو بسبب ضم عبـارة Ce مع Coelum التي تعني السماء، لأن هذا البحر فيـه شبه للسماء باللون، ومهما كـان لون السماء، سيكون المحيط له اللون نفسه، وينشأ المحيط وينمو من العالم، وجذوره وبداياته في العـالم، فضلاً عن ذلك فإن بداية الأول هي عند نهاية الآخـر، ومثل هذا فإنه أصل جميع الميـاه في العالم، فمنه تتـدفق وإليه تعـود، وبناء عليه أطلـق على المحيـط اسم بيـت الأنهار، ونبـع الأمطـار، ومع ذلـك هـو لايزداد بتدفق نهر من الأنهار، ولاينقص بعـدم تدفق نهر آخر، لأنه يعيد

من المياه بقـدر الكميات التي يتلقاها، ومـع هذا إنه ليبدو أمرا مـدهشاً، أن نرى مثـل هذا العـــدد الكبير من الأنهار تصب في المحيـط، وبشكل متواصل، وتتدفق بكميات غير محدودة من المياه، ومع ذلك لايغدو هذا المحيط أكبر بسبب ذلـك وليس أقل عجبـاً أنـه مع أن كثيراً من الأنهار تنبع من قاعه، وأن النجـوم تسحب شطراً كبيراً من مياهه، لأن الشمس والنجوم الأخـرى تتولى بقوتها النارية الحادة سحب كميـات عظيمة من المياه، وتصبها حـول جميع النجوم لتلطف الجزء الناري منهـم، ومع ذلك إن هذه المياه التي تأخذها النجـوم من المحيط لاتنقصه، لأنه كما قلنا من قبل، يسترجع ثانيـة بقدر مـا يفقـده من هذه المياه التي تشربها النجـوم، وكيف حصل هذا وانتظم، الله وحده هو العليم بذلك، لأن العالم صنع يديه، وهو وحده يعلم جميع أجزائـه، ويتبع هذا البحر، دون سواه مسار القمر، ولهذا فإن الـدوامة التي تبتلع الميـاه والسفن، وتقذف بهم مجدداً، وهي تبتلع مياههـا ثم تقذفها بقـوة تيار أعظم، عندمـا يكون هناك قمر جـديد، ويطلق على هذه الدوامـة اسم المهواة العظيمـة، وهكذا نقـرأ في سفر التكويـن: ٧/ ١١ «انفجرت كل ينابيع الغمر العظيـم»، ويوجد في مقابل هذا أغـواراً عظيمة، وكهوفـاً مفتوحة وواسعـة، فيها تنشأ الرياح وتهب من خـلال تنفس الميـاه، ويمكن تشبيـه هذه الكهـوف والأغـوار بفتحتي أنف العالم، واسم التنفس في الكتابات المقـدسة، روح العاصفة، وتقـوم الرياح بتحـركها في داخل هذه الكهـوف المفتـوحـة بسوق ميـاه البحر نحـو المهاوي العميقـة، وترغمهم على الاندفـاع ثانية بقـوة أكثر، وبتيـار أشـد عنفـاً، وقـد نوقشت هذه المسـائل بتــوسع من قبل -Vin centius في كتـــاب «Speculum Naturae»، ومياه هذا البحر مالحة، مثل ميـاه البحار الأخرى، وهو ما سـوف نشرحه فيما بعد، وفيما يتعلق بحجم هذا المحيط واتسـاعـه لايمكن لشيء أن يقـارن به، ويبلغ عرضـه مقداراً عظيماً بحيث لايمكن عبوره، ولايوجـد خلفه بلاد، بل إن ذلك البحـر محاط فقط بغيــوم وبهواء كثيف يشكل حـدوده، وهناك

على كل حـال أرض تحتـه، فتبعـاً للنظام الطبيعي للخليقـة، كـان وجـه الأرض كلها ستغطيه الميـاه، غير أن الله برحمته اللامحدوده تفضل بإبقاء جـزء من الأرض جافـاً لسكنى البشر والحيـوانات، وذلك عندما قـال: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحـد ولتظهر اليـابسة» [التكوين: ١/ ٩]، وهذا الجزء القائم فوق الماء، هو الذي عني عندما قيل عن العالم نفسه بأنه «قد أقـامه فوق البحار» (المزامير: ٢١/ ٢)، وعليـه كانت المياه ستغمر الأرض، لـولا أن الأمواج قد صـدت بقوة الخالق، ولذلـك قال في المزمـور: «أنت وضعت لها تخماً لاتتعـداه، لاترجع لتغطي الأرض» [١٠٤/ ٩]، وقال أيضاً في أيوب [٣٨/ ٨]: «من حجز البحر بمصاريع حين اندفـق فخـرج»، وكل مـن يرغب أن يمتلك فهما واضحـاً لهذه الأشياء، عليـه أن يقرأ شروح بولس أوف بـورغوس Burgos، على الـ Postilla لدي ليرا Lyra حـول مـا وقع في اليـوم الثـالث من أعمال حيث قـرأنا: «لتجتمع الميـاه تحت السماء إلى مكان واحـد»، ومن هذا البحـر وإليه وفيـه تصب مياه البحـار الأخرى: البحـر المتوسط، وبحـر بنطش، والبحر الأحمر، وهي بذلك تشبه أغصان جذع واحد.

ويطلق على بحـر بنطش اسم البحر الأكبر، لا لأنه في الحقيقـة أوسع من بحـرنا، بل لأنه غير مقسم بوسـاطة أية جـزر، أو لأنه لاجـزر فيـه تقريبـاً، واسمه بحر بنطش، لأن جميع تلـك المياه التي فيه تتـدفق خلال قناة ضيقـة، عبرها اكسرسيس بوسـاطة جسر (Pons) مصنوع من السفن، ولهذا السبب أطلـق على هذا المضيق اسم هيلـوسبـونت -Hel lespont أو من الممكـن تسميتـه ببحـر بنطش، لأنـه بدون جسر، ولايمكن عبوره بوساطة جسر، وكذلك من الممكن تسميته ببحر بنطش من كلمـة «نقطـة Point »، لأنه كما قيل هو مستدير مثل نقطة أو بقعة، وأيضاً من الممكن تسميتـه ببحر بنطش بسبب قصره، ويعرف هذا البحر بشكل عام باسم بنطش يوكسينوس Pontus Euxinus، وذلك

بسبب طباع سكانه، وذلك حسب رواية ايذيدور، لأنه تبعاً لبطليموس امتلك شعب يوكسين Euxine أسوأ طباع ممكن توقعها من الجانب الأخلاقي، ولهذا ما من أحد يمكنه التمازج معهم، ولقد كان أشبه بملجأ إليه يفر الناس من البلدان الأخرى بغرض اللجوء، وفضلاً عن هذا فان نهر اكسوس Euxes ، الذي ينبع من جبل القوقاز، يصب في هذا البحر، وبالتالي أعطاه اسمه، أو ربما نال النهر اسمه من البحر، ويوجد خلف بحر بنطش مستنقعات واسعة جداً، هي التي تتلقى مياه نهر تانيس Tanais، الذي يشكل الحدود فيما بين أوربا وآسيا، وهو ينبع من جبال ريفائين Rhiphaeon ، وبحر بنطش يوكسينوس هذا مياهه أقل ملوحة من مياه البحار الأخرى، وذلك بسبب عدد أنهار المياه العذبة التي تصب به، وفي الحقيقة نجد أن نهرنا الدانوب، الذي ترفده مياه ستة أنهار كبيرة، يصب لمدة سبعة أشهر في بحر يوكسين.

والبحر الكبير هو الذي نسميه «بحرنا»، و«البحر المتوسط»، ومقصدي الحديث عن هذا البحر أكثر من الحديث عن سواه، ومن حيث البداية أطلق عليه اسم «البحر الكبير»، لأنه بالمقارنة معه نجد البحار الأخرى والبحيرات أصغر منه، وثانيا، أطلق عليه اسم «بحرنا» لأنه معروف من قبلنا، وقريب منا، ويستخدم من قبلنا، وثالثا، أطلق عليه اسم «المتوسط» لأنه قائم في وسط الأرض، فمن الغرب حتى الشرق، نراه قائماً بين الأجزاء الرئيسية للعالم، أي بين أوربا، وآسيا، وأفريقيا، ويفصل فيما بينهن ويرسم الحدود فيما بين كل واحدة منهن بنفسه وبفروعه، ففي الغرب والشمال منه هناك أوربا، وفي شرقيه آسيا، وعلى جنوبه أفريقيا، ولهذا فإن الحاج الذي يذهب إلى القديسة كاترين، سوف يلامس البحر عند كل واحد من هذه الأجزاء الثلاثة للعالم، ذلك أنه يبدأ رحلته من أوربا، ويصل عبر كريت ورودس وقبرص إلى آسيا، وعندما يصل إلى الاسكندرية في مصر سوف يكون في أفريقيا، لأن نهر

النيل يفصل فيما بين آسيا وأفريقيا، وهناك على الجانب الأفريقي توجد الاسكندرية، ويتصل بحرنا بالبحرين المتقدمي الذكر، ومياه بحر بنطش والبحر المتوسط هي نفسها، وتتدفق هذه المياه — كما نرى — من مملكة إسبانيا وتمر بغاليا، وإيطاليا، وصقلية، وكريت وصولاً حتى مصر، ويطلق بشكل صحيح على الفرع الذي يصل المحيط قرب اسبانيا، اسم مضيق المغرب، فهو يفصل فيما بين مملكة المغرب — الموجودة في أفريقيا — وإسبانيا، وفيما بين هاتين المنطقتين يتلقى البحر المتوسط مياهه من المحيط من خلال المضيق المتقدم الذكر، الذي لايتجاوز عرضه ربع ميل، ذلك أن النساء الغسالات في اسبانيا قد يقفن على أحد الشواطىء، وتقف في مقابلتهن النساء الكافرات في المغرب، وتشتم كل فئة منهن الفئة الأخرى، وهناك تنفصل أفريقيا عن أوربا.

ويصلها ذراعها الآخر الذي اسمه الهيلوسبونت — أو ذراع القديس جرجس — ببحر بنطش، ويفصل هذا الذراع أوربا عن آسيا الصغرى، التي يطلق عليها الآن اسم تركيا، لأن الأتراك قد استولوا على المنطقة كلها، وفي الدارجة يطلق على هذا الذراع اسم خليج القسطنطينية، لأن مدينة القسطنطينية قائمة على شاطئه الأوربي، ويقال بأن مدينة طروادة القديمة والقوية، قد قامت عند المكان الذي يبدأ فيه هذا الذراع بترك البحر المتوسط، وذلك على ساحل آسيا الصغرى، ولم يتبرهن — على كل حال — بتأكيد كامل بأن مدينة طروادة قد قامت هناك، وعلى كل حال إن تسمية بحرنا بالبحر المتوسط، تسمية صحيحة، لأنه واقع في وسط البلاد، ويحتل المكان الوسط فيما بين البحرين الآخرين، وتصب جميع الأنهار المعروفة من قبلنا في هذه البحور الثلاثة، فنهرنا الدانوب يحمل نفسه ويتجه نحو الشرق ليصب في بحر بنطش، الذي عرف أيضاً باسم يوكسين، وجميع الأنهار التي تنبع من جبال الرايتك Raetic ، فنهر الراين ينبع من جبال يوكسين، ثم يجري باتجاه الغرب، ويحمل

عدداً لايحصى معه من الأنهار إلى البحـر المحيط، ونهر الرون الذي نبعه قــريب من نبـع الراين، يجري باتجاه الجنوب، ويحمـل معــه المتبقي من الأنهار إلى البحر التيراني Tyrrhenian ، وكذلك أنهار الأدجي، وبرنتا، فهي تنبع من جبال الألب، وتصب في البحر المتوسط.

وهناك بحـار أخـرى معروفـة بشكل جيـد بالنسبـة إلينا من خـلال الكتابات المقدسة، وهي مرتبطة بواحـد من البحار المتقدمة الذكر، بأقنية نحن لانستطيع رؤيتهـا، أو كما هو معتقـد بوسـاطة أنهار تحت الأرض: من ذلك على سبيـل المثـال، يوجـد في الشرق بحـــر الخزر، الذي هو منعـزل، وليس له اتصال ظاهر مـع أي من البحار الأخـرى، ومع ذلك قــد قيل بأنه يتـدفـق بشكل سري من تحت الأرض ويصب في بحـــر بنطش، فضـلاً عن هذا لقد قيل بأن بحـر الجليل، والبحر الميت يصبـان بوساطة قناة خفية في البحر الأحمر، الذي يتلقى المياه من المحيط، وهناك لسان من المحيط حيث حدود كل من بلاد فـارس وشبه جزيرة العرب، ومنه يبحر الناس إلى الهند، فهـذا ما حكاه جيروم في رسالته إلى فـابيولا Fabiola .

فضلاً عن هذا، ينبغي أن نعرف أن البحـر المتوسط هذا، مع أنه بحر واحد، له مع ذلك أسماء مختلفة تبعاً للبلدان المتنوعة التي تشاطئه، وهذا مثل الأرض، مع أنها واحــدة، لها أسماء متنوعـة، فهـو يستعير أحيــاناً أسماءه من البلـدان، من ذلك على سبيـل المثـــال، إنه يسمى البحــــر الآسيوي، والبحـر الشامي، والبحـر الايبيري، وينال الأسماء أحياناً من الجزر، فيسمى البحر البيلياركي Balearic والبحر الصقلي، والبحر الكريتي، أو البحـر القبرصي، وأحياناً من قنن الجبـال مثل البحر الايجي أو البحـر المالي Malean وأحيــاناً من أسماء الشعـوب، مثل البحــــر الألماني، والبحر الغـالي، والبحر الايطالي، والبحـر الدلماشي، وأحياناً من المدن المجــاورة، مثل البحـــر الأدرياتيكي، والبحـــر التيراني، والبحــر

اليـافاوي، والبحـر الاسكندراني، أو البحـر البندقي، وبناء عليه عندمـا تقـرأ في جولاتي عن بحـار مختلفـة، ينبغي أن تعرف أن المعني هو بحـر واحد، لكن له أسماء مختلفة.

وهذا البحـر مثله مثل المحيط والبحـار التي تصدر عنه، يحتـوي على مياه مـالحة، ومرة، وغير سـائغـة وغير صحيـة، وهي بشكل عـام غير صالحة للشرب، وملفـوظة أكثر من البـول، من قبل الانسـان والحيوان، وسبب هذه الملوحة هو سر عظيم غامض، وذلك استناداً — فيما أعرفه — إلى أن الفلاسفة القـدماء بذلوا جهوداً كبيرة وشاقـة في سبيل معرفة سبب ذلك، ويبدو أنهم أخطأوا وابتعـدوا كثيراً عن الحقيقة في تحديدهم لأسبـاب ذلك، وذلك مثلما أخطأوا في مسألة النيل، ومكان ينابيعـه،كما سنرى في الصفحـة ١١٩ من القسم الثـاني، وقد وقعـوا بحماقـات أكبر عندما بحثـوا في أسباب ملوحة البحر، ذلك أن علماء الأصـول القدماء جـداً لم يتمكنوا مـن الارتقـاء فـوق الأفكار الحسيـة، حيث ذكـروا في أسطورة مخترعة أن الكائن الأول الذي هـو أبو الأشياء كلها، قـد انتزع كتلة نارية كبيرة من جبل Acroceraunus وبعـدمـا ضغطهـا مع بعضها وصنع منهـا كرة صلبة، أسقطها ست مـرات في المحيط، ونتيجة لذلك الانغمار، بدأت الميـاه كلهـا بالغليان، وصـارت حـارة، ولولا أنه سحب تلك الكرة مباشرة وأخرجها، لصارت مجموعة المياه الهائلة كلها، وتحولت إلى ملح يابس، وبما أنه رغب ببقـاء البحـر بقيت الميـاه ميـاهاً، لكن مالحة.

فضلاً عن هذا نجـد لدى أرسطو في كتابه الثاني حول الأنواء نقـاشاً حول أسباب ملوحة البحر، وبالاضافة إلى ما قاله أرسطو نفسه، أوضح بعضهم، أنه عندما تصير الأرض دافئة بوسـاطة الشمس تتعرق وتصدر ما فيها من رطوبة، وبناء عليه تشكل البحر باجتماع هذا التعرق، وبما أن العرق مـالح، كذلـك صار البحر مـالحاً، ذلك أن عرق الأرض مـالح،

وبناء عليه يقول هؤلاء الناس بأن البحر ليس إلاّ مجرد العرق الذي يتدفق دوماً من على سطح الأرض، ويقول بعضهم بها أن البحر قائم فوق الاقليم الحار للأرض، صار سميكاً بسبب حرارته، وذلك مثلما تصير المياه مالحة من خلال الحرارة، وكذلك يقول آخرون، بأن بعض أجزاء الأرض مالحة، وعندما امتزج البحر معها صار مالحاً بسبب هذه الأرض، وذلك على سبيل المثال مثل المياه التي تجري تصفيتها من خلال الرماد تصبح مالحة، ويقول آخرون بأن الملوحة تنتج من خلال امتزاج التبخر الدافىء مع جزئيات الماء، لأن العرق والبول يتفاعلان فوق النار، ويصبحان ملحاً، ويقول آخرون بأن مياه البحر قد جفت بفعل حرارة الشمس، لأن الشمس تجفف وتشرب كل شيء، وهكذا يتداخل الطعم المالح وينتشر في البحر،لأنه مفتوح بشكل واسع لتلقي حرارته، وهكذا فإن المياه بعدما تغلي بحرارة الشمس والنجوم، تصبح مالحة، والانسان الذي يشرب خمرة حلوة وماء عذباً يخرج منه بول مالح، بسبب أن الحرارة تنتج ملوحة، ويقول آخرون بأن الشمس تمتص جميع الحلاوات والجزيئات الرقيقة، التي من السهل جذبها بوساطة قوة النار، وبذلك فإن الجزيئات الخشنة والأسمك تبقى متخلفة، ولهذا فإن وجه البحر حلو كثيراً، وقعره عظيم المرارة، والآن إن القمر يتغذى بالمياه العذبة لكن الشمس تتغذى بالمياه المالحة، والمياه المالحة لاتتجمد بسرعة مثل المياه العذبة، لكنها تصبح حارة بشكل أسرع، ولهذا فإن الحلاوة والملوحة قد امتزجتا في البحر، ويمكن البرهنة على ذلك فيمايلي: إذا ما جرى صنع وعاء من الشمع، وأغلق من جميع الجهات، بحيث لايمكن للمياه أن تدخل إليه، ثم جرى وضع هذا الوعاء في البحر، عندها تأخذ مياه البحر بالتسرب إليه من جميع الجوانب، ووقتها يصبح مافي داخله عذباً وسائغاً للشرب، وجميع الجزيئات المالحة سوف تزول منه، وكأن ذلك حدث بوساطة مصفاة، فضلاً عن هذا إذا ما حفر إنسان حفرة على الشاطىء قرب البحر، فإن الماء الذي يتسرب إليها من البحر،

يصبح عذباً بسبب مروره من خلال الرمال، وسائغاً للشرب.

ويعزو آخرون ملوحة البحر إلى سبب لاهوتي: ولهذا إنه لائق أكثر أن نقول بأن البحر قد خلق مالحاً من قبل الرب، وأنه مثلما كل عنصر من العناصر الأخرى له طبيعته الخاصة، كذلك ملوحة البحر لها طبيعتها الخاصة، لأنها مالم تكن ممزوجة بالملح، لصارت آسنة مثل بقية أنواع المياه الراكدة النتنة، وبعض البحيرات القذرة: ولهذا السبب قُضي من قبل الرب بقاء البحر بحركة دائمة، فبتلك الحركة يمكن لعناصره البقاء بدون فساد، لأنه بوساطة الحركة الدائمة يتصفى ويحفظ من الفساد، ولقد قضي من قبل الحكمة الإلهية بهذه الملوحة من أجل أن تتمكن السفن من الابحار فوق مياه البحر بسهولة أكبر، لأن الماء المالح أغلظ وأكثر وزناً من الماء العذب، لأن الماء العذب مصفى ومنقى، وبناء عليه فإن الماء المالح أفضل لحمل السفن، ذلك أن السفن التي لايمكن أن تغرق في المياه المالحة تغرق في الغالب في المياه العذبة، وهذا يمكن البرهنة عليه، بسبب أن البيضة تغرق بالماء العذب، لكنها تطوف في الماء المالح، فضلاً عن هذا، إن في ملوحة البحر خدمات عظيمة لصحة الانسان، لأنه لو كانت مياه البحر قابلة للشرب، لايمكن للناس عبوره أحياء إلاّ بصعوبة بالغة، لأنه من خلال حرارة الشمس، والتعب في البحر، تجد البحارة دوماً على درجة عالية من العطش، ولوكانت لديهم مياه عذبة للشرب بقدر ما يريدون، فإنهم يدمرون أنفسهم، ولذلك إنه مفيد من أجل الحفاظ على حياة الذين يبحرون فوق سطح البحر، أن تكون مياه البحر مالحة.

ومياه البحر غليظة وممجوجة، ولهذا عندما تنضح من البحر، وتُصب فوق صخور، تتغطى هذه الصخور على الفور بالملح بسبب حرارة الشمس، ومن طبيعة ملوحة البحر هذه اشتق اسمه، وصار يدعى باسم البحر (Mare) ، وذلك بسبب مرارته (Amaritudo) ، وقد ورد ذكر

هذا البحـر في سفر عامـوس:٥/ ٨، «اطلبه ... الـذي يدعو ميـاه البحر ويصبها على وجه الأرض، الرب هو اسمه»، وقد علق جيروم (الكتاب السـادس ص٣) كمايلي:« يدعو الرب ميـاه البحـر، عندمـا يرفعها نحـو الأعلى، كما هي مـالحة، لكـن من خـلال حـرارة الهواء وبوسـاطة ذلك تتصفى وتصبح نقيـة وعـذبة من خـلال ميـاه المطر»، وبالنسبـة لملوحـة البحـر انظر «Speculum Naturae »— الكتـاب السـادس، الفصل التاسع، وتمتلك مياه البحر سمات متباينة، قامت وتكونت وفق مايلي: بما أن الأرض فيهـا تجاويف، وبما أن الماء سائل، فإنه يجري نحـو الأسفل، ويمـر خـلال مجار للميـاه، حيث يتصفى ويصبح أكثـر رقـة، ومن ثم يمتلك سمات متبـاينة من خـلال طبيعـة الأرض، لأنه يمـر من خـلال أرض رمليـة وأخـرى صخـرية، فيحصل من هناك على طعم العـذوبة، ويصبح نقيـاً، ومتماسكا وباردا، وإذا مـا مـرت الميـاه من خـلال أرض ملحيـة، أو من خلال أرض مـوحلة، تصبح ذات طعم مقيت، وإذا مـا مرت من خلال أماكن كبريتيـة، أو كلسية، أو نحاسية، تصبح مرة، وإذا ما مرت من بؤر مليئة بالشب والكبريت، تكسب عناصر منهما، فتصبح حـارة وذات روائح كـريهة، وعلى هذا تملك سمات متبـاينة تبعـاً لتبـاين أنواع الأرض، التي تنبع منهـا، كما أن ألوانها تتغير تبعـا لتبـاين أنواع الرياح، فتجـدها في وقت من الأوقات صفـراء، وفي وقت آخر بيضـاء، ثم في وقت بعـد ذلك سوداء، وسـاعـة موحلة، وسـاعة أخـرى داكنة، وساعـة صافيـة، ومرة أخـرى سميكة غير صافية، وأحيـاناً لونها ذهبي، وفي حين آخـر لونها مـائل إلى الاحمرار، فـأي لون من الممكن رؤيتـه في السماء يمكن رؤيتـه في البحـر أيضاً، وعلى كـل حال تبـدو بعض الميـاه للذي ينظر إلى نوعين من المياه مع بعضهما ويقـارن بينهما أنهما في الغالـب مختلفين، وفي كثير من الأحيان قد تبدو السماء صاحية ومشرقة ومع هذا يبـدو منظر المياه أسـود مثل الفحم، ويحدث هذا لأن الميـاه تأخـذ لونها أحيانا من الرياح الهابة، وأحيانا من أشعة قبة السماء.

المخاطر المتنوعة التي تواجه الذين يرتحلون بوساطة البحر

تخضع الرحلة بوساطة البحر إلى كثير من المصاعب، والبحر نفسه عظيم الإيذاء إلى الذين لم يعتادوا عليه، وهو خطير جدا في كثير من الجوانب، من ذلك إنه يلقي الرعب في النفس، ويسبب الصداع، ويثير الغثيان وعدم استقرار المعدة والدوار ويدمر القابلية للطعام والشراب، ويعمل بشكل مرهق على جسد الإنسان، ويثير الانفعالات، وينتج كثيرا من الشرور الغريبة، وهو يسبب كثيرا من المخاوف القاتلة، وغالبا مايقود الناس إلى حالات موت مرعبة، وأعظم مخاطره ارعابا هي أن العاقل يكون أكثر الناس خوفا منه، في حين ينظر الأحمق إليه نظرة استخفاف، وبناء عليه عندما كان الفيلسوف العظيم أرسطيبوز -Aris tippus في عاصفة في البحر، يعاني من الدوار، وغثيان في المعدة، وأثقل بالصداع، بات خائفا من أجل حياته، وعندما عاد الهدوء، ورجعت الأمور طيبة كما كانت من قبل، جاء انسان ثرثار، وقال للفيلسوف:« ماهو السبب في أننا نحن الأناس العاديون شجعان، وأنتم الفلاسفة مرعوبون»؟ فأجابه:«لأننا لانمتلك نوع الحياة نفسها حتى نعتني بها، وسيكون أمرا استثنائيا بالنسبة لك أن تهتم أو تعتني بحياة واحد بلاشعور أو اهتمام مثلك، لكن عندما أكون أنا في خطر، تجدني محقا حين أخاف على الفيلسوف من الموت، لأن الرجل الغني يخاف من اللصوص أكثر من المعدم، ذلك أنني أحمل في ذاتي روحا مليئة بالفضائل، ولهذا إنه مسوغ بالنسبة لي في أن أخاف من أكثر اللصوص براعة، ومن أعظم قطاع الطرق والسارقين خطورة ووحشية، وهو البحر».

ولايمكن البرهنة على هذه المخاطر البحرية المتقدمة الذكر من قبل انسان عرفها من خلال القراءة في الكتب، أو من خلال الاصغاء إلى الرحالة، مثلما يفعل ذلك انسان عرفها من خلال المشاعر التي كسبها

بخبرته، وانظر في الالهيات، الاصحاح:٣/ ٥/ ٢٦(٢٤) قوله:« الذين يبحرون على ظهر البحر يتحدثون عن المخاطر فيه، وعندما نسمع ذلك بآذاننا يتولانا العجب نحو ذلك»، وكقاعدة يعاني الذين يعبرون البحر من مخاطر، سببها إما البحر، أو الرياح، أو السفينة، وهناك على كل حال مخاطر خاصة لايمكن تعدادها، تتأتى اما من وضع الإنسان الخاص، أو من رفقة السوء، أو من الحاجة إلى الشراب، أو من رجال القيادة السيئين، أو من الحرارة الزائدة جدا، أو من البرد القارص، أو من سوء التجهيزات وما شابه ذلك، وفي الحقيقة هناك مخاطر لو أردت ذكرها جميعا، وحاولت ذلك، لأعوزتني الكلمات ولعجزت عن ذلك نحوها جميعا، ولهذا سوف أتحدث بعض الشيء حول المخاطر العامة للبحر، أما المخاطر الخاصة فسوف أتحدث عنها خلال مجرى حديثي، وقد وصفت بعض هذه المخاطر إلى حد ما في الرواية التي قدمتها عن حجي الأول.

ويصدر الخطر الأول الذي يقع فيه البحارة عن البحر، لأن البحر إذا كان غليظا مليئا بالصخور والنتوءات، كما هو الحال بين الجزر التي اسمها سيكلاد Cyclades وفي بحر أثينا، وخارج ساحل إيليريا Illyria ودلماشيا، فهو في مثل هذه الحال لايمكن عبوره من دون رعب، ففي تلك الأجزاء من غير الممكن الإبحار في الليل بسبب الصخور والرؤوس والنتوءات، وخاف من هذا الخطر البحارة الذين حملوا القديس بولص، وذلك حسبما نقرأ في أعمال الرسل:٢٧/ ٢٩، وغالبا ما وجدت أنا شخصيا في هذا الخطر، أو ثانية إذا كان قعر البحر ليس مستوياً، بل هو مرتفع في أحد الأماكن بأكوام من الرمل، أو هو عميق جداً مثل الهاوية في مكان آخر، أوهو في جميع الأحوال غير مستوي، فيه حفر عميقة ووديان، ففي مثل هذه الأماكن من الصعب بالنسبة للسفن العبور، لأنه مع أن البحر يبدو مستوياً في كل مكان (حيث يسمى في بعض الأحيان باللاتينية aequos) عندما تصل السفينة إلى مكان غير

مستـو، تتوقف قليـلاً، ومالم تكن هناك ريح لتـدفعها كي تتـابع سيرها، سيكون من الصعـب تحريكهـا ونقلهـا من هناك، وقـد تعلمت هذا بالتجربة والخبرة كما وضح في ص١١٦.

وثانيـا: إنهم يعـانون من رعب الريح، ذلك أن أي ريح لطيفـة تحول البحـر إلى بحـر غير هادىء، وعـاصـف، وقـاس، يفـور ويمـور، ولهذا السبب، غالبا مـاأطلق على البحر اسم Fretuem باللاتينية، وخطير أن يقلع الإنسان في بحر عاصف، وغـائم، ورطب، ومظلم الأنواء، خاصة عندمـا توضع السفينة في خطـر، والخطر (لا) يمكن رؤيتـه، والذي هو أكثر ارعـابا وخطرا هو الريح العنيفة جـدا، ولاسيما عندما تكون الرياح مضـادة، وتهب بشكل مفاجىء، فعندهـا يصبح جنوح السفينة وغرقهـا مرعب حقا، وهذا الخطر عام، ووقعت فيه شخصيا مرارا.

وينشأ الخطر الثالث عن ضعـف السفينة نفسها، وعدم كفـايتها، لأنه ليس من الأمان أن يعهد الإنسـان بنفسه إلى سفينة صغيرة جدا، أو هي ضعيفة، أو محطمة أو قـديمة، لأن مثل هذا النوع من المراكب ليس أميناً أثناء حـركة العـاصفـة، لأنها أمـا أن يتم قهرها بـالأمواج بسبب صغـر حجمهـا، فتنقلـب، أو أنها تتحطم بسبب ضعفهـا، ويكون ذلـك بقـوة الرياح والأمواج، وفي بعض الأحيـان يحدث من خلال الحاجة إلى قـائد بارع أن المركـب يستهلك وقتـا أكثـر مما ينبغي حتى يصـل إلى المرفأ المنشود، وعلى هذا من الممكن إضافة عامل رعب رابع عام إلى اللائحة، وهو الرعب الـذي ينشأ عن جهل، أو كسل، أو إهمال، أو نوم قبـاطنة السفن، وهذا أيضا قد جربته.

وإنه لمرعب رؤية المخـاطر وأنت هناك تنتقل من الغليـون إلى قـارب صغير وقت هبـوبها، أو وقـد انتقلـت من الغليـون إلى قـارب صغير، ووقتهـا على الإنسـان أن يعمل خطـوة واحـدة أو أن يقفـز قفـزة، وإذا حـدث ولم تصل قـدم الإنسـان إلى الغليـون أو القـارب، فـلابد من أن

يسقط في البحر، ويهلك دون أمل بالحصول على عون، انظر ص٢٨١ .

زد على هذا هناك خطر آخر، لايخطر على بال غير المجرب أبدا، كما أنه غير موجود في كتب الكتّاب الذين تحدثوا عن مخاطر البحر، وهذا الخطر مزعج جدا، مع أنه لايسبب الرعب، فعندما تكون الرياح جميعها هادئة، والبحر صامت ساكن، والهدوء موجود في كل مكان، أصرح قائلاً: الحقيقة أن هذا النوع من هدوء البحر وسكون الريح هو أكثر ازعاجاً للمسافرين في البحر من المخاوف المتقدمة الذكر، وذلك باستثناء غرق السفينة الفعلي، لأنه عندما لاتهب الرياح، ويكون البحر بلاحركة، والسفينة واقفة ثابتة في مكانها، وقتها يكون كل شيء على ظهر السفينة قد صار عفنا، ونتناً، ومتجمدا، وتبدأ المياه بالتحول إلى آسنة، وتغدو الخمرة غير قابلة للشرب، وتصبح اللحوم، حتى وان كانت جافة ومدخنة، مليئة بالدود، التي تغدو كلها حية بشكل مفاجيء، ويصير هناك أعداد لاتحصى من الذباب، والبعوض، والقمل، والبراغيث، والديدان، والفئران، والجرادين، فضلا عن هذا يصير الناس جميعا على ظهر السفينة كسالى، نائمين، ومنزعجين من الحرارة، ويشعرون بالنكد من المعاناة الشريرة بالمينالوخيا، والغضب، والاثارة والاضطراب مع الآخرين كمن فقد السيطرة على نفسه، ولقد رأيت قليلاً من الناس يموتون على ظهر السفينة أثناء العواصف، غير أنني رأيت عدداً أكبر يمرضون ويموتون في أوقات السكون المتقدمة الذكر، وهذا كله سوف يرد ذكره في سياق قصتي.

وهناك مخاوف في البحر تعرف باسم الانحلال من عنف الأمواج، أو باسم Syrtis أو Charybdis، والانحلال يكون عندما يندفع بحران مع بعضهما، فذلك الاندفاع يعرض السفينة للخطر، و Syrtis هو اسم مكان توجد فيه أكوام من الرمال، وحيث يكون قاع البحر غير مستو، فبذلك يكون الماء في مكان عميقاً، ومجاوراً لما هو غير عميق، أو تتوفر

هناك بعض الصخور الخفية التي من الممكن أن ترتطم السفينة بها، وكانت Charybdis تبعاً لحكايات الشعراء امرأة عجوزا جشعة، ولأنها سرقت ثور هرقل رماها جوف Jove بصاعقة، وألقى بها في البحر، وهي حتى هذا اليوم تطوف خلسة حول قاع البحر جاهدة لسحب السفن العابرة إليها نحو الأسفل، حتى يمكنها سرقتها، حسبما اعتادت فيما مضى، ولهذا السبب فإن الأماكن التي غرقت فيها السفن، وحيث هناك متاهات أعماق خفية، مثل الأماكن الموجودة بين جزر غوزابولس Gozapolis، التي ورد ذكرها في ص١١٤، قد أطلق عليها اسم Charybdises، ويدعى الخطر نفسه باسم Charybdis ، نسبة إلى المرأة القديمة Charybdis، التي يعتقد القدماء بأنها أغرقت سفناً في أماكن مثل هذه.

وهناك مصدر رعب آخر، يسميه بعضهم خليج، وهو مايواجهه البحارة عندما تهب الرياح مندفعة من كهوف وسط الجبال بقوة ترمي بالسفن وتقلبها على جنبها، وهناك مصدر رعب آخر اسمه Grupp، وهذا يحدث عندما تحارب الرياح بعضها ضد بعض، وتتلقى السفينة فيما بينهم الضربات من الجهات المتعاكسة، وهناك خطر آخر من الممكن مواجهته، يطلق عليه اسم Troyp اشتقاقاً من اسم سمكة Troys، التي عندما تعرف بوجود سفينة، تنطلق نحوها من الأعماق، وتخرق السفينة بأنيابها، لأن لها أنياب مثل مثقب النجار بشكلها، ومالم تطرد ويتم ابعادها، يمكنها خرقها، والنفاذ فيها، ومن غير الممكن طرد هذه السمكة وإبعادها عن السفينة إلا بوساطة نظرة انسان لاتعرف الخوف، وبناء على ذلك على الانسان الانحناء من فوق السفينة والنظر بعدم خوف في عيني السمكة، حيث تنظر السمكة إليه في الوقت ذاته وتحدق به بشكل مرعب، وإذا ما ظهرت ملامح الخوف على الرجل الذي ينظر إلى السمكة ويدأ يشيح بناظريه، تقفز السمكة على الفور، وتلتقطه

مباشرة، وتأخذه إلى تحت الماء وتلتهمه، وليكن في هذا كفاية حول المخاوف في البحر.

حول السفينة التي عبر الحجاج البحر بها، والتي اسمها غليون، وكم كان حجمها كبيراً، ومن أي الأنواع هي

يمتلك البحر أنواعاً من السفن مختلفة، منها ماهو كبير الحجم، ومنها ماهو متوسط الحجم، ومنها ماهو صغير، وفي البداية لم تكن هناك سوى السفن الصغيرة في البحر، واستمر ذلك حتى أيام ياسون Jason الذي بنى له أرغوس Argus سفينة كبيرة، حيث أبحر هو ورفاقه الأرغونيون Argonauts إلى كولخيس Colchis ، وبنى بعد ذلك أمينودس Aminodes سفناً ذوات ثلاثة مجاذيف من أجل أن يستخدمها الكورنثيون ضد كورسيرا Corcyra، ويحكى أن أول من اخترع السفن هو أثلس Athlas في ليبيا، وهو الذي أبحر في البحر.

وأنوي — على كل حال — أن اتحدث هنا عن نوع السفن التي اعتاد الحجاج على عبور البحر بها إلى الأرض المقدسة، وهو النوع الذي اسمه غليون، وهو اسم أطلق على هذا النوع من المراكب حتى في كتب الشريعة من الكتابات المقدسة، كما أنه موجود في روايات اليهود والمسلمين، والغليون هو نوع من المراكب المتوسطة الحجم العاملة في البحر، وهو ليس النوع الأكبر، وبالوقت نفسه ليس النوع الأصغر، واسم هذا المركب باللاتينية Bireme أو Trireme، وأطلق ايزودورس في كتابه التاسع عشر حول أصول الكلمات Etymologies على هذه السفينة اسم درمون Dorma ، وعلى كل حال أطلق عامة الناس سواء من الألمان أو الطليان عليها اسم غليون، ومنحت هذه السفينة هذا الاسم لأن مقدمتها لها شكل الخوذة (gALEA)، وذلك عندما ينظر إليها من الأمام، ولأنها تواجه الأمواج مثل رجل مسلح، والغليون هو مركب مستطيل الشكل يتحرك بكل من المجاذيف

والأشرعة، والغلايين متشابهة، أو شبه متشابهة بالشكل، غير أنها تختلف من حيث الحجم، لأن بعض الغلايين كبيرة، ويطلق عليها اسم Tri-remes، وبعضها صغير اسمه Biremes كما أن هناك فوارق أكبر، ذلك أن بعض الغلايين هي سفن حرب، وبعضها الآخر سفن حمولة، وذهبت في حجي الأول عبر البحر في Bireme ، وفي حجي الثاني في Trireme، والـ Bireme هي سفينة تتحرك بواسطة زوجين وزوجين من المجاذيف، ولكن الـ Trireme هي السفينة التي تتحرك بوساطة ثلاثة وثلاثة من المجاذيف، وبالقدر نفسه المحتاج من المجذفين، ويمتلك الغليون الذي عبرت على ظهره في المرة الثانية، ستين مقعداً متصالباً، حيث جلس على كل مقعد ثلاثة من المجذفين مع مجاذيفهم، ولو أن هذا الغليون كان مجهزاً على أن يكون حربياً، يكون فيه أحد الرماة مع قوسة فوق كل مقعد، وذلك مع المجذفين.

وكان طول الغليون ثلاثة وثلاثين ذراعاً، على أساس أن الذراع يساوي مقدار امتداد ذراعي أحد الرجال، وهذا الطول هو مقياس مابين المقدمة والمؤخرة، وعرض الغليون هو سبعة أذرع، وهو المقياس عبر السفينة حيث توجد السارية، هذا وإذا ماأردنا قياس العرض كله، بإزاحة المجاذيف ووضعهم جانباً على كلا الجانبين، فوقتها يكون هذا العرض ثلاثة عشر ذراعاً، أما بالنسبة للارتفاع فإذا قسناه من البئر إلى القبة الموجودة فوق السارية، في القمة المستديرة، فإنه يساوي أكثر من ثمانية عشر ذراعاً.

هذا وإن الغلايين ذات الحجم الواحد متشابهة كثيراً من جميع الجوانب، إلى حد أن انساناً إذا ماانتقل من غليونه إلى ظهر غليون آخر، سيكون من الصعب كثيراً عليه أن يلاحظ أنه صار على ظهر غليون آخر، باستثناء تمييز القباطنة والملاحين الموجودين فوق الغليون، لأنهم مختلفون عن أولئك في غليونه، ذلك أن الغلايين العائدة للبنادقة يشبه

أحدها الآخر مثل تشابه أعشاش السنونو، وقد بنيت هذه الغلايين من أمتن الأخشاب، التي ربطت مع بعضها بعدد كبير من المسامير الملولبة، والسلاسل، والحديد، والجزء الأول والمتقدم من الغليون، الذي اسمه القيدوم، هو حاد حيث يواجه البحر، وله منقار قوي، صنع شبيها برأس التنين إلى حد ما، ذلك أن له فم مفتوح، وكله مصنوع من الحديد، وبه من الممكن ضرب أي سفينة قد يواجهها، ويوجد على جانبي المنقار فتحتين، في خلالها يمكن لانسان أن يضع رأسه، فمنها تمر حبال المراسي، ومن خلالها يمكن سحب المراسي ورفعها، ولايمكن للبحر أن يمر من خلال هاتين الفتحتين إلاّ أثناء العواصف العظيمة، ويمتد منقار القيدوم عالياً، ومنه يبدأ جوف السفينة بالامتداد والاستدارة أمام البحر، وللقيدوم شراع خاص به اسمه dalum وعليه يطلق بشكل عام اسم trinketum ، ويوجد تحته حجرة صغيرة، فيها يجري خزن الحبال والأشرعة، وفيها ينام قبطان القيدوم، الذي له ملاحين خاصين به، وهو يسكن هناك وليس في أي مكان آخر، ويقوم ملاحوه بأعمال ووظائف ذلك الجزء من السفينة، وهذا الجزء أيضاً هو مكان الفقراء التعساء الذين يلتقطهم عبيد القيدوم، ومعلق على جانبي القيدوم مرساتين حديديتين عظيمتين، تلقيان نحو قاع البحر في الوقت المناسب، والمؤخرة الموجودة في النهاية القصوى الأخرى للغليون، ليست حادة في المكان الذي تواجه به البحر، أي ليست مثل القيدوم، كما أنه ليس لها منقار، بل هي عريضة، وهي تنحني من الأعلى نحو الأسفل حتى الماء، وهي أعلى بكثير من القيدوم، ويوجد فوقها بناء يطلقون عليه اسم القلعة، ومعلق منها هناك نحو البحر الدفة، أو عمود الدفة، حيث يوجد فوقها حجرة شبكية، هي للموجه الذي يمسك بيديه ذراع الدفة، وتتألف القلعة من ثلاثة طوابق، يجلس في الأول منها الموجه للدفة، والمسؤول عن البوصلة، وهو الذي يخبر الموجه للدفة عن مؤشرات البوصلة، وهناك أيضاً الذين يتولون مراقبة النجوم والرياح، ويشيرون

إلى الطريق عبر البحر، والطابق الوسط هو الذي فيه قمرة صاحب السفينة وقبطانها، ومعه رفاقه النبلاء، وخدم المائدة، والطابق المنخفض هو المكان الذي تقيم فيه السيدات النبيلات في الليل، وفيه يضع القبطان أمواله وثروته، ولاتتلقى هذه الحجرة النور إلاّ من خلال فتحة باب جانبي موجود في السطح فوقه، ويجري على طرفي المؤخرة تعليق القاربين، اللذين أحدهما كبير، وثانيهما صغير، ويجري انزالهما في الموانيء إلى سطح البحر، لاستخدامها في انزال الناس إلى اليابسة، ويوجد على الجهة اليمنى السلالم، التي تستخدم للنزول عليها إلى القاربين عندما يكونا على سطح البحر، أو يتم الصعود عليهم إلى ظهر المركب، وللمؤخرة شراعها الخاص، وهو أكبر من شراع القيدوم، وهم يطلقون عليه اسم Mezavala أي الشراع الأوسط، واسم هذا الشراع باللاتينية epidromus ، ويرفع العلم دوما على المؤخرة، لإظهار الاتجاهات التي تهب فيها الريح، وهناك مقعدين خلف البيت على المؤخرة، وذلك على الجهة اليمنى، فهناك مكان المطبخ، وهو غير مغطى، ويوجد تحت المطبخ مخزن الأطعمة، ويوجد أيضاً إلى جانب المطبخ الاصطبل المعمول من أجل حيوانات الذبح، وعليه يوجد فيه أغنام، وماعز، وعجول، وثيران، وأبقار، وخنازير كلها واقفة مع بعضها، وبعيد ذلك، يوجد على الجانب نفسه مقاعد متصالبة عليها مجاذيف وهي ممتدة حتى القيدوم، ويوجد على الجانب الأيسر مقاعد مجذفين، وذلك طوال الطريق من المؤخرة حتى القيدوم، وهناك فوق كل مقعد ثلاثة مجذفين مع رامي للقوس، ومعلق بين مقعدين على حافة السفينة على كل طرف من الطرفين bombarda بوصلة حديدية متحركة، كما ويوجد على كلا الطرفين bombardana ، منها يجري في أوقات الضرورة رمي الحجارة.

وتقف في وسط السفينة السارية، التي هي طويلة، وسميكة، وشجرة

قـوية معمـولة من عـدد من الجذوع، مـربوطة مع بعضهـا، وهي تدعم العارضة بالـ accaton أو بالشراع الرئيسي، ويوجد على رأس السارية حجـرة يطلق عليهـا الألمان اسم «السلة»، والطليـان «القبـة»، وهي باللاتينية carceria، وعلى ظهر المركب، هناك إلى جانب السارية مكان مكشوف، يجتمع الناس فيه للتحادث، مثل ساحة سوق عائدة للغليون، ويتألف الشراع الرئيسي من ثلاث وخمسين قطعة قماش، طول كل قطعة أكثر من ذراع، ومن أجل مواجهة مختلف أنواع الأنواء يجري رفع أنواع متعددة من الأشرعة، إنها ليست بسعة الـ occaton، ويسكن فوق ظهر الغليون ضبـاط الغليون، وعبيـد الغليون، حيث يجلس كل انسـان فوق مقعده، وهناك ينامون، ويأكلون ويعملون، ويوجـد بين المقاعد على كل طرف من الطرفين فسحـة واسعة إلى حـدما، يقوم عليهـا صناديق كبيرة مليئة بالسلع والبضـائع، ويوجد فوق هذه الصناديق طـريق يصل مابين القيـدوم والمؤخـرة، يسعى عليـه الضبـاط صعـوداً ونزولاً أثناء عمل المجاذيف، وبجوار السارية توجـد الفتحة الرئيسية للباب نحو الأسفل، حيث ينزل الإنســان سبع درجـات إلى القمـرة، التـي هي المكان الذي يعيش فيـه الحجـاج، أو حيث توضع حمولات وبضائـع الغليون، وتمتـد هذه القمسرة طوليـا من غـرفـة المخزن في المؤخـرة إلى الحجـرة الصغيرة الموجـودة في القيدوم، وأمـا من حيث العـرض فهـو من الطرف الأول للسفينة إلى الطرف الثـاني، وبذلك تشكل المسـاحة مكـاناً كبيراً وغرفـة واسعـــة، وهي لاتتلقى إنارة إلاّ مـــا يأتي من خـــلال فتحـــات النزول الأربعة، ويمتلك كل حاج في هذه القمرة مخدعه الخاص أو مكان نومه، وجـرى ترتيب المخـادع بحيث غطـت كل السفينة، أو بالحري القمـرة، وكل مخدع هو ملاصق للآخـر من دون أية فسحة فيما بينهما، ويضطجع كل حـاج إلى جانب الآخر، على طـرفي السفينة، وقدما كـل واحد منهما ممتـدة نحو قـدمي الآخر، وفي المكان الـذي تكون القمرة فيـه عريضـة، وضعت صناديق الحجـاج وحقـائبهم فيما بين المخـادع، وهي ممتـدة من

غرفة المخزن حتى الحجرة الموجودة في القيدوم، وفيها يحفظ الحجاج حاجياتهم الخاصة، وتمتد أقدام النائمين من على الجانبين حتى هذه الصناديق، ويوجد تحت الحجاج فسحة واسعة، تصل حتى قعر الغليون، ويطلق على هذه الفسحة اسم معدة الغليون، لأن قعر الغليون ليس مستوياً، مثل السفن الأخرى، لكنه حاد من الدفة حتى المؤخرة، وبناء عليه ينتهي الغليون بالأسفل بقدم حادة، وهي حادة إلى حد أنه عندما يكون الغليون خارج الماء، لايمكنه الوقوف قائماً فوق الأرض، بل لابد من أن يميل على أحد جانبيه، ويجري تعبئة هذا الفراغ الحاد بالرمل، حتى دعامات ظهر السفينة، ويدفنون في الرمال الزجاجات التي يحفظون فيها الخمرة، والبيض والأشياء الأخرى التي تحتاج إلى البقاء باردة، ويوجد في الأسفل حيث يعيش الحجاج بئر من أجل الماء الآسن، وهو موجود إلى جانب وسط السارية، ولايحتوي هذا البئر على القاذورات البشرية، بل يحتوي على جميع المياه المرئية وغير المرئية التي تدخل الى الغليون وتتسرب إليه، وتتجمع بعد ذلك في ذلك البئر، وهي ذات رائحة مقيتة، وهذه الرائحة الصادرة عنها أبشع من أية روائح صادرة عن الغائط البشري، ويتوجب نضح مياه هذا البئر كل يوم، ولكن في الأنواء القاسية يجري تصريف المياه منه بدون توقف، ويوجد على طرفي الغليون أماكن أعدت للمقاصد الضرورية.

والغليون كله مغطى من الداخل ومن الخارج ومطلي بأشد أنواع الاسفلت سواداً، ويفعل مثل ذلك بالحبال لابل حتى بالألواح الخشبية، وبكل شيء آخر، من أجل الحيلولة دون الاهتراء بالماء، وتحتل الحبال التي هي من أجل عمل الأشرعة والمراسي حيّزاً كبيراً في الغليون، وذلك لكثرتهم، ولطولهم، وغلظتهم، ولكثرة أنواعهم، ومن المثير للدهشة النظر إلى حشد الحبال وربطاتهم، ولفهم من حول المركب، ويشبه الغليون الدير، لأن مكان الصلاة موجود على الظهر إلى جانب

الســارية، وذلك حيث يوجـد مكان الســوق، ويشغل المكان الوسط من المؤخـرة مكان المائدة العـامة، ومقـاعد عبيـد الغليون، ومخادع الحجـاج مكان مهجع النوم، ومكان القـداس مـوجـود أمـام المطبخ، والسجـون مـوجودة تحت المقـدمـة والمؤخرة، والمخـزن، والمطبخ، والاسطبل كلهـا أماكن مفتـوحة نحو السماء، وذلك فوق ظهـر المركب، وهكذا بمرورنا بأشياء كثيرة، تملكنا صورة للغليون.

وقارن القـديس جيروم في رسالتـه إلى الرجل المريض العالم بـالبحر، والدير بالسفينة، وكـذلك الأوضـاع الأخـلاقيـة والخلقيـة هناك، وقـد أوضح كيف أن البحـر يشبـه العــالم، لأنه بطبيعتـه غير مستقــر، وهو صـاخب من دون ريح، ثائــر حتى في وقت الهدوء، حـاد وفيـه أمـواج مـرعبة، وهو حتى عندمـا لايؤذي الذين لايعـومون فـوقه، فإن سعتـه، حتى عندما لايـؤذي، تقذف الرعب في القلب، ويعاني الـذين يبحرون فوقه دومـا من الرعـب، ومن تضارب الأمواج وهياجهـا، ومع ذلك قد ينشر الموجـه للسفينة بعد هيـاجهـا جميع الأشرعة من دون خـوف، وفي العالم مثلما هي الحال في البحر، الإزدهار نادر، والفوضى عامة، وكلاهما مليثين بالمنغصـات وبالرعب، والانزعاج أيضـاً، ليس معدومـاً، والملجأ الأمين الوحيد هو الموت.

النظام الذي يدار الغليون به

جـرى إعـداد نظام السفينة بدقـة متناهيـة مثل بقيـة الأنظمـة، ولهذا السبب استقى أرسطو مع الكتاب الآخـرين حول السيـاسة أمثلتهم من أنظمة الملاحة، واستقوا شواهد منها، كما هو في بداية الكتاب الأول من كتـاب «الأخـلاق»، لأنه في السفينة أكثـر من أي مكان آخـر يوجـد في مكان الجماعـة العـام الموضع الذي يضم جميع الشعـوب الأخـرى، لأنه بدونه من غير الممكن وجـود أي مملكة، أو مدينة، أو قـرية، وهو الأول بين الجميع، هـذا ويضم البيت الكـامل ثـلاث جماعـــات هـي: الزوج

والزوجــة، أو السيــد والخادم، أو الأب والابن، ولايحتــوي البيت في السفينة على الجماعـة الأولى من هؤلاء، والجماعـة الثـانيـة موجـودة فيـه بالتمام والكمال، وهو يحتـوي على بعض الشبه مـع الثالث، حيث يوجـد فيـه السيـد والقبطان، مع كثير مـن الخدم، والسيـد هو مثل الأب، وهو الحامي للحجـاج، الذين هم بمثـابة أولاده، وحـدد أرسطو في الكتـاب الأول من كتـاب «السياسـة» الأشكال الثلاثة من أحكام هذه البيـوت، ففي البيت الأول الحكم للـزوج على زوجتـه، وهذا ثانيـة مـــوجـود في السفينة، الذي معناه أنه بالوسائل العامة يمكن لجماعة البيت الاستمرار، لكن ما من أحـد يحاول الإبقاء على جماعـة السفينة، بل يسعى إلى فضها في لحظة الوصول إلى المرفأ المرغوب، والثاني هو نظام أحكام الأبوة، أي حيث يحكم الأب أولاده، وهذه الصلة قائمة فيما بين القبطان والحجاج، بقـدر مـــاتقتضي الطاعـة، حيـث يرى الحجـاج أن من واجبهم إطـاعـة القبطان، والثـــالث هو نظام التسلط الطغيـاني، حيـث القبطان الذي هو المحرك الأول والمعلم، يتولى تعيين الوظائف والأوامر بالنسبة للآخرين، ويحدد لهم درجـات السلطـة لأحـدهم فـــوق الآخـر، ويبقى هو ثـابتـاً لايتحـرك مثل الملك أو الحاكم، الذي تنفـذ السفينة أوامره مهما كـانت، وهو لايتـدخل بفن الملاحة، كما أنه لايفهم هذا الفن، بل الذي يقـوم به هو مجرد إعطاء الأوامـــر إلى السفينة لتبحـــر إلى هنا أو إلى هناك، ويقف جميع الذيـن في السفينة مـرعـــوبين منه، ويحال كل خصـــام شـــديد بين الحجـاج أو بين طاقـم الملاحين إليـه، ومـامن أحـــد يجري تعيينه قبطانا لغليون، خـاصة الغليـون الذي يحمل فرسانـاً حجـاجاً، مـالم يكن نبيلاً، وقـوياً، وغنيـاً، وحكيماً، وشريفاً، وعندمـا يجري تعيينه، يصطحب معـه بعض الأصدقاء، الحكماء، والمجربين، حيث معهم يتشاور، وإليهم يبوح بأسرار أفكاره، فضـلاً عن ذلـك، كـان يتـولى اختيـار واستئجـار أحـد الرجـــال الشجعـــان ممن لديه امكانات قتـــاليـــة، وله خبرة في الحروب البحـرية، فيعينه قائـداً حـربيـاً، أو كما يقولون «معلما للســلاح»، ويزود

الغليـون بالمدافع، والمجـانيق، والقسي، والرمـاح، والعصي، والسيـوف، والدروع، والترسة، ولدى القبطان أيضاً حـاجب، يتولى توفير كل شيء له علاقة بالأطعمـة، وهم يطلقون عليه اسم Schalk، وهو يتولى إدارة مخزن الأطعمة والمطبخ، ويراقب أمور الخبـز والخمرة، والحيوانات المعدة للذبح، ويصدر كل يوم الأوامر إلى الطهاة، وإلى صاحب مخزن الأطعمة بأن يقومـا بكذا وكذا من الترتيبـات المتعلقة بالطعـام والشراب، وإذا ما حـدث نقص بالطعام أو الشراب، فتلك لـن تكون سوى غلطتـه، وهو وحـده يتحمل المسؤوليـة عن ذلك، ولهذا السبب نجـد أن الـ Schalk مكروهين بالعادة على ظهر السفينة، فضلاً عن هذا للقبطان موظف آخر قوي، يسمـونه الخليفة، فهو الذي يتـولى حكم الغليون، والنظر في جميع أجـزائه، فيرى هل هناك أي شيء غلط، أو أي جـزء منه محطم، أو أي شيء يعيق إبحاره، فهـو الذي يتولى ترتيب البضائع، ويتـولى اصلاح أو ترميم مافسد، ويرعى شـؤون الغليون من بئره إلى رأس ساريته، وذلك من قيـدومه حتى مـؤخرته، وهناك مـوظف قوي آخـر للسفينة يسمى القرصان Pirate، ونفترض نحن الألمان أن اسمه يعنـي المرشد Pilot، فهو يعـرف أكثر الدروب سـلامة وأقصرها عبر البحـر، وتأخذ السفينة طريقهـا وتتوجه وفقاً لأوامره أو نصـائحه، وإذا مـاوصل إلى مكان في البحر غير عـارف به، يأمرهم بالرسـو في أقرب ميناء، وهناك يتخلى عن عمله، في حين يقوم القبطان باستئجار مرشد آخر، يعرف ممرات البحر، وذلك خشيـة أن تتـواجـه السفينة من خـلال الجهل مع charYbdi أو syrtis أو Bythalassium.

ويكون مع المرشـد نفســه، بعض الرجــال البــارعين، والفلكيين، والمنجمين، الذين يتولون مراقبة علامات النجوم والسماء، ويقررون أي نوع من الرياح سوف تهب، ويقدمون المشورة إلى المرشد نفسه، وهؤلاء الرجـال كلهـم مثل بعضهم على دراية واسعــة بفنهم، إلى حـد أنهم

بنظرتهم إلى السماء يمكنهم أن يخبروا سلفاً هل ستكون هناك عاصفة أم هدوء، ذلك أنهم يستطيعون قراءة الشارات في لون البحر، وفي تجمع الدلافين مع بعضها مع حركتها وكذلك الأسماك الطائرة، وفي دخان النار، وفي رائحة الماء الآسن، وفي بريق الحبال والكابلات في الليل، وفي لمعان المجاذيف لدى غطسها في البحر، ويعرفون في الليل جميع الساعات بالنظر إلى النجوم، ولديهم إلى جانب السارية بوصلة، وبوصلة أخرى في الحجرة العليا للقلعة، وإلى جانبها مصباح مشتعل بشكل دائم طوال الليل، وهم لايزيحون أعينهم عن المصباح لدى إبحارهم أثناء الليل، بل يتوجب على أحدهم التحديق بالبوصلة بشكل دائم، والغناء بنوع من الأغنيات الحلوة، تظهر أن كل شيء يسير على مايرام، ويغني باللحن نفسه إلى الذي يمسك بعصا الدفة، موضحاً إلى أي اتجاه ينبغي للدفة أن تتحرك، ولايتجرأ الممسك بالعصا والموجه للسفينة على تحريك الدفة مطلقاً إلاّ بناء على أوامر الذي يراقب البوصلة، فهو الذي يرى فيما إذا كانت السفينة تسير بشكل مستقيم، أو متخبط، أو جانبي، وانظر حول هذا الموضوع فيما يلي، ولديهم أيضاً أدوات أخرى، يمكنهم بوساطتها معرفة مسارات النجوم، وهبات الرياح والممرات في البحر، من ذلك على سبيل المثال لديهم خريطة، طولها ذراع، وعرضها أيضاً ذراع، عليها جرى رسم البحر كله بآلاف وآلاف الخطوط، ورسمت البلدان وعلمت بنقاط، أما الأميال فبالأرقام، ومن خلال هذه الخارطة يمكنهم معرفة أين هم، حتى عندما لايمكنهم رؤية أية أرض يابسة، والنجوم أنفسها مغطاة بالسحب، ويمكنهم اكتشاف ذلك بمدّ خط منحني من خط إلى آخر، ومن نقطة إلى أخرى ببذل جهد رائع، ولديهم أيضاً أدوات أخرى كثيرة بوساطتها يجدون طريقهم فوق البحر، وهم يجلسون كل يوم يتباحثون حول ذلك.

ويأتي بعد هذا الموظف الرئيسي للغليون، والذي يتولى القيام بالعمل

الفعلي، والذي يتلقى أولاً أوامر الابحـار ويتسلمها، موظف آخـر اسمه cometa وهو وكيل ربّان الغليـون، ومكـانه هو تحت القلعـة فيها بين مقاعد المجذفين والطابق الأعلى، وإليـه يبوح القبطان برغباته، وبناء على ذلك يقـوم هو بتحـريك طاقم الملاحين، وهو قـد علـق حـول رقبتـه صفـارة فضيـة، بوسـاطتها يعطـي الاشارة للبحـارة ليقـومـوا بالأعمال المتـوجب تنفيـذها، ويتم سماع هذه الصـافـرة في كـل وقت من النهـار والليل، ويستجيب لها على الفور جميع الرجـال باصدار صفير جواباً له، ويأمـرهم هذا الموظف بالرسـو في أحـد الموانيء أو بالخروج منه، أو بانـزال المراسي أو سحبهـا، أو بنشر الأشرعـة أو طويها، أو بـالعمل بوساطة المجاذيف أو بالتوقف عن العمل، أو بتحريك السفينة للوقوف عند الشـاطيء في الصباح، أو بانطـلاقها، ويخاف الموظفـون الذين دونه منه مثلما يخافـون من الشيطان، لأنه يضرب بالعصي، ويعـاقب كل من أراد بقبضتيـه أو بأطراف الحبـال، ولايتجـرأ أحد بالتمتمـة ضـده، لأن الجميع سـوف ينهضـون ويهاجمون المتمتم عندمـا تعطى الاشـارة اليهم، ولقد رأيت ممارسة أعظم الأعمال الوحشية من قبل هؤلاء والوكلاء على عبيد الغليون المساكين.

ويوجـد تحتـه مـوظف آخـر اسمـه البـارون، أو عـريف الملاحين في الغليـون، وهو الـذي يحُرك ويتحـرك بوسـاطة أوامـر الوكيل، ويعيش بشكل دائم في وسط الغليـون قرب السـارية، وهو أيضـاً يحمل صافـرة علقهـا حول رقبتـه لاصدار الأوامـر بها، وحيث لايوجـد وكيل للربان يركض عـريف الملاحين وهو يصفـر، ويصرخ، ويشجع الـرجـال على العمل، ومسـؤوليته الخاصـة هي عن الحبال، والأشرعـة، والمراسي، بأن يكونوا دومـاً مـوائمين، وجـاهزين للاستخـدام، وله امتيازات خـاصـة وحقوق على ظهر السفينة، ويوجد تحتـه موظف آخر يعرف باسم «تحت البارون sub parono »، وهو يتلقى أوامره، ويعطيها إلى الآخرين.

ويأتي بعــد هذيـن بعض الرجــال الذيـن اسمهم compani، أي الرفـاق، وعـددهم حـوالي التسعـة، وبعض هؤلاء يرأسـون آخـرين في العمل، وهؤلاء الرجـال هم الذين يعـرفـون كيف يعتنون بالحبـال مثل السنانير، وهـم الذيـن يتسلقـون على القلع بسرعـة كبيرة وصـولاً حتى الرأس، ويركضون على طول عارضة الشراع، ويقفون منتصبين حتى في أشد العواصف، وهم الذين يرفعـون المراسي، ويغطسون عميقاً في الماء، إذا مـاالتصقت المراسي ولم تتحـرك، وهـم الذيـن يتـولون القيـام بأخطر الأعمال على ظهر السفينة، وهم بشكل عـام شباب على درجة عـالية من النشاط، وهم لايعرفون السكون في حياتهم، وهـم أيضاً شجعان وأقوياء في الغليـون مثـل أتبـاع البـارون المسلحين، ومجدداً يوجـد تحت هؤلاء آخرين يسمـون الملاحين، وهم يغنون أثناء القيام بالعمل، ويكون الغناء بقيـام واحـد بالغنـاء بالأوامـر الصـادرة، ويردد العمال خلفـه مغنين متجـاوبين معه، ويقف هؤلاء الناس إلى جـانب الذين يعملون، ويغنون لهم، ويشجعـونهم، ويهددونهم بتـوجيـه الضربات لهم، وبهذه الواسطة يجري سحب أوزان كبيرة، وهؤلاء بـالعــادة رجــال متقــدمين بالسن ومحترمين، ودون الجميع في الغليـون العبيـد من الطبقـة الأولى والطبقـة الثانية، وهم الذين نسميهم باللاتينية remiges ، أو المجذفين، وهم الذين يجلسـون على المقاعد المتصـالبة للعمل بـالمجاذيف، ويوجـد عدد كبير منهم، وهـم جميعا رجال لهم أحجام كبيرة، ذلك أن عملهم مناسب فقط للحمير، وهـم يحرضـون على تنفيـذ أعمالهم، بالصراخ، والضربات، والشتائم، مثل حال بعض الخيول وهي تتولى جرّ عربات مثقلة بالأحمال صعـوداً فــوق طريق منحــدر، وكلما جـروا أكثـر وأثقـل، كلما جـرى تحريضهم أكثر ودفعهم، ولدى قيام هؤلاء التعساء بالجر أكثر يتعرضون للضرب ليجروا بشـدة أعظـم، ولقد أعيتني الكتـابة، وإنني لأرتجف وأنا أفكر بعــذاب وعقـوبات هـؤلاء الناس، ذلك أنني لم أرقط حيــوانات تحميل ضربـت بمثل هـذه الوحشيــــة التـي ضرب هؤلاء بها، وكثيراً

مـاأرغموا على ترك قمصـانهم ومـآذرهم معلقة من أوسـاطهم، والعمل بظهـور عـارية وأذرعـة وأكتـاف، وذلـك من أجل أن تصل الأسـواط والمقارع إليهم.

والشطر الأعظم من عبيد الغليون هؤلاء، قـد شريوا بمثابة رقيق من قبل القبطان، أو أنهم أناس مـن سـوية متـدنيـة، أو سجناء، أو رجـال فـارين، أو مطرودين مـن ديارهم، أو منفيين، أو تعسـاء، لايمكنهم العيش أو كسب مـورد للعيش على اليـابسـة، وكلما توفـرت خشية من فـرارهم كـانوا يربطون إلى مقـاعـدهم بالأغـلال، وبشكل عـام هم من مقدونية، أو رجال من ألبانيـا، أو آخيا، أو إليريا أو سكلافونيا، ويكون في بعض الأحيـان بينهم أتراك ومسلمين، يخفـون — على كل حـال — دينهم.

وأنا لم أرقط عبـد غليـون ألماني، لأن مـامـن ألماني يمكنه أن يعيش ويبقى حياً وسط هذه التعاسة، فعبيـد الغليون قد اعتادوا على تعاستهم، إلى حـد أنهم يعملون بضعف شـديـد وبدون قصـد، مـالم يقف انسـان فـوقهم، ويقـوم بضربهم مثل الحمير، ويلعنهم، وهم يطعمـون بتعاسـة متناهية، وتراهم دوماً نائمين على مقاعد تجذيفهم، وهـم دوما في كل من الليل والنهار جـاهزين في العراء للعمـل، وعندما تكون هناك عـاصفة، يقفـون في وسط الأمواج، وهم بشكل عـام لصوص، ولايوفـرون شيئاً يجدونه، مع أنهم يتعـرضـون مقابل كـل جريمـة إلى التعـذيب الوحشي الذي لاحدود له، وعندما يكونون بدون عمل يجلسون ويلعبون بالورق والنرد من أجل الذهب والفضـة، مع أيمان لاتحتمل وتجديفـات، وأنا لم أسمع قط مثـل هذه الأيمان المرعبـة التي سمعتهـا على ظهـر المركبين المتقدمي الذكر، لأنهم لايفعلون شيئاً سواء أكان بادرة خير أو أمانة، من دون تجديف قـذر جداً، وشتم للرب وللقـديسين، ويكون بينهم أحيـاناً بعض التجـار المحترمين، الذي أخضعـوا أنفسهم لمثل هذه العبـودية

القاسية جداً، من أجل إمكانية الترويج لتجاراتهم في الموانىء، وبعضهم ذوي اختصاصات فنية، مثل الخياطة أو صناعة الأحذية، حيث يمكنهم في أوقات الهدوء صناعة أحذية ومآزر، وقمصان على ظهر السفينة، وبعضهم عمال غسيل، يتولون غسل القمصان على ظهر المركب، مقابل أجر.

وفي الحقيقة، بالنسبة لهذا المجال، جميع عبيد الغليون كلهم سواء، فهم جميعاً تجاراً، وكل واحد منهم لديه شيء ماللبيع موجود تحت مقعده، وهو يعرضه للبيع عندما يكون في أحد الموانىء، والتجارة قائمة يومياً فيما بينهم، فضلاً عن هذا، هم بشكل عام، يعرفون على الأقل ثلاث لغات هي: السكلافونية، والاغريقية، والايطالية، ويعرف الشطر الأعظم منهم التركية أيضاً، ويوجد حتى بين عبيد الغليون أنظمة ودرجات، ذلك أن بعضهم لديهم سلطة كلفوا بها فوق آخرين، والذين هم محل أعظم ثقة بينهم يوضعون حراساً حول ممرات ومجازات الغليون، ويطلق عليهم اسم «الحراس»، ويتولى بعضهم العمل في قيادة القيدوم، وبعضهم على جهة اليمين، والآخرين على جهة اليسار، ويخدم بعضهم في دفة القيادة، ويعامل هؤلاء بشكل أفضل، ويوجد أيضاً في أغلب الغلايين ثلاثة أو أربعة شباب أقوياء قد تعلموا الركض فوق الحبال، وقد دربوا أنفسهم على الأعمال الأخرى التي تحتاج شجاعة، وإلى جانب عبيد الغليون هناك بعض اختصاصيي المدفعية، وبعض الذين ينفخون بالأبواق، فهؤلاء يزعقون بأبواقهم في الصباح وفي المساء، وقبل الغداء، وبعد الغداء، وفي جميع الموانىء، ويجري استخدام بعضهم في تنظيف الغليون وتزيينه، ويوجد على ظهر الغليون حلاقين على الأقل، هما بالوقت نفسه طبيبان وجرائحيان، وإلى جانب ذلك هناك معذبون أشرار، هم مثل الذين يفسحون الطريق أمام الحكام، يلقون على الشاطىء ويعذبون كل من يأمرهم القبطان بتعذيبه، وهناك

موظف آخر صاحب سلطات عظيمة في الغليون، يطلقون عليه اسم «الكاتب» أو «المحاسب»، وهو الذي لديه أسماء جميع الأشخاص الذين على ظهر الغليون، قد دونت في كتبه، ويأخذ أسماء الذين يصعدون إلى ظهر الغليون وأسماء الذين يغادرونه في كل ميناء من الموانىء، وهو الذي يتولى فض جميع الخلافات التي تثور حول أماكن النوم، ويجعل الناس يدفعون أجور عبورهم، وعليه واجبات كثيرة، وهو —كقاعدة — مكروه من كل انسان سواء، وأكثر بكثير من جميع موظفي الغليون.

حول العدالة والقضاء ورعايتها بكل دقة على ظهر الغليون

ومن أجل الحفاظ على السلام بين مثل هذا الحشد من الناس، جرى إفراد مكان خاص من أجل العدالة، ويجري تطبيق عدالة دقيقة فوق الغليون، حيث يوجد على ظهر الغليون قضاة يجلسون في كل يوم — إذا قضت الحاجة — لممارسة أعمال القضاء، حيث يستمعون إلى الطرفين المتخاصمين، ويقررون الأسباب، والإجراءات القضائية دقيقة جداً على ظهر المركب، فضلاً عن هذا إذا ما اختلف بعض الأشخاص حول أي شيء وقع في الغليون، إنهم إذا لم يقوموا بفضه بوساطة قضاء المحكمة البحرية، غير مسموح لهم بالشكوى ضد بعضهم بعضاً في أية محكمة لاتعقد في البحر، كما أنه مامن انسان مجبر على الالتزام بأي عقد أبرم مع آخر، بعد مغادرته السفينة، كما لايجوز لأي قاض يعمل على اليابسة التدخل بعقود أبرمت في البحر، وإذا ما أقرض انسان رجلاً آخر عشر دوقيات في البحر، وقال الرجل الآخر بعد الذهاب إلى اليابسة بأنه لم يستلمهم مامن قاض يمكنه أن يرغمه على إعادة الدفع، كما لايمكن الاستماع إلى أي شاهد ضده، وهكذا يقول الملاحون: سواء أكانت الحقيقة هكذا، أو بالفعل كان الأمر كذلك، كل واحد يمكن أن يقرر ذلك حسب هواه، ولهذا السبب روعيت الإجراءات القضائية بدقة، وكانت تتم عقوبة اللصوص، لكن بشكل خفيف، ولايدان أحد

بالإعدام، بل كـانت أقسى العقوبات التي تصدر على ظهـر السفينة ضد أي واحد اقترف جـريمة كبيرة، هي أن يجلد حتى يفقـد وعيه، ويضرب على قـدميـه، وبعد إنزال هـذه العقوبة به كـان يلقى به على اليـابسـة في أقـرب مكان، ويترك يذهب في سبيلـه، حيث تبحـر السفينة مخلفـة إياه، ولقد رأيتهم يتعاملون على هذه الصورة مع لوطي، ويكفى ماقلناه حول هذا الموضوع، ونتابع الآن الحديث عن:

الخدمات الدينية وعن كيفية اقامة القداسات على ظهر الغليون

علينا عـدم حذف معـرفة كيف يتصرف الذين يذهبـون بالبحر نحـو الرب، في تأديتهم للقداسـات، لأن عليهم في الحقيقة أن لايكونوا ناسين للرب، في وسط مثل هذه المخـاطر والمخاوف، وتجري عبـاده الرب على ظهر السفينة ثلاث مـرات في اليوم، أولاً في الصباح البـاكر، عند اشراق الشمس، عندما يقـوم واحد من خـدم القبطان، يكون واقفاً عاليـاً فوق رأس القلعة، فيأمـر بالصمت بوساطة صـافرته، ويرفع بعـد ذلك لوحاً من الخشب، مـرسوم عليـه صورة العـذراء المبـاركة، وهي تحمل طفـلاً بذراعيهـا، ولدى رؤيتها يقـوم الجميع بالركوع وقـول الـ AVE MA-RIA وقـــول صلوات أخـرى حسب الاختيـــار، ومـا أن يقـــوم بنقل الصـورة وإبعادها حتى يبـدأ البواقـون بالنفخ بأبواقهم، وعندها يمضي كل انسان إلى عمله.

والمرة الثانيـة هي في حوالي الساعة الثـامنة قبل منتصف النهار، حيث تعطى شارة الصلاة ثانية، ويجري تغطيـة صندوق قائم على ظهر المركب قـرب السارية، بغطاء قماشي جيـد، ويتم هناك وضع شمعـدانيين، وبين الشمعدانيين تمثال للصليب، وكتاب للقداس، وكأن القداس على وشك القيام به، ويأتي جميع الحجاج إلى ظهر السفينة ويتحلقون حول السارية، ثم يقـدم راهب واضعـاً بطرشيل حول عنقـه، ويبـدأ بالـ Confiteor، ومنه يقـرأ القـداس التالي، ويدع القـانون دون أن يقـرأه، لأنه لايكمل،

وبذلـك يؤدي القــداس مـن دون تضحيــة، منهيـــاً إياه بما جــاء في الانجيل:«في البـدء كـانت الكلمـة»، ويطلق على هذه القـداسـات اسم «الجافـة» أو «الحارة»، وأنـا لا أتذكـر أنني قــرأت في أي مكان، فيما إذا كانت هذه الطريقـة بقراءة القداس قـد تأسست على الشريعة القـانونية، والذي أعــرفـه أن بعض العلماء غير راضيين عن ذلك، ويقــولون بأن قراءة ذلك الجزء من القداس، الذي يجري الغناء به بشكل مكشوف من قبل فـريق الأداء هو عمل غير معترض عليه، لكن أن تقـرأ ذلك الجزء وأنت لابس البطرشيل مع كل توابعـه، وبمهابة كهنوتيـة، فهذا خـداع، وهـم ينشـدون مثل هذه القـداسات، مثـل قداسـات أيام الأعيـاد، لكن تقدمة القربان لم تكمل قط على ظهر السفينة.

وقبل أن أقـوم بتفحص هـذه القضيـة بشكل دقيق، غـالبــاً مـاكنت أصاب بالدهشة تجاه ذلك، وعـزوتها إلى إهمال أساقفتنا، الذين كما يبدو لي، أبدوا قليلاً مـن الاهتمام تجاه خلاص أبناء الكنيسة، وكـان ذلك أقل ماينبغي ومماهو صحيح، خاصة عندما نقـرأ أنهم أقاموا قداسات في أيام القديس غريغـوري على ظهر السفن، حسبما يمكن رؤية ذلك في حواره الثــالث، حيث نقــرأ أن بعض الناس الـذين كــانوا في خطر بالبحــر الأدرياتيكي شـاركـوا جـزئياً بجسـد الرب ودمـه، وانظر أيضـاً حكاية القـديس لويس، ملك فـرنسـا، ويبدو في الحقيقـة الأمـر بالنسبـة لي أنه يحتـوي على شطر كبير من الاهمال من جـانب الكنيسـة، حيث لم تتخـذ إجـراءات منذ زمن طويل مضى بالعهـدة بإدارة القـداسـات إلى رجـال يكونون في وسط مثل هذه المخـاوف، وبشكل خاص للحجـاج، الذين يتحملون هذه المخـاوف من أجل محبة الرب وتشريفـه، وبعدمـا قدرت هذه المسألـة بكل عناية، وفكرت بشكـل منطقي حــولها، وجــدت أن كنيستنا الأم المقـدسة والحكيمـة لم ترغب بكمال قداس القـربان الأعظم قداسة، وبعدم مراعاته تمامـاً على ظهر السفينة، وكان هذا لعدة أسباب،

أولها: أن هذا القداس ليس قداساً ضرورياً، بل فيه كفاية الخلاص لانسان امتلك النية بالمشاركة بذلك في وقت مناسب ومكان موائم، هذا ولايوجد على ظهر السفينة مكان مناسب، كما سنرى ذلك فيما بعد، لابل حتى وإن توفر وقت (٤٩ب) الوقت أيضاً في كل حين غير موائم، وثانياً: لأنه لايوجد على ظهر السفينة كاهن مناسب تكون وظيفته الخاصة وواجبه الاحتفال بقداس العشاء الرباني المقدس، وذلك حسب توجيهات القانون، لأن مامن أحد يعرف إلى أي الأبرشيات تنتمي السفينة، لذلك جرى حذف ذلك، وثالثا: من غير الممكن الحفاظ بشكل جيد على خبز القربان هناك، لأنه الأرغفة المخبوزة بشكل جيد لاتعيش طويلاً على ظهر السفينة، بل تصبح بعد مضي عدة أيام مليئة بالماء ومتفتتة مثل التراب، وبناء عليه كم أقل وقتئذ سيبقى هناك الخبز من النوع الأرقى والذي غير مخبوز بشكل جيد؟ ولايمكن لخبز القربان أن يبقى في الأنواء الرطبة أكثر من ثلاث ساعات، يذوب بعدها ويصبح عجينا مائعاً، ويحدث الشيء نفسه للرقائق التي هي غير مناسبة للاستخدام في الأنواء الرطبة، ورابعاً، من المفترض الاحتفاظ بخبز القربان في الكنيسة وفي مكان مقدس، ومعلوم أن السفينة ليست كنيسة، وليست مكانا مكرساً، كما أنها ليست مكانا للاقامة الدائمة، وخامساً، ينبغي أن نبقي إلى جانب قداس القربان مصباحاً مشتعلاً بشكل دائم، وهذا أمر غير ممكن على ظهر الغليون، لأنه بقوة الرياح، واندفاع الأمواج، غالباً مايكون الغليون مغطى بالماء، ولايمكن الحفاظ على ضوء مشتعل سواء في مشعل أو مصباح، وسادساً ينبغي عدم إقامة القداس على ظهر الغلايين مع عدم الاحتفاظ بخبز القربان هناك، بسبب عدم التأكد من المخاطر التي من الممكن أن تحل بهم، لأنه فجأة وبغمضة عين يمكن للعاصفة أن تثور، حيث تسبب تأرجح السفينة بعنف لدى قدومها، حتى أن الكاهن إذا ماكان واقفاً قرب المذبح، لايمكنه المحافظة بالوقوف على قدميه، ولا الكأس أو الصليب، كما أن

المنضـده لايمكن أن تظل في مكانها، بل في لحظة ينقلب كل شيء عاليه سافله، وسـابعاً إنه بسبب عنف الرياح، نجـد أنها عندما تهب، لايمكن للضوء أن يبقى مشتعلاً، ولالغطاء المذبح والأغطيـة الأخرى البقاء، بل سيتم رميهـا من على المذبح، وثامنا بسبب عـدم التيقن من حـركـة الماء التي تجري الآن إلى هنا ثم بعد ذلك إلى هنـاك، حتى عندما يكون هناك قليل من الريح، وعندما لايكون أحداً متوقعاً حركة المياه أو خائفاً منها، نجـدها تغطي فجأة الغليـون بكميات كبيرة، فتفسـد كل شيء تلمسـه، وتاسعـاً، بسبب الحاجـة إلى وقـار حقيقي، ذلك أنه لايوجـد على ظهـر السفينة مكان لايعرف الإثارة والاندفاع في بعض الأوقات، فالبحارة في أثنـاء سعيهم وراء أعمالهم المطلـوبة، مـن غير الممكن ابـداء الاحترام إلى الراهب وهو يقـوم بأداء القداس، أو إلى القداس نفسـه، بل إنه سيقلب كل شيء، ويزيح الكاهن والمذبح، والقـربان كلهم سواء، لأن العمل في البحر ينبغي القيام به فجأة، وبسرعة مثل البرق، وهو ضاغط ولايمكن تأجيله، فضـلاً عـن هذا، الناس نيـام في كل جـزء مـن الغليـون، وهم تجدهم يأكلون ويشربون، ويتسـامرون ويكـذبون ويحلفون ايمانا كـاذبة، وكل هذا مـدمـر للوقار الجديـر بالقداس، وعـاشراً، لاينبغي الاحتفـال بالقـداس على ظهـر السفينة، بسبـب وجـود أناس غير أهل بالاحترام، لأنه غـالبـاً مـايكون هناك على ظهـر السفينة: يهود، وأتراك، ومسلمين، ومنشقين، وهراطقة، وخارجين على القانون والقضاء، ومحرومين كنسياً، وإذا لم يجتمع هـؤلاء الناس غير الجديـرين بـالاحترام مع بعضهـم، ولم يكونوا مـــوجـــوديـن جميعـاً لابد مـن وجـــود بعضهم هنـاك، حيث بحضـورهم لايجوز الاحتفـال بالقـداس، وأحـد عشر بسبب الذنوب الكبيرة الهائلة التي تقترف على ظهـر السفينة، لأن الرجال يلعبـون هناك يوميا بالورق والنرد، ويشتمون الرب بشكل مـرعب وكذلك القديسين، ويحنثـــون بأيمانهم، ويكذبون، وينشلـون، ويسرقــون، ويأكلـون بنهم، ويحشون أنفسهم، ويسكرون، هذا ولقد سمعت مراراً — وأصلي للرب

أن لايكون ذلك صحيحا — أن رقيق الغليون الشرقيين، يقترفون الاثم العظيم الذي لايمكن الحديث عنه، وهو اللواطة، على ظهـور الغلايين، وبناء عليه ان المكان الذي تقترف فيه مثل هذه الآثام وتمارس غير جدير بأن يؤدى عليه مثل هذه التقـدمات والقداسـات، وثاني عشر، إن رائحة النتن وقذارة كل من الغليون والرجال الذين على ظهره تجعل المكان غير مناسب، وثالث عشر، ينبغي عـدم الاحتفـال بالقـداس بسبب سخـرية الكفار، وعـار حضورهم، لأنهم إذا ماسمعوا بأن ربنا كـان حاضراً على ظهـر السفينة في القربان، حسبما نعتقـد في ديانتنا، ومع هذا رأونا ونحن نعيش مـذنبين، أو متخـاصمين، فهـذا لاشك سيجلب عـاراً فظيعـاً، ولسـوف يسخـرون من القـربان الأعظـم قـداسـة، ورابع عشر، بسبب الحمقى من المسيحيين والسيئين منهم، لأنه إذا ماكـان القداس قائماً على ظهـر الغليـون، وهبت عـاصفـة في البحـر، وأصبحت السفينة في حـالة خطر، ولم يأت الفرج أو العون على الفـور، سيتحول هؤلاء الحمقى من المسيحيين فوراً إلى أعمال النقـد ضد القـربان المقدس، ولسـوف يقولون بقلوبهم، إن لم يكـن بشفـــاههم:«إذا كنت أنت المسيـح أنقـــذ نفسك وأنقـذنا»، ولقـد رأيت حـالة من هذا النوع بعيني، ففي إحـدى المرات عندما استمرت العاصفة طويلاً وكانت تزداد عنفاً، قمت أنا وأشخاص من الطوائف المقــدسـة، وكهنة بالتــوجـه بأنفسنا نحــو الرب، وغنينا ابتهـالات، والتمسنا العــون من قـديسي الرب، لأن العـاصفــة كـانت خطيرة، وبينما هي في ذروتها، قال بعض النبلاء الذين تلقوا الفروسية في القـدس، لكنهـم كـانوا بلا إيمان، بوجــوب توقفنا عن الـدعـاء، لأنهم اعتقدوا أن العاصفة كانت تزداد شدة وحدة بسبب أدعيتنا، وقالوا لدى إيقـافهم لغنائنا للمزامير والابتهـالات:«لو أن أدعيتكم لاقت أي قبـول من الرب، لتم انقـاذنا منذ زمن طويل من هذا الخطر»، وبناء عليـه، إنه بدون شك لو أن القـداس جرى الاحتفال بـه على ظهر السفينة، لحدث الشيء نفســه، لأن الجهلة وغير المؤمنين من الناس العلمانيين، يخيل إليهم

أنه عندما يكون القربان موجوداً بينهم، مامن شر يمكن أن يلحق بهم، وإذا مالحق بهم أي شيء من هذا القبيل سوف يعزونه لحضوره.

فهكذا فعل بنو اسرائيل، عندما أخذوا تابوه الرب وحملوه إلى المعركة معهم، معتقدين أنهم بذلك لن يلحقهم أي شر أو أذى على أيدي أعدائهم، لكن على الرغم من ذلك، تعرضوا للهزيمة، وسلب تابوه الرب وذلك حسبما ورد الخبر في الاصحاح الرابع من سفر الملوك الأول، لأن التعامل بدون احترام أو وقار وحمل الأشياء المقدسة يثير غضب الرب، أكثر من التعامل معهم بتواضع وأدب، ومثل هذا نجد بعض الفلاحين يجعلون مساعدي الخوارنة لديهم يحملون القربان إلى حقولهم وخلالها، من أجل أن لايجري تدمير محاصيلهم بهطولات البرد، وإذا ماجاءت المحاصيل جيدة تراهم غير شاكرين، لكن إذا جاءت سيئة تراهم ناكرين، ويتمتمون ضد الرب.

والسبب الخامس عشر الذي يدعو إلى عدم القيام بالقداس على ظهر السفينة، هو بسبب سهولة تقيؤ الناس هناك وحدوث ذلك بشكل مفاجيء، لأنه لو ثارت عاصفة مباشرة بعد انتهاء الكاهن من الاحتفال بالقداس، سيكون مرغماً بفعل قوة الطبيعة على التقيؤ بالقربان، حيث لايمكنه الاحتفاظ به، وهذا أمر من المرعب الحديث عنه، وبناء عليه، ينبغي التوقف عن أداء هذا القداس في البحر، لأنه يتعارض مع التقوى.

والمرة الثالثة التي يحمد الناس فيها الرب على ظهر الغليون، هي عند غياب الشمس، فوقتها يجتمعون كلهم حول السارية الرئيسية، حيث مكان الاجتماع على ظهر الغليون، فهناك يجثون على ركبهم ويغنون Salve, Regina، ويقدمون لذلك بابتهالات، عندما يكونون في أوضاع صعبة جداً، وبعد الـ Salve يطلق حاجب القبطان دعوة بصافرته، ويقف على الفور على القيدوم، ويتمنى لكل واحد ليلة سعيدة

باسم سيده، ويقوم ثانية كما في الصباح بعرض صورة العذراء المباركة، التي لدى رؤيتها يغني الجميع Ave maria ويرددون ذلك ثلاث مرات، كما جرت العادة بفعل ذلك على الشاطىء بناء على صوت الناقوس، وبعد الفراغ من هذا ينزل الحجاج إلى القمرة إلى أماكن نومهم.

وبعد نزول الحجاج إلى الأسفل، يقف محاسب الغليون على القلعة، ويبدأ ترنيمة طويلة باللغة الايطالية الجارية، ثم يصلها بابتهال، يرددها معه جميع رفيق الغليون وموظفيه، وهم جاثين على ركبهم، وهم يستخدمون كلمات كثيرة، وتأخذ صلاتهم هذه حوالي الربع ساعة، وغالباً ماكنت حاضراً أثناء هذه الصلاة، وكان في النهاية يرجو كل واحد ليقول pater, Noster وكذلك Ave maria من أجل روحي والدي القديس يوليان، وهم يفعلون ذلك كل ليلة، ولم يتخلوا عنه قط، فضلاً عن هذا تقصيت لماذا توجب القيام بالصلاة من أجل روحي والدي القديس يوليان، لأن هذه الصلاة تقدم كل مساء على ظهر السفينة، وتلقيت لهذا السؤال جواباً مزدوجاً، فأخبرني بعضهم بأن هذه الصلاة كانت تقدم مديحاً لسمعان المجذوم وشكراً له، فهو قد كان اسمه أولاً يوليان، وهو قد تلقى بأريحية ربنا، ولقد قيل إنه من أجل وساطته حتى يصل الملاحون إلى ميناء جيد، وأن يستقبلوا بأريحية، يفعلون ذلك، وأجبت على هذا بأن الصلاة لم تصنع لشكر هذا القديس، بل من أجل روحي والدي القديس يوليان وتساءلت: ولو أنهم توجهوا بالصلاة من أجل الاستقبال بأريحية، لماذا بالحري لم يتوجهوا بالصلاة إلى مرثا المباركة التي استقبلت ربنا بأريحية خاصة؟ ولم يمكنهم الاجابة على هذا، وقال آخرون بأنهم عملوا هذه الصلاة من أجل والدي القديس يوليان، الذي عنه نقرأ في «Speculum Nat-crae of vincentius» الجزء الثاني — الكتاب العاشر، الفصل

١٥— الذي عندما كـان شاباً، وفي حـالة الجهـالـة قتل أباه وأمـه في فراشهما، حيث تصـور بأن أمه كانت زوجتـه، وأن أباه كان يمارس الزنا معهـا، فهذا مـانقرأه هناك، لكن كيف تأسست هذه العـادة مامن أحـد يعرف، وعلى هذا كـان ماتقدم هو المتعلق باستخـدام القداس الديني في البحر، إنما بالإضافة إلى ذلك، هناك كثيراً من الأدعية يتلوها الحجاج في الليل والنهار.

ومـاأن يصلوا إلى أي ميناء حتى تراهم يركضـون جميعـاً إلى الكنيسـة بتقوى متناهية لسماع القداس، أما مايتعلق بالاحتفال بأيام الآحاد، وأيام القديسين في البحر، فإنهم يراعون ذلك بشكل مخجل جداً، وأنا لاأشك بأن الشيطان يبـذل جهوداً مضنية بـالقاء المعيقات في سبيـل الحفاظ على أيام الأعيـاد المقـدسـة، ولقد لاحظت مـراراً، أنه في أيام العيـد المهيبـة، يكون هناك دوماً فوضى واضطراب على ظهر السفينة، أكثر من أي يوم معتاد، وفي بعض الأحيـان، عندما نكون قـد توقفنا في أحد الموانىء لمدة أربعـة أيام أو خمسة، مـاأن يحل مساء يوم السبت حتى نصبح جـاهزين للاقـلاع، ولإبحـارنا ليـلاً، يبات من غير الممكـن إقامـة قـداس في يوم الأحد، ولقد حدث هذا على ظهر السفينة التي أبحرت بها مراراً، وكأنه صنع عن قصد، وفي الحقيقـة، كلما كان اليوم أكثر قـداسة، يكون العمل في البحر أشـد قسوة، وهذا مايمكن رؤيته في سيـاق حكايتي، وكان من عادتي على ظهـر السفينة الوعظ بقداس في الأيام المقدسـة، لكنني سوف أتحدث باختصار عما وقع لي في هذا العمل التقوي.

ففي أثناء حجي الأول، وعندمـا كنت أقـوم بالوعظ، قام واحـد من أبناء الشيطان بمقاطعة كلمة الرب عدة مرات يضحكه، ولم يمكن ابقائه هادئاً لا بالكلام الحسن ولا بالضرب، لابل ازداد ضحكاً، ومـاكان مني إلا أن حافظت على هدوئي، ولم أقم بعـد هذا بالوعظ بكلمة الرب، مع أن كثيرين رجـوني فعل ذلك، لأن الرجل العاقل قـد قال في الإلهيـات:

٦/٣٢:«لاتتفوه بـالكلام حيث ليس هناك من يسمع»، وقـال ربنا في متى: ٧/ ٦:«لاتعطوا القـدس للكلاب، ولاتطرحـوا درركم قـدام الخنازير»، وكـان —على كل حـال— في حجي الثاني على ظهر السفينة رجال أكثر نبالة واحتراما، وكانوا رفقة جيدين، وقد اعتادوا على الطلب مني الـوعظ بكلمـة الرب لهم، الأمـر الذي قمت به في جميع الأيام المقـدسـة، ومـع هذا نلت بوعظي عـدم رضـا كثير مـن النبـلاء، الذين اعتقـدوا بأنني قـد وصمتهم واتخذتهم أثناء وعظي أمثلة لاقتراف بعض الآثام، ذلك أنه مثلما يفعل الخنوع فيعطي بعض الأصدقاء، كذلك تفعل الحقيقة فتجني الكراهية.

ودفن الموتى هو أيضـاً جزء من الخدمـات الدينية، وكـان يمارس على ظهر الغليـون وفق الطريقة التـالية: عندما كـان أي انسان يقع مـريضاً، كـان يعترف لأي كـاهن يختـاره، لأنه في مثـل هذه الحالة، تسـود حـالة الضرورة، التي فيها أي كاهن هو قادر على اعطاء الغفران، وعندما كان يقترب من الموت كان رفـاقه يتولـون خدمته والسهـر عليه، لأنه — كما سلف وقلت — لايوجـد قربان هناك، كما لايوجـد مسح بالزيت، لأن الاستعـدادات لم تتخـذ لمثل هذا أيضـاً، مـع أن هذا الطقس من الممكن مراعاته، بما أن الزيت ليس هـو المقصود، بل الاستخدام الذي صنع من أجله، والذي يتضمنه القـداس، وعلى هـذا يمـوت الرجل المريض بعـد الاعتراف فقط، وعندما يصبح ميتاً، يلـف بكفنه، ثم يضعونه في قارب، وينقلونه إلى أقـرب شـاطىء، إذا كانـوا على مقربة من اليـابسـة، وهناك يقومـون بدفنه بالمقبرة، إذا وجدت كنيسة هناك، وإذا لم يوجـد يودعونه في الأرض في أي مكان كان، وإذا مـاكانوا على مقربة من اليـابسة، لكن البلاد هي من بلاد الكفـار،لايأخذونه إلى الشاطىء، بل يلقـون بجسده في البحر، وإذا مـاكانوا بعيـدين عن اليابسـة، يأخذون الكفـن، ويجلبون رمـلاً من قعر السفينة، ويصبـون الرمل فـوق الكفن، فيمددون الجسـد

على الرمل، ويلفونه، ويربطون حقيبة مليئة بالحجارة إلى قدميه، ثم يقوم الكاهن بحضور كل الذين في السفينة ويغني libræme Domine، ثم يأخذ عبيد الغليون الجسد، ويدعونه يسقط في البحر باسم الرب، ومباشرة يغرق الجسد، وقد أثقلته الحجارة، في الأعماق، وتصعد الروح إلى السماء، وغالباً مارأيت طريقه الدفن هذه، غير أنني لم أر طريقة الدفن الأخرى، التي يقول بعضهم بأنهم رأوها، حيث فيها يجري لف الجسد بكفنه، ثم يربط إلى لوح، ومن ثم يلقى به في البحر مع اللوح، وهنا صحيح أنه عندما يكون الميت بدون رفاق، يفعلون مايريدون بجسده، ويلقونه بالبحر إما بدون حجارة أو مع حجارة، أو مع لوح، وعندما يجري تمديد الجسد، يقوم محاسب الغليون فيعمل لائحة مكتوبة بكل الممتلكات التي خلفها الميت، ويقدمها إلى القبطان، ويقوم بسداد ديون الميت، إذا لم يكن له رفاق، أما إذا كان له أصدقاء، فهم الذين يتدبرون هذا له، ويتولون دفنه في المرسى التالي الذي يصلون إليه، ومالم يكن الحجاج قد عقدوا سلفاً إتفاقاً مع القبطان، كما فعلنا نحن أنفسنا، يتسلم القبطان الفراش وجهاز النوم، والملابس العائدة للميت، ويعتقد كثيرون أن هذه أفضل طريقة للدفن، وهي مفضله على أن يهرس بوزن الأرض، وبناء على هذا يقوم الأثيوبيون في الوقت الحالي برمي أمواتهم في نهر النيل — وذلك حسبما أخبرنا ديودور — لأنهم يرون بأن النهر أفضل من كل ضريح آخر، فسواء أجرى أكل الجسد من قبل الحيوانات، أو أنه اهترأ هناك، فهو لن يلوث لاالهواء ولا الأرض، وإذا مامات واحد من أعيان البنادقة في البحر، يدفنون جسده بالرمال الموجودة في داخل السفينة، ويحضرونه إلى البندقية، فهذا قد رأيته، كما سأتحدث عنه في الصفحة ١٦٥ من القسم الثاني.

كيف يمضي الناس وقتهم على ظهر الغليون

يختلف أسلوب الحياة بين الحجاج على ظهر الغليون تبعاً لأوضاعهم

المتنوعة، فهم يشغلـون أنفسهم بمشاغل متنوعة في سبيـل تمضية الوقت أثناء ابحارهم، ومالم يعرف الانسان كيف يتخلص من الوقت على ظهر الغليـون فلسـوف يجد الساعـات طويلة جـداً، ومتعبـة كثيراً، ولهذا فإن بعضهم مـاأن يغـادر المائـدة، حتى يبدأ بالتجـوال حـول الغليـون وهو يبحث عن مكان لبيع أفضل الخمـرة، فيجلس هناك ويمضي النهـار كله وهو يشرب الخمرة، وهذا يعمل بالعادة من قبل السكسون، والفلمنك، وأناس آخرون من الطبقة الدنيا، ويلعب بعضهم من أجل المال، ويلعب بعضهم بـاللوح والنـرد، وآخــــرون بـالنرد فقـط، وبعضهم بـالورق، وآخـرون بالشطرنج، ويمكن للانسان أن يقـول بأن معظمهم ينشغل في هذا النوع من تمضية الوقت، ويغني بعضهم بعض الأغـاني، أو يمضون وقتهم مع العـود، والمزمـار، ومزمـار القـربة، وآلات وترية، والقـانون، وآلات موسيقية أخرى.

ويتولى بعضهم مناقشـة قضايا دنيـوية، ويقرأ بعضهم الكتب، ويصلي بعضهم مع الخبــز، ويجلس بعضهـم يتأملون بدون حـــركـــة، ويصرخ بعضهم بصوت مرتفع وبسرور صـادر عن القلب، ويضحك بعضهم، وبعضهم يصفــر، ويعمل بعضهم بأيديهم، وينام بعضهم صـــدوراً عن الكسل، ويمضي بعضهم الـوقت كله تقـريبـاً وهم نيـــام في مخادعهم، ويركض بعضهم فوق حبال الأشرعة، ويقفز بعضهم، ويعرض بعضهم قـوته برفع بعض الأوزان الثقيلة، أو تنفيـذ بعض البراعـات الأخـرى، ويرافق بعضهم هؤلاء جميعاً، ينظر إلى الأول قليـلاً، ثم يقف فينظر إلى الآخـر، ويجلس بعضهم فينظر إلى البحــر وإلى اليـابسـة التي يعبرونها، ويكتب عن ذلك، ويعمل كتب رحـلات، وهذا مـاكنت أفعله واشتغل به يومياً، وذلـك خارج الساعـات الدينية المتقـدمة الذكـر، لأن الرجال المنشغلين لايملون من الحياة حتى على ظهـر السفينة، ولقد كتب جيروم رسائل جميلة جداً إلى آسيلا Asella حول الأصدقاء المزيفين عندما كان

على ظهر السفينة، وذلك لدى عودته من روما إلى القدس.

وأخيراً هناك شغل آخر بين جميع ركـاب البحر، شغل مع أنه مقيت، هو عام جـداً يومياً، وضروري، وأعنى بذلك اصطيـاد وامساك القمل، والهوام، وإذا لم يمض الانسان عدة سـاعات في هذا العمل عندما يكون حـاجـاً، فإنه لن ينام نوماً هـادئـاً، ونقـرأ في «حيـاة الفـلاسفـة» عن الفيلسـوف هوميروس، بأنه كـان في أحـد الأيام يمشي على شـاطىء البحر، وإذا بسفينة تتوقف هناك، على ظهـرها جلس رجال يبحثون عن القمل ويضحكون، وعندمـا سألهم الفيلسـوف، لماذا يضحكون، أجـابه أحـدهم قائـلاً:«نحن نضحك لأن كل الذي أمسكناه، لم نحصل عليـه، والذين لم نمسكهم نحتفـظ بهم»، ووقتهـا صرف هوميروس تفكيره إلى اصطيـاد السمك، ولم يستطع فهم هذا اللغز، ولهذا أصبح متألماً جـداً في قرارة نفسه، وصار مجنونا، وقتل نفسه بالشنق.

ويتم الانشغـال بهذه الأعمال والاهتمام بها تبعاً لأحـوال الأنواء، لأن أوضاع الناس تتباين بشكل مدهش في البحر، أكثر مما يكون عليه الحال فـوق اليـابسة، وذلـك تبعاً لتأثير الأجسـام السماوية، ولفعـاليـة الهواء، وحـركـة البحـر، وغـالبـاً مـارأيت أيامـاً، كنا فيهـا جميعـاً مبتهجين، ومسرورين، ورفقة جيدين، فما من أحد نائـم، بل كل واحد فرحان من قلبـه، وبالمقابـل رأيت أياما، كـان فيهـا صمت عميق، وسكون رهيب، حيث من غير الممكن سماع صـوت انسـان، والجميع إمـا قـد غلبهم النعاس، أو جلسـوا وهم يشعرون بالحزن، وغـالبـاً مارأيت الحجـاج قد اتحدوا مع بعضهم في حـالة سـلام عظيم ووئام، وكـأنهم جميعاً أخـوان، وأبناء أم واحـدة، كما أنني بالمقـابل رأيت في بعـض الأحيـان كثيراً من المشاحنـات، وتفجر للخـلافات من أسبـاب لاقيمة لها مطلقـاً، إلى حد يغدو الغليون فيـه مثل الجحيم بشتائمهم ولعناتهم، ولقد كتبت هذا من أجل تبيان حقيقـة أن حركة الانفعالات الانسـانية، هي أكثر عنفـاً فوق

الماء منهـا في أي مكان آخر، وهكذا رأينا كيف يمضـون الساعـات على ظهر السفينة، وبالنسبة لي كان اليوم دوما ينقضي قبل أن أنهي عملي.

كيف يأكل الحجاج على ظهر الغليون

عندما تقترب سـاعة الغداء أو العشـاء من الحلول، ينهض أربعة ممن ينفخ بالأبواق، ويصـوتون بأبواقهم دعـوة إلى المائـدة، ولدى سماع هذه الدعـوة يركض جميع الذين كـانوا جـالسين إلى مـائـدة القبطان، بأقصى سرعـة نحـو القيـدوم، ويفعلون ذلك كي يحصلـوا على مكان مناسب يجلسـون فيه بشكـل مريح، ويوجـد هناك ثلاث مـوائـد نصبت بشكل نظامي فوق القيـدوم، والذي يمكنه الجلوس إليهم سوف يكـون بحالة مرضيـة، لكن الذي يأتي متأخراً يتوجب عليه الجلوس خـارج القيدوم، على مقاعد عبيد الغليون، وذلك بشكل غير مريح في الشمس، أو المطر، أو الريح، وفي الجلوس إلى المائـدة لايوجـد ترتيـب، بل الذي يأتي أولاً يجلس حيث يريد، ولايقوم الرجل الفقير بافساح الطريق إلى الغني، ولا الفـلاح إلى الغني، ولا العـامل للكاهن، ولا الرجـل العـادي للحكيم المتعلم، أو الخادم للراهب، وذلك مـالم يظهـر أحدهم تقـديرا واحترامـاً لآخر من باب الصداقة الخاصـة، وسبب الحاجة إلى النظام والتقدير فيما أتصور، هو أنهم جميعاً يدفعـون المال نفسه إلى القبطان، العظيم والصغير في ذلك سواء.

وأعتقد تماماً لو أن الشخصيـات من المراتب العليا دفع أحدهم ستين دوقية ودفع الانسـان العادي البسيط عشرين، أوقام القبطان فأخـذ مالاً من كل انسان حسب مكانته، وقتها من الممكن اظهار التقدير والاحترام من الصغير إلى الكبير، ولهذا السبب يأكل النبـلاء الذين لديهم خـدمهم معهم، دوماً على مقـربة من السارية (على ظهـر السفينة)، أوفي مخادعهم (تحت) مع استخـدام الاضاءة، حتى في منتصف النهـار، لأن الجو هناك مظلم، وقبل بداية الوجبة يقدم دومـاً لكل واحد خمرة حلوة، أما الطعام

الذي يلي ذلك، والذي يقدم إلى جميع الضيـوف، فقد أعـدّ وفق الطريقة الايطاليـة، حيث هناك سلطة خس أولاً مع الزيت، وإذا توفـرت توابل خضراء تقـدم أيضـاً، وفي وجبـة الغـداء هناك قطعـة مـن اللحم مع معجنات، أو صحن مـن الخبيص، أو طحين قمح أوشعير مطبـوخ، أو ثريد مع جبنـة رقيقـة، وفي أيام الصـوم، عندمـا لايؤكل اللحم، يجري تقـديـم نوع من السمك الصغير الـذي اسمـه Zebilini، وهو مملح، ويكون معــه زيـت وخل، أو معجنة مصنوعــة من البيـض، وكــذلك حلوى، ويجري تقـديم خبز طازج عندمـا تكون السفينة على مقـربة من أحـد الموانىء، لأنه من غير الممكن الحفاظ على الخبـز طازجاً على ظهـر الغليون، بعـد اليوم الخامس، ولـدى عدم توفـر الخبز الطازج، يقـدمون كعكاً خبـز مرتين، وهم يدعـون هذا النوع باسـم البقسماط، والذي يبلغ من القسوة حداً أنه مثل الحجـارة، لكنه يصبح على الفور ليناً، إذا جرى صب الماء و النبيذ عليه، ويعطى لكل واحـد من الخمرة بقدر مايستطيع أن يشرب، وأحيـاناً تكون الخمـرة سميكة، وأحيـاناً رقيقة لكنهـا دومـاً جيـدة المزج والخلط بالماء، ويجري تقـديـم وجبـة الغـداء بسرعـة، ويتم جلب كل شيء إلى الحجـاج بسرعـة، ولـدى الفـراغ من تناول طعــام الغـداء، ينفخ حملة الأبواق بأبواقهم، وبعـد إزالة أغطيـة الموائـد، يجري ثانيـة وضع الأطعمـة عليها بشكل مهيـب للقبطان ولأركانه، ومـائـدته اقتصـادية أكثر من مـائدة الحجـاج، لكن طعامـه يجلب إليه في صحـون فضيـة، ويجري تذوق مشروبه قبل ان يقـدم إليه، مثلما يفعل للأمـراء في بلادنا.

ولا تأتي النساء من الحجاج إلى المائـدة العامة، بل يبقين في مخادعهن، ويأكلن هنـاك وينمن، هذا وامتلك مـوالي طبـــاخهم الخاص، ومكان خـاص بهم للأكل، ويأكل عبيـد الغليـون بشكل جماعي كل ثلاثة منهم مع بعضهم، على مقاعد تجذيفهم وهم يقومون بتحضير طعامهم، وغالباً

مـارأيتهم يأكلون لحماً مـايزال لـونه أحمر بدمـه، وإذا مـارغب الحجاج بالحصول على شيء خـاص من المطبخ، يتوجب اظهـار المال للطباخين، لأن هناك ثلاثـة أو أربعـة من الطبـاخين سريعي الغضب، وليس من الممكن تهدئتهم إلا باعطاء المال لهم، ولايهتمـون مطلقاً بالوعـود بالمال، هذا وليس عجباً أن يكون الطباخين سريعي الغضب إلى هذا الحد، حين نرى أن المطبخ ضيقـاً، وهناك أوعيـة وآنيـة كثيرة، وكثيراً مـن الأشيـاء المتنوعـة التي ينبغي طهيهـا، والنـار صغيرة، وكثير من الصراخ يدوي خارج المطبخ، وعدد كبير من الناس يطلبون صنع أشياء لهم، يضاف إلى هذا إن عمل الطبـاخين يثير دومـاً شفقـة الانسـان، ويرفـض النبـلاء والفرسـان دوماً الطعام الذي يقدمـه القبطان، وتراهم يعطون الطباخين مبالغ كبيرة من المال، للحصـول على وجبات خاصة من الطعـام أعدت لهم، ويقومـون بالوقت نفسه بإعطاء طعام القبطان إلى الفقـراء من عبيد الغليـون، واللحم الذي يقـدمـه القبطان مقـرف بشكل خـاص، لأنهم يذبحـون الحيـوانات التي يرون أنها لـن تبقى حيـة، وكـذلك الأغنام المريضـة، وهم في الحقيقة يذبحـون الحيـوانات التي يرون أنها مريضـة، وسوف تموت ذاتياً، وباستثناء ساعـة الغداء مامن خمرة تقدم إلى الحجاج من مخزن القبطان، لكن عبيـد الغليـون أنفسهم كـانوا قـد اشتروا خمرة ممتـازة، يقومـون ببيعها إلى الحجـاج، وفي الأنواء العاصفـة يجري الأكل والتقيؤ في الوقت نفسه.

كيف أن نوم الحجاج على ظهر السفينة غير هادىء

يجلس الحجـاج بعـد العشاء، ويتحـدث أحـدهم مع الآخـر، ويكون ذلك على الطابق العلوي من السفينة وعلى مقربة من السـارية الرئيسية، ولايذهبـون إلى الفـراش إلاّ ومعهم مصـابيـح، وعندمـا يذهبـون نحـو الأسفل مـن أجل الاستراحـــة، سيكون هنـاك اضطراب هائـل، أثناء اعدادهم لفـرشهم، فالغبـار يثور، وتتفجـر خلافات عظيمـة بين الذين

يتمـددون بجـوار بعضهم، خصـوصـاً في البـداية، قبل أن يعتـادوا على ذلك، ذلك أن كل واحـد يلوم جاره لتجـاوزه على مخدعـه مع فراشـه، وينكر الآخـر ذلك، ويصر الأول على أنه فعل ذلك، ثم يستـدعي كل واحد رفاقه للمساعدة، ويحدث أحيـاناً أن جماعات الحجاج كلها تتقاتل مع بعضهـا بعضـاً، ولقـد رأيت أثناء هذه الخصـومـات بعض الحجـاج ينقض أحـدهم على الآخـر بسيوف مجردة، وخناجـر، وهم يصرخـون، محدثين فـوضى مـرعبـة، ووقتهـا لو تدخل محاسـب الغليـون —الذي وظيفته هي توزيع المخادع بشكل متساوي — لجرى تمزيقه إلى قطع من قبل الحجاج، ولدى انتهاء هذا الخصام، أوالافتراض أنه لن ينفجر ثانية، يأتي بعضهم إلى فـراشـه متأخـراً، ويجعلون أنفسهـم غير متـوافقين مع الآخرين بمصابيحهم المضاءة، وأحاديثهم العالية الصوت والطويلة.

ولقد رأيت بعض الحجـاج الحادي الطباع يلقـون بمبولة الغـرفة على المصـابيح المشتعلة، وعندها يتفجر للمـرة الثانيـة خصام عظيم، ويقـوم بعضهم بعد اطفاء الأنوار بتسويـة مشاكل العالم مع جيرانهم ويستمرون أحيـانا بالحديث حتى منتصف الليل، وإذا ماقـام أي واحد بتـوبيخهم، وطلب منهم السكوت سوف يصرخون أكثر، ويبـدأون خصاماً جديداً، وعلى هذا إن لم يكـن هناك بعض ذوي الفضـائل ورجـال مـن أهل الاحترام، يتولون تسـوية هذه الخصومات، لن تمر الليلة بسلام، خـاصة عندما يكون هناك فلمنكيين سكارى.

هذا وهناك معيقات كثيرة للنـوم إلى جانب ماتقـدم ذكره، فـالرهبان الذين اعتادوا على النوم لوحدهم في قلاياتهم، يجدون من الصعب النوم على ظهـر السفينة، بسبب عـدم استقـرارهم، أو بسبب شخير جيرانهم، فخـلال عدد كبير من الليـالي لم أغمض عينيي أبداً، وعـلاوة على ذلك، ان ضيق المكان من أجل فراش الانسان الواحد، وقسوة الوسائد، تجعل الانسان غير مستقر، حيث من الصعب أن يتحرك أحد الحجاج دون أن

يلمس جـــاره، فضـــلاً عن هذا،المكان مغلـق، وعظيم الحرارة، وملىء بالروائح القذرة المتنوعة، حيث لابد للانسان من أن يتعرق طوال الليل، ممايفسد راحـة الانسان بشكل عظيم، والقمـل والبعوض والهوام تسرح هناك بأعـداد لاتحصى، وهناك أيضـاً فئران وجـرذان، ويمكنني القـول أنني غالباً ماقمت بهدوء كل ليلة، وصعدت نحو الهواء الطلق، فشعرت وكأنني تخلصت من سم قذر.

وتعاق الراحة أيضاً من قبل أنـاس لايعرفون الاستقرار أثناء نومهم، ثم إنهم يشخـرون ويتكلمون وهم نيـام، ويئنون وهـم مرضى، وكـذلك بسبب سعالهم ولعناتهم،وكنت في إحدى المرات لبعض الوقت على ظهر غليـون، حيث وقفت الخيـول والبغـال على الظهـر فـوقنا، وقـد تابعـوا أحداث الضجـة المستمرة بحـوافرهم على الألواح طوال الليـل والنهار، ونضيف إلى هذا ركض البحـــارة هنا وهناك فـــوق رؤوسنا، وصـــوت البحر، وأشيـاء أخرى كثيرة، تذهب براحـة الحجاج، هذا وهناك الكثير للقول حول هذا الموضوع.

***　　　***

وبالإضـافة إلى هـذا كله، هناك الحر الصادر عن الشمـس فوق ظهـر المركب، والظـلام في القمـــرة، والاكتظاظ، والحرارة القـــذرة، والهواء الملوث الثقيل، ومع أن هبوب الريح أسـاس للذين يبحرون في السفينة، هو مع ذلك غير مـريح كثيراً، لأنه عندما تبـدأ السفينة بالتأرجح بسبب الريح، يصير الحجـاج سكارى ومـرضى، وكل واحـد منهم يرتجف إلى حـد أنه يتقيـأ كل مـافي معـدتـه، وتصبح أحشـاؤهم كلهـا تعـاني من الجيشـان، كما أنه لن يكون من الممكن البقـاء على ظهـر المركب، بسبب قـوة الريـح، وبسبب الميـاه التي تنقـذف فـــوق السفينة، وعمل، وسعي الملاحين إلى هنا وهنـاك، كما أنه من غير الممكن للحجــاج البقـــاء في مخادعهم، إذا مارفع الشراع فوق المكان الذي فيه مخادعهم، حيث عليهم

وقتها العبور إلى الجانب الآخر، وعلى الانسـان إدارة فراشه، بأن يضع القـدمين في المحل الذي كان الرأس فيـه، والرأس أيضاً محل القـدمين، وذلك بسبب ميلان السفينة إلى جانب واحـد، من خلال قوة الأشرعة، عـلاوة على ذلك يملأ الدخـان الصادر عن المطبخ السفينة أثناء هبـوب الرياح، وفي بعض الأحيان يضايق الحجاج كثيراً.

وفي أثناء العـاصفـة يصير الأصحـاء من الرجـال مـرضى، ويزداد المرضى ضعفـاً، يضـاف إلى هذا أن استمـرار نضح الميـاه القـذرة مثير للحجاج بسبب الرائحة النتنة الصـادرة عنها، ولأنهم وقتها يمنعون من الصعـود إلى ظهـر السفينة، أو النزول من الظهـر، طالما النضح مستمـر، والذباب أيضاً الذي يملأ السفينة، هو مصدر اضطراب عظيم، وكذلك القمل والبعـوض، وكـذلك التعاسـة الصـادرة عن التعـرق تجلب من الضيق إلى الانسان أكثر من الهوام الحية.

ومع مـرور الأيام تتـوالد الفئران والجرذان في السفينة بأعـداد هائلة، وتراهم يسعـون طوال الليل، ينقبون أوعيـة الانسان الخاصـة، ويشقون طريقهم إلى داخلهم، فيلوثون الطعـام، ويتلفـون الوسـائد والأحـذية، ويفعلون هذا كله أو بعضه في أوقات مختلفة، لأنهم لايظهرون دوماً على ظهـر السفينة، بل فقط في مـوسمهم الخاص، فعندمـا تهب رياح محددة تختفي جميع المخلوقات الحية الموجودة على ظهر السفينة أو تهلك، وذلك من أمثال الـذبان والقمل والفئران، وماشـابه ذلك، ولاتعود مـوجودة، لكن عندما تختفي هذه الريح أو تتغير، تتوالد ثانية، ويزعج البعوض في موسمـه الحجاج كثيراً بأصواته ولسعـه، فضلاً عن هذا يلد من الرطوبة على ظهـر السفينـة علق أبيض سمين يدب في كل مكان، ويـأتي خلسـة فوق أرجل الرجال ووجوههم، وعنـدما يعي الانسان وجودهم، ويضع اصبعه عليهم، ظاناً أنهم ذباب، يتفجرون ويلوثون المكان الذي يكونون متعلقين به، بالـدم، ومع هذا كله هنـاك هوام قـذرة كثيرة تتـولد من

العفـونة على ظهـر الغليون، لكن مـامن شيء سـام يمكنه أن يتـوالد أو يعيش هناك، حيث لاوجـود هناك للعقارب أو للأفـاعي، أو للعلجوم، أو الثعابين السامـة، أوالعناكب، لأن مياه البحر تطرد السم، وتشفي من لسع العقارب، ومن عضـات الأفاعي والثعـابين، وهي عدو للزواحف من كل نوع، ولولا أن الحكمة الالهية قد أمرت بذلك، مامن انسان كان بامكانه أن يعيش على ظهر سفينة قديمة واسعة.

وهناك أمر مـزعج آخر للحجاج هو مدّ فـرشهم في المساء، ولفّهم في الصبـاح حيث يتوجب في الصبـاح على كل انسـان، لف فراشـه وربطه بحبل، وذلك مع الأغطيـة، والوسـائـد، والبيـاضـات، وتعليقهم على مسامير جرى تثبيتها على جانب السفينة، فوق رأسه، ويكون ذلك حتى نهاية النهار، والغرض من ذلك توفير ممرات بلا عوائق (خلال القمرة)، ويأخـذ الحاج في المسـاء فـراشـه وينزله، ويحله، ويـرتبـه، ويسبب هذا متاعب كثيرة.

وأخيراً إن انعـدام الثقـة بعبيـد الغليـون وسرقـاتهم، يزعج الحجـاج كثيراً، لأنه لايمكن تأمينهم على أي شيء، لأن عبـد الغليـون يسرق كل مـاتطاله يـده أو يضعهـا عليـه، ولهذا محظور على الملاحين النزول إلى الأسفل حيث مخادع نوم الحجـاج، هذا ولايتجرأ أي منهم على الإقـدام على ذلك، وهـم لايتجرأون حتى عندما يدعوهـم الحجاج، ولاينزلون إلى الأسفل.

تحذيرات من الأشياء التي ينبغي على الحاج أن يكون محترزاً منها عندما يكون في رحلة بحرية

على الحاج إلى الأرض المقـدسـة أن لايكون محترزاً فقط من أن يذنب في عقله، وأن يجلب الخوف إلى نفسه، بل أن يحترز ضـد الاهمال، خشية أن يتلقى جـرحـاً لجسـده ولحيـاته، ولهذا أريد في هذا الموضع أن أدون

التحـذيرات التي يحتـاجهـا الحاج عندمـا يعبر البحـر، ولا أريد تقـديم النصيحـة التي هـي من اختصـاص الطبيب، حيث هـو الذي يتـولى تقـديمهـا، بل تحذيرات صـديـق مع الذي تعلمتـه بالخبرة، لأن الطبيب يحذر بشكل عـام الحجاج بأن يكونـوا منتبهين من الفواكـه، ومن شرب الماء، ومن هواء البحـر، ومن السمـك، ويقـدم الطبيب النصيحـة ضـد الحر، وينصح طبيب آخـر ضـد البرد، أمـا ضـد العطش، والامسـاك، والاسهال المفرط، فيقدمون كثيراً من العلاجات، وطرق الخلاص، وأما بالنسبة لفقدان الوعي، ولتشجيع شهية الطعام، وللتخلص من السموم، فإنهم يقـدمـون كثيراً آخـر من طرائق الخلاص، كما يقـدمـون كثيراً من النصائح الأخرى إلى الذين يسافرون بالبحر، وهي أشياء من المؤكد أنها مفيـدة وجيـدة، وبالنسبـة لهذه القضـايـا، من المنطقي اتبـاع توجيهـات الأطبـاء دون ســواها، ومع ذلك أعترف بأن مــايلي هو مـاقــد رأيتـه شخصياً: فلقـد عرفت حجـاجاً كـانوا حريصين ومنضبطين تمامـا باتباع نصائـح أطبائهم، إلى حد أنهم كـانوا لايتجرأون على ابتـلاع أو فعل أي شيء مـالم يكونوا قـد أوصـوهم به، ومع ذلك يصبح بعضهم مـرضى، وضعفاء أثناء حجهم، وبعضهم يموت.

وبالمقابل، رأيت أناساً يأكلـون ويشربون، ويفعلون كل مايرغبون به، وفي البحـر وعلى اليـابسـة، ولايحافظون على نظام، أو قـواعـد للطعـام، وتراهم في الغالب يتطرفـون ويبالغون ومع ذلك لم يذهبـوا إلى فراشهم، وهم دومـا مبتهجين، وسعـداء، وأنا حين أكتب هذا ليس لـدي رغبـة للإيحاء إلى أن المتقــدمي الذكــر يمـوتون بسبب شــدة عنايتهم بأخــذ الأدوية، وأن الأواخـر يبقون أحيـاء بسبب إهمالهم، بل إظهار أن مـامن شيء هو مــؤكـد حــول الحظ، ولندع الحاج يدع نفســه أولاً إلى عناية الرب، وبعـد ذلـك إلى عناية أطبـائـه إنما بدرجـة معتـدلـة، وعليـه في المجـالات الأخرى أن يـراعي التحذيرات التـاليـة: على الحاج أن يكون

حذراً تجاه السباحة في البحر العميق من أجل الاغتسال، لتوفر مخاطر مضاعفة حتى بالنسبة للذين يعرفون السباحة بشكل جيد، وليكن متيقظاً تجاه كل شيء، عندما يكون على ظهر السفينة، عندما يعبر من مقعد متصالب إلى مقعد آخر، خشية أن يسقط، لأن السقوط في أي مكان على ظهر السفينة خطر، وعليه دوماً أن يصعد من، أوأن ينزل إلى المكان الذي فيه المخادع أو أماكن النوم بالتيقظ الموجب، فأنا شخصياً قد وقعت مرتين على هذه السلالم نفسها، وإنه لعجب أنني لم أتمزق إلى قطع، وبعد هاتين الوقعتين صرت أصعد وأنزل وأنا حذر ومتيقظ، ولقد رأيت بعض الناس يسقطون ويكادون يقتلون أنفسهم، وليكن حذراً جداً لدى الذهاب إلى موضع الخلاء، لأن طريق النزول إلى هناك خطر، وعليه عندما يكون سائراً على جانب السفينة، أن لايثق بأي من الحبال، مالم يقم بشده بيده، والتأكدمن أنه ممدود بشكل ثابت وقوي، لأن الحبل إذا انفلت لدى محاولته الامساك به، سوف يجعله يسقط في البحر، وليحذر الحاج من إهانة أو اغضاب عبيد الغليون التعساء، لأنه قد يحدث أن يكونوا ذوي فائدة عظيمة له، أو أنهم قد يؤذونه ايذاء كبيراً ويجرحونه، وعليه أن يحسن التعامل مع بقية رجال السفينة، وأن لايثير الكراهية ضد نفسه، ذلك أنه أمر مدمر بالنسبة إلى أي انسان أن يكون له أعداء على ظهر السفينة، فلقد رأيت حاجاً متكبراً أهان فأغضب عدداً كبيراً من الناس، ثم آل الحال بهذا الرجل نفسه إلى وضع تعيس على ظهر السفينة، فقد أرغم على التماس العون من الذين أهانهم، حتى أن بعض الناس الأكثر تقوى عندما قدموا بعض المساعدات له، تشكك بأنهم يحتقرونه، لأنه عرف بأنه يستحق الاحتقار.

وعلى الحاج الحذر من احتلال مكان سواء على الظهر أوفي الأسفل عائد لانسان آخر، إلاّ إذا حدث ذلك بموافقة ذلك الانسان التامة، وله في النهار الحق بالوقوف على مقربة من السارية، فذلك المكان عائد إلى

الجميع، لكن في الليل لاحق له بأي مكان، إلاّ بمخدعه، لأنه إذا ماقام انسان بالتردد ليلاً على مكان إلى جانب مخدعه، يعدّه الذين لايعرفونه لصاً، وعلى كل حال، إنه إذا لم يستطع —لسبب ما— الجلوس بهدوء في مخدعه، يمكنه الصعود إلى الظهر، وأن يجلس على بعض المصنوعات الخشبية على جوانب السفينة، وأن يدع قدميه تتأرجحان نحو البحر، وأن يمسك بالحبل الذي يدعم السارية، ولسوف تعلم التجربة الانسان كثيراً حول هذه القضايا، التي قد يجد من الصعب تصديقها عندما يخبر بها للمرة الأولى.

وعلى الحاج أن يكون متيقظاً عندما يجلس على سطح المركب، حتى لايجلس على أي من الحبال، خشية أن تتغير الريح فجأة، فيقذف به فوق السطح، أويجرح بوساطة الحبال، وعليه أن لايلمس الحبال، بأي حال من الأحوال، لدى شدهم لها، حتى لاتتمزق يده، أو تنفصم اصبعه بسبب العنف، لأنهم يشدونها بعنف عظيم، ويحركون بذلك أوزاناً هائلة.

وعلى الحاج عدم الجلوس في أي مكان تعلق فيه البكرات فوقه، حيث يمكن في وقت طيران السهم أن يصاب بجراحة بليغة أوأن يقتل فوراً، كما حدث لموجه الغليون الذي أتيت على ذكره في ص١١٨، وعليه أن يكون حذراً من الحصول في طريق الملاحين عندما يكونوا على وشك الانطلاق نحو أعمالهم، لأنه مهما كان عالي المقام، لابل حتى لوكان أسقفاً، هم سيدفعونه، ويلقونه أرضاً، ويدوسونه، لأن العمل في البحر ينبغي أن ينجز بسرعة مثل البرق، ولايقبل أي تأخير، كما أن عليه عدم المشاركة في أعمالهم، لأن هذا يزعجهم، وفوق كل شيء عليه عدم البقاء معهم على السطح أثناء الليل أثناء العاصفة، وعليه أن يكون متيقظاً ومتنبهاً إلى المكان الذي سيجلس عليه، خشية أن يلتصق بمقعده، لأن كل مكان مغطى بالزفت، الذي يصبح ليناً بسبب حرارة

الشمس، وكل من يجلس فوقه يرجع بثيابه وقد اتسخت.

وعليه أيضاً أن يكون متيقظاً، عندما يجلس مريحاً نفسه على جانب الغليون، وأن لايمسك بيده أي شيء ثمين، حتى لايسقط في البحر، فأحد النبلاء كان جالساً مرة إلى جانبي سقطت من يده سبحة ذات أحجار ثمينة، وكانت لديه غالية جداً، وكان على غير استعداد للتخلي عنها مقابل عدد كبير من الدوقيات،وقد ضاعت منه دون أمل باستردادها، وحدث أنني عندما كنت جالساً هناك أقرأ قداسا مسائياً من أجل الميت، سقط الكتاب من يدي في البحر وتلف، وسقطت أشياء كثيرة وفق هذه الطريقة من أيدي الناس بسبب قلة الانتباه، ولاسيما القبعات، حيث كانت تطير من فوق الرؤوس عندما تكون هناك ريح قوية.

وعلى الحاج عدم حمل مصباح على السطح أثناء الليل، لأن البحارة لايحبون هذه الأعمال الغريبة، وليس بإمكانهم تحمل الضوء أثناء عملهم، ولهذا السبب يطفئون المصابيح كلها أثناء العواصف أو يغطونها بالمكاييل، حتى في داخل القمرة، وعلى الحاج أن يحرس بعناية مقتنياته، وأن لايتركهم بدون حراسة، حتى بين أصدقائه، لأنه ماأن يدير وجهه حتى تكون قد ذهبت، وعليه أن لايترك ماله في صندوق في مخدعه، بل عليه حمل هذا المال معه دوماً، موضوعاً حول جسده، وأن لايعهد به لا إلى خدمه أو رفاقه، لأن الناس ميالين بشكل غريب إلى ممارسة دور اللص على ظهر السفينة، مع أنهم قد يمقتون اللصوصية عندما لايكونون في البحر، وأكثر مايكون عرضة للسرقة الأشياء الشخصية مثل المناديل، والأحزمة، والقمصان، وماشابه ذلك، لأنه حتى بين الرفاق يسرق أحدهم مثل هذه الأشياء من الآخر، لأن الانسان غالباً مايحتاج إلى أشياء على ظهر السفينة ولايمكنه العيش بدونها، فيحصل عليها بأية طريقة، سواء أكانت صحيحة، أم خاطئة، ويزود نفسه بها.

وعلى سبيل المثـال، في أثناء قيـامك بـالكتـابـة، إذا وضعت قلمك، والتفت بوجهك، فـإن قلمك سـوف يضيـع، حتى وان كنت بين أناس أنت تعرفهم، وإذا مافقدت قلمك سوف تواجه متاعب عظيمة في سبيل الحصول على قلم آخر، وهذه هي الحال مع أشياء أخـرى كثيرة، ويبدو أن القانون البحري مايزال يحتفظ بالشريعة المصرية القديمة جداً، التي لم تحرم اللصـوصيـة، بل أمرت كل الذيـن رغبوا في أن يكونوا لصـوصـاً، بتـدوين أسمائهم في بيت الكاهن الرئيسي، وأن يحملوا إلى هناك مبـاشرة كل شيء سرقوه، وبالطريقة نفسها طلب من الذين سُرق منهم أي شيء أن يكتبـوا رواية عن ذلك يذكرون فيهـا الوقت، واليـوم والساعـة التي فقـدوا بها مقتنيـاتهم، وبهذه الـوسيلة كـان ممكنا بسهـولـة البحث عن اللص، وترد الحاجـة المسروقـة، باستثناء ربعهـا، الـذي كـان يعطى إلى اللص، فبما أنه كان من غير الممكن منع اللصـوصية، رأى المشرع أنه من الأفضل أن يعـاني الانسـان من خسـارة شطر من حـاجيـاته بدلاً من فقـدانها كلهـا، ومن الممكن قـراءة هـذا في الكتـاب الثـاني من التـاريخ القديم لـديودور — الفصل الثالث، ومثل هذا جـاء في الأمثال: ٦/ ٣٠ قـوله:«ليـس هناك ذنب عظيم في السرقـة»، وفي الحقيقـة، في الشريعـة القـديمـة لم يكن اللصـوص يعـاقبـون بالموت، كما هو واضح من سفـر الخروج:٢٢/ ١، بل كانوا يغرمـون بالتعويض عن ذلك، وعلى كل حال إنه إذا كانت الشريعة كاملة، ينبغي اعدام اللصوص في المجتمع الانساني العـادي، لكن على ظهر السفينة يبـدو أن الأمـر مختلف، لوجود الرغبـة بالسرقة، خاصة السرقات الصغيرة، وهذا يزداد بين الرجال أثناء السفر.

وفي الموانىء على الحاج أن يكون حـذراً فـلا يغـادر غليـونه، فيضل سبيله هنا وهناك، لاسيما في الأماكن المنعـزلة قرب الشـاطىء، خشية أن يقع فجأة بأيدي القرصـان، فيجعلون منه عبداً في منتهى التعـاسة طوال حياته كلها، وهذا أمر غالباً مـاوقع لكثير من الرجال، فأنا أعرف فارساً

أمسك وحيداً على مقربة من البحر، تحت أسوار المدينة، وسلبت منه أمواله والأشياء الثمينة التي كانت معه من قبل السكان هناك.

وعليه أن يكون حذراً فلايدخل أي بيت لدى إغرائه من قبل النساء، لأن في ذلك خطر عظيم إذا فعل ذلك، وليس ذلك متعلقاً بشرفه وحاجياته، لابل حتى بحياته، وعلى كل من يسعى وراء الاستقامة والشرف، ويريد الحفاظ على حجه المقدس دون تلويث، عندما يكون في الموانىء، السير في الخارج في النهار، لكن عند اقتراب المساء، عليه العودة إلى غليونه، والنوم هناك سليماً في مخدعه، لأن النزل على جزر البحر، هي بيوت سيئة السمعة، كما وضح مماجاء في ص١٢٧، ومامن أحد يستقبل حجاجاً ألمان في بيته، إلاّ أصحاب البيوت السيئة السمعة، ومعظم هؤلاء من الألمان، الذين يسكنون هناك مع عاهرات، مع أنهم يبعدوهن عندما يدخل الحجاج إلى بيوتهم، وبناء عليه يمكن للحاج الجيد والتقي الإقامة في بيت من البيوت خلال النهار مع رفاقه، لكن لايجوز له النوم هناك مطلقاً، والتجربة سوف تعلم الانسان أشياء أخرى عليه تجنبها والابتعاد عنها. ويتوجب عليّ الآن العودة إلى سياق خبر أدائي لجولاتي ورحلاتي.

هنا نهاية الفصل الثاني.

الفصل الثالث
ويحتوي على وصف لأعمال الحجاج إلى الأرض المقدسة
خلال شهر حزيران،
الذي وصلوا فيه إلى حدود الأرض المقدسة

في اليوم الأول من شهر حزيران بدأنا رحلتنا البحرية، وكان هذا اليوم هو يوم الأحد الأول بعد عيد الثالوث المبارك، فقد نهضنا في ذلك الصباح باكراً قبل شروق الشمس، وحملنا جميع حاجياتنا في قارب كبير اكتريناه وقد وقف على باب نزلنا، وبعدما قلنا وداعاً لكل واحد في النزل، أقلعنا وعبرنا من خلال القناة الكبيرة إلى خلف المدينة، وتابعنا سيرنا إلى القديس نيقولا في الليدو، وتركنا هنا واحداً يتولى حراسة أغراضنا في القارب، ودخلنا إلى الكنيسة، وكانت كنيسة كبيرة، مع دير للبندكتيين ملاصق لها، وبحثت عن المسؤول عن القداسات، وطلبت منه رقائق الخبز التي كان قد وعدنا بها، وطلبت منه تزويدنا بزجاجة من الخمرة الجيدة، وذلك بالإضافة إلى نبيذ القداسات، وأن يضعها على المذبح، وعندها وضعت عليّ ألبستي المقدسة، وذهبت إلى المذبح، حيث عملت قداساً أعددته ليوم الأحد، وكان ذلك بحضور الحجاج، وبعد القداس توليت مباركة الخمرة التي جلبت إلينا في الزجاجة بمباركة القديس يوحنا الانجيلي، وأعطيتها إلى موالي الحجاج ليشربوها محبة للقديس يوحنا، حتى تكون رحلتنا سعيدة وناجحة، وبعد إنجاز هذا بكل تقوى صعدنا ثانية إلى قاربنا، وأبحرنا حتى ميناء البندقية، القائم بين قلعتين، كانتا تتوليان حراسة مدخل ذلك الميناء، ذلك أن غليوننا كان راسياً في البحر على بعد حوالي الميل خلف الميناء، وفيما نحن في طريقنا هبت ريح قذرة، فأعاقتنا، حتى أننا احتجنا إلى ساعتين للوصول إلى الغليون، وكان ذلك مع صعوبة كبيرة، وعندما وصلنا

أخيراً إلى هناك، وجدنا الغليون مليئاً بالناس، ورفاقنا الذين بعثنا بهم مقدماً إلى هناك قبل أربعة أيام، ضعفاء كثيراً، بسبب السفينة، التي كانت تتأرجح وهي راسية، إلى مختلف الاتجاهات، وكان ذلك بسبب قوة الرياح، وقد جعلهم ذلك مرضى، وعلى كل حال، عندما رأونا ابتهجوا، وبدأوا يتحسنون، وقد حدثوا سادتهم عن المصاعب المريرة للبحر، التي تذوقوا قليلاً منها فقط، وفي ذلك اليوم نفسه التمس مني أحد الفرسان أن أعود معه في القارب إلى المدينة لاحضار صندوق كان قد أمر بصنعه لنفسه، ليكون مخدعاً له، ولكي ينام عليه في الليل، لأنه كان متكبراً جداً، وأبت نفسه النوم على الأرض، وقد كان موضع نومه واسعاً إلى حد يمكنه أن يضع فيه الصندوق، وبناء عليه دخلنا معاً إلى المركب ورجعنا إلى البندقية، وبعدما تسلمنا الصندوق عدنا به إلى الغليون، إنما بعد صعوبات، لأن الرياح كانت ضدنا، وكان الوقت متأخراً مساء عندما أنزلنا الصندوق إلى القمرة، ووضعه الفارس في مكان نومه وهو مبتهج، وهو يأمل أن ينام عليه بشكل جيد، لكنه لو أنه عرف المستقبل، لما كان مسروراً بأي حال من الأحوال، ولقام برميه، ولرفض عدّه مريحاً، لأنه على ذلك الصندوق بالذات مات ذلك الفارس ميتة وحشية وبشعة، وعلى كل حال، هو لم يكن منتمياً إلى جماعتي، بل إلى جماعة أخرى، وقمنا الآن بترتيب أماكن نومنا وفرشنا لننام فيها، وكان ذلك مع كثير من الفوضى والجهد، والخلاف، لأننا لم نكن قد اعتدنا على ذلك بعد، وعندما باتت الدنيا مظلمة، وبعدما أطفئت جميع المصابيح، وصار كل شيء هادئاً، فجأة هبت ريح عنيفة جداً، جعلت السفينة تتأرجح، فصرنا خائفين، وبوضع غير مريح، وقد بقينا متمددين بهدوء وسكون، ونائمين في الظلام والرعب، وحدث فجأة أن واحداً من النبلاء، وكان مرعوباً من منام مخيف، بدأ يصرخ بصوت مرتفع بشكل مزعج جداً، وكأنه يركض هناك بسيف، وأفاق كل انسان على ظهر السفينة بسبب صراخه، ولأنهم كانوا نياماً في

الظلام، أصيبوا بفوضى، وافترضوا ان هذا الفارس قد طعن من قبل واحد من اللصوص، وأفاق النبلاء وحاولوا العثور على سيوفهم في الظلام، وحاول آخرون تدبر أمر نجاتهم، خشية منهم أن شراً ماقد أعد للحجاج، وحدث اضطراب خطير في داخل القمرة الرئيسية للغليون، لكن الرجل الذي كان متمدداً إلى جوار الذي صرخ، قد أدرك الذي حصل وفهمه، فصرخ بصوت مرتفع وطلب من كل انسان العودة إلى مكانه والتمدد فيه، وهكذا مضت تلك الليلة مع فوضاها، ولم يكن القبطان قد جاء بعد، ولم يصعد إلى ظهر الغليون.

وفي اليوم الثاني من حزيران، جاء القبطان قبل اشراق الشمس، مع خدمه وآل بيته جميعاً، وجلب معه أيضاً بعض الحجاج الذين تلقاهم مؤخراً، ليكونوا ركاباً على ظهر السفينة، وكان بين هؤلاء رجلاً فلمنكيا مع زوجته، وعندما وصلت هذه المرأة إلى ظهر السفينة، غضب عدد كبير من الناس لذلك، لأنها كانت المرأة الوحيدة على ظهر السفينة، لأنه قبل وصولها لم يكن بيننا ولا امرأة، ذلك أن المعلم أوغسطين، قبطان الغليون الآخر، كان قد جمع كل النساء على ظهر مركبه، ولم يكن هناك واحد على ظهر غليوننا لم يكن مزعوجاً من قدوم هذه المرأة العجوز، ومن التفكير بوجود امرأة واحدة سوف تعيش بين مثل هذا العدد من النبلاء، لاسيما عندما بدت —لدى إلقاء النظرة الأولى عليها — أنها لاتعرف الاستقرار، وفضولية، كما تبرهن أن ذلك كان حقيقة، لأنه صدقاً، كانت النسوة السبعة اللائي رافقننا في الرحلة الأولى التي قمنا بها، حسبما رأيت في ص١١٧، المتقدمة، كن أقل ضجيجا من هذه العجوز الشمطاء، فقد سعت مابين هنا وهناك حول السفينة بشكل غير ضروري، وكانت مليئة بالفضول، راغبة في سماع كل شيء ورؤيته، فجعلت بذلك نفسها مكروهة إلى أبعد الحدود، وقد بدا زوجها أنه كان رجلاً عاقلاً، ومن أجله أمسك كثيرون عن الكلام، ولولا وجوده هناك

لسارت الأمور معها بشكل صعب، فلقد كانت هذه المرأة شوكة في أعيننا جميعاً.

وعندما أصبحنا جميعاً على ظهر الغليون، وأضحى النهار، صدرت الأوامر إلى بعض الملاحين بتزيين الغليون، فقاموا بتعليق سبعة من الأعلام الحريرية الواسعة، وذلك امتداداً من القلعة إلى القيدوم، ومن القمة أيضاً، وزينوا القمة نفسها بقطعة من السجاد بأن لفوها من حولها، وكان أكبر الأعلام وأولها هو علم السادة الحجاج إلى الضريح المقدس، وكان أبيض اللون، عليه صليب أحمر ممتداً من أول طرف حتى الطرف الآخر، وكان العلم الثاني هو علم سادة البندقية، أي علم القديس مرقص، وكان أبيض اللون أيضاً، عليه أسد أحمر، كان تحت قدميه الأوليين البحر، وتحت قدميه الخلفيين اليابسة، وكان العلم الثالث هو علم مولانا البابا سكتوس الرابع، وكان لونه لون الهواء، عليه شجرة بلوط خضراء تحمل جوزات بلوط ذهبية، ومفتاحي الرسولين، وكان العلم الرابع هو علم القبطان، وكان مكوناً من أنواع مختلفة جميلة، وعرض الخامس أذرع البندقية مع ذراعي القبطان مع بعضهم، وكان هناك علمين آخرين، كلاهما متشابهين، على كل واحد منهما أسد أسود وأبيض.

وبعد الفراغ من تزيين الغليون، بدأوا بالاستعداد للانطلاق، لأنه كان لدينا رياح لطيفة، كانت تحرك الأعلام في الأعالي، وبدأ الملاحون بصوت مرتفع يرفعون المرساتين ووضعها على السطح، وبرفع عارضة الشراع نحو الأعلى مع الشراع الرئيسي accaton يخفق فوقها، وجرى أيضا رفع قاربي الغليون واخراجهما من البحر، وجرى انجاز هذا كله بعد جهد كبير وصرخات عالية، واستمر ذلك حتى أطلق الغليون من رباطاته، فأقلع بسرعة وهو ممتلىء بالريح، وأبحرنا وسط بهجة عظيمة وابتعدنا عن اليابسة، لأن البواقين زعقوا بأبواقهم وكأننا كنا على وشك

الالتحـام بالقتـال، وصرخ عبيـد الغليـون، وغنى جميع الحجـاج مع بعضهـم:«In Gottes Nahmen Fahren Wir» حسبما يمكـن القراءة عن ذلك في ص٣٤٣.

وفي الوقت نفسه مخر الغليون بقوة خلال البحر، وابتعدنا بسرعة عن مـدينة البندقيـة، وخلفنا مـرساها الذي انطلقنا منه بعيـداً وراءنا، وكنا مسرورين كثيراً لمغادرتها، وكأننا قد أطلق سراحنا من السجن، ذلك أننا رغبنا باصرار بالوصـول إلى القـدس، وسيقت السفينة بسرعـة كبيرة بفضل قـوة الريح الطيبـة، إلى حـد أننا لم نعـد قـادرين على رؤية أياً من الجبال، أو أي جزء من الأرض، أو أي ساحـل أو أي جزء من اليابسة، بل كـان أمـام أعيننا السماء فقط والماء، ذلك أننا قطعنا مسـافـة كبيرة في ذلك الوقـت القصير وصرنا في أعـالي البحـار، وصرنـا أعلى فأعلى من أعالي جبال الألب، ولم نعـد قادرين على رؤيتهم، لأنهم صاروا الآن — كما هو الحال — منخفضين مع الانحناء الاعتراضي للبحر بينهم وبيننا.

وأمـا وقـد غدونا الآن بعيـدين عن رؤية العـالم، أنزل البحـارة جميع التزيينات التي زينت بها سفينتنا، وكانوا يلقون نظرة عليها في كل يوم، جـاعلين إيـاها جـاهزة للعمل، وبعـد منتصف النهـار، عندمـا تناولنا الطعام، رأينا على يسـارنا، باتجاه الشمال جبال ايستريا، وهـي منطقة من مناطق مقـاطعـة دلماشيـا، ورغبنا بالـوقـوف هناك في ميناء بارينزو -Pa renzo ، لأن ريحنا الطيبـة توقفـت عن الهبـوب، وعلى كل حـال لم نتمكن من الوصول إلى بارينزو، بل تجاوزناها، ومع ذلك لم نقطع مسافة جيدة، لأنه مع انتهـاء النهار، انتهت الريح أيضـاً، ومكثنا الليل كله من دون التقدم نحو الأمام بل كنا نراقب بدون راحة، ونتأرجح هناك.

وهبت في اليوم الثـالث من حزيران، عند الصباح، ريح كـانت قذرة تماماً، وأرغمنا على العودة نحو جبال ايستريا، وبعد جهود عظيمة نجونا من الريح المعـاكسة، واقتربنا من الجبـال، وجلبنا سفينتنا إلى ميناء روبينا

Rubina (Rovigno) وذلك على مسافــة ميلين خلف بارينزو، حيث كـان القبطان الآخر مـع حجاجـه، وميناء مـدينة روبينا هذا، ليس ميناء مطروقاً، لكنه آمن وغني، وفي هذا الميناء تفضل علينا القبطان، بتنشيطنا وانعاشنا بغداء لأننا دخلنا إليه في وقت الغـداء، وهو أمر متوجب عليه فعله، لرؤيته أننـا كنا في ميناء جيد، حيث يمكننا التـزود لأنفسنا، وبعد الغداء نزلنا من الغليون إلى القـارب، وذهبنا به إلى المدينة، حيث صعدنا إلى الكنيسـة الكاتدرائية وصلينا هناك للرب وللقـديسـة يوفيميــا -Eu phemia العذراء، التي جسـدها كله ممدد هناك وملفوف في ضريح من الرخـام كبير، وهذا الضريح المتفـوق التابع للكاتدرائيـة، فتح لنا، وقـد أرونا الجسد المقـدس، ولسوف أتحدث لكم وأنا عائد، عن كيفيـة انتقال جسـد القـديسة يوفيميـا الخلقيـدونيـة إلى هاهنا، وسأصف لكم مـدينة روبينا، كما سأتحدث عن مـرساها، وقـد مكثنا في هذه المدينة حتى وقت العشــاء، وتعشينا على حسـابنا في إحـدى الحانات، وكان عشـاء جيـداً، عدنا بعـده إلى غليوننا، آملين أن نتمكن خـلال الليل من الابحار، لكن تلك الريح القـذرة —ولا أجـرؤ على تسميتهـا شريرة — هبت طوال الليل، جـاعلة تلـك الليلة ليلة غير مستقـرة تمامـاً بالنسبــة لنا، ومع أن سفينتنا كـانت مـربوطة بالمرسـاتين والأربطة الأخرى العـائـدة للميناء، أرجحتهـا الريح وهزتها بكل عنف، وجعلتنا نصـاب بدوار البحـر بكل شدة.

وفي اليوم الرابع لم تكن الريح لطيفة، ولهذا نزلنا من الغليون وغادرنا حيث ذهبنا إلى كنيسـة القــديسـة يوفيميــا حيث قــرأنا واستمعنا إلى قداســات، وتغدينا بعـد القداس مع مضيفنا، وكـانت حانتنـا مجرد كوخ صغير، استأجـرناه من رجل فقير، حيـث قـام طبـاخ مـولاي فأعـد لنا الطعام الذي جلبناه له، وكانت هناك أشياء كثيرة يمكن الحصول عليها، لكن لم يكن في تلك البلاد حـانات كما هو موجـود في بلادنا، وأية حانة

هناك كـانت تعيسـة جــداً، ليس فيهـا لاقـدور، ولا أوعيـة قلي أوغلي، ولاأيضاً مايكفي من صحون أو ملاعق، وعلى هذا وجد الحجاج النبلاء أنفسهم مع أنهم في بلـدة جليلة واسعـة، مـرغمين على الـدخـول إلى البيـوت العـامـة السيئة السمعـة، حيث كـان من الممكن الحصـول على الضروريات، وذلـك حسبما قلت من قبل في ص٢٥٨، وقـد عـانى الحجـاج من مصـاعب كثيرة، بسبب الحاجـة إلى نزل، وعـانى بشكل خاص الذين ليس لديهم تجهيـزات خاصة بهم للطبخ بها، وبعـد الغداء ذهبنا بالقـارب إلى جزيرة صغيرة، وإلى كنيسـة القـديس أندرو القائمـة هناك، وكـان على مقـربة مـن الكنيسـة دير صغير، كـان فيـه فيما مضى رهبـان من طائفة القـديس بندكت، وعندمـا تخلى هؤلاء عن هذا المكان أخـذه الـرهبـان الفـرنسيسكان، وتملكوه، وبنوا ديراً جميـلاً هناك وفق طرائق طائفتهم، فضـلاً عن هذا قامـوا بزراعة الجزيرة الصغيرة نفسهـا، وجعلوها وكأنها جنة من الجنات، ومن هناك يمكن للانسـان أن يحصل على الأخشاب وأشياء أخرى لها حـاجة، ذلك أن تربة الجزيرة هذه غنية وخصبة، كما أن الأراضي في الجزر القريبة كلها متشابهة، وخصبة.

*** ***

وبعد ماتمشينا لسـاعات حول الجزيرة المتقدمة الذكـر بقيادة الرهبان، عـدنا إلى الدير، حيث احتفي بنا بلطف بتقـديم وجبـة لنا، الأمـر الذي عوضهـم عليه اللورد جـون التروخسيس بكرم، عندما غادرنا، وفي أثناء تناول الطعـام انتبهت لوجـود واحد مـن الرهبان، كنت قـد رأيتـه أثناء حجي الأول فـوق جبل صهيـون، حيـث كـان نائـب الوصي في الدير هناك، وهو أيضاً قـد تذكرني، وقد حيـاني بلطف، وقد تلقيت منه بعض النصـائح، وعندمـا انتهينا مـن الطعـام، صعـدنا إلى قـاربنا، ووصلنا إلى روبينا مع صعوبات كبيرة، لأن الريح كانت معاكسة، وتناولنا العشاء في البلدة، وعـزمنا على البقاء بعيـداً عن الغليـون طوال الليل، وآثرنا النوم

على المقاعد على أن نكون على ظهر السفينة، لأننا أمضينا ليالي تعيسة على ظهر الغليون عندما كان راسياً، يتأرجح بقوة الريح، لكن الذي حدث، هو أننا ماأن فرغنا من تناول العشاء، حتى كان القبطان قد أمر بالنفخ ببوقه (Buccina)، وكان ذلك شارة للجميع حتى يعودوا إلى ظهر الغليون.

وفي ذلك المساء، وقبل غياب الشمس، قام الملاحون برفع المرساتين، وبحل أربطة الغليون واطلاقه، وأبحرنا خارجين من الميناء، مع أنه لم تتوفر ريح لطيفة في البحر، ذلك أنهم رأوا عن بعد أوغسطين مع غليونه، وخشيوا من أن يحصل على الأولوية علينا، ولهذا قمنا بهذه المحاولة المخفقة، لأننا ماأن صرنا خارج الميناء، حتى دفعنا مسافة بعيدة في البحر بريح معاكسة، وهكذا أمضينا تلك الليلة نتأرجح فوق الأمواج، وكنا غير مرتاحين بمافيه الكفاية.

وفي اليوم الخامس، استمرت الريح نفسها، فكان أن حملنا خلال الأمواج إلى أسوأ جزء من ذلك البحر، الذي كان اسمه كورنيروس Cornerus (Quarnero) فهناك الذين يبحرون يكونون دوماً في خطر، لأن البحر يتدفق من هناك بتيار سريع جداً نحو أنكونا An-cona، ويتوجب على البحارة المحافظة على السفينة بعناية كبيرة، وجهد عظيم لمنعها من مسايرة تيار البحر، الذي كان في بعض الأحيان يدفع السفن بعنف ويلقي بهم إلى داخل ميناء أنكونا، وذلك وسط رعب عظيم ومخاطر للسفن وللذين على ظهرهم، وعندما كنا في ذلك الخليج رأينا الجبال التي تفصل دلماشيا وكرواتيا عن مملكة هنغاريا والهنغاريين، الذين يحجون إلى سيدتنا صاحبة لوريتو Loretto، يأخذون سفينة من هناك ويبحرون إلى مكان العذراء المقدسة.

وقطعنا في ذلك اليوم مسافة قصيرة، ومع ذلك استمرت السفينة طوال الوقت وسط حركة عنيفة، وإنه لأمر مدهش للانسان الذي هو

غير معتـاد على البحـر، أن يرى السفينة وهي تجري بسرعـة كبيرة، لكن دون أن تتمكن من قطع أي مسافة على مسارها، الأمر الذي هو في غاية السوء، وعند حلول المسـاء، أصبحت الريح القذرة أشـد، ولقد أمضينا ليلة غير هادئـة تماما، حيث أصبـح معظم الحجاج مـرضى كثيراً، لأنهم باتوا يعـانون من دوار في رؤوسهم ومن معـدة مضطربة، وكان الغثيـان العنيف والشـديد نصيب الجميع، علماً بـأن بعضهم صـاروا أضعف من آخـرين لتلك الأسباب، وعندمـا صـارت العاصفـة أشد، أراد البحـارة تحويل اتجاه الشراع الرئيسي، وكـانت عـارضـة الشراع قـد رفعت نحـو الأعلى إلى مافـوق رأس السارية، مع الشراع الرئيسي accaton منشور من حولها، لكن عندما تركوا عـارضة الشراع تطير حول الطرف الآخر، انفلت الشراع ونزل على المجـاذيف على ذلـك الجانب، وعندمـا مـلأت الريح الآن الشراع بشكل مفـاجىء، وأخـذت برفعـه بقـوة كبيرة، تعلق بين المجاذيف، ومـالت السفينة كثيراً نحو ذلك الاتجاه حتى أن عـارضة الشراع نفسهـا لامست الماء، وباتت السـارية، لابل في الحقيقـة الغليـون نفسه مهدداً بالانقـلاب إلى ذلك الجانب، ولهذا كان هناك ركض إلى هنا وهناك، وصراخ على السطح الأعلى، أما نحن تحت في مخادعنا فقد قذفنا نحو الجانب الآخـر، واستعد القبطان في القيدوم لانقاذ نفســه، فقد أمر بقطع الحبال التي تمسك القـارب الصغير، حتى يسقط في الماء، حتى إذا ماغرقت السفينة، يمكنه أن يقفز إليه، ولم يعرف الحجاج الذين كانوا في الأسفل بهذا، ولو عـرفوا به لحدث اضطراب عظيم، وفـوضى مرعبـة، من التسارع الذي كـانوا سيقومون به في ركضهم نحـو السطح، وبعون الرب، انتهى هذا الأمـر على كل حـال، ووصل إلى نهاية سليمـة، حيث رفعت الريح الشراع خـالصاً مـن بين المجاذيف، وبدأت السفينة تبحـر متقـدمـة كما كـانت من قبل، ولـو أن السفينة جنحت وانقلبت إلى ذلك الجانب، كما كانت على حافة وقـوع ذلك، مامن أحد من الحجاج الذين كانوا في القمرة الرئيسية، كان سينجو من الموت.

واستمرت الريح في اليوم السادس قذرة، وقد أسفنا لمغادرتنا ميناء روبينا، ووجهنا السفينة مجدداً نحو الجبال، علنا نستطيع دخول أحد الموانيء التي هناك،والانتظار هناك هبوب ريح لطيفة، وتقوم فوق الجبال القريبة من البحر شارات من خلالها يعرف البحارة مكان وجود ميناء آمن، وأين يمكنهم الاقتراب من اليابسة، ومالم يروا هذه الشارات، لايتجرأون على جلب هذه السفن الكبيرة وتقريبها من اليابسة، وبعد رؤية واحدة من هذه العلامات، ومن ثم التأكد من وجود ميناء، مع امكانية القدرة على الوصول إلى اليابسة، وجهنا رأس غليوننا نحو الجبال، فوصلنا إلى مابين جدارين من الصخر، وجلبنا المركب إلى وادي حيث وجدنا ميناء آمناً، وبناء عليه القينا المرساة، وربطنا السفينة بالصخور، وثبتنا وقفتها، ولم يكن الميناء أكثر من مكان بين تلال وجبال، فيه يمكن للسفينة الوقوف دون التعرض لتهديد الرياح، ومع هذا لايكفي أن يكون موقع الميناء آمنا، بل هناك مطلب آخر، هو أن يكون البحر هناك عميقاً، وأن تقيم ميناء هناك، لم تكن هناك حاجة لوجود سكان قاطنين على مقربة منه، بل كان يكفي أن تكون السفينة قادرة على الوقوف هناك، وهي آمنة من الرياح العنيفة، سواء أكان المكان مسكونا أم لا.

وكان هذا الميناء في بقعة مهجورة، على إحدى الجزر التي اسمها أسارو Assaro ، وكان محاطاً من كل الجوانب بشعاب وجبال وعرة، وبعدما تناولنا طعام الغداء على سطح الغليون طلبنا إنزال القارب إلى البحر، وذهبنا به نحو الشاطىء، وقد تمشينا فوق الجزيرة لتمضية الوقت، وكان نامياً هناك أعشاب ذات رائحة جميلة، وكثيراً من نبات القصعين الصغير بلاحدود، وكف مريم agnus costus وبعدما اجتزنا بعض التلال، وصلنا إلى حقول شعير، وكنا بذلك مسرورين، على أمل أننا كنا على مقربة من احدى المزارع، حيث يمكننا الحصول

على خبـز طازج وبيض للبيع، وبعـدمـا مشينا بعض الشيء على الطريق وصلنا إلى كـوخ تعيـس، كـان يسكن فيـه بعض الفقــراء المعـدمين من السكلافـــونيين، الذين لم يكن لـديهم أي شيء على الاطلاق في بيتهم، سـوى بعض الجذور، كانوا يجففـونها في الشمس، وعندما تصبح يابسـة كانوا يطحنونها، ويتخذون منها طحينا، يتخـذون منه خبزاً، وقد أعطونا بعضـاً من هذا الخبـز، لكنه كـان أسـود جـداً وبلا طعم، ولم يكن هناك بيت آخــر غير هـذا على الجزيرة، وبعـــدمـــا رأينا هذا كلـه، عـــدنا إلى الشـاطىء، إلى مقابل المكان الذي رست فيـه سفينتنا، ورأى كثيرون أن الشـاطىء أكثـر كـآبة من السفينة، فعـاد هؤلاء إلى ظهـر السفينة مجدداً، وبقيت أنا مع عـدد من النبـلاء على الشـاطىء، سـاعيـاً لإعطاء رفـاقي الراحة، وقمت بتسلق أحـد الجبال وحيـداً لأنظر من حولي، وهنا رأيت ليس بعيـداً، انســانا يلبس مـلابس الرهبـان المبشريـن،يركض نحـوي، ولذلك ركضت نحوه، للقـائه، وحييته، وسألتـه من أين جاء، وإلى أين هو ذاهب، لكن هذا الراهب المسكين، لم يعرف لغـة يحادثني بها، فهو لم يعـرف لا اللاتينية، ولا الايطاليـة، ولا الألمانيـة، لأنه كان إمـا دالماشي، أوسكلافوني، فقد كان على طريقه نحو الغليون للتسول.

***　　　***

وذهبت بعـــد هذا إلى شـاطىء البحـــر، حيث وجـدت واحـــداً من الملاحين، يقتلع عشباً كـان ناميا بين صدوع الصخور، قـال بأن له نكهة عظيمة في السلطة، وقال بأن اسـم هذه العشبة كان Porcella، وكانت طيبة الطعمة، ومالحة، ونكهتها حادة (occtosa) وهي مثل الكبوسين، لكن أثخن وحجمها أكبر، وتسـاءلت كيف أمكن لعشبة جيـدة أن تنمو بين الصخور وان يكون طعمها مالحاً، ولعل ذلك بسبب أن الملح منتشر على الشـــاطىء، أو بسبب أنه في أثناء العـــواصف تضرب الميــاه المالحة الصخـور وتغطيهـا، حيث تشرق الشمس بعـد ذلك وتضرب بأشعتهـا

ذلك الماء فتجففه وتجعل منه ملحاً، وطبيعة الملح تجعل الأرض جرداء، ومع ذلك نمت هذه العشبة في الملح، على الرغم من طبيعة جميع النباتات، ووجدت أيضاً أغصاناً من أفضل أنواع نبات كف مريم فأخذتها، علني أطرد بها روائح نتن السفينة من مخدعي، وحول هذا النبات، انظر عرضاً مطولاً في القسم الثاني ص١٨٩.

وحدثنا النباتيون، ولاسيما ألبرتوس ماغنوس Albertus Mgnus في De veget tractatus,i,c,5 بأن هذه العشبة قد عرفت باسم كف مريم agnues castus، بسبب عصارتها، وزهورها، وأوراقها، التي هي مفيدة من أجل التحريض على فعل الخير، فبوساطة حرارتها يجف الأساس المنوي البشري، والريح التي تمدد الأجهزة المولدة، ولهذا السبب قام الحكماء الاغريق برسم هذا النبات على أرضيات منازلهم، حتى تزدهر الفضيلة بين عقيلاتهم، وقد قيل أيضاً بأن هذا كان عقيدة الفيثاغورسيين، لأن هذا النبات كان يحوّل الانسان إلى مخلوق هادىء ولطيف مثل الحمل، ولهذا السبب أقدم كهنة الشمس والعذراءات المكرسات لخدمة الربة فيستا Vesta، والذين تحتضن دياناتهم القسم بالطهارة، على نشر أوراق كف مريم على أسرة نومهم وفي بيوتهم، وأنا أعرف هذا النبات منذ أيام طفولتي، ذلك أنني عرفته في بازل Basle، حيث كان ينمو في حديقة ديرنا، وكان قد زرع من قبل رجل جاء من البحر في أيام مجمع بازل.

وقد قيل بأن هذا النبات لايمكن نقله وزرعه في مكان آخر، بل ينمو فقط حيث زرعه الرجل، لكن هذا غير صحيح، لأنه في الوقت الذي كنت فيه هناك باقامة عابرة، اقتلعت غصناً مع الجذور وزرعته في حديقة مأوى العجزة، فهناك نما وصار شجرة كبيرة، ولهذا النبات أوراق فيها بعض الشبه بأوراق الجوز، إنما أنعم وأقل قسوة، وزهورها مثل زهور الأقحوان، ولهذا يطلق عليها اسم جوز البحر، ولها رائحة

جميلة وحـادة ومفيـدة، وبعضهم على كل حـال يمقتـون رائحتهـا، ولايستطيعون تحمل شمها.

وهكذا عدت إلى ظهر الغليون، آخذاً معي حـزمة من الـ Porcella من أجـل السلطة، وكف مـريم من أجل الـرائحـة ومن أجـل تزيين مخدعي، وبعـد عـودتي لم أشـارك أصحـابي بالعشـاء، بل صنعت سلطة تعشيتهـا، وكنت راضيـاً بها، ومع حلول المسـاء ازدادت قـوة الريح المعـاكسـة، وهبـت بشـدة جعلتنا نخـاف مع أننا كنـا مـانزال في الميناء، وأرغم البحارون على الحصول على مـزيد من الحبال لربط المركب، لأن التيارات انجـرفت وتحركت عبر البحر المفتوح، واندفعت ضـد الشعاب الصخرية ومن حولنا، ووصلت حتى إلى المكان الذي وقفنا فيه، وثارت في حوالي منتصف الليل عاصفـة مرعبة جداً رافقتهـا رياح عنيفة، ورعد وبرق، وأمطار ثقيلة، إلى حد أن مياه المطر جرت إلى داخل حجر نومنا، لذلك لم نعرف الـراحة في تلك الليلة،وكان هناك خـوف عظيم، مع أننا كنا في ميناء، لأن الماء ضرب بعنف شـديد جـوانب الغليون، حتى كـان عجباً كيف أمكن لأي خشب تحمل مثل هذه الضربات.

وفي اليوم السابع لم تكن الأنواء مناسبة لرحلة جيدة، ولهذا قمت بعد الغداء ثانية بالذهاب إلى الشـاطيء، وكان ذلك في القارب، كما فعلنا في اليـوم المتقـدم، ولم نذهب جميعـاً، بل ذهـب بعضنا فقط، وكنت أنا بين الذاهبين، وبصعوبة وخطر أمكننا الخروج من الغليـون إلى القارب، لأن البحـر كان هائجـاً، وهز كلا من القـارب والغليون وأرجحهما صعـوداً وهبـوطاً، ولهذا لم يتجرأ قـائد القـارب على تقديمـه إلى جوار الغليـون، خشيـة منه أن تحمله الريح فيضرب جـانب الغليـون، فيتحطم إلى قطع، لأنه ارتفع عـاليـاً بوسـاطة الأمـواج، فكان أعلى من الغليـون، ثم هبط عميقـاً إلى حـد أننا الذين كنـا على سطح الغليـون لم نعـد قـادرين على رؤيتـه، بسبب الأمـواج التي كـانت فيما بيننا، وفي مثل هذه الأنواء على

كل من يرغب بالخروج من الغليون والحصول في القارب، الوقوف على سلم الغليون، والانتظار بحذر اقتراب القارب من الغليون، حتى يمكنه الوصول إليه قفزاً، لأن الناس لـن يسمحوا للقارب بالاقتراب أكثر من هذا، ويتوجب عليك القفز في اللحظـة التي يقترب فيها القارب، لأنك مـالم تقفز، سـوف يبتعد عن الغليـون بقوة الأمـواج، ولدى قفزه نحـو القـارب، لايمكنه أن يصون نفسـه من الوقوع في الأمـام أو في الخلف، على وجهه أو على قفاه، ويقوم الذين على ظهر القارب بايقافه.

وكـانت هذه أعظم اللحظات ذات الخطر العام، التي كـان يخضع لها الحجاج، إنها وإن بدت صعبة في البداية، كان ماأن يعتاد الانسان عليها، حتى تصبح مسألة روتينية عـادية، بعدما كـانت من قبل لايجرؤ الانسان على التفكير بها، أو تجربتهـا بسبب الرعب، ولقـد رأيت نسـاء كن في البداية مليئات بالرعب، لم يتجـرأن على النظر إلى البحر، لكن بعد ذلك أصبحن جريئات — بسبب الممارسة — إلى حد أنهن كن يغامرن بالقفز من الغليـون إلى القارب، وقـد يعتقـد الانسان في البـداية أن الأفضل له البقـاء على سطح الغليـون، وتحمل شقـاء البقـاء هناك، على أن يغـامـر بالقفـز، ومن ثـم الحصول في ميناء جيـد ومنعش، ولكن بعـــدمـا يجد الانسان نفسه قد تعرض للقـذف بالعواصف وبالمصاعب، وجاع بسبب العـوز إلى الطعام على ظهـر السفينة، تراه يقـدم لدى الوصـول إلى ميناء جيد، ويتجـرأ على القفز خمس قفـزات خطيرة، مفضلاً ذلـك على البقاء على ظهر السفينة، وهناك أيضاً المصاعب نفسها عندما يصل القارب إلى الشاطىء، لأنه إذا كـان الشاطىء صخريا ومنحدراً، لايتجـرأ الملاحون على الاقتراب منه، إذا كان البحـر هائجاً، ولذلك يتـوجب على الانسان أن يقفـز ثانية، إمـا على الصخـور أو في البحر، وفي جميع الأحـوال على الانسان أن يكون متنبها وحذراً تماماً تجاه عمق البحر، لأنه عندما يكون البحـر هائجاً قـد يغطي الصخـور العـالية، ولهذا يوجـد بشكل عـام في

الموانىء رجال للخدمة، الذين عندما تتراجع مياه البحر، يسرعون إلى القارب، ويحملون كل واحد من الذين سوف يعطيهم بنساً، وكل من يعبر البحر، يرى هذه الأشياء، وأشياء أخرى كثيرة من هذا النوع.

ودعوني الآن أعود إلى سياق حكايتي، فقد وصلت إلى الشاطىءمع بعض الحجاج والبحارة، وعملنا ناراً على الشاطىء، ومشينا حول التلال، وبذلك أمضينا الوقت حتى المساء، وكان الوقت متأخراً عندما عدنا لتناول عشائنا على ظهر الغليون، وقد تغلبنا على مخاوف القفز من القارب إلى الغليون.

وفي اليوم الثامن، الذي كان الأحد الثاني بعد الثليث، استمر الجو مظلما، والهواء معاكساً، وفي حوالي مابعد الغداء ذهبنا جميعاً تقريباً إلى الشاطىء بالقارب، وهناك ركض بعضهم حول الهضاب التي بلاممرات، بينما جلس بعضهم الآخر بلا حراك يتحدثون، وقد تمتعنا بيوم بهيج، من ثم كانت الأوضاع على ظهر ذلك الغليون رائعة إلى أبعد الحدود، وكان هناك سلام ووئام، وصداقة، ووحدة بين جميع الحجاج، وكان الوضع هو المعاكس على ظهر غليون حجي الأول، حيث كان هناك، غضب، ونزاع، وخلاف، وكثيراً من الشتائم بقدر مايمكن رؤيته في ص١١٠—١١١، وعليه عندما كانت الشمس على وشك الغياب، عدنا إلى ظهر الغليون، من أجل تناول طعام العشاء، ولم نتحرك في تلك الليلة، ذلك أن قوة الريح بدأت تتلاشى.

وفي اليوم التاسع جلب الرب كنوز خيراته وقدمها لنا، فقد توفرت رياح طيبة، كنا مسرورين لها كثيراً، فرفعنا المرساتين، وحللنا حبال الربط، ونشرنا الأشرعة، فامتلأوا بالهواء، ولم يمض سوى وقت قصير حتى غادرنا الميناء، ومن ثم صرنا في أعالي البحار، وقبل الظهر وصلنا إلى ميناء في دالماشيا اسمه يادرا (زارا)، وهنا طوى القبطان الأشرعة، وأنزل مرساة واحدة، وأنزل القارب، وأرسل بعض البحارة إلى المدينة

مع أوعية لجلب الماء، لأن الماء الذي جلبناه معنا من روبينا، كان قد نفد، ولم يكن على جزر أسارو، ولاقطرة ماء للشرب، ولم يدع القبطان ولاواحداً من الحجاج يغادر السفينة، لأنه عزم على الاقلاع ثانية مباشرة، ويا للعجب عندما كنا راسين هناك، وصل المعلم أوغسطين أيضاً مع غليونه وتجاوزنا، ولمدة طويلة كان بامكاننا رؤية غليونه في البحر، مبحراً أمام ريح طيبة، وأمام هذا المشهد كان قادة غليوننا غاضبين جداً، لأنهم عزموا، واستخدموا كل جهد في سبيل ابقاء غليوننا أمام غليونه حتى الأرض المقدسة، ولكن مشروعهم حقق الإخفاق، وعندما أحضرت المياه إلى الغليون، لحقنا مباشرة بأوغسطين، وأبحرنا على طول مسار جيد جداً، حيث كان على جانبينا قرى، وقلاع، وأرض مزروعة، ووصلنا إلى يادرا القديمة، ورأينا خرائبها العظيمة، واستطعنا بعون الريح انجاز رحلة جيدة طويلة في ذلك اليوم.

وعلى كل حال توقفت ريحنا الطيبة عند غياب الشمس، وهبت ريح قذرة، تراجعنا أمامها ووجهنا سفينتنا نحو الجبال، خشية أن تدفع بنا بعيداً عن مسارنا، وعندما أصبحنا بين الجبال، ربطنا سفينتنا في ميناء مهجور، وأمضينا ليلة مليئة بالعاصفة والرعب بسبب سوء الأنواء والبرق والرعد، وعليه كان الجو مليئاً بأشياء غير موافقة للناس في البحر، أكثر من الذين سكنوا فوق اليابسة، وكان اسم ذلك الميناء أونيوم Oneum، وهو في كراواشيا Crawacia، التي هي مقاطعة في دالماشيا.

ولم تكن هناك ريح في اليوم العاشر، سوى الريح القذرة، وذلك في الصباح الباكر عند شروق الشمس، ويئسنا من مغادرة أونيوم في ذلك اليوم، لكن على كل حال، تغير الهواء بعد مضي ساعتين، فحلوا أربطة الغليون، وساقوه خارج الميناء بوساطة المجاذيف، ووجدنا في الخارج في البحر ريحاً جانبية، لم تكن نافعة كثيرة لنا، وقد حملتنا على طول

الأطراف حتى وقت الغداء، وبعد انتهاء وقت الغداء هبت ريح مواتية وقوية وسعيدة، دفعت السفينة بشكل مفاجىء وبقوة على امتداد طريقها الحقيقي فوق البحر، ولكي تمضي أسرع رفع البحارة الشراع الأمامي (Trin Ketum) فوق القمة الأساسية، وعلقوه حتى عنق القمة الأساسية، وذلك فوق العارضة الرئيسية للشراع، فضلاً عن هذا لقد أخرجوا الظلة، أو غطاء السفينة، الذي يغطى به أحيانا الغليون كله من البداية حتى النهاية، ليحمي الغليون من الشمس والمطر، وجرى مدّه بشكل منحرف عبر الغليون حيث تقوم السارية، وذلك تحت قلع الشراع الأساسي، وقد وصل من طرف إلى طرف، وأمسك الريح كلها من الخلف حتى يساعدنا ذلك على طريقنا، ولذلك مضينا في طريقنا مسرعين جداً، وتجاوزنا مدينة ليسينا، ثم مدينة كورزولا، وكذلك مدناً أخرى كثيرة، سوف أتحدث لكم عنهن — بعون الرب — أثناء عودتي، واستمرت هذه الريح السعيدة والمبهجة ذلك النهار كله، والليلة التالية، التي نمنا خلالها بعمق، ونحن نسير بسرعة وعذوبة، لأن طريق الغليون لم يكن على الجانب، بل كان مستقيما نحو الأمام، جعلنا ميالين إلى الهدوء، لأنه عندما تكون الريح هادئة ولطيفة، وليست قوية جداً، لن تكون هناك أية حركات يشعر بها الذين في القمرة نظراً لسير السفينة بهدوء، وبدون ضجيج، وينام كل من الحجاج تحت، وعبيد الغليون على السطح بهدوء، ويكون كل شيء ساكناً، باستثناء الذين يراقبون البوصلات، والذي يمسك عصا الدفة، لأن هؤلاء يقومون عن طريق التناوب والترداد بتقديم الشكر من أجل رحلتنا السعيدة، والحظ الجيد، ودوما يحمدون النسيم، ويشكرون الرب، والعذراء المباركة، والقديسين، ويرد أحدهم على الآخر، ولايلتزمون الصمت مادامت الريح طيبة، وكل واحد على ظهر المركب يسمع هذا الغناء الصادر عنهم، سوف ينام حتى وإن كان بالعادة لاينام، مثله في ذلك مثل الطفل الذي لايعرف الاستقرار والدائم الصراخ، فتقوم أمه فتهدئه عن طريق أغانيها الشجية،

لكن عندما يكون كل شيء هادئاً تراه يصرخ، لأنه مع الأغنية يغطّ في نوم عميق لأن الأغنية تؤكد له حضور أمه، ذلك أن تأثير الحضور أعظم من حلاوة الغناء، ومثل هذا كان الحجاج أكثر هدوءاً، لأنهم بهذا الغناء كانوا يدركون ويتأكدون أن السفينة مبحرة نحو الأمام باستقامة، وأن كل شيء على مايرام، وهذا أكثر أهمية من الأغنية نفسها، وكانوا يتناوبون النداء، مثلما فعل حراس مدينة أولم، عندما كانوا ينادون بساعات الليل، ولايعيق هذا النداء أي انسان ويمنعه من النوم، بل يرسل القلقين من الناس إلى النوم.

وفي أثناء العواصف، عندما تكون الريح معتدلة وقوية، تركض السفينة بعنف مع تأرجح واهتزاز صعب، ويكون ذلك وهي على مسارها بسرعة فائقة العظمة، سرعة لايمكن أن يجاريها سهم أطلق من قوس زيار أوقوس عادي، وغالباً مابرهن الملاحون على صحة ذلك، بالوقوف في المؤخرة مع قوس وارسال سهم باتجاه القيدوم، وهنا لايلحق السهم السفينة، حيث تتغلب عليه بسرعتها، وتدفع الريح السفينة، تدفعها نحو الأمام بوساطة أشرعتها، بقوة تبدو معها مياه البحر وكأنها تسعى لمواجهة القيدوم، ويبدو منقار القيدوم أيضاً وكأنه يشق مياه جدول أو نهر بكل عنف، ولذلك تعلو المياه أحيانا فوق قرني القيدوم، ولأن الماء يندفع بعنف كبير ضد المؤخرة، غالباً مايقفز حتى إلى حجرة القبطان الخاصة، وطالما أن الريح مالىء للأشرعة ويدفعهم بقوة متناهية، يبدو الماء وكأنه يجري بالاتجاه المعاكس والمضاد للمؤخرة، بسرعة عظيمة، هذا ومن الصعب لنظر الانسان أن يتابع فيه سرعة البحر.

ويبدو — على الأقل بالنسبة لي — أن السهم عندما يطلق من القوس لايمكن أن يسير بسرعة تساوي جريان الغليون، ذلك أن للغليون سرعة أعظم بعشر مرات من سرعة البحر، حيث أن السفن

تسير بسرعة من الصعب تصـديقها، عندمـا يكون الريح والبحر في هذه الوضعية، وأنا أعتقـد أن الابحار خلال يـوم وليلة مع ريح طيبة، تقطع السفينة خلالها مسافة تساوي مـابين كولون والبندقية، لأنه عندما تكون السفينة، تتقدم نحـو الأمام ببطء، ويعـدّ تقدمهـا كأنه لاشيء، تراها مع ذلك لايستطيع حصـان أن يعدو بسرعـة تعـادل حركتهـا البطيئة تلك، وعندما نقـول بأن سرعتها متلاشية، مـامن سباق يمكنه أن يجاريها حتى وإن كـانت تزحف زحفاً، وعلى كل حـال يصدف أن لاتتحـرك السفينة مطلقاً، أو تقف كليـة، وسوف يكون ذلك مـزعجاً جـدا للذين هم على ظهرها، وبناء عليـه تقدمنا تقـدماً عظيماً على طريقنا، في تلك الليلة ذات السرعـة الكبيرة، والأنواء اللطيفـة، ومـات في تلك الأثناء فـارس نبيل هولندي، حيث جرت عمليـة دفنه حسبما أوضحنا فيما تقدم في الصفحة ٢٥٤، وقد دفناه في أعماق البحر.

وفي اليوم الحادي عشر، الذي كـان يوم عيد القديـس برنابا الرسول، تابعنا الابحـار والتقـدم بنجـاح، واجتـزنا مـدينة راغـوثا، وهي المدينة الرئيسية في دالماشيا كلها مع سكلافونيـا، التي سوف أحدثكم عنها أثناء عـودتي، ورأينا في ذلك اليوم حـدود الممالك، وهو المكان الذي تتصل به إمـارات دالماشيـا، وإليريا، ودوقيـة ألبـانيـا، والمورة أو آخيـا، ومملكة هنغـاريا، ومملكة البوسنة، ومقـدونيا، تتصل به مع بلاد الاغـريق، ذلك أن هذه الممالك تمتد حتى شـاطىء البحر، وتشكل حدود المسيحيـة نحو الشمال، لأن آخيا، وألبـانيا، والبوسنة، ومقدونيـة تابعة للأتراك، وهكذا أمضينا يومـاً ممتعاً، مـع ريح طيبة، ومناظر جميلة مـن كل جانب، وقـام البحـارة في هذا اليـوم باصطيـاد السمك، لأنهم رأوا حشـوداً لاتعـد ولاتحصى من السمك الكبير، ولم يكن لديهم وسيلة للصيـد سوى رمح حـاد جـداً برأس له ثلاث شعب، وقـد وقفـوا على أطراف الغليـون، وعندما كانوا يرون سمكة كانوا بسرعة يصيبونها ويجلبونها، وفي الحقيقة

لقد جرحوا كثيراً، لكن الذي أمسكوه كان قليلاً، ونحو حلول المساء ضعفت ريحنا الطيبة، إنما بعد غياب الشمس عادت قوية كما كانت من قبل، واستمرت طوال الليل جيدة، ولهذا قطعنا مسافة طويلة.

وفي اليوم الثاني عشر تابعنا الابحار بريح طيبة، وكنا في أعالي البحر، بعيدين عن اليابسة، ورأينا مدينة سكودروم Scodrum التي يسمونها سكوتاروم Scutarum، وهي التي أعطاها البنادقة في السنة الماضية إلى الأتراك حتى يتخلصوا من متاعبهم، ثم اجتزنا دوراسيوم Duracium (دورازو)، التي هي الآن مدينة كبيرة عائدة للأتراك، وهي التي كان قسطنطين قد قرر فيها مضى إقامة القسطنطينية في موقعها، وهذا ماسوف أخبركم به أثناء عودتي، واجتزنا أيضاً مدينة لافيلون Lav-ilone، التي إلى جانبها يوجد نهر يجري في أراضي الأتراك، ويعبرها إلى البحر، ويبحر الأتراك من وسط بلادهم على هذا النهر، من أجل اصطياد المسيحيين، وأطلقنا طوال ذلك اليوم جميع الشراع على أمل أن يتمكن من إمساك الريح، وذلك حسبما قلناه من قبل وفعلناه في اليوم السابع، ومع غياب الشمس ازدادت ريحنا الجيدة قوة، وأنزلنا بعضاً من شراعنا خشية أن نسير مسرعين كثيراً في الظلام، وفي ذلك المساء كنا جميعاً مسرورين، ومبتهجين، وظل المزمار يلعب حتى غدت الدنيا مظلمة، وامتلكنا طوال الليل ريحاً طيبة.

وفي اليوم الثالث عشر، ازدادت الريح في المساء المبكر قوة، ثم انتقلت إلى مكان آخر، ولهذا قام القادة بنقل الأشرعة، وعندما أديرت عارضة الشراع، انعطفت السفينة بشكل مفاجيء ومالت على طرف واحد، وجرى من ثم قذف جميع الحجاج الذين كانوا مايزالون نائمين من فرشهم، وكان هناك ذعر عظيم في القمرة، لكن على السطح لم يكن هناك سبب للخوف، وعندما أشرقت الشمس رأينا على يسارنا جزيرة كورزيري Gorziri، التي يسمونها كورفو Corphu والتي هي أول بلاد

الاغـريق، واجتزنا هذه الجزيرة بسرعـة، لأن الطاعون كـان منتشراً بها، ولدى متـابعــة إبحـارنا على طريقنـا دخلنا إلى بحـر ايبروس Epirus، وبذلك غـدت أبوليا وصقليـة على يميننا، وبتوفيق عبرنا في ذلك اليـوم عـدداً كبيراً من الجزر التركيـة، وخلفناهن وراءنـا، لكن عندمـا غـابت الشمس ضعفت ريحنا الطيبـة، ولم نقطع في تلك الليلة أية مسـافـة أبداً، الأمـر الذي أغضبنـا كثيراً، لأن يوم الأحـد بات قـريبـاً، وكنا نأمل أن نكون في ذلك اليـوم في ميتونا Metona (Modon) وأن نسمع قـداساً هناك، لكن الشيطان لم يكن راضياً بأن نفعل ذلك.

وتابعنا في اليـوم الرابع عشر سيرنـا على طريقنا، ورأينا جبـال آخيـا، قريبة من مـدينة باتراس، حيث جرى صلب القديس اندرو، وهنا وقفنا عند اشراق الشمس بلاحراك، لأننا لم نمتلك ريحا تساعدنا، وبعد تناول طعام الغداء هبت ريح ضعيفة، جعلت الغليون يحبو ببطيء باتجاه مدينة ميتـونا، التي يسمـونا مـودون، فإلى هناك رغبنـا بالذهاب، ومع اقتراب المسـاء انبعثت ريح قـوية طيبـة، حملتنا بعيـداً عن جـزر سامـافـرا Sa-mafra، وأخذتنـا نحو جبال المورة، وإلى مقـاطعة كـارنزا Carenza، ووصلنا بعدها إلى بلفنتور Belventor.

وعندمـا تأخـر الوقت رأينا على يسـارنا بلاد آخيـا، التي هي ملك للأتراك، ورأينا على يسارنا جـزيرة من دون جبـال، يسمـونها ستيرفيل Stirvale (Stamphane)، ويسكن فــوق هذه الجزيرة رهبـــان اغريق تابعين لطـريقة القديس باسيل، وهـؤلاء لم يستطع الأتراك مطلقاً طردهم من هناك، مع أنهم خاضوا ضدهم عدداً كبيراً من المعارك، لأنه ماأن يأتي الأتراك، حتى يندفع الرهبان بأسلحتهم، ويرغمون على الفرار كل من يقـابلهم، وقد فعلوا هذا مـراراً، لذلك لم يعد الأتراك يتجـرأون على الذهاب إلى هناك لمحاربتهم، وقد أبحرنا نحو هذه الجزيرة، وعندما عبرناها تركناها على يسـارنا، وعندمـا جاء الليل تراجعت ريحنا الطيبـة،

وقطعنا مسافة قصيرة جداً في تلك الليلة.

وفي الخامس عشر، الذي كان الأحد الثالث بعد التثليث، وهو يوم عيد القديس فيتوس Vitus والقديس موديستوس Modestus، وعند اشراق الشمس، بدأ عبيد الغليون بتحريك الغليون بوساطة مجاذيفهم، لأن الريح لم تكن طيبة، وكنا قاصدين ميناء ميتونا، الذي لم نكن بعيدين عنه أكثر من مسافة ميل ألماني، وبعد بذل جهد كبير دخلنا إليه، وكان ذلك في حوالي الساعة الثامنة قبل الظهر، ونزلنا مباشرة إلى القارب، وجذفنا إلى المدينة، حيث وجدنا الحجاج الذين أبحروا مع المعلم أوغسطين، وقد أخذت موالي وبعض الحجاج الآخرين إلى كنيسة الرهبان المبشرين، واستمعنا هناك إلى قداس رفيع.

وكان رئيس الدير في هذا المكان والرهبان الآخرين يعرفونني معرفة جيدة من رحلة حجي الأولى، وبعد انتهاء القداس ذهبنا إلى بيت الخباز، حيث يجري خبز البقسماط من أجل السفر البحري، وكان يسكن هناك عجوز ألماني، وقد تولى طبخ غداءنا، وتغدينا، ومضى بقية الحجاج إلى بيت السادة التيوتون، وأعدوا هناك طعاماً لأنفسهم، وذهبنا بعد تناول الغداء وصعدنا إلى أسوار البلدة، ومشينا من حولهم ونحن فوقهم، وأعجبنا بالدفاعات التي لاترام، ولم يكن الموضع جزيرة، بل جزئاً من اليابسة، وكان الجميع من ممتلكات الترك، وفي طريق عودتي سوف أحدثكم أكثر حول هذا، وفي هذا المرفأ كان غليون المعلم أوغسطين راسياً أيضاً، وكان جميع الحجاج بالمدينة، ولذلك كونّا صداقة سعيدة وبهيجة معهم، مع أن ذلك لم يفرح القبطانيين، اللذان رأيا أنه بسبب خصامهما، ولأنهما كانا متعاديين أحدهما ضد الآخر، علينا نحن أن نصاب بالداء نفسه، وبناء عليه يتوجب علينا تجنب صداقة ورفقة بعضنا بعضاً، المهم أننا جلبنا الحجاج الآخرين إلى ظهر غليوننا وأريناهم إياه، وهم بدورهم أخذونا إلى غليونهم لرؤيته، وهكذا أمضينا

النهار معا حتى حلول وقت العشاء، ونحن مسرورين مع بعضنا بعضاً، كونا التقينا في وسط البحر، لأنه قد قيل بأن مدينة مودون قائمة في وسط الطريق فيما بين البندقية وبين القدس، وفي حوالي وقت العشاء زعقت أبواق القبطانيين تدعو الحجاج إلى السفينتين، وعندما سمعنا هذه الشارة صعدنا إلى ظهري الغليونيين، وفي ذلك المساء نفسه غادر أوغسطين وحجاجه الميناء، لكننا بقينا نحن هناك حتى الصباح. ولسوف أصف هذه المدينة أثناء عودتي.

وفي اليوم السادس عشر، وقبل أن يضيء الصباح، قام العبيد بالتجذيف بالغليون وأخرجوه من الميناء، فأوصلوه حتى زاوية الجبل، حيث أودعناه بيد الريح، ودخلنا بحرماليان، واجتزنا مدينة كورونا، القائمة فوق صخرة عالية، وهبت هناك بعد منتصف النهار، ريح قوية، وقد أبحرنا مسرعين نحو جذور (كذا) ماليا Malea، من دون توقف أو عائق، وضاعفنا الرأس هناك من دون متاعب، الأمر الذي يحدث دوما: لأن الانسان يواجه في ذلك المكان المخاطر دوماً والمصاعب، وأبحرنا الليل كله بتلك الريح، واجتزنا عدداً كبيراً من الشعاب والصخور بحظ جيد، لأن ذلك البحر، من الصعب جداً الملاحة فيه من دون حظ جيد صادر عن ريح طيبة.

رأينا في اليوم السابع عشر جزيرة كريت، والخندق أو «سنتابولس Centapolis»، وفي بعد ظهر هذا اليوم تراجعت قوة الريح وصارت ضعيفة، ودفعتنا الأمواج إلى هنا وهناك دون أن نتقدم إلى الأمام، ولم نستطع الوصول إلى كريت في ذلك اليوم، وتجنب القبطان الآخر، أعني أوغسطين جزيرة كريت وأبحر من ماليا إلى جزر سيكلادس Cy-clades ، لكن قبطاننا لم ير تجاوز كريت، ذلك أنه رغب بزيارة السيد بطريرك القسطنطينية، الذي شغل منصب رئيس أساقفة كريت، وكان هذا البطريرك نفسه من أهل البندقية، وكان والد قبطاننا، ولهذا

السبب قرر التوقف في تلك الجزيرة، لكن خشية منه أن يتخذ الحجاج هذه المسألة أساساً للشكوى ضده، جلب في ذلك اليوم إليهم قطعة من القماش الحريري، اسمه أطلس atles ، تساوي قيمتها عشر دوقيات، ليلعبوا عليها الورق متراهنين، وقد ربح هذه القطعة اللورد بيرفون هوهن ريخبيرغ، وكان واحداً من موالي، وكان هناك كميات ضخمة من الأرباح المالية تمت على ظهر الغليون في مختلف الألعاب، لأن كل يوم من المقامرة العميقة والآثمة، تبدد بين النبلاء وذلك بالورق والنرد، وكان أحدهم الرابح، وآخر الخاسر، وكان في كل يوم هناك إنغماس في الملذات الحسية، إنما بدون خلافات، وإنني أعرف بعض الفرسان الشبان، والرجال النبلاء قد جلبوا معهم مبالغ كبيرة من المال، لأنه كان بنيتهم الذهاب إلى القديسة كاترين، وكان لديهم مايكفي لذلك، لكن بوسائط هذه المقامرة الملعونة أصبحوا في حالة عوز وفقر، إلى حد أنهم باتوا غير قادرين على تحمل الانفاق بالارتحال حتى القدس، ولولا أن رفاقهم ساعدوهم، لعادوا إلى الوطن دون تسلم فروسيتهم، وفي أيام الأعياد، عندما كنت أعظ بكلمة الرب، على ظهر الغليون، وجهت اللائمة إلى هؤلاء المقامرين طويلاً وبحدة، لكن الذين انتقدتهم تصلبوا أكثر في مواقفهم، وكانوا يجلسون في كل يوم من الصباح حتى المساء يقامرون بخمسين أو ستين، أو مائة أومائتي دوقية، منحنين على المنضدة مثل وتد وذلك من أجل لعبة واحدة، وعلى ذلك توفر في ذلك اليوم سرور عظيم، مثل سرور الحمقى، لأن جماعتنا ربحت قطعة من قماش الحرير.

وكان لدينا في اليوم الثامن عشر، بعد شروق الشمس، ريحاً ضعيفة، حركت سفينتنا ببطيء نحو كريت، وفي حوالي الظهر رأينا غليونا مسلحاً يتحرك تحركاً قرصانياً ليس بعيداً عنها، وقد استدعاه المسؤول العسكري لدينا بالطريقة التالية: فقد أطلق طلقة مدفع نحوه، ولدى

سماعهم الصوت، قام الذين يوجهون الغليون بعطف قيدومه نحونا، وجلبوه بالتجذيف إلى جوارنا، ثم انهم أنزلوا قاربا وجاء به القبطان والمسؤول الحربي، وصعدا إلى ظهر مركبنا، وتكلما لبعض الوقت مع قبطاننا ورجال التوجيه لدينا، لأن ذلك الغليون كان ملكاً للبندقية مثلما كان غليوننا أيضاً، وكانت هذه هي العادة في البحر، عندما يرى غليونان أو أكثر أحدهما الآخر، يقوم الذي يعدّ نفسه أعلى من الآخر، باستدعائه وفق الطريقة المتقدمة الوصف، وإذا كان الغليون بندقيا، يستدعى الأكبر الأدنى، وينبغي على الأدنى أن يقدم إلى حضرته، لكن إذا لم يكن الغليون بندقيا، مع ذلك إنه إذا قدم عندما دعي فذلك خير، لكن إذا لم يقدم،، عندها يقوم على الفور الذي استدعى بالإسراع نحوه بقدر ما يستطيع ويشتبك بالقتال معه، حيث يكون قد جهز مدافعه، وقسيه، ونشابه، ومجانيقه، وعندما يرى المركب الآخر هذا، يقوم، إذا كان خائفاً، بانزال شراعه، كشارة على الخضوع والصداقة، وإذا لم ينزل شراعه، فذلك يعني المقاومة والقتال، ويستعد المركبان للحرب.

ومع حلول المساء وصلنا إلى كريت، وبحثنا عن حانة يمكننا أن نتعشى فيها، غير أننا لم نجد حانة سوى واحدة أستحي أن أتكلم عنها، فقد كانت بيتاً سيء السمعة، تتولى إدارته امرأة ألمانية، وقامت السيدة، التي اقتدنا إليها، عندما رأت أننا مكونين من نبلاء وكهنة، أو رهبان، بتنظيف بيتها، ووضعت هذا البيت بجميع غرفه تحت خدمتنا، وكانت سيدة أديبة، ومحترمة، وامرأة عاقلة، وحصلت على كل ماااحتجناه بكميات كبيرة، وحصلنا على عشاء فاخر، مع خمرة كريتية، وهي التي نسميها مالفوسيه Malvoisie، ووجدنا في ذلك اليوم عنباً ناضجاً، من النوعين الأسود والأبيض بكميات كبيرة، لكن بما أن الريح كانت طيبة، أخبرونا بوجوب الاقلاع في تلك الليلة، وبناء عليه عندما انتهى عشاءنا عدنا إلى غليوننا وأمضينا الليل هناك.

وفي اليوم التاسع عشر، الذي كان يوم عيد القديس جيرفياس Ger-vais والقديس بروتياس Protais، عندما استيقظنا في الصباح، ونحن آملين بالاقلاع، رأينا عبيد الغليون يحملون سلعهم إلى خارج الغليون، لأخذها إلى السوق لعرضها للبيع، وعندما رأينا هذا عرفنا بأن الغليون لن يقلع، ولذلك نزلنا مباشرة إلى القارب، ودخلنا إلى المدينة، حيث سمعنا قداساً في كنيسة من كنائس الرهبان المبشرين، وذهبنا بعد القداس إلى حانتنا، وحصلنا على غداء جيد، وبعد ما تغدينا قمنا بزيارة جميع الكنائس والديرة في المدينة، ولسوف أتحدث عن هؤلاء بشكل كامل أثناء عودتي، ومع حلول المساء، استدعينا جميعاً إلى الغليون بوساطة أصوات الأبواق، وما أن أصبحنا على ظهر الغليون حتى همدت الريح الطيبة التي هبت طوال النهار، ولهذا بقينا في الميناء طوال الليل حيث كنا، مع كثير من الارهاق، والشكوى، وقلة الصبر.

وفي اليوم العشرين، وقبل اشراق الصباح، أخرجوا الغليون من ميناء كريت بالتجذيف وذلك بعد بذل جهد كبير، وأبحرنا مع ريح ضعيفة نحو جزيرة ستانديا Standia، وجزيرة ستانديا تواجه جزيرة كريت، وقد وقفنا فيما بينهما دون أن نتقدم، وعلى كل حال، قدمت في حوالي الظهر رياح طيبة وجديدة، أخرجتنا من بحر كريت إلى البحر الإيجي، وإلى جزر السيكلاد Cyclades ، حيث أبحرنا من خلالهن طوال هذا اليوم، وطوال الليلة التالية.

وفي اليوم الحادي والعشرين كنا في وسط السيكلاد، نبذل جهدنا للوصول إلى جزيرة رودس التي هي أول جزر السيكلاد والرئيسية بينهن، وواقعة على الجهة الشرقية منهن، وخرجنا في حوالي الظهيرة من دائرة السيكلاد، إلى منطقة اسمها نابوليا، وهذه المنطقة هي الأولى التي هاجمها الأتراك فبعدما جالوا حول العالم لمدة طويلة، قدموا إلى هذه المنطقة، فقتلوا واستعبدوا الذين سكنوا فيها، وبدأوا حكمهم هناك،

وعندما انطلقوا من هذه المنطقة، استولوا على آسيا الصغرى كلها، وانتزعوها من المسيحيين، وجعلوها خاضعة لهم.

وتراجعت قوة الرياح بعد منتصف النهار لمدة تقارب الساعة، غير أنها هبت بعد ذلك بقوة أعظم ودفعت بنا فخرجنا من نابوليا نحو رودس، وبسرعة وصلنا إلى جبال رودس، ونحو مدينة كولوسوس Colossus ، التي هي المدينة الرئيسية في تلك الجزيرة، وفي الوقت ذاته، غابت الشمس، وحل الليل علينا قبل أن نتمكن من الدخول إلى ميناء كولوسوس، وتمكنا —على كل حال— بعون ضوء القمر من الابحار إلى داخل الميناء، حيث ربطنا السفينة، ونمنا تلك الليلة، ووجدنا في الميناء غليون المعلم أوغسطين، الذي كان مع حجاجه قد نزلوا إلى شاطىء المدينة.

وكان اليوم الثاني والعشرين هو الأحد الرابع بعد التثليث، وكان يوم عيد العشرة آلاف شهيد، وبعدما حصلنا على إذن من المقدم الأعلى لفرسان القدس— الذي من دون إبداء موافقته مامن أحد يسمح له بالدخول إلى المدينة — غادرنا غليوننا، ودخلنا إلى مدينة كولوسوس، التي يسمونها رودس، وهنا ذهبنا إلى قلعة الفرسان وصعدنا إلى كنيسة القديس يوحنا، حيث سمعنا قداساً عالياً، وبعد القداس جاء بعض فرسان القديس يوحنا— وكانوا من النبلاء الألمان — إلى موالي، حيث قدموا التحية لهم باحترام كبير وسرور، وأروهم آثارهم المقدسة، وحضروا بعد ذلك لهم غداء فاخراً في بيت محترم، وهناك تناولنا غداءنا، وبعد الغداء، غادر المعلم أوغسطين وحجاجه، وعندما رأى قبطاننا بيرو لاندو هذا، نفخ في بوقه، واستدعانا إلى ظهر السفينة، ولذلك أسرعنا نحو ظهر غليوننا، وعلى كل حال، خلفنا وراءنا في تلك المدينة عدداً من الفرسان الجيدين والشرفاء، كانوا مريضين جداً، غير قادرين على متابعة السفر، وكان بينهم جيروثيوس فون راتزنهوزن -Je

rotheus Von Ratzenhusen، وعدداً من فرسان القديس يوحنا، الذين جاءوا من البندقية معنا، وقد حزنا جميعاً لفقدانهم، لأننا عقدنا على ظهر السفينة صداقة على درجة عالية من الجودة والتعايش، ومثلما يحدث في أماكن الدراسة، والأماكن المائية، يكون الفراق الذي يحل محزناً، وبقي هناك خلفنا المرأة الوحيدة التي كانت معنا، بسبب أنها ضاعت بذهابها إلى احدى الكنائس خارج البلدة، غير مفترضة بأن الغليون سوف يبحر في ذلك اليوم، وباستثناء زوجها، مامن أحد كان آسفا لغياب هذه المرأة، لأنها جعلت من نفسها ثقيلة الظل بدون حدود، بسبب كلامها السخيف، وفضولها حيث كانت تصطاد في القضايا الخاسرة.

وكان هناك أيضاً رجلاً فقيراً، أخذه القبطان معنا محبة للرب، لكنه ماكان يرغب بأخذه مسافة أبعد، ووقف هذا الرجل على الشاطىء وهو يبكي وينوح، لأنه سيكون غير قادر على الذهاب إلى القدس، وعطف عليه موالي، وأحضروه إلى ظهر السفينة، وقدموا النفقات من أجل رحلته ووضعوا تحت حمايتهم رجلاً آخر من بلادنا، كان غير قادر على متابعة السفر، وسددوا عنه النفقات كذلك، وبناء عليه أقلعنا في ذلك المساء.

وفي اليوم الثالث والعشرين، وفي عشية عيد القديس يوحنا المعمدان، أبحرنا أمام ريح قوية جداً، وكنا قد أبحرنا في الليلة المتقدمة وسرنا بسرعة كبيرة جداً، إلى حد أننا لم نر في الصباح يابسة، بل فقط البحر الأدرياتيكي (الايجي؟) والكاربائي، وعند غياب الشمس ولدى ازدياد الظلام، استعد بحارتنا لعمل نار القديس يوحنا على ظهر الغليون، وقد عملوها كمايلي: لقد أخذوا أكثر من أربعين مصباحاً مصنوعين من الخشب ومن قرن شفاف، وعلقوهم واحداً فوق الآخر فوق حبل طويل، ثم عندما أشعلت المصابيح، رفعوهم إلى الأعلى إلى مافوق القمة

الرئيسية، وذلك بشكل أن المصابيح المشتعلة تعلقت نزولاً من القمة الرئيسية حتى مقاعد التجذيف، وبذلك أضاءت الغليون كله، ومن أجل هذا المشهد جاء جميع الناس إلى السطح، من القمرة، والقيدوم، ومن الغرف الداخلية للغليون، ووقفوا حولها، وهناك بدأ البوقية ينفخون بأبواقهم، وغنى عبيد الغليون مع البحارة الآخرين، وطربوا، وابتهجوا، ورقصوا، وصفقوا بأيديهم، وتفاعل الذين وقفوا هناك مع صيحات السرور، والتصفيق بالأيدي، وابتهجوا للاحترام الذي أعطي للرائد المبارك جداً لربنا.

وقبل هذا لم أر ممارسة التصفيق بالأيدي للفرح، الذي تمت الاشارة إليه في المزمور السادس والأربعين، الذي جاء فيه قوله: «ياجميع الأمم صفقوا بالأيادي، اهتفوا للرب بصوت النصر»، كما أنني لم أكن أعتقد أن التصفيق العام لعدد كبير من الرجال بأيديهم في وقت واحد، عندما يكون صادراً عن السرور، سيكون له تأثير عظيم بأن يحرك عقل الانسان نحو السرور، وهكذا ابتهجنا كثيراً على ظهر الغليون حتى حوالي منتصف الليل، بينما كنا مبحرين أثناء ذلك كله بسرعة وهدوء ونحن على طريقنا، وتمددنا بعد هذا وأسلمنا أنفسنا للنوم، نحن الحجاج والبحارة معاً، وتركنا السفينة مندفعة أمام الريح، لكن الريح ينبغي عدم الوثوق بها لوحدها، من دون عمل الانسان، والمراقبة أيضاً، لأنها قد تتغير في لحظة واحدة، كما سيتضح في حكايتي.

وفي اليوم الرابع والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس يوحنا المعمدان، رأينا قبرص في الصباح الباكر، ولدى رؤية الملاحين في غليوننا لها، غضبوا غضباً عظيماً، لأنهم رأوا أنفسهم أنهم قد تاهوا، وابتعدوا عن الطريق الصحيح فوق البحر، وضيعوا طريقهم عندما كانوا نائمين، لأن الغليون انحرف بعيداً جداً نحو اليسار، ولولا أن موجه الغليون قد نام تلك الليلة، لكان الغليون في هذا الصباح في

واحد من مراسي قبرص المرغوب بها، ولهذا تفجر خلاف ونزاع فيما بين القبطان، ورجال القيادة، وتنازع المرشدون فيما بينهم أنفسهم، ووجهوا اللوم إلى الملاحين، ولذلك عطفوا الغليون نحو اليمين، بعيداً عن المنحى الذي كان يسير عليه، وعدنا في حوالي ساعة العشاء إلى مسارنا الصحيح، لكن ماأن أصبحنا على مسارنا الصحيح، حتى نامت الريح، وهكذا لم نتقدم في تلك الليلة مطلقاً.

وفي اليوم الخامس والعشرين وصلنا إلى مقابل أقدم موانىء قبرص، الذي اسمه بافوس، وهو الذي ورد ذكره في أعمال الرسل الاصحاح ٦/١٣ و ١٣، ورأينا على مقربة من هناك جبل فينوس الذي سوف أحدثكم عنه في طريق عودتي، وسرنا ببطىء شديد حتى الظهيرة، وعند الظهيرة هبت ريح طيبة، حملتنا بسرعة من هناك، وبسرعة أبحرنا على طول ساحل مملكة قبرص واجتزنا مينائي بيسكوبي Piscopi، وليماسول، وفي حوالي ساعة العشاء أبحرنا إلى داخل ميناء سالينا -sal inae، وجعلنا سفينتنا تتوقف بثبات بالمرساتين وبحبال الأربطة، وعلى الفور غادر القبطان وخدمه إلى الشاطىء، حيث استأجر خيولاً، وذهب إلى مدينة نيقوسيا، وهي المدينة الرئيسية في قبرص، فقد ذهب إلى بلاط المملكة، لرؤية زوجته، التي كانت السيدة المسؤولة عن غرفة نوم الملكة التي أتيت على ذكرها في ص١١٦، ولسوف أقدم وصفاً لذلك في ص١٤٣من القسم الثاني.

وعندما تركنا القبطان، وقفنا نحن الحجاج على سطح الغليون، ننظر نحو الشاطىء، وقد وقفت معهم، أحدث الذين كانوا على مقربة مني عن جفاف هذا الميناء، وعن طبيعة البلاد، لأنني أمضيت هناك أياماً كثيرة خلال حجي الأول، وبينت لموالي الحجاج الأماكن التي أعرفها على الشاطىء، وبين أشياء أريتهم جبل الصليب المقدس، وهو أعلى جبل في مملكة قبرص، الذي توجد على قمته كنيسة معلق فيها صليب

اللص الذي صلب على الجانب الأيمن للمسيح، وحدثت هؤلاء السادة بقصـــة ذلك الصليب كلهـــا، كما سترون فيها بعـــد، وفيها وقف مـــوالي والحجاج الآخرون هناك، يتساءلون حول ذلك الصليب، وينظرون نحو الجبل، الذي كان يبعد عنا مسافة خمسة أميال ألمانية، قلت لهم:«انتبهوا يا إخـوتي الأعزاء إلى أن قبطـاننا قد ذهب إلى نيقـوسيـا، ومن الصعب أن يعود في الغـد، وسيكون لدينا في الغد يومـاً طويلاً ومتعباً، والآن، وبناء عليـه، على الذي يرغب باتباعي إلى الجبل المقـدس، أن يأتي إلى مؤخـرة الغليون، ولسوف نزور الصليب المبارك، ولسوف نعود في الغد في وقت مناسب.

ومالإن قلت هذا، حتى ذهبت إلى المؤخرة، وتبعني إلى هناك عدد كبير من النبلاء، ظانين أنني قلت ذلك وفعلته مزاحاً، وقمت وأنا واقف عند القيدوم فاكتريت خادماً يعرف الطريق إلى الصليب المقدس ووعدته بأنه سوف يتسلم قطعة نقود marcella من كل واحد من رفاقي، واكتريت أيضـاً قارباً وقـائداً له ليأخـذنا إلى الشـاطىء، وعندما رأى النبـلاء أنني كنت جاداً، تبددوا وتركوني، وبقي معي على كل حال، هؤلاء الحجاج:

— اللورد هنري أوف سكومبيرغ Schomberg وكـان فـارســـاً نبيلاً، ورجلاً شجاعاً.

— المعلم جون، وكـان كاهنا، وشماسا رئيسا من ترانسلفـانيا Ttan-sylvania، وكان رجلاً تقيا وعالماً.

— المعلم كاسبارسيكولي Caspar siculi، وكان فارساً، وشاباً قوياً وشجاعاً.

— المعلم بوركـارد نوسـدورفير Burchard Nusdorfer، وكـان فارساً، ورجلاً جيداً ومرحاً.

— رجل اسمه رودلف Rudolph ، وكـان سويسريا من ثورغـو

thurgau، وكان رجلاً طويلاً وأميناً.

— رجل اسمه جون، وكان تاجراً من فلاندرز، وكان رجلاً متشوقاً كثيراً.

— وأنا الراهب فيلكس، المحرك الروحي لهؤلاء جميعاً، والخادم الذي أكتريته، وكان اسمه اندرو.

وذهبنا نحن الثمانية، ونزلنا من الغليون إلى القارب، وعندما صرنا على الشاطىء، بدأنا نبحث كيف يمكننا تدبر حجنا، لأن الساعة كانت متأخرة، وكانت الشمس قد غابت، وبدأت الدنيا تصبح مظلمة، وأخذنا دليلنا وخادمنا في الظلام إلى قرية اسمها أورنيكا Ornyca، على بعد ميل واحد عن البحر، حيث أيقظ رجلاً من الريف كان يعرفه، وقدم هذا الريفي لنا الخمرة، والخبز، والجبن، وقد أكلنا وشربنا، واستأجرنا أيضاً ثمانية بغال من القرية، التي ركبناها، وانطلقنا مسرورين، وكان القمر في الوقت نفسه قد أشرق، والسرور ملأ قلوبنا، مثلما طرد النور الظلام، ذلك أننا كنا نحن الثمانية، رفقة مختارين، وكان المناخ حسناً، والمنطقة جميلة، والطريق جيداً، وبالإضافة إلى هذا كله كانت نباتات تلك الأرض تصدر روائح طيبة جداً، لأن أعشاب تلك الجزيرة كلها تقريباً كانت توابل من مختلف الأنواع، تعطي أطيب الروائح في أوقات الليل، وذلك عندما يكونوا مبللين بالندى، وتابعنا رحلتنا حتى إشراق نجمة الصبح — الزهرة — التي تتقدم على إشراق الشمس، وكان ذلك عندما وصلنا إلى قرية اسمها القديس الصليب، حيث ربطنا حيواناتنا، وأشعلنا ناراً، وكان رفاقي قد سكروا، غير أنني تماسكت، لأنني كنت أنوي الاحتفال بقداس فوق الجبل المقدس، وقد تمددنا واسترحنا لبعض الوقت، وقد نمت حتى عم الضياء، وكنا مضطجعين على الأرض إلى جانب حيواناتنا.

وفي اليوم السادس والعشرين، الذي كان عيد الشهيدين المقدسين: يوحنا وبولص، عندما استيقظنا طلبنا من الاغريق الذين استرحنا أمام بيتهم إعداد وجبة غداء جيدة لنا، لأننا عزمنا على العودة إليه من الجبل، من دون أن نكون قد تناولنا طعام الافطار، وهكذا امتطينا ظهور دوابنا وانطلقنا، حيث كان الجبل المقدس أمامنا، يرتعد في أعاليه، ووصلنا عند سفح الجبل إلى واد شهي، كان يجري في وسطه جدول ماء عذب ونقي، كان شاطئيه مليئين بأكثر الزهور جمالاً، وهي زهور لم أعرف أسماءها، وكانت هناك نباتات ذوات روائح حلوة، كما كانت هناك أشجار محملة بقرون الخروب، التي يسميها العلمانيون «خبز القديس يوحنا»،، واتخذنا من هذا الوادي طريقنا صعوداً إلى الجبل وتحت ظل بارد جداً، بسبب أن الشمس، مع أنها كانت تبعث الدفء في الجبل كله بوساطة أشعتها، لم تصل هذه الأشعة إلى الوادي، ووصلنا على الفور إلى المكان الأكثر انحداراً من الجبل، الذي لم نستطع صعوده ونحن على ظهور بغالنا، ولذلك ربطنا دوابنا إلى أشجار هناك، وتسلقنا على أقدامنا مع جهد كبير وتعرق عظيم، لأن الجبل كان مرتفعاً، وشديد الانحدار، ويقال إنه يشبه في كل شيء جبل الطور في الأرض المقدسة، الذي عليه تغيرت هيئة ربنا، وقد سمعت هذا من رجل تسلق الجبلين معا.

وعندما وصلنا إلى القمة، جثونا على ركبنا مصلين أمام الكنيسة، وجلسنا في الهواء الطلق قبل أن ندخل إلى الكنيسة، وذلك بقصد أن نسترد أنفاسنا، وأن نمسح العرق الذي كنا متجللين به، وأن نتخلص من الحر الذي كنا فيه ونبرد قليلاً، وبعدما فعلنا هذا، أعددت نفسي أولاً، كما هو لائق، ودخلت إلى الكنيسة، وقرعت الناقوس حتى يسمع الحافظ لغرفة المقدسات ويأتي، وقدم على الفور كاهن، جاهل باللغة اللاتينية، وقد أحضر كتبا لاتينية قديمة جداً من أجل القداسات، كما أحضر أشياء أخرى لها حاجة في القداس، وبعد قرع الناقوس قرأت

قـداساً من أجل الصليب المقـدس، مع مجمـوعات من أجل الشهيـدين المقـدسين، يوحنا وبولص ومـن أجل الرحـالة، وبعـد القـداس، أدرت نفسي نحـو إخـواني ورفـاقي، وألقيت فيهـم خطاباً، أخبرتهم فيـه كيف ينبغـي عليهم تقـــــديم الاحترام الجدير للصليب لـدى رؤيتهم لـه، وأوضحت لهم في أي المجـالات يختلف هذا الصليب الـذي سنراه عن صليب مخلصنا، وفي أي المجالات هو مشابه له، فضلاً عن هذا حذرتهم أن لايكونوا فضولين أكثـر من اللازم عندما يروه، وأن لايـرغبوا برؤية معجـزة هناك، لأننا عندما سـوف نأتي للضريح الأكثـر قداسـة لربنا في القدس سـوف لن نرى معجزة، فكم سيكـون الأمر أقل، الذي نتـوقعه من هذا الصليب هنا؟ وقد قلت هذا بسبب أننا سمعنا حكايـات غريبة وشـاذة حول الصليب الذي كنا سنراه هناك، وأخـذت بعد هذا شمعـة مشتعلة بيـدي، وذهبت إلى المكـان الذي كـان فيـه الصليب، وتبعني حجاجي إلى هناك، وجاء الحافظ لغرفة المقدسات معهم، وعندما وصلنا إلى المكان فتحـه الحافظ لغـرفة المقـدسـات، وعلى هذا وجـدنا الصليب المقدس واضحـاً من الممكن لنا رؤيته بأعيننا، ثـم إنني صعدت أولاً إلى الصليب، وقبلتـه، ونظرت إليه بدقـة وحرص من الأمـام ومن الخلف، وجـاء بعـدي رفاقي الـذين قدمـوا له الاحترام، ونظروا إليـه بحـرص، واحداً بعد الآخر، وكان صليباً كبيراً إلى حدما، مغطى من الأمام بألواح من الفضة، وكان مذهبا، ولكن من الجهة التي تطل على الجدار كان غير مغطى، وكان مصنوعـاً من خشب سليم، من نوع خشب الصنوبر، وقد قالوا بأن هذا الصليب هو صليب دسمه Dysma ، اللص الذي كان على الجانب الأيمن من ربنا، وهـو الذي وعـده بالجنة عندمـا كـان على الصليب، ذلك أن حنة المباركـة، وجـدت الصلبـان الثـلاثة تحت جبل الجمجمـة، حيث أطاحت بـالصليب الذي عـاد إلى جسمـه Gesma، اللص الذي كـان على يسـاره، واحتفظـت بالصليب الثـاني، أي صليب دسمه، أما الصليب الثالث، الذي كان صليب المسيح، فقد عرضته ليراه

العالم كله، حتى يمكن أن يبجل بما جدير به، وقد جلبت صليبها، أي الصليب الذي كان صليب دسمه، جلبته كاملاً من القدس إلى هذا الجبل، وبنت هنا ديراً كبيراً للرهبان، وكنيسة وضعت فيها هذا الصليب، الذي هو أثر فائق القداسة، وقد أمرت ببناء حجرة، أو غرفة مغلقة في الجدار المواجه للمذبح، ووضعت الصليب، وبقي الصليب هناك دونما تحريك حتى هذا اليوم، وعلى كل حال بالنسبة للدير نفسه جرى اجتثاثه حتى الأرض من قبل الأتراك، والمسلمين، وقد تشتت الرهبان البندكتيون الذين سكنوا فيه، ووضع الصليب وترتيبه في مكانه مدهش، فالصليب واقف في نافذة مظلمة، ويديه موضوعتين في فتحات معمولة في الجدار، أما قدمه فموضوع في فتحه معمولة في الأرضية، غير أن الحفر التي تحتوي على الذراعين وعلى القدم واسعة جداً، وأوسع من أي معيار، ولايلامس الصليب الجدار في أي مكان، بل هو محرراً، وبعيداً عن ملامسة الجدار في أي مكان وجانب، والمعجزة المحكية في الخارج حول الصليب، هي أنه معلق بالهواء دون أي رباط، ومع ذلك هو واقف بشكل ثابت، وكأنه مثبت بأقوى المسامير، أو أنه مبني في داخل الجدار، وهو طبعاً غير مبني بالجدار أبداً، لأن الفتحات الثلاث واسعة جداً، إلى حد أن انساناً يمكنه أن يضع يده فيهن، ومن ثم يدرك بالملامسة أنه لايوجد هناك أية عملية ربط، وكذلك لايوجد في الخلف أوعند رأس الصليب.

ولقد كان بامكاني بالحقيقة البحث في هذا الأمر عن قرب أكثر مما فعلت، غير أنني خفت الرب، وليس لي الحق في أن أفعل ماامنعت الآخرين أن يفعلوه، فلقد تسلقت هذا الجبل لإظهار الاحترام نحو هذا الصليب، وليس للبحث عما إذا كانت هناك معجزة أم لم تكن، أو لامتحان الرب، ولربما كان هذا الصليب جديراً أكثر بالاحترام، لو أنهم ضموا إليه قطعة من الصليب الحقيقي للمسيح، ومعلق في هذه البيعة

ناقوس، قرعناه قبل القداس وبعده، وقلت لرفاقي بأننا لن نسمع صوت ناقوس ثانية حتى نعود إلى العالم المسيحي، وكان هذا أمراً صحيحاً، ذلك أنني لم أسمع هنا صوت ناقوس خلال مدة أربعة أشهر، وذلك باستثناء هذا الناقوس، الذي نعتقد أنه قد وضع هنا من قبل القديسة حنة، التي وضعت الصليب هنا.

وعندما انتهينا من الكنيسة، خرجنا منها، ودخلنا إلى بيت الحافظ للآثار المقدسة، على أمل أن نجد شيئاً ننعش أنفسنا به، لكن البيت كان فارغاً وخاوياً، ولم يكن فيه شيئاً مثل البقسماط والماء البارد، كما أن الرجل لم يكن قادراً أن يتحدث إلينا، لأنه كان اغريقياً صرفاً، وكانت اللاتينية بالنسبة له لغة بربرية، وكانت الايطالية عربية، والألمانية تترية، وبناء عليه غادرنا دون أن ننعش أنفسنا، وطفنا حول قلة الجبل، حيث وجدنا بعض الأسوار القديمة، وهي من بقايا معبد فينوس، الذي من حيثما نظرت منه، سواء من عبر الجزيرة أو طوليا، كنت ترى البحر، لكن بسبب الحر الشديد، كان الهواء رطباً وغائماً، فلم نستطع رؤية الأرض المقدسة، كما لم نستطع رؤية جبال أرمينيا، أو كبدوكيه، أو سورية المجوفة، أو الجليل، وكل هؤلاء كان ينبغي أن نكون قادرين على رؤيتهم، لو أن الهواء كان صافياً، ودخلنا بعد هذا إلى الكنيسة وسلمنا على الصليب المقدس وقبلناه، وأسرعنا نازلين من الجبل إلى حيث وقفت دوابنا، وتوجهنا على ظهورهم إلى قرية الصليب المقدس، حيث وجدنا غداءنا —الذي تشوقنا إليه طويلاً —جاهزاً، وهو الذي أكلناه مع تقديم الشكر، ولم يكن بامكاننا مغادرة المكان على الفور، لأن الحرارة كانت عالية جداً، وكانت الشمس محرقة مثل النار، ولذلك دخلنا إلى الكنيسة الاغريقية التي قامت على مقربة من حانتنا، حتى نتمكن من الصلاة فيها، ولكي نستريح في الظل قليلاً، وبينما نحن جلوس جاء رجل دين وقال لنا باللاتينية: «ماالذي تفعلونه في كنيسة

اغـريقية؟ يوجـد هنا على مقربة منكـم كنيسة لاتينيـة تابعة لطقـوسكم، فهناك ينبغي أن تصلوا وأن تريحوا أنفسكـم»، وبناء عليـه نهضنا، وذهبنا معه إلى الكنيسة اللاتينية، وهنا جلب من المحفوظات ذراع القديسة حنة أم العذراء المباركة، الذي صدوراً عن الاحترام له، كان محفوظاً بالفضة، كما أنه قدم إلينا مسماراً، كان أيضاً مغطى بالطريقة نفسها بالفضة، وقال بأن هذا كـان واحـداً من مسـامير المسيح، وهي المسامير التي علق بها عندما كـان على الصليب، وقد قبلنا هذه الآثار، ولمسناهـم بمجوهراتنا، حسب الوصف الذي سلف وقدمناه.

وقـد وجـدت أن رجل الدين هذا، كـان راهبـاً، الأمـر الذي لم أكن قادراً على اكتشـافه من ملابسـه لأنه كان مرتـديا لعباءة من وبر الجمل، وكان رجـلاً مسؤولاً عن الكنيستين، أي الاغريقيـة واللاتينية، وفي هذا المجـال كـان يقوم بالطقـوس للكنيستين، ففي أيام الأحـد، كـان يؤدي القداس في الكنيسـة اللاتينية، وينهيه وفـق الطريقة الغربيـة بخبز فطير، وعندمـا كـان ينتهي من هذا العمل، كـان يعبر إلى الكنيسة الاغـريقيـة، ويكمل القداس وفق الطريقة الشرقيـة بخبز مخمر، ولم يحظ هذا برضاي وأزعجني كثيراً، واعتقـدت أن هذا الكاهـن هرطيـا من أسـوأ الأنواع، ذلك أنه يقـــود الناس مضللاً لهم هنا وهناك، ذلـك أن هذين الطقسين لايمكن ممارستهما من قبل انسان واحـد، هو الشخص نفسه، كما لايجوز فعل ذلك في المدينة نفسهـا، لعـــدم توافقهما في عـدد كبير من العقـائـد الهامة، وصحيح أنه في العصـور القديمـة أن الكنيسة الرومانيـة اعتادت أن تتسـاهل تجاه الطقوس الاغـريقية، إنما حتى آنذاك لم يسمح لانسـان واحد أن يكون في الوقت ذاته اغريقيـاً ولاتينيا، وتعاظم هذا الأمر الآن عندما تدين كنيستنا الاغريق وتعدهم منشقين وهراطقة، ويقوم الاغريق في قـداسـاتهم بالنيل منا والحط ن شـأننا، ويعلنون في كل يوم أحـد إلى شعبهم بأن الكنيسة الرومـانية محرومة كنسيـا، وهم يكرهوننا ويكرهون

طقـوسنا وعلى هذا الأسـاس تبلغ بهم الكراهيـة إلى حد الرغبـة بمـوتنا جميعـا، فكيف يمكن لأي رجل مستقيم، وكاثوليكي جيـد أن يكون في وقت واحد لاتينيا واغريقيا؟.

ومامن واحد يتصرف هكذا، إلا لإرضاء شرهه أوحبه للسرور، ذلك أن مثل هؤلاء الناس يتقبلون كـل مـاهو فيـه الرضـا لأي من الطقسين والعقيدتين، وأن يرفض الأشياء التي هي صعبة ومـزعجة لحملها سواء أكـانت تابعة لهذا الجانب أو الطرف الآخـر، وقام عـدد كبير من الكهنة اللاتين بتحويل أنفسهم إلى العقيدة الاغـريقية، حتى يمكنهم المغامرة في ميدان الزواج، ومع هـذا تراهم في الوقت نفسه يرغبون بـالتمتع بحرية الكهنة الموجودة في العقيدة اللاتينية، التي هي ليست عقيدتهم.

وهكذا قمنا بعــد الظهيرة، عندمـا بدأ الحر يضعف، بـامتطاء ظهـور دوابنا، ومضينا نازلين نحـو البحـر حتى كنيسة القـديس اللعـازر، التي قامت على الشـاطىء، في مواجهة غليـوننا، وعلى بعد مسـافة طويلة عن البحر، وهنا قمنا بإعادة دوابنا إلى أصحـابهم، وكان هناك على الشـاطىء سـوق كبير، وقـد اجتمع فيـه حشـد كبير من الناس من أجل غليـوننا، الذي جلب منه مـلاحونا سلعهم، وكـانوا يتولون بيعهم إلى القبـارصة، وكان ذلك موجوداً في كل مكان نزلوا به، وبعدما شاهدنا السوق، عدنا إلى غليـوننا، إلى سـادتنا ورفـاقنا، الـذين وجـدناهم آسفين، وغـاضبين بسبب أن القبطان لم يكن قـد عاد بعـد، وكـانوا قد أمضـوا نهاراً منهكاً جداً، وتحلق جميع الحجـاج من حولنا ليسمعـوا حول مـارأيناه، وعندما سمعـوا قصتنا، قـالوا بأننـا كنا محظوظين، وأنهم آسفين لأنهم لم يذهبـوا معنا.

وفي اليوم السابع والعشرين، عندما وجدنا بأن القبطان تأخر بالعودة، قام بعض الحجـاج، وكنت واحداً منهم، بالنزول بأنفسهـم إلى الشاطىء لامضـــاء النهـــار هناك، وبقي الشطر الأعظم من الحجـــاج على ظهـــر

الغليون، خوفاً من هواء قبرص، الذي هو مضر بشكل عام للألمان، مالم يكونوا أقوياء، وأصحاء في أجسادهم، وبناء عليه فإن النبلاء الذين خافوا على أنفسهم ولم يغامروا بها لم ينزلوا إلى قبرص، وعندما كنا على الشاطىء ذهبنا إلى المكان الذي يعمل فيه الملح، حيث أمكننا أن نرى من خلال الخرائب، أنه قد كانت هناك مدينة ذات حجم لم يكن صغيراً، وكان خلف المدينة مكان محاط بتلال، حيث يتكون هناك عندما يفيض البحر، بحيرة صغيرة، وعندما تتراجع مياه البحر بسبب الجزر، تتعرض المياه التي تبقى هناك إلى الجفاف بسبب حرارة الشمس، والذي يبقى عبارة عن أفضل أنواع الملح، وأعظمها بياضاً وثمناً، ويحمل هذا الملح إلى كثير من البلاد للبيع، وتتلقى ملكة قبرص كثيراً من المال من الذين يتجارون بالملح.

ورأيت في أثناء حجي الأول عدداً كبيراً من الرجال يعملون في فصل الملح عن الماء، وهو الملح الذي لم يكن قد جف بعد، وقد كان هناك كثيراً من الأكوام الطويلة من الملح قائمة هناك وكأنها تلال صغيرة، لكن الآن لم يكن هناك ولا انسان واحد، وكان حيث قامت من قبل أكوام الملح، مياه عميقة إلى حدما، وعند حلول وقت العشاء عدنا إلى ظهر غليوننا، وكنا غاضبين جداً من القبطان، ووصلت في ذلك المساء، في قارب، المرأة التي خلفناها في رودس، وقد أشفقت على هذه المخلوقة المسكينة، بسبب المصاعب التي تعرضت لها، بسبب إبحار الغليون.

وفي اليوم الثامن والعشرين، جاء القبطان من نيقوسيا، قبل طلوع الشمس، مع بعض القبارصة الذين رغبوا برؤية الأماكن المقدسة في القدس، وكان بينهم امرأة تقية، من بلاط الملكة، أرادت أن تنهي حياتها في القدس في جوار الأماكن المقدسة، ورفعنا المرساتين، وأبحرنا ببطىء شديد ونحن خارجين من الميناء، لأن الريح كانت ضعيفة، وازدادت عند الظهيرة قوة، لابل صارت قذرة، ودفعنا بسرعة وبقوة إلى الخلف

إلى الساحل الصخري لجزيرة قبرص، وعندما صرنا هناك ألقينا بالدليل، فوجـدنا أن المجس كان قريبـاً من القعر، ولهذا خشيـة منا من أن نواجه أية صخرة أو Bitholassumأنزلنا الأشرعة، وأبعـدنا السفينة من بين أيدي الريح، وألقينا بمرسـاتينا وانتظرنا ريحاً طيبـة، وكـان هذا التأخير مزعجاً جـداً لنا، لأننا كنا نتحرق شوقاً لرؤية الأرض المقـدسة، عارفين أن علينا عدم رؤية بلاد أخرى قبل أن نصل إلى تلك البلاد التي تشوقنا لها.

وكـان تأخرنا مـزعجـاً جداً، فـوق كل شيء إلى القبطان مع أعـوانه، الذين خشيوا من أن يكون أوغسطين الذي ذهب قبلنا مع حجـاجه، قد حصل على الاذن بدخول الأرض المقدسة قبل وصولنا إلى هناك، بسبب لوأن ذلك حدث، لكنا مرغمين على المكوث في الميناء حتى ينهي أولئك حجهم، ويعودوا إلى ظهر البحر ثانية، فذلك سوف يعني الموت بالنسبة لنا، وفـوق تحملنا، لأننا لو وجـدنـاهم في ميناء الأرض المقـدسـة، لكنا مرغمين على العودة إلى قبرص مباشرة، وأن ننتظر هناك عودتهم، وهبت بعـد غياب الشمس ريح خفيفـة، عهـد إليها بالسفينة، وزحفنا قـاطعين مسافة قصيرة في تلك الليلة.

وفي اليوم التاسع والعشرين، الذي كان يوم عيد الرسولين المقدسين: القـديس بطرس، والقـديس بولص، والذي كـان أيضاً الأحـد الخامس بعد التثليث، دفعت بنـا ريح قذرة نحو الخلف من جـديد، حتى وصلنا إلى ميناء ليماسـول، الذي كنا قد اجتـزناه يوم الأربعاء الماضي، ورسـونا هناك، وهنا حمل البحارة الفؤوس، وذهبوا بالقارب إلى الشاطىء، حيث دغلة من الأشجـار، منها قطعـوا بعض الأخشـاب من أجل نار المطبخ، من دون أن يتذكروا، أن ذلك اليوم كـان يوم عيد الرسولين، ويوم أحد أيضـاً، وعندما أصبح الوقت متأخـراً، رفعنا المرساة، وأبحـرنا مسرعين حيث ابتعـدنـا عن قبرص ودخلنا إلى البحـر المفتـوح، حيث لم يكن

بامكاننا رؤية يابسة، لامن الأرض ولامن الجزيرة، لأننا كنا بعيدين كثيراً.

وفي يوم الثلاثين، الذين هو يوم ذكرى القديس بولص، واليوم الأخير من حزيران، أبحرنا مسرعين، وتطلعنا بشوق عظيم لنرى المشهد البهيج للبلاد المجيدة التي كنا متشوقين كثيراً لها، حتى موسى، بعدما اجتاز خلال قفار الصحراء، واقترب من أرض الميعاد، قام لشدة تشوقه بالصعود إلى قمة جبل فسجه، حيث رأى من هناك الأرض المقدسة، وذلك حسبما جاء الخبر في سفر التثنية: ٣٤/ ١، وهكذا كنا نحن الذين قدمنا من بلادنا عبر البحر الكبير، حيث تسلقنا باستمرار إلى أعلى أجزاء السفينة، لنتمكن بأعيننا من ألقاء نظرة على البلاد التي كنا قاصدين إليها، وكل من يرى هذه البلاد من البحر، يعد نفسه رجلاً سعيداً، ولهذا رجونا ورشونا صغار البحارة الذين كانوا يتولون المراقبة من القمة الأساسية، أن يديموا النظر بكل عناية من حولهم، من جميع جهات البحر، وأن ينذروننا بالصراخ، في اللحظة التي يرون فيها الأرض المقدسة، وقد نوينا أن نعطي هدية جيدة للذي سوف نسمع صوته أولاً يحمل إلينا البشائر السارة، وماكان مصدر هذا أي نوع من التفاخر، بل مجرد وصف صحيح لما حدث، وأعترف أنا شخصيا، أنني من جهتي في رحلتي حجي، كنت خلال الأيام، التي كنت متوقعاً فيها اقتراب رؤية الأرض المقدسة، لم أهتم لابالأكل ولا بالشرب، أو النوم، وكانت ساعات الظلام المعدة لاستراحة الناس مزعجة جداً بالنسبة إليّ، وكان فراشي شوكة بالنسبة إليّ، وكان مخدعي جهنما، ولم أعد قادراً لاعلى القراءة ولا على الكتابة، ولا على الحديث مع الناس مثلما كنت من قبل، بل اقتصر سروري على الجلوس فوق قيدوم الغليون، على القرنين هناك، وأن أنظر من هناك بدون توقف عبر البحر الواسع، علني أتمكن بتعب عيني من اطفاء الحمى في عقلي، وكنت حتى ألعن الليل،

لانتـزاعه مني وسـائط الرؤية، أعني الضـوء، وكنت خـلال هذه الأيام كلها أجلس فوق القيدوم قبل الفجر، الذي كنت أرحب بأشعته ببهجة، ومن ثم كنت أنتظر أشعة الشمس، حيث كنت ألقي بتيقظ بناظري عبر وجه البحـر، وأثبتهما نحو الشرق، الذي لم أفترض أنه تحت الماء، بسبب ارتفـاع البحـر، ولذلـك أكن أنظر نحـو الأعلى، بل أثبت نظري دونما تحريك على ذلك الجزء من السماء الذي بدا لي أنه متصل بالبحـر، أوهو جـزء من الأفق، وعندمـا كـانت تشرق الشمس، اعتـدت على أن أنظر بتشوق فيما إذا كنت أستطيع أن أرى أي عـائق أو جسم غير شفاف بين الجسد المضيء للشمس وبين الجسد الصافي والواضح للماء.

وعلى هذا فإن أي قـداس يعترض، لايمكن أن يكون سـوى الأرض المقدسة، التي أعرف أنها واقعـة إلى الشرق منا، لأنه عندما كان الغليون يسبح فـوق أعالي البحـار، وكانت الشمس تشرق، لقـد بدت لي وكأنها أشرقت من خلال الماء، وأن مـامن شيء يمكن رؤيته بين الشمس وبين الماء، وكـان الشيء نفسـه يحدث عند غيـاب الشمس أيضـاً، حيث كـان يبدو لي أن الشمس قد غطست في الماء، ولكـن عندما بات الغليون على بعـد حـوالي عشرين أو ثلاثين ميـلاً ألمانيـا من البـلاد، بدت الشمس لي وكأنها قادمة من جبال تلك البـلاد، ولذلك كان من الممكن رؤية الجبال في ضـوء الفجـر قبل الشمس، لأنهم قـامـوا فيها بين الشمس والبحـر، ولكن مـاأن تـرتفع الشمس فـوق الجبـال، ويمضي على ذلك سـاعتين أوثلاث ساعات، حتى تصبح هذه الجبال غير مرئية، ولهذا اعتدت على الوقـوف قـرب القيـدوم في أوقـات الغسـق المبكر، آمـلاً برؤية الأرض المقدسـة قبل اشراق الشمس، واعتـدت أيضاً على تحية الشمـس المشرقة بسرور، لأنه من دون مساعدة الشمس لايمكنني رؤية تلك البلاد، لكن عندما كنت أرى أن الشمس قـد ارتفعت عالية فـوق البحر، دون رؤية للبلاد أثناء ارتفـاعها، كنت أنصرف حـزينا، ومن ثم كنت أشغل نفسي

لبعض الوقت بمسائل أخرى، وكان هذا هو الحال أيضاً مع الحجاج الآخرين، لكن ليس الجميع، بل فقط الذين أحبوا الأرض المقدسة وتشوقوا إليها، Ach, mein Gott، كم هو عذب يمكن أن يكون حب الأرض السماوية للتقي، وباعث على الاستغراق بالتأمل، عندما يقوم بعض الحجاج المتجولين، من غير الأتقياء، والتعساء والمذنبين، بالشعور بالسرور العميق، وبالتشوق الحار إلى الأرض الدنيوية، ومثلما فعلت مريم المجدلية، وقامت وهي تتحرق بنار الحب، فانحنت بنفسها مراراً، ونظرت في الضريح، حيث كان محبوبها قد تمدد، مثل هذا يفعل الحاج المحب. حيث غالبا ماكان يقوم وهو في سفينة، ويحدق بثبات نحو الشرق، عله يرى البلاد التي فيها ضريح محبوبه، وهكذا اعتدنا أن نجلس اليوم بطوله، ننظر عبر البحر، محاولين فيها إذا كنا قادرين على رؤية شيء غير الماء، وكان بعضهم أحياناً، يتصور من خلال قوة التخيل، أنهم قد رأوا البلاد، وكانوا على ذلك يدعون الآخرين إليهم، ويطلبون منهم التطلع، وكانوا ينشغلون معهم بنقاش تقوي، حيث يعلن طرف بأنه قد رأى البلاد، وينكر الطرف الآخر ذلك، وكانوا في بعض الأحيان أثناء النقاش يقوم أحدهم بالتراهن مع آخر بأنه كان مصيباً، وكانا يحيلان القضية إلى نظر انسان آخر، كان جالساً على القمة الأساسية، وعندما كان يعطي قراره، كان أحدهما يعطي الآخر زجاجة من الخمرة المالفوسية، أوشيئاً ما آخر تراهنا عليه، وكنا بالوقت نفسه نبحر بتقدم، وكانت هناك ريح طيبة جداً، ولطيفة، ولقد بدا لنا بأن البحر المالح نفسه قد بدأ يتحول إلى عذب، وقد منحنا إبحار طيب، وأن هذا كان بسبب قربه من عذوبة تلك البلاد التي كانت تفيض بالعسل والحليب، وهكذا عبر ذلك اليوم مع الليل، ونتيجة لذلك وصل شهر حزيران إلى نهايته.

هنا انتهى الفصل الثالث

طريقة تقديم وصف الحج في الأرض المقدسة والقدس

أما والآن وقد جلبتني جولاتي، بفضل نعمة الرب، عبر البحر، إلى الأرض المقدسة، سوف أشرع في المستقبل بالحديث عن مسيرة حجنا يوما فيوماً، وأن أبدأ —كما هو معتاد— كل يوم بالمساء المتقدم، وهكذا بعدما يزور الانسان بعض الأماكن المقدسة، يأتي وصفها بعد ذلك، ومنذ الآن سوف أقوم بوصف جميع الأماكن التي امتد إليها حجنا، والتي زرناها، ولن أمزج أوصافي وأدخل فيها وصف الأماكن التي لم يذهب إليها حجاجنا، ولن أصف جميع الأرض المقدسة، أو الأوضاع القديمة لمدينة القدس، وذلك باستثناء ماأجبر على ذكره من أماكن أنا لم أرها شخصيا، وعلى كل من أراد الاطلاع على أجمل الأوصاف القديمة للبلاد المقدسة، ليقم بقراءة كتاب الراهب بوتشارد — الذي كان من طائفة الرهبان المبشرين، والذي توجد نسخة منه في مكتبة الرهبان الدومنيكان — أو الرهبان المبشرين، في أولم، ومن هذا الكتاب، قام رفيقي الحاج، اللورد ذي المولد النبيل، برنارد فون بريتنباخ Braitenbach ، الذي كان عميد الكنيسة الكاتدرائية في مينز، بنسخ وصف الأرض المقدسة، حيث أقحم ذلك في كتاب يوميات رحلة حجه.

الفصل الرابع
ويحتوي على أعمال الحجاج في الأرض المقدسة خلال شهر تموز مع وصف للأماكن المقدسة في القدس وفيما حولها

كان شهر تموز شهر بهجة الحج، فهو الشهر الذي ظهرت في يومه الأول الأرض الأكثر تبجيلاً، ظهرت إلى الحجاج المذكورة أعمالهم في هذا الكتاب، فقد أبحرنا بسرعة وتقدم من بحر بامفيليا Pamphylia، إلى بحر سورية وفينيقيا، وبعدما دفعنا من هناك نحو الجنوب، وصلنا في تلك الليلة نفسها إلى بحر فلسطين المرغوب به، وما أن بدأ الفجر بالاضاءة، حتى أضاءت هناك أيضاً البلاد، التي هي أكثر نوراً من الشمس، وأعني بذلك الأرض المقدسة، التي هي بلاد كنعان، البلاد التي اسمها أعلى من كل اسم، فما أن رآها رجل المراقبة الذي كان جالساً فوق القمة الأساسية، حتى انفجر يبكي ويصرخ قائلاً:«سادتي الحجاج، انهضوا، وتعالوا إلى السطح، وانظروا إلى البلاد التي تشوقتم إلى رؤيتها بأعينكم، ولدى سماع هذا الصراخ، اندفع الجميع من كل زاوية من زوايا الغليون، رجالاً ونساء، وشيوخاً وأطفالاً، ومرضى وأصحاء، وتسلقوا نحو الأعلى، علهم يرون البلاد، التي من أجلها تركوا بلادهم، وعرضوا أنفسهم إلى كثير من المصاعب وإلى خطر الموت، وعلى كل حال بما أننا كنا مانزال على مسافة بعيدة، لم نكن قادرين على رؤية أي شيء باستثناء البحر، غير أن البحارة قد أعلنوا أنهم يستطيعون رؤية البلاد، لأنهم كانوا معتادين على البحر، ويمكنهم التمييز بين السفن واليابسة، حتى وإن كانوا مايزالون على مسافة بعيدة، وبدأنا نحن أنفسنا نرى القمم ورؤوس الجبال، منبعثة وكأنها خارجة من البحر.

وكـان ملاحـونا مايـزالون يتشككون حول أي البـلاد من الممكن أن تكون هي، فقد قـال بعضهم بأنها كانت كبدوكية، وقـال بعضهم الآخر بأنها كانت كليكيـة، وبعضهم قال بأنها سـورية الفينيقية، وصرح الشطر الأكبر منهم بأن كبـدوكيـة كانت على جهـة اليسـار منا، وأننا قـد صرنا بعيدين عنها بعدمـا اجتزناها، وعلى هذا كنا في اتجاه أنطاكية، وأن البلاد التي ظهرت على جهـة يسارنا كانت سورية الفينيقيـة، وأن الذي أمامنا، على بعـد مسـافـة كبيرة، كـانت فلسطيـا، أو فلسطين، المتصلة بالأرض المقدسـة، وقد كـانت بالفعل كذلك، وعندما لم يعـد هناك من شك بأن الذي رأيناه كـان الأرض المقـدسـة، وأن جبـالها هي التي كـانت أمـام أعيننا، عندها أمر القبطان بأن على الناس جميعاً الهدوء، وأكد عن طريق صـوت المنادي بأن هذه كـانت هي الأرض المبـاركة، التي فيهـا جـرى الحمل بيسوع المسيـح ابن الرب، وفيها ولد، وعـاش، وصلب، ومات، ودفن، وقـام ثانية من ضريحه في اليـوم الثـالث، وذلك مانعلنه ونعتقـده بثبات، وبناء عليـه أخبرنا أنها تواجهنا، وأنه ينبغي علينا أن نقدم الشكر مباشرة لمخلصنا، وأن نغني ترنيمة نعبر بها عن سعادتنا بصوت مرتفع.

وبناء عليـه قـام الحاجـان، اللـذان كـانا كـاهنيين، وراهبين، واللذان امتلكا صـوتاً جيدا، فسـارا على مجاراة مقـاعد التجـذيف حتى مـوضع السارية، أي إلى المكان الذي جرت العادة على قراءة القداس فيه، وهناك شرعـا معـا يغنيـان بصـوت مـرتفع تـرنيمـة أمبروز وأوغسطين (Te Deum laudamus) التي شـارك فيهـا جميع رجـال الدين الآخـرين الذين كانوا بين الحضـور، وغنوها كما تغنى في الكنائس، حيث غنى كل انسـان وفقاً للحن الـذي يغنى في جوقـة مـوطنه، وأنا لم أسمع قط مثل هذه الأغنية من حيث العذوبة والمتعـة، لأنه كانت هناك أصوات كثيرة، وقـد جعلهـا تعـدد الأصـوات المتنافـرة كما لـو كـانت مـوسيقى عـذبة ومتناسقـة، لأن الجميع مثل بعضهم غنوا الكلمات نفسهـا، لكن الألحان

كانت مختلفة، ومع ذلك تآلفت مع بعضها بشكل عذب، وكان شيئاً ممتعاً سماع مثل هذا العدد الكبير من الكهنة يغنون الأغنية نفسها مع بعضهم صدوراً عن السعادة في قلوبهم، وقد كان هناك عدد كبير من الرهبان اللاتين، والسكلافونيين، والايطاليين، واللومبارديين، والغاليين، والفرنجة، والألمان، والانكليز، والايرلنديين، والهنغار، والسكوت، والداشيين، والبوهيميين، والاسبان، وكانت هناك أعداد كبيرة ممن تكلم اللغة نفسها، لكنهم جاءوا من أسقفيات مختلفة، وانتموا إلى طوائف دينية مختلفة.

ولقد غنى هؤلاء جميعاً أغنية Te Deum، التي شارك فيها حتى العلمانيون من الحجاج وطاقم الغليون مع بعضهم، وصرخوا عاليا لسرورهم بحظنا السعيد، ونفخ البواقون بصوت مرتفع، وصوتوا بآلات الـ Shawms وواحد منهم بآلات الـ Bogadellus والـ Jon-gleur، وقرعوا على الطبل وعلى الـ Sack but، في حين نفخ آخرون بالمزامير وموسيقى القرب، وفي الوقت نفسه طأطأ بعضهم وجوههم نحو سطح السفينة وصلوا وهم متوجهون نحو الأرض المقدسة، وبكى آخرون سروراً وهم يغنون، وهكذا غنى الجميع أغنية جديدة أمام عرش الرب، وغنت الأرض والبحر مع أصواتهم، وبدا لنا ونحن نغني أن غليوننا قد انحنى تحت أقدامنا وأبحر بسرعة أكبر، شاقاً الأمواج بحرية أعظم، وقد ملأت الريح الشراع تماماً، وتحركت المياه بوساطة الريح، فأرسلتنا بسرعة أعظم، وعندما فرغنا من أغاني شكرنا، صوت البواقون بالدعوة للغداء، وجعل كل انسان، وهو مسرور، نفسه مستعداً ليجلس إلى المائدة.

وحدث أن واحداً من الكهنة، وكان رجلاً ثقيلاً ومحترماً، ومتقدما بالسنين، وكان ينام في مخدعه على يميني، كان مسرعاً نحو مخدعه، بعد الغناء، وعندما لمست قدمه الدرجة الأولى من السلم، التي كانت ناعمة

جـداً بوسـاطة العمل الدائم عليهـا، انـزلق، وسقط بشكل عنيف نحـو الأسفل في داخل القمـرة، وتمدد هناك وكأنـه ميت، وبناء عليـه أسرعنا جميعـا لمساعـدة أخينا، وكان مهشم الرأس، مرتجف الأطراف، فحملناه إلى فراشه على أنه كان ميتاً، لكن بعـد مضي عدة ساعات عاد إلى وعيه، وقد ربطت جـراحه وعـولج طبياً، وبعـد مضي عدة أيام فيما بعـد صار أحسن .

وبعـد الغداء وقفنا على جـوانب السفينة، وكان بامكاننا رؤية الجبـال فقط، التي بدت لنا جرداء وبيضاء، ورأينا بعد الظهيرة جبالا عالية نحو الشمال، كان بينها وبين أنفسنا، وعلى مقـربة من البحر جبل الكرمل، في مقـاطعـة فينيقيا، وعندمـا حـدقت به، تذكـرت كيف أن النبي المقـدس اليشع قد صلى على ذلك الجبل من أجل المطر، وذلك عندما لم تمطر لمدة ثلاث سنوات وستة أشهر، وكيف أنه وهو يصلي، ارتفعت غيمة صغيرة من هذا البحـر، تشبه طبعـة قـدم انسان، هطل منهـا مطر عظيم، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الثالث — الاصحاح ١٨.

وفكرت أيضاً، كيف أن الملك شاؤول بنى فوق بناء مقبب على ذلك الجبل قـوس نصر وفق طرائق الشعـوب نقش عليـه أخبـار انتصـاراته، ورفعه عالياً إلى حد يمكن رؤيته من قبل الذين يرتحلون بكل من البحر والبر، وبذلك أغضب الرب كثيراً، وذلـك حسبما يمكن قـراءة ذلك في الاصحـاح الخامس عشر من سفـر الملوك الأول، وتسـاءلت أيضـاً لماذا شبه العـريس في الاصحاح السـابع من أغنية سليمان رأس عـروسه بهذا الجبل قائلاً:« رأسك عليك مثـل الكرمل» (نشيد الانشاد٧٠/ ٥)، ومن هذا الجبل وبسبب كثـرة خيراته، أطلق على البـلاد المقـدسة كلهـا اسم الكرمل، كما جاء عند إرميـا الاصحاح الثـاني:٧، قوله:«وأتيت بكم إلى أرض الكرمل» (في النص العربي: إلى أرض بساتين لتأكلوا ثمرها).

ومن هذا الجبل حصل الرهبان الكرمليون على أصلهم، وفي العصور

القديمة امتلكوا ديراً كبيراً هناك، وتأسست هذه الطائفة من قبل واحد اسمه ألبرت، كان بطريرك القدس، في العصر الذي استولى فيه المسيحيون اللاتين على القدس، وأمرهم ألبرت المتقدم الذكر بارتداء رداء كهنوتي ليكون ثوباً خارجياً، وأن يكون من الحرير مع عدة خطوط أفقية عريضة لونها رمادي، وقالوا بأنهم فعلوا هذا لأن النبي الياس قد لبس ذلك، وهذا أمر، لايمكن —على كل حال— البرهنة عليه لا من النصوص الشرعية المقدسة، ولامن أي مصدر موثوق، وقام بعد أمد قصير البابا هو نيروس الثالث، فغير هذا الرداء الكهنوتي المخطط إلى رداء أبيض وأكد وجود الطائفة ووافق عليها تحت اسم «طائفة العذراء المباركة مريم الكرملية»، وهم يقولون بأن سلطان مصر قد اعتنى بهذه الطائفة وأولاها اهتمامه بمنحها احتراماً زائداً، ورعاية، مع مساعدات مالية، ومنافع أخرى، من أجل ذكرى النبي إلياس، الذي يقدره المسلمون كثيراً، غير أنه فعل ذلك طالما كانوا يرتدون ثوبهم المتقدم ذكره، لكن عندما غيروه طردهم من بلاده، ومن جميع ممالكه، وبناء عليه أرغموا على مغادرة جبل الكرمل، وعندما حدث ذلك انتشروا الآن في الخارج في جميع الأراضي المسيحية، ولولا أن الكرمليين لم يتخذوا الرداء الأبيض لكان بإمكانهم الإقامة في جبلهم حتى هذا اليوم بدون معيقات من قبل المسلمين، لأن الأردية البيضاء لها مكانة سامية بين المسلمين، حيث لايجوز لأي مسيحي استخدامهم، ولهذا السبب عندما كان الرهبان المبشرين يرتدون الأزياء البيضاء، جرى طردهم من حقل الدم، الذي شروه من السلطان مقابل كثير من الذهب، وفي هذه الأيام، إذا ماأقدم الرهبان الفرنسيسكان على لبس الأردية البيضاء، لن يدعهم المسلمون يبقون في القدس.

ويوجد عند سفح جبل الكرمل، جدول قيشون، فهناك قتل النبي إلياس أنبياء بعل، وذلك حسبما ورد في الاصحاح الثامن عشر من سفر

الملوك الثالث (الأول)، وعند سفحه أيضاً هناك مدن صور، وصيدا، وعكا أو بطولميس، وهي مدن عظيمة نقرأ عنها كثيراً في الكتابات المقدسة، وأخيراً تحولنا بأعيننا عن الشمال، ووجهناهن نحو الشرق، فكان أن رأينا اليهودية مع جبالها، وفوق كل شيء جبل مودين، الذين دفن المكابيون عليه، وقد بنى سمعان فوق قبورهم بناء كان عالياً لكي يشاهد عن بعد، وكان من حجارة مصقولة من الأمام ومن الخلف، وأقام هناك سبعة أهرامات، ووضع من حولهم أعمدة كبيرة، وكان منقوشاً على الأعمدة صور أسلحة لتكون ذكرى دائمة، وإلى جانب الأسلحة جرى نقش صور سفن حتى يمكن مشاهدتها من قبل الذين يبحرون في البحر، وذلك حسبما جاء مكتوباً في سفر المكابيين الأول — الاصحاح الثالث.

وأشرت لهذا الجبل وإلى الأماكن الأخرى التي أعرفها إلى موالي، عندما كنا مانزال في البحر، وكنا في الوقت نفسه نقترب من الأرض المقدسة، والدخول إلى ميناء يافا، والرسوفيه، حيث وجدنا أن غليون المعلم أوغسطين مع حجاجه لم يصل بعد، وقد سررنا لذلك سروراً عظيماً، حيث لو أن حجاجه نزلوا إلى اليابسة لجرى اهمالنا، وعندما كنا غير بعيدين كثيراً عن غليون المعلم أوغسطين، تحرينا ووجدنا القعر، وتركنا مرساتينا وأنزلناهما، ووضعنا سفينتنا بعيداً عن صخور أندروميدا، التي تحرس ذلك الميناء، ولم نتجرأ على الاقتراب كثيراً من الشاطىء، خشية أن نثير غضب المسلمين، لأننا لم نكن قد تسلمنا جواز عبور وأمان منهم، ولكي يعرف المسلمون الذين كانوا يحرسون ميناء يافا وهم من فوق الأبراج، أننا قدمنا مسالمين، أنزلنا عارضة الشراع الرئيسية، وطوينا شراعنا الرئيسي، ولم نظهر أية زينة، كما اعتدنا أن نفعل عندما كنا نحل في موانىء أخرى، ولم نرفع أية أعلام، كما لم نطلق أي مدفع، ولم ننزل أي قارب، ولم نزين غليوننا بأي شكل من الأشكال،

كما لم ننفخ بأبواقنا، أو نفرنـا، أو بمزاميرنا القرنيـه، بل تصرفنا مثل قوم أدباء متواضعين ودافعين للجـزية إلى السيد السلطان، حيث كنا بحـاجة إلى جـواز وأمان منه، وكنا مثـل أسرى وعبيد لدى المغـاربة والمسلمين، ورسونا على بعد من أبراج يافا ننتظر تكرمهم علينا.

وكـان المعلم أوغسطين، قبطان الغليون الآخـر، قد بعث رسـولاً إلى رجال الأبراج في يافـا، حتى يتفقوا معهم من أجل الحصـول على جواز وأمان لغليونه فقط، لكن عندما فهم المسملون وأدركوا أن هناك غليون آخر كـان قادماً إلى هناك مع حجـاج، كانوا على غير استعـداد للاصغاء للمعلم أوغسطين وطردوه من عندهم، وأرغمـوه على العـودة إلى ظهـر غليونه حتى يدخل الغليون الآخر، الأمر الذي كان معاكساً تماما لما كان في تفكير القبطانين، لأن كل واحـد منهما نوى أن يقـود حجاجـه حـول الأمـاكن المقدسـة لوحـدهم، بسبب الشكاوى والمشـاعر العدائيـة التي حملهـا كل واحـد منهما تجاه الآخـر، وعلى كل حـال رغب المسلمـون، وأعدوا أنفسهم للاصغاء إلى رغبات حجاجنا، أكثر من اهتمامهم بهذين الرجلين المتخـاصمين، ذلك أن الحجـاج في الغليـونين كـانوا أصحـاب موقف واحد، ورغبوا في أن يؤخذوا جميعـاً معاً لرؤية الأماكن المقدسة، وهكذا انتهـى اليـوم الأول من تموز، ونمنـا في تلك الليلة على ظهـر الغليون لأننا أرغمنا على فعل ذلك.

وفي اليوم الثاني من تموز الذي كان عيد زيـاره مريم العذراء المباركة، أنزل ربابنة غليوننا قارباً إلى البحر، قبل اشراق الشمس، وبعث القبطان بعضـاً مـن خـدمـه، ممن كـان قـادراً على القيـام ببعض الأعمال، مثل التجذيف بالقـارب إلى الشاطىء، والحصول على جـواز المرور والأمان، وجرى فعل الشيء نفسـه من قبل المعلم أوغسطين، أي القبطان الآخر، وكـان لدى أوغسطين هذا عبـد غليون من أهـالي القدس، وكـان مسلماً معمداً، وقد بعث به حتى يتـدبر أعماله له، وهكذا ذهب خدم القبطانين

إلى الرملة، وأبلغوا عن وصول الحجاج إلى حاكم الرملة، وذهبوا بعد ذلك إلى القدس، وأوصلوا الأخبار إلى الأب المتولي لدير جبل صهيون، ورجوه أن يقوم من دون تأخير بالحصول مباشرة على جواز السفر والأمان من حكام القدس، والرملة وغزة، وأن يجلب الترجمان كالينوس Calenus مع بعض المماليك المسلمين، وأن يرسل حميراً، وسائقي حمير، وكل شيء محتاج لجلب الحجاج إلى هناك، بأقصى مايستطيع من سرعة، وأن يقدم هو شخصيا ويجلبهم إلى الشاطىء، وفي الوقت نفسه، وفيما هذه الأشياء تصنع، بقي الحجاج على ظهري سفينتيهما ينتظرون الوقت الذي سيتمكنون فيه من مغادرتهما.

وفي ذلك اليوم نفسه، وفي الساعة التي كان من المعتاد إقامة القداس فيها، دعوت الحجاج الألمان للاجتماع معا، وألقيت فيهم موعظة حول حج مريم العذراء المباركة، الذي قامت به بعد زيارتها وذلك عندما ذهبت إلى المنطقة التلية من اليهودية (لوقا:١/٣٩) واستخرجت من حجها التقوي جداً، أحكاماً لحجنا، ولقد أوصيتهم بها، وأطريت الحج إلى القدس، لكنني مدحت فوق كل شيء الزيارة إلى جبل سيناء،، وقد رغبت باثارة بعضهم للقيام بذلك، خشية أن يكونوا خائفين، لأنني قد عزمت على الذهاب حاجاً إلى سيناء، لكنني لم أكن قد أخبرت أحداً بذلك، وكنت أخشى كثيراً أن لايكون بين هذه المجموعة الكبيرة من الحجاج أحداً، يرغب بالذهاب إلى سيناء، مثلما حدث لي في حجي المتقدم، وهكذا انتهى هذا اليوم، ومجدداً أمضينا الليل على ظهر الغليون.

وفكرت في اليوم الثالث، بأن الوقت قد حان وبات مناسبا لي، حتى أخبر موالي عن نيتي بالقيام بالحج إلى جبل سيناء، وبناء عليه، دعوت موالي الأربعة على انفراد، بعيداً عن جميع العاملين، وقلت والدموع تنهمر من عيني، وبقلب حزين، وبهدوء:«انتبهوا واصغوا إليّ سادتي الكرماء، وأبنائي الأكثر محبة، وإخواني، ورفاقي، بأنني أعترف أنه

بلطفكم قـد جلبت إلى هاهنا، وأنه بفضلكـم قـد حصلت على الإذن بالقدوم، ولقد جرى من قبلكم دفع جميع نفقاتي طوال هذا الوقت كله، وأنا شاكر جـداً وبلا حدود مساعداتكم لي، ومع ذلـك هناك أمر واحد أقلقني كثيراً، وجعلني منشغـلاً وغير مستقـر، ذلـك أنني أملت عندمـا غـادرنا بـلادنا، أن يقـوم واحـد منكم على الأقل، إن لم تكـونوا جميعـاً، بالارتحال أبعـد، حتى جبل سيناء إلى القـديسـة كـاترين، وذلك بعـدما تكونوا قـد فـرغتم من زيـارة الأرض المقـدسـة، وأن أستطيع مع الذي سيرافقني بامتـلاك الفـرصة بالذهـاب إلى زيارة هذه الأماكـن المقدسـة كثيراً، لكن ويا للأسف لقـد خاب ظني فيما يتعلق بهذه القضيـة، علاوة على ماتقـدم، أنا لم أتجرأ على سؤالكم منحي الإذن بترك جماعتكم، ذلك أنه ليـس من واجبي فعل ذلـك، لأنكم سـوف تواجهـون في طـريق عودتكم مخاطر أعظم مما واجهتموه في قدومكم إلى هنا، وإذا ما تفضلتم عن طواعية منكم منحي الإذن، سوف أتلقى هذا الاحسان منكم وعدّه أعظم هدية مقبـولة، وإذا رفضتم منحي ذلك، سـوف أعـود معكم عن طواعية حتى البندقية، وفي البندقية سوف أسقط على أقداكم يا أصحاب السعـادة، وأرجوكم منحـي الوسائل للعـودة إلى هنا، هذا ولسـوف لن أعبر جبـال الألب ثانيـة قبل أن أتسلق جبل الرب، وحـورب، وسيناء، وأن أزور قبر العـذراء القـديسة كـاترين، لأننـي منذ زمن طويل مضى ربطت نفسي بعهد في أن أفعل هذا.

وعندمـا سمع موالي مـا أنويه، ورأوا أنني كنت جاداً، أخـذوا بعض الوقت لتقـدير ذلك، وبعد مضي مـدة ساعـة استدعوني للعـودة إليهم، ومنحـوني إذناً، وقـالوا: «وخشيـة أن تظن أنـك لم تكن محبـوباً من قبلنا كشماس لنا، سوف نقدم لك برهانـا عن حبنا لك عندما نفترق ولسوف نقـدم لك، ونغطي نفقاتك، وعلى كـل حال، إذا مـاأخفق هذا الحج، أو تراجعت عما عـزمت عليـه، سـوف تبقى في جماعتنا، كما كنت من قبل،

ولسـوف نعيدك إلى الوطـن ثانية»، وعندمـا سمعت هذا شكرت مـوالي بكل الاحترام الصحيـح والذي يستحقــونه، وأعلنـت أنني اعترافــاً بجميلهم سـوف أبقى إلى الأبد خـادمهم، ووعدتهم أيضـاً أنني سـوف أقــوم بهذا الحج، وكأنني حــرضت من قبلهم لأن أفعـل ذلك، وأنني أرسلت من قبلهـم، وفي الواقع كنت مسروراً لـدى تسلمي الإذن منهم في أن أقوم بها أنويه، مثلما سررت لدى وجودي في أولم، وتسلمي الإذن بالذهاب إلى القدس.

وهكذا بعدما حصلت بالنسبـة لهذه القضية على الذي طلبته، أخذت أتجول في الغليون على جميع الفـرسان الذين أعـرفهم، لأرى فيما إذا كان أياً منهم كـان ذاهبـاً للحج إلى القـديسـة كاتريـن، وقد وجـدت خمسـة فـرسان نبـلاء منتخبين، كانوا مخفين لهذه النيـة داخل صدورهم، وبعـد تناول طعـام الغـداء غـادرت الغليـون، وذهبت في القـارب الصغير إلى غليــون المعلم أوغسطين، وكـأنني راغب بزيارة بعـض معــارفي هناك، وعندمـا صرت بينهم، عملت استقصـاء سرياً، من خـلال الرجل الذي كنت أعـرفــه بشكل جيـد، حـول الحج إلى جبـل سيناء، ولقـد أخبرني بوجود إثني عشر حاجاً على ظهر ذلك الغليون قد تعهدوا وأقسموا على انجاز ذلك الحج، وكان واحداً منهم، الذي هو الرئيس هو اللورد جون أوف سولمس Solms، لكنهم كانوا لايودون أن ينتشر هذا في الخارج، بل أن يبقـى ذلك سراً، لأن الحجـاج الـذين ينوون زيارة جبـل سيناء، يحافظون دومــا على سرية نيتهـم، وذلك بقــدرمــا يستطيعــون، حتى لايضحك أحد عليهم، إذا لم يتمكنوا من إنجاز رحلتهم إلى هناك.

وبذلت الآن جهــداً عظيماً لأعـرف مبـاشرة، فيما إذا كــان هناك أي انســان ذاهب إلى زيارة جبل سيناء، لأنـني أعـرف بالتجـربة، أنني مـالم أفعل ذلك، طـالما نحن مــانزال على ظهــر السفينة، ســوف يكون من الصعب كثيراً أن أتوصل إلى معرفة الصدق حول ذلك، عندما نكون في

الأرض المقدسة، أوفي القدس، لأن الحجاج يكونون في الأرض المقدسة مشغولين كثيراً، ونادراً —إن لم يكن مطلقاً— مايلتقون مع بعضهم في الوقت نفسه، كما يكونوا منشغلين بعقولهم، ولهذا لولا أنني تدبرت هذه القضية مع موالي عندما كنا مانزال على ظهر السفينة، لكنت أنا كلياً بحاجة إلى نفسي، وعندما عرفت كيف هي الأوضاع على ظهر غليون المعلم أوغسطين، عدت مسروراً إلى غليوننا، وكنت مبتهجاً لأنني وجدت مرافقين، لكن سروري سرعان ماتحول إلى أسف، لأنني ماأن غادرت القارب، وصرت على ظهر غليوننا، وفيما أنا واقف أتحدث إلى بعض الناس أمام القيدوم، سألني القبطان الدخول إلى قمرته الخاصة، حيث وجدت جالساً فيها معه مملوكاً مسلحاً، جاء في قارب من يافا، جالباً معه أخباراً، أخبر بها القبطان، وقد رغب القبطان في أن أسمعها، وقد قال المملوك بأن البدو العرب قد دمروا دير القديسة كاترين القائم عند سفح جبل سيناء، وأنهم قتلوا جميع الرهبان هناك، وبناء عليه، من غير الممكن القيام بالحج إلى جبل سيناء في هذا العام.

فضلاً عن هذا، جاء في ذلك اليوم بعض المسلمين من المنطقة، جالبين لنا أرغفة من الخبز الجديد، وماء جديداً، وعنباً، باعوه لنا، وهم أيضاً أخبروننا بالاشاعات نفسها عن العربية، وعندما سمعت هذه الأخبار الشريرة، انزعجت كثيراً لهذه الانتكاسة، لكن بعدما فكرت بالقضية واستعرضتها تشجعت، لأنني شككت مباشرة، من خلال خبرتي، بأنها كانت مصنوعة من قبل القبطانين وأنها كانت كذباً نشراه وعمماه بين الناس، من أجل أن يخاف الحجاج، ومن ثم يتخلون عن نياتهم بالقيام بالحج إلى جبل سيناء، لأن القبطانين يفقدان اثنتي عشرة دوقية مقابل كل حاج يذهب إلى جبل سيناء، وهذا بالطبع عظيم الأذى لشرههما، ولهذا اخترعا هذه الكذبة البارعة، واستعانا بالمسلمين الكذبة، وبالمرتدين المماليك لدعمهما في زيفهما.

ولذلك أوليت كلامهما قليلاً من الاهتمام، وطمأنت رفاقي، لأنني عرفت زيف ماتحدث به القبطانين حول هذه القضية، ولهذا قررت بشكل حاسم، أنه حتى ولوكان ماقالاه صدقاً، أنا ذاهب على كل حال إلى جبل سيناء، لأنه حتى لوكان البدو العرب قادرين على هدم دير القديسة كاترين ونهب ضريحها وتشعيثه، إنهم لن يتمكنوا مطلقاً من هدم جبل الرب أو إزاحته من مكانه، وكذلك جبلي حورب وسيناء، الذين كنت شخصياً متشوقاً إلى رؤيتهم، أكثر من رؤية ضريح القديسة كاترين، ولهذا شغلت طوال ذلك اليوم نفسي في محاولة لإنهاء هذه القضية، وكنت خلال هذا الوقت هادئاً، لأنني عرفت أننا ماأن ننزل من الغليون، لن نجد الوقت للبحث فيها.

وبدأت في ذلك اليوم للمرة الأولى في تذوق فواكه الأرض المقدسة، وشرب مائها، وكان ذلك المملوك الكذاب المتقدم الذكر، أي الذي تولى نشر الأخبار في غليوننا، قد جلس في القلعة مع القبطان وآخرين، يشربون الخمر، على الرغم من تحريم شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) لذلك، وغدا سكرانا إلى حد أنه لم يعد قادراً على الخروج من الغليون والنزول إلى القارب الصغير، لفقدانه لوعيه، وهكذا بقي هذا الوحش اللعين على ظهر الغليون، وأمضى الليل معنا.

وفي اليوم الرابع، حدث عندما أشرقت الشمس، أن قامت الأسماك بالسباحة على وجه البحر، وأظهروا أنفسهم على الوجه أكثر من عادتهم، ولست أدري ماهي الأحوال التي دفعتهم إلى هذا من خلال الهواء أو الماء، أو من خلال عناصر أخرى، ولقد رأينا هناك أسماكاً رائعة، حيث كان بعضها كبيراً، ومستديراً مثل مروحة الغربلة، وكان لبعضها رؤوس مثل رؤوس الكلاب مع أذنين طويلتين نحو الأسفل، ورأينا دلافين كثيرة في ذلك الصباح، وقد رأيناهم بوضوح أعظم من أي وقت مضى.

ورأينا بعــد الغـداء حشــداً من المسلمين المسلحين جـاءوا يمتطون الخيول والبغـال، ونصبوا خياما وأكـواخاً أمامنا على الشـاطىء، وحول أبراج يافـا، وفـوق الجبل، وعندمـا رأى القبطانان هذا، ذهبـا نحـوهم، مفترضين بأن سادة المدن وحكامهـا قد جـاءوا، لكن هؤلاء كانوا الخدم فقط، قـد أرسلوا سلفـاً لإعداد المكان، ذلـك أن السادة المغـاربة كـانوا سيصلون في الغـد، وركض هؤلاء الرجـال نحـو الأمـام ونحـو الخلف طوال النهـار، على الشاطـىء، مقابل المكان الذي رسـونا فيـه، واشتبك أحدهم مع الآخر عن طريق التدريب، وركبوا بغالهم، وساقوها وكأنهم كانوا يتحاربون، ورأينا أيضاً الكهوف التي هي فوق شاطىء البحر على طرف الجبـال، والتـي كنا سنسـاق إليهـا، ورأينـا المسلحين طوال اليوم يذهبون إليهـا باستمرار ويخرجـون منها، وتساءلنـا عما كانوا يفعلون في مســاكننا المظلمـة، ولم نستطع أن نخمّـن الذي كـانـوا يعملونه في هذه الكهـوف، حتى اكتشفنا، مراغمـة لأنوفنا، أنهم قد لوثوا تلك الأمـاكن بالغائط، كما سيتضح فيمابعد.

واجتمع هناك في اليـوم الخامس حشد عظيم من الرجـال المسلحين، حتى أن وجه الأرض تغطى بهم، وتساءل قبطانانا وجميع البحارة وعبيد الغليـون، عن معنى جمع هذا الحشـد الكبير مـن الناس، وقـد انزعجـوا لأنهم لم يروهم من قبل يأتون بمثل هـذه القوة، وخشيـوا من أن يكون هناك شرّ مـا قيـد الإعـداد لنا، لوجـود الحكـام الثـلاثة الأقـوياء هناك بأشخاصهم مع أتباعهم المسلحين، وهؤلاء هـم: حاكم القدس، وحـاكم غزة، وحـاكم الرملة، وإليهم توجه القبطانان آخـذين معهما هدايا أملوا بوساطتها أن يكسبوا احسانهم، وقد حيوهم، وعرضا هداياهما، وتوسلا من أجل نزولنا، حيث طلب ذلك كل قبطان إلى حجاجـه، وقد تسلموا هدايا القبطانين، ووعدوهما بالتعامل معنا باخلاص.

وسأل القبطانان سـادة المغاربة، عن السبب الذي دفعهم للقـدوم مع

مثل هذه القـوة، وعن الحاجـة التي توفـرت هنـاك لجلب حجـاج غير مسلحين إلى البـلاد مع هذا العـدد الكبير من الرجـال المسلحين، وعلى هذا أجـابـوا بأن البـدو العـرب قـد جـاءوا إلى البـلاد، خـارجين من الصحراء بأعداد كبيرة، وقد نهبـوا كل من واجهوه، ولم يوفروا أحداً إلاّ الذين كـانـوا أقـوى منهم أنفسهم، وأنهم قـادوا في هذا الـوقت بالذات حشداً كبيراً إلى الجبـال، ويعتقد كثيرون بأنهم قـد حشدوا هـذه الجموع مع بعضها بسبـب الحجاج المسيحيين الذين كانـوا قادمين، ولهذا السبب قدموا بالقوات التي استطاعوا جلبها، لكي يأخذوننا إلى القدس بسلام.

وقـال بعضهم الآخـر بأن هناك سبـب آخـر إلى جـانب هذا السبب، يعلل اجتماعهم مع بعضهم، وقد أخبرونا بأنه في ربيع هذا العـام، كانت هناك عاصفة عنيفة في منطقة مـدينة مكة، حيث يقوم معبد ضريح محمد (صلى الله عليـه وسلم)، وفي أثناء تلك العـاصفة، سقطت صـاعقـة من السماء أحرقت وطحنت ضريح محمد (صلى الله عليه وسلم) وحولته إلى طحين مع جسـده (صلى الله عليـه وسلم) (كـذا)، وقد رأى أتبـاعـه بها حدث شـارة بأن شريعته غير المقدسـة كثيراً قد انتهت، وخـافوا من أن يتمكن المسيحيـون من السيطرة عليهم والتحكم بهم، ولهذا قـدمـوا مع قوات قـوية خوفـاً من أية محاولة يقـوم بها الحجاج، وكـلا السببين كان صحيحـاً، لكن السبب الثـاني حـول تدمير جسد محمـد (صلى الله عليـه وسلم) لم يحدثونا به بشكل مكشـوف، بل أخبرنا به بشكل سري واحداً من المماليك.

وعلى كل حال خشيـة من أن يفقد الذين يتبعون شريعـة محمد (صلى الله عليه وسلم) إيمانهم، وييأسون ويتخلون عـن الحج الذي يقومون به كل سنة إلى مكة، اخترع رجال الدين لديهم الزيف التالي: فقد قالوا بأن الله كـان شـديد الغضب عليهم هذا العـام، وكـان على وشك تدميرهـم تدميراً كـامـلاً، لكن محمـداً (صلى الله عليـه وسلم) تدخل من أجلهم،

والتمس من الله تحويـل غضبـه عنهـم، وأن تنزل الشرور به شخصيـاً، وأصغى الله إلى دعـائـه واستجـاب وبعث صـاعقـة من السماء أحـرقت جسـد محمـد (صلى الله عليـه وسلم)، ونشروا هـذا الزيف بين الناس، والحج الآن إلى مكة أكثـر عـدداً، والاقبـال عليـه أعظم مما كـان من قبل.(*)

وفي الوقت نفسـه، عندمـا كـان قبطـانينا يتحـدثان مع السـادة، رأينا حشداً جـديداً قادماً إلى شـاطىء البحر، ولم يكن في هذا الحشـد خيول، بل حمير فقط، جمعت من قرى مختلفـة من أجل استخدامـاتنا، وجاء مع هذا الحشـد من الحمير عـدة رجال معـروفين من القـدس، مثل الاثنين الكاليني Calini اللذان هما مترجمانا الأكبر والأصغـر، والأب المحترم المسؤول عن دير جبـل صهيون مع اثنين من رهبانه، وكـان معهـم بعض التجـار المسيحيين De cinctura (الشرقيين الذين يرتدون مـايميـزهـم عن اليعاقبة وعن الطوائف الأخرى).

نزول الحجاج من الغليون ودخولهم إلى الأرض المقدسة

كـانت رحلتنا التي تشوق إليهـا عقلنا وتطلع إليهـا، الآن على وشك الابتـداء، فبعـدمـا تحدث القبطـانـان مع الحكام، ونالا مـوافقتهم على وجـوب احضارنا إلى الشـاطىء من غليـوننا، ومضى إلينا في القـارب، الأب المبجل بولص، رئيس الكنيسة اللاتينيـة في الشرق، والمسؤول عن دير جبل صهيون مع راهبيه، وكـذلك مع كالينوس الأكبر، ومسلم كان رئيس مشفى للحجاج في القدس، وقد جلسوا مع قبطاننا على القيدوم، وبعـدما اجتمعنا كلنا، قـام الأب المسـؤول عن الدير، الذي كان رجـلاً محترماً ومتعلماً، وله لحيـة طويلة، قام بتوجيـه التحية إلينا بلطف وبشكل

*— استخدم الرحـالة أثناء حكيه لهذه الأقصـوصة بعض العبـارات النابية، فحـذفتها، وتبرهن هذه الأقصوصة أن عقلية رجال الدين الكاثوليك بقيت كماهي مغرقة بالتعصب والجهل، حيث انعدم التمييز بين مكة والمدنية، وتغيب الحد الأدنى من الفهم للاسلام.

منمق باللغــة اللاتينيــة، ورحب بنا، وحثنا على أن نكون أتقيــاء، وأن نتحلى بالصبر، وأن نكون نمــوذجيين في سلوكنا، ووعــدنا أنه ســوف يعطينا بالرملة الأحكام التي ينبغي أن نقيـد أنفسنا بها، أثناء إقـامتنا بين المسلمين في الأرض المقدسة.

وحيـانا بالطريقـة نفسهـا كـالينـوس، ترجماننا، وكـان ذلك باحترام، وحرم علينا حمل أي نوع من الأسلحة — سواء أكان سيفاً أم قوساً — خارج السفينة، بل أن نذهب غير مسلحين كما قـدمنا حجاجاً، وبعـدما قـال هذا، ذهـب الأب المسـؤول عن الدير مع راهبيــه وكـالينوس إلى القـارب، وطلبـوا منا الاسراع والاستعـداد للحـاق بهم، وكـان الوقت سـاعـة الغـداء، ولدى دعـوة الحجــاج إلى الغـداء، أكلنا جميعـاً وشربنا بسرعة، حتى نتمكن من النزول بشكل أسرع إلى الأرض المقـدسة، وفي أثناء الغداء، قـدم جميع موظفي الغليون واحداً بعـد الآخر، وانتقلوا من حاج إلى آخر، بكؤوس من الفضة، وطلبوا عطية العرفان بالجميل، وهو مـاندعوه مـال الشراب، وطالبـوا بذلك بوقـاحـة، وإذا مارفض انسـان منحهم، قالوا بأنهم لن يدعوه ينزل بالقارب إلى الشاطىء،

وثار اضطراب كبير على ظهر الغليون بسبب تسولهم الوقح والذي لم يعـرف الحياء، وعندمـا انتهى هذا الاضطراب، ودفعنا عطيتنا بالعرفـان بالجميل، أعددنا أنفسنا لمغادرة المركب، وأخذنا معنا قاورورتين صغيرتين من الخمـرة، وأخفيناهما في حقيبــة، خشيـة أن يراهما المسلمـون، لأنهم لايسمحون بحمـل الخمرة بشكل مكشـوف، وإذا مارأوا خمرة يقـومون بكسر القـوارير إذا كانوا قـادرين، وأخـذنا بحقائبنا جبناً ولحماً مـدخناً، وجرارنا وملابس حجنا وأدواته، وخرجنا من القمرة إلى القيدوم، ومن هناك نزلنا في القـارب، ومضينا فيه نحـو الأرض المقدسـة، ونحن نغني ببهجـة عظيمـة، وبصـوت مـرتفع In Gottes Nahmen fah ren wir الخ، حسبما ورد في ص٩٧.

ولم يكـن مـن الممكـن سماع أغنيتنـا هـذه مـن قبـل المسلمين على الشاطىء، لأنه قام بيننا وبين الشـاطيء صخور أندروميدا، التي يضربها البحـر بصـوت مـرتفع وحـاد، كما أن أغنيتنـا لم يكن بالامكان سماعهـا بسبب الضجيج والصخب الصادر عنها.

وعندما وصلنا إلى قرب هذه الصخور، وبينما نحن نمر من بينهم من خلال الأمـواج التي تضربهم، أصبنا برذاذ الماء وتبللنا، ونجونا على كل حـال من الاصطدام بالنتوءات الحادة، الأمـر الذي كنا نخافـه، ووصلنا إلى الشـاطيء ونزلنا، وعندمـا وطئت أقـدامنا الأرض المقـدسـة، ألقينا بأنفسنا أرضاً على وجوهنا وقبلنا الأرض المقـدسة مع كثير من التقوى، وبمجـرد مـلامستنا للأرض المقـدسة تلقينا غفـرانا مطلقـاً وتحليـلاً من الذنوب، الأمر الذي قررت وضع علامة له في المحصلة مثل هذه (++) حيث جـاء وضع الصليب الأول ليعني غفـراناً لمدة سبع سنوات، لكن بوجـود صليبين فهـذا يعني غفـراناً مطلقـاً، يزيل كـلا من الاستغفـار والذنب، ويقال أيضاً الصليب الأول قائم من أجل الغفران من الذنب، والثاني للغفران بعد التوبة.

وعندما فرغنا من صـلاة شكرنا، صعدنا من قلب البحر، إلى الأرض المرتفعـة، وذلك فـوق صخـور منزلقـة، البحـر مطوق بها هناك، وهي تشكل شـاطئه، ووقف فوقنا الأب المسؤول عن دير جبل صهيـون مع راهبيـه ومع حكـام البـلاد، وشيـوخ المسلمين والمغـاربة، وكـذلك مع كاتب، وقـد اصطفوا على الجانبين، بحيث يحتـاج الحجاج إلى المرور من وسطهم، ولم يكن بامكان حـاجين المرور معاً من بينهم، بل واحـداً تلو الآخـر، كما أنهم لم يسمحوا لنا بالمرور بشكل متـواصل، بل ألقـوا نظرة على كل انسـان، ونظروا إليه عن قـرب، وطلبوا اسمـه وأم أبيه، وكـان الكاتب يدون الاسمين معـاً في وثائقـه، وكنت أعلـم كم يسبب اسمي «فيلكس» من مصاعب بالنسبة إلى لغتهم، فقد أرغمت في حجي الأول

وفي حجي هذا على تكرار اسمي عدة مرات، حتى آنذاك لم يكن بامكانهم لفظه أو كتابته من دون وضع بعض علامات الادغام الأجنبية أمامه، وترداد مقاطعه وحروفه، بحيث أن لاأقول «فيلكس»، بل كلمة أخرى في مكانها أنا لا أستطيع لفظها، وقمت فيها بعد بالبحث بدقة أكبر حول الصعوبة هذه المتعلقة باسمي، ذلك أنني صرت صديقاً لواحد من المسلمين هو كالينوس الأصغر، الذي كان يسألني في بعض الأحيان باللغة الايطالية أن أخبره باسمي، لكن عندما أخبرته لم يستطع بأي حال من الأحوال لفظه، بل قال كلمة قبيحة بدلاً عنه، وقد اندهشت تجاه ذلك، لأنني رأيت مدى براعته باللغة الايطالية.

والآن بعد ماجرى تدوين اسم كل حاج مع اسم أبيه، كان هناك بعض المسلحين مرتبين للامساك به وجرّه إلى مدخل مقر مظلم ومنخفض تحت قوس متهدم، وقد رموه مثلما اعتاد الرجال على رمي الشاة في داخل اصطبل من أجل الحليب، ويوجد في هذا الكهف سبع سنوات مغفرة (+)، يحصل عليها الحاج إذا مادخل إلى الكهف بروح تقوية، وتعرف هذه الكهوف باسم زنزانات القديس بطرس، ومن أجل الحصول على هذا الغفران، وغفرانات أخرى كثيرة، قام عدد كبير من الحجاج بالاعتراف أمامي، على ظهر الغليون، واعترف بعضهم هنا، ونحن وقوف على شاطىء البحر، وعندما دخلنا إلى هذه الكهوف، وجدنا كل موضع سنقيم فيه ملوث بشكل قبيح، وقذر بسبب القاذورات، ولم يكن هناك مكان يمكن الجلوس عليه، إلاّ فوق القاذورات، ولهذا وجد كل واحد منا نفسه مرغماً على تنظيف موضع يتمدد عليه بجسده، وأن يزيح القاذورات إلى وسط الغرفة بقدمه، ونتيجة لهذا قام في وسط مكان إقامتنا كومة كبيرة من القاذورات والنجاسات.

ورتبنا أنفسنا على محاذاة الجدران حول الغرفة كلها، مثلما فعلنا في

الغليون، ولقد تمددنا فوق أرض عارية ورطبة، ويا للهول، كم هو نزل تعيس، وكم هي ضيافة ضئيلة، وكم هو مقر قذر! ولولا أن الحاج كان تقياً، اعتاد على عقد حديث مع الرب، وكان يشكو بصبر تقوي، أو بالحري كان مندهشاً مستغرباً وهو يقول:«أيها الرب يسوع، بأي ضيافة غريبة استقبلت حجاجك، وضيوفك في أرضك المقدسة، الذين قدموا من وراء البحار، ومن خلف جبال الألب، ومن الأجزاء النائية من الأرض، حتى يمثلوا بأشخاصهم في بلاطك، لكي يبدو احترامهم لك، وليقدموا الولاء لك مثلما يفعل الفرسان مع ملكهم، يايسوع البالغ القداسة، أولم يكن من المتوجب عليك أن تمنح الذين تعبوا كثيراً من جراء الرحلة الطويلة جداً، وأدميت أقدامهم بعد الجولات البعيدة، فراشاً أفضل من الذي وجدوه بين القاذورات المقيتة للكفار؟ أوليس لديك فراش لنا سوى كومة النجاسات؟».

وعلى هذا كان الرب سيجيب :«من المؤكد أن العبد ليس أعظم من مولاه، ولا التلميذ أسمى من معلمه، ولا الرسول أعظم من الذي أرسله، وأنتم دعوتموني معلماً ورباً، وماقلتموه صحيحاً، لأنني بالفعل كذلك، وإذا كنت أنا قد عانيت بصبر من هذه الأشياء، ومن أشياء أسوأ من هذه، أولا تسلحون أنفسكم أيضاً بصبر مماثل، فلقد كنت غريباً وحاجاً في هذه البلاد، وفي اليوم الذي نزلت فيه أولاً على الأرض من بحر المجالس العميقة للرب، ومن سفينة رحم العذراء، لم أنزل في غرفة، بل في معلف قذر، وفي نزل صاخب، وفي حانة تعيسة، فهناك استقبلت، ولم تمددني أمي العذبة على فراش ناعم، بل مددتني في معلف قاس بين الدواب، لأنه لم تتوفر لي غرفة في أي مكان من النزل، وخلال حياتي كلها لم يكن لدي بيت خاص بي في هذه البلاد، لأنني قدمت إلى الذين هم ملكي، والذين هم ملكي لم يستقبلوني، ذلك أن الذين سكنوا في بيتي وخادماتي عدّوني غريباً، ولقد كنت غريباً بأعينهم (أيوب:١٩)،

وفي هذه البلاد للثعالب حفرهم، ولطيور الجو أعشاشهم، لكن ابن الانسان ليس لديه مكان يسند رأسه عليه، وغالباً ماأمضيت الليل في الصلاة، لكن ليس تحت مكان مسقوف بالحجارة، بل فوق الجبال وتحت السماء، لابل حتى في مدينة القدس الغنية والملكية لم يكن لدي فراش إلاّ مشنقة الصليب المخزية، وكذلك بعد الموت لم أمتلك ضريحاً خاصاً بي، بل ضريح انسان آخر، ولهذا السبب أرغم ابن الانسان على المعاناة، حتى يدخل في مجد ملكوته، وبناء عليه، حبيبي الحاج لاتحزن إذا لم يكن لديك في هذه البلاد فراشاً ناعماً، وإذا ماتمددت فوق كومة قاذورات، وإذا كان نزلك بالوعة عامة، تذكر ياهذا أن ربك أقام الفقير من بين الرغام، ونهض بالمعدم من بين القاذورات، ليجلس مع الأمراء، وليشغل عرش المجد، فعلى هذا الاساس تقبل داوود وجعله ملك اسرائيل، ولقد جلس أيوب النبيل على القاذورات مريضاً ومصاباً بقروح مخيفة، وبصبره امتلك ضعف ماكان يمتلكه من قبل، لأن غريغوري أخبرنا في تعليقاته على سفر أيوب، أنه كان مدفونا في القاذورات، لؤلؤة الرب، أي المعرفة بتفاهته، والرفض للفقر، وعلى هذا، ألاتبحث أيها الحاج عن هذه اللؤلؤة، في أثناء جلوسك فوق القاذورات»، ولدى سماع هذه الكلمات، قدم الحاج التقي الشكر، لأنه عدّ جديراً بالمعاناة مثلما فعل ربه.

وعندما كنا في هذا المكان القذر، قدم إلينا بعض المسلمين، وكانوا أناساً فقراء، قد جمعوا بعض الأعشاب وبعض أغصان الأشجار، باعوهم لنا، وقد غطينا الأرض المبللة بهم وجعلناهم فرشاً لنا، فضلاً عن هذا قدم تجار من الرملة ومن القدس، ودخلوا إلى أماكن إقامتنا، ومعهم سلع طيبة الرائحة، وعملوا سوقاً هناك، وقد جلبوا ماء ورد من دمشق في أوعية زجاجية، وكان ثميناً جداً، حيث باعوه إلى البنادقة كل قطعة ببنس، وكان مع بعضهم بلسماً، ومع بعضهم الآخر مسكاً،

وجلب بعضهم صابونا، وبعضهم أحجاراً كريمة، وبعضهم شققاً من الموصلين الناصع البياض، وقلانس، وأشياء أخرى ثمينة، وأشياء رائحتها طيبة، فلقد جلبوا هذا كله إلينا، وفي الوقت نفسه كان كل من التجار ومن المسلمين قد دهنوا أنفسهم بالمراهم العطرية، وبالعطور الخالصة، ولذلك انتشرت الروائح الطيبة من حولهم، فضلاً عن هذا قام التجار الذين لم يكن بامكانهم تحمل روائح النتن والقذارة في مسكننا، باحراق البخور والاصباغ العربية، وكانت نتيجة ذلك أن هذا المكان ذي الرائحة المقرفة، أصبح مخزناً للروائح الطيبة، كما قام الذين لوثوه، طواعية من قبل أنفسهم بتنظيف المكان، ونقلوا قاذوراته ورموها بأقدامهم أثناء مشيهم، وفي وقت قصير من الزمن وبوساطة سيرهم المستمر تحول المكان الذي كان قبل قليل قذراً إلى مكان مريح تماماً ومبهجاً ومناسباً لبني البشر، وللانسان الضعيف والمريض، فلو أنهم دخلوه لاستردوا قوتهم ثانية بشمهم للروائح الطيبة للمكان، الذي حتى الدواب سوف ترتعد لدى دخولها له.

وقد دخلنا إلى هذا المكان بضيق شديد وألم، لكن في غضون ساعة واحدة وجدنا الراحة والسرور فيه، وجاء في الوقت نفسه بعض المسلمين، كانوا قد طبخوا بيضاً في المقلاة بالزيت، وجلب بعضهم أرغفة من الخبز، وبعضهم ماء بارداً، وبعضهم فواكه، وبعضهم سلطة، وبعضهم معجنات ساخنة صنعت من البيض، وباعوا ذلك لنا، وقد اشترينا من هذه الأشياء وأكلنا، وأعددنا أنفسنا للراحة، لأن النهار انقضى تقريباً، وماأن تمدد كل انسان منا، واضطجع في المكان الذي نوى أن ينام فيه تلك الليلة، حتى جاء إلينا مسلم شرس حامل للسلاح، وبيديه عكاز، واستخرج من كل واحد من الحجاج بنساً بندقياً، وقمنا على كل حال من أجل أن نوفر على أنفسنا المشاكل، بدفع بنس واحد من أجل إقامتنا، وعندما حل الظلام استأجرنا اثنين من

المسلمين، ليتوليا حراستنا أثناء الليل عند فم كهفنا، لكي لايدخل أحد إليه ويزعجنا، لأنه كان هناك حشد عظيم من الناس من كل نوع هناك، وهكذا أمضينا تلك الليلة، لكن ليس بدون خوف، وأعتقد أن الرجل المتقدم الذكر الذي استخرج المال منا، قد صار الآن مالك ذلك الكهف وصاحبه، وأن هذا قد شجعه لفرض ضريبة علينا بموجب حقه القانوني.

وفي اليوم السادس، الذي كان الأحد السادس بعد التثليث، وقبل أن تصبح الدنيا مضيئة تماما جاء ذلك المبتز الشرس، الذي أغضبنا في المساء الماضي، وعاد وجلس بنفسه ومعه عكازه، عند باب الكهف، وماكان ليسمح لأي انسان بالمغادرة والخروج من الكهف للأغراض الضرورية من دون أن يدفع له بنساً، وقد دفعنا له جميعاً من دون رضى كبير، لكننا لم نكن غاضبين من الرجل المبتز وحده، بل من القبطانين، ومن الأب المسؤول عن دير جبل صهيون ومن الترجمان، الذين كانوا نائمين جميعاً في سرادق منصوب فوق الرابية، وتركونا نعاني من ابتزاز لم يسمع به من قبل في سجننا هنا، ذلك أنه كان من واجبهم مساعدتنا والدفاع عنا ضد أي شيء من هذا النوع.

وبعد مادفعنا البنس الذي فرض علينا، سمح لنا بمغادرة الكهف، ومع ذلك لم نجرؤ على الابتعاد عنه، لأننا كنا محاطين بمسلمين مسلحين من كل جانب، وقدم في الوقت نفسه التجار مع سلعهم، وطبخوا بأدواتهم، وعرضوا مصنوعاتهم للبيع، دون أن يعرفوا بأن ذلك اليوم كان يوم الرب، وكنت عازماً على قراءة الانجيل من أجل ذلك اليوم للحجاج في الكهف، وأن أضيف إليه قداساً، لكن كان هناك صراخاً عظيماً وصخباً صدر عن الطباخين وعن التجار، وعن حشد كبير اجتمع من المسلمين، ومن الشباب الذين كانوا يركضون إلى هنا وإلى هناك، ولذلك لم أستطع قراءة الكثير في ساعاتي من دون الكثير من العوائق،

ذلك أنهم عندما رأوني أقرأ من الكتاب، وقفوا من حولي يضحكون ويصرخون، وينظرون نحو الأحرف ويعجبون منهم، وبعد الغداء جاء إلينا في الكهف كالينوس الأصغر، أي الرجل الذي كان نائب مدير المشفى (الفندق)، وكان رجلاً مسلماً اسمه الفحل Elphahallo، وكان رجلاً أميناً، كما ستعلم مما سيلي، وقد عرفني بشكل جيد من حجي الأول، وكان بامكانه التحدث بالايطالية، وبألمانية مشوهة، تعلمها من الحجاج الذين غالبا ماارتحل معهم إلى دير القديسة كاترين، وقد سألت هذا الرجل عن حقيقة الأمر بالنسبة لجبل سيناء، وأخبرته بالذي سمعته على ظهر الغليون، فأجابني بأن كل شيء قاله ذلك المملوك كان كذباً، وأن الحج إلى القديسة كاترين سليم الآن بقدر ماهو ممكن، وصحيح أن البدو العرب قد أزعجوا في العام الفائت رهبان القديسةكاترين، لكن السلطان قد تمكن من تسوية القضية كلها.

ولدى سماعي لهذا سررت كثيراً، واقتدت الرجل إلى موالي، وقدمتهم له، وعلى الفور طلب الرجل منا القدوم معه، واقتادنا خارجين من الكهف، ومررنا جميعاً بوسط المخيم ومن خلال خيم المسلمين، وأرانا جميع أدواتهم، والخرائب العظيمة لمدينة يافا، ومررنا ببرجين قائمين في البحر ومهدمين، وبعدما رأينا كل شيء أعادنا إلى سجننا ثانية، فوجدنا الكهف في صخب عظيم بسبب الشباب من المسلمين، الذي كانوا يقومون بازعاج الحجاج بمختلف الطرق، وكانوا يسببون لهم إهانات كثيرة، تأخذ وقتا طويلاً للحديث عنها، وكانوا ينشدون بكل دقة الفرصة المواتية لاغضاب الحاج، إذا كان ذلك ممكنا، دون اعطائه مسوغاً عظيماً لأن يكون غاضباً، وعندما يصبح غاضباً، يقومون هم أنفسهم باتخاذ غضبه سبباً للشكوى وطلب المال، وكانوا يتجولون حول الحجاج، وكل ماوجدوه سرقوه، أو نشلوه بشكل مكشوف وهربوا به.

وكان هناك رجلاً نبيلاً من كريت قد جلب معه قارورة كبيرة مليئة (بالخمرة) المالفوسية الثمينة، وعلق القارورة على الجدار إلى جانبه، ولدى رؤية ذلك، ركض رجل مسلح مسلم بين وسط الحجاج، وانتشل القارورة، ومضى يركض بها، وبعد بعض الوقت عاد وأطاح بالقارورة الفارغة في مقر إقامتنا، وتعرض شاب حاج حليق الذقن من بيكاردي لمضايقاتهم العظيمة، ومن حركاتهم القذرة، ولم يتمكن من إخفاء نفسه عنهم، مع أنه حاول كثيراً التخفي بين الحجاج الآخرين، ومع ذلك لم يحصل على السلامة، فقدم شكوى حول المسألة إلى الترجمان، الذي استخف بالأمر، وقال له بأنه إذا ما آذاه أي انسان، أو ضربه، أو جرحه، هو سيقوم بحمايته والانتقام له، لكن تجاه ذلك لايمكنه فعل شيء لأن الشاب عمل مزحة، ولايمكنه منعه من المزاح، ولدى سماع ذلك الحاج هذا، وخشية منه أن يوصم بالعار ويدنس شرفه، وبما أنه كان غير قادر على تحمل أن يكون أضحوكة يومياً من قبل المسلمين، ألغى حجه، وعاد إلى ظهر الغليون، وعاش مع البحارة حتى عاد الحجاج من الأماكن المقدسة، ولأن ذلك الشاب كان جميلاً جداً ان تنظر إليه، لهذا السبب ركز المسلمون عليه، ربما من أجل اغضابه، ذلك أنهم لم يقصدوا إلحاق أي أذى به.

واخترع هؤلاء الشباب من المسلمين آلاف الطرق، أثاروا بوساطتها بكل براعة الحجاج وأغضبوهم، من أجل ان أحدهم إذا ما نسي نفسه، ووجه ضربة، يمكنهم ابتزاز غرامة مالية منه، واستشهد أنا هنا بما ورد في الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى قوله:« أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر» (متى:٥/ ٣٨)، وبناء عليه كل من لايمكنه اتباع هذه النصيحة، لايمكنه الجواز بالأرض المقدسة بسلام، وهناك نص آخر مماثل في الاصحاح السادس في انجيل القديس لوقا قوله:« ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه» (لوقا:٦/ ٣٠)، وعلاوة على هذا على الانسان أن

يداوم تكرار قـوله في الاصحـاح الخامس من انجيل القـديس متى والتمسك به حـرفيا:«من لطمـك على خـدك الأيمن فحـول له الآخـر أيضا» (متى:٥/ ٣٩).

وعندما صار الوقت متأخراً، وأخذت الدنيـا تشتد ظلاما، جاء واحد ووقف عند فم الكهـف واستـدعـاني بصـوت مـرتفع، قـائـلاً:«المعلم فيلكس، تعـال»، ولقـد خفت من هذا الاستـدعـاء وأجبت بأنني كنت أقوم براحتي، ولن أقدم، وبناء عليه شرع في التوسل إليّ، قائلاً بأن هناك حاجة كبيرة إليّ، وبناء عليه توجهت نحـو الرجل، الذي كان واحداً من رجال القارب العائد لغليوننا، بعـث به إليّ واحد كان متمدداً فوق ظهر الغليون، وهو في آلام الموت، وقد استـدعاني لسماع اعترافه، وكنت على كل حال أكره العودة إلى ظهـر الغليون، ومع ذلك ماكان لي اهمال روح واحـد من الإخـوان، وسرت نازلاً نحـو البحـر في الظلام، وركبت في القـارب، وقمت برحلة عظيمـة المخـاطر، بين الصخـور، إلى الغليـون، الذي كان يبعـد عن الشاطىء مثل المسافة التي تبعـد فيها سفلنجن se-flingen عن أولم، وأخـذت على الفـور اعتراف الرجـل المريض، ثم حملت فراشي من القمرة إلى السطح، ومددته فـوق مقعد متصالب، كان منه بإمكاني رؤية الشـاطىء، من أجل أنه إذا مـا جـرى اخراج الحجاج من الكهف، للشروع برحلتهـم، يمكنني رؤية حـركـة الحشـد، وكـان بامكاني رؤية أن الحجاج أخـذوا يتحركون، ويغـادرون المكان، بوساطة نقل المصابيح التي كـانت مضاءة قرب خيام السادة المغـاربة، لأنه جرى تعليق ستـة مصابيـح مشتعلة على عمود طويل أمـام كل خيمـة، وذلك تشريفـاً لمحمـد (صلى الله عليـه وسلم) وصـدوراً عن الاحترام للسـادة الذين نامـوا فيهـا، ومن أجل راحة الناس، وقـد رأيت هذا من البحـر، وشعرت بشفقـة على موالي، وأتبـاعي الحجاج الذين كـانوا متمددين في الكهف القذر والمظلم، من دون أية تسهيلات بالضوء من أي نوع، بينما

كان هؤلاء المسلمون الكلاب يتمتعون بكثير غير محدود من الضياء.

وقمت في اليوم السابع، قبل اشراق الشمس بالدخول إلى القارب، وأسرعت التجذيف نحو الشاطىء، ومررت خلال المياه الهائجة، واجتزت الصخور، لأنني افترضت أننا سوف ننطلق على الفور، غير أننا تأخرنا لأن القبطانين كانا مختلفين، وكان هذا الخلاف قد بدأ في البندقية، كما رأينا في ص١٧٨، واستمر حتى وصولنا إلى هنا، ولهذا حاول كل واحد منهما إدخال حجاجه إلى الأرض المقدسة من دون الحجاج الذين كانوا مع القبطان الآخر، وقد أرادا تشكيل جماعتين، وفريقين منفصلين، ينبغي عدم التقائهما في وقت واحد، وفي المكان نفسه، غير أننا نحن الحجاج جميعاً رجونا في أن نؤخذ كلنا جميعاً، وأن يجري علينا العقد نفسه، وكانت هذه الخطة مقبولة كثيراً من قبل المسلمين، فقد كانوا لايرغبون في اختيار افتراقنا عن بعضنا بعضاً، مع أن القبطانين حثا باستمرار على وجوب القيام بعملية الفصل، وعندما رأى الأب المسؤول عن دير جبل صهيون أن هذا النزاع بين القبطانين معيقاً لانجاز الحج، وأنه جعلنا موضع ريبة لدى المسلمين، وجعلهم عديمي الصبر، دعا إلى اجتماع أعيان الناس بين الحجاج مع بعض الرجال المحترمين والمحبين للسلام بين المسلمين، وبذل جهده لوضع حد للنزاع، والذي حدث هو أنه بعد عدد كبير من الخطابات والتشجيع لم يتوصلا إلى اتفاق، وبدا القبطانين بعد كثير من النقاش أنهما معاً أشد تصلباً في غضبهما وكراهية احدهما للآخر، وطوال ذلك اليوم جرى البحث في إقامة سلام بين القبطانين.

وفي الوقت نفسه، قام الحجاج الآخرون الذين لم يشاركوا في هذا النقاش، بالشد من عزائمهم، وكانوا جريئين بمافيه الكفاية للخروج من كهفهم والنزول نحوشاطىء البحر، وإلى المكان الذي وقفت فيه الحمير مع سائقيهم، وتجولوا بين حشد المسلمين بدون خوف، واشتروا ماكانوا

يحتاجـون إليـه من المسلمين، وصنعـوا صداقـات معهم، وقمت أنا شخصياً مع بعض الرفاق بالسير على طول ساحل البحر إلى نبع مـاء عذب، كان يتدفق من بين شعاب الهضاب، وشربنا هناك من ذلك الماء من دون أن ندفع، مـع أننا لكثير من الأيام لم نشرب مـاء إلاّ مـاشربناه ودفعنا ثمنه.

وقـامت تحت هذا النبع صخرة في البحـر، كانت مـرتفعة فـوق الماء، وهي التي قيل بـأن القـديس بطرس الـرسـول قـد اصطاد السمك من عليها، وأضـاف البسطاء من الناس الذين لايعرفـون الكتابات المقـدسة ولا الانجيل، بأن هذا كـان هو المكان الذي دعا منه ربنا يسـوع بطرس نفسه مع أخيه من البحر قـائلاً:« هلم ورائي فأجعلكما صيادي الناس»، فهذا مانقـرأه في الفقرة التاسعة عشرة من الاصحـاح الرابع، ولقد كتب فرسـان علمانيون في كتبهم حول حجهم، بـأن هذا حدث هنا، لكن هذا ليس صحيحاً، لأن هـذه الدعوة إلى الرسولين وقعت عنـد بحر الجليل، علماً بأننا لم نقـرأ أبداً بأن ربنا يسوع قـد جاء قط إلى يافا بـالجسد، هذا ونقرأ في الاصحـاح التاسع من أعمال الرسل، بأن القـديس بطرس كان مرة هنا، ولذلك لاأنكر إمكانية قيامه بالصيد هنا، ووجدنا على شاطىء البحر أعـداداً لاتحصى من أكوام أصـداف المحار، من مختلف الأشكال، وقد التقطنا بعض الذي اعتقدنا أنه الأكثر جمالاً وغرابة.

وحـدث في ذلك اليـوم نفسـه أن قـام أحـد الفـرسـان بشراء بعض الحجارة من واحد من المسلمين باعه إياهم في الكهف بخمسة دوقيات، ولقـد اعتقـد أنهم أحجـار كريمـة، لكن في أثناء عـرضهم على رفـاقـه، اكتشف بأنهم لم يكونوا حجـارة كـريمـة صحيحـة، بل تقليـد صنع من زجاج ملون، وبناء عليـه حمل قطع الزجاج إلى التـاجر لإعـادتهم، راغباً باسترداد ذهبـه، لكن ذلك التاجـر الوضيع رفض ردّ الذهب، وكـذلك استرداد قطع الزجـاج، ولذلك أخبر الفارس القبطان عن عمليـة الغش

U‡ bM Ë ¨WK d « ‡‡U 6 rK *« + ÊUD I « vJ ‡U ¨Ác Ÿ«b)«Ë

سمع الحاكم هذه الشكوى، أرسل على الفـور مساعداً لـه مع عصا، إلى سجننا، حيث كـان ذلك التـاجـر جالسـاً مع سلعـه، فأخـذ منه بالقـوة الخمس دوقيات، اللائي ردهن إلى الحاج، ووجه إليه كثيراً من الضربات بعصاه، ورد إليه قطع زجاجه ثانية.

وهكذا مضى هذا اليـوم مع ملل أقل من الأيام التي تقدمت عليـه، وحدث أنه عندمـا كان الوقت ليـلاً، قدم بعض السـودان الشباب، من حملة الترسة للسـادة المغاربة، وكـانوا من ذوي السلوك السيء، وأشراراً، وقـد أرادوا الدخـول إلى الكهف لاختـلاسنا وابتـزاز ا، لكن الحارسين اللذين استأجـرناهما لم يسمحا لهم بالدخـول، وقد تنازعـوا وتشاجـروا معهما لبعض الوقت أمـام باب الكهف، وعندما رأوا أنهم لن يستطيعـوا الدخـول إلى الكهف، جلسوا أمـام الباب، وأخـذوا يغنون طوال الليل، وينهقـون وينبحون، ويصرخـون مثل الحيـوانات، والكلاب، والخنازير، لأن جميع المشارقة امتلكوا أصواتاً خشنة جداً، ولايمكنهم صنع أي لحن شجي، بل إن غناءهـم مثـل أصـوات التيسـة والعجـول، وهكذا أمضينا تلك الليلة مع هذه المنغصات.

وفي اليوم الثـامن سعى الأب المسؤول عن دير جبل صهيـون جاهداً ومعه الحجاج والمسلمين من خيرةالأنواع لإقـامة وئام بين قبطانينا، لكن من دون نجـاح، وعندما رأى السـادة المغـاربة والحكام هذا، أعلنوا أنهما مالم يصبحا على الفور صديقين، سـوف يضعانهما في الأغلال، ويرسلان بهما إلى غزة للسجن هناك حتى يتخذ سيدهم السلطان قراراً حول الذي ينبغي عمله معهما، وقـالوا بأن الحجـاج سـوف يسـاقـون عـائـدين إلى غليـونيهما، من دون السماح لهم بزيارة الأمـاكن المقدسـة، وسيـزودوهم بقبطانيين آخـرين، ويرسلون بهم عائـدين إلى بلادهم، وأرغم القبطانين بهذا التهديد على إنهاء خصـامهما، وتصافحـا وعملا سلامـاً بينهما،وبعد

هذا الاتفاق الذي عقداه مع السادة والحكام، من أجلنا جميعاً، جاء الفحل، أي كالينوس الأصغر، إلينا، وأخبرنا بوجوب جعل أنفسنا جاهزين للانطلاق، وهكذا تجهزنا بسرعة ووقفنا مثقلين بحقائبنا وقواريرنا ننتظر الاشارة، واصطف السادة المسلمون أمام كهفنا حتى يمكنهم تعدادنا للمرة الثانية، مثلما فعلوا عندما نزلنا من البحر، وبعدما جرى إرسال عدد كبير من الحجاج إلى الحمير، فجأة أصبحوا غاضبين، حول مالم أعرفه، ودفعوا بناعائدين إلى كهفنا، مهددين لنا بالعصي، وفصلونا عنهم وقذفوا بنا إلى الكهف وكأننا حيوانات، وانقضوا على الحجاج الذين جرى تعدادهم، ونزلوا من التل وكانوا على وشك ركوب حميرهم، وضربوهم بالعصي، وأرغموهم على الركض والدخول إلى الكهف، وهكذا أمضينا ذلك النهار، ولم نكتشف السبب الذي دفع إلى اعادتنا هكذا.

وصف ميناء يافا وقدم هذه المدينة وقداستها

وقبل أن نغادر الميناء، من المناسب أن نرى متى أقيم، وفي أية أماكن من الكتابات المقدسة ورد ذكره، خاصة وأننا نحن الحجاج لن نعود إلى هنا ثانية، لأننا في طريق عودتنا أخذنا سفينة من ميناء الاسكندرية، ولم نر هذا الميناء ثانية.

ويافا هي أقدم ميناء، والمدينة الأقدم في مقاطعة فلسطين، وكانت المدينة الثامنة في العالم، التي بنيت قبل طوفان نوح، الأمر الذي تبرهن على صحته بالعثور هناك بعد الطوفان على مذابح للأرباب التي كانوا يعبدونها قبل الطوفان، ولهذه المدينة اسمين، حيث يقال لها يافا اشتقاقاً من اسم يافث بن نوح، الذي يقال بأنه سكن فيها لبعض الوقت، وأنه أعاد عمارتها بعد الطوفان، وسميت يوبا Joppa اشتقاقاً من اسم أيوب Jop الذي كان رجلاً بسيطاً ومقدساً، والذي من المفترض أنه سكن هناك، وعندما جرى تقسيم البلاد بين الأسباط الاثني عشر لاسرائيل،

وقع هذا المكان في حصـــة سبط دان، وورد ذكـــر هذا المكان في سفـــر القديس إرميا، لدى ذكر «مسافـات الأماكن»، حيث قال بأن يافا مدينة للفلسطينيين في ديار سبط دان، ذلـك انه حتى هذا اليـــوم يمكن رؤية الصخور على الشاطىء، التي ربطت إليها العذراء الجنية أندروميدا، ابنة سيفيوس Cepheus ، بسبب جريمة أمهـــا، فقد حكم عليها من قبل آمون، وبعـد ربطها إلى الصخـرة، قدمت إلى وحش البحـر، وذلك بينما وقف والديها يبكيـــان على الشـاطىء، لكـن فيرسـوس Perseus، أبو النبلاء الاغريق، وابن يوف Jov، ودانس Danis (Danae) كان لديه حصانا مجنحـاً وترس بالاس Pallas ، ونعل وسيف ميركري -Mer cury، وقـد طار محلقـاً من فــوق جبل يدوليسوم Ydolium، وبينما هو طائر محلقـاً في الهواء فوق فرســه المجنح رأى الفتاة مـربوطة إلى صخرة، في ميناء يافـا، ووحش البحر العظيم على وشك التهـامها، وعندمـا رأى هذا طار على الفور إلى هناك، وعقد ميثاقـاً مع والديها، أنه إذا ما أنقذها من الوحش، سوف تكون زوجته، وعندما وافق الوالدان على هذا، قتل الوحش الشنيع، وأطلق سراح الفتـاة، واتخذها زوجـة له، والآن عندمـا رأى فينوس Phyneus أخو سيفيوس ملك يافـا هذا، ولأن أندروميدا كـانت من قبل مخطوبة له، خطط ليأخـذها منه بالقـوة، لكن فيرسـوس غلبـه، وذهب إلى فـارس، حيث تغلب على تلك البـلاد، وأطلق عليهـا اسمه.

وقد تبرهن على أن سيفيـوس كان ملك يافـا من خلال بعض المذابح الغاية بالقـدم، التي عثر عليها القدمـاء، ووجدوا اسمه منقوشـاً عليها، وكـانت عظام ذلك الوحـش البحـري الذي قتله فيرسـوس ذات حجم كبير، وكانت معروضة على الشـاطىء أمام المدينة، وقد رآها جميع الذين زاروا يافا، غير أنهم نقلوا من هناك إلى روما من قبل تيتوس وفسبسيان، وجـــرى تعليقهم في مكان عـــام للتعجب منهـم، لأنهم كـانـوا بالفعل

جديرين بالتعجب، لأن طول كل ضلع من أضلاعه كان احدى وأربعين قدماً، ثم قام القديس سلفستر والقديسين الآخرين الذين كرسوا روما للمسيح فدمروا هذه العظام وجميع العجائب الأخرى، وذلك خشية أن يأتي الحجاج إلى هناك لرؤيتهم، وأيضاً خشية أن ينفق الحجاج الذين قدموا إلى روما من أجل تمجيد الرب ورسله، وقتهم ويضيعوه، ويبددوا الساعات التي يمكنهم تمضيتها في الصلاة، على رؤية مثل هذه الأشياء الغريبة.

وأعلن بعضهم أن تلك العظام كانت عظام الجنية العذراء أندروميدا، الأمر الذي يبدو مستحيلاً، لأن فيرسوس أخذ أندروميدا معه إلى فارس، وأمضى أيامه هناك، ولم نقرأ في أي مكان عن عودته إلى يافا، وقال يوسفيوس بأنه قد رأى السلاسل، والأطواق البرونزية التي ربطت بهم أندروميدا، وأنهم كانوا مايزالون معلقين فوق الصخور، وغالبا ما أشار جيروم إلى أندروميدا هذه، وخاصة في المكان المتقدم الذكر، وفي حج باولا المقدسة، وذكرها بوكاتيوس Boccatius أيضاً في الكتاب الثاني عشر من مصنفه «أنساب الآلهة»، وذكرها بالفصل الخامس والعشرين، مثلما فعل يوسفيوس أيضاً، علاوة على ذلك مراراً جرى الحديث عن هذا الميناء في الكتابات المقدسة الشرعية، ذلك أنه إلى هناك بعث حيرام ملك صور، خشب الأرز من لبنان عبر البحر، ومن هناك أخذ سليمان هذه الأخشاب وجلبها إلى القدس، من أجل بناء الهيكل، حسبما يمكن رؤية ذلك في سفر أخبار الأيام الثاني — الاصحاح الثاني ١٦، وفي عزرا: ٣/ ٧، فضلاً عن هذا بنى شعفاط أسطولاً في هذا الميناء، قاصداً الإبحار إلى جزيرة أوفير ophir، لإحضار الذهب من هناك، لكن السفن غرقت بقضاء من الرب، وذلك حسبما قرأنا في سفر الملوك الثالث، وإلى هذا الميناء هرب النبي يونان، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الأول من سفر يونان، فهنا ذهب على ظهر

سفينة علّه يهرب إلى ترشيش، أي إلى أفريقيا إلى مدينة قرطاج، التي أخبرنا جيروم بأن اسمها كان ترشيش، وعندما صار خارج الصخور تحرك البحر وصار هائجاً، وبناء عليه صار الملاحون راغبين بالعودة إلى الميناء، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء حتى ألقوا بيونان في البحر، فابتعلته سمكة، وبعد مضي ثلاثة أيام تقيأت بيونان ولفظته على الشاطىء.

وأحرق يهوذا المكابي هذا الميناء مع جميع سفنه، بسبب إغراق اليهود، الذي فعله أهل يافا وتدبروه خيانة، وذلك حسبما قرأنا في الإصحاح الثاني عشر من سفر المكابيين الثاني، وجاء القديس بطرس الرسول إلى يافا عندما جرى طرده من اليهودية، وبشر هناك، وفيها أقام تابيثا من الموت، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاحين التاسع والعاشر من أعمال الرسل، علاوة على هذا لقد أمضى أياماً كثيرة في يافا مع سمعان الصباغ الذي كان بيته على شاطىء البحر، ويرى بعضهم — ومايرونه يبدو معقولاً — بأن هذه القناطر والكهوف المقنطرة، التي حبسنا فيها، كانت فيما مضى مكان إقامة سمعان الذي كان القديس بطرس ضيفه، وكان هذا الميناء قد جرى تحصينه من قبل يوناثان وسمعان المكابيين، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الرابع عشر من سفر المكابيين الأول، لكن الرومان دمروه مرتين، وقتلوا هناك كثيراً من اليهود حتى أن دمهم جرى إلى البحر، وغطى جميع أجزاء البحر القائمة بين الصخور، وأعاد الصليبيون فيها بعد بناء الميناء، وخاضوا معارك كثيرة عنده هناك، لكن أخيراً قام المسلمون بهدم كل من الميناء ومن المدينة، ولم يتركوا شيئاً دونها هدم إلاّ برجين لحراسة الجانب المتجه نحو البحر، وكل شيء ماعدا ذلك هدموه بحفر الأساسات تحت الأسوار والجدران.

ولم أر في أي مكان مثل هذه الخرائب العظيمة هناك، وتساءلت عجباً كيف أمكنهم هدم مثل هذه الأسوار السميكة، وتركوا فقط عند المدخل الذي يجده الانسان عندما يأتي من البحر بناءين مقنطرين، واقفين هناك،

وقـد قطعا من الرابيـة نفسها، وهما مغطيـان بالتراب والخرائب، ولذلك هناك دومـــاً رطوبة في هذه الأقنيـــة وهي تدلف بالميـــاه من الأعلى، والجدران مبللة، والأساسات مـوحلة، ويستخدم هذا المكان طوال العام من قبل المسلمين مكانـاً للتغـوط العـام، وفي محل التغــوط هذا يلقـون بالحجـاج المسيحيين، كما تقـدم بنا القـول، والذي يقلق الحجـاج بشكل خاص، أي الذين يحبسـون هناك، هو أنك عندما تدخل إلى الكهف تجد القوس محطماً، وهناك أحجار كبيرة معلقة تهدد بالسقوط على رؤوسهم، ذلك أنه بدفعة من اصبع سـوف تتساقط كومـة كبيرة من الحجارة، وانه تحت هذه الخرائب الخطرة أجبر الحجـاج على الدخـول والخروج بشكل متواصل، وبالاضـافة إلى هذا، من الصعب جـداً، ومن الخطورة بمكان أن يتخذ الانسان طريقاً في هذا الميناء مـن البحر، ولاأعتقد بوجود ميناء آخر بهذا السـوء في جميع اطار البحر، لأنه مـامن سفينة كبيرة قدمت من أية جهة كانت، يمكنها دخـول الميناء، بل عليها التوقف في الخارج، وأن تجد مكانا ترسـو به بعـد قيـاس الأعماق، لأنه على بعـد رميـة سهـم من البحـر العميق هناك صخـور ناتئة ومنزلقـة، وأمـاكن ضحلة وصخـور منبعثة من الماء ومرتفعة فوقه، يهدر البحر بينها بشكل دائم، حتى عندما يكون هادئاً في الأماكن الأخـرى، وتندفع المياه وتضرب الصخور بشدة عظيمة، يتطاير الرذاذ أثرها عاليـاً في الهواء، ويصنع ضجة عظيمة يمكن سماعها من مسافة بعيدة سواء أكان ذلك في البر أو في البحر.

والميناء محاط بهذه الصخور، وكأنه جرى صفهم بفن انساني من أجل حمايته، بحيث لاتستطيع حتى القـوارب من المرور بينهم، إلاّ من خلال مكان واحد، وذلك بين صخرتين عـاليتين، تجذف القوارب بينهما بعناية عظيمة، لأن المياه تتحرك هناك جيئة وذهاباً بسرعة مدهشة، وهي تندفع وتضرب نفسها ضد جانبي الصخور، ومـالم يكن الربان أو قائد القارب حـذراً، من الممكن أن تتغلب المياه على القـارب وتدفعه على الصخـور،

وتحطمــــه إلى آلاف القطع، ولهذا على الـذين يـدخلون إلى هـذا الميناء التجـذيف خـلال الأمواج المرتفعـة بأقصى سرعـة ممكنة لمجـاذيفهم أن تعمل بها، وذلك خشيـة أن ينجرف القـارب ويخرج من وسط القناة إلى هذا الجانب أو ذاك ويصطدم بالصخور، وعلى كل حال من غير الممكن لأي قائـد قارب مهما كـان بارعاً، أن ينجـو من التبلل بالمياه المتسـاقطة، والتي تضرب الصخور بكل عنف مـن على الجانبين، وهذه هي صخور أندروميدا، كما رأيناهم.

وفي اليـوم التـاسع، جاء قبل الفجـر، إلى كهفنا مسلم معـه مصبـاح، وأيقظنا لننطلق برحلتنا، ولذلك نهضنا مسرورين، وخـرجنا من سجننا، مثلما يفعل الأسرى لدى خـروجهم مـن مكان أسرهـم، ووجـد فيما بين الكهـوف والبحـر، باتجاه الشمال، طريـق يمـر نزولاً عبر الصخـور، إلى المكان الذي وقفت فيـه الحمير مع سـائقيهـا، وكـان هذا الطريق ضيقـاً جداً، بحيث لايستطيع الانسان الذهاب نحو اليمين أو نحو اليسار، بل عليه السير في وسط هذا الممـر فقط، ووقف قبطانانا مع بعض المسلمين عند هذا الطريق الضيق، يحملون مصابيح، من المشاعل والفوانيس، وقد سألوا كل حـاج، واحداً بعـد الآخر عن اسمـه وعن اسم أبيه، وبحثـوا عنه في الجدول الذي كتبـوه عنـدمـا نزلوا من السفينة، وعندمـا كـانوا يعثـرون على اسم الحاج، كـانوا يسمحـون له بالنزول إلى الحمير، الذين وقفوا في حشد تحت، هناك قرب البحر، ولـو أن عدد الحجاج كان أكثر أو أقل مماهو بالجدول، ولم يستطع القبطـانان تقـديم تفسير لذلك، كـان لابد من رمينا ثانية في سجننا.

وهكذا ذهبنا ونزلنا إلى المكان الذي وقفت فيـه الحمير، وهناك وقف السـائقون بانتظارنا، ومـاأن كان الحاج ينزل إلى الأرض المستـوية، حتى كان أقـرب السائقين يمسكه، ويقـوده إلى حميره، ولذلك كثيراً مـاحدث أن كان هناك سائقين أوثلاثة يتجاذبون حـاجاً واحداً، يجره أحدهم بهذا

الاتجاه، وذاك بالاتجاه الآخر، لأنه عندما سمع أهل الريف في القرى المجاورة بأن حجاجاً قد جاءوا، جلبوا كثيراً من الحمير، وكان عددهم أكبر من عدد الحجاج الذين كانوا هناك، ولذلك حاول كل انسان أن يجلب حاجاً إلى حميره، لأن كل واحد من المسلمين جلب سبعة حمير أو ثمانية من نوع واحد، وكان لهذا يحدث أن لايوجد أكثر من مائتي حاج، ويكون هناك مايزيد على أربعمائة حمار، ولذلك تقاتل السائقون من أجل الحجاج، وتجاذبوهم إلى هنا وهناك، لأن الذي لم يأته حاج، جاءت رحلته مقابل لاشيء، ولم أفهم هذا عندما قمت بحجي الأول، ففي اللحظة التي كنت قد نزلت بها، ركض نحوي وقتها مغربي أسود، وجذبني بعنف محاولاً جري نحو حشد من الحمير، كان من حوله هناك صخب مدهش، ولقد خشيت من أن يكون قد نوى سرقتي، فوقفت ثابتاً في مكاني، وبقوة كبيرة خلصت نفسي منه، وعاودت بكل سرعة الصعود إلى المكان الذي وقف الحكام فيه مع مصابيحهم، وأخبرت الأب المسؤول عن دير جبل صهيون بما وقع لي، وعندما سمع هذا الأب ذلك مني قال:«انزل بسرعة، بسرعة، واذهب بارادتك مع الذي يقودك ويذهب بك، وعندما نزلت، قابلني مسلم، وصدف أنه أمسكني بيمينه من يميني، وبدأ يسعى مسرعاً، لأنه في ذلك الوقت كان الجميع قد ركبوا حميرهم، وعندما ركض أرغمت على الركض جانبيا وبشكل مربك، لأنه —كما قلت— كان ممسكاً ليميني بيمينه بشدة، ولقد ركض وهو ممسك بي فوق الصخور حيث ارتطمت بها عدة مرات، وأنا أركض جانبياً، ووقعت، وأخيراً وصل بي إلى حميره، وأعطاني حماراً صغيراً جيداً، كان كله أسود اللون، وأبدى نحوي كثيراً من اللطف والصداقة، خلال حجي الأول كله، ومع أن منظر وجهه كان قبيحا، لقد كان كله لطف، واستجاب لجميع مطالبي مثل أحسن الخدم، وفعل ذلك قبل أن يعرف مكانتي، وكان عبداً لسيد مسلم أنا لم أعرفه، كان اسمه جلاله Galela ، وكان اسم عبده قصه Cassa ، وكان كل

من أراد أن يدعو هذا العبد، قد اعتاد على دعوته بهذين الاسمين معا:« جلاله قصه»، وكان سائق الحمار قصه قد أخبرني أنني كلما أردت دعوته، عليّ أن أنادي جلاله قصه، لأن الحاج يحتفظ بالسائق الذي يحصل عليه في يافا، خلال الرحلة كلها في الأرض المقدسة، ولايحصل على حمار من أي واحد آخر، وكلما أراد الحاج أن يترك أي مكان، عليه أن يسعى بين حشد الحمير بحثاً عن سائقه، داعياً إياه بالاسم بصوت مرتفع.

وبناء عليه، عندما نزلت في حجي الثاني هذا من المكان الذي وقف فيه الحكام، رغبت بالحصول على سائق حماري الأول، وقبل أن أصل إلى قطيع الحمير، صرخت إلى جلاله قصه سائق حماري الأول، وعندما سمع السائقون الآخرون هذا، مامن واحد منهم حاول جذبي نحو حميره، لرؤيتهم أن لدي سائق أنا أعرفه، وفيما أنا أصرخ جلاله، قام سيد سائقي، الذي لم أكن أعرفه، والذي كان مسلما مثل الملك بالمكانة، وكان جالساً على ظهر فرس، فقدم نحوي ولمسني بلطف بعصاه التي أمسكها بيده، مشيراً إليّ أن أحتفظ بهدوئي، وأن أقف على الجانب بلاحراك، وكان الجميع الآن يركضون إلى هنا وهناك، وكان كل حاج وسائق حمار في وضع فوضوي جداً، وكان كل واحد يسرع ليعمل صفقة جيدة لنفسه، ولهذا عندما وقفت بلا حراك، والحجاج الآخرون كل واحد منهم يسعى أو يجري جره نحو الحمير، صرت قلقاً، خشية أن يكون المسلم قد نسيني، وحاولت أن أبتعد عنه، وعندما رأى هذا، قال لي شيئاً باللغة الكلدانية (كذا) لم أفهمه، لكنني قدرت وقتها أنه قال لي:«قف حيث أنت إلى جانبي، أنا جلاله، وعبدي قصه سوف يأتي بالحال إليّ، وسوف يزودك بدابة»، وبعد انتظار قدم قصه إلى سيده، وماأن رآني حتى تذكرني وعرفني، وتذكرته أنا وعرفته وركض ليقبلني حسب طرائق المسلمين، وحياني بسرور عارم وببهجة، واندهش كثيراً

لعودتي، وضحك وقال أشياء كثيرة لي، أنا لم أفهمها، وكنت قد جلبت معي من أولم ركابين معدنيين، قدمتهما له، وقد تقبلهما بشكر عظيم، واقتادني إلى حيث وقفت حميره بين القطيع، وأعطاني أحسن دابة لديه، ودهش موالي مع الحجاج الآخرين لرؤيتهم المسلم وهو يعاملني بكثير من الصداقة، لأنهم كانوا يعانون من كثير من الازعاج من سائقي حميرهم، وذلك بالضرب من قبلهم، والإلقاء عن ظهور حميرهم والاستيلاء على مقتنياتهم، وقد تحررت من جميع هذه الاضطرابات، لأنه كما حدث في حجي الأول، خدمني هذا الرجل بأمانة، وأطاع أوامري، وكأنني كنت أميراً، وغالباً مابدل لي حميري حتى أحصل على حمار أفضل يرضيني، وعندما كان الحمار يصعد إحدى التلال، كان يدعمني، وكان يمسكني عندما كنا ننزل طريقاً منحدراً، أو طريقاً وعراً، حتى لاأسقط، وكان يعطيني شراباً من قربته، ويشاركني في الكعك الذي كان معه، وكان يتسلق فوق الجدران الحجرية للحدائق، ويجلب لي التين والعنب وفواكه أخرى منهم، وقد أعطاني المهماز الذي استخدمه لحماره، هذا ولم يعط أي من سائقي الحمير الآخرين إلى أي من الحجاج مهاميز لحميرهم، وبسبب هذه الخدمات التي قدمها لي اعتاد النبلاء ورفاقي على الظن أنني أعطيته كثيراً من المال بالسر، لكن هذا لم يحدث، لأنني لم أعطه شيئاً مطلقاً زيادة على ماكان مفروضاً عليّ، وغالباً ماتصورت أنه افترض أنني كنت لورداً كبيراً، وكان هذا المعلل لخدمته لي بمثل هذه العناية، وفي الحقيقة كنت في خلال حجيّ محظوظاً إلى حد كبير، حيث لم أعامل بسوء من قبل أحد من المسلمين، أو البدو العرب، أو المدينيين، أو المماليك، والذين كانت لي علاقة بهم، ولايمكنني إخباركم أنني تلقيت أية ضربات أو اهانات، مع أنني غالبا مارأيت الحجاج الآخرين يتعرضون للضرب وللإهانة، وكان لديّ دوماً في حجيّ دواب جيدة، وبقيت على الدوام قوياً وصحيحاً، وللرب الحمد.

انطلاق الحجاج من شاطىء البحر وهم على ظهور حميرهم

أما وقد فرغت من حكاية جولاتي عبر البحر، ينبغي أن أنتقل إلى مايتعلق بجولاتي على اليابسة، وهكذا —كماقلت من قبل— عندما جئنا إلى قطيع الحمير، وأخذ كل انسان، بعد طول انتظار دابة وتجهز بها، امتطينا هذه الحمير عند شاطىء البحر، ووقفنا ننتظر لبعض الوقت، حتى أصبح السادة المغاربة جاهزين، وكان هناك بعض الحجاج، الذين رفضوا صدوراً عن تقواهم، أن تكون لديهم حمير، وأرادوا السعي وراء جماعتنا، وسمح لهم المسلمون بفعل ذلك، وكانوا راضين شريطة أن يركضوا بقدر ما تستطيع حميرنا أن تقطع في يوم واحد، وأن يسيروا مع الجماعة، وأن لايتأخروا خلفها، لكن عندما سرنا أسرع لم يستطيعوا مسايرتنا، بسبب المسافة التي قطعناها، ولأن الطريق الذي سرنا عليه كان طريقاً رمليا، وهكذا كانوا مرغمين بالقوة على ركب الحمير.

هذا وليست صحيحة الحكاية التي غالباً ماسمعناها في بلادنا، من أن المسلمين أرغمونا على ركب الحمير إلى القدس، وأن نمر من خلال الأرض المقدسة، لأنهم كانوا يرون أننا غير جديرين بلمس الأرض بأقدامنا، فهم لم يعبأوا أمشى الحاج على قدميه، أو ركب حماراً، مادام العقد المبرم مع القباطنة محافظ عليه وعلى الذي يمشي على قدميه عدم التأخر، ومن ثم إرغامهم على انتظاره، والسبب الذي جعلونا نأخذ به حميراً، هو أن نبقى دوماً مع بعضنا، وأن نصل إلى القدس دون أن نصاب بالمرض، لأن الحجاج لو توجب عليهم السير على أقدامهم طوال الطريق من البحر إلى القدس، وأن يعبروا خلال الأرض المقدسة في مثل هذه الأنواء الحارة، وأن يمشوا فوق الطرقات التي هي رملية في السهول، ووعرة في الجبال، لو توجب عليهم هذا، فقلة منهم هي التي سوف تبقى حية، بسبب الحرارة، والعطش، والعمل في ظل مناخ غريب، وإذا ما أرغمنا على السير على أقدامنا، خلال الأرض المقدسة،

كيف لنا أن نهرب من البدو العرب، والفلاحين في القرى، أو الصمود في وجههم عندما يهاجموننا؟ وبناء عليه إنه لصالحنا جرى تزويدنا بالدواب، وليس لضررنا كما قيل من قبل الجهلة.

وعندما بات الجميع جاهزين، ومضى القبطانان والحكام على ظهور خيولهم، وابتعدوا عن شاطىء البحر، تبعناهم، ونحن على ظهور حميرنا، وسار خدم السادة المغاربة، وهم على ظهور مطاياهم خلف الحجاج، ورافقنا سائقوا حميرنا، وسرنا نحن جميعاً وفق هذا النظام مسرعين جداً بعيداً عن البحر، وكان هناك حشد عظيم اجتمع معا من المسيحيين ومن المسلمين، وأدرنا ظهورنا إلى شاطىء البحر، الممتد من الشمال إلى الجنوب، وكان ميناء يافا، بوضعه قائماً في وسطه، لأنه قام باتجاه الجنوب منه يبنى وغزة، وقام على الجانب الشمالي قيسارية فلسطين، وعكا، وصور، وبيروت، وطرابلس، وقد خلفنا هؤلاء جميعاً وراءنا على شاطىء البحر، وسرنا على طريقنا نحو الشرق، خلال أرض فلسطيا، التي لم تكن كلها منبسطة، بل تشكلت من هضاب منخفضة من مختلف الأشكال، وهذه أرض كانت من الممكن أن تكون خصبة وجيدة، لو توفر شعب يزرعها ويسكن بها، لأنه في الواقع الجزء الأكبر من الأرض المقدسة هو صحراء.

وعندما صرنا على مسافة نصف ميل عن البحر، وصلنا إلى مدينة غاث، التي كانت فيها مضى مدينة المقاتلين الأشداء جداً من العمالقة، وفيها ولد جالوت الغاثي، وتقول الأساطير أيضاً بأن القديس كريستوفر قد ولد هناك أيضاً، وإلى ملك غاث كان داوود قد هرب من وجه شاؤول، وحدثنا الإخباريون عن هذه المدينة، أنه بفضل طبيعة المكان، ولد فيها رجال قساة وشجعان، ولهذا حتى في العصور المتأخرة استولى الصليبيون عليها بعد سفك كثير من الدماء، وخاضوا معارك شديدة مع المسلمين المدافعين عنها، حتى أخيراً، بعد مذبحة عظيمة بين

المسلمين والصليبيين فقدوها للمرة الثانية، وعندما استولى عليها المسلمون هدموها وسووها بالأرض، ولهذا هي الآن قائمة حالها حال يافا.

وكانت الشمس في الوقت نفسه قد أخذت بالاشراق، وقد اجتزنا خلال أرض جميلة، مليئة بالأسوار والجدران المهدمة، ولقد دهشنا تجاه الخرائب التي رأيناها، عندما اجتزنا إلى جانب مدينة اسمها أرسوف، التي كانت قد بنيت من قبل سليمان، وذلك تبعاً لما قاله جيروم في كتابه «عن مسافات الأماكن»، وكان البدو العرب في ذلك الحين منتشرين فوق وخلال كثير من أجزاء الأرض المقدسة، ولقد قدموا ثلاث مرات لمواجهتنا، لكنهم عندما رأوا أننا كنا محميين بشكل جيد بمدافعين مسلحين، لم يتعرضوا لنا بأي عنف لا بالحجارة ولا بالفولاذ، بل التحقوا بشكل سري بحشدنا إلى طرف الحجاج، وحاولوا سرقة كتابات، وملابس وما شابه ذلك، لأنهم عرفوا أننا كنا غير مسلحين، ولهذا ركضوا من حولنا وانتشلوا كل ماسقط من الحجاج، أومالم يحرسوه بشكل دقيق، ولولا أننا سافرنا مع هذه القوة العظيمة، لكانوا انقضوا علينا، وضربونا بالحجارة، والعصي، والهراوات، كما حدث مراراً للحجاج بين يافا والرملة، وعندما لايكون بداة عرب في المنطقة، كان الفلاحون يحتشدون مع بعضهم، ويهاجمون الحجاج وهم على طريقهم، ويلحقون بهم أضراراً كثيرة، ولهذا كانت الرحلة من يافا إلى الرملة خطرة كثيراً، بسبب هذه الكمائن والإهانات الصادرة عن المسلمين.

وفيما نحن على طريقنا رأينا مدينة الرملة، فوق رابية منخفضة في منطقة فائقة الجمال، وعندما بتنا على مسافة فرلنغ (ثمن ميل) منها، أرغمنا على الترجل من على ظهور حميرنا والسير على الأقدام، وأن يحمل كل واحد منا حقائبه على كتفيه، وبناء على ذلك أعطينا حميرنا إلى السائقين، وأسرعنا نحو البلدة ونحن في ضيق عظيم، لأن الحرارة كانت

عالية جداً، وثار الغبار هناك، وكان هناك حشد كبير من الناس مع كثير من أعمال الازعاج، وكان المسلمون لايقبلون بدخول المسيحيين إلى مدنهم وبلداتهم، وهم راكبين للدواب، مالم يكن قدومهم في الظلام، لكن في وضح النهار كان هذا مرفوضاً، ولقد عدّوا مدينة الرملة ذات مكانة عالية فوق جميع المدن الأخرى، لأن القاضي Thadi ، أي أسقفهم، يسكن فيها، لذلك تراهم متمسكين في أن لايدخلها مسيحي إلاّ على قدميه، وعندما دخلنا إلى المدينة، وجدنا على مسافة قصيرة من بابها بيتاً له باب منخفض وضيق، وقف أمامه الحاكم، وتولى تعدادنا واحداً واحداً، وذلك مثلما فعلوا عندما غادرنا البحر، وطلب منا الدخول من خلال الباب الصغير، هذا ولقد كان في داخله ساحة واسعة وجميلة، مع كثير من القاعات، والغرف المقببة من مختلف الأنواع، وبركة مليئة بماء جيد وصحي.

وكان هذا البيت قد شري منذ وقت طويل مضى من قبل فيليب صاحب بيرغندي، ذي الذكرى المباركة من أجل الاستخدام من قبل الحجاج، وعهد به من قبله، إلى رهبان دير جبل صهيون، ولهذا أطلق عليه اسم مضافة الحجاج، وقد تركه رهبان دير جبل صهيون إلى واحد من المسيحيين الشرقيين سكن فيه، ولقد سمعت أنه قبل شراء هذا البيت من أجل إيواء الحجاج، كانوا قد اعتادوا على الإقامة مجبرين في نزل عام في المدينة قرب السوق، في وضع تعيس وكريه، حيث أسيئت معاملتهم كثيراً، لأن مسلمي الرملة ومغاربتها يحملون كراهية خاصة نحو المسيحيين ويسيئون معاملتهم كثيراً، كما سأخبركم، وقمنا هنا بتوزيع أنفسنا على مختلف القاعات، وجلست كل جماعة لحالها، وامتلك موالي وجميع أتباعهم مأوى واسعاً، اشترينا له حصراً لتغطية الأرض، حتى لانكون مرغمين، على الجلوس، أو الاستلقاء، أو النوم، أو الأكل، فوق أرض عارية، لأنه لم يكن هناك سوى قاعة مقببة مع جدران

وأرض مبلطة، من دون أي أثاث مهما كـان نـوعـه، باستثناء مـا جلبناه وأدخلناه إلى هناك بأنفسنا.

هذا وكـانت السـاعـة عندمـا دخلنا إلى المدينة هي حـوالي التـاسعـة صبـاحاً، وبناء عليـه أعدّ الأب المسـؤول عن دير جبل صهيون، وأقـام مذبحاً في الحديقة الداخلية للبيت، حيث كان بيتا القبطانين، وكان ذلك مقابل جذع نخلة عظيمة، كانت قـائمة هناك، محملة بالتمور، وبعد هذا دعا جميع الحجاج إلى الدخول إلى تلك الحديقة، وفعل ذلك بعدما أغلق الأبواب، حتى لايتمكن المسلمون من مقاطعتنا، وقام واحد من الرهبان بعمل قداس، وبعد القداس قدّم الأب المسـؤول موعظة طقوسية جميلة، باللاتينيـة، لأنه كـان ايطاليـا، ولايعـرف الألمانيـة، وبما أنه لم يكن لديه، أومعه أحد فصيح مجيد للغـة الألمانية، يمكنه أن يترجم موعظته لنا نحن الألمان، طلب مني أن أقف إلى جانبـه، وأن أترجم موعظتـه إلى الحجاج الألمان، وفعلت هذا راضياً، ووقفت إلى جـانبه، وعندما كـان يتفوه جملة باللاتينية كنت آخـذها من فمه وأعيـدها باللغة الألمانية الرائجـة، فضلاً عن هذا قـدم إلى الحجـاج بعض الـوصـايا في مـوعظتـه تتضمن أحكام وطرائق رؤية الأمـاكن المقدسـة التي عليهم مـراعاتها أثناء إقـامتهم بين المسلمين والكفار في الأرض المقدسة، خشيـة أن يتعرضوا للمخاطر من خلال الجهل.

وكانت أول الأحكام والنصـائح: أنه إذا كان هناك حاج قـد قدم من دون الحصول على إذن واضح من البابا، وبذلك صار عرضة لقرار البابا بالحرمـان الكنسي وتحت طـائلتـه، على مثل هؤلاء الأشخـاص تقـديم أنفسهم له بعد القداس، وهو سيقوم بتحليلهم من ذنبهم بفضل السلطة الرسوليـة الممنوحة له، فـالبابا كـان يتخذ قراراً اجـرائياً ضـد كل واحد يذهب لأداء الحج في الأراضي المقدسـة من دون الحصول على إذن منه، كما مـرّ معنا في ص٩٥، المتقدمـة، وسبب هذا الحرمـان الكنسي، هو أنه

بعدما جرى طرد الصليبيين من الأرض المقدسة، بقي بعض المسيحيين، حتى من أتباع الكنيسة اللاتينية هناك، وتخلفوا فيها، وتعايشوا بأنفسهم مع المسلمين، وأدوا ايمان الولاء لهم، وحدث أيضاً أن بعض الذين تركوا تلك البلاد، عادوا إلى هنا ثانية إلى الذين بقيوا هناك وصاروا رعايا لهم، وأبحروا بعد ذلك إلى البلاد المسيحية، وجلبوا منها مصنوعات حديدية، وأسلحة، كان المسلمون بحاجة إليها، وعندما رأى البابا هذا، قام بإصدار قرار حرمان كنسي بحق جميع الذين بقيوا في الأرض المقدسة مع المسلمين، أو الذين تعاونوا معهم واتفقوا، كما قام أيضاً بحرمان الذين حملوا الأسلحة والأشياء الأخرى المحتاجة إليهم، علاوة على ذلك حرم الأرض نفسها، وبناء عليه صار كل من يدخل إليها من دون إذن آثماً مرتداً، على أساس أنه لايمكنه العيش هناك من دون التعاون مع المسلمين والمراطقة، هذا وجرى استثناء أعضاء من الطوائف الدينية من الذين زاروا الأرض المقدسة من الحرمان، وكذلك كل واحد له صديق واقع بالأسر بين المسلمين، فهذا يمكنه دخول البلاد من دون الحصول على إذن من البابا، وأن يعقد صفقة مع المسلمين من أجل الحصول على حرية صديقة، وقد قرأت هذه الشروط والقرارات في كتاب قديم كتب من قبل أحد الحجاج الذين زاروا الأرض المقدسة منذ مائة وخمسين سنة مضت، ولم يمنح الرئيس الأعلى للدومنيكان إذنا لأي راهب لم يحصل أولاً على إذن من البابا.

وكانت النصيحة الثانية: وجوب عدم تجول أي حاج لوحده حول الأماكن المقدسة من دون دليل مسلم، لأن ذلك يعدّ خطراً وغير آمن، ولم أقم أنا الراهب فيلكس فابري بالتقيد تقيدا مطلقاً بهذه النصيحة كما سيتضح فيما بعد.

وكانت النصيحة الثالثة: على الحاج أن يكون حذرا ولايخطو فوق قبور المسلمين، لأنهم يغضبون غضباً عظيماً عندما يرون هذا يفعل،

ويرجمون بالحجارة كل واحد يدوس فوقهم، لأنهم يعتقدون أن الخطو فوقهم يعذب الميت ويزعجه.

وكانت النصيحة الرابعة: أنه إذا ماتعرض حاج لضربة من مسلم، عليه عدم الرد بضربه، حتى وإن كان مظلوماً، بل عليه أن يشكو الذي ضربه إلى المسؤول عن الدير أو إلى الترجمان كالينوس اللذان سيقتصان له إذا استطاعا، وإذا لم يستطيعا، وكان الفاعل شاب وقح أحياناً، وعنيد، وقتها على الحاج أن يتحملها صابراً من أجل مجد الرب، ومن أجل الحصول على ثواب أعظم.

وكانت النصيحة الخامسة: على الحجاج أن يحذروا من قطع شظايا من الضريح المقدس، ومن الأبنية في الأماكن الأخرى، ومن تشويه الحجارة المنحوتة هناك، لأن هذا محرم تحت طائلة الحرمان الكنسي، ولسوف يقال المزيد حول هذه المسألة في الورقة ٢١٧ظ.

والنصيحة السادسة:يتوجب على الحجاج من أصل نبيل عدم تشويه الجدران برسم رنوكهم وشعاراتهم عليها، أو بكتابة أسمائهم، أو بتثبيت أوراق على الجدران عليها مرسومة رنوكهم، أو بالخربشة على الأعمدة أو الألواح الرخامية، أو حفر حفرٍ فيهم بأدوات معدنية لعمل علامات تدل على زيارتهم لهم، لأن مثل هذا التصرف يغضب المسلمين كثيراً، ويعتقدون أن الذين يفعلون مثل هذه الأفعال حمقى.

والنصيحة السابعة: هي على الحجاج السير إلى زيارة الأماكن المقدسة بطريقة نظامية، من دون فوضى أو عدم اتفاق، وينبغي أن لايقوم انسان بإبعاد آخر وأخذ مكانه، لأن هذا يولّد كثيراً من الفوضى التي تقع عند تلك الأماكن، وبذلك تتعطل التقوى ويعاق التعبد المخلص.

أما الشرط الثامن والنصيحة: هي أنه يتوجب على الحجاج عدم الضحك وهم يسيرون مع بعضهم في أرجاء القدس لرؤية الأماكن

المقـدسـة، بل عليهم أن يكـونوا جـديّين وأتقيـاء، من أجل الأمـاكن المقـدسة، وليقـدموا مثـلاً للمسلمين، وأيضاً حتى لايعتقـدون ويشكّون أننا نضحك عليهم، الأمـر الذي يغضبهم إلى أبعـد الحدود، ذلك أنهم دوماً يتشككون حول الضحك والرهج بين الحجاج.

والوصية التاسعة: هي على الحجاج أن يكونوا متيقظين فوق كل شيء تجاه المزاح أو الضحك على الأطفـال المسلمين أو الرجـال الـذين يقابلونهم، لأنه مهما كان القصد من ذلك، فإن كثيراً من السوء ينشأ من ذلك، وعلى هذا مهما صـدر عـن الصبي وكـان مضحكاً، على الحاج أن يبعد نفسه وينأى بها، وأن يبقى جاداً، وبذلك يبقى بأمان.

وأمـا الوصية العـاشرة: فعلى الحجاج عـدم التحديق بأي من النسـاء اللائي يواجهن، لأن جميـع المسلمين غيـورين إلى أبعـد الحدود، وهكذا يمكن للحـاج أن يجلـب المخـاطر على نفسـه من خـلال الجهل، حيث يغضب عليه واحداً من الأزواج الغيورين.

والوصية الحادية عشرة: إنه إذا ماحاولت أية امرأة الإيماء إلى حاج أو دعـوته بالشارات لدخـول بيت ما، عليـه عدم فعل ذلك بأي حـال من الأحوال، لأن المرأة تفعل ذلك من باب التآمر، بإثارة من بعض الرجال وتحريض، من أجل أنه عندمـا يـدخل المسيحي تتم سرقتـه، وربما قتله، فالذين لايكونون حذرين جداً في هذه الأمور قد يجنون مخاطر عظيمة.

والوصية الثانيـة عشرة: على الحاج أن يكون متيقظا فلا يعطي إلى أي مسلم خمرة عندما يسأله ويطلب منه شراباً، سـواء أكان ذلك على طرف الطريق، أو في أي مكان آخـر، لأنه بعـد شربه لجرعـة واحـدة يصبح مجنوناً، وأول رجل يقاتله هو الحاج الذي أعطاه الشراب.

والوصيـة الثـالثة عشرة: على الحاج الحفـاظ على الحمار الذي تسلمـه أولاً من سائقـه، وعليه عـدم تغييره أو مبادلتـه بحمار آخر، إلا بمـوافقة

السائق، وإلا فسينجم عن ذلك اضطراب.

والوصية الرابعة عشرة: على الحجاج من أصل نبيل عدم الافصاح عن نبالتهم أمام المسلمين، لأن هذا عملاً غير حكيم، ولايجوز فعل ذلك لأسباب كثيرة.

والوصية الخامسة عشرة: ينبغي أن لايضع أي حاج على رأسه عمامة بيضاء، أو يلف قطعة قماش أبيض أو منديل حول رأسه في حضور المسلمين، لأنهم يعدون أنفسهم وحدهم يمتلكون امتياز فعل ذلك، وهي علامة يتميزون بها عن الأمم الأخرى، كما أنهم لايتحملون رؤية مسيحيين يرتدون أردية بيضاء، مع أن ذلك معاكسا لعقيدتهم الواردة في القرآن، حيث غالباً ماأطلق على المسيحيين اسم «ذوي الأردية البيضاء» (كذا) وكلما جاء ذكرهم فيه قيل هم «اللابسين للبياض»، وذلك حسبما قرأنا في ترجمة القرآن التي عملها نيقولاكوسا Cusa ، ذلك أن المسلمين يتصرفون على عكس تعاليم محمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد تبنوا ثانية كثيراً من العادات التي اعتادوا على استخدامها في أيام الوثنية، مثل مايتعلق بقضية الألبسة، ذلك أن يرتدون ملابس خنثوية لايتميز الرجال فيها عن النساء، مثلما نقرأ أن الملكة سميراميس قد لبست في الماضي القديم، عندما زحفت ضد البكتريين Bactrians ، وهي في الوسط بين رجالها المسلحين، وقد لبست ذلك حتى لايعرفها أحد فيما إذا كانت امرأة أو رجل، وهذه العادة ماتزال متبناه في الشرق، ومثل هذا كان من طرائق الكفار أن يلفوا رؤوسهم بالأقمشة، مثلما نقرأ بأن ذلك قد فعله دايونيسوس Dionysus ابن سملي Semele ، الذي كان مدمنا على الشراب والرفاهية، حيث كان كلما أصيب بصداع بعد السكر، اعتاد على ربط رأسه ولفه بعمامة، ومن ذلك نال اسم Mitrophoros ، وقلد محمد (ﷺ) دوما شارب الخمرة ذاك، بأن لف رأسه بعمامة، لكن بعدما حرم

الخمـرة ...(١) تبنـى عمامـة للرأس لها شكل الكرة، وترك ذلـك عـادة لأتباعه، ذلك أنهم يسيرون في هذه الأيام وهم يلبسون هذه الكرات من القماش على رؤوسهم، وكأنها تيجـان، ولايسمحـون لنـا بأردية رأس بيضاء.

والوصية السادسـة عشرة: لايجوز لأي حاج حمل خناجر أو أي شيء آخر معلقـاً من حوله، خشيـة أن تسلب منه، كما لايجوز له حمل أي نوع من أنواع السلاح.

والوصية السابعة عشرة: إذا ما أقام حاج صداقة مع أي مسلم، عليه أن يكون حذراً في عدم الوثـوق به كثيراً، لأن المسلمين خونة، وعليه أن يكون متنبها بشكل خاص فلايضع يده على لحيته مزاحاً، أولمس عمامته، لأن هذا الشيء يعـدّ إهانة بينهم، ويتم تناسي جميع المزاح، ويعـدّ ذلك تهديداً، ويتحـول إلى غضب، وبشأن هـذه الحقيقـة، كـان لي أنا الراهب فيلكس فابري تجربة.

والوصيـة الثـامنة عشرة: يتـوجب على كل حـاج أن يحرس بعناية مقتنيـاته، وأن لايدعهم ملقى بهم من حـوله في أي مكان فيـه مسلمين، وإذا حدث هذا فإن هذه المقتنيات سوف تختفي، مهما كانت.

والوصية التاسعة عشرة: إذا كـان لدى أي حاج قارورة من الخمرة، ورغب أن يشرب منها، عليه إخفاء القارورة والشرب منها بشكل سري إذا كان المسلمون حضوراً، وعليه أن يسأل رفيقه بالوقوف أمامه، أو أن يغطيـه بردائـه، وبذلك يمكنـه أن يشرب دون أن يرى، ولأن شرب الخمـرة محرم عليهم، فإنهم يحسـدوننا عندمـا يروننا نشرب منهـا، ولهذا يقومون —إن استطاعوا — بإزعاج الذين يشربون.

---

(١) أورد الرحالة هنا بعض العبـارات النابية فأسقطتها، وواضح عـدم استناد روايته إلى أي توثيق.

والوصية العشرين: يتوجب على كل مسيحي عدم التعامل مالياً مع المسلمين، إلا في الشؤون التي يعرف أنه لن يخدع بها، لأنهم يبذلون جهدهم لغشنا، ويعتقدون أنهم يخدمون الرب بخداعنا وغشنا (كذا) وفوق كل شيء، على الحاج أن يكون حذراً من اليهود الألمان، وأن يحترس منهم، ذلك أن هدفهم الوحيد في الحياة هو خداعنا وسرقة أموالنا، وعليه أيضاً أن يكون حذراً من المسيحيين الشرقيين لدى تعامله معهم، لأنهم ليس لديهم ضمائر، وأدنى من اليهود ومن المسلمين، ويقومون بخداع الحجاج إذا استطاعوا.

والوصية الحادية والعشرين: عندما يعقد الحجاج مواثيق مع مسلمين، عليهم عدم الاختلاف معهم، ولا الإقسام لديهم، وأن لايكونوا غاضبين معهم، لأنهم يعرفون هذه الأشياء مضادة للديانة المسيحية، وعندما يرون أي شيء من هذا النوع يصرخون على الفور:«أنت مسيحي سيء»، ذلك أنهم جميعا يمكنهم قول هذا بسهولة بالايطالية أو بالألمانية، وكلما أظهر أي حاج أي سوء، يلقون باسم «مسيحي» بين أسنانهم، وكأنهم مقبلون على الاستشهاد بالنص الذي قاله القديس أوغسطين حول العقيدة المسيحية، حيث تساءل: «كيف لايمكنه أن يقول عنك مسيحي، الذي لايتصرف مثل مسيحي؟ فالمسيحية اسم يعني تطبيق العدالة، والجودة، والأمانة، وطول المعاناة، والفضيلة، والحكمة، والتفرد، واللطف، والبراءة، والتقوى»، ولذلك على الحاج أن ينتبه لنفسه حتى لايجلب العار على مثل هذا الاسم النبيل مضافاً إلى اسمه الشخصي.

والنصيحة الثانية والعشرين: على الحاج الانتباه إلى عدم الدخول إلى المساجد، أي أماكن العبادة لدى المسلمين والاعتكاف، ذلك أنه لو وجد هناك، لن ينجو مطلقاً من دون أن يتعرض للأذى، هذا إذا نجا بحياته، ولقد جرى بحث هذا الموضوع بشكل مطول في الورقة ٢٦١ وفي

الصفحات التالية.

والنصيحة الثالثة والعشرين: على الحاج أن يكون حذراً بشكل خاص من الضحك للاستهزاء من مسلم يصلي ويقوم بالسجود المطلوب في عقيدته، لأن المسلمين لايمكنهم تحمل هذا مطلقاً، لأنهم هم أنفسهم يتمنعون من الاستهزاء بنا والضحك علينا عندما نكون في صلاتنا.

والنصيحة الرابعة والعشرين: إذا ما أبقي حاج مدة أطول مما رغب في الرملة، أو في أي مكان آخر، عليه تحمل ذلك صابراً، وأن لايظن أن ذلك غلطة الأب المسؤول، بل غلطة المسلمين، الذين يفعلون مايرضيهم في هذه المسائل، وليس ماهو موائم لنا.

والنصيحة الخامسة والعشرين: ينبغي على الحجاج أن لايتذمروا من دفع المال لانقاذ أنفسهم من المنغصات الكثيرة التي تلحق بهم، إنما عندما يتوجب دفع المال، عليهم أن يدفعوا دون مناقشة وعلى الفور، هذا ولايحتاج أي واحد لدفع مال إلى سائق حماره، لأن هذا كله قد دفع من قبل القبطان، مالم يقدم أي واحد، صدوراً عن كرم منه بإعطاء سائقه بنساً لشراء علف لحماره، مع أن ذلك ليس متوجباً عليه فعله.

والنصيحة السادسة والعشرين: على الحاج دفع شيء ماإلى الحافظ لدار الضيافة التي نقف بها، من أجل ترميم البيت، والحيلولة دون خرابه.

والنصيحة السابعة والعشرين، وهي النصيحة الأخيرة: على الحجاج إظهار الاحترام نحو الدير الفقير العائد لرهبان جبل صهيون في القدس، فبمساعدة هذا الدير يجري توجيه الحجاج وإرشادهم في داخل الأرض المقدسة وخارجها، وينبغي بمساعداتهم رعاية هذا الدير ومساعدة الرهبان الذين فيه، والذين يسكنون بين المسلمين، لتقديم الراحة للحجاج، وهم على استعداد لخدمة الحجاج، وفقا لقدراتهم،

وسائلهم، إلى حد الارتماء بأنفسهم تحت أقدامهم، إذا كان ذلك ضروريا، وإذا لم تتم معاملة أي حاج وفقاً لرغباته وحاجاته، عليه عدم لوم الرهبان بسبب ذلك، لأنهم إذا ماأرغموا على اشباع كل حاج بالخبز والخمرة، سيكون الوضع أنه بعد مغادرة الحجاج سوف يجدون أنفسهم بلا مايمكّنهم من العيش، وهم —على كل حال— على استعداد لرعاية مرضى الحجاج بكل مايمكن والسهر عليهم وإنعاشهم، ومعاملتهم بالاحسان أثناء مرضهم.

وتمت قراءة هذه النصائح للحجاج بصوت مرتفع، في كل من اللاتينية والألمانية، والآن بما أن القداس قد طال أكثر من اللازم، صار المسلمون الذين أبقيوا معزولين في الساحة الخارجية بلا صبر، وضربوا على الباب بالحجارة، وكأنهم يريدون تحطيمه، وصعد آخرون فوق سطح البيت وتطلعوا على الساحة، حيث كنا، وهم يضحكون ويصرخون، وقمنا نحن الذين أزعجنا هذا، بالنظر بدورنا إلى هؤلاء الشباب بملامح جادة غاضبة، وأشرنا إليهم بالنزول، وعندما رأوا أننا كنا جادين، أوقفوا صخبهم، وابتعدوا واحداً تلو الآخر، وأكملنا القداس كله بسلام، وكان الوقت وقتها حوالي الظهيرة، ولذلك فتحنا الباب، وخرجنا إلى ساحتنا، التي وجدناها مليئة بالمسلمين، واليهود، والهراطقة، والمسيحيين الشرقيين، مع أشياء متنوعة للبيع، وبشكل خاص الأطعمة، فهناك وجدنا فراريج مطبوخة وطيوراً، وحليباً مطهواً، ومعجنات مصنوعة من الدقيق، ورزاً مطبوخاً بالحليب، وأرغفة رائعة من الخبز، وبيضاً، وعناقيد من أحلى العنب، ورماناً، وتفاحاً، وبرتقالاً، وبطيخاً، وليموناً، وتينا من كل مُن الحجم الصغير والكبير، وحلويات من اللوز والعسل، وتين جاف، وبعض المربيات بالسكر، واللوز، والتمر، والماء البارد، وجلب أحد الناس قوارير مصنوعة من الجلد مليئة بشراب مصنوع يستخدمه السادة العظام من المسلمين عوضاً عن

النبيذ، وبناء عليه شربنا الأطعمة التي راقت لنا وأكلناها في المكان الذي نمنا فيه.

وبعد الغداء في ذلك اليوم، قام كاليونس الأصغر، الذي اسمه الفحل، بقيادتنا للقيام بجولة في أرجاء مدينة الرملة، وأخذنا إلى شوارع التجار، وهناك رأينا كثيراً من المصنوعات الثمينة، ومسجداً عظيماً، وذهبنا إلى حمام ساخن، استحم فيه كثير من الحجاج برفقة المسلمين، وهذا الحمام الساخن، مثله مثل جميع حمامات المسلمين، قد بني بشكل رائع، وبطريقة بارعة، وهو قائم بين أربعة أبراج، وتأتيه الحرارة من الأسفل، وتمر عابرة على طول البلاط المعمول من رخام مصقول جميل من ألوان متعددة، ولسوف نجد كثيراً حول الحمامات الساخنة العائدة للمسلمين، وفيما إذا كان أمراً قانونيا بالنسبة للمسيحيين الاستحمام برفقة المسلمين، ومسائل أخرى، متعلقة بهذا الموضوع في القسم الثاني، وهكذا بعدما رأينا المدينة رجعنا إلى موضعنا، وعندما صار الوقت متأخراً، أخرجنا جميع التجار، وأغلقنا باب البيت، وأعددنا أنفسنا للنوم.

وفي اليوم العاشر، الذي كان يوم عيد «الأخوة السبعة»، استيقظنا باكراً جداً في الصباح من أجل القداس، وكان ذلك قبل شروق الشمس، وقبل استيقاظ المسلمين والتجار، وأقمنا مذبحاً في ساحتنا، وأقام واحد من الرهبان القداس، وبعد القداس أخبرنا بأن علينا إعداد أنفسنا لزيارة كنيسة القديس جرجس في اللد، وهذه الكنيسة قائمة فوق المكان الذي استشهد فيه ذلك القديس.

ولم يستطيعوا في حجي المتقدم أخذنا إلى هناك، لأن البدو العرب كانوا قد نصبوا كميناً في الوادي، وكانوا ينتظروننا حتى نقدم، فيسلبوننا، وعندما بتنا جاهزين، غادرنا المدينة، مثلما دخلناها، ووجدنا خارج المدينة حميرنا مع سائقيهم، وهنا ركض كل انسان بين قطيع

الحمير يصرخ بصوت مرتفع لسائقه، وكنت أصيح «جلاله قصه، جلاله قصه»، وصاح آخرون بأسماء أخرى تبعاً لتعدد أسماء سائقيهم، وهكذا امتطينا حميرنا، وانطلقنا مسرعين نحو اللد، التي تبعد نحو ميلين ايطاليين عن الرملة، ووصلنا إلى ديوسبولس، التي تعرف أيضاً باسم اللد، أو الليدا، والتي كانت فيما مضى من أيام مدينة كبيرة، لكنها تعرضت للدمار على أيدي المسلمين، وهي الآن مجرد قرية صغيرة، وذهبنا إلى المكان الذي فيه استشهد القديس جرجس مع انفعالات مختلفة، وقبلنا المكان بتقوى عظيمة، ولمسناه بمجوهراتنا، وتلقينا هنا سبع سنوات غفران (+)، ورأينا هنا بحزن عميق خرائب كنيسة جميلة جداً، كانت عالية وواسعة، وهناك جانب من السدة مايزال باقياً، لكن الأقواس والسقف كانوا قد سقطوا هناك، وفي السدة موضع استشهاد القديس جرجس، وهناك مصباحان مشتعلان بشكل دائم، حيث يجري تزويدهما بالوقود من قبل المسيحيين الأرثوذكس الذين يقيمون في القرية، وكان الجزء المتبقي من الكنيسة قد فصل من عند السدة بجدار، وأقاموا في ذلك المكان مسجداً جميلاً تشريفاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد زينوه ببرج مرتفع، وقام الباب في مواجهتنا، ولذلك كان بامكاننا أن نرى مافي صحن المسجد، ومافي المسجد نفسه، وكان يشبه الجنة لنظافته ولجماله.

وكان القديس بطرس قد شفى في هذه المدينة عيناس، وقام بالوعظ والتبشير هنا أيضاً، حسبما نقرأ في الاصحاح التاسع من أعمال الرسل، وفي الأيام التي كانت فيها البلاد بأيدي الصليبيين، كانت هذه مقر كرسي أسقف، وهنا كانت تقام صلوات ربانية كثيرة، وإلى جانب هذه المدينة رأينا جبل موديين، الذي كانت عليه مدينة عائدة للرجال الشجعان من المكابيين، وهناك أيضاً جرى دفن متاتياس (كذا) وأولاده، وكنت قد أتيت على ذكر قبورهم في ص ٣٢٢، ويبدو أن هذه المدينة،

كانت هي اللد، التابعة لسبط نفتالي.

وعندما فرغنا من اللد، رجعنا إلى الرملة من أجل الغداء، وأكلنا هناك، وبعد الغداء وقفنا مستعدين من أجل الانطلاق، لكن لا القبطانين، ولا الترجمان، ولا الحكام ظهروا بيننا، ذلك أنهم كانوا طوال ذلك اليوم قد جلسوا في قاعة مغلقة عليهم، يتداولون مع بعضهم في اجتماع سري، ويتجادل أحدهم مع الآخر، ذلك أنهم كانوا خائفين، فضلاً عن هذا لقد سمعنا بأن البدو العرب، كانوا قد نشروا أنفسهم حول الطرقات التي تؤدي إلى القدس، ومعنى هذا أنه لم يكن بامكاننا الوصول إلى القدس من دون ابعادهم، فالرب قد قضى بوقوع هذا الوباء وبنزوله على هذه الأرض وعلى جميع البلدان التي من حولها، لأن الأعراب قوم عراة، وتعساء وأشقياء وأناس جوالون، وهم وحدهم لديهم القدرة على العيش في الصحراء، التي هي غير قابلة للسكن من قبل الآخرين جميعاً، وهم يهاجمون، ويستبيحون، ويغلبون جميع الناس سواء، حتى الملك نفسه، الذي هو السلطان الأعظم لمصر، وعن هؤلاء الأعراب سوف أتحدث بشكل مطول كثيراً، فيما يلي في مكان آخر.

وهكذا حدث أنه في الوقت الذي كان فيه قبطانينا والسادة المغاربة يتشارون فيما بينهم، وقفنا هناك في الساحة المكشوفة في صخب شديد، لأن الساحة كانت مليئة بالتجار، وكانت هناك فوضى كبيرة واضطراب عظيم، لأن المسيئين من المسلمين من الشباب والشيوخ، قد اجتمعوا هناك مع بعضهم، لمضايقتنا، وقد وقفوا أمامنا، وكانوا ينظرون إلينا ويصغون إلى كلامنا.

وفعلوا هذا بشكل خاص إلى الذين لاحظوا أنهم كانوا انفعاليين، أو إلى الذين ضحكوا استهزاء نحو ألاعيبهم، ولسوف يكون من الصعب بالنسبة لي اخباركم عن جميع الألاعيب المزعجة التي مارسها هؤلاء الشباب من المسلمين، فمن بين أشياء وقعت قيام واحد من الشباب

المزعجين باجلاس نفسه عند قدمي حاج نبيل، الذي كان رجلاً جاداً ومحترماً، ونظر من حوله ليرى فيما إذا كان يمكنه إيجاد أي انسان يساعده في لعبته، والتفت أخيراً نحو الرجل الذي جلس عند قدميه، وأمسك قدمه وشدها، وفكر الفارس أولاً أنها كانت نوعاً من المزاح المزعج، فسحب قدمه وأرجعها وكأنه لم يهتم به، لكن الفتى وقد وجد نفسه قد عومل بازدراء، أمسك بالقدم الأخرى وشدها، محاولاً قلبه على قفاه، إنما في أثناء شده لرجل الفارس بقوة، أصبح هذا الأخير غاضباً، وقام بالقدم التي كان قد شدها أولاً، فرفس المسلم بعنف كبير في معدته، جعل بها الفتى يترك قدمه التي كان يشدها، ويسقط على الأرض، رأسه على عقبيه، ويتدحرج مثل كرة في وسط الساحة المبلطة، ثم إنه نهض وهو عظيم الاضطراب، وغادر المكان، وكنا خائفين كثيراً تجاه ماحدث، وخشينا من أن يثير الناس لمهاجمتنا، لكن مامن أذى نتج عن ذلك.

وقدم إلى الساحة فتى آخر من العابثين، ووقف أمام وجه واحد من الحجاج، وكان يقوم ببعض حركات لوي أصابعه بمقاصد سيئه، الأمر الذي لم يستطع الحاج تحمله، فضرب يدي العابث بشدة بيديه، وكسر اصبع الداعر التي لعب أثناء لويه لأصابعه، وعندما رأى واحد من المسلمين المسلحين هذا، صار شديد الغضب، واندفع لمهاجمة الحاج، ولولا أنه أخفى نفسه لألقي به في السجن، لأن ذلك الرجل المسلح وقف مع أتباعه لوقت طويل هناك ينتظر، آملاً بإمساك ذلك الحاج في بقعة مناسبة، لكن ذلك الحاج لم يتحرك من مكان اختفائه.

وينبغي أن أحدثكم عن أمر آخر وقع لنا، فقد قام حاج نبيل بالتصرف كما كان يجري منذ زمن طويل، فرسم رنكه ورنوك أتباعه على جدار، كان بديعاً جداً وجميلاً، وماأن أنهى عمله هذا، الذي استغرق منه عدة ساعات طوال، حتى ركض واحد من المسلمين ويده مليئة

بالقاذورات، فلوث الصورة بشكل مهين، ومضى في طريقه وهو يضحك، ولدى فعله هذا أصبح النبلاء على درجة عظيمة من الغضب، ولعنوا ذلك الشاب، لكن مامن واحد منهم تجرأ على أن يضع يده عليه، مع أنه لو فعل مثل هذا في بلادنا لجرى تمزيقه إلى قطع، ولقد تحملنا كثيراً من المنغصات المماثلة بطبيعتها في تلك المدينة، ومع ذلك لقد عوملنا بشكل أفضل مماحدث وعوملنا به في حجي الأول، لأنهم في ذلك الحين، اعتقلوا قبطاننا، بعدما أحضروه من يافا، وألقوه بالسجن أمام أعيننا، وتركوه مغلولاً هناك، قائلين بأنه لايمتلك السلطة لجلب حجاج إلى البلاد، وأننا قدمنا إلى هناك من دون جواز، ولذلك يتوجب علينا دفع جزية مضاعفة، وإذا لم نفعل ذلك، فسوف لن نشاهد القدس، بل تتوجب عودتنا إلى غليوننا، وعلينا أيضاً لتسرعنا بالدخول إلى البلاد، دفع مال سيكون قدره وفقاً لقرار السادة المغاربة، وبقينا بالرملة لمدة أربعة أيام في هذا التأخير، الذي لم يكن بامكاننا تفسيره بسوى أننا على وشك الإعادة إلى غليوننا، وأننا لن نشاهد الضريح المقدس لربنا، ولكم كان الأسف والاضطراب الذي شعرنا به في قلوبنا عظيماً، وأخيراً جرى اقتيادنا إلى البقاع المنشودة، وهكذا انتهى الموضوع، ودعوني أعود الآن إلى سياق روايتي.

وعند حلول المساء، جاء واحد من خدم القبطانين، وقال ينبغي أن نغادر مباشرة، ولهذا حملنا حقائبنا، وخرجنا من غرفنا، وجلسنا على مقربة من باب دار ضيافتنا، ننتظر حلول الوقت لانطلاقنا، وبعد مضي ساعة من الوقت، جاء إلى هناك واحد أخبرنا بأن بعض المسلحين من المماليك قد وصلوا للتو إلى هنا من القاهرة، ونظراً لقدومهم لن يتمكن قادتنا من مغادرة المكان هذه الليلة، ولهذا علينا العودة بهدوء إلى غرفنا، وعندما سمعنا هذا عدنا إلى غرفنا بمشاعر سيئة، وهنا عندما أردنا أن نجلس كما فعلنا من قبل، وجدنا أن جميع الحصر التي اعتدنا أن نجلس

عليها ونتمدد قد ذهبت ذلك أن المسلم الذي شريناهم منه مقابل مبلغ كبير من المال قد أخذهم، لذلك أرسلنا خلفه وطلبنا منه إعادة حصرنا، لكنه رفض ذلك رفضاً مطلقاً، مالم ندفع له من جديد، قائلاً بأنه باعنا إياهم فقط للاستخدام حتى نغادر دار الضيافة، وبما أننا غادرنا غرفتنا فارغة، انتهى شرط تأجيرنا لهم، لأنه لم يكن متوقعاً عودتنا إلى الدار، وجرى نقاش عنيف مع هذا المسلم، الذي كان غاضباً جداً، وغالباً مابصق علينا أثناء خصامنا معه، وبناء عليه أقمنا في غرفتنا من دون حصرنا، لأننا لم نرغب في تشجيع جشعه باعطائه بنساً واحداً، فهو كان على استعداد لإعطائنا إياهم مقابل بنسات قليلة، غير أننا طلبنا منه المغادرة، وعندما جاء الليل، بقي بعضنا في الغرفة، ونام هناك على الأرض العارية، وذهب بعضهم وصعد إلى السقف المقبب للبيت، حيث نام المقدم كالينوس وبعض المسلمين، وهناك أعددنا أنفسنا للنوم فوق البلاط في الهواء الطلق، وقد بنيت البيوت في الشرق مع شرفات على سطح البيوت، لذلك عندما تغيب الشمس يصعد الناس إلى هناك للتمتع بالبرودة، وهناك يعملون، ويأكلون، ويضعون فرشهم وينامون، لكن عندما تكون الشمس مشرقة يعيشون في الأسفل تحت القناطر، وفي الظل.

وهكذا تمددنا على سطح البيت، لكن من المؤكد أننا لم نحصل على الراحة التي طلبناها، بسبب صراخ المسلمين الذين اسمهم السقائين Soquis الذين صرخوا وغنوا وفق طرائقهم حتى حدود منتصف الليل، ومثل هذا الذين وقفوا على الأبراج (المآذن) وصرخوا هناك، وبأيديهم مصابيح مضاءة، وأبراجهم هذه طويلة ومستديرة، يقف عليها رجال الدين المسلمين، ويقومون بالعمل الذي يؤديه الناقوس، وعملهم عمل ديني تماماً، وسوف أتناول هذا الموضوع المتعلق بواجباتهم وشعائرهم بتوسع كبير في الورقة ٩٤ من القسم الثاني، وكانت هذه

الليلة احدى ليـالي أعيادهم، ولذلك صرخوا أكثر مما هو معتاد، وهكذا أمضينا تلك الليلة.

وفي اليـوم الحادي عشر، الذي كـان يوم عيد بروكـوبيـوس المعترف، استيقظت قبل اشراق الشمـس، وأديت صلواتي فـــوق قنطرة أعلى من التي نمت فـوقهـا، حيث جلست على السطح المحـدب لأعلى الغـرف، الذي منه كان يمكنني رؤية النائمين من حولي، وعندمـا أضاءت الدنيا، استيقظ المسلمـون وطووا فرشهم، وأعـدوا مـلابسهم، ثم حنوا ركبهم تعبـداً، وصلوا بشكل جـاد تمامـاً، وقـرأوا صلواتهم بنغمـة مثل الزئير، وأيديهم متشـابكة، ثم كانوا يقفـون، وقد سجـدوا مراراً حيث لامسـوا الأرض برؤوسهـم وكـانوا يمكثون وقتـاً قليـلاً في سجودهم، ثم كـانوا يقـومـون ثانيـة، وينظرون نحـو الأعلى إلى السماء، وقـد صلوا جميعـاً في وقت واحـد، وبطريقة واحـدة، وكأنهم رهبـان طائفـة واحدة، وعندمـا كانوا يفرغون من صلواتهم، كانوا يذهبون —كما اعتادوا— إلى أعمالهم، وأقيمت هذه الصـــلاة ذلك الصبـــاح في الرملة، ومثـل ذلك أقيمت في أماكن أخرى، واستيقظ الآن حجـاجنا بعد اشراق الشمس، وبدأوا على الفور بـالحديث والضحك أحدهم مع الآخـر، دون أن يقدمـوا الصلاة على ذلك.

ولذلك جلست هناك وقارنت بين ماقـام به الفريق الأول وبين ماقام به الفـريق الثاني، وأصبحت حـزيناً، ومنزعجـاً في قلبي، برؤيتي أولئك الضالين والأناس الضائعين تماماً يقـومون بأداء صلواتهم بجدية ومهابة، مع أنهم يثيرون غضب الـرب ضـــد أنفسهم، لـدى عـــدم تقـــديرهـم القـديسين والملائكة وجميع الحشـد السماوي، وهذا مـــايفعلونه بأدعيتهم التجـديفية، بينما نحن المسيحيين أكثـر الناس تعاسـة، وأعظمهم نكرانـاً، الذين أنقـــذنا بدم المسيح الثمين جـــداً، نقـــدم صلواتنا ونؤديها بخفـــة وبهجـــة، وبفتـور لايمكـن وصفـه في جميع الأوقـــات، وبتفكير تائـــه،

وبإرهاق، ونفعل ذلك إلى الرب الحقيقي والحي، الذي منه نـأمل بإيمان ثابت بأننا سوف نتلقى النعمة والمجد، أيها السيد الرب، أية نعمة سوف تمنحنا إياها مقابل صلواتنا القصيرة والخالية من التقوى؟ وهل ياترى جرى تأدية صلواتنا الفاترة جداً مع أية درجة من الإيمان الصحيح، ثم ماذا يمكنني أن أقول؟ إنني أخشى أن عدداً كبيراً من المسيحيين يمضون اليوم كله دون أدنى عبادة للرب، أو دون أية صلاة له، الأمر الذي لايمكن حدوثه بين المسلمين، أو الأتراك، أو البرابرة، أو اليهود، أو البداة العرب، لأن جميع هؤلاء الكفار لديهم توجه ثابت وطريقة معلومة للصلاة، لايفارقونها في أي حال من الأحوال مالم يرغموا بالقوة على فعل ذلك، ومن أجل رواية كاملة عن صلواتهم وصيامهم انظر الورقة ٩٤ من القسم الثاني، مع أن مقارنتي المتقدمة بينهم وبيننا أنفسنا، أعطتني الفرصة للحديث عنهم في هذا المكان.

وعندما أشرقت الشمس، ولم نر اعدادات لانطلاقنا، عدنا إلى غرفنا، واشترينا طعاماً وأكلنا هناك، وبينما نحن جلوس هناك جاء إلينا مسلم فقير وتعيس، يحمل برتقالاً وعنباً في سلة ليبيع لنا، وجلس على الأرض ومعه سلته إلى جانبي، وأخذنا بعضاً من فواكهه، وأعطيناه خبزاً مع الذي بقي من لحمنا، فأكل ذلك مثل انسان جائع، وقد وضع على رأسه قبعة حمراء مع اللفة العائدة للمسلمين، والآن وقد بدا لي انساناً بسيطاً جيداً، أخذت قبعته من على رأسه، وبينما أنا أنظر إليها تظاهرت بأنني مصاب بالاقياء، وأنني أعاني من الدوار، وقمت بصرف رأسي وإبعاده عن القبعة التي أمسكتها بيدي، وكأنني أريد أن أتقيأ لكراهيتي لديانة المسلمين، وبصقت على قطعة القماش التي كانت ملفوفة حول القبعة، راغباً في أن أرى ما الذي سيقوله أو يفعله تجاه ذلك، وقام هذا المسلم —على كل حال— بالنظر من حوله في جميع زوايا الغرفة، وعندما لم ير من يخاف منه، انتزع قبعته، وجمع بصاقه في فمه، وبصق على اللفة

الاسلامية الموجودة عليها، ولعن العمامة، وعمل شارة الصليب بوضع سبابته اليمنى فوق اليسرى، وقبل علامة الصليب هذه التي عملها فوق يده مع كثير من الدموع، وقال أشياء كثيرة لنا لم نستطع فهمها، والذي فهمناه تماماً بأنه كان مسيحياً، وأنه أرغم على التخلي عن عقيدته، وأنه لم يكن مسلماً عربياً، بل كان مملوكاً مسكينا، وبعد ماتغدينا بقينا في غرفتنا بهدوء، وفي الظل، وسمعنا الآن بأن أحدهم كان يعمل على الجدار الأول من جدران غرفتنا بأداة معدنية، من الخارج، وكأنه يريد أن يخرق الجدار ويمر منه، ولم نهتم بذلك، ولم نتوجس منه أي خطر، وأخيراً فتحت ثغرة بالجدار بانتزاع حجرة واحدة منه، وكان على الطرف الآخر من الجدار نساء مسلمات فتحن الثغرة حتى يتمكن من رؤية الحجاج من خلالها.

وعندما نظرن إلينا، ابتسم لهن بعض الفرسان، وقالوا بالاشارات والايماءات مالم يستطيعوا قوله بالكلمات، لكن واحداً من رهبا ن الفرنسيسكان رأى هذه الثغرة، وكان الأب المسؤول قد بعث به ليقوم بجولة على غرف الحجج، فعندما رأى ذلك قام على الفور فجلب ملاطاً وقام ببناء الثغرة، وأقسم بالرب، بأن المسلمين لو شاهدوا ذلك لتولوا تعذيب الحجاج جميعاً تعذيباً مرعباً للغاية، لأنهم غيورين بشكل مخيف، ويجتمعون كلهم مع بعضهم من دون مناقشة للانتقام من أي اعتداء على شرفهم، وفي الحقيقة بدت النساء المسلمات أنهن شهوانيات كثيراً، لأنه عندما كان بعض الفرسان الشباب يمشون وينظرون من حولهم وهم على سطوح البيت، رأوا ثلاث نساء واقفات في بيت آخر، وقد عملن اشارات لهم للنزول إليهن، ولست أدري أفعلن ذلك صدوراً عن شهوة، أو — وهو ماأعتقده— صدوراً عن نية تآمرية وشريرة، وعلى كل حال كان الخطر هو نفسه، ذلك أن القانون هو: إذا ماعثر على مسيحي يتسامر مع امرأة مسلمة، كان يعطى الخيار، إما بالتخلي عن

إيمانه، أو مواجهة الموت، وليس هناك خيار وسط بين هذين الخيارين.

وفي الوقت نفسه مرت ساعة تلو ساعة، ونحن وقوف بدون حركة هناك ننتظر بتشوق إلى الانطلاق، لأن المزاح والاهانات الصادرة عن الشباب ازدادت سوءاً كل ساعة، ورأينا أن المزيد من التأخير سيكون خطيراً علينا، لأن حاجاً بعد حاج خرجوا عن طورهم وفقدوا صبرهم بسبب الاهانات التي تلقوها، وضرب أحدهم طفلاً سيئاً، ضربة خفيفة، لأنه كان يرمي حجارة عليه، ولذلك بكى هذا الصبي، ولدى سماع صوت بكائه ركض المسلمون مع بعضهم مثلما يركض الخنازير مع بعضهم للدفاع عن رفيق نخر إليهم، ولم يستطع الحاج الذي ضرب الصبي الحصول على السلام، حتى أسكت الصبي الباكي بالمال، وفي الحقيقة كان الأطفال الأشرار في الرملة أسوأ من أطفال أي مكان آخر أقام فيه الحجاج، فهناك لم يكن مسموحاً أن يرد الانسان الضربة بالضربة، ولهذا خشية منا أن نقع في المخاطر خفنا، فذهبنا إلى القبطانين، ورجوناهما بحرارة أن يقودانا إلى خارج ذلك الأتون المحرق، وقد وعدانا بالانطلاق في غضون ساعة من الزمان.

فيمايلي:

وصف موجز لمدينة الرملة

راما أو الرملة مدينة واقعة بين فلسطين واليهودية، على حدود منطقة فلسطين، ومنطقة اليهودية، وذلك في حصة سبط يهوذا، وهي قائمة فوق رابية، ولهذا السبب حملت اسم راما الذي معناه المرتفع، ولهذا ليس هذا الموقع فقط بل كثيراً من المدن الأخرى في الأرض المقدسة، ممن بني فوق أماكن مرتفعة، أطلق عليه اسم راما، وهناك ، على كل حال، في كثير منها فوارق في نهاية الكلمة، وهكذا لدينا من راما: راماثا، وراماثيم، وراماسي، وراموث،وراموث،وراموث، وأرماثا، والرملة هذه التي أنا

بصدد الحديث عنها، غالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة، وفيها هنا ولد صموئيل المقدس، وهي حتى الآن مدينة مكتظة السكان، وأكبر من القدس، وفيها سبل العيش ميسرة لكثير من التجار، لكنها ليست جيدة الدفاعات بأسوار من حولها، مثل مدن اسلامية كثيرة أخرى، ذلك أنها بلا أسوار، وهناك كثير من المساجد فيها ومن حولها، وهي قائمة في وسط مكان بديع جداً، وخصب، وكل شيء هناك رخيص تماما، وحلو، وفائق الجودة، إلا الناس، الذين هم أكثر الناس شروراً في تفكيرهم، ويحملون كراهية خاصة نحو المسيحيين، ويسكن هناك عدد كبير من السودان الأشرار، والمغاربة، مع أناس آخرين من دون فهم، ولقد ورد ذكر هذه المدينة في سفر الملوك الثالث (الأول) — الاصحاح ١٥، وفي الاصحاح الثاني من انجيل القديس متى.

مغادرة الحجاج للرملة إلى المنطقة التلية لليهودية

عندما جاء المساء في يوم عيد القديس بروكوبيوس، أعددنا أنفسنا لرحلتنا، وخرجنا من دار الضيافة وفق النظام نفسه الذي دخلنا به، ونحن نحمل أطواقاً مكتوبة حول أعناقنا، ولدى مرورنا من خلال البلد، ركض الناس مع بعضهم من جميع الأطراف، وكانت الشوارع مليئة بالناس من الجنسين معا، الذين وقفوا هناك راغبين برؤيتنا، وكان هناك حشد كبير، وقد ثار هناك غبار كثيف من الأرض، إلى حد أنه بات من الصعب على الانسان أن يرى رفيقه الذي على جانبه، وإذا مارآه من المؤكد أنه كان من الصعب التعرف عليه وتمييزه، فلقد كان الغبار كثيفاً إلى أبعد الحدود، وتغطت قبعتي السوداء بالغبار، حتى أنها لم تعد بادية سوداء، بل رمادية، ومامن انسان كان بامكانه فتح عينيه أوفمه إذا مااحتاج، ولقد تحملنا هذا خلال المنطقة كلها، إلاّ في الأجزاء الصخرية، وعندما ارتحلنا في الليل.

وتوفر في الأزقة الضيقة خطر الاختناق بسبب كثافة الغبار، وفي أثناء

هذا الضيق الشـديد حـدث أن دفعـت على جـدار مسكن هناك، وكـان ذلك قـرب النوافـذ، ولأن الحشد تحرك ببطىء شـديد وتركني محصـوراً هناك، نظرت مـن خـلال النافـذة إلى المسكن، ويـا للعجب، وقفت في الداخل امـرأة مع أطفـال صغـار، عملوا عـلامـة الصليب بأصـابعهم، وقبلوهـم، وبذلك جعلوني أعرف أنهم أتباع الذي صلب، ولقد اعتقدت أنهم بكوا، وإنه بالحقيقة مزعج جـداً، أن يكون شعب تلك البلاد، التي فيهـا صلب ربنا، إذا أرادوا أن يكونوا أتباع الصليب، لا يتجـرأون على لبس شـارة الصليب بشكل مكشـوف، لأن الصليب المجيـد مكروه في تلك البلاد، وملفـوظ، والشيء نفسه الذي وقع للصليـب المقدس، وقع للأنبياء: ذلك أنهم بلا احترام، حتى في وطنهم (لوقا٤/ ٢٩)، ومثل هذا فإن الصليب المقـدس لايتمتع بـالاحترام، ولابالقبـول حتى في وطنه، لكن الحجاج من الأجزاء النائية مـن العالم يحملون بشكل معلن، علامة الصليب، لأن نقد الصليب قد انتزع من بينهم وأبعد.

وعندمـا تحرك الحشـد نحـو الأمـام، أرغمت على الابتعـاد عن ذلك المكان، ووصلنا إلى خـارج المدينة، وهناك وجدنا حميرنا مع سـائقيهم في الحقل، وعلى مقـربة منهم عسـاكـر المسلمين، الذين كـانوا سيتـولون مـرافقتنـا وحمايتنا على طريقنا، وامتطينا دوابنا، وانطلقنـا مسرعين جـداً نحـو الجبـال، ووصلنا إلى حقل يوشع قـرب مـدينة بيت شمش، حيث جرى فيهـا قتل خمسين ألف انسان، لأنهم نظروا إلى تابوه الـرب، عندما وقف هناك، وذلك حسبما نقـرأ في سفر صموئيـل الأول — الاصحاح الرابع، الخ.

ونصب الأعـراب في هذا الحقل نفسـه خيامهم، وكـان هناك حـوالي الثلاثمائة منهن، ولدى رؤيتنا للخيام ارتعبنا نحن ومرافقينا كثيراً، ولدى اقترابنا من الخيـام، لم نشاهد أحـداً فيهن إلاّ نساء على درجـة عاليـة من التعاسة، وأطفال صغار سـود عراة، وقلة من الشيوخ، لأن بقية الرجال

جميعاً كـانوا يتجولـون في المنطقة ينهبـون ويسلبـون، وهكذا مـررنا من خلال معسكرهم، ولم يكن هناك من انسان رفع يده ضدنا، وحدث أننا عندما كنا على وشك دخول المنطقة التليـة من خلال أحد الوديان، رأينا عند مدخل الوادي جمهوراً من الناس مع جمال وحمير وخيـول، كانوا قد استعــدوا للانقضــاض علينا، وبالمقــابـل قــام مـرافقــونـا بالانتظام والاصطفاف لمقاومتهم، وكانوا مضطـربين وقد امتلأوا رعباً، ذلك أنهم رأوا أن أولئك الناس كــانوا لصـوصــاً من الأعــراب، وأننا لايمكننا تجاوزهم مـن دون ضراب، ثم إنه لم يكـن بإمكاننـا الانحــراف لا إلى اليمين ولا إلى اليســار، لأن طريقنا كـان يمـر مبـاشرة من وسطهم، من خلال واد ضيق.

وعندما اقتربنا منهم، وجدناهم قد وقفوا يحرسون المدخل إلى الوادي من الجانب الأول إلى الجانب الآخر، وكانوا ممسكين لهذا المدخل ضدنا، وكانوا مشهرين لخناجرهم، ورافعين لسيوفهم، وكانت رماحهم مركونة جاهزة وقسيهم مفوقة، ولا أذكر أنني رأيت أناساً قط مثلهم: لقد كانوا عـراة، ولونهم أسـود، أحـرقتهم حـرارة الشمس، وكـانوا يرتدون قطع قماش لاتسـاوي شيئاً حـول أوسـاطهم، وتـرستهم معلقـة من رقـابهم، وكـانوا حـادين، ومتـوحشين، ومن المرعب النظر إليهم، وعندمـا نظرنا إليهم وقـارناهم بمغـاربتنا ومسلمينا، الـذين عـددناهم حتى الآن أنهم ليســوا بشراً، عـددنا هؤلاء الأخيرين أناسـاً متحضرين وأتقيـاء، مثلهم مثلنا أنفسنا، وعندمـا رأى مـرافقونا مـا الذي أراد الأعـراب أن يفعلوه انقضـوا عليهم بعنف، وطردوهم بقــوة الســلاح، وفتحـوا الطريق لنا، ودعونا للاندفاع بسرعة والمتابعة دون توقف، وهكذا أسرعنا مارين من خـلال الفـراغ الذي ترك لنا مفتـوحاً، وكـان أي حـاج وقع بين هؤلاء الأعـراب، كـانوا إمـا يمسكونه إمـا مـن ردائـه، أو من مخلاته، وكـانوا يشــدون ذلك حتى يتخلى عن أي منهما، ويدع الشيء يذهب، أو كـــان

يشد من فوق ظهر حماره، أو كـان ينقذ من قبل واحد من جماعتنا، ولهذا سقط كثير منهم من على ظهـور حميرهم، ولولا أنهم أنقـذوا لتـولى الأعراب سلبهم، وكـان هناك صراخ وعويل من على الطرفين، واندفع الناس أحـدهـم ضـد الآخـر بشكل مـدهش، وكأنهم أرادوا أن ينقض أحدهم على الآخر، ويسدد الضربات له.

وفي أثناء هذا الاضطراب، وبينما هومستمر، مررنا من خلال الوادي، ووصلنا إلى التـلال، وعنـدمـا رأى أعـداؤنا هذا، تناولـوا الحجـارة من وسط الطريق، وشرعوا يرمون بها خلف مرافقينا، لكن عندما رأوا أنهم لن يستطيعـوا تحصيل شيء منا بـالقـوة، ركضـوا خلفنا، وبذل ومسكنه توسلوا إلينـا حتى نعطيهم شيئاً مـا، لكنهم لم يحصلوا على شيء كثير، وهكذا ابتعـدنا عنهم، وليس هناك مـن شك، أنهم لو كـانوا أقـوى منا، لسلبونا جميعاً، دون تنفيذ لأمـاننا الذي حصلنا عليه من السلطان، ولقد نجـونا دون أن يصـاب أي حـاج بأذى، باستثناء، بعض الذين أصيبـوا بالحجارة، وقد فقـد بعضهم جعبهم في أثناء الصراع، وبعضهـم قبعاتهم، ولم يجرح أحـد، لأن الشرقيين فيهم الفضيلة التـالية وهي أنهم لايحبـون سفك الدماء.

وهكذا تـابعنا سيرنـا في هذا الـوادي الظليل، ومشينـا عبر طريـق في منتهى الوعـورة، مع جبـال صخـرية عاليـة على طرفينا، وبعـد صعـود وتسلق طويل، وصلنا إلى بـرج، كـانت هناك ميـاه قـربه قـد جمعت في بركـة، ونوينا الانتظار هنـاك حتى الفجـر لليـوم المقبل، لأن الليل كـان مظلماً، وذلك إلى جانب أن الوادي كان ملقياً بظلاله، وهكذا ترجلنا من على ظهـور حميرنا، لكن مـالبـث فجأة أن حل خـوف بين صفـوف مرافقينا، وباتوا يخشون أن يقـوم هؤلاء الأعراب بالانقضاض علينا، في أثناء نومنا، فـوقتها لن يكون بـإمكانهم الدفاع عنا في ذلك الممر الضيق والوعـر، وبناء عليـه دعـونا لمعـاودة ركـوب حميرنـا، وأن نتـابع سيرنا

صعوداً في الجبال، وهكذا غادرنا البرج الذي قام عند سفح الجبال، وتسلقنا فوق ممر منحدر وخطير حتى وصلنا إلى حقل، فكروا ثانية بالاستراحة فيه، لكن كنا نحن ودوابنا عطاش، ولم يكن هناك ماء، لذلك تابعنا سيرنا في الغسق، حيث لم يكن هناك لاشمس ولاقمر لعوننا، وسرنا ودليلنا فقط ضوء قبة السماء، وأشعة النجوم الضعيفة، ولم يكن بإمكاننا رؤية الممر، لكن كل انسان تبع سائقه، وعندما وصلنا إلى القمة، نزلنا إلى الطرف الآخر من الجبل، وسرنا إلى أن وصلنا إلى قرية صغيرة، حيث كان هناك نبع ماء جيد وبارد، وهناك في حقل مليء بالحجارة تخلينا عن حميرنا وأعطيناهم إلى سائقيهم، وأجلسنا أنفسنا على الأرض، وتحلق حراسنا مع خيولهم، وسائقونا مع حميرهم، جميعاً من حول الحجاج، وبذلك أحاطوا بنا من كل جانب، وأشعلنا مصابيحاً، وأحضرنا جعبنا الخاصة بالطعام الذي شريناه في الرملة، وجلب السائقون ماء لنا، قمنا بشرائه منهم، وأحضر القرويون أرغفة من الخبز، وفواكه وماء، فاشترينا منهم مارغبنا به، وهكذا تعشينا.

وكان هذا المكان الذي عسكرنا فيه، وعراً مليئاً بالحجارة مثل الأماكن الموجودة في الألب، والقائمة فيما بين أولم وويزنستيغ Weis-sensteig، واختفى تحت الحجارة عقارب، الأمر الذي لم نعرفه، حتى أرانا الضوء إياهم، وعندما رآنا المسملون خائفين، أخبرونا أن بإمكاننا النوم من دون خوف، لأن العقارب بالحقل لاتلدغ مثل العقارب في البيوت، ولهذا شعرنا بالراحة، ولم يتحرك واحد منا من مكانه، وفيما نحن جالسين هكذا نريح أنفسنا، أشرق القمر أمام وجوهنا، وشعرنا لدى اشراقه بسرور عظيم، لأن الذين لايمكنهم النوم يبتهجون أمام أي شيء يطرد الظلام، ويبعد الظلال، ولم يزر النوم أعيننا، كما لم يتمكن النعاس من اغلاق جفوننا، كما أن جباهنا لم ترغب بالراحة، مع أنه كان من الطبيعي لإرهاقنا بعد متاعبنا أن يجلب إلينا النوم، ولقد كنا مرهقين

ومتعبين، لكن النوم تخلى عنا، لأن كيـاننا كله قـد حلّ في قوى مـداركنا ومشـاعـرنا، وابتغت نفـوسنـا شيئاً واحـداً فقط هو التحـديق والنظر بإخـلاص من حـولنا، وعلى هذا بدت روحنا وقـد استقـرت في عينينا، واهتمت بشيء واحد فقـط هو الشعور بالمشهد، وتغلبـت انفعالاتنا على النوم، وكان ذلك لدى قراءتنا للاصحـاح الثاني والأربعين من الالهيات قـوله:«طرد التفكير النوم منهم»، لأننا كنا نتطلع إلى الغـد برغبـة حـارة جداً، عـارفين بأننا وقتها ينبغي أن نرى مدينة القـدس الجليلة، التي قال عنها طوبيـا المقدس وهو واقف على مسافـة عظيمة عنها:«سـوف أكون سعيـداً لوأن أيا من سلالتـي بقي لينظر إلى الضريح في القدس»، وقـال كـاتب آخر:«من أجل صهيـون لن أهدأ، ومن أجل القـدس لن أرتاح» (إشعيـا:٦٢/ ١)، فمن هو الذي لايرغب في رؤية المدينة المختـارة، التي نقرأ عنها في الاصحاح السادس من السفر الثاني لأخبار الأيام:«اخترت القـدس ليكون اسمي فيهـا» (أخبـار الأيام الثـاني:٦/ ٦)، لأن هذه هي المدينة التي يكون فيها الحمد وقطع العهـد للرب، حسبما جاء في المزمور الخامس والستين:«لـك ينبغي التسبيح يـارب في صهيـــون ولـك يوفى النذر»، وردد الحجاج المتشـوقين القول:«من سيمنحني أن تمر هذه الليلة وتنقضي وأن تأتي الشمس مسرعة حتى يمكننـي رؤية القدس، التي هي بهجة الأرض كلها، ومـدينة الملك العظيم، والرب الأكثر علواً»؟ آه، لو أن أحــداً أصغى في تلك الليلة إلى صلواتنـا وحنيننا إلى اشراق الشمس ولقدوم النهار، لاحترق في داخله، كما تحرقنا شوقـاً لرؤية القدس، فلقد تمددنا على صخـور قــاسيـة، مثلما فعل يعقـوب في الاصحـــاح الثـامن والعشرين من سفـر التكوين، وكـانت العقـارب رفـاقنا في تلك الليلة، مثلما كـانت فراخ النعـام رفاق أيوب (أيوب:٣/ ٢٩)، وفي الحقيقـة، إنه بسبب كثـرة حشود العقـارب، من اللائق أن يطلق على هذا المكان اسم تلة العقارب، مثلما ورد ذكـر ذلك في الاصحاح الخامس عشر مـن سفر يشـوع، لكن قسـاوة الصخور ولدغ العقـارب كـانت لطيفـة، وجعلت

حلوة، بالحلاوة الفـائقة للقدس نفسهـا، المتربعة على قمم تلـك الجبال، والناشرة لحلاوتها، جـاعلة إياهـم يقطرون حـلاوة، ويفيضـون بالعسل والحليب، علاوة على ذلك، طردت ذكـريات ماجرى صنيعـه فوق هذه الجبال المقدسة، جميع السموم منا، وجعلت قساوتهم نعومة بالنسبة لنا.

فعلى هذه الجبـال سكن المكابيـون بعـد تدنيس الهيكل يـأكلون الأعشـاب بـدلاً عن الطعـام، بين الحيـوانـات المتـوحشـة (مكابيـون:٢/ ٥/ ٢٧)، وابنة يافث، عندمـا كـانت على وشك أن تموت بسبب نذر أبيهـا، طلبت منه ليس أكثر ممايلي، هو أن تترك لوحـدها لمدة شهـرين قبل موتها، لكي تصعـد إلى جبال بني اسرائيل وتنزل منهـا مع رفقتها، وأن تندب عـذريتها، ذلك أنها اعتقـدت أنها سوف تتحمل آلام الموت بسهولة أعظم، لو أنه سمح لها بتسلق هذه الجبال المقدسة قبل أن تموت (القضـاة:١١/ ٣٧)، ومـوسى أيضاً، الـذي كان صـديقاً للرب، طلب أن تكون جـائـزته، هو أن يسمح لـه برؤية هذه الجبـال من حيث وقف في مناطق مـاوراء الأردن (العـدد:٣٤) والعـذراء مريم المبـاركـة، جعلت هذه الجبال بحجها، جبـالاً مقدسة بشكل خاص، وقـد تقدسوا بذلك، وعن ذلك نقـرأ نحن الحجـاج في الاصحـاح الأول من انجيل القديـس لوقا:«مريـم...ذهبت بسرعة إلى الجبال» (لـوقا:١/ ٣٩)، وعلى هذه الجبـال اعتاد مـولانا المسيح على إمضـاء الليل في الصـلاة، وبذلك منحهم القـداسـة، وخـدمت هذه الجبـال في القـديم البطارقـة. فكانت بالنسبـة لهم بمثابة سـور ضـد الكفار، ولهذا جـاء مكتوباً في الاصحـاح السابع من سفر يودث:«لايعتمد بنو اسرائيل في الدفاع عن أنفسهـم على قسيهـم، ولاعلى الرمـاح، بل على الجبال التي تحميهـم، وعلى التـلال التي تقف أمامهـم، فهـذه تتولى الدفاع عنهم»، ولهذا لم يرغب الكفـار بالقتال معهـم على الجبـال، بـل قـالوا:«دعـونا ننهـزم من اسرائيل، لأن أربابهم أرباب التلال»، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الأول:٢٠/ ٢٣، وكان

عذباً أن نقيم مؤقتا فوق هذه الجبال، وأعتقد أنه حولنا وحول حجاج المسيح الآخرين، صنعت نبوءة حزقيال منذ زمن طويل مضى حيث فيها وعد هذه الجبال بقوله:«ياجبال اسرائيل اسمعي كلمة السيد الرب... أنا جالب عليكم سيفاً وأبيد مرتفعاتكم» (حزقيال:٦/ ٢-٤)، وفي الاصحاح الخامس والستين من إشعيا قوله:«بل أخرج من يعقوب نسلاً، ومن يهوذا وارثا لجبالي» (اشعيا:٦٥/ ٩)، هذا وتتألف هذه الجبال مع بعضها من صخور عظيمة، وشعاب عالية، ذات صخور قاسية جداً، ومع ذلك بدوا ناعمين بالنسبة لنا، فقد جاء بالمزمور قوله:« صخورك مرضية لعبيدك»، ومثل ذلك صنع أيوب (أيوب:٥/ ٢٣) عهداً مع صخور ذلك المكان، وسكن في مكان الصخور (أيوب:٨)، وكان ذلك بسبب أن الرب عمل حدود الأرض المقدسة من حجارة مرضية.(اشعيا:٣٦/ ١٢).

ولقد احتضنا الصخرة نفسها، كما فعل أيوب (٢٤/ ٨)، لابل أكثر من هذا، لقد عرفت بعض الحجاج الذين أحبوا الأرض المقدسة، كانوا يداومون ليلاً ونهاراً على الانحناء بأنفسهم نحو الأرض، ويقبلونها أجمل القبل، وكانوا على استعداد لعبادة الحجارة نفسها، على أنها آثار مقدسة، وهذه الحجارة قد اختارها المسيح لمساعدته في عمل خلاصنا، ذلك أن الحمل به جرى في كهف حجري، وولد تحت الصخرة والحجر، ومدد فوق حجر عندما ولد، ووعظ وهو واقف على حجر، وصلى ثلاث مرات في كهف في صخرة حجرية، وكان قد جلد إلى جانب عمود من حجارة، ووقف على حجرة لتسلم تاجه، ووقف على حجرة أمام بيلا يطس قاضيه، وجرى صلبه فوق حجر، ومسح بالدهون فوق حجر، ودفن في حجر، وصعد إلى السماء من على حجر، وباختصار، لقد أكمل بوساطة حجارة جميع أسرار خلاصنا، ولهذا كان أن تصدعت الصخور الحجرية أثناء آلامه، فلماذا بعد هذا لايستريح المسيحيون بسرور فوق

هذه الصخور المقدسة، أكثر من استراحتهم فوق أنعم فراش؟ ومن الذي لن يجد الصخور والحجارة حلوة، التي لمست بقدمي الرب يسوع، والعذراء مريم، والبطارقة، والأنبياء، والرسل، والقديسين الذين يفوقون العدد؟.

وأوقظنا في اليوم الثاني عشر قبل شروق الشمس، وامتطينا حميرنا، ومضينا مسافرين عبر الجبال المقدسة، وبعدما تسلقنا عدة تلال، ونزلنا إلى عدد من الوديان، هاهو النهار المنتظر قد بدأ بالظهور، وصارت قبة السماء أكثر بياضاً في الشرق، ولمع القمر من هناك، وبدت الشمس تظهر فوق قمم الجبال، ونشرت أشعتها فوق الأرض، ومع ذلك كنا مانزال بعيدين عن القدس، وارتحلنا عبر ممرات وعرة، ورأينا فقط أرضاً قاسية وصخرية، ولهذا شرع بعض الفرسان الذين صدموا لدى رؤيتهم وعورة الأرض يقولون لي:«ماالذي أخبرنا به كهنتنا؟ وما الذي وعظ به وعاظنا؟ فلقد قالوا بأن هذه البلاد أفضل البلدان جميعاً، لكن انظروا كم هو وعر الطريق، وكم هي جرداء الجبال، فلماذا اختار الرب يسوع السكن في هذه البلاد، التي هي غير مفلوحة، ومحترقة بأشعة الشمس»؟.

وفي الوقت الذي كانوا يتكلمون هكذا، بدأ حاجان بالخصام بشكل حاد، حتى بات من الصعب فصلهما عن بعضهما، ولو طال هذا الخصام أكثر، لوصلا إلى الضرب، فقد تشاجرا بشكل حاد جداً، وكانا معاً علمانيين خالصين، أولهما بليد جداً، والآخر بارع، فالبليد تشكى بمراراة ضد الأرض المقدسة، ووقف البارع ضده، وقال بأنها أفضل البلدان، وعلى كل حال، قلت لنفسي بشكل سري في قلبي:«هل ياترى هذه هي الأرض التي قيل بأنها تتدفق بالعسل والحليب، وأنا لاأرى أمامي حقلا ينتج خبزاً، ولاكرما لينتج خمراً، ولامروجاً خضراء، ولاحدائق، عجباً إنها كلها وعرة، أحرقتها الشمس، وجرداء»، وبينما كنت أردد في قرارة

نفسي هذا الكلام بشكل سري، لم يمض طويل وقت حتى جاء الجواب إليها، وهو: إن أسباب هذاالجدب، والجفاف، والوعورة، نتيجة للعنة التي أنزلها الله عليها، بسبب خرق وصاياه، وهكذا نقرأ في سفر التثنية:٢٨/ ٢٣ «وتكون سماؤك التي فوق رأسك نحاساً والأرض التي تحتك حديداً»، فضلاً عن هذا إن تذمرنا وخيبتنا مع الأرض المقدسة، قد جرى الحديث عنها منذ عدة آلاف سنين مضت وذلك حسبما نقرأ في سفر التثنية: الاصحاح ٢٩: «فيقول الجيل الأخير بنوكم الذين يقومون بعدكم، والأجنبي الذي يأتي من أرض بعيدة، حين يرون ضربات تلك الأرض وأمراضها الذي يمرضها بها الرب كبريت وملح، كل أرضها حريق لاتزرع ولاتنبت ولايطلع فيها عشب ما، كإنقلاب سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم التي قلبها الرب بغضبه وسخطه، ويقول جميع الأمم لماذا فعل الرب هكذا بهذه الأرض. لماذا حمو هذا الغضب العظيم. فيقولون لأنهم تركوا عهد الرب إله آبائهم الذي قطعه معهم»(٢٢—٢٥).

وواضح من هذا أن الأرض في الوضع الذي هددت فيه في الكتابات المقدسة، لم تكن دوماً هكذا، كما يمكننا رؤية ذلك بأعيننا، لأننا رأينا خلال هذه الجبال المهجورة، أسواراً غاية بالقدم، بنيت من حجارة عظيمة، حيث من المعتقد أنها قد بنيت من قبل بني اسرائيل، وقد حصلوا على الزيت، والقمح، وكل حاجيات الحياة من أعلى هذه الجبال وأكثرها حجارة، حتى في هذه الأيام، وعلى الرغم من كفر وشرور السكان في هذه البلاد، جميع حاجيات الحياة تنمو هناك بكميات وافرة، لأننا رأينا على منحدرات الجبال بين الأسوار القديمة، كروماً، وزيتوناً، وقمحاً، وشعيراً، ونباتاتاً أخرى نامية هناك، علاوة على ذلك، حتى وان كانت البلاد محررة من اللعنة المتقدم ذكرها، لابد أنها ستبقى قاسية وجرداء، لأنه لايوجد من يفلحها، سوى عدد ضئيل، وهم رجال سوء،

وكفار، وكل من ينظر عن قرب ويدقق في الكتابات المقدسة، سوف يحاجج بأن هذه البلاد فائقة الخصوبة، وليست قاحلة، وقرر —على كل حال— القديس جيروم بأي منطق ينبغي أن نفهم بأن هذه البلاد تفيض بالحليب والعسل، فقد جاء ذلك في رسالته إلى داردانوس -Dar danus حيث بين أننا ينبغي أن نقدر أن هذه الأماديح الفائقة يتوجب فهمها على أنها تشير إلى مملكة السماء.

ودخلنا في الوقت نفسه إلى واد واسع نسبياً، فيه حقول مزروعة، وكان مطوقاً من كل جانب بهضاب مرتفعة، ومزينة بأشجار الزيتون، وكان على جانبنا الأيسر جبال أفرايم، التي يشكل جبل شيلوه الجزء الأمامي منها، ويبدو أن قمة هذا الجبل هي الأعلى بين قمم جبال تلك البلاد، وقام فيما مضى على جبل شيلوه هذا مدينة جليلة، حيث أقام تابوه الرب هناك لمدة طويلة، ذلك أنه جلب إلى هناك من قبل يشوع من الجلجال، وهنا حملت حنه بصموئيل، استجابة لصلاتها، وهنا أيضاً فرض الكاهنان الشريران حفني وفينحاس مكوساً ثقيلة على الشعب، وذلك حسبما ورد مكتوباً في الاصحاح الثاني من سفر صموئيل الأول، وهنا سمع النبي صموئيل للمرة الأولى الرب يتكلم إليه، وسقط عالي، الكاهن الأعلى من على كرسيه، وذلك كما ورد مدوناً في الاصحاحين الثالث والرابع من سفر صموئيل الأول، وهنا اعتاد بنو اسرائيل جميعاً على القدوم لعبادة الرب، وكان ذلك قبل بناء هيكل القدس، وحدث أنه بسبب ذنوب الكهنة، جرى الاستيلاء على تابوه الرب، وقتل الكهنة، وتهديم شيلوه، وإزالتها تماماً، ولذلك عندما تنبأ إرميا بخراب القدس قال:«سوف أجعل هذا البيت كشيلوه» (إرميا:٢٦/٦)، ومن أجل هذه الكلمات جرى اعتقال إرميا، وإلقائه بالسجن، بسبب أن شيلوه جرى تدميرها، وفي شيلوه دفن النبي صموئيل، ولذلك أطلق عليها اسم «مكان صموئيل المقدس»، حتى هذا اليوم، ولربما قد جلب جسده إلى

هنا من الرامة حيث كان دفن (صموئيل الأول: ٢٥/ ١) هذا وجاءنا خبر من عند جيروم في كتابه «Confutation of vigilantius» أنه في أيام الامبراطور أركاديوس Arcadius، جرى نقل عظام صموئيل المبارك من اليهودية إلى تراقيا، في وعاء ذهبي وهو ملفوف بالحرير، واجتمع حشد كبير من الناس لمشاهدة عملية النقل، فقد تقاطر الناس من فلسطين إلى العراق، وجرى استقبال هذه الآثار بسرور عظيم، وكأن الاستقبال لصموئيل نفسه حياً، وغنى الناس بصوت واحد الشكر للمسيح.

وكان فيما مضى عند سفح هذا الجبل مدينة جبعه، حيث جرى قتل زوجة اللاوي التي هي من بيت لحم، من خلال زنى أهل جبعه، وانتقاماً لذلك تمّ قتل آلافاً كثيرة بالسيف، ودُمّر سبط بنيامين كله تقريباً (القضاة:١٩)، وصعدنا فوق طريق وعر خارج الوادي، وكان ذلك فوق الرابية نحو شيلوه لأن الوادي كان ضيقاً جداً، لم يستوعبنا، ولم نكن بعيدين من شيلوه، بل فوق الأرض المرتفعة إلى جانبها، ومع هذا لم يرغب أدلاؤنا بأخذنا إلى هناك، لأنهم كانوا مسرعين يريدون الوصول إلى القدس، بأقصى مايمكن من سرعة، خشية أن يعانوا، فيما بعد، أثناء النهار من حرارة الشمس، وفيما مضى من أيام، كان الحجاج يقادون دوماً إلى شيلوه، وبعد صعودهم إلى هناك، كانوا من ذلك المكان يرون مدينة القدس ويبتهجون، ولذلك كان اسم هذا المكان «بهجة الحجاج» (جبل البهجة)، وعندما كنا أثناء سيرنا على جانب شيلوه، رأينا خرائب كثيرة لأسوار قديمة وكنائس، مابرحت قائمة على حافة الرابية حتى هذا اليوم، وتطلعنا بأعيننا نحو الشرق، فرأينا الجبل المقدس، والجبل المجيد، الذي هو جبل الزيتون، وكنيسة الصعود على قمته، ومع ذلك لم نستطع رؤية المدينة المقدسة، مع أنها كانت إلينا أقرب من جبل الزيتون، وعندما رأينا ذلك الجبل الأكثر قداسة قفزنا من على

ظهـور حميرنا، وصلينا نحـو الجبـل بتقـوى وسرور، لأن مشهـد هذه الأماكن المقدسة عن بعد يبهج النفوس بشكل رائع للناس الأتقياء.

وخلفنا بعـد هذا شيلـوه وراءنا، وفيها نحن على طريقنـا وصلنا إلى قلعة، هـي قلعة عمواس المقـدسة، وهي التـي تبعد عن القـدس حوالي ستين غلوة، وذلك حسبها ذكـر القديـس لوقا في الاصحـاح الأخير من انجيله، وتساوي هذه المسـافة سبعة أميـال ايطالية، وميلاً ألمانيـا واحداً ونصف الميل، ذلـك أن ثلاث غلوات تسـاوي سبعـة آلاف وخمسمائـة خطوة، وترجلنا قـرب هذه القلعـة من على ظهـور حميرنا، ومضينا من خـلال سور حجـري جاف إلى المكان الذي كـان يقوم فيـه النزل الذي استقبل الرب يسـوع، وحوارييـه: لوقـا وكليوباس، وكـان ذلك في يوم قيـامة ربنا، عندمـا ذهب على شكل حـاج، فألزمـاه بالبقاء معهما، وقـد عرفاه عندما كسر الخبز.

وقبلنا هذا المكان بتقـوى عـارمـة، وتلقينا مغفـرة(+)، واعلمـوا أيها الحجاج، أنه هنـا توجد أول خطوات الرب يسوع، وأمـاكن سيره، التي ستجـدونها جديرة بالتقبيل، ومن أجـل التهدئـة والسكينة جرى إعـداد هذا المكان بشكـل مناسب من قبل القـدرة الـربانيـة، حيث أن الحاج التعيس، الذي هدّه التعب وهو مسرع نحـو القـدس سـوف يتقـابل مع ذلك الحاج الـرائع، أي ربنا، وهو قـادم من هنـاك، وهو الذي إليـه قيل:«أأنتت وحدك غريب وحاج في القدس»؟، ومن أجل انعاشه ينبغي أن يرى أولاً وقبل كل شيء الخطوات الأكثر قداسة وسعادة التي عملها جسـد الرب بعـد تمجيـده، فبعـد أن ينتعش برؤيتهم ويطمئن يمكن أن يكون قـادراً في القدس على اتبـاع خطواته المقـدسـة في آلامه البغيضـة، وذلك حسبها طلب بطرس منا أن نفعل، في الاصحاح الثاني من رسالته الأولى، حيث قـال:«المسيح أيضاً تألم لأجلنا تاركـاً لنا مثالاً لكي تتبعـوا خطواته»، وفي هذا المكان جعل قلبي حوارييه يتحرقان في داخلهما، وقام

بكسر الخبـز وأعطاه لهما، الأمـر الذي قـال عنه بعض الحكماء، بأن ذلك كـان القـــربان الذي احتفل به هناك للمـرة الأخيرة، وعـــاد سريعـاً إلى القدس، وفي الحقيقـة يقول بعضهم بأن هـذين الحواريين كانا قـد غادرا القـدس وافترقا عن الحواريين الآخـرين، ونويا على عـدم العودة ثانيـة، غير أنه جعلهما هناك يعـودان ثانية، وهكذا عـادا في السـاعة نفسهـا إلى القدس.

وكـانت عمـواس في أيام المسيح بلـدة جميلة وغنيـة، وقـد تعـرضت للدمار، عندما جرى تدمير القـدس نفسها، وقد أعيدت عمارتها فيما بعد من قبل ماركـوس كورنيليوس، وأطلق عليها اسم نيقوبـولس، وقد قام يوليوس أفريكانوس بسفـارة من أجل إعادة عمارتها، وذلك حسبما قرأنا في «كتاب الرجال المشهورين» لجيروم، وقـد دمرها المسلمون الآن دماراً كليـاً، ولاسيما كنيسة نزل المسيح، التي من الممكن التعـرف إلى خرائبهـا من خلال أساساتها، ومايزال قائماً فيها حتى الآن خرائب بيوت مقنطرة عالية، وقليل من الناس هم الذين يسكنون هناك.

وبعـدمـــا رأينا هذا المكان المقـدس، تابعنـا السير على طريقنا، ورأينا خرائب العديد من البيع والكنـائس على التلال، وذلك أثناء سيرنا فوق المنطقـة الجبليـة، ثم نزلنا مـن المنطقـة المرتفعـة إلى واد وقع عبر طريقنا، وهو ممتد من الشمال إلى الجنوب، وكان علينـا نحن القادمين من الغرب والمتجهين نحـــو الشرق، عبـوره، وكـــان هذا وادي Elah ،أو وادي البطم، حيث غلب داوود هنـاك جـالوت وقتلـه بحجـرة اختـــارها من أرض الجدول، وقطع رأسـه وجلبه إلى القدس (صمـوئيل الأول: ١٧) ووقفنـا في وسـط هـذا الـــوادي، وتفحصنـا وضـع الأرض، وهـو واد خصب، ويوجد فيه في هذه الأيام كثيراً من أشجار البطم، وهذه أشجار جميلة، تنمو بشكل رئيسي في سورية، ومنها يخرج صمغ، وأشجار البطم على نوعين، أي ذكـر وانثى، وعلى هـذا يحملون نوعين من الثمار، حيث

تحمل الأشجـــار المذكـرة ثماراً حمراء بحجم حبــات العـدس الصغيرة، وغـالبـاً مـارأيت كثيراً من هـذا النوع من الأشجـار، وتحمل الأشجـار المؤنثـة ثماراً ألوانها باهتـة بحجم الفول، ويستخـرج من هذه الثمار زيتـاً جيداً، وطيب الطعم.

كيف رأى الحجاج القدس المدينة المقدسة وكيف دخلوا إلى القدس تلك المدينة الأعظم حلاوة

كان السبب الرئيسي وراء رحـلاتنا هو مدينة القدس الأكثـر حلاوة، التي انتشر شذاها فعم آفاق العـالم، فجعل المؤمنين يسعون إلى هناك من كل جـانب، وهكذا تسلقنا وادي البطم، وقطعناه، وتوقفنا عن الذهاب نحو الشرق، وصعـدنا حواف رابية بـاتجاه الجنوب، ووصلنا إلى حدائق أشجار مثمـرة، وخضراوات، وتين، وكان ذلك أثناء سيرنـا بين جدران من الحجـارة الجافـة، وألقينا بأعيننا نحـو اليمين، وياللهـول، لمعت مثل ضـوء البرق، المدينة المذكـورة دومـا، والتي ستـذكـر دومـاً، إنها مـدينة القدس المقـدسة، قد أشرقت أنوارها، وكـان الجزء الذي رأيناه منها هو المتصل بجبل صهيـون، ورأينا جبـل صهيـون المقـدس نفســه، مع جميع أبنيته وخـرائبه، وقبل كل شيء رأينا قلعة صهيـون، وهي محصنة بأسوار على درجـة عاليـة من القـوة، وبأبراج، وبدت الأسـوار العـالية القـوية والأبراج العائـدة للقلعة بوضـوح وكأنها تحيط بالمدينة كلهـا، والحجاج، أو الغـرباء، الذين لم يروا القـدس من قبل لم يكن بإمكانهم إلاّ أن يظنوا أن أسوار قلعـة صهيون تلك كـانت هي أسوار القـدس، الأمر الذي لم يكن كـذلك، وعندمـا رأينا بـأعيننا المدينة المقـدسـة التي تشـوقنا إليهـا طويلاً، ترجلنا على الفور من على ظهور حميرنـا، وتوجهنا بوجوهنا نحو الأرض، ووجهنا التحيـة أولاً إلى ملكهـا، الذي هو المولى الرب، وكـان ذلك برسم علامة الصليب، ثم خاطبناها بهذه الكلمات، أو بكلمات مثل هذه:

«مـرحباً ياقـدس، وحييت يا مدينة الملك العظيم، مجد الأرض كلهـا وتاجهـا، بهجـة نفـوس المؤمنين وسرورهم، ياقـدس، ياقـدس، انهضي، ارفعي عينيك، وانظـري من حـــولك، وأبصري جميع هؤلاء الحجـــاج، أولادك الذين قـدمـوا معـا من أقصى أجـزاء الدنيـا، والذين مـابرحـوا يقدمون في حشـود، علهم يرون سناء بريقك، ومجد الرب قائم فوقك»، وذلك كما قال النبي إشعيا—الاصحـاح:٤٠، ومثلما مدحك طوبيا بهذه الكلمات:«سـوف تشعين مجداً مع ضيـاء، وكل طرف من أطراف الدنيـا سوف يتعبـدك، وكل الأمم سوف تأتي من بعيد، جالبـة الهدايا، وسوف تعبد ربك»(طوبيا:١٣).

ومثل هذا فعل القـــديس برنارد في الاصحـاح الخامس من قـــداســه لفـرســـان الداوية حيث قـدم التحيـة لمدينـة القـدس الأعظم مجداً بهذه الكلمات فقال:«حييت أيتها المدينة المقـدسة، التي قدسك الأعظم علواً، وجعلك مثل خيمة عهـد له، حتى يمكن فيك ومن خـلالك انقاذ جيل عظيم، حييت يامـدينة الملك العظيم، الذي منذ البداية المغـرقة بالقـدم، وهو يطلب أن يجعل العـالم مسروراً، حييت ياسيدة الأمم، أيتهـا الأولى بين البلدان، ياموطن البطارقة، ويـاأم الأنبياء والرسل، ويناينبوع الايمان، ويامجد شعب المسيح، الرب الذي عـانى دوماً وتعـرض لأن يهاجم منذ البداية، من أجل أن تكوني للرجال الشجعان وسيلة لاظهار شجاعتهم، ولربح خـلاصهم كاملاً، حييـت أيتها المدينة الرئيسيـة في أرض الميعاد، والتي فـاضت في الـزمن القـديم بالحليب والعسل، فقـط للذين سكنوا فيهـا، والتي تعطي الآن إلى العـالم كله وسائـل الخلاص، وخبز الحيـاة، أيتهـــا الجيـدة، أنت الأفضل في البـــلاد، فأنت التي تلقيت في صـــدرك الخصب جداً، الحبـة المقدسة من التـابوه، قلب الأب، وأنجبت وقدمت حصاداً لامثيل له من الشهداء من تلك البذرة السماوية، وثمرة صحيحة من تربتك الخصبة، في جميع أنواع الشعوب المؤمنة الأخرى، ستين ومائة

ضعف، في جميع أنحاء الأرض، ولهذا فإن جميع الذين شاهدوك، امتلأوا بوافر من حلاوتك، وشبعوا بثراء عظيم بذكرى فيضك العظيم، وتدفقوا ببهجتك، تراهم يتحدثون عن عظمة مجدك إلى الذين لم يروك، وينشرون ذلك حتى أقصى أجزاء الأرض، ويصفون الروائع التي فيك، وكثيراً من الأشياء الرائعة قد قيلت عنك يامدينة الرب، وعلى الفور سوف نتذوق نحن الذين قدمنا من الغرب، البهجة الموجودة فيك والتي تتدفق منك، وعندما رأيناك ذابت أرواحنا وتبددت في فيض بهجتك وإشراقك».

وعندما فرغنا من صلواتنا، امتطينا ظهور حميرنا، وعيوننا قد امتلأت بالدموع، ووجوهنا بالبشر والسرور، وشرع الكهنة والرهبان الذين كانوا بيننا يغنون te deum Laudamus لكن بصوت منخفض وخافت، حتى لانغضب حرسنا، الذين قد يثير غناء نشوتنا غضبهم إذا ما غنينا بصوت مرتفع وواضح، وعليه غنينا بصوت مرتفع فقط في قرارة نفوسنا، لأن النشوة التي شعرنا بها بداخلنا كانت عميقة وعظيمة، وقد تجاوزت كل الكلمات التي يمكن التعبير بها، ولم تنبع هذه النشوة من الآلام بل من العقل، وليس من حضور هدف مرغوب، بل من شيء يستحق الحب لأنه ثمين: ولم يكن السرور هو الذي يقود إلى الجواز بل إلى الجدّية، التي لاتحرك الانسان للضحك بل للتنهد، والتي لاتهز الجسد، بل تحني الأطراف، ولاتوسع فتحة الفم للضحك بل بالحري تجعل الوجه مربداً، يبكي كله، وكله دموع، ولاتقود إلى الكلام بل إلى الصمت، ولاتدفع الانسان نحو الأمام بين الناس، بل بالحري إلى الانزواء هادئاً، ولاتجعل الانسان يصرخ بصوت مرتفع، بل بالحري تجعله يصلي بداخله بأغاني المزامير.

وبهذا الوضع الصامت والسرور الداخلي وصلنا إلى آخر الحقول، حيث وقف ربشاقي وشتم الرب، وهو حامل ضد الذين وقفوا على

أسوار القـدس (الملوك الثاني:١٨/ ١٧.إشعيـا:٣٦) وفي هذا الحقل وإلى جـانـب القلعـة التي بناها السلطان، ترجلنا من على ظهـــور حميرنا، وأعطيناهم إلى سـائقيهم، وأخذنا جعبنا، ومشينا إثنين، إثنين نحـو باب التجـار، أو باب السمك ونحن نصلي بصمت، وأيدينا موضـوعة فـوق صـدورنا، وقـام بعض الحجاج، صـدوراً عن التقـوى، بخلع أحـذيتهم ورميهـا جانبـاً، ومشى بعضهم بأقـدام عـارية، ذلك أننا كنا في الأرض المقـدسـة، وكنا بذلك نمجـد الخطوات الرائعـة لربنا، وللعـذراء مـريم المباركة ولقديسي العهد القديم والعهد الجديد.

وعندما وصلنـا إلى الباب الذي اسمه بـاب داوود، وباب التجار، أو باب السمك عبرنا خـلاله برؤوس مطأطأة، لأننا بهذا العبـور وعلى هذا الشكل حصلنا على غفران دائم (++)، ومضينا من البـاب وسرنا خلال الشـارع الطويل، ووصلنا إلى كنيسـة مغلقـة عظيمـة،وعندمـا كنا جميعـا واقفين في الساحة، اعتلى واحد من رهبان دير جبل صهيون مكاناً عالياً، وخاطبنا قـائلاً بأن هذه كـانت أكثر الكنائـس قداسة، وهي متعبـدة من قبل العــالم أجمع، ففيهــا راقــد أعظم الكنوز قيمــة بالنسبــة إلى جميع المسيحيين، وهو ضريح ربنـا، وعندمـا سمعنـا هذا ألقينا بأنفسنا نحـو الأسفل في السـاحـة، أمام باب الكنيسـة، وصلينا وقبلنا الأرض نفسهـا مــراراً كثيرة، ومن المؤكــد أنه بدا إلى الحجــاج، وهم متمــددون على الأرض أن الفضيلة كـانت تصـدر من الأرض نفسهـا، وبذلك ازدادت مشاعرهم أكثر واندفعوا للمزيد من الصلوات.

أيها المولى الرب، كم هـو عــذب يمكن أن يكون تقبيـل فمك، ذلك أننا، ولم نستطع تقبيل قـدميك، وفقط قـدرنـا أن نقبل مكان خطواتك، فشعـرنا بعذوبة ألانت قلوبنا، آه يـاأخي لوكنت معي في تلك السـاحـة، أثناء تلك الساعة، لرأيت دموعـاً كثيرة منهمرة، ولسمعت تنهدات قلبية مريرة، ونحيبـاً شجياً، وانفعالات عميقة، وحزنا حقيقيـاً، وبكاء صادراً

من داخل الصدر، وصمتاً كله سلام وسرور، فلوملكت قلباً من حجر لذاب، ولانفجرت بفيض من الدموع مع الحجاج الذين كانوا ينتحبون، فلقد رأيت هناك بعض الحجاج وقد تمددوا على الأرض بلاحراك ولاقدرة، تخلت عنهم قواهم، وكأنهم قد نسوا أنفسهم بسبب انفعالاتهم التقوية الفائقة، ورأيت آخرين يتنقلون من زاوية إلى زاوية، ومن هنا إلى هناك، وهم يضربون صدورهم، وكأنهم قد دفعوا بروح شريرة، وجثا بعضهم على الأرض بركب عارية، وصلوا بدموع، ورفعوا أذرعتهم وشبكوها على شكل صليب، وكان بعضهم يرتجف ويهتز بتنهدات عنيفة إلى حد أنه لم يكن بإمكانهم تمالك أنفسهم والوقوف على أرجلهم، ولذلك أرغموا على الجلوس، وقد أمسكوا رؤوسهم بأيديهم، حتى يمكنهم تحمل تنهداتهم الكثيفة، وتمدد بعضهم على طولهم على الأرض لمدة طويلة بلاحراك، حتى بدوا كأنهم أموات، وكان أكثر من الجميع وفوقهم كلهم مرافقونا، وأخواتنا النساء من الحجاج حيث صرخن وكأنهن في آلام المخاض، ورفعن أصواتهن عالياً وبكين، وفقد بعض الحجاج، لشدة وجدهم وانفعالات تقواهم، السيطرة على أنفسهم، ونسوا كيف عليهم أن يتصرفوا، وصدوراً عن شدة حرصهم لإرضاء الرب قاموا بحركات صبيانية وغريبة.

وكان بالحقيقة ممتعاً أن تنظر إلى التصرفات المخلصة جداً، وفي الوقت نفسه، المتنوعة للحجاج، وهم يصلون في الأماكن المقدسة، وهي الأماكن التي تمتلك قوة مدهشة في جعل الانسان يبكي، والناس يتنهدون، مع أنهم في مكان آخر من غير الممكن إثارتهم بأي كلام، أو نصيحة، أو نص من الكتابات المقدسة، أو بأي صورة، أو نقش، أومثل، أو وعد، أو تهديد أو ازدهار، أو انتكاسة، ومع هذا، إنه كقاعدة، لانجد جميع الذين يزورون الأماكن المقدسة، لاينفعلون إلى هذا الحد، بل يتحركون فقط نحو اظهار للتعبد والتقوى بشكل غير اعتيادي، فلقد

رأيت بعضهم — وبودي أنني لم أرهم— كانت مشاعرهم قد تحركت هنا باتجاه معاكس لتصرفات التقاة والمؤمنين الجيدين، فلقد رأيت خلال أعمال التعبد والتقوى المتقدمة الوصف التي صدرت عن الحجاج، بعض الحجاج البليدين، والذين لانفع بهم، لابل هم بالحري بهائم متوحشة، ليست فيهم روح الرب، فهؤلاء وقفوا يبتسمون بسخرية نحو الصلوات، والدموع، والتمدد على الأرض، وضرب الصدور، وما شابه ذلك، ممافعله البقية، والذي هو حتى أكثر إدانة وخبثاً هو أن هؤلاء الرجال المتوحشين، والمحرومين من رؤية كل أنواع التقوى، والفارغين من أية مشاعر دينية، والممتلئين بكل النجاسات، أنهم كانوا ينظرون إلى الأناس الأتقياء على أنهم حمقى، ومرائين، ومنافقين، وغشاشين، ومرضى بعقولهم، ولهذا كانوا يعاملونهم بازدراء، ويتأبون من التحادث معهم، ويستخفون بهم، ويسمونهم مجانين، ومرائين، ومنافقين.

آه كم هو غير نافع وملعون الحج بالنسبة لمثل هؤلاء الناس، الذين يضحكون في مثل هذه الأماكن المقدسة، ويستخفون بالرجال المقدسين ويسيئون النظرة إلى تصرفاتهم، فمثل هؤلاء الناس أسوأ من المسلمين، أو من اليهود، مع أن هؤلاء لم يستخفوا قط بأي مسيحي أخذ نفسه بالتقوى، ذلك أننا عندما قدمنا إلى هذه الساحة المقدسة، ركض عدد كبير من الصبيان المسلمين هناك، ليضحكوا علينا، لكنهم عندما رأوا عمق اخلاص الحجاج وتقواهم، ذهبوا بعيداً، وبقي بعضهم وبكوا معنا، وتلقينا في هذه الساحة غفرانات مطلقة (++).

ونهضنا — بعدما أكملنا صلواتنا وأنهيناها — من على الأرض، وصعدنا نحو باب الكنيسة، حيث نظرنا من خلال الفتحات، التي يمر الطعام من خلالها بالعادة إلى الأوصياء على الضريح المقدس، المقفول عليهم هناك، ورأينا قائماً في وسط الكنيسة، بيعة الضريح الأعظم قداسة العائد لربنا، والطريق الصاعد نحو جبل أكرا (الجمجمة)، وانتشينا من

جديد بالمشاعر التقوية، وهناك علامة مرسومة على الأرضية الرخامية، تشير إلى المكان المقدس، الذي وقع فيه الرب يسوع، عندما كان حاملاً للصليب، حيث كان على مقربة من صخرة الجمجمة، ووقتها سقط على الأرض تحت الصليب لأنه كان منهكاً، ولقد قبلنا تلك البقعة الفائقة القداسة عدة مرات، وبللنا لطاخة الدم التي كانت عليها بدموع كثيرة، وكانت هذه ثاني آثار أقدام للرب يسوع رأيناها، ويجب ألا يخطر على بالنا، أو أن نظن أن هذه ليست بدون معاني خفية، أي أن نلتقي أولاً مع خطوات المسيح في المجد، وثانياً مع جسده عندما جلد، وعندما كان يحمل الصليب، فهنا يمكننا أن نتعلم بهذا، أن علينا ألاننشد شيئاً ما سوى المجد السماوي، الذي لا يمكن لانسان الحصول عليه إلاّ بحمل صليبه.

وعندما فرغنا من صلواتنا هذه، اقتادنا الكاليني خارج الساحة أو الباحة، العائدة للضريح المقدس، وعبرنا الطريق المواجه الساحة، ومن هناك صعدنا إلى مشفى القديس يوحنا، الذي هو بناء مقنطر واسع، مهمل ومهدم، والموجود هو جزء فقط من المشفى القديم، ومكان يشبه قاعات طعام كبيرة لديرة واسعة، حيث عاش عدد كبير من الرهبان، وهنا رتب الحجاج أنفسهم وفقاً لجماعاتهم، واتخذ السادة السوابيون، أي موالي مكاناً في آخر البيت، حيث كان هناك مايشبه القاعة منفصلة عن البقية، وذلك في مكان مغلق جميل ومحترم، وذهب مولاي جون، كونت أوف سولم وجماعته، مع كالينوس الأصغر، إلى بيته، وأقاموا هناك، ولم نؤخذ في حجي الأول إلى المشفى، بل إلى بيت ميلو الكبير، عند سفح جبل صهيون، وهناك أقمنا، كما أننا لم نشاهد المشفى مطلقاً أثناء ذلك الوقت، ولم نعرف بوجود أية آثار باقية من مشفى القديس يوحنا، وعندما تدبر الحجاج إقامتهم هناك، تولى خدمتنا مسلمون، ويهود، ومسيحيون شرقيون، حيث جلبوا لنا خبزاً، وماء، وطعاماً مطبوخاً،

وفـواكـه، وذلك حسبما أخبرتكم من قبـل، ولقـد اشترينا منهم طعـامـاً وأكلناه.

وأرسل الآن الأب المسؤول عن دير جبل صهيون اثنين من الرهبـان إلى المشفى، وأمـرهما بجلب جميع الأشخاص مـن الطوائف المقدسـة إلى جبل صهيـون، لأن العـادة جرت بأن يسكن جميـع الأشخاص التـابعين للطوائف الدينية، مع الرهبـان الفرنسيسكان على جبل صهيون، وذهبت أنا بين هؤلاء القـوم مـع اثنين من رهبـان طائفتي، أي طائفـة الرهبـان المبشرين، كان أولهما قد جـاء من منطقة جزيرة فرنسـا، وجاء الآخر من نابل في منطقـة صقليـة، وخـرجنا مـن المشفى، وجـرى اقتيـادنا إلى دير الفـرنسيسكان فـوق جبل صهيـون، وجـرت تحيتنـا من قبلهم بلطف واستقبلنا استقبالاً حسناً، وقـد أعطونا ثلاث قلايات لنا أنفسنا، وهكذا أكلنا، وشربنا، ونمنا،وعبـدنا الرب بمصـاحبتهم، وقـد بقيت في تلك القلايـة لأيام كثيرة، بعدما ذهـب الحجاج جميعاً، وتمتعت بهدوء كـامل، وبمعـاملة رائعة صـدرت عن لطف الآباء الفـرنسيسكان ورهبـان جبل صهيون.

زيارتنا للأماكن المقدسة على جبل صهيون ووصفهم

وفي اليوم الثالث عشر، الذي كان الأحد السابع بعد التثليث، وعيد العذراء القـديسة مرغـريت، أرسل الأب المسؤول بعضـا من رهبانه إلى مشفى القـديس يوحنا، ودعـا الحجاج إلى الاحتفـال بقـداس على جبل صهيون، وجـاءوا جميعاً مع هؤلاء الرهبان إلى كنيسـة صهيون، للانتظار هناك حلـول وقت القيـام بقـداس رفيع، لأن الشمـس أشرقت الآن مبكراً، ومع ذلك لم يكن هو قد استيقظ عندمـا صعد الحجاج إلى هناك، ولكي يظهروا احترامهم للوردات الحجـاج، قام الرهبان بتـزيين السدة، والكنيسـة، والمذابح بشكـل جميل، وغطوهم بمعلقـات ثمينة، وأنا لم أشاهد في أي مكان آخـر معلقات ثمينة أكثـر من هذه المعلقات في هذا

المكان، ذلك أنها كـانت مطرزة من قبل النسـاء، عليهـا رسـوم تعـرض حيـاة المسيح ومـوته، وفي الحقيقـة جـاء عـدد كبير من سـادة المسلمين، والأتراك والمماليك من جهات بعيدة، وطلبوا مشاهدة هذه المعلقات، أو الزرابي، وبعـدما احتفى الأعيـان، والحكام، والقادة في القـدس بضيوف الشرف هؤلاء، اقتادوهم إلى جبل صهيون وتوجهوا بالرجاء إلى الرهبان هناك بأن يعرضوا عليهم هذه المصنوعات ويعلقوها لهم.

وصنعت هذه المعلقـات لصالح الكنيسة بنـاء على أوامر فيليب، دوق بيرغندي، الذي قدم منحاً كثيره أضفاها على ذلك الدير، ووقف المذبح العالي وهو مكتـظ بأوعية قرابين مـذهبة، وبمـذاخر، وكـان فوق المذبح صـورة، حوت رسم القـديس فرانسيس، وإلى جـانبه قـد وقف شفيعنا المقدس، القـديس دومينيك، وقد رسمت بشكل جليل تمامـاً، والكنيسة ليست واسعـة، لأنها كـانت شطراً فقط من كنيسـة جبل صهيـون، وفي العصور القديمة، عندما كـان الصليبيون يتولون الحكم في البلاد، كانت هناك كنيسة عظيمـة في تلك البقعة، قام المسلمون بتـدميرها حتى النتوء أو البيعة الملاصقة لسـدة الكنيسة على جهة اليمين، وهذا الجزء هو الآن الكنيسـة والسدة للرهبـان، وماتزال خـرائب السدة القـديمة والكنيسـة مرئية بوضوح حتى الآن، كما سنوضح ذلك فيمايلي:

وعندمـا أشرقت الشمس، وحـل وقت الاحتفـال بالقـداس، ضرب الحافظ لغرفة المقدسات على لوح خشبي، لأنه لم تكن لديهم نواقيس من أي نوع، كما أنهم لم يفكروا بالحصـول عليهم من خـلال المسلمين، بل عبّروا عن حلول مـوعد العبـادات الدينية بالضرب على ألواح خشبيـة، كما نحن نفعل في يوم الجمعـة الحزينة، وبعدما اجتمعنـا كلنا في الكنيسة رتلوا تراتيـل الأول والثلثي، وبعـد الثلثي صعـد الأب المسـؤول مع مرافقيـه إلى دكة القـداس العالي، وكانـوا يرتدون ثياباً ثمينة، وبدأ قـائد جوقـة المرتلين يغني بصوت مرتفع احدى أغنيـات صهيون:«Spintus

domini replevitâ وساعده جميع الكهنة والقارئين للكتاب من الحجاج، وهكذا غنينا قداس الروح القدس بمهابة بهيجة، وكان هذا القداس موائما للمكان، لأن الروح القدس أرسلت إلى هناك، ونزلت على الرسل، وكانت بشكل مرئي، كما أن التوقيت كان موائماً، لأن اليوم كان هو يوم الأحد السابع بعد التثليث، الذي فيه ورد ذكر الأرغفة السبعة، التي تعني العطايا السبع للروح القدس.

وبعد القداس احتفلنا نحن الكهنة بطقوس القربان على أربعة مذابح، جرى إعدادها لنا، وأعطيت مكاناً في الاحتفال تحت في الأسفل في الرواق المغلق في بيعة القديس توما الرسول، القائمة في المكان الذي فيه قال الرب لتوما:«هات اصبعك إلى هنا» (يوحنا:٢٠/ ٢٧)، وذلك حسبما ورد في الاصحاح العشرين من انجيل القديس يوحنا، وبعد الفراغ من الانجيل في طقوس القداس العالي، استدار الأب المسؤول بنفسه نحو الناس، ووعظهم بموعظة جميلة باللاتينية، مدح فيها الأماكن المقدسة وأثنى على زيارتها التعبدية، وتمت ترجمة هذه الموعظة إلى الألمانية من قبل الأب المبجل بولص غوغلنغر Guglinger، وذلك لصالح الرجال العلمانيين، وكانت الأبواب مغلقة في أثناء القداس، وقد وقف في الخارج عدد كبير من المسلمين والتجار، وصدف في أثناء القداس أن جرى فتح الباب للسماح لأحدهم بالخروج، وعندما رأى المسلمون ذلك اندفعوا بشدة نحو المدخل، ودخلوا إلى الكنيسة، ووقفوا إلى جانب المذبح، وهم ينظرون باستغراب نحو طقوسنا، ومع ذلك لم يظهروا سوء أدب أوسلوكاً، ولم يتعد الأمر الوقوف هناك والاندهاش، وعلى كل حال أوقف الكهنة القداس حتى أخرجوا بوساطة الرهبان، الذين لم يستخدموا القوة أو قاموا بجرهم، أو تخاصموا معهم، بل أخرجوهم بهدوء، ورجوهم بالذهاب، واثر ذلك تمّ إكمال قداسنا.

فيمايلي:
المسيرة إلى الأماكن المقدسة في جبل صهيون
وأولاها مكان العشاء الأخير

بعد القداس، أعدّ الرهبان الفرنسيسكان العدة من أجل مسيرة مهيبة، فقد ارتدوا ملابسهم المقدسة، ومضوا وهم يحملون معهم صليباً، وأعلاماً، وحاملات شموع، ومذاخر، ومباخر، وماء مقدساً، ولدى سيرنا معهم جميعاً في المسيرة، كان قائد الجوقة رجلاً صاحب صوت قوي، وقد بدأ يغني بشيء من النشوة ترتيلة من أغاني صهيون:

pange lingua gloriosi corporis mysterium ومع هذا الغناء سرنا، وكنا نحن الكهنة في الطليعة، وتبعنا بقية الحجاج، وبقينا هكذا حتى وصلنا إلى السدة ومنها إلى المذبح العالي، الذي من المعتقد أنه قد بني فوق المكان المقدس الذي أكل فيه الرب يسوع العشاء الأخير مع حوارييه، حيث حول الخبز والنبيذ إلى جسده ودمه، وأعطاهما إلى حوارييه للأكل والشرب، وحيث رسمهم كهنة حتى يتولوا أعمال القداسات، ومضينا إلى هذا المكان الفائق القداسة واحداً تلو الآخر، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الموضع تحت المذبح المفرغ من الأسفل، وتلقينا غفرانات مطلقة (++)، وانتبهوا يا خيرة الأحبة، أيها الإخوة الحجاج، هنا البيت، وهنا العلية العليا، وهنا المنضدة حيث أعطيت لكم الأعطية الفائقة القداسة بالخبز من السماء، وخبز الملائكة، الذي وحده لديه القدرة لاشعال الرغبة فينا، وأن يزرع فينا التواضع، وأن يجلب الندم، وأن يعطي الايمان، وأن يبعث الأمل، وأن يمنحنا الدفء حتى نحب، وأن ينهض بنا إلى التبجيل، وأن نذيب التفكير، وأن يسبب أحلى المشاعر، فهذا المكان جدير بأعلى تقدير —تقدير فوق جميع الأماكن المقدسة الأخرى— ذلك أن جميع الأماكن التي أخذنا

إليها، وكانت على اتصال بالرب، وجدناها كلها جديرة بالاحترام، من ذلك الناصرة مثلاً، التي تلقت حلول الرب في جسد مثل أجسادنا، وبيت لحم التي شهدت ولادته، والجمجمة التي أعطته الصلب. هذه الأماكن حقاً تستحق الاحترام، لكن هذا المكان يستحق احتراماً أكثر منها جميعاً، وهو فوقها كلها، ففي هذا الموضع جرى العشاء الرباني الأعظم انقاذاً، فهنا أعطى نفسه ليكون طعاماً، وجسده ليكون لحماً، ودمه ليكون شراباً، حتى يمكن أن يصبح طعاماً سماوياً وأرضيا مع بعضهما، لأنه قال:«إن الذي يأكل جسدي ويشرب دمي يحل بي وأنا أحل به».

وإلى جانب هذه الأسرار التي تستعصي على الوصف، أدرج هنا أضحيات وقرابين نموذجية، وختم الشريعة، وشرع قداساتاً جديدة، وهنا جعل يوحنا يتمدد فوق صدره، كما أكد هنا بأنه عرف بأن يهوذا الذي سيخونه، وأخبر هنا مقدما بطرس بسقوطه، وتنبأ هنا كيف أن حوارييه سوف يتخلون عنه ويفرون، وهنا وعظ بقداس طويل وعظيم الحلاوة، وودع حوارييه الوداع الأخير، تاركاً السلام معهم.

وهكذا بعدما فعلنا كل ماعلينا أن نفعله في ذلك المكان المقدس بشكل صحيح، حيث غنينا تراتيل، وقرأنا ماهو معد للقراءة «في مسيرات الحجاج في الأرض المقدسة» رجعنا إلى حيث كنا ونحن نقدم الحمد والشكر، وهذه المسيرات هي كتيبات صغيرة، فيها محدد جميع القصائد، والمجاميع، وعبارات الترانيم، والتراتيل، والمزامير، أي كل ماينبغي ان يقال أو يغنى في جميع الأماكن المقدسة، وخلال مسيرة أعمال الحج كلها فيما وراء البحار، وحصلت على واحد من هذه الكتيبات لنفسي، واستخدمته في الأماكن المقدسة.

غسل الأقدام الذي عمل هناك

وسرنا من ذلك المكان على شكل رتل قليلاً نحو الجزء الأيمن من

السدة، ونحن نغني تراتيل محددة من أجل يوم العشاء الأخير، ووصلنا إلى المكان المقدس، حيث غسل الرب يسوع أقدام حوارييه بعد العشاء، ويوجد هنا مذبح جميل، حيث حنينا أنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات (++)، وأرجوكم أيها الأحبة الحجاج، ألا تتركوا هذا المكان، من دون تأملات متقدمة، ليست أقل من تأملات أي مكان آخر، وانظروا وتفكروا بأهمية الذي صنع هنا وبمعانيه وآثاره، فابن الرب القدير بسبب ربوبيته الدائمة، والقدير بجمال عقل الأب، ابن الرب الذي أرسى قواعد العالم، وجعله جميلاً لينظر إليه، والذي إليه تقدم السموات والنجوم في مساراتها، الولاء، والذي هو كما قال أيوب هزّ الأرض وأخرجها من مكانها، وجعل بذلك الأعمدة ترتجف، هو انحنى نحو الأسفل، وحط من مكانة جلالته السماوية، ففي هذا المكان غسل بيديه أقدام حوارييه القذرة، والملوثة، والموحلة، مع أن هؤلاء كانوا من سوية متدنية: صيادين للسمك، ومذنبين، وخونة، وفعل ذلك حتى يقدم لنا أفضل مثال وأصحه في التواضع.

المكان الذي أنزلت فيه الروح القدس على الحواريين في يوم عيد الحصاد

بدأ بعد هذا قائد الجوقة المقدسة يغني أمتع أغنية بين أغاني صهيون وهي: Veni,creater,pinitus الخ، ولدى غنائه لهذه الأغنية خرجنا من الكنيسة ودخلنا إلى الدير الموجود فوق الرواق المغلق، لأن السدة والكنيسة قد بنيتا فوق سطح غرف أخرى، ولذلك حتى يصل الانسان إلى الكنيسة، عليه أن يصعد على الدرج من كل جانب، وعندما يخرج الانسان من الكنيسة، يمكنه أن يسير على سطح قوس الرواق أو المعبر المسقوف، حول جهات ثلاث للساحة، لأن للرواق ثلاثة أطراف فقط، فالطرف الرابع هو جدار الكنيسة، وهكذا مررنا خلال الكنيسة، ونزلنا من جهة الشرق إلى جهة الغرب، ففي النهاية الغربية للكنيسة

خرجنا منها من باب موجود على الجهة الجنوبية، ومشيناعلى الجانب الأول للرواق، ثم عطفنا أنفسنا نحو الشمال، فوصلنا إلى رأس السدة، حيث صعدنا فوق بعض الأدراج إلى علية أبوابها مغلقة بالحجارة، لأسباب سوف أذكرها على ورقة٢٩٠ظ.

وهذه العلية موجودة عند رأس السدة، ولأن السدة ليس لها نوافذ تطل نحو الشرق، لوجود هذه العلية بالطريق، هي مضاءة من جهة الجنوب فقط، وذهبنا برتل صاعدين فوق الأدراج المتقدمة الذكر، وانحنينا بأنفسنا نصلي أمام الباب الموصد، فهناك تلقينا غفرانات مطلقة(++)، وغنينا ترتيلة كنا قد بدأنا بها بلحن عذب، تردد صداها فوق جبل صهيون كله ومدينة القدس، لأن المكان لم يكن مغلقاً، وقد وقفنا فوق مكان مرتفع ، في الهواء الطلق، وغنينا بسرور فائض، متذكرين أنه في هذا المكان أمطرت السماء بحضور رب سيناء، وبحضور رب اسرائيل وجرى ارسال مطر النعمة ذاك وإنزاله على ميراث المسيح، لأن الروح القدس نزلت على الحواريين بصوت مندفع، وغيرت عقولهم الشهوانية إلى محبة له، وهكذا، في الوقت الذي ظهرت فيه ألسنة اللهب دنيوية ظاهرة، اشتعلت قلوبهم في الداخل باللهب، بسبب أنهم عندما تلقوا الرب بالشكل المرئي للنار، كانت قلوبهم تشتعل بعذوبة بالحب، لأن المسيح، عندما كان على وشك الصعود نحو الأعلى، طلب من حوارييه عدم مغادرة القدس، وأن عليهم الانتظار هناك وعد الأب، ولهذا قدموا إلى هذه العلية وأقاموا فيها وهي مغلقة عليهم، وذلك بسبب الهياج بين اليهود، وجلسوا هناك معزولين، وميتمين، وجاهلين وغير عارفين، ومرعوبين، وممتلئين خوفاً، لكن عندما نزلت الروح القدس عليهم، جلبت إليهم أعظم المواساة عذوبة، وانصبت في عقولهم الحكمة الأوضح، فأعطتهم الشجاعة الأمتن، وهكذا بالمثابرة بالنفس، وبالثبات في النعمة، تسلموا الحكم على العالم.

ولسوف أصف هذا المكان بشكل أوفى، عندما أصل إلى الحديث عن ضريح داوود.

المكان الذي قام فيه القديس توما وهو مرتاب بلمس جروح الرب

ثم إننا غادرنا هذا المكان، ونزلنا على الأدراج التي كانت قريبة إلى الرواق، وأتينا إلى بيعة القديس توما، حيث نال هذا الرسول نفسه من خلال شكوكه الفائقة المنافع، شرف لمس الندوب المتألقة لجسد المسيح، وعندما سرنا في رتل إلى ذلك المكان غنينا الترنيمة المبهجة:

((Exultet coelum laudibus resaltet terra gaudiis,)) ومجدداً انحنينا بأنفسنا نحو الأرض في هذا المكان، وتلقينا غفرانات مطلقة(++)، وتركز في هذا المكان تأملنا على النعمة الخاصة، التي وصلت إلى القديس توما الرسول، لأن جميع الذين قرأنا عنهم، أنهم كان لهم علاقة بجنب المسيح — ومنهم القديس توما، الذي وضع يده في جنبه، بناء على طلبه — تلقوا علامة خاصة على النعمة، فلوجينيوس العسكري غير المؤمن والمتوحش، الذي — بناء على أوامر بيلايطوس — وقف إلى جانب الصليب، وقام بإدخال رمحه في جنب المخلص، وطعن القلب الأعظم قداسة للمسيح، كان ضعيف النظر، وصدف أن عينيه لامسها الدم الذي جرى على الرمح، وبذلك صار يرى بوضوح، وتلقى النور في كل من جسده وعقله، وتحمل استشهادا مشهوداً، ورأى القديس يوحنا الانجيلي جانبه وشاهد الماء والدم يخرج منه، فآمن وصار شاهداً لأعظم الأسرار سمواً، ورأى القديس توما جانبه ولمسه، وبذلك صار أكثر المؤمنين ثباتاً وذلك بشكل مكشوف، وسمع قولاً هو فائق الطمأنة لنا، حيث قال له ربنا:«لأنك رأيتني ياتوما آمنت، طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يوحنا:٢٠/ ٢٩).

والحواريون الآخرون، الذين أراهم الرب يديه، ورأوا جنبه، تفتحت أعينهم، وبذلك أمكنهم فهم الكتابات المقدسة، وقد امتلأوا ببهجة عصية على الوصف، وعندما كان القديس برنارد يصلي أمام تمثال المصلوب، بدا له أنه رأى المصلوب وقد فك نفسه من الصليب، وانحنى عليه وهو يصلي، وتلقاه وهو مستغرق بصلاته بين ذراعيه، ووضع فمه على جنب المصلوب، ورضع من هناك صحة العقيدة حلواً كالعسل، وانفعل القديس فرانسيس أيضاً بعمق لدى تفكيره حول جراح المسيح، فكان أن أجيز بشكل إعجازي، ورأى على جسده أنه يحمل علامات الرب يسوع، وشربت القديسة كاترين السيناوية من جنبه الأعظم قداسة، فغدت ثملة بأحلى جرعة للقداسة، ذلك أن تلك العذراء التي كانت قرينة للمسيح، كانت مرة ترعى امرأة مريضة، تعاني من قرحة مخيفة وقذرة جداً في صدرها، التي صدر عنها رائحة لاتحتمل، لذلك لم يبق أحد معها، وفي أحد الأيام عندما نزعت الفتاة المقدسة الضماد من على القرحة من أجل تنظيفها وغسلها، صدرت رائحة مخيفة لاتحتمل، حركت معدتها وجعلتها تشعر أنها مريضة تريد أن تتقيأ، وعندما شعرت الفتاة المقدسة بهذا، باتت غاضبة مع جسدها، وحلفت يميناً قائلة:« بحق حياة الأكثر علواً، القرين الأكثر حلاوة لروحي، سوف تضع في معدتك ذلك الشيء الذي تقززت منه»، وقامت على الفور بجمع غسالة القرحة والدم الخارج من ذلك الجرح القذر بوعاء، وذهبت إلى مكان منعزل وابتعلت الجميع، وعندما فعلت ذلك توقف تقززها، وليس فقط أنها لم تعد تشعر بالغثيان، بل تمتعت بسرور لايوصف.

وفي الليلة التالية ظهر لها الرب يسوع، وأراها جروحه الخمسة، التي أصيب بها وهو على الصليب وقال:«لأنك البارحة تغلبت على المشاعر الطبيعية لجسدك، بسبب حرارة حبك لي، وابتلعت الشراب المقرف،

أقول لك: بما أنك بهذا العمل ذهبت أبعد من طبيعتك، لذلك سوف أعطيك شراباً فوق الطبيعة البشرية التي اعتدت على تلقيها، ثم إنه وضع يده اليمنى فوق رقبة الفتاة، وسحبها نحو جراح جنبه وقال:«اشربي جرعتي، اشربي جرعة من جانبي، بها سوف تمتلىء روحك بحلاوة سوف تتدفق بشكل مدهش حتى إلى جسدك»، وقامت هي، وقد رأت نفسها قد وضعت إلى جانب فم نبع الحياة، فوضعت فمها الطبيعي، لابل أكثر: فمها الروحي، على ذلك الجرح الأعظم قداسة، وشربت، ليس لمدة قصيرة، لقد شربت بتشوق، وبكميات كبيرة من ذلك الشراب الاعجازي والعصي على الوصف، وأخيراً أبعدت نفسها عن النبع، وهي ممتلئة، ومع ذلك عطشى، وبدأت منذ ذلك الحين حياة جديدة، وكبرت بالنعمة، وذلك حسبما سنقرأ في حكايتها، في الفصل الرابع من القسم الثاني.

وانظر كم هي عظيمة فضائل جرح المسيح، وسنان الرمح، الذي طعن به جنب المسيح محفوظ في نورمبورغ Nuremburg حيث أنني رأيته وحملته بيدي، وله فضائل عظيمة إلى حد أن آلافاً كثيرة من الناس تتدفق على هناك، في كل سنة، في يوم الجمعة الأول، بعد اليوم الثامن من عيد الفصح، لرؤية قطعة الحديد، وعبادتها، وهي القطعة التي شقت جنبه المقدس، وعلى هذا اقتربوا أيها الأحبة الحجاج، والمسوا بقلوبكم جراحه، مثل القديس توما، وصلوا للرسول المقدس حتى يقبلكم للتعايش معه، ويقوم في هذه البيعة مذبح جميل، غالباً ماقرأت فيه ساعاتي الشرعية، عندما كنت أعيش في القدس.

المكان الذي اقتاد إليه ربنا حوارييه حتى يتمكن من التحادث معهم على انفراد وقال: قوموا دعونا نذهب من هنا

بعدما أنهينا قداس المسيرة في هذه البيعة، تحلقنا حول الممر الأسفل للرواق،وذلك حول ثلاثة جوانب منه، وانتقلنا إلى بيعة أخرى، مقدسة

كثيراً، ومظلمة جداً، وهي مخفية تحت الكنيسة نفسها، ومن المعتقد أن هذه البيعة هي المكان المنعزل، الذي إليه اقتاد الرب يسوع حوارييه، عندما قال:«قوموا، دعونا نذهب من هنا»، وذلك حسبما نقرأ في الاصحاح الرابع عشر من انجيل يوحنا، ولقد حدثنا الحكماء المتعلمين من أمثال القديس توماس (الأكوني Aqainas)، وألبرتوس ماغنوس، وهوغو، ودي ليرا، أنه بعد العشاء، وبعدما اغتسل الحواريون، وبعدما تلقوا القربان، أخذ الرب يتحدث إليهم، وهم جلوس في المكان الذي تعشوا فيه، وأخبرهم بشكل مكشوف أنه سيتعرض للخيانة، وأنه بعد وقت قصير لن يرونه بعد ذلك، وعندها أصبح الرسل مرعوبين، واضطربوا لدى سماعهم لكلماته، وتوجهوا بأبصارهم بشكل مستمر نحو باب علية العشاء الأخير، خشية وتوجساً من أن الناس سوف يأتون ويأخذون معلمهم من بينهم، ولذلك أولوا قليلاً من الاهتمام لكلماته، ولأنه رغب في أن يتابع الحديث إليهم بشدة أكبر، من أجل أن يصغوا إليه بعناية أكبر، وأن يكونوا أقل خوفاً، قال لهم:«قوموا، دعونا نذهب من هنا»، وبناء عليه نزلوا من غرفة العلية، إلى الغرفة القائمة تحتها، حيث أنهى قداسه، وصلاته الأكثر تقوى، التي هي موجودة في الاصحاح السابع عشر، وفي الاصحاحين اللذين يليانه من انجيل القديس يوحنا، ونحن نعتقد أن هذه الصلاة هي التي قدمها المسيح في هذا المكان، ولذلك صعدنا إلى المذبح، وتوسلنا إلى ربنا يسوع أن يجعلنا نلتحق به في صلاته هذه الفائقة التقوى، التي قدمها هناك، ولقد تلقينا غفراناً(+).

ويوجد في هذه القاعة المقدسة جزء من العمود الذي جلد المسيح عنده، حيث هو مربوط إلى الجدار بقضبان حديدية، ومع ذلك من الممكن لمسه بالأصابع، ويوجد إلى جانبه فرش للضيوف، نمت عليها أثناء حجي الأول، وهناك أيضاً قلاية لراهب من طائفة السسترشيان،

وللراهب جون الذي يمنح النـاس شارة الفروسيـة في الضريح المقدس، والذي يشغل أيضـاً وظيفـة متعهـد المؤن للـرهبـان، وصعـدنا من ذلك المكان على درج حجـري إلى الكنيسة، وبذلك أنهينا مسيرتنا، فهـذه هي الأماكن المقدسة التي موجودة في أفنية الدير، وفي الخارج هناك كثيراً من المزيد من الأماكن المقدسة، كما سنرى فيمايلي.

الغداء الذي قدمه رهبان جبل صهيون إلى الحجاج

بعـدمـا أنهينا مسيرتنا التي استغـرقت حتى حـوالي منتصف النهـار، وعندما كان الحجـاج على وشك النزول إلى المشفى، قدم الأب المسؤول والراهب يوحنا الخازن، ووجهـا الدعـوة إلى جميع الحجـاج إلى الغـداء، وقـد نصبـوا مناضـد، وألواحـاً طويلة من أجلنا في حـديقـة الدير، لأن عددنا كـان كبيراً، وكان المكان ضيقـاً، ومدوا فـوق السطح قطعة قماش غطت طول السطح كله، لتكون بمثابة مظلة من حـرارة الشمس، وكان الموضوع الذي طرزت به هذه القطعـة هو نزول الروح القدس، وهكذا جلسنا إلى المائـدة باستثناء بعض النبـلاء الذين، قـرروا القيـام بخـدمـة الموائـد، وذلك صـدوراً عن التواضع، وحينما كنا جميعـاً جـالسين، وكنا نأكل بطريقـة نظامية، جاء رجـل كان مرتديا لملابـس وضيعة، أنا لم أره من قبل بين صفـوف الحجـاج، وقـد وقف في وسطنـا ونحن نتناول الطعـام، ووعظنا بلغة لاتينيـة كـانت غنية وفصيحـة وجميلة الأداء، إلى حـد أننا تـوجهنا جميعـاً بأبصـارنـا إليـه، حتى الذين لم يفهمـوه كـانوا مندهشين تجاه تدفقـه ولغته الممتعـة، وكـان موضـوع قـداسة في ميـدان تمجيـد الأماكـن المقدسـة، وفي اطراء الحج ومـدحه، وبعـدمـا أنهى هذا الواعظ كـلامـه، أخذ مكانه اللورد جـون، بارون سيجيرن، الذي كـان رجلاً حكيماً وفصيحاً، وكـان واحداً ممن تولوا خدمة المائـدة، وقد ألقى —بناء على إلحاح الأب المسـؤول— كلمة بالألمانيـة، شكر بها، باسمـه، السـادة الحجـاج من اللوردات لجلوسهـم إلى مـائـدة الرهبـان الفقـراء،

ورجاهم أن يكـونوا راضيين بطعامهم وشرابهم، وإذا مـا أراد أي واحد منهم أن يسـدد للرهبـان ويعوضهم على لطفهـم، وأن يظهر شفقـة على فقـرهم، يمكنه التحـادث حـول هذا الموضـوع مع الراهـب يوحنا البروسي، خازن الدير، الذي سوف يجدونه واقفاً في الرواق، لأن الأب المسـؤول لن يسمح مطلقـاً بجمـع أية تبرعـات على المائـدة، كما أنه لم يرغب باعلامهم أن الراهب يوحنا سوف يتسلم مالاً باسم الرهبان، بل ان النبـلاء فعلوا ذلك صـدوراً عن رغبتهم، وعندمـا انتهى الغـداء، وتغدينا جميعـاً بشكل جيد، ذهبنا إلى الراهب يوحنا، وقدمنا مسـاعدات لها قيمتهـا إلى الدير، فبعضهم دفـع ست دوقيـات، وبعضهم خمس، وبعضهم أربع، وبعضهم ثلاث، وبعضهم دوقيتـان، وأصغـر مبلغ دفع من قبل أي انسان كان هو دوقية واحدة.

زيارة إلى الأماكن المقدسة على جبل صهيون من دون أحواز الدير

وعندمـا فرغنا من جميع الذي وصفناه، ذهبنا نحن الحجـاج إلى الأب المسؤول ورجوناه أن يتفضل فيعين واحـداً من الرهبان لأن يكون دليلنا إلى الأمـاكن المقدسـة المتبقيـة فوق جبل صهيـون، وذلك خـارج الدير، ولبى طلبنا الأب المسـؤول، ودهش تجاه غيرة الحجـاج الكبيرة، فبعـد المتاعب التي عـانوا منها، مـابرحوا يرغبون في تحمـل المزيد من الجهود، وفي الحقيقة مـامن أحد عليـه أن يفكر أن زيارة الأمـاكن المقدسـة مهمة سهلة، فقـد كانت هناك حـرارة هائلة صـادرة عن الشمس، والسير من مكان إلى مكان، والجثـو على الركـب، والتمدد على الأرض، وفـوق كل شيء، كانت هناك، الضغوط التي يضعهـا كل انسان على نفسه في نضاله بكل طاقاته بأن يرقى بنفسه إلى التقـوى السليمة، وتفهم واستيعاب كل مـارآه في الأماكن المقـدسـة،ولأن يحقق صلاة خـاشعـة، وتأملاً عميقـاً، وهذا كله لايمكن القيـام به مـن دون بذل جهـود كبيرة، ذلك أنه حتى

يقوم بهم الانسان بشكل لائق، عليه أن يكون مرتاحاً، وليس هائماً على وجهه، ذلك أنه تناضل خلف العوائق العقلية، وأنت تتنقل جسدياً من مكان إلى مكان، عمل مرهق إلى أبعد الحدود، فبعض حجاجنا لم يستطيعوا القيام بذلك، ونزلوا إلى المشفى للراحة، ولذلك أقل من نصفهم هم الذين تابعوا واستمروا في عمل الحجاج.

وكان الأب المسؤول قد أعطانا عدداً من الرهبان بمثابة أدلاء لنا، معهم انطلقنا في طريقنا من حديقة الرهبان الداخلية، حيث كنا قد تناولنا طعام الغداء، وعندما خرجنا من الحديقة إلى الرواق، وصلنا أمام قاعة الطعام والمطبخ، إلى بركة ماء عميقة، كانت أبرد من أي ماء آخر في القدس، ويحكى بأن الماء قد نضح من هذه البركة من قبل حواريي المسيح، من أجل العشاء الرباني، أي من أجل مزج الخمرة أثناء أداء القداس، ومن أجل غسل أيديهم وأقدامهم، ومن أجل الاستخدامات الأخرى أثناء العشاء، وصدوراً عن الاحترام للحقائق المتقدم ذكرها نضحنا بعضاً من هذا الماء وشربناه بتقوى، وصرت من ذلك الوقت غالباً ماأشرب منه كميات كبيرة، أثناء شدة الحرارة وقسوتها، ولم يلحقني ضرر من ذلك، وأعتقد أن هذا واحداً من آبار الخلاص الذين ورد الحديث عنهم في الاصحاح الثاني عشر من سفر اشعيا، وهو قوله:« فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص»، وقال في فقرة تالية:«صوتي واهتفي ياساكنة صهيون».

ومضينا من هذا النبع من خلال الممر المسقوف إلى باب الدير، الذي أخذ بنا إلى طريق عام، وهذا الباب صغير ومنخفض، ومدخل ضيق منحدر، لايمكن لانسان أن يعبره من دون أن يطأطىء رأسه، ويحني ظهره، والباب حديدي قوي، وهو عندما يغلق يشد بسلاسل وبمزاليج حديدية، لأنه يخشى أثناء غضب المسلمين خلال الاضطرابات المفاجئة من اقتحام الدير ونهبه، وهو ما فعلوه في احدى المرات، ومن الممكن

رؤية آثار ذلك في المهجع قرب الحديقة والمكتبة، حيث كان هناك فيما مضى قلايات جميلة بنيت بسقوف مقنطرة، فقد قاموا بتدميرها وبتهبيط قناطرها، ولم يسمحوا لهم حتى هذا اليوم بإعادة عمارتها كما كانت من قبل، ذلك أنه من السهل جداً إثارتهم وتحريكهم لمهاجمة المسيحيين، وأن يثوروا بغضب ضدهم، ولهذا يغلق الرهبان على أنفسهم بشدة، خشية من أن يثور المسلمون ويكون هناك هياج فيتمكنوا من إلحاق بعض الأضرار بهم، ومثل هذا قام المسيحيون الشرقيون بحماية بيوتهم وإغلاقها بأبواب حديدية، وذلك للأسباب نفسها.

موضع اعتكاف العذراء مريم المباركة

وخرجنا من الدير من خلال ذلك الباب، برفقة الرهبان، إنما من دون أبهة، مسيرة مهيبة، وبدون غناء، وكان أول مكان قدمنا إليه درج حجري، صعدنا عليه إلى الكنيسة في الأعلى، وتمددنا على هذا الدرج بأنفسنا، في دعاء وتعبد للقربان المقدس والأماكن المقدسة في الداخل هناك، ثم نهضنا ومضنا إلى الزاوية الخارجية للكنيسة، حيث يوجد الموضع الذي كان فيه معتكف العذراء، مريم، ولذلك انحنينا بأنفسنا في ذلك المكان نحو الأرض، وصلينا، وتلقينا غفرانات(+)، وهناك خطر ببالنا وفكرنا كيف أن مريم العذراء المباركة، قد اعتادت في هذا المكان وفي أماكن أخرى على تقديم صلواتها المتواصلة والمتقبلة كثيراً للتشفع لدى الرب من أجلنا، وفي الحقيقة سوف تظل تقدمهم حتى نهاية الزمان، الأمر الذي هناك حاجة مستمرة لأن تفعله، لأنه مثلما هناك حاجة لأشعة الشمس على الأرض حتى تجعلها خصبة، هناك مثل ذلك حاجة لصلوات مريم من أجلنا نحن الأشقياء المذنبين، وحول هذا قال القديس برنارد:«إذا ما أبعدت الشمس التي تضيء الدنيا، أين يمكن أن يكون هناك نهار؟ وأبعد مريم —نجم البحر— مالذي سوف يبقى في المسكونة، غير احتضان الجميع للاكتئاب، والظلام الدامس، وظلال

الموت»؟.

موضع دفن داوود وسلميان والملوك الآخرين ليهوذا والقدس

وغادرنا الآن موضع اعتكاف العذراء المباركة، الذي هو موجود —كماقلت— عند زاوية تلك الكنيسة، وذلك حيث يتصل جدار الكنيسة القادم من الشرق بالجدار القادم من الجنوب، وصعدنا من تلك الزاوية وسرنا على طول الجدار الذي يقود نحو الشرق، وصرنا فوق جدار آخر منخفض، يقود من جدار الكنيسة إلى فناء مربع الشكل هو ساحة صغيرة، وتسلقنا في هذه الساحة فوق الجدار، وعندما صرنا فوق، وجدنا باباً صغيراً في جدار الكينسة، وهو محاط بالحديد، ومغلق بعناية فائقة، وعلى هذا لم يكن بإمكاننا المرور من خلاله، لابل حتى وإن استطعنا أن نمر من خلاله، من المؤكد أننا لن نتجرأ على فعل ذلك، لأن الموضع مسجد اسلامي، وهذا مكان عظيم القداسة مبجل من قبل جميع المسيحيين واليهود، والمسلمين كذلك، لأن فيه موضع دفن الأنبياء، والأنبياء القديسين، مثل داوود، وسليمان، ورحبعام، وأبيا Abia، وآسا Asa، ويورام Joram ، والبقية، الذين وردت أسماؤهم في سفر أنساب يسوع المسيح، في الاصحاح الأول من انجيل القديس متى، وغالباً ما ورد ذكر هذا الموضع في أسفار الملوك وأخبار الأيام، كلما جرى استخدام عبارة:«وقد دفن في ضريح آبائه في مدينة داوود»، ودفن هؤلاء الملوك في هذا المكان وسط احتفال عظيم جداً، وحدثنا يوسفيوس، في الكتاب السابع من التاريخ القديم— الفصل السادس عشر— وكذلك مصنف كتاب «Scholastica Historia »، عن وفاة داوود، أنه عندما مات، وضع ابنه سليمان جسد والده في تابوت ثمين جداً، لم يصنع من الحجر أو من الخشب، بل عمله صاغة الذهب، من الذهب المحلى بالأحجار الكريمة، ودفن إلى جانبه كنز لايمكن تقدير قيمته من الذهب والفضة، وعندما توفي سليمان، دفنه ابنه رحبعام، ومعه كنز

عظيم إلى جانب تابوت داوود، وكان سليمان قد بنى مكان الضريح وفق فن حسابي بحيث لايستطيع انسان الوصول إلى هذين التابوتين.

وبعد مضي ألف وثلاثمائة سنة على وفاة سليمان، وفي أثناء وقوع القدس تحت حصار أنطيخوس ابن ديمتريوس، كان هيركانوس الكاهن الأعلى للمدينة المقدسة، وقد وجد نفسه غير قادر على تحمل استمرار الحصار مدة أطول، أو دفع العدو، وصده، وعد أنطيخوس بالمال إذا ما انصرف، ولم يجد وقتها مايكفي من مال في خزانة الهيكل، ولم يكن لدى سكان القدس الفقراء المال، فمضى —لذلك— هذا الكاهن الأعلى، وصعد إلى جبل صهيون، وفتح هذا المكان الذي تحدثت عنه، وأخذ من هناك ثلاثة آلاف قنطار من الذهب، وبهذا المبلغ أقام السلام مع أنطيخوس.

وثانية بعد مرور سنوات كثيرة، وجد هيرود نفسه بحاجة إلى المال، وسمع بأن هيركانوس قد وجد مالاً هناك، فجاء بشكل سري إلى ذلك المكان، وفعل ذلك أثناء الليل ومعه أصدقائه المعتمدين، فلم يجد هناك نقوداً مضروبة، بل استخرج بعض الكؤوس الذهبية والفضية، ودفعه هذا إلى الحفر أعمق، حتى وصل إلى جرتي حفظ جسدي داوود وسليمان وإلى تابوتيهما، وفي أثناء الحفر احترق اثنان من خدمه وتحولا إلى رماد، وكان ذلك بوساطة اللهب الذي اندفع من الأجزاء الداخلية للمكان، وعندما رأى الملك هذا، هرب مع الآخرين، ولكي يصلح ماعمله ويكفر عما اقترفه، بنى ضريحا عظيماً جدا من الحجر الأبيض.

وفيما مضى،، عدّ رهبان دير جبل صهيون هذا المكان بين ممتلكات ديرهم، وهو في الحقيقة جزء من كنيسة جبل صهيون، لأنه موجود بين الجدران نفسها، عند رأس السدة، وقد انتزع السلطان هذا المكان من الرهبان للسبب التالي: فقد توسل اليهود مراراً إلى السلطان لكي يعطيهم هذا المكان، حتى يتخذوا منه مكاناً للزيارة وللاعتكاف،

ومابرحـوا يترجونه حتى هذا اليوم، ورفض المسيحيون باستمرار الاستجابة لهم، وأخيراً سأل السلطان عن أسباب قداسة ذلك المكان، وعندما أخبروه بأن داوود وملوك القدس الآخرين من سلالته مدفونين هناك قـال:«نحن المسلمون أيضـاً نعـدّ داوود مقـدسـاً، مثلما يفعل المسيحيون واليهود ونحن نؤمن بالتوراة كما يفعلون، ولذلك لن يمتلك لا اليهـود ولا النصارى هذا المكان، بل سنتخذه نحن لأنفسنا»، وبناء عليه قـدم إلى القدس، وأغلق الباب الذي كان الانسان يدخل عبره إلى تلك البيعة من داخل الدير، وألغى البيعة، وأزال مذابح المسيح، وحطم التماثيل المنحوتة، وطمس الصور، وجعـل المكان مناسباً لعبادة(١) (إله) محمـد (صلى الله عليه وسلـم)، وعمل بابا في الخارج، يمكن للمسلمين الدخول منه عندما يرغبون.

ولأن المكان الذي كـان فـوق البيعـة، أي فوق سقفهـا المقنطر، كـان ملكاً للمسيحيين والرهبان، وكـان يوجد فيـه بيعة باهظة النفقـات، كان قـد أسسها هناك ملـك فرنسـا، أسسهـا في المكان الذي تحدثنا عنه وقلنا بأن الروح القدس نزلت هناك على الحواريين في يوم عيد الحصاد، لذلك أمـر السلطان أيضـاً بهدم هذه البيعـة أيضـاً، وبإزالة القناطر، وباغـلاق بابها، حتى لايتمكن المسيحيـون من السير فـوق السقف المقنطر العـائـد للمسجد، وهكذا فقـد الرهبان هذين المكانين المقـدسين الثمينين، وجاء ذلك من خـلال تشوق اليهود لامتـلاك المكان المنخفض، الذي توسلوا من أجله إلى السلطان، ومـازالوا يتوسلون له حتى هذا اليـوم، ووعدوه يعطوه آلاف قناطير كثيرة من الفضـة مقـابـل ذلك، هذا وهم لايفعلون هذا لمجرد احترامهم لقبور الملوك القديسين، ولالقداسة المكان، بل انهم يأملـون بشق طريقهم إلى تـوابيت الملوك، والعثـور على الكنوز، لأنهم يعتقـدون بأن هذه الكنوز مخزونة هنـاك، وأنه من المقـدر أن تكون لهم،

١ — استخدم الرحالة عبارة نابية جداً، أبدلتها بها بين الحاصرتين.

ولذلك غـالبـاً ماتجدهم ذاهبين إلى هنـاك، ويقومـون بالصـلاة في أثناء الليل، ويمارسون أحياناً هناك أعمال السحر وفنونه.

وتشوقت كثيراً لرؤية القسم الداخلي من ذلك المكان، ولم يخب أملي، حيث كان المسلم الحافظ للمسجد يحاول في أحد الأيام فتح الباب، وقد أغلقـه بسرعـة، وعطل القفل بالمفتـاح، ولذلك لم يحرك المفتـاح المزلاج الحديدي، ولذلك غادر تاركـاً المسجد مفتوحاً، وقد بقـي مفتوحاً طوال المدة التي بقيت فيها بالقدس، ودخلت إلى المسجـد أكثر من عشر مرات ونظرت إلى مــافيـه، مع أنني كنت دومـاً أدخل وأخـرج وأنا خــائف أرتجف، لأنه لـو رآني أي مسلم هنـاك، لسبب ذلـك لي أذى عظيماً، هذا إذا نجوت من خطر الموت، وهذه البيعة بيعة طويلة، ولها سقف مقنطر، ولها نافـذتين على جهتها اليسرى، وفيهـا ضريح من الرخـام في جانبهـا الشمالي، والأرضيـــة المبلطة مغطاة بحصر، ومعلـق فيــه مصبـــاحين، ولايوجد فيـه مذبح، ولارسوم، ولاأعمال محفورة ومنحـوته، بل جدران عـارية مطليـة باللون الأبيـض، فهكذا جميع مسـاجـد المسلمين فـارغـة وخاوية.

وأثارت الحكاية المتقدمة شكاً في عقلي، حول لماذا سمح هؤلاء الملوك القديسين بدفـن كنوز معهم، لأن هذه ممارسات كـافرة ولاعقـلانية، ثم كيف كان سليمان قـادراً على اخفاء هذه التـوابيت بفن لايستطيع انسان حياله العثور عليهم؟ وجـواباً للسؤال الأول أقول، بأننا ينبغي أن نؤمن بشكل يقيني بأن هؤلاء الرجال لم يفعلوا شيئاً صدوراً عن أوهام عبثية، أو حباً بالثـروات الدنيوية، أو اقترافـاً لآثام التفاخـر، بل إنهم دفعوا من قبل الروح القـدس، من أجل أنه عنـدمـا يحين الوقت، يمكن أن تكون الكنوز نافعـة لاستخدام الناس بشكـل عام، ولاأن تدار وتستخـدم من قبل الشراهة المقيتة لليهـود، أما بالنسبـة للسؤال الثـاني، لابد من أن أقرّ بأن يوسفيوس أخبرنا بأن سليمان أخفى هذه القبور بفنون سحرية، لكن

مـؤلف كتـاب « Historia scholastica » قـد دفع هذه التهمـة عنه، وأعلن أنه أخفاهم ببراعة أصيلة.

وبشأن قبر داوود، انظر مـــاقـــاله القـــديس بطرس الـرســـول، في الاصحـاح الثـاني من أعمالـه:«أيها الرجـال الإخوة يسـوغ أن يقـال لكم جهـــاراً عن رئيس الآباء داوود إنه مـات ودفن وقبره عندنـا حتى هذا اليوم»، (أعمال:٢/ ٢٩)، ويبرهن هذا، أن هذا المكـان كان معروفـاً تماماً في أيام الرسل، واعتقد جيروم بأن داوود قد قام مع ربنا، وأسس حجته على ماقاله القديس بطرس، بأن قبر داوود كان مرئياً بوضوح، مع أنه لم يتجرأ على القول بأن داوود كان مايزال موجوداً فيه. ولقد تحدثنا بما فيه الكفـاية عن هذه القضـايا ومـايماثلهـا في هذا المكان، ثم قـرأنا صلواتنا بتعبـد ذلك أن جميع علامـات صلوات مسيرة الأرض المقـدسة جـديرة بالقراءة هناك، وتلقينا غفرانات(+).

خيمة عهد داوود حيث المكان الذي وعظ فيه الرب يسوع وحيث أصغت العذراء المباركة

وبسرعـة تركنا تلك السـاحـة الصغيرة، ودخلنا إلى السـدة القـديمـة لكنيسـة جبل صهيـون، التي كـانت مهـدمـة بشكل كلي، باستثناء الجزء الشرقي منها، حيث مايزال قسم من الجدار قائماً مع قنطرة مهدمة معلقة فـوقـه، والمكان الذي بنيت فـوقه هذه السـدة، هو واحـد من الأمـاكن الجديرة بالنظر إليهـا باحترام من قبـل كل من يؤمن بالكتـاب المقـدس، ويقـدم اليهود احترامـاً خـاصاً لهذا المكان، لأنهم يعتقـدون —كما نحن نعتقـد— بأنه قام هنا مكان اعتكاف داوود أو خيمـة عهده، التي إليهـا جلب مع جميـع بني اسرائيل تابـوه الرب بصحبـة الأغـــاني والآلات الموسيقيـة، والسرور العظيم، حسبما قـرأنـا في الاصحـاح السـادس من السفر الثـاني لصموئيل، وفي هذا المكان كذلـك تسلم الوعد بأن المسيح ينبغي أن يلد من سـلالته، حسبما ورد مكتـوباً في الاصحاح السـابع من

السفر الثاني لصموئيل، وظل هذا المكان حتى بعد بناء الهيكل، يتردد الناس عليه بكثرة ويحبونه، ولذلك غالباً ماااعتاد الرب يسوع على الوعظ فيه هناك.

وتخليداً لذكرى ذلك أقيمت حجرتان مقابل بعضهما في وسط الأرضية المبلطة، والحجرة الأولى قائمة في المكان الذي وقف فيه ربنا ووعظ، ووضعت الثانية فوق المكان الذي اعتادت العذراء المباركة أن تصغي فيه لوعظ ابنها، ولقد قبلنا هذه الأماكن مع الحجرتين، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وتلقينا غفرانات(+)، ووقفنا في هذا المكان لبعض الوقت، وبكينا على الخرائب، ونظرنا بأسف من حولنا نحو الحجارة المبعثرة العائدة للمعبد، فقد قام هنا فيما مضى كنيسة عظيمة جداً، لم يبق منها شيئاً سوى الجزء الذي اتصل فيما مضى بتلك الكنيسة العظيمة على جهة الطرف اليمين، وهذا الجزء هو في هذه الأيام سدة وكنيسة الرهبان، حسبما قلت من قبل، ومايزال رأس السدة موجوداً أيضاً، مع النافذة الشرقية، ومعها نصف قنطرتها المهدمة والتي هي مهددة بالسقوط، ويوجد فوق داخل هذه الكنيسة طريق للصعود فوق بعض الدرجات، وذلك من المكان الذي أنزلت إليه الروح القدس، إلى قمة قطعة تلك القنطرة المهدمة، وصعدت فوق تلك الدرجات ووجدت فوق القنطرة المهدمة، أرضية معمولة من الرخام المصقول من مختلف الألوان، وبناء عليه إنني أفترض أنه كان هنا فيما مضى كنيسة أخرى فوق بالأعلى، على ظهر الكنيسة والسدة، وبناء عليه لابد أن كنيسة جبل صهيون قد امتلكت ثلاثة طوابق مكرسة، أي ان تقول: قبو تحت الأرض، ثم الكنيسة التي بنيت فوق الأرض، وقاعة علية أخرى كانت مزينة، فوق الكنيسة، وفي السدة القديمة مايزال المذبح العالي موجوداً، لكنه مهدم.

وذهبنا بعد ذلك نحو الطرف اليساري من السدة القديمة، حتى

نتمكن من الذهاب لزيارة أماكن مقدسة أخرى، ووجدنا هناك بعض المسيحيين الشرقيين جالسين إلى جانب حجرة مربعة، جزء منها مرتفع فوق أساس السدة القديمة، وجزء مايزال متصلاً بالجدار القديم، وعلى تلك الحجرة كان هؤلاء الشرقيين يمارسون أعمال الكهانة بوساطة أربعة أحجار صغار، وكأنهن حبات النرد، وفي الحقيقية افترضت بالبداية أنهم كانوا يلعبون بالنرد، وتعجبت من جلوسهم هناك في مكان عام، حيث لايوجد بيت للسكن، ذلك أنني لم أعرف بأن هذه الحجرة وحدها قد استخدمت من أجل كهاناتهم الواهمة، وكانوا يلتقطون أربعة أحجار صغار من الأرض، ويقوم الذي يريد رميهن بهزهن في داخل يده، مثلما يهز لاعب النرد، أحجار النرد في يده قبل أن يلقي بهن، ثم يقوم بإلقائهن فوق الحجرة المربعة، وبوساطة الشكل الذي ترسمه هذه الأحجار إثر سقوطها، يتنبؤون بالذي يودون معرفته، من ذلك على سبيل المثال، إذا شكل سقوط الأحجار خطاً مستقيماً، فهم يعتقدون بأن المسألة سوف تسير وفق الطريق الأول، لكن إذا سقطوا وفق خط متعرج، ستسير المسألة وفق طريق آخر، وإذا ماشكلت مربعاً، أوصليباً، ستسير وفق طريق آخر، وإذا كان دائرة، أيضاً وفق طريق آخر، وهكذا دواليك بالنسبة للأشكال الأخرى.

وشكل الصليب هو الشكل الرئيسي في هذه اللعبة، والأقرب إليه هو الشكل الذي يؤدي إليه ويقدر الحظ الأعظم به، وتقدر بقية الأشكال بمدى مشابهتها له، ووقفنا وضحكنا على حماقات هؤلاء الناس، لكنهم كانوا جادين تماماً،، ركزوا انتباههم على كهانتهم، وكذلك تطلعاتهم نحو المستقبل.

ورأيت في بعض الأحيان أساقفة وكهنة من الكنيسة الشرقية، من ذوي الجدية والاحترام، رأيتهم جالسين هناك يلعبون ويتكهنون، وهم لايلعبون من أجل الربح، بل لمجرد أوهام الكهانة، الأمر الذي امتلأ به

الشرقيون، والحجرة كانت في ذاتها خشنة وغير مصقولة، غير أنها غدت مصقولة جداً من جهة وجهها بسبب ممارسة الكهانة المستمرة عليها، لذلك بدت وكأنها تتعرض للصقل والتلميع بشكل متواصل.

مكان المطبخ الذي فيه جرى شواء خروف الفصح مع تسخين الماء من أجل العشاء الرباني

وبعدما رأينا هذه الأشياء، انصرفنا من المكان الذي فيه الحجرة، وجئنا إلى المكان الذي افترض الناس أنه فيه قام المطبخ، حيث أعدّ الحواريون في داخله شؤون احتفال عيد الفصح، بشواء خروف الفصح، وبتقطيع الخس البري، وبتسخين الماء من أجل غسل الأقدام، وتنظيف الأوعية والصحون واشعال نار من أجل احراق بقايا خروف الفصح، من جلد وعظام، وأجزاء أخرى، لايمكن أكلها، وهذا المكان ليس خلواً من القداسة، أو تغذية، لأن الطباخين في ذلك المطبخ كانوا رجالاً مقدسين، والطعام الذي طهي هناك كان طعاماً مقدساً، ولقد علمنا من خلال الاصحاح الثاني والعشرين من انجيل القديس لوقا بأن بطرس ويوحنا، أكثر حواريي المسيح محبة وقداسة، كانا الطباخين اللذان جهزا عشاء الفصح في هذا المطبخ.

علاوة على ذلك، كان خروف الفصح الذي شوي هناك مقدساً، ذلك أنه نموذج ذلك الحمل الحقيقي الذي تألم على الصليب، وكذلك كان الماء مقدساً، أي الذي جرى تسخينه هناك، واستخدامه من قبل الرب يسوع لغسل أقدام حوارييه، ومع أن الانجيليين لم يقولوا شيئاً حول تسخين الماء، من المرجح —كما هو لائق— أن الغسل لم يكن إلا بماء ساخن، لأن الماء الساخن يزيل الأوساخ أكثر من الماء البارد، وينعش الأقدام والأرجل ويقويها، ويري استخدام الماء الساخن ويعبر عن التقوى والمحبة التي توفرت عند الذي استخدمه، لأنه ليس برهاناً

كبيراً على الصداقة استخدام الماء البارد، في غسل قدمي الانسان، مثلما ليس دليلاً على وجود العاطفة الكبيرة تقديم ماء ساخن أو دافىء للشرب، فالانسان الذي يقدم كأساً من الماء البارد لن يخسر أجره أبداً، وذلك حسبما جاء في الاصحاح العاشر من إنجيل القديس متى، هذا ومثلما الماء البارد مرغوب به من قبل الانسان العطشان ليشربه، مثلما هذا، الماء الساخن مبهج بالنسبة للانسان المتعب لغسل قدميه به معا.

ولايمكننا أن نفترض أن المسيح قد ترك أية علامات عن الحب الكامل، حيث أنه في أثناء العشاء لم يعط حوارييه كأساً من الماء البارد، مع أن هذه علامة على الحب، ولها ثوابها، وذلك حسبما قلنا للتو، بل أعطاهم ماعبر عن حب أكثر وفرة، وهو كأس امتلأ بخمرة مزجت باعتدال بماء بارد، وكذلك عندما غسل أقدامهم، لم يفعل ذلك بماء بارد، مع أن ذلك كان يعبر عن حبه، لكنه غسلهم بماء ساخن، وهو علامة على حب أكثر وفرة، وبالمناسبة لم يكن الماء ماء ساخنا صرفاً، بل ماء كان يحتوي على حشائش عطرية مع جذور قوية الرائحة، مزجت بعطور منعشة، مع مياه مقطرة، لاظهار عاطفته الكاملة.

ونحن نعرف بأن المسيح وجه اللوم إلى الفريسيين، لعدم إعطائه ماء لغسل قدميه، ومدح المجدلية لأنها غسلت قدميه بالعطور والدموع الدافئة، هذا ولقد أحب المسيح حوارييه، أكثر مما أحبت المجدلية المسيح، لذلك كان لابدّ له من غسل أقدامهم بماء جيد، دافىء بشكل مرغوب، وممزوج بعطور ثمينة منعشة.

وهكذا وقفنا فوق المكان الذي كان فيه المطبخ المقدس، والذي مايزال قائماً فيه حتى الآن جدار قديم ومرتفع، توجد فيه قناة متجهة نحو الأعلى، وكأنه قصد منها رفع الدخان من النار، وجثونا هنا على ركبنا، وقرأنا الصلوات المناسبة، وتلقينا غفرانات(+).

مكان دفن القديس اسطفان بعد العثور على جسده

وغـادرنا المطبخ المتقـدم الذكـر، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى المكان الذي دفن فيه القديس اسطفان للمـرة الثانية، وذلك مع الآخرين الذين عثر عليهم في حقل جالبار Galabar(كذا) الذي لاأفترض أنه كان بعيداً عن عناتا، التي هي قرية قائمة فوق المكان الذي رجم فيه القديس اسطفـان، وذلك على جهـة اليسـار، وكـان هـذا حقل جماعليل، الذي سحب جسـد القـديس اسطفـان من تحت الحجـارة، وأخـذه إلى حقله، حيث دفن فيه هو نفسه، وابنه أبيبوس Abybos ، ونيقوديموس فيما بعـد، ومع مرور الأيام نسي أمـرهم، وحـدث فيما بعد، أنه كـانت هناك مجاعـة قاسيـة، بسبب الجفاف، لأنها لم تمطر على الأرض لأشهـر كثيرة، ولقد كشف إلى رجل مقدس اسمه لوكيوس Lucius بأن الرب لن يكون محسنا إلى البـلاد، مـادامت هذه الآثار متروكـة من دون تشريف، وعندما كشف له الحقل الذي رقـدوا فيه بشكل اعجازي، وبعـدما رآه، أخبر بذلك القـديس يوحنا، أسقف القدس، الذي جـاء إلى ذلك الحقل في مسيرة مهيبة، وعندمـا حفروا هناك، وجدوا جسد القـديس أسطفان وأجساد الرجـال الآخرين الذين دفنوا معـه، فحملوهم إلى كنيسة جبل صهيون المقدسة، ودفنوهم هناك للمـرة الثانية مع كل التشريف، وسقط في الساعة نفسها كثير من المطر، وأعطت الأرض ثمارها كما كان الوضع من قبل، وحدثت بعد ذلك معجزات كثيرة في تلك البقعة.

وحدث فيما بعـد أن واحداً من نبـلاء القسطنطينية، وكان رجـلاً تقيا يعتقد بالقـديس اسطفان، قدم إلى هاهنـا عبر البحر مع زوجته جـوليانا Joliana، واتخذ لنفسه بيتـاً على جبل صهيـون، مات فيـه بعد مضي سبع سنوات، وعملـت زوجتـه تابـوتاً له على غـرار تابوت القـديس اسطفان، ووضعته إلى جانب جسد القديس اسطفان، وبعد مضي بعض الوقت بعـد ذلـك رغبت جـوليـانا بالعـودة إلى القسطنطينيـة، فسألت

أسقف القـدس أن يعيد إليها جسـد زوجها، ودخل الأسقـف إلى مزار القديس أسطفان وأخـرج لها تابوتين، وطلب منها أن تأخذ منهما تابوت زوجهـا، غير أنها أخـذت تابـوت القـديس اسطفـان ظانة أنـه تابوت زوجها، واكتشفت وهي على طريق سفـرها عبر البحر، من خـلال عدد من المعجـزات، أن التـابوت الذي كـان معهـا كـان تابوت القـديس اسطفـان، وهكذا جـرى نقل هذا التابوت إلى مـدينة القسطنطينيـة، وفي آخـر الأمر تمّ نقله من القسطنطينيـة إلى روما، حيث هو راقـد الآن مع القديس لورانس.

ويقـوم الآن في المكان المتقـدم الذكـر مـذبح في الهواء الطلق، أقـامـه الرهبان هناك، وفي يوم عيده يقيمون قداساً هناك، وقرأنا في هذا المكان، ماوجهتنا كتب المسيرة أن نقرأه، وتلقينا غفرانات(+).

ثم إننا غـادرنا ذلك المكان، وتابعنا سيرنا، وعبرنـا الشـارع إلى بيت مرثا، الذي كان بيتـا لابأس باتساعه، وهو قائم في مـواجهة كنيسة جبل صهيـون، ويقطن في ذلك البيت بعض النسـوة الايطاليـات من طائفـة السسترشيان، اللائي يتبعن طقـوسنا، ويعرفن باسم مـرثاوات الرهبان، بسبب أنهن يخدمن الرهبـان محبـة في الرب، وذلك بالغسـل، والخيـاطة والغزل لصالحهم، وهن يتعبدن في كنيسة الرهبان، وهن نساء متقدمات بالسن، وعظيمات الجدية، ومحترمـات، يعشن في ظل قـاعـدة الحكم الثالث للقديس فرانسيس بصبر كبير، وتحمل عظيم، وقبل أقل من سنة من وجـودي في القـدس، اقتحم بعـض الأعـراب البـاب في الليل، واندفعـوا بهياج إلى داخل بيت هؤلاء السيـدات، ثم هربوا بعدمـا حملوا معهم كل ماوصلت إليه أيديهم، ونهبوا البيت كله، وعندما كنت أعيش هناك غسلوا لي قميصي ووشـاح الكتف، وعملوا أعمال إحسـان أخـرى لي، وتعيش السيدة التي جاءت من بلاط ملكة قبرص، والتي أتيت على ذكرها من قبل، هناك معهن.

وذهبنا من هذا البيت باتجاه الشرق، ثـم انحرفنا جـانبـاً نحـو الجهـة اليمنى، إلى خـارج الطريق الـذي يقـود إلى وادي شعفـاط، ووصلنا إلى بيت محمي بشكل جيـد، ومغلق باحكـام مثله في ذلك مثل جميع بيـوت المسيحيين، وعندما قرعنا على الباب، قدم إلينا رجال سود، قد أحرقتهم الشمس، وكـانوا طوال القـامـة، وكـان على وجـوههم ندوب مع آثار احتراق، وهؤلاء فتحـوا البـاب لنا، وكـان هـذا دير الهنود، فيـه عـاش الرهبـان والنســاء مع بعضهم، وهم يعيشـون في ظـل نظام دقيق، وإنه لغريب أن ترى انحطاط ملابسهم، وعندما دخلنا إلى هناك، اقتادونا من خـلال ممر إلى قـاعة سيئة الإضـاءة، يوجـد فيهـا طريق مظلم نازل من خـلال صدع في صخـرة، ونزلنا نحـو الأسفل، حاملين مصـابيح معنا، ووصلنا إلى كهف قذر موجـود تحت الأرض، مغطى من قبل الصخرة، وفي الحقيقـة الكهف كله هو تجويف في الصخـرة، ووجـدنا هناك مكاناً للصـلاة، ووفقـاً لخبر قـديم جـداً، كـان هذا المكان هو الذي تاب فيـه داوود من ذنبه المتعلق بوفـاة أوريا، وقرأنا لذلك هناك الاصحـاح الثاني عشر من سفـر صموئيل الثـاني، الذي جاءنا فيـه الخبر بأن داوود ذهب إلى مكان منعـزل، حيث صـام، وصلى، وبكى، وجلد نفسـه بالأسـواط وبالعصي، ونظم هناك سبعـة مزامير توبة، غـالبـاً ماقـرأهم، وغناهم مع نحيب محزن، هذا ولم يكن هـذا الكهف العـائـد لداوود في ذلك الحين خـارج القصر الملكي، بل في داخله، لأن القصر كان واسعـاً وعريضـاً، وسقطنا في هذا الكهف على وجـوهنا، ورجـونا الرب أن يرحمنا، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي فيه حاول اليهود اختطاف جسد العذراء المباركة من الحواريين عندما كانوا حاملين له إلى الضريح

وعندمـا تلقينا غفرانـاتنا، صعدنا ثانيـة، وغـادرنا ذلك البيت، ونزلنا نحـو الـوادي، وأبقينا وجـوهنا متجهــةنحـو جبل الزيتــون، أي باتجاه

الشرق، حيث كانت مدينة القدس موجودة على يسارنا، وكنيسة جبل صهيون على يميننا، وهكذا وصلنا إلى المكان الذي تآمر فيه اليهود على اقتراف الجريمة التالية: فبعد وفاة العذراء مريم الأعظم قداسة، وعندما كان جسدها محمولاً من قبل الحواريين وهم نازلين به من جبل صهيون من أجل دفنه في وادي شعفاظ، وبعدما ساروا مسافة مع الغناء والسرور، فجأة، اليهود الذين عرفوا سبب هذه المسيرة، خرجوا من المدينة مع قوة مسلحة، وقد امتلأوا غضباً صدوراً عن الكراهية العمياء القديمة التي حملوها نحو العذراء المجيدة، وانقضوا على الذين كانوا مرافقين للجنازة، وسائرين إلى جانب النعش، وأجبروهم على التوقف، وكان مقصدهم الاستيلاء على الجثمان المقدس، ورميه وكأنه جسد مدنس، وارغام الحواريين على الفرار، وهكذا وقفوا على مقربة منه وصرخوا بصوت مرتفع themea Kesesa، وكان معنى ذلك «عاهرة مدنسة»، وتقدم أحدهم، وصعد بجرأة وأمسك التابوت بكلتا يديه، محاولاً رميه إلى الأرض مع الجسد المقدس الذي فيه، لكن ماأن لمس النعش بيديه، حتى ذبلت يداه مع الذراعين، وجفتا، وباتتا معلقتان من دون حراك مثل عصاتين، ومع حدوث هذه المعجزة أصيب الرجل التعيس بندم عظيم، بينما وقف بقية الحشد المهاجم مرعوبين، وقد امتلأوا خوفاً واضطراباً، ورجاهم الرجل المعطل أن يرفعوا له ذراعيه اللتان تعلقتا بدون حراك، ووضعهما فوق الجسد المقدس، فكان أن شفي على الفور، وأصبح مسيحياً، وعاد البقية مخذولين إلى المدينة، وتركوا الحواريين يحملون الجسد المقدس، إلى موضع الدفن في جيسماني، وهكذا قرأنا في هذا المكان الـ Salve Regina، وبعدما تلقينا غفرانات، مضينا في طريقنا نتابع سيرنا.

المكان الذي أخفى بطرس فيه نفسه بعد انكاره الثالث

ونزلنا بعد هذا من المكان المتقدم الذكر نحو الوادي، ووصلنا إلى

صخرة واقفة عاليـة، فتحت هذه الصخرة، جلس القديس بطرس يبكي وينتحب، ويستغفر، وكان ذلك بعد مغـادرته لبيت كيفاس، بعد إنكاره الثـالث لربه، ونال هناك غفـراناً لذنبـه واعفـاء من العقـوبة، وتلونا هنا الصلوات المعينة، وتلقينا هناك غفـرانات مطلقـة(++)، وهنا حـدث في يوم قيامـة الرب يسوع، أنه ظهر إلى القديس بطرس وواسـاه، وقام فيما مضى على هذه البقعة كنيسة عظيمة وجميلة، لكنها مهدمة الآن تماماً، إلى حد أنه لم تبق منهـا أية آثار، حتى الصخرة التي جلـس القديس بطرس تحتها يبكي، والتي كـانت مجوفة على شكل كهف واسع، أخـذت تصغر يوميا، وهي الآن مجرد حجـرة صغيرة، لأن الحجاج كسروا قطعـاً منها، وحملوها معهم، وإلى جـانب هذه الحجـرة تتدفق ميـاه مجلوبة إلى مـدينة القـدس من جبال حبرون في مجرى مـائي، وفق طريقة مـدهشة، سـوف أتكلم عنها مطولاً في الورقـة ٢٤٩، وقائم هناك أيضاً بركـة عميقة، من الممكن سحب الماء منها، وأعتقد أنه عندما كانت هنا كنيسة، كانت هذه البركة العميقة قبو تلك الكنيسة.

المكان الذي قام فيه بيت عناس القاضي الأول للرب يسوع

وبعدمـا رأينا هذا المكان، مضينا نسير على دربنا، حيث أدرنا ظهورنا إلى الوادي، وتسلقنا ثانيـة الرابيـة التي كنا قـد نزلنا منهـا، إنما ليس عبر الطريق نفسه، لكن انحـرفنا جانباً باتجاه المدينة المقدسـة، وكان ذلك بين بيـوت مهدمـة، ووصلنا إلى بيت كـان بابه محكم الاغـلاق وبقوة، وقـد قـرعنا عليـه، وسمح لنا بالدخـول، وعنـدمـا أصبحنا بالداخل أتينا إلى كنيسة جميلة، مكرسة على شرف الملائكة المقدسين، ولذلك عرفت باسـم كنيسة الملائكة المقدسين، وكان من حول هذه الكنيسة قلايات وقاعات، فيها سكـن رهبان أرمن، مع مسيحيين شرقيين، ورجـال سود محترمين، وكـان هذا المكان في أيام آلام ربنا بيـت عناس(حنان) الذي إليـه جلب الرب يسوع أولاً من الحديقـة التي اعتقل فيها، وجـرى ذكر هذا البيت

وجلب الرب يسوع إليه بشكل متميز وواضح في الاصحاح الثامن عشر من انجيل القديس يوحنا، حيث نقرأ فيه كيف قام عناس (حنان) الكاهن الأعلى فاستجوبه بازدراء، وسأله عن عقيدته وعن تلاميذه، وكيف قام واحد من الخدم بلطم يسوع لطمة بالغة القسوة على وجهه، ولهذا —تبعا لبعضهم— سقطت أسنانه من فمه، وتغطى وجهه بالدم، ولدى تلقي الرب يسوع هذه اللطمة لم يقل شيئاً، ولم يفعل شيئاً قاسياً، كما أنه لم يقم بمعاقبة الذي لطمه بأي شكل من الأشكال، وحول هذا قال القديس أوغسطين:«إننا إذا ماتفكرنا حول الذي تلقى الضربة منه، ألا يتوجب علينا أن نفترض أن النار كانت ينبغي أن تنزل من السماء وتحرقه، هذا الذي وجه الضربة إليه، أو أن تنفتح الأرض وتبتلعه، أو أن يجرى انتزاعه وأخذه ليتعذب من قبل الشياطين، أو أن يتعرض لعقوبة من هذا القبيل، إن لم يكن أكثر؟ ولم يأمر الذي صنع العالم من قبله بأي من هذه الأشياء مع أنه امتلك القدرة على تنفيذها، ذلك أنه آثر أن يعلمنا الصبر، فبالصبر يمكن قهر العالم».

وبهذا يمكن أن ندرك فساد وزيف الذين قالوا بأن الرب يسوع ، عاقبه على الفور، وضرب فوق البقعة نفسها قائلاً له:«هنا سوف تظل واقفا، وتكون شاهداً على براءتي حتى يوم الحساب الأخير، ووقتها سوف يتم انقاذك»، وقالوا بأنه منذ تلك الساعة فصاعداً، هو واقف —لهذا السبب— هناك، وهو حي، لكنه لايأكل ولايشرب، ولاينام، بل يتطلع نحو الأمام بتشوق عظيم إلى نهاية الحياة، حتى يمكن تحريره، وكان دوماً يسأل القادمين من الحجاج، الذين يأتون إلى هناك، عما إذا ماكانت النساء مازلن يحملن بالأولاد الذكور، لأنهم يقولون أنه مع اقتراب نهاية الدنيا تتوقف النساء عن الحمل بالأولاد الذكور، وهكذا هو واقف هناك، يتلقى أسئلة ويجاوب عليها، وهذه الحكايات عابثة وآثمة، لأنها ضد الكتابات المقدسة، وضد الانجيل، ومعاكسة للإيمان

وللصـــدق، وقـد اخترعت مـن قبل حمقى، ومشردين تستروا تحت رداء التقوى وهم يتجولون في أرجاء البـلاد، ويخترعون مثل هذه الأكاذيب، ويجذبون بذلك القـــوم التـــافهين ويضللوهـم، لابل في بعض الأحيـــان يضللون حتى الناس الذين يبدون أنهم عقـلاء، وأكثر تنبها من أن يتبنوا كلامهم ويصدقوه ويعطوهم المال مقابل كذبهم.

والصـدق يرغمني على الاعتراف بأن هذا قد وقع لي شخصيـا، ففي السنة التي كنت أستعد فيها من أجل حجي الأول إلى الأرض المقدسة، قدم إلى أولم إثنان من المشردين من فلاندرز، حيث أعلنا أنهما قـدما للتو من القدس، ومن جبل سيناء، ورويا عـدداً من الحكايا ت العجيبة، وهما جالسين بين الناس البسطاء في دار الضيافـة، وقد تحلق عدد كبير حولهما من الرجـال والنساء لسماع حكاياتهما، وكـان هناك أرملة محترمة اسمهـا السيـدة آنا فـون كنغسك Kingseik ،سحـرها حديثهما إلى حـــد أنها أخـذتهما إلى بيتها، وعـاملتهما بكرم زائد، حتى تمتلك مـايكفي من وقت للتحادث معهما، ووجهت إليّ في أحـد الأيام الدعوة إلى بيتهـا لمقابلتهما، حتى أستمع لما كـانا يقولانه، لأنها كـانت تعـرف أنني كنت على وشك الشروع برحلتي إلى الأماكن المقـدسة، وشرعـا بحكايتهما الكاذبة، وكان من الواضح وبطبيعة الحال أنني لم أصـدق شيئا مما أخبراني به، ولا أريد أن أكرر الكذب الذي أخبراني به، وقـد نصحاني بعدم السفـر بحراً، بل أن أذهب على قـدمي من خـلال هنغـاريا، ودالماشيـا إلى القسطنطينيـة، حيث سيعطيني امبراطور القسطنطينيـة خمسين دوقية، لأنه كـان متعهداً بأن يدفع ذلك المبلغ إلى كل حـاج ذاهب إلى الأرض المقـدسة، وعندمـا قلت في جـــواب لهذا الاقتراح بأن هذا الامبراطور لم يكن مسيحيـــا بل كان تركيا، قام أحـدهما على الفور فتصدى لحجتي بكذبة جديدة، حيث أعلن بأن ملك القدس (كـذا) صار مسيحيـا، وأن المدينة قد تحولت إلى المسيحيـة، وأن هذا الملك لن يسمح لأي إنســان بأن يرسم فـارسـاً في

الضريح المقدس، مالم يتصارع معه ويبرهن على قوته.

وقد أعلنا أن بيعة الضريح المقدس لربنا قد سترت كلها بالذهب الأصفر، وأن مصابيحها معلقة بحوامل ذهبية، وأنه يوجد فوق البيعة الصغيرة العائدة لضريح المسيح هناك مصباح واحد يحترق باستمرار من دون اشعال حيث يتلقى النار والزيت من السماء، وأن القدس كلها قد بنيت بحجارة ثمينة، وأخرج أحدهما قطعة حجر غير مصقولة، قال بأنه وجدها في الطريق في القدس، وقال بأنه على غير استعداد لبيعها مقابل عشرين دوقية، وقال لوأن انسانا عرف الحجارة الكريمة وميزها لكان بإمكانه أن يجدها بأعداد كبيرة هناك بين الأحجار العادية لذلك المكان.

علاوة على ذلك، قام واحد منهما فكشف عن كتفه الأيمن بحضوري، وأراني ندبة حمراء مستديرة عليه، وهي لها شكل مايعرض على هامش (الكتاب)، وأخبرنا أن راعي دير القديسة كاترين على جبل سيناء لديه دولاب ذهبي، كان يضعه فوق فحم يحترق، وعندما يصبح حامياً، يرفعه بملقط ويدمغ به الحاج الذي يكون متعريا لتلقيه على كتفه الأيمن، كما أنهما لم يخافا من تكرار الحكاية الزائفة المتقدم ذكرها حول الذي لطم يسوع، بل زادا بأنهما تحادثا معه، وأنه لم يكن مسموحاً لجميع الحجاج برؤيته، وقد أخبراني بهذا وبأكاذيب أخرى كثيرة مع أنهما لم يريا القدس.

وعندما كنت —الآن— في بيت عناس (حنان)، سألت مازحاً دليلنا، وكان واحداً من الرهبان الفرنسيسكان أين وقف الرجل الذي لطم الرب يسوع؟ فاقتادني الراهب إلى خارج الكنيسة، وأشار إلى شجرة زيتون كانت نامية إلى جانبها، قائلاً:«انتبه، هذا هو الرجل، ذلك أنهم يقولون بأن أظافره قد نمت في داخل الأرض، وتعلقت لحيته على الطرف، مشيراً إلى جذور الشجرة وأغصانها، ويحترم سكان الدير، لابل في الحقيقة جميع المسيحيين الشرقيين هذه الشجرة، ويذكرون أنه كتب في

كتبهم القديمة جداً، بأن الرب يسوع وقف مربوطاً إلى تلك الشجرة، بينما أكل الموظفون وشربوا، لأن عناس كان مسروراً إلى أبعد الحدود، بسبب إلقاء القبض على الرب يسوع، وأعطى لذلك طعاماً وشراباً إلى الذين اعتقلوه، وبناء عليه قبلنا جذع الشجرة التي كانت قديمة جداً، وهكذا، ثم إننا عدنا إلى الكنيسة، وتلونا صلواتنا المذكورة في المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

بيت كيفاس الكاهن الأعلى الذي سخر فيه من الرب يسوع المسيح

عندما غادرنا بيت عناس —الكاهن الأعلى، بادرنا مسرعين نحو بيت كيفاس، وكنا نشعر بالحزن والخشوع، ونحن نسير حيث سار الرب يسوع، وعندما وصلنا إلى البيت وجدناه مغلقاً، وعندما قرعنا على الباب فتح لنا، فدخلنا إلى الكنيسة، وتلونا صلواتنا المحددة في المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقة،(++)، واسم هذه الكنيسة، كنيسة القديس المخلص، وهي قائمة فوق المكان الذي قام عليه بيت كيفاس، حيث يعرف كل مسيحي ماالذي عاناه يسوع في داخله وتحمله، وهناك بحثوا عن شاهد زور يشهد ضده، فلم يجدوا أحداً، وهناك أنكر بطرس ثلاث مرات أنه يعرف الرجل، وهناك ربط الرب يسوع، وغطيت عيناه، وبصق عليه، ولطم، وضرب بكفوف اليد طوال الليل كله تقريباً، وبقي هناك مسجونا لمدة ثلاث ساعات، وبناء عليه بقينا هناك مدة طويلة نتفكر حول هذه الأشياء، ونحن نصلي، وامتلأ المكان بدموعنا، وآهاتنا وتنهداتنا.

ثم إننا بعدما قمنا من صلواتنا ونهضنا، اقتادنا كهنة هذه الكنيسة حول الأماكن المقدسة في الداخل، وجئنا أولاً إلى المذبح العالي في السدة، الذي جردوه من أغطيته المعلقة حتى نتمكن من رؤية الحجرة

التي شكلت لوح المذبح، وكانت هذه حجرة كبيرة، وسميكة، وواسعة، وهي قطعة من الحجرة التي دحرجوها من على فم ضريح الرب، ولذلك قرأنا الاصحاح السادس عشر من انجيل القديس مرقص، وقد كانت فيما مضى حجرة كبيرة جداً، لأنه بعد مضي سنوات كثيرة، قطع المؤمنون هذه الحجرة إلى قسمين، وتركوا القسم الأول قرب الضريح المقدس، في حين جلبوا القسم الآخر إلى هاهنا، إلى هذه الكنيسة، وقرروا جعلها لوحاً، أو منضدة، للمذبح، ولقد قبلنا هذه الحجرة المقدسة، ونظرنا إليها عن قرب، وفي الوقت نفسه راقبنا كهنة الكنيسة بدقة، حتى لايقوم واحد معاً باقتطاع شظية من الحجرة، بآلة حديدية، لأنهم يبجلون هذه الحجرة تبجيلاً عظيماً، وفي الحقيقة لولا وجود هذه الحجرة لباعوا المكان منذ السنة الماضية، لأنهم كانوا رهباناً أرمن في غاية الفقر، ولشدة عوزهم كانوا سيبيعون المكان إلى الرهبان الفرنسيسكان، لأنهم كانوا غير قادرين على إبقاء الكنيسة والدير وترميمهما، وقد أرادوا بيع المكان شريطة أن يأخذوا هذه الحجرة معهم، لأنهم كانوا يأبون ولايوافقون مطلقاً على بيع الحجرة معه.

وحدث في هذه السنة، أن جاء إلى القدس رجل أرمني غني جداً، تولى إعادة بناء الكنيسة المهدمة والدير، وقدم يد المساعدة إلى هؤلاء الرجال الفقراء، وفي اثناء حجي الأول، وصل إلى يدي قطعة كبيرة الحجم من هذه الحجرة، فقد اشتراها فارس بدوقيتين من كاهن أرمني، كان قد دخل إلى الكنيسة مع الفارس خلسة، خشية أن يراه الأرمن الآخرون، واقتطع شظية من الحجرة، وقد مات هذا الفارس نفسه في البحر، وقد ورثت هذه الشظية منه، وأحضرتها معي إلى أولم.

وتركنا بعد هذا المذبح، وفي مقابل المذبح، على الجهة اليمنى من الكنيسة، هناك مررنا من خلال باب صغير إلى قلاية ضيقة ومظلمة، وهي مقامة بوساطة جدران سميكة، وقادرة على استيعاب رجل واحد

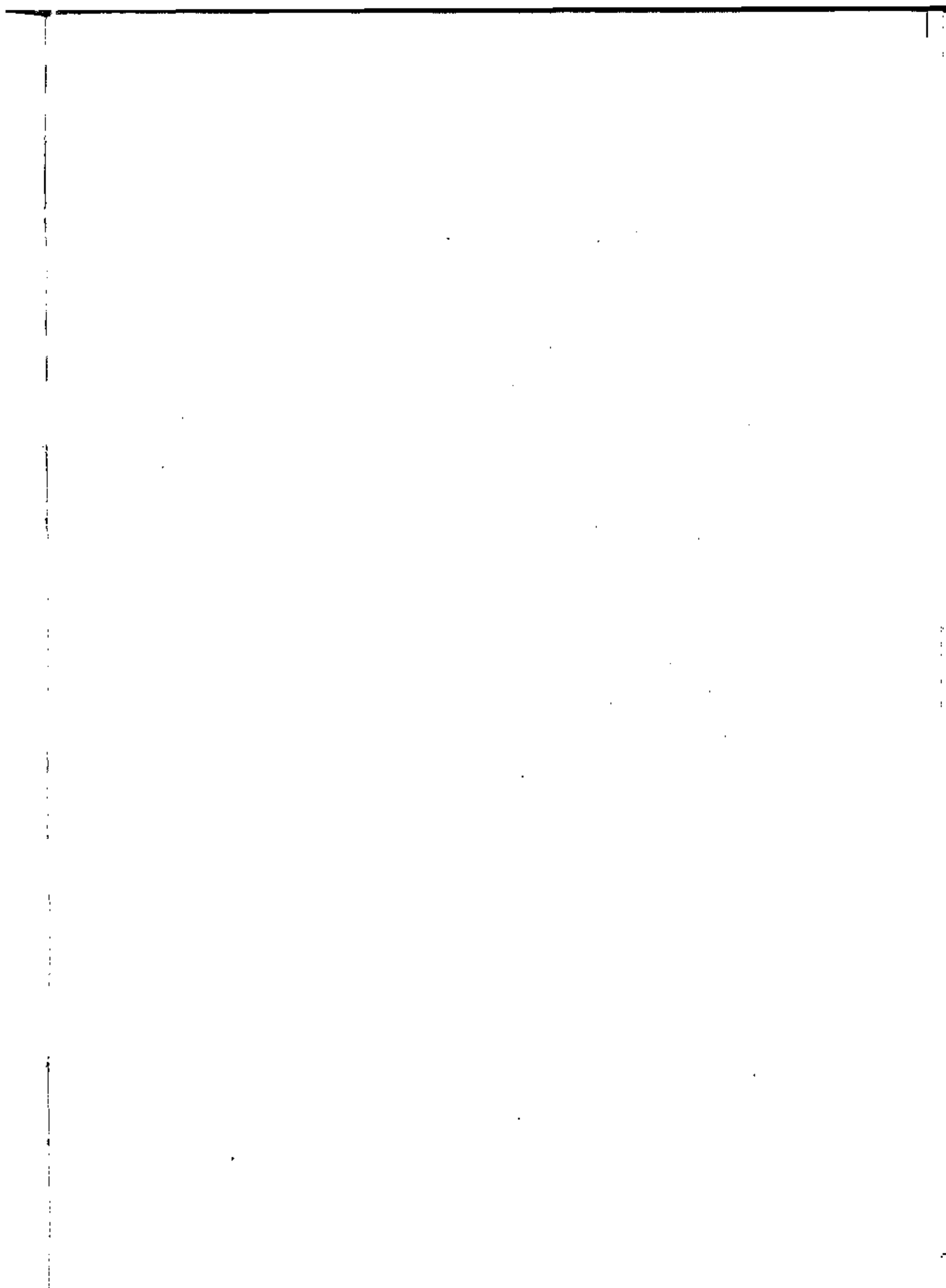
وهو واقف، ولذلك دخلنا اليها واحداً تلو الآخر، وكانت هذه القلاية هي الزنزانة التي كان يودع فيها الرجال الذين حوكموا، أو الذين يتوجب جلبهم إلى أمام القاضي، أو احضارهم للاعدام، فهناك يسجنون حتى يحين الوقت لاحضارهم إلى المحكمة، وبناء عليه سجن الرب يسوع هناك، بعد محاكمته، ووقف هناك لمدة ثلاث ساعات، ويداه مربوطتان خلف ظهره، وعيناه أيضاً مربوطتان، وكان وجهه مبصوقاً عليه، وقد غطته الاهانات، وكان يعاني من البرد، وهنا انحينا بأنفسنا نحو الأرض، وصلينا بخشوع، وقدمنا الشكر إلى مخلصنا، وخرجنا بعد هذا من الكنيسة إلى الساحة، أو الباحة في الخارج، حيث كانت هناك نار، وقف حولها بطرس مع الخدم عندما أنكر الرب، وعندما استدار الرب، وألقى نظرة عليه، فضلاً عن هذا، لقد رأينا المكان الذي وقف عليه الديك، الذي لدى صياحه عاد بطرس إلى نفسه، وقد نظرنا بخشوع نحو هذه الأماكن جميعها.

الزاوية التي وقفت عندها العذراء المباركة وهي تنظر نحو بيت كيفاس عندما كان ربنا يحاكم هناك

وخرجنا بعد هذا من ذلك البيت، وأخذنا طريقنا إلى زاوية البيت، التي منها يمكن للانسان أن ينظر بشكل مباشر نحو باب بيت كيفاس، وعليه إذا ماوقف إنسان على الجانب الأقصى من الزاوية، إنه إذا مامدّ رأسه، أو احدى عينيه، إذا ما اختار ذلك، يمكنه أن يرى باب بيت كيفاس، وهو نفسه لايمكن رؤيته من قبل أحد من الناس، لايعرف بوقوفه خلف الجدار، وينظر باحثاً متقصياً حول الزاوية، ففي هذا المكان —حسبها يقولون— وقفت العذراء المباركة، متخفية طوال ذلك الوقت، وهي تراقب الباب الذي من خلاله اقتيد المسيح مغلولاً، راغبة في أن ترى إلى أين سيأخذونه في النهاية.

آه، مع أي أية آلام ودموع، لابد أن العذراء المباركة قد وقفت تنتظر هناك! وماذا تظنون، كانت العذراء ستجيب، لوأن أحداً سألها لماذا هي واقفة هناك، أو من الذي كانت تنتظره هناك؟ لقد كانت العذراء ستجيبه: اطلاق سراح ابنها من أيدي اليهود، وهل كان لديها جواب آخر؟ وكانت ستضيف:«إنني أعرف أن ابني بارع وفصيح، وأنه لو أحضر أمام قاضي عام لربح البراءة، ولأطلق سراحه، ومع ذلك هو على العموم، لطيف، ولايؤذي، وصامت، مثل حمل أمام الذي يجز صوفه، وهو لن يفتح فمه بالدفاع عن نفسه، فضلاً عن ذلك، هو عذب، ومحبوب، ولدي أمل كبير، أنهم سوف يرحمونه، وأنه سوف يعاد إلي، ولهذا وقفت هنا، وأنا مليئة بالقلق، حتى أرى النهاية، وإلى أين سيقاد، فإن كان إلى الحياة، فأنا سأعيش معه، وإن كان إلى الموت، فلسوف أتقدم وأموت معه».

ويقول الناس الأتقياء، بأن بطرس، بعدما أنكر ربه، وخرج من ذلك البيت وهو يتأوه ويتنهد، جاء إلى هذه الزاوية، ومن خلال الخجل والحزن لم يستطع ان يتكلم مع العذراء، كما لم تستطع العذراء أن تكلمه، ولهذا ركض إلى الكهف الذي تحدثت عنه من قبل، ولقد قبلنا هذه الزاوية، وتلقينا غفرانات(+).



المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب
الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته

حوالي
(١٤٨٠ — ١٤٨٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن والثلاثون
(٢)
دمشق ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته
حوالي
(١٤٨٠—١٤٨٣)

القسم الثاني

المكان الذي قتل فيه الرسول جيمس الأكبر صبراً من قبل هيرود أغريبا

أدرنا عند الزاوية المتقدم ذكرها، ظهورنا إلى كنيسة جبل صهيون، ونزلنا عبر طريق طويل يقود نحو الغرب، وكان ذلك خلال خرائب كثيرة لأسوار عظيمة، ووصلنا أخيراً إلى بيت يشبه البيت الأخير، وهو أيضاً دير، وقرعنا على الباب، وسمح لنا بالدخول، ولدى دخولنا الكنيسة انحنينا بأنفسنا نحو الأرض ونحن نصلي، ثم جاء كهنة الكنيسة إلينا، واقتادونا إلى بيعة قائمة على الجهة اليسارية للكنيسة، فهنا يوجد المكان الذي قتل فيه هيرود أغريبا الرسول جيمس الأكبر صبراً، وهو أخو يوحنا، حسبما قرأنا في الاصحاح الثاني عشر من الأعمال، وكان جيمس الأكبر هذا، أخو يوحنا، قريباً للمسيح، والثالث في الترتيب بين الحواريين، وكان أمين سر ربنا، كما كان الأول بين الحواريين، ممن نال الشهادة، وقد حمل جسده من قبل تلاميذه إلى بحر يافا، ومن هناك عبر البحر بشكل إعجازي إلى كومبوستيلا (في اسبانيا) حيث يزار في هذه الأيام من قبل جميع الناس الذين يؤمنون بالمسيح.

وتلونا في هذا المكان ترنيمة تجاوبية مع بقية القداس المحدد، وتلقينا غفرانات(+)، وهذه الكنيسة عظيمة وعالية، إلى حد أنها أعلى من الكنائس، وليس لها نوافذ، بل يأتيها الضياء من خلال فتحه موجودة في الأعلى، ويملأ الكنيسة، وهناك عدد كبير من البيع من حولها، هي الآن مهدمة ومدنسة، ومعلق في الكنيسة نفسها كثيراً من المصابيح، ومعلق في الوسط مائة وعشرين مصباحاً في ثريا واحدة، ولدى جميع الشرقيين كثير من المصابيح في كنائسهم، وعلى ذلك قناطر السقوف ممتلئة بالحبال والسلاسل، ويوجد في جدار الكنيسة، في الجهة الخارجية، فتحة، أو

نافذة عمياء، أو مغلقة، فيها موضوع صخرتين كبيرتين مستديرتين، جلبتا من جبل سيناء، ويقولون بأن الملائكة قد جلبوهما إلى العذراء من أجل مواساتها الروحية، لأنه لم يكن مناسباً أن تقوم برحلة حج طويلة، أو أن تغادر القدس، في حين يمكنها بوساطة هاتين الصخرتين تعبّد جبل سيناء المقدس، وهذه هي الكنيسة الكاتدرائية، ولها رئيس أساقفة، وكهنة تابعين للطقوس الأرمنية، وهم —على كل حال— يدعون باسم اليعاقبة، ويدينون بالطاعة لكنيسة روما، ورئيس الأساقفة، رجل جاد، ولائق جسدياً، ومحترم أن تنظر إليه، وكان يسرنا أن نتحدث معه، لكن ماكان أحد منا بإمكانه فهم لغة الآخر، وهؤلاء اليعاقبة ليسوا ذوي بشرة سوداء، مثل المسيحيين الشرقيين الآخرين.

المكان الذي التقى المسيح فيه بالنساء بعد قيامه من الموت وقال: سلام لكن

وبعدما فرغنا من رؤية الأشياء المتقدم ذكرها، خرجنا من ذلك الدير، وتابعنا سيرنا على طول الطريق، ووصلنا على طريقنا إلى مكان أقيمت فيه صخرة عظيمة في الطريق العام، وأقيمت هذه الصخرة على هذا الشكل من قبل المسيحيين القدماء فوق تلك البقعة، لأنه في هذه البقعة ظهر الرب إلى المريمات الثلاث، عندما كن عائدات من الضريح، وقال لهن:«سلام لكن»، وتقدمن نحوه، وأمسكن بقدميه، وسجدن له، فهذا مانقرأ عنه في الاصحاح الثامن عشر من انجيل القديس متى، وبناء عليه انحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا المكان الذي سار عليه المسيح، وخطا عليه بقدميه، وقبلنا الصخرة أيضاً، وتلقينا غفرانات(+).

ولقد قام هنا فيما مضى كنيسة كبيرة، هدمها المسلمون، مثلما فعلوا بكنائس أخرى كثيرة، وبعد هذه الصخرة، ينزل الطريق من جبل صهيون إلى ضريح الرب، ولهذا اعتدنا نحن الحجاج أن نمرّ بهذا المكان

كل يوم، وحدث في بعض الأحيان، أننا كنا نمرّ ست مرات في اليوم الواحد، ومن عادة الحجاج أنهم كلما مروا بأي مكان مقدس —مع أنه لم يكن في برنامجهم أومقاصدهم زيارة أماكن مقدسة— أن يقوموا بتقبيله ومن ثم يمضون في طريقهم، وبناء عليه، كنا كلما مررنا بالصخرة المتقدم ذكرها، نقوم بتقبيلها، غير أن المسلمين الذين كانوا يعيشون في البيت المقابل للصخرة، عندما شاهدوا هذا، ضاقوا به، وغاروا من خشوع الحجاج، فجاءوا بالليل، ولوثوا الصخرة بالغائط، فجعلوها قذرة تماماً، ومقززة لنفوسنا حتى نقبلها، ومع هذا قام واحد من الحجاج الذين لم يتحملوا هذا، فمسح الصخرة بثيابه، ونظف مكانا منها، أمكننا الوصول إليه وتقبيل الصخرة، وعلى هذا أمكننا أن نقدم احتراماً لها ليس أقل من ذي قبل، لابل أكثر، مما سيضايق المسلمين ويزعجهم، وهذا التلويث وإبداء قلة الاحرام فعله المسلمون، في كثير من الأماكن المقدسة في القدس، وفي أماكن أخرى.

برج داوود الذي ينهي جبل صهيون باتجاه الغرب

وعلى مسافة ليست بعيدة، لدى سيرنا باتجاه الغرب، وصلنا إلى زاويةجبل صهيون، وذلك حيث ينتهي باتجاه الغرب، فهناك كان يقوم برج داوود، وهو قائم هناك في هذه الأيام، حيث الموجود هو قلعة حصينة جداً وجميلة، مع موقع حصين، فوق شرف صخري منحدر، ومن حول القلعة هناك دوماً خندق عميق بشكل طبيعي، عنده يتصل جبل صهيون بالمدينة، ففي ذلك المكان كانت ميلو، وهي (القلعة) محصنة من جهة الجنوب، في هذه الأيام، بواد عميق، وتمتلك القلعة أيضاً أسواراً عالية، وعدداً كبيراً من الأبراج، وأبواباً لها حواجز حديدية، وأمكنني في يوم آخر أن أرى القلعة من الداخل، ووقفنا وقتها بدون حراك نحدق ببرج داوود الذي غالباً ماورد ذكره في الكتابات المقدسة، وننظر أيضاً إلى ميلو، وتفكرنا هناك كيف كان شكل القدس

ومنظرها في الأيام الغابرة، لأنها قد تشوهت الآن بما تعرضت له من أعمال حصار كثيرة، وامتلأت وديانها العميقة بأكوام ركام الخرائب التي وقعت فيها.

وعلى مقربة من برج داوود هناك طريق نازل إلى المدينة، وإلى الضريح المقدس، وذلك من خلال شارع طويل.

المكان الذي افترق فيه الرسل أحدهم عن الآخر في أرجاء العالم

وعندما فرغنا من النظر إلى برج داوود، انعطفنا، وأدرنا ظهورنا إلى الغرب، وعدنا عبر الطريق الذي كنا قد أتينا عليه، وذلك حتى الزاوية التي وقفت فيها العذراء المباركة تنتظر، كما تحدثنا من قبل في صفحة ٤٣٢، وسرنا من هذه الزاوية مسافة قصيرة باتجاه الجنوب، ووصلنا إلى مكان يتقاطع فيه طريقان، على شكل صليب، وعلى هذا يستطيع الانسان الذي يقف في وسط الصليب الذي نجم عن تقاطع الطريقين، يستطيع أن يذهب إلى الشرق، أو إلى الغرب، أو إلى الشمال، أو إلى الجنوب، وهذا هو المكان الذي افترق فيه الرسل، ذلك أنهم تحدثوا مع العذراء المباركة في العلية، حول تفرقهم وانتشارهم في أرجاء المسكونة كلها، وذلك وفقاً للأمر الذي تلقوه، حسبما ورد في الاصحاح الأخير من انجيل القديس مرقص، وكان ذلك بعد تلقيهم للروح القدس، فقد بشروا أولاً بالانجيل في أرجاء اليهودية، إنما بعد مضي بعض السنوات أرغموا بوساطة العذاب الذي تلقوه من اليهود، فكان في اليوم الخامس عشر من تموز أن استعدوا —بناء على طلب من العذراء المباركة— للانطلاق نحو الخارج، حاملين معهم لاشيء سوى مبادىء إيمانهم، التي وضعها الرسل الاثني عشر مع بعضهم خلال المجمع الأول الذي عقدوه فيما بينهم على جبل صهيون.

وعندما دنت ساعة رحيلهم، انحنوا بأنفسهم باحترام كبير، أمام

قدمي العذراء مريم الأعظم قداسة، وسألوها المباركة والإذن بالمغادرة، وأنهضتهم العذراء، وعانقت كل واحد منهم، وأعطتهم مباركتها وهي نفسها غارقة بالدموع، وبعثت بهم إلى طريقهم وهي تنتحب، ونزلوا جميعاً من العلية، وساروا، حتى جاء هؤلاء الرجال الذين كانوا على وشك الانطلاق للتبشير بالصليب، ووقفوا في مصلبة ذلك الطريق، وهناك اندفعوا نحو بعضهم بعضا، يتعانقون ويقبل أحدهم الآخر، وافترقوا أحدهم عن الآخر مع كثير من الدموع، وتفرقوا في جميع أرجاء المسكونة، حيث مضى ثلاثة منهم إلى الشرق، وثلاثة إلى الغرب، وثلاثة إلى الجنوب، وثلاثة إلى الشمال، أي إلى أركان الدنيا الأربعة، فقد ذهب متى، وتوما وبارثلميو مع تلاميذهم وأتباعهم باتجاه الشرق، وبطرس، وأندرو، وجيمس الأكبر إلى الغرب مع أتباعهم، وذهب نحو الجنوب جيمس ويوحنا ومتياس مع تلاميذهم، وإلى الشمال ذهب سمعان وثاديوس وفيليب مع أتباعهم، وأخذ كل واحد منهم يبشر في كل مكان، حتى يمكنهم تمجيد أجزاء الدنيا الأربعة بعقيدة التثليث.

وبناء عليه وقفنا في هذا المكان وقدمنا الحمد للرب، الذي بعث من هذا المكان الرسل المقدسين إلى جميع المسكونة، وبتمجيدنا لإيمانه عدنا إلى هاهنا، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات(+)، وتداعى إلى خاطري في هذا المكان الفراق الحزين، وانشقاق إخواني من دير أولم، الذي كنت شخصيا شاهداً له، فقد حدث في سنة ١٤٧٦ لتجسيد ربنا، في اليوم نفسه الذي افترق فيه الرسل، وكان ذلك بسبب تمسكنا بمولانا البابا، وبالكنيسة الرومانية، ولأننا عددنا ماقمنا به صحيحاً، ومقدساً، وهو بالحقيقة ضروري أن نقوم به، أرغمنا على ترك ديرنا ومدينة أولم، وتفرقنا وتوزعنا على أديرة المنطقة، لأننا لم نكن لنأثم ونتصرف على عكس الأوامر الرسولية، وتمسكنا بالحرمان الذي أنزل على المنطقة، واعترفنا بالأسقف الذي قدمه

البابا وثبته، ولم نعترف بالذي جرى انتخابه من قبل القساوسه ودعمه الامبراطور، وبقينا في المنفى لمدة ثلاثة أشهر، ثم إنه بعدما أعيد عقد السلام ثانية، عدنا مع مجد عظيم واحترام كبير، ولذلك رسمنا، أنه مادام الدير موجوداً، ينبغي الاحتفال بعيد افتراق الرسل احتفالاً مزدوجاً، ليبقى ذلك ذكرى دائمة لهذا الأمر، ولكي يتعلم الذين سيأتون من بعدنا، ولكي يعرفوا أن عليهم عدم رفض إطاعة الأوامر التي صدرت عن الرسل خوفاً من أية محنة، وأن نؤثر الذهاب إلى المنفى، لابل أن نؤثر حتى لقاء الموت، ولقد تحملنا أشياء كثيرة في أيام المحنة، التي استمرت حوالي السنتين. لكن في هذا كفاية.

مزار القديس يوحنا الانجيلي حيث أقام قداساً وعمل قرابين لمريم العذراء

وإثر مغادرتنا للمكان المتقدم الذكر، وصلنا بعد ذلك إلى مكان مقدس جداً، حيث قام فيها مضى مزار، فيه أقام القديس يوحنا الانجيلي قداساً يومياً، وكان ذلك طوال الوقت الذي بقيه في القدس، بعد صعود ربنا، وعمل قرابين لمريم العذراء المباركة جداً، التي عُهد بالعناية بها إليه من قبل ربنا، وهو على الصليب، وقد تلقت القربان يومياً بأعظم خشوع، لأنه مع أن القرابين العائدة للشريعة الجديدة جرى تحديدها، ورسم بأن يتلقاها جميع الناس، آثرت المليئة بالنعمة أن تتلقاهم على يدي يوحنا كاهنها، في أثناء أسقفيته، التي كانت هناك، وأخذت العذراء القربان: (١) بسبب تواضعها، و(٢) لتجنب إثارة المضايقات، و(٣) لتنفذ الأوامر، و(٤) بسبب عقيدة النوافل، و(٥) لمضايقة الهراطقة الذين أعلنوا أنها ملاك، وليست من بني البشر و(٦) لتقدم مثلاً عن الذين صنعوا كاملين.

ومع ذلك شاركت يوميا، وفق طريقة خاصة، في قربان التوبة،

وتسلمت يوميا —وفقاً لبعض المرويات— قداس القربان المقدس في هذا المكان من يدي القديس يوحنا، ومع أنها كانت بريئة من كل ذنب، غالباً ماعملت قداس الاعتراف، دون أن تتهم نفسها بأي ذنب، وليس لاعلان نفسها أنها غير ممتنة للمنافع التي أضفيت عليها، وهو الاعتراف المتداول الذي يقوم به الرجال المقدسون الذين أمضوا حياتهم من دون جريمة، بل جاء اعترافها بأن فضائلها غير كافية حتى تكون جديرة بمثل هذا القدر من النعمة التي أضفاها عليها الرب، وللمكافأة التي لم تستحقها أبداً de condigno، ولايمكن أن يستحقها أي مخلوق، مع أنها تستحقها De congruo .

** ** **

وهكذا وقفنا في هذا المكان المقدس، وصلينا بخشوع، وانحنينا بأنفسنا نحوالأرض، وقبلنا مكان الخطوات، وتلقينا غفرانات، ولايوجد الآن أي بناء قائم فوق تلك البقعة، باستثناء أن هناك جدار جاف حولها، ويقوم في وسطها حجرة كبيرة، فيها مكان مجوف بآلة معدنية، فيها اعتاد القديس يوحنا على حفظ كأس القربان.

المكان الذي كان فيه بيت مريم العذراء المباركة والذي فيه فارقت هذه الدنيا

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، وصلنا بعد مسافة قصيرة إلى مكان آخر، محاط بجدار أعلى، من الحجارة الجافة، وتقول المرويات، بأنه هاهنا كان يقوم بيت العذراء المباركة، حيث عاشت فيه حياة عادية لمدة أربعة عشر عاماً، وعلمنا من قرآن محمد (صلى الله عليه وسلم) بأنها عاشت هناك خمس سنوات فقط وأنها عمرت ثلاثاً وخمسين سنة، وهذا ماقاله أيضاً نيقولا دي كوسا في السفر الثاني — الاصحاح ١٥، ويقول بعضهم بأنها عاشت مدة أطول، ويقول آخرون بأنها عاشت مدة أقصر، بعد

صعود ربنا، وعندما دنت نهاية حياتها واقتربت، رجت يوحنا الذي قدم لزيارتها مع بقية الرسل، أن يعمل لها قداس حماس عظيم، مع أنها لم تكن ضعيفة، أو مريضة، أو فاقدة لقوتها، أو مرهقة بتقدم السن، وكذلك لم تكن ملزمة بتلقي مثل هذا القداس، لأنه كان يعمل للمرضى فقط، ومع ذلك تركت نفسها لهذا الامتياز، بالبراءة من الضعف، وأخفت ذلك حتى وصلت إلى نهاية حياتها، مثلما اختارت أن تخفي امتياز عذريتها عندما عملت طقوس الطهارة التي فرضتها الشريعة.

ولهذا قامت وهي متمددة هناك مع أكثر الحب إلهاباً، ومع أعذب مشاعر الضنى، فتلقت بتواضع هذا القربان المحدد كما هو معلوم للمذنبين، ولاحظ هناك التعبير عن إنجاز نصرها في الماضي، وعن كمال مجدها في المستقبل، فقد تسلمت في مكان الإعفاء من الذنب العرضي الوقاية من جميع الآلام، وفي مكان التخفيف من آلام المرض، المجد لجسدها كله، وماأن تسلمت القربان حتى عهدت بروحها وأسلمتها إلى يدي الرب، وغادرت هذه الحياة، بينما وقف من حول فراشها جماعة الرسل المجيدة، وعصبة المائة والعشرين عذراء اللائي كن بلادنس، مع كثير من الأرامل، لهن تركت جسدها من أجل الدفن، وبناء عليه انحنينا في هذا المكان المقدس بأنفسنا نحو الأسفل، وصلينا، ورتلنا تراتيل الحمد المعينة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

وهذا المكان متميز، لأنه موضع تقديس من قبل كل من جميع المسيحيين، ومن قبل كثير من المسلمين، ومع ذلك لايوجد هناك بناء، باستثناء جدار من الحجارة الجافة، ويبذل الرهبان الفرنسيسكان جهودهم مع السلطان، للحصول على إذن لبناء بيعة، وإقامة مذبح في هذا المكان، لأنهم لايتجرأون على وضع أية حجارة مع ملاط من دون إذن من الملك والسلطان، وهم يأملون بالحصول على الإذن، ولقد سمعت أنه بعدما حصل هؤلاء الرهبان على إذن كامل وإجازة من

السلطان، لتنفيذ مـارغبوا به، وبعدما أنفقـوا كثيراً على بناء مزار، اقتحم المسلمون الهائجـون هياجاً عظيماً المزار، وسـووه على الفور مع الأرض، وكــذلك فعلوا بالبنـاء كله، ولهذا إن المكان الآن في هذه الأيـام كماهو عندما رأيته.

المكان الذي اختير فيه القديس متياس من قبل الجميع ليكون رسولاً بدلا من يهودا

وليس بعيـداً عن هذا المكان، وصلنا، ونحن ذاهبون إلى كنيسـة جبل صهيـون إلى صخـرة حمراء، في المحل الذي جـرى فيه اختيـار القـديس متيـاس رسـولاً، وذلك حسبما قـرأنا في الاصحـاح الأول من الأعمال، وجاء اختياره ليحل محل يهوذا الخائن، فقـد جرى اختياره في هذه البقعة ليكون خليفـــة له، وانحنينـا بأنفسنا في هـذا المكان للصـــلاة، وتلقينا غفـرانات، وغنينا التراتيـل المحـددة، وبدا هذا المكان بالنسبـة لنا أكثـر قـداسة، وقـريباً منا، لأن جسـده المبارك محفـوظ بيننا في ألمانيا في مـدينة ترفس Trèves.

المكان الذي رسم فيه جيمس الأصغر أسقفاً للقدس

ولدى مغـــادرتنـا لهذا المكان تابعنا سيرنـا، ووصلنا إلى ســور مقبرة الرهبان، ويوجـد في السور حجـرة بيضاء معلمة بصليـب، فهناك يوجد المكان الذي انتخب فيه جيمس الأصغـر، ومن ثم رسم أسقفاً للقدس، وحيث أيضاً جرى إقامة قـداس من قبله، فلأن هذا الرسول كان رجلاً فـائق القداسـة، أضفى عليـه الرسل، بعد صعـود ربنا، شرف أن يكون الأول فيما بينهم في إقامة القداس، وذلك بحضـور الرسل، وقد رسموه أسقفـاً للقـدس، معتقــدين أنه سـوف يكون أكثــر قبـولاً لدى شعب القدس، من أي واحد آخر، فبسبب قداسة حياته الفائقة العظمة، سمح له بالدخـول إلى قـدس الأقـداس، الأمـر الذي لم يسمح القيـام به لأي

واحد آخر من الرسل، ولقد كان ناصرياً من رحم أمه، لم يشرب خمرة أو شراباً قوياً، ولم يأكل لحما، ولم يمر الحديد على رأسه، ولم يدهن قط بالزيت، ولم يستخدم الحمام، وارتدى دوما الكتان، وركع للصلاة بشكل متواصل، حتى أصبح الجلد على ركبتيه قاسيا مثل الجلد على كعبي قدمي الانسان، وكان محترما كثيراً من قبل الناس، بسبب قداسته الفائقة، حتى أنهم اعتادوا على التصارع أحدهم مع الآخر للمسه من ثوبه، وكانت خاصية القديس جيمس أنه كان لوحده يشبه ربنا، في جميع مظاهر جسده، وفي طريقة حديثه، وفي وجهه وفي حياته، فلقد كان مثل يسوع، وكأنه أخوه التوأم، ولذلك حدث بعد صعود ربنا أن جاءت أعداد كبيرة من الناس إلى القدس من مختلف أجزاء العالم حتى يتمكنوا من رؤية الرب يسوع في شخص جيمس، وكان بين هؤلاء اغناطيوس الشهيد، والقديس بولص الرسول، وذلك كما قرأنا في الرسالة إلى الغلاطين: ١٠/ ١٩، ولهذا السبب عرف باسم «أخي الرب».

وهكذا تلونا في هذا المكان صلواتنا، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي جرى فيه تعيين الشمامسة السبعة للقيام بمهامهم

ومباشرة قدمنا بعد هذا إلى المكان الذي يبجل بالعادة، بسبب اختيار الشمامسة السبعة، الذين قرأنا عن اختيارهم في الاصحاح السادس من أعمال الرسل، لأنه مع تزايد أعداد المؤمنين بعد ارسال الروح القدس، قامت شكاوى حول القداسات اليومية، فبعضهم أثقل بالأعباء، وبعضهم أهمل، ولهذا اختاروا سبعة رجال ذوي سمعة مرضية، وعادات ونعمة، وقد عينوهم للقيام بأعباء الأعمال والقداسات وكان من بينهم القديس اسطفان هو المقدم، لأنه كان مليئاً بالنعمة والشجاعة.

وفي هذا كفاية، فقد قدمنا هنا الحمد للرب، وتلونا الصلوات المحددة، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي صنف فيه الرسل قانون العقيدة المسيحية في اثني عشر بنداً

ومن المعتقد أنه يوجد إلى جانب مكان الاختيار، المكان الذي اجتمع فيه الرسل في مجمع مقدس، وذلك بعد قدوم الروح القدس، حيث أعطوا الكنيسة اثني عشر بنداً حول عقيدتها، وقد قاموا بنظمهم من أجل أن تبشر الكنيسة بهم، وبالإيمان بهذه البنود أنقذنا جميعاً، وصرنا أبناء الرب بالتبني، ولهذا يستحق هنا المكان أن يبجل كثيراً، وقدمنا فيه اعترافنا بالعقيدة الصحيحة، ومن ثم بادرنا مسرعين نحو أماكن مقدسة أخرى. (انظر ورقة ١٥٢ظ)(+).

المكان الذي يبجل فيه المسلمون ربنا يسوع المسيح بشكل واهم

وهناك على مقربة من جدار الحجارة الجافة الذي يحيط بقاعدة كنيسة جبل صهيون القديمة، أماكن معينة فيها يمارس المسلمون والمسيحيون الشرقيون اهتمامات واهمة، خاصة في مكان قرب موضع تفرق الرسل، وذلك تحت شجرة تين حيث هناك كومة كبيرة من الحجارة، إليها تأتي النساء المسلمات في كل يوم، فيحرقن البخور فوق الحجارة، ويدفن أرغفة من الخبز، ذلك أن المسلمين يؤمنون أنه هنا— وليس في الجلجلة، حيث تقوم كنيسة الضريح المقدس — يوجد ضريح يسوع، وأكثر من هذا، إنهم ينظرون نظرة استخفاف نحو تلك الكنيسة، ونحو الضريح الموجود فيها، ولايرون هناك، بل هنا، موجود ضريح يسوع، ويقولون بأن الذي عانى على الصليب الصلب، والذي عدّه اليهود على أنه يسوع، قد دفن بالفعل هناك بالأسفل، لكن مع ذلك هو لم يكن يسوع، بل كان رجلاً آخر، اعتقل وأعدم عوضاً عنه، وأنه هو قد نجا لأنه كان ابن الرب والعذراء، ولذلك كان قادراً على النجاة، وأنه قد مات بسلام هناك، وقد دفن في هذا الموضع، وهنا يتشفعون به من أجل مساعدتهم،

لأنهم عندمـــا يكونون في ضيـق يحملون أنفسهم إلى الرب يســـوع وإلى مريم العذراء المبـاركة، لكنهم لايفعلون ذلك كمؤمنين، بل مع كثير من التصـــورات الواهمة، وذلك مثلما يفعلـون في بعض الأحيـــان فيرسلون أولادهم الـرضع إلى المسيحيين من أجل تعميـــدهم عنـدمـــا يكـونون مرضى، مفترضين أنهم سـوف يشفون، أو يتحسنون بصحتهم الجسـدية بوساطة التعميـد، غير فاهمين أو مـؤمنين بأي شيء حول التأثير الخاص للتعميـد، وقد ذهبت مـراراً إلى تلك الكومـة من الحجارة عندمـا كنت لاأخشى من وجود أي مسلم سوف يـأتي إلى هناك، وكنت أقوم بتفريق الحجـارة التي صفت هناك مع بعضهـا من أجل تلقي النار، وأنبش عن الأشيـاء التي أخفـوها تحت الحجـارة، وبذلك أترك عـلامـات انتقـامي هناك.

حديقة دير رهبان جبل سيناء

وخلف هذه البقعـة، وعلى مقـربة مـن دير جبل صهيـون، إنما خلف ساحتها، وعلى جـوانبها الجنوبية، والشرقية، والشماليـة، وعند نتوء جبل صهيـون، يمتلك الرهبان حـديقـة واسعة اشتروها في العـام الماضي من المسلمين — بناء على إذن من السلطان— مقابل كثير من الذهب، ولقد دخلنا إلى هذه الحديقـة، ووصلنا أولاً إلى مقبرة الرهبـان، حيث يدفنون الموتى من رهبـــانهم، وهناك صلينا لصـــالح أرواحهم، ثـم أننا لاحظنا وجـود عدد من البرك العميقـة هناك، وهذه قد أقـامها الرهبـان بعدمـا اشتروا الحديقـة، وشرعوا في حفـرها، وكـانت هذه البرك مليئة بالتراب والحجـارة، ولكنهم نظفوهن هـذه وأعدوا مجاري لجر الميـاه إليهن، ففي الأنواء الممطرة يجمعـون فيهن أفضـل أنواع الميـاه، لأن الميـاه في البركـة الموجودة أمام مطعمهم، التي أتيت على ذكرها في ص٤١١ لم تكن كافية لاحتيـاجـاتهم أثناء الصيف، وفي الحقيقـة لم تكفهم عندمـا كنت أعيش هناك، ولهذا كـانت هذه البرك في الحديقة ضروريـة جداً بالنسبـة إليهم،

لأنهم قبل أن يشتروا الحديقة اعتادوا على المعاناة كثيراً من الحاجة إلى الماء في السنوات الحارة والجافة، لكنهم الآن وقد امتلكوا هذه الحديقة، لايمكنهم أن يحتاجوا إلى الماء، الذي يعد شيئاً عظيماً في القدس، ويوجد في هذه الحديقة، إلى جانب البرك كثيراً من الأشجار من مختلف الأنواع من أمثال التين والرمان، وماشابهها، وكذلك حشائش الطبخ لاستخدامات الدير، وهذه الحديقة مربعة، وقائمة على نتوء جبل صهيون، حيث يوجد على جانبها الغربي، الدير والكنيسة، وشرف جبل صهيون الذي هو على سويتها نفسها، ويوجد على أطرافها الثلاثة وديان، وهي محاطة بجدار من الحجارة الجافة، ويوجد على طرفها الجنوبي وادي حق الدم، وجبل جيحون، وعلى طرفها الشرقي وادي سلوان، وجبل العدوان، وخلفها وادي شعفاط مع جبل الزيتون، وكان على جانبها الجنوبي ميلو والمدينة المقدسة.

ولقد مشينا من حول الحديقة المسورة، ونظرنا من فوق جدارها نحو الأسفل إلى الوديان وعبرهم إلى الجبال من خلفهم، والمنظر منظر مبهج إلى الانسان الذي يعرف الكتابات المقدسة، فالجدار الذي يحيط بالحديقة قائم فوق حافة جروف حجرية منحدرة، ومن الممكن أن يرى في هذا سور صهيون القديم جداً، مع أساسات أبراجه، وأشياء كثيرة ممتدة هناك أمام أعين الناس، ورد ذكرها في الكتابات المقدسة، والتي من الصعب فهمها من قبل الانسان الذي يتولى قراءتها، من ذلك على سبيل المثال ماورد حول ميلو، وحول جيحون، وحول الوديان، وهكذا، وفي أثناء وقوفنا ونحن نتطلع من حولنا من ذلك الارتفاع، قام حديث بين فرسان من الحجاج العلمانيين، وهو جدير بالتسجيل، فعندما كنا منحنيين فوق الجدار، ننظر نحو القدس، ووادي شعفاط، أهمل هؤلاء العلمانيون كل شيء كان أمام أعينهم، ووجهوا أنظارهم وركزوها على المعبد، الذي اسمه معبد سليمان، فقد أعجبوا به وكانت لديهم رغبة

بالدخول إليه، والنظر إليه، وتناقشوا طويلاً واحدهم مع الآخر حول كيف أمكن لهذا الهيكل البقاء من أيام سليمان حتى الوقت الحالي، وعندما كانوا يتكلمون هكذا أصغيت بصمت، ولكن بعدما تكلموا طويلاً وبشكل غير مفيد، قلت لهم: «سادتي، وأصدقائي الحجاج، ماهو السبب في أنكم لم تسألوا أسئلة، ولم تعلقوا حول المناظر المقدسة والرائعة الماثلة حول أعينكم، وفقط تحدثتم حول أشياء لاقيمة لها»؟ وعلى هذا أجاب واحد منهم: «نحن نعرف هيكل سليمان هذا من خلال تقرير عام، وبالنسبة لنا لاشيء هو أكثر قداسة، ولاشيء أكثر روعة، ولاشيء أكثر جمالا أمام أعيننا، وبالنسبة للجبال والوديان الموجودة من حولنا نحن لانهتم بها، كما أننا لانعرفها»، وكان ماقاله صدقاً، لأن الحجاج لم يعرفوا شيئاً بعد عن جبل الزيتون، وعلى ماقاله أجبت: «هيكل سليمان ليس مرئيا، لأنه زال من الوجود منذ زمن بعيد، وهذا الهيكل الذي ترونه الآن هو الهيكل الرابع —الذي بني فوق تلك البقعة منذ بناء هيكل سليمان، وأنتم ماهو شأنكم بهذا الهيكل؟ ففيه لايعبد المسيح، بل يجدف ضده فيه يوميا، ومحمد (ﷺ) هو الذي يحمد، فهل أنتم قد جئتم إلى القدس من أجل تلك الكنيسة المدنسة والمنحطة؟ وبناء عليه لماذا لاتنظرون عبر الوادي القائم أمامكم، ونحو الجبل القائم هناك مقابيلكم»؟ وعندما قالوا بأنهم لايعرفون تلك الأماكن، قلت: «عجباً هذا الوادي هو وادي شعفاط، الذي ستجتمع فيه الدنيا كلها مع بعضها في يوم الحساب، وذلك الجبل القائم هناك مقابيلكم هو جبل الزيتون، الذي منه صعد المسيح إلى السماء.

دعونا نتحدث عن هذين، فهذين هما الشيئين اللذان لنا علاقة بهما، ولاعلاقة لنا البته بذلك الهيكل المشؤوم»، ثم بدأنا حواراً نافعاً حول صغر حجم وادي شعفاط، وحول مواضيع كثيرة مماثلة، وعندما أنهينا هذا الحديث، وصلنا إلى نهاية حجنا إلى الأماكن المقدسة على جبل

صهيون، الموجـودة على قمته، أمـا الأماكن الأخـرى المقدسـة على جبل صهيـون، والتي سوف نزورها في يوم اخـر، فسـوف نتحدث عنهـا فيما بعد، وهكذا عدنا إلى أماكن إقـامتنا، وكل واحد إلى مكانه الخاص، فقد ذهب الحجـاج العلمانيون إلى مشفى القـديس يوحنا، ورجـال الدين إلى دير الرهبان.

مدح جبل صهيون ووصفه

لقد ورد ذكر جبـل صهيون مراراً في الكتابات المقدسـة، ويقوم جبل صهيون على الطرف الجنـوبي للمدينة المقدسـة، وهو قائم أعلى مـن بقية المدينة، لكن ليس أعلى بكثير منهـا، وقـد كـان فيما مضى من أيام محاطاً بالوديان مـن جميع الجهـات، حتى من الجانـب الذي يطل نحـو مـدينة القدس، وعلى هذا كان بينه وبين المدينة هوة عميقة، بها انفصلت المدينة عن الجبل، وقـد اعتـاد الناس على العبـور من المدينة إلى الجبل بوسـاطة جسر خشبي، وحـاول ملوك يهوذا طمّ هـذه الهوة حتى يكون صهيـون والقـدس مـدينة واحدة، وقـد بذلوا جهـوداً عظيمـة بجلب الأتربة إلى هناك، وبما أن الجبل قائم متوضع فـوق صخور منحدرة من كل جانب، كانوا يصبون التربة نحو الهوة مـن جهة المدينة، ونحو الشرق أيضاً، من أجل أن ترتفع التربة إلى مستـوى ارتفـاع أسـوار الصخـرة، وأن تقـام حـدائق حـول جبل صهيـون، كما هـو الحال في هذه الأيام، وبناء عليـه أطلقـوا على المكان الـذي بذلوا جهـودهم لطمـه بـالتراب، ولرفعـه إلى مستوى المدينة، اسم ميلو، أي «الطم»، وقد وردت الاشارة إلى ذلك في سفـر صمـوئيل الثـاني: ٥/ ٩، والملوك الأول: ٩/ ٢٤، وأخبـار الأيام الثاني: ٣٢/ ٥.

وعلى كل حـال لم يكتمل هذا العمل، لأن بعض الأمـاكـن العميقـة بقيت دومـا بين المدينتين، ويمكن في هذه الأيام للانسـان أن يراهم، إذا مـاحدق بتمعن وبحث عنهم في حـديقـة الرهبان، وقـرب برج داوود،

ويبدأ هذا الجبل عند باب المياه، أو نبع سلوان في الشرق، ويعمل نصف دائرة نحو الجنوب امتداداً حتى الغرب، حيث كان برج داوود، وفي هذه الأيام المكان الذي توجد فيه القلعة، وخلال نصف الدائرة هذه كلها هناك صخور منحدرة، وحول وتر نصف الدائرة تلك، يوجد مايعرف باسم ميلو، وفوق هذا كان جبل صهيون، وفي هذه الأيام هناك متسع كبير يكفي لمدينة بيبريخ Bieberich أن تقوم عليه، وقام على هذا الجبل في العصور القديمة جداً، قلعة استولى عليها داوود بعد بذل جهود كبيرة، ومنح اسمه إلى مدينة جبل صهيون، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الحادي عشر، من السفر الأول لأخبار الأيام.

وكان هذا الجبل فيما غبر من أيام، كله لايرام، فكل انسان قد قرأ سفري المكابيين، سوف يعرف مدى الجهود والمتاعب التي توجب على هؤلاء الرجال الشجعان تحملها، قبل أن يتمكنوا من اقتلاع غير اليهود من قلعة صهيون، وانه بسبب مناعة صهيون أطلق على القدس اسم ابنة صهيون، كما ورد في الكتابات المقدسة، لأن الابنة تنال الحماية من قبل امها، وتقف عند قدميها، وكذلك القدس هي محمية من قبل جبل صهيون، وقائمة تحته، وعلى سبيل المثال عندما نواجه في الكتابات المقدسة: «أخبرك ياابنة صهيون، انظري الملك قادم» فإن معنى هذا «أخبرك يامدينة القدس».

وكلما واجهنا عبارة «جبل صهيون» في الكتابات المقدسة، ينبغي أن نحملها محملاً حسناً، وليس محملاً سيئاً، فهي تعني في بعض الأحيان حالة الجمال المتفوق، ورؤيا الخلاصة السماوية، وأحيانا حشد الملائكة، وأحيانا انتصار الكنيسة، وأحيانا الكنيسة العسكرية، وأحيانا الوحيد المنتخب من قبل الرب في الكنيسة، وأحيانا الذين يعيشون حياة تأمل، وأحيانا بعض الأشخاص في الطوائف الدينية، وأحيانا أساقفة، وأحيانا وعاظاً.

إن هذا هو الجبل الذي عنه قيل: «جميل الارتفاع فرح كل الأرض جبل صهيون. فرح أقاصي الشمال تقع مدينة القدس» (مزامير:٤٨/ ٢)، وفعلا القدس قائمة على جانبه الشمالي، وقوله أيضاً: «طوفوا بصهيون ودوروا حولها» (مزامير:٤٨/ ١٢) وأيضاً قوله: «لأن الرب قد اختار صهيون» (مزامير:١٣٢/ ١٣) وقوله أيضاً: «الرب أحب أبواب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب»(مزامير:٨٧/ ٢)، وأيضاً قوله: «الرب يخلص صهيون» (مزامير:٦٩/ ٣٥)، وكذلك قوله: «ليت من صهيون خلاص إسرائيل» (مزامير: ٥٣/ ٦)، ومجدداً قال داوود عن شخصه وعن المسيح: «أما أنا فقد مسحت ملكي على صهيون جبل قدسي، ولسوف أبشر بالشريعة» (مزامير:٢/ ٦)، وقوله أيضاً: «سمعت صهيون ففرحت»، (مزامير:١٧/ ٨)، علاوة على ذلك قال اشعيا: «صهيون مدينة قوتنا» و«ولسوف يمنح السكينة للذين يبكون صهيون» و«من أجل صهيون لن أهدأ» و«صهيون ملكك هو الذي يحكم».

ولقد طلب منا في أجزاء كثيرة من الكتابات المقدسة أن نصعد إلى جبل صهيون، كما ورد في الاصحاح الثاني من اشعيا قوله: «هلم نصعد إلى جبل الرب» (اشعيا:٢/ ٣)، وقد أخبرنا هو بالذي ينبغي أن نصعد إليه بقوله: «غنيّ للرب الذي يسكن في صهيون» وقوله «سوف يأتون إلى صهيون مع الحمد»، فضلاً عن هذا رغب اشعيا أحيانا أن نقول أشياء عظيمة عن الجبل من ذلك قوله: «ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس الجبال، ويرتفع فوق التلال وتجري إليه كل الأمم» (اشعيا:٢/ ٢)، وتحقق هذا القول بإقامة القداسات الأكثر عمقاً على هذا الجبل، وبتدفق شعوب من جميع أمم الأرض إلى هناك.

ويظهر اليهود حماقة كبيرة فيما يتعلق بهذا النص، ويغطونه بالسواد، بسبب خطيئتهم، لأنهم يبرهنون منه أن يسوع لم يكن المسيح الحقيقي، لأنه لدى قدومه لم يرتفع صهيون إلى القمة فوق جميع التلال، ويقولون

بأنه في أيام المسيح سوف ينقل الرب جبل الطور، وجبل سيناء، وجبل الكرمل، ويضعهم حيث القدس الآن، ولسوف يضع القدس وهذه الجبال الثلاثة واحدها فوق الآخر، ولسوف يضع جبل صهيون على قمة القمة العليا للجبال الأعلى، ولأن المسيح لم يفعل ذلك، يقولون بأنه ليس هو المسيح.

وعلينا أن نرد على هؤلاء الأناس العميان التعساء، أن رفع جبل صهيون، يتوجب عدم فهمه برفع المكان، بل بمجده الفائق، وفي هذا المجال سوف يضع المسيح عليه أعمالاً عظيمة ورائعة، مثل تأسيس القرابين، وارسال الروح القدس، وأعمالاً أخرى، كما هو واضح، ومن هذا بيّن أن جبل صهيون جبل مرتفع كثيراً، وسامياً، وعظيم القوة والقدرة، ووفرة كبيرة وامتلاء، وجمال عظيم، وراحة، وثقة عظيمة، وأمان، وثروة كبيرة، وثراء، وبهجة كبيرة وسرور، واستقامة عظيمة، وعدالة، وطهارة كبيرة وقداسة، وعقيدة عظيمة وصدق، ونبوءة عظيمة وإخبار بالأشياء التي ستأتي.

وهو جبل إكمال العهد القديم وإتمامه، وابتداء العهد الجديد، وهو جبل قرابين المسيح، وجبل أعطيات الروح القدس، وهو جبل العذراء مريم، حيث عليه سكنت، وفوقه علمت الرسل، وألهمت الانجيليين، وبعثت بالرسل إلى العالم، ومن عليه فارقت هي بنفسها هذه الحياة، والجبل في هذه الأيام هو في أيدي المسيحيين، فهو ميراث رجال الدين، ودار ضيافة للحجاج، ولهذا يسكن المسيحيون فقط عليه، ولايوجد في هذه الآونة مكان إقامة على الجبل لمسلم أو ليهودي، بل يوجد عليه ديرة لرجال مسيحيين، وبناء عليه سألت في أحد الأيام مسلماً أعرفه معرفة جيدة، لماذا لم يبن لنفسه بيتاً على جبل صهيون، بدلاً من القدس، فأجابني على سؤالي: «لأن جبل صهيون صحراء لخلوه من الماء، ولأن الماء يمكن الحصول عليه بسهولة أكبر وبكميات أوفى في القدس، وهذا

ليس متيسراً في جبل صهيون»، ولعل الرب قد قضى بوجوب عوز المسلمين للماء على هذا الجبل المقدس، في حين يمتلك المسيحيون الذين يسكنون هناك كميات وافية.

وهذا الجبل مرتفع جداً، ليس فقط بالنسبة للجبال التي من حوله، بل بالنسبة للجبال التي هي بعيدة عنه، لأن جبال العربية عندما تشاهد من جبل صهيون، تبدو منخفضة، ومع أن هذه الجبال مرتفعة جداً، فإن جبل صهيون أعظم ارتفاعاً من جبال العربية، ويقوم دير الرهبان الفرنسيسكان في بقعة لطيفة جداً، وجميلة، وفي مكان مرتفع، وقبل أن يقدموا إلى القدس كان هناك دير للكهنة النظاميين، لكن بعد فقدان الأرض المقدسة، اشترى ملك صقلية هذا المكان الموجود على جبل صهيون من السلطان، واشترى أيضاً بيعة العذراء المباركة في وادي شعفاط، والكنيسة في بيت لحم مع الدير هناك، وسدد ثمنهم ذهباً، فقد دفع مباشرة اثنتان وثلاثين ألف دوقية من العيار المعتمد، وجلب هو أيضاً الرهبان الفرنسيسكان إلى جبل صهيون، وعهد إليهم بملكية الأماكن المتقدم ذكرها وبإدارتها، ولذلك اعتاد البابا نفسه على تعيين الوصي على دير جبل صهيون مقدماً على الكنيسة الشرقية كلها في هذ المناطق.

ويتمتع الرهبان بامتيازات عظيمة منحت إليهم من البابوات، وهي لاعلاقة لها بموضوعي حتى أتحدث عنها، وغرفة حفظ الذخائر في دير جبل صهيون مهلهلة كثيراً، والكنيسة صغيرة، والرواق ضيق، والقلايات صغار، والبيت على كل حال صغير، يعيش فيه أربعة وعشرون من الرهبان مع بعضهم، يعبدون الرب في الحياة في ظل نظام موضوع، وبسبب تجاوزات المسلمين واعتداءاتهم، اتخذوا لديرهم باباً من حديد، وذلك إلى جانب كلاب حادة، وشرسة جداً نحو الغرباء، وهم يديمون الحراسة، وبعوائهم يكشفون الذين يقدمون إلى هناك

لاقتراف أي إساءة، سواء أكان ذلك بالليل أو بالنهار. وفي هذا كفاية.

هنا بداية الزيارة إلى الأماكن المقدسة في كنيسة الجلجلة، أي كنيسة الضريح المقدس وإلى الضريح المقدس نفسه

في اليوم الرابع عشر، وبداية اليوم من مساء اليوم المتقدم،لأن المسيرة إلى الأماكن المقدسة جرى تعيينها وفق هذه الطريقة: عندما كانت الشمس بالمغيب، أعطي إنذار إلى جميع الحجاج بأن عليهم الحضور بأشخاصهم مباشرة، وأن يكونوا في الساحة أو الباحة القائمة أمام (باب) كنيسة الضريح المقدس، وأن عليهم لهذا التعجل بتناول طعام عشائهم، لأن السادة المغاربة الذين يحتفظون بمفاتيح الكنيسة المقدسة، كانوا ينتظرون الحجاج هناك، وبناء عليه بادرنا مسرعين، آخذين معنا الأشياء التي نوينا أن نستخدمها، ونزلنا إلى ساحة الكنيسة المتقدم ذكرها، حيث وجدنا حشداً غير منظم من المسيحيين الشرقيين، والمسلمين من رجال ونساء وأطفال، وكان هناك باعة السلع الثمينة، قد جلسوا لبيع ما معهم، وكان بعضهم معه أرغفة من الخبز، وبيض وعنب للبيع، وشرينا بعض ذلك ووضعناه في جعبنا ليكون الوجبة التي ينبغي أن نتناولها في الكنيسة، وفي الحال أخذ السادة المسلمون الذين لهم علاقة بفتح الكنيسة، أماكنهم عند باب المعبد المقدس بشكل جاد وحازم، ويوجد هناك أمام الباب على كلا الجانبين حجارة كبيرة من الرخام المصقول، قد وضعت على شكل مقاعد، عليها جلس هؤلاء الرجال، ووجوههم مدارة نحو الخارج، وكانوا رجالاً ذوي حضور جيد، وقد تقدموا بالسنين، يتسمون بالوسامة، لهم لحى طويلة، وأخلاق جادة، ويرتدون ملابس من الكتان، ورؤوسهم ملفوفة بعدد لايحصى من اللفات بقماش كتاني رفيع.

وعندما اجتمعنا كلنا أمام هذه الأبواب، فتحوا أبواب الكنيسة، بمفاتيحهم، ووقفوا إلى جانبهم، وتركونا ندخل اثنين تلو اثنين، وقاموا

بتعدادنا مثلما فعلوا عندما خرجنا من السفينة إلى اليابسة، حسبما تقدم بنا القول، وأغلقوا علينا باحكام كبير، ولقد قيل عنهم بأنهم على درجة عالية من البراعة في فن الفراسة، وأنهم ما أن يلقون نظرة على أي انسان، حتى تراهم قد أدركوا وضعه في الحياة، وأحواله ورغباته، وقد ذهبنا معهم ونحن نشعر بالخجل والضيق، لأنه مربك كثيراً أنه يأتي الإذن للمؤمن بالمسيح والمتعبد له، بالدخول إلى كنيسة المسيح من قبل واحد كافر بالمسيح، وأن يسمح هؤلاء بالدخول لمن هم أرادوا، لأنهم طردوا من على أبواب الكنيسة كثيراً من المسيحيين ومن أتباع العقائد الأخرى الذين أرادوا الدخول معنا، وقد طردوهم بضربهم بعصيهم وبأيديهم، وأعترف أنني وأنا مار فيما بينهم لدى الدخول إلى الكنيسة، امتلأت بالاضطراب وشعرت بخجل عظيم، ولم أستطع أن أحدق بهم بسبب شعوري بالخجل والارباك، وليس بسبب ربطة الصليب التي حملتها فوق ثيابي، بل بسبب سلطانهم غير الشرعي وغير الديني على الذين يحملون الصليب، وهناك جلس أولئك الكلاب (كذا)، وكأنهم قضاتنا، ولاشك أنهم حكموا علينا بأننا حمقى، بسبب صليب المسيح: بسبب أن اسم الصليب وشارته هما حماقة بالنسبة لهم، مقدر لهما الزوال، وهكذا —على كل حال— قضت الحكمة الربانية، بجلب أتباع الذي صلب إلى المكان الذي وقف فيه الصليب، من قبل الذين نظروا باستخفاف نحو الصليب، حتى يمكن لهؤلاء أن يؤمنوا بحماقة الصليب، وأنهم بذلك يمكن أن يجري خلاصهم.

وماأن أصبحنا جميعاً بالداخل حتى قام المسملون برد أبواب الكنيسة خلف ظهورنا بسرعة وأغلقوها بالمزاليج والأقفال، مثلما اعتاد الرجال أن يفعلوا بعدما يدفعوا باللصوص بعنف في الزنزانة، وغادروا ومعهم المفاتيح، وبذلك تركونا لصوصاً في أروع السجون وأوسعها وأكثرها نوراً، وفي حديقة الضريح الأعظم تقديراً، ألا وهو ضريح المسيح، عند

سفح جبل الجمجمــة في وسط الدنيـا، آه كم هو سجـن ممتع! وكم هو اعتقـال مـرغــوب به! وكم هو حبس بهيج، وكم هـو عـذب أن يغلق علينا، وأن يبقى المسيحي في الداخل، ومسجوناً في ضريح ربه.

كيف تصرف الحجاج عندما دخلوا أولاً إلى الكنيسة وماالذي حدث مع الراهب فيلكس فابري في حجه الأول

انتبهوا يا إخواني، الصدق يرغمني أن أبدأ باخباركم عن غباء إهمالي، وإثمـي العظيـم، الـذي مـن أجله ألتمـس منكـم أن تصلـوا إلى الـرب لصـالحي حتى لايضع إثمي مـن أجل العقـاب في اليـوم الأخير، وهذا ماحدث لي، أنا الشقي، أثناء حجي الأول، فعندما أودعنا مغلق علينا في داخل الكنيسـة، ولم نعد نخـاف من أي انسان، لأن المسلمين لم يعـودوا بيننا، عندهـا بدأنا ونحن نشعــر بالبهجـــة بالركـض إلى هنا وهناك، في أرجـاء الكنيسـة، طالبين الأمـاكن المقــدسـة، من دون اتبـاع أي نظام، وذهب كل انسـان إلى المكان الـذي أراده بناء على طلب روحـه، وأنا لم أسرع، بل مضيت بخطوات بطيئة نحـو وسط الكنيسة، سـائراً من دون أي هدف معين، وبعـدمـا سرت نحو الأمـام مقـدار سبع عشرة خطوة وقفت ورفعت وجهي، أنظر نحو القنطرة التـي فوقي، وألقيت بناظري على النوافـذ العليـا بفضـول، مثل انسـان منحط يحدق بأمـاكن غـريبـة وبيـــوت من دون احترام لأي انسـان، وهكـذا وقفت مع نفسي بأعين جوالة.

وبينما أنا واقف هكذا من دون تفكير أو انتباه، جاء إليّ سيدتان، كانتا من الحجـــاج، وكـــانت أولاهن ألمانيـــة اسمهـــا هيلدغـــارد Hilde-garde وانكبتـا نحـو الأرض أمـام قـدمي، وتمددتا هناك تنتحبـــان وتتنهدان، وتقبلان الحجرة التي كنت واقفاً عليها، ودهشت، وارتبكت، وقلت بالألمانية لها: «ما القضية ياسيدة هيلد غارد، حتى تفعلين هكذا»؟

فأجـابتني، وهي تكاد لاتستطيع الكلام، بسبب نحيبها: «عجبـاً ياأخي، إن الحجرة التي أنت واقف عليها، هي حيث مدد يوسف ونيقوديموس الجسد الثمين جداً، العائد لربنا، عندما أنزل من على الصليب، وحنطاه، ولفاه بكفنه فوق هذه المنضدة الحجرية».

وعندما سمعت هذا ارتجفت، وسحبت قدمي برعب، وسقطت فوق الأرض أمـام الحجـرة، وكنت الآن مـرعـوباً مـن لمس الحجـرة بفمي، الحجـرة التـي لم أخف من السير عليهـا، من دون احترام ،بقـــدمي، وصليت ودعوت قائلاً: «يارب لاتتـذكر ذنوب شبابي، والذنوب الحالية الصادرة عن جهلي، مولاي وربي، عبدك المختار موسى، جاءه الأمر من قبلك، عندمـا كان في صحـراء مـدين، بأن يخلع نعليـه من قدميـه، لأن الأرض التي وقف عليها كـانت مقدسـة، ولم يتجرأ يشـوع المقدس على الوقـوف منتعـلاً في حقل أريحا، ومع هذا، أنا الفـارغ من كل قـداسـة، والمليء بالآثـام، تجرأت على الدوس بقـــدمـي المتنعلتين، وبدون احترام مطلق على المكان الذي قـدسته بشخصك، وبجسـدك الثمين جداً، وهو عريان ومجروح، هذا ولايمكنني أن أجد عذراً، لأننا قرأنا أن عزّه سقط ميتـاً لأنه وضع يده على العـربة التي حملت تابوت عهـدك، عندما كـان على وشك الوقـوع، وانظر إننا نمتلك هنا تحت أقـدامنـا مكانا لايمكن مقـارنته، فهـو أعظم من أرض/مدين، ومن حقل أريحا، والحجـرة التي هنا جديرة بالاحترام أكثر من عربة تابوه العهد.

وبناء عليه، مـولاي الرب، اغفر لي، ولسـوف أقدم لك كل الاحترام والتقدير في أماكنك المقدسـة، ولسوف أقدم لك كل شيء آخر مستحق، مع جميع الخشوع الذي أنا قـادر على تقديمـه، والذي أنت بذاتك سوف تضفيه عليّ».

وبعدما صليت على هذه الصورة، نهضت، وبحثت عن موالي ورفاقي في الكنيسة، فوجدتهم جالسين مع بعضهم في بيعة العذراء المباركة حتى

تتشكل المسيرة، وقام الآن الأب المسؤول باستدعاء جميع الحجاج، وأطلعهم على أحكام الكنيسة وعاداتها، حيث اختصرها لهم إلى ثلاثة عشر عنواناً:

أولاً: أنه أخبرنا، أنه ينبغي على كل حاج أن يشتري حامل شمعة، حيث يتوجب عليه حملها مشتعلة أثناء المسيرة، ذلك أن عدداً كبيراً من التجار قد دخلوا معنا، وهم يحملون حوامل شموع وأشياء أخرى للبيع.

وثانيها: طلب من الحجاج الانتباه والسير بشكل نظامي في المسيرة، وأن لايقف أحدهم في طريق الآخر، أو أن يتدافعوا ضد بعضهم، وذلك مثلما طلب منا في البند السادس الذي أعطي لنا في الرملة، ولأن المسيرة هنا التي سوف نبدأ بها والمشكلة هنا، هي أكثر قوة، وفيها تدافع أكثر، لذلك قام هنا بتكرار هذا الأمر مع عدة أوامر أخرى أعطيت لنا هناك في الرملة.

وثالثها: ينبغي أن نكرس هذه الليلة للرب، وأن نشارك في القداسات الليلية والقداسات الربانية الأخرى من دون تقاعس أو كسل.

ورابعها: هو أن لانجعل بيت الصلاة بيتاً للتجارة، وألا نجلس ونبدد وقتنا بالنقاش مع التجار المسيحيين الشرقيين.

وخامسها: هو أنه توجه بالرجاء إلى الذين هم رجال دين بالذهاب وإقامة قداسات دون أن يختلف أحدهم مع الآخر، لأنهم اعتادوا على التنازع حول الأماكن، فكل واحد منهم يريد إقامة قداس في الضريح المقدس لربنا، الأمر الذي كان مستحيلاً في يوم واحد.

وسادسها: هو أنه قام بتعيين أربعة مذابح من أجل المقيمين للقداسات، وهذه المذابح هي: أولها في الضريح المقدس، وآخر فوق جبل الجمجمة، والثالث في موضع وضع الحنوط للمسيح الذي تحدثت

عنه، والرابع في بيعة العذراء مريم، وبالإضافة إلى هذه المذابح كان هناك مذابح أخرى كثيرة في أجزاء مختلفة من الكنيسة، لكنها مملوكة من قبل المنشقين والمراطقة، ولذلك لم نقم قداسات عندها.

وسابعها: طلب من جميع الحجاج إعداد أنفسهم للاعتراف، وأن يتناول كل منهم القربان بعد القداس.

وثامنها: هو أنه أعطى الصلاحيات إلى جميع الكهنة من الحجاج، وإلى رهبانه الذين دخلوا إلى الكنيسة معنا، بسماع الاعترافات السرية والعلنية، والتحليل من جميع الذنوب، حتى من الذنوب المحفوظة للكرسي المقدس، لأن الأب المسؤول عن دير جبل صهيون لديه هذه السلطة، مفوضة إليه من البابا.

وتاسعها: منع كل كاهن من القيام بقداس القربان لأي حاج، وهو قائم في المكان الذي يعمل به القداس العام، وأمر أن يتلقى الجميع قداسات القربان، بعد قداس عال، على جبل الجمجمة، وذلك من كاهن معين هناك ومكلف، كل هذا مالم يرغب في منح امتياز خاص لواحد ما.

وعاشرها: حذر الحجاج من الارتكاء والجلوس على الأرض، أو أن يتركوا حاجياتهم، أثناء طوافهم حول الأماكن المقدسة في الكنيسة، وذلك خشية أن يفقدوها، بسبب أن أعمال اللصوصية غالباً ماتقع هناك، مما يثير كثيراً من الريبة والاضطراب.

وحادي عشرها: في حال أن أي انسان يرغب بتقديم صدقات في الأماكن المقدسة، يتوجب عليه في أثناء تقديمهم أن يؤثر بهم الكاثوليك، ولايعطيهم إلى المنشقين، وبين لهم أيها أماكن الكاثوليك وأيها كانت أماكن المنشقين.

وثاني عشرها: حذرنا، كما فعل في البند الأول مما قدمه لنا بالرملة،

بوجوب عـدم كسرنا لأي شيء من الأمـاكن المقـدسة، كما ينبغي أن لايرسم أي انسـان رنكه، خشيـة أنهم بعملهم هـذا يلوثون الأمـاكن المقدسة.

وثالث عشرها: رغـب إلينا في أن يرتفع كل منا في قـرارة نفسـه إلى روح الخشوع الحي، وأننا إذا مارغبنا بالإفادة مـن هذه الأماكن المقدسة، ينبغي أن نبدي نحوها التشريف والاحترام الذي تستحقه.

فيمايلي:

المسيرة حول الأماكن المقدسة في كنيسة الضريح المقدس، وأولها المسيرة إلى بيعة العذراء المباركة، ووصف هذه البيعة نفسها والأماكن المقدسة فيها

وبعـدمـا تلقينا هذه الأحكام، التـي كنا سنلتـزم بها أثناء وجـودنا في المعبد المقـدس، ذهب كل واحد منا إلى التجـار، واشترى كل انسان منا شموعاً من الشمع الأكثر بياضاً، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، مزينة أم ساذجة، كل واحد حسب رغبتـه، ولم يكن هناك نقص بالتفاخر العبثي، ذلك أنه حتى في هذا المجـال، كان لـدى بعضهم شموعـاً برمت بشكل غـريب وزينت بالذهـب، والرسـوم، حيـث حملوها بمبـاهاة، ونظروا باستخفاف إلى الذين حملوا شموعاً ساذجة، موجهين اللوم لهم من أجل تقتيرهم، وجلب بعضهـم كثيراً من الشمـوع، التي أشعلـوها في بيعـة الضريح المقدس، ثم أطفـأوها، وبعد ذلك أخـذوها معهم إلى الوطن في بلادهم، حيث جعلوا زوجـاتهم يحملنهـا عندمـا كن في فـراش الولادة، علهن يلدن من دون مخاطـر، ذلك أنهم يقـولون بأن هذه الشمـوع قـد استخدمت من أجل هذه الغاية.

وفي الوقت الذي كنا مشغـولين فيه بشراء شمـوعنا، قام الرهبـان مع الأب المسؤول بإعداد أنفسهم، فارتدوا الملابس المقـدسة، التي كانوا قد

جلبوها معهم من جبل صهيون، للقيام بمسيرة مهيبة، حول جميع الأماكن المقدسة، وفق النظام نفسه الذي توفر على جبل صهيون، حسبما تحدثنا في ص٤٠١.

وهكذا عندما وقفنا جميعاً مع شموعنا وهي تحترق، بدأ قائد الجوقة الذي وقف على رأس المسيرة، بصوته المرتفع يغني salve Re-gina، التي غنيناها معه، ووصلنا ونحن نرتل هذه الترنيمة في المسيرة إلى بيعة مريم العذراء المجيدة، وإلى المذبح القائم أمام البيعة، ففي هذا المكان —تبعاً لبعض المرويات القديمة— بقيت مريم العذراء المباركة، من الساعة التي أنزل بها ابنها من على الصليب، حتى ساعة قيامته من الموت، ثم إنها لم تدخل إلى مدينة القدس ثانية.

ذلك أنه كان على مقربة من صخرة الجمجمة حديقة، فيها سكن عدد من الناس الفقراء، حتى في هذه الأيام هناك حدائق خارج المدينة، يوجد فيها بيوت، يسكن فيها أصحاب الحدائق عندما يرغبون، إنما في بقية الأيام يسكن الناس الفقراء فيهم، وهكذا بعدما جرى تعليق الرب يسوع على الصليب، عهد بالعناية بأمه ورعايتها إلى يوحنا، ولذلك أبعدت عن الصليب، غير أنها لم تدع نفسها، بأية وسيلة من الوسائل أن تقتاد بعيداً عن صليب ابنها، أو أن تدخل إلى المدينة، لأنها كانت تعلم أنه لايوجد في القدس كلها مكاناً لإقامتها، بسبب عار ابنها الذي كان عظيماً إلى حد دفع الناس إلى الابتعاد عن استقبال أمه في بيوتهم، ولذلك سمحت لنفسها بأن تقاد إلى مكان إقامة ليس بعيداً عن الصليب، حتى لاتبتعد عن ابنها عندما كان يموت ويسلم الروح، بل أرادت أن تشارك في آلامه كلها، علاوة على ذلك لقد رغبت في أن تعرف وأن ترى ما الذي سوف يصنع بجسد ابنها بعد الموت، من أجل أنه إذا ما رمي في العراء —كما كانوا يفعلون بالأشخاص المدانين الآخرين— أن تحمله إلى نفسها، أو أنه إذا ما دفن أن تكون حاضرة لدى الدفن، وأن تقوم

بطقوس الجنازة والدفن، وهو —في الحقيقة— مافعلته، لأنها عندما رأت يوسف ونيقوديموس يعدّان العدة لدفن ابنها، ركضت نحوهما بذاتها وهي مليئة بالحزن، وحضرت عملية الدفن، وأحضرت بعد ذلك إلى هذا المسكن، ولم تتحرك من هناك ولم تغادر تلك البقعة.

وفي الحقيقة اعتادت أمهات أُخر مغرمات، على فعل مثل هذا لأولادهن المحبوبين، وكن إذا ما أصبن يبقين دوما يبكين عند قبور أولادهن الأعزاء عليهن،حتى مريم المجدلية كان من الصعب ابعادها عن قبر أخيها لعازر كما قرأنا في الاصحاح الحادي عشر من انجيل القديس يوحنا، فكيف أكثر من ذلك، كانت وقتها مريم العذراء الأعظم مباركة، التي أحبت ابنها بمالايقارن به حب أي أم أو صديق لمن هم أعزاء عليهم! وعلى هذا، كان إلى هذا المكان، أن قدم المسيح أولاً بعد قيامته، ويحدثنا فنسنتوس Vincentius الذي كان من طائفة الرهبان المبشرين، أنه عندما قام الرب من الموت، بعث بجبرائيل أمامه ليبشر أمه، أن قدوم ابنها الأعظم مجداً سيكون بالحال، وبعد ذلك ظهر ابنها نفسه، مرتديا ثياباً ناصعة البياض، وبملامح مستبشرة، وبجمال، وببهاء، وببهجة، وكانت ندوبه تشع بشكل متألق، وقد بدا مسروراً، وحيا أمه، بولهٍ عظيم، وكان قد اقتاد من خلفه جميع القديسين الذين أحضرهم من العالم السفلي، وهنا من الذي هو قادر أن يخبر بأية بهجة شعرت العذراء المجيدة؟ ولهذا غنينا في هذاالمكان المقدس تراتيلنا بسرور، وعندما فرغنا من أغانينا، وانتهينا من القداس المذكور في كتب المسيرة، دنونا من المكان، وجثونا هناك، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

المكان المحفوظ فيه قطعة من العمود الذي عنده جلد يسوع

وما أن فرغنا من غناء الترنيمة المحددة، حتى تقدمنا نحو الأمام باتجاه اليمين، وكان يوجد هناك نوع من الكوى، أو نافذة مغلقة، في الجدار، ووقف في هذه الكوة جزء كبير من ذلك العمود الثمين جداً،

الذي إليـه كان الرب يسـوع قـد ربط، وهو عريان، في بيت بيـلايطس، وجلد بشكل وحشي بالأسـواط وبالعصي، وصعدنا واحـداً تلو الآخر، ولمسنا العمـود المقـدس بأيدينا، حيـث أمررنـاهم من خـلال شبكة حديدية، وهنا أيضاً تلقينا غفرانات مطلقة،(++).

وجلب هذا العمـود في غـابر الأيام، بكامله من بيـت بيـلايطس إلى جبل صهيون، ولهذا قـال القديس جيروم عن باولا: «لقـد أريت (يعني باولا المقـدسـة) على جبل صهيـون العمـود الذي دعم رواق الكنيسـة، وكـان لون هذا العمود أحمر مع دم الـرب، وهو الذي إليه ربط يسـوع، عندمـا أحضر ليجلد»، لكن بعـد دمـار كنيسة جبـل صهيون القـديمـة —كما قلت من قبل— جلب شطر منه إلى هاهنا، وهناك جزء ثالث منه في كنيسة القديس براكسيد Praxede في روما، وقطعة رابعة منه في ليـون في كنيسة القـديس هيركـانوس Hyrcanus العدل، كما أن هناك قطعـاً أخـرى منه في كنائس في أجـزاء أخـرى مـن العـالم أيضـاً، والقطعـة القـائمة في هذا المكان هـي حوالي الشبر، وسماكتهـا بالعـرض ثلاثة أصـابع، وأربعـة أشبـار بالارتفـاع ولونها أرجـواني، محلى بنقـاط حمراء، ومـرد هذا إمـا طبيعـة الحجـر، أو كما ارتأى جيروم وبيـد، إلى معجزة.

المكان الذي حفظ فيه الصليب بعد اكتشافه وقبل فقدانه

واستـدرنا في هذا المكان إلى الجزء المقـابـل من البيعـة، وهناك يوجـد أيضـاً فجوة في الجدار، حفظت فيـه قطعـة من الصليب الأعظم قداسـة لمدة مائتي سنة، وكانت مرصعة بكثافة بالذهب، والفضة وبالمجوهرات، وقد تولت ذلك حنة (هيلانه) الواسعة الشهرة، فهي التي عثرت عليها، فهي كانت قـد وجدته كاملاً، فأمرت بقطعـه إلى نصفين، وتركت نصفاً هنا، بينما نقلت النصف الآخـر إلى القسطنطينيـة، وطـوال الوقت الذي وقف فيـه الصليب المقـدس في هذا المكان، ازدهرت الكنيسـة الشرقيـة،

وازدادت، وحوت أكثر الناس قداسة، وانتصرت دوماً على أعداء صليب المسيح، لكن حالما انتزع وأخذ بعيداً، ترنحت الكنيسة، وغدت أكثر غرقاً.

وقد قدمنا الاحترام إلى هذا المكان، مع أنه كان خاوياً، وغنينا هناك ترنيمة الصليب المقدس الموجودة في كتب المسيرة، لأنه وإن كان غائباً، نحن رأينا الأمر وكأنه موجود، لأنه ونحن نفكر هكذا، صدرت روائح جميلة وانتشرت من ذلك المكان الأثري، وكأن هذه الروائح قد تخلفت هناك من قبل الصليب المقدس، وليس في هذا من عجب، لأنه بعد ما يجري صب الخمرة من الوعاء، يبقى الوعاء محتفظاً برائحة الخمرة، ومثل هذا مكان حفظ الذخائر هذا، الذي كان حاوياً الخشبة، التي لديها القدرة الدائمة على انقاذ الحياة، بقي هذا المكان محتفظاً برائحة الخشبة فيه، وفي الحقيقة حتى يكون من الممكن لهذا المكان أن يصبح أكثر جدارة بالاحترام، أقاموا صليبا هناك، ومع هذا الصليب، قطعة صغيرة من الصليب الحقيقي للمسيح، أقحموها فيه، وقد قبلنا هذه القطعة، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي تبرهن فيه أن الصليب المقدس هو الصليب الحقيقي بإقامة رجل ميت وردّه إلى الحياة

وعندما فرغنا من أعمال تعبدنا في ذلك المكان، انطلقنا، ونحن نغني ترنيمة أخرى، وأتينا إلى وسط البيعة، حيث الموضع الذي إليه جلبت الصلبان الثلاثة بعد اكتشافها، من أجل المعرفة بالبرهان أيها كان صليب المسيح، وجلب لهذا الغرض رجل ميت، ولدى لمسة لصليب المسيح قام حياً، وهنا توجد بيعة للاتين، ومامن أمة لها أي حق هناك فيها، باستثناء اللاتين فقط، وحراس الضريح المقدس، الذين يمثلون اللاتين، ويقومون بوظائف القداسات هناك، ويمتلكون خلف هذه البيعة غرفاً، فيها يطبخون ويأكلون وينامون، ويفعلون مايحتاجون إليه، وجرت

العـادة أن يكون للرهبـان الفـرنسيسكان ثلاثة رهبـان يسكنون في ذلك المكان، وقد نمت لساعات طوال في أوقات متفرقة في مهجع الرهبان.

المكان الذي ظهر فيه ربنا إلى مريم المجدلية على شكل بستاني

وبعـد زيارتنا لهذه البيعـة خـرجنا منها على شكـل رتل لننزل إلى الكنيسـة، بوساطة أربع درجـات، وعند نهاية الدرجات وصلنا مباشرة إلى مكان فيـه دائـرتين في البلاط، وتبعـد كل دائـرة خمس خطوات عن الأخـرى، وهما مصنوعتان من رخـام مصقول ومتعـدد الألوان، ووقفنا حول هاتين الـدائرتين، ونحن ننشد التراتيل الموائمـة لهذا المكان، وذلك حسبما جـاء في كتب المسيرة، ويقـال بأن هذا هو المكان الذي ظهـر فيـه الرب يسـوع إلى مريم المجدليـة على شكل بستاني، وقـد وقف الرب في مكان الدائرة الأولى، ووقفت مريم في مكان الدائـرة الثانية، وهنا ارتمت مريـم على قدميه، ولم يسمح لها أن تلمسـه، بسبب أنه لم يكن قـد صعد إلى ربه بعـد، حيث نقـرأ عن هذا مطولاً في الاصحـاح العشرين من انجيل القديس يوحنا.

ويمكن للحـادثة التي وقعـت هنا أن تلهم الحجـاج بخشـوع عظيم، الذين استـوعبـوا بقلوبهم المثل الذي ضربتـه مـريم، فهي عندمـا لم تجد الذي بحثت عنه في الضريح، ركضت حول زوايا الحديقـة كلها، إلى هنا وإلى هناك، وهي تتحرق بنار الحب، إلى حد نست فيـه ضعفها النسائي، ولم تخف لامن الظلام الدامس، ولا مـن الرعب الصـادر عن المعـذبين، ولم تعبأ بحـراس المكان، بل ركضت نحـو الأمـام ونحـو الخلف، وهي تبكي، وتلهث، وتتـأوه، ولاشك أنها لو أخبرت وقيل لها:«عجبـا، إن الذي عنه تبحثين، قـد عبر البحـر الكبير، واجتاز جبـال الألب، وأخـذ نفسه من الشرق إلى الغرب، وهو الآن في أقصى منطقة باتجاه الغرب»، لقـامت على الفـور، على الرغم من آلاف المخـاطر، فعبرت البحـر، واجتازت جبال الألب، وطافت في بلاد الغرب، ولذهبت حتى إيرلندا،

التي هي أقصى جميع البلدان نحو الغرب، لكن الرب الكريم ظهر لها هنا، في هذا المكان، وهولذا لن يخفي نفسه عن الذين قدموا إلى هاهنا من الغرب، من خلال كثير من البلدان المخيفة، ومن البحار الخطيرة، قدموا يبحثون عن الذي يحبونه، وذلك دون أن أنسى ذكر الوعد الذي قطع في الاصحاح الثامن من زكريا في قوله:«هكذا قال ربّ الجنود، ها أنذا أخلص شعبي من أرض المشرق، ومن أرض مغرب الشمس، وآتي بهم فيسكنون في وسط القدس، ويكونون لي شعباً، وأنا أكون لهم ربا» (زكريا:٨/ ٧—٨).

وبناء عليه انحنينا بأنفسنا نحو الأرض عند قدمي الرب يسوع، وقبلنا مكان طبعات قدميه، وتلقينا غفرانات(+).

مكان السجن الذي كان على مقربة من صخرة الجمجمة، حيث سجن فيه المسيح بعدما غادر قاعة المحكمة

وغادرنا هذا المكان، وتابعنا سيرنا ونحن نغني في المسيرة، ودخلنا إلى بيعة مظلمة منحوتة من الصخر، كانت بلانوافذ، وفيها مذبح واحد، ولها بابين صغيرين، وكانت هذه البيعة في أيام المسيح سجناً، أو حبساً قرب جبل أكرا، بنيت بقصد أن يسجن فيها الذين حكم عليهم بالاعدام، وتقرر تنفيذ الاعدام بهم، وذلك ريثما يتم تجهيز أدوات تعذيبهم، مثل الصلبان، والمشانق، والدواليب، والحطب للنار، وما ماثل ذلك، وكذلك من أجل أن يتمكنوا من شرب الخمرة ليجعلوا أنفسهم سكارى هناك، لأن العادة جرت بجعل الذين سوف يعاقبون بالموت سكارى بأقوى أنواع الخمرة، من أجل أن لايخافوا من الموت كثيراً، وأن يتحملوا عذابهم بشجاعة أكبر، وبناء عليه حتى يمكنهم الشرب بعمق أكبر، كانوا يحبسون هناك مع خمرة، حتى يمكنهم أن يسكروا دون أن يشعروا بالخجل.

وبناء عليه عندما جلب الرب يسوع إلى هنا مع صليبه، حبسوه في هذه الزنزانة، وكان ذلك أثناء إعداد فجوات ثلاث في صخرة الجمجمة، من أجل ثلاثة صلبان، وفي الوقت نفسه حتى يسكر، أعطوا الرب «خمرة ممزوجة بمرّ» (مرقص:١٥/ ٢٣)، وقد كانت مرّة جداً، ولهذا رفض الخمرة المعروضة عليه، حسبما جاءنا الخبر في النص نفسه.

وشعرنا في هذه الزنزانة بالحزن، وتفكرنا كيف ان الرب يسوع قد بكى هنا فيها، وانتظر عذاب الصليب برعب يساويه رغبة، ولذلك دخلنا إليها واحداً واحداً، بالآهات وبالتنهدات، وقام كل واحد منا بدوره بالإنحناء نحو الأرض، وقبل أماكن طبعات قدمي مخلصنا، وتلقينا هناك غفرانات(+).

المكان الذي اقترع فيه الجنود على ثياب المسيح واقتسموها فيما بينهم

وتابعنا سيرنا، فعبرنا من سجن المسيح إلى بيعة أخرى، لها ثلاث نوافذ مغلقة، فهناك بعدما جرى ربط الرب يسوع إلى الصليب، وقف صالبوه ورموا القرعة من أجل معرفة الذي يمكن لكل واحد منهم أن يأخذه من ثياب يسوع، ووزعوا بقاياه إلى أربعة أجزاء، آل كل جزء منها إلى جندي، واقترعوا على قميصه الذي لانظير له، لأنه يمكن أن يكون بلا فائدة إذا ماقطعوه، ولهذا جلسوا في هذا المكان ورموا القرعة، مظهرين ازدراء عظيما نحو المسيح، وثارت هنا شفقتنا بسبب تعرية المسيح، وعندما فرغنا من غناء قداسنا، قبلنا المكان، وتلقينا غفرانات(+).

المقعد الذي جلس عليه الرب يسوع أثناء تتويجه الوحشي

وبعدما غادرنا تلك البيعة، تابعنا تقدمنا إلى أماكن بعدها، ونحن ننشد ترنيمة حزينة حول تتويج الرب، وكيف جرى تتويجه بتاج من

شوك، ووصلنا إلى بيعة أخرى مظلمة، كانت نافذتها الوحيدة مغلقة بالحجارة، وقد كان فيها مذبح جميل، غير مكسور، إنما من دون تعليق، الخ، ووقفت تحت هذا المذبح حجرة مستديرة، بدت وكأنها قطعة اجتثت من عمود، وكانت هذه الحجرة قائمة في أيام آلام المسيح في بيت بيلايطس، أمام اسطبل للبغال، وكانت بمثابة مقعد، ذلك أنها أعدت لتكون موائمة للجلوس عليها، وبناء عليه عندما أرادوا تتويج الرب بتاج من شوك، دحرجوا هذه الحجرة من مكانها، وأخذوها إلى دار الولاية، وأجلسوا الرب عليها، وتوجوه بالشوك، وهو جالس على الحجر.

وبعد آلام المسيح، جلب المؤمنون تلك الحجرة إلى هنا، لتكون ذكرى دائمة على ذلك التتويج الساخر والوحشي، ولهذا سجدنا بأنفسنا على الأرض، وبعباده منا للرب لمسنا هذه الحجرة بأيدينا، وقبلناها بأفواهنا، وتلقينا غفرانات(+).

واستحضرنا إلى ذاكرتنا كل ماعاناه الرب، وهو جالس على تلك الحجرة، وكيف جرى إلباس الرب يسوع ثوباً أرجوانيا للسخرية منه، وجعلوه يحمل في يده قصبة عوضاً عن الصولجان، وهو متوج بتاج من شوك، وربطوا عينيه، وبصقوا عليه، وضربوه، ولطموه بأيدي الرجال، وجرحوه بالقصبة، وخاطبوه قائلين:« سلام ياملك اليهود»، وسموه نبيا، وجرحوه بآلاف إبر الشوك، وعرضوه للسخرية العامة، وهكذا أجلسوه على هذه الحجرة، وهو مثقل بالازدراء، أجلسوه مثلما يجلس ملك على العرش، ولاشك أن هذا يظهر بوضوح، أن مملكته لم [illegible] في هذا العالم، ولهذا لم يعترف القديسون بالمسيح ملكاً، إلاّ عندما [illegible] متوجا على هذه الحجرة.

وقرأنا عن القديس مارتن، أن روحاً شريرة ظهرت إليه، وهي لابسة لتاج ذهبي ولثوب أرجواني، ودارت هناك بأبهة، قائلة بأنها كانت هي

المسيح، وأجاب مارتن هذه الروح بقوله:«أنا لاأعرف مسيحاً إلاّ وهو لابس لتاج من شوك، وعليه علامات الصليب»، ولدى سماع الشيطان لهذا ذهل وهرب، وقرأنا مثل هذا عن القديسة كاترين السيناوية، عندما أفتري عليها بشكل معيب من قبل امرأة شريرة، انزعجت واضطربت، فحملت نفسها إلى الرب، وطلبت منه الدفاع عن براءتها، فظهر المسيح لها، وقد حمل بيده اليمنى تاجاً من ذهب يتلألأ بالجواهر. وفي يده اليسرى تاجاً من شوك يخز بإبره، وقال لها:«اختاري ماتريدين، إما أن تتوجي في مسار هذه الحياة بتاج من شوك، وأنا سوف أدخر لك تاجاً آخر ثميناً من أجل حياة أبدية، أو أن تأخذي هذا التاج الآن، وهذا التاج الشوكي سوف يدخر لك لما بعد الموت»، وأجابته العذراء قائلة:«مولاي، لقد اخترت دوماً في هذه الحياة أن أتأسى وأتمثل بآلامك المباركة جداً، ولقد عملت الآن اختياري»، وعندما كانت تقول هذا، انتزعت بيديها معا تاج الشوك من يد المخلص، ووضعته على رأسها بقوة بلغت حداً، أنه بعد إنتهاء الرؤيا، شعرت بألم واضح في رأسها من خلال وخز الشوك.

ومثل هذا فعل الملك المجيد، بلدوين ملك القدس، الذي كان أول ملك لاتيني مسيحي قد حكم هناك، فقد اتخذ شعاراً لملكه تاجاً ليس مصنوعاً من الذهب، بل من الشوك، وذهب وتجول دوماً متوجاً بهذا التاج في أيام الدولة المهيبة، لابل حتى عندما كان ملوك آخرون في حضرته، وكان يقول: إنه من غير اللائق لانسان مذنب أن يسير أمام الناس، كملك للقدس، وهو مزين بتاج من ذهب، في حين جرى تتويج ملك السماء في القدس بتاج من شوك.

وينمو في أحواز القدس شوك حاد جداً، صنعت منه تاجاً، وحملته معي إلى أولم، وينبغي أن لانعتقد أن الشوك الذي استخدم لتتويج المسيح، كان شوكاً بحرياً، بل كان شوكاً عاديا، مما ينمو في أحواز

القـدس، وعلى جبـل صهيـون، وعلى جبل الزيتـــون، وفي الوديان، لأن تتويج المسيح لم يكن عملاً مدبراً لامن قبل اليهود أومن غير اليهود، بل كـان عندما أحضر أمـام القاضي، واتهم بـأنه قال بأنه المسيح، وأنه كـان ملكاً، ووقتها جاء إلى أذهانهم فجأة أنه ينبغي تتويجه سخرية منه وتعذيباً له، فكان أن أحضروا شوكـاً من أقرب الحقول، أو ربما وجـدوا الشوك في مطبخ بيت (بيـــلايطس) بين حـــزم الحطب من أجل النـار، لأنني شـاهدت بناظري، أنهم حتى في هذه الأيام ليس لديهم حطبـاً للنار غير الشوك، وأن مطابخهم كانت مليئة بأشواك حادة جداً من أجل احراقها بالنار.

بيعة القديسة هيلانة المكتشفة للصليب المقدس

وعندمـا غادرنا تلك البيعـة، مضينا في طريقنا، وطفنا حول الكنيسـة من الداخل، وُنحن نغني ترنيمـة القديسة هيـلانة، كما جرى تحديدها في كتـاب المسيرة، ووصلنا إلى باب كبير في جدار الكنيسـة، وبما أنه يوجـد خـلال هذا البـاب ممر إلى خـارج الكنيسـة، سرنا من خـلال البـاب في ظلام، انقشع بمصابيحنا، وشعرنا على الفـور بوجود درج حجري تحت أقـدامنـا، وهكذا نزلنا ثلاثين خطوة أو درجـــة، إلى بيعـة اسمهـــا بيعـة القديسـة هيلانة، وهي مـوجودة تحت الأرض، وعندما فـرغنا هناك من ترتيل صلواتنا، جثونا ودعونا، وتلقينا غفرانات(+).

وهذه البيعـة ذات حجم جيـد، وجـدرانها من صخـر، حيث نحتت نحتـاً، ومثل ذلـك الدرج من الكنيسـة في الأعلى، والذي يقـــود نحـو الأسفل بين جـدارين من الصخـر، وفي الأعلى هي مقنطرة، وهي تتلقى الضـوء من خلال سقف مقنطـر، وهذه القناطر مدعـومـة بستة أعمـدة رخـامية، ويقـال بأن هذه الأعمـدة كـانت في أيام آلام المسيح —تدعم قـاعـة المحكمـة، التي حكم فيهـا على الرب، وأنها جلبت إلى هاهنا من قبل القـديسـة هيـلانة، وهذه الأعمـدة سـوداء، وهي مصقـولة تتعـرق

بشكل دائم وتنقط المياه منها نقطة نقطة، وعندما يمسح إنسان هذه النقاط بيده أو بثيابه، تتدفق على الفور نقاط جديدة، ويقول عامة الناس بأنها بدأت هذا التعرق الإعجازي، عندما جرى الحكم على المسيح وعوقب في قاعة المحكمة، وماهذا التعرق إلاّ دموعها على يسوع المسيح البريء، وينبغي أن لانرفض كلياً رأي عامة الناس هذا، لأنه من المؤكد ليس جميعه واهم، لأنه إذا أمكن القول بأن الحجارة يمكنها أن تغني أماديحاً إلى المخلص، عندما يكون الناس ساكتين، كما قرأنا في الاصحاح التاسع عشر من انجيل القديس لوقا، فماهو وجه العجب هنا إذا ما بكت الحجارة من أجل موت المخلص، في حين ضحك الناس من ذلك وسخروا؟ فكما حدث في يوم أحد السعف حين صرخ أطفال اليهود مع حواريي المسيح «المجد» وكانت الحجارة صامتة، الآن صمت هؤلاء، فصرخت الحجارة بصوت مرتفع، ومثل هذا عندما بكى الناس لبراءته ولموته الوحشي، لم تقم هذه الحجارة بذرف الدموع، إنما عندما لم يبك الناس، ذرفت الصخور الدموع، لابل أكثر حيث أننا قرأنا أنهم تصدعوا وتفتتوا عندما مات المسيح، ولذلك لايوجد عدم امكانية في الاعتقاد التقوي للناس من العوام، الذي يعلن أن هذه الأعمدة قد بكت لدى موته، سوى أن ذلك غير مذكور في الكتابات المقدسة، وفي الحقيقة إنه أسهل على الصخرة أن تبكي من أن تغني للحمد، علاوة على ذلك إنهم يقولون بأن هذه الأعمدة تبكي هكذا باستمرار، بسبب أن الناس يبتهجون ويضحكون، في الوقت الذي يتوجب عليهم فيه الاستمرار بالبكاء والنحيب لآلام المسيح، ولذنوبهم ولشقاء هذا العالم الشرير، ويقولون إذا ماتوقف الناس عن المبالغة بالسرور، ستتوقف هذه الأعمدة عن ذرف الدموع.

ويقول آخرون من بسطاء الناس، ويروون جميعا بايمان عن هذه الأعمدة، في أنه أثناء آلام المسيح خاطبت العذراء مريم هذه الأعمدة،

وهي تبكي وتنتحب لوحـــدها وقـالت لهم:«لايوجـد أحـد يشـاركني أحــــزاني، فكيف يمكنني أن أصبر على تحمل هـذا الثقل مـن الآلام لوحـدي؟ إبـك معي، أيتهـا الأحجـار»، ولـدى تلفظهـا بهذه الكلمات بدأت الأعمـدة تقطر مـاء، ولعل هذه الأعمـدة هي التي أشير إليهـا في الحكمـة:١١ في قـوله:« لقـد منحـوا مـاء من أعماق الصخـر، وأعطيـوا الخلاص من العطش من الصخـر الأصم»، وفي حبقـوق٢/ ١١ قـوله:« لأن الحجر يصرخ من الحائط»، وفي أيوب:٩/ ٦ قـوله:«المزعزع الأرض من مقرها فتتزلزل أعمدتها».

وهذا الذي قلته أعـلاه حول الأعمدة قد سمعتـه من كاثوليكي تقي بسيط، ومن امـرأة تقية لايجوز لي الاستخفـاف بتقـواها، أو التقليل من شأن غيرتها، ومع هـذا إنني أعلم بشكل تـام، أن مـــايحدث لأسبـــاب طبيعية، ينبغي عـدم عزوه إلى المعجزات، لأن هناك بعضـاً من الحجارة، ونوعـاً من الرخام اسمــه endroson ترشح منه المياه، في أي مكان من المبنى وضع فيه، فبسبـب طبيعته الفائقـة البرودة يقوم بتكثيف الهواء من حـوله، ويحوله إلى مـاء، ومن الطبيعي أن الهواء الذي تحول إلى مـاء على وجه الحجر، أن يرشح ويتقـاطر على شكل نقط من الحجر، ويحكى أن شيئاً من هذا القبيل قــد وقع في القصر القـديم في القسطنطينيـة، في احدى الغـرف، التي كانت فيهـا قشور صخـرية رخامية من هذا النوع نفسه، وكـانت هذه القشور تملأ نفسها ذاتيـا بالماء، ثم إنها بعدمـا كانت تفرغ، وتصبح خاوية تمتلىء ثانية، دون أن تملأ من قبل أي انسان، ونظر عـامة الناس نحـو هذا الأمـر باندهاش كـامل، وعدوه معجـزة، مع أن ذلك كـان يحدث بتفـاعل الطبيعـة، وبـالصـورة ذاتها أنا أعتقـد أن هذه الأعمـدة من رخـــام الـ endroson ، أي أنها من حجارة هي رطبة بصورة طبيعية، والماء ينقط منها.

ويوجد في هذا الكهف نفسه قشرة حجـرية، عُمّرت في الجدار، قرب

المذبح، قصد منها أن تستوعب ماء مقدساً، وكانت دوما تفرّغ وتصبح بلاماء مقدس، وعندما يضع انسان رأسه في هذه القشرة، ويصغي، تراه يسمع صوتاً مثل الهدير، وانبعاث لهيب النار، أو مثل اندفاع مياه كثيرة، وبشكل خاص عندما يكون انسان لوحده في البيعة، ويرغب في سماع هذا الصوت، تراه يسمع صوتاً مخيفاً مزعجاً، مثلما سمعت ذلك مراراً، وعندما يستمع الناس البسطاء لهذا الصوت، يخافون كثيراً، ويقولون بأنه يوجد تحتها مكان للتعذيب، أو جحيم، وأن هذه الأصوات سببها انزال العقوبات، وهي هدير العذاب وزئيره، غير أنني أعتقد بأن هذه الأصوات سببها هنا، سير الناس ومشيهم حول الكنيسة بالأعلى.

ويوجد على جانبي الدرج كهوف واسعة وعالية، منحوتة من الصخر، وكانت فيما مضى قد كرست بيعاً مع مذابح، وهم جميعاً بلاضوء، وإنه لأمر رائع أن ترى خشوع الأقدمين من الناس في هذه الأماكن وفيما شابهها من القضايا والحالات، وتحتوي هذه البيعة على مذبحين، ويوجد قرب الأكبر بينهما، على جهته اليمنى، كرسي من الحجر، وعلى مقربة من الكرسي هناك نافذة منجورة من خلال الصخر، من خلالها يمكن للانسان أن يتطلع إلى الحفرة التي عثر فيها على الصليب المقدس، ويقولون إنه عندما وجدت هيلانه الصليب المقدس، قامت أولاً ببناء هذه البيعة، وأنها طوال الوقت الذي جلست فيه على هذا الكرسي، كانت ترمي بانظارها بشكل مستمر من خلال هذه النافذة إلى الكهف حيث وجدت الصليب.

وقد جلست هناك باستمرار، حيث كانت تشير إلى البنائين وتدلهم على الشكل الذي عليهم أن يبنوا فيه الكنيسة، وهناك كانت تدفع النفقات، وكان في واحد من هذه الكهوف المظلمة فراشها، وهناك أقامت مع وصيفاتها ليلاً ونهاراً، حتى انتهت عمارة الكنيسة كلها، ويطلق بعضهم على هذه البيعة اسم بيعة القديس جيمس، أي القديس

جيمس الذي كان أول أسقف للقدس، فقد كان عرشه فيها، ولهذا يطلقون على الكرسي اسم عرش القديس جيمس، لكن هذاغير معقول، لأنه في أيام القديس جيمس لم تكن هناك كنيسة، بل مجرد مكان خارج أسوار المدينة، وكان مكاناً سيء السمعة، لأنه على مقربة من جبل الجمجمة.

الكهف الذي عثر فيه على الصليب المقدس من قبل القديسة هيلانة

ومن هذه البيعة، نزلنا ثانية ست عشرة درجة، كانت موجودة على جهة اليمين، وكنا نغني ترنيمة الصليب المقدس، ووصلنا إلى بيعة أخرى، كانت مظلمة تماماً ومحرومة من ضوء النهار، غير أنها كانت مضاءة بكثير من المصابيح، وعند قاعدة هذه البيعة، هناك حفرة مقدار طولها اثنتان وعشرون قدماً، مغطاة بالصخرة، ففي هذه الحفرة، وجدت الامبراطورة المقدسة هيلانة، ذلك الكنز الثمين جداً، الذي أقام مخفياً لمدة تزيد على ثلاثمائة سنة، فقد وجدت هناك الصلبان الثلاثة، وتاج الشوك، والمسامير، واللوحة الصغيرة التي كتب عليها العنوان ووضعت فوق الصليب، والسنان الحديدي للرمح الذي خرق به قلب المسيح، والقصبة مع الاسفنجية، والأدوات التي استخدمت في صنع صليب المسيح مع صليبي اللصين، فجميع هذه الأشياء قد ألقي بها مع الصليبان في هذا المكان، بسبب عدّهم مدنسين.

ووقفنا من حول هذا الكهف المقدس نغني ترنيمة في مدح الصليب وتمجيده، وهو الذي عثر عليه هناك، وأنحنينا بأنفسنا واحداً تلو الآخر نحو الأسفل، وقبلنا الموضع، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

وفي المكان الذي طبعنا فيه قبلاتنا شعرنا برائحة حلوة صدرت من الكهف، وقد انتعشنا بهذه الروائح كثيراً وسررنا، وشعرنا بالراحة،

حيث رأينا أننا وجدنا أهلاً لتلقي آخر آثار تلك الرائحة الطيبة، وهي الرائحة التي انبعثت من ذلك الكهف عندما اكتشف يوداس قورينوس Jodos Quirinus الصليب أثناء حفره هناك، فهذا ماقرأناه في رواية اكتشاف الصليب المقدس.

وهذا المكان مخيف، وهو غارق بعمق بين الصخور، لكن كيف حدث أن الصلبان قد دفنت تحت مثل هذا العمق في قلب الأرض؟ هذا أمر من الممكن فهمه بسهولة من قبل أي انسان فهم وقرأ أوضاع المدينة المقدسة، فقد كانت مدينة القدس القديمة محاطة بهوة عميقة من الجهة الغربية، وذلك حيث جرى صلب الرب، وقد امتدت تلك الهوة من الجنوب إلى الشمال على امتداد طول المدينة، وكانت هذه الهوة مصنوعة بشكل طبيعي، ولم تكن خندقاً معمولاً للمدينة، وقد تشكلت من صخور على شكل جروف متحدرة مقابل بعضها بعضاً على طرفي الهوة، ويقوم فوق الحافة الداخلية للجروف والصخور، سور المدينة، وتقف حواف الصخور من الخارج بمثابة دفاعات المدينة، وبين الكتل الصخرية للحافة الخارجية كتلة كان اسمها أكرا (الجمجمة)، وكان تحتها مكان اسمه الجلجلة، وفوق أكرا جرى صلب الرب مع اثنين آخرين، وعندما أنزلوا من فوق الصلبان، قام الذين نفذوا فيهم الأعدام، برمي الصلبان في الهوة، مع جميع الأدوات التي عادت إلى المصلوبين، لأن أكرا قامت على حافة الهوة، ولم يكن عليهم سوى سحب الصلبان من الفجوات في الصخرة، ورميهم في الهوة، وذلك مثلما اعتادوا على رمي الفضلات الأخرى فيها، ولهذا مالبثت الصلبان أن تغطت، لأنهم كانوا يوميا يرمون بالفضلات من فوق سور المدينة.

وأخيراً عندما هدم تيتوس القدس في السنة الثالثة والأربعين بعد آلام المسيح، أمر برمي الأسوار والأبراج التي كانت قائمة هناك، في تلك الهوة، وبذلك صارت الصلبان يوماً فيوماً مغطاة بشكل أعمق أكثر،

وبعد مضي سبعة وسبعين عاماً جاء الامبراطور اليوس هادريانوس، الذي قام —صدوراً عن كراهيته للمسيحيين— ببناء معبد مدنس جداً، فوق الجلجلة، وضع فيه تمثالاً من الرخام لفينوس، وذلك حسبما روى لنا القديس جيروم، في رسالته إلى بولينا Paullina،وقام بالوقت نفسه، صدوراً عن كراهيته لليهود فنصب تمثالاً يشبهه شخصياً في المكان الذي قام فيه فيما مضى هيكل الرب، وذلك حيث عمل اليهود مزاراً لأنفسهم، ومأأن أدار الامبراطور ظهره للمدينة حتى أقدم اليهود على تدمير التمثال الامبراطوري.

وعندما سمع هادريان بهذا، عاد، وأخرج اليهود من المدنية وطردهم، وهدمها، وسواها بالأرض ثم مضى في سبيله، وهكذا جرى للمرة الثانية رمي الأسوار في الهوة فوق الصلبان، ولم يمض وقت طويل بعد هذا حتى عاد قيصر، وأعاد بناء المدينة من جديد، وأصدر أوامره برمي السور الغربي القديم كله في الهوة، وذلك بقصد طمر الهوة وتسويتها مع بقية الأرض، وبذلك يمكن ادخال معبد فينوس في اطار سور المدينة، وبذلك صارت المدينة أوسع، ومرّ بعد ذلك حوالي مائة وثمانون سنة والهوة تحتوي على الصليب المقدس، وذلك حتى جاءت هيلانة كما حدثنا... جيروم، وعندما جاءت لم تستطع إلاّ بصعوبة بالغة أن تجد البقعة، لأنها دخلت في دائرة النسيان، ولذلك قامت بتنظيف هذا الكهف، وأمرت بتكريسه، وبنت بيعتها ومقر إقامتها فوقه، كما هو الحال في هذه الأيام.

وبناء عليه وقفنا في ذلك المكان، ونحن سابحين في عالم الإعجاب بالصخور والحجارة التي تحتها تمّ العثور على الصليب، لأن الجروف الصخرية المتعلقة فوق رؤوسنا كانت تهدد بالسقوط فوقنا، وشعر الحجاج في هذه الهوة المقدسة بخشوع عظيم، هذا والمسيحيون الشرقيون، لابل حتى المسلمون غارقون في أوهام عابثة حول هذا

المكان، حيث يقومون بقطع شظايا من هذه الصخور من أجل التداوي ذلك أنهم يعلنون أنه إذا كان هناك انسان مصاب بالحمى، من الممكن شفائه على الفور، إذا ماشرب بعض الخمرة والماء، فيها موضوع قطعة من هذه الصخور، فضلاً عن هذا، إذا ما عانى انسان من وجع رأسه، كان يقوم بتدبر قص شعر رأسه، ومن ثم ارسال الشعر الذي قصه إلى حراس المعبد، حتى يضعوه فوق البقعة التي وجد فيها الصليب، وعندما كان هذا يعمل، كان المريض يشفى.

ومثل هذا أيضاً كانوا يفعلون، عندما يعاني أحدهم من وجع في الأسنان، فوقتها يحلقون له ذقنه، ومن ثم يرسلون بالشعر إلى الكهف حتى يمكن أن يشفى.... ومن هذا الباب كان السبب في أن جميع الشقوق في الصخور، وبين الأحجار محشوة ومليئة بالشعر، وليس هناك من شك أن هذه ممارسة طقوسية دنسة، وصلت إليهم من كفار العصور القديمة، وقد أخبرنا ديودروس في الفصل الرابع من كتابه الثاني حول التاريخ القديم، أن المصريين القدماء، عندما كانوا ينذرون إلى آلهتهم من أجل سلامة أوشفاء الناس المرضى، اعتادوا على حلاقة شعورهم، ووضعهم في أوعية ذهبية أو فضية، وكانوا يرسلونهم إلى الذين يتولون سدانة الأوثان في معابدهم، وبذلك كانوا يشفون، وهكذا يعمل هؤلاء الناس الأشرار، حتى هذا اليوم.

ويوجد خلف مكان اكتشاف الصليب المقدس حفرة عميقة في الصخرة هي مليئة بشعور رؤوس الناس وشعور لحاهم، هذا ويستخدم المسلمون والأتراك، وإن كانوا غير مؤمنين، هذا المكان مع موضع الجمجمة من أجل أوهامهم، وفي هذا الكهف صدى عجيب، أنا مثله لم أسمع في أية جوقة أو كنيسة، ولذلك عندما كنت وحيداً هناك، كنت غالباً ماأغني بصوت مرتفع تماماً، الترنيمات التجاوبية العائدة إلى اكتشاف الصليب المقدس، وترانيم أخرى.

جبل أكرا العظيم القداسة الذي عليه جرى تعليق الرب يسوع على الصليب

بعد مافرغنا من عمل كل ماينبغي فعله في هذا الكهف المقدس، صعدنا على الفور ثانية، وعاودنا الدخول إلى الكنيسة من بابها، ولدى استئنافنا لمسيرتنا بدأ قائد الجوقة يغني بصوت مرتفع ترنيمة Vexilla regis prodeunt الخ، ووصلنا ونحن نغني هكذا إلى الطريق الصاعد إلى جبل أكرا الأعظم قداسة، ولقد صعدنا إليه بوساطة ثمان عشرة درجة من الكنيسة الموجودة تحته، ودخلنا في الأعلى إلى بيعة مضاءة، وجميلة ومزينة برخام مصقول من مختلف الأنواع، وفيها معلق عدد كبير من المصابيح المضاءة، وقائم فيها ثلاثة مذابح، مزينة برسوم صنعت بأعمال الفسيفساء، وبنيت هذه البيعة بناء مقنطراً، مدعوماً بعمود رخامي في وسط البناء، ويوجد في الجانب الأسفل من القنطرة رسوم لداوود وسليمان، وجاء رسم داوود مع نص:«أيضاً رجل سلامتي الذي وثقت به»(المزامير:٤١/ ٩) الخ، ورسم سليمان مع نص:«الحكمة بَنَت بيتها»(الأمثال:٩/ ١)، وهناك أيضاً صورة للتضحية باسحق، وبنيت هذه البيعة فوق جبل أكرا، وعندما أصبحنا جميعاً في داخلها، ومشاهد أمام أعيننا ومعروض تلك الصخرة الرائعة، تلك الصخرة المرغوبة، مع ثقوبها التي هي موضع الاعجاب، وهي التي أقحم فيها الصليب الأعظم قداسة، وهو يحمل المصلوب، وعندما رأينا هذه الأشياء المقدسة والرهيبة بسبب قداستها الفائقة، سقطنا على وجوهنا فوق الأرض، ولم يعد أحد من الناس يسمع غناء، بل نحيباً، ولم يعد هناك غناء للترانيم، بل عويل وتنهدات، ولم يكن هناك أحد تمكن من حبس نفسه عن البكاء والصراخ، لأن من الذي يمتلك قلباً قاسياً جداً، لم يكن قابلاً للتصدع في ذلك المكان، وذلك لدى رؤيته أمام عينية أقسى الصخور، وقد تصدعت؟ ومن هو الذي لن يبكي بصوت

مرتفع في المكان الذي صرخ فيه ربنا المسيح بصوت مرتفع، وهو معلق فوق الصليب، وأيضاً حيث صلى للذين صلبوه، ووعد اللص بالجنة، وعهد بأمه الحزينة بعمق، إلى عناية يوحنا، وشرب الخل ممزوجاً بالمرّ، وعندما قال بأن كل شيء قد انتهى، أسلم روحه وتركها بيدي الأب، ومات، وأيضاً حيث طعن العسكري جنبه بالرمح، فتدفق منه دم وماء.

اعلموا أيها الحجاج الأتقياء، أنه هنا جرى قتل هابيل من قبل أخيه، كما جرى ربط اسحق ممن أجل التضحية به من قبل أبيه، وأقيم الثعبان البرونزي من قبل موسى، وذبح خروف الفصح وفقاً للشريعة، وقتل الرب من قبل انسان، فيسوع قد صلب في الجسد، ملككم جرى تعليقه على الصليب، وربكم حكم عليه بالاعدام، والحليم، والمتواضع، والبريء، صبغ بالدم، وقدم نفسه ككاهن وكأضحية، ووردت هذه الأفكار، وأخرى تماثلها بطبيعتها إلى أذهاننا في هذا المكان الفائق المهابة، وبقيا لمدة طويلة منحنيين نحو الأرض ونحن نصلي، وعندما أنهينا صلاتنا ذهبنا واحداً تلو الآخر إلى الصخرة المقدسة، المعروضة فوق الأرض، وزحف كل واحد منا بقدر ما يستطيع نحو الحفرة التي أقحم فيها الصليب، وقبّل المكان بخشوع فائق جداً، ووضع وجهه، وعينيه، وفمه فوق الحفرة، التي عنها —وماأقول هو الحق والصدق تماما— صدرت رائحة طيبة جداً، انتعش بها الناس بشكل مرئي، ووضعنا أيدينا وأذرعتنا في الحفرة حتى أسفلها تماما، وبما فعلناه وبهذه الأعمال تلقينا غفرانات مطلقة(++).

ويوجد على جهة يسار الحفرة صدع كبير في الصخرة، ممتد من الأعلى حتى الأسفل، من المعتقد أنه حدث بسبب موت المسيح، وصعدنا إلى هذا الصدع واحداً تلو الآخر، وقبلناه، ووضعنا رؤوسنا فيه، وكثيراً من أجسادنا بقدرما استطعنا، فضلاً عن هذا يوجد على جانبي الحفرة حفرتين مماثلتين، فيهما جرى تثبيت صليبي اللصين: دسمه وجسمه،

اللذان صلبا مع يسوع، غير أن هاتين الحفرتين لايمكن مشاهدتها، لأنه يقوم فوقها عمودين منخفضين، يوجد فوق رأسيها مسارين كبيرين، فوقها شمعتين، ومصباحين مثبتين، وبذلك صار هذين العمودين بمثابة شمعدانيين، وقبلنا على كل حال العمود الذي وقف على الجهة اليمنى للصليب، وحول هذين الصليبين انظر ماتقدم في ص٣٠٠.

ويوجد على الجدار خلف الصخرة المقدسة، صورة جديدة ثمينة جداً، فيها شكل المصلوب والعذراء المباركة، والقديس يوحنا الانجيلي، ومكثنا على جبل أكرا مع مسيرتنا لمدة تزيد على الساعة، أسلمنا فيها أنفسنا للصلاة وللخشوع، وأقبل الليل، فقد كانت الساعة حوالي التاسعة قبل منتصف الليل، وحدثنا نيقولا دي كوسا حول تصدع الصخرة نفسها في Persuasio ad soldanum، في السفر الثالث — الاصحاح ١٧ من نشرته للقرآن.

وصف جبل أكرا وتراتيبه

لم يرد اسم موقع أكرا في الكتابات المقدسة على أنه جبل، بل جاء ذكره في الحديث العام فقط على أنه جبل، لأنه في الحقيقة ليس جبلاً، بل صخرة أو جرف مرتفع بعض الشيء فوق الأرض، ومع ذلك جبل أكرا لايمتلك هذا التميز، حسبما يمكن رؤية ذلك بوضوح في الشكل، والصخرة والجبل والموقع، كان من البداية جديراً جداً بالاحترام بسبب أن:

آدم، أبونا الأول، مات هنا.

ابراهيم، تمت مباركته هنا من قبل ملكيصادق.

اسحق، جلب إلى هنا من قبل أبيه، من أجل التضحية به.

الثعبان البرونزي تمّ نصبه هنا.

الرب يسوع صلب هنا، وهنا مات.

ولايشغل جبل أكـرا شطراً كبيراً من المدينة، والذي يعنيه مكان أكـرا هو مـوقع الكنيسـة كلها، أمـا صخـرة أكـرا فهي التي دعمت الصليب فقط، وقبل تـوسيع المدينة وقف هذا الجرف مقـابل سـور المدينة، على حافة منحـدر عميق أحاط بالمدينة من الجهة الغربيـة، وهذا ما سلف لي أن قلتـه من قبل في ص٤٨٨، وأكـرا ليس بعيـداً عن سـور المدينة، لأن المنحدر نفسه وإن كـان عميقاً، لم يكن عريضاً، إلى حـد أنه كان بامكان انســان أن يرمي حجرة من سـور المدينة حتى جـرف أكرا، إنما كم كـان هذا الجرف واسعـاً، هذا مالم يمكن تأكيـده، لكنه واضح إلى حد بعيـد، فمن شكل الكنيسة نفسها، واضح أنها كـانت أوسع مما عليه الآن، لأنها عندما أدخلت في داخل السور الجديـد، كان من الضروري اقتطاع جزء منها.

إنما وإن كان صحيحـاً أن هذه الصخرة كـانت قريبـة من السور، كما قلت، هي كــانت بعيــدة جــداً عن الرصيف، مـن حيث حمل الرب الصليب، ومن هناك حمله إلى بـاب القضـاء، ومن هذا البـاب عبر الهوة بوساطة الجسر إلى الصخرة، ولم تكن هذه قائمة في مواجهة الجسر تماماً، بل كانت على مسافة لابأس بها عنه، حيث كان يتوجب على الانسان أن يستدير ويسير صعـوداً على طول حافة الهوة، وتوضع الجرف على حـافة الهوة بشكل، أنه عندمـا جرى صلب الرب فـوقه، كـان ظهره مستـديراً نحـو الشرق، ونحـو المدنيـة، لكنه أدار وجهـه نحـو الغـرب، لكن هل جـرى صلب الـرب على قمـة الجرف أم أدنى من ذلك، فأمـر مـوضع شك، لأنه بسبب الأبنية القائمة فوق الموقع لايستطيع أحد أن يقول كم كـان اتساع الصخـرة في القمة، والـذي أعتقده أن الرب علق بالمسـامير على الصليب عند سفح الجرف، وأنهم بعدما ربطوه إلى الصليب سحبوه مع الصليب إلى القمة، وهناك ثبتوا الصليب بالصخرة.

وكـان مـوضع أكـرا جـديراً بالتقـدير من الأيام الغـابرة، وذلك قبل صلب المسيح، ففيه تمّ العثور على جمجمـة آدم من دون شعر، ومن هذه الجمجمـة صـار يطلق على المكان اسم أكـرا، أو الجمجمـة أو الجلجلة، التي تعني الشيء نفسـه، ويبجل اليهود هذا المكان، منذ أزمـان قديمـة، لأنهم يعتقدون بأن ابراهيم عمل فيه استعـداداته للتضحية بابنه اسحق، كما وصلتنا الأخبار في الكتابات المقدسة، ولهذا من المعتقد أن هذا المكان كان واحداً من الأمـاكن العالية التي اعتاد الناس على تقـديم الأضاحي فيها، لابـل حتى على بناء هيكل العبادة، وغـالباً ما يستشهـدون للبرهنة على هذا بما جـاء في سفري الملوك، حيث جـاء الحديث حتى عن الملوك الأتقياء قـوله:«فعل ماكان صحيحـا بنظر الرب، ذلك أنه لم يستول على الأماكن المرتفعة، لأن الناس مـابرحوا يقدمون الأضـاحي فوق الأماكن العالية».

هذا وهناك بعض الأمـاكن في الأرض المقـدسـة، فيهـا جـرت بعض الأعمال الخالدة من قبل الرب، وفيها جرت العادة على عبادة الرب، قبل بناء الهيكل، لكن بعـد بناء الهيكل جـرى تحريمهـا، وكـان من بين هذه الأمـاكن شيلوه، والجلجـال، وجبل الزيتون، ومـوضع أكـرا، وعلى هذا المكان المرتفع اعتــاد الناس بشكل خــاص على تقـديم الأضــاحي بلاحدود، لأنه فـوقها جرى نصب الثعبـان البرونزي، الذي نقرأ عنه في الاصحـاح الحادي والعشرين من سفر العـدد، وتمت عبادة هذا الثعبـان بشكل هائل من قبل الناس حتى أيام الملك حزقيا، الذي دمره إلى قطع، وذلك كما ورد الخبر في الاصحاح الثامن عشر من سفر الملوك الثاني.

ومـرد الاحترام القـديم لهذا المكان إلى أنه هنا التقـى ملكيصـادق بإبراهيم، ومنحه خبزاً ونبيذا، وهنا أيضاً مركز العالم، وهذه أمور سوف أتولى شرحها الآن فيمايلي:

ولقـد حدث أنـه عندما فقـد اليهـود مملكتهم، وآل الحكم عليهم إلى

ملوك غرباء من الشعوب غير اليهود الذين كرهوهم، قام هؤلاء الملوك، على الرغم من اليهود بتحويل موضع أكرا (الجمجمة) والجلجلة إلى مكان لتنفيذ العقوبات بمرتكبي الآثام، الذين كان من بينهم اللصوص، وقطاع الطرق، والقتلة، والمرتدين، فهؤلاء جرى اعدامهم هناك، في سبيل جعل المكان دنساً بالنسبة لليهود، وذلك صدوراً عن ازدرائهم، وبقي المكان محل ازدراء حتى أيام المسيح، لكن بعد قيامته وصعوده، بدأ المكان يحظى بالاحترام والتقديس من قبل المسيحيين، لكن الامبراطور الوثني اليوس هدريانوس لم يكن ليقبل بهذا، فبنى معبد فينوس هناك، ونصب تمثال عاهرة على صخرة أكرا، وبذلك ألقى بالتدنيس على المكان، حيث جعله دنساً بالنسبة للمسيحيين، فهذا ماأخبرنا به القديس جيروم برسالته إلى بولينا، وهكذا بقي المكان دنساً بالنسبة للمسيحيين، لمدة مائة وثمانين سنة، أي حتى قدمت القديسة هيلانه، ونظفت الموضع من جميع الفضلات والأوساخ التي تدنس بها، وجمّلته بشكل رائع، وذلك حسبما سيرد الحديث لدى وصفنا للكنيسة، وبالنسبة لهذا الموضوع، انظر مايلي في صفحتي ٥٤٠، و٢٥٥، وانظر أيضاً قداس القديس برنارد لفرسان الهيكل في الفصل العاشر.

المكان الذي جرى فيه تسمير المسيح على الصليب، والمكان الذي عثر فيه على جمجمة آدم وتصدع الصخرة

وبعدما قبلنا الصخرة المقدسة، نزلنا ثانية في رتل إلى طابق الكنيسة، ودخلنا إلى بيعة موجودة تحت بيعة جبل أكرا،والتي منها انتصبت صخرة صليب المسيح، وهي الصخرة المنتصبة حتى البيعة في الأعلى، وسقطنا في هذا المكان بوجوهنا على الأرض، وقبلناها بخشوع عظيم، وتعبدنا يسوع على الصليب، الذي ضرب فيه بالمسامير في ذلك المكان، لأنه لو كانت الصخرة هنا، كما هي الآن في هذه الأيام، لما كان المسيح قد جرى تسميره على الصليب فوقها، فقد جرى تسميره في أسفل

الصخرة، ولابد أن أسفل الصخرة قد كان موضع التسمير إلى الصليب، هذا ولايوجد —على كل حال— نص في الكتابات المقدسة حول هذه المسألة، كما أنه ليس هناك برهان مؤكد حولها، فيما عدا أن شكل الأرض كماهو يبرهن على ذلك.

وأعدنا في هذا المكان إلى ذاكرتنا، عملية تعرية المسيح المهينة، وكيف أنهم عروه هنا من جميع ملابسه وسرقوها كلها، وكيف أنهم بنزع ثيابه عن جسده، تسببوا بفتح جراحاته ثانية، وهي الجراحات التي كان سببها جلدة وكيف أنه عندما صار عريانا تماما جلس على الأرض، وأنحنى نحو الأسفل لشعوره بالحياء، لأنه كان عريانا بالمرة، ولأنه كان ضعيفا، لأنه كان مغطى بالجراحات.

وعندما صار الصليب جاهزا، وكان صالبوه قد باتوا مستعدين لسحبه ووضعه عليه، هنا جمع قوته كلها حتى يتمكن من القيام، وجثا بركبتيه أمام الصليب يصلي قائلاً: « أيها الأب الأبدي، تلقني، أنا ابنك المحبوب، أنا الذي أقدم لك أضحية من دون مكان، من أجل خلاص بني البشر، ومن أجل الاعفاء من الذنوب»، وعندما أكمل كلامه هذا، كان جاهزا لتسليم نفسه إلى أيدي صالبيه، الذين ألقوه أرضاً فوق الصليب، ومددوه بقسوة ووحشية فوقه، ولدى رؤية أمه الحزينة جداً لهذا، ركضت وجلبت منديلاً لتغطية وسط ابنها، الذي بوساطته بقي مغطى، والمكان الذي وقفت فيه العذراء المباركة مع يوحنا، قد كان عند أسفل الصليب على مقربة من هذا المكان، مع أن المدخل إليه هو خارج الكنيسة، وذلك حسبما سنوضح ذلك ونبينه في موضعه، وهذا في ذهني أيضاً برهان على أن تسمير المسيح على الصليب كان في الأسفل، وأنه رفع فوق الصخرة مع الصليب، وسط السخرية الصاخبة لليهود.

وبعدما قبلنا المكان الذي أعتقد أن المسيح قد ضرب بالمسامير فوق الصليب، عليه، مضينا في طريقنا نحو مذبح قد بني في مواجه صخرة

أكرا، حيث رأينا على جهتـه اليمنى الصدع في الصخـرة، الذي امتدّ من قمتهـا حتى الأرض تماماً، وتبعـاً لعـدد كبير من المصادر الموثوقـة، توفي آدم، أبونا الأول، في هذا المكان، وفيـه دفـن، ولايوجـد بهذا تناقض مع ماقيل في الاصحـاح الرابع عشر من سفر يشـوع، من أن آدم قد دفن في حبرون مع أبناء عنـاق، أي مع العماليق، لأنه قـد قيـل في ذيل أخبـار الأيام، بأن آدم قد مـات ودفن على جبل أكرا، وأنه فيما بعـد جرى نقل جسده — باستثناء رأسـه— إلى حبرون، إلى الكهف المزدوج هناك، فقد تمّ العثور على رأس آدم، بعـد ذلك بمدة طويلـة، على جبل أكرا، ولهذا السبب اعتـاد الرسامـون على رسم جمجمـة بشرية عند أسفل الصليب، ولهذا أعلـن أمبروز، وأثناسيـوس وخـريسـوتـوم Chry-sostom، وجيروم في رسالتـه إلى مرسيلا، وفي أمـاكن أخرى كثيرة، والحاخـامـات اليهـود، أعلنوا أن آدم قـد أذنب هنا، وقـد دفن هنا، من أجل أن يتمكن المسيح مـن عـرض جسـده في المكان الذي فسـد فيـه الجنس البشري، ولكي يمكن للصلاح أن يقوم من المكان الذي فيه بذر الفساد، وهذا ماقاله في الغـالب أنطونيوس والقديس جيروم أيضاً، علماً بأنه قـال في مكان آخـر بأن القول بأن آدم قـد دفن هنا هو قـول ناعم، وقصد بذلك، قول قيل لإرضاء الأذن.

وهكذا قبلنا مكان تصدع الصخرة، ومكان دفن أبينا آدم.

علاوة على هذا، يقول المسيحيون الشرقيون بأنه في هذا المكان جرى دفن ملكيصادق، الكـاهن الأول للقدس، الذي قرأنـا عنه في الاصحاح الرابع عشر من سفـر التكوين، وفي المزمور المائـة وعشرة، غير أن هذا لم يتم تلقيـه من قبـل الكنيسـة اللاتينيـة والغـربيـة، وذلك بسبب كلمات الرسول في الاصحاح السابع من الرسالة إلى العبرانيين، حيث قيل هناك بأنه لم يكن لملكيصادق أب، ولاأم، ولانسب، ولابـداية لأيامه، أو نهاية لحيـاته، ولابد أن المقصـد من هذا هو القـول بأن ملكيصـادق لم يلد ولم

يمت، وأنـه وجـــد مـن دون أبوين، وذلـك حسبما يُعلن هـراطقـــة ملكيصادق، الذين يقولون بأنه لم يكن انسانا مثل... بل ينبغي أن يؤخذ ذلك ليعني في الحقيقة أنه كان له والدين، وبداية لحياته ونهاية لها، ولكن ما انسـان يمكنه أن يكتشف ذلك، لأنه كان نموذجاً للكهنوتية الدائمة للمسيح.

ولهذا ندد جيروم بعنف وبشكل رائع حمل في رسالتـه إلى ايفاجروس Evagrius ضد الذين قـالوا بأن ملكيصادق لم يكن انســانا، بل ابنا للرب أو مـــلاكـاً، والذيـن يرون هذا هم بنظـر الكنيســة هراطقـــة ملكيصادقيين.

ودفن في هذه البيعــة الملوك اللاتين، الذين تمكنوا بشجـاعـة كبيرة، وبجهــود هائلـة، من استرداد الأرض المقــدســة وإعـــادتها إلى أيدي المسيحيين واستـولوا عليهـا، وهددوا المسلمين وضـايقـوهم إلى أقصى الحدود، لذلك إنه لأمـر مـدهش أن المسلمين لم يهدموا الكنيسـة بسبب وجود أجسادهم، والملوك الذين دفنـوا هناك هـم التالية أسماؤهم: أولاً: غـودفـري أوف بولليـون، دوق اللـورين، الذي انتخب في سنة ١٠٩٦ لتجسيد ربنا ملكاً على القدس، وكان ذلك بعد الاستيلاء عليها، وجرى انتخـابه من قبل جميع أمــراء الغـرب، وقـد دفن بعـد مـوته في كنيسـة الضريح المقدس، والثـاني: الملك بلدوين الأول، والثالث: الملك بلدوين الثاني، والرابع: فـولك، والخامس بلدوين الثالث، والسـادس: عموري، والسـابـع: بلدوين الرابع، والثـامن: بلدوين الخامس، والتـاسع: غي، والملك الأخير هذا كـان جبـانا، وقـد أهمل المدينة المقـدسـة، ومملكة القدس، وضـده ثار اللورد برتراند (ريمـوند الثالث) كـونت طرابلس، مع أنه كان أيضاً كاثوليكي.

وكان الملك غي ملكاً قويا، ولم يكن بامكان برتراند غلبته اعتماداً على الوسـائل والامكانات الخاصة لشعبـه، ولذلك استنجـد بالسلطان ملك

مصر، واستدعاه لمساعدته ضـد ملك القدس، وأقام تحالفاً مع المسلمين، وبذلك تغلبـوا على غي، ولكن المسلمين والشعـوب الكـافـرة، رأوا الشقاق في المملكة، وأن الصليبيين كانوا منقسمين بين أنفسهم، فجمعوا أنفسهم، واتحدوا مع بعضهم، فـاستـولوا على المدينة المقـدسـة، ومنهـا طردوا الصليبيين، وبالنتيجة فقد الصليبيون الأرض المقـدسة كلها، وقد حكم الملوك الذين تقـدم ذكـرهم في القدس ثمانيـة وثمانين سنة وتسعـة عشر يوماً، وزالت مملكتهم من الوجود، وألحقت بمملكة مصر، كما هو حالها في هذه الأيام.

وانظر إلى أي مدى استطردت وتجولت بعيداً عـن موضوعي، لكنني سـوف أعود الآن إليـه: إن البيعة المتقـدم ذكـرها، والتي هي تحت جبل أكـرا، هـي ملك للمسيحيين النوبة، الذين يمارسـون طقـوسهـم فيهـا، ويقـولون بأن الملك ملكيـور، الذي كان واحـداً من المجـوس (الحكماء) الثلاثة، الذين قـرأنا عنهم في الاصحاح الثـاني من انجيل القديس متى، كان ملك النوبة، وأنه عندما قدم مـن النوبة، وبات قريباً من القدس، لم يدخل إلى المدينة، بل استقبل وأنزل على مقربة من جبل أكرا، وعلى هذا فإن هذا الموضع قـد جـرى تعيينه لهم منذ العصـور القـديمـة. وعندمـا فرغنا من قداس المسيرة، وتلقينا غفرانات، غادرنا هذه البيعة.

المكان الذي جرى تحنيط جسد المسيح فيه ولفه بأقمشة كتانية

وبعدما خرجنا من تلك البيعـة، ومشينا نحو الأمام تسع خطوات في مسيرتنا، ونحن نغني تـرنيمـة آلام المسيح Pange lingua gloriosi proelian certaminis ،وصلنا إلى مكـان ممدد فيـه على أرض الكنيسة حجـرة سوداء محلاة ببعض النقط الحمراء، وهي حجـرة كانت مصقـولة بشكل جيـد، ويقال بأنها كـانت مـوجـودة هناك منذ أيام آلام المسيح، وكـانت ملاصقـة لضريح يوسف الرامي، لأن اليهـود يغسلون مـوتاهم، ويمددون الجسـد على منضـدة إما من الخشب أو من الحجـر،

وهناك كانوا يقومون بأعمال طقوس الغسيل المعتادة، والتحنيط، وكان هذا الضريح قد نحته يوسف لنفسه من الصخرة في ذلك المكان، ومثل ذلك تدبر أمر صقل منضدة رخامية من أجله، حتى يمكن غسل جسده عليها وتحنيطه.

لكن بما أنه تخلى عن ضريحه للمسيح، فعل الشيء نفسه وتخلى عن حجرة غسله وتحنيطه، ولذلك عندما قام يوسف ونيقوديموس، والذين ساعدوهما بفك جسد المسيح من على الصليب، حملوه إلى هنا، ومددوه عارياً على هذه الحجرة المقدسة، حيث حنطاه، ودهنا جروحه بالمراهم، ولفاه بأقمشة كتانية، وفي أثناء طقوس الجنازة كانت مريم المجيدة جداً، والفائقة الحزن، حاضرة، وجالسة ممسكة الرأس المجروح لابنها، ومحتضنة له، ورابطة له بمنديل، في حين كانت مريم المجدلية تتولى بعناية فائقة دهن القدمين المقدسين، اللذين دهنتهما مرة في الحياة، وبمقتضيات العمل، قلبوا جسده الثمين جداً فوق الحجرة، وعلى هذه الحجرة الفائقة القداسة، وقفت —للأسف— وأنا جاهل، وذلك حسبما تحدثت من قبل في ص٤٦٤، وتحلقنا بأنفسنا من حول هذه الحجرة ونحن على شكل رتل، وعندما فرغنا من الغناء، قمنا واحداً تلو الآخر بالجثو على ركبنا، وقبلناها، وتلقينا غفرانات مطلقة(++)، فمن هذا المكان حملوا جسد الرب إلى الضريح، الذي كان يبعد حوالي الخمسين خطوة عنها، وفوق هذا المكان هناك حبل ممتد من الجدار الأول إلى الجدار الآخر، وعليه جرى تعليق عدد كبير من المصابيح المشتعلة، وبعد المسيرة مدّوا لوحاً فوق هذه الحجرة، وأقام هناك كل من رغب قداساً.

المكان الذي قيل بأن فيه نقطة مركز العالم كله

وعندما فرغنا من زيارة جميع الأماكن المقدسة، وذلك قبل دخولنا إلى ضريح الرب، مشينا في المسيرة، منحرفين جانباً ومبتعدين عن الممر الذي حمل عبره جسد الرب يسوع إلى الضريح، ودخلنا إلى كنيسة

الجلجة، التي هي سـدة المبنى كله، ووصلنا هنا إلى وسط السـدة، فوقفنا وتحلقنا من حول حجرة مستديرة، ومرتفعـة قليلاً فوق حجارة الأرضية الأخـرى، ويوجـد في الوسط هناك حفـرة مستـديرة يمكن لإنسـان أن يضع فيهـا قبضتــه، أي مجمع كف يده، ولقـد قـالـوا بأن هذه الحجـرة موجـودة في النقطة المركزية للعالم كله، ويقول المسيحيـون الشرقيون بأن الرب يسوع وقـف هنا مع حوارييـه، قبل آلامه، وأشار إلى هـذه البقعة باصبعه وقال:«انتبهوا، هنا وسط العالم»، وأيضاً تحدثنا التواريخ القديمة وتخبرنا أنه قبل بناء هذا الهيكل، كان مقاماً في هذا الموضع عمود طويل، من الرخـام، وقد أقيم من قبل الفـلاسفة، فهذا العمـود لايلقي ظلاً في منتصف النهار أثناء الاعتدال الصيفي، لأن الشمس تقف فوقه مباشرة، ورغب أحـد الفـرسان من الحجـاج، وكـان من جمـاعتي في البرهنة على هذا بالتجـربة، وبعدمـا حصـــل على إذن من السيـــــد ســــاباثيتـانكو SabaThyTanco ،الذي كـان مـدير المشفـى، والذي يعـرف باسم كالينوس الأكبر، صعد مع بعض من رفاقه فوق السقف المقنطر للسدة، وكان عالياً جداً، ويمتلك درجاً يمكن للانسان أن يصعد عليه، ويوجد على أعلى نقطة من السقف مكان مرتفـع، بني من الحجارة بشكل بارع، يمكن للانسان أن يقف عليه من دون خوف، وأن ينظر من حوله، وإلى هذا المكان صعـــد ذلك الفـارس في منتصف النهـــار، ليرى هل سيلقي جسده أياً من الظلال، وقد أعلن إلينا أنـه بالحقيقة لم ير ظلاً صادراً عن جسده، لأنه وقف مباشرة فـوق ذلك المكان الذي وقفنا من حوله، لأن القبة قد بنيت لتقف فوق ذلك المكان، من أجل أن تتم التجارب هناك.

غير أنني لا أرى الأمـــــر صحيحـــــا، في أن الشمس وهـي تشع في منتصف النهـار بشكل مباشر فـوق رؤوس الناس، وأجسـادهم لاتلقي أي ظل، أن في ذلك أي صدق وبرهان مؤكد على أن البقعة التي يحدث هذا فيها هي مركز العالم، لأنني قرأت في عدد من الكتب حول كثير من

الأماكن التي لاتلقي فيها أجساد ظلالاً في أوقات محددة، من ذلك ماأخبرنا به ديونيسيوس Dionysius في كتابه الثالث من «العصور القديمة» عن أمور من هذا القبيل، في جزيرة قائمة في المحيط باتجاه الجنوب، حيث مامن شيء مهما كان يلقي أي ظل، لأن الشمس تقف فوق رأسه مباشرة، علماً بأن هذه الجزيرة بعيدة كثيراً عن القدس، وكذلك فعل بطرس ألبانو التوفيقي (كاتب معروف من العصور الوسطى) في كتابه حول التعلم الخ، ص٦٧، حيث قال بأن الشيء نفسه كان يحدث في مدينة أثينا، حيث برهن عليه شخصيا بالتجربة.

وفي مدينة سين Syene (أسوان) أيضاً على النيل، قيل بأن الشيء نفسه يحدث عندما تكون الشمس في المدار الاستوائي في الصيف، وحدد بطليموس أيضاً في خريطتيه الثالثة والرابعة عن أفريقيا عدداً من المناطق تقف فيها شمس منتصف النهار مباشرة فوق الرأس، وأكثر من هذا، وضعت علامات فوق الخريطة نفسها على أماكن، تقف فيها الشمس مرتين في السنة فوق الرأس، دون إلقاء أي ظل، وعلى سبيل المثال، هناك أماكن كثيرة في آسيا، حسبما يمكن رؤية ذلك في الخرائط السادسة، وفي التاسعة، وفي العاشرة، وفي الحادية عشرة، وفي الثانية عشرة، ومعروف بشكل جيد أن هذه الأماكن ليست في وسط العالم، ويرى بعضهم بأن إحدى الجزر هي منتصف العالم، وفي هذه الجزيرة لاتلقي شمس الظهيرة دوما ظلالاً.

والذي —على كل حال— يراه العامة هو أن أي مكان هو منتصف العالم، لأنهم يعتقدون بأن بني البشر منتشرين حول العالم أجمع، ويقفون بأقدامهم على الاتجاه المعاكس لاتجاهنا، وعلى هذا لكل انسان ذروته، وكل انسان يسير بقدميه فوق ماهو بالنسبة له وسط الكرة الأرضية أو العالم، لكن أوغسطين في مؤلفه «مدينة الرب» —الكتاب السادس عشر، الفصل التاسع، أنكر كليا وجود أي أماكن مقابلة، لأنه لا

الكتـابات المقدسـة، ولا التـاريخ، ولا التجارب، علمتنا الاعتقـاد بهم، وأنه من المستحيـل الوصـــول إلى الطرف الآخــر من الكرة الأرضيـــة، بسبب اتساع امتداد المحيط، الذي من غير الممكن بالنسبة لأي سفينة أن تقطعه، وانظر حول هذه المسائل الفصـل العاشر من الكتاب السابع من «Speculum Naturae».

لكن الحقيقة المنزهة للكتابات المقدسـة، تبرهن بشواهدها بأن القدس هي في وسط العـــالم، وعلى كل حـال يقــول عــدد كبير من الناس بأن القدس هي في الحقيقـة في وسط العالم المسكون، لكنهـا ليست في وسط المساحة الكلية للعالم، ولكن بشأن أي من هذه الآراء هوالصحيح، علينا أن نصـدق الكتـابات المقدسـة التي تعلن بـأن القدس قـائمـة في وسط الأرض، وأن مخلصنا قـام بتخليصنا في وسط الأرض، وبناء عليه نجـد في المقـام الأول حزقيـال يقول في اصحـاحه الخامس:«هذه القـدس، في وسط الشعـوب قـد أقمتهـا وحواليهـا الأراضي»، وثانيـا نحن نقـرأ في المزمور الرابع والسبعين:« قد صنع خـلاصه في وسط الأرض»، ولذلك قال هيلاريوس Hilarius«كان المكان الذي وقـف فيه الصليب هو نقطة مـركـز العـالم، من أجـل أن يتمكن جميع الناس من الحصـول على فرص متساوية في الحصول على معرفة الرب»، لأن المكان الذي أقيم فيه الصليب، والصخرة، قـائمان إلى يمين هذه النقطة المركزية، ومنهـا يوجد باب إلى السدة، يقود صعـوداً إلى جبل أكرا، ومثلما المسيح هو الشخص المركزي في التثليث، والوسيط بين الرب والانسان، وبما أنه يشغل المركز الوسط في مشروع خـــلاص العـــالم، على هذا الأســـاس اختــار النقطة المركـزية من العـالم لإقامـة صليبـه فيها، وهنـاك كما يبدو إشـارة لهذا في الاصحاح الثاني من سفر التكوين قوله:«وشجرة الحياة في وسط الجنة»، الذي يعني أن «صليب المسيح في وسط العالم»، عـلاوة على هذا جاء في سفر التثنية:٧/ ٢١ قوله:«الرب إلهك في وسطك»، وعن كنيسة الضريح

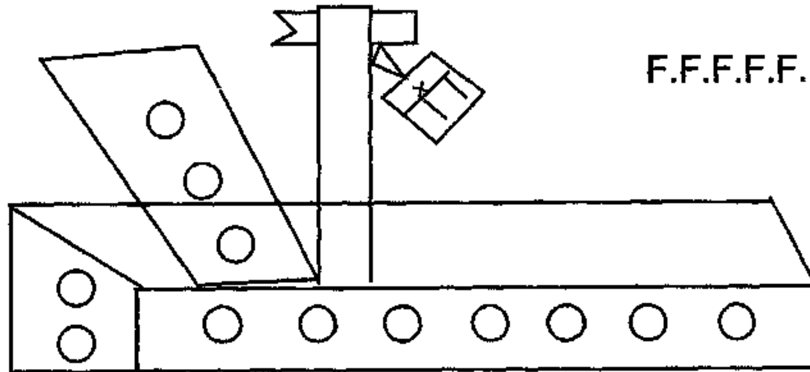
المقدس قـال في سفر اللاويين: ٢٦/ ١١ :«سوف أقيم خيمـة عهدي في وسطكم»، الذي يعني:« سوف أقيم هيكل ضريحي في وسط العالم».

ولهذا شعرنا في هذا المكان بسرور، وببهجة فائقة جداً، لأننا جئنا من أقصى أجزاء الأرض إلى وسطها سليمين وأصحاء، وبعدما قدمنا الحمد والشكر للرب تلقينا غفرانات(+).

المكان الذي رأت فيه النساء المقدسات الحجر وقد دحرج من على الضريح

وعندمـا غـادرنا هذا المكان، وتـركنا كنيسـة الجلجلة، مـررنا مجدداً خارجين من خـلال الباب الذي دخلنا منه إلى كنيسـة الضريح المقدس، ووصلنا إلى المكان الذي، عندما قدمت المريمات الثلاث، لتحنيط يسوع، رأوا الحجـرة قـد دحـرت من على فم الضريح، وهي الحجـرة التي كن قلقـات حـولها، عندمـا كن على طريقهن، حيث قلن:«من الذي سـوف يدحرج الحجـرة من على فم الضريح لنا»؟ وعندما نظرن شـاهدنها وقد تدحـــرجت، ودخلنـا إلى هذا المكان وانحنينـا بأنفسنا نحـــو الأرض، وقبلناها، وتلقينا غفرانات(+).

ليكن مـلاحظاً، أنه حيثما وجـدت هذه الصورة، أو نمـوذج الضريح المقـدس، ومهما كان عـدد المرات التي ستجـدها فيه كثيراً، لتعلم بقـدر



هذه المرات، بأنني راقبت من خلال الليل كنيسة الضريح المقدس، أثناء حجي الثاني، وأنني أمضيت أثناء حجي الأول ثلاث ليال فيها.

كيف جاء الحجاج إلى الضريح الأعظم قداسة للرب يسوع

انهضوا الآن، وقوموا موالي وإخواني الحجاج، وتقدموا مسرعين، وأسرعوا الخطوات لكن لاتقدموا إلاّ وأنتم مستبشرين، ضعوا جانبا كل الأحزان، وامسحوا الدموع من عيونكم، وغنوا جميعاً مع بعضكم أغنية الفصح الجميلة «المجد»، لأنه بعد سبوت اليهود المظلمة، أشع ضوء لطيف على العالم من الضريح القذر والمظلم، الذي نحن على وشك الدخول إليه، ذلك أن العالم تلقى ضوءاً أكثر اشعاعاً من الضوء الصادر عن الأجرام المشعة لقبة السماء، أقبلوا على هذا ببهجة وحمد، وألقوا نظرة على المكان الذي مدّد فيه الرب، وانظروا إلى نهاية حجكم.

وبناء عليه شرع هنا قائد الجوقة يغني بصوت طيب مسرور، ترنيمة الفصح Ad coenam agni providi، الخ، وسرنا نحن في رتل ونحن نغنيها، ووصلنا إلى الضريح الأعلى مكانة العائد للرب يسوع وغنينا قبل ذلك ترانيم فصحنا مع ترداد كبير لعبارة «المجد»، مع سرور عظيم، أو بالحري مع بهجة أعظم مما شعرنا به قط في أي عيد فصح بعد صيام كبير مرهق.

ذلك أننا شعرنا بالألم من أجل ربنا يسوع، ونحن على جبل أكرا، وذرفنا الدموع، لكننا هنا نشعر بالغبطة مع مخلصنا، ونقدم له دموع الفرح الجميلة، وأغاني حية، وهكذا دواليك، لأن مخلصنا يسوع بعد دموعه، وحزنه، وبعد السخرية منه، وجلده، وبعد كؤوسه من الخل والمرّ، وبعد عذابه، وجراحه فوق الصليب، وبعد موته المرعب نفسه، وبعد دفنه المحزن والمؤلم، وبعدما نزل إلى الظلال الدائمة للجحيم، وبعدما حطم الحواجز الحديدية، وبعدما ربط أمير الظلام، وأطلق

سراح جميع البطارقة النخبة، قام مجيداً، ومنتصراً من قبره هذا الذي ننظر إليــه الآن، ومن هذا الكهف المظلم أشع ضــوء لامع، اندفع باشعــاع براق، براق كأنه الثلـج ببيـاضـه، وهناك حل ســلام مبـارك لانظير له، وهناك قـدّم سروراً عظيماً، وهناك انتشر خــلاص عظيم جعل الأرض، والبحــر، والسماء تبتهج مع بعضهــا بعضــاً، ففي هـذا الضريح، وهذا الكوخ الصغير، جدد النسر شبـابه، وأقام الأسد أشباله، وجـدد العنقاء حياته، وخرج يونان دون أن يصـاب بالأذى من جوف الحوت، وتغطى الشمعـدان بالذهب، وأقيمت مجدداً خيمـة عهد داوود التي كـانت قـد سقطت، وأشرقت الشمس بعـدمـا كـانت خلف الغيوم، وأصبح قمح الطحين، الذي سقط إلى الأرض، ومــات، رشيقــاً، وقـويـت سـوقــه وأعطت سنابلهـا، وحمل شمشوم الأبواب بعيـداً، واقتحم وشق طريقـه بين الحراس، وعاد يوسف من السجن، وهو حليق، مرتدياً بأبهة، وصار سيـداً لمصر، وجـرى تمزيق أثمال يســوع المسيح، وارتدى بسرور، وإلى جانب هذا كله، هنا انتهى حجنـا المرهق، وانتهت جولاتنا، ووصلنا إلى الراحة.(١١٩ـــو).

وهنا على هذا أرجوكم، دعونا نضع جانبـاً مشاعر تفجعنا وخشوعنا الحزين، وسحب أحــزاننا، ودعـونا نتنفس بسرور، وعلى الـذين تبعـوا مخلصنا إلى قبره مع الأسى المشاركة الآن في بهجة قيامته المجيدة، هلموا، بعـد هذا كله، واجمعوا أنفسكم، فـرساناً وحجـاجاً لطفـاء، وادخلوا إلى الضريح الأعظم قـداسة، وانظروا بأعينكـم،واشعروا بأيديكم، والمســوا بأفواهكم المكان الذي تمدد فيه الرب.

وهكذا دخلنا ونحن نشعر بالسرور، واحـداً بعد الآخر، إلى الضريح الثمين جداً، والعـائد للرب يسوع، وقبلنا النعش الأكثر قـداسة، وتلقينا غفـراناً كـامـلاً ومطلقـاً(++) من كـل الذنوب، وشعـرنا هنا ـــوالحق يقالـــ بسرور خاص، أعظم مما شعرنا به في الأماكن المقدسة الأخرى.

وعلى هذا قال القديس برنارد في الاصحاح الثاني من قداسه لفرسان الداوية، بأن الضريح المقدس هو المكان الأسمى بين الأماكن المقدسة والمرغوب بها، ويتكون هناك شعور أعظم بالخشوع، لأن هناك المكان الذي تمدد فيه ليستريح، ومشاعر الخشوع التي تحرك الانسان هناك هي الأعظم تحريكاً في حياته، وهكذا فإن تذكرنا لموته يثير شفقتنا أكثر من تذكر حياته، وافترض أن سبب ذلك هو أن موته كان وحشياً، بينما كانت حياته بالمقارنة أكثر لطفاً، ولأن ضعفنا البشري يجذبه الميل نحو النوم أكثر مما يجذبه تعب الحياة بين الناس، والانسان ينجذب نحو الخلاص من الموت أكثر من انجذابه نحو الحياة المستقيمة، وبالنسبة لي إن حياة المسيح قانون لحياتي، وخلاص من الموت، وتلقينا هنا انتعاش روحي، وغفرانات، وخرجنا مع الحبور والحمد، وبذلك انتهت مسيرتنا ساعة واحدة قبل منتصف الليل. (سوف يأتي وصف الضريح المقدس في ص٥٠٣ ظ).

وبعد انتهاء المسيرة، تجمع الحجاج إلى فئات حسب تعدد جماعاتهم، وكان ذلك في مختلف زوايا الكنيسة، وكانت كل جماعة جالسة في مكانها الخاص بها، ذلك أننا كنا متعبين، ومصابين بالانهاك، وقد تناولنا وجبة طعام سريعة، وبعدما أكلنا. سندنا رؤوسنا إلى الجدار لننال راحة قصيرة، وتمددنا نائمين فوق الأرض، ونمت أنا شخصياً مع رهبان جبل صهيون في بيعة العذراء المباركة، الذين منحوني مكاناً هادئاً للنوم فيه، غير أنني لم أستطع أن أغمض عيني لأنام، ولذلك نهضت على الفور، والتحقت بالمستيقظين في الأماكن المقدسة، لأنه —في الحقيقة— كان القسم الأعظم من الحجاج يتجولون حول جميع الأماكن المقدسة المتقدمة الذكر، وذلك حسبما رغب كل واحد منهم، ومضى كل واحد منهم إلى هنا أو إلى هناك حسبما حركته روح الصلاة، ذلك أنه كان من الممكن للحاج أن يدخل إلى الضريح المقدس، أو أن يصعد إلى جبل

أكـرا، أو أن ينزل إلى بيعـة اكتشـاف الصليب، أو أن يذهب إلى أمـاكن أخرى، وذلك حسب رغبته كل وقت.

وفي هذه الزيارات الفردية إلى الأماكن المقدسة، يشعر الناس بخشوع أعظم، وتحرر من قيـود الدنيـا، وذلك أكثر مـايكونون فيـه في المسيرات العـامـة، التي يكون فيهـا كثير مـن التـدافع، والفـوضـى، والازعـاج، والغناء، والبكـاء، في حين في هذه الحالة الأخـــرى يكون هنـاك هدوء وسلام.

وفي أثناء تجوالي حول الأماكن المقدسـة للمرة الثانية، نزلـت إلى مكان اكتشاف الصليب، وقـرأت هناك صلاتي الليلية، وشعـرت بسرور عارم في ذلك المكان القائم تحت الأرض، لأنه كـان هناك هدوء، وقد ناسبني ذلك لأن جبل أكـــرا، وضريح الرب، والأمـــاكن الأخـــرى في الأعلى، كانت مليئة بحشد متواصل من الحجاج، وكانت هنالك ضجة وصخب عظيم، وفي الوقت نفسه كـان موالي وخـدمهم يركضـون هنا وهناك في الكنيســة فـوقي، ويفتشـــون في كل زاوية، بحثـا عني، كي أستمع إلى اعترافـاتهم، ولم يخمنـوا أنني مـوجـود في ذلـك المكان، ونزلوا أخيراً إلى حيث كنت، واستمعت إليهم هنـاك وأنا جـالس على كـرسي القـديسة هيلانه، الذي تقدم ذكري له في ص ٤٨١.

حول الخدمات الطقوسية الربانية في الضريح المقدس والطريقة التي كانت تتم بها والنظام هناك

وعندمـا صـار الوقت منتصـف الليل ركض المؤقت حـول الكنيسـة وبيـده لوح خشبي، وأعطى بصـــوت مـرتفع جـداً الاشـارة للصلوات الصباحية، وعندمـا سمعت هذا، صعدت على الفور إلى الأعلى، وعينت للذين لم أستمع بعـد إلى اعترافـاتهم، وقتا آخـر سـوف أستمع إليهم به، ودخلت إلى مكان القـداس، الذي كان متصـلاً ببيعة العـذراء المباركـة،

وارتديت هناك ملابسي من أجل القيام بالقداس (لأن هذه الكنيسة مثلها مثل كنيسة بيت لحم، لها امتياز إقامة القداسات فيها، حتى في منتصف الليل)، وعندما بت جاهزاً، تقدمت، ودخلت إلى الضريح الأعظم قداسة والعائد لربنا، حيث توجب عليّ أولاً، تأمين محل لأتلو فيه القداس، دونما مقاطعة، وتمكنت هناك، بكل راحة، من إقامة قداس من أجل قيامة الرب، وبعد القداس، عملت قداسات قرابين، لعدد من النبلاء، في الضريح المقدس نفسه، بإذن من الأب المسؤول، وجاء من بعدي كهنة آخرون، من أجل إقامة قداس، في كل من الضريح المقدس، وفي أماكن أخرى ثلاثة، وذلك حسبما تحدثت في ص٤٦٦، تحت البند السادس.

وكان الصراع الأعظم بين الكهنة حول تلاوة القداس في الضريح المقدس، لاسيما أثناء حضور عدد كبير من الكهنة، ذلك أنهم كانوا يقفون خارج الضريح، وينتظرون الذي يقيم القداس حتى ينتهي، وكان ما أن يغادر المذبح، حتى يندفع نحوه واحد آخر، ويعلوه، ولدى قيام الذي أنهى القداس، بخلع ملابسه الكهنوتية، يتحلق من حوله خمسة أو ستة من الكهنة، أو أكثر، حتى يأخذوا هذه الملابس وتراهم يتجاذبونها، ويستخدمون كلمات عدوانية أحدهم ضد الآخر، ويصلون إلى حد الضراب، ولقد رأيت كهنة يتنازعون على هذه الشاكلة، أحدهم مع الآخر، حتى أن أحدهم غضب من آخر غضباً عظيماً فقال له: «أعطني الرداء الكهنوتي الأبيض»، فرد عليه الآخر من الجانب الآخر قائلاً: «سوف أحتفظ به وأتمسك، لأنك غير جدير بأن تذهب قبلي»، فأجابه الآخر: «إنك غير جدير بإقامة قداس على الاطلاق، وأنا ذاهب قبلك لأنني أفضل منك»، وقد مضيا هكذا وتابعا إلى حد استخدام لغة قاسية وعبارات نابية، ولعنات، وذلك أثناء تجاذب الرداء الكهنوتي، حتى باتا على وشك تمزيقه.

أية حماقة هذه، وأي سوء اندفاع، وانعدام للنظر! والذي آراه أن أناساً يتخاصمون هكذا، لابد أنهم عميان، وخشوعهم خشوع أحمق، وهو مرفوض من قبل الرب والبشر، وكان الأفضل كثيراً بالنسبة لهؤلاء القوم التحلي بالصبر، وضبط النفس، لابل كان الأفضل بالنسبة لهم عدم رؤيتهم مدينة القدس مطلقاً، فذلك أفضل من تورطهم هكذا وخصامهم بشكل أعمى حول الأشياء المقدسة، ولقد عبرت عن أسفي هذا بنشاط بالتعاون مع الرجال العلمانيين الذين كانوا بين الحضور، والذين كانوا ينظرون بدهشة وشماتة كبيرة تجاه هذا المشهد، ولعله صدوراً عن رغبتي بالتقوى لم أشعر بالاهتمام بتلاوة قداس مثلما فعلوا، وكنت بالحري أوثر مغادرة القدس من دون إقامة قداس، مفضلاً ذلك على القتال من أجل مكان.

ومع ذلك حصلت دوماً —في أثناء حجي الأول، وحجي الثاني— على مكان من دون أية خلافات، حتى في البقعة التي كانت مطلوبة أكثر من سواها، ولقد رأيت بعض الآخرين الذين —في الحقيقة— لم يتصارعوا أو يختلفوا، بل اندفعوا مسرعين، ووضعوا أيديهم على الرداء الكهنوتي، وأخذوه لأنفسهم، بوساطة قوة ذاتية صارمة، وتفوق ورهبة إلى حد أن مامن أحد تجرأ على معارضتهم، وأعتقد أن مثل هؤلاء الرجال كانوا أسوأ الكهنة، لابل أكثر سوءاً حتى من الذين نشبت بينهم خلافات، ونشأ هذا كله من الحاجة إلى نظام، بسبب أن القضية غير خاضعة لأي تنظيم، ففي أثناء حجي الأول كان هناك عدد كبير من الكهنة، وقليل من العلمانيين، ولم تكن القضية خاضعة لأية أحكام، لذلك وقعت خلافات كثيرة من هذا القبيل، وفي أثناء حجي الثاني كان هناك عدد قليل من الكهنة، وكثير من العلمانيين، والأب المسؤول الذي كان رجلاً عاقلاً، قد أعدّ كل شيء اعداداً جيداً، ولذلك تم إجراء القداسات بسلام.

وأسباب كون الكهنة متسرعون هكذا، ويتصارع واحدهم مع الآخر من أجل المكان، هي متنوعة، من ذلك أنك تجد أحدهم مصاب بنوبة من الاستغراق بالخشوع، التي يشعر الناس بها في الأماكن المقدسة، والتي تتعاظم إلى حد تتحول فيه إلى غيرة غير ملجومة، لاسيما بين الذين ليس لديهم تعقل أو تقوى، ذلك أن أمثال هؤلاء الناس تجدهم دوماً خائفين بأنهم لن يمنحوا وقتاً من أجل غفران كامل لخشوعهم، وأمر آخر، أن عدداً كبيراً من الكهنة قد نذروا القيام بقداس أو قداسين في الضريح المقدس، وتجدهم يبذلون جهودهم ويصطرعون من أجل وفاء نذورهم، وهناك سبب آخر، هو أن عدداً كبيراً ممن جاء إلى هنا، قد أرسلوا من قبل آخرين، ليس بإمكانهم شخصيا الوفاء بنذور حجهم إلى هنا، وكانوا عندما يرسلون بهؤلاء الناس محلهم، كانوا يعهدون إليهم بقولهم اعملوا ما استطعتم من قداسات في الضريح المقدس، ويفرضون عليهم أداء ايمان كثيرة بفعل ذلك، ويدفعون لهم النفقات، ولهذا نجد هؤلاء الناس خائفين من أن يخفقوا في الوفاء بما تعهدوا به، ولذلك يتعجلون ويتخاصمون، وهناك سبب آخر، هو أنهم يرغبون أن يكونوا قادرين، لدى عودتهم إلى بلادهم، على أن يقول أحدهم صادقاً: «لقد أقمت قداساً في الضريح المقدس»، ويبدو الأمر بالنسبة لأحدهم إذا لم يستطع تحصيل مكان، سيكون ذلك عاراً بالنسبة إليه، وإهانة عليه من أجلها أن يغادر القدس، وهناك سبب آخر أيضاً هو أن بعض الفرسان الذين يكونون حضوراً أحياناً، يعطون كاهناً دوقية لإقامة قداس لهم في الضريح المقدس، ويقوم هؤلاء الكهنة بالتدافع بكل فعالية.

وعلاوة على هذا كله، هناك بعض الكهنة قد جرى تكليفهم من قبل الأساقفة من رؤسائهم بالقيام بعدد كبير من القداسات في الضريح المقدس، وبعضهم كانوا عندما يفارقون الأعزاء عليهم يعدونهم بأنهم سوف يتلون قداساً من أجلهم في ضريح الرب، وتصطرع هذه الفئات

من الناس كلها باندفاع من أجل مكان، وهناك سبب آخر يمكن أن نضيفه، ولعله سبب خرافي، هو أنه قد قيل بأن كل قداس يتلى في ضريح الرب، يتولى بالحقيقة تحرير النفس من العذاب بعد الموت.

والشيء نفسه قد قيل عن قداسات تليت في catacombe في روما، وخاصة حول نفوس الذين تحرروا بسبب القداسات التي أقامها الكهنة من أجلهم، فالذين يؤمنون بهذا كنت تراهم يتحركون بسرعة مذهلة، ويجرحون أنفسهم، ويعادون إخوانهم، ويسببون الاهانة للرجال العلمانيين في تلهفهم لمساعدة هذه النفوس.

وهناك سبب آخر، هو أن بعضهم يعتقد أن القداسات التي تتلى في الضريح المقدس، هي ذات فائدة أعظم وتأثير لكل من مقيم القداس، وللشخص الآخر، سواء أكان حياً أو ميتاً، مع إمكانية أعظم بالحصول على النعمة.

وسبب آخر نضيفه هو الشره وانعدام الاحترام لدى بعض الناس، الذين يرفضون إعطاء فرصة لأي انسان، بل يتدافعون للحصول على المكان الأول، ذلك أنهم لايعرفون كيف ينتظرون، وهم صابرين.

وهناك سبب آخر، لعله هو السبب الأول، وكذلك الأخير، وهذا السبب هو أن الحجاج يعلمون تماماً أنه غير مسموح لهم بإمضاء أكثر من ثلاث ليال في كنيسة الضريح المقدس، وأنه ليس لديهم وقت لأكثر من ثلاثة قداسات، ولهذا يبذل كل انسان غاية جهده لأن يكون الأول في التمكن من تلاوة قداسه في الضريح المقدس، وتراه لن يعرف الراحة حتى يتلوه، لأنه يخشى من أن لايساعده الوقت مثلما حدث وخان كثيراً من الناس الذين غادروا وهم آسفين لأنهم لم يقيموا قداساً في الضريح المقدس.

وهكذا —كما قلنا من قبل— أقمنا قداساتنا، وعند اشراق الشمس،

ركض الموقت حول أرجاء الكنيسة مع لوحه الخشبي، وأعطى الشارة من أجل إقامة قداس رفيع في الأول والثالث على جبل أكرا، وبناء عليه صعدنا جميعاً إلى الجبل المقدس، وصعد الأب المسؤول مع مرافقيه بثيابهم المقدسة، إلى المذبح، وبدأ قائد الجوقة يرتل قداس الصليب المقدس، مع صلاة Nos autem gloriari، وشاركنا جميعاً في القداس بصوت مرتفع، وبعد القداس تلقى موالي الفرسان وجميع الحجاج العلمانيين القربان بخشوع كبير، واستمرت أعمال القداس حتى الساعة الثامنة في الصباح، وفي اللحظة التي انتهت فيها هذه الأعمال جاء المسلمون لإخراجنا من الكنيسة.

اخراج الحجاج من الضريح المقدس وزيارتهم إلى الأماكن التي هي حول الكنيسة مما ارتبط به نيل الغفران

وبعدما أنهينا طقوسنا وقداساتنا، قدم السادة المسلمون المغاربة، ففتحوا أبواب الكنيسة محدثين بها جلبة عظيمة، من أجل أن نخرج بسرعة أكبر، ولدى سماعنا هذا ارتعبنا، وانزعجنا لافتراقنا، ولابتعادنا عن هذه الأماكن المقدسة الرائعة، وركضنا من مكان مقدس إلى مكان آخر لتقبيلهم، لكن بما أن الحجاج تأخر خروجهم بعملهم هذا، أصبح السادة المغاربة غضابى، ولذلك قرعوا على أبواب الكنيسة بعنف بلغ حداً أن مفاصلها كادت تنكسر، وركضوا هناك، وهم يصرخون بأصوات مرعبة بين الأماكن المقدسة، وساقوا الحجاج وأخرجوهم بالقوة، وقذفوا بكل واحد منا إلى خارج الكنيسة، وذلك باستثناء الحراس المعروفين هناك، وبعدما فرغوا من اخراجنا، أغلقوا أبواب الكنيسة وذهبوا في حال سبيلهم، حيث تركونا في الساحة في الخارج، وهناك هيأنا أنفسنا لزيارة بعض الأماكن المقدسة، على مقربة من الكنيسة.

المكان الذي وقفت فيه العذراء مريم ومعها يوحنا الانجيلي عند أسفل صليب يسوع عندما عهد لكل واحد منهما العناية بالآخر

وأول ماعملناه لدى مغادرتنا لباب الكنيسة، هو أننا انعطفنا نحو اليمين، حيث يوجد في مقابل جدار الكنيسة سلم درجاته من الحجر، وهي تقود صعوداً إلى جبل أكرا، وكان عند قمة هذا السلم فيما مضى جدار من خلاله يمكن للانسان أن يمرّ إلى صخرة أكرا، لكن هذا الباب مغلق الآن عمارة، وذلك من قبل المسلمين، ويوجد تحت هذه الدرجات باب، يدخل منه الانسان إلى بيعة هي في داخل جدران كنيسة الضريح المقدس، لكنهسا الآن محاطة من داخلها بجدار، وبذلك لايستطيع الانسان الدخول إلى الكنيسة من خلالها، لأن المسلمين عمرّوا بابها الداخلي أيضاً، وفي هذه البيعة يوجد الموضع الذي وقفت فيه مريم العذراء المباركة جداً، وكذلك القديس يوحنا الانجيلي، فقد وقفا تحت الصليب، عند سفح صخرة أكرا، وعندما رآهما الرب يسوع معا، عهد إلى يوحنا العناية بأمه كما عهد لأمه العناية بحوارييه، وانحنينا في هذا المكان المقدس بأنفسنا نحو الأرض، وسجدنا هناك، فتلقينا غفرانات(+).

وهذا المكان ملك للهنود، وهم الذين يتولون قيادة القداسات فيه.

واستدعينا في هذا المكان إلى ذاكرتنا الحزن اللامحدود للعذراء المباركة، لأنها قد عانت هناك من جميع الآلام والأحزان التي من الممكن أن يعاني جسد بشري منها، وكل الوحشيات التي مورست ضد أجساد الشهداء كان هناك بالنسبة إليها ثلاثة أضعافها، أو بالحري لم تكن آلام الشهداء شيئاً محسوباً إذا قورنت بآلامها، والتي خرقت جسدها بلاحدود ووصلت إلى شغاف قلبها الرحيم، وأخبرنا الانجيلي بأنه قد وقف هناك إلى جانب صليب يسوع، مريم أمه، ليس بدون حركة أو انشغال بأمور عابثة، بل كانت مضطربة بعقلها، وكانت تقول بصوت

متألم:«يابني، يامن كنت سعادتي وبهجتي، أنت الآن حزن بالنسبة لي أمضى من حد السيف، آه، كم هو يوم تعيس هذا اليوم بالنسبة لي ذلك، فمن الذي يمكنه أن يشفي جراح أحزاني، أو يقدم العزاء لشقاء أمك التعيسة، وذلك عندما أرى ابني وكأنه مجذوم، فلقد كنت الأحلى بين أبناء الناس، ومع ذلك عوملت كشقي، وعدّوك مع المعتدين، مع أنك الأقدس بين القديسين؟ وفوق آلامي وأحزاني التي لاتحتمل، هو أنني أراك، كما يبدو لي، قد نسيتني، قد نسيت أمك الأرملة، والآن، مع أنك تموت، لم تقل ولاكلمة لي، فإلى أين سوف آخذ نفسي؟ وإلى من سأطير للالتجاء؟ ذلك أنك أنت أبي، وأنت أخي، وأنت مجدي وفخاري، أيها الهاجرلي، إنني أرى ولدي العظيم يتلاشى على الصليب، ولدي الحبيب والغالي، تحدث إليّ، تحدث إلى أمك،، علني أسمع صوتك، فبسماعي لمجرد كلماتك، يمكن أن أكون أكثر صبراً، حتى أتحمل عقوبتي، التي نزلت بي والتي تعذبني من خلال حبي لك، وذلك خشية أن يغشى علي في وسط هذه الآلام التي لاتحتمل، إنني أتوسل إليك، إلى من سوف تعهد بي وتتركني، أنا يتيمتك»؟ فبمثل هذه الكلمات، وكلمات مناحة مماثلة، ناحت العذراء مريم في هذا المكان، وبكت تعاستها وتعاسة ابنها سواء، وهنا عندما شاهد ابنها هذا قال:« ياامرأة هو ذا ابنك»، وأشفقنا على الأم في هذا المكان، مثلما أشفقنا على الابن في جبل أكرا، ولقد كان حبها العميق الذي شعرت به نحو الانجيلي نفسه، أعظم مما شعرت به نحو الآخرين، ذلك أنه وقف إلى جانبها وهو متأثر كثيراً وبعمق، ولم تقف العذراء المباركة ويوحنا مع الآخرين فوق الصخرة، تحت ذراعي الصليب، بل عند سفح الصخرة، مقابل وجه المسيح.

بيعة الملائكة المقدسين ولماذا توجب أن تكون هناك

وبعدما فرغنا من صلواتنا في المكان المتقدم الذكر، عبرنا إلى بيعة

أخرى، مكرسة للملائكة المقدسين، ويتولى اليعاقبة القداسات في هذه البيعة، وجثونا فيها، وتلقينا غفرانات(+).

وتداول أحدنا مع الآخر، إثر ذلك، حول لماذا جرى بناء بيعة للملائكة المقدسين بجوار هذه الكنيسة الأعظم قداسة، وكان الجواب الذي تلقيناه، بأن هذه البيعة قد بنيت بسبب الحماية الفعالة التي مدّها الملائكة إلى هذه الكنيسة، لأنه لولا أن الملائكة يتولون حراسة هذه الكنيسة بشكل دائم، والضريح المقدس بعناية خاصة، لكانت قد دمرت دماراً كلياً من قبل الكفار، علاوة على هذا ينجو الحجاج الذين يقدمون من مناطق واقعة فيما البحار، إلى الضريح المقدس لربنا، ينجون من كثير من المخاطر، ومن المخاوف المميتة، وذلك من خلال حراسة الملائكة، الذين إليهم يعيدون الشكر في هذه البيعة، ويتوسلون بأن يعودوا سعداء ثانية إلى وطنهم، في ظل الرعاية الملائكية السليمة نفسها.

بيعة القديس يوحنا المعمدان

وعبرنا من هذه البيعة إلى بيعة أخرى، مكرسة ليوحنا المعمدان، وهي ملك للجورجيين (الكرج)، وعندما دخلنا إليها انحنينا بأنفسنا للصلاة، وتلقينا غفرانات(+).

وكان عملاً منطقياً تماماً، أن يكون للذي كان هو الأعظم بين الذين ولدتهم النساء، مكاناً ومزاراً إلى جانب الكنيسة الأعظم بين الكنائس كلها، وأيضاً بسبب أن المعمدان الأعظم قداسة قد أشار إلى المسيح باصبعه وقال:«هو ذا حمل الرب الذي يرفع خطية العالم» (يوحنا: ١/ ٣٩)، ونحن نعلم بأن هذا القول قد تمّ الوفاء به في هذه البقعة، حيث عليها قدم نفسه كأضحية ليزيل ذنوب العالم كله، فضلاً عن هذا امتلك المعمدان بيعة هناء من أجل أن يكون المسلمون ميالون أكثر نحو إبقاء الكنيسة، لأنهم ينظرون إلى معمدان المسيح نظرة احترام عظيمة.

بيعة القديسة مريم المجدلية في ساحة الكنيسة

وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى بيعة أخرى، كانت مكرسة للقديسة مريم المجدلية، وذلك على جهة اليسار (من الساحة) بجوار برج الناقوس، وكانت هذه فيما مضى كنيسة واسعة مع دير للراهبات مرتبط بها، لكن في هذه الأيام الجزء الأعظم منها مهدم، وتقام الطقوس في هذه البيعة من قبل الإغريق، وكان عملاً صحيحاً جداً قيام الآباء الأقدمين للكنيسة ببناء كنيسة للقديسة مريم المجدلية متصلة بكنيسة الضريح المقدس، وهي الكنيسة الأعظم قداسة، لأنه عندما غادر الحواريون هذا المكان، وتركوا الضريح، بقيت مريم المجدلية لوحدها في الحديقة، تمشي نحو الأمام ونحو الخلف وهي (تبحث عن الرب) ولم يكن بإمكانها تحمل مغادرة المكان، والابتعاد عنه، ولعظيم تقواها استحقت أن يكون لديها بيتاً للصلاة هنا، ولكي تبقى مشرفة فوق هذه البقعة بشكل دائم، وتلونا في هذا المكان الصلوات المحددة، وتلقينا غفرانات، وتابعنا سيرنا إلى أماكن مقدسة أخرى.

المكان الذي كان ابراهيم فيه على وشك تقديم ابنه اسحق أضحية

وتقوم البيع الأربع المتقدم ذكرها حول ساحة أو فناء كنيسة الضريح المقدس، ويمكن للانسان الدخول إليهن من الساحة من دون أي صعود أو نزول، وبعدما زرناهن، كما قلنا من قبل، عدنا إلى الجانب الأيمن من الساحة، ومررنا هناك من خلال باب إلى ممر مظلم، وذلك من بين بعض الأبنية القديمة، ولم يكن بامكاننا أن نرى شيئاً هناك مهما كان نوعه، لأن المكان كان مظلماً، ثم إننا كنا قد دخلنا للتو من مكان مضيء بأشعة الشمس إلى ذلك المكان المظلم، وتقدمنا بضع خطوات نحو الأمام، خلال هذا الظلام، ووصلنا إلى درجات حجرية، حيث

صعدنا عليها، فوجدنا زنزانة صغيرة، وعليّة، سكن فيها بعض التعساء من المسيحيين الشرقيين، وقرعنا على الأبواب هناك، ووجدنا شخصاً واحداً هناك، كانت عبدة سوداء صغيرة الحجم متقدمة بالسن، وعندما رأتنا فتحت البيعة لترى من الذي قدم صاعداً إلى هناك، وكانت في الحقيقة بيعة جميلة، مبلطة برخام مصقول ومنوع، وهي قائمة فوق جبل أكرا، على ذلك الجانب الذي وقف الصليب عليه، إنما خارج جدران الكنيسة، وبنيت هذه البيعة حسب آراء العلماء الكاثوليك من أمثال: أوغسطين، وجيروم مع أحبار اليهود، فوق البقعة التي كان ابراهيم على وشك أن يضحي فيها بابنه اسحق، وذلك تنفيذا لأوامر الرب، ويقول بعضهم بأن هذا قد حدث على جبل سعير، أو صيدنايا، ومرة أخرى يقول آخرون بأن هذا قد حدث فوق جبل موريا، وذلك حيث بنى سليمان الهيكل فيما بعد.

لكن روايتنا كاثوليكية أكثر، وأقرب إلى المنطق، والسبب متوفر في النموذج وفي الحقيقة، فهذا مرجح أكثر بالنسبة للمكان بشكل خاص، فحيث لم يوفر ابراهيم ابنه، حسبما قرأنا في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين، مثل هذا لم يوفر الرب ابنه الحقيقي، بل قدمه من أجلنا جميعاً، كما جاء في الاصحاح الثامن من الرسالة إلى الرومانيين.

وعلى مقربة من هذه البيعة، في خارجها، هناك شجرة زيتون قديمة، قيل بأنها زرعت في المكان الذي أمسك فيه الكبش من قرنيه في الغابة، وهو الكبش الذي نقرأ عنه في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين، بأن ابراهيم قد ضحى به بدلاً عن ابنه، وبناء عليه انحنينا في تلك البيعة المقدسة، بأنفسنا نحو الأرض، وبعدما قرأنا الصلوات المحددة، تلقينا غفرانات(+).

وعندما تلقينا الغفرانات، تفكرنا بأنفسنا، وتفاعلنا معجبين بطاعة ابراهيم، التي جعلته يقوم من دون أدنى تردد، بطاعة أوامر الرب،

وأبعد عن نفسه، ماشعر به نحو ابنه العزيز جداً عليه، وكان جاهزاً للتضحية بابنه الحبيب بيديه، مع أنه كان ابنه الوحيد، الذي ولد بشكل اعجازي من زوجته الشرعية، التي إليها أعطي الوعد بانجاب صبي، ونضيف إلى هذا كله بأنه كان ولداً جيداً، وتقياً، ومطيعاً أكثر من سواه وجميلاً، وبصحة جيدة، ونشيطاً.

وعجباً، كم هو مثل رائع بالفضائل، في أن نتصور في عقولنا هذين الاثنين، وهما يجهدان للصعود فوق هذه البقعة بالذات، لتنفيذ المهمة الأصعب، وكان ابراهيم رجلاً عجوزاً، وكان اسحق في الخامسة والعشرين من عمره، وكانا معا على استعداد لإطاعة الرب وحده في كل شيء، فقد قال اسحق: «أنا بين يديك يا أبي، افعل بي ماتريده، واربط يدي وقدمي بالحبال، وإذبحني طالما في ذلك رضى للرب»، أيها الحجاج، إن الذي عليكم تصوره هو ذلك الرجل العجوز المحترم، وقد قام بتقوى رائعة، بربط يدي ابنه وقدميه، ورفع عاليا سيفه المجرد، ليذبحه به، ماهذه الطاعة التي لم يسمع بمثلها من قبل الأب والابن، وأية تقوى عميقة شعرا بها، لإطاعة الرب، آه، لعل أرواح طاعتنا الفاترة كثيراً، أن ترتفع فوق هذه البقعة، وتعاود البرهنة والتصحيح، والتقويم، فقد أنذرنا الرب، وحثنا الأساقفة، وصرخت الكتابات المقدسة لنا، وقدمت التجربة البرهان لنا، والنذر تربطنا، والأمثلة تعلمنا، ومع ذلك مازلنا نأبى الطاعة! وعلى هذا دعونا، واتركونا ندعو فوق هذه البقعة البطارقة المقدسين بأسمائهم، لعل النعمة تعطى إلينا من الرب.

المكان الذي لقي فيه ملكيصادق ابراهيم مع الخبز والنبيذ

وعندما خرجنا من هناك، اقتادونا إلى بيعة أخرى، مماثلة بجمالها، قد بنيت فوق المكان الذي التقى فيه ملكيصادق بابراهيم، وباركه، ووعده من خلال التنبؤ له بأن المسيح سوف يلد من ذريته، ومنحه خبزاً ونبيذاً،

وكـــان ملكيصـــادق كـــاهن الرب العلي الأعلى، وأول ملك للقــدس، وأعطاه ابراهيم باكورة الفـواكه لديه، وعشر كل مـاكان عنده، وقبلنا في هذا المكان الأرض، وتلقينا غفرانات(+).

وفعلنا أيضـاً ماطلب الرسـول منا أن نفعل في الإصحاح السـابع من الرسالـة إلى الرومانيين (العبرانيين:٧/ ٤) في قوله:« ثم انظـروا ما أعظم هذا الرجل (ملكيصـادق) الذي أعطاه ابراهيم رئيس الآباء عشراً أيضـاً من رأس الغنائم»، ومن أجل ملكيصادق يمكنك قراءة ماتقدم حوله في ص٤٩٣، وعبرنا من تلك الكنيســة، إلى جـدار سـدة الكنيســة، الذي يستدير نحو اليمين، ونحو الأعلى، وعلى هذا كان بامكاننا أن نلقي نظرة على المدينة بالطول وبالعـرض، وكان أيضـاً باستطاعتنا أن نقـدر بشكل جيد المسافة من الباب الذي اقتيد منه الرب يسوع، وهو حامل لصليبه، حتى جبل أكرا.

الساحة القائمة أمام كنيسة الضريح المقدس التي فيها الأماكن المتقدم ذكرها وفيها أيضاً الأماكن التالية

وبعدما شاهدنا ذلك، نزلنا بوساطة الدرجات أنفسهن اللائي صعدنا عليهن، وأصبحنا في ساحة الكنيسة، ورأينـا على مقربة من الباب حجرة في البلاط، قـد انطبعت عليها علامـات قدمي انســانين، تماماً مثلما يقف انســان فـوق مصباح من الشمـع الطري، ويضغط بقـدميه فـوقـه، ومن الواضح أن هذه الآثـار لطبعـات الأقـدام لم تصنع فنيـا في الحجـر، بل صنعت بوساطة معجـزة، مع أنه مامن شيء مؤكد معـروف حول ذلك، ولقـد قالوا بأن هذه كـانت طبعات خطوات الرب يسـوع، الذي وقف هناك عند سفح صخـرة أكرا، وهو ينتظـر صلبه، وانحنينا بأنفسنا نحـو الأرض أمام هذه الحجرة، وقبلنا طبعات الأقدام المقدسة.

وذهبنا من هناك في رتل إلى مكان قـريب إلى الطريق خارج السـاحة،

حيث —قد قيل— بأن ربنا، قد وقع وهو يحمل صليبه الثقيل، وقع تحته بسبب إرهاقه، ولارتعابه لدى رؤيته لصخرة أكرا أمامه، وذلك حسبما تحدثنا من قبل في ص٩٢، وهذا المكان المقدس معلم بحجرة، عليها جرى قطع أعداد كبيرة من الصلبان من قبل الحجاج، وبناء عليه قبلنا هذا المكان، وتلقينا غفرانات مطلقة (++).

قصر ملك القدس المجاور للكنيسة

وخرجنا بعد ذلك من الساحة، ومررنا خلال باب موجود على الجهة اليسارية منها، وذلك وأنت تتطلع نحو الكنيسة، في حديقة مزروعة بالبرتقال والرمان، ومضينا من هذه الحديقة صاعدين إلى بيت كبير فيه الكثير من الغرف، وكان يسكن في ذلك البيت — على كل حال— عدد ضئيل من الفقراء الإغريق فقط، مع أن مائة من الناس يمكنهم السكن فيه براحة، لأنه كما قلت من قبل، هو بيت كبير وعظيم، يحتوي على عدد كبير جداً من القاعات المقنطرة، وهو ملاصق للجهة الغربية من كنيسة الضريح المقدس، وملاصقته بلغت حداً أن في القاعة الرئيسية منه نافذة موجودة في جدار كنيسة الضريح المقدس، من خلالها يمكن للانسان أن ينظر إلى ضريح الرب.

وكان هذا البيت فيما مضى مكان سكنى وإقامة ملوك القدس، الذين عاشوا هناك، من أجل أن يكونوا دوماً على مقربة من الضريح الأعظم قداسة، العائد لربنا، وجرت العادة في أيام الملوك اللاتين أن يعطى كل يوم ثلاثة أرغفة من الخبز إلى الحجاج، وعندما استولى السلطان على المدينة المقدسة، وتملكها، حافظ على هذه الصدقة لسنين كثيرة، لكن هذا قد تلاشى الآن كليا، وبطل استخدامه، والإغريق الذين يعيشون في هذا القصر الملكي، يجدون صعوبة بالغة في التمكن من البقاء في حالة فقرهم، والبيت نفسه مهدد بالسقوط والخراب من كل جانب، لابل إن أجزاء كثيرة منه قد تحولت إلى خرائب، هذا ولايوجد أحد يمكنه أن

يتولى ترميمه، أو أن يقوم بإعادة تعمير الأجزاء المهدمة منه، ويسكنه حجاج إغريق عندما يكون أياً منهم في القدس، وهم يطلقون عليه اسم قصر بطريرك الإغريق.

مشفى القديس يوحنا والأماكن المتصلة به والتي تشكل شطراً من المباني

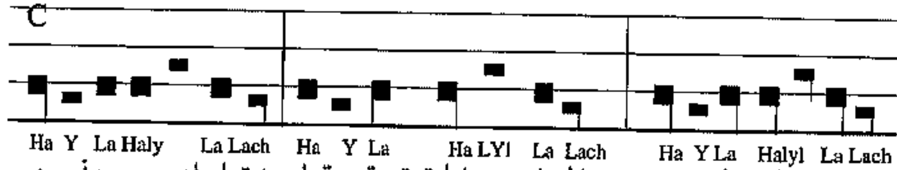
وعندما خرجنا من ذلك البيت، صعدنا إلى مشفى القديس يوحنا، القائم في مقابيله، وهو الذي فيه ينام الحجاج ويأكلون، وبجوار هذا المبنى الذي يقيم فيه الحجاج مؤقتاً، هناك كان فيما مضى قصر كبير، كان مسكناً فخماً للنبلاء من فرسان القديس يوحنا، الذين كانوا أكثر الناس تقوى، وأعظمهم كرماً نحو الحجاج، وجرت العادة أن يدخل إلى المشفى كل واحد من الحجاج، وأن يعطي مديره ماركين بندقيين، وبذلك يصبح بإمكانه شغل حيز فيه من دون جدال مطلقاً، حتى لو بقي في القدس لمدة سنة، وكان ذلك البيت والمشفى واسعاً جداً، وفخماً، إلى حد أنه لو وصل إلى هناك ألف من الحجاج، كل واحد منهم كان سيجد غرفة له من دون ازدحام، فهذا يمكن رؤيته من خلال خرائبه، ومن خلال الجزء الذي مايزال قائماً ومهدماً جزئياً فقط، وهذا الجزء المتبقي متسع بما فيه كفاية لاستيعاب أربعمائة حاج، للعيش فيه.

وفي مقابل المشفى هناك خرائب لجدران واسعة، قد بقيت من بيت فرسان التيوتون، الذي كان الحجاج من النبلاء الألمان يقيمون فيه فيما مضى من أيام، وإلى جانب هذا البيت نفسه كان هناك قاعة أخرى كبيرة، اعتادت النساء الحاجات على الإقامة فيها بشكل مؤقت، ذلك أنه لم يكن مسموحاً لهن بأي حال من الأحوال، أن يعشن مع أزواجهن في البيت الكبير.

هذا وبنى المسلمون إلى جانب المشفى الكبير برجاً عالياً، عظيم

النفقـات، مـزيناً بالرخـام الأبيض المصقـول، وبنوا إلى جـانب البرج (المئذنة) مسجداً يواجه كنيسة الضريح المقـدس، ويصرخـون من هذا البرج ويرفعـون أصـواتهم في الليل والنهـار، وذلك وفقـاً لما تقضي به عقيدتهم، والذي أعتقده تماما أن هذا المسجد وهذا البرج قد بنيا صدوراً عن عدم الاحترام للـذي صلب، وبمثابة عمل عـدواني نحو المسيحيين، وإلى جـانب المسجـد، وعند أسفل البرج هناك مدرسة للأطفـال، فيهـا يتعلم أولاد المسلمين شريعـة محمد (صلى الله عليه وسلـم)، ويصرخون هناك طوال النهار، ويثيرون ضجة عالية جداً.

وفي مناسبـة أخرى عندمـا كنت نازلاً من جبل صهيون وحيـداً، من أجل تلاوة صلواتي في سـاحـة الكنيسـة، سمعت الأطفـال يصرخـون فصعدت نحـو باب المدرسة، ونظرت نحـو داخلها، فوجـدت الأطفال جـالسين على الأرض في صفوف، وكـانوا جميعـاً يرددون بشكل جماعي الكلمات نفسهـا بصـوت مرتفع، وكـانوا حـانين لرؤوسهم ولظهـورهم نحو الأسفل، مثلما اعتـاد اليهود أن يفعلوا لدى أدائهـم لصلواتهم، وقد رددوا الكلمات نفسها عـدداً كبيراً من المرات، إلى حد أنني تذكـرت كل من الكلمات واللحن الموسيقي الذي جاء على هذه الشاكلة:



وهذه في الحقيقـة هي المبـادىء الحقيقيـة وقـاعـدة ايمانهم، وهذه هي الأشياء الأولى التي يعطونها إلى أولادهم لتعلمها، ويغرسونها في عقولهم بوسـاطـة التكرار المستمـر، ويعلنون على مـآذنهم (أبـراجهم) بشكل متـواصل عن عقيـدتهم، ذلـك حسبما سـوف نرى في ص٩٥ من القسم الثاني، ولديهم مثل ذلك عبارات أخرى يعلمونها إلى أولادهم، لها ألحان مختلفة، وذلك كما سمعت بالغالب.

وإلى جانب المدرسة في داخل المسجد والساحة هناك سجنين عائدين إلى البلدة، فيهما يحبس المجرمون، وهما يشبهان ذريبتان صغيرتان، أو مثل فرنين، ويشكلان بوضعهما عائقاً عظيماً ورعباً للحجاج، وفي الحقيقة غالباً ماحدث لي أنني وأنا ذاهب إلى كنيسة الضريح المقدس لأداء صلواتي أمام باب الكنيسة، كنت إذا مارأيت رجالاً مسلحين واقفين حول هذين السجنين، أقوم بالعودة إلى البيت ثانية، خشية أن يلحقوا بي بعض الأذى، وأنا أعتقد بأن هذين السجنين قد بنيا بالفعل هناك للاساءة إلى الكنيسة والمشفى،. وليكونا مصدر رعب للحجاج.

وهناك من المشفى إلى ساحة الكنيسة طريق قصير جداً، وليس ممنوعاً على الحجاج النزول إلى هناك كم من المرات رغبوا بذلك، مالم يجري منعهم باجتماع الرعاع عند السجنين المتقدمي الذكر، ولم نؤخذ في حجي الأول إلى مشفى القديس يوحنا، بل أخذنا إلى بناء كبير في ميلو، تحت مدينة داوود، ولم يكن بامكاننا النزول إلى كنيسة الضريح المقدس إلاّ تحت حماية بعض المسلمين، والسبب في اسكاننا في مكان آخر غير المشفى، لم أعرفه، والذي أعرفه أنه لسنوات طوال مضت قبلنا، كان يجري انزال الحجاج في ذلك البيت نفسه، لأن جدران القاعات كانت مغطاة برسوم تحتوي على رنوك بعض النبلاء من بلادنا، ومن ذلك عرفت أنهم أقاموا هناك، وليس في مشفى القديس يوحنا، وهذا البيت نفسه كان واسعاً، ويحتوي على كثير من القاعات، وله حديقة جميلة، وهو قائم في ميلو، فيما بين جبل صهيون والقدس.

والآن بعدما فرغنا من زيارة جميع الأماكن المتقدم ذكرها، كما حدثتكم، عدنا جميعاً، كل واحد منا إلى موضعه، فقد ذهب الحجاج العلمانيون من الفرسان إلى مشفى القديس يوحنا، لكن رجال الدين صعدوا برفقة الرهبان الفرنسيسكان إلى جبل صهيون، حيث أكلنا وشربنا، وأرحنا أنفسنا، وهنا انتهى هذا الحج.

وصف ضريح الرب يسوع: كيف كان بالأصل، وماهو شكله في هذه الأيام، الخ

في عمل أي شيء، طبيعيا واصطناعيا، يبدأون —مع أن لديهم تصور كامل للعمل— بالأجزاء، وأول كل شيء بالأجزاء النبيلة، ثم يتابعون في صنع جزء بعد الآخر، حتى تكون النتيجة، جميع ماعزموا على صنعه، وأعتقد أنه من الأفضل لي أن أسير وفق هذا الترتيب، في عرضي الوصفي لكنيسة الضريح المقدس، التي نويت أن أكتب عنها، وقبل وصفها (ككل) سوف أتولى أولاً وصف أقسامها الرئيسية: أي وصف الضريح المقدس، الذي هو الرأس، والقسم الرئيس في الكنيسة كلها، فمنه نالت الكنيسة كلها اسمها، وسوف أصف بعد ذلك جبل أكرا، الخ.

ومادمت أنا الآن مقبل على تقديم وصف للضريح المقدس، ومع أنها ليست مسألة هامة جداً، مع ذلك لم أجد مصاعب قليلة في أداء هذه المهمة، ومرد ذلك إلى وجود أوصاف كثيرة في الكتب التي صنفت من قبل مختلف الحجاج، ولهذا السبب سوف أكون مسروراً بالقيام بوصف ترتيباته وأوضاعه إلى أخواني الرهبان، وأن أكتب ذلك بوضوح بقدر ما رأيته بعيني، ومع ذلك إن هذا من غير الممكن لأنني لابد سأجد نفسي مضطراً للكتابة عنه أكثر أو أقل مما قد رأيته، وسوف تكون النقاط الرئيسية التي سوف أتحدث عنها هي النقاط الثلاث التالية:

١— ماهو الشكل الذي كان ضريح الرب عليه عندما جرى تمديد جسد الرب فيه؟

٢— ماهو شكل الضريح الذي زرناه وتعبدناه؟

٣— هل هذا الضريح هو نفسه، الذي جرى تمديد جسد المسيح فيه وفي هذا السؤال الثالث تكمن الصعوبة كلها.

وفي معالجة السؤال الأول، لابد من أن تعرف أنه من السهل اعطاء فكرة عما كان عليه شكل الضريح في يوم وفاة المسيح، فكل من رأى الأضرحة القديمة في هذه البلدان، لن يجد صعوبة في هذا المقام، مع أنه من غير الممكن استخراج وصفه بوضوح من كلمات الانجيليين المقدسين، لأن أحاديثهم مختصرة، وموجزة حول هذه المسألة، فقد قال القديس متى في (الاصحاح٢٧):«فأخذ يوسف الجسد ولفه بكتان نقي، ووضعه في قبره الجديد الذي كان قد نحته في الصخرة، ثم دحرج حجراً كبيراً على باب القبر ومضى»، وقال مرقص في (الاصحاح١٥):«فاشترى يوسف كتاناً جيداً، فأنزله وكفنه بالكتان، ووضعه في قبر كان منحوتاً في صخرة، ودحرج حجراً على باب القبر»، وقال في (الاصحاح١٦) عن الحجر الذي دحرجه على باب القبر بأنه:«كان عظيماً جداً، ولما دخلن القبر رأين شاباً جالساً» الخ، وقال لوقا في (الاصحاح٢٣):«وطلب يوسف — جسد يسوع، وأنزله ولفه بكتان ووضعه في قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط»، وقال أيضاً في (الاصحاح٢٤):«فوجدن— النساء — الحجر مدحرجاً عن القبر، فدخلن ولم يجدن جسد الرب يسوع» وفي الاصحاح نفسه قوله:«فقام بطرس وركض إلى القبر فانحنى ونظر الأكفان موضوعة وحدها على الأرض»، وذكر يوحنا أكثر من الآخرين، في الاصحاح١٩ وقال:«وكان في الموضع الذي صلب فيه بستان، وفي البستان قبر جديد لم يوضع فيه أحد قط. فهناك وضعا يسوع لسبب استعداد اليهود لأن القبر كان قريباً»، وقال في (الاصحاح٢٠):«فنظرت مريم المجدلية الحجر مرفوعاً عن القبر»، وأخبرت بذلك بطرس ويوحنا الذي «جاء أولاً إلى القبر، وانحنى فنظر الأكفان موضوعة، ولكنه لم يدخل».

وبعد قراءة هذه الروايات، من السهل على الانسان الذي رأى القبور في الأرض المقدسة، أن يفهم كيف كان شكل ضريح الرب، لكنه من

غير الممكن أن يكون الآن كما كـان عليه آنـذاك، لأن الكنيسة قـد بنيت فوقـه، وبسبب التزيينات التي سوف نتحدث عنهـا تحت العنوان الثاني، وكــذلك بسبب التغييرات التي لحقـت بالأرض، لأنه فيما مضى كــان هناك مبنى جنائـزي خـارج أسـوار القـدس، لكن السـور بني فيما بعـد ليحيط به، وبنيت عمائـر هناك اتصلت بـه، ولذلك لم يبق شكـل الأرض في أي جزء، كما جاء وصفه لدى الانجيليين.

وإذا مـا أردت أن تعـرف كيف كـان شكله بالأصل، تصـور وجـود حديقة خارج سور المدينة وخـارج خندقها، وأنه كان يوجد بين الخندق والحديقـة طريق عـام، له على طرفـه الأول جدار الحديقـة المعمـول من حجارة جافة، ومن الجهة الثـانية السور الخارجي للخندق، أو الصخرة، إذا كـان الخندق كان محيطاً بالصخـرة، كما هو في القـدس، وعلامـة على ذلك تصـور في ذاتك أنه كـان في الحديقـة نفسهـا صخور واقفـة فـوق الأرض في كل مكان، وهـي صخــور كبيرة وصغيرة، وكـــان بين هذه الصخور واحـدة واسعة وعـريضة، وكـانت صماء، غير مقعـرة، منتصبة نحـو الأعلى مثل بيـت صغير، فعلى هذه الصـورة كـانـت الحديقـة التي حـدثنا يوحنا عنهـا، حين ذكـر أنه كانت هنـاك حديقـة على مقـربة من المكان الذي صلب فيه يسوع، لأن يسوع كان قد صلب خارج الحديقة، فوق صخرة الجرف، وعلى هذا كان الطريق العام يفصل فيما بين صخرة الصليب، وجـدار الحجارة الجافـة للحـديقة، وفي الحقيقـة جميع الحدائق القـائمة في أحـواز القدس مليئة بالصخـور، ووجها غير مستـو، بسبب الصخـور المنتصبـة فيهـــا، وبناء عليـه كـان الناس الذيـن كـانت لديهم صخـوراً كبيرة في حـدائقهم، قد اعتـادوا على تجويفهن ونحت أضرحـة فيهن وغرفاً للمـوتى، هذا وإذا كانت الصخرة كبيرة جداً، كـانوا بعدما يفـرغون من نحت غـرفة، كـانوا يقـومون ثانيـة بقطع باب على الطرف الأقصى منها، ويصنعون تجويفـاً آخر، ليدفن فيه بعضـاً من أصدقائهم،

ثم إنهم كانوا بعد ذلك ينحتون غرفة أخرى في الصخرة.

وإذا احتوت الصخرة على كهف واحد، كانوا يسمونه كهفاً بسيطاً، وإذا احتوت على اثنين، يسمونه كهفاً مزدوجاً، كما قرأنا في الاصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين، من أن ابراهيم قد اشترى كهفاً مزدوجاً، وإذا ما احتوت على ثلاث غرف، كانوا يسمونه كهفاً ثلاثياً، وإذا أربعة، كهفاً رباعياً، وهكذا، ولقد رأيت في احدى الحدائق، على مقربة من الحقل الذي اسمه حقل الدم كثيراً من الكهوف لها جدران من الصخر، كان أحدها يقود إلى الآخر، وكلها منحوتة واحد تلو الآخر من الصخر الحي، حتى أنني لم أتجرأ على الذهاب حتى آخر كهف منها، لأنني بعدما دخلت إلى الكهف الثالث، ولم يعد بإمكاني رؤية الضوء الذي جاء من خلال باب الكهف الأول، توقفت وأنا خائف من الظلام، لأنه بالحقيقة، إذا ما دخل انسان إلى هذه الكهوف من الممكن أن يضيع نفسه، ولايعود قادراً على العثور على طريقه إلى الخارج، لأن الأقدمين قد نجروا أقبية عميقة في الصخر، لدفن موتاهم فيها.

وبناء عليه، كان يوسف الرامي، الذي كان رجلاً جيداً، وعادلاً، ومن منبت طيب، وغنياً، ومقتدراً، وحكيماً، قد اشترى لنفسه هذه الحديقة على مقربة من المدينة، وعلى طرف صخرة أكرا، وأمر بتجويف الصخرة الصماء التي كانت هناك، إنما عندما مات الرب، تخلى يوسف عن حقه بهذا المكان، وأعطى كل من الحديقة والصخرة إلى المسيح، الذي كان أول شخص يدفن هناك في الغرفة الداخلية، فعندما أنزلوه من على الصليب، حملوه من صخرة أكرا، عبر جدار الحجارة الجافة إلى هذه الحديقة، حيث حنطوا جسده فوق حجرة أعدت لهذا الغرض، وحملوه إلى الكهف الثاني، لأن الكهف كان مزدوجاً، وكان الباب الأول في الكهف الأول واسعاً وطويلاً، يقود إلى وسط الكهف، ولم يكن

الباب الذي يقود إلى الكهف الثاني مواجهاً للباب الأول، لأنه كان على يسار الانسان الداخل، وكان باباً منخفضاً وصغيراً، وكان على الجانب الأيمن المكان الذي جرى تمديد الرب فيه، وذلك على الطرف الشمالي، لأن النحت هناك مهملاً عن قصد، وبناء عليه كان المنحوت من الصخرة هو مايكفي جسد انسان ممدداً على ظهره، حيث يمكن أن يشغله بالطول وبالعرض، وكان ارتفاع ذلك ثلاثة أشبار ونصف الشبر فوق الأرض.

ولاحظ هنا أن الذين كتبوا عن ضريح الرب، قد ميزوا فيما بين الآبدة والضريح، لأن الآبدة قصد بها الصخرة المجوفة كلها والغرفة كلها، ولكن المقصود بالضريح هو التابوت الحجري أو القبر الذي احتوى على الجسد، هذا ولم تمتلك آبدة الرب على ضريح أو نعش متحرك، بل على ضريح منحوت في الصخرة نفسها، وكان هناك —على كل حال— في الجزء الخارجي مكان مجوف، عمل لتمديد جسد فيه، وهو الجسد الذي وضع في وسط الضريح، وفق طريقة أنه كان مغطى من فوقه بلوح خشبي، ومن تحته قاعدة تركت مرتفعة فوق الأرض، عليها جرى تمديد الجسد، ويبدو أن هذا ما قصده المقدسون من الرجال القدماء، عندما وصفوا ضريح الرب.

وقد نقل مصنف كتاب «التاريخ المقدس» عن بيد المبجل قوله: «كانت آبدة ربنا زنزانة مستديرة، منحوتة من الصخرة، وتحتها، وكان ارتفاعها إلى حد أن انسانا طويلاً قد يلامس قمتها بيده الممدودة، ولها مدخلها على الجانب الشرقي، ووضع في مواجهتها صخرة عظيمة عوضا عن الباب، وفي جانبها الشمالي مكان جسد الرب، وقد نحت من الصخرة نفسها، وطوله سبعة أشبار، وارتفاعه ثلاثة أشبار فوق الأرض، وهو يشبه تابوت حجري وضع فوق قاعدة، والتجويف كان قد نحت في الجدار نفسه مثل التجاويف التي عملت في جدران بيوت

السكن، لتحتـوي على أدوات المنزل، والتابوت ليس فـوق هذا، بل على الجانب الجنوبي منه، وبناء عليـه كانت —حسبما كان وضعهـا— تجويفاً أو قبراً، مــوضــوعــاً على الجانــب، وفتحـه ليست مـن الأعلى، بل من الجانب، وقـــد قيل بأن لـون الآبدة والتجــويف مــزيجاً مـن الأبيض والأحمر»، وهذا الذي قاله «التـاريخ المقدس» المتقـدم الذكر، هو الشكل الأصيل لآبدة الرب وضريحه.

وتبدلت هذه الترتيبات من قبل الامبراطور اليوس هدريانوس، الذي أمر ببناء معبد لفينوس على هذه البقعـة، وذلك حسبما ذكرنا من قبل في ص٤٨٤، وهو لم يقم بتـــدمير آبدة الرب، أو صخـرة أكــرا، بل جـرى توجيهـه من قبل الرب، فأدخلهما في هيكله، كما هما في هذه الأيام، وقـد أظهر احترامـاً نحو الموضع من أجـل إقامة تمثـال لجوبتير في دير ضريح الرب، كما أنه أقـام فوق صخـرة أكرا تمثالاً لفينـوس، فهذا ماقـرأناه في رسـالة جيروم إلى بولينوس، وفي ظل هذه الوضعيـة الكافـرة والدنسـة، بقي المكان المقدس لحوالي مائـة وثمانين سنة، لكن في داخل سور المدينة، لأن هادريان المتقـدم الـذكـر قـد مـلأ الهوة التي كـانـت بمثـابة خندق للمـدينة، وبنى ســوراً حولها، أدخل بمـوجبـه الهيكل داخل المدينة، كما تحدثنا في ص٤٨٣، وصـار المكان منذ ذلك الحين منسيـا، وتحول ضريح المسيح إلى معبـد ومزار لجوبتير، بينما كانـت صخرة أكرا قـد تحولت إلى رابية فينوس، وعلى هـذا جرى تكريس المكان كله إلى عبـادة الشياطين، وامتـلأ بآثام الكفـار حتى أيام هيـلانة المباركـة، التي نظفتـه من معـابد الأوثان، وأعادت تكريسة للمسيح الرب.

أوضاع الضريح المقدس في هذه الأيام وماهو شكله

ثانياً: علينا أن نعرف أوضاع الضريح المقدس الآن، من حيث المظهر والشكل، وبالنسبـة لهذا الوصف اعتمـدت شخصيـاً فيما يختص بضريح الرب، على الرواية التـي كتبهـا رجل محترم اسمـه يوهانـس توخـر -Jo

hanes Tucher، وكان من أهالي نورمبورغ Nuremburg، وكان قد كتب باللغة الألمانية، وقد أمضى أياماً كثيرة في القدس في سنة ١٤٧٩، أي سنة واحدة قبل زيارتي الأولى، وقد تفحص ضريح الرب بدقة متناهية وأخذ قياساته بيديه، وقدميه، وذراعيه وهما ممدودتين، وكانت روايته معي في القدس، وقد وجدت جميع ماكتبه فيما يتعلق بالضريح المقدس صحيحاً، وقد ترجمتها من اللغة الألمانية إلى اللاتينية وأقحمتها في كتابي عن رحلاتي وجولاتي، لأنها وصف هو حقاً صحيح، وقد كتب من قبل رجل محترم وصادق، وخشية أن يصعب على أي واحد فهم استخدامي للاصطلاحات المساوية، ينبغي أن نعرف مقدماً أنه في أي مكان استخدم السيد يوهانس توخر كلمه Klaftern في كتابه الألماني، وضعت مكانها كلمة «باع Cubit »، ومقياس الباع كماهو مفهوم هو المسافة مابين ذراعي الانسان وهما ممدودين شروعاً من نهاية الاصبع الأوسط في اليد الأولى إلى نهاية الإصبع الأوسط في اليد الثانية، وحيثما كتب كلمة spanne ، وضعت مكانها كلمة «شبر»، ومفهوم هذا القياس هو المسافة عبر الكف الممدود من الابهام حتى البنصر.

وقد وصف الرجل المتقدم الذكر، أي يوهانس توخر آبدة الرب والضريح كمايلي:« بدت آبدة الرب من الخارج تشبه برجاً منخفضاً، وليس عالياً، ولهذا البرج اثنتي عشرة زاوية على أطرافه الخارجية، ويقف عند كل زاوية عمود حجري سداسي، سماكته شبر واحد، وتدعم هذه الأعمدة قنطرة صغيرة فوق الآبدة، ويبرز من هذه القنطرة نوع من أنواع الأفاريز، كله مستدير، وهو بارز مقدار نصف قدم أمام الأعمدة، وقياس البناء المستدير كله، مع أعمدته حوالي الاثني عشر باعاً كبيراً، وهذا القياس يشمل إطار الآبدة كلها من الخارج، لكن المقياس من الداخل هو أقل بتسعة أشبار بالطول، والشيء نفسه بالعرض، والارتفاع من الأرض حتى ذروة القبو المجوف هو قامة انسان ونصف

القامة.

والضريح أو القبر في داخل الآبدة، موجـود على الجهـة اليمنى من الغرفة الصغيرة، وهو مغطى بألواح مصقـولة من الرخام الأبيض، ومن الممكن إقامة قداس عليه، وعرضـه أربعة أشبار وثلاثة أصباع، ومقياس ارتفاعه من الأرض باليد هو ثلاثـة أشبار وأربعة أصابع، وباب الكهف الذي يدخل الانسان منه، هو أربعـة أشبار ونصف الشبر وثلاثة أصابع من حيث الارتفاع، والجدار — أو الفجوة خـلال الصخرة— هو ثلاثة أشبار من حيث السماكة، وارتفاع الآبدة كلها، أو القاعة، فوق الأرض، مع القنطرة، هو باعين كبيريـن ونصف البـاع، وفـوق السطح المحـدب للقبـو، مبني هيكـل سـداسي الشكل مثل برج، مـع ستـة أزواج من الأعمدة ارتفاع كل منها باعين، فـوقها يستند سقف الهيكل، بارتفاع باع واحد، والمسافة من سقف هذا الهيكل نحـو الأعلى، مقياسها مباشرة من خلال الهواء حتى الفتحة في سقف الكنيسة، المنفتحة فوق الآبدة، والتي من خـلالها تضـاء الكنيسـة، هو حـوالي ستـة باعـات، وهذه الفتحـة مستديرة، واتسـاعها هو بقدر البنـاء كله أو الآبدة، إلى حد لو أن الآبدة متحـركـة، ويمكن رفعهـا نحـو الأعلى، لكان مـن الممكن مـرورها من خلال تلك الفتحة.

وعلى هذا من الواضـح تماماً أن آبدة الـرب قـائمــة في الهواء، وتتلقى الأمطار والثلوج من خـلال الفتحـة المتقدمـة الذكـر، والهيكل نفسـه مبني بشكل فني من رخـام مصقـول، وكان فيما مضى مـذهبـاً من الداخل ومن الخارج، وكذلك الأعمدة والسقف سواء، حسبما هو مشاهد في هذه الأيام.

والارتفـاع من أسـاس هذه البيعـة حتى ذروة سقـف الهيكل، فـوق المبنى الأسـاسي هو خمسة باعـات ونصف الباع، في حين إن المسافـة من الأسـاس حتى الفتحة في سقف الكنيسـة هي اثني عشر باعاً، أو أكثـر قليـلاً، وعلاوة على ذلك، وأنت داخل إلى الآبـدة هناك ردهة اتساعهـا

ستة باعات إلاّ شبراً واحداً، والباب الأول إلى البيعة الصغرى (للضريح المقدس) موجود في وسط هذه الردهة، ويبلغ من حيث الارتفاع باعاً واحداً كبيراً وثلاثة أشبار ونصف الشبر، وطول البيعة القائمة قبل كهف القبر —أي الكهف الخارجي— باع واحد ونصف باع، ولها العرض نفسه، وفيها من كل جانب نافذة مربعة صغيرة، ويوجد في هذا الكهف الخارجي نفسه، على بعد ثلاثة أشبار من باب الكهف الداخلي، حجرة مربعة، مرفوعة فوق قاعدة، ومقياسها شبرين ونصف مربع، وقد قيل بأنه فوق هذه الحجرة جلس الملاك بعد قيامة الرب»، وهذه الحجرة هي جزء من الحجرة الكبيرة، التي جرت دحرجتها إلى باب الأبدة، وهي التي ورد ذكرها في ص٥٠٠.

وإليكم الآن هنا وصف أبدة الرب، كما هي قائمة في هذه الأيام، ومن الممكن رؤية صورة الأشياء الموصوفة بالأعين في كتاب الحج الذي كتبه اللورد برنارد فون بريتنباخ Braitenbach، الذي كان رجلاً نبيلاً وبارعاً، وعميداً للكنيسة المطرانية في مينز mainz ، وقد رافقني في حجي الثاني، وقد تدبر أثناء ذلك رسم أبدة الرب بشكل فني، وهذا مافعله مع الأشياء الأخرى، التي سوف يأتي ذكرها في أماكنها، فقد جلب معه رساماً ماهراً، وجيد التعليم، وقد استأجره ليرسم طباع وعادات ومظاهر المدن الرئيسية والأماكن من ميناء البندقية فصاعداً، وقد فعل ذلك ببراعة وبشكل صحيح، وبناء عليه، يمكن لكل من يرغب أن ينظر إلى هذه الصور، ولسوف يفهم بوضوح الوصف المتقدم الذكر.

وأبدة ضريح الرب، قائمة في وسط كنيسة قيامة الرب، مثل الضريح الذي يوضع في الكنيسة، في أولم، في يوم الجمعة الحزينة، غير أن كنيسة الضريح المقدس مستديرة، ومفتوحة من الأعلى، كما سيفهم القارىء.

ويمكن القول بأن الضريح المقدس له ثلاثة مداخل الأول موجود في

الســاحــة الصغيرة، التي سميتهـا أنـا الكهف الأول، فلهـذه الســاحـة الصغيرة جـدار منخفض إلى حد أن انسـانا واقفاً فيهـا، يمكنه أن يستند عليه بمعدته، وينظر إلى الكنيسة من حوله، ولذلك غالباً ماجلست فوق ذلك الجدار، وألقيت نظرة على بضائع التجار التي كـانت موضوعة على البـلاط في الأسفل، وفي الحقيقـة إن المدخـل إلى هذه السـاحـة الصغيرة لايشبه البـاب، لأنه لايوجد شيء فـوق رأس الذي يدخل إليـه، يضاف إلى ذلك هو ليس له أسكفـه، بل هو مـدخل قائـم بين جدارين يواجـه أحدهما الآخر، ولوكان هذين الجدارين أعلى، ووضعت أسكفه عبرهما، لكان من الممكن أن يكون هناك بابا.

والباب الثاني هو الذي يقود من الساحة الصغيرة، إلى الكهف الأول في الآبدة نفسهـا، وهذا البـاب مغلق ببوابة، ومقفل بمغـاليق، ومفـاتيح هذا الباب هي الآن بأيدي الرهبان اللاتين الفرنسيسكان، لكنه كان قبل بضع سنوات مضت في أيـدي الجورجيين، والبـاب الثـالث هو الذي يقـود من تلك البيعـة، أو الكهف الأول، إلى الكهف الثـاني، الذي فيـه ضريح الرب، وليس في هـذا الكهف نافـذة، وليس فيـه ضــوء ســوى مايصــدر عن تسعة عشر مصباحـاً مشتعلين فيه، وهذه المصـابيح معلقة فوق ضريح الرب، وبما أن الكهف صغيراً، تعمل نيران المصـابيح دخاناً ورائحة قذرة، وهذا يزعج كثيراً الذيـن يدخلون إلى المكان، ويبقون فيه، وبالإضـافة إلى المصابيح، هنـاك كثير من الشموع المحترقة فـوق المذبح، وضعت هناك من قبل الحجـاج صـدوراً عن مشـاعر التقـوى، ونتيجـة لهذا، وبسبب دخـان المصابيح والشموع مـع بعضها صار وجـه السطح الداخلي أســود بالكامل، مع أن المكان مغلـف برخـام أبيض مصقــول شمل الأرض والجدران والسقف، وفي هذا كفاية.

ما الذي ينبغي أن نفكره حول ضريح الرب، هل هو ضريحه أم ضريح آخر بني بدلاً عنه؟

وينبغي في المقـام الثـالـث أن نرى فيها إذا كـانـت هذه الآبدة، وهذا الضريح المتقدم الذكر هو نفسه، الذي فيه جرى تمديد الرب، والذي منه —كما نعتقد— قد قام، وهناك مصاعب كبيرة حول هذه النقطة أكثر مما هو مـوجود حول النقطتين المتقـدمتين، ومن أجل أن نقرر ذلـك سوف أقتبس ماقرأته في كتب الحج القـديمة والحديثة، لأنني لا أرغب، اعتماداً على مسؤوليتي الشخصيـة اتخاذ أي قرار متسرع، يمكنه أن يوقف —أو يضعف— الاحترام الـذي هو منتشر بين النـاس المؤمنين بالمسيـح، تجاه ضريح الرب، عـلاوة على هذا تنبعث هنا مصاعب في هذه القضية من الأوصـاف المختلفة والمتناقضـة للضريح المقـدس، والتي كتبت من قبل الأقـدمين والمعـاصرين، وكذلك من الأوضاع المتنوعـة لمدينة القـدس، كونها تعرضت مـراراً للدمار، وكذلك نتيجة للتقـوى الكبيرة التي شعر بها الذين زاروا الضريح المقـدس، وبذلوا جهـودهم لأن يحملوا معهم بعض الأجزاء بمثابة آثار مقدسة عظيمة.

وهناك أيضـاً الشكوك التي نجمت عن تغليـف الضريح، لأنه ليس من الـداخل ولا من الخارج، وكـذلك ليس في الآبدة، ولا في المكان الذي جـرى تمديد الجسـد فيه، ولاأي من الصخـور أو الحجـارة يمكن رؤيته، بل الجميـع كما تحدثنا من قبل، قد جـرى تغليفه وتغطيته بـرخام أبيض مصقول، الأمر الذي لم يكن أصيـلاً، ودعونا على هذا نرى الذي اعتقده الآخـرون حول هذا الموضوع، ومن ثـم دعونا نتبع الرأي الذي يبدو لنا أكثر احتمالاً.

فقـد قال رجل مقـدس اسمه آركـولف Arculfus، كان قـد زار الضريح المقـدس، وكان —كما يبـدو لي— في القـدس، منذ زمن طويل مضى قبل أيام الملوك اللاتين، لابل قبل أن يستولي المسلمون على المدينة المقدسة، بعد أيام الامبراطور هرقل، فلقد قال في كتابه:«في وسط القسم الداخلي من الكنيسة المستديرة، هناك قاعة مستديرة، جرى اقتطاعها من

قطعـة صخرة واحـدة، وفيها يستطيـع الناس الوقوف والصـلاة، وعلو السقف المقنطر هو حـوالي قـدم ونصف قـدم، فـوق رأس انسـان ليس صغير القـامـة، ومدخل هذه القـاعـة الصغيرة هو نحـو الشرق، وجميع الوجـه الخارجي فيهـا مغطى برخـام منتخب، والأجــزاء العلوية من سقفهـا، مـزينة بالذهب، وتـدعم صليبـاً ذهبيـاً ليـس حجمـه صغيراً، وضريح الرب موجود على الجانب الشمالي مـن هذه القاعة، وهو مقتطع أيضاً من الصخرة نفسها، لكن بلاط القـاعة منخفض عن بلاط موضع الضريح.

وهذه القاعة ليسـت مغطاة من الداخل بأية تزيينات، لكن مرئي على التجويف كلـه علامات الآلات الحديدية التـي صنعها العمال بها، ولون صخـرة الأبدة والضريح مزدوج أبيض وأحمر امتـزجـا معا، وبناء عليـه فإن الحجـرة نفسها تعطي هذين اللونين، فضـلاً عن هذا شكل الضريح المقـدس أشبـه بمضجع قـادر على استيعاب انسـان واحـد متمـدد على ظهره، وهو أشبه بكهف، له فتحة تتطلع نحو الجانب الشمالي من الآبدة من الجانب المقابل، وقد عمل فوقه سقف منخفض معلق فوقه، ويوجد في هذا الضريح اثني عشر مصبـاحـاً، مشتعلاً ليـلاً ونهاراً، وهي حسب عدد الحواريين»، ولقـد كتب أركولف المتقدم الذكـر، بأنه قد رأى هذا ورأى أشياء أخرى كثيرة، ويرينا هذا بأنه قـد رأى الأرض المقدسة قبل ألف سنة مضت، وأنا عظيم السرور بهذا الوصف، لأنه يتوافق كثيراً مع الوصف الذي قدمه بيد المبجل، والموجود في ص٥٢٥.

وهناك حاج آخر، كـان قد رأى ضريح الرب في سنة ١٢٠٠ لتجسيد ربنا، وقد قـال مايلي:«الكهف الذي فيه ضريـح الرب مغطى بالرخام في كل مكان من الخارج، لكنه من الداخل صخرة مجردة مثلما كانت في أيام آلام المسيح»، والآن نحن لانعـــرف عندمـــا قـــال بأن جميـع الجانب الخارجي من الكهف مغطى بالرخـام، هل قصد جميع الوجـه في كل من

الداخل والخارج، فإذا كان هذا ما عناه، فوقتها كانت أحواله هي نفسها كماهي اليوم، لكنه إذا قصد أن يقول بأن الوجه الخارجي للقسم الخارجي كان مغلفاً بالرخام، وأنه لم يكن هناك شيئا من هذا القبيل في الداخل فوقتها يتوافق وصفه مع الوصف المتقدم، وهذا الذي، كما أعتقد، أنه قصده.

وقال حاج آخر مايلي:« بيعة الضريح المقدس مقنطرة، على شكل نصف دائرة، من دون أية نافذة، وفيها الضريح، المنحوت من صخر أصم، إنما خشية من أن يتشظى من قبل الحجاج، جرى تغليفه بألواح من رخام، وهذه الألواح التي تغطي جزء الواجهة منه، لها ثلاث فتحات، من خلالها من الممكن لمس الصخرة الحقيقية للضريح المقدس وتقبيلها، وهذه الألواح ملصوقة إلى الصخرة ببراعة بلغت حداً أن الانسان قد يعتقد بأن الجميع حجرة واحدة»، وقال هذا الكاتب نفسه:«أعتقد أن مامن كنيسة تحتوي على أي جزء من الصخرة الحقيقية لضريح الرب»، واستطرد يقول:« لأنه لوكان من الممكن حملها ونقلها مع الأيام على شكل قطع وحجارة مطحونة، لكانت نقلت منذ زمن طويل مضى، حتى ولو كانت كبيرة بحجم جبل عظيم»، وقال هذا الرجل نفسه» بأن مامن مصباح مشتعل في الضريح، باستثناء عندما يقيم بعض الحجاج هناك إقامة مؤقتة، فوقتها يدفعون ثمن الزيت».

وهناك حاج آخر، كان موجوداً عند ضريح الرب في سنة ١٤٣٠، وقد ذهب إلى هناك بناء على مبادرة من قبل أحد الكرادلة، ليتفحص هذه المسألة، وقد وصف الضريح المقدس وفق الطريقة نفسها مثلما فعل متقدموه، غير أنه أضاف مايلي حيث قال:«ينبغي أن يوضع في الذهن بأن الآبدة التي بنيت فوق هذه البقعة الأعظم قداسة، هي ليست البقعة التي مُدد فيها بالأصل الجسد الميت للمسيح، لأن الكتاب القدماء قد حدثونا بأن ضريح المسيح قد جرى اقتطاعه من صخرة قاسية واحدة،

وذلك مثل القبور القديمة في هذه البلدان، هذا والضريح الحالي مصنوع من عدد من الحجارة، ليست ملاطة بشكل بارع، مع بعضها بعضاً، ولم يبق هناك أي جزء من الضريح الحقيقي، باستثناء أنه يوجد على الطرف منه، هناك نتوء من جدار البيعة، هي حجرة بحجم رأس انسان، ولونها أبيض، وارتفاعها سبعة أشبار فوق الأرض، وهي التي يجري تقبيلها من قبل الحجاج، على أنها أثر من الضريح الحقيقي للمسيح». لقد كان هذا ماقاله.

وقدم آخر الحجاج الذين زاروه روايات متناقضة عنه في كتبهم، وهكذا حاول كل واحد منهم وصف الذي اعتقد أنه رآه، لأن مامن أحد تجرأ على مناقضته، وقال بعضهم إنه يوجد تحت الألواح الرخامية صخرة الآبدة، والضريح المقدس مايزال موجوداً بالكامل، وقال آخرون بأن مامن أحد يعرف بصورة حاسمة، أو يمكنه أن يؤكد بأن الموجود تحت الألواح هو الصخرة الحقيقية أو غيرها، وأكد آخرون بوضوح بأنه لم يبق من الصخرة الحقيقية ولاحتى قطعة بحجم حبة دخن، ويقولون بأن مردّ هذا إلى عدة أسباب، أولها الكراهية التي شعر بها الكفار نحو المسيحيين، الذين بلغت كراهيتهم للمسيحيين من الحدة إلى درجة تدمير كل شيء يحبه المسيحيون ويحترمونه، وبما أنهم يعرفون بأن ضريح المسيح هو أعظم أثر محل للتبجيل لدى المسيحيين، فقد جعلهم يستشيطون غضباً ضده، ومن ثم دمروه إلى أجزاء.

فضلاً عن هذا، لقد عرفوا أنه طالما الضريح موجود، فإن المسيحيين هم متلهفون دوماً لاسترداد مدينة القدس، لكن إذا ما أزالوه من الوجود، سيصبحون أقل اهتماماً بها، ولذلك لم يتركوا أي جزء منه قائماً، لأن المسلمين غالباً ماتعرضوا لهجمات المسيحيين، وقد قهروا من قبلهم وهزموا، وعندما انتصر هؤلاء المسلمون، وطردوا الصليبيين من القدس، انتقموا (كذا) من الضريح المقدس للأخطاء والمصاعب التي

عـانوا منهـا في الأيام الخاليـة على أيدي الصليبيين، فـدمـروه، وخـربوا كنيسة الضريح المقدس، وجاء ذلك بمثابة إهانة إلى المسيحيين.

وثانيـاً هناك سبب آخـر قـدم تعليـلاً حـول لماذا لم يبق ولاجـزء من الضريح المقـدس في مكانه هو أنه عندما قهـر الصليبيون للمـرة الأخيرة وغلبـــوا من قبـل المسلمين وأرغمـــوا على التخلي عن القـــدس لهم، وغـادروها، جـاء استسـلامهم على شرط أن يسمح لهم بمغـادرة المدينة بأنفسهـم أحيــاء فقط، وذلـك مع كل شيء أمكنهم أن يحملـوه معهـم، ووافق المسلمـون على هذا، أي على وجـــوب مغـادرتهم للقـدس، وهـم يحملون معهم كل مـاراق لهم، ثم قام بطريرك القدس مـع رجال الدين لديه، وملك القـدس مع جميع فرسـان المدينة المقدسـة، بمغادرتها، ومن المعتقـد أنهم في أثناء مغادرتهم حملوا معهم كل شيء كـان يعـدّ مقدسـاً، وذلك حتى أسـاسـاتها، وكـان الضريـح المقـدس بين هذه الأشيـاء هو المقدم، وفعلوا ذلك لكي لايخلفوا شيئـا وراءهم يمكن أن تدوسه أقدام المسلمين، لابل حتى في الأيـام الخاليـة مـابرح المؤمنون الـذين يزورون هذه البلدان ينقلون معهـم، كثيراً من قطع الحجـــارة والأرض، وبذلك بقدر ما يقدرون، ولو استطاعوا لنقلوا البلاد كلها حتى لا تداس بأقدام هذه المخلوقـات، وينبغي أن لايشك أحد في أنهم لو كانـوا قادرين على حمل جميع مكان الضريـح المقـــدس، لحملوه، ولـذهبـــوا به، فكيـف بنا بالنسبة لصخرة، فقـد كان بإمكانهم حملها على شكل قطع، وهناك سبب آخـر حول أنهم لم يتركـوا شيئاً من الضريح المقـدس هو الغيرة الحمقـاء المتسرعة وطيش المؤمنين، الذين كان من غير الممكن حبسهم بأي قانون أو نظام ومنعهم من حمل قطـع من الأمـاكن المقـــدسـة، إذا كـــان ذلك بإمكانهم، وتبرهن هذه الحجة على أن صخرة الضريح المقدس قد جرى نقلها منذ زمن طويل مضى.

وينقض آخرون هذه الحجج، ويجيبون على السؤال الأول، قائلين بأن

عـداء الكفار لم يكـن معلناً قط وحاداً إلى درجـة الاعتـداء على الضريح المقـدس، المحـروس مـن قبل الرب ومن قبل مـلائكتـه، كما مـرّ بنا في ص٥١٢، فنحن نقرأ بـأنه عندما قـام كسرى الطاغية المتوحـش بإحراق القدس، مضى إلى كنيسة الضريح المقدس، ليقوم بتدميرها، ولكن تلبسه رعب شديد عندمـا اقترب من الكنيسة، ولذلك ابتعد مسرعـاً عنها، ولم يستطع الوصول إلى ضريح الرب.

وهم يعلمون أيضاً، أنه طالما الضريح موجود، لن يوفر المسيحيون أية نفقـات، بل سيقـدمون دومـاً لرؤيتـه، وإنهم لذلك يمكنهم جمع أمـوال كثيرة من بينهم بالجبايات المفروضة، وأن يربحـوا ذهباً وفضة من خلال السماح لهم بالدخـول إلى ضريح الرب، ولهذا هـم يحافظون على الضريح المقـدس كـوسيلة للربح والتقــدم، وقـد زاد الرب محبتهم للمال، حيث يمكن بذلك المال الحفاظ على ضريحه.

كما أنه مستبعــد كثيراً، قيـام المسلمين، إثر العــدوان عليهم من قبل الصليبيين، بطلب الانتقـام لأنفسهم من الضريح المقـدس، لأن في ذلك خسارة عظيمـة لهم، وأنا بالحري أعتقد أنهم سمحوا ببقـائه حتى ينظر إليهم المسيحيون بتقدير أكبر، لأنهم يخافـون منهم كثيراً، علاوة على هذا ليس من المنطقي تصـديق أن المؤمنين، قـامـوا وهم يغـادرون القـدس، بحمل الضريح المقـدس من هناك، لأنه كـان من صخـر أصم، نبت من جوف الأرض، ولنفترض أنهم قطعـوا الصخرة حتى سـووها بالأرض، فإلى أين —أرجـوكم— حملوا الصخور التي قطعـوها؟ فأنا لم أر قط في كنيستي في أولم قطعة حجر من الضريـح المقدس بحجم اصبع الانسان، يضــاف إلى هذا أنني كنت ووجــدت في كثير مـن الكنائس الرئيسيــة للشرق وللغرب.

ولايجوز أن نتصــور بأن المسيحيين جميعــاً قــد جـرى طـردهم من القـدس، فالـذين جرى طردهــم هم اللاتين فقط، الذين شنت الحرب

ضدهم، وليس المسيحيين الشرقيين الآخرين، وبعدما جرى طرد اللاتين، عمل الشرقيون معاهدة مع السلطان، وأدوا يمين الولاء له، وحصلوا على ملكية الضريح، كما سأبين فيما يلي، لابل أكثر من هذا، لم يذهب اللاتين جميعاً، ولم يغادروا، بل بقيت أعداد كبيرة منهم هناك، حيث تعايشوا بأنفسهم مع المسلمين، وقد جرى حرمان هؤلاء الناس من قبل البابا، وقرأنا أيضاً، أنه عندما جرى قهر الصليبيين من قبل المسلمين، وقبل أن يغادروا القدس، عقدوا معاهدة معهم، بوجوب استقبالهم لجميع الحجاج القادمين من البلدان اللاتينية، وقد وافقوا على ذلك ورحبوا به، ولهذا استمر السلطان يدفع إلى الحجاج الصدقة اليومية التي اعتاد ملوك القدس على تقديمها إلى الحجاج المقيمين إقامة مؤقتة في مشفى القديس يوحنا، وبذلك فعل السلطان ماكان ملوك القدس يفعلونه.

ولهذا لايوجد تساؤل حول نقل الضريح المقدس، ومع ذلك إن ماقرأناه في التاريخ هو صحيح، أي أن كنيسة الضريح المقدس قد جرى تهديمها من قبل، ومعها الضريح المقدس، لكن ليس تهديماً كاملاً، وفيما يتعلق بهذه المسألة عملت التجربة التالية: في أثناء بقائي مستيقظاً في كنيسة الضريح المقدس، أخذت بيدي شمعة مضاءة، وذهبت إلى آبدة الرب، التي تفحصتها بدقة متناهية، علني أجد أي مكان غير مغطى بالرخام، وقد وجدت أن الجهة الخارجية كانت كلها مغطاة بالرخام من جميع الجوانب، وعندما دخلت الباب الأول العائد للبيعة الخارجية، وجدت الجدار على الجانبين مغطى بالرخام، لكنني وجدت الجدار الذي أمام وجهي، أي الذي يفصل الكهف الخراجي عن الكهف الداخلي، والذي فيه الباب الذي يقود إلى ضريح الرب، وجدته عارياً، وعندما قربت مصباحي منه، وجدت الجدار مقطوعاً من الصخر، وليس معمولاً من حجارة منحوتة، بل كله قطعة واحدة، مع علامات

الأدوات المعدنية، التي من الممكن رؤيتها بوضوح عليه، وكان يوجد في القسم العلوي، مابدا كأنه صدع، وقد جرى ترميمه بالحجارة والملاط.

وبدا لي من هذا أن ضريح الرب قد جرى تخريبه في احدى المرات، لكن لم يجر اجتثاثه تماماً، وأن الموجود الآن هو إعادة عمارة، وأنه مابرح قائماً منذ أكثر من مائتي سنة كما هو الآن، سوى أنه الآن مغلف بالرخام بعناية أكبر، خشية أن يقوم الحجاج بالتقاط قطع من الجدران، لاتخاذها آثاراً مقدسة، ولهذا السبب وضعت الألواح المتقدمة الذكر مع الفتحات الثلاث في واجهة الضريح المقدس، لأن الحجاج اعتادوا على الحفر بأدوات حديدية للحصول على قطع منه، وصحيح أن الحجاج بذلوا دوماً جهودهم للحصول على قطع من الضريح المقدس، لم يسمح لهم بفعل ذلك مطلقاً، بل منحوا حجارة أخرى مكان الصخرة الحقيقية، لأن الحراس موجودون دوماً في الضريح المقدس، وهم يوقفون كل من يحاول اقتطاع قطع، وبناء عليه تسقط حجة غيرة وطيش المؤمنين إلى الأرض، لابل حتى إذا افترضنا أنهم امتلكوا هذه الغيرة وهذا الطيش، لم يسمح لهم بالعمل بطيش.

وواضح أيضاً، مما قيل، بأن ضريح الرب، كان الجزء العلوي منه بالأصل مدبباً، وبذلك شابه أعلاه سقفاً له، وكان القبر مغطى بظهر خشن، مثلما اعتيد على صنع أغطية القبور، لكن قام المؤمنون بتسوية هذا الجزء الناتيء، وجعلوا الغطاء مسطحاً، مثل منضدة، حتى يكون من الممكن إقامة القداسات في الضريح المقدس فوق القبر.

ومن جميع ماقيل حول الضريح المقدس، يتوجب على الحاج الهادىء والتقي التمسك بهذه الحقيقة، وهي سواء أكان الكهف كما هو قائم في الأيام الحالية هو صحيحاً وكذلك الآبدة كلها آبدة المسيح، أو فيما إذا كان جزء منه موجود هناك فقط، أو ولا جزء منه هناك مطلقاً، القضية صغيرة سواء من الجهة الأولى أو من الجهة الأخرى، لأن الحقيقة

الأساسية مرتبطة بالمكان المقيم هناك، وهذه الحقيقة لايمكن نقلها من هناك بأية وسيلة من الوسائل ولايمكن إزالتها، والحقيقة المقررة هي أنه هنا مكان الدفن الأكثر قداسة للمسيح، وهو مكان قيامته أيضاً، وعلى كل حال قد يكون غير موجود هناك الضريح نفسه الذي جرى تمديد جسد المسيح فيه، يوجد هنا مع ذلك الضريح الذي تمت عمارته للمسيح، والذي غالباً ماجرى فيه الاحتفال بقداس قربان جسده مراراً.

وهو كهف مزدوج، مثل القبر الأصيل تماماً، وهو مماثل بالقداسة، وبالاحترام، والتبجيل، مثله في ذلك مثل الألواح التي صنعها موسى شبها للألواح الأولى التي كسرها، والتي كانت تحتوي على الوصايا نفسها، وكانت مساوية لها بقداستها واحترامها، ولذلك أودعت في تابوه العهد، على أنها الأعظم أهمية، والآثار الأعظم قداسة وليكن في هذا كفاية حول الضريح المقدس.

ووجدت في بعض كتب الحجاج القديمة، الأشعار التالية التي وجدت محفورة على أحجار الضريح المقدس، وهذه النقوش أنا لم أرها.

وقد كتب على اللوح المسطح للضريح:

«هنا رقد ميتاً، عندما بموته غلب الموت،

هنا نام الأسد الذي أيقظ العالم وجعله مدجنا.»

وكتب فوق باب الآبدة:

«أنت أيها المار بضريحي هذا اليوم،

انظر إلى العلامات حيث تمدد جسدي،

طوال ثلاثة أيام، عندما مات من أجلك.

وغللت بقوة الشيطان، الذي كان حتى حينه حراً.

ومزقت إلى الأبد عصابات الجحيم الجريئة،

وبعثت أولادي، ليعيشوا في الجنة معي.»

وكتب حول قبة الضريح المقدس:

«ماتت الحياة مرة، ودفنت في هذا القبر،

ذلك الموت كان حياة، ومن الموت خلصنا.

لأنه هو الذي حطم قوة الجحيم تحت قدميه،

وبشجاعة قاد عساكره للقاء العدو،

ذلك الأسد جرىء في النصر منذ أن قام،

الجحيم يئن، والموت ينوح، ذلك أنه فقد جائزته».

وضع جبل أكرا ووصف مختصر له

يحتل جبل أكـرا المقـام الثـاني بعـد الضريح المقـدس، في السمـو، والقداسة، ومع أن وصفه قـد تقدم في ص ٤٨٨، مع ذلك جرى تكرار هذا الوصف هنا، لأن هنا هو المكان المنـاسب، وهناك بعض النقاط قـد جرى نسيانها من قبل، وجاء ذكرها هنا، وينبغي أن نلاحظ هنا أن جبل أكرا، أو الجلجلة هو مكان موجود على الجهة الشمالية من جبل صهيون، وأن هناك خلافاً، عندما يتحـدث الانسان عن جبل أكرا، وعن صخرة، أو جـرف أكرا، فجبل أكـرا يضم شطرا كبيراً من المدينة، وموضع أكـرا هو جميع المنطقـة التي تحتوي على جميع الكنيسـة، وصخـرة أكرا تحتـوي فقط على صليب المسيح وصليبي اللصين، وجبـل أكـرا هو الاسم الذي أطلق على جميع المنطقـة المرتفعة، الممتـدة من البـاب القديم، وجـزء منه مايزال قائماً، وممتداً حتى كنيسة الضريح المقدس.

وفي الحقيقة هناك طريق جيـد فوق الرابية مـن تقاطع الطريق، حيث

قال المسيح للنساء الباكيات:«يابنات القدس لاتبكين علي»، وهكذا صعوداً إلى مكان الصلب، وهناك في الأعلى، ساحة واسعة، عليها تقوم كنيسة الضريح المقدس كلها، وهذه المنطقة كلها هي جبل أكرا، أو الجلجلة، وعلى هذا الأساس، إن كنيسة الضريح المقدس قائمة فوق جبل أكرا، لكن صخرة أكرا هي المكان أو القمة، التي عليها وقف الصليب المقدس مع ربنا مع صليبي اللصين، كما أوضحنا من قبل، وهناك طرق ثلاثة تقود صعوداً إلى هذه الصخرة الأعظم قداسة، والطريق الأول هو من كنيسة الجلجلة، من المكان الذي فيه مركز العالم، والطريق الثاني، هو من كنيسة الضريح المقدس، القائمة تحتها، والثالث من الساحة الخارجية للكنيسة، وجرى اغلاق هذا الطريق الصاعد من قبل المسلمين، مثلما جرى اغلاق الأبواب الأخرى التي تقود إلى الكنيسة، حتى لايكون أحد من الناس قادراً على الدخول إلى الكنيسة من دون معرفتهم، وعلى هذا إن صخرة أكرا هي صخرة الصليب، وجبل أكرا هو جميع المرتفع من بيت الرجل الغني، أو من الطريق المتقاطع المتقدم الذكر، ومع ذلك ينبغي عدم افتراض أن جبل أكرا هو مكان مرتفع، يشرف على جميع الأماكن من حوله، لأنه يوجد على كل من الجانب الغربي، والجانب الجنوبي، أماكن أكثر ارتفاعاً منه، وهي تسمى جبلاً بالمقارنة مع الأماكن التي يصعد الانسان منها إليها، كماقيل.

وفي هذا كفاية، ومن أجل روايات أكثر حول هذا الجبل، انظر ص ٤٨٨ المتقدمة، وكذلك ص٥٥٢ المقبلة .

وصف كنيسة الضريح المقدس وترتيباتها

في وصفنا هيكل أو كنيسة الضريح المقدس، سوف نتفحص أربع نقاط: أولها: من الذي بناها؟ وثانيها: أي مجد وتشريف تلقت في الأيام الغابرة؟، وثالثها: ماهي أحوالها في الأيام الحالية، ورابعها: من الذي

يتولى ادارتها، والفوارق بين مختلف الطوائف التي تعبد المسيح فيها، ولسوف نقدم وصفاً كاملاً نتيجة لفحص هذه النقاط الأربع، وبالتالي تقديم فهم كامل لها جميعاً.

من الذي أسس كنيسة الضريح المقدس وكم من المرات هدمت وأعيدت عمارتها

من الذي بنى كنيسة ضريح الرب؟ إن هذه مسألة مختلف حولها، بسبب اختلاف الروايات التي قدمها الذين كتبوا حول هذا الموضوع، فبعضهم يرى بأن هذه الكنيسة قد كانت هيكل فينوس الذي بناه اليوس هدريانوس فوق مكان الصليب والقيامة، وأن القديسة هيلانة عندما جاءت ألقت بالأوثان، وكرست البناء للمسيح.

ويقول بعضهم بأنها دمرت دماراً كليا الهيكل المتقدم الذكر، وبنت هذه الكنيسة، ونقرأ أيضاً في كتب الحروب بين الصليبيين والمسلمين، بأن كنيسة الضريح المقدس غالباً ماجرى تهديمها (كذا) من قبل المسلمين، وأعيدت عمارتها من قبل الصليبيين، وكان كسرى قد سعى إلى تخريب هذه الكنيسة، لكنه ارتعب بقوتها الربانية، وهرب منها، ويقال أيضاً أنه عندما احتل التتار الأرض المقدسة والقدس (لم يحتلوها) قاموا بتهديم كنيسة الضريح المقدس في الوقت الذي استولوا فيه على المدينة، لكن ليس بعد مضي وقت طويل على هذا جاء امبراطور القسطنطينية إلى القدس، وأعاد بناء الكنيسة وفق الشكل الذي كانت عليه من قبل، وبعد هذا شفى المسلمون غليل غضبهم من المسيحيين بانزاله على هذه الكنيسة، ودمروها كليا، لكن واحداً من أباطرة القسطنطينية أعاد عمارتها.

ومن أجل رواية صحيحة وموثوقة حول هذا الموضوع، انظر ص٢٦٤ظ، وكذلك حول وصف موضع الصليب،

والضريح.

كيف كان الضريح المقدس رائعاً في الأيام الخوالي: آثاره وتزييناته

كان هذا الهيكل رائعاً جداً في الأيام الخوالي في بنائه وخدماته، ولم يكن مقدساً بسبب الأماكن المقدسة التي يحتويها، ولكن أيضاً بسبب الآثار المقدسة الثمينة التي كانت محفوظة فيه، فقد كان محفوظاً فيه الصليب المقدس، كما أوضحنا في ص٤٧١، مع بقية أدوات آلام المسيح التي عثرت عليها القديسة هيلانة، وكان هناك أيضاً، فيما تقدم من أيام، معروض في الكنيسة سلسلة عظيمة كانت قد وضعت حول عنق الرب يسوع، عندما جرى اعتقاله في الكنيسة، وكانت هذه السلسلة هي التي كان الحجاج يضعونها حول رقابهم عند زيارتهم للكنيسة، وقد تمّ صنع عدد كبير من المعجزات بوساطتها.

وكان فيها كأس كبير من الفضة، وهو الكأس الذي تشارك به الرب يسوع مع حوارييه في العشاء الأخير، وهو الذي قال عنه:«هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي» (لوقا:٢٢/ ٢٠)، وكان هناك أيضاً الطشت الذي غسل فيه الرب يسوع أقدام حوارييه أثناء العشاء الأخير، وكان في هذه الكنيسة المنديل الثمين جداً، الذي ربطته مريم العذراء الأعظم مباركة حول رأس الرب يسوع عندما أنزل من على الصليب، كما تحدثنا في ص٤٩٦، وقرأنا عن هذا المنديل في الاصحاح العشرين من انجيل يوحنا، أن بطرس عندما دخل إلى الضريح رأى الملابس الكتانية موضوعة هناك، والمنديل الذي كان حول رأس يسوع لم يكن موضوعاً مع الملابس الكتانية، بل ملفوفاً في موضع وحده، وقد بقي موضوعاً في الضريح لبضعة أيام بعد قيامة المسيح.

وحدث أنه عندما انتشرت اشاعة قيامة المسيح، دخل واحد من اليهود بشكل سري إلى ضريح الرب، فوجد هذا المنديل ملفوفاً بعناية،

فأخذه وحمله إلى بيته، ذلك أنه كان يهودياً فقيراً وتعيساً، ومن الساعة التي جلب فيها ذلك المنديل إلى بيته، بارك الرب بيت ذلك اليهودي، وصار غنياً ومشهوراً، وعندما أدرك اليهودي هذا، أغلق على المنديل بعناية عظيمة، على أساس أنه كنز ثمين جداً، ومع ذلك لم يتحول إلى المسيحية، وبقي مصراً على كفره حتى النهاية، ووقتها دعا إليه ولديه وقسم بينهما مقتنياته، حيث أعطى المنديل إلى الأكبر، وبقية ممتلكاته إلى الأصغر، وعامل الابن الأكبر المنديل باستخفاف مع أن أبيه قال له بأنه أكثر قيمة من ثرواته الأخرى، وقام بمبادلته وأخيه الأصغر، وهكذا صار المنديل إلى يدي الأخ الأصغر، الذي ازدهر أكثر فأكثر كل يوم، في حين من جهة أخرى تراجعت أوضاع الأكبر وتدهورت يومياً، وعندما تقدم وارث المنديل بالسن كثيراً منحه إلى أكثر أولاده محبة لديه، وحدثه عن فضائله وعن المكان الذي وجد فيه، وقد تسلم المنديل فصار فجأة رجلاً غنياً، وهكذا باستمرار صار يهود هذه الأسرة أكثر غنى واحتراماً، وآل المنديل بحق الوراثة من أب إلى ابن حتى الجيل الخامس، حيث وقتها نشب خلاف بين أخوين حول المنديل، وأصبحت المسألة معروفة، ولدى سماع المسيحيين بذلك حركوا مطلبهم بالمنديل على أساس أنه ملكهم، لكن اليهود كانوا غير راضين باعطائهم إياه بأية وسيلة من الوسائل، وهنا تفجر هياج عظيم في القدس، وقاتل المسيحيون اليهود من أجل المنديل، ولإنهاء هذا الخلاف قرر عقلاء الناس دعوة قاضي وحكم حول هذه المسألة، على أن لايكون مسيحيا ولايهوديا، بشرط التزام الفريقين بقراره، وعندما جرى الاتفاق على هذا، تمّ استدعاء مابيوس Mabius ملك المسلمين لإعطاء قرار حول المنديل، وجرى اخباره بجميع الملابسات من قبل الطرفين، وفي اليوم المحدد جرى استدعاء جميع الناس من مسيحيين ويهود وسواهم، وجلس على كرسي القضاء في مكان عام، وأمر باحضار المنديل إليه، فجلب إليه في صندوق، فأمر بعد ذلك باحضار خشب وبايقاد نار عظيمة بين الناس،

ووقف اليهـود على الطرف الأول للنار، ووقف المسيحيـون على الطرف الآخـر، ووقف المسلمون فيما بينهما، وعندمـا تناول الملك المنديل بيـده، صرخ بصوت مـرتفع:«ياعيسى الناصري، هاهنا منديلك، فقرر أنت إلى أي الفريقين هو»، وما أن أكمل قوله هذا حتى رمى بالمنديل في اللهب، وبعـدمـا رمـاه بقي في النار لـوقت قصير، وظن الجميع أنه قـد احترق، لكن عجباً ارتفع فجأة من النار من دون أن يلحقـه ضرر، وحلق عاليا، وبدأ بالطيران، مثلما يطير الطير بجناحين ممدودين، وبعدما طار واستدار حـول المكان في الهواء لبعـض الوقت، بدأ ينزل بالتـدريج، وهنا وقف الجميع بوجوه متشوقة وأيد مـرفوعة تراقب إلى أي الفئات سوف يطير، وكان هناك مـلاك يوجهه، ولذلك استقر فـوق أذرعة المسيحيين، الذين تسلمـوه وهم جاثين على ركبهم، وحملوه وسط سرور عظيم إلى كنيسـة الضريح المقـدس، وقـد بقي هنـاك لسنين طويلة وكثيرة، وكـان مبجـلاً كثيراً، ولم يكن الأقل مكانة بين آثار الضريح المقدس.

عـلاوة على ذلك، ميز الرب في الأيام الخوالي هذه الكنيسـة بكثير من المعجـزات، من بينها المعجـزة الظاهرة، والتي كـانت تحدث كل أمسيـة عيـد فصح، فعندما كـان يجتمع الناس مع بعضهـم، ويجري اطفـاء جميع الأضـواء، حتى لايبقى في الكنيسـة كلهـا ولاشرارة واحـدة، هنا كـان يحدث فجأة أثناء ترتيل رجال الدين للقداس، والناس يصلون، في لحظة ينزل ضـوء من السماء، وفي لحظة نزوله يعم الكنيسـة كلها، إلى حـد أن مـامن أحـد من الحضور كـان يمكنه أن يحدق بذلك الضـوء السماوي، وبهذا الضوء تشتعل شموع الفصح، وبقية المصـابيح والشموع، وعندما يحدث هذا كان هذا الضوء يغادر، وحدثت هذه المعجزة لسنوات كثيرة، وعندمـا توقفت سقط ضريح الرب على الفـور بأيدي غير المسيحيين، ويقولون أيضاً إنه عندما جرى مـؤخراً استرداد الأرض المقدسة، عادت تلك النار المقدسة، وأضاءت الشموع، لكنها عندما توقفت عن النزول،

جـرى طرد الصليبيين، لأنها إشـارة واضحــة إلى المسيحيين، أنه عندمـا تظهر نار الفصح، يكونون سكاناً جـديرين بالأرض المقدسة، ومتملكين لضريح الرب، وعندمــا لاتظهـر، وإن كـانـوا بالفعل متملكين للأرض المقــدســة، فـإن مملكتهم ســوف تزول بالحال، وفي هـذه الأيام يجتمع المسيحيـون الذين هم بالقـدس، جميعاً، في الكنيسـة، في أمسية الفصح، ويحبس الأرثوذكس كـاهنهم في آبدة الرب مع شمعة غير مضـاءة، وهو يعيـدها مضـــاءة، مصحـوبة بصـوت مـرتفع، ومنهـا تتم إضاءة جميع المصـابيح، لكنهـا لاتضـاء بمعجزة بل بشكـل مصطنع، ومع ذلك يرفع الرعـاع أصــواتهم إلى السماء، وهم يحمــدون الرب، وكأن معجـزة قـد عملت، ولذلـك تصل أصــواتهم إلى بين الناس، لابل حتى إلى مــابين المسلمين، هذا ولقـد سمعت بصدق، المسلمـون يقولون:«إذا مـاستطاع المسيحيـون أن يبرهنوا حقاً، بأن النار قـد نزلت من السماء، كما يقـولون ويفعلون، ويمكنهم بـرهنة ذلك لنا، لكنا راغبين بالتحـول إلى عقيــدة المسيح»، لكن ويا للأسف:«آياتنا لانرى. لانبي بعـد. ولابيننا من يعرف حتى متى» (مــزامير:٧٤/ ٩)، وبشأن هذا الضـوء الاعجـازي والنار، وشمعة الفصح، لم يقل جيروم شيئاً في كتبه التي قرأتها، مع أنه قد كتب رسالة بليغة، ومكتـوباً جميلاً إلى الشماس بريسيدوس Presidius حول موضوع ضوء شمعة الفصح، ومثل هذا لم يشر غريغوري أوف تور — وهو كـاتب كتب حول مـوضوع المعجـزات القديمـة — ولا إشارة إلى تلك النار.

وفيما يتعلق بهذه النار، هنـاك حكاية جميلة مــوجــودة في ص٢٦٤، ويضاف إلى ماأخبرتكم به، جرت العادة على عقد اجتماعات ومناظرات في هذه الكنيسـة ضـد الهراطقـة، وكـان الذين يحضرون إمـا أن يقنعـوا بأخطائهـم عن طريق المناظـرات حـول الايمان الصحيـح، أو بوســاطة المعجزات، من ذلك على سبيل المثال، نجد سيرل Cyril قد أشار في

رسالته إلى أوغسطين إلى بعض قادة فرق الهراطقة الذين أفحموا هناك.

ونقدم هنا وصف كنيسة الضريح المقدس في هذه الأيام وأوضاعها الحالية

والذي بقي لنا هو أن ننظر إلى أوضاع كنيسة الضريح المقدس في هذه الأيام، وهنا علينا أن نلاحظ بأن هذه الكنيسة لها ثلاثة أسماء لأنها كنيسة مزدوجة، وكل جزء منها له اسمه الخاص، ولها كلها مجتمعة اسمها الخاص.

فالكنيسة التي تقوم فيها آبدة الرب، اسمها كنيسة الضريح المقدس، والكنيسة التي فيها مركز العالم، والواقعة على مقربة من أكرا، اسمها كنيسة الجلجلة، وهاتين الكنيستين مع بعضهما اسمهما كنيسة البعث، أو كنيسة قيامة الرب، وهي في الحقيقة كنيسة واحدة، لكن صحنها الذي يحتوى على الضريح المقدس، يطلق عليه اسم كنيسة الضريح المقدس، وتدعى سدة هذه الكنيسة نفسها باسم كنيسة الجلجلة، لأنها قائمة فوق مكان اسمه الجلجلة، وهذه الكنيسة كبيرة وفخمة، ولايوجد هناك أكثر من الصحن، الذي يقوم فيه ضريح الرب، دون أن نحسب السدة، ذلك أن هذه بنفسها تكوّن كنيسة كبيرة، وهذه الكنيسة —دون أن نحسب السدة— مستديرة، مدعومة خلال الدائرة كلها بأعمدة رخامية، وقطرها بين الأعمدة هو ثلاثة وسبعين قدماً، ومن مؤخرة الأعمدة حتى جدار الكنيسة هو ثلاثين قدماً، وتمتد هذه المساحة من حول الدائرة كلها، وتشكل ممراً بين الأعمدة والجدار الخارجي للكنيسة، وهذا الممر ممر مقنطر، ويستند السقف المقنطر من الجانب الأول على الأعمدة المتقدم ذكرها، ومن الجانب الآخر فوق الجدار الخارجي، وكان فوق هذا السقف المعقود فيما مضى ممر عام مستدير، ومذابح، وبجوار باب الكنيسة هناك درج حجري يقود صعوداً إلى هذه الشرفات، وهناك في الوقت الحالي غرف متعددة، وشرف مفصولة احداهن عن الأخرى

بجدران، فيها يمارس المسيحيون من الطوائف الأخرى عباداتهم، وهناك أقواس تمتد من عمود إلى آخر، فوقها جدار صاعد حتى السقف، وفي هذا الجدار نوافذ من خلالها يستطيع الانسان أن ينظر إلى الكنيسة من الشرفة المستديرة فوق العقد، ويمكنه أن يلقي نظرة على ضريح الرب.

وليس للجزء العلوي من هذه الكنيسة المستديرة سقف حجري، بل سقف خشبي معمول من عوارض من الأرز، مرتبه بشكل هو أنها عوضاً من أن تلتقي في القبة، تلتقي العوارض الصادرة من الجدار احداها مقابل الأخرى في دائرة كبيرة، وتشكل بذلك فتحه مستديرة من خلالها ينتشر الضوء خلال الكنيسة كلها، وتحتها مباشرة، أي تحت هذه الدائرة، تقف آبدة الرب، وهي معرضة للأنواء، وقد تم شرح هذا في ص٥٢٨.

والعوارض والألواح الخشبية مغطاة بالرصاص من جهتها الخارجية، وأعني بذلك الجهة التي تتطلع نحو السماء، إنما من الجانب الداخلي مطليين بمختلف الألوان، والجدران تحت السقف، وتحت الأقواس، مزينة بصور من العهد الجديد، بأعمال من الفسيفساء، لكن الشخصيات الثمينة تساقطت إلى قطع، وليس هناك من يمكنه إعادة الأجزاء الساقطة، ومن حول هذه الكنيسة المستديرة هناك كثير من البيع، كما أوضحنا في الرواية حول المسيرة، وفي وسطها يقوم ضريح الرب، وهناك في الجهة الشرقية سدة واسعة وجميلة، وفيها يتطلع باب الضريح المقدس بشكل مباشر، وكأنهما يقفان باب إلى باب.

ويوجد في وسط السدة قبة واسعة وعالية، معقودة فوق المكان الذي يوجد فيه مركز العالم، وهناك طريق للصعود إلى قمة هذه القبة في الخارج، حيث يمكن للانسان أن يرى بالتجربة أن هذا هو مركز العالم، كما قلت من قبل في ص٤٩٧، وهذه السدة هي ملك للأرثوذكس، وإلى جانب المذبح هناك العرش الرخامي للبطريرك، الذي كتب عليه

بأحرف لاتينية قديمة جداً.

“Cracifxum in carne laudote, et sepultum propter nos gloricate, resurgertemque amortuis adorate”

وقال مؤلف كتاب "Specalum Historiale” بأنه كان مكتوباً فوق المكان الذي أقيم عليه الصليب النقش التالي: خلاصاً Sophias عمل ergase قبل العصور proaenon، ملكنا Basileus Imon، Otheos الرب، en meso في وسط Tisgis، الأرض.

ويوجد في هذه الكنيسة كثيراً من البيع، فوق وتحت، وفي الداخل والخارج، هن الآن مهملات، لكن فيما مضى كانت تشتعل فيهن المصابيح، وكانت مذابحهن تلمع بالذهب، ونوافذهن مزججة، لكن الآن ليس فيهن مصابيح، والمذابح مخربة، والنوافذ مغلقة، ومسكرة بالحجارة، فالجزء الأكبر من النوافذ مسكرة بالحجارة، وكذلك جميع الأبواب مسكرة، باستثناء باب واحد، مفاتيحه محفوظة لدى المسلمين، ومن هذا الباب يدخل الانسان إلى الكنيسة، وعلى الجانب الغربي هناك درجات تقود إلى باب مغلق بثبات، وهذا الباب هو الذي حاولت مريم المصرية، فيما مضى، الدخول منه، لكنها أبعدت، ولم تتمكن من الدخول، حتى تعهدت بتقويم حياتها، وذلك كما جاء الخبر بوضوح في كتاب «حياة الآباء».

ونتيجة لهذا الاغلاق للنوافذ والأبواب، الكنيسة مظلمة، لكن بلاط الكنيسة كلها مستو، وهو من رخام مصقول، وهكذا حتى وإن مشى الانسان في الظلام، إنه لايعثر، وفي أحد أجزاء الكنيسة، خارج الجدار هناك صهريج واسع، يحتوي على ماء رائع لاستخدامات حراس الكنيسة، وفي مكان آخر هناك طريق خارج الكنيسة، يقود إلى ساحة غير مغطاة، محاطة بجدران عالية، وفي هذه الساحة أماكن لائقة للناس

لقضاء حاجاتهم.

وملتصق بهذه الكنيسة برج مرتفع، قد بني من حجارة الرخام الأبيض، فيه كان يعلق فيها مضى نواقيس، والعوارض الخشبية، وأعمال الخشب الذي كانت تدعمهم، من الممكن رؤيتها في الجزء العلوي حيث كانت تعلق، لكن عندما فقدت القدس، ألقيت أرضاً جميع النواقيس، لأن عقيدة محمد (صلى الله عليه وسلم) لايمكنها تحمل النواقيس، لأن لديهم أوامر في قرآنهم بعدم استخدام النواقيس من أجل عبادة الله، كما أنهم لايسمحون باستخدامهم، ومع ذلك قد قيل بأنهم يحبون دقاتهم، والسبب الذي يمنعهم عن استخدامهم هو خشيتهم من تقليدنا، الأمر الذي احتاط محمد (صلى الله عليه وسلم) ضد استخدامه، ومنعه، وهذا البرج هو أول جزء يراه الانسان، عندما يقدم من بيت عنيا إلى القدس، فهذا ما لاحظته دوماً.

والاسكفة فوق باب الكنيسة هي من أنصع الرخام بياضاً، وقد نحت عليها في الجهة الخارجية صوراً تمثل دخول ربنا إلى القدس، راكباً على أتان، وطرده للباعة والشارين من الهيكل، وإقامته للعازر من الموت، لكن هذه التماثيل محطمة بعنف، وأطرافها مشوهة، ويوجد فوق أبواب الكنيسة هذه الأشعار، حيث قيلت لتنقش فوق الحجر، مع أنني لم أستطع رؤيتها:

"Anno millno centeno quoninus uno,
Quindecies nilojan phoebilumino Tacto,
Vitae plus sacrae studio mitigare acre,
Jerusalem Franci capiunt virtute potenti"

ويقف في ساحة الكنيسة أعمدة من الرخام الغالي جداً، وتدعم هذه

الأعمدة سطحاً معمداً، وتزين الرواق، وإذا مارغب أي واحد أن يرى شكل هذه الكنيسة، عليه أن ينظر في كتاب «الحج» الذي كتب من قبل اللورد المشهور، والرجل البارع، اللورد برنارد أوف بريتنباخ، عميد الكنيسة المطرانية في مينز، حيث سيكون بإمكانه رؤية صورة الكنيسة وقد رسمت بوضوح، يراها وكأنه واقف في الساحة وينظر إليها بعينيه.

كيف أن الشفاء عام لجميع المسيحيين، وكيف أنه لايسمح للحجاج بالدخول مالم يدفعوا رسم الكنيسة، والطريقة التي يدخل بها الانسان إلى الكنيسة وأنواع الطوائف في الكنيسة

رابعاً وأخيراً علينا أن نتفحص الذين يسكنون في الكنيسة المتقدمة الذكر، وهم الناس الذين يتولون إقامة القداسات هناك، وبالترابط مع هذا الموضوع سوف نرى مسائل مخيفة ولامثيل لها، فقد عملت هذه الكنيسة على مثال سفينة نوح، التي كان فيها جميع أنواع البهائم، من نظيف وغير نظيف سواء، وذلك باستثناء السمك، وهنا أيضاً لايوجد سمك، أي ليس هناك من هو غارق في مياه عدم الإيمان، ولاوثنيين، ولاواحد ينكر بشكل حاسم المسيح، فمامن واحد من هؤلاء يمكنه أن يجد مكاناً فيها، ولايمكنه الحصول على موطىء قدم فيها، تماماً مثلما لاتستطيع الأسماك العيش خارج الماء، وفقط هم أتباع المسيح الذين يعيشون هناك، وذلك سواء أكانوا نظيفين في الإيمان الصحيح أو غير نظيفين، ملوثين بالهرطقة، وسواء أكانوا متحضرين من أتباع الإيمان الكاثوليكي، أو أناساً متوحشين من غابات الردة والانشقاق، فهنا جميع الأجناس التي تعبد المسيح كرب، مهما كان نوع اعتقادها وإيمانها، سواء أرأت فيه خالداً مع الآب ومساو يا له، أ لم تر ذلك، وسواء أعدّته خالقاً أو مجرد مخلوق، أو انساناً حقيقياً أم شبحاً، وسواء اعتقدوا بأنه تألم، أم لم يتألم، وسواءأمات أم لم يمت، وسواء أكان للقربان أية قوة، أو لم يكن، وسواء أكان البابا هو نائب المسيح أم لا، فكل واحد من هذه

الطوائف يمكنه أن يجد شخصاً من طائفته ومعتقده في هذه الكنيسة، ومسموح له بالدخول إليها.

وفي هذه الأيام إذا ما جاءت أية طائفة مدنسة بأية هرطقة فظيعة، ومامن أحد من الذين موجودين في الكنيسة المقدسة يمكن أن يرضى بالسماح لها للدخول وممارسة طقوسها، يقوم السلطان بتعيين سدة لهذه الطائفة نفسها، ومكاناً للاقامة خاص بها في تلك الكنيسة، حتى لو أنها اعتقدت بأن المسيح كان وحشاً ولم يكن بشراً، فالذي يكفي قولها بأن المسيح كان رباً، فليس هناك من هو ممنوع، وليس هناك أحد مطرود ومبعد، فكل من يدفع إلى المسلمين رسم الكنيسة، وهو خمس دوقيات للدخول، يدخل إليها، مهما كان غير نظيف، وهم لايفتحون الكنيسة لأي مسيحي دون دفع للخمس دوقيات، وفي هذا هم لايوفرون حتى رهبان جبل صهيون، حيث لايسمحون لهم بالدخول من دون دفع هذا الرسم، باستثناء الدخول في موسم زيارة الحجاج إلى القدس، فوقتها يمرون مجاناً، وفي الوقت الذي يكون فيه الحجاج بعيدين عن القدس، لايكون بامكان الرهبان تغيير الحرس في الكنيسة، بل إن الذين أرسلوا إلى هناك ليكونوا مسؤولين عن الحجاج ويفوض إليهم أن يكونوا حراساً للضريح المقدس، يبقون هناك دونما تبديل، حتى قدوم الموسم التالي من الحجاج، والرهبان الذين وضعوا في الكنيسة حراساً لايمكنهم الخروج من الكنيسة، كما لايمكن للرهبان الآخرين الدخول إليها مالم يدفعون الرسم، وعليهم أيضاً دفع الرسم إذا ما رغبوا في تغيير الحراس.

وعلى كل حال هم يفتحون أبواب الكنيسة مرتين في السنة، ويسمحون بدخول جميع المسيحين مجاناً، ومواعيد الفتح هذه، هي من الجمعة الحزينة حتى اثنين الفصح، ومن ليلة اكتشاف الصليب حتى العشاء في اليوم التالي، وتكون الكنيسة في هذه الأيام مزدحمة بالرجال

والنساء، من جميع بلدان العالم، ويكون هناك كثيراً من التدافع والفوضى بسبب الحشد الهائل من الناس، ووقتها يسمع الانسان هناك الناس يتحدثون بجميع لغات العالم، وفي تلك الأوقات يعقد سوق في الكنيسة للأشياء الثمينة النادرة، وباستثناء هاتين المناسبتين لاتفتح الكنيسة أبداً، إلاّ مقابل مال حاضر، وقبل ذلك ليس بوقت طويل كانت الأحوال والأزمان مختلفة، فوقتها كان المسيحيون الكاثوليك قادرون على الدخول إليها من دون مقابل، وفي أي وقت أرادوا، ولم يكن مسموحاً بأية حجة من الحجج لأي هرطقي أو منشق، بالدخول إلى الكنيسة، برسم أو بدون رسم، لكن منذ أن جرى الاستيلاء على ضريح الرب من قبل الأعداء، صار الحجاج سجناء، ولم يعد بإمكانهم فعل أي شيء في القدس، باستثناء مارضي به المسلمون.

وقبل عدة سنوات مضت كانت عادة المسلمين قد جرت على فتح الكنيسة عند شروق الشمس وابقاء الحجاج مغلق عليهم بها حتى العشية، ومن ثم اخراجهم عند غياب الشمس،وكان هذا محمولاً، غير أنهم يديرونها الآن بطريقة معاكسة، ذلك أنهم يفتحون لنا الأبواب في وقت متأخر، ويخرجوننا منها في الصباح، وهو أمر مزعج جداً، ومربك، لأننا نحصل على قليل من النوم، أولا ننام في الليالي التي نمضيها في الكنيسة، بسبب الزيارات المتوالية التي تتم إلى الأماكن المقدسة في مسيرات، وبسبب القداسات السماوية المتوالية، وأيضاً بسبب الصرخات والأصوات الغريبة العالية التي تصدر عن المسيحيين الشرقيين الذين يملأون الكنيسة طوال الليل بسبب أصواتهم النشاز، مع صفقات التجارات، وأخيراً بسبب الأعداد الهائلة للذباب، الذين يقفزون فوق البلاط وفي كل مكان، وعندما يحاول أي انسان أن يتمدد للنوم أو للصلاة، يتغطى على الفور بالذباب، ولايمكنه الحصول على الراحة.

ومن أين يأتون، أنا لا أعـرف، إلاّ إذا كانوا يتـوالدون بشكل طبيعي من الرخام، ومن المحتمل أن حرس الكنيسة يتولون تغذيتهم، لذلك أنا لم أقتلهم، وبعد ليلة من التعب هكذا والسهـر، يتوجب علينا في اللحظة التي نخرج بها بالقـوة، أن نكون وقتها مـرغمين على الذهاب إلى أماكن مقـدسة أخـرى، ويجعلنا هذا عـرضة للمعـاناة من مـزيد من الارهاق، وعلى هذا كـان الحجـاج دومـا منهكين تمامـاً، من السهـر، والصـوم، والتعب، ونادراً ما كان يسمح لهم بوقت لتناول وجبات سريعة، وذلك أن هذا النظام يضغط عليهم بشدة في هذا المجال، علماً بأنه من كثير من الجوانب أفضـل من النظام الآخـر، حيـث أنه من الأفضـل الحبس في الكنيسة أثناء الليل منه في النهار.

أجناس الناس المتنوعة التي تسكن في كنيسة الضريح المقدس

بما أن المخلوقات المتنوعـة تزين العالم، وتظهـر الكمال الرائع للخالق، كذلك الأمم المختلفة، والطبائع واللغـات، والطقوس، التي تتعبد بكثرة الكنيسة الكاثوليكية، يمكنها أن تظهر روعة كمال مخلصنا، لو أن العناد، والاصرار على الآثام المقيتـة من قبـل الكفـار، والهراطقـة، والمنشقين، لم توجـد بينهم، مع أن حتى وجـود هذه الأمـور يبرهـن بأن الرب رائع وكـامل، وهكذا فـإن كنيسـة الضريـح المقـدس أكثـر جمالاً من جميع الكنائس الأخرى في العالم، ومنشأ ذلك من تنوع الأمم التي تحمد الرب فيهـا، مع أن الذين يدخلـون إليهـا يثيرون التقـزز والانزعـاج الكبير بآثامهم المقيتـة، واعتاد المسيحيون من جميـع أجزاء العالم، والذيـن كانوا يتحدثون بمختلف اللغات، على الدخـول إليها، في الأيام الطيبة الخالية، وكـانوا يدخلونها رغبة في عبـادة الرب من دون أية ذنب، أو خيـانة، أو أوهام، بينما كـان الأنـاس المحـرومين كنسيـا، والمنشقين، والهراطقـة المنبوذين، الذين مع الأسـف، الكنيسة الآن مليئة بهم، وأبنيتها المقـدسة قد تلوثت بهم، كانوا غير مسموح لهم بالدخول.

ويوجد —على كل حال— هناك سبعة أنواع مختلفة من المسيحيين في هذه الكنيسة، لكل منها طائفتها، وطقوسها الخاصة بها، وسدتها، مع أخطاء مميتة ومتنوعة، لابل يتناول بعضها حتى أسس العقيدة، وسوف نحتاج إلى وقت طويل للحديث عن هذه الأخطاء، لكن إذا مارغب أي انسان أن يحصل على فكرة في داخل هذه المسألة، عليه قراءة كتاب الحج، تأليف مولاي عميد مينز، الذي كتب إليه من قبل العالم المبجل المختص باللاهوت، الأب مارتن روثRoth، الذي هو من دير الدومينيكان في فورزهيم forzhaim ، والذي بحكم اختصاصه، قد أضاف إلى كتاب الحج ذاك، رسالة مطولة وصحيحة حول الأخطاء العقائدية للساكنين في القدس، ولهذا لن أقارب هذا الموضوع مطلقاً، أو سألامسه فقط، بشكل خفيف، والذي سوف أتناوله فقط هو باختصار موضوع الأماكن التي تشغلها في الكنيسة المقدسة هذه الأقوام.

اللاتين الكاثوليك

إن المسيحيين اللاتين هم في المقام الأول، وهم كاثوليك حقيقيون، ويطلق عليهم اسم الفرنجة من قبل المسلمين، وهم يسكنون في هذه الكنيسة، وهم محافظون بإيمانهم، ورهبان أتقياء محترفون، ورجال الدين، من طائفة الفرنسيسكان هم الذين يمتلكون —كما قلنا من قبل— ديراً على جبل صهيون، فيه عدد كبير من الرهبان، يبلغ تعدادهم أربعة وعشرين راهباً، وهم يعيشون تحت أحكام نظام طائفتهم، ويتلقون الدعم والصدقات من الحجاج الأتقياء الذين يأتون إلى هناك من جميع بلدان المسيحية، وكذلك من قبل بعض الأمراء المؤمنين، الذين تدفعهم تقواهم نحو الأماكن المقدسة ونحو التقوى المسيحية، إلى عدم التوقف عن إرسال عطايا صدقاتهم السنوية إلى هناك، وفي الحقيقة قام فيليب دوق بيرغندي، صاحب الذكرى المباركة برسم دفع مبلغ ألف دوقية سنويا للأماكن المقدسة، مادام حياً، وذلك في سبيل خلاص نفسه،

ودعماً للرهبـان الذين يتعبـدون الرب هناك، ومثلـه كـذلـك فعل ابنه شارل، طوال وجوده في هذا العـالم، وكذلك يفعل مثله خليفته في الأيام الحالية، اللورد الواسـع الشهرة وصاحب المكانة السـامية مـاكسيميليان، دوق النمسـا وبيرغندي، الذي هو الآن الملـك الأعظم مجداً، والمنتخب ملكاً للرومان حيث يأخذ بمثل أسلافه في دوقية بيرغندي، ويقلدهم في ارسـال المعـونة المقـررة للرهبـان سنوياً، ومن أجل بيـان عن هؤلاء الرهبـان، ووصف لـديرهم، انظر زيارتنا للأمـاكـن المقـدسـة على جبل صهيـون، وفي إطار ذلك الدير، في اليـوم الثالث عشر من هذا الشهـر، خاصة على صفحتي٣٩٨— ٤١٠.

ونيـابـة عن المسيحيين اللاتين يبقي الـرهبـان على الأقل ثـلاثة من عـددهم، في كنيسـة الضريح المقـدس وذلك كحـرس للأبدة الأعظم قداسـة، ويبقى هؤلاء الرهبان هناك ليـلاً ونهاراً، ويمثلون كتلة الكنيسة الرومـانيـة اللاتينية كلهـا، وتسلم أغـذيتهم ومـؤنهم إليهم من خـلال فتحـات في باب الكنيسـة، من قبل رهبـان جبل صهيـون، وهم لديهم أفضل الأمـاكن وأعظمهـا قداسـة في الكنيسـة، لأنهم يمتلكون مفـاتيح الضريح الثمين جـداً، وكهف الرب يسوع، وهم يفتحـونه في كل وقت يرغبون، ويعملون قـداسات فيه عندما يختـارون ذلك، ولايتجرأ الكهنة الآخـرون على إقامـة قداس هنـاك، إلاّ بعد الحصـول على سماح مؤكـد وإذن من اللاتين.

ويحتـاج الأمر إلى وقت طويل للحـديث كيف حـدث ووصلت هذه السلطة المدهشـة على الضريح المقـدس للرب إلى أيدي اللاتين، فقـد حـدث هذا ليس بعـد مـدة طويلة من الأيام التي كـان الكرج يمتلكون فيها السلطة على ضريح الرب، وفي الحقيقة إنه لأمر مدهش كيف سمح المسيحيـون الآخـرون مـن الطوائف الأخـرى للاتين باستحـواذ هذا الامتياز، آخـذين بعين التقدير أنه لا يوجـد بين الطوائف المسيحية التي

تقطن بالقدس أقل عدداً من اللاتين، ثم إن طريقتهم بالحياة، وعاداتهم، وملابسهم، تختلف عن طرائق المسلمين وعاداتهم وملابسهم، أكثر من اختلاف طرائق وعادات وملابس الطوائف المسيحية الأخرى.

علاوة على ذلك إن ثلاثة من المصابيح المشتعلة دوماً في الضريح المقدس، هي ملك للاتين، وهم الذين يزودونها بالزيت والنار، وتعود المصابيح الستة عشر الأخرى إلى بقية الطوائف، ويمتلك اللاتين أيضاً بيعة العذراء المباركة، التي تقدم وصفها في ص٤٦٩، ويتلون هناك القداس وساعاتها، ولديهم خلف هذه البيعة مكان واسع من أجل نومهم، وطبخهم، وأكلهم، وصنع حاجياتهم، وفي تلك البيعة ثلاثة مصابيح مشتعلة بشكل دائم.

ويمتلك اللاتين على جبل أكرا مذبحاً خاصاً بهم، وثلاثة مصابيح مشتعلة فوق صخرة المسيح، وفي مكان اكتشاف صليب المسيح، لديهم مذبح واحد، ومصباح واحد مشتعل في الكهف الذي وجد فيه صليب المسيح، ولديهم أيضاً مصباح مشتعل واحد في المكان الذي جرى فيه تحنيط جسد المسيح، بعد انزاله من على الصليب.

ومازال البوهيميون متحدون مع اللاتين في القدس، وعندما جاءوا إلى القدس، سكنوا مع اللاتين، وشاركوا في طقوسهم، مع أنهم تخلوا عن كنيسة روما، وتزداد هرطقتهم شدة كل يوم، ومثلهم الغلاغولي Glogolar الذين يسكنون بيننا، وهم على كل حال لايتلون القداس باللاتينية، بل بلغتهم الأم، لأنهم يتلقون مهامهم المقدسة في روما، وهم ليسوا هراطقة.

أي جزء من كنيسة الضريح المقدس ملك للاغريق

ويمتلك الاغريق المكان الرئيسي في الكنيسة المقدسة، أي السدة، ورأس القيامة كلها، وكان هؤلاء الاغريق في الكنيسة الأولى مشهورين

وممجدين في العقيدة، وكان لديهم كثيراً من المدن الجميلة، وأربع كنائس كاتدرائية فخمة، هي التي كانت ملكاً لبطارقة: أنطاكية، والقدس، والاسكندرية والقسطنطينية الذين كانوا منذ زمن بعيد في طاعة الكنيسة، غير أنهم فيما بعد تخلوا عنها وتركوها، وسقطوا في أعظم الأخطاء، وبلغ بهم الأمر إلى حد التجديف ضد الروح القدس، وضد نظام القرابين، وسلطات كنيسة روما، واقتنعوا مراراً بالمنطق، فعادوا إلى صدر الكنيسة، غير أنهم بدلوا اثنتي عشرة مرة، وهم مصرون الآن على أخطائهم، وهم يعيشون مع الأتراك والمسلمين، وهم يعذبون اللاتين بدون شفقة في كل طريقة ممكنة، وماكان ممكنا للأتراك وللمسلمين أن يزدادوا قوة، لولا أن الاغريق كانوا خونة، وكان من الممكن للمسيحيين الشرقيين الآخرين أن يعودوا إلى الاتحاد مع الكنيسة، وكان من الممكن بسهولة أن يعودوا في هذه الأيام، لولا أن هؤلاء الاغريق المتكبرين قد منعوهم، وضللوهم مرة ثانية حتى لو أنهم قد عادوا، ومع ذلك على الرغم من هذه الآثام، لديهم الوقاحة بالتجرؤ على دخول كنيسة ضريح الرب الأعظم قداسة، وقام هؤلاء المعتدون بشكل ظالم بجعل أنفسهم رأساً للكنيسة، ويمتلكون في هذه الأيام السدة والمذبح العالي، ويحتفظون بعدد كبير من المصابيح مشتعلة أمامها، كما أنهم يمتلكون سجن الرب، الذي تقدم ذكره في الصفحة ٤٧٤، ولديهم هناك مذبحاً، ومصباحاً مضاء، ولديهم على جبل أكرا مذبحين، لأن الكرج الذين يمتلكون الجبل من طائفتهم، ولديهم تحت الأرض في بيعة القديسة هيلانة، مصباح مضاء واحد، ومثل هذا يمتلكون مكان توزيع ثياب المسيح، وهناك يوجد مذبح واحد، ومصباح واحد مضاء، ويكفي ماقلناه عنهم.

الكرج: أي نوع من المسيحيين هم، وأية أماكن في كنيسة الضريح المقدس عائدة إليهم

الكرج (الجورجيون) ويعرفون أيضاً باسم النوبيين، ويشتهرون بشكل عام أكثر باسم سنكتشر Cincture، وقد جاءوا من مناطق بعيدة جداً عن الأرض المقدسة، وهم محاربون، حتى أنهم يدربون نساءهم على القتال، وهم مسيحيون، لكنهم موصومون بشكل عام بأخطاء الاغريق نفسها، وهم يمتلكون في الأرض المقدسة جبل أكرا، ولديهم دوما حديقة الصخرة المقدسة، ملحقة بالكنيسة، ولم يكونوا يمتلكون هذا المكان المقدس منذ زمن طويل، بل امتلكوه منذ خمس عشرة سنة خلت، لأنهم قدموا هدايا إلى ملك مصر وسلطانها، الذي طرد الأرمن منه، ووضع الكرج في مكانهم، وهم أيضاً يمتلكون مكان وكهف اكتشاف الصليب المقدس، وثلاثة مصابيح فيها، مع أنهم نادراً ما يشعلونهم، وهم أيضاً يمتلكون البيعة تحت جبل أكرا، المدفون فيها ملوك القدس اللاتين، وذلك حسبما ذكرت في ص٤٩٤.

اليعاقبة الهراطقة

ويوجد هناك في الكنيسة يعاقبة، هم الذين يمتلكون في بلدانهم في المشرق ممالك كثيرة، وهم هراطقة بشكل شاذ، ويخطئون بشكل مقيت بشأن نقاط كثيرة، وهم يحافظون على عقيدة الختان، ويمارسون طقوس القرابين لكلا النوعين من الأطفال، وهم على صدور أمهاتهم، ويعملون في ظل أخطاء مضاعفة حول رجولة المسيح، ويمتلك هؤلاء القوم بيعة صغيرة ملاصقة لآبدة الرب، حيث لديهم فيها مذبحاً ومصباحاً، ومثل هذا هم يمتلكون المكان الذي جرى فيه تحنيط الرب، ولديهم هناك سبعة مصابيح مضاءة.

الهنود المسيحيون أو الحبشان

ويمتلك الحبشان (كذا) أو الهنود المسيحيون —الذين يعيشون في ظل حكم راعي دير— شطراً من كنيستنا كنيسة الضريح المقدس، وهم

رجال ذوي حياة صارمة جداً، وكذلك فقراء للغاية، وممتلئين بالأخطاء، وفي اجتماعــاتهم يتقــاطرون جميعــاً بحماس من أجل القــداس في أيام الأعيـــاد، وهناك تجدهــم كلهم، من الجنسين، حيـث يبــدأون بغناء الأهازيج، وهم يقفزون بأرجلهم ويصفقون بأيديهم معا ويتجمعون مع بعضهم بعضــاً في دوائر ستـة أو سبعة، أو ربما تسعـة أو عشرة، ويغنون أحياناً وفق طرائقهم طوال الليل كله، لاسيما في ليلة قيـامة المسيح، ففي تلك الليلة لايتـوقفـون عن الغناء، والركض نحـو الأمام ونحـو الخلف حتى فجـر النهار، وينفـذون هذا بحماس منقطع النظير، حتى أن عـدداً كبيراً منهم يقع مريضـاً من خلال جهـودهم التي بذلوها، لكن مع أنهم يمارسون هذه الأعمال، ويرعون هذه الأيام المقدسة، تراهم ملوثين بأكثر الأخطاء خبثاً، وهم هراطقة ممقوتين من قبل الكنيسة المقدسة.

وهـم يتبعون اليهود والمسلمين واليعاقبة في تطبيق ماليس مفيداً، لابل هو من الطقـوس الملعونة، وأعني بذلك الختـان، ويسمون أولادهـم على الوجـه بقلم من الحديد المحمى، ولايعبأون بشأن تلقي المعمـودية بالماء، ويمتلك هؤلاء القـوم بيعة، يوجـد فيها تحت المذبح ويقوم الحجـر التي جلس عليـه ربنا، عندما جـرى تتويجه بتـاج من شوك، ولديهم مصبـاح ومــذبح، وبيعتهم ومـذابحهــا وذلك حيث يقيمــون يوميـا طقــوس عبــاداتهم، مــوجــودة على جهتك اليسرى وأنـت داخل إلى الضريح المقـدس، بين أعمـدة الكنيسة، وهي مغلقـة —عـوضـاً عن الجدران— بأقمشة وحصر، ومعلقات أخرى مربوطة بحبال.

المسيحيون السريان

يعيش المسيحيـون السريان في وضع عبـودي تعيس تحت حكم عـدد متنوع من الأمـراء غير المسيحيين، وهم مـوصومـون بأخطاء الاغـريق، الذين يتـولون تقليـدهم، وهم هراطقة وبـلا ايمان، وخونه، ولصـوص، وغيورين على نسائهم وزوجاتهم مثل المسلمين، وهؤلاء الناس هم معنا

أيضاً في كنيسة الضريح المقدس، ويمتلكون بيعة القديسة هيلانة، حيث يمارسون طقوسهم، وهم يعيشون إلى جانب الهنود في خيمة محاطة بأقمشة وماشابه ذلك.

المسيحيون الأرمن: من أي نوع هم

ويشاركنا الأرمن في هذه الكنيسة أيضاً، وقد جاءوا من أرمينية، وهم أعداء بلاهوادة للإغريق، ومع ذلك تراهم غير مهتمين بتجنب آثامهم، كما أنهم ليسوا متحررين من هذه الآثام، فهم عندما يقيمون قداساً لايمزجون الماء مع الخمرة، مثلما يفعل الاغريق، ويأكلون اللحم في يوم الجمعة، ولايرعون يوم ميلاد الرب كيوم عيد، بل إنهم يصومون في ذلك اليوم، ويقدمون تعليلاً لتصرفهم على هذه الصورة، بأن الرب قد ولد في وسط تعاسة حياتنا، لكنهم يحافظون على عيد الغطاس ويحتفلون به بشكل مهيب، وذلك بسبب عمدانية المسيح، ويطلقون على هذا العيد اسم «ميلاد المسيح الروحي»، وفي هذا هم يخطئون أيضاً.

وكنت لدى حديثي عن الكرج، قد ذكرت بأن هؤلاء الأرمن كانوا يمتلكون جبل أكرا، لكن عندما فقدوه، اشتروا من السلطان مكاناً في الشرفة العليا من الكنيسة، وهناك كرسوا لأنفسهم سدة، وعملوا غرفاً للاقامة بها، ولايختلف الأرمن عنا كثيراً، مثلما تختلف الطوائف المتقدمة الذكر، وفي الحقيقة لقد سمعت بأن الأرمن غالباً مايلتقون مع الذين ليس لديهم كهنة إلاّ من الرهبان الدومينيكان الذين يعدون بالنسبة إليهم أساقفة، ورعاة أبرشيات، وكهنة، وهؤلاء هم أفضل الكاثوليك، ذلك أنهم تحولوا إلى الايمان الصحيح على يدي راهب من طائفتنا، كان قد ترجم إلى لغتهم كتاب Summa theologia لتوماس الأكويني، وكتب أخرى من تأليف علماء كاثوليك، واعتاد هؤلاء الأرمن على أن يزوروا من وقت إلى آخر المقدم العام لطائفة القديس دومينيك، حيث كانوا يظهرون أنفسهم أنهم أبناء له في الطاعة، وهم يزورون بخشوع

عظيم ضريح أبينا القديس دومينيك، وقد أخبرني بهذا عدد من إخواني الرهبان الذين رأوهم، وسمعوهم يتحدثون مع المقدم بأفضل طريقة ممكنة، لأنه لايوجد لاتين لديهم، وهم لايعرفون اللغة اللاتينية.

وبقي المسيحيون الذين تقدم ذكرهم، في القدس، عندما استولى المسلمون على المدينة، ووقتها جرى طرد اللاتين، والبطريرك، والملك من القدس، مع جميع أتباعهم، وجرى تسليم كنيسة الضريح المقدس إلى هؤلاء المسيحيين المتبقين على شرط واحد، هو شراء الأماكن التي يرغبون فيها في داخل هذه الكنيسة وهذا مافعلوه حقاً، وهكذا بدأت فوضى هذه الحشود المزيجة في الكنيسة في سنة ١١٨٧ لتجسيد ربنا، وكان ذلك في الحادي عشر من تشرين الأول، ومنذ ذلك الحين، عاشت جميع الأمم المتقدم ذكرها في القدس كرعايا ودافعين للجزية للمسلمين وبقيت المدينة المقدسة لسنين طوال من دون مسيحيين لاتين، حتى اشترى روبرت ملك صقلية بعض الأماكن المقدسة من السلطان، مقابل الكثير من الذهب، وسلم هذه الأماكن إلى الرهبان الفرنسيسكان، الذين مابرحوا يتملكونهم حتى هذا اليوم، وبشأن هذه الأماكن، انظر ما تقدم في ص٤٦١.

وإلى جانب الأمم التي تقدم ذكرها من قبل، هناك شعوب أخرى كثيرة في القدس، لاتؤمن بالديانة المسيحية، نذكر من هؤلاء: المسلمين، واليهود، والأتراك، والسامرة، والمماليك، الذين عنهم جميعاً هناك عرض واضح قدمه اللورد برنارد بريتنباخ العظيم، المتقدم الذكر، الذي لم يبخل بنفقة على تصنيف كتاب رحلته بشكل صحيح، أو لنقل كتاب حجه، حيث حصل على ذلك الاستاذ المحترم، واللاهوتي المتنور، والملهم المنعم عليه، وأعني به الأب مارتن روث (كذا)، المنتمي إلى طائفة القديس دومينيك، فهو الذي كتب كتاب الرحلات للورد المتقدم الذكر، بشكل مزين، وبأسلوب علمي، وقد وصف بوضوح مختلف

الشعوب التي سكنت في القدس، مع جميع أخطائها، ومشاكساتها، وعاداتها، موجها اللوم إلى هذه الشعوب بسبب أخطائها، وقدم عرضاً لاهوتياً ثميناً جداً واختصاصيا، مع حلول لكثير من النقاط الصعبة، كما أنه استأجر رجلاً فناناً، رسم له الموانيء البحرية، والمدن، والأماكن على اليابسة، وبشكل خاص في الأرض المقدسة، وملابس الشعوب المذكورة للحياة، وجعل صوزة موائمة لكلمات النص، وعلى هذا إن الذي سيختار قراءة هذا الكتاب، يمكنه أن يجد فيه كل ماتجاوزته، ولسوف أتابع الآن السير قدما مع جولاتي.

زيارة إلى الأماكن المقدسة في مدينة القدس وكذلك إلى الأماكن من حولها

وفي اليوم الخامس عشر، الذي هو عيد تفرق الرسل، وفي بداية النهار، أي في الأمسية المتقدمة، أرسلت رسالة إلى جميع الحجاج، أنهم ينبغي أن يتسلقوا عند غياب الشمس قمة جبل صهيون، لأن معلمينا أي دليلينا، يرغبان في أخذنا في ذلك المساء نفسه إلى بيت لحم، وعندما وصلنا جميعاً إلى المكان المكشوف على جبل صهيون، وجدنا حميرنا واقفة هناك مع سائقيها، ولذلك ركض كل واحد منا هناك وهو يصرخ ناشداً سائقه وباحثاً عنه، حسبما تقدم لي وصف ذلك في ص٣٥٠ المتقدمة.

وبعدما حصلنا على حميرنا، وقفنا هناك، وانتظرنا بعض الوقت وصول دليلينا، ووقفنا هناك، وانتظرنا لوقت طويل قدوم دليلينا، اللذان قدما أخيراً عند غياب الشمس، قدما وهما آسفين، وأخبرانا بأن البدو المدينيين، والأعراب قد جاءوا إلى بيت لحم من سدوم، ومن القفار حول الأردن، وهم كامنون هناك بانتظارنا، من أجل الانقضاض علينا، وأسلحتهم في أيديهم، وذلك بغية سلبنا، ولذلك يتوجب علينا في هذا الوقت الاقامة في القدس، حتى يغادر هذا الحشد من اللصوص بيت

لحم، ولذلك أخـذت الدواب منا إلى أمـاكنهـا، وقمنا نحن بجـولة على الأماكن المقدسة في جبل صهيون، وصلينا لوقت طويل في مكان افتراق الرسل، الذين كان عيدهم قريباً في متناول اليد، وحول هذا المكان انظر ما تقدم في ص ٤٤٦.

وعندماغابت الشمس نزل الحجاج عـائدين إلى مشفاهم للاستراحة، لكن عدداً كبيراً منهم بقي معنا فوق جبل صهيـون، ومكثوا ساهرين في الأماكن المقدسـة، وفي منتصف الليل استيقظنا معا مع الرهبان من أجل صلوات البلاد الصبـاحية، وبعدما شرعنـا بتلاوة قداسات خـاصة، كل واحد منا في المكان الذي اختاره، تابعنا ذلك حتى بداية الضوء، وعندما بدأ فجر اليوم الخامس عشر من تموز، وقبل شروق الشمس، نزلنا نحن الذين كنا في فـوق جبل صهيون إلى المشفى، وأيقظنا إخواننـا من السادة الحجاج، لنقوم بزيارة حج، وعندما صاروا جاهزين، خرجنا من المشفى مع بعض رهبان جبل صهيون، وكالينوس الفحل، الذي أمّن لنا بعصاه ممراً آمناً، ومنع الأطفـال من رمي الحجارة علينا، وذهبنا أولاً إلى سـاحة كنيسة الضريح المقدس،ومـددنا هناك أنفسنا فوق المكان الذي سقط فيه المسيح تحت الصليب، كما تقدم بنا وصف ذلـك، وتلقينا هناك غفرانات مطلقة(++).

الباب الذي اقتيد الرب يسوع إلى خارجه من أجل الصلب

وخرجنا بعـد هذا من الساحـة إلى شارع يقـود من جبل صهيون إلى جبل أكـرا، ويقود من هناك نـزولاً إلى المدينة، من خلالها جميعـاً، وطول المدينة الأعظم هـو من الشمال إلى الجنوب، وعـرضهـا الأدنـى هو من الشرق إلى الغرب،وبعـدما قطعنا بعض المسافـة نازلين نحو البلدة، على الطريق الذي صعـد عليـه الرب يسـوع إلى جبل أكـرا حامـلاً صليبـه، وصلنا إلى باب قـديم مهدم على الجهـة اليمنى، لم يبق منه سوى جـانب واحـد، ممتـداً من الأرض إلى منحنى يدعم القـوس، ذلك أن بقيـة كل

شيء قد ذهب، لابل حتى الجزء المتبقي قد بني الآن على شكل عدة بيوت، ولذلك تعذر علينا الوصول إليه، ولذلك وقفنا على بعد مقابيله، ونظرنا إليه.

وتبين لنا بشكل جلي من خرائبه، بأنه كان بابا عاليا، بني بشكل جيد من حجارة مربعة منحوتة، وكان هذا الباب، يعرف باسم الباب القديم، قبل توسعة المدينة من قبل إليوس هدريانوس، لأنه كان موجوداً هناك في أيام اليبوسيين، وأطلق عليه فيها بعد اسم باب القضاء، لأن المحاكمات كانت تتم هناك وفق الطرائق القديمة، والذين كانوا يحاكمون هناك ويحكم عليهم، كانوا يرسلون إلى خارجها لاعدامهم، وهذين الاسمين معا هما واحد، وبالاسمين معا، أي: الباب القديم، وباب القضاء، قد ورد ذكرهما في الاصحاح الثالث من سفر نحميا.

وإلى خارج هذا الباب، جرى اقتياد الرب، من أجل صلبه، اقتيد وهو يحمل صليبه، ولذلك قيل عن هذا الباب في الرسالة إلى العبرانيين الاصحاح الثالث عشر: «لذلك يسوع أيضاً لكي يقدس الشعب بدم نفسه تألم خارج الباب»، فلنخرج إذا نحن الحجاج البشر إليه إلى خارج الباب، حاملين عاره، فمن يمكنه —أرجوكم— يستطيع الخروج إلى هذا الباب إلاّ بخشوع وتقوى؟، فمن هنا ذهب هابيل إلى حقل عفرون (عفريم) حتى يقتل، ومن خلال هذا الباب نفسه حمل اسحق الحطب، حتى يمكن التضحية به فوق الجبل، وهنا شوهد عنقود العنب الذي حمل على العصا، ورددنا عند هذا الباب الصلوات المحددة في كتب المسيرة، وجثونا على ركبنا، وتلقينا غفرانات.

السقائف على الطريق إلى جبل أكرا حيث كان جري انعاش الذاهبين إلى موتهم

وتابعنا سيرنا من هناك، ووصلنا إلى المكان، الذي كان فيه، عندما

أخرج المسيح، إلى خارج الباب، خياماً منصوبة، حيث عندما كان يؤتى بالمحكوم عليهم بالموت إلى خارج الباب، كان هناك بعض الناس اللطفاء قد دفعوا ثمن خمرة من أجل أن يشربها المحكوم عليهم بالإعدام، وكان هؤلاء يعطون هناك خمرة قوية يشربوها في ذلك الموضع، على أمل أنهم بشربهم للخمرة يزول عنهم الكدر ويصبحوا مسرورين، فقد وصلنا خبر في الاصحاح السادس (كذا) من اسدراس يقول:« تقلب الخمرة فكر كل انسان إلى السرور والمرح، وبذلك يغدو الانسان غير قادر على أن يتذكر لا الأسى ولا الدين، وتجعل الخمرة كل قلب غنياً» (أسدراس: ١/ ٣/ ٢٠—٢١)، وكانوا يحملون من هذا المكان الخمرة أيضاً في كؤوس ودنان إلى مكان التعذيب، من أجل أن يجعلوا الناس هناك سكارى أيضاً، وذلك حسبما تقدم بنا القول في ص٤٧٤.

ومثل هذا أمر التلمود الناس أن يفعلوا، فقد فرض اسكار الناس الذين على وشك الاعدام، وذلك يجري تنفيذا لما أوصت به الكتابات المقدسة في قولها:«أعطوا مسكراً لهالك، وخمراً لمري النفس، يشرب وينسى فقره، ولايذكر تعبه بعد» (الأمثال:٣١/ ٦).

وحدث أنه عندما وصل الرب يسوع إلى هذه الخيام مع صليبه، واللصين اللذان كانا سيصلبان معه، أسرعوا نحو الأمام مع الرب يسوع، لكنهم توقفوا مع الاثنين الآخرين، وجلبوا إليهما خمرة، وجلبوا إلى الرب يسوع خمرة ممزوجة بالمرّ، وجلبوا ذلك من الحانة التي قامت عند مكان الصلب، وقدموا ذلك إليه، لكنه رفض قبول ذلك، وذلك حسبما قرأنا في متى:٢٧، ولم نقرأ بأن الاثنين الآخرين قد حملا صليبيهما، بل حملها لهما رفاقهما، وقد حمل ربنا يسوع صليبه، بسبب أن جميع رفاقه قد تخلوا عنه، ووقف الذين يعرفونه بعيداً عنه، وكانوا مستعجلين كثيراً مع الرب يسوع، أكثر من تسرعهم مع الآخرين، لأن بيلايطس أعطى

قــراراً بدون ارادة، ودفع بالحاحهم نحــو التنازل والقبــول بمطلبهم، وكـانوا يخشـون من إمكانيــة نقض القـرار غير العـادل الذي كـان قـد أصدره، ولهذا كله كانوا متسرعين.

ووقفنا حـــول هـذا المكان، وصلينا، ذلـك أننا كنـا ممتلئين بالحب والتعاطف.

بيت القديسة فيرونيكا

ووصلنا ونحن نازلين من ذلك المكان إلى مــوضع فيرونيكا -Veron ica، التي يقال بأنها كانت هــي المرأة التي استمر الدم يخرج منها لاثنتي عشرة سنة، وقـد لمست بلمسـة خـاصـة طرف ثيـاب الرب، وهي التي دعـاها «ابنة»، وأوصى بها كثيراً من أجل إيمانها، وذلك حسبها قـرأنا في الاصحـاح التـاسع من انجيل متى وقـال بعضهم بأن تلك المرأة كـانت مـرثا، لكن يوسيبيـوس قـال في الكتـاب السـابع من مصنفـه «التـاريخ اللاهوتي» بأن التي شفيت من قبـل الرب، وغدت مـن أتباعـه، كـانت فيرونيكا، وكانت سيده ذات تقوى خاصة وتواضع.

وكانت قد سمعت أصوات الناس الذين كانوا مارين من قرب بيتها، مع الذين كـانوا سيصلبـون، فهـرعـت خـارجـة من البيت وهي تبكي، وقابلت الرب يسوع، وهو مجهد تحت حمله للصليب، ورأت وجهه وقد تغطى بالبصـــاق وبالدم، فتناولت منديلهـا، ومسحـت وجـه المخلص، وبقيت صورة وجهـه مطبوعة على منديلهـا، وكأنه قد رسم هناك رسماً، واحتفظت تلك المرأة بالمنديـل، وإستمـدت منه عـزاء عظيماً، وصـارت صـورة الوجه تلك مشهـورة جداً، بسبب آيات ومعجـزات صنعت من قبلها، وتعاظمت شهرتها، وقـد استدعيت هذه المرأة مع منديلها وحملت إلى رومـــــا، بنـاء على أوامـــر القيصر تاييبروس، مـن قبل الجنـدي فـوليوسيـانوس Volusianusلأن القيصر كـان مصاباً بمـــرض ثقيل،

وقد شفي من هذا المرض في اللحظة التي رأى فيها تلك المرأة القديسة، ولمس الصورة، وبعدما قامت بعملية الشفاء هذه، تابعت السكنى في روما حتى موتها، وهي موضع احترام عظيم من أجل قداستها، وصلاحها، حيث كانت واحدة من مؤسسي كنيسة الرب، مع الرسل بطرس، وبولص، وكليمنت، وبإرادتها تركت الصورة نفسها المطبوعة على قطعة القماش الكتاني، إلى البابا كليمنت وخلفائه، والمنديل في هذه الأيام محفوظ في كنيسة القديس بطرس، وهناك يزار من قبل الناس الذي يؤمنون بالمسيح، مع التبجيل الأعظم، وحافظ هذا المنديل على اسم المرأة حتى اليوم الحالي، حيث اسمه المعروف به هو فيرونيكا، ولقد رأيت هذا «الفيرونيكا» في روما في يوم الصعود لعام ١٤٧٦.

ومن وقت إلى آخر نظم كثيرون، وكتبوا أغاني جميلة للمدح، والأغنية الرئيسية بين هذه الأغاني والمنتشرة بشكل واسع على أفواه الناس، هي التي تسير كمايلي:

«مرحباً أيتها الطبعة المقدسة لوجه مخلصنا،

التي تشع منها نعمة الرب الرائعة.

مطبوعة على منديل أبيض كالثلج

وأعطى فيرونيكا، حبه ليرى».

وعلى هذا رأينا هذا البيت، بيت القديسة فيرونيكا، وتطلعنا إليه بروح مشرقة، عاكسة كيف أنه بوساطة تلك التي سكنت في هذا البيت، تلقت كنيسة روما كلها المجد والشرف، بحصولها منها على تلك الصورة للمخلص، وكيف أن جميع الناس المؤمنون في كل العالم يسعون إلى روما لرؤية هذا الوجه الثمين، الذي مامن مسيحي يمكنه أن ينظر إليه، ويستطيع منع نفسه من البكاء، ووقفنا أمام البيت، وقبلنا الباب، وتلقينا غفرانات(+)، وحدث على كل حال أنه بعد سفر الحجاج

ومغادرتهم للقدس، أن سمح لنا نحن الذين بقينا خلفهم، بالدخول إلى ذلك البيت، من قبل المسلمين الذين يسكنون فيه.

بيت دودروكس الغني الغلوتوني الذي لبس الأرجوان، الخ

وتابعنا من هناك سيرنا نازلين خلال المدينة، ووصلنا إلى بيت قديم، لكنه كان جميلاً، وهو الذي يقال بأنه كان بيت الغني الغلوتوني glut-ton، الذي كان اسمه دودروكس Dodrux، ولم يتلفظ الرب باسمه في الانجيل، عندما ذكر اسم الرجل الفقير، وسبب ذلك أعطاه غريغوري في قداسة حول ذلك المثل (لوقا:١٦/ ١٩—٣١)، فقد كان دودروكس هذا غنياً ومترفاً، ولم يرض بإعطاء الفقير المتسول لعازر حتى الفتات الذي سقط من مائدته، ونظرنا إلى هذا البيت وتطلعنا إليه باحترام، بسبب فضائل ذلك الرجل الفقير، وتلقينا غفرانات(+).

علاوة على هذا، تلقينا نحن الحجاج جميعاً من غني وفقير، هذه الأمثلة، من أجل أن نقوّم حياتنا، حيث تعلم الغني انكار الذات، وأن الرحمة واجبة من الرجل الغني المتنعم، وأن الرجل الفقير الذي قد مات قد دفن، في حين تعلم الفقير دروس الأمل والصبر من الفقير لعازر، الذي كان مليئاً بالقروح، فقد حمل إلى حضن ابراهيم، وجاء تعليمنا حول هذين الرجلين: الرجل الغني والمتسول في انجيل لوقا — الاصحاح السادس عشر.

مفترق الطرق حيث أرغموا سمعان على حمل الصليب خلف يسوع الأمر الذي فعله

وتابعنا من هناك سيرنا متقدمين، ووصلنا إلى مكان تتداخل فيه الطرق أحدها بالآخر، وتشكل بذلك تقاطع يستطيع الذي يقف في وسطه السير في أي اتجاه يريد، وعندما وصل المسيح إلى تقاطع الطرقات هذا كان منهكاً بحمله لصليبه، ووضعه أرضاً حتى ينال راحة

قصيرة، وليسترد أنفاسه، لكن اليهود الأشرار كانوا على عجلة كبيرة من أمرهم، الأمر الذي شرحته تحت عنوان «السقائف، وعندما كـان واقفاً هناك قـدم رجل اسمه سمعان القيرواني، الـذي كان واحداً من تـلاميذ المسيح بالسر، وضغط على هذا الـرجل وأرغم على حمل الصليب خلف المسيح، وذلك حسبما قـرأنا في لوقـا — الاصحـاح الثـالث والعشرين، وحمل صليب معلمـه وهو كـاره لذلك كثيراً، لأنه كـان مـايزال جـاهلاً بـأسرار ذلك، وبـالخلاص، ولهذا ركضنا إلى هـذا المكان، وأشفقنـا على المسيح، وابتهجنا معه: أشفقنا عليه بسبب أنه لم يكن هناك من يساعده، إلاّ سمعـان هذا، الذي ساعـده وهو كـاره على حمل الصليب، وابتهجنا معـه، لأنه الآن لايوجد فقط مجرد رجل فـلاح وحيـد، جاء من أقـرب القرى، ليحمل صليب يسوع، بل هناك الآن عدداً كبيراً من البارونات، والنبـلاء، والرجال الأعيـان، هم الآن موجـودين، قـد جاءوا من مـدن نائيـة، وقلاع بعيـدة، قـد جاء كل واحـد منهم إلى هنا برغبتـه من بلاد واقعـة فيما وراء البحـار، وكل واحـد منهم على استعـداد لحمل صليب ربهم، وانحنيـا في هذا المكان بـأنفسنا نحـو الأرض، وبعـدمـا تلونا الصلوات المعينة، تلقينا غفرانات مطلقة(++).

وقام فيما مضى على هذه البقعة كنيسة، هي الآن مهدمة بشكل كامل.

المكان الذي قال المسيح فيه للنساء الباكيات «يابنات القدس» الخ

ولدى متابعتنا السير قدماً على ذلك الطريق المتعب جداً والمرهق، أي على طريق الرب، الذي عبر عليـه أثناء آلام الصليب، وصلنا إلى البقعـة التي عندمـا كـان حامـلاً لصليبـه، سمع ورأى صرخـات النحيب التي صدرت عن النساء اللائي كن يتبعنه، فصرف ناظريه وأشاح بوجهه عن الرعـاع الغاضبين، وتوجـه نحو النسـاء اللائي أحببنه، وكن ينتحبن من

أجله قـائـلاً:«لاتبكين يابنات القــدس علي» الخ، وألقينا في هذا المكان المقــدس بـأنفسنا على الأرض، وقبلنا طبعــات قــدم مخلصنا، وتلقينا غفـرانات(+)، وهنا أيضــاً قــام فيها مضى كنيســة، لم يبق —على كل حال— منها أثر يمكن رؤيته.

المكان الذي سقطت فيه العذراء المباركة شبه ميته رعباً

وتابعنا السير قدما على هذا الطريق المقدس، والمحزن، لكن ليس من دون كثير من الدمـوع من الحجـاج الأتقياء، ووصلنا إلى مكان فيـه على الجهة اليمنى من الطريق رابية صغيرة، وقفت عليهـا العذراء مريم وهي في الحزن الأعمق، واستمر ذلك منذ الصباح الذي كان فيه ابنها في قاعة القضـاء، أمـام القاضي، وذلك بغيـة أن تعـرف إلى أين سيقـودونه حتى تتبعـه، لكنهـا عنـدمـا شـاهدت ولدها يسير بين اللصين، وهـو حـامل لصليبه الفائق الثقل، ولابس التاج من شوك فوق رأسه، ووجهه مغطى بالدماء وملوث بالبصـاق، ومحاط بعساكر من الرجـال المسلحين، عندما شاهدته بهذه الحال سقطت أرضاً وهي مرعوبة، وأغمي عليها.

وتوقفنا هنا وعقـولنا مليئة بحـزن متجـدد، وبعـدمـا تلونا الصلوات المعينة، انحنينـا بأنفسنـا نحــو الأرض، وقبلنا الأرض في هـذا المكان المقدس، وهنا تلقينا غفـرانات مطلقة، وقـد قام فيها مضى في هذا المكان كنيسة فخمة، كان اسمها كنيسة القديسة مريم المغمى عليها، لأنه أغمي عليها وتلاشـى وعيها هناك، وقد دمـر المسملون هذه الكنيسة، وتـركوا جدرانها قـائمة، ذلك أنها بنيـت بقوة من حجارة مـربعة، وهي مـاتزال قائمـة حتى يتمكن واحد من المسلمين من بناء بيت لنفسه فـوقها، ذلك أنها قائمة في وضع جيد ومـرتفع، لأنه من موضع أكرا، وطوال الطريق حتى بيت الرجل الغني، هو طـريق نازل من الرابيـة، ومن المكان الذي أرغم فيه سمعـان على حمل الصليب خلف يسوع، ترتفع الأرض طوال الطريق حتى هـذه البقعـة، حيث تقف جـدران الكنيســة من دون بيت

قائم فوقهم.

وهناك القصة الغريبة التالية قد حكيت حول هذا المكان، وفيها أن عدداً كبيراً من المسلمين قد حاولوا أن يبنوا لأنفسهم بيوتاً فوق هذه الجدران القديمة، لكن مامن واحد منهم قد تمكن قط من إكمال عمارته، إنما بعد تعبه كله، وبعد الذي أنفقه، كان يسقط كل ما أقامه بشكل مفاجيء، وقد حدث هذا مراراً، إلى حد أن مامن أحد يحاول الآن بناء أي شيء فوق هذه البقعة، بل تركوا خرائب الجدران قائمة من دون استخدام، وفي هذا دليل على قداسة هذا المكان، وأن كنيسة سوف تبنى هناك، ولقد قيل بأنه حتى الحجارة لايمكن أخذها ونقلها من هناك.

المكان الذي حكم فيه على ربنا بالموت، والذي اسمه جباثا أو البلاط

وتابعنا السير من هناك قدماً، على طول الطريق، حتى وصلنا إلى المكان الذي كان في أيام آلام بالمسيح، مقعد القضاء، وكان اسم هذا المكان في العبرية جباثا، وفي الاغريقية **Lychostratus**، وفي اللاتينية «تلة الأحزان»، لأنها كانت تلة أحزان عظيمة على من صدر عليهم الحكم، وقد ورد ذكر هذا المكان في الاصحاح التاسع عشر من انجيل القديس يوحنا، ويقوم في هذا المكان قوس مرتفع، بني من حجارة مربعة، ويمتد من الطرف الأول للطريق إلى الطرف الآخر، وبذلك يغطي الطريق كله وكأنه قوس باب، وقد بني فوق القوس جدار بارتفاع جسم الانسان، وبني في هذا الجدار حجرتان بيضاويتان مربعتان، وهن من الرخام المصقول، مفصولتان احداهن عن الأخرى، تريان من خلال التطلع في الطريق وكأنهن وضعتا في الجدار من أجل التزيين، فقد كان مكان الـ **Lychostratus**، هذا في أيام آلام المسيح، مبلطاً بألواح من الرخام، وفي ذلك البلاط حجرتان بيضاوتان مربعتان

مصقولتان، مرتفعتان عن البقية، كانت أولاهن تحت مقعد القضاء، ولذلك عندما كان القاضي يجلس على ذلك المقعد كان يريح قدميه على الحجرة، في حين كانت الأخرى في وسط البلاط، وعليها كان يوضع الرجل الذي سوف يحاكم، ومن حول هاتين الحجرتين كانت هناك مقاعد للقناصل والقضاة.

وعلى هذا قدم بيلايطس إلى هذا المكان، مكان جباثا، ليصدر الحكم بالموت على يسوع، حيث جلس على كرسي الحكم، وأراح قدميه على الحجر، ووقف الرب يسوع الذي سوف يعدم فوراً، وقف فوق حجرة الاتهام والمتهمين، وأخذ المؤمنون هاتين الحجرتين، وبنوهن في الجدار، فوق هذا القوس، لتكونا ذكرى دائمة لهذه الأعمال، وبناء عليه جثونا في هذا المكان فوق ركبنا، وبعدما عبدنا الرب، تلقينا غفرانات، وأعدنا هنا إلى ذاكرتنا التهم الظالمة التي قدمت ضد المسيح من قبل اليهود، والحكم المعلن غير العادل، ورعب وظلم القاضي، وصمت المسيح، وأشياء أخرى كثيرة كانت قد حدثت في هذا المكان.

قاعة المحاكمة، وبيت بيلايطس حيث جرى جلد الرب، وتتويجه واهانته بطرق مختلفة

وعندما أنهينا صلواتنا في المكان المتقدم ذكره، نهضنا، وعبرنا من خلال القوس المتقدم الذكر، ووصلنا إلى بيت بيلايطس، الذي فيه، يعرف كل مسيحي، أي عذاب تحمله الرب، وفي هذا البيت كانت هناك قاعة القضاء، التي إليها اقتيد الرب يسوع، وهو مربوط بأغلال قوية، مع وجود سلسلة حديدية حول رقبته، وتواجه مع قاضيه، وسمع التهمة، وفحص، وبعث إلى هيرود، وأعيد ثانية إلى هذا البيت، فاستجوب، وجلد، وتوج بالشوك، وسخر منه بطرق مختلفة، وعندما غطي بالاهانات، عرض على الناس حيث شاهدوه.

ولهذا انحنينا بأنفسنا نحـو الأرض أمام مـدخل هذا البـاب، مع كثير من النحيب، وتلونا الصلوات المحددة في كتب المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقـة(++)، وعندمـا نهضنا قبلنا حجـارة الجدران، وكنا راغبين في الدخول إلى البيت، لكن الساكنين فيه لم يفتحوه لنا، وبناء عليه وقفنا في الخارج، مثلما وقف اليهـود عندمـا سلموا المسيح إلى القـاضي، فهم قـد فعلوا ذلك، لأنهم لم يرغبوا في الـدخول، خشية منعهم أن يتـدنسوا وأن يكونوا غير قادرين على أكل طعـام الفصح، بينما تشوقنا نحن بقلوبنا إلى الدخول، حتى يمكن أن نتطهر مـن دنسنا، وقذاراتنا، ونصبح مقدسين، وعلى كل حال لم يسمح لنا في هذه المرة بالدخول، وبعدمـا غادر الفرسان القدس، تدبرت أمـر دخولي إليـه ببراعة، حسبما سأتحدث عن ذلك فيما بعـد في ص ٢٣١ظ، مع أن هذا البيت، مع البيـوت الأخـرى، تعـرض للهـدم من قبل تيتـوس، لكن مع ذلك بقيت بعض الجدران، وعلى هذه الجدران، أعيـد بناء بيـت جـديد، وبذلك ذهـب مظهــر البيت الأصيل وزال من الوجود.

وعلى كل حال، الباب المقنطر، الذي دخـل منه الرب وخرج، مايزال قـائماً، مع أن المدخل إلى البيت الآن ليس تحت ذلك القـوس، لكن في مكان آخر، والباب القـديم مع أنه مايزال قائماً، لكنه مغلق عمارة، وعلى تيجـان الأعمـدة والقـوس الحجـري للبــاب القـديم، محفـور دواليب، ومـربعات، ومثلثـات، وكأن ذلك عـلامـات فلكية، والذي أعتقـده أن القدماء حفـروا هذه العلامات لأسباب خـرافية واهمة، وكان هذا البيت في أيام آلام المسيح واسعـاً، واحتوى على عدد كبير من الغـرف، غير أنه صغير من الداخل بما فيه الكفاية، علماً أن مكان الجلد مغطى بقبو، وأنه دائماً كان كذلك.

وفي هذه الأيام، رمى سكـان البيت بجميع الفضـلات والأوســاخ، وبقـايـا البيت في هذا المكان المقـدس، ووقـف في هذا البيت فيما مضى،

الأعمدة السبعة المتعرقة، التي تقدم ذكرها على ص ٤٧٩، وجرت العادة بالدخول إليه بالصعود على ثمان وعشرين درجة رخامية، وعندما كان الرب مسحوباً مجروراً وألقي به هناك سجينا بغضب وعنف، سقط على الدرجة الحادية عشرة على وجهه المقدس، وجاء سقوطه شديداً إلى حد أن الدم تدفق من أنفه ووجهه، وجرى على الدرج، وتبعاً للآثار الإخبارية جرى نقل هذه الدرجات من القدس إلى روما، ووضعت في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران، وصار هذا الدرج يقود إلى قدس الأقداس، وكل من صعد على درجاته، سوف يتلقى غفرانات مطلقة.

وقدمنا أعظم احترام يمكن إظهاره إلى هذه الدرجات، مع أنه ليس سليما للحجاج السير عليهن إلاّ على ركبهم العارية، وعندما وصلوا إلى الدرجة الحادية عشرة، تمددوا هناك على الأرض بأنفسهم، وصلوا هناك لوقت طويل، حيث علامات الدماء المسفوحة كانت مشاهدة، ومكانها محمي بحواجز حديدية، وليس فقط الناس غير المتعلمين والبسطاء الذين يفعلون هذا، لابل كرادله عظام، وأناس متعلمون يتسلقون على هذه الدرجات، بالطريقة المتقدمة الوصف ليحصلوا على الغفران، وليقولوا بأنهم وقفوا مرة في بيت بيلايطس.

بيت الملك هيرود حيث فيه جرت السخرية من المسيح واهانته

وغادرنا البيت المتقدم الذكر، وتابعنا سيرنا على طول الطريق، فوصلنا إلى طريق يذهب منه صعوداً، وهنا تركنا الطريق الذي قدمنا عليه لدى نزولنا من جبل أكرا، وصعدنا على هذا الطريق، فوصلنا إلى بيت كبير، هو الذي كان بيت الملك هيرود، الذي إليه جلب الرب يسوع من بيت بيلايطس، وذلك عبر هذا المرتقى، فهنا جرى الاستهزاء منه بوساطة جيش هيرود، وسخر منه بوساطة ثوب أبيض، وتعرض لمختلف أنواع العذاب، وذلك حسبما أخبرنا من قبل الانجيليين، ويقال بأن الثوب الأبيض للمسيح، الذي سخر به منه في بيت هيرود كان على

شكل الثـــوب الفضفـــاض الـذي يرتديـه الرهبـــان الـدومينيكان والكارثوسيان Carthusians.

وانحنينا بأنفسنا نحــو الأرض، وصلينا أمـام هذا البيت، وبعـدمـا تلقينا غفــرانات(+) نهضنا، وفي أثنـاء حجي الأول، لم أكن قــادراً على الحصـول على إذن بالدخـول إلى هذا البيت، لوجـود مدرسـة لأطفـال المسلمين فيه، فيهـا كان الأولاد يتعلمون، وفي حجي الثـاني أبعدنا فجأة عن البيت، لأن حـاكم القـدس حفظ محظيـاته فيـه، ولهذا السبب، فإنه حتى بعد مغادرة الحجاج، لم نستطع الحصول على إذن بالدخول إليه.

بيت سمعان الفريسي الذي فيه تابت المرأة المذنبة

ومسرعين تركنا بيت هيرود، حتى لانغضب الحاكم، ونزلنا ثانيـة إلى طريقنا السـالف، حيث فيـه توقفنـا أمـام باب بيت، ويقـال بأنه في هذا البيت عاش الفـريسي الذي رغب في أن يأكل يسوع معه، وعندمـا كان هناك، قـدمت امرأة من المدينة كـانت مذنبـة، وقدمت له خـدمة رائعـة صـدوراً عن توبة وعن خشـوع، وذلك حسبما قـرأنا في انجيل لوقـا — الاصحـاح السـابع، وهكذا فإن دمـوع تلك المرأة المذنبـة —كما قـال غريغـوري — كانت ستلين حتى القلب الحجري، نحو التـوبة، فهي قد جعلت من جمالها كله كثيراً من الأضـاحي، وحـولت ذنوبها الكثيرة إلى كثير من الفضـائل، حتى إذا كـان أي جـزء منهـا قـد أغضب الرب في ذنب، فإن طاقاتها كلها توجهت نحـو استغفار للرب، وتمددنا بأجسادنا أمام باب هذا البيت، وتلقينا غفرانات(+).

ويبـدو أن هناك تعـارض بين الانجيليين بشـأن هذا البيت، فلوقـا في روايتـه، كما يبـدو، قـال بأن ذلك قـد وقع في القـدس، ولكن مـرقص —الاصحـاح١٤، ويوحنا— الاصحــاح١٢، ومتى— الاصحـاح٢٦، قالوا بـأن ذلك قد حدث في بيـت عنيا، في بيت سمعان المجـذوم، ومن

هذا المنطلق فإن بعض العلماء اللاهوتيين، من ذلك مثــلاً جيروم (الفصل٤٦ من Contra Jovinianum) قد قال بأن لوقا الانجيلي قد تحدث عن امرأة أخرى، وليس عن مريم المجدلية، التي ورد ذكرها عند الثلاثة الآخرين، والتي قدمت خدماتها في بيت عنيا، في حين كانت امرأة أخرى هي التي قدمت خدماتها في هذا البيت، والمكانين اللذين شوهدا كمكانين مقدسين، يتوافقان مع هذا، بسبب أننا رأينا هنا بيت سمعان الفريسي، ورأينا في بيت عنيا بيت سمعان المجذوم، مالم —وأنا شخصياً أميل إلى الاعتقاد بأنه الصحيح — يفضل الانسان أن يقول، بأن مريم المجدلية قد جاءت إلى هذا البيت عند مستهل تحولها، وغسلت قدمي الرب بدموعها، ثم كان فيها بعد، عند اقتراب موعد آلامه، صبت العطور على رأسه، وهو جالس إلى الطعام، وأن الذي فعل ذلك جميعاً كان امرأة واحدة، هي المرأة نفسها.

مدرسة العذراء المباركة حيث تعلمت الكتابة، مع مناقشة لمسألة هل تعلمت الكتابة أم ما

ونهضنا من صلاتنا في البيت المتقدم الذكر، وبادرنا مسرعين بالتقدم على طريقنا، ووصلنا إلى بيت آخر واسع، قد بني من حجارة مربعة منحوتة، ومن حجارة منحنية، وهذا البيت ملاصق لساحة هيكل الرب، وقد قيل بأن هذا البيت قد كان بيت العذراء المباركة، حيث تعلمت الكتابة، عندما قدمت من قبل والديها للخدمة في الهيكل، حتى تكون موقوفة على خدمة الرب، ونظرنا إلى هذا البيت بإعجاب، وقام الشك في نفوسنا، حول هل تعلمت العذراء المباركة القراءة والكتابة من أي انسان، وأي يهودي كان استاذها، حيث أننا قرأنا في الاصحاح السابع من كتاب الحكمة:«الخالق للأشياء جميعاً قد علمني الحكمة»، وبما أن رب الأشياء كلها قد أحبها، لذلك كانت هي نفسها «معلم لطرقه» (الحكمة:٨).

ويبدو من هذا أنها لم تتعلم من انسان، فضلاً عن هذا أخبرنا دام Damm بأن العذراء المباركة كانت متفوقة في علمها على أي واحد عظيم في الكنيسة، وفي الحقيقة كان هناك بعض الناس المقدسين، الذين لم يتعلموا من قبل أي انسان، بل من خلال كشف يسوع المسيح، مثلما أخبرنا القديس بولص كيف أنه تعلم، كما ورد في الاصحاح الأول من الرسالة إلى الغلاطين، وتعلم سليمان أيضاً الحكمة مامن انسان، بل بوساطة وحي رباني، وجميع الرسل الآخرين صاروا معلمين للعالم من خلال الالهام الرباني، زد على هذا قال توماس الاكويني بأنه تعلم بالصلاة أكثر مما تعلمه بالقراءة، ومثل ذلك أيضاً تعلمت القديسة كاترين السيناوية من قبل الرب يسوع، وصار بقدرتها قراءة أسفار الكتابات المقدسة، مع أنها لم تعرف اسم أو قدرة أي واحد من الأحرف، ولا كان يمكنها أن تميز «أ» عن «ب» أو «ب» عن «ت» مما يبرهن على أن تعلمها قد جاء بشكل إعجازي، ومثل هذا تعلمت مريم المصرية الكتابات المقدسة، عندما كانت في الصحراء، بوساطة وحي رباني، «ولهذا، وعليه أيها الأخ المحبوب المتساءل، هلا أريتني المدرسة التي تقول حضرتك تعلمت فيها مريم العذراء المباركة القراءة والكتابة؟ فلطالما أنها كانت متفوقة في العلم على أعظم اللاهوتيين، كيف أمكن تعلميها من قبل أي انسان، وأما وقد رأينا آخرين قد نالوا معرفة الكتابات المقدسة بالالهام، فما الذي يمكن ليهودي أن يعلمها إياه، وهي قد امتلكت منذ بداياتها حكمة خالدة»؟ «توقف أخي المحبوب، ولاتحاول بأية طريقة من الطرق أن تستخف بهذا البيت، بل آمن أنه كان مدرسة العذراء المباركة، مع أنها كانت جديرة في أن تكون معلمة للرجال، ومع ذلك، تفضلت، في سبيل التواضع أن تكون تلميذة، وذلك مثلما تعرضت للتطهير وفقاً للشريعة، على أن ذلك لم يكن ضروريا، بل فعلته صدوراً عن التواضع، ومثل هذا، نجد الرب يسوع مع حكمته الأبدية، قد جلس مع اللاهوتيين يستمع إليهم، ويسألهم

أسئلة، هذا ومعلوم أنه لا بالإصغاء إليهم، ولابتوجيه الأسئلة إليهم، كان من الممكن أن يضيف شيئاً إلى معلوماته»، ولذلك صعدنا نحو جدار ذلك البيت، وقبلناه، وتلقينا غفرانات(+)، وتلونا الصلوات المحددة.

هيكل الرب الذي اسمه هيكل سليمان

وانطلقنا متقدمين من هناك، فوصلنا إلى مكان، يوجد فيه على الجهة اليمنى ممر مقنطر، وكان هذا الممر مطليا باللون الأبيض، ومعلق فيه مصابيح مضاءة، ووقفنا خارج هذا الممر، ونظرنا من خلاله نحو ساحة الهيكل، ورأينا الهيكل نفسه أيضاً، الذي اسمه هيكل سليمان، وهكذا جثونا على أقدامنا، وتعبدنا الرب الحقيقي لذلك الهيكل، وتلقينا هناك غفرانات مطلقة(++).

ومع أن الهيكل يستخدم في هذه الأيام مسجداً، ويعبد فيه (إله)(١) محمد (صلى الله عليه وسلم)، كان فيما مضى كنيسة مقدسة جداً، وذلك حسبما ستكون كذلك مرة ثانية في يوم من الأيام، ولسوف تتقدس بكثير من المعجزات سيعملها هناك مخلصنا، ولذلك السبب حصلنا على الغفرانات على الرغم من محمد (صلى الله عليه وسلم)، لأن الكنيسة قائمة فوق موضع مقدس جداً، وقد بنيت وكرست للمسيح منذ زمن طويل مضى، وبشأن هذا الهيكل، ووصفه، ومن الذي بناه، وطرازه، سوف أخبركم به في ص ٢٥٧و، وفي الصفحات التالية، أما بالنسبة لجامع المسلمين، الذي يسميه رجال الدين «المسجد» انظر الكتاب الرابع والعشرين من «Speculun Historiale »، الفصل ١٣٢، وأيضاً الصفحة ١٠٤ من الجزء الثاني من هذا المصنف.

١— استخدم المؤلف عبارة نابية جداً، أبدلتها هكذا كي يستقيم المعنى، علما أن الأبحاث الأثرية لم تكشف وجود هيكل في القدس لا أول ولا ثاني ولا ثالث، ولاغير ذلك، ذلك أن حكاية الهياكل ومملكة الملك سليمان هي مجرد حكاية اسطورية منحت غلافاً دينياً

موضع ولادة مريم العذراء المباركة فوق بركة الضأن

ومـالبث أن أبعـدنا عن متـابعـة مشـاهدة الهيكل، لأن المسلمين لايمكنهم أن يتحملوا بصبر أن نقوم بالنظر إلى هذا الهيكل، أو حتى أن نقترب منه تحت أي حجـة من الحجج، ولذلك ابتعـدنا عنه، وسرنا على طول الطريق، فدخلنا شـارعاً آخر على اليسـار، حيث وصلنا إلى كنيسة كبيرة ملتصق بها دير جيـد، مع جميع مكـاتب الموظفين، التي هي أيضـاً مـرتبطة ضمن مكان مغلق، وقد عـاش هنا فيما مضى راهبات تابعـات لطائفـة القـديس بندكـت، وقـد كـن ثريات وتقيـات، وإلى جـانب هذه الكنيسـة هناك موضع ولادة مـريم العذراء المبـاركة، لأن هناك قـام قبر واكيم وحنه، وحـوّل المسلمـون هذه الكنيسـة إلى مسجـد، ولذلك لم يسمحـوا لنـا بالدخـول إليــه، ولهذا وقفنا أمـام باب الكنيسـة، وتلونا الصلوات المعينة، وتلقينا غفرانـات مطلقة(++)، وعلى كل حال، بعـدما عاد الحجاج إلى الوطن، تمكنا نحن الـذين بقينا في القدس، من الدخول إلى تلك الكنيسـة، ولكن بشكل سري، ومع صعـوبة كبيرة، كما سيكون ذلك موصوفاً في ص ٢٣٠ظ، حيث هناك وصف للمكان وللدير.

وينبغي أن نلاحظ أن المسلمين بـذلوا جهـوداً خـاصـة، لإزالة هذه الكنيسة حتى مـن ذاكرة المسيحيين لأن في ذلك برهان على عـدم صحة القـرآن، لأن القرآن قـد قال بأن العـذراء مـريم كانت ابنة مـريم أخت هرون وموسى، وهذا تصور خاطىء تماماً، وهذا مايمكن رؤيته في نص القـرآن،الكتـاب الأول —الفصل الأول، والكتـاب الثـالث — الفصل ١٧ (كذا).

بركة ضأن بيت صيدا حيث شفي الرجل المقعد

وجرى اقتيادنا على طول زقاق ضيق، قريب إلى جانب الكنيسة تلك، وقـرعنا على باب بيت كـان يسكـن فيـه بعض المسلمين الفقـراء، الذين

فتحوا الباب، لكن ماكانوا ليسمحون لنا بالدخول مالم ندفع بعض الفلوس، وبعدما فعلنا ذلك، ودخلنا، صعدنا فوق بعض الدرجات الحجرية إلى داخل ساحة صغيرة، أو صحن مكشوف،كان فيها مضى مغلقاً بجدران، ومازال بعضه كذلك، ومن حول الصحن هناك أبواب مقنطرة فقط،وكان في هذه البقعة، في أيام المسيح بركة الضأن، التي اسمها بالعبرية بيت صيدا، حيث شفي الرب يسوع الرجل المريض، الذي كان مقعداً، حسبما ورد الخبر عند يوحنا:٥، وكانت هذه البركة تحتوي المياه، التي كانت تجري في أيام الأمطار من أسقف الهيكل، وفيها كانت تتم أعمال غسل الأغنام والحيوانات الأخرى، التي كانت تقدم أثناء التضحية في الهيكل، علاوة على ذلك تسبب سليمان في اغراق جذع شجرة في أعماق هذه البركة، وهي الشجرة التي تنبأت له العرافة وأرته أن المسيح سوف يتألم عليها، وقد بقيت ممددة، مخبأة هناك حتى أيام آلام المسيح، فوقتها انبعثت إلى وجه الماء، فأخذت من هناك واستخدمت في صنع صليب المسيح.

ويفترض أنه بسبب الاحترام الذي تستحقه هذه الشجرة، والجديرة به، أن ملاكاً نزل من السماء وحرك الماء، وبعد هياج الماء شفي الرجل الأول الذي دخل إلى البركة، وشفى الرب واحداً، كان قد انتظر تحرك الماء لمدة ثمان وثلاثين سنة، وذلك حسبما جاء الخبر في يوحنا:٥.

ولاتحتوي هذه البركة في هذه الأيام ماء، بل الموجود في وسطها هو نوع من أنواع الخزانات، صنع لحفظ مياه المطر، وبناء عليه تلونا هنا صلواتنا، حسبما هو محدد في كتب المسيرة، وتلقينا غفرانات(+)، وقبلنا الأرض،وصعدنا السلالم ثانية، وعدنا من جديد إلى طريقنا المتقدم، ودخلنا طريقاً آخر، في الجهةالمقابلة له، فوصلنا إلى بركة كبيرة مليئة بالماء، قد كانت موجودة في الأيام الخالية، وكان اسمها في الكتابات المقدسة «البركة الداخلية»، وقد عملت من قبل حزقيا، ملك يهوذا،

وكان قد جلب إليها الماء من المجرى الأعلى لجيحون، وذلك بالاضافة إلى مياه الأمطار، حيث حفر قناة بالحديد خلال الصخر، وذلك حسبما قرأنا في الالهيات: ٤٨/ ١٧، وفي الملوك الثاني: ٢٠/ ٢٠ (أخبار الأيام الثاني: ٣٢/ ٣٠).

وفي الحقيقة عملت البرك منذ قديم الزمان في القدس حتى هذه الأيام، بعناية كبيرة، لحفظ المياه التي تجري إليها من الأسقف في الشتاء وفي أيام سقوط الأمطار، وذلك بهدف سقاية المدينة في أيام الصيف، لأن المدينة المقدسة لاتمتلك مياها خاصة بها، وتشرب فقط من مياه الأمطار، أو من مياه جلبت من بعيد، وأتصور أنه في هذه الأيام، تبذل الجهود أكثر من ذي قبل بشكل مطلق، من أجل تزويد المدينة المقدسة بالماء، لأن المسلمين معتادين على الاغتسال اليومي، وعلى تبليل أنفسهم بالماء، أكثر مما اعتاده اليهود، ولهذا لديهم كثيراً من أماكن الاغتسال، وهم يجلبون الماء إلى القدس ببراعة مدهشة، وهذا ما سأوضحه في الصفحة ٢٤٩و.

فيما يلي:
الحج في وادي شعفاط

وبعـدما رأينا تلك البركـة، تابعنا السير على طريقنا، ووصلنا إلى نهاية المدينة على الجهة الشماليـة، عند الباب الذي كـان يدعى فيما مضى باسم باب افرايم، لأن الطريق إلى جبل إفـرايم يمضي من خلاله، لكنه يعرف الآن باسم باب اسطفـان، لأنه اقتيـد من خلالـه إلى خارجـه، ورجم في الوادي عبره، ومن خـلال هذا البـاب يمـر طريق شكيم، والسـامـرة، ومنطقـة الجليـل، ولذلك خـرجنـا من هذا البـاب ومـا أن أصبحنا في الخارج حتى تركنا الطـريق الشمالي، الذي يتطلع البـاب عبره، وانعطفنا جانباً باتجاه الشرق، نحو جبل الزيتـون، حيث كانت المدينة المقدسة على يميننا ونحن نسير، وعندما وصلنا إلى زاوية السـور، حيث اتصل السور الشمالي بالسور الشرقي، صرفنا وجـوهنا عن الشرق، وتطلعنا على طول السـور بـاتجاه الجنوب، حيث رأينا بابا كبيرا آخـر للمـدنيـة في الجهـة الشرقية، وحيث كان هناك برج مرتفع قد أنزل أرضاً وهدم، واسم هذا الباب هو البـاب الذهبي، ومن خلاله دخل الـرب يسوع المدينة في يوم أحد السعف، وهو على ظهر أتان، وتحتـه التقى واكيم وحنه معا، إطاعة لأمـر متقـدم، لأنهما كـانا قـد أخبرا بهاتف رباني، أنه منهما سـوف تلد العذراء مريم.

عـلاوة على ذلك، هنا وقعت المعجزات الرائعـة التـالية: بعـدما قهـر الامبراطور هرقـل أعـداءه، واسترد الصليب الـذي كـان الفـرس قـد استولـوا عليه، أراد أن يركب على ظهـر الحصان، ويمر من خـلال هذا البـاب في الوضع الامبراطوري، وحـدث أنه مـا أن وصل إلى البـاب، حتى جمعت الأحجـار أنفسهـا مع بعضهـا، وغـدت جـداراً قـوياً، فلم

يستطع الدخول حتى وضع جانبا جميع الأبهة الدنيوية، وعندما صار أخيراً، حافيا متواضعا، متذللاً سمح له بالدخول مع جيشه كله، حاملاً صليب الرب.

ومن هذا الباب اقتيد الرب في موكب نصر، وكان ذلك من جبل (الزيتون) حتى الهيكل، مع سعف النخيل والأغصان الخضراء، وقرأنا كذلك في الاصحاح الثالث عشر، من سفر المكابيين الأول بأن سمعان قد دخل من خلال هذا الباب، وفي السفر الثاني والاصحاح العاشر، قرأنا عن أغصان خضراء وعن سعف، ولم يسمح لنا المسلمون بالاقتراب من ذلك الباب، ولم نتمكن بأية طريقة من الحصول على إذن بالذهاب إليه، لأن في خارجه مقبرة المسلمين، التي لايسمحون لمسيحي بالسير فوقها.

وعلى كل حال جثونا على ركبنا، ونحن نتطلع نحوه عن بعد، وبعدما عبدنا الرب، تلقينا غفرانات مطلقة(+)، وتمنح هذه الغفرانات إلى كل واحد يقف في مواجه هذا الباب عن بعد، ويتعبده، بقدر مايمكنه من مرات، ومن المعتقد بأن تلك الأسوار المهدمة، القائمة هناك، هي في الحقيقة خرائب الباب الذهبي الحقيقي، الذي من خلاله دخل الرب، وهو جالس على ظهر أتان، لأن تيتوس عندما هدم القدس، ترك بعض الأبراج قائمة للدفاع مع أبراج للمراقبة، وكان من بينها برج الباب الذهبي، وقد ترك قائماً مع أعماله الخشبية، وهذه الأعمال الخشبية مغطاه في هذه الأيام بألواح من النحاس المذهبة، ويقطع المسلمون قطعاً وشظايا من هذه الألواح وكذلك بعض المسامير، ويبيعون ذلك إلى المسيحيين، لأن عدداً كبيراً من المسيحيين يبذلون جهوداً عظيمة للحصول على قطع من الباب، وغالباً مايغامرون بحياتهم بالذهاب إلى هناك في الليل وانتزاع قطعة صغيرة منه، ويبذل بعضهم المال عوضاً عن ذلك، ويرشون بعض المسلمين لاجتثاث قطعة صغيرة من الباب،

ويعطونهم نحاساً أو خشباً في مقابل ذهب أوفضة، والسبب في أن الآثار المقدسة من هذا الباب غالية جداً هو أنهم قالوا (لا أدري إن كان ذلك وهماً عابثة أم لا) بأن كل من يحمل قطعة صغيرة من ذلك الباب معه، سيكون في ذلك حماية له من السكتة الدماغية، أو الوقوع في المرض والوباء، وفي الأيام الخالية عندما كان المسيحيون يمتلكون القدس، كان يحتفل عند هذا الباب بعيد عظيم في يوم أحد السعف، وفي السبت المتقدم، أو ليلة إحياء أحد السعف، كان جميع رجال الدين يذهبون إلى بيت عنيا، ويبقون مستيقظين طوال الليل في كنيسة القديس لعازر، ويذهبون في الفجر المبكر في مسيرة من بيت عنيا إلى بيت فاجي، حيث يضعون واحداً من الأساقفة الكبار، وهو يرتدي الألبسة الكهنوتية، على ظهر أتان، ويذهبون في مسيرة إلى المدينة المقدسة.

ولدى نزولهم من جبل الزيتون، يخرج المتبقي من رجال الدين وأعضاء الطوائف الدينية، مع جميع سكان المدينة، يخرجون في مسيرة لمقابلتهم، وهم يحملون سعف النخيل، ووفق الطراز الذي جرى الحديث عنه في الانجيل، وكانوا يقطعون أغصاناً من أشجار الزيتون، ويوزعونهم في الطرقات، وينشرون ملابسهم الكهنوتية في الطريق وهم يصرخون «المجد» الخ، وعندما كانوا يصلون من الوادي نحو الباب، يكون الباب في العادة مغلقاً، وهناك شباب قد وقفوا على البرج وهم يغنون «المجد» الخ، وبعدما يكملون غناء هذه الترنيمة، كانوا يجلبون الأسقف إلى داخل الهيكل وسط سرور عظيم.

وبعد فقدان المدينة المقدسة، وطرد اللاتين منها، تابع الأرمن الاحتفال بهذا العيد مع أسقفهم لسنوات طوال، وذلك حتى أثار الشيطان (المسلمين) للشروع بدفن موتاهم هنا، حيث أغلقوا الباب بعد ذلك، ولهذا يسرعون في هذه الأيام خلال أحد السعف وفق الطريقة التالية: ففي اليوم نفسه، وبعد القداسات الربانية، وبعد تناول

الطعام، يذهب رهبان جبل صهيون إلى بيت عنيا، ويسيرون من هناك وهم يغنون إلى بيت فاجي، حيث يضعون واحداً من الرهبان، وهو في ملابسه الكهنوتية فوق ظهر أتان، ويرافقونه نحو المدينة، وهم يغنون أغاني المديح، وعندما ينزلون من جبل الزيتون، يسعى المسيحيون الشرقيون إلى مقابلتهم مع سعف النخيل، ومع نشر للملابس في الطريق، ويقودونه حتى بركة قدرون، حيث منتهى المسيرة، فهم لايتجرأون على الصعود نحو المدينة وهم يغنون أناشيد المديح وفق هذه الطريقة، خشية من أن يقوم المسلمون بتفريق مسيرتهم برميهم بالحجارة، ومن العجيب أنهم يسمحون لهم بهذا القدر، لأنه قبل مضي مائة أو خمسين سنة، لم يكونوا يسمحون بهذه المسيرة، وقبل عشرين سنة لم يكن المسيحيون يمتلكون من الحرية كما يمتلكون الآن، جعلها الرب أعظم، في سبيل مدحه، كي لاتغلق هذه الأفواه التي تغنى حوله في هذه الأماكن العالية القداسة.

المكان الذي حفظ فيه شاؤول ملابس الذين رجموا القديس اسطفان

ومررنا مسرعين بالقرب من الباب الذهبي، ووصلنا نازلين عبر طريق وعر وحجري إلى مكان تقوم فيه حجرة، رأسها مسطح، وعلى هذه الحجرة وضع السفاحون ثيابهم، وهم الذين كانوا قد استعدوا لرجم الرائد الشهيد المقدس اسطفان، وبذلك عبروا عن استعدادهم لرمي الحجارة وقتل القديس برميات أشد، وكان شاؤول شاباً، وقد شهد هذه الواقعة، ولأنه كان ممتلئاً بالحماسة الشديدة لليهودية، وقف يحرس الملابس، من أجل أن يتمكنوا من رمي الحجارة بدون معيقات، وبذلك كان أكثر فائدة لهم من أي انسان آخر، وعلى هذا جلس شاؤول فوق الملابس على هذه الحجرة، وهو يتحرق كراهية ضد اسطفان، وكان يجدف ضد المسيح، ولهذا قبلنا هذا المكان، وتلقينا

غفرانات(+).

المكان الذي رجم فيه القديس اسطفان

ونزلنا من هناك قليلاً، نحو بركة قدرون، ووصلنا إلى المكان الذي رجم فيه اسطفان، وهو المكان الذي صلى فيه، وهو راكع من أجل راجميه، وتلقى حجارتهم بسرور، ولهذا قالت الترنيمة عنه: Lapides torrentis illi dulces Fuerunt، وقد أخبرنا القديس أوغسطين كم كانت غالية صلاة القديس اسطفان، وقال:«لو أن اسطفان لم يقم بصلاته، لفقدت الكنيسة بولص»، ولهذا قبلنا في هذا المكان الحجارة نفسها، وتلقينا غفرانات(+)، وفي الحقيقة المكان مليء بكثير من الحصا النقي من البركة، وهنا قام فيما مضى كنيسة مبجلة، لايمكن تتبع آثارها في هذه الأيام إلاّ بصعوبة بالغة، مع أنه على جهة اليسار ماتزال بعض الجدران قائمة، وهذا المكان فائق القداسة، لأنه في هذا المكان كان اسطفان الشهيد الأول في التسديد لموت المخلص، وهو الموت الذي تفضل المخلص أن يعانيه في سبيل جميع الناس.

وادي شعفاط وجدول قدرون

وتابعنا سيرنا من هناك، فنزلنا إلى وادي شعفاط، وذلك حتى جدول قدرون، ولهذا الوادي اسم آخر هو Cela ، وذلك تبعاً لجيروم، وكان أيضاً اسم قدرون هو كريناروس Chrinarus ، وهو يعرف الآن باسم وادي شعفاط، لأن الملك شعفاط أمر بنحت ضريح ملوكي هناك لنفسه، أنا مقبل على وصفه في ص٦٤٠، ويعرف قعر هذا الوادي باسم جدول قدرون، وهو جدول يجف في فصل الصيف ويختفي، لكنه يسيل في الشتاء بالماء من الثلج الذائب، ويحكى أنه في الأيام الخالية زرعت أشجار الأرز Cedars على طول ضفتي هذا الجدول، وبسبب هذه الأشجار أطلق عليه اسم Cedron أو جدول الأرز،

ويأتي هذا الوادي وهذا الجدول من جهة الشمال، ويمتد سائراً نحو الجنوب، وهما يفصلان جبل المدينة، والهيكل وتلال صهيون، وجيحون، عن جبل الزيتون وجبل العدوان، وهما يستمران بوادي سلوان، ووادي حرمون، اللذان ينعطفان نحو الشرق، ويمتدان حتى سدوم، وبناء عليه كلما احتوى جدول قدرون أية مياه، يقوم بارسالها نزولاً إلى البحر الميت، بواسطة مجرى متعرج طويل، وذلك خلال واد وعر ومتشعب، وذكر بعضهم أن جدول قدرون كانت مياهه في الماضي تتدفق باستمرار، وأنه يمتلك في هذه الأيام قناة تحت الأرض، لأن بطن الوادي فيه صدوع وشقوق بسبب تهديم المدينة المقدسة مراراً، ويقولون إنه تحت هذه الخرائب يستمر الجدول بالجريان، ولا أعتقد أن هذا صحيحاً، لأنني سرت على طول هذا الوادي، كأن تقول نزولاً حتى سدوم، وذلك بعيداً عن القدس، من خلال قعر عميق جداً، وجرفي، حيث ليست هنالك خرائب مرمية مطلقاً، ومع ذلك لم أستطع رؤية نقطة ماء واحدة من ذلك الماء المتدفق بشكل مستمر، بل رأيت مجرد قعر جرفي جاف، تسيل فيه المياه بشكل متواصل في موسمها، ومامن أحد يمكنه أن يشك لو أن هذه القناة كانت فيها مياه جارية باستمرار، في العصور الخالية، من نبعها، لما سكتت الكتابات المقدسة حولها، ولو أنه كان هناك جريان دائم تحت الأرض، لقام أهالي القدس بطلب عون جميع المشارقة، ولحفروا عميقاً حتى ضفتيه، مقدرين كيف أن الماء ثمين جداً في القدس، والناس دوما في حاجة إليه، وفي الماضي البعيد كان لابد من اختراع أسلوب ما، بوساطته يمكن حمل هذه المياه مباشرة إلى المدينة، مثلما حدث بالنسبة لمياه سلوان، التي قال عنها نيقولادي ليرا بأنها تدفقت مرة في المدينة فوقهم، الأمر الذي بدا بالنسبة لي غريباً جداً، لأن ذلك النبع واقع عميقاً عند سفح جبل صهيون.

وهذه الوديان المتقدمة الذكر، وهذا المجرى الجرفي، وكذلك نبع

سلوان، والجبال الذين جرى الحديث قليلاً حولهم فيما مضى، سوف يأتي ذكرهم فيمايلي، ولقد رأيت من المناسب عمل هذه التوطئة المختصرة هنا، من أجل فهم أفضل لما سيأتي، والآن عندما وصلنا إلى قعر الوادي، عبرنا فوق الجدول بوساطة جسر حجري، قد بني فوق قناطر، ووصلنا إلى سفح جبل الزيتون، وعندما صعدنا عليه، وابتعدنا قليلاً عن الجدول، وصلنا إلى بئر التنين، الذي عنه نقرأ في الاصحاح الثاني من نحميا، وتحدثت في هذه المكان لموالي الفرسان حول غيرة نحميا وحماسه، وكيف جاء إلى القدس من بلاد بعيدة كان مأسوراً بها، وركب حول المدينة في الليل ليرى خرائبها، ووقف إلى جانب ذلك البئر،مقدراً كيف يمكنه إعادة بناء أسوار القدس بعد رحيل الملك ارتاكسرس، Artaxerxes ، أي الأسوار التي هدمت، وكذلك الأبراج، والأبواب التي سويت بالأرض، وأيضاً البيوت المشعثة، والهيكل المحروق.

وعمله هذا فيه ملامة لأمرائنا، الذين لايولون أمر استرداد المدينة المقدسة مايستحقه من اهتمام، وكأننا لسنا بحاجة إليها، وأنا لاأتذكر أنني قرأت في أي مكان، لماذا أطلق على هذا البئر اسم بئر التنين، وأفترض أن سبب ذلك بأنه كان فيه فيما مضى مياه جرت إليه من أحد الينابيع، وأن المياه قد جلبت إلى هذا الصهريج من خلال تنينات أو أنابيب ملتوية تشبه الثعبان، فمن مثل هذا منطقة التنينات (الطرخونية) قد نالت تسميتها، لأنه لم يكن فيها ماء، إلا ماجلب من خلال التنينات، أي من خلال الممرات الملتوية مثل الأفاعي، والموجودة تحت الأرض.

كنيسة مريم العذراء الأعظم قداسة في وادي شعفاط

ثم إننا تابعنا سيرنا من هناك، غير أننا استدرنا نازلين نحو جهة اليسار، إلى كنيسة العذراء الأعظم قداسة، التي هي منجورة من خلال صخور حجرية، وذلك عميقاً في بطن الأرض، ويقول بعضهم أنه

عندمـا شرع ببنائهـا، لم تكـن تحت الأرض، بل فـوقهـا، وأنها تغطت فيمابعد بالأتربة التي جلبتها مياه الأمطار من جبل الزيتون، وكذلك من امتـلاء الوادي، وفـوق المدخل هناك بناء عمل على شكل بيعـة، وأمـام الباب هناك ساحة مبلطة بألواح مربعة من الرخام.

ونزلنا إلى هذا الكهف، وبادرنا مسرعين نحو مدخل الكنيسة، ولكن عندما وصلنا إلى الكنيسـة وجدنا البـاب مغلقاً، وليس هناك من يحرس الكنيسة، وأخبرنا —على كل حال— أحـد المسلمين، وكان جالساً هناك عند الباب، بأن الحارس سـوف يحضر بالحال، وفي الحقيقة كـان حارس باب هذه الكنيسـة مسلماً، كان قـد ورث هذا العمل من أبيـه، الذي أنا ذاهب للحديث عنـه، فقد كان هذا المسلم، وأعني بـذلك والد حارس البـاب الآن، قـد تلقى من السلطان هديـة هذه الكنيسـة، وذلك مقـابل خـدمـة كان قـد عملهـا، وجـاءت هذه الهدية له، حتى يتمكن من جمع بعض المال من الحجـاج الذين يزورونها، وعلى هذاعندمـا صـار متملكاً للكنيســة، ورأى أن المسيحيين متحمسين بشكـل فـائق لـزيارتها، رفع مقدار المبلغ الذي اعتاد الداخلون إليهـا على دفعه، فجعله ليس أقل من ثلاث دوقيـات، ونتيجة لهذا العبء الثقيل تخلى الحجـاج عن زيارة هذه الكنيسة، ولم يعـد أحد يدخلها بعـد ذلك، وأصبح المكان تقريبـاً منسياً، لكن العذراء المبـاركة، ظهرت في المنام في احـدى الليالي إلى ذلك المسلم الجشع، ووجهت اللوم إليه بكل شدة قائلة:«يا عدو الرب، خسرت كل من العقل والجسـد، وخـرقت الشريعـة وعطلتهـا، بأن أزلت التشريف المستحق لي، كيف تجرأت أنـت وأقـدمت على اغـلاق أبوابي في وجـه عبيـدي الحجـاج؟ انهض على الفـور، وافتـح أبواب ضريحي إلى جميع الحجاج من دون مـال، ومن دون سعر، وإلا فإن جسـدك سوف يمتلىء تماماً بالحشرات، ولسـوف يصبح بيتك مشعثا مهجوراً»، ومـا أن فرغت من مقالتهـا هذه حتى اختفت، وقام المسلم، وهو مرعـوب تماماً، وأخبر

أسرته وهو يرتجف بكل ما سمعه من كلمات، وحرم عليهم منذ ذلك الحين منع أي مسيحي من الدخول إلى الكنيسة، وطلب منهم فتحها للجميع من دون أخذ أي رسم دخول، ورسم باستمرار ذلك بين ذريته من بعده، ولذلك مازال هذا معمولاً حتى هذه الأيام.

وفيما نحن وقوف أمام باب الكنيسة، قدم إلينا رجل مسلم، متقدم بالسن، وكان هو ابن الرجل المتقدم الذكر، الذي إليه ظهرت العذراء المباركة، وفتح لنا الباب، وسمح لنا بالدخول قائلاً بلغته لكل واحد «اذهب واعبد الرب، وامدح العذراء مريم»، وبعدما دخلنا من الباب، نزلنا على درج رخامي مؤلف من اثنتين وخمسين درجة، ووصلنا إلى كهف عميق، وعندما كنا نازلين شرع قائد الجوقة بصوت مرتفع يغني ترنيمة «O gloriosa domina» الخ.

وتبعناه ونحن نغني بسرور عظيم، ووصلنا إلى ضريح العذراء المباركة كثيراً في وسط الكنيسة ودخلنا إليه واحداً تلو الآخر، وقبلنا القبر المقدس بخشوع عظيم، ومع تقديم الشكر تلقينا غفرانات مطلقة(++).

وبعد ترنيمة «O gloriosa domina» الخ، غنينا «Salve regina» وترانيم أخرى، وكنا مسرورين جداً في هذا المكان المقدس، وغنينا بنشوة، وأنا لم أسمع قط غناء بمثل هذه العذوبة مع الموسيقي والصدى، وكذلك في كهف اكتشاف الصليب، الذي تقدم لي ذكره، ولقد حضرت مراراً إلى هذه الكنيسة وكنت فيها لوحدي لمدة ساعة أو ساعتين، حيث صليت وغنيت كما رغبت، ذلك أن صوت رجل واحد يغني هناك، لايمكن سماعه في الأعلى، ولقد لاحظت مراراً، والذي لاحظته حدث مراراً في تلك الكنيسة، أن الحجاج يكونون فيها أكثر نشوة وبهجة، منهم في الأماكن المقدسة الأخرى، وحقاً يفعلون ذلك، لأنه من هذا المكان صعدت العذراء المجيدة إلى السماء، حيث هي

ممجدة بلاحدود، وتحكم مع المسيح عالماً بدون نهاية، وعن هذه البقعة قال جيروم: «من على هذا المكان انتشلت ملكة العالم وأبعدت عن هذا العالم الشرير، ولذلك ابتهج، لأنك متأكد من مجدها الذي لايزول، ذلك أنها ذهبت من هنا إلى قصر الجنة، ونقلت مجدها من هذا العالم الحالي من أجل أن تتمكن باطمئنان من التوسط من أجل ذنوبنا، ومامن شك أنه في لحظة صعود العذراء المباركة جداً، ابتهجت القدس السماوية كلها وشعرت بسعادة لاحدود لها، وقدمت آيات الشكر وهي في غاية السرور، وأعتقد بأن المخلص نفسه قد جاء إلى هنا مسرعاً ومعه جميع جنود مملكة السماء، وأعادها إلى الحياة، بإعادة توحيد جسدها مع روحها، وبسرور أجلسها إلى جانبه على عرشه».

هذا وينبغي أن لانعتقد بأن مريم العذراء المباركة جداً قد اختارت بالصدفة موضع ضريحها في وادي شعفاط، بل عن قصد، حتى يتمكن المذنب الذي يخاف، من الوقوف في هذا الوادي في يوم الحساب المخيف، الذي سوف يأتي، فالآن يمكنه أن يتخذ سلفاً مكاناً في هذا الوادي، ويصلي إلى الأم، ويظهر طاعته لها، وبذلك يتوقف عن الخوف من استدعائه ثانية إلى هذا الوادي، مادام قد حصل على رضى أم الذي سيتولى الحساب، وخلفت العذراء المباركة من أجل مواساتنا منديلها وثوبها، اللذان جرى نقلهما إلى القسطنطينية بناء على أوامر من الامبراطورة هيلانة، والذي تولى عملية النقل هو جوفيناليس -Juven alis، بطريرك القسطنطينية.

وصف كنيسة العذراء المباركة وضريحها في وادي شعفاط

ويطلق على كنيسة العذراء المباركة في وادي شعفاط اسم كنيسة صعود مريم، وكان إلى جانبها فيما مضى دير للرهبان من طائفة القديس بنت، مع راعي دير متوج، وفي هذه الأيام من غير الممكن رؤية حتى خرائب هذا الدير، حيث هناك بساتين زيتون وأشجار تين حول

الكنيسـة، والكنيسة نفسهـا —كما قلت— موجـودة تحت الأرض الآن، مع أنها في الأيام الخاليـة لم تكن كـذلك، كما هو واضح عندمـا يلقي الانسـان نظرة على الجدران، حيث ماتزال النـوافذ باقيـة، لكن من دون ضـوء، لأن فيضـان ميـاه الأمطار الذي جلب التراب من الجبـال قـد غطاها، وهي لذلك لاتتلقى ضـوءاً إلاّ من الطرف الشرقي، حيث هناك فتحة معمولة نحو السماء، ومن خـلال هذه الفتحة يدخل الضوء إليها، ويضيء زاوية واحـدة من الكنيسـة، وهذه الفتحـة محاطة في قسمهـا العلوي بجدار مستدير، وكأنها بركة.

وبنيت هذه الكنيسة وفقـا لجيروم، في قداسـه حول صعـود العذراء، بشكل رائع، من ألواح الرخـام، لكـن من الجانب الواقع إلى الشمال من الضريح، هذا الجانب غير مغلف بالرخـام، بل من الممكن أن يرى هناك الصخر الأجرد الذي نجر الضريح منه، وهذه الكنيسة عالية، ومقنطرة، وتحتوي على كثير من المذابح، ويقف ضريح العـذراء في وسط الكنيسة، وهو غـرفـة صغيرة، مثل ضريح الـرب، مـزين بشكل فخـم، ومضـاء بمصابيح شـاعلة، عددها أكثر حتـى من مصابيح الرب نفسه، وللغـرفة مـدخلين، أولهما مفتوح من الغـرب مـواجـه للقبر المقدس، القـائم على الجانب الأيسر منه، ذلك أن الرأس متجه نحـو الجنوب، والقدمين نحو الشمال، وهناك باب آخـر على جهة الشمال،ويـدخل الانسان من خـلال البـاب الأول، ويخرج من خـلال البـاب الآخـر، وتتلى القـداسـات في الضريح نفسه، مثل تلاوتها في ضريح الرب، وعملت أنا شخصيـا عدداً كبيراً من القداسات هناك، ويمكن لجميع المسيحيين من أي الفرق كانوا أن يفعلوا ذلك، ذلك أنه مسموح لهم إقامة قداسات هناك، فهذا المكان ليس ملكاً لأيـة طائفـة، ذلك أن المذابح الأخـرى المنتشرة في أرجـاء الكنيسة هي ملك لمختلف الطوائـف، حيث أن المذبح الذي هو الأقرب إلى القبر هو ملك للأرمـن، والثـاني الموجـود تحت القـوس المظلم، هو

ملك للجورجيين، والثالث الذي هو تحت النافذة في النهاية الشرقية للسدة، هو ملك للاغريق، والرابع الموجود في الزاوية عند الجهة الشمالية هو ملك للاتين، والخامس الموجود قرب الدرجة الأولى من السلم هو ملك للهنود.

وهناك قبر باهظ التكاليف معمول من رخام أبيض مصقول، مدفون فيه الملكة المحترمة ميليساند، التي بنت هذه الكنيسة، ويوجد على كل جانب من جانبي السلم قبر مزين، ويقول بعضهم أنه مدفون في الأول حنه، أم العذراء المباركة، ومدفون في الآخر واكيم والدها، ويوجد في الكنيسة نفسها صهريج عميق يحتوي على ماء بارد نقي، والذين يقولون بأن جدول قدرون له مجري تحت الأرض، يقولون أيضاً بأن هذا الماء يأتي من هذا الجدول الموجود تحت الأرض، وعندما يكون الانسان وحيداً في تلك الكنيسة ويصغي بأذنه فوق فم ذلك الصهريج، يخيل إليه سماع صوت خرير ماء تحت الأرض، ويقول آخرون بأن هذا النبع يحتوي على ماء يجري من الجنة، تشريفاً للعذراء المباركة، ومن أجل راحتنا، وفي جميع الأحوال، من غير الممكن أن تكون المياه مياه أمطار، لأن الصهريج عميق جداً في باطن الأرض، ويكفي ماقيل هنا حول هذا الموضوع، وإذا مارغبت بالمزيد، انظر رواية أوفى حول هذه المسائل تحت عنوان يوم صعود العذراء.

المكان الذي تسلم فيه القديس توما الرسول زنار العذراء المباركة

وعندما فرغنا من تقديم صلاة شكرنا في تلك الكنيسة المقدسة، صعدنا فوق الدرجات ثانية، وأعطينا بمبادرة منا بعض الفلوس للمسلم المتولي حراسة باب الكنيسة لتشجيعه، حتى يترك الحجاج المسيحيين يدخلون إليها، وبعدما غادرنا ساحة الكنيسة، صرفنا وجوهنا

نحو جبل الزيتون، وصعدنا إلى جانبه، وبعدما صعدنا قليلاً، وصلنا إلى المكان الذي يقال وقف فيه القديس توما ساعة صعود العذراء المباركة فلدى سماعه لتراتيل الحشد السماوي، نظر نحو الأعلى، فشاهد أم الرب صاعدة نحو السماء، وكان ذلك بجسدها وروحها، وقد طوحت بزنارها له حتى تقوي إيمانه، وقد تلقاه ببهجة صامتة، وأراه لرفاقه الرسل، وبذلك أقنعهم بحقيقة صعودها في الجسد والروح أيضاً.

فهو بلمسه لجراح المسيح في المجد ثبت إيماننا بقيامته، وبعمله هذا أيضاً ثبت خشوعنا نحو صعود مريم، وبناء عليه قرأنا في هذا المكان الصلوات المعينة، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات(+).

مكان صلاة المسيح وتألمه على جبل الزيتون وكيف صلى الحجاج هناك

وتابعنا سيرنا من هناك قليلاً، بين جدران حجرية جافة عائدة للبساتين على جانب الجبل المقدس، ووصلنا إلى فم كهف في الصخور، ودخلنا إليه فوجدنا قبواً جميلاً وواسعاً، لم يصنع فنياً، أو نجر من الصخر بأيدي البشر، بل تشكل وأعدّ من قبل الخالق منذ البداية، لكي يكون مكاناً للاجتماع للصلاة، والتأمل، والتفكر، وموائماً لانسان واحد يرغب بالعزلة، وغالباً ماترك الرب يسوع المدينة في الليل ودخل إلى هذا الكهف حيث أمضى الليل في احياء مقدس مع الصلوات.

وإلى هذا الكهف قدم نيقوديموس في الليل لزيارة الرب يسوع، وعقد معه جولة حوار حول أعمق المسائل اللاهوتية، حفظها لنا يوحنا الانجيلي في الاصحاح الثالث من انجيله، وهذا المكان عرفه يهوذا، لأن الرب غالباً ما جاء إلى هنا مع حوارييه، وذلك حسبما جاء في الاصحاح الثامن عشرمن انجيل يوحنا، وهكذا جاء يسوع في الليلة التي تلت ليلة العشاء الأخير، من المدينة عبر جدول قدرون، حيث كانت هنالك

حديقة، وفيها كهف، إليه دخل، وجثا على ركبتيه، وانحنى نحو الأسفل وهو يصلي، وقد تمدد وسجد بنفسه، وأخذ يقول بصوت متهدج:«يا أبا الآب كل شيء مستطاع لك، فأجز عني هذه الكأس، ولكن ليكن لاما أريد أنا بل ما تريد أنت»، وبعدما قدم هذه الصلاة ثلاث مرات، وكان متألما، صلى بحرارة أعظم، وتعرق دماً من خلال حزنه، وأساه، ورعبه، وظهر له هناك ملاك من السماء وقواه.

سادتي وإخواني الحجاج، ماالذي سوف نفعله هنا؟ كيف سنري أنفسنا لمخلصنا في هذا المكان المقدس والمخيف؟ وبأية مبادرات، وبأية حركات، وبأية أوضاع سوف نصلي؟ مؤكد ليس بغير ما أظهره مقدس هذا المكان نحووالده السماوي، ومن الواضح لكل واحد يقرأ الأناجيل بعناية، أن المسيح اتخذ بصلواته الثلاث، ثلاثة أوضاع مختلفة: أولاً ارتمى على وجهه ومدد جسده كله، كما روى متى، وفي الثانية ارتمى على الأرض، واستند على مرفقيه، كما ذكر مرقص، وصلى في المرة الثالثة لمدة أطول، واعتمد على ركبتيه كما قال لوقا، وفي المرة الرابعة، نهض واقفاً على قدميه، وردد أجمل الصلوات، وعندما رفع عينيه نحو السماء قال:«أيها الأب قد أتت الساعة مجد ابنك» —يوحنا:١٧، هذا ويقول بعضهم بأنه فعل ذلك في الحديقة عند الانتهاء من صلواته بحضور جميع حوارييه.

وبناء عليه اتخذ الحجاج هذه الأوضاع، وصلوا لوهلة طويلة في هذا المكان الفائق القداسة، وبكوا بحرية أكثر مماكانت عادتهم، لأن هذا المكان موائم بشكل رائع لإثارة دموع الذين يصلون، لأنه بدا أن هناك هبوب روائح غريبة في حلاوتها، التي عندما تستنشق تلين كيان الانسان مهما كان، وتجعل قلبه لطيفاً، ولاحاجة للتعجب من هذا، لأننا نعرف يقينا أن هناك ذرفت أطيب العطور حلاوة من خلال عرق جسده الثمين جداً، الذي بوساطته ينبعث الأموات ويعودون إلى الحياة، ذلك

أن ألبيرتوس قد أخبرنا بأن الدم الذي سـال من خلال ثيابه، سقط على الأرض، من أجل أن يجري نحـو رمـاد الأمـوات ويلقي عليهم القـدرة على القيامة.

وبعدما قرأنا الصلوات المحـددة، وقبلنا المكان الذي جثا عليه يسوع، نظرنا باحترام إلى صخرة ناتئة في الكهف، من المعتقد أن الملاك قد وقف عليها، وهو الملاك الذي قوى الرب، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

وهذا الكهف شكله مستـدير في الداخل، وحجمه كبير، ويوجـد على جهتـه اليسرى كهـوف أخـرى عمقهـا لابأس به، فيهـا غـالبـاً مـانام الحواريون، أثناء قيام المسيح بالصلاة، لكن ليس في الليلة الأخيرة فقط، فقد كـانوا في الكهف معه، لكنه ابتعـد عنهم مسافة رميـة حجر تقـريباً، ويوجد عند رأس الكهف نتـوءات خارجة من الجدار من صخـر شديد القسـاوة، عليهـم وقف الملاك الذي ظهـر للمسيح، ويوجـد تحت هذه الصخرة مذبح، عليـه يقرأ القداس أحياناً، وكـانت جدران هذا الكهف في الأيام الخالية مطليـة، فهذا مايمكن اكتشافـه في هذه الأيام من خلال الفحص الـدقيق، وكـان فيما مضى من الممكـن هناك رؤية آثـار ركب الرب يســوع على الأرض، حيث أنها انطبعت بشكل اعجــازي على الصخــر الأصم، لكن هـذه الآثار لم تعـد الآن مـرئيـة بسبب أعمال التخـريـب التي تسبب بها الحجـاج، الذيـن كـانوا اقتطعـوا شظايا من الأمـاكن المقدسـة، ومندفع من الأرض صخـرة واقفة مسـاحتهـا قامـة ونصف القـامة، وهذا الكهـف مضاء بما فيـه الكفـاية من خلال البـاب الذي يدخل منه الانسان، ومن شق واسع مـوجود على الجانب الأيسر، وذلك في الصخرة التي تغطيه.

المكان الذي بدأ به الرب يصبح حزيناً ومهموماً، وقال:«نفسي حزينة جداً» وحيث وقع الحواريون الثلاثة نياماً

واقتيد الحجاج إلى مواضع آلام المسيح، وفق نظام يمكنهم فيه لقاء ربهم، والذهاب للقائه وهو قادم نحوهم، ولو أن الأدلاء اقتادونا على طول ممرات المسيح وفق النظام نفسه الذي اقتيد به الرب فوقهم، لكان من السهل وصفهم، وتقديم وصف مفيد لهذه الأماكن المقدسة، لكن المسيرة مشت باتجاه معاكس، من الصعب وصفه، ودعونا على هذا نسير نحو الأمام للقاء المخلص.

وخرجنا من الكهف المتقدم الذكر، وابتعدنا عنه حوالي رمية حجر، على طول طرف جبل الزيتون، لأن مقدار هذه المسافة ابتعد المسيح وانفصل عن تلاميذه، عندما ذهب إلى المكان المتقدم الذكر، حسبما ورد الخبر في انجيل لوقا:٢٢، ففي هذا المكان وقف الرب يسوع مع تلاميذه الثلاثة، وبدأ يصبح حزيناً، وخائفاً، ومهموماً، ولجوجاً، وقال:«نفسي حزينة جداً حتى الموت، امكثوا هنا واسهروا معي، بينما اذهب وأصلي»، ثم سار قليلاً ودخل إلى الكهف، لكن التلاميذ الثلاثة ناموا وقتها.

وانحنيا في المكان بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا مواضع الخطوات الأعظم قداسة للرب يسوع، وصدوراً عن الخشوع، جلسنا أيضاً في المكان الذي نام فيه التلاميذ، لأنه يوجد في ذلك المكان بعض الصخور المرتفعة قليلاً فوق الأرض، حيث يمكن لانسان جالس على الأرض أن يسند ظهره وذراعه عليهم ويريح نفسه، وبناء عليه تلونا هنا الصلوات المعينة، وتلقينا غفرانات مطلقة (++)، وتعلمنا من الأمثلة كلها، لأنه بالحقيقة تفيد الصلوات قليلاً فقط وللغفرانات قيمة قليلة، لابل أكثر من هذا تعب الحجاج كله بلا فائدة، إذا لم يتأمل الانسان في هذه الأماكن العظيمة القداسة ويتفكر بهذه الأمثلة التي واجهها، ولم يدخلها إلى قلبه حتى يقوّم حياته ويصلحها.

ويعلمنا حزن المسيح العظيم هذا أن نتخلى عن مسار هذه الدنيا، لأن سرور العالم في كلمات غريغوري (الكبير) هي شروره غير المعاقبة، وكل

الذين يبتهجــون مع الدنيـا في الشرور غير المعــاقبـة يبرهنون على أنهم أنفسهم شركـاء في ذلك، ونوم التـلاميــذ هو برهان على ضعفنا، وعلى التعـاســة في طبيعتنا، وقـد قطعنا على أنفسنا عهــوداً كثيرة، لكن صرنا متراخين عندما حلّ الوقت بالنسبة لنا لتنفيذهم.

المكان الذي ذهب الرب إليه للقاء
الذين جاءوا لاعتقاله، واعتقاله

وتابعنا سيرنا، ووصلنا إلى البستـان الذي إليـه جـاء الرب يسـوع إلى مقابلة الذين أرادوا اعتقاله، فسجد ثلاث مرات، وسلم أخيراً نفسه عن طواعيــة، ووضعهــا بين أيديهم، وترك يهوذا يقبلـه، وهذا المكان محاط بجدار من الحجـارة الجافة، وله قـداسة خـاصة، وهو قـائم على منحدر الجبل، لكن ليس منحـدراً كثيراً، حيث هنالك حقـل واسع يدعى باسم «بستـــــان الـورود»، ويزار هـذا المكـان من قبـل المسيحيين الشرقيين والغربيين سـواء مع خشوع عظيم، لكن المسلمين يقومـون، صدوراً عن غيرتهم لنا بتلويث المكـان، بالروث، ويلوثون الصخـور بالنجـاسـات، وهي الصخور التي اعتاد الحجاج على تقبيلها.

والذي حـدث في هذا اليـوم، هو أننـا عندمـا وصلنا إلى هذا المكان، وجـدنـاه قـد لوث حـديثـاً، بشكل مخجل، ولم نكن هنا غــاضبين من المسلمين بقدر مـاكنا غاضبين من أنفسنـا، عارفين من جهة أخـرى، أنه نتيجـة لذنوبنا سمح الرب بفعل هذا، وأنه حـرك بشـدة المسلمين لفعل هذه الأشيـاء، من أجل تلويث الأمـاكن المقـدسـة أمام أعين الفـرسـان الحجاج والنبلاء، الذين بهذا يمكن أن يقوموا ويتحركوا لتحرير الأرض المقـدسـة، ولينتقمـوا للشرور التي سببت مثل هذه الاهانات العظيمـة، ولاشعـال غيرتهم نحـو الأمـاكن التي صنع فيهـا خـلاصنا، وأن يكون الرب قـد أثار بقوة المسلمين للعمل هكذا، مبرهن عليـه بأن هذا المكان

بعيد عن موضع تردد الناس، وأن هذه القاذورات المجمعة لابد أنها قد نقلت بأوعية من المدينة، أو من الأجزاء المنخفضة من جبل الزيتون، حيث يوجد هناك بيوت، والأماكن التي نتعبدها ملوثة بكل دقة، وهو عمل وحشي لايمكن لانسان القيام به مالم يكن متأثراً بشيء أعظم من الارادة الانسانية المجردة، وكان هذا مفيداً، وجاء موضحاً أنه حتى بهذا العمل القذر، أنهم قد أدركوا مدى اهتمامنا بهذه الأماكن، وأننا مسيحيين متشددين، ولاسيما عندما يرون أنهم على الرغم من تلويثهم نحن نحترم هذه الأماكن المقدسة ونقبلها، وكأنها غير ملوثة، ولاشك أن هذا مربك لهم.

وبناء عليه قصدنا هذا المكان، ومسحنا القذارات بأرديتنا، وحيث أننا أثرنا بالشعور بالشفقة، فقدبتنا نشعر بخشوع أعظم وبمزيد من الاحترام، فقد ركعنا وسط هذه القذارات وتعبدنا تلك الأماكن المقدسة، وتلقينا غفرانات(+)، وزيادة على هذا فإن الذي رأى الحشد متمدداً في الوحل، لابد من أن يرمي نفسه مباشرة في الوحل، دون اهتمام بتلوث ذاته، فالمهم لديه كان انقاذ المقدسات من المهانات.

المكان الذي قطع فيه بطرس أذن مَلْخُس الشرير

وتابعنا من هناك سيرنا قليلاً، نزولاً على طول سور تلك الحديقة، فهناك توجد صخرة، هي علامة على المكان الذي وقف فيه القديس بطرس، عندما رأى خادماً اسمه ملخس، لطم الرب على وجهه بعنف، فاشتعل غضباً، ووجه ضربة بسيفه نحو ملخس الذي كان مقبلاً نحوه، عازما على شطر رأسه إلى نصفين، لكنه تجنب الضربة، فقطع بطرس أذنه، وقام الرب على الفور بتوجيه اللوم له، وحظر عليه القتال بالسيف، واقتيد الرجل الجريح إليه، فشفاه بحضورهم جميعاً. وقبلنا هذا المكان، وتلقينا غفرانات(+).

مزرعة جيسماني التي إليها جاء يسوع

ونزلنا الآن من الرابية على مقربة من الجدول، وقدمنا إلى مكان اسمه جيسماني، فهناك كان ثمانية من الحواريين قد بقيوا نائمين، في حين ذهاب الرب مع ثلاثة إلى المكان الذي صلى فيه، وتلونا هنا الصلوات المعينة، وتلقينا غفرانات(+).

وكان في هذا المكان، في أيام المسيح مزرعة، ومسكن ملك للاويين، حيث جرى حفظ المواشي المقرر التضحية بها في الهيكل، وبعد انتصار المسيح، بنى المسيحيون هنا كنيسة كبيرة مع دير لعدد كبير من الرهبان، وجرى اجتثاث جميع هذه الأبنية وتسويتها بالأرض، لكن هناك بعض الآثار من الجدران من الممكن رؤيتها.

الصخرة المشاهد عليها علامات رعب الرب يسوع

وتقوم هذه الأماكن الأربعة المتقدمة الذكر داخل إطار صغير، واحدها قريب من الآخر، وهي في قطعة الأرض نفسها، وفي قطعة الأرض هذه كانوا قد أخذونا أيضاً إلى صخرة كبيرة، قائمة فوق الأرض، وتشكل بوضعها الحالي، جداراً عريضاً، لكن ليس عالياً جداً، وليس قائماً تماماً بل مائلاً، وعند أسفل هذا الجدار الصخري قطعة من الأرض المنبسطة، كان الرب يسوع واقفاً عليها، عندما أقبل اليهود لاعتقاله واتخاذه سجينا، ولم يتمكن الرعاع من الاحاطة به تماما، لأن الصخرة وقفت على الجانب الشرقي منه، وعندما كانوا على وشك الانقضاض عليه، صار خائفاً، فاستدار بنفسه نحو الجدار الصخري، وهو راغب بالنجاة من هجومهم الشديد، وقد مدّ ذراعيه، وسقط فوق الجدار الصخري ليس رغبة منه بالفرار، بل الانزياح فقط من أمام عنفهم الوحشي، وهكذا سقط مقابل الجدار، وانزاحت الصخرة أمام جسده الفائق القداسة، وجعلت نفسها لينه، وصار الجدار وكأنه مشكل

من شمع لين، وهكذا تلقى في نفسه طبعات جسده مع جميع أطرافه، وفق الشكل ذاته عندما وقع عليه، وهذه العلامات التي انطبعت بالصخرة على هذا الشكل، تري بشكل كامل شكل يديه وذراعيه، والرأس والقبعة، والصدر والثياب، ومن المستحيل أن يتشكك الانسان أن تكون هذه العلامات قد نحتت بشكل اصطناعي، بوساطة أية إدوات، بل كان ذلك في اللحظة التي انزعج فيها الرب واضطرب في عقله، وركض نحو الجدار، فتلقى هذا الجدار ضغطاً فاق أي شيء اصطناعي أو فني يمكن ان يعمله، وكأن الطبيعة قد أضفت هذا الشكل على الصخرة منذ البداية.

وعلاوة على هذا، فإن هذه الصخرة كانت قاسية إلى حد بدت فيه، أنه لايمكن نجرها، وأن مامن قطعة منها يمكن فصمها بوساطة أية أداة حديدية، وهكذا انحنينا وقتها بأنفسنا أرضاً حول هذا الجدار الصخري، وبعدما تلونا صلواتنا، ذهبنا واحداً تلو الآخر نحو المكان، ومددنا أجسادنا بقدر ما نستطيع في المكان المقدس للطبعات، ووضعنا أذرعتنا، وأيدينا، ووجوهنا في التجويف، وقسناه بأصابعنا.

والرب شاهد عليّ أنني رأيت هذا الذي كتبت عنه خلال حجي الأول، وأنني مددت نفسي في هذه العلامات، التي أشارت إلى رجل أطول مني بكثير، وقد أشير إليها من قبل الراهب بوركاردوس، الذي كان من طائفة الدومينيكان، والذي أمضى مدة طويلة في الأرض المقدسة، قبل مائتي سنة مضت، وكان وقد وصف بوضوح وتمييز جميع الأرض المقدسة، وقد رأى هذه الصورة معلمة على الصخرة، التي أنا أتكلم الآن عنها، وقدم الوصف نفسه.

لكن الآن، أنا لا أعرف ما الذي سأقوله، وأنا مرتبك، ومتعجب، ومندهش، ولا أستطيع أن أتصور ما الذي حدث لتلك الصخرة، لأننا في أثناء حجي الثاني هذا، أخذنا إلى جميع الأماكن المتقدمة الذكر، فلم نر

الصخـرة، ولم نسمع أي ذكـر لها، وعاد مـوالي الفـرسـان إلى الوطن مع الحجاج الآخرين، ولم يسمعوا شيئاً حول تلك الصخرة، وبعدما عادوا، وعندمـا صـار بامكان الانسـان القيـام بزيارة أكمل وأهدأ إلى الأمـاكن المقدسة، ذهبت وحيداً عـدة مرات إلى جبل الزيتون، وبحثت بتيقظ عن تلك الصخرة في موقع جيسماني، وذلك صعـوداً ونزولاً، وقريباً وبعيداً، لكنني لم أستطع بأية وسيلة العثور عليها.

وأخـذت في أحـد الأيـام اللورد هنري أوف سخـومبيرغ Schum-berg وهو فـارس ورجل نشيط، وكـان راغبـاً تمامـاً في معـاونتي في أبحـاثي مهما كـانت، لأنني كنـت متشـوقـاً كثيراً لرؤية تلك الطبعـات، وقمنا معا بـالبحث عنها صعوداً ونزولاً، غير أننـا لم نستطع العثور على أي أثر منها، وقام فرسان آخرون بناء على تحريضي فبحثوا حول الرابية، وفتشوا عنها، لكن تعبهم تبدد بدون فـائدة، وأخذت أيضاً معي راهبين من جبل صهيـون، وقـد بحثـا معـي باخـلاص، لكننا لم نستطع انجـاز شيء، وفي الحقيقـة أعلنا أنهما لم يسمعا عنهـا من قبل، وذهبت أيضـاً إلى الأب المسـؤول، وإلى الأب بول غـرنغلنغـر Gringlinger، والأب بيرغـريـن بولانوس Peregrine polanus، والراهب جـون أوف بروسيـا، وإلى رجال ذوي سن وتجربة، وإلى رهبـان مسنين، وإلى رجال دين اتقياء، ورهبـان علمانيين، لكن مامن واحـد منهم استطاع أن يخبرني شيئاً، وبدوت بـالنسبـة لهم أنني أهـرف، حتى أريتهم وصف الـراهب بوركارد، الذي كان معي، وذلك مع كتاب جولاتي السالفة.

وبذلت جهداً كبيراً وأنا أبحث فوق الجبل سعياً وراء هذه الطبعات، لأنني متأكـد تمامـاً أنه من غير الممكن بالنسبـة لتلك الصخـرة، أن تنقل من مكانها إلاّ بمعجزة، ذلك أن مامن بنـاء جديد قد أقيم هناك، والذي انقضى فقط عامان على رؤيتي لها أولاً، وإلى هذا اليـوم مازلت منزعجاً لاضـاعتي ذلك المكان المقدس، ولو كنـت أعرف مكان وجـود الراهب

أنطوني أوف فلاندرز، الذي هو من طائفة الفرنسيسكان، والذي كان في ذلك الوقت الدليل إلى الأماكن المقدسة، لو عرفت أين يسكن الآن، لذهبت إليه — إذا ماحصلت على إذن — حتى ولو كان في انكلترا، ذلك أنه وإن لم يقل الانجيليون شيئاً عن تلك الصخرة، ولم تأت الكتابات المقدسة القانونية على ذكرها، مع هذا سأكون مسروراً لرؤيتها، مثلما رأينا، وتعبدنا أماكن أخرى كثيرة، لم ترد إشارة واضحة إليها لدى الانجيليين.

وبالاهمال، أخذت أم النسيان هذا المكان المقدس منا، لكنني لا أستطيع أن أمحو المشهد الذي رأيته في ذلك المكان، أو أمنع ظهوره باقياً متجدداً في عقلي، وتولى بيد المبجل وصف معجزة مشابهة قد وقعت في الناصرة، قرب المكان الذي كان الرب سيرمى منه، الموضوع الذي قرأنا عنه في الاصحاح الرابع من انجيل القديس لوقا، فقد قال بأن الرب بعدما نجا من أيدي اليهود، وكان نازلاً من قمة الجبل، رغب بالالتجاء تحت إحدى الصخور، وفجأة لدى لمس ثيابه الصخرة تقلصت، وذابت وصارت مثل الشمعة، وتجوفت في داخلها حتى نستطيع استقبال جسد الرب، حيث من الممكن في هذه الأيام رؤية جميع أشكاله، وطيات ثيابه، وطبعات قدميه في الصخرة، وذلك استناداً إلى شهادات الذين رأوا ذلك، ومثل ذلك فعل دي ليرا في تعليقه على قوله: «أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم» —يوحنا:٨/ ٥٩، ومن الممكن القراءة عن معجزات مشابهة صنعت من قبل عدد كبير من القديسين، إليهم منحت قدرات ربانية، حيث انزاحت صخور من طريقهم، أو أصبحت لينة، كما حدث في مسألة القديسة بربارة.

المكان الذي رأى منه يسوع المدينة وبكى عليها

وغادرنا المكان الذي اعتقل فيه الرب وجعل سجينا، وأخذنا طريقنا نحو قمة الجبل، حيث تسلقنا طريقاً منحدراً ووعراً، كان يقود إلى بيت

عنيـا، لأن هذا هو الطريق الذي يسير عليـه الذاهبـون من القـدس عبر باب اسطفان إلى بيت عنيا، لكن هناك طريق آخر يقود إلى بيت عنيا من جبل صهيـون، وهو ينقسم إلى قسمين: طريق عـالي، وطريق منخفض، كما سيظهرا في مكانهما، وصعدنا عبر هذا الطـريق الذي سار عليه الرب على ظهر أتان في يوم أحد السعف، وفي طريق صعودنا وصلنا إلى مكان على الطريق، حيث هناك صخـرة واسعة، تمتد عبر الطريق كلـه، جاعلة الطريق مخيفاً بالنسبة للحيوانات التي تعبره، لأن الصخـرة ناعمة إلى حد كبير، وكأنها مصقـولة، وتسير الدواب فـوقهـا وهي خـائفة، ومـرعـوبة خشية السقوط، خاصة لدى نزولها من الرابية.

ووقـف الرب في هـذا المكـان مع الأتـان، وألقـى نظرة على المدينـة، وتطلع إليهـا، وبكى عليهـا، وبكثير من الحزن ناح على سـلامهـا الحالي آنذاك، وتنبأ بمستقبلها المضطرب، وذلك حسبما قرأنا في لوقا:١٩، وبناء عليـه انحنينا هناك بأنفسنا نحـو الأرض، وصلينا، وتلقينا غفـرانات مطلقـة(++)، ووقفنا لوهلة طويلة في مكان دموع المسيح هذا، وحـدقنا بالمدينة المقـدسـة، لأنه من هـذا المكان يستطيع الانسـان أن ينظر بشكل جيد إلى القدس ويتعرف إليها، ذلك أن منظر الهيكل وجبل صهيون من هناك هو منظر قوي يحرك الأرواح التقية نحو البكاء، ولهذا ذلك المكان متميـز، فيـه —كما قـرأنا— بكى الرب، هذا وتمثل القـدس، على الرغم من وضعها التعيس في هذه الأيام، منظراً جميلاً وبهياً من هذه البقعة.

المكان الذي أخبر الملاك فيه العذراء المباركة بموتها قبل حدوثه

ومن هناك صعدنا إلى رابية، فوق جبل الزيتون، وبعدما قطعنا مسافة جيدة ونحن صاعدين، انعطفنا جانباً من الطريق العالي إلى جهة اليسار، ومضينا صاعدين من خلال أشجار زيتون كثيفة من الشمال إلى الجنوب، وذلك عبر جرف، فوقه استدرنا نحو الشمال، وفي أثناء سيرنا على القمة وصلنا إلى صخـرة، تصـورنا أنها مكان فـائق القـداسـة، ذلك أن جميع

الأماكن المقدسة، لها ممرات مطروقة تقود إليها، وذلك نتيجة الزيارات المتوالية إليها من قبل المسيحيين، وهذه الأماكن معلمة بصخور، وهذه الصخور قذرة من كثرة تقبيلها، ولأنها تلمس دوما بشفاه وأفواه الحجاج، بقي من شفاههم على الصخور التي قبلوها نوعاً من أنواع الدهن.

وفي أحد الأيام، بعد مازارت العذراء المباركة الأماكن المقدسة، استراحت هناك، وجاء الملاك جبرائيل إليها، وسلم عليها للمرة الثانية وقال: «حييت» —وبشرها فأعلمها بموتها الوشيك، والانتقال من هذا العالم، إلى الأب وقال: «أقبلي أيتها السيدة المجيدة، إلى الذي ولد منك، وتسلمي ثانية عهد رحمك، والتعويض عن طبيعتك، وسداد ثمن حليبك وطعامك، ونفقات تعبك، وجائزة أحزانك، فأنت سوف تكوني مجد القديسين، والسفينة الذين تقرر خلاصهم، وجسراً للذين تتقاذفهم الأمواج، والعصا التي يمكن للرجل الضعيف أن يتكيء عليها، وسلماً للذين يودون الصعود إلى السماء، وتوبة للمذنبين، ومعيناً لكل من يتوجه بالدعاء إليها».

وعندما أكمل الملاك مقالته هذه أعطى العذراء سعفة نخيل جميلة جداً، أرسلت من الجنة، لتكون برهاناً على انتصارها الكامل على عدو الجنس البشري، وعلى الآلام، وعلى رعب الموت، وأمر بحمل سعفة النخيل هذه أمام نعشها، علاوة على هذا خلع عليها ثياباً جنائزية، إعجازية رائعة، فيها كانت ستموت، وستدفن، وستصعد إلى السماء، وبعدما عملت هذا كله صعدت إلى السماء، وتلونا في هذا المكان الصلوات المحددة، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات.

جبل الجليل الذي هو جزء من جبل الزيتون، حيث ظهر الرب لتلاميذه بعد قيامته

ثم كـان أن غادرنا مكان تقـديم سعفة النخيل، وسرنا متقـدمين على جرف الجبل نحو الشمال، وعند زاوية جبل الزيتـون، عندما يتوقف عن الامتداد نحـو الشمال، وصلنا إلى حافـة الجبل، حيث وجدنا أكـواماً من الحجـارة ومكاناً للصـلاة، وقـد قيل إنـه في أيام المسيح كـان هناك بيتـاً ريفياً، اسمه الجليل، فيه وعد الرب أثناء آلامه، أنه سوف يظهر لتلاميذه في يوم قيامته، ذلك أنه قال في الاصحاح السادس والعشرين من انجيل القديس متى: «ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل»، وقال بعضهم بأن الرب قد وعد بأنه سوف يظهر نفسـه إلى حوارييه في الجليل بعد قيامته، وقال بعضهم الآخـر بأنه قصد أحياناً قرية الجليل هذه، وأحيـاناً أخرى المنطقـة المعـروفة باسم الجليل، لأنـه ظهر في المكانين، وورد ذكـر قـرية الجليل هذه في متى: ٢٦، وفي الاصحاح الثـامن والعشرين من الانجيل نفسه، وقد أمر الملاك المرأة أن تخبر تلاميذه بوجوب الذهاب إلى الجليل، حيث سيرونه، وتغني الكنيسة أيضاً كلمات المسيح.

"In die resurrectionis mede, Praecedom vos in Galilacam" ...الخ

ونحن نعـرف الآن أنه ليس قبـل مضي عـدة أيام على قيـامـة الرب، ذهب التـلاميـذ ونزلوا إلى الجليل، ولم يكن ذلك في يوم القيـامـة، وقـد تحدث القـديس متى الانجيلي عن منطقـة الجليل، في الاصحـاح الثـامن والعشرين، حيث قـال بأن أحـد عشر مـن تلاميـذه ذهبـوا إلى الجليل (المنطقة) حيث ظهر لهم على كل من الجبل، وبجوار بحيرة طبريا، وعلى هذاإذا ما فهم الانسان الكتـابات المقدسة بأنها تنطبق على الجليلين فما في ذلك صعـوبة، لكن إذا مـا طبق ذلك على منطقـة الجليل وحـدها، ففي ذلك صعـوبة كبيرة، عـلاوة على ذلك فإن المعلقين والشراح وأوغسطين في موائمته بين الانجيليين، قـد بذلوا جهوداً كبيرة لشرح النصوص التي تحدثت عن الظهـور الموعـود بأن يتم في الجليل، لأنهم فهمـوا مقـاطعـة

الجليل وحدها، وليس القرية التي سنتحدث عنها، وأنا لم أجد واحداً من علماء اللاهوت القدامى، قد فهم هذه النصوص إلاّ بأنها أشارت إلى منطقة الجليل، لأن الظهور الذي حدث هناك، كان ظهوراً عاماً، وقد كان على الجبل، وأقصد بذلك جبل الطور أمام، أكثر من خمسين من الإخوان، حسبما جاء الخبر في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس: ١٥، ولذلك يتحدث الناس عن الظهور الذي وقع هناك، في منطقة الجليل، دون سواها.

وقد قيل بأن يوسبيوس، قد تحدث عن قرية الجليل، في كتابه «تاريخ الكنيسة»، مع أنني لا أتذكر أنني قرأته، والذي فهمه لودولفوس -Lu dolhus أيضاً في كتابه «حياة المسيح» بأن بعض الظهور قد وقع في قرية الجليل، الموجودة في اليهودية، وبعضها الآخر في منطقة الجليل، وبناء عليه تعبدنا في ذلك المكان، الذي قيل بأنه ظهر فيه إلى الأحد عشر، وتلقينا غفرانات(++). لأن أعظم الغفرانات مرتبطة مع هذه البقعة، ولأن جميع هذه الغفرانات مرتبطة بهذه الأماكن المقدسة، والمسلمون لن يسمحوا للحجاج بزيارتها، فقد جمعت كلها في هذه البقعة، ثم لأن هناك أماكن كثيرة فائقة القداسة في القدس، من الممكن الحصول فيها على غفرانات مطلقة، إليها لم يسمح لنا بالدخول، مثل هيكل الرب، ورواق سليمان، والباب الذهبي، وقاعة قضاء بيلايطس، وبيت هيرود، وبيت القديسة حنة، الذي هو مكان ولادة العذراء المباركة، وقد حصلنا في هذه البقعة على الغفرانات الممنوحة لهذه الأماكن.

وبناء عليه بعدما حصلنا على هذه الغفرانات، تسلقنا فوق أكوام الحجارة، وتطلعنا بالطول والعرض فوق البلاد، فباتجاه الشرق، عبر الأردن والبحر الميت، رأينا جبال العربية، وأرض مآب وعمون، وجبال جلعاد، وهكذا دواليك، وباتجاه الشمال رأينا جبال منطقة الجليل،

وجبال جلبوع ولبنان، وباتجاه الغرب، كان لدينا في المقابل المدينة المقدسة، ورأينا عبرها جبل شيلوه، وجبل إفرايم، وبلاد الفلسطينيين، وذلك امتداداً حتى البحر الكبير، وباتجاه الجنوب رأينا روابي بيت أوليا قرب بيت لحم، وجبال حبرون، واليهودية وأدوم.

وبعد هذا حملنا أنفسنا وشغلناها في أعمال تفحص المكان نفسه، وهذا المكان، كما سلف وأخبرتكم هو نهاية جبل الزيتون، وهو مكان مناسب لبناء قلعة، وفي الحقيقة انه قد كانت هنالك بعض الأبنية فيما مضى، فضلاً عن هذا يوجد في قمته صهريج، والمكان كله مكان رائع، وتقول تواريخ ملوك الشرق، أنه عندما اقترب الملوك الثلاثة من القدس، غطى الظلام الأرض، ولذلك لم يستطع سكان المنطقة أن يدخلوا القدس، وأمضى الملك بلتزار Baltzar وجنوده الليل على هذا الجبل، في حين أقام الملك ملكيور Melchior فوق جبل أكرا، حسبما سلف لي وحدثتكم في ص٤٩٥، وأقام الملك كسبر Caspar على جبل جيحون، وعند الصباح دخلوا جميعاً إلى القدس مع بعضهم بعضاً.

مكان صعود ربنا، والكنيسة التي بنيت هناك وطبعات قدمي مخلصنا

وبعدما أرحنا أنفسنا على جبل الجليل، عدنا على طول الطريق على قمة جرف جبل الزيتون، وسرنا باتجاه الجنوب فوق أرض مرتفعة نحو كنيسة عظيمة نصف مهدمة، وعندما وصلنا إليها صعدنا فوق بعض الدرجات الحجرية إلى رواق مقنطر، كان قائماً أمام باب الكنيسة، وأجلس مسلم نفسه هناك أمام باب الكنيسة، وبيده عكاز، وماكان يسمح لأي واحد بالدخول مالم يعطه مدنوس Madinus، كل خمسة وعشرين منه تساوي دوقية، ولدى دفع المدنوس تركنا ندخل، هذا ويقوم في وسط هذه الكنيسة هناك بيعة كبيرة، جميلة ومستديرة،

ومقنطرة، يوجد في داخلها المكان العظيم القداسة، وهو مكان طبعة قدمي الرب يسوع المسيح، وهي الطبعات التي تركها على الصخرة، عندما صعد من ذلك المكان إلى السماء.

ووقفنا أمام هذه البيعة، وبصوت مرتفع بهيج غنينا الترانيم والصلوات المحددة في كتب المسيرة، من أجل موضع صعود الرب، ودخلنا إلى قلبها، وكان فيها العدد الذي يمكن أن تستوعبه في مرة واحدة، وارتمينا على وجوهنا، وقبلنا طبعات قدمي مخلصنا، الفائقة القداسة وتلقينا غفرانات مطلقة (++).

وبعد هذا، حملنا أنفسنا لمشاهدة المكان، فالكنيسة قائمة فوق قمة عالية من قمم جبل الزيتون، عند النهاية الجنوبية منه، مثلها في ذلك مثل موضع الجليل المتقدم الذكر، عند النهاية الجنوبية للجبل، ومكان الاعلان عن وفاة العذراء مريم، هو تحت الجرف، في منتصف الطريق بين الجليل، وموضع الصعود، ويقوم في هذا المكان المقدس، كنيسة مستديرة عظيمة، بنيت على شكل أن أعلاها ليس مغطى بقبة بل يوجد في السقف المقبب فتحة كبيرة، صنعت عن قصد، وتحت هذه الفتحة تقوم بيعة صعود الرب، مثلما فعل بالنسبة لبيعة ضريح الرب.

وحدثنا المؤرخون، أنه عندما كان المؤمنون يبنون الكنيسة، فوق مكان صعود الرب، وأرادوا تغطيتها بقبة معقودة، لم يتمكنوا بأية وسيلة من الوسائل وضع الحجارة مع بعضها لبناء القناطر، وكانوا ما أن يضعوا مثل هذه الحجارة، حتى كانت تسقط مباشرة، وعندما رأى المؤمنون هذا فهموا أن إرادة الرب قضت بعدم اغلاق مكان صعود الرب من الأرض إلى السماء بجدران أو بقناطر، بل بالبقاء مفتوحاً، ولذلك عندما قاموا بأعمال البناء، جعلوا القبة المعقودة مستديرة، مستندة فوق جدار مستدير، لكنهم لم يكملوها، بل كما قلت من قبل، تركوا فتحة كبيرة فيها، غلفوا حوافها على طول الدائرة بقطع من الحجارة المصقولة.

وعندما كان المعماريون على وشك للشروع بتبليط الكنيسة بألواح رخامية، وأرادوا تغطية مكان وقوف قدمي المسيح، عند صعوده طارت الحجارة التي وضعوها على ذلك المكان مباشرة عائدة نحو وجوه المعماريين، وتكرر حدوث هذا كلما حاولوا تغطية ذلك المكان، وكان فيما مضى ملاصقاً لهذه الكنيسة ديراً كبيراً لرهبان (بندكتيين) سود، تحت قيادة راعي دير متوج، ومنذ أوقات مبكرة جداً، سكن في هذا المكان، رجال مقدسون وأتقياء، بناء على سلوكهم وتصرفاتهم كتب جيروم كتاب «حياة الآباء»، وذلك حسبما يمكننا أن نقرأ في توطئة ذلك الكتاب، وفي تلك الأيام الذهبية جرى اشعال أعداد كبيرة من المصابيح في هذه الكنيسة، بقيت مضاءة من قبل المؤمنين، من أجل إضاءة جميع جبل الزيتون وكان اشعاعهم يصل حتى أقصى طرف من وادي شعفاط، ويضيء باب مدينة القدس الموجود هناك.

وكان في مواجهة هذه الكنيسة، مايزال معبد سليمان، الذي مثل هذا مشتعل فيه كثير من المصابيح والمشاعل، تنير جانب جبل الزيتون هناك، وبوساطة اشعاع الأضواء الصادرة من هاتين الكنيستين، فإن جميع وادي شعفاط كان مضاء، وكان جبل الهيكل مضاء بوساطة الكنيسة الموجودة على جبل الزيتون، وكان جبل الزيتون مضاء بوساطة الكنيسة المقامة على جبل الهيكل، علاوة على ذلك كانت هذه الكنيسة القديمة منعم عليها بالمعجزات التالية، التي تعرضت إليها وعلمت بها، من خلال كتاب حج لرجل مقدس كان حاضراً وشاهداً لها.

كان من عادة المسيحيين الأقدمين، قدوم جميع سكان القدس إلى جبل الزيتون، في يوم صعود الرب، وذلك بعد القيام بالقداس، وكانوا يقون هناك بصلوات مستمرة، ينتظرون ساعة الظهيرة، التي حمل فيها الرب يسوع إلى السماء، وفي تلك الساعة، كانت تهب ريح عنيفة جداً، وتقبل مندفعة من السماء، وتصب قوتها كلها من خلال الفتحة الموجودة في

سقف الكنيسة، إلى حد أن الجبل كله كان يهتز من وقع الصدمة، ويسقط جميع الذين يكونون هناك على وجوههم نحو الأرض، حتى تعبر هذه العاصفة البهيجة، لكن المرعبة أيضاً، وجرت العادة بوقوع هذا في يوم الصعود من كل سنة، ولكن عندما استولى المسملون على الأرض المقدسة، خرقوا حرمة هذه الكنيسة المقدسة، واتخذوا مسجداً منها، وعلى الرغم من جميع أوامر الحظر، يقوم الحجاج المسيحيون بزيارة هذه الكنيسة، وقد اعتادوا على الدخول إليها، في الليل خلسة، حتى يتمكنوا من تقبيل طبعات قدمي المخلص، وبناء عليه لم يسمح المسلمون لنا بالاحتفاظ بهذا المكان، كما أنهم لم يحفظوه لأنفسهم، بل قاموا بتهديم الجانب الشرقي منه، ونزعوا عن الجدران، ومن الأرض جميع ألواح التغليف الرخامية، كما نقلوا الأعمدة الثمينة، وتركوا على كل حال دون لمس، بيعة مكان طبعات قدمي المسيح، والصخرة التي تحتويهم، لأنهم هم أيضاً يحترمون الطبعات المقدسة للقدمين.

ومن الممكن رؤية طبعتين لقدمي الرب يسوع على هذه الصخرة، علماً بأن طبعة القدم اليمنى هي الأوضح بين الاثنتين، ويجري تقبيل هاتين الطبعتين من قبل المسيحيين والمسلمين سواء، واستثير الآن واحد من الحجاج وتحمس بروح الخشوع اللطيفة، وكان معه قارورة من الخمرة العظيمة الحلاوة، فصب بعضها في الفراغات المشكلة بطبعتي القدمين، وقام الآخرون بلحسها كلها أثناء تقبليهم للطبعات، وبسرعة عندما فرغ المكان صب المزيد.

ويوجد على الجهة الشمالية من هذه الكنيسة فتحه في الجدار عالية، يكاد بصعوبة ان يصل الانسان إليها وهو ماد ذراعه، ورفع الحجاج أنفسهم إلى هذه الفتحة، ووضعوا أيديهم عليها، حيث أعلنوا أنه يوجد في الجدار بعضاً من الصخرة ذاتها التي وقف عليها المسيح، عندما صعد إلى السماء، لكن من أين جاءتهم هذه الفكرة، لست أدري.

وكـان بالعادة يوجـد في النهاية الشرقيـة صخرة كبيرة، عليهـا جلس الرب، عندمـا وجـه الملامـة إليهـم لنقص الايمان وقسـوة القلب،وذلك حسبما قـرأنا في الاصحـاح الأخير من انجيـل القـديس متى، غير أن النهاية الشرقيـة مهدمة تقـريباً، وفيها هنـاك مكان إقامة لفـلاحين وباعة ماعز، لوجود بيت ريفي ملاصق للكنيسة في الجهة الشرقية، واسم هذا البيت بلغتهم:..

وهناك على كل حـال، جدار مبني عبر وسط الكنيسة، يفصـل النهاية الشرقيـة —حيـث يعيش هؤلاء الريفيـون— عن الجزء الغـربي، حيث هناك بيعـة صعود الرب، وكما أخبرتكم من قبل، تقف هذه الكنيسـة في مقابل هيكل الرب، لكنهـا أعلى من الهيكل، مع أنه مثلها هو قـائم فوق جبل، ومن الممكن رؤيتـه عن بعـد كما ورد الحديث في ص٣٩٨، وهي مباشرة إلى الشرق من هيكل الرب، الـذي يسمونه هيكل سليمان، وبنا عليـه نجـد أثنـاء الاعتـدالان أن الشمس مقبلـة على الاشراق من هذه الكنيسـة، ولسوف تصعـد منها، كما راقبتهـا مراراً تفعل ذلك، وعندمـا رأيت هذا لم أعد أعجب من قيام الكنيسة بالغناء في ويوم صعود الرب، «بالغناء إلى الرب، الذي صعـد فـوق سماء السمـوات في الشرق»، وعن هذا الموضـــوع ســوف أتحدث بشكل أطـول في ص ٦٢١، وهناك من مـدينة القـدس إلى موضـع الصعود ثلاثة أميـال ايطاليـة جيـدة، وذلك بوساطة الطريق الذي ذهبنا به إلى هناك.

مدح مكان صعود الرب ومعه سوف نقدم أيضاً وصفاً له، وكذلك لوادي شعفاط، ولجدول قدرون ولوادي توفت، ولوادي هنوم الذين موقعهم جميعاً عند سفح جبل الزيتون

إن مكان صعود الرب هو مكان له قـداسة خاصـة بين جميع الأماكن المقدسة للأرض المقدسة، ويتحرك الحجاج هناك بوساطة حماسة عجيبة، لأن المكان مشرف بسبع فضائل خاصة، ولأنه:

١ــ كـان مبجلا غـاية التبجيل، لأنه في العصـور الخالية كـان هناك موضع مشهـور مرتفع، إليـه صعد داوود للصـلاة، وذلك حسبما جاءنا الخبر في الاصحاح السادس عشر من سفر الملوك الثاني، وما سنذكره في الصفحـة ٦٢١ من هذا الكتـاب، ولأنه هناك عليـه، تم جعل الحواريين سادة جميع البلدان، لأنهم أمروا بقـوله: «اذهبوا إلى العالم أجمع، واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها» (مرقص: ١٦/ ١٥).

٢ــ لأنه مكان ينبغي أن يحب، لأنه من هنا صعـد إلى السماء، وأرانا الطريق إلى مملكة السماء.

٣ــ لأن المكان رائع، وبسبـب الدمـار الفـائق الوحشيـة للمسيح الدجـال، لأن اللاهوتيين ــ ومنهم على سبيل المثـال ريكاردوس، في نهاية كتابه الرابع ــ حدثونا بأنه في هذا المكان سوف يجري قتل المسيح الدجال على يدي الرب يسـوع،حيث إنه تبعاً لرؤيا دانيـال: ١١، سوف يأتي المسيح الدجال إلى قمة جبل الزيتون، الذي قال النبي عنه بأنه جبل رائع ومقدس، فهو سينصب عرشـه فوق المكان الذي صعد منه المسيح، وسوف يتخيل نفسه أيضاً، أنه سوف يصعد إلى السماء، وله سوف يقتل الرب يسـوع بالنفخ من فمـه، مصـدراً صوتاً مـرعباً، ولدى سماع هذا الصـوت سـوف ينهض ميكائيل ضـد المسيح الدجـال، حيث سيضربه بصاعقة، وسيغرقه في قعر هوة عميقة.

٤ــ وهذا المكان مـرعب بسبب مقعـد وعـرش الحسـاب الأخير، حيث إنه في هذا المكان سـوف يقيم الرب يسـوع ويضع مقعـد حسـابه الأخير، ولهذا قـال الملائكة في الاصحـاح الأول من أعمال الرسل: «إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتمـوه منطلقاً إلى السماء، وسوف يعود بقوة عظيمة ليحكم الأحياء والأموات».

٥ــ وهذا المكان مخيف، بسبب رمي المذنبين في الجحيم، لأن المذنبين

المدانين سوف يقفون في وادي شعفاط، الوادي الذي قلت من قبل في ص ٥٨٧، بأنه متصل بوادي هنوم الملعون أو جهنم، الذي يمتد من هناك خلال ممرات مهجورة مخيفة إلى بحر الشياطين، الذي يعرف أيضاً باسم البحر الميت، وفي اللحظة التي سوف تسمع فيها الكلمات المرعبة التالية، التي سوف يتفوه بها القاضي قائلاً: «اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية» (متى:٢٥/ ٤١)، وهناك سوف يكون تصدع من الجانب الشمالي لهذا الوادي، وسيكون هناك نهر من نار يجري بسرعة فائقة، سوف يطوق جميع الأشرار، وسوف يلفهم بعنف، وذلك على طول وادي شعفاط ومنه إلى وادي توفت المرعب، ووادي هنوم، وحول هذا الموضوع عد إلى النص المتميز في إشعيا: ٣٠، ومن هناك سوف ينقلون بوساطة النهر، من خلال الوادي إلى البحر الميت، الذي اسمه أيضاً بحر الشياطين، ففيه سوف يتلقى اليهود محمولين بالنهر الناري، وما أن يصب هذا النهر في هذا البحر، حتى يشتعل البحر كله بنار ذلك النهر، وتحت البحر سوف تكون جهنم فاغره فاها، الذي لاحدود لعرضه، ولسوف تبتلع الجميع.

وفي الحقيقة والواقع، إن وضع المكان هو كمايلي: يمتد جبل الزيتون مسافة طويلة باتجاه الشرق، فهو يمتد من الشمال باتجاه الجنوب، وذلك حتى يتصل على الجانب نفسه بجبل العدوان، الذي مثل ذلك يمتد مسافة طويلة، وعلى الجانب الغربي هناك جبل المدينة المقدسة، الذي يلتقي بجبل صهيو ن وفوقه الذي خلفه يقع جبل جيحون، وذلك في مقابل جبل الزيتون وجبل العدوان، ويدعى الفراغ فيما بينهم باسم وادي شعفاط، الذي في قعره جدول قدرون، ويبدأ وادي شعفاط وجدول قدرون من موضع رجم اسطفان، وينتهي عند سفح جبل صهيون، في المكان الذي تلتقي فيه مياه سلوان بالجدول، وهناك يطلق على المكان اسم وادي سلوان، الذي يمتد حتى بئر روجل.

ويبـدأ من هذا المكان الوادي الذي اسمـه «الوادي الظليل»، ويدعى وراء هذا باسم وادي هنوم، أو توف، أو تـوفت، ومن هناك أخـذ اسم جهنم، ويحتفظ بهذا الاسـم طوال مجراه بين جبـال وعـرة، ومـروراً بجروف منحدرة، وذلك وصـولاً حتى البحر الميت، وهو البحر المضل، وذي الرائحة المقيتـة الملعونة الذي تحته —كمايقال— مفتـوح على وسعه فم هوة الجحيم.

وهكذا بعدما يكون الأشرار قـد حكم عليهم ، سوف يمتلىء جدول قدرون حتى الفيضان بنهر من نار، ينفتح متدفقاً من طرفه الشمالي، فمن هناك يبـدأ بالانفتـاح والتـدفق، لأنـه «من الشمال ينفتح الشر على كل سكان الأرض» (ارميـا:١/ ١٤)، ولسـوف تطوقهـم النيران، وتقـودهم على طول الوديان المتقدمـة الذكر، التي يتصل أحـدها بالآخر، من دون وجود جبـال تغلق سبلها، وذلك وصـولاً حتى البحر الميت، وعلى هذا سـوف يكون وادي شعفـاط هو المكـان بالنسبـة للأنـاس الذين يحكم عليهم بالادانة، والذين سوف يقفون في جدول قدرون، بمثابة مدنسين، لأن هذا المكان كـان دومـا مصب جميع القذارات، أو بالحري البـالوعـة التي تجري من خلالها جميع القاذورات إلى المصب، أي إلى البحر الميت.

فقد قرأنا في سفر الملوك الأول: ١٥، بـأن الملك آسا قد دمّر المأبونين وأزالهم، ودمـر التمثـال القذر جـداً العـائـد لأمـه، وأحرقـه في جـدول قدرون، مع جميع نجاسات الأوثان، ومثل هذا جاء في سفر أخبار الأيام الثـاني: ٢٩/ ١٦ قـوله: «ودخل الكهنـة إلى داخل بيت الرب ليطهـروه، وأخرجوا كل النجاسة التي وجدوها في هيكل الرب.... ليخرجوها إلى الخارج إلى وادي قـدرون»، فضـلاً عن هـذا جـاء خبر في أخبـار الأيام الثـاني بأن بني اسرائيل اجتمعوا في القـدس، وحطموا المذابح، ودمـروا كل شيء أحـرق عليـه البخـور للأوثان، ورمـوهـم في جـدول قـدرون، عـلاوة على هذا حطمـوا الأوثان والمذابح إلى قطع، ورمـوا بطحينهـا في

جـدول قدرون، فضـلاً عن هذا، جرت العـادة على جر جميع قـاذورات المدينة إلى جـدول قدرون، وعندمـا كان الجدول يفيض، كـان يحمل كل شيء ويجرفه ليلقيه في البحر الميت.

وهناك سبب آخر لنجاسة الوادي ولكونه ملعـوناً، هو أن الشياطين كـانت تعبد فيـه، والأعمال الشيطانية كـانت تمارس فيه، حسبما قـرأنا في أخبار الأيام الثـاني: ٢٨، ففيه جاء بأن الملك آحاز، قـد أوقد البخور في وادي هنوم، وطهر أولاده بالنار هناك، وفق طريقة الأمم، ووادي هنوم هذا هو وادي شعفـاط نفسه، وكـذلك يعـرف هذا الوادي نفسه أيضـاً باسم Cela، في حين يدعى جـدول قــدرون باسم Chrinarus، ومن الرائج والمتـداول تعليمـه الآن والاعتقــاد به، أن جميع أصـول الأرض سـوف تجتمع مع بعضها في هـذا الوادي، ولهذا اعتاد الناس على سـؤال الذين ذهبوا إلى الأرض المقدسة، عن سعة هذا الوادي، وهل هو واسع بما فيه الكفاية حتى يتمكن جميع الناس من الوقوف فيه في يوم الحساب.

ولايهتم الناس البسطاء بشيء آخـر، وتراهم منشغلين حــول حجم وادي شعفاط، وكان يحدث أحياناً، ومازال يحدث، أن الحجاج يقومون بتكويم بعض الحجـارة من أجل أنفسهم في هذا الوادي، رغبـة منهم في تأمين مكان لأنفسم قبل يوم الحسـاب، ليجلسوا عليـه في يوم الحساب، ويعطي في بعض الأحيـان بعض الأناس البسطاء مـالاً إلى حجـاج على وشك الانطلاق نحـو القـدس، ليعملوا لهم مكاناً بوسـاطة الحجـارة في وادي شعفـاط، فـإلى ذلك المكان، يعتقـدون أنهم ســوف يأتون في يوم الحساب، وعندمـا يسأل أحدهم الآخـر عن حجم الوادي، كـان الآخر يجد نفسـه مرغماً على الاجـابة بكل لطف وتهدئـة بأن الوادي ليس كبير الحجم، وأنه في وضعـه الحالي، يستطيع بصعوبة استيعـاب أمة واحـدة، ذلك أن جميع السـوابيين الأحيـاء الآن بالفعل، سيجـدون من الصعـوبة إيجاد مكان لكل واحد منهـم فيه، وذلك دون أن نذكر الذيـن كانوا فيما

مضى والذين سوف يكونون في المستقبل.

لكن في يوم الحساب سيكون شكل ذلك الوادي مختلفاً، مثلما سيكون شكل الأرض أيضاً، لأنه قبل يوم الحساب، سوف يحترق العالم كله، وسوف يتحرر من النجاسات، وكذلك من جميع كل ما ليس مستوياً، ذلك أن الأماكن الضيقة سوف تكون عريضة، وسوف تتحول الأماكن الوعرة والمتصدعة إلى أماكن منبسطة تماماً، وكون هذا الوادي سوف يتوسع هذا واضح من زكريا: ١٤ حيث جاء الخبر في سفر زكريا: ١٤، بأن جبل الزيتون سوف ينشطر من الشرق إلى الغرب، وأن الشطر الأول من الجبل سوف ينقل ليكون فوق الجهة الجنوبية، وأن الشطر الآخر سوف ينقل ليكون فوق الجهة الشمالية، وأن هذا الصدع في الجبل سوف يكون عميقاً إلى حد أن يكون فيه استمراراً لوادي شعفاط من الغرب.

ولسوف ينشطر جبل الزيتون انشطاراً آخر، من الشمال إلى الجنوب، وبذلك يتلاقى الانشطاران مع بعضهما بعضاً على شكل صليب، ولسوف ينقسم جبل الزيتون على شكل صليب، والذين سوف يحاسبون سيقفون في الواديين اللذان تشكلا بهذا الصليب، وعندما تحدث هذه التقسيمات، ينبغي أن لايكون أحد قلقاً حول السعة، حيث ستكون هناك سعة كافية للعالم كله حتى لو بقي على شكله الحالي، لأن الشق في جبل الزيتون، يمتلك عبره باتجاه الشرق، سهلاً واسعاً جداً في منطقة أريحا، وكذلك فيافي الأردن الشاسعة، التي يمكنها استيعاب جميع شعوب الدنيا.

ومثل هذا ينبغي على الانسان أن يرد عليهم — وفي الحقيقة هذا هو الجواب الأفضل— بأن الذين أمضوا حياتهم بشكل جيد، ومستقيم وأخلاقي هنا على الأرض، سوف يجدرون جميعاً أماكن جيدة ليقفوا عليها، قد أعدت لهم من قبل ملائكتهم، لكن الأشرار والمذنبين سوف

يجدون أماكن سيئة ووضيعة، وسوف يقفون وسط شقاء عظيم، ولذلك سوف يبدو العالم كله بالنسبة إليهم صغيراً جداً، ولسوف يقولون للجبل «اسقط علينا»، وللروابي «غطينا»، وبناء عليه أنت لست بحاجة لتأمين محلك سلفاً، على أساس إذا ما كنت رجلاً جيداً، فسوف يعد لك ملاكك مكاناً جيداً لك، ولن يجعلك في أي مكان آخر، إلاّ في مكان تشريف، وإذا ما كنت شريراً، وأقمت حجارة من أجل ذاتك، فإن تلك الحجارة سوف تصرخ ضدك، كما أن فاعلي الشرور لن يجدوا مكاناً ليرتاحوا عليه لأن المستقيمين سوف يقفون بشكل اعجازي ومجيد في الهواء، لكن غير المستقيمين سوف يقفون على الأرض في النار،والشنار، والشقاء، وهم يصرخون ويولولون، ومن أجل رواية حول هذا الوادي وأسمائه انظر ما سيأتي في الجزء التالي.

ولنعلم مما قد قيل، أنه من الواضح، كم هذا المكان لابد أن يكون مرعباً بالنسبة للآثمين.

٦— وهذا المكان مرغوب به، بسبب مواساة النخبة، لأنه من هذا الجبل سوف ينزل الرب الموت، وسوف يحطم وجه الغطاء الملقى على جميع الناس، والحجاب المنشور فوق جميع الشعوب، وفي هذا الجبل سوف يعمل رب الجنود حفلة إلى جميع الناس، فيها يجري تقديم جميع الأشياء السمينة، مليئة بالنقي، الخ (اشعيا:٢٥)، ذلك أن جميع الأشياء التي جرى الحديث عنها في ذلك الاصحاح هي عائدة بشكل صحيح إلى جبل الزيتون، مع أن بعضهم يوضح أنهم يعودون إلى جبل صهيون، وكل من يرغب ليقرأ هذا الاصحاح والاصحاح الذي يليه، ولسوف يرى براهين كثيرة حول ماقيل أعلاه، وهذا المكان مرغوب به، لأنه من هناك — بعد انتهاء الحساب — سوف يصعد الرب إلى السماء مع جميع النخبة الذين كانوا كذلك منذ بداية الدنيا.

٧— ويمكن اتخاذ هذا المكان درساً، بسبب أمثلة التقوى السامية،

التي ضربت هنا، فهنا وقفت مريم العذراء الفائقة القداسة، وهي منتشية ببهجة لايمكن وصفها، وهي ترى صعود ابنها إلى السماء، وهنا وقف الرسل، وأكثر من خمسمائة من الإخوان، بوجوه مرفوعة نحو الأعلى، تحدق بشغف في الغيوم، ومع خشوع وتأمل، كانت راغبة في اللحاق بالرب، ومثلهم كانت الملائكة حضوراً، وقالوا معهم: «أيها الرجل الجليلي، لماذا أنت واقف تتطلع نحو الأعلى...»؟، ولهذا قرأنا في الاصحاح الأخير من انجيل القديس لوقا بأنهم عادوا إلى القدس مع سرور عظيم، ولقد أخبرنا أيضاً — وهذا أثر تقوي — أن العذراء مريم، كانت بعد صعود ابنها، تزور هذا المكان المقدس، في كل يوم، وتسلم نفسها إلى تأمل خشوع خاص، وكانت تحاول بكل قواها العقلية التحليق بنفسها نحو تصور الأشياء السماوية.

وقد روي أيضاً أن فارساً حاجاً، بعدما زار الأماكن المقدسة التي عمل فيها المسيح خلاصنا، قام بالأخير فتسلق إلى هذا المكان، وخرّ على الأرض وهو يصلي، وصاح بأعلى صوته: «يا يسوع الرب لقد بحثت عنك وطلبتك بدقة وتقوى بقدر ما أستطيع، في جميع أرجاء الأرض، ولا أعرف أين أطلبك بعد هذا المكان، لأنك من هنا تركت العالم، وعدت إلى الأب، إنني أتوسل إليك أيها الرب أن تأمرني بالقدوم إليك، حتى أطلبك، فأجدك على يمين الأب»، وعندما أنهى هذه الصلاة، لفظ أنفاسه بوجه مشرق على مرأى من رفاقه الحجاج، وبموته وجد في الجنة الذي طلبه في حجه خلال الأماكن المقدسة.

جبل الزيتون، أسماؤه، وقداسته

لقد كونا من الذي تقدم قوله فكرة عن شكل جبل الزيتون، وبات ذلك مفهوماً، لكنني رأيت من الأفضل إضافة مايلي، حتى يكون معروفاً بشكل أوضح أكثر، وفي الاصحاح الحادي عشر من سفر دانيال أطلق عليه اسم «جبل بهاء القدس»، وأكثر من هذا هو معروف باسم

جبل الزيتـون، ومع هذا ان اسمـه الحقيقي هو جبل الضيـاء، لأن هذا الجبل هو الذي يضـاء أولاً بالشمس، ففي الفجر يضـاء مباشرة بأشعـة الشمس قبل الجبال الأخـرى، ومنه تعبر الاشعاعات إلى المدينة المقـدسة وإلى الهيكل، لأن هيكل سليمان قد بني وبابه يتطلع نحو الشرق، ووقف المذبح وتابوه العهد في الجزء الغربي من الهيكل في مقابل الباب، وعندما تشرق الشمس، وتمر عبر قمة جبل الزيتون، تـدخل أول اشعاعاتها التي ترسلهـا من حـافـة الجبل نحـو المدينة، إلى بـاب الهيكل الخارجي، من خـلال باب الهيكل الداخلي، ومن خـلال الباب الداخلي للهيكل تأخـذ طريقها حتى تابوه العهد، الذي يضاء بأول حزمة من أشعة الشمس.

أما بالنسبة لكنيسة صعـود الرب، فإنها تتلقى دوما أول الاشعاعات، كما تحدثنا عـن ذلك أعـلاه في ص٦١٢ ، وتعبر من هنـاك إلى هيكل الرب، وإذا كـان لها بابين، أحـدهما مقابل الآخـر، أي واحـد في الجدار الشرقي، والآخـر في الجدار الغربي، فوقتهـا في أثناء الاعتـدالين، سوف ترسل الشمس المشرقـة أشعتهـا من خـلال هذين البـابين، حتى إلى بابي هيكل الرب، وإلى تـابوه العهـد، وإلى كـرسي الرحمة، وإلى الكروبيين، ولهذا أطلق عليه اسم جبل الضياء.

وثانيـاً، أطلقت عليه هذه التسميـة، لأنه في الليل يكون الجبل مضـاء من الجهة الغـربية بأضواء هيكل الرب، لأنه كـانت هناك مصابيح كثيرة مشتعلة في هيكل سليمان، وهـذه المصـابيح تضيء الجبـل المقـابل لهم، حسبما تقدم بنا الحديث في ص ٦١١، وإلى هـذه الأيام ينتشر الضوء من الهيكل فوق هذا الجبل، لأنه قـد قيل بأن لدى المسلمين سبعمائة مصباح مضاءة دوماً فيه، وثمانمائـة في الكنيسة إلى جانب الهيكل، وكنت مرة على جبل الزيتـون ليـلاً، ورأيت من خـلال نوافـذ الهيكل، وكأن ناراً مضيئة مشتعلة فيه، أو كأن هناك مصباحاً مليئاً بلهب واضح.

وثالثـاً، كان يعـرف باسم جبل الضيـاء، لأن كهنة الشريعـة القديمـة

(العهد القديم) كانوا قد اعتادوا على اشعال نار عظيمة كل سنة في مكان صعود الرب، وكانوا يجلبون معهم عجلة حمراء، مع جميع شعب اسرائيل وراءهم، وكانوا يحرقونها هناك مثلما كانوا يحرقون القربان إلى الرب، وكانوا يجمعون رماد العجلة، ويصنعون ماء التطهير بمزج هذا الرماد معه، وبرش هذه المياه كانوا يطهرون الناس من كثير من الذنوب ضد الشريعة، وكان هذا يعمل مع اجراءات مهيبة كثيراً، وذلك حسبما قرأنا في سفر العدد:١٩، وقد عملوها على الجبل، كما حدثنا جيروم في «حياة وموت القديسة باولا»، ولم يجتمع شعب اسرائيل قط خلال السنة على نار في خارج الأسوار، إلاّ في احتفال احراق قربان البقرة الحمراء، ولهذا أطلقوا الاسم على الجبل من خلال تلك النار وذلك الضوء، أو من خلال الرماد وماء الطهارة الذي حفظ هناك.

هذا وإنه بالإضافة إلى أسرار المسيح وآلامه، هناك سببين من أجل التضحية بالعجلة الحمراء: الأول من أجل غفران الذنب الذي اقترفوه بعبادتهم العجل في القفار، وكان ذلك العجل أحمر اللون، لأنه كان قد صنع للتو من أفضل أنواع الذهب، الذي كان أحمر اللون قبل تنعيمه وصقله، والسبب الثاني هو أن بني اسرائيل قد تعلموا هذا الاحتفال من الوثنيين في مصر، وبما أن الرب كان رحيماً تجاه ضعفهم، لم يقم بتغيير هذا الاحتفال، علماً بأن معناه ومقصده بالنسبة للمصريين هو قديم جداً، ويتطلع على ملكهم أوزريس وينظر إليه بمثابة رب — لابل إنهم اعتقدوا أنه رب — وكان هذا الرجل قد قتل من قبل أخيه تيفون Ty-phon، وكان تيفون هذا صاحب شعر أحمر، غير تقي، ورجلاً شريراً، حيث قام بتقطيعه إلى ست قطع، وبعث بهم إلى أتباعه في أماكن متنوعة، وحدث أن ايزيس زوجة الذي قتل، كانت عملاقة وامرأة لها قدرات فائقة، فضبطت مملكة زوجها، وجمعت أعضاءه مع بعضها، ووضعتهم في صندوق ذهبي، وبنت هيكلاً، وضعت فيه كهنة، وقضت

بتقديم ضحايا لأوزيريس، وأمرت بسبب كراهيتها المقيتة لجريمة تيفون صاحب الشعر الأحمر باحراق الناس والحيوانات ذوي الشعر الأحمر عند قبر أوزيريس، وذلك بمثابة قرابين حرق.

وبناء عليه عندما صارت عبادة أوزيريس معروفة في جميع أرجاء بلدان العالم، فإن الناس رغبوا بالتضحية له، وفق الطريقة نفسها، وكانوا يجلبون إما رجلاً له شعر أحمر، أو ثوراً أحمر، أو بقرة حمراء من أجل الذبح، ولهذا حدث أنه لم يبق في الوجود بين الأحياء رجل له شعر أحمر، وذلك في جميع بلاد مصر، وفي الوقت نفسه نظر في البلدان الأخرى إلى الرجال ذوي الشعر الأحمر نظرة كراهية من قبل الذين عبدو أوزيريس وايزيس، وبسبب تيفون قاتل أخيه، ولشروره، نظر إلى كل رجل ذي شعر أحمر نظرة ريبة بأنه شرير، ولهذا السبب، ولمثل ذلك يرسم المسيحيون يهوذا الخائن على شكل تيفون، ويسيئون معاملة الرجال ذوي الشعر الأحمر، ويهينونهم، حتى وإن كانوا أتقياء جداً، وهكذا يدفع الناس الأبرياء من ذوي الشعر الأحمر عقوبة جريمة هم لم يقترفوها، وقد كتبت اسطورة أوزيريس وايزيس وتيفون في الفصل الرابع من الكتاب الأول، وفي الفصل الرابع من الكتاب الثاني، من «التاريخ القديم» لديودور الصقلي.

ورابعاً إنه عرف باسم جبل الضياء، لأنه كان يضاء بمصابيح وأضواء الكنائس التي قامت عليه، فقد كانت هناك كنيسة صعود الرب، مليئةبالمصابيح، وذلك حسبما تحدثنا في ص٦١١، والكنيسة في الجليل، وكنيسة القديس مرقص، وبيعة بلجيا، وكنيسة المسيح في الآلام، وكنيسة ضريح العذراء المباركة، وكنيسة دموع المسيح، والكنيسة في جيسماني، والكنيسة في بيت فاجي، وكنيسة القديس جيمس، وكنائس أخرى كثيرة، فيها جميعاً استخدمت مصابيح للاشعال، وبناء عليه، ليس جبل الزيتون، ولكن أيضاً جبل الهيكل، والمدينة المقدسة في مقابلته،

كانوا جميعاً مضائين.

وخامساً،إنه عرف باسم جبل الضياء، بسبب أن الزيت، الذي هو غذاء المصابيح، تنمو أشجاره هناك بكثافة، ولهذا أطلق عليه اسم جبل بساتين الزيتون، أو الزيتون، الذي تنمو أشجاره هناك بأعداد كبيرة من قبل ذاتها، ومن دون أن يزرعها أحد، والزيت الذي ينتج، يستخدم في هذه الأيام لتغذية المصابيح في هيكل الرب، وهنا أشجار زيتون ضخمة جداً، وقديمة كثيراً، إلى حد أنني أعتقد أن بعضهم موجود هناك منذ أيام المسيح، ومستمر حتى أيامنا هذه.

وقال القديس أوغسطين في تعليقاته على انجيل القديس يوحنا، بأن جبل الزيتون هو جبل المسح بالزيت والدهن به، وهو جبل الغذاء السمين، والشبع، والنقاء والشفاء، وقد قال هذا بسبب أعداد أشجار الزيتون التي تنمو هناك، والتي ثمارها دهنية، وأرضية، وطيبة لذيذة، ذلك أن ايزودورس قال بأن زيت الزيتون يصبح من خلال مرارة جذوره غذاء للمصابيح، ودواء للجرح، وإنعاشاً للجائع.

وسادساً، عرف باسم جبل الضياء، لأنه أعلى من الجبال الأخرى، ومنه يمكن للانسان أن يرى بنور عينيه المنطقة من حوله بالطول وبالعرض.

وسابعاً، إنه عرف باسم جبل الضياء، لأنه بهيج أن تنظر إليه، وباعث على سرور الذي يتطلع إليه من الرابية المقابلة، لأن عليه بساتين الزيتون، وأشجار التين، والرمان، وفواكه أخرى، وفي العصور القديمة نمت أشجار الأرز والصنوبر، والكروم، وكل مايحتاجه الانسان، على سفوحه. ويكفي ما قلناه عنه، وورد ذكر جبل الزيتون هذا، ووادي شعفاط لدى القديس برنارد في قداسه لفرسان الهيكل، الاصحاح الثامن.

كهف القديسة بلجيا المذنبة والتائبة

وعندما فرغنا من عمل كل ما ذهبنا إليه ومن أجله، في كنيسة صعود الرب، خرجنا منها، ونزلنا بضع درجات إلى طريق يقود نزولاً من خلال مكان منحدر إلى الوادي، وبعدما نزلنا قليلاً خلف الدرجات، وصلنا إلى بيعة مظلمة بعض الشيء هي بيعة القديسة بلجيا، حيث فيها أنجزت أعمال توبتها، وفيها أيضاً أنهت حياتها، ووقف أمام باب الكهف مسلم، منعنا من الدخول، حتى دفعنا له بعض المال وبعد حصوله على المال سمح لنا بالدخول، وعندما دخلنا إليها، قرأنا الصلوات المحددة، وتلقينا غفرانات(+)، فضلاً عن ذلك، تأثرنا كثيراً واستفدنا من درس توبة القديسة بلجيا، فقد كانت —حسبما ورد الخبر في حياة الآباء — امرأة طموحة وعابثة في المجتمع القيادي لأنطاكية، وكانت فضلاً عن هذا شهوانية وغير خلقية، وبعد كثير من الجرائم وأعمال القتل التي اقترفت من أجلها، تحولت وقالت: «أنا بلجيا، بحر من الذنوب، يتدفق بأمواج من الشرور، وأنا بؤرة من الفساد، وأنا شرك، ورسن للأرواح، وخادعة لنفسي، وغاشة للآخرين، لكنني الآن أرتعد أمام هذه الأشياء كلها»، واعلم أن هذه الحكاية قد جرى عرضها بشكل جميل جداً في تاريخ أنطونينوس Antoninus، القسم الأول، المجلد السابع، الفصل التاسع والفقرة السادسة.

وهكذا بعدما اعترفت بذنوبها، حملت نفسها إلى الكنيسة، وبعدما تلقت التعليمات من قبل أسقف أنطاكية، باعت كل ممتلكاتها، وأعطت المال إلى الفقراء، ولم ترغب بإعطاء ممتلكاتها إلى الكنيسة والكهنة، بل إلى المحتاجين فقط، عادة نفسها أنها غير جديرة بممتلكاتها، لأن هذه الممتلكات ينبغي أن تتحول إلى استخدامات مقدسة.

وبعدما فعلت هذا، غيرت ملابسها، وغادرت أنطاكية بشكل سري، وأخذت طريقها إلى جبل الزيتون المقدس، ثم حملت نفسها إلى هذا

الكهف، حيث عـاشت حيـاة دينيـة كـاملة، تعجـب منهـا جميع سكان المنطقة، ولم يعـرف أحد من الناس بأنها كانت امرأة، حتى مـاتت، وكان ذلك أثناء غسيلهـا بحضور الكهنة المقـدسين والأساقفـة، الذين تولتهم الدهشـة تجاه مـا رأوه، فـدفنوها في زنزانتهـا، حيـث من الممكن رؤية ضريحها حتى هذه الأيام.

وهناك ممر ضيق بين ضريحها والجدار القريب منه، وعليه كل من يود المرور من خلال هذا الممر يمكنه فعل ذلك بصعوبة بالغة، وعليه أن يجر نفسه من خلال عمل حجري، وهناك حكاية رائجة بين الناس أن مامن انسـان حي مـذنب، يمكنه المرور مـن خـلال هذا الممـر، وأعـدّ أنا هذا أسطورة، لأننا مــررنا جميعـاً من خـلالـه، هذا ولست أدري فيما إذا كنا جميعا في حال النعمة، الرب وحده يعلم.

المكان الذي صيغت فيه أحكام العقيدة الاثني عشر من قبل الرسل

وبعد مغـادرتنا لكهف القديسة بلجيـا، نزلنا على محاذاة طرف الجبل، ومـررنا بالطريق الذي يقـود إلى بيت فـاجي، وبيت عنيـا، وتسلقنا على جدار من الحجـارة الجافة إلى بستان، ووصلنا إلى خـرائب كنيسة كبيرة، كـانت تعـرف باسم كنيسـة القـديس مـرقص الانجيلي، وكـان في هذه الكنيسة فيما مضى غفـرانات، مثلما هو موجـود في هذه الأيام، وحصلنا على هذه الغفرانات بتلاوتنا للصلوات(+).

ويقـال بأن هذه الكنيسـة قـائمـة في المكـان الذي صـاغ فيـه الرسل المقـدسـون أحكام العقيـدة، فهنا اجتمعـوا مع بعضهم لوحـدهم، حتى يكونوا بعيـدين عن ضجيج النـاس، وبوحي من الرب صـاغـوا أحكام العقيدة، وبعد صيـاغتهم لهذه الأحكام انتقلوا إلى جبل صهيون، ودعوا إلى عقـد أول مجمع مقدس للكنيسـة المسكونية، وعـرضوا أمـام المجمع

الأحكام، والعقيدة، التي تناقشوا حولها، ثم أعطوا كل ذلك إلى الكنيسة لنشرهم في الخارج في جميع أرجاء العالم، وذلك حسبما تحدثنا من قبل في ص ٤٤٦، واعترفنا في هذا المكان مجدداً بالعقيدة نفسها، وتلونا الأحكام.

المكان الذي علم الرب فيه تلاميذه التفوه بالصلاة الإلهية

ولدى مغادرتنا للبستان الذي فيه الكنيسة المتقدمة الذكر، نريد الطريق الذي يمضي نزولاً على الطرف المنحدر للرابية، وصلنا ونحن نازلين إلى الوادي، ثم نزلنا وسرنا مسافة قليلة إلى مكان نحن فهمنا أنه قد قام فيه فيما مضى كنيسة أو مزار، وكانت هذه الكنيسة تعرف باسم «بيت الخبز»، وقد تلونا هنا الصلوات المحددة، وتلقينا غفرانات(+)، ويقال بأن هذه الكنيسة قد بنيت فوق المكان الذي نقرأ عنه في الاصحاح الحادي عشر من انجيل القديس لوقا، أنه عندما كان يسوع يصلي في أحد الأماكن، قال واحد من تلاميذه له: «يارب علمنا أن نصلي»، فهنا علمهم الصلاة الربانية، التي هي الأعظم قبولاً لدى الرب، لأنها قصيرة وعظيمة الفائدة، هذا وكان قد تفوه بهذه الصلاة من قبل فوق أحد الجبال في منطقة الجليل، في قداس طويل، حسبما قرأنا في الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى.

وعندما صلى الرب لوقت طويل في هذا المكان، تعجب تلاميذه من صلاته، وسألوه ان يتعلموا هذه الصلاة، فأعطاهم وقتها الصيغة نفسها للصلاة التي تقدم له التفوه بها في قداس عام، وهذه الصلاة متفوقة على الصلوات الأخرى، لأن التفوه بها جاء من فم المخلص نفسه، حيث كثف فيها وجمع كل صلواتنا البشرية في جملة صحيحية واحدة، وبناء عليه قلنا هنا الصلاة الربانية بخشوع أعظم من الخشوع المعتاد، وقبلنا هذا المكان مراراً، والذي أعتقده بأن هذه الكنيسة قد عرفت باسم كنيسة خبز الرب، لأنه مطلوب منا ان نسأل هناك من أجل الخبز، وأن

نسأل أيضاً من أجل الجسد وكذلك من أجل الروح، ويوجد في هذا المكان في اليوم الحالي، بركة عميقة، لكن من دون ماء.

المكان الذي وعظ المسيح فيه حول المباركات الثمانية

وتركنا بيت الخبز، وتابعنا طريقنا نازلين من الرابية، حتى وصلنا إلى مكان كان فيه طريق واسع مغطى بحجارة ملساء، أي كأنه قد رصف بالرخام، ويقولون بأن المسيح قد جلس في هذا المكان، وردد المواعظ لتلاميذه ثم تناول القداس الوعظي ثانية حول المباركات الثمانية، وهو ما كان قد وعظ به من قبل على جبل بالجليل، وكذلك في منطقة منبسطة، كما اتضح لدينا من قضية الصلاة الربانية، وهذه المسألة — على كل حال— لايمكن تجميعها من الانجيليين، ففي الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى بأنه وعظ حول المباركات الثمانية (أي كرر قوله طوبى، ثماني مرات حول ثمانية مواضيع) على جبل، وجاء في الاصحاح السادس من انجيل القديس لوقا، بأنه كرر القداس نفسه على منبسط من الأرض عند سفح جبل في منطقة الجليل.

وعندما جاء فيما بعد إلى اليهودية، من المعتقد أنه وعظ بها مرة أخرى في هذا المكان، وهذا ليس موجوداً في الانجيل، ولكنه أثر قديم روي عن القديسين، فيه أن هذا القداس الوعظي الثمين جرى التفوه به في هذا المكان أيضاً، ذلك أن كل واعظ لديه موضوع جيد ومفيد، غالبا سيتولى الوعظ حوله مرات عديدة، في المكان نفسه، وفي أماكن مختلفة. وقمنا في هذا المكان بالانحناء بأنفسنا مصلين، وتلقينا الغفرانات المحددة(+).

المكان الذي تنبأ الرب فيه إلى الحواريين حول الحساب الأخير

وتحت المكان المتقدم الذكر، وصلنا إلى المكان الذي جرى الحديث عنه في الاصحاح الثالث عشر من انجيل القديس مرقص، وذلك حيث

جلس يسوع مع تلاميذه، وحيث أخذوا يسألونه حول تدمير المدينة والهيكل، الذي رأوه بأعينهم، وأخبرهم بأشياء كثيرة حول العذاب الذي سينزل بهم، وحول المسيح الدجال، والحساب الأخير، والعلامات في الشمس، والقمر، والنجوم، التي نقرأ حولها في الاصحاح الحادي والعشرين من انجيل القديس لوقا. وقبلنا في هذا المكان طبعات القدم المقدسة وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي اعتادت العذراء المباركة على استرداد أنفاسها فيه والاستراحة أثناء قيامها بحجها

وعندما نزلنا أكثر قليلاً من المكان الذي جلس فيه المسيح، وصلنا إلى المكان الذي اعتادت مريم العذراء المباركة أن تجلس فيه وترتاح أثناء حجها اليومي، ونعلم من كتابات الآباء، ومنهم جيروم في رسائله، وكتابات أوغسطين، وأنسلم، وبرنارد، وكتابات القديس يوحنا الدمشقي في قداسه حول صعود العذراء، حيث ذكروا بأن مريم العذراء المباركة، كانت تقوم يومياً بعد صعود ابنها بزيارة خاشعة تماماً إلى جميع الأماكن التي جرى فيها صنع خلاصنا، ومع أنها كانت بالروح، إنها طوال بقائها بالجسد حية، تحركت بوساطة المشاعر الجسدية، ولذلك كانت تنتعش بزيارة هذه الأماكن، وكانت يوميا تلتهب بمشاعر قوية جديدة، هي مشاعر الحب، وبذلك كانت تشرق بقوة أكثر بوساطة زياراتها المقدسة.

ودعونا على هذا ننظر إلى هذا الحج الذي هو في غاية الخشوع، أي حج مريم العذراء المجيدة، على أنه عمل للممارسة التقوية، فقد عاشت العذراء المجيدة، تبعاً للاعتقاد الرائج، أربع عشرة سنة بعد صعود ولدها، وقد أمضت هذه السنوات كحاجة، تنتقل بالفعل بالجسد من مكان إلى آخر، وكانت قد نذرت القيام بثلاث حجات، ما دامت حية

في هذا العـالم، والحجـة الأولى كـانت سنوية، وكـانت الثـانيـة شهـرية، والثالثة حجة يومية، ففي الحجة السنوية، من المعتقد، أنها نزلت كل سنة من القـــدس إلى الناصرة، وزارت هناك بخشـــوع عظيـم، المكان الذي جـرى فيـه تحيتها مـن قبل الملاك، متذكـرة، ومستعيـدة في عقلهـا جميع البهجة التي شعـرت بها لدى حملها بابن الرب، وعادت شـاكرة للرب، من أجـل المنافـع الهائلة التي أضفيـت من قبلـه، على العـــالم أجمع من خلالها، في ذلك المكان المقدس.

وكانت بعـد انجازها لهذا تعود بوساطة الطريق نفســه، الذي سارت عليـه بعـد حملها بابن الـرب، حين بادرت مسرعة إلى جبـال اليهـودية، وحيت اليـزابت، وبتواضع تولت خـدمتها عندمـا ولدت يوحنا، وذلك حسبما ورد الخبر في الاصحاح الأول من انجيـل القديس لوقـا، وعندما كانت عائدة عبر هذه الطريق، تجدد في قلبهـا أحلى أنواع البهجة، خاصة عندمـا وصلت إلى المكان الذي أشرقت فيـه روحها، عندمـا غنت تلك الترنيمـة الحلوة، وهي ترنيمـة Magnificat ، التي بسببهـــا انتشى الطفل ببهجة في رحم أمه، وقفز، وابتهج ابتهـاجاً عظيماً، وبعدما زارت هذا المكان عادت إلى القدس.

وثانيـا، من المعتقـد أنها ارتحلت مـن القـدس إلى بيت لحم، مـرة كل شهر، وأنها كانت تدخل هناك إلى الكهف الذي انتشر منه النور الأبدي فغطى عــالمنا، وهـو نور ربنا يســوع المسيح، فمن هـو الذي يمكنه أن يصف النشـوة التي شعـرت بها في هذا المكان، فعوضـاً عن الغفـرانات المطلقة من أجل مسح الذنوب، الأمر الذي يناله المذنبون في هذا المكان، هي حملت معهـا بالإضافـة إلى زيادة عـزلتها، إشراقـاً مطلقاً وراحـة في عقلها، وعليه كم هو نافع وجميل هذا التبادل.

وثالثا، كـانت حريصة في كل يوم على زيارة الأماكن الأعظم قـداسة في القدس وأحـوازها، ففي الصباح البـاكر، ومع اقتراب الفجـر، وبعد

تلقيها القربان من القديس يوحنا على جبل الرب، جبل صهيون، كانت تمضي مع وصيفاتها، وتدخل إلى تلك القاعة الكبيرة، التي جرى تجهيزها من أجل العشاء الأخير، حيث تأملت حول الهبة الهائلة التي أضفيت هناك على الجنس البشري، كما كانت قد نظرت في أعمق الأسرار، وقبلت المكان الذي جلس عليه ابنها، ومن هناك كانت تذهب إلى بيت حنان (عناس) الذي كان الكاهن الأعلى، وبعد صلاتها هناك كانت تدخل إلى قاعة قيافا (كيفاس)، وتتأمل ملياً، لكن ليس من دون أسى، وتفكرت بالعذاب الذي تعرض له ابنها في ذلك المبنى. وكانت تنزل من هناك، من جبل صهيون في خارج المدينة، وتتقدم إلى صخرة الصليب، التي كانت تعانقها، وتقبلها بحنان، مشفقة على ذلك الذي جرى صلبه هناك، ومع ذلك كانت تبتهج تجاه تقواه الثمينة وتعلقه بالذين تولى خلاصهم.

وكانت من هناك تدخل إلى بستان قبر الرب، ومن ثم تتوجه إلى المكان الذي جرى فيه تحنيط جسد ابنها الذي هو الرب، ودهنه وحفظه بالعطور، فهناك كانت تركع وتقبل الحجرة، وبعد هذا كانت تقوم بسرعة وتنهض من هناك، وتأخذ طريقها إلى ضريح الرب، فتدخل إلى كهفه، وتحتضن ضريحه، وهي ممتلئة في تلك البقعة ببهجة لايمكن وصفها، واثر مغادرتها لهذه الأماكن كانت تنزل من رابية أكرا، باتجاه باب المدينة، وتسير على طريقها، إنما وهي متفكرة بابنها، ومتذكرة كيف أنه اقتيد خارج المدينة، وسار على طول الطريق وهو مثقل بحمله للصليب الثقيل، وكانت تجثو في الأماكن التي رأت ابنها فيها، عندما سقط تحت ثقل الصليب، أو عندما تعرض لحملة قاسية من الإهانات والأذى.

وبهذه الوسيلة كانت تدخل إلى المدينة من خلال باب القضاء، فتصعد إلى قاعة قضاء بيلايطس، وتقبل الأماكن التي جلد ابنها فيها

وتوّج، مع تقديم الشكر، ولدى مغادرتها لذلك المكان، كانت تذهب إلى بيت هيرود، وتقبل أماكن طبعات قدم ابنها هناك، ومن هناك كانت تمضي إلى هيكل الرب، وبعد الصلاة هناك، كانت تغادر الهيكل من الطرف الآخر، وتأتي إلى الباب الذهبي، حيث كانت تستعيد مشهد دخول ابنها في يوم أحد السعف.

وبعد مرورها من هناك، أي من ذلك الباب، كانت تنزل إلى وادي شعفاط، حيث هناك كانت تصلي لصالح جميع الجنس البشري، من أجل أن يكون جديراً بالوقوف هناك غير مقيد في يوم الحساب الرهيب، لأنها عرفت أن مامن صلاة كان لها وزنها في ذلك اليوم، حتى صلاتها هي ذاتها، ولذلك توجهت مقدماً وسلفاً بالخطاب إلى القاضي، فوق تلك البقعة، وكانت بعد هذا تعبر الجدول، وتبين لمرافقاتها مكان ضريحها، وكانت تدخل إلى الكهف، ولدى دخولها له كانت تمتلىء ببهجة لايمكن التعبير عنها، لأنها كانت تعرف أنها سوف تتسلم في هذاالمكان أولا بهجة كمال ثمار عملها، أي أنها سوف ترتدي ثوب مجد لكل من الجسد والروح، ومن ثم سوف تنتشل من هذا العالم الشرير، ولسوف تمجد فوق جوقة الملائكة، وبعد هذا، كانت تغادر مكان ضريحها، وتمضي إلى الأعلى قليلاً، وتدخل إلى الكهف الذي صلى فيه الرب يسوع ثلاث مرات عندما كان في آلامه العظمى، وهنا أيضاً كانت تقوم وهي متفكرة بآلامه بالجثو بركبتيها على طبعات قدم ابنها، وتبقى مثابرة في صلواتها أطول من المعتاد، وبخشوع أعظم من أي مكان آخر، وتقبل الأماكن التي اعتقل فيهاابنها.

ولدى مغادرتها لهذا المكان، كانت تبتعد عن الوادي، وتذهب إلى الكنيسة على جبل الزيتون، وذلك حيث وقف يسوع ونظر نحو المدنية، وبكى، فهنا أيضاً كانت تلتفت بوجهها نحو المدينة وتبكي سوء حظها بتنهدات كلها عاطفة وشفقة، وصعدت من هناك فوصلت إلى الجليل

والبيت الريفي، حيث تأملت حول مجد قيامة ابنها، وبهجة تلاميذه، واثر اكمالها لصلاتها هناك جاءت تسير على حافة الجبل نحو المكان الذي قابلها فيه الملاك في اليوم الأخير من حجها، وأخبرها وأعلن بأن وقت مغادرتها (لهذه الحياة) بات وشيكاً.

وصعدت من هناك وتابعت سيرها، ووصلت إلى مكان صعود ابنها، حيث قبلت بخشوع مطلق طبعات القدمين المقدسة، والظاهرة بوضوح على الصخرة، وبما أن هذا المكان موائم بشكل خاص للصلاة، أرادت أن تغادره متعجلة، حتى تمتلك وقتاً أطول فيما بعد لتمضيه هناك فقد رغبت بالنزول وهي مشرقة النفس إلى الطرف الآخر من جبل الزيتون، وأن تمضي خلال بيت فاجي، وبيت عنيا، من أجل زيارة معارفها هناك، والأماكن التي انوجد فيها ابنها، مثل بيت مرثا، وقبر لعازر، وبيت سمعان المجذوم.

وبعدما أكملت زيارتها هناك، طلبت ثانية المنطقة المرتفعة، وتوجهت صعوداً، وهي نحيفة وضعيفة، كأنها اكليل من دخان، ذلك أنها صارت متلاشية بسبب أعمال توبتها المتنوعة، وكانت تحترق في داخلها بلهيب الحب التقوي، وهكذا نشدت بمظهر مشرق، وبشوق لايمكن وصفه القمة المقدسة لجبل الزيتون، ومن هناك نزلت، بغية العودة إلى مكان صعود الرب، حيث ذهبت وكأنها هي شخصيا كانت على وشك الصعود مباشرة ولقاء ولدها، وعندما كانت هناك عانقت طبعات الأقدام المتقدمة الذكر مع قبلات كثيرة، وكانت ترفع أحياناً عينيها وأحياناً أخرى ذراعيها إلى السماء وكانت فوق هذا المكان يتولاها شعور بالبهجة العظيمة، لدى تفكيرها بأنه هناك أضفي على ابنها أعظم تشريف ممكن وعليها نفسها، عندما أخذ ذلك الجسد الذي ولد منها، ورفع من هناك، ومجد فوق جميع السموات.

ولدى مغادرتها لهذا المكان، كانت تأخذ طريقها عائدة إلى البيت،

وتسير وهي نازلة من الجبل، حيث كانت ستمر بالمكان الذي وضع فيه الرسل مع بعضهم العقيدة، التي علمتهم إياها شخصياً، فهناك كانت تقف بعض الوقت، وتصلي من أجل الذين اعتنقوا العقيدة، ومن هناك كانت تمضي إلى المكان الذي علمهم الرب فيه أن يقولوا: «أبانا»، حيث كانت تقف، وتتلو تلك الصلاة، وكانت تقدم الشكر، وهي سائرة في المكان الذي جرى الوعظ فيه بالمباركات الثمان.

ومن هناك كانت تنزل إلى المكان الذي جلس فيه المسيح مع تلاميذه، وأخبرهم بالحكاية المتعلقة بيوم الحساب الأخير، حيث كانت تقدم هناك صلاة من أجل أن يكون رحيماً في قدومه الثاني، ومن ثم كانت تتابع سيرها حتى تصل إلى المسكن، ذلك أنني قد قلت بأن نهاية حج مريم العذراء المباركة، قد كان مكان استراحتها واستردادها لأنفاسها.

وفي الأيام التي كانت فيها العذراء مريم حية، قامت هناك أماكن للسكنى شغلها فلاحون جيدون، كانوا يراقبون بدون توقف مرور العذراء، فكانوا يدعونها للجلوس وانعاش نفسها في الظل، وغالباً ما كانت بدورها تخرج عن الطريق، وتجلس وتريح أطراف جسدها، وعلى كل حال هي لم تكن تشعر بالاجهاد والتعب من خلال العمل، لكنها كانت تخفي هذا الامتياز صدوراً عن التواضع، وذلك مثلما أخفت امتياز كونها عذراء في طقوس طهارتها، وامتياز التحرر من الألم، عندما كانت على حافة الموت، فقد أخفت هذا الامتياز، برقودها في فراشها، وكأنها ضعيفة تعاني من المرض، وذلك حسبما تقدم الوصف في ص٤٤٨.

وبعدما استردت قواها، التي لم تفقدها، بل كانت معطلة في المكان المتقدم الذكر، نزلت من سفح الجبل إلى الوادي، حيث بعدما زارت أضرحة بعض الأنبياء، وصلت إلى قبر قرينها الطاهر جداً، أي يوسف الذي دفن هناك على حافة الصخرة، فقد كانت تقف أمام هذا الضريح

وتتـــذكـــره بسرور، ومن هناك كـــانت تعبر على الجسر فـــوق الجدول، وتصعد ثانيـة إلى جبل صهيون، وعندما تصبـح هناك، كانت تذهب إلى المكان الذي تلقت فيـه هي نفسها مـع التلاميـذ، الروح القدس، وكـان ذلك في يوم عيد الحصاد، وهناك ثانية كانت تمتلىء ببهجة جديدة.

ومن هناك كـــانت تنزل، وتقصـــد ضريح النبي داوود، الذي كـــان جـدها، وبعد هذا كـانت تذهب إلى مكان اعتكافها، الذي كـان قريبـاً، ومن المعتقـد تقويـا، أنه كان لديها هناك أثريـن مقدسين، هما عبـارة عن حجرتين كبيرتين، جلبتا لها من جبل سيناء بوساطة الملائكة، فقد جلبت أولاهن من المكان الـذي فيـه رأى مـوسى العليقـــة تحترق من دون نار مستهلكة، فأمـام هذه الحجرة كانت تقـدم صلاة شكر مناسبـة من أجل الحفاظ المجيد على عذريتها، أمـا الثانية فقد جلبت من قمة جبل سيناء، حيث أعطيت الوصايا العشر إلى موسى، وأمـامها كانت تدخل في تأمل حول روعة هذه الوصايا، وتقدم الشكر للرب، أنه من خلالها أعطى إلى العـالم، الذي من خـلاله، ســوف تكتمل الشريعـة في كل نقطة وفي كل عنوان، وذلك حسبما قـرأنا في الاصحـاح الخامـس من انجيل القـديس متى، وبوجود هاتين الحجرتين لديها كـان بامكانها زيارة صحراء سيناء، لأنها كانت في الحقيقة حاجة، ومن أجل رواية عن هاتين الحجرتين انظر مـاتقـدم في ص٤١٢، وبعـد فـراغهـا من صلواتها في هذا المكان كـانت تنهض لتعود إلى بيتهـا، وبذلك كانت تصل بحجهـا إلى النهاية في ذلك اليوم.

ومن أجل رواية عن بيت العذراء مريم الأعظم قداسة، وذلك حيث سكنت انظر مـاسيأتي فيها بعد، وحول مـوضوع هذا الحج الذي قـامت فيه العـذراء مريم الأعظم قـداسة، قـال أوديليو Odilio ، الذي كان لاهوتيـا قديماً للكنيسة: «إذا مـا أردنا أن نعـرف ما الذي فعلتـه العذراء المبـاركة بعـد صعـود الرب، فبـدون شك، زارت مراراً أمـاكن الميـلاد،

والآلام، والقيامة، والصعود، وبكت هناك وطبعت عليهم قبلاتها بفمها الأعظم قداسة»، وتحدث القديس جيروم في قداسه عن صعود العذراء وعن هذا الحج، كما يلي: «ربما قد نفترض من خلال عظمة حبها، كانت ستسكن في المكان الذي ولد فيه ابنها، وتوفي، ودفن، فبين هذه المواضع كان حبها سيتغذى بانعكاسات تقوية، حيث من المعتقد أن في ممتلكات الحب، من الممكن دوماً العثور على ما هو متشوق إليه».

وتحدث عن هذا الحج أيضاً أنطونيوس في الـ Summa، الجزء الرابع، المجلد ١٥، والفصل ٢٣، والفقرة الثانية، وعلى كل حال رأى هذان الكاتبان أننا ينبغي أن نؤمن بأن حج مريم العذراء المباركة، هذا، كان بالحري بالروح أكثر من أن نقدره بالشعور الفعلي، مع أنهما لم ينكرا هنا أنها قامت بالفعل بهذا الحج، وبذلك حصلت على فضيلة عظيمة، ولقد حصلت على الفضيلة في كل عمل عملته عن طواعية، وبالتالي عن كل عمل عملته في حياتها، والسبب في هذا هو أن الذكاء دوماً على صواب، مالم يمزج نفسه مع تخيلات عبثية، ومن ثم يضل بهم، ولنعلم أن ذكاء العذراء المباركة كان واضحاً إلى حد عدم فائدة التخيلات والفرضيات، وبناء عليه حصلت على الفضيلة بوساطة حجها.

والسبب الثاني هو هذا: أينما كان العقل غير معرض للخطأ في اتخاذ قراره، لايمكنه وقتها اختيار أشياء كثيرة، بل اختيار الشيء الأخير والأفضل بينهم، وهذه الشروط جميعاً حاضرة في قضية العذراء المباركة، ولهذا كتب في الاصحاح العاشر من انجيل القديس لوقا: «اختارت مريم النصيب الصالح».

وثالثا قال (بولص) الرسول في الاصحاح العاشر من الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس: «فإذا كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئاً فافعلوا كل شيء لمجد الرب»، ولم يستطع أي قديس الحفاظ على هذا المبدأ كاملاً إلا مريم العذراء الأعظم مباركة، التي وجهت دوماً بشكل

فضيل حـركـات إرادتها الحرة، وحصلت على المثـوبة بفعلهـا كـذلك، ولذلك قال أوديليـو: «شيء واحد نعرفه بشكل مـؤكد هو أن كل عمل من أعمال مريم، قد صنع دوماً، وتفكير الرب مـاثل أمام عينيها»، وقال جيروم في قداسـه حول صعـود العذراء: «أنا أفترض أنه إذا مـا أخذت قلوب البشر كلها، مع جميع القوى العقلية مجتمعـة لما كانت كافية لتفهم فهماً كليـاً كيف أنها استطـاعت أن تستـوعب الحب المقـدس في قلبهـا، وكيـف أنها تحركـت بـواسطـة الأسرار السماويـة حتـى تمتلىء بـالـروح القدس، أثناء تقليبها في عقلها لكل ماسمعته، ومارأته، وما عرفته».

وواضح من هذا، أنها عندمـا كـانت كحـاجـة من مكان إلى مكان، كانت العـذراء مريم الأعظم مباركة، مع أنها كـانت تقوم بعمل فضيل، كـان مع ذلك من الممكن، لا بل من المتـوجب، فعل ذلك واستخدامـه بشكل أحسن، حيث قال الرسول في الاصحـاح الثاني عشر من الرسالة الأولى إلى أهل كـورنثوس: «لكل واحـد يعطى اظهار الروح للمنفعـة» وقال في الاصحـاح الرابع من الرسالة الأولى إلى تيمـوثاوس: «الرياضة الجسدية نافعة لقليل، ولكن التقوى نافعة لكل شيء».

وعلى هذا من الممكن أنها أهملت هـذه الرياضـة الجسـدية، وكـرست نفسهـا كليـاً إلى الممارسـات التقـوية في التأمـل النقي والسكون، ومن المعـروف بشكل جيـد أن الـذين يتجـولـون بالجسـد يضلـون بالروح، وجواباً لهذا يمكن أن نقـول بأن مريم العذراء الأعظم مباركـة لها امتياز خـاص، هو أنها على انفـراد، وفي الوقت نفسه يمكنهـا أن تعيش حيـاة عمل، وحيـاة تأمل، الامتياز الـذي لم يمنح لأي انسان آخـر، فلبعضهم منحت حياة عمليـة، وللآخرين حيـاة تأملية، وبعضهـم — الرسل على سبيل المثال — عاشوا الحيـاتين، لكن في أوقات مختلفة، لكن الذي منح إلى مريم العـذراء الأعظم مباركة هو أن تعيش الحيـاتين معاً في اللحظة نفسهـا، وعلى هذا كـان بامكان الطفل أن يتغـذى بوسـاطة عملهـا

الظاهري، وتأملها الربـاني كان يتغذى بوضعهـا الداخلي، وكان بإمكانها التحـرك من مكان إلى مكان، لكـن —مع ذلك — لم تبق عقلهـا مثبتـاً دونها حركة على هدفه المحدد، وتخبرنا التقوى الممدوحة للعذراء المباركة أنها بقيت دومـاً في تقـوى جـزلة، الحالة التي عـدد قليل من القـديسين وصل إليها، للحظات خـاطفة، على سبيل المثـال خلال مـراحل متقطعة وطويلة جداً.

وإلى جـانب هذا أخبرنا ألبيرتوس، أنها أسهمت يـوميـاً في قـداس القربان، حسبها تقـدم الوصف في ص٤٤٨، وبذلك امتلكت عقـلاً مثبتاً بحيث مامن شيء رأته أو سمعته كـان يمكن أن يشغلها ويضللها، ففي كل يوم، كـانت قبل انطلاقهـا وخروجهـا لحجها، تستمع إلى القـداس، وتتصل بالتقوى الأعظم التهـاباً، وبذلك كانت تتحرك بحمى روحـانية عائدة للرب، وليست عائدة لها نفسها.

ويبـدو أن هناك سبباً آخـر حـول لماذا تـوجب عـدم خـروج مـريم العـذراء الأعظم مبـاركة وظهـورها يوميـاً، هو خشيـة امكانيـة تسبيب الدمـار لأي انسـان، لأننا ينبغي أن نعتقد أنها كـانت الأجمل في الجسـد وكذلك بالروح، ذلك أن الروح القدس قد قال لها: «أنت جميلة من كل جانب، ليس فيك مايمكن أن يـلام»، كما أن السن ومتاعب الحياة التي انقضت تحت الأحكام الديرية لم تؤثر عليهـا، والجواب على هذا هو، إن رؤية العذراء لايمكن أن يقود أي انسـان نحو الذنب، وأخبرنا القديس بونافنشر Bonaventur ، أنه أخبر صـدقـاً من قبـل يهود، أنه لدى رؤية العذراء مريـم المباركة، ومع أنها كانت جميلة جـداً، مامن أحد أثير بشهوانيـة شريرة ملحة، بل إن جميع المشاعر من هذا القبيل كـانت تخمد لدى الناظر إليهـا، بمظهرها الرباني، وكأن ندى عـذريا لطيفاً صـدر من عينيها، أو أشرق من عقلهـا اللطيف جداً، وذلك على عكـس ما يحدث لدى الاثارة برؤية امرأة شهوانية خاطئة.

عـلاوة على ذلك، يبدو أن الظهـور اليـومي للعـذراء مريم العظيمـة المباركة أمام الناس، كان من الممكن أن يعطي فرصة لمزيد من الغيرة بين اليهـود الشـاعـرين سلفاً بالغيرة، لأنهم بسبب الابن كـانوا يشعـرون بكراهيـة عظيمـة تجاه أمه، وعنـدما كـانوا يرونها تمرّ خـلال المدينة كـان الممكن استثـارتهم إلى حـد الاعتـداء عليهـا ثورة وغضبـاً، وأجيب أنا شخصياً على هذا بكلمات جـوابي المتقدم، وهو إنه طالما أن منظـرها كان يطفيء النيران الشهـوانيـة، كـذلـك كـان يخمـد ألهبـة الغيرة، والغضب والكراهية، وهكذا كان من ينظر إليهـا يفقد الحمية الوحشية والغضب، ويصبح تقياً ومحترماً تجاههـا، ولهذا كانت محترمة من قبل الجميع، وينظر إليها على أنها قـوية، وأخلاقيـة، وأمينة، وسيدة فـاضلة، وهكذا نقرأ في الاصحـاح الرابـع والعشرين من الحكمـة «تعبـدت في الهيكل المقـدس أمامه، وبذلك تأسست في صهيون، ومثل هذا أعطاني في المدينة المحبوبة راحة، وفي القدس كـانت قوتي، وتجذرت بين شعب شريف، لابل حتى بين حصة ميراث الرب».

وبناء عليه، حتى وإن كان اليهود قد امتلأوا حقداً ضد ولدها الفائق العذوبة، مـامن واحد أسـاء التصرف مع العذراء، وعلينا عـدم تصديق الرسامين الذين مثلوا يسوع، وهو مقاد يحمل الصليب وأناس يضربون رأس العـذراء، ويركلونها بأقدامهـم، وينبغي أن نضع في عقولنا حكمـة هوراس:

«العالم كله يعرف، أن مامن شيء مطلقاً

لم يتجرأ الرسامون على رسمه، أو الشعراء على غنائه»

ويكفي مـا قلناه عن حج العـذراء المبـاركـة جـداً، الذي هو بشكل خاص رأيت أنه موائم لاقحامـه في كتاب حجي وجولاتي، وذلك حتى تكسب جـولاتي تسـويغـاً أفضـل، وبناء عليـه جلسنـا في المكان الذي

اعتادت مريم العذراء المباركة جداً على انعاش نفسها فيه، واستردنا أنفاسنا وأرحنا أنفسنا، وكان ذلك بعد تلاوتنا لصلواتنا وتلقينا غفرانات(+).

اهرام شعفاط الذي منه نال الوادي اسم وادي شعفاط

ولدى مغادرتنا الموضع الذي اعتادت مريم العذراء المباركة جداً على الاستراحة فيه، نزلنا إلى سفح جبل (الزيتون)، وعندما بتنا عند سفح الجبل نزلنا إلى (الوادي) وذلك باتجاه الجنوب، جاعلين جبل الزيتون على يسارنا، وجدول قدرون على يميننا، وفوقه، على الطرف الثاني للجدول، توجد المدينة المقدسة، ومتابعين لنزولنا وصلنا إلى الجسر القائم فوق الجدول، الذي اجتزناه، وخلفناه وراءنا، وفيما نحن نسير كذلك، وصلنا إلى ضريح عظيم النفقات، منجور على شكل برج من الصخر الأصم، الذي تشكل منه الجبل، وقد اقتطع البناءون له الجبل بشكل هادف، حيث تركوا واقفاً منه ماهو كاف وكأنه كان محتوى في الهرم، وقطعوا الصخر من حوله، بشكل بدا فيه الهرم واقفاً بذاته، وكأنه بني هناك بشكل بارع من قبل عمال، والبناء قد قام من الأساسات، في حين هو بالحقيقة جزء من الجبل، وهو قائم هناك منذ بداية الدنيا.

ومقاييس هذا الهرم هي ستة عشر باعاً كبيراً من حيث الإطار، وربما هو ثلاثة باعات من حيث الارتفاع، وله في قمته قمة حادة الشكل، مع سقف وكأنه كان أبراجاً، والذي تحت السقف مفرغ، وهناك نوافذ مقطوعة فيه، وعلى هذا يستطيع انسان أن يجر نفسه خلف الهرم ومن ثم يدخل إلى داخل الهرم من خلال النافذة، كما فعلت أنا نفسي ذلك عندما كنت هناك لوحدي، حيث رغبت في أن أرى الذي كان بالداخل.

وقد أقيم هذا الهرم من أجل قبر واحد من الملوك العظماء، والرجال الأقوياء، هذا وهناك حكايات متنوعة حول من هو الرجل الذي عمل

له، فبعضهم يقول: أمر الملك سليمان بأن ينحت من أجل زوجته الأثيوبية، التي كانت ابنة فرعون، وقد دفنت فيه، وتشريفاً لها، قام أيضاً بنظم نشيد الانشاد، ولها بنى هياكل أوثانها العائدة لمولوك وشمس، وكذلك فعل أشياء أخرى كثيرة، تعامل فيها مع الرب دون احترام، من أجل حبه لها، وآخر شيء فعله هو نجره لهذا الضريح الفخم من أجلها.

ويقول آخرون — وهذا هو الرأي المقبول بين المسلمين، والمسيحيين الشرقيين — بأن أبسالوم بن داود، هو الذي تسبب بنجر هذه الصخرة، حتى يدفن فيها، وهذه الحكاية مؤسسة على الاصحاح الثامن عشر من سفر صموئيل الثاني، ولكن نظراً لإثارته الحرب ضد أبيه وخوضه لها، فقد مات بشكل تعيس، في مكان آخر، عبر الأردن، ولهذا السبب هناك عادة قضت بقيام جميع الأطفال الذين يمرون بهذا الهرم، سواء أكانوا من يهود، أو مسلمين، أو مسيحيين، بالتقاط حجارة من الأرض، ورميهم على الهرم، ولدى رمايتهم لهم يلعنون أبسالوم، ويشمتون منه لموته الشرير، ويأتي ذلك بمثابة تعبير عن كراهيتهم لعدم طاعته لأبيه، فضلاً عن هذا، إذا كان لدى أي واحد في القدس ولد غير مطيع، كان يقوده إلى هناك، ويرغمه بالتهديد، ويعريه ليرمي حجارة على القبر، وليقوم بلعن أبسالوم، وكان يحكي لولده حكاية شرور وموت أبسالوم، وهذه طريقة فعالة جداً في تقويم الأطفال في القدس، ونتيجة لقيام أعداد كبيرة من الأطفال برمي الحجارة عليه، فقد تجمعت الحجارة في أكوام كبيرة إلى جانبه، ولولا أنها تنظف من وقت إلى آخر، لتغطى بالحجارة منذ زمن طويل.

ويقول آخرون بأن شعفاط، ملك القدس، تسبب ببناء هذا الهرم حتى يمكن دفنه فيه، وأنا لا أعتقد ذلك، لأنه كان رجلاً صالحاً، متبعاً لأوامر الرب، مثل جده داوود، وبما أنه لم يكن منفصلاً عنه في حياته، لم يقصد الانفصال عنه في دفنه، وبناء عليه ورد في الاصحاح الأخير من

سفر الملوك الأول أن شعفاط عندما مـات، دفن في ضريح أبيه في مدينة داوود، وبناء عليـه ينبغي رواية الحكاية بشكل آخـر، بأن شعفـاط كـان صـاحب أفكار فخمـة، وقـد عمل أعمالاً رائعة، كـان من بينهـا تسببـه بنحت هذا الاهرام ليري عظمتـه، وليكون موضع إعجـاب بين الناس، وبذلك حصل على شهرة عظيمة بلغـت حداً، أن الوادي كله الذي كان يعرف من قبل باسم وادي Cela، صار فيما بعد يعرف بسبب هذا الهرم باسم وادي شعفـاط من قبل جميع الناس حتى في هذا اليوم، ولاتوجـد غفرانات مـرتبطة بهذا الهرم، وعلى هذا، كان بعدمـا نظرنا إليه، أن ذهبنا إلى بقية (الأماكن المقدسة).

قبر يوسف زوج مريم العذراء وقبر الشيخ سمعان المقدس

ويوجد على الجانب الأيمن للهرم حفرتان في جدار الصخرة، يقولون بأنهما ضريحين، مـدفـون في الأول منهما يوسـف، زوج مـريم العـذراء المباركة جـداً، ومربي يسوع المسيح، ومدفـون في الآخر سمعان، الرجل العجوز الذي أخذ الرب بين ذراعيه، وغنى ترنيمة: «الآن تطلق عبدك، حسب قولك بسلام»، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الثاني من انجيل القـديـس لوقـا، وقـد انحنينـا بأنفسنا نحـو الأرض أمـام قبري هذين الرجلين المقدسين، وتلونا صلواتنا، وتلقينا غفرانات(+).

وعن مـدى قداسـة هذين الرجلين وعظمتهما وتميزهما، نحن نتعـرف إلى ذلك من روايـات الانجيل الصحيحـة، وبشكل خـاص مـايتعلق بالقديس يوسف، ذلك أنه مامن شك أنه قـد تمتع بامتيازات من النعمة خاصـة، واحتل مكانة علية مع الرب، حتى عهـد إليه بالعناية بمثل هذا الكنز العظيم، ومن أجل الثناء عليـه، انظر كتابات ألبيرتوس، هذا وقـد ورد ذكـره في نص (لوقا:١/ ٢٧) قـوله: «إلى عذراء مخطوبة لرجل كـان اسمه يوسف»، وانظر كتـابات جيرسون Gerson أيضاً، في قـداسه حول الميلاد، وحول العذراء مريم، وحول تجسيد يوسف، وهنا علينا أن

لانؤمن ولانصدق الرسامين، الذين رسموا يوسف على شكل انسان مقعد صغير الحجم، انحنى ظهره طاقين، وهو يستند على عصا، ورأسه رمادي، وهو كله غير قادر على إفادة العذراء أو ابنها، فقد كان رجلاً نشيطاً وقوياً، وعاملاً قديراً، وكان انساناً ناضجاً في وسط العمر، ثم إنه قبل خطبته للعذراء وبعد ذلك بقي غير ملوثاً فيما يتعلق بهذه المسائل، وبالنسبة لهذه المسائل، انظر القداس المتقدم الذكر، الذي عمله جيرسون.

ضريح النبي زكريا، وأضرحة أخرى، وأماكن إقامة القديسين

وإثر مغادرتنا لهذين القبرين، وصلنا إلى قبر آخر قد نحت في الصخر، وهم يقولون بأن هذا القبر هو قبر النبي المقدس زكريا بن براخيا، الذي ذبحه اليهود فيما بين الهيكل والمذبح، كما ألقى المسيح بين أسنانهم ولقنهم، (متى: ٢٣/ ٣٥)، وبناء عليه انحنينا هنا على ركبنا، والتمسنا شفاعة النبي، وتلقينا غفرانات(+).

وبعد نهوضنا من هناك، تابعنا سيرنا نازلين على طرفي الجدول، ومررنا بعدد من أماكن الإقامة والزنزانات المقتطعة من جدران الصخر على طرف جبل الزيتون، حيث عاش هناك فيما مضى رجال مسيحيون أتقياء، ومتدينون، لأن جبل الزيتون وعر عند سفحه، ومليء بكهوف عميقة في الصخر، وقد استخدمت الكهوف لتكون أضرحة، وصاروا فيما بعد أماكن إقامة للرهبان والقديسين، لكنهم الآن مهجورين من قبل الأحياء والأموات سواء، باستثناء أنه يسكن في بعضهم بعض الناس التعساء جداً من الكفار، الذين بسبب كفرهم لايستطيعون الاقامة في مكان آخر بين الناس.

ونظرنا إلى هذه الزنزانات بدهشة، وعجبنا من الحياة البسيطة للقديسين القدماء، الذين صدوراً عن حبهم للرب، ورغبتهم بالأرض

المقدسة حبسوا أنفسهم بين قبور الموتى، وتحملوا العيش في كهوف صغيرة، وشعرنا بالغضب نحو أنفسنا، نحن الذين بتنا متعبين من السكنى في قصور عظيمة، وفي أديرة واسعة وجميلة، لأننا صرنا فاترين في محبتنا نحو الرب، وأهملنا واجبات الحياة الديرية.

كهف القديس جيمس الرسول
الذي تخفى فيه أثناء اعتقال الرب

ولدى متابعة نزولنا وصلنا إلى كهف كبير، مع أعمال نجر كثيرة في الصخر، وهو مليء بأماكن اختباء مظلمة، مع طبقتين من الأقبية، وحفر منجورة في الغرف العلوية مثل النوافذ، وعندما كنا نسير هناك في هذا الكهف، ورد إلى ذهني بأنني قد رأيت مكانا يشبهه من جميع الجوانب في سوابيا، قرب غموند Gmund ، وكان اسم ذلك المكان ابرستين Eberstein، فالذي رأى الأول كأنه شاهد الثاني، سوى أن الفلسطيني هو أوسع ويمتلك كهفا أعمق، وإلى هذا الكهف هرب القديس جيمس الأصغر للالتجاء، عندما اعتقل الرب وأخذ أسيراً، وقد رقد هنا متخفيا.

وأخبرنا كل من يوسيفيوس وجيروم فيما كتباه عن حياة الرجال المشهورين، أنه عندما مات الرب على الصليب، قطع جيمس على نفسه عهداً أن لايأكل طعاماً، حتى يرى الرب قد قام من الموت، ولذلك جاء الرب في يوم القيامة إليه في هذا الكهف وأعطاه طعاماً، وحول هذا الرسول انظر ص ٤٥٢، وبعد وفاة هذا الرسول جلب جسده إلى هذا الكهف ودفن، ونتيجة لذلك ومنذ ذلك الوقت فصاعدا بدأ المكان ينال الاحترام، ويرمم من قبل المؤمنين المسيحيين حتى هذا اليوم، ولهذا ربط البابا سكتوس غفرانات مطلقة بهذا المكان، وجرى الاعلان عن هذه الغفرانات أثناء حجي الأول، وقرئت فوق البقعة إلى الحجاج التائبين،

وكانت مختومـة بختم رصاصي، وبناء عليه انحنينا بأنفسنا في هذا المكان نحـو الأرض وتلونا الصلوات المعينة في كتب مسيرة الأرض المقـدسـة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++) مع روح خاشعة.

وكنت قـد قرأت في بعض كتب الحجـاج بأن هذا المكان قـد أعطي مرة إلى رهبـان طائفة المبشرين، الذين بنوا كنيسـة وديراً هناك، بحفرهـم بشكل أعمق لكهـوف في الصخـر، وأنهم سكنوا هنـاك لبعض الوقت، لكنهم اضطروا أخيراً، بسبب مضـايقات المسلمين، وسرقـاتهم المستمرة وهجماتهم، مـرغمين إلى مغادرة المكان وهجـرانه، وبذلك آلت الكنيسـة مع أبنيتها الخارجيـة إلى العدم، وبعـد سفر الحجـاج، غالبـاً مازرت هذا المكان، وقـرأت صلواتي هناك، وقمت بـاستكشـاف هـذا الكهف بكل دقـة، وكنت في بعض الأوقات أتخيل نفسي أنني في وسط دير للرهبـان، وبذلك كنت أمتلىء ببهجـة قلبيـة، ولكـن عندمـا أدركت العـزلة المؤلمة للمكان، اعتدت أن أجلس آسفا، وكـان هذا المكان كثير الموائمة لرهبان تابعين لطائفـة المبشرين، وفي هذه الأيام سـوف يكون مكاناً موائماً جـداً لهم للسكنى فيـه، لو أن جميع الظروف الأخـرى كـانت موائمـة أيضـاً، وذلك لأسباب كثيرة هي كمايلي:

١ــ بسبب الاعجـاب بالمبشر الذي عمـل الكهف له، أي القـديس جيمس الرسول، الذي أثناء عمله في التبشير وعرضـه للحقيقة قد ألقي به من على حـاجـز المذبح، وصـار أعرجـاً، حتى عندئـذ لم يتـوقف عن التبشير حتى ألقى به مـن قمـة الهيكل ومـات، وعندهـا نقل إلى هنا من القـدس ودفن، والآن من هو أجـدر بأن يتملك ضريح مثل هذا المبشر المخلـص للرب غير هـؤلاء الرهبـــان، الـذين بـدايتهم، ووسطهـم، ونهايتهم، واسمهم المبشرين؟ ولهذا السبب عندما تأسست طائفتنا أولاً، منحت كنيسـة القـديس جيمس في باريس، التي نمتلك فيهـا حتى الآن ديراً فيه ثلاثمائة من الرهبـان ذوي التقوى العظيمة، ولهذا يطلق في تلك

المناطق على رهبان طائفة المبشرين اسم رهبان القديس جيمس.

٢— وسبب آخر هو أن هذا المكان مـوائم للرهبـان المبشرين، لأنه بسبب فضائل ومثابرة هذا الرسول، كان طاهرا خلال حياته، وكان معا رسولاً وتقيا طوال أيامه، وهذه أمور تتوافق كلها مع عادات المبشرين.

٣— وبسبب أن جبل الـزيتـون، هذا الجبل، الـذي كما تقـدم وقلنا مضـاء بمصـابيح هيكل الرب، وبـالشمس، وبالزيت، وبمصـابيح الكنائس، وربما يمكن أن نسمي طائفة الـرهبـان المبشرين بـاسم جبل الضياء، لأن هذه الطائفـة مضاءة بعلم اللاهوت، الذي جـاء من هيكل الرب، وبعلم الأخلاق الذي أشع من الشمس، وبالضوء الطبيعي الذي جـاء من صناعتهم، المرموز إليهـا بالزيت الذي ينمـو هناك، والذي هو غذاء المصابيح، وبعلم التجربة المرموز إليه بمصابيح الكنائس.

٤— وبسبب الجدول الذي فيـه يجري إلقاء جميع الفضـلات المجلوبة من المدينة، فهنا تختفي، وتجرف بعيـداً وتزال، كما تقدم بنا القـول، ومثل هذا فإن جميع قـذارات العالم تتم إزالتهـا بوسـاطة حكمة الوعـاظ، ففي الأمثال: ١٨، يقـول: «كلمات فم الانسان ميـاه عميقة. نبع الحكمة نهر مندفق»، والكتابات المقدسـة هي نهر فائض، ولذلك يتوجب على المبشر أن يشرب، كما يقول المزمور: «هو سـوف يشرب من النهر أثناء مروره» وفي مزمور آخر: «هو سوف يشرب البهجة كما يشرب من النهر».

٥— وبسبب الأرز الذي اعتـاد أن ينمـو إلى جـانب الجدول، لأن الأرز دائم الخضرة، ومرتفع، وخشبـه لايفسد، ومثل هذا الراهب المبشر له بعهـوده الثـلاثة: خضرة الطهـارة، وسمو الفقـر، وطاعـة غير قـابلة للفساد.

٦— وبسبب أن وضع المكان مـوائم للرهبـان المبشرين، لأن الموضع قائم في وادي، خـارج أسوار المدينة، وبالـوقت نفسه ملاصـق للمدينة،

فمثل ذلك على الـرهبـان المبشرين أن يسكنوا دومـاً في الوادي بسبب التواضع، بعيداً عن ضجيج العالم، إنما في الوقت ذاته على مقربة من بني البشر، حتى يمكن تغذيتهم بكلماتهم وبالمثل.

٧— وبسبب قسوته، لأن المكان موجود بين الصخور، وهو صعب، ووعـر، ومثل هذا ينبغي أن تكون حياة الراهب المبشر، حيث يتوجب تمضيتهـا في المصاعب مع طهـارة الجسد، حتى يصبح الراهب مطواعـاً، خشية أنه بعـد وعظه للآخرين أن يصبح مرفـوضاً، وذلك حسب تعبير الرسول (كورنثوس:١/ ٩).

٨— والمكان منعـزل يتجـاوب مع الحاجـة للـدراسـة والتأمل، التي توائم المبشر الجيد والفعال، ولأن ذلك لايمكن ممارسته بين الحشد.

٩— ولأن المكان رفيع بعـض الشيء وضيق، وهو نمـوذجي للفكر حتى يجمع ذاته، ويبتعد عن الجولات التي بلاهدف.

١٠— ولأن المكان قـريب من جبـل الزيتـون، ومن جبل العـدوان. ومن جبل صهيـون، ومن وادي هنوم، ومن حقـل حق الدم، ولنلاحظ هنا تنوع الموضـوعات بالنسبـة للواعظ، الذي يمكنه أن يعظ إما حـول جبل الزيتـون، أو حـول الفضـائل، أو حـول جبل العـدوان، أو حـول الشرور، أو حـول حق الدم، أو حول الموت، أو حـول وادي هنوم، أي حـول جهنم والادانة الأبدية، أو يمكنه الوعظ حـول الجبـال والوديان، أي أن يكون مديوناً لكل من الحكماء والجهلاء، كما قال الرسول (روما: ١/ ١٤)، أو للتأمل والعمـل، أو للمتـديـنين وللعلمانيين، أو للرجـال المستقيمين وللمذنبين، أو للجيدين والمسيئين.

الجسر فوق جدول قدرون ووصف ضفتيه شروعاً من المكان الذي يعبره الجسر

وعندما أقبلنا من الكهف بعد فحصنا له، لم ننزل مسافة أبعد في الوادي، بل عدنا عبر الطريق الذي قدمنا عليه، وذلك حتى هرم شعفاط، الذي يوجد على مقربة منه جسر مقنطر من الحجارة يعبر الجدول، وهكذا ذهبنا إلى ذلك الجسر، وجثونا أمامه مصلين، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وحدثتنا التواريخ الاغريقية، وكاتب مصنف الـ Speculum Historiale ، ورووا لنا الحكاية التالية: عندما كان سليمان يبني بيته من خشب لبنان، وقع في أيدي العمال جذع شجرة، وجدوا أ نه غير مفيد لهم، وقام أحد الناس بجر هذا الجذع وأنزله نحو الجدول، وعمل منه جسراً لعبور الأفراد الجدول عليه في هذه البقعة، وحدث أنه عندما جاءت ملكة سبأ — التي قيل بأنها كانت إحدى العرافات — وكانت على وشك عبور الجدول، مع الملك، غدت مندهشة لدى مشاهدتها لذلك الجذع، وألقت نفسها في الجدول وتعبدته، فكشفت بذلك عن أسرار الصليب، وقالت إن هذا الجذع سوف يشكل في أحد الأيام صليب المخلص، ونتيجة لذلك حمل سليمان الجذع من هناك، وطمره في باطن الأرض قرب الهيكل، حسبما جاء ذكرنا من قبل، وفي مكان الجذع الذي أخذه، أمر ببناء جسر حجري، وفوق هذا الجسر غالباً ما عبر الرب مع تلاميذه، وذلك كلما رغب بالذهاب إلى جبل الزيتون، أو إلى بيت عنيا، وعبر هذا الجسر اقتيد إلى بيت حنان.

ومثل هذا عبر داوود جدول قدرون عند هذا المكان، عاري القدمين مع جميع الناس، عندما هرب من القدس من أمام وجه ابنه أبسالوم، وهنا أيضاً وقف الكهنة مع تابوه الرب، حتى عبر الناس جميعاً، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الخامس عشر من سفر صموئيل الثاني، وبناء عليه عبرنا بتقوى الجسر، وصعدنا فوق الجرف المنحدر لجبل صهيون المقدس، الذي إليه اقتيد الرب يسوع مغلولاً من البستان إلى بيت حنان،

الراهب الأعلى.

وحدث أننا عندما وصلنا إلى قمة الجبل،وجدنا أنفسنا غير قادرين على تحمل حرارة النهار الكبيرة، فاتفقنا أن نقوم بعد الغداء بزيارة بقية الأماكن المقدسة، من حول جبل الزيتون، التي لم نكن قد ذهبنا إليها بعد، وبناء على ذلك نزل الفرسان مسرعين إلى مشفى القديس يوحنا، لتناول طعامهم، بينما دخلنا نحن رجال الدين إلى دير الرهبان، وتغدينا معهم.

زيارة الأماكن عند سفح جبل صهيون وأولها نبع مريم العذراء المباركة

وبعد الغداء اجتمع الحجاج الذين كانوا أقوياء مع بعضهم، من أجل المزيد من الحج والتعب، وفي الحقيقة إنه ليس عملاً بسيطاً وجهداً خفيفاً الذهاب حاجاً هكذا من مكان إلى مكان، كما لاحظنا في ص٤٠١ المتقدمة، وبناء عليه عندما اكتمل جمعنا، نزلنا من جبل صهيون، من على الجانب الشمالي من الجبل، وذلك عبر طريق طويل، حيث تركنا الطريق الذي صعدنا عليه من قبل على يميننا، ووصلنا الآن ، ونحن على منحدرات جبل صهيون إلى نوع من أنواع الكهوف، وهي مغارة مفتوحة في الأرض، ودخلنا من فمها، ونزلنا إلى باطن الأرض، وسرنا فوق رمال من دون أية درجات، وبما أننا دخلنا إلى مكان كان محجوباً عن أشعة الشمس، لم يكن بإمكاننا رؤية أية شيء أو قليلاً جداً ما رأيناه، لأنه من طبيعة العين أنه عندما ينتقل الانسان إلى الظلال خارج أشعة الشمس كل شيء يبدو بالنسبة له مظلماً، وعندما كنا نازلين في هذه المغارة، قدم لمواجهتنا مسلم حاد، كان قادماً من الأعماق وهو يركض بسرعة، وكان يصرخ بشكل عجيب صرخات غاضبة، مظهراً غضبه في صوته وفي ملامحه وفي حركاته، وقد أراد اخراجنا وطردنا من

الكهف، وذلك حتى لانصل إلى الماء، ولكن بها أنه كان وحيداً، وكنا نحن كثرة، لم نهتم به، بل تابعنا نزولنا، وتجاه ذلك ضاعف من صراخه، وتعاظم غضبه، ولو كان لديه عصا، لأرغمنا جميعاً على الفرار.

وعندما رأى هذا المسلم أننا لم نهتم به، استدار بنفسه بسرعة، وتجاوزنا جميعاً نحن الذين كنا نازلين، وغرس نفسه على حافة النبع، حيث تقاتل بكل وسيلة ممكنة مع الذين رغبوا بشرب الماء، وصدهم، ودفعهم، وضربهم عندما وصلوا إلى الماء، لكن أحد الفرسان اللومبارد وكان من ميلان، صعد بشجاعة، وأمسكه بذراعه، وجره بقوة وأبعده عن النبع، وهنا صار المسلم غاضباً من الفارس وانقض عليه، وشرع يضربه بمقبض يده، ودافع الفارس من الجانب الآخر عن نفسه بقبضة يده، لأن مامن واحد منهما كان لديه سلاح، وغدوا غاضبين جداً أحدهما من الآخر، ولو لم يقم الحجاج بفصلهما لمزق أحدهما الآخر إلى قطع.

وعندما رأى المسلم أنه لن يتمكن من انزال انتقامه على الفارس، شرع يركض بسرعة صعوداً، قاصداً لجلب آخرين لمساعدته للقتال معنا، غير أننا أمسكناه، وقبضنا عليه بشدة، مع أنه صرخ وناضل بشكل عظيم، وفي الحقيقة كنا ستتعرض إلى خطر عظيم لو أنه أفلت من بين أيدينا، وكنا غير مسرورين من الفارس، وبعد كثير من الصراع، وحدّ بعض الفرسان بين حافظات نقودهم وعرضوا على المسلم بعض المال، ومنحوه له إذا بقي هناك، وتخلى عن الصراخ، ووعد بالمحافظة على السلم مع الحاج الذي ضربه، ولست بحاجة لقول المزيد، ذلك أنه ما أن رأى المال حتى تغير إلى انسان آخر، حيث أصبحت ملامحه هادئة، وصار صوته أكثر لطفاً، وزال غضبه، وقدم نفسه، مستبشراً وبدون قيود لخدمتنا حسب الطريقة التي نختارها، وهذا الرجل الذي كان من غير الممكن من قبل تهدئته بالكلمات أو بالضربات، أو بعدد الحجاج، عندما

رأى هذه النقــود صــار جــاهزاً لإطاعتنا، لأنـه كما قــال سليمان في الجامعة: ١٠ «أما الفضة فتحصل الكل».

وهكذا عندمــا استلم المال نزل إلى الخليج،ونضح الماء لنا جميعــاً، وأعطانا ذلك بكرم، وبعـدمـا شربنا جميعـاً من ذلك الماء النقي، صعـدنا ثانية، وتلونا صلواتنا أمـام فم الكهف، وحصلنا على غفرانات(+)، لأن هذا نبع العذراء مريم المباركـة، حيث يقال أنه في اليوم الأربعين، عندما جـاءت مع يوسف والطفل يســوع من بيت لحم، وذلك بهدف تقـديم الطفل يسوع في الهيكل، وقد نزلت إلى هذا الخليج، وأقامت هناك، لأنه لم يكن لديهم مكان للإقامة به في المدينـة، وذلك باستثناء ماكان لديها في بيت لحم، وهي لم تختر الإقـامة مع الناس الفقـراء الآخـرين، في سـاحـة الهيكل، لأنها كـانت تخاف من هيرود، لأن الاشـاعة حـول الملك الذي ولد منهـا كـانت قد انتشرت في أرجـاء البـلاد، وبسبب ذلك اضطرب هيرود ومعه القدس كلها.

وكـان بإمكانها — على كل حـال — الـذهاب من هذا الجسر بشكل سري، إلى الباب الذهبي، جالبـة معها الطفل يسوع، دون أن يلاحظ إلى داخل الهيكل، وممارسة جميع الطقـوس المتعلقة بقانون الطهـارة، وهو ما فعلته، لأنه لم هناك أحد سوى الذين أنذروا من قبل الروح القدس، بأن يكونوا هناك في تلك السـاعة، عـلاوة على ذلك، كانت كلما جـاءت إلى القـدس، سنة تلو سنة، كـانت تقيم في هذه الهوة، وعندمـا كانت تقـوم بحجها، اعتادت على المرور عبر هذا الطريق، وانعـاش نفسها إلى جانب هذا النبع.

الصخرة الاعجازية مع الصدع الذي حدث فيها أثناء آلام الرب

بعدمـا قمنا بواجباتنا كحجـاج عند نبع مريم العـذراء المجيدة، تابعنا سيرنا، والتففنا حول جبل صهيـون، وذلك باتجاه طرفه الجنوبي، ودخلنا

في جانبه الغربي إلى وادي سلوان، ووصلنا إلى مياه غدير تجري بصمت نحو وادي شعفاط،وذلك حسبما قال اشعيا (الاصحاح:٨): «مياه شيلوه الجارية بسكوت»، وسرنا على مجاراة هذا الجدول، الذي يجري نزولاً إلى جانب جبل صهيون، ويصل إلى صخرة عالية، ولأنها كانت عند سفح جبل صهيون، ارتفعت خارج مجرى الجدول، وفي هذه الصخرة صدع كبير ممتد من القمة حتى القعر، ويمكن للانسان، دون أن يعصر نفسه، الدخول إلى الشق في الصخرة، ويقال بأن هذا الشق قد صنع أثناء آلام الرب، فقد قرأنا في انجيل متى:٢٧/ ٥١ قوله: «والصخور تشققت»، وبناء عليه قفزنا فوق الجدول، ودخلنا إلى الشق، ومضينا فيه حتى لم نعد نجرؤ على المتابعة والتوغل أكثر، بسبب الظلام.

بركة استحمام سلوان حيث استحم الرجل الأعمى واسترد بصره

وعندما خرجنا من الشق في الصخر، قفزنا فوق مجرى جدول سلوان، وذهبنا صعوداً نحو بركة استحمام سلوان، التي إليها أرسل يسوع سيليدونيوس Celidonius (كذا)، الذي كان أعمى منذ ولادته، من أجل أن يغتسل، وقد اغتسل واسترد بصره، وحسبما قرأنا في يوحنا:٩، لم تكن بركة الاستحمام هذه اكثر من مجرد بركة صغيرة، تجمعت وتشكلت تحت نبع سلوان، فيها كان يتجمع الماء الذي تدفق من النبع، حيث أقاموا له أطراف بالحجارة والطين، مثلما يعملون برك الأسماك في بلادنا، ولايوجد في بركة الاستحمام هذه ماء، لأن مجرى الماء لايصب بها، بل يجري نحو الأسفل إلى جانبها، وقد قام واحد من المسلمين في هذه الأيام بزراعة بستان خضراوات، في داخل جدران بركة الاستحمام، وقد نمت بعض الأشجار فيها، ولم نعبأ بهذا كله، ودخلنا إلى المكان على أساس المعجزة التي صنعت هناك من قبل المسيح في الأيام الغابرة، وتلونا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وقد قرأت في واحد من كتب الحج أن بشبع زوجة أوريا كانت تستحم فيها عندما رآها داوود أثناء وقوفه فوق بيته، وجامعها، وأخذها لنفسه، وهذا لايمكن فهمه، لأنه ليس هناك مجال للنظر إلى نبع سلوان من جبل صهيون، وقد جاء في النص (صموئيل الثاني: ١١/ ٢) بأن المرأة كانت تستحم وتغسل نفسها في غرفتها العليا مقابل بيت الملك.

المكان الذي ينبع منه نبع سلوان وتتدفق منه المياه تحت جبل صهيون

لدى مغادرتنا لبركة استحمام سلوان، سرنا على طول مجرى الجدول حتى وصلنا إلى نبع سلوان الذي يتدفق من جبل صهيون، وعندما سرنا إلى هناك صاعدين على طرف الجدول تولتنا الدهشة تجاه قذارة المياه ولونها الذي تعافه النفس، ولكن عندما وصلنا إلى النبع اكتشفنا سبب قذارة لون المياه، فقد كان هناك مسلم يعمل بالدباغة قد وقف عند فم الصخرة التي يتدفق منها نبع الماء، وكان ينقع الجلود ويغسلها ويتعامل معها بقدميه، وهي الجلود التي سلخت مؤخراً من الحيوانات، ولذلك صار الماء قذراً ودموياً، ولهذا لم يعد بامكان أي واحد أن يشرب من الماء أو أن يغسل وجهه، أي في الماء الذي يجري من بعد مكان الدباغ.

وبعدما وصلنا إلى المكان الذي كان فيه الدباغ، دخلنا إلى شق الصخرة الذي يخرج منه النبع، وكان هذا الشق عميقاً وعالياً، لكنه لم يكن عريضاً، وهناك ينبع الماء، أي من الأجزاء العميقة من الأرض، وعندما كنا هناك، فوق المكان الذي كان فيه الدباغ، شربنا وغسلنا أعيننا، بمثابة ذكرى للمعجزة التي صنعت بهذه المياه، بالنسبة للرجل الذي ولد أعمى (يوحنا:٢٠)، ويقول عوام الناس بأن كل من يغسل عينيه بماء هذا النبع، سوف لن يعاني بعد ذلك من أي ألم في عينيه، ولقد وضعت ثقة كبيرة في هذه الحكاية وصدقتها مثلما أصدق القول بأن كل

من يستحم في الأردن سوف لن يصبح عجوزاً، وهكذا وقفنا هنا متلاصقين ومحتشدين إلى جانب بعضنا في هذا الصدع في الصخر، وفي هذه الفتحة في الأرض، وكان هناك كثيراً من الضجة بين الحجاج، فالذين كانوا في الأمام صرخوا ضد انعدام الصبر لدى الذين وقفوا في الخلف، وهؤلاء الذين في الخلف قد صرخوا شاكين من بطيء الذين كانوا في الأمام، أما الذين وقفوا في الوسط فقد صرخوا بسبب الضغط الذي تلقوه من الطرفين، وكان هناك كثيراً من انعدام الصبر، لأنه لم يكن بامكاننا الدخول إلى الشق إلاّ بالمباعدة بين قدمينا، والسير بقدم واحد على كل جانب من جانبي الماء، ذلك أننا كنا جميعاً مرتدين لأحذية ثمينة، كانت ستتلف لو أنها تبللت بالماء، والذي حدث على كل حال، أن كثيرين دفعوا فسقطوا بأجسادهم في مجرى الماء نفسه، ولذلك أخذنا طريقنا بالصعود مسرعين للخروج من ذلك الموضع، وأيضاً من فم الكهف، حاملين معنا الماء المقدس في آنية وقوارير إلى الذين لم يتمكنوا من الدخول إلى الشق في الصخر، وجاء عدم تمكنهم بسبب حالة الحشد المتقدم ذكره والتدافع، وكان بين رفاقنا سيدات حاجات لم ينزلن بل جلسن بهدوء وسلام، وكن يقمن بتلاوة صلواتهن في الخارج، ولقد جلبنا الماء إلى هؤلاء(++)، وعندما بتنا جميعاً في الخارج، تلونا الصلوات المحددة، وحصلنا على غفرانات مطلقة.

وصف نبع سلوان ومياهه

ومما تقدم قوله من قبل، يمكن إلى حد ما فهم وصف المكان،وعلاوة على ذلك، ينبغي أن نلاحظ أن هذا الماء المتدفق يلبي علامات معجزة قائمة ومستمرة، أي بمعنى أنه لايتدفق بشكل مستمر، بل يتوقف لمدة ثلاثة أيام، ولربما لمدة أربعة أيام في الأسبوع، ثم إنه يتدفق، لكن ربما بمياه أقل، وأحياناً لايتدفق مطلقاً، وأحياناً أخرى بكميات فائضة، ولقد رأيت بنفسي الشق جافاً أحياناً، وأحياناً أخرى يجري بمياه قليلة

وشحيحة، وأحياناً أخرى مليئاً بالماء إلى حد أن ماامن أحد يمكنه الدخول إليه،واسترعت انتباهي هذه المياه بشكل غريب، حيث كنت غالباً ما أنزل إلى هناك قبل شروق الشمس وحيداً، لأرى ما الذي يحدث، لأن هذا التدفق غير المنتظم ليس مرتبطاً بالطبيعة، وليس مرده لها، بل كان ذلك يحدث بوساطة معجزة في أيام النبي اشعيا.

وكان الملك حزقيا، ملك القدس، عندما سمع بأن جيش الآشوريين كان مقبلاً للعسكرة أمام المدينة المقدسة أوقف الينابيع، وملأ البرك القائمة حول القدس بالطين والحجارة، بهدف أنه عندما يصل العدو لن يجد ماء، وبذلك يرغم على المغادرة بسبب العطش، فهذا ماورد في الاصحاح الثاني والثلاثين من سفر أخبار الأيام الثاني، وعمل أمام نبع سلوان بركة، كانت المياه تتجمع فيها من أجل استعمالات شعب المدينة، الذين كان يمكنهم النزول إلى هناك من المدينة، وحمل الماء معهم عائدين، وكان بامكان العدو أيضاً القدوم إلى المكان، وحمل الماء من هناك، ولهذا صلى اشعيا المقدس من أجل أنه كلما جاء الناس ونزلوا من المدينة يجدون الكفاية من الماء، لكن عندما يأتي العدو، سيجد النبع جافاً، وبذلك لم يكن بإمكان الأعداء العثور على أية مياه، ولذلك كذكرى لهذه المعجزة العظيمة لاتتدفق المياه بشكل متواصل، بل تتدفق في بعض الأحيان، وورد ذكر هذه المعجزة لدى يوسفيوس، ولدى كاتب SpeculumHis Toriale.

وبجوار هذا النبع جرى دفن النبي إشعيا من قبل الناس، بعد ذبحه من قبل الملك ماناسيس Manasses، وحدث أنه عندما بنيت القدس من قبل نحميا، بعد تدميرها من قبل الملك نبوخذ نصر بنى حاكم البلاد ميزبا MiZpah باب النبع عالياً في المدينة، ومن خلال هذا الباب صعد الناس ونزلوا لنضح الماء، وبنى جدار بركة سلوان، الذي كان قد سقط، وذلك حسبما جاء الخبر في الاصحاح الثالث من سفر نحميا،

ودمرت جدران بركة سلوان من قبل الرومان أثناء حصارهم للقدس، وذلك مثلما جرى تدمير كل شيء، غير أن المسيحيين الذين جاءوا من بعدهم بنوهم ثانية، وبنى أناس أتقياء أماكن لسكناهم حول هذه الجدران، وبنوا نوعاً من أنواع الديرة فوق النبع، فهذا مايمكن رؤيته حتى هذا اليوم، لأنه يوجد أمام النبع بركة تشبه حماماً، وهناك قد بني حول الجدران قناطر معقودة تشبه الممرات التي تكون حول رواق، أما أقواس الأسقف فهي مستندة فوق أعمدة رخامية، وهذا البناء مهدوم جزئيا، والباقي مهدد بالسقوط والخراب أيضاً.

ويبدو أنها مهمة سهلة هي القيام بترميم خرائب هذا النبع المقدس، لكن مامن أحد يلمسهم أو يضع يده عليهم، ولهذا يزداد المكان خراباً يوما إثر يوم، مثلما يحدث بالنسبة للأبنية في الأماكن المقدسة الأخرى، وكان هذا المكان في الأيام الخوالي محل تشريف، لأنه كان ضمن حديقة الملك، وكان هناك درج يقود صعوداً من النبع إلى مدينة داوود على جبل صهيون (نحميا:٣).

وأنا لا أستطيع أن أتصور كيف عمل حزقيا ملك القدس، وتمكن من حمل مياه سلوان نحو الأعلى إلى المدينة، وعبر مثل تلك المسافة الكبيرة، وذلك كما حدثنا نيقولا دي ليرا في تعليقاته على الاصحاح الثامن والأربعين من سفر الالهيات، مشاهدين أنه من نبع سلوان صعودا حتى المدينة هناك أكثر من أربعين خطوة مباشرة، يضاف إلى ذلك أنه ليس هناك ماء كثير في النبع، ثم إنه لايتدفق بقوة قادرة على إدارة دواليب ماء كان ربما من الممكن بوساطتها رفع الماء نحو الأعلى.

المكان الذي قطع فيه النبي إشعيا إلى قطع وسبب موته

وغادرنا الآن النبع المقدس، وصعدنا إلى جبل صهيون، وعلى المنحدر هناك وصلنا إلى مكان منبسط، فيه تقوم شجرة لها أغصان غليظة

وأوراق، ولا أعرف من أي نوع من الأشجار هي، لكنها تشبه شجرة زيزفون، فهنا يوجد المكان الذي تسبب فيه الملك ماناسيس الشرير — والذي كان قد ملأ القدس بالأصنام، وسفك كثيراً من الدماء البريئة — بذبح النبي اشعيا، لأنه انتقده من أجل شروره، ففي ذلك الحين قامت هناك شجرة أرز عظيمة وعالية، وذلك فوق المكان الذي قامت عليه الشجرة المتقدمة الذكر، وعندما جلب السفاحون النبي اشعيا لذبحه هناك، انفتح جذع شجرة الأرز، ودخل النبي اشعيا في شق الشجرة، وانغلقت ثانية، وأخفت النبي فيها.

وعلى كل حال لم يهتد الملك حتى بهذه المعجزة ولم يؤمن، بل أمر بشق الشجرة، وسحب منها النبي وذبحه وأمر بتقطيعه إلى قطع بمنشار الخشب، وتلونا في هذا المكان صلواتنا المحددة، وحصلنا على غفرانات(+)، وجلسنا بعد ذلك تحت ظل تلك الشجرة، وأرحنا أنفسنا، وتحدثنا حول قداسة النبي الذي ذبح هنا، والذي عنه قال جيروم، بأنه كان في نبوءآته ينسج انجيلا، ولم يكن بالحري يتنبأ، ولذلك يستحق أن يسمى بالانجيلي أكثر من تسميته بالنبي، ولهذا السبب تقرأ نبوءاته خلال موسم قدوم الرب، وفي ليلة ميلاد المسيح، وذلك في وقت الصلاة الصباحية، وفي القداس، وكأنهم كانوا جزءاً من الأناجيل الأولى، وبسبب روعة كتابات هذا النبي طلب القديس أمبروز من أوغسطين قراءتهم بعد تحوله إلى المسيحية مباشرة.

المكان الذي فيه شنق يهوذا نفسه على شجرة

وبعدما فرغنا من الاستراحة تحت الشجرة المتقدمة الذكر، انطلقنا على طريقنا، وأثناء سيرنا أشار أحد الناس وبين لنا المكان الذي قامت عليه فيما مضى الشجرة التي عليها شنق الخائن يهوذا نفسه، وعرض علينا اقتيادنا إلى ذلك المكان، لكننا رفضنا الذهاب لزيارته، ولم نحرك أنفسنا ولا خطوة واحدة نحوه، فقد كنا نكره أن نرفع أبصارنا ونلقي

نظرة عليه، لأنه ليس هناك لا نعمة، أو غفران، بل عقوبة، ويأس، وعار، ووقفنا على كل حال لوهلة قصيرة ننظر نحو المكان، وقرأنا بيت الشعر التالي الذي هو هجاء له: «سوف تظهر السماء شرور يهوذا، وسوف تثور الأرض ضده».

الكهوف التي إليها هرب الرسل أثناء اعتقال الرب، وفيها أقاموا متخفين

ولدى فراغنا من انشاد لعناتنا ليهوذا، نزلنا من على منحدر جبل صهيون إلى الوادي الذي يفصل جبل صهيون نفسه عن جبل جيحون، وهذا الوادي ضيق، ومتصل بوادي سلوان في وسطه، وقد عبرنا هذا الوادي الضيق، ووصلنا إلى سفح جبل حق الدم في الجهة المقابلة، وهذا الجبل قائم عند منعطف جبل جيحون باتجاه الشمال، وذلك مثلما جبل أكرا موجود عند منعطف جبل صهيون باتجاه الشمال، ومع هذا، إن الذي أراه هو أن ذلك الجزء صار اسمه الآن جبل حق الدم، بسبب حقل حق الدم، مع أن اسمه كله في الماضي جبل جيحون، والمقصود بذلك كل من منعطف الجبل والجبل نفسه، مثلما حدث بالنسبة لجبل صهيون وجبل أكرا، كما تقدم بنا القول حولها، وكذلك بالنسبة لجبل سيناء وجبل حوريب، فهناك اسم الجزء المنخفض جبل سيناء، واسم الجزء العلوي هو جبل حوريب، والحال هو نفسه مع جبل الزيتون، حيث أن الجزء المنخفض منه باتجاه الجنوب اسمه جبل العدوان، واسم الجزء الأعلى هو جبل الزيتون، وهذا هو الحال نفسه مع هذا الجبل، فهو من الوادي صعوداً حتى الحقل، اسمه جبل حق الدم، ومن الحقل فصاعداً اسمه جبل جيحون.

وهكذا صعدنا نحو جبل حق الدم، عبر رابية منحدرة، وسحبنا أنفسنا صعوداً عبر جروف وصخور حتى وصلنا أخيراً إلى بساتين تين

ورمان، وأشجار فاكهة أخرى، وكان في هذه البساتين عدداً كبيراً من الصخور منتصبة شاهقة في الهواء، وكذلك جدران من الصخور، فيها محفور كهوف مفردة، ومزدوجة، وثلاثية ورباعية، عن أمثالها تحدثت في ص ٤٨٣، فقد حفر القدماء هذه الصخور القاسية وأفرغوها لتكون أماكن للدفن، حسبما قلت في ص ٦٤٣، وفيما بعد، في أيام المسيحيين، قام أناس، صدوراً عن حبهم للأرض المقدسة، باختيار هذه الكهوف لتكون أماكن سكنى لهم، لأنهم لم يرغبوا بالسكنى والاقامة في أي مكان غير أماكن الأضرحة، حيث فيها يمكنهم بسرور انتظار الموت، وكان لدى تمكن واحد من القديسين القدماء من تحصيل واحداً من هذه المساكن لنفسه، كان يعتقد أنه قد وجد كنزاً.

وإلى هذه الكهوف هرب الرسل، عندما تخلوا عن الرب في البستان، وذلك عندما أخذوه مغلولاً ليمثل أمام الكاهن الأعلى، ووقتها لم يكن بامكانهم هجر مثل هذا المعلم الرائع، ومع ذلك لم يكن بامكانهم اتباعه، كما أنه لم تتوفر بالنسبة إليهم أية أماكن أفضل للإقامة خيراً من الكهوف المظلمة، لابل أكثر من هذا، لقد بذلوا جهودهم في هذه الكهوف نفسها لشق طريقهم إلى الأجزاء الأعمق منها، وصولاً —إذا كان ذلك ممكنا — حتى أعماق جوف الأرض، فهناك كان بامكانهم، أن يجدوا، على الأقل أماكن فيها يبكون وينتحبون ويصرخون، ويرفعون أصواتهم بالعويل، لأنهم أثناء وقوفهم عند أفواه هذه الكهوف لم يتجرأوا على التفوه بتنهداتهم بصوت مرتفع، ولا أن يعجوا بالبكاء، خشية أن يسمعوا، لكن الذي فعلوه هو أنهم حبسوا صرخاتهم مع حزنهم في صدورهم بقدر ما استطاعوا، وفي الحقيقة امتلأت صدورهم كثيراً بالحزن، وتورمت حلوقهم ووجوههم بالترح، ولذلك حشوا أفواههم بملابسهم، خشية انفجار أحزانهم، وسماع الأصوات من مسافة.

ولذلك سرنا في هذا المكان المقدس بحالة حزينة من كهف إلى آخر،

ووزعنا أنفسنا بين هـذه الكهـوف ومن حـولها، مبـدين احترامنا تجاه الأماكن وحزننا من أجل الرسل، وأثناء وقوفنا في داخل الكهـوف كان الحجاج يخاطب أحـدهم الآخر قائلاً: «تذكـر يا أخي أن الرسول أندرو المحبوب صدف وجلس هنا، وهو يبكي سـوء حظ معلمه»، وكان حاج آخر يجلس مقـابل حاج آخر ويقول له: «وهنا جلس الرسـول بارثلميو، يبكي لتخليه عن معلمـه المحبوب»، وفي كهف آخـر كان أحـدهم يقول للآخـر: «هنا جلس —كما هو محتمـل— تومـا وهو مـرتاب وحـزين»، ومن كهف آخـر كـان حـاج آخـر سيصرخ: «هنا في هذا الكهف المظلم يوجـد مكانين، أعتقد أن الرسـولين سمعـان ويهوذا، جلسا فيهما معـا»، وهكذا بذل كل واحـد جهوده مع آخـر، بحركـات خاشعة، ليقـوم كل واحد منهما بتحـديد مكان للرسـول الذي أحبه أكثر، وفي هـذا البستان دخلنا إلى كهف غريب، يشبـه إلى حد بعيـد ضريح الرب حسبما كان في وضعـه الأصيل، ولقـد تلونا صلواتنـا قـرب هذه الأمـاكن، وتلقينا غفرانات(+).

حقل حق الدم المقدس الذي شري بثمن دم الرب يسوع المسيح

وبعـدما فـرغنا من معـاينة أماكن اختبـاء الرسل، تابعنا صعـودنا إلى جبل حق الدم، وذلك عبر جـروف صخـرية شديـدة الانحدار، وكـان الممر صعباً ووعراً، وفي الوقت الذي كنا فيـه صاعدين نحو الأعلى أخذ بعض الفرسـان من ذوي النشأة المرفهة والناعمة يتمتمـون ضيقاً بسبب فقدانهم لصبرهم نتيجـة لمتاعب الرحلة، وكنا في الحقيقـة نعاني كثيراً من أشعة الشمس المحرقة، ومع ذلك تابعنا صعودنا، ووصلنا إلى حقل حق الدم المقـدس، وجـاء الخبر في انجيل متـى:٢٦، أن اسم هذا الحقل قـد كان قبل الآلام «حقل الفاخوري» بسبب أنه كان ملكاً لرجل فاخوري، واشترى اليهود هذا الحقل مقابل الثلاثين قطعـة (من الفضة) التي كانوا قـد أعطوهـا إلى يهوذا ثمناً للرب يسـوع، وجـرى شراء هذا الحقل من

أجل دفن الغـرباء فيه، الذين كـانت أجسادهم ترمى من قبـل في العراء من دون دفن، ولذلك ارتمينا على وجوهنا في هذا الحقل المقدس، وتلونا الصلوات المعينة وحصلنا على غفـرانـات مطلقـة(++)، وعندمـا أكملنا هذا، جلسنا للاستراحـة وللنظر إلى المكـان، وفي وقت جلوسنا على هذه الصـورة، جاء شـاب مسلم صـاعداً نحـونا، ومعـه سلة مليئة بالعنب، الذي شربنا بعضه، وهكذا جلسنا، وأكلنا العنب هناك في الحقل، ومتعنا أنفسنا تماماً.

وضع حقل حق الدم

حقل حق الدم قـائم على منحـدر جبل جيحـون، في مقـابل جبل صهيـون، على الطرف الجنوبي منه، وقائم فـوق الحقل نفسه بناء بأربعـة جـدران، يشبـه بـرج مـربـع منخفض، وهو مغطى بقبـة، مستندة على أطراف الجدران، ولهذه القبـة في أعـلاها تسع فتحـات مستـديرة، منهـا يجري رمي أجسـاد الموتى، وبما أن هذا المبنـى قـائم على منحـدر الجبل، فإن الجزء العلوي منه، بالنسبة للقـادم من أعلى الجبل نحو المبنى، يمكن للانسان أن يسير على سقفة المعقود مـن دون تسلق أو صعود، ومساحة السقف المعقـود لهذا البناء هي خمسين قـدمـاً من حيث العـرض، واثنين وسبعين من حيـث الطول، وهناك من الفتحـات العلوية نـزولاً حتى الأرض في الأسفل ستة وعشرين قدماً.

وليس هناك مـدخل إلى هذه الغـرفـة إلاّ من خـلال هذه الفتحـات، ومامن أحد يمكنه الدخول من خـلالهم مالم يتأتى انزاله بوسـاطة حبال، وهذا المسكن هو للأموات وحدهم، والذي أعتقده أنه منذ اللحظة التي انتهى فيهـا عمارة مامن انسـان دخل إلى هذا المبنى، بل إن كل من دخله مـرة لن يخرج منـه مطلقـاً حتى يوم الحسـاب، واستندت على معـدتي، ومددت رأسي نحو الداخل، فـرأيت هناك خمس جثث بين عظام جافة، ولايوجـد فوق السقـف المعقود الآن أي بناء، بل أعشـاب ناميـة هناك،

وقد غطت الأعشاب في بعض الأماكن الفتحات، ولذلك فإن الذين يسيرون هناك بدون انتباه قد تنزلق قدم أحدهم فيهن، وكانت المرأة المقدسة هيلانة قد بنت كنيسة فوق هذه البقعة، وقد أمرت بتكريسها لجميع القديسين، وإليها كان الرهبان الذين سكنوا في أمكنة اختباء الرسل، قد اعتادوا على الذهاب، والقيام بالقداسات هناك.

وفيما بعد، بعد ذهاب هؤلاء الرهبان، سكن رهبان من طائفة المبشرين هناك، وامتلكوا ديراً هناك، لأنه عندما قام روبرت، ملك صقلية، المتقدم الذكر، بشراء جبل صهيون والأماكن الأخرى لصالح الفرنسيسكان، وذلك من السلطان، مقابل أموال كثيرة، وقتها قام الرهبان المبشرون وطلبوا عون الناس الأتقياء. وبعدما جمعوا بعض المال، اشتروا حقل حق الدم، بهدف التمكن من بناء دير هناك، وكان ذلك في سنة ١٣٥٠ لتجسيد الرب، ففي هذه السنة كان لودلفوس Lu-dolphus، الذي كان كاهن أبرشية سوخم، موجوداً في الأرض المقدسة، وكتب هذا في كتابه عن حجه.

وبعد تسلمهم للمكان، احتفظوا به لبعض الوقت، لكن أخيراً أرغموا على التخلي عن المكان، بسبب هجمات المغاربة، والسرقات التي عانوا منها على أيدي المسلمين، وفيما يتعلق بهذا الأمر إن أوضاع الرهبان الفرنسيسكان جيدة في جبل صهيون، ولديهم مكان هادىء في داخل المدينة، محصن بشكل جيد بأسوار عالية وبأبواب حديدية، كما تقدم وقلنا في ص٤٦١، لكن هذه أوضاع ليست مستمرة، ذلك أنهم غالباً مايكونون في مخاطر عظيمة، من الهجمات المتواصلة للمسلمين، حتى في أوقات الليل، ولولا أنهم رجال شجعان، لتخلوا منذ زمن طويل عن جبل صهيون، بسبب المخاطر التي هم عرضة لها من هجمات هؤلاء الناس، ولهذا كان من غير الممكن بالنسبة للرهبان المبشرين البقاء في مكان غير محصن، في خارج المدينة، وذلك على الرغم من شرائهم

للمكان من السلطان، وأنهم بموافقته قد أقاموا به، ذلك أن المسلمين لايعبأون مطلقاً بذلك، ولذلك عندما تمّ اخراج الرهبان من ذلك المكان، هدم المسلمون الكنيسة والأبنية الأخرى، واجتثوا كل شيء حتى الأساسات نفسها، وذلك باستثناء مبنى الدفن الذي مايزال قائماً حتى يومنا هذا.

وبعد الرهبان المبشرين، سكن بعض الرهبان الاغريق الذين اسمهم Coloyers هناك، لكنهم أرغموا بالضرورات نفسها على التخلي عن المكان، وكان هذا ليس قبل وقت طويل مضى، لأنني وجدت في الكهوف، وفي أماكن الاختباء علامات تبرهن أن قوما سكنوا هناك قبل وقت قصير، وغالباً ما اعتدت على النزول إلى هذا المكان من جبل صهيون، وكنت أقرأ صلواتي الساعية فوق الحقل المقدس، وكنت أرغب كثيراً، أنه إذا كان ممكنا أن أنهي أيامي هناك بين الرهبان، وأن أدفن هناك، وبناء عليه اخترت هذا المكان ليكون قبراً لي، وتوسلت إلى رهبان جبل صهيون، أنه إذا حدث ومت في القدس، أن لا يقوموا بدفني في أي مكان غير هذا الحقل المقدس، وأن يلقوا بجسدي من خلال هذه الفتحات.

ويمكنني أن أقول صادقاً، إنه لو كانت الأوضاع الأخرى موائمة متوازنة، كنت أفضل اتخاذ دير هناك على اتخاذه فوق جبل صهيون، ذلك أنه هنا يمكن للرهبان زراعة بساتين، وكروم، وحدائق تين، ثم إن المكان جميل ولطيف، يتطلع نحو جبل صهيون، ونحو وادي سلوان، ويمكنه الحصول على مائه من نبع سلوان، القريب جداً، وهناك أيضاً منظر يشاهد منه وادي شعفاط، وجبل الزيتون، الخ.

وهم يروون صادقين أن أجساد الموتى، عندما يوضعون هناك، يتحولون مباشرة إلى رماد في خلال ثلاثة أيام، وتترك العظام الجافة فقط، ومثل هذا يقولونه عن الحقل المقدس الموجود في روما، إلى جانب

كنيسة القديس بطرس، الذي حملت الأتربة إليه من هنا عبر البحر، ومدت فوق ذلك الحقل، ويفعل مثل هذا أهالي بيزا، فعندما تتوفر لديم سلطة في سورية، يأخذون التربة من هذا الحقل، ويحملون ذلك في سفنهم إلى بيزا، وقد عملوا هناك مدفناً باهظ التكاليف، لدفن عظماء الرجال في بلادهم فيه، وتذوب الأجساد في هذه المدافن الثلاثة خلال ثلاثة أيام، بينما تحتاج في مقابر أخرى إلى مالا يقل عن ثمانية عشر عاماً.

وفيما يتعلق بالثلاثين قطعة من النقود، فقد قرأت حولهم حكاية طويلة متهافتة، قالت بأن تارح والد ابراهيم قد ضربهم، بناء على أوامر من الملك نينوس مع نقود أخرى من السكة نفسها، وأن ابراهيم قد تسلمهم، وجلبهم إلى هذه البلاد، وأنهم منه قد آلوا إلى اسماعيل بحق الميراث، جميعا ولم يتوزعوا قط، ولم يتفرقوا عن بعضهم بعضاً، وقد أعطاهم الاسماعيليه إلى أبناء يعقوب ثمناً لأخيهم يوسف، الذين باعوهم إياه، وقد حمل أبناء يعقوب هذه النقود معهم إلى مصر لشراء قمح بهم، ومن مصر جرى حملهم إلى سبأ، ثمناً لبضائع تجارية، وقد أعطتهم ملكة سبأ إلى سليمان ضمن هدايا أخرى، وقام هو برميهم في خزانة هيكل الرب، وقد حملهم نبوخذ نصر مع كنوز الهيكل الأخرى، وعمل منهم هدية إلى غودوليا Godolia (كذا)، الذي تولى ارسالهم إلى مملكة النوبة، وعندما ولد الرب في بيت لحم قدّمهم ملكيور ملك النوبة إلى الرب، وفقدهم يوسف والعذراء المباركة في الصحراء عندما كانا فارين مع الطفل، وعثر راعي عليهم واحتفظ بهم لمدة ثلاثين سنة، وكان هذا الراعي قد سمع بشهرة معجزات الرب يسوع، فقدم إلى القدس مريضاً، ولدى استرداده لصحته على يديه، منح الثلاثين قطعة إلى يسوع، ولأنه رفض استلامهم أعطاهم إلى كهنة الهيكل، الذين وضعوهم جانباً بمثابة «قربان».

وعندما جرت خيانة الرب، ناولوهم إلى يهوذا، الذي حركته الندامة،

فطوّح بهم في الهيكل، والتقطهم الكهنة، واشتروا بهم هذا الحقل، وبذلك تفرقوا وتوزعوا في أرجاء العالم، ولقد رأيت واحداً منهم في رودس، وقام يوهانس توخر أوف نورمبيرغ، بأخذ طبعة له، وصنع قالباً على شكله، وصنع نقوداً فضية على شاكلته، قام بتوزيعها بين رفاقه، وفي الحقيقة عندما اجتمعنا مع بعضنا في نورمبيرغ في سنة ١٤٨٥، للاحتفال باجتماع رجال الدين العائدين للمنطقة، قام الرجل المتقدم الذكر، باعطاء قطعة من قطعه الفضية إلى واحد من رهبان طائفتنا، وهذه القطعة بسعة النقود التي تعرف باسم Blaffardi والتي عليها علامة الصليب، ويوجد على الوجه الأول صورة وجه انساني، وعلى الوجه الثاني زنبقة، وكان عليها فيما مضى نقشاً، لكن لايمكن رؤيته الآن، وفي الذي قلناه عن جبل حق الدم كفاية.

وصف جبل جيحون وكذلك بيت الاجتماع التشاوري الشرير

وإثر مغادرتنا لحقل حق الدم، تسلقنا جبل جيحون بعد بذل جهد كبير، ويوجد على قمته خرائب أسوار عظيمة، ويوجد بين هذه الخرائب بعض بيوت الإقامة للمسلمين، وكان يوجد في أيام الملك داوود هناك قلعة حصينة على هذه الرابية، وكانت ملكاً للملك، وتقع في مقابلة بيت داوود مباشرة، الذي كان على أعلى نقطة من جبل صهيون، وذلك حيث يقوم الآن دير الرهبان، ولكل منهما — كما في كل مكان آخر — هناك ساحتين لهذا البيت تتطلع كل واحدة نحو الأخرى، وفي كل ساحة بعضاً من أجزاء البيت، ومتعلقاته، وحسبما قرأنا في سفر الملوك الأول:١، أمر داوود ابنه سليمان أن يركب بغلة الملك، وأن يتوجه إلى جيحون، وذلك إلى حيث لحق به جميع قوات الجيش، وهناك مسحوه ملكاً على اسرائيل، وضربوا بالأبواق، وصرخوا عالياً: «عاش الملك».

وأخبرنا يوسفيوس، أنه عندما سمع داوود هذا، جلس على أريكته، وغاص فيها، وتقدم بالشكر إلى الرب، لأن أصوات البوق والصراخ

فوق جيحون، يمكن بالحقيقة سماعه من فوق صهيون، وفي ذلك الحين كان أدونيا ويوآب مع البقية يحتفلون، حيث جلسوا إلى جانب نبع عين روجل، بجوار صخرة زوحلت (الزاحفة)، وبنيتهم أن يكون أدونيا هو الملك، وسمع هؤلاء القوم أصوات الأبواق فوق جيحون، وباتوا خائفين عندما علموا بحقيقة ما حصل، فقاموا وذهب كل رجل في حال سبيله، لأنهم كانوا عند سفح جبل جيحون، في واد ظليل تحت وادي شعفاط ووادي سلوان، حيث كانت هناك بساتين، مثلما هو موجود في هذه الأيام، وكانت هناك مياه، ومثل ذلك هناك نبع ماء في هذه الأيام، كما هناك حجرة كبيرة، اعتاد الشباب على رفعها للبرهنة على قوتهم، وكان اسم هذه الحجرة الزاحفة، والمكان هناك جميل فيه عمل أدونيا احتفاله، ولكنهم عندما سمعوا الأصوات من فوقهم من الجبل تنادي «عاش الملك»، ارفض اجتماعهم، كما قلنا من قبل.

وكان بيت جيحون في أيام المسيح هو بيت الكاهن الأعلى والكهنة الآخرين، وعندما كانوا يودون معالجة أية قضية، لاسيما إذا كانت سرية، كانوا فيه يتخذون قرارهم حولها، وعلى هذا كان هذا البيت بيت اجتماعاتهم التشاورية السرية، وهنا اجتمع رؤساء الكهنة مع الفريسيين للتشاور قائلين: «ماذا نصنع؟ فإن هذا الانسان....» فهذا ما رواه القديس يوحنا في انجيله، وبناء عليه، على هذه البقعة جرى الاتفاق على قرار موت المسيح، ومن المعتقد أنه في هذا البيت قرر اليهود القتال ضد الرومان، وضد تيتوس وفاسبسيان، ونتيجة لذلك جرى تدمير القدس.

ومن المحتمل أن الرسل جرى جلدهم في هذا البيت، حسبما قرأنا في أعمال الرسل:٥، وحدث هذا الجلد بحضور أعضاء المجلس التشاوري فقط، لأنهم كانوا يخافون من الشعب، كما جاءنا الخبر في الموضع نفسه، وكان كلما توفرت قضية احتاجت إلى المناقشة، وكانوا يخشون الشعب من أجلها، كانوا قد اعتادوا على اقرارها في هذا البيت، فهم كانوا

يستهـدفـون أن يكونوا منعـزلين عن بنـي البشر، وأن يكونوا في الوقت نفســـه في مكـان حصين، ولذلـك حصل هـذا البيت على اسـم «بيت الاجتماع التشاوري الشرير»، ومازال محتفظاً بهذا الاسم حتى هذا اليوم.

وعندمـا فرغنا من مشـاهدة هذا البيت، لم ننزل إلى الوادي، بل سرنا على حـافـة جبل جيحـون إلى الطريق الذي يقــود إلى بيت لحم، الذي عبرناه بـاتجاه الشرق، وسرنا من حــول الوادي القــائم فيما بين جبلي صهيـون وجيحــون، ووصلنا إلى حقل القصـار، حيث وقـف ربشـاقى يجدف ضد الرب إله اسرائيل، وذلك حسبما قـرأنا في سفر اشعيا: ٥٣٦ وقـد أطلق على هذا الحقل اسم حقل القصـار، لأن القصـارين اعتـادوا على تجفيف أقمشتهم فيــه، وهكذا عــدنا إلى القــدس عبر طريق حقل القصـار، وعبر الحجاج الـذين أقامـوا في المشفى، إلى المدينة، من خـلال باب السمك، أمـا نحن فدخلنا على مقـربة من برج داوود، ووصلنا إلى مكاننا، حيث مررنا على طول حافة جبل صهيون.

هنا نهاية الحج خلال مدينة القدس.

كيف أخذ الحجاج طريقهم إلى بيت لحم، التي هي مدينة داوود

في عشية اليوم الذي تقدم على السادس عشر من تموز، قدم دليلانا على ظهر فرس إلى جبل صهيون، وقدم أيضاً السائقون مع حميرهم، لأخذنا إلى بيت لحم، وبعدما تجهزنا جميعاً بحمير نزلنا من جبل صهيون، وذلك من الجانب الجنوبي، وعبرنا الوادي بين البرك، وصعدنا جبل جيحون بوساطة الطريق الملكي، الذي عليه سار الملوك الثلاثة، الذين بعث بهم هيرود للبحث عن الطفل الذي ولد في بيت لحم، وهذا طريق مقدس جداً وجميل من القدس، قرأنا بأن عبره سار البطارقة المقدسين، والآباء، والأنبياء، من ذلك على سبيل المثال: ابراهيم عندما جاء من بلاد الكلدان مع زوجته ساره، وكذلك لوط مع زوجته عندما جاء من المناطق الواقعة فيما وراء الجبال، ويعقوب، وجميع الرجال المقدسين، وداوود، واشعيا، والياس، فعنهم جميعاً قرأنا بأنهم ساروا عبر هذا الطريق، وبناء عليه صعدنا جبل جيحون بسرور، وفوق القمة صرنا بين الجدران الحجرية الجافة لبساتين رائعة، فيها ينمو مختلف أنواع أشجار الفواكه الثمينة، والكروم، والتين، لأن أهل القدس يمتلكون بساتينهم هناك.

وعندما مررنا من خلال البساتين، وصلنا إلى بعض الجدران المهدمة القديمة، حيث كان النزل الذي قيل، بأن الملوك الثلاثة أقاموا به، عندما كانوا على طريقهم إلى بيت لحم ومعهم هداياهم، وتابعنا سيرنا من هناك، ووصلنا إلى مكان وعر، حيث قالوا بأن العذراء المباركة قد جلست فيه، لاسترداد أنفاسها، عندما كانت حاملاً، وقد رأينا المكان الذي جلست فيه، ولذلك ترجلنا في هذا المكان من على ظهور حميرنا، وأبدينا احترامنا للمكان مع مشاعر العجب والسرور، وهو بالحقيقة ما شعرنا به خلال الرحلة كلها، ولقد أشفقنا على الفتاة اللطيفة الحامل، بسبب طول الرحلة من الناصرة إلى بيت لحم، التي هي أكثر من عشرة

أميال ألمانية.

** ** **

(جاء هنا حوار بين حاج والقديس يوسف، أكد فيه القديس يوسف له أنه من أجله استراحت العذراء هنا، لأن العذراء كان لايمكنها الشعور بالتعب).

المكان الذي رأى فيه الحكماء النجم الذي كانوا قد رأوه في الشرق

وعندما انتهى هذا الحوار، عاودنا امتطاء ظهور حميرنا، وتابعنا سيرنا، وعندما صرنا في منتصف الطريق وصلنا إلى ثلاث برك، وذلك في المكان الذي ظهر فيه النجم للمرة الثانية، وهو النجم الذي كان الحكماء قد رأوه في الشرق، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الثاني من انجيل القديس متى، ويقال بأن هذه البرك قد حفرت في الأماكن التي وقف فيها الملوك الثلاثة، ينظرون إلى النجم، الذي كان قد اختفى عندما دخلوا إلى القدس، وسررنا في هذا المكان مع بعضنا ومع الحكماء الثلاثة، وكنا نقرأ ونغني ماهو محدد في كتب المسيرة.

المكان الذي ولد فيه النبي إيليا

وبعد مغادرتنا لهذا المكان،وصلنا إلى كنيسة تابعة للجورجيين، يقال بأنها قائمة فوق البقعة التي ولد عليها النبي إيليا، وقد دخلنا إليها، وتعبدنا الرب، وحصلنا على غفرانات لمدة سبع سنوات(+)، وشرفنا النبي إيليا، لكن هناك شك حول كيف أمكن للنبي إيليا أن يلد هنا، لأن كنيته تشير إلى أنه قد ولد في طيبة، لأن ذكره قد ورد في سفر الملوك الأول:١٧، باسم الطيبي، هذا وهناك ثلاث مدن اسمها طيبة: أولاهن في سورية، في منطقة الجليل، حيث كان هناك برج مرتفع، منه رمت

امرأة بقطع من حجر طاحـون، فحطمت جمجمة أبيمالك الذي كـان يسعى إلى لغم البرج، وكان هذاعندمـا شعر بأنه يمـوت قد طلب منهم ضربه بالسيف، حتى لايقال بأن امرأة قد قتلته (القضاة:٩).

وأمـا الثانيـة فمـوجودة في مصر، ومنهـا نالت المنطقـة كلها اسمهـا، وصار اسمها الطيبية، وكانت طيبـة هذه فيما مضى مدينة عظيمة وغنية، وذلك حسبما قـرأنا في أسطورة القديـس موريس حـول الفيلق الطيبي، ويقول بعضهم بأن هذا المكان هو القـاهرة، أو بابليون، كما سيرد ذكرها فيمابعد.

وأمـا الثـالثـة ففي بلاد الاغـريق، وقـد جـاء النبي إيليـا من الأولى، وحصل على كنيتـه منهـا، وعلى كل حـال في سبيل اعطاء مصـداقيـة لحكايتي، أقـول إن من الممكن أن مـا وقع إلى ايليـا مثله وقع للمسيح ربنا، الذي جـرى الحمل به في الناصرة، وولـد في بيت لحم، ومع ذلك اسمه يسوع الناصري، وليس البيت لحمي، ومثل هذا إيليا، حيث جرى الحمل به في طيبة قد ولد في حلبة الخيل، ومع ذلك اسمه الطيبي وليس الحلبي، هذا وكنت قـد قرأت في مكان آخـر، أنه قد قـام هنا فيما مضى بيت ريفي، كـان اسمـه أيضـاً طيبـة، وفي الحقيقـة إن مسقط رأس نبي عظيم مثل هذا النبي جـدير أن يعدّ بين الأماكن المقـدسة، لأنه كـان قد ولد منذ ثلاثة آلاف سنة مضت، ومع ذلك هو لم يمت بعـد، بل سوف يقف أمـام القـاضي، ويسترد جميع الأشيـاء، وذلك حسبما قـرأنا في ملاخي:٤ Malachi، وفي متى:١٧.

حقل النبي حبقوق

وإثر مغادرتنا لذلك المكان، تـابعنا سيرنا، ووصلنا إلى حقل حبقوق، وقـرأنا عن هذا النبي في سفـر دانيـال:١٤، بأنـه قـد طبخ كميـة من الحبوب، وبعدمـا طبخها وكان حامـلاً لها إلى الحقل للحصادين، أمسكه

مـلاك الرب بأعلى رأسه، وحمله من شعـر رأسـه، وبقوة نفخـه حمله إلى بابل،وذلك إلى المكان الذي كان فيه الأسـود، وأعطى الطعام الذي كان معه إلى دانيـال ليتغذى، ولهذا وقفنا بدون حـراك لبعض الوقت في هذا الحقل، ونحن نبـدي العجب تجاه فضـائل حكمـة الرب، التي اعتـادت ضمان أحوال عبيد الرب بعقـلانية مدهشة، ولذلك قـال غريغوري عن هذا الموضوع: «دانيال الذي لم يهتـم حول الطعام والشراب، والذي من خـلال صـدقه الملائكـي عاش بالايمان في عـرين الأسـود، بين الأفـواه المفترسة لتلـك الحيوانات المتوحشـة المرعبة، دانيـال هذا لم يهمله الرب، بل جلب له طعـامـه في لحظة من اليهـودية إلى بابل على أيدي نبي، بناء على أوامر الرب».

وتعلمنا بهذا المثل بشكل واضح جـداً أن عبيد الرب الذين يعيشـون هنا على الأرض وفقـاً لمفاهيم الانجيل، لـن يكونوا مطلقاً في عـوز، كما قال النبي: «لقـد كنت صغيراً، وأنا اليوم شيخـاً، ومع ذلك لم أشهد قط أنه تم التخلي عن المستقيمين وهجرانهم»، وقـال ثانية: «الرب لن يقصم حياة المستقيم بالجوع» ولسوف «يعطي طعاماً للذين يخشوه»، وبناء عليه لم نقــرأ في أي مكان بأن الرب قــد سمح بإهلاك نخبتــه بالجوع، لأنه عندما جرى سجن الشهداء بغـاية اجاعتهم حتى الموت، أرسل ملائكته ليجلبـوا لهم طعامـاً من السماء، حسبما قـرأنا عن ذلك في عـدد كبير من الأماكن، فقد أطعم الأنبياء بـوساطة الطيور الجوارح، وبشكل اعجازي انعش هؤلاء الآباء المقدسين من النساك.

عـلاوة على هذا نقـرأ عن أبينا العظيم جـداً، القـديس دومينيك، أنه حـدث لمرتين أن كـان الرهبـان بحـاجـة إلى الخبـز، فأرسل لهم من قبل الرب بوساطة الملائكة، وهو إذا لم يرسل حتى خبزا حقيقياً ومرئياً، متن نخبتـه بقـوة غير مرئيـة، حسبما قـرأنا في سيرة «حيـاة القديسـة كـاترين السيناوية»، وقد أذن لنا برؤية الشيء نفسه في أيامنا الحالية بأعيننا، لأنني

أعـرف ناسكاً اسمـه نيقولا، كـان يسكن في الجبـال وحيداً فـوق بحيرة Lucerne ، وقـد عاش في العشرين سنة الأخيرة من دون طعـام أو شراب، وهو أمـر عجيب أن تسمعـه، وكنت قـد رأيت هذا الرجل في سنة ١٤٧٥.

ويوجد في حقل حبقـوق المتقدم الذكر حصـا مستدير وأبيض اللون، مثل حبـات الفاصـوليـاء البيضـاء، وحول هذه الحبـوب الحصـوية التي رأيناها هناك حكاية من أنواع حكايات الأطفال، مع ذلك أنا عازم على روايتها، مثلما تعـاملت مع أشياء أخرى من النوع نفسـه: فقد حكوا بأن الرب يسـوع كـان ماراً في أحـد الأيام بهذا الطريق، وكـان هناك فـلاح يزرع فـاصوليـاء، فسأله الرب عما كـان يزرع، فأجابه الفـلاح ساخـراً: «إنني أزرع حـجارة» فقـال له الرب جـوابـاً على هذا: «ليكن ذلك كما قلت أنت»، فكان أن تحولت على الفـور جميع حبـات الفـاصـوليـاء إلى حصـا، إنما احتفظت بلونها وشكلها القـديم، وقد جمعنا بعضـا من هذه الحصا بسبب تعجبنا ودهشتنا.

وعندمـا كنـت فـوق تلك البقعـة، تـذكـرت حقـلاً على مقـربة من جيسلنجن Gislingen، فيـه مـوجـود أعـداد لاتحصى من الحصـا من الشكل نفسه، ويتحـدث الأطفال هناك ويحكون الحكاية نفسهـا حولهم، ويوجد على مقربة من هذا الحقل بركة وقد خمّن بعض الحجاج أنها بركة يوسف، التي وضع فيهـا من قبـل إخـوته (التكويـن:٣٧)، لكن هذا لايتوافـق بشكل جيد مع الكتـابات المقدسة، التـي قالت بأن البركـة قد كـانت في القفـار، ولايوجـد هنا مكان اسمـه شكيم أو دوثيم، ولهذا غـادرنا المكان بسرعـة أكبر مما اعتـدنا أن نفعل وتوجب أن نفعل، ومع ذلك أشفقنا على يوسـف المبـارك، وتذكـرنا كم مـن الشرور تنجم عن الحسد، حيث رأينا أنه لايسمح بمحبة تقدم أي انسان وازدهاره، مع أنه قد يكون أخـاً للحاسد، وعلى هذا أحسن سقـراط القول: «يخضع الحظ

السعيد دوماً للحسد، والشقاء وحده هو الذي لايحسد».

وبعدما تابعنا سيرنا وتجاوزنا الحقل والبركة، كان هناك جدار قديم مرتفع، ممتد نحو الطريق وداخل فيه، ولقد قالوا: كان هناك بيت الأب يعقوب، حيث سكن فيه لبعض الوقت،وقالوا أيضاً بأن هذا الجدار جزء من خرائب بيت هذا الأب، ومهما يكن من أمر، حدث مرة، عندما كنت ماراً بهذا المكان أن تسلقت على هذا الجدار، واكتشفت بدون شك، أنه بني من أجل حمل مجرى مائي، عليه جرت المياه فيما مضى نازلة إلى القدس، فضلاً عن هذا، لو أن هذا كان بيت يعقوب، أية حاجة دفعت زوجته راحيل إلى حمل ولدها على الطريق، المجاور لهذا البيت؟.

قبر راحيل الذي بناه البطريرك يعقوب من أجلها

وتابعنا سيرنا، فوصلنا إلى مكان سماه جيروم في كتابه «حول مسافات الأماكن» قبراتا Chobrata حيث كان هناك قبر راحيل زوجة يعقوب، التي كانت هنا على الطريق العام، راغبة بالذهاب إلى بيت لحم مع يعقوب، وكانت حاملة ببنيامين، فجاءها المخاض، وتوفيت من خلال مصاعب الولادة، ويقوم هنا عمود قبر راحيل حتى هذا اليوم، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين (سفر التكوين: ٣٥/ ١٩—٢٠).

ويقول اليهود بأن سبب عدم حمل يعقوب لزوجته المحبوبة إلى حبرون، لدفنها في ضريح آبائه، والقيام بدفنها في الطريق العام، هو أنه عرفهم عن طريق روح التنبؤ وعرف ما الذي يفترض حدوثه فيمابعد، لأن بعدما دمر نبوخذ نصر المدينة، وأحرق الهيكل، وكان يقتاد شعب الرب أسيراً نحو فارس على هذا الطريق، وأنه لدى مروره بهذا الضريح، رفعت راحيل — بمعجزة ربانية — صوتها من داخل

الضريح، وخاطبت الأعداء، وطلبت الرحمة الربانية، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الحادي والثلاثين من سفر ارميا: «صوت سمع في الرامة» الخ.

هذا، ورأى اللاهوتيـون الكاثوليك وبينوا أن بكاء راحيل جاء من أجل قتل الأبرياء (متى:١)، ووفقا لما قاله جيروم قيل لراحيل أم أطفال بيت لحم وأطفال تلك المنطقة، مع أنهم كانوا أبناء ليه، لكنهم عرفوا باسم أبناء راحيل، لأن قبر راحيل هناك، وفوق هذا الضريح قد أقيم بشكل مهيب عمود، وهذا العمود هو هرم مرتفع، قد بني من حجارة بيضاء مربعة ومصقولة، وله مثل شكل البيعة الجديد القائمة في وسط المقبرة الجديدة في أولم، والتي اسمها مقبرة جميع القديسين، والفارق هو أن قبر راحيل قد بني كله من الحجارة، وليس فيه للخشب مكان خاص.

وأمام هذا القبر أقام يعقوب اثنتي عشرة حجرة، وفقاً لعدد أبنائه الاثني عشر، وعمل المسملون إلى جانب البيعة جرناً لوضع ماء الشرب فيه، وقد قرأنا عن هذا القبر في سفر صموئيل الأول، حيث جاء الحديث إلينا بأن صموئيل وافق على أن يكون شاؤول ملكاً، من خلال علامة هي أنه وجد على مقربة من قبر راحيل رجلين يقفزان فوق خنادق عميقة، وهذا المكان موضع تقدير لدى كل من المسلمين واليهود والمسيحيين، وقد تلونا صلواتنا هناك، وحصلنا على غفرانات(+)، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى مكان هو الآن قاحل، لكنه كان من قبل جميلاً، لأنه هناك كان سليمان قد زرع احدى حدائقه، وسيأتي وصف هذه الحدائق فيما بعد وهنا رأينا بيت لحم وحييناها.

ووقفنا على طرف الحديقة المتقدمة الذكر، ومن هناك رأينا عن بعد، يقدر بنصف ميل ألماني، بيت لحم، التي هي مدينة داوود والمسيح، وكانت كنيسة العذراءالمباركة، التي فيها موضع الميلاد، مرتفعة فوق كل

شيء يمكن رؤيته، وعندما رأيناهـذه المدينة المجيدة، ترجلنا على الفـور من على ظهـور حميرنا، وحيينا بكل بهجـة المدينة، مع صلوات قلبيـة، ورددنا مثل هذه الكلمات: «حييت يا افراتا، أيتها المنطقة الأعظم خصباً، والتي ثمرتك هي الرب، حييت يـا بيت لحم، يا بيت الخبز، والتي فيك خبأ ذلك الخبز الذي نزل من السماء، فيك تنبأ ميخا مرة بأنك لن تكوني الصغرى بين الامـارات بل الكبرى، ذلك أنه منك سـوف يأتي الذي سوف يحكم العالم، ففيك ولد من أم عذراء الأمير — قبل أيام الشيطان — الذي أنجب بـوسـاطة الرب الأب، وفيك سكـن ولد داوود حتى حملت العذراء بطفل، يابيت لحم لا أعرف بأي مديح يمكن أن أطريك، فأنت احتضنـت في داخل زريبـة فقيرة الذي لم تستطـع السمـوات أن تحتضنه، حييت يا بيت لحم، فأنت قد صرت مـوضع إعجاب في الشرق والغـرب سـواء، ومثلما جـاءت الحكمـة إليـك فيما مضى من الشرق بوساطة الحكماء (المجوس) مثل ذلك قدم إليك الآن حجـاج أتقياء من الغرب».

ولدى فـراغنا من أعمال السـلام والتحيـة عـاودنا ركـوب حميرنا، وببهجـة عـارمـة وبسرعـة بادرنـا نسير على طريقنا إلى بيت لحم، وبكى بعضنا سروراً وخشوعاً، وغنى بعضنا فـرحاً الترانيم المسيحية المشهورة: «Puer natis in Bethlehem, unde gaudet Jerusalem» وكـذلك «Resonet in loudibus, Cum Jucundis plausibus» وكـذلك «Indulci Jubilo nu signent und sind Fro» الخ.

وغنينا جميعـاً وبشكل جماعي الترنيمـة الملائكيـة «المجـد للرب في الأعـالي» الخ، ومـع أن أدلاءنا من السـادة المغـاربة المسلمين لم يتأثروا بسرورنا، غير أنهم أصغوا بصمت، وقد بـدوا بالنسبة لي أكثر سروراً مما اعتـادوا أن يكونوه، وأنا لم أشـاهد حجـاجـاً على هذا الطريق بمثل هذا

السرور، علماً بأنني سافرت عليه شخصياً ست مرات، وكنت دوماً في حالة بهجةغير معبر عنها.

ويوجد الآن بيننا وبين بيت لحم، واد عميق وكبير، وقد فصل بيننا وبينها، ولم نكن —على كل حال— بحاجة للنزول إلى الوادي، بل سرنا بفرح حول رأس الوادي، ومشينا على طول الحافة هناك حتى بيت لحم، وسرنا كذلك على جرف مرتفع للتلال، وعلى شرف تقوم المدينة المباركة عليه، وشاهدنا في وسط الوادي المكان الذي أعلن فيه للرعاة عن ميلاد المخلص، وتحدثنا أقاصيص الملوك الثلاثة، أنه عندما كان الحكماء (المجوس) مع حشودهم يعبرون هذا الوادي، من هذا المكان، بقصد الدخول إلى بيت لحم، رأى وقتها الرعاة النجم غير المعتاد، وشاهدوا الحشد الذي لحق بهم، لذلك بادروا مسرعين إلى تسلق الرابية ليروا ما الذي كان يحدث، وإلى أين كانوا ذاهبين.

وعندما عرفوا أن هدفهم الطفل الحديث الولادة، شرعوا في إخبارهم بما حدث لهم في تلك الليلة، عندما ولد الطفل، وكيف أنهم علموا بوساطة رسول من السموات، أن الطفل لابد من أن يكون مخلص العالم، وعندما سمع الحكماء بهذا تولاهم السرور بلا حدود، لأنهم وجدوا شهوداً آخرين إلى جانب النجم، وفتحوا محافظ نقودهم، وأعطوا أعطيات ثمينة إلى الرعاة الفقراء من أجل أخبارهم الطيبة، ولهذا وقفنا في هذا المكان وقدمنا الشكر للرب من أجل أعماله الرائعة، وتمنينا السرور إلى أولئك الملوك الأتقياء، وهكذا تابعنا سفرنا مع كثير من السرور.

الاضطراب الذي عانى الحجاج منه على أيدي البداة أو المدينيين قبل دخولهم إلى بيت لحم

في هذا العالم ليس هناك سرور — حتى السرور الروحي — لايمكن

إلاّ تعكيره، فهو وإن بدا لبعض الوقت صافياً غير مشوب، تراه مباشرة قد انقلب على الفور بوساطة أحداث مضادة، وقد برهنا على صحة هذا الأمر خلال رحلتنا هذه، ذلك أننا انطلقنا من القدس بسرور عارم، وكنا كلما اقتربنا من بيت لحم كلما ازداد سرورنا، كما بينا أعلاه، لكن الذي حدث بقضاء من الرب أن سرورنا انقطع ولم يكتمل بتعرضنا لخوف شديد، فلدى اقترابنا من المدينة المقدسة، فجأة، قدم نحونا حشد من البداة، وكانوا قد خرجوا من بيت لحم، ولدى رؤيتهم ارتبك أدلاؤنا وارتعبوا، وشعرنا نحن أيضاً بالخطر، ومع ذلك تجمعنا نحن الحجاج مع بعضنا في كتلة واحدة، وبعثنا بأدلائنا المسلمين وبقبطاني غليونينا فساروا أمامنا، وسرنا وفق وضعنا الحالي، وتابعنا على طريقنا، ونحن مليئين بالخوف، لقد سرنا لمواجهة قطاع الطرق الذين تحركوا ضدنا، لأنه لا الزمان ولا المكان سمحا بالفرار والابتعاد، وقد تصرفنا على هذه الصورة حتى لانعطي ظهورنا لهؤلاء اللصوص، وعندما وصلنا إليهم، لم يعد بامكان قادتنا متابعة سيرهم لأنهم أوقفوهم، واستولوا على الطريق، ولذلك لم يعد بامكان أي انسان المرور والعبور، وهناك وقفنا لمدة تجاوزت الساعة، لأن أدلاءنا مع القبطانيين انشغلوا بعمل اتفاق معهم، وتجادلوا معهم طويلاً وبصوت مرتفع، ومع ذلك لم يسبب أيا منهم الأذى إلى الآخر بأي شكل من الأشكال، لأن المشارقة لايتجهون إلى العنف الشخصي مباشرة، مالم يكرهوا على الرد على العنف بالعنف، ولم يكن هؤلاء البداة أعداء لنا، بل كانوا فقط يستخرجون بعض المال منا، الذي قالوا بأنه حقهم الشرعي، حسبما سنرى كثيراً فيما بعد، ولو أننا زحفنا بقوة ضدهم وعلى الرغم من إرادتهم لتركونا في الحقيقة نمر، لأنهم رأوا أننا كنا أكثر عدداً منهم، لكنهم وقتها كانوا سوف يستدعون إليهم جميع رفاقهم، ومن ثم سوف يحاصروننا في بيت لحم، ويسوقوننا إلى مضائق شديدة، ولعلهم كانوا يرغبون وبسرور أن نشق طريقنا من خلالهم بالقوة، فوقتها سيمتلكون

تسويغاً أعظم للشكوى ضدنا، ومن ثم لن يكون وقتها بامكاننا فعل أي شيء ضدهم، هذا وإن كنا أكثر عدداً منهم، لكنهم كانوا مسلحين بالرماح، وبالسيوف وبالقسي، وكنا نحن غير مسلحين، باستثناء أدلائنا، الذين كانوا بالفعل مسلحين.

وبعد حديث طويل ومناقشات جرى الاتفاق على أننا إذا أردنا الدخول إلى بيت لحم، يتوجب علينا أن ندفع أربعاً وعشرين دوقية، وإذا لم نرغب بالدفع، يمكننا العودة إلى القدس، وهكذا فتحنا حافظات نقودنا، ودفعنا المال كله، حيث دفع كل انسان حصته، وتابعنا سيرنا على طريقنا، بينما بقي اللصوص في المكان نفسه يتقاسمون الغنيمة فيما بينهم.

وبعدما ابتعدنا مسافة طويلة عنهم، اندفع من المدينة حشد آخر من البداة، كانوا شركاء لهم، وقد حملوا على رتل الحجاج، ومروا من وسطنا مع كثير من الصراخ والشتائم، ودفعنا وشدنا، وإلقاء قبعات الحجاج من على رؤوسهم، وقد أزعجونا كثيراً بمزاحهم الخشن، وفي تلك الأجواء المضطربة حدث لي الحادث الخطر التالي: عندما كنت راكباً على ظهر حماري بين البقية، أقبل نحوي بدوي وساق وهو على فرسه ضدي راغباً في شق طريقه بيننا، مثلما فعل بقية رفاقه، ولكي يقوم الحجاج بفتح طريق له ليمر من بينهم، شرع رمحه وسدده مباشرة نحو وجهي، وبسبب اندفاعه وضغطه لم أكن قادراً على تجنب الوقوف في طريقه، كما أنني لم أستطع رمي نفسي من على ظهر حماري، وهو ما كنت راغباً بفعله، ولذلك كنت مرغماً مع كثير من الرعب والحذر على انتظار طعنته لي وهو حامل علي، وعندما وصل انتزع قبعتي من على رأسي بطعنة شديدة بسنان رمحه الحاد، ومرّ وتجاوزني وهو يضحك.

ولقد كنت مسروراً لأنني لم أجرح، وترجلت من على ظهر حماري وأنا حزين، وكان هدفي البحث عن قبعتي في الوسط الفوضوي، والذي

حدث على كل حال، أن واحداً من الحجاج التقط قبعتي وأعطاني إياها، وكنت راضياً تماماً أن ذلك البدوي كان يتقن تماماً فن لمس الأشياء، كما يريد، بسنان رمحه، لأنه لو أخطأ بتسديده سماكة اصبع واحد نحو الاسفل، لمرّ سنان رمحه من خلال جمجمتي، وكان هؤلاء الرجال بعضاً من الخدم الأوغاد للذين تولوا تغريمنا، وكانوا منطلقين بسرور لمقابلة سادتهم، ليشاركوهم بالفرح بالمال الذي تسلموه، وللسخرية منا.

دخول الحجاج إلى بيت لحم ودخولهم إلى كنيسة مهد المسيح

وعندما بتنا على مقربة من بيت لحم، وعلى بعد حوالي رمية سهم عن بابها، وصلنا إلى مكان كان فيه جب داوود، وقد عرف باسم جب داوود، لأن —كما قرأنا في سفر صموئيل الثاني: ٢٣/ ١٤—١٥— داوود قد رغب بالشرب منه، عندما كان متحصناً، وكان البئر مطوقاً بالأعداء، فقام ثلاثة من الرجال الأشداء من جيش داوود بشق طريقهم خلال المعسكر الفلسطيني، ونضحوا ماء من جب بيت لحم الذي كان قرب الباب، وحملوا الماء إلى داوود، الذي لم يشرب منه، بل صبه في سبيل الرب.

وهذا الجب هو قبو واسع وعميق وعريض، له في أعلاه وعلى جانبه ثلاث فتحات بعيدة احداهن عن الأخرى، من خلالهن يجري نضح الماء من بركة الجب، التي تحتوي على كثير من الماء الصافي، والصحي والبارد، وقد نضح بعضنا منه وشرب، ونظر — على كل حال— عامة الناس وسكان بيت لحم بقرف إلى هذا الماء، لأنه قبل أيام قليلة مضت قبل زيارتنا، كانت امرأة مسلمة تحاول نضح الماء، وكانت تفعل ذلك بدون انتباه، فوقعت من خلال فم الجب، فغرقت فيه وماتت، واستخرجت منه.

ووصلنا من ذلك الجب إلى طرف مدينة بيت لحم المباركة، لكننا لم

ندخل إليها، بل مررنا بجانبها باتجاه الشرق، وذلك من خلال كثير من الجدران المهدمة، ثم دخلنا إلى كنيسة العذراء المباركة، حيث تخلينا عن حميرنا وأعطيانهم إلى سائقيهم، ودخلنا إلى الكنيسة المقدسة، وسقطنا على وجوهنا، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وعندما نهضنا من صلواتنا، كنا مندهشين كثيراً، وامتلأنا بالاعجاب نحو حجم الكنيسة وجمالها، ووجدنا في هذه الكنيسة بعض الباعة ممن كانوا معنا في كنيسة الضريح المقدس، وقد عرضوا علينا شموعاً للبيع، وشرينا شموعاً منهم، لأن الدنيا كانت مظلمة في الداخل وراء الأبواب، حيث كانت الشمس آخذة بالغياب.

الزيارة إلى الأماكن المقدسة وأولاً إلى مكان دراسة القديس جيروم وقصة ضريحه

وأعد الرهبان مسيرتنا وفق الطريقة التي تقدم وصفها في ص ٤٠١، و ص ٤٥٧، ذلك أننا كنا قد جلبنا معنا جميع زينتنا وأثاثنا على ظهور الحمير من دير جبل صهيون إلى بيت لحم، وعندما أخذ كل انسان محله ووقف فيه، حمل الجميع مثل بعضهم شموعاً مشتعلة في أيديهم، وبدأ رئيس الجوقة يغني ترنيمة اعتراف هي: « Iste confessor Domini» الخ، وقمنا ونحن نغني هذه الترنيمة بالخروج من الكنيسة إلى الدير، وذلك على جهة اليسار، وقد عبرنا خلال باب إلى الدير، ونزلنا تسع عشرة درجة، إلى بيعة جميلة ذات سقف معقود، ففي هذه الغرفة كان مقر دراسة القديس جيروم، حيث فيها بذل جهوداً كبيرة، فهنا تولى ترجمة التوراة كلها من العبرية والكلدانية إلى اللاتينية، وجاءت الترجمة إلى كل من اللغة الكلاسيكية، والعامية، فهو قد ذكر ذلك في رسالته إلى صفر ونيوس حول نشرة جديدة، وفي رسالته حول مسائل عبرية، وهنا أيضاً كتب مقدماته، ورسائله، وشروحه، وتعليقاته، وهنا أيضاً قام بالتصحيح، والتوزيع، والتصنيف للمزامير، وذلك حسبما هي مستخدمة

في هذه الأيام من قبل الكنيسة الرومانية، وهو الذي أملى قصيدة: «المجد للأب، وللابن» الخ.

وقد التحق بـه شخصياً عدد من التلاميذ تولى تعليمهم، وفوق هذا كله حافظ على عذريته بشكل دائم، وقد جعل أسداً متوحشاً مدجناً ولطيفاً، وقد قاد حرباً بدون توقف ضد الهراطقة ورجال الدين الأشرار، والرهبان الفاسدين، وكان دوماً مشغولاً بالعمل، وكان ينهك نفسه في زنزانته حتى أنه لدى نومه كان يجر نفسه على فراشه بالقوة جراً، وذلك بأن يمسك بيديه حبلاً كان قد علقه من السقف فوقه، كما أن مارس واجباته الديرية على أحسن ما يرام، واستمر يجهد نفسه بهذه الأعمال لمدة خمس وخمسين سنة وستة أشهر. وقد صلينا في هذا المكان وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) مع تقديم للشكر.

ضريح القديس جيروم الذي هو فارغ الآن

وهناك بيعة أخرى مجاورة لهذه البيعة، وليست بعيدة عن مزود الرب، حيث اختار موضع دفنه، وذلك كما جاءنا الخبر في رسالة يوسبيوس، فهنا، عندما كان القديس جيروم مايزال حياً، أمر بعمل ضريحه، وفيه بعد وفاة ذلك الأب المجيد للكنيسة، مدد جسده، مبجلاً بسبب آية اعجازية هو عملها، وهذا الضريح هو كامل في هذه الأيام، لكنه فارغ، وهو مزين بألواح من الرخام، فقد جرى نقل جسده من بيت لحم إلى القسطنطينية، ومن هناك إلى روما، حيث يرقد في هذه الأيام في قبر فاخر في كنيسة القديسة مريم العظيمة، وبناء عليه بعد تلاوتنا لصلواتنا في هذا المكان حصلنا على غفرانات(+).

وقد قرأنا في رسالة القديس أوغسطين إلى القديس سيرل Cyril المقدسي، أنه صدوراً عن تبجيله للقديس جيروم، قام بعبور البحر علّه

يرى هذا المكان، ولم يكن ممكناً أخذ الجسد من القبر، وكانوا كلما أخرجوه منه، وجدوه في اليوم التالي فيه، وظل الحال كذلك حتى جرى الاستيلاء على القدس من قبل الكفار، فوقتها سمح لنفسه بالنقل إلى روما، فهذا ما قرأناه في الرسالة الأخيرة للقديس سيرل.

ضريح القديس يوسبيوس تلميذ القديس جيروم

وبجوار هذا الضريح هناك قبو آخر، مدفون فيه القديس يوسبيوس، تلميذ جيروم المبارك، وكان يوسبيوس هذا من أهالي كريمونا Cre-mona ، وقد نصّب تلميذاً للقديس جيروم، وكان رجلاً عظيم الفصاحة، وكان بين ما كتبه، رواية عن حياة، ومعجزات، وموت استاذة، باسلوب قصصي فصيح، وقد وجه ذلك إلى داماسوس Dam-asus أسقف أوبورتو Oporto(البابا فورموسوس فيمابعد) وكذلك ثيودوسيوس الذي كان الشيخ الروماني المسيحي الوحيد، ووضح التواضع العظيم لهذا الرجل من خلال رسالته التي كتبها إلى الأسقف المتقدم الذكر.

ولهذا تمددنا بأنفسنا على الأرض أمام قبر هذا القديس، وتوسلنا إليه من أجل الحماية، وحصلنا على غفرانات(+)، وكان قد تلقى انذاراً باقتراب موته، من قبل القديس جيروم، وكان ذلك عن طريق الرؤيا، وأعطاه أوامر بوجوب أن يكون دفنه على مقربة من القديس جيروم، وفي الوقت الذي مات فيه، مات هناك أيضاً ثلاثة آخر، كانوا قد أقيموا من الموت من قبل القديس جيروم، ومن هنا نستخرج برهاناً حول دمار احدى الهرطقات، وذلك كما قرأنا في رسالة القديس سيرل، أسقف القدس إلى القديس أوغسطين، حيث قيل هناك كثيراً من المدح للقديس يوسبيوس.

مكان ختان الرب حيث قيل بأنه ختن في اليوم الثامن وأعطي اسم يسوع

وبعـد هذا صعدنـا ثانيـة، وخـرجنا من القبـو، ودخلنا مجدداً إلى الكنيسـة، وعبرنا من وسطهـا، وتوجهنـا إلى الجانب الأيمن من الجانب المقابل له هناك،وصعدنا إلى بيعة، متصلة بذلك الجانب نفسه من السدة، وغنينا بشكل معلن هناك أمـام المذبـح ترانيمنا وأغـانينا التجـاوبيـة من أجل ختان الـرب، وغنينا أيضاً salve Regina وهي ترنيمـة للعذراء المبـاركــة، وانحنينا بأنفسنا نحـو الأسفل، وقبلنـا المكان الموجـود تحت المذبح، وحصلنا على غفـرانات مطلقـة(++)، ففي هذا المكان المقـدس، كان قد جرى ختان الرب يسـوع، في اليوم الثامن لولادته، لأنه كان من غير الممكن ختانه في الكهف الذي كـان قد ولد فيه، والذي رقـدت فيه العذراء بعد الميـلاد، بسبب الظلام، يضاف إلى هذا لعل المطهّر لم يرتض برائحة الاسطبل، ولذلك أخرجوا الطفل يسوع، وختنوه هنا.

وقـد تبرهن على قـداسة هذا المكان مـن خلال الرائحـة الطيبـة التي فـاحت منه وانتشرت في كل مكان، لأنـه عندمـا ينحني الانسـان نحـو الأسفل ليقبل المكان، تصدر نحوه رائحة طيبة غير اعتيادية، تنعشه لدى شمـه لها، وتجعله يقبل على تعبـد هذا المكان بقـداسة غير محدودة، فقـد رأينا هناك أولاً ينابيـع عميقـة جـداً قـد تفجـرت وانفتحت، وعمت الطهارة فوق الأرض كلهـا، ليس بوساطة مياه تغرقهـا، بل بوساطة دم يجعلها حيه، لأنه عندما جاء طوفان نوح، مات كل ماغطته المياه وهلك، ومقابل هذا إن كل ماغطاه طوفان دم المسيح، قد منح حياة.

وتبـاهينـا نحن الحجـاج في هذا المكان، بأننـا أكملنا الآن زيارة جميع الأماكن، وقبلنا جميع الأمـاكن التي قرأنا بأن الرب يسوع قـد سفح فيها دمـه الثمين جـداً، أي أن تقـول(١) إنه هنا بالختـان تفجـر أول الينابيع

العميقة جداً، والمقصود بهذا أن أوردة المسيح انفجرت وانفتحت، و(٢) ثم تبع ذلك في مكان آلام المسيح على جبل الزيتون، و (٣) تلا ذلك في المكان الذي جلد فيه وتوّج بتاج من شوك، و (٤) في المكان الذي وقع فيه أثناء حمله للصليب، و (٥) في المكان الذي صلب فيه، و (٦) في المكان الذي طعن فيه طرفه.

علاوة على هذا، إن هذا المكان مبجل، بسبب أن اسم يسوع الجميل، قد أعطي هنا للمرة الأولى من أجل خلاص العالم، لأنه لايوجد اسم آخر على الأرض يمكن أن يتم فيه خلاصنا غير اسم يسوع، فهنا تدفق الطيب وانتشرت روائحه، ولهذا قيل عن العروس في نشيد انشاد سليمان (١/ ٣): «اسمك دهن مهراق».

المكان الذي أعدّ الحكماء فيه أنفسهم بالملابس والهدايا

وعندما فرغنا من تقديم شكرنا في مكان الختان، بدأ رئيس الجوقة يغني ترنيمة « Hostis Herodes Impie » وقد تحلقنا حوله نغني على جهة اليسار من الكنيسة، وصعدنا ثانية إلى جانب السدة، ودخلنا إلى بيعة مجاورة للسدة، وهذه البيعة قائمة فوق المكان الذي ترجل عليه الحكماء (المجوس) من على ظهور جمالهم، ونوقهم الوحيدة السنام، وكان ذلك أمام النزل الذي وقف النجم فوقه، وهنا أخرجوا هداياهم من جعبهم، ونظموها وجعلوها جاهزة لتقديمها، وزينوا أنفسهم بأثمن الملابس، حتى يظهروا بكل أبهة وفخامة أمام الملك الحديث الولادة، وبناء عليه جثونا في هذا المكان، وحصلنا على غفرانات، ويوجد إلى جانب هذا المكان بئر، منه نضح خدم الحكماء الماء من أجل دوابهم، ومثل هذا ذهبنا نحن إليه، وتطلعنا نحو أسفله، وعلى هذا، تجهزنا برفقة الملوك المقدسين، للدخول إلى النزل بسرور وبالخشوع المناسب.

كهف ميلاد ربنا يسوع المسيح
ومدخل الحجاج إليه وقداسة المكان

افرحوا الآن أيها الحجاج، وابتهجوا اخواني المحبوبين، لأنكم سوف ترون الآن مباشرة أعظم الأماكن قداسة وأحلاها، الذي هو موضع اجلال وتعبد من قبل المؤمنين وغير المؤمنين سواء، وأعلن لكم وأقول بأن عدداً كبيراً من الملوك، والأنبياء، لابل عدداً كبيراً من: البابوات، والأساقفة، والكرادلة، والأباطرة، والدوقات، والأعيان من النبلاء، والكهنة، والعلمانيين، قد رغبوا وتشوقوا لرؤية الذي رأيتموه، ولم يروه.

وعندما كنا الآن واقفين إلى جانب المذبح، والبئر المتقدم الذكر، شرع قائد الجوقة يغني ترنيمة مسيحية فرحة هي: «Christe , redemptor omuium, ex patre patris unice » الخ، وقد غنينا هذه الترنيمة، وفقاً للحن الذي يغنى به في طائفتنا، أي أنه في أي مكان وقعت فيه كلمة «يوم» في الترنيمة، نحن غنيناها «مكان»، ووفقاً لذلك عندما وصلنا إلى كلمات: «هذا اليوم الحالي يحمل شهادة» غنينا نحن: «هذا المكان الحالي يحمل شهادة»، وبدلاً مما جاء في الترنيمة قوله في كلمات: «لأن هذا هو يوم ولادتك»، قلنا نحن «لأن هذا مكان ولادتك»، وهكذا دواليك.

وهكذا بعدما فرغنا من غناء الأغنية، غادرنا المكان المتقدم الذكر، واستدرنا نحو جدار السدة، وعبرنا من خلال ممر مزين برخام مصقول ذي لون أبيض نقي جداً، ونزلنا بوساطة ست عشرة درجة تحت السدة، إلى كهف كان بذاته مظلماً، لكنه كان مضاء بكثير من المصابيح، وفوق الكهف تمددت الحجرة التي تحتها ولد مخلص العالم، يسوع المسيح، ولدى فراغنا من صلوات الشكر المحددة في كتب المسيرة، صعدنا واحداً بعد الآخر، إلى المذبح الموجود عند رأس القبو، فانحنينا بوجوهنا

نحـو الأرض، وقبلنا مـا تحت المذبح، وهـو المكان الأكثر حـلاوة لأنه مكان ميلاد المسيح، ومدد في ذلك المكان لوح من الرخام الأبيض، وقد حفـر فيـه بشكل بارع صـورة الشمس، لأن من هنـا أشرقت شمس الاستقـامة، ومن هنـا نشرت العذراء الطاهرة ضـوءاً أبدياً، وهنا أيضـاً انتشر الضـوء الجديد لمجدها فعم أعين عقـولنا من خلال أسرار تجسيـد الكلمـة، ولذلك قمنا بكل خشوع ومـع دموع الفـرح بالانحناء بأنفسنا باتجاه الأرض أمـام تلك الحجـرة، وتعبـدناها، وهي تلك الحجـرة التي قيل لنا بأن الطفل الرائع قد رقد عليها بعد خروجه من رحم العذراء.

وفي الحقيقـة لقد تبرهنت صحـة هذا، بعلامـة واضحة، هي الرائحـة الرائعة والمنعشة التي يشعـر بها كل من يطبع قبله على الحجرة، والرائحة الطيبة التي تفـوح من ذلك المكان وتصل إلى مشاعـرنا، هي شيء رباني، وهي فوق أي شيء آخـر،وينظر الانسان إلى المكان فيراه فارغـاً تماماً من أي شيء ينتج الرائحة الطيبة، ومع ذلك نجد رائحة المكان يفوح شذاها وكأنه كان مخزن عطور، وواضح أن كثافـة الرائحة أعظم من أي عملية تخليق له مهما كـانت قـوية، هذا وإنني لا أقـول هذا إشـارة إلى معانيهـا السرية، بل إنني أتكلم عن حقيقة واضحة، إنني أعلن بأنني قد شعرت بها في كل مـرة انحنيت بها بنفسي لتقبيل تلك الحجـرة المقـدسـة، ثم إن هذا الشعور ليس خاصاً بأي انسان محدد، بل إن هذه نعمة أضفيت على كل من يقبل المكان، حتى المسلمون أنفسهم تحققوا من ذلك، وبناء عليه نحن على يقين أن ما جـاء في قرآن محمـد (صلى الله عليه وسلم) من أن الميلاد المقدس قد حـدث في بقعة منعزلة، داخل بستان وتحت نخلة، هو غير صحيح، وذلك حسبما جـاء الخبر لدى المعلم نيقـولادي كوسـا، في ترجمتـه للقرآن: الكتـاب الثـالث — الفصل السابع عشر، والأمـر ليس مقصوراً على هذه الأمـاكن، بل يشمل جميع الأماكن التي نقـرأ فيها بأن الرب يسـوع قـد ظهـر عاريـاً، متمتعاً بـامتيازه باصـدار رائحـة طيبـة،

ولايحتاج أي انسان أن يعجب حول هذا، بعد أن قرأنا بأن الشيء نفسه قد وقع حيث صدرت روائح طيبة من قبور وأضرحة القديسين، وبما أننا انجذبنا بتلك الرائحة الطيبة، بقينا هناك لمدة طويلة نقبل الحجرة المقدسة، وقد حصلنا على غفرانات مطلقة(++).

** ** **

مزود الرب: ماهو، وما الذي كانه

وبعدما فرغنا من ابداء احترامنا نحو مكان ولادة الرب، استدرنا بأنفسنا نحو المزود الذي هو على بعد حوالي سبع خطوات عن المكان المتقدم الذكر، وعندما وصلنا إلى هذا المزود، انحنينا بأنفسنا فيه بخشوع عظيم ، وقبلناه، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وانتعشنا برائحة طيبة، مثل تلك التي أتينا على ذكرها، ولاينبغي أن نعجب نحو هذا، بما أن زهرة البلسم قد وضعت في هذا المعلف، لأن العذراء مريم المباركة جداً، قد لفت الطفل بقماط، ومددته في المعلف، لأنه لم يكن هناك مكان في النزل، وهنا وجد الرعاة الطفل، بعدما قادهم الملاك إلى هناك، وهذا المعلف قائم تحت صخرة ناتئة، حيث قال الحجاج القدماء بأنهم قد رأوا حلقاتاً حديدية، وأوتاداً، إليها كانت الدواب تربط، فعندما تمدد المسيح هناك كان مربوطاً ثوراً وأتانا، قد عرفا ربهما فتعبداه، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الأول من سفر اشعيا، وكان الناس يرون في قديم الأزمان الحجرة التي وضعتها العذراء الأم تحت رأس ابنها الصغير، لأنها لم تجد وسادة أو أي شيء من هذا القبيل، وقد غطت الحجرة بالقش، ولذلك تغني الكنيسة: «لقد تحمل الرقود في القش، ولم يكره المعلف ويتأباه» الخ، وكان معلف الرب من الصخر، وجرى اقتطاعه من الصخرة نفسها التي كانت ناتئة ومعلقة فوقه، وذلك مثل أحوال المعالف وأشكالها في تلك الديار حتى هذا اليوم.

هذا وأنا لم أفهم الكلام المتداول من أن القديسة هيلانة، قد أخذت معلفاً خشبياً من هذا المكان ونقلته إلى القسطنطينية، وأنه نقل من هناك إلى كنيسة اللاتيران في روما، مالم نقل بأن يوسف ربما عمل معلفاً خشبياً، ووضعه فوق المعلف الحجري، وفي هذه الحالة على الانسان أن يقول — كما يفعل كثيرون — بأن يوسف قد جلب الثور والاتان إلى ذلك المكان، معه من الناصرة.

والآن، إن المعلف القائم في هذه الأيام في ذلك المكان، هو من الرخام، ومعمول من ألواح بيضاء مصقولة بشكل رفيع جداً، وتغطي هذه الألواح المكان الحقيقي لمعلف الرب، وهي مزينة بنقوش معقدة الشكل، وهو أمر تأسف من أجله خريسوستوم Chrysos tom، الذي قال: «آه كم أتمنى أن يسمح لي بمشاهدة المعلف الذي فيه تمدد الرب، وفي هذه الأيام، بات الأمر علينا أن نبدي احترامنا ليس إلى الطين الذي أخذ بعيداً، بل إلى فضة أقيمت مكانه، والذي بالنسبة لي كان ما ألقي به وجرى الخلاص منه هو ثميناً أكثر، لأن الفضة والذهب موضع اعجاب الأمم، لكن المؤمنين بالمسيحية والأتقياء، موضع اعجابهم المعلف الطيني، لأن الذي ولد في ذلك المعلف كان يزدري الفضة والذهب، وأنا لا ألوم الذين فعلوا هذا لابداء التكريم له والاحترام، كما أنني لا ألوم الذين صنعوا آنية من الذهب والفضة من أجل الاستخدام في الهيكل، لكنني أنا معجب بالرب، خالق هذا العالم، الذي لم يلد وسط الذهب والفضة، بل في الطين».

هذا بالنسبة لخريسوستوم، لكن في الحقيقة لاتصنع المعالف في تلك الديار إلاّ من الحجارة أو من الطين، وليس من ألواح من الخشب أو من جذوع الأشجار، وطول هذا المعلف الحديث أربعة أشبار، وأقل من ثلاثة أشبار بالعرض، ولوح الرخام المصقول الذي يواجه الذي يركع أمام المعلف، هو مصقول بشكل عجيب جداً، ويشبه المرآة، وكانت

نتيجـة ذلك الملاحظة التـاليـة للوضع، هي أنك إذا مـا نظرت بحـرص وبدقـة نحو اللوح، تظهـر لك صـورة رجل عجوز ملتحي، وهو راقـد على ظهـره فوق حصير، بثيـاب راهب ميت، وإلى جـانبـه صورة أسـد، وهذه الصورة ليست نتاج فن أو عمـل، بل نتاج الصقل البسيط وحده، وذلك مثلما نرى، عندما تصنع المناضد من خشب فيه عقد واضحة ففي بعض الأحيان، بعـدما يقـومون بالتنعيم والصقل تظهـر في هذه المناضد أشكال متنوعـة من دون تصميم من قبـل العـامل، وبناء عليـه مثل هذا وقع هنا.

وعلى كل حـال، هـم يقولون، بأن هذه الصـورة قد صنعت بوسـاطة ارادة ربانية، بسبب القداسة الساميـة للقديس جيروم المجيد، ولاتشاهد هذه الصـورة من قبل الجميع، بل فقط من قبل الذين جرى اختيـارهـم، والذين يعرفـونها، فالذي لايعـرفها لن يكون قـادراً على مشاهدتها أبداً، وهكذا عندما رأيتهـا للمرة الأولى، ظننت أن الراهب الذي كـان يريني إياها، كـان يمــزح، عندمـا قـال بأنه رأى صـــورة القـديس جيروم في الحجرة، ولم أستطع أن أراها بنفسي ، حتى أشار الـراهب إليها باصبعه، ووقتهـا رأيتها بوضـوح، تماماً كما ظهـرت بكل لطف، ونقرأ في رسـالة سيرل إلى أوغسطين حــول المعجـزات التـي صنعت من قبل القــديس جيروم، أنه كان في الأزمـان الخالية صـورة منقوشـة للقديس جيروم في الكنيسة على جبـل صهيون، وكانـت مشهورة بسبب معجـزات واضحة عملتها.

المكان الذي فيه جلست العذراء المباركة مع الطفل عندما جاء الحكماء الثلاثة مع هداياهم

وبعد ما رأينا المعلف المقدس، استدرنا مبتعدين عنه إلى المذبح القائم مقـابيله، على مسـافـة خطوتين أو ثـلاث خطوات، فهناك يوجـد المكان

الذي فيه جلست مريم العذراء المباركة مع الطفل يسوع في حضنها، وذلك عندما جاء الملوك الثلاثة مع هداياهم، وقدموها لها، ومثلما فعل الملوك الثلاثة سقطنا نحن بأنفسنا في هذا المكان، على وجوهنا، وقدمنا أنفسنا للرب يسوع وحصلنا على غفرانات(+)، وكنا نغني ترنيمة الملوك الثلاثة، ونتلو الصلوات المناسبة.

وقرأنا من الاصحاح الثاني من انجيل القديس متى وصفاً للاحترام العظيم والتقوى التي قدم بها هؤلاء الملوك الثلاثة هداياهم، هذا ولايجوز لنا أن نعتقد أن هذه الهدايا — إلى جانب معانيها الخفية — كانت صغيرة في أنفسها، فقد أخبرنا الكتاب، أن أولهم مليكور، ملك العرب، قد قدم نقوداً من الذهب، وقطعة قماش ذهبية صغيرة، كلها يمكن الاطباق عليها باليد، وكانت هذه القطعة قد عملها الاسكندر الكبير من جميع أنواع الذهب التي حصل عليها من البلدان التي كانت تحت حكمه، وقبض عليها بيده، كإشارة للامبراطورية، وقد وصلت هذه القطعة بعد أيام الاسكندر إلى مملكة العربية، وحدث أنه عندما وضع مليكور قطعة القماش تلك في يد الطفل، تحولت إلى رماد مباشرة، لتبرهن أن مملكة المسيح ليست من هذا العالم الفاني (يوحنا:١٨/ ٣٦)، ويقال أيضاً بأن هذا الملك قد أهدى المسيح الثلاثين قطعة من الفضة، التي جرت خيانته من أجلها فيما بعد، كما أوضحنا من قبل، وجلب الثاني وهو بلتزار، ملك سبأ كثيراً من البخور، وجلب الثالث وهو كسبر، ملك أثيوبيا مرّاً ثميناً، ويقول بعضهم بأن كل واحد منهم قد قدم هذه الأشياء الثلاثة جميعاً.

البئر الذي سقط فيه نجم الحكماء بعد انتهاء مهمته

وبعدما فرغنا من تقديم تقديماتنا في موضع تقديم الهدايا، نزلنا في القبو حتى نهايته، وأتينا في الزاوية في الجانب الأيسر من القبو إلى حفرة صغيرة، يوجد تحتها بئر عميق، هذا ومن غير الممكن نضح الماء من هذا

البئر، بسبب الأبنية فوقه، وقد كان في أيام المسيح بئراً مفتوحاً، وقد قيل فيه سقط النجم، الذي بهدايته جاء الحكماء من الشرق، ويقال بأنه تحلل هناك إلى عناصره الأساسية وهذا هو رأي كثير من اللاهوتيين من أتباع العقيدة الكاثوليكية، وكذكرى له تركت هذه الحفرة.

وقد قال القديس غريغوري، أسقف تور، في كتابه عن المعجزات، الذي كتب في أيام البابا غريغوري المبارك: «يوجد في بيت لحم بركة كبيرة، منها يقال بأن العذراء مريم المجيدة قد نضحت ماء، وقد شهد الذين اعتادوا على النظر إليها بشكل دائم حدوث معجزة، وهي رؤية النجم الذي ظهر إلى الحكماء الثلاثة، لأن الأتقياء قد جاءوا ورقدوا على حافة هذه البركة، وغطوا رؤوسهم بأقمشة كتانية ثم إن الذي لديه فضائل حصل على امتياز رؤية النجم يمر عبر البركة، على وجه الماء من الجانب الأول إلى الجانب الآخر، وذلك وفق الطريقة نفسها التي اعتادت النجوم بها أن تعبر قبة السماء، وصحيح إن كثيرين ينظرون في البركة، فقط الذين لديهم عقل سليم يرون النجم، ولقد سمعت بأن عدداً كبيراً من الأشخاص أكدوا أنهم رأوه، وكان من المتأخرين دياكيموس Dyacimus.... قد أكد بأنه رآه خمس مرات متفرقة، ولكنه قد شوهد من قبل شخصين فقط.

القبو الثاني للعذراء المباركة والذي يعرف باسم حليبها

وليس بعيداً عن فتحة البئر هناك باب، مررنا من خلاله إلى قبو آخر، هو مبجل، من خلال سكنى مريم العذراء فيه، وتحدثنا الحكايات أنه بناء على أخبار الرعاة ووصول الملوك الثلاثة، قدم كثيرون من القدس، ودخلوا إلى القبو (الأكبر) وتعبدوا الطفل ومريم أمه، وعندما تفهمت مريم ما يحدث، خافت من هيرود، وهربت بشكل سري من القبو الخارجي، ودخلت إلى القبو الداخلي، وسكنت هناك، ولسرعتها تركت وراءها في القبو الخارجي، ممدداً في المعلف، قميصاً نسوياً طويلاً، كانت

تبعاً لعادات تلك البلاد قد ولدت فيه، ومثل ذلك تركت خلفها أقمشة القماط التي فيها جرى لف الطفل للمرة الأولى، وكذلك الحجرة التي وضعتها تحت رأسه، والقش الذي رقد فوقه، وبقيت هذه الأشياء جميعاً في المعلف، وبوساطة الحكمة الربانية بقيت محفوظة تماماً ودون أن تفسد حتى أيام القديسة هيلانه، التي عثرت عليهم، كما ستتحدث عن ذلك ونبينه فيما بعد.

وحدث أنه كان في هذا الكهف الثاني، الذي إليه هربت للالتجاء، هناك حجرة كبيرة أو صخرة، عليها اعتادت مريم المباركة أن تجلس لإرضاع الطفل، وصدف في أحد الأيام أن سقطت نقطة من حليب صدر العذراء، على هذه الصخرة، ومنذ ذلك الوقت استمرت تلك النقطة من السائل على الرشح من تلك الصخرة، وهذا السائل له لون الحليب، مزيج بحمرة مثل بعض العقاقير، ومن غير الممكن ضبط تساقطه، وهم يلتقطون النقاط لدى تساقطها، ويحملونها إلى مناطق ماوراء البحر، قائلين بأنها حليب العذراء المباركة، وهذا هو السبب أن كثيراً من الكنائس يعرض فيها حليب العذراء المباركة بين الآثار المقدسة، من ذلك على سبيل المثال في كولون، عند مذبح (كنيسة القديسه مريم) الكبيرة، وفي كيركن Kyrchen، في دير الراهبات، التابع لطائفة الدومينيكان، وفي أماكن أخرى كثيرة في أرجاء ايطاليا، وفرنسا، وألمانيا، وغالباً ماكنت —قبل أن أعلم هذه الحقيقة— أتساءل من أين أتى كل هذا الحليب، أو جرى تجميعه وحفظه، حتى علمت بوساطة التجربة، أنه لم يكن سوى رشح يتساقط نقطاً من صخرة، ولقد رأيت هذه الصخرة في حجي الأول، ولكن في حجي الثاني جرى جلب أغصان أشجار وجذوع إلى داخل القبو، وجرى احداث تغييرات في المكان.

ولايمكن لهذه الكلمات الصادرة عني أن تعني مطلقاً وبأية طريقة من

الطرق، عدم تشريف مريم العذراء المباركة وفق ما تستحق، وكذلك مدحها، واحترامها، لأن من الممكن أن الحليب جرى حفظه في مكان آخر، أو أنه أعطي بشكل اعجازي لانسان ما، أو ان الصخرة التي سقطت عليها نقطة الحليب، كانت هذه النقطة كماقيل قد سقطت من الحليب السماوي، وأنها تلقت القدرة على تنقيط الحليب بشكل دائم، لأنه إذا كان الزيت قد استمر يرشح من قبر القديس نيقولا، ومن قبر القديس وولد بيرجس waldburgis في ستانيا Cistania، وطالما أن الرب أراد أن يظهر الفضيلة الخاصة لقديسيه، فما هو وجه العجب إذا قامت هذه الصخرة بتنقيط الحليب، حتى يبرهن بذلك على سمو وفضيلة الطهارة لدى أمه.

** ** **

الكهف الذي فيه دفنت أجساد الأبرياء

ويوجد إلى جانب الكهف المتقدم الذكر، كهف آخر، لم نستطع الدخول إليه من دون أن نحني ظهورنا، وعندما يغدو الانسان فيه يجد مكاناً واسعاً، وأن هناك كهفاً آخر على الجهة اليسرى، وفي هذا الكهف كان قد جرى القاء عدة آلاف من جثث الأبرياء المقدسين، الذين قتلهم هيرود، لدى بحثه عن المسيح بينهم، وبناء عليه تلونا هنا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وفتش بعض الحجاج عندما كانوا في هذا الكهف بين الغبار على الأرض، معتمدين على أضواء شموعهم، وبحثوا عن بعض آثار الأبرياء المقدسين، لكنهم لم يجدوا شيئاً مطلقاً، ومرد ذلك إلى أن المؤمنين قد قاموا فيما مضى منذ زمن طويل بنقلهم، وآثار هؤلاء الأطفال الأبرياء موزعة في جميع كنائس العالم، ففي البندقية، هناك في جزيرة مورانو حوالي مائة جسد من أجساد الأبرياء في قبر واحد، وكنت

قد رأيت في الدير الدومينيكاني في نورمبيرغ جسداً كاملاً لواحد من الأبرياء، ويمتلكون في دير الدومينيكان في ستراسبورغ أيضاً واحداً من الأجساد الكاملة، ويمتلكون في بازل في دير الدومينيكان هناك يداً واحدة وعدة مفاصل عائدة لهم في وعاء قربان مقدس وثمين، ويوجد في دير الدومينيكان في أولم قميص صغير ملوث بالدم، ومخروق بضربات سيف.

وتوفر لدى النبلاء الذين يذهبون إلى القدس اهتمام خاص في آثار الأبرياء المقدسين، لسبب أنا لا أعرفه، وكان بين جماعتنا رجل نبيل غني جداً، بحث بين رمال الكهف بحثاً حثيثاً عن بعض الآثار، لكنه لم يجد شيئاً، فذهب إلى sobothytaneo الذي هو كالينوس الأكبر، المسلم الذي تولى حماية الحجاج، ووعده من خلال المترجم باعطائه مائة دوقية، إذا استطاع أن يشتري جسداً كاملاً له، وأخبره كالينوس في جوابه بأن أجساد هؤلاء الأطفال قد نقلت إلى القاهرة، حيث أن السيد السلطان محتفظ بهم بشكل خاص، وأنه كان يبيعهم لمن يختار، وأنه لايوجد انسان آخر، في المملكة كلها، غيره، مسموح له ببيع أجساد هؤلاء الأطفال، وعندما سمع هذا الفارس بهذا، فكر بالذهاب إلى القديسة كاترين مع البقية، حتى يمكنه شراء طفل عندما يصل إلى القاهرة.

وصعقتني هذه الصفقة، وجعلتني أشعر بالاهانة، وبالخداع، وبالجور، ولذلك حملت نفسي إلى رجل صاحب معرفة، وبحثت معه حول هذه المسألة، وسألته عن الذي يراه ويعلمه حول أجساد الأطفال هذه التي تباع من قبل السلطان، فتلقيت التأكيد منه بأن الحقيقة هي أن المسلمين والمماليك يتسلمون أجساد الأطفال الذين لم يلدوا بعد، أو الأطفال الذين ماتوا اثر ولادتهم مباشرة، فيطعنونهم بالسكاكين، عاملين جراحة في أجسادهم، ثم يحفظون الأجساد بضغط البلسم والمرّ

والعقـارات الحافظة الأخـرى في الجروح، ومن ثـم كـانوا يبيعـونهم إلى الملوك المسيحيين، وإلى الأمـراء، والأناس الأغنيـاء، على أنهم أجسـاد الأبرياء المقدسين، وبهذه الصورة كـانوا يدفعون مبالغ كبيرة من الذهب والفضـة، ويعتقدون بأنهم تسلمـوا أجسـاد الأطفال المقـدسين، في حين أنهم تسلموا بالفعل أجساد أطفال ملعونين.

وبهذه الصـورة تتم السخـرية من الشعـب المؤمن بالمسيح، ويسلبـون أمـوالهم، لأن هؤلاء الناس غير المؤمنين يعـرفـون رغبـاتنا العظيمـة من أجل امتلاك الآثـار المقدسة، ولذلـك يعرضون للبيع قطعـاً من الخشب يقولون بأنها اجـزاء من الصليب المقدس، ومسـامير، وأشواك، وعظام، وأشيـاء أخـرى كثيرة من النوع نفسـه لتضليل غير الحذرين وخـداعهم وانتزاع أموالهم، وأنا لا أمنح قيمة كبيرة للآثار التي جلبت من بلدان ما وراء البحر، ولاسيما الأشيـاء التي شريت من المسلمين أو من المسيحيين الشرقيين، الذين زيفـاً يسمـون بمسيحيين، وليس الأمر كـذلك بالنسبـة للحصـا المقدس، من الأمـاكن المقـدسة، الخ،وهكذا خـرجنا من كهف الأبرياء المقدسين، ولم نتابع سيرنا.

ويوجد من ذلك الكهف ممر ضيق جرى حفره واقتطاعه في الصخر، وقـد عمله الرهبـان الفـرنسيسكان خلسـة، حتى يمكنهم الدخـول إلى، والخروج من مـوضع مهـد المسيح، إلى بيعـة القـديس نيقـولا، حيث يقيمون قداسـاتهم، ولذلك يتخذون كافة ا لوسـائل لإخفاء ذلك الممر حتى عن الحجاج، خشية أن يصل الأمر إلى مسامع المسلمين والمسيحيين الشرقيين، الذين سـوف يقـدمـون مبـاشرة على اغـلاق الممـر، ومن ثم سيفقد الرهبـان مكانهم المقدس، وقد سمح لي أحيـاناً بالمرور من خلال الممـر السري، إلى موضع مهـد المسيح الأعظم قداسـة، وجاء ذلك بهبـة من الرب وبلطف من الرهبـان الفـرنسيسكان، وكان ذلك عندمـا كنت أمضي الليل كله وحيـداً هناك، وذلك بعـد اغلاق جميع أبواب الكنيسـة

والأقبية.

وهكذا خرجنا من كهف الأبرياء المقدسين، بوساطة المدخل نفسه الذي دخلنا منه إلى كهف أو قبو مهد المسيح، حيث سجدنا بأنفسنا للمرة الثانية، وقبلنا الأماكن المقدسة، التي هي موضع الميلاد، والمعلف، والمكان الذي جلست فيه العذراء عندما تسلمت هدايا الملوك الثلاثة، وعندما كنت واقفاً وسط هذه الأماكن المقدسة ورد إلى ذهني رؤيا النشوة التي رأتها الحاجة باولا الأعظم قداسة، في هذا المكان، حيث أعلنت بحضور القديس جيروم وسماعه بأنها قد رأت الطفل ملفوفاً بأقمشة قماطة، وهو يبكي في المعلف، وكذلك الرعاة وهم قادمين يحمدون الرب، والحكماء يتعبدون، والنجم يشع من فوق، وعلاوة على ذلك رأت العذراء بكلتي عينيها، وهي ترضع بشكل متواصل الطفل، ورأت أيضاً جميع أسرار وخفايا الميلاد الأخرى، وبناء عليه أقنعت فوق هذه البقعة بأن توقف نفسها على الخدمة الدائمة للرب، فهذا ما أخبرنا به القديس جيروم في كتابه «حج القديسة باولا».

وعندما أنهينا صلواتنا خرجنا من الكهف، وبذلك أنهينا مسيرتنا، وذهبنا الآن إلى الدير وتفرقنا إلى المجموعات المتنوعة، وأخرجنا جعبنا التي فيها الأطعمة، التي جلبناها معنا من القدس، وأكلنا وشربنا الماء، ومياه آبار بيت لحم أبرد وأنقى، وأصح، وأعذب من أية مياه رأيتها في بلدان ماوراء البحر، وكانت لدينا كميات عظيمة من هذه المياه مقابل لاشيء، وفي الحقيقة تبدو أية كمية من التعب محمولة بالنسبة للحاج، مادام بإمكانه الحصول على ماء جديد، فالحجاج لايهتمون بطبخ الأطعمة، أو بالخمرة أو بالفرش، بقدر اهتمامهم بالماء النقي، ولهذا بعدما أكلنا وشربنا، طوى بعضنا أطرافه من أجل النوم فوق المكان الذي أكلوا فيه، لكن الشطر الأعظم، رفض الاستراحة، وعاود الدخول

إلى الكنيسـة، وقـد مكثـوا مستيقظين بشكـل مقـدس إلى جـانب معلف الرب، وشغلوا أنفسهم بصلوات متواصلة.

إقامة صلوات ربانية في بيت لحم مع قداس عالي

ركض في منتصف الليل الحافظ لغـرفـة الآثار المقـدسـة حـول الدير ومعـه لـوح (نولا nola) وأيقظ النائمين مـن أجل الصلوات الصباحية، التي يتولى الرهبان تلاوتها في كهف الميلاد، والتي بعدها بدأنا بتـلاوة الصـلاة المهيبـة: « Deminus dixit ad me »الخ، وهي الصـلاة التي يتم انشـادها في أرجـاء العـالم في الليلة المتقـدمـة على يوم الميلاد، وتوجـه الأب المناوب مع معاونيه من رجـال الدين، وهم جميعاً يرتدون ثيابهم المقدسـة، في مسيرة إلى المذبح، الموضوع فوق المكان الذي ولد فيه المسيح، وهكذا تولينا إنشاد الصلاة في القبو، وبعد الصلاة تلقى بعض الأتقيـاء من العلمانيين القربان المقـدس، وأقام الكهنة قداسـاً عند مذبـح الختان، وفي بيعة الملوك الثـلاثة، وفي الكنيسة العليـا، وتحت عند مـذبح ميـلاد الرب، وهكذا استمـرينـا في أداء الصلوات الربانيـة حتى أشرق الصباح.

المكان الذي ضل فيه يوسف طريقة مع مريم والطفل

وبعدمـا فرغنا من قداساتنا، امتطينا مبـاشرة ظهور حميرنا، ونزلنا من بيت لحم إلى الوادي حتى نتمكن من زيارة كنيسـة «المجد في الأعـالي»، وذلك حيث كـان الرعـاة سهـرانين في ساعـة ميـلاد الرب، ومـررنا في الطريق على بيعة مشعثة وشبه مهدمة، وكانت هـذه البيعة قد أقيمت في ذلك الموضع كـذكـرى لما حـدث عليـه، حيث يقـال بأنـه عندمـا أنذر يوسف في المنـام وطلب الملاك منه أن يهرب مع الطفل وأمـه إلى مصر، وذلك حسبما روي لنا في انجيل متى:٢، نهض وبادر مسرعاً بالفرار من بيت لحم، ونزل إلى هذا المكان في الوادي، راغباً بالنزول عبر الوادي إلى

سدوم، ليعبر من هناك الأردن ثانية، وبناء عليه انطلق عبر الطريق الذي سـار عليه بنو اسرائيل لدى قـدومهم إلى البلاد، لأنه لم يكن يعـرف أنه كـان هناك طريقاً آخـر أقصر إلى مصر، بسبب أنه لم يكن قـد رأى مصر من قبل، لكنه عندمـا وصل إلى البقعة التي قـامت فوقهـا البيعة، قـابله مـلاك، وبين له الطريق إلى حبرون، ومن حبرون إلى غـزة، ومن ثم على طول سـاحل البحر المتـوسط إلى مصر، وبناء عليـه، تلونا في هذا المكان صلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وبعدمـا حصلنا على غفراناتنا، تابعنا سيرنا نازلين، فـوصلنا على بعد مسافـة ضئيلة من هذا المكان إلى جدران مهدمة فـوق رابية، وعلمنا هنا أيضاً بأن بيعـة قد قامت فيما مضى، وقـد بنيت بمثابة ذكـرى للأحداث التاليـة: عندما فـارق الملاك الرعيان، وكـانوا على طريقهم صاعـدين إلى بيت لحم لـرؤية الطفل الذي قــد ولد، وفيما هم صـــاعــديـن، بدأوا يترددون، لأن رهقــة شـديدة نـزلت على قلوبهم، وتعــذبت أرواحهم بشكوك غريبة، وباتوا يخشـون من أن الرؤيا التي شهدوها لم تكن سوى مصيـدة وتغـرير، وأنهم لهذا قـد يتعـرضـون لخطـر مـا، والآن فيما هم واقفـون في هذا المكان يتشاور أحـدهم مع الآخـر حول هذه القضـايا، ويصلون إلى الرب، فجأة، ظهـر مـلاك الرب بينهـم، وأكـد لهم صـدق القضيـة، فسقطوا على ركبهم يقدمـون الشكر، وتسلقوا الممـر بخطوات أوسع، وبناء عليـــه، مثل هذا نحـن قــدمنا الشكـر هنا، وحصلنا على غفرانات (مطلقة)(++)، ثم تابعنا سيرنا.

كنيسة «المجد للرب في الأعالي»

في المكان الذي كان فيه الرعاة يسهرون

ومضينا من هناك نازلين الرابيـة، خـلال بساتين زيتـون، ووصلنا إلى واد عريض ملىء بحقـول مفلوحة ومـروج، ورأينا في وسط هذا الوادي

جدراناً مهدمة عظيمة، وبقايا أبنية قديمة، نحوها استدرنا بأنفسنا، ولدى وصولنا إلى المكان، وجدنا كنيسة مهدمة ومتداعية، لكن هناك بقايا من جزئها الأمامي، وبدأ الآن قائد الجوقة يغني بصوت مرتفع ترنيمة: «المجد للرب في الأعالي» الخ، وتابعنا نغني: «وعلى الأرض السلام»، وذلك بمهابة عظيمة، ودخلنا ونحن نغني هكذا بين الخرائب، وتابعنا السير على طريقنا، ونزلنا إلى السدة، حيث مايزال قائماً فيها مذبح مزين، وغنينا هناك بحماس شديد: «المجد للرب في الأعالي»، والأغنية التجاوبية:

الخ«Angelus ad pastores ait» وكذلك، «Qucm vid- istis, pastores» الخ وبعد الغناء، صلينا بهدوء، وحصلنا على غفرانات(+).

وهذه الكنيسة قائمة فوق البقعة التي كان فيها الرعاة مع بعضهم، ساعة ميلاد المسيح، وهنا ظهر ملاك الرب، ووقف إلى جانبهم، وأشع مجد الرب من حولهم وأضاء، وقال كما جاء في الاصحاح الثاني من انجيل القديس لوقا: «أنا أبشركم بفرح عظيم» الخ، وفي هذه الكنيسة أيضاً موضع دفن هؤلاء الرعاة، لأنهم عندما كانوا يموتون رفضوا الدفن إلاّ في مكان ظهور فرح الملاك، وذلك حيث سمعوا الحشد الإلهي يغني «المجد للرب في الأعالي»، وقد بنت القديسة هيلانة الكنيسة فوق هذا الموضع، وإلى جانبها دير للراهبات، حيث من الممكن حتى الآن رؤية بين الخرائب دولاب ومغزل، وأشياء مما اعتادت الراهبات على امتلاكها، وكان هذا الدير يعرف باسم دير «المجد في الأعالي»، وكان هذا الدير من حيث الحجم واسعاً، وذلك حسبما يمكن رؤيته في هذه الأيام، وكانت جدرانه المحيطة به قد بنيت من حجارة مربعة منحوته، حسبما يمكن مشاهدة ذلك في أكوام الحجارة الموجودة هناك، وهي حجارة المسلمون غير قادرين على أخذها بأية وسيلة من الوسائل،

لأنه قيل — وما قيل هو صدق— عندما كانوا يحاولون حمل أية حجرة من هذه الحجارة، كانت تصبح ثقيلة إلى حد أن مامن انسان يمكنه تحريكها، لا بوساطة حيوانات الحمل، ولا بمعونة البشر، ويوجد على منحدر الجبل هناك بعض الحجارة، قد جرى حملها لمسافة ما، لكن بالأخير غلبت بثقلها، ولذلك تركت على الطريق، ولذلك لايوجد شك، أنه لو كان من الممكن نقل هذه الحجارة، لنقلت منذ مائة سنة مضت.

وكان هذا المكان قد حفر عميقاً في الأيام الخوالي، من قبل الرجال المقدسين الذين سكنوا هناك، لأنه هنا سكن البطريرك يعقوب، لأنه ورد الخبر في الاصحاح الخامس والثلاثين من سفر التكوين، أنه بعدما دفن زوجته راحيل على الطريق (إلى إفراتا التي هي بيت لحم)، حسبما تقدم الحديث عن ذلك، ارتحل من هناك، ونصب خيمته وراء هذا الممر، فقد أخبرنا جيروم، بأن هذا المكان كان قرب بيت لحم، في الموضع الذي غنى فيه الحشد السماوي «المجد للرب في الأعالي»، وهذا أيضاً ما حدثنا به كاتب Speculum Historiale، وأخبرناه عن هذا الموضع، وولد في هذا المكان رأوبين الابن الأول ليعقوب، وهو الذي ضاجع بلهة زوجة أبيه، وبذلك دنس فراش أبيه، ولذلك حصل على لعنة أبيه.

وهذا الحقل هو حقل بوعز، فيه كانت راعوث المآبية تلتقط الحبوب وراء الحصادين، الذين كانوا يودون طردها، لكن بفضائلها حركت عواطف صاحب الحقل نحوها، وقد تزوجته، وفي هذا الحقل نظر إليها على أنها جديرة أن تصبح أما في سلسلة نسب المسيح، فهذا مايمكن الاطلاع عليه بالكامل في سفر راعوث، وفي الاصحاح الأول من انجيل القديس متى، وفي حقول هذه المنطقة رعى داوود أغنام أبيه، وهنا مزق إلى قطع أسداً هجم عليه، وقتل دباً، وتفاخر داوود بانتصاراته على

الحيـوانات في حضرة الملك شاؤول، وحصل على الشجـاعة التي دفعتـه حتى إلى قتال العملاق جالوت الفلسطيني، وذلك حسبما قرأنا عن ذلك في سفـر صمـوئيل الأول: ١٧، ويمكننـا أن نفترض أنه قتل كثيراً من الأسود والدببه في هذا المكان، لأن ابن سيراخ قال في الاصحاح السابع والأربعين: «لقد لعب مع الأسود كلعبـه مع الجديان، ومع الدببة كلعبه مع الحملان».

ويمتد هذا الوادي نحو الشرق حتى سدوم والبحر الميت، حيث على مقـربة منـه — بسبب ميـاه الأردن — كثير من الحيـوانات من مختلف الأنواع تتجـول هناك، وتسير عبر الوديان أثناء الليـل، لتصطاد الشريد من القطعان، ولتخطف بعض الحيوانـات الأليفة إذا أمكنها ذلك، وبناء عليه التقى داوود بهذه الحيوانات لدى قدومها وقتلها.

وهكذا كـان الرعـاة في سـاعة الـولادة يتولون حـراسـة قطعـانهم في الليل، وفيما يتعلق بهذا الأمـر طرح التسـاؤل التـالي: «كيف كـان من الممكن للرعاة المحافظة على الحراسة في الليل أيام الشتاء، حيث الأرض كـانت متصلبة بسبـب الجليد، وكـانت أيضـاً مغطاة بالثلج»؟ وعلى هذا يجيب الشرقيون، بأن الرعاة حرسوا قطعانهم مرتين في السنة، أي في أيام الربيع، وفي أيـام الشتـاء، لأن المناطق الشرقيـة لاتتغير بشكل عـام، وكامل، مثلما يحدث للمناطق الغربية، ففـي الوديان الباردة جداً، قد يجد الناس هناك في أيام الصيف مـواضع باردة إلى أبعـد الحدود إلى حـد أن الناس قد يجدون هناك في شهر آب ثلجاً وجليداً في المواضع الظليلة من هذه الوديـان، فيضعـونها في أواني فخـارية، يتـولون بيعهـا إلى الناس الأغنياء في المدن، الذين يتولون تبريد خمورهم بها.

وهناك أيضاً بعض الجبال التـي تكون باردة إلى أبعد الحدود، إلى حد أن قممهـا تكون دوماً مغطاة بالثلج، وذلك مثل جبل لبنان، الذي قـال عنه ارميا في الاصحـاح الثامن عشر: «ثلج لبنان يستمـر بدون انقطاع»،

والخندق (كريت) جزيرة حـارة جداً، ومع ذلك لاتخلو مطلقاً من الثلج في بعض الوديان وعلى بعض القمم، وهـذا مـايمكن مشـاهدته من قبل الذين يبحرون إلى هناك في أيام الصيف، ومن جـانب آخر، هناك بعض الوديان الحارة جداً، ولذلك إذا مـا تساقط فيهـا الثلج، فانه لايبقى لمدة تزيد على السـاعـة، حتى في منتصف الشتـاء، وتجد أيضاً جبـالاً جـرداء القمم، بسبب الحرارة، وليس عليها أية خضراوات مهما كان نوعها.

ووادي بيت لحم هـو واحـــد من هـذه الأودية الدافئـة، فهـــو لهذا لايعرف لاثلجاً ولاجليداً، فيـه يبدأ الشعير بالنمو بشكل كثيف، في أيام عيــد ميـلاد الرب، ولـذلك ترسل الحيــوانات إلى هناك من الأمــاكن الأخرى، حتى تتمكن مـن الرعاية، ولتسمن هناك في الشتـاء، ويستأجر الناس قطعـاً من الأرض لبعض الوقت، مـن أجل هذه الغـاية، ولذلك يعــرف وقت ميــلاد الرب بلغتهم بأيام نمـــو النبــاتات، والأرض في الصيف جافة، وتراها مشوية بـأشعة الشمس الشديدة، وفي شهر أيلول، عندما تغـدو أشعة الشمس أبرد من ذي قبل، تبـدأ جميع نباتات الأرض الخضراء بالنمـــو والازدهار مثلما يفعلون في بلادنا في نيســـان، وذلك باستثناء أن الأشجـار لاتزهر في هـذه الاثناء، وهذا الموسم ليس حـاراً، بل هو منعش ، وكثير من الناس قـد يشعـرون بالبرد فيه، غير أن شهـر أيار هو شهر مليء بأعمال الحصاد.

وواضح من هذا كله، أنه في أيام ميلاد المسيح، يمكن للرعـاة الاقامة في العـــراء مـع قطعـــانهم في هذا الوادي، لأنـه دافىء وأخضر، ثم إن الأرض ليست قـاسيـة بسبب الجليـد، مثلما يصـدف ويحدث في المناطق الأكثـر ارتفـاعـاً، حيث كـان مـولد المسيح، فهناك كـان ثلج، وجليـد، وصقيع، عــلاوة على ذلك، إنه لمن الـواضح من خــلال الكلمات التي استخـدمت، أنه لم يكن هناك راعيـان أو ثـلاثة، بل عـدداً كبيراً، كـانوا منتشرين في الوادي، لأنه قـد كـانـت هناك قطعـان وأسراب ليست من

بيت لحم وحدها، بل من المناطق التي من حولها، ولابد أنه قد كانت هناك أعداد كبيرة منهم، بسبب هجمات الأسود، والدببة، والخنازير البرية، وبسبب اللصوص الذين منذ قديم الزمان حتى هذه الأيام يقيمون في الأماكن المهجورة على جوانب الأردن، ويعيشون على السلب والنهب، ولابد أن الحاجة ضدهم قد فرضت وجود عدد كبير من الرعاة، الذين بامكانهم ليس فقط بأصواتهم، بل بعصيهم، ابقاء الحيوانات المفترسة والرجال الذين يشبهون الحيوانات المفترسة ، بعيداً عن قطعانهم.

وذهب هؤلاء الرعيان جميعاً إلى بيت لحم، وصعدوا إليها في ليلة الميلاد، بناء على طلب من الملاك، ووجدوا الطفل ملفوفا بأقمشة قماطة، وراقداً في المعلف، ومن الممكن أنه كان هناك بينهم ثلاثة كانوا هم المقدمين، وقد امتلكوا السيادة على البقية، وأن قبور هؤلاء الثلاثة، هي الموجودة في الكنيسة المتقدمة الذكر، وجرت معالجة هذا الموضوع من قبل بيد المبجل في عظته الدينية حول نص: « pastores loque bantur » الخ، حيث قال: «ظهرت الملائكة إلى الرعاة في مكان، عرف منذ الزمن القديم باسم «أرض القطعان» وذلك صدوراً عن اجتماع الأغنام هناك، وهذا الموضع على بعد ميل واحد إلى الشرق من بيت لحم، وذلك حيث توجد في هذه الأيام قبور الرعاة الثلاثة التي هي مشاهدة في الكنيسة».

لقد كان هذا ما قاله بيد، وبناء عليه قال جيروم في رسالة بعث بها إلى الرهبان حول قداسة السهر، بأن هؤلاء الرعاة كانوا مقدسين جداً، ولقد كنت مراراً في هذا الوادي، حيث بقيت ساهراً، خلال الأنواء الأعظم حرارة، حيث كانت جميع الأشياء الخضراء قد جفت ، ومع ذلك رأيت دوماً قطعاناً من الأغنام والماعز هناك، وفي جزء آخر من الوادي، مقابل بيت لحم هناك مزرعة قائمة في موقع جميل، حيث رأينا

هناك خرائب جـدران عظيمة، ولقد قيل بأنه في ذلك المكان قـد قام دير القديسة باولا ووصيفاتها.

وهكذا كان بعـد أن رأينا الأماكن المتقـدمة الذكـر، أن عاودنا امتطاء حميرنا، وسرنا باتجاه بيت لحم، وعندمـا كنا فوق الجبل شـاهدنا الترتيب الأصيل لمكان ميلاد المسيح، بشكل أوضح مما كـان بامكاننا فعله عندما كنا في المكان عينـه، وذلك مثل امكانيـــة رؤية الضريح المقـــدس بشكل أفضل من البســـاتين قـرب حق الدم، منه من كنيســـة الضريح نفسهـا، وذلك كما تحدثنا من قبـل، ورأينا على رابيـة بيت لحم جـروفـاً واسعـة وصخـوراً ناتئة فوق الأرض، كـان تحتها كهـوف واسعة، وهي أمـاكن سكن للناس الفقراء، الذين ليس لديهم بيوتاً موائمة، وعلى هذه الشاكلة كان مكان ميلاد المسيح في البداية، كما سأبرهن على ذلك.

وعندمـا وصلنا حتى سـور بيت لحم، درنا حـول السـور، وبحثنا في أسـاسـاتـ ومنحـدرات ذلك الجرف التي قـام عليها السـور، عن كهف مجوف، لكننا لم نعثـر على ذلك، وكنت قـد قـرأت في كتـاب حج قـديم جداً، كتبه واحد من القديسين، أنه عندما ولد الرب، قام يوسف — كما جرت العـادة — بصنع وعاء من الفخار لتحميم الطفل، وبعـدما غسل يوسف الطفل، أخـذ الوعـاء وأخرجـه من المنزل، وصب الماء المقـدس بشكل عشـوائي من السـور على الصخور الناتئـة بين الأساسـات، لأن مـوضـع الميـلاد كـان قـائماً في مكان مـرتفـع، وتحتـه جـروف الـرابيـة وصخورها، التي فوقها قام النزل نفسه، والآن عندما سقط الماء المقدس من الأعلى، سقط في صخـرة مجوفـة ، فيهـا جـرى تلقي جميع ذلك الماء المقـــدس، ومـن ثم حفظه، وبقـي هذا الماء لسنوات طـوال هناك دون ضياع أو فساد، وكان الحجـاج في الأيام الخالية، يقادون إلى هذه البركة، وكـانـوا يغسلون وجـوههم هناك ويشربـون منهـا، ويمـلأون قـوارير مياههم، ويأخـذونها إلى بلدان ماوراء البحر، كدواء للجسـد، لأن عدداً

كبيراً من النـاس المرضى تحسنت صحتهـم بتـــذوقهم لذلـك الماء، هذا ومهما كـانت كميات الماء التي حملت بعيـداً، لم تنقص كمية الماء مطلقـاً، وهذه معجزة لأنه لم يكن هناك نبع للتزويد والتعويض.

وبناء عليه بحثنا عن هذا الكهف مع الماء المقدس، لكننا لم نجده بأية وسيلة من الوسائل، وهذا ليس غريباً، مشاهدين — في الوقت ذاته — التغييرات العظيمـة التي جـرت في المكان بسبب الأبنيـة الضخمـة التي بنيت هناك، ففي العصـــور المتأخـرة، عندمـــا تملك الصليبيـون الأرض المقدسة، قام ملوك القـدس بتحصين بيت لحم بأسوار عالية وبأبراج من حـولها، ولذلك زالت ترتيبـات المكان القديمـة من الوجـود، وذهبنا إلى بيت لحم، فوجدنا السادة المغاربة مع أدلائنا جاهزين للمغادرة، لأنهم لم يكونوا قـد نزلوا معنا إلى الوادي، بل جلسوا بدون حـراك ينتظروننا في الكنيسة، وكانوا منزعجين جداً منا بسبب تأخرنا، وكانوا متعجلين كثيراً للعودة إلى القدس، قبل شروق الشمس، خشية من المعاناة من الحرارة.

الوداع وتقدميات الحجاج في موضع ميلاد يسوع

وعندما حلت سـاعة مغادرتنا لبيت لحم، ركضنا جميعاً إلى قبـو ميلاد الرب، حتى نتمكن من وداع الطفل يسوع والعذراء أمه، وبسبب تقوى الحجـاج، قـامت عادة، أنـه عندما يقبـل الحجاج المكان المقـدس لميـلاد المسيح للمـرة الأخيرة، يتبرع كـل حـاج بمبلغ من المال، يضعـــه فـوق الصخرة المقدسة لميـلاد الرب، من أجل محبة الرب والعذراء، وفي سبيل ترميم الكنيسة، ودعم الرهبان الذين يسكنون هناك.

وفي أثناء التبرع بهذه الهبات من قبل الحجاج، حدث حادث ممجوج، أنا في الحقيقـة خـــائف من الحديث عنه احترامـاً للحجـــاج، ومع ذلك سـوف أتحدث عنه، ليعلم الذين لم يكونوا قـادرين على القـدوم إلى هذه الأماكن المقدسة، أن تلك الأماكن المقدسة لاتفعل خيراً، للذين هم غير

مستعـدين في قلـوبهم، وأن المكان غير المقـدس لايشكل عـائقـاً للناس ذوي الارادة الطيبة، والذي أعتقده في الحقيقـة، هو أنه في هذه الأماكن الأعظم قـداسة يقـوم العدو بـإغواء غير الأتقيـاء ويكمن منتظراً إياهم هناك أكثر مـن أي مكان آخر، ذلك ان السماء العليا، والأمـاكن الأعظم طهارة، لم تغلب الشيطان، ثم ألا ترون أن الجنة الأعظم سمواً لم تتمكن من حفظ أبوينا الأولين ومنعهما من الذنب، وكـذلك فإن علّية العشـاء الأخير، التي كـانت المكان الأعظم قداسـة، لم تحل دون القديس تومـا، ودون الشك، ولهذا جاء في المادة الأربعين من القـانون بأنه «لا الأماكن ولا الأحكام تقربنا أكثـر من الخالق، بل هي أعمالنا الجيـدة، التي تقربنا أكثر إليه، مثلما تبعدنا أعمالنا الشريرة عنه».

والآن، وفقـاً للمثل الذي ضربه الملوك الثـلاثة، قـام مـوالي الحجـاج بتقديم هداياهم، في موضع الميلاد، حيث أعطوا، بعض الذهـب، وبعض الفضـة، وبعض الخواتم الذهبية، وبعض الشمع، وتقـدم في ذلك الحين واحد من الفرسان، وألقى بدوقية على الصخرة، مثلما فعل كثيرون قبله، وبعدما قـام الفارس بذلك، أقدم واحد من الحجـاج الشرقيين، فانحنى بنفسـه وقبل المكان، وأثنـاء قيـامـه بالتقبيل، مـدّ خلسـة يده المدنسـة، وسحب من الكومـة نحـو نفسـه أقـرب دوقيتين ونهض، ثـم ابتعـد، واختلط بين فرق الحجاج.

أيها اللص والسـارق، أنت جـدير أن تعلق على ألف مشنقـة، أيها الناهب إنك جدير بأن تمزق إلى ألـف قطعة، وأن تكوى بدواليب النار، أيها الانسـان الدنس، إنك ينبغي أن تحرق بالنار حتى تكون رمـاداً، أيها المفسـد، أنت جـدير أن تفقـد رأسك، وأن تغـرق في أعماق البحـر، أي عصيان، وأية وحشية دفعت بك إلى هـذا، وأي كافر أعمى أنت، حيث أقـدمت في مثل هذا المكان الفـائق القداسـة، هذا المكان الذي يرى فيـه المسيحيـون بعيون عقـولهم العـذراء المحتاجـة، والطفل الفقير، ويوسف

المتسول، في هذا المكان أقدمت على سرقتهم، علاوة على هذا، إذا كنت لاتؤمن بهذا، ولاتبصره، لماذا انحنيت نحو الأسفل في هذا المكان؟ ولماذا أنت حامل لعلامة الصليب؟ لماذا كنت متسرعا بالقدوم إلى هنا؟ وإذا كنت مؤمناً لماذا لم تخف من سرقة الطفل، لأن الطفولة التي تلبسها كانت من أجلك، وكيف أنت لم تخف من عيني أمه الأعظم حلاوة، التي جلست إلى جانب الطفل، وكانت تراقب بدقة كل ماكان يجري حول ابنها؟ هل علينا أن نفترض أنهما لم تريا، لأنهما كانتا تنظران بصبر أعظم، وبحكمة أكبر، مما يراه الانسان، وإذا كنت لم تهتم بالطفل ولا بالأم بسبب لطفهما الذي لاحدود له، والذي بسببه لم يعاقبا الذنب مباشرة، بل انتظرا بتحمل كبير، مع هذا، من المؤكد كان عليك الخوف من زوجها يوسف الذي كان حازما وقاسيا، فعلى عاتقه رسا أمر العناية بهما معا، ولذلك حدق بهما طوال الوقت ولم يصرف نظره عنهما، وعلاوة على ذلك، إذا كانت هذه الأشياء قد بدت لك لاقيمة لها، وأعلنت أنه لا الطفل، ولا أمه ولا يوسف، كانوا موجودين هنا، لماذا لم تمنعك تلك الرائحة الفائقة الطيبة ، التي فاحت من هذا المكان، والتي تخلفت هناك من أعضاء الطفل يسوع، وجسد أمه الأعظم طهارة، تمنعك من اقتراف الاثم؟

إن الذي قمت به مثل الذي اقترفه أعظم الناس شروراً، أي يهوذا الخائن، الذي ازداد غضباً وتحرك منفعلاً متلهفاً لبيع سيده، ولإقتراف تلك الخيانة الوحشية له، بسبب الرائحة الفائقة الطيبة من العطر الذي جرى صبه على رأس يسوع، ولطيب تلك الرائحة — قيل وكتب — بأن البيت كله قد امتلأ، واعتقد صدقاً أنك لو كنت هنا في أيام الملوك الثلاثة، لتوليت سرقة هداياهم، ولقمت من دون حياء، أو عذر، بسلب الطفل الصغير، وأمه اللطيفة جداً، ويوسف المسكين، ولكن لماذا عليّ البقاء مع هذا الموضوع مدة أطول؟ ذلك أن سرقتك لم تؤذ الطفل، لأنه

في هذه الأيام لم يأت الملوك الثلاثة معاً من الشرق، بل يسعى الناس إلى هنا على شكل حشود من أطراف الأرض الأربعة، ويقومون يوميا بأعمال استغفار، يجري تقبلها من قبل الطفل، كما أن سرقتك لم تحرم من الفضائل الذين قدموا الأعطيات، ومثل ذلك لم تؤذ الذي سرقت منه هذه السرقة، كما أنها لم تحرمه من تقواه، التي ظهرت بين الذين قدموا الأعطيات، والانتقام مخبأ لك مع الناس الأشرار الآخرين، وسيكون ذلك في وقته المناسب، ووفق هذه الطريقة حمل جيروم بعنف على عمل آخر من أعمال خرق الحرمات، جرى اقترافه في هذه الكنيسة نفسها، وجاء ذلك في رسالته القاسية التي لام فيها الشماس سابينيانوس Sab-inianus، المغوي للعذراء سوزانا.

وبعدما فرغ موالي الفرسان من تقديم أعطياتهم، وعندما كانوا يحصون ما كانوا قد دفعوه، وجدوا أنه لابد أنه قد توفر هناك لص بينهم، ونظرنا من حولنا، فرأينا ذلك الشرقي، وشعرنا بدون أدنى شك بأنه هو الذي فعل الشر واقترفه، فألقينا القبض عليه في القبو، ولدى تفتيشنا له وجدنا الذهب معه، فجعلناه يرده إلى المكان الصحيح، وعندما فعلنا ذلك طردناه من بين جماعتنا، وحدثت هذه السرقة أثناء حجي الأول، وأثناء حجي الثاني حدث الشيء نفسه من خلال واحد من المسلمين الذين جاءوا معنا، وأثناء انحنائه في المكان المقدس، وأنه يريد الصلاة قام بشكل سري بسرقة بعض المال من هناك.

وحدث، أن بعض الحجاج الذين كانوا واقفين بجانبه، أن شاهدوا ما أقدم عليه، فلحقوا به وقبضوا عليه، وسحبوه إلى داخل القبو المقدس، وذلك على الرغم من صراخه، ومقاومته، وبقوة عظيمة أرغمناه على فتح يديه، فوجدنا المال الذي أخذه، وبغضب وشدة طردنا هذا المسلم اللص من الكهف؟ وأخيراً قبّلنا المكان، وبإذن من الأم المقدسة خرجنا منه، وإثر خروجنا من الكنيسة امتطينا حميرنا، وعدنا إلى القدس، عبر

الطريق الذي جئنا عليه، وعندما بتنا هناك تناولنا الطعام، وبعد تناولنا للطعام تمددنا بأنفسنا لننال الراحة، وكنا في الليلة التي مضت قد سهرنا إلى جانب معلف الرب، ثم سهرنا في الليلة التالية إلى جانب القبر المقدس للرب.

وصف بيت لحم

أما وقد قمت بعرض أخبار حجنا إلى بيت لحم أولاً، بقي علي الآن العمل على وصف المكان نفسه، ولسوف أصف المدينة أولاً، ثم مكان ميلاد الرب.

ومدينة بيت لحم هي مدينة قديمة، كان لها في العصور الخالية اسم ما، لم تذكره الكتابات المقدسة، ذلك أنني لم أتمكن من معرفة ما الذي كان اسمها قبل ان تعرف باسم إفراتا، وأطلق عليها اسم إفراتا اشتقاقاً من اسم إفراتا زوجه كالب، التي دفنت هناك، وبذلك باتت تعرف بهذا الاسم، حسبما وصلنا الخبر عن طريق مؤلف كتاب Speculum Historale، ولقد قالوا بأن إفراتا هذه، زوجه كالب، كانت هي مريم أخت موسى، التي قبل أن تصاب بالجذام كان اسمها مريم، لكن بعد اصابتها بالجذام وشفائها منه، صار اسمها إفراتا، وهي التي ماتت ودفنت في صحراء صين، وذلك حسبما جاء في سفر العدد:٢٠/ ١، ثم قام كالب بعد ذلك باخراجها من قبرها ودفنها في بيت لحم، التي لم تكن آنذاك تعرف بهذا الاسم، وأطلق اسمها على المدينة، وهكذا باتت تعرف باسم افراتا، وكون إفراتا كانت زوجةكالب فأمر متفق عليه بين الجميع، لكن أن تكون أخت موسى، فأمر أنكره كثيرون، كما جاء في تعليقات نيقولا دي ليرا على سفر أخبار الأيام الأول:٢، حيث ورد بشكل واضح بأن إفراتا كانت زوجة كالب.

والذي رآه القديس جيروم هو أن إفراتا كانت أخت موسى، فقد قال

في رسالته إلى العـذراء برنسيبيا Principia: « غنت مريم أخت موسى لنصر الرب، وطبعت بيت لحمنا وإفراتا باسمها ليكون ذلك عـلامـة للذين يأتون بعـدها»، وهكذا مكثت هذه المدينة المباركـة لسنوات كثيرة واسمهـا افـراتا، حتى في أيام المجـاعـة التي وقعت في أيام إيليملك، وبعـده، ذلك أنه بعد تلك المجـاعـة كانت هناك مـواسم خير وخصب لذلك أطلق عليهـا اسم بيت لحم، ومعنى هذا الاسم هو «بيت الخبـز»، وبشأن هذه المجـاعـة ثم الخصب الذي تلاها، يمكن للانسـان أن يقـرأ سفر راعوث، وتعني كلمـة «بيت» في العبرية وتشير إلى «دار»، أما كلمة «ليحيم» فمعناها «خبز»، وعلى هذا إن معنى كلمة «بيت لحم» فهو «دار الخبـــز»، وعلينا أن نلاحـظ هنا أن أسماء المدن والقــرى في الأرض المقـدسة، يبـدأ معظمهـا بكلمـة «بيت »، وبعد هذه الكلمـة تأتي كلمـة أخرى فيها إشارة إلى خصـوصية المكان، مثلما جاء هنا معنا: «بيت لحم» أي «بيت الخبز»، لأنه توفرت هناك كميات عظيمة من القمح بعد مجاعة عظيمة وطـويلة وقعت هناك، وبيت عنيا حملت هذا الاسم بمعنى قـرية عظم الفك(١)، لأنها كـانت قرية كهنة، ولأن الأغنام ربيت فيهـا هناك من أجل التضحية بها على المذبح، حيـث يؤول الفك إلى الكهنة كحصة لهم، وعرفت بيت عنيا كذلك باسم بيت الطاعة، لأن واحداً من ملوك القدس بنى قلعة هناك، بقصد أن تكون مطيعة لبلاط الملك، وإلى مدينة القدس، وإلى جبل صهيـون، ومثل هذا بيت شمس عرفت بهذا الاسم، أي بيت شمس، بسبـب الهيكل الذي قـام هناك فيهـا، حيـث كـانت الشمس تعبـد فيــه، وعـرفت بيت إيل باسم بيت الرب، لأن يعقـوب هناك رأى أسرار السماء وقـال حسبما جـاء في سفـر التكوين: ١٧/٢٨: «مــاهــذا إلاّ بيت الله»، ومثل هذا أطلـق على بيت أجــلا اســم «بيت النواح»، لأنه هناك بكى أبناء يعقـوب وناحـوا على أبيهم عندما مـات، حسبما جاء في الاصحـاح الأخير من سفر التكوين، الخ..... ومن أجل

١— وهم فابري هنا، لأن بيت فاجي هي قرية الفك، ولعل الخطأ مرده إلى الناسخ.

كثير من أسماء أخـرى تبـدأ بكلمـة «بيت» يمكنك الحصـول على معناهم من خلال كتاب جيروم «حول معاني الأسماء العبرية».

ومثل هذا أسماء القـلاع، والبلدات، والمدن، المنتشرة في ألمانيـا، إنما باستثنـاء أن الكلمـة التي تعني «بيت»، تأتي في نهاية الاسم، في حين وجدناها توضع في العبرية في البداية، فنحن نقول بالألمانية «أوفنهوزن offenhusen » ومعنى ذلك باللاتينية «بيت مفتوح open house، وفي العبرية Bethboforon ، ونقول أيضـاً بالألمانية schafhusen، أي بيت الضـأن، الذي هـو بالعبرية Bethanania وكذلك Och-senhusen أي بيت الثور، وفي العبرية Bethschor، وكذلك Gai-shusen أي بيت الماعـز، وبالعبرية Bethess ، ومثل هذا هناك قـرية قـرب أولم اسمهـا Dreckshusen، أي بيت الفضـلات، وبالعبريـة Bethsevell ، ولو أن الألمان، هم في هذه الأيام، ملاّك للأرض المقـدسـة، وقتهـا بحق ينبغي أن تسمى بيت لحم Brothusen وبيت فـاجي Baggchusen، وبيتشمس Sonnohusen ، وبيت أجلا Flanhusen ، وبيت صيدا Fruchthusen و Bethaven=Abgtthusen، Bethhara= Berghusen، Bethaben= Stein-husen، Bethrama= Hochhusen ، ومثـل هـذا في كثير مـن الحالات.

وكانت مـدينة بيت لحم مدينة جليلة، وكانت مسكن القـوم الأجلاء منذ الأيام الخوالي، وبناء عليـه لعل اسمهـا كـان قبل أن تعـرف بإفـراتا وبيت لحم هو Bethtonforon ، أي «بيت النبلاء» علما بأننا لانعرف اسمها الحقيقي من الكتابات المقدسـة، ومع أنها كانت مدينة جليلة، هي لم تكن قط مـدينة كبيرة، لأن شكل الموقع يحول دون ذلك، فهي قائمـة على جـرف جبلي، هو طويل، لكنه ليس بعـريض في القمـة، فضـلاً عن هذا هي قـائمـة على قن الجبل أو حـافتـه، بشكل أن الأرض التي تقف

عليها محاطة بوديان في الشمال، والشرق والجنوب، وتنحني رجوعاً نحو القدس في الجهة الغربيـة، وكان هنا فيما مضى خنادق، وأسوار، وأبراج، ذلك أن هذا من الممكن رؤيته بوضوح حتى في هذه الأيام.

ولقد سرت حول المدينة، وتفحصت بدقة متناهية موقعها، فالقرية في هذه الأيام مكتظة بـالسكان ولايهتم سكانها لا بالأسـوار أو بالخنادق، والقسم الأكبر مـن سكانها مـن المسيحيين الشرقيين، المتحـالفين مع المسلمين لابل حتى مع البـداة، وهم يعتمدون في معيشتهم على المنطقـة من حـولهم، لأن التربة من حول بيـت لحم خصبة جـداً، مليئة بالقمح، والكروم والزيتـون، والمراعـي، وفي أثناء تقسيم البـلاد بين الأسبـاط الاثني عشر، صـارت مـن حصـة سبط يهوذا، ومن نصيـب فـاسيس phases، التي كانت أبرز أسر هذا السبط.

وأظهـر جيروم المبارك، كم هي جـديرة بالثناء بيت لحم، وورد ذلك في العديد من كتاباته، وبشكل خاص في رسالته إلى مارسيلا حيث قال: «بأي كـلام يمكنني أن أخبرك عن نزل مـريم، وبأية كلمات يمكنني أن أصف لـك كهف المخلص؟ في الحقيقـة من الأفضل تشريـف المعلف الذي بكى فيـه الطفل، بالصمـت خيراً من الكلام غير الكافي، ويوجـد هنا أروقـة واسعـة، وأسقف مـذهبـة، إنما في خـارج بيت لحم، في هذه الزاوية الصغيرة جداً من الأرض، قد ولد مـوجد السموات، إنه هنا قد جـرى لفه بقماط من قماش، وهنا أيضـاً شـوهد وعبد من قبل الرعيـان والحكماء والذي أعتقـده أن هذه البقعـة هي أعظم قـداسـة من صخـرة تاربين Tarpeian، التي غالباً ما تضرب بالصواعق، الأمر الذي يبرهن على عدم رضى الرب، وهاهنا توجد في الحقيقة، كنيسة مقدسة، وشعب مـؤمن، ومدينة آهلة بالسكان، لكـن طموحـة... وتوجد في قـرية الرب حيـاة ريفيـة مضمـونـة، وهنا هدوء، إلاّ غناء المزامير أينما تـوجهت بوجهك، وأدرت نفسـك، فـالذي يمسك المحـراث يغني «المجـد»،

وينصرف جاني الثمار المتعب نحو انشاد المزامير، ويغني العامل على تقليم الكرمة وهو يعمل بسكينه المثلمة، بعض أغاني داوود، فهذه هي أناشيد هذه المنطقة، وهنا يوجد بشكل عام الذين يسمون في الأماكن الأخرى «محبي الأغاني»، هذا بالنسبة للقديس جيروم.

واحتلت بيت لحم مكانة سامية لدى باولا المقدسة، حتى أنها فضلتها على روما، وذلك حسبما قال القديس جيروم في رسالته عن حياة وموت القديسة باولا، فقد آثرت لمعان القاذورات البشعة على الذهب المطروق، وقد ألف صفرونيوس الكبير — الذي كان عالما متعمقاً — كتابا بليغاً في اطراء بيت لحم، وذلك حسبما روى لنا جيروم في رسالته عن «الرجال اللامعين»، وقد قام أيضاً بالترجمة من اللاتينية إلى الاغريقية جميع الأعمال التي ترجمها جيروم من العبرية إلى اللاتينية، ومدح القديس برنارد في قداسه إلى فرسان الداويه، بيت لحم مدحاً عظيماً، فهي المكان الذي ولد فيه الرب.

مكان ميلاد المسيح وكيف كان، وماهو عليه الآن

لم يكن موضع ميلاد الرب في البلدة، بل بجوار سور المدينة، على المنحدرات، في الجهة الشمالية من البلدة، كما هو مرئي في هذه الأيام، ويسعدني الحديث عن هذا المكان الجميل جداً، وذلك مثلما يسعدني السكنى فيه، والذي أرغب في أن أقوله: كيف كان هذا المكان:

١— قبل قدوم المسيح، وذلك في أيام قضاة، وأنبياء، وملوك يهوذا

٢— أيام ميلاد المسيح، عندما حملت مريم بالمسيح هناك.

٣— بعد ميلاد المسيح، عندما ثارت كراهية اليهود ضد عين المكان نفسه.

٤— في أيام هيلانه، التي حولت المكان، فجعلته مشرقاً بالمجد

والشرف.

٥— في أيام القديس جيروم، الذي صار مشهوراً هناك لقداسته ومعجزاته.

٦— في أيام الفساد والمسيحيين السيئين، الذين دنسوا الأماكن المقدسة.

٧— في أيام المسلمين، الذين خفضوا مكانته إلى لاشيء تقريباً، وحولوه إلى وضعه الحالي التعيس.

وفي التعامل مع السؤال الأول حول كيف كان موضع ميلاد المسيح قبل قدومه، على القارىء أن يعرف أن سليمان بن ناسون قد تزوج من راحاب، عاهرة أريحا، وكان سليمان هذا واحداً من أعظم مقدمي شعب اسرائيل، عند عبوره الأردن، والاستيلاء على البلاد بقوة السلاح، وقد تملك هو وراحاب زوجته، بيت لحم، وكان حصنه وبيته هناك، وبنى لنفسه مسكناً واسعاً في مواجهة السور، بشكل أن بيته لم يكن داخل أسوار البلدة، بل كان حصناً منفرداً، وذلك مثلما يفعل اللوردات في بلادنا، حيث يمتلكون في المدن التابعة لهم، مساكن منفصلة خاصة بهم، مجاورة لسور المدينة.

وكان هذا المسكن قد بني فوق صخرة، وكان في هذه الصخرة فجوة، أخذت شكل قبو، كان مفيداً لاستخدامه مستودعاً، توضع فيه الأشياء التي لاتحتمل الحرارة، وفي الوقت الذي ترتفع فيه الحرارة كثيراً، اعتاد الناس على النوم هناك، وكانت النساء الحوامل يلدن هناك، وبناء عليه هناك حملت راحاب ببوعز، الذي اتخذ بعد وفاة أبيه قاضيا على جميع شعب اسرائيل، وسيداً لبيت لحم، وقد اتخذ لنفسه زوجة هي راعوث المآبيه، وهي التي حملت في هذا الكهف بعوبيد، وفيه حملت زوجة عوبيد بيسي، وحملت زوجة يسي بداوود الملك، في هذا الكهف نفسه.

وبعدما صار داوود ملكاً، أخذ القطعان وأهل بيت أبيه إلى البيت الذي بناه لنفسه في القدس فوق جبل صهيون، وترك بيت ميلاده فارغاً، ومع ذلك عرفت مدينة بيت لحم باسم مدينة داوود، لأنه ولد فيها ومسح فيها ملكاً، وحدث هذا مثلما حدث لجبل صهيون، فهو عندما حكم جبل صهيون، صار يعرف باسم مدينة داوود، وغالبا ما ورد الاسمان في الكتابات المقدسة، لكن بعد نقل بيت داوود من بيت لحم، صار الاحترام الذي يقدم إليها وإلى البيت الذي فيها، أقل من ذي قبل، ولهذا السبب غدت أبواب وممرات دار بيت لحم مخربة ومهدمة، وذلك بسبب توالي العصور، وفي الحقيقة صار هذا البيت مكاناً لاجتماع تجار الخبز، والأقمشة، والفواكه، حيث كانت تباع فيه، وكان أمام البيت ساحة مفتوحة، كان الناس يلتقون فيها للتحادث، والشباب للرقص، وعلى هذا مكث هذا البيت لكثير من السنين كحانوت عام، أو محل حوانيت قامت تحت سقوف مقنطرة، وصار الموضع في الوقت نفسه نزلاً، أي مأوى للغرباء أثناء الليل.

هكذا كان الحال الأول لموضع الميلاد، وصار الوضع الثاني كمايلي: بسبب عدم الاعتناء بالمكان، والحفاظ على البناء هناك، تداعت القناطر أخيراً، وسقطت، كما أن الجدران العارية صارت مهدمة، ولم يعد فيها حوانيت ولاتجارات، ومع ذلك بقيت خرائب الجدران، حيث أقيم فوقها بناء غير كامل، وزريبة، وعند نهاية هذه الزريبة كان الكهف المتقدم الذكر، وصارت هذه الزريبة نزلاً يأوي إليه الناس الفقراء، وهناك كانوا يربطون دوابهم ومواشيهم، ويضعون هناك عرباتهم وأشياء أخرى، لايمكنهم إيجاد أماكن لها في المدنية، وعلى هذا بقي المكان حتى أيام يوسف زوج العذراء مريم، وبعد اعلان أغسطس قيصر وبسببه، قدم من الناصرة إلى بيت لحم مع مريم العذراء الحامل، وقد وجد المدينة مليئة بالناس، وجميع الغرف في النزل مشغولة، ولذلك عندما لم

يجد مكاناً في المدينة يمكنه الإقامة به، ذهب إلى خارج المدينة، وانصرف نحو هذا النـزل، الذي وقفت فيه المواشي، مع أدوات الفلاحة، وهناك تدبر مكاناً لنفسه، وعندما دنا وقت مريم العذراء المباركة، أي صار عليها الولادة، دخلت إلى الكهف، الذي ولد فيه داوود الأول وداوود الآخر، وهناك ولدت بداوود الثاني، أي بيسوع المسيح، وذلك حسبما ذكرنا من قبل، وسكنت في هذا الموضع لبعض الوقت، هذا ولسوف نصف أي نوع من النزل كان هناك، ونبين ماهو شكله.

وكان الحال الثالث لهذا المكان الأعظم قداسة كمايلي: بعدما ولد الرب، واثر فراره إلى مصر، تابع هيرود قتل الأطفال الأبرياء، وبحث بحنق عظيم في النزل، وتقصى هناك فيه بحثاً عن الطفل يسوع، لأنه سمع بأن الأم التي قدّم الحكماء لها الهدايا قد أقامت هناك، وحيث أنه لم يعثر على الطفل هناك، تولى تدمير النزل، ورمى الجدران التي كانت باقية أرضاً، وأمر أن لايبقى هناك نزل فوق ذلك الموضع، وبناء عليه بقي المكان مهجوراً حتى إلى مابعد صعود الرب، ثم إن العذراء مريم المباركة شرعت بزيارة المكان مع أصدقائها، حسبما تحدثنا من قبل، ونتيجة لذلك، قدم أناس مؤمنون أخر إلى ذلك الموضع المقدس، وقدموا التشريف له.

وبعد صعود العذراء المباركة، وعندما كان المؤمنون يظهرون احترامهم لذلك الموضع، غضب اليهود تجاه ذلك، وأصدروا حرمانا على المكان وعلى الذين قدموا إليه، وأعلنوا بأن المكان مكانا مدنساً وملعوناً، وكل من يدخل إليه مدنس، وجدير بالمعاقبة، علاوة على ذلك أغلقوا الطرق التي تقود إلى المكان بالحجارة، وبقي المكان هكذا مغلقاً حتى أيام تيتوس وفاسبسيان، اللذان استوليا على القدس عنوه، وفرقا اليهود في أرجاء الدنيا، وبعد تفرقهم بدأ المسيحيون بسكنى الأرض المقدسة، وقاموا بتنظيف موضع ميلاد الرب، وصاروا يحجون إليه حتى

أيام الامبراطور اليوس هدريانوس، الذي جعل الأماكن المقدسة مدنسة بالنسبة للمسيحيين وذلك بوضع أصنام فيها، فهو قد نصب تمثالاً لفينوس على صخرة أكرا، في الموضع الذي مات فيه المسيح، ووضع تمثال جوبتير في الكهف الذي دفن فيه المسيح، وكرس كهف ميلاد الرب ليستخدم موضعاً للبكاء على أدونيس Adonis (تموز)، وهكذا بات أدونيس المحبوب من قبل فينوس العظيمة الدنس، يبكى عليه في الكهف الذي بكى فيه المسيح، فيما مضى، وهو طفل، وحيث تولت العذراء الأعظم طهارة حضانته، وهذا ما أخبرنا به جيروم في رسالته إلى بولينوس حول ترسيم الرهبان، ومن أجل البكاء على أدونيس، انظر حزقيال: ٨/ ١٤، والقسم الثاني من هذا الكتاب، بشكل مختصر أولاً، ثم بشكل مطول بعد ذلك. وهكذا تحول هذا المكان المقدس إلى مكان غريب بالنسبة للمسيحيين، لابل ممجوج لديهم بسبب الأوثان.

وكان الحال الرابع لهذا المكان المقدس كمايلي: بقي المكان لمدة تزيد على ثلاثمائة سنة متروكاً للعبادات الشريرة للأصنام، ففي نهاية ذلك الوقت بعث الرب روح تلك المرأة المقدسة التي اسمها هيلانه، وكانت ألمانية، فبعدما صارت امبراطورة، وغدت مسيحية، ذهبت إلى القدس، وبحثت عن الأماكن المقدسة، فوجدت الصليب، والرموز الأخرى لخلاصنا، ونظفت الأماكن المقدسة وأطاحت بالأوثان، وبادرت مسرعة من القدس إلى بيت لحم، حيث نظفت الموضع العذب جداً لميلاد الرب، وألقت بجميع الأصنام المدنسة من الكهف المقدس، وأطاحت بكل شيء رأته هناك، وقد وجدت تحت الخرائب معلف الرب كاملاً، ووجدت في الكهف الحجرة التي وضعتها العذراء المباركة تحت رأس الطفل، ووجدت أيضاً القش، وأقمشة القماط، وصندل يوسف، والثوب الطويل الذي ولدت فيه، وفقاً لطرائق النساء الشرقيات، اللائي عندما يكن حاملات يرتدين ملابس طويلة عريضة مثل أثواب الكهنة،

ويحمل الغلمان أذيال مـلابس سيـداتهم، لكـن إذا كن فقيرات، وليس لديهن غلمان، يتمنطقـن، ويعلقن أذيال أثـوابهن من النطـاق، وعلى هذه الشاكلة كان ثوب مريم العذراء المبـاركة، وقد تركته في ذلك المكان، مع أشياء أخرى، بسبب السرعة التي فرت بها، وهذه الأشياء جرى حفظها بأوامر ربانية، ولم تفسد، حتى أيام القديسة هيلانة التي وجدتهم.

وبعـدما نظفـت الموضع، بنت فـوقـه كنيسـة ذات جمال رائع، فقـد استـدعت إليهـا معـا أفضل العـاملين بالخشب وبالحجـارة، وأخبرتهم بتصميمها، الذي قصـد بناء كنيسة عالية النفقـات كثيراً جداً، هناك، إنما وفق طريقـه تبقي الصخرة التي ولد تحتهـا المخلص من دون لمس، وبناء عليه أعـدّ الصناع المكان، من أجل بناء كنيسة عظيمـة، ولم يضعوا هناك إلاّ قطعـاً منتخبـة من الخشب والحجارة، مـع ألواح رخاميـة مصقـولة، وأعمـدة ثمينة جداً، وألواحـاً من خشب الأرز والصنوبر، وإلى جـانب هذا أعطت هذه المرأة المقـدسـة المزيد، وزودت بدون توقف رؤسـاء الصناع بالذهب والفضة، ومعادن أخرى بدون حدود، وغطت الجدران وجميع الأرضيـات برخـام أبيض ومنـوع، وجعلت الأجـزاء العليـا من الجدران ترسم بأعمال الفسيفساء.

وهكذا بنت كنيسـة عظيمة وجليلة، شكلهـا مستطيل، ومرتبة تـرتيباً فـائق الجودة، بشكل بقي فيـه كهف ميـلاد الرب، دونما لمس، وواقع مباشرة تحت السدة، وتحت المعبـد، وبنيت هذه الكنيسة وفق طرائق بناء الكنائس الرومانيـة، ففي المقام الأول، كانت النهـاية الغربية منهـا عبارة عن ساباط مغطى وذلك أمـام أبواب الكنيسة، وعندمـا يدخل الانسان يدخـل إلى صحن كبير، طويـل وعـريض، ووراء هذا الصحـن باتجاه الشرق سدة، يصعـد الانسان إليها بوساطة عـدة درجات، من الصحن، ويصعد الانسـان من هذه السدة إلى المعبـد وإلى الجزء المخصص للكهنة الذين يقـومون بالخدمـات والقداسـات، ويصعد الانسان مـن المعبد إلى

المذبح العالي بوساطة عدة درجات.

ويوجد على جانبي السدة بيع، وعلى كل جانب من جوانب الصحن أجزاء نافرة من البناء، وتحت السدة كهف ميلاد الرب، الذي يبلغ طوله مقدار طول السدة، وتحت المذبح العالي حجرة مجوفة، فيها ولد المسيح، وهناك بابين يقودان إلى الكهف، أولهما موجود على الجهة اليمنى، ويقود إلى بيعة ختان الرب، ويقود الآخر إلى البيعة الموجودة على الجهة اليسرى، والطريق نحو الأسفل، إلى داخل الكهف، هو عبر ست عشرة درجة.

وللكنيسة سقف مصنوع من الرصاص، وهو ليس سقفا مقنطراً، بل — في الحقيقة — مثل الكنائس الرئيسية في روما، ذلك أنهاغير مقنطرة، وللكنيسة سدة مستديرة، مليئة بالنوافذ، وهناك في الخارج ممر فوق النوافذ، وللصحن نوافذ كثيرة، على جانبيه، والكنيسة مشرقة ومضيئة.

وكانت هذه الترتيبات العامة للكنيسة، وإليكم فيما يلي التفاصيل، فقياس الكنيسة هو سبع وثلاثين خطوة بالطول، وثمان عشرة بالعرض، وتمتلك أربعة صفوف من الأعمدة الغالية النفقات، وهي أعمدة عظيمة وطويلة، وكل واحد منها مصنوع من حجرة صماء واحدة، وهذه الأعمدة مصقولة بالزيت، لذلك يستطيع الانسان أن يرى وجهه فيهم، كما يراه في المرآة، والحال نفسه بالنسبة لألواح الرخام، التي جرى تغليف الجدران بها، وهذه الألواح نظيفة إلى حد يستطيع فيه الانسان أن يرى كل شيء موجود في الكنيسة، بشكل أوضح مما يمكنه رؤيته في المرآة، وفي كل صف من الأعمدة اثني عشر عموداً، والمسافة مابين كل عمود وآخر هي اثني عشر باعاً، ومجموع هذه الأعمدة سبعين عموداً، ثمينة جداً، وهم مرتبين حسب مقتضيات البناء، ووضع فوق رؤوس الأعمدة عوارض من خشب غير قابل للتلف، حيث يقوم من فوقهم من كل جانب جدار يصل إلى السقف.

وهذا الجدار المرتفع من الأعمدة حتى النوافذ، ليس مطلياً، بل مكسياً، حيث أنه مزين بأعمال الفسيفساء، بشكل رائع على الجانبين، وذلك مثل كنيسة القديس مرقص في البندقية، ومرسوم بالفسيفساء صور من العهد الجديد مع أخرى مماثلة من العهد القديم، والكنيسة كلها بجدرانها جميعاً، إما مكسية بألواح مصقولة من الرخام الأبيض، أو مزينة بأعمال الفسيفساء، وفي هذا المقام، نجد فوق كل شيء كهف الميلاد تحت السدة، فهو مزين برخام للأرض عالي النفقات كثيراً جداً، وبألواح للجدران، وبصور، وفي هذه القضايا جميعاً لم تقصر المرأة القديسة بالنفقات، بل أنفقت بأعظم أنواع الكرم، ولذلك كان اليهود يدعون المرأة القديسة، على سبيل السخرية بـ «امرأة الاسطبل»، لأنها بنت مثل هذا البناء الفخم فوق اسطبل متواضع، وعندما أكملت المرأة القديسة عملها، أخذت المهد الخشبي، الذي قيل بأن يوسف قد صنعه، وأخذت أقمشة القماط، وصندل يوسف، وثوب العذراء الطويل، فقد حملتهم جميعاً إلى القسطنطينية، ولم تقصد سرقة بيت لحم، بل أرادت جعل الأماكن الأخرى مبجلة أيضاً، بسبب الآثار المقدسة من بيت لحم.

وقد أودعت الآثار المتقدمة الذكر في القسطنطينية، في كنيسة آيا صوفيا، ومكثت هذه الآثار هناك حتى أيام شارل الكبير (شارلمان)، فقد حرر شارل هذا مدينة القدس المقدسة، وبطريركها من سيطرة المسلمين، وأعاد السلام إلى المسيحيين الشرقيين، وعندما عاد مع جيشه إلى القسطنطينية سأل أن يمنح مكافأة لجهوده، المهد مع القش[١]، وأقمشة القماط، والصندل، والثوب الطويل للعذراء المباركة، وقد تسلم هذه الأشياء جميعاً، وأخذهم إلى روما، ووضع القش في كنيسة مريم الكبيرة، والمهد في قدس الأقداس في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران، أما الثوب وصندل يوسف، وأقمشة القماط، التي لف فيها يسوع، فقد

١ـــ حكاية حملة شارلمان ورحلته إلى الشرق اختراع بلا أساس تاريخي.

أخـذهم إلى ألمانيا الدنيـا، ووضعهم في كنيسـة العـذراء المباركـة التي بناها في آخن(١)، ويجري عـرض هذه الأشيـاء حتى هذه الأيام هناك، كل سبع سنوات، وكنت قد رأيتهم شخصياً هناك في سنة ١٤٨٧.

وكـان الحال الخامس لموضع ميلاد المسيـح كمايلي: فبعد أيام شـارلمان المتقدم الذكر، تحول الشرق كله إلى المسيحية، وصـارت الأماكن المقدسة تزار من قبل جميع أمم العـالم، وقـام بعض الرجـال الأتقياء والقـديسين ببيع كل ما يمتلكونه، وقدموا إلى الأرض المقدسة مع المال، وقد اشتروا أمـاكن للسكنى هناك، راغبين في انهاء حيـاتهم هناك، وكـان من بينهم القـديس جيروم الذي قـدم من رومـا، واختـار أن يعيش في بيت لحم، قرب مزود الرب، وقد لحقت به الأرملة باولا المقدسة جداً، وعدد كبير آخر، وكنا قد تحدثنا عن هذا من قبل.

وبعـــد هـذا العصر الذهبي، ومـع ازدياد ذنـوب المسيحيين ، تمكن المسلمـون مجدداً من الاستيلاء على البـلاد ثانيـة في أيام بندكت الثـامن، الذي ثار في أيامه شقاق عظيم في الكنيسة، وجرى اقتراف أعمال شريرة كثرة، وتحكم المسلمـون بالأماكن المقدسـة لسنين كثيرة، عن طريق أخذ الجزية، ثم للمـرة الثـانيـة تنـادى المسيحيـون في أرجـاء العـالم من أجل الأمـاكن المقـدسـة، وتوحـد الغـرب كله مع بعضـه وذهب إلى الأرض المقـدسة، في حشـد كبير، في كل من البحـر والبر، وسيطروا عليها بعد جهـد كبير، ونصبـوا ملكاً في القـدس، وأعـادوا بناء الكنـائس والديرة ونصبوا أساقفة وكهنة من أجل زيادة أعمال الصلوات للرب، وتمكنوا في وقت قصير من وضع جميع البلـدان التي من حـولهم تحت طاعتهم، إلى حد أن مامن أحد حرك اصبعاً ضدهم، وقام الصليبيون في الوقت نفسه بتحصين البلدات والقلاع، ومتنوا بشكل خاص مدينة القدس، وكذلك بيت لحم ضد غير الصليبيين بالأسوار والأبراج.

وكـــانت بيت لحم في هذه الآونة آهلـة بالسكان، ومشهـــورة وثرية،

وجلب المسيحيـــون من كل بلد في الأرض الهدايا إلى هنـاك، وعــاش التجار الأثرياء جداً فيها، ولذلك يوجد في هذه الأيام رواق مقنطر أمام الكنيسـة، تحتـه قـامت حـوانيت التجـار، وازدهر رجـال الدين والناس سواء كثيراً في المجالات الدنيوية والروحية، وتدفق الحجاج في كل يوم، من جميع أنحـاء الدنيا، عليهـا في جماعـات كبيرة، ليس من أجل التمكن فقط من رؤية الأماكن المقدسـة، والحصول على الغفرانات، بل في سبيل رؤية أمثلة للاستقامة، ولكي يـأخذوا معهم إلى ديارهـم وأوطانهم تقوياً لحيـاتهم، ولاسيما في الأعيـاد الرئيسيـة، أي في أعيـاد: ميـلاد الرب، والقيامة، فوقتها كانت تجتمع هناك حشود هائلة مع جميع أطراف الدنيا، حتى أن البـلاد كانت تجد صعـوبة في استيعابهم، وذلك بسبب التقـوى العظيمة التي أقيمت فيها العبادات المقدسة والصلوات.

وكـانوا قد اعتـادوا على الاحتفـال بعيد ميلاد الرب، وفق الطريقـة التـاليـة: يقـدم بطريرك القـدس عشيـة ميلاد الرب إلى بيت لحم، مع أسـاقفته، ورعـاة الديرة، ورجـال الدين والرهبـان، وكـان يأتي برفقتهم ملك القدس مع أمرائـه، وكونتاته، وفرسانـه، ولوردّاته، ونبلائه، الذين كان يلحق بهم حشد لايحصى عدده مـن الحجاج، يقودهـم المقدم الأعلى للاسبتـارية مع سـادة فـرسان الاسبتـارية، وعـامـة الناس من الشيـوخ والشباب كنت تراهم جميعاً مسرعين إلى بيت لحم في ذلك اليوم.

وتوجه في منتصف الليل الأجـراس المقروعـة الدعوة إلى جميع الناس للقـدوم إلى كنيســة ميـلاد المسيح، حيث يمضي أسقـف بيت لحم مع أتبـاعــه، بعـد صــلاة الصبح، في مسيرة، وهـم جميعـاً يرتـدون الثيـاب المقدسة، ويتجهـون إلى كهف الميلاد، وينشدون قداسـاً في موضع الميلاد هو: « Dominus dixitadme » الخ، وبعد الفـراغ من هذا القداس، يخرجـون جميعاً من الكنيسـة، في مسيرة، وهـم يحملون المشاعل المضـاءة، والمصـابيح، وأدوات الاضاءة الأخـرى، وينزلون إلى الوادي، ويسيرون

حتى كنيسة «المجد في الأعالي»، حيث يقيمون قداس: «Lux Fu-lojebit cum mango gaudio » ويتولى انشاد هذا القداس واحد من كبار قادة الجوقات، والكهنة، وبعد الفراغ من هذا القداس يصعدون ثانية، وينشدون بقية أناشيد تلك الساعة الشرعية.

وفي هذا الوقت يضع بطريرك القدس عليه ثيابه المقدسة، ويتولى إقامة قداس: «Puerest natus » الخ، ويفعل ذلك في السدة، بشكل مهيب مدهش، وقد اعتادوا أن تكون لديهم نجمة ذهبية كبيرة، كان بعضهم ينزلها من سقف السدة، إلى وسطهم، وفي الوقت نفسه يقف بعض الشبان في الأعلى ويغنون «المجد لله في الأعالي»، ويحركون النجمة بشكل مستمر من الشرق إلى الغرب، ويفعلون مثل هذا في يوم عيد الختان، ففي ذلك اليوم كان يجري احتفال مهيب في بيت لحم، ومثل هذا في يوم الملوك، حيث يجتمع الناس جميعاً مع هدايا، وفي اليوم الثامن لعيد الغطاس، اعتادوا على الاحتفال بعيد التعميد، في كنيسة القديس يوحنا المعمدان على الأردن، ومن أجل هذا كان جميع الناس ورجال الدين ينزلون إلى الأردن، ويجتمعون في يوم عيد البشارة في الناصرة، ويلتقون في يوم الجمعة الحزينة، وفي يوم عيد الفصح في (كنيسة) الضريح المقدس، أما في يوم العشاء الأخير فقد كان اللقاء فوق جبل صهيون، ومثل ذلك في يوم عيد الحصاد، لكن في يوم عيد صعود الرب كان اللقاء فوق جبل الزيتون، وأما في يوم صعود مريم العذراء المباركة، فيكون الاجتماع في وادي شعفاط.

وكانت رغبة الناس الوحيدة هي إقامة قداسات بتقوى مهيبة، فقد حافظوا طوال أيام هذا الاخلاص في القلب، وتحمل التكريس التقوي للأماكن المقدسة، على الاحترام العظيم والجمال، وعاش المسيحيون بسلام وهدوء، ولو أن انسانا رأى كنيسة بيت لحم بجميع تزييناتها، لتولته وقتها الدهشة تجاه عظمتها.

ويصيب الحال السادس لموضع ميلاد الرب كل مؤمن كاثوليكي بالأسف، فيالأسف أخواني اللطفاء، إنه من أجل أن أخبركم بهذا، أنا مرغم على تغيير اسلوبي، وأن أقدم لكم للشرب كأس المرارة، التي تسلمتها أنا بأسى ونحيب، وهي مليئة حتى الحافة بفظاظه الحزن، فعندما كان المسيحيون يتعبدون الرب في الأرض المقدسة، امتلكوا الأماكن المقدسة بسلام، وخدمتهم جميع الأمم، لكن عندما جرى اهمال أعمال عبادة الرب، حدث عكس هذه الأمور، ففي سنة ١١٨٦ لتجسيد الرب، وفي أيام البابا أوربان الثالث، كان هناك ملك في القدس اسمه غي، وقد كان مهملاً، وسيء الحظ، فقد نشب بينه وبين أمرائه صراع، وفتنة، وبناء عليه كان نبلاء البلاد متخاصمين ومتحاسدين، وبات الكهنة، ورجال الدين جشعين ومتشامخين، وكان عامة الناس غير منضبطين وأشراراً، ولهذا نهض المسلمون ضدهم، وأخضعوهم واضطهدوهم إلى حد الافناء.

علاوة على هذا اقترف أحد المسيحيين ذنباً عظيماً في كنيسة بيت لحم، ولذلك تبددت جميع الشجاعة والقدرة على المقاومة وانتزعت من المسيحيين، وصاروا أضعف من النساء، وفي الحقيقة كان عاراً عظيماً ومرعباً، ان يتحدث الانسان، كيف قام المسيحيون، فحولوا دير كنيسة بيت لحم، الذي بني تشريفاً لمريم العذراء الأعظم مجداً، وأم الاحسان، وموضع اللطف، ووعاء النقاء، حولوه إلى بيت سيء السمعة، مراغمة لأم الرب، وإنني أمقت الحديث عن هذه الواقعة، لكن الخراب الذي آل إليه المكان، والوضع المحزن الذي بات فيه، والذي يتوجب البكاء من أجله بسبب هذه الجريمة، لايسمح لي بالمرور به وأنا صامت.

فقد كان هناك مسيحي في تلك الأيام، أحب امرأة مسلمة، حباً لم يكن نظيفاً، وبالحاح شديد طلبها في كل يوم لترضى به، لكنها قاومته باستمرار، وهربت منه، وفي أحد الأيام، عندما كان غاضباً، قامت المرأة

برغبة غير اعتيادية، فألقت بين أسنانه اسم المسيح، وطهارة الديانة المسيحية، الأمر الذي استخف به، وأعلن أن الجريمة ليست كبيرة كما يظن الانسان، وقامت المرأة فبينت فضائل المسيحيين في أشياء كثيرة، وفكرت بأنها ينبغي أن تتحرش به وتغويه، ودفعها حب الفضول، فرغبت أن تجربه لتعرف هل هناك أية فضيلة أو خوف من الرب في ذلك المسيحي، فقالت له في أحد الأيام، ياهذا لقد هزمت أمام إلحاحك، ورضيت بك، لكنني لن أستسلم لك إلاّ في كنيسة القديسة مريم في بيت لحم.

وعن طواعية قبل بهذا الشرط، والتقيا في الساعة المحددة في الكنيسة، وكان معا لوحدهما، وعندما رأت المرأة، أنه لم يعبأ بالكنيسة ولم يهتم بها، وأنه لم يضبط نفسه هناك فيها، قالت له: إنني لن أستسلم لك هنا، دعنا نذهب إلى كهف ميلاد ربك، فهناك ظلام وسرية، فنزل على الفور مع المرأة، التي وضعت نفسها فوق معلف الرب، وجلست هناك، ولدى محاولته الضغط فوقها، نهضت وجلست فوق الحجرة، التي هي موضع الميلاد الأعظم قداسة، وقالت للمسيحي هنا كان ربك قد ولد من العذراء، فإذا كنت على استعداد للاضطجاع معي هنا، فأقدم، وذهب ذلك اليائس والتعيس بلا حدود، إليها دون خوف، ودون إبداء أدنى اهتمام بالمكان.

وعندما رأت هذا، قامت تلك المرأة، وهي رافضة لشروره ومزدرية له، فألقته بغضب واطاحت به وأبعدت ذلك المسيحي عنها، وقالت: اذهب أيها المسيحي الشرير جداً، واعرف ان هذا الشر لن يمر بدون عقاب، وما أن قالت هذا حتى هربت، ودخلت أولاً إلى بيت لحم، وقامت وهي تصرخ وتبكي فأخبرت جميع الناس الذين رأتهم بما وقع لها، ونددت بعنف وحرضت ضد المسيحيين، وحثت المسلمين على القيام بالانتقام لها منهم.

ومنذ ذلك الحين غـدت تلك المرأة نوعـاً مـن أنواع المتنبـآت بين المسلمين، وبشرت بينهم أنه لم يعـد هناك أية فضـائل بين المسيحيين، وأنهم يمكنهم بلا خـوف مقـاتلتهم، وطـردهم من البـلاد، ولدى سماع المسلمين بهذا، استثيروا بـالحماس الديني، وثـاروا ضـد الصليبيين، وشرعوا يكافحون بشدة ضدهم، وقهـروهـم، وقاموا خلال وقت قصير بطرد جميع اللاتين من بلادهم.

وكـان الذي عمل الشر المتقـدم ذكـره، واحـداً من أعظم الصليبيين وأكثرهـم قوة، آه، لو أن مثل هذا الشر والاثم اقترف في أيام جيروم، كم من النحيب والبكاء كان سيسبب! لأنه كان في أيام جيروم شماس اسمه سابينيانوس Sabinianus ، وعذراء اسمها سوزانا، وقد شرعا بحب أحدهما الآخـر، واعتادا أن يخفيا رسائلهما إمـا في كهف ميلاد الرب، أو في كنيسة الضريح، وقد عثر القـديس جيروم عليهم، وإذا ما أراد انسان أن يعـرف أي بكاء ونحيب سببوا له عليـه أن يقـرأ رسالة الملامـة التي وجهها إلى سـابينيانوس، ووقتهـا من الصعب عليه أن يحبس نفسـه عن البكاء مع النحيب، وهكذا أصبحت الأرض المقـدسة في أيدي المسلمين وأعداء صليب المسيح، وهي مابرحت بأيديهم حتى هذه الأيام، وكانت بأيديهم من قبل لمدة مائتين وثمان وسبعين سنة، وهكذا صار واضحاً أنه مثلما بدأ خلاصنا من بيت لحم، مثل هذا بدأت عقوبتنا من هناك أيضاً.

الوضع الحالي لكنيسة بيت لحم

والحال السـابع لموضـع ميـلاد المسيح، هو الوضع الـذي أنا الراهب فيلكس فابري قـد شاهدته فيه، فبعدمـا انتصر المسلمون على الصليبيين، وأخرجوهـم من البلاد، اندفعـوا أولاً نحو القدس، وإلى كنيسة الضريح المقـدس، راغبين بهدمهـا، لكن السريان، أي المسيحيين السـوريين، أنقذوها، بإعطاء السلطان مبلغـاً كبيراً من المال، وقدم السلطان بعد هذا إلى بيت لحم، حيث خرق الدفاعات القوية جداً التي كانت مبنية هناك،

وهدم سور المدينة، والتفت بنفسه نحو كنيسة ميلاد الرب، وهدم أولاً الدير الملاصق للكنيسة، الذي كان عظيماً جداً وفخماً، وهدم أسوار المدينة وأبراجها، التي كان الصليبيون قد بنوها مقابل نفقات كبيرة وجهود عظيمة، وتركوا كومة من الخرائب مثيرة الحزن حول الكنيسة، وعندما خرب الدفاعات، قام بمهاجمة الكنيسة، قاصداً خرقها وتهديمها.

وعندما دخلوها، أولاً هدموا المذابح، ثم حطموا التماثيل المنحوتة، ثم إنه عندما رأى السلطان الألواح الرخامية، التي زينت بهم الأرض والجدران، وشاهد الأعمدة الثمينة جداً، أعطى الأوامر بوجوب خلعهم جميعاً ليأخذهم إلى حيث رغب، غير أن معجزة وقعت واعجوبة انتشر خبرها بين المؤمنين، فعندما جاء العمال مع أدواتهم، ولمسوا الجدار الذي هو قرب الباب الذي يقود إلى كهف الرب، وحاولوا العمل به بالعتلات، كان السلطان واقفاً هناك يراقبهم، على مقربة من الجدار الصحيح الأصم، الذي بدا أن الإبرة لايمكنها خرقه، خرج وقتها ثعبان بحجم مدهش، استدار برأسه باتجاه الجدار، وقام بعضّ أول لوح رخامي، فمزقه بلسانه الناري، وزحف من هناك مسرعاً إلى اللوح التالي، وهكذا إلى اللوح الثالث والرابع، وتابع عمله على طول ذلك الجانب محطماً كل لوح.

ثم إنه قفز إلى بيعة الملوك الثلاثة، وركض على الجدار المصقول صقلاً عظيماً، إلى حد أن العنكبوت لايمكنها أن تثبت قدميها عليه، فدمر أربعين لوحاً في صفين واختفى، ولدى رؤية السلطان لهذه المعجزة تملكته الدهشة، وكذلك الذين كانوا من حوله، ولذلك بدل مقاصده، وأقلع عن التخريب وانصرف، وماتزال آثار الثعبان على الألواح باقية حتى هذا اليوم، وكأن انساناً وضع أداة حديدية حامية وضغط بها بشدة على الأحجار، وكذلك كأن الحجارة نفسها كانت قابلة للاحتراق مثل

الخشب، ولقد رأيت آثار هذه المعجزة بسرور عظيم، وغالباً ماكنت أنظر إلى الألواح بدهشة وتعجب عظيم.

وبعد هذا، جاء مسلمون في سنة ١٣٤١، كان السلطان قد أرسلهم، لنقل الأعمدة الثمينة، لكن عندما وضعوا أيديهم عليهم خافوا خوفاً شديداً، بسبب رؤيا مرعبة، حتى أن أطرافهم انشلت ولم يعد بإمكانهم فعل شيء، ولذلك هربوا مذعورين، ولم يحاولوا ثانية وضع أيديهم عليهم، وبعد مرور بضع سنوات، أعطى سلطان آخر الأوامر مجدداً، في الحقيقة ليس بوجوب هدم الكنيسة بل بانتزاع ألواح الأرضية في كهف الرب، وكانت ألواح أرضية مزود الرب باهظة النفقات، وكبيرة وواسعة، وليست جميعها بيضاء، بل ذات ألوان جميلة مزجت مع الأبيض، كما الحال في جلود العجول، وعندما نزلوا نحو الأسفل مع أدواتهم، لقلع هذه الألواح، تحطم باستمرار كل ما لمسوه بأدواتهم أو بأيديهم وتفتت إلى قطع صغيرة جداً، مثل خشب مهترىء، ووجدوا أنهم فيما لو اقتلعوا الألواح فذلك سيكون بلا فائدة، وعندما رأوا هذا، تركوا الألواح في أماكنها وهربوا، وقمت بقياس هذه الألواح، فوجدت كل واحد منها عرضه سبعة أقدام، وطوله اثني عشر قدماً، وهي مصقولة كأنها مرايا.

وليس قبل سنوات كثيرة مضت، تلقى بعض الشبان المسلمين العقوبة عندما وضعوا أيديهم المدنسة على هذه الأحجار المقدسة، فقد ساد اعتقاد بين المسلمين، أنه يوجد تحت حجرة ميلاد الرب، وتحت المعلف كنوز لايمكن تقديرها، مدفونة هناك، غير أنهم لم يتمكنوا من العثور عليها أو رؤيتها، وتسلق بعض الشباب الفضوليين والجشعين إلى داخل الكنيسة أثناء الليل، وكان ذلك من خلال النافذة الموجودة فوق مذبح ختان الرب،ودخلوا إلى الكهف الأعظم قداسة، واقتلعوا الألواح عند موضع الميلاد، وكذلك الألواح التي هي عند المعلف، وكان كل ما

اقتلعوه يتفتت بين أيديهم، وعندما شرعوا بالحفر استولى عليهم رعب شديد، وأخذوا يرتجفون، ولذلك تركوا أدواتهم، ونزلوا من النافذة التي دخلوا منها، وتركوا منطقتهم، حتى أن مـامن أحد يعرف إلى أين ذهب هؤلاء اللصوص.

ولقد قيل صدقاً، وبدون شك، بين الذين يسكنون قرب البقعة، أن مـامن مسلم يمكنه أن يحمل أي شيء إلى خارج الكنيسة بنفسه بيديه، وإذا ما وضع مسلم يديه على أي شيء مع النية بأخذه هو لن ينجو دون عقاب، إنما على الرغم من هذا كله، جرى انتزاع الكثير من الألواح المصقولة من على الجدران من قبل لصوص مسيحيين، لأن الأشقياء من المسيحيين الشرقيين يسرقون مثل هذه الأشياء ليبيعوها إلى المسلمين، ولهذا السبب يستأجر المسلمون في بعض الأحيان لصوصاً مسيحيين بثمن، ليسرقوا لهم الألواح التي اشتهوها.

ومـامن أحد لديه أدنى شك، أن المسلمين لو استطاعوا أخذ جميع التزيينات الرخامية، لأخذوا كل شيء منذ زمن طويل مضى، لكن الرب يتولى حراسة هذه الأماكن من أجل مواساتنا وفي سبيل مجده الذاتي، ولن يسمح لهم أن يصيروا ضحية المذنبين، ففي خلال حجي الأول، كان سقف الكينسة، الذي كان وزنه ثقيلاً، لأنه معمول من الرصاص، مهدداً بالسقوط فوق السدة وكان ممسوكاً فقط بعضائد خشبية، أقيمت فوق السدة، حيث عليها استند، ووقتها تمنيت أن يحيي الرب الملك يهو آش، الذي قرأنا عنه في سفر الملوك الثاني: ١٢، بأنه أرغم الكهنة على ترميم الفجوات في هيكل الرب، والذي غالباً ما تأسف بعمق من أجله، هو بسبب الخوف من أن تسقط الكنيسة وتصبح في وضع لايمكن ترميمها فيه، لأنها لو تهدمت، لن يكون بالامكان إعادة عمارتها، ومرد هذا إلى أن هناك أوامر صدرت إلى المسلمين في قرآن محمد (صلى الله عليه وسلم) بعدم السماح للمسيحيين

ببناء كنائس جديدة، ولابترميم الكنائس القديمة.

فلسنوات طوال رفض السلطان السماح للمسيحيين باصلاح الفجوات في تلك الكنيسة، لكنه أخيراً وافق بعد الحاح مستمر من رهبان الفرنسيسكان في جبل صهيون، فتراخى بشروطه وسمح باصلاح الفجوات، ولذلك اتخذ الرهبان اجراءات بتأمين جميع الأخشاب المحتاجة لهذه الاصلاحات وتحضيرها في البندقية، وذلك من قبل صناع أعطيت لهم مقاييس الكنيسة، وجلبوا هذه الأخشاب بغلايين عبر البحر إلى ميناء يافا، ونقلوها من يافا إلى بيت لحم على ظهور الجمال، وهكذا تم ترميم السقف كله من قبل الصناع البنادقة، كما أن جميع التلف والأعطال التي ألمت بالأخشاب وبالرصاص جرى اصلاحها وعادت جيدة، بعد جهد كبير ونفقات عالية، لأنهم انتزعوا الأخشاب القديمة التي هي من الأرز والسرو من جبل لبنان، ووضعوا محلها أخشاب جديدة من الصنوبر من جبالنا.

وفي الحقيقة عندما كان سليمان يبني الهيكل في القدس، تسلم أخشاب أرز من لبنان، أرسلها له ملك صور بالسفن عبر البحر إلى يافا، وقام هو بجلب هذه الأخشاب من يافا إلى القدس، وذلك حسبما قرأنا في سفر أخبار الأيام الثاني:٢، وفي يشوع:٣/ ٢، ومثل هذا تسببت القديسة هيلانة بجلب عوارض خشبية، من خشب الأرز، وحملها بالسفن عبر البحر إلى يافا، وبحملها من هناك براً إلى بيت لحم، وكان هذا وقتها سهلاً، وكان من الممكن تدبره خلال عدة أيام،لكنه صعب جداً في هذه الأيام بالنسبة للمسيحيين، أن يجلبوا الأخشاب من لبنان، لأن المسلمين هم الذين يمتلكون هذه البلاد، وعلى فرض أنهم سمحوا لنا بأخذها كانوا سيثقلونها بضرائب عالية جداً، وبعشور، وبمكوس أخرى، ولذلك كان من الأسهل جلب الأخشاب من جبال الألب لدينا، من أجل ترميم كنائس المسيح، من أن تحمل من الجبال القائمة على حدود

الأرض المقدسة.

وأعتقد أنه لم يعد في لبنان نفسه المزيد من أخشاب الأرز، مثلما لم يعد هناك فوق جبل صهيون المزيد من أخشاب السرو، ولهذا قال سليمان في سفــر الحكمــة: «لقـد مجدت مثل أرزة في لبنـان ومثل سروة على جبل صهيون»، وبعد ترميم هذه الكنيسة، أصبحت هذه الكنيسة أنظف، لأن سقفهـا كان من قبل مليئاً بـالحمام والعصافير، وأعشـاش لمختلف أنواع الطيـور، التي تزرق من الأعلى، وتلوث الأرضية الثمينة، ومنذ ترميمهـا توفرت ثعـالب صغيرة (فنك) كانت تقـوم بالسعي هناك ولاتترك طائراً حيـاً، وتبقي بذلك السقف محفوظاً من جميع الأوسـاخ، وكنت في بعض الأحيـان وحيــداً أثناء الليل في تلك الكنيســة، وكنت أسمع كثيراً من الحركة هناك، كانت تقـوم بها الثعالب في السقف، ولذلك كنت أخاف، معتقـداً بوجـود بعض محاولات الإضرار، حتـى علمت الحقيقـة حـول ذلك.

ولم يسمح سيد مصر وملكها السلطان قايتباي فقط بإعادة ترميم هذه الكنيسة، بل إنـه سمح بإعادة بناء الخرائب الموجـودة في كنيسة الضريح المقـدس، وذلك مـراغمـة لشريعـة نبيـه محمـد (صلى الله عليـه وسلم)، وأعتقد أن سلطان أيامنـا هذه هو أشبه بملك قورش جـديد، الذي وإن كان من الأمم، سمـح لليهود بإعادة بناء هيكل الـرب في القدس، الذي كـان نبوخـذ نصر قـد خربه، ونقـرأ عن قـورش ملك فارس، في سفـر أسديراس الأول، وفي سفر إشعيا:٤٦، ولم يكن قورش قد فعل ما فعله من قبل نفســه، بل الرب هو الذي ألهم روحـه ودفعـه، حسبما قـرأنا في الاصحــاح الأخير من سفــر أخبـار الأيـام الثـاني، وفي السفــر الأول لاسـديراس، ومثله كـذلك في الحقيقـة هذا السلطان، حيث تحرك بالهام من الرب، فأعطى الإذن بترميم الأماكن المقدسة، ولسوف يعطي الإذن بأكثر بكثير، مـالم يقم أعداء المسيحية بحـرفه عن مقاصـده، مثلما حدث

لعزرا، كما قرأنا في الاصحاح الخامس(؟) من اشعيا، وفي ثنايا جميع سفري نحميا وعزرا كما علينا أن لانصدق ما يشاع — كما يفعل كثيرون— بأن السلطان تحرك بشكل رئيسي بسبب حب المال، والربح الذي جناه من الحجاج، وأنه لهذا سمح بإعادة ترميم الكنائس المسيحية، لأنه في الحقيقة فعل ذلك بدافع أساسي هو الالهام من الرب، مع أنه لم يعلم شيئاً عن ذلك.

ولولا أنه فعل ذلك، ماكان المسلمون ليسمحوا بأي حال من الأحوال للكنائس أن تقف، وما كانوا ليأذنوا بأي شكل من الأشكال للحجاج بالتجول حول المناطق كما يريدون، حتى وإن كان مبلغ المال المعطى إليهم عظيماً، ذلك أن كراهيتهم نحونا فاقت بكثير حبهم للمال الذي يتوقعوه منا، وهو مال قليل بما فيه الكفاية، ثم إن الملك السلطان لايتسلم ولافلساً من ذلك المال، بل يأخذه فقط بعض من الرجال الموظفين لديه، وهؤلاء لايمكنهم العيش حياة رفاهية على هذه الأموال، ولهذا ينبغي علينا أن نقدم الشكر للرب لأنه صرف قلب السلطان نحونا، ويتوجب علينا أن نصلي لإطالة حياة الملك والسلطان، وذلك مثل الذي قرأناه بأن اليهود قد اعتادوا على الصلاة لاطالة عمر ملوك الأمم من أمثال: نبوخذ نصر، وقورش، وأرتراكسرس، وأنطيخوس، وذلك حسبما جاء في الاصحاح الأول من سفر باروخ، وتظهر النتائج بأن السلطان قد مال نحو عقيدتنا،وأنا لا أشك بأن هناك بعض الحكماء، والفصحاء والأقوياء بين المسيحيين، هم سيوجهون نحوه تلك الصلاة التي خاطبه بها المعلم المبجل نيقولا دي كوسا، في الكتاب الثالث — الفصل السابع عشر، من ترجمته للقرآن، حتى يصرف نفسه نحو طريق أحسن، وأنه ينبغي على المسيحيين أن يصلوا له، فهذا ما أوضحته بجلاء في الجزء المقبل.

المسيحيون من مختلف الطوائف المقيمون في الكنيسة في بيت لحم

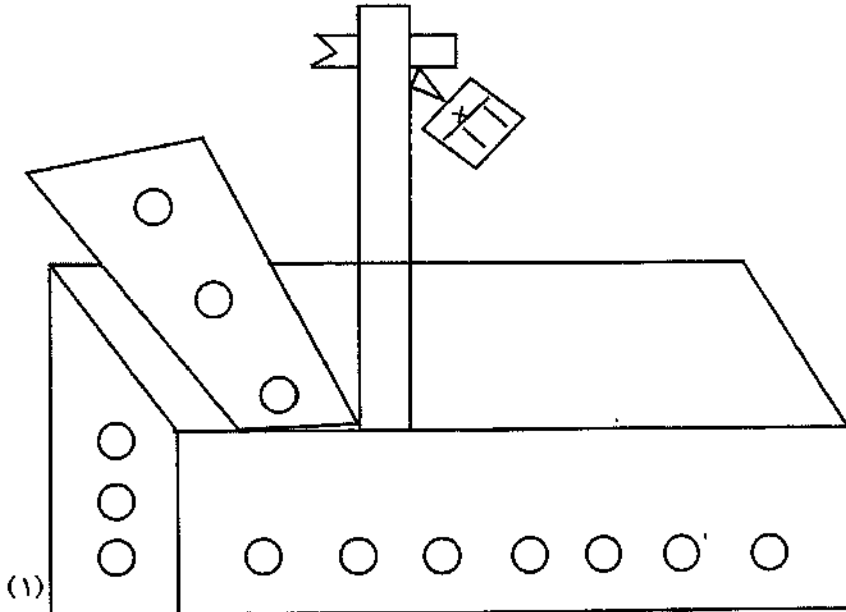
الجزء العلوي من الكنيسة في بيت لحم مدنس وملوث، وليس فيه مصباح واحد في جزئه العلوي، ولا في السدة، ولا في الصحن، ولا في البيع، بل إنه قائم مثل هري بلاقش، أو حانوت صيدلي بدون قوارير العقاقير، أو مكتبة بلاكتب، والصور الثمينة آيلة إلى السقوط من على الجدران، ولا يوجد أحد ليقوم بترميمها، ومع هذا نحن شاكرون لأن جسم الكنيسة مايزال قائماً، والكنيسة الآن موزعة بين المسيحيين تبعاً لاختلاف طقوسهم، وذلك مثلما تقدم وبينا بشأن كنيسة الجلجلة، وكذلك كنيسة العذراء المباركة، فقد امتلك الاغريق السدة، وامتلك اللاتين كهف ميلاد الرب، وامتلك الأرمن المذبح الموجود عند المكان الذي قدّم فيه الملوك الثلاثة هداياهم.

ومامن شيء في تلك الكنيسة مكرس أو مضاء بالمصابيح، إلاّ كهف ميلاد الرب، وكنت كلما وجدت نفسي في بيت لحم، أقيم القداسات في هذا الكهف كمايلي: كنت أولاً أقيم الساعات الشرعية وفقاً لاحكام كتاب صلواتنا المختصر، وبعد هذا، وفي المقام الثاني، كنت أتلو الصلوات الساعية المتعلقة بميلاد الرب، والقداسات الثلاثة التي تتلى في يوم ميلاد الرب، خلال ثلاثة أيام متعاقبة، وكنت أقرأ في الكهف في اليوم الأول عند منتصف الليل قداس: «Dominus dixit ad me» الخ، وفي اليوم الثاني «Lux fulgebit in Aurora» الخ، وفي اليوم التالي الذي هو اليوم الثالث : «In clara luce puer natus est» لأن الرب قد سمح لي بالبقاء وقتاً طويلاً في ذلك المكان، كنت قادراً فيه على القيام بالقداسات المتقدمة الذكر، وأنا شاكر للرب من أجل ذلك.

مغادرة الحجاج لبيت لحم ودخولهم إلى القدس

وعندما فرغنا من زيارتنا لبيت لحم، امتطينا ظهور حميرنا، وغادرنا

من هناك، وعندما وصلنا إلى طرف البلدة كانت هناك امرأة ميته محمولة للدفن، وقد حضر جنازتها جميع المسلمون من نساء ورجال وهم يصرخون ويولولون بأصوات عجيبة ومرعبة، وقد رفعوا أيديهم وكانوا جميعاً يضربون بها فوق رؤوسهم، وعندما رآهم أدلاؤنا، عرفوا الذي كان جاريا لذلك دفعوا بنا إلى الجانب بالصراخ وبالتهديد، وأبعدونا عن الطريق، خشية أن يحدث فنلتقي نحن والمشيعين معا لأننا كنا متميزين بعلامة الصليب، ولو صدف وقابلناهم ونحن نحمل صلباننا، لأثار الشيطان شجاراً مرعباً، ذلك أنهم بلاشك كانوا سيثورون ضدنا، ويطردوننا بعيداً عنهم بالحجارة، وذلك بسبب الاحترام المقدم للمرأة المتوفاة، لأنهم يعتقدون بأن موتاتهم غاضبون بشكل خاص منا، وأن تجولنا حول الأرض المقدسة سوف يسبب لهم العذاب في العالم المقبل، وكانوا سيرضون بالسماح لنا بالسكنى بينهم، لولا أنهم يقولون بأن موتاهم لايمكنهم السكنى معنا، وهكذا دخلنا إلى القدس للاستراحة، وذلك حسبما تحدثت من قبل (لأن السفر كان أثناء الليل).



دخول الحجاج الثاني إلى ضريح الرب، رسم الفرسان هناك، واطراء تلك الفروسية

وفي اليوم السابع عشر، الذي كان يوم عيد القديس ألكسيوس المعترف، وفي المساء المتقدم، وذلك عندما قدمنا من بيت لحم، وجهت الدعوة إلينا جميعاً للاجتماع في ساحة كنيسة الضريح المقدس، ولذلك بادرنا مسرعين ونزلنا إلى الكنيسة، حيث وجدنا عدداً كبيراً من المسلمين أيضاً، ومن التجار، غير أننا لم نجد شيئاً للأكل معروضاً للبيع، مثلما حصل معنا من قبل، وانزعجنا من ذلك، لأننا كنا متعبين من رحلتنا، ولدينا وقتاً قليلاً للاستراحة، فقد نزلنا إلى هناك أسرع مما كان ينبغي، وذلك على أمل العثور على طعام في الساحة، يمكننا أن نأكله في الكنيسة، لكن مامن أحد قدم لنا ذلك.

هذا ولست أدري كيف حدث، أو من تدبر، قيام سادة المسلمين، والأوصياء على الكنيسة بالاعلان في المدينة، بوجوب أن لايجلب أحداً أطعمة إلى الحجاج، ولقد خيل إلي أن ذلك كان بمبادرة من الأب المحترم المسؤول، ليوقف التصرفات غير اللائقة التي صدرت عن الحجاج، حيث أن بعضهم قد جلس طوال الليل يأكل ويشرب في الكنيسة، مثل أولئك الكورنثيين الذين أثنى الرسول عليهم (كورنثا الأول:٢) في كل شيء، إلاّ أن كل واحد منهم يعمل على أكل عشائه في الكنيسة، وكان هناك خلاف بينهم، لأن أحدهم كان جائعاً، وكان آخر سكرانا، ومثل هذا حدث بين الحجاج، فبعضهم كان قد أتخم نفسه بالطعام، في حين كان آخرون صياماً، وهكذا كان إجراء أخلاقياً وجوب عدم جلب الأطعمة.

١ — كلما أقحمت هذه الصورة في النص، فهذا يعني أن فابري وأصحابه قد أمضوا الليل في كنيسة الضريح المقدس.

وعندما اجتمعنا معا، فتح السادة المغاربة أبواب الكنيسة المقدسة، وتركونا ندخل وفق الطريقة نفسها التي كنا قد دخلنا بها من قبل، ودخل معنا — مثلما حدث من قبل— رهبان جبل صهيون، وكان بين الذين دخلوا معنا منهم، جون أوف بروسيا، ذلك الرجل العظيم الذي كنت قد تحدثت عنه من قبل، والذي كان مدير أعمال رهبان جبل صهيون، والذي وإن كان مدنيا في وضعه، لكنه كان (راهبا) نظاميا في طبعه وحياته، وهو الذي باختياره جرى استخدام رداء الطائفة الثالثة من جماعة القديس فرنسيس،مع أنه لم يقطع على نفسه العهد بإطاعة أحكام هذه الطائفة، وكان هذا الرجل من أصل نبيل، من أسرة مرتبتها مرتبة كونت، وهو ألماني من منطقة بروسيا، وكان طويل القامة، وله لحية طويلة، وله حضور ومهابة، وله شعر رمادي محترم، وكان على درجة عالية من الحكمة، وصاحب خبرة كبيرة، وهادىء الطباع، وصاحب ضمير، وكان يخاف الرب، وقد مَنحت هذا الرجل الجيد، هذا الاطراء ليس بناء على السماع بل اعتماداً على معرفة أكيدة، وكان يمتلك سلطات مولانا البابا، وسيدنا الامبراطور، وتفويض ملوك وأمراء العالم المسيحي، من أجل ايجاد الفرسان ورسمهم من بين جميع نبلاء الحجاج الذين قدموا إلى الضريح المقدس للرب، علاوة على ذلك كان معروفاً من قبل السيد السلطان، الذي عامله باحترام عظيم، وكان أيضاً محترماً لدى جانم Naylon(الأشرفي) الذي كان حاكم مدينة القدس، ولدى sobathylanco، والفحل الكاليني، ولدى التراجمة، الذين جميعاً عرفوه واحترموه، ولهذا منحه سادة البلاد الاذن لإحاطة الأماكن المقدسة بأسوار من الحجارة الجافة، وذلك بعد تحديدها وتنظيمه لها، واكتفى بهذا، ولم يتجرأ على بناء هذه الأسوار (بالملاط).

وحصل هذا الرجل على الاذن بترميم المتهدم في كل من كنيسة الضريح المقدس، وكنيسة بيت لحم، وكانت لديه سلطات عظيمة في

القدس إلى حد أن المسلمين واليهود خافوا منه، وتخبأ الأطفال بأنفسهم خوفاً منه، وأعلن صادقاً بأن هناك رجلين في القدس معمران وقد تقدمت بهم السنون، وهما على درجة عظيمة من الفائدة لكل من الأماكن المقدسة وللحجاج، ولايمكنني أن أتصور كيف سيتدبر الحجاج أمورهم في القدس بعد موتهما، ولسوف أكون آسفاً جداً في أن أكون حاجاً في القدس إذا لم يكونا هناك، والأول بين هذين الرجلين هو الأخ جون المتقدم الذكر، والثاني هو الفحل، الذي هو مسلم، ويعرف باسم كالينوس الأصغر، وهو رجل جيد، عنه سوف أتحدث في مكانه.

والآن، عندما تشكلت المسيرة واكتملت، ووصلت إلى النهاية وفق الطريقة التي كنت قد ذكرتها من قبل، قام الأخ جون المتقدم الذكر، قبل منتصف الليل بساعة، باستدعاء جميع النبلاء من الحجاج إليه، وهم الذين كانوا يرغبون أن يتسلموا الفروسية في كنيسة الجلجلة، أي في السدة حيث وسط الدنيا، وذلك حسبما تحدثت في ص ٤٩٧، وبعدما صف الكونتات، والبارونات، والنبلاء أمامه، بدأ بإخبارهم بقوانين هذه الفروسية، ففي المقام الأول، كان محظوراً على أي واحد التقدم لنيل هذه الفروسية، مالم يبرهن أنه نبيل حتى الجد الرابع، وأن يكون لديه دخلاً كافياً، وأن يكون مستقيماً وجيد السمعة، وليس موسوماً بأي عمل سيء، أو له سمعة رديئة، وأعلن أن أي شخص هو غير مناسب، وقدّم نفسه أمامه، وقام برسمه فارساً، إن هذا الرسم يعدّ لاغياً، وأن مثل هذا الانسان ينبغي أن لايعدّ بأي شكل من الأشكال فارساً، بل أن ينظر إليه كساخر، ومهين، ومستخف بالنبالة، وأخيراً استدعاهم للاقتراب منه لتلقي فروسيتهم في ظل الخوف من الرب مع الاحترام، وأن يكونوا في كل شيء مطيعين للبابا وللامبراطور، الذي بسلطان منه جرى اضفاء هذا الشرف عليهم، وأن يتولوا الدفاع عن الكنيسة الكاثوليكية، وأن يحافظوا على جميع حقوقها، وأن يتولوا حماية الأساقفة والقتال لصالحهم،

وكذلك الحال بالنسبة للرهبان ولجميع رجال الدين واللاهوتيين، وأن يحافظوا على أراضيهم ومقتنياتهم، وأن يرعوا الصالح العام بسلام أي أن يتعاملوا باستقامة مع الأيتام، والأرامل، والغرباء، والفقراء، وأن يواسوا جميع الناس المؤمنين أثناء مصائبهم بمنحهم المساعدة، عندما يطلبون منهم، فضلاً عن هذا حرّم عليهم عقد أية معاهدات مهما كان نوعها مع الكفار، بل أوصاهم بالقيام بطردهم وبإبعادهم عن العالم المسيحي بقدر الامكان، وفوق كل شيء، عليهم بذل كل مالديهم من طاقة من أجل انتزاع الأرض المقدسة، والضريح الأعظم قداسة من أيدي المسلمين، وأن عليهم حث جميع الملوك والأمراء، والدوقات، والكونتات، والمركيزات، وجميع الرجال الآخرين من أهل السيف، للقدوم بأقصى سرعة ممكنة بالنسبة لهم، من أجل إنقاذ الأرض المقدسة، وأن عليهم إثارة عقول جميع الناس لمساعدتها، وأن يجعلوا ذلك شغلهم الشاغل، وأن يسعوا بكل يقظة ونشاط حتى يبينوا للمؤمنين الوضع المحزن للضريح الموجود بالأسر، وأن عليهم أن يكونوا مستعدين بأنفسهم في جميع الأوقات للانطلاق والقتال من أجل الأرض المقدسة.

وبعدما قال الراهب هذا كله، لابل وأكثر، دخل إلى الغرفة الصغيرة التي فيها ضريح الرب، ولحق به جميع النبلاء، ووقف أمام باب الضريح، وكان لديه أسماء جميع النبلاء الذين رغبوا باستلام الفروسية، مكتوبة وفقاً لمراتبهم، ووفقاً لهذا التنظيم أضفى عليهم الفروسية.

وبناء عليه، دعا إليه أولاً اللورد النبيل جون، كونت سولم Solms، دعاه إلى داخل الكهف الداخلي لأبدة الرب، حيث فيه، القبر الأعظم قداسة، وربط سيف الفروسية حول وسطه، وشدّ مهمازي الفروسية على قدميه، وأمره أن يركع على ركبتيه أمام ضريح الرب، بشكل كانت فيه ركبتاه على الأرض، وصدره وذراعيه موضوعين على غطاء القبر،

وعندما كـان بهذه الوضعية سحب الأخ جـون المتقدم الذكـر من غمده السيف الذي ربطه حــول وسط الكونـت، وقـام بضربه بحــد السيف ثلاث مـرات على كتفيـه باسم الأب والابن وروح القـدس، وبعـد هذا نهض الكونت، وفـك نطاق السيف والمهمازين، وقبلـه، وقــال باحترام: «لعلها تكون جيـدة لك»، وبذلك صـار فارساً، واستـدعى الأخ بارونـاً نبيلاً، هو مولاي جون ويرنر أوف زيمرن Zimmern، وأعطى السيف والمهمازين للكونت، حتى يرسمـه فارسـاً، الأمر الذي فعله، وبعـد هذا دخل مولاي هينريخ Heinrich ، بارون أوف ستوفـل، الذي رسمه فـارساً البـارون جـون أوف زيمـرن، ومن قبل هذا المتقدم الـذكر كـان مولاي جـون التروخسيس قد رسـم فارساً، وهـو رسم فارسـاً مولاي أورسوس أوف هوهنريخبيرغ Hohenrechberg الذي دخل بعده، وعندما تسلم هؤلاء الفروسية، وغادروا المكان، تلقى بقية النبلاء أيضاً فروسيتهم تباعاً وفقاً لمراتبهم.

وفي حجي الأول، قـام الأخ جون برسم جميع النبـلاء فرسانـاً، بيده، لأنه لم يكن هناك بينهم واحد أعلى من البقيـة في مرتبة النبـلاء، بل كان الجميع سـواء، وقـد فعل ذلك لأن المسـاوي في الرتبـة لايجوز له رسم مسـاويه فـارسـاً، مثلما ليس للمسـاوي في الرتبـة سلطة أو سيـادة على مسـاويه، لكـن عندمـا يجتمع هناك أمــراء، ومـركيـزات، وكــونتـات، وبارونات ونبـلاء، وقتها يتـولى جـون بنفسه رسم الأعلى بينهـم، وبعـد رسمه له، يتولى هذا رسم الذي يليه بالرتبة وهكذا وصولا حتى الأدنى مرتبـة بين الأمراء، الذين يلتمسـون أن يرسموا من قبل هـؤلاء السادة، الذين هم بـالنسبـة لهم أتبـاع، أو أنهم ينتمــون لهم بخـدمـاتهم بشكل خاص.

ولو توفـر بعض الأشخـاص الأتقيـاء ممن تلقى الفـروسيـة بسبب التقـوى، ومع ذلـك لايرغبـون بحمل شـاراتها في بـلادهم، فإن هؤلاء

الناس لايجري رسمهم من قبـل الأمـراء، أو من قبل الـذين يلونهم، بل إنهم يمنحـون أنفسهم للأخ جون، وبناء عليـه إنه في تلك السـاعـة التي صار فيهـا الجميع فرسـاناً، يقوم كل واحـد منهم إثر تسلمه للفـروسية بتقديم هبة قيّمة إلى الأخ جـون، ويفعل ذلك كل انسان تبعاً لامكاناته، فبعضهم يدفع عشر دوقيـات، وبعضهم ثمان، وبعضهم ست، وبعضهم خمس، وذلك من أجل تـرميم الضريح المقـدس والكنيسـة، واحترامـا للأماكن المقدسـة، وللانفاق على الرهبان الذين يتولـون حراسة الضريح المقـدس، ومن أجل ابقاء المصـابيح مضاءة، ولأغـراض أخرى، يعـرف الأخ جون المتقدم الذكر أنها في حاجة.

إطراء فروسية الضريح المقدس وسموفرسان الضريح المقدس وتقدمهم على جميع الفرسان في العالم

منذ قديم الزمان لم تبق روح الناس النبلاء قانعة بالمناطق التي حصل عليهـا آباؤهـم وأجـدادهم، بل إنهم اعتـادوا بشكل عـام على اشغـال أنفسهم بالحصـول على ألقـاب جـديدة للسمـو بأسمائهم، ولقـد حـدثنا المؤرخـون القدمـاء كيف أن هانيبـال، الذي كان أعلى النبـلاء الأفارقـة شأنا، قـد جـاء من قـرطاج، ودخل إلى بلاد ايطاليـا، وكيف أنه تمكن بتفوق شجـاعته من جعل روما ومناطق كثيرة خـاضعة لسلطانه، ومثل هذا فعل فـرسـوس تاشيوس (كـذا)، والد النبـلاء الإغـريق، فطار عبر البحـر على ظهر حصـان مجنح، ودخل فـارس، واستولى عليهـا، وهكذا كان أيضاً الاسكندر، الذي كان قـوياً بثروانه،وعظيماً بأصله النبيل، فقد عبر خلال بلدان العـالم، وأخضعها جميعـاً لسلطانه الشخصي، ومع ذلك لم يجلس قانعـاً، بل فكر بمدّ حـدود امبراطوريته إلى مـاوراء هذا العالم، ومثل هذا نقرأ عن عدد كبير آخر من الذين لم يقتنعوا ببلدانهم، وتقدموا نحو الأمام للقيام بأعمال عظيمة.

ومثل هؤلاء الناس لم يجلسـوا لـلاستراحـة، ولم يعطوا أنفسهم وقتـاً

للنوم، بل عملوا جادين وصارعوا دونها توقف، وبذلوا جهوداً جبارة، هذا ولنأخذ أمثلة من نبلاء أيامنا هذه، ودعونا ننظر إلى الجيش المجيد لحجاجنا النبلاء، الذين يتنعمون الآن برتبة الفروسية، والذين — في الحقيقة — تجدهم في مدنهم، وبلداتهم، ومزارعهم، وقلاعهم، وقراهم، وممتلكاتهم، وقد امتلكوا ثروات متدفقة، ويعيشون برفاه، ويتمتعون بهدوء في اقطاعياتهم، ويسهمون في أعمال صيد بهيجة، ويشاهدون العروض في المسارح، وينخرطون في مبارزات جريئة، ويثاقفون بالرماح، ويتبارون في الصيد والرقص، أو يقيمون بعبادة هادئة لسيرس Ceres (ربة الزراعة عند الرومان) وباخوس وفينوس.

غير أنهم اعتقدوا أنه من العبث الأخذ بالكسل والتراخي، وأنه عمل شرير تكريس عقولهم لمتابعة الأعمال المتقدمة الذكر، ولذلك أطاعوا عقولهم، ونهضوا بأنفسهم برغبة شديدة وبحماس نحو أعلى المراتب المتعلقة بخدمات الفروسية، وليس أي نوع عام من أنواع الفروسية، بل أعلى وأسمى مايمكن تحصيله في هذا العالم، وهو فروسية الضريح المقدس، التي هي أفضل الفروسيات وأنبلها جميعاً، وهذا يمكن البرهنة عليه بكثير من الحجج، التي سأعرضها هنا.

أولاً: لأن هذه الفروسية أعظم قداسة، لأن تلقيها يجري لدى ممارسة أعظم العبادات، حيث أنها تسلم على ركبتين راكعتين أثناء الصلاة في الضريح المقدس، وليس هناك نبيل واحد سيقول بأنه قدم إلى القدس بشكل أساسي من أجل الفروسية، بل جاء لسبب أساسي هو احترامه للأماكن المقدسة، التي فيها عمل خلاصنا، وهذا عمل يتعلق بعبادة الرب، وعمل له فضائل مقدسة، وفي الحقيقة هم يقولون — وغالبا ما سمعت ذلك يقال من قبل الفرسان — لو أن الأماكن المقدسة لم تكن بالقدس، لما قاموا مطلقاً بعبور البحار، حتى لو كان بامكانهم الحصول على ألف فروسية هناك، بل إن الأماكن المقدسة هي التي تحركهم

وتدفعهم نحو الارتحال إلى هناك، ولهذا إن هذه الفروسية أعظم قداسة من الفروسيات الأخرى،

ثانياً: إن هذه الفروسية هي الأعظم قداسة، لأنها تمنح في أعظم الأماكن قداسة في العالم، أي في هذه البقعة التي قام فيها ربنا يسوع المسيح من الموت.

ثالثاً: إن هذه الفروسية، أعظم روحانية من الجميع، لأنها تضفى فقط على الذين يمتلكون قلوباً نادمة تائبة، من الذين اعترفوا بذنوبهم، وتمتنوا بالقربان المقدس في مكان روحاني، من قبل رجل روحاني وراهب متواضع.

رابعاً: لأنها الأعظم فضيلة بين الجميع، فهذه الفروسية غير مشوبة بأي من الشرور، ذلك أنه في الفروسيات الأخرى: غيرة، وغضب، وحسد، وتشامخ، مع كثير من الشرور الأخرى المتعلقة بها، في حين إن هذه الفروسية في ذاتها كلها فضائل.

خامساً: إن هذه الفروسية هي الأعظم لياقة بين الجميع ، وهي في الحقيقة الأعظم لياقة، لأن المسيحي الذي يرغب في أن يصبح فارساً، يتوجب عليه أن يتسلم الفروسية على أرض الميدان التي هزم عليها ملكه أعظم أعدائه قوة، بيد أنها هنا يجرى تسلمها من قبل ملكنا، وأعني به المسيح، وفي ميدان هو موضع الجلجلة، حيث هزم الشيطان.

سادساً: إن هذه الفروسية العائدة إلى الضريح المقدس هي الأنقى والأنظف، وهي أعظم براءة من أية فروسية أخرى، لأنهاغير ملطخة بأي دم بشري، مثل بقية أنواع طوائف الفرسان، التي هي من حيث المبدأ غير نظيفة، لأنها تعطى، حيث يوجد أعظم سفك للدماء البشرية، والأسوأ من هذا كله أن الناس يحصلون على الفروسية بسبب سفكهم لدماء قوم من المسيحيين، أي دماء إخوانهم، وبذلك هي فروسية ملعونة

وغير مرضية للرب.

فداوود، الملك المقدس، لم يؤذن له ببناء هيكل الرب، لأنه كان رجل حرب، وقام بسفك الدماء البشرية، وذلك حسبما قرأنا في أخبار الأيام الأول: ٢٢/٨، مع أننا ينبغي أن نتذكر أنه سفك فقط دماء الغلف غير المختونين والكفار، وأنه سفك دماءهم بناء على أمر من الرب، فإذا كانت دماء الوثنيين جعلت ذلك الرجل المقدس ملوثاً، وليس بإمكانه بناء الهيكل، ما الذي يمكن فعله بشأن الدماء النبيلة جداً للمؤمنين المسيحيين؟ وكم من الدنس سيلحق الذي تسبب بسفكها! ألا تجعل هذه الدماء الفارس دنساً وملوثاً؟ وليست فروسيتنا البريئة العائدة للقدس ملوثة هكذا بدماء المسيحيين، بل إنها تطهر الفرسان، وتوجب عليهم الدفاع عن الدم المسيحي بسبب أنهم تلقوا الفروسية في المكان الذي سفكت فيه دماء المسيح الطاهرة جداً، من أجل الناس جميعاً، ولذلك يمقتون سفك دم أي انسان، ما لم يرغموا على سفك الدم المجرم دفاعاً عن دم المسيح.

سابعاً: إن هذه الفروسية هي الأكثر عقلانية بين الجميع، لأن المنطق يوجب وجود بعض الناس بين جماعات المسيحيين للدفاع عن الايمان بسيوفهم، ولإيقاف الظلم بسلاحهم، ولإرغام الضالين على العودة إلى الصواب بالقوة، فهذا هو واجب فرسان الضريح المقدس، كما أوضحنا وبيّنا، ولا يؤتى بالعادة على ذكر هذه الواجبات، عندما يتلقى الرجال الفروسية في أماكن أخرى.

ثامناً: وهذه الفروسية هي الأكثر لطفاً بين الجميع، لأن الرجال لم يجعلوا فرسانا في القدس لإيذاء أي انسان، في حين أن الآخرين عملوا فرساناً لمحاربة أعدائهم، ولإيذاء الآخرين بمختلف الطرق.

تاسعاً: إن هذه الفروسية هي الأعظم مشقة بين الجميع، لأن من

الذي يمكنه أن يصف متاعب فارس الضريح المقدس، التي يعاني منها، ليس من أجل الحصول على الفروسية، بل إجلالاً للرب وسعياً في سبيل خلاص روحه؟

عاشراً: إن هذه الفروسية هي الأعظم خطراً بينها جميعاً، لأن التعب من دون خطر، لـه قيمـة ضئيلة، بـل ينظر إلى مشقـة قليلـة مع كثير من التعب، على أنه أمر عظيم، والآن من الممكن العثـور على هذين الأمرين في فـروسيتنا، وذلك بوجـود مشقـة عظيمـة وخطر عظيم، الأمـر الذي يبرهن على صحته رحلاتي وجولاتي كلها.

حـادي عشر: إن فروسيتنا هذه هي الأشـد إيلاماً، لأنه تمّ الحصـول عليهـا من خـلال كثير من الشقـاء وكثير من المحـن، ومع ذلك توجب على الحاج أن تكون حافظة نقوده مليئة بالمال.

ثاني عشر: إن فـروسيـة القـدس هذه أكثـر حكمــة، بسبب مختلف الخبرات التي يمـرّ بها الانسـان، فـالرجل النبيـل الذي ينطلق من دياره يريد القـدس يكسب كثيراً من الخبرة حـول طرق العـالم في البحـر، على طرفي البحـر معـا، وحـول عـادات الناس والفـوارق بينهم، لأنه يتلقى المعـرفـة من المؤمنين وغير المؤمنين، لأنه يشـاهد المسيحيين، والأتراك، والمسلمين، والمماليك، والتتار، والعـرب، واليهود، والسامـرة، والمغاربة، والاغــريـق، والأرمن، والهنغــار، والدلماش، والبـــانونيين، والآخيين، والطليان، والغـاليين، والانكليز، والتيوتـون، ويسكن بينهم، وباختصار إنه يحصل على المعلومـات حول جميع الناس والبـلاد، في كل من الشرق والغرب، وذلك إذا كان انساناً متفكراً متذكراً.

عــلاوة على هذا، يتعلم الذي يود الحصــول على هذه الفـروسيــة، بالتجربة، من هو صـديق، ومن هو عدو، ويتعلم أيضـاً، كيف يميز بين الكاذب والصادق من الناس، ويتوصل إلى معرفة الفرق بين ما هو جيد

ومـاهو سيء،ويكتشف مـاقصـد بالحظ السيء، والحظ الجيـد، ومـاعني بالشر وبالفضيلة، وكم هـو الفـرق كبير بين الرجل الجيـد، وبين الرجل السيء، ومثل هذا يتلقى خبرة أثمـن من جميع مـاتقـدم، فعنـدمـا يكون الانسان في حجـه هذا، يبدأ بمعرفـة نفسه عن قـرب، ويتعلم عن قرب حكمته وحماقاته، وعواطفه المتنوعة ورغباته ، وفضائله وشروره، وأقول صادقاً إنه في أربعين اسبوعـاً من هذا الحج، يتعلم الانسان ويتعرف على نفسه، أكثر مما فعل ذلك في أربعين سنة في موضع آخر.

وأعترف أنني لم أر مطلقـاً نقـاط ضعفي وشروري أفضل، أو أوضح مما فعلتـه ثناء جـولاتي هذه، وبشكل خـاص عندمـا كنت في البحـر في الغليون، أو في خيمة في الصحراء، لأنه في هذه الأماكن لايبقى جزء من أخلاق الانســان مخفيا، وأنا متأكـد بأن رفاقي ومـوالي النبلاء يعـرفونني ويعرفون جميع عـاداتي أفضل من اخواني في طائفتي، الذين عشت معهم لمدة ثلاثين سنة، وأنا أعرف هؤلاء الفرسـان أفضل من معرفة زوجاتهم لهم، وكـذلك أفضل مما فعل آباؤهم، وأولادهم وخـدمهم، لأنه في هذه المشاق والمغامرات التي يقدم عليها الحجاج، مامن واحد منهم يمكنه أن يصـون نفســه، بل تظهـر جميع أفكـاره السرية بشكل متتـابع، لأن هناك عمـلاً متواصـلاً يستـدعيهم إلى الظهـور، هذا ويتلقى الفـرسان الأخـر الذين يرسمـون فـرســاناً في بلاطات الملوك، أو على جسر التيبر، أو في ميادين القتال، قليلاً من الخبرة.

ثالث عشر: إن فـروسيتنا أعلى قيمـة من الأخـريات، لأن فـرسـان الضريح المقدس يمنحون المقام الأول بين جميع الناس روحيا ومادياً.

رابع عشر: إن فـروسيتنا أعظم قـوة وأعلى سلطة مـن الأخـر، لأنها منحت بوساطة سلطات البابا الذي هـو أبونا الأعظم قداسة، ومن قبل مولانا الأعظم جلالة الذي هو الامبراطور، وإنه عندما يتم أحياناً رسم بعض الفـرسان مـراغمة للبـابا ومراغمـة للامبراطور أيضاً، أو بمعـزل

عنهما أو من دون موافقتهما وعلمهما، فإن هؤلاء يكونون بلا سلطة.

خامس عشر: إن فروسيتنا أعظم نبلاً من أية فروسية أخرى، وتضفي النبالةعلى الفروسيات الأخرى، في حين أن العكس ليس صحيحاً، ولقد رأيت عدداً كبيراً ممن رسم فرساناً من قبل الامبراطور، وفي ميدان المعركة، ومع ذلك لم يهتموا بحمل شارات فروسيتهم حتى رسموا فرساناً في الضريح المقدس، وأعرف واحداً من النبلاء، قام الامبراطور برسمه فارساً في احدى المعارك، ثم رسمه ملك هنغاريا في معركة ثانية، وبعده رسمه ملك بوهيميا في معركة ثالثة، ومع ذلك تصرف دوما كمجرد نبيل عادي، وذلك حتى رسم فارساً للمرة الرابعة في ضريح الرب، فبعد ذلك قام بعرض شارات فروسيته، وهو في هذه الأيام فارس رائع، يركب مع أتباع كثيرين.

سادس عشر: إن فروسيتنا هي الأكثر إعجاباً بين الجميع، لأن الناس يشعرون بنوع من الاعجاب تجاه فارس الضريح المقدس، بسبب تسلمه لفروسيته بين المسلمين وفي وسطهم، وفي ضريح الرب المقدس.

سابع عشر: إن هذه الفروسية هي الأعظم تبجيلاً، لأن لفارس الضريح المقدس حق الأسبقية على الجميع في السير، والوقوف، والجلوس، والكلام، وغسل اليدين، والأكل، وهكذا دواليك.

ثامن عشر: إن فروسيتنا هي الأعظم تميزا بين الجميع، وعندما يبدأ فارس من الضريح المقدس بالحديث عن فروسيته، وعن المكان الذي نال فيه فروسيته، وعن المغامرات التي واجهها، يحدق جميع الناس بأبصارهم به، ويضغون بأفواه مفتوحة لما يقوله.

تاسع عشر: إن فروسيتنا هي الأكثر قبولاً بين الجميع، لأن فرسان الضريح المقدس مقبولين لدى كل من النبلاء والعامة، ذلك أنهم يولون أهمية ضئيلة للفرسان الآخرين، لابل أكثر من ذلك يسمونهم بالخشونة

والوحشية، وأنهم أناس مرعبين.

عشرون: إن فروسيتنا هي الأكثر رجولة بين الجميع، لأنه أمر ضئيل القيمة أن تتمكن مرة من خرق صف العدو، أو أن تواجه العدووجهاً لوجه، إنما هو شيء عظيم أن تكون مراراً في موقف رعب مميت، كما هو الحال بالنسبة لفرساننا.

حادي وعشرون: إن هذه الفروسية أعظم نشاطاً وفعالية من الآخرين، لأنها تحتاج إلى رجل شجاع في جميع الأحوال.

ثاني وعشرون: إن فروسيتنا أكثر استقامة من الأخرى، ذلك أن جميع الفروسيات الأخرى مشوبة بشيء من الظلم والشرور، ففروسيتنا هذه قائمة على العدالة، الانسانية والسماوية، وهي منظمة بوساطة القوانين التي عملها الامبراطور، والبابا.

ثالث وعشرون: إن فروسيتنا أكثر موافقة وتأسيساً من الفروسيات الأخرى، لأنها تحدث بشكل متواصل أكثر من الفروسيات الأخرى التي تعمل في مكان غير معترف به لمنح الفروسية، من قبل آخرين، لابل يسخر منها ويطلق عليها اسم فروسية السيدة أو فروسية السنور، وفي الحرب مامن أحد من الفريقين يعترف بالفرسان الذين رسموا على الطرف الآخر للقتال ضدهم، ولايوجد أي شيء من هذا النوع في فروسيتنا، بل يعترف الجميع بصاحبها فارساً.

رابع وعشرون: إن فروسيتنا هي الأقدم بين الجميع، لأنه منذ آلام المسيح، جرى رسم الذين عبروا البحر، صدوراً عن التقوى تجاه الاماكن المقدسة، وعدّوا فرساناً.

خامس وعشرون: إن هذه الفروسية مرغوب بها أكثر من الفروسيات الأخرى، ويبرهن على صحة ذلك بحقيقة، أن الذين يرسمون فرساناً في مناطق أخرى، يظلون غير راضين بها، بل يتطلعون

بشوق إلى فروسيتنا وذلك بالاضافة للفروسية التي تلقوها، علاوة على ذلك يتوهج فرسان الضريح المقدس بحرارة الحب، ولذلك يتشوقون للعودة إلى المكان الذي تلقوا فيه فروسيتهم، وفي الحقيقة، يرغب الذين زاروا الأرض المقدسة بالعودة إليها، بحيث لايمكن لأية مخاوف أن تمنعهم، وهذا ليس متوفراً في بقية طوائف الفروسية.

سادس وعشرون: إن فروسيتنا هي الأكثر تقيداً بأحكامها، لأن قانون هذه الفروسية قضى، بوجوب عدم تسلم أي انسان لها، مالم يكن نبيلاً حتى الجد الرابع، وهو مشهور في أسرته، علماً بأن هذا الشرط لايراعى الآن بدقة، حيث يجري رسم بعض الرجال من أصل منحط فرساناً مثلما يجري رسم النبلاء، وذلك مثلما الحال في الفروسيات الأخرى.

سابع وعشرون: إن فروسيتنا هي الأكثر تواضعاً من الجميع، وهي الأعظم طول معاناة، فالفرسان الآخرين لايتنازلون للتسامر مع أناس عاديين، ليسوا من أصل نبيل، ويحسدون أي حظ سعيد أصاب التابعين لهم، وفرسان الضريح المقدس ليسوا هكذا، فهم لايستخفون بأي انسان، وجميع الناس يرتحلون برفقتهم، ولايرفضون أحداً، لأنهم يبحرون عبر البحر إلى القدس برفقة، رهبان، وكهنة، وتجار، ومتسولين فقراء، لابل أكثر من ذلك، إنهم يعبرون حتى برفقة نساء، من الشابات والعجائز، ومع عقيلات وراهبات ولايعيرون اهتماماً محاولات النيل الحمقاء منهم ومن أخلاقهم، التي تقول بأن فروسية الضريح المقدس نسائية، وذلك بسبب النساء العجائز اللائي يحظين برفقتهم، وهم لايخجلون من التعايش مع هؤلاء النساء العجائز، لابل يبتهجون بذلك، ويعدون أنه لصالحهم تلقي فروسيتهم الدنيوية في المكان الذي فيه، راهبات وعقيلات، ونساء عجائز، ورهبان وكهنة، وجميع أنواع الناس الأتقياء الذين يلتمسون عونهم في قضاياهم الروحية، ومن أجل زيادة

نعمة الرب.

ثامن وعشرون: إن فروسيتنا هي الأقسى بين الجميع، لأن الفروسية التي تمنح في بلاطات الملوك والأمراء وفي ميادين المعارك، تمنح مع شيء من النصر والسرور، وتجلب معها منافع متعددة ، في حين إن فروسيتنا قاسية وفيها ندامة وتوبة، ولاتحمل معها لابهجة ولامنافع بل كثيراً من المحن.

تاسع وعشرون: تتطلب هذه الفروسية المزيد من الشجاعة، أكثر من البقية، لأن الذي يعبر البحر بجرأة يخاطر بحياته، أكثر من الذي يذهب إلى الحرب، لأن هذا الذاهب إلى الحرب ، يذهب وهو حام لنفسه بالدروع، ويمكنه أن يحرس نفسه ضد المخاطر، ويمكنه في النهاية الفرار، والبحث عن ملجأ، في حين لايمتلك فارس الضريح المقدس أي نوع من هذه المساعدات لحماية نفسه ضد المخاطر التي تحيق به في كل من البحر والبر، لأنه عندما يكون بين غير المسيحيين، عليه أن يتصرف وأن يتحمل وكأنه بلا مشاعر، وأن لايرد على الذين يضربونه، وبناء عليه يمكنه عن حق أن يردد قائلاً ماكتب في سفر الأمثال: ٢٣/ ٣٥ «يقول ضربوني ولم أتوجع. لقد لكأوني ولم أعرف»، هذا وكان قد مرّ بنا أمثلة حول هذا.

ثلاثون: وهذه الفروسية أبعد مسافة من أي من الفروسيات الأخرى، لأنهامنحت في وسط العالم، وهذا ويلمس الفرسان الذين يذهبون إلى القديسة كاترين، الأجزاء الثلاثة الرئيسية للعالم، وهي أوروبا، التي جاءوا منها، وآسيا التي اجتازوها، وأفريقيا التي يلامسونها في مناطق الاسكندرية، في حين يقيم الفرسان الآخرون قرب مواطنهم لأداء خدماتهم.

احدى وثلاثون: فروسيتنا هي الأكثر توازناً وانضباطاً، لأن الفرسان

الآخرين — حتى وإن رسموا في الحرب نفسها — يتفاخرون بأنفسهم، ويمدح أحدهم نفسه أمام آخر، ويجري تفضيل بعضهم أمام آخرين من قبل أناس على أنهم فرسان أفضل، ويستحقون شرف الفروسية أكثر مما نالوه، وغالبا ما يتخاصمون بشكل مخيف أحدهم مع الآخر في بلاطات الملوك، حول هذه المسائل، هذا وفروسيتنا المقدسية متحررة من جميع هذه الشجارات، وهذه التفاخرات الدنيئة، لأن الجميع يحصلون عليها بالوسائط نفسها، ورجل نبيل جعل فارساً هو ليس أقل من ملك رسم هناك.

ثاني وثلاثون: إن فروسيتنا هذه عالمية، من حيث أن جميع النبلاء يرسمون هناك، وذلك سواء أكانوا من الشرق أو من الغرب، أو شيوخاً أم شباباً.

ثالث وثلاثون: إن فروسيتنا هذه هي الأقل خطراً على النفس، على أساس جميع ما يعمل في القدس هو صحيح ومقدس، الأمر الذي هو غير متوفر في وضع الآخرين.

رابع وثلاثون: إنها مشرفة لدى جميع الناس، لأن هؤلاء الفرسان مشرفين لدى الامبراطور، والملوك والأمراء، والكونتات والبارونات، ومثل ذلك لدى البابا، والكرادلة، والأساقفة، وجميع رجال الدين، والمنظمات الدينية، ومن قبل عامة الناس، ومن الشيوخ والشباب سواء.

خامس وثلاثون: إن فروسيتنا هي الأعلى ثمنا من البقية، على أساس أنه يتم الحصول عليها، مقابل سعر مرتفع، ونفقات كثيرة، خاصة إذا قام الفارس بالحج إلى القديسة كاترين، ومع أنه يجري في فروسيات أخرى صرف المزيد من المال، إن هذه الأموال تنفق بشكل عابث، ووسط أبهة دنيوية وفارغة، أو في مبالغات، ليس لأي منها مكان في فروسيتنا.

سادس وثلاثون: إن فروسيتنا نظامية أكثر من سواها، لأننا نرى بشكل عام فارس الأرض المقدسة أكثر تواضعاً، وانتظاماً، وأكثر جدية، وأفضل نشأة وتربية من الفرسان الذين رسموا في الحروب.

سابع وثلاثون: إن فروسيتنا هي الأكثر ثماراً، في كثير من الجوانب والطرق، لأن الفارس في فروسيتنا، وإن كان بدون كتب، يدرس أشياء كثيرة وقعت في كل من العهد القديم والعهد الجديد، ويكون ذلك أثناء تجواله حول الأماكن المقدسة، ولهذا حدث كقاعدة عامة أن هؤلاء الفرسان غالباً ما يتحدثون بوضوح أكثر، وبمعرفة أعظم حول التواريخ الموجودة في التواره، وحول آلام الرب، وهكذا، من كثير من الكهنة، وكنا قد بينا هذا من قبل، ويصبح الفارس في الأرض المقدسة أكثر حكمة، بوساطة كثير من الخبرات، كما أوضحنا في الأحكام السبعة والعشرين، فضلاً عن هذا هو أكثر ندامة هناك، ويعترف بذنوبه، ويتلقى غفرانات كثيرة، منها تأتي ثمار كثيرة ونتائج في كل شيء.

ثمان وثلاثون: إن فروسيتنا هي الأعظم إيماناً من الجميع، لأنه كقاعدة، فرسان الضريح المقدس هم على درجة عالية من الثبات، وهم كاثوليك جيدين، لأنهم يرون بأعينهم بأن إيماننا هو منطقي أكثر، وأكثر استقامة من أي من الآخرين، في حين ينعدم الاهتمام بالايمان المتقدم الذكر في الفروسيات الأخرى.

تسع وثلاثون: من الواضح من جميع ماقيل بأن فروستينا هي التي تستحق الحياة الأبدية أكثر من سواها، في حين نجد الفارس في الفروسيات الأخرى، لايكسب حياته فقط، بل يجعلون أنفسهم غير أهل لها، لأنه كقاعدة هناك حاجة للأعمال الآثمة للحصول على فروسيتهم.

أربعون: وأخيراً، إن فروسيتنا، فروسية القدس، هي فروسية سعيدة،

لأن فـارس الضريح المقدس هو بالفعل سعيـد، أثناء قيامـه بالحج، لأنه لومات وهو على طريقه، فسوف يطير إلى السماء مباشرة ، ولا يدخل إلى المطهــرة، وحــول هذه المسألـة انظر القــديس تومــا الأكــويني في «Qu.V.quvll,7.qr2 » فضــلاً عن هذا، هو يكون سعيــداً مثل الذي يرى الـرب في القــدس السمايـة، التي هي في الأعلى، ويكون مثـل هذا سعيـداً وهو على طريقــه، لأنه يحاكي الأسرار السماوية في القـدس على الأرض، وسيكون سعيــداً مثل الـذي يرى المسيح في المجــد، ومــريم العـذراء الأعظم مبـاركة، والبطاركـة والأنبيـاء، والرسل، لابل سـوف يكون سعيـداً مثل الـذي يقفـو آثار طبعـات قـدمـي المسيح، والعـذراء المباركة، والأنبياء والرسل ويقبلها، علاوة على ذلك سيكون سعيداً مثل الذي هو متأكد من أمل السعادة، لأن حتى الذي يرى القدس الأرضية هو سعيـد، لأنـه قـد كتب، أن الذين من أجل مجد الـرب زاروا مـدينة القـدس المقـدسـة ورأوها، سـوف يدخلون بشكل مـؤكـد، وبلاشك ، القـدس السماوية، ولســوف يرون هناك صـاحـب الجلالة الملك، الذي بحثــوا عنه في المعلف، وعلى الصليـب ، وفي الضريح في القــدس على الأرض، ولست أدري مدى مصـداقية هذا القـول، ومع هذا إنني آمل، هذا ولقـد تبرهن بـوسـاطة هذه الحجج علو مكانة فــروسيـة الضريح المقدس، فوق جميع الفروسيات الأخرى، وكان القديس برنارد قد كتب قداسـاً طويلاً، خاطب فيه هؤلاء الفـرسان العائـدين إلى القدس، حيث وصف حيـاتهم الفــروسيـة، وأحـاديثهم، وشجبهم لشرور الفــرســان الشهوانيين، في الاصحاح الرابع منه.

القداس الذي يعقد في تلك الليلة في الضريح المقدس

جـرى تنصيب الفـرسـان أو رسمهم في ضريح الرب، حسبما وصفنا من قبل، وكـان رسمهم جميعـاً يستغـرق وقتـاً طويلاً، ولم يكن بامكاننا الاحتفـال بالقـداسـات قبل انتهـاء الرسم، ووقفنا جميعـاً ننتظر وتجولنا

بمصابيحنا حول الأماكن المقدسة، وفي الحقيقة، لقد رتبت، أن يكون سهري في تلك الليلة، وصومي وصلواتي وجميع أعمال خشوعي — التي كانت كما هو مؤسف، فاترة، ومرهقة، وبلا فائدة تقريباً — أن تمنح لصالح الذين وعدتهم بأن أتذكرهم، عندما سأكون في الأماكن المقدسة، ولصالح أحبائي من إخواني، الذين أفادوني، وقدموا لي يد المساعدة باسهامهم بنفقاتي في الرحلة إلى هذه الأماكن المقدسة جداً.

وبناء عليه، صعدت في الوقت الذي كان فيه الفرسان يرسمون، إلى رابية أكرا المقدسة، وأشعلت شمعة، ووضعت حبراً أمامي إلى جانب الصخرة الأعظم قداسة، التي وقف عليها الصليب فيما مضى، وهناك كتبت أسماء الذين وعدتهم بشكل خاص، والذين من واجبي الصلاة من أجلهم، وبعدما كتبت جميع الأسماء في ابتهالات، ذهبت مع الورقة المكتوبة إلى الصخرة المقدسة، وجثوت هناك على ركبتي، ووضعت الورقة فوق الصخرة المقدسة، وقدمت صلاة إلى كل واحد كتب اسمه في الورقة، وإلى آخرين وردوا إلى خاطري، وبمعايير فقيرة، وحسبما يمنح الرب بكرمه مذنب تعيس جداً مثلي، التمست من الرب بشفاعة تلك الصلاة الفعالة التي قدمت هنا فيما مضى في هذا المكان على الصليب، بأن يتفضل فيقبل صلاتي غير الكاملة، إن لم يكن من أجل فضائلي، فلتكن من أجل فضائل الأحياء والأموات الذين وافقت على أن أصلي من أجلهم، ونزلت بعد هذا إلى الأماكن المقدسة الأخرى مع الورقة، ونشرتها مفتوحة فوق هذه الأماكن الأعظم قداسة، وقد صليت من أجل الذين كتبت أسماءهم فيها، وذلك بشكل عام ، وواحداً بعد الآخر.

وكان منتصف الليل قد مضى، وكانت أعمال رسم الفرسان قد انتهت أيضاً، فشرعنا نتلو قداسات في الأماكن الأربعة التي تقدم لي ذكرها، وفي ذلك الصباح تدبرت تخليق موضع الرب، وأثناء القداس

أبقيت الورقة، مع أسماء الأعزاء علي، ممددة أمامي، وعملت القداس نفسه لصالحهم، وعندما أضاء النهار، غنينا قداساً عالياً في ضريح قيامة الرب، كما سنري في المستقبل، وبذلك انتهى هذا القداس.

وعندما انتهى كل شيء، وكنا ننتظر السادة المغاربة لاخراجنا، نشب فجأة صراع وخصام بين الفرسان الذين رسموا حديثاً، وحدث اضطراب عظيم، سببه واحد من الحجاج، أقحم نفسه في الداخل، ورسم فارساً، وقد كان لأسباب عديدة غير أهل، مع أنه في الحقيقة كان رفيقاً جيداً ومرحاً، لكن قامته كانت قصيرة جداً حتى يحمل إباء الفروسية، ووجه الفرسان الحجاج، والكونتات ، والبارونات الملامة لهذا الرجل على وقاحته، في حين قام فرسان آخرون مع رفاقه بالدفاع عنه، وهكذا وقفوا يتجادل واحدهم مع الآخر في الكنيسة المقدسة، وعندما — على كل حال — جرى شرح السبب إلى الأخ جون الذي تقدم ذكره، استدعى جميع الفرسان إلى كنيسة الجلجلة، أمام المذبح العالي، وجعل الرجل الذي قام من أجله النزاع، وكذلك رفاقه ، يقسمون باسم الرب، أن يخبروه بمرتبة وبوضع ذلك الرجل، وبعدما سمع منهم الأخ جون المتقدم الذكر ما قالوه، أعلن أن هذا الرجل ليس فارساً بأي حال من الأحوال، ولايصح أن يكون كذلك، وهكذا وجدت هذه القضية حلاً لها، وانتهت بسلام، وجرى تجريد ذلك الانسان الطيب من فروسيته، وفيما نحن مابرحنا نتحدث حول هذه المسألة، جاء المغاربة، وأخرجونا من الكنيسة، وذهبنا إلى أماكننا للاستراحة، ولم أصعد في هذه المناسبة إلى جبل صهيون مع الرهبان، بل رجاني الفرسان الجدد من موالي بالبقاء معهم في ذلك اليوم في المشفى، وأن أعمل لهم قداساً في مدح الفروسية المقدسة، وقد أقمته كما يلي، وتلوته بلغة ألمانية دارجة، لأنني وجدتهم علمانيين يجهلون اللاتينية.

حث للفرسان على القيام بما تعهدوا به أنفسهم عندما تسلموا الفروسية في الضريح المقدس

خشوع خالص، وحب نحو الرب، الذي أثاركم، يا فرساني الجديرين، حتى جذبتم بقلوبكم العظيمة واللطيفة، نحو قبر مخلصكم، وجعلكم ترون أنه عمل مفيد، أن تخاطروا بفقدان ممتلكاتكم بترككم بلادكم التي ولدتم بها، للقدوم إلى هذه البلاد الأجنبية والمقدسة، وتحركتم هنا بنواياكم التقية بتعبد وتقبيل هذه الأماكن الفائقة القداسة، وبالحصول على الغفرانات، وبأخذكم على أنفسكم عهد الفروسية المقدسة، من أجل العبادات والخدمات المقدسة، وأن تقاتلوا باخلاص حتى الموت ضد أعداء الايمان، والذين يزدرون الصليب، وأعداء كنيسة الرب، وبناء عليه أرجوكم وأتوسل إليكم التمسك بثبات بنواياكم التقوية هذه، وبما أنكم عرضتم نفوسكم لمختلف المخاطر، في سبيل الحصول على هذه الفروسية، كرسوا أنفسكم برجولة، لحمل رسالتكم، وناضلوا بكل قواكم للوفاء بجميع العهود التي أبرمتموها عندما حملتم أنفسكم لتكونوا فرساناً، وجددوا هذه الروح في عقولكم يوما فيوماً، حتى تظلوا دوما الرجال الجدد، الذين انخلقوا وفقاً لإرادة الرب، وأن تكونوا محميين بجميع دروع الرب، حتى تقفوا بثبات ضد الشيطان الشرير.

أتوسل إليكم دعوا قلوبكم تلتهب مثل النار، حماسة لهذه الأشياء، التي هي من الرب، وبشكل خاص لتأمين الضروريات لضريح الرب، وأرضه المقدسة، واتركوا عواطفكم تلتهب بحرارة التفكير التقي، وقاتلوا معركة الرب مع أمل النجاح من عليين، وعلى كل واحد منكم أن يتمنطق بسيفه الجبار، للانتقام للأخطاء التي اقترفت بحق الرب،انتبهوا، وانظروا بأعينكم كيف هو الآن في هذه الأيام وضع الميراث الطيب لمخلصنا، إنه، ويالأسف، قد سقط بين الغرباء، وكيف

هو أيضاً، وضع المكان الأعظم قداسة، حيث ولدت العذراء الأم بملك السماء، واعرفوا أن المكان الذي تلطخ بالدم الثمين جداً لمخلصنا، والمكان الذي تشرف بتمدده فيه، أي مكان أساس ضريح الرب، والمكان الذي قام فيه المسيح من الموت، وهو المكان الذي تحول إلى الشهرة أضعافاً مضاعفة بمجد قيامته، هذا المكان صار تحت نير شعوب غريبة، إن الذي مالم يكن صدره من حديد أو قلبه صلب أصم، هو الذي هنا ولاتتشوق أحشاؤه إلى هذه الأرض، فمن هو الذي لايستثار من أعماق قلبه؟ ومن الذي لن يلتهب بالغضب، ويلهم بالشجاعة، حتى يمكنه انزال الانتقام المستحق؟ امنع يا رب أي جندي من جنود الضريح المقدس أن يترك سلاحه يأكله الصدأ، وامنعه يارب من أن يضن بحياته من أجل النصر، مشاهداً أن المنتصر لايمكن أن يخفق في نيل تاج المجد، لأنكم ترون كيف أنه بمنتهى السلام والمباركة، يقاتل جند المسيح معارك ربهم، وعروسه الكنيسة، عندما يحملون السلاح ضد الكفار،ناظرين أنهم ليسوا بحاجة لأن يخافوا في أن يذنبوا في قتلهم الأعداء، أو أن يعانوا من الخوف من موتهم الذاتي، بما أن الموت ينبغي أن يعطى وأن يؤخذ من أجل المسيح.

وأقول: إن مثل هذا الفارس، عندما يقتل عدوه يقتله بدون ذنب، وعندما يموت، يموت مع بعض الأمل، لأن ينال قبراً لذاته عندما يموت، وللمسيح عندما يقتل، ثم إنه ليس منتحراً، بل يمكنني القول: إنه منتقم، عندما يقتل مقترفي الشرور، وجدير أن يعدّ مدافعاً عن المسيحية ومنتقماً لها، فالمسيحي يمجد عن حق في موت كافر، لأن المسيح قد تمجد هناك، وبناء عليه انهضوا بأنفسكم، أيها الفرسان الأعظم شجاعة، ثوروا للانتقام للاهانات التي أنزلت بربنا، وللعار الذي لحق بشعوب المسيحية، مثلما فعل المكابيون البواسل في القديم، واجعلوا هدفكم قتل الكفار، أو الحاق الهزيمة بهم، واسترداد تراث

الرب وإعادته إلى المسيحية.

فكل انسـان ينتقم لـلأخطاء التي اقترفت بحق أتبـاعـه، أفـلا ينتقم للأخطاء البشعة التي اقترفت بحق ربه؟ ومـا من انسـان يسمح بوضع أيدي الآثمين على تراث عـائلتـه، فهل ياترى سـوف يصبر على رؤية تراث الرب واقعـاً لمثل هذه المدة الطويلة بأيدي الغرباء؟ ويتـوجب على الذين يعبدون الصليب عـدم تناسي الاهانات التي لحقت بالذي صلب، ذلك أنهم عن حق سـوف يرفضونها لو أنها اقترفت بحق انسـان، خلوا الازدراء الذي ألقي على مخلصكم، يثير عقـولكم ونفـوسكـم، ودعـوا الغيرة على عقيـدته تلهب قلـوبكم، والـرب يحرم أن يعيقكم الخوف ويصـدكم عـن القتـال المجيـد، حيث هناك نصر وتاج مـن المجـد دائم يمكن نيله دوماً.

وهنا انتهى القـداس، وبعدمـا فرغت من القـداس شكرني الفرسـان بشكل حـار جـداً، وأعلنوا أنهم على استعـداد لبـذل كل جهـد ممكن لاسترداد الأرض المقدسة، شريطة أن يسير ملوك وأمراء وقادة المسيحية أمـامهم، وهم يتقـدون بالحماسة نفسهـا، فقـد رأوا أنه مـالم تتم إثارتهم أنفسهم، مـامن أحـد يمكنه القيام بأي تحرك مفيـد في هذا المجـال، لأن شيئاً عظيماً جـداً يمكن انجـازه فقط بـاجتماع جميع شعـوب الغـرب مع بعضهـا، مثلما حدث في سنة ٨٠٢ لتجسيـد الرب، ففي تلك السنة قـام الامبراطور شـارل الكبير (شارلمان) بناء على دعـوة من زكـريا، بطريرك القـدس، ومن امبراطور القسطنطينيـة، فـزحف نحـو الشرق، مع جميع شعب الغرب، وأنقذ جميع الأرض المقـدسة من أيدي المسلمين، وعندما تمّ فقـدان الأرض المقـدسـة للمـرة الثـانيـة، وأعيـد احتـلالها من قبل المسلمين جـرى طرد المسيحيين ونفيهم من الأرض المقـدسـة لمدة تزيد على المائتي سنة.

فبعدها نهض الدوق المجيد جداً للورين، والذي لم يعرف التعب، أي

غودفري أوف بولليون، وكان ذلك في سنة ١٠٩٩ لتجسيد الرب، حيث أنه جمع نخبة المقاتلين من جميع بلدان الغرب، وعبر البحر والبر بدون خوف، وبعدما أحدث مقتلة عظيمة بين المسلمين وصل إلى القدس، التي كان فيها أربعون ألفاً من المسلمين المسلحين، وذلك إلى جانب عامة الشعب، وحاصرت عساكرنا المدينة لمدة تسعة وثلاثين يوماً، وعندما استولوا عليها، حارب الصليبيون المسلمين فيما يعرف باسم «هيكل سليمان» (الأقصى) وفي ساحاته، وأحدثوا فيه مذبحة بلغت حداً أنهم ساروا، ودم القتلى واصل إلى ركبهم، وهكذا عاد ضريح الرب للمرة الثانية إلى أيدي ملاكه الشرعيين، وذلك بوساطة هؤلاء الفرسان الأمجاد، وبقي معهم لمدة ثمان وتسعين سنة، عندما توقفت المساعدات من البلدان الغربية، وكان الرب غاضباً على الشعب الصليبي بسبب ذنوبهم، وحسبما شرحنا من قبل، أخذت القدس ثانية من قبل المسلمين، واستمرت في أيديهم حتى هذا اليوم، أي مدة ثلاثمائة سنة حتى عصرنا هذا غير السعيد، وبحق يمكنني دعوة أيامنا هذه بغير السعيدة، لأن مساء الايمان قد اقترب لينتشر فوق الدنيا، وباتت الفوضى وليل الشرور على وشك الحلول، فنور الاستقامة أخذ بالاضمحلال، والذي بقي منه لايتعدى خيال من ظله، فالشريعة لم تعد موجودة مع الكهنة، والعدالة انعدمت لدى الأمراء، وانعدم الرأي الصائب بين الشيوخ، ولم يعد هناك إيمان لدى الناس، ولامحبة لدى الآباء، وزال الاحترام من عند الخدم، والإحسان من لدن الأساقفة، والتدين من عند الرهبان والشرف من عند الشباب، والنظام من بين رجال الدين، والتعليم من عند الأساتذة، والدراسة من عند العلمانيين، والعدالة من عند القضاة، والدفاع من عند الفرسان، والوئام من بين الناس، والخوف من عند رجال الخدمة، والتبعية من عند أهل الريف، والصدق من عند التجار، والفضيلة من بين النبلاء، والحنان من عند الوصيفات، والعزلة من عند الأرامل، والحب من بين المتزوجين،

والاحتشام لدى النساء، والصبر لدى الفقير، وهكذا دواليك.

وهكذا ضللنا وابتعــدنا ونحن عميـان عن الطـريق المستقيم، وسرنا بعناد ومررنا من خلال كهوف الشرور، وميدان العالم في ظلام قذر، آه، كم هي غير مـؤكـدة الأوضـاع الانسـانيـة، وكم هي أيام حيـاتنا، مليئة بالمصــائـب، من دونك أيها الرب الجيــد، أيتهـــا الأوقــات الشريرة، والأخـلاق الشريرة، أيتهـا الأوقـات المضطربـة غـاية الاضطراب، أيام الفـواجع، والأخلاق الفـاسدة، والأخـلاق المهجورة، بين رجـال الدين والناس، إنك أوقات تعيسـة لذلك قيل عنك: Venit summa dies etin eluctobile tempus وبأنك أوقـات فيك، وفقاً للقول القـديم للنبي: كل رأس سـوف يكون منهكاً، وكـل قلب سـوف يكون حـزيناً، ومن أخمص القدم حتى أعلى الرأس سوف تنعدم الصحة، وإنه على هذا بسبب ذنوبنـا، وظلم آبائنا، صــارت القــدس، والأرض (المبــاركــة) والأماكن المقدسة، خاضعة لشعوب غريبة، ولإلحاق العار بنا، ولاهانتنا ديست بأقدام...، وأعجـب من هذا، أنها منذ ثلاثمائة سنة، هي مـدنسة بالخونـة، ولخزي اسم المسيح الأعظـم قــــداســــة بقيـت تحت سلطان المسلمين....، وهي ليسـت مـوضـع اهتمامنا ومهملة من قبلنـا، ومليئة بهرطقـات كبيرة وبالشرور، ولاشك أن ذلـك بسبب تجاوزاتنا واهمالنا، هذا وليس واجـب كل مسيحي تقي أن يبكـي فقط عندمــا يفكر بهذه المصـائـب، بل أن يحمل نفسـه إلى الرب بصلوات متــواصلة، وليصرخ عـالياً إلى الرب، وليلتمس منه بـدون توقف أن يكون رحيماً نحو البقيـة من نخبتــه، وأن يشرق بنور وجهــه علينا وأن يـرحمنا، وأن يطرد غير المؤمنين من أرض المؤمنين، حتى نقـدم له ببهجـة وبأيدينا الحمـد الذي يستحقه. آمين.

وعلى كل من سيقـــرأ قـداســاً محزناً عن الوضـع المؤسف للأرض المقدسة، ومدينة القدس، والنحيب المؤلم حول الكنيسة الشرقية، والبكاء

الحزين على الوضع الشرير والتعيس جداً، للكنيسة الغربية، أو يعمل خطاباً فيه إثارة للملوك، والأمراء، والنبلاء في الغرب، عليه أن ينظر بكتاب حج اللورد بيرهارد فون بريتنباخ، عميد الكنيسة الكاتدرائية في مينز، الذي صنع بأسلوب مزين من قبل الحكيم اللاهوتي الشهير المعلم مارتن روث، وكيل مدرسة هايدبيرغ، والراهب في طائفة الرهبان المبشرين، فهناك سوف يجد معروضاً كل الذي قلته من قبل، وسيجد ماعبرت عنه بكلمات كثيرة إنما بكلمات قليلة،ولسوف يجد نسخة طبق الأصل عن كتاب حجي وجولاتي، إنما مع استثناء واحد، ذلك أنني أرغمت بخطة عملي، وعن قصد، على تغيير الأيام، قائلاً: «تمّ هذا في يوم كذا، في حين قال هو بأنه تمّ في يوم آخر، وليس في هذا عنف أو خلاف، على أساس أننا عندما نقرأ الكتابات المقدسة، نجد الشيء نفسه قد عمل، من قبل الانجيليين.

حول القداس في كنيسة الضريح المقدس واخراج الحجاج من هناك

وفي الوقت الذي كان الفرسان فيه يرسمون، شرعنا بالاحتفال وإقامة قداس، وقد أعطيت مكان الرب المخلق بالطيوب، وأقمت قداس القديس ألكسيوس، الذي كان اليوم يوم عيده، ذلك أنه كان حاجاً حقيقياً، وغنينا في وضح النهار، في ضريح الرب قداساً عظيم البهجة، هو قداس قيامة الرب، وذلك كما كان يغنى في يوم الفصح، وبعد هذا قدم المسلمون وأخرجونا وفق الطريقة نفسها التي مارسوها من قبل، وذهب كل انسان منا إلى مقر إقامته، وقد أمضينا الليلة التالية على جبل الزيتون، وقمنا بشكل سري بالصلاة، وبإراحة أنفسنا في كهف آلام مريم، ولكن قبل انتشار ضوء النهار، صعدنا ثانية إلى جبل صهيون لسماع قداسات.

رحلة الحجاج من القدس إلى المنطقة التلية في اليهودية وإلى بيت زكريا حيث سلمت مريم على قريبتها اليزابث

وفي الصباح الباكر لليوم الثامن عشر، جاء أدلاؤنا إلى الجبل مع حميرنا وسائقيهم، واستدعوا جميع الحجاج، وامتطينا جميعاً حميرنا، وسرنا خارجين من القدس باتجاه الجنوب، بسرعة كبيرة، وسرنا على طرقات منزلقة في المنطقة التلية لليهودية، وهذه المنطقة الجبلية وعرة وكثيرة الحجارة، ومع ذلك هي خصبة، ومليئة بأشجار الفواكه، والتين والزيتون، ووصلنا هنا إلى بيت قائم فوق أرض مرتفعة، وهو عظيم وطويل، لكنه مهدم، وقد قالوا بأنه بيت الشيخ المسن المقدس سمعان، الذي أخذ المسيح بين ذراعيه في هيكل الرب (لوقا:٢)، وفي هذا البيت عدد كبير من الغرف المقنطرة، ومن قمته يوجد مشهد للقدس ولبيت لحم.

وغنينا إلى جانب هذا البيت ترنيمة سمعان: «الآن تطلق عبدك ياسيد» الخ، وحصلنا على غفرانات(+)، ونزلنا من هناك إلى واد على درجة عالية من الخصوبة، ومضينا إلى مكان منحدر، قائم بين جدران من الأحجار الجافة، ففوق هذا الجبل كان المكابيون الشجعان قد عمروا حصناً حصيناً جداً، من أجل صد الغزاة من الأمم، وأطلقوا عليه اسم « بيت سورا» الذي يعني «بيت المرارة» أو «بيت الشجاعة»، وذلك حسبما قرأنا حول ذلك في سفر المكابيين الأول — الاصحاحين الرابع والسادس، وجرى الاستيلاء على هذا الحصن خدعة من قبل أنطيخيوس الأصغر، الذي لذلك أغضب اليهود كثيراً، حسبما ورد الخبر في سفر المكابيين الثاني — الاصحاحين: الحادي عشر والثالث عشر.

وعلى الجانب الآخر من الجبل يوجد البئر، حيث عمّد فيليب الخصي، الأمر الذي سوف نتحدث عنه في مكانه.

ويوجد من بيت سورا مشهد للقدس، وكان في أيام الحرب، بإمكان المقيمين في بيت سورا عمل اشارات إلى الذين كانوا في حصن صهيون، وتلقي مثل ذلك منهم، وأدرنا الآن ظهورنا لبيت سورا، ونزلنا إلى الوادي.

نبع مريم العذراء الأعظم قداسة

وبعد نزول طويل إلى حد ما، وصلنا إلى مكان قائم بين تلتين صغيرتين، يوجد بينهما نبع يتدفق بماء بارد، ونقي، وصحي، كان يجري خلال الوادي كله، يسقيه ويحوله إلى خصب، وعلى هذا هو عظيم الفائدة لتلك المنطقة، ويقال إنه من خلال فضائل مريم العذراء المباركة، تدفق هذا النبع أثناء حضورها، عندما قدمت صاعدة من الناصرة، وتولت خدمة اليزابث لمدة ثلاثة أشهر، فقد رغبت العذراء المباركة بالحصول على ماء لحمله إلى اليزابث، التي كانت حاملاً وذلك من أجل استخدامه في البيت الأعلى والأدنى، لأن زكريا كان كاهنا غنياً، ولديه مزرعة في ذلك المكان، مع بساتين من أشجار الزيتون، وأشجار التين، وكروم العنب، وكان لديه بيت على كل واحدة من التلتين الصغيرتين، وخدم يتولون خدمته كما يتولون اطعام مواشيه، وبناء عليه كان معتاداً على العيش أحياناً في البيت الأول، وأحياناً أخرى في البيت الثاني، وذلك وفقاً لأوقات السنة. وقد قام النبع في الوسط، وكان يستخدم من كلا البيتين.

وحدث أنه في الوقت الذي قدمت فيه العذراء المباركة لتحية اليزابث وخدمتها، أنهم كانوا يعيشون في البيت الذي قام على الأرض المنخفضة، لكن عندما جاء الوقت لتحمل بيوحنا المعمدان، ذهبت اليزابث نفسها وصعدت لتسكن في البيت الأعلى، آخذة معها العذراء المباركة، وقابلاتها، ووصيفاتها، غير أن زكريا مكث في البيت التحتاني مع رجاله وخدمه، لأنه في الأيام الخالية لم يسكن الرجال في بيت النساء

الحوامل في أيام ولادتهن.

المكان الذي حييت فيه إليزابث من قبل العذراء المباركة

وهكذا بعدما شربنا من نبع العذراء المباركة، تابعنا سيرنا بمعد صائمة، واتجهنا نحو اليسار، إلى البيت الأول، أو البيت التحتاني لزكريا، وعندما وصلنا إليه وجدناه مغلقاً، وقرعنا الباب بالحجارة، وبالعصي والعكاكيز، لكن مامن أحد جاوبنا، وشرع شباب المسلمون بالسير حول البيت يبحثون عن مكان، يمكنهم منه تسلق الجدار، ومن ثم فتح الباب لنا، وحدث أنه بعد طول انتظار أن كان هناك مسلم في داخل البيت، وكان بالحري وحشاً اكثر منه انساناً، وقد تظاهر بأنه لم يسمعنا، لكنه عندما رأى الشبان المسلمين الذين رافقونا يبحثون عن طريق آخر للدخول، نزل إلى الباب وفتحه على مصراعيه، ثم إنه وقف عند الباب وبيده عكاز، وزوجته ومعها آلة كي بالنار، وذلك حرصاً على عدم دخول أحد قبل دفع بعض المال لهما، وعندما أعطي المال له تخلى عن غضبه، وسمح لنا بالدخول، وما أن شرعنا بالدخول حتى بدأ قائد الجوقة يغني أغنية مريم العذراء المباركة جداً: « megnificant anima mea » الخ، ودخلنا ونحن نغني هكذا إلى المكان الذي حييت فيه العذراء المباركة اليزابث، حيث قفز يوحنا سروراً في رحمها، وبذلك ردت اليزابث على تحيتها وتنبأت لها، وغنت مريم تلك الأغنيات العذبة، وهي مليئة بأعمق الأسرار، حيث كل كلمة حافلة ببعض المعاني الهائلة، وسقطنا في هذا المكان على ركبنا وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وشعرنا بالحقيقة ببهجة خاصة في هذا المكان مع مريم العذراء المباركة، التي نشرت هنا بتحيتها وبأغنيتها الحلوة، وعمت البهجة التي لايمكن وصفها، والتي من خلال تحية الملاك حملتها حتى الآن مخبأة ومخفية في أعماق قلبها، فضلاً عن هذا قفز الطفلان سروراً في رحمي

أمهيهما، عند التقاء هاتين الأمين، إلى حد وكأن الأمين امتلأتا بسرور غير اعتيادي، وفي قلب مريم العذراء الأعظم مباركة، تجدد في هذا المكان جميع السرور الذي تلقته من تحية الملاك، وكأنه اكتمل، لابل قد نغامر فنقول: يبدو أنها حصلت في هذا المكان على سرور أعظم، لأنه عندما حياها الملاك في الناصرة قال: «سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك، مباركة أنت في النساء»، وصرخت اليزابث بصوت مرتفع «وقالت مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك»، ونعلم الآن من هذا كله بأن مريم العذراء الأعظم مباركة قد أحبت ثمرة رحمها أكثر من محبتها لنفسها بشكل لايقارن، وابتهجت بتشريفه أكثر من ابتهاجها بتشريف نفسها، ودعاها الملاك فقط بالمباركة، لكن اليزابث أعلنت أنها هي وثمرة قلبها مباركين، وبذلك ازدادت بهجة العذراء وتضاعفت، ولهذا السبب نحن لم نقرأ بأن العذراء المباركة قد غنت أغنيتها المعبرة عن سرورها جواباً لتحية الملاك، بل جواباً لتحية اليزابث وقالت وهي مبتهجة: «تعظم نفسي الرب،وتبتهج روحي»،الخ، وبناء عليه في هذا المكان انتهت تحية الملاك وصارت كاملة، وهكذا تلقينا نحن الحجاج فوق هذه البقعة جميع البهجة التي كان من المتوجب أن نكون قد شعرنا بها في الناصرة، حتى وإن لم نكن قادرين على الذهاب إليها، وفي كلمات كل من الملاك واليزابث رددنا مراراً كثيرة Ave ma-ria ، وقدمنا قبلاً إلى العذراء، حتى مثلما حيتها اليزابث وأيضاً قبلتها، لأن بيرنهارد التقي قال: «يامريم، إن سماع قول الملاك Ave maria مثل قبلة لك، وغالباً ماقبلت، عندما حييت بالقول Ave.

وفي الحقيقة، أسقطت السماء، وقت هذه التحية، الحلاوة، وضحكت النجوم، وابتهجت الملائكة، وسعدت الدنيا، وارتعدت الشياطين، وذبلت قوى النار وتلاشت، وصار الأتقياء من الناس مسرورين، وحصل المذنبون على أمل، ومن هنا نمت العادة بين كثير من الناس على

إضافة Ave maria، إلى الصلاة الربانية، وذلك كلما وقعت، حتى في الساعات الشرعية، ومع ذلك يقول بعضهم بأن هذا يتوجب عدم القيام به، لأنه لم ترد في الأحكام، والملاحظات، ولافي العناوين، إشارة إلى Ave maria عندما جرى تعين الصلاة الربانية لتقال.

ولقد سمعت أن خلافا نشب حول هذا الموضوع بين راعي الدير والرهبان النظاميين التابعين لكنيسة باتافيا Batavia (كذا)، فقد رغب الراعي دوما بإضافة Ave maria إلى الصلاة الربانية لكن الرهبان النظاميين ورجال الدين رفضوا أن يفعلوا ذلك، حيث ادعوا بأنها لم تعين إليهم في العناوين الرسمية، وأخيراً من أجل السلام والوئام عرضت القضية على البابا، الذي اتخذ قراراً لصالح الراعي، حول الجانب الايجابي للقضية، وأصدر مرسوماً قضى فيه بوجوب قول Ave maria بعد Pater Noster.

وفي أيامنا فقط وضع حد للعادة القديمة للقديسين، الذين اعتادوا أن يصلوا للرب بخمس صلوات ربانية، وأن يحيوا مريم العذراء الأعظم مباركة بخمسين Ave maria بشكل متتابع أثناء صلوات شكرهم، من أجل أعمال خلاصنا، وهذه العادة السليمة التي صارت شبه مهملة وغير مستخدمة في مناطقنا، جرى تجديدها بفضل الجهود الكبيرة العائدة للحكيم اللاهوتي الممتاز، المعلم جيمس شبرنجر، الذي هو من طائفة الرهبان المبشرين، ومن الدير (الدومينيكاني) في كولون Co-logne ، وقد كنت أنا وهذا المعلم، كأن تقول أخوين بالنشأة، حيث ارتدينا الثوب الرهباني في الدير في بازل، في السنة نفسها، وبعد مضي سنة، عملنا احترافنا في المدارس نفسها، حيث تدربنا تحت المعلمين أنفسهم، ونحن في هذه الأيام صديقين حميمين.

والسبب الوحيد لإخباركم بهذا، هو بسبب أنني أعرف بأن هذا المعلم المبجل، قد كان منذ الصغر مكرس للعذراء مريم، ولم يتوقف منذ

صغره حتى الوقت الحالي، عن تعظيم وتقديم الشكر إلى مريم العذراء المجيدة جداً، وقد شغل نفسه مع الكرسي الرسولي، من أجل استصدار مرسوم غفرانات، وحصل على هذا المرسوم ، حيث منح فيه السيد المقدس، البابا سكتوس الرابع، غفرانات عظيمة إلى الذي يقول العدد المتقدم ذكره من الصلاة الربانية مع Ave maria، ثلاث مرات في الأسبوع.

وأطلقوا على هذه الصلاة اسم «سبحة العذراء المباركة»، ولقد رأيت هذه المرسوم، وقرأته كله، وعملت نسخة عنه، ويردد بعض الناس الصلاة المتقدمة الذكر ثلاث مرات في اليوم الواحد، ويسمونها: «مزامير مريم المباركة»، وبالنسبة إليهم هناك حصول على غفرانات عظيمة، مرة في الحياة، وأخرى في الموت، وقد سموها «مزامير»، لأن فيها مثل مزامير داوود ثلاثة خمسينات، فالخمسين الأولى معينة كصلاة شكر لحلول المسيح وطفولته، والخمسين الثانية من أجل آلامه، والثالثة من أجل تمجيده، ويضيف آخرون خمسين أخرى، ويكررون عشرين «صلاة ربانية» ومائتي Ave maria في كل يوم، لأنم يعلنون أن كتاب المزامير هو غير كامل ما لم يضف بعد مزمور «Laudate dominum de coelis » تراتيل من العهدين الجديد والقديم وترانيم، ولهذا يضيفون خمسين رابعة إلى التراتيل والترانيم، وأنه بذلك تكون المزامير كاملة.

وهم يقدمون سبباً آخر لتلاوتهم أربعة خمسينات هو أن ذلك ليس الأقل مواءمة لمباركة العذراء المقدسة وثمرة رحمها، ومن أجل حياة الرب الأعظم فضيلة وكمالاً، ولا أقل من أجل تجسيده، وموته، وتمجيده، وبناء عليه إن في تلاوتهم للخمسين الأولى يتأملون حول تجسيد المسيح وطفولته، وفي الثانية حول أعماله وحياته، وفي الثالثة حول آلامه وموته، وفي الرابعة حول قيامته، وتمجيده هو نفسه وأمه ونحن

أنفسنا.

علاوة على ذلك حتى تكون هذه الصلاة أكثر انتظاماً وأقل اضجاراً، جعلوا كل «صلاة ربانية» مع عشر Ave maria بمثابة صلاة شكر من أجل بعض المباركات التي في أذهانهم، من ذلك على سبيل المثال هم يرددون «الصلاة الربانية» الأولى مع عشرتها من «Ave maria » بمثابة صلاة شكر من أجل مباركة التجسيد، وثاني «صلاة ربانية» مع عشرتها من «Ave maria » من أجل مباركة الميلاد، والثالثة من أجل مباركة الختان وتشريفاً لاسم يسوع، والرابعة من أجل تقدمة الملوك، والخامسة من أجل مباكرة التطهير، لأنه جرى تقديمه في الهيكل بمثابة مذنب، وتطهرت أمه وكأنها غير نظيفة، وكذلك من أجل الفرار إلى مصر والعودة من هناك، ولحضوره المتواضع في المدرسة، ولطاعته لوالديه، فهذه هي الخمسين الأولى.

وكانوا يتولون ترتيب الثانية وفق التالي: يقولون «الصلاة الربانية» الأولى مع عشرتها من Ave maria، من أجل تعميده، والثانية من أجل تحمله الإغواء في القفار، والثالثة من أجل اختيار تلاميذه ودعوته لهم، والرابعة من أجل حياته الربانية، وعقيدته الواضحة، ومعجزاته، والخامسة من أجل وضعه القداسات، ولاسيما مباركة القربان، وهكذا دواليك.

أما الثالثة فكانوا يتولون ترتيبها كمايلي: الأولى من أجل المعاناة الداخلية للمسيح، وبكائه وآلامه على جبل الزيتون، والثانية من أجل القبض عليه وتعذيبه خلال الليل كله، والثالثة من أجل اتهامه، ومن ثم ارساله إلى هيرود، وجلده، وتتويجه، والرابعة من أجل السخرية منه، واقتياده لصلبه، وصلبه مع جميع الذي فعله المسيح على الصليب عندما كان مايزال حياً، والخامسة موته، وطعن جانبه، ودفنه.

ورتبوا الخمسين الرابعة كمايلي: رددوا «الصلاة الربانية» الأولى، مع عشرتها من Ave maria وذلك بمثابة صلاة شكر من أجل قيامته، والثانية من أجل عظمة صعوده، والثالثة من أجل نعمة ارسال الروح القدس، والرابعة تشريفاً لصعود العذراء المباركة، والخامسة من أجل سلطانه كحكم، ولأحكامه العادلة. وهذه الصلاة صلاة تقوية ومواساة، عندما يصبح الانسان معتاداً عليها.

فضلاً عن هذا، ومن أجل أن يحط من مكانة الذين كانوا غيورين من مريم العذراء المباركة، والذين أنكروا فضيلة هذه الصلوات، وضع المعلم جيمس المتقدم الذكر، هذه القضية كلها، أي قضية السبحة والغفرانات، لأن تكون موضوع مناقشات عامة في جامعة كولون في Quodlibetis، وفي هذه المناقشات جرت الموافقة على أن هذه الصلاة كانت بريئة ومفيدة، وهي الأكثر قبولاً لدى العذراء المباركة. وليكن في هذا كفاية، في جولاتي حول هذا الموضوع.

الموضع الذي قال فيه زكريا ترنيمة «مبارك»

وبعدما أمضينا بعض الوقت في المكان المتقدم الذكر، ذهبنا صاعدين من الكنيسة التحتانية، وذلك عبر درجات حجرية، فوق قنطرة، حيث قام فيما مضى بيعة جميلة، وعندما كنا صاعدين، كنا نغني ترنيمة: «مبارك الرب إله اسرائيل لأنه افتقد وصنع فداء لشعبه» الخ، وهذه الترنيمة قد نظمت من قبل زكريا، عندما امتلأ بروح القدس، أثناء ختان الطفل، وذلك حسبما وصلنا الخبر في الاصحاح الأول من انجيل القديس لوقا، وتابعنا سيرنا ونحن نغني كذلك حتى وصلنا إلى البناء العلوي، حيث وجدت القاعة، التي جلس فيها زكريا صامتاً، وحيث طلب لوحاً، وكتب عليه «اسمه يوحنا»، وهنا انفتح فمه بالحال، وتنبأ قائلاً وغنى «مبارك الرب إله اسرائيل لأنه»الخ، ولذلك انحنينا بأنفسنا نحو الأرض، ونحن نصلي، وحصلنا على غفرانات(+).

وأخيراً بعـدمـا نهضنا من صـلاتنا،حملنا أنفسنا من أجل مشـاهدة المكان، وقـد رأينا على الجانب الأيسر كنيسـة كبيرة، بلا نوافـذ(؟) بنيت من أجـل أن تكون هري، ففي هـذا الهري أودعت اليـزابث طفلهـا الرضيع، القـديس يوحنا المعمـدان، وأخفتـه، عندما جـاء خـدم هيرود يسعون حول تلك المنطقة، يبحثون عن الأطفال من أجل ذبحهم، لابل من المعتقـد أنهم قـدمـوا، ودخلوا إلى ذلك البيت نفسـه، بحثـاً عن الأطفال، لكنهـم عندما رأوا انسانين عجـوزين هما زكريا واليـزابث، لم يتوقعوا وجـود أية أطفال معهما، وغادروا مسرعين، وبقي الطفل يوحنا دونما أذى، وعلى كل حـال يقـول ألبرتوس في تعليقـاته على الاصحـاح الأول من انجيل لوقـا، بأن زكـريا قـد قتل من قبل رجـال هيرود، لأنه رفض تسليم ابنه، كما سنرى ذلك فيما يأتي بعد.

ويوجد في هذا البيعة مذابح محطمـة، وأقواس مهدمة، وعلى الجدران صوراً قديمة، وفي البنائين العلوي والتحتاني نمت الأعشاب والحشائش فـوق القنـاطر، كما هناك بعـض الحبيبـات ذات اللـون الأزرق مثل الفـاصوليـاء، قد نمت هناك، وهـي ليست موجـودة في أماكن أخـرى، وكان هنا فيما مضى كنيسة جميلة وفخمة، وقد سكن الرهبان في قلايات إلى جوارها، ولكنها الآن — ويالالأسف — غـدت البيت المهدم لواحد من أكثر المسلمين تعاسة.

المكان الذي ولد فيه يوحنا في هذا العالم

وخـرجنا من هذا المكـان نسير على طريقنا، وعـدنا ثانيـة إلى النبع المتقـدم الذكر، وتسلقنا من النبع مكـانا منحدراً، إلى تلة، وعندمـا صرنا فوقهـا، وصلنا إلى كنيسة كبيرة، حيث غنينا فيهـا بصوت مـرتفع ترنيمة ut queat laxis، وقـد بنيت هذه الكنيسة فـوق المكان الذي ولد فيـه يوحنا المعمدان الذي كـان رائد الرب، ويوجـد الآن المكان الفعلي لميلاد الرائـد على الجهـة اليسرى في بيعـة السـدة، التي بابها مغلـق بخـرائب

الجدران، وبناء عليه تسلقنا فوق الجدار، ووضع واحد من الحجاج نفسه تحت واحد آخر، حتى يتمكن من التسلق من فوقه إلى قمة الجدار، ولكي ينزل إلى الطرف الآخر على رأس ورقبة حاج آخر، وهكذا تسلقنا جميعاً فوق الجدار، وغدونا في داخل بيعة مظلمة، لم يكن بإمكاننا أن نرى فيها شيئاً من دون مصابيح.

ويوجد هناك عند رأس البيعة قبو تحت الصخر، فيه من المعتقد بأن المعمدان الأعظم قداسة قد ولد، وبناء عليه انحنينا أمام هذا الكهف، وقبلنا المكان، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) وشعرنا بمواساة عظيمة وبسرور كبير، بشكل منحنا بعض القوة في الايمان، لأنه بسبب فضائل الرائد فاحت من ذلك الكهف المهجور رائحة طيبة وسليمة، بوساطتها قدّم الرائد بدوره قبلاته وتحياته إلى أرض ميلاده، التي جرى تقبيلها من قبل الحجاج.

وفي الحقيقة لولا أن الرب واسانا بهذه الوسائل، لكنا في وضع أسفنا به كثيراً في ذلك المكان، بسبب حالة انتهاك الحرمة لمثل هذا المكان المقدس، لأن الكنيسة، مع أنها كانت مرتفعة ومقنطرة، ومازال مدهونة، غير أنها مليئة بالمواشي، والحمير، والجمال، ولايوجد هناك فيها سوى الروث والقاذورات، ورائحة بشعة كثيراً، بقدر بشاعة تحويل كنيسة مقدسة إلى اسطبل للمواشي، ويوجد من حول الكنيسة خرائب كثير من البيوت، سكن فيها فيما مضى رجال دين وعبيد للرب، والذي هو موجود الآن في ذلك المكان هو فقط بيت ريفي تعيس.

صحراء يوحنا المعمدان

يقال يوجد خلف الوادي صحراء يوحنا المعمدان، حيث سكن عندما كان صبياً، حسبما ورد الخبر في الاصحاح الأول من انجيل لوقا قوله: «أما الصبي فكان ينمو ويتقوى بالروح، وكان في البراري إلى يوم

ظهـوره لاسرائيل»، ولهذا قـال جيزوم في قـداسـه: علينا أن نفهم من كلمات «انتبهوا لقـد أرسلت رسولي» أن ذلك الرسول الذي بعـدما ترك المأوى في رحم أمـه، نشـد التعـرف إلى الأجـزاء السرية من الصحـراء، ولعب مع الأفـاعي هناك كطفل، وقد ورد هذا القـداس ضد الهراطقـة الشيطانيين، لأنه في سنته الخامسة أو السابعـة طلب الصحراء، فراراً من فسـاد العـالم، وعـاش حيـاة ناسك لمدة خمس وعشرين سنة، ولهذا يغنى عنه:

عندما كنت ماتزال صبيا

إلى الصحراء القفر

فررت، لتصلي بين كهوفها وتشكر

تاركاً حشد

الناس، خشية من أية خطيئة

يمكن أن تلوث صفحة أيامك البيضاء

وفي الحقيقة إنه تبعاً لبيرنهارد، المنطق يحض الانسـان، والعدالة تدفعه ليمنح حياته كلها إلى الذي تسلمها كلها منه، وأيضاً من أجل أن يتمكن من المحافظة على يديه نظيفتين، لأنه بهما سيلمس المسيح، وكذلك عينيه، لأنه بهما سوف يرى الروح القدس، على شكل حمامـة، وأذنيه اللتان بهما سـوف يسمع صوت الرب الآب، من أجل هذا كله ترك العـالم، ودخل إلى الصحراء، وطلب كهوفها.

وتحدث ألبيرتوس مغنوس المبجل في قـداسه حـول الاصحاح الأول من انجيل القـديس لوقا، ولاسيما حـول قوله: «أما الصبـي.... كان في البراري» الخ، كمايلي: «قـال بيـد: أمضى يوحنـا في الصحـراء عشر سنوات، ولقـد دخل إلى الصحراء في سن العـاشرة، وتركها عندمـا كان

في الثلاثين من عمـره(١)، كما هو واضح من الاصحاح الثـالث من انجيل القديس لوقا».

غير أن انجيل النصارى حـدثنا أنه عندما كـان هيرود يبحث عن الأطفال ليقتلهـم، جرى قتل زكريا والد يوحنا، لأنه رفض تسليم ابنه، وقامت أمه بـأخذه من مكان اخفائه المتقدم ذكـره، وبصعوبة هربت إلى الصحراء، وعندما كان مطاردوها يلاحقونها عن قـرب، ولم تعرف أي مكان لتخفي فيـه الطفل، انشقت صخرة في الجبل، وفتحت نفسهـا، ثم انغلقت على الاثنين: هي نفسها، والطفل، وبذلك تبـددت جهود الذين كانوا يطاردونها، وحدث بعـد عدة سنوات أن توفت الأم، وبقي الطفل يعيش في القفـار، ووفـق طرائق الأطفـال تعلـم أكل الجراد، والعسل البري، الذي وجده في الصحراء، مثلما يفعل النمل.

ولقـد قيل بأن دم أبيـه أيضـاً الذي جـرى جمعـه في أوعيـة، من قبل الكهنة، وتمّ حفظه في الهيكل، كـان دوماً يفـور، لدى ظهور أي واحـد من أسرة هيرود، في الهيكل، فهـذا ماذكره ألبيرتوس، وكـان —على كل حال— لدى يـوحنا المعمدان صحرائين، لم تكن الأولى بعيـدة عن بيت أبيه، حيث الكهوف التي عاش فيها عندمـا كان شاباً، وهي المشاهدة في هذه الأيام، والصحـراء الأخرى هي إلى جانـب نهر الأردن، حيث كان يبشر بين الناس، ويعمّـدهم، وورد ذكـر الصحراء الأولى في الاصحـاح الأول من انجيل القـديس لوقا، أمـا الثـانية فـورد ذكرها في الاصحـاح الثالث .

نهاية المجلد الأول

– هذا يعني أنه بقي في الصحراء عشرين سنة.

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب
الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته

حوالي
(١٤٨٠ — ١٤٨٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثامن والثلاثون دمشق ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته حوالي (١٤٨٠—١٤٨٣)

القسم الثالث

تنويه

أثناء إعداد هذا الجزء فجعت سورية والأمة العربية والعالم الإسلامي والإنسانية بوفاة راعي مشروع هذه الموسوعة الرئيس المؤمن حافظ الأسد، وكان ذلك يوم العاشر من حزيران، تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه، وآلت الرعاية الآن الى ولده الرئيس الدكتور بشار الأسد،أنار الله سبيله، وجعله خير خلف لخير سلف .

سهيل زكار

المكان الذي يقال نمت فيه الشجرة التي من خشبها صنع الصليب

غادرنا الآن مكان ميلاد القديس يوحنا، وبمغادرتنا الوادي الذي جئنا عبره إلى ذلك المكان، تسلقنا الأرض المرتفعة على الجانب باتجاه القدس، ووصلنا إلى واد جميل وخصب، فيه قامت فيما مضى مدينة نوب التي كانت مدينة كهنة، وذلك حيث أكل داوود خبز التقدمة، وتسلم سيف جالوت، وذلك حسبما جاء مكتوباً في سفر صموئيل الأول:٢١، وانجيل متى:١٢، وقد خرب الملك شاؤول هذه المدينة، وقتل كل انسان وجده فيها، وذلك حتى الأطفال الرضع، وقتل هناك بحد السيف خمسة وثمانين كاهناً، لأنها كانت مدينة كهنة وذلك كما قرأنا في سفر صموئيل الأول:٢٢، وقد فعل هذا لأنهم أعطوا داوود خبز التقدمة والسيف.

ووصلنا من هناك إلى كنيسة جميلة، يلاصقها دير صغير، يعيش فيه رهبان جورجيون مع زوجاتهم، وعندما دخلنا إلى الكنيسة، اقتادونا إلى المذبح العالي، وهو المذبح الذي يقال بأنه قائم فوق البقعة ذاتها التي نمت فيها شجرة الصليب المقدس، ولهذا السبب، هذه الكنيسة مكرسة على شرف الصليب المقدس، واسمها كنيسة الصليب المقدس، ويوجد تحت الكنيسة حفرة، فيها حنينا أنفسنا نحو الأسفل،وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وتلقينا انعاشاً من هذه الحفرة، لأنه منها فاحت رائحة طيبة، أغرتنا بالوقوف مدة أطول أثناء تقبيلنا للموضع، ولقد جلبوا لنا ذراع القديسة بربارة، التي قبلناها، وهذه هي البقعة الطيبة، التي نمت فيها الشجرة الطيبة، التي تستحق التشريف الإلهي، التي وإن لم يعرفوها، فإن الوثنيين القدماء صنعوا تماثيل وفق نمط، لأنهم عندما قرروا صنع تمثال للرب،

قرروا بدقة أنه ينبغي عدم صنعه من الذهب، أو الفضة، أو الحجر، بل من الخشب، على أساس أن الخشب هو المادة المناسبة جداً، وقد قرأنا عن هذا عند يوسبيوس في: De Evangel praeparat, Book III CH III.

وبعدما صلينا، جلسنا في ساحة الكنيسة لنرتاح، لأننا كنا مانزال صائمين، وبدأ الحر يصبح عظيماً، وذهب بعض الحجاج إلى أكواخ أولئك الرهبان، وسألوهم إن كان لديهم أي شيء مطبوخ، غير أننا لم نر لامطابخ، ولاقدور طبخ في هذه الأكواخ، لأن هؤلاء الناس كانوا فقراء جداً، ووصل في الوقت نفسه، مسلم يحمل سله مليئة بالعنب، اشتريناها، وأكلنا معاً بالخبز الذي جلبناه معنا في جعبنا، ونضحنا ماء من صهريج الرهبان، وعلى مقربة من هذا المكان يقوم الكثير من أشجار الزيتون، وهناك غابة صغيرة من أشجار الزيون والتين، وقد قالوا بأن سليمان قد امتلك بستانا في هذا المكان أيضاً، وأنه كان في بعض الأحيان يأتي إلى هنا في عربته الذهبية للتمتع فيها.

وكان بعد أن استردينا أنفاسنا، ركبنا حميرنا، وصعدنا إلى قمة الرابية، وذلك عبر طريق وعر وصخري، وعندما كنا فوق الأجزاء المرتفعة منها، رأينا المدينة المقدسة على مسافة منا، وعبرنا إلى جانب بيت سمعان، عبر طرقات تمر بين جدران البساتين المصنوعة من حجارة، جافة، وعلى طريقنا ولدى اقترابنا من القدس، دخلنا إلى قرية بين هذه الجدران الحجرية، حيث قدمت إلينا طريقاً عريضاً، لكن لسبب لم أعرفه، وقف رجل مسلم أسود، كان نصف عاري، في وسط الطريق، وكان يكوم حجارة إلى أكوام، وكان يمسك بهم عالياً، مهدداً برميهم على جماعة الحجاج، إذا ما سار أحدهم على ذلك الطريق، وبناء على صراخه وتهديداته توقف الحشد كله لمدة حوالي النصف ساعة، وبذل أدلاؤنا غاية جهدهم معه، وصرخوا مجيبين له، لكنه لم يهتم مطلقاً بهم،

وشرع وهو مغضب كثيراً، بكل جـرأة، برمي الحجـارة ضـد كل من حاول التقدم نحو الأمام.

وفكـرت في نفسي، وقلت آه: « لـو أنـك وقفـت هكذا في الطـريـق، بدون سلاح، في منطقتنا من العـالم، وأغلقت طريق رجل واحد من أقل هؤلاء النبلاء مرتبة، كم بسرعـة كنت ستجد سيفاً أو نشابة في طرفك»! لكن الحال في هذه المناطق الشرقية ليس هكذا، لأن الناس الشرقيين هم نوع مختلـف عنا، أو بالحري، أحكـامنا في الحيـــاة غير أحكامهـم، فهم لديهم عــواطف مختلفــة، وطـرائق أخــرى للتفكير، وأفكاراً أخــرى، فأجسـادهم لها أشكال بشرة أخـرى مختلفـة، فهم خـاضعـون لتأثيرات نجوم أخرى، ومناخ آخر.

وهكذا تمكن ذلك الرجل المسكين، الأعـزل من السـلاح، والعـاري، من إرغـام الحشد كله على التراجع، وذهبنا عـائـدين عبر طريق طويل، وأدرنا ظهورنا لجبل صهيون حتى وصلنا إلى طريق آخر، حيث استدرنا هناك، ومضينا نحـو القـدس، جاعلين وادياً بيننا وبين المدينـة المقدسـة، والتففنا حـول هذا الوادي، ووصلنا إلى القـــدس عبر حقل القصـــار، ووافينا جبل صهيون في وقت القيام بالقداس، وكان الرهبان —على كل حال— قـد أخروا صلواتهم من أجلنا، حتى نتمكن من المشـاركة معهم في القداس في ذلك اليوم، وبعد الفـراغ من القداس، أخذ كل رجل منا نفسه إلى موضعه لتناول الطعام.

فصل حول

نزول الحجاج إلى نهر الأردن

سمع الحجـاج بعـد الغـداء بأن قبطاني الغليـونين، خططا في ذهنيهما، أخـذ الحجـاج واعادتهم إلى البحـر في غليـونيهما، وكأن الحج قـد انتهى الآن، وقمت على الفور فكشفت بالحدس هـذا السر، لأن من ممارسات

جون أوف بروسيا، وبتنا مستعدين لرحلتنا.

مغادرة الحجاج القدس في طريقهم إلى نهر الأردن المقدس

في الصباح الباكر، من اليوم التاسع عشر، وقبل أن يعم الضوء وينتشر ، نهضنا، وذهبنا إلى كنيسة العذراء المباركة في وادي شعفاط، وهناك، بما أن اليوم كان يوم سبت، شاركنا في قداس العذراء المباركة، ومضينا بعد ذلك إلى جبل صهيون من أجل الصلوات الديرية،وفي بعض الظهر، وبعد الغداء، تسلمنا جعبنا في ساحة كنيسة جبل صهيون، وانتظرنا أدلاءنا وحميرنا مع سائقيهم، وأخيراً وبعد انتظار متعب، ولدى حلول وقت العشاء، جاءوا مع دوابهم لأخذنا إلى الأردن.

ولدى قدومهم، ركض الحجاج نحو الدواب لتجهيز أنفسهم، ووقتها نشب خلاف بين فارس وكاهن حول أتان، قال كل واحد منهما بأنه كان الأول بالحصول عليها، وضرب الفارس الكاهن ضربات كثيرة بقبضة يده، ولو كان معه سيف لجرحه، وطرده الفارس وأبعده عن أتانه، فحصل على حرمان كنسي، حرره منه الأب المسؤول قبل مغادرتنا.

وعندما انتهى كل شيء، نزلنا من جبل صهيون إلى وادي شعفاط، وعبرنا الجدول، وتسلقنا الجانب الآخر بوساطة الوادي وجوانب من جبل الزيتون من خلال جبل العدوان، ونحن على طريقنا أشاروا لنا إلى بيت قديم، بني بقناطر معقودة، وهو مهدم، وقد قالوا بأنه بيت الخائن يهوذا، ونظرنا نحو هذا البيت وازدريناه، وكأنه كان بيت الذي خلع حذاءه، وكان مكروها في اسرائيل، لأنه جاء في سفر التثنية:٢٥، أنه إذا مات أخ لرجل من دون أولاد، ورفض هذا الأخ أن ينجب أولاداً من الأرملة فلتقم وقتها زوجة أخيه هذه بخلع نعله من رجله، ولتبصق في وجهه، وبناء عليه يدعى بيته باسم بيت مخلوع النعل.

وجرى تنفيذ هذا القانون من قبل الرسل، حيث تولى كل واحد منهم الوظيفة التي لم يعتد عليها، وهي إنجاب أبناء في الكنيسة، لكن ليس بأنفسهم، بل من قبل المسيح، وقد حملوا بعد هذا اسمه، وقد فعل هذا الرسل بعد المسيح، لكن يهوذا قد حرم من كل شيء، لأنه لم ينجب أولاداً لأخيه، والكنيسة التي هي زوجة المسيح بصقت في وجهه، وطردته، واختارت ميتياس لأخذ مكانه، ولذلك لم يخلف شيئاً وراءه، باستثناء بيته الذي خلع فيه نعله، وهو مهدم ومزدرى، ولذلك مبارك ماقيل في الأمثال:١٧، «من يجازي عن خير بشر لن يبرح الشر من بيته» وبغم عبرنا من قرب هذا البيت الملعون «لأنه بيت متمرد» (حزقيال:٢).

المكان الذي لعن الرب فيه شجرة التين ولهذا لاتوجد ثمار عليها

وإثر تركنا للبيت المتقدم ذكره خلفنا في الوادي، سرنا بين جدران من الحجارة الجافة العائدة للبساتين والحدائق، وفي بطن الوادي، حيث إذا سرت أبعد، عليك الصعود، وصلنا إلى حديقة جميلة جداً، قامت فيها حشود من أشجار التين، وأغصان أشجار التين معلقة فوق الجدران الحجرية نحو الطريق، وهذه هي الحديقة التي رأى فيها المسيح من بعيد شجرة تين، عندما كان سائراً على الطريق من بيت عنيا إلى القدس،وكان جائعاً، وقد دخل إلى الحديقة، وجاء إلى الشجرة، طالباً ثماراً، ولكنه حيث وجد أوراقاً فقط، لعن الشجرة، فيبست على الفور، وذلك حسبما قرأنا في انجيل متى — الاصحاح الحادي والعشرين.

ولدى تعجب تلاميذه من ذلك قال لهم: «الحق أقول لكم إن كان لكم إيمان، ولاتشكون، فلاتفعلون أمر التينة فقط، بل إن قلتم لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر، فيكون»، وعندما قال الرب هذا أشار باصبعه إلى جبل الزيتون، الذي عند سفحه حدثت هذه الأشياء، وبناء عليه جثونا في هذا المكان مصلين، وبعدما صلينا للرب، حصلنا على

غفـرانات، وتغذينا بالنظام الروحـاني، متأملين كم هو مـرعب أن تحمل اسم مسيحـي أو ديانة من دون ثمار، مشـــاهـدين كيف أن لعنـة الرب سوف تنزل ثقيلة على مثل هـؤلاء، لأنهم أغصان جافـة أعدت لتحترق بنار أبدية.

وتابعنا سيرنا من هناك نحو الأمام، فوصلنا إلى بيت عنيا، وهي قرية مريم، ومرثا، ولعازر، وقد اجتزناها بخطوات واسعة وسريعة، ولسوف نقـدم وصفـاً لهذا المكان في المستقبل، ونزلنا من هذا المكان إلى صحـراء منستات monstat وجاء نزولنا عبر طرقـات وعرة، وهضاب خطرة، وقـارب حلول المساء، لأن الشمس قـد غابت، ورغبنا بالاستراحـة في مكان ما، حتى بزوغ القمر، وذلك بسبب وعـورة الطريق، وعندما نزلنا قليلاً، كانت الدنيـا مظلمة، وقد وصلنا إلى بيت مقنطر كبير، يمتلك من حـوله، داخل اطار مغلق، مـايشبه ديراً، لكنه مهجـور وفـارغ، وترجلنا قرب هذا البيت من على ظهور حميرنـا، بقصد أن نتمكن من الاستراحة هناك قليـلاً، وقـد دخلنا إلى المكان ونحـن نحمل مصـابيح، نبحث عن مكان يمكننا أن نرتاح فيـه، لكننا لم نجد مانريـده، لأن ذلك البيت كان مهـدمـاً ومليئاً بالقـاذورات والهوام، ولذلك خـرجنا منه ثانيـة، وتمددنا فـوق الأرض في مقـابل البيت، وقـد تفرقنا إلى عـدة جماعـات، في حين فصل أدلاؤنا المسلمـون أنفسهم أيضـاً عنا، واستراحـوا في مكان أعلى قليـلاً، وكــان قـد لحق بهؤلاء الأدلاء بعض الشبــاب ذوي الأوضـاع السيئة، الذين كرهونا، كما سيظهر فيمايلي:

والآن بعـدما أكلنا عشـاءنا معـا، أطفأنا مصـابيحنا،ووضعنا رؤوسنا فـوق جعبنا، وبـدأنا بالنوم، وفي الوقت ذاته، أقبل شـــاب مسلم بشكل سري، ونزل بشكل لصـوصي وسار بين حشـد الحجاج، وانتشل جعبـة حاج اعتقـد أنه نائم، وهرب بها إلى جماعته، لكن الحاج ورفاقـه ركضوا خلفه وهـم يصرخون، وانتزعـوا منه الجعبة واستردوها ثانية، وبعد مضي

بعض الوقت نزل آخر وسار بشكل سري، وسرق جعبة، كان فيها خبزاً، وجبناً. ولحماً مدخناً، وبيضاً مغلياً، وعندما اكتشف الحاج ذلك، شرع بالصراخ بصوت مرتفع، ودعا بقية الحجاج إلى مساعدته، وبناء عليه نهض الحجاج، وركض عدد كبير منهم مغضبين نحو المسلمين، وحدث صراخ عظيم، واضطراب شديد، أرغم المسلمون بموجبه على الابتعاد عن الحجاج بوساطة العصي والسيوف، والتقط كل جانب الحجارة، لكن مامن أحد بدأ برماية أي منها، لأنه لو رمى أحدهم بحجرة، لاشك كان سينشب قتال خطير جداً، لأنه كانت هناك أعداد لاتحصى من الحجارة، كلها ناعمة ومناسبة للرماية.

وهكذا وقفنا أمام بعضنا بعضاً، وصرخنا، وبذل قبطانا الغليونين والتراجمة جهوداً عظيمة لإعادة الهدوء، وكانوا يقومون بتهدئة مكان ثم ينصرفون نحو المكان الآخر، لأن المسلمين شرعوا بإغضاب كثير من الناس، وعندما هدأ هذا الاضطراب، وصمت الجميع، بدأ مسلم برمي الحجارة على حشد الحجاج من مكان خفي، وبناء عليه استأنفنا ثانية، وركضنا للحصول على حجارة، ودعونا بصوت مرتفع الترجمان والقبطانين للدفاع عنا ضد هؤلاء اللصوص، ورمى بعضنا بحجارة بين المسلمين، مما أثارهم وأغضبهم، فنزلوا بسيوف مجردة، وأرغمونا على رمي الحجارة التي التقطناها، وعلى كل حال، لدى رؤية -sa bothytanco، الترجمان، وكالينوس الكبير، أن كلا الجانبين في حالة من الهياج عظيمة، يريد كل فريق منهما الايقاع بالفريق الآخر، ويصرون بأسنانهم غضباً، وقتها أمر الحشد جميعه بالنهوض والمغادرة، ولدى امتطاء حميرنا تركنا هذا المكان الملعون، وقد أشار الرب يسوع إلى مخاطر هذا المكان في الاصحاح العاشر من انجيل القديس لوقا، عندما تحدث عن الرجل الذي نزل من القدس إلى أريحا بين اللصوص، وعنه سوف يأتي في المستقبل حديث أطول، هذا ولقد كنا من بعض الجوانب

الأخرى حتى في خطر أعظم، لأننا جلبنا لصوصنا معنا، على حسابنا، وكان علينا تحمل وجود لصوص غرباء وبامكاننا ذلك، لأنه قد قيل: «أسوأ الأعداء هم الذين من آل بيت الانسان»، وكان البيت الذي رغبنا بالاستراحة إلى جانبه، فيما مضى نزلاً وفق الطريقة الشرقية، لأنهم بنوا بيوتاً عظيمة إلى جانب الطريق العام، مع كثير من الاسطبلات تحت، وغرفاً فوق، من أجل دواب الانسان للاستراحة فيها، والبيت قاتم مفتوح الباب، من دون أي سكان أو أي أثاث، وعندما كان يمر غرباء من هناك، كان بامكانهم الدخول إليه، والاستراحة في الظل، وأكل أي طعام جلبوه معهم، لأنه لايوجد هناك لارجل ولا امرأة للطبخ، وفي الحقيقة كان للجمال الذين يحملون الأثقال، محطات محددة، كانوا لايتجاوزونها بل يرتاحون في نهاية كل واحدة منها، وكان يقوم في مثل هذه الأماكن بالعادة خانات من أجل الانسان والدواب للراحة فيها، ولايجد الانسان في الشرق نزلاً إلى جانب بيوت الاستراحة الفارغة هذه، حيث لاشيء فيها إلاّ ما يجلبه الانسان معه إليها، ويبدو أن النزل الشرقية كانت دوماً بيوت راحة من هذا النوع، ولهذا قرأنا في سفر التكوين:٤٢، حول أخوة يوسف، أنهم عندما كانوا في نزل، فتح أحدهم عدله ليعطي علفاً إلى حماره، وكذلك في سفر الخروج:٤، بأن الرب طلب أن يقتل موسى في نزل.

فضلاً عن هذا، لقد حدث في نزل من هذا النوع أن ولد الرب (لوقا:٢)، ولهذا انطلقنا من ذلك النزل، وكنا مسرورين بأننا غادرنا المكان، لأنه كان من المتوجب علينا امضاء الليل هناك في حالة خطر، بسبب قتال المسلمين، وكان القمر، في الوقت نفسه، قد بزغ نوره، ونزلنا بخطوات واسعة عبر الطريق الوعر، كما نزلنا مسرورين عبر الصخور المنزلقة، وعلى طرقات من هذا النوع تعرف الحمير كيف تسير بسهولة، بدون وقوع، وهم ينزلون بقوائمهم الأمامية فوق الصخور ببراعة

مدهشة، وذلك في طرقات هي مستيحلة بالنسبة للخيول، والطرقات في هذه الصحراء حجرية وهي بالعادة عالية وضيقة، مع وديان عميقة على كلا الجانبين، وبناء عليه إذا حدث وسقطت دابة من فوق الصخور المنزلقة، كانت هي ستسقط في هوة عميقة، ولسوف يهلك الانسان والدابة معا، ولقد دهشت تجاه النسوة اللائي كن برفقتنا، لأنهن ركبن بجرأة كبيرة، ومصدر عجبي هو أن المرأة ضعيفة بشكل طبيعي.

وكان معنا امرأة مسلمة، ركبت معنا حتى أريحا، وكانت شابة، جيدة الملابس وفق طريقتهم، لكن مامن أحد كان يمكنه أن يرى وجهها، لأن وجهها كان مغطى بقطعة قماش سوداء، كانت شفافة، وبذلك كان بإمكانها رؤيتنا، وأخيراً وفي نهاية النزول، وصلنا إلى المنطقة السهلية العائدة لأريحا، التي تبدأ عند سفح جبال اسرائيل، وعبرنا خلال أريحا ونحن نركض، ونزلنا خلال الجلجال لمدة ثلاث ساعات، وجاء سيرنا خلال منطقة منبسطة، وبقينا هكذا حتى وصلنا إلى قفار الأردن، التي من خلالها نزلنا إلى مجرى نهر الأردن، وهنا أعطينا حميرنا إلى سائقيهم وابتعدنا عن المسلمين، الذين مركزوا أنفسهم بين الأشجار لنيل الراحة، بينما أوينا نحن إلى فراش النهر المقدس وذلك وصولاً إلى الماء، حيث فيه جلبنا البرودة إلى أيدينا، ثم تمددنا للاستراحة فوق الرمال، حيث استرحنا بهدوء لبعض الوقت، لأن النهار لم يكن بعيداً.

قداس النهر المقدس الذي أقمناه على ضفته

وفي اليوم العشرين، الذي كان الأحد الثامن، بعد عيد الثالوث المقدس، وما أن صار ضوء النهار منتشراً، حتى نهضنا نحن الكهنة أولاً، وقرأنا ماتوجب علينا على ضفة النهر المقدس، وبعدما قرأنا صلواتنا الصباحية والأولى، نزلنا نحن الكهنة حتى الماء المقدس، وبدأ قائد الجوقة يغني بصوت مرتفع ترنيمة Lavacra pu- rigurgitiscoelestis agnus attigit، الخ، وغنينا بعد هذا chris-

tum hodie in jordane baptizatum، الخ، لكننا لم نغن كلمة hodie، بل وضعنا في مكانها hoc loco in jordane baptizato Domino الخ، لأن من المعتقد، أنه في هذا المحل جرى تعميد الرب من قبل يوحنا، وعلى صوت غنائنا، أفاق الحجاج الذين كانوا نائمين بين القصب، وجاءوا يسعون نحونا، وأفاق المسلمون أيضاً، ووقفوا فوق أرض مرتفعة ينظرون نحونا، وبعدما غنينا الترنيمات المعينة في كتب المسيرات، ارتمينا على الأرض وقبلنا الأشياء الرطبة والأرض المقدسة، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، ومكثنا بعض الوقت في الصلاة، لأن اليوم كان نهار أحد، ولم نكن ذاهبين لسماع أي قداس، وليس هذا بسبب إهمالنا، ولكن بسبب استحالة ذلك، مما أعفانا من ذنب الانتهاك.

استحمام الحجاج في الأردن والأشياء الثلاثة التي حرمت عليهم

وعندما فرغنا من صلواتنا، نزعنا عنا ملابسنا، حتى نتمكن من الاستحمام في النهر المقدس، وعندما رأى أدلاؤنا هذا، سمحوا لنا بغسل أنفسنا، لكن حظروا علينا أشياء ثلاثة: (١) أن لايسبح انسان حتى الضفة الأخرى، (٢) لايجوز لانسان أن يغوص تحت الماء، (٣) ينبغي أن لايأخذ انسان أية مياه معه في قارورة، ليحملها إلى وطنه معه عبر البحر، ومن ثم إلى منطقته، وكان السبب الأول لهذه المحظورات، أن الذين يسبحون نحو الضفة الأخرى، يحصل كل واحد منهم، في جميع الأحوال، في دائرة الخطر على حياته، ولم يحدث قط أن انسانا من بين الذين سبحوا حتى الضفة الأخرى عاد من دون التعرض لبعض الأذى، والسبب من أجل الحظر الثاني، هو أن قاع الأردن طيني، وكل من يغطس فيه، ربما يلتصق هناك ويهلك، وسبب الحظر الثالث هو أن ابحار السفن التي تحمل على ظهرها ماء من الأردن، هو دوماً غير سعيد، فهذا غالباً ما وجده الملاحون بالتجربة.

وصحة ما قد قلته سوف تظهر فيما بعد، وهكذا بعدما نزعنا ثيابنا ذهبنا إلى الماء المقدس، وباسم الرب عمدنا أنفسنا في أمواجه، ولم يخلع بعض الفرسان ملابسهم، بل غطسوا في الماء بالثياب نفسها التي ارتدوها عندما امتطوا ظهور حميرهم، قائلين بأنهم سوف يكونون دوما سعداء بهذه الثياب من الآن فصاعدا، وبناء عليه، إنهم عندما سيصلون إلى الوطن، سوف يحفظون هذه الملابس ويدخرونها مثل الكنوز، ويلبسونها عندما يذهبون إلى المعارك، معتقدين أن مامن أذى سوف ينزل بهم، واشترى بعضهم قطعاً من الكتان أو الصوف، قاموا بتغطيسها بالماء، بقصد التمكن من أخذها معهم إلى الوطن، ومن ثم صنع ملابس منها حسبما يطيب لهم، معتقدين أنهم عندما سيلبسونها سوف يبتسم الحظ لهم، ويكون أكثر لطفاً معهم من غير ذلك من الأوقات.

وكان بعضهم قد جلبوا معهم أجراساً صغيرة، كانوا قد اشتروها من البندقية، وقد جلبوها معهم إلى الأردن، وعمدوها في الأردن باسم الثالوث، وقد حملوا هذه الأجراس فيما بعد معهم إلى الوطن، ومن ثم إلى المناطق الخاصة بهم، وهم يقولون بأنه في أثناء العواصف، والبرق والرعد، إذا ما قرع جرس معمد في الأردن، لا البرق ولا البرد، يمكن أن يحدث أذى، في إطار المنطقة التي سمع فيها صوت القرع، وعلى كل حال إن مدى الصدق في هذه الحكايات حول الأجراس والملابس المعمدة في الأردن، وفيما إذا كان اعتقاد العوام، الذي يؤكد صحة الحكايات المتقدمة، كله صحيحاً أو وهماً، فهذا على الرجل العاقل تأكيده بالنسبة لنفسه.

وبناء عليه وقفنا في الماء وسط بهجة عارمة، وكان كل واحد منا يقوم مبادراً بتعميد الآخر، ومع أن الوقت كان مايزال باكراً في الصباح، لم تكن المياه باردة، بل دافئة، ومناسبة للاستحمام فيها، كما أننا شربنا بعضاً

منها، ومع أننا كنا صائمين، لكننا فعلنا ذلك صدوراً عن التقوى، وهي على كل حال —لم تكن طيبة الطعمة لأنها لم تكن باردة، وكانت موحلة مثل مياه المستنقعات.

وأول ما حدث أن بعض الحجاج لم يطيعوا أمر الحظر الأول، الذي صدر عن المسلمين، وسبح عدد كبير منهم إلى الضفة الأخرى من النهر، وكنت خلال حجي الأول قد سبحت أيضاً إلى الضفة الأخرى، لكن في الثاني مكثت، وجلست في المياه فوق الرمل، والماء حتى عنقي، وكنت مرتديا قميصي ووشاحي الكتفي، ولم أرغب، في حجي الثاني، بالسباحة عبر النهر، لأنه حدث في حجي الأول أنني ارتعبت بشكل هائل، عندما كنا على الضفة الأخرى من النهر، بسبب فعلنا ذلك، لأننا سبحنا وعبرنا برفقة عدد كبير من الفرسان الآخرين، وكنا نلعب بسرور في الماء على الجانب الآخر، عندما ارتفع فجأة صراخ مرتفع، وبدأت تحدث فوضى مع اضطراب عظيم، والذين كانوا على الضفة الأخرى صرخوا صرخات مخيفة، وعلاوة على ذلك، ركض المسلمون، الذين تألفوا من أدلائنا والآخرين، إلى أعلى الضفة، وصرخوا بأصوات مخيفة غاضبة، وشتمونا وهددونا، وتجاه ذلك وقفنا مندهشين، وبسبب كثرة الناس الذين كانوا يصرخون، لم نستطع أن نعرف ما الذي حدث، حتى سبح حاج نحونا من الضفة الأخرى، وعندما اقترب منا، صرخ: انتبهوا، إن واحداً من إخواننا الحجاج، قد غطس في وسط الماء، ولايمكن رؤيته، وبمجرد سماعنا ذلك، سبحنا إلى المكان الذي غطس فيه، وسبحنا من حوله، منتظرين له كي يظهر.

وأخيراً، وبعد مضي وقت طويل، أمكن رؤيته، وقمنا على الفور بجرّه من شعره، وجلبناه إلى الضفة الأخرى، أي إلى الضفة التي نحوها سبحنا وعبرنا إليها، لأنها كانت الأقرب بين الضفتين، وكان أشبه بالميت، ثقيلاً وغير قادر على التكلم معنا، حتى تقيأ الماء الذي

ابتلعه، وعندما أعـدناه لمناه، وسألناه كيف بلغ به الحمق حداً، أنه ذهب إلى الماء، من دون أن يفهم فن السبـاحـة، فـأجـاب: إنني منذ صغـري، كنت دومـاً عـارفـاً بهذا الفن، ذلك أنني نشأت على أطراف المياه، لكن عندمـا دنوت من وسط الأردن، لمسني شيء مـا من تحت الماء، ولقـد ارتعبت كثيراً بتلك اللمسـة، إلى حـد أنني فقـدت كل قـوة أطرافي، ولم يعد بإمكاني مسـاعدة نفسي، لابقدمي، ولا بذراعيّ، وعندما كـان يقول هذا ارتجف، ولم يعد بإمكانه الوقوف.

وكـان المسملون وقـوفـاً على الضفـة الأخـرى من النهـر، فأخـذوا يصرخون للانتهاء من هذا الأمر، ولنسبح ثـانية عائدين، وهكذا شجعنا ذلك الحاج، ونزلنا إلى الماء معـه، ولكن بعـدما سبح مسـافـة ضئيلة بدأ يغـرق، فأمسكناه من شعـره، وواجهنا بعض الصعوبـة في جره، وكـان المسملون في تلك الآونة، وقـوفـاً على الضفة أمـامنا، وكـانوا قد فقـدوا صبرهـم، وكانوا يصرخون علينا، وهنا أقـدم اثنان من الحجاج الأقوياء، كانا يتقنـان السباحة، فـوضعاه بينهما بشكل أنه أمسك واحـداً منهما من ذراعة وأمسك بالذراع الأخرى ، وتعلق على رقبتيهما ، حتى يتمكنا من السباحـة معه ومن ثم إعـادته، ولكن ما أن بدأ الثـلاثة بالسباحـة حتى شرعـوا بالغـرق، وبصعـوبة بالغـة تمكن الاثنان من انتـزاع نفسيهما من قبضته، وتمكنا من انتزاع نفسيهما، وخـرجا إلى سطح الماء، لكنه بقي لمدة طويلة تحت الماء، ثـم ظهـر ثانيـة، وكما حـدث مـن قبل، سحبناه إلى الشاطىء وكأنه ميت، وقد فقد جميع قوته.

وبناء عليه أمرنا أدلاؤنا، بالسباحـة والعبور إلى حيث كانت ملابسنا، وأن نترك ذلك الحاج حيث كـان، حيث سيتدبرون أمـره، وهكذا سبح جميع الحجـاج وعبروا، وعندمـا أردت السبـاحة والعبـور، استـولى علي الفـزع، بسبب الخطر الذي رأيته، وبـدأت أرتجف وأتخيل وأتمتم قائـلاً: «إنني بخفتي وطيشي، تخليت عن ثـوب طائفتي، وقـدمت إلى هنا، على

الرغم من أوامر سادتي أدلائي، وإنني إذا ما غرقت هنا، فإنني سوف أغطس من أعماق هذا الماء إلى هوة الجحيم، وذلك بسبب فسقي وخفتي، وعريّ اللاديني، فلأجل هذا السبب أستحق الحرمان الكنسي لأنني عصيت أوامري، ولكم كان جميلاً لو كنت مع أولئك الحجاج، الذين هم على الضفة الأخرى، ذلك أنهم يقفون بأمن وأمان، يارب مولاي، أرجوك لاتدع عاصفة الماء تحملني نحو الأسفل ولا أن تبتلعني الأعماق، ولاتدع أيضاً هوة الجحيم تفتح فاها لإلتقافي».

وما أن فرغت من قول هذا، حتى قوّيت نفسي بشارة الصليب، وقفزت بقوة ورغبة شديدة إلى الماء، وأرغمت نفسي بقدميّ وذراعيّ على عبور وسط النهر، ووصلت إلى الضفة الأخرى من دون عائق، وعلى الفور، بعدما وضعت عليّ وشاح طائفتي، قطعت على نفسي عهداً خاصاً، في أن لا أبتعد ثانية مادمت حيا بين الناس، لمثل هذه المسافة عن ثوبي الرهباني وشعار طائفتي، لأنني في أن أكون بعيداً عنه أمر محزن جداً بالنسبة إلي، ويبدو أنه أمر غير محتمل بالنسبة لي في أن أغرق بالماء من دون ثوبي، لكن في ثوبي، ماكنت لأهتم بالأمر كثيراً.

ولو أنني قدّرت الأمر، وفكرت بالعمل قبل السباحة والعبور، لما قمت بالسباحة والعبور مقابل أي شيء في الدنيا، وإنني أعرف جيداً، أن الحكماء في كل من القانون واللاهوت، يؤكدون بأن على رجل الدين، إذا كان ملزماً بارتداء ثوب طائفته، أن يفعل ذلك سواء أكان مرتاحاً في فراشه، أو في أي حال من الأحوال، مالم تكن هناك حاجة ضاغطة جداً، أو مرض لايسمح له بارتدائه، وبدون ذلك يكون قد اقترف ذنباً مميتاً، علاوة على ذلك إنه إذا ما ظهر رجل دين دون أن يأبه —بدون ثوبه الكهنوتي — أمام رجل علماني، فبهذا العمل بالذات ينال الحرمان الكنسي، ولقد وقعت في خطر عظيم بسبب الإهمال.

وكان الآن، في ذلك الوقت، الحاج المتقدم الذكر، واقفاً وحده ،

عارياً، ومليئاً بالخوف، ومضطرباً مع وجه شاحب، وقام مسلم بامتطاء فرس قوي، وسار مسافة كبيرة عبر مخاضة للأردن، وأعاده إلينا، وأعطاه الحاج ذهباً كثيراً، ثمنا لحياته، وكان هذا الحاج، قبل أن يصاب بما أصيب به، رجلاً وسيماً، وشهوانيا، ومفرطاً، وكثير الخصومات، وكان مكروهاً من قبل كثير من أتباعه، لكن بعد إعادته إلينا، صار انساناً آخر تماماً، شاحب الوجه، وجباناً، ومتواضعاً، صاغراً، وقد بقي دوماً حزيناً، وكأنه كان منبوذاً، ولا أعتقد أنه عاش كثيراً من السنوات، بعد ذلك.

ولسوف أتحدث عن نازلة أخرى، أنا بالحقيقة لم أكن شاهداً لها، بل سمعتها من واحد جدير بالتصديق: ففي السنة التي كانت بين حجي الأول وحجي الثاني، ذهب عدد كبير من النبلاء الألمان بحراً نحو الأرض المقدسة، وجلب واحد من أعظم الرجال بينهم ديكه معه، ومع أنه لم يكن يعرف الأردن، كان لديه شعور مسبق بالخطر، ذلك أنه اعتاد طوال الرحلة على القول بأنه لايخاف من أي شيء خلال ذلك الحج، إلاّ من الأردن فقط، وعندما وصل إلى الأردن، رفض السباحة عبره مع البقية، ومع ذلك خلع ثيابه، ودخل إلى الماء لتبريد نفسه وغسلها، ولكن والماء لم يصل إلى صرته، بدأ يغطس، وقد غرق تحت الماء، ولم ير مرة ثانية.

وكذلك في حجي الثاني هذا، الذي أتولى الآن وصفه، سبح عدد كبير عبر النهر، دون مراعاة لأوامر الحظر التي صدرت عن المسلمين، وكانوا يتوقعون وقوع بعض المخاطر، ولذلك صرخوا يلومون الذين سبحوا عبر النهر، وكان بين هؤلاء كاهن، سبح عبر النهر، مثلما فعلت أنا من قبل، وقد فقد عند الضفة الأخرى قوته الجسدية، ولم يعد قادراً على السباحة، كما أنه لم يعد يعرف كيف، بل وقف يرتعد خوفاً، وقد أعيد من قبل رفاقه مع صعوبة كبيرة، أعيد وهو رجل ضعيف ومحطم، في حين أنه كان قبل هذا مفعما بالحيوية وقوياً، وكان صديقاً عظيماً لي،

وغالباً ما سألته عما حدث له، وقد أجابني بأنه فجأة فقد قوته، ولقد سألت حجاجاً قدموا إلى الأردن قبلي وبعدي، فوجدت نزول بعض المصاعب دوماً بواحد ما.

ومما تقدم قوله ينبعث سؤال هو: كيف حدث أن ذلك الخطر والاضطراب غالباً ما وقع في هذا الاستحمام، مشاهدين أن النهر ليس عريضاً، ولايمتلك تياراً سريعاً، بل تياراً بطيئاً إلى حد ما؟ ولهذا جواب ما، هو أن بعض الحيوانات الشريرة تكمن في تلك المياه، وهي عندما تشاهد حركة انسان وهو يسبح، تخرج من قعر الماء وتحاول الامساك به وهو يسبح، ويقول آخرون، إن السبب هو أن مكان الاستحمام قريب من المصبات التي يفرغ الأردن بها نفسه في البحر الميت، لذلك يحدث هناك بعض التمازج لمياه البحر الميت مع مياه هذا النهر، ونظر لسمية هذه المياه، يفقد الرجال الذين يسبحون عبره قوتهم.

ويقول آخرون بأن مامن شيء يعيش في البحر الميت، باستثناء بعض الحيوانات الجهنمية غير الطبيعية، التي تسبح، وتصعد من البحر الميت، وتسبب موت الذين يسبحون، ويقول آخرون بأن منشأ الخوف هو تصورات مرعبة، لأن الحجاج يسمعون دوماً حكايات حول هذه المخاطر، وكل واحد يرتجف تجاهها، ويقوم الجميع وهم محترزون، خشية من لحاق بعض الشرور بهم، يقومون وهم في حالة من الرعب بالسباحة عبر النهر، ويفقد بعضهم قوته من خلال التخيل والاعتقاد، بأنهم لمسوا، أو جرى جرهم نحو الأسفل للاغراق، ويقول آخرون بوجود سبب آخر، وهو أن السباحة عبر النهر فيها علامة على الشهوة واقتراف الاثم، ممالاينبغي اظهاره في مكان مقدس مثل هذا،فالرب عاني من الاضطراب ليأتي إلى رجل واحد، من أجل ان يعبر الآخرون هناك عن الجدية، والهدوء، والالتزام بالنظام، لأنه بسبب الأمور الاعجازية التي صنعت هناك، صار هذا المكان، مكان وقار، وليس

مكان طرب، مكاناً للبكاء وليس مكاناً للضحك، مكانا للصلاة وليس مكاناً للصراخ، مكاناً للركوع وليس مكاناً للصراع، ومكانا للتوبة وليس مكاناً للشهوة.

لكن الحجاج أخذوا هذا كله من الجانب المعاكس، ولهذا أرخيت الأربطة في مثل هذا المكان المهيب ولذلك تعرض بعضهم للعقوبة ليكونوا مثلاً للبقية، ولكن مامن شيء لحق الذين عمدوا أنفسهم بشكل رصين وخشوع، كما رأينا في أوضاع النساء من الحجاج، اللائي تحممن بين القصب فوقنا، بشكل لطيف وهادىء، وتقي، وأكثر سكونا مما فعلنا، وكنت أرغب، بالنسبة لمسألة هؤلاء النساء العجائز، أن يكون ماقيل صحيحاً ويتبرهن حقاً، لأن الناس يقولون، بأن من يستحم في الأردن، لايصير أكبر، لابل كلما بقي في الماء مدة أطول، صار صغيراً أكثر، فعلى سبيل المثال، إذا استحم لمدة ساعة، صار أصغر لمدة ساعة واحدة، وإذا استحم لمدة ساعتين، صار أصغر لساعتين، وإذا كان لثلاث ساعات، صار أصغر لثلاث ساعات، وإذا استحم لمدة سنة، صار أصغر لمدة سنة وهكذا ، لكن رفيقاتنا من النساء يحتجن للاستحمام لمدة ستين سنة، حتى يستعدن شبابهن، لأنهن كن نساء في الثمانين من العمر، فما فوق.

وإذا كان الذين يستحمون في الأردن لايكبرون، فوقتها إنه حمام شرير، لأن الرب قال على فم اشعيا (٦٥/ ٢٠): «لأن الصبي يموت ابن مائة سنة، والخاطىء يلعن ابن مائة سنة»، وسيكون هذا الحمام مطلوبا فوق كل شيء ومرغوباً، إذا كان يزيل الأمراض، والضعف، والشيخوخة من الجسد، ويعيد الشباب إلى العقل.

علاوة على ذلك، إن كثيراً من الناس العلمانيين تافهين، أوساذجين، إلى حد الاعتقاد أنهم إذا ماتعمدوا في الأردن سوف لن يكونوا أكبر مطلقاً، وهذا سبب بذلهم جهوداً كبيرة للوصول إلى الأردن وتعميد

أحـدهم الآخـر هناك، وهم أيضـاً الذين يغطسـون في الميـاه العميقـة، مخالفين لأوامر المسلمين.

وبعـدما فـرغنا من استحمامنا، أخـذ بعض الحجاج مـاء من الأردن، بجرار، ودوارق، وقـوارير من زجـاج مخالفين بذلك الأمـر الثـالث للمسلمين، الذين منعـوا ذلك، بناء على مبـادرة القبطانين، لأن قـادة السفن لايسمحون بوجود الماء على ظهـر سفنهم، لأنهم يعتقدون بشكل ثابت وأكيـد،. أن السفن التي على ظهـرها ميـاه من الأردن هي سيئة الحظ، ولايمكنهـا القيـام برحـلات سريعـة، بل هي في خطر، مـادامت نقطة صغيرة من الميـاه باقية على سطحهـا، وغالبـاً مارأيت أنا شخصيـاً هذا، فعندما كانت هناك مخاطر في البحر، ناجمة عن رياح معاكسة أو من الحاجـة إلى الريـح (١٩٨) يسعى القبـاطنة حـول أطراف الغليـون ويركضـون، يفتشـون جميع الحجـاج والصناديـق وكل مـاهو مغلق، ويبحثـون في كل شق وزاوية بحثـاً عن مياه الأردن، التـي إليها يعـزون سـوء الحظ وإذا لم يجدوهـا في التفتيش الأول، يبحثـون ثانيـة، وإذا مـا استمرت مصـاعب الملاحة، يعاودون البحث بحدة متناهيـة، ويتهددون كل من يجدون لديه أيا من هذه المياه، حيث يقومون برميه مع حقائبه في البحر.

وتحملنا في حجي الأول كثيراً من هذا القبيل، وجـرى تفتيشنا بشكل مهين من قبل الملاحين، بحثـاً عن هذه المياه، وبناء عليـه، إنه لمن المفيد، معـالجة هذا الأمـر، ورؤية مـدى الصـدق الموجـود في هذه الفكرة، أي فكرة، أن ميـاه الأردن، إذا مـا وضعت في قـارورة، وحملـت على ظهـر سفينة مسـافرة في البحـر، فيهـا أي طاقة تعيـق إبحارها، وتجعل البحـر هائجاً، وتمنع الريـح الطيبة من الهبوب، أو تغير أحـوال الهواء أو البحر في أي حال من الأحـوال،وذلك كما يقول قـادة السفن بأنها تفعل، وهنا علي أن أذكـر أنني سمعـت من رجل مـوثوق ومتعلم بـأنه قـد رأى في

روما مرسوماً بابويا بختـم رصاصي، فيه جرى منع أي انسان من جلب مـاء من الأردن إلى البلدان الموجـودة فيها وراء البحـار، وإذا فعل ذلك فسوف ينال لعنة البابا، وقالوا أيضاً، بأن سادة البندقية قد أمروا، بإعادة أي انسان من فـوق سطح البحر، إذا كان معه الماء المتقـدم الذكر، وأنهم غالباً مايقدمون ويفتشون السفن،ويريقون المياه التي يجدونها فيها.

وبناء عليه، فإن الذي يقـول بأن ابحار السفن يعـاق بحظر البابا، هو معلن معترف أن ذلك بسبب الماء، بـل الذي هو مصـدر الإعـاقـة هو الحظر البـابوي، والآن إذا كـانت أوامـر الحظر البـابـوية، تعيق إبحـار السفن، لابد أن ذلك يتم بوسـاطة معجـزة، وبسبب وجـود أشخـاص محرومين كنسياً، وليس بسبب الماء، وذلك تماماً كما نقـرأ حول أشخاص محرومين كنسيا، في كـونهم عرضـة لكثير من المآسي، من ذلك على سبيل المثـال، أن مثل هؤلاء الأشخاص لايدفنون في أفنيـة الكنائس، بل يلقى بهم أثناء الليـل في العـراء ويتركـون للافتراس مـن قبل الحيـوانات المتوحشة.

ومثل هذا عندمـا كـان النبي يونان عـاصيـا هبت عـاصفـة هوجـاء، وعندمـا ألقي به من السفينة، توقفت العـاصفـة، وذلك حسبها قـرأنا في الاصحاح الأول من سفر يونان، وهذا — على كل حال— لايحدث إلى جميع الأشخاص المحرومين كنسياً، بل فقط مع الأشخاص الذين يرغب الرب في إظهـار معجـزة عليهـم وبهم، وواضح أن هذا لايقع للجميع، من قضية هؤلاء الحجاج الذين يقلعون مسافرين من دون الحصول على ترخيص مـن البـابـا، ويصلون إلى القـدس بسـلام، مع أنهم في وضع المحروم كنسيـا، ومن هنا ينبعث سؤال جديد، هو بناء عليـه: لماذا أقدم البابا على اصـدار قرار بمنع جلب ميـاه الأردن، والجواب كما يبدو، هو أنه فعل هذا، ليزيل الأوهام التـي أثارها استخدام ذلك الماء، لأن بعض الكهنة الساذجين، يعتقدون أنهم لن يتملكوا القوة الحقيقية للتعميد، مالم

يمـزجوا الماء مع بعض الماء مـن الأردن، ذلك أنهم اعتقدوا أن التعميـد بذلك الماء هو أكثـر قـداسـة، وأعظم تأثيراً منـه بدونه، ومثل هذا، فإن بعض النساء اللائي يؤمن بالأوهام، لايقبلن بتعميد أولادهن، مالم يكن في الماء بعض الماء من الأردن، قد مـزج به،حتى وإن آمنّ بأن الماء الآخر فيه كفاية، تراهن مع ذلك يقدرن، أنه حيث توفـر ماء قد مزج به بعض ماء الأردن فهو أكثر قداسة، وجميع هذه الآراء خاطئة.

وعلاوة على ذلك إذا ما أراد المشعوذون والسحـرة، القيام باستخدام خاص لهذا الماء، استخدموه في الحال عندما يتمكنوا من جلبه، وذلك في ممارساتهم الواهمة،من أجل تحليل الحظر الذي أصـدره البابا حول جلب المياه، لكن إذا — بناء على ذلك — ماجرى إعاقة ابحار السفن، فوقتها يكون الرب قـد عمل معجـزة جـديدة، ويقـول آخـرون، بأن الماء من الأردن، مـادام جـارياً، هو مـاء حـيّ، لكن عندمـا يوضـع في قـارورة يمـوت، ويصبح آسنا، وبما أن البحـر لايمكنه أن يحتمل مـاهو ميت وفـاسد، لذلـك — كما يقولون— تعـاق السفن في إبحـارها، لكن هذا غير صحيح، لأنني رأيت أوعية كبيرة، صـار الماء فيها آسنا، وقـد جرى حملها إلى مسـافات عظيمـة فوق سطح البحـر، وذلك من أجل أن تبقى بعض الميـاه الطازجـة في السفينة، مع أنها كـانت آسنة، ومثل هذا رأيت جسد رجل ميت، قد مات مؤخراً، وقد حمل على ظهر السفينة من جزر السيكلاد cyclades حتى البندقيـة، وهذا أمر سوف أتـولى شرحه فيما بعد.

ويقـدم آخـرون سبباً آخـر، ويقـولون بأن البحـر الميت يحتـوي على صفات مدهشة، وبما أن مياهه تتمازج هنا مع مياه الأردن في هذا المكان، لذلك لايستطيع البحـر الكبير تحمل ميـاههما ، بسبب العـداوة التي يحملهـا كل واحد من البحـرين نحـو الآخر، لكنني لا أصـدق هذا ولا أومن به، وأتصـور انعـدام وجـود الملوحـة فيه، في حين أن ميـاه البحـر

الميت، شـديدة الملوحـة، ولهذا أطلـق عليـه في الكتـابات المقـدسـة اسم «البحـر الأعظم ملوحـة»، وعلى هذا لايوجـد هناك، في ذلك المكان، تمازج بين المائين، ويقـول آخرون بشكل أفضل، وأكثر صدقـاً، بأنه من الأوهام أن تؤمن بأن ميـاه الأردن لها قـوة إعـاقـة، أو تغيير الرياح، أو التـدخل في حـركـات الهواء والبحـر، ومـع ذلك إنه بسبب عـدم إيمان الأناس المسيحيين، يتم هـذا كله بأمـر من الرب، حتـى وإن تكن هناك على ظهـر السفينـة ميـاه من الأردن، فإن هـذا يحدث ليس بسبب الماء نفسـه، ولكن بسبب الحاجـة إلى الايمان، لابل حتى كما نـرى أنه من خلال الايمان السيء، بعض الأشيـاء تعمل فتشفي من بعض الأمراض، وهي أشياء ليس لديها سبب لشفاء هذه الأمراض، كما أنها غير متبناه في فن الطبابة لفعل ذلك، من ذلك على سبيل المثال إذا ماوقع فرس وصار أعـرجاً بقـدمـه اليمنى، أقـوم مباشرة بربط القـدم اليمنى لبقـرتي، التي ليست عرجـاء، ويشفى بعد ذلك حصـاني، ليس بسبب ضماد بقرتي، بل بسبب سـوء ايماني في اعتقادي بهذا،وهذا فيما يختص بالسـؤال الذي هو أمامنا.

وحـالما ترى قبطان سفينة يعتقـد أن نقـاطاً قليلة من مـاء نهر الأردن يمكن أن تغير المجرى العام للهواء والماء في البحر الكبير، وتغير الرياح، وقتها عليك أن تعـاقبه لذنبه،لأن الرب هـو الذي يأمر بإعاقـة الابحار، لزيادة الايمان السيء، هذا وكون هذا الاعتقـاد هو وهمي، واضح أيضاً، من حقيقـة أن كثيرا مـن الناس يمكن العثـور عليهم، ممـن جلبـوا هذه الميـاه، علماً بأنهم اقترفـوا خطأً بعملهم ذلك، لأن ذلـك محرم من قبل البابا.

وليكن في هذا كفاية، ذلك أنني تجولت بعيداً عن مكان استحمامنا في الأردن، ووصلت بعيـداً حتى البحـر الكبير، وبناء عليـه، عندمـا دعـانا المسلمـون، خرجنا من الأردن المقـدس، وارتدينا ملابسنا، وخـرجنا من

مجرى النهر، ووقفنا نتأمل المكان، ثم إننا جلسنا بين الشعراء، وأكلنا خبزنا والأشياء الأخرى التي كنا قد جلبناها معنا من القدس، وذلك دون أن نعبأ بالمسلمين، الذين كانوا واقفين على أقدامهم، وتابعوا يستدعوننا لمغادرة ذلك المكان.

وصف الأردن وأولاً ينابيعه

أنا مقبل على تقسيم ماسأقوله حول نهر الأردن، إلى ثلاثة أقسام، هي:(١) ينابيعه، و(٢) صفاته و(٣)(إطرائه).

وفي وصفي للأردن، لابد أنني بحاجة لصنع إشارة إلى أماكن، أنا لم أرها بعيني، لأنه صحيح أن حجنا قد وصل إلى الأردن، لكنه بالفعل لم يصل إلى بداياته، وفيما يتعلق بينابيع الأردن، لقد قيل بشكل عام، وماقيل هو صحيح، بأنه ينبع من أسفل جبل لبنان، وذلك من نبعين، هما «أر» و «دان»، ومن هذين الاسمين مجتمعين نال اسمه وبات يعرف «بالأردن»، وأرجع بعضهم ينابيعه إلى الوراء كثيراً،وقالوا يرسل الفرات، الذي هو نهر من أنهار الجنة، فرعاً صغيرا من فروعه، من خلال قناة سرية، تحت الأرض، وهذه تجمع مياهها في نبع اسمه فيالا phyala، وهو نبع عميق، ومليء دوما، لكنه لايتدفق، ويطلق المسلمون على هذا النبع اسم «ميدان»، وورد هذا الاسم في انجيل متى: ١٥ «مجدل»، وفي انجيل مرقص:٨، باسم دلمانوثة.

وكما قلت من قبل لاتتدفق مياه هذا النبع، بل تمر خلال منطقة الطرخونية من خلال قناة تحت الأرض سرية، وبذلك تجعل النبع يجري عند سفح جبل لبنان، وهو الذي اسمه «دان»، وكون نبع دان هو نبع المجدل مبرهن عليه من خلال حقيقة القش الذي يرمونه في نبع المجدل فيجدونه جارياً من خلال نبع دان، ويبعد هذان النبعان عن بعضهما ستة آلاف غلوة.

ويقـولون بـأن نبع «الار» يتلقى ميـاهه من نهر الـدجلة الذي هو نهر الجنة الآخر، وذلك بـوساطة قناة من تحت الأرض، وتتدفـق مياه هذان النبعان: «أر» و «دان» من سفح جبل لبنان، مع وجود مسافة بين الأول منهما والآخـر، ويجريان معـا في نهر واحـد أمـام باب المدينة التي كـان اسمهـا القديم هو لايش،وصـار لهما اسم واحد هو الأردن، ونقـرأ عن مدينة لايش في انجيل يوحنا:١٠، وفي سفـر القضاة:١٨، فهنا ورد الخبر بأن أبناء دان قد وجدوها مدينة غنية وآمنة، فاستولوا عليها، وأحرقوها، ثم أعادوا عمارتها وأعطوها اسم دان، وهو اسم أبيهم.

وكانت هذه المدينة آخـر مدينة في الأرض المقـدسة باتجاه الشمال، وفي هذا المكان جـرى نصب صنم ميخا، الـذي نقرأ عنه في ثنايا الاصحـاح الثـامن عشر من سفـر القضـاة، عـلاوة على ذلـك نصب يربعـام، ملك اسرائيل، هناك واحداً من عجليه الـذهبيين، وأمر الناس بعبادته، وذلك حسبما ورد في الاصحاح الثاني عشر:٣٢، من سفـر الملوك الأول، وبعد زمـن طويـل من أيـام فيليـب، الذي كـــــان الطيطراخ لـلايطوريـة والطرخـونية، صـار اسمهـا قيسارية، صـدوراً عن احترام قيصر، ولهذا السبب ورد اسمهـــا في انجيل متى:١٦، «قيســـارية فيليـب»، وسماها الاغريـق فيما بعد «بانيـاس»، وهي في هذه الأيام، لاتدعى باسم لايش، ولا دان، ولا قيسارية، ولابانياس، بل بلنياس.

وبناء عليـــه يلتقي «الأر» مع «دان» أمـام بـاب هذه المدينة، ويشكل اجتماعهما نهر الأردن، الذي يجري من هنـاك في طريق متعــرج وطويل، وبذلك يفصل منطقة الايطورية عن الطرخونية، ثم إنه يصب في وادي، حيث تتجمع مياهه في بحيرة، وتعرف هذه البحيرة باسم «مياه ميروم»، وحولها نقـرأ في سفر يشوع:١١، وتمتلىء هذه البحيرة في مـواسم الشتاء العظيمة، لكن الميـاه تجف في الصيف، وتتوفـر هناك نباتات كثيفـة، فيها تعيش الأسود، وحيوانات مفترسة أخرى.

وبعد ذلك تسيل المياه بين مدينتين هما كفرناحوم وكورزين، وهناك تشكل بحيرة كبيرة، هي بحر الجليل، أو بحر طبرية، وذلك مثلما يشكل الراين بحيرة كونستانس، وتتدفق المياه من الجزء المنخفض من هذا البحر، وتمر فيها بين جبال اسرائيل، وجبال العربية الصغرى، وتصل ممتدة حتى سهل أريحا، ومن هناك تصب بين فكي البحر الميت، ومن ثم يجري ابتلاعها.

هذا وإن المسافة من حيث يبدأ منطلقاً من بحر الجليل، إلى المكان الذي يدخل فيه إلى البحر الميت سفر اثني عشر يوماً، والبحر الميت في طوله يستغرق سفر خمسة أيام، وهذا البحر مرتبط مع المياه التي اسمها في سفر الخروج:١٥ «مياه ماره»، ومياه ماره مرتبطة بالبحر الأحمر، هذا ويرتبط البحر الأحمر بالبحر الهندي، الذي يتفرع عن المحيط، وعلى هذا إن مجرى الأردن طويل جداً من نبعه حتى نهايته.

صفات نهر الأردن

دعونا نرى الآن، أي نوع من الأنهار هو نهر الأردن، فهذا النهر المقدس ليس نهراً عريضاً جداً، فعرضه لايكاد يتجاوز الستين خطوة، لكن، صحيح أنه صغير بالعرض، هو عميق جداً، وله بشكل خاص في المكان الذي استحمينا فيه، قعر رملي، وضفتين طينيتين، وهو يفيض ويتناقص وفقاً للموسم من السنة وهو يفيض بشكل خاص في أيام حصاد القمح، أي في أيام الربيع، لأن القمح، كما هو معتاد، ينضج في ذلك الوقت، في بلاد فلسطين، وذلك كما قرأنا في سفر يشوع:٣، وفي الحقيقة يفيض بشكل كبير يبلغ به الحد أنه يتدفق خارج مجراه إلى الحقول، لأن أنهاراً كثيرة وجداول تصب فيه، من ذلك —على سبيل المثال— نهر يبوس، الذي عبره تصارع يعقوب مع الملاك، ويمتلك وقتها مجرى عميق إلى حد ما، مع ضفتين عاليتين، ومياهه طيبة، ومناسبة للشرب، ولاسيما في المواسم الباردة، أي في الشتاء، لأن هذه

المياه في الصيف دافئة جداً، ومياهه موحلة، هذا ولست عارفاً فيما إذا كانت دوماً كذلك، وفيها كميات وافرة من الأسماك الجيدة، ومجراه ليس مجرى سريعاً، لكنه يسيل بشكل صامت، ومع ذلك عندما يسبح الانسان عبره، يشعر وهو في وسطه بتيار الماء وهو يتحرك ضده.

ويمتلك نهر الأردن من منبعه عند قيسارية فيليب حتى نهاية البحر الميت، أي لمسافة حوالي المائة ميل، يمتلك على ضفتيه سهولاً واسعة، تنتهي بجبال عالية، وإلى جانب الأردن قفار، هي التي نقرأ عنها أيضاً في سفر اشعيا:١٢، حيث كان يوجد فيها في العصور الماضية عدداً كبيراً من الديرة، وأماكن سكنى لرجال دين، وخرائبها ماتزال مرئية في هذه الأيام، وتتجول في قفار الأردن وسهولها أعداد كبيرة من الحيوانات المتوحشة،وهم يأتون حتى في هذه الآونة وينزلون إلى الماء للشرب مثل قطعان من الأغنام، لكنهم ينامون في الأوقات الحارة من النهار في الكهوف بين الصخور، وهناك بينها أسود، ودببة، وثعالب، ويحامر، وغزلان، وأرانب، وحمر وحشية، وماشابه ذلك، وهم يسيرون هناك ويتجولون مثل الحيوانات الأليفة، ولايفرون من الناس، إلاّ عندما يحاولون الاقتراب منهم.

واعتاد منذ سنوات مضت أسد ضخم على السكنى هناك، ولم يكن هذا الأسد يؤذي أحداً لا من البشر ولا من الحيوانات، بل كان يراقب الناس وهم يمرون، ويظهر إلفته بتحريك ذيله، وحدث أن واحداً من المسيحيين كان معه قوس، فرمى بسهم على الأسد، وركض الأسد نحو السهم وشمه، فأطلق عليه سهماً آخر، وعندما كان السهم طائراً، نهض بنفسه وكان يريد أن يلتقطه، ومن ذلك الحين لم يعد يرى في بقعته المعتادة، بل أخذ يتجول خلال السهول وأماكن غابات الأردن،وكان يسير هناك وهو يزأر باحثاً عمن يمكنه أن يفترسه ، وأحدث منذ ذلك الحين كثيراً من الشرور لحقت بالبشر وبالحيوانات.

فخار وإطراء نهر الأردن المقدس

إن فخار نهر الأردن المقدس أمر عظيم لايمكن تقديره، لأنه يفصل أرض المؤمنين عن أرض غير المؤمنين، ذلك أنه كان يوجد وراء الأردن العمونيون، والمآبيون، والأدوميون والعرب، في حين كان يوجد على هذا الجانب ويسكن بنو اسرائيل، وقد جعل طريقاً لبني اسرائيل، وبشكل اعجازي أوقف جريانه وتجمعت مياهه، حسبما ورد في سفر يشوع:٣، وقد شفى نعمان المجذوم، الذي كان قائد جيش الآراميين، كما ورد الخبر في سفر الملوك الثاني:٥/ ١٤، وقد أطاع هذا النهر أوامر إيلياء، واليشع، وفتح طريقاً لهما في وسطه (الملوك الثاني:٢/ ٨)، وقد طفا على وجهه بشكل اعجازي عمود من الحديد (الملوك الثاني:٦/ ٦).

وقام يوحنا المعمدان الأعظم قداسة، بتعميد الناس في هذا النهر، حسبما قرأنا في انجيل لوقا:٢، وفي انجيل يوحنا:١، وفي انجيل مرقص:١، ويبقى الأكثر أهمية من هذا كله، ومن هؤلاء جميعاً، هو أن يسوع المسيح، ابن الرب، كان مسروراً بأن يجري تعميده في هذا النهر، ولقد أمكن بلمسة من جسده الأعظم نقاء أن يضفي على المياه هناك، قوة تجديد روحانية، وبناء عليه إن هذه المياه هي أم الجميع الذين عملوا تجديداً روحياً في المسيح، ولهذا السبب قال برنارد: «يتلقى الأردن ببهجة المسيحيين في صدره، الذين يتفاخرون بأنهم تقدسوا بتعميد المسيح»، ومثل هذا قال: «أي نهر أعظم قدراً من هذا النهر، الذي كرسه الثالوث المقدس نفسه، وقدسه لنفسه، بحضوره المرئي؟، فالآب هناك سمع، والروح القدس شوهد، والابن تعمد، وذلك حسبما قرأنا في انجيل متى:٣، ويوحنا:١، ولوقا:٣»، واستطرد برنارد يقول: «نفهم من هذا كله بأن المجذوم الآرامي قد كذب حين فضل أي نوع من مياه دمشق لا أعرفه، على مياه اسرائيل، وذلك بوجود أردننا، الذي برهن مراراً بأنه يعبد الرب بخشوع».

ونواجه هنا سؤالاً: طالما أننا نرى أن نهر الأردن، بهذه الدرجة من القداسة، والسمو، وأنه لذلك هو مبارك، ونقي، ومقدس، وعذب، ومياهه صحية، لماذا عليه أن يصب في مياه هي ملعونة، وغير نظيفة، وشريرة، ومالحة إلى أقصى الحدود، وسامة، والمقصود بهذا صب مياهه في البحر الميت أو بحيرة سدوم؟ وفي إجابة لهذا السؤال يقول بعضهم بأنه صحيح أن الأردن يتدفق بالحقيقة نحو البحر الميت، لكنه عندما يصل إلى شواطئه، يخرق الأرض، ويدخل من هناك، قبل بلوغ البحر.

غير أن هذا غير صحيح، لأنه من الممكن رؤيته، وهو يجري في البحر لمسافة طويلة، وهو متميز عن مياه البحر، التي هي كثيفة، ومنظرها أسود، في حين نجد أن مياه الأردن بيضاء وصافية، ويقول آخر بأن هذا يحدث من أجل أن تتلطف لعنة الأول ببركة الثاني، ويتبنى آخرون وجهة نظر أرفع حول الموضوع، ويقولون تكمن هنا أسرار عظيمة، لأنه صحيح أن الأردن نهر مقدس، لكن بما أنه لايمجد نفسه، بل يجري نازلاً نحو البحر الميت، لاتتمكن قداسته من انقاذه ومنعه من السقوط في البحر الميت، ومن مشاركته لعنته، ومثل هذا الانسان، نجد مع أنه قد تقدس بعمادة المسيح، لايرفع نفسه عالياً، بل يتابع السير نازلاً على طريق الضعف الجسدي، ولعدم محافظته على قداسته يسقط في اللعنة، ويجعل من نفسه شريكاً لها، مثلما يفعل الآخرون الذين لم يتعمدوا، ولأنه مثلما الأنهار الأخرى والجداول غير المباركة تصب في البحر الميت، وتشارك في لعنته، كذلك الانسان المذنب مع أنه قد يكون معمداً، لكنه لم يكن مقدساً، هو مثل ذلك، وهكذا دواليك.

ومن المعتقد أن المكان الذي استحمينا فيه، قد قام بنو اسرائيل بعبور النهر عنده، فوق المجرى الجاف لاحتباس المياه عن الجريان، وأنه هناك جرى تعميد: ايليا، واليشع، والمسيح، ولهذا قام هنا — حسبما قرأت في كتاب حج قديم جداً — في هذا الجانب من الأردن، حيث تعمد الرب،

صليب طويل، اعتاد الحجاج على نزع ملابسهم إلى جانبه، ومن ثم كانوا يدخلون إلى الماء، وفي المكان الذي خلع فيه الرب ملابسه على هذه الضفة من النهر، كانت قد بنيت كنيسة كبيرة، لها سقف معقود على قناطر، مدعوم بتسعة أعمدة من الرخام، وكانت هذه الأشياء جميعاً قد جرفتها منذ زمن طويل مياه فيضانات الأردن وابتلعتها، ولهذا السبب، لايمكن في هذه الأيام رؤية أثر منها، وقد تحدث القديس برنارد بإطراء عن نهر الأردن، في الفصل التاسع من قداسه لفرسان الداوية.

مغادرة الحجاج للأردن باتجاه بيعة القديس يوحنا — قفار الأردن وصحراء القديس يوحنا المعمدان

وبعدما فرغنا من استحمامنا، عاودنا على الفور امتطاء ظهور حميرنا، وغادرنا النهر المقدس، وسرنا عبر الطريق الذي قدمنا عليه، وعاد الحجاج الذين لم يكونوا عازمين على زيارة جبل سيناء، ببهجة عارمة، بسبب أنهم وصلوا أخيراً إلى نهاية حجهم، لأن الأردن هو خاتمة حج القدس، وبناء عليه مضينا مسرعين خلال قفار الأردن، إلى داخل صحراء القديس يوحنا المعمدان، الذي بدأ بسكنى هذه الأماكن المنعزلة، إلى جانب الأردن، فور تلقيه كلمة الرب، التي وصلته في القفار، قرب بيت أبيه، وبناء عليه، وصلنا الخبر في انجيل القديس لوقا:٣، بأنه تجول في جميع المنطقة التي من حول الأردن يبشر، ويعمد.

ومثل هذا، لقد سكن لبعض الوقت في بيت عبره، عبر الأردن، حسبما ورد في انجيل يوحنا:١، وتنقل بين جميع أماكن منطقة الأردن، من مكان إلى آخر، حتى يتمكن من التبشير، ففي هذه القفار التي نحن صاعدين إليها، جاء الرب يسوع مرة إليه، يطلب منه التعميد، ويوجد على ضفتي الأردن قفاراً وعرة، فيها سكن يوحنا المعمدان، ومن بعده عدد كبير من الآباء المقدسين، الذين احتذوا حذو المعمدان، فتحزموا بأحزمة الجلد وأكلوا الجراد، والعسل البري، وذلك حسبما قرأنا في

انجيل متى:٣، ويوحنا، ودعـونا نرى مـا كانتـه تلك الجرادات والعسل البري.

ويقول بعضهم بأن الجراد عِبارة عن حيوانات صغيرة جداً، تطير على طريقـة القفـز، ولها مناشير في أرجلهـا، ولهذا تسمى أيضـاً باسم ser-ratae، ولها أجساد صغيرة جداً وقصيرة، مثل اصبع يد الانسان، وهي من السهل امسـاكهـا في الأعشـاب، وبعـد قطـع رؤوسهـا تقلى بالزيت وتؤكل، وهي طعام القوم الفقراء، والجراد هذا موجود في هذه الأيام في صحـراء اليهـودية، وعلى هذه، عـاش —كما يقـال— القـديس يوحنا المعمدان.

ويقـول آخرون، ممن ينظرون إلى الأمـور نظرة أكثر سمـواً: «من غير المعقول أن يكون يوحنا المعمدان الأعظم مبـاركة أن يكون قد أكل لحم الجراد في الصحراء، لأنه رفض أن يأكل الخبز في بيته المتقدم»، ويقولون هناك نوعـاً من الأعشـاب ، ينمو في القفـار، اسمـه Longusta، وقد صحف العوام اللاتين هذه الكلمة إلى Locusta، ويجمع الناس الفقراء هذه العشبة، ويأكلونها، على أنها طعام القـديس يوحنا، وبناء عليه اعتاد رهبـان الأيام الخاليـة، الذين سكنوا إلى جانـب الأردن، أن يستخدمـوا يومياً هذه العشبة في أطعمتهم.

ويقـول بعضهم بأن العسل البري، هو مايتم العثور عليه في جـذوع الأشجار، حيث تولى النحل حمله إلى هنا، ويقول آخرون بأن هناك نوعاً من أنواع القصب ينمـو هناك، له عصير حلو، وهذا القصب، هو الذي نسميه قصب السكر، وينمو هذا القصب قرب الأردن، ومنه لايستخرج العسل، بل سائلاً أعلى قيمة، هو سائل السكر، وهكذا إنهم يقولون بأن يوحنا عـاش على قصب السكـر هذا، غير أن آخـرين يتفكرون بكلمات الرب (متى:١٨/١١) التي قـال فيها: «جـاء يوحنا لايأكل ولايشرب»، ويقولون بأن اللاهوتين قـد قالوا لدى تعاملهـم مع هذا النص، بأنه قد

قيل هو لم يأكـل ولم يشرب، لأنه لم يستخـدم الطعــام العـام، والشراب المعتـاد لبني البشر، ثم ما الذي يأكله ويشربه الذي يعيش في القفـار غير أشياء ضئيلة جـداً، هذا ولايعد العسل المتقـدم الذكر، سـواء المستخرج من تجاويف الأشجار أو الذي يستخرج من قصب السكر، بين الأطعمة المتيسرة للعـوام من الناس، بل من طعـام النبـلاء الذين يتغـذون بلطف بالأطعمـة الفـاخـرة اللذيذة، ويقـوم آخـرون بتطييب الطعـام بالعسل والسكر، لجعله أكثر لذة وشهيـة، وبناء عليه ليس صحيحـاً القـول بأن القـديس يوحنـا قـد أكل مثل هذا الطعـام، ذلـك أنه رفض أن يأكل في بيت أبيـه الطعام المطبوخ، والفـواكه، أو الخضـار، فكيف من الممكن أن يكون قـد أكـل، العسل، وأقـراص العسل في القفـار؟ وبنـاء عليـه هم يقولون بأنه كان هناك نوعاً من جذور الأعشاب، اسمها العسل البري، ويقـول آخرون بأن العسل البري، هو أوراق بعض النبـاتات، التي هي بيضاء، ولطيفـة ومستديرة وهي عندما تفرك مع بعضهـا في اليد، يكون لها شيئاً من طعم العسل.

ويقول آخرون بأن هناك نوعـاً من أنواع البراعم، تنمو على نوع محدد من النبـاتات، فيها بذور خضراء مثل الفـاصـولياء، فهـذه ماكـان يأكله القديس يوحنا، والسهل كله مغطى بهذه النباتات عندما كنت في القفار، غير أنني وجـدت بذورها قـاسيـة مثل الحجـارة، بحيث لم يكن بامكاني فصم أي منها بأسناني، ويقول آخرون بأن هناك أشجاراً في القفار، اسم ثمارها «الخروب»، كنت قد أتيت على ذكـرها من قبل، وهي ثمار سوداء مستطيلة، وعندمـا تنتزعهـا من أغصانها جيـدة للأكل، ويطلق على هذه الثمار في كل مكان اسم «خبز القديس يوحنا»، وهي تباع من قبل الذين يبيعون التوابل في حـوانيتهم، وهي في الشرق كثيرة جداً، تكاد أن تكون لاقيمـة لها، يتولى الفقـراء جمعها، وانتـزاع قشورها بأسنانهم، وتجهيـزها وأكلهـا كمنقوع حلـو، مع بقاء القطع المنقـوعـة في العصير، وغـالباً مـا

أكلت من هذا الخروب في الماضي، غير أن نفسي لم تشبع منها، ومن الممكن أن القديس يوحنا كان يشرب عصير هذه الحبوب.

وسرنا خلال هذه القفار، التي هي قفار القديس يوحنا بسرعة، وبعد قطعنا حوالي الميل، فجأة انبعث صراخ وعويل بين رفيقاتنا من النساء الحاجات، مما أحدث الفوضى بين صفوفنا، لأنهن اعتدن على السير بهدوء عظيم جداً، وبخشوع وصمت، وكان هناك انزعاج كبير بينهن واضطراب كبير، مما سبب الدهشة لكل واحد منا، ولذلك بادرنا مسرعين نحوهن، وهن يبكين، وسألنا عن سبب بكائهن، وقد أجبننا بأن واحدة من رفيقاتهن قد جرى البحث عنها بين الحشد، فلم يعثر عليها، وأنهن كن يبكين لفقدانها، وقد رجوننا التوقف، وعدم السير وراء المسلمين، الذين مضوا أمامنا مسرعين جداً، وذلك حتى يمكن العثور على رفيقتهن، ولهذا وقفنا مع هؤلاء السيدات، ولم نتقدم نحو الأمام، وفي الوقت نفسه استدعانا المسلمون لمتابعة سيرنا، وهم يصرخون ويتهددون.

غير أنهم عندما رأوا أننا لم نلحق بهم، عادوا إلينا، وبعدما سمعوا شكاوى كثيرة مضاعفة، بعثوا على الفور بعدد منهم،على ظهور خيول سريعة جداً، وذهب معهم بعضاً من أقوى الحجاج للبحث عن المرأة العجوز، وتوجه هؤلاء الرجال مسرعين نازلين نحو الأردن، وذلك عبر طريق القفار، لأننا خفنا من امكانية غرقها في مياه الأردن، أو أنها وقعت فاقدة لوعيها لحاجتها للطعام في القفار، أو أنها التصقت بالطين على طرف النهر، ولم تكن قادرة على الخروج، أو لعلها اعتقلت، وسرقت، واغتصبت من قبل أحد المسلمين، وقد تشوقت أجواف الحجاج لرؤية أختهن، ومع ذلك، فإن بعض قساة القلوب من الفرسان، أبدوا انزعاجهم تجاه تعرض الحشد كله للفوضى والاضطراب من أجل امرأة عجوز واحدة، ولوجرى اتباع ما أشاروا به

لتمّ فقدان المرأة العجوز فقـداناً كاملاً، وبهذا الموقف كانـوا أشد وحشية من المسلمين، الذين لدى قلقهم بشأن ضياع المرأة، خـافوا من أن تكون قد خطفت من قبل بعض البداة أو الرعاة المدينيين، أو أنها افترست من قبل أسد، أو من قبل حيـوان مفترس آخر، ووقفوا بصبر ينتظرون معنا، في ظل حرارة الشمس العالية جداً.

وحدث أن قائد هؤلاء المتـزمرين،الذين رأوا إنها مسألة تافهة، فقدان امـرأة عجوز، والذين ربما رغبـوا بضيـاعها، سقط هذا فيها بعـد بأيدي هؤلاء النساء العجـائز (عندما مرضـوا) ورجاهن بدموع بنيل المسـاعدة ممن ازدراهن من قبل، هذا وكنا قد تعـرضنا لهذا الموضوع من قبل، وفي الحقيقة كان قد انحدر إلى وضع كان أسوأ من وضع المتسولين التعساء.

هذا وتجول الـذين أرسلوا للبحث عـن العقيلة التقيـــة، أي رفيقتنا، وأخـذوا يفتشـون وهم يصرخـون على طول الطريق في أرجـاء القفـار، وذهبوا حتى ضفة الأردن، إلى المكان الذي استحمت فيه النساء، وهناك وجدوها متمددة نائمة في فـراش من القصب، وقد أيقظوها، وأخذوها، وحملوها على ظهـر حصان، وقدمـوا إلينا وسط صرخات فـرح، وكأنهم قد أمسكوا حيواناً مفترساً.

كيف دخل الحجاج إلى كنيسة القديس يوحنا

وهكذا جرى استقبال العقيلة بسرور، وهنأهـا الرجال الجيدون، مثل الذي فقــد شـاة، في انجيل لـوقـا:١٥، وتابعنـا السير على طريقنا حتى وصلنا إلى نباتات وأشواك في أرض جـرداء، لاتنبت النباتات عليها ولا الأشجار، وبذلك صارت غير مستوية، وتـلالاً رملية، ومناطق مرتفعة، وفيها نحن على طريقنا وصلنا إلى كنيسة جميلة وواسعـة، التي هي كنيسة القـديس يوحنا المعمدان، وهناك ترجلنا من على ظهـور حميرنا، ودخلنا إلى الكنيسة، وانحنينا نحو الأرض ونحن نصلي، ثم اننا دخلنا في قداس

مخصص للحجاج وحصلنا على غفـرانات مطلقـة (++)، وجلسنا هنا لوقت قصير، في الظل وأرحنا أنفسنا.

وقـد حكيت إلى الحجاج عن الازعاج الذي تعرضنا إليه في حجي الأول، في هذه البقعة، الأمر الذي أنا مضطر لإقحامه هنا أيضاً، لأننا عندما خرجنا من القفار، إنما قبل أن نصل إلى الكنيسة، دفع بنا أدلاؤنا من على ظهور حميرنا، وأرغمونا على قيادتهم بأيدينا، ومنعـوا كل واحد من الصعود إلى الكنيسة، التي قامت فوق الطريق، بل أمرونا بالمرور إلى جانب الكنيسـة مسرعين صامتين، وكان هذا العبور مزعجاً لنا، لأننا لم نكن راغبين بعـدم رؤية الكنيسـة، وغير راضين بفقدان الغفـرانات، علاوة على ذلك كـان الطريق رمليـا، وغطسنا في كل خطوة عميقاً في الرمل، إلى حد أننا كدنا أن نغطس حتى ركبنا، وكـان النهار حاراً جداً، والشمس كـانت متوهجة جداً، وقـد تعذبنا كثيراً ومـرضنا بسبب تلك الرحلة ولمرورنا المقيت إلى جانب الكنيسة.

وكـان سبب حدوث ذلك، هو أن أحـد البداة الملعونين، وكـان ابناً شريراً للشيطان، قـد استولى على تلك الكنيسـة، واتخذ منها بيتاً لنفسه، وهناك عاش كلص، يقوم بهجمات من هناك ويسلب المارين، وقد أعلن عن كراهية خاصة نحو جميع المسيحيين، وكانت هناك عادة بين المسلمين أنه إذا ما التقى رجلان في الحقل، وكـان أحدهما يخاف من الآخر، يقوم الذي لا أمل لديه بالانتصـار، بالترجل من على ظهر دابتـه، ويمشي على قدميـه، حتى يقابل الآخر، وذلك كعـلامة على الاحترام، ومن أجل أن يظهـر بهذه الطريقـة الاحترام نحـوه، ومثـل هذا إذا مـا أراد حشـد من الناس اظهار احترامهم نحـو آخر، يقوم جميـع الرجال بالترجل من على ظهـور دوابهم، وكـذلك أيضـاً، عنـدمـا يركـب ويسير على الدرب، أي ملـك، أو أمير، أو نبيل مسلـم، أو مملوك كبير، يقفـــز جميـع الذيـن يواجهـونهم من على ظهـور دوابهم، ويقفـون حتى يمـرون بهم،وإذا لم

يترجلوا من على ظهـور دوابهم في المناسبـات المتقـدم ذكـرهـا، يقـوم الآخـرون بـاقتـلاعهم من على ظهـورها بالقـوة، مـع كثير من الاهانة والازعـاج، وقد خشي أدلاؤنـا من هذا البدوي، وخـافـوا أن يكون هو وأتباعه كامنين ينتظرون في الكنيسة، وأنه من الممكن الاندفاع من هناك، والانقضـاض علينا، خاصـة إذا مـا مررنا بالبيت دون اظهـار الاحترام، ولهذا أمـرونا بالترجل مـن على ظهـور حميرنـا، وأن نمـرّ بـذلك البيت بشكل متـواضع، الأمر الذي فعلناه، وعلى كـل حال كـان الفرسـان في غـاية الانزعـاج، ولعنوا ذلـك البـدوي بأبشع الكلمات وأرهبهـا، ومهما يكن من أمـر لقـد عبرنا من هنـاك، ولم نر أحـداً في ذلك المكان، وكـان ذلك لصالحنا، لأننا خفنا كثيراً نحن مع أدلائنا من ذلك البدوي، وأكثر ماكنا نخشاه أن يقوم باللحاق بنا.

كنيسة القديس يوحنا المتقدمة الذكر وقداسة المكان

وكنيسة القديس يوحنا المتقدمة الذكـر، واسعة إلى حد ما، لكنها الآن مشعثة بسبب سكنى البـداة فيها، الذين يعيشون حيـاة قطاع طرق فيها، ويسكنون فيهـا وكأنها حصن، وقد جـرى تهديم مذابحها، وفقـدت من بعض الجوانب شكلهـا ككنيسـة، وهم يقـولـون بأن القـديس يوحنا المعمـدان قـد وعظ الناس في هذه البقعـة، وأعطى إلى الجميع أحكامـاً، بمـوجبهـا عليهم أن يعيشـوا، وذلك حسبما قـرأنا في انجيـل القـديس لوقا:٣، وهنا أيضاً قدم شهادة للرب يسوع، كما قرأنا في انجيل متى:١، فضلاً عن هذا كـان يوحنا واقفاً في هذا المكان، عندما جـاء الرب يسوع إليـه، ولدى رؤيته له، أشـار باصبعـه إليـه قائـلاً: «هو ذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يوحنا:١).

ويقول بعضهم بأنه من هذا المكان جرى رفع إيليا إلى السماء في عربة من نار، لكن هذا لايتوافق تماماً مع مـاورد في سفر الملوك الثاني:٢، لأن إيليـا جرى رفعـه من وراء الأردن، وكان هناك فيما مضى دير مـلاصق

لهذه الكنيسة، فيه كان القديس زوزيما Zozima الراعي لكثير من الرهبان، وكان على مقربة من الدير هناك دار ضيافة للحجاج، فيها أمضت القديسة مريم المصرية ليلتها الأولى، عندما نزلت من القدس بغية الذهاب إلى القفار عبر الأردن، وجاءت القديسة مريم المصرية إلى هذه الكنيسة قادمة من القفار، وكان ذلك يوم الجمعة بعد عيد الغطاس، وتسلمت فيها قداس القربان من القديس زوزيما، وقد سارت في ذهابها إلى القفار وإيابها منها فوق نهر الأردن، وعبرته جافة القدمين.

وفي الأيام الخالية كان يحتفل بعيد كبير عند هذه الكنيسة، وذلك في يوم عيد الغطاس، في الأيام التي كان العصر الذهبي مايزال فيها مستمرا، لأن بطريرك القدس، وأسقف بيت لحم، ورعاة الديرة، والرهبان، ورجال الدين، والشعب، هؤلاء جميعا كانوا قد اعتادوا على النزول إلى هنا، وبعد إقامة قداس، كانوا ينزلون معاً، مع الأعلام والصلبان إلى الأردن، وهناك يغنون مزامير إلى جانب النهر المقدس.

واعتاد راعي دير القديس يوحنا، أن يغطس الصليب الذي كان يحمله في الماء، ولدى تغطيس الصليب، اعتاد جميع الأشخاص المرضى على القاء أنفسهم في الماء، وبذلك كانوا يشفون، ويقوم في الوقت نفسه الأصحاء بتعميد أنفسهم بخشوع، وبذلك يصبحون أقوى، ومن المعتقد أن هذه المعجزات التي كانت تتم هناك، كانت تتم لابسبب قداسة النهر، بل بسبب المراعاة الصحيحة للدين، بين المسيحيين بشكل عام، وكذلك بين الرهبان وبين رجال الدين، ولدى الفراغ من الاحتفال كان كل واحد يذهب إلى وطنه وإلى موضعه الخاص، ويلي هذه القفار، صحراء القديس جيروم الواسعة، التي خلفها يقع البحر الميت، وفوق البحر الميت هناك جبال عين الجدي، ولسوف أتولى وصف هذه الأماكن جميعاً، في اليوم الرابع من آب.

موضع الجلجال المقدس ومكانته العلية

وبعدما استرحنا قليلاً وبردنا أنفسنا في كنيسة القديس يوحنا، امتطينا ظهور حميرنا من جديد، وتابعنا سيرنا بتواضع، ووصلنا إلى مكان بين تلال رملية، حيث يسير الطريق السلطاني بين هضبتين صغيرتين، وقد قال لي أحدهم، بأن اسم الهضبة الأولى منهما هو جرزيم، واسم الثانية عيبال، وهما جبلي المباركة واللعنة، اللذين قرأنا عنهما في سفر التثنية:٢٧، لكن الأمر ليس كذلك، ولسوف نتحدث عن هذين الجبلين ونبينهما بعد قليل.

ووصلنا ونحن على طريقنا إلى سهل منطقة أريحا، الذي كان محترقاً بأشعة الشمس، ووصلنا هناك إلى موضع الجلجال، الذي ورد ذكره عدة مرات في الكتابات المقدسة، ففي هذا المكان وضع بنو اسرائيل علامات حددوا بها معسكرهم، وكان ذلك بعد عبورهم للأردن، وهنا كان أول مكان سكنوا فيه فوق تراب الأرض المقدسة، وهنا جرى ختانهم للمرة الثانية، وهنا حافظوا على عيد الفصح، وبدأوا هنا بأكل ثمار الأرض المقدسة، ولم يعد المن ينزل عليهم من السماء، بعدما أكلوا ثمار الأرض المقدسة، وذلك حسبما قرأنا في سفر يشوع:٤—٥.

هذا وإنني أتصور، أنه عندما قدم يوشع إلى الجلجال مع بني اسرائيل، لم يكن هناك بناء، ولاقرية، ولامدينة، بل تمدد الحشد فوق أرض جرداء في سهول أريحا، وبعدما نصب بنو اسرائيل خيامهم هناك، عملوا بعض الأبنية من أجل خيمة عهد الرب، وتابوه العهد، اللذان بقيا هناك لمدة طويلة، وكذلك من أجل الاثنتي عشرة حجرة، التي أمر يوشع بني اسرائيل باخراجها من الأردن، عندما عبروا في وسط الأردن، وساروا فوق مجراه وأقدامهم جافة، وقد نصبت هذه الحجارة في الجلجال، كما قرأنا في سفر يشوع:٤.

وكنت قد قـرأت في كتاب حج قديم جـداً، بأن المسيحيين قد بنوا في العصور القديمة في الجلجال في المكان الذي وقفت فيه خيمة عهد الرب فيما مضى، وحيث أيضـاً نصبت الحجـارة الاثنتي عشرة ووضعت، بنوا كنيسة فخمة، فيها وضعت الحجارة المتقـدمة الذكر، وكانت حجارة غير مصقولة وكبيرة إلى حد أنه لم يكن بامكان اثنين من الرجال حمل واحدة منهن بسهـولة، ورفعهـا من على وجـه الأرض، وكـانت احـداهن قـد انقسمت بالصدفة إلى قسمين، وقد أعيد لصقهـا فنيا من جديد بوساطة أعمال حديدية.

ولم نكن — على كل حـال — قـادريـن على رؤية خـرائـب هذه الكنيسـة، ومـع ذلك كنا مسرورين جـداً برؤية المكـان، وانكببنا على وجوهنا، وقبلنا الأرض المقـدسة، التي هي عن حق مقـدسة، لأنه هناك تخبأ يوشع ليحل حـذاءه وليخلعـه من قدميـه، لأنه عندمـا ذلك الرجل القوي والمقدس، أي يوشع، كان في الميدان، رأى رجلاً واقفاً أمامه، مع سيف مجرد، ونحوه تقـدم يوشع دونما خوف وقـال له: «هل لنا أنت أو لأعـدائنا»؟ فأجـابه قـائـلاً: «كلا أنـا ميكائيل رئيس جند الرب، والآن أتيت لمساعـدتك» (يشوع:٥)، وقد عـدّ هذا المكان مقدسـاً منذ القديم، وبسبب قداسته سكنت هنا جماعة من الأنبياء، وكانت مثل دير للرهبان، حسبما قرأنا في سفر الملوك الثاني:٤.

وكان هذا المكـان الأول، الذي شرع الرجال المقدسـون في سكناه مع بعضهم، مثلما يفعل رجال الدين في الدير، وذلك بسبب قـداسة المكان، الذي قدسه رئيس الملائكة ميكائيـل بشكل خاص بظهوره هناك، وذلك مثلما جـرى تقـديس جبل جـرجـانوس Garganus الذي سـوف نتحدث عنه فيما بعد، والذي إليـه يسعى الناس من أقصى أجزاء الدنيا، هذا وإن تقـديس هذا المكان بوسـاطة الملاك هو مـؤكـد تمامـاً، ذلك أنه مؤيد بشهادة الكتـابات المقدسة القانونيـة، وهو أمر صحيح بدون أدنى

شك بظهور القديس ميكائيل، الذي وقع في هذا المكان.

ويسعى الناس إلى الحج في بلدان الغرب، حتى إلى البحر البريطاني، إلى مايعرف باسم جبل القديس ميكائيل ليشاهدوا حقاً بعض الآثار، والأسلحة —ولأتحدث مثل طفل— العائدة للقديس ميكائيل ، حيث قالوا بأنه فوق هذا الجبل وضع القديس ميكائيل الأسلحة التي غلب بها التنين، والتي بها دافع عن يوشع في منطقة أريحا، ولم يقتصر الأمر على الأطفال، الذين ارتحلوا إلى هناك في سنة ١٤٥٧، من جميع أجزاء ألمانيا، بأعداد كبيرة جداً، بل تعداهم الأمر إلى الرجال المسنين، ورجال ذوي مدارك كانوا غير قادرين على القراءة.

وحول هذه القضية، أود أن أ حدثكم عما عانيته شخصيا وجربته، ففي أحد الأيام خرجت من أولم مع مرافق واحد، من أجل أن أتمكن من الوعظ في بلدة جنتسبورغ Guntsburg ، وصدفنا ونحن على الطريق حاجاً، كان مسافراً على الطريق نفسه، والتحقت عن قصد بهذا الرجل، وسألته من أي حج كان عائداً، مضيفاً أنني شخصيا ذهبت حاجاً إلى بلدان أجنبية، ولهذا كنت أشد ميلاً لمعاشرة الحجاج، وكان هذا الحاج رجلاً له شخصيته كما كان محترماً، ومتفوهاً بلسان البنادقة، غير أنه كان رجلاً علمانياً غير متعلم، فأجابني قائلاً: «لقد قدمت من بلاد نائية، من المحيط، من جبل القديس ميكائيل» فسألته: «أرجوك ما الذي التمسته هناك، وما الذي رأيته»؟، فأجابني: «إن الذي التمسته قد وجدته، ورأيته بعينيّ، ذلك أنني رأيت في ذلك المكان ترس وسيف رئيس الملائكة ميكائيل المجيد، الذي بهما أنشب الحرب في السماء مع التنين، الذي هو الشيطان، حيث تمكن من طرد ابليس وجميع أتباعه من السماء، وبهما كان متسلحاً عندما ظهر أمام يوشع بن نون، في حقل أريحا».

وعلى هذا أجبته: «ياأخانا، هذه مسائل هائلة، فمن الذي أراك هذه

الأشياء»؟ فأجابني: «رهبان يرتـدون الثياب الكهنوتية البيضاء الطويلة، ورجال أتقيـاء، وقد عرضـوا هذه الأشياء على جميع الناس، مع كثير من الأبهة، وقد حصلوا على مرابح وافية من وراء ذلك»، فقلت: «من الذي وضع هذه الآثار الهائلة في تلك البقعـة»؟ فأجـاب: «القـديس ميكائيل، بعـدما تغلب على الشيطان، وتوقف عن القتـال، نزل شخصيـاً إلى هذا الجبل، وصنع مستـودعـاً هناك من أجل ســلاحــه، وفي أيام المسيح الدجال، سوف ينزل إلى هناك للمرة الثانية، ولسوف يحمل هذا السلاح ثانيـة، وبهذا السـلاح سوف يتغلب على المسيح الدجـال، وسـوف ينزل الهزيمة بشياطينه».

وسألته بعد هذا عن شكل هذا السلاح وحجمه، فأجابني بلغة منتقاه على كل نقطة، وأخبرني أشياء كثيرة، قـام رهبان ذلك المكان بالتبشير بها بشكل علني،وهي تحتـوي مافيـه الكفاية من الأخطاء العقـائدية، ولقـد تعـذبت كثيراً حتى أشرح لهذا الرجل، بـأن القـديس ميكائيل بانتصـاره على التنين لم يكن بحاجة إلى ترس مادي أو سيف، وأن هذه الأشياء قد اخترعت بشكل غير صحيح، بسبب جشع هؤلاء الرهبان، وأن السلاح الذي قـاتل القـديس ميكائيل فيـه، لم يلقـه قط، ولم يتـوقف مطلقـاً عن القتال به.

لأنه كما أنشب الحرب في السماء ضد الملائكة السيئين، كان مثل هذا، في العهـد القديم، قـائـد جيش بني اسرائيل، وقـاتل من أجلهم، كما هو واضح في يشـوع:٥، عـلاوة على ذلك، هو لم يقـاتـل قط —في العهـد الجديد— إلى جانب المسيحيين، كما هو مبرهن عليه في سفر دانيال:١٠، وبناء عليه هو لم يلق سـلاحه، عـارفاً أنه لم يكن سلاحـاً ماديا، وبعـدما فـرغت من توجيه هذا الرجل العلماني نحـو هذه القضايا، قـدم الشكر إليّ.

وغالباً مـااعتاد الراهب ميكائيل سيكز sicz، الذي كان طباخ الدير

في أولم، على الحديث عن هذا السلاح، لأنه زار المكان في السنة التي تقدم ذكرها مع الأطفال الآخرين بهدف رؤية السلاح، هذا والحكايات هذه حكايات أطفال، في حين كان الظهور في الجلجال ظهوراً حقيقياً تماماً، وحقيقة مقدسة،ولهذا يتوجب هنا التماس القديس ميكائيل والبحث عنه، لأنه من المؤكد تماما بأن الملاك المقدس، قد ظهر ليوشع هنا بسيف مسلول، ولم يكن الذي معه سيفا غير حقيقي، كما أن الجسد الذي ظهر به لم يكن جسده الطبيعي، لأن كل من الجسد والسلاح قد تشكلا من الهواء، وكانا لايليبان الاستخدام الانساني، وعادا بعد الظهور إلى حالتهما المتقدمة، وعلى كل من يود —بناء عليه — أن يرى الأماكن التي رؤيت فيها الملائكة بالفعل، عليه أن يقوم بهذا الحج، ولسوف يرى هذه الأشياء، وأشياء أخرى أعظم من هذه.

وادي اللص عكان الذي فيه رجم

وتابعنا سيرنا من الجلجال نحو أريحا، واقتربنا من وادي عكان، الذي دفن فيه مع جميع آل بيته وكل الذي امتلكه، تحت كومة من الحجارة، وكان ذلك بسبب السرقة التي اقترفها، عندما جرى هدم أريحا، وذلك حسبما قرأنا في سفر يشوع:٧، وتعجبنا في هذا الوادي نحو قسوة العدالة الربانية، التي تعاقب شعباً كاملاً بسبب جريمة رجل واحد، وتضفي ذنب واحد على الجميع لأن النص يقول (أخبار الأيام الأول:٢/ ٧) بأن بني اسرائيل نافقوا، مع أن مامن واحد منهم أذنب، باستثناء عكان الذي سرق لساناً من الذهب، وثوباً وبعض الفضة، وعكان هذا هو نموذج للراهب السيء، الذي استولى على النظام الذهبي العائد للقديس أوغسطين، وقد عرف هذا النظام بالذهبي لأنه ثمين، وفخم، وثقيل، ومليء بالقيمة، وحدث هذا الاستيلاء من قبل مذنب، كان قد لبس بشكل غير صحيح الثوب الرهباني، وأساء استخدام الصدقات التي تسلمها بصرفها على ترف غير ضروري، فضلاً عن هذا،

إنه عندمـــا أفســد المواهــب التي منحت له، بـالانصراف نحــو المدح البشري، كــان بذلك يدفن الفضــة بالأرض، وبهذا الاثم، لم يعــدّ هو وحده مسؤولاً، بل الدير كله معه.

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، وصلنا إلى البقعة، التي هي غير بعيدة عن مدينة أريحا، وذلك حيث جلس الرجل الأعمى على طرف الطريق وهو يستجدي، وذلك عندمـا مرّ الرب، وهو صاعـد من الجليل إلى القدس، وهناك منـح الرب النور إلى عينيــــه، وذلـك حسبما قــرأنـا في انجيل لوقـا:١٨، وقـرأنا فـوق هذه البقعـة القـداس المعين في كتب المسيرات، وانكببنا فــــوق الأرض، وقبلنـا آثار أقــــدام مخلصنـا وحصلنا على غفرانات(+).

بيت العاهرة راحاب وبيت زكاً والمحنة التي عانى منها الحجاج

ووصلنا بعد هذا إلى مدينة أريحا، وكـان يقوم إلى جانب باب المدينة، بيت مقنطر، وهو قديم جداً، وقد قالوا بأنه كان فيما مضى بيت العاهرة راحـاب، حيث عنـه نقـرأ حكاية جليلة في سفـر يشــوع:٢، ومثل هذا أعطيت هذه العــاهـرة مكاناً في سلسلة نسـب الرب يســوع في انجيل القــديس متى (الاصحـاج الأول)، لأن سليمان، أمير سبط يهوذا، قــد تزوج من راحـاب، وأنجب منهـا بـوعـز، وهكذا ارتقت هذه المرأة من وضعهـــا كعـــاهرة دنيئـة، ومنحت مكانا في الانجيـل المجيـــد؟ هذا وتعرضت هذه المدينـة للتهديم مراراً، ومع ذلك ممتـع أن يحكي الانسان أن بيت راحـاب العـاهرة قـد بقي لوحـده من دون أذى، وهو مشـاهد حتى هذا اليوم.

وبعدمـا سرنا لمسافة بعيـداً عن بيت راحاب، وصلنا إلى بيت كبير في وسط البلدة، ماتزال جدرانه سميكة وعالية، وكأنه كان فيما مضى قلعة، وقد قيل بأن هذا كـان بيت زكاً، وهو الذي تفضل الرب يسوع فبـاركه

وقدسـه، بطريقة خاصـة عندما قال: «يقـدم الخلاص هذا اليوم إلى هذا البيت»، وهنـا في داخله أكل، وهدى كثيراً مـن المذنبين مع زكـاً، وكنا راغبين بالدخول إليه، لكن لم يسمح لنا بذلك، وعلى كل حال توقفنا إلى جـانب الجدار، وقال واحـد من الحجاج بـأنه يرغب لو أن زكاً مـايزال صاحب ذلك البيت، لكان زودنا وضيفنا، لأننا كنا جائعين وعطشانين، والأشيـاء التي كنا قـد جلبناها معنا من القـدس، في جعبنا، كـانت قـد أكلت كلها تقريباً.

وكنا نأمل أن نجـد في أريحا خبزا وماء لإنعـاشنا، لأننا من دون ذلك كنا سنكون فارغي الوفـاض، وكان هناك نقص آخـر بانتظارنا، هو خبز الآلام، وماء المحنة، وبينما كنا وقـوفاً هناك ويتحدث أحـدنا مع الآخر، بدأ أدلاؤنا بسرعـة، وبأصـوات مخيفة، يعملون على دفعنـا نحو الأمـام، والاسراع بمغادرتنا أريحا، لأن أهـل أريحا جمعوا بعضهم بعضاً، وكـانوا يعملون ويخططون لمنعنا مـن الانسحـاب، بقصـد استخـراج المال منا، ولدى رؤية أدلائنا لما كان يحدث، سـاقونا إلى خـارج المدينة بأكبر سرعة ممكنة، وركب الرجال المسلحون المرافقون لجماعتنا خيولهم، وساقوها في وسط الحشد، فقسمـوه إلى قسمين، وشقوا لنا طريقـاً في وسطهـم، وهنا ركض الأطفـال والنساء، ورمـوا حشـدنا بالحجـارة، وأثناء عملهم هذا سحبوا عدداً كبيراً منا من على ظهـور حميرهم، وسرقوا قبعاتهم، وجرح بعضهم بالحجـارة، وحـدث بعض الاضطـراب بسبب الركض وتقـدم الرجال والدواب، فثـار الغبار من الأرض، وبلغ من الكثافـةحداً، بدت فيه أريحا وكأنها قد غلفت بسحب مظلمة.

وعندما رأى أهل أريحا أننا سوف ننجو من بين أيديهم، ولن يحصلوا على شيء منـا، وأننا أفلتنـا من بين أيـديهم، لجأوا إلى الحجـــــارة، وبها طردونا مع أدلائنا من مـدينتهم، ولشدة خوفنا، هربنا جميعـاً، وكأننا كنا مطاردين بالسيوف، وهكذا خرجنا من أريحا ليس فقط خاليي الوفاض،

بل مضروبين وبشكل فوضوي، مما دفع عدداً كبيراً من الفرسان إلى الغضب، وودوا لو أن ناراً تنزل من السماء، وتلتهم أريحا وكل الذين سكنوا فيها، لأنهم أثيروا بالروح نفسها مثلما أثير كل من جيمس ويوحنا، حسبما ورد في انجيل لوقا:٩، عندما جرى رفض استقبال الرب وتلاميذه في قرية من قرى السامرة،فوقتها رغب هذان الاثنان، بنزول نار من السماء والتهامها، لكن لفعلهم ذلك قد ليما حسبما قرأنا في المكان نفسه.

مدينة أريحا: ماالذي كانته وماهي عليه الآن

مدينة أريحا، التي تعرف أيضاً باسم مدينة النخيل (أخبار الأيام الثاني:١٨/ ١٥)، وأنها كانت من ميراث سبط بنيامين، قد كانت في الأيام الخوالي مدينة مزدهرة، وذات مظهر جيد، باستثناء أنها افتقدت الماء العذب، وذلك حتى أيام النبي اليشع الذي حوّل نبعاً مالحاً جداً إلى نبع عذب، كما سوف نرى فيما يأتي، وكانت هذه أول مدينة استولى عليها بنو اسرائيل، بعد عبورهم للأردن، وتمّ فعل عدد كبير من المعجزات أثناء الاستيلاء عليها، وهذا يمكن الاطلاع عليه في سفر يشوع:٦.

وقام يوشع بتدميرها بالكامل، وأنزل اللعنة على كبار أولاده وصغارهم، الذين سوف يعيدون عمارتها، وبناء عليه، عندما شرع بعد مضي سنوات طوال حيئيل البيتئيلي بإعادة عمارتها، ووضع الاساسات لها، توفي ابنه الأول أبيرام، وعندما نصب أبوابها توفي الأصغر سجوب، وذلك وفقاً للعنة يوشع (الملوك الأول:١٦/ ٣٤).

وكانت هذه المدينة قد هدمت أولاً من قبل يشوع، وثانياً من قبل الرومان، وثالثاً من قبل التتار، وآخر شيء من قبل شعب آخر، لذلك هي الآن قرية بلا أسوار أوخنادق، والذين يسكنون فيها عددهم قليل،

وسكان هذه القرية سود البشرة، وأقوياء، والنساء هناك، هن من القوة مثل الرجال العاملين، لذلك يصعب على الانسان تمييز المرأة عن الرجل.

حدائق أريحا الجميلة وورودها

وبعدما خرجنا من أريحا، نظرنا بأعين شريرة نحو أدلائنا، بسبب الانزعاج الذي عانينا منه، ذلك أننا كنا نتوجس أن ماتعرضنا إليه، كان تدبيراً مقصوداً من قبلهم، وكان صبرنا قد انعدم، من خلال الصوم، فاليوم كان يوم أحد، وكنا حتى ذلك الوقت لم نأكل شيئاً، وكان هناك إعياء في حرارة الشمس، وكانوا في الحقيقة قد وعدونا بأننا سوف نجد خبزاً وماء في أريحا، وأنه سيكون بإمكاننا إراحة أنفسنا هناك، وعندما رأوا أن ثائرتنا تكاد تنفجر، جعلونا نهدأ بكلمات ناعمة، قائلين بأننا سوف نصل على الفور إلى نبع جيد، وأن خبازين سوف يلحقون بنا من أريحا، جالبين الخبز معهم، ولذلك خرجنا من أريحا، وتقدمنا باتجاه جبل القرنطل، ولدى مرورنا بين أسوار الحجارة الجافة لبساتين أريحا، رأينا أجمل الحدائق، التي كانت تسقى من مياه الجداول التي تسيل من نبع اليشع، ولذلك سوف أحدثكم عنها في مكانها.

ورأينا في هذه البساتين كثيراً من أشجار الجميز، التي هي أشجار طويلة، وقد ذكرنا مشهدها بشجرة الجميز التي تسلقها زكا، عله يرى يسوع (لوقا:١٩)، وإلى جانب أشجار الجميز، نمت أشجار أخرى، تألفت من أشجار الفواكه،ودوالي عنب الخمر الطيبة، مع كثير من أشجار التين، الحاملة لثمار حلوة جداً، ومثل هذا، رأينا هناك أنواعاً متعددة من الورود والزهور، من مختلف الأشكال، وشممنا روائح طيبة جداً، لأن النباتات الشوكية والأشجار، تحمل وروداً رائعة بشكل خاص، وفواكه حلوة، وبدا أن الأعشاب الخضراء، وكذلك حشائش الطبخ، قد نمت هناك بشكل كانت أفضل فيه من أي مكان آخر، فكل

النباتات وكل ماكان نامياً هناك في التربة كان مزدهراً إلى أبعد الحدود.

ولهذا شبهت الحكمة الربانية نفسها إلى الوردة، لكن ليس إلى أي وردة، بل إلى وردة أريحا، ذلك أن ورود أريحا هي الأكثر جمالاً، ولقد قرأنا في سفر الإلهيات:٢٤/ ١٤، «لقد أطريت مثل وردة في أريحا»، وكذلك أعلنت العذراء المباركة عن نفسها، كل يوم، على لسان الكنيسة، أنها مثل وردة في أريحا، وفي الحقيقة، هذه الورود هي الأجمل، وهي تشبع النظر بجمالها ورونقها، وتجعله يبتهج بشم شذاها، ويتمتع بملامسة لطافتها، فهذه الورود تشفي المريض بفضائلها، وتبعث السرور في نفس الحزين بألوانها، وتجعل حتى المتزمتين من الناس يعجبون بروائعها ومظهرها، وتمثل الورود بجمالها الشكل المتوقع للفردوس، وكان في واحدة من هذه الأشجار أكثر من مائة وردة.

ولدى ذكر يوسفيوس لهذه البساتين، في كتابه «تاريخ حروب اليهود» الكتاب الخامس، الفصل الثامن، قال بأن هذه المنطقة اعتادت فيما مضى على انتاج البلسم، الذي هو أثمن الثمار جميعها وشجر السرو الذي ينتج صمغ المصطكا، وذلك إلى جانب ثمار النخيل، من مختلف النكهات والأسماء، والذي عندما يعصر يعطي كثيراً من العسل، الذي قليلاً منه تغني عن العسل الحقيقي، وبالنسبة للفواكه الأخرى أيضاً، من الصعب القول بأن بلداً آخر في العالم يمكن أن يساويها، فهي تنتج أضعافاً مضاعفة كل بذر يبذر في أرضها، وقد اعترتنا الدهشة تجاه خصبها العظيم، في الوقت الذي كانت فيه المنطقة التي فوقها والتي تحتها جرداء، وسبب خصب التربة هو نبع اليشع.

جرزيم وعيبال: جبلا المباركة واللعنة

وتابعنا صعودنا مسايرين مجرى الماء الذي يسقي هذه البساتين، وذلك باتجاه المنطقة التلية، التي منها تتدفق، وتلك المنطقة التلية

مرتفعة،وقد رأينا هناك جبلين يقابل أحدهما الآخر، اسم الأول منهما جرزيم، واسم الآخر جيبال أو عيبال، هذا ويقول السامرة بأن هذين الجبلين واقعان قرب نابلس، التي هي شكيم، وفي الحقيقة يقول بعض الكاثوليك مثل هذا، وقد وجدت الأمر كذلك في كثير من أوصاف الأرض المقدسة، غير أن جيروم المبارك، قد قال في كتابه «حول المسافات بين الأماكن» بأنهم يخطئون كثيراً بجعلهم بعض الجبال هي جبلي جرزيم وعيبال(٢٠٥)، غير الجبلين اللذين هما قرب أريحا، لأن الكتابات المقدسة تشهد دوما بأنهما قرب الجلجال، فضلاً عن هذا، إن الجبلين اللذين قرب شكيم، واللذين يقولون عنهما بأنهما جرزيم وعيبال، يبعد أحدهما مسافة طويلة عن الآخر، وكذلك من غير الممكن سماع أصوات المباركة واللعنة منهما معا، وقال بعضهم بأنهما الجبلين الواقعين فوق بيعة القديس يوحنا، وتحت الجلجال، ولكنني لا أصدق هذا أيضاً، لأن هذين الجبلين مجرد تلتين من الرمل، تجمعتا بوساطة الريح، ولاتتسعان لعدد كبير من الناس، ولالعدد الأمراء الكبير، فضلاً عن هذا من غير الممكن إقامة مذابح من حجارة غير مصقولة فوق الرمال، وذلك مثل المذابح التي ورد ذكرها في سفر التثنية:٢٧.

ودعونا —على هذا— نقف مع القديس جيروم، بأن هذين الجبلين، الموجودين على يميننا هما جبلي جرزيم وعيبال، بما أن أمراء الأسباط الاثني عشر كان يمكنهم الوقوف، وبناء مذابح والصراخ بلعنات ومباركات، وارسالها من الجبل الأول إلى الجبل الآخر، وكذلك يمكن للناس الوقوف في السهل من تحت، وسماعهم.

ولدى مشاهدتنا لهذين الجبلين، أصابنا الرعب، بسبب اللعنات المخيفة التي أنزلت على الذين أهملوا الشريعة، الأمر الذي من الممكن العثور عليه في سفر التثنية:٢٧—٣٨، ولايمكن لأي مسيحي أن يقول بأن تلك اللعنات والمباركات، عائدة إلى اليهود فقط، ذلك أنهم يعودون

إلى المسيحيين أيضاً، فلنقرأ ما جاء في انجيل متى:٥/ ٢٠ قوله: «فإني أقول لكم إنكم إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات»، ومن هذا إنه واضح بأن هذه اللعنات والمباركات تتعلق بنا بشكل كامل بالنسبة للقضايا التي أمرنا بمراعاتها، بعد قدوم الرب، وهكذا جثونا على ركبنا أمام هذين الجبلين، ودعونا إلى رب الجبال.

المكان الذي سخر فيه الأطفال من اليشع النبي الأقرع

وابتعدنا بعد هذا عن جبلي المباركة واللعنة، ووصلنا إلى سفح جبل القرنطل، وسرنا إلى جانب مجرى الماء، وذلك على طول الطريق الذي يقود من أريحا إلى بيت ايل، الذي قرأنا عنه بأن النبي اليشع قد صعد عليه (الملوك الثاني: ٢/ ٢٣—٢٤)، وعندما كان صاعداً، جاء عدد قليل من الأطفال من أريحا، وساروا خلف الرجل المقدس وسخروا منه، وقالوا له: «اصعد أيها الأقرع»، وعندما سمعهم النبي ورآهم صلى ولعن أولئك الأطفال، وعلى الفور قدم دبان من الغابة وافترسا اثنين وأربعين من هؤلاء الأطفال، ونعرف من هذا أنه شيء خطير أن نسخر من رجل عجوز، أو من أناس قرعان، لابل على العكس علينا بالحري احترام الرجال المتقدمين بالسن من ذوي الرؤوس البيضاء، أو الصلعان.

** ** **

رحلة الحجاج إلى نبع النبي اليشع

واثر مغادرتنا للمكان الذي سخر فيه من الرأس الأقرع المقدس، مضينا صاعدين(٢٠١) مسايرين لمجرى الماء، حتى وصلنا إلى مستنقع عميق، توجب علينا بذل جهد كبير لعبوره، والتصق بعض الرجال مع حميرهم في الطين، وبصعوبة بالغة أمكنهم الخروج، وثيابهم كلها قد

توحلت، أما الذين سلكوا ممراً جـانبياً فحصلوا في مكان أعمق، في حين واجـه الذيـن بذلوا جهـودهم للعبــور حيث نمت النبـاتـات، مشـاكل مضاعفة، لأنهم غرقوا في وحول عميقة، ووصلوا إلى أشواك حادة جداً، لأن جميع النبـاتات التي تنمــو في تلك البـلاد دونما زراعـة، لها أشـواك حـادة، أدنى لمسـة لها تسبب جـرحـاً خطيراً، وكأن رؤوس الأشـواك مسممـة، وفي محاولة عبـوري هـذا المستنقع سقطت مع حماري بين هذه الأشواك، ولم أستطع الخروج منهـم سالماً، غير أنني بذلت غـاية جهدي وكنت خائفاً، وحككت كثيراً من الفتحات التي تمزقت من ثيابي:

إن الشوك والقتاد مؤذ لعقل الراهب

لأن ثيابه تبلى هناك وتتمزق

وبعدمـا عبرنا المستنقع، صعدنا مسـايرين لجانب مجرى الماء، ووصلنا إلى مكان فيـــه نوع من أنـواع الطواحين، حيث تحرك الميـــاه دواليب، وحيث لم يتوفـر هناك ممر للصعود مسافة أعلى، إلا من خـلال الطاحون نفسها، وعندمـا وصلنا إلى هناك، وقف صاحب الطاحون وخـدمه عند البـاب، في مـواجهتنـا، وبأيديهم عكاكيـز ورمـاح، ومنعـونا من المرور خلالها، إنما بعـد جدل طويل اقتحم أدلاؤنا ودخلوا إلى البيت، وعملوا لنا ممراً للمرور من خلاله، ومضينا من الجانب الآخر من الطاحون نحو الأعلى أكثـر، ووصلنا إلى مكان ظليل مليء بـالأشجـار والنبـاتات، من وسطها تتدفق المياه في مساحة كبيرة، وهنا ترجلنا من على حميرنا، وسرنا نازلين تحت أوراق خضراء، كل جماعة لحالها، وجلبنا مـا كان قد بقي في جعبنا، وأكلناه وشربنا من الماء، الذي كان ينبع من بين الصخـور، وكان نقيـاً، براقـاً، وطازجاً وصحيـاً، هذا وعندمـا جلبت جعبتي وأخـرجت مـاكـان فيها من بقـايا، وجـدت كل شيء قـد تكسر وتمازج من البيض المسلوق والخبز والجبن، وقد حدث هذا لي عندما كنت أحاول السير في المستنقع والخروج منه مع حماري، فــوقتهـا تعــرضت جعبتي لكثير من

الحركة، حيث كانت تحتي، ذلك أنني جلست فوقها، وهكذا انسحق طعامي إلى قطع صغيرة جداً، وعلى كل حال، بما أنني كنت جائعاً جداً، فقد جلست أرضاً، وأكلت تلك الفتات الممزوجة بكل سرور، لأنه بالنسبة للانسان تبدو حتى الأشياء المرة، حلوة كما قال أيوب (الاصحاح:٦/ ٧): «ماعافت نفسي أن تمسها هذه صارت مثل خبزي الكريه»، وأعترف أنني تناولت هنا بدون كراهية، الأشياء التي كنت في الوطن أكره النظر إليها، أو حتى كنت أرتجف نحوها، وحزنت بسبب ضآلة كمية تلك الفتات، ونحت وبكيت بسبب قلتهم، لكنني أنعشت بوساطة واحد من الرهبان الفرنسيسكان، الذين عرفوا هذا الحج بالممارسة، والذين أعدوا لأنفسهم زاداً كافياً من الخبز وكذلك من الخمر، وفي الوقت نفسه، عندما كنا جالسين هناك، قدم إلينا رجال ونساء من أريحا، جالبين معهم سلالاً كبيرة مليئة بالعنب وأرغفة الخبز، التي اشتريناها وعملنا بذلك وجبة جيدة من دون أي طعام مطبوخ.

وبعدما انتعشنا، إنما وفقاً لطعامنا، وليس وفقاً لمعيار رغبتنا، جلسنا للاستراحة، وأخذ كل واحد منا المكان الذي استقر فيه، وأزحنا الحجارة التي أعاقت تمددنا على الأرض، لأن الأرض كلها كانت مليئة بحجارة حادة جداً، ومع أن هذا الفراش كان قاسياً، لقد لبى حاجتنا للاستراحة، وذلك بالنسبة لنا وللمكان، لأننا كنا منهكين ومصابين بالإعياء، وقد مرت بنا الليلة الفائتة بلا نوم تقريباً، بعد الجهود التي بذلناها وبعد استحمامنا في الأردن، فضلاً عن هذا كانت أيام القمر قد حلت، وهي الأيام التي اعتاد الناس أن يغلبهم النوم فيها.

وكان المكان ظليلاً، ومحمياً من الحرارة، وكانت المياه متوفرة أيضاً، وكانت وهي تجري فوق الصخور تعمل صوتاً يستدعي الرجل المتعب للنوم، علاوة على ذلك كانت أوراق الأشجار والنباتات تتصارع مع بعضها بعضا، أثناء هبوب الريح عليها، وجعلت أصواتها نومنا أكثر

حلاوة، لأنه كان هناك غدير له مياه صافية جداً، وكان يسيل بين النباتات الخضراء بخرير لطيف، ورائحة طيبة صادرة عن النباتات، وكانت الريح تحرك الأغصان بأصوات صفير منخفضة، تحث المتعب على الاستراحة، وفي تلك الأثناء، نهض بعض الحجاج، بعدما استراحوا قليلاً، وصعدوا مجارين لمجرى الماء، قاصدين الوصول إلى المكان الذي تنبع منه المياه من الجبل، لكن المسلمين تصدوا لهم، وأرغموهم على الفرار بوساطة الحجارة، وأجبروهم على العودة إلى أماكنهم.

وصف نبع النبي اليشع: كيف كان وماهو عليه الآن

يطلق على النبع الذي يصدر عنه هذا الجدول، اسم نبع اليشع، ومصدره ليس بعيداً عن المكان الذي استرحنا فيه، وعلى كل حال لم يسمح لنا بالذهاب إلى هناك، وهو بعيد مسافة لابأس بها عن سفح الجبل، يتدفق بكميات كبيرة من المياه، تجري بجدول قوي، وتتدفق نحو فسحة واسعة، وتسقي المنطقة السهلية حول أريحا، وتسيل من هناك نحو البحر الميت، ولهذا افترض بعضهم بأن مياه البحر الميت قد اتخذت طريقها إلى هناك بوساطة قناة تحت الأرض، وأنها تتدفق هنا، ومن ثم تعود ثانية إلى المكان الذي جاءت منه، ومن هذا النبع إلى البحر الميت، مسافة ثلاثة أميال ألمانية.

وكانت هذه المياه قبل اليشع، غير قابلة للاستخدام والشرب، لا للبشر ولا للحيوانات، بل كل من أرغم على الشرب منها، كان يتلوث فمه، وحلقه، ولسانه، وبلعومه، على الفور بطعم المرارة المقيت، وإذا ما ابتلع أيا من هذه المياه، كان يقع مريضاً مباشرة، بداء يشبه مرضاً مميتاً، كان يتبعه الموت، وذلك مثلما تفعل مياه البحر الميت في هذه الأيام، فضلاً عن هذا، كانت كل امرأة تستخدم هذه المياه تتحول على الفور عاقراً، والتي هي حامل بولد في الرحم كانت تهلك لدى تذوق هذه المياه، وحدث مثل هذا مع الدواب، وكانت الأرض التي تسقى بهذه

المياه، تصبح غير قادرة على انتاج أي شيء أخضر، بل تتحول إلى أرض غير صالحة، وهكذا صارت مدينة أريحا، حيث تضررت كثيراً بجريان هذه المياه الملوثة.

وحدث في أحد الأيام أن النبي مرّ بأريحا، وقد استقبل ببهجة واحترام من قبل شعب أريحا، وعندما سألهم عن أوضاع مدينتهم أجابوه: «اعلم، نرجوك، إن وضع المدينة جيد، لكن الماء فيها ليس كذلك، والأرض جرداء»، وعندما سمع النبي هذا، أخذ كأساً مملوءاً بالملح، ومضى نحو نبع الماء، وألقى الملح فيه، وقام وهو رافع يمينه، يمين الصلاح نحو السماء، ووقتها صب سائلاً مهدئاً في النبع، وصلى لأن يوقف هذا السائل مرارة النبع، ويفتح عيون ومجاري الماء العذب، وتوسل إلى الرب أن تهب على النهر ريحاً مثمرة، وأن يمنح سكان المدينة، الوفرة في الثمار الناتجة عن الأرض، وأن يزيد من تعداد الأطفال حتى يرثوهم، وبهذه الصلوات صار الماء صحيا، وعذباً أكثر من أية مياه أخرى، والينابيع والمياه التي كانت حتى الآن سبب القحط والمجاعة، أصبحت الآن مصدر الخير والخصب، وصارت قوة المياه عظيمة جداً، إلى حد لو أنها بللت الأرض فقط كانت تجعلها أكثر خصباً من الأراضي الأخرى التي تقف فيها المياه مدة طويلة، والذين يستخدمونها بكثافة يجنون قليلاً، أما الذين يستخدمونها بقلة فيجنون وفرة عظيمة.

علاوة على ذلك، تسقي هذه المياه مساحة أكبر من غيرها من مياه الينابيع الأخرى، وتروي سهلاً طوله خمساً وسبعين غلوة، وعرضه عشرين غلوة، وتعمل حيث تمرّ بساتين فائقة الجمال، وهذا ماتحدثنا عنه أعلاه، وهذه المياه في الصيف باردة، وفي الشتاء دافئة، وتحمل النساء اللائي بلا أولاد، والحيوانات العقيمة بعد الشرب من هذه المياه والاستحمام فيها، ولخصوبة وصحة مجرى هذا الماء، لن يخطىء الانسان، إذا ماقال بأن تلك القطعة من الأرض بأنها سماوية مقدسة، ويقدر

الناس جميع الثمار هناك تقديراً عاليا، لأنها تنمو كبيرة، وفائقة الجودة، فهذا ماقاله يوسفيوس في كتابه الثاني من «تاريخ حروب اليهود»، الفصل الثامن.

ويبعد هذا النبع مسافة مائة وخمسين غلوة عن القدس، وستين غلوة عن الأردن، وجميع المنطقة من القدس حتى هناك هي قفار حجرية ، وتمتد نزولاً حتى الأردن، والبحر الميت هو منخفض ومثل شاطىء بحر، لكنه أجرد، وغير مفلوح مثل البقية، وذلك باستثناء الأجزاء المروية من قبل ذلك النبع المبارك، فهي مزدهرة خضراء مثل الجنة، وشربنا من هذه المياه مثل أبقار، وبدون حدود، لأننا عندما وصلناها كان الجفاف قد أعيانا، وكنا عطشى إلى أبعد الحدود، ومع ذلك مامن انسان تأذى من اسرافه بالشرب، فهذه المياه مع قدرتها الشافية، قد أتت الكنيسة على ذكرها في قداس من أجل تكريس الماء المقدس.

الصعود الخطر إلى الكهف الذي صام فيه المسيح ووضع ذلك الكهف والجبل

وهكذا استرحنا إلى جانب الجدول، الذي كان يسيل من النبع المتقدم الذكر، لمدة ساعة أو أكثر، منتظرين أن تخف حرارة الشمس، إنما في الوقت نفسه، وعلى الرغم من الحرارة، عانينا من أعمال شاقة، لكن لسنا جميعاً، بل فقط الذين رغبوا بالعمل، وكان يمكنهم ذلك، وعلى كل حال شارك الشطر الأكبر من الحجاج في هذا العمل، وفي المخاوف التي تلته.

فقد نهضنا، وتركنا الظل البارد والمنعش، وخرجنا من بين الأشجار الجيدة، إلى حرارة الشمس المحرقة، ومن دون وجود ممر، تجمعنا لنتسلق جبلاً عاليا، وزحفنا صاعدين الصخور والحجارة، وفي هذا الصعود تخلف عدد من الأصحاء والذين قهرهم الحر، وكانوا غير قادرين على

المتابعة، بل استراحوا حتى استردوا أنفاسهم، ثم نزلوا إلى الظل مرة ثانية، وأثناء صعودنا وصلنا إلى حيث كان بعض الحجاج والسيدات من جماعتنا في الحج، كانوا قد وصلوا إلى هناك وقت ساعة الاستراحة، فقد كانوا جالسين، دون التجرؤ على المضي أبعد، وعندما سألناهم، لماذا لم يتابعوا سيرهم نحو الأمام، أجابونا أنهم لن يتابعوا الصعود مقابل أي شيء في الدنيا، وذلك بسبب مخاطر الممر، فالذي عليه أن يرتحل هناك، لابد له من السير على الجهة اليسرى، على طول حافة واد عميق جداً، وأيضاً على طول ممر ضيق كثيراً، بحيث مامن أحد يمكنه المرور إلاّ بالسير على الجوانب، لأن الممر قائم على وجه جدار من الصخر، شكله أنك تجد على جهتك الأولى هناك وادياً عميقاً جداً، وعلى الجهة الأخرى جداراً مرتفعاً وعالياً من الصخر، يتوجب على الانسان المتسلق بأن يتوجه نحوه بوجهه، وذلك خشية أن يفقد وعيه من الخوف من الهوة السحيقة التي تحت، وأيضاً من أجل أن يمسك بالجدار بكلتا يديه، وإذا ماوجد هناك أماكن يمسك بها، يمكنه أن ينظر إلى قدميه ليرى أين يمكنه أن يضع قدمه الأولى بعد الثانية، ويده الأولى بعد الثانية، لأنه إذا ما انزلقت قدمه، أو انزاحت جانباً من المكان الذي وضعها فيه، لابد من أن يسقط على رأسه إلى الوادي في الأسفل، لأن الوادي موجود عند ظهره، وأمام وجهه جدار من الصخر منتصب عاليا في الهواء، وتحت قدميه ممر ضيق وغير مستوي، وهو في بعض الأماكن متقطع بفجوات وتشققات في الصخر، ومن خلال هذه الفجوات يمكن للانسان أن يلمح وجود أعماق سحيقة ومظلمة.

وإذا مانظر المسافر الصاعد نحو الأسفل إلى الوادي، سوف يبدأ على الفور بالارتجاف، لأنه تطلع نحو الأسفل من مثل هذا الجرف الشاهق،وإذا مانظر نحو الجدار الذي تعلق به، يخاف من امكانية ان تسقط الصخور المعلقة فوقه عليه، وشجعنا أنفسنا، وتسلحنا بالنعمة،

ودخلنا إلى هذا الممر الضيق، الذي من خلاله اتخذنا طريقنا، لكن ليس من دون خوف، ووصلنا بعد هذا إلى مكان للصعود خطير جداً، وقف عند سفحه عدد كبير من الفرسان بدون حراك، خوفا من تسلقه، لأن معنى الانزلاق أو أن يدوس الانسان فوق مرقاة غير صحيحة أثناء التسلق،كان الموت، ذلك أنه لم يكن هناك من سبيل للصعود، إلاّ أن يضع الانسان يده ثم قدمه حيث يستطيع ذلك.

وعندما وصلنا إلى القمة، قدمنا إلى مدخل كهف، وهناك وقف بدوي مسلم وبيده عكاز،(٢٠٨) وماكان ليسمح لأحد بالدخول مالم يدفع مارك بندقي، ودفعنا هذا المال، ودخلنا إلى الكهف، فهناك —كما هو معتقد — صام الرب يسوع لمدة أربعين يوماً وليلة، وذلك حسبما جاء الخبر عند الانجيليين (متى:٤، مرقص:٢١ ولوقا:٤)، وغنينا هناك «Ductus est jesus» الخ، مع ترانيم أخرى معينة في كتب مسيرة الأرض المقدسة، وانحنينا بعد هذا بأنفسنا ونحن نصلي، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++) وبقينا لبعض الوقت في هذا الكهف الأعظم قداسة، في حالة تأمل، وأحاديث خاشعة، فهنا — على هذا— أقام مخلصنا وحيداً، حيث صام وصلى، وسهر، وتمدد، ونام على الأرض العارية، وعاش بتواضع وهدوء مع حيوانات الحقل، وابتهج عندما صلى وتعبد بوساطة الملائكة.

آه، ما أقدس هذا القفر! الذي إليه اقتاد الروح القدس ابن الرب،القفر الذي قدسه الرب يسوع بسكناه فيه، وشرفه بصيامه ذي القيمة العالية، ومجده بالأمثلة الرائعة من الفضائل التي أبداها، وهنا فضح دسائس أعظم أعداء الجنس البشري، وأشدهم، وسلم إلى الذين تعرضوا للإغواء من قبله، الوسائل التي يمكنهم بها التغلب عليه، ولهذا ان هذا الكهف جدير بأن يسمى مدرسة الفضائل، وليس مجرد كهف في القفار.

وبعدما فرغنا من تأملنا، سرنا للقيام بتفحص هذا المكان المقدس، وأمعنا النظر في هذا الكهف بفضول اكثر من ذي قبل، وهو كهف واسع نسبيا في الصخر، ليس منحوتاً بعمل بشري، بل هو محفور من قبل الخالق منذ البداية، له من جانبه الأول ضوء ينزل إليه من الأعلى من خلال فتحة، وكان هذا الكهف قد جرى تكريسه في القديم من قبل المسيحيين، واتخذ بيعة، وكان فيه مذبحين وصوراً على الجدران، مازال من الممكن رؤيتها، ويوجد من خلال الفتحة التي يدخل منها الضوء إلى الكهف طريق إلى قمةالجبل، وذلك فوق صخرة شديدة الانزلاق، والصعود إلى هذه القمة خطير جداً لأن يقوم به أي انسان، وكان من خلال هذا الطريق أن أخذ الشيطان الرب يسوع إلى قمة الجبل، ومن هناك أراه جميع ممالك الأرض، كما سنوضح ذلك.

وقد تسلقت من خلال النافذة، غير أنني لم أتجرأ على المغامرة بالصعود إلى فوق، وفي الحقيقةلقد ارتعدت تجاه منظر الهوة السحيقة الموجودة تحت، ونحو ارتفاع الصخرة فوق، ووقف عدد كبير من الحجاج الآخرين يراقبونني، حتى إذا ما صعدت، قام كثيرون منهم باتباعي، وهكذا بعدما رأينا كل ماكان في الكهف المقدس، خرجنا منه مع الحذر نفسه والخوف، وتسلقنا فوق الصخور باتجاه آخر إلى كهوف أخرى، لأن حول الجبل هناك كهوف في الصخور، وتحت الحجارة، وفي الجدران الحجرية، وهذه الكهوف بعض منها طبيعي، وشطر آخر مصطنع، وفيهم اعتاد القديسون المسيحيون على الإقامة في الأيام الخالية، لأنه وقتها كان الجبل كله مليئاً برجال دين أمضوا أوقاتهم هناك مع الرب في استغفار مميت للجسد، وقمت خلال حجيّ بالتجول حول هذا الجبل المقدس، فوجدت كثيراً من القلايات قد نحتت في الصخر الأصم، وكهوف في أشد الجروف انحداراً، وأقبية على أخطر المنحدرات، فيها كان بإمكاني رؤية أماكن الاقامة الخطرة للرهبان

المقدسين، وكان من الممكن بالنسبة لي أن أتتبع الآثار في هذه الكهوف، فأميز أماكن للصلوات، وأخرى للنوم، وثالثة لتحضير الطعام، وأماكن لحفظ الحاجات الضرورية، وكان في الجدران حفراً مربعة لوضع الكتب فيها، ورأيت في الجهة المقابلة من المنحدرات كهوفاً، لم يكن من الممكن لأحد أن يصل إليها، إلاّ صيادي الماعز والحيوانات البرية، وفيها قد عاش فيما مضى رهبان، كانوا قد اعتادوا على الدخول والخروج، عبر ممرات سرية، بطريقة كانت تخفيهم عن الناس جميعاً، وذلك من أجل أن لاينزعجوا بزيارة الناس لهم.

لكن وياللأسف، جميع هذه الكهوف والقلايات فارغة الآن، وهي مسكن للحيوانات المتوحشة، وقبل مضي سنوات قليلة انقضت، كان رهبان شرقيون مايزالون يعيشون هناك، لكنهم طردوا من قبل واحد من السادة المسلمين من غزة، حيث دمر الممر إلى الكهف، وبذلك لم يعد أحد قادراً على الوصول إليه، لكن السلطان، عندما تشكى المسيحيون إليه، رمم الممر حتى صار في الحالة القائمة الآن، ولقد حدث أنه إلى هذه المنطقة الجبلية، كان ارسال الجاسوسين من قبل يوشع إلى أريحا، وقد صعدا إليها للالتجاء، ومكثا هناك متخفيين في هذه الكهوف وفقا لمشورة راحاب العاهرة، وذلك حسبما قرأنا في يشوع:٢.

صعود جبل آخر والمشاكل التي واجهناها هناك

وبعدما فرغنا من تفحص أماكن سكنى وكهوف القديسين بدقة، رغبنا في أن نكون على قمة الجبل، التي إليها هناك ممر طويل فوق صخور منزلقة، وقد بدا لنا هذا الطريق جرفي وشديد الانحدار، لذلك من المعتقد أن مامن انسان قادر على تسلقه، وكان معنا رجل، كان قد تسلقه فيما مضى، وقد أخبرنا أنه لن يكون بامكاننا الوصول إلى القمة من ذلك الجانب، لكن إذا ما أردنا الصعود، علينا أولاً أن ننزل ثانية كل الطريق الذي صعدناه، وأن نسير حول سفح الجبل باتجاه الشمال،

فمن ذلك الجانب يمكننا الصعود من دون خوف من الجروف، إنما ليس من دون تعب ومشقة، وبناء عليه نزلنا ثانية حتى وصلنا تقريباً إلى المكان الذي تركنا الحشد فيه، وهناك وقفنا، وتناقشنا حول ما إذا كنا سنسير حول الجبل، ونتسلقه، ذلك أنه لم يكن معنا دليل يرينا المكان الصحيح للصعود منه.

وصدف — على كل حال— أن مسلما طويلاً في سن المراهقة، كان عابراً على المنحدرات التي كانت فوقنا، وقد استدعيناه إلينا، وأعطيناه مدنوس حتى يقودنا إلى القمة، وأخذ الشاب المال، وبدأ يسير نحو مكان الصعود، وقمنا نحن باتباعه، وعندما رأى أدلاؤنا هذا، خرجوا من الظل، وبدأوا يصرخون لمنعنا من الذهاب، قائلين بأنهم على وشك مغادرة المكان واستئناف السفر، علاوة على ذلك، وقف الحجاج الآخرون الذين بقيوا في الظل، وبذلوا جهدهم لدعوتنا للرجوع، وتظاهروا بأنهم يتجهزون للسفر من جديد، وعلى كل حال، تبعنا الفتى، ولم نهتم بصراخهم، وفي الحقيقة كنا قد غضبنا من قيام إخواننا الحجاج بدعوتنا للعودة، وقد سمعت واحداً من الفرسان الذين كانوا معنا يقول: «لولا وجود المسلمين، الذين أخشى من غضبهم، لعدت وقمت بإهانة الحجاج الذين يصرخون خلفي، وإذا ماتابعوا صراخهم، سوف أريهم... العارية»، ولدى قوله ذلك جعلنا جميعاً نضحك من قلوبنا، وكنا في الوقت نفسه قد ابتعدنا مسافة طويلة عنهم، إلى حد أننا لم نعد نسمع صرخاتهم، لكن كنا نراهم وقد امتطوا خيولهم وحميرهم، وكأنهم قد عزموا على الذهاب من دوننا، ورأينا عدداً من الحجاج يركضون خلفنا، لكنهم عندما شاهدوا اصرارنا، أهملوا صراخ المسلمين والتحقوا بنا.

وبناء عليه تابعنا سيرنا، ولدى ابتعادنا عن نظر الحشد، وصلنا إلى المكان الذي فيه مكان بداية مكان الصعود إلى الجبل، حيث انتظرنا

هناك الذين كـانوا يتبعـوننا، حتى نكون جميعاً مـع بعضنا، ثم شرعنا نتسلق تلة منحدرة، وقام وقتها واحد من الحجاج، فجثا على ركبتيه أمام الجبل، ودعـا إلى الرب، ثم بدأ يصعد الجبل في وضعـه ذلك مع ركبتين جاثيتين، وجسـده منتصب، وقد مـدّ ذراعيه على شكل صليب، وهكذا صعد فـوق ذلك الطريق العظيم الوعورة، والتلـة غير المستوية، دون أن يعين نفسـه بيـديه أو بقدميـه، لكنه عندمـا كـان يرغم، كـان يستند على مـرفقيه، بشكـل أنه لم يستخدم يديـه لجرّ نفسه بهما نحـو الأعلى، إلاّ في الحالات التي لم يكن بامكانه فعل ذلك بدونهما، كما حـدث عدة مـرات في أماكن منحدرة.

كم كـان التعب، وكانت المشقـة، التي عانى منهـا هذا الحاج في ذلك التسلق، والذي تبرهن مـن خـلال تأرجحـه مـن جنب إلى جنب، وهو يخطو صاعداً على ركبتيه، لأنه عندما خطا بركبته اليسرى، مال كلياً على جانبه الأيسر، وحدث الشيء نفسـه عندما خطا بركبته اليمنى، فمال على يمينه، وأثناء قيامه بذلك غالباً ماسقط على جانبه الأول أو جانبه الثاني، أو وقع متمدداً على وجهه، وقـد تمزق نعله، وسال الدم على ركبتيه على جلده، وبذلك صبغت كل خطـوة من خطواته بالدم، وتمزق كميـه عند مرفقيـه، وألمت الجراحة بذراعيه، وتورم وجهـه، وتغير المظهر الخارجي للرجل كلياً.

عجبـاً، كنا بصعـوبـة نزحف نحـو الأعلى، مستخـدمين لأقـدامنا ولأيدينا، في حين تسلق هو على ركبتيه وعلى أربعته، بكل رجولة، دونما اهتمام بعذابه، لأن الاستغفار التقوي يجعل الأشياء المرة حلوة، والأشياء الثقيلة خفيفـة، والأشيـاء القـاسيـة ناعمـة، أتوسـل إليكم، من الذي لايرتقي إلى الخشـوع، لدى رؤيتـه لهذه الشـدة، والصعـوبـة، وممارسـة الفضيلة من قبل ذلك الحاج؟، ومن الذي لايتـوب من ذنبـه لدى رؤية مثل هذه العقوبة المرعبة للمذنبين؟

وهكذا بعدما تسلقنا إلى قمة ذلك التل، رأينا فوقنا قمة أخرى بعيدة عنا، إليها تشوقنا بهمة عالية، وبأنفاس سريعة، ظانين أن تسلقنا لها سوف يكون هو النهاية،إنما بعدما وصلنا إلى تلك الذروة بكل مشقة، ظهرت لنا هناك ذروة أخرى عالية، كانت هي الأعلى في تلك المنطقة الجبلية، ومع أننا كنا أعلى من جميع الجبال من حولنا، صعدنا من ذلك الارتفاع الذي كنا فيه إلى جبل آخر مستدير، عريض من الأسفل، كان كلما صعدته صار مدبباً في الأعلى، وكان كلما غدا أعلى صار أعظم انحداراً ووعورة، وكان مغطى من كل جانب بصخور حادة جداً، مع أن الجبل نفسه كان من حجارة ناعمة جداً، منه اقتطعت هذه الصخور والجروف، وهكذا بادرنا مسرعين واحداً تلو الآخر، وبمشقة تسلقنا ذلك الجبل نفسه، ووصلنا إلى القمة هناك، وكان الذين وصلوا أولاً، يمدون أيديهم إلى الذين تحتهم وينتشلونهم فوق تلك الجروف، وانتظرنا نحن جميعاً وصول الحاج المتقدم الذكر، وسحبناه وهو متلاشي ونصف ميت،ثم سرنا إلى الجزء المتوسط من قمة الجبل، وجلسنا تحت جدار للبيعة هناك، في الظل حتى نسترد أنفاسنا، وذلك قبل أن نتلو صلواتنا، لأننا كنا منهكين جداً، ومصابين بالإعياء بسبب مابذلناه من جهود أثناء الصعود، كما كنا نتوهج من حرارة الشمس، ولذلك فإن بعض الحجاج عندما كانوا يحاولون الجلوس على الأرض لاسترداد أنفاسهم، وقعوا وهم يرتجفون ، وكان بعضهم قادرين بكل صعوبة على التنفس، وأثناء الجلوس للاستراحة، روحوا عن أنفسهم بالتهوية أمام وجوههم بقبعاتهم وبملابسهم.

واضطربنا كثيراً وقلقنا على واحد من الحجاج، الذي لا أريد ذكر وضعه ومرتبته، بسبب مشاعر تقوية،فقد تمدد هذا الحاج على الجبل مثل انسان ميت، بدون مشاعر أو عقل للاستخدام، بل سحبناه بين أيدينا مثل جثة هامدة، وقد استطاع راهب دومينيكاني من فلورانسا انعاشه

وردّه إلى وعيه، لأنه حمل منعشات لهذه الغاية معه، وأعتقد بشكل مؤكد أنه لو لم يكن ذلك الراهب هناك لمات ذلك الحاج فوق الجبل، وفيما يتعلق بإغماء ذلك الحاج أود أن أكشف هذا السر، من أجل تهذيبنا، فقد جاء هذا الحاج من البلدان الواقعة فيما وراء البحر، وكان كاهنا وراهبا متقيداً بدقة بأحكام نظامه، فلدى مغادرته لوطنه، عندما شرع في تنفيذ هذا الحج المقدس، ارتدى على جسده العاري دروعاً حديدية كاملة، هو لم يخلعها خلال الرحلة كلها، بل كانت مخفية تحت ثياب حجه ليلاً ونهاراً، في البحر وفي البر، وفي الحر والقر، وقد اتخذ سبلاً كثيرة لإخفاء هذه الدروع عنا، لكنه لم يستطع.

وعندما عرفت هذه وأشياء أخرى، وانتشرت بين الحجاج، جعلت حجهم أكثر تقوى من أية أماكن مقدسة أخرى، لأن مثل هذه الأمثلة كانت تثير الناس اكثر من الكلمات، وكانت الكلمات تحركهم أكثر من الأماكن،ويعتقد المسيحيون البسطاء والطيبين، أنهم إذا ماكانوا في المواضع التي صنع فيها ربنا يسوع عمل خلاصنا، عليهم استقاء كثيراً من التقوى منهم،غير أنني أقول لهؤلاء الناس، صدقاً إن التأمل والتفكر حول هذه المواضع، والاصغاء إلى وصفهم، فيه تهذيب وتأثير أكثر من رؤيتهم الفعلية وتقبيلهم، فما لم يضع الحاج أمام ناظريه بعض الأمثلة الحية للتقوى، تساعده الأماكن قليلاً في مسألة القداسة الحقيقية.

هذا وإن البكاء والتنهدات التي هي عامة في الأماكن المقدسة، تثور في الغالب من حقيقة أنه عندما يبكي أحد الحجاج، لايستطيع آخر منع نفسه من البكاء، ويحدث أحياناً أنهم جميعاً يبكون وينوحون، أو بسبب أن بعض الناس يمتلكون فن جعل أنفسهم يبكون حتى نحو قضايا لاعلاقة لها بالدين، ويذرف مثل هؤلاء الناس دموعاً لاقيمة لها في الأماكن المقدسة، وينوحون ويولولون كلهم تقريباً، إنما ليس بسبب القوة الذي يمارسها المكان عليهم، مع أن الأماكن قد تدفع على الخشوع

بكل تأكيد، إنما القضية تتعلق بالسهولة التي يكون فيها، ومما لاشك لديّ فيه، أن هناك عشرة مسيحيين جيدين في قلايتي في أولم، يرغبون برؤية الأرض المقدسة، والأماكن التي كانت مقدسة لدى الرب يسوع، وأن هؤلاء يمكنني أن أثير خشوعهم حول هذه الأماكن، أكثر مما لو أنهم كانوا منكبين على الأرض في الأماكن المقدسة نفسها.

وقد حرضت على قول هذا، في هذا المكان، بسبب أننا كنا خاشعين كثيراً على هذا الجبل، لأننا قد أنجزنا عملاً صعباً، ورأينا فضيلة عظمى متمازجة، وهكذا بعدما انتعشنا، واستردينا أنفاسنا نهضنا كلنا معاً، وأنشدنا القداس المحدد في كتب المسيرة مع الاضافات،وانكبينا بخشوع عظيم بأنفسنا نحو الأرض، وصلينا للرب، وقدمنا صلواتنا المتوجبة إلى الرب يسوع، لنظهر رفضنا للشيطان الذي كان يبكي كثيراً، وهو الذي تجرأ في هذا المكان على إغواء الخالق له نفسه ولجميع الأشياء، وأن يستجره إلى وعود كاذبة، لكي يهوي إلى عبادته، حيث أراه في لحظة من الوقت واحدة —كما قرأنا في لوقا:٤ — جميع ممالك الدنيا، ومجدها قائلاً: «لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن، لأنه إليّ قد دفع، وأنا أعطيه لمن أريد. فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع»، وحصلنا في هذا المكان على غفرانات مطلقة(++).

الاماكن التي رأينا من ذلك الجبل

وعندما فرغنا من صلواتنا، فجأة، وصلت مجموعة أخرى من أفراد الحجاج، إلينا، الذين قالوا بأننا لولم نصعد، لغادروا المكان منذ زمن طويل، وقد سررنا بقدومهم، لأنهم لوغادروا من دوننا، لسارت الأمور، بالحقيقة، بشكل سيء، ورفعنا الآن أبصارنا، ونظرنا من حولنا طويلاً وعريضاً، ورأينا بأعيننا كل ما ذكره القديس متى في الاصحاح الرابع، وتبين لنا أنه صحيح، وذلك عندما أطلق على هذا الجبل اسم جبل في غاية الارتفاع، لأن هذا الانجيلي ماكان ليقول «غاية» مالم يكن

الجبل بالفعل في غاية الارتفاع، وقد رأينا على كل جانب أماكن غالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة(٢١٠)، لأننا رأينا من جهة الشرق المنطقة الجبلية للعربية نفسها، الممتدة من خلال ممر طويل من الشمال إلى الجنوب، ويقوم بين هذه الجبال: جبل نوب، وجبل فشخة، أو عبريم، الذي منه رأى موسى الأرض المقدسة، وهو الذي رأيناه واقفاً متميزاً فوق البقية، ورأينا أمام أعيننا منطقة جلعاد الجبلية، التي أعطيت إلى سبط رأوبين، وسبط جاد، ونصف سبط منسا، وأرض وسهول مآب وعمون، حتى القفار الحجرية الواقعة عبر الأردن، هذا وكانت هذه كلها بعيدة عنا، وأيضاً رأينا هشبون وباشان، ورأينا على طرفنا من الأردن سهل أريحا العظيم، ومجرى نهر الأردن مع قفاره، والبحر الميت.

ورأينا باتجاه الجنوب، عبر البحر الميت، قفار القديس جيروم الكبيرة، وجبال عين الجدي، وجبل لوط، وبراري تقوع، ومنطقة أدوم التلية.

وباتجاه الشمال رأينا جبال اسرائيل، الذين كنا فيهم أيضاً، ولم نكن قادرين على أن نلمح الجبال التي قامت من حول القدس، لأنها كانت أعلى مماكناه، لأن جبال القرنطل وقفارها واقعة على كتف جبل الزيتون، وقد رأينا هذه الأماكن المتقدمة الذكر بوضوح أكثر عندما كنا على جبل عين الجدي، ولسوف نتحدث عن هذا الجبل وعن مسائل أخرى في ص٢٨٣ظ.

وأخيراً هناك عند سفح الجبل الذي وقفنا عليه، أريحا، التي تقع عاي (تل الحجر) إلى الجنوب منها، وباتجاه الغرب، هناك المدينة التي اسمها بيت إيل، حيث رأى يعقوب في منامه السلم، وحتى هذا اليوم من الممكن رؤية الحجر التي كان قد وضعها تحت رأسه عندما رأى السلم، والتي عليها صب زيتاً عندما أفاق من نومه، وقال العبرانيون بأن يعقوب قد رغب بالنوم، فكوّم ثلاث حجرات، ووضعهم تحت رأسه. بسبب أن النص يقول بأنه قد أخذ الأحجار من ذلك المكان، وذلك

بعدما أفاق من رؤياه المتعلقة بالسلم، وجعلت الأحجار الثلاثة في حجر واحد، ولهذا قال النص بأنه أقام حجراً واحداً، وفي هذا المكان، نصب يربعام،ملك اسرائيل، واحداً من العجلين الذهبيين، حتى لايذهب الناس إلى القدس، وقد قرأنا حول سلم يعقوب في سفر التكوين:٢٨، وعن العجل الذهبي في سفر الملوك الأول:١٢/ ٣٢.

وحملنا بعد هذا أنفسنا لمشاهدة الجبل نفسه، الذي كان في غاية الارتفاع، ولأنه منتصب قائم من منطقة سهلية، فإن الجبال على الجهة الغربية مستندة عليه، ولهذا هو أعلى منها، والجبل كله صخري، وأجرد، ومنحدر، وتقوم بيعة على قمته، هي الآن مهدمة، غير أن جدرانها وخرائبها مرئية في هذه الأيام، ويبدو وكأنه كان هناك دير،وفي ماقلناه كفاية.

عودة الحجاج نحو مدينة القدس المقدسة

وبعدما أمضينا ساعة على قمة الجبل المقدس، اتخذنا طريقنا نازلين، وقد مضى بعض الفرسان الشباب أمامنا، وهم يركضون ويقفزون نزولاً، لكننا تبعناهم بثبات فوق الصخور والجروف، والمنحدرات والأماكن المنزلقة، وعندما كنا على طريقنا نازلين، وأثناء وصولنا إلى جرف مرتفع، كنا نسمع من الأسفل من عند سفح الجبل صراخاً وأصواتاً عالية صادرة عن رجال كانوا يزمجرون غاضبين بالعربية والألمانية، وبين هذه الأصوات كان بامكاننا سماع واحد يصرخ -Rob bery، وبالألمانية كلمات: mordjo, mordjo، ولدى سماعنا ذلك، أدركنا مباشرة، بأن الفرسان الذين ذهبوا أمامنا كانوا في ورطة، ولذلك انزلقنا مسرعين نازلين، وقد انزلقنا بأنفسنا من فوق الجرف إلى مكان الخصام، فهناك كان قد وقف خمسة من النبلاء الحجاج في كهف عميق عند سفح الجبل، يمسكون حجارة بأيديهم، جاهزين [illegible]يها، وقد وقف أربعة من البداة العرب أمام الكهف، مع حجارة وكانوا يزمجرون مع

بعضهم، فقد طلب البداة منهم مالاً على سبيل الخفارة، الأمر الذي رفضوه، ووضعنا أنفسنا بينهم بمثابة صانعين للسلام، خشية أن يرمي أحدهم الحجارة على الفريق الآخر، وقد رأينا أن هذا لو حدث، لعدّ جميع الحجاج خارقين لمعاهدتهم بالمرور الآمن، وكان سيسبب لنا اضطراباً عظيماً، وكان علينا بذل جهد عظيم حتى تغلبنا على رفاقنا لإلقاء حجارتهم، وطلب البدو أيضاً بعض المال، وأخبرناهم أننا لن ندفع لهم شيئاً في ذلك المكان، بل فقط وسط الحشد، وبحضور أدلائنا، وهكذا أحضرنا إخواننا من ذلك الكهف، وخلصناهم من أيدي البداة العرب، لكنهم لو كانوا أقوى منا، لما أمكننا المغادرة بسلام، علماً بأن أولئك الحجاج الخمسة كانوا سيأكلون البداة الأربعة لو أنهم وصلوا إلى الضراب، وعندما كنا مبتعدين عن هؤلاء البداة، هددوننا بأنهم سوف ينتقمون منا، وبالفعل قاموا بذلك، كما سيتضح فيما بعد.

وهكذا عدنا إلى الحشد في المكان الظليل، قرب الماء، وكان قد جلب إليهم خبز وعنب، ووجبات جاهزة، غير أن البداة المتقدم ذكرهم، دعوا إليهم أتباعهم، ومركزوا أنفسهم أمامنا، متسلحين بالرماح وبالاسلحة الأخرى، ووقفوا في وسط الطريق الذي كان علينا أن نقطعه أثناء ذهابنا، وعند غياب الشمس، وتناقص حرارتها، نهضنا من ذلك الموضع، وركبنا حميرنا وانطلقنا نسير فوق السهول، ولكن البداة العرب تصدوا لنا، رافضين السماح لنا بالمرور، قبل أن ندفع لهم خفارة من أجل ذهابنا إلى الجبل، وللمقاومة المتسرعة للحجاج، ذلك أن البداة يقولون بأنهم سادة القفار، والأماكن المشعثة، ولذلك هم لايعبأون بكتب الأمان، بل يجبون خفارات من جميع الذين يمرون من خلال الصحراء.

وهكذا وبعد جدال طويل، أرغم أدلاؤنا قبطاني الغليونين، على دفع ثماني دوقيات إلى البداة العرب كخفارة لدخول الجبال، ومن أجل

العنف الذي مورس ضدهم، ولأن الحجاج حملوا الحجارة ضدهم، وتخلصوا منهم بالقوة، ودفع القبطانين المال بغضب عظيم، مع عظيم اللعنات الموجهة إلينا، وأرادا أن يعرفا من كان السبب وراء هذه القضية، لكن مامن أحد أخبرهما، لأنهما لو علما من من الحجاج كان وراء ذلك، لاستخرجا المزيد من المال منهم، وبناء عليه عندما انتهت هذه القضية، وتركنا البداة وغادروا، نزلنا نحو أريحا، غير أنا تركناها على يسارنا، وتابعنا سفرنا باتجاه الجنوب،مسايرين لسفح الجبل، حتى يمكننا الوصول إلى الطريق السلطاني، الذي جئنا عبره عندما نزلنا إلى هاهنا من القدس.

وفيمانحن على الطريق العام فوق أريحا، وصلنا إلى بيت مقنطر، قد بني على شكل بيعة، حيث كان الموضع الذي أعطى فيه الرب يسوع النظر إلى رجلين أعميين، وذلك حسبما قرأنا في متى:٢٠، وكان الأول منهما معروفاً من قبل كثيرين، وكان اسمه بارتيماوس بن تيماوس، وهذا وحده ورد ذكره في مرقص:١٠، وترجلنا في هذا المكان من على ظهور حميرنا، وقبلنا طبعات قدمي الرب يسوع، وحصلنا على غفرانات(+).

واثر مغادرتنا لذلك المكان وصلنا إلى الطريق الصاعد إلى المنطقة التلية، التي هي جبل قفار أدوميم،وقام هنا فيما مضى بلدة، رأينا خرائبها وقد كان اسمها أدوميم، أي الصعود إلى الأيدي الحمراء، وذلك بسبب الدماء التي غالباً ما سفكت هناك من قبل قطاع الطرق، ومن هذا الحصن أطلق على جميع القفار الممتدة من أريحا إلى بيت عنيا، اسم أدوميم، ومن أجل حماية الرحالة المسافرين خلال هذا المكان الدموي المتوحش، جرى بناء حصن هناك، وهو حصن أدوميم المتقدم ذكره، وورد ذكر هذا المكان في سفر يشوع:١٨، علاوة على ذلك، نجد في الحكاية المثلية حول الرجل الذي نزل من القدس إلى أريحا، قد أتى الرب على ذكر هذا الطريق الخطير جداً، وذلك حيث جرى سلب

الرجل وجرحه (لوقا:١٠)، ولذلك نجد الألمان في هذه الأيام يدعون الحصن المتقدم الذكر مع القفار باسم Rothbach، ومعنى ذلك «نهردم»، لأن البداه يصعدون إلى هناك، ويكمنون في تلك القفار على جانب الطريق، ويسلبون العابرين، ولايتجرأ المسلمون على المرور صعوداً أو نزولاً، إلاّ في عساكر كبيرة.

وبناء عليه، عندما وصلنا إلى صحراء أدوميم، لم يتوقف أدلاؤنا عن حثنا ودفعنا للسير مسرعين، الأمر الذي لم يسبب لنا أدنى اضطراب في حجي الثاني، إنها من الصعب عليّ اخباركم عن المصاعب التي عانينا منها على ذلك الطريق في حجي الأول، وأتجرأ على القول أنني في حجي الأول، شخصيا ورفاقي تعرضنا لمصاعب وتعاسات على طريق حجنا إلى الأردن وحده، أعظم من كل ما واجهناه على جميع الطرقات التي سافرنا عليها في حجي الثاني، فعندما كانت الدنيا مظلمة وصلنا إلى أماكن منحدرة وتلال، وعندما كنا عاملين على التسلق أكثر نحو الأعلى، أرغمونا على الترجل من على ظهور حميرنا، وأن نسير على أقدامنا، لذلك كان من الصعب علينا التنفس لشدة حاجتنا إلى الطعام، ولقد رأيت عدداً كبيراً من الحجاج جالسين على ظهور حميرهم، وهم غير قادرين حتى على حمل مقاود حميرهم، بسبب ضعفهم، ولذلك سقط بعضهم، وتركوا حميرهم تذهب، وتمددوا على الأرض، ومع ذلك أرغمهم المسلمون بحنق على المتابعة، وكانت مشاق تلك الليلة لايمكن تحملها بسبب الظلام، وخطورة المنحدرات، والاغماء على الحجاج، والطريقة المرهقة التي ساقهم فيها المسلمون نحو الأمام، وكان الحال مثل سائقي عربات كانوا يحملون أوزاناً عظيمة في عرباتهم، فوق طرقات منحدرة وجبلية، وكانوا يهددون دوابهم ويحثونها على الاسراع نحو الأمام بصرخات لم تعرف التوقف وبضربات، إنهم مثل هؤلاء كان قادتنا، لم يتوقفوا عن تعجيلنا نحن ودوابنا فوق طرق خطيرة جداً،

حيث كان معنى انزلاقة واحدة الموت بالنسبة للدابة، وسقوط الانسان فوق واحد من الجروف والمنحدرات، وكان هذا العمل شاقاً إلى حد لو أن أي انسان لمح وجوه الحجاج بوساطة ضوء، لرأى وجنات مبللة بالدموع، وعيون محمرة من شدة البكاء، بين رجال كانوا في بلادنا مزينين بالذهب، والفضة، والحجارة الكريمة.

وسمعت في تلك الليلة بعضهم يئن، وبعضهم يبكي، وبعضهم يصلي، في حين كان بعضهم يلعنون أنفسهم، والطريق، والبلاد، وفروسيتهم، والمسلمين، وسمعت آخرين يتمتمون ويحدثون أنفسهم للحفاظ عل ذواتهم، إنما خلال هذه المشاق كلها، تفوقت رفيقاتنا من الحاجات، والنساء العجائز، علينا جميعاً، حيث احتللن المكان الأول واستولين عليه من الفرسان، فلم يصدر عنهن أنين، كما أنهن لم ينحن بسبب متاعبهن، بل مضين في الصف الأول من المسيرة، أقوى من الرجال، وأشجع من الفرسان، ولقد وصمت هذه العجائز الفرسان بعار كبير، من خلال تحملهن، وفي الحقيقة قال فارس لي: «انظر ياأخي، أنا لا أعتقد أن هذه المخلوقات المسنة هي نساء مطلقاً، بل شياطين، لأن النساء خاصة النساء العجائز، ضعيفات، لطيفات، حساسات، في حين هؤلاء النسوة صنعن من حديد، وهن أقوى من جميع الفرسان»، ولكم وددت لو أن سليمان قد كان في حشدنا، فوقتها كان لن يجد امرأة واحدة قوية، بل عدداً كبيراً من النساء قويات، لأنه في أيامه عين جائزة لامرأة قوية واحدة ولو كانت من أقصى أطراف الأرض، حسبما ورد الخبر في الأمثال:٢١، ووقتها لم يجد أية امرأة قوية، ولذلك قال (الالهيات:٧): «رجلاً قوياً واحداً بين ألف، وجدت، لكن امرأة واحدة بين كل هؤلاء لم أجد»، ولو أنه كان في حشدنا، لما وجد رجلاً واحداً قوياً، لأنهم كانوا جميعاً محطمين بالتعب، وضعفاء بسبب الصوم، في حين لم تكن هناك امرأة ضعيفة، أو متذمرة، أو شاكية من الشقاءالذي

تعـرضت إليه وعـانت منه، ومن أين من الممكن قـد جاءت القـدرة إلى الضعفاء، والقـوة إلى النساء، إلاّ منه، الـذي اختار الأشيـاء الضعيفة في العـالم ليخـزي القوي، ومن الذي وضـع هؤلاء النسوة فـوق الرجـال، حتى لايمكن لواحد منهم التفـاخر بجنسه، وبقـوته، وبجماله، وبفتوته، أو بأصـالة مـولده؟ لأن أولئك النسـوة لم يكـن رجـالاً، ولاأقـوياء، ولاجميـلات، ولانبيـلات، ومع ذلك تحملن جميع المتـاعب من دون الإصابة بإغماء، مثلما حصل للفرسـان، وهنا أخزى الرب شموخ هؤلاء الفرسـان الذين ازدروا اصطحاب هؤلاء السيـدات، وأن يكن برفقتهم، مثل الذي عـدّ مسألة صغيرة ضيـاع واحدة منهن في القفـار إلى جـانب الأردن، حسبما تحدثنا من قبل وهنا ستجد المزيد حول هذه القضية.

وإذا صـدف وكنت ممن يضحك نحـوهن، أو تستخف بـأوهامهن النسـوية، قد تجد الجواب في رسـالة جيروم ضـد فيجيلانتيـوس Veg-ilantius حيث قـال: «أنا لا أستحي تجاه إيمان النسـاء، مشـاهداً أنها كانت امرأة التي شهـدت قيام الرب أولاً، والتي أرسلت الرسل، والتي أطريت من قبل الرسل المقـدسين، بشخص أم الرب مخلصنا»، لكن لماذا أضيع أنا الوقت على مـديح هؤلاء السيـدات العجـائـز؟ ليكن في ذلك كفاية في الوقت الحالي.

وهكذا وصلنا في حوالي منتصف الليل بعـد كثير من المتاعب وأعمال التسلق الشاقة، إلى نبع كـان ينبع من جانب رابية، وهذا النبع هو الذي أعتقـد أن اسمه نبع الشمس، كما ورد في يشـوع:١٨، ولعل سبب ذلك أنه قائم في مواجهة الشمس المشرقـة، وبأشعتها كان يسخن، أو أنه كان مقـرراً من قبل الروح القـدس، وجـوب تسميـة هذا النبع بهذا الاسم، بسبب شمس صلاح واستقامة ربنا المسيح، الذي من المعتقد أنه غالباً ما شرب منه، ذلك أنه صعد على هذا الطريق ونزل مـراراً عدة، وعند هذا النبع لم يرغب أدلاؤنا بأن نترجل، ولدى سماعنا ذلك نحن لم نترجل بل

رمينا أنفسنا من على ظهور دوابنا بكل سرور، ويوجد حول هذا النبع بناء قديم ومهدم ،الذي قد بقي منه الجدران الأربعة فقط واقفة، ولعله كان فيها مضى محطة قوافل أو نزل، واسمه البيت الأحمر، واسمه هذا قد اشتق أيضاً من اسم صحراء أدوميم، وقد دخلنا إلى هذا البيت مع شموع مضاءة، وجعلنا المكان مناسباً لنا بوساطة إزالة فضلات البشر والحيوانات، وكان بذلك مليئاً، وقد وضعنا حجارة للجلوس عليها وللنوم.

وبعدما نظفنا المكان، جلسنا، وجلبنا آخر ماكان في جعبنا من فتات، وأكلناهم، لكن الجزء الأعظم منا كان منهكاً، حيث أنهم ما أن ترجلوا من على ظهور حميرهم، حتى ألقوا بأنفسهم فوق الارض، وكانوا غير قادرين على الأكل، أو الشرب، أو الكلام، وكانوا يأملون بالراحة، وكان في الوقت نفسه حول الماء تدافع وفوضى، فقد كان كل من البشروالدواب يبذلون جهودهم للوصول الى الماء، ولهذا السبب كان المرضى يصرخون، لأننا جميعا كنا عطشى، وكان النبع صغيراً جداً، ونشبت خلافات كثيرة بيننا وبين المسلمين، لانهم أنفسهم وقفوا في الواجهة متماسكين، وشربوا مثل بقر، لكنهم لم يمنحونا مكاناً.

ولدى فراغنا من طعامنا وشرابنا، وفق طريقة خاصة، أطفأنا جميع الأضواء، وأخذنا بالنوم فوق الارض، وتمددنا فوق الحجارة، حيث غرقنا في نوم عميق جداً، وبما أنه قد قيل بأن الجوع طباخ جيد، فهذا صحيح لانه يجعل جميع الاطعمة طعمها طيب، ومثل هذا قيل بأن العمل فراش جيد، لانه يجعل جميع الاماكن مناسبة للنوم والاستراحة، وكان النوم في هذا المكان خطيراً: أولاً، بسبب أن الجدران كانت مهدمة، والحجارة التي انتزعت من الملاط، كانت معلقة فوق رأسنا، وتهدد بالسقوط، وثانياً، بسبب الأفاعي، والعقارب المتخفية في الجدران القديمة، وتحت الحجارة، وهي خطيرة جداً عندما تلدغ، وثالثاً، كانت

هناك هوام أخرى خطيرة وذلك بسبب الخرائب واهمال المكان ورابعاً، أخص بالذكر نوعاً من الهوام هو المسمى نملة فرعون، ويدب هذا النوع على الارض في القفار كلها، كما عنه سأتحدث في ص ٢٤٧، وكان هذا النمل الاحمر الصغير يسعى هناك حول الأرض، وخامساً بسبب قسوة مضاجعنا، وسادساً، بسبب اللصوص المسلمين الذين بقيوا برفقتنا، غير أننا لم نهتم بهذا كله، وقذفنا بكل شيء كان هناك، ونمنا بعمق كبير.

وأخبرنا ادلاؤنا بأنهم عازمون على ايقاظنا قبل الفجر، لكن الذي حدث كان غير ذلك لانهم انفسهم كانوا منهكين مثلنا نحن- ومع ذلك كانوا أقل تعباً منا- وقد نمنا نحن وهم حتى شروق الشمس، وكان داوود قد أنعش نفسه عند هذا النبع، عندما وصل الى هنا متعبا، قادماً من القدس مع رجاله، حسبما جاء الخبر في سفر صموئيل الثاني: ١٧.

مسيرة الحجاج ورحلتهم صعوداً إلى القدس

في اليوم الحادي والعشرين، الذي كان يوم القديسة براكسيدس، Praxedes العذراء، وبعدما أشرقت الشمس، وغطت بأشعتها الذهبية الرائعة قمم الجبال، ورؤوس الصخور الوعرة، بدأ المسلمون بإلحاح في ايقاظنا بصرخات عالية، وصرخ بعضهم بلغتهم «روق، روق» وبعضهم Trica, trica وبعضهم Cabalca, Cabalca ، وصرخ بعضهم بلساننا، ذلك أنهم كانوا قد تعلموا بعض كلماتنا، فصرخوا: Rita, rita, uff, uff ، وهذه الكلمات معناها في الحقيقة الحث على الانطلاق، وقد نهضنا، ورفعنا أعيننا، فرأينا أشعة الشمس على قمم الجبال، لأننا كنا في وادي، محاط من كل جانب بجبال وعرة، وكنا قد ارتحنا بشكل جيد، وانتعشنا باستراحتنا فملأنا قواريرنا بالماء من بئر المخلص، وغادرنا، ونحن نقود حميرنا بأيدينا، لانه كانت هناك منحدرات منزلقة، ممتدة حتى مسافة بعيدة، وما كان بإمكاننا الابقاء على أنفسنا على ظهور دوابنا، وبناء عليه بدأنا بالتعرق في الصباح الباكر،

وذلك قبل انتشار حرارة الشمس.

ونحن على طريقنا، وصلنا إلى حجرة قائمة مثل مرجل، على طرف الطريق، ولهذا أطلقوا عليها اسم Thaben Boen، أي حجرة بوهن ابن رأوبين، وهذه الحجرة هي علامة حدود أرض بني يهوذا، وذلك وفقاً لجيروم، في كتابه «حول مسافات الأماكن»، وقد ورد ذكر هذه الحجرة في سفريشوع: ١٨/ ١٧، ومن هذا النص، يبدو أن تلك الحجرة كانت أبعد نزولاً، وراء حصن أدوميم، إنما هل هي الحجرة نفسها أم غيرها، فتلك مسألة قليلة القيمة، وفكرنا في ذلك المكان بعجب حول أفاعيل الأيام الخالية، التي الحجرة مثل عليها.

المكان الذي أعلن فيه عن ميلاد العذراء المباركة إلى واكيم

ولدى مرورنا بحجرة بوهن، رأينا ونحن صاعدين الرابية، بيتاً قديماً، على جهة اليمين، وهو قائم بين جروف ونباتات، وهذا البيت قائم فوق الموضع الذي كان فيه رعيان واكيم يطعمون قطعانهم، وواكيم هو والد مريم العذراء الاعظم مباركة، واليهم هرب عندما سمع بنفسه الملامة بأنه بلا أولاد، وبشكل علني، ورميت تقديماته من على المذبح في الهيكل، وهنا سكن وهو حزين، يتوسل الى الرب بصلوات خاشعة، حتى يرحمه ويعطف عليه، ويمنحه الصبر.

وفي أحد الأيام، عندما كان يصلي بخشوع أعظم، وبحرارة أكثر من المعتاد، فجأة ظهر الملاك جبرائيل أمامه، على شكل ضوء مشع، وكان وقتها يصلي، ولدى رؤيته له دهش واضطرب وقال الملاك له: «لاتخف ياواكيم، لأن دعاءك قد استجيب له، وكانت دموعك أمام الرب، وهاهي حنة زوجتك سوف تحمل لك ابنة، وستسميها أنت مريم،وهي سوف تمتلىء بروح القدس، حتى وهي في رحم امها، ولسوف تمجد فوق جميع النساء، وستظل عذراء بشكل أبدي، وستحبل من العلي

الأعلى، وستحمل ولداً ذكـــراً ولســوف تـدعى باسم «أم ابـن الرب» وإليك فيهايلي شـارة ممنوحة لك: عندمـا ستـذهـب إلى القدس، وعندمـا تقترب من الدخـــول من البـــاب الـذهبي، هناك ســـوف تلتقي بحنة زوجتك وهي سوف تفرح من قلبها برؤيتك».

وبهذه الكلمات اختفى الملاك، وبناء عليه انكببنـا على وجوهنا في هذا المكان ونحن نصلي، وحصلنا على غفرانات، وعندما كنا نتحادث أحدنا مع الآخـر في هذا المكان، طرح واحد من الحجـاج السؤال التـالي حيث قال: «عجباً، إننا نقيم عيد القديسة حنة، لكن القديس واكيم لاعيد له، مع ان واكيم مثله- على الاقل- في القـداسـة مثل حنة، حسبما رأينا من الحكاية ذاتها»، وحاول بعضهـم حل هذه المعضلة، فوقع بأخطاء غـريبة حـول الحمل بالعذراء المبـاركـة، وأعلن أنها لم يحمل بها في ذنب أصيل، لانها كـانت موجـودة مع الطفل بوساطة الروح القـدس قبل ان يحصل اللقـاء بين واكيم وحنة تحت الباب الذهبي، وقـال آخرون بأن حنة قـد حملت من واكيم بقبلة فقط، وكانت هناك تفاهات كثيرة، تفوه بها الذين حاولوا ايجاد سبب لوجـوب الحفاظ على عيد القديسـة حنة، وليس عيد واكيم.

بحوريم حيث شتم شمعي الملك داوود

ولدى متابعتنا سيرنا، صعدنا إلى جانـب تل بحوريم، الذي قام عليه فيهامضى حصن، اسمـــه بوريم، عنه نقـــرأ في سفـر صمـوئيـل الثـاني: ١٦/ ٥، واسم هذا الحصن في بعـض الاسفـاربحـوريم، ويمـــر الطريق السلطاني تحت هذا الحصن، ولذلك وقفنا هناك، واسترجعنا إلى ذاكـرتنا العمل الجليل جداً، التالي: فعندما جـرى طرد الملك داوود وجميع اتباعه من القـدس، بوساطة ابنه أبســالوم، وقـدم إلى هذا المكان، تقدم واحـد اسمـه شمعي وشتم الملك داوود وجميع خـدمه، ورمى حجـارة عليهم، وألقى بالرمل عليهم من الأعلى، وعنـدما أراد واحـد من رجـال داوود

قتله، منعه داوود، ورغب في أن لايتعـرض للأذى من أجل الخطأ الذي اقترفـه، ولقـد أعجبنا بصبر وشقـاء الملـك المقـدس، وكنا غـاضبين من أنفسنا نحن الذين نثـور بكلمة مـزعجـة واحدة، ونرغب بالانتقـام من جيراننا، ياللهـول، على هذا الطريـق كـان الملك داوود عـابراً، حـافيـاً، ورأسـه مغطى، وهو يبكي، وجميـع خـدمـه معـه وهم في ثياب الحزن، حيث كانوا قد طردوا من بيوتهم.

وقتهـا خرج واحـد من خدمـه، وكان من أهل الحرب، وصعـد هذا الرجل وأخـذ يشتم الملك، ويرمي الحجـارة نحـو الملك، ويلقي بالرمل عليه، ويكرر شتـائمه، وبذلك اقترف جريمـة خيانة عظمى، ومثل هذه الخيانة تعـاقب في جميع البلدان، ومع هذا فإن هذا لم يثـر الملك المهذب، ولم يغضبه، بل مر بكل تواضع، وأطفأ غضب أتباعـه، قائلاً لهم: «دعوه يسب، لأن الرب قـال له. لعل الرب ينظر إلى مـذلتـي ويكافيني الرب خيراً عوض مسبته بهذا اليوم».

لايوجـد في طول الكتـابات المقـدسـة نص محزن مثل هذا النص عن فـرار داوود من القـدس، وصبره عندما تعـرض للشتم، وعندمـا يكون انسان عـارفاً بهذا النص ويمـر عابراً لهذا الطريق، من الصعـب عليه أن يمنع نفسه من البكـاء، وذلك عندما يتفكر حول مثـل هذه المحاسن،آه، كم كـان القديس غريغـوري سيبكي بحرقـة في هذا المكان، بعدمـا رأينا -كما قرأنا- الذي أظهـره ذلك الامبراطور إلى أرملة تضرعت إليه، لأنه أكثـر رحمة، أن يظهر الانسـان الرحمة نحـو انسـان تولى شتمه والاسـاءة إليـه، ولايمكن مقارنـة ذلك بالرحمة التي يبـديها نحو الذي تضرع إليـه وباركـه، ومن هذا المكان مضى داوود نـازلاً إلى نبع الشمس واستراح هناك لأنه كان مرهقاً.

وذهبنا الآن من هذا المكان صـاعـدين، وقـد رأينا جبل الزيتـون عن بعيد، وذلـك مع كنيسة صعود الـرب، القائمة على القمـة هناك، ولدى

رؤيتنا ذلك ابتهجنا، بسبب أننا بتنا على مقربة من القدس.

السهل القائم أمام قلعة بيت عنيا

وهكذا مضينا نريد القدس، ووصلنا ونحن على طريقنا إلى سهل، من طرفه الأول يقوم جبل الزيتون، ومن الطرف الآخر جبل العدوان، وفي هذا السهل تنتهي قفار أدوميم، لأنه من هناك نزولاً حتى الأردن قفار جرداء، باستثناء المنطقة المسقية من نبع اليشع، لكن من هذا السهل حتى جبل الزيتون، الذي يقوم عند سفوحه، توجد أجمل البساتين والحدائق، والكروم، وفوق هذا السهل تقوم قلعة بيت عنيا، التي بنيت على طرف جبل الزيتون، وتمتد من هناك نزولاً إلى السهل، وهذا السهل مغطى بحجارة واسعة جداً ومستوية، وكأنه قد جرى تبليطه بشكل فني، لكن في الأماكن حيث الأرض غير مغطاة بالحجارة، تنتصب هناك أشجار الزيتون وأشجار فواكه أخرى، علاوة على ذلك، يوجد في هذا السهل عدداً كبيراً من الصهاريج، حفرت عميقاً في صخور قاسية جداً.

وتابعنا سيرنا عبر هذا السهل، نحو بيت عنيا، ووصلنا إلى أمام القلعة حيث حجرة واقفة قد وضعت بشكل يمكن للانسان أن يجلس عليها، ولايمكن نقل هذه الحجرة، لأنها منبعثة من أعماق الأرض، وهي قاسية جداً، وقد قيل بأن الرب يسوع قد جلس على هذه الحجرة، وذلك عندما جاء صاعداً من المنطقة التي حول الاردن، بعد وفاة لعازر، وجلس أمام باب القلعة، حيث إليه جاءت مرثا، وتحدثت بصدق مطلق مع الرب يسوع حول الايمان، والقيامة، والحياة الأبدية، وبالطريقة نفسها قابلت مريم المجدلية المسيح وهي تبكي، لأنها كانت غائبة عندما مات أخوها لعازر، كما قرأنا في انجيل يوحنا: ١١/ ٢١.

وبناء عليه توقفنا في ذلك المكان المقدس، وعملنا الصلوات المعينة في

كتب المسيرة، وانكببنا بعـد ذلك على الأرض، وقبلنـا المكان، وحصلنا على غفرانات مطلقة (++)، وبكى الرب في هذا المكان، وقد انزعج تجاه بكاء الأختين، ولذلك تغني الكنيسة لهما:

ofelicis soror utraque meriti, qucrum laerimis est motus fons ip fse pietatis

وأعتقد أنه قام في هذا المكان، في الأيام الخالية، بيعةما، أو كنيسة.

بيت القديسة مريم المجدلية ومخزنها

وسرنا من هـذا المكان نحـواً من رميـة سهـم باتجاه جهـة اليمين، ووصلنا إلى كنيسـة قـديمـة مهـدمة، قـائمـة فـوق المكان الذي سكنتـه القـديسة مـريم المجـدلية بشكـل خاص، لأن لعـازر ومـريم المجدليـة، ومـرثا، كانوا أغنيـاء، وامتلكوا كثيراً من المسـاكن في داخل الحصن وفي خـارجـه، وفي القـدس، وفي حصن المجـدل في الخليل، وكـان هذا بيت مريم المجدليـة، وبعد تحولها إلى المسيحية أقامت فيـه مخزناً للرب، يحتوي على توابل متنوعـة، منهـا عملت هناك منعشات ومـراهم تمنع التعـرق، والسخـونة، والبرودة، والقشعـريرة، والانهاك، وقـد تبعت الرب في كل مكان حـاملة معهـا هذه الدهون المصنوعـة من التـوابـل، وكـانت قـد اعتادت على دهن أطرافه بها، وهكذا فإن هذه التي اعتادت قبل هدايتها ان تستخدم هذه الأشياء لترفها الجسـدي، استخدمتهم بعد ذلك لتقوية جسـد الرب، وبنـاء عليـه، قمنا في هذه الكنيسـة بـالصلوات المحـددة، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

بيت القديسة مرثا الذي كان الرب فيه ضيفاً

ومضينا من هناك إلى الجهـة اليسـارية من الحجـرة المتقـدمـة الذكـر، فـوصلنا إلى خرائب جـدران بيت منعزل قـديم، قد قيل بأنه بيت مـرثا المبـاركة، الذي إليـه غـالبا مـادعت الرب، وذلك حسبما ورد في انجيل

لوقا: ١٠، حيث جاء قوله: «فقبلتـه امرأة اسمها مرثا في بيتها»، وفي هذا البيت لامت مـرثا أختها مريم أمـام الرب، وأعطى الرب قـراراً لصالح مـريم قـائـلاً: «ولكن الحاجـة إلى واحـد، فـاختـارت مـريم النصيب الصـالح»، وهكذا دواليك، وقبلنا الأرض في هذا المكان، وحصلنا على غفرانات، ذلك أننا تلونا وغنينا الصلوات المعينة في كتب المسيرة.

كنيسة ضريح القديس لعازر الذي تمدد فيه لمدة ثلاثة أيام

وانعطفنا بعـد هذا بأنفسنا نحـو بيت عنيا، وبعـدمـا دخلناه، أتينا إلى كنيسة كبيرة وجميلة، لكنها كانت مغلقـة، إنما قام أهالي بيت عنيا بفتحها لنا، بعـد إعطائهم دريهمات قليلـة من قبطاني الغليـونين، ودخلنا إليهـا، وقد وجـدنا في جهة اليمين ضريح لعازر، الذي تمدد فيـه ميتاً لمدة ثلاثة أيام، حيث أقامـه الرب ثانية بعـدها، حسبما ورد الخبر في انجيل يوحنا: ١١، وبناء عليـه توقفنا أمـام ضريـح لعـازر، وقمنا بالصلوات المحـددة لذلك المكان، وقبلنا الضريح نفسه، وحصلنا على غفرانات مطلقة.

ومثل هذا، ذهبنا صـاعـدين من القبر الى المذبح العـالي، القائم فـوق المكان الذي وقف فيــه الرب يسـوع وصرخ: «لعـازر هلم خـــارجـاً»، وكـانت هذه الكنيسـة فيما مضى كنيسة جليلة، بنيت مـن قبل القديسـة حنة (هيلانة)، فوق ضريح لعازر، وفي الأيام الأخيرة للصليبيين كان إلى جـانبها دير للراهبـات من طائفة القـديس لعازر، في ظل نظام القـديس بينت، وكـان لبـاسهم الرسمي ازاراً أبيض ورداء أسـود، مثل راهبـات القديس يـوحنا، مع صليب أخضر، وفي بيت عنيا(١) الأخـرى الواقعة عبر الأردن، حيث كان يـوحنا يعمد، كما قرأنا في انجيل يـوحنا ١، فقد كان هناك ديراً آخر مثل هذا، ملكاً للطائفة نفسها، وهؤلاء الراهبات قد كن ثريات جداً وتقيات، وكـان هذا الدير محاطاً بأشجار الزيتـــون، إلى

١ - وهم فابري، فالذي في انجيل يوحنا: ١/ ٢٨ «بيت عبرة».

حـد كان من غير الممكن رؤيتـه من قبل الذين قـدمـوا نازلين من جبل الزيتـون، عـلاوة على ذلك، راهبـات هـذا الدير، اعتـدن أن يرسلن إلى البلدان الأخـرى من العالم لبنـاء أديرة مماثلة، وعلى هذا هناك في الوقت الحالي واحد من هذه الديرة في دولة أصحـاب كيفخبورغ Kyvchburg قرب ثورغو Thurgau، واسمه دير سيدات القديس لعازر.

وبعد فقدان الأرض المقدسـة، تفرقت الراهبات، وهدم الدير والبلدة جميعـاً، باستثناء الكنيسة مع الضريـح، حيث مازالا قـائمين، وهناك قبر مرتفع من الرخـام، يوجد تحتـه كهف، هو الآن مغلق، ويحترم المسلمون هذا القبر، مثلما نفعل نحن، ذلك انهم يحترمون جميع الأماكن التي عمل فيها الرب أعمالاً رائعة، لكنهم يزدرون الأمـاكن التي عانى فيها من أي من سوء المعـاملة، وهذه الكنيسة مهملة ومـذابحها محطمـة، وعندما كنا فيها كانت مليئة بحزم القمح، مثل مخزن رجل فلاح.

بيت سمعان المجذوم الذي حل الرب به ضيفاً

ومضينا من هذا البيت، فصعـدنا إلى كنيسة أخـرى مهـدمة، بقـاياها العظيمـة ملقاة مـوزعـة هناك، وقد بقـي أحد الجدران قـائماً، منه يمكن للانسان أن يرى أنها كـانت كنيسة كبيرة النفقات، فقد كـانت لها أرضية معمولة من مختلف أنواع الرخـام، حيث وجدنا بعض البقـايا وقد بنيت هذه الكنيسة فوق المكان الذي قام فيـه بيت سمعان المجذوم، الذي أتى على ذكـره متى الانجـيلي (الاصحـاح:٢٦) ومـرقص (الاصحـاح: ١٤).

وإلى هذا البيت جـاء يسـوع بمثـابة ضيف في يوم السبت، قبل أحـد السعف، وهنا صبت مـريم المجدليـة العطور فـوق رأسه، وهو جـالس يتناول الطعـام، وهنا أبدى تلاميذه حـزنهم تجاه الاسراف، حسبما تحدثنا في صفحات تقدمت، وفي انجيل يوحنا:١٢.

وهناك بيت آخر لسمعان، لكن ليس سمعان هذا، وهو موجود في القدس، وإلى هذا البيت جاءت مريم المجدلية، عندما اهتدت للمرة الأولى، كما قرأنا في انجيل لوقا: ٧، وعن هذا البيت كنت قد تحدثت من قبل، وهذا البيت- على كل حال- يعرف باسم بيت سمعان المجذوم، وهو لم يكن مجذوماً، عندما عمل العشاء، لكنه كان قبل هذا مجذوماً، وقد شفي من قبل الرب، إنما حافظ على اسمه «المجذوم»، وبناء عليه، بعدما تلونا هنا الصلوات المعينة، حصلنا على غفرانات (+).

حصن بيت عنيا ووصفه

أنا لم أجد متى بني حصن بيت عنيا، ولا من قبل من قد بني، لأنه لم يرد ذكره في جميع العهد القديم، إلاّ إذا كان قد جاء ذكره تحت اسم آخر، أنا لم أجده، أو مالم يكن اسم بيت أوريم، الذي ورد ذكره من قبل، وجميع أصحاب الأناجيل قد أتوا على ذكر بيت عنيا، ليس بيت عنيا هذا، وإنما أيضا الموجود عبر الأردن، وأعتقد أن الحصن قد بني حديثاً في أيام المسيح، وتظهر خرائبه أنه كان بناء قوياً وجليلاً، لكن ليس بناء واسعاً، وهو في هذه الأيام قرية مكتظة بالسكان، فيها مسلمون غدارون، وهي مجاورة لجبل الزيتون، على الجهة الشرقية منه، ومنه لايمكن رؤية مدينة القدس، بسبب جبل الزيتون، الذي يقف في الطريق، ويوجد -على كل حال- على طرف جبل الزيتون، بينه وبين جبل الصعود، مكان لمشاهدة وادي جهنم وجبل جيحون، وكانت قرية بيت عنيا قلعة: مريم، ومرثا، ولعازر، حسبما أخبرنا في انجيل يوحنا:١١، وتبعد عن القدس خمسة فرلنغ، مما يعادل أربعة أميال ايطالية، وميلاً ألمانيا قصيراً، وقد تحدث القديس برنارد بشكل طيب عن هذه القلعة، في قداسه لفرسان الداوية، كل من يرغب يمكنه أن يجد هذا النص فيه.

رحيل الحجاج من بيت عنيا نحو جبل الزيتون

وبعدما رأينا الأماكن المقدسة في بيت عنيا، استدرنا نريد القدس، وقد أعطينا سائقي حميرنا الإذن بالمغادرة للعودة إلى القدس بأقرب الطرق، أي على الطريق السلطاني، الذي عليه كنا قد غادرنا، كما تحدثنا عن ذلك من قبل، وقد نوينا على العودة مشياً بخشوع على الأقدام، على طول ذلك الطريق الذي قدم الرب يسوع عليه وسار من بيت عنيا إلى القدس، في يوم أحد السعف، وهو جالس على ظهر أتان.

وهكذا عاد سائقو الحمير إلى القدس نازلين عبر الطريق المنخفض، ومعهم ذهب عدد كبير من الحجاج، الذين كانوا مستعجلين لنيل بعض الطعام المطبوخ، مع مكان للاستراحة فيه، لأننا لم نتذوق منذ مغادرتنا القدس حتى عودتنا إلى هناك طعاماً ساخناً، ومع هذا بقي الشطر الأكبر في بيت عنيا، ومنهم ما كان -في الحقيقة- أحداً سيبقى لولا أنني حثثتهم على فعل ذلك، وبناء عليه عندما غادر الآخرون، خرجنا نحن أيضاً من بيت عنيا، ووصلنا في خارج القرية، دون أن نعرف، إلى أرض مقبرة اسلامية، توجب علينا عبورها أوالسير من حولها، ولقد قمنا بعبورها، لكن الذي حدث أن امرأة مسلمة كانت واقفة عن بعد كبير، رأتنا، فركضت مسرعة نحونا، وصرخت عالياً، وشتمتنا ورمت حجارة علينا، وطردتنا من أرض الدفن، وبناء عليه فررنا مسرعين، خشية قدوم مسلمين آخرين وقيامهم بازعاجنا، لأنهم لايتحملون سيرنا فوق قبور موتاتهم، وهذا ما كنت قد تحدثت عنه من قبل.

وهكذا وصلنا إلى الطريق الذي يسير عبر جبل الزيتون، والذي عليه سار الرب يسوع في يوم أحد السعف، وسرنا بخشوع، وصمت، وصلاة، خلال بساتين التين، ووصلنا إلى واحدة من هذه البساتين، رأينا فيها تيناً ناضجاً شكله أرجواني داكن، وذهب اثنان من جماعتنا إلى هذا البستان، لكن عندما تسلقا الشجرة، قدمت امرأة عجوز، رمت حجارة

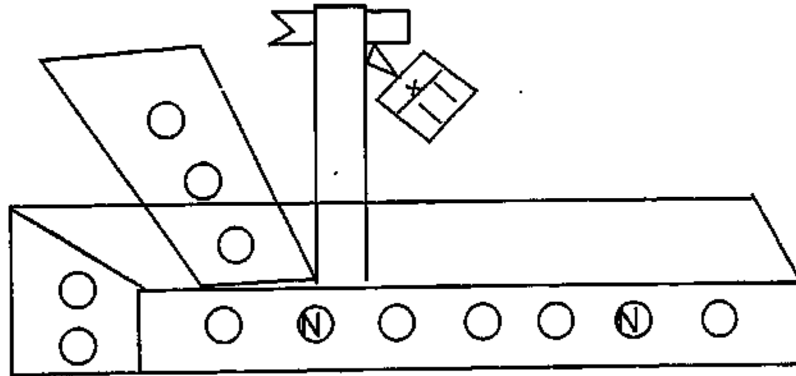
عليهما، وطردتهما خـــارج البستـــان، ومع ذلك جلبـــا لنا بعض الثمار، أكلناها، وتابعنا سيرنا صاعدين للرابية.

ووجدنا على هذا الطريق كثيراً من القطع المربعـة الصغيرة من الرخام المصقـول من مختلف الألوان، وقـادنا راهب خـارج الطريق الحديث إلى مكان حيث وجدنا ميدانا كله مبلطاً برخام مصقول من مختلف الألوان، فلقد كـانت القديسة هيلانة هي التي زينت ببـلاط رخامي جميع الطرق التي عـرفت بأن الرب يسوع قـد عبرها أثناء اسبـوع الآلام، وذلك من بيت عنيـا صعــوداً إلى جبل الزيتـون، ونزولاً من الجانـب الآخـر هناك صعوداً إلى الباب الذهبي، ومراراً وجدت آثاراً من هذا البلاط، وبشكل خاص عندما يسير الانسان على جانب الطريق وهو صاعد، لأن الطريق الحديث قـد حفر عميقـاً وتلف بسبب أعداد الذين يعبرون عليـه، وكل انســان يذهب صعـوداً، إذا مـا استـدار جـانبـاً، وكشط الأرض بيـديه، وعمل حفـرة، سـوف يجد الطريق القديـم المبلط برخام مصقـول، وقـد علمت شخصيا صحة ذلك عن طريق الخبرة.

عودة الحجاج إلى القدس عبر بيت فاجي، قرية الكهنة

وتابعنا من هناك تقدمنا، ووصلنا إلى مكان، قامت فيه فيما مضى قرية

F.F.F.F.F.



الكهنة، التي هي بيت فـاجي، التي نقـرأ عنهـا في انجيل القـديس متى(الاصحـــاح:٢١)، وحـدث أن الرب أرسـل من هذه القـرية اثنين من التـلاميذ إلى القـدس ليجلبا له أتانا، وقـد انتظرهما هناك، وغنينا في هذا المكان ترنيمة:« Cum appropinquaret dominus » ، الخ، وقبلنا طبعات أقدام مخلصنا، وحصلنا على غفرانات(+).

وورد ذكر بيت فاجي في الاطراء الذي ورد في قداس القديس برنارد إلى فـرسان الداويـة(الاصحاح:١٢)، ومن بيت فـاجي مـابرحت المدينة المقـدسـة لايمكن رؤيتها، ولدى متـابعتنا تقـدمنا، تسلقنا مصعـد جبل الزيتـون، ووصلنا إلى منطقة يوجـد أعلاها مصعـد منحدر، فـوق تسع درجـات، وحيـث قـائم فيهـا حجـرة طولها طول الطريـق صعـوداً إلى الرابية، وعرضها بعـرض الطريق نفسه، ونحتت هذه الحجرة وفق عمل فني إلى درجات يمكن للبشر وللدواب عليها الصعود إلى الرابية، وهذه الحجرة مقسـومة طوليـاً إلى قسمين، وكأنها قطعت بسكين، وهم يحكون أثراً قديماً يروونـه عن القديسين، بأن هذه الحجرة قـد انشقت أثناء آلام الرب، لتكون شهـادة إلى جميع الذين يمرون من هناك، ولتكون ذكـرى دائمة(عن موته).

وقبلنا هذه الدرجـات، بسبب المعجـزة، وبسبب طبعات قـدم الرب، لأننا لايمكن أن نرتاب بأنه غـالباً مااجتـاز هذا الطريق، وعندما مضينا نحـو الأعلى من هذا المكان، بدأت أبراج المدينة المقدسـة تبدي أنفسهـا، وكـان أول برج رأينا أعـلاه هو بـرج الناقـوس، وبرج كنيسـة الضريح المقـدس، الـذي كنا قـد تحدثنا عنه من قبـل، وهذا البرج في هذه الأيام أعلى من غيره من الأبنية، ورأينا بعد ذلك مباشرة، المدينة المقدسة كلها، وهي متألقة سروراً تحت أشعة الشمس، لأن هذه المدينة الأعظم حلاوة لها منظر بهيج، برؤيتـه يشرق عقل مشـاهده، وأعـرف أنا حقيقـة هذا، لأنني لم أكن قط قـادراً على اشبـاع نفسي من النظر إلى المدينة، لأنه كلما

زاد الإنسان من النظر إليها، كلما بدت له أكثر حلاوة، وزادت من انفعال الانسان وعطفه نحوها، وفي الحقيقة عندما كان الرب يسوع ماشياً على طول هذا الطريق، وشاهد المدينة بكى عليها، وأثير بالشفقة عليها بوساطة المنظر الفعلي، ذلك أنه ليس من دون سبب دعيت القدس باسم« رؤيا السلام».

ومضيا الآن نازلين من الجانب الآخر لجبل الزيتون، عبر الطريق الذي تقدم لنا وصفه من قبل، وعبرنا جدول قدرون، حيث صعدنا إلى جبل صهيون، وهناك جرى الترحاب بنا بسرور من قبل اخواننا هناك، وبعدما تناولنا الطعام تمددنا أرضاً للاستراحة، لأننا كنا مقبلين على أعمال جديدة.

الدخول الثالث للحجاج إلى ضريح الرب والازعاجات التي تحدث بالعادة هناك

وفي اليوم نفسه(أي يوم الحادي والعشرين) وبعد الظهر بوقت طويل، وعندما كان المساءيقترب، جرى استدعاء الحجاج إلى كنيسة الضريح المقدس، وعندما كنا في الساحة في الخارج، قدم السادة المغاربة، ووضعونا في الكنيسة، وفق الطريقة نفسها التي وصفناها من قبل، وعندما كنا في الداخل فعلنا مثل ماكنا قد فعلنا من قبل، وقام الحجاج، الذين عرفوا أنهم لن يروا الأماكن المقدسة بعد الآن، بزيارتهم مع كثير من الخشوع، ولمسوهم بمجوهراتهم، مثلما كانوا قد فعلوا من قبل مراراً، وذلك وفق الطريقة التي كنت قد ذكرتها في ص١٩٨.

ولقد أمضى الفرسان تلك الليلة، بشكل أقل رصانة، وكانت أفكارهم مشتتة أكثر مما كانت في الليالي الماضية، التي بقيوا فيها مستيقظين عند الضريح المقدس، وانشغلوا في الليلة الأولى في اعداد أنفسهم لتناول قربان العشاء المقدس مع الاعتراف، وقد تجدد الأثر

الذي عملتـه الأماكن المقـدسـة على عقولهم، مثلما ذكـرنا ذلك من قبل، وكانوا في الليلة التالية قلقين بشـأن فروسيتهـم، وأمضوا الليل في طلبها، كما سلف لي الحديث عـن هذا الموضـــوع ، ولأنه في تلـك الليلة لم يكن لديهم مـايشغلهم، فقـد أودعوا أنفسهم للراحـة ولأعمال التسليـة، لكن هذا لم يشمل الجميع، بـل فقط الذين كـانوا أقل غيرة مـن البقيـة، ومع الأسف، شكلوا العــدد الأكبر، وبناء عليـه دعـــونا نـرى كيف أمضى وقتهم هؤلاء الحجـاج، الذين كانوا بلا خشـوع،وبدون عرفـان، وبدون غيرة أو انضبـاط، فقـد قـام بعضهم بجـولة اعتيـادية حـول الأمـاكن المقدسـة، ثم جلسوا بعد ذلك، وشربوا ماكـان في جعبهم، التي جلبوها معهم محشـوة بالطعـام، وعملوا مناقشـات طويلة، ثم مـالبث أن غلبهم النوم فبحثـوا عن أمـاكن منعـزلة، أو زوايـا هادئـة، حيث نامـوا طوال الليل، وذلك لمدة ست سـاعـات أو سبـع، وكأنهم كـانوا متمـددين في مضاجعهم وغرف نومهم.

وقام آخـرون كانوا مدمنين، وبالحري كسالى، بتـزويد أنفسهم بخمرة قـوية جيـدة، وبأطعمة تشجـع على العطش، وبعدمـا ركضـوا مسرعين حـول الأماكن المقـدسـة، جلسـوا مع بعضهم، يأكلون ويشربون، وكأن الكنيسة الأعظم قداسة من جميع الكنائس كانت حانة، وتابعوا على هذه الشاكلة حتى باتت قوارير رفاقهم فارغة.

وقام آخرون، أقل بعد نظر، بعدمـا أفرغوا قواريرهم، بالحديث حول المسائل الدنيوية غير المفيدة، وحـول الأمراء، وتخاصموا حول الحملات التي خدموا فيها، ومقارنة المقـاتلين أحدهم بالآخر، وخلال ذلك كانت هناك أقـــوال شريرة، وخـلافـــات، وكـذب، وتمجيــد ذاتي من مختلف الأنواع، وقد استمر ذلك، دون اعطاء أدنى اهتمام لقداسة المكان.

وعندمـا اكتفى آخـرون وشبعـوا من المناقشـات الطويلة، وانفجـروا ضـاحكين، ســاروا حـول داخـل الكنيسـة، ودخلوا إلى بيع الأمـــاكن

المقدسـة، وبعد تظاهر قصير بالصلاة، وقفـوا هناك يتحدثون دون ابداء أي احترام للمكان المقدس، ولاالجميع ماحل بهم، وهكذا زاروا الأماكن المقدسة من دون أية فائدة لأنفسهم، وقبل سنوات خلت، تصرف واحد من الفرسـان الألمان هكذا، وقـد عاقبـه الرب ليكون مثـلاً للآخـرين، فلبعض الوقت كان يختـال برعونة حول الكنيسة مع أتبـاعه الذين دخل معهم إلى ضريح الرب، وعندما كـان واقفاً هناك، قال بطيش سخيف:« انظروا يارفـاقي، وليكن مـا أنا مقـدم عليـه، علامـة على صـدق أنني لم أتردد في إعلان أنني كنت في الضريح المقـدس للرب، وأنتم شهوداً على ذلك» وما أن فرغ من كلامـه هذا حتى صعد فوق القبر المقدس، وتمدد بنفسـه كلياً فـوقـه، وذلك على ظهـره، وعندما كـان متمـدداً هناك وهو يضحك، فجأة امتـدت يد الرب إليه، وأصـابته بالشلل، وبناء عليـه بدأ جسده يزداد قسوة، حتى لم يعد قادراً على النهوض بنفسه، وعندما شعر بيد الرب ثقيلة عليه، توسل بتواضع وبكثير من الدموع أن يرفعها عنه، لكنه لم يسترد أبداً بعـد ذلك الاستخدام الحر والطبيعي لأطرافـه، وعاد إلى وطنه أعـرجـاً ومـريضـاً، ومـات مشلولاً، والعجيب أنه لم يهلك في البقعة ذاتها.

وأمضى آخرون الليل كله وهم يقامرون مع تجار وباعة، لأنه إلى كل مكان ذهب إليـــه الحجـاج وهم في الأرض المقــدســـة، رافقهم تجار مسيحيـون، مـن أصل شرقي، كـانوا على درجـة عـاليـة مـن البراعـة، وهراطقـة جشعين، لاينامون خـلال الوقت الذي يكون فيه الحجـاج في الأرض المقدسـة، وكان كلما دخل الحجاج إلى كنيسـة الضريح المقدس، جاء هؤلاء التجار مع بعضهم، ودخلوا معهم، وكانوا يحصلون على اذن بالدخـول بوسـاطة دفع مبلغ كبير من المال، وكـانوا يمركـزون أنفسهم على الفور أمـام باب الكنيسة، ويمدون أقمشة فـوق الأرض، ويضعون سلعهم فوقهـا من أجل البيع، وكان بعض الحجـاج، وقد رأوا أن وقت

مغادرتهم بات قريباً، يجلسون مستيقظين طوال تلك الليلة، يتساومون ويشترون جميع أنواع الأشياء، وكان مع التجار للبيع هناك ليس فقط حبوب الصلاة الربانية، والأحجار الكريمة، بل أقمشة الدمستق، ووبر الجمل، والحرير، وكان من حول هؤلاء التجار كثيراً من الاضطراب والضجة، وكان الوضع مثل وضع سوق للبيع والشراء.

وقد رأيت هناك بعض الحجاج اللامعين من ذوي الأصل النبيل، الذين يرون بأن المقامرة والمساومة مع الباعة، حتى ولو كان ذلك في سوق عام، شيئاً غير مقبول بالنسبة إليهم، ودون مستواهم في الحياة، ومع ذلك، هنا في هذا المكان الأعظم قداسة لم يتوقفوا عن المقامرة وعقد الصفقات، وشراء السلع الثمينة والمجوهرات، وهكذا فإن الذين قد تركوا بلادهم منفردين من أجل حب الرب، وفي سبيل الفروسية، أغراهم الجشع وحب الربح، لأن يصبحوا تجاراً، وعملوا في سبيل تحقيق مصالحهم واعتمدوا على الكذب، والغش والخداع، والأيمان المرعبة، وذلك مثل أولئك المنشقين والهراقطة الذين كانوا معهم يتعاملون، والذي كان المتوجب عليهم الابتعاد عنهم وعدم استخدامهم، لأن أولئك الحجاج كانوا يبذلون غاية جهدهم لشراء الأشياء بسعر رخيص، من أجل أن يتمكنوا من بيعهم بمبالغ أكبر لأناس آخرين في بلادهم، وذلك مثلما يفعل التجار الحقيقيون، الذين يجنون نفقات حياتهم بمثل هذه المبايعات، أو أن يتمكنوا بالمجوهرات وبالأحجار الكريمة من شراء الصداقات الدنيوية، ومحبة كثيرين، أو استخدام ماشروه في سبيل فخارهم، والمجد الفارغ.

وفي هذه المبايعات لم يعيروا اهتماماً، لاللمكان المقدس، ولاالليوم المقدس، لأن عيد القديسة مريم المجدلية كان قد بات الآن قريباً جداً، ولم يقتصر عمل هذا على العلمانيين فقط، بل شارك في هذه الأعمال بعض الرهبان غير المحترمين ورجال الدين، ولكم كان عملاً مؤذياً

وبلا تقوى أن يرى المسلمـون ويشهدوا هؤلاء الباعة يجلسـون ويبيعون سلعهم في الكنيسـة، ويتجـادلون حـول الأرباح، وهذا واضح من نقـاء مساجـدهم، حيث لن يسمحوا مقـابل أي شيء في الدنيا بالبيع والشراء فيهـا، أو بالكلام حـول الشيء نفسـه، بل نحن جعلنا بيت الصـلاة وحولناه إلى بيت تجارة، والكنيسة جعلناها وكراً للصوص، وعندما يرى المسلمون هذا، يعدون إيماننا حماقة وشيئاً لاقيمة له.

ولم يكن بعض المتجاوزيـن الآخرين أقل من هؤلاء المتقـدمي الذكر، لأنهم كانوا يأثمون بحق المسيحيين والمسلمين سواء، لأن بعض النبلاء، اقتيدوا بعبث نحو كتابة أسمائهم مع شعار نبالتهم ومكانتهم الاقطاعية، على جـدران الكنيسـة، أو نحـو رسم رنـوكهم عليهـا، أو القيـام بلصق أوراق، عليها كتبت هذه الأشياء كلها، ولقد ألصقوها على جدران هذه الكنيسـة وكنائس أخـرى، وحفـر بعضهـم أسماءهم بأزاميل حـديدية، ومطارق على الأعمـدة، وعلى الألواح الرخامية، وأغضب هذا وأزعج جميع الناس هناك، ولقـد رأيت بعض النبـلاء ذوي الفخار الفـارغ، ممن دفعهم تشـامخهم إلى مثل هذه الأعمال الحمقاء، ذلك أنهم عندمـا دخلوا إلى بيعة جبل أكرا(الجمجمة)، وانحنوا بأنفسهم فـوق الصخرة المقدسة، حيث توجد حفرة الصليب، كانوا يتظاهرون بالصلاة، وفي اطار ذراعي كل واحد منها، كـانوا يحفرون بآلات حادة جداً رنوكهم، مع عـلامات أصـالة ميـلادهم الأمـرالذي لايمكنني قـولـه، لأنهم بالحري وضعـوا علامـات سخافـاتهم، لتكون ذكرى دائمة على حماقتهـم، وقد فعلوا هذا بشكل سري، لأن حـارس الصخـرة المقدسـة، الذي اسمـه جـورج، لو رآهم يفعلون ذلك، لجرهـم من شعـورهـم وأبعـدهـم، ودفعت الحماقـة نفسها بعضهم لحفر أسمائهم ورنوكهم وشعـاراتهم بآلات حديدية حادة على الألواح التي تغطـي قبر الضريح الأعظم قـداسـة للرب، وهكذا وضعـوا جـانبـاً الخوف والاحترام الذي يدينـون به للرب، من أجل أن

تبقى ذكـرى حماقتهم وسخـافتهم دون دمـار، بـل أن تدوم إلى الأبد، وبذلك يمكن أن يعلنوا في كل يوم، على كل من جبل أكـرا، وفي الآبدة أمام ضريح الرب، لأن كل حـاج تقي وعاقل، عندما يأخذ طريقـه نحو هذه الأماكن بعد كثير من النفقات والأتعـاب، وبعدما يمر خلال آلاف المخاوف، ويصل إلى الأماكن المقدسة المتقـدمة الذكر، ويجثوا على ركبتيه للصلاة، فوقتها سوف يرى أمـامه هذه القطعة من الحماقة، وعندها لابد أن يقـوم بعـد صـلاته بلعـن الأحمق الذي أقـدم على صنع هذه الأعمال الشائنة في هذه الأمـاكن الأعظم قداسة، ويدعـو عليه بالموت، أو بشلل يده ويباسها، أو أن تتقلص يده أو أن تنبتر، أو أن يدعو إلى الرب لينتقم لكرامته من الذي أقـدم على حفر شاراته الشرفية، على الصخـرة القائمة كعلامة على التشريف الذي يستحقه.

والرجال الذي يتولون أعمال الحفـر يظنون أن جميع الناس سيعجبون برنوكهم، وسوف يكونون مسرورين بـرؤيتهم، والذي أقوله أنا، أنه بين عشرة آلاف لايوجد واحـد ممن يقدمون إلى هـاهنا، سوف يكون لديهم أدنى سرور نحوهم، وإذا كان الحجاج أجانب، ولايعرفون هذه الرنوك، سـوف ينظرون إليهم بازدراء، وسيعجبـون نحـو هذا التبجح، ويعلنون عن صـاحبـه بأنه أحمق، مـع أنهم لم يروه قط، ذلك أنهم سيمقتـون هذه الخربشة، وسينظرون إليها برفض، وسيمجـونها، وربما قد يصدف ويأتي ابن المخربش إلى هنا، وقتها سوف ينزعج بسبب وراثته لحماقة أبيه.

والنبلاء الألمان هم وحـدهم الذين يقترفون هذه الحماقـة، وكأن العالم ليس فيـه أي نبيـل، إلا هم أنفسهم، فلكم هم سخفـاء بـابتـلائهم بهذه العـادة، وذلك بين المسيحيين والمسلمين، وأعرف أنا بشكل جيـد، أنني، لأسفي وخجلي، قـد شعرت بالارتبـاك العظيم تجاه ذلك بين المسيحيين والمسلمين، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل لكتـابة كل الذي شهدته، فلقد عرفت واحداً من الحجاج، حمل دوماً معه في حافظته حجرة حمراء، كان

قـد اعتـاد أن يكتب بها أحرف اسمـه على ألواح المذابح، إمـا بحجـرته الحمراء، أو بمدية أو بمخرز، وكان يكتب اسمه في رأس الهامش الفارغ لكتـاب الصلوات، أو كتـاب الترانيم، أو كتـاب القداسـات، أو كتـاب المزامير، وكأنه كـان هو مـؤلـف الكتـاب، في حين لم يكن يفهم ولاجملة لاتينية، لأنه كان مجرد رجل علماني.

وكان يبذل جهداً كبيراً ليحفر اسمـه ورنكه في هذه الأماكن، وفوقها جميعاً، الأمر الذي سوف يلاحظ من قبل الناس الذاهبين والآيبين، لكن كيف كانت نهاية هذا الانسان؟ أنـا أخجل أن أقول، فقد مللت منه، كما أنني لاأرى أنه أمر لائق بكتاب رحلاتي وجولاتي أن أضع فيه مثل هذه الأشيـاء، ويكفي— على كل حال— أن أقـول، أن رفاق وأقـرباء الحاج المتقدم الذكر، هم على استعداد لدفع كثير من الذهب لو تمكنوا من محي اسمـه من على وجه الأرض، وأن هؤلاء الناس أنفسهم، رغبـوا لو أنهم لم يعرفوا اسمه قط، الذي بذل جهداً كبيراً لرسمه في كل مكان.

ويمكن أن يسمح، أو ربما هـو مفيـد مـن بعض الجوانب، أن يقـوم بعض النبـلاء برسم رنوكهم، أو بكتـابة أسمائهم، في نزل، وحـانات، وقـاعـات، وساحـات، وأبراج، وقـلاع، وأبواب، وأسـوار، ومسـارح، وأسـواق، وساحـات المثاقفـة والمنازلة، وأمـاكن علمانية أخـرى، إنما أن يفعلوا هذا في الكنائـس والأمـاكن المقـدسـة، فـذلك خطأ، وحماقـة، واجرام، وبعضهم يبذل جهـوداً عظيمة من أجل ذلك، ففي سبيل ذلك يهملون صلواتهم وزياراتهم إلى الأمـاكن المقدسة، لابـل يهجرون النوم، ويحذو حـذوهم بعض العمال البسطاء، فيأخـذون قطع فحم، ويكتبـون أسماءهم غير المعروفة، وألقابهم التافهة على الجدران، لابل لحق الضلال بعض الكهنة ورجـال الدين، واقتيـدوا من قبل بعض القـرود الحمقى لفعل هذا، ولوثوا الجدران بالحبر الذي جلبوه معهم لكتابة روايات عن الأماكن المقدسة التي رأوها، وأعجب نحو جميع هؤلاء الناس، الذين لم

يتفكروا حول المثل العامي، الذي حتى الأطفال، يقوله أحدهم للآخر، وهو:« تلوث أيدي الحمقى أطراف البيت»، وبناء عليه، إذا — حسب المثل العامي— عدّ حمقى الذين يلوثون جدران بيوت الناس، لابد من أن يعد أعظم حماقة الذي يلوثون بيت الرب، والأماكن المقدسة عند الرب، ويعد فوق الجميع حماقة الذين يرسمون، أو يعلقون ترستهم وسوابغهم ودروعهم، فوق صور الرب، وصور العذراء مريم المباركة، وصور الصليب المقدس، والنخبة من قديسي الرب، لأنه في كثير من الحالات، يوجد على دروع النبلاء صوراً لبعض الحيوانات، أو الوجوه الشنيعة، أو المخلوقات غير الطبيعية، أو مجموعات من الألوان والأشكال لامعنى لها، كلها انحدرت من الوثنية القديمة.

وهكذا نقرأ بأن أنوبيسAnoubis ومسيدوMacedo ولدي أوزوريس، اللذان تجولا في جميع أنحاء العالم، وهما يقترفان الشرور، قد حملا شعارين، فكان شعار الأول كلباً، وشعار الثاني ذئباً، حيث رسما صورتيهما على المعابد التي بنيت في جميع البلدان، ليظهرا استخفافهما ببقية الأرباب، ومثل هذين فعل نبلاؤنا في كنيسة الضريح المقدس، التي جدرانها في حالة فوضوية[٢١٧ظ]، بسبب الترسة التي جرى تعليقها فوق الصور، لأنه حول القاعة المستديرة، كانت الجدران القديمة مغطاة ومزينة بالفسيفساء، لكن الفرسان والنبلاء لم يظهروا رحمة نحو هذه التماثيل والصور الثمينة، وعلقوا ترستهم فوقهم، وبذلك غطوا جميع صور المسيح، والعذراء المباركة، وقد خرقوا هذه الصور بالمسامير، وقد قام الرب منتقماً لانعدام الاحترام هذا، فقد حدث في إحدى المرات أن ملك مصر جاء إلى القدس ليصلي في معبده الذي اسمه هيكل سليمان، وبعد ماأنهى صلواته، صعد ودخل إلى الـ Anastasis أي كنيسة قيامة الرب، حتى يمكنه أن يصلي هناك أيضاً، وعندما كان ينظر من حوله ويتعجب من حجم الكنيسة وجمالها، رأى ترسة نبلاء مربوطة إلى

الجدران، وموضوعة فوق صور الفسيفساء، وعندما علم سبب تعليقهم هناك، غضب غضباً عظيماً، وأراد أن يهدم كنيسة القيامة كلها ويسويها بالأرض، لولا أن الرب جعله يغير نيته، وعلى كل حال، أمر بانزال جميع هذه الترسة وانتزاعهم من على الجدران، وكومهم في كومة واحدة، وأمر بإلقاء النار فيهم، وأحرقهم جميعاً، ولذلك لايوجد الآن هناك أي ترس، كما ليست هناك صور فسيفساء كاملة، بل مشوهة وغير واضحة.

ومضى آخرون حول الكنيسة مع أدوات حديدية، مخفية في ملابسهم، وعندما كانوا يصلون إلى الأماكن المقدسة، كانوا يقومون باقتلاع الأحجار المقدسة، والتقاطها، أو كسرها أو اقتطاع أجزاء منها، لحملها معهم إلى الوطن، لأنه ماهو السبب، إلا أن يكون الإنسان قد ضل، أو أعمته الشرور، حتى يفكر بتعرية الأماكن المقدسة من زينتها، أو أن يقوم بتشظيه، أو تشويه بعض الأعمال الفنية، التي عملت بعد جهد كبير ونفقات عالية؟

واقتادتنا أعمال التشظية السخيفة للحجارة إلى رعب عظيم، ليس مرة واحدة، بل أكثر من مرة، ففي احدى المرات، بعدما ذهب الحجاج إلى منازلهم، بقينا طوال الليل في كنيسة القيامة، وفي الصباح اكتشف بأن شظايا قد اقتطعت من صخرة الجمجمة، ومن لوح الضريح، ومن حجرة تحنيط الرب، وعندما رأى المسيحيون الشرقيون هذا، صرخوا في الكنيسة ضدنا، ودعونا باسم لصوص وسارقين، وثار اضطراب عظيم ضدنا، وهددونا بأنهم سوف يتشكون ضدنا إلى سادة المغاربة وسادة المسلمين.

ولدى سماع الأب المسؤول بهذا، كان خائفاً، وظن أن شراً عظيماً بات يحيق بنا، فدعانا جميعاً إلى بيعة العذراء المباركة، وبسلطاته الرسولية، حرم الذين قاموا بتشظية الحجارة، ولم يدعنا نخرج من الكنيسة، حتى أعطيت الشظايا إليه، وهكذا وقعنا هناك باضطراب

وارتباك وخجل، وثار الناس جميعاً ضدنا، بسبب الاثم الذي اقترفناه.

وبسبب مثل هذا، وقعنا بارتباك في القديسة كاترين في العربية، وقد ارتجفت رعباً وخوفاً، عندما تذكرت ذلك، لأننا سلمنا إلى البداة العرب من قبل الرهبان الشرقيين وقد أرغمنا بالضرورات الحادة على إعادة ماسرقناه، ولايقتطع الناس هذه الشظايا بدافع التقوى، بل بسبب أن بعض الشرهين من الفرسان، هم رعاة لبعض الكنائس أو المذابح، وهم يفعلون هذه الأشياء، بقصد إثارة السواد الأعظم من الناس ودفعهم لزيارة كنائسهم، وبذلك يحصلون على الفائدة، فالجشع هو الذي يدفعهم لمحاولة فعل ذلك، على الرغم من الأوامر التي أعطيت للحجاج بأن لايفعلوا ذلك، الأمر الذي سلف تبيانه في أكثر من موضع.

هذا وإن موضوع الذين يلتقطون الحصا من الأماكن المقدسة، ويسعون إلى التقاط الآثار المقدسة، دون أن يشوهوا الأماكن المقدسة، مختلف، والقيام بذلك عمل مقدس وتقوي، كما سنبرهن على ذلك في ٢٥٣و، وبناء عليه، أمضى بعضنا هذه الليلة في عمل ما قمت بوصفه، بينما شغل آخرون أنفسهم بالأعمال التعبدية، وأقمنا القداسات منذ منتصف الليل حتى أضاء الصباح.

مغادرة الحجاج لضريح الرب واجتماعهم فوق جبل صهيون للتشاور حول مغادرتهم للقدس

وفي اليوم الثاني والعشرين، الذي كان عيد القديسة مريم المجدلية، غنينا قداس قيامة الرب في ضريح الرب، وفي هذا القداس المهيب، أتينا على ذكر القديسة مريم المجدلية، وبعد انتهاء القداس، قام الحجاج الذين كانوا على وشك المغادرة، بالسعي من مكان مقدس إلى آخر وتقبيلهم مع الدموع، مودعين لهم مع الأسف، لاقتراب مفارقتهم لهم،

وفي الحقيقة للأماكن المقدسة قوة جذب خاصة، بها يجد الحجاج أنفسهم في النهاية منجذبين إليهم أكثر من ذي قبل، وقد احتشدوا جميعاً حول ضريح الرب، وتابعوا الدخول والخروج مثل نحلات في خلية للنحل.

وعندما كانوا يعملون هذا، جاء المسلمون، وأخرجونا من الكنيسة، وطلبوا منا جميعاً الصعود إلى جبل صهيون، لأنهم أرادوا التحدث هناك معنا حول بعض الأعمال، وبعدما خرجنا من الكنيسة، دخلنا إلى بيعة القديسة مريم المجدلية، الموجودة في الساحة خارج الكنيسة كما تقدم لنا ذكر ذلك، وتوسلنا هناك من أجل حمايتها، وغنينا ترنيمة« O mundi lapas» ، الخ، وصعدنا بعد هذا إلى جبل صهيون، ووجدنا الرهبان هناك قد بدأوا للتو، بقداس من أجل عيد القديسة مريم المجدلية، وقد مكثنا حضوراً هناك حتى النهاية، لأن الوقت كان مايزال مبكراً، وساعة الغداء لم تحل بعد.

افتراق الحجاج عن بعضهم من أجل جبل سيناء والاجتماع الذي عقدوه

وقدم بعد القداس السيد جانم الذي كان حاكماً للقدس، مع بعض شيوخ المسلمين، والسيدSabathytanco ، أي كالينوس الأكبر، الرئيس الأعلى للمشفى، والترجمان المسلم، والفحل كالينوس الأصغر، الذي كان دليل الحجاج عبر الصحراء، وعدد كبير آخر من الأعيان، وعندما اجتمعوا كلهم، جلسوا في قاعة الرهبان، وفي القاعة الكبرى، التي يطلق الرهبان عليها اسم قاعة البندقية، وجلس معهم الأب المسؤول، والأخ جون أوف بروسيا، مع شيوخ آخرين من الرهبان الفرنسيسكان، ومثل هذا الشخصيات البارزة بين الحجاج مثل اللورد جون ويرنهير Wernher، والبارون فون زيمبيرن Zimbern، واللورد جون التروخسيس، واللورد برناردفون بريتنباخ Braitenbach،

وحـاجب الكنيسة الكاتدرائيـة في مينز، واللورد فيرديناند فـون ويرنوي Wernawe، واللورد ماكس فـون روبولستاين Roppolstein، وكان إلى جـانب هؤلاء بين الحضور القبطانين لأنهما كـانا أساسيين، وكـذلك أعوانهما، ووقتها صدر الأمر إلى جميع الحجاج للوقوف أمام هذا الجمع، وعند اكتمال حضورهـم، جرى إخبارهم بصـوت المنادي، بأن الحج إلى القدس قـد انتهى الآن، وأنه لم يبق هناك من شيء لعمله سـوى المغادرة من هناك، والعـــودة إلى الأوطان، الأمـــر الذي يتـوجـب علينا الآن الاستعداد له بأكبر قدر ممكن من السرعـة، وعلى كل حال، إذا وجد بين الحجـاج أي واحد يرغب في التخلف في القـدس، والانطلاق من هناك إلى جبل سيناء، فعليه وعلى أمثالـه الاعلان الآن عن أنفسهم، والبقاء في القاعة مع الســادة، وعلى الآخرين مغادرة القاعـة والاستعداد للمغادرة، لأنه بعد انتهاء الغداء سوف يقودونهم نازلين من القدس نحو البحر.

وبناء عليه غادر جميع الحجاج القـاعة، باستثناء ثمانية عشر، هم الذين بقيـوا مع الســادة، وهم الذين سلف لي أن ذكـرت أسماءهـم، ثم بدأنا نبحث حول الحج إلى سيناء مع السادة، وهي مباحثات، تقتضي الإجراء قبل مغادرة قبطـاني الغليونين، ورفاقنا من الحجـاج، كما ينبغي أن تكون بحضـور قبطاني الغليونين، والأب المسـؤول، وبعض الحجـاج المثقفين، لأنه بعـد فـــراقهم، سـوف يتصرف المسلمـــون مع الحجـاج المتبقين كما يرغبـون، ولسوف يبتـزون الأموال منهم بقسـوة وبدون رحمة، ذلك أنه مع وجود القبطانين قد تصرفوا بشكل معقول أكثر، ثم إنهم إذا ماطلبوا مبلغاً غير معقـول، سوف ينزل الحجاج إلى البحر مع رفـاقهم، ولسوف يتخلون عن الحج إلى جبل سيناء.

وبناء عليه نظمنا نوعاً من العقد من أجل سلامتنا، واعطاء الأمان لنا للسفـر من القدس في اليهـودية، إلى غـزة في فلسطين، ومن غزة خـلال الصحـراء العـــربيـة حتى جبل سيناء، ومن جبـل سيناء حتى مصر من

خـلال بلاد مـدين، ومن مصر إلى المطرية حيث بستـان البلسم، واعطاء أمـان لتراجمة القدس ليصلوا إلى هذا المكان وليس أبعـد من ذلك، وفيما يلي الشروط التي أبرمناها معهم، وأبرموها معنا:

الشرط الأول: على السيد Sabathytanco أي كالينوس الأكبر، أن يتلطف بوعـدنا باتخاذ اجـراءات من أجل اقتيـادنا بسـلام من هنا حتى مصر، وذلك من خـلال الأماكن المتقـدم ذكـرها، وأن يقوم هو نفسـه، بشخصه ذاتيا، بمرافقتنا على نفقته وحسابه من القدس حتى غزة، وعلى هذا الشرط أعطى كلمته بأنه سوف يفعل ذلك.

ثانيا: فيما يتعلق بجميع الخفارات، والضرائب، والعشـور التي سوف يجري دفعهـا فيما بين القـدس وغـزة، هو الذي سـوف يدفعهم عنا من مـاله، وقـد طلبنا هذا منه، على أسـاس معـرفتنا أنه بدون ذلك سـوف نتعرض للنهب بدون حدود من قبل المسلمين على الطريق.

ثالثاً: عليه أن يؤمن لكل حاج حماراً يركب عليه، مع رجال لسوقهم (وهؤلاء السـائقين يعـرفـون أيضـاً باسـم مكارية)، وأن يكون سـائقي حميرنا مسيحيين، وأن يأخـذونا ويخدمـونا من هنا حتى المطرية في مصر، ويقـدمـون الطعام لأنفسهـم ولحميرهم، مالم يصـدف ويقـوم الحجـاج باختيارهم، بإضفاء شيء ما عليهم.

رابعاً: عليه القيام بتأمين نقل جميع حـاجياتنا، مثل الملابس والأوعية، كلهـا على حسـابه الخاص، وذلك من القـدس إلى غزة المتقـدم ذكـرها، باستثناء الخمرة، التي سوف نأخذها معنا على حسابنا.

خامساً: عليه أن يؤمن على حسابه في غـزة مجموعة من الجمال لحمل حـاجيـاتنا إلى جبل سيناء، ومن هناك إلى مصر إلى المطـرية، وعليـه أن يؤمن لنا في غزة نزلاً معقولاً وله حجم مناسب ويضعه تحت تصرفنا.

سـادسـاً: عليـه أن ينيب واحـداً من رفـاقـه، ليتـولى مـرافقتنا مكانه

شخصياً من غزة حتى القاهرة في مصر، علاوة على ذلك رجوناه أن يرسل معنا الفحل، الذي اسمه كاالينوس الأصغر، الذي —كما سنتحدث فيها بعد— غالباً ماارتحل خلال الصحراء مع الحجاج، ونحن ملزمون بأنفسنا بتزويده بالأطعمة من مخزننا.

سابعاً: عليه أن يزود كل حاج بزق، ليحمل فيه الماء خلال الصحراء، لأنه غالباً لايمكن العثور على ماء، على ذلك الطريق لأيام سفر كثيرة.

ثامناً: عليه أن يعطينا إذناً لشراء خمرة في القدس، من المسيحيين الشرقيين، وأن يتدبر تمكننا من حملها على ظهور الجمال أو الحمير، من دون أن نتعرض للإهانة من قبل المسلمين، لأنه مالم تتخذ احتياطات فائقة جداً أثناء شراء الخمرة وحملها، لكن يكون الحجاج بأمان.

تاسعاً: عليه أن يعيرنا ثلاثة سرادقات أو خيماً صغيرة، حتى نتمكن من نصبها في كل مكان في الصحراء، حيث نرتاح، لنحمي أنفسنا من الحر الصادر عن الشمس.

عاشراً: على كل واحد منا أن يدفع إلى الترجمان، من أجل جواز المرور والخفارة، وكل شيء آخر تقدم ذكره مبلغ ثلاثاً وعشرين دوقية، ندفع له نصفها في القدس والمتبقي في غزة، بعدما نكون قد جهزنا الجمال، والأمور الأخرى المتقدم ذكرها، وفقاً للاتفاقية والشروط الواردة فيها.

حادي عشر: ينبغي وضع الاتفاق كله كتابة، وتوقيعه مع أختام السيد حاكم القدس، وكاالينوس الأكبر، وحفظه في ديوانه.

ثاني عشر، وأخيراً: طوال بقائنا في القدس، ينبغي أن يسمح لنا بزيارة الأماكن المقدسة، في داخل المدينة وفي خارجها، أي أن يسمحوا لنا بالدخول إلى كنيسة القيامة عندما نطلب منهم ذلك، وأننا عندما ننطلق

برحلتنا إلى جبل سيناء، أن يأخذوننا إلى بيت لحم، وأن يدعوننا نقيم هناك لمدة أيام، وأن يقتادوننا من بيت لحم إلى حبرون، لنرى المكان الذي صنع فيه آدم من طين، والكهف المزدوج.

لقد كانت هذه شروط العقد الذي أبرمناه، وعانينا من خلافات كثيرة مع اضطراب عظيم قبل أن نتفق على رأي واحد، وأخيراً اتفقنا، وجرى ختم العقد في اليوم نفسه، أمام الحجاج، وإخواننا الرهبان، ومضينا، إنما دفعنا دوقيتين رسماً من أجل الختم.

مغادرة الحجاج القدس وعودتهم إلى الوطن

وفي اليوم نفسه، أي يوم عيد القديسة مريم المجدلية، وبعد انتصاف النهار، جاء السادة المغاربة مع السادة المسلمين، مع حشد كبير من الأتباع المسلحين، وجاء جميع سائقو الحمير مع حميرهم إلى جبل صهيون، ليأخذوا الحجاج من هناك وينزلونهم إلى البحر، وقد جاءوا مع جيش شجاع وقوي للدفاع عنهم ضد الكمائن على طريقهم، ذلك أنهم عرفوا بأن هناك كمائن جرى إعدادها للحجاج على الطريق، وذاع الخبر في جميع أنحاء البلاد، بأن هناك كثيراً من الحجاج في القدس، والناس سوف يكونون مسرورين لمهاجمتهم، ولذلك تآمروا واجتمعوا مع بعضهم.

وفي الوقت نفسه عندما كان كل واحد يسعى نحو الأمام ونحو الخلف، ويعد نفسه للرحلة، أرسل خلفي موالي اللوردات الأربعة الذين قدمت معهم، عندما تركت الوطن، وهم الفارس اللورد جون بارون فون زيمبيرن، والفارس اللورد بير فون ريخبيرغ، والفارس اللورد هينريخ بارون فون ستوفل، والفارس اللورد جون التروخسيس، وأضافوا إلى جميع أعطياتهم المتقدمة لي مايلي: فقد أعطوني كمية من الدوقيات، لأدفع نفقات رحلتي إلى جبل سيناء، ورجوني أن أصلي

للرب من أجلهم عندما أكون في تلك الأماكن المقدسة، وأن أتفحص بدقة تلك الأماكن، وأن أكتب وصفاً عنها، وكررت شكري لهم، وأعطيت واحداً منهم رسالة ليأخذها إلى المعلم المبجل لودويغ فوخس في أولم، فله كتبت واصفاً أوضاعي وأنها تسير على مايرام.

وساعدت بعد هذا خدم موالي لحمل أغراضهم، وحزمها على ظهور حميرهم، وكان بعض الفرسان يغادرون القدس وهم مرضى كثيراً، إلى حد أنهم كانوا غير قادرين على الجلوس على ظهور الحمير، ومن أجلهم جرى جلب جمال، مع سلال كبيرة، علقت كل سلة على طرف من طرفي الجمل، وفي السلال جرى حمل المرضى إلى البحر، وكان هناك واحداً من الحجاج الشباب مريضاً جداً، إلى حد تعذر فيه حمله على ظهر الحمار أو في سلة، لذلك تركوه وراءهم، ولقد مات بعد مغادرتهم مباشرة، وقد دفن في مقبرة الرهبان على جبل صهيون.

والآن عندما باتوا جميعاً جاهزين امتطوا حميرهم، وبدأوا يغادرون القدس، وبكى كثيرون بسبب محبتهم للأماكن المقدسة، التي كانوا الآن كارهين جداً لتركها، وبكى آخرون لانفصالهم عن رفاقهم وإخوانهم، الذين تركوهم خلفهم، الذين كان بينهم لوردات، وخدم لوردات، وهؤلاء عندما نظروا إلي لم يتمكنوا من حبس أنفسهم عن البكاء، وقد بكوا معي، وفي الحقيقة لقد افترقت مع مرارة عظيمة في القلب عن موالي الأعظم لطفاً، فهم لم يكونوا سادة لي، بل أصدقاء لطفاء وإخوان، وقد بكيت خشية من الاضطرابات التي سوف يواجهونها في البحر، أكثر من بكائي على انفرادي ووحدتي، والتعاسة التي أنا مقبل على مواجهتها في عبور المنطقة التي بلا حدود من الصحراء، ومن البحر في رحلة شتوية، فهما معاً مليئتين بالرعب الدائم، لأنني تذكرت التعاسات والشقاء الذي عانى منه الحجاج أثناء عودتهم في حجي الأول، الأمر الذي تحدثت عنه من قبل، وكذلك حتى الوصول إلى البندقية، ولقد

كنت خائفاً جداً، خشية من أن يواجهوا مثل ذلك النوع من الشقاء.

وهكذا غادر الآن باسم الرب قبطانا الغليونين القدس، ومعهما اللوردات والحجاج، وأرسلنا معهما اثنين من جماعتنا، ليجلبا إلى القدس الأشياء التي تركناها خلفنا في الغليونين، وقد وصلوا إلى الرملة، التي تعرف بشكل عام باسم راما، وحجزوا هناك لكثير من الأيام، وتعذبوا بشكل فظيع، لأنه يسكن في تلك المدينة الأسوأ بين أهل الشرور، كما وضح معنا ووضعناه في ص ٣٧٦، ويقوم سكان الرملة دوماً بإزعاج الحجاج المغادرين للأرض المقدسة أكثر من القادمين الجدد.

وبعد مضي هذه الأيام، نزلوا إلى يافا، وعندما كانوا نازلين إلى هناك، عذب المسلمون اثنين من الحجاج كثيراً، وأرغموهم على التمدد لعدة أيام في حانة قذرة في يافا، إليها تقدمت الاشارة في ص ٣٢٩، ففي هذه الحانة أصيب كثير الحجاج بالمرض، بسبب القذارات في المكان، وبسبب الحاجة إلى الضروريات، وبشكل خاص أكثر بسبب العذاب والإزعاج الذي تعرضوا له على أيدي المسلمين، وعلى أيدي أطفال المغاربة، كما سلف وتحدثنا عن ذلك، ولقد عذبوهم أثناء عودتهم أكثر مما فعلوه عندما قدموا، ولذلك وصل الحجاج إلى حالة من الغضب والمرارة ضد المسلمين على طرف البحر، أنهم قرروا وهم صاعدون على ظهر السفينة، قطع أعناق جميع المسلمين الذين سوف يقابلونهم، من كل من الشيوخ والشباب، غير أنهم أرغموا على التخلي عن هذه الخطة، من أجل الذين بقيوا في القدس، لأنهم لو أقدموا على قتل إنسان واحد، لجرى رمينا جميعاً بالسجن، ولربما أقدموا على قتل بعضنا انتقاماً للدماء التي سفكت.

وغالباً ماحدث أنه عندما يكون الحجاج على وشك الافتراق عن المسلمين، يعطي بعضهم للآخر أسماءً سيئة، ويشتم أحدهم الآخر، مع أنهم قد يكونوا أصدقاء عندما يكونوا على الشاطىء، وقد حدث قبل

بضع سنوات مضت، في ميناء يافا، أن غضب الحجاج من المسلمين، وغضب المسلمون من الحجاج، حتى صفّ الطرفان أنفسهم في صفوف قتال، وتحاربوا مع بعضهم بعضاً.

ومكثنا في حجي الأول لمدة أربعة أيام في ميناء يافا، انزعجنا فيها وتعذبنا إلى أبعد الحدود، ومثل هذا فعلوا اليوم حيث عذبوا الحجاج، وكما قلت من قبل، لولا خوفهم على سلامة الحجاج الذين بقيوا خلفهم في القدس، لما كانوا صعدوا إلى ظهر الغليون من دون سفك للدماء، وعلى كل حال، أقلع الحجاج بسلام— من أجل سلامنا— في قوارب كبيرة، وأبحروا إلى الغليونين، اللذان كانا حتى الآن راسيان بدون حركة، في المكانين اللذين تركناهما فيهما في البداية، ثم فك شعبنا الغليونين من أربطتهما، ورفعوا المراسي، وحركوا علامات الغليونين، وأطلقوا حجارة من أدوات قذفهما على أبراج يافا، وغادروا الميناء بصرخات عالية تحدياً للمسلمين.

وعندما وصلوا إلى قبرص، كان عدد كبير منهم مرضى، وقد مات عدد من الفرسان النبلاء هناك، وأقلعا من هناك، وذهبا إلى رودس، غير أن رحلتهما كانت رحلة بطيئة، ولذلك عانيا كثيراً من الحاجة إلى الماء، ولهذا توجها نحو ناتوليا Natolia ، التي كانت أقرب البلدان، وكانت تحت حكم الأتراك، محاولين الحصول على الماء من هناك، ولكن عندما دخلا إلى الميناء، وعرف الأتراك، أنهما كانا غليونين، جالبين لحجاج القدس، لم يسمحوا لهما بالحصول لاعلى الخبز ولاعلى الماء، كما رفضوا منحهما جوازاً بالنزول إلى الشاطىء، بل أرغماهما على المغادرة بسرعة، والابتعاد عن شواطئهما، ولذلك ذهبا آسفين بسبب حاجتهما إلى الماء، وأرسل الرب — على كل حال— لهما مباشرة ريحاً طيبة، حملتهما إلى جزر السيكلاد، حيث رسوا في جزيرة رودس بينها، وهناك أنعشوا أنفسهم، وأقاموا هناك عدة أيام.

وعندما أقلعـا، وابتعدا عن رودس، ووصـلا إلى أعالي البحـار، قابلا فجأة سفينة قـرصـان مسلحـة، مهيـأة لقتـال الغـلايين، ولولا أن الرب أعـانهما بريح جديدة وقـوية جـداً، من المؤكـد أنهما كانا لن ينجيـان من أيدي القرصـان، ذلك أنه عندما كـان القرصـان على مقربة منهما، هبت الريح، وبسرعـة حملت الغليـونين عائـدين إلى ميناء رودس، وأبحـرا في اليـوم التـالي على طريقهما، وعمـلا رحلة طيبـة، حيث عبرا المقـاطعـات الشرقيـة، أي بلاد الاغريق وآخيـا والبقية، حتى وصـلا إلى بارنزو -Pa renzo في استريا ودالماشيـا، وكـانت بـارنزو آخـر مينـاء قبل أن يدخل الإنسـان إلى بحـر البنادقـة، الذي لاتستطيع الغـلايين والسفن الكبيرة عبـوره من دون ريح خـاصـة، وعندمـا لاتهب تلك الريح،لابد لهم من الرسـو والانتظـار في ذلك الميناء لبعـض الوقت، أي حتـى تهب تلك الريح، ولهذا السبب هناك دومـاً في ذلك الميناء أصحـاب قـوارب، مع قـوراب كبيرة، وعندمـا يكون هناك بعـض الناس يريدون الوصـول إلى البندقية بسرعـة، يستأجرون قارباً، ويذهبون به إلى البندقيـة، وبناء عليه عندمـا رأى الحجاج أن الريح لن تهب بشكـل موائم للابحـار في خليج البندقيـة، استأجروا قـوارب، لكن فجأة هاج البحـر، وأخذت قـواربهم تتقـاذفهـا الأمـواج الكبيرة، لذلك لم يبق لديهم أمل كبير بـالنجـاة من الموت، لأنهم عندمـا كـانوا في هذا الاضطراب، انكسرت دفـة القـارب الذي كان فيـه موالي، وباتوا لـذلك في فزع عظيم، وتحركت الميـاه بشدة بوسـاطة الريح، وانصبت عليهم من كل جانب، وانكسرت السـارية في القـارب الذي كان بجـوارهم، وطار الشراع مع عـارضته، وبناء عليـه، كـان هؤلاء الرجـال حتى في خطر أعظم، وقـد فقـدوا كل أمل، لذلك شرعوا بالاعتراف بذنوبهم أحدهم إلى الآخـر، وقطعوا العهود، ونذروا النذور، كما جرت العادة بالنسبة للذين يكونون بمثل هذه المضائق، ومع ذلك تمكنوا على كل حـال، بمعـونة الـرب، الذي حفظهم في ضيقهم، من الرسـو جميعـاً في ميناء البندقيـة، وكانوا مبللين، يرتجفـون وفي حـالة

مزرية.

وقد مكثوا في البندقية لعدة أيام، ثم غادروا المدينة نحو وطنهم، وفي حوالي يوم عيد القديس غول Gall ، كانوا في منطقتهم، وكان قد مات عدد كبير من النبلاء ومن الخدم، لكن ما من واحد من موالي ومن خدمهم قد فقد، باستثنائي أنا وحدي، فقد بقيت بعدهم في القدس، وذلك بموافقة موالي، وكانوا جميعاً مع خدمهم بصحة جيدة، والعدد نفسه الذي سافر، عاد إلى الوطن، وقد جرى الترحيب بهم بسرور لاحدود له، وببهجة، وجاء ذلك من آبائهم، وأزواجهم، وأولادهم، ورفاقهم.

الحمد للرب

هنا نهاية الحج الذي عمل بشكل جماعي إلى القدس.

هنا بداية الحج إلى الأرض المقدسة الذي عمل خلال الأرض المقدسة من قبل الحجاج الذين عزموا على الحج إلى جبل سيناء بعد مغادرة الحجاج الآخرين للقدس وللأرض المقدسة

في اليوم الثالث والعشرين، الذي هو يوم القديس أبو لينارس Apol-linaris الشهيد، اجتمع حجاج جبل سيناء في الصباح الباكر، فوق جبل صهيون، واستدعوا إلى هناك الأب المسؤول، والراهب جون أوف بروسيا، وشيوخ الدير، ورجوهم مع كثير من التوسل، بأن يتكرموا عليهم ويتفضلوا بتعيين غرف لهم، يمكنهم العيش فيها وتلقي الرعاية خلال الوقت الذي سوف يبقون فيه بالقدس، وأثار الأب كثيراً من المصاعب حول هذه المسألة، وعرض أسباباً كثيرة لعدم التمكن من أخذهم في الدير، وعندما سمع الفرسان ذلك، حاولوا الحصول على موافقته بالذهب، وأحضروا عدداً كبيراً من الدوقيات، قدمها أحدهم إلى الراهب جون قائلاً:« خذ ياأخانا هذه القطع من الذهب، وامنحنا مسكناً، أرجوك، واحصل على طعام لنا، وعند صرف هذه النقود، سوف نعطيك بعضاً آخر»، لكنهم حتى بذلك لم يصلوا إلى هدفهم، لأن الأبوين رفضا النقود، وخاطبا الفرسان بهذه الكلمات:« اعلموا ياسادتي الحجاج الفرسان، لقد تعلمنا بطول التجربة أنه أفضل لكم الإقامة في الخارج، وليس معنا في الداخل، ولذلك سوف نساعدكم على اكتراء مكان للاقامة، ووقتها سوف يكون الدير تحت تصرفكم من أجل الأمور الروحية، وإذا ماوقع أحدكم مريضاً، سوف ندعه يرقد في قاعة المعالجة، ولسوف نرعاه ونعتني به، علاوة على هذا، ولكي لانبدو أننا رافضين كلياً لطلبلكم، سوف نستقبل بيننا رفيقكم وزميلكم بالحج، الراهب فيلكس، مثلما استقبلناه لدى أول قدومكم إلى هنا، وهو سوف يقيم بالقلاية التي يشغلها الآن، وسوف يرتاح فيها، وسوف يأكل

ويشرب معنا في قاعـة الطعـام طوال الوقت الذي ستبقـونه في المدينة المقدسة».

ولدى سماع الحجاج لهذا، أقلعوا عن الضغط من أجل مطلبهم الذي كانوا قد بدأوا به، في حين قدمت أنا الشكر للأبوين على لطفهما الذي أبدياه نحـوي، وشغلت وأنا ممتن، مكـان اقـامتي هنـاك، طوال الوقت الذي بقيتـه في القـدس، وكنت أدخل وأخـرج مـع الرهبـان المبجلين، وكأنني مـن أفـراد طائفتهم، وذلك دونما خـوف أو ازعـاج من قبل المسلمين، وهكذا أقمت في الدير، وقـد جهـزت بشكل رائع، وذلك من دون نفقات.

واكترى الآن بقيـة الحجـاج مسكنا في بيت الفحل، أي كـالينوس الأصغـر، الذي كـان مسلماً وكان هذا البيت قـائماً في اطار أحـواز جبل صهيون والقـدس، على الرابية التي تنزل إلى الضريح المقـدس، وكان في هذا البيت ثلاث قاعات إلى جانب قـاعة صغيرة منفردة، وكان هناك في الوسط قـاعـة أو سـاحـة ذات حجم لابأس به، حيث توجد دوالي مع عناقيـد عنـب، وكـان تحت البيت صهـريج كبير، مـن أجل أعمال الاستحمام الاحتفـاليـة للمسلمين، وقـد أعطى كـالينـوس قـاعتين من قاعات بيتـه إلى الحجاج، وقد احتفظ مع أخيه بالقاعة الثـالثة مع أثاثها، وفي المدة التي أقام بها الحجاج في البيت، لم يأكل هذين الرجلين ولم يناما في البيت، بـل تركـا البيت تحت تصرف الحجـاج، ولذلـك دخلوا وخرجـوا، وناموا وأكلوا في البيت، وكـانوا يتابعون مـاكانوا يحتـاجونه، ويطبخونه حسبما يرضيهم، وقسم الحجاج أنفسهم إلى ثلاث مجموعات، حتى يكـون بذلك وضعهـم أفضل، وأعظم تـزويداً بالضروريـات أثناء السفـر بالصحراء، كما أنه بذلك يكون حفظ السـلام بينهم أحسن، لأنه يكون أمراً أسهل بين مثل ذلك العـدد، وبقيت— على كل حال— الفئة الأولى والفئة الثـانية، دومـاً مع بعضها، ومثل ذلك بقيت الفئـة الثالثـة

لحالها.

وكـان في الفئة الأولى ستـة حجـاج هـم: اللـورد جـون، كـونت أوف سولمسSolms الذي كان الأصغـر سناً بين الجميع، لكن الأكثـر نبالة من حيث الميلاد.

— اللورد برنارد فون بريتنباخ Braitenbach، الذي هو الآن عميد الكنيسة (الكاتدرائية) في مينز.

— اللورد فيليب فون بينخن، الذي كان فارساً، ووصياً على الكونت المتقدم الذكر.

— ايرهارد، وكـان تابعـاً، ووظيفتـه حمل السـلاح، كما كان خـادمـاً للكونت

جون، ويدعى هنجي Hengi، وكان متعهداً للمؤن وطباخاً خبيراً.

جون كنوس Knuss، وكان مترجماً إلى اللغة الايطالية.

وكان في الفئة الثانية، ثمانية حجاج، أسماؤهم كما يلي:

اللورد مـاكس، وكـان يكنى بسيناسينوسSinasinus، وهو بارون فون روبلستاين Roppelstein.

اللورد فرديناند، بارون فون ميرنا وMernawe، وكان فارساً.

المعلم كاسبر فون بولاخ،Caspar von Bulach، وكان فارساً.

المعلم جورج ماكس، وكان فارساً.

المعلم نيقولا(عرف بالميجر انكروت Inkrut)، وكان فارساً.

كونراد، وكان حلاقاً، وعازفاً على المزمار، وطباخاً، ومتعهداً للمؤن

الأب بول جـوجلنغـرGuglinger وكـان كـاهناً من طائفــــة

الفرنسيسكان

الراهب توما، وكان راهباً علمانياً من الطائفة نفسها، وكان رجلاً بارعاً بكثير من اللغات.

وكان في الفئة الثالثة، ستة حجاج، هاكم أسماءهم مرتبة:

اللورد هنريخ فون سخونبورغ Schauenburg (كذا)، وكان فارساً.

اللورد كاسبر فون سيكولي Siculi، وكان فارساً.

اللورد بيتر فون مورسباخ Morspach، وكان فارساً.

المعلم بيتر فلسخ Velschوكان فارساً.

المعلم جون لازينوس Lazinus ، رئيس شمامسة، وقانوني كنيسة ترانسيلفانيا في هنغاريا.

والراهب فيلكس، وكان من طائفة الرهبان المبشرين في أولم، وهو كاتب هذه الرحلات والجولات، وهو أيضاً الذي جلب رئيس الشمامسةالمتقدم الذكر إلى فئتنا، وفي الحقيقة هو لم يكن ليقوم بهذا الحج لولا ثقته بي، لأنه كان هنغارياً تماماً، ولم يفهم كلمة ألمانية واحدة، مع أنه كان بارعاً باللغات اللاتينية، والسكلافونية، والايطالية، والهنغارية، وكان رجلاً من أصل نبيل، وفاضلاً، ومثقفاً، وخطيباً عظيماً، وعالماً بالرياضيات، وقد بقي، كما ذكرت من قبل، إلى جانبي، الأمر الذي سنراه فيما بعد أيضاً.

ويتوجب علي في هذا المكان، أن أصف الفحل، الذي هو كالينوس الأصغر، الذي في بيته أقام الحجاج، والذي تقدمت الاشارة إليه من قبل، وسوف تأتي فيما بعد، فقد كان للمشفى وللحجاج في القدس معلمين، هما الأعلى والأدنى، وكان اسم الأعلى Sabathytanco،

وكـالينوس الأعلى، أي معلـم المشفى والحجـاج، وكـان كـل من هذين الكالينوسين يعـرف بـاسم الترجمان، أي حـامي الحجـاج المسيحيين، ودليلهم، والوصي عليهم، وفي الحقيقة، كان في كـل مدينة أناساً منحهم السلطان امتيـاز، قيـادة المسيحيين خـلال البـلاد، وحمايتهم من الأذى، وكـان هـؤلاء الناس مـوظفين في الدولة لـديهم سلطات منحت لهم من قبل السيد السلطان، وهم يعرفون باسم التراجمة.

ومثل هذا، وبالطريقة ذاتها، كـان لليهود تراجمتهم، أو كالينوس، وفي الأمـاكن حيـث يتـوفـر عـدد كبير من الحجـاج، يكون هناك بـالعـادة كالينوسين: أعلى وأدنى، وذلك على سبيل المثـال في كل من القدس وفي القـاهرة، وهذين خـاضعين أحـدهما لـلآخـر، ويتلقى الأدنى راتبـه من الأعلى، في حين يستخرج الأعلى راتبه من الحجاج، وعندما يكون هؤلاء التراجمة جيدين ومستقيمين، كل شيء يسير بشكل جيد مع الحجاج، كما سـوف نـرى فيها بعـد، وكـان الترجمان الأعلى في القـدس -Sa bathytanco رجـلاً عجـوزاً وطويـلاً، وثريا، وصـاحب معنويات عاليـة، غير أنه كان قـاسياً على الحجاج، يتعجـل بهم دوماً من مكان إلى آخر، ويستخـرج المال منهم بشكل محزن، علاوة على ذلك، هو لم يحافظ على عقـوده بشكل جيـد، وخـرق كثيراً من وعـوده، ومـع هذا حمانا باخـلاص كبير، وبذل قصـارى جهـده للدفـاع عنا، عنـدمـا طلبنا منه المساعدة.

وكان كالينوس الأدنى في القدس، أي الفحـل، رجلاً متقدماً بالسن، وأعتقد أنه قد تجاوز الثمانين، وكـان رجلاً حكيماً، ومسلماً مستقيماً، مليئاً بالمحـاسن والفضائل، لكنه قليـل المعرفـة بالإيمان الحقيقي، أي أن جميع الناس من الممكن انقـاذهم بالايمان حيث ولدوا، شرط البقـاء ظاهرين، في حين أعلن هو أن الذين يتخلون عن إيمانهم، سـوف يكونون مدانين، ولذلك أدان المماليك الذين كـانوا من أهل إيمانه، وكانوا قـد ارتدوا عن

الإيمان المسيحي، وكــذلك جميع المسيحيين الشرقيين، فقــد قــال بأنهم يستحقون الادانة واللعنة، لأنهم جعلوا أنفسهم مثل المسلمين، وأقسموا يمين الولاء والتبعية لملوكهم، وقد حمل الرأي نفســه حول اليهود الذين سكنوا معهم، وقد قدر تقديراً عــالياً إيماننا وخلاصنا، لكنه اعتقد أنه لو تخلى عن إيمانه، لايمكنــه نيل الخلاص بإيماننا، كما أنه اعتقــد أن مــامن مسيحي مــرتد، يمكنه نيل الخلاص بإيمانه هو، وغــالبــاً ما تحدثت معــه حول هذا الموضوع، لأنه عرف اللغة الإيطالية، وبعضاً من اللغة الألمانية المكسرة، التي تعلمها من الحجاج، الذين عبر معهم صحراء جبل سيناء ثمان وأربعين مرة.

وقد أبدى حباً عظيماً نحو المسيحيين مــن بلاد ماوراء البحار، إلى حد أنه كــان يخاطر بحيــاته معهم، لابل أكثــر من ذلك، كــان على استعــداد لوضع نفســه في خطر الموت مــن أجلهم، ولهذا نجــده وإن كــان رجــلاً متقــدماً بالسن، ومشهــوراً بلطفــه، قد قــام على الرغم من ذلك، بعبــور الصحراء مع الحجاج، وليس في ذهنه الحصــول على أية مكافأة، بل كان هدفه فقط رفقتهم، وكان ينزعج كثيراً، لدى تفكيره بالكيفية التي يمكن قيادة الحجاج بها، بعد موته، خلال الصحراء، وخلال هذه المناطق، وفي الحقيقة أنا شخصياً انزعجت حول هذا، وفزعت من موته، مثلما فزعت من موت الراهب جون الذي تحدثت عنه من قبل.

وزار هذا الكالينوس البندقيــة، وكـــذلك بلاط الامبراطور فــردريك الثــالث، كمازار روما في أيــام بابوية البابا نيقــولا الخامس، وحــدث هذا وفق الطريقة التــالية: فقد قــاد في إحدى السنوات، بعض الفــرسان عبر الصحراء، كان بينهم فارس ألماني قوي، أحبــه حباً عظيماً، وغالباً ماإعتاد على حثــه، ورجــائه، أن يــذهــب معه إلى ألمانيــا عبر البحــر، وأنه ســوف يحسن إليه ويعامله معاملة جيــدة، ويبقيه سالماً، لكن المسلم لم يوافق على هذا،وكــان عندمــا ذهبــا إلى القــاهرة حيث اعتــاد كــالينوس على ترك

حجاجـه والعودة ثانيـة إلى القدس، سأل هذا النبيل كـالينوس أن ينزل معـه حتى الاسكندرية ويبقى برفقتـه حتى هناك، وهناك سـوف يدعـه يذهب.

وعندمـا كانا في الاسكندرية، طلب النبيل من قبطان الغليـون، الذي عـزم على العودة على ظهـره، أن يعلمـه لوحـده باليوم وبالسـاعـة التي سـوف يقلع الغليـون بها، وبناء عليـه، بما أن الغليون كـان سيسـافـر في وقت متأخـر من احـدى الليـالي، جلب ذلك النبيـل في تلك الأمسيـة كالينوس إلى ظهـر الغليون معه، ولم يعرف كـالينوس بأن السفينة سوف تقلع في تلك الليلة، وظن أنه سوف يعود في الصباح إلى المدينة، لكن في ظلام الليل أقلعت السفينة بصمت، ولاقت ريحاً طيبـة، فقطعت مسافـة كبيرة في البحر، وهكذا أرغم المسلم على البقاء معهم، وعبور البحر.

وأخذه الفـارس إلى كل من الامبراطور والبابا، وحـدثهما عن محاسن الرجل وعن تقواه، إنما كان من غيرالممكن تحويله عن دينه، وهكذا أعيد إلى البندقيـة، وسـافـر من هناك مـن جـديد إلى وطنه، ومنذ ذلك الحين أظهر نفسه حارساً أعظم اخـلاصاً لجميع المسيحيين، وأكثر مما كانه من قبل، لأنه أحضر معـه هدايا ثمينة مـن الامبراطور، ومن البـابا، ومن النبـلاء، واعتـاد أن يتحـدث لأبناء وطنـه عن الكـرم العظيم للمسيحيين،وعن أمجادهم.

وكما قلت من قبل، سكـن السـادة النبـلاء من الحجـاج في بيت هذا الرجل الأمين، الذي إليه نزلت كل يوم، وكنت أدخل إليه وأخرج منه، كما أشاء، ويكفي ماقيل حول هذا الموضوع.

وفي اليـوم الرابع والعشرين،عقـدنا نحن الحجـاج اجتماعـاً على جبل صهيون، لنبحث معاً بشؤون الحج الذي عزمنا على القيام به في الأرض المقدسـة، وعقدنا هذا الاجتماع،لأننا لم نرغب بأي حـال من الأحوال

أن نستسلم للكسل في تلك الأيام التي كنا سنمضيها في الأرض المقدسة، بل أن نقوم بالحج إلى هذا المكان وإلى ذاك، ووافقنا جميعاً على هذه الرغبة، لكن الشيطان، ماكان ليسمح لنا أن نفعل ذلك، فقد بذر الخلاف وبدا الحجاج مختلفون واحدهم مع الآخر، ويتجادل أحدهم مع الآخر حول الأماكن المقدسة التي يودون قصدها، واختلفوانتيجة لهذا حول مسائل أخرى أيضاً،وفي الحقيقةإنهم امتلكوا مطبخين في اطارالبيت المتقدم الذكر: مطبخان،وطباخان، وشراء منفصل للميرة، مع أن ذلك كله كان من الممكن صنعه بشكل أسهل وأحسن تحت ادارة واحدة، واتحد — على كل حال — سيدا الفئة الأولى والفئة الثانية مع بعضهما، وكان لهما نار واحدة، وإدارة مطبخ واحدة، لكن سادة الفئة الثالثة — التي أنا انتميت إليها — عاشوا منفصلين بأنفسهم، وكان الفارس الذي اسمه بيتر فلسخ هونفسه الطباخ والمسؤول عن تأمين الميرة للفئة، وقد اكترى اثنين من اليهود الألمان الفقراء لمساعدته، حيث كانا يذهبان معه إلى السوق لشراء الذي كنا نطلبه.

وكان بعض الحجاج متشوقين كثيراً لزيارة الأماكن المقدسة في الجليل، أي لزيارة قرية الناصرة، وجبل الطور، ومرج ابن عامر الكبير، وبحر الجليل، وكفرنا حوم، وكوروزين، وهو الجبل الذي فيه بشر المسيح، وفيه أطعم الناس، ودمشق، وغير ذلك، ولكن عندما تشاورنا حول هذه القضية مع الأب المسؤول، وكالينوس الأكبر، الذي كان ترجماننا، أخبرانا بوجود كثير من العوائق تقف في وجه هذا الحج، وأنه يتوجب علينا دفع مبالغ كبيرة لشراء سوء معاملة المسلمين، الذين قيل عنهم بأنهم في تلك المناطق معادين كثيراً للمسيحيين، إلى حد أن الحجاج نادراً مايتجرأون على الذهاب إلى الجليل، وأعلن لنا الأب المسؤول، أنه يوجد في الحقيقة في هذا الحج مخاطر أعظم من عبور الصحراء إلى جبل سيناء، وعندما سمع بعض الحجاج هذا سحبوا

اقتراحهم، وتخلوا عن الحج إلى الجليل، بيد أن آخرين كانوا راغبين بالذهاب، على الرغم من المخاطر التي أخبرنا عنها، إنما على الرغم من انفصالنا الشديد إلى فئتين، تمّ التخلي عن هذا الحج، لأنه لايمكن لفئة واحدة دون الأخرى تحمل النفقات العظيمة، فضلاً عن هذا قام الذين لم يرغبوا بالذهاب بالشكوى ضد الذين قالوا إنه سيتوفر وقت لنا قبل العودة من الجليل للشروع بحجنا إلى جبل سيناء، وأننا في هذه الحالة علينا أن ننتظرهم، الأمر الذي ماكانوا ليقوموا به، وفي هذه النقطة كانوا مخطئين، لأنه كان بامكانهم الذهاب إلى هناك ثلاث مرات قبل أن ننطلق من القدس، وذلك كما سيظهر فيما بعد، وهكذا حدث أنه بسبب الانقسام بين صفوف الحجاج، تُركت أشياء كثيرة دونما إنجاز، كان بإمكاننا إنجازها بسهولة، لو أننا كنا على رأي واحد، لأننا لو اتفقنا، ودفع كل واحد منا خمس دوقيات، لكان من الممكن أخذنا خلال الجليل كله، لابل ليس خلال الجليل فقط، لابل حتى أنطاكية، التي كانت تعرف في الماضي باسم ربلة، كما ورد في سفر الملوك الثاني: ٢٥/ ٢٠—٢١.

ولقد رغبنا فوق كل شيء برؤية الناصرة، التي قيل بأنها في هذه الأيام قرية صغيرة، لايعبر فيها عن الاحترام للمسيح أو لعبيده، لكنها كانت في الماضي، في أيام القديس جيروم كرسي رئاسة أساقفة محترمة، ترأس عليها القديس سيلفانوس Sylvanus ،حسبما جاءنا الخبر عند سيريل، في رسالته إلى أوغسطين،« حول معجزات القديس جيروم».

وفي اليوم الخامس والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس جيمس الرسول استيقظ رهبان جبل صهيون قبل شروق الشمس، وأخذوا كل شيء كانوا بحاجة إليه من غرفة المقدسات وخرجوا من الدير، وكنت أنا معهم، وقصدوا كنيسة القديس جيمس، لأقامة قداس هناك، وكنا

قـد قـدمنا من قبل وصفـاً لهذه الكنيسـة، وعندمـا وصلنا إلى الكنيسـة، تركت الرهبـان يدخلون إليهـا، وركضت أنا مسرعـاً، ونزلت إلى مكان سكنى الحجـاج، وقرعت على البـاب بحجـر، وأيقظتهم من أجل سماع القـداس، وصعدت ثانيـة معهم إلى الكنيسة المتقـدمة الذكـر، ورتلنا في بيعة إعدام القديس جيمس قداساً مهيباً، لابل أقمنا قداساً تلو آخر فوق ذلك المذبح ذاته، ورجعنا إلى أماكننا التي فيها أقمنا من أجل الاستراحة في ذلك اليوم، الذي كـان يوم سبت، وهو اليوم الذي حـافظ المسلمون عليه، وعدوه مقدسـاً مثلما نحافظ نحن على يوم الرب، ولم يسمحوا لنا بالتجـول في أنحـاء المدينة، في مثـل هذا اليـوم، لأنهم يقيمـون صلوات مقدسة وقتها. (١)

وفي اليوم السـادس والعشرين، الذي كان يوم عيد القـديسة حنة، أم العذراء الأعظم مباركة، استيقظنا باكراً، وذهبنا إلى الكنيسة القائمة فوق مكان بيت القـديسـة حنة، الذي فيـه حملت بـأم الرب، ورجـونا الذين سكنوا هناك بالسماح لنـا بالدخـول، لكنهم لم يستجيبـوا بأي شكل من الأشكال، وبناء عليـه صلينا للقـديسة حنـة، وتعبدنا ابنتهـا من خـارج الأبواب، وقد سلف لي الحديث عن هذه الكنيسـة، ولسوف أتحدث عن المكان بعد وقت قـريب، وغادرنا الآن تلك الكنيسـة، وعبرنا من خلال باب اسطفـان، ونزلنا إلى وادي شعفـاط، مـن أجل أن نقيم قـداسـاً في كنيسة صعود العذراء المباركـة، لكن عندما وصلنا إلى الكنيسة وجدناها مغلقة، ولم يكن بإمكاننا الدخول إليها، ولذلك تركناها وصعدنا إلى قبو صلاة المسيح وآلامـه، حيث زيّنا مذبحاً، وأقمنا قـداساً، علماً بأن هذا لم يحدث مثله من قبل، أي أن تقيم الطقـوس اللاتينيـة قـداسـاً هناك، هذا ولقد سلف لي أن قمت بوصف هذا المكان.

ولدى الفراغ من قداساتنا، قمنا بزيارة الأماكن المقدسة الأخرى على

١— وهم فابري، وكان عليه أن يقول بأن اليوم هو يوم الجمعة.

جبل الزيتون، إنما عندما وصلنا إلى كنيسة صعود ربنا، أوقفنا واحد من المسلمين، ولم يسمح لنا بدخول الكنيسة مالم ندفع له مالاً، وهددناه بأننا سوف نشتكي ضده إلى السيد جانم حاكم القدس، غير أنه لم يعبأ بذلك، وهكذا عدنا إلى مسكننا لتناول طعام الغداء على جبل صهيون.

وفي اليوم السابع والعشرين، الذي كان الأحد التاسع بعد التثليث، قدم جميع الحجاج باكراً إلى القداس على جبل صهيون، وهو القداس الذي توليت أنا ترتيله لصالح الراهب سيرافينوس Seraphinus، القانوني الذي كان مسؤولا عن السدة في ذلك الأسبوع، ذلك أنه رجاني بتلاوة القداس عوضاً عنه، وتوليت إدارة القداس إلى جميع الرهبان الذين ليسوا في طوائف الرهبان، ولقد وافقت على هذا بسرور، وعددته فضلاً خاصاً خصصت به حين نظر إليّ على أنني جدير بتلاوة قداس للدير في المكان الذي نعتقد أن هذا القداس الذي هو قداس القربان، قد تأصل بالأساس في هذا المكان، وأنني حين أشارك بذلك القداس مع إخواني أفعل ذلك في المكان نفسه الذي شارك فيه المسيح مع تلاميذه بقداس أكل جسده على هذه البقعة، كما تحدثت من قبل في ص ٤٢٠، وبعد الغداء استرحنا.

ونزلت في اليوم الثامن والعشرين باكراً مع المسؤول عن التموين إلى المدينة، وقصدنا السوق، وشارع الطباخين، حيث رأيت أشياء كثيرة للبيع، وحشداً عظيماً من الناس، وكثيراً من المطابخ، للناس الذين لايطبخون في بيوتهم، كما يفعلون في ديارنا، بل يبتاعون طعامهم من المطابخ العامة، الذين يعدون اللحوم بنظافة متناهية في مطابخ مفتوحة، ولايمكن رؤية أية امرأة هناك قريباً من النار، لابل ما من امرأة تملك الجرأة حتى على دخول هذه المطابخ لأن المسلمين يكرهون الأطعمة المطبوخة من قبل النساء، كراهيتهم للسم، ولذلك لايوجد في الشرق كله امرأة تعرف كيف تطبخ كعكة، بل الرجال وحدهم هم الطباخون،

وتحتاج المطابخ في هذه المناطق جدراناً عامة، وذلك بسبب جفاف البلاد، والخشب نادر، ولذلك من غير الممكن أن يكون هناك مطبخاً في كل بيت، مثل الحال في بلادنا، وذلك بسبب الحاجة إلى الخشب، وبعد رؤيتنا لهذا كله، عدنا إلى أماكن الإقامة، وتناولنا الغداء بعد القداس.

وفي اليوم التاسع والعشرين، اشترى كل حاج لنفسه فراشاً محشواً بالقطن، وذلك لصالحنا، من أجل استخدامهم في القدس، وفي خيمنا في الصحراء، وقد تدبرت صنع واحداً لي أيضاً عندما كنت في القدس، وقد حملته معي عبر الصحراء، وعبر البحر إلى البندقية، ومن البندقية إلى أولم، إلى قلايتي الخاصة، حيث أنني مددتها بمثابة أثر مقدس من آثار حجي المقدس.

وبعد الغداء ركب الأمير جانم حاكم القدس، والسيد فكاردينوس Vaccardinus، والسيد Sabathytanco ، والأعيان المسلمون،وصعدوا على ظهور الخيول إلى جبل صهيون للترويح عن أنفسهم، لأن الهواء على جبل صهيون دوماً منعش أكثر منه في القدس، ولهذا اعتاد أعيان الناس على الصعود إلى هناك بين آونة وأخرى، لإنعاش أنفسهم، وللتمدد في كنيسة الرهبان، التي هي دائماً باردة، وعندما قدموا، مدّ الرهبان زرابي فوق البلاط، مع فرش ومساند، وجلس السادة هناك، واستندوا بمرافقهم فوق الفرش، لأنه لم تجر العادة في هذا البلاد بالجلوس فوق المقاعد، أو فوق الكراسي بظهر أو بدون ظهر، بل يضطجعون على الأرض، وإذا كانوا أغنياء ومن أعيان الناس، يجري مدّ زرابي من أجلهم.

وعندما استقربهم الحال جلب لهم الرهبان أطعمة في صحون من المعدن، ومعجنات صنعت مع التوابل ،وبعض الأرغفة من خبزهم، وأقراص معمولة بالعسل، وفواكه وأعناب، ولوز وبطيخ، مع ماء بارد للشرب، لأنهم لايشربون الخمرة، وأكل هؤلاء السادة بكل سرور، وفي

الوقت نفسه وقف الرهبان الفرنسيسكان ونحن الحجاج من حولهم وتولينا خدمتهم، في حين وقف خدمهم من المسلمين من حولنا، وقد سألونا أسئلة كثيرة من خلال مترجم، وسمعوا أجوبتنا بإعجاب، وناقشوا بجدية، أحدهم مع الآخر ماسمعوه، لأنهم كانوا قوماً متقدمين بالسن، وعليهم سمات الوقار، مع لحى طويلة، وذوي خبرة واسعة، ذلك أنهم كانوا أعيان حكام المدينة المقدسة، ولهم حضور أصيل.

وحدث في اليوم المتقدم، أن بعث الأب المسؤول باثنين من الرهبان من جبل صهيون، إلى بيت لحم، لكن مسلماً انقض عليهما على الطريق، وضربهما ضربات كثيرة، حتى وصل الأمر إلى سفك الدماء، واشتكى الأب المسؤول من هذا المسلم، إلى هؤلاء السادة، الذين وعدوه بمعاقبته، وأنهم سيتعاملون معه بشكل يمنعه من إلحاق الأذى بأي مسيحي مرة أخرى، وبعد الفراغ من سماع شكوى الأب المسؤول، تقدمنا نحن الحجاج، وعرضنا شكوانا ضد المسلم الذي لم يسمح لنا بالدخول إلى كنيسة صعود الرب، حسبما عرضنا ذلك تحت عنوان اليوم السابع والعشرين، ورجوناهم السماح لنا بزيارة الأماكن المقدسة من دون دفع، وقد أجابوا بأنه ينبغي علينا أن لاندفع أي شيء إلى الذي يتولى حفظ باب كنيسة الصعود، وأنه من الآن فصاعداً لن يطلب منا أي شيء، وفيما يتعلق بزيارة الأماكن المقدسة لقد قالوا:« يمكنكم الذهاب إلى أي مكان تريدون، وحسبما ترغبون، ونحن ننصحكم أنكم كلما سرتم في الخارج، ليكن معكم بعض المسلمين، لكي لايتمكن الأولاد الأشقياء، الذين لايمكننا ضبطهم، من ازعاجكم»، وهكذا مضى ذلك اليوم، وفيه أكلت أثناء كل من الغداء والعشاء بشراهة فائقة من البطيخ، الأمر الذي اقترفته لايذاء نفسي.

وكنت في اليوم الثلاثين مريضاً طوال اليوم، حيث عانيت من حمى حادة جداً، وكنت ملتهباً بحرارة فائقة، وأعتقد أن سبب ذلك، هو

البطيخ، الذي هو في القدس كبير جداً، وعظيم الحلاوة، وقام— على كل حال— الراهب بابتستا Baptista ، المسؤول عن قاعة المعالجة، بالاعتناء بي بشفقة، وجعلني على الفور أشفى، بجعلي أتعرق، وهكذا لم أغادر في ذلك اليوم قلايتي.

وسمعت في اليوم الحادي والثلاثين بأن اثنين من إخواني الحجاج كانا مرضى، وأنهما يسيران وهما متكئين على عصا، ونزلت من جبل صهيون، وأنا عظيم الاضطراب والانزعاج بسبب ضعفي، وسرت حتى مسكن الحجاج، مع أن الطريق صعوداً ونزولاً طويل نسبياً، وبما أنني كنت مريضاً، فقد زرت قوماً مرضى، وبقيت معهم طوال اليوم، وفي المساء تولى اثنان من الفرسان مرافقتي صعوداً، وسط رعاية كبيرة، حتى أنني عدت سليماً من جديد، إلى مكاني في جبل صهيون، حيث وجدنا أهل الدير كله مشغولين بطوافهم اليومي حول الأماكن المقدسة، وبناء عليه ذهبت معهم، مثلما اعتدت أن أفعل في أوقات أخرى، وعدت مع إخواني للهجوع في قلايتي.

وكان لرهبان جبل صهيون عادة مقدسة وجديرة بالثناء، وهي قيامهم كل ليلة، بعد غناء القداس، والفراغ منه، القيام بزيارة الأماكن المقدسة، للحصول على الغفرانات وفق الطريقة التالية: يذهبون أولاً إلى المذبح العالي، في المكان الذي تأسس فيه القربان، وهناك يسجدون بأنفسهم ويقبلون المكان، ويحصلون على غفرانات، ومن هناك يذهبون إلى مكان غسل الأقدام، وبعد هذا يذهبون فيطوفون حول الرواق، إلى المكان الذي أنزل إليه الروح القدس، ومن هناك ينزلون إلى بيعة القديس توما الرسول، ويعبرون حول الرواق، ويدخلون إلى بيعة القديس فرانسيس Francis الملاصقة لباب الرب وعموده، وقبلوا هنا الباب، وخرجوا من الرواق إلى المكان الذي قام فيه موضع اعتكاف مريم العذراء المباركة، وتابعوا من هناك إلى المكان الذي وعظ فيه

المسيح، وهناك استداروا بأنفسهم إلى ضريح داوود والملوك الآخرين، وتابعوا من هناك إلى مطبخ الرب، ومنه إلى ضريح القديس اسطفان، ومن هناك أخذوا يستديرون حول المنطقة، وينزلون إلى كهف توبة داوود.

وشرعوا يتابعون من هذا الكهف سيرهم، إلى زاوية جبل صهيون، ثم ليستديرون بأنفسهم نحو الشرق على ركبهم الجاثية، أي باتجاه جبل الزيتون، فيتعبدون أماكنه المقدسة بصلاة واحدة قصيرة، ثم يلقون نظرة على وادي شعفاط، ويصلون، وهم ينظرون نحو كنيسة صعود العذراء المباركة، من أجل أنه بفضائلها وشفاعتها يمكن أن نحظى هنا بلقاء قاضينا بسرور فوق تلك البقعة.

وكانوا يبقون بعد هذا فوق البقعة نفسها، ويستديرون بأنفسهم نحو الشمال، ومدينة القدس المقدسة، وينظرون نحو هيكل سليمان المقدس، ثم يلقون نظرة واحدة على كل الأماكن المقدسة في المدينة المقدسة، وبعد الفراغ من هذا كانوا يستديرون بأنفسهم من الشمال نحو الغرب، أي نحو كنيسة الضريح المقدس للرب، التي هي كنيسة القيامة؛ والتي لايمكن رؤية شيء منها باستثناء الأجزاء العالية من برجها، وذلك بسبب وقوف جبل صهيون في الطريق، ولدى تطلعهم إلى هناك كانوا يصلون بتقوى عظيمة، وينهضون بعد هذا، ويصلّون عندما يصبحون أمام بيت عناس، الكاهن الأعلى، ويمضون من هناك نحو بيت كيفاس، ويقدمون صلواتهم هناك، ويديرون وجوههم نحو الدير، ويصلون إلى موضع افتراق الرسل.

ثم كانوا يتابعون سيرهم من هناك إلى بيعة القديس يوحنا، حيث اعتاد أن يقيم قداساً، وأن يقوم يومياً بإقامة قداس قربان إلى مريم العذراء المباركة، وعبروا من تلك البيعة إلى بيت العذراء المباركة، وذلك حيث أنهت أيامها، وكانوا يذهبون من هناك إلى المكان الذي جرى فيه

اختيـار القديس ميتيـاس رسولاً، وحيـث أيضاً جـرى اختيار القـديس جيمس أسقفاً، وحيث أيضاً جرى اختيـار سبعة رجال جيدين شمامسة، وعبروا من هناك إلى مقبرة إخـوانهم الذين دفنوا هنـاك، فخـاطبـوهم وصلوا من أجلهم، وبعد فـراغهم من عملهم هذا، كانوا يعـودون ثانية من خـلال باب الدير، ومن ثم يأخـذ كل واحـد نفسـه إلى قـلايتـه للاستراحة، ووفق هذه الطريقـة طفت كل يوم معهم، عندما كنت مقيماً معهم.

الفصل الخامس

ويحتوي: على أعمال الحجاج خلال شهر آب، مع وصف لمختلف الأماكن في الأرض المقدسة التي إليها ذهبوا، كما ويحتوي على مسائل أخرى كثيرة مفيدة

جلب لنا شهر آب، في يومه الأول عطلتين مزدوجتين: كانت أولاهما، اطلاق سراح القديس بطرس الرسول وفك أغلاله، والثانية كانت عطلة عيد محمد(صلى الله عليه وسلم)..... والعيد الأول معروف لدينا، أما الثاني فغير معروف لدينا، إنما له مهابة عظيمة لدى المسلمين، الذين يحافظون على عيد اعطاء شريعة محمد(صلى الله عليه وسلم)، لأنه في ذلك اليوم أعطيت شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم).... ونشرت بين الناس، وأيضاً في ذلك اليوم تدفق القرآن بحر (الفضائل) فغمر العالم كله تقريباً، ونشر بين الناس....

وكان هذا اليوم الأول من آب، يوم جمعة أيضاً، وقد عدّ هذا اليوم مقدساً لدى المسلمين خلال السنة، ليس فقط لأنه اليوم السادس من الاسبوع، بل بسبب.....(١) ولهذا لم نتجرأ في هذا اليوم على اظهار أنفسنا خارج الأبواب، بل بقينا بعيداً عن الأنظار في أماكننا، وذلك مثلما يفعل اليهود يوم الجمعة الحزينة، فيغلقون أبوابهم على أنفسهم، ولايتجرأون على التجول في الطرقات، وبسبب عيد محمد(صلى الله عليه وسلم) هذا، لم نكن قادرين على الاحتفال بعيد القديس بطرس في الأغلال بشكل لائق، لأن رفاقي الحجاج، لم يتجرأوا على الصعود من مسكنهم إلى جبل صهيون، لسماع القداس، وأرغمنا نحن على تمضية ذلك اليوم بهدوء بدون سماع أي قداس، لأن المسلمين قد قرروا أنهم كلما احتفلوا بيوم عيد أو بيوم صيام، أو امتنعوا عن الطعام، أو حافظوا على أي يوم على أنه مقدس، سواء أكان لفرح أو ترح، كانوا يرغمون

١— قمت باسقاط العبارات النابية.

جميع الغرباء والحجاج على فعل مثل ذلك، ومثل هذا يفعلون أيضاً فيما يتعلق بمسألة الخمرة: فبما أنهم لايستخدمونها هم أنفسهم، فإنهم لايسمحون للحجاج بشربها في بلادهم، إلاّ بالسر، عندما لايراهم أحداً.

وفي اليوم الثاني الذي كان يوم القديس اسطفان، البابا والشهيد، وبعد سماعنا للقداس، أخذنا بعض الطعام، والتقينا عند جبل صهيون، مع نية الذهاب حول مدينة القدس كلها من الخارج، لنرى دفاعاتها، أو بالحري خرائب دفاعاتها، دون أن نأبه بالحرارة العالية جداً، وبأشعة الشمس المحرقة، لأنه لم يكن بإمكاننا فعل ذلك إلاّ وقت حرارة الشمس، ففي ذلك الوقت يبقى المسلمون في الظل، ففي الصباح الباكر، وفي المساء، عندما تكون الشمس أقل حرارة، كانوا يذهبون إلى حدائقهم، ويمشون من حول خارج الأبواب، ووقتها كانوا لايسمحون لنا بالطواف حول المدينة، ولهذا اخترنا ساعة راحتهم، لنعمل ذلك أثناءها.

وبدأنا طوافنا كما يلي: عبرنا أولاً وسرنا حتى برج داوود على الجانب الغربي، وذهبنا من هناك إلى باب السمك، أو باب التجار، القائم عند الزاوية الغربية، وذلك حيث يتصل السور الغربي بالسور الجنوبي، ومضينا من هذه الزاوية إلى حقل القصار، الذي يقوم فيه في الوقت الحالي بستان أشجار، ومسجد، ومقبرة للمسلمين، وهو قائم حيث هو كما كان في أيام القديس جيروم، وذلك حسبما قرأنا في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»، واستدرنا في حقل القصار نحو الشمال، حيث أبقينا خندق المدينة المقدسة على يميننا، ومشينا نحو الشمال على طول الحافة هناك، وكان هذا الخندق فيما مضى عميقاً وواسعاً، وقد بني سور المدينة نفسه على صخرة، وقد بنيت البيوت فوق السور نفسه، وهي تطل على الخندق، ورأينا تحت الصخرة نفسها كهوفاً عظيمة، من

خلالها هناك طريق يقود تحت الأرض إلى وسط المدينة تقريباً، ولوكان معنا مصباح مشعل لكان من الممكن لنا الذهاب والسير في هذا الكهف، وكنا آسفين لعدم جلبنا واحداً معنا، وأطلق يوسفيوس، في الفصل الثامن من كتابه السادس عن «حرب اليهود» على هذه الكهوف اسم« كهوف الملك»، لكن لماذا أسماهم هكذا، أنا لم أقرأ قط حول ذلك، غير أنني أفترض أنه قد توفرت فيهم بعض الطرقات في داخل المدينة، وكانت هذه الطرق معروفة من قبل الملك وحده، حتى يتمكن من الدخول إلى المدينة، والخروج منها، من دون معرفة أية انسان، أو ربما كان هناك طريقاً فيهم من قصر الملك.

وتابعنا تقدمنا من هناك، وسرنا مسافة طويلة على حافة الخندق، حتى وصلنا إلى الزاوية الشمالية، وذلك حيث يتصل السور الغربي بالسور الشمالي، ويوجد في مواجهة هذه الزاوية هناك تضخم أو ارتفاع بالأرض، حيث عليه خرائب الأسوار، وقام هنا فيما مضى برج عظيم الارتفاع، كان اسمه Phaselus أو Phaselus Hippicus، هناك مشهد منه لكل من البحرين، أي البحر القائم في جهة الشرق، الذي هو البحر الميت، والبحر القائم في جهة الغرب، الذي هو البحر الكبير، أو البحر المتوسط، وقد قرأنا عن هذا في الفصل الثامن، من كتاب يوسفيوس السادس، أي كتاب«حرب اليهود»، ومع ذلك غالباً ماتساءلت كيف يمكن هذا، مشاهداً من جهة الغرب الجبال وهي مطلة فوق المدينة المقدسة.

واستدرنا من هذه الزاوية نحو الشرق، وسرنا على محاذاة حافة الخندق، ورأينا هناك جزءاً كبيراً من أسوار قديمة، لأن السور كان مزدوجاً، بشكل أنه كانت هناك ممرات داخل السور، وفي الوسط هناك، في كل من الأعلى والأسفل، وجعلت الصخور التي قام عليها السور، مربعة بشكل صناعي في كثير من الأماكن، وقد وقفت فوق هذه

الأماكن الأبراج، وفي الحقيقة، كانت المدينة جيدة الدفاعات من هذا الجانب، لأنه من الممكن مهاجمتها من هنا بسهولة أكبر من الأماكن الأخرى، وبناء عليه من هنا تمكن صلاح الدين ملك مصر من الاستيلاء على المدينة وانتزاعها من أيدي الصليبيين في سنة ١١٨٧التي كانت السنة الأخيرة لحكمهم لها.

وتابعنا السير من هناك حتى وصلنا إلى باب إفرام، أو باب القديس اسطفان، وهو الموجود عند الزاوية الشرقية، أي حيث يتصل السور الشمالي بالسور الشرقي، وهذا السور الشرقي ليس له خندق أمامه، بل يمتلك بدلاً عن ذلك وادي شعفاط، الذي على طرفه ينهض السور مرتفعاً، وهناك على كل حال، ممر صغير يسير على طول طرف السور، فوق الوادي، وذلك من الزاوية الشرقية للسور، حتى الزاوية الجنوبية منه، ومع ذلك لم نتجرأ في متابعة طوافنا، بسبب وجود مقبرة اسلامية، قائمة في مواجهة الباب الذهبي، ولم يكن بامكاننا عبور هذه المقبرة من دون تعريض أنفسنا إلى خطر عظيم، وذلك كما ذكرنا من قبل.

وهكذا تخلينا عن هذا الممر، ونزلنا من الزاوية، من فوق منحدر منزلق إلى وادي شعفاط حتى جدول قدرون، ذلك أننا سايرناه، فكان جبلي الهيكل والمدينة من الجانب الأول، وجبل الزيتون من الجانب الآخر، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى سفح جبل صهيون في وادي سلوان، واستدرنا هنا نحو الغرب، وذهبنا صاعدين خلال الوادي الذي يفصل جبل صهيون عن جبلي حقل الدم وجيحون، امتداداً حتى حقل القصار، حيث كنا قد بدأنا طوافنا، وقد دخلنا إلى المدينة من خلال باب السمك، وذهبت مع موالي الحجاج إلى مكان سكنهم، وهناك أنعشنا أنفسنا، حيث كنا نشعر بالحرارة والتعب، لابل كنا في غاية الانهاك، وهكذا مرّ ذلك اليوم، وعلى كل من يرغب بالاطلاع على حجم القدس ودفاعاتها في الأيام الخوالي، أن يقرأ مصنف يوسفيوس«

حرب اليهـود»، الكتاب السـادس، الفصل الثامن، ومع ذلـك خشية أن يظن بأننـي أتجنب قـول أي شيء واضح حـول حجـم المدينة الأعظم قـداسـة، ليكن معلومـاً أنها ليسـت بأي حـال من الأحـوال كبيرة مثلما يعتقد عوام الناس، فهؤلاء يظنون أن حجمها لابد أن يكون عظيماً بقدر شهرة اسمها وفضائلها.

قد قيل أشياء رائعة جداً عنك أنت يامدينة الرب، ويقال الآن عنك، ولسـوف يقال عنك مـادامت الدنيـا قـائمة، وهذه المدينة الآن، ودومـا كـانت، أدنى من المدن الكبيرة، لكنهـا أكبر من المدن المتـوسطة الحجم، ومثل هذا قيل عنها من قبل الأمم، فقـد قال هيكاتيوس Hecataeus الفيلسوف أوف أبدرا Abdera :« القدس مـدينة حصينة جداً، يبلغ محيطها حـوالي الخمسين غلوة، ويسكن فيها أكثر من مائـة وعشرين ألفاً من الناس»، ومضى في حـديثه فقال عنهـا أشياء أخـرى حسبما قرأنا في مصنف يـوسبيـــوس « Praeparatio Evangelica » الكتـــاب الثامن— الفصلان الثاني والثالث.

وأخبرنا فيلسـوف آخر هو تيمـوخارس Timochares، الذي كتب تاريخ انطاكية أن «مقياس محيط القدس هو حوالي الأربعين غلوة، وهي محميـة من جميع جوانبهـا بوديان عميقة جـداً، وهي تشرب من كثير من الينابيع التي تنبع في داخلها، علماً بأنه لايوجد ماء صالح للشرب حولها في اطار يبلغ أربعين غلـوة»، وقـد زاد على هذا كثيراً، حسبما قـرأنا في مصنــف يوسيبيـوس المتقــدم الذكـر— الكتـــاب العـاشر، الفصل الرابع.

هذا وحدثنا يوسفيوس، الذي كان يهودياً، وكـاتباً متميزاً للتاريخ، في الفصل الخامس من كتـاب تاريخه المتقـدم الذكـر بأن« مـدينة القـدس بكامل سعتها، مـوجودة ضمن إطار مقـداره ثلاث وثلاثين غلوة»، وقد حـدثنا في هذا الفصل نفسه، بأشيـاء كثيرة رائعة عنهـا، وأنا ميال أكثـر

لتصديق كلماته، لأنه كان من أهل القدس، وقائداً ليهود المدينة أثناء تدميرها من قبل تيتوس.

وواضح من هذه المصادر المعتمدة، بأن القدس قد كانت قبل التوسعة التي عملها الامبراطور اليوس هدريانوس، أكبر من أولم(التي هي من المدن المتوسطة الحجم) في الوقت الحالي، وفي الحقيقة غالباً ماقمت أنا شخصياً بقياس محيط أولم، فوجدت أن هذا المحيط هو خمساً وعشرين غلوة، وخمساً وسبعين خطوة واسعة، مما يساوي نصف ستاديوم، وبناء عليه كانت القدس أكبر من أولم بثمان غلوات.

وقد حدث أنه بعد مضي سنين كثيرة من أيام يوسفيوس، قام الامبراطور إليوس، بإعادة بناء القدس، التي كانت مهدمة، وأدخل فيها موضع الجمجمة وضريح الرب، وجعلهما داخل الأسوار، وبذلك وسعها توسعة كبيرة جداً، وبذلك صارت حسب خطة التوسعة هذه، بالمقياس والحدود، حسب الذي أورده الفيلسوفان، اللذان تقدم ذكرهما، وإذا كانا قد كتبا قبل التوسعة، فإنهما أدخلا في قياسهما جبل صهيون، الذي لم يدخله يوسفيوس في قياسه، لأننا إذا أخذنا جبل صهيون مع جبل الجمجمة والجلجلة، فإنه يتكون لدينا اطار كبير، مقياسه ليس أقل من اطار مدينة أوغسبورغ Augsburg ، التي هي مدينة في سوابيا، وتعدّ بين المدن الكبيرة في ألمانيا، ومع ذلك عندما ينظر الانسان نحو مدينة القدس من جبل الزيتون، لاتبدو له مدينة كبيرة جداً، لأنها تقوم فوق بقعة غير مستوية، أي ليس فوق أرض منبسطة، وفيها فراغات وأماكن كثيرة لايمكن رؤيتها، لأن جبل صهيون منفرداً بذاته، يمكنه أن يحتوي على مدينة ليست ذات حجم صغير، ولو أنه بني كله، فإن الخرائب تبرهن أنها كانت فيما مضى كذلك، هذا ولسوف نقدم في المستقبل المزيد حول وصف هذه المدينة.

الدخول الرابع للحجاج إلى ضريح الرب

في اليوم الثالث، الذي كان يوم عيد ميلاد القديس اسطفان، والذي وافق الأحد العاشر بعد التثليث، رجونا في مساء السبت المتقدم، أصحاب السيادة الحكام المسلمين للمدينة المقدسة أن يحسنوا إلينا، فيدعونا ندخل إلى كنيسة الضريح القدس، وقد وافقوا على هذا، شريطة أن ندفع الرسم المعتاد، وهو خمس دوقيات عن كل شخص، وهنا رجوناهم أن يرأفوا بنا، وبينا أن هذا المطلب حاد جداً، وأن عددنا صغير الآن، وبسبب أننا ننوي أن ندخلها مراراً قبل مغادرتنا، وأنهم إذا لم يقوموا بتخفيض الرسم المعتاد، لن نتمكن لا الآن ولا في المستقبل من الدخول إليها، وهكذا بعد التماسات طويلة ومناقشات تمكنا من اقناعهم بسبب الحاحنا، واتفقنا أننا كلما اردنا الدخول إلى كنيسة الضريح المقدس أن ندفع رسم انسان واحد، أي أن ندفع خمس دوقيات، وقد أرضانا هذا.

وبناء عليه عندما اجتمعنا جميعاً في ساحة كنيسة الضريح المقدس، جاء السادة المغاربة مع المفاتيح، وفتحوا الأبواب، ودخلنا نحن وأمضينا تلك الليلة سهرانين حول الضريح المقدس وفق الطريقة التي ذكرتها في ص ٥٠٤، ولدى حلول الفجر، غنينا قداساً في بيعة العذراء المباركة التي تقدم وصفها في الصفحة نفسها المتقدمة الذكر، وتلونا قداسات خاصة، حسبما أردنا دونما ازعاج، وعند الفراغ من هذا كله، قدم المسلمون، وفتحوا الأبواب، ورمونا بالخارج، وذهبنا الآن جميعاً إلى جبل صهيون المقدس، وتدبرنا تلاوة قداس في المكان الذي وجد فيه جسد القديس اسطفان مدفوناً، وانظر حول هذا المكان ماتقدم في ص ٤٢٢، ولدى الفراغ من القداسات، اتفقنا أن نقوم بعد الغداء بزيارة بعض الأماكن المقدسة في داخل المدينة، مما لم نزره من قبل.

والتقينا بعد الغداء فوق جبل صهيون، وأخذنا معنا الفحل، أي

كـالينوس الأدنى، ودخلنا إلى القـدس مـن باب القـاذورات، أو من تلة القـاذورات، التي غالبـاً مـاجاء ذكـرها في الكتـابات المقدسـة، وبشكل خـاص في سفرنحميـا— الاصحاح الثـاني، ففيه أطلق على البـاب باب الدمن القـديم، وهو مايـزال يعرف بالاسم نفسـه حتى الآن، بسبب أن الأوساخ والقاذورات تحمل من خلاله، ويرمى بها نحو الوادي، وهكذا تشكل من الأوسـاخ المرميـة هناك كومـة تنامت حتى صـارت مثل تلة، وغدت عاليـة حتى باتت تطل على السور في ذلك المكان، وعندما عبرنا من خـلال هـذا البـاب، وصلنا إلى سـوق الضـأن، وذهبنا من هناك إلى طريق ضيق، سكـن فيـه كثير من المسيحيين النوبيين، وقـد قـرعنا باب كنيستهم.

وعندمـا فتح البـاب، دخلنـا وتلونا صلواتنا هنـاك، وكـانت هذه الكنيسـة واسعـة نسبيـاً لكنهـا مظلمـة، وفي الحقيقـة إن جميع الكنائس الشرقية معتمة ومظلمة، وهذه الكنيسة قائمة فوق المكان الذي قام عليه فيما مضى بيت مـريم، أم يوحنـا، الذي لقبـه مـرقص، وهو الذي قـرع بطرس بابه، عندمـا أخرج من السجن بوسـاطة الملاك، والحكاية الحلوة حـول ذلك من الممكن قـراءتها في الاصحـاح الثـاني عشر من أعمال الرسل، وتـابعنا سيرنا قليـلاً من هذا المكـان، فـوصلنا إلى بيت آخـر لمسيحيين شرقيين، وعندمـا سمحوا لنا بالدخـول إليـه، أرونا في ساحـة ذلك البيت صهريجاً تابعاً للبيت، وقـالوا بأنه هناك ظهر المسيح للقديس توما الـرسول، فعندما كـان ينضح بعض الماء، وواقفاً على أحـد أطراف الصهـريج، وقـف الرب يسـوع على الطرف الآخـر، وأخبره أن عليـه الذهاب إلى الهند، فهـذا مـاقالـه المسيحيون الشرقيـون وأنه حـدث هنا، لكن الاسطورة اللومبـاردية قـد ذكـرت بأن هذا قـد وقع في قيسـارية، ومثل هذا ذكرت كتب أخرى لكنيستنا.

ومضينا من هناك إلى بيت آخـر، حيث كـان فيه كنيسـة أيضاً، يقـول

المسيحيـون الشرقيـون بأن فيهـا قـد ولد الرسـولان المقـدسـان جيمس وجون، لأنهم قالوا بأن أباهما زبدي قد سكن هناك مع زوجته، إنما بعد اصـابتهم بالفقـر سـافروا مـن هناك إلى الجليل، وحصلوا على نفقـات عيشهم باصطيـاد السمك إلى جـانب بحـر الجليل، ولهذا جـاء الخبر في انجيل يوحنا— الاصحاح؛ ١٩، بأن« ذلـك الرسول كان معـروفاً لدى الكاهن الأعلى».

وقام على مقـربة من هذا البيت مسجد اسلامي، وكان بابه مفتـوحاً، وبما أننا لم نر مسلماً فيـه، دخلنا إليـه، ولم نجد فيـه شيئاً جميـلاً، ولاشيء يبعث على التـدين، ولاشيئاً مـرغـوباً به، بل مجرد بناء فـارغ، مقبب، ومستدير، وجدران مطلية بالبياض، ومصابيح معلقة من السقف المطلي، وكـانت الأرضيـة مغطـاة بالحصر، عليهـا يـركعـون ويسجـدون أثناء صلواتهم، وبعـد مشاهدتنا لهذا خـرجنا ثانيـة، وهذه الأمـاكن المتقدمـة الذكر، قريبة من هيكل الرب، الذي يسمونه هيكل سليمان.

وذهبنا بعـد هذا باتجاه الهيكـل، ورأينا في السـاحـة هناك كثيراً من المسلمين واقفين ومعهم قوارير وأوعية، وجرار لنضح المياه، التي كانت تتدفق هنـاك بقوة من انبوب مـاء، عجبت منه كثيراً ،لأنني قـرأت دوماً وسمعت بأن المدينة المقدسـة كانت بلامياه شفه، ولكن عـرفت فيما بعد بالخبرة بأن هذه الميـاه تنبع من مكان بعيـد عن المدينة المقـدسـة، وهي تحمل إلى القـدس بوسـاطة أقنيـة من تحت الأرض ومجاري ميـاه، عنهـا سوف أتحدث بتوسع في ص ٩٨٩.

وصعـدنا مـن هذا المكان نحـو الهيكل، ثم إلى شـارع مغطى بسقف مقنطر، من خلاله ذهبنا إلى باب كبير، يقود إلى سـاحة الهيكل، وكان في هذا الشـارع كثيراً من الحوانيت والأبواب للتجـار على كـلا الجانبين، وعندمـا رأونا نسعى مسرعين نحـو باب الهيكل، ركض كثير من الناس لمنعنا من الدخـول إلى هناك، وأخبرناهم بالاشـارات بأننا لن ندخل إلى

هناك بل سنصلي للرب فقط خارج الباب، وبذلك سمحوا لنا بالذهاب إلى البـاب، حيث صلينا على ركبنا المنحنيـة، ناظرين نحـو هيكل الرب، إنما حتى هـذا أغضب المسلمين ولذلك صرخـوا علينـا، وكـان باب الساحة نفسها واسعاً وكبيراً، مصنوعاً من عوارض حديدية ثقيلة، وهم يقولون بأن هذا الباب الحديدي هو الذي ورد ذكره في أعمال الرسل— الاصحاح الثاني عشر:١٠، والذي من خلاله قاد الملاك القديس بطرس إلى الشارع لأن سجن بطرس كان فيه.

ومن هناك عـدنا ثانيـة، على طول الشـارع نفسـه، واستـدرنا قليـلاً، فـوصلنا إلى شارع آخـر مقنطر، فيـه أيضاً، مثل المتقـدم تجار جلوس في حوانيت، ودخلنا إلى هذا السوق وسرنا صاعدين فيه حتى باب الهيكل، دون أن نعبأ بصرخـات المسلمين وبانزعـاجهم، كما أننا لم نعـر اهتمامـاً لأوامـر كـالينوس دليلنا، الذي بذل طـاقـة جهـده لمنعنا من النظر إلى الهيكل، لأن المسلمين كـانوا يخشـونه ليمنعنا مـن الاقتراب من الهيكل، وقالوا بأن هذا البـاب هو «الباب الجميل » العائـد للهيكل، الذي تحته شفى بطرس الـرجل الأعـرج، عندمـا صعـد هو ويـوحنا إلى الهيكل للصلاة في السـاعة التـاسعة، وقـال:« ليس لي فضة ولاذهـب»، كما جاء الخبر في أعمال الرسل:٣.

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، تابعنا سيرنا خلال شوارع البيوت، القائمة حول الهيكل، ووصلنا إلى جزء آخر من السـاحة، حيث هناك إلى جانب سـور الساحـة، مسجد جـديد، قيد البناء، بنفقـات عاليـة ليكون مكان اعتكاف لصـاحب السيـادة السلطان، فيـه يمكنه أن يصلي كلما كـان في القدس، وهكذا صعـدنا إلى ذلك المكان، ورغبنا في أن نصعـد أكثر، إلى حيث كان العمال، لننظر إليه، ولكن أخبرونا أن مـامن انسان يتجرأ على الصعـود إلى حيث كـان العمال، من دون إذن مـن القـاضي، الذي كـان أسقف هيكل المسلمين، وهكذا دخلنا إلى بيت القاضي، الذي كان صعباً

حتى نسألـه من أجل الاذن، وبيت هذا القـاضي واسـع ومـرتفع، وله سقف مقنطر، مزيـن برخام مصقول، ومجمل برزابي، وهـو مثل كنيسة، لكن من دون مذابح، وأعتقد الآن أنه كان مسجداً اسلامياً، فيه استقبال لجميع الناس من جميع الملل، بسبب القـاضي، الذي كان سـاكناً بجواره، وذلك مع أهل بيتـه وحاشيتـه، لأنني رأيت نساء وأطفـالاً ينظرون إلينا من خلال فتحة في السقف.

وجاء القاضي لمقابلتنا، وكان مهيباً ومتقدماً بالسن، ومحترماً وله لحية، وعندما فهم الذي نريده، وافق على الفور، وتدبر أمر أخذنا إلى المسجد، وذلك بأن أمر واحداً مـن أصحابه بمـرافقتنا، وصعـدنا نحو المسجـد، فوجدنا كثيراً من الحرفيين والعمال هناك، وكانوا يصنعون زينة رقيقة من مختلف أنواع الرخام المصقـول، ومن مختلف الألوان، وكانوا يزينون كل من الأرض، والجدران بالصور، زيادة على هـذا كان الجزء العلوي يلمع بالذهب وبالألوان الثمينة، وكانت النوافذ مزججة، وتضيء المبنى بشكل رائع جداً.

وفي الجدار الذي يرتفع من سـاحة الهيكل، كانت هناك نـوافذ طويلة وعظيمـة، لم تكن قد زججت بعـد، ولكنهـا مفتـوحة، رأينا من خـلالها سـاحة الهيكل، والهيكل نفسـه، وقد رأينا هناك الأعمال الرائعـة العاليـة النفقـات لذلك المكان، والتي سـوف نصفها في حـديثنا عن الهيكل على الصفحة ٢٦٠، وقبلها.

وعندمـا فـرغنا من رؤيه هذه الأشيـاء، أعطينا الحرفيين ثمن شراب، وخـرجنـا ثانيـة، وأنا لاأعتقـد أن أي مسيحي سـوف يتمكن قط من الدخول إلى ذلك المسجـد، لأنهم سوف يقومـون بعد قليل بإيقـافه على عقيـدتهم المرتبطة بمحمـد(صلى الله عليـه وسلم)، وعند القيـام بذلك سوف لن يدعو مسيحياً يدخل إليه، وهكذا ذهبنا عائدين إلى أماكننا.

وفي اليوم الرابع، نزلنا جميعاً، بعد الغداء من جبل صهيون، واقتادنا بشكل شبه سري يهودي، قال بأنه سوف يرينا بعض الأشياء التي كانت مخفية، وعندما كنا نازلين وصلنا إلى الجانب الجنوبي من الكنيسة، القائمة قرب هيكل الرب، حيث كان في أيام الصليبيين هناك طريق يقود صعوداً ببعض الدرجات الحجرية، إلى باب عالي، من خلاله يدخل الانسان إلى تلك الكنيسة، وتسلقنا صاعدين إلى هذا الباب، فوق خرائب جدران، وقبلنا الجدار الذي فيه الباب، وذلك من أجل الغفرانات المطلقة، التي يمكن الحصول عليها هناك(++).

وقد قيل يوجد هناك خمس عشرة درجة، تقود صعوداً إلى ذلك الجدار، وعليه صعدت العذراء مريم مع ابنها— الذي كان في الثالثة من عمره— بشكل اعجازي، إلى الهيكل من دون دليل، وحدث أنه على هذه الدرجات، كتب داوود خمسة عشر مزموراً، واسم هذه المزامير«مزامير الدرجات»، وقد زرنا هذا المكان بخوف وصمت، لأنه لو رآنا المسلمون، لأصبحنا بخطر، ولهذا اخترنا الوقت الذي يرتاحون فيه، ونزلنا من ذلك المكان نحو الأسفل أكثر، فوصلنا إلى سور قديم جداً، وكان فائق القوة، وقد بني من صخور كبيرة مربعة، وهذا السور مرتفع، مع أنه كان من قبل أعلى بكثير، وهذا يمكن مشاهدته من الخرائب، لأن المكان كان مليئاً بصخور مربعة موزعة هناك.

وقد قيل بأنه قام فوق هذا السور بيت غابة لبنان، الذي كان بيت الملك، وهو قد بني من قبل سليمان، فهذا ماقرأنا عنه في سفر الملوك الأول: ٧، حيث قال:« المجد» الخ، وقد أطلق على هذا البيت اسم بيت غابة لبنان، لأن الجزء الأعلى منه قد بني من الخشب الذي قطع من غابة لبنان، وقال مصنف كتاب Speculum Historiale، بأن هذا البيت قد بني من مادة مزدوجة، وكان الجزء الأول من الحجارة، وكان اسمه Nethota، أي موضع العطور، حيث خزنت فيه التوابل والعطور، من

أجل استخدامات الهيكل وبيت الملك، وذلك أنه بسبب(برودة) الأرض (وسماكــة) الجدار، كــان من الممكــن حفظ هذه المواد، والحفــاظ على سلامتهـا، وكان الجزء العلوي من الخشب، أي الخشب الذي جلب من لبنان، ولهذا أطلق على هـذا القسم اسم بيت الغـابـة، أو بيت لبنان، أو بالحري بيت غـابة لبنان، ويعتقـد بعضهـم بأنه عـرف بهذا الاسم، لأنه زرع من حـوله، من كل جـانـب أشجـار، وحـدائق للنزهة، وأنها نمت فصــارت كثيفــة مثل غــابة لبنـان، وجـرى في القسم العلوي خــزن الأسلحــة، وذلك بسبب الخشـب، الذي يحول دون لحاق الصــدأ بها، والذي خـزن بها ليس أسلحة القتال، بـل أيضاً أسلحة النظـر والعرض للأبهة الملكية.

وهناك على كل حــال في سفــر الملوك الأول: ٧/ ١—٢، تمييــز بين «بيت غــابة لبنان» وبين « بيـت الملك»، علما بأن بعض الشراح يقــول بأنهما كـانا بيتاً واحـداً، هو البيت نفســه، وهذا مااعتقـده أنا نفسي، هذا وإن بيت الملك هذا، في هـذا المكان، كما يبـدو يتـوافق بشكـل جيـد مع الكتـابات المقدســة، التي غـالباً مـاقـالت بأن ملوك القدس صعـدوا إلى الهيكل من بيت الملـك، وواضح من إرميــا.... وهذا لايمكن أن يحمل على محمل بأن بيت الملك والقصر على جبل صهيون، حيث سكن داوود وسليمان قبل بناء الهيكل، لأن جبل صهيـون أعلى من الهيكل، والانسان ينزل منه إلى مـوضع الهيكل، وعلى كل حـال يصعد الانسـان دومـاً من الساحـة عبر درجات إلى الهيكل نفســه، لكن من البيت الذي نحن الآن فيـه، هناك صعود كبير إلى الهيكل، وبناء عليـه وقفنا هناك بدون حركـة لبعض الوقت، وتعجبنا من الجدار الضخم، وتحدث أحـدنا إلى الآخـر حول هذه القضايا.

ويوجـد على قمة هذا الجدار المدمر حجرة مربعـة كبيرة، أزيحت من مكانها الاعتيادي ولذلك هي قائمـة بشكل شاذ فوق قرنة الجدار، ولأن

هذه الحجـرة الآن هي أعلى شيء في الجدار، وناتئة بشكل غـريب منه، اخترع حولها حكاية أنها الحجرة التي ورد ذكرها في المزمور: ١١٨/ ٢٢، وفي متى: ٢١/ ٤٢ حيث قـال:« الحجر الـذي رفضـه البناؤون هو قـد صـار رأس الزاوية»، وقال نيقـولا دي ليرا، إنه عندمـا كان الهيكل قيـد البناء، كـانت هناك حجـرة قـدمت مـراراً إلى أيدي المعماريين، لكنهم لم يجدوا مكاناً مناسباً لها لوضعهـا فيه، ولذلك رفضت، ولكن عندمـا كان أحـد الجدران يتـوجب وصله بجـدار آخـر بـوسـاطة حجـر زاوية عند رأسيهما معاً، لم يمكن العثور على حجر أكثـر مواءمة لذلك الغرض من الحجـرة المرفوضـة تلك، والحكاية نفسهـا، حكيت حـول جذع شجـرة الصليب المقـدس، التي رفضت أيضـاً، أثناء القيـام ببناء واحـد من البيوت.

والذي بدا لي، أن هـذه الحجـرة لم تكن— على كـل حـال— حجـر زاوية، ولارأس الـزاوية، لأنه مـن الواضح، أن هـذا الجدار كـان فيما مضى أعلى بكثير.

ولدى تفحصنا لهذا الجدار من الخارج، بقيادة اليهـودي، تسلقنا فوق الخرائب إلى الجدار نفسـه، فـوجـدنا أن بعض الحجـرات المربعـات الكبيرات، قد انتـزعن بقوة شديـدة من الجدار، وعلى هذا هناك ثغرة في الجدار إلى Nethotam ، وبناء عليه حنينا أنفسنا، وذهبنا واحـداً بعد الآخـر، وفي البداية لم يكن بإمكاننا رؤية أي شيء مطلقـاً، وذلك بسبب طبيعـة العين، فـالـذي يدخل إلى الظل من المكان الـذي تعمـه أشعـة الشمس، لايمكنه أن يرى شيئاً، لكن بعـدمـا وقفنا دونها حركـة لبعض الوقت أمكننـا استرداد نظرنا ببعض الدرجـات، ورأينا أبنيـة مقنطرة عظيمة، وكـان يوجد هناك سبعة صفـوف من الأعمدة، تدعم القناطر، والأبنية العلوية التي بنيت فـوقهم في الأيام الخوالي، مع أنه يقوم في هذه الأيام فوقهم بستـان زيتون، عند جهـة الهيكل، ويقول كل من المسلمين

واليهـود، بأن هذه القـاعـات كـانت اسطبل خيـول سليمان، لكن من الأفضل القول بأنه قـد كان هنا الـ Nethota، أي بيت التوابل ومخزن العطور، كما تقدم لنا قول ذلك أعلاه، ذلك أنه أودع هنا التوابل الثمينة جـداً، التي جلبتها ملكـة سبأ، والتي عنها قـرأنا في سفـر الملوك الأول: ١٠/ ١٠، كما علينا أن لانعتقـد بأن سليمان قـد حفـظ الدواب في هذا البيت الجليل جداً، الذي عجبت منه نبيـة سبأ، خاصة عندما رأته قـريباً من الهيكل، ذلك أن وضع الخيـول هناك كان فيه عـدم احترام، ولذلك أمـر ببناء مـدن في أمـاكن أخـرى، وذلك مـن أجل عـرباته، وخيـوله، وخيالته، كما قرأنا في سفر الملوك الأول:٩/ ١٩.

ويوجـد الآن تحت هذه القناطر كثيراً من أكـوام الحجـارة قـد جمعت هناك، وقـد قـال لنا عنهـا اليهـودي الذي جلبنـا إلى ذلك المكان، بأن اليهود قـاموا بتكويم هذه الحجـارة لشغل هذا المكان، ذلك أنهم يأملون أنهم سرعان ماسـوف يتمكنون من سكنى الأرض المقدسة، وبذلك فإن حجـاجهم الذين يأتـون من بلدان بعيـدة، سـوف يستـولون على بعض الأماكن، ففي هذه الأماكن يأملون أنهم سوف يسكنون بعد عودتهم.

ويوجـد في الأعلى في القنطرة، مكان خـرقت فيـه فتحـة كبيرة، منهـا يرمي المسلمـون كناسـة الهيكل والسـاحـة، وكنا في حـالة خـوف عظيم هناك، لأنه لو عثـر المسلمون علينا هناك، لعـاملونا بالفعل بشكل سيء، ولولا أننا كنا خائفين، لتسلقنا فوق الفضلات إلى ساحة الهيكل، وهكذا بعدمـا رأينا جميع المشاهد المتقدم ذكرها، خـرجنا من الفتحة التي دخلنا منها، وقمنا بجولة حـول جبل موريا، الذي هو جبل الهيكل، وهو يمتد من أعلى الرابيـة حتى سور المدينة المقـدسة، وذلك امتـداداً حتى الزاوية التي يتحد فيها السور الشرقي مع السور الجنوبي.

ورأيت في هذا السـور حجارة هي أطول وأكبر مما رأيتـه قط في سور أي مـــــدينة، لكـن هـذه الحجـــــارة لم تكـن جليلـة، كما تحدث

يوسفيوس(الكتاب السادس— الفصل الثامن) وأخبرنا بوجودها في سور القدس، ويطل هذا السور باتجاه وادي شعفاط وجدول قدرون وذلك في مقابل جبل الزيتون، ومبني هناك في السور، على ارتفاع ستة أذرعة من الأرض، حجرة، بدت وكأنها قد كانت جزئاً من عمود رخامي، فبعضها داخل في السور، وبعضها الآخر بارز منه، بشكل أن انساناً واقفاً على ذلك الارتفاع، يمكنه أن يقف على الحجرة، وظهره مواجه للسور، أو يمكنه الجلوس عليها، كما يجلس انسان على ظهر حصان، وساقيه متدليتان نحو اللأسفل.

ولدى المسلمين حكاية حول هذه الحجرة، تقول بأنه في يوم الحساب، عندما يجتمع الناس كلهم في وادي شعفاط، سوف يأتي محمد(ﷺ) ويجلس فوق هذه الحجرة ليحكم بين الناس، ولذلك يحترمون هذه الحجرة، على أساس أنها كرسي الحكم لمحمد(ﷺ)، وقبل سنوات قليلة مضت، قدم نبي مزيف من المسلمين إلى القدس، قدّره الناس جميعاً واحترموه على أنه واحد من أولياء الله الصالحين، ودعا هذا الرجل في أحد الأيام جميع سكان المدينة إلى هذا المكان، قائلاً بأنه سوف يظهر لهم بعض الآيات، وسيتحدث إليهم، ويريهم طريقة الحكم في الدنيا، وذلك وفقاً للطريقة التي سيتعامل بها محمد(ﷺ) مع المسلمين في يوم الحساب الأخير.

وعندما كانوا جميعاً وقوفاً على جانب الرابية، لرؤية وسماع شكل الحساب، صعد ابن الشيطان هذا إلى الحجرة بوساطة سلم، وجلس عليها، جاعلاً ظهره نحو السور، ووجهه نحو الناس الذين وقفوا في الأسفل، وبدأ يتنبأ لهم، وحدث أنه وهو يتحدث إليهم بدأ يتحرك إلى هنا وهناك أكثر فأكثر، وبما أنه لم يلاحظ انحدار الحجرة، فجأة، مال على واحد من جنبيه، وسقط نحو الأسفل، فاندقت عنقه، وتمزق جسده إلى مزق، حيث شعر الناس التافهين بالخزي، وعادوا إلى المدينة، وذهب

كل إنســان إلى بيتــه، وهكــذا أراهم النبي المزيف على الرغــم مما نواه، الحقيقـة، لكن ليس بكلماته بل بأفعـالـه، وهنا يتفق المسلمـون معنا، بأنه سوف يكون هناك حساب في يوم القيامـة، لكن بالنسبة لمكان الحساب، هم على خــلاف، ذلك أن المسلمين الذين يسكنـون في القــدس، وفي اليهـودية، وفلسطين، يقـولون مثلما نحن نقـول، بأن جميع الأمم سـوف يجري جمعها في وادي شعفاط، وهم يضعون هناك ثلاثة قضاة هم: الله، والمسيح،، ومحمـد(ﷺ)، فـالله سـوف يجلس فـوق أعلى هيكل الرب، ويجلس المسيح على قمة جبل الزيتون، أما محمد(ﷺ) الذي سوف يكون مستشاراً لهما معاً، فسوف يجلس على الحجرة المتقدمة الذكر.

غير أن المسلمين الذيـن يسكنون في ســوريـة، وفي بلاد الرافــدين، وكبدوكية فيقولون بأن الحساب سوف يكون في دمشق، فوق قمم أبراج هناك، ويقـول المسلمـون العـرب بأن ذلك سـوف يكون في مكة حيث يوجـد ضريح محمد (ﷺ)، أمـا المسلمـون في مصر وليبيا فيقـولون بأن ذلك سـوف يكون في القـاهرة، ويقـول آخـرون، لابل إن ذلك سـوف يكون في القسطنطينية، وهكـذا يخترع كل إنسان الذي يرضيـه شخصياً، وبذلك يقدمون على حماقات لانهاية لها.

ووقفنا تحت الحجـرة المتقدمة الذكـر، وضحكنا نحو حماقـة.... النبي المزيف، ثم نزلنـا من الجدار ووصلنا إلى(مقبرة) اليهـود الموجــودة على منحدر رابيـة فوق وادي شعفاط، وسخرنا هنا من اليهـودي الذي كان دليلنا، وأخبرناه بأن اليهـود كـانوا عقـلاء بوضعهم مقبرتهم في مـوضع الحسـاب، حتى يمكنهم الانبعــاث من دون أن يتعبـوا من الارتحال إلى هنا، حتى تتم ادانتهم بشكل أبدي.

ونزلنا من هذه المقبرة إلى الطريق العـام، الذي عليه صعـدنا إلى جبل صهيون حيث أماكننـا، وعندما دخلنا إلى موضع إقامـة السادة الحجاج، دعـاني الســادة الحجـاج مع اثنين من الآباء الفــرنسيسكان، واثنين من

اليهـود، وواحـد مسلم، ومملوك واحـد، لتناول العشـاء معهم، وتناولنا العشـاء بسرور مـع بعضنا مع أننا كنا ذوي عقـائـد مختلفـة وعـادات متنوعـة، وإنه بسبب التحـادث والاجتماع مع غير المسيحيين، الانسـان مرغم على الحصول على إذن من السيد البـابا عندما يرغب بالقيام بالحج إلى القدس.

وفي اليـوم الخامـس، الذي كـان يوم العيـد المجيـد لأبينا القـديس دومينيك، بطريرك الرهبان المبشرين، وبعد القداس، وكذلك بعد الفراغ من الغداء، جاء Sabathytanco أي كالينوس الرئيس، وأخذ من كل حاج خمس دوقيات، كدفعة على الحسـاب بالنسبة للعقد المبرم، قائلاً إنه ليس لديه مـا يكفي من مـال بين يديه ليبدأ بعمل التحضيرات لأخـذنا عبر الصحراء، وبناء عليه، ولكي لايقول فيما بعد بأننا كنا سبب التأخير الطويل، أعطيناه المال، وأخذ من كـل واحد منا خمس دوقيات، وبعـدما حصل على الذهب، بات أكثر بهجة، ووعـدنا بأنه سوف يستجيب لكل طلب يمكن أن نطلبه منه، إذا كان يمكنه القيام به، ولذلك طلبنا منه أن يتدبر أخذنـا إلى مكان ميلاد مريم العذراء المباركـة، الذي لم نذهب إليه من قبل، فـأجـابنا:« يـاسـادتي الحجـاج، هذه مسألة صعبـة، التي سألتمونيها، لأنكم لايمكنكم الدخول إلى غرفة ميلاد العذراء مريم، إلاّ من خـلال مسجد موقـف لاستخدامـات المسلمين، إليه ليس مسمـوحاً لكم بالدخول، ومادام المسلمون يتولون الحفاظ عليه، لايمكنني التجرؤ على أخـذكم إلى هناك بأي شرط مـن الشروط، ولذلك عليكم الانتظار حتى المسـاء، فـوقتهـا سـوف أرسل ابني Abre إليكم، وهو سـوف يقـودكم من خلال ممرات سرية إلى المكـان، وأنا سوف أتدبر دخـولكم إليـه، وفي الوقت نفسـه سوف أبقـى أنا شخصياً مع أصحـاب السيـادة الحكام، أنتظر فـرصـة لتأخيرهم حتى لايمكنهم رؤيتكم تزورون الذي تنوون زيارته».

وما أن قال هذا حتى تركنا، وعندما جاء المساء، انتظرنا حتى غياب الشمس تقريباً، ظانين بأن الرجل قد خدعنا، لكن فجأة جاء ابنه Abre الذي كان في التاسعة عشرة من عمره، جاء إلينا على جبل صهيون مع واحد من الخدم، واقتادنا خلال أزقة سرية في القدس، إلى باب إفرايم، الذي هو باب اسطفان، ووصلنا إلى الكنيسة التي هي الآن Mameria، وبعدما جرى فتحها، دخلنا إلى المسجد، وذهبنا من الكنيسة إلى الرواق، ويوجد إلى جانب الكنيسة نافذة فوق الأرض، مثل النوافذ العائدة إلى الغرف التي فيها عمل منسوج، أو مثل نوافذ السقوف التي خلالها يدخل النور والهواء، والطريق من خلال هذه النافذة إلى موضع ميلاد العذراء المباركة، لأن المسلمين قد أغلقوا باب الكهف الذي استخدم ليكون كنيسة، لأنهم لايعبأون مطلقاً حول هذا المكان، وبناء عليه قام واحد من الحجاج بوضع قدميه خلال هذه النافذة، وترك نفسه يسقط إلى القبو، ووقف بعد ذلك تحت النافذة، وعمل بمثابة سلم لكل واحد من الآخرين، لأنه وضع يديه أمام الجدار، وكان على كل من رغب بالنزول، أن يضع أولاً قدميه فوق يدي الرجل، ثم يضع إحدى قدميه فوق رأسه أو كتفيه، ومن فوق كتفيه كان يقفز إلى الأرض، وهكذا نزلنا جميعاً إلى ذلك المكان، فوق الحاج، الذي كان فارساً من أسرة نبيلة، وأشعلنا شموعاً، لأن المكان كان مظلماً، وشرعنا نطوف فيه، ووصلنا إلى كهف، قيل فيه جرى أولاً دفن واكيم وحنة أبوي العذراء المباركة، وذهبنا من هناك إلى بيعة أخرى تحت الأرض كانت أكبر، وكانت فيها مضى مطلية بشكل جميل، ففيها من المعتقد بأن العذراء المباركة قد ولدت، وهنا بدأنا بأصوات مشرقة نغني الترانيم من أجل ولادة العذراء المباركة، وهي الترانيم المحددة في كتب مسيرة الأرض المقدسة، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، وقبلنا الأرض وفق طرائق الحجاج.

وهذا المكان قائم تحت سدة الكنيسة، وكان فيه الفراش الذي حملت عليه حنة بمريم العذراء المباركة، وذلك مثلما موضع ميلاد المسيح موجود تحت سدة الكنيسة في بيت لحم، وفي هذا دحض لما ورد في القرآن، الذي قال بأن العذراء مريم قد ولدت في مصر، وأنها كانت ابنة مريم، أخت هرون[كذا]، وهو ما كنت قد تحدثت عنه من قبل، وهكذا بعدما فرغنا من رؤية المكان، تمكن واحد من الحجاج بمساعدة الآخرين من الصعود من خلال النافذة إلى الرواق، ومد ذراعيه نحو الأسفل، وشد كل واحد ورفعه إليه، واحداً بعد الآخر، وسرنا حول الرواق، ورأينا القلايات في كل من الأعلى والأسفل، التي عملت بشكل ممتاز، لأن هذا المكان كان في أيام الصليبيين ديراً للراهبات، من طائفة القديس بينت.

ودخلنا إلى الكنيسة، التي هي مسجد الآن، وتفحصناها عن قرب، وقد لاحظنا بأن هذه الكنيسة قد كانت فيما مضى جميلة، ومزينة، لأن الجدران كانت مرسومة، غير أن المسلمين أفسدوا الصور بتغطيتهم بطلاء أبيض، وحدث أن الطلاء الأبيض قد وقع في كثير من الأماكن، وبذلك من الممكن رؤية الرسوم المسيحية ثانية، والذي كان مرسوماً حكاية الحمل بمريم العذراء المباركة، وولادتها، وكيف أن واكيم قد طرد من الهيكل بسبب أن زوجته كانت عاقراً، وكيف أنه أقام بالصحراء مع رعاته، وكيف ظهر الملاك له هناك، وكيف أنه اندفع تحت الباب الذهبي إلى مابين ذراعي زوجته، وكيف حملت حنة بمريم.

وكنت قد قرأت في واحد من كتب الحج، كيف أن المسلمين شرحوا ماجاء بهذه الرسوم، على أنها تشير لمحمدهم(ﷺ)، وأنه جرت العادة أن كانت هناك امرأة عجوز سكنت قرب هذا المسجد الاسلامي، وكانت تخبر الناس، وهي تسكب دموعها بغزارة (٢٣٠—ظ) بأن هذه الصور تحكي حكاية محمد(ﷺ) في الجنة، مضفية معاني جسدية عليهم جميعاً،

وعندما رأينا هذه المشاهد كلها خرجنا من المسجد، وكنا منزعجين جداً، أن نرى كنيسة بهذا الجمال، وديراً بهذه الشهرة، فوق بقعة في غاية القداسة، قد صار ملكاً للمسلمين.

وقائم في مواجهة الكنيسة شجرة كبيرة، وقديمة جداً، قد قيل بأنها زرعت من قبل العذراء مريم المباركة، عندما كانت ماتزال طفلة، تحت رعاية والديها، اللذان من المعتقد أنهما سكنا فوق هذه البقعة، لأنه مع أن واكيم وحنة قد عاشا لسنوات طويلة في الناصرة، إنما عندما اقترب وقت الحمل بالعذراء وولادتها، جرى تحريضهما من قبل الروح القدس إلى الانتقال من الجليل إلى اليهودية ومن ثم إلى القدس، حتى يتمكنا من إنهاء أيامهما هناك في عبادة الرب، على مقربة من هيكل الرب، غير عارفين بالسر الرباني العظيم الذي أبقاهما من دون أولاد، وعندما قدما من الناصرة إلى القدس، اشتريا بيتاً على مقربة من الهيكل، فوق بركة الضأن، وفيه جرى الحمل بمريم العذراء المباركة، وفيه ولدت، فهذا ماذكره يوحنا الدمشقي وشهد به بقوله:« ولدت العذراء مريم في بيت واكيم، الذي اسمه بيت الضأن، لأنه كان على مقربة من بركة الضأن»، ومع مرور الأيام، بنى المسيحيون كنيسة فوق موقع ذلك البيت المقدس، وبهذه الكنيسة جرى الحاق دير للراهبات من طائفة القديس بينت، اللائي كن سيدات ثريات جداً، وبقي الحال هكذا حتى نهاية سنة ١١٨٧ لتجسيد الرب، عندما جرى الاستيلاء على المدينة من قبل المسلمين، وبعدما جرى الاستيلاء على المدينة عملوا هناك بالدير أعمالاً جديرة بعدم التذكر مطلقاً، هذا وذكر بعضهم بأن ذلك قد حدث في مكان آخر، أي في دير كليرز Clares



وفي اليوم السادس، الذي كان يوم تغيير الرب لشكله، التقينا على جبل صهيون في الصباح، وذهب معنا نصف رهبان جبل صهيون إلى

جبل الزيتون، وكنيسة صعود الرب مع كؤوس القربان وأشياء أخرى محتاج إليها، وغنينا هناك بشكل مهيب قداس تغيير شكل الرب، وكأننا كنا على جبل الطور، وكان هناك عدد كبير من المسيحيين الشرقيين[٢٣١] حضوراً في قداساتنا، لأنهم يعدون يوم تغيير شكل الرب بين أعيادهم الأكثر مهابة، ولهذا السبب يكرسون جميع كنائسهم تقريباً على شرف القديسة صوفيا، أي على تغيير شكل الرب، ومثلما نقوم نحن فنرسم في كنائسنا الصلب ويوم الحساب الأخير، نجد أن الرسوم الرئيسية في الكنائس الشرقية تتعلق بتغيير شكل الرب مع موسى والياس، وثلاثة رسل متمددين على الأرض.

وبعدما فرغنا من قداساتنا، مشينا حول الكنيسة، وتسلقنا نحو قمتها بقدر مااستطعنا لمشاهدة المنطقة من حولها، لأنه منها يستطيع الانسان أن يرى بعيداً حتى البحر الميت وبالطول والعرض الأرض المقدسة، ويقوم في الكنيسة نفسها أعمدة رخامية مصقولة، بينها واحد يحتضنه المسيحيون الشرقيون بأذرعتهم، وهم يضحكون لبعض الوقت، ويحاول كل واحد منهم أن يلمس باصبع يده الأولى اصبع اليد الثانية، ومالم يمتلك الانسان اصبعين طويلين، لايمكنه أن يلامس بين يديه أثناء احتضانه للعمود، ويعتقد الشرقيون بشكل خرافي أن من يستطيع فعل ذلك سوف يكون أكثر حظاً من الآخرين، وأن ذلك علامة على شيء جيد جداً، ولقد وقفت في ذلك المكان لوقت لطويل أراقب فيه حماقاتهم، ولعبنا بعدهم نحن الغربيون اللعبة نفسها على سبيل المزاح، حيث قسنا إطار العمود، وقد كنت قادراً على وصل رأسي اصبعي الطويلين مع عملية ضم قوية وضغط، هذا وسلف لي أن قدمت وصفاً لهذه الكنيسة في ص٦١٣.

وقمنا بعد هذا بجولة حول الجبل المقدس، وزرنا الأماكن المقدسة، ثم دخلنا إلى المدينة المقدسة من باب القديس اسطفان، وصعدنا لنقبل

بيت بيلايطوس، ولما علمنا بأن صاحب البيت ليس في المدينة، قرعنا على الباب، وسمح لنا بالدخول من قبل ابنتيه، وزرنا مواضع استشهاد المسيح، ولو كان صاحب البيت موجوداً ماكان ليسمح لنا بأي حال من الأحوال بالدخول، وماكان ليقنع بالسماح لنا لابالالتماسات أو بالمال، وعلى كل حال، ظهرت ابنتاه الجيدتان لنا، واقتاداتنا إلى المكان الذي يعتقد بأن الرب قد جلد فيه، وكان هذا المكان بيعة مستديرة مقنطرة، إلى جانبها هناك طريق نحو الجزء الأعلى من البيت، غير أنهم تركوا هذا المكان المقدس غير نظيف،و بدون احترام، لأن من المعتقد أنه المكان الذي تلقى فيه جميع أوساخ البيت، وعلى الرغم من هذه الأحوال نزلنا إلى مابين الأوساخ، وقدمنا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات مطلقة، لكنني لاأعرف فيما إذا كان الرب قد توج في المكان نفسه الذي صلب فيه، ويبدو من انجيلي متى ومرقص أنه جلد في مكان عام في الخارج، غير أنه توّج في القاعة في الداخل، لكن في انجيل يوحنا:٩، كان الجلد والتتويج معا، ومن الصعب معرفة الحقيقة حول هذا بسبب هدم البيوت واعادة عمارتها، ولذلك من المستحيل التعرف على الأماكن، وحول هذا البيت انظر ماتقدم في ص٥٩٩.

ولقد دخلت إلى هناك مرتين، ومن المعتقد أنه شيء عظيم بالنسبة للحاج أن يكون في المكان المتقدم ذكره، ليس مرة واحدة بل ألف مرة إن استطاع، وعندما كنا خارجين أعطينا الفتاتين بعض القطع الفضية، وقد تسلمتا ذلك مع شكر عظيم، وأخبرتانا —من خلال المترجم— أنه مادام والدهما بعيداً [٢٣٢] سوف تكونان على استعداد للسماح لنا بالدخول إلى البيت، فقد كان أباً قاسياً نحو ابنتيه، وكذلك نحو جميع الشعب المسيحي، الذين كان لايتحمل النظر إليهم طويلاً، ولهذا السبب كان المسيحيون متعاطفين مع ابنتيه، ولأن الرجل كان قاسياً نحو ابنتيه، كانتا متعاطفتين معنا، وسمحتا للمسيحيين بالدخول إلى البيت على

الرغم من عـدم مـوافقة أبيهما، وكـانتـا ابنتين لهما مظهر حسـن، وكانتـا طويلتين، وعندما دخلنـا، وضعتا جانبـا حجابيهما وتحدثتـا إلينا بملامح مبتسمة، الأمر الذي لاتتجرآن على فعله مع المسلمين.

الحج الممتاز للراهب فيلكس فابرى
في الأماكن التالية (جبل صهيون)

في اليـوم السـابع، تلوت قبل إشراق الشمس صلواتي الصبـاحيـة، وكنت واقفـاً فـوق الممشى العلوي لـدير رهبـان جبل صهيـون عندمـا أشرقت الشمـس، ولدى تحديقـي بوادي جهنم تملكنـي شـوق في أن أذهب في ذلك الصباح وأنزل إلى ذلـك الوادي، وأن أتابع السير فيه إلى حد أكون فيه غير قادر على رؤية جبل صهيون، وأن استهدف جب عين روجل، وحجـر الـزاحفـة، وهما قـد ورد ذكـرهما في سفـر الملوك الأول:١/ ٩، وأن أرى مكاني: توف، وتوفل، اللذان ذكرا في سفر إرميا: ٧/ ٣١—٣٢، وخـلال جميع الاصحاح:١٩من سفـر إرميا نفسـه، وهذا المكان هو وادي بنـي هنوم، وهو أيضـاً يعـرف بـاسم وادي هنون، أو وادي يهنون أو جهنم (يشـوع: ١٨و٤، واسـداراس:١)، وذلك ليكون بامكاني متـابعـة السير نزولاً من هناك في الـوادي، حتى أتمكن من رؤية هل جـدول قدرون فيـه ميـاه جـارية، في الأرض المنخفضة، كما يعتقـد كثيرون أن فيه، والحقيقة حول ذلك سوف أعرضها فيما يلي، وكنت آمل بعد هذا بتسلق جبل العدوان، الذي تصل حوافه حتى جيهنا، وقد قرأنا عن هذا الجبل في سفر الملوك الأول:١١/ ٧، ولقـد استهدفت رؤية هذه الأشياء وتفحصها واستخلاص النتائج لنفسي.

ولذلك غـادرت المكان الذي كنت واقفـاً فيـه، لكي أذهب إلى الأب المسـؤول، لألتمس منه اعطائي واحـداً من الرهبـان ليكون مـرافقـاً لي، حتى أتمكن بصحبتـه من رؤية الأمـاكن المتقدمـة الذكـر، لكنني لم أتجرأ

على إيقاظ ذلك الرجل المحترم، الذي كان مايزال نائماً، ولذلك شجعت نفسي، وبدأت هذه الرحلة الطويلة وحيداً، لأن الوقت كان مايزال باكراً، وكنت أعرف أن المسلمين لاينهضون من فرشهم قبل إشراق الشمس، ونزلت من جبل صهيون، ودخلت إلى حديقة الملك، الملحقة ببلاط الملك، التي منها هرب الملك صدقيا وجميع رجاله المقاتلين، من وجه الآشوريين، كما قرأنا سفر الملوك الثاني: ٢٥/ ٤، ولقد وجدت في هذه الحديقة أروع أنواع التين الناضج، حيث تناولت طعام افطاري، وتابعت الأكل حتى لم يعد بامكاني الأكل أكثر.

وبعد أمد نزلت من حديقة الملك إلى بركة استحمام سلوان، ثم إلى الصدع في الصخر الذي تنبع منه مياه سلوان، ودخلت هنا إلى الداخل وشربت من نبع المياه المقدسة، وغسلت عينيّ ووجهي، وأنا لم أر من قبل مياه هذا النبع تتدفق بمثل تلك الغزارة التي شهدتها تلك الساعة، لأن ذلك النبع لايتدفق دوماً بالمياه، وليس بالحجم نفسه أيضاً، حسبما ذكرت من قبل في ص ٦٥٤، وبعدما أنعشت نفسي، وحصلت على غفرانات مطلقة(++) عند هذا الماء المقدس، تابعت سيري من مياه هذا النبع، ووصلت بنزولي إلى قعر الوادي، ثم إلى جدول قدرون، وهناك لم أر انسانا، وكانت الشمس قد أخذت تشرق، وأشعتها صارت بادية على قمم الجبال، إنما حيث كنت كانت ماتزال الدنيا شبه مظلمة، وندى الصباح مايزال يتساقط، ونزلت إلى وادي جهنم، وسرت مسرعاً على طول قعر الجدول الشديد الوعورة، وذلك إلى المكان الذي يستدير فيه الوادي، حيث لم يعد بإمكاني رؤية جبل صهيون، أو جبل الهيكل، وعندما غدت هذه الأماكن بعيدة عن ناظري، وقفت دونما حراك، وتفحصت أرض مجرى الجدول، فوجدتها جافة مثل الأماكن الأخرى العالية في القدس، كما أنني لم أستطع أن أشهد بأي شكل من الأشكال، كيف يمكن أن يوجد هناك مجرى ماء تحت الأرض، وذلك في واد

عميق جداً، ومليء بالصخور.

والذي حـركني للقيام بعمليـة الفحص هذه، هو قـراءتي لوصف للأرض المقدسة، فيـه قرأت بأن جدول قدرون كان نهراً متـدفقاً بالمياه، إنما بسبب الكثير مما تعرضت له المدينة المقـدسة من تهديم، حيث رميت خرائبها وأسـوارها في الوادي، فإن مجرى هذا النهر قد أغلق، لكن نظراً لصحة المثل الذي يقـول: مامن انسان يمكنه ايقاف جـدول صغير، فقد قـالوا بأن النهر نفسـه، الذين يسمـونه جـدولاً، مايزال متملكاً لطبيعتـه ومجراه غير المتـوقف عن التـدفق تحت الخرائب، حسبما تقـدم القـول في ص ٥٨٧، وفي صفحـات أخرى كثيرة تلت بعـد ذلك حتى ص ٦٤٧، غير أنني لاأستطيع الآن أن أرى كيـف يمكن أن يكون هذا صحيحـاً، لأنني كنت بعيـداً جـداً تحت خـرائب القـدس، ولم أستطع رؤية نقطة واحدة من الماء الجاري، علاوة على ذلك، سرت في مناسبة أخرى نزولاً في هذا الوادي نفسـه، وصـولاً حتى البحـر الميت، كما سنرى ذلك في صفحة ٩٤٢ المقبلة كلها، ومع ذلك لم أشاهد أية مياه تجرى هناك.

ومن الممكن، على كل حال، أنه كان هناك فيما مضى نهر، وهذا النهر لم يعـد مـوجـوداً الآن، كما وقع لنوميشـوس Numicius، وهو نهر في منطقة اللورين وهو الذي صار مشهوراً من خلال أغنيات مارو Maro وشعـراء لاتين آخـرين، فقد قـالوا في أشعـارهم بأن انيـاس Aeneas التروجاني Trojan قد وقع فيـه، وأنه من مياهه فقط اعتاد القـدماء على صب التقـدمـات أثناء عبـادة الربة فيستـا Vesta، وفي الواقع هذا النهـر غير مـوجـود في هذه الأيام، فقـد تراجع وأخـذ بالجفـاف على مـراحل، فقـد تحول أولاً إلى نبع، وأخيراً النبع نفسه تعـرض للجفـاف وذلك كما جـاء في رسـالة بوكـاشيـوس« حـول الأنهار»، هذا ولايمكن للانسـان أن يستخلص من أقدم الكتـابات المقدسـة، بأن هذا النهر قـد تدفق وجرى فوق مجراه الجاف، بل الذي توفـر هو أنه في أيام الشتاء قد

جرت بعض المياه فيه، ونتجت هذه المياه عن الأمطار وعن ذوبان الثلوج، ويكفي ماقلناه عن هذا الموضوع.

ثم استدرت بعد هذا عائداً إلى القدس..... ومضيت أسير مسرعاً فوق المجرى الجاف حتى وصلت مكاناً بات بامكاني منه رؤية المدينة المقدسة، التي يبعث منظرها الجميل روحاً جديدة من البهجة، ويطرد الخوف من نفسي، لأنني قبل قليل عندما كنت في الوادي المنخفض كنت خائفاً، لأن وادي جهنم مكان مرعب، لاسيما في الجزء المنخفض منه، لأنه يفتقر إلى ضياء المدينة المقدسة المشرقة عليه من الأعلى، وعندما كنت على طريقي في وادي جهنم، وصلت إلى المكان الذي يلتقي فيه وادي سلوان مع وادي صهيون، فهنا قد قيل انوجد جب روجل، ويقوم الآن هناك صهريج كبير وعميق، لكن من دون بئر، وكان فيما مضى إلى جانب هذا البئر كهوف، وكان هناك مكان للرعي، حيث اعتاد فيه الشباب على تجريب قوتهم وعرضها، وكان هنا صخرة زوحلت، أي الصخرة الزاحفة، لأن الذي كان بإمكانه جرّ تلك الصخرة، كان رجلاً قوياً، وهكذا أنا لم أر هناك لاالبئر ولاالصخرة، والذي رأيته فقط الصهريج مع كثير من الصخور.

وهنا انشغل أدوناي بإقامة حفلة وتآمر لجعل نفسه ملكاً، وهنا كانت أيضاً الكهوف وعبادة الصنم، وأعمال شريرة كثيرة، كانت تقترف في هذا الوادي، وادي عنون أو جهنم، ويطلق على هذا الوادي والمكان اسم «جهنم»، وذلك اشتقاقاً من عنون، الذي كان فيما مضى مالكهما، وجرت ترجمة كلمة«عنون» بأن معناها هو« طريق الموت» أو« بئر الأسى»، ومعنى هذا أن المجرمين سوف يساقون في يوم الحساب الأخير خلال ذلك الوادي إلى مكان الموت، حسبما تقدم في ص٦٤٧، وفي الحقيقة، تبعث جميع أسماء ذلك الوادي الرعب في العقل، لأن اسمه(١) عنون أي طريق الموت، و(٢) جهنم، أي وادي الأسى ، و(٣) هنون،

أي وادي القتل، و(٤)يهنم، أي أعماق الموت، و(٥) تـوف، أي عقـوبة الحمقى، و(٦) توفت، أي عقـوبة الحزن البعيـدة المدى، و(٧) قـدرون، أي الألم بدون فـــائـــدة، و(٨) شعله Chela، أي نار الرب، و(٩) كريناروس Chrinarus أي نار الحساب الملتهمة، وبـالإضافة إلى هذه الأسماء، أطلق على هـذا الوادي اسم وادي القتل(إرميـا:١٩)، ووادي الذبح(إرميا:٧).

ومن الممكن من الإصحـاحين المتقـدم ذكـرهما رؤية كم كـان هذا الوادي مكروهاً وملعـوناً، وكـذلك في الاصحـاح :٣٢ من سفـر إرميـا أيضـاً، وكـذلك مـاتقدمت كتـابتـه في ص٦٤٧، ووردت في الكتـابات المقـدسة اشـارات متكررة لأمـاكن توف المقدسـة، في وادي عنون، التي لابد من فهمها أنها عنت أنه في هـذا الوادي العميق قامت مذابح عـالية للأوثان، وهـذا الوادي والجبل قـد وصما من قبـل يشـوع ذلك الملك الأعظم غيرة، الذي ألقى عليـه الحرمـان، وينال هذا الحرمـان الذين يدخلون إليـه، وقام بقتل جميع الكهنة في الوادي، كما جـاء الخبر في سفر الملوك الثـاني:٢٣، لأنه مثلما كـان وادي شعفـاط مقدسـاً ومبـاركـاً مع جبله، الذي هو جبل الزيتـون، كذلك فإن وادي عنون مـدنس وملعون مع جبله، الـذي هو جبل العــدوان، ولذلـك فإنه من هـذا الوادي نال اسمه، الذي هو جهنم، ليشير إلى وادي العذاب المستمر في الجحيم.

جبل العدوان للرب والصنم مولوك

بعدما فرغت من مشاهدة الوادي المتقدم الذكر، استدرت بنفسي نحو جـانبه الشرقي، عند سفح جبل العـدوان، وسرت نحو منحـدراته ومن ثم نحو الجبـل نفسه، الذي هو أكثر انخفـاضاً من جبل الـزيتون، الذي يقوم على كتفـه، عند منحدراته الجنوبيه، ووجدت على القمـة هناك بيتاً كبيراً، لكنه كان فارغاً، الأمر الذي كنت نحوه راضياً تماماً، لأنه كان لن يرحب بي كضيف، من قبـل مسلمين يسكنون هناك فيـه، وكـان سليمان

قــد أقــام على هذا الجبل مبنيين مــدنسين هما: هيكل مــولوك والبيت الخاص بمحظيــاتــه، وبذلك أغضب الرب كثيراً، ولذلك عــرف الجبل باسم جبل العدوان، حسبما هو موجود في سفر الملوك الأول:١١/ ٧.

وجـرت عبادة الوثن مـولوك بطقوس قبيحـة جداً، ولذلك حـرمت تحريماً تاماً(اللاويون:٢/ ٢) تقـديم القرابين إليـه والتضحية له، ولم يقتنع سليمان بهذا ولم يرض به، فقــام تحت وطأة تأثير امـرأته، فـأقـام هيكلاً لمولوك على ذلك الجبل، وجلب الناس لعبـادته، ودفع الأمـوال إلى كهنة هذا الوثن ، وتضمنت طقـوس عبـادة هذا الوثن قتل الأطفـال، وكـان مولوك تمثـالاً كبيراً لانسان، معمولاً من النحاس، ومفـرغاً من الداخل، وشمل الافراغ جميع أعضـائه، ووقف هذا الوثن فـوق عمود في وسط الهيكل ماداً يديه وذراعيه، مثل أم حنون، التي تمدّ ذراعيها لأخذ طفلها، لأن ذراعي الوثن كانا معمولين وفق طريقة يمكن لطفل أن يرقد عليهما وكأنه بين ذراعي أمــه، وفي أيام التضحيـة، وعنـدمـا كـان واحـد من الأطفال يقـدم هناك قرباناً، وقتهـا اعتاد الكهنة على وضع فحم يحترق في داخل جسم الوثن، ويجعلونه يتوهج كالنار، ثم كـانوا يأخذون طفلاً ذا صحة جيـدة وبريئاً من أيدي والديه، اللذان كانا قد جلبـاه للتضحية به، ويضعــــونه على ذراعي الـوثن، ولكي لاينـزعج أبوي الطفـل مع الأصدقاء الذين وقفوا هناك، إلى أبعد الحدود بسبب صراخ الطفل، كان الكهنة يقفون متماسكين قرب الوثن، حيث كانوا يصدرون أصواتاً عالية وضجة بالطبول، والكوسات والأبواق، وبذلك لايستطيع أبوي الطفل، الذي كـان يحتضر، سماع صوته، ويتـابعـون العمل بهذه الأدوات، حتى يكون الطفل المحتضن بين ذراعي الوثن قد هلك احتراقاً.

وبعــد احتراق الطفل، يقـوم الكهنة، وجميـع الحضـور أثناء عمليــة التضحية بتقديم التهنئة للوالدين بملامح علاها السرور والبهجة، لأنهما كـانا جديريـن بأخذ ولديهما ليكون بصحبـة الأرباب، ومنذ ذلك اليـوم

كـان الوثنيـون ينظرون نظرة احترام إلى جميع تلك الأسرة، لأنها ارتقت إلى مكانة النبالـة، وكانوا يعتقدون بأن جميع أقـرباء الطفل الذين ضحي به، سوف يكونون سعـداء في جميع الأيام المقبلة، وقد مـورست طقوس مشابهة بين الأمم التي عبدت ساتورن Saturn، ومن المحتمل أن الرب الذي اسمـه عند الاغـريق سـاتورن هو نفسـه الذي كـان اسمـه عند العبريين مـولوك، لأنه كـان هناك تماثيل نحـاسيـة لسـاتورن بأحجـام مدهشـة حيث كانت أيديها ممتدة حتى الأرض حـولها بشكل أن انساناً إذا ماأرغم على الصعود إلى هذه الأوثان فإنه يسقط في حفرة كبيرة مليئة بالنار، وقـد قرأنا عـن هذا في مصنف كاسـا Casa De Ev.spir — الكتاب الرابع: الفصلين السابع والثامن.

وكثير من الأوثان، أو بالحري شيـاطين على شكل أوثان، لايمكن أن تهدأ إلاّ بموت الأبرياء، وكـانت عادة ممارسة التضحيـة بالأطفال تجري لكثير من الأسبـاب، وذلك حسبما رأينا في مصنـف كـاسـا— الكتـاب الرابع: الفصلين السابـع والثامن، وتوقفت ممارسـة التضحية البشرية في أيام الامبراطور هدريان، وكـانوا قد اعتـادوا على ممارسة هذه الطقـوس الوحشيـة جـداً على هذا الجبل، وفي هذا الـوادي، ولاشك أنهم بذلك أغضبـوا الـرب كثيراً، وورد ذكـر وثن مـولـوك في إرميـا: ٢٢/ ٢، وفي عاموس:٥/ ٢٥—٢٦، وفي الأعمال:٧/ ٤٣.

عـلاوة على ذلك، قـد قيل بأن سليمان قـد بنى على هـذا الجبل بيتـاً لمحظيـاته اللائي كـان عـددهن كبيراً جـداً، وحول ذلك نقـرأ في نشيـد الانشـــاد:« هن ستـــون ملكـة، وثمانون سريـة، وعـــذارى بلا عـدد»(الاصحاح السـادس)، وبناء عليـه إذا ماجـرى تطبيق هذا النص على سليمان بشكل حرفي، من دون أي تأويل باطني، لابد أنه قـد احتاج إلى كثير من البيـوت لمثل هذا العـدد الكبير من النسـاء، ولذلك بنى قـلاعـاً وقصـوراً للملكات، وبنى هذا البيت للمحظيـات، في حين أمن

اقامة العذراوات في بيوت والديه، لكن ابنة فرعون، التي— من المعتقد— أنه لها أنشد نشيد الانشاد، والتي عنها قد قال:« حمامتي، غير الأليفة، جميلة» قد سكنت معه فوق جبل صهيون، هذا وإن البيت الذي كان هناك كان عظيم القداسة، لأن تابوت عهد الرب قد أقام هناك لبعض الوقت، وقد بنى هنا بيت ميلو، حسبما ورد الخبر في سفر الملوك الأول: ٩/ ٢٤، وذلك بقصد أن يكون بإمكانه أن يكون دوماً على مقربة منه.

وبعدما فرغت من مشاهدة هذا المكان، وهذا الجبل، نزلت إلى الوادي بخطوات سريعة، قاصداً نحو جبل الزيتون، ووصلت إلى قعر الوادي إلى جانب اهرام شعفاط، وتفحصت هذا الهرم بعناية كبرى، ودخلت إليه، وتسلقت إلى داخله من خلال النافذة، وقد قال بعضهم بأن هذا الهرم، هو العمود الذي بناه أبشالوم لنفسه، وذلك حسبما قرأنا في سفر صموئيل الثاني:١٨/ ١٨ قوله:« وكان أبشالوم قد أخذ وأقام لنفسه وهو حي النصب الذي في وادي الملك[لأنه قال ليس لي ابن لأجل تذكير اسمي] ودعا النصب باسمه، وهو يدعى يد أبشالوم إلى هذا اليوم»، لكن يبدو أن هذا غير صحيح، لأننا لم نقرأ في أي مكان بأن وادي شعفاط وجدول قدرون قد عرفا باسم وادي الملك، هذا وقد قال مصنف كتاب Speculum Historiule، بأن هذا الوادي قائم على بعد غلوتين عن القدس، ثم إن هذا ليس عموداً، قد بني وعمّر، بل هو كما هو مرئي بناء قد نحت من الصخر الأصم، في حين كان عمود أبشالوم الحجري من رخام مصقول قد أقيم ونصب نحو الأعلى، وعندما فرغت من رؤية هذه الأشياء، عبرت جدول قدرون، ومضيت صاعداً إلى جبل صهيون، ووصلت وقت الغداء، وأنا مليء بالعرق، واحترق من شدة الحرارة، وعندما سمع الأب المسؤول والرهبان بأنني قد زرت جميع هذه الأماكن، دون التعرض للأذى اعترتهم الدهشة.

وفي اليوم الثامن، وقبل انتشار الضوء، نـزلت مع بعض الرهبان إلى كهـف آلام المسيح، الـذي سلـف أن تحدثـت عنه في ص٦٠١، وهنـاك عندما رأيت أنه كان اليوم السادس من الاسبوع، أقمنا هناك قداساً عن آلام الرب، وذهبنا بعـد ذلك صـاعـدين إلى الجليل، هـذا ويوجـد على الجانب الشمالي من جبل الجليل، جبل مرتفع، كـان بعيداً جـداً، مسافـة أربعة غلوات عـن القدس، وكان سليمان قـد بنى على هذا الجبل هيكلاً لكموش(الملوك الأول:١١/٧)، الذي كـان وثن المآبيين، وفي هذا المكان نفسـه، جرى في أيـام المكابيين، بناء قلعة حصينة، منهـا تضررت مـدينة القدس كثيراً في أيام حكم الاغريق والرومان.

وتـابعنا سيرنـا مـن هنـاك، ونزلنـا مـن ذلـك المكان(الجليـل)— إنما بالحقيقـة، ليس بشكل مبـاشر— نحـو المدينة، بل نحـو الشمال، حيث وصلنا إلى واد جميل وخصب، مزروع بالأشجار، من خلاله يمر الطريق الذي يسير الانسـان عليـه من القـدس إلى النـاصرة، ووصلنا ونحن سائرون إلى القرية التي بحثت فيهـا العذراء المباركة ويوسف عن الطفل يسوع بين أقربائهما ومعارفهما، وعندما وجداه، لم يعودا ثانية إلى القدس، وذلك حسبما جاء عند لوقـا:١١/ ٤٥، ووصلنا في هذا الوادي إلى مكان مليء بالخرائب القـديمة، حيـث قامت فيها مضى قـرية عناتا، التي منهـا جـاء النبي أرميا، الذي تقـدس، عندما كـان في رحم أمه، وقـد ولد من سلالة الكهنة، وبدأ بالتنبؤ وهو مايزال طفلاً، وتنبأ، وشاهد بعينيه دمار القدس، وذلك كما حـدثنا جيروم في توطئته لإرميـا، هذا وأطلق جيروم هذا نفسه في كتـابه «حول المسـافات بين الأماكن» على هـذه القرية اسم عـربات Arabathوقـال بأنها كـانت قـرية كهنة، لأن الكهنة امتلكوا قـرى ومـزارع في محيط القـدس، حيـث بناء على ذلك كـانت جيسماني، وبيت فـاجي، ونوب، وعناتا، كـانت قـرى كهنة، وهنـاك تولوا علف المواشي المقدمة لأول الانتاج، أو من أجل العشـور، وهناك نبوءة خاصة

لكهنة عناتا، يمكن رؤيتها في إرميا:١١/ ٢١، ٢٣، وبناء عليه رأينا عناتا على شكل خرائب، لذلك صعب علينا تمييزها، وبعد هذا عدنا راجعين إلى القدس، ودخلنا إليها من خلال باب اسطفان، وسرنا صاعدين إلى جبل صهيون، وقمنا ونحن على طريقنا بتقبيل الأماكن المقدسة في أرجاء المدينة.

وفي اليوم التاسع، الذي كان يوم سبت، وأمسيته أمسية عيد القديس لورانس، ذهبت في الصباح الباكر، قبل اشراق الشمس، وكان برفقتي بعض الرهبان، ودخلنا إلى وادي شعفاط نوم كنيسة ضريح مريم العذراء الأعظم مباركة، حيث أقمنا قداساتنا، وفي الحقيقة كان الأب المسؤول يرسل كل سبت بعض الرهبان لإقامة قداس هناك، وغالباً ماعتاد على الذهاب معهم، وبعد الفراغ من القداسات، صعدنا إلى جبل الزيتون، ونزلنا من طرفه الآخر إلى بيت عنيا، حيث شاهدنا الأماكن المقدسة وقبلناها، ومن ثم عدنا إلى جبل صهيون.

وعندما وصلنا إلى هناك، وجدنا جميع اللوردات والحجاج قد اجتمعوا معا في الدير ينتظرونني، من أجل إعطاء جواب لواحد من المماليك، الذي أمر بمثول جميع الحجاج بحضرته، وذلك من أجل مناقشة بعض المسائل معهم، لأنه قد سُمع في بلاط السيد السلطان في القاهرة، بأن بعض المسيحيين الحجاج من الغرب من الأعيان واللوردات النبلاء، هم في القدس، ولهذا أرسل من مصر هذا المملوك، الذي كان ترجمان المسيحيين في القاهرة، ليعرف من نحن، ومن أين قدمنا، وعلاوة على ذلك، إذا ماكنا من فرنسا، كان بين أوامره، حملنا معتقلين إلى القدس، لأي سبب أنا لاأعرفه، لكنه بعدما عرف من Sa-bathytanco ترجماننا، بأننا لم نقدم من فرنسا، قدم معه إلى جبل صهيون، وأمرنا جميعاً بالمثول بحضرته، وحيانا بطريقة صديقة بكل من اللاتينية والايطالية، وقال لنا:« إذا ماتفضلتم، يمكننا أن نسافر غداً،

وتنزلون معي غداً إلى مصر، عبر الطريق السلطاني العام، وفي عشرة أيام سوف تكونون في القاهرة، حيث منها سوف أرسلكم مع حراسة إلى العربية، أي إلى جبل سيناء، وعندما تعودون من هناك، يمكنكم الإقامة في بيتي، بقدر ماترغبون»، وبهذه الكلمات والوعود الجيدة، التي عملها لنا، بات علينا بشكل مؤكد المغادرة معه، مهما كانت أوضاع خططنا وأحوال حقائبنا، وكنا حتى الآن لم نقم بإعداد أي من الأشياء المحتاجة في هذه الرحلة، وقمنا على كل حال بشكره، لعرضه اللطيف، ورجوناه، أننا عندما نصل، بفضل الرب ونعمته إلى المطرية وحديقة البلسم، على طريقنا من جبل سيناء، أن يتلطف ويقودنا بسرعة من هناك إلى القاهرة، وأن يبعث بنا مباشرة عبر النيل من القاهرة إلى الاسكندرية حتى لانضيع السفن الموجودة في الاسكندرية، والذاهبة إلى البندقية.

ووعدنا باخلاص بأنه سوف يفعل هذا كله، الأمر الذي أفرحنا كثيراً، علاوة على ذلك بقي علينا الحديث عن هذا الرجل، وعن مكانته، فلقد كان اسمه Tanquardinus،وقد جاء إلينا بثوب الحمل، لكنه كان في الواقع ذئباً مفترساً، كما سوف نرى فيما بعد، وبناء عليه بعدما عمل هذا الاتفاق معنا، غادر، وذهب عائداً إلى مصر، وبعد الغداء ذهبنا نحن الحجاج مع بعضنا إلى الحمام أو البيت الساخن، حيث استحمينا وغسلنا أنفسنا مع المسلمين، وهذا الحمام الساخن مثل الحمام الموجود في الرملة، الذي سلف الحديث عنه في ص٣٧٦، ودخلنا بعد استحمامنا إلى كنيسة الضريح المقدس.

الدخول الخامس للحجاج إلى كنيسة قيامة ربنا يسوع المسيح وإلى ضريح الرب

في أمسية اليوم العاشر، التي كانت موعد عيد القديس لورانس الشهيد، والأحد الحادي عشر بعد التثليث، سمح لنا مجدداً بالدخول إلى كنيسة ضريح الرب الأعظم قداسة، وفق الطريقة التي تقدم ذكرها،

وسهرنا تلك الليلة إلى جانب الضريح المقدس، وقد طفنا حول الأماكن المقدسة، كما فعلنا من قبل، وأقمنا قداسات مابعد منتصف الليل، وغنينا قداساً في ضريح الرب بعد اشراق الشمس، وبعد ذلك أخرجنا المغاربة من الكنيسة، وكان معنا من الرهبان الفرنسيسكان من دير جبل صهيون، بعض الشباب في كنيسة قيامة الرب، وقد رجوت هؤلاء الشباب بالنزول معي إلى وادي شعفاط، لأن الوقت كان مايزال باكراً في الصباح، وكانوا راغبين تماماً بالقيام بذلك، شريطة تقديم الاعتذار عنهم إلى الأب المسؤول لعدم حصولهم على إذن منه، الأمر الذي وعدتهم بفعله، وقد فعلته.

وهكذا سرنا خلال المدينة، ونزلنا إلى شارع الطباخين، حيث اشتريت من الطباخين للرهبان ولنفسي فطائر معمولة بالبيض، وبعض الكعك، وفطائر باللحم، ولحم مشوي، وعناقيد من العنب، وبعض التين، ومضينا مع هذه المؤن ونزلنا إلى الوادي، وعبرنا الجدول إلى مزرعة في جيسماني، وهناك جلسنا في الظل تحت بعض أشجار الزيتون، وتناولنا معا طعام الافطار بسرور، ولم يكن معنا شراب، لذلك مصصنا حبات العنب عوضاً عن الشراب، وكانت حبات العنب على درجة عالية من الحلاوة، وكانت ألوانها سوداء وبيضاء.

وبعدما فرغنا من طعام الافطار، وقبلنا أقرب الأماكن المقدسة، مضينا صاعدين جبل صهيون، وجلسنا لتناول طعام الغداء مع الرهبان، وبعد الغداء جاء السادة النبلاء من الحجاج إلى جبل صهيون، وسألوا الترجمان ورجوه أن يأخذنا إلى بيت لحم، وكانوا قد جمعوا واستأجروا حميراً وسائقين، وقدموا معهم إلينا، وهكذا امتطينا حميرنا، وانطلقنا من القدس مع Sabathytanco المسلم، وعندما وصلنا إلى الرابية، على الطريق إلى جبل جيون Gion ، مقابل جبل صهيون، قابلنا حشد من البداة العرب، كانوا قد سمعوا برحلتنا، ومع أنني لم أعرف من الذي

وشى بنا إليهم، فلقد قاموا بقطع الطريق أمامنا، مالم نقم بدفع خفارة ومالاً لهم، وكانوا قد طلبوا مبلغاً كبيراً من المال، ورفضنا أن ندفع لهم، وبعدما تجادلنا مع بعضنا لبعض الوقت، أرغمونا بالقوة على العودة إلى القدس.

رسالة حول الحج إلى البحر الميت

وبعدما عدنا إلى المدينة المقدسة سألنا الترجمان وكالينوس تزويدنا بحمير وبجواز مرور، حتى نتمكن من النزول إلى البحر الميت لرؤيته، وعندما سمع المسلمان بهذا، ألقيا بكثير من المصاعب الكبيرة في طريق الحجاج، وقدما كثيراً من الأسباب، من أجل اقناعنا للتخلي عن هذا الحج الذي اقترحناه، وكان السبب لاهوتيا بعض الشيء، ذلك أنهما احتجا بأننا قدمنا إلى هنا من بلاد من وراء البحر، حتى نتمكن من رؤية الأماكن المقدسة، التي باركها الرب، والتي قدسها مسيحنا، وليس من أجل رؤية الأماكن غير المقدسة، التي لعنها الرب مثل البحر الميت، الذي، المسلمون أنفسهم، يسمونه الملعون، والذين قالوا عنه بأنه يتوجب كراهيته ومقته من قبل كل مؤمن بالكتابات المقدسة، وأخبرانا بأنه ينبغي أن نكون قانعين برؤيتنا للأردن المبارك.

وكان السبب الثاني لعدم رغبتهم بأخذنا إلى البحر الميت مرتبطاً بالبداة العرب والمدينيين الذين سكنوا في تلك الصحارى، وكانوا يتجولون حول الطريق السلطاني العام من أجل النهب، ومن غير الممكن الدفاع بشكل جيد ضد هجماتهم، مالم يرغموا على الفرار، ويتعرضوا للجراحات بالسيوف والنشاب، لأنهم كانوا غير مسلحين وعراة، هذا ولم يرغب أدلاؤنا بتعريض هؤلاء القوم للأذى من أجل خاطرنا، وقالوا بأنهم يؤثرون أن نتعرض للنهب على أن يتعرضوا للأذى والجراحة، وفي الحقيقة كان هؤلاء البداة جياعاً إلى أبعد الحدود، وكانوا تعساء، إلى حد أنهم كانوا على استعداد لمهاجمة رجال مسلحين،

مع أنهم كانوا غير مسلحين، ولتعريض حياتهم للخطر من أجل الخبز، وكان السبب الثالث الذي قالوه، هو أنه كان هناك حول شاطىء ذلك البحر كثيراً من الحيوانات المؤذية والسامة، من الأنواع الكبيرة والصغيرة، من أمثال: الأسود، والدببة، والخنازير البرية، والأفاعي، والزواحف، وماشابه ذلك.

وكان السبب الرابع، هو أنهم قالوا، بأن الملك السلطان قد حرّم أخذ أية غرباء إلى هذا البحر، وكان ذلك بسبب وجود الأفعى الأعظم سمية، وفي الوقت نفسه الأعظم قدراً ونبالة، وأعني بذلك التر Tyr، وذلك خشية أن يحدث وتمسك من قبل الغرباء، ويجري حملها إلى خارج البلاد، لأن هذه الأفعى غير موجودة في أي بلد من بلدان العالم، إلاّ فقط على شواطىء البحر الميت، ولذلك حظر السلطان سكان تلك المنطقة ومنعهم من امساك هذه الأفاعي، وبيعهم لأي انسان، وجلبهم فقط إليه في مصر، ومن فعل غير ذلك نال عقوبة الاعدام، وحدث على كل حال، أن خرق فقراء الناس هذا الحظر أحياناً وباعوا هذه الأفاعي إلى تجار مسيحيين، في دمشق وبيروت، وكذلك في الاسكندرية والقاهرة، ومن هذه الأفاعي يجري صنع أقوى العقاقير وأغلاها، وهو الترياق، وليس هناك أي ترياق صحيح إلاّ المستخرج من هذه الأفاعي، ومنها نال هذا العقار اسمه، وقد قيل بأن شكل هذه الأفاعي هو كما يلي: طولها حوالي الشبر ونصف الشبر، وغلظها يقارب غلظ اصبع ابهام الانسان، ولونها هو أصفر مع شيء من التمازج بالأحمر، وتولد بالطبيعة عمياء وتبقى كذلك، وهي دوماً عدوانية بشكل مخيف، تنقض بسرعة رهيبة مع فحيح غاضب، ولايعرف دواء ضد عضتها، إلاّ قطع العضو الذي تعرض للعض وتسمم مباشرة، وإلاّ فإن الجسد كله سيصبح بلاشك ملتهباً، ومتورماً، ومتفجراً وتهاجم هذه الأفعى جميع المخلوقات، ولذلك يكون هناك حيوانات كبيرة ميتة عند شاطىء البحر

الميت بسبب تسممها من قبل التر.

وعندما تكون هذه الأفعى غاضبة، تمدّ نحو الأمام لسانها الملتهب، وتستدير بسرعة هائلة، ويغدو جسدها وهي مغضبة كله ملتهباً مثل حديدة محماة، ورأسها الصغير الذي هو بالعادة صغير، يتورم حتى يصبح أكبر من جسدها، ولها على وجهها هلب مثل هلب الخنزير البري، وهي إذا عضت فرساً، يصل السم إلى راكبها أيضاً ويموت، ولولا أن خالق الطبيعة قد حرم هذه المخلوقة من عينيها، مامن انسان كان يمكنه الاقتراب منها، كما كان من غير الممكن امساكها بأية طريقة من الطرق، لأن الأفعى ماكرة جداً.

ويتعامل الأطباء والصيادلة مع هذه الأفعى كما يلي في صناعة الترياق: يأخذون أفعى أمسكت وهي حية، ويضعونها في وعاء واسع وعميق، يمكنها أن تركض فيه نحو الأمام ونحو الخلف بحثاً عن طريق للخروج، لكن لايمكنها فعل ذلك، وفي تلك الأثناء، وهي تدور حول الوعاء، محاولة الخروج، يأخذون عصياً وإبراً، بها يلتقطونها، وبذلك يثيرون غضبها إلى أبعد الحدود، وعندما تشتعل غضباً وتتورم حنقاً، يتجمع السم، الذي كان منتشراً في الأحوال العادية في كل جسدها، في رأسها وذنبها، وعندها يقومون بضربة واحدة بسكين أو شفرة بقطع هذين الجزئين معاً، وإذا مااقتصر القطع إما على الرأس أو الذنب، فإن الجزء المتوسط يكون بلا فائدة، وتعلمت هذه المخلوقة بوساطة الطبيعة الاحتفاظ بسمها، وفقط يمكن بفن عظيم استخراج ذلك منها والتغلب عليها، وتباع هذه السموم بأسعار عظيمة، أكبر من أسعار الذهب والحجارة الكريمة.

وقد أودع السيد السلطان، ملك مصر، في خزائنه، السلعتين الخاصتين التاليتين، اللتان تنتجان في ممالكه، وأعني بذلك: البلسم، وأفعى التر، ولذلك لايسمح للحجاج بالدخول إلى بستان البلسم إلاّ

بحذر كبير، كما سنتحدث فيما بعد، كذلك لايسمح لهم بالتجول حول شــواطىء البحـر الميت بسبب الترّ، وبسبب ـــحر اليهـود، الذي هو كذلك لايمكن العثور عليه في أي مكان إلا هناك على شـواطىء البحر الميت.

وكان السبب الخامس لمنعنا هو الرائحة البشعة والشريرة الصادرة من ذلك البحر، حيث أن الانسان غير المعتاد عليها، يصاب بالعدوى، ومن ثم يمرض ويموت.

وكـان السبب السادس الذي قـالوه، هو أنه لم يكن هناك شيئاً جميلاً ليروه، وأننا لن نشاهد شيئاً مـريحاً، بل سوف نبـذل جهداً كبيراً، وننفق أموالاً بدون فائدة، وسنواجه مشاكل مزعجة كثيرة.

ولدى سماع بعض الحجاج بهذه المثبطات ومثبطات أخـرى، انسحبوا وتراجعــوا قـائلين بـأنهم لن ينزلوا إلى هناك، حتى ولـو دفع لهم، لكن آخرين، على الرغم منهم، كانوا متشوقين للذهاب، وهكذا كنا منقسمين للمـرة الثـانيـة إلى فئتين، مثلما حـدث لنا من قبل بشأن قضيـة الحج إلى الجليل والناصرة، الأمر الذي كنا قد أوضحناه من قبل، هذا وقد طالب الشطر الأكبر من الحجاج باقتيـادهم ونزولهم إلى هناك، ورفضوا التخلي عن الفكرة، حتى ولو اقتضى الأمــر التماس ذلك مـن السيــد جــانم الحاكم، والطلب منه الحصول على إذن وجـواز مرور، ولدى سماع Sa-bathytanco بهذا، أرسل في اليـوم نفســه إلى حامـدAmeth ، والي بيت لحم، وكان مغربيـاً وشجاعاً ومخلصاً، وكـان حليفاً للبداة، ولم يكن يخاف منهم، وطلب منـه القــدوم في تلك الليلة مـن بيت لحم إلى جبل صهيون في القدس مع أربعة عشر بغـلاً أو حماراً، وأن يأخذ الحجاج إلى البحـر الميت وأن يعـود بهم، مقابل مبلغ من المال يجري الاتفـاق حـوله معــه، وقمنا نحن من جهتنا بإعــداد طعــام وشراب لمدة يومين وليلة واحدة لنحمله معنا أثناء تلك الرحلة.

الحج إلى البحر الميت

وفي اليوم الحادي عشر، وقبل انتشار الضوء، جاء حامد إلى جبل صهيون مع بغال وحمير، وعبيد، وقرعوا على باب الدير، وسألوا عن الحجاج، لكن مامن أحد منهم كان في الدير إلا أنا وحدي، وهكذا ركضت نازلاً في الظلام من صهيون إلى ميلو، إلى بيت الفحل، الذي أقام فيه السادة الحجاج، وهناك قرعت على الباب بحجرة، وأيقظتهم، والذين رغبوا بالذهاب والمشاركة في الحج، قدموا صاعدين معي، وامتطينا دوابنا، ومضينا نازلين من جبل صهيون إلى وادي سلوان، وعندما وصلنا إلى بركة الاستحمام، نزلنا إلى أعماق توف، وجهنم، وسرنا خلال وادي جهنم المرعب، وكان الوقت مايزال مظلماً، علماً بأن الليالي لم تبد لي مظلمة في هذه المناطق من بلاد ماوراء البحر، مثلما في بلادنا، لأنه في هذه البلاد لاتوجد غيوم، ولاضباب، لحجب أنوار النجوم وأشعتها.

وأشرقت الشمس وفي الوقت نفسه تابعنا تقدمنا نحو الأمام دون توقف، خلال واد ضيق، مع صخور منحدرة مطلة من على الطرفين، ولم نتوقف حتى كانت الشمس في كبد السماء، وكان هذا الوادي وعراً جداً، لأنه كان مليئاً بالصخور وبالحجارة، من عليها انجرفت التربة بسبب اندفاع المياه، في أيام الفيضان، ففي تلك الأوقات تندفع المياه، نازلة هناك بقوة تبلغ حداً أنها تقتلع الصخور الكبيرة من أماكنها، ومن ثم تقذف بها خلال جريانها، والنهاية العلوية لهذا الوادي هي وادي شعفاط، وجدول قدرون، هذا ولم أستطع رؤية أي أثر هناك لاستمرار جريان المياه، من جدول قدرون، كما قلت من قبل وبينت.

وعندما كنا نسير منحدرين، ونحن على ظهور دوابنا، وبعدما قطعنا حوالي الميلين ألمانيين، بدأ الوادي يصبح أكثر انحداراً ووعورة، وعندما ضاق هناك، وصلنا إلى دير القديس سابا، الذي كان راعياً للدير، ولقد

جرى استقبالنا باحترام من قبل الرهبان الاغريق، أو الـ Caloyers، ووجدنا في الدير كثيراً من البداة العرب من أهل الصحراء، ومن الفلاحين، ومن قطاع الطرق، ولدى رؤيتنا لهم استولى علينا رعب شديد، وتوجسنا أن نكون قد تعرضنا للخيانة، وشككنا بدليلنا نفسه، المعلم حامد، في أنه قد تآمر ضدنا، وعندما لاحظ هذا جاء مع مقدم هؤلاء اللصوص من البداة العرب، إلى القاعة التي جلبنا إليها، وتعهدا معا إلينا ووعدانا بأن نكون آمنين في أجسادنا وعلى سلعنا وحاجياتنا، إنما إذا قمنا ، وتفضلنا بتقديم ضريبة أو هدية صغيرة لهما، فوقتها سوف يكونا في خدمتنا، وأنهما سوف ينزلان معنا إلى البحر، ومن ثم يتوليان الدفاع عنا.

وبناء عليه أعطيناهما بعض الدراهم، وبتسلم ذلك كانا راضيين، وكنا نحن مطمئنين، وزالت المخاوف من نفوسنا، وأحضرنا نحن الآن جعبنا مع الأشياء التي تزودنا بها في القدس، وقوارير الخمرة، وأكلنا وشربنا، فضلاً عن هذا أعطينا بعض الحلوى إلى دليلنا وإلى البداة العرب، وأحضر الرهبان ماء بارداً لنغسل أقدامنا جميعاً، وللشرب، وبعد تناولنا للطعام وانعاشنا لأنفسنا ذهبنا إلى الكنيسة، حيث صلينا للرب، وحصلنا على غفرانات(+) لمدة سبع سنوات، وعلاوة على ذلك ذهبنا إلى ضريح القديس سابا، وصلينا هناك، والذي اعتقده أن هذا الضريح فارغ، لأن جسد هذا القديس، راقد في البندقية، كما ذكرنا من قبل، وبعدما رأينا هذه المشاهد، تمدد السادة الحجاج على الأرض، وناموا، لكنني شخصياً لم أستطع النوم أو الجلوس بلا حراك بأي شكل من الأشكال، بل قمت بالتجول هناك وفي جميع أجزاء الدير، وفي الأسفل في الوادي وفي الأعلى، وتفحصت بكل دقة الكهوف والأكواخ التي كانت عائدة للرهبان القدماء مع اعجاب عظيم، ومع رعب وخوف من السقوط، عندما تسلقت صعوداً ونزولاً فوق الصخور والجروف،

وخرائب الأبنية القديمة.

علاوة على ذلك تعرضت إلى الخطر التالي أثناء تجولي الافرادي: فقد وصلت إلى ممر ضيق ملاصق لقلاية القديس سابا، حيث يقوم فوق الصخرة جدار على الطرف الأول، لكن لايوجد على الطرف الآخر أي شيء سوى منحدر مفتوح مرعب، أو جرف معلق، وكان هناك خلال هذا الممر مايسمح لانسان واحد بالمرور فقط في وقت واحد، ولاأعني بهذا مرور انسان من هذا الاتجاه وآخر من اتجاه مقابل، بل انسان واحد فقط، عليه أن يكون حذراً خشية السقوط نحو الأسفل، وعندما كنت ماراً خلال هذا المكان، التقيت بمسيحي شرقي، لعله كان خادماً لذلك الدير، ولدى رؤية هذا الرجل لي تقدم نحوي، وبعدما خطا بعض الخطوات نحو الخلف، وعندما رآني خائفاً كثيراً، بدأ بالمزاح معي، وتظاهر بأنه مقبل على اسقاطي بالهوة.

وعندما رجوته بالاشارات بقدر مااستطعت، بأن يتركني أمر بسلام، رفض ذلك، وأشار لي بأنه سوف يلقي بي، ما لم أعطه بعض المال، ولدى سماعي ذلك، فتحت حافظة نقودي وأعطيته مندوساً واحداً، ولدى تسلمه له تركني أمر، ومن تلك الساعة فصاعداً صرت أمقت مرافقة مسيحيين من هذا النوع، أكثر من كراهيتي مرافقة المسلمين أو البداة العرب، وصرت أثق بهم أقل من سواهم، ومع أنه كان ربما لن يرميني من فوق الجرف، حتى لو لم أعطه شيئاً، لقد كان على الرغم من ذلك شريراً ليلعب مع انسان هو لم يره من قبل، في مكان بمثل هذه الخطورة، وأن يأخذ مالي ليتركني بسلام، ولو أن بدوياً قابلني وفعل بي مثل ذلك، لكنت مسروراً تجاه لعبه، ولعددته غير مسيحي جيد، لكنني أعتقد أن هذا التصرف غير لائق بالصدور عن مسيحي نحوي، ولقد حدثت بالقضية حامد، الذي كان المسؤول عنا، فوجه إليه اللوم بمرارة، وكان غاضباً منه كثيراً، وقد أخبرنا بأن هؤلاء المسيحيين الشرقيين، هم

أدنى الناس الذين يمكن الوثوق بهم مـن قبل أي انسان، وقـد مكثنا في ذلك الدير حوالي الخمس ساعات، حتى خفت حدة حرارة الشمس.

ملاحظة حول دير الراعي القديس سابا

كان دير الراعي القديس سابا واحداً من أعجب الأشياء التي رأيتها في جميع رحـلاتي، لكنني غير متأكـد فيها إذا كـان هذا هو دير القـديس سابا، الذي قرأنا عنه في«حياة الآباء»، حيث قرأنا بأن القديس سابا كان لديه دير في سورية، وأنه كان أبا ورئيسـاً فوق ثلاثة عشر ألف راهباً، في حين هذا الدير مـوجود في اليهوديـة، علماً بأن اليهودية نفسهـا هي جزء من سورية، ويقـول الرهبان الذين يسكنون في هذا الدير هذه الأيام بأن القـديس سابا كـان راعي هذا الدير، ومـؤسسه، والأب المشرف عليـه، وكـان لديه دومـا في ديره أربعـة عشر ألفـاً مـن الرهبـان، وهذا عندمـا يسمعه الانسان يصعب عليه تصـديقه، ولكنه عندما يشاهد المكان، فإنه يوافق على أنه وإن كان العـدد مبالغاً فيه، فإن حشداً هائـلاً من الرهبان لابد أنه كان يسكن هناك.

وكان هؤلاء الرهبـان، ومازالوا الآن يتبعـون أحكام القديس باسيل، أي هم اغريق، وهم بذلك مثلهم مثل الرهبـان في دير القديس كاترين، تحت جبل سيناء، ونعجب نحن الرهبـان الغربيـون كثيراً من أين يمكن لمثل هذا الحشد من الرهبـان الحصول على الطعـام واللباس، لكن الذي يشهد عادات، وطعام، وثياب الرهبـان المشارقة، لايتعجب نحو ذلك، ذلك أن طعامنا أكثر وفرة وتنوعاً، وملابسنا طبقات كثيرة، وأعلى نفقة، وبيـوتنا وديرتنا متعددة الأنواع، ومعمـولة بأناقة أكبر، وبسخـاء أعظم، لكن ليـس هناك شيئاً من هـذا القبيل في هـذه الأيام بين الـرهبـــان الشرقيين، وصـدقاً أعتقـد أن نفقـات دير واحد فيـه عشرين راهبـاً من الرهبان الغـربيين من الطوائف الكبيرة، هو أعظم من نفقـات واحد من هذه الديرة فيـه أكثر من مائـة من الرهبان الشرقيين، فهم ينفقـون قليلاً

على الأبنية، لأن الـذي لديهم مجرد أكواخ معمولـة من النباتات العـامة، فيهـا لايمكن لانسـان أن يقف دون أن يحني ظهـره، وكنائسهم ليست أكثـر سمواً من أكـواخ الرهبـان، فمثل هذه الأكواخ جـدرانهم من هذه النباتات مغطاة بالطين، وهي فقط أعلى من أكـواخ الرهبان، وفيها يتعلق بملابسهم لايـرى الانسان اي شيء عالي النفقـات، حتى في هذه الأيام، علماً بأن الرهبـان الشرقيين الحديثين قد ابتعـدوا كثيراً عن كمال سلفهم، الذين تجولوا وهم يرتـدون جلود الأغنام وجلود الماعـز، وعليهم أردية منسوجة من سعف النخيل، في حين تحمل كثير منهم حرارة النهار وبرد الليل، وهم عراة لسنوات كثيرة، وليس لهم من مسكن سـوى الكهوف في الصخور، كما أنهم لم يقيموا قط في مكان واحـد، بل تجولوا في جوف القفار، ووضعـوا أنفسهم بعيداً عن جميع البشر، غير عـابئين لابطعامهم ولابلبـاسهم، وفي الحقيقـة إن طعـام وشراب جميع الشرقيين، وبشكل خاص الرهبـان قليل جداً، ويجري احتساء الخمـرة كقاعدة، قليـلا جداً من قبل العلمانيين ولاتُشرب قط من قبل الرهبان، وهكذا فإنهم يعيشون بنفقـات صغيرة، في حين على العكس منهم، يعيش الرهبـان الغـربيـون وسط ترف كبير وانفـاق عظيم، ولـذلك حمل عليهم القـديس جيروم وندد بهم بعنف في رسائله، قـائلاً بأنهم يحشـون أنفسهم بالأطعمة حتى يصبحوا مرضى، وبالنسبة لهذا القول، نحـن الرهبان الغربيون نستحقه، وعندمـا سمع واحـد من المقـدسين من بين الرهبـان الغـربيين بقـول القـديس جيروم هذا، رد بأن القـديس جيروم ندد بقـوله هذا ببعض الرهبـان الشرقيين النهمين، وقصـد بأن قـابليـة الطعـام التي امتلكهـا الغـربيـون بشكل طبيعي، أصبحـت نهماً بين الشرقيين، وذلك حسبما يمكننا قـراءة ذلك في Speculum Historiale— الكتـاب الثـامن عشر، الفصـلان العـاشر والثاني عشر، وقـد علمنا أيضـاً بأن بعضـاً من الرهبـان الغـربيين ذهبـوا مـرة إلى قفـار مصر، من أجل أن يتمكنوا من رؤية الرهبـان الشرقيين، وذهب بعضهم إلى قـلاية رجـل مسن، وبعـد

التوسل والتحريض دعيوا إلى الغداء من قبل الرجل المسن، وعندما جلسوا إلى المائدة، وضع أمام خمسة من الرهبان نصف رغيف، وحزمة من الحشائش كانت تشبه النعنع، وهي مليئة بالأوراق وطعمها مثل العسل، وأكل واحد من الرهبان جميع هذه الوجبة، التي أعدت للخمسة جميعاً، ولم يشعر بالشبع أبداً.

وفي الحقيقة إن تكوين أجساد الشرقيين والغربيين مختلف، مشاهدين أنهم يتأثرون بمؤثرات مختلفة من قبل الأجرام السماوية، ولهذا من المؤكد أن أشياء كثيرة هي بالطبيعة ضرورية للغربيين، غير أنها بالنسبة للشرقيين ترف زائد فيه اقتراف للذنب، وينطبق هذا على الذين يمتلكون بيوتاً جيدة، وقصوراً للإقامة، وكذلك ثياباً، وطعاماً، وشراباً، علاوة على هذا اعتاد الرهبان في الأيام الخالية على فلاحة الأرض، وكانت الثمار الناتجة عن ذلك يُعطى شطر منها لكل انسان ليعمل بها حسبما يريد، وكان يتوفر لديهم نتاج كبير في الشرق، فلا يجدون فقراء لإطعامهم به، ولذلك أرغموا على ارسال القمح إلى بلدان فيما وراء البحار، من أجل اطعام الفقراء في الغرب، ومن هذا واضح أن عدداً كبيراً من الرهبان كان يمكنهم الإقامة مع بعضهم بالمئات وبالآلاف في بعض الأوقات، مثلما هو الحال الآن في دير القديس سابا.

وفي عودة إلى موضوعي، إن ترتيب الدير المتقدم الذكر هو كما يلي: هو قد احتل شطراً طويلاً من وادي جهنم، والوادي هناك عميق وضيق، ومحاط على الطرفين بصخور منحدرة، وعلى هذا فإن الوادي يطوقه بجدار يمتد لمسافة طويلة، وكان هذا الفراغ كله فيما مضى ديراً، والصخور على الطرفين هي كهوف، لكن غير منحوتة، بل معمولة ومفرغة بشكل طبيعي لتكون مساكن مناسبة للرهبان الذين يودون تكريس أنفسهم وايقافها على الصلاة وعلى التأمل وهذه الكهوف مسقوفة من الأعلى بوساطة صخور معلقة وبجروف متقدمة، هذا

وتلطف الخالق، فوجه عمل الطبيعة، بأن جعل هذه الكهوف تمتد بشكل طولاني ومنتظم واحدها بعد الآخر، لتكون على شكل قلايات، ويوجد في الأسفل عند سفح الصخور صف من الكهوف، وفي الأعلى هناك صف آخر فوقهم، كما هناك صف ثالث أعلى أيضا فوق هؤلاء، في حين هناك على الحواف مساكن بنيت بالفن الانساني، على شكل أن الطرف الأول من الوادي يعرض أربعة طوابق من القلايات، ويتم الدخول إلى الصف الأول من القلايات أو الكهوف من قعر الوادي لأنه على المستوى نفسه، وهناك طريق يأخذ نحو الطوابق الأعلى، ويوجد في مواجهة القلايات هناك صخرة مطلة وممتدة في واجهة مداخل الكهوف، على شكل أنه هناك قبل مداخل الأبواب، ممر مفتوح، ومثل هذا موجود في الطابق الذي يعلو ذلك، هذا والكهوف في كل طابق مفصوله، مثل القلايات على أحد جوانب دير من الديرة، وهي ليست مصنعة بعمل الانسان وبراعته، بل بنيت هكذا من قبل الطبيعة.

وفي الأماكن التي لم تسمح الطبيعة بها بعمل غرف كاملة، تمت مساعدتها بالعمل الانساني، ولدى توفر كهفين توفرت فتحة جدارية جزئية بينهما، أوقفت هذه الفتحة وأغلقت بجدار، أو إذا توفر كهف كبير، يقوم اثنان أو ثلاثة من السكان بعمل جدران فاصلة فيما بينهم، وفي الوقت نفسه إذا وجد أحيانا كهف ضيق جرى توسيعه بالنجر في الصخر، وكل واحد من الرهبان لم يتمكن من الحصول على كهف خاص به في الوادي نفسه، قام بنجر كهف لنفسه بالجدار هناك، أو في الصخور فوقه في القمة، ولهذا يوجد حتى هذا اليوم في كل من الوادي في الأسفل، وفوقه، كثيراً من الخرائب من الجدران، وكأنما كانت مدينة هناك، وماتزال بعض القلايات المبنية قائمة، وكذلك العديد من الأكواخ التي بنيت بحجارة جافة، فضلاً عن هذا يبدو أنه كان هناك

فيها مضى أبراجاً عالية، وغرفاً بهية، وبيوتاً عظيمة، فوق ظهر الصخرة، وفي الصخرة نفسها، وفوق الأرض بالأسفل، ومابرحت كنيسة المكان قائمة دونما أذى، وهي واسعة إلى حد ما، ومؤسسة فوق صخرة، وهي صخرة منجورة من الجزء الأعلى من جانب الوادي، وهي ليس لها أساسات، بل مفتوحة من جميع الجوانب، باستثناء المكان التي تخرج فيه من جانب الوادي.

ويوجد تحت الصخرة، حيث تقوم الكنيسة، فراغ كبير ومظلم، يقود عميقاً إلى داخل الجبل، حيث يتدفق جدول، غير أنه جدول صغير جداً، ومياهه للشرب، وبه يدعم الرهبان حياتهم، واسمه نبع القديس سابا، ويعجب الانسان لدى رؤيته الكنيسة والأبنية الأخرى قائمة فوق صخرة هي معلقة في الهواء من دون أية أساسات، وعلى مقربة من الكنيسة هناك قلاية القديس سابا المنحوتة من الصخر، إليها يذهب الانسان بوساطة الممر الملتوي، الذي تقدم لي ذكره.

وعلى الجانب الآخر من الكنيسة، يوجد أيضاً، فوق هذه الصخرة، قلايات الرهبان، الذين مايزالون يسكنون هناك، ويصل عددهم إلى الستة، وهم لايستطيعون الاقامة هناك، لولا أنهم متحالفين مع البداة العرب، الذين يضمنونهم، ويحمونهم ضد المسلمين، ولذلك فإن المكان كما هو، هو قلعة مفتوحة للبداة العرب، ومأوى وملاذ لهم، ولذلك هو ليس خلواً، دوماً، من قطاع الطرق من البداة.

وهناك فوق الوادي حقولاً واسعة مزروعة، اعتاد الرهبان في الأيام الخوالي على فلاحتها ليس لأنفسهم فقط، بل كانوا يجمعون من هذه الحقول الزيت والقمح، بوساطة عمل أيديهم، من أجل الفقراء في سورية وفلسطين، وطوال الوقت الذي كان فيه هذا الدير وبقية الأرض المقدسة في أيدي الصليبيين، فقد اتبع الرهبان النظام نفسه بالنسبة للخدمات الدينية، الذي كان مطبقاً في كنيسة الضريح المقدس، في كل

من الليل والنهار، فعندما كانت الأجراس تقرع في كنيسة الضريح المقدس وقيامة الرب، كان السادة من الكهنة النظاميين فوق جبل صهيون، يقومون أيضاً بقرع نواقيسهم، وبعدهم كان رهبان جبل الزيتون يتولون القرع في كنائسهم كلها، وعندما كان هذا يسمع في بيت عنيا، كان القرع يجري أيضاً في جميع كنائس ذلك المكان، وكانت أصوات النواقيس تصل بعيداً حتى دير القديس سابا، فقد كان الرهبان هناك يسمعون أصوات القرع من الأماكن من حولهم، ولهذا حافظوا على قاعدة أن صوت القرعة الأولى كان يصدر من كنيسة الضريح المقدس، فيسمع في الساعة نفسها في جميع أرجاء الأرض المقدسة كلها.

غير أن هذه الأشياء اختفت منذ أن أصبح الضريح المقدس في أيدي المسلمين، حيث أن جميع أدوات حمد الرب هي الآن صامتة، وآل أمر دير القديس سابا إلى لاشيء تقريباً، وقد أخبرنا الرهبان الذين يسكنون الآن هناك، وحدثونا كيف أنه كان ديراً عظيماً، وأصبح الآن منعزلاً.

وبعد فقدان الأرض المقدسة للمرة الأخيرة، دافع هؤلاء الرهبان عن أنفسهم ضد حملات المسلمين، وخاضوا حروباً قاسية مع غير المسيحيين، وأرغموهم مراراً على الفرار، وزحف بعد أمد السلطان الملك ضدهم، قادماً من القدس مع جيشه، وطلب منهم أن يصبحوا مسلمين، فبعثوا له برسالة، أنه إذا ما صار مسيحياً، فهم على استعداد لخدمته، إنما إذا لم يفعل ذلك فسوف يدافعون عن أنفسهم حتى الموت، ولدى سماع السلطان بهذا حرك قواته ضدهم، وبعد حرب طويلة، تغلب على الرهبان، واقتحم ديرهم وبعث بهم إلى الجنة بوسائل تعذيب متنوعة، لكنه لم يلمس الكنيسة، مع أنه دمر جميع القلايات والطرق التي تقود إلى الكهوف، وحولها إلى الوضع الانعزالي المحزن التي هي عليه الآن، ومع ذلك أبقى هناك بعض الرهبان الذي أقسموا يمين الولاء له، وبذلك بقي الدير قائماً حتى هذا اليوم.

السفر من دير القديس سابا

وبناء عليه، عندما بدأ حرّ الشمس بالضعف، أخذنا جعبنا، وحميرنا، وسرنا نازلين عبر الممر الخطر تحت الجروف في الوادي، ونحن نقود حميرنا، ومضينا نازلين ونحن على ظهور دوابنا إلى الأجزاء المنخفضة من وادي جهنم، وارتحلنا في وسط قعر الوادي الوعر، ونحن محاصرون من كل جانب بجدران شديدة الانحدار من الصخور، وكان تحت أقدامنا طريق في غاية الوعورة، كله حجارة، وهو غير مطروق من قبل، وتابعنا على هذا المنوال ببطىء وتعب لعدة ساعات، وقد أردت المضي في وادي جهنم حتى البحر الميت، حتى أتمكن من رؤية جدول قدرون وهو يصب في البحر الميت، لكن دليلنا كان لديه رأي آخر، لأننا بعدما قطعنا مسافة طويلة نزولاً، عبرنا إلى واد آخر، كان أكثر سعة، وواديا جميلاً، وخصباً، لو توفر له من يتولى فلاحته، وهو ممتد من الشمال إلى الجنوب، وذلك مثلما يمتد وادي جهنم من الشرق إلى الغرب، وهذان الواديان متضادان، ويعاكس أحدهما الآخر، في الوضع، وفي الأحوال، وفي الاسم، ففي الوضع، قد وضح بأن هذا الوادي غير متصل أبداً بالبحر الميت، بل هو يفصل الجبال المقدسة، وفي جميع الأحوال، فإننا بقدر ماأن نجد الأول أجرداً، كثير الأحجار، ومظلماً بعض الشيء، وهكذا دواليك، نجد هذا الثاني، غنيا، معشوشبا، وواسعاً، ومشرقاً، علاوة على ذلك، هما مختلفان بالاسم، لأن الأول اسمه وادي جهنم، ووادي اللعنة، في حين اسم هذا الوادي، وادي البركة،، وذلك حسبما قرأنا في سفر أخبار الأيام الثاني:٢٠/ ٢٦، وأنه نال اسمه هذا من حمد الرب، الذي قدمه يهوشا فاط —ملك القدس— وشعب اليهودية، هناك، بعد إلحاق الهزيمة بأعدائهم.

ورأينا في هذا الوادي خرائب أبنية قديمة، ولدى متابعتنا سيرنا نحو الأمام، وصلنا إلى أحد الأماكن، الذي فيه مالايحصى عدده من الحفر

والجحور للأفاعي والثعابين، من كل من الصغير والكبير، لكننا لم نر فيها ولاحيوان، لأنهم يخرجون فقط في الليل، وأخبرنا دليلنا حامد أنه يوجد في هذا المكان ثعابين غليظة بقدر ذراع الانسان، وطول كل منها بقدر طول الرمح.

وبعدما سرنا باتجاه الشمال خلال وادي البركة لمدة طويلة، تركنا ذلك الوادي، وتوجهنا نؤم جهة الشرق، وانحدرنا عبر جبال بلا ممرات، وإلى جانب هضاب منحدرة، وجروف، وبذلك صار البحر أمام أعيننا، ورأيناه بشكل كامل، مع أنه كان مايزال بعيداً عنا مسافة طويلة، ولهذا أسرعنا بخطانا، ونزلنا بسرعة أعظم، لأن الشمس كانت قد أشرفت على الغياب، وهكذا وصلنا أخيراً إلى أرض سدوم، وإلى شاطىء البحر الميت، وذلك عند الرأس، الذي يأخذ فيه نهر الأردن بين فكيه.

وبقي الآن دليلنا حامد، والمغاربة، وخدمه، بعيداً جداً عن البحر، لأنهم يمجونه، ويمقتون النزول إلى مياهه الملعونة، لكننا سرنا حتى الماء، حيث أوقفنا حميرنا، وترجلنا، ورأينا من الخرائب، أنه لابد قد كان هناك بيت مربع كبير، بني بعضه فوق اليابسة وبعضه الآخر في البحر، وكانت هناك أحجار كبيرة من تلك الخرائب مرمية على الساحل، غير مغطاة بالماء، مع أنها ممددة في الماء، وسرنا على هذه الأحجار حوالي الاثنتي عشرة خطوة في البحر، ورأينا المياه، ولمسناها، وتذوقناها، وهي المياه التي سمعنا عنها أعاجيب كثيرة، وهذه المياه نقية، لكنها مالحة جداً، وكثيفة، ولهذا أطلق عليه أحياناً في الكتابات المقدسة البحر الأكثر ملوحة، ولذلك عندما يأخذ أي انسان بعضاً من هذا الماء ويضعه في فمه، يصبح بسبب ملوحته العالية جداً، داخل فمه محترقاً، وكأنه صب فيه ماء يغلي، وقد جربت أنا هذا شخصياً، علاوة على ذلك، بما أن هذه المياه كثيفة ومالحة جداً، فإن الذي يضعها في يده، يشعر بوخز في يديه، وكأنها امتلئتا بالذباب والقمل، ويرغم بذلك على حكهم وكأن هناك

عزّ بهما، ويستمر معانيا من هذا لساعات كثيرة، ثم إنه لايمكن بسهولة مسح هذه المياه من اليد، بل الحال كأن انسانا غمس يديه في الزيت، كذلك هناك رائحة نتنة تصدر من الماء، تثير النفس وتسبب الغثيان، ولذلك لايمكن للحجاج الإقامة هناك طويلاً، والأحجار الراقدة في المياه مع جزء منها فوق الماء، قد بدت وكأنها كلها مغطاة بالجليد، ولون الشاطىء كله قرب الماء أبيض، وكأنه مغطى بثلج جديد، مع أنه لايوجد جليد ولاثلج، بل الموجود عبارة عن ملح مر، مذاقه حاد جداً، وأعتقد أن ملعقة واحدة من هذا الملح هي أكثر ملوحة من عشر ملاعق من ملحنا.

وبدت بقية الأرض غير المغطاة أو المبللة بالملح، وهي قريبة من الماء، سوداء، وكأنها قد احترقت بوساطة نار ملتهمة، وهي دليل على شرور شعب سدوم، كما سوف نبين بوضوح أكثر فيما بعد.

ويقول العامة من الناس، بأن الجدران المدمرة، التي سرنا عليها إلى داخل البحر، هي بقايا بيت لوط، ابن أخي ابراهيم، الذي سكن في سدوم، حسبما قرأنا في سفر التكوين: ١٣، ولدى وقوفنا لبعض الوقت إلى جانب هذا البحر، قام أدلاؤنا، وحامد ورجاله، الذين وقفوا على أرض مرتفعة فوقنا، بالصراخ لنا بأصوات مرتفعة حتى نبتعد، وفي الحقيقة كنا على عجلة من أمرنا لكي نغادر المكان، لأننا لم نكن مسرورين بالبقاء هناك، بل كنا نشعر بالغثيان والخوف، وكأننا كنا واقفين في بؤرة أجساد ميتة، بسبب الرائحة الكريهة، أو في مكان، فيه محاكمة قاسية لحشد واسع من الناس، قد حكم عليهم بالموت مع أشد العذاب وأكثره فظاعة، وقد خشينا من غضب الرب القدير، وخفنا أن يشملنا مع المذنبين، بالعقاب الذي نزل على شعب سدوم، فضلاً عن هذا، كان النهار قد شارف على الانتهاء، واقترب غياب الشمس، ولذلك صعدنا مبتعدين عن البحر، نحو أدلائنا، ودوابنا، وبتنا

مستعدين للمغادرة، لكن قبل أن نغادر هناك شيء مايتوجب قوله حول هذا البحر.

وادي سدوم المشهور حيث البحر الميت الآن

يحدثنا الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين عن أصل البحر الميت، ذلك أنه لم يكن هنا بحر من بداية الخليقة، كما لم تكن هنا بحيرة أو ماء متجمع بدون حركة، بل جرى نهر الأردن في مجراه، وكان يسقي الوادي وجميع المنطقة حول هذا الوادي كانت مزدهرة وخصبة، مثل حديقة الرب، ومثل أرض مصر، كما قيل في سفر التكوين:١٣، ولهذا أطلق عليه اسم الوادي الشهير(التكوين:١٢)، لأنه كان مليئاً بالأشياء الجيدة، ومثل هذا أطلق عليه اسم وادي الغابة، لأنه امتلأ بالأشجار وبأوراقها بكثافة، لأنه توفرت هناك أشجار فواكه، وبساتين مثل غابة، ومخزن كبير من الفواكه والأخشاب، وعن هذا حُدّثنا في سفر التكوين:١٤.

وأطلق عليه أيضاً اسم وادي السهل، لأنه امتلك على الطرف الأول من الأردن أشجاراً، وكان هناك على الطرف الآخر سهولاً مزروعة، ولذلك دعي بالاسمين معا: وادي الغابة ووادي السهل، وأطلق عليه أيضاً اسم وادي الاسفلت، أو وادي الزفت، وهذين الاسمين هما الشيء نفسه، لأنه يوجد فيه كثيراً من آبار القار، عنها نقرأ في سفر التكوين:١٠، وهم يستخدمون القار عوضاً عن الملاط، ومنه بنيت جدران قوية جداً، وعثر في رمال ذلك الوادي على أحجار كريمة، مثل الزفير ومايشابهه، وكذلك عثر على الذهب في الأراضي هناك، وذلك حسبما جاء في سفر أيوب: ٣٣، فهناك بدا وكأنه يتحدث عن هذا الوادي، وكان في هذا الوادي الشهير والجليل خمس مدن كبيرة هي: سدوم، وعاموره، ودومه، وصبوييم، وبالع التي هي ساعور، وقد وردت هذه الأسماء في سفر التكوين: ١٤/ ٢، ولهذا دعيت هذه المنطقة

من قبل الاغـريق، بـاسم البنتـابولس، لأن معنى«بنتـا» هو«خمسـة»، ومعنى«بولس» «مـدينة»، وجـاءت هذه التسميـة بسبب وجـود المدن الجليلة الخمس، التي كانت سدوم هي الرئيسية بينهن.

وكـان سكان هذه المدن أشراراً جداً، وقـد أذنبوا بشكل مريع أمـام الرب (التكوين:١٨)، ومارسـوا حياة مهينة، خـارج حدود العقل، مثل عميـان، وحيـوانات بلا عقل، ولـذلك جـرت ترجمة اسم سـدوم إلى «عمى»، هذا وكـان في هذه المدن حشداً كبيراً مـن الناس، وكانوا جميعـاً مـذنبين، إلى درجـة أنه لم يوجـد في أي منهن رجلين صـالحين، لأنه لو وجـد مثل هذين، لما دمر الرب تلك البـلاد، كما جاء في سفـر التكوين: ١٨، وكانت الذنوب الـرئيسية لهؤلاء القوم عـددها ستة، حسبما وردت في حزقيـال: ١٦، وكان الذنب الأول هو الكبرياء، الذي هو أصل جميع الشرور، حيث كـانوا يتكبرون في أنفسهم ويحتقـرون الآخـرين، وكـان الذنب الثاني، هو الشبع من الخبز، لأنهم عاشوا باضطراب، وكانوا دوما سكارى، ومليئين من الخبز، وكان الذنب الثالث هو الوفرة، لأنهم أثروا بثروات حصلوا عليها بشكل سيء، وكان الذنب الرابع هو الكسل، لأن أولادهـم وبناتهم، وشيـوخهم وشبـابهم كـانوا جميعـاً كسـالى، وصـاروا أغنياء بلا عمل، وبسبب جـودة الأرض، وكان الذنب الخامس هو أنهم لم يمـدوا أيديهم قط للفقـراء والمحتـاجين، لأن قلوبهم كـانت قـاسيـة، وكـانوا لايقدمـون مأوى لأي غـريب، كما قرأنا في سفـر التكوين: ١٩، وأنه لم يكن هناك مكان للغرباء حتى يقيموا به، إلاّ في الشارع العام.

وفي الحقيقة قضـوا في احدى شرائعهم بعـدم اعطاء اي غريب مأوى في بيت من بيـوتهم، لأن البـلاد كـانـت بلاد وفـرة، وقـد حمل كثير من الفقـراء أنفسهم إلى هذا الوادي قـادمين من مناطق غـريبـة، لأن الحيـاة كـانت سهلة، غير أنهم اعتقـدوا أن الفقـراء حمل ثقيل، ولذلك قضـوا بوجـوب طرد الناس الفقـراء والغـرباء، وعلى هذا الأسـاس قتلوا فتـاة

بطريقة شنيعة، لأنها أبدت مواساتها وأعطت خبزاً لواحد من الفقراء استجداها.

وجاء بعد هذه الذنوب الخمسة الذنب السادس، الذي كان أعظم الشرور مقتاً لسدوم، وقد صرخت الذنوب الخمسة إلى السماء، فوصل واحد منها، ولذلك قال الرب في (التكوين:١٨و١٩):« إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر»، وهكذا إلى آخره، ولم يوجد هناك رجل واحد صالح لم يكن قد تلوث بالاثم، غير لوط، وعندما اقتيد خارجاً من قبل الملاك، أمطر الرب ناراً وحجارة محترقة فوق تلك البلاد، وقد احترق كل شيء حتى جوف الأرض، وذلك بنزول تلك النار المرعبة من السماء، وتحولت المنطقة إلى مكان أجرد من الملح والرائحة المقيتة حتى هذا اليوم.

وعندما توقفت النار، قام الأردن والجداول الأخرى التي تجري في ذلك المكان المحترق فملأت بالطول وبالعرض تلك الحفرة الكبيرة التي خلفتها النار عندما احرقت الأرض، وهكذا عملت بحيرة الملح، هذا ومع أن الأرد ن والجداول الأخرى تجلب مياهاً حلوة إلى ذلك المكان، فإنها تصبح على الفور في غاية الملوحة، وأكثر ملوحة من ملوحة ماء أي بحار أخرى، لأنها تمتلك سبباً رباعياً لملوحتها، وهو سبب طبيعي، وسبب منطقي، وسبب كاثوليكي، وسبب رباني.

والسبب الأول لملوحة هذا البحر، هو سبب طبيعي، وهو السبب نفسه الذي يجعل البحار الأخرى مالحة، كما سلف وبينا من قبل، وقد عالج هذا الموضوع أرسطو في مصنفة «الفضائيات»، الكتاب الثاني، وقدم كثيراً من الحجج، وهناك قدم بشكل واضح اشارة إلى هذا البحر، وإلى ملوحته الفائقة.

والسبب الثاني الذي يظهر هذا البحر أعظم ملوحة من البحار

الأخرى، هو سبب منطقي قائم على الايمان، وهو ماقد يوافق عليه الانسان أو لايوافق، فنحن قد رأينا بأن النار من السماء قد أحرقت تلك الأرض حتى الأعماق، وقد بقي قعر الهوة يحترق بشكل دائم، مثل حديدة محماة في النار، هذا وإن الماء الذي يصب هناك غير قادر على إطفاء تلك النار، بل تحول الحرارة المياه إلى حد الغليان، وتجعلها سميكة، وتغليها حتى تصير مالحة، ولهذا السبب نجد هذه المياه، أكثر دفئا، وملوحة من أية مياه أخرى، وتتصاعد الأبخرة منها بشكل دائم.

والسبب الثالث مستخرج من الإيمان الكاثوليكي، الذي نعتقد بموجبه أن الحساب الأخير سوف يكون في وادي شعفاط، وأن المدانين سوف يساقون عبر نهر النار نزولاً في وادي جهنم حتى هذا المكان، حيث سيغرقون في أعماق الجحيم، وذلك حسبما بينا في ص٥٨٧، لأن من الواضح أن فم الجحيم موجود هنا، وهذا بالنسبة لنا نحن المسيحيين لأننا نعتقد بأن الجحيم موجودة في وسط الأرض، والمدينة المقدسة قائمة على جبال فوقها في وسط الأرض، وذلك مثلما قالت الأمم وقال الشعراء بأن جزيرة كريت هي وسط العالم، وأن الجحيم موجود تحتها، وبناء عليه فإن الدموع النازلة من الوثن المقام فوق جبل إيدا Ida تجري نحو الجحيم، كما سنتحدث في ص١٧ من القسم الثاني.

ويتعلق السبب الرابع بإظهار الرب عدم رضاه الخاص، وكراهيته، ومقته للاثم اللعين وهو ممارسة السدومية، ولذلك جعل المكان كله يعيش أبداً وسط المرارة والجدب، ولهذا السبب جاء ذكر هذا المكان في كثير من المواضع في الكتابات المقدسة، فقد أطلق عليه اسم البحر الميت(يشوع:٣) لأن الرب ألقى بالمذنبين هناك ليموتوا موتاً أبديا، وذلك بابتلاعهم بسرعة وبموت مخيف، أو لعله دعي بالميت، لأن ما من شيء يعيش هناك فيه، ولايمكن للأسماك أن تكون هناك فيه، حسبما قرأنا في«فضائيات» أرسطو— الكتاب الثاني—، وفي Speculum

Historiale ، وليس فقط لاتوجد حيـاة فيه، بل كل شيء حي يلقى فيه لايغرق، بل يقذفه ثانيـة، وبذلك فإن الأشياء الحية لايجري ابتلاعها مباشرة.

وقـد برهن على صحـة هذا الامبراطور تيتوس، عندمـا عسكر أمـام أريحا، وكـان بعض جنود جيشه قـد أودعـوا السجن، وتقرر اعـدامهم، فأمر بـربطهم ومن ثم بإلقائهم وهم أحيـاء في هذا البحر، وقـد سبحوا وأيديهم وأقدامهم مربوطة على وجـه الماء وكان من غير الممكن غرقهم، وقـد ذكـر يوسفيـوس هذا في« حـروب اليهـود» — الكتـاب الخامس، الفصل التـاسع، عـلاوة على ذلك قـال مصنف الـ Speculum Historiale بأن القوارب الفارغة أو المحملة بأشياء غير حية، تغرق هناك مباشرة، لكن القوارب التي فيهـا أناس أو حيوانات حية لاتغرق، ولكن إذا ألقيت وهي مشتعلة، فإنها تستمر بالسباحة طالما النار مستمرة بالاحتراق، وهناك قصص أخرى كثيرة مشابهة قد رويت فيما يتعلق بهذا البحر، وعن هذه الحكايات قال يوسفيوس بأن الحكايات الزائفة متفوقة على الصحيحة فيما يتعلق بالبحر الميت.

علاوة على ذلك جـرى الحديث عن هذا البحر في الكتابات المقـدسة على أنه مـالح جـداً، في سفـر العـدد:٣٤، وفي سفـر يشـوع:١٢، ولهذا السبب جرى الحديث عنه في الكتابات المقدسة على أنه متفوق بملوحته، لأن مامن بحر في الدنيا أكثر ملوحة منه، ولايمكن لماء عذب أن يتملح بملحنا ويبلغ درجة ملوحته ومرارته.

ومثل هذا أطلق عليه اسم بحر الملح في سفر التكوين:١٤، لأن الملح مـوجود هناك بوفـرة، والميـاه التي تنضح من هذا البحـر، ثم توضع في الشمس، تصبح ملحـاً على الفـور، وقـد دعـي في بعض الأحيـان باسم بحر أحواض الملح، لأنه كـان هناك فيما مضى كثيراً من أحواض الملح، ومن الممكن وجـود بعضها الآن، فضـلاً عن هذا هناك جبـال من الملح

إلى جانب هذا البحر، وحجارتها ملحية إذا ماكسرت، ورأينا في بلاد مآب في مواجهتنا جبلاً صخوره بيضاء، وعناصره كلها من الملح، وحجارته المكسرة هي من أفضل الملح، وكذلك الرمل الناجم عنها، وعلى هذا يؤخذ هذا الملح من الأرض، التي تصح تسميتها بملح الأرض، وبها شبه الرب تلاميذه(متى:٥) بقوله:« أنتم ملح الأرض»، وهو في كل مكان يعدّ أفضل الملح، وأعلى ثمنا من الملح المصنوع من الماء، والذي يأتي نتيجة الغليان، مثل ملحنا، أو الملح الذي يصنع بوساطة حرارة الشمس في أحواض الملح، كما رأيته غالباً يعمل على شاطىء بحرنا، وفي الحقيقة هناك أنواع مختلفة من الملح، يمكن العثور عليها في العالم، ففي صقلية هناك ملح يصبح قاسياً عندما تضعه في الماء، ولكنه يذوب عندما يوضع على مقربة من النار.

ويستخرج من تحت الرمال في سيرينيا Cyrqnia — خاصة عندما يكون القمر بدراً ثم عندما يضعف نوره— ملح عطري، هو ثمين جداً، ويوجد في بعض البلاد جبال من الملح القاسي جداً، منه يجري استخراج الملح بالحك بوساطة أدوات حديدية، وقد بنيت جدران عظيمة وبيوت من حجارة ملحية، كما هو الحال في بانونيا Pannonia، ونجد أيضاً ملحاً أسود، وملحاً فضياً، وأصفر، أو ملحاً أحمر، أو ملحاً مشعاً ببياضه.

وكذلك يعرف هذا البحر باسم بحر الاسفلت، فهو كان يعرف قبل خراب المدن المتقدمة الذكر باسم وادي الاسفلت، أو الحمر، لأنه حتى هذه الأيام هناك آباراً من الحمر على شاطئه، قد حفرت وبيع نتاجها، لأن الحمر ملاط قوي جداً من أجل بناء الجدران، وقد بني إلى جانب هذه الآبار هرم طويل، وهناك يوجد الحمر أيضاً، حيث تقذف به الرياح إلى شاطىء البحر، ويتماسك بقوة مع بعضه، ولايمكن اذابته إلاّ بدماء الطمس، ويطلق عليه اسم حمر اليهود، وهو يستخدم كدواء،

وكعلاج ضد الرمل والحصا في المثانة، ومثل هذا يقذف هذا البحر بعض الكتل من الحمر المغطاة بتربة سوداء، وهي جميعهابرهان على النار التي تحترق بداخلها، وهي بوضعهاهكذا رغوة القدر الذي يغلي بالأسفل .

وإلى جانب هذه الأسماء، لقد دعي أحيانا في الكتابات المقدسة باسم بحر القفار، كما جاء في سفر يشوع:٢، لأن جميع الأراضي من حوله هي صحراء، وهي تمدّ لسانها حتى برية فاران، التي تفصل الأرض المقدسة عن القفار الواسعة التي عبرها بنو اسرائيل، واسمه ايضاً البحر الشرقي، قياساً على البحر الكبير، الذي اسمه البحر الغربي، لأن الأرض المقدسة يحددها هذين البحرين، وهي بعمقها محاطة بهما.

ودعي في بعض الأحيان باسم البحر الجديد، لأنه لم يكن موجوداً في بداية الخليقة، ولكنه عمل في أيام ابراهيم، أخيراً وبعد جميع البحار، لأن البحار الأخرى قد خلقت قبل هذا البحر بـ ٣,٢٧٢ سنة ولذلك هو أحدث البحار وجديدها، ودعي هذا البحر في كثير من الأحيان باسم بحر سدوم، اشتقاقاً من اسم الحاضرة سدوم، التي غمرت بهذا البحر، بعد اقتراف ذنب السدومية، الذي لاقى هنا عقوبته، كما أنه دعي في بعض الأحيان باسم بحر الشياطين بسبب فتن الشياطين وقوتهم في هذا المكان، ولهذا نجد أن المنطقة كلها حول هذا البحر قفار، لأنها مشغولة من قبل الشياطين، ومن مختلف أعمال الخداع السحرية، وفي الحقيقة، هناك— بإذن من الرب— أشياء كثيرة، قد عملت هناك بوسائط الشياطين، من مثل الريش، عندما يرمى في البحر، يغرق مباشرة نحو القعر، في حين يطفو الحديد على الوجه، فهذا ماقالوا بأنه قد وقع هناك.

ودعي أيضاً باسم البحر الملعون، وقد صار كذلك بسبب لعنة المذنبين، ولايوجد مكان في الدنيا قد تفجر غضب الرب فيه بوضوح

ضد المذنبين مثل هذا المكان، وعرف أيضاً باسم بحر جهنم لأن الطريق من القدس إلى هاهنا، يمرّ عبر وادي جهنم، كما أن جدول جهنم يصب فيه، وذلك كما بينا مراراً من قبل، وأخيراً عرف باسم بحر الجحيم، وذلك بسبب أن المدانين، بعد اقتيادهم خلال الجدول الناري لوادي جهنم يلقون في أعماق هذه الهوة، لأن الجحيم سوف يفغر فاه واسعاً، حتى يأخذ جميع الذين سوف يقول لهم:« ابتعدوا عني، أيها الملعونين» الخ، ودليلنا على ذلك أن الدخان يتصاعد دوماً من هذا البحر، وكأنه مدخنة الجحيم، وكل مكان يصله الدخان يتسمم، ويتحول إلى مكان قاحل على طرفي البحر،وكل ماينمو هناك هو بدون فائدة.

وفي الحقيقة رأينا هناك التفاح الذي تحدث عنه يوسفيوس، وكذلك مصنف Speculum Historiale، وينمو هذا التفاح على شجيرات قصيرة، وقد بدت هذه الشجيرات لي بأنها شجيرات عمرها سنة واحدة، لأنها تجف في الشتاء وتنمو ثانية في الصيف وتصير بطول نبات الجريس لدينا، فعن جذعها تتفرع عدة أغصان، تحمل كمية كبيرة من التفاح، ذات الحجم الكبير، مثل حجم مقبض اليد، وهذه التفاحات جميلة جداً أن ننظر إليها، وتثير شهية الذي يتطلع إليها حيث يرغب بأكلها، وبالنسبة للونها، هي خضراء بنفسها، لكن من الجانب الذي تضربه الشمس هي صفراء مشوبة بالحمرة، وهذه التفاحات ناعمة، وكأنها ناضجة للأكل، وعندما يقوم انسان بقطع تفاحة، فإنها تنقسم مفتوحة، وسيجد على الفور في داخلها مادة قذرة لها رائحة مقيتة، تلوث يديه، وتثير المعدة نحو الغثيان، وعندما تصبح هذه التفاحات قاسية، يصبح لونهن رمادياً، وتتحول المادة التي في داخلهن إلى رماد وغبار.

إلى جانب هذا، يقولون بأن هذا البحر يقذف بحصا على درجة عالية من الجمال، وإذا ماالتقطهم انسان، فإن يديه تغدوان قذرتين ولهما رائحة

بشعة لمدة ثلاثة أيـام، ويقال بأنه عميق جداً في الـوسط إلى حد لايمكن الوصـول إلى القعر بـإلقاء دليل بوسـاطة أطول الحبـال، وعـرضة ستـة فراسخ، وهو ممتد من الغرب إلى الشرق، في حين يصل طوله من الشمال إلى الجنوب إلى مسافة تسعة أميال ألمانية، هذا وكنت قد تحدثت عن هذا الموضـوع من قبل، ويتضخم حجـم هذا البحـر أحيـاناً، ويمتلىء بشكل غريب، ومع ذلك لايفيض مطلقاً على أطرافه.

وفي الحقيقة تصب مياه كثيرة، وأنهار وجـداول فيه، مثل نهر الأردن، الذي هو الرئيس بينهم، والذي تتجمع فيه أيام الأمطار والثلوج كميات كبيرة من الميـاه، تتـدفق من جبل لبنان ومـن جبلي جلبـوع وجلعـاد، وبذلك يغدو أكبر بهذه الزيادة، ويصب في البحـر، ووفق الطريقة نفسها تصب الجداول فيـه من كـلا الجانبين، مثل جـداول: قـدرون، ويبـوق، وعـرنون، وكـرت Careth وسيـول أخـرى كثيرة، وفيما يتعلق بالتصريف، فإن جميع فضـلات الأرض المقـدسـة تقـريبـاً تحملهـا هذه الجداول إلى البحـر الميت، وهـذا البحـر حسـبما كـان دومـاً هو المصب لمنطقتين تحدانه على الطرفين، وذلك مثلما سـوف يتلقى الجحيم جميع فضـلات العـالم، وعلى هذا فإن هذا البحـر هو بـالـوعة جميع البلاد.

ولهذا فكر بعضهم بأن هـذا البحـر لابد أنـه يمتلك فتحـة في أحـد الأطراف، منهـا تجري الميـاه نحـو هوة، أو ربما تصـب في الجحيم، لأنه—كما قلنا— مهما كانت كميات المياه التي تصب فيه، فإنها لاتذهب إلى أي مكان آخر، والبحر نفسـه، وإن بدا متضخماً في بعض الأحيان، لم يفض مطلقـاً على تخومـه، هذا ويعتقـد بعضهـم بأنه متصل بقناة خفيـة بمياه مـاره، التي جرى الحديث عنها في سفـر الخروج:١٥، حسبما تقدم الكلام حـول ذلك، وهانحن قـد قـدمنا عـرضـاً حـول البحـر الميت، استقيناه وجمعناه من الأسماء المعطاة له.

قفار القديس جيروم وديره فيها

وبعدما فرغنا من مشاهدة البحر الميت، المدة التي رغبنا فيها، مضينا مبتعدين بسرعة عنه، لأنه الشمس كانت الآن على وشك المغيب، وسرنا باتجاه الشمال إلى ماوراء بداية البحر الميت، غير بعيدين عن المكان الذي يصب نهر الأردن فيه، ووصلنا بعد هذا إلى قفار جرداء تماماً من قفار الأردن، لم يكن فيها شيئاً أخضر، ولاحشائش ولاأعشاب بل الأرض رملية، قد شويت بحرارة الشمس، وهي مليئة بأكوام من الرمال تجمعت بوساطة الرياح، وسرنا خلال هذه الأكوام والروابي الصغيرة، مما جلب الانهاك إلينا وإلى دوابنا، وكنا كأننا نشق طريقنا خلال ثلج عميق وكثيف، ووجدنا في الرمال آثار كثير من الحمير، ولهذا استنفرنا وأخذنا حيطتنا، خشية أن نقع بين بعض فئات البداة العرب، أو أن هؤلاء البداة في المكان الذي نوينا أن نرقد فيه تلك الليلة، ولذلك وقفنا بلا حراكٌ، غير عارفين ماذا نفعل، وكرهنا أن نحمل أنفسنا إلى المنطقة التلية الاسرائيلية، بل رغبنا— كما أظهرنا فيما بعد— بزيارة إحدى البقاع في هذه القفار، التي نحوها رأينا قطيعاً من الحمير متجها إليها.

ولدى رؤية دليلنا حامد لهذا، قفز على الفور من على ظهر حصانه، ومثله فعل خادمه، وتناولا سيفيهما وقوسيهما، ثم ركضا مثل وعلين فوق الرمال نحو القطيع، قاصدين الحصول على بعض الأسلاب إذا تمكنا، لأنه في هذه البلاد مامن انسان معصوم من المهاجمة، بل يطارد القوي الضعيف، وينتزع سلاحه منه وثيابه، إذا ماتمكن من الامساك به، ولذلك يستعدان ضد بعضهما، وهما على مسافة كبيرة تفصل بينهما، وإما أن يهرب فريق منهما، أو أن يصطف كلا الفريقين، ويجهزان أنفسهما ضد بعضهما، للقتال ليس في سبيل حياتهما، بل في سبيل أسلابهما وأسلحتهما.

وبعدما قام حامد ورجاله بمطاردة هذا القطيع لمسافة طويلة، وجدوا أنه لم يكن قطيعاً من الحمير الأليفة بل من الحمير الوحشية، لم يستطيعوا

أبداً الإمساك بها، لأنها كانت حيوانات سريعة جداً، نظراً لكونها حمير وحشية، ولهذا عادوا إلينا خاليي الوفاض.

وبناء عليه تابعنا سيرنا وتقدمنا على طريقنا، ووصلنا في القفار إلى المكان الذي استهدفناه وذلك حيث اعتكف القديس جيروم، المعترف المجيد، لمدة أربع سنوات، قبل أن يذهب إلى بيت لحم، وذلك حسبما قرأنا في اسطورته، ويوجد في هذه الأيام هنا كنيسة جميلة جداً، مع دير ملحق بها، ودخلنا إلى الكنيسة، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض أمام المذبح، وحصلنا على غفرانات(++) مطلقة، ثم نهضنا من صلواتنا، وقمنا بمشاهدة الكنيسة والدير، والكنيسة مشعثة من قبل البداة العرب والمسلمين،، ومذابحها محطمة، وأعمالها الخشبية مهددة بالسقوط سريعاً، وكان الدير فارغاً ليس فيه رهبان، والجزء الأعظم منه مهدوم، وفي الغرف التي أقاموا فيها، هناك معالف للدواب، حيث تمتعوا هناك بالظل أثناء حرّ النهار، ولذلك هو نوع من أنواع الخانات الآن.

والذي استطعت استخلاصه من أوصاف الأرض المقدسة، ومن الخرائط التي عليها رسم شكل الأرض المقدسة، أن هذا المكان هو بيت حجلة، حيث بكى بنو اسرائيل على يعقوب أبيهم، الذي جلبوا جسده من مصر، وذلك حسبما قرأنا في الإصحاح الأخير من سفر التكوين، وأطلق جيروم على المكان في كتابه « حول المسافات بين الأماكن»، اسم قريات Areaat ، وهي على بعد فرسخ واحد من الأردن، وأنا لاأعتقد أن قفار اعتكاف جيروم كانت هنا، لأنه سكن في إحدى القفار في سورية، ومع ذلك صدوراً عن الاحترام لهذا القديس، فإن المعاصرين يقدمون الاحترام لهذا المكان، على أنه مكان سكنه، وفي الوقت نفسه لم ترد اشارة إلى هذا المكان في كتب الحج القديمة، إلاّ تحت اسم بيت حجلة، وقد تسلقنا فوق الدير، وجلنا حوله مع خوف وخطر، لأن البناء كان يهتز تحت أقدامنا، وكأنه آيل للسقوط.

ورأينا هنا صوراً جميلة لآلام المسيح مرسومة على جدران الكنيسة، وأن بعض قلايات الرهبان ماتزال سليمة، ولاحظنا أنه قبل بضع سنوات كان هنا دير للرهبان، وقال بعضهم بأن هذا الدير قد بني في أيام القديس جيروم، وأنه ظل مسكونا بشكل دائم حتى أيامنا غير السعيدة، أي أنه قبل أن يذهب إلى بيت لحم، كان لديه دير ديني هنا، وأن معجزة الأسد لم تصنع في بيت لحم بل هنا، وهذا هو المكان الذي تحدث فيه القديس جيروم عن نفسه في رسالته إلى يوستوخيوم، بأنه تعرض لإغواءات كثيرة، حيث قال:« كلما كنت في القفار، والمكان الأجرد المنعزل، محترق بحرارة الشمس، التي تقدم مسكنا لقرود شعثاء، اعتدت أن أتصور نفسي في وسط رفاه روما مع حشد من الفتيات الراقصات»، وفي هذا المكان بكى ذلك الرجل المبارك من دون توقف، وأخضع جسده بالصوم وباللطم على صدره ليلاً ونهاراً، وفي غضبه من نفسه، والتزامه الدقيق بالنظام، دخل إلى القفار وتسامر مع الحيوانات المفترسة والعقارب.

وكنا عندما خرجنا من القدس في الصباح، اتفقنا على تمضية الليل في هذا المكان المقدس، إنما بعد تجولنا حول الأبنية والخرائب، لم نجد مكانا يمكننا أن نستريح به، كما كان لايمكننا الإقامة في الحقول خارج الجدران، بسبب عدم نظافة المكان، لأننا رأينا أعداداً لاتحصى من الخفافيش الكبيرة وهي تطير إلى هنا وهناك، لأن الشمس كانت قد غابت وكان الوقت وقت الشفق، وقد أخبرونا بأن هناك كثيراً من الخفافيش من نوع آخر، وهو من جميع الجوانب مثل الحمام، وهذا النوع لايطير إلاّ في الظلام الدامس، ويكمن منتظراً الرجال بشكل خاص، فهذه الخفافيش تنقض بشكل حاد على وجه الانسان، فتمسك أنفه بفمها المفتوح، وتقطع الأنف بطرفة عين من الزمن، وتطير مبتعدة مع صيدها، وكان الرجال من ذوي الأنوف الطويلة عرضة للخطر، أكثر

من سواهم.

وعندما سمعنا هذا، احترزنا من أجل أنفسنا، وغطينا أنوفنا بأيدينا، كما وسمعنا فحيح عدد كبير من الأفاعي، وهن يخرجن من جحورهن للأكل، فضلاً عن هذا كان المكان خارج الأسوار الذي توقفنا فيه لإنزال أثقالنا مليئاً بالحفر التي عملتها الأفاعي والعقارب، وإلى جانب هذا كله، كانت هناك الرائحة المقيتة المعتادة، الصادرة عن البحر الميت، وكانت قريبة منا، وقد بدت لنا أكبر مما نستطيع شمه طوال الليل، وكذلك خفنا من البداة العرب ومن المدينيين، وخشينا من أن يهاجموننا ليلاً ويزعجوننا.

وعاودنا لهذه الأسباب ركوب حميرنا، وأدرنا ظهورنا إلى البحر الميت، وسرنا خلال الظلام نحو المنطقة التلية لإسرائيل، وذلك فوق منبسطات واسعة وباهتة، لم نرغب في الاقامة بها، بل بادرنا مسرعين نحو التلال، وعندما وصلنا إلى سفح الجبال، دخلنا إلى واد ظليل، وصعدنا إلى القمة، ووصلنا إلى مكان آمن تماماً، هو عين الجدي، وكان ذلك قبل منتصف الليل بقليل، ووجدنا هنا مكاناً مناسباً، فأعطينا دوابنا إلى خدمنا، وجلسنا أرضاً، وجلبنا ماكان قد بقي في جعبنا، وتمددنا بأنفسنا، وذلك حيث جلس كل انسان ليأكل، فهناك رقد لينام، ونمنا هناك حتى الصباح بملابسنا، سوى أننا خلعنا واقيات أرجلنا وأحذيتنا.

صعود الحجاج إلى جبال عين الجدي والحادث المضحك الذي وقع للراهب فيلكس فابري

وعند اشراق الشمس في اليوم الثاني عشر، نهضنا من فوق الأرض حيث كنا راقدين، وذلك بعدما نمنا نوماً حلواً وهادئاً، لأننا كنا مرهقين، وكنا جميعاً في مكان آمن ونظيف، وعندما شاهد دليلنا حامد، بأن النهار كان مشرقاً، صرخ لنا بصوت مرتفع، وحثنا بأن نتسلق إلى

الجبـال بسرعـة، قبل أن تصبح الشمس حـارة، ولذلك أعـددنا أنفسنا بسرعة، وعندما كنا نستعد من أجـل رحلتنا، وقع لي حادث عرضي تافه ولاأهميـة له، ومع ذلك كـان عبثاً مضحكـاً، وقد اخترت أن أضعـه في كتـاب رحـلاتي وجـولاتي، لأنني كما وعــدت في مطلع كتـابي، أثناء الانطلاق برحـلاتي، وقـررت أن أخبركم ليـس فقط عن المسـائل الجادة الوقورة، بل أيضاً عن الأشياء العابثة والتافهة.

فقـد جلست، وبذلت جهداً للبس حـذائي، وقـد كان حـذائي ضيق تماماً، ولذلك كنت أجـد صعوبة لدى خلعـه وكان ذلك لايتم من دون بذل كثير من الجهـد والطاقـة، وكـان حـذائـي مصنوعـا من جلد غـالي الثمن، وأصفـر اللون، وناعماً، ووصل حتى ركبتي، مثل واقيـة، وانتعل الفـرسان الآخـرون أحذية مـن النوع نفسه، واستخـدمنا هذا النوع من الأحذية عـوضاً عن نعل وواقيـة، وهكذا وضعت فردة حـذائي اليمني فوق قـدمي، وأعطيتها شدة قاسيـة مفاجئة، لكن عندما صـارت قدمي فيها شعـرت بوجود شيء تحت النعل رطب ونصف قـاسي، واندهشت تجاه ذلك، وخشيت مـن أن يكون قــد دخل إلى حــذائي عقـرب، أو علجـوم أو أفعى ملتفـة، وازداد هذا خـاصـة عندمـا بدا لي أنني أشعـر بحـركة الحيـوان وهو يلتـوي تحت قـدمي، ومع أنني خشيت أن تكون قـدمي قد تسممت، لم أسحبهـا من الحذاء، لأن البقيـة كانوا قـد امتطوا حميرهم، وكـانوا يصعـدون فـوق الممـر، وقـد خفت من البقـاء خلفهم لوحـدي، وقمت على كل حـال بدفع قـدمي بشدة فـوق حجـرة، حتى أتمكن من قتل المخلوق، وهكذا ركبت بغلي لكن ليس دون الخوف من التسمم، وعندمـا كنا صاعـدين للجبال، وصلنا إلى ممر منحـدر وضيق، توجب علينا أن نصعـد عليـه واحـداً تلو الآخـر بسبب خطر سقـوط الحيوانات، ثم إنه لم يكن بامكاننا السير والتقدم جميعاً واحداً تلو الآخر، بل توجب على الذيـن كـانوا بالأسفل الانتظار حتى يكـون الذي سـار

أولاً قد صعد الطريق كله.

وترجلت في هذا المكان من على بغلي، وجلست أرضـاً، وخلعت حـذائي، الذي خيل إلي أنني سأجـد فيـه واحـداً من الهوام قـد سحق، وعندمـا وضعت يدي فيـه، وجـدت شيئاً مـارطبـاً، ومن خـلال الشم عـرفت مـاهو، وتبين لي مـالم أعـرفه لابـالنظر ولاباللمس، وأنه لم يكن هناك لاعقرب، ولاعلجوم ، ولاأفعى ، بل غائط بشري، ولدى معرفتي بذلك، لبست حذائي ثانية وأنا شـديد الانزعاج، وعاودت امتطاء بغلي، وأنا مرتبـك ومتضايق، وسرت خلف الآخرين، وأنـا آسف، أتساءل في نفسي، من الذي أبدى نحوي قلة الاحترام هذه ومـزح معي هذه المزحة الشنيعـة، ومن الذي من بين الفـرسـان كـان قليل الاحترام إلى هذه الدرجة حتى وضع غائطاً في حذاء حاج وكاهن.

وبدأت أتشكك بواحـد من أعظم النبـلاء، الذي كان لطيفـاً وودوداً جداً معي، وظننـت أنه بسبب رفعه للكلفة معي أقـدم على هذه الفعلة، وأزعجتني هذه المسألة كثيراً، لذلك قـررت، وأقسمت في قـرارة نفسي، وقطعت على نفسي عهداً بأنني لن أسـافر مسافة أخـرى مع هذه الجماعة سـواء في البرأو في البحـر، وتخلت نفسي عن الحج إلى جبل سينا، لكنني لم أخبر أحـداً بماوقع لي، بل تمضيت على طريقـي صـامتـاً، وكأنني كنت أصلي، والذي حـدث هو أنني أخطأت بحق اللورد الذي شككت فيـه، وبجميع رفـاقي، ووجـدت فاعـل هذه الفعلة، وذلك بدون أدنى شك، فعندمـا قمت بالقدس بخلع حـذائي في قلايتي حتى أتمكن من تنظيفـه وتنظيف يدي وقدمي، واخراج الغـائط الذي كان به، وجدت في داخله خنفسـة سوداء كبيرة، ولـدى رؤيتها للوهلة الأولى كنت خـائفـاً، حيث ظننت أنها عقرب، كنت قد سحقته مع الغـائط، ولكن عندما رأيتها أنها كانت خنفسة، كنت مسروراً، لأنني عـرفت الآن بشكل أكيد، أن مامن أحد وضع الغائط في حـذائي غير هذه الخنفسة، وفي الحقيقة الخنافس في

هذه المناطق— بالألمانية Rosskafer— [خنفسة حصان] كبارجداً، ويفقسن من روث الخيول، وهن يطرن ويزحفن حول الطرق، وهن يجمعن مواداً مناسبة، وعندما يفرغن من جمعها يعملن منها كتلة، أو كرة بحجم بيضة، ويدفعن هذه البيضة بأقدامهن الخلفية، ويرحن أقدامهن الأمامية على الأرض، وبذلك يدفعن الكرة خلفهن، ويسرن مثل سرطان إلى أي مكان تقودهن غريزتهن إليه.

وعندما كن يصلن إلى المكان الذي سترقد الكرة فيه، كانت الخنفسة تضع نفسها في الكرة، جاعلة إياها بيتها وطعامها، وعملت هذه الكرات دوما من مواد قذرة، أو من روث بعض الدواب، وغالباً ماوقفت شخصياً دونما حراك على الطريق، حتى أتمكن من مراقبة هذه الخنافس وهن يدفعن على طول الطريق كرات ضعفهن أنفسهن بالحجم، الشيء الذي لم أره قط في بلادنا، مع أن كثيراً منهن نشأن هناك من روث الخيول على الطرقات، وعلى هذا كان الذي حدث في قضيتي أن خنفسة وجدت بعض الروث، فعملته على شكل كرة مستديرة، ودفعتها إلى حذائي، وقصدت أن تكون ضيفي، وغالباً ماقمت بعد ذلك بإخبار السادة اللوردات الحجاج حول ذلك، وكيف أنني انزعجت جداً، وشككت بهم.

وأطلق يوسبيوس في مصنفة Praeparatio Evangelica— الكتاب الثالث، الفصل الثاني، على هذه الخنفسة اسم الجعل، حيث اعتاد المصريون القدماء على القول بأنها مخلوق مقيت بالنسبة لغير المتفقهين باللاهوت، لكن هي بالنسبة للمتفقهين تستحق أعلى احترام على أساس أنها نموذج حي للشمس، وكل فرد منها هو ذكر من حيث الجنس، وهي تضع بيوضها داخل الروث، ثم تعمل هذا الروث على شكل كرة، ثم تحتضن الكرة بين قدميها مثلما تحتضن الشمس السموات، وتنتظر الشهر القمري، ولسوف يجري شرح هذا في القسم

الثاني ص١٣٧ظ.

المناطق التي شاهدناها من جبال عين الجدي

وفي عودة إلى الموضوع الذي ابتعدت عنه، أقول: بعدما أمضينا الليل على سفح جبل عين الجدي— كما قلت من قبل— وعندما أشرقت الشمس، ارتحلنا صعوداً نحو الجزء الأعلى من الجبال، ووصلنا في أعلى القمم إلى مكان، حيث وجدنا أكواماً من الحجارة مكومة، وقد عملت من قبل المسلمين، تكريماً لموسى، لسبب سوف أتولى شرحه بعد قليل، وبناء عليه توقفنا علّنا نستطيع أن نشاهد المنطقة، لأننا كلما كنا في منطقة أعلى، كان يمكننا أن نرى أبعد وأعرض فوق المناطق على كل من هذا الجانب، ومن الجانب الآخر للأردن، وجميع منطقة سدوم كلها تقريباً، وأرغب في هذا المكان بتقديم وصف مختصر لأجناس الناس، وللمناطق والأماكن التي رأيناها، وكنت قد قدمت لها وصفاً جزئياً، أثناء حديثي عن جبل القرنطل.

وألقينا قبلْ كل شيء بأبصارنا نحو الشرق، فرأينا جبال العربية، وكان الجبل الرئيسي بينها هو جبل تريمونيوس Trimonius، الذي يعرف في أجزائه المنخفضة باسم عبريم، وفي وسطه باسم نيبو Nebo، وعلى حوافه باسم فسغه، وكان ذلك هو الجبل الذي أمر الرب موسى بصعوده، حتى يمكنه من هناك رؤية الأرض المقدسة، التي إليها لايمكنه الدخول، كما جاء الخبر في سفر التثنية:٣٤.

ويوجد تحت هذا الجبل واد عميق وكبير، يطلق عليه اسم عربات مآب Galmoab، كما جاء في الاصحاح الأخير من سفر التثنية، ويقول بعضهم بأنه عندما كان موسى على قمة جبل فسغة أمكنه وهو ينظر نحو الأرض المقدسة أن يرى جميع أسرار قداسات المسيح، وتجسده، وولادته، وحياته، وآلامه، وموته، وعندما كان منشغلاً بهذه التأملات

الحلوة جداً مات على الجبل، ودفنه الرب، وأخفاه في الوادي، خشية من الناس، الذين كانوا يميلون إلى الوثنية، أن يقوموا بتقديس جسده إذا أمكنهم العثور عليه، ولذلك حاول الشيطان، الذي رغب في جلب الوثنية، أن يريهم موسى المقدس، لكن ميكائيل أوقفه ومنعه من فعل ذلك، كما قرأنا في رسالة يود Jude العامة:٩.

غير أن جيروم في تعليقاته على عاموس، بدا وكأنه يرى بأن موسى قد رفع بشكل إعجازي إلى السماء مثلما وقع لإينوخ ولإيليا، لأنه قال:« لقد بنى مصعده، وصعد مع إيليا، ومع موسى، الذي لايمكن العثور على قبره، لأنه صعد إلى السماء»، وفي هذا الوادي، الذي قيل فيه دفن الرب موسى، قام النبي بإخفاء النار المقدسة، وتابوه الرب، ومذبح تقديمات الحرق، وخيمة العهد، وذلك حسبما جاء في سفر المكابيين الثاني:٥—٦.

ورأينا وادي عربات مآب المقدس هذا، واقع على مسافة بعيدة، وذلك على الجانب الأقصى للبحر الميت، ورأينا فسغة، والقمة العالية لجبال عبريم، ويوجد من قمة هذا الجبل مشهد يمتد حتى أرض مدين، ومن الممكن من هذه القمة أن يرى الانسان أيضاً سيناء وحوريب، ورأينا أيضاً منطقة مآب السهلية، وفوقها الجبل الذي من عليه حاول النبي بلعام أن يلعن بني اسرائيل، وكان بلعام قد اكتراه ملك مآب، وقد قال جيروم في كتابه«حول المسافات بين الأماكن»، بأن اسم ذلك المكان كان أغريسبكيولا Agrispecula ، وكان بلعام قد تولى مباركة الناس الذين في السهل تحت، عوضاً عن لعنهم، وذلك كما قرأنا في سفر العدد:٢٣.

وقمنا الآن بتحويل أبصارنا عن الشرق إلى الجنوب، إلى ماوراء البحر الميت، حيث رأينا بلاد قفار البتراء، لكن البتراء في القفار نفسها لم نستطع رؤيتها، وكانت هذه البتراء في القفار، في الأيام الخالية، قلعة في

غاية الحصانة في بلاد مآب، التي فيها ولدت راعوث، المآبية الفاضلة، والتي عنها قيل في الاصحاح الثالث من سفر راعوث:« إن جميع أبواب شعبي تعلم أنك امرأة فاضلة»، وكانت راعوث هذه زوجة بوعز، ومنها قُدّر في سلسلة النسب وجوب ولادة المسيح، ولهذا دعا النبي إشعيا في الاصحاح السادس عشر نفسه بأن يرسل المسيح من البتراء في القفار إلى القدس وقال:« أرسلوا الحمل، يارب، ياحاكم الأرض، من بتراء القفار إلى جبل ابنة صهيون، أي إلى القدس»، فهنا سأل النبي من أجل استمرار النسب من خلال السيدة التي ولدت في البتراء في الصحراء، ولهذا ورد في سفر نسب المسيح اسم راعوث بشكل واضح، وقال جيروم في رسالته إلى بولينوس:« حققت راعوث المآبية نبوءة إشعيا، في قوله: أرسلوا الحمل» الخ، وقال نفسه في رسالته إلى باولا:« راعوث الغريبة، التي من نسلها ولد المسيح»، وتحدث أيضاً في رسالته إلى روفوس عن راعوث، بأنها« أخذت من الأمم لتكون حصتهم في المسيح»، هذا ويمكن من دون تقدير لهذا المعنى الخفي، يمكننا أن نقول بأن النبي قد رأى مدينة القدس في مضائق عظيمة، وأنها في قبضة الأمم، فسأل من أجل ارسال حاكم لها من بتراء القفار، لأن البتراء كانت قلعة حصينة جداً، لايمكن الاستيلاء عليها، وكانت أمما كثيرة خاضعة لسيدها، وعلى هذا سأل أن يرسل صاحب البتراء في الفيافي للدفاع عن ابنة صهيون، التي هي القدس، لأنه عندما سيرسل مامن انسان سوف يحاول إلحاق أي أذى بالقدس.

وقام بلدوين الثاني، الملك اللاتيني للقدس بتحصين هذه القلعة(الكرك) بقوة بلغت حداً أن العالم كله لم يكن قادراً على الاستيلاء عليها، فقد بنى ثلاثة أسوار من حولها، ففي إطار السور الأول، كانت هناك صخرة مرتفعة جداً، ذات شكل مستدير، قامت على حافتها أبنية طويلة تشرف بعيداً على البلاد، وكان في الأسفل، عند سفح هذه

الصخرة ثلاثة ينابيع تتدفق بمياه صحية عذبة، تزودت القلعة منها بوفرة، ومنها أيضاً كانت تتم سقاية جميع الأرض الواقعة دون القلعة، وكان يوجد في داخل السور الثاني كروم جميلة، من ثمارها كانت تصنع كميات كبيرة من الخمرة، وكان في إطار السور الثالث حقول وبساتين، استخدمت لانتاج كميات عظيمة من القمح، والزيت، والأشياء الأخرى المحتاجة.

ولم يستطع المسلمون الاستيلاء على هذه القلعة الجليلة، لولا أنه تمت خيانتها وسلمت إليهم من قبل مسيحي مزيف، وعندما جرى الاستيلاء عليها، وضع فيها سلطان ذلك الوقت أسن أولاده، حتى يكون سيد تلك القلعة مع قفار البتراء، فضلاً عن هذا أودع فيها جميع ثرواته، عادّاً إياها أكثر الأماكن أماناً لديه، وهي في هذه الأيام مستودع خزانة السلطان ملك مصر.

وتدعى هذه القلعة من قبل اللاتين باسم بتراء القفار، ومن قبل المسلمين باسم الكرك، ومن قبل الاغريق الشوبك Schabat، وعندما حدقنا بها بشكل كامل ركعنا باتجاه ذلك المكان، وحمدنا الرب الذي بعث إلينا من البتراء في القفار المسيح من خلال راعوث، المسيح الذي هو سيد الدنيا، وصلينا للرب من أجل أن تعود هذه القلعة إلى أيدي المسيحيين، وأن لاتبقى القدس مدة أطول بالأسر.

وهناك في هذه المنطقة نفسها مدينة اسمها أريوبولس، وهي تعرف أيضاً باسم البتراءأو البتريا، وكانت هذه فيما مضى المدينة الرئيسية في جميع العربية.

وليس بعيداً عن هناك توجد أيضاً مدينة أخرى حصينة الدفاعات جداً، اسمها ربه، فأمام هذه المدينة سقط أوريا الحثي بتدبير داوود، وعندما كانت على وشك السقوط، جاء داوود واستولى عليها، وانتزع

التاج من على رأس ملكـون، ملك ربه، وكان فيه جـواهر ثمينة، ورطل من الذهب Talent وقد أذابه داوود، وعمل منه تاجـاً لنفسه، ووضع في وسطه الحجـارة الكريمـة مـن الجزع الذي لامثيل له، ووضعـه على رأســـه، وقـــد وردت أخبـــار هـذا كله في سفـــر صمـــــوئيل الثاني:١٢/ ٣٠—٣١، وسفر أخبار الأيام الأول:٢٠/ ٢.

وبعد المناطق المتقـدمة الذكـر على شاطيء البحـر الميت، توجد أرض أدوم، التي فيهــا يـوجــد الطريق مـن أرض اسرائيل إلى أرض مــآب وعمون، وتمضي من حـول البحر الميت، وهي قفـار جرداء لامـاء فيها، وفيهـا كاد أن يهلك فيها مضى ثلاثة ملـوك مع جيوشهم بسبب الحاجـة إلى الماء، لكن الرب أعطاهـم الماء بمعجـزة،حسبها جـاء الخبر في سفـر الملوك الثـاني:٣، وعندمـا حصلوا على الماء، ووصلوا إلى بلاد مـآب، دمروها بشكل في غاية الوحشية، وذلك حسبما ورد في الاصحاح نفسه.

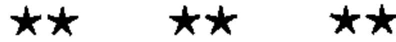
وصرفنا أعيننا مجدداً ، وحـولناها عن هذه الأمـاكن، فـرأينا على هذا الجانب من الأردن والبحـر الميت المكان الذي اسمـه بيت حجلة، حيث أقـام بنو اسرائيل مناحـة عظيمـة على جســد البطريرك يعقـوب، أباهم المتـوفى، الذي كانوا قـد جلبوه من مصر ليـدفنوه في حبرون، في الكهف المزدوج، وذلك حسبما ورد الخبر في الاصحـــاح الأخير مـن سفــــر التكوين، وعـــرفت بيت حجلة بـاسم قــريات لـدى جيروم« حـــول المسافـات بين الأماكن»، وهـي تبعد مسافـة فرسخ واحـد عن الأردن، وكان هناك قبل وقتنا بقليل دير للرهبان الاغريق، علاوة على ذلك رأينا في تلك البلاد مدينة أغريبا Agrippa، التي أطلقوا عليها في Historia Ecclesiastica— الكتـاب الثـاني، الفصل الرابع اسم بيــلا(فحل)، وكانت الكنيسـة المقدسـة قد انتقلت إلى هذه المدينة من القـدس، حيث تلقت انذاراً من الروح القـــدس، لأن تهرب بذاتها قبل حصـار القـدس من قبل تيتوس وفاسبسيان، وذلك خشية أن تشارك في المأساة الكبيرة.

وعلى مقربة من هذا المكان، عبر الأردن ، هناك بيت عنيا أخرى، فيها قام يوحنا بالتعميد أولاً، وفيها أقام الرب يسوع بعض الوقت عندما هرب من اليهودية، وذلك حسبما ورد الخبر في انجيل يوحنا:٤، وذكر بعضهم أن اسم المدينة التي إليها هرب الرب افرايم، وإليها التجأ مع تلاميذه، فهذا ماورد في انجيل يوحنا:١١، وكانت قريبة من القفار، عبر الأردن، وبشكل عام، هرب الذين وقعوا في مشاكل من اليهودية، إلى عبر الأردن، مثلما حدث مع داوود، فعندما حدثت له مشاكل مع شاؤول، أحضر والده وأمه إلى ملك مآب، حسبما ورد الخبر في سفر صموئيل الأول:٢٢، هذا وقال القديس جيروم المبارك في كتابه« حول المسافات بين الأماكن» بأن المدينة التي اسمها إفرايم، والتي إليها هرب الرب يسوع للالتجاء، كانت في ديار سبط يهوذا، ولم يكن لسبط يهوذا حصة عبر الأردن، وقال خريسوستوم بأن إفرايم هي إفراتا، وإفراتا هي بيت لحم، وواضح هنا أن البيرتوس موافق على هذا، في تعليقاته على يوحنا، لأنه قال بأن الرب قد جاء إلى افرايم لأنه امتلك هناك اصدقاء ومعارف، لكن هذا أيضاً لايتوافق مع النص، الذي قال بأن افرايم كانت على مقربة من القفار، في حين ليست بيت لحم قريبة من القفار، مالم يختر الانسان القول بأن المقصود هو الأماكن الصحراوية لسدوم، التي تمتد حتى جبل بيت لحم، وأنها هي التي قصدها الانجيلي(يوحنا:١١)، ورأينا أماكن أخرى كثيرة عبر الأردن، في بلاد جلعاد، وعبر البحر الميت، في أرض عمون ومآب، وبعد رؤيتهم حولنا أنفسنا للتحديق بالأماكن التي كانت أقرب إلينا.

الأماكن حول البحر الميت من جهته الغربية وأكثر من ذلك حوله نفسه

وبعدما فرغنا من رؤية الأماكن الواقعة على الجانب الآخر من البحر الميت، ومن الأردن، ثبتنا أنظارنا على البحر نفسه، وتعجبنا نحو الدخان

هناك، لأنه مثلما حـدث مع ابراهيم بعدمـا صعد على الجبل في الصبـاح الباكـر، ونظر نحو سدوم، وعمـوره، ونحو جميع أرض السهل، وتطلع وإذا فجأة قد تصـاعد دخـان المنطقة مثل دخـان أتون، حسبما جاء الخبر في سفـر التكوين:١٩، حـدث مثل هـذا معنا نحن، فلدى تطلعنا نحـو تلك المنطقة، رأينا غيمة صـاعدة، لكن ليس من النار، بل من الماء، مثل الدخـان الصـاعد من أتون، وجميـع الأماكن التي بللهـا ذلك الضبـاب وتلك الغيمـة قـد تسممت، وتحولت إلى قـاحلة وبلا فـائـدة، بالطول وبالعرض حـول حدود ذلك البحر، وذلك كعلامـة دائمة على الغضب الرباني الدائم، ضد أهل سدوم الذين كانوا أكثر الناس شروراً.



وبعدما نظرنا إلى البحر الميت، رأينا على الشاطىء هناك، على الطرف القـريب، وذلك باتجاه النهـاية الجنوبية، المكان الـذي اعتاد أن يقف فيـه تمثال الملـح الذي تحولت إليه ميـلاسيدا، زوجة لوط، لأنها نظـرت نحو الخلف، على الرغـم من أن الملاك حظر عليهـا فعل ذلـك، وكـان هذا وقت احتراق أرض أولئك القوم الأشرار، وكـان هذا التمثال يقف فيما بين صوغر والبحر، وكان هذا التمثال حجرياً من الرخام الأبيض، وقد قيل بأنه مايزال قـائماً هناك، لكنه الآن مغطى بالبحر، وعندما كـان قائماً على الشاطـىء اعتادت الحيوانات على أن تحتشـد حوله، وتقـوم بلحس الملح من عليه.

وإلى جـانب هذا التمثـال، يوجد في تلك المنطقـة كثيراً من الصخـور الرمليـة والحجـارة، وقـد ورد الحديث عن تمثـال ميـلاسيـدا في سفـر التكوين:١٩، وقال يوسفيوس بأنه قد رآه، ونحن في الحقيقة رأينا المكان الذي كـان فيـه، في منتصف الطريق فيما بين البحر وبين جبـل صوغـر، لكن التمثـال نفسـه لم نستطع رؤيته، ثم إننا لم نكـن واقفين على مسافـة قريبة كافيـة، حتى نميز بين الصخور حجم إنسان، ومع ذلك رأيناه من

خلال عين الايمان الثابت، لأننا نؤمن بالكتابات المقدسة التي تحدثت عنه، ولقد نظرنا نحو المكان باهتمام كبير، وتعجبنا نحو معجزة هذا التمثال المدهش والمثير للاستغراب.

★★ ★★ ★★

ورأينا فوق مكان هذا التمثال المتقدم ذكره، صخرة كانت بوضعها كما هي مشرفة على البحر، فعلى هذه الصخرة قام فيما مضى مدينة صوغر، التي كانت احدى المدن الخمسة للسدوميين، وقد عرفت هذه المدينة باسم آخر هو بالع، وذلك حسبما ورد في سفر التكوين:١٤، وإلى هذه المدينة كان لوط قد صعد، عندما كانت المنطقة تحت تحترق، ومن أجله استثنيت من الاحتراق، وكان عندما رأى المنطقة كلها تحترق ولحقها الدمار، صار خائفاً، وهرب مباشرة إلى قمم الجبال، وحدث على كل حال أنه عندما ابتعد عن صوغر، تهدمت بوساطة هزة أرضية، وسقطت مع جميع الذين سكنوا فيها، واحترقت مع سدوم.

وفوق صوغر هناك جبل مرتفع، إليه صعد لوط مع ابنتيه، خشية الاحتراق بالنار.... وهنا حملت ابنته الكبرى بولد، كان اسمه مآب، وحملت ابنته الصغرى بولد أطلق عليه اسم عمون، ومن ابنتي لوط هاتين انحدر شعبان عظيمان، عنهما نقرأ في سفر التكوين، وغالبا ماورد الحديث عنهما في أسفار الكتابات المقدسة، وكان هذا الجبل إلى جانبنا، وبسرور حدثت السادة الحجاج بحكاية لوط وابنتيه، وكان على جانبنا الآخر جبال القرنطل وقفار أدوميم، وقد تقدم لنا وصفهما من قبل.

وبعد مشاهدتنا للأماكن المتقدمة الذكر، ألقينا بأبصارنا على المكان الذي وقفنا فيه، حيث رأينا كوماً كثيرة من الحجارة، جمعت من قبل المسلمين، كما سلف لي الحديث من قبل، وقام المسلمون بتكويم هذه الحجارة تشريفاً لموسى، لأنه من هذا المكان يستطيع الانسان أن يرى

بوضوح جبال عبريم، وقمة جبل فسغة، التي منها رأى موسى ميراث الرب، كما سلف لنا وتحدثنا من قبل، ولهذا يقوم المسلمون، عندما يقدمون إلى هذا المكان بعمل كوم من الحجارة، ويصلون وهم يتطلعون نحو الجبل، على ركبهم المنحنية، ومثل هذا يفعل المسيحيون لأنهم عندما يرون من مكان بعيد أي مكان يمكن الحصول عليه على غفرانات، ينصبون أيضاً صلبانا، وكوماً من الحجارة، وليس بعيداً، عن هذه الأكوام رأينا هرما عاليا قد بني حديثاً، تحته يقول المسلمون بشكل زائف بأن موسى قد دفن، وهذا معارض لشريعة الكتاب المقدس حسبما ورد في الاصحاح الأخير من سفر العدد.

وهكذا يفعلون بالنسبة إلى جميع القضايا الأخرى، فهم يتبعون التوراه عندما يرغبون، لكن عندما لايرغبون بذلك، يعارضونها بكل عناد، على الرغم من صدقها.

وكان اسم الجبل الذي وقفنا عليه، جبل عين الجدي، وكذلك نجد أن اسم الجبال المتصلة به في سفر التكوين:١٤، وفي سفر أخبار الأيام الثاني:٢٠، هو «حصون تامار»، كما كانت فيما مضى بلاد العموريين، وقال القديس جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»، بأن عين الجدي موجودة في ديار سبط يهوذا، وذلك في القفار الموجودة في الوادي فوق البحر الميت، وقال بأنها كانت في أيامها هناك بلدة كبيرة جداً، وإلى موضع عين الجدي هذا كان داوود قد هرب من وجه شاؤول، لكي يكون هناك آمنا، في حصن منيع، وذلك حسبما قرأنا في سفر صموئيل الأول:٢٤.

وفي الحقيقة هذه الجبال عالية ووعرة، يتخللها عدد كبير من الكهوف، ومليئة بالجروف، وكان بين هذه الكهوف، كهفاً عميقاً، وكبيراً ومظلماً، وكان موجوداً في واد كثير الأشجار، وذلك على جانب صخرة عالية جداً، وكان له مدخل عريض، يشرف على صخور

منحدرة كثيراً، ومن المناسب تسمية هذا الكهف باسم مدرسة رحمات داوود، لأنه في هذا الكهف التجأ داوود ورجاله المسلحون، وأخفوا أنفسهم في أقصى أماكنه الداخلية، وذلك عندما سمعوا بأن الملك شاؤول كان يزحف مع ثلاثة آلاف رجل فوق هذه الصخور المنحدرة جداً، التي يمكن عبورهافقط من قبل الوعول أو تيوس الجبل، وقد دفعته الغيرة إلى هذه الأماكن التي لايمكن الوصول إليها، بسبب أنه لم يكن بامكانه تحمل غناء الناس، الأغاني التي اعتادوا على غنائها بشكل جماعي، وفيها أعطي المدح إلى داوود أثناء الغناء أكثر مما أعطي له في قولهم:« قتل شاؤول آلافه، لكن داوود قتل عشرات الآلاف»، وهكذا جاء شاؤول نازلاً مع رجاله إلى كهف داوود، والذي حدث هناك يمكن القراءة عنه في سفر صموئيل الأول:٢٤.

★★ ★★ ★★

كرم عين الجدي

علاوة على ذلك، قام فوق هذه الجبال هناك فيما مضى كرم عين الجدي الواسع الشهرة، حيث نما هناك البلسم الذي لايقدر بثمن، وقد زرع هذا الكرم في موضع عين الجدي من قبل الملك سليمان، وقال مصنف Speculum Historiale على لسان يوسفيوس بأن ملكة سبأ، التي قدمت إلى القدس من أطراف الأرض من أجل الاستماع إلى حكمة سليمان، حسبما جاء الخبر في سفر الملوك الأول:١٠، جلبت معها هدايا ثمينة كثيرة، كان من بينها جذور البلسم بمثابة هدية لايقدر ثمنها، وقد زرع الملك هذه الجذور على جبل عين الجدي، وقد نمت على شكل كرم هناك[٢٤٧]، وقد ورد ذكر هذا الكرم في نشيد انشاد سليمان حيث قال« محبوبي مثل عنقود كافور في كروم عين الجدي»، وهذا الكرم موجود الآن في مصر، ولسوف أذكر في المستقبل من الذي اقتلعه ونقله، وفضائل البلسم والكافور، وكنت قد قرأت في كتاب حج قديم إلى

الأرض المقدسة، بأن بعض الحجاج قاموا بالتجول فوق هذه الجبال، وهم يبحثون بعناية، وأنهم وجدوا في أحد الأماكن غرسات من البلسم إنها دون أغصان، ونما فيها مضى على هذه الجبال كروم عنب ممتازة، من خمرتها، يعتقد أن ابنتي لوط قد أسكرتا ابيهما، حسبما قرأنا في سفر التكوين:١٩، ولو أن هذه الجبال امتلكت في هذه الأيام أية مزارعين، لأنتجت ثمار ثمينة بوفرة.

عودة إلى القدس

وعندما فرغنا من رؤية المناظر المتقدمة الذكر، تحولنا مبتعدين عن الشرق، وذهبنا صاعدين التلال نحو القدس، وفي واحد من الطرق المقعرة، بدأ البغل الذي امتطيته يعدو مسرعاً— لسبب لم أعرفه— محاولاً سبق الآخرين، وعندما حاولت كبحة بوساطة المقود، رماني أرضاً، وعانيت من وقعة ثقيلة، وعندما رأى دليلنا حامد هذا قفز من فوق ظهر حصانه، والتقطني ورفعني من حيث كنت متمدداً، وضرب على أطرافي، وحرك مفاصلي، ثم أمر واحداً من خدمه بجلب بغلي، الذي كان يعدو فاراً هناك، وفي الحقيقة أبدى هذا المغربي غير المسيحي نحوي كثيراً من اللطف أثناء اضطرابي، بقدر يعادل أعظم مايستطيع أن يفعله مسيحي رقيق القلب، وبعدما انتعشت كثيراً، رفعوني إلى ظهر البغل، لأنني لم أستطع أن أعين نفسي بذراعي، هذا ولم ينكسر أي من أطرافي الأمر الذي أدهش حامد وأبهجه، لأنني سقطت— والبغل يعدو— بشدة كبيرة على الصخور، ودعوت إلى الرب أن يضفي رحمته على ذلك المسلم، مثلما أضفى رحمته عليّ، وبناء عليه أسرعت أنا وحامد وراء رفاقي، الذين كانوا قد قطعوا مسافة طويلة أمامنا، ومثلهم سرنا صاعدين في وادي جهنم، وعندما كنا مانزال في قلب الوادي، ونظرنا نحو الأعلى، أمكننا أن نرى مدينة القدس المقدسة، وهي تلمع عالياً، وتأثرنا بهذا المشهد مثلما حدث لنا من قبل، وعندما وصلنا إلى

المدينةالمقـدسـة، حـدثنا إخـواننـا، الذين مكثـوا خلفنـا عن كل الذي شاهدناه، وعن كل الذي وقع لنا ونحن على الطريق.

قلق الحجاج من أجل الانطلاق إلى جبل سيناء

وفي اليوم الثالث عشر، الذي كان يـوم عيد القديس هبولايت Hip-polyteورفاقـه، بعد سماعنا قـداساً على جبـل سيناء في الصباح البـاكر، ذهب السـادة الحجاج إلى مكانهم، وأخذنـا نتشاور حول مغـادرتنا التي كنا متشوقين إليها، وبدا لنا أن كالينوس الأكبر، الذي كان ترجماننا، كان يؤخر مغـادرتنا وسفرنا من القـدس، وأن أي تأخير أطول سوف يكون مؤذياً لنا، ولم يكن ذلك— في الحقيقـة— لأننا كنا قد مللنا من الإقـامة في المدينة المقـدسة، التي أقمنا بها ونحن راغبين كثيراً، وكنا سعـداء، بل الذي كنا نخشاه هو أن نضيع مواعيد سفن التجار في الاسكندرية، التي أعددنا أنفسنا للابحار على متـونها إلى إيطاليا، ولكي لانرغم على امضاء الشتـاء في الاسكندرية، الأمر الذي سيكـون مؤذيا لنا إلى أبعـد الحدود، ولذلك ذهبنا كلنا إلى بيت السيـد جـانم، حاكـم القدس، حيث وجـدنا معه السيد فكاردينوس Vacardinus وأدخلنا إلى حضرته، وبعدما سمعـا ماقلناه، أمـرا باستدعـاء ترجماننا Sabbathytanco ، وأمراه بالانطلاق بنا بكل سرعة، وبعـد نقاش فيما بينهم، أخبرونا أنه لابد من إقامتنا في القدس مدة عشرة أيام أخـرى، بعدها سوف نبدأ من دون أي تأخير سفـرنا في القفـار، وقـالـوا لنا:« أعـدوا أنفسكـم في هذه الأيام وجهـزوها بجميع الأشيـاء المحتـاجـة للـرحلة من بقسماط وتين يابس، وخمرة، وهكذا دواليـك»، وبهذه الكلمات سمحـوا لنا بـالمغـادرة إلى أماكننا.

وشرعنا في ذلك اليـوم نفسه باعـداد أنفسنا، ودفع كـل واحـد منا دوقيتين إلى غـازيلوس حتـى يعطينـا إذنا لشراء خمرة مـن كل مـن المسيحيين واليهـود، وكـان غـازيلوس مسيحيـاً مـن ذوي الزنار، وهو

يشغل وظيفــة تابعــة للسلطان، وكـــانـت المسألة التي هـي في إطار سلطتـه:أن لايسمح لمسيحي بشراء خمرة، من دون أن يـدفع ضريبـة له، وإذا ماجـرى خرق هذا القـانون، وعرف هو ذلـك، كان يقوم بـاقتحام الأماكن التي إليهـا جلبت الخمرة التي شريت، ويصـادرها شخصياً، أو يقوم بكسر القوارير، ويترك الخمرة تجري فوق الأرض، ومن هذا اليوم حتى يوم مغادرتنا، عانينا من اضطرابات كثيرة وعملنا جاهدين لتجهيز أنفسنا بكل مـاكنا بحـاجة إليـه للسفر خـلال القفـار، وحملنا معنا جميع الأشيـاء التي جهـزنـاها إلى جبل صهيـون، إلى دير الـرهبـان هناك، ووضعناها في بيعة القديس فرانسيس، تحت الكنيسة، وخلال بضعة أيام ملأنا البيعة كلياً بالبقسماط، وبالحقائب، وبالقوارير الزجاجية، والقدور، وعملنا كومة كبيرة، بين فئاتنا الثلاثة، وفي ذلك اليوم نفسه، ذهبت عند المساء أنا واثنين من الفـرسان إلى وادي شعفـاط، للقيام ببعض الأعمال، وعندما أنهينـاها، زرنا الأماكن المقـدسة على جبل الزيتون، وعنـدما كنا على القمة هناك، في كنيسة صعود الرب، غابت الشمس، وبات من غير الممكن لنا دخول المدينة، إذا أمسكنا الظلام، ولذلك سرنا خلال شوارع المدينة بخـوف عظيم، فضـــلاً عن هذا أضعنا طريقنـا، وذهبنا إلى هنا وهناك حتى وصلنا أخيراً إلى شــارع كنا نعـرفـه، ووصلنا إلى أمـــاكن سكنانا بسلام.

كيف جرى الاحتفال بعيد صعود العذراء في القدس

وفي اليوم الرابع عشر، الـذي كان عشية عيـد الصعود، صعـود مريم العـذراء الأعظم مبـاركة، وبعـد مضي نصف النهـار، بدأنا بالاستعـداد للاحتفال بعيـد اليوم التـالي كما يلي: فقد دخلنا غرفـة ذخائـر الرهبان، وأخرجنا منها قطعة عريضة من قماش الكتان، وحملناها إلى المكان الذي حملت منه العذراء المباركة، ورفعت، هذا وكنا قد وصفنا هذا المكان من قبل، ومددنا قطعة القماش هذه فوق المكان على شكل خيمة، مع أعمدة

وحبـال، وعلقنا زرابي حـولها عوضـاً عن الجدران، وبذلك عملنا بيعـة جميلة، وغطينا المذبح الموجود في ذلك المكـان بقطع أقمشة ثمينة، وزيناه بصور وتماثيل، وأوعيـة قرابين مقدسة، وشمعدانات فيهـا شمع، علاوة على ذلك جلبنا إلى هناك غصنا من الزيتـون فيـه أوراق، وسعف نخيل، ونشرنا حول المكان أعشاباً وزهوراً، وبذلك صنعنا كهفاً مقدساً جميلاً.

وعند حلول المسـاء، ارتدى الأب المســؤول ثوباً ثميناً، ووشـاحين، وحـامل صليب، وحـامل بخـور، وكـان القندلفتـات جميعـاً في أرديتهم المقـدسة، وقـد احتلوا أماكنهم في كنيسـة الرهبان، وعندمـا بات الجميع جـاهزين، سرنا بوقـار عظيم، ومشينا بمسيرة منتظمـة من كنيسـة جبل صهيــون، إلى مــوضـع انتقــال العـــذراء المقــدسة، ونحـن نغنـي ترنيمـــة«Et ibo mihi ad montem myrrhae» الخ، وبعـد الفـراغ من هذه الترنيمـة، غنينا أغـاني العشـاء وترانيم العيـد بأصـوات مـرتفعة، في البيعـة التي عملناها، ولم نتعـرض للازعـاج بأي شكل من الأشكال من قبل المسلمين، بل الذي حدث أنهم عندمـا سمعوا غناءنا، جاءوا إلى المكان، ووقفوا فاغرين أفواههم.

وفي الوقـت نفســه تجمع عـــدد كبير مـن المسيحيين الشرقيين مع بعضهم، وقامـوا بعد الفراغ من قداسنا، فـدخلوا إلى البيعة مع كهنتهم، وشرعوا بأعمالهم التعبـدية، وأقامـوا في تلك الليلة قداسـات هناك وفقاً لطقــوسهم، هذا وقــد دخلنا إلى الديـر وعملنا وجبــة بسيطة، بشكل تناسب الذين كانوا صيـاماً، وبعدما تناولنا العشـاء نزلنا جميعاً من جبل صهيون إلى وادي شعفـاط، ومضينا إلى كنيسة ضريـح العذراء المبـاركة، واقتـدنا معنا حماراً محمـلاً، حمل زينتنا وأشيـاء أخرى محتـاجـة من أجل تزيين المكان، ومن أجل إقـامة القـداسـات، وعندما وصلنا إلى الكنيسـة وجــدناهـا مليئة بالمسيحيين الشرقيين من كل مـن الرجــال والنســاء، ولذلك ابتعـدنا عنهم إلى زاويتنـا الخاصـة، حيث كـان المذبح اللاتيني،

وأبعدنا من هناك المسيحيين الشرقيين الآخرين، الذين قدموا إلى هناك قبلنا، وأشعلنا مصابيح، لأن ذلك المكان يفتقر إلى الاضاءة الطبيعية، ويمكن أن يضاء فقط بالمصابيح.

وعلقنا زربية حول موضعنا، وزينا المذبح، وأشعلنا عدداً كبيراً من الشموع، وغنينا قداساً خاصاً بشكل جماعي، ولدى وصولنا إلى «Salve Regina »، مشينا من موضعنا في مسيرة عظيمة، ودرنا خلال ضريح مريم العذراء الأعظم مباركة، ومن ثم عدنا إلى موضعنا، وبعد« Salve » كرسنا أنفسنا للسهر خلال الليل عند ضريح العذراء المجيدة، والذين لم يكن بامكانهم السهر جلسوا ساندين رؤوسهم إلى الجدار، لكننا نلنا راحة قليلة لأن المسيحيين الآخرين كانوا ينبحون في أماكنهم المتعددة أثناء تأديتهم لقداساتهم طوال الليل، ومامن مكان كان مزينا بشكل جميل أكثر من مكاننا، كما لم يكن أي غناء أكثر وقاراً من غنائنا، لأن المسيحيين الشرقيين يحتفلون قليلاً في قداساتهم، ويبدون وكأنهم يولولون ولايغنون، ومن أجل وصف لهذه الكنيسة، وشكلها وترتيبات أماكنها المقدسة، إنظر ماتقدم في ص٥٨٩، وهكذا مضت تلك الليلة.

عيد الصعود المجيد لمريم العذراء المباركة

عند منتصف الليل، في اليوم الخامس عشر، شرعنا بقداس ما بعد منتصف الليل، وبعدما غنينا بوقار هذا القداس، احتفلنا بإقامة عدة قداسات خاصة في ضريح العذراء المباركة، وكان ذلك بقدر المستطاع، عندما تمكنا من الحصول على مكان هناك، لكن الذين لم يجدوا مكاناً هناك، أقاموا القداس عند مذبح اللاتين، وعندما اقترب حلول الفجر، غنينا قداساً في مكاننا بأصوات مرتفعة، ولقد غنينا بأصوات مرتفعة إلى حد أن نباح المسيحيين الشرقيين الآخرين لم يعد مسموعاً، وعند الفراغ من هذه القداسات، رفعنا جميع الزينة وبعثنا بها قبلنا إلى جبل صهيون،

في حين قمنا نحن بزيارة الأمـاكن المقـدسـة على جبل الـزيتـون، حيث حصلنا على غفرانات، وذهبنا بعد هـذا إلى جبل صهيون، وتناولنا طعام الغداء هناك، وبعد الغداء تمددنا للاستراحة بسبب السهر الذي قمنا به.

الحج الانفرادي للراهب فيلكس فابري إلى بيت لحم وإلى بعض الأماكن الأخرى

وسألت في بعد ظهـر يوم صعود العـذراء الأب المسؤول لمنحي إذنا للذهـاب إلى بيت لحم، وأن يبعث معي واحـداً يرافقني على الطـريق، لأنني امتلكت رغبـة لأن أكـون وحيـداً في بيت لحم بعيـداً عن حشـد الحجـاج، وأعطاني الأب المسـؤول راهبين جيـدين ليرافقـاني، وتركني أذهب، وبناء عليه انطلقنا معـاً مـن القـدس بشكل سري، وبدون علم أحـد، وذلـك خشيـة أن يكون معنا المزيـد من المرافقين، وارتحلنا رحلة طيبـة على الطريـق الذي كنت قـد تحدثت عنـه منذ ص٦٦٨، وهكذا وصلنا إلى قبراتا حيث يوجـد قبر راحيل، وإلى جـانبه رأينا قـرية بازق، التي نقـرأ عنها في سفـر القضـاة:١، حيث قتل بنو اسرائيل عشرة آلاف رجل، ووجدوا هناك أدوني بازق، ملك القدس، فقطعـوا يديه وقدميه، مثلما كان هو قد فعل شخصياً بسبعين ملكاً زحفـوا تحت مائدته، وكانوا يلتقطون طعامهم بأفـواههم، وقد رغبت بدخـول هذه القرية، وأن أرى المكان، لأنني وبقـدر مـااستطعت لم أمر بمكان معـروف بالنسبـة لي من خـلال الكتـابات المقـدسـة القـانونيـة، من دون أن أزوره، وبناء عليـه انعطفنا نحو اليمين خـروجاً على الطريق العام، إلى قـرية بازق، ومررنا من خـلالها، وهي كبيرة، وغير مسكونة من قبـل المسلمين، بل من قبل المسيحيين الشرقيين فقط، ولم يتملكهـا المسلمـون قط، وحـدث على كل حال في هذه الأيام أن قام واحد من أهل هذه القرية بالاعلان عن تخلية عن الديانة المسيحيـة، وختـانه واعتناقه للاسـلام، وهو سـاكن هناك في هذه الأيام ذئباً بين شيـاه، ويصنع في هذه القرية خمرة رائعة ومتفـوقة في

قوتها، وهي عندما تشربها صرفة، مع أنها لاتؤذي الرأس، تجدها تمتلك قوة تحرق الجوف والأمعاء، ولذلك يتوجب على الانسان مزجها بكثير من الماء، وأنا لاأتذكر أنني شربت خمرة أفضل منها.

وتابعنا سفرنا من بازق، فوصلنا إلى بيت لحم، حيث جرى الترحيب بنا بلطف من قبل الأب المسؤول والرهبان، وعملنا عشاءً جيداً، وبعد العشاء أخذت إلى قلاية للاستراحة لكن وأنا أقوم بالاستراحة هناك، هرب النوم من عينيّ، وتمددت فوق فراشي لبعض الوقت وأنا مستيقظ تماماً، ثم لمللي من الرقاد، نهضت، وودت أنني لو كنت في الكهف المقدس لميلاد المسيح، لكنني لم امتلك أملاً بالتمكن من الدخول قبل منتصف الليل، لعلمي بأن جميع الأبواب كانت مغلقة، ومع ذلك خرجت بهدوء من قلايتي، ودخلت إلى بيعة القديس نيقولا، التي كان الرهبان فيها يتلون صلواتهم الساعية، وفي هذه البيعة كان هناك باب سري خاص من خلال ممر ضيق إلى الكهف المقدس، وهو باب يسعى الرهبان غاية جهدهم لإبقائه سرياً، خوفاً منهم من المسلمين والمسيحيين الشرقيين الذين ماكانوا ليسمحون بذلك، كما تقدم لي وتحدثت عن ذلك، ومضيت من خلال هذا الباب دونما أي أمل، لكنني وجدته مفتوحاً، ودخلت بسرور عظيم، وأخذت طريقي خلال ممر منجور في الصخر، ووجدت الباب في النهاية الأخرى أيضاً مفتوحاً، من خلاله عبرت إلى الكهف الأعظم قداسة، الذي وجدته مضاء بعدد كبير من المصابيح، ووجدت البابين اللذين يمر الانسان من خلالهما ويذهب إلى الكنيسة مغلقين بشدة، ولدى ايجادي نفسي وحيداً في الكهف المقدس، قلت وأنا مسرور: «مبارك هو الرب، ومباركة هي جميع المعيقات لنومي واستراحتي، حيث بذلك أمكنني البقاء في هذه العزلة التعبدية الأعظم سروراً إلى جانب مهد المسيح الجميل»، ولذلك أخذت نفسي للقيام بسهر مقدس، وأمضيت الساعات وفق أحسن ماستطعت وماعرفت،

لأن هذا المكان في الحقيقة في غاية العذوبة، ويدفع نحو التقوى، كما قلت من قبل، ومن السهل والممتع البقاء بدون نوم إلى جانبه.

زيارات إلى الأماكن التالية التي كقاعدة لايؤخذ الحجاج إليها

وفي الصباح الباكر من اليوم السادس عشر، احتفلنا بقداس في الكهف الأعظم قداسة، وبعد القداس صعدنا إلى موضع الرعاة، الذي تقدم لنا وصفه من قبل، وغنينا هناك Gloria In excelsis مع الملائكة، وبعد هذا صعدنا ثانية إلى بلدة بيت لحم، فتفحصناها عن قرب، ثم ذهبنا إلى الدير لتناول الغداء مع الرهبان، وقبل أن نتناول طعامنا ذهبنا إلى مدفن الدير، حيث كانت هناك قبور الرجال الثلاثة الذين قاموا مع يوسبيوس وعادوا من الموت، حسبما جاء في رسالة سيرل أسقف القدس إلى أوغسطين، وبعد الغداء قلنا وداعا إلى الأب المسؤول، وذهبنا إلى بيت في بلدة بيت لحم، عائد لواحد مسيحي إغريقي، كان معروفا إلى واحد من الراهبين اللذين كانا برفقتي، وعندما سمع هذا الرجل عن المكان الذي نود زيارته، أعطانا أربعة حمير، ثلاثة لنا أنفسنا، وواحد لابنه، الذي أرسله معنا ليكون خادمنا، وليعتني بالدواب، وركبنا الآن ومضينا نازلين من جبل بيت لحم، باتجاه الجنوب، على طول مجرى الماء الذي يحمل الماء إلى القدس، ووصلنا إلى قرية اسمها بيت عير Bethyr، التي على مقربة منها ريف جميل، أنا لم أر شبيها له في جميع الأرض المقدسة، لأن الوادي كله القائم تحت القرية كان مليئاً بكثافة بأشجار الفواكه، مع أشجار من مختلف الأنواع مثل غابة، وهم يعتقدون بأن هذه الحدائق قد غرست من قبل سليمان، وأنه هنا كانت حديقة البهجة، التي عنها قال في سفر الجامعة:٢/ ٥—٦:«عملت لنفسي جنات وفراديس، وغرست فيها أشجاراً من كل نوع ثمر»، وإلى هذه الحديقة اعتاد سليمان أن يسوق عربته الذهبية، مرافقاً بشباب مسلحين، وذلك كلما أراد أن يخلد إلى

السرور، وذلك حسبما حدثنا يوسفيوس في مصنفه « التواريخ القديمة لليهود»— الكتاب الثامن— الفصل الثالث، وغالباً ماقام بدعوة طائره مع أغاني حب قائلاً:« قد دخلت جنتي ياأختي وياعروسي»، (نشيد الانشاد:٥/ ١)، فضلاً عن ذلك لقد رغب بريح مناسبة (نشيد الانشاد:٤/ ١٦) بقوله:« استيقظي ياريح الشمال، وتعالي ياريح الجنوب، هبي على جنتي فتقطر أطيابها»، وقد اعتاد سليمان على امضاء كثير من وقته في هذه الحديقة، إلى حد أنهم عندما كانوا لايعرفون أين كان، اعتادوا على أن يبحثوا عنه فيجدونه في الحديقة، وبناء عليه عندما سألت بنات القدس العروس « إلى أين توجه حبيبك» أجابتهن« حبيبي نزل إلى جنته إلى خمائل الطيب ليرعى في الجنات ويجمع السوسن»(نشيد الانشاد:٦)، لأنه زرع في تلك الحديقة حشائش حملت توابل وثماراً جيدة، مثل الكافور، والزعفران، والناردين، والوج، والبلسم، والقرفة، مع جميع أخشاب لبنان، والمرّ، والألوة، وجميع أنواع التوابل الرئيسية حسبما قرأنا في نشيد الانشاد:٤، وكانت هناك الأعناب، وأشجار الجوز، وفي هذه الأيام لم يعد هناك توابل، والذي بقي أشجار تحمل البرتقال، والرمان، والتين، والزيتون، والتوت، والجوز، والتفاح، مثل حديقة البهجة، التي يبدو أنها تتوافق مع بيت الشعر في نشيد الانشاد:٤/ ٣:«أغراسك فردوس رمان مع أثمار نفيسة فاغية وناردين».

برك الملك سليمان

وبعدما فرغنا من رؤية هذه الحدائق البهيجة، صعدنا منهن وسرنا على طول شاطيء جدول صغير، من مياهه تسقى هذه الحدائق، بطريقة أن مجرى الماء الذي به تجري المياه إلى القدس كان على يميننا، وكانت القناة التي تجري بها المياه التي تسقي الحديقة، على يسارنا، وهكذا سرنا فيما بينهما، ووصلنا إلى ثلاث برك كبيرة، قائمات احداهن تحت الأخرى، وهذه البرك، التي—كما قالوا— تحدث عنهن سليمان في الجامعة

بقوله:«عملت لنفسي برك مياه لتسقى بها المغارس المنبتة الشجر»، وهذه المغارس هي التي قد أعطت أشجار الحديقة المتقدمة الذكر، التي إليها تساق المياه خلال قناة من البرك الثلاثة.

وهذه البرك كبيرة جداً، وقد عملت نتيجة جهود عمل عظيمة بوساطة أدوات حديدية حادة، التي بها حفرت أقسى الصخور والحجارة ونجرت بالطريقة الطولانية والعرضانية في وسط الوادي، الذي تطل عليه من على الجانبين جبال عالية ووعرة، وهذه البرك معمولة وفق طريقة أن المياه الجارية العذبة تصب في البركة الأولى التي هي الأعلى، وتملأها، والماء بعد هذا يجري إلى الثانية، القائمة تحتها، وبعد هذا تجري المياه من هذه البركة الثانية إلى البركة الثالثة، ومن هذه البركة تجري المياه خلال مجرى ماء إلى حديقة البهجة، ويوجد من هذه البركة مجرى ماء آخر ينقل الماء حتى القدس، حتى جانب الهيكل، حيث تتدفق كما سلف وتحدثت من قبل، هذا وتجري المياه، التي تسيل وراء الحدائق في الوادي، حيث تقوم المدينة، إلى سدوم، وخلال قفار تقوع، التي يجدها من الجانب الجنوبي قفار مُآن Maon.

وهنا يوجد جبل الكرمل، الذي كان ملكاً لنابالNabal، الذي إليه أرسل داوود— عندما كان فاراً من وجه شاؤول— يطلب منه خبزاً وماء، غير أنه رفض مع اهانة، ولذلك غضب داوود، وزحف ضده وضد جميع أهل بيته، ولولا أن تدخلت أبيجايل، زوجة نابال، وتوسطت من أجله، لقام بتقطيعهم جميعاً، كما قرأنا في سفر صموئيل الأول:٢٥، ورأينا فوق هذه البرك من الجهة المقابلة أكثر من ستمائة مسلم يحفرون ويعملون، لجلب مياه جديدة إلى البرك القديمة ومن ثم إلى القدس، لأنه تمّ العثور على الماء بين الجبال العائدة للقفار، وذلك ليس بعيداً عن حبرون، على مسافة بعيدة عن هذه البرك، ويبذل السلطان جهده لنقل هذه المياه إلى القدس، مقابل نفقات كبيرة وتعب

عظيم، وهذا كله ضمن عمل حكيم واختراعات كثيرة ذكية وبارعة، حيث تجري قيادة مجرى الماء خلال ممرات محفورة في الجبال، بواسطة القطع في الصخر وتنظيف الحجارة، لمسافة ثمانية أميال ألمانية، عبر منحدرات عملت بقياسات وفق تقسيمات صحيحة، فضلاً عن هذا إنه يقوم الآن بتنظيف مجاري المياه القديمة، ويعمل كثيراً من الصهاريج من أجل خزن مياه الأمطار، ولم يترك وسيلة لم يجربها لتأمين الماء لمدينة القدس المقدسة، وهو بذلك لم يوفر نفقة، ولم يدخر جهداً.

وهنا يستحق السلطان الملك مديحاً كثيراً، لأن سليمان عندما كان في الالهيات:٤٨/ ١٧ يمتدح الأعمال الجبارة للرجال المشهورين، امتدح الملك حزقيال، لأنه جلب الماء إلى وسط مدينة القدس، لأنه حفر الصخر الأصم بالحديد، وعمل آباراً للمياه، ولعمله هذا تلقى الملك حزقيال هذا نفسه المديح في سفر الملوك الثاني:٢٠/ ٢٠، وفي سفر أخبار الأيام الثاني:٣٢/ ٣٠.

ومع ذلك لم يكن عمل حزقيال مثل عمل السلطان قايتباي، الذي لم يكتف بالحفر بالصخر حتى يتمكن من جلب المياه من نبع جيحون الأعلى إلى المدينة، بل هو يقوم الآن بشق الجبال من مسافة بعيدة، حتى يتمكن من جرّ المياه إلى هناك، هذا وسلف لنا الحديث عن هذا السلطان من قبل، ويتساءل المسلمون والمسيحيون واليهود، ماالذي يريد السلطان أن يعمله من القدس، حتى أقدم على صرف الكثير، وعمل الكثير ليزودها بالماء، ويعتقد المسلمون أنه ينوي أن ينقل مقر الحكومة من بابليون مصر إلى القدس، ويأمل اليهود أنه عندما يعاد بناء القدس سوف يعطيها لهم، أما موقف المسيحيين، فهو أنه ربما هو مقبل على استئناف الايمان بالمسيحية، الذي كان قد تخلى عنه، وأنه سوف يعيد إليهم مدينة القدس، وكنيسة الضريح المقدس، لعل الرب القدير يضع ذلك في قلبه، وأن يجعله يفعل ذلك، الأمر الذي ينبغي عدم التوقف

عن الدعاء إلى الرب من أجله .

إنها إذا ماالختار البقاء على غدره وردته، يتوجب مع ذلك على المسيحيين الصلاة للرب من أجله ولطول حياته، مادام صاحب الضريح المقدس، وملك الأرض المقدسة، ويتعامل بلطف ورحمة مع الحجاج المسيحيين، فمثل هذا عمل بطارقة العصور القديمة عندما كانوا في السبي البابلي، فقد صلوا وقدموا الأضاحي من أجل حياة الملك نبوخذنصر، وذلك على الرغم من أنه جلبهم إلى السبي، وأحرق الهيكل، وهدم القدس، وهذا واضح في سفر باروخ:١.

ومثل هذا أمرنا الرسول(١— ثيمو:٢) بإقامة الصلوات والابتهالات في الكنائس من أجل ملوك الأمم، ومن أجل جميع الذين في السلطة، حتى يتمكن المؤمنون من العيش بحياة هادئة وآمنة في ظلهم، ومثل هذا أمروا في اسدراس الأول:٦/ ٣١ بالقيام بالصلوات وبتقديم القرابين من أجل حياة الملك داريوس وأولاده.

وهذا العمل الذي يقوم به السلطان الآن، كان قد شرع به من قبل بيلايطوس، حاكم اليهودية، وكان قد أنفق جميع أموال القربان، أي أموال الخزينة المقدسة العائدة للهيكل، في سبيل جلب الماء من مسافة ألفي فرلنغ، وعندما ثار اليهود ضد هذا العمل بسبب تبديد أموال الخزانة غضب بيلايطوس، فقتل حشداً كبيراً من اليهود، واستمر في عمله، لكن مع ذلك لم يهدأ اليهود، فتخلى خوفاً من الامبراطور، وحول هذا الموضوع يمكننا أن نعود إلى يوسفيوس« التاريخ القديم»(٨/ ٨ وإلى «حرب اليهود»(٢/ ٣).

وعندما صعدنا حتى البركة الوسطى، رأينا إلى جانبها سرادقات وخياماً، فيها سكن البناءون والمحاسبون المسؤولون عن الأعمال، والمراقبون، والمعلمون الذين يرتبون كيف ينبغي حفر المجاري المائية

خلال الجبال، وكان حول هذه السرادقات أعداد كبيرة من المغاربة والمسلمين كانوا يركضون نحو الأمام ونحو الخلف، يلعب أحدهم مع الآخر، وخفنا من هؤلاء خوفاً شديداً خشية الزحف ضدنا وإزعاجنا، وكان هناك خوف خاص عليّ، لأنني كنت الحاج الوحيد الحامل لعلامة الصليب، ولاأحمل جواز سفر، والذي حدث هو أنه مامن أحد قدم للاختلاط بنا، بل صعدنا بسلام على طول حدود البرك الثلاث، وبعد مضي بعض الوقت ودعنا البرك الثلاث، واستدرنا نحو اليمين، وتسلقنا سفح رابية، ووصلنا إلى منطقة منبسطة مليئة بالحقول، حيث كان قمح تلك السنة قد جرى حصاده.

وكان بين تخوم هذا السهل بدوياً يتجول، وهو مسلح بسيف ورمح، وقد واجهنا، ووقف في وجهنا في الممر، مانعاً إيانا من المرور مالم ندفع له الخفارة التي يستحقها، لأن البداة يقولون بأن جميع المسافرين مدانين لهم، ويتوجب أن يدفعوا الخفارات إليهم، وقال له واحد من الراهبين اللذان كانا معي، وخاطبه باللسان العربي بأننا كنا رجالاً فقراء، وليس علينا أن ندفع أي شيء إلى أي انسان، لكن البدوي قال وهو يشير إليّ باصبعه:« أنتما يمكن أن تكونا رجلين فقيرين، لكن هذا الرجل مع الصليب هو حاج، وغريب في البلاد، ويتوجب عليه أن يدفع جزية إلي»، وركض نحوي وهو يقول هذا، وانتزع مقود حماري، قاصداً ارغامي على الدفع، لكن ذلك الراهب تجادل معه بشدة، وهدده أنه إذا لم يدعني أمضي، سوف ينزل إلى الوادي إلى السادة الذين كانوا مسؤولين عن الأعمال، ويشتكي لهم، وعندما سمع البدوي هذا، تركني أذهب، وابتعد عنا هارباً.

ورأينا الآن كنيسة في وسط هذا السهل، نحوها أسرعنا، وكانت هذه كنيسة القديس جرجس الشهيد، ودخلنا إليها، وتلونا صلواتنا فيها، وحصلنا على غفرانات (+) لمدة سبع سنوات، وكان إلى جانب هذه

الكنيسة فيما مضى ديراً جميلاً وكبيراً للرهبان الاغريق، ولكنه الآن مهدم، والذي بقي هناك زريبة صغيرة، قائمة في مواجهة الكنيسة، يسكن فيها اثنان من الرهبان الاغريق، وفي هذا المكان جرى اعتقال القديس جرجس الشهيد، ووضع في الأغلال بسبب الايمان بالمسيح، ذلك أنه قدم من كبدوكيا إلى سورية، حيث قتل التنين قرب بيروت، وارتحل من ذلك المكان إلى اليهودية هنا، حيث جرى اعتقاله، ومن ثم جرى نقله إلى اللد حيث استشهد، كما سلف لنا الحديث عن ذلك في ص٣٦٨.

ويوجد على مقربة من الكنيسة مكان وعر، حيث هناك صخرة قاسية جداً وعريضة، أرانا فيها هذان الراهبان علامات حوافر فرس، وكأن الصخرة كانت قديما ناعمة وقد تلقت علامات فرس عابر فوقها، وقد قالا بأن هذه العلامات قد انطبعت بشكل اعجازي على الصخرة من قبل فرس القديس جرجس، وبعدما رأينا هذه العلامات عدنا ثانية إلى الكنيسة، وجلسنا في الظل، وجلب لنا هذان الراهبان سلسلة، أعلنا أنه بهذه السلسلة جرى غلّ القديس جرجس، وقبلنا هذه السلسلة، ووضعناها حول أعناقنا من أجل التقوى، ويحترم المسلمون أيضاً هذه السلسلة، مثلما يحترمون أيضاً علامات حوافر الفرس على الصخرة، ويسترد أحياناً بعض المسلمين المرضى صحتهم بلمس هذه السلسلة، وفي الحقيقة لدى جميع الشرقيين احترام خاص للقديس جرجس، وهم يحترمونه أكثر من القديسين الآخرين، ويمكن للانسان أن يقول بأن جميع كنائس المنشقين مكرسة له، وجلب لنا الراهبان بقسماطاً، وماء، وملحاً، وصنعنا وجبة معهم، وقد أعطيانا بدون مقابل، كل ماكانا قادرين عليه، مع أنهما كانا منشقين، وبناء عليه أكلنا وشربنا في تلك الكنيسة، وانتعشنا بشكل جيد، وقد مكثنا هناك لمدة تقارب الساعتين وتفحصنا بدقة خرائب الدير.

الماء الذي جرى تعميد الخصي به

وغـادرنا بعد هـذا، هذا المكان، ووصلنا ونحن على طريقنا إلى طرف رابية، منها يتدفق الماء العذب من عدة أماكن، وهذا أمر غير اعتيادي في البلدان الشرقية، ورأينا فوقنا في الأعالي بقايا قلعـة مهدمة، كانت تعرف في الأيام الخوالي باسم بيت سورا، وكانت قلعة حصينة جداً، عنها كنت قـد تحدثت من قبل، وتابعنا مـن هناك سيرنا نحـو واد عظيم الخصـوبة ليس بعيـداً عن بيـت زكـريا، الذي كنا أيضـاً قـد تحدثنا عنه من قبل، ورأينا في هذا الوادي كثيراً من البيوت وبساتين مـزروعة بأشجار التين، وبالكروم، والزيتـون، وأخيراً وصلنا إلى ضفة جـدول ماء عـذب، ينبع من الرابية، ويجري بشـدة نازلاً إلى الوادي على طول الطريق، وبناء عليه صعـدنا على الطريق إلى المكان الذي ينبع منه، حيث وجـدنا بقـايا كثيرة لكنيسة مهدمة، كانت قائمة هناك في أيام المسيحيين، لأن هذا هو المكان الذي عمّد فيه فيليب الخصي الحبشي العـائد للملكة كنداكة، حسبما ورد الخبر في أعمال الرسل:٨، وكـانت كنداكـة ملكة الحبشـة، وهي مملكة حكمت دومـاً مـن قبل نسـاء، وأطلق على جميع ملكاتها اسـم كنداكـة، وذلك مثلما أطلق على جميع ملوك مصر اسم فـرعـون، ومثلما أطلق على جميع أباطرة رومـا اسم قيصر، ويقول بعضهـم بأنها كـانت ملكة كل من مصر والعربية، لأنه عندما سقطت اسرة الفراعنة في مصر، خلفتها أسرة كنداكـة، وذلك حسبما قـرأنا في كتاب بـوكاكـوس Boccacus حول النسـاء الشهيرات»، الفصل:٤١، وكـانت هذه الملكة امـرأة تقيـة، وقـد أرسلت خصيهـا الحبشي، الذي كـان مسـؤولاً عن خـزائنهـا، مع هدايا كثيرة، وتقـديمات إلى الهيكل في القدس وذلك حتى يتمكن من الصـلاة هناك وتقديم الهدايا.

وبعـدما فعل هذا، عـاد فـركب عربتـه، حتى يتمكن من العـودة إلى بلاده، وكـان متشوقاً كثيراً حـول الأشياء اللاهوتيـة، إلى حد أنه عنـدما

كان يجلس في العربة كان يقرأ حول الأنبياء وجاء فيليب إليه بناء على أمر من الروح القدس، وعلمه وعمّده في هذا المكان، وبناء عليه جثونا هنا على ركبنا وتفوهنا بصلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+)، وجلسنا بعد ذلك إلى جانب النبع، وأحضرنا من مزاودنا الطعام الذي كنا قد شريناه من القدس، وأكلنا خبزاً، وشربنا من الماء، الذي كان صافياً، وبارداً، ومنعشاً، وصحياً، وهذا النبع مشهور جداً حتى أن الأغنياء وأعيان الناس يأتون إلى هنا من القدس، من أجل المتعة والترويح عن النفس.

وعندما كنا جالسين على هذه الصورة إلى جانب النبع، مرّ بنا عدد كبير من المسلمين، بسبب الطريق العام الذي يقود إلى غزة، أي إلى أفريقيا، حسبما جاء في الشرح حول الممرات، وأيضاً من قبل كاتب الـ Speculum Historiale، وعلى كل حال لم يلحق بنا أي أذى من قبل أي انسان، وأعطينا الذين وقفوا إلى جانب النبع وشربوا بعضاً من خبزنا، وقد جلس كل مسلم معنا، وجاء أخيرا واحد مع سلة مليئة بأحسن العنب وأكثره حلاوة، وله أرينا مزاودنا وقد امتلأت بالخبز، وقد سره كثيراً التبادل معنا، وهكذا أكلنا وشربنا في ذلك المكان معهم حتى اقتراب موعد غياب الشمس.

وعن هذا المكان قال بيد في تعليقاته على أعمال الرسل:« بيت سارو، أو بيت سورا في ديار يهوذا، على الطريق من إيلياء إلى حبرون— أي من القدس إلى حبرون— وذلك على بعد عشرين ميلاً، حيث على مقربة منها هناك نبع عند سفح الجبل، وهو يتدفق منه نفسه، ثم تبتلعه الأرض نفسها التي ينبع منها، ففي هذه المياه عمّد فيليب الخصي».

وبعدما أنعشنا أنفسنا بشكل جيد في هذا المكان، امتطينا دوابنا، وجرينا مسرعين نحو القدس، ذلك أننا كنا نأمل أن يسمح لنا في تلك الليلة نفسها بالدخول إلى ضريح الرب، ولولا أنه توفر لدينا هذا

الأمل، لبقينا مع الرهبان في بيت لحم لعدة أيام، أو كنا أمضينا الليل في صحراء القديس يوحنا المعمدان، التي تقدم لنا ذكرها في ص٧٧٠، وهو أمر كنا نحب كثيراً أن نفعله، لأنه بدا أمراً عظيم السرور جداً، رؤية الكهوف التي سكن بها يوحنا وهو طفل صغير، والإقامة بها، لكن شوقنا للدخول إلى الضريح المقدس كان أقوى لدينا، وتخلينا أثناء سفرنا عن زيارتنا لقفار القديس يوحنا، وإلى بيت زكريا، وإلى كنيسة الصليب المقدس، وإلى بيت سمعان، وهي أماكن تقدم لنا الحديث عنها جميعاً، وأسرعنا باتجاه القدس.

ولدى اقترابنا من الكروم الموجودة على جبل جيحون، وعندما صارت المدينة المقدسة أمام أعيننا، فجأة، تجمعت بعض النساء اللائي عملن في الكروم، ووقفن مع بعضهن في الطريق مع حجارة، ليمنعننا من المرور، مالم ندفع خفارة لهن، وقمنا بسؤالهن عما إذا كن بدويات أم مسلمات، وعندما أجبننا بأنهن مسلمات، شققنا طريقنا بالقوة بينهن، وأخبرناهن باستخفاف بأن الخفارة حق للبداة وليس للمسلمين، وبغضب شديد رمين بالحجارة خلفنا، وتولين شتمنا.

وعندما صرنا ملاصقين للمدينة، التقانا هناك واحد من كبار سادة المسلمين، كان معه عدد كبير من الأتباع، وجماعة كبيرة من الرجال المسلحين على الخيول وعلى البغال، وأخبرنا الذين مشوا أمام هذا الحشد، بأن أميراً كان قادماً خلفهم، ولدى سماعنا بهذا قفزنا على الفور عن ظهور حميرنا ووقفنا على جانب الطريق حتى عبروا جميعاً، وفي الحقيقة، لو أننا لم نترجل من على ظهور دوابنا لألقونا أرضاً بغضب وإهانة، لأن عادة هذه البلاد تقضي بوجوب افساح الطريق من قبل الفقراء، والفلاحين، والحجاج، والناس البسطاء، إلى النبلاء، والرجال الأغنياء، عندما يقابلونهم، لذلك فور رؤية الانسان البسيط أو الغريب رجلاً نبيلاً مقبلاً نحوه، عليه الترجل من على دابته، حتى يمر ذلك

السيـد، وحـاشيته، وإذا لم يترجـل، يقوم خـدم ذلك السيـد برميـه على وجهه.

وإذا ماتواجـه رجلان غنيان، يقـوم الأقل ثروة، وهو يريد أن يختلف عن الآخرين، ليس بالترجل، بل ينسحـب إلى جانب الطريق مع دوابه، حتى يعبر الآخر، لكن إذا ماتواجه واحد من أعيان أهل المدينة مع نبيل مسلح، أي على سبيل المثال إذا ماتواجـه مسلم مع مملوك، فوقتها يكون التشريف الـذي يريـه الرجل الغنـي للنبيل، أن ينسحـب إلى جـــانب الطريق، ويرفع قـدميـه من الركابـات، ويتركهما متدليتـان، وإذا لم يفعل ذلك، فإن الرجل المسلح يقوم برميه من على ظهر حصانه.

وبناء عليه، قمنا بعد عبور ذلك السيـد، فعاودنا امتطاء ظهور حميرنا، ودخلنا إلى المدينة المقـدسة، إلى جبل صهيـون، وعندمـا وصلنا إلى هناك علمنا بأن الحجـاج لن يسمح لهم بالدخول إلى كنيسـة الضريح المقدس، وأسفنا إننا لم نبق في بيت لحم ليومين أو ثلاثة أيام.

وفي اليوم السابع عشر، الذي كان الأحد الثاني عشر بعد التثليث، في اليوم الثامن بعـد عيد صعود العذراء، توفرت لدي رغبة بإقـامة قداس في الموضع الذي توفيت فيـه مريم العـذراء الأعظم مباركـة، وحملت إلى هناك جميع الأشياء المحتاجة، وزينت مذبحاً مع راهب يقوم بمساعدتي، وحـدث وأنا واقف عند المذبـح في الهواء الطلق، أن تسـاقطت كميـات كبيرة من الندى، بللت الـ Corporale، وقطعة الكتان الممتازة المنشورة فوق المذبح، وبللت أيضـاً الأعمدة، والكتـاب، وعملت عجينة القربان مائعة مثل فطيرة غير مخبـوزة، ولذلك لم يكن بإمكاني بأية وسيلة رفعها، ووقعت بإرباك عظيم في ذلك القـداس، ونادراً مـاتمطر في هذه البـلاد، خـاصـة في أيام الصيف، حيث تبقـى السماء صـافيـة، ولكن دومـاً عند اشراق الشمس تتساقط كميات كبيرة من الندى من السموات، بها تبقى خضروات الأرض حيـة، وبعـد الغــداء اجتمع الحجـاج مع بعضهم

للتشاور حول رحلتنا خلال القفار.

وفي اليوم الثامن عشر، نزلت قبل شروق الشمس إلى نبع سلوان، لكن لدى سماعي بعض الأصوات العالية فيه، وقد صدرت عن القصارين أو الدباغين من المسلمين الذي كانوا هناك، ابتعدت عن النبع المقدس، ولم امتلك الجرأة للذهاب إلى هناك، ومع ذلك غسلت وجهي وعيني في الجدول الذي كان يجري منه، ومن هناك نزلت إلى وسط بركة قدرون، حيث سرت فوق أرضها الجافة والوعرة حتى كنيسة ضريح وصعود مريم العذراء المباركة، التي وجدتها مفتوحة، وقد سررت تجاه ذلك، ونزلت بوساطة الدرجات إلى الكنيسة، فوجدتها مليئة بمسيحيين روم أرتوذكس، كانوا يقيمون قداساً بمناسبة ذلك اليوم، وكانوا ينشدون مديح مريم المقدسة، ووقفت لبعض الوقت عند قداسهم، أرقب طقوسهم وعاداتهم.

ثم صعدت من هناك ثانية وغادرت الكنيسة، ودخلت إلى كهف آلام ربنا يسوع المسيح حيث وجدت فرقة من الأرمن، تقيم قداسا هناك، وتمدح الرب بغنائها الفوضوي، ومكثت مع الأرمن لبعض الوقت، وعجبت نحو طريقتهم في أداء القداسات الربانية، وبعدما خرجت من الكهف، صعدت إلى الجليل، وسرت من هناك على طول حافة جبل الزيتون، فوصلت إلى كنيسة صعود الرب، التي دخلت إليها، فوجدت فيها فرقة من اليعاقبة يقومون بمدح الرب مع موسيقى كانت غريبة بالنسبة إليّ، علاوة على ذلك قدم مثلهم إلى هناك سود أو هنود لإقامة قداساتهم هناك، وكان هناك نوبيون ينتظرون للغرض نفسه، وفي الحقيقة كان جبل الزيتون كله مكتظا في ذلك اليوم بالمسيحيين الشرقيين، لكن ماهو السبب الذي جعل المسيحيين الشرقيين، يجتمعون في ذلك اليوم؟ أنا لاأعرفه، وتجولت هناك وكنت المسيحي اللاتيني الوحيد بين هؤلاء الشرقيين، فلم أتعرض للأذى من أي واحد منهم، كما لم يبعدني أحد

عن قداساتهم بل إنهم عجبوا لوجودي، ونظروا إليّ باستغراب، وإلى ثيابي، وطرائقي، وهؤلاء المسيحيين الشرقيين المتقدم ذكرهم، بشكل عام سود، ويختلفون عنا باللون، واللباس، واللغة، والطقوس، والعادات.

ونزلت من موضع صعود الرب إلى جيسماني، وبحثت بعناية وفتشت عن الصخرة التي تحمل علامات جسد المسيح، وهي الصخرة التي تلقت هذه العلامات عندما اعتقل المسيح هناك، لكن لم أستطع العثور عليها بأية وسيلة من الوسائل، ومن أجل وصف هذه الصخرة انظر ماتقدم في ص ٦٠١، ومضيت بعد هذا عائداً إلى جبل صهيون، لتناول الغداء.

وفي اليوم التاسع عشر حصلت على إذن من الأب المسؤول لزيارة قلعة عمواس، ورجوته أن يرسل معي من يراه، حتى يكون رفيقي على الطريق، وكان الأب المسؤول كارها لأن يتركني أذهب، وأعلن بأن الطريق كان خطراً، لكن بسبب إلحاحي أعطاني الإذن، وأمر اثنين من الرهبان ومسلما واحداً بمرافقتي، وخرجنا من القدس معاً، وسرنا على الطريق الذي سار عليه الرسولان كليوباس ولوقا في يوم قيامة الرب، وذلك عندما ظهر الرب يسوع لهما على شكل مسافر، واحترق قلباهما في داخلهما وهو يتحدث إليهما، حسبما قرأنا في إنجيل لوقا:٢٤، ووصلنا على كل حال، بسلام إلى عمواس، وهناك قبلنا البقاع التي إليها اشتقنا، وكنت قد تحدثت عن ذلك في ص٣٩٠، وشاهدنا خرائب هذه البلدة بخوف، لأنه بما أنها على الطريق الذي يقود من القدس إلى البحر، إنها نادراً ماخلت من قطاع الطرق، الذين يضربون العابرين، وقال القديس جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»، بأنها كانت فيما مضى بلدة جميلة، الأمر الذي تبرهن عليه خرائبها.

ومن هناك ذهبنا إلى جبل شيلوه، الذي كنت قد تحدثت عنه في ص٣٨٩، حيث رغبنا في رؤية الأماكن المقدسة وزيارتها، ولكن قبل أن

نصل إلى هناك، قــام المسلمــون الذين يمتلكون بيــوتا فــوق القمــة بمواجهتنا، وطردونا بالحجارة، وعندما نزلنا وأصبحنا في الوادي، ذهبنا إلى سفح جبل آخر، وتسلقنا إلى قمته، واسم هذا الجبل، جبل الشهداء، لأن أسـداً قـد دفن هناك جثث ثـلاثين ألف شهيـد، كـان كسرى ملك الفــرس قـد قتلهم، مـن أجل إيمانهم بالمسيح، وذلك حسبما قــرأنا في« التاريخ اللاهوتي»، وبعـدما فرغنا من رؤية هذه الأشيـاء، عدنا راجعين إلى القدس بسلام من خلال وادي البطم Terebinth ، وهكذا مضى ذلك النهار.

وفي اليوم العشرين، في الصباح الباكر، جاء أربعة من رهبان الدير إلى قلايتـي، وسألوني الذهاب معهم إلى بيت عنيا، وهكذا انطلقنا، وعندمـا كنا في وادي شعفـاط رأينا سادتي اللـوردات والحجاج الآخـرين نازلين من جبل صهيـون، حـاملين معهم كـل مـاهو محتـاج لإقـامـة قـداس، وعندما وصلوا إلينا، قـالوا بأنهم أيضاً يرغبـون بالذهاب إلي بيت عنيا، وهكذا مضينا مع بعضنا صـاعـدين جبل الزيتـون، ونازلين من جـانبـه الآخر إلى بيت عنيا، وأقمنا هناك قداساً في كنيسة القديس لعازر، وذلك فـوق قبر ذلك القــديس، إنما مع خـوف عظيـم، لأن أطفـال المسلمين وقفـوا من حولنا، ولم نخف من هؤلاء، وأبعـدناهم عن القداس، وقـد بقيـوا ينظرون نحو أيدي، وأوجـه، وأعين الكهنة، الذين كانوا يتـولون تكريس العناصر، وقـد خفنا أن يحدث لواحد منهم، ماوقـع لواحد من الرهبان الفرنسيسكان عندما كـان يقوم بقداس في بيت لحم، لأنه عندما كان مشغـولاً بأعمال القداس، وكان قـد فرغ بوساطة صلواته المقـدسة، من تحويل الخبــز إلى جسـد، والخمـرة إلى دم، فجأة ركـض واحـد من الشبــاب المسلمين نحـو المذبح، واختطف كـأس القـربان مع الخمــرة المكرسـة وشربها، وبعـد هذا ركض راجعاً نحـو جماعتـه، وهو يضحك بصوت مرتفع:

أيها الجاهل الملعـــون، أيها الأعمى المظلم، أيها الأحمق بـلاعقل، أيها التـافه الطائش، كم هو مـؤلم ومـزعجاً وعـدوانيـاً الذي أقدمت عليـه! والذي حدث أنه بحماية الرب، لم يحدث أي شيء من هذا القبيل لنا في هذا المكان، لأننا أنهينا قـداسـاتنا كلهـا بسـلام، وبعـدمـا زرنا الأمـاكن المقدسة في بيت عنيا وفوق جبل الزيتون، عدنا إلى القدس.

وفي اليـوم الحادي والعشرين، في الصبـاح البـاكـر، مضيت نازلاً إلى كنيسـة قيامـة الرب، وتفـوهت بقـداسي أمام البـاب، عـلاوة على ذلك نظرت إلى آبدةالرب من خـلال الفتحة بـالباب، وجـاء في تلك السـاعـة نفسهـا مسلحون مغـاربة، بالقسي والرمـاح، وكانوا جـالبين معهم، مع كثير من الضجة رجلين، كـانوا قد اعتقلوهما، وقـد ألقوا بهما في السجن الذي قام أمـام باب كنيسة الضريح المقـدس، وكنت قد تحدثت عن هذا السجن من قبل في ص٤٧٤.

ولذلك وقفت أمـام البـاب مـع خـوف عظيم، فقـد كنت أخشى أن يصرفوا غضبهم ضدي أيضـاً ووقفت منتظراً، وأنا ممسك بالباب، حتى انصرفوا من السجن، ذلك أنه لم يكن بامكاني الخروج من السـاحة، من دون المرور على مقربة منهم، ولقد مكثت هناك لمدة تزيد على الساعتين، ثم صعدت إلى جبل صهيون، من أجل الصلاة.

وبعد الغداء، اجتمعنا نحن الحجاج جميعاً على جبل صهيون، ووزعنا الأشيـاء التي اشتريناها إلى حزم ذوات وزن واحـد، وبعدمـا فعلنا هذا، نزلت معهم، وعندمـا وصلنـا إلى برج داوود، الذي كنت قـد أشرت له من قبل في ص٤٤٥، وقفنا دونها حراك، ونظرنا إلى القلعـة، وعندما رآنا ابن حاكم القلعة واقفين هناك، عمل شارة بيده، بأننا إذا مارغبنا يمكننا اللحـاق به،، ورؤية البرج من الداخل، وبناء عليه لحقنا بذلك الشـاب، وعبرنا فوق الجسر المقام على الخندق، الذي يمكن رفعه وانزاله، واقتادنا من خـلال بابين حديـديين إلى ساحـة القلعة، حيـث كانت هناك نسـاء

يخيطن(٢٥٣) وحالما رأيننا، غطين وجوهن، وأخفين أنفسهن، واقتادنا الشاب إلى أعلى الأسوار والأبراج، وإلى جميع الغرف المنتشرة هناك، ودهشنا تجاه سماكة الأسوار، وعدد الأبراج حول إطار دائرة الأسوار.

وبني هذا المكان وفق طريقة بناء القلاع الألمانية الحصينة، مع أسوار، وشرافات وطلاقات كثيرة من أجل اطلاق الآلات الحربية من خلالها، وهي قائمة فوق صخرة مشرفة على الجهة الغربية من جبل صهيون، ولها على جانبها الجنوبي واد عميق، هو الذي يفصل جبل صهيون عن جبل جيحون، وهو يمتد من جدول قدرون إلى حقل القصار، ولها على جانبها الغربي أيضاً واد، كان فيما مضى هوة عميقة، لكنه الآن قد امتلأ تقريباً، وكان لها فيما مضى خندق عميق كان معمولاً من حولها، لكن بما أن هذا الخندق لم ينظف أبداً، هو الآن ممتلىء، وقد زرع الحاكم الآن بستان مطبخ هناك في الجهة الشرقية، لكن على الرغم من هذا كله لايوجد مكان قوي وجيد التحصين مثل هذه القلعة في القدس.

لكن هل هذه القلعة هي التي ورد اسمها في الكتابات المقدسة باسم حصن صهيون، أو حصن مدينة داوود، الاختصاصيون غير متفقين على هذا، وكل الذي نعرفه هو أن داوود حصن جبل صهيون الذي ورد الحديث عنه أحياناً أيضاً باسم حصن داوود، كما ورد في سفر صموئيل الثاني:٥، هذا وقد قمت بعد تدقيق خاص، فسجلت ثلاثة أماكن قامت فيها فيما مضى أبراج وأسوار قوية فوق جبل صهيون، والأول بينها موجود على الجانب الشرقي، حيث يقوم الآن دير الرهبان، ومما لاشك فيه أنه كان هنا هيكل داوود، حيث وضع فيه تابوه الرب، وهنا كان مسكنه، وذلك حسبما قرأنا في أخبار الأيام الأول:١٧، وكان المكان الثاني على الجانب الغربي من جبل صهيون، حيث قامت هذه القلعة التي عنها نتكلم الآن، والمكان الثالث لم يكن على جبل صهيون، بل في مواجهة هذه القلعة وذلك باتجاه الغرب، فوق مدينة القدس، قرب باب

التجـار في حقل القصار، ويوجـد في هذا المكان خرائب كبيرة، يقـولون بأنها بقـــايا برج داوود، ولو أن هنـاك حصناً في هذه الأيام، لكـان من الممكن حماية المدينة بوساطته، والذي اعتقـده أنه لم يكن هناك شيء من هذا القبيل، قبل أيام الامبراطور إليوس هدريانوس، الذي وسع المدينة، وأنه بعد توسيـع المدينة جرى بناء حصن هناك، وقـد جرى تدميره منذ وقت طويل مضى وهكـذا بعـدمـا رأينا هذه القلعـة، عـدنا راجعين إلى موضعنا.

وذهبت عند غـروب الشمس مع بعض الرهبـان، إلى سـدة الكنيسـة على جبل صهيون، وهو مـا كنت قد تحدثت عنه في ص٤١٠، وسجلت بأن ارتفـاع جبل صهيـون، كـان أعلى من جميع الجبـال من حـوله، لأن جبال العربية عبر الأردن، والبحر الميت، والتي هي عالية جداً، قد بدت منخفضـــة بالنسبـة لجبل صهيـــون، فـالشمس تشرق على رأس جبل صهيون قبـل البقية، وتسحب أشعتهـا من عليه بعـد البقية، وهذا غـالباً مـارأيتـه، وفي الحقيقة إن الانحـدار من جبل صهيـون نحـو الشرق هو انحدار مستمـر، وهو يساوي خمســة أميال ألمانيـة إلى البحر الميت، ومثل هذا باتجاه الغـرب، الأرض منحـدرة ونازلة لأميـال كثيرة حتى منطقـة فلسطين، وهكذا فإن جبـل صهيـون له التفـــوق على جميع الجبـــال، كما تحدثنا من قبل في ص٤٥٧.

جمع الحصا والأشواك في الأماكن المقدسة صدوراً عن التقوى

واستيقظت في اليوم الثاني والعشرين قبل اشراق الشمس، وبعدما قلت صلواتي لما بعد منتصف الليل، تسللت من الدير وحيداً، وتجولت حول الأماكن المقدسة على جبل صهيون، وفي وادي شعفاط، وعلى جبل الزيتون، والتقطت في كل واحد من هذه الأماكن بعض الحصا، وعلمتهم، ووضعتهم في حقيبة حملتها معي لأجل هذه الغاية، علاوة على ذلك جمعت بعض الأشواك التي تنمو على التخوم على جانب جبل الزيتون وجبل صهيون، وعملت حزماً منهم، وعلى الطريق نسجت منهم تاجاً، وذلك من الأشواك التي أعتقد بأن الرب يسوع قد توج بها، (انظر ص٤٧٥) وأمضيت ذلك اليوم كله في جمع الحصا، وقطع أغصان الأشواك، واشتريت سلة مستطيلة، وضعت فيها أغصان الشوك هذه، والحصا التي التقطتها من الأماكن المقدسة، وجلبت الجميع معي إلى الوطن، أي إلى أولم.

ولايظن أحد أنه عمل بلا فائدة، أو تصرف طفولي صدر عني، باحضار حصا إلى بلادنا معي من الأماكن المقدسة، لأنني قرأت بأن رجالاً مقدسين من العصور القديمة فعلوا مثل هذا، ففي سفر الملوك الثاني:٥/ ١٧، قرأنا بأن نعمان السوري، سأل النبي اليشع أن يدعه ينقل من الأرض المقدسة، بقدر مايستطيع بغلان حمله، وأن يجلب ذلك إلى أرضه، حتى يتمكن من أن يبني هناك مذبحاً من الحجارة، عليه يقوم بالتضحية لرب السماء، وإذا كان— بناء عليه— عدّ هذه البلاد ثمينة جداً بسبب الهيكل الذي بني هناك، وبسبب الأنبياء الذين سكنوا، وبسبب المعجزات التي عملت هناك، كم أكثر ينبغي أن تكون ثمينة بالنسبة لنا، وذلك بسبب هذه الأشياء التي قيلت من قبل، وأيضاً بسبب طبعات أقدام المسيح، الثمينة جداً، وكذلك طبعات أقدام مريم العذراء المباركة، وكذلك بسبب مايتعلق بالرسل وبالشهداء، وبسبب دم المسيح

الذي لايقـدر بثمن، الذي هدر هناك فيهـا، وبسبب صليبه وضريحه، ولأنه قدسها بروعة قيامته المجيدة، وبنار روح قدسه.

وبناء عليـه لايجوز مطلقـاً، ولابشكل من الأشكال تستحق قطع وشظايا من الحجـارة جلبت من تلك الأرض الرائعـة، أن يستخف بها، أو أن ترمى، بل تستحق أن تجمع بتقـوى عظيمة، وأن توضع بين الآثار المقدسة الرئيسية للكنائس، وليست فقط التربة نفسها، والحصا أو شظايا الحجـارة، بل أيضاً الحبـوب، والمسابح، والخواتم، والتماثيل في المسـابح، التي لمست الأمـاكن المقـدسـة، هي مقدسـة من النوع نفسـه، وصـارت لذلك أكثـر تبجيـلا ومكانة، وذلـك حسبما بينت من قبل في ص١٩٨، ولايقتصر فعل هذا علينا نحن المسيحيين الغـربيين بل، يقوم المسيحيـون الشرقيون من أقصى بقاع الشرق، بجمع هذه الحصا في الأرض المقدسة ويحملونها معهم وكـأنهم ذاهبـون إلى أبواب الجنـة، على أنها من أعظم الآثار المقدسة مكانة .

ولقـد سمعت وقرأت مـاهو أعجب من هذا، من ذلك أن مسيحيين شرقيين يقـومـون بالحج إلى رومـا، لقطع شظـايا من كنيستي القـديس بطرس والقـديس بولص، ويحملونهم معهم— ليكونوا آثاراً مقدسـة— حتى المحيط الشرقي، ويقـوم بعضهم بعبـور الألب، ويبحـرون بالراين حتى كولون لكـي يتمكنوا من رؤية كنيسة وأضرحة الملـوك الثلاثة، من أهل بلادهم، ويتـدبرون إعطائهم شظايا من هذه الكنيسة والأضرحـة، أو يحصلون عليهم بأنفسهم، إن استطاعـوا، وهذه الشظايا، يضعونها في ذهب أو فضـة، بين الأحجار الثمينة، وذلـك بعد عـودتهم إلى بلادهـم، ويلبسـونها خواتم أو معلقـات، على أصـابعهم، أو حـول رقابهم، وأمـا بالنسبـة للخواتم أو المجـوهرات التي لمست الأضرحـة، فإنهم يحتفظون بهم مع عناية كبيرة، بمثابة آثار مقـدسة ثمينة، ويقدمون احترامـاً عجيباً إلى الحجـاج الذين تجولوا وطافـوا من الشرق إلى كـولون، وذلك لدى

عودتهم، وينظرون إليهم على أنهم أعظم الفرسان شجاعة.

ولايمكن أن يكون هنـاك شك في أن الشرقيين لو استطاعـــوا تحمل برد بلادنا، مثلما يمكننـا تحمل حـرّ الشرق، فإن كـولوننـا لن تكون قط خــاليـة مـن حجـاج شرقيين، لأننـا نرى حجم الحشــود التي يأتي بها الهنغـاريون إلى كولون، عنـدما يجري عـرض الآثار المقـدسة في كـولون وآخن، عـلاوة على ذلك لقد حـدث في بعض الأحيان أن فيـه حجاجـاً من بلدان الملوك الثلاثة كـانوا يقدمون حاشـدين إلى القدس في الوقت الذي يزورها حجـاجنا من الغـرب، وعندها كـانوا يسألون من خـلال المترجم عما إذا كـان يوجـد أي رجل من بلاد كـولون، وإذا مـاوجـدوا واحدا،كانوا يشترون منه جميع الأشياء التي يمكنهم الحصول عليها منه، وبشكل خـاص الأشيــاء التي صنعت في مـدينة كــولون، وذلك مثل: حــافظات النقـود، والأشرطة والأربطـة والقبعـات، والأحــذية، وأية مـلابس حتى القمصـان، وكـانوا يدفعـون لهذه الأشياء ثمناً مضـاعفـاً، ويحملونهم معهم إلى الشرق بمثابة آثار مقدسة.

وإذا مـااختار أي انسـان بيعهم أية جـواهر أو خواتم لمست أجسـاد الملوك الثلاثة المقـدسين، كان سيتلقى ضعف أسعـارهم، وإذا كان لدى أي انســان شظايا من الكنيســة أو مـن أضرحـة الملوك الثـلاثة، واختـار بيعهم، فإنه كـان سيتلقى مقايضــة لهم مايتلقـاه مقابل أحجـار كريمـة، وذهب، وفضــة، عـلاوة على ذلك، كـانوا يسألون بالحاح حجـاجنا من خـلال المترجم، عـن أوضـاع بلاد كـولون، وحجـم المدينة، والكنيســة الكاتدرائيــة، وأضرحــة الملوك الثـلاثة، ويكتبــون بتقــوى ويدونون ماسمعوه جواباً، كلمة كلمة، في كتب مذكراتهم، وذلك مثلما نفعل نحن في كتـابة أحوال الأرض المقـدسة، وأوضـاع القدس، وكنيســة الضريح المقدس.

وغالبا مايشكل عـدد كبير من الشرقيين جماعات وفرق للقيام بالحج

إلى الغرب، إنما ماأن يصلوا إلى بلادنا حتى يغمى عليهم ويموتون، لكن إذا مانجح بعضهم بالحج إلى الغرب وعادوا ثانية إلى بلادهم، فإنهم ينظرون إليهم نظرة احترام عالية، وإذا كان— على هذا— الشرقيون يقدمون مثل هذا الاحترام إلى بلاد الملوك الثلاثة، حيث أوابدهم موجودة، فأي عجب إذا أظهرنا نحن الغربيون الاحترام إلى أرض ضريح الرب ملك جميع الملوك؟

وهكذا أمضيت هذا اليوم مع كثير من التعرق والتعب، ألتقط الحجارة الصغيرة من الأماكن المقدسة، واشتريت في ذلك اليوم نفسه ثلاث قطع أقمشة ثمينة لغرفة المقدسات، من أجل تغطية كأس القربان، أثناء حملها من قبل الشماس الأدنى، وعندما يحمل القاعدة عالياً، وكانت القطعة الأولى من هذه الأقمشة بيضاء، والثانية زرقاء، والثالثة صفراء، وقد حملت هذه الأقمشة إلى جميع الأماكن المقدسة، وغالباً مانشرتهم فوق ضريح الرب، وفوق صخرة الصليب، وفوق ضريح العذراء المباركة، وفوق مزود الرب، وفي الأماكن الأخرى، من أجل أنهم بلمس هذه الأماكن المقدسة، يمكن أنفسهم أن يصبحوا مقدسين، وبالتالي أعلى ثمناً.

الحج العام والأخير حول الأماكن المقدسة

في الصباح الباكر من اليوم الثالث والعشرين، وقبل اشراق الشمس، التقى جميع الحجاج، بناء على اتفاق، في ساحة كنيسة الضريح المقدس للقيام بحج واحد وأخير حول جميع الأماكن المقدسة في القدس وأحوازها، وبناء عليه، زرنا بعد بذل جهد كبير، المدينة المقدسة، والأماكن المقدسة في وادي شعفاط، وعلى جبل الزيتون، وكان ذلك قبل الغداء، وقمنا بعد الغداء بالطواف حول الأماكن المقدسة في وادي سلوان، وجبل جيحون، وجبل صهيون، في الأعلى وفي الأسفل، وعندما كانت الدنيا مظلمة، أخذنا إلى كنيسة الضريح المقدس، حيث

عملنا المسيرة المعتادة إلى الأماكن المقدسة، وسهرنا تلك الليلة إلى جانب آبدة الرب.

الدخول السادس والأخير والسهر في الضريح المقدس في Anastasis أي كنيسة قيامه الرب

في مساء اليوم الرابع والعشرين، سمح لنا مجدداً بالدخول إلى كنيسة قيامة الرب، وجاء ذلك بناء على طلب من الحجاج، وزرنا خلال تلك الليلة الأماكن المقدسة، بخشوع أكبر، ومرات أكثر مما عملناه قط من قبل، لاقتراب موعد مغادرتنا، وفراقنا لهم، وعند اقتراب حلول الفجر، كان اليوم هو الأحد الثالث عشر بعد التثليث، وعيد القديس بارثلميوالرسول، وقد غنينا قداساً في ضريح الرب، وقد عينت لغناء القداس، ولذلك وقفت مرتديا ثيابي المقدسة في الكهف الداخلي للضريح المقدس، إلى جانب القبر الأعظم قداسة، الذي عمل وجهز ليكون بمثابة مذبح، وقد غنيت بصوت مرتفع وبهيج، في حين وقف أعضاء الدير والحجاج في الخارج ورددوا معي، وكان بهيجاً وممتعاً جداً أنني غنيت هذا القداس، وبدا لي أن صوتي كان أوضح وأعلى مما كانه قط من قبل، وقد تجليت كثيراً، وأقول جاداً ،إنه بالنسبة لهذا القداس، وبقدر ماأعتقد، إنه منذ سنوات طوال، وربما لم يحدث، أي أنه لم يتمكن قط واحد من الرهبان المبشرين من غناء قداس في ضريح الرب، باستثنائي أنا وحدي، ولقد ابتهجت في هذا اليوم لحصولي على مثل هذه النعمة العظيمة التي حفظت بشكل خاص لي، وإنني أصلي أن تجعلني مقبولاً لديه، وهو الذي قام من الموت في هذا المكان.

ولدى الفراغ من القداس، سعينا إلى هنا وإلى هناك وطفنا حول الأماكن المقدسة في هيكل الرب، وقلنا لهم وداعاً مع الدموع، لأنه كان من الصعب بالنسبة لنا مغادرة هذه الأماكن الحلوة والمحبوبة جداً لدينا،

بسبب المسرات الكثيرة التي تلقيناها في هذه الأماكن المقدسة، من خلال تقبيلها، ولدى فراغنا من تقبيل الأماكن المقدسة، أخذنا ننتظر قدوم السادة المغاربة، ومن ثم اخراجنا من الكنيسة، مثلما فعلوا دوماً من قبل، لكنهم تأخروا لبعض الوقت، وقد تعجبنا تجاه ذلك، وتساءلنا لماذا لم يتم اخراجنا، وخشينا أن يكونوا قد قصدوا الاحتفاظ بنا سجناء هناك، وأنهم قد تدبروا تهمة ملفقه ماضدنا، وقدم في الوقت نفسه عبيد الرئيس كالينوس ووصلوا إلى باب الكنيسة، وأخبرونا من خلال فتحة الباب هناك بأن المعلم كالينوس، أي ترجماننا كان جاهزا، وأنه كان منتظراً مع الحمير والجمال لإخراجنا بسبب سجننا الطويل الأمد، وفي حوالي منتصف النهار، جاء السادة المغاربة الذين احتفظوا بمفاتيح ضريح الرب، وتركونا نخرج، وذهبنا مباشرة إلى أماكننا، وتغدينا بسرعة، واستعدينا للمغادرة، وفق الطريقة المشروحة بعد تاريخ الهيكلين وتاريخ مدينة القدس.

هنا نهاية الحج كله إلى القدس.

مع أنه مما تقدم وقيل، من الممكن جمع رواية متفرقة عن مدينة القدس، مع ذلك سوف أقوم في هذا المكان بشكل خاص بوصفها، ووصف أوضاعها الحالية، دون أن اتحدث عما كانته في الأيام الخالية، بل سأتحدث عن وضعها الحالي، وكثير من الأوصاف لهذه المدينة يمكن الوقوف عليها،وهي تتحدث عن أوضاعها القديمة، من ذلك مصنف يوسفيوس «حرب اليهود »—الكتاب السادس، الفصل الثامن، يضاف إلى ذلك لدى مصنف Speculum Historiale— الكتاب: ٢٦، الفصل:١٠٣، وأيضاً لدى المعلم أنطونيوس، في تواريخه— القسم الثاني— المجلد:١٦، الفصلان:١٣و٦، وكذلك في ذيل التواريخ— الكتاب الثامن، ص١٥، ولدى الراهب بوركارد، الذي كان من طائفة القديس دومينيك، في كتابه الصغير الذي وصف فيه الأرض المقدسة،

وقدم به رواية صحيحة.

وقام بعض من كل من القدماء ومن المعاصرين برسمها على الورق، وهكذا صار من الممكن رؤية مظهر هذه المدينة المرغوبة كتابة ورسماً، وبناء عليه، سوف أبذل أنا شخصياً جهدي لتقديم رواية عنها، فإذا نسيتك ياقدس، لتنس يدي اليمنى براعتها، وليلتصق لساني في سقف حلقي، إذا لم أتذكرك، ومن أجل أن أكون قادراً على فعل هذا بوضوح أكثر أضفت إلى روايتي عن المدينة المقدسة، رواية عن هيكل الرب، الذي يدعونه باسم هيكل سليمان ، وكذلك عن هيكل كنيسة الضريح المقدس، الذي يسمونه القيامة، لأنه من دون وصف هذين الهيكلين، من غير الممكن عرض أوضاع المدينة المقدسة، مشاهداً أن جميع أبنيتها القائمة، وجميع أبنيتها المهدمة، وكل قداستها وكل شرورها، تعتمد عليهما، علاوة على ذلك يحتل هذان الهيكلان مع ساحتيهما شطراً كبيراً من المدينة، ولذلك لابد من أن يكون لهما نصيبهما في أعمال الوصف.

وصف مدينة القدس المقدسة في وضعها المعاصر، وهذا هو الفصل السادس والأخير من الشطر الأول

من كتاب الجولات والرحلات

[٢٥٥] بدأ وجود مدينة القدس الحاضرة الأعظم جلالاً وقدما في سنة ٢٢٤٢، من خلق العالم، أي٢,٩٥٧ سنة قبل تجسيد الكلمة، وقد بنيت إثر طوفان نوح مباشرة، من قبل ابنه الكبير سام، وعاش سام هذا تبعاً لروايات الحكماء حتى أيام ابراهيم، وكان هو مليكصادق ملك سالم، وذلك حسبما جاء الخبر في رسالة جيروم إلى ايفاجيروس Eva-grius، وكذلك حسب رواية مصنف الـ Speculum Historiale، ورواية يوسفيوس في الكتاب الأول ص١٧٨.

فبعد الطوفان، جاء بتوجيه من الرب إلى هذا المكان، وبنى الهيكل هناك، الذي أطلق عليه اسم «سالم» ومعنى هذه التسمية وترجمتها «عدل» أو« سلام» أو «استنفاد الكمال»، أو« ذاك الذي يبعد الموت»، لأن ملكيصادق كان أول كاهن، وكاهن أعلى للرب العلي الأعلى، وكان يقدم الخبز والخمرة في الهيكل الذي بناه على جبل أكرا(الجمجمة)، ومنه رأى إبراهيم، البطريرك العظيم القداسة، أنه جدير أن يتلقى مباركة منه، حسبما قرأنا في سفر التكوين:١٤، وكنت قد تحدثت عن هذا الكاهن من قبل في ص٥١٥، ولتعرف كم كان عظيماً، اقرأ الرسالة إلى العبرانيين:٧.

وقام هذا الرجل بتكريس وتقديس هذا للرب، ولذلك كانت هذه المدينة مقدسة منذ أيامه حتى هذا اليوم، ولم يسمح الرب قط للمذنبين بالإقامة فيها طويلاً بسلام، كما هو واضح للانسان الذي يقرأ التاريخ التوراتي كله، والتواريخ، والأخبار.

غير أن العقل يحاجج أنه حتى في أيام أبونا الأول آدم، كان هناك

نوعاً من أنواع الخلوات فوق موضع الجمجمة على جبل المدينة المقدسة، بسبب أن آدم قد كشف له عن مخلص الجنس البشري، وطريقة الخلاص ووقته، وإليه كُشف أيضاً عن مكان الخلاص، وبما أنه— وقتذاك— لم يكن بإمكانه رؤية المخلص في أيام حياته، كما لم يكن باستطاعته البقاء حياً حتى أيام المسيح، قام بتشريف مكان الخلاص بشكل رائع، وغالباً مازاره وصلى فيه، هو وأولاده، وأخيراً عندما رأى أن موعد موته بات وشيكاً، انتقل من الخليل، حيث كان يسكن، وصعد إلى موضع الجمجمة، وسدد دين الموت، لأنه عرف بأن المسيح، الذي هو آدم الثاني، سوف يذهب في هذا المكان بالموت الذي جلبه إلى العالم، وحمل أولاده جسده إلى حبرون، إلى الكهف المزدوج، وذلك باستثناء رأسه، الذي بقي في موضع الجمجمة، ولذلك عامل أولاده ذلك المكان باحترام.

ويمكننا أن نعتقد أيضاً أن سام بن نوح، امتلك هيكلاً هنا بعد الطوفان، ومع ذلك كان هنا خلوة أو مصلى قبل الطوفان، وهنا أيضاً قدم ابراهيم كبشاً ضحية عوضاً عن ابنه، وقد حدثتنا عن هذا ، الأخبار العبرية، وكذلك أمبروز وخريسوستوم، وجيروم، والاخباريون ومع ان التعليقات على متى:٢٧، قد قالت بأن الذين يؤكدون بأن آدم قد دفن في الجمجمة لم يقولوا الصدق، إن هذا لايتعارض مع ماقلناه، لأننا نقرّ بأن جسده قد دفن في الخليل، حسبما جاء الخبر في يشوع:١٤، لكن رأسه بقي على جبل الجمجمة، فقد قرر الرب هذا، وعندما كان آدم يموت، رجا أولاده أن يفعلوا ذلك، وأستخلص من هذا كله أنه حتى الطوفان قد كان هناك على الأقل خلوة أو مصلى، وهيكل فوق موقع مدينة القدس، من دون وجود سكان بشريين، ولم ينظر إلى موضع الجمجمة على أنه مقدس بشكل خاص حتى أيام الرومان، الذين لكراهيتهم لليهود جعلوا منه موضعاً لتعذيب المجرمين ولإعدامهم، إنما

بصلب المسيح ردت جميع القداسة إلى المكان، ولسوف يبقى هكذا إلى الأبد، ومن أجل هذا المكان نفسه انظر ص٤٨٨ , ٥٤٠.

★★ ★★ ★★

وتبعاً لاختلاف الأشخاص والأزمان، تلقت هذه المدينة أسماء مختلفة، فقد دعيت باسم «سالم» في سفر التكوين:١٤/ ١٨، ودعيت أحيانا من قبل الشعراء باسم«سوليما»، وجاء اسمها« يبوس» في يشوع:١٥/ ٨، وأورشليم، في سفر القضاة:١٩/ ١٠، وباسم «هيروسوليما»في متى:٢، وفي لوقا، وباسم« بيدر أرنان» في سفر أخبار الأيام الأول:٢١/ ١٨، وكذلك ورد اسمها لدى جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»، وباسم« أريئيل» في سفر إشعيا:٢٩،و« ابنة صهيون»، في سفر زكريا:١١/ ٩، و« المدينة الدموية» في سفر حزقيال:٢٢/ ٢، و« المطلوبة المدينة غير المهجورة» في اشعيا:٦٢/ ١٢، و« مدينة قوية» في سفر إشعيا:٢٦/ ١، و« مدينة الرب» في المزمور:٧٦،و« كرسي الرب» في إرميا:٣/ ١٧، و« السيدة في البلدان» في مراثي ارميا:١/ ١، و« العظيمة بين الأمم» في مراثي ارميا:١/ ١، و«وادي الرؤيا» في اشعيا:٢٢/ ١، وحول هذا النص انظر شروح دي ليرا، و« سدوم» في رؤيا يوحنا:٢، و« البرج» في متى:٢١/ ٣٣، و« إيلياء» نسبة إلى الامبراطور إيليوس هدريانوس، علاوة على ذلك غالباً مادعاها جيروم— ومن الممكن للانسان أن يقول دوماً— باسم هاليا Halia، وفي هذه الأيام يدعوها الاغريق باسم هاليا، وكابيتوليا، وذلك مثلما فعل بطليموس، ومثل هذا دعيت من قبل يوسبيوس باسم« الجريزا» Algariza أي« الجبل العالي جداً» ويطلق عليها المسلمون اسم الأقصى، لكن اللاتين يسمونها إما أورشليم أو يروسوليما -Jerusolyma أو المدينة المقدسة، أو يطلقون على المدينة كلها اسم جزء منها، وبذلك يسمونها « الضريح المقدس».

وكـانت هذه المدينة دومـا أدنـى من أكبر المدن، وأكبر من أصغـرها، وهي في هذه الأيام بمثل هذا الحجم حيث لم تتـوسع إلى الحجم الكبير، ولم تتقلص فتصبح صغيرة، ذلك أنها ليسـت أصغـــر من مـــــدينتنا أوغــزبورغ Augsburg في ســوابيــا، وكنت قـد تحدثـــت عن هذا الموضـوع من قبل، وطول أسـوارهـا التي تحيط بها الآن هي نفسهـا كما تركهـا الامبراطور ايليوس هدريانوس، وهذا مـاسوف نبرهن عليـه فيما بعد، علما بأننا كنا قد تحدثنا عن حجمها من قبل.

وكـان هناك في العصـور القـديمـة أبواباً كثيرة تقـود إلى هذه المدينة، والذي يمكننا استخلاصـه من الكتابات المقدسة أنه قـد كان هناك ثمانية أبواب رئيسيـة، وإذا قرأنا أنه هناك أكثـر من ذلك، فمرد ذلك إمـا لأن البـاب الواحـد له أكثـر من اسم، أو لوجـود أبواب فـرعيـة صغيرة إلى جانب الأبواب الرئيسية، التي إليهـا انتمت أسماء هذه الأبواب الفرعية، ولم أستطع في العصر الحديث الوقوف على أكثر من خمسة أبواب، فباتجاه الشرق هناك البـــاب الذهبي، وهو مغلق الآن، وكنا قـــد تحدثنا عنه من قبل، ويوجـد بين الشرق والجنوب باب الدمن(القاذورات)، وهو أيضـاً تقـدم وصفه من قبـل، ويوجد في الجهـة الجنوبيـة باب النبع، الذي من خـلاله يذهب الانسـان إلى نبع سلوان، ويوجـد في الجهة الغـربيـة باب نتجـار، أو باب السمك، وكنا أيضـاً قـد تحدثنا عنه من قبل، وهناك في الشمال باب إفـرايم، الذي يسمى أيضـاً باب القـديس اسطفـان، وهناك مســافـة كبيرة بين باب السمك، وباب القــديس اسطفـــان، لأن باب السمك قـائم قرب الزاوية حيث يتصل الســور الجنوبي بالسور الغـربي، وليس هناك على طول الســور الغربي بـاب آخر حتى يصل الانســان إلى باب القديس اسطفان القائم في السور الشمالي، قرب الزاوية التي يتصل بها بالســور الشرقي، وكـان القـديس يوحنا قـد رأى في سفـر الرؤيا— الاصحـاح:٢١، اثنـي عشر بابا في القــدس السماويـة وهو رقم لم تمتلكه

هذه المدينة قط.

وكـان فيها مضـى على طول إطار الأسـوار والشرافـات، أبراج، من الممكن لنا تعقب خرائبها، وكان المسلمـون قد رموا هذه الأبراج أرضاً، وبنوا أبراجاً أخرى داخل المدينة، على مقـربة من المساجد، لاستخدامهم في شعـائـرهم، ذلك أنهم لايهتمـون كثيراً، ولايتعبـون أنفسهم بشأن تحصين المدن، لكنهم يراقبون بدقـة الدخول إلى البـلاد، وكان فيها مضى قيـاس السـور والشرافـات ثـلاثة وثلاثين غلوة، وذلك يشمل كـامل الاستـدارة، فهـذا ماحـدثنا به يوسفيـوس في الكتـاب الخامس، الفصل الثامن، وكانت الأسوار في الماضي القديم قوية، ومزدوجة، كما سلف لنا وبينا ذلك، وللمـدينة خنادق مـن جـانبي الغـرب والشمال، وهناك من الجهة الشرقية وادي شعفاط، ومن جهة الجنوب وادي صهيون.

وفي الداخل، هذه المدينة تلية، وغير مستـوية، لأنها بنيت فوق أماكن عالية، وجبل صهيون هو الأعلى من البقية، ويقوم على السفوح الشمالية لجبل صهيون جزء كبير من المدينة، ويقوم على كتف جبل صهيون جبل الجمجمـة، وهو الذي يدعم كنيسـة الضريح المقدس مع جـزء كبير من المدينة، وهناك أيضـاً جبل مـوريا، الـذي فـوقـه يقف هيكل الرب، مع الجزء الأساسي من المدينة، وعلى هذا يصعد الانسان وينزل في كل مكان خـلال المدينة، وهذه الجبال لاتمتـد إلى قمم عـالية، بل هي نفسهـا قمم عريضة وواسعـة للرابية الرئيسية التي تقوم عليهـا المدينة، وهذا ماجعل المدينة غير مستوية، وهذه الرابيـة كلها قد ورد ذكرها في المزمـور الثامن والعشرين قـولـه:« وأدخلهم في تخوم قـدسـه هذا الجبل الذي اقتنتـه يمينه»، ومثلما مـدينة بازل تليـة، كـذلك هذه المدينـة، ففي بازل تماثل هضبـة القـديس ليـونارد، جبل صهيون في القـدس، وهضبـة القـديس بطرس تماثل جبل الجمجمة، وهضبة القديس مارتن جبل موريا، وهناك على كل حال فوارق كبيرة بالشكل والتركيب بين هضبة وأخرى.

وكما قلنا من قبل، ان شطراً كبيرا من المدينـة مشغـول من قبل هذين المعبدين المشهورين اللذان غالبـا مايرد ذكرهما، وهما هيكل الرب، الذي يسمـونه هيكل سليمان، وهيكل الضريح المقـدس، وذلك مع سـاحتيهما الواسعتين، والأبنيـة المتصلة بهما، وبالاضافـة إلى هذين، هناك مـوزع في المدينة كثير من البيع للهراقطة، وعدد كبير من مساجد المسلمين، وكنس اليهود، ومعـابد السامـرة، والشوارع الـرئيسية مغطاة بسقـوف معقودة، ويقف تحت هذه السقـوف المعقـودة حـوانيت التجـار من على الجانبين، ومطابخ الطباخين، ويقطن في الشوارع الأخرى الأناس العاملين.

وكقاعـدة بيوت المدينة مبنيـة بجدران حجريـة، مع أن أكواخ الناس الفقـراء معمـولة من الطين، ولقـد رأيت هناك في المدينة بعض البيـوت الكبيرة الجيـدة، لكن الجزء الأكبر من المدينة مشعـث، والبيـوت قـائمـة مخربة مـن دون أي سكان، ولهذا السبـب لاتحمل جثـث الجمال الميتـــة والخيـول، والحمير، والكلاب ومـاشـابه ذلك إلى خـارج الأسـوار، بل تلقى في الأمـاكن المهملة في داخل الأسوار، بين البيـوت المهدمـة، ومع ذلك يوجــد في الأمـاكن والأجــزاء المسكونة أعــداد كبيرة من الناس اجتمعت من كل أمـة تحت قبة السماء، كما جـاء في أعمال الرسل:٢/ ٥، وفي الحقيقة هناك أكثر من خمسمائـة يهودي، وأكثر من ألف مسيحي من كل طائفة وبلد، إنما أقلهم جميعا هم من أتباع الطقوس اللاتينية.

وليس فيهـا ماء، إلاّ مـايسقط من السماء، أو مـايجلبونه إليهـا بشكل فني، خلال مجاري مائية، كما سلف لي وتحدثت، ويوجد في المدينة أماكن كثيرة لخزن الماء، في برك، وخــزانات وصهــاريج، وأعــداد كبيرة، من الصهـاريج والأقنية، ولذلك هناك في المدينة مـايكفيها من ميـاه، وملك مصر، الذي هو السلطان، هو السيـد هناك، وقد عين ولاة لحكم شعب البلاد، وتراجمة لحكـم الغرباء والحجاج من كـل من المسيحيين واليهود، وعين مماليك لحكم رجال الحرب، وهكذا نجده يحكم الناس بقوة مدنية

هي سلطة مطلقة.

والذي يقرأ الكتابات المقدسة، وكتب التاريخ يعرف أن هذه المدينة قد تعرضت منذ بدايتها حتى الآن لكثير من المصائب، وغالباً ماأحرقت، واستولت أمة عليها وطردت منها أمة أخرى، وكثيراً ماتعرضت للدمار، وشملها الدمار حتى أساساتها، فقد تعرضت للتشعيث من قبل نبوخذ نصر، ملك البابليين، وبعد ذلك من قبل أسوبيوس Asobeus ملك المصريين، ثم من قبل أنطيخوس، وبعده من قبل بومبي، وبعد هؤلاء استولى على البلدة هيرود الكبير، وسوسيوس Sosius، إنما من دون أن يؤذياها.

وبعد ذلك، أي بعد آلام الرب، دمرها تيتوس دماراً تاماً، وسواها بالأرض، وحطم أساساتها، ومع ذلك ترك بعض الأبراج القوية قائمة وكذلك السور الغربي، حتى ترى الأجيال التالية، كم كانت المدينة حصينة، ومع ذلك استولى عليها الرومان الشجعان، وقد ترك هذه الأماكن الحصينة لتستخدم كقلعة للذين قرر تركهم هناك، كحامية للبلاد.

وبهذا التهديم كان شقاء المدينة مع أبنائها هائلاً إلى درجة أن مامن انسان يقرأ الرواية التي قدمها يوسفيوس، دون أن يبكي ويحزن، وكان سبب هذه الفاجعة العظيمة هو وحشية المراقب العام فلورس Florus، الذي أنزلِ باليهود في القدس مصائب وعذبهم بلا حدود، حتى وصل بهم الغضب إلى التجمع للعصيان ضد الرومان، وخرجوا بثورة وقتلوا كثيراً من الرومان، وطردوا كستيوس Cestius، حاكم سورية، خارج البلاد، وكان اليهود أنفسهم في داخل المدينة عدة أحزاب، فقد كانوا منقسمين إلى ثلاث فئات، وقبل أن يقدم الرومان قتل أحدهم الآخر في المدينة بشكل وحشي، وافتعلوا الحرائق، وتصارع أحدهم مع الآخر نهاراً وليلاً، صراعاً لايمكن ايقافه، وكان السبب الحاسم لهذه

المشـاكل كلهـا هو اعـدام يوحنا المعمـدان، وصلب المسيح الناصري، ومقتل جيمس الرسـول، وهذه أمـور عـرضهـا مطولاً وبشكل مـؤلم في كتابه حول« حرب اليهود».

وبعـد تهديم المدينـة الذي وقع في السنةالثـانيـة والأربعين بعـد آلام الرب، أصبح المكان وكراً للصـوص وللقتلة لسنين طويلة، وذلك حتى أيام الامبراطور اليـوس هدريانوس، الـذي سمع عن الفـوضى في ذلك المكان، فقـدم إليه في سنة ١٢٤م فهـدم الجزء الذي أعيـدت عمارته من المدينة، وطرد وقتل مقترفي الآثام، ثم كـان أن استقـر رأيه على وجـوب قيـام مدينـة هناك، فعاد مجددا سنة ١٣٩م، وأعـاد بناء المدينة ووسعهـا، وجعل في داخل الأسوار أماكن آلام الرب وقيـامته، الأمر الذي سوف نتولى شرحـه فيما بعد بوضوح أكبر، وعمل مدينة جـديدة، سماها ايلياء، اشتقاقاً من اسمه.

وبعد اعـادة البناء هذه، لم نقرأ بأنها دمـرت دماراً كليـا، بل تعرضت لدمـار جزئي، واقتيـد سكانها إلى السبي، كما أنها لم تنقل قط من مكانها، فهذا واضح مما أعلنه غريغوري في عظتـه حول نص« بكى يسوع عندما رأى المدينة»، لكن المدينة توسعـت، كما سنتحـدث عن ذلك الآن، وكما سلف وتحدثنا عن ذلك من قبل.

والآن مع أن هذه المدينة قـد تأثـرت بكثير من الفـواجع التي لامثيل لها، لم يجر نسيان بدايتها ولا أوضاعها، مطلقاً بل هي باقية بشكل دائم، بمثـابة شاهـد أبدي بين أمم الأرض، وهي بذلك تختلف اختـلافاً كليـاً عن أحوال أعظم المدن شهرة في العالم، من أمثال: روما وطروادة، ذلك أنه مـامن انسان يمكنه أن يعـرف بشكل مـؤكد من الذي كـان المؤسس لرومـا، بسبب عـدم الوفـاق بين الذين عـالجوا موضـوع أصلهـا، وكما حدثنا كاتب«عجائب الدنيـا» فقد قال سالوست Sallustبأنها قد بنيت من قبل تروجـان Trojans وقـال يوسبيـوس بـأنها قــد بنيت من قبل

رومولوس، وقال كتّاب آخرون بأنها قد بنيت من قبل آخرين ، في حين يمكننا البرهنة على مؤسس القدس المقدسة وتاريخ تأسيسها من الكتابات المقدسة، كما تقدم القول، ومع الاقرار بأن رومولوس قاتل أبيه قد أسس روما بالسلب والنهب، كما تحدث أوسيوس عنه، فقد جاء تأسيسها بعد زمن طويل من تأسيس القدس، في أيام حزقيا، ملك اليهودية، أي بعد ألفين ومائتين وثلاثين سنة من تأسيس مدينةالقدس، وسبعمائة واحدى خمسين سنة قبل ميلاد المسيح، وذلك في سنة ٤٤٨٤ من خلق الدنيا، وإنه لأمر مثير للدهشة أن يكون أصل مدينة بمثل هذه الشهرة غير واضح، وألمح جيروم في رسالته إلى بولينوس إلى هذا بقوله:« جلب هذا العصر أمراً عجيباً، و لم يسمع انسان فيما مضى من أيام، أن يبحث أناس قد دخلوا إلى مثل هذه المدينة العظيمة عن شيء ماهو ليس موجود فيها»، وكانت طروادة، تبعا لهومر(الالياذة: ٤/ ٤٤) أعظم المدن تحت الشمس، وتحت قبة السماء المليئة بالنجوم، ومع ذلك دمرت بشكل جعلت أوفيد Ovid يقول:« حقول قمح تتماوج الآن حيث قامت طروادة فيما مضى»، وأكثر من هذا هو أن مامن انسان يمكنه أن يقول أين قامت طروادة، فطروادة العظيمة التي كانت حاضرة آسيا كلها، قد تهدمت كليا، وأصبحت نسياً منسياً حتى أنه من غير الممكن رؤية جسدها أو أثرها، فضلاً عن هذا، فإنهم يقولون بأن المكان الموجود إلى جانب البوسفور، حيث من المفترض لدى بعضهم أن طروادة قد قامت فيه، هو من جميع الجوانب ضيق جداً لاستيعاب مدينة مشهورة، لكن هذا ليس هو الحال بالنسبة لقدسنا، التي تأسست قبل طروادة بأربعمائة وثلاث وثمانين سنة، وهي مدينة مشهورة حتى هذه الأيام، وكانت طروادة قد تأسست في أيام أجوث Ajoth(إهود Ehud؟) القاضي في بني اسرائيل(الملوك:٣)، ويقول بعضهم بأنها قد بنيت إلى جانب البوسفور، ويقول بعضهم في الدردنيل من قبل واحد اسمه تروس Tros وقد دمرت في سنة مائتين وخمس عشرة سنة بعد

تأسيسها، وذلك في الأيام التي كان فيها عبدون قاضي اسرائيل، وبشأن هذا القاضي، انظر سفر القضاة:١٢، وأيضاً من أجل الاطلاع على بيان عن طروادة انظر القسم الثاني ص١٧٤.

ووضح لدينا الآن مما قيل بأن القدس هي واحدة من أعظم المدن قدماً في العالم، ذلك أنها أقدم من تريفس Trevesبألف سنة وثماني سنوات، ومن طروادة بألف سنة وأربعمائة وثلاث وثمانين سنة، وهي قائمة مستمرة حتى هذا اليوم، لأن الرب قد اختارها، ولهذا قيل في المزمور:« لأن الرب قد اختار صهيون اشتهاها مسكنا له، هذه هي راحتي إلى الأبد ههنا أسكن لأني اشتهيتها»(المزامير:١٣٢/ ١٣—١٤)، وكذلك في سفر أخبار الأيام الثاني:٦/ ٥قوله:« منذ يوم أخرجت شعبي من أرض مصر لم أختر مدينة من جميع أسباط اسرائيل لبناء بيت ليكون اسمي هناك ولااخترت رجلاً ليس رئيسا لشعبي اسرائيل. بل اخترت أورشليم ليكون اسمي فيها».

ولكن قد يقول انسان ما:« إنني أقر بأن القدس قد جرى اختيارها، وكانت مدينة مقدسة قبل موت الرب، لكن بعد اقتراف مثل هذه الجريمة العظمى فيها، لم تعد تستحق تسميتها مقدسة، بل بالحري مدنسة، وغير نظيفة»، وقد أجاب على هذا جيروم في رسالته إلى هاديبيوس Haedibius حول موضوع صراخ الرب على الصليب، حيث قال:« ينبغي أن لايظنن انسان أنه أمر غريب بعد موت المخلص، دعوة القدس باسم المدينةالمقدسة، لأنه حتى وقت خرابها، اعتاد الرسل دوما على دخول الهيكل وإقامة القداسات الشرعية من أجل اليهود المؤمنين، فقد أحب القدس كثيراً، وبكى عليها وناح، وعندما كان معلقاً على الصليب قال:اغفر لي ياأبي»، هذا وعلاوة على ذلك تناول جيروم هذه المسألة في رسالته إلى باولا، ويوستوخيوم في رسالته إلى مرسيلا، ولقد بحث جيروم في هذه المسألة مطولاً، وقال الشيء الكثير في إطراء

الأرض المقدسة ومدينة القدس.

★★ ★★ ★★

هيكل الرب الذي يدعى باسم هيكل سليمان، والأقصى وبيت إيل

صارت مدينة القدس مدينة مجيدة ومقدسة بهيكليها، حيث إليهما، تدين إلى حد بعيد، بحجمها، لأنه لو جرى نقل الهيكلين والبيع المتصلة بها والمساجد، لكان المتبقي منها قرية بائسة، ومن الممكن مشاهدة هذا الشيء في مدننا أيضاً، فلو أنه جرى نقل الكنائس، والديرة، والبيع، مع جميع الأبنية المتعلقة بها، من كولون، لبقي منها بلدة صغيرة فقط، ومثل هذا يتعلق بالبندقية، فلو جرى نقل الديرة، والكنائس، لكان المتبقي ليس أكثر من بلدة.

وبما أنني سأحدثكم الآن عن هيكل القدس، لابد من أن أحدثكم أولاً عن الهيكل الأقدم، فنحن نعرف من الكتابات المقدسة، أنه عندما وعد الرب باعطاء أرض كنعان إلى آبائنا، ألمح إليهم أنه هناك في تلك البلاد مكان هو سوف يختاره ليكون هيكلا، وليكون من أجل الأضاحي، وهو سوف يبنيه لهم في الوقت الذي سوف يختاره، وعلى هذا نقرأ في(سفر التثنية:١٢)قوله:« عندما ستصلون إلى الأرض التي أعطاك الرب إله آبائك لتمتلكها كل الأيام التي تحيون على الأرض. تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء، وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم، وتحرقون سواريهم بالنار وتقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم من ذلك المكان، لاتفعلوا هكذا للرب إلهكم. بل المكان الذي يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سكناه تطلبون وإلى هناك تأتون، وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم

وعشوركم، ورفائع أيديكم ونذوركم ونوافلكم وأبكار بقركم وغنمكم، وتأكلون هناك أمام الرب إلهكم» ولم يعلن الرب عن مكان هذا الموضع حتى أيام الملك داوود، الذي أراه الملاك أرض بيدر أرونا اليبوسي على جبل موريا وكان أرونا هذا من الأمم، وكان يبوسيا، كما أنه كان غنيا امتلك شطراً كبيراً من المدينة، وهكذا اشترى داوود منه أرض البيدر، التي أريت له، وهناك أقام مذبحا، بناء على أمر من أحد الملائكة، وكلف ابنه سليمان ببناء هيكل في ذلك المكان نفسه، ومن أجل هذا الموضوع، انظر سفر صموئيل الثاني:٢٤، وسفر أخبار الأيام الأول:٢١، وبشكل خاص سفر أخبار الأيام الثاني:٣.

★★ ★★ ★★

وبناء عليه بدأ سليمان في السنة الرابعة من ملكه ببناء ذلك الهيكل، الذي كان مشهوراً في جميع أنحاء الدنيا، وانتهى في السنة الثامنة، كما جاء في أخبار الأيام الثاني:٢، فقد بني هذا الهيكل في سنة ٤١٦٩ بعد خلق الدنيا، و١٠٣٣ قبل ميلاد المسيح، و١٤٨٠ سنة بعد مجيء بني اسرائيل من مصر، وكان طول الهيكل ستين ذراعاً هندسيا، وعرضه عشرين، وارتفاعه ستمائة وعشرين، وأمر بتذهيب داخله كله بصفائح الذهب، وبتبليطه برخام ثمين، فضلاً عن هذا، كان هناك مذبحاً نحاسيا طوله عشرين ذراعاً، وانظر حول وصف جميل لهذا الهيكل لدى كوسا، حول ★ ★ ★(١) الكتاب التاسع— الاصحاح الرابع.

١— كذا بالأصل، وقيمة المعلومات المقدمة أنها تعبر عن العقلية الأوربية الدينية التي آمنت آنذاك بالاسطورة، ذلك أن الحفريات الأثرية والدراسات الموثقة نفت بناء— أووجود— هيكل أول أو غير ذلك من الهياكل، وأن تكون القدس قد عرفت ملكاً اسمه سليمان، وعلينا أن نميز بين النبي سليمان الذي لانعرف متى ولا أين عاش، وبين الملك الوهمي المخترع الذي اسمه سليمان ووردت أخباره في أسفار العهد القديم.

وصنعت الأواني التي احتيجت من أجل الطقوس في الهيكل، كلها من أفضل أنواع الذهب، علاوة على ذلك، جلب سليمان ووضع في الهيكل كثيراً من الذهب والفضة، كان داوود قد كرسها له، وبعد الانتهاء من كل شيء كما ينبغي كرس الهيكل إلى الرب بطقوس فخمة، وجلب إليه تابوه عهد الرب، الذي كان فيه لوحي العهد فقط، ووعاء المن، وعصا هرون، ولم يسمح منذ ذلك الحين بتقديم قرابين في أي مكان إلاّ في هذا الهيكل، ومع ذلك بقي الناس بعد ذلك لوقت طويل معتادين على تقديم قرابينهم فوق الأماكن العالية، وهو ذنب غالبا ماأقدم ملوك القدس على لومهم عليه، أي أنه طالما الهيكل موجود هم لم يقلعوا عن استخدام الأماكن العالية.

وحدث أنه بعد مرور أربعمائة واثنتين وأربعين سنة على بناء الهيكل، رأى النبي إرميا أن النهاية قد اقتربت، وباتت وشيكة، فأخرج من الهيكل تابوه العهد، وحمله عبر الأردن إلى الوادي الموجود تحت جبل عبريم، الذي عرف باسم عربات مآب، كما سلف وذكرنا ذلك، وبدعائه هناك تسبب باخفائه في الصخر، حيث كتب باصبعه على الصخر، وطبع هناك اسم الرب بأربعة حروف، وعمل ختماً مثل الختم الذي يطبع بالحديد، واسم الرب هذا مخفي بشكل محكم بغيمة، بحيث لايستطيع انسان من الخارج العثور على المكان، كما لن يتمكن أي انسان من قراءة ذلك الاسم حتى هذا اليوم، ولن يتمكن أحد من فعل ذلك حتى نهاية الحياة، ولن يستطيع أي انسان اخراج التابوه من هناك، باستثناء موسى فقط وهرون، وورد خبر هذا في سفر المكابيين الثاني:٢، وفي الـ Speculum Historiale، قبل نهاية حكاية توبت، وبعد أخذ التابوه الذي كان مجد الهيكل، وابعاده، جاء نبوخذ نصر واستولى على القدس، وأحرقها مع صدقيا الملك، وأحرق أيضاً هيكل ربنا، حسبما قرأنا في سفر الملوك الثاني:٤، واقتاد السكان أسرى وأخذهم إلى بابل،

وبقي بعـد ذلك مـوضـع المدينة والهيكل مهجـوراً لمدة سبعين سنة، أي حتى أيام داريـوس، ملك الفـرس، الذي سمح لليهـود بـإعـادة بناء هيكلهم، وهو عمل انتهى في أيام حكم قـورش، أي بعد ست وأربعين سنة، كما قـرأنا في يـوحنا:٢/ ٢٠، لكن هذا الهيكل لم يكـن مثل الهيكل الأول في العظمـة والفخـامـة، ولذلك بكى اليهـود الذين رأو الهيكل الأول، حسبما قرأنا في عزرا:٣/ ١٢، والآن، إن هذه القواعد قد أرسيت في أيام الأميرين: زربابل وشـالتئيل، خمسمائـة سنة وخمس وعشرين سنة قبل ميلاد المسيح.

وتعرض الهيكل— على كل حال— مراراً للنهب وانتهاك الحرمة من قبل الأمم، وتعرض شطر من أخشـابه للحريق، ومع ذلك بقي متماسكاً حتى هذا العصر الذهبي لربنا يسوع المسيح الذي وعظ فيه بشكل رائع، وعمل فيه معجـزات، حسبما حدثنا التاريـخ المقدس للانجيل، وواضح من انجيل مـرقص:١٣/ ١—٢، الخ، بـأن هذا الهيكل كـان بناء فخماً منتصباً فوق صخور ضخمة، وقد بقي قائماً لمدة اثنتين وأربعين سنة بعد آلام المسيح.

وحسبت السنوات، منذ السنة الثانية لحكم قورش— ملك فارس— حينما أرسيت أسـاسات الهيكل حتى تخريبـه من قبل تيتوس بخمسمائـة وتسعين سنة، وحسبت السنـوات منذ تأسيس الهيكـل أيام سليمان حتى تهديمه من قبل تيتوس بألف ومائة سنة وسنتين.

وبالنسبة لتفاصيل حساب هذه السنوات، كان هناك أولا: من آدم إلى الطوفـان ألفي سنة ومئتين واثنتين وأربعين سنـة، ومن الطوفـان إلى ابراهيم كـان تسعمائـة سنة واثنتين وأربعين سنـة، وكـان من ابراهيم إلى موسى، الذي أخرج بني اسرائيل مـن مصر، خمسمائة سنة، ومن موسى، والبناء الأول للهيكل خمسمائـة سنة واثنتي عشرة سنة، ومن داريوس إلى أيام وعظ المسيـح في الهيكل في السنة الخامسـة عشرة من حكم القيصر

تابيروس، خمسمائة سنة وثمان وأربعين، ومجمـوع هذه السنوات حتى تاريخ وعظ المسيح خمسة آلاف سنة ومائتين وثماني عشرة سنة.

وقـال اسـدوروس Isidorus : عندما انتهت المملكة والكهانة اليهودية، ولد المسيح في بيت لحم، في السنة الثانية والأربعين من حكم القيصر أغسطس، الذي على هذا كـان قـد بقي من حكمه خمس عشرة سنة إذا كـان قد حكم سبعاً وخمسين سنة، وحكم من بعده تابيروس لمدة اثنتين وعشرين سنة، وفي سنة حكمه الخامسة عشرة جرى تعميد المسيح حيث كان في الثلاثين من عمره، وجرى صلب المسيح في السنة التاسعة عشرة من حكم تابيروس، وقال أمبروزيسوس Am-brosius :«كان من خلق العالم إلى تأسيس القدس أربعة آلاف سنة وأربعمائة وثماني وأربعين سنة، ومن تأسيس رومـا إلى ميـلاد المسيح سبعمائة وخمس عشرة سنة».

وعندما حاصر تيتوس القدس، أحرق أولاً الهيكل، وبعد ذلك المدينة كلها، وهدم جدران الهيكل حتى أساساتهم، وأمر بقطع الجبل الذي وقف عليه، وأمر بالركام فرمي في وادي قدرون، وطم الخنادق التي كانت هناك، وسواها مع الأرض، وذلك حسبما قرأنا في «حرب اليهود»— الكتاب السابع، الفصل:١٦، وفي أماكن أخرى كثيرة منه.

وقال يوسفيوس بأنه بعملية الدمار الكلي هذه للمدينة هلك مائة ألف وعشرة آلاف يهودي بالجوع وبالسيف، وأن مائة ألف أخرى من الأسرى قد بيعت بشكل علني واسترقت لأن المدينة كانت مليئة باليهود الذين تجمعوا هناك للاحتفال بعيد الفصح، وما من مسيحي كان حاضراً أثناء هذه الفواجع، كما قرأنا في مصنف يوسيبيوس القيساري«التاريخ اللاهوتي»— الكتاب الثالث، الفصل الرابع حتى نهايته، وكانت الكنيسة التي اجتمعت مع بعضها في القدس قد تخبأت بفعل صوت الرب الذي طلب منها مغادرة تلك المدينة، والانتقال إلى

بلدة اسمها فحل، التي تقدم ذكرها معنا، والواقعة خلف الأردن، وكانت الغاية من ذلك، أن يكون الرجال المستقيمين والمقدسين الذين انتقلوا من القدس إلى هناك، قادرين على مشاهدة الانتقام الرباني كاملاً، وهو الذي أنزل على كل من الذين دنسوا حرمة المدينة وعلى غير الأتقياء من الناس، وذلك بطردهم من بلادهم وبتدميرها.

وعندما غادر الرومان مدينة القدس، بعدما سووها مع الأرض، عاد اليهود الذين كانوا متخفين في المخابىء إليها، وبنوا أكواخاً، وأقاموا مصلى منخفض في المكان الذي قام عليه الهيكل فيما مضى، وعادت الكنيسة إلى هناك أيضاً من فحل، لتقوم بعبادة الرب هناك، لكن اليهود الذين روحهم لم تكن حتى ذلك الحين تحطمت بما فيه الكفاية، أثاروا الاضطرابات، وآذوا بشكل يومي الأناس المؤمنين وأفراد الأمم، الذين كانوا يسكنون هناك، لأنهم كانوا متوحشين إلى أقصى الدرجات، وقتلة، سفكوا دماء جديدة فوق القدس، التي كانت الآن مسواة بالأرض، وملطخة بالدماء.

وبقي المكان بهذه الحالة البائسة لحوالي ست وسبعين سنة، أي إلى أن صار ايليوس هادريانوس امبراطوراً في سنة ١١٩، لتجسيد ربنا، حيث سمع بأن القدس التي كانت ميتة أخذت تتحرك ثانية، فعبر البحار بسرعة، وقدم إلى هناك، فوجد هناك كثيراً من الناس من كل من المسيحيين واليهود، كانوا على خلاف بين أحدهم والآخر، بسبب الخلاف بين دياناتيهم،وكان هناك بالوقت نفسه أناس من الأمم ووثنيين يكرهون الديانتين معاً وبناء عليه وضع في المكان الذي بنى فيه اليهود مصلاهم، وذلك حيث أقام تابوه الرب فيما مضى تمثالاً لشخصه، حتى يجعل المكان ممقوتاً من قبل اليهود، ونصب في الوقت نفسه في موضع صخرة الجمجمة، حيث وقعت حادثة الصليب، تمثالاً لفينوس، وفي كهف ضريح الرب تمثال جوبيتر، حتى يجعل هذين المكانين مكروهين

من قبل المسيحيين.

أما بالنسبة للقتلة واللصوص الذين وجدهم، فقد عرضهم جميعاً على السيف، وطردهم وباع كثيراً منهم رقيقاً، واقتحم الحصون والأسوار التي تركت واقفة منذ أيام تهديم المدينة، وهدم كل شيء، ثم غادر، مخلفاً وراءه هناك والياً للمقاطعة، وعندما أدار هؤلاء القوم ظهورهم يتجولون في المنطقة، حتى يتمكنوا من العودة إلى القدس مع جيشهم، وقتها جمع اليهود أنفسهم واحتشدوا في المكان الذي قامت فيه القدس، وتشاوروا فيما بينهم، فدمروا عمود القيصر الذي حمل تمثاله، وهدموا الهيكل، وعندما علم الامبراطور بهذا كان مغضباً، فوضع جانباً جميع أعماله الأخرى، وعاد إلى القدس مسرعاً، فقتل اليهود الذين وجدهم هناك، وباع كثيراً منهم عبيداً، وطردهم جميعاً إلى خارج حدود الأرض المقدسة، ومنع بموجب قرار حظر دخول أي يهودي إلى تلك البلاد، وعندما رأى أن المكان مناسباً لإقامة مدينة، صار أكثر لطفاً في عواطفه، وعطوفاً نحو المسيحيين، لكنه ظل أكثر قسوة وحدة ضد اليهود، وقام بتنظيف الموقع، وأمر بالأسوار المخربة في الجهة الغربية فرميت بالخندق، وسوى الأرض، وأدخل موضع الصلب وصخرة الضريح المقدس داخل الأسوار التي بناها حول المدينة، وأمر بإعادة بناء هيكل فينوس وجوبيتر هناك، وأقام فوق باب السمك، أو باب التجار خنزيراً منحوتاً من الرخام، من أجل ازعاج اليهود، حتى لايحاول أحد منهم الدخول من هناك.

وبقيت المدينة على هذا الوضع لحوالي مائة وثمانين سنة، وبما أن موضع هيكل الرب تحول إلى موضع مكروه وغريب، بالنسبة للذين لايعبدون الأوثان، بسبب وجود تمثال قيصر، وكذلك كان الوضع بالنسبة لمكان صلب الرب، وقيامته، وقد نسيت هذه الأماكن إلى أبعد الحدود، إنما في سنة ٣٨(كذا) عندما عمل قسطنطين الكبير نفسه

امبراطوراً، وأصبح مسيحيا، وجدت أمه هيلانه الصليب، وهدمت الأصنام، وبنت هيكلاً فوق الأماكن المقدسة.

وتحسنت الآن أوضاع المسيحيين، في حين ازدادت أوضاع اليهود سوءاً كل يوم، وبناء عليه عبد المسيحيون الرب في القدس بسلام كبير لمدة ستين سنة، ففي سنة ٣٦٣، اضطربت أوضاع المؤمنين، حيث كان يوليان قد وصل إلى العرش، فقد كان مرتداً عن الايمان الصحيح، وعن الإيمان بالديانة، وعندماسمع أنه يوجد في القدس كنيسة فخمة وتجمع كبير للمسيحيين، ذهب إلى هناك، وانتهز فرصة مناسبة لاظهار كراهيته للمسيحيين، فقد ألقى القبض على القديس سيراك Cyriack، أسقف مدينة القدس المقدسة، وهو الذي كان قد عثر على الصليب المقدس، وقام بصلبه لأنه عمل موعظة حول مجد الصليب، وعندما سمع اليهود بهذا، قدموا محتشدين فرحين مسرورين، فحصلوا على حظوة القيصر، بوساطة كثير من الهدايا، وجعلوا المسيحيين موضع كراهية أكبر في بلاطه، وبعدما فكر كيف يمكنه ايذاء المسيحيين، قرر الرفع من شأن اليهود، فاستدعى إلى حضرته القياديين والأعيان بين اليهود، وسألهم لماذا لايقدمون قرابين لربهم، لمعرفته أن شريعتهم تأمرهم أن يفعلوا ذلك، فخيل إليهم أنهم قد وجدوا الوقت المناسب فأجابوه قائلين:«نحن لانستطيع تقديم أضحية وفقاً لشريعتنا إلاّ في هيكل القدس، وليس هنا وهناك، ولذلك نرجو منكم ومن مراحمكم منحنا إذنا ببناء هيكل في المكان الصحيح، وهناك سوف نقدم أضحية من أجل سلامتك وسلامة الامبراطورية».

وعندما حصل اليهود على الاذن ببناء الهيكل، هاجوا إلى حد الجنون، ونشروا في كل مكان بأن جوليان— ذلك المرتد الشرير— كان النبي الذي وعدوا به في شريعتهم، ولذلك تقاطر اليهود من جميع الأماكن والبلدان، وشرعوا بالعمل فوق المكان الذي أحرق عليه الهيكل،

ومنحهم الامبراطور موظفاً من بلاطه ليتولى مـراقبة انجـاز البناء، وقد منح مـالاً خـاصـاً وعامـاً من أجل البناء، وجـرت متـابعـة العمل بكل نشاط، وبدأ اليهـود في الوقت نفسه بإهانة قـومنا وكأن أيام مملكتهم قد عـادت مجدداً، وقد هددوا المسيحيين بقسـوة، وتعاملوا بوحشيـة معهم، وكانوا جميعاً قد امتلأوا بالعجرفة والتكبر.

وكانت الكنيسة تدار في ذلك الوقت من قبل الأسقف سيرل، وكان رجلاً مقدسـاً، وحدث أنهم عندما كشفوا عـن الأساسات، أن أحضروا إلى هناك، حجـارة كبيرة، وكلساً، ومـلاطاً، وخشبـاً، وباتوا لايحتاجـون شيئاً لكي يقـوموا في اليـوم التـالي برمي الأساسـات القـديمة، وارسـاء أسـاسات جـديدة، غير أن الأسقف سيرل، قـد أعلن، بعد تقـدير دقيق للأمور، من خـلال ماقـرأه في نبوءات دانيال، حـول هذه الأيام، أو من خلال ماتنبـأ الرب به في الانجيل، أعلن بكل تأكيد، أنه من غير الممكن أن يتمكن اليهـود من إرسـاء حجر فـوق أخـرى في ذلك المكان، وبات الجميع قلقـاً حول التـوقعات، وكان الضعفـاء من المسيحيين مـرعوبين، وكـان الأقـوياء منهم ليس لديهم من شك بأن اليهـود سـوف ينفـذون خططهم، وفجأة حـدثت معجـزة، ففـي الليلة التي بقيت على الشروع بالعمل، وقعـت زلزلة عظيمـة، ولم يقتصر أثرها على بعثـرة حجـارة الأسـاسـات بالقرب والبعـد، بل سويت جميع الأبنيـة التي كانت مقـامة هناك، مع الأرض، ولحق الخراب بـالبيـوت التي سكنهـا اليهـود مع العمال، وسحق الذين كانوا فيها وماتوا.

وعند حلول الفجر كـان من المعتقد أنهم نجـوا من هذه الكارثة لكن الذي حـدث كان غير ذلـك، لذلك جاء بقيـة الناس يركضـون للبحث عن الذين سحقـوا، وكانت البيـوت قـد غرقت في الأجـزاء السفلى من الهيكل، كما كانت هناك أروقـة معمدة، وكلها سقطت، وهناك كـانوا قد احتفظوا بالأدوات الحديدية، والأشياء الأخرى المحتاجة للعمل، كما أنه

فجأة انبعثت من هذا المكان كرة من النار، وشرعت تسعى نزولاً في الشارع، وهي تحرق وتقتل اليهود الذين التقت بهم، وكانت تتحرك نحو الأمام ونحو الخلف، وكررت فعل هذا، مرة ثم مرة أخرى في جميع أرجاء المدينة، خلال ذلك اليوم كله، وأوقفت بلهيبها الانتقامي المحاولات الطائشة التي قام بها العنيدون من الناس، ثم إنه بسبب الخوف الهائل ولإرتجاف جميع الذين كانوا حضوراً ،فقد أرغموا بوساطة رعبهم على الاعتراف بأن المسيح هو الرب الحقيقي الوحيد، ولكي لايظهروا أنهم غير صادقين، ظهر في الليلة التالية على ملابس جميع اليهود، وبوضوح تام، علامة الصليب، حتى أن غير المؤمنين حاولوا غسل هذه العلامة وإزالتها، لكنهم لم ينجحوا بأية طريقة من الطرق، وبهذا صار اليهود وغير اليهود خائفين، ولذلك غادروا المكان، وتخلوا عن العمل الذي شرعوا به، وذهبوا عائدين إلى أوطانهم وهم مربكين تماما، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً لم يتجرأ اليهود على محاولة إقامة أي بناء ،فوق موقع الهيكل، ولهذا بقي الموقع من دون هيكل لوقت طويل.

أما بالنسبة لمسألة متى بني هذا الهيكل ومن قبل من فإن كثيراً من الناس يتساءلون، والمقصود هو الهيكل المقام الآن فوق أرض بيدر أرونا المقدسة، وقال كاتب Speculum Historiale لدى حديثه عن إعادة بناء الهيكل بعد احتراقه:«مامن انسان يعرف من الذي بنى هيكل الرب، الذي اسمه الآن بيت إيل»، ويقول بعضهم بأنه بني من قبل هيلانه، بعد العثور على الصليب، بنته مع كنيسة الضريح المقدس، ويقول بعضهم الآخر بأنه بني من قبل هرقل عندما أعاد الصليب وهو منتصر من بلاد فارس، ويقول آخرون بأنه بني من قبل جستنيان، ويقول بعضهم بأنه بني من قبل ملك مصر تشريفاً للأقصى Halachibis، أي الرب العلي الأعلى(كذا) وهذا هو الصحيح، ودليلي على ذلك أنني

وجـدت في «تاريخ أنطونيـوس»(الفلورنسي ١٣٨٩—١٤٥٩) القسم الثـاني— العنوان:١٣، الفصل ٤، الفقـرة:٤، أنه في سنة ٦١٩ لتجسيـد الرب، وبعد مائتين وثلاث وأربعين سنة بعـد يوليان، جلب الامبراطور هرقل حكمـه إلى نهاية سيئة، وذلك بعـدمـا حكم الامبراطورية وأدارها بشكل مـزدهر لسنوات طـوال، فقـد انغمس بهرطقـة الإرادة الواحـدة، وبعـد وفاة زوجتـه دنس نفسه بالزواج من ذوي القـربى، ولذلك دخل عمـر خليفـة محمـد ﷺ إلى سـورية وفلسطين مع قـوات لاتحصى من العرب، وانتـزع كل شيء من أيدي المسيحيين، وفي سنين الفوضى هذه، استولى المسلمـون على مدينة القدس المقـدسة، وجعل السكان المسيحيين فيهـا رعية له، وفي أثناء إقـامة عمـر في القدس صـار صفرونيـوس على معرفة به، وتطورت العلاقـات إلى حد أن عمر دخل إلى كنيسة الضريح المقدس معه لرؤية زينتها، وعندما كان عمر يتحدث مع الأسقف، سأله عمر عن المكان الذي قام فيه فيما مضى الهيكل، الذي دمّر مع المدينة من قبل تيتوس أمير الـرومان، واقتاده الأسقف إلى أرض بيـدر أرونا، الذي كان مغطى وقتهـا ببيوت عـادية، وحدد له مكان هيكل الرب بـوساطة بعض آثار البناء القديم التي كانت باقية.

وأعطى عمـر أوامر بوجـوب تنظيف مـوضع أرض البيدر، ورصـد مبلغـاً مـن المال لنفقـات ذلك، ووضع عمالاً لإعــادة بناء الهيكل، لكن عندمـا أرسيت الأساسـات غطست على الفـور واختفت عن النظر، ولم يكن بالإمكان رفع الجدران، وعندمـا كان عمـر يتعجب من هذا ويفكر به، أخبره أحد المتنبئين، أنه مادام أحـد الصلبان قد بقي مرفوعـاً وعاليا فـوق جبل الزيتون في مـواجهـة الهيكل، فإن البناء لن يتماسك، لكن إذا ماأزيح ذلك الصليب وأزيل، يمكن للهيكل أن يقـوم، وكان المسيحيون قد نصبوا صليباً عالياً على جبل الزيتـون فوق في مواجهة المدينة، وغالباً ماكـانوا يصلون تحته، وكـانت صلواتهم بقوة فضائـل الصليب فعالة إلى

حـد أن المسلمين لم يكونوا قـادرين على بنـاء الهيكل بقـوة غـدرهم، إلاّ عندما أزيل الصليب وتوقفت الصلوات.

ولو كان المسيحيـون شجعاناً بما فيه الكفـاية لحفظ ذلك الصليب، لما استطاع المسلمون قط بناء الهيكل، لأنني أعتقـد أن الصليب قد أقيم من قبل القـديسين كعلامـة على حماية مدينـة القدس، وخشيـة إقامـة هيكل لعبادة غـريبة فيها، ويمكنني أن أعلن بجـرأة، لوأن هذا الهيكل لم يعمر، لما فقد المسيحيون قط القدس وكنيستهم، والمسلمـون مغرمون جداً بهذا الهيكل الذي هو ملكهم، ولذلـك طالما هو قـائم لن يتملك المسيحيـون أي سلام في القـدس، ولذلك يبدو أن من الأفضل تـدميره، وإزالته من أسـاسـاته. بدلاً من تكريســه لاسم المسيح، كما حــدث مـراراً، وورد وصف الصليب المتقدم الذكر....والرواية عن الهيكل تتبع.

وهكذا أنهى عمر بناء هذا الهيكل في مدة ليست طويلة، وأضفى عليه ممتلكات كثيرة، ومـازال واقفاً منذ أكثـر من ثمانمائـة سنة، ولم يخرب من قبل أحـد، وكـان أولاً مصلى للمسلمين، وفيما بعـد عنـدمـا استـولى الصليبيـون على البلاد، كـرسوا الهيكل للمسيح، وكـان الأفضل هو أن يقوموا بطحنه إلى مسحوق ناعم وإزالتـه كليا، مشاهدين أنه المعبد الذي سبب فقـدان مدينة القـدس وخسـارتها، ومجدداً عندما استرد المسلمـون المدينة، أعادوا الهيكل لاستخـدامات عبـاداتهم، وعلى هذا تنقلت ملكية الهيكل من وقت لآخـر من أيدي فئة إلى أيدي فئة أخـرى، وهو في هذه الأيام يحتل لدى المسلمين مكانـة عـاليـة من الاحترام، كما سـوف نرى، وعلى هذا بني هذا الهيكل من قبل المسلمين، ومع ذلك غالباً ماقرأت في كتب حجاج صغيرة بأنه قد بني من قبل هيلانة المباركة، إنما عندما أنظر عن قرب إلى الهيكل[٢٦٠] أرى ان هذا غير صحيح، لأنه قـد بني كليا وفق طرائق المسلمين، وليس له شكل كنيسـة مسيحية، لأن بابه الرئيسي يفتح من الشرق، وهو شيء لم أره قط في كنائس المسيح.

فيما يلي الوصف المعاصر لهيكل الرب

إن هيكل الرب الذي بني من قبل عمر ملك مصر، على أرض بيدر أرونا اليبوسي، وذلك حيث كان سليمان قد بنى بيت الرب، هو بناء ليس مساوياً لأشهر منشئات سليمان القديمة، ويطلق المسلمون عليه اسم الأقصى، في حين يسميه المسيحيون المتعلمون بيت ايل، بينما اسمه لدى المسيحيين غير المتعلمين هيكل سليمان، وهو بناء فخم، نفقات انشائه عالية، وكبير ومستدير، على شكل برج عظيم وواسع، ويوجد في داخل الجزء الدائري جدار آخر بني فوق الأرض، وهو جدار يحيط بالهيكل كله، ويوجد بينه وبين الهيكل ساحة واسعة، ويدعم هذا الجدار من الجانب الأول سقف مقنطر معقود، يغطي الدائرة كلها، ومن الجانب الآخر يستند السقف المقنطر على جدار الهيكل نفسه، أو بالحري على رواق من الأعمدة، الذي منه ينتصب الجزء الأعلى من الهيكل، لأن في داخله هناك دائرة من الأعمدة الرخامية، تمتد القناطر فوق رؤوسها حول الدائرة كلها، وقد بني فوق القناطر جدار مرتفع حول الدائرة كلها، ويوجد في داخل الجدار الخارجي الذي يحيط بالأعمدة، بمثل ارتفاع الأعمدة نفسها وانطلاقا منها— كما قلت— قناطر معقودة فوق الأعمدة، ويوجد حول اطار الجدار الخارجي نوافذ مستطيلة كبيرة مزججة، مثل النوافذ التي في الكنائس، والمسافة مابين نافذة وأخرى هي كبيرة بقدر النافذة نفسها.

والفراغ في الخارج مزين بأعمال الفسيفساء، بطريقة باهظة النفقات، ولهذا يشع حقل كل صورة من الصور بالذهب، في حين تتألف الصورة نفسها من رسوم أشجار النخيل، وأشجار الزيتون، أو صور الكروبيين، ذلك أنهم لايسمحون بصور أخرى أو منحوتات في مساجدهم، والجزء الأعلى من الهيكل، الصاعد من الأعمدة، الواقفة في الداخل، قد بني عالياً حتى انه مشرع في الهواء، وهو منبثق من الممشى المتقدم الذكر،

الذي هو عريض ومحيط، ويوجد في القسم الأعلى نوافذ متوالية كلها مستديرة، وكل واحدة منها تلامس الأخرى، لكن هذه النوافذ أقصر وأصغر من النوافذ الموجودة في الصف الأدنى، وله فوق أعلاه سقف(جملون) مقنطر معقود مغطى بالرصاص، وهو الذي كان مذهباً فيما مضى، وهو مايمكن مشاهدته بوضوح في الوقت الحالي.

ويقوم منتصباً فوق أعلى السقف هلال كبير بقرنين عاليين جداً، وذلك حسبما يضع المسلمون فوق جميع مساجدهم، ذلك أنهم يضعون على أعلى مكان في مساجدهم أهلة على ظهورها مثل قوارب، وأحد التفسيرات، هو أن المسلمين حاولوا أن يسيروا في طريق وسط، وأن لايظهروا مثل المسيحيين أو اليهود، ومع ذلك أن يكون لهم بعض الارتباط بهما ما، ولايضع اليهود شيئاً خاصاً فوق كنسهم، ولم نقرأ بأن هيكل سليمان قد كان له أي شيء في أعلاه، ولكن المسيحيين نصبوا من البداية صلباً مع ديكة منتصبة فوق كنائسهم، وقام المسلمون حتى يتميزوا عن كل من المسيحيين واليهود برمي الصلبان جانبا واحتفظوا بالديكة في أعلى أبنيتهم من دون صلبان، غير أنهم مع ذلك، مع الاحتفاظ بالديكة ظهروا أنهم يقلدون المسيحيين، ولذلك استبدلوا الديك بهلال مستند على ظهره، وهو تغيير سهل، لأن الديك برأسه وذيله المنتصب له شكل هلال مستند على ظهره، ولذلك حيثما وجدت ديكة فوق المساجد، يقولون بأنها أهلة.

وفعلوا مثل هذا في جميع شعائرهم، حيث عملوا بعض التغييرات، حتى لايكونوا مشابهين لنا، وهناك سبب آخر متعلق بمحمدﷺ....... على أساس أن القمر يؤثر بالناس أكثر من جميع النجوم الأخرى، وبما أن طبيعته رطبة، ولذلك فإن المد والجزر في البحر يتحركان وفقاً لتحركات القمر، هذا وهناك أسباب أخرى، من الممكن استخراجها من شرائع محمدﷺ، من ذلك على سبيل المثال، لقد أعطاهم الله القمر على

ظهره كعلامة، لأن شريعتهم فارغة في أجزائها العلوية، مثلما القمر وهو على ظهره، فارغ في الأجزاء العلوية وبدون فائدة، وهكذا دواليك، فهو يبتعد عن الشمس، ودائماً فارغ، ومظلم، وخاوي، وهو يبعد أشعة الشمس عنا، لأنه يقف بيننا وبين الشمس، وهو الأكثر تجوالاً بين الكواكب، ففي وئام أوضاع السماء هو مشهور بأنه الأعمق، وهو يتجول ويتخذ طريقاً غير مؤكداً بين النجوم الجوالة، وفلكه هو الأصغر بين الجميع، وهو يحب الحيوانات الليلية المفترسة، وجميع هذه النقاط تتوافق مع شريعة محمدﷺ التي لاعقل في أجزائها العلوية، بل تبقى مظلمة لأنها أبعدت عن ضوء المسيح، ومع ذلك لها ضوء على الجانب الآخر، ففي كثير من الجوانب هناك في شريعة القرآن كثيراً من جوانب الصدق الرائعة، وخاصة فيما يتعلق بمريم العذراء المباركة، فهم يدعون المسيح باسم« روح الله». الذي معناه« كلمة الله»، و« نفس الله» أو« روح الله»، وهي كلمات عندما تترجم بتقوى، نجدها مليئة بقداسة رهيبة.

★★ ★★ ★★

ويوجد فوق السقف المعقود(الجلمون) الذي يمتد حول الهيكل كله، وتحت الصف الأعلى من النوافذ، هناك ممشى حول الدائرة كلها، عليه يقف خدمهم العاملون في المسجد،. وهم الذين يتولون الدعوة إلى الصلاة طوال ساعات النهار والليل، ويعلقون مصابيح مضاءة في ساعات محددة، ولقد رأيت هذه الأشياء كلها بوضوح وتمييز من خارج الهيكل، عندما نظرت إليه من خلال مسجد السلطان الجديد.

وصحن الهيكل، وجميع المنطقة المفتوحة من حوله، مبلطة برخام أبيض مصقول، وهو نظيف إلى حد أنه عندما يقف إنسان فوق جبل الزيتون وينظر نحو الهيكل، يبدو له وكأنه قائم في بركة من الماء النقي جداً، وفي النهاية الجنوبية من الساحة، عند نهاية البلاط، هناك حديقة

بديعة من أشجار الزيتون، قد زرعت لتزويد مصابيح الهيكل بالزيت، حيث هناك أكثر من سبعمائة مصباح معلقة في الهيكل، ورأيت جميع هذه الأشياء بعيني من الخارج، لكنني لم أر شكله من الداخل، علماً بأنني كنت قادراً على أن أخمن مع شيء كبير من الصحة، من الشكل الخارجي للهيكل، ومن المساجد الأخرى التي دخلت إليها، فهو لايوجد في داخله قدس أقداس لحفظ آثارهم المقدسة، أو من الممكن أن يوضع فيها القربان أو الآثار المقدسة، لأنه ليس لديهم لاقربان ولاآثار مقدسة، هذا وكنت قد قرأت في أحد التواريخ أن قدمي وذراعي محمدﷺ محفوظين هناك ..... ولايوجد مذبح في هذا الهيكل المدنس، ولاتماثيل سواء مرسومة أو محفورة منحوتة، ولاكراسي خشب، ولامقاعد، أو مساند، بل الأرض كلها مغطاة برخام مصقول منوع، فهذا الذي يمكن رؤيته في كل مكان، والجدران مزينة من الداخل بأعمال الفسيفساء مثلما هم من الخارج، وعلى هذا ليس هناك شيئاً قائماً في مواجهة جدران هذا الهيكل في محيطه كله، ولايوجد شيء في داخله، سوى المصابيح المضاءة، المعلقة من القناطر في الأعلى، هذا ويقول بعضهم أنه يوجد في وسط الهيكل هناك صخرة منبعثة من الأرض، وهذه الصخرة مطوقة من جميع جوانبها بشباك حديدية، وأن مامن مسلم أو غير مسلم يتجرأ على الاقتراب منها، هذا ويقدم المسلمون من بلدان نائية للزيارة، وهم يرغبون بخشوع برؤية تلك الصخرة، وبسبب هذه الصخرة تراهم في كلامهم العام يطلقون على هذا الهيكل اسم« الصخرة المقدسة».

وهم يقولون بأن أشياء كثيرة عظيمة قد عملت فوق هذه الصخرة، ففي المقام الأول فوقها قدم ملكيصادق خبزاً وخمرة(التكوين:١٤)، وهناك نام البطريرك يعقوب، وهذه الصخرة تحت رأسه، ومن عليها رأى في منامه السلم الذي يصل رأسه إلى السماء، والملائكة يصعدون وينزلون عليه، وفي الصباح دهنها بالزيت(التكوين:٢٨)، علاوة على

ذلك، على هذه الصخرة رأى داوود الملاك واقفاً مع سيفه المشهور، كما قرأنا في أخبار الأيام الأول: ٢١، هذا وعندما كان الكهنة قد اعتادوا على وضع تقديات الحرق فوق تلك الصخرة، كانت النار المقدسة تنزل على الفور وتلتهم ماكان قد وضع هناك، ويقولون أيضاً أنه عندما رأى النبي إرميا بأن دمار المدينة والهيكل بات وشيكاً، أخفى تابوه الرب في هذه الصخرة، فهي قد انفتحت بشكل اعجازي، وأخذت التابوه، وبناء عليه هم يعتقدون بأن التابوه مخبأ داخل الصخرة، وعلى هذه الصخرة جرى تقديم المسيح في اليوم الأربعين، عندما أخذه سمعان بين ذراعيه(لوقا:٢)، وعندما كان يسوع في الثانية عشرة من عمره جلس على هذه الصخرة في وسط اللاهوتيين(لوقا:٢)، وعندما كان في الثلاثين من عمره غالباً ماتولى الوعظ وهو جالس فوق تلك الصخرة، فهذا مايقوله المسلمون حول تلك الصخرة، هذا وإن بعض الأشياء التي تقدم لي قولها من قبل لاتتوافق تماما مع أقوالهم هذه، من ذلك على سبيل المثال مايتعلق بملكيصادق، وحول يعقوب، وبشأن حادثة إرميا.

وقداسة هذا المكان— ولاأقول: هذا الهيكل— قد تبرهن عليها في كثير من نصوص الكتابات المقدسة، فهذا هو المكان الذي اختاره الرب وآثره على جميع الأماكن الأخرى، الأمر الذي كنا قد بيناه من قبل، وهنا ظهر مجد الرب في دخان كثيف، وملأت السحابة البيت إلى حد أن الكهنة لم يكونوا قادرين على الإقامة في الهيكل(الملوك الأول:٨/ ١٠—١١)، وعندما أراد عزيا أن يقدم بخوراً هناك، ولأنه لم يكن كاهناً أصيب بالجذام(أخبار الأيام الثاني:٢٦/ ١٩)، وعندما بُعث هيلودوروس لسلب الهيكل جرى ضربه بشكل فظيع(المكابيون الثاني:٣/ ٢٦)، وعندما مدّ نيكانور بطيش يده نحو الهيكل، فقد يديه ورأسه(المكابيون الأول:٧، المكابيون الثاني:١٤)، وعندما بادر الملك

أنطيخـــوس مسرعـــاً لنهـب هذا الهيكل مـــات ميتـــة شنيعـــة في الجبـال(المكابيـون الثـاني:٩)، والأمبراطور بومبي الذي كـان حتى ذلك الحين منتصراً، بعـد أن دنس هذا المكان، ووضع خيـوله فيـه، لم يمتلك حظاً جيـداً ثانية، وفي هذا المكان أطعمـت العذراء المبـاركة، وهنا ظهـر جبرائيل— ملاك الرب— إلى زكريا، وهنا أورقت عصا يوسف.

ومن الهيكل الذي بني فوق هذا المكان، قام الرب يسـوع عدة مرات بطـرد الـذين بـاعـــــوا والذيـن اشتروا، وهنـا كتـب على الأرض باصبعه(يوحنا:٨)، ووعظ في هذا المكان كثيراً وعمل معجزات عظيمة، وبعـد ماجـرى تدمير الهيكل، لم يكن اليهـود قـادرين على بناء أي شيء هناك وهذا مـاكنـا قـد تحدثنا عنه من قبـل، كما أن المسلمين لم يكونوا قـادرين على بناء مسجد على هذه البقعـة حتى دمـروا الصليب، كما قلنا من قبل، وعندمـا بني المسجـد أخيراً وضح أن الرب كـان غـاضبـاً أن تجري العبادات المحمـدية فوق هذا المكان العظيم القـداسة، ولهذا جلب شعب الغرب إلى هذا المكان، وكان غاضباً على المسلمين.

وكـرس المسيحيون مسجـد محمـدﷺ وحولوه إلى كنيسـة، وعن هذا الهيكل تحدث برنارد في قـداسـه إلى فـرسـان الـداوية(الفصل الخامس) قائـلاً:« يوجد هيكل في القدس، فيه يسكن الفـرسان مع بعضهـم، وهو ليس مساوياً للهيكل القديم ولابفخامة هيكل سليمان، ولكنه ليس أدنى أبهة، لأن جميع فخامة الهيكل الأول كانت تعتمدعلى الأشياء الفانية مثل الذهب والفضـة، والحجـارة المنحـوتة، ومختلف أنواع الأخشـاب، لكن جميع جمال ومجد هذا الهيكل، وجميع زينتـه مـوجودة في الحماسـة التقـوية والغيرة على الدين، والمحـادثات الخاشعـة بين الذين يسكنون فيـه، فقـد كـان الأول متميـزا لألوانه المتنوعـة، وأمـا الثـاني فـلأنه محترم لفضـائل متنوعـة ولأفعال مقـدسـة. وفي الحقيقة القـداسـة هي التي جعلت بيت الرب، الذي لايسر كثيراً بالرخـام المصقـول كما يسر بثقـافـة الأخـلاق

السامية، وبحب العقول النقية أكثر من الجدران المذهبة، ومظهر هذا الهيكل مشرق مسرور بالأسلحة، وليس بمجوهرات تيجان الذهب القديمة، والجدران مغطاة هناك بترسة معلقة عليها عوضا عن حاملات الشموع، والمباخر، والأباريق، والبيت كله مطوق بالأعنة والرماح، ذلك أن فرسان المسيح يتحرقون بالحماسة نفسها، تجاه بيت الرب، التي تحرق بها الرب عندما طرد مع الضرب الذين باعوا فيه واشتروا، وقد رأى أنه أمر غير تقي ولايمكن احتماله أن تتلوث الأماكن المقدسة من قبل الكفار، ومثله بالسوء تلويثه من قبل التجار.

وهم يسكنون في البيت المقدس مع خيولهم وأسلحتهم، من أجل أن يبعدوا عنه وعن الأماكن الأخرى المقدسة جميع الدنس وكل طغيان الكفار، ولكي يشغلوا أنفسهم في الليل والنهار في أعمال مفيدة، أثناء تنافس أحدهم مع الآخر، من أجل تشريف هيكل الرب مع أعمال تعبدية قلبية دائمة، ودوما يقدمون النذور والتعهدات هناك، وليس أجساد الحيوات كما كان في القديم، بل قرابين صحيحة، وسلام، ومحبة أخوية، وخضوع تقوي، وفقر تطوعي».

هذا مافعله الرجال في القدس في أيام القديس برنارد، وقد تحرك العالم أجمع نحو التقوى يحذون حذوهم، لكن عندما شاخ حماس فرسان هذا الهيكل، لم يمض وقت طويل قبل أن يتمكن الناس الحمقى، الذين كانوا قد طردوا، من العودة ثانية، فتمكنوا من طرد فاتري العزيمة والشهوانيين من أتباع الصليب، وهم مجللين بالعار، وللمرة الثانية خرقوا حرمة هيكل المسيح المقدس باتخاذهم مسجداً منه.

وهكذا،ياللأسف آل الهيكل إلى المسلمين الذين يعرفون قداسة المكان، والأعمال العظيمة التي عملت هناك، فهم يعاملون الهيكل باحترام عظيم، وبسرور عظيم يقومون بحفظه نظيفاً، ومنظماً بكل وسائل العناية، حيث يغسلونه يومياً من الداخل ومن الخارج، وهو كله

مصقـول بشكـل فخم، ولذلك إنـه لمدهش أن تنظر إليـه، ولايدخل المسلمـون إلى هذا الهيكل إلاّ بعـد أن يكـونوا قـد طهـروا أنفسهم، بالوضوء، ثم يقتربون منه بوقـار ولياقة، ليس بشكل حاشد، بل يمشي كل انسـان لوحـده، وكأنه سيـد عظيم، ولايتكلم أحـدهم مع الآخـر، ولايجلبـون الأطفـال أو الكلاب معهم، وبذلك لاينزعـج إنسـان أثناء صلاته.

وللنساء باب خاص بهن، منه يدخلـن إلى الهيكل وإلى الساحة هناك، ولهن جناحهن الخاص في الهيكل، فيه يصلين منعـزلات عن الرجـال، ومعهن النساء اللائي حسب عادة النساء يمكثـن في بيوتهن، ولايسمح لهن مطلقاً بالاقتراب من الهيكـل، ويخلع الرجال أحذيتهم قبـل الدخول إلى الساحة، ويركعون مراراً ويبدون الاحترام والتقوى قبل الساحة أمام الهيكل، وبذلك يدخلون إليه بوقار.

وعندما يكون الملك السلطان في القـدس، ويرغب بدخـول الهيكل، يقومون بغسل البلاط والجدران العائدة للهيكل بماء الورد قبل وصوله، لاظهار التشريف لعظمة الهيكل والملك.

ومكانه هـذا الهيكل عـاليـة جـداً بين المسلمين، وطالما هـو بأيديهم لايهتمون كثيراً فيما إذا امتلك المسيحيـون بقية المدينة، ولهذا عندمـا كان شعبنا يحاصر دميـاط في سنة ١٢١٩، لتجسيـد ربنا، ودميـاط مـدينة في مصر، وعندمـا رأى السلطان أن الموقـع سـوف يجري الاستيـلاء عليـه، أرسل سفارة مهيبة إلى معسكرنا، يلتمس السـلام، ويرجو رفع الحصار، وأخـذ القدس وتملكهـا كلهـا بشكل دائم، باستثـاء هيكل الرب، الذي قصد الاحتفاظ به لنفسه، وبالاضافة إلى هذا عرض بأن يتولى إعادة بناء أسوار القدس على نفقته الخاصـة، وهي الأسوار التي كان المعظم عيسى ملك دمشق قـد دمرها، وذلك بـاستثناء هيكل الرب في القدس، وكـان الفـرنسيون والألمان على استعـداد ورضـا بالقبول بهذا العـرض، لكن لم

يوافق عليـه بيـلاغـوس، الذي كـان الكـاردينال والنائب البـابوي، ولاالايطاليـون، ولاالمسيحيـون الشرقيـون، ولذلـك لم يستقبلوا رسل السلطان، والذي حدث أنهم وإن استولوا على دمياط بعد عدة أيام، لقد فقدوها مجدداً، وفقدوا جميع الأماكن في الشرق وفي الأرض المقدسة، إلى حـد أنهم لم يعودوا يمتلكون حجـراً واحداً في القـدس، ونزل هذا بهم، بالقضـاء العـادل للرب، كعقـوبة على شرور الايطاليين، وشرهم، لأن دمياط كـانت موائمـة لأعمالهم التجارية، ويفضلـونها على القدس وعلى الأرض المقـدسة، وخيل إليهم أنهم سـوف يستولون عليهم جميعـاً، وفي الحقيقة كان المسلمون راضين بالتخلي عن اليهودية كلها، وعن فلسطين، وعن الجليل، للمسيحيين، لو أنهم سمحـوا لهم بالاحتفـاظ بالهيكل في القـدس، لكن برفضهم الموافقـة على ذلك، خسرنا كل شيء، وهـم حتى هذا اليـوم يمتلكون الأرض المقدسـة، والمدينة المقدسـة، والهيكل، وهم لايسمحـون لأي انسان، ليس من أتبـاع شريعـة محمدﷺ بالدخـول إلى الهيكل، وكـل يهودي أو مسيحي يـدخل إلى هنـاك، ويكتشف، إمـا يرغمـونه على التخلي عن إيمانه، أو يقتلونـه مع التعـذيـب، ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا الحظر، غامر عدد من المسيحيين، وتمكنوا بمختلف السبل والطرق من الدخول إلى هناك، لأن أوفيد قال:

«لأننا نتشوق إلى المحظور علينا

نتوق إلى الذي ليس لدى الكثيرين»

ويتخيل المسيحيون، أن الهيكل لابد أن يكون شيئاً رائعاً أن تنظر إليه من الداخل، مشاهدين أنه معمول بشكل رفيع، وجميل جداً من الخارج، وإنه لأمـر مفـاجيء أنه لايمتلك زينة من الداخل، وليس فيـه مـذابح، ولاصور، ولاتماثيل، بل هو صـالة كبيرة مشرقة مبلطة ومكسـوة برخام من مختلف الألوان، ومضاءة في الليل بعدد كبير من المصابيح المعلقة من السقف المقنطر، لأنهم يقولون بأن هناك سبعمائـة مصباح مشتعلة بشكل

دائم فيه، ولايوجد في هذا الهيكل كله لاشيء سوى على الجانب الشمالي هناك مايشبه ضريح محمدﷺ، وهو ضريح مرتفع معمول من الرخام يمثل ضريح محمدﷺ في مكة (المدينة) الذي يحترمونه إلى أعلى الدرجات، حتى أنهم يتعبدون به مثلما يتعبدون في جميع الكنائس، وحول ضريح محمدﷺ هذا، انظر ص٤٠ من القسم الثاني، ولسوف تجد كثيراً حول مكة في ص٦٢.

وعلى هذا لايوجد في هذا الهيكل زينة فخمة، للنظر إليها ومشاهدتها، كما لايوجد فيه قداسات أو قرابين يقوم بتنظيمها الكهنة أو رجال الدين، وحول هذا الموضوع، إنظر القسم الثاني ص٩٤ وص١٠٠، ولايوجد لدى المسلمين خلاص ولاإعفاء من الذنوب، ولاطهارة أو تحقق بالنسبة للذنوب، ومثل هذا ليس في الهيكل قداسات، ولارسامة كهنة، ولازينة، ولاكهانة، ولاقداسات أو قرابين، ومع ذلك فإنه على الرغم من فراغ الهيكل فإن الحجاج المسيحيين— كما تقدم وأخبرتكم — يتحرقون رغبة لرؤية داخل هذا الهيكل، وبعضهم يخاطر أحيانا بمواجهة الموت ليقوم بذلك.

وهنا بات كما يبدو المكان المناسب لمعالجة السؤال الذي أثير من قبل أنطونيوس في الجزء الثالث من تاريخه— العنوان:٢٤، الفصل:٩، الفقرة:١٧:« هل يعدّ المسيحي مقترفاً للذنب بالدخول إلى مساجد المسلمين»؟ ويبدو أنه لايعدّ مذنباً،لأن معابدهم قد أمر بأن تكون مغلقة(في وجه المسيحيين) وممنوعة، يعاقب فاعل ذلك بفقدان حياته وممتلكاته(انظر كوسا:« حول الكفار والمسلمين ومعابدهم»— الكتاب الأول والثاني)، وبسبب أنه بالنسبة لمنع الدخول، هم تماماً مثل اليهود....، وعلى هذا أجاب بأنه يمكن للمسيحي أن يدخل معبداً أو مسجداً للمسلمين لأربعة أسباب، هي: إما لحمد الرب أو للتبشيربانجيل المسيح، ولرؤية الهيكل، ولتقديم بعض الاهانة للهيكل،

أو ليرى ويقــدّر كيف يمكـن صيـانة الهيكل، هـذا ولايجوز لمسيحي الدخول إلى كنيسـة مدنسة، أو مسجد ليصلي للرب، أو ليحمـده، خشية أن يظهـر أنه يشـارك في آثـام هؤلاء الناس، مشـاهدين أن المسلمين لم يقـوموا قط بمـدح الرب من دون تجديف خـؤون بحق المخلص، وثناء عظيم على النبي محمدﷺ، وعن مثل هذه الأماديح ينبغي على المسيحي، بكل وسيلة من الوسائل أن يقف نائيـاً، وعلى هذا، وخشية أن يظهر أنه من تلاميذ محمدﷺ عليـه أن يتجنب الأماكن التي خصصت لمدحه، مع أن هذه الأمـاكن أمـاكن مقـدسـة، كما لايمكنه هنـاك أن يمـدح الرب بالطريقة المناسبـة، لأن أعمال الناس تعتمد كثيراً على ظروف المكان التي فيها تنفذ، ومنع الرسول(كورنثا الأولى:٨/ ١٠) المؤمنين من الجلوس إلى مائـدة في مكان يقدم فيه لحم للأكل مما قـدم للأوثان، خشية من أنه إذا مـا رآه أخـوه، أن يضل، معتقـداً أنـه يعمل ذلك صـدوراً عن الاحترام للوثن، ومثل هـذا من المحظور على المسيحيين الجثـو للصـلاة في مكان تجري فيه عبادة الأوثان، وإذا فعل ذلك، يكون قد اقترف إثماً عظيماً، مع أنه لم يقصد عبادة الوثن.

وبناء عليه، عندما أقام الامبراطور ايليوس هدريانوس هيكل فينوس وتمثـال جـوبيتر، هجر المسيحيـون ذلك المكان الأعظم قـداسـة، بسبب ذلك الهيكل المدنس، وعـدّوا أي انسـان دخل إليه وثنيـا، حتى لو كـان ذلك مـن أجل عبـادة المكـان المقـدس، ومثـل هذا كنائـس الهراقطة والمنشقين، هي ممنوعـة على المسيحيين، الـذين لايجوز لهم الصـلاة بها، خشيـة اسهـامهم في الانشقاق، وأكثـر من هذا— بناء عليـه— هيـاكل الأوثان، وكنس اليهـود، ومسـاجـد المسلمين، ينبغي عـدم زيارتها بأي شكل من الأشكال، ولالسبب من الأسباب.

وعلى هذا سـوف يأثم الناس إثما عظيماً ضـد العقيـدة، إذا مـاقـامـوا بعبادة الرب الحقيقي في هيكل الأوثان، وسيكون أي انسان مثل هذا آثما

إثماً عظيماً — إن لم يكن أكثـر — إذا مـادخل إلى حـرم للمسلمين أو مسجـد، ليتفـوه بصلواته، لأنه، وإن كـان المسلمون المحمـديون ليسـوا وثنيين، إنهم أسـوأ مـن الوثنيين الحقيقيين، كما بـرهنا على ذلـك في الصفحـة:٩٨ من القسم الثاني، وإذا كـان الرب(متى:٦) قد منع شعبـه من الصـلاة عند زوايا الطـرقـات، حتى لايشـاهدوا مـن قبل الناس، ويعـدّوا مقـدسين، إنه أكثـر من هـذا محرم الوقـوف في هيكل اسـلامي والصـلاة فيـه، خشية أن يـروا من قبل الناس، ويظن أنهم أناس أشرار، أو مشركين، وبنـاء على ذلـك، إنـه لمن الـواضـح أنـه لايجوز لمسيحـي الدخـول إلى مسجـد لعبـادة المسيح فيـه، لأن ذلـك لن يكون من دون ذنب.

ثانيـا: هل يمكنه الدخـول إلى المسجد للتبشير بالايمان الحقيقي فيـه؟ يبـدو أن هـذا لايجوز، لأن الذي يدخل هكذا يعـرض نفسـه إلى خطر الموت، على أسـاس أنه تماشيـاً مع شريعـة القـرآن، ينبغي قتل مثل هذا الانسان مبـاشرة، وبذلك يقتل نفسه بدون ثمار، ومن الممكـن، من جهة أخرى، لكثير من الناس، ممتلئين بالحماس لـلإيمان، أن يدخلوا إلى معابد المسلمين ويبشروا فيهـا مـع ثمار، دون أن يقتلوا، من ذلـك على سبيل المثـال فنسنتـوس Vincentius المقـدس، الذي كـان من طائفـة الدومينيكان، الذي تمكن من تحويل آلاف كثيرة من المسلمين إلى الايمان الحقيقي، وبناء عليه إنه لايمكن اعتماد، أنـك إذا ماقلت أو فعلت الذي يسبب لك القتل من قبل الآخـرين، تكون بذلك مجرمـاً بقتلك نفسك، لأن القـديسين أنفسهم، اعتنقوا الايمان الكاثوليكـي، حتى عندما كـانوا عـارفين بدون شك، أنهم بهذا الاعتناق، سوف يجري اعـدامهم من قبل الطغاة، ونحن الآن نتعبدهم كشهداء للرب.

ونقـرأ فعل مثل هذا عن الـراهب ليفينوس Levinus الذي كان من طائفة القديس دومينيك، ذلك أنه عندمـا رأى المسلمين قد اجتمعوا

مع بعضهم في واحـد من مسـاجـدهـم، دخل إليـه، وبما أنه كـان ممتلئا بالحماس من أجل إنقاذ أرواحهم، صرخ بجـرأة واستمرار بأن صلواتهم كـانت عـابثة، وأنهم مـالم يؤمنوا بالمسيـح، لسوف يذهبـون إلى عـذاب أبدي، وأن شرائع محمـدﷺ كـانت غير صحيحـة، ومخادعـة، وخيـاليـة وزائفـة، وعندمـا كـان يعظ على هـذه الصـورة، وقع المسلمـون عليـه، وقتلوه.

وعـدّ هذا الراهب بين القـديسين، مـن قبل أنطونيـوس في الصفحـة المتقـدمة نفسهـا، لأنه بدا بأنه قـد ذهب إلى هناك، ليس بدوافع أوهامـه الذاتية، بل تـوجه تحت قيادة الروح القـدس، وإذا ماوجـدوا أي انسان أثير بحماس طائش أو بغضـب، للدخـول والصراخ ضـدهـم، ومن ثم قتل، وقتها يحكم عليه بأنه فضولي، وليس شهيداً، وهذا ما عمل لبعض المسيحيين الإغريق، فقـد دخل اثنان منهم— كانا في القـدس قبل بضع سنوات إلى الهيكل وهما في حـالة غضب شديد، وهناك اختطفـا كتبهم، ومـزقـوها إلى قطع، وداسـا عليهـا بأقـدامهما، وهما يقـولان بأنها جميعـا مخترعة وزائفة، وأمسك المسلمون على الفور هذين الرجلين، وأعدموهما بعد تعريضهما إلى عذاب شديد، بتمزيقهما إلى مزق.

ثالثاً: هل يمكن لمسيحي أن يدخل مسجـداً، ويكون غير مذنب، بعد اقدامه فيه على توجيه الإهانات وقيامـه بحركات ساخرة منه، أو بتدمير الكتب، أو النوافـذ، أو المصـابيح، أو بعـد إدخـاله إليـه الطين أو القـاذورات؟ يبـدو لي— مع كل الاحترام للذيـن هم أقـدر مني على الحكم— إنه لايمكن أن يكون إلا مـذنبـاً بسبب أن مثل هذه الإهانات وأعمال السخـرية، لاتبـدو بأنها ناتجة عـن الاحسـان، بـل بالحري عن الغضب، والكراهيـة، أو الضغينـة، أو عن الكبرياء، وبمثل هذه الأعمال لايجري تمجيـد الـرب، بل التجـديف ضـد المسيح، وإثارة الغضب بين المسلمين، من دون أي ضمان لحيـاتهم، وهكذا فإن الذيـن يفعلون مثل

هذه الأعمال يغامرون بحياتهم من دون ثمار.

وفي الحقيقة يعتقد الناس البسطاء أنهم يتعبدون الرب عند قيامهم ببعض أعمال السخرية في مساجد المسلمين، أو في كنس اليهود، لكن ليس في ذلك عبادة للرب، لأن أمنا الكنيسة تتساهل تجاه الكنس اليهودية، ولاتقوم بتدميرها مع أنها يمكنها ذلك، وبناء عليه ينبغي على أبناء الكنيسة عدم تدنيس الذي تتحمله أمهم، وتنطبق الحجج نفسها على المساجد، وبناء عليه، اقترف احد الفرسان وكان رفيقاً لي اثناء حجي، خطأ، وكان ذلك عندما كنا في منطقة فلسطين نمضي ليلة في نزل، كان بجواره مسجد، وكان الوضع أنه بإمكاننا النزول من السقف المقبب للبيت الذي كنا مقيمين فيه، إلى السقف المقبب المجاور والعائد للمسجد، وكان في قمة سقف هذا المسجد فتحه، كان بإمكاننا من خلالها النظر إلى المسجد، الأمر الذي فعلناه، وقام الفارس المتقدم الذكر أثناء الليل، وتسلق إلى السقف المقبب للمسجد، ولوثه من خلال الفتحة، الأمر الذي جعلنا نضحك كثيراً، لأننا جميعا دهشنا لدى رؤيتنا له، لكنني لم أر أية فضيلة بالذي فعله، كما أنه مامن فائدة كانت ستنجم عن ذلك، بل الكثير من الشرور، لأنه لو عرف المسلمون بذلك، لما كنا غادرنا البلاد أحياء.

ومع أن الرب لايعبد بشكل صحيح بالمساجد، هي بالأصل بنيت تشريفاً للرب الحقيقي، من الممكن تكريسها، وتحويلها إلى كنائس مسيحية، كما حدث كثيراً لدى استيلاء المسيحيين على أية بلدة، وانتزاعها من أيدي المسلمين أو الأتراك، وهم مثل ذلك يعملون بالطريقة نفسها، مساجد من كنائسنا، وبناء عليه، إنه بسبب هذا التملك، وليس بسبب اي احترام لشؤونهم التعبدية، على الانسان الاحتفاظ ببعض الاحترام لهياكل الأمم، عارفين بأن الرسل أنفسهم لم يدمروا الهياكل، بل أزاحوا الأوثان منهم، وحولوهم إلى كنائس

مسيحية، وغالباً ماقرأنا أنه حتى الذين لوثوا هياكل الأوثان، تعرضوا للعقوبة، كما هو واضح من حكاية ميدوسا Medusa ابنة فوركوس Phorcus ، التي كانت امرأة فائقة الجمال، وكان من بين محاسنها شعرها الذي لم يكن مجرد أصفر، بل ذهبياً.

وانجذب بلمعانه نبتون Neptune ، فاضطجع معها في هيكل مينيرفا، ومن ذلك ولد الحصان بيغاسوس Pegasus ، وباتت مينيرفا مغضبة تجاه هذا، وقررت أن لاتمر الإهانة التي تعرضت لها في هيكلها من دون انتقام، فحولت شعر ميدوسا إلى ثعبان، وهكذا بعدما كانت جميلة، غدت مخلوقاً مرعباً Monster.

وصار الذي نزل ببومبي، وماأصابه من سوء طالع بعد ماربط خيوله في الهيكل في القدس يعرفه كل انسان، إلاّ الذين لم يقرأوا قط شيئاً، وكنت قد مررت بذكر المآسي التي جلبها على نفسيهما نيكانوروأنطيخوس، بسلبهما الهياكل وبجلدهما هيلودوروس Helio-dorus.

رابعاً: ويبقى إن علينا وجوب أن نرى هل يمكن لمسيحي الدخول إلى مسجد دونما ذنب، وذلك ليس للصلاة، وليس لتخريب أي جزء منه، وليس لتقديم أي إهانة إليه، ولاللعب أية خداعات به، بل فقط لرؤية المسجد، والشعائر به، وأعتقد أنه إذا أمكنه الدخول دونما خطر ودون أن يلاحظ، هو بذلك لايكون مقترفاً لذنب عظيم، ومع ذلك سوف يبدو محباً للبحث إن لم نقل فضولياً فقط، وليست التقوى هي التي أحضرته إلى هناك، وإذا كان المسجد قائماً في أي موضع مقدس، ويمكن لمسيحي أن يدخل إليه بشكل سري ودون أن يلاحظ، وبدون أي خطر، يمكنه وقت ذاك الدخول بجدارة، وتقبيل الأرض، وتلاوة صلواته، مثلما فعلنا في المسجد القائم فوق ضريح داوود، الذي من أجله انظر ص٤١٣، وكنا راغبين بفعل الشيء نفسه في المسجد في

حبرون، الذي هو قائم فوق الكهف المزدوج، كما سوف نتحدث عن ذلك في القسم الثاني— الصفحة الثامنة.

لكن إذا كان الدخول لايمكن الحصول عليه دون مخاطرة، أو مقابل أجر كبير، فإن الذي يدخل مثل هذا المكان يعمل بشكل غير حكيم، وإنني أعرف فارساً مازال حياً، كانت قد اقتادته رغبته لرؤية الهيكل، ولذلك تحدثت مع أحد المماليك، وعملت معه صفقة في أن يضع عليه ملابس مسلم وأن يأخذه إلى داخله، وهكذا أخذ هذا المملوك العجوز رفيقنا وهو لابس لثياب انسان شرقي، حتى ساحة الهيكل، لكن عندما باتا هناك، وأراد الدخول إلى الهيكل، استبدّ رعب شديد بالفارس، إلى حد أنه لم يعد بامكانه الوقوف لأنه كان يرتجف، ولم يتجرأ على الدخول، بل أدار ظهره وعاد إلينا، وهو مسرور لأنه تخلى عن فكرته، وفي الحقيقة ليس عجباً أنه ارتعب وخاف على حياته، لأنه لم يكن متأكداً بأن دليله كان صادقاً.

ومع أنني شخصياً مغرم برؤية الأشياء الغريبة والمناظر غير الاعتيادية، لم أحاول قط الدخول إلى الهيكل، بل كنت قانعاً بالنظر إليه عن بعد، وهنا اعترف بأنني غالباً ماكنت منزعجاً وشعرت بالأسى عندما قارنت نظافة الهيكل، وجماله، وترتيبه الممتاز مع كنائسنا، التي هي— وياللعار— مثل اسطبلات دواب الرهبان، وكنائسنا هي دائماً قذرة مع الناس يمشون خلالها، وكأنهم يمشون في داخل خان، وهي ملوثة بالقاذورات الأمر الذي يربكنا كثيراً، ويزعجنا وهو يسبب كراهية القداسات ونقدها، وإنه لمزعج جداً ومهين أن ترى في القدس كنيسة قيامة المسيح، وهي قائمة بدون زينة تقريباً مثل خان طلي بالدخان، وأن ترى مسجد محمدﷺ مرتباً ونظيفاً، مثل قصر الملك(تلاهذا مقارنة مقذعة بين النبي محمدﷺ والسيد المسيح، وشملت بضعة أسطر، قمت بحذفها، وانتهت هذه المقارنة بقوله:) ومع ذلك فإن هيكل المسيح

ملعون، ومرزول، وممقوت، بينها هيكل محمدﷺ مبجل، وجميل، وممجد.

لكن ماهو وجه الغرابة أن يحدث هذا في القدس، بين المغاربة والمسلمين، وهو يحدث بين المسيحيين والكاثوليك؟ انظروا أرجوكم إلى أعظم الكنائس في العالم أجمع — أي كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران— التي هي رأس جميع الكنائس في داخل مدينة روما وفي جميع أرجاء العالم، كما تبرهن من قبل الفارز Alvarez في مصنفة« بكاء على الكنيسة» الكتاب الثاني، الفصل الثاني، الخ، والذي يظهر في أية حال هي فيها يتعلق بكل من الزينة والنظافة، وإنني أصلي إلى الرب أن تنجو من الخراب، وهناك تقوم كنيسة المخلص، وقدس أقداسنا مع كنزها الذي لامثيل له، من الآثار المقدسة، ومع ذلك يبدو المكان وكأنه مهجور، ومنعزل، ومن الصعب أن يجد الانسان فيه الاشياء المحتاجة من أجل قداس قربان، فساحتها قذرة، والبيع المتصلة بها مدنسة، ومذابحها ملوثة، وأماكنها مدمرة، والرهبان الذين عبدوا فيها مضى الرب هناك، قد جرى طردهم، ووضع آخرون في محلهم، وكل شيء في ظل حكم هؤلاء آيل إلى الدمار، وهناك أجزاء كثيرة قد لحقها الدمار، ليس بسبب وجود الترك والمسلمين، بل بسبب غياب المسيحيين.

ومثل هذا أيضاً كنيسة القديس بطرس، هي تحتاج كثيراً إلى كل شيء مناسب لمثلها ككنيسة كبيرة، وإذا كانت مثل هذه الأشياء قد حدثت في الكنيستين الرئيسيتين في العالم، وفي المدينة التي هي عاصمة الكاثوليكية، ومركز الإيمان، فكيف لاتحدث في كنائس أخرى في أرجاء ذلك الكون؟ حيث الكنائس قذرة، يساء استخدامها، وهي مهملة في المباني، والأواني، والكتب، وبالملابس، وبأغطية المذابح، وبالساحات، وبأراضي الدفن، وبالأبنية الخارجية، وإنه لأمر مخز أن تفكر حولها، ومهين أن تقول ذلك، وليست القضية قضية كنيسة واحدة بل جميع الكنائس، حيث

المذابح، وأغطية المذابح، وأغطية الآثار المقدسة، وأغطية القربان، وغطاء كأس القربان، والثياب الكهنوتية، والأكتافيات، كلها قذرة إلى درجة أن كاهن الكنيسة لقرفه، لايسمح بوضعهم فوق منضدته، لابل أكثر من ذلك، أنه لايمكنه أن يتحمل أن تكون سراويله بهذه الدرجة من القذارة والاهمال، فالثياب الكهنوتية ملوثة مثل السخام، والأكتافيات قذرات من التعرق، وكل شيء محتاج إليه من أجل القداس متعفن بالقذارة المتناهية، إلى حد أن مامن انسان يمكنه تحمل وجودهم في موضع سكنه.

أيها الأخ الانسان، حبذا لو رأيت في القدس مدى الاحترام المقدم لهيكل محمدﷺ، وكم ممتع الاقتراب منه، وكنت قد حدثتك من قبل وشرحت لك كم هي نظيفة وهادئة ساحته، وكم هو مشرق ومنظم كل شيء فيه، وبينت لك مدى الخشوع الذي يظهره المتعبدون لدى الدخول إليه، وكذلك عن الوقار العظيم الذي يلزمون به أنفسهم أثناء الصلاة، وأيضاً عن تواضع النساء هناك، حيث وجوههن مغطاة بشكل دائم، وكيف أن الرجال يصلون بصمت بعزلة عنهن، ولو أنك رأيت ذلك لصدمت بشكل عميق، ولغضبت غضباً عظيماً من الاهمال ومن عدم الاحترام الذي يبديه المؤمنون في كنائسنا.

ومع ذلك، لربما يمكن تأويل عدم الاحترام هذا، بشعور طيب، على أساس أننا نمتلك القداسات الحقيقية، التي تكمن قوتها الحقيقية في نيل الرحمة للميت، وفي شفاء النفوس، ولذلك نولي قليلاً من الاهتمام للزينة الخارجية لمعابدنا بينما لايسعى غيرنا وراء النقاء الداخلي للقلب، بل يسعون أكثر خلف النظافة الخارجية، لكن إذا سمح المسيحيون ببقاء هذه القذارة من خلال عدم الاحترام والاهمال، فهذه إهانة هائلة، حسبما برهن هوغو Hugo، الذي وضع ابداء عدم الاحترام نحو المذبح بين« ذنوب الدير» الاثني عشر.

هيكل مريم العذراء المباركة فوق أرض بيدر أومان

وعلى الجهــة الجنوبيــة من بيت إيل، والهيكل الذي يسمــونه هيكل سليمان، وفي أرض بيدر أرونا اليبوسي نفسها، هناك هيكل كبير، وكنيسة جميلة جداً، بنيت من جيمع الجوانب وفق طريقة كنائسنا، وهي أكبر من هيكل سليمان بسبب طول صحنهـا، وهي مسقـوفـة بالرصـاص، وهي تضـاء بالنهار بعـدد كبير من النوافذ المنتشرة حـولها، لكن في الليل فإنها تضاء بثمانمائـة مصباح مشتعل بها، بسبب أنها مسجد فائق القـداسة عند المسلمين، وأنا غير قادر تماماً على العثور على أية رواية، كتبها أي انسان، حــول من الذي بنى هــذا الهيكل، ومتى بني، هذا وليس لدي شك في ذهني بأن المسيحيين قد بنوه بعد استرداد المدينـة المقدسة، في أيام الملوك اللاتين، لأن نمــوذج البنـاء وسماته تظهــر أنه بنـي من قبل مسيحيين، ومثلما يبرهن شكل مـايسمى هيكل سليمان أنه قد بني من المسلمين، مـا من مسيحي عاقل يمكنه أن يصدق الذي اعتادوا على اخبار الحجاج به، من أن ذلك الهيكل نفســه قد بني من قبل هيـلانه كما أوضحنا من قبل، كـذلك هذا.الهيكل الذي أنا أتحدث عنه، لم يعمّـر من قبل أي قـوم غير المسيحيين، لأنهم عندمـا استولوا على الأرض المقـدسـة، رغبوا بوجـود كنيسـة باسم العــذراء المبـاركـة، قـرب هيكـل الرب، وهكذا بنوا هذه الكنيسـة تشريفــاً لها، وكـرسّـوها لها، صـــدوراً عن احترام تطهيرها في الهيكل، ولذلك يدعـو بعضهم هذه الكنيســة باسم كنيسة تطهير مـريم، ويدعـوها آخـرون باسم هيكل سمعـان، ويميـز آخـرون فيما بين هيكل سليمان وهيكل الرب، ويقـولون بأن هذا هو هيكل الرب، والآخـر هو هيكل سليمان، ويدعـــوه آخـــرون باسم رواق سليمان، في حين يدعـــوه آخـرون باســم هيكل زكـريا، وهذه التسميـة أقــرب إلى الصحـة، لأن العذراء المبـاركة عندما كانت طفلة قـدمت هناك إلى زكريا، والد يوحنا المعمدان.

واعتــاد الداوية على اقـامــة قـداســاتهم في هذه الكنيســة، لكن جعل المسلمون منها مسجداً، وأبعدت عن استخدامات الديانة المسيحية، مثلما حدث لهيكل سليمان، ويوجد تحت هذه الكنيسة بناء تحت الأرض سقفه مقنطر وهو متميز وواسع، يمكن فيه ربط ستمائة فرس بدون مصاعب، وكنت قـد حـدثتكم من قبل بأنني دخلت شخصيـاً إلى هذا البناء، وأن هناك مسجـد آخر قيـد البناء قــرب هذين الهيكلين، وذلك بأمــر من السلطان وهو مسجد كبير، وعالي النفقات، قائم خارج الساحة، وأرض بيدر أرونا، ويوجد فيه ثمانية وثمانين مصباحاً مشتعلاً، وكنت قد تحدثت عنه من قبل.

أول كنيسة مسيحية في القدس، المعتقد أنها كانت على جبل صهيون قبل بناء هيكل ضريح الرب، وهي التي فيها بدأت معجزة نار الفصح

الوصف الكلي لمدينة القدس المقدسة مرتبط جميعه تقريباً بهذين الهيكلين، أي هيكل بيت إيل، الذي يدعونه باسم هيكل سليمان، والقيامة، التي هي كنيسة قيامة الرب، وإلى هذين الهيكلين يعود الفضل بكل شيء جيد يعزى إلى المدينة، كما شهد على ذلك خريسوستوم عندما قال بأن كل شيء جيد، وكل شيء شرير انصب على الناس من هيكل الرب، وذلك حسبما جاء في مصنفه « بكاء على الكنيسة»— الكتاب الأول، المادة ٦١٦، لأن دمار مدينة القدس حدث كثيراً من المرات، وكذلك إعادة عمارتها حدثت مرات كثيرة، ومجدها وتمجيدها، وعارها وانحدارها، جاء من هياكلها في أيام كل من العهدين القديم والجديد.

ولن يعبأ المسيحيون إلاّ قليلاً في هذه الأيام، حول مباشرة المسلمين الحكم في القدس، شريطة أن نمنح حرية الدخول والخروج من هيكلنا، هيكل ضريح الرب،وذلك بدون خوف، وبدون ازعاج، ومغالاة بالمدفوعات، وكذلك لن يهتم المسلمون لو أننا كنا سادة المدينة المقدسة، إذا ماابتعدنا عن هيكلهم وتخلينا لهم عنه، ولكن بما أن المسيحيين والمسلمين لايمكنهم الاتفاق حول هذه المسألة، عانت القدس غير السعيدة، وهي تعاني الآن، ولسوف تعاني فيها بعد من الحصارات ومن التدمير، ومن الرعب أكثر من سواها من مدن العالم الأخرى، وعلى هذا يمكن القول:« الغيرة على بيتك قد أكلتني»، وفي الحقيقة الغيرة على هذين الهيكلين، قد أكلت القدس وقد التهمتها، وقد سحقتها.

ولنعد إلى الخلف بعيداً مع المسألة هذه، فالرومان ماكانوا ليحولوا المدينة إلى أشلاء بشكل وحشي هائل ودموي، لولا أن اليهود قد قاتلوا

بالدفاع عن هيكلهم بغيرة وعناد منقطع النظير، ولذلك أغضبوا الجيش الروماني، وحرضوه وأوصلوه إلى كراهية مدمرة ضد المدينة المقدسة والهيكل، وعندما جرى تدمير المدينة والهيكل من قبل الرومان، من المعتقد أنه جرى الاحتفاظ بمدينة داوود على جبل صهيون لتكون قلعة وحصناً.

وفي مدينة داوود هذه نفسها، امتلك المؤمنون كنيسة، كانت قد بنيت في أيام الرسل في موضع عليّة عشاء الرب، حيث أقاموا قداساً هناك، وعملوا اجتماعاً وانتخاباً، ونشروا أحكاما تتعلق بقضايا الايمان، وكان هذا قبل افتراقهم عن بعضهم، وهنا من المعتقد أن مريم العذراء الأعظم مباركة كان مسكنها، وفي هذه الكنيسة شغل القديس اسطفان منصب الشماس، وفيها دفن بعد استشهاده، وهذه الكنيسة فوق جبل صهيون لم تهدم تماماً في أيام تيتوس أو ايليوس هدريانوس، ولا في أيام المسلمين، بل بقيت من أيام الرسل حتى هذه الأيام، إنما باستثناء سنوات قليلة فقط، عندما كان غضب الرومان حامياً ضد اليهود، وذلك لدى استيلائهم على القدس، ففي ذلك الوقت جرى انذار المؤمنين مقدماً من قبل الروح القدس، فغادروا القدس، خشية المشاركة في فناء اليهود، إنما ماأن غادر الرومان حتى عادوا وصعدوا إلى الرابيةوإلى كنيسة صهيون، هذا ومن المعتقد أن النار المعجزة المتميزة لعيد الفصح، التي كنت قد تحدثت عنها من قبل، قد بدأت في هذه الكنيسة، كنيسة جبل صهيون، لكن في أي وقت، هذا مالم أقرأ عنه في أي مكان، سوى أنه في سنة ١٩٢ لتجسيد الرب، وقبل قسطنطين وهيلانه، وقبل اكتشاف الصليب المقدس، عندما كان نرسيس أسقف القدس، ذاهباً لإقامة قداس في أمسية الفصح، أخبر من قبل خدمه أنه لايوجد زيت لافي الجرة، ولا في المصابيح، وعندما سمع الرجل المقدس والمؤمن بهذا، ولأنه كان ممتلئاً بالايمان أمر خدمه أن ينضحوا ماء

ويجلبوه إليه.

وعندمـا جلب الماء إليـه، صلى وبارك الماء، وأمـر تلاميـذه بصبه بالمصابيح، ثم حدث أنه بقوة مدهشة لم يسمع بمثلها في أي جيل من الأجيال، تحول الماء إلى زيت، وصارت له دسامة الزيت، واشتعل من السماء، وجعلت شعلة السماء المصابيح أكثر اضاءة واشعاعاً مما هو معتاد، وعملت هذه المعجزة في أيام الكفار، في ظل حكم الامبراطور فكتـور، والامبراطور سيفيروس، اللذان حكما قبل قسطنطين بمائتين واحدى عشرة سنة، ووجد في القدس بعد نرسيس عدد كبير من الاساقفة القديسين، ولم تكن حشود المسيحيين بلا كنيسة قط، هذا ولم تكن كنيسة الضريح المقدس قد بنيت بعد، وبناء عليه جرت جميع القداسات ونفذت بمهابة على جبل صهيون، حتى بناء كنيسة الضريح المقدس، التي عن بداياتها سوف أحدثكم الآن[٢٦٤ظ].

بداية هيكل ضريح الرب

كان مكان صلب يسوع ودفنه خارج باب مدينةالقدس، كما برهن على ذلك انجيل يوحنا:١٨، والرسالة إلى العبرانيين:١٣، وعدّ هذا المكان مشهوراً منذ بداية خلق الجنس البشري، ولقد قالوا أيضاً بأن آدم، أبونا الأول، قد دفن فيه، وأن جسد هذا البطريرك قد نقل كله من هناك، وذلك باستثناء رأسه، وكان نقله إلى الكهف المزدوج، الموجود في حبرون، وهناك دفن، ولهذا السبب تطورت عادة بين الرسامين، برسم رأس آدم تحت قدمي المصلوب، ولهذا السبب أيضاً اعتاد أبناء آدم لمدة طويلة على معاملة هذا المكان باحترام، ومن المحتمل أن يكونوا قد بنوا مصلى هناك تشريفاً لأبويهم، وأن هذا المصلى قد عاش حتى طوفان نوح، فبعد الطوفان، سكن سام بن نوح، الذي هو ملكيصادق، فوق جبل أكرا(الجمجمة) والتقى بابراهيم وهو يحمل خبزاً وخمرة، وباركه.

وفيما بعـد، كـان ابراهيـم على وشك التضحيـة بـابنه اسحق في هذا المكان نفسـه، وذلك بناء على أمـر من اللـه، وهنا نُصب أفعـوان من البرونز، كان الناس يقدمون له الأضـاحي، وفي الحقيقة كان الرئيس بين الأماكن المرتفعـة التي أزالها فيما بعد حزقيـا(الملوك الثاني:١٨/ ٤)، ولهذا يبـدي اليهـود احترامـاً خـاصـاً لهذا المكان، عـلاوة على ذلك، اعتـادت الأمم، وكـذلك الفـلاسفـة على زيارة هذا المكان، بسبب وسط الدنيـا، الذي برهنوا أنه هنـا، كما تحدثت عن ذلك في ص٤٩٧، وجـرى وصف هذا المكان وشكله في ص٤٩٧ نفسهـا وكـذلك في ص٤٨٨، واستمر هذا المكان يحظى بالتشريف حتى أيام أمم الاغريق، الذين قـاموا بسبب كـراهيتهم لليهـود بتهـديم ذلـك المصلى وتشتيت بقـاياه، وعينوا المكان ليكون الموضع الـذي يجري فيـه اعـدام مقترفي الشرور، وبذلك تحول المكان المقدس لدى اليهـود، إلى موضع ممقـوت لديهم، هذا ومن المعتقد أن الرب يسوع، غالباً مـاقام، اثناء حياته بزيارة هذا الموضع على الجبل، مع مكان دفنه، مـوضحـاً بذلك قـداسـة ذلك المكـان، الذي تكرست قداستـه بموته، وبدفنه، وبقيـامته المجيـدة جداً، فلقد كـرس هذا المكان وجعله مقدساً لجميع الدنيا.

وبعد صعـود الرب اعتادت مريم العذراء الأعظم قـداسة، والرسل، وبقيـة المؤمنين على زيارة المكان يوميـا، وتقبيل طبعـات اقـدام الرب يســوع، كما سلف وذكـرنا في ص٦٤٣، ويـذكـر بعضهم أن القـديس جيمس الأصغـر، الذي رسمـه الـرسل، أول أسقف للقـدس، قـد اتخذ كرسيه، ومقـر اقامته في مكان قيامة ربه، وأقـام هناك القداسات وأعمال التعبـد الدينية، فضـلاً عن هذا، كـان هو مصنف بنود العقيـدة، أي أنه أعلن بأن الرب«قد تألم أيام بنتوس بيلايطوس، وصلب، ومات، ودفن»

وبعـد استشهاد القـديس جيمس، وفي السنةالثانيـة والأربعين، أو— كما يقول بعضهم— في السنة الخامسة والأربعين بعد آلام الرب، سببت

ذنوب اليهود تعرض القدس إلى دمار كلي، وذلك باستثناء مدينة داوود، والسور الغربي المواجه لصخرة الجمجمة، وحديقة ضريح الرب، حيث سمحوا ببقاء هذه الأماكن من أجل امتلاك حراس تلك البلاد مكاناً حصيناً، وبعد ذهاب الرومان، رجع المسيحيون— كما قلنا من قبل— إلى القدس، واعتادوا على زيارة موضع الجلجة مع جميع الخشوع الذي اعتادوا عليه، ومع ذلك لم يعمروا هناك أية كنيسة أو هيكل، بسبب خوفهم من الحرس الروماني، ولعدم رغبتهم في تغيير شكل المكان عما كان عليه في أيام صلب المسيح، وقيامته، وهو شكل كره القديس جيمس أيضاً تغييره، لأن تذكر ماكان قد حدث يمكن أن يكون أكثر تأثيراً، وأنا كان بودي عدم بناء أية كنيسة هناك، فوقتها كان بالامكان فهم معاني الأناجيل بشكل أوضح، وذلك لدى حديثهم عن آلام الرب وقيامته، وأعتقد بشكل مؤكد أن المسيحيين ماكانوا ليقدموا على تغيير شكل المكان، لولا أن الامبراطور هدريان فعل ذلك.

وقدم هذا القيصر إلى القدس في سنة ١١٩، وفي ذلك الوقت كانت قد أعيدت عمارتها بشكل ما من قبل المسيحيين واليهود، وقام للمرة الثانية بقتل اليهود، وباعهم رقيقاً، وأخرجهم مطرودين من البلاد، وبنى مدينة القدس الجديدة، حيث هدم المدينة القديمة ووسعها، وطمّ الخنادق بين المدينة وبين مكان آلام المسيح وحديقة الضريح، ورفع هذه الخنادق إلى مستوى بقية الأرض، وبنى سوراً حول المدينة، أدخل في إطاره هذا المكان، لأنه سمع بأن المكان كان مقدساً، وكان مبجلاً من قبل المسيحيين.

ونظرا لكونه كافراً ووثنياً، فقد رغب بتشريف آلهته هناك، وقد بنى هيكلاً عظيماً ضم كل من صخرة الجمجمة، وكهف ضريح الرب، ونصب على صخرة الجمجمة— حيث أقيم فيها مضى الصليب المقدس— نصب فينوس العاهرة بلاحياء، ووضع في كهف ضريح

الرب تمثال جوبيتر الشرير جداً، وهكذا صار المكان الذي كان المسيحيون يزورونه من قبل بشكل متواصل مكروها جداً من قبلهم، وبقي المكان في هذه الحالة الشريرة لمدة مائة وثمانين سنة، أي حتى أيام قسطنطين الكبير، والقديسة هيلانة، وقد عرفنا هذا من رسالة القديس جيروم إلى بولينوس، وهي التي افتتحها بكلمتي Bonus home، وهذه الرسالة موجودة في الكتاب الثالث، في صفحة:٢١٠.

وفي سنة ٣١٣ لتجسيد الرب، تحول قسطنطين وهيلانة إلى عقيدتنا، وبعدما صارت هيلانة عابدة للصليب، جاءت إلى القدس، وهنا وجدت موضع موت الرب وقيامته في هيكل مدنس وغير نظيف إلى أبعد الحدود، وبما أنها كانت ممتلئة بالحماس للرب، ألقت أرضاً بالأوثان، ودمرت الهيكل، ولحق الدمار حتى أساساته نفسها، ونظفت صخرة الجمجمة وحجرة ضريح الرب، وأمرت رجالاً بالحفر عميقاً بالأرض، وقد بذلوا كثيراً من الجهد في تعزيل الأرض ورمي التربة، وذلك في المكان الذي وجدت فيه الخشبة الثمينة للصليب المقدس، مع الرموز الأخرى لآلام المسيح، كما سلف وتحدثت في ص٤٨٢و٤٨٨، وعندما أعلمت بذلك ابنها قسطنطين، أرسل لها على الفور مبلغاً من المال لتغطي به نفقاتها، وأصدر أوامر إلى مكسيموس Maximius، الذي كان آنذاك أسقف القدس، بأن يبني كنيسة فخمة في ذلك المكان المقدس، تبعاً لأوامر أمه هيلانة، وهكذا بدأ العمل في هذا المشروع العظيم، وبعد ذلك انتهى بسرعة، وبني هيكلاً عظيماً مع تزيينات باهظة النفقات، إلى حد أن العالم أجمع لم يكن به مثله، واعتقد كثيرون بأن هذا الهيكل كان أعلى بنفقاته من الهيكل السالف الذي دمره تيتوس والذي قام فوق أرض بيدر أرونا.

وفي ذلك الوقت لم يكن فوق ارض البيدر هذه هيكلاً، ولاحتى مصلى، بل بعض المساكن لعوام الناس، وكان الموضع كله من دون أي

تشريف، ونقل الآن مقر الأسقف من صهيون إلى الهيكل الجديد، وقطن رجال الدين والبلاط كله هناك، علاوة على ذلك، جرى هناك تجديد المعجزة التي تحدثت عنها في الورقة المتقدمة، والمتعلقة بالنار المقدسة للفصح، فعندما يجري اطفاء الأنوار جميعا، في الأمسية المقدسة لعيد الفصح، في جميع أرجاء الكنيسة، أثناء انشغال رجال الدين والناس بالصلاة، يحدث فجأة، نزول شعلة من السماء تقوم باشعال شموع الفصح، وجميع الشموع والمصابيح، وتحدث هذه المعجزة كل سنة في هذه الكنيسة عشية عيد الفصح، وطوال ظهور هذه المعجزة لاتتلقى الكنيسة أي أذى على أيدي غير المسيحيين.

وكانت العادة آنذاك، أنه عندما يحل السبت المقدس، يجري اطفاء كل نار في جميع أرجاء القدس، ولايتجرأ انسان على اشعال أية نار بأية واسطة من الوسائط، إلاّ من النار التي تقدمها الكنيسة، وبناء عليه يبقى الناس جميعاً، في كل من الكنيسة وفي بيوتهم بصلوات مستمرة من أجل النار السماوية، التي ينظرون إليها على أنها العلامة الأكثر تأكيداً على رضى الرب عليهم، وعندما تنزل النار من السماء، كانوا يقومون جميعاً باشعال مصابيحهم، وبحمل النار إلى الكنائس الأخرى قريباً وبعيداً، وإلى هذه الأيام يجري حمل الزيت المكرس هناك، وجلبه أيضاً إلى البيوت الخاصة للناس، حيث اعتادوا على ابقائه مشتعلاً طوال السنة.

★★ ★★ ★★

وحدث في سنة ٣٢٣ لتجسيد ربنا، بعد وفاة مكسيموس، أسقف القدس، أن بدأ الآريوسيون بالحملة على كنيسة الضريح المقدس تحت سلطتهم، وقد عزلوا كونراد أسقف القدس الكاثوليكي والمعين بشكل شرعي، وعينوا رئيس شمامسة فيها، وبدلوا النظام المحدد من قبل كنيسة روما، وتحكموا لسنوات كثيرة بالكنيسة المقدسة في الجلجلة، التي دنسوها بهرطقتهم، وفي تلك الآونة، أثناء استيلاء الهراطقة الآريوسيين

على كنيسة الضريح المقدس، جرى عقد مجمع نيقيا، وقدم بعد هذا قسطنطين إلى القدس، واستمع إلى الآريوسيين إلى حد أنه اقتنع من قبلهم بالنزول إلى الأردن، وتلقي تعميد ثاني على أيدي الآريوسيين، وكأن تعميد القديس سلفستر له كان بلا تأثير، وقد وجدت هذا مدوناً في كتاب تاريخ حول قسطنطين، والذي اعتقده ان الحكاية كلها قد اخترعت من قبل الآريوسيين، من أجل أن يمتنوا حزبهم باهانة مثل هذا الامبراطور العظيم.

هذا ومن الممكن، انه نزل مع رجال الدين والشعب إلى الاردن، واغتسل فيه صدوراً عن التقوى، مثلما يفعل الحجاج دوماً، وبذلك أعطى إلى الآريوسيين فرصة للقول بأن الامبراطور قد تعمد للمرة الثانية، وطوال المدة التي سيطر فيها الآريوسيين على الكنيسة، توقفت النار من السماء عن النزول في عشية عيد الفصح، مثلما اعتادت على النزول في ظل سيطرة الكاثوليك، وفي الحقيقة لقد تبرهن بتجارب صحيحة، أنه في كل مرة يكون هناك انشقاق وانقسام في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، في ذلك الوقت بالذات يجري دوماً انتزاع الضريح المقدس من الكاثوليك، ويعطى إلى الهراطقة، والمنشقين، أو المسلمين، وأنا اعتقد بشكل أكيد، أن الكنيسة الغربية لوكانت متحدة مع نفسها، لأمكننا من دون سيف ومن دون حرب تملك ضريح الرب.

وفي الوقت الذي كان فيه الآريوسيون يتحكمون بالكنيسة، طردوا الكاثوليك منها، ومن كل جهة، ولم يسمحوا للحجاج بالدخول إلى ضريح الرب، ولذلك وقعت أعمال القتل يومياً، وكانت هناك مشاجرات مرعبة بين الآريوسيين والكاثوليك، وأقول إنه في ذلك الحين اتحد المسلمون، وانقضوا على نوعي المسيحيين وطردوهم من الكنيسة، وشتتوا جميع هؤلاء المتخاصمين، سواء أكانوا هراطقة أم كاثوليك،وأبعدوهم عن القدس،و..... دمروا كنيسة الضريح القدس،

غير أنها لم تبق معزولة لمدة طويلة، لأن جميع أساقفة الكنيسة الكاثوليكية الشرقية، مع جميع المؤمنين الآخرين، تجمعوا في سنة ٣٧١ لتجسيد الرب، وذهبوا إلى القدس، وطردوا المسلمين والآريوسيين، وأعادوا عمارة مبنى كنيسة الضريح المقدس، وأرجعوها إلى الإيمان الحقيقي للكنيسة الكاثوليكية، وتصاحب هذا مع كثير من التعب، لأن الآريوسيين كانوا قد أصبحوا قوة هائلة في جميع أرجاء العالم، وكانوا يتمتعون بالحظوة لدى الأساقفة، ورجال الدين، والملوك والأمراء، وقامت هذه الهرطقة اللعينة وصدرت عن آريوس، الذي كان قس الاسكندرية، وكان بالاسكندرية، احمقاً إلى حد محاولة زرع الخلاف في الايمان القويم، كما حاول أيضاً أن يفصل الابن عن الجوهر الدائم والذي لايتغير للأب، وذلك حسبما حدثنا غراشيان Gratian في لاهوتيته الرابعة والعشرين— الفصل الأول.

وبعد تنظيف الكنيسة في القدس من تلك الهرطقة، سيطرت القداسة بشكل رائع بين كل من رجال الدين والعلمانيين، في جميع أنحاء العالم، حتى أيام الامبراطور هرقل.

وفي الحقيقة ازدهر بين ايام الامبراطور قسطنطين، الذي حكم في سنة ٣١٣، وهرقل الذي حكم في سنة ٦١١، رجال نالوا شهرة عظيمة وكانوا متنورين، ومعهم تراجعت الهرطقة الآريوسية كثيراً، وهي الهرطقة الخطيرة التي كان آريوس رئيسها، وكان هذا العصر مقدساً وخطيراً، فلقد كان مقدساً، بسبب القديسين الذين عاشوا في تلك الآونة، ودون الحديث عن الجميع، لقد كان هناك بين هذين الامبراطورين، قد ازدهر، أربعة حكماء مشهورين في الكنيسة، هم: أمبرويز، وأوغسطين، وجيروم، وغريغوري، وفي الوقت نفسه كان من بين القديسين، نيقولا، وأنطوني الكبير، وزينو أسقف فيرونا، وبولص، أول النساك، وبولنيوس أوف تريفس Treves ، ويوسيبيوس،

وهيـــلاري، وأثناسيـوس، ومكاريوس، ومـريم المصرية، وكـان هناك وقتذاك كثيراً من النساك في قفـار مصر، والعربية، وفلسطين وليبيا، وفي كل سنة تـدفقت حشـود مـن الأتقيـاء المسيحيين مع بعضهـم من جميع أجزاء العالم إلى فلسطين، لإقامة عيد الفصح الكبير، وجاء كثيرون ليس فقط من أجل يسوع، بل لكي يتمكنوا من رؤية معجزة النار السماوية في أمسيـة الفصح، والمعجزة على جبل الزيتـون في يوم عيد الصعـود، التي كنت قد تحدثت عنها من قبل في ص٤٩٠، و٥٩٥.

ولم تتـوقف القـدرة الالهيـة، في ذلك الوقت أيضـاً عـن تمجيـد هذا المكان، بوسـاطة كثير من العلامات، وهكذا رأى في سنة ٦٢٠ لتجسيد الرب، راهب اسمـه برنارد، هو ليـس برنارد أوف كليرفـو، بل رجل مقدس آخر، رأى النار المتقـدمة الذكر نازلة من السماء إلى هيكل ضريح الرب، وقـد كتب كثيراً حـولها في كتـاب حجـه، وفي ذلك الوقت قُـدر المسيحيين كثيراً بسبب نار الفصح، وفي ذلك الوقت أيضاً، جرى عرض الصليب المقدس والآثار المقدسة الأخـرى، التي وضعتها هناك القديسة هيلانة، وهكـذا نقرأ، بأن القديسـة مريم المصرية، عنـدما كانت مـاتزال مذنبـة، قدمت إلى القـدس مع آخرين كثر لـرؤية الصليب المقدس، غير أنه لم يسمح لها بالدخول لـرؤيته قبل أن تعهدت بتقـويم حياتها، حسبما ورد في اسطورتها.

وبين الامبراطورين المتقـدمي الـذكـر، أي قسطنطين وهـرقل، تسلم يوليان المرتد زمام السلطة في سنة ٣٦٣، وكـان هذا الرجل يغار من مجد المسيح والمسيحيين، ولذلك حشـد جميع اليهـود مع بعضهـم، وبعث بهم إلى القـدس على نفقتـه، من أجل أن يتمكنوا من بناء هيكل فـوق أرض بيـدر أرونـا، لخفض وايذاء مجد هيكل ضريح الرب، الذي كـان آنذاك ممجداً في جميع أنحـاء العـالم، وكنا قـد تحدثنـا من قبل عن الاضطراب الذي أرغمهم على التخلي عن العمل.

وبعدما طردت الهرطقة الآريوسية من كنيسة القدس، وعندما كانت كتلة الناس المؤمنين تتقاطر كلها على شكل حشود إلى ضريح الرب، وعندما كان السلام مع القداسة مزدهران، وفي الوقت الذي كان فيه جيروم المبارك ساكناً في بيت لحم، انبعث شر آخر في الكنيسة في القدس، وهو الانشقاق حول السلطان القضائي، لأنه عندما جاء ابيبفانوس Epiphanius أسقف سالاميس Salamis في قبرص، إلى القدس، وكان يناظر في هيكل الضريح المقدس ضد هرطقة أورجين Orgen ، منعه يوحنا أسقف القدس ومعه اكليروسه كلهم، فلقد منع بغضب الرجل المقدس، وأمره أن يلزم الصمت حول هذا الموضوع، وفيما بعد عندما رجع إلى مكانه، أمر يوحنا بعدم عدّ الذين رسمهم ابيبفانوس كهنة، وحرم كنسياً جميع الرجال المقدسين للفئة الأخرى، وعلى هذا كان الذي حدث الآن هو أن الهراطقة سمح لهم بالدخول إلى ضريح الرب وبتقبيل الصليب المقدس، ونقرأ عن هذه المسألة في كتاب جيروم الذي وجه إلى بمّاخوس Pammachus ضد يوحنا، أسقف القدس المنشق، وبعد مضي سنوات طوال، عندما جلس القديس غريغوري على عرش بطرس، في سنة ٥٨٤ لتجسيد ربنا، تم العثور على رداء ربنا الذي لامثيل له، في صندوق رخامي في مصفت Masphat قرب القدس، وقد جلب مع البكاء والصوم إلى القدس من قبل القديس غريغوري، أسقف أنطاكية، وهونوريوس أسقف القدس، ويوحنا أسقف القسطنطينية ووضع في كنيسة الجلجلة، من أجل بهجة الناس وتقواهم.

وفي سنة ٦٠٩، قام في الشرق، كسرى ذلك المتوحش المتميز، والذي كان ملك فارس، فقد حشد جيشاً من الكفار، وشعث واستباح مصر، وسورية، وفلسطين، وناهض الحكم الروماني في كل مكان وبكل السبل، وبعدما استولى على كثير من المدن، دخل إلى اليهودية وحاصر

مـدينة القـدس المقـدسة، التي كـانت مليئة بمسيحيين أتقيـاء، واستـولى عليها، وقتل فيهـا ثلاثين ألفاً من الناس، الذين أمر بأجسـادهم فرميت خـارج المدينة، في جـدول قـدرون، لكن الرب بعث أسـداً كبيراً، جـاء وحمل أجساد المسيحيين، ودفنهم فوق جبل الشهـداء، قرب القدس، كما قرأنا في«التاريخ اللاهوتي» وكما كنا قد تحدثنا عن ذلك من قبل.

وقـد اعتقل بعضـاً من الأعيـان، وجعلهـم أسرى لديه، وكـان بينهم زكريا، أسقف القـدس، الذي أودعه السجن، وبعد تهديمـه سور المدينة المقدسـة، دخل إلى هيكل الضريح المقدس، عازمـاً على نهبه، ثم تدميره، لكنه بعـدما استولى على الصليب المقـدس، الذي وضعته هيـلانه هناك، وكـان مغلفـاً بأغلفـة من ذهب، وأراد أن يمـدّ يده مـن أجل تدمير الهيكل،أشعت القـدرة الربانيـة من ضريح الرب، بشكل أنه ورجـاله ارتجفوا رعبـاً، وتوقفوا عـن أعمال التدمير التي كـانوا قد شرعـوا فيها، وعاد مع أسلابه، ومع الصليـب المقدس، ومع الأسرى إلى بلاد فارس، ونهب بعـد هـذا كنائس الشرق، وأرسل ابنه إلى الأجـزاء الشماليـة من سورية، بقصد قهـر الشعوب في تلك المناطق، ونهب كنائسهم، وقد عبر كثيراً من البلدان، ووقف أخيراً عنـد الدانوب، حيث كـان الامبراطور هرقل قد زحف ضده وهزمه، حسبما أُخبرنا في عظة يوم تمجيد الصليب المقدس(١٤— ايلول).

وعندمـا هزم، قُتل أبـوه، وجـرى استرداد الممالك الضـائعـة، وأرجع هرقل إلى القـدس الصليب المقـدس، والأسقف زكـريا، وجميع الأسرى والأسلاب، وقام بترميم الأجزاء المهـدمة من الهيكل والمدينة، وأعاد إلى المسيحيين رسوم كنـائسهم وفقاً للاستخـدامات اللاهوتيـة، وفي الحقيقة كانـت المدينة المقدسة قـد بقيت مقفرة وتعيسـة لمدة عشر سنوات، لكن هرقل استردهـا، وعـاد إلى القسطنطينـية، حيث أخـذ يمارس حيـاة شريرة.

وفي هذا الوقت انضم إلى محمدﷺ.....(١) عـدد كبير من المناطق والممالك المسيحية ولدى رؤية هرقل لهذا الوضع، خاف من دخوله ﷺ إلى القدس، وتدميره لهيكل ضريح الرب، واظهاره عدم الاحترام نحو الصليب المقدس، ولذلك حال بين محمدﷺ وبين ذلك فأخذ الصليب المقدس وكل شيء آخر غالي وثمين، وأخرجه من الهيكل ونقله إلى القسطنطينية، لأنه يئس من قدرته على مواجهة محمدﷺ، وحدث نقل الصليب المقدس في سنة ٦٢٣ لتجسيد الرب.

وبعد وفاة محمدﷺ استولى عمر بن الخطاب، الخليفة الثالث(اقرأ: الثاني) على مدينة القدس في سنة ٦٣٤، وبنى هناك مسجداً كبيراً للمسلمين ولأتباع محمدﷺ فوق المكان الذي قام عليه فيما مضى هيكل سليمان، وهو أمر كنت قد تحدثت عنه من قبل، وكان عندما استولى على المدينة، قد نوى أن يعمل مسجداً من هيكل الضريح المقدس وأن يعدّه من أجل الشعائر الاسلامية، لكنه عندما دخل إلى الهيكل ارتعب بالقدرة الإلهية إلى حد أنه تراجع عن نيته، وتعامل بشكل لطيف مع المسيحيين، بسبب تقوى صفرونيوس الأسقف المسيحي، الذي اعتمد بكياسة على رأيه بشأن بنا الهيكل الجديد.

وواضح مما قيل بأن هيكل ضريح الرب، كان قائماً قبل ثلاثمائة وأربع سنوات قبل الهيكل الذي يسمونه هيكل سليمان، وأذن عمر للمسيحيين بعبادة الرب في هيكلهم، وأجبر المسلمين على مدح محمدﷺ في هيكل آخر، لأن غير المسيحيين لم يكونوا قد اعتادوا بعد على شعائر محمدﷺ، ولذلك كانوا يساقون بالقوة، ومع مرور الأيام تفجر خصام في القدس بين المسلمين والمسيحيين، وفرض المسلمون على المسيحيين كثيراً من المكوس، وغالباً ماجرى تحريرهم منها والتفريج عنهم من قبل

١ـــ جرى حذف عدد من الأسطر لما تضمنته من شتائم مقذعة بحق النبي ﷺ، يضاف إلى ذلك أن التواريخ التي قدمها فابري غير دقيقة.

الأباطرة، من ذلك على سبيل المثال أنه في سنة ٦٧٠، قام قسطنطين الثالث— على الرغم من أنه كان رجلاً سيئاً— بتحرير المدينة المقدسة والضريح المقدس، سبع مرات من ظلم المسلمين، وبعده عمل قسطنطين الرابع شروراً كثيرة للمسلمين في كل من القدس وأماكن أخرى، وحيثما كانوا يقاتلون ضد المسيحيين، ومع ذلك استمر المسلمون يحكمون القدس، ولم يتمكن أباطرتنا من تحرير المدينة وتخليصها من تحت نير الاغريق(الروم الأرتوذكس). وفي سنة ٨٠٣ لتجسيد ربنا، في أيام حكم شارلمان، الامبراطور العظيم، كان المسيحيون في القدس وفي جميع الشرق في وضع مرهق تحت سلطة المسلمين، وقاموا وهم في أوضاعهم التعيسة بالتوسل من أجل المساعدة من قسطنطين— السادس بهذا الاسم— امبراطور القسطنطينية، ومن أمه إيرين، لكن بما أن قدرة الإغريق وقوتهم كانت قد تراجعت كثيراً، لم يكن باستطاعته هذا الامبراطور تقديم المساعدة لهؤلاء اليائسين، بوساطة قواته الخاصة.

وقام في ذلك الحين ليو، الذي كان البابا الثالث بهذا الاسم، صدوراً على الفضائل العظيمة لشارل الكبير، ملك الفرنجة، فمجده بترقيته إلى مرتبة امبراطور الرومان، وهو لقب كان قبل حوالي خمسمائة سنة مضت قد زال من قبل قسطنطين الكبير، وفي أيام شارلمان كان تقريباً قد أصبح منسيا من خلال الأيام، وقد أعاد الآن امبراطورية الغرب إليه.

وتبنى شارل، الذي لقبه أغسطس، الاسم الامبراطوري، وفخاره، وحكم لمدة أربع عشرة سنة، وقد عمل أعمالاً مجيدة في جميع أنحاء العالم، وجلب المجد والفخار لشعبه الألماني، ولهذا كان شارل تيوتونيا، حسبما مبرهن بشكل واضح بالاعلان في......المراسيم، حيث جاء سياق النص كما يلي:« نقل الكرسي الرسولي الامبراطورية الرومانية من الاغريق إلى الألمان، في شخص شارل المجيد»، وجاء في أبّا Appa:٢ الشيء نفسه، فضلاً عن هذا نقرأ في كتب التاريخ أنه عندما تعرضت

الكنيسة الرومانية للتسلط المنغاري، طلب البابا المساعدة من امبراطوري القسطنطينية:قسطنطين، وابنه ليو، ولأنهما لم يتوليا الدفاع عن الكنيسة الرومانية، نقل حكم الامبراطورية الرومانية إلى شارل الكبير، ابن بيبن، الذي هو نفسه وضعه في مكان لويس ملك فرنسا، الذي خلعه.

وحدث نقل الامبراطورية من الاغريق إلى الالمان في سنة ٧٧٦، وفي أيام حكم شارل سمعت شهرته في القدس، ولذلك بعث إليه بطريرك القدس بمفاتيح الضريح المقدس وموضع الجمجمة، ومفاتيح أبواب المدينة، وجبل صهيون، وأعلاماً للمباركة، وكعلامة على الخضوع كما يمكن الاطلاع على ذلك في تاريخ أنطونيوس— القسم الثاني، العنوان:١٤،الفصل:٤،الفقرة:٢.

وليس بعد مدة طويلة من هذا قام غير المسيحيون بثورة ضد يوحنا بطريرك القدس، وطردوه مع جميع اكليروسه إلى خارج المدينة، وذهب إلى القسطنطينية، وطلب المساعدة من الامبراطور قسطنطين، وعندما كان الامبراطور مشغولاً حول هذه المسألة، رأى في منامه رؤيا، تعلم خلالها، بأنه ليس هو، بل شارل الكبير، هو الذي سوف يحرر القدس، ويعيد ضريح الرب إلى المسيحيين.

وبناء عليه ارسل امبراطور القسطنطينية، على أيدي رجال دين الضريح المقدس، إلى شارل الكبير المفاتيح، ورسالة أوضح فيها الشدائد والمصاعب التي آل إليها وضع الضريح المقدس والمسيحيين، وعندما قرأ شارل هذه الرسالة، بكى وعلى الفور حشد حشداً كبيراً من الألمان والفرنجة، وجلبهم عبر البحر، وأنقذ المدينة المقدسة من أيدي المسلمين، وأعاد الضريح المقدس، إلى المسيحيين، وبذلك أقام سلاماً كاملاً بين المسيحيين والمسلمين، وهو أمر لم نسمع به من قبل.

وهو لم يقم بقتل المسلمين، ولابطردهم من القــدس، بـل جعلهم يتفقون مع المسيحيين على شروط محددة، ولقد قيل بأنـه توفر هناك وئام عظيم فيما بينهم لسنوات طوال، إلى حد لو أن دابة أي مسـافر هلكت على الطريق، كـانوا يضعـون الحمل على جـانب الطريق، ويذهبـون إلى القرية الأقرب للحصـول على دابة أخرى، وذلك من دون البضائع التي خلفـوها ورائهم، دون المعـاناة من أية خسـائـر، أو سرقـة، أو سلب، وهكذا بعـدمـا أعيـد السلام، واسترد النظام إلى الكنيسـة، عـاد شـارل المشهـور جـداً إلى بلاده، وعلى طريقه زار القسطنطينيـة، حيث استقبل استقبالاً فخماً.

وتعـويضاً على جهـوده منحوه أعطيـات ثمينة جـداً، وذهباً، وفضـة، وأحجـاراً كريمـة، وأشياء أخـرى غاليـة، وقد رفض أخـذها قائـلاً إنه سيكون أمراً مؤذياً بالنسبة له أن يأخذ ايجاراً على عمله الذي عمله لمحبة الرب فقط، وعندمـا ترجـوه بأن يـأخـذ هدية مـا، طلب أن يعطى آثاراً مقـدسـة، ولهذا فتحـوا كنوزهم، وأعطوه بعض الشـوك من تاج الرب، وواحداً من مسامير الصليب المقـدس، وقطعة كبيرة من الصليب نفسه، ومنديل الرب، وقميص العـذراء المبـاركـة وأقمشـة القماط التي لف بها الطفل يسـوع، وقطعـة من مـزود الرب، وسنان الرمـح الذي طعن به جنب الرب، وذراع القـديس سمعـان، وأشيـاء أخـرى كثيرة، تسلمهـا ذلك الرجل اللامع مع خشـوع عظيم، وقـد وقعت معجـزات كثيرة في هذه المنـاسبـــة، كما جـــاء الخبر في Speculum Historiale— الكتـاب:٢٥، الفصل:٥، وقـد جلبهم معه إلى بلاده ألمانيـا، وإلى مـدينة إكس لاشـابيل، حيث وضعهم في كنيســة العـذراء التـي بناها، وهذه الأشيـاء محفـوظة باجـلال حتى هـذا اليـوم، ويجري عـرضهـا كل سبع سنوات، حيـث تجتمع في تلك الآونـة حشـــود لاتحصـى من المؤمنين، ولاسيما الهنغار الذين يأتون من بلادهم في جماعـات كبيرة ويجتمعون في

إكس، وأنا شخصيا رأيت هذه الآثار في سنة ١٤٦٨.

واحتفظ شـارلمان ببعض الآثار في بـلاطه، وجعلهم ملكاً لبـلاط الامبراطور، ولذلك وضعهم مع الذخـائـر الثمينـة جـداً العـائـدة للامبراطورية في محل خاص في البلاط، وهم محفوظون في هذه الأيام في سيغودنوم Segodunum، أي نوريمبيرغ nuremberg، حيث يجري عـرضهم في يوم الجمعة بعـد Quasimodo، ووقتها يجتمـع حشد كبير من الناس لرؤيتهم.

وإذا مـازار أي أمير نوريمبيرغ في وقت غير الـوقت المحـدد، فإنهم يجلبونهم ويعـرضونهم عليه، وبناء عليـه، في سنة ١٤٦٨، في يوم الأحد الذي اسمـه Cantate ، عندما اجتمع رهبان منطقتنا هناك في مؤتمر ديني، عرضوا هذه الآثار علينـا، وسمحوا لنا بحملهم وبتقبيلهم، وكان بينهم سنان رمح الـرب، الأعظم قـداسـة، وقـد سمح أهل نوريمبيرغ لكل واحـد من الرهبان بلمسـه بيـديه، وكان ذلك صـدوراً عن احترام خاص شعروا به نحو الطائفة، ورأينا هناك، ووضعنا على رؤوسنا التاج الذهبي لشارل الكبير، الثمين جـداً، وكان كله مـرصعاً بالجواهر، ورأينا الصـولجان الـذهبي، والتفـاحـة الـذهبيـة، والركـابين الـذهبيين، وبقيـة الشعـارات الامبراطوريـة، وكلهـا كـانت قـد جلبت إلى نوريمبيرغ من فـرانكفـورت في ذلك الأسبـوع نفسـه، وذلك حيث جـرى انتخـاب مكسميليـان، المجيـد والمنتصر، دوق النمسـا، وابن فـردريك الثـالث الكبير، فقد انتخب ملكاً للرومان، وقد لبس هذه العلامات المقدسة.

وعلى هذا كـانت جولاتي ورحـلاتي واسعـة، جعلتني أتجول في جميع أرجـاء الدنيا، ولسـوف أعود الآن إلى القـدس، التي بقيت بعد مغـادرة شـارل الكبير لها بسـلام لبعض السنين، وكـان الغـربيـون مسمـوح لهم بزيارة الأماكن المقدسـة من دون أي معيقات، ولم يزعج المسلمون الذي امتلكوا مملكة القـدس، الحجـاج الـذين ارتحلوا إلى هناك، لأن شـارل لم

يعـد المملكة إلى المسيحيين، ولم يجعلها خـاضعـة له، بل قام فقط بإعـادة السلام بين المسيحيين والمسلمين، وهو سلام— على كل حال— لم يعش طويلاً، إنما طوال المدة التي عـاشهـا السـلام، زار الغـربيـون الأمـاكن المقـدسـة يومياً، في حشـود كبيرة، ونـامـوا في الليل في كنيسـة الضريح المقـــدس، لأنه لم يكن هنـاك مكان لسكنى اللاتين في المدينـة، ولم يكن هناك بعد دور ضيـافة، ولم تكن هناك أية كنيسـة لاتينية، بل تولى الروم الأرثوذكس ممارسة القداسـات في كنيسة الضريح المقدس، وفي الكنائس الأخرى.

وحدث في هذه الأيام أن جلب التجار من أبوليا سلعاً جديدة غريبة، لم تكن حتى ذلك الوقت معروفـة في الشرق، وقد جلبوا هذه السلع إلى الاسكندرية، للحصـول على الربـح ببيعهـا هناك، ومن المعتقـد أن هذه السلع، كـانت البندق، كما سـوف نوضـح ذلك في ص١٢٧ من القسم الثاني، وجلبت هذه السلع بمثابة أشياء ثمينة جداً إلى ملك مصر، الذي امتلك السلطة أيضاً على العربيـة، وفلسطين، واليهودية، وانجذب الملك بهذه السلع الجديدة، ووعـد التجـار مقـابلهم بأنـه سـوف يمنحهم أي طلب يسألونه إياه، وهكذا سألـوه وحصلوا على إذن ببناء مكان لإقامة الحجاج اللاتين، في أي مكان من القدس، يمكنهم اختياره.

وبناء عليـه بنو ديراً تشريفاً للعـذراء مـريم أمام باب كنيسـة الضريح المقدس، وأقـاموا هناك راعي الدير، ورهبـان لاتين، وبما أن اللاتين هم الذين فعلوا هذا، أطلقـوا على المكان نفسه اسم القـديسه مـريم للاتين، وبقيت هذه الكنيسـة مقدسـة، على بعـد رمية حجـر من ضريح الرب، وكـان راعي الدير والرهبان رجـالاً ذوي تقـوى عظيمة، وقـد استقبلوا الحجـاج من وراء البحـر بكـل اللطف الممكن، وعـاملوهم بكثير من التـواضع، ومع استمـرار تدفـق حشـود الحجـاج إلى هناك من الرجـال والنسـاء، جـرى استقبال الرجـال في بيت الضيافة في الـدير، لكن النساء

أقمن خارج أسواره، بأفضل مااستطاعوه، وقد تعرضن في بعض الأحيان للمضايقات من قبل المسلمين، وعانين من خسائر بسبب ذلك، ولذلك قام الرهبان بعد الدعاء لمريم معينة الحجاج أن تساعدهم، فبنوا إلى جانب ديرهم، في مواجهة جدار كنيسة الضريح المقدس، ديراً آخر للنساء، على جهة اليسار للانسان الداخل إلى الكنيسة، وأطلقوا عليه اسم دير مريم المجدلية، حيث جرى استقبال النساء الحاجات وجرت معاملتهن بشكل جيد، وهكذا تحسنت أوضاع الحجاج الغربيين في القدس، في أيام المسلمين، الذين بالاضافة لإثقالهم بكثير من الأعباء، ماكانوا ليسمحوا لهم بزيارة الأماكن المقدسة من دون أن يدفعوا لهم، ومن ثم الدخول بسلام، مثلما يفعلون هذه الأيام.

وهكذا فعل المسيحيون، وتدبروا أمورهم، لمدة تزيد على مائة سنة، أي من أيام شارل حتى أيام هنري الأول، الذي في أيامه، في سنة ١٠١٥، قام رجل مذنب، وأداة للشيطان، ومعذب لشعب المسيح، ومدمر للضريح المقدس اسمه الخليفة(الحاكم)ملك مصر الذي قام في نوبة جنون، فأزال من على وجه الأرض السلام والوئام الذي عمله شارل الكبير بين المسيحيين والمسلمين، وكان هذا الرجل قد ولد من أم مسيحية، وعندما صار ملك المسلمين، وخشية أن يعتقد أنه مقاد من قبل أمه، بدأ بممارسة أعمال وحشية ضد المسيحيين، فقد أرغم المسيحيين على التخلي عن عقيدتهم، وفرض ضرائب ثقيلة جداً عليهم، وضايقهم بكثير من الطرق الأخرى، وما من شيء أثاره ليكون متوحشاً ضد المسيحيين، وبحدة متناهية، مثل نقده بأنه شخصياً كان من دم مسيحي، الأمر الذي كان يشعر بالخجل الكبير منه، ولذلك ثار ضدهم بوحشية منفردة، من أجل أنه بفعله ذلك، يمكن أن يبرهن أنه ليس فيه نقطة دم مسيحي، ولايمكن أن يتأثر بالحب نحو المسيحيين والميل إليهم.

وكـان بين أعماله الشريرة الأخـرى التي اقترفهـا مـايلي: دخل المدينة المقـدسة مع حشـد كبير، ورمى أيضـاً تاج المسيحيين إلى الأرض، حيث أمـر بهدم كنيسـة الضريح المقــدس، التي بنيت بشكل فخـم من قبل قسطنطين الأول والكبير، وتدميرها دماراً كليـاً، وفي الوقت نفسه شعث الكنائس واستباحها على جبل صهيـون وبيت لحم، وحولهن إلى عبادات ديانة محمـدﷺ وعندما عملت هذه الأفاعيـل، أصبحت أوضاع المؤمنين في القـدس أكثـر سـوءاً، من الحزن العظيـم الذي شعـروه بسبب تدمير الكنيسـة، عـلاوة على ذلك منع المسيحيين من إقـامـة قـداسـاتهم، أو الاجتماع مع بعضهم من أجل العبـادات الربانيـة، وبذلك عـاشـوا في أوضاع ضيق شديد جـداً، بسبب ازعاجاتهم اليوميـة، وكانوا غارقين في أعماق الأسى بسبب دمار الضريح المقدس والكنيسة هناك.

وواضح من هـذا أن كنيسـة الضريح المقــدس التي بنيت مـن قبل هيـلانة، بقيت قائمـة لمدة سبعمائـة سنة، حيث في نهايتهـا دمرت دمـاراً كـامـلاً، وحـدث أنه في سنة ١٠٤٩، لتجسيـد الرب أن جـاءت الرحمة الربانيـة، فجلبت قليـلاً من الطمـأنينة للمسيحيين المدمـرين، ففي ذلك الوقت أزيل الطاغية المتقدم ذكره من هذا العالم، مخلفاً وريثاً كان أحسن منه شخصيـاً، وانتهت هذه الاضطرابات كلهـا، فما أن أصبح الظاهر، الذي كان أكبر أولاده، ملكاً، حتى عمل معاهدة واتفاق مع الامبراطور قسطنطين، وقـد تصرف بلطف نحو المسيحيين، وكـانت عـواطفه طيبـة نحوهم.

وفي هذه الآونة رأى البابا المقدس ليو التاسع— وكان ألماني المولد— رؤيا أثناء نومـه، قام بعـدها بتحريض الامبراطور قسطنطين على اعـادة بناء ضريح الرب في القدس، الذي جـرى تدميره قبل سبع وثلاثين سنة من قبـل البرابرة، وبناء عليــــه، أعطى الظـاهر المسلم، بنـاء على طلب الامبراطور قسطنطين، الإذن للمسيحيين بإعادة بناء هيكل ضريح الرب

المقدس.

وبناء عليه ذهب المسيحيون إلى هناك بسرور عظيم، وشرعوا ببناء كنيسة جديدة فوق ضريح الرب، وفق نموذج الكنيسة القديمة، وبالنسبة لنفقات إعادة البناء، تحمل الامبراطور قسطنطين معظمها، وهكذا فإن كنيسة الضريح المقدس القائمة الآن، قد بنيت في السنة المتقدمة الذكر، أي قبل خمس وعشرين سنة، من استرداد الأرض المقدسة، وهو الاسترداد الذي تولى تنفيذه غودفري، كما سوف نبين فيما بعد.

وبالنسبة لليهود ولبني اسرائيل، لقد كان لديهم هيكلين، واحد جاء بعد الآخر، هما هيكل سليمان، وهيكل عذرا أو زيرو بابل، ومثلهم امتلك المسيحيون هيكلين هما: هيكل هيلانة، والهيكل القائم في هذه الأيام، فقد عاش الأول سبعمائة سنة، وعاش الثاني أربعمائة وخمسين سنة، على أساس أننا الآن في سنة ١٤٨٨، وبعدما أعيد بناء الكنيسة، صار المسيحيون عندما يريدون زيارتها حسب طريقة ديانتهم، لايسمح المسلمون لهم بالسير حول الأماكن المقدسة بسلام، بل كانوا يفرضون عليهم ضرائب مالية، أويزعجونهم بالكلمات، وقد توفرت كراهية كبيرة وحقد شديد فيما بين الفئتين، لأن المسلمين الذي امتلكوا وقتها السلطة على تلك البلاد حملوا حقداً كبيراً ضد المسيحيين الغرباء، ولذلك استثير العالم المسيحي كله بسبب شكاوى الحجاج، وأصبح حانقاً ضد المسلمين، وبإخلاص رغب في إزالة تسلطهم، لأنهم عانوا طويلاً من آلام ظلمهم.

فمنذ أيام عمر الأمير المسلم الذي اعتلى العرش في مصر(كذا) في أيام الامبراطور هرقل حتى أيام غودفري، الملك اللاتيني الأول للقدس، والذي عاش في أيام(الامبراطور) هنري الثالث، ظلت المدينة المقدسة خاضعة إلى سلطة المسلمين، أي لمدة تقارب الأربعمائة والتسعين سنة،

وصحيح أن الأباطرة هرقل، وقسطنطين الثالث، وشارل الكبير قد حرروا المدينة المقدسة، بعض الشيء ومعها الضريح المقدس، لكنهم لم يحرروها كلها، وظل المسلمون يمتلكون السلطة على المسيحيين، وهي سلطة حولها الأباطرة المتقدمي الذكر أقل إرهاقاً، لكنهم لم يتمكنوا من ازالتها مطلقاً، لأنهم تدبروا إقامة سلام بين الشعبين بمواثيق، ولذلك كان تحريرهم للأرض المقدسة ناقصاً، ومثل هذا الوضع كان من غير الممكن ديمومته، وخاصة بين أناس لايمكن حملهم على الاتفاق في الدين، كما هو الحال بين المسيحيين والمسلمين، الذين توجد بينهما عداوة طبيعية، مع الكراهية التي نمت بين عرقين مختلفين من حيث الجنس، ومن حيث طريقة الحياة، والعادات، والديانة.

فصل يعالج التحرير الكامل للقدس وللضريح المقدس من قبل الأمم الغربية

حدث الانقاذ والتحرير الكامل لضريح الرب، ولمدينة القدس، ولكل الأرض المقدسة، في الوقت الذي كان فيه الامبراطور هنري، الثالث الذي حمل هذا الاسم، والذي كان بافارياً والبابا أوربان، الذي كان الثاني بهذا الاسم، وفي الحقيقة غالباً ماقام سلف هؤلاء الأمراء بالتشاور حول هذه القضية، في اجتماعاتهم المهيبة، وفي مجالسهم التشريعية، واجتماعات الأمراء الأخرى والأساقفة، وقد بدأوا حتى بالعمل، غير أنهم لم يتوصلوا إلى أية نتائج طيبة.

وبناء عليه، حدث في أيام الامبراطور هنري الثاني، والبابا فكتور الثاني، وجرى عقد مؤتمر ألماني في تور، التي هي مدينة مشهورة في فرنسا، وكان ذلك في سنة ١٠٥٥ لتجسيد ربنا.

وتقرر وقتها وجوب تحرير الأرض المقدسة، وفي ذلك الوقت كان أوتو Othus، كونت أنجليرا Angleria، وأمير ميلان، متميزاً بحكمته الكبيرة، ومعلوماته الواسعة في ادارة القضايا العامة، إلى درجة أنه كان رجلاً له قيمة عظيمة من أجل السلم والحرب، وهذا الرجل الذي كانت شجاعته معروفة لدى جميع الذين التقوا في هذا المجمع في تور، جرى اختياره ليكون قائد الحشد، الذي كان سيقاتل ضد الأتراك والمسلمين، من أجل تحرير الضريح المقدس للرب في القدس، وقد وافق على طلب البابا والملوك الآخرين، بدون تردد، وسار منطلقاً يريد القدس مع البقية.

وقد أمضى الشتاء مع المسيحيين الآخرين في حصار المدينة، وأنزل بالمسلمين كثيراً من الجراحات والأذى، وضيق الخناق على المدينة المقدسة كثيراً، ومع ذلك لم يستطع الاستيلاء عليها، وعندما كان محاصراً

لها، كان هناك أمير عربي مسلم من وراء الأردن اسمه Volucer، وكان يتصور نفسه رجلاً جريئاً، وقد تحدى أوتو— من خلال الترجمان— لمبارزته شخصياً، وقد تقبل أوتو هذا الاقتراح بكل سرور، وبناء عليه جاء الرجلان بعد ستة أيام، وهما مسلحان على ظهري فرسيهما، من أجل القتال، وحمل أوتو على ترسه سبعة أكاليل، لأنه كان قد هزم سبعة مقاتلين شجعان جداً، وذلك بضربة واحدة بسيفه.

وحمل Volux (كذا) سلاحاً مختلفاً، فقد كان في خوذته أفعى برونزية ملتفة بشكل رائع حولها، وفي فم الأفعى طفل من قماش، مبتلع حتى أضلاعه، لكن رأسه وكتفيه كانا في الخارج، وقد بدا فمه المفتوح كأنه يدعو إلى المساعدة، وأخذ الرجلان مكانهما، وهما يحملان هذه الشارات، في حقل القصار، أمام مدينة القدس المقدسة، وفي أول حملة ألقى أوتو Volux من على ظهر حصانه، وعلى الفور تناول عموده ورفعه، وبضربة حطم جمجمته، ونثر دماغه فوق الأرض، وبعدما مات أخذ أوتو خوذته، وحملها معه مع أسلابه الأخرى، وهكذا رفع الحصار، ومن ثم عاد إلى أور با لأن جيشه كان صغيراً.

وعندما وصل إلى ميلان، منح شعار سلاحه إلى المسيح والكنيسة، وأخذ الأفعى كدليل أبدي على نجاحه، وكرمز شخصي، ولهذا نجد في هذه الأيام أن دوقات ميلان وبقية أسرة الفيزكونت وهم يحملون هذا الرمز، يختمون نقودهم بصورة الأفعى، وهذه النقود قيد التداول الآن، ولها قيمتها وسمعتها في جميع ألمانيا، وتجلب أرباحاً كثيرة لدولة ميلان، واسم قطع نقودها الكبيرة Blaffardi، والأدنى Spagurlines، والنقود الوسط Trigeras.

وبناء عليه عاد القائد أوتو المتقدم الذكر إلى الوطن ثانية، وأخبر البابا وجميع أمراء الغرب، أن القدس والأرض المقدسة لايمكن الاستيلاء عليها، إلاّ بوساطة جيش كبير جداً، وفي غاية القوة، وأن يجري ارساله

عبر البحر.

وأعقب هـذا، أنه في سنة ١٠٦٣، اجتمـع حشـــد كبير من الألمان، للحج إلى ضريح الـرب في الأرض المقـدسـة، وانطلق عبر البر نحـو القدس: سيفرد Siphred(سيغفرد Siegfred ؟) رئيس أساقفة مينز، ووليم أسقف تريفس، وغونثر Gunther أسقف بامبيرغ وأوتو أسقف راتسبـــون Ratisbon مع كثير من النبلاء والأتباع، وكان بنيتهم عبور بحر يوكسين Euxine، وعندما وصلوا إلى بلغاريا تعرضوا لأذى كبيراً من قبل الشعوب الشمالية، ومع ذلك وصلوا وسط بلايا كبيرة إلى آسيـا، ثم وصلوا إلى تخوم سـورية، وعنـدمـا سمع حـاكم تلك المنطقـة بوصـول المسيحيين، جمع جيشـاً من الأتراك، وزحف ضـد أسـاقفنا وشعبنا، ونظراً للتغلب عليهم بالتفـوق العـددي، فقد التجأوا إلى قلعـة قـديمة، حيث سـدوا الثغـرات في السور القـديم، وجعلوا منهـا حصناً أقاموا به.

وحاول الاتراك الاستيـلاء على ذلك الحصن بالقوة، فلم يتمكنوا من فعل ذلك، ومع ذلك تابعوا مهـاجمة المكان لمدة يومين ليلاً ونهارا بشكل متواصل، وفي اليوم الثـالث، عندما جرى الاعلان عن هـدنة لمدة ساعة حتى يستردوا قـواهم، سأل رجـالنا الأتراك أن يبعثـوا ولاتهم وقـادتهم للتناقش حـول شروط سلام، وهكذا قـدم ستة من كبار أعيـان الأتراك إلى شعبنا، وفتح شعبنا لهم الباب، وتناقشـوا معهم لمدة طويلة، فوجدوا الأتراك ذوي آراء معاكسـة تماماً، لأن أساقفتنا عـرضوا عليهم إعطائهم كل مـاكان لـديهم، ووعدوهـم كثيراً من الزيادات، إذا مـاكـان بامكانهم العـودة إلى بلادهم بحياتهم فقط، ومع ذلـك لم يبد الأتراك نحـوهـم أية رحمة، وماكان يرضيهم إلاّ الموت أو استرقاق السادة الأساقفة.

وعندما رأى قومنا حالة الضيق والشدة التي هم فيها، أرسلوا بشكل سري بعض الخدم الذين عـرفوا المنطقـة، ليركضوا بكل سرعـة إلى عند

أمير الرملة وحاكمها، ولوعده بمبلغ كبير من المال، يدفع على الفور ليعطى له لقلع الأتراك، وبعدما أرسل جماعتنا هؤلاء الرسل، التمسوا من البرابرة منحهم شروط استسلام، ومنحوهم مالاً، لكن هؤلاء اهتموا فقط بالقبض على أشخاصهم، ومن ثم اعدامهم أو جعلهم أدنى الرقيق، ولم يحصلوا منهم على جواب غير هذا، وعندما صار رجالنا في حالة من اليأس، انقضوا على المسلمين الذين دخلوا إلى قلعتهم، ووضعوهم في الحديد.

وعندما علم جيشهم بهذا، حاول خرق الأسوار، وهاجمها بالمقذوفات، وبالنشاب وبالآلات الحربية، لكن رجالنا وضعوا أعيان رجالهم وقادتهم وهم بالأغلال فوق الأجزاء الأعظم خطورة من السور، وبذلك أخمدوا هجومهم وكبحوه، ودعوا إلى الرب بصلوات متوالية، وفجأة جاءهم العون ووصل إليهم، حيث كان أمير الرملة المسلم، قد حشد جيشاً من المسلمين ووصل إلى المكان، وطرد الأتراك، وأرغمهم على رفع الحصار، وحمل رجالنا من حصنهم، وطاردوا العدو المنهزم، وسلبوا رجاله، وأسروا كثيرين، قاموا بتعليقهم على المشانق، وبعد ذلك أعدموا القادة المأسورين مع عذاب مخيف.

وجاءت عملية الانقاذ للأساقفة في عشية يوم الفصح، أي في ليلة أحد الفصح، وكانوا عندما انطلقوا من ألمانيا، قد قرروا إمضاء أيام آلام الرب، والصعود، إلى الأماكن المقدسة في القدس، لكن هذا الحصار أعاقهم، هذا وقد حمل ذلك المسلم هؤلاء الحجاج سالمين إلى القدس، وبعدما أجازوه عاد ثانية إلى موطنه، وعندما عاد الأساقفة الحجاج الألمان إلى ألمانيا، عادوا عبر البحر، وتخلوا عن الارتحال عبر البر، خشية أن يقعوا ثانية فريسة للأتراك، لأن الأتراك كانوا قد استولوا على آسيا الصغرى وجميع تلك المنطقة، وصولاً حتى سورية، وغالباً ماكان الأتراك والعرب المسلمين على خلاف، وأتصور أنهم كذلك في هذه

الأيام أيضاً.

وفي سنة ١٠٧٠ قرر ثيودورك، رئيس أساقفة تريفس القيام برحلة إلى القدس عبر البحر، غير أن سفينته غرقت في البحر في العاصفة، وهلك هو وجميع أتباعه.

ولم يعد العرب المسلمون والأتراك بعد هذا يكتفون بمهاجمة القدس والأرض المقدسة بحدة أكثر من ذي قبل، بل شرعوا يندفعون في كل مكان في العالم المسيحي، وغدت امبراطورية القسطنطينية ضعيفة جداً بسبب الأتراك، وبصعوبة بالغة كان بامكانها الاحتفاظ بتراقيا، وغلاطيا، وبنطش، وسيسالي Thessaly ، ومقدونية وآخيا، ومن هذه المناطق اعتاد الأتراك والعرب على اقتطاع بعض الأجزاء، ونغصوا حياة المسيحيين الذين سكنوا فيهم، وأسيئت بشكل خاص معاملة المسيحيين في القدس والأرض المقدسة، لأنه في سنة ١٠٨٢، انقض الـ Bo-reades أو الأتراك على فلسطين بجيش مسلح، ودمروا البلاد بالسيف والنار، ونهبوا في الوقت نفسه مدينة القدس، وقتلوا بشكل تعيس المسيحيين الذين وجدوهم هناك، ودنسوا الضريح المقدس بكثير من التجاوزات والانتهاكات.

وأرسل في الوقت نفسه امبراطور القسطنطينية، رسلاً إلى الامبراطور الروماني هنري الثالث، وإلى أمراء الغرب، شارحاً لهم ماحدث، وملتمساً منهم القدوم لانقاذ الأرض المقدسة، وفي أيام ولاية البابا أوربان الثاني والامبراطور هنري الثالث، كان هناك ناسك في فرنسا اسمه بطرس، وكان رجلاً عظيم الحكمة، ولامثيل له بالقداسة، ومما لاشك فيه تحرك هذا الرجل بوساطة الروح القدس، حيث تخلى عن خلوته الهادئة، وحمل نفسه إلى القيام بجولات مقدسة، وقد انطلق مع كثير من الحجاج الآخرين، وعبر البحر، ووصل إلى ضريح الرب، في الأرض المقدسة، حيث قبل الأماكن المقدسة، فشعر بقوة، وبتقوى

متوهجة، وعندما رأى هذه الأماكن الأعظم قداسة تعامل بقدر عظيم من السوء من قبل المسلمين، وسمعان المبجل، بطريرك المكان واكليروسه يرفض ويقاوم، والمسيحيين الآخرين مظلومين، وأسيئت معاملة الحجاج كثيراً، وقد أحزنه وآلمه، وشعر قلبه بالمرارة تجاه مثل هذا الظلم، وكان قد حدث له أنه في مساء عيد الفصح، عندما دخل إلى كنيسة الضريح المقدس، ليبقى ساهراً في تلك الليلة الأعظم قداسة، وقد سحب نفسه إلى زاوية داخلية في الكنيسة، حتى يتمكن من صرف نفسه بهدوء أكثر وانتباه أعظم نحو حمد الرب وشكره، وهناك صلى بعقل واعي، وروح مضطربة، ومع دموع كثيرة قائلاً:« إلى متى يارب ستبقى أماكنك المقدسة مداسة تحت الأقدام، وحجاجك مضحكة ويستخف بهم وتساء معاملتهم؟ استمع يارب، وافعل هذا الشيء وهو تحرير الأرض التي أعطيتها إلى آبائي، وهذه المدينة التي مجدتها بعقيدتك ومعجزات، والتي قدستها بدمك الثمين وصليبك، والتي جعلتها بقيامتك المجيدة وحولتها الأعظم شهرة في جميع أرجاء العالم»، وكان هذا الرجل المقدس يقول هذا وأمثاله من الصلوات، وقصد أن يريح أطرافه المتعبة لبعض الوقت، فجلس على البلاط، وأمال رأسه على الجدار، وبذلك بدأ ينام بجسده، مع أن عقله بقي مستيقظاً بصلاة مؤلمة إلى الرب، وفجأة رأى الرب يسوع خارجاً بشكل رائع من ضريحه، وقال له، وهو ينظر إليه:« انهض يابطرس، وأسرع إلى روما، وقل لأوربان، بابا روما، يقول لك الرب مايلي: مثلما جلبت في الماضي نوراً إلى الغرب من الشرق، مثل هذا، من الغرب سوف أجلب نوراً إلى الشرق، وإلى مدينة القدس، وذلك بسبب اسمي العظيم، ولسوف أعطي ضريحي المقدس إلى القادمين من الغرب، حتى يقوموا بعبادتي، واظهاري إلى غير المؤمنين، ولكي يقوموا باحترام الأماكن المقدسة، وهي أماكن انقاذ بني البشر»، وبعدما قال هذه الكلمات، انتهت الرؤيا، وقام بطرس الذي لم يكن لديه شك حول صدق الذي سمعه، بالعودة

إلى رومـا، وبجـرأة ذهب إلى البـابـا أوربان الثـاني(١)، وأخبره ببسـاطة بالرسالة التي كلف بحملها.

وفتح الرب عقل البـابا، فأدرك بـأن هذا الشيء كـان من عند الرب، فقـام على الفور بتـوجيـه الدعـوة إلى عقد مجمع عـام في كليرمـونت في أوفـرين Auvergne ، وكـان ذلك في سنـة ١٠٩٤ لتجسيـــد الرب، وقـد أقنع المجمـع بارسـال جيش لمحـاربة المسلمين، من أجل استرداد القـدس، وعين ثلاثمائـة ألف رجل مـع الصليب، وتولى تكريس حشـد حملة الصليب إلى مـريم العذراء الأعظم مبـاركـة، وأمر بوجـوب تلاوة صلوات مـريم العذراء المبـاركة، السـاعية، يوميـا، من قبل الكهنة، من أجل أن تصبح حـاميـة لجيشهـا، وإلى بطرك الناسك أعطى مـراسيم بابويـة، وبعث به إلى ملوك وأمـراء الغـرب، حتـى يسرعـوا إلى انقـاذ الأرض المقدسة، وفقاً لأوامر الرب، التي كشفها إلى بطرس.

وبناء عليـه انطلق بطرس إلى الملوك والأمـراء، والأعيـان، وحكام المناطق، وقـد استقبل من قبلهم جميعاً مثل مـلاك الرب، وأصغوا إليـه بعناية كبيرة جداً وعلى الفـور أخذ جميع الناس بالاستعـداد، طاعة منهم لأوامر الرب وأوامر البابا، وفي الحقيقة، كانت تلك مهمة عظيمة ألقاها على عواتقهم، بوجوب اصغائهم إلى رجل فقير، من أصل وضيع، وكان أيضاً رجلاً ليس معروفـاً ومجهولاً، وذلك من دون رؤية، أو اظهار، أية معجـزة، أوسماع أي خطاب وعظ فصيح، وكـان أن صدقـوا كلماته الواضحـة، وقـد لبى البـابا، والكرادلة المثقفين، والاكليروس، ورجـال الطوائف الدينية، مادعاهم إليـه وأطاعوه، وصدقه ووثق به، الامبراطور سيـد الدنيا، مع الملوك، والحكام، والكونتـات، وجاء ذلك دون تقـديم

١ — الحكايات حـول بطرس الناسـك مخترعـة، وهنا يقـدم لنا فـابري احـدى هذه المخترعـات ولنتـذكر هنـا أن أوربان الثاني لم يكن وقتهـا مقيماً في رومـا بل في فـرنسا، وكـان يشغل عـرش البابوية في روما، بابا آخر عينه الامبراطور.

أي برهان، أو شاهد يشهد على صحة ماأتى به.

وفي الحقيقة كان الناس ذوي عقول أفضل، واستيعاباً أحسن، من بني اسرائيل، الذين بعد رؤيتهم لمعجزات رائعة ولم يُسمع بمثلها، لم يكن إلاّ بصعوبة بالغة جعلهم يصدقون موسى، ولدى انتشار هذه الحكاية في أرجاء أوربا، تدفق جميع الناس مع بعضهم، مدفوعين برغبة جامحة، وجاءوا من اسبانيا، ومن بروفنس، وأكوتين، وبريتاني، وسكوتلندا، وألمانيا، ومن ألمانيا، أو بلاد التيوتون من الشمال والغرب، ومن شواطىء البحر الشمالي، والبحر المتوسط، ومن أكثر الممالك قوة، ومن لومباردي، وايطاليا، وأبوليا، ودالماشيا، وهنغاريا، وايلّيريا، ومن جميع جزر المحيط، والبحر المتوسط، وبحر بنطش، ومن بلاد اليونان الأوربية، القائمة على جانبنا من البوسفور، والمتضمنة: تراقيا، ومقدونية، وايبيروس، وآخيا، والبلونيز، وهي بلاد كانت في ذلك الوقت كلها مسيحية، لأنها الآن خاضعة للأتراك، وذلك حتى حدود ايلّيريا، وهنغاريا، وبانونيا، ودالماشيا، فلقد تدفق الناس من جميع هذه البلدان، وتجمعوا مع بعضهم مثل أسود منقضة على فريستها، ولم يكن هناك في جميع المناطق التي يضمها الغرب، بيت واحد وقف دونها نشاط، بل جاء من ذلك البيت الأول أب، ومن البيت الثاني ابن، ومن البيت الثالث الأسرة كلها، وكان الجميع شارعين بالاستعداد من أجل رحلتهم، وكانوا يقومسون بالوداع مع الآهات والتنهدات، حيث كانوا يقولون«وداعاً» للمرة الأخيرة.

وفي الحقيقة صار الدواء أعظم من الداء، لأن بعضهم قد اقتنع برغبة الذهاب إلى القدس حتى ينسوا واجبهم في الوطن، وقطع كثير من النساك، ورهبان الديرة، والفتيات، والأزواج المرتبطين بروابط الزواج، وكثير من الراهبات، قطعوا عهود طاعتهم من دون إذن أو إجازة، وانطلقوا من ديرتهم، واختلطوا بصفوف الناس المسلحين، وعندما

طلبـوا وضع علامـة الصليب عليهم، وأخبروا من قبل الأساقفـة الذين منحوا هذه العلامة، أنها بلا فـائدة لهم، وأشير عليهم بالعودة إلى الوطن ثانيـة، أظهـر بعضهم عـلامـات مسـامير الصليب وقـد انطبعت بشكل اعجـازي على أجسـادهم، وقـام آخـرون، حتى من الفتيـات والنسـاء العجـائـز، بالتفـاخر بأنهن يحملـن هذه العلامـات، وقـام آخـرون بكّي أنفسهم بشكل متوحش بحديد محمى، حتى يرسموا على أنفسهم علامة الصليب، وكانت حمى الحماس بين جميع طبقات المسيحيين مدهشة.

وجـرى تعيين قـادة ومقـدمين على الجميع، وعلى الفئات المسلحـة المنفـردة، من قبل أمـرائهـم وأسـاقفتهم، كما جـرى بوسـاطة السلطة الرسـوليـة تعيين ذلك النبيل والمقـاتل الذي لانظير له، الذي اسمـه غودفري، كـونت غالآشيا Gallacia (كذا) ودوق اللورين، وتسميته مقـدماً، وقـائـداً عـاماً للجيش كله، وحـاكما لجميع الفئات فيـه، وتولى هو— مثل يهوذا مكابي ثاني— مع اخوانه، والرفـاق النبلاء إثارة الحرب وشنها في سبيل الرب، وكـان في جيشه عدداً كبيراً من المقـاتلين الفائقي الشجاعة، والبارونات، والكونتات، والفرسان، وكان قد تولى المسؤولية الروحية همر(أدهمر) الذي كان مثـلاً أعلى، وكان أسقفا لبادوا Padua، وركض بطرس المتقـدم الذكـر إلى الأمـام وإلى الخلف في جميع البلدان، وجمع جيشـاً عظيما وقـوياً، حـوى حـوالي الأربعين ألفـاً من الـرجـال المسلحين، يتولى هو قيادتهم، ومثله فعل الرجال العظماء الآخرون، الذين نظر إليهم الناس نظرة احترام، فحشـدوا رجالاً حـولهم، وجرى اعـداد هذه الحملة خـلال سنوات ثلاث، وذلك قبل أن تقلع الحشـود وتأخـذ طريقها.

وفي الحقيقـة اجتمع واحتشـد: ملوك، و ودوقـات، وكـونتـات، وبارونات، وفرسـان، وعساكر، ورجـال أقوياء، وحكام، وولاة مناطق، ونبلاء، وعـوام، وأغنياء وفقراء، وأهل مـدن وسكان أرياف، ومواطنين

وأقنان، وأحرار وعبيد، وعلمانيون ولاهوتيون، وكهنة ورهبان، وأساقفة ورعاة ديرة، وكرادلة، ورجال ونساء من الطوائف الدينية، وشباب وشيوخ، ونساء وفتيات، وأرامل وزوجات، وعظم حجم حشد الرب إلى حد عظيم العدد حتى أن وليم(الصوري) قال:« لم يُر قط مثل هذه الأمم مجتمعة ومتفقة على هدف واحد، وكان عدد الناس فوق ماهو متصور، ذلك أن بعض الذين قاموا باحصاء الأعداد، قالوا بوجود ستة ملايين من الرجال قد حملوا شارة الصليب، فهؤلاء أعدوا أنفسهم من أجل الرب».

وكان بين هؤلاء— كما قلت— القائد الذي لانظير له، الذي هو غودفري، فهو كان الأعظم مكانة، حيث كان قائد جميع الحشود، وتحت قيادته جرى تعيين عدة قادة لكل فئة من الفئات، وعندما بات كل شيء معدّاً على هذه الصورة، في سنة ١٠٩٧، لتجسيد الرب، بدأ الحشد بالزحف من أماكن تجمعاته، وبما أنه لاالأرض ولا البحر كان من الممكن لهما استيعاب هذه الأعداد دفعة واحدة، فقد إنقسم الجميع إلى حشود، والحشود إلى فيالق، والفيالق إلى جيوش، والجيوش إلى ألوية اقتيد كل منها من قبل قائد، وتحت هؤلاء القادة كان هناك قادة مئات وقادة عشرات، وهكذا توجهوا نحو البحر في مجموعات منفصلة إلى موانىء متعددة، وفي الوقت نفسه ذهب آخرون كثر على الخيول وعلى الأقدام من خلال هنغاريا إلى دالماشيا، ومن ثم دخلوا إلى بلاد الاغريق، ومضى بعضهم حول بحر يوكسين وبحر آزوف(Maeotic Marsh)، ووصلوا من خلال بلاد خلقيدونيا إلى كبدوكية، وعلى هذا أرغم هذا الحشد الكبير على البحث عن أطول الطرق هناك.

أما بالنسبة للمخاطر التي ألمت بشعب الرب خلال الحاجة إلى الضروريات، ومن الشتات وعدم الاستقرار، ومن الصراعات بينهم أنفسهم، ومن الطاعون، ومن هجمات الأعداء، فهذا كله يحتاج إلى

وقت طويل للحديث عنه، والذي يريد أن يقرأ حول ذلك، عليه أن يعود إلى فنستوس أوف بوفيا Vincentius of beauvais في مصنفه Speculum Historiale— الكتاب:٣١، الفصل:٤٢، ولدى عدد كبير آخر من الكتّاب.

والذي عانى منه المسيحيون على أيدي الأعداء والكفار من الممكن تحمله، لكن الشرور التي أنزلوها بأنفسهم، والمعيقات التي واجهوها من الهنغار والاغريق، والمذابح التي اقترفها هؤلاء بين رجالهم المسلحين، أعظم ايذاء من أن تحتمل، ولسوف أكتفي بذكر قضية واحدة بين عدد كبير من القضايا، فقد كان هناك كاهن ألماني اسمه غونديكالكوس Gondecalcus، وكان شجاعاً ورجلاً جريئاً، وكانت ميوله الطبيعية نحو القتال، أعظم منها نحو تلاوة القداس، وحشد هذا الرجل جيشاً مؤلفاً من خمسين ألفاً من الرجال المسلحين وذلك من عامة الناس في ألمانيا، وعندما وصلوا إلى هنغاريا، ونهبوا بعض القرى هناك، لتزويد أنفسهم بالذي كانوا محتاجين إليه، انقض ملك هنغاريا عليهم، وأوقع فيهم مذبحة غير انسانية تماماً، حيث لم يميز بين البريء والمجرم، وبذلك مزق ذلك الجيش حتى مامن أحد فيه شارك في الصليبية كما كان ناوياً، بل الذين نجوا من سيف الهنغار عادوا آسفين إلى وطنهم في ألمانيا.

أما بالنسبة للأذى والمضار التي أنزلها بشعب الرب امبراطور القسطنطينية، فكتاب كبير من الصعب أن يكفي للحديث عنها جميعاً، والشيء نفسه الذي نزل بالمسيحيين في هذه الحملة، يشابهه ما نزل بالرومان عندما انطلقوا للقتال ضد قرطاج، فبعدما حشدوا جيشاً كبيراً جداً، وصلوا إلى أفريقيا، وبنيتهم القتال ضد قرطاج، ولدى وصولهم إلى أحد الأنهار انقض على فرقهم حيوان هائل، وكان ثعباناً متوحشاً جداً، حيث تمكن من قتل أعداد كبيرة من الرجال، وبعنف أعيقوا من

قبل هذا الحيوان الوحيد، إلى حد أرغموا فيه على جلب جميع آلات الحرب لديهم للحملة عليه، وبعد مقتل عدد كبير، أمكن أخيراً غلبة ذلك الحيوان، وسحق بالحجارة، ولقد كان مقياس جلده سبعين قدماً، وعندما حمل إلى روما، صعق كل من رآه عجباً ورعباً.

ومثل هذا الآن عندما وصل غودفري، ذلك الرجل المجيد مع قواته إلى القسطنطينية، قرر الانتظار هناك حتى تلحق به بقية قواته، لأنه كان عليه الاستعداد على حدود المسلمين الأتراك، حيث كان ما أن يعبر البوسفور، لايمكنه المرور خلال الأراضي التركية من دون قتال، وإثر اجتماع جميع الفرق مع بعضها، تشكل هناك جيش واحد للرب الحي، ولدى استعراض جميع الفرق وجدوا هناك سبعمائة ألف من المقاتلين الرجّالة، ومائة ألف من الفرسان الدارعين، فضلاً عن استمرار تدفق الرجال والتحاقهم بالفرق، وغادر هؤلاء جميعاً القسطنطينية، وعبروا بالسفن البوسفور، أي ذراع القديس جورج، وبذلك عبروا من تراقيا إلى بيسينيا، والبوسفور هذا هو ذراع ضيق من القناة التي يصب فيها البحر المتوسط في بحر يوكسين، وهو ضيق إلى حد أن الذي تتطلب أعماله، يمكنه أن يعبر ثلاث مرات أو أربع مرات من تراقيا إلى بيسينيا، ومن القسطنطينية إلى خلقيدونية، والعودة ثانية.

وعندما وصلوا إلى بيسينيا، وهي منطقة في آسية الصغرى، مروا بجميع القرى الأخرى والبلدات وقصدوا مباشرة مدينة نيقية، وهي مدينة مكتظة جداً بالسكان، شرعوا بمحاصرتها في ٢٠ حزيران ١٠٩٧، وهرب مقدم الأعداء(قلج أرسلان بن) سليمان التركي، الذي كان صاحب نيقية، مع كثيرين سواه، ونجامنهم، وطاف الأتراك في المنطقة، حيث تمكنوا من حشد جيش لقتالنا، وبعد ترتيب الأمور في نيقية انطلق الجيش، وزحف نازلاً من بيسينيا إلى بامفيليا Pamphyliaمع عناء كبير، وهنا التقوا مع(قلج أرسلان بن) سليمان الذي كان معه جيشاً

كبيراً من المسلمين، واشتبكوا في القتـال، وبفضل الرب هـزم شعبنا الأعداء، وأرغموهم على الفـرار، وقتلوا ثلاثة آلاف من نخبة مقاتليهم، في حين سقط من جانبنا من الناس غير المسلحين حوالي الستة آلاف.

ونزلوا من مقاطعـة بامفيليا إلى أراضي كليكيا، وهناك هزمـوا العدو، واستولوا على مدينة طرسوس القديمة جدا، والجليلة، مع المدن الأخرى لتلك المنطقــة، ومن أجـل وصف لتلك الأراضي انظـر ص١٣٨ من القسم الثـاني، وتابعـوا زحفهم مـن هناك، فـوصل جيشهم عبر محطات كثيرة إلى سـوريـة المجـوفـة، ومن ثـم إلى مـدينة أنطاكيـة الجليلة، التي احتلت فيها مضى المقام الثالث بعد روما نفسها، وكانت المقدمة والسيدة لجميع المناطق في الشرق، وكـان اسـم هذه المدينة في العصـور القـديمـة ربلة(١) (الملوك الثـاني: ٢٥/ ٢٠—٢١. ارميا:٣٩/ ٥—٦) وهنا جـرى اعدام أولاد صـدقيا، ملـك القدس أمام عينيـه، كما جرى اقتـلاع عيني صدقيـا نفسه، وبعـد موت الاسكندر المقـدوني الكبير، قام انطـوخيوس بتحصين هذا المكان بـالأسـوار والأبراج، واتخذ من المدينة عـاصمــة لامبراطوريتـه، سماها انطاكيـة، صـدوراً عن اسمـه، وهنا جلس بطرس المقــدم بين الرسل، أسقفـاً لمدة سبع سنـوات، مشهـوراً بسبب أعماله اللاهوتية والمعجزات التي عملها، وهنا جرى عقد أول مجمع للمؤمنين، خـلاله منحوا اسم مسيحيين، لأنه حتـى ذلك الحين، كان الذين اتبعـوا تعاليم المسيح، قد عرفوا باسم النصارى، أو الرسل، لكن فيها بعد حملوا اسم مسيحيين، حسبما ورد الخبر في أعمال الرسل(١١/ ٢٦)، ويقال بأن بطريرك هذه المدينة، يوجد تحت سلطته عشرين منطقة.

وهذه المدينة قـائمة في منطقـة سورية المجـوفة، وتشغل مكاناً مـوائماً جداً، وموقعاً جميلاً، وهي كلها مروية تقريباً بينابيع وجداول، ويوجد في داخل اطار الأسوار هناك رابيتـان عاليتان كثيراً، وقـد بدت الأولى بينها

١— هذا وهم، وربلة بلدة واقعة على العاصي إلى الغرب من حمص.

هي الأعلى، وهي تحمل على حـافتهـا قلعـة جيـدة التحصين، وهاتان الرابيتان منفصلتـان عن بعضهما بواد عميق جداً، وضيـق، خلاله يجري جدول إلى وسط المدينة، ويقول بعضهم بأن طول المدينة ميلين ايطاليين، ويقول آخـرون ثلاثة أميال، وهي تبعـد عن البحر عشرة، أو اثني عشر ميـلاً، ويتـولى السلطة بشكل آثم فيهـا، منذ زمن طويل الأتراك، مع أن محمدﷺ لم يتجرأ عندما كان حيـاً على الاقتراب منها، وقد ذكر في قرآنه أربع مدن، اثنتـان مباركتان، هما: القـدس ومكة، واثنتان ملعـونتان هما: أنطاكية وروما.

وفي أثناء حصـارها كـان يحكمهـا رجل كبير بين الأتراك اسمـه يغي سيان الفارسي، وعندما وصل رجال شعبنا إلى هذه المدينة الحصينة جداً، حاصروها لمدة ثمانيـة أشهر، وفي أثناء ذلك الحصـار عانى جيشنا كثيراً، وتعـرض بشكل دائـم إلى حملات مفـاجئة من قبل أهـل المدينة، ومن كوارث كثيرة نزلت بهم أمام أسوارها، ولهذا صرخ الناس جميعاً بصوت مـرتفع بأن الحصـار ينبغي رفعـه، ولولا أن أحـد القـادة عـارض رفع الحصار، لرفعوا الحصار خاسرين ملومين، وكان هذا القائد يتآمر بشكل سري من أجل تسليم المدينة إليه بشكل خياني، الأمر الذي تمّ فعله.

وجـرى الاستيـلاء على هذه المدينة في سنة ١٠٩٨ لتجسيـد الرب، وقتل المحـاصرون عندمـا خـرقـوا المدينة ودخلوها، كل من صـدفـوه، واقترفـوا كثيراً من الفظائع هنـاك فيهـا، ولم يكن في المدينة أطعمـة، لأن أهل المدينة كـانوا قـد أكلوا مـاكان فيهـا أثناء الحصـار، لكنهم وجـدوا مخزوناً كبيراً من الذهب والفضة والأشياء الثمينة، وفي اليوم الثالث بعد الاستيلاء على المدينة، وصل كربوغا، الذي كـان أميراً فارسياً قوياً جداً، إلى مساعـدة أهل أنطاكية، مع قوات كبيرة جداً، وجـاء وصوله بناء على التماسات أهل أنطاكية بتقـديم العون لهم، وقد أقام حواجـز دفاعية من حـول المدينة، وهكذا حـدث أن المسيحيين الذين كـانوا قبـل أيام

يحاصرون المدينة،ثم جعلوها مـدينتهم، انقلب حالهم تماماً، مثلما يحدث غـالبـاً في الشـؤون البشرية، وأصبحـوا الآن تحت الحصـار، وعـانوا إلى أقصى الحدود من الحاجة إلى الطعام.

وتشدد الحصـار عليهم إلى حد أن مـامن انسان كـان بامكانه الخروج من المدينة أو الدخول إليهـا، وتغير وضع شعبنا إلى الأسوأ بشكل كبير، وكـانت هناك ندرة عظيمة في الأطعمـة داخل المدينة، إلى حـد أن شعبنا كان مسروراً بإرضاء نفوسه بالأطعمة الملوثة وغير الطبيعية، ولم يمتلك ذوي النشأة الناعمـة والطعـام اللين، شيئاً ليأكلوه أفضل من البقيـة، ولم يكن هناك تمييز بين لحم نظيف ولحم نجس، ولماذا عليّ أن أقول أكثر؟

ونظر إلى الجمال، والحمير، والخيول، والبغال، وجميع أنواع الحيوانات النجسة، على أن لحومها طيبـة جداً، من قبل الذين امتلكوا الحظ للأكل منها، وللحصول على مثل هذه الأنواع من الأطعمة، التي من المؤلم مجرد النظر إليهـا، تجول بعـض الناس هنا وهناك بنفـوس مكسـورة وهم يتسـولون في الشوارع والأزقـة في المدينة، وامتـزج الرجال الأقـوياء مع النبلاء بالرعـاع، ومامن تاريخ يمكنه أن يخبرنا عـن مثل أولئك الأمراء العظام، وعن جيش بمثل تلـك العظمـة، استطاع بصبر تحمل مثل تلك الندرة بالأطعمة وتلك التعاسة وذلك الشقاء.

وفي الوقت الذي كـان فيه شعب المسيح يعيش في ظل تلك المعـاناة، نظر الرب إلى آلامهم، وبعث مـواسـاة طيبـة لهم، فقـد كـان في الجيش رجل سـاذج، منصرف كثيراً إلى تقـديس الرسول القـديس أندرو، وقـد تجلى القـديس أندرو إليـه، عندما كـان نائماً، وأخبره بأن العـدو لايمكن هزيمته إلاّ بسنان الـرمح الذي طعن به جنب الرب يسوع، عندمـا كان على الصليب، علاوة على ذلك أظهر الرسول بوضوح إلى متعبده المكان الموجـود فيـه سنان الرمـح المقـدس تحت الأرض في كنيسـة القـديس بطرس.

وفي الصباح استيقظ هذا الرجل، وأخبر بما رآه الأساقفة والأمراء، فذهبوا بمسيرة إلى المكان الذي حدد له، وبعدما حفروا عميقاً في الأرض، وجدوا سنان الرمح وحملوه مع سرور عظيم، مع أن كثيرين استخفوا به وتشككوا، لكن جندياً عمل ناراً طولها ثلاثة عشر قدماً في وسط الشارع، وأخذ سنان الرمح بيده، ومشى خلال النار دون أن يصاب بأذى، وبذلك تشجع رجال جيش الرب كثيراً، لأنه بسبب معاناتهم نشبت الخلافات في المدينة، وشرع عدد كبير من الأمراء يفكرون بشكل سري، ويتآمرون لإيجاد السبل، ليتمكنوا من النجاة بأنفسهم، لكن بعد العثور على سنان الرمح المقدس، ربطوا أنفسهم بقسم جديد، وأقسموا بالرب بأنهم سوف لن يترك أحدهم الآخر ويتخلى عنه قبل إعادة المدينة المقدسة إلى حريتها الماضية.

وفي اجتماع عقد فيما بين الشيوخ والمقدمين، جرى تحديد يوم يقومون فيه بمواجهة العدو، ومقاتلته، وبناء عليه في الليلة التي تقدمت على اليوم الخامس والعشرين لحصارهم، لم يكن هناك راحة، بل أعدّ الرجال جميعاً أنفسهم من أجل القتال في الصباح، وتحزموا بأسلحتهم، واستمعوا إلى قداسات في الكنائس في المساء، واعترفوا بذنوبهم، وتناولوا القربان، وبوساطة هذا القربان، نال الناس كثيراً من النعمة، وبذلك غدا الناس الذين كانوا في البارحة بلاطاقة، وبلافائدة، وغير قادرين على السير متجاوزين عتبات بيوتهم، الآن قادرين على التقدم، وقد تعهد كل واحد منهم وأقسم بأنه سوف يتفوق على البقية في المعركة، ولدى الفراغ من تنظيم الصفوف، فتحت الأبواب وقام الأساقفة مع رجال الدين الآخرين، وهم في ملابسهم المقدسة بمباركة الناس لدى توجههم إلى القتال، وعندما كان الحشد يزحف خارجاً من المدينة، تساقط عليه ندى في غاية الحلاوة، وقد بلل جميع الحشد، مما أنعش كل من الناس والدواب سواء.

وزحف شعبنا ببطيء نحو الأعداء، وقد حملوا معهم رمح الرب، وبمعونة الرب، وبعد قتال مرير، جرى تحطيم جناحي العدو، وتمزقت صفوفه، وبدأت عساكره بالفرار، ورجالنا يتولون مطاردتهم، وقد استمروا يضربون ويقتلون في صفوفهم حتى غياب الشمس، وعندما انتهت المعركة رجع شعبنا إلى معسكر العدو، حيث وجدوا كميات كبيرة وافرة من جميع الأشياء الضرورية، مع مخزون هائل من ثروات الشرق، والذهب، والفضة، والمجوهرات، والسلع الثمينة، مما لايمكن حصره ولاعدّه، علاوة على ذلك تمّ العثور هناك على قطعان كثيرة، وعلى أطعمة وافرة، إلى حد أن الذين كانوا من قبل بحاجة ماسة لكل شيء، قد باتوا الآن لايعرفون ماذا يختارون من الأشياء الجيدة الموجودة أمامهم، ولقد نالوا هذا النصر في سنة ١٠٩٨م.

واستعدوا بعد هذا للزحف نحو القدس، وانطلقوا في اليوم الأول من ايلول، وبعد مرورهم بكثير من المناطق، والاستيلاء على كثير من المدن بالقوة، وذلك على طول ساحل البحر، دخلوا إلى سورية، وعسكروا أمام طرابلس، التي كانت مدينة بحرية فائقة القوة وعظيمة، عازمين على الاستيلاء عليها، وتقدم أهل طرابلس لقتال شعبنا، غير أنهم أصيبوا بالرعب مباشرة بوساطة معجزة، فأداروا ظهورهم، وركضوا راجعين إلى المدينة، وبعدما حاصر شعبنا المدينة المقدسة لبعض الوقت، بدأوا يتذمرون بسبب تعبهم ولأن صبرهم تلاشى لرغبتهم بالوصول إلى القدس، وقد كانت هناك خلافات فيا بينهم، لأن النبلاء، والأمراء والأعيان بينهم أرادوا الإستيلاء على كل مكان حتى القدس، في حين أراد الرعاع والعامة من الناس، واعتقدوا وجوب الاستيلاء على القدس أولاً، وأنه بعد ذلك، يمكن منها الاستيلاء على المناطق التي من حولها ومهاجمتها، ولذلك قام الأمراء ارضاء للشعب برفع الحصار عن طرابلس، وزحفوا على طول الساحل، ووصلوا في اليوم الثالث إلى

بيروت، وكانت بيروت مدينة عظيمة على شاطىء البحر، كما وكانت من قبل مستعمرة رومانية، وذلك حسبما حدثنا جيروم في روايته عن حياة وموت باولا، لكنها الآن ملك السلطان، ويوجد فيها ميناء لاستخدامات كل من التجار المسلمين والتجار المسيحيين.

ومن هناك وصلوا إلى صيدا، ومروا بصور، وقد وجدوا أن هاتين المدينتين، مدينتين عظيمتين على شاطىء البحر، محصنتان بشكل جيد، وعلى استعداد لصد الغزاة، وتابعوا السير على طريقهم فوصلوا إلى سهل عكا، وهي مدينة حصينة جداً على ساحل البحر، وأصيب ساحل فلسطين كله بالرعب لدى وصول جيشنا، وعاش في حالة خوف عظيم، وتابعوا مسيرهم فوصلوا إلى جبل الكرمل، وتركوا الجليل على يسارهم، ومروا بقيسارية فلسطين، التي على شاطىء البحر، ونصبوا معسكراً في الحقل ليس بعيداً عن قيسارية، وعندما كانوا معسكرين هناك جرح صقر طائراً من الحمام كان يطير فوق المعسكر، جرحاً بليغاً، لذلك سقط فوق الجيش، فوجدوه يحمل رسالة جاء نصها كما يلي:« يتمنى ملك عكا الصحة إلى والي قيسارية، هناك جيل من الكلاب، من شعب مشاغب زاحف ضدكم، دافعوا عن شريعتكم ضدهم بأنفسكم وبالآخرين، واطلب من المدن الأخرى فعل الشيء نفسه»، ووقعت هذه الرسالة بأيدي أمرائنا، وفي الحقيقة استخدم الحمام في المراسلات الملكية في البلدان الشرقية، وهذا سوف نشرحه في ص٨٥ من القسم الثاني.

وقد قوضوا معسكرهم، وزحفوا من هناك، ووصلوا في اليوم الثالث إلى قرب يافا، فنصبوا معسكرهم في الحقل أمامها، وقد علموا آنذاك، أنه ليس بعيداً عنهم توجد مدينة الرملة الغنية، فبعثوا بكونت فلاندرز أمامهم مع خمسمائة من الخيالة، حيث وجد المدينة فارغة، وقد دخلوها جميعاً من دون مقاومة، لأن سكان المدينة عندما سمعوا بوصول جيشنا أصيبوا بالرعب وهربوا إلى جبال اليهودية، لانقاذ حيواتهم، تاركين كل

مـاامتلكوه وراءهم في المدينة، وعندما سمـع شعبنا بذلك جلبوا قـواتهم إلى المدينة وأقاموا فيها لمدة ثلاثة أيام، وقـد وجدوا مايكفيهم من أطعمة لهذه الأيام.

كيف جرى الاستيلاء على القدس من قبل شعبنا

جـرى الاستيـلاء على مـدينة القـدس المقـدسـة من قبل شعبنا وفق الطريقة التالية: عندما سمع الذين سكنوا بالقدس عن قدوم الصليبيين، وبعدما عرفوا صدقـاً بأن تلك الحشود القادمة لها اهتمام خاص محدد هو الاستيـلاء على تلك المدينـة، لذلك حصنوها بكل عنايـة ممكنة، وجمعـوا الطعـام والسـلاح من جميع الأنواع، وأعـادوا بنـاء الأسـوار والأبراج، وجددوا الأجـزاء التي تهدمت بحكم الزمان، ووضعوا حاميـة من نخبة مقاتليهم في القدس، وتوفر لديهم أربعين ألفاً من الرجال لرد الصليبيين وطردهم، وحفـروا أيضـاً خندقاً، وأقـامـوا سـواتر دفاعيـة، من حـول المدينة، وأفـرغوا جميع الصهـاريج التي في الوادي من الماء، وبنوا حصناً حـول نبع سلوان، حتى لايجد الفـرنجـة مـاء، عـلاوة على ذلك اتفقـوا بالاجماع على قتل جميع المسيحيين الذيـن سكنوا معهم في القـدس، وعلى تهديم كنيسـة قيـامـة الرب، وعلى إزالـة ضريح الرب إزالة كليـة، وعلى مسح صخـرة الجمجمـة وازالتهـا من على وجـه الأرض، حتى لايأتي الصليبيـون إلى هناك لعبادة هذه الأمـاكن إذا ماأزيلت من الوجـود، إنما فيما بعد، رأوا بعـد مناقشات عقلانيـة، أنهم بفعلهم ذلك سوف يثيرون حقداً عظيماً بيننا ضـدهم أنفسهم، ولذلك سمحوا لهم جميعـاً بالبقاء من دون أذى.

أما بالنسبة للمسيحيين من الجنسين، من الشباب والشيوخ، من الذين سكنوا معهم في القـدس، فقـد جـردوهم من جميـع ممتلكاتهم، ومن ملابسهم، وعـاملوهم بدون رحمة، وطردوهم من المدينة مع بطريركهم، وعندما جرى طرد هؤلاء النـاس، جاءوا إلى معسكرنا، وجلبـوا معهم

معلومـات عن جميع دفاعـات المدينة المقدسـة وأوضاعهـا، ولدى سماع رجـالنا بذلك سارعـوا إلى تقويض معسكرهم، وزحفـوا من الرملة إلى جبـال اليهـودية، وعندمـا رأوا أخيراً المدينـة المقـدسـة، التي من أجلهـا تحملوا كثيراً من المشـاق والمخـاطر، بكوا من البهجـة، ومجدوا الرب، واقتربوا من المدينة مع الأغاني ومظاهر السرور.

وعندمـا وصلوا إلى حقل القصـار، الذي هو حقل كبير، على الجانب الغـربي من المدينة، قسمـوا حشدهم وطوقـوا المدينة من جميع الجهـات، ونصبوا خيـامهم فوق جبل الـزيتون، وجبل العدوان، وجبـل جيحون، وأقـاموا سـاتراً دفاعيـاً حول المدينـة المقدسـة والمحبوبة، مع أنها كـانت عـدوة لهم، وبنى المسلمـون منشآت كثيرة للدفـاع عـن المدينة خـارج الأسوار، وقد جرى تهديمها جميعاً في ساعة واحدة من قبل شعبنا، وبدأ الحصار في سنة ١٠٩٩ لتجسيـد الرب، وذلك في اليوم السـابع من شهر حـزيران، وقد قـاومت خمسـة وثلاثين يومـاً، أي حتى يوم الحادي عشر من تموز.

هذا ولاأعـرف مـاالذي فعله المسلمـون مع اليهـود الذي سكنوا في المدينة، حيث أنني لم أقف على أي ذكر لذلك، والذي اعتقده أنهم عدّوا بين المسلمين، وبقيـوا حتى النهـايـة، لأنه مع أن هذين الشعبين لايحبان بعضهما، هما يتفقـان دومـاً ضـد المسيحيين، وهـذا واضح من التـاريخ، ذلك أنه في أيام الامبراطور جستنيـان اتفق اليهـود والمسلمين(كـذا) في الأرض المقدسـة، وتكتلوا مع بعضهم ضد المسيحيين، واقترفوا مـذبحة قـاسيـة بينهم، وحـاولوا إزالتهم من الوجـود، لكن الامبراطور المتقـدم ذكره جاء إلى انقاذهم، وهزم المسلمين واليهود، ودمرهم تدميراً مريعاً.

وفي اليوم الخامس، بعـد وصول جيشنا إلى المدينة، حمل جميـع الرجال بلا استثناء أسلحتهم، وعانى رجالنـا من كثير من الجراحات من أسوار المدينة، لأن المدينة— كماقلت— كـانت حسنة الدفاعـات، ومجهزة بكل

شيء كان محتاجاً إليه للدفاع، ولذلك جرى صد حملات رجالنا، وتمّ حمل عدد كبير من الجرحى إلى المعسكر، وبالطريقة نفسها بذل رجالنا غاية جهدهم لخرق الأسوار، غير أنهم رجعوا من الأسوار فقط على شكل أجساد موتى، وأجساد جرحى بين اخوانهم في السلاح، علاوة على ذلك بدأت الحاجة إلى الضروريات، وللماء والخبز، وبشكل خاص الماء، لايمكن تحملها، فقد رأى رجالنا أن الشطر الأكبر من العوام كانوا مرضى بسبب الجفاف والعطش، وكان رجالنا كلما حاولوا الهجوم على المدينة، تمت مواجهتهم بمقاومة عنيفة، حتى أنه لم يعد لدى شعبنا أي أمل بالربح، والانتصار بقوتهم، وأدركوا بشكل واضح أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة من دون مساعدة سماوية، أو معجزة من نوع من الأنواع، ولهذا أقيمت القداسات وأعمال الوعظ لكل فئة من فئات الجيش في المعسكر كله، ولذلك حثوا كل انسان بأن ينصرف نحو الرب بقلبه كله، وساروا حفاة حول المدينة يصلون يومياً، وهذا مافعلوه جميعاً، أي ليس من قبل الكهنة والعامة فقط، بل من قبل الأمراء والقادة أيضاً، الذين كان الأول بينهم دوما، غودفري المجيد، والقائد للحشد كله.

وفي اليوم الثامن لهذا الإذلال، أي في اليوم الحادي عشر من تموز، هاجموا المدينة بإرادة واحدة، وقاتلوا من الصباح الباكر حتى الظهر، وجرى قتل عدد كبير من رجالنا، وأنهكوا جميعاً من دون محصلات، وبعد مابذلوا هذا الجهد الجبار، بدأوا يتراخون، وأنهك الناس إلى أبعد الدرجات نتيجة للتعب والجوع، وبدأوا يتوقفون عن القتال، ولدى رؤية الأعداء هذا، شرعوا من فوق الأسوار والأبراج يصرخون بصوت مرتفع، ويهينون شعبنا ويستخفون به، ولعنوا شعب الرب الحي، ورقصوا وغنوا بسرور فوق الأسوار، ولم يتوقفوا عن الاستخفاف برجالنا، وطلبوا منهم العودة، لكن هذا السرور العابث لم يطل كثيراً،

بل كـان علامـة على دمـارهم المقبل، على أسـاس أن التفاخـر يسير قبل الدمار كما قيل بالأمثال:١٦/ ١٨.

وبعملهم هذا أظهروا أنفسهم حمقى، ولذلك أغضبوا الحشد ضدهم، وأثاروا حقدهم ضدهم لأنه كتب في الالهيات:٧/ ١٢:« على الانسان أن لايضحك ليثير حقد الآخرين في أنفسهم، لأن هناك من قد يتواضع ثم يمجد» وفي الأمثال:٢٧« الغضب قساوة، والسخط جراف، ومن يقف قدام الحسد»؟ كما أنهم لم يقرأوا ماقاله ذلك الفيلسوف الكبير، الذي عدّ الحكيم الأول بين حكماء العـالم السبعـة هو الذي قـال ينبغي أن لانستخف بأي شكل من الأشكال و لانهزأ بالرجل السيء الحظ.

ولدى سماع رجـالنا السخـرية منهم بـآذانهم، وتلقيهم الشتـائم واللعنات والتجـديف، وقفوا بين شرين أو لنقل خيـارين صعبين، ففي الوقت الذي لم يكن بإمكـانهم فيه تحمـل الإهانات التي انصبت فـوقهم من دون الانتقـام من فاعليهـا، كـانوا في الوقت نفسـه لايدركون تمامـاً كيف يمكنهم الاستيـلاء على مـدينة الذين أهانـوهم، وفيما هم في هذه الحيرة، فجأة ظهـرت القـدرة الالهيـة بينهم، وجلبت العـون إلى المؤمنين وهم في وضعهم اليائس، فقد نزل من جبل الزيتـون نحو حشدنا فارس كان مرتدياً لسـابغة مشعة، وهو على ظهر مهر شجـاع، وكان بيده رمح يتوهج ضياء، وأشار إلى عساكرنا بالعودة وتجديد الحملة، وبعدما أعطى هذه الاشـارة لم يعـد بالامكان رؤيتـه في أي مكان، كما أنه لم يكن هناك شك أنه ميكائيـل، الذي كـان مقـدم الحشـود المسيحيـة، أو كما تقـول الأسطورة، اللومباردية بأن ذلـك الفارس كان القـديس جرجس، حيث قـام من بين الأمـوات لمساعـدة المسيحيين، وذلك مثلما قـام ميركـوري Mercury القـديم للقتـال ضد يوليـان المرتد وجيشـه، وهو الذي ورد خبره في التاريخ اللاهوتي.

ولدى رؤية جيشنا لهذه الاشـارة، بات مسروراً، وعاد إلى الحملة على

المدينة بشجاعة أعظم من ذي قبل، وقد توهج بالحماسة هؤلاء الرجال، الذين كانوا قبل هذا مرهقين ومنهكين لما عانوه من متاعب وشقاء، وكانوا ضعفاء بسبب الجراحات، ومعاقين، غير أنهم الآن جددوا نفوسهم، وبها ضغطوا وتقدموا بشجاعة أعظم من ذي قبل، وحملوا على العدو حملة رجل واحد، وعم سرور عظيم في معسكرنا، وبدوا وكأنهم واثقين من النصر، ففي إطار ساعة واحدة طموا الخندق، وخرقوا السواتر الدفاعية، والموانع والحواجز، وأوصلوا الآلات الحربية إلى سور المدينة، وقد ستروا أنفسهم تحت هذه الآلات، وبذلك لم يعودوا يصابون بالحجارة التي رميت من الأسوار، وكانوا وهم تحت الآلات بإمكانهم شق طريقهم إلى السور واعتلائه، لأنه في ذلك الوقت لم يكن قد جرى اختراع المدافع، تلك الأسلحة المخيفة— حيث يقال بأنها اكتشفت من قبل ألماني في حوالي سنة ١٣٦٠— والذي توفر لديهم فقط آلات لرمي الحجارة الثقيلة.

وكان مقاتلونا قد عملوا برجاً عظيماً وعاليا، على شكل سلة، ومثل قلعة، وملأوه بالتراب والحجارة، بصورة أن الذين يقفون خلفه، يكونون آمنين من الرمايات من الأسوار، ووقف هذا البرج، أو الحصن على عجلات، وكان قابلاً للتحريك، وكان العدو قد علق أشجاراً ضخمة وطويلة أمام الأسوار، لتحطيم قوة كبش التدمير، وقام رجالنا الذين كانوا في الحصن المتقدم ذكره بقطع الحبال التي ربط بها اثنتان من هذه الأشجار ورموهما إلى الأرض، وعندما علم بهذا الدوق غودفري الذي كان يهاجم المدينة من ذلك الجانب، أمر بحمل الشجرتين المتقدمتي الذكر إلى الحصن، وباسناد نهاية أولاهما على الآلة، ونهاية الأخرى على سور المدينة، وبذلك جعلهما تعملان بمثابة جسر، وفوق الجسر المعمول على هذه الشاكلة، كان غودفري ذلك الرجل المتميز، مع أخيه يوستاس، أول رجلين دخلا المدينة، وبعدهما جاء عدد كبير آخر،

واتخذوا لأنفسهم مكاناً فوق الأسوار وأعلامهم التي حملت شارة الصليب تخفق، وزعقوا بأبواقهم إلى الحشد ليقدم لمساعدتهم، ولدى رؤية العدو لهذا تخلى عن الأسوار والأبراج، وهرب جميع مقاتلوهم من أجل الالتجاء في ساحة الهيكل، الذي اسمه هيكل سليمان.

وهنا نزل رجالنا الذين وقفوا على السور، وذهبوا إلى أقرب الطرقات، ثم ركضوا نحو الباب الشمالي، فكسروا أقفاله وحواجزه، وتركوا رجال حشودنا التي كانت تنتظر في الخارج تدخل، ومن ثم تركض إلى هنا وهناك في الطرقات وسيوفهم مجردة، حيث قتلوا كل من صدفوه، ولم يوفروا أحداً لالسنة أو لجنسه، وتجمعت في الوقت نفسه القوات المقاتلة لدى العدو في الهيكل وفي ساحته، وقد استعدوا لمقاومة شعبنا، الذي اقتيدوا بصفوف قتالية للهجوم على الهيكل بقوة عظيمة، وجرى صد رجالنا خمس مرات من قبل المسلمين، لكن في الاشتباك الخامس(؟) كانوا قادرين على تحطيم ميمنة العدو، وعندما منح هذا طريقاً لشعبنا، انخرط في مذبحة، إلى درجة أنه في بعض أجزاء الساحة وصلت دماء المقتولين إلى ركب الذين كانوا على ظهور خيولهم، ولم يرقط مثل هذه الكثرة من الدماء البشرية في مكان واحد ووقت واحد، لأنه بالاضافة إلى الذين ذبحهم شعبنا في البيوت، والأزقة، والشوارع في المدينة، قتلوا في الهيكل وحده مع ساحته عشرة آلاف من المسلمين، حيث ألقي بهم أرضاً وذبحوا، وكان بين الذين طعنوا بألف سيف الخليفة(الوالي)، أي ملك البرابرة في القدس، الذي عثر عليه شعبنا متوارياً تحت جدار مهدم، وبذلك جرى الاستيلاء على المدينة في سنة ١٠٩٩، وكان ذلك في الخامس عشر من تموز، وكان اليوم يوم جمعة، والساعة هي الساعة التاسعة، والسنة هي السنة الثالثة بعدما امتلك شعبنا الشجاعة للقيام بمثل هذا الحج الهائل.

وبعدما جرى الاستيلاء على المدينة، ألقى المؤمنون أسلحتهم، ومع

الدموع، وبروح متـواضعة، وبدون اهتمام بالدمـاء التي لطخت الهيكل، بادروا مسرعين في مسيرة إلى الهيكل الذي امتلأ بدم المسيح، وإلى كنيسة ضريح الرب، وكـان يتقدمهم أسـاقفتهم وكهنتهم بمـلابسهم المقدسـة، وعندمـا دخلوا إلى هيكل قيامـة الرب، غنوا بسرور لاحـدود له، ترانيم الفصح غنوها كل جماعـة منهم بلغتهـا، وبموسيقـاها، وساروا بخشـوع عظيم وطافوا حول الأماكن المقدسة كلها في الكنيسة.

ولكم هو رائع أن تتحـدث، ومقـدس وممتع أن تسمع بأن جميع هذه الأماكن المقـدسة، جرت بها مشاهدة فرسـان مسلحين، وحجاج بشكل واضح ومكشـوف، وهـم رجال كـانوا قبل وقت طويل يقـابلون بالموت من قبل سيـوف المسلمين، هذا وذكر الشطر الأكبر من الجيش، وأكـدوا بالايمان مـاكـانوا ذكـروه، بأنهم عندمـا كـانوا يتسلقـون سـور المدينة شاهدوا، الفرسان أنفسهم، الذين ماتوا في انطاكية وأماكن أخرى، وهم يرتدون دروعهم، ويمـدون بسرور أذرعتهـم إلى الذين كـانوا يتسلقـون على السـلالم، ويشجعـونهم على القتـال، ولم يكن هنـاك من شك لدى الذين شاهدوهم، أنه كـان من غير الممكن نيل النصر من دون الحصول على مساعدة ورضا الذين سقطوا في المعارك السالفة، وذلك مثلما حدث أنه لدى صلاة القـديس باسيل، أقـامت العـذراء المبـاركـة من الموت ميركوريوس Mercurius، الذي كان عسكرياً في غـاية الشجاعـة، كان قـد استشهد على يدي يوليـان المرتد، وقد أقـامته لكي يقتل يوليـان هذا نفسه، وقد فعل ذلك حقيقة، ومثل هذا فإن أشجع المقاتلين الذين ماتوا على أيدي المسلمين، قـد رجعـوا إلى الحيـاة ثانيـة حتى ينتقمـوا منهم، ولذلك شوهدوا بشكل واضح يقاتلون بين الرجـال الذين كانوا رفاقهم في الحيـاة، ولقـد تبرهن بهذا بوضوح أن أولئـك القوم، وإن كـانوا قـد فـارقوا الحيـاة الأرضية، وأخـذوا إلى السعـادة الأبدية، مع ذلك لم تخب آمـالهم في تحقيق رغبـاتهم، لابل في الحقيقـة حصلوا على تحقيـق كـامل

للذي تشوقوا إليه بخشوع كبير، وغسلوا دمهم الشرير، وأقاموا مطابخ في كل مكان من أرجاء المدينة، وعينوا أناسا للقيام بتقديم الأطعمة، وأمضوا على هذه الصورة ثمانية أيام.

وهناك كثير من المؤرخين الذين أرخوا لهذا النصر المجيد جداً، وقد كتبوا باسلوب ملحمي، وجاءت الكتابات من قبل كتاب متعلمين كثيراً، ومن قبل خطباء بلغاء، بكل من الايطالية، والاغريقية، والفرنسية، وقد نسب كل واحد منهم الفضل إلى أمته، ولأنهم لم يذكروا الألمان، مع أن غودفري كان قد فعل كل شيء وتفوق على الجميع قام الشاعر العظيم أنياس سيلفيوس Aeneas sylvus بالقاء خطاب في فرانكفورت، وجهة إلى أمراء ألمانياونبلاء سوابيا، بمناسبة الغزو التركي، وقد تحدث إليهم قائلا:« وإنني أعرف بأن غودفري، الذي كان دوق اللورين، قد سار خلال كثير من المالك، براً وبحراً، وحرر ضريح الرب من أيدي المسلمين، وكان معه الألمان فقط، الذين قطنوا فيما وراء الراين، والسوابيين، وبعض الفرنسيين، وقلة من الايطاليين».

قائمة بملوك القدس اللاتين وبأمراء المملكة الصليبية في القدس

وهكذا حدث أنه في الخامس عشر من حزيران(اقرأ: تموز) من سنة ١٠٩٩ لتجسيد ربنا، استولى المسيحيون الغربيون على القدس، المدينةالمقدسة، واستخلصوها من أيدي، ومن سلطان الأمم، وعينوها إلى ورثتها الحقيقيين، الذين هم أبناء المملكة، الذين ولدوا مجدداً أمام جرن المعمودية والذين هم أتباع المسيح، وأعادوها بعدما بقيت غريبة في أيدي الأمم لحوالي أربعمائة وستين سنة، أو أربعمائة وتسعين سنة.

وفي اليوم الثامن بعد تحرير القدس، اجتمع الأمراء المنتصرون في مؤتمر من أجل اختيار واحد من أفرادهم ليتسلم السلطة على البلاد،

ويتولى كملك العناية بالمنطقة المستولى عليها حديثاً، وبعدما صلوا من أجل أن تكون نعمة الروح القدس معهم في أعمال الاختيار، قاموا بصوت واحد، وبروح واحدة، باختيار غودفري، دوق اللورين، الذي تقدم ذكره مراراً، اختاروه ملكاً، وقد حمله الفرسان على أكتافهم إلى القصر وأعلنوه ملكاً للقدس. وقد حكم لمدة سنة واحدة

وكان غودفري هذا من مملكة فرانسا، من مدينة بولليون في مقاطعة الراين، وكان كونت غالاريا Gallaria (كذا)، وكان أبوه اللورد يوستاس، وأمه اسمها ايدا Ida ، وكانت أختاً لدوق اللورين، وبما أن هذا الدوق كان بلا أولاد، فقد تبنى ابن اخته غودفري هذا، واتخذه بمثابة ابن له، وعندما مات خلفه غودفري في دوقية اللورين، وكان هذا الدوق رجلاً رائعاً جداً، وكان متديناً، ورحيما، ومقدسا، ومستقيما، ومتحدثاً وقوراً، وصاحب أخلاق صلبة، يكره العبث الدنيوي، وهذا كان أمراً نادراً بالنسبة للجندي، لاسيما في ذلك الوقت، وكان علاوة على ذلك كله متدفقاً في حديثه، لايمل ولايتعب في الأعمال الدينية، ومع أنه كان نبيلاً، لم يكن متشامخاً، بهي الطلعة، وجميلاً أن تنظر إليه، ومن حيث الجسم، كان طويلاً، ورشيقاً، وفي غاية القوة، مع وجه جميل، وشعر أصفر، ولحية، وبالنسبة لاستخدام السلاح، والممارسة للأعمال العسكرية، قرر كل واحد بأنه كان متفوقاً، وكانت أعماله دوما رائعة، وجديرة بالاعجاب، وقام في احدى المرات، مثل شمشوم آخر، أوداوود، بمهاجمة أسد هائج وقتله، كما جاء في Frasciculus tem-porum(وهو تاريخ صنفه الراهب ويرنر رولونك وطبع سنة ١٤٧٧).

وعندما رفع إلى عرش مملكة القدس، لم يرفض اللقب، لكنه رفض أن يلبس تاجاً ذهبياً، قائلاً بأنه لايجوز لرجل مسيحي ارتداء تاج ملكي من الذهب، في المكان، الذي لبس فيه المسيح، ملك الملوك، تاجاً من

شـوك مـن أجل انقـاذ الجنس البشري، ولهذا فإن بعـض الذين لم يكن تواضعهم كما ينبغي، لم يضعوه في قائمة الملوك اللاتين للقدس، وبالنسبة لما أفكر به، هو لم يكن ملكاً فقط، بل الأفضـل بين الملوك، وكان ضـوءاً ومـرآة للبقية، وعلينا عـدم الافتراض بأنه رفض عرض تكريسـه ملكاً، لكنه تواضعاً منه رفض الأبهة الدنيـوية، والتاج الفاني، من أجل أن ينال تاجاً لايفنى في العالم الآخر.

وعندمـا حصل هذا الأمير التقي على العـرش، شرع مبـاشرة كـرجل دين بتقديم أول الثمار في مملكتـه إلى الرب، كما أنه أسس أنظمة قـانونية لكنيســة ضريح الرب، ولهيكـل الرب، وعين لهما مـوارد وافـرة، وفي الحقيقة قـام هذا الرجل، الذي أحبه الرب، فجلب معـه رهباناً نظاميين من ديرتهم، وقد أقـام هؤلاء له، طوال الرحلة، القـداسات في الليل وفي النهـار، ومثل هذا بعث إلى كل من ايطاليـا وفـرنسـا، فجلب اكليروس ديني، ووزع فيما بينهم الأبرشيات، ولهم بنى الكنائس والديرة.

وفي هذه الأيام، تمّ العثـور على قطعـة من صليب الرب، في كنيسـة القيامة، وهي قطعة كـانت قد أخفيت من قبل المؤمنين خوفاً من الأمم، ومنح هـذا راحـــة عظيمـــة إلى جميـع المؤمنين، وجلب مجداً عظيماً إلى الكنيسة، وكانت الكنيسة قد بقيت حتى ذلك الحين، فارغة، لكن الآن، وضعـوا في الكرسي البطريركي بمـوافقة جميع الناس، السيـد ديبيرتوس Daybertus، الذي كان رئيس الأساقفة المبجل لبيزا، وكان قد جاء إلى الأرض المقدسة من ايطاليا مع آخرين كثر بالبحر، بعد الاستيلاء عليها.

وبعدما حل مشـاكل الكنيسة وأرسى قواعدها، سـار الملك غودفري التقي جداً من أجل توسيع حدود المملكة المقـدسة للقدس، واصطحب معه اخوانه، وجميع حشـد مقاتليه، وكلهم مجهز للقتـال، وزحف خارجاً من المدينـة المقـدســة، ونـزل إلى فلسطين لمحـاربـة كليمنت -Clem ent(الأفضل) ملك القـاهرة، الذي كان معسكراً في عسقـلان مع حشد

كبير من المحـاربين المسلمين، وكـانوا قـد هـاجموا الصليبيين من هناك بشكل غـادر، وهاجم غودفـري بلدة عسقـلان، واستولى عليهـا، وقتل كليمنت [كـذا] مع ثلاثين الفـاً من عسـاكـره ووجـدوا هناك المخـزون الأعظم من الذهب والفضة، مما كان قد تمّ العثور عليه في أي ناحية من أنحاء العالم، وزحف من هناك هو وإخوانه، مستثمرين نصرهم وحظهم السعيـد، فحاصروا واستـولوا على مدينتي يافـا والرملة، وبعض المناطق الأخرى الهامة مثلها.

وأخيراً عندما عـاد الملك إلى القدس، سقط مـريضاً، وأصيب بحمى حادة جداً، وتمدد على الفراش بحالة مرضية شديدة جداً، ولدى شعوره باقتراب منيتـه، قـام مثله مثل معترف حقيقـي بالمسيح، فتناول القـربان الأخير، وغادرت روحه الجسد، وبذلك انتهت حياته سريعاً، ومع ذلك حقق أعمال أجيال كثيرة في وقت قصير، ودفنه إخوانه في كنيسة الضريح المقـدس، عند سفح صخـرة الجمجمـة، وكـان ذلك وسط بكاء وأسف جميع الشعب الصليبي، وجـرى فهم بعض النصـوص المقـدسـة(رؤيا يوحنا:١٧—١٨)حـرفياً، وشرحـت على أنها تشير إلى غودفـري، وذلك وفقـاً إلى نيقــولادي ليرا، وإلى تـاريخ أنطونيـــوس، القسم الأول، العنوان:٦، الفصل:١، الفقـرتين:١٤—١٥، وقـد عُـزي إليـه كثيراً من المعجزات، قمت باسقاطها.

الملك الثاني

بعـد وفاة غـودفـري، الملك الأول للقدس، في سنة ١١٠٠ لتجسيـد الرب، خلفه أخـوه اللورد بلدوين على العرش، وقد كـان كونت الرها، ورجـلاً قويـاً، ولديه كفاية مـن المعرفـة الأدبيـة العامـة، وكـان له أنف معكوف، وسلوك مهيب، وأحـاديث جـدية، وكان دومـاً يرتدي عبـاءة على كتفيه، ولذلك بدا للغرباء أنـه أكثر شبهاً بأسقف، منه بأمير علماني، وقدم إلى القدس، عدد كبير من الأمراء لحضور تتويجه، واقتادهم هو إلى

بيت لحم، حيث تسلم التاج مع فرح عظيم في موضع ولادة الرب.

وأحتاج إلى وقت طويل للحديث عن عظمة هذا الملك، وعن شجاعته، وعن قوته، وعن معاركه الكثيرة وانتصاراته على الكفار، فقد هزم الأتراك مرات عديدة، وسحق المسلمين، وأذل المصريين ثلاث مرات، وقتل ملكهم الخليفة(كذا) على ظهر أحد الغلايين، وكان في أيامه زلزال عظيم هدد المدينة المقدسة كلها بالدمار، ومع ذلك تبرهن أنها لم تكن شارة سوء طالع، لأنه استولى بعد الزلزلة على كثير من مدن المسلمين، وقتل آلافاً كثيرة، وزاد كثيراً من حجم مملكة القدس، وقد استولى على مدينة عكا الحصينة جداً، ومثل ذلك بنى حصناً عظيماً في البتراء في القفار فيما وراء الأردن، وهي القلعة التي أطلق عليها اسم جبل الملك(مونتريال=الشوبك)، وكنا قد تحدثنا عن هذا المكان من قبل.

ونزل في أيامه طاعون بسورية، وقد هلك به جميع الشعب اللاتيني تقريباً، وعندما رأى الملك أن مدينة القدس المقدسة قد غدت شاغرة، ليس فيها أحد يسكنها، وأنه لم يعد في المدينة مايكفي من سكان للدفاع عنها ضد الأعداء، احتار كيف يمكنه اسكانها من قبل مسيحيين، وعلم أخيراً أنه يوجد عبر نهر الأردن وفي العربية عدد من القرى مسكونة من قبل المؤمنين، وهم يخدمون المسلمين، أعداء ايمانهم، في ظل شروط قاسية، ويدفعون الجزية إليهم، وجمع الملك هؤلاء جميعاً مع زوجاتهم وأطفالهم وجميع آلهم، وأسكنهم في القدس، ورفع النير الثقيل من على أكتافهم، علاوة على ذلك اشترى أطفالاً من المسلمين، وأمر بتعميدهم، وعينهم للسكنى في القدس.

وفي سنة ١١١٨ لتجسيد ربنا، قام هذا الملك الفاضل بالنزول إلى مصر مع قوة كبيرة، وكان قصده الانتقام من المصريين للأعمال التي غالباً مااقترفوها في مملكته، وقد هاجم بحدة متناهية مدينة قديمة جداً اسمها الفرما، وقد استولى عليها، وأباحها للنهب من قبل جنوده،

وكـانت هذه المدينة قـائمة على شـاطىء البحـر، ليس بعيـداً عن مصب النيل، وكـان اسمها في القـديم تنيس، وعندمـا كـان الملك مقيماً في هذه المدينة يستعـد ليندفع نحـو المناطـق الداخليـة من مصر، سقط مـريضـاً مرضاً عظيماً، ولذلك أمر جيشه بالتراجع، وقد حمل على محفه حتى غلبه مـرضـه، ومن ثم انتقل إلى الرب، وجـرى حمل جسـده عـائـدين به إلى القـدس، وفي يوم أحـد السعف جـرى دفنـه بأبهة ملكيـة، تحت مـوقع الجمجمة بقـرب أخيه غـودفري، وقـد حكم في القدس لمدة ثمان عشرة سنة، ولم يخلف وريثاً من بعده.

الملك الثالث للقدس

وبعد وفـاة بلدوين الذي كان الأول في حمل هـذا الاسم، والثاني بين ملوك القدس، خلفـه هناك على العرش بلدوين الثـاني، الذي كان ثالث ملوكنا اللاتين في القدس، وكان ذلك سنة ١١١٨م، وقد حكم لمدة ثمان عشرة سنة، وكـان ابن عم الملكين المتقـدمين، وكـان اسمـه بلدوين دي بورغ، وكـان فرنسيـا من حيث الأصل، من مقـاطعة الرايم، وكـان ابن هوغو، كونت ريثيل Rethel ، وله لحية رقيقة، وصلت حتى صدره، وكـان خبيراً في استخـدام السـلاح، وصـاحب تجربة كبيرة في الحرب، علاوة على ذلك، كـان رحيماً، متديناً، ويخاف الرب، مخلصـاً في صلواته، حتى أنه امتلك جلداً قـاسيـاً فـوق يديه وركبتيـه من مـداومـة الركـوع والسجود.

ومع ذلك، إنه على الرغم من هـذا كله، ومن صفات أخـرى جيـدة، كـان انتخابه للملك قـد أغضب عـدداً كبيراً من الأمراء، ولذلك بعثـوا بسفـارة مهيبة لدعـوة يوستـاس كـونت أوف بولليـون، الذي كان أخـاً للملك بلدويـن الأول، للقـدوم إلى المملكـة، التي هي حقـه الموروث، وعلى الرغم من عدم رغبته، وكراهيته، جلبوا يوستاس هذا حتى أبوليا، حيث سمعـوا وقتـذاك بـأن بلدوين دي بورغ قـد تـمّ تعيينه ملكاً في

القـدس، وهنا استعـد للعودة إلى الوطن، وعنـدما أعلمـوه بأن هذا قـد عمل ضد القـانون، ولايمكنه بأي حال من الأحوال الثبـات، يقال بأنه أجابهم:« ليكن بعيداً عني القيام بأي عمل تآمري في مملكة الرب، الذي من خـلال دمـه حصل العالم على السـلام، ومن أجل الهدوء فيهـا بعث أولئك الرجـال العظام، أي أخوي صـاحبي الذكـرى الخالدة، بروحيهما المجيدتين إلى السماء»، وبنـاء عليه حزم حقـائبه، وعـاد إلى موطنه ثـانية، وفي الوقت نفســه ترسخ وضع بلدوين في مملكتـه، وقــد هزم في السنة الثانيـة من حكمِـه ايلغازي، قائـد الأتراك في آسيـة الصغرى، وكـان قد زحف على رأس قوات كبيرة لمهاجمة القـدس، وألقاه في السجن، وأنزل في السنة التـاليــة الهزيمـة بملك دمشق، الذي كـان قــد زحف بشكل مفاجيء على رأس جيشه ضد القدس مع نوايا عدوانية، وقد قتل ألفين من الأعداء، وأخذ ألفاً أسرى، وقد فقد ثلاثين فقط من رجاله.

وفي السنة الخامسة من حكمه، زحف هـذا الملك، ضد ملك الفرثين، الذي كـان يهدد كونتيه الرهـا، وعندما كـان في أحد الأيام، خارجاً من مدينة تك باشر، وكان يسير بلا انتباه مع آل بيته، في صف متخلف وراء الجيش، لحقـه بلك المتقدم ذكـره، ونصب كمينا له، فأسر ملك القـدس مع نبـلائـه، وحملهم إلى قلعـة وراء الفــرات، حيث وضعهم بالأغـلال واحتفظ بهم لمدة سنتين، وفي الوقـت نفســه عندمــا سمع ملك مصر بوقــوع ملك القــدس بالأسر، جــاء عبر الطريق الســاحلي مع جيش لايحصى عـدده من شعبـه، ووصـل إلى عسقـلان، قـاصـداً الزحف إلى القدس، وعندمـا سمع يوستاس غـريمر، الذي إليه عهـد بادارة شؤون المملكة، أثناء غيـاب الملك بهذا، قـام هـو وأعيـان المملكة بحشـد جميع القوات المتـوفرة، واستعدوا للحملة وكانوا قلة ضـد كثرة، وليس لديهم أمل بالبقـاء إلاّ بـالرب، وقـام أهل القـدس، مثل أهـل نينوى، فأعلنوا الصيـام بالنسبة إلى الرجـال والنسـاء سواء، لابـل أكثر من هذا، منعـوا

الطعـام حتى عن الأطفـال الرضع، وعن الدواب والسـائمـة، وعندمـا زحف جيش الرب خارجاً من المدينة المقدسـة، زحف بطريرك القدس على رأس الرتل، وهـو يحمل صليب الرب عـوضـاً عـن الراية، وحمل الذي كـان فيها مضى راعي دير كلـوني، سنان رمح الرب، الذي جـرى اكتشـافـه مـؤخـراً، كما تحدثنا من قبـل، وحمل أسقف بيت لحم حليب العذراء المباركة في حُق.

وهكذا ساروا وهـم متسلحين بالايمان، وقصدوا قتـال أعدائهم، وقد وجدوهم في مكان اسمـه يبنا(ابلين)، ودون الاهتمام بأعدادهم الكبيرة، حملوا عليهم بجرأة، وضربوهم بسيوفهم، وتمكنوا بعون الرب من الحاق الهزيمة بهم، وطاردهم شعبنا، ولدى قيامهم بذلك عملوا مذبحة مرعبة بينهم، ومع الأعـداد التي لاتحصى من الأسرى، يقـال بأن سبعة آلاف منهم قـد قتلوا في ذلـك اليـوم، عـلاوة على ذلك عمل شعبنا مـذبحـة أخـرى كبيرة بين صفـوف المسلمين في البحـر، لأنهم طاردوا اسطول المسلمين الذي هرب لدى سماعه بالهزيمة، فوجدوه، وقتلوا أعداد كبيرة في المعركـة التي وقعت إثر ذلك، وكانت مذبحة خـارج اطار التصديق، حيث قيل بأن البحر قد تحول إلى أحمر لمسـافة ميلين حول المكان، بسبب أعداد الجثث الكبيرة التي ألقيت فيه.

وبعد هذا، والملك مايزال بالأسر، استولى شعبنا على مدينة صور التي كـانت لاترام، حيث ترافـق ذلك مع مـذبحـة هائلة جـداً بين صفـوف المسلمين هناك، وصـور مـدينة قـديمـة جـداً، ولها منحهـا الامبراطور سيفيروس، جـائـزة بسبب اخـلاصهـا للدولة الرومـانيـة، وكـانت هذه الجائزة هي: Jus Italicum، وكان هذا امتيـازاً اعتاد الأمـراء الرومان على اضفائه فقط على عدد قليل جداً من المدن ذات الأهلية العالية.

ولم يشهـد فقط الكتـاب من الأمـم على عظمـة مجد هذه المدينة في العصور القديمة، بل أيضاً شهـد وحي الأنبياء المقدسين، حسبما جاء في

إشعيا:٢٣، وفي حزقيال:٢٦و٢٧.

وإلى هذه المدينة ينتمي سيخايوس وزوجتـه ديدو، التي بنت مـدينة قـرطاج العجيبة، وحكم هنا حيرام الذي كـان العـامل المتعاون والتـابع لسليمان في بناء الهيكل، وعندما جرى الاستيلاء على صور، أطلق سراح ملك القـدس وعاد إلى القـدس، وقد تمكن من إعـادة المملكة المتداعيـة للمسيحيين وأضـاف أنطاكيـة إلى مملكة القـدس، وهزم ملك عسقـلان الذي كـان يزعج شعب القدس، وكـان ذلك في معـركة واحـدة، وهزم طغتكين، أمير دمشق، الذي كان مثل ذلك يحاول مضايقة أهل القدس، وقد هزمـه في ثلاث معارك، حيث جرى ذبح أعـداد كبيرة من الأعداء مثل الأغنام.

ومنح الرب بعـد ذلك، هذا الملك، حكماً هادئـاً، وما من انسـان تجرأ على الوقوف في وجهه، ولذلك قام وهو يعيش بسلام، فوجه نفسه نحو تحسين الخدمـات الدينيـة، فجلب عدداً كبيراً من الرهبـان، ومن رجـال الدين، من العـالم المسيحي، وشيـد كثيراً من الديرة لكل من الرجـال والنساء، وأسس في صـور جامعة أو مدرسـة عامة، إليهـا قدم كثير من العلماء من بلاد ماوراء البحر، وفي أيامه تأسست ثلاث طوائف دينية في القدس، وكانت الطائفة الأولى بينها الاسبتارية، ومع أنه كان يوجد قبل استرداد الأرض المقدسة، في القـدس اسبتارية، لكن لم تكن هناك طائفة منظمـة، فلقد قـرأت، كما ذكرت من قبل، أن المسيحيين اللاتين شيـدوا بمـوافقة من السلطان، قبـل أيام غودفـري، ديراً للرجـال، قرب كنيسـة ضريح الرب، من أجل استخـدامـات الحجـاج، فيـه أقـام الذكـور من الحجاج كضيـوف، وبعد ذلك، وبسبب تزايد أعداد النسـاء من الحجاج اللائي قـدمن إلى هناك، جـرى بنـاء دير آخـر، أقـامت فيـه النسـاء من الحجـاج، وبعد ذلـك، وبسبب تدفق حشود الحجـاج إلى هناك، لم يعـد هذين الديرين قادرين على استيعـاب مثل هذه الأعداد الكبيرة، ولذلك

قام راعي الدير والرهبـان ببناء مشفى على مقربة من البيعـة المكرسة إلى القديس يوحنـا المعطاء، الذي كان بطريرك الاسكندرية وصـار الحجاج يقيمون في هذا المشفى، ويتلقون جميع المؤن المحتـاجة من هذين الديرين على أيدي الرهبان والراهبـات هناك، الذين كما أتصور كـانوا من طائفة القـديس بندكـت، لأنهم كـانوا لاتين في الديرين معـا، ولم تكن طائفـة الاسبتـارية قـد تأسست نظاميـاً بعد، ومع مـرور الأيام، وبعـد استرداد الأرض المقـدسـة، وبعـدمـا نال الملك بلدوين السـلام في البـلاد، تدفق الحجاج على القدس، بأعـداد كبيرة، ولذلك عين راعي الدير واحداً من النبـلاء اسمه جيراد، كـان قد تطوع بارادتـه للقيام بخـدمة الذكـور من الحجـاج ورعـايتهم، وقـامت راعيـة الدير بالوقت نفسـه بتعيين سيـدة رومانية نبيلة لخدمـة النساء من الحجاج، وقام هذان الشخصـان بالتعهد بتقديم السـولاء إلى راعي الدير المتقدم ذكـره، تبعاً للنظام الذي عـاشا في ظله، وكـان نظاماً مـوائماً للناس المقيمين في المشفى، وهو نظام عمل لهم من قبل راعي الدير مع موافقة بطريرك القدس.

وكـان الثوب الذي ارتدوه أثناء الخدمـات الدينيـة عباءة سـوداء مع صليب أبيض عليهـا، وقـد تزايـدت أعـدادهم بشكل كبير، مما دفع إلى تأسيس أديرة كبيرة لهم في جميع أرجـاء العـالم، وذلك بسبب أنهم كـانوا رجالاً متدينين كثيراً، ولايسمحون باقتراف أي عمل شرير، وباتوا الآن يعـرفون باسم مـزدوج: فبعضهم يدعـوهم باسم اسبتارية، لأنهم كـانوا يمتلكون السيطرة على المشفى، في حين دعـاهـم آخـرون باسم فـرسـان القـديس يوحنا، اشتقـاقـا من اسم القـديـس يوحنا المعطاء، الذي إليـه كرست المستشفى في القدس، وقد احتفظوا بهذا الاسم حتى هذا اليوم، ولكي يمنحوا أنفسهم شرفاً أعظم، اتخذوا القـديس يوحنا المعمدان ولياً راعياً لهم، وكان ذلك بعد استيـلائهم على جزيرة رودس، كما أنهم كانوا قد أخذوا بنظام القديس أوستين، وذلك بعد طردهم من القدس، لأنهم

أثناء إقـامتهم في القدس لم يتخذوا يـوحنا المعمدان وليـاً راعياً لهم، كما أنهم لم يعرفـوا وجوب تطبيق نظام القديس أوستين، بل عـاشوا في ظل أوامر الراعي والبطريرك، وعلى هذا بدأت طائفة فـرسان القديس يوحنا في سنة ١١١٨ في القدس، في أيام حكم البـابا غيلاسيوس Gelasius، لكن الطائفـة ترسخت فوق نظام قـانوني في سنة ١٣٠٨م في أيام حكم البابا كليمنت الخامس، في جزيرة رودس.

وهناك أيضـاً رجالاً آخـرون، بعد هؤلاء بوقت، عـرفوا أيضـاً باسم الاسبتارية، لكن هؤلاء القوم لم ينالوا هذا الاسم من المشفى في القدس، لكن حصلوا على اسمهم ونظامهـم من مشـافي أخـرى كبيرة، خـدمـوا فيها، تحت أنظمة متنوعة.

وكانت الطائفـة الثانية، التي جاءت بدايتهـا في القدس، في أيام حكم الملك بلدوين، قد تطورت من الطائفة الأولى، لأنه بعد تأسيس المشفى، والمنح العظيمة التي نالتهـا، استمر تدفق الحجاج بأعـداد كبيرة جداً من جميع أرجاء العـالم، ووصلوا يومياً إلى هناك، وهنا بـدأ بعض اللصوص ينصبـون لهم الكمائن على طول الطريق السـاحلي، وشرعـوا يسلبـون الحجاج، ويقتلونهم أحيـاناً، وأحدثوا فـوضى عظيمة بينهم، ولدى رؤية ذلك، قام بعض الفرسان الغيورين، فتعهدوا إلى البطريرك، بأنهم سوف يتـولون حماية الطرق العامـة، علاوة على هذا تعهـدوا بأن يعيشوا حيـاة طهارة، وطاعة وفقر.

ولدى انطلاقهم، كان هناك عشرة فقـط منهم، وقد أسكنهم الملك في قصره، على مقـربة من الهيكل، وبعـد مضي تسع سنـوات على تأسيس طائفتهم ثابـروا على ارتداء مـلابس علمانيـة، وظل هذا مستمـراً حتى أخيراً، عندمـا عقد المجمع التـاسع في تروي Troyes في فرنسـا في ١١٢٨م، جرى تعيين نظام لهم، وعين لهم البابا هونوريوس رداءً أبيض مع صليب أحمر، ولأنهم سكنوا على مقربة من الهيكل، فقد عرفوا باسم

فـرسان الهيكل، أو الداوية، ولهم عمل القـديس بندكت نظامـاً، وغالبـاً ماكتب رسائل لهم، هذا وكانت بـدايتهم مقدسة، ومليئة بالفضائل، غير أنهم انحطوا وابتعـدوا عن سلفهم، وكـان ذلك بعـدما صـاروا أغنيـاء، وبعدما انتشروا في الخارج في جميع أرجاء الأرض.

ولهذا حـدث في أيام البابا كليمنت الخامس، وبعـدمـا صار واضحـاً لدى شعبنا بأنهم تحولـوا وصـاروا مثل المسلمين، واقترفـوا آثـامـاً كثيرة بسبب ثروتهم العظيمـة، فإن كل واحـد منهم أمكن إلقاء القبض عليـه من قبل المسيحيين جرى قتله، ولم يقتصر هذا على آسيـا بل حدث أيضاً في فـرنسـا، حيث جـرى تدميرهم من قبل فيليب ملك فـرنسـا، وذلك بموافقة البابا الحاكم في روما، لأنهم كـانوا يمارسون حياة شائنة، وجرى منح جزء من ثرواتهم الهائلة إلى فـرسان القديس يوحنا، وجـزء آخر إلى طوائف دينيـة تأسست حديثـاً، في حين استـولى الأمراء العلمانيـون على جـزء من هذه الثـروات، ومعـروف بشكل جيـد، أنه في تلك الأيام، استـولى الرهبان الدومينيكان على كثير من الديرة المشهـورة للداوية، من ذلك على سبيل المثال الديرة في: فينا، وستراسبورغ، وايسلنغ، ووورمز، وأمـاكن أخـرى، هذا ودافع بعضهم عن مـوقف الداوية، ووأعلنوا بأن الملك كـان متشوقـاً لتدميرهم، حتى يتمكن من الحصـول على ثرواتهم، حسبما قـرأنا في تاريخ أنطونيوس- الجزء الثـالث، العنوان: ٢١،الفصل: ١، الفقرة ٣.

وكانت الطائفـة الثالثة التي تأسست في القدس، لكن ليس بعـد مدة طويلة من تأسيس الطائفتين الأخـريتين، هي الطائفة التي عـرفت باسم فـرسان التيـوتون للقـديسـة مريم، وقـد قيل بأنها قـامت كما يلي: بما أن الألمان قـد تفوقـوا على جميع الأمم المسيحيـة بتعلقهم التقوي بالأمـاكن المقـدسـة، ولأنهم اعتـادوا على القـدوم بأعـداد كبيرة كـل يوم، صـار الاسبتارية، الذين كانوا فـرنسيين متعبين منهم، وصاروا يتعاملون بسوء

مع الألمان، وانتقل الآن واحـــد من الألمان وزوجتـــه من مـــوطنه إلى القدس، وسكن هناك، ولدى رؤيته للأوضاع التعيسة للمحاربين من أبناء وطنه، حصل على إذن وموافقة السيد بطريرك القدس، فحول بيته الكبير مع بيعة العذراء المباركة إلى مشفى صغير.

وتعهد في هذا المكان بعض الرجـال بأنهم سوف يتولون خدمة الفقراء وتدبير شؤون الحجاج، ومع الأيام ازداد عددهم كثيراً جداً، وصاروا أغنيـاء إلى أبعد الحدود، ولذلك عين لهم البـابا سيلستاين Ce-lestine الثـالث نظامـاً، ولبـاساً أبيض مـع صليب أسود، وقـد وقفـوا بالفعل في وضع وسط بين الطائفتين السـالفتين، ذلك أنهم اعتـادوا على خدمة الحجاج والفقراء مع الاسبتـارية، أو فـرسـان القـديس يوحنا، وقاتلوا في الوقت نفسه ضد المسلمين وغير المسيحيين مع الداوية، وبعد فقـدان الأرض المقـدسـة، وبناء على أمـر من البـابا، قـدمـوا إلى سيـزيا Scythia الأوربيـة حيـث حـولوا الشعـب في الـ Ruthenians إلى المسيحية، وكـان هذا الشعب حتى ذلك الوقت وثنيا، وبعـد بذل جهود كبيرة حولوا: بروسيـا، وليفونيا، والمناطق الحدودية الأخـرى لألمانيا على المحيط.

وبعدمـاتأسست هذه الطوائف، وتم إنجـاز أعمال أخرى كثيرة، وقع بلدوين الملك التقي للقـدس، مريضـاً مرضـاً شديداً، ولدى رؤيتـه بأن مـوته بات قريبـاً، خـرج من قصره على شكل متسول، وبتـواضع وضع جانبا ثيابه الملكية على مشهد من الرب، وأمر بحمله إلى قصر البطريرك، لأن ذلك المكان كان قـريباً جداً من موضع قيامـة الرب، وهنا استدعى ابنتـه وزوجهـا ختنه، وابنهما بلدوين، الذي كـان آنذاك في الثـانيـة من عمره، وبحضور مجمع أمـراء المملكة عهد بالعناية بالمملكة لهم، في حين قـام هوكمعترف حقيقي، فارتدى لبـاساً دينيـاً، وتعهد بالعيش كـراهب نظامي إذا مـابقي حيـاً، وأسلم روحـه إلى الذي هو أبو الأرواح كلهـا،

وكان ذلك في السنة الثالثة عشرة من حكمه، وقد دفن عند سفح جبل الجمجمة.

الملك الرابع للقدس

وكان الملك الرابع للقدس، اسمه فولك، وكان ختن بلدوين المتقدم ذكره، وكان كونت أنجو، ومين، وتورين، وكان قد حصل على العرش في سنة ١١٣١م، في الستين من عمره، وقد حكم احدى عشرة سنة في القدس، وخاض هو وولديه كثيراً من الحروب، ليس فقط ضد المسلمين، بل ضد امبراطور القسطنطينية، وأمراء مسيحيين آخرين، تآمروا ضد مملكته، وفي أيامه أزعج المصريون -تحت قادة متعددين -الصليبيين الذين كانت القدس بأيديهم، وخرقوا بلادهم في عدة أماكن وتوغلوا في مدنهم، ولذلك تجددت الحروب، واستولى أثناء ذلك شعبنا على بعض المدن، وجعلوا مدنا أخرى تدفع لهم الجزية، وهكذا دواليك، وكان من بين أعمال هذا الملك المجيدة، إلحاقه الهزيمة مراراً بالترك الذين سكنوا في بلاد فارس، ولم يكتف بإلحاق الهزيمة بهم، بل تمكن في إحدى الحملات من قتل عدد كبير منهم بلغ ثلاثة آلاف، وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى، ووسع مملكته كثيراً.

وغزا الأتراك في أيامه مدينة الرها، التي كان الصليبيون قد استولوا عليها بوساطة جهود حربية كبيرة، واحتشدوا لطرد الصليبيين من هناك، وأمر كونت الرها، الذي كان ضعيفاً ومتقدما بالسنين، ابنه بأن يأخذ قوة من الجند معه، وأن يهاجم الأعداء برجولة، لكن هذا الابن شرع بجبن يفتعل الأعذار، معلنا أنه سوف يكون خطيراً مهاجمة مثل ذلك الحشد الكبير بعدد صغير من الرجال، وقد غضب أبوه منه، وأمر باعداد محفة فرس -من النوع الذي يدعوه الألمان Rossbar- وامتطى فرسه، وانطلق مع القوات التي تمكن من جمعها، لطرد الأتراك من منطقته، وعندما علم الأتراك بأنه قادم، خافوا من دنوه، وهربوا إلى

بلادهم.

وفي الساعة نفسها، وفي المكان عينه حيث هزم الأعداء، أمرهم الكونت بوضع محفته على الأرض، ورفع عينيه نحو السماء، وقدم الشكر مع الآهات والتنهدات، لأن الرب منحه في أيامه الأخيرة مثل هذه النعمة، أثناء وقوفه على أبواب الموت ذاتها، فأبقاه رعباً لأعداء الايمان المسيحي، وعندما فرغ من كلامه هذا، في الميدان المفتوح، وفي وسط رجاله، أسلم الروح.

وفي سنة ١١٤٢، نزلت بالصليبيين فاجعة كبيرة، فعندما كان اللورد فولك، ملك القدس، يتجول قرب عكا، وكان قد خرج من المدينة لتمضية الوقت، صدف أن أثارت كلابه أرنبا برياً، فركضت وبذلك ركضت الجماعة كلها خلفها وهي تصرخ، والملك الذي كان على ظهر فرسه لحق بها بسرعة مفرطة، وكبا حصانه، وانقلب على الأرض، وألقى بالملك بطريقة أن رأسه انسحق كله بالسرج، وخرج دماغه من أنفه وأذنيه، ووسط أسف عام حمل إلى المدينة، حيث تمدد لمدة ثلاثة أيام وهو فاقد للوعي، لكنه كان حياً ويتنفس، ثم إنه أسلم الروح في اليوم الرابع، وقد حملوا جسده إلى القدس، ودفنوه في موضع الجمجمة، حيث جرى دفن الملوك اللاتين المتقدمين، والذين ماتزال قبورهم مرئية حتى هذا اليوم، وهي تلمع برخام مصقول.

الملك الخامس للقدس

إثر وفاة فولك، الملك الرابع للقدس، خلفه في المملكة ابنه بلدوين الثالث، فكان الملك الخامس في سلسلة الملوك، وكان شاباً، صاحب أخلاق نبيلة، متحرراً من شرور الشباب، وقد حكم الدولة المقدسة بشكل في غاية الجودة، وعندما كبر،صار شاباً طويلاً، ووسيماً جداً، حتى أن الغرباء اندهشوا لسمو أخلاقه، مما أعطى برهانا واضحاً عن

سماته وجلالتـه الملكية، وقد كان دمثـا، وصاحب قلب حنون، ولم يكن شرها تجاه أملاك الآخرين، كما انه لم يقم كانسان مبذر، بالتجول لسلب رعاياه من ثرواتهم، وكـان متعلما بشكل جيد، وقـد أحب قراءة تواريخ الملوك ومعارك التـاريخ القديم، وتعـامل بقدرة حـربية فائقـة مع مخاطر الحرب غير المؤكدة، وكـان قد بدأ بممارسـة سلطاته في ١١٤٢م، وحكم في القدس لمدة أربع وعشرين سنة.

وفي أيام حكم هـذا الملك نهض الأتراك، والمصريون، والمسلمــون، والبـداة العرب ضـد المؤمنين، وكان من بينهـم زنكي، وكـان رجل آثام، كما كان أكثر الأتراك قدرة، وقد حاصر الرها واستولى عليها، وهي التي كـانت تعـرف مـن قبل باسم Rages Medorum ، وكـانت مليئة بالسكان اللاتين، الذين قتلهم جميعا بضربة قاسيـة واحدة، وحشد الملك بلدوين جيشاً، وبادر مسرعاً لإنقاذ الرها، لكنه صد، واتخذ طريقه عائداً إلى القدس، بعدما خسر كثيراً من رجاله.

وجرى إعـلام يوجينيوس الثـالث، بابا روما، بالذي حـدث، فأرسل رجال دين إلى مختلف أصقاع الغرب، لإيضـاح صورة الأوضاع القاسية التي يعيشهـا الصليبيـون في الشرق، وكـان بينهم ذلك الرجل صـاحب الذكرى الخالدة، الراعي القـديس برنارد، الذي اختير لمتابعـة تنفيذ هذه المقـاصـد والخطط، وقـد بشر بحماس ملتهـب، حتى أن كل من النبـلاء والناس عـامة وافقـوا عن طواعيـة على فصاحتـه غير الأنانية، ووعـدوا بأنهم ســوف يرتحلون إلى القــدس، فضــلاً عن هذا أخـذ الرجــلان اللامعـان: كـونراد الثـالث السوابي امبراطـور الرومان (كـذا)، والسيـد لويس ملك فـرنسا، طريقيهـا نحـو الشرق مع كثير من الأمــراء من الأمتين، وقد كـان جيشيهما كبيراً جداً، حيث كـان في جيش الامبراطور وحـده سبعين ألفـاً من الفـرسـان الـدارعين، وذلك بصرف النظر عن الجنود الرجـالة، ولم يكن أتباع ملك فـرنسا أقل من حيث العـدد، ولو

أنهما حظيا بنعمة الرب لأمكنهما بسهـولة ليس فقط قهـر سلطان قونيـة وآسيا الصغـرى القوي، لابل لإستـوليا على جميع بلدان المشرق لصـالح المسيحيـة، والذي حـدث أنه بقـدر مـن الرب، ليس بمقـدور الانسـان فهمـه، رفض الرب قبـول خـدمتيهما، مثلما لايقبل أعطيـة، قـد قـدمت بأيدي غير جـديرة، ولذلك تخلى الرب عنهما وسلمهما إلى أيدي الأتراك والمسلمين، الذين ضايقـوهما، وهزموهما، وأنقصـوا أعدادهما، وهما على طريقيهما، وقـد وصـلا إلى القـدس بعـد متـاعـب جمة، وتوفـر الآن في القدس، ثلاثة ملوك عظام هم: كونراد امبراطور الرومان، ولويس ملك الفـرنسيين، وبلدوين الثـالـث، ملك القـدس، وقـد اجتمعـوا في مكان واحد مع جميع أمرائهم، وكونتـاتهم، وباروناتهم، وبدأوا يتناقشون حول مـا هو الأفضل والأكثـر نفعـاً أن يعملوه لمجـد اسم المسيحيـة، ولتطور مملكة القدس وتقدمها.

كما أن هذا المؤتمر لم يحظ كـذلك بالعنـاية الربانيــة، ولهذا تراجعــوا مجللين بالعـار من مـدينة دمشق، التي كـانوا قـد حـاصروها للإستيـلاء عليها، وتبـاحثوا بعد عودتهم إلى القـدس حول حصار عسقـلان، وبعد كثير من الأحـاديث والخطابـات، وصلت هذه الخطة أيضـاً إلى لاشيء، وبناء عليـه، عندما رأى الامبراطور، وملك فـرنسا، بوضـوح بأن الرب ليس معهما، ركبا السفن، وذهبـا إلى بلديهما، ومنذ ذلك اليوم فصـاعداً، تزايدت أوضـاع اللاتين في الشرق سوءاً كل يوم، لأن المسلمين تصـدوا الآن بلاخسائر لهذين الأميرين العظيمين، اللذين كان مجرد ذكر اسميهما من قبل يبعـث الرعب في قلوبهم، ولهذا باتـوا مسرورين جـداً وواثقين من أنفسهم، ولم يعـودوا من الآن فصـاعدا يشكـون مطلقاً بقـوتهم، أو يخشون أن يضغط عليهم بشدة من قبل شعبنا.

وبعـد تراجع جيوش المسيحيين الغـربيين، أعـان الرب بلدوين ملك القدس، حيث استولى عنوة على مدينة عسقلان، التي كانت مطوقة منذ

زمن طويل من قبل الصليبيين، وأعاد بناء غزة، وكانت مدينة قديمة جداً، ومهجورة تماماً، وأعطاها إلى رهبان الداوية للسكن فيها، وكان ملكاً عظيماً جداً وشجاعاً إلى حد أنه هزم وطارد جيشاً من المقدمين الترك، مع ايقاع مذبحة كبيرة بينهم، بلغت خمسة آلاف رجل كلهم ماتوا، وهزم بعد هذا نور الدين قائد عساكر دمشق، في معركة دموية، وطارده حتى أحواز دمشق، كما أنه خاض عدداً آخر من المعارك المرعبة، وبصعوبة بالغة نجا أحيانا من الوقوع بالأسر.

وثار في أيامه نزاع، وخلاف خطير بين السيد البطريرك، وريموند مقدم استبارية القديس يوحنا، الذي شرع مع رهبانه بتسبيب اضطراب عظيم للسيد البطريرك، وللأساقفة الآخرين في مختلف الكنائس، بشأن ما يتعلق بمدى سلطات البطريرك، ذلك أنهم اعتادوا على أن يخضعوا عن طواعية لطقوس رجال قداسات كانوا لذنوبهم محرومين كنسياً، ومبعدين عن الكنيسة من قبل السيد البطريرك، أو من أساقفة مختلف الكنائس، وتولوا القيام بقيادة القداسات والمسح الأقصى بالزيت للمرضى، ودفن المحرومين كنسياً، وفعلوا أشياء كثيرة خرقوا بها امتيازات الكنيسة، وعندما عمل السيد البطريرك شكاوى كثيرة ضد هذه الأعمال المخالفة، ودعا إليه رعاياه كما اعتاد أن يفعل وعليه أن يفعل، غضبوا لذلك غضباً عظيماً، وحملوا أسلحتهم واندفعوا إلى داخل كنيسة الضريح المقدس لمقاتلة البطريرك.

وكان هذا بداية جميع الشرور، والخسارة التالية للمدينة المقدسة والبلاد، وتسببت كنيسة روما بنشوب هذه الشرور، بابقائها الاستبارية معفيين دوما من سلطان البطريرك، وذلك مثلما أعفت الداوية من حق السلطان القضائي للبطريرك، وأضفت امتيازات على فرسان التيوتون، وعندما جرى إعفاء هذه الطوائف، صارت امتيازات الإشراف القضائي للبطريرك والأساقفة قليلةجداً، لابل انعدمت تقريباً، وبذلك تقسمت

المملكة، وبالتالي تدمرت، وذلك وفقاً لما جاء في انجيل لوقا: ١١/ ١٧ قوله: «كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب».

وذهب الملك بلدوين من القدس إلى أنطاكية، لأن بعض المشاكل الصعبة استدعت منه فعل ذلك، وأثناء وجوده في أنطاكية وقع مريضاً، وكان مرضه شديداً، ولشعوره أنه على حافة الموت، وأنه في خطر عظيم، أمر بأن ينقل إلى بيروت،وهناك أمر باجتماع جميع الأساقفة وأمراء مملكته، والمثول بحضرته، حيث قام بتقوى وتدين بالاعلان عن إيمانه، واعترف بذنوبه مع كثير من الندم إلى الكهنة الأعلين، وقد تحرر من معاناته، ومن سجن الجسد، وحمل روحه إلى السماء في سنة ١١٦٣ لتجسيد الرب، وكان ذلك في الحادي والعشرين من شهر شباط، وجرى حمل جسده إلى القدس، ودفن بين سلفه في كنيسة الضريح المقدس.

وقد قيل بأن سماً قد أعطي له في دواء، وأن بقية ما أعطي إلى الملك ليشربه صب فوق بعض الخبز، وأعطي إلى كلب ليأكله، فمات ذلك الكلب على الفور، ولم يذكر التاريخ في أي مكان حزناً شهدته أية دولة مثل الحزن الذي شهدته مملكة القدس على هذا الملك، حتى قيل بأن أعداء الايمان قد حزنوا لموته، إلى حد أنه عندما اقترح بعضهم على نور الدين ملك دمشق -عندما رأى قادة الصليبيين في اضطراب كامل -وجوب مهاجمة مملكتنا، قيل بأنه أجابه قائلاً: «علينا أن نظهر نحوهم مواساتنا، وأن نتعامل معهم بلطف، ماداموا يبكون بشكل صحيح أميراً، لم يبق الآن نظيراً له في العالم».

الملك السادس للقدس

إثر وفاة الملك بلدونين، ملك القدس، خلفه في المدينة المقدسة عموري الملك السادس للاتين، وهو أخو الملك المتوفى، وكان ذلك في

سنة ١١٦٣م، وقد حكم في القدس لاثنتي عشرة سنة، وكان عموري هذا رجلاً مليئاً بالحكمة الدنيوية، وكان حكيماً جداً، ومتيقظاً في الأعمال، ولم يكن كبير التعليم، لكنه تمتع بعبقرية حية وبذاكرة قوية، ولايمكن أن ننكر أنه كان شرها نحو المال، خارج حدود كرامته الملكية، ومع ذلك كان بالنسبة للقضايا الأساسية المتعلقة بصالح مملكته، هو لم يوفر لامالاً ولا جهداً من جهته الشخصية، وكان مقتدراً في الحرب، لأنه بالفعل، هزم في السنة التي كانت قبل استلامه الحكم، بعون الرب شاور قائد المصريين، بمعركة، مع مذبحة كبيرة، وبعد قتله له، ألقى الحصار على الاسكندرية، وهي مكان كان شيركوه القائد التركي قد اغتصبه بشكل غير قانوني من السلطان.

ولم يكن أهل الاسكندرية، راغبين بأي حال من الأحوال بأن يصبحوا خاضعين للصليبيين، ومع ذلك استسلموا لعموري، على شرط أن يقوم بطرد طاغيتهم، ومن ثم يعادوا إلى مملكة السلطان على يديه، وبناء عليه استلم عموري من السلطان المتقدم ذكره أربعين ألف قطعة من الذهب وأعاد الاسكندرية إلى السلطان، بعدما طرد شيركوه من مصر، وجرى الآن عقد معاهدة سلام بين ملك مصر، وملك القدس، ولو أنه تمت المحافظة على هذه المعاهدة، لما تمكن أحد من ازعاج مملكة القدس، لكن الثعبان القديم الذي يزرع الخلاف بين الإخوة، جعل عموري والسلطان على خلاف، وتصور الملك عموري بأن السلطان أبرم اتفاقاً سرياً بينه وبين شيركوه، الطاغية التركي، الذي طرد مؤخراً من مصر، ولذلك حشد جيشاً، وذهب إلى مصر من خلال الصحراء، واستولى على بلدات مصرية عدة، وألقى الحصار على القاهرة، التي كانت المدينة الملكية، وكانت قوية جداً، والذي حدث هو أنه، بما أن الملك كان دوماً متشوقاً إلى المال، أزاحه السلطان عن أهدافه بإعطائه مبلغاً لايحصى من المال، ذلك أن بعضهم قال بأنه قد وعده بمبلغ

مليوني قطعة ذهبية، وهو مبلغ كان من الصعب على مملكة مصر كلها أن تدفعه، وسلمه بيده مائة ألف قطعة من الذهب شريطة ان يسحب قواته، وعندما تسلم هذا المبلغ رفع الحصار عن القاهرة، ونصب معسكره على مقربة من حديقة البلسم، وبعد استعراضه لقواته، زحف عائداً إلى موطنه من جديد، وقد جعل كل من ملك مصر وملك دمشق أعداء له.

وبعد هذا عزم الامبراطور الاغريقي في القسطنطينية على ضم مصر إلى امبراطوريته، فأرسل أسطولاً كبيراً إلى سورية، حيث كان فيه مائة وخمسين سفينة منقارية، واثنتين وستين سفينة نقل، ودعا اللورد عموري، ملك القدس، لمساعدته، وهكذا ذهبا معا إلى مصر، في البحر وفي البر، وحاصرا دمياط، لكن دون أن يحدثا تأثيراً، ومن ثم توجب عليهما العودة إلى الوطن مجدداً مع خسائر لم تكن صغيرة.

علاوة على ذلك، قام في مصر ملك جديد، وكان رجلاً سعيداً جداً، اسمه صلاح الدين، سوف يأتي ذكر اسمه من الآن فصاعداً كثيراً، وهو الذي جعل جميع أسرة الخلافة والملوك طعمة للسيف، وصار سيداً لمالك مصر وسورية، ولم يعرف الراحة قط حتى نشر دولته على جميع الشرق تقريباً، وفي الحقيقة، كان رجلاً سريع الحركة، شجاعاً في الحرب، عميق التفكير، كريماً جداً، لاسيما نحو العسكريين، الذين كان على استعداد لمنحهم كل ما كان لديه، وبالاضافة إلى هذا، كان رحيماً تجاه المغلوبين، ملتزما بصدق بوعودة وكان من جميع الجوانب رجلاً له شهرة عظيمة، وصيت كبير، ولم يكن يعوزه شيء لمدحه إلاّ الاسم المسيحي، وبما أنه لم يتميز بهذا، فقد أقام نفسه ضد المسيح والشعب المسيحي، وصار سوط عذاب للصليبيين في الشرق، علاوة على ذلك، لقد هزم الصليبيين هزيمة ساحقة، وطرد اللاتين، وفتح الأرض المقدسة، واستولى على القدس، وجعل ضريح الرب خاضعاً له، وأزال فخار

الكنيسة الشرقية، وحول تاج ومجد المؤمنين بالمسيح إلى عار لهم، كما سنوضح فيمايلي.

وقد قرأت عن صلاح الدين الحكاية المتميزة التالية، في واحد من التواريخ، فهو عندما كان يموت أوصى أن يحمل أمام موكب دفن جسده، قطعة قماش سوداء معلقة على رمح، أمامها ينبغي أن يسير مناديا ينادي: «عندما مات صلاح الدين فاتح آسيا لم يحمل معه من بين جميع مملكته وثروته سوى قطعة القماش السوداء هذه».

وعندما رأى عموري، ملك القدس، بأن صلاح الدين ملك سورية ومصر كان حكيماً وحذراً، وينوي أيضاً نيل الممالك الأخرى، أرسل سفراء إلى أمراء الغرب لإخبارهم عن جميع الشدائد التي لايمكن تحملها، والتي وقعت فيها مملكة القدس، وعن مشاكل جميع الصليبيين هناك، وعن الدمار الوشيك المهددين بوقوعه، وقام هؤلاء السفراء برحلات موفقة في بلدان الغرب، وشرحوا هناك المخاطر التي تتهدد مملكة القدس، لكنهم حصلوا على لاشيء، ولم يصغ إليهم، لا من قبل الأمراء، ولامن قبل أساقفة الكنيسة.

وفي الوقت نفسه قام صلاح الدين بغارات يومية على مملكة القدس، واضطربت المملكة بشكل متواصل بتهديدات العدو، وعاشت في اضطراب خطير خانق، ولذلك قام الملك عموري في سنة ١١٧١م، وقد شعر بخوف مؤلم، فأرسل سفراء وقورين جدد إلى الغرب، وأبحر هو شخصياً مع أسطول مؤلف من عشرة غلايين إلى القسطنطينية، حيث خدم الامبراطور، وشرح له وبيّن حاجات مملكة القدس، وبعدما فرغ من عمله عاد إلى القدس، وأخيراً بعدما تمدد الملك عموري مريضاً بالحمى لعدة أشهر، مات في سنة ١١٧٥ لتجسيد ربنا، وكان ذلك في السنة الثانية عشرة من حكمه، والثالثة والثلاثين من عمره، وقد دفن مع أسلافه، وكان التالي لأخيه، في الخط نفسه أمام الجمجمة.

الملك السابع للقدس

وإثر وفاة عموري، الملك السادس للقدس، خلفه ابنه بلدوين الرابع، وقد كان في الثالثة عشرة من عمره، أثناء وفاة والده، وقد حكم في القدس لمدة ست سنوات، وفي أيام حياة أبيه، عندما كان في التاسعة من عمره، تبين أنه مصاب بمرض دار الفيل، وقال بعض الكتاب بأنه أصيب منذ طفولته بالجذام، لكن على الرغم من ضعفه الذي عانى منه، حكم مملكته بشجاعة عظيمة، وبحكمة بالغة، ذلك أنه تمكن من إلحاق الهزيمة مرتين في معركتين، بصلاح الدين ذلك الرجل البالغ الشجاعة والنشاط، وكانت المعركة الأولى عند عسقلان والثانية عند طبريا، وعن هاتين المعركتين تحدثت كتب التاريخ كثيراً.

وحدث في سنة ١١٨٧م، أن قام صلاح الدين ومعه جيشه بغزو مملكة القدس مرة ثانية، وعندما سمع الملك بهذا وعلم، دعا رجاله وحشدهم، وانطلق لقتال أعداء الايمان، وسقط في المعركة كثير من رجالنا طعمة للسيف، ووقع بالأسر اللورد أوتو، المقدم الأعلى للداوية، وقد مات بالأسر، كما جرى أسر آخرين كثر أيضاً، ونجا الملك نفسه بصعوبة، (حقيقة وقع بالأسر) وتشجع صلاح الدين بنصره هذا، فأحدث أضراراً بلا حدود في مملكة القدس، لكن أمكن أخيراً، بناء على وساطة بعض الأشخاص، الوصول إلى إقامة هدنة سنتين بين صلاح الدين والصليبيين.

ونظراً لتزايد مرض الملك بلدوين، الذي لم يتزوج، ولم يكن له لا أبناء ولا بنات، لكن كان لديه أختين، الكبرى بينهن كان اسمها سيبيلا، وقد عزم بشكل سري على توريثها المملكة، فكان أن زوجها إلى وليم، الملقب بصاحب السيف الطويل، وكان ابن مركيز أوف مونتفرّات،

وقاتل وليم هذا كثيراً وبشجاعة ضد المسلمين، وكان رجلاً عالي النسب كثيراً، إلى درجة أنه لم يكن له نظير في النبالـة، لأن أخته كانت أم فيليب ملك فـرنسا، وكـانت أمـه أخت صاحـب السيادة الامبراطور كـونراد، وحدث أنه بعد مضي ثلاثة أشهـر على زواج وليم المتقدم ذكره، قد توفي مخلفاً زوجته وهي حامل.

وولدت في وقتهـا المناسب، ولداً ذكراً، أسمتـه بلدوين، ثم كان بعـد ذلك أن زوج الملك أختـه سيبيـلا إلى شـاب نبيل، اسمـه غي لوزغنان، ولأنه كان راغبـاً في رعاية مصلحة ابن أخته عهـد بذلك إلى غي نفسه، وإلى ريموند كونت طرابلس، وكلفهما أن يكونا حارسين له، شريطة، أنه طوال بقاء الطفل بلدوين تحت وصـايتهما، عليهما معا حكم المملكة، كما عليهما تسليمها إلى ابن أختـه عندما يصل إلى السن القـانوني، ومن أجل أن لايقف شيئاً في وجـه تنفيـذ هذا، أمـر بـرسم الطفل ملكاً على مملكة القـدس، بحضـور جميع فـرسـان المملكة، وكـان هذا هو الملك التـاسع (كـذا) لمملكة القـدس، جـرى رسمه وتعميـده قبل وفـاة الملك الثـامن (كذا)، الذي كان خاله.

وقبل مضي أيام كثيرة، تـوفي هذا الطفل بلدوين، الـذي كـان الملك التـاسع (كذا) للقـدس، وأخفت أمـه خبر موته عن قصـد لأيام كثيرة، لأنه بدا لها أن الملـك بلدوين القـديم المصـاب بـالجذام، قـد اقتربت منيته،وأنه عنـدما يكون هو قـد مات مع الطفل، سـوف يتمكن زوجها غي من خـلافتهما على العرش، وهذا مـا حـدث بالفعل، ذلك أنه ليس بعد ذلك بكثير، مات بلدوين الثـامن (السابع)، ملك القدس، ودفن في المدفن الملكي في موضع الجمجمة، وكان ابن أخته، الملك الطفل بلدوين التـاسع (كـذا) قـد دفن في كنيسـة ضريح الرب،إنما خـارج البيعـة في الجمجمـة، حيث اعتيد على دفن الملوك الآخـرين، لأنه عـدّ ليس ملكاً، بل مجرّد طفل.

الملك الثامن للقدس

بعد ما مات بلدوين الرابع، الملك السابع للقدس، ومات أيضاً ابن أخته بلدوين الخامس، ملك المدينة المقدسة، خلفهما غي لوزغنان، الذي كان زوج سيبيلا، أخت بلدوين المجذوم، كما كان أخاً بالزواج لبلدوين الرابع، وقد حكم لمدة عامين في القدس، وقد وصل هذا الملك إلى العرش وسط مصاعب، وحكم دوما في شدائد كبيرة، وأنهى حكمه مع مأساة مرعبة، وأوصل مملكة القدس إلى نهاية محزنة.

وعندما مات الملكان بلدوين الرابع وبلدوين الخامس، تطلع ريموند، كونت طرابلس، والوصي على بلدوين الطفل المتوفى إلى العرش، وقد وقف إلى جانبه كثير من الأمراء والكونتات، وتآمروا ضد غي زوج سيبيلا، التي كانت وريثة المملكة، وتمكنت السيدة سيبيلا بوساطة رشاوى كبيرة وأعمال استعطاف من السيطرة على بطريرك القدس، وعلى المقدم الأعلى للداوية، وعلى النبلاء واقناعهم برسم زوجها وتتويجه ملكاً للقدس، وغضب ريموند، صاحب طرابلس، تجاه هذا غضباً عظيماً، ونشبت خصومة مريرة جداً بينهما، ولما كان ريموند صديقاً سرياً لصلاح الدين التركي،وكان متحالفاً معه، فقد تسبب بإلحاق أذى عظيماً بغي وبالصليبيين الآخرين، وفي الحقيقة دفعت الغيرة بريموند إلى حد من الشر أنه تخلى عن الايمان المسيحي، واختتن، واعتنق الدين الاسلامي، لكن ذلك لم يكن بشكل مكشوف، بل بشكل سري.

وفي سنة ١١٨٧م، قام صلاح الدين، الذي صار قويا، من خلال التمزق بين شعبنا فحشد عساكر لاتحصى، وهاجم المملكة المقدسة، وكسب أراضي كثيرة من الصليبيين، وعندما شعر الملك غي أنه محاصر الآن من كل جانب من قبل المسلمين، قام بناء على نصيحة أمرائه فأرسل السيد بطريرك القدس، والمقدم الأعلى للداوية، ورئيس الاسبتارية، إلى أمراء الغرب، ليشرحوا لهم الوضع المأساوي للشعب

الصليبي في الشرق، ووصلوا أول كل شيء إلى فيليب ملك فـرنسـا، فمنحوه مفاتيح ضريح الرب، والهيكل والمدينة المقدسة،، وتوسلوا إليه أن يتلطف بالقيام بانقاذ الأرض المقدسة، المشرفة الآن على الضياع، وبناء عليه دعا إليه هذا الملك التقي جداً جميع الأساقفة، وعقد مجمعاً في باريس، وأرسل بعض الجنود الشجعان جداً إلى الأرض المقدسة على حسابه.

وفي الوقت نفسه كان صلاح الدين قد حشد عدداً كبيراً من الأتراك ومن المسلمين من جميع أرجاء الشرق، وغزا أرض الصليبيين، واستولى على منطقة الجليل، وحاصر طبريا، وحشد غي ملك القدس جيشاً كبيراً، وزحف للقتال ضده، لكن، وياللأسف، هزم شعبنا، من خلال خيانة ذلك الرجل الشرير، أي كونت طرابلس، لأنه عندما كان الجيشان مصطفان وعلى وشك الاشتباك، قام الكونت، وعلمه مرفوع، بالفرار من صف القتال، مما جعل جيشنا يتخبط باضطراب، وقد لحق به بعض أعداء ملك القدس، والمتآمرين ضده، وحدث هذا قبل فرار جيشنا، وأثناء فراره، وقعت مذبحة مروعة بين شعبنا، وخلال هذه الشدة، أصيب أسقف عكا، الذي كان يحمل صليب الرب أمام الجيش، بجراحة بليغة، ولشعوره بنفسه أنه على حافة الموت، وعندما لم يعد بإمكانه الركوب على حصانه، أعطى الصليب إلى رجل آخر، حمله إلى الملك غي.

وأخيراً بعدما قاتل الملك بشجاعة حتى نهاية المعركة ومعه صليبه، هاجمه العدو من جميع الجهات، وكان معظم رجاله قد قتلوا، وحوصر هو من قبل الأعداء، حتى أنه لم يعد بإمكانه الفرار، وهنا أخذ أسيراً مع خشبة الصليب المانح للحياة، ولم تكن هناك معركة في جميع زمان وجود المملكة اللاتينية في الشرق، قد سفكت فيها دماء صليبية مثلما سفك في ذلك اليوم، فقد تهاوت في ذلك اليوم قوى الصليبيين كلها في الشرق

وانهارت، وكان أكثر الذين تميزوا بالشجاعة هم الاسبتارية والداوية، وهلك في هذه المعركة المحزنة جداً جميع النبلاء ورجال الحرب، باستثناء قلة أخذوا أسرى، كان من بينهم الملك، ومقدم الداوية.

وقال فنستوس في مصنفه Speculcem historiale - الكتاب الثلاثين، الفصل: ٤٣، بأن الأولاد الذين ولدوا بعد ذلك اليوم، الذي وقع فيه الصليب المقدس، بالأسر، ولدوا بعشرين سنا، أو بواحد وعشرين سنا فقط، في حين اعتادوا من قبل على الولادة بثلاثين، أو بثلاثة وثلاثين.

وبعد هذا النصر استغل صلاح الدين حسن طالعه، فقاد جيشه للاستيلاء على مدن وقلاع الصليبيين عنوة، واحتل الأماكن القائمة على ساحل البحر، وكان أول كل شيء احتله عكا، ثم بيروت والمدن الأخرى المسورة، كلها استسلمت له دون ابداء مقاومة تذكر ضده، ذلك أنه لم يعنف ضد أي مدينة من هذه المدن، شريطة أن تبقى المدينة تحت سلطانه، وتدفع الجزية له، ولم تكن هناك مدينة واحدة من عكا حتى عسقلان تجرأت على مقاومته، لأن هذه المدن جميعا قد فقدت الذين توجب عليهم الدفاع عنهن، وقام أهالي عسقلان، الذين اعتقدوا أن مدينتهم لاترام،، فأعاقوا مهمة صلاح الدين لبعض الوقت، ورفضوا تسليم مدينتهم، وأعلنوا أنهم لن يستسلموا بأي حال من الأحوال، قبل أن يتأكدوا يقيناً، بأن سكان مدينة القدس قد سلموا مدينتهم، وعندما سمع صلاح الدين بهذا، أقام ساتراً من الركام أمام المدينة، وثابر على مهاجمتها لمدة عشرة أيام، غير أن جهوده لم تثمر شيئاً، لأن عسقلان كانت مدينة حصينة جداً، وهي التي استولى عليها غودفري، أول ملوك القدس، كما تحدثنا من قبل، وقد ورد الحديث عنها في أقدم أسفار الكتابات المقدسة، وهذا يمكن لأي انسان أن يراه.

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب
الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته

حوالي
(١٤٨٠ — ١٤٨٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الثامن والثلاثون
(٤٠)
دمشق ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته
حوالي
(١٤٨٠—١٤٨٣)

القسم الرابع

كيف جرى الاستيلاء على القدس من قبل المسلمين وكيف أنها استحقت الاستيلاء

عندما رأى صلاح الدين أنه لن يتمكن من الاستيلاء على عسقلان، من دون الاستيلاء على مدينة القدس المقدسة، رفع الحصار عن عسقلان، وزحف خلال المنطقة التلية لليهودية مع جميع آلات حربه وحشد كبير جداً من الرجال، عازما على حصار القدس القائمة هناك، والاستيلاء عليها، وفي الوقت نفسه عندما سمع سكان القدس والذين تدفقوا عليها وهربوا إليها من المنطقة المجاورة ومن كل جهة من خلال الخوف من العدو، سمعوا بمقتل جيشهم، وفقدان الصليب المانح للحياة، وأسر الملك، واقتراب صلاح الدين، تواضعوا بأنفسهم بكل نوع من أنواع الصلاة والتضرعات، وعقد جميع المسيحيون الذين سكنوا فيها مجلس ابتهالات مهيبة، واعترافات، وصيام، حتى الأطفال شاركوا في هذه المارسات الروحية.

لكن غضب الرب أحرق كل شيء بشكل مكشوف وحاد، ولاعجب في ذلك لأن رجال الدين والشعب كانوا قد انغمسوا كثيراً في حياة الترف من كل نوع، وكانت البلاد كلها ملوثة بالشرور والآثام، وفي الوقت نفسه كان الذين ارتدوا الملابس الدينية، قد تجاوزوا بشكل خياني حدود الأنظمة المفروضة عليهم من قبل قوانينهم، وكان هناك قلة فقط ممن لم يتلوثوا بوباء الشره أو الترف، وكان بين الذين تولوا الأعمال عند المذبح كثيراً من الصراعات والخلافات حول الأشياء المقدسة، ونشبت الخصومات من المطامح، لأن فرسان الداوية والاسبتارية عارضوا البطريرك والأساقفة، وكانوا يسعون دائماً للحصول على الامتيازات لأنفسهم، ووضعوا منجلهم في حصاد الناس الآخرين، مع أنهم عندما

تأسست طـائفتيهما أولاً وانطلقتـا، تمجـدتا بطاعتيهما، وعــدّوا اقتراف السيمونيـة أمراً عـاديا، ولهذا ملأوا يوميـاً موضع قيـامة الرب وضريحه بأناس غير جـديرين، ولهذا السبب فإن الهبة التي كـان يرحب بها كثيراً، والتي تمثلت بالنار السماوية، والتـي كانـت تضفى عليهم من قبل الرحمة الربانيــة في عشيـة عيــد الفصح، في أيام غـودفــري، وبلدوين الأول، وبلدوين الثاني، تباطأت الآن بالقدوم ومن ثم تأخر اشعال المصابيح في أيام هؤلاء الملوك المتأخرين، وحول هذه النار، انظر مـاتقدم أعلاه، وإذا كـان الاكليروس قــد تلوثوا بهذه الآثام، كيـف يمكن أن تكون الروح مقدسة؟

وأصبحت القـــــدس حتى مثـل مصر وســـــدوم، وتلـوثت مثلهما بالموبقات، لأن المدينة كانت مليئة بمـواخير خاصة، أديرت وملكت من قبل أشخاص من كل أمة تحت قبـة السماء، وكان هؤلاء الأشخاص إما مطرودين من بـلادهم بسبب الجرائم التي اقترفــوها، أو ممن لايمكنهم إبداء وجوههم واظهـارها في بلدانهم بسبب النساء اللائي أخـرجوهن، أو بسبب الديون التي لم يكن بامكانهم دفعهـا، وقد عـاشوا كمنفيين في القـدس وتولوا ادارة وتشغيـل مـواخير، دون الاهتمام بأي شيء سـوى الربح، وكان بعضهم ليس بامكانهم الاقامـة في بلدانهم الأساسية، لأنهم كانوا محرومين كنسيـا، ولذلك عاشوا في القـدس، ونقل بعضهم بيوتهم ومايملكون من الغرب إلى الشرق سعيا وراء الربح، وكانت هناك أعداد كبيرة من فرسان الضريح المقدس والهيكل، ومن هذا العدد العظيم كان هناك قلة لم يكونوا رجـالاً أشراراً، غير أتقيـاء، لصوصـاً، وآثمين وقتلة لآبائهم، وكـذابين، وزناة، حسبما أخبرنا برنارد في قـداسـه إلى فـرسـان الهيكل— الفصل الخامس— وعلى هذا صـارت المدينة المقـدسـة وكـراً لمقترفي الآثام، وكـانت مليئة بمواخير سيئة السمعـة، إليها أخـذ الحجاج أنفسهم للشهـوة الجسدية، والشرب، والقمار، وذلك بعـدما يكونوا قـد

زاروا الأماكن المقدسة.

وتنامى هذا الشر، وتعالى إلى حد أنه لم يبق أحد في مشفى القديس يوحنا، لأن الحجاج لم يعودوا يتلقون أية عناية على أيدي الاسبتارية، مع أن المشفى كان غنياً جداً، كما أنه لم يتوفر أي حب للقديسة مريم في مشفى الفرسان التيوتون، وعلى ذلك أرغم الحجاج الجيدين والمحترمين على الذهاب إلى المواخير، التي كان أصحابها: لصوصاً، وقطاع طرق، ومحتالين مخادعين، وقوماً منفيين، وأكثر الناس اقترافاً للآثام.

فضلاً عن هذا، تعرض أمن وسلام المدينة المقدسة إلى الاضطراب بسبب شرور المسيحيين وشرهم، لأنها كانت مليئة بالتجار من كل لسان، ومعروف أنه حيث هناك تجارة كثيرة هناك كثير من الظلم، وما كان الرب يمكن أن يستجيب حرفيا للذين كانوا يصلون من أجل سلامة المدينة المقدسة، بكلمات إرميا:٥/ ١ قوله:« طوفوا في شوارع القدس وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون انساناً أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها»، وبسبب هذه الأشياء أثير غضب الرب، فسمح للبلاد التي انتزعها من أيدي غير المسيحيين، لتقع ثانية تحت سلطانهم، فقد جاء صلاح الدين إلى القدس مع جيش كبير، وعسكر أمامها، وأقام ساتراً من الركام أمام جانبها الغربي، وضيق على المحاصرين بحملات متوالية، وقام سكان المدينة بابداء المقاومة التي استطاعوها، وتولى هو قذف المدينة من على الجانب الشمالي ليلاً ونهاراً، وعندما أحدث ثغرة في السور بوساطة آلاته، أصاب الرعب سكان المدينة الذين لم يتوقعوا وصول أية مساعدة إليهم من أية جهة من الجهات، وقد خافوا أن يدخل العدو، ويشق طريقه عنوة، إلى داخل المدينة، وأن يستولي عليها بالقوة، وقتذاك خضعوا إلى الرعب العظيم الذي استولى عليهم، وسلموا أنفسهم إلى صلاح الدين على شروط محددة هي: بعد تسلمه الفدية عن أنفسهم، عليه أن يسمح لهم بالمغادرة

بسلام.

وبما أن صلاح الدين كان بشكل طبيعي صاحب قلب شفوق، وكان رحيماً على الشعب، لذلك منح هذه الشروط إليهم، وقد أعطاهم جميعاً ضمان البقاء جميعاً أحياء بدون استثناء، وشرط أن الذي يود المكوث هناك، ويوافق على دفع الجزية له، يمكنه أن يبقى ساكناً بسلام، وكل من يود أن يغادر، وكان ذكراً، وتجاوز أكثر من عشر سنوات من عمره، فعليه أن يدفع عشر دوقيات من الذهب الخالص، وإذا كان عمره دون العشر سنوات، فعليه أن يدفع دوقيتين، وعلى النساء أن يدفعن دوقيتين، وتمت الموافقة على هذه الشروط من الجهتين، وبما أنه كانت هناك آلاف كثيرة من فقراء الناس في المدينة، ممن لايمتلكون عشر قطع، فقد أعفاهم صلاح الدين جميعاً من ديونهم.

وحدث استسلام المدينة المقدسة في اليوم الثاني من تشرين الأول، وهو كان اليوم الرابع عشر للحصار، في سنة ١١٨٧ لتجسيد الرب، وكان النهار، نهار جمعة، في السنة التاسعة والثمانين، منذ أن صارت ملكاً للصليبيين.

وجرى الآن الاعلان في جميع أرجاء المدينة، بأن على الصليبيين جميعاً الموجودين فيها، وجوب مغادرتها خلال ثلاثة أيام، وإلاّ فإنهم سوف يصبحون خاضعين لصلاح الدين المسلم، ورعية له، وهو أمر كان محرماً من قبل البابا، مع أقسى العقوبات، فقد كان قد أمر أنه في مثل هذه الحالة، يتوجب عدم بقاء أي مسيحي هناك، وكان من يبقى ينبغي حرمانه كنسياً، ولعنه وطرده كلياً من الكنيسةومع صوت المنادي، الذي أعلن هذا الأمر الكئيب، انفجر نحيب كبير جداً في القدس، وصار بكاء الصليبيين يمكن سماعه من مسافة أميال، ويحكى بأن صلاح الدين نفسه مع امرائه القساة قد تأثروا في قرارة نفوسهم بهذا البكاء، لابل بلغ بهم التأثر إلى حد البكاء من تعاطفهم الانساني مع حزن الصليبيين وأساهم،

ولشدة تأثرهم أعفوا من دينه كل واحد رجاهم فعل ذلك.

علاوة على ذلك، أعطى صلاح الدين أوامره إلى عساكره، بعدم دخول أي منهم المدينة قبل اليوم المحدد لمغادرة الصليبيين، وخرج الصليبيون في اليوم المحدد مع أثاث بيوتهم، وقد ملأوا السموات وهزوا الأرض بصراخهم المرعب ونحيبهم، وخرج أمامهم جميعاً هيروديوس Herodius، بطريرك القدس، مع الصليب، ورجال الدين، والرهبان، والأشخاص الدينين من كلا الجنسين، والراهبات اللائي كن محبوسات في الديرة، فقد تبع هؤلاء جميعاً البطريرك في رتل طويل، وهم يحملون التماثيل والصلبان، والآثار المقدسة، وأوعية القرابين، التي كانت من الممكن أن تداس بأقدام المسلمين، وجاء بعد هؤلاء النبلاء، والعساكر، ورؤوسهم منكسة، ممتلئين بالخجل والأسى، وقدم بعدهم العامة من الجنيسن مكرهين وهم يحملون صغارهم، الذين كانوا يصرخون ويبكون، مع سائمتهم.

وتوزع الصليبيون أمام المدينة، فقد ذهب شطر أول منهم إلى الاسكندرية، وشطر آخر إلى صور، وشطر ثالث إلى أنطاكية، في حين ذهب بعضهم إلى هذا الميناء البحري، وآخرون إلى ذلك الميناء، ولأن بعضهم كانوا صقليين، فقد ذهب هؤلاء إلى الاسكندرية، وأما الآخرون الذين كانوا ايطاليين أو ألمان، فقد ذهب هؤلاء إلى صور وطرابلس، وكان الشطر الأكبر منهم هو الذي توجه إلى ميناء طرابلس، والذي حدث معهم وهم على الطريق إلى هناك، من الصعب الحديث عنه وروايته من دون بكاء، ومن المؤكد لايمكن حكايته ليس من دون ألم، لأنه عندما اقترب هؤلاء المنفيين الحزينين من القدس، من مدينة طرابلس، وعندما رأوها شعروا بشيء من الانتعاش بأرواحهم لأن الذين كانوا فيها أناس مؤمنين بالمسيح، وقد أملوا أن يتلقوا منهم الاستقبال، والأمان والشفقة التي استحقوها، وقد اعتقدوا أنهم نجوا

الآن من أيدي المسلمين، لكنهم تقابلوا مع قوم آثمين، أكثر سوءاً من المسلمين أنفسهم، ذلك أن ريموند كونت طرابلس، الذي كان مرتداً عن المسيحية بشكل سري كما ذكرت من قبل، قد قام أتباعه، أبناء الظلم، فتلقى هؤلاء الضائعين مثل عدو متوحش وهاجم هؤلاء الذين توجب عليه الاشفاق عليهم كإخوة.

وقد انتزع منهم بالقوة الذي سمح لهم المسلمون به، وتركوه لهم شفقة منهم عليهم، وأهانهم كذلك، وفي هذا الوضع المأساوي، وحيث أنه لم يعد بامكانهم الآن أخذ سفينة، أو العودة إلى بلادهم، بقي كثير منهم حيث كانوا بين المسلمين، متحدين بذلك،. ورافضين إطاعة الأمر البابوي المتقدم ذكره، وتخلى كثيرون عن ايمانهم، كما وهلك كثيرون بالجوع، وكذلك قتل بعض أنفسهم صدوراً عن أساهم، ولقد قرأنا بأن سيدة كانت غنية ونبيلة في القدس، وقد حملت الآن ولدها الصغير على كتفيها طوال الطريق إلى شاطىء البحر قرب طرابلس، على أمل أن تعبر البحر، لكنها عندما وصلت إلى هناك سلبت كلياً من مقتنياتها، ولم يبق معها شيئاً لإطعام طفلها، لذلك قامت بحالة غضب نسائي، فأطاحت بابنها في البحر.

وعندما غادر الصليبيون جميعاً القدس، دخل المسلمون إلى المدينة المقدسة، حيث أهانوا الاسم المسيحي بربطهم دوابهم في الكنائس نفسها، وبقيامهم بأعمال تدنيس، فقد لوثوا هذه الهياكل المقدسة، وألقوا بالخارج ودمروا جميع تماثيل الرب والقديسين، وقد وجدوا تمثال لربنا على الصليب، فحملوه بالشارع العام، وسخروا منه، وبصقوا عليه، ورموا الحجارة عليه، ولوثوه بجميع أشكال القذارات، علاوة على ذلك جلبوا العقيلات والعذارى اللائي كن يتوقعن مجيء معجزة من السماء لاسعافهم، فبقين في المدينة، وجلبوهم لاهانتهن، ويقال بأنه وقتها حدث ذلك العمل المشهور(قطع أنوف الراهبات) الذي تقدمت

الاشارة إليه من قبل، علما بأن بعضهم قد ذكر بأن هذا قد حدث عندما سقطت عكا للمرة الأخيرة(سنة ١٢٩١).

وأثناء غضبهم اندفعوا، فازاحوا الحواجز وفتحوا أبواب كنيسة قيامة الرب، وشقوا طريقهم إلى الداخل، ولوثوا المذابح، وحطموا زجاج النوافذ، واقتلعوا التماثيل المحفورة من الجدران، وصعدوا أخيراً إلى برج الناقوس، وحطموا النواقيس بالمطارق، وأبقوهم هناك مكسرين لمدة طويلة كعمل فيه ملامة للصليبيين، وقد شوهدوا من قبل السيد أنطونيوس كما حدثنا في تاريخه— القسم الثاني، العنوان:١٧، الفصل:٩، الفقرة:١٨، وأنا شخصياً لم أشاهد قطع النواقيس، بل شاهدت فقط العوارض الخشبية، التي تعلقوا عليها فيما مضى، ولم يرغب صلاح الدين بتدمير ضريح الرب تدميراً كاملاً، بسبب أعمدة الرخام الثمين والكسوة من الرخام المصقول، فقد رغب بالاستيلاء عليها وانتزاعها بعمل منظم ودون أن يلحق بها أذى، وكان بذلك يدمر الكنيسة بشكل تدريجي

ثم انهم بعدما خرقوا حرمة الكنائس المسيحية، ذهبوا إلى مايعرف باسم هيكل سليمان، حيث أزالوا جميع المذابح المسيحية، وحطموا التماثيل إلى قطع، وهكذا بعدما طهروه، أو بالحري بعدما لوثوه، غسلوا البلاط والجدران بماء الورد، وصبوا فوقهما كثيراً من العطور، وقد أظهروا احتراماً مدهشاً نحو ذلك المكان، ونحو الهيكل، وبعد أعمال الغسل هذه، التي هي شكل التقديس لديهم، دخل صلاح الدين مع امرائه إليه، وقدم أضحية وفقاً للشعائر الاسلامية.

وذهب الآن السريان والطوائف الأخرى من الموارنة، واليعاقبة، والكرج، والأرمن، والنساطرة، والأحباش أو الهنود، مع المسيحيين الشرقيين الآخرين، والمنشقين والهراطقة، إلى صلاح الدين، ومثلوا في حضرته، وأقسموا يمين الولاء له، وقدموا الجزية إليه، ورجوه بأن

يوضعوا محل المسيحيين اللاتين، وبسرور منحهم صلاح الدين ذلك، لرغبته بتوفر بعض الناس لسكنى المدينة، علاوة على ذلك لقد أنقذوا كنيسة الضريح المقدس، التي سمعوا بأنها سوف تهدم، فقد دفعوا مبلغاً كبيراً جداً من الذهب والفضة إلى صلاح الدين، لإبقائها وحفظها من التهديم، وقد أخذ الذهب، وأعطى الكنيسة إلى المسيحيين الشرقيين، بعدما شرط عليهم الشرطين التاليين: أولاً أن لايسمح لأي مسيحي غربي بالدخول من دون أن يدفع الرسم المقرر، وثانيا أن لايعلقوا بعد الآن أية نواقيس في برج النواقيس، بل يعلنون عن مواعيد القداسات بالقرع فوق ألواح خشبية، ولذلك لم يسمع منذ ذلك اليوم حتى الآن صوت أي ناقوس في القدس، أي منذ ثلاثمائة سنة.

وبعدما فرغ صلاح الدين على هذه الصورة من الاستيلاء على القدس، وضع حامية فيها، وزحف من هناك مع جيشه كله ليجدد الحصار على عسقلان، وبعدما هاجمها لعدة أيام عرض السكان تسليمها، شرط تسليم كل من غي ملك القدس، والمقدم الأعلى للداوية، اللذان وقعا بالأسر في المعركة، إلى المسيحيين، وبسرور قبل صلاح الدين هذه الشروط، فاستولى على المدينة، ووفى بوعده، وترك ملك القدس ومقدم الداوية يذهبان مع جميع آلهما وحاشيتهما، ومنحهما الحرية.

وبعدما نال صلاح الدين تلك المدينة حمل نفسه إلى مدن أخرى، وقلاع من قلاع الصليبيين، واستولى عليهم جميعاً خلال مدة قصيرة، باستثناء بعض البلدات على ساحل البحر، وبشكل خاص صور وطرابلس، لأن ذلك الخائن الشرير جداً، أي ريموند كونت طرابلس، قد وجد ميتاً على فراشه، في الليلة التي تقدمت على اليوم الذي كان مقرراً تسليم المدينة فيه إلى صلاح الدين، وقد عرضت البراهين على ردته وكشفت أخبار خيانته بشكل عام على الناس جميعاً، وهي ختانه،

ورسائل منه، ولذلك السبب، حمل غي ملك القدس، الفاقد لمملكته ولعاصمة ملكه، نفسه وذهب إلى طرابلس، وأقام هناك مع أمرائه، وطرابلس مدينة ساحلية، في منطقة فينيقية، وهي مدينة قوية وقديمة جداً وموائمة كثيراً من أجل التجارة.

أوضاع المدينة المقدسة بعد الاستيلاء عليها، وملوكها الاسميين، ومختلف أوضاع تناقل ألقاب ملك القدس وهكذا دواليك، وأيضاً إثارة جميع الغرب ومساعدة الأرض المقدسة

عندما سمع للمرة الأولى، البابا أوربان الثالث، بأن المدينة المقدسة، قد صارت بإذن من الرب، بأيدي المسلمين، وأن جميع مملكة القدس، قد ضاعت كلها تقريباً، وأن الشعب الصليبي، قد تضرر بطرائق عدة، وأنه قد طرد باضطراب وفوضى من المدينة، وقتها أصيب بأسى عظيم، وبحزن كبير، وحمل على الفور إلى الفراش، ومات في فيرارا Ferrara، حيث صدف وجوده هناك.

وبناء عليه هزت هذه الأنباء السيئة، والمأساة المؤلمة، جميع ممالك الغرب، فشدّ جميع الملوك والأمراء أحزمتهم للانتقام للدماء المسيحية التي سفكت، وفي سنة ١١٨٨ لتجسيد الرب، عقد مجمع عام، جرت الدعوة إليه في باريس، فيه حمل جمهور رائع ولايمكن تعداده من الفرسان والجنود الرجّالة، الصليب، وتعهدوا باسعاف الأرض المقدسة ونجدتها.

وحمل في تلك السنة نفسها، امبراطور الرومان اللامع جداً، فريدريك الأول، الصليب مع أمرائه ونبلاء ألمانيا، وفعل الشيء نفسه كذلك فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، وجميع الملوك الآخرين، ورؤساء الأساقفة والأساقفة، ورجال دين كنيسة الرب، فهؤلاء جميعا حملوا علامة الصليب، وكانت هذه النهضة عالمية، إلى حد بدا العالم فيه

كله قد اتفق في مقاصده، وجرى حشد جمع هائل من الخيول مع بعضها، واندفعوا جميعاً براً وبحراً بحماس ملتهب من أجل الحرب ضد المسلمين.

وكان في ذلك الوقت في كالبريا Calabria، راعي دير اسمه يواكيم، وكان رجلاً صاحب تعليم عميق جداً، ومتفوقاً بعبقريته، فبعث خلفه الملوك والأمراء الذين كانوا على طريقهم إلى الأرض المقدسة، وسألوه عن محصلة حملتهم وكيف ستكون خاتمتها، فأجابهم بأنهم بالفعل سوف يعبرون البحر، غير أنهم سوف يعملون قليلاً نحو الأرض المقدسة، لأن الوقت لم يأت بعد حتى يتمكن المسيحيون من احتلال القدس، وكان الذي حدث هو كما قال هذا الرجل، لأنهم عندما وصلوا إلى سورية لم يتمكنوا من الاستيلاء على شيء غير عكا، وذلك خلال عامين من الزمن.

وجرى الاستيلاء على عكا سنة ١١٩٤ لتجسيد الرب، ليس بوساطة خرق أسوارها، لكنها استسلمت وفق الشروط التالية: أن يخرج المسلمون منها دونما أذى، وقد وعدوا بإعادة خشبة الصليب المقدس إلى الصليبيين، وهي الخشبة التي استولى عليها صلاح الدين بالحرب، كما كنا قد تحدثنا من قبل، وأن يدفعوا ٢٠٠,٠٠٠ دوقية، لكن صلاح الدين لم يحافظ على وعوده التي قطعها على نفسه للملوك حول خشبة الصليب، وحول إعادة الاسرى الصليبيين فما كان من الملك رتشارد إلاّ أن أمر في أحد الأيام بجعل خمسة آلاف(من الاسرى المسلمين) طعمة للسيف.

ومات في تلك الأثناء ابنتا الملك غي، من زوجته سيبيلا، البنت الكبرى للملك عموري، وغادرت بعدهما بوقت قصير أمهما السيدة سيبيلا، هذه الحياة، ولم يبق أحد من أسرة ملوك القدس الحقيقية حياً إلاّ السيدة اليزابث(ايسابل) الذي كانت زوجة همفري أوف

تيرون،[تبنين] لأن عموري، الملك السادس للقدس، كان له ولد ذكر واحد، هو بلدوين، الذي كان مجذوماً منذ طفولته، وابنتين هما سيبيلا، واليزابث، وإثر وفاة عموري، وصل المجذوم إلى العرش، لكنه بسبب مرضه لم يتمكن من الزواج، ولم يكن له وريث، فجعل من أخته الكبرى سيبيلا وريثة لمملكته، وقد حكم زوجها غي عوضاً عنها، في حين تزوجت اختها اليزابث من اللورد همفري، وبعد خسارة الأرض المقدسة والقدس، ماتت سيبيلا الملكة الوارثة لمملكة القدس، ولم يكن لها وريث سوى زوجها غي، وعندما سمعت اليزابث أخت سيبيلا، بوفاتها، أعلنت عن نفسها ملكة ووريثة لمملكة القدس، وأعلنت في كل مكان بأن زوجها هو الملك عوضاً عنها، مثلما كان غي ملكاً عوضاً عن أختها.

ورأى اللورد هنري، كونت شامبين مع آخرين كثر، بأن المملكة قد انتقلت إلى اليزابث بعد وفاة اختها، ولذلك عملوا لصالح الكونت المتقدم الذكر، وأن جميع الضرائب المجبية في الموانىء، والغرامات المفروضة على المقصرين، ومدفوعات أخرى هي من حق ملك القدس، ينبغي أن يتسلمها همفري، وعلى هذا بقي غي ملكاً بالاسم فقط، حيث جرد من جميع صلاحياته، ولذلك اشتكى وهو محق، أنه كان خرقاً للعدالة تجريده من جميع حقوقه في مملكته، وهكذا دعا إليه المخلصين من أتباعه، وشكل جيشاً، وقرر أن يعهد بنفسه إلى الحظ، وسوف يحارب معهم المسلمين.

ولدى سماع كبار الأمراء بهذا أصبحوا خائفين، من أنه إذا ذهب إلى قتال المسلمين بمثل هذه القوة الصغيرة، وهزم، فلسوف تتفرق جميع الحشود التي جمعوها لخدمة الرب، ولذلك عملوا في سبيل إعادة جميع الحقوق إلى الملك غي كما كانت من قبل، لكن كونراد مركيز أوف مونتفرات وقد رأى بأن المملكة قد آلت لصالح السيدة اليزابث،

بوساطة حق الوراثة، تطلعت نفسه شرهاً إلى المملكة، فقام بعمل مهين، وذلك بموافقة أمها كالوماريا Calomeria ، أرملة عموري المتقدم ذكره، وكانت ماتزال حية، فانتزع اليزابث المتقدمة الذكر من زوجها همفري، وبالقوة اتخذها زوجة له، وأغضب هذا العمل المهين والممجوج جميع الحجاج، لكنهم أخفوا غضبهم، لأنه مالم يكن كونراد راضياً، لم يكن بإمكانهم الحصول على الأقوات من صور.

علاوة على ذلك، كان هو رجلاً بارعاً، وقد ربح إلى جانبه عدداً من كبار الأمراء عن طريق الهدايا والخدمات، ولذلك ساعدوه في أعماله، واستولى هذا المركيز فيما بعد على صور، وصار رجلاً قوياً ومشهوراً، لأنه صد صلاح الدين مع جيشه عندما جاء لحصار صور، ولذلك مامن أحد تجرأ على معارضته وتجاوزه.

وعندما صار جيش اللوردات جاهزاً لمحاصرة القدس، قام الملكان الأعظم قدرة، وهما فيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا بتوحيد قواتهما ودمجها(٢٨٣)، ولدى سماع صلاح الدين باقتراب هذا الجيش العظيم، فكر بتسليم القدس إلى الصليبيين، وأرسل رسلاً إلى الملكين للتفاوض حول ذلك، وعندما سمع الملكان بهذا— ولنقل هنا الصدق— دخل الشيطان فيما بينهما، وبذل كل واحد منهما غاية جهده ليسلب الآخر، ولينال أكثر منه، وأن يصبح هو ملك القدس، ولذلك ثار خلاف بين الجيشين، وتخاصم الأمراء فيما بينهم حول الامارة المقدسة للقدس.

وأثناء تخاصمهم على هذه الصورة، تخلى فيليب وهو مغضب عن مشروع العمل كله، وذهب عائداً إلى أوروبا مع جيشه كله، ولأن ملك فرنسا ساند دوما ملوك القدس ووقف إلى جانبهم، ودافع عنهم، وحافظ عليهم في مملكتهم، رأى أنه من الجانب القانوني، أنه عندما ماتت الأسرة الملكية، فإن لقب المملكة ينبغي أن يناله شخصياً، لكنه

عندمـا رأى الآن أن هذا لايمكن حـدوثه من دون إزالة السـلام بين الصليبيين، لذلك انسحب وهـو مغضب، وعندمـا سمع صـلاح الدين بأن جيش الصليبيين قدتناقص بسبب مغادرة ملك فـرنسا، تخلى عن نيته بتسليم القدس إلى الصليبيين، وحصن المدينة المقدسة، ووضع حامية من الجند فيها، وفي الوقت نفسه بقي الملك رتشارد في سورية، وأثار الحرب بنشاط وفاعلية ضد المسلمين.

وفي سنة ١١٩٧، عندمـا كـان رتشارد مـا يزال في سـورية، قـام غي لوزغنان ملك القدس، التي تعرض في السنوات الماضية إلى الهزيمة على يدي صلاح الدين، قام وقـد شاهد شجاعة رتشـارد في سورية، وعظمة نفسـه، فتخلى لـه عن لقب وعن حقـوق مملكـة القـدس، على شرط أن يعطيه رتشارد جـزيرة قبرص، والتي كان رتشارد قد انتـزعها لنفسه من الاغريق، ووافـق رتشارد ونفذ ذلك برغبـة كبيرة، وجعل غي ملكاً على القدس، في حين أصبـح هو نفسه ملكاً على القـدس وعلى انكلترا، وقد وضع تاجين على رأسـه، ولهذا السبب مابرح ملوك انكلترا يستخـدمون هذا اللقب، لكن بعـد مغـادرة الملك رتشـارد، استـأنف غي حمل هذا اللقب، قائلاً بأن عاصمة مملكته قد انتقلت من القدس إلى قبرص.

والذي حدث على كـل حال أن الأمراء الذين احتلوا أمـاكن حصينة في سـورية رفضوا الاعتراف به ملكاً، لأنهم عـرفـوا بأنه في الحقيقة قـد خسر مملكته، وخسر لقبه المتعلق بها أيضاً.

وبعـدما تشجع الملك رتشـارد وتحمس بوسـاطة اللقب الملكي الذي تطلع إليـه طويلاً، بدأ يستعـد للزحف نحـو القـدس، وإلقـاء الحصـار عليها، لكن الشتاء حل، وتفـرق اسطوله بكل اتجاه، فغير خطته، وعمل هدنة مع صـلاح الدين، وشرع يستعـد للعودة إلى الوطن، وسلم قيـادة الجيش الصليبي، وجميـع حقـوق المملكـة إلى ابن أختـه هنري كـونت شامبين، وهكذا غادر تاركاً العمل وقـد اكتمل نصفه، ومضى في طريقه

مضيفاً أسى إلى أسى شعب البلاد المعزول، لأنه عدّ ملك فرنسا خصماً له، وخشي من قيامه بغزو بلاده أثناء غيابه، وكان رتشارد ذاهباً إلى وطنه بالبحر كملك، وقد عانى بقدر من الرب من جنوح سفينته أثناء عاصفة شديدة، غير أنه تمكن من الوصول إلى الساحل سالما مع عدد قليل من الأتباع، وعندما كان يشق طريقه بشكل سري للغاية خلال النمسا، اعتقل من قبل ليوبولد، دوق تلك البلاد، وسلب من جميع مقتنياته، ثم جرى تسليمه إلى الامبراطور هنري، ابن فردريك الذي كان قد هلك في الحملة السالفة إلى القدس، وقد أبقاه في السجن لمدة سنة ونصف السنة، ثم أطلق سراحه بعد دفعه مائتي ألف مارك فضي، وعاد إلى انكلترا، وأعتقد أن هذا جزاء جلبه على نفسه، لأنه ذهب ليحصل على مملكة القدس لنفسه، وعندما حصل عليها، تركها في أسى وحزن، وهرب بعيداً .

هذا وكان كونت شامبين المتقدم الذكر، الذي إليه عهد الملك الانكليزي بشؤون العناية بالجيش الصليبي، رجلاً تقياً، وقد رأى بأن البلاد قد تركت في وضع بائس، بعد مغادرة كل من ملكي فرنسا وانكلترا، ولذلك قرر هو شخصياً البقاء في الأرض المقدسة، وامضاء حياته في خدمة الرب، ولدى رؤية تقواه وأوضاعه، قام مقدم الداوية مع الحجاج الآخرين باختياره ملكاً، وأعطوه السيدة اليزابث، ابنة الملك عموري، لتكون زوجة له، لأن زوجها، مركيز صور كان قد توفي، وكذلك همفري، زوجها الأول.

وبعدما حكم لمدة عامين، وعندما كان مستنداً على نافذة في الطابق العلوي من قصره، سقط نحو الأسفل، ومات بشكل بائس، وهكذا باتت مملكة القدس من جديد من دون ملك، وقد حدث هذا في سنة ١١٩٧، ووصلت في السنة التالية حشود لاتحصى من المؤمنين إلى عكا، بوساطة البحر، وكانوا جاهزين من أجل استرداد القدس، لكن بما أنه

لم يكن هناك من يقودهم، ولايوجد ملك للأرض المقدسة، تبددت هذه الحشود من دون عمل، وعاد الناس إلى بلادهم، بعدما أنفقوا كثيراً من المال، من دون محصلة.

وبعد هذا، كان في سنة ١٢٠٢م زلزال كبير في سورية، وقد لحق الدمار مدينة عكا مع جميع قصورها وأبنيتها الأخرى، وحل المصير نفسه بكثير من المدن الأخرى.

وفي سنة ١٢١٥، دعا البابا انوسنت الثالث، إلى عقد مجمع ديني كبير جداً، في اللاتيران في روما، وقد قيل بأنه حضر هذا المجمع ألف وثلاثمائة من الأساقفة، وكان بين هؤلاء اللورد فولك، أسقف طولوز، وكان رجلاً متميزاً، وجاء إلى حضرة البابا انوسنت ومعه القديس دومينيك، والتمس من البابا تثبيت الطائفة، التي عرفت باسم طائفة القديس دومينيك، وكان في البداية من الصعب اقناع البابا بفعل هذا، غير أنه رأى فيها بعد مناماً في كنيسة اللاتيران، بأن جميع أطرافه قد تفككت، وكانت على وشك السقوط، لكن دومينيك، رجل الرب، ركض وأمسك الجسد المتداعي، وحال دون سقوطه، ولذلك قام في اليوم التالي، فبعث وراء القديس دومينيك، ووافق على الاقتراح، وعمل بسرور الذي طلب منه، وتسلم القديس دومينيك في السنة التالية تثبيتاً لطائفتة من هونوريوس الثالث.

وكان في المجمع الذي تقدم ذكره، بالاضافة إلى الأساقفة بطريرك القدس وكذلك بطريرك القسطنطينية، مع عدد كبير من الأساقفة الاغريق ومن الامبراطورية الرومانيةوكذلك مبعوثين من قبل ملوك: القدس ، وفرنسا، واسبانيا، وانكلترا، وقبرص، ومع أن كثيراً من التنظيمات الرائعة قد عملت من قبل هذا المجمع، غير أن النقاش الرئيسي كان فيه حول استرداد الأرض المقدسة، واسترداد القدس، وحول كيفية جمع المال لهذا العمل، وكيف ستكون الدعوة إلى الصليبية،

وكيف ينبغي أن يلبس الناس شارة الصليب، ومن هم الذين ينبغي توليهم قيادة المجموعات وقيادة الجيوش.

وبناء عليه ترك القديس دومينيك منذ أيام ذلك المجمع لحيته تنمو، عازما على الذهاب مع الجنود للقتال ضد المسلمين، وذلك مثلما كان قد قاتل لوقت طويل ضد الالبينيين الهراطقة، وتوفر بعد هذا المجمع حشد رائع من الناس من أهل الغرب للانطلاق من أجل تحرير القدس، والأرض المقدسة.

وحمل في الوقت نفسه الأطفال من مملكتي فرنسا وألمانيا شارة الصليب، وقد بلغ تعدادهم عشرين ألفاً، وأعلنوا أنهم عازمون على الذهاب لمساعدة الأرض المقدسة، وقد توجهوا على شكل حشود إلى مختلف موانىء البحر، ثم عادوا من هناك إلى أوطانهم جائعين ومفلسين، وراجت حكاية بأن شيخ الجبل، الذي اعتاد على تربية الحشيشية منذ طفولتهم، كان لديه في السجن اثنين من الكهنة المنشقين، وكان هذين الكاهنين متعلمين بشكل عميق، وأنها كانا بارعين بالسحر وتحضير الأرواح، فأعلن أنه لن يطلق سراحهما مالم يعدوه بجلب أطفال من فرنسا وألمانيا إليه، وبناء عليه، قالوا بأن الأطفال المتقدم ذكرهم قد اقتيدوا من قبل هذين الرجلين، بوساطة قوة جذب شيطانية، ورؤى زائفة، حتى يحملوا الصليب، على أساس بأن الرب قد رسم بأن الأرض المقدسة، والقدس، يمكن تحريرهما فقط بوساطة أطفال أبرياء.

وعندما وصل هؤلاء إلى موانىء البحر، جرى اغراق الكثير منهم من قبل القرصان، كما جرى بيع أعداد كبيرة منهم رقيقاً إلى المسلمين وإلى أجانب آخرين، ومات كثير منهم من الجوع، وعاد بعضهم إلى أوطانهم إلى آبائهم، وقد ساد ضلال بين الأطفال في أيامنا، فقد أرادوا في سنة ١٤٥٤، القيام بالحج إلى جبل القديس ميكائيل، وقد تبرهن أن هذا الحج كان مفيداً أم لا من خلال المحصلة المخفقة له.

وفي سنة ١٢١٧، قـامـت أعـداد لاتحصى من النـاس، بعـد مجمع اللاتيران بحمل شـارة الصليب حتى يتمكنوا من القتال ضـد الألبينيين الهراطقة، وكـان من هؤلاء على سبيل المثال سيمون كونت مـونتفورت، وقد كـان بين اتباعـه دومينيك أبونا المقدس، وغي ابن الكـونت المتقدم ذكـره، ولويس ابن ملك فـرنسـا، ومع ذلك كـان بعضهم، وهم الذين شكلوا الجزء الأكبر، قد حملوا شـارة الصليب حتى يتمكنوا من اسعاف الأرض المقـدسـة، واسترداد القـدس، لأنه في تلك السنـة انتهى وقت الهدنة بين الصليبيين والمسلمين، ولذلك عبر الجيش الصليبي، الذي حمل شارة الصليب بعد مجمع اللاتيران، البحر، ووصل إلى عكا، وكان جيشاً لايعـدّ ولايحصى، معه ثلاثة ملوك هـم: ملك القدس، وملك هنغـاريا، وملك قبرص، وكان أيضـاً حاضراً بينهم، دوق النمسا وبانونيـا، وعدد كبير من الجنود من ألمانيا.

وكان ملك القـدس في ذلك الحين، اسمه جـون، وكان من قبل دوق بريين في فرنسا، وكان قـد انتخب قبل بضع سنوات ملكاً للقدس، وقد كـان تقياً ومـاهراً شجـاعاً بـاستخدام السـلاح، وقـد انحدر بنسبـه من غـودفري ذلك الانسـان الرائع جـداً، الذي كان الملك الأول للقـدس، وقد تزوج من ابنة كونراد، الذي كان مركيز صور، وقد توجا في صور، وبعـدما حمل الصليبيـون أسلحتهم قامـوا باستعدادات جبـارة من أجل القتـال ضـد أعداء الصليب، وعندمـا كـانوا جـاهزين للانطلاق، جـاء بطريرك القـدس وسط أناس محترمين جـداً من رجـال الدين والشعب، وحمل بشكل جليل في يديـه خشبـة الصليب المانـح للحيـاة، وسـار في معسكر الرب، وكانت هذه القطعة النصف الأول من الصليب المقدس، وهي التي تمّ العثور عليهـا في الكنيسة في أيام غودفـري المشهور، الذي كـان الملك الأول للقـدس، فقـد كـان هذا النصف يحتفـظ به دومـاً في الكنيســة، في حين كــان القسم الآخـر يحمل دومــاً إلى الحروب وإلى

المعسكرات، وهذا النصف الأخير هو الذي استولى عليه صلاح الدين وانتزعه من غي، آخر ملوك القدس، كما ذكرت من قبل، وبعد فقدان ذلك القسم، حمل الصليبيون النصف المتبقي من الصليب المقدس وقاتلوا تحته.

ورتبوا الآن صفوفهم ، وزحفوا مع هذه العلامة نحو المكان الذي قيل بأن المسلمين موجودين فيه، عازمين على انشاب القتال معهم، ولكن ماأن سمعوا باقتراب جيشنا عن طريق عناصر الاستطلاع لديهم، حتى هربوا وهم مرعوبين، وزحفت قواتنا من دون معيقات في منطقة الجليل، ملحقة كثيراً من الأذى بالأعداء، ومقررة الاستيلاء على جبل الطور، لكن بعد كثير من المتاعب، وبناء على نصيحة بعض أفراد جيشنا، رفع شعبنا الحصار، وعاد جيشنا إلى عكا، لأن الوقت صار شتاء وكان موسم الحملات قد انقضى.

ولدى انتهاء الشتاء، أراد الجيش الصليبي حمل السلاح ثانية والزحف ضد المسلمين، إنما نتيجة لذنوبنا، انقسم جيشنا إلى أربعة أقسام، فقد قام ملك هنغاريا بالحاق أذى عظيماً بالصليبيين، حيث جهز سفنا لسفره، وعاد إلى الوطن، آخذاً معه الشطر الأكبر، من الجيش الصليبي، مع غلايينه، وعتاده الحربي، ولم يصغ إلى البطريرك، الذي طلب منه البقاء، ولذلك أصدر البطريرك ضده قراراً بالحرمان الكنسي، وضد كل من يعمل مثله، وأصبح بعض الحجاج إما من خلال الترف أو الخوف جبناء جداً إلى حد عدم الرغبة بالخروج خارج أبواب عكا.

ومع ذلك تمكن ملك القدس، ودوق النمسا مع باروناته، وشطر كبير من الجيش الألماني، وفرسان القديس يوحنا، من بناء قلعة قوية في قيسارية فلسطين، وكان من غير الممكن طردهم من هناك، مع أنهم غالبا ماأعلموا بأن الأعداء كانوا قريبين منهم، وكذلك أعاد الداوية مع بيت الاسبتارية وفرسان التيوتون، بناء قلعة الحجاج(عثليت) التي كانت

مدمرة منذ وقت طويل، وعندما كانوا يرسون الأساسات هناك، كشفوا عن جدار سميك وعاري، فيه حفروا بالأدوات الحديدية، فوجدوا كميات وافرة جداً من النقود الذهبية، كانت الكتابة عليها والصور غير معروفة بالنسبة للمعاصرين، وقد أذابوا هذه النقود ودفعوا بها أجور عساكرهم، وكان شكل موقع هذه القلعة كما يلي: كان هناك ذراع صخري مرتفع وضخم وواسع ممتد في البحر، وكان هذا الذراع أو النتوء محصن بشكل طبيعي بجروف من جوانب: الشمال، والغرب، والجنوب، في حين قام على الجانب الشرقي برج قوي، بني بالأصل من قبل الداوية لحماية الحجاج، وكان بناء هذه القلعة مفيداً، لأن دير الداوية قد جرى نقله إلى هناك من عكا، التي كانت مليئة بجميع ألوان الذنوب والشرور، وقد تأسس هناك كحامية لهذه القلعة حتى يحين الوقت الذي يعاد فيه بناء أسوار القدس.

واستمر في سنة ١٢١٨م التبشير بصليبية ضد الشرقيين، في جميع أرجاء الغرب، وشوهدت صلبان رائعة في سماء منطقة كولون، وتريفس Treves، وذلك مع معجزات أخرى أثارت ألمانيا كلها لعبور البحار، وتجمع الألمان بأعداد كبيرة، وأبحروا إلى عكا في شهر آذار، وبعد عيد صعود الرب غادروا غلايينهم الحربية المنقارية وأماكن نزولهم، واجتمع جون ملك القدس، مع البطريرك، والحجاج، ودوق النمسا، والطوائف الثلاث، وحشد واسع من الصليبيين، وتشاوروا حول كيف يمكنهم تنفيذ قرار مجمع اللاتيران، الذي توصل إلى محصلة قضت بوجوب ارسال الجيش الصليبي إلى مصر، لأنه تبرهن في ذلك المجمع من قبل الخبراء أنه لن يكون من الممكن للصليبيين الحكم بسلام في سورية والأرض المقدسة، مالم تكن مصر قد ألحقت بمملكتهم.

وقد تبرهن على هذا من حقائق، أنه ماأن تحالفت الأجزاء السورية التي حول دمشق مع مصر في أيام عموري، ملك القدس، حتى

أصبحت مملكة القدس على الفور في خطر عظيم، في حين أنه قبل ذلك التحالف مامن انسان كان بامكانه ايذاء المملكة المقدسة، ولذلك قرر الآباء المقدسون الذين جلسوا في المجمع المتقدم الذكر، وجوب الاستيلاء على مصر أولا، وبعد ذلك ينبغي أن يزحف الجيش للاستيلاء على الأرض المقدسة، والمناطق الأخرى في الشرق.

وبناء عليه صار الاسطول في شهر أيار جاهزاً، وأبحر جون، ملك القدس المتقدم ذكره مع دوق النمسا وحشد كبير من الصليبيين نحو دمياط تحملهم إليها ريح طيبة، ومدينة دمياط قائمة على شاطىء البحر، وتعرف أيضاً باسم آخر هو Pachneumurus (كذا)، وكانت مدينة دمياط هي الأكثر تحصينا بمصر، كما كانت غنية ومكتظة السكان، ومليئة بالتجارات.

ووصل رجال شعبنا إلى ميناء دمياط، وانتظروا في البحر لمدة ثلاثة أيام، وصول بعض القادة، لكن قبل وصول هؤلاء نزلوا إلى اليابسة، وشرعوا بحصار المدينة من الجانب المواجه للبحر، وذلك على الرغم من المسلمين، ويوماً تلو آخر صار جيشنا أكبر، ولذلك فإن السلطان الذي كان معسكراً في الجانب الآخر من المدينة، هرب مبتعداً مع جيشه، وعبر رجال شعبنا النهر، وحاصروا المدينة كلها، وضغطوا عليها بشدة متناهية، ونصبوا في الوقت نفسه معسكرهم بين شاطىء البحر، ونهر النيل، وصنع الرب المعجزة التالية، وهي أنهم ماأن وصلوا إلى هناك حتى أصبحت مياه النهر عذبة، وذلك حيث يتصل النهر بالبحر، ولم تتدفق المياه وتفض أكثر من المعتاد، وكأنها فعلت ذلك حتى تبقي مكاناً من أجل شعب الرب، لكن بعد أمد وصلت المياه الفائضة إلى المعسكر ودخلته، ومعها انتشر الطاعون بين صفوف جيشنا.

وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيون يحاصرون دمياط بعناد، قام المعظم عيسى ابن السلطان الكبير، فحشد جيشاً من أهل منطقته،

وزحف في داخل سورية إلى القدس، ودمّر المدينة المقدسة دماراً كلياً من الداخل والخارج، باستثناء هيكل الرب، وبرج داوود، وقد فعل هذا بغرض، أن الصليبيين، بعد استيلائهم على دمياط، لن يجدوا أي مكان حصين على الأرض، يمكنهم أن يتأسسوا فيه في مملكة القدس، ولأنه لو سقطت دمياط، لن يكون لديهم أمل بالقدرة على الدفاع عن القدس، وأثناء قيام المسلمين، بتدمير القدس تناقشوا هل عليهم تدمير كنيسة ضريح الرب، لكن مامن انسان تجرأ على أن يمدّ يديه عليها، ومع ذلك انزعج شعبنا من الرسائل التي بعثها المسلمون الى معسكرنا أمام دمياط، حيث أعلنوا فيها، أننا مالم نرفع الحصار مباشرة، فإنهم سوف يدمرون دماراً كلياً، كنيسة القيامة، وبعد فراغ المعظم عيسى من تهديم القدس، حاصر ثم استولى على بعض القلاع الصليبية، التي بنيت حديثا.

وفي الوقت نفسه بما أن مدينة دمياط كانت تعاني من السيف، والجوع، والطاعون، أثناء الحصار الطويل، هنا بدأ عامة الشعب يتذمرون ضد السلطان، وضد الأعيان الذين حكموا المدينة، وأعلنوا أنهم لايستطيعون الاستمرار بتحمل مآسي الحصار، وعندما علم السلطان بهذا، منعهم من تسليم المدينة، وأعطى أوامر إلى رجاله في الداخل بإغلاق أبواب المدينة عمارة من الداخل، خشية أن يقوم سكان المدينة، الذين كانوا يعانون من الجوع والمجاعة، بهجرها إلى المعسكر الصليبي، وإخبارهم بحالة التعاسة التي كانت تعيشها المدينة، ولم تقتصر معاناة الناس من المجاعة في داخل المدينة، بل عانوا من ذلك في معسكر المسلمين، الذي قام ليس بعيداً عن معسكرنا، فقد كانت هناك مجاعة حادة، لأن نهر النيل الذي اعتاد على الفيضان على ضفتيه بعد عيد القديس يوحنا المعمدان(٢٤—حزيران)، ويستمر بالفيضان حتى عيد تمجيد الصليب(١٤ تشرين أول)، ومن ثم سقاية سهل مصر، لم ترتفع مياهه في تلك السنة إلى العلامات التي وضعها المصريون، بل ترك شطراً

كبيراً من الأرضيين دون غمـر، وجـافـة، ولذلك كـان ليس مجدياً لاالفلاحة ولا البذار في تلك السنة، وخشية من السلطان حدوث مجاعة في المستقبل، قام مـع أخيه المعظم عيسى بعـرض السلام على الصليبين، وفقـاً للشروط التالية: هو سـوف يسلمهم الصليب الذي استولى عليـه صلاح الدين في نصره، مع مدينة القدس المقدسة، وجميع الأسرى الذين يمكن العثور عليهم أحياء في أرجـاء مصر وفي مملكة دمشق، كما عرض مـالاً لإعادة بناء أسـوار القدس، وأنه سـوف يعيد إليهم مملكة القـدس كلهـا، حسبما كـانـت بأيدي الصليبيين، وذلـك مع قلعتـي الكرك والشـوبك،. وهما قلعتـان قـريبتـان من القـدس، من بينهما اعتـاد تجار المسلمـون والحجـاج على المرور وهم على طريقهـم إلى مكة، وهذا كله كان السلطان على استعداد لتقديمـه وفعله، شريطة أن يقوم الصليبيون، بالتوقف عن حصار دمياط، ورفع الحصار، وسحب قواتهم إلى سورية.

ورأى جون ملك القدس مع جميع نبلائه، ودوق النمسا وجميع القادة الألمان، بأن هذه الشروط ينبغي قبـولها بكل وسيلـة من الوسـائل، وأنها نافعـة جداً للصليبيين، لكـن بيلاغيـوس، النائب البـابوي، والبطريرك، والأسـاقفـة، ورؤسـاء الأسـاقفـة، والداوية، والاسبتـارية، والبنادقـة والجنويين مع الايطاليين الآخـريـن رفضـوا هذا العـرض، وكـان هناك انقسـامـاً كبيراً في جيشنا، لأن الأمـراء العلمانيين والعـامـة كـانوا على استعـداد لقبول السـلام مع المدينة المقـدسة وجميع مملكة القـدس، ورفع الحصـار الذي هو أمـر جيـد ومفيـد عمله، لكن من جـانب آخـر نادى بصوت مرتفع النائب البابوي، وأسـاقفة الكنيسة، والتجار الطليان، من أجل الاستيلاء على دمياط، لأنهم أدركوا أنهم في اللحظة التي ينالون بها دميـاط، فإن القـدس والبقيـة سـوف تسقط في أيديهم، لكن الذي يحك بشدة متناهية يفجـر الدم، وهذا ماحدث معهم، لأن عملهم هذا انقلب في النهاية سيئاً ضدهم، وفي الحقيقة مـاكان بإمكان شره رجال الكنيسة،

والنهم الذي لاحـــدود له للتجـار، الـذين تولوا تـدبير الحملة، جلب الأمور إلى نهاية سعيدة.

وفي الحقيقة منذ أن حدث الاستيلاء على دمياط، تلك السيدة المتكبرة للبحـر، ومعذبة الصليبيين، حـدث كل مايلي بإرادة الرب، فعندمـا بات صلاح الـدين(كذا) يائسـاً من الحصول على السـلام ،قام بارسـال عدد كبير من الجنود الرجـالة إلى البلدة في الليل، لكن جـرى اعتقـال كثير منهم وقتلهم، من قبل شعبنا، ثم انه بناء على أوامر من النائب البابوي، جـرى ارسال بعض الفـرسـان، أثناء الليل إلى باب المدينة، لرؤية كيفيـة حراسته، وقد تمكنوا وهم مغطون بترستهم من الصعود إلى أعلى الباب، فلم يجدوا أحداً فوق الباب أو قربه، فنصبوا سلالم على الأسوار، ودعوا رفاقهم وتسلقـوا إلى أعلى الأسوار، ثم نزلوا إلى المدينة، وفتحـوا الباب، وتركـوا رفـاقهم يدخلون، وقـد قتلوا المسلمين الذين صـدفـوهم، وبالضجة التي انبعثت من هذا القتـال، نهض باقي الجيش، وحمل رجاله السـلاح، وبذلك استـولوا على المدينـة، أمـام عيني السلطان، ومن دون معركة أو ضرر للصليبيين، وجاء الاستيلاء على المدينة في اليوم الخامس من تشرين الثاني لعام ١٢١٩م.

وعندمـا رأى السلطان المدينة بأيـدي الصليبيين، استبـد بـه الرعب، فأحـرق معسكره وتراجع، ولدى دخـول الصليبيين إلى دمياط واجهـوا رائحة نتن لاتحتمل صدرت عن جثث النـاس الأموات، التي كانت من الكثـرة بمكان أن الأحيـاء كـانوا غير قـادرين على دفنهم، وكـان منظراً مؤلماً مشـاهدة رجال ونسـاء وأطفال قـد جاعوا حتـى الموت، وقد قتل الأموات الأحياء بروائح نتن جيفهم.

ففي خـلال العشرين شهـراً، الذيـن حـوصرت المدينة أثنائهم، هلك سبعة آلاف من المسلمين من الجوع والطاعون، ووجدنا في المدينة حوالي ثلاثة آلاف من المقاتلين، كان منهـم أربعمائة من أعلى النبلاء، وذلك مع

أغنى سكان المدينة من الجنسين، وجرى الاحتفاظ بهم جميعاً رهائن من أجل تخليص أسرانا من عند المسلمين، وجرى بيع البقية رقيقاً إلى الصليبيين، كما تمّ تعميد الأطفال، ولم يكن في المدينة أية أطعمة، لكن الذهب والفضة، والأحجار الثمينة، والأقمشة الذهبية والحريرية والأشياء الغالية الأخرى، كانت بلاحدود، وقد حملت كلها— تحت تهديد عقوبة اللعنة الرهيبة— إلى المستودع العام، وجرى توزيعها بين الجيش، من قبل أناس أمناء، بشكل عادل، إلى حد أن النساء الفقيرات والأطفال تسلموا حصة من ذلك.

وبعد الاستيلاء على دمياط، واعادة تنظيم الأمور فيها، استولوا على مدينة أخرى حصينة جداً اسمها تنيس، لأنهم وجدوها كلها مهجورة..

وفي سنة ١٢٢١ لتجسيد ربنا، ثار— بتحريض من الشيطان— نزاع بين بيلاغيوس، النائب البابوي، وبين جون ملك القدس، لأن النائب البابوي انتفخ عجرفة، ونسي أحكام أنظمته الكهنوتية، فأراد أن يجعل من نفسه الحاكم الأعلى لجميع الجيش، فقام بتعبئة صفوف القوات للقتال، ورغب في أن ينال وحده فخار الاستيلاء على مدينة دمياط. وأن يعزى كل فضل إليه وحده، ورأى الملك أنه من المعيب أن يقوم رجال الدين في مملكته بإدارة الأمور العسكرية، ونظراً لأنه كان رجلاً حكيماً آثر الانسحاب على الخلاف، ولذلك تعلل ببعض المعاذير من أجل المغادرة، وحمل نفسه مع عدد قليل من خدمه، وترك الجيش، وذهب إلى سورية.

وفي الوقت نفسه ازداد حجم الجيش يوميا أكثر فأكثر، ووصل عدد كبير من السفن من الغرب إلى دمياط، واستدعى بيلاغيوس الآن القادة جميعاً، وعرض رأيه بأن عليهم الزحف ضد السلطان، المقيم معسكره على ضفة نهر النيل، على مسافة سفر يوم واحد من دمياط، وعارض قائد القوات ذلك، وبين أنه لايحق للنائب البابوي تحريك الجيش في

غيـاب الملك، وبناء عليه عندما رأى النائب البـابوي أنه مـالم يكن حـاضراً، من غير الممكن تنفيـذ الحملة الصليبية، بعـث بسفارة رسميـة إليه، ورجاه بالظهور، والبرهنة إلى الجيش بـأنه ابنا حقيقياً لكنيسة روما، وأنه سوف يعود إلى الجيش الذي ينتظره بشوق.

وقام الملك العـاقل فحشد جيشاً، وزحف من سـورية، وعندما سمع باقتراح النائب البـابوي بـالهجـوم، نصح بقـوة ضـد القتـال، وقـال إذا ماتحرك الجيش الصليبي من دمياط وغادرها في ذلك الوقت، فلن تصله النجدات من دميـاط لابراً ولابوساطة الماء، ولاسيما وأن مـوسم فيضان النيل بات وشيكاً، وقـد انزعج النائب البـابوي كثيراً من نصيحـة الملك العاقلة، ومن رأيه الصائب، وأعلن عن حـرمان كنسي عام ضد كل من يعيق تنفيـذ خطتـه، وعندمـا رأى الملك أنه من المستحيل صرف النائب البـابوي عـن مقـاصـده، استجـاب وهو مكره جـداً، واذعـانا منه الى الكنيسـة، وعـرض أن يزحف ضـد السلطـان والقتـال بصحبـة النائب ضـده، لكن الذي حدث كـان ماتوقعـه الملك، فقد وقع الصليبيـون في ضيق شـديـد بسبب الجوع، وبسبب ارتفـاع النيـل، وبسبب حملات السلطان، ولذلـك أرغمـوا على صنع سـلام مع السلطـان، وتخلوا عن دمياط، وتراجعوا في فوضى من مصر إلى سورية.

وبعـد هذا عقـدت هدنة لمدة ثمانيـة أعـوام بين الصليبيين والمسلمين، وسلّم قومنا دمياط وغادروا وهم مجللـون بالعار، وتوجه كل واحد إلى مكانه، ولكم كـان مفيـداً لـو أنهم قبلوا الشروط التي عـرضت عليهم، وهي التي كان ملك القدس مع الفرنسيين والألمان على استعداد للقبول بها، لكن عجـرفـة ذلك النائـب البـابوي الملعـون، سببت فقـدان مملكة القـدس، واعادة دميـاط إلى المسلمين، وتمزيق وتدمير قومنا، وإنه لأمـر عجيب أن بيلاغيوس أو بالحري« بحر بيلاغـوس للدناءات»، لم يمزق إلى ألف قطعة، لأننا لوكنا تسلمنا القدس في ذلك الوقت، وفق الشروط

التي كـان السلطان على استعـداد لمنحنا إياها، لكانـت الآن في أيدينا، وكان الضريح المقدس حراً.

وفي سنة ١٢٢٣م، حـزن جـون ملك القدس كثيراً لخسـارة دميـاط، وأكثر من هذا لخسارة مملكة القدس كلها، وهي المملكة التي صارت في أيدي الصليبيين، لكنهم رفضوا استلامها وبعدمـا قام بتقرير أمور دولته في سـورية بقـدر مـااستطاع، أخـذ سفينتـه وتوجـه إلى الغـرب، حتى يستجدي العـون من كنيسة رومـا ومن أمراء المسيحيين، وعندمـا وصل إلى عند البـابا غـريغـوري التـاسع وجـده غـاضبـاً جـداً ومنزعجـاً من الامبراطور فـريدريك الثـاني، وبناء عليـه قـام ملك القـدس بمصـالحة الاثنين، أي البـــابا والامبراطـور، ولكي يمتن هـذه المصــالحة أعطى غـريغوري إلى فـريدريك الابنة الوحيـدة لجون المتقدم الذكـر، أي ملك القـدس، لتكون زوجة له، ووعـد الامبراطور شخصياً بأنه سـوف يعبر البحر إلى سورية بشخصه حتى يسترد الأرض المقدسة، وبعد احتفالات العـرس، بشكل مهيب جـداً في رومـــا، سأل ملك القـدس الامبراطور القيـام بإعـداد جيشه، أثناء وجـوده شخصيـاً في الغرب وبقـائـه هناك، وارتحل الملك الآن إلى اسبانيا، حيث زار مزار القديس جيمس الرسول، وهناك تزوج ابنة ملك غاليشيـا، وأبحر من هناك إلى انكلترا، حيث نال كثيراً من الأعطيات من الملك ومن باروناته للمسـاعدة على نيل الأرض المقدسـة، وفي هذا الوقت نفسه أنهى الملـك فيليب، ملك فرنسـا حياته، تاركاً في وصيتـه بين منحه، مائـة ألف دولار باريسي لإعطائها إلى ملك القدس، لمسـاعدته على استرداد الأرض المقدسـة، والمبلغ نفسه لفـرسان الداوية، ونفسه أيضاً إلى فرسان الاسبتارية.

وخلف فيليب على العرش ابنه لويس، الذي جـرى تتويجه في ريمس Rheims وكان جـون ملك القدس حـاضراً أثناء تتـويجه، وبعد مضي بضع سنوات، أمكن بوسائل البابا غـريغوري جمع أسطول جرى شحنه

برجال من مختلف الشعوب، من أجل ارساله إلى سورية، ضد أعداء الصليب، ووقتها دعا الامبراطور للوفاء بوعده، بعبور البحر لانجاد الأرض المقدسة، والتحق الامبراطور مع حشد كبير بجيش البابا، وأقلع الامبراطور مع نائب البابا من برنديزي في أبوليا.

لكن بعدما أبحروا لمسافة صغيرة، أمر الامبراطور اسطوله بالابحار عائداً إلى أبوليا، وعاد الامبراطور نفسه معه، مما سبب إحباطاً عظيماً لرحلة الصليبيين، ولذلك قام البابا وهو مغضب منه، فحرمه كنسياً للمرة الثانية، عادّا إيّاه خائناً حانثاً بيمينه، وقالوا بأن فردريك قد عاد لأنه سمع بأن البابا عزم في غيابه على إعطاء صقلية وأبوليا إلى جون ملك القدس، لكي تكون تحت حكمه، وقال آخرون بأن فردريك قد تخلى عن الحملة الصليبية، لأن السلطان بعث برسل له، وقد جلبوا له رسائل ورشوات كبيرة، ووعدوه بأنه سوف يحصل على مملكة القدس من دون حرب أو سفك للدماء، شريطة قيامه بإعاقة رحلة الصليبيين.

وبعد هذا حشد فردريك المتقدم ذكره جيشاً كبيراً، ومضى نحو الأرض المقدسة، من دون أوامر من البابا، وأكثر من هذا، من المعتقد، أنه ذهب لاستلام مملكة القدس، التي منحت له، وليس صدوراً عن غيرة على العقيدة، أو رغبة في خدمة المسيحية، ولذلك بعث الامبراطور إلى السلطان، وطلب منه القدس، وقد أعطاها له، وبناء عليه ذهب إلى القدس مع فرسانه الألمان، وباروناته وبقية أتباعه، وتدبر تتويج نفسه ملكاً على القدس في وسط أيام الصوم الكبير. في سنة ١٢٢٥ لتجسيد ربنا.

وهكذا أصبح من دون أدنى معارضة متملكاً للمملكة كلها وللمدينة المقدسة، علماً بأنه سمح للمسلمين بالبقاء بمساكنهم، وأعطى إليهم هيكل الرب، الذي يعرف باسم هيكل سليمان، لينشدوا مدائح محمدﷺ فيه، ولم يوافق الكاردينال، نائب البابا على ترتيبات السلام هذه،

ورفضها أيضاً بطريرك القدس، وكذلك فرسان الداوية وفرسان الاسبتارية وبقية بارونات الامبراطورية، باستثناء الألمان والصقليين، كما عارضها قادة الصليبيين، لأنهم نظروا إلى هذا السلام على أنه سلام قائم على الغش، وقد جرى اعداده من أجل ايذاء الصليبيين وإحداث البلبلة بين صفوفهم، ولكي يعيق الاستيلاء على الأرض المقدسة، وتحرك الداوية بشكل خاص، وأثاروا المؤمنين ضد الامبراطور، وحذروهم من تصديقه، ومن الاعتقاد بأن اعماله صحيحة أو صادقة، وفي الحقيقة كان الامبراطور معادياً بشكل كبير إلى الداوية، وصدوراً عن كراهيته لهم، أعطى هيكل الرب إلى المسلمين، خشية أن يقع في أيديهم.

وبعدما جرى الاستيلاء على القدس على هذه الصورة، أرسل الامبراطور رسلاً إلى البابا غريغوري يرجو تحليله من الحرمان الكنسي، لأنه قام، بعون من الرب، بالوفاء بتعهداته في سورية، لكن البابا رفض تحليله، لأنه كان يعرف بأنه كان متحالفاً مع السلطان، وأن تملكه لمملكة القدس كان صورياً فقط، وأرسل الامبراطور أيضاً رسلاً إلى ملكي فرنسا وانكلترا، وإلى أمراء الغرب الآخرين ليخبرهم عن استرداد ضريح الرب، وعن تتويجه، وأخيراً أمر البابا، بالاضافة إلى قرار الحرمان الكنسي الأعظم، الذي كان قد أصدره ضده، بوجوب دخول جون، ملك القدس، الذي كان موجوداً في ذلك الحين في لومباردي، إلى أبوليا، على رأس قوات مسلحة من قبل الكنيسة، لدعوة الناس للالتحاق به في ثورة ضد الامبراطور، وبناء على ذلك استولى على عدة مدن ومناطق في أبوليا، وعندما سمع الامبراطور بهذا ترك وكيله حاكماً في القدس وفي المملكة وعاد إلى أبوليا، واسترد مناطقه المفقودة.

وأثناء وجود وكيله حاكماً في الأرض المقدسة، جلب كثيراً من الشرور للصليبيين، واستولى على قلاعهم عنوة، وبما أنه لم يكن قادراً على تدبر أمور هذه القلاع فقد أعطاها إلى المسلمين، ثم نشب خلاف،

وحدث تمزق، وجرى طرد الوكيل وقد هلك بعد هزيمته، وبذلك سقطت مملكة القدس كلها ثانية في أيدي المسلمين.

وعندما رأى البابا بأن أوضاع الأرض المقدسة، وقد أخذت تتردى من سيء إلى أسوأ بسبب التحالفات الصديقة الزائفة للامبراطور، استدعى الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان إليه وأمرهم بالتبشير بصليبية في أرجاء بلدان الغرب، من أجل اسعاف الأرض المقدسة.

وجرى في سنة ١٢٣٠م حشد جيش عظيم، وقد ركب رجاله البحر، ووصلوا إلى عكا، وكان في هذا الجيش عدد كبير من النبلاء والرجال المشهورين ذوي المكانة، وبعدما استراحوا لعدة أيام في عكا، قرروا مهاجمة بعض الأماكن الحصينة العائدة للمسلمين، وقام كونت أوف نوربريكانيا Norbricania بطيش بالحملة مع أتباعه، فاستولى عنوة على عدد من البلدات، وأحضر معه وهو عائد كميات كبيرة من الغنائم، والأسرى والحيوانات.

وعندما رأى الآخرون هذا، حرضتهم الغيرة والمنافسة لمحاولة القيام بمثل هذا الانجاز، فنظموا قواتهم وعبأوها، وغادروا المدينة في الصباح الباكر، وزحفوا فوق الرمال خلال فلسطين النهار كله، والليلة التالية جميعها، ووجدوا أنفسهم في اليوم التالي أنهم باتوا على مقربة من مدينة غزة، التي كان فيها قد احتشد آنذاك جمع كبير من المسلمين، وعلم هؤلاء المسلمين سلفاً باقتراب رجالنا، فنصبوا كمائن، ومع اقتراب رجالنا من دون حذر، انقضوا عليهم، وأحدثوا مذبحة هائلة بينهم، إلى حد أنهم جميعاً تقريباً أسروا أو ذبحوا، وعدد ضئيل جداً منهم هم الذين عادوا إلى عكا، ووصل في الوقت نفسه رتشارد، أخو ملك انكلترا إلى عكا، مع قوة هائلة من الأتباع، لكنه وجد الجيش مصاباً بالرعب، وعندها رأى أنه لايستطيع فعل شيء ضد المسلمين، عمل هدنة معهم لمدة ثمانية أعوام.

مجمع

في سنة ١٢٤٢ صار إنوسنت الرابع بابـا، فعقد مجمعاً عامـاً في ليون، حيث جـرت منـاقشـة استرداد الأرض المقـدسـة، وأعلن عن تمرد الامبراطور، وطلب منه الحضور بشخصـه، وبعث الامبراطور بمعاذيره وطلب المسـامحة، ووعد أنه في خـلال سنة سـوف ينتصر على السلطان، لاسترداد الأرض المقدسـة إلى الصليبيين، ولكن بما أنه لم يحافظ على هذا الوعـد بأي شكل من الأشكـال ولاوعـوده الأخـرى، جـرى حـرمـانه كنسياً، وادانتـه وتجريمه وخلعـه من منصبه، بأمـر من البابا، وقـد مات محروماً كنسياً، لأنه خنق من قبل ابنه.

وحدث فيما بعد في سنـة ١٢٤٤، في أيام بابوية البابا انوسنت الرابع، أن نشب خـــلاف شيطاني بين صفـوف الصليبيين في مـــدينة عكا في سـورية، وكـــان ذلك فيما بين الجنويين والبنادقـة، لأن كـل واحـدة من هـاتين الدولتين رغبـت في أن تكون أعظـم مـن الأخــــرى، وبلغـت الخصومة بين هاتين الفئتين إلى حد أن اسطوليهما حارب أحدهما الآخر، على مرأى من المسلمين أنفسهم، وصار البحر خطيراً جداً، إلى درجة أن مامن حاج تجرأ على زيارة الأماكن المقـدسة، لأن الفئتين كانتا قويتين في البحر والبر، وكانتا أداتا رعب لكل من الصليبيين والمسلمين سواء.

وعندمـا رأى السلطان بأن بلاده باتت عـرضـه للخطر بهذه الحروب القـائمـــة بين الصليبيين فئة ضـــد أخــــرى استـــدعـى الخراســانيين التتار(الخوارزمية) وبداة عرب، وقـدم هؤلاء إلى مملكة القدس، وتغلبوا على الصليبيين هناك، وقتلوا عـدداً كبيراً منهم أمـام مدينة غـزة، وأخيراً شقوا طـريقهم إلى القدس، حيث تحاربوا مع الداوية والاسبتـارية الذين كـانوا قد سكنوا هناك بإذن السلطـان، وقتلوا كثيراً من بقاياهم، فضـلاً عن هذا دمـروا الضريح المجيد للـرب، ودنسوا كنيسـة المسيح بكل نوع من أنواع الدناسات.

وفي سنة ١٢٤٨م، كان القديس لويس، ملك فرنسا مريضاً بشكل خطير، فصلى إلى الرب حتى يسترد صحته، وتعهد إذا حدث ذلك، فإنه سوف يقوم بالحج عبر البحر، وعندما استرد صحته، حمل الصليب مع كثير من بارونات مملكته، وأبحر إلى سورية مع جيش كبير جداً، وقد نصحه كثير من الملوك بأن يرتحل براً خلال آسيا الصغرى، والاستيلاء على تركيا نفسها، لأن التتار كانوا قد دمروا بلاد تركيا وأضعفوها في السنة الماضية، ولو أن الملك مضى خلالها، لاستسلمت البلاد بدون شك إليه، لكن نصائح أخرى هي التي انتصرت، وأقلع الملك بحراً، ووصل إلى قبرص، وعندما سمع السلطان بهذا بات خائفاً ولذلك بعث إلى الملك عدداً كبيراً من الأطفال المسيحيين كان قد حصل عليهم، بعثهم بعد أن رشاهم حتى يقوموا بدس السم إلى الملك، وإلى امرائه، لكن بارادة من الرب، جرى اعتقالهم شخصياً جميعاً وأعدموا، ثم قام لويس بعد هذا بإقامة صلح بين البنادقة، والجنويين، والبيازنة، وانطلق إلى القتال ضد المسلمين.

وفي سنة ١٢٤٩ لتجسيد ربنا، وعندما كان اسطول الملك يستعد للابحار، وصل إلى هناك لمساعدته دوق بيرغندي، وأمير آخيا مع حشد من السفن، وجرى جمع أفراد الجيوش وأعلن لهم، بأنه بعون من الرب، سوف يتوجهون إلى مصر لحصار دمياط، ثم انهم أبحروا، ونظراً لامتلاكهم ريحاً طيبة في الأيام التالية، تمكنوا من رؤية أراضي مصر، ومن ثم بعد ذلك مباشرة رؤية مدينة دمياط، وعندما ألقوا مراسيهم رأوا الساحل مليئاً بالمسلمين على الخيول وعلى الأقدام، وكان مصب النيل في الوقت نفسه مغطى بالسفن، العازمة على اعاقة هجوم شعبنا.

ونزل شعبنا في اليوم التالي إلى اليابسة بوساطة القوارب، واستولى على مناطق حراسة النيل، حيث قتل أعداداً كبيرة من المسلمين، وعندما رأى المسلمون الذين كانوا في المدينة هذا ارتعبوا، وتخلوا عن كل أمل

بقـدرتهم على الدفـاع عن المدينة، ولذلك تسللوا من المدينة خلسـة أثناء الليل، بعد القاء النار في عدة أمـاكن، لكي لاتكون لها فائدة للصليبيين، وهكذا جـرى الاستيلاء على دميـاط للمرة الثانيـة، وأقام الملـك وجيشه فيهـا طوال الصيف كله، ذلك أنهم كـانوا غير قادريـن على القتال ضـد المسلمين، بسبب فيضان النيل.

وإثر انتهاء الصيف، عبأ الملك جيشه، وزحف خـارجاً للقتال، وهزم جميع القـوات المعـادية التي التقى بها، واستــولى على معسكرها، ونظرا لشعور قومنا واعتقادهم أنهم قد نالوا نصراً كاملاً، اندفعوا محدثين خللاً في صفوف قـواتنا وتعبئتها ونشروا أنفسهم فـوق المنطقة كلهـا، وعندما رأى العدو هذا استرد شجـاعته، وهاجم رجالنا بشـدة متناهية أرغمهم فيهـا على الفـرار، ولأن المسلمين حملوا عليهـم من جميع الجوانب، فقـد وقعت مـذبحـة بينهم، وبشكل خــاص بين النبـلاء الذين تبعـوا العلم الملكي، واستمـرت الحرب مؤلمة ضد قـومنا، إلى درجة أنه من عـددهم الكبير نجـا عدد صغير، ذلك أنهم كـانوا إمـا طعمة للسيف، أو وقعـوا أسرى بأيدي المسلمين، عـلاوة على ذلك فـإن لويس، ملك الفـرنسيين، التقي والمشهـور وقع أسيراً في أيدي الأعــداء مع اثنين من اخـوانه هما ألفونسو، وشـارل، وعندما أخذ السلطان الصليبيين وملكهم أسرى، تمّ الاتفـاق على أن يسلم الملـك دميـاط إلى السلطان، مع كل مــاوجـدوه هناك، وثمانية آلاف قطعة نقد اسـلامية ذهبية، وجميع الأسرى، وبالمقابل كان على السلطان أن يسلم الملك جميع الأسرى الصليبيين، الذين أسروا آنذاك، أو أسروا من قبل في مصر وســورية مع جميع مقتنيــاتهم، وبعـد ابرام شروط السـلام هذه، عـاد الملك إلى سـورية، حيث بقي هناك لمدة خمس سنوات لحماية المؤمنين، لكنه عندما سمع بوفاة السيدة بلانشي، أي أمـه السيدة الأعظـم تقوى، قـرر الأمـور في سوريـة ورتبها، وعـاد إلى مملكته.

وبعـد مضي بعـض سنوات، استبـد الأسى بـالملك تجاه الوضع المؤلم للقدس المدينة المقـدسة، وامتلأ بحماسة جـديدة نحو الأماكن المقـدسة، ونسي جميع مـآسيه وتعـاساته التي عانى منهـا في تلك المناطق، وانطلق للمرة الثـانية لاسترداد الأرض المقدسـة، مصحوباً بابنيـه ويملك نافار، والنائب البـابوي وعـدد كبير من الأسـاقفـة، والكهنة، وأشخـاص روحيين، وبناء على نصيحـة من رفاقـه ومستشاريه أبحر نحو إفـريقية، عازمـا على الاستيلاء على تونس، ذلك أنه بعد الاستيلاء عليهـا، سوف يكون مـن السهل عليـه التمكن مـن الاستيـلاء على مصر والأرض المقدسة، ولكن حل طاعـون كبير بالجيش الصليبي، ومات الملك لويس مع اثنين من أولاده، كما مـات القـائـد العـام للجيش، وعندمـا كـان الطاعـون مستعـراً بينهم، التحق بالجيش شـارل أخـو الملك مع أسطول كبير، وألقى الحصار على تـونس، لكن بسبب الطاعـون الذي أصـاب الجيش أقام سلماً مع ملك تونس، وعاد إلى الوطن.

وبعد وفاة الملك لويس، جرى التغرير بجميع رعاة القطعان بكتابات مـزيفة، وقـد اجتمعـوا مع بعضهم في كل من فـرنسا وألمانيـا تحت اسم واحـد منهم دعوه رئيسهم، وقـالوا بأنه أوحي اليهم من قبل مـلاك بأن الرب كان غير قـابل بتحرير الأرض المقـدسة بوسـائط الملوك والأمراء، أو الأغنيـاء، والناس النبـلاء، ولابوسـاطة العسكريين، بـل عن طريق الرعـاة المستخف بهم، فهـؤلاء هم الذين سيحـررون الأرض المقـدسـة بعصيهم، وبها سوف ينتقمون للاهانـات التي تعرض لها الملك القديس لويس ولموته.

وكان قائـد هذا العمل الفوضوي، راهب اسمه جيمـس، وكان راهباً مـرتداً من طائفة رهبـان السسترشيـان، فهو قـد ادعى بأن نجماً نزل من السماء، وقـال لـه بأنه بهذه الطريقـة لابد من تحرير الأرض المقـدسـة، ولذلك احتشد عدد كبير منهم، بحيث توفـر منهم أكثر من عشرين ألفاً

من الرجال البسطاء، ورفضوا السماح لأي واحد من الطوائف المقدسة، أولأي رجل دين، أو كاهن، أو رجل متعلم، بالدخول إلى صفوفهم، وصاروا جريئين إلى حد، عمل فيه مقدموهم كأساقفة، حيث باركوا الماء المقدس، وعقدوا القرانات وزوجوا الناس، ووعظوهم، لكن عندما بات عليهم الذهاب إلى موانىء البحر، انتهت مغامرتهم إلى لاشيء. وعادوا إلى موطنهم فارغي الوفاض، وصار عدد كبير منهم، ممن كانوا من قبل رعاة بسطاء، قطاع طرق، ولصوص، وحرامية، وقتل كثير منهم وأعدموا في مناطق متعددة بسبب السرقات التي عملوها، وعلى هذه الصورة وصلت هذه الطائفة إلى نهايتها.

صراعات أمراء الصليبيين حول لقب ملك القدس

منذ ذلك الوقت فصاعداً لم تعد هناك رحلات عبر البحر، لأنه بات من الصعب جداً جمع شعب الغرب للحرب ضد المشارقة بشكل عام كما كان الحال من قبل، ومع ذلك بقي هناك صراع بين الأمراء حول لقب ملك القدس، ولذلك فإن هذا اللقب محمول من قبل عدة ملوك، من ذلك على سبيل المثال، من قبل ملوك انكلترا، كما قلنا من قبل، كما أن ملوك فرنسا يتفاخرون أحيانا بأنهم ملوك القدس، ويفعل هذا ملك قبرص، وملك صقلية، ومثلهما ملك اسبانيا، وعلاوة على ذلك اعتاد دوقات سوابيا، محقين كثيراً، على إدعاء هذا اللقب لأنفسهم، حتى ماتوا، لأنه، كما قلنا من قبل، تزوج فردريك، الامبراطور الثاني بهذا الاسم، ودوق سوابيا، من يولاند، ابنة جون، ملك القدس، ومعها عبر البحر، وفي القدس أعلن عنه ملكاً، وجرى تتويجه ملكاً على القدس، ولهذا السبب، قام ابنه مانسفرد، فنصب نفسه ملكاً على صقلية، وعلى القدس، ومثله فعل بقية دوقات سوابيا من تلك الاسرة.

وفي سنة ١٢٦٤، عندما قام مانفرد المتقدم الذكر، وكونرادين، لأنهما

كانا سوابيين، بمضايقة دول الكنيسة وتهديدها، استدعى البابا كليمنت الرابع شارل، أخو القديس لويس، وطلب منه المساعدة ضد مانفرد، وكونرادين، والغبلينيين، وبعدما هزمهما شارل، وقتلهما معا في بعض المعارك، دخل إلى روما منتصراً، ونودي به ملكاً على صقلية والقدس من قبل البابا كليمنت، في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران، وإلى هذا اليوم يحتفظ ملوك صقلية، بلقب ملوك القدس.

وفي سنة ١٢٧٣م، عقد البابا غريغوري العاشر مجمعاً في ليون، فيه تحاور آباء الكنيسة مطولاً حول استرداد الأرض المقدسة، وحثوا الامبراطور رودولف، وفيليب ملك فرنسا على حمل السلاح ضد المغاربة لاسترداد القدس، ولتأمين نفقات هذه الحملة، فرض البابا ضريبة عشر على جميع المسيحيين لمدة ست سنوات، وأمر بالتبشير بحملة صليبية، وأعطى غفرانات واسعة للذين حملوا الصليب، وذهبوا إلى ماوراء البحار، من أجل الحرب، أو إلى الذين استأجروا جندياً أو أكثر، من أجل الحرب.

ووجه البابا في المجمع اللوم أيضاً إلى جميع طوائف الرهبان المتسولين، وحظرها باستثناء طائفتي الدومينيكان والفرنسيسكان فقط، لأنهن آخر الطوائف تأسيساً من قبل الكنيسة، ولديهن القدرة على الاستمرار، وفيما يتعلق بالرهبان النساك في الأرض المقدسة، والكرمليين، فقد مدد لهما، حتى تصدر قرارات جديدة حولهما، وقد فعل هذا حتى لايتمكن الرهبان المتسولون من التدخل في جمع الأموال من أجل الذين كانوا ذاهبين للقتال فيما وراء البحر، لكنني لم أعرف فيما إذا كانت أية حملة قد عملت إلى الأرض المقدسة، وكذلك لست عارفاً كيف أخفقت هذه الحملة، والذي أعرفه هو أن ايطاليا كانت في حالة اضطراب بسبب الغولف والغبلينيين، وكذلك اضطربت أوضاع المانيا، وفرنسا، وانكلترا بحروب داخلية، ولذلك كانوا غير مؤهلين لإسعاف

الأرض المقدسة.

هذا وامتلك شارل، ملك صقلية والقدس، وأخو ملك فرنسا، الحق مضاعفاً ثلاث مرات في أن يدعى بملك القدس، فذلك أولا بسبب أن البابا توّجه، وثانيا بسبب أنه كان صاحب صقلية، التي كانت من قبل ملكاً إلى ملك القدس السالف، وثالثا بسبب أن هذا اللقب قد أضفي عليه من قبل مريم، ابنة أمير انطاكية، التي كانت الوريثة الشرعية لملكة القدس، والتي اغتصب ذلك منها ابن اخيها(أختها)هيو.

ورفض شارل هذا بإباء أن يعين ملكاً على القدس من دون امتلاك المملكة هناك نفسها، فقد كره أن يكون ملكاً بالاسم وليس بالفعل، ولذلك فكر كيف يمكنه وبأية وسائط نيل القدس، وكان له ختن اسمه بلدوين، وقد عمل سنة ١٢٤٠م امبراطوراً للقسطنطينية، ولكن بها ان الاغريق معادين دوماً للاتين، فقد طردوه مهاناً، ووضعوا ميخائيل باليولوغوس، وهو اغريقي، مكانه، وقد اشار بلدوين الآن على شارل ملك القدس بمهاجمة امبراطورية القسطنطينية، لأنه إذا مانال بلدوين القسطنطينية، يمكنه بسهولة أن يجعل من نفسه سيداً للقدس، وكان شارل ملكاً قوياً، ولم يبد له أنه عملاً عظيماً مهاجمة القسطنطينية، ولذلك جهز عدداً كبيراً من سفن الحرب واسطولاً عظيماً، وبمساعدة من الكنيسة، ومن ملك فرنسا، ومن البنادقة، أعدّ لطرد باليولوغوس من القسطنطينية، لكنه أعيق بشكل غريب في مغامرته بسبب بعض اللاتين الذي كرهوه، ولذلك لم يحصل على مملكة القسطنطينية ولاعلى مملكة القدس.

وحدث بعد هذا أن عقد في سنة ١٢٨٢ ملك الأرمن، الذي كان مسيحيا، معاهدة مع ملك التتار ضد السلطان، وقد غزوا سورية وانتزعا كثيراً من المقاطعات من سلطان مصر، وكانت القدس بين ماتم

الاستيلاء عليه، وقد أعطيت للمـرة الثانية إلى المسيحيين الشرقيين، لكن بخيانتها أعيدت مباشرة إلى المسلمين.

[وكان لملك التتار هـذا أخ اسمه تنجر Tandager(أحمد؟)، وكان مسيحياً، وولداً معمداً اسمه أرغون، لكن تودغار Todagar(كذا) تخلى عن العقيـدة المسيحيـة، وأصبح مسلماً وعذب المسيحيين بقسـوة بالغـة، فقـام ابن أخوه أرغـون فقتله، ووسع انتشـار الديانة المسيحيـة، وفي كل مكان حارب المسلمين، وسعى جاهداً لتحرير القدس.

وفي سنة ١٢٨٨م صار واحـد اسمه كـاسانوس Casanus (غازان) امبراطوراً على التتار، وقـد كان صغيراً في جسده عظيماً في نفسـه، وكان صـاحب مـلامح قبيحـة، لكنـه امتلك عقـلاً رائعـاً، لأنه كـان محلى بالفضائل، وعـاقلاً، وحكيماً في الحرب، وصـديقاً جـداً نحو المسيحيين، ومليئاً بتبجيـل المدينة المقـــدســـــة، وضريـح الـرب، كما برهنـت الأحداث.

وكـان هذا الرجل عندما عُمل امبراطوراً، وثنيـاً، لكنه صار مسيحيـاً بطريقـة مـرضية، لأنه عندمـا صـار امبراطوراً، عمل مثل آحـازوروس AHASUERUS آخر، فأمر بالبحث له في جميع أرجاء مناطق الشرق عن أجمل فتاة يمكـن العثور عليها، وذلك دون الاهتمام بأصـالة النسب أو الثروة، بل التركيز على الجمال فقط، وقصد من ذلك أنها إذا ماأعجبته اتخذها زوجـة له، ووجـد ابنة ملك أرمينيـا، وعندمــا طلبهـا للزواج، وافقت الفتاة مع أبيها على شرط أن يسمح لها بعبادة ربها، والرب يسوع المسيح، وأن لاترغم على اعتناق الديانة التتـارية، وتمت الموافقة على هذا الشرط، وعندما حملت إلى الامبراطور أرضتـه إلى أقصى الحدود، فتزوج منها على الفـور، وحملت، وولدت ولداً ذكراً، ولكنه كـان ولداً مشوهاً، حتى أنه بدا بصعـوبة أنه بشراً، وانـزعج كـاسـانوس(غـازان) من ذلك كثيراً، وتشـاور مع أعيان بلاطه حـول مـاينبغي فعله بهذا الطفل المقيت

جداً، وقد أجابوه إنه من غير الممكن أن يكون هذا الطفل قد جرى الحمل به من انسان، ولذلك ينبغي احراق كل من الطفل والأم.

وعندما وضعت النار، وباتت جاهزة لهذا الغرض، وجرى إبلاغ المرأة الشابة بقرار الاعدام، طلبت وقتها منهم منحها فرصة تلقي القربان وفق الطريقة المسيحية، وأن يجري تعميد ابنها، وعندما عمل هذا، وجرى تعميد ابنها، ولدى اخراجه من الماء، فجأة تغير شكل الطفل، وبدا طفلاً جميلاً ونبيلاً حسب أفضل مايكون موجوداً في العالم، وكان غازان مسروراً إلى أقصى الدرجات لظهور هذه المعجزة، ولم يكتف بانقاذ زوجته وابنها من الموت، بل رسم بأن تكون امبراطورة، وأن يجري تعميده مع شعبه بشكل مهيب.

وعندما جرى تعليمه الايمان، وعرف بأن المسلمين يمتلكون الأماكن التي فيها صنع خلاصنا، قضى بأن ذلك تدنيس شنيع، وعجب كثيراً من تحمل المسيحيين لذلك، وأعلن الحرب مباشرة ضد سلطان مصر، واستعد للقيام بالاستيلاء على الأرض المقدسة، والقدس، وجاء إلى سورية ودخلها للقتال ضد سلطان مصر، وجلب معه مائتي ألف من التتر، وكان معهم جيشي ملكي أرمينيا وجورجيا، اللذين كانا عدوين للسلطان، والتقى السلطان به مع حشد كبير، وجرى قتال معركة رهيبة، وكان النصر من نصيب غازان، وأرغم السلطان على الفرار، وترك سورية، وذهب إلى مصر، واستولى غازان الآن على مدن سورية، التي كانت بينهن مدينة القدس المقدسة، فقد استولى عليها المسيحيون في سنة ١٢٩٩ لتجسيد ربنا، أي بعد ثمانية أعوام من طرد اللاتين من عكا، ودخل غازان إلى المدينة المقدسة، وبتقوى فائقة زار المدينة المقدسة، وأقام هناك لبعض الوقت.

لكنه عندما سمع بأن الاضطراب ثار في مملكته، بعث بسفراء إلى

الغـرب الأوروبي: إلى البـابـا بونيفيس الثـامـن، وإلى رودولف ملك الرومـان، وإلى ملوك الغـرب الآخـريـن، ملتمسـا منهم ارسـال قـوات صليبيـة إلى سـورية تسترد وتحتفظ بـالبلدان التي طرد منهـا قبل وقت قصير، وللاستيلاء على مـدينة القدس المقدسة، وبعدمـا أوصل السفراء المتقدم ذكرهم رسائلهم، ونالوا الموافقـة من جميع الناس، بعثوا عائدين، على أساس تفاهم قوامه أن الأمـراء الغربيين سوف يلحقون بهم مباشرة مع قوات كبيرة، لكن مامن أوامـر صدرت لفعل ذلك، بسبب الحروب الداخلية بين الأمـراء الغربيين، وكانت مصـالحهم أقرب إلى قلوبهم من حـرب الرب، وذلـك كما سنوضح في القسم الثـاني، وعلى هذا إنه في الوقت الذي كانت نفقة متـواضعة وقوة صغيرة، يمكن بها الحفاظ على سـورية والقدس، التي استـولى عليهما غازان، لصـالح المسيحية، مـامن محاولة جرت، ولعـار المؤمنين، ولعدم اهتمامهم الاجرامي لاتتـوفر الآن أية امكانات لاستردادهما.

وعندما انسحب غازان من سورية مع قواته، استرد المسلمون سورية بسهولة لأنـه مامن أحد اعترض سبيلهم، وقـد قتلوا وطردوا المسيحيين الشرقيين الذين وضعهم غازان في المدن التـي احتلها، وذلك مثلما فعلوا من قبل مـع المسيحيين اللاتين من الغـرب، وبناء عليـه، حـدث سنة ١٢٩١ لتجسيـد الرب، وذلك بعـدمـا كـان السلطان قـد استـولى على أنطاكية، وصور وطرابلس، ومدن اللاتين الأخرى، أنه صرف نواياه إلى طرد الصليبيين طرداً كـامـلاً من الأرض المقدسـة، وكـان الذي يمتلكه اللاتين في سـورية كلهـا، مدينة واحـدة، هي مـدينة عكا، وكـانت هذه المدينة ثرية جـداً، ومكتظة بالسكـان، لأنه سكن فيهـا ملك القـدس مع بلاطـه، ومقـدم الداوية، ورئيـس الاسبتـارية، والسيـد البطـريرك واكليروسـه، وكـان جميع الذين يسكنون في المدن التي استـولى عليهـا السلطان، ونجوا منها، قد هربوا إلى هاهنا مع مقتنياتهم، وكان في المدينة

عســاكــر يدفع لهم ملك انكلترا، وملك فــرنســا، والملوك الآخــرين والأمـراء، وحوالي ثمانيـة عشر ألف حـاج يحملون شـارة الصليب، من مختلف الشعوب والبلدان.

ولهذا السبب كــان في عكا سبع عشرة هيئة قضـائيــة منفصلة للنظر بالجرائم وبسفك الدماء، وغالبا ماقامت فوضى بالنسبة لقرارات الحكم على مقترفي الآثام، وامتلك الـدومينيكان مع الفــرنسيسكـان هناك ديرة جيــدة، لكل من الـرهبــان والراهبــات، وعندمــا أقلـع المعلم المبجل جوردان، خليفة القديس دومينيك، بوساطة البحر لزيارة الدير في عكا، غرقت سفينته ومات ميتة مباركة أضاءت بصليب إعجازي.

وهذه المدينة قائمة على واجهة بحرنا، وذلك في وسط ساحل سورية، وهي لاتبعد أكثر من أربعين ميلاً ايطاليـا عن القدس، وقد بنيت بشكل رائع ومكان مـوائم جداً، ولذلك كـانت مليئة بالتجـار من الشرق ومن الغرب، لأنها كانت نبعـاً لجميع التجارات المحمولة بالبحـر، وقد غدت مدينة فخمـة جداً، إلى حد أنه لم يكن في العـالم كله مدينة قيل هي أغنى منها.

كما أنه لم يكن هناك مدينة توازيها بالشرور والآثام، وعندمـا كانت في ذروة ازدهارها، حـدث أن بعضـا من عسـاكـرنا اعتقلوا بعض التجـار المسلمين، وذلك في أيام الهدنة، وعندمـا سمع السلطان بهذا، حشـدقـوة هائلة، وحاصر المدينة، وفي تلك الأثناء فوّق واحـد من المسلمين قوسه وأقـدم على رمي قائـد المدينة، فقتله، وهو القـائـد الذي بأوامره كـانت الأشياء كلها تعمل هناك، وعندما مات، انعدم النظام هناك، وبدأ الناس يفـرون بالسفن عبر البحـر،وعندمـا مـا لم يعـد هناك من يعترض سبيل المسلمين، دخلوا إلى المدينة، وقتلوا جميع الصليبيين، ونهبوا كل ماوجدوه هناك، وفي أثناء عمليـة السلب هـذه، قيل بأن ستين ألفـاً من الصليبيين قـدباتوا طعمـة لسيــوف المسلمين في عـام ١٢٩١م، وهكذا هلك جميع

اللاتين وطردوا مـن الأرض المقـدسـة، باستثناء الذيـن صـاروا رعيـة للمسلمين، وهم الذين جرى حرمانهم من قبل الكنيسة.

وعندما وصلت أخبار ماحدث إلى الغرب، كان هناك حزن عميق في بلاط روما، ومنح البابا نيقولا الرابع غفرانات كبيرة، لأي انسان سوف يحمل شارة الصليب، أو يرسل آخرين لمساعدة الأرض المقدسة، وقام بمسيرات مهيبة، وأصـدر قـرارات حـرمـان كنسي ضـد جميع التجار المسيحيين، أو آخرين يجلبـون إلى الاسكندرية وأي بلد آخر خاضع إلى السلطان، ليس فقط الأسلحة والخشب، وهـو مـاكـان محرماً منذ زمن بعيد، بل يجلبـون أية تجارات مهما كان نوعهـا، وبعد هذا صدر حـرمان ضد الأماكن المقدسة نفسهـا، وصار ممنوعاً، مع عقوبة الحرمان الكنسي، على أي انسان، عبـور البحر لزيارة الأماكن المقدسة، حتى لو كان ذلك صـادراً عـن التقـوى، وذلك دون الحصـول على إذن من البـابـا، وقـد وجدت هذا في واحد من كتب الحج].

وبعـد ثمانية أعـوام من خروج الصليبيين من الأرض المقـدسة، جـاء امبراطور التـتـار، المسيحي الجيد الذي تقـدم ذكـره، واستولى على مـدينة القـدس، التي قـدمهـا منحـة إلى أسـاقفتنا وأمـرائنا، لكن لم يكن هناك واحداً منهم، قد رفع يده للعبـور إلى هناك، كما قلت، وهكذا من خلال هذا العقـوق تمت خسارة الأرض المقـدسـة خسارة كـاملة بالنسبـة لنا، حتى لم يعـد هناك من يفكر بـاستردادها، ولم يعـد هنـاك من سبيل إلى استردادها، مالم يتفضل الرب فيعمل معجـزة ما في سبيل ذلك، وفي هذا الخروج الأخير للصليبيين من الأرض المقـدسـة، لم يبق أي لاتيني في سـورية، إلا الرهبـان الدومينيكان، عـلاوة على ذلك تسلم الرهبـان الفرنسيسكان والكـرمليون بعض الأماكـن في سورية، وبقيوا فيهـا، بناء على أوامـر من البـابا، وقـد مكثـوا فيهـا حتى جـرى قهـرهم، وقتلهم وإبادتهم من قبل المسلمين.[٢٩٠].

كيف كانت حال المدينة المقدسة بعد طرد الصليبيين اللاتين، وكيف أمكن للرهبان الفرنسيسكان الاستقرار هناك، وأيضاً ما هي المبالغ التي قدمها الصليبيون من أجل استرداد الأرض المقدسة.

بعد طرد اللاتين بقيت مدينة القدس المقدسة لسنين كثيرة من دون أي لاتيني أو مسيحي روماني، لأنه كما قيل من قبل، عندما غادر اللاتين القدس، دخل المسيحيون الشرقيون، الذين كانوا هراتقة رهبيين، ومنشقين، دخلوا إلى هناك، وحلوا محل اللاتين، وصاروا متملكين للكنائس التي بناها اللاتين، ولم يسمح للاتين بامتلاك أية أماكن في المدينة المقدسة، لابل لم يسمح لهم حتى بدخول الأرض المقدسة ومدينة القدس من دون حراستهم من قبل المسلمين مع احتياطات عظيمة، ومع جواز سفر (أمان)، وأيضا مع دفع ضرائب ثقيلة جداً، وعندما وصلوا إلى القدس، لم يجدوا خدمات أو طقوس ربانية، إلاّ طقوس المنشقين والهراطقة، كما لم يجدوا أية مواساة مهما كان نوعها.

ولم يكن هذا محمولاً من قبل الكنيسة اللاتينية وشعب الغرب، الذي كان يشعر بحماسة ملتهبة جداً نحو الأماكن المقدسة، وعندما جرى طرد الصليبيين من الأرض المقدسة، وصلت هذه المسألة إلى مسامع البابا نيقولا الرابع، الذي كان من طائفة الفرنسيسكان، وهو الذي اختير بابا في سنة ١٢٨٧ لتجسيد الرب، قبل سقوط عكا، وبعد خسارة عكا، وطرد الصليبيين، أرسل سفراء إلى السلطان مع هدايا، ورجاه السماح لبعض رجال الدين اللاتين للسكنى في القدس من أجل حماية ضريح المسيح، وقال له بأنه ربما لن يهتم بمنحه ذلك من أجل حبّ المسيح، أو بسبب صلوات البابا الصادقة والأمينة، إنه عليه أن يفعل ذلك من أجل انتشار مجد اسمه في الخارج، على أساس أنه إذا ماترك بعض اللاتين يدخلون إلى المدينة، فإن عظمته ستصبح معروفة في جميع أرجاء الغرب،

وكذلك في الشرق.

ومنح السلطان موافقته على مطلب البابا هذا، وطلب منه ارسال بعض رجال الدين والرهبان ورجال سلام إلى القدس، علاوة على هذا عين صدقات يومية تعطى للمشفى المسيحي في القدس، ولذلك اختار البابا بعض الرهبان من طائفته، ممن كانوا مستقيمين، ومتعلمين، وأمناء، وكانت طائفته هي طائفة الفرنسيسكان، وبعث بالذين انتقاهم إلى القدس، ليقيموا قداسات ربانية في كنيسة قيامة الرب، لصالح جميع أعضاء كنيسة روما، وذلك خشية منه بقاء تلك الكنيسة المقدسة جداً مهجورة من قبل اللاتين، وعندما قدم أولئك الآباء المقدسون إلى القدس، لم يكونوا يمتلكون أية بيت فيها، ولذلك ذهبوا إلى المشفى العام العائد للحجاج، وأقاموا فيه، في حالة عوز عظيم، وتعاسة، لبضع سنوات، وظلوا بدون بيت خاص بهم، يعيشون على بعض الصدقات التي كانوا يتلقونها من الحجاج.

وفي سنة ١٣٠٠م، صار القديس لويس، الذي كان من طائفة الفرنسيسكان أسقفاً لطولوز بأمر من البابا بونيفيس الثامن، وكان القديس لويس هذا حفيداً للقديس لويس ملك فرنسا، وكان ابنا لشارل، وأخاً لروبرت، ملك أبوليا، وكالبيرا، وصقلية، والقدس، وعندما سمع هذا الأسقف بسوء أوضاع الرهبان الفرنسيسكان، والشقاء الذي كانوا فيه يعيشون في القدس، ذهب إلى صقلية إلى أخيه روبرت، ملك القدس، لكي يساعد إخوانه الرهبان، وجذب قلب الملك نحو محبة الطائفة، بإخباره كيف أنهم كانوا يعيشون في عوز وفاقة في مدينة القدس، حيث يرعون مصالح الكنيسة اللاتينية كلها، وليس لديهم حتى بيت هناك، بل يسكنون في المشفى.

وعندما سمع الملك بهذا، رتب شؤون مملكته، ثم أخذ عدداً من الرهبان الفرنسيسكان، معه، وأقلع بحراً نحو سورية كحاج عادي

بسيط، وذهب إلى القدس بموجب جواز أمان من السلطان، وشاهد الأماكن المقدسة وقبّلها، ثم إنه ذهب إلى مصر إلى السلطان ورجاه أن يعطيه كنيسة جبل صهيون مع الأبنية المجاورة، وبيعة مريم العذراء المباركة في كنيسة ضريح الرب، مع القاعات المجاورة، وقاعة ضريح الرب، وكنيسة مريم العذاراء المباركة في وادي شعفاط، وكهف ميلاد الرب في كنيسة مريم العذارء المباركة في بيت لحم مع الأبنية المجاورة، وذلك لإعطاء ذلك كله إلى الرهبان الفرنسيسكان، الذين وافق من قبل على سكناهم حيثما أرادوا في القدس، وذلك من أجل إقامتهم فيهم.

وعقد الملك روبرت اتفاقاً مهيباً مع السلطان حول هذه الأماكن، وتسلمهم منه ودفع إلى السلطان مقابيلهم اثنتين وثلاثين ألف دوقية من العين المدفوع، وبعدما دفع الملك هذا المبلغ، ذهب إلى القدس، ومنح الأماكن المتقدم ذكرها إلى الرهبان الفرنسيسكان ليتملكوها تملكاً أبدياً هم ومن يخلفهم بشكل أبدي عوضاً عنه، وعندما تسلم الرهبان الفرنسيسكان تلك الأماكن، بنوا عليها ثلاثة أديرة، كان الأول منها على جبل صهيون، وذلك حيث كان هناك من قبلهم دير للرهبان القانونيين النظاميين، وكان الثاني في كنيسة قيامة الرب، إلى جانب بيعة العذراء المباركة، من أجل أن يستخدم من قبل الأوصياء على ضريح الرب المقدس، والثالث في بيت لحم، وجميع هذه الديرة كأنها دير واحد.

وعندما رأى رهبان الدومينيكان بأن السلطان قد أخذ مالاً، وباع أماكن مقدسة، جمعوا مبلغاً صغيراً من المال من خلال الصدقات واشتروا حقل حق الدم، الذي يطل من الأعلى على وادي صهيون، على طرف جبل جيحون، واشتروا كذلك كهف القديس جيمس عند سفح جبل الزيتون، فوق بركة قدرون في وادي شعفاط، وأقام الرهبان هناك لبعض الوقت، لكن بما أن تلك الأماكن كانت مكشوفة تماماً، وليست مغلقة بأية جدار، كان عليهم التحمل باستمرار الاهانات من المسلمين

ومن البداة العرب، ولذلك كان من غير الممكن بالنسبة لهم البقاء هناك، ولهذا هجر الدومينيكان هذه الأماكن وارتحلوا عائدين إلى العالم المسيحي.

هذا وتوفر لدى الفرنسيسكان أديرة محمية بأسوار قوية، أعطاهم السلطان إياها عن نفسه وعن خلفائه على أساس مبلغ المال المتقدم ذكره، ومع ذلك عانوا من كثير من الأذى، وغالباً ماتعرضوا لاضطرابات قاسية من قبل المسلمين، وكانوا - كما يمكن القول- عرضة للازعاج يومياً، وجاء المسلمون في سنة ١٣٦٨ إلى دير جبل صهيون، وقتلوا اثني عشر راهباً، ودخلوا بعد هذا للمرة الثانية، وهدموا البناء المقبب لمهجع النوم، وخربوا قلايات الرهبان، وفي وقت آخر فيما بعد، أخذ السلطان منهم، بتدبير من اليهود، وانتزع موضع ضريح داوود وملوك اليهودية الآخرين، وهدموا الـ Coenaculum في المكان الذي أنزلت إليه الروح القدس على الرسل في يوم عيد الحصاد، وهو مكان بني بنفقات كبيرة من قبل ملك فرنسا، وذلك بناء على موافقة من السلطان، ولم يسمحوا بإعادة بنائه، ودمروا أيضاً أماكن أخرى حول كنيستهم، دون مبالاة بأن هذه الأماكن قد شريت من قبلهم، علاوة على ذلك، جرى قتل عدد كبير منهم على أيدي غير المسيحيين، وجرى تعذيبهم، ولم يشعروا بالأمان لاحول الأماكن المقدسة التي بأيديهم، ولاحول حياتهم.

وفي سنة ١٣٠٠ لتجسيد الرب، وقبل إعادة تنظيمهم، ازداد هؤلاء الرهبان وتناموا حتى أصبحوا لايمكن تحملهم، وصاروا عدوانيين تجاه المسلمين والمسيحيين سواء، لكن الطائفة قدمت إلى عون الدير، فوضعت رجالاً مستقيمين وحكماء فيه، ولذلك يحافظون حتى هذا اليوم على ممارسات قلبية للخدمات الربانية، ويخدمون الحجاج باخلاص، أي الزوار الذين يقدمون إلى هناك، ويزودونهم بكل ما

يحتاجون إليه، ويأخذون المرضى من دار الضيافة إلى المعالجة لديهم، ويحيطونهم بالعناية والرعاية المثلى، وهذا أمر جربته أنا شخصياً عندما كنت مقيماً بينهم، ولهذا السبب نالوا لأنفسهم محبة جميع الأمراء المسيحيين، والبارونات، والنبلاء، ولذلك يضفون الصدقات عليهم، ويدعمون هؤلاء الرهبان بمساعدات كبيرة، ويرسل جميع الملوك صدقاتهم إليهم سنة فسنة، حيث يرسل بعضهم إليهم خمسمائة دوقية، وبعضهم أربعمائة، وبعضهم أكثر أو أقل تبعاً لعاداتهم، أو وفقاً لمدى عمق مشاعرهم واخلاصهم تجاه الأرض المقدسة، ومثل هذا هناك كثير من الصدقات تمنح إليهم يومياً من قبل الحجاج، ومن قبل الذين يتلقون شارات الفروسية في ضريح الرب، وهم يحتاجون إلى هذا كله، لأنهم لايجمعون أية صدقات من المسلمين ولا من الشرقيين، ولا من المسيحيين، بل يحصلون على جميع وسائط عيشهم من الغربيين، ولذلك على الناس النظر إلى هذا الموضوع بعناية وأن يتدبروا عدم وقوع هؤلاء الرهبان في حالة فاقة قاسية، وذلك من أجل أن تبقى أبنية الكنائس مصانة ومرممة على حساب صدقات المؤمنين ولكي يمكن إعادة المشفى للغرباء وللحجاج، ومن أجل شراء الإذن بزيارة الأماكن المقدسة من المسلمين بالدفع من قبل الكنيسة.

وفي الحقيقة حدث منذ انطلاق الايمان وبدايته، وفي أيام العهد القديم، أن اعتاد الملوك من الأمم والأمراء على إرسال المال والأعطيات إلى القدس من أجل استخدامات الذين كانوا يمارسون القيام بالطقوس الدينية هناك، وهذا واضح مرئي من اسدراس:١/١/٦—٧. ومن نحميا: ٢و٣، ومن اسدراس:٤، ومن المكابيين:٢/٣، وفي العهد الجديد اهتم الرسل المباركون اهتماماً خاصاً بجميع الصدقات من الأمم الأخرى، من أجل استخدامات الذين كانوا في القدس، ونقرأ في رسالة الكورنثيين:١/١٦، بأن القديسين بولص وبرنابا انشغلا بشكل خاص

بهذا العمل، وانظر ايضاً شروح القديس توما الأكويني، وبطرس أوف ثارنتاسيا Tharentasia ، ونيقولادي ليرا، وكذلك غلاطية:٢/ ٨، وروما:١٥، حيث قال الرسول:« ولكن الآن أنا ذاهب إلى أورشليم لأخدم القديسين، لأن أهل مكدونية وأخائية استحسنوا أن يصنعوا توزيعاً لفقراء القديسين الذين في أورشليم»، لأنه وجد في جميع الأوقات في القدس، رجال ونساء يعيشون في فقر انجيلي، ومن أجلهم سعى الرسول للحصول على صدقات.

هذا وعندما قدم الأعمدة الأولى للكنيسة: بطرس، وجيمس، ويوحنا أيمانهم بالتبعية لبولص وبرنابا، ورسموهما رسولين إلى الأمم، وبعثوا بهما للتبشير، على شرط أن يتذكروا الفقراء الذين كانوا في القدس، ويجمعون المال من أجلهم، ويرسلونه إليهم كما قرأنا في غلاطية:٢، ففي هذه الرسالة كلها تقريباً، نصح بولص بجمع المال وأن يكون ذلك في أيام السبت، من أجل جميع الذين كانوا في القدس، والحرص تماماً على ارسال المال إلى هناك بأمان، ولهذا ذهب هو حتى بنفسه إلى القدس، لإعطاء المال الذي جمعه وتوزيعه على الناس، كما رأينا في روما:١٥، وفي أعمال الرسل:٢٤، حيث أشار إلى هذا إلى الحاكم فيلكس.

وبقيت هذه العادة في جمع المال وارساله إلى القدس، لمدة طويلة في الكنيسة، وقام في احدى المرات ناسك اسمه فيجيلانتوس Vig-ilantius، كان من بين أخطائه إعلانه أن هذا الجمع للمال وارساله إلى القدس عمل عابث، وبلا فائدة، لكن جيروم بطل الكنيسة تصدى له، وهزمه بشكل كامل، وسحقه فيما يتعلق بمسألة هذه الخطيئة، فهذا مانقرأ عنه في الرسالة ضد فيجيلانتوس، ومثل هذا أطرى واحداً اسمه ليسينيوس Licinius ، وكان رومانياً غنياً جداً، قد بعث كثيراً من الصدقات إلى القدس، وأعطاه كثيراً من الذهب، حتى كان قادراً على

تدبر حاجيات أناس كثيرين، وذلك حسبما نقرأ في الرسالة إلى الأرملة ثيودورا.

فضلاً عن هذا نقرأ بأنه توفر لدى القديس غريغوري عناية خاصة برجال الدين في القدس، الذين إليهم بنى ديراً، وبعث إليهم بالمال، وعلاوة على ذلك، إنه من أجل هذه الغاية جرى تأسيس الطوائف الثلاث، أي: فرسان الداوية، وفرسان الاسبتارية وفرسان التيوتون للقديسة مريم، وقد تمكنت هذه الطوائف من بناء بيوت لها في جميع البلدان، ومن تكويم الممتلكات وجمع الثروات الأخرى، من أجل ارسالها إلى القدس، وقد أثرت الطائفة الأولى(الداوية) وازدهرت كثيراً في الأمور الدنيوية، إلى درجة أن الكنيسة الغربية لم يعد بامكانها استيعابها، وقد زالت هذه الطائفة وتلاشت، مع أن شطراً من ممتلكات الداوية قد أعطيت إلى الاسبتارية، الذين اسمهم الآن فرسان القديس يوحنا، الذين جميع ممتلكاتهم عائدة إلى القدس، لكن عندما انتهى سبب ارسال المال إلى هناك، فمن المتوجب كذلك انتهاء جميع الثروات التي جمعت لهذه الغاية، لكن الاهتمام بهذا الأمر كان ضئيلاً، ولهذا تتحمل الكنيسة طوائف بلا فائدة، وفي الوقت نفسه مامن انسان هو مهتم بارسال المساعدات إلى الأوصياء على الضريح في القدس، من أجل امتلاك مايكفي من مال للدفع من أجل نفقاتهم، ومن أجل إبقاء الأماكن المقدسة وكنائس المسيح في حالة منتظمة، وهذه مسألة ينبغي على المؤمنين منحها اهتمام خاص، لأن إيماننا قد تأصل هناك، وقداساتنا هناك اكتملت.

الشعوب التالية هي التي تسكن القدس في هذه الأيام

مدينة القدس المقدسة في هذه الأيام موضع الاستقرار والسكنى لمختلف شعوب الدنيا، وهي لهذا، كما كانت، مجمعاً لجميع أنواع الآثام:

١ — المسلمون

السكان الرئيسيون هناك هم المسلمون، الذين هم محمديون، وهم ملوثون بحثالة جميع الهراطقة، وهم أسوأ من الوثنيين، وممقوتين أكثر من اليهود، وهم ينكرون التثليث، ويؤمنون بعقيدة الطبيعة المزدوجة، وهي عقيدة لاهوتية شائنة، غير أنهم يعترفون بطبيعة الجوهر الرباني، ويعلنون أن الله لايمكن أن يكون له ولد، لأنه ليس له زوجة، علاوة على ذلك هم يرون بأن الله ليس مركباً، لأنه لم يكن عرضة للتغيرات والحوادث، وهو لايعيش مثل الناس لأنه لايأكل، ويقولون أيضاً بأن الله وملائكته يصلون على محمد ﷺ وعلى بقية المسلمين، وهم ينكرون تجسيد الكلمة، ويعلنون بأن المسيح ليس رباً، كما أنه ليس من طبيعة وتركيب الأب، بل يقولون بأنه كان مجرد روح الله، وهم يعلنون أيضاً بأنه كان مقدساً جداً، ورجلاً فضيلاً، وهو دون سواه من الناس ولد من العذراء من دون أي أب، ويقولون بأنه لم يتألم مطلقاً، ولم يصلب أو يمت، بل نقل من قبل الله، وأنه في نهاية الدنيا سوف يموت، بعد قتله المسيح الدجال.

وهم يعلنون بأنه ليست هناك قدّاسات، ولاعجب في هذا، فهم ينكرون الصليب نفسه، وهم يقولون بأن المسيح سوف يحكم العالم، لكن مع الله ومع محمدﷺ وفيما يتعلق بما كتب حوله، هم يعترفون بجميع أمجاده، ويعظمونه، ولايقرون بما قيل حول اذلاله وعاره.

وفيما يتعلق بمريم العذراء، هم يعتقدون باخلاص بأنها كانت أخت هرون، وهم يقولون بأن للملائكة أجسام، وأنه من هؤلاء الملائكة تم صنع أولئك الشياطين الذين رفضوا السجود لآدم، وهم يقولون بأن البطاركة(الآباء) المقدسين والأنبياء كانوا مسلمين، وأن الناس هلكوا بالطوفان لأنهم رفضوا أن يكونوا مسلمين، وأن الحواريين أيضاً آمنوا بالاسلام وسموا أنفسهم مسلمين، وهم يلومون المسيحيين لأن لديهم

أساقفـة وكهنة وقد جعلوا منهم أربابا، عـلاوة على ذلك هم يضحكون منا، ويستخفون بنا لأننـا عملنا مريم العذراء رباً، ويقـولون بأن المسيح اعتـذر في حضرة الله، وأنكر أن تكون أمه ربة، وفيها يتعلق بقـرآنهم هـم يقـولون أنه لاالانسـان ولاالشيطان يمكنه أن يصنف مثل هذا الكتـاب الفصيح والعـذب، والعجيب المدهش، وهم يقولون بأن أعلى درجـات السعادة موجودة بالمسارّ الجسدية، والشرب، وماشابه ذلك مثل الثياب، الخ، وقالوا بأن السموات قد صنعت من بخار، وهذا البخار قد تصاعد من البحـــار، وهم يسمـــون البحـــر Mote capff وأنه هو الذي يحيط بالعالم، ويمسـك السموات، وقالوا بـأن الشمس والقمر كانـا في البداية متساويين بالإضـاءة، ولم يكن وقتها هناك تمييـز بين الليل والنهار، لكن عندما كان الملاك جبرائيل يطير عبر السماء، أصاب بجناحه فلك القمر، وبذلك جعله مظلماً، وفيها يتعلـق بالموت، يقـولون هناك مـــلاك اسمـه عزرائيل، هـو الذي سوف يتولى في نهايـة الحياة إماتة جميـع المخلوقات، حتى الملائكة، وفي الأخير سوف يميت نفســه أيضاً، وعندما يحدث هذا كله الله سوف يقيم جميع المخلوقات ويبعثهم من الموت، وذلك باستثناء الموت نفســه علاوة على هذا هم يقـولون بعض الأشيـاء حول فضــائل النفس، ونهاية جميع الأشياء، وهـم يتزوجون بأكثر من زوجة، ولايقبلون الاعتراف بممارســة الســدوميــة، وهم يخطئون بلا حـــدود في كثير من المجالات، قد كتب حولها في «حصن الايمان» وفي ترجمة القرآن.

٢ــــ الروم الأرثوذكس

هناك كثير مـن الروم الأرثوذكس يسكنـون في القـــدس، وكـــانت الكنيسة الأرثوذكسية تمتلك في الأيام الخالية رجالاً متعلمين عظماء جداً، لكنها الآن مظلمة بذنوب لاتحصى، وبشكل خـاص بأربع نقاط رئيسية هي:(١) هم لايعتقدون بأن الروح القدس قد صدرت من الابن، أو أن ذلك له أي وجود،(٢) هم يعلنون بأن أرواح الموتى هي ليست في الجنة

ولافي النار، وذلك قبل أن يصدر عليها الحكم في يوم الحساب، وبذلك هم ينكرون عقيدة التطهير،(٣) هم يقولون بأن جسد المسيح لايمكن تدميره أو ايذائه،(٤) هم لايعترفون بأن كنيسة روما هي رأس جميع الكنائس، كما أنه لاتنبغي اطاعتها، وهم يفسخون الزواج على أسس تثليثية، ولايقيمون وزناً للسيمونية، وهم يحتفظون بجسد المسيح المصنوع في يوم خميس العهد طوال السنة، ويرون أن له تأثيراً عظيماً وغالباً مايقومون بحرمان البابا كنسيا من أساقفتنا، وجميع رجال الدين الرومان، وهم يولون قليلاً من الاهتمام لقداس المسح الأقصى، ويقولون بأن حلق اللحية ذنب من الذنوب، وهم يرون بأن أساقفتهم أعلى من السادة الدنيويين، وهم يمتلكون كراهية حادة تجاه كنيسة روما، ولذلك سلموا جميع بلاد الاغريق إلى الأتراك، وبذلك ضيعوا أنفسهم وبلادهم بسبب كراهيتهم للكنيسة اللاتينية.

٣— السريان

ويوجد في القدس سريان، هم في الحقيقة ليسوا مسيحيين، بل أبناء الشيطان، لأنهم كذابين، وغير جديرين بالثقة، ويرون أن سرقة اللاتين ليست أمراً محرماً ولاخيانتهم، وهم مثل الروم الأرثوذكس يتبعون عقيدتهم، وبعدوى أخطائهم قد أصيبوا، علاوة على هذا إنهم فيما يتعلق بيوم السبت، هم يتبعون اليهود باتخاذه عيداً، ويستخدمون بأحاديثهم العامة اللسان العربي، وفي القداسات الدينية السريانية، ولهم لحى طويلة ويكرهون الذين بلا لحى، وهم ضعفاء، ولافائدة منهم البتة في الحروب.

٤— اليعاقبة

ويوجد في القدس مسيحيون اسمهم اليعاقبة، كان قد جرى طردهم منذ زمن طويل من الكنيسة الإغريقية بقرارات من بطريرك

القسطنطينية، ويقوم هؤلاء القوم بختان أولادهم وفق طريقة المسلمين، وهم يخفون اعترافاتهم الشخصية، ويعترفون بطبيعة واحدة للمسيح وفي قداساتهم يستخدمون اللغة السريانية.

٥— *الأحباش*

ويوجد في المدينة المقدسة أحباش أو هنود، وهؤلاء لهم ملك مسيحي منه حتى المسلمين يخافون خوفاً عظيماً، ولذلك فإن الذي يحمل جواز سفره يمكنه أن يسافر خلال الشرق من دون اعاقة، وهؤلاء القوم أيضاً يختنون أطفالهم ويكوون على وجوههم بقطعة حديد محماة، ويعمدونهم باسم المسيح، ويكرسون القربان بخبز مخمر، ويعملون القربان بكلا النوعين لأطفالهم، وهم يهلكون أجسادهم بصيام شديد يصل إلى حد الهلاك من الجوع.

٦— *النساطرة*

ويوجد في القدس مسيحيون اسمهم النساطرة، اقتيدوا إلى الضلال بأخطاء من أسوأ الأنواع، ويتمسكون بآراء كثيرة خاطئة تتعلق بأم الرب، وبابنها، وهم يعتقدون أنه كان في المسيح طبيعتان وشخصان، ويقولون بأن مريم العذراء المباركة كانت أم المسيح الانسان، لكن ليس ابن الرب، وهم يستخدمون اللغة الكلدانية في صلواتهم، ويستخدمون الخبز المخمر في قداس العناصر.

٧— *الأرمن*

ويوجد في القدس مسيحيون اسمهم الأرمن، قد غرقوا في آثام متنوعة، وبين هؤلاء وبين الاغريق دوماً اعظم الخلافات،. وذلك بسبب الخلافات الدينية، وهم يمتلكون لغة وأبجدية خاصة بهم، ويعدون يوم الميلاد يوم صيام، ولايحتفلون بقداس فيه، لكنهم يمنحون تشريفاً عظيماً ليوم عيد الغطاس، بسبب تعميد المسيح، وهم يحافظون على الصوم

الكبير بصرامة عظيمة جداً، إلى درجة يمتنعون فيها عن أكل السمك، والزيت وشرب النبيذ، ومع ذلك إنهم يأكلون الخضار والفواكه كما يريدون وبشكل دائم، لأنهم لايرون بأن هذه الأشياء تفسد صيامهم، وهم لايمزجون الماء مع خمرة القربان، ويأكلون اللحوم في أيام الجمعة، وهم لايسهرون كصوم، ولا في أيام Ember(الجمرة)، ولاأثناء الصوم الكبير، الذي يصومون أيامه بصرامة متناهية، ويشمل ذلك حتى يوم الرب، وهم لايأخذون بعقيدة التطهير، ويشاركون اليعاقبة في أخطائهم فيما يختص بالمسيح.

٨— الجورجيون

ويوجد في القدس جورجيون(كرج)، يُدعون بمسيحيين، وهؤلاء رجال حرب منذ ولادتهم، إلى حد أنهم يُخشون في جميع أرجاء الشرق، ويعبرون إلى حيثما أرادوا دونما إعاقة، ودون دفع أية جزية، والنساء لديهم يستخدمون السلاح مثلهن في ذلك مثل الرجال، وبينهم وبين الأرمن هناك حروب إلى درجة الفناء، وهم ملوثون تقريبا بجميع آثام الاغريق، ويطلقون لحاهم ويجعلونها طويلة مثل بقية الشرقيين.

٩— الموارنة

ويسكن في القدس مسيحيون اسمهم الموارنة، وهم هراطقة، ويعتقدون أن للمسيح ارادة واحدة، وطاقة واحدة، وهم يقرعون النواقيس كما نفعل، في حين يدعوا المسيحيون الآخرون الناس إلى الكنيسة بالقرع على لوح من الخشب، ويستخدمون بأحاديثهم العامة اللسان العربي، لكن في طقوسهم الكلدانية، وعادوا مرة فيما مضى إلى الكنيسة الواحدة، لكنهم انفصلوا عنها منذ زمن طويل.

١٠— التركمان

ويوجد في المدينة المقدسة أناس يعرفون باسم التركمان، وهم

متوحشـون متنقلون، وقد استولوا على جميع آسيـا الصغرى، وعلى شطر كبير من آسيا الكبرى، وهم أتراك.

١١ — البدو

وهناك بداة من الشعب العربي، منهم جاء.... محمـدﷺ، ويعتقـد هؤلاء أن يوم موت كل انسـان، والطريقة التي سوف يمـوت بها، أمور مقضي بها من اللـه، ولايمكن لـذلك أن يتقـــدم أو يتجنب، ولـذلك يزجـون أنفسهم في أعظـم المخـاطر من دون خـوف، ويمضـون إلى الحروب دون حماية بـالـدروع، وهـم مكـروهـون مـن قبـل المسلمين والمسيحيين سواء، ويعبد بعضهم الشمس.

١٢ - الحشيشية

وهناك يوجد الحشيشة، الذين هم مسلمون، ويطيعون مقدمهم طاعة عمياء، لأنهم يؤمنـون أنهم بطاعتهم له وحده سوف ينـالون السعادة في الآخـرة، ويتـدبر مقـدمهم تعليـم فتيـانهم مختلف اللغـات، ويرسله إلى الممالك الأخـرى، ليخـدمـون الملوك هناك، مـن أجل أنه عندمـا يتطلب الوقت، يقـوم خـادم كل ملك بقتله بالسم أو بطريقـة أخـرى، وإذا مـا تمكن الخادم القـاتل للملك من النجـاة والعـودة إلى بلاده، فـإنه يكافأ بتشريفـات، وثروات، ومراتب عليـا، وإذا مـا اعتقل وأعدم، عـدّوه في بلاده شهيداً.

١٣ - المحمديون

وفي القـدس نوع من المحمـديين يعبأون قليـلاً بشرائع المسلمين، ويقـولون بأن لديهم شريعـة سرية خـاصـة بهم، مـامن أحـد يبـوح بها، باستثناء الأب، وهو على فراش موته، إلى ابنه، وإذا ما أفشى الابن ذلك إلى أمه، وتبرهن بأنه عمل ذلك، يجري اعدام الأم على الفور.

١٤- المماليك

ويوجد في القدس مماليك، هم مسيحيون مرتدون، وهم هناك بأعداد كبيرة، وهم مكروهون من المسلمين ومن المسيحيين سواء، وهم يمتلكون الشرق كله بقوة سلاحهم، وملك مصر، الذي هو السلطان، من بينهم، ومثل ذلك جميع رجال بلاطه، ولايعبأ هؤلاء الناس لا بشريعة محمد(ﷺ) ولاباناجيل المسيح، بل سلموا أنفسهم إلى المتعة فقط.

١٥- اليهود

يعد اليهود بين هؤلاء جميعاً ملعونون إلى حد أن الشقاء والرفض الذي عانوا منه قد أظلم عقولهم وعطل فهومهم، لأنهم ممقوتون في جميع أنحاء الدنيا، ويعدون لاشيء يستحق الاهتمام، وفيهم عدة طوائف، مثل السامرة والاسينيين، وتنشأ بينهم باستمرار هرطقات جديدة، حولهم لا أستطيع القول أكثر.

١٦- المسيحيون اللاتين

يسكن في القدس مسيحيون لاتين، ورهبان فرنسيسكان في الكنيسة والدير على جبل صهيون، وهم يعيشون حياة انجيلية في ظل نظام دقيق، وقد تحدثت عن هؤلاء مطولاً، ويتطلع هؤلاء وحدهم من قلوبهم كلها إلى الأمراء المسيحيين للقدوم واخضاع البلاد كلها، إلى سلطة كنيسة روما، التي يمكن أن تمنح السلطة إلى أبد الآبدين.

وفيما يتعلق بالطوائف والشعوب المتقدمة الذكر، انظر ص ٢٣٩ -٢٤٨ من رحلة بورتشارد (ج ٣٧ من موسوعتنا هذه)، وذلك في نهاية وصفه للأرض المقدسة، وفي رحلة حج صاحب النيافة، عميد مينز، وفي Speculum Hisotoriale، وفي تاريخ أنطونيوس، وكثير ممن كتبوا حول هؤلاء المسيحيين الشرقيين، قالوا بأنهم بريئين من الهرطقات، ومدحوا بساطة حياتهم، وهذا بالفعل كان حقيقياً في الأيام الخالية، أي

منذ مــائتي سنة خلت، لكن منذ ذلـك الحين صـاروا جميعــاً -باستثناء اللاتين - ملوثين بأسـوأ الآثـام، وصـاروا كل يوم ملوثين أكثر، لأنهم ليس لديهم لاهـوتيين أو مبشرين بالايمان الكاثـوليكي، كما أنهم ليســوا على استعــداد لاستقبـــال مثل هؤلاء، ذلك أنهم راضين بأن يمـــوتوا بآثامهم.

القسم الثاني

من

كتاب رحلات وجولات فيلكس فابري من أولم ومن طائفة الرهبان المبشرين

الحج من مدينة القدس المقدسة إلى حوريب، وإلى جبل الرب، وإلى جبل سيناء إلى الضريح الملائكي لكاترين العذراء المباركة

مـرة أخـرى سـوف أتجول وأرتحل خلف خطوات شعب مـوسى في الجزء الداخلي من القفار،باتجاه حوريب، وجبل الرب (الخروج: ٣/ ١)، لأنني الآن أنهيـت وختمت وصفـي لجولاتي ورحـــلاتي في حجي إلى القدس، والذي بقي هو أن أقوم بوصف جولاتي ورحلاتي في حجي إلى سيناء، وهو الموضوع الذي سوف أركز عليه فيمايلي:

ويحتوي القسم الثاني من كتـاب جولاتي ورحلاتي، وصف حجي إلى الصحـراء الكبرى في العـربية، وإلى مـدين، وإلى جبل سيناء، وإلى قمتـه التي هي أقصى نقطة عملت في سبيلها في حجي كله.

ثم يحتـوي بعـد ذلك حجي في أرض بلاد مصر، ورحلتي عبر النيل مع وصف مـاهناك، والعـودة من حجـي بالبحـر وبالبر حتى أولم، التي هي مدينة نقطة الانطلاق، وهي التي سوف أصفها بعد الجميع.

ويحتـوي هذا القسـم على ستـة فصـول، وذلك مثلما حـوى القسم الأول.

ويبـــدأ هنا الفصل الأول، الـذي هو الفصل الســابع في تـرتيب كل كتاب الرحلات والجولات، وهويحتوي على وصف للحج خلال القفار مع وصف لجبلي: حوريب وسيناء.

ويحتوي الفصل الثاني، الذي هو الفصل الثامن، على وصف الحج في مصر في شهر تشرين الأول.

ويحتوي الفصل الثالث، الذي هـو الفصل التاسع، وصف الحج فوق البحر،ووصف الجزر فيه في شهر تشرين الثاني.

ويحتــوي الفصل الرابع، الذي هـو الفصل العـاشر، وصـف الرحلة البحـرية في شهـر كـانون الأول. ويحتـوي الفصـل الخامس، الذي هو الفصل الحادي عشر، وصف الحج في البندقية، ووصف البندقيـة وعودة الحجاج إلى أوطانهم في شهر كانون الثاني.

ويحتــوي الفصل الســادس، الذي هو الفصل الثــاني عشر، وصف فـائض جـداً لألمانيـا ولمدينة أولم، لكن بما أن هـذا الفصل فصل طويل، وقد ملأ كتـاباً قائماً بذاته، لم ألحقه بكتاب جـولاتي ورحلاتي، بل عملت منه مجلداً منفصلاً.

هنا يبدأ

الفصل السابع من كتاب الرحلات والجولات ، وبه نبدأ رحلتنا الثانية من القدس إلى جبل سيناء

هناك ثلاثة أشياء ينبغي الفراغ منها، قبل الانطلاق برحلة الحج إلى جبل سيناء، وهي: الأول: هو أن الحج يحتاج إلى ترتيب مع الحكام المسلمين للقدس، لعقد اتفاق مع الترجمان، عليه بموجبه أن يؤمن لنا مرافقة، وجواز سفر (أمان) خلال القفار حتى مصر، وكنا قد عقدنا هذا الاتفاق كما أوضحنا من قبل، والثاني: يحتاج الحجاج إلى اعداد المؤن وتزويد أنفسهم وشراء الطعام اللازم للبقاء أحياء أثناء رحلتهم عبر القفار، (وهذا أمر قد تحدثنا عنه من قبل)، والثالث: هو أن على الترجمان الرئيس -وفقاً لشروط الاتفاق -تقديم الجمال وسائقي الجمال، وحمير وسائقيهم، وتعيين يوماً محدداً وساعة لمغادرة الحجاج، وهذه الأشياء كلها عملت، وعين لنا اليوم الرابع والعشرين من آب -وهو يوم عيد القديس بارثلميو الرسول -من أجل مغادرتنا، والسفر من القدس، عند ساعة العشاء.

وبناء عليه خرجنا في الصباح الباكر من كنيسة ضريح الرب، في ذلك اليوم نفسه، وبعد تناولنا لطعام الافطار، ذهبنا جميعاً إلى جبل صهيون، حيث وجدنا الكالينيين هناك بانتظارنا مع الجمال وسائقي الجمال والحمير وسائقي الحمير، ولذلك بادرنا مسرعين، وأخرجنا جميع حقائبنا من دير الرهبان، وكومناها في مكان واحد، بناء على طلب سائقي الجمال، حتى يروا حجمها ولكي يوزعوها بين الجمال بالتساوي، ذلك أن الجمال ينبغي تحميلها بدقة، ومتوازن بشكل جيد، أي أن تكون الأوزان متساوية، وعندما حملنا كل شيء ووضعناه في مكان واحد وفي

كومة واحدة، كونوا حملاً ثقيلاً، لأنه كانت هناك أكياس كثيرة من البقسماط، وجرار كثيرة مليئة بالخمر، كانت موضوعة داخل أكياس من الشعر، حتى لايراهم المسلمون مكشوفين، ويزعجوننا من أجلهم، وكانت هناك أوعية كثيرة مليئة بالماء، وسلال مليئة بالبيض، وأقفاص فيها ديكة ودجاج أحياء، وكانت هناك فرشنا وملابسنا ومزاودنا، وصناديق وسلال فيها أواني المطبخ والأباريق، والصحون والأطباق، وقد تكون من هؤلاء والأنواع الشبيهة كومة كبيرة، ولذلك اندهش سائقونا تجاهها، لأن من الصعب على الانسان أن يصدق أن عشرين رجلاً سوف يحتاجون إلى مثل هذه الكمية من الحقائب لدى عبور الصحراء، هذا ويتوجب على الانسان أن يحمل كميات وافرة من الزاد، حتى لايعاني من العوز أثناء اثنين وستين يوماً، وليكون بإمكانه اعطاء خبز وبقسماط، ولحم مدخن وجبن إلى البداة العرب، والمدينيين الذين يقابلهم، لأن هذا يطفىء غضبهم، وبذلك يستطيع شراء السلام منهم.

وعندما جلبت جميع الأشياء إلى الخارج، اقتاد سائقوا الجمال جمالهم نحو كومة الأشياء، وأناخوها واحداً تلو الآخر، وحملوها، وأثناء القيام بهذا العمل، وقفنا إلى جانبهم، وراقبنا بعناية أيديهم، خشية أن يسرقوا أي شيء منا، وأيضاً لكي نتعلم كيف يحملون الجمال، وكيف يتدبرونهم، وبعدما جرى تحميل اثنين وعشرين جملاً مع كثير من التعب استدعينا من قبل سائقي الحمير إلى قطيع الحمير، حتى يقوم كل واحد باختيار حمار لنفسه، على ظهره سوف يركب خلال الصحراء كلها ووصولاً حتى مصر، وكان السائقون قد اتفقوا فيما بينهم، من أجل الحفاظ على السلام، أن لايشير أحد على أحد من الحجاج بأخذ هذا أو ذاك، أو أن يقول شيئاً حول الدابة، سيئاً كان أم جيداً، بل تركوا الأمر إلى اختيارنا، وهكذا فإن كل من قام باختيار سيء، لن تكون لديه حجة للتخاصم مع أي واحد أو توجيه اللوم إليه، كما أنه لن يكون بامكانه - لسبب من

الأسبـاب- دفع أقل ممن جـرى تزويـده بدابة جيـدة، وعندمـا قمنا بالاختيـار، توجب على الذي اختار أفضـل دابة أن يدفع الأجور ومـال الشرب لجميع رفاقه.

وكـان سائقـوا الحمير أنفسهم يعرفـون أي الدواب كان جيـداً، وأيها كـان سيئاً، ذلك أن السرج على ظهـورهـا كـانت متشـابهة، وبناء عليـه ركض مـوالي الفـرسان إلى هنا وهنـاك بين الحمير، وجربواأحـدها بعـد الآخـر، وسعى أحيـانا اثنان مـن الحجـاج أو ثلاثة وراء حمار واحـد، وعندمـا رأيت هـذا، وكنت راغبـاً في عـدم ازعـاج أي انسـان بالقيـام باختيـاري، تركت القطيع، وتسلقت الدرج الحجـري حتى باب كنيسـة صهيون، وجلست فـوق عتبةالبـاب، وتطلعت نحو قطيع الحمير، حيث راقبت الآخرين وهم يختارون دوابهم، وكـذلك قدرت في نفسي أية دابة سـوف أختـارها، ورأيت وقتهـا بين الحمير واحـداً كبيراً أبيض، أذناه متـدليتان نحـو الأسفل، وقد بـدا لي أنه يمتلك رأساً ثقيـلاً، وبدا وكأنه دابة باهته، وأن مـا من واحد من الحجـاج سوف يلمسها، وقـد ركزت على تلك الدابة، ليس لأنني رأيت أية جودة فيها، بل لمجرد أنني رغبت بعمل مباراة ما مع موالي في اختيار دابة نظر الجميع إليها بامتهان.

وهكذا بعدمـا اختار النبـلاء جميعاً دوابهم بعناية كبيرة وتفكير عظيم، وتوقفـت الضجـة، نـزلت وقمت بـدون أي فحص باختيـار الحمار المستخف به، واقتـدته إلى الجانب، وأعددته لامتطاء ظهـره، فما كان من سـائقـي الحمير إلاّ أن ركضـوا نحـوي، وهم يضحكـون ويصرخـون، وطلبوا مني إعطائهم مالاً، وفي البداية أنا لم أفهـم ماالذي كانوا يقولونه لي، وقد انزعجـت لطلبهم المال مني، في حين لم يطلبوا فلسـاً واحداً من أي انسـان آخـر، لكن المترجم أخبرني بأنني قـد اخترت أفضل الحمير جميعـاً، ولهذا السبـب كـانوا يطلبـون أجـورهم، وعندمـا سمعت هذا اخـرجت أربعـة مندوسـات وأعطيتهم لهم، وعلى هـذا تزودت خـلال

الرحلة كلها بأكثر الدواب أمانا بينها جمعاً، وهذه الدابة لم تعرف التعب، وكانت بلامساوىء، ولم تقع قط معي، ولم تجعلني أتخلف وراء الركب، وهي لم تخف قط، ولم أحثها، ولم تعضني، لكنها كانت تمضي أمام الجميع من دون أي ضرب، وعندما سألت سائقها عن المبلغ الذي يمكن أن يبيعها به، قال بأنه لن يبيعها بأقل من عشر دوقيات، هذا ولقد كنت دوما محظوظاً في حجي في اختيار الدواب، وهذا ماكنت قد ذكرته وأوضحته من قبل، ولا يمكن للانسان أن يكتب عن المتاعب وعن المصاعب، والمخاطر التي يتعرض لها الحجاج الذين يختارون دواب غير أمينة، وبطيئة وسيئة.

وعندما جرى تحميل الجمال، وجرى اختيار الحمير، ووضعت السرج على ظهورها، ذهبنا إلى كنيسة صهيون، وتلقينا مباركة الحجاج من الأب المبجل المسؤول في جبل صهيون، وعانق كل واحد منا، وباركه، وودعه بقبلة، هذا وقد توجب عليّ لدى المغادرة، أن أقدم أكثر من غيري الشكر للأب الجيد، وللدير كله، حيث أنني تلقيت منهم لطفاً زائداً، وكانوا جميعاً جيدين جداً نحوي، وذلك كما أوضحت من قبل.

ولدى مغادرتنا لكنيسة صهيون، نزلنا إلى حيث كانت حميرنا، وعندما امتطينا ظهورهم، تولت الجمال القيادة على الطريق ونحن تبعناهم خارجين من المدينة، لكن ليس من دون حزن في قلوبنا، وليس من دون دموع، غادرنا من مدينة القدس المرغوبة، فلقد غادرناها بآهات وبكاء، ومن جانبي لم أكن قط أكثر سعادة في أي مكان في العالم مما كنته في القدس، فلقد أمضيت فيها ساعات ممتعة جداً وأيام هناك، وعندما كنا نازلين من جبل صهيون حاول بعض الشبان المسلمين والفتيان والأطفال اعتراض سبيلنا وازعاجنا، وسعوا إلى سحب بعض الحمولات من على ظهور الجمال والاستيلاء عليها، وبصعوبة بالغة تمكن أدلاؤنا من ابعادهم عنا.

وفي تلك الأثناء، وقبل أن نصل إلى قعـر هضبـة صهيـون، انكسرت احـدى جـرار الخمـرة، وسـالت من خـلال كيس الشعـر الذي كـانت ملفوفة به إلى الأرض، وقد انزعجنا كثيراً لهذا الحادث، لأنها كانت خمرة جيدة، شريت بسعر مـرتفع، وأخفيت بعناية كبيرة، خوفاً من المسلمين، ومع ذلك لم يكن الذي أزعجنا خسارة الخمرة، بل كنا نخشى كثيراً من غضب المسلمين، حيث أنهم ماأن يشموا رائحة الخمرة كانوا سيهاجموننا ويكسرون الجرار الأخرى، ولو أننا حرمنا من خمرتنا ماكنا لنحاول الحج إلى جبل سيناء، كما أنه ماكان بامكاننا العيش في الصحراء من دون خمرة نشربها.

وهكذا تركنا الخمرة تسيل على الأرض، لأنه لم يكن لدينا وعاء آخر، والذي قمنا بـه أننا اتخذنا حيطة خـاصـة لنحـول بين سـائقي الجمال وسائقي الحمير القدوم إلى ذلك المكان وشرب الخمرة وهي تنصب نحو الأسفل، بسبب أنهم لو تذوقـوها، لصاروا سكارى على الفـور ولسببوا بذلك كثيراً من المتـاعب لأنفسهم ولنا، ولأهملوا حقائبنا، وقـد أعطيت حماري إلى واحد من الفـرسان وركضت إلى جانـب الجمل، حيث كانت الخمـرة تنصـب نحـو الأسفل، ولم أدع أحـداً من المسلمين يقترب، وملأت قارورتين كبيرتين كانتا معي، بالخمرة التي كانت تنصب وهكذا تابعنا سيرنا ببطيء، هذا ومن الصعب عليّ أن أكتب عن جميع المصاعب التي عـانينا منهـا فوق تلك المسـافـة القصيرة، بسبب هجمات المسلمين، وبسبب متاعبنا.

ولقد أعقنا كثيراً أثناء سفرنا وتعرضنا لمضايقات كبيرة، إلى درجة أننا احتجنا إلى سبع سـاعـات لنعبر فـوق ذلك الطريـق، مع أنه من الممكن عبوره خـلال أربع ساعات، ولذلك كان الليل ظلامـاً عندما وصلنا إلى بيت لحم، وبمشقـة كبيرة أنزلنا الأحمال من على ظهـور الجمال والحمير، في رواق كنيسة بيت لحم، وسحبنا كل أشياءنا إلى قاعة مجاورة للكنيسة،

وجلسنا نتولى حراسة القاعة.

ودخلنا الآن إلى الكنيسة ونحن نحمل مصابيحاً، ونزلنا إلى مكان ميلاد ربنا، وهو المكان الأعظم عذوبة، وعندما كنا نصلي هناك جاء الأب المسؤول مع رهبانه، واستقبلونا بترحاب، وأخذونا إلى المكان الذي يمكننا أن نأكل فيه، وأن ننام، لأنهم كانوا على معرفة بقدومنا، ولذلك كانوا قد أعدوا كل شيء، وجهزوه من أجل عشائنا ونومنا، وبمتعة تناولنا عشاءً جيداً، جرى إعداده على حسابنا، وبعد ذلك تمددنا بأنفسنا للاستراحة، والمجد للرب في الأعالي.

ونهضنا في الخامس والعشرين من آب بعد منتصف الليل، أي أن تقول، قبل انبلاج الفجر، وذهبنا إلى كهف ميلاد الرب، وقرأنا صلواتنا هناك في كل من الساعات القانونية وعلى شكل قداسات، وعندما أشرقت الشمس نزلنا إلى وادي الرعاة إلى «المجد في الأعالي»، وغنينا هناك مع الملائكة تلك الترنيمة السماوية، وتفحصنا المكان بدقة، هذا وكنا قد تحدثنا عن هذا الوادي ووصفناه من قبل، وبعدما فرغنا من صلوات الشكر في الوادي، ذهبنا صاعدين إلى بيت لحم من أجل تناول طعام الافطار، وبعد أكلنا لافطارنا، تجولنا في أرجاء دير القديس جيروم، وتعجبنا من خرائبه، كما وسرنا حول بلدة بيت لحم، وذهبنا إلى بركة داوود، وأثناء قيامنا بهذا أعدنا إلى الذاكرة جميع نصوص الكتابات المقدسة التي أشارت إلى هذه الأماكن، وهكذا أمضينا ذلك اليوم بسرور في ذلك المكان الممتع والأعظم قداسة.

وكانت إقامة ممتعة قرب مزود الرب، بسبب قداسة المكان والغفرانات، وكذلك بسبب جمال الكنيسة، وضخامة خرائب ذلك الدير الفخم جداً، الذي لم يكن ديراً للرهبان فقط بل قصراً وقلعة للأباطرة، ويعتقد بسطاء الناس بأنه كان دير القديس جيروم، مع أن جيروم كان قد أقام في كوخ، في دير بسيط، تأسس في أيامه، وعلى هذا الأساس قال

في رسالته إلى فابيولا Fabiola : «أنا محب لنزل بيت لحم، وللمزود الذي وضعت فيه الأم العذراء الطفل»، وقال كذلك في «نظامه القانوني»: الفصل ٣٦: « ما من مهابة يمكن أن تكون أعظم هيبة من بيت لحم هذه، ففي هذا الصدع ولد باني السموات»، لأنه قبل أيام القديس جيروم كان مكان ميلاد المسيح، مجرد كهف، ولم يكن هناك دير، ولهذا نقرأ في «نظامه القانوني» الفصل: ٢٠ «نحن حريصون على بناء دير ونزل إلى جانبه، خشية أن تقدم مريم ويوسف إلى بيت لحم، ولايجدان غرفة في النزل»، وجاء الخبر في «حكاية القديس جيروم»، بأن سيرل، رئيس أساقفة القدس، قد أعطاه أبرشية بيت لحم، التي فيها بنى بمساعدة الجيران ديراً، لكنه احتاج إلى المال، فبعث بأخيه بولينيانوس Paulinianus إلى بلاده ليبيع ممتلكاته القليلة هناك، قاصداً انفاق مال البيع في بناء الدير في بيت لحم، وهذا ما قرأنا عنه في «نظامه القانوني»،الفصل: ٢٠.

وبقدر ما أستطيع تخمينه، لا أعتقد أن الكنيسة الجميلة القائمة هناك في هذه الأيام يمكن، أن تكون قد بنيت في أيام القديس جيروم، ويتحدث الناس الجهلاء على أنها بنيت من قبل القديسة هيلانه، غير أن ترتيب البناء الحديث تجعل هذا ليس ممكنا، لأنه روي لنا بأن القديس جيروم قد نحت لنفسه ضريحاً عند فم كهف الميلاد، وأن فم الكهف كان ضيقاً، لكن في هذه الأيام ضريح القديس جيروم موجود خارج الكنيسة، والمدخل إلى الكهف ليس في الكنيسة نفسها، والكهف فخم جداً، وله مداخل واسعة، منها يتم الدخول إليه، والذي أعتقده أن هذه الكنيسة قد بنيت في أيام آخر الملوك اللاتين في القدس، ومثل ذلك هذا الدير الكبير، وهذا يفيد بأن كوخ جيروم الصغير، قد أزيل، وأعيد ترتيب المكان من جديد، وتبان مصداقية ذلك، بالنقوش، والرسوم، والتماثيل في ذلك المكان.

جبل راما وبلدته الحصينة جداً

وفي اليوم السادس والعشرين، وبعد قداس عند مزود الرب، طلب الفرسان من كالينوس الرئيس، أن يقتادهم إلى برك سليمان، وإلى بساتينه وحدائقه، وإلى كنيسة القديس جرجس، وعلى هذا اعتلوا ظهور حميرهم، واقتيدوا إلى هناك، لكن بما أنني قد كنت في هذه الأماكن من قبل، كما سلف لي وتحدثت، قمت بحج آخر في ذلك اليوم، وخرجنا خمسة من بيت لحم، حيث كان هناك أربعة رهبان فرنسيسكان قد قدموا معنا من القدس، وأنا شخصياً، ومضينا باتجاه الجنوب إلى سفح جبل مرتفع، واقف هناك في السهل بشكل مستدير ورأسه مرتفع مشرع في الهواء بسطح مستو وواسع منه يستطيع الانسان أن يشاهد الأرض المقدسة بالطول وبالعرض، وتسلقنا ذلك الجبل بصعوبة وتعب، ووصلنا إلى قمته، حيث شاهدناالمنطقة من حولنا، وحدقنا هنا وهناك عبر الأرض المقدسة، وقام فيما مضى فوق هذا الجبل هناك قلعة حصينة، وكانت مليئة بالناس، وكان اسمها راما، وإليها أشار القديس جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»، هذا وبشكل عام أطلق على جميع القرى التي قامت فوق مكان مرتفع اسم راما، وهذا أمر كنت قد تحدثت عنه من قبل، وكان هذا الجبل مرتفعاً إلى درجة أن الانسان يمكن من عليه أن يشاهد البحر الميت، وجبال العربية، وجبلي سعير وجلعاد، ويمكن للانسان أن يشاهد جبال عين الجدي، والأماكن التي أخفى داوود فيها نفسه، وقفار تقوع، وشيلوه، وجبل الزيتون، مع جزء من جبل صهيون خلفه، وهكذا دواليك حتى البحر المتوسط.

وهذا مايمكن للانسان أن يراه من قمة الجبل العارية، إنما في العصور الخالية، حيث كانت هناك أبنية عالية مشادة في ذلك المكان، كان بإمكان الانسان أن ينظر بشكل أوسع، وذلك حتى الجليل، وفلسطين، وحدود مصر، وقد كان هنا قلعة كبيرة مع أبراج عالية، اسمها راما، وحول هذا

المكان ورد النص الموجود في إرميا —الاصحاح: ٣١، وفي متى —الاصحاح:٢، قوله: «صوت سمع في الرامه نوح وبكاء»، وحول هذا المكان كتب هذا النص، لأنه عندما قتل هيرود الأطفال في بيت لحم، وفي المنطقة من حولها، سمع بكاء الأطفال، ونواح أمهاتهم في راما هذه، ولذلك قال القديس جيروم في كتابه «حول المسافات بين الأماكن»: «راما مكان قرب بيت لحم، وعنها كتب: صوت سمع في الرامه».

وكان يوجد في اطارها مسافة كافية خارج أسوارها، لزراعة وانتاج ما يكفي من قمح، ليقدم خبزاً لسكان القلعة طوال السنة،وقد بنيت هذه القلعة من قبل واحد من الملوك اللاتين في القدس، وعندما استولى صلاح الدين، ملك مصر، على القدس والأرض المقدسة بقوة السلاح، وطرد الصليبيين اللاتين من هناك، استولى على جميع القلاع الأخرى والبلدات والقرى، لكنه لم يستطع -بأية وسيلة من الوسائل -نيل قلعة الرامة هذه، التي جرى الدفاع عنها برجولة من قبل الصليبيين، ولذلك رفع الحصار، واستمر المسيحيون اللاتين يسكنون في القلعة لمدة ثلاثين سنة بعد الاستيلاء على القدس، وبيت لحم، ولم يستطع المسلمون طردهم، ولكانوا مايزالون هناك حتى هذا اليوم لولا أن الرب قاتل ضدهم، لأنه مع نهاية الثلاثين سنة، أرسل الرب وباء إلى داخل القلعة، وفي وقت قصير ماتت النساء جميعاً من الطفلة الصغيرة إلى المرأة العجوز، كما مات الجزء الأكبر من الرجال، ولدى رؤية البقية ماحدث، هجروا القلعة، وهربوا، وعندما عرف المسلمون بذلك، تسلقوا الجبل، وهدموا القلعة، وسووها بالأرض، ولذلك لايوجد في هذه الأيام، أو بالحري لايمكن العثور على أية أثر للجدران، ونظرا لحصانة هذه القلعة، ولأنها كانت لاترام، سماها الصليبيون بيت أوليا، على اسم قلعة يهودت، بيت أوليا، الموجودة في الجليل.

وأثناء النظر من هذا الجبل إلى جبل آخر يواجهه، رأينا هناك بناء

قديماً، إلى جانبه ضريح الأنبياء الاثني عشر الصغار.

وقام فيما مضى عند سفح هذا الجبل دير راعي الدير القديس أغاثون Agathon ، الذي كان رجلاً صاحب سلطة واسعة، وأبا لكثير من الرهبان، ولحبه للصمت حمل حجرة في فمه لمدة ثلاث سنوات، فهذا ماورد خبره في «حياة الآباء».

علاوة على ذلك، في هذه المنطقة كان دير القديس خاريتون Khari-ton، الذي كان أباً لكثير من الرهبان، حيث أنه عندمافارق الحياة، فارق جميع رهبانه معه الحياة، ودفنوا جميعاً في قبر واحد، وهو قبر مشاهد هناك حتى هذا اليوم.

وليس بعيدا عن هذا المكان، رأينا الجزء العلوي من بناء دير القديس سابا، الذي كان راعي دير، والذي تحدثت عنه مطولاً من قبل.

وبعدما فرغنا من رؤية هذه الأشياء، نزلنا من الجبل، وعدنا إلى بيت لحم من أجل تناول طعام العشاء، ووجدنا هناك السيد فكردنيوس Vaccardinus (فخر الدين) وكان مسلماً صاحب سلطة كبيرة، من القدس، وكانت معه حاشيته، وقد بعث وراء الترجمان، ولامه لوماً شديداً لسماحه لنا بإمضاء ذلك اليوم هناك، وأمره باقتيادنا نحو الأمام على طريقنا في الصباح التالي بالتحديد.

مغادرة بيت لحم

في السابع والعشرين، جاء كالينوس الرئيس، بعد منتصف الليل، إلى مكان إقامة الحجاج وأيقظهم من أجل رحلتنا، وبناء عليه استيقظنا مسرعين، وذهبنا إلى كهف ميلاد المسيح، حيث قرأنا صلوات مع قداسات في ذلك المكان المقدس للغاية، الذي كنا نكره مغادرته، وأثناء انشغالنا بالاحتفال بالقداس جاء كالينوس المسلم إلينا وحثنا على الاسراع، وصرخ لنا للخروج، وأخرجنا الآن جميع أثقالنا التي كانت

الجمال ستحملهـا، وشرعنا بتحميلهم، ولم نكن حتى ذلك الحين نعـرف طرائق التحميـل، كما أننا لم نكن نعـرف عـادات، واشـارات، وكلمات سـائقي الجمال، كما أنهم لم يفهمـوا عـاداتنا، واشـاراتنا وكلماتنا، ولذلك قمنا لعـــدة أيـام بتحميل دوابنا مع كثير مـن الخصــام والاضطراب، وصدرت المشـاكل من سائقي الجمال، حيث أخـذوا أولاً غرضـاً واحداً من كومة الأثقال، ثم غرضاً آخر، من أجل جعل الحمولات على الجمال متوازنة، وكان هذا غير مـوائم لنا، لأننا انقسمنا إلى ثلاث مجموعات، وكان لكل مجموعة أغراضهـا، ولم نمتلك أثقالاً واحدة لنا جميعاً، مع أن الجمال كـانت لنا جميعـاً بشكل عـام، وهذا أمر لم يفهمـه المسلمـون، بل اعتقدوا أن جميـع الأشياء لنا جميعاً بشكـل عام، وقامـوا بالتحميل دونما اهتمام بمن عاد الشيء إليه، وعلى هذا كان جمل واحد يحمل أحيانا أشياء عـائدة إلى الجماعـات الثـلاث كلها، أو إلى سـت أو ثمانية من الحجـاج، ولهذا كـان يحدث أثناء إنزال الأثقـال فـوضى واضطراب، وركض إلى الأمام وإلى الخلف، حيث توجب على كل انسان جمع أثقاله من ثلاثة أو أربعة أماكن، وكنا على هذا سعداء جداً بتعيين بعض الجمال لحمل أثقال الفئة الأولى، وبعضهم لحمل أثقـال الفئة الثانية، وبعضهـم الآخر لحمل أثقـال الفئة الثـالثـة، لكن هذا مـالم يفهمـه سائقـوا الجمال، ومـا كـانوا ليفلعـوه، ومن هنا -كما قلت- ثارت خـلافـات كثيرة حـول تحميل الجمال، لاسيما وقت الانطلاق.

وبعدمـا حملنا جمالنا، وأسرجنا على حميرنا، امتطينا ظهورهم، وانطلقنا من الدير باسم الـرب، وقد عبرنـا من وسط البلدة، وتابعنا سفـرنا على حافتهـا القصوى باتجاه الجنوب، نحـو جانب جبل بيت أوليـا، أو راماء الذي ودعناه على جـــانبنا الأيسر، ووصلنا أثناء سيرنـا إلى قمـــة وادي رفايم Raphaim، وسرنا مجتازين لتخومـه خلال ساعة تقـريباً، وكان من الممكن لهذا الوادي أن يكون خصباً، لو توفـر من يقـوم بفلاحتـه،

ومن ثم كـان سيمتلىء بالقمح كما جاء في (سفـر اشعيا: ١٧/ ٥) قـوله: «ويكون كجمع الحصـادين الزرع وزراعه تحصـد السنابل، ويكون كمن يلقط سنابل في وادي رفايم».

وفي هذا الوادي هـزم داوود الفلسطينيين، الذين كـانـوا قـد نشروا أنفسهم هناك مثل الجراد، كما جاء في سفـر صموئيل الثاني: ٥، ويفصل هذا الوادي منطقـة اليهـودية التليـة عـن سهل الفلسطينيين، أو عن فلسطين، وذلك حتى نهايته هناك، ولذلك كـانوا قادرين على الصعـود من خلاله إلى أرض اليهودية.

وأثناء متـابعتنا لسفـرنا، خلفنا بيت لحم بعيـدة جـداً عنا، إنما كـان بامكاننـا رؤيتهـا خلفنا حتـى الظهـر، وعند الظهـر وصلنا إلى منطقـة خصبة، حيث كـانت هنالك حقول مليئـة بأشجار الفواكـه،مع كثير من أشجـار الـزيتـون والتين، وهنا انسحبنا جـانبـاً، وخـرجنـا عن الطريق ودخلنا إلى غـابة كثيفـة من أشجـار الزيتـون، حيث جلسنا في الظل، وأكلنـا الذي جلبنـاه في جعبنـا مـن بيت لحم، لكـن لم يكـن بـامكاننـا الشرب، لأن الجمال التي كـانت تحمل روايـا الماء سـارت أمـامنا، وبناء عليه بعدما تناولنا وجبة سريعة، امتطينا ظهور حميرنا من جديد، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى مفرق للطرقـات، حيث يمضي الطريق القائم على يمين الانسـان إلى غـزة عبر السهل في فلسطين، وهو يمـر خـلال البلدة التي اسمهـا ثيرين thyrin ، والقلعـة التـي اسمهـا قلعـة القـديس صموئيل(الجيب الأعلى).

وهناك طريق آخـر، قائم على يسار الانسـان، يقود من خـلال المنطقة التليـة نحـو حبرون، ومن حبرون يستدير، ويمضي إلى المنطقـة السهليـة لفلسطين ومن ثم إلى غزة، والطريق إلى غزة بوساطة الطريق القائم على جهـة اليســار، هو أقصر بميلين ألمانيين، من الطريق القـائم على جهـة اليمين، وبناء عليه أمرهم كـالينوس الرئيس أن يقتادوا الجمال على طول

الطريق المنخفض والأقصر، وهو طريق لانمر عبره بحبرون، لكن عندما سمعنا بهذا صرخنا بأصوات عالية جداً وكثيرة، وأصررنا على اقتياد الجمال على طول الطريق الآخر، الذي يذهب إلى حبرون، وتخاصمنا بعنف مع أدلائنا حول هذه المسألة، لأنهم أرادو أخذ الطريق الأقصر، ذلك أننا أردنا رؤية مدينة حبرون، والأماكن المقدسة حيث مدفن البطارقة، والحقل الذي من ترابه جرى صنع أبوينا الأولين، ولولا أننا ذكرنا بشكل واضح في عقدنا معهم وجوب أخذنا إلى حبرون، لما كان بإمكاننا تحقيق هذه الرغبة.

وفي الحقيقة إنني أنا وحدي كنت السبب في ادخال هذا الشرط في العقد، لأن الأب المبجل لودويغ فوشي، رئيس دير أولم، قد رجاني عندما كنت على وشك السفر أن لا أغادر الأرض المقدسة من دون رؤية مدينة حبرون، التي كان يشعر نحوها بعاطفة تقوية خاصة، وأنا شخصياً كنت متشوقاً كثيراً لرؤيتها، وتصديت إلى جميع الأعذار التي قدمت لاعتراض ذهابنا إلى هناك، لأن كالينوس الرئيس تحدث عن كثير المخاوف التي يمكن أن نصدفها ونقع بها، بالاضافة إلى إطالة الطريق.

وتقع حبرون على بعد ستة فراسخ فقط عن بيت لحم، وهكذا بعد نقاش طويل ربحنا نحن وأقنعنا أدلاءنا، وأعادوا الجمال إلى الطريق الأعلى خلال المنطقة التلية،وعندما مضينا على الطريق، رأينا ماكان بالحقيقة أرضاً جيدة، لكن قليل منها كان مفلوحاً، كما لم تكن هناك أية قرية ورأينا فوق الجبل وفي الوادي جدران قديمة من الحجارة الجافة، بهم كانت الجبال محاطة من أجزائها الدنيا حتى قممها، وفي داخل هذه الجدران من الحجارة الجافة كان فيما مضى بساتين كروم عنب، وزيتون، وبرتقال، ورمان، وأشجار فواكه أخرى جيدة، قد نبت في مكانها الآن أشواك، وقُراص، وشوك سناني، وعوسج، وعليق، وأعشاب أخرى بلافائدة، تنمو ذاتيا.

دخول الحجاج إلى مدينة حبرون

وأثناء متابعتنا سيرنا وصلنا إلى واد فائق الجمال، اسمه وادي حبرون، وعلى طرفيه، كانت الأطراف مغطاة بأسيجة معمولة من جدران أحجار جافة، من أجل كروم العنب والبساتين، غير أن كل شيء كان ناميا هناك كان برياً، وبينهم كان هناك كثيراً من أشجار البطم، تعطي كميات كبيرة من زيت البطم، ولو أنه كان في هذا الوادي أي أناس يتولون زراعته، لكان مليئاً بجميع أنواع الأشياء الجيدة، وتابعنا سيرنا، فوصلنا إلى مكان مليء بأشجار الزيتون، إلى حد بدا المكان وكأنه غابة منهم، وفي المكان الكثيف من هذه الأشجار، أمرنا قائدنا كالينوس بالترجل من على ظهور دوابنا، وانزال الأثقال عن ظهور الجمال، وقد فعلنا ذلك، وأفادتنا الأشجار وكانت بالنسبة لنا بمثابة خيم وسُتر ضد الحرارة الهائلة للشمس، التي بدت لي أنها أكثر حرارة في هذه المنطقة منها في القدس، وجلسنا في الظل وأكلنا بقسماطنا من دون أي شراب منعش، لأن الخمرة في الجرار، والماء في الروايا، كانت ساخنة، وبلا فائدة في اطفاء العطش.

ولم نكن بعيدين عن مدينة حبرون المقدسة، لكن لم يكن بإمكاننا رؤيتها، لأنه كانت هناك رابية بيننا وبين المدينة، على الذي يود الدخول إلى المدينة الالتفاف قليلاً حولها، هذا ويقال بأن مدينة حبرون القديمة جداً، التي عنها تتحدث الكتابات المقدسة، كانت قائمة فوق البقعة ذاتها حيث كنا، ذلك أن شطراً من المدينة كان قائماً على منحدرات الرابية، والشطر الآخر فوق أرض منبسطة تحت، وحدث بعد ذلك أنه بسبب الكهف المزدوج، وضريح ابراهيم، الذي هو موجود على الجهة الأخرى من الرابية، انتقلت المدينة إلى حيث كان الكهف، وهذا ماسوف أتولى شرحه.

وعندما كنا جالسين هناك، ركب Sabathytanco أي

كـالينوس الرئيـس حصـانه مع واحـد من المرافقين، وذهـب إلى مـدينة حبرون، لإخبـار حـاكم المدينة، وسكـانها بأن هناك حجـاجـا مسيحيين لاتين، من بلدان ماوراء البحـر، قد جـاءوا، ويرغبون— بعـد الحصول على إذنه— برؤية المدينة، والمكان الذي جرى دفن البطارقة فيه، وعندما سمع الحاكم هذا، وبخ كـالينوس بحدة لأنه تركنا، وقت ارتفـاع حرارة الشمس، في السهل المفتوح، حيث لايوجد مـاء ولاخبز يمكننا الحصول عليه، وأمره بالعودة سريعاً، وجلبنا مع جميع أثقالنا إلى النزل العام التابع للمـدينة، وأخبره كـالينوسينا، بأن الجمال قـد أنزلت أثقـالها للتـو، وقـد تركت تـرعى، ولايمكن إعـادة تحميلهـا من دون كثير مـن المتـاعب والاضطراب، ولذلك اقترحا إرسال خدمه إلى المسلمين ولجلب الحجاج لزيارة الأماكن المقـدسة، وبعد القيام بذلك، أن يعيـدهم ثانية إلى حيث أثقالهم مـوضوعة، وامضاء الليل هناك، والانطلاق في الصبـاح، وعندما سمع الحـاكم هذا، انفجـر غاضبـاً من كـالينوس، وقـال بأنه كان خـائن الحجـاج وليس دليلهم، لأن المنطقـة كـانـت مليئة بلصـوص من البـداة العرب، وقـال:« لايمكن للحجاج امضـاء الليل في الحقل في ظل خطر النهـب، لذلـك أحضرهــم إلى هنــا، وإذا لم تحـضرهم، أنـا سأفعـل ذلك».

ولذلك عـاد كـالينوس وهـو مغضب جـداً، وأمـر بتحميل الدواب، وعندما أنجز هذا، امتطينا نحن ظهـور حميرنا، وعندما دخلنا إلى المدينة، كان هناك تدافع كبير للناس لرؤيتنا، لأنه لم يكن هناك حجاج لاتين منذ كثير من السنين، وكـان أمراً عجيباً رؤية مسيحيين غـربيين لاتين هناك، وقد أخـذونا إلى النزل العام للمدينة مع جميع دوابنا، وقـد وجدنا مكاناً رحباً لإيواء دوابنا، وغـرفـاً للـرجـال في الأعلى وفي الأسفل، وكـذلك ساحة كبيرة كانت مغلقـة بإحكام بباب، وكان هذا المبنى عظيماً وواسعا مثل دير من الديرة، والنزل الشرقية، لايسكن فيهـا أحد، وهي مخصصة

فقط لاستخدام الغرباء، ومن أجل وصف وترتيب النزل ودور الضيافة في الشرق، انظر ماسلف وقدمناه في القسم الأول.

وعندما وصلنا إلى النزل، أنزلنا الأثقال من على ظهور دوابنا، ووضعناهم في القسم الأسفل من المبنى، في حين اخترنا لأنفسنا غرفاً وقاعات في القسم العلوي، ووضعنا في هذه الغرف فرشنا وأعددنا مكانا لطبخ أطعمتنا، وحصلنا على حطب للنار، ووضعنا جميع أغراضنا، وكأننا على نية الإقامة هناك لأيام عدة، وفيما نحن منشغلون هكذا، جاء كالينوس الرئيس مع بعض مسلمي المدينة، وقالوا بما أنه لايزال هناك شطر كبير من ضوء النهار، سوف يكون مفيداً القيام بزيارة الأماكن المقدسة، في ذلك المساء، حتى نتمكن في الغد من الانطلاق باكراً في الصباح، قبل أن تصبح حرارة الشمس كبيرة، وقد وافقنا على هذا بسرور، لأننا كنا نخاف من الإقامة الطويلة في ذلك المكان.

الحقل الذي صُنع آدم منه والذي اسمه حقل دمشق

وهكذا خرجنا من النزل، وعبرنا من خلال الشارع الطويل للمدينة، الذي فيه يسكن عمال حرفيون من مختلف الصناعات، وبشكل خاص الحرفيون الذين يعملون بالزجاج، والزجاج الذي يصنع في هذا المكان، ليس زجاجاً نقياً، بل أسود، مع ألوان أخرى بين الأسود والأبيض الشفاف، وقد سار خلفنا حشد كبير من الناس، وقد ركضوا وراءنا، لأنه كان منظراً عجيباً رؤية غريبين هناك، وهكذا وصلنا إلى باب المدينة، الذي عبرنا من خلاله، وسرنا على طول الطريق العام، فوصلنا إلى حقل مطوق بسور من الحجارة الجافة، وهناك توقفنا، وشرعنا ننظر من خلال السور إلى داخل الحقل، الذي هو جميل ومتميز، لأن هذا، كان يعرف باسم حقل دمشق، فيه جرت صناعة آدم، أبونا الأول، وعندما سمعنا بأن هذا كان بالفعل الحقل المقدس، تسلقنا السور

ودخلنا إليـــه، حتى يمكننا تقبيـل الأرض، وتلاوة الصلوات المناسبـــة، واخبار أحدنا الآخر عن المعجزات التي عملت هناك.

لكن فجأة حدث بينما كنا نقفز من فـوق السور المصنوع من الحجارة الجافة إلى داخل الحقل، واجهنا مسلم حاد، صرخ بصوت مرتفع علينا، والتقط كثيراً من الحجـارة ورمـــاها نحـونا، وطردنا بـالقـوة من الحقل وبصعوبة، أمكننا تسلق الجدار دون أن نصـاب بأذى، وعند وقوع ذلك رغب كـالينوس مع أدلائنا في اطلاق العنان لغضبهم، وشرعوا بالعـودة إلى البلدة، لكننا لم نكن بأي حال من الأحوال راضين بمغادرة مثل هذا المكان الهام بمثل هذه السرعـــة، بل رغبنا بإطفـاء غضـب ذلك الرجل، حتى نتمكن من امضـاء بعض الوقت بالصـلاة في ذلك المكان، ولذلك دعـونا كـالينوس إلى الرجعـه، وأخبرناه بعمل اتفـاقيـة مع الرجل، بأن ندفع مـايستحقه قانونيـا مقابل دخـولنا إلى حقله، لأنه كان مـالك ذلك الحقل، وقد طالب بأربعة مندوسـات، وعندما جرى تنفيذ هذا الطلب، هدأ الرجل، وتسلق على الســور، ومـدّ يده إلى الحجاج الذين وقفـوا في الخارج، وسحبهم واحـداً تلو الآخـر، وسمح لهم بالدخـول إلى الحقل، واقتادنا إلى المكـان الذي من المعتقد أن الطين أخذ منـه لصنع آدم، وفقاً للحقيقة الكاثـوليكية، فهناك جرى صنع الانســان الأول، ونحن لانولي أدنى اعتبـــار، إلى ترهات شعـــراء الأمم، الـذين يغنون وينشـــدون بأن واحـداً اسمـه فـورونيـوس Phoroneus كـــــان الأب الأول لجميع الأحيـاء، وذلـك كما حـــدثنا يـوسبيـــوس في De Evangel praeparat— الكتـاب العـاشر، ويقـول الأثيـوبيـون بأن البشر الأوائل قـد نشأوا من طهـــارة التربة، ولدى الشكوكيين المصريين أثر بـأن الانســان الأول قد خلق في بلادهـم، أولاً بسبب جودة التربة، وثانيا بسبب النيل، الذي يولد كثيراً من المخلوقات التي ليست مـوجودة في أي مكان آخر، لكننا نرى أن هذا كله لاقيمة له، ونتجه للأخذ بالإيمان الأصح والأكثر

ثبـاتاً، ولقـد انكببنـا بأنفسنا، وبوجـوهنـا على الأرض في هذا المكان المقـدس، بخشـوع كبير وبدمـوع، وقبلنا الأرض، وتفـوهنا بصلواتنا المحددة في هذا المكـان المقدس، بخشوع كبير وبدمـوع، وقبلنا الأرض، وتفـوهنا بصلواتنا المحـددة في مسيرات الأرض المقدسـة، وحصلنا على غفرانات (+)، وبعد هذا انتقلنا نحو التأمل حول هذا المكان.

★★ ★★ ★★

وعند الفـراغ من تأملنا، تفحصنا المكان والأرض بكل دقة، فـالقشرة العليـا للأرض خشنة ولونها بني، إنها عندمـا تحفرها تعطيك طيناً أحمر، وقاسيا، من الممكن صناعة فخـار رائع منه، وقد أخذنا بعض الصلصال وبعض الحصا من هذه الأرض لتكون آثاراً مقـدسة، ويقال بأن كل من يضع حـولـه بعضـاً من هذه الأرض لن يشعـر بالتعب أثناء سيره على طريقه، أو اذا كان راكبـاً على دابة فإنها لن تكبو أبداً، إنما إذا وقع انسان أو دابة فلن يصـابا بـأذى، بل سينهضـان من دون ضرر، وفيما إذا كـان هذا صحيحـا، يمكـن لكل انسـان أن يبرهن على الذي يرضيـه، فأنا لم أشعر بأية آلام، كما أنني لم أتعرض لالتعب ولالسقوط.

موضع الشوك أو الأعشاب الكثيفة حيث قُتل هابيل من قبل أخيه قابيل

وسرنا من هنـاك بعض الشيء في الحقل نفسـه، وذلك وراء الأرض المفلوحة فوصلنا إلى منطقة كثيفة الأعشـاب، وفيها نباتات شوكية، بينها شـاهدنا المكان الذي انبعث فيه قـابيل ضـد أخيـه هابيل وقتله، وذلك حسبما قـرأنا في سفـر التكـوين:٤، وانحنينا هنا بأنفسنا نحـو الأرض المقـدسـة وقبلناها وهـي الأرض التي فتحت فمهـا وتلقت ذلك الدم المقدس من يدي قاتل أخيه[٨].

★★ ★★ ★★

الكهف الذي سكن فيه آدم مع حواء لسنوات طوال وحيث عرف آدم للمرة الأولى زوجته

في الجزء الجنوبي من هذا الحقل هناك رابية، ليست كبيرة الارتفاع، على قمتها يوجد في هذه الأيام مسجد، قائم في المكان الذي يعتقد أن آدم وحواء وأولادهما قدموا فيه أضاحي وصلوات إلى الله، لأن آدم علّم أولاده تقديم الأضاحي لله، وعلمهم عبادته، وفي هذا المكان نفسه، حدث أنه عندما كان قابيل وهابيل يتعبدان، ويقدمان قرابينهما معا، نزلت نار من السماء وأكلت قربان هابيل، لكنها لم تلمس قربان قابيل، لأن تقدمته لم تكن مقبولة لدى الرب مثل تقدمة أخيه، ولذلك أصبح حسوداً لأخيه، وقتله فيما بعد، وفي هذا المكان عمل ابراهيم مدفنه(كذا) وهنا بنى مذبحا، فهذا ماورد الحديث عنه في سفر التكوين:١٣، وذلك في نهاية الاصحاح.

وهنا أيضاً رأى ثلاثة وعبد واحداً، وذلك كما جاء الخبر في سفر التكوين:١٨، وفي جزء آخر من الرابية هناك وادي ممرا، المتصل بوادي حبرون، وقامت عملية الاتصال هذه قرب مدينة حبرون، ففي هذا الوادي كان ابراهيم ساكناً، عندما رأى ثلاثة رجال عند باب خيمته وتلقى الوعود من الرب، التي جرى الحديث عنها في سفر التكوين:١٥و١٧، غير أنه عندما كان يقدم قرباناً كان يصعد الجبل، وكذلك عاش البطريركان يعقوب واسحق هناك، وعدنا أخيراً إلى موضع موت هابيل في حقل دمشق، وخرجنا من هناك من الجانب الغربي، عبر سور من الحجارة الجافة، ووصلنا من هناك إلى جزء آخر من وادي حبرون، على طرف جبل، حيث وجدنا كهفاً صغيراً ومظلماً، ودخلنا إلى هذا الكهف واحداً تلو الآخر، ونظرنا إلى المكان بمتعة عجيبة، فهذا كان هو الكهف الذي عرف فيه آدم حواء بعد طردهما من الجنة.

★★ ★★ ★★

وبعدما رأينا الكهف المتقدم ذكره، خرجنا من هناك، وسرنا مسافة أخرى على طرف الجبل، وسرنا بالوقت نفسه صاعدين، فوصلنا إلى كهف آخر، لم يكن كهفا صغيراً، بل كان كهفاً واسعاً، ففي هذا الكهف بكى آدم وحواء وناحا على ابنهما هابيل لمدة مائة سنة، وهابيل هو الذي قُتل من قبل قابيل، ومن الممكن في هذه الأيام رؤية آثار، حيث جلس كل واحد منهما، ويوجد في هذا الكهف نفسه نبع كانا منه يشربان، ولهذا يعرف هذا الكهف باسم كهف البكاء، وبعدما فرغنا من رؤية هذا الكهف، نزلنا من الجبل إلى واد ضيق، وهو الذي يسمونه وادي الدموع، وهم يقولون بأن آدم وحواء قد سكنا معا في هذا الوادي لمدة تسعمائة وثلاثين سنة، وكان كل واحد منهما يقوم يومياً بممارسة أعمال توبة قاسية، بسبب عدم الطاعة التي أُدينا بها، ولطردهما من الجنة، ولفقدانهما طهارتهما الأصيلة، وللعنة ذريتهما، وبعد ذلك لم يحصلا فقط على رحمة الرب، بل اعتقد أنهما جديران بتلقي هبة النبوة، ولذلك أخبرا أولادهما بكثير من الأمور المقبلة، مما يتعلق بموضوع اتحاد المسيح مع كنيسته، وبخصوص الطوفان الذي سوف يأتي، ونيران يوم الحساب، وقد ماتا هنا، ومن هنا حملا إلى الكهف المزدوج، كما سنوضح فيما بعد، وفي هذا الوادي يقوم قبر لوط[ابن] أخي ابراهيم.

الكهف المزدوج الذي اشتراه ابراهيم ليكون قبراً له ولأسرته

ومن وادي الدموع هذا وصلنا ثانية إلى مدينة حبرون، ووقفنا أمام بيت حاكم المدينة، الذي على مقربة منه جلس عدد كبير من المستشارين من الشيوخ المسلمين، فلقد رغبنا بزيارة ورؤية الكهف المزدوج المجيد، وهو الذي فيه مدفون آدم وحواء، وابراهيم، وساره، واسحق، ورفقه، ويعقوب وليه، أي البطارقة الأربعة الأعظم قداسة مع زوجاتهم المباركات، وذلك حسبما قرأنا في سفر التكوين:٢٣، وكنا نعرف بشكل

جيــد أننا لن نستطيع الوصـــول إلى الكهف المقـــدس، إلاّ إذا وافق المسلمـون على ذلك، وهم لايعطون موافقتهم بسهـولة لهذه الزيارة، إلاّ إذا أمكن نيل رضـاهم بالتـوسـلات والوسـاطات، أو بالهدايا، لأن هذا الكهف موجود داخل مسجد، لايسمحـون لنا بالدخول إليه، وقد بعثنا ترجماننا، الرئيس كـالينـوس، مع بعض الحجـاج من النبـلاء، إلى الحاكم وإلى الســادة المسلمين الذين كـانـوا بحضرته، وسألوهـم السماح لنا بالدخـول إلى الكهف المقـدس، وأعلنوا أننـا بالمقـابل على استعـداد عن طواعيـة القيـام بأي عمل يرضيهم ويـأمـروننا بعمله، وعندمـا تقـدم كالينوسنا بهذ الالتماس، سـألوه هل سمحوا لنا في القدس بـالدخول إلى هيكل الرب، الذي يسمـونه هيكل سليمان، وعندما أجـابهم«لا» قالوا:« ونحن أيضـاً لن نغـامـر بالسماح لهم بالدخـول إلى مسجـدنا، الذي هو برأي المسلمين، ليس أدنى قـداسة مـن مسجد القـدس، لابل أعلى منه، وعلى كل حـال إذا مارغبـوا بإبداء احترامهم نحـو البطارقـة في الكهف المزدوج، نحن نسمح لهم بالوصول حتى درجات سلم المسجد، والتعبد من هناك، إنما لايجوز لهم بأي حال من الأحـوال الصعود عليهم» وبناء عليـه عـاد كـالينوس إلينا، وجلب لنا هذا الجواب السلبي، واقتـادنا إلى درجات سلم المسجد الذي فيه الكهف المزدوج، وتعبدنا باتجاه الكهف، وقبلنا آثار البطارقة المقدسين، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وعندمـا فرغنا من عملنا هـذا، حملنا أنفسنا حتى نتأمل المكان، الذي كـان معروفـاً في أيام ابراهيم بـأن مدينة حبرون كـانت فيـه، لأن المدينة وقتـذاك لم تكن في مكانها الحالي، بل على مقـربـة منه، فقـد كـان المكان الحالي حديقـة، منها جرى اقتطاع صخـرة حمراء حوت الكهف المزدوج، وكـان ابراهيم قــد اشترى هذا المكان مع الصخــرة، ليكون ضريحاً له شخصياً ولأولاده، وإذا رغبت في معرفـة المعني بكهف منفرد، وبكهف مـزدوج وبكهف ثلاثي، يمكنك رؤية ذلك فيما تقـدم في القسم الأول،

ولاسيما لدى وصف ضريح الرب في القدس.

وحدث أنه بعدما جرى دفن البطارقة الأربعة مع زوجاتهم في هذا الكهف، بدأ الناس يترددون على المكان، وشرعوا يبنون لأنفسهم بيوتاً من حوله، بدافع التبجيل للمكان نفسه، ولاحترامهم للبطارقة المقدسين، وهكذا تشكلت مع الأيام مدينة هناك، وهجرت حبرون القديمة، وكان ذلك قبل أيام الملك داوود، وقد حكم داوود لمدة سبع سنوات في حبرون الحديثة، علاوة على ذلك بنى اليهود مصلى فوق صخرة الكهف، وقد دمر المسيحيون فيما بعد مصلى اليهود هذا، وبنوا كنيسة كبيرة فوقه، وقد عينوا فيها أسقفاً وكهنة، وبعد ضياع الأرض المقدسة، عمل المسلمون من الكنيسة مسجداً، وأحاطوه بأسوار عالية وبأبراج، وهو قائم في هذه الأيام في وسط المدينة، مثل قلعة حصينة، وهو بالحقيقة لايبدو شكله شكل كنيسة، بل شكل قلعة أو قصر عظيم، وأخبرنا المسلمون بأن ذلك المسجد مليء بالمصابيح المضاءة، وكذلك هناك مصابيح في الكهف المزدوج، موضوعة داخل آنية ذهبية، وهي معلقة بحبال من حرير، أو بسلاسل من فضة، ويوجد كثير من رجال الدين في هذا المسجد من كل من ا لـ Saquis (الصوفية؟) والـ Al-hages(الفقهاء؟) وبذلك مامن ساعة تمر في النهار أو في الليل من دون قراءة وإنشاد بجانب الكهف المزدوج، ذلك أنهم يتناوبون أحدهم مع الآخر، وعندما كنا واقفين على هذه الصورة على درجات سلم المسجد، تجمع كثير من الناس من شباب وشيوخ للنظر إلينا.

مشفى حبرون، وبركة حبرون، والأماكن الأخرى

وبعدما فرغنا من مشاهدة المسجد، والكهف المزدوج، سرنا نازلين مسافة قصيرة، فوصلنا إلى باب المشفى المخصص للناس الفقراء، وهو موجود تحت المسجد، ودخلنا إليه، فشاهدنا مكاتبه الجميلة، وفي مطبخه وفرنه كانت هناك استعدادات عظيمة معمولة لصالح الحجاج المسلمين،

الذين يزورون بأعداد كبيرة كل يوم الكهف المزدوج، وقبور البطارقة، ولهذا المشفى ميزانيات سنوية تصل إلى مايزيد على أربعة وعشرين ألفاً من الدوقيات، ففي كل يوم يخبز فيه ألف ومائتي رغيف من الخبز، ويعطى هذا الخبز إلى كل طالب، ولاترفض الرعاية والضيافة إلى أي حاج، من أي دولة كان، أو شعب، أو عقيدة، أو طائفة، وكل من يسأل طعاماً يتسلم رغيفاً من الخبز، وبعض الزيت، وبعض الـ Me-nestrum، الذي نسميه معجنات.

وتدفع قلعة النبي صموئيل [الجيب الأعلى] لوحدها ألفي دوقية في السنة إلى هذا المشفى، ويرسل أغنياء المسلمون والأتراك يوميا الصدقات إليه لدعم الحجاج، ولابداء الاحترام نحو البطارقة، كذلك عندما يكون أغنياء الناس على وشك الموت، يوصون بأشياء تذكارية دائمة عن أنفسهم لهذا المكان، ويتركون أعطيات إلى المشفى، وعند حلول ساعة صرف الصدقات، يصدرون صوتاً مخيفاً بالطبل، حيث خفنا منه لدى سماع صوته، وخشينا أن ذلك الصراخ معناه شيء ما ضد أنفسنا، وأثناء توزيعهم لأرغفة الخبز، أرسلوا لنا سلة مليئة إلى نزلنا، مع أننا لم نطلب منهم شيئاً مطلقاً.

وبعدما فرغنا من رؤية المشفى، نزلنا وسرنا على طول الشارع الطويل، إلى أول أبواب المدينة، وتحت هذا الباب يوجد المكان، الذي قتل فيه يوآب— قائد جيش داوود— أبنير قائد جيش شاؤول، ولهذا السبب تولى داوود لعن يوآب(صموئيل الثاني:٣/ ٢٩) وسرنا متجاوزين الباب، ووصلنا إلى البركة، المحاطة بسور جميل، وهي التي تتلقى الماء الذي يجري في وادي ممرا، وسرنا حول هذه البركة، وشاهدناها بعناية، لأن ذكرها قد ورد في الكتابات المقدسة القانونية(صموئيل الثاني:٤/ ١٢)، فعندما قام القاتلان: بعنه وركاب ابنا رمون البئيروتي، بقتل إيشبوشث، ملك إسرائيل، وجلبا رأسه إلى داوود

في حبرون، وفي ظنهما، أنهما كـانا يحملان إليـه بشـائر طيبة، أمـر داوود باعدامهما، وبتعليق أيديهما وأقدامهما فوق البركة، أي فوق بركة حبرون، ويوجـد بين البركـة وسـور المدينة ضريـح أبنير، الذي احتفل داوود بجنازته بشكل مهيب، حسبما قرأنا في سفـر صموئيل الثاني:٣، وفي هذا الضريح جـرى دفن رأس إيشبـوشث بن شـاؤول، ملك اسرائيل، كما وصلنا الخبر في سفر صموئيل الثاني:٣.

وبعد مـاشاهدنا هذه الأمـاكن، عاودنا الدخـول إلى المدينة، وتوجهنا إلى نزلنا، وقـد شرينا بعض الحطب للنـار، وأوقـدنا ناراً، وطبخنا بعض المعجنات والبيض وأكلناهـم، وبعـد العشـاء جـاء المشرف العـام على النزل، وأطفأ نـارنا، وطلب منا بالاشـارة أن نكون هادئين وصـامتين خلال الليل، وذلك خشيـة أن يسمع بنا اللصوص مـن البداة العـرب، لأن النزل قـائم إلى جـانب سـور المدينة، وفي بعض الأحيـان، عندمـا يعرفون بوجـود ضيوف هناك فيه، يتسلق اللصوص فـوق السور إليهم، وأضاء مصباحـاً معلقاً إلى جانبه، وجلس أرضاً ليتـولى السهر والحراسة إلى جـانب البـاب، وكنا نحـو هذا كله ممتنين كثيراً، واندهشنا من لطف المسلمين نحـونا، ومع ذلك خشينـا أننا قبل أن نغـادر المدينة سـوف يجعلوننا ندفع مبلغاً كبيراً، مقـابل اللطف الذي أبدوه نحونا، وهكذا بما أن الدنيـا كـانت قـد أظلمت تمددنا للنوم، كل واحـد في قـلايتـه مثل الرهبان.

وصف مدينة حبرون وكيف أنها كانت مسكونة منذ أقدم العصور

حبرون أو Erius مدينة قديمة جداً، وقد تأسست مباشرة بعد الفيضان، وسبع سنـوات قبل مدينة تنيس(صـوعن) (العدد:١٣/ ٢٢)، وكـانت مدينة تنيس هذه قـد تأسست من قبل تيتـانس Titans—وهم

عمالقة— نزلوا من حبرون إلى مصر، وكانوا أبناء تيتان، وكان تيتان هذا هو ابن كولوم Coelumوفستا Vesta، أخو ساتورن، وقد قاتل أولاده ضد جوبيتر، وحاولوا طرد الآلهة من السماء، لكنهم ضربوا بصاعقة، وذلك حسبما قرأنا في سفر التكوين(؟)، وسببوا الاضطراب في جميع أنحاء العالم تقريباً، وذلك حسبما ورد في أغاني الشعراء، وعلى هذا كانت تنيس مدينة قديمة للعمالقة في مصر، وقد بنيت من قبل عمالقة قدموا من حبرون، ولحبرون أربعة أسماء: أولها جميعا؛ أنها دعيت أربعة (التكوين:١٣) اشتقاقاً من اسم الأربعة المؤسسين الأوائل لها، وثانيا عرفت باسم « قرية أربعه»[يشوع:١٤/ ١٥]، وهو الاسم نفسه« مدينة أربعة» أو« مدينة الأربعة»، لأن معنى كلمة« قرية» هو« مدينة» و Arba هو « أربعة»، وكان اسم حبرون معروفاً في العصور القديمة من قبل جميع الناس سواء من المؤمنين أو غير المؤمنين، وعرفت باسم« قرية أربعة» أي« مدينة الأربعة» لأسباب مختلفة، فقد كان الكفار سموها هكذا، بسبب العماليق الأربعة الذين دفنوا هناك وهم: عناق، وأخيمان، وشيشاي، وتلماي(العدد:١٣)، لكن المؤمنون دعوها بهذا الإسم بسبب البطارقة الأربعة: آدم، وابراهيم، واسحق، ويعقوب، الذين دفنوا هناك مع زوجاتهم الأربع، وثالثاً عرفت باسم حبرون، نسبة إلى ابن كالب، ورابعاً: إنها تعرف باسم أربعة [اقرأ الخليل] في هذه الأيام من قبل المسلمين، بسبب ابراهيم الذي دفن هناك، وسماها أيضاً مصنف Speculum Historiale «الابراهيمية» وكذلك«سرّه»، كما أنها غالبا ماعرفت باسم Ericus.

وذكر هذه المدينة جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»، حيث قال بأنها كانت فيها مضى المدينة الرئيسية لدى الفلسطينيين، ومكان اقامة للعمالقة، وملوك سبط يهوذا، ومدينة كهنة، ومدينة إلتجاء، وهي تبعد عن القدس حوالي أربعة وعشرين ميلاً، باتجاه الجنوب، هذا

بالنسبة للقديس جيروم، وكانت هذه المدينة— أي المدينة التحتا— قد استولى عليها يشوع، الذي شنق ملكها هوهام(يشوع:١٠)، لكن الجزء الأعلى من المدينة جرى الاستيلاء عليه فيما بعد من قبل كالب، الذي قتل أشجع عماليقها، كما قرأنا في يشوع: ١٢، وفي القضاة:١/ ١٠.

وكان بسبب كالب أن استمر تذمر الناس، في القفار، ضد الرب، ولأنه اتبع الرب، وقدم برهانا على جودة الأرض المقدسة، انه بسبب ذلك قدم الآخرون تقريراً شريراً، بأن الرب قد وعده بجبل حبرون كحصة رئيسية في جميع البلاد(العدد:١٣—١٤، يشوع:١٤)، فضلاً عن هذا، قال نيقولادي ليرا بأنه عندما جرى ارسال الجواسيس من قبل موسى، ووصلوا إلى البلاد، كالب وحده صعد الى حبرون، الى الكهف المزدوج، وأدى بعض الصلوت أمام البطارقة المقدسين، وبذلك بات جديراً، لأن يكون متملكاً لهذا المكان المقدس.

وموقع هذه المدينة قائم جزئياً على سفح رابية، وجزئياً في وادي، وهي ليست كبيرة جداً، لكنها مكتظة بالسكان وحصينة، وقد عملت مدينة بعد الطوفان مباشرة، مع أنه قبل الفيضان كان هناك سكان من البشر، انما من دون مدينة، فقد سكن هناك أبناء آدم، ومن هناك توزعوا وتفرقوا في جميع أرجاء الدنيا، وعلى ذلك ارتحل قابيل، بعد قتله لأخيه، إلى الهند، مع زوجاته وأولاده، فراراً من وجه الرب.

علاوة على ذلك، ينبغي أن نعرف بأن هذه المدينة قد ورد الحديث عنها، والاشارة اليها بأسماء أخرى اضافية للأسماء التي تقدم ذكرها، فهي في بعض الأحيان عرفت باسم Arba أي أربعة، بسبب العماليق الأربعة الذين دفنوا فيها، وجاء اسمها مصحفا Arbeth ، كما قال جيروم في رسالته إلى بماخوس De optimo genere Interpertandi ، وورد ذكرها أحيانا باسم« قرية أربعة» أي« مدينة أربعة»، وذلك بسبب البطارقة الأربعة الذين دفنوا هناك، كما عرفت

أحيـانا باسم«ممـرا» بسبب« وادي ممرا» المتصل بالمدينة، وبسبب بلوطة ابراهيم في ممرا، التي كـانت مـوجودة ومـرئيـة حتى أيام طفولة المبـارك جيروم، وذلك كما أخبرنا جيروم نفسـه في كتـابه« حول المسـافـات بين الأماكن»، وإلى أيام الامبراطور قسطنطين كان يشـاهد هناك شجرة بطم معمّـرة جداً، حيث أن حجمهـا يبرهن على سنينهـا الطويلة، وهي التي سكن ابراهيم تحتهـا، وتحتهـا احتفى بكرم بـالملائكة، وآبدتها من الممكن رؤيتهـا في هذه الأيام، وقـال القـديس جيروم:« ان المكان الذي تقـوم الشجـرة فيـه متعبـد بشكل مـدهش وهائل من قبل جميع الأسبـاط من حوله، وينظر إليه— كما هو بالفعل— بأنه قد تقدس باسم مجيد.

وبالمناسبـة ، ان اسم ممرا، كـان الاسم الاصيل للمكان، وقـد اطلقـه عليه آدم، لأن معنى كلمـة ممرا بالعبرية«وضوح»، فلقـد ذكرنا من قبل، أنه في هذا المكان تلقى آدم المعـرفـة بكل الأشيـاء ورأى الأشيـاء كلهـا بوضـوح، وعرف هذا المكان أحيـانا باسم Chebronالذي يعني«عبر»، بسبب أنه من هذا المكـان عبر آدم إلى الجنة، وفي بعض الأحيـان عـرف أحيانا باسـم«عبرون» الذي معناه«معبر»أو« تراجع» لأنهما تراجعا إلى هنا وعادا بعد الذنب الأول، كما أنه عرف أحيانا باسم حبرون، أي«الوادي الفقير»، بسبب المآسي التي تحملهـا آدم في هذا المكان، وخسارته للحيـاة الأبدية.

وفي اليـوم الثـامن والعشرين، الذي كـان يوم عيـد أبانا المبـارك أوغسطين، نهضت مستيقظاً بعـد منتصف الليـل، وذلك حسب عـادتي، أي قبل البقيـة لأداء صلواتي، ونزلت نحـو الباب لاشعـال شمعتي من المصبـاح المعلق هناك، غير أن المسلـم الحارس عند البـاب، أوقفني، وطردني من قـرب المصبـاح مع صرخـات عـاليـة، ومـن جهتي أنا، لقـداقتربت من المصبـاح لأشعل الشمعـة، كما كنت غـالبـاً أفعل، لكنه أطفأها، وصدر عنا معاً كثيراً من الصراخ، جعل الترجمان يستيقظ ويأتي

إلينا، وقـد تولى لومي بالايطاليـة لأنني لم أحـافظ على الهدوء والسكينة، وسألني مـالـذي أريده بالشمعـة في مثل هذا الوقـت المبكر، فقلت له:« انني أرغب في حمد الرب، وأنوي قراءة شكره من كتاب»، وعندما سمع المسلم بهذا، طلب من الحارس اشعــال شمعتي، وقـد فعل ذلك، هذا وأنا متأكـد من أنني لو سألتـه اشعالها لمقصـد آخـر، مهما كان نوعـه، لما كنت قادراً على الحصول على ذلك بأي شكل من الأشكال.

وهكذا بعـدمـا حصلت على الاضـاءة لشمعتي، صعـدت إلى مكاني، وقرأت صلواتي، وماكدت أفرغ من صلواتي لما بعد منتصف الليل، حتى جـاء الترجمان كالينوس، وصعـد وتولى ايقـاظ الحجاج الآخـرين، حتى يقـوموا بالاستعـداد للمغادرة وبناء عليـه حزمنا حقـائبنا، وحملنا جمالنا، وأسرجنا على حميرنا، ومضينا خــارجين من المدينة مـع ضـوء الفجـر، ونزلنا إلى حقل هو الذي كـان اسحق يسير فيه وهو مستغـرق بالتفكير، فـوصـل وقتهـا دمشق، خـادم ابـراهيم، وجلب له زوجتـه رفقـه الشابة(التكوين:٢٤).

وأثناء متابعة سيرنا، وصلنا إلى قرب دبير، وهي«مدينة أحرف كتابة»، وهي على كل حال لم نستطع رؤيتهـا، لوجود جبل بيننا وبينهـا، وحول هذا الجبل انظر يشوع:١٥، والقضاة:١.

وعرفت باسم«مدينة أحرف كتـابة»، لأن فيها جرى اختراع الكنعانية للمرة الأولى، أو لأن العماليق القدماء كان لديهم نوعاً من أنواع مدارس الكتابة هناك، أو لأن سكانها كانوا كتّـاباً كما قال صاحب Speculum Historiale ، أو كما يقـول العبرانيون— عندمـا استولى عثنئيل عليهـا، اثناء البكاء على موسى، قـام هناك بإعادة كتابة بعض الاصحـاحات من كتاب الشريعة، التي كـانت قد غدت باهتة وممسـوحة، وعن هذه المدينة قال جيروم في كتـابه« حـول المسافات بين الأمـاكن»: دبير مـوجودة في ديار سبط يهوذا، وتعرف بـاسم«مدينة أحرف كتـابة»، وكان قـد استولى

عليها عثنيل، أخـو كالب، وهو الذي قتل العماليق الذين سكنوا هناك، وتلقى عكسة ابنة كالب، لتكون زوجة لـه وذلك بمثابة جائزة له، ومن الممكن حتى الآن أن نرى هنـاك أرض الينابيع العليـا والينابيع السفلى، التي أعطاها كـالب إلى ابنتـه عكسـة، عندمـا اشتكـت اليـه بأنه أعطاها أرضاً جافة وعطشى، كما قرأنا في سفر القضاة:١.

وتابعنا سيرنا، فتجـاوزنا«قـرية سفـر» أودبير، ومضينا على طريقنا في وادي حبرون، الذي من الممكـن أن يكون وادياً خصبـاً لو أنه جـرت زراعتـه، والذي هو محتفظ حتـى الآن على جـانبيـه بجـدران الأحجـار الجافـة للبسـاتين القديمـة، وقـد رأينا بين الأعشـاب بعض المخلوقـات البرية القـابلة للأكل، والحجل والدراج، وبعـدما قطعنـا مسافـة طويلة، وصلنا إلى مكان فيه وادي آخـر يقود من الشمال إلى الغـرب، وهذا كان وادي اشكول نيل، أي وادي عنقـود العنب، وكـان وادياً خصبـاً جـداً، منه أرسل مـوسى جواسيسـاً لاستطلاع البـلاد، وقد حملوا في عـودتهم عنقـوداً كبيراً من العنب، قـام بحمله رجـلان على عصـا، ومن الوادي جمعوا بعض الرمـان وفواكه أخرى، وأخـذوهم إلى بني اسرائيل في قفار ماوراء الأردن، وذلك كما قرأنا في سفر العدد ١٣.

وغــادرنا هـذا الوداي، وتابعنا سيرنـا في وادي حبرون، عبر الطريق الذي عبر عليـه يوسف عندما أرسـل من قبل أبيه، يعقـوب من وادي حبرون، ليطلب أخـوته في شكيم(التكوين:٣٧)وعلى هذا الطريق نفسـه نزل أخوه يوسف إلى مصر لشراء قمح(التكوين:٤٢)، ومن المفترض أن عيسو اصطاد في الشعراء في هذا الوادي، لكثـرة الحيوانات البرية هناك، وكان ذلك عندمـا بعث به أبوه اسحق حتى يجلب إلى البيت بعض لحم الطرائــد، ويصنع منهـم لحومـاً محفـوظـة،وبذلك ينال مبـاركــة أبيه(التكوين:٢٧). وسرنا لسـاعات كثيرة على طول الجانب الأيمن من الوادي، الذي كـان عميقـاً وضيقـاً، ووعـراً في قعـره، وكثير الحجـارة،

ومليئا بالأشجار البرية، وكان رطباً وفيه مياه، وهو أمر غير طبيعي في تلك البلاد.

وفي منتصف النهار خرجنا من المنطقة التلية، إلى السهول، واستدرنا هنا بأنفسنا باتجاه الجنوب، عند سفوح بعض الهضاب، ووصلنا إلى حقول خصبة جداً، وهي مليئة بأشجار الزيتون وأشجار التين، وقد رجونا الترجمان منحنا بعض الوقت حتى نجلس ونتناول وجبة تحت ظل هذه الأشجار، لكنه رفض، قائلاً بأن الجمال المحملة لايجوز إفراغ حمولتها لأجل هذا الغرض، كما لايمكنها الوقوف وأحمالها على ظهورها، كما لايمكنها الذهاب من دوننا، ولقد كان هذا صحيحاً، ولذلك مضينا متابعين السير على طريقنا، وأثناء ركوبنا لظهور حميرنا أكلنا وشربنا، مما وضعنا أيدينا عليه، وكل الذين يسافرون مع جمال محملة لابد أن يفعلوا هذا، لأن الجمال لايمكنها الوقوف تحت أحمالها، الأمر الذي سوف نشرحه بشكل أفضل، لدى حديثنا عن عبورنا للصحراء.

ومع وقت العشاء شرعنا نغادر بشكل تدريجي المنطقة التلية، ووصلنا إلى سهول فلسطينية واسعة جداً مقابل أشدود، وتمتد هذه السهول بشكل اعتراضي من المنطقة التلية حتى البحر المتوسط، وهي مسافة ثلاثة أميال ألمانية، كما أنها بعيدة عن يافا وجبل عفريم نزولاً حتى منطقة جيرار Gerar في بئر السبع، ويوجد في هذا السهل كثيراً من المدن، إنما بشكل خاص خمسة منها، التي هي مدن ملكية ورئيسية لدى الفلسطينيين وهي: جت، وعقرون، وأشدود، وعسقلان ،وغزة، وكان قد سكن في هذه المدن خمسة من أقطاب الفلسطينيين(صموئيل الأول:٦/ ١٨)، وهذه المدن كلها قائمة على شاطىء البحر، وليست بعيدة عن البحر.

وكانت جت مدينة قديمة وحصينة من مدن العماليق، لم يستطع

يشوع ذلك المقاتل العظيم الاستيلاء عليها كما هو وارد في سفر يشوع:١١، وكان جالوت الذي قتله داوود من جت(صموئيل الأول:١٧) وفي صموئيل الثاني:٢١ هناك خبر عن رجل من جت، كان قوي البنية، كان له أربع وعشرون اصبعاً وأظافر، وهناك أشياء أخرى كثيرة عن جت وردت أخبارها في الكتابات المقدسة.

وذكرت أساطير القديس كريستوفر بأنه كان من جت، وفي هذه الأيام يقال بأن الرجال الذين يلدون هناك أقوى ومقاتلين أفضل من الآخرين، وهي مدمرة منذ زمن طويل، وباقية الآن بمثابة قرية صغيرة، واسمها في هذه الأيام جبرين، وهي قائمة ليس بعيداً عن يافا، وعن الطريق إلى ذلك الميناء، وإذا ماسار الانسان نازلاً على طول ساحل البحر الكبير، من جت، مسافة ميلين ألمانيين، يصل إلى مدينة أخرى من مدن الفلسطينيين، اسمها عقرون وقد كانت فيها مضى مدينة عظيمة من مدن الفلسطينيين، وقد كان فيها هيكل كبير لبعل أو بعل زبوب، وقد عرف باسم رب عقرون، ولهذا فإن احزيا ملك اسرائيل، عندما سقط من كوة عليته، أرسل يسأل بعل زبوب وقد عرف باسم رب عقرون[الملوك الثاني:١]، ولام أيضاً اليهود الرب يسوع بأنه عمل اتفاقا مع هذا الشيطان نفسه، وقالوا:« ببعلز بوب رئيس الشياطين يُخرج الشياطين»[لوقا:١١/ ١٥]، وقد أعطيت هذه المدينة إلى سبط يهوذا، لكن أفراد السبط لم يتمكنوا قط من السيطرة عليها، لأنهم لم يستطيعوا غلبة العماليق الذين سكنوا فيها.

وإذا ماتابع الانسان نازلا على طول ساحل البحر، فانه يصل إلى أشدود،التي كانت المدينة الثالثة للفلسطينيين، وكان يشوع قد عينها لسبط يهوذا، لكن رجال هذا السبط لم يتمكنوا قط من الاستيلاء عليها، لأنهم لم يستطيعوا طرد سكانها الأصليين منها، وكان في هذه المدينة هيكلاً كبيراً لداجون، إليه جلب الفلسطينيون تابوه رب اسرائيل عندما

استولوا عليه، ولذلك سقط صنم داجون، وأصيب الناس بطاعون عظيم(صموئيل الأول:٥).

ويتابع الانسان سيره فيصل إلى المدينة الرابعة للفلسطينيين، التي هي عسقلان، والتي عنها قال جيروم في كتابه« حول المسافات بين الأماكن»:« عسقلان مدينة جليلة للفلسطينيين، وهي كانت في القديم واحدة من المدن الرئيسية لدى الفلسطينيين، وعينت حصة لسبط يهوذا، لكن رجال هذا السبط لم يستطيعوا السيطرة عليها، لأنهم عجزوا عن غلبة سكانها»، وكانت هذه المدينة حصينة جداً في العصور الحديثة، لأن صلاح الدين، سوط العذاب المسلط على الصليبيين، والمحارب العظيم جداً، قدم إلى عسقلان لحصارها مع جيش عظيم، لكنه لم يستطع فعل شيء ضدها، مع أنه كان قد هزم الصليبيين في كل مكان، وطردهم من الأماكن التي كانت بأيديهم، وأسرغي ملك القدس، مع مقدم الداوية، وجميع النبلاء، ولذلك رفع الحصار عنها، وذهب إلى مدينة القدس المقدسة، واستولى عليها، كما كنا قد تحدثنا من قبل، وبعدما استولى على القدس، عاد ثانية، وحاصر عسقلان ومع ذلك لم يستطع الاستيلاء عليها، إلاّ على شرط إخلاء سبيل ملك القدس، ومقدم الداوية وجميع النبلاء، وكانوا على هذه الشروط مستعدين لتسليم المدينة، ووعد صلاح الدين بالقبول بهذه الشروط، ونفذ وعده، وحصل على عسقلان.

ولدى متابعة الانسان سيره نازلاً على طول شاطىء البحر، يصل إلى المدينة الخامسة للفلسطينيين، التي اسمها غزة أو غزرة، ولقد كنا نحو هذه المدينة مسرعين عبر هذا الطريق، مخلفين المدن الأربع المتقدم ذكرها على يميننا، وغزة هي المدينة التي سوف أتولى وصفها فيما يلي، ويوجد تحت سلطة هذه الحواضر الخمسة في بلاد الفلسطينيين هذه، مدن كثيرة، وهكذا تابعنا سفرنا عبر المنطقة السهلية لفلسطين، ونحن متجهون نحو الجنوب، وجبال اليهودية على يسارنا، والبحر المتوسط على طرفنا

اليمين، وتابعنا السفر طوال اليوم في حرارة الشمس حتى غيابها، وعند الغياب وصلنا إلى قرية اسمها زُخاريا، وقد دخلنا إلى نزل قام خارج القرية، وقمنا هنا بانزال الأثقال عن ظهور دوابنا وعملنا مايلزم من اعدادات لإمضاء الليل هناك فيه، وكان نزلاً واسعاً، يشبه قلعة،فيه اسطبلات كثيرة، وقاعات، وهو مسور من جميع الجهات، ولم نجد أي انسان فيه، وبعدما وضعنا دوابنا في الاسطبلات، ورتبنا اغراضنا، شرعنا بالإعداد لعشائنا، ولكي نجمع حطباً للنار سعينا نبحث في الحقول واقتلعنا عصياً من أسيجة الحقول والبساتين، ولذلك قام أهل المنطقة من المسلمين بالركض نحونا ورمونا بالحجارة، وطاردونا حتى النزل، هذا وقدم إلى هناك بعض من أهل المنطقة، وجلبوا معهم دجاجاً وطيوراً، وخبزاً وماء، وقد اشترينا ذلك، وذبحنا الطيور، وتوفر لدينا عشاءً جيداً وبهيجاً، وبعد العشاء أغلقنا أبواب النزل بدحرجة حجارة كبيرة إلى هناك، ووضعنا حارساً على السور، خشية من حدوث طارىء في الليل، ذلك أننا خفنا من وصول فئة أخرى إلى هناك، تكون أقوى منا، وتقوم بإخراجنا من الخان، لأن العادة في تلك البلاد: تقوم الفئة الأقوى بطرد الفئة الأضعف من الخان، ولذلك أعددنا أنفسنا للدفاع، وحملنا كثيراً من الحجارة إلى السور لنقاوم كل من يحاول التدخل بشؤوننا.

وكان هناك مسجد جميل ملاصق لخاننا، وكان بامكاننا رؤية مافيه من خلال الفتحات في السقف، وفي الحقيقة قام واحد من الحجاج أثناء الليل بتلويثه من خلال إحدى هذه الفتحات، فعرضنا بذلك إلى خطر عظيم، غير أننا غادرنا قبل أن يأتي أي انسان الى المسجد، وإلى جواره كان هناك بركة عميقة جداً، نضحنا منها بعد صعوبات جمة ماءً جيداً، والبرك ثمينة جداً في هذه المناطق، والماء قليل جداً، وعلى هذا قرأنا بأن البطاركة: ابراهيم، واسحق، ويعقوب، حفروا كثيراً من الآبار، وقد

نشبت نزاعـــات بين الملوك حـــول الآبار(التكويـن:٢٦)، وعند حلول ا لظلام مددنا أنفسنا، وأخذنا بالنوم فـوق ذروة السور المحيط، تحت قبة الـ سماء، لأن الغرف كانت قذرة.

صقلغ بلدة داوود وأماكن أخرى

واستيقظنا عند الفجـر في اليـوم التـاسع والعشريـن، وحمّلنا جمالنا، وأسرجنا على حميرنا، وانطلقنا عبر منطقة مستـوية وجرداء، حيث رأينا كثيراً من القرى مع خرائب مدن قديمة، وعند الظهيرة وصلنا إلى منطقة متـلأت بالجبـال وبالروابي الصغيرة، بينهـا انتصب جبل كـان عـالياً، مرتفعـاً أكثر من البقيـة، وهو جبل مناسب جـداً لإقامة قلعـة وحصن به، وعلى هذا قـال تبلاؤنا: لو أن هناك رجال حـرب في هذه المنطقة، انوا ليتركوا هذا الجبل من دون إقـامة قلعة، وعندما وصلنا إلى سفح الجبل، ونظرنا إليـه نحو الأعلى، بدا لنا وجـود أحجار على السفح أحجـار أسـوار مخربة، وبناء عليـه قمـت أنا وبعض من الآخـرين حميرنا بالأسفـل، وبادرنا مسرعين فتسلقنا حتى قمـــة هذا الجبل، جدنا بقايـا وخرائب أسوار قوية، ليست أسوار قلعـة، بل مدينة ذلك أنه بالحقيقـة قـامت مـدينة صقلغ فيما مضى هناك، وهي لسطينيين أعطاها أخيش ملك جت إلى داوود، عندما كان فاراً ساؤول(صموئيل الأول:٢٧)، هذا وهناك المزيـد من الأخبار في(صمـــوئيل الأول:٣٠) ولدى جيروم في كتـابه«حـــول بين الأمـــاكـن» حيث قـــال عن هذا المكـان بأن صقلغ في إلى الجنوب من حصـة يهوذا وشمعون، التي هي مـوجودة

فـــوق ذلك الجبل، ونظـرنا بالطول وبـالعـرض، عبر لبحـر الكبير، وباتجاه جبال حبرون، وأيضـاً باتجاه جبل لك باتجاه الصحـــراء المصرية، والجهـــات الأربع من

السموات، ولدى فراغنا من رؤية هذه المشاهد، غادرنا صقلغ، وتوجهنا نازلين نؤم غزة، وقد رأينا عن بعد كبير، جماعة من الجمال والحمير قادمة نحونا، وقد ارتعبنا كثيراً ظانين بأنهم بداة عرب أو مدينيين، ولذلك أحضر أدلاؤنا قسيهم، وأعدّ الحجاج النبلاء سيوفهم، لكن عندما واجهونا تجاوزونا مسرعين وبسلام كامل، ولم يحركوا اصبعاً ضدنا، فلقد كانوا مصريين راغبين بالذهاب إلى القدس للصلاة بالأقصى حسب عادة المسلمين.

وحوالي المساء اقتربنا من غزة أو غزرة، لكن لم نفكر بدخول المدينة بشكل مكشوف، خشية أن نتعرض للمضايقات وقيام أطفال المسلمين برمي الحجارة علينا، وتكسير جرار خمرتنا، ولذلك سرنا بشكل جانبي بعيداً عن الشارع العام، في حقل مليء بأشجار التين، وتحت الأشجار هذه أنزلنا أثقالنا من على ظهور دوابنا عازمين على البقاء هناك حتى انتهاء النهار، وجلسنا في هذا الحقل وأكلنا وشربنا الأشياء الحاضرة لدينا، ذلك أننا لم نتجرأ على اشعال نار لطبخ أي شيء ساخن، فلقد أكلنا خبزاً وجبنا، وقطفنا تينا من الأشجار، حيث كانت هناك كميات وافرة، ولقد أكلت من ذلك التين كثيراً جداً، ولم أهتم مطلقاً بالذي كنت أفعله، لأنني بعدما أكلت التين، تورمت شفتاي بشكل مفاجيء، وصار حول فمي حبوب مقيتة مثل المصاب بالجذام، ولذلك لم يعد بامكاني فتح فمي لتناول ماالحتاجه من الطعام والشراب وبقيت هكذا لأيام عديدة أعاني من ذلك كثيراً، وأخبرني بعض الناس المتعلمين، أنني من خلال أكلي كثيراً من التين، أدخلت إلى جوفي مواد وعصارة الحمى، وهذه ظهرت على شفتي، ولولا أنها فعلت ذلك، لعانيت من هجوم حمى حادة، والذي أعتقده أنني أكلت تينة مسممة من قبل إحدى الهوام أوالزواحف.

وعندما غابت الشمس أعدنا تحميل جمالنا وحميرنا، وانطلقنا نريد

غزة، ودخلنا المدينة والظلام قد انتشر، وسرنا عبر طريق طويل إلى خان الحجاج، وعندما وصلنا إليه، لم نستطع أن نتحرك بسبب ضيق المكان، وكان من غير الممكن لهذا المكان استيعابنا شخصيا من دون اثقالنا، ولذلك خرجنا منه مغضبين، وأخبرنا الترجمان أننا لايمكننا الإقامة في هذا المكان ولانريد ذلك بأي حال من الأحوال، وأنه إذا لم يوفر لنا مكانا أوسع للاقامة فيه، سوف نرفع شكوى ضده في بلاط حاكم غزة، لخرقه العهد ولعدم وفائه بما التزم به في البند الخامس من الاتفاق المعقود بيننا وبينه، والذين كنا قد ذكرناه من قبل.

وعندما سمع هذا، تناقش معنا لبعض الوقت، ثم طلب منا انتظاره، وركب يبحث في المدينة هنا وهناك عن مكان لنا، وهكذا وقفنا لوقت طويل على هذه الحالة في الظلام، ونحن محشورين في طريق ضيق بين الحمير والجمال، وقد فقدنا صبرنا وكنا متخوفين من حدوث هجوم مفاجيء ضدنا، وجاء الترجمان أخيراً، واقتادنا عبر طريق طويل من ذلك البيت إلى مكان آخر، حيث لم يكن هناك في الحقيقة بيت، بل ساحة محاطة بجدار، ومن الممكن اغلاق الساحة بباب، لكنها كانت بلاسقف لننام تحته، وكان هناك على الطرف الأول غرفتان قذرتان جداً، ومليئتان بالغائط البشري، أما الساحة فكانت مبلطة ببلاط طيني، كان معداً من أجل شوي القرميد، وأشعلنا شموعنا هنا، وأنخنا جمالنا في الطريق، وأنزلنا الأثقال عن ظهورهم وعن ظهو الحمير، وأعطينا الدواب إلى أصحابها، وجلبنا في الوقت نفسه جميع أغراضنا إلى الساحة، وأخرجنا منها جميع سائقي الجمال مع سائقي الحمير، وأبقينا معنا الفحل فقط، أي كالينوس الأصغر، وأغلقنا الآن الباب بالمزاليج والأحجار، خشية التعرض لهجوم من قبل المسلمين، وبعدما قمنا بهذا، أوقدنا النار، وطبخنا بعض الفطائر حتى نتمكن من أكل أي شيء، أو بالحري أن نتملك طعاماً ساخنا مطهيا لأجوافنا، لأننا لم نتذوق شيئاً ساخنا طوال

ذلك اليوم، وفرغنا من تناول طعامنا بسرعة، ومددنا أنفسنا كي نرتاح داخل معلف طويل، بني من الحجارة والملاط على طول جدار الساحة، لكن الذين لم يجدوا متسعاً في المعلف، تمددوا في مكان آخر من الساحة، وهكذا نمنا تلك الليلة في الهواء الطلق، متعرضين لندى السماء.

كيف حصلنا على إذن من الحاكم للإقامة بغزة

واستيقظنا في اليوم الثلاثين عند شروق الشمس، وقبل أن نفتح باب الساحة، نقلنا أغراضنا كلها إلى قاعة صغيرة بائسة، وقسمنا الساحة إلى ثلاثة أقسام، كل قسم إلى إحدى جماعاتنا الثلاث، وهي الجماعات التي تحدثت عن توزعها من قبل، وعلى هذا امتلكت كل فئة مكانها الخاص، وعملنا ستائر من ملابسنا وأقمشتنا لندفع عنا حرارة الشمس والندى في الليل، وذلك إلى أن أعطانا الترجمان الخيم التي كنا سوف نستخدمها أثناء عبور الصحراء، وقد نصبناها في الساحة وعشنا فيها، علاوة على ذلك اشترينا من المدينة الأشياء الأخرى التي كنا بحاجة إليها من أجل الأيام التي كنا سنقيمها هناك، لأننا عرفنا أنه متوجب علينا الاقامة هناك عدة أيام.

وبعدما أكلنا ذهبنا مع الترجمان إلى حاكم المدينة ورجوناه السماح لنا بالاقامة في غزة لبضعة أيام، ولأن نسير حول المدينة وفي داخلها لشراء ماسنحتاجه من أجل رحلتنا في القفار، ولكي نشاهد المدينة، ولندخل حماماتها الساخنة، وقد سمح لنا بالقيام بهذه الأشياء وبعملها، وتعامل بلطف زائد معنا، مع أنه لم يكن مسيحيا، وبعدما أنجزنا هذه الأعمال عدنا إلى ساحتنا مع الترجمان، ورجوناه أن لايدعنا نقيم طويلاً في تلك المدينة، وقد وعد أنه لن يدعنا نقيم وقتاً طويلاً.

خساسة الروم الأرثوذكس

وفي اليوم الحادي والثلاثين، الذي كان اليوم الأخير من شهر آب،

والذي كان أيضاً الأحـد الرابع عشر بعد التثليث، استيقظنا عند شروق الشمس، وأدينا صلواتنا المتأخـرة، وفكرنا في أي مكان يمكننا أن نسمع فيه قداس يوم الأحد، لأنه لم يكن هناك كنيسة لاتينية في تلك المدينة بل الذي توفر فقـط كنيسة للروم الأرثوذكس، قامت على مقـربة منا، وبناء عليه أخـذنا كأس قرباننا، وكتبنـا، وملابسنا الكهنوتيـة، وأغطية المذبح، وهذه الأشيـاء كنا قد جلبناها معنـا من القدس، وحملنا هذه الأغـراض جميعـاً معنا، وذهبنا إلى كنيسـة الـروم الأرثوذكس، عـازمين على إقـامـة قداس هناك، وبعثنا خلـف كهنة الكنيسة، ورجوناهم بتـواضع بالسماح لنا بالدخـول، وتعيين مذبح لنا، عليـه يمكن أن نقيم قداسـاً دينيا، لكن الروم الأرثوذكس الذيـن أثيرت الآن كـراهيتهم المتجـذرة، التي حملوها دومـا نحـو أبنـاء الكنيسـة اللاتينيـة، رفضـوا السماح لنـا بالدخـول إلى كنيستهم، ولم يهتمـوا بطلبنا أكثر مما لو أنه مقـدم من يهود، وأعلنوا أنهم لايرغبون بتدنيس كنيستهم، وتلويثها بقداساتنا.

وتحمل الحجــاج جميعــاً هذه الإهانات القــذرة بصبر رجل واحــد وبدهشة، ولـذلك عدنا ثانيـة إلى ساحتنا مع شيء من الإرباك، وبعـدما قلّبنا القضية وتفحصناها، عزونا هذا الصد الذي تلقيناه من الاغريق إلى فضل رباني، لم يأذن لنا بإقـامة قـداس في كنيسة منشقة وهـرطقية، حتى لانبدو أمـامهم وكأننا نشارك في القداس بشكل مضـاد لشرائع الكنيسة الكاثوليكيـة، حسبما هي موجـودة في الفتاوى البـابوية:٢٩/ ٩/ ٢، تحت عنوان«انشقاق» Siquidem، الخ، ذلك أن الروم الأرثوذكس هراطقة، لأنهم مصرين على انشقـاقهـم، ومن الممكن رؤية عقـائــدهم في القسم الثاني— الفصل:٣.

وبعدما عوملنا هكذا باستخفاف من قبل الروم الأرثوذكس، اخترعنا طريقة أخـرى من أجل إقامة قـداس ديني، حتى لانخسر أحدنا، حيث حملنا كومـة من الأحجار العادية، ووضعناها في زاوية سـاحتنا، وعمرنا

مـذبحـاً من دون مـلاط، ووضعنا فـوقـه مـذبحـاً متحـركـاً، وغطيناه بمتدليـات، وربطنا حبلاً من حوله، علقنا عليـه زرابي وأقمشة، وبذلك عملنا نوعاً من أنواع البيع، وهنا بعد ذلك أشعلنا شموعاً، وأغلقنا باب الساحة، وأقمنا قداس أحدنا، بسلام، وهدوء، وخشوع، وخشية من أن يقـوم أحـد الناس بقـرع البـاب أثناء الوقت المهيب للقـداس، مـركـزنا الفحل المسلم، أمـام البـاب، ليمنع الناس من القـرع على البـاب حتى انتهـاء القداس، وهكذا أقمنا قـداسـاً بدون معيقات في كل يوم، وكـان المعيق الوحيـد هو الزنابير، لأنه كـانت هناك حفرة على شكل فتحـة في الجدار قرب المذبح منها دخلت وخـرجت أعداد كبيرة جداً من الزنابير من الحجم الكبير، وكـانت تطن حـول الكاهن المقيم للقـداس، ولدى محاولتنا اغلاق الفتحة، هاجوا، وعملوا فتحات لأن الجدار كان معمولا من الطين، وكـانوا يندفعون بقـوة مرعبـة أكثر، وبأعـداد أعظم من ذي قبل، وجـربنا طرائق عـديدة لتـدمير هذه المخلوقـات، لكن تعـذر علينا ذلك من دون هـدم الجدار كله، هذا، ومع أنهم كـانوا يطيرون حـولنا باستمرار، مامن انسان قرص من قبلهم.

ولقـد كـان هناك ثلاثـة كهنة هم: الأب بـاولوس من طـائفـة الفـرنسيسكان، والمعلم جـون، وكان رئيـس شمامسه من ترانسيلفـانيـا، والراهب فيلكس، مـن طائفـة الدومينيكان، وهكذا نظمنـا الأمـور فيما بيننا، بشكل أقمنا فيه قـداسـاً في كل يوم، وبعـد سماعنا للقداس، تناولنا طعـام الافطار، وبعد طعـام الافطار، زارنا حشد كبير من الشبـان ومن الأطفال، وألصق واحد من الشباب المسلمين نفسه بواحد من الفرسان، أي من رفـاقنا، ورجـاه اعطاءه قـارورته الفـارغـة، ووعـده أنه سـوف يعيـدها إليـه مليئة بالخمـر، وأعطاه الفـارس قـارورته، وذهب الشـاب وغادر وهي معـه، وانتظرنا عودة الشاب بفـارغ الصبر، لأننا نعرف أن المسلمين ليس لديهم خمرة، وذهب الشـاب، وطلب الحصول على خمرة

من بعض الأماكن باسمنا، وحصل عليها، لكنه قام على الفور، بعد تسلمه للخمرة بتذوقها، فأغري بحلاوتها، فشرب القارورة كلها، وكانت تحتوي على سعة قدرين من قدور أولم، ولذلك بات مخموراً، وفقد عقله وصار مجنوناً، يركض في الطرقات وهو يصرخ ويرمي بالحجارة، وجرى ارسال عبيد الحاكم خلفه، ولحقوه وهو في حالة هياجه وثورته، ولدى رؤيته ذلك تصرف بعقل وهرب إلى ساحتنا، للحصول على مكان للالتجاء والحرية، لأنه كان هناك مرسوم من السلطان، أنه حيثما كان هناك حجاج من بلاد ماوراء البحر، مقيمين، هناك حيث أقاموا ملجأ أمين، أي أن تقول موضع للالتجاء، وكل من التجأ هناك لايمكن لأحد أخذه من هناك، وهكذا بقي ذلك الشاب معنا حتى تعافى من سكره، لكن حاكم المدينة أرسل إلينا وحظر علينا إعطاء أية خمرة لأي مسلم آخر، وأعلن، أنه إذا ماحدث مثل هذا الأمر ثانية، فلسوف يلقي بنا في السجن، وينتزع منا خمرتنا، لأن هذا الحاكم اعتقد بأننا عن عمد جعلنا ذلك الشاب يصبح مخموراً، مع أن ذلك لم يكن صحيحاً، ولقد عدّت جريمة عظمى بينهم إذا ماظهر أي انسان بينهم علنا بين الناس وهو سكران من شرب الخمر، مثلما هي جريمة عظمى بيننا لدى اعتقال أي انسان والتشهير به، لأنه اعتقل وهو يزني، ولقد كانوا لدى تناول أحدهم لجرعة من الخمرة يصير سكراناً وهائجاً، فيصبون جام غضبهم أولاً على الذي أعطاه الشراب.

هنا نهاية الفصل الخامس.

هنا بداية الفصل السادس

وهو يغطي شهر أيلول، ويحتوي على أعمال الحجاج في ذلك الشهر، ووصف للأماكن المقدسة التي زارها الحجاج في أيام ذلك الشهر.

وعندما حلّ اليوم الأول من إيلول، سمعنا قداساً في مكاننا، وتناولنا طعامنا بعد ذلك مباشرة، وبعد تناولنا لطعامنا، استدعينا واحداً من المسلمين إلينا، ورجوناه أن يأخذنا إلى المكان الذي عمل فيه شمشوم الأعمال التي برهن فيها على قوته، وهي التي حدثنا عنها سفر القضاة، وأنه عملها في هذه المدينة، وهكذا سرنا عبر طريق طويل، ووصلنا في داخل المدينة إلى ميدان واسع، رأينا على جانبه خرائب بيت كبير أو قصر، وأكوام هائلة من جدران مهدمة، وهذه الخرائب من المعتقد أنها بقايا هيكل قديم جداً، هو هيكل داجون، وهو الذي هدمه شمشوم، بتحطيمه الأعمدة المتوسطة التي عليها اعتمد، وبذلك قتل نفسه مع سادة الفلسطينيين وكثير من الناس، وهذا مايمكن أن نقرأ عنه بشكل مسهب في سفر القضاة:١٦، ورأينا بين خرائب الجدران عمودين من الرخام، عظيمين جداً، ولونهما رمادي، وهما من المفترض كانا يحملان البناء كله، وبتحطيم هذين العمودين تمكن شمشوم من تدمير البناء كله، وبذلك قتل أعداءه.

وبعد مغادرتنا لهذا المكان، سرنا مسافة طويلة حتى وصلنا إلى بوابة المدينة، التي حمل مصراعي بابها شمشوم مع المزاليج والعوارض والأقفال، في منتصف الليل، ونقلها إلى الرابية القائمة أمام المدينة، وبذلك نجا من أيدي أعدائه، الذين سجنوه في المدينة، وخرجنا من المدينة من خلال تلك البوابة، وتسلقنا الرابية المتقدمة الذكر، وذلك إلى المكان الذي حمل إليه شمشوم مصراعي باب غزة، وشاهدنا المكان، وجميع المنطقة من حوله، ورأينا هناك تمنة، التي كانت بلدة للفلسطينيين

منهـا اتخذ شمشـوم زوجـة فلسطينيـة، وهناك فعل أشيـاء كثيرة(القضـاة:١٤)، وشـاهدنا أيضـاً وادي سـورق، الذي فيـه زرعت تلك الكرمـة المختارة، التي عنهـا نقرأ في إشعيـا:١١، وفي هذا المكان سكنت دليلة الخائنة، وهـي التي غلبتـه، مـع أن مـامن إنسـان كـان يمكنه غلبته(القضاة:١٦)، ورأينا أيضاً سهولاً واسعة، وحقولاً وسفوحاً جميلة جداً، فيها ينمو القمح، والكرمة، وفي حقول القمح هذه أرسل شمشوم ثلاثمائة ثعلب، مربوط إلى أذنابهم حزماً مشتعلة، وأحرق القمح، وكروم العنب، وأشجـار التين، ورأينا أيضاً خلفنا جبـال بني اسرائيل، وأمـامنا البحر المتوسط، وبعدما فرغنا من مشاهدة هذه الأشياء كلها، نزلنا ثانية، وعاودنا الدخول إلى المدينة من خلال البوابة المتقدمة الذكر.

وليس بعيداً عن تلك البوابة هناك مسجد اسلامي، فوق البقعة، التي كان عليهـا في أيام شمشوم خـاناً للغرباء، كانت صـاحبته عـاهرة، وقد ذهب شمشوم إليها ونام هناك، وقـام الفلسطينيون في تلك الليلة نفسها بإغلاق أبواب المدينـة، قاصدين اعتقـال شمشوم في اليـوم التالي وقتله، لكنه استيقظ في منتصـف الليل، وحمل مصـاريع الأبـواب، كما قلنا من قبل، وبعدمـا زرنا هذه الأماكن ورأينا هذه الأشياء، عـدنا إلى موضعنا، حيث جلسنا مع بعضنا، وبحـزن تحدثنا حول المأسـاة المحزنة لشمشـوم بعد نجاحاته المدهشة.

★★ ★★ ★★

حمام ساخن جيد فيه استحم الحجاج بسرور مع المسلمين

وفي اليـوم الثاني، أرسلنا بعـد القداس، خلف ترجماننا، ورجـوناه أن يقتـادنا إلى القفار، إلى نقطة حـددناها له، ووعـدنا بأنه سـوف ننطلق في اليـوم التـالي، وقـد سررنا تجاه هذا الـوعـد سروراً عظيماً، وبعـد تناولنا للطعـام ذهبنا جميعـاً إلى الحمام الإسـلامي السـاخـن، مثل الذي كنا قـد

تحدثنا عنه من قبل، وهذا الحمام الموجود في غزة هو أجمل الحمامات التي شاهدتها قط، ويوجد أمام الغرفة الساخنة بناء مقبب محيط بها مثل رواق للسير والانتقال، وفي هذا البناء عدد من الغرف الصغيرة، من دون فرش، لكن الأرض كانت مفروشة بالحصر، وبسعف نخيل مضفورة، وكانت كل غرفة مغلقة بستارة فقط، وفي هذه الغرف يمكن للانسان لمن يرغب أن يستحم وهو بدون ملابس، أو وهو لابس، وفي الغرفة نفسها قد جرى تعليق ثياب نظيفة، يتغطى بها الذين يودون التجول في الحمام، والتغطية هي من السرة حتى الركب، عوضاً عن السراويل والأحزمة، وبذلك يتغطى الانسان من الأمام ومن الخلف، ويوجد في وسط هذا الرواق هناك فوارة ماء، يسيل خلال عدة أنابيب صدوراً عن أعمدة رخامية، وجميع الأرضيات والجدران مكسوة من الداخل ومن الخارج في قلب الغرف الحارة، بمختلف أنواع الرخام الأبيض المصقول، لذلك يتوجب على الذي يسير فوقهم أن يكون حذراً، وأن يسير بانتباه، خشية الانزلاق، وذلك مثل الانسان الذي يسير فوق جليد.

والغرفة الساخنة نفسها تشبه برج مربع،والقبة، أو القنطرة التي تغطيها ليس لها سقف فوقها، بل لها فتحات كثيرة، كل واحدة بحجم رأس الانسان، وهي مغلقة بزجاج النوافذ من مختلف الألوان، يدخل من خلالها ضوء باهت، ولكن فيه كفاية، ولايوجد في الغرفة الساخنة أتون نار، ولايشعر الانسان بحرارة النار أو الدخان، بل يوجد في واحد من الأماكن موقد نار تحت البلاط، وبه يسخن رخام البلاط الأرضي، ويملأ الماء الذي يجري خلال أقنية محفورة في الصخر، الغرفة كلها بالسخونة، ومن جانب آخر تجري مياه باردة، وكما قلت الغرفة مربعة، وليس فيها اضاءة، إلاّ التي تأتي من الفتحات في القبة، ويوجد على الطرف الأول سخونة فائقة وماء ساخن، ويوجد على الطرف الآخر

برودة وماء بارد، أما الطرف الثالث ففارغ وهادىء، وفي الطرف الرابع الباب، وفي الوسط حرارة مقبولة.

وصاحب الحمام نفسه لطيف جداً، ويقوم بتواضع وكرم بخدمة المستحمين، وغالباً مايتولى دلكهم، وتغسيلهم ودهنهم بـ Se-megma، أو بدهون أخرى مناسبة، لأنهم يعالجون الضعفاء بأطرافهم في الحمام، وإذا كان أي انسان يشعر بألم من أي سبب، يقوم الحمامي بتدليكه، ودهنه، وبالضغط وبشد المكان الذي يشعر فيه بالوجع، وذلك حتى يتعافى من وجعه أو يسكن بعض الشيء، وبطريقة مماثلة، إذا كان هناك أي انسان يعاني من آلام في أي من أطرافه من ذلك على سبيل المثال في ذراعه، أوساقه، أويده، أوقدمه، أورقبته، فإنهم يتولون معالجة مثل هذه الأشياء، بطرائق رائعة مدهشة، وبذلك تزيل التقلص عن الأعضاء المتشنجة، وكذلك تزيل النقرش في الأقدام وفي الأيدي، والحصا من المثانة والرمل، فهذا كله يعالج في الحمام بفن عظيم.

ومثل هذا اذا كان أي انسان يشكو أو يعاني من ضيق في صدره، وقصر في تنفسه، تراهم يعملون بجد ونشاط لعلاجه وبراءته، ولايفعلون هذا فقط بمجرد الجلوس إلى جانبه، بل إنهم يأخذون المريض ويجلسونه ثم يمددونه على البلاط في وسط الحمام، إما على ظهره، أو على وجهه، أو على جانبه، وذلك حسبما يتطلب الألم، ثم يجلس الحمامي فوقه، ويتولى معالجة موضع الألم، وبلطف يحرك الذراع المصاب نحو الأمام ونحو الخلف، ويضغطون على الرقبة اما بهذا الاتجاه أو ذاك.

ورأيت مرة حبشيا طلب معالجته في الحمام، قائلاً بأن لديه ضغط بالصدر، فمدده الحمامي على ظهره فوق البلاط، وجلس فوق معدته، وضغط على رقبته بيديه معا، بقسوة بلغت حداً أن وجهه بدأ يتورم، لأن نفسه كله توقف، وقد أبقاه هكذا لوقت طويل، حتى أنني خشيت

من أن يلفظ أنفـاسه، كما أنه أغلق أذنيـه بحـرير، وأخيراً أطلقه وتركـه يذهب، وقد استرد الرجل أنفاسه، وأظهـر سروره وفرحه الكبير، وقال بأنه من الآن فصاعداً سوف يكون بحالة جيدة.

وإنه لأمر يبعث على السرور، أن تجد أمراضاً كثيرة تجري معالجتها في الحمام، وهي أمـراض كنـا نقـدر أنها غير قـابلة للمعـالجة، أو التي من أجلهـا كنا نزور الينابيـع الحارة، وهناك نبـذل جهـوداً لكثير من الأيام، وندفع نفقات عظيمة، في حين أن هؤلاء الرجـالْ يتولون معالجة الأمور كلها في نصف ساعة، ومع ذلك يبـدو لي أنهم يستخدمون تعاويذ أيضاً، أثناء عملهم في معـالجة أي انسـان وفق الطريقـة المتقدمـة الذكـر، وهم يقومـون باستمرار بالتمتمة في أنفسهم، ويتفوهون بكلمات لاأعـرفها في آذان المرضى، ويتصرفـون في جميع المجالات مثلي الذين يمارسـون أعمال التعاويذ.

ولايلتقي الرجال والنساء في الحمام مطلقاً، فللنساء حماماتهم الخاصة، وكذلك للـرجال حماماتهم، كما أن الرجـال ليس لديهم نساء لتـدليكهم، ومثل ذلك ليس لدى النساء رجال لتدليكهن، بل يخدم الرجال الرجال، والنســاء النســاء، وهم لايسمحــون بأي شكل من الأشكال لليهــود بدخـول حمامـاتهم، والتحمم معهم، لكنهم يقبلـون بأن نستحم معهم، وغالباً مـاتساءلت عن السبب الذي سمحوا به لنا بالاستحمام معهم من دون اعتراض، في حين إنهم لايقابلوننا في أماكن أخرى بطريقة صديقة، ويخيل لي أن هناك ثلاثة أسبـاب لذلك: أولها، إنهم وإن قـابلونا بالعـادة بطريقـة غير صديقـة، هم عندما يعـرفون بأن هناك مكاسب ومـال منا، لايقومـون فقط بمقابلتنا فقط بطريقـة صديقـة، بل يذلون أنفسهم حتى العبـودية أمامنا، وعلى هذا الأسـاس عندمـا يعرفـون بأننا سـوف ندفع للحمامية بشكل جيد، تراهم على استعداد لتحمل رفقتنا، والسبب الثاني هو أنه قد قيل بأن المسلمين يصدرون رائحة كريهة، وبسببها يستخدمون

باستمرار محاليل من مختلف الأنواع، وبما أننا ليس لدينا روائح كريهة، لايبالون إذا قمنا بالاستحمام معهم، لكنهم لايشملون بهذا السماح اليهود، الذين تصدر عنهم روائح أكثر نتانة، وهم بالعادة يكونون مسرورين جداً برؤيتنا في حماماتهم، وذلك مثلما يفرح رجل مجذوم باستحمام رجل معافى معه، لأنه غير مزدرى، ولأنه يأمل أنه بوجود الرجل الصحيح معه ، سوف هو نفسه يغدو أحسن صحة، وهكذا فإن المسلمين ذوي الرائحة الكريهة يفرحون أن يكونوا برفقة انسان ليست له رائحة كريهة، والسبب الثالث لسماحهم لنا أن نكون بينهم هو أن محمداً(ﷺ) لم يحرم عليهم اللقاء بنا في الحمام، بل فقط في المساجد، لأنه قال في قرآنه بأن المسيحيين أصدقاء أفضل بالنسبة له من اليهود، كما قرأنا عند نيقولا دي كوسا الكتاب الثالث، الفصل الثامن، ولهذا السبب هم يسمحون لنا بالدخول إلى حماماتهم، ولايسمحون لليهود، غير أن هذا لم يُعمل من أجل مدح المسيحيين، بل لإرباكهم كثيراً، ولذلك إنهم لايسمحون لنا بأي شكل من الأشكال بالدخول إلى مساجدهم.

وهناك سبب آخر، هو سبب لاهوتي، ذلك أنه غير لائق بالمسيحيين الاستحمام مع غير المسيحيين، فهم بإثارة من الشيطان على استعداد للقبول بأمور غير معقولة من هذا النوع، وفي الحقيقة إنه عمل غير لائق بالنسبة للمسيحي، الاستحمام مع غير مسيحي، بمجرد، القاء نظرة على مايلي: ان اليهودي لايجوز له الحديث مع السامري، ومثل هذا لايجوز للمسيحي الحديث مع اليهود ومع غير المسيحيين، وهذا أيضاً واضح مما يلي: حرم الرب في متى:١٨ على المسيحيي أن تكون له أي اتصالات مع انسان فاسد لاسبيل إلى تقويمه بقوله:« فليكن عندك كالوثني»، أووثنيا كما تقول:« فرّ من المسيحي المحروم كنسيا، كما تفر من الوثني»، وهذا أيضاً مأخوذ من مثل القديس يوحنا الانجيلي، الذي عنه قرأنا في« التاريخ اللاهوتي»، أنه عندما ذهب مرة إلى الحمام في إفسوس ليغسل

نفسه، رأى في الحمام سيرينثيوس Cerinthus ، الهرطقي، فقام على الفور بالفرار والخروج قائلاً:« دعونا نفر من هذا المكان، خشية أن يقع الحمام علينا، لوجود عدو الحقيقة هذا به»

ومحرم على المسيحيين التعايش مع اليهود في كثير من القضايا، من جملتها ورد ذكر مشاركة الحمام مع اليهود، وأي واحد يخرق هذا الأمر، إذا كان رجل دين يجرد من ثوبه الكهنوتي، وإذا كان رجلاً علمانيا، فانه يحرم كنسيا، ويجعل من نفسه مساوياً للذين هم أدنى منه شخصيا بالتعايش معهم، هذا وإن رجلاً محروماً كنسياً مثله مثل أي انسان مطرود أو مسلم.

وينطبق القرار نفسه على غير اليهود مثلما ينطبق على اليهود، وعلى هذا يبدو أنه قد تبرهن بهذه الأمثلة أنه غير لائق بمسيحي دخول حمامات يهود أومسلمين، وانظر حول هذه القضية ماورد في .Sum Anca. Sarracenus

وأملي بأننا نحن الحجاج سوف لن ننال عقوبات القانون هذه، بسبب حاجتنا الماسة، التي فيها غير محرم علينا أكل خبز اليهود غير المخمر، واللحم المقدم إلى أوثان الكفار، وأيضاً بسبب سماح البابا، لأنه منحنا إذنا بالارتحال داخل بلاد المسلمين، وبسماحه لنا نحن الحجاج بالسفر إلى بلاد غير المسيحيين، سمح لنا بالجلوس مع غير المسيحيين إلى مائدة واحدة، وأن نستحم معهم، وكذلك بتناول الدواء منهم، وعلاوة على ذلك، أنه لن ينجم أي خطر عن مثل هذا الاستحمام، كما أنه ليس هناك أي اقتراف لأي ذنب من أي نوع، على أساس أن التعايش معهم ليس مستمراً، وليس عاديا، بل إنه يمر بسرعة، ثم إننا لايمكننا الحديث معهم على أساس أننا لانفهم لغتهم، ذلك أن اللغة هي أكبر روابط الوحدة، وهكذا انقضى ذلك اليوم.

قدوم المماليك وحديثنا معهم

وعملنا استعداداتنا في اليوم الثالث من أجل المغادرة، لكن عائقاً كبيراً اعترض سبيلنا، لأن جيشاً من الاف كثيرة من المماليك قدم من مصر إلى تلك البلاد، ولذلك غدت المدينة كلها والمنطقة التي من حولها، مليئة برجال مسلحين، ونصبت خيامهم من حول غزة، وكان عددهم ثمانية الاف، وقد جرى ارسال هؤلاء الرجال من قبل السلطان للقتال ضد التركمان في سورية، ولكسر شوكتهم، وقد أقاموا حول المدينة، وعدد كبير منهم دخلوا إلى المدينة لمشاهدتنا، وجاء بينهم هنغار، سألوا عما إذا كان هناك أي حاج من هنغاريا بيننا، وعندما وجدوا المعلم جون، فرحوا كثيراً وجلسوا في خيمنا معنا، وأكلوا وشربوا معنا، لابل حتى شربوا خمرة، لكن بشكل سري، وكان بعضهم مماليك من صقلية، وبعضهم من كاتالونيا، أي أنهم مرتدون عن المسيحية، وقد قدموا إلينا وطلبوا أن يُسمح لهم بالحديث معنا، وطلبنا منهم جميعاً الدخول، وتحدثنا معهم بشكل اعتيادي، الأمر الذي أزعج ترجماننا كثيراً، وكالينوس المسلم، لأنه يكره المماليك بشكل سري كثيراً، لأن المماليك يمتلكون السلطة عليه وعلى الترجمان، ولذلك نادراً ماملكا الجرأة على رفع رأسيهما بحضورهم، ولهذا صار المسلمان: الـ Sa-bathytanco والفحل، أي دليلينا، غاضبين منا، لأنهما خافا من أن نسبب لهما مزيداً من الكراهية من قبل المماليك، لأننا كنا في ذلك الوقت على خلاف معهما، لأنهما أخّرانا في ذلك المكان، وحاول هذان الرجلان، بحكم براعتهما وخبرتهما أن يبعدانا عن معاشرة المماليك ووجها اللوم إلينا، فقد خاطبنا Sabathytanco متسائلاً: «هل أنتم حقاً مسيحيين»؟« فكيف يمكن أن تكونوا مسيحيين، ولاتستحون من الأكل والشرب مع أناس تخلوا عن الايمان المسيحي بأيمان رهيبة»؟ وقال الفحل وهو المسلم الآخر: «أنتم بلا شك من المسيحيين، الذين سوف

ينقـذهم إيمانهم، وهؤلاء المماليك، بـدون شك، سـوف يدانون، لأنهم تخلوا عن ايمانهم بعقيدتكم، وبناء عليه، أي شأن لكم بالتعامل معهم»؟ وكـان هذا الـرجل يعتقـد— كما تحدثت من قبل— أن كـل انسـان من الممكن انقاذه بالايمان الذي ولد عليه، وليس بايمان آخر، وقدمنا في هذه المناقشات ماأمكننا من أجوبة، إنما بعد تناولنا للطعام جاء المماليك ثانية، وتحدثوا معنا، وعندما أخبرناهم بـأننا نود أن نرى جيشهم، وخيولهم، وخيمهم، وعتادهم الحربي، أخذونا إلى المدينة إلى اسطبلاتهم التي وقفت فيهـا أجمل الخيـول، وأخـذونا إلى خـارج المدينـة، حيث كـانت خيمهم منصوبة وشاهدنـا هذا كله باعجاب، وما من أحد تسـاءل حولنا عندما كانوا يقـودوننا، لأنهم بدوا بالنسبة لنا رجـالاً لهم مكانتهم وسلطتهم في الجيش، وبعـدمـا فـرغنا من مشـاهدة جميـع هذه المناظر، عـدنا إلى مقـر اقـامتنا في مكاننا حيث وجــدنا أدلاءنا غير مسرورين كثيراً منا، الأمـر الذي لم نهتم به إلاّ قليلاً.

واجتمعنا في الصباح الباكر لليـوم الرابع، واتفقنا على تمضية النهار في العمل من أجـل تحضير أنفسنا في سبيل رحلتنا عبر القفــار، وفي شراء الأشيـاء التي كنا مانزال بحـاجـة إليها، وذلك بالاضـافـة إلى ماكنا قـد اشتريناه في القـدس، وعليّ وقعت مسؤولية أعمال الشراء لجماعتنـا كلها، وبناء عليــه أخـذت مـالاً من رفـاقي، وانطلقت مع رئيسي الجماعتين التاليتين، إلى السوق لشراء المؤن، لكن للمفاجأة لم نجد شيئاً في السوق، ووجـدنا جميع أكشـاك وبيـوت التجار، وحـوانيت الطبـاخين، ومحلات اللحـامين، كلها مغلقـة، وعندمـا سألنا عن سبب ذلك، أخبرونا أنه لن يكون هناك سـوق طوال الوقت الذي يبقى فيـه المماليك في المدينة، لأنه بسبب جشعهم مامن أحد يتجرأ على عرض بضائعه للبيع، لأن المماليك يقدمون ويتناولون كل مايعجبهم، ويـأخذونه دونما دفع، ومامن انسان يتجـرأ أن يقــول لهم لا، وأبقى شعب غـزة دوابهم أيضـاً في بيـوتهم،

وكـذلك حميرهم وأبقـارهم، وأغنامهم، ومـاعـزهم، تحت اشرافهم، ولم يتركـوهم للذهاب إلى المرعى، لأنه كان سيتم الاستيـلاء عليهم من قبل العسـاكـر، وبناء عليـه[١٧] لم نستطع في ذلك اليـوم الحصـــول على شيء.

وقـدم في ذلك اليوم بالـذات إلى ساحتنا بعض العقيـلات المسلمات، مع خادماتهن، ووجـوههن مغطاة كما هي عادتهن،وقد رغبن في رؤيتنا، وهكذا خـرجنا من خيمنا وأكواخنا ووقفنا في حضرتهن، وقـد ضحكن وتكلمن بلســـان المسلمين، وبما أننا لم نستطع رؤية وجـــوههن بسبب حجبهن، رجوناهن— من خـلال المترجم— إزاحة حجبهن، حتى نرى وجـوههن، وعندما سمعن هذا ضحكن كثيراً، وأمـرن خادمـاتهن برفع حجبهن، وعندما فعلن ذلك، ظهرت وجـوههن سوداء كالفحم، لأنهن كن حبشيات، وعندما رأيناهن، تظاهرنا بالخوف من سوادهن، وابتعدنا عنهن مع القـرف، وسألنا سيداتهن رفع حجبهن، وقـد فعلن ذلك، فإذا بهن شقراوات وسيدات جميـلات، ولطيفات ومحترمات، وغالبـا مارأينا هذه الأشيـاء في غـزة، وفي الحقيقـة غـالبـاً، مـاقـدمت بعض الفتيـات الحبشيـات إلى سـاحتنا، وتصرفن بشكل غير لائق، وحـولهن لن أقـول أكثـر مما يكفي الآن، ذلك أن عــدداً كبيراً من الأحبـاش يسكنون في الأرض المقدسة، من الجنسين، أرقاء وأحرار.

شراء الأشياء المحتاجة

وفي اليـــوم الخامس، وقبل بزوغ الشمـس، زحف المماليك وغـــادروا غزة، ومع ذلك لم تفتح الحوانيت أبوابها قبل الظهر، كما أنه لم يكن هناك أي سـوق للبضائع، لأن اليوم كـان يوم جمعة، وهو يوم نظر المسلمـون إليـه بقـداسـة وقد حـافظوا عليـه كـذلك، وتسلمت بعـد تناول طعـام الافطار ثماني عشرة دوقية من رفاقي، وذهبت أنا والفارس بطرس، وهو ولزي، وقد ارتديت رداء طائفتي الأبيض، الذي عليـه علامة الصليب،

وذهبنا معا خلال الشوارع والأزقة، والسوق، والحوانيت، واشترينا أشياء كثيرة، كنا بحاجة إليها، وفي الحقيقة تحتاج الرحلة خلال القفار إلى عناية عظيمة، وإلى استعدادات أعظم من الاستعدادات للسفر في البحر، لأن الأشياء التي لايجدها الانسان في البندقية، يمكنه أن يجهز نفسه بها في أي ميناء وجزيرة، يقف بها، لكن لايوجد في القفار موانىء ولاخانات، بل فقط مناطق شاسعة معزولة، فيها لايمكن حتى لحيوانات الحمل العثور على طعام، حسبما سنرى فيما بعد.

كما أننا لن نتسلم أي من، من السماء، مثل بطارقة الأيام الخالية، كما أنه لن تكون هناك مياه من الصخرة، كما أننا لن نتلقى زيتاً من الصخر الأصم، ولاالحجل من مصر، وأحذيتنا وثيابنا لن يكون بالامكان الحفاظ عليها من أن تكون بالية، كما أننا لن نمتلك عموداً من نار، ليضيء لنا في الليل، لذلك توجب علينا تجهيز أنفسنا لمواجهة هذه الحاجيات جميعاً لأيام كثيرة، لاتقل عن خمسة وأربعين يوماً، وذلك حتى نصل إلى الاسكندرية، حاسبين هنا الأيام التي سوف نمضيها في مصر، بسبب أننا لن نبقى في القفار أكثر من خمسة وعشرين يوماً، وبناء عليه شرينا كثيراً من أرغفة الخبز، والسلال، وقد شرينا لكل حاج كمية من الخبز تكفي ثلاثة، وذلك من أجل أن نعطي البداة العرب، الذين سوف نلتقي بهم في الصحراء، ونشتري بذلك مضايقاتهم، وشرينا أيضاً المزيد من جرار الخمرة، والروايا لحمل الماء، وسلالاً كبيرة لنضع فيها قدور الطبخ، وأدوات القلي، وكل شيء يحتاجه المطبخ، واشترينا أيضاً مناصب، وأدوات شوي، وسفود، وثلاثة أقفاص كبيرة مليئة بالطيور والدجاج، مع ديك كبير أبيض وقف فوق القن، ووظيفته إخبارنا بساعات الليل في القفار، وشرينا أيضاً سلالاً مستطيلة، لنضع فيها الزجاج والصحون والأطباق، من أجل الاستخدام على المائدة، وشرينا أيضا جبنا، وأشياء أخرى، كما شرينا سلالاً صغيرة مع كلاليب، فيها

يمكننا أن نحمل خبزاً، وأشياء قاسية أخرى، قابلة للأكل، ونعلقها على سرج حميرنا، وجرار ماء، ودوارق مع كلاليبها، واشترينا أيضاً جوالق مليئة باللحم الجاف، وجبنة، وزبدة، وزيت، وخل، وقمح مجروش من أجل الحلوى، وبصل، ولوز، ولحم مملح، وأطعمة محفوظة منوعة، من كل من الحلو والمالح، وأدوية للقوم المرضى، وشموع وأحذية، وسلتين مليئتين بالبيض، وأشياء أخرى من أنواع مشابهة، مما يحتاجه الانسان بشكل عام، واشترى سائقو الجمال جوالق من الشعير لإطعام الجمال، وكذلك لإطعام الحمير، وهكذا زودنا أنفسنا في ذلك اليوم من غزة بجميع الأشياء التي نسينا أن نحصل عليها من القدس، ووقع في هذا اليوم بعضاً من الحجاج مرضى بشكل خطير، إلى حد أنه لم يعد هناك أمل كبير بحياتهم.

مرض جميع الحجاج

وفي أمسية اليوم السادس، عندما حان وقت مغادرتنا، وكان أدلاؤنا جاهزين للانطلاق، وضع الرب يده على الحجاج، ولمسهم، وقهرهم جميعاً تقريباً، لأننا فجأة بتنا جميعاً مرضى بشكل كبير، ووقفت خيامنا مليئة بالمرضى، وكان عدد الذين كانوا مرضى أكبر من الذين كانوا أصحاء، وكان بين هؤلاء المعلم بطرس الولزي، فقد بلغ به المرض إلى حد الهذيان، واللورد فرديناند بارون فون وورنو، الذي كان حتى الآن يشجع كل انسان انبطح مريضاً وبلا حراك، وفي الوقت نفسه عانيت أنا من صداع مخيف، ومن عدم قدرة على التوازن، ومن حرارة عالية في جسدي كله، ومع ذلك لم ألجأ إلى الفراش، بل توليت — بقدر ما أستطيع — خدمة المرضى، وكذلك صار اللورد برنارد فون بريتنباخ — الذي هو الآن عميد مينز — مريضاً جداً إلى حد فقد فيه مظهره الخارجي وعقله، ولم يكن لدينا أمل بشفائه قط، وهكذا أمضينا ذلك اليوم في كثير من الاضطراب والتعاسة.

خصومات الحجاج وتمزقهم

وفي اليوم السابع، الذي كان الأحد الخامس عشر، بعد التثليث، سمعنا قداساً قرأه المعلم جون، رئيس الشهامسة، الذي كان أقوى مما كناه، لأنني كنت أنا والأب بولوس الفرنسيسكاني، ضعفاء ومرهقين، إلى حد تعذر علينا فيه قراءة صلواتنا الساعية الرسمية، وتوجس الحجاج أشياء كثيرة أن تكون سبب هذه الأمراض، وبعضهم وضع المسؤولية على الماء، وبعضهم على الطعام، وبعضهم على القمر الجديد، لكن الشطر الأكبر شك في أن يكون Sabathytanco ترجماننا قد وضع بعض السم في طعامنا، حتى إذا مامتنا يمكنه الاستيلاء على جميع مقتنياتنا وبضائعنا، لكنني رأيت وقتها، ومازلت أرى حتى هذا اليوم بأن المرض أرسل من السماء، لمعاقبة فضولنا.

وعندما كان الحجاج في هذه التعاسات، بدأ كل واحد منهم يعمل خططاً متنوعة، وتراجعوا جميعاً عن نيتهم بالحج، فقد رغب بعضهم بالعودة إلى القدس ثانية، وهناك إما أن يشفوا أو يموتوا، وأراد بعضهم الذهاب من خلال فلسطين إلى فينيقية السورية، ومن ثم إلى بيروت، الميناء البحري، والعودة من هناك إلى بلدانهم في أوروبا بالغلايين التجارية التالية، في حين تخلى بعضهم عن جميع هذه المشاريع وأرادوا الذهاب على طول الساحل إلى الاسكندرية والانتظار هناك للابحار، وطلب بعضهم الذهاب إلى القاهرة، والسفر من القاهرة على طول ساحل البحر الأحمر إلى سيناء من خلال أرض مدين، وبعد زيارة سيناء العودة إلى مصر، ومن ثم إلى البحر، وأراد بعضهم البقاء في غزة حتى تتحسن أحوالهم، ومن بعد ذلك يتابعون السير على طريقهم، وحافظ البقية على النية الأولى، وهي الانطلاق مباشرة في الغد، على الرغم من كونهم مرضى.

وبحدوث هذا كله حدث انقسام كبير بين الحجاج، وتمزقت فئاتهم،

لأن أحدهم رغب في تأييد آخر، كان قد اخترع خطة أرضته، وبذلك انعزلا عن البقية، وفي الوقت الذي كان فيه هذين يفكران بهذا، كان آخران يخططان لشيء آخر، والبقية لأمر آخر أيضاً، وكل الوئام الذي كان متوفراً بين رفاقنا تبدد تماماً، وعلى هذه الصورة مضى ذلك اليوم التعيس في تلك المخاصمات المؤلمة، وطوال ذلك اليوم لم نشاهد ترجماننا مما زاد في شكوكنا التي توجسناها حوله.

الميثاق الجديد الذي عمل بين الحجاج بعد تخاصمهم ثم تصالحهم

أطل فجر اليوم الثامن بسرور، وجلب لنا يوماً سعيداً، ولذلك قرأنا في سفر المكابيين الثاني:١/ ٢٢:« وأشرقت الشمس التي كانت من قبل مخفية بالنجوم»، فقد قامت مريم العذراء الأعظم مباركة، في يوم عيد ميلادها، بطرد جميع الظلام، والاضطراب، والمرض، منا جميعاً، ولاأقول بأن هذا على سبيل الإثارة والحكايات، لكن هذا ماحدث بالحقيقة، فعند الفجر استيقظنا نحن الكهنة وأدينا صلواتنا الليلية، والأولى، وجهزنا مذبحنا لإقامة قداس، وقمنا نحن الثلاثة واحداً تلو الآخر بقراءة صلوات القداس من أجل يوم العيد، وصلينا من أجل شفاء قومنا المرضى، ومن أجل توفيق رحلتنا.

وبعد هذه القداسات كان جميع الحجاج حاضرين، حتى كان بينهم الذين كانوا في اليوم الماضي وفي اليوم الذي تقدمه وكأنهم على أبواب الموت، فقد غادروا فرشهم بخشوع كبير، مع الشكر والحمد، وبقيوا حاضرين خلال الصلاة كلها، ورقابهم منحنية، حتى النهاية، ولدى فراغنا من القداسات، قمنا بالاستعدادات من أجل طعام الافطار، الذي طبخناه وأكلنا كالعادة، ولم يكن هناك أدنى ذكر لخلافاتنا الماضية، بل أقسم كل واحد منا للآخر من جديد بأننا سوف نقوم جميعاً بالسفر مع

بعضنا خـلال القفـار إلى جبل سيناء في العـربيـة، وأن نعيش معـا، وأن نمـوت معـاً، وأننا لن نترك رجلاً مـريضـاً خلفنا، بل سـوف نحمل في سلال فـوق الجمال الذين لايمكنهم الجلوس على ظهور الحمير، وأبرمنا في ذلك اليـوم ميثـاق سلام أحـدنا مع الآخـر، وبتنا أصـدقـاء لايمكن تفريقهم، وإخواناً، بقلب واحد، وروح واحدة في الرب

وبعد منتصف النهار جـاء ترجماننا، الذي لم نره عندما كنا مضطربين، ولدى رؤيته لنا أننـا كنا مسرورين، وشفينا تقريباً، جلـب سائقي الجمال مع الجمال، وكـذلـك سـائقي الحمير مع الحمير، راغبـاً في اقتيـادنا على طريقنا، غير أننا لم نـوافق على هذا بأي شكل من الأشكال، وبوقـاحـة وقسوة رددنا عليـه، بأننا في ذلك اليـوم كنا نحافظ فيـه على عيد مهيب وهو عطلة بالنسبة لنا، ولايجوز لنا مغـادرة المكان، حيث كنا يومذاك في يوم مقـدس، وعلاوة على ذلـك أخبرناه بأننا مكثنا في ذلك المكان لأيام عـديدة ضـد إرادتنا، وأننا لـن نغـادر في ذلك اليـوم، ولالسبب من الأسباب، صدوراً عن الاحترام للعذراء المبـاركة، وتجاه هذا كان الرجل مـزعـوجـا، وغـادر سـائقـو الجمال والحمير وهم يتمتمـون ويزمجرون، وأعلنوا أنهم سوف لن ينتظرونا بعد الغد مهما كانت الأوضاع.

وبشأن ماحدث في اليوم التالي، وهو اليوم التاسع، انظر الرواية حوله في ص٢٦ظ.

وصف منطقة فلسطين وفي كم من الطرق جرى استخدام كلمة «فلسطين»

وقبل أن نغـادر الأرض المقـدسـة، ونذهب إلى القفـار، سـوف أتولى وصف غــزة مع منطقـة فلسطين، فقـد ورد لفلسطين ثلاثة معـاني في الكتابات المقـدسة، فهي في بعض الأحيان تعني جميع الأرض المقـدسة، وبناء عليـه فإن القـدس وجبالها اسمهـا فلسطين، وهذا غـالبـاً مانجـده

مستخدماً في« حياة الآباء»، وكذلك نجد أن الأرض المقدسة كلها تدعى باسم سورية، لأن كل من اليهودية وفلسطين ها جزئين كبيرين من أجزاء سورية.

وثانيا: يطلق على جزء محدد من منطقة الجليل، قرب جبال جلبوع، اسم فلسطين.

وثالثا: يقال بالعادة للمنطقة القائمة على شاطىء البحر فلسطين، أكثر من سواها، وهي المنطقة القائمة مابين سفوح جبال بني اسرائيل، التي تحدها من جهة الشرق، كما يحدها البحر الكبير من جهة الغرب، ومن الشمال بجبال افرايم وبغزة من الجنوب، وأطلق على هذه المنطقة بشكل صحيح اسم فلسطين، وقد قال ايزودورس حول فلسطين:« هي منطقة واسعة، فيها يجري البحر الأحمر من الشرق، وهي المحدودة من جهة الجنوب باليهودية، ويحدها من الشمال بلاد صور، ومن جهة غروب الشمس بالبحر وبمصر»، وفي العصور القديمة عرفت بفلسطين صدوراً عن اسم مدينة عسقلان، التي عرفت باسم فلسطين، واشتقاقاً من ذلك أطلق على سكان تلك المنطقة اسم الفلسطينيين.

وكانت عسقلان في الأيام الخوالي حاضرة فلسطين كلها، وبعد ذلك، صارت قيسارية القائمةعلى ساحل البحر الحاضرة، والآن غزة هي المدينة الرئيسية.

وفي العصور القديمة، كانت هذه البلاد كلها مليئة بالعمالقة، وكان شعبها قوياً في كل من البحر والبر، لأنه امتلك موانىء بحرية، ففي القديم امتلكت البلاد خمس مدن رئيسية وحواضر، وهذا ماكنت قد ذكرته من قبل، وبسبب قوة العماليق وشجاعتهم لم يكن بنو اسرائيل قادرين على تدمير الفلسطينيين، ومن ثم تملك هذه المدن الخمس، وكانت فلسطين فيما مضى تمتلك كثيراً من الديرة والرهبان، وقد قرأنا

عن معجزات عملت من قبل الرهبان الذين سكنوا في فلسطين

غزة أو غزرة مدينة الفلسطينيين أو شعب فلسطين

لمدينة غـزة اسمين، فبـاسم غـزة معـروفـة بشكل عـام في الكتـابات المقـدسـة، وجاء الحديث عنهـا باسم غـزرة في سفـر المكابيين الأول:٧، وبالغالب بعـد ذلك، وهي بهذا الاسم تدعى الآن من قبل جميع الناس، وغزرة، هي الحصـن، والقلعة التي اقتحمها يهوذا المكـابي(سفر المكابيين الثـاني:١٠/ ٣٢....)، ومعنى كلمـة غـزة هو الكنز، لأن الملك قمبيـز، عندمـا كان ذاهباً للإستيلاء على مصر، أبقى جميع كنوزه في غـزة، ومن هنا نالت المدينة اسم غزة أو غزرة، لكن مـالذي كانه اسمها قبل قمبيز، هذا مالم أكتشفـه، ولربما كانت تعـرف بهذا الاسم حتى قبل قمبيز، لأن أقـدم الكتابات المقـدسة تدعـوها باسم غزة، من ذلك على سبيل المثـال ماورد في يشوع:١، والقضاة:١.

وكـانت المدينة في القـديـم ملكاً للعناقيين، فهـذا مـاذكـره جيروم في كتـــابه« حـــول المســـافـــات بين الأمـــاكن»، وقـــد سكن فيهـــا الكفتـوريون(التثنية:٢/ ٢٣)بعـدمـا قتلوا سكانها الأصليين، وقد كـانت غـزة من حصة سبط يهوذا، لكن ذلك السبط لم يستطع السيطرة عليهـا، بسبب أن العمالقة قـد قاومـوا بشجاعة عظيمـة، وقد قـال الأنبياء كثيراً حـــول هذه المدينة، كما قـرأنـا في:إرميـا:٤٧/ ١ وفي زكـــريا:٩/ ٥، وفي صفنيـا:٢/ ٤، وقـد وردت أخبـاراً كثيرة حـــول تدميرها، وتدمير المدن الفلسطينيـة الأخرى، وهكذا نجـد إرميـا في السفر المذكـور أعلاه، قـد تساءل في احدى النبوءات، وقال بأن غـزة سوف تكون كومة إلى الأبد، لكن هذا القـول تعلق بغـزة القـديمـة، الذي تعـرضت في الـــقديم إلى دمـــار كـــامل، وصـــار اسمهـــا«صحـــراء»، كما جـــاء في أعـــمال الرسل:٨/ ٢٦.

وغزة في هذه الأيام مدينة متميزة في فلسطين، وهي كبيرة بقدر حجم القدس مرتين، ومكتظة بالسكان، ومزدهرة، وإذا ماأردنا وصفها بالعامية هي خندق مليء بالزبدة، وكل الأشياء التي يحتاجها الانسان من أجل الحياة البشرية وافرة، ورخيصة هناك، وهناك كثيراً من أشجار النخيل، إلى حد بدت فيه المدينة وهي قائمة في غابة، وبيوتها بائسة ومبنية من الطين، لكن مساجدها وحماماتها فخمة جداً، وهي محاطة بسور، وفي السور كثيراً من الأبراج العالية، وهي مدينة ساحلية وإن كانت ليست قائمة على شاطيء البحر، بل تبعد عنه مسافة ميل واحد، وفي الليل عندما يكون كل شيء ساكناً، اعتدنا ان نسمع في ساحتنا أصوات هدير البحر الهائج.

ويسكن في غزة أعداد كبيرة من التجار، وهناك كثيراً جداً من الطباخين، كما أن هناك مزيجاً مدهشاً من الشعوب، ويوجد فيها أعداد كبيرة من الأحباش، مع كثير من البداة العرب والمصريين، والسوريين، والهنود، والمسيحيين الشرقيين، لكن لايوجد فيها لاتين، وفي أواخر أيام الصليبيين، كان هناك كرسياً جيداً ومحترماً لأسقف، ولقد لاحظت وجود أمرين في مدح هذه المدينة: أنا لاأعتقد أنني رأيت أي مكان أو مدينة يرغب الانسان بها— لأنها رخيصة— مثل غزة، والأمر الثاني هو أن الناس هناك مسالمين جداً، فما من أحد سبب لنا أي ازعاج أو عذبنا مثلما فعلوا بنا في الرملة ويافا، ذلك أننا تجولنا يوميا في شوارعهم ونحن نرتدي صلباننا، وقمنا بأعمال معهم دون التعرض لأدنى درجة من المضايقة، وسرت في بعض الأحيان مسافة طويلة من ساحتنا، وحيداً، مرتديا ردائي الأبيض، ومع ذلك لم أسمع أية كلمة عدوانية، لكن هذا لم يحدث لجميع الحجاج الذين أقاموا هناك قبلنا، ذلك أنني قرأت في كتب حجاج بأن بعضهم قد تعرضوا لمضايقات كبيرة هناك. ويكفي ماقلناه عن هذه المدينة.

مقال حول ثلاثة موضوعات هي: الحمير، والجمال، والقفار نفسها، وضعته هنا قبل الدخول إلى القفار

قبل أن أدخل إلى القفـار، ولكي يكون حجـاجنا في القفـار فـاهمين بوضـوح أكثـر، يتوجب وصف ثـلاثة أشياء، وهي أشيـاء ترد الاشـارة إليها الآن وفيما بعـد: وأول ماينبغي وصفـه هو الحمير وسائقي الحمير، وثاني مايتـوجب وصفه هو الجمال وسـائقي الجمال، والأمر الثـالث، هو وصف القفار، أي الصحراء وسكانها.

الحمير حيوانـات لها طبيعة خاصـة موائمـة من أجل عبـور الصحراء أكثـر من الخيـول، فـالحمار دابة يمكنهـا حمل الأثقـال، وتحمل التعب، والاكتفـاء بـالطعـام العـام وبالقليـل منه، وهو يلتقط طعـامـه من بين الأشـواك، والقتـاد، والعـوسج، ويشق طريقـه بين النبـاتات الشـائكة والكثيفـة، ولهذا السبب تكره الطيـور الصغيرة الحمار، ويمقتـونه مثل مقتهم للبوم، لأنه يعبث بأعشاشهم، وبيوضهم وبصغارهم في النباتات الشـائكة، لأنه يلتقط كل شيء ويأكـل ويبحث بين النبـاتات الكثيفـة، ويرمي بالأعشـاش، وعندما ينهق يخيف صغـار الطير، وشرابه هو الماء، وهـو يفضل الماء العكـر، والكثيف، والمليء بـالعلق، والـذي يشربه هـو قليل، وإذا لم يكن قـد شرب من مـاء خـاص من قبل، فإنـه يرفض الشرب، مع أنه قد يكون في غاية العطش، ويمكنه أن يعيش وأن يعمل لمدة ثلاثـة أيام وثـلاث ليـال من دون شرب، ولايمكنـه تحمل البرد الشديد، ولذلك هو لاينجـب في البلدان الباردة مثل بلاد بنطش Pon-tus، لكنه يتكاثر كثيراً في البلدان الحارة، ويخاف من عبور المياه وتلويث حوافره بالماء، ولايقوم بعبـور الجسور التي منها يستطيع رؤية المياه دون أن يرتجف، وإذا مـارأى الميـاه من خـلال العـوارض يحرن ويقف دونما حراك، ولايمكنه السير بشكل جيد في الأراضي الموحلة، لكنه يسير على الأراضي الجافة بشكل جيد وأمين، حتى وإن كانت الأرض وعرة جداً،

ويمكن أن تكون خطرة جداً للخيول، وهو في المناخ الماطر باهت وبلا اندفاع، ولذلك يوجد في الشرق وفي مصر كثيراً من الحمير الجيدة، لأنه لايوجد هناك لابرد، ولامطر، ولاوحل، ولايمكن أن يتوفر في بلادنا حمير جيدة، لأن جميع هذه الشروط معاكسة، ويعرف الحمار صاحبه، وراكبه، وطريقه، وأماكن توقفه، وصوت صاحبه، ومعيار وحدود رحلته اليومية، وعمله، والساعة من أجل العمل، والساعة من أجل الراحة، وذلك بشكل أفضل من أي حيوان آخر، ويحافظ على ذلك كله بشكل دقيق جداً، وهو حيوان لطيف جداً، وهو موائم لمرافقة الانسان أكثر من الحصان والبغل، والمظهر الخارجي للحمار يغش كثيراً من الناس أثناء اختيارهم لحميرهم، لأنه في الغالب الحمير القبيحة أكثر في مظهرها هي الأفضل، وقد يكون العكس صحيح، ومن أجل مثال على هذا، انظر ماتقدم حول اختياري لحماري.

أي نوع من الناس هم سائقي الحمير

ويطلق على الذين يمتلكون حميراً للإيجار اسم سائقي الحمير، وكان سائقوا الحمير الذين ذهبوا معنا خلال القفار من المسيحيين ذوي الزنار، ويعرفون باسم آخر هو الكرج(جورجيون)، وهم هراطقة مثل الاغريق، ومنهم هناك حشوداً كبيرة في البلدان الشرقية، ذلك أن جميع الناس يخشونهم، وأثناء تجوالهم من منطقة إلى أخرى، يفعلون ذلك بلا خوف، ولايدفعون خفارة أو مكوس، وبلادهم الأصيلة وأراضيهم واقعة قرب جبال القوقاز، على مسافة بعيدة من الأرض المقدسة، وهم أناس ذوي لياقة، ومظهرهم حضاري، وهم باردون بطباعهم ليسوا سريعي الغضب وفقدان الصبر، ويتم إكتراء هؤلاء لتوجيه الحجاج وقيادتهم من القدس إلى مصر، على حميرهم، لأنهم مسيحيين، ويعرفون لغات وعادات الشعوب، وهم يرتحلون بحرية في بلادهم، وهكذا فإن كل من الحمير وسائقي الحمير، كلّ في مجاله، موائم بشكل خاص من

أجل عبور القفار، فهذا مايعلمك الحج إياه أثناء قيامك بالسفر.

طبيعة الجمال وخصائصهم

الجمال حيوانات حسنة المواءمة بشكل جيد ومناسبة بشكل خاص لعبور الصحراء، وهذه الدواب غريب وجودها وشاذ في بلادنا، ولكنها عامة كثيراً في بلدان ماوراء البحر، وترعى بقطعان كبيرة جداً مع بعضها، ويطلق على الجمل هذه التسمية اشتقاقاً من كلمة Camyn التي معناها« قصير»أو« منخفض»، لأنه ينوخ أثناء تحميله، وبذلك يجعل نفسه منخفضاً، أو أن الاسم مشتق من Camyn، الذي معناه« محدودب» لأنه يتحدب عندما يكون محملاً، أو لأن له ظهر محدودب، وهناك نوعان من الجمال، هما البختري والجمل العربي، وللجمل العربي سنامين(كذا) على ظهره وهو أصغر وأبطأ من النوع الآخر، وللجمل البختري سنام واحد على ظهره، عليه يحملون الأثقال، وسنام آخر على صدره، وعليه يرتاح، وهذا الجمل أصغر من الجمل العربي، وهو سريع جداً، وأعتقد أن الجمال البخترية عرفت أيضاً باسم الجمال الوحيدة السنام، بسبب سرعة خطواتها، لأن Dromedus تعني«طريق» أو «منحى»، ويمكن لهذا النوع من الجمال أن يسير مائة ميل في اليوم، وورد ذكر الجمل الوحيد السنام في إشعيا:٦٠، ولكل جمل وحيد السنام سائق واحد، ونقرأ عن معجزة حول جمل بختري كان له حجم هائل، في« حياة القديس هيلاريون»، الفصل:١٩،وقال فنسنتوس في مصنفه Speculum Naturale— الكتاب١٩، الفصل:٢٧، بأن من الممكن أن الذي له سنام واحد على ظهره يسمى جمل، لكن النوع الآخر يدعى باسم الجمل ذي السنام الواحد، ويجري بسرعة مدهشة، وله سنامين على ظهره(كذا)، وعلى هذا من الواضح أن الجمال بسنام واحد تسمى أحياناً الجمال ذات السنام الواحد، وذلك مثلما يسمى النوع الآخر بذي السنامين، وهناك أنواع كثيرة من الجمال، تختلف كثيراً بالحجم وبالخطوة.

والجمل حيوان مشوه، له سنام، وله رقبة طويلة، بسبب طول أرجله، ومع ذلك يمكنه الوصول إلى الأرض، والتقاط طعامه، وهو يسير ببطيء، لكنه يتحرك بسرعة، وهو لايركض مثل الحصان، لكنه يعمل خطوات طويلة بأرجله الطويلة، مادام الانسان قادراً على أن يفرق بين قدميه، وأثناء ترحاله بشكل متواصل، لاتتورم أخفافه قط، وأرجله مغطاة دوماً بلباد جسدي، لذلك لايمكنه تحمل السير فوق الحجارة، وإذا توجب عليه السير لمسافة طويلة فوق أرض صخرية لابد أن يحتاج إلى صنع نعل له، لأنه إذا جرح نعله يفقد الحيوان قدرته كلها وتوازنه، وعلى هذا يسير الجمل بشكل جيد فوق الرمال، وبشكل سيء فوق الحجارة، ذلك أنه يمشي فوقها ببطيء شديد في خطواته مع كثير من الخوف، ومثل هذا تراه يسير بسرعة فوق أرض جافة عطشى، لكنه يسير بشكل سيء فوق أرض مبللة أو منزلقة، وهو يسافر بشكل جيد في المناخ الجاف الدافيء، لكنه يرتحل بشكل سيء في البرد، ولذلك لايمكنه العيش طويلاً في البلدان الباردة والرطبة.

وللجمل رأس صغير، لابل صغير جداً، بالنسبة لجسده، وهو بدون قرنين، غير أنه يمتلك أنيابا في الفك الأعلى مثل الحيوانات القرنية، وللجمل عينان كبيرتان ومخيفتان، ويبدو دوماً حيواناً حزيناً ومنزعجاً، وعيناه مثل منارة ملتهبة، واشعاعات كثيرة تنعكس منهما، وكل شيء ينظر إليه الجمل يبدو له عظيماً وضخما، ولذلك يظهر أنه ينظر إلى كل شيء بدهشة وحذر، على هذا عندما يتوجه انسان نحوه، يبدأ الحيوان بالارتجاف، ولهذا يتصور الانسان بأن الحيوان يرتجف، لأن الانسان المقبل عليه يبدو بالنسبة إليه أكبر بأربعة أضعاف مما هو حقيقة، ولولا أن الرب قد أمر هذا الحيوان لما أمكن تدجينه وجعله منضبطاً كما هو الآن، وله فم قذر وغير نظيف، وواسع جداً، مع أسنان منخفضة طويلة، وعندما يصرخ، لأنه واقع في اضطراب، يفتح فمه، ويهز رأسه،

ويرفع رقبته الطويلة، ويحركها نحو الأمام ونحو الخلف، ولذلك فإن الانسان غير المعتاد على هذا يضطرب ويخاف.

ووفقاً لشريعة الرب، الجمل حيوان غير نظيف، لأنه له حافر غير مشطور، مثل الحصان، وهو مجتر مثل الأغنام، وهو يأكل طعاماً قليلاً، ويعلف على القش، وعلى لحاء الأشجار وأوراقها، ويأكل الشعير أثناء العمل، ويبتلع طعامه بسرعة، ويضعه جانبا حتى يتمكن من مضغه ثانية طوال الليل كله، وللجمل أكثر من معدة، ففي المعدة الأولى يتلقى الطعام غير المهضوم، ويشرع في الثانية بهضم الطعام نفسه، ويقوم في الثالثة بهضم الطعام بكمال أكثر، وينهي الهضم في المعدة الرابعة، وهذه المعد الأربع ضرورية بسبب خشونة طعامه، ولأنه يمضغ الطعام، إنما قليلاً بأسنانه، وتحب الجمال المياه القذرة، وتتجنب المياه الصافية، وعندما تكون المياه ليست موحلة بمافيه الكفاية، يقوم بإثارة الطين بالضرب بقدميه وبتحريكهما حتى تصبح المياه كثيفة، ويمكن للجمل تحمل العطش لأيام كثيرة، وإنه لأمر مدهش أن أقول إنه يمكنه السير اثني عشر يوماً من دون ماء، لكن عندما يعطى الفرصة للشرب، يملأ نفسه بما فيه الكفاية، لاطفاء العطش الماضي، وليعد نفسه لبعض الوقت المقبل.

ويعيش الجمل عمراً طويلاً، ويمتد هذا أحياناً إلى مائة سنة، وذلك مالم يؤخد إلى مناطق أجنبية، وأن يصاب بمرض من خلال تغيير المناخ، والعيش بمناخ غير معتاد عليه، ويقولون بأن السبب في عيش الجمل لمدة طويلة هكذا لأنه ليس له مرارة، فالمرارة— تبعاً لأناكساغوراس Anaxagoras— هي سبب جميع الأمراض الصعبة، وللجمل ذاكرة ثابتة تجاه الأعمال السيئة التي تعمل له، وإذا ضرب سوف يحتفظ طويلاً بحقده حتى يجد الفرصة المناسبة فينتقم للأذى الذي كان قد تلقاه.... ويقال بأن الجمل له طبيعة عاطفية وحنونة إلى حد أنه لووجد في القطيع

أو بين مجموعة جمل مريض ولايمكنه الأكل، يمتنع الآخرون عن الأكل تعاطفاً معه.

والجمل دابة للحمولة، ومعين لحمل الأثقال، وهو يفرح بفعل ذلك، ولهذا لديه كراهية طبيعية وعدم محبة للخيول، وللبغال، وللحمير، لأنهم يأخذون الأثقال ويحملونها وهي الأثقال التي يعتقد أنها عائدة له وحده، ولذلك إذا ماسار حمار محمل أو فرس أمام جمل، لن يتقدم ذلك الجمل بأي حال من الأحوال، بل يقف دونها حراك، وهو يبدو منزعجاً، ثم انه لن يتحرك حتى تؤخذ الدابة الأخرى وتزاح من أمامه وتوضع خلفه، وبما أن الحمير تسير أسرع من الجمال، وإذا كانت هناك رحلة تحتاج إلى اسراع بالخطى، يمدون مقود كل جمل بحبل إلى رقبة حمار، وبذلك يمكن للجمل أن يُجر من قبل الحمار الذي يسير قبله، وذلك حسبما قرأنا في اسطورة القديس جيروم.

وعندما يراد تحميل الجمل، يربت بلطف على ركبتيه، فيقوم على الفور بحني مفصليه، وينوخ ويتلقى حمله، أو إذا ماوضع انسان يده على رقبة الجمل، وصفر، ينوخ نحو الأرض ليجري تحميله، ويجلس بهدوء لمدة طويلة، ويسمح لأحمال ثقيلة أن توضع عليه، وأثناء ذلك لايحرك جسده، بل يهز رأسه، ويرفع صوته عالياً عندما يشعر بأنه جرى تحميله أكثر مما ينبغي، وهذا ماتفعله الجمال الصغيرة، لكن لاتفعله الجمال الكبيرة.

وعندما يجري تحميل عدد كبير من الجمال في وقت واحد، يصدر عنها هدير مخيف، يمكن سماعه من مسافة بعيدة في الصحراء أثناء الليل، والأثقال التي تحملها الجمال لايجري حزمها على ظهورها بأحزمة من تحت بطونها، كما أن قتبها لاتثبت مثل سرج الخيول والحمير، بل يوضع القتب بكل بساطة فوق السنام، من دون أي رباط، وفوق القتب توضع الأثقال التي تتدلى نحو الأسفل من على الجانبين بوزن متساوي،

وإذا ماشعر الجمل بأن الوزن أثقل على أحد الجانبين، لايتقدم سائراً، بل يمدّ عنقه، ويشير بصراخه إلى الجانب الذي يحمل وزناً أثقل، وإذا لم يتوفر شيء لمعادلة الوزن، يتناولون حجارة، يعيدون التوازن بها.

وإذا ماشعر الجمل بأنه محمّل بوزن أعظم مما اعتاد أن يحمله، وقتها لن يتحرك نحو الأمام مالم يجري تخفيف الحمل، لأنه لايتقبل حملاً فوق طاقته، وعندما توضع الأثقال على ظهور الجمال يقوم سائقوا الجمال بالحداء بأصوات عالية لتهدئة الدواب، ولدى الفراغ من التحميل، ينبعث الجمل قائماً بسرعة، ليأخذ طريقه مسرعاً، وكأنه مسرور، ويسير من دون توقف حتى مكان الاستراحة المعتاد، فهو عندما يصل إلى هذا المكان، يرفض التقدم، ويطالب بانزال الأثقال من على ظهره، ولاتساق الجمال على الطريق لابالعصي ولابالأسواط، بل يسير سائقوا الجمال خلفها وهم يحدون هكذا: Han na yo yo on ho ho oyoo ho وعندما يشرد جمل ويبتعد عن الطريق، يعود إلى طريقه باشارة خفيفة، باليد، لأنه لايتحمل الضرب ولاسوء المعاملة، وعندما يضطرب الجمل يصدر صوتاً غريباً، وفي بعض الأحيان— مع أن ذلك نادراً جداً— يصبح هائجاً فيرمي بأحماله، ومن ثم يركض هارباً بسرعة كبيرة، ونادراً مايسمح لنفسه بالامساك. وواضح أن الجمل يعتني عناية كبيرة بحمله، خشية أن يقع، ذلك أنه يسير بحذر شديد، خوفاً منه أن يجرح قدمه، أو أن يسقط حمله، لأنه يوجد تحت قدم الجمل خف لبادي من الجلد واسع، وهناك عبر قسم الظلف قطعة من الجلد، مثل التي هي موجودة على قدم الأوز، ولذلك تراه يسير باحتراس، وهو دوما يعرف الطريق الذي سار عليه من قبل، من دون أي دليل، حتى وإن كان الطريق مغطى بالغبار أو بالرمل المنقول من قبل الريح، وهذا أمر محتاج في القفار، حين لايكون هناك طريق قد بقي مرئياً، بسبب تحرك الرمال، وهذه الحيوانات ليست فقط مدربة لحمل الأثقال، بل هي معتادة على

الحروب، ولهذا القصد وجدوا أن الناقة أقوى من الفحل، ويكفي ماقلناه عن الجمال.

سائقو الجمال

سائقوا الجمال هم أصحابها، وكان سائقوا الجمال الذين قدموا معنا عبر الصحراء، قد جرى اكترائهم من قبل ترجماننا من قرى فلسطين، الموجودة على حدود العربية، ولقد كانوا قوماً من الريف، وسود مثل البداة العرب، وكانوا عبيداً للمسلمين وللبداة العرب، وقد تحالفوا معهم فيما بعد، وكانوا يدينون بديانة محمدﷺ، وفي الحقيقة لايقبل البداة العرب الذين يسكنون في القفار أن يكون سائقوا الجمال، أو الذين يتولون تربيتها والعناية بها من دم عربي خالص، بل انهم يدعون هؤلاء الناس يعبرون بسلام لأنهم كانوا متحالفين معهم، ومتفقين معهم بالدين، والملبس، والعادات، ولهذا السبب وجدنا أن سائقي حميرنا، الذين كانوا مسيحيين شرقيين، قد ربطوا أنفسهم— أثناء عبور الصحراء— بالملبس وبالمظهر، بسائقي الجمال، حتى يكونوا أقل عرضة للازعاج من قبل البداة العرب، وكان سائقوا الجمال هؤلاء مع سائقي الحمير، دائمي التخاصم أثناء رحلتنا، ومع ذلك لم يضرب أحدهم الآخر، وقد حافظوا على سلام عميق معنا، وذلك بسبب المال الذي يأملون بالحصول عليه منا، وبشأن سائقي الجمال هؤلاء مع سائقي الحمير، سوف أقول المزيد فيما بعد، وسوف أتولى الآن وصف القفار.

وصف للقفار، المكان المنعزل أو الصحراء، وطولها وعرضها، وقحلها وفي سياق وصفها سنتولى شرح الاستخدامات الأربعة للكلمة

من المتوجب وصف القفار الشائعة، التي على الانسان العبور خلالها أثناء سفره من الأرض المقدسة إلى جبل حوريب، وينبغي أن نعلم أن

هذه القفـار هي جـزء من العـربيـة الكبرى، لأن هنـاك ثلاث مناطق، متصلة إحـداها بالأخرى، يطلق عليهـا اسم العربيـة، وأولها جبل لبنان ولبنان الشرقي، مع جميع المنطقة من حولها، والتي تدعى العربية العالية، لأن تلك البـلاد تنتج البخـور، والأشجـار التي تعطي البخـور، ثم إن العطور الأخـرى وافـرة هناك، ويجد هـذه المنطقـة من الشمال الإيطورية والطرخونيـة، اللتان تشكلان شطرين من الجليل، كما يجدها من الجنوب دمشق، ولهذا السبب يقال أحيـاناً لسورية الدمشقية، العـربية، وعلى هذا الأسـاس قبل للحارث(كـورنثـا الثانيـة:٣٢)ملك العـربية، مع أنه كـان ملك دمشق.

ثانيا: يطلق على بلاد أبناء مآب، وعمون، وحبشون، ومملكة سيحون، ومملكة عوج، وملك باشان، وجميـع جبل جلعاد، وكل المنطقة فيما وراء الأردن، اسم العربية الثانية، وهي تتصل بالأولى إلى الجنوب منها.

ثالثـا: تبـدأ من هذه النقطة العـربيـة الثـالثة، التي يقـال لها العـربيـة الكبرى، وهي تمتد خلال قفار واسعة جداً من نهر الفرات العظيم حتى البحر الأحمر، ونهر النيل في مصر، وفي هذه العربية باتجاه الشرق، توجد مكة مدينة محمدﷺ، وهناك باتجاه الجنوب جبلي سيناء وحوريب، وهذه العـربيـة واسعـة جـدا، وتحوي على أضخم القفـار التي تشكل مناطق متنوعة.

وفي الحديث بشكل عام عن العـربية، فإنه يمكن للانسـان أن يقول، حسب الخرائط التي وضعها بطليموس، بأن المنطقـة جميعها، التي تعرف باسم سـورية الدمشقيـة، وذلك فيما وراء لبنان، هي العـربيـة الأولى، واسمها عربيـة سورية، أوعربية دمشق، ويجد هذه العـربية من الجنوب، العربية الحجـرية، أو العربية الثانية، وتتصل هذه العـربية بذلك الامتداد الواسع جداً، أي العـربية الصحراويـة، الذي هو العربية الثـالثة، ومجدداً يجد هذه العربية، العربية المباركة، وهي منطقة واسعة وجليلة، فيها تقوم

مـدينة محمـدﷺ المتقـدم ذكـرها، وتضـم هـذه العـربيـات الأربع مناطق واسعـة جـداً، وتحوي بين حـدودها: البحـر الكبير، والخليج العـربي أو البحـر الأحمر، والخليـج العـربي، ويمـر بها أنهار الجنة الأربعــة: النيل، والفرات، والدجلة، وPison ، هذا وكما أن العربيــة الصحراوية هي أرض بلاثمرات، وهي بلاد سيئة جـداً، ومع ذلك فإن العربيـة الأخرى التي اسمها العربيـة المباركة هي مثمرة جداً، وأرض فـائقة الجودة، وقد كان اسمهـا فيها مضى جيـدروسيا Gedrosia، وهي ليست بعيدة عن مصر ، فيهـا الذهب بكميــات وافـرة، وهو يستخـرج بعــد الحفـر من أخـاديد، مصنعـاً من دون أي فن، وعلى هذا لايجري تذويبـه بالنار، بل يوجــــد في الأرض بوضـع نقي طبيعـي، على شكل قطـع على حجم الجوزة، واسـم هذه العــربيـــة أيضـاً سبأ، ومـن بلادها يتم انتــاج جميع الاشيـاء التي تعـدّ في بلادنا ثمينة جـداً، وهي غنيـة جـداً بجميع أنواع القطعان والأسراب.

فضلاً عن هذا هي متفوقة على جميع الدول بالعطور والروائح الطيبة، التي تنتجهـا تربتها في كل مكان، وينمـو في الأجزاء القـريبة من البحـر البلسم والسنّا، ويوجــد في الغـابات أشجــار كثيرة من المرّ، والبخـور، ومثل ذلك هناك أشجـار النخيل، والقصب، والقـرفة، ومـاشـابه ذلك، وفي الحقيقة مـامن أحد يمكنه القول كـم من مختلف أنواع الأشجار هي التي جمعتها الطبيعة بكرم هناك، وحول هذا الموضوع يمكن للقارىء أن يعود إلى ديودور، الكتـاب الثالث، الفصل:١٢، والكتـاب الرابع، وهذه البـلاد المباركـة والخصبة تختلف عن العربيـة المجـاورة لها، أي العربيـة الحجرية والقفار، وكأنها تبعد عنها ألف ميل.

وتتطلع عربيـة الصحراء هذه نحـو الغرب، وهي مليئة بالـرمال، إلى حد أن الذين يعبرونها يقودون أنفسهم بنجم القطب، وذلك مثلما يفعل البحـارة في البحـر، وفي هذا المكان سـوف أتحدث فقط عن قفـار سين،

التي تبـدأ عند الأرض المقـدسـة، وسفـوح جبل سينـاء، وتنتهي عند شـاطيء البحـر الأحمر في أرض مـدين، وكـون جبل سيناء مـوجـود في العربيـة واضح من كلمات الرسول في غـلاطية:٤، حيث قـال بأن جبل سيناء في العـربية، وهو يقـابل القـدس الحاضرة وبالطريقـة نفسها قـال هيمو Haymo(ت٨٥٣) في شروحه(على نشيد سليمان وسفر الرؤيا): « سيناء جبل في العـربيـة، وهو بسبب ضخـامتـه يتـاخم مناطق متعـدده، وتتصل حـدوده بجبال أرض الميعاد، التـي فيها القدس»، وهـذه القفار كلهـا اسمها سين، ومـع ذلك هناك كثير من القفار المتميـزة مثل قفـار: إيثـام، ومـارة، وإيليم، ودفقـة، وقفـار فيـديم، وحضيروت، ورثمـه، وقادش، وهكذا دواليك، حسبما ورد في سفر العدد:٣٣.

ولهذه القفـار الآن أسماء عـربيـة أخرى، كما سـوف يظهـر في سيـاق الرحلة لدى الحديث عن الأماكن التي استراح فيها الحجاج، ونصبوا بها خيـامهم، وتحدثنا الكتـابات المقدسـةفي أمـاكن كثيرة عن هذه القفـار، وعن أنواعها وأوضاعها، وعن الأشياء التي تنقصها، ولنلاحظ الآن أن المكان يقـال له قفـار، بطرائق أربعـة— أولاً: يقـال للمكان قفـر أو صحـراء، عندمـا تستطيع القطعـان أن تسكن هناك، إنما ليس كما قـال اشعيـا:٣٥« تفـرح البرية والأرض اليـابسـة، ويبتهج القفـر ويزهر كالنرجس»، فهذا قد يحدث عندمـا يأتي الذين سوف يفلحونها، وكذلك بني ملوك الأرض ومشيريها فيها أماكن منعزلة لأنفسهم(أيوب:٣/ ١٤) ذلك أنهم حـرثـوا الأمـاكن المهملة، وشقـوا الأراضي المراحـة، وذلك حسبما قال الرب في(إرميا:٤/ ٣):« افلحوا أرضكم المراحة».

وهكذا أمـــر يوشع أبنـاء يوسف بتسلـق الجبـــال غير المزروعــة والمهجـورة، وقطع الأشجـار، وتنظيـف المكان، واعـداد مكان للسكنى فيه(يسوع:٢١٧/ ١٥ ,١٧—١٨)، علاوة على ذلك إن الأماكن والمناطق التي كانت من قبل مسكونة، لكنها الآن غير مسكونة، يطلق عليها اسم

القفار، كما ورد في نحميا:٢، فقد قيل عن المدينة المقدسة، حين لم تكن آنذاك مدينة:«القدس خراب»، وجاء كذلك في اشعيا:١:« بلادكم خربة، مدنكم محرقة بالنار»، وقد حدث هذا بسبب الناس الآثمين، ولذلك جاء في المزمور قوله:«والأرض المثمرة سبخة من شر الساكنين فيها»(المزمور:١٠٧/ ٣٤)، وبناء عليه نقرأ في متى:٢٣:« هوذا بيتكم يترك لكم خراباً» ، وفي المزمور:٦٩/ ٢٥:« لتصر دارهم خراباً».

والطريقة الثانية التي يمكن للمكان أن يسمى بها قفراً، هي فقط لأن الناس لايسكنون هناك، مع أنه قد تكون هناك بساتين، وحقول، ومروج، ومراعي، وحدائق، وماشابه ذلك، كما جاء في لوقا:١٥، قوله:« يترك التسعة والتسعين شاة في البرية»، أي في مكان المرعى، وقد اقتاد موسى شعبه إلى الجانب الخلفي من الصحراء(الخروج:٣/ ١)أو إلى المراعي الخصبة، وعن مثل هذا النوع من القفار قال إشعيا:« سوف أعمل من القفار هناك(أي قفار الأرض المقدسة) مثل أماكن البهجة، ومن أماكنها المقفرة مثل جنات الرب»(اشعيا:٤١؟).

وثالثا: ان المقصود بالقفار، أماكن الغابات أو الحقول، المغطاة إما بالحشائش أو الجرداء، التي لايسكنها الناس، بل التي تسعى فيها الأسود، والدببة، والغزلان، والذئاب، والحيوانات الأخرى، من وحوش البرية، وذلك حسبما قرأنا في انجيل مرقص:٣:« ودفعت الروح يسوع إلى القفر.... فكان مع وحوش البرية»، وبمثل هذه القفار لايمكن للناس العيش، لكن يمكنهم ذلك، إذا نمت هناك أشجار، وتوفرت هناك مياه تمكن الحيوانات من العيش هناك، مثلما كان عليه الحال في قفار يوحنا المعمدان، وفي قفار القديس جيروم، لأن من المؤكد أنه حيث وجد في أي مكان، أسد، ودب، وذئب، ووعل، وأمكنهم العيش فيه، يمكن للانسان أن يعيش هناك، وفي أي مكان يستطيع الانسان أن يطعم نفسه، يمكن لحيوانات البرية أن تفعل مثل ذلك،

والفـارق مـوجـود فيما يلي: ليس من الضروري للحيوانات استخـدام النيران في أطعمتهـا، في حين لايستطيع الناس العيش من دون نار، هذا وقـال بليني في الكتـاب السـادس، بـأن النار لم يُعـرف استخـدامهـا في الشرق من قبل عـدة شعوب حتى أيام بطليمـوس، ملك مصر، فوقتهـا حصلوا على النار، لكن المعلم أنطونيوس لايعتقد بأن أولئك كانوا بشراً حقيقيين، لأنـه لم يـؤمـن بـأن الانســـــان يمكنـه العيـش مـن دون نار(التـاريخ— الجزء الأول، العنوان الأول، الفصل الخامس، الفقـرة الأولى).

ورابعـا— وهو الأكثـر احتمالاً— أن شطراً من العـالم يـدعى باسم قفـار، لأنه لاينمـو هناك شيء من أجل الانسـان أو الحيـوان ليأكله، كما لاتنمـــو هناك لاأشجـــار ولاأعشـــاب، وبذلـك لايمكن لاللبشر، ولاللحيـوانات، ولاللطيـور أن تعيـش، وذلك بسبب الحاجـة إلى الماء، وبسبب حـرارة الشمس التي لاتحتمـل، من ثم بسبب جفـاف الأرض، وبكلمة مـوجزة بسبب انعدام جميع الأشيـاء المرتبطة بدعم الحياة، ومثل هذه القفـار، هي التي تمتد من غـزة إلى جبل سيناء، ولايوجـد مثل هذه القفار في ألمانيا، أو فرنسـا، أو ايطاليا، مع أنه من الممكن أن يوجد هناك أماكن صحراوية، وفقاً للمعنى الأول للكلمة، أو الثاني، أو الثالث.

وهناك انعدام لكل شيء في هذه القفار الكبرى، وورد ذكر التعاسات التي من الممكن تحملها هناك في أجزاء كثيرة من الكتـابات المقدسة، من ذلك جاء في سفر التثنية:٨/ ١٥، قـوله:«الرب سار بك في القفر العظيم المخوف مكـان حيّات محرقة وعقـارب وعطش حيث ليس مـاء»، وقال أيضـاً في سفـر التثنيـة:٣٢/ ١٠:«وجـده في أرض قفـر»: وقـال في اشعيا:٢١/ ١ عن القفـر بأنها«أرض مخوفة»، وعندمـا تذمر بنو اسرائيل، نقرأ في سفر العدد: ٢٠، بأنهم قالوا:«ولماذا أصعد تمانا من مصر لتأتيابنا إلى هذا المكان الرديء. ليس هو مكان زرع وتين، وكرم، ورمان، ولافيه

ماء للشرب».

ووردت أخبار شكاويهم في سفر الخروج:١٦، وفي سفر العدد:١١، حيث تبرهن في هذه النصوص عن الحاجة لجميع الأشياء في القفار، وأجمل ارميا(٢/ ٦)وصف العوز في القفار أثناء توجيه الملامة إلى اليهود لنكرانهم للاحسان بقوله:« صار اليهود باطلاً(أي ناكرين للاحسان) ولم يقولوا أين هو الرب الذي أصعدنا من أرض مصر، الذي سار بنا في البرية في أرض قفر وحُفر في أرض يبوسة وظل الموت في أرض لم يعبرها رجل، ولم يسكنها انسان»؟، ودعيت هذه القفار في يشوع:٥(؟) باسم القفار الطويلة جدا، والعريضة للغاية، وعلاوة على هذا نقرأ في سفر التثنية:١/ ١٩«وسلكنا كل ذلك القفر العظيم المخوف»، وفي الإلهيات:٦/ ٣:«أنت سوف.... تترك نفسك جافاًمثل شجرة في الصحراء»، وفي١٣/ ١٩:«الحمار الوحش هو صيد الأسد في القفار»، وأطلقت المزامير أيضاً على الصحراء اسم القفار بقولها:« حطم الرب الصخرة في القفار»، وقال الرب لموسى في الخروج:٣:« الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة»، وغالباً ماذُعي جبل حوريب باسم جبل الرب.

ودعيت القفار أيضاً من قبل الشعراء، باسم أرض الملح، وأرض المن، وأرض فونس Fauns،وأرض ساطيرSatyrs، ومن هذا كله يمكن للانسان أن يستخلص بعض الأفكار عن مزايا وأوضاع هذه الأرض الجيدة والسيئة والقفار.

أوضاع الصحراء أو القفار

أولا: تدعى هذه المنطقة أولا باسم صحراء مهجورة، لأنها— كما يمكن القول— مهجورة من قبل الرب، ومن قبل السموات ومن قبل الدنيا، فهي مهجورة من قبل الرب، لأنها فارغة وخاوية، وكأن الرب

قد استخدمها لتحسين بقية الكون أو تزيينه، وتبدو هذه المنطقة أيضاً وكأنها مهجورة من قبل السموات، لأنها تفتقر إلى التأثير اللطيف للنجوم، وتبدو وكأنها مغاضبة لهم، وكأنها تحولت إلى حديد، في حين السماء من فوق قاسية، وبلاعاطفة، ولاشفقة، ونتيجة لهذا فإن المنطقة مهجورة أيضاً من قبل بني البشر، الذين يتخلون عنها كأنما يتخلون عن شيء بلا فائدة.

وثانيا: تدعى هذه المنطقة باسم المكان المنعزل، من كلمه«يشتاق» الذي يطبق على البلدان، بسبب أنه لايوجد أي انسان يشتاق إلى تلك الأرض، وبسبب أنها أيضاً تفتقر إلى كل ماهو لطيف وجيد، ولأنه ليس فيها مايبعث على السرور، فما من انسان يشتاق إليها، أو ربما جاءت تسميها من«شدة التحمل»، وذلك بسبب قسوة تربتها، المتلاحمة مع بعضها بشدة متناهية، حتى أنه لايمكن تكسيرها لابالمسحاة ولابالفأس، ولابأي أداة حديدية.

وثالثا: يطلق على هذه المنطقة اسم مكان منعزل، لأنها منعزلة، ولايطرقها الناس، وهي أيضاً منعزلة لأنه مامن واحدة من البلدان القائمة من حولها ترغب في أن تكون لها علاقة بها، أو ان تكون مشابهة لتلك المنطقة، وغالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة باسم«القفار الواسعة»، التي هي غير موائمة لأي نوع من أنواع الفلاحة، وعلى هذا الأساس قال بنو اسرائيل عندما كانوا يتذمرون:« ليتنا متنا في أرض مصر وليس في هذا القفر العظيم»(العدد:١٤)، وورد الحديث عنها أيضاً في الكتابات المقدسة باسم«القفار الكبيرة»، أو هي غاية الوساعة في الطول وفي العرض، لأنها بالفعل، في كثير من الأجزاء عظيمة جداً، وطويلة جداً، وعريضة بلاحدود، إلى حد أنه لايمكن عبورها، ولايمكن العثور على انسان، قد وصل إلى حدودها نحوالشرق، لأنه طالما لايوجد فيها ماء، مامن انسان يمكنه أن يحمل روايا كبيرة من الماء

تكفيه لعدة أشهر.

هذا ويبدأ خلف هـذه الصحراء بالقيام جبـال مرتفعـة جداً، التي إذا ماتمكن انسان من تسلقها، فإنه يصل إلى أرض الجنة، غير أن الرب أقام على الطريق سيفـاً ملتهباً بحرارة لايمكـن قياسها، لأن حـرارة الشمس هناك عاليـة جداً، وكـذلك الجفاف في ذلك المكان، إلى حـد أنه من غير الممكن بالنسبـة لأي انسـان المرور خـلاله، حتى لـو كـان معـه جميع ضروريات الحيـاة، التي هي منعـدمـة كليـاً هناك، ومع ذلك بذل بعض الآباء المقـدسين من آباء الكنيسة— مـن ذلك على سبيل المثال القـديس مكاريوس مع بعض الآخرين— جهوداً—كما يقال— فوق طاقة البشر، ووصلوا إلى مناطـق جيـدة خلف هذه القفـــار، إنما لم يستطيعـوا شق طريقهم إلى الجنة.

وعــرفت أيضـاً بـاسم القفـار الـلامحدودة، لأنها لم تكن، ولن تكون مفيـدة للحـاجـات البشرية، وهي أيضـــاً تعـرف باسم القفـار المخيفـة والمرعبـة، وهي مخيفة بسبب ارتفـاع جبالها وشكلهم الغـريب، ومرعبـة بسبب عمق وديانها الذي لايمكن قياسه، وكذلك جروفها السحيقة.

ورابعـا: عـرفـت هذه المنطقـة باسم صـورة الموت، لأن كـل مـايراه الانسـان في تلك القفار يهدده بالموت، لأن هـذه المنطقة ليس فيهـا شيء يمكن للحيـاة البشرية أن تعتمـد عليـه، بل إن جميع الجبـال، والتـلال، والوديان، والطرقات بلاقع، تعـرض علامات الموت، ولون الأرض هنا ليس مثل لون الأرض المسكونة، بل إن ظل الموت منتشر فـوقها كلهـا، لأنها سوداء، محروقة، ثم انه لايوجـد شيء في تلك البلاد إلاّ ماهو خطر على الحياة البشرية، عـلاوة على ذلك ينمو في تلك الـوديان القرع البري السـام، فهـو ينمـو بغـزارة، ولذلك قيـل عنه في سفـر الملوك الثـاني: ٤/ ٣٩:«في القدر مـوت»، لأنه كان فيه يقطينـا من أكل منه مات، ولهذا السبب، ولأسباب أخرى أطلق على هذه المنطقة اسم صورة الموت.

وخامساً: وللسبب نفسه، دعيت تلك المنطقة باسم الأرض القاحلة، لأن مامن شيء ينبت هناك(العدد:٢٠).

وسادسا: انها دعيت باسم الأرض التي بلاماء، بسبب أن الماء منعدم فيها، وإذا تمّ العثور على أي ماء في مناطقها العميقة، تجده مليئاً بالعلق وآسن، ولذلك عرفت باسم أرض العطش، وإذا ماتوفر على السهل أية مياه جارية من أي نبع، فإن هذه المياه تكون مليئة بالزواحف، إذا كانت عذبة أو أنها تكون مالحة وغير قابلة للشرب، هذا وهناك في بعض الأماكن وديان تجلب مياها من نفسها وتحتفظ بهذه بالمياه لنفسها، عاملة سبخة عميقة، خطيرة على العابرين لها، وغالبا ماتشكى بنو اسرائيل بسبب الحاجة إلى ماء، وعانينا نحن أنفسنا من العطش، كما سنتحدث فيما يلي.

وسابعاً: عرفت هذه الأرض لدى إرميا باسم أرض الملح(ارميا:١٧/٦)في قوله«ويكون مثل العرعر في البادية ولايرى إذا جاء الخير بل يسكن الحرة في البرية أرضاً سبخة وغير مسكونة»، وفي الحقيقة نجد أن الندى الذي يتساقط على تلك الأرض، يرش عليها الملح ويغطيها به، ويلوث الأعشاب والحشائش، وذلك لدى توفر أي شيء من هذا النوع.

علاوة على ذلك، إن أي ماء يتم العثور عليه بالحفر في الأرض، يكون شديدالملوحة، وتم العثور هناك على واد، ينتج الملح الرطب منه نفسه، وماأن تتعرض هذه الرطوبة إلى حرارة الشمس حتى تتحول مباشرة إلى ملح، ويحدث أيضاً أن الرطوبة تتحول في الشتاء إلى صقيع أشيب اللون، فتقوم الشمس بصنع خوازيق حادة من الملح الصرف، وبذلك يصبح المكان كله وعراً يجرح أقدام الذين يرتحلون فوقه، حتى وإن كانوا مرتدين لأحذية.

وثامنـا: عــرفت تلـك المنطقــة بـأنها بلاممرات، حيث جــاء في المزمور(٦٣/ ٢)قـوله:«في أرض بلاممرات(ناشفـة)ويابسة بلامـاء»، وقد قيل لها أرض لايمكن عبـورها، لأنه لايوجد ممر فيهـا وخلالها، وهكذا قال جيروم في رسالتـه«حول الاحتفال بالفصح» بأن الذين يسيرون من دون ممر مطروق في الأجـزاء الداخليـة مـن القفـار الجنوبيـة، يوجهـون مسيرهم بالنجـوم، لأنه لايمكن توفـر ممرات ثابتة في القفـار، حتى وإن طرقت يوميــاً من قبل الناس والحيـوانات، وسبـب ذلك أن في القفـار رياحاً شديدة، وزوابع عنيفة، يجري بها حمل الرمـال ونقلها بقوة شديدة تجعلهـا تغطي وجــه الأرض كلهـا، وهكذا تتحـرك الرمـــال مع الريح وتتنقل مثـل الميـــاه الجارية، ولهذا السبب أطلـق بعضهم على القفـــار اسم«بحر الرمال»، وعلاوة على ذلك نجد هناك جبالاً عالية من الرمال تتـولى الزوابع نقلهـا من مكان إلى آخر في ليلة واحـدة، وبناء عليـه فإن الذي هو اليـوم سهل منبسط تجده في اليوم التـالي جبلاً عـالياً قـد تكوم هناك، ويحدث تنقل الجبال على هذه الشـاكلة يومياً في الأنواء العـاصفة، ومع ذلك لايحدث نقل الكتلة المتجمعـة كلهـا دفعـة واحـدة، بل الذي يحدث هو نسف القمــة أولاً بالريح ثم البقيــة حتى الأســاسـات على الأرض، ومن ثم تتجمع في مكـان آخـر، وبذلك يتشكل جبل جـديد، على بعد أربعة أميال أو خمسة من المكان الذي وقف فيه الجبل السالف.

ويحدث أحيـانـاً امتـلاء وديان عظيمـة بـالرمـال، واذا مـــااستمـرت العاصفـة في مكان من الوادي، يقوم هناك جبل، وهكـذا نجد في المكان الذي قـام فيـه قبل ثلاثة أيام مضـت واد عميق، قـد انبعث هناك جبل مـرتفع، ومثل هذا فإن الجبــال الصخـرية غير القـابلة للتحـرك تتغطى بالرمـال المتدفقـة، وبذلك يصير الجبل الذي رآه الانسان بالأمس جبـلاً من الصخـور، اليوم لايراه ولايجده بل يرى جبـلاً من الرمـال، ولذلك لايمكن أن يتوفر في القفار ممر ثابت، لأن هناك عواصف رملية كل يوم

تقريباً، وذلك مثلما هناك عواصف مائية في البحر، والعواصف الرملية خطيرة جداً، لأنه وقتها يكون وجه الأرض كله جيشان، والإنسان لايستطيع رؤية شيء إلاّ رمال مندفعة بسرعة عالية، وذلك مثل المياه، ومع هذا كله الهواء كله مليء بالغبار، وكأن هناك سحباً منه، ولذلك لايتجرأ الانسان على ابقاء عينيه مفتوحتين، بسبب دخول الرمال إليهما، غير أنه من جانب آخر مرغم على فتحهما ليرى أين هو ذاهب، وتطير الرمال بقوة إلى حد أنها لاتؤذي العيون فقط، بل تجرح جسد كل من يعرض جلده لها.

وإذا كانت الريح قذرة، وكان الرحالة يسيرون في مواجهة الريح، فإنهم يصابون بالعمى، ويختنقون أحيانا، وفي الحقيقة تكون العاصفة أحياناً قوية إلى درجة أنهم لايستطيعون السير في مواجهتها، بل يرغمون على مسايرة الريح، وطوال استمرار العاصفة، تجدهم مكرهون على إدارة ظهورهم لأميال كثيرة إلى المكان الذي إليه كانوا ذاهبين، ولولا أن الطبيعة علمت الجمال، استطاعة السير بدون توقف فوق أرض لاممرات واضحة عليها، وذلك دونما خطأ، لما تمكن الناس من العبور خلال القفار، هذا وهناك خطر آخر اضافي، هو أنه عندما يكون هناك أي وادي، أو هوة، أو منحدر، قد امتلأ حديثاً بالرمل، يمكن للدواب والناس عندما يعبرون فوقهم مع حمولاتهم أن يغطسوا في الرمال، ويحدث في بعض الأحيان غرقهم تماما، لأن رمال الصحراء ناعمة جداً، وبناء عليه هي أفضل أنواع الرمل، لوضعه في الساعات الرملية.

وتولى ديودور، العميق المعرفة، الذي تجول حول آسيا لمدة ثلاثين سنة، الحديث عن خطر آخر للصحراء، في الفصل الخامس من الكتاب الأول من«تاريخه القديم»حيث قال يوجد بين سورية ومصر سبخة عميقة جداً، اسمها سبخة السربونيانيه Serbonian، التي هي ضيقة جداً، وتمتد أكثر من مائتي غلوة طولاً، وهي في بعض البقاع غير المعلمة

تستــدرج الناس إلى الخطر، وهــم الذين لاينظرون نحــو الأمــام، لأن السبخة ضيقة، وهي محاطة من جميع الجهات بتلال رملية، وعندما تحرك الرياح هذه التلال تنقل إلى المياه كميات كثيفة من الرمال، وعندما تمتزج هذه الرمـال بالماء، تبـدو وكـأنها أرض قـاسيـة، ويعـود من غير الممكن إخبـار أية بقعـة هي مـاء وأيها أرض يابسـة، ولذلك فإن كثيرين ممن لم يعـرفوا طبيعـة المكان، ولم يتعلمـوا كيف يرتحلون على هذا الطريق، قـد وقعوا في السبخة وغرقـوا هم ومن كان معهم، لأنهم بمجرد ماأن يدخلوا الرمـال— الـرمـال التي تبـدو عـن بعـد كأنها أرض صلبـة وثـابتـة— يغــوصــون فيهــا أعمق فأعمـق، ولايستطيعــون بعــد ذلك التراجع بخطواتهم، أو الثبات فـوق ماهم عليه، بل يغوصـون في رمالها السريعة، وعندمـا يغوص انسـان في الرمال الناعمـة يفقـد الأمل بالسلامـة، لأنه لايستطيع الصراع أواستخـدام قواه، بل إنه يغـرق في الرمـال الممزوجـة بالماء، التي تشبـه الصلصـال، والتـي لايمكن السفـر عليهـا لابالأقـدام ولابالقوارب، ولذلك تعرف باسم المتاهة. فهذا ماذكره ديودور.

وبسبب هذه السبخـة، فإن الذين يعبرون الصحـراء، لابد لهم من أن يجلبوا معهم بوصلة عريضة، خشية الـوقوع في المخاطر، ولسوف نتوسع بهذه القضيــة فيها بعـد، ذلـك أن مـاقيل فيــه كفــاية لتبيــان لماذا قيل للقفار «بلاممرات».

وتاسعــاً: لقــد قيل بـأن هذه هي الأرض التي لايمكـن لانســان عبورها(ارميا:٢/ ٦، يهوديت:٥؟) ومن الممكن فهم هذا بطريقتين: إمـا أنه في البـدء، أي قبل بني اسرائيل، مامن انسـان عبر فوق هذه القفـار، على الطريق الذي اقتيدوا عليه، وهذا أمر صحيح، أوعلينا أن نفهمه بأن مامن انسـان سار على قدميه فـوق هذه القفار، وهذا مثل ذلك صحيح، لأن الانسان لايستطيع العبور على هذه القفـار مالم تكن لديه دابة يمكنه أن يركـب عليهــا، وحمل زاده، وذلك بسبب حـرارة الأرض، وأيضــاً

بسبب انعـدام الطرق، والأشياء التي يحتـاجها لبقـائه حياً، وهـي أشياء لايمكنه أن يحملها هو نفسه.

وهكذا عندمـا يئس النبي إيلياء من انجـاز رحلته، ألقى بنفسـه تحت ظل شجـرة رتمه، وتوسل أن يمـوت هنـاك، ولولا أن مـلاكـاً جلب له طعامـاً وشراباً منعشاً، لم يكن ليحـاول القيام بهذه الرحلة بنفسـه(الملوك الأول:١٩/ ٤—٧)، هذا ومن الممكن أن يقوم كثير من الناس بالارتحال خـلال الصحـراء، وليس شخصـاً بمفـرده، ومع ذلك من الممكن لكثير من الناس أن يضيعوا طريقهم، لأنه غالباً مايحدث أن تثير الرياح العنيفة الغبـار، بشكل كثيف يبلغ حـداً، أن لايستطيع الانسان رؤية رفيقـه، كما لايتمكن من سماعه، وإذا حدث وأخذت الدابة التي يركبها طريقاً آخر، فإن ذلك الانســان يهلك، وإذا—على هذا— كـان هذا يحدث، عنـدمـا يكون كثير من الناس مـرتحلين مع بعضهم، فكيف يمكن لانسـان، مهما كان، أن يرتحل لوحده؟.

وعـاشراً: لقـد قيل بأن مـامن انسـان يستطيع السكنى في الصحـراء، ولهذا عـرفت بالأرض غير المسكونة، وهذا صحيح كقاعـدة، ومع ذلك لقد عـاش بعض الآباء المقدسين للكنيسـة هناك، عاشـوا حياة الملائكة، وليس حيـاة البشر، وفي هذه الأيام يقطـن البـداة العـرب هناك، لكنهم يعيشـون حيـاة البهـائم وليس حيـاة البشر، هذا وعندمـا قيل بأنه حتى البهـائم لايمكنهـا العيش هناك، ومع ذلك يعيش البـداة العـرب هناك، فإن هذا لايعنـي أنهم يعيشـون بـوسـاطـة معجـزة، مثـل بني اسرائيل، ولامثل الملائكة مثلما فعل النسـاك المقـدسـون، كما أنهم لايعيشـون مثل البهـائم من دون عمل بشري، بـل مثل الشيطان، لأن الشيطان يتجـول هنا وهناك وهو يبحث عمـن يمكنه إلتهـامـه، وهكذا تجدهم يتجـولون حـول تخوم القفار، ويقـومون بنهب وسلب الذين يعبرون هذه القفـار، وعلى هذا هم شيـاطين مجسدين، لايعيشون حيـاة بشرية، كما سنرى فيما

بعـد، وفي الحقيقـة هذا المكان غير مـوائم لأن يعيـش به الذين يرغبـون بممارسـة حياة حضـارية، ولهذا قيل:« لايمكن أيضاً لأي ابن انسـان أن يسكن هناك فيهـا»، لأنه كما هو مشـاهد الأرض كلهـا تقـريبـاً رمليـة، وصخـرية، أو مثل كلس محترق، وبذلك هي غير مـوائمة للحـدائق، أو الحقول، أو الكروم، أو للسكنى.

وأحد عشر، عرفت هذه المنطقة باسم بلاد الأفاعي، والعقارب، والـ Dipsades[من أنواع الأفـاعي التي يسبب لدغهـا عطشـاً لايحتمل]، والهوام، والتنينات، وبما أن هذه البـلاد واسعة جـداً، فيها أنواع متنوعـة من المخلوقات السامة في مناطق مختلفـة، ولقد جرى إرسال أفاعي نارية على بني اسرائيـل بسبب تذمـــرهم(العـــدد:٢١/ ٦، أخبـــار الأيام الأول:١٠/ ٩)، وكثير من الأمــاكـن في القفــار مليئة بحفــر جحــور الأفـاعي، وبعضهـا الآخـر مليء بالعقـارب وفي المناطق التي فيهـا الماء، هناك بعض التنينات والتماسيـح، وأنواع أخـرى كثيرة من الحيـوانات، وذلك حسبما قـرأنا في «حياة الآباء»، وعـاينينا نحن— على كل حـال— من نوع واحـد فقط، وكـان ذلك ديداناً مـدورة، كل منهـا بحجم حبـة البندق، وكـان لونها أسود، ولها أقـدام كثيرة، ولذلك يطلق عليهـا اسم قملة فـرعون، والأرض في بعض الأمـاكن مليئة بهذه الديدان، وعندمـا يكون الانسـان نائماً يأتون إليه سراً، ويمتصون دمـه مثل القمل، وبعـد قـرصتهم تبقى هناك ندبة، وتبقـى هناك عـلامـة زرقـاء مشـوبة باللون الأحمر، وحجمها مثل حجم البنس، الـذي عليه علامـة الصليب، ومالم تعالج الندبة على الفـور بالدهن، وبحكها بعصير الليمـون، فإنها تتحول إلى جرح قذر لايمكن علاجه.

وإلى جانب هذه الـديدان تنتج الأرض أنواعاً متعددة مـن الحيوانات الصغيرة جـداً، التي تعيق استراحـة الناس، عـلاوة على ذلك تتجمع في كل لحظة أعـداد لاتحصى من القمل من مختلف الأحجام، على مـلابس

الانسان.

واثني عشر: عـــرف هذا المكان بـاسم« المكان الـرديء»، أو«المكان الشرير»(العدد:٢٠/ ٥)، وقد عرف هكذا بسبب الشرور المتقدمة الذكر، وبسبب سـوء الهواء وكـونه ملوثاً، ذلك أن الهواء في القفـار سيء جـداً، وقـاسيـاً للغـاية، مع أنه قـد يكون في بعض الأحيـان نـاعماً إلى أبعـد الدرجـات، كما أن الحرارة لاتحتمل، والبرد لايمكن قيـاسه، ويجد المسافـرون أنفسهم في ساعة من السـاعات في أحد الأماكن وقـد كادوا يحترقون من الحر، أو بالحري كأنهم في أتون، وتجدهم بعد أمد قصير من ذلك وهم يعانون من برد شديد جداً.

وثالث عشر: هذه المنطقة هي موطن فونس وساطير ، اللذان هما إلها القفـار والبساتين، وذلك وفقـاً للديانة الزائفة لعـامة الناس في القـديم، وقد اعتـادا في الأيام الخالية أن يعلنا للناس عن أشيـاء سوف تحدث في المستقبل، لكن ليس بوسـاطة العـلامات، بل بصـوتيهما، كما كـانا يبينان الطريق للذيـن تاهوا في القفـار، وعلى هـذا نقـرأ في«حيـاة الآباء»، بأن القـديس أنطوني، عندما كـان يبحث عن بولص في القفـار رأى أمامـه رجلا ملتصقـاً إلى فرس، من نوع المخلوقات التي أطلق عليهـا الشعراء اسم سنطور Centaur، وعند رؤية ذلك، شجع نفسه بعـلامة الصليب وقـال:« من أنـت، أيها السيـد الشـاب، وفي أي مكان مـن هذه القفـار يسكن عبد الرب»؟ وبعـد مالاك الوحش بعض الكلمات غير المفهـومة بين أسنانه ونهشها بدلاً من أن يتفوه بها، نطق أخيراً بصوت ناعم جداً، وبمدّه ليـده اليمنى، أشار إلى الطريق المطلوب، وبعد ذلك عـدا مبتعداً، كأنه يطير فـوق السهل المفتـوح، واعترت انطوني الدهشـة تجاه مـارآه، ومضى سـائـراً على طريقه، وبعـد قليل رأى في واد صخـري رويجل له أنف معكوف وقـرنين خشنين على جبهتـه، والقسم الأسفل من جسـده انتهـى بظلفـي تيس، ولـدى رؤيـة انطـوني لهذا أمسـك بترس الإيمان،

وأعطاه المخلوق المتقـــدم الذكـــر ثمار التمـــر، ليكون لـه زاداً من أجل رحلتـه، وكأن ذلـك عهـد سـلام، وعندمـــا فهم أنطوني هذا، أسرع في سيره، ولدى ســؤاله له من هـو، تلقى منه الجواب التـــالي:« أنا مخلوق فـاني، وواحـد من السكان في القفـار، اقتـــاده الكفـار، وأضلوه بذنوب كثيرة، فـدعوت فـونس وسـاطير وبت مسكوناً، وأنا أحمل إليك رسـالة عهد إليّ بحملهـا من قطيعي، حيث أننا نرجـوك أن تصلي إلى ربنا العام وذلك لصـالحنا، لأننا نعرف بأنـه نزل منذ وقت طويل مضى، من أجل خلاص العالم».

وعندمـا فـرغ الوحش من كلامـه هذا، بكى انطوني بـدموع الفـرح، وضرب بعصاه على الأرض وقال:«الويل لك يااسكندرية، لأنك عبدت هذه الوحـوش كـــآلهة، مـالذي يمكنك قـولـه لوحش تحدث هكذا عن المسيح»، ومـاكاد يفـرغ من كلامـه حتى هرب ذلك المخلوق المسلوب، واختفى بسرعة كأن له جناحين، وفي احـدى المرات تمّ جلب واحد من هذه المخلوقـــات إلى الاسكنـدرية، وشكل بذلك منظـراً هائـــلاً للناس الذين كـانوا هناك، وعندمـا مات جـرى تمليح جسـده، خشية التـلاشي والزوال في حـرارة الشمس، وأرسل إلى انطاكيـة حتى يراه الامبراطور، وأنا لاأعتقد بأن هذه المخلوقـات هي أبناء فونس وسـاطير، على أساس أن هؤلاء من البشر، في حين أن هذين كـانا من الحيـوانات المتـوحشـة، هذا ومن الممكن أن الخطيئة قد قـامت حولهم في أيام فـونس أوساطير، وأنه في تلك الأيام شرعت النساء تتقول حولهم.

رابع عشر: ان القفـار أو الصحراء، هي مكان الشيطان، وهكذا نقـرأ في توبت:٨، بـأن رئيس الملائكة رفـائيل قـد بعث أسمـــوديوس As-modeus إلى القفار في أعالي مصر، وكذلك جُلب الرب إلى القفار، حتى يتمكن الشيطان من أن يجده هناك.

وفي الأيام الخوالي، عندما كان الناس يرغبون في ممارسـة حياة مقدسة

كانوا يذهبون إلى القفار، بسبب توفر الصفات الستة التالية هناك، وبناء عليه قام القديس جيروم في«أحكامه»: الفصل التاسع بمدح القفار قائلاً:«أيتها الصحراء المزدهرة بعشر وردات، ماأجمل مكانك المنعزل حيث نمت الصخور والحجارة التي منها بنيت المدينة المقدسة، ماأروع فضائك العادي المبتهج بالرب» وهكذا إلى أن قال:« بالنسبة لي المدينة سجن، والقفار جنة، ولأن القفار غير مكتظة، فإن الحقيقة غير مشوهة»، فهذا ماقرأناه هناك ولذلك أقنع جيروم كثيراً من الناس بالدخول إلى القفار، وبشكل خاص الشماس بريسيديوس Presidius، الذي إليه كتب في رسالته حول هذا الموضوع:« لقد رأيت مؤخراً الأماكن المهملة في مصر، ورأيت أسرة الملائكة، وشاهدت كم هنا كثيراً من الورود وهناك، وكم من المروج المزينة باللآليء الروحية، وأكاليل تتوج بها الرب، والنار تلتهب في صدرك، ولذلك فكر يومياً حول هذه الأشياء، وتأمل حولهم، واشتق اليهم».

وتشوق جيروم نفسه شوقاً عظيماً إلى الصحراء، وبناء عليه قال في رسالته إلى ثيودوسيوس وإلى النساك الآخرين:« هل ياترى سوف يمكنني رؤية القفار، التي هي أكثر بهجة من أية مدينة، وهل سأتمكن من رؤية تلك الأماكن الخالية من السكان»الخ، ومثل هذا قال أوغسطين في Epistola ad pastores:« هناك قفار مليئة بآلاف من عبيد الرب».

وخامس عشر: الصحراء مكان للاغواء، حيث تحدث ربنا أنه لم يتعرض للإغواء في أي مكان إلاّ في القفار(مرقص:١،ومتى:٤)، ومثل هذا أغوى الرب البطارقة القدماء، وبني اسرائيل، بطرق متنوعة، حسبما جاء في سفر الخروج:١٦، وفي سفر التثنية:٨، حيث قال:« سار بك الرب إلهك هذه الأربعين سنة في القفر لكي يذلك وليجربك»، كما قال أيضاً في التثنية:٨:« وقد جربك الرب ليعرف مافي قلبك أتحفظ وصاياه

أم لا»، عــلاوة على ذلك أغـوى بطارقـة الأيـام الخوالي الرب هنـاك، ولذلك قـال المزمور:« في القفار أغـواني آباؤكم»(المزمـور:٩٥/ ٩) وقال ثانيـــة:« وجــــربـوا الرب في قلـوبهم بســؤالهم طعـــامـــاً لشهـواتهم»(المزمـور:٨٧/ ١٨)، وجاء مـن جهة ثانيـة مكتـوباً في(سفـر التثنيـة:٦/ ١٦):« لاتجربوا الرب إلهكم»، وقام جيروم في رسـالته حـول الإغواءات، بتعداد عشر إغواءات تعرض لها بني اسرائيل في الصحراء.

وسـادس عشر: القفار مكان يمكـن الحصول فيـه على سرور عظيم، وبناء عليه حصل البطارقة المقدسون بعد توبتهم في القفار، على الأرض المقدسة، واعتاد قديسوا العهد الجديد على الذهاب إلى القفار، من أجل الحصول على السرور الأعظم.

وســابع عشر: إن القفـــار هي المكان الذي أعطيت فيــه الشريعـة، وكذلك الوصايا، وذلك حسبما جاء في سفر الخروج:١٩/ ٢٠.

وثامن عشر: القفــار هي مكان المن ، والمواســاة السماوية، حيث أننا نقـرأ في المزمـور: ٧٨/ ٢٤ قولـه:« وأمطر عليهم منّا للأكل، وبّر السماء أعطاهم»، وقـال أيضاً في سفـر الخروج:١٦:« وفي هذا اليـوم إن الندى الذي يتســاقط حــول جبل سيناء هو منّ حلو، وبنـاء عليـه رأيتــه أنا شخصياً، وأكلت كثيراً منه»

وتاسع عشر: القفار مكان للتأمل، وللابتعـاد عن الدنيا، ولذلك كان الآباء المقدسون للكنيسة عندما يـرغبون بالاستغفار، يذهبون إلى القفار، ويفرون من الدنيا.

وعشرون: هذه القفـار مكان للخشــوع وللتفكر، وعلى هذا نقـرأ في المزمور قوله:«يشتاق إليك جسـدي في أرض ناشفة ويابسة بلاماء. لكي أبصر قـوتك ومجدك كما قـد رأيـت في قـدسك»[المزمـور:٦٣/ ١—٢]، وقـال مـرة أخـرى:« فقلت ليت لي جناحـاً كـالحمامـة فأطير وأستريح.

هاأنذا كنت أبعـد هاربـاً وأبيت في البرية»[المزمـور:٥٥/٦]، وليكن فيما قلناه كفاية عن وصـف القفار، والخبرة من الآن فصاعـداً سوف تُحدّث القارىء أكثـر حولها، وانظر رواية أخـرى عن القفار في ص١٣٦—ظ، وماتلاها.

البداة العرب الذين يسكنون في القفار، عاداتهم، ووقاحتهم وتعاستهم

إن سكان القفـار أو الصحـراء هو بـداة عـرب، وهـم أناس تعسـاء، ويشبهـون البهـائـم، وعن هؤلاء يقـول بعضهم بـأنهم أبناء اسماعيل وهاجر، وهـم يسمـون أنفسهم مسلمين، ويمنحهم بعضهم أسماء مشتقة من المنطقـة الأقـرب إليهم، فيطلقـون عليهم اسم المدينيين، ويسميهم آخرون البدو، في حين يدعوهم آخرون باسم الجزيري؟ Zigeri اشتقاقا من اسم الكلدانية Chaldaea ، وهي بلاد متصلة بالصحراء العربية الكبرى من الجهـة الشمالـيـة، ويقول آخـرون بأنهم قـد طردوا من مصر، وبين هؤلاء ديودور، في الكتـاب الثاني من« تاريخه القديـم» حيث يقول بأنه عندمـا حكم أكتيسانس Actisanes، الذي كان ملكاً لمصر، بعدل عظيم، أنهى أعمال السرقة، وفق طريقة جـديدة، فهو لم يعاقب المجرمين بالموت، ولم يتركهم مـن دون عقـوبة، بل إنه جمع المجـرمين كلهم مع بعضهم، وأنزل بهم عقـوبة خفيفـة، فقـد قطـع آنافهم، وأرغمهم على الذهاب إلى القفـار، وبذلك باتوا غير قـادريـن على إيذاء الشعـوب المجـاورة بشرورهـم، كما لايمكنهم إخفـاء الأخطاء التي اقترفـوها بحق بقيـة الناس، ثـم إنه بإرسـالهم، أو لنقل بنفيهم إلى القفـار، حيث هناك الحاجة إلى كل شيء، وقتهـا كانوا سيرغمـون بالضرورة على السعي من أجل عيشهم، ويعـرف هؤلاء بشكل عـام بـاسم«العـرب»من قبل جميع شعوب البلاد.

وليس لهؤلاء الناس مكان ثـابت للسكنى، بل يتنقلون نحـو الأمـام

ونحو الخلف في أرجاء هذه القفار، متسلحين بترستهم ورماحهم، ليس في الحقيقة من أجل القتال لأنهم نصف عراة، بل من أجل السرقة، والخوف منهم جعل المسافرين خلال تلك المنطقة يتجمعون على شكل حشود كبيرة، لأنهم بمساعدة أحدهم للآخر يمكنهم تجنب المخاطر المهددة، لأن هؤلاء الناس يسكنون فقط في القفار النائية وليس في القفار الداخلية، أو يسكنون في الأماكن التي لايمكن لاللانسان، ولاللحيوان ولاللطير أن يحصل فيها على عيشه، وهم ينصبون خيمهم في الأماكن التي يعتقدون بأن التجار أو المسافرين الآخرين سيمرون بها، وأيضاً حيث هناك سبخ لتأمين الشراب لهم ولقطيعهم، وهناك يسكنون في الكهوف في الصخور، أو في أكواخ معمولة من أغصان الأشجار.

وعندما يرون أي انسان قادم، يمتطون خيولهم، وحميرهم وجمالهم، ويصفون أنفسهم فوق الطريق، مع ترستهم ورماحهم، وتخرج نساؤهم من كهوفهم، وهن نصف عاريات مثل الرجال، وهن في غاية البؤس والقذارة، ويركضن والحجارة في أيديهن، ويتبعهن أولادهن، وهن جاهزات للحصول على حصتهن في السلب والنهب، وهم جميعاً يزحفون لمقابلة الغرباء بشكل هم متعطشون فيه للدماء، وهم أيضاً يصرخون، ويهزون رماحهم، وفي تلك الأثناء تقوم النساء ويقوم الأطفال، وهم يسيرون على أقدامهم برمي الحجارة، إنما عندما يلتقي الجمعان، يُحيّد البداة العرب حدتهم، ويطالبون بسلام بالخفارة، قائلين بأنهم سادة القفار وأصحاب جميع الأماكن التي ليست موجودة داخل أسوار، أو مغطاة بسقوف، أو محاطة بخنادق، وهكذا دواليك، وإذا رفضت الفئة الأخرى دفع الخفارة، لايسمحون لها بالمتابعة والسير مالم تكن أقوى منهم أنفسهم، وإذا ماشاهدوا ذلك، يتوقفون عن طلب الخفارة، ويتوسلون بتواضع من أجل الحصول على الصدقات، وهم

يقنعـون بدريهات، وإذا مـامنحوا بعض البقسـاط يتلقـون ذلك بسرور بالغ، ويسمحون للمسافرين بمتابعتهم ترحالهم.

إنما مـامن انسـان يمكنه مـواجهتهم من دون اضطراب، أو يستطيع التخلص منهم من دون أن يدفع لهم، لأنهم يتجـولون حـول الصحـراء على شكل مجموعات كبيرة وكثيرة، وإذا ماانتشر خبر بينهم، بأن رفاقهم قد قتلوا، أو عـوملوا بقسوة، تراهم يحتشـدون، ويتجمعون مع بعضهم ويضغطون بشـدة على الذين تصـدوا لهم، حتـى يتمكنوا من قهـرهم وسلبهم كل شيء كان معهم، ولهذا السبب قـال عنهم جيروم في رسالته إلى دار دانوس Dar danus وسماهم برابرة حيـث قـال:« يوجـد فيها وراء الأرض المقـدسة صحـراء واسعـة، مسكونة ببرابرة أشـداء»، وهـم يقـولون بأن هـذا المكان، وكـل مكان في الهواء الطلق هـو ملك لهم، ولذلك يطالبـون على كل طريق بالخفـارة، من العـابرين، وليس فقط في القفار.

هذا وإنهم يمكن أن يقولوا بأن القفار هي بلادهم، وملك لهم، ذلك أنهم يسكنون فيها من دون وجود أي مدينة، أو قرية، أو قلعة، أو بيت، يسكنون في كهـوف بالصخـور، وفي خيـام، وليس لديهم أية وسـائل للعيش غير النهب والسلب، ذلك أنهم يعانون من عوز ومن فقر، حتى الكلب بيننـا لايستطيع تحمل ذلك، وإذا لم يمكنهـم الحصـول على أية منهوبات، يلجأون في سبيل دعم حيـاتهم إلى اعتماد السرقة، ولهذه الغاية يتركـون القفـار، ويتجـولـون ليس فقط في البلدان الشرقيـة، بل إنهم يصلون حتى إلى المناطق الداخلية للغـرب، وبناء عليه أنا لا أعرف لأي سبب عـرفـوا باسم«العـرب»أو«الكلدانيين»، بل اسم« جـزري»، أوكما يقول عامـة الناس جزريين Zigeuner (نور)، لأنهم قوم قـدموا من الكلدانية، وذلـك حسبما وردت الأخبار في Primo phys. supp. IV chron. lib ، ومن الكلدانيـة نزلوا إلى المناطق المجـاورة للعـربيـة

الصحراوية، ومن هناك انتشروا في جميع البلدان، انظر الصفحة ٨٠ من القسم الثاني.

ويعيش عرب القفار هؤلاء أعماراً طويلة جداً، وذلك على الرغم من تعاستهم، ويركض رجال ونساء لهم من العمر مائة سنة فوق الصحراء بخفة ورشاقة مثل الكلاب، وتجدهم دوما جائعين، وعطشانين، ونادراً مايطفئون جوعهم بالخبز، لكن عندما يقومون بصومهم المهيب، يخبزون الأرغفة في الرماد، ويأكلون لحومهم والدم يتقاطر منها، وإذا لم يكن بإمكانهم الحصول على نار من الحطب، يأتون بلحومهم النيئة فيضعونها فوق صخرة عريضة(ويضعون صخرة أخرى عليها)، وبذلك تجف اللحوم، وتصبح ساخنة بين الصخرتين، وإثر هذا يزيلون الصخرة العليا، ويحتفظون بالتحتا، لتكون بمثابة مائدة، وهكذا يأكلون لحومهم من دون أي طبخ.

وعلاوة على ذلك يقتاتون ويتعيشون على بعض الحشائش والجذور، ويشربون حليب الجمال والحمير، ويلوكون بأفواههم بعض البقسماط القاسي جداً، وعن هذه القضية تحدث جيروم في رسالته ضد جوفينوس Jovinus:«البداة هم عرب يأكلون الأسماك، وهم اسماعيليون، ويعيش جميع المتوحشون في القفار على حليب الجمال ولحومها، لأن هذا الحيوان من السهل تربيته، وهو يعيش بينهم في أنواء تلك المنطقة القاحلة، ويعدّون أكل لحم الأوز ذنباً من الذنوب»، وفي الحقيقة إن الأوزة التي تعيش على القمح، والجوز، والجذور، والخنشار، والشعير، ليست موجودة بينهم لأنهم لايمتلكون أي طعام من هذاالنوع، فهم يصطادون الأسماك من البحر الأحمر، ويطبخونهم على الصخور الملتهبة من حرارة الشمس، وهم يعيشون على هذا الطعام فقط.

زد على هذا، بما أنهم لايمتلكون مكان سكنى ثابت، يتجولون هنا وهناك خلال الصحراء، ويترحلون وقد نظموا أنفسهم على شكل

فئات، من أجل أن يساعد أحدهم الآخر في سبيل تجنب المخاطر التي تهددهم، ومن هذه الاقتباسات، من الواضح أنه في الأيام الخالية، كان غير مأمون المرور خلال القفار، مثلما هو الحال في هذه الأيام، وذلك بسبب هجمات البداة العرب، التي منها عانى مالوخس Malchus، كما ورد لدى جيروم في« رسالة الراهب الأسير»، حسبما جاء في« حياة الآباء».

ويبدو أن هؤلاء التعساء قد أومىء إليهم في سفر أيوب: ٣٠، حيث قال:« الذين كنت استنكف من أن أجعل آباءهم مع كلاب غنمي»، وفي الحقيقة لقد اعتقد شخصياً أنهم غير جديرين بالحياة نفسها فقال:« في العوز والمحل مهزولون عارقون اليابسة التي هي منذ أمس خراب وخربة. الذين يقطفون الملاح عند الشيح وأصول الرتم خبزهم. من الوسط يطردون، يصيحون عليهم كما على لص، للسكن في أودية مرعبة وثُقب التراب والصخور، بين الشيح ينهقون، تحت العوسج ينكبون»، ويبدو أن هذا النص قد قصد به أن يفهم حرفيا على أنه يعني هؤلاء البداة العرب.

وعندما لاتتوفر لديهم أسلاب، ولايمكنهم الاستمرار بالعيش في القفار، ويرغمهم العوز، يتجمعون على شكل جيوش، ويتركون نساءهم وأولادهم في القفار، ويقومون بالإغارة على بعض المناطق المجاورة، حيث يتمكنون أثناء الليل من اقتحام إحدى المدن أو القرى، فيفتحون أبواب البيوت، ويستولون على كل شيء يجدونه، ويعودون بعد ذلك إلى زوجاتهم وإلى صغارهم، وهم لايقتلون الناس، إلاّ إذا حدث ذلك صدفة، وهم يقترفون هذه الغارات في سورية وفلسطين ومصر، ويدخلون أحياناً إلى المدن الكبيرة، وينهبون عدة بيوت ثم يعودون مع أسلابهم، وأثناء اقامتي بالقدس قاموا بذلك في الظلام، وشقوا طريقهم مرتين إلى داخل المدينة للنهب، وقاموا باحداث شغب

وفـوضى هائلة، ومـا من أحـد رد عـاديتهم، ذلك أن جميع الناس قـد خافوا منهم، وهذا ليس غريباً بالنسبـة لإنسان عرف الكتابات المقدسة، لأنه في أيام الملوك الأقـوياء جـداً، وعندمـا كـانت البـلاد تعيش في ظل نظام قوي جـداً، قام البداة العرب بالافسـاد في الأرض، حيث قرأنا في سفـر أخبـار الأيام الثـاني:٢١، كيـف أن البـداة العـرب قـد دخلوا إلى القـدس، ونهبوا كل شيء، حتى أنهم حملوا زوجـات الملك والأولاد من بيته، وأزعج هؤلاء البداة العرب نحميا كثيراً أثناء اعادة بناء القدس مع الهيكل، حيث نقـرأ في سفر نحميا(الاصحـاح الثاني) بأن جشـم العربي كان بين الذين منعوه من إعادة بناء القدس، كما نقرأ عند نحميا نفسه في الاصحـاح الرابع بـأن البـداة العـرب حشـدوا أنفسهم وتجمعــوا ضـد العاملين على إعادة بناء المدينة المقدسة.

وأعتقـد انه إذا مـاحـاول أي انســان في هـذه الأيام إحـاطة القـدس إحاطة كاملة بالأسوار، والأبواب، والمغـاليق، سوف يبذل البداة العرب كل مـايستطيعـون لإعـاقتـه، وعن هؤلاء البـداة العـرب نقـرأ في سفـر المكابيين الثـاني:١٢، بأنهم حشدوا جيشاً مـؤلفاً من خمسـة آلاف رجل، وخمسمائـة فـارس، وزحفـوا ضـد يهوذا المكابي، لكنهم« هزمـوا من قبل يهوذا، وطلبـوا منه السلام، ووعـدوه بإعطائـه ماشيـة، ويجعله مسروراً بطرق أخرى، ثم إن يهوذا وجد أنهم سوف يكونون بالفعل نافعين له في أشيـاء كثيرة، لذلك أعطاهم السـلام، وبناء عليـه تصـافحـوا وغـادروا ذاهبين إلى خيـامهم»، ونجـد من هذا النص أنهم اعتــادوا على إزعـاج البـلاد في القــديم مثلما يفعلون الآن، هذا وقـد ورد ذكــرهم في سفـر المكابيين الأول:٢.

ومامن ملك أوحـاكم كان قط قـادراً على قهر هؤلاء البـداة العرب، وكما قال ديويور في الكتاب الثالث من« تاريخه القديم»الفصل:١٣:« بين سـورية ومصر صحـراء العربيـة، التي هي بلامـاء، وفيهـا ثمار في بعض

المناطق القليلة فقط، ولـذلك يقـوم شعبهـا بسلب الشعـوب المجـاورة، وهم لايمكن غلبتهم بالحرب، وهم يسكنون في منطقة بلاماء، ويحفرون آباراً معـروفـة من قبلهم فقط، هي التي تنقـذهـم من جميع المخـاطر من أعدائهم، لأن الذين يطاردونهم إمـا أن يموتوا عطشاً، لأنهم لايعـرفون مـواضع الآبار، أوأن يعـودوا وهم أحيــاء بعـدمـا هدّهـم التعب، ولهذا السبب إن البــداة العـرب الـذين يسكنون هذه المنطقــة لايمكن إلحاق الهزيمة بهم في الحرب، وهم يعيشـون أحراراً، ولم يكونوا قـط خاضعين لأي ملك أجنبي، من الآشوريين، أو المدينيين، أو الفرس، ومثل ذلك لم يكن الملوك المقدونيين قـادرين على اخضاعهـم، مع انهم امتلكوا جيـوشاً جـرارة»، كما وذكـر بأنهم كانوا يهاجمون القـوافل الملكيـة، أثناء عبـورها لبـلادهم، مثل مهاجمتهم لقـوافل الناس العاديين، ذلك أنهم لايوفـرون أحداً.

وضـد هؤلاء البـداة العـرب وضع الرب ثقله كله(اشعيـا:٢١)، وفي الحقيقة انهم غالبـاً ماأرغموا على مغادرة القفـار بسبب الحاجة إلى المياه، ووقتهـا كـانوا يأتون مع أزواجهم وأولادهم إلى احـدى البلدان، حيث كـانـوا ينصبـون خيمهم إلى جــانب الميـاه في مــراعي خضراء، ويبنون لأنفسهم أكـواخـاً، ويسكنون هناك، مجحفين بحق شعب البـلاد، حيث كانوا يستـولون على القطعان التي يصدفونها في طريقهم، ومـامن انسان يتجـرأ أن يلمسهم، وهــم لن يعـودوا إلى القفـار إلاّ إذا كــانوا محملين بالأسلاب، وذلك بعد استيلائهم على منهوبات كثيرة.

وهم يذهبـون إلى مصر، مثلما يذهبـون داخلين إلى البلدان الأخـرى، وذلك على الـرغم مـن السلطان ملـك مصر والمماليك، الـذين ينظـرون إليهم نظرة كراهية عظيمة، ولقد رأيتهم منتشرين متفرقين في كل مكان، في كل من سورية ومصر، وهم أيضاً يتجولون حول منطقتنا كما سنرى، وهـم لايحاولون الاستيــلاء على أية مــدينة، أو على أية قــرية، مع أنهم

بإمكانهم فعل ذلك، لأنهم يقولون بأنهم وحدهم نبلاء حقيقيون، يعيشون على النهب، وليس على العمل، ويمضون أوقاتهم خارج الأبواب في الحقول وفي الغابات، وهذا مايميز النبلاء عن الناس الآخرين، وهكذا دواليك، وهذا أيضاً هو موقف نبلاء سوابيا، الذين يرفضون قبول أي انسان يسكن في مدينة في مبارزاتهم، وبناء عليه، صحيح أن البداة العرب، تعساء كما هم، لكنهم أصحاب شموخ ونظرة عالية إلى أنفسهم، ويتفاخرون جداً بأنفسهم، وترى أزواجهم مزينات بالذهب والفضة والأحجار الثمينة، مع أن ثيابهن مهلهلة، ووجوههن قذرة للغاية، لأنه ليس لديهم ماء للاغتسال به، ويسكنون في خيام وأكواخ مليئة بالدخان، فقد جاء في سفر أيوب:٣٩/ ٦ قوله:« الذي جعلت البرية بيته، والسباخ مسكنه».

وإلى هؤلاء الناس الأشقياء.... توجه محمدﷺ بدعوته، وجذبهم إلى جانبه، وبذلك تمكن فيما بعد من اخضاع الشعوب الأخرى بالقوة إلى نفسهﷺ بالسيف والرمح، والقوس، وبذلك تمكن من قيادة العالم كله.... بمساعدة هؤلاء الأشقياء، مثلما فعل روملوس وروموس حين جمعا إليهما اللصوص، وقطاع الطرق، ورعيان القطعان، ومزيج مختلط من الناس من الأنواع المتدنية، وبوساطة هؤلاء أوقع روملوس المملكة اللاتينية بالفوضى، ولوث مملكته بالدم البريء.

هنا بداية الحج خلال القفار حيث جرى وصف الطرق الثلاثة عبر القفار، ورحلة العذراء المباركة مع الطفل يسوع إلى مصر

رحلاتنا الآن خلال صحراء ضخمة جداً، سوف يكون من السهل وصفها، على أساس أن القارىء بات عارفاً بكل شيء حول الحمير، وسائقي الحمير، والجمال وسائقي الجمال، والقفار والبداة العرب الذين يسكنون فيها، هذا ومن أجل فهم أفضل، تتوجب الملاحظة أننا نجد في الكتابات المقدسة ثلاثة طرق وجرى الحديث عنها، على أنها موجودة، في القفار، فالطريق الأول، هو الطريق الذي وصل عليه بنو اسرائيل إلى الأرض المقدسة، والطريق الآخر هو الذي سافر عليه ابراهيم، عبر القفار إلى مصر، والذي عبره ذهب يعقوب وأولاده عليه وسافروا بناء على دعوة يوسف، ومن المعتقد أنه بوساطة هذا الطريق ذهب يوسف وزوجته، مريم العذراء الأعظم مباركة مع الطفل يسوع، وذلك لدى الهرب من هيرود(متى:٢)، والطريق الثالث، هو الذي سافر عليه النبيان الياس واليشع في القفار إلى جبل سيناء، انما ليس في وقت واحدد بل واحداً بعد الآخر، حسبما ورد الخبر في سفر الملوك الأول:١٩.

ولم يجر اقتياد بني اسرائيل[٢٦—ظ] لدى خروجهم من مصر، مباشرة على طول الطريق الذي يقود إلى الأرض المقدسة، بل ذهبوا إلى جبل سيناء، عبر طريق البحر الأحمر، وذلك بناء على أوامر الرب إليهم، كما أنهم لم يجلبوا إلى جبل سيناء بوساطة أقرب الطرق، بل اقتيدوا عبر طريق طويل في القفار الشاسعة، ثم اقتيدوا ثانية عائدين، وملتفين حتى انتهاء الأربعين سنة، وسبب عدم اقتيادهم عبر الطريق الأقصر إلى فلسطين وهي البلادالتي تتاخم مصر، قد قُدّم في سفر الخروج:١٣، هو أن فلسطين كانت تمتلك مدناً عظيمة، مليئة بالعماليق، ولو أن بني اسرائيل رأوا هؤلاء لدى أول وصولهم، لرجعو ثانية إلى مصر، من

خلال الخوف، كما أن آثام الفلسطينيين لم تكن قد اكتملت وانتهت بعد، كما هو الحال مع العموريين، لذلك لم يكن بالامكان طردهم منها.

وعلى هذا كان ممر بني اسرائيل طويلاً جداً، ووعراً، وقد مضوا خلال القفار، وعبروا شواطىء البحر الميت القصوى، من خلال مملكة عوج، ملك باشان، ومملكة سيحون ملك العموريين، وتابعوا سيرهم حتى المكان الذي يصب فيه الأردن في البحر الميت، وهناك جف نهر الأردن في مواجهة أريحا، وهكذا وصلوا إلى الأرض المقدسة، لكن ابراهيم، ويعقوب ابنه، ويوسف ومريم، والبقية نزلوا إلى مصر، عبر طريق التجار العام، إلى جانب شواطىء البحر الكبير، حيث كان البحر على يمينهم، والقفار على يسارهم، وفي هذه الأيام هذا هو الطريق العام، والطريق السلطاني، للذين ينزلون من غزة إلى مصر، مع أن الطريق رملي وطريق متعب، وعليه من الممكن رؤية بعض آثار رحلة العذراء المباركة، ويوسف مع الطفل يسوع، من ذلك على سبيل المثال، المكان الذي هوجموا فيه، وأسروا من قبل اللصوص، فقد حدثنا أنسلم Anselm أنه عندما كان يوسف مع العذراء مريم والطفل يسوع، سائرين على ذلك الطريق، وعندما كانوا يرتاحون في أحد الأماكن لانعاش أنفسهم، حدث فجأة أن البداة العرب انقضوا عليهم من الأجزاء الداخلية للقفار، وحاصروهم، قاصدين اعتقالهم وسلبهم، لكن أحد الشباب وكان ابن زعيم اللصوص، عندما رأى الطفل في حضن أمه، استولى عليه بشكل اعجازي حب نحوه، ولم يشك بوجود بعض القداسة الربانية فيه، وسأل الأم أن تعطيه الطفل، وتسلم الطفل وحمله بين ذراعيه مع أعمق الاحترام والتقدير، وقبله قائلاً: «أيها الطفل المجيد، ارحمني في وقت الحاجة»، وبفراغه من قوله هذا أعطى الطفل إلى أمه وأعاده مع الدموع، وانتزعهم من أيدي أصحابه، وبعدما بين الطريق الآمن لهم، سمح لهم بالمغادرة، ويقال بأن هذا الشاب كان هو

اللص، الذي عندما كان معلقاً على الصليب مع المسيح، قال له:« ياسيد تذكرني عندما تأتي إلى ملكوتك».

ويقود الطريق الثالث من غزة إلى القفار، مباشرة إلى جبل سيناء، وعبره سار الياس والرجال المقدسون الآخرون، عندما ذهبوا إلى جبل سيناء، وهذا كان طريقنا، وقد انطلقنا وفق الطريقة التالية.

سفر الحجاج من غزة نحو الصحراء الكبرى على طريقهم إلى جبل سيناء

في الصباح الباكر من يوم التاسع من أيلول، جاء سائقوا الجمال مع الترجمان، وأخرجوا جميع أثقالنا إلى وسط الساحة، وجعلوها على شكل طرود ذات أحجام متساوية، ووزنوها حتى يعرفوا كم من الجمال سوف نحتاج، وقد وجدوا أثقالاً تفوق حمولة اثنين وعشرين جملاً، وأنه من غير الممكن حمل هذه الأثقال من دون استئجار ثلاثة جمال زيادة، وهنا نشب خلاف شديد بيننا وبين الترجمان، حيث كانت رغبتنا هي أن يقوم بتأمين الجمال الإضافية على حسابه، وفقاً لما جاء في البند الخامس من عقدنا، الذي تقدم لنا ذكره، لكنه رفض ذلك، قائلاً بأن لدينا كثيراً جداً من الأثقال التي هي بلافائدة، وإذا ماقمنا بالتخلص من هذه الأشياء ورميها، هو وقتها مرغم على تقديم الجمال المحتاجة، لكن ليس غير ذلك، وفي الحقيقة نظر هو إلى أشياء كثيرة على أنها فائضة لانحتاج إلى استخدامها، لكنها كانت في الحقيقة ضرورية جداً، وبدلاً—على هذا— من رمي هذه الأشياء والتخلص منها، اكترينا ثلاثة جمال زيادة على حسابنا، وبناء عليه بات الآن لدينا خمسة وعشرين جملاً، وثلاثين حماراً، وسبعة سائقي جمال، وستة سائقي حمير، واثنين من القادة من البداة العرب، وأدلائنا، واثنين من المسلمين هما الفحل، كالينوس الأدنى، وشاب حبشي، وبذلك بلغ تعداد جماعتنا إلى أربعين شخصاً، وعندما فرغنا من هذه الأمور، كان قد حان وقت تناول طعام الغداء، وبناء

عليه أكلنا بسرور، لأن وقت مغادرتنا قد حلّ، وفي الختام شربنا رماناً من كل من النوعين الحلو والحامض،كل واحد بقدر مارغب وأراد، وذلك من أجل امتصاصهم في القفار ونحن على طريقنا، وكانت هذه الفاكهة رخيصة جداً، إلى حد كان يمكن فيه للانسان شراء أربعين أو خمسين رمانة كبيرة، حديثة القطف مقابل مندوس واحد.

وبعد الظهر جاء الترجمان على ظهر فرس، وقدم معه سائقوا الحمير مع حميرهم، ومع أن سائقي الحمير كانوا مسيحيين، فقد ربطوا رؤوسهم وفق الطريقة العربية، حتى يكونوا أقل عرضة للأذى من قبل البداة العرب العابرين للقفار، وجلب سائقوا الجمال أيضاً جمالهم وحملوهم بأثقالنا، لكنهم تركوا سلتين كبيرتين فارغتين، وضعنا فيهما اثنين من الفرسان الحجاج المرضى، بناء على طلب الترجمان تمنطقا بسيفيهما، فضلاً عن هذا جلب بعضهم قسياً، وأسلحة اسلامية، في حين حصل بعضهم على بنادق، وبذلك تسلحنا بأسلحة دفاعية، ومن ثم امتطينا ظهور حميرنا، وزحفت جماعتنا كلها خارجة من غزة، تحت السلاح، وبما أننا كنا ذاهبين إلى العربية، سمح لنا المسلمون بتسليح الحجاج الفرسان، وسائقي الجمال، وسائقي الحمير، فكل واحد منهم كان لديه قوسه، وكذلك سيفه، وخنجره، وكانوا اثناء سفرنا من سورية إلى فلسطين لم يسمحوا لنا بأي شكل من الأشكال، بترك المدينة حاملين للسلاح.

وبعد مغادرتنا للمدينة نزلنا من الرابية، التي عليها تقوم المدينة، إلى أرض منبسطة، وسافرنا باتجاه الجنوب، جاعلين على يميننا مدينة بئر السبع، التي تشكل الحد الجنوبي الأقصى للأرض المقدسة، وبعدما سرنا قليلاً على الطريق العام بين بساتين مسيجة، اقتاد سائقونا جمالنا إلى خارج الطريق، إلى قلب حقل من الحقول، حيث أناخوا الجمال، وأنزلوا الأثقال من على ظهورها، وقرروا إمضاء الليل هناك، وتجاه هذا كنا

منزعجين كثيراً، لأنه كـان مـايزال هناك كثيراً من ضـوء النهـار، لكن كـاليبنوس الرئيس أخبرنـا بأن الأحمال لم تكن مقسمـة بالتسـاوي بين الجمال، وأن سـائقـي الجمال كـانوا يتخـاصمـون حـول ذلك، ولذلك يتوجب في ذلـك المساء تنظيم كل شيء، لأننا كنا نحتـاج إلى سلام أثناء رحلتنا، وكـان اسم الحقل الذي تحولنا إليـه«قسمه»، وبناء عليـه ترجلنا من على ظهـور حميرنا، ونصبنا خيماً حتى نتمكن من الاستراحـة تحتهم، وعمل بعضهم لأنفسهـم وحـدهم أمـاكن منعـزلـة، بتعليق أرديتهم وجعلهـا ستائـر، ناموا تحتهـا، وبعدمـا نصبنا خيمنا، انتزعنا عصيـاً من الأسيجـة، وطبخنا طعامـاً لعشائنا تلك الليلة، ولغـدائنا في الغد، فهـذا مايحتـاج الانسان القيام به وعمله، لأنـه عندما تكون الجمال محملة تسير بشكل متـواصل من الصبـاح حتى المسـاء، ولايمكنهـا تحمل التمهل أو الوقوف على طريقها، وبناء عليه فإن الذين يصاحبون هذه الجمال عليهم الارتحال دون توقف، ومن ثم تناول غذائهم وهم على ظهور حميرهم.

ولايستطيع الانسـان مطلقـاً خـلال وجـوده في القفـار تناول طعـام ساخن، أو الجلوس لتناول طعام الغداء، بل يتـوجب عليه أكل ماطبخه في الليلة المتقدمة، وأخذنا أيضاً من جرارنا مايكفي من خمر لعشائنا تلك الليلة، ولغدائنا في الغد، وأخذنا أيضاً مايكفي من بقسماط، وقسمنا هذه الأشيـاء ووزعناها بيننا بالتسـاوي، فكل انسـان كان لديـه قارورة فيهـا تسلم حصته من الخمرة، وعندمـا بات طعام العشاء، الذي طبخناه على نار واحدة، جاهزاً، جلسنا تحت خيمنا وأكلناه.

وحُذرنا بعدم وجوب نومنا جميعـاً في آن واحد، بل ينبغي بقاء واحد من الحجاج ساهراً بشكل دائم، وأن يقوم بالحراسة وأعمال الدورية أثناء نوم البقية، وذلك خشية أن يقوم اللصوص مع قاطعي الطرق بالدخول إلى مخيمنا ونحن نائمين، وسرقـة حـاجيـاتنا، وفي الحقيقـة كـانت هذه الحراسـات مطلوبة من قبلنا، ضـد خـدمنا، وسـائقي الجمال، وسـائقي

الحمير، أكثر منها ضد الغرباء، لأن هؤلاء القوم سرقوا بقساطنا، وبيضنا، وسرقوا كل شيء استطاعوه، ولم نكن قط قادرين على مداومة الحراسة بشكل جيد، لأننا وجدنا في الصباح بأن سلالنا سرقت وتركت مفتوحة، وانتزع البقساط منهن، ومثل ذلك سرق بيضنا من سلالنا، وغالباً ماأمسكناهم وهو يقومون بأعمال السرقة، وتجاه ذلك لم يخجلوا، بل بالحري سخروا منا، ولهذا السبب اجتمعنا معا بعد العشاء، ورتبنا نظاماً لحراستنا، وكان نصيبي البقاء ساهراً بعد منتصف الليل، في الليلة الأولى، وعندما غابت الشمس، تمددنا تحت خيمنا، واستعدينا للنوم، وجـرى تنظيم جماعتنا أثناء الليل وفق مايلي: نصبنا أولاً خيمنا، وأكواخنا، ووضعنا أثقالنا في الوسط، ومن حولنا جلس سائقوا الجمال والحمير مع أثقالهم ودوابهم، وترجماننا، الذي كان لايسمح لأي انسان بالتمدد بنفسه خارج المعسكر، أو السير بعيدا عنه، إلاّ لمسافة قصيرة، لمقاصد ضرورية، ووفق الطريقة هذه نظمنا الأمور كل ليلة، فقمنا بحراسة الأطعمة والأشربة، وأيضاً استرحنا.

وعند منتصف الليل، قام الفارس الذي كان يتولى الحراسة قبلي بإيقاظي، لأتولى تنفيذ حراستي، وهكذا سرت حول حشد الرب، وأنا أغني المزامير، وممسكاً عصا في يدي، وفجأة انفجر على مقربة منا صراخ وأصوات مرتفعة، وولاويل صادرة عن عدد كبير من الناس يصرخون ويولولون مع بعضهم، ولم أعتقد أن الأمر كان سوى أصوات أناس قد ارتفعت بالبكاء، ولذلك وقفت حيث أنا وأصغيت، وأنا ممتلىء بالخوف والدهشة، وظننت أن المسألة هي أن المسلمين كانوا يقيمون احتفالاً مامع ألعاب مأساوية أو ساخرة، أو أن مصيبة مرعبة أووباء قد نزل بهم فجأة، أو أن ساطير أو بعض المخلوقات المخيفة، الموجودة في القفار، تولول بقصد منعنا من دخول الصحراء، وإلى هذا اليوم لست أدري ماالذي كانه الأمر، غير أن بعضهم قال لي، بأن ذلك قد صدر عن

مجموعة من الذئاب كانت تعوي، وهذا كان من الصعب عليّ تصديقه، لأن الصراخ بدأ فجأة، وبعد وهلة توقف فجأة، ثم بعد مرور وقت من السكون انفجر ثانية، وبدت الأصوات وكأنها صراخ ناس يتألمون، ولدى انتهاء الصراخ، سرت متابعاً حراستي، فوجدت ترجماننا المسلم، كالينوس الأكبر، يقوم بالصلاة وبالركوع والسجود، وفقاً لطريقة المسلمين، وعندما سمعني توقف عن الصلاة، وسألني لماذا أنا لست في خيمتي، وعندما أخبرته أنني مستيقظ للقيام بالحراسة رضي بذلك، ثم استدار نحو الجهة الجنوبية من القفار، وأراني نجماً كان لامعاً جداً، كان قد أشرق للتو، وقال لي: ان هذا نجم القديسة كاترين، وهكذا يعرف بهذا الاسم من قبل جميع الناس، ثم استطرد فجأة يقول:« تحت هذا النجم يوجد جبل سيناء، الذي نحوه نحن مرتحلون، وعندما نسير أثناء الليل، لن نأخذ طريقاً سوى الطريق المباشر نحو هذا النجم حتى نصل ونحن تحته إلى ظهر جبل سيناء»، وبعد مغادرتنا لجبل سيناء غالباً ماكنت أقوم بالنظر نحو الخلف، نحو هذا النجم، ولقد رأيته عندما كنت في مصر، وفي الاسكندرية، وعبر مسافة طويلة، عندما كنا مبحرين على ظهر البحر، لكن بعد جوازنا لقبرص، ووصولنا إلى مابين جزر السيكلاد، لم يعد بإمكاني رؤيته، بسبب بعده الكبير، وبسبب تغيّر الأنواء، وهكذا انقضت تلك الليلة.

الاستمرار بالسفر في القفار

في اليوم العاشر، استيقظنا مجدداً عند بزوغ الفجر، فقوضنا خيامنا، وأزلنا أكواخنا، وجمعنا جميع أثقالنا مع بعضها، وهيأنا أنفسنا للمغادرة، وكان سائقو جمالنا بطيئين، وحمّلوا الجمال وكأنهم متعبون من العمل، ويعملون ضد رغبتهم، وعلاوة على ذلك تركوا أشياء كثيرة على الأرض، حولها كان هناك صراخ كثير، ونشبت خصومات فيما بيننا، ولعناهم بالألمانية، ولعنونا بالعربية، من دون أن يفهم أي الطرف الآخر، وفي الحقيقة أنا متعب من الكتابة عن الاحراجات التي آلمونا بها كل صباح، أثناء تحميل الدواب، لأنهم اعتادوا عن قصد ترك فراش، أوسلة، أوحقيبة على الأرض، عارفين بأننا سوف نتفقد مثل هذه الأشياء ونراقبها، وقد فعلوا هذا مع غاية أن يقوم الحاج الذي هو صاحب الحاجة المتروكة والذي هو صاحبها، برجائهم لحملها، لأنه مرغم على ذلك، وعند ذلك يقومون من جهتهم، فيطلبون منه مالاً أو خبزاً، أوأن يتظاهروا أنهم عن عمد سوف يتركونها مالم يدفع لهم، وبناء عليه، قمنا في البداية، قبل أن نختبرهم، وقبل أن يعرف أحدنا الآخر، فأعطيناهم كثيراً من المال ومن البقسماط، لكن بعدما عرفناهم، وعلمنا أي نوع كانوا، كنا نأمرهم حول هذه الأمور، ونرغمهم على تنفيذ رغباتنا.

وبناء عليه استيقظنا قبل طلوع الشمس، وتخاصم أحدنا مع الآخر حتى اشراق الشمس، ذلك أنهم تظاهروا بأنهم ينوون العودة إلى غزة مع جمالهم، وكان هذا أمراً مزعجاً جدا بالنسبة لنا، وقد ضايقونا كثيراً بهذا الادعاء، لكن أخيراً تحدث ترجماننا مغضباً إليهم، وأرغمهم على أخذ جميع أثقالنا، وهكذا غادرنا ذلك المكان، وحقل قسمه، وسرنا فوق أرض منبسطة، كانت في الغالب رملية وجرداء، وبعدما سرنا حوالي الميل ألماني، قام ترجماننا، المعلم Sabathytancoالذي هو كالينوس

الرئيس، والذي هو رئيس مشفى القديس يوحنا في القـدس، وهو أيضاً المسلم الذي قـادنا وحكمنا خـلال جميع رحـلاتنا من يافـا حتى هذا المكان، قـام بتـوديعنا مع ابنه، وسلـم قيـادتنا إلى كـالينوس الأدنى، أي الفحل المسلم، وإليه أوكل أمور سـائقي الجمال مع سائقي الحمير، وعاد إلى القـدس، لأنه لم يكن ملزمـاً بالسفر عبر القفـار، حسبما ورد في البند السادس من عقدنا الذي ذكرناه من قبل، يضاف إلى هذا، كنا تحدثنا من قبل عن هـذا الرجل، الذي هـو كـالينوس الـرئيس، وعن كـالينوس الأدنى، الذي بقـي بصحبتنا، وقـد سمعت فيما بعـد، بـأن كـالينوس الرئيس قـد مـات، وأن ابنه، الذي اسمـه إبراهيم قد خلفـه في منصبـه، ويبدو لي بأنه شاب جيد ولطيف، مع أنه متكبر بعض الشيء، وصاحب أخلاق متشامخة.

وبعد مغـادرة كالينوس، الذي كـان حتى الآن حامينا، واسى أحـدنا الآخر، وشجع كل منا صاحبه من أجل تحمل اضطراباتنا بصبر، وهكذا مضينا سـائـرين على طريقنا، وقـد رأينا على جهـة يميننا البحـر الكبير، الذي لم نكن قـد رأيناه منذ اليـوم الذي غادرنا فيـه يافـا، ورأينا في هذا اليـوم مـدينة بئر السبع، التي هي نهاية الأرض المقـدسـة، وعـلاوة على ذلك رأينا القفـار وجبالاً ضخمـة جداً، نحـوها كنا نسير مع شيء من الخوف، لأنه بدا لنا بأن الأرض كانت مظلمـة، والجبال مغطاة بالغيوم، وليس بالندى أو بـالأبخـرة كما هو معتـاد، وأن سبـب ذلك ومـرده إلى عزلة البـلاد، وأثناء متابعتنا لسيرنا وصلنا إلى حقل مليء بمختلف أنواع الأشجار الضخمة، وفي هذا الحقل من المعتقـد أن الياس قد جلس تحت شجرة عرعر، وأُنعش من قبل مـلاك، وذلك حسبما قرأنا في سفر الملوك الأول:١٩/ ٥—٦، وانتصب هنا كثير من أشجـار الصنوبر، إحـداهن كـانت ذات أوراق سميكـة، وقـد وقفت إلى جـانب الطريـق، وكـانت مزهرة، وصدر عن أزهارها رائحـة طيبة جداً، لكن لن تكون هناك ثمار

بعد هذه الزهور الرائعـة، بل الذي سيكون بعض الأشواك الحادة، التي هي بيضـاء حتى الرأس، الـذي لونه أحمر، وكأنه مغمس بـالدم، وهذه الشوكة حادة جداً إلى حـد أن أخف وألطف لمسة بها تجرح اليد، ويعتقد بعضهم أن رأس الشوكـة بطبيعتها مسممة، وهـذا هو سبب أن الاصابة بالجراحة بها سهل جداً وأعلن بعضهم أن تاج الرب يسوع المصنوع من الشوك، كان قد حيك من هذه الأشواك، لأنها تنمو حول القدس أيضاً.

ورأينا كثيراً من أشجـار الأشـواك هـذه في أرجـاء القفـار، غير أنني أرغب في أن أقوم بذكـر خاص لهذه الشجرة بسبب الممارسـات الخرافية الغيبية للمسلمين وللبـداة العرب المتعلقة بها، ذلك أنه مـامن أحد منهم يمر بها من دون أن يمزق قطعة من ثيـابه ويعلقها على الشجرة، ولذلك الشجرة مليئة بقطع الأقمشة، إلى حد لو أن انسانا رآها عن بعد لظن أن لها أوراقاً بيضـاء، وحول هذه الممارسات انظر ص١٣١٦، وجـرى تبيان أسباب هذه العادة في ص٦٣، وإلى جانب هـذه الأشجار قامت أشجار تين كثيرة، مثل البلوط، محملة بأنواع مختلفـة من التين وذلك بالاضـافـة إلى التين العادي، ولذلك جمعنا بعضاً من هذا التين وأكلناه، ويطلق على هذه الأشجار اسم أشجار تين فرعون، وهن يحملن الثمار سبع مرات في السنة، وثمارهن ليست ثماراً بائسة، بل ثماراً في غاية الجودة.

ومع حلول المسـاء وصلنا إلى قـرية اسمهـا لبهم Lebhem، حيث أنزلنا الأحمال عن ظهـور دوابنا، ونصبنا خيـامنـا، وأمضينا الليلة، وكنا نحن الحجاج لدينا الرغبة في السير مسـافة أطول، لكن أدلاؤنا لم يرغبوا بذلك، وطلب منا كـالينـوس أن نكون هادئين، على أسـاس أننا سـوف نصل على الفـور إلى أمـاكن وأيام، سـوف — نحن ودوابنا — سنعـاني خلالها من التعب والشقـاء، لذلك يتوجب علينا عـدم التسرع في البداية بل أن ندخل إلى المتـاعب والشقاء بالتـدريج، ونصبنا خيامنا إلى جـانب بركـة، وبئر عتيق، كان عظيماً وعميقـاً، وكان يحتـوي فقط على قليل من

الماء القذر، واسم هذا البئر لدى المسلمين، بئر القديسة مريم، ويقولون أنه عندما كان يوسف آخذاً العذراء إلى مصر مع الطفل يسوع، أرغم بسبب الحاجة إلى الماء على التحول عن الطريق السلطاني العام، وحصل هنا على الماء لأجل ابنه المسيح، ومن أجل أمه، ومن أجله شخصياً، وحيث أننا لم نجد ماء فيه، أرسلنا سائقي حميرنا مع الحمير وروايا الماء إلى بركة أخرى على مسافة بعيدة، وقد جلبوا لنا ماء، وعلى مقربة منا قام مسجد، كان هو المسجد الجامع للقرية، وإليه دخلنا، ونظرنا إليه، وضحكنا وسخرنا من خرافات وحماقة دين المسلمين.

وتخلف واحد من الفرسان الحجاج وراءنا في المسجد، فبعدما هرب بقيتنا منه لخوفهم من المسلمين، بقي هو، ذلك أن النوم قد غلبه، فقد تمدد هناك وراح نائماً، ولدى حلول وقت العشاء لم يظهر بيننا، وشرعنا بالتفتيش عنه بالسهل، لكننا لم نستطع العثور عليه بأية طريقة من الطرق، ولم نكن نتصور أنه كان نائماً في المسجد، بسبب خطورة فعله ذلك، لأنه لو رآه أي مسلم في المسجد، لأقدم إما على قتله، أوأخذه أسيراً، ولقد انزعجنا كثيراً بسبب ضياع رفيقنا، لكن أخيراً بعدما اكتمل نومه، خرج من المسجد، وقدم إلينا، وقد سررنا بشكل مضاعف من أجله، أي أن تقول، بسبب عدم ضياعه، ثم بسبب أن مامن مسلم عثر عليه، وانتشرنا جميعاً فوق السهل لجمع حطب للنار، لنطبخ عشاءنا، وغداءنا من أجل الغد، كما تقدم بنا القول، وبعد تناول العشاء حملنا أنفسنا إلى الاستراحة، إنما عيّنا من يتولى الحراسة، كما فعلنا من قبل.

السفر إلى قفار قادش برنيع

وفي اليوم الحادي عشر، الذي كان عيد الشهيدين: بروثوس Pro-thus وهيسينثوس Hyacinthus، والشهيدين فيلكس وريغولا Reg-ula المدفون في ثورغو Thurgau، استيقظنا قبل ضوء النهار، واستعدينا للانطلاق، وقد حملنا دوابنا مع قسط كبير من الخصام

والصراخ، وكنا غـاضبين جـداً من سـائقي جمالنا، وهم أيضـاً كـانوا غاضبين منا، لأنهم تعاملوا معنا من دون اخـلاص وصدق، مثلما حدث في البـارحة، ولدى مغـادرتنا لذلك المكان وصلنا إلى سهل واسع جـداً، وأجـرداً، كـان مـن غير الممكن بالنسبـة لنا تحديد نهايتـه إلاّ من الجهـة الغـربية، حيث كـان يحده البحر الكبير، والـذي كان على مسـافة بعيـدة عنه.

ولم نر في هذه السهـول لابشر ولاحيـوانات، ولاقـرى، ولابيـوت، ولاأشجـار، ولاأعشاب، ولاشعـراء، بل شاهدنا فقط الأرض الرمليـة، قد شويت بحرارة الشمس، وسرنا فوق هذه المساحات الشاسعة متعبين لساعات طوال، ونحن نعاني من حرارة الشمس، ووصلنا بعد الظهر إلى بقعـة فيها عـدد من التلال، وكـانت غير مستوية، وقـاحلة، ونصبنا هنا خيمنا بين رابيتين، وكان ذلك في المساء، وكان اسم هذا المكان بالعربية: الحواطة Chawatha، ووجدنا هنا أدلة كثيرة، على وجود سكنى بشرية قديمة، لأننا وجدنا فوقنا اثنتي عشرة بركة مسورة، كان من حولها كثيراً من القرميد المكسر، وآنية محطمة، ورماد مع مواقد حدادين، وقد بدا لنا بأن هـذه البرك لم تعمل من أجل احتـواء مـاء للشرب، بل لتحضير صلصـال من أجل صنع قـرميـد وفخـار، ورأينا في هذه البرك أجسـاد أفاعي ميتة كبيرة ومخيفة، وحيـوانات غير معروفة بالنسبة لنا، ومثل هذا وجـدنا مقبرة لغير المسيحيين، ووجـدنا في أمـاكـن تجاويف وخنادق محفورة من قبل قوم بحثاً عن رخام أبيض، الذي من الممكن استخراجه من جوف تلك الأرض، ومن المشهد العـام لذلك المكان أعتقد أن تلك المنطقة لابد أنها قادش برنيع، ونصبنا هنا خيمنا بسرعة حتى نتمكن من أن نطبخ لأنفسنا بعض الطعـام، لأننا لم نكن قـد تغدينا في ذلك اليـوم، وكنا في اليـوم المتقـدم قـد أعـددنا لحماً لغـداء هذا اليـوم، لكن عندمـا أخـرجناه من جعبنا، وجـدناه قـد فسـد، ولـذلك رميناه، وتغـدينا جبناً

وبقسماطاً، ذلك أن الحر الشديد الذي شعرنا به عندما كنا نعبر ذلك السهل الشاسع قد حول لحمنا وأفسده، وأرسلنا سائقي حميرنا مع جرار وروايا ليحضرو لنا ماء من صهريج موجود على مسافة بعيدة، وفي الوقت نفسه نشرنا أنفسنا فوق المنطقة بحثاً عن عصي وحطب للنار، والذي وجدناه فقط بعض الحشائش الجافة، التي نمت مع مطر الشتاء، وجفت الآن تماماً، واقتلعنا هذه الحشائش من جذورها، وعملنا كومة كبيرة من أجل النار، ولم يكن هناك واحد بيننا كان معفياً من القيام بهذا العمل، بل سعي رجال الدين، والكهنة، والكونتات، والبارونات والفرسان جميعاً بكل اتجاه لجمع الحطب أو العصي للاحتراق، وعندما جمعنا جميع ماااحتطبناه، انتظرنا طويلاً، ونحن نتطلع إلى الماء، لكن سائقي الحمير تأخروا كثيراً حتى رجعوا، لأن رعاة ذلك الموضع أبعدوهم عن البئر، فضلاً عن هذا، كان البئر بعيداً جداً عنا، وحصلوا أخيراً على الماء بعد صعوبات، وعادوا إلينا مع غياب الشمس مع الروايا وهي مليئة.

وفي البداية كان الماء الذي في الروايا الجلدية مقرف بالنسبة لنا، لأن الماء داخل الأوعية الجلدية يأخذ لوناً مثل لون الدم، ويكتسب طعم الملوحة من الجلد، ويفقد كل خواص عذوبته، ولذلك كان الطعام الذي يطبخ بذلك الماء يحصل على لون وطعم جلد مدبوغ حديثاً، علاوة على ذلك، غدت جرارنا، ودوارقنا، وقواريرنا، التي وضعنا فيها ماء من الروايا الجلدية ملوثة بالرائحة نفسها، ومع ذلك إنه على الرغم من ذلك، غالباً ماأصبحنا عطاشى إلى أبعد الحدود، ذلك أن الماء الذي كان في قواريرنا قد ذهب كله، لذلك كنا نضع أفواهنا على الروايا الجلدية، ونعدّ من الرفاهية امتصاص الماء القذر من القرب الملوثة، وكنا في غاية الامتنان لسائقي الجمال ولسائقي الحمير لمنحنا تلك الشربة لابل غالباً مادفعناهم نقوداً فضية مقابل السماح لنا بامتصاص الماء من الجلود غير

المدبوغة ذات الروائح المقيتة.

وبعد العشـاء استلقينا في خيمنا ونمنا، إنما ليس من دون خوف، لأن الأرض كـانت مليئة بحفر جحـور الأفاعـي، وكنا نخشى من لدغهم، لكن بحماية الرب، لم نتعرض لأي أذى في ذلك المكان.

الاستمرار بالسفر نحو الجزء الداخلي من القفار

وفي اليـوم الثاني عشر حملنـا جمالنا باكراً قبل ضـوء النهـار، وأسرجنا على حميرنا، وغـادرنا الحواطة في الظلام، لكننا أرغمنا على السير ببطيء شديد مع الجمال والحمير، لأن الأرض كانت مثـل خلية نحل، مع حفر جحـور الأفـاعي والثعـابين، ففي كل مكـان كـان الموضع مليئاً بالحفـر الصغيرة، لذلك كـان من الصعب على الدابة أن تقـوم بخطوة، أو تضع حافرها دون أن تغطس عميقاً في الأرض، وفي ذلك الصباح لم يكن بين الحجاج واحداً لم يسقط ثلاث مـرات أوأربع مع دابته، ورأى واحد من سـائقي جمالنا ثعباناً كبيراً وطـويلاً ، فرمـاه بنشـابه جرحـه بها، ونصب الثعبـان المجروح نفسـه وأعـدّ نفسـه للانتقام من عـدوه، لكن السـائق امتشق سيفـــه، وقطع الثعبـــان إلى قسمين، ثم إنـه رمى هاتين القطعتين بعيداً عن بعضهما، وطلب منا أن نسير فيما بينهما، خشية أن تتحدا ثانية، لأنه اعتقد أن القسمين سـوف يتحدان ثانيـة مالم يعبر الناس فيما بينهما، ولست أدري فيما إذا كـان هذا وهم فقـط، غير أنني رأيت الشيء نفسـه يفعل في بلادنا عندما جرى قطـع ثعبان إلى شطرين، وسرنا لمدة ساعتين أو ثلاث ساعـات فوق هذه الأرض الملغومـة، التي لايمكن عبورها في أيام الربيع لأن الأفاعي والثعابين تكون خارجة من جحورها.

ووصلنا من هناك إلى منطقة مهجورة وصحـراوية، لأن البقعة غدت قـاحلة أكثر فأكثـر وغير مسكونة، ووصلنا إلى مـوضع، بدا وكأن ينابيع كثيرة قـد تدفقت فيه، أوأنه كـانت هناك بحيرة، فقد كـانت هناك كثيراً

من الأقنية العميقة، عملت من قبل المياه أثناء جريانها، ومع أن الأرض كانت منبسطة، لكنها كانت غير مستوية أبداً، ولذلك أرغمنا بشكل مستمر على الصعود إلى تله والنزول منها مع كثير من التعب، وعند الظهر وصلنا إلى القفار الحقيقية، وإلى مكان مهجور، حيث لايمكن لإنسان أن يعيش، وحيث أيضاً ليس هناك من سكان، ذلك أننا خرجنا من السهل إلى منطقة تلية كانت مشوية بحرارة الشمس، وكلها كانت قاحلة، مليئة بجبال صخرية، وروابي رملية، وأودية صخرية ومرعبة.

وعندما صرنا في القفار، واجهنا قافلة، أي جماعة من الناس، مع جمال وحمير، وكنا خائفين جداً، من أن يكونوا من لصوص الصحراء، لكن عندما تقابلت الفئتان مرت كل واحدة بالأخرى بصمت، وكنا دوما نرتعب كثيراً لدى مقابلة أية أناس مهما كانوا، لأننا أخبرنا من قبل بأننا لابد من أن نعاني من كثير من الشرور على أيدي البداة العرب في القفار.

ووصلنا بعد هذا إلى منطقة، رأينا فيها عن بعد خياما وأكواخاً واقفة على طريقنا، ولدى رؤيتنا لها شعرنا بإحباط كبير، وقررنا بأنفسنا تحمل الاضطرابات، لأن القفار ليست مكانا يستطيع الانسان الدفاع فيه عن نفسه، أوأن يقوم بصدّ عدو واحد، بل هي مكان على الانسان أن يتحمل فيه بصبر ماينزلوه به، وأن يتنازل لهم، وعندما وصلنا إلى هذه الخيم، رأينا أنه قد وقف أمامها رجال شرقيون سود، يحملون رماحاً، وجاهزين للدفاع عن أنفسهم، لكن ليس للهجوم علينا، ولقد نظروا إلينا، غير أنهم لم يتفوهوا بكلمة واحدة لنا، فتجاوزناهم بصمت وبسرعة، وكنا مسرورين نحو تصرفهم الهادىء، ولعلهم كانوا كذلك مثلنا، على افتراض أنهم كانوا أيضاً خائفين منا.

وبمتابعتنا السير وصلنا إلى سهول عريضة، قد أحرقتها الشمس، عبرها لاقينا تقدماً جيداً عبر القفار، ورأينا في أماكن كثيرة، قريبة منا

وبعيـدة، دخاناً صـاعداً من نيران، وقـد ارتعبنا تجاه ذلك رعباً شـديداً، لأننا ظنناهم نيران معسكر حشـود مـن البـداة العـرب، لكن كـالينوس أخبرنا، وكـذلك التجـربة والخبرة علمتنـا، أنه لم يكن هناك لاانسـان ولانار في تلك الأمـاكن، لكن الرياح أثناء هبـوبها تشكل زوابع، يرتفع بها الغبار والرمال الناعمة، وبذلك تبدو وكأنها دخان صادر عن نار.

وعند المسـاء وصلنا إلى منطقـة، حيث الجبـال، والتـلال، والأرض المنخفضة، وجميع الأمـاكن التي أمكن رؤيتهـا بيضاء، ووصلنا أخيراً إلى قعر وهدة وعرة، أسموها غين Gayan حيث نصبنا خيمنا فوق أرض شديدة البيـاض، وهنا تمكنا بعد صعوبة بـالغة وسعي إلى هنا وهناك من جمع مايكفي من حطب لاشعال النار، ولم يتجاوز ذلك حجم عصاتين، لأنه لم يكن هناك سوى بعض النباتـات الجافة القليلة، التي خرجت من الأرض في أيام الرطوبة، وعندمـا كان الحر ليس شـديداً، ثم إنها جفت عندما تعرضت لحرارة الشمس، وكان مـاجمعناه أشبه بالأعشاب، وكان جميع ماوجدناه شوكياً، وله رائحـة طيبة، لذلك صدر عن النار دخان له رائحـة عطرة، وطبخنا وتناولنا عشاءنا، وفي الـوقت نفسه كـان سائقـو جمالنا وسائقـو حميرنا قد جمعـوا كومـة من الحطب، لعمل معجنات على الموقد، وكـانوا يتصرفون كمايلي: كانوا يـوقدون ناراً عظيمة، إلى جـانبها يمدون جلداً فوق الأرض، ويضعون فـوق الجلد طحينا كانوا قد حملوه معهم، ويصبـون الماء فوق الطحين، ويعملون من ذلك عجينة، وعندمـا تصبح العجينة جاهزة، وبعدما يعملونها على شكل خبزة واسعة ورقيقة، وتكون الأرض قد احترقت بالنار، يكشطـون الرماد المحترق عن المكان الذي كـانت فيـه النار، ويمـدون العجينـة فـوق ذلك المكان الحامي ثم يغطونها ثانيـة بالرماد والفحم، وبذلك يتم خبـزها، وتصبح خبزة طيبـة مطبوخـة في الموقد بشكل جيـد، وبعد حصولهم على الـرغيف الساخن، كـانوا يفتتونه إلى قطع، يضعـونها في قدر، ويصبـون عليه زيت الزيتـون

حتى تندهن كل قطعة، وهكذا يأكلونها، كما نأكل معجناتنا.

وعندما يأكلون هذا الطعام، يشعرون بالسرور العظيم، ويرون أنفسهم أنهم تمتعوا بطعام لائق بالملك، لكن عندما لايتمكنون من الحصول على نار، يضعون طعامهم على الأرض حتى تنطبخ في الشمس، التي حرارتها في وسط النهار تشابه حرارة أتون، وفي الحقيقة حرارة الشمس عالية جداً، إلى حد يجد كل طباخ أنها كافية لطبخ بعض المعجنات، وقد رأى في القفار القديس بوستيموس Postumius قدراً مليئاً بالحشائش، وهو يغلي من دون نار، وذلك حسب ماجاء في Speculum Historiale — الكتاب التاسع عشر، الفصل:١٤، فهم يشوون اللحوم بين حجرتين، ساخنتين بحرارة الشمس، كما تحدثنا من قبل، وشرعنا في تلك الأمسية نأخذ طعاماً من مخزوناتنا، لأننا استخدمنا جميع الأطعمة الطازجة التي جلبناها معنا من غزة، وعند غروب الشمس أمرنا كالينوس بإطفاء النيران تماماً، حتى لايمكن رؤية شرارة أو جمرة منها خلال الظلام، وأمرنا بالاحتفاظ بحراسة يقظة أكثر من ذي قبل، موضحاً بأن هذا المكان لم يكن أميناً بل كان خطيراً، بسبب الغارات المتوالية للبداة العرب، وهكذا أقمنا حراسة يقظة، وذهبنا إلى النوم، ولم نتعرض لأي ازعاج، مع أننا كنا في بقعة مرعبة جداً.

خطر العواصف في الرمال

واستيقظنا في الثالث عشر بعد مضي منتصف الليل، فقوضنا خيامنا وطويناها، وحملنا دوابنا أثقالنا، وغادرنا قفار غين، ووصلنا مباشرة إلى جبل رملي، تسلقناه بصعوبة، لأنه جلب إلى هنا مؤخراً، بوساطة ريح رملية، ولم يكن الرمل بعد راسخاً، ولذلك غطست الدواب في الرمال، وكأنها كانت تسير خلال ثلج عميق، علاوة على ذلك بدأت الريح تهب تحت أقدامنا، وتحمل الرمال وتنقلها، وبدأت للمرة الثانية بنقل الجبل

من مكانه إلى مكان آخر، وشرعت هذه الهضبة التي كنا نسافر بجوارها بالتلاشي ساعة تلو أخرى، مثلما يحدث للماء عندما تهب الرياح عليه، ولم يكن بإمكاننا النزول إلى الجانب الآخر هناك، إلى الوادي، بسبب الرمال المتحركةوخشية الوقوع في العاصفة، لأن الذين يقعون في عاصفة رملية في هذه المناطق، يصبحون عرضة للهلاك أكثر من الذين تغرق سفينتهم في البحر، وأرغمنا أخيراً على فعل ذلك، ونزلنا إلى الوادي، لكن ليس من دون اضطراب من الرمال التي انصبت فوقنا، وكان انصباب الرمال هذا أكثر إزعاجاً بمائة مرة من نزول أية كمية مهما كانت من الأمطار، وعندما دخلنا إلى الوادي سرنا فيه فوق رمال قد انتشرت حديثاً، وكان هذا واديا ضيقاً، محاطاً من كل جانب بتلال رملية، ولولا أن الرياح كانت معاكسة— وهذا بفضل حماية الرب قد وقانا— لانصبت الرمال من كلا الجانبين في الوادي، ولكانت عاصفة هوجاء قد وضعتنا في خطر الاختناق، كما حدث بالغالب للذين يرتحلون خلال الصحراء في هذه الأماكن، وفجأة انحرفنا إلى الجانب، وخرجنا من الوادي، ووصلنا إلى قعر مجرى سيل كبير، أسماه البداة العرب وادي Wadalar ، وهناك فوق قعر هذا المجرى آثار واضحة، تبرهن أنه كان مليئاً بالماء في أيامه، وكانت هذه المياه تحمل بوساطة قناة لتصب في البحر الكبير، لأنها جرت مباشرة نحو البحر.

ولم تكن الجبال حول قعر هذا المجرى رملية، بل كانت حجرية، لذلك توفر في القعر بعض النباتات، والأعشاب والحشائش، وكان بين أنواع النباتات، نبتة لها أغصان صغيرة كثيرة، نابعة من جذرها، وهذه الأغصان لاتنمو عالية في الهواء، بل تمتد طويلاً فوق الأرض وتبتعد كثيراً عن الجذر، وعلى هذه الأغصان قد تعلق كثير من التفاح الجميل، ذي اللون الأخضر المشوب بالرمادي، وهي ذات شكل مستدير، وبحجم قبضة الانسان، وعندما رأينا هذه التفاحات، أغرانا جمالهن حتى

ترجلنا من على ظهـور حميرنا وقطفناهن، وفي تلك الأثناء تابع أدلاؤنا سيرهم وهم يضحكون، لأنهم عـرفـوا طعم هذه التفاحـات، وهو مـالم نعـرفه نحن، لأننا لم نكن قـد سمعنا بهن، ولم نشاهدهن من قبل، وقـام الذين قطفـوا هذه التفـاحـات بوضعهن مبـاشرة في أفـواههم، ناوين أكلهـن، غير أنهن كن مـن المرارة بمكـان، أنهن قبـل أن تصل أسنـانهم إليهن، تقلصت شفـاههم، لأنه مهما كانت مـرارة أي حيوان مـائة مـرة ليست بدرجة هذه التفاحات، فلقـد كانوا يقطينا بريا، كان يطلق عليهن اسم القثـاء البري، وعنهن قيـل في(سفـر الملوك الثـاني:٤/ ٤٠):« في القـدرمـوت» وأخـذنا معنا بعضـاً من هذه التفـاحـات، وكنا نرغب في حملهن معنا إلى موطننا في بلادنا، لكـن بسبب مرارتهن الهائلة، لوثوا كل شيء لمسـوه، وتلوثت أيدينا بالمرارة لأيام عديدة، وكـان من غير الممكن إزالة ذلك لا بـالغسيل ولابالحك، وحـدث مثل ذلك لسكاكيننـا التي قطعناهن بها، وفي البـداية وضعت تفاحتين في سلتنا، التي حفظت فيهـا اللحم، والبقسماط، والجبن، وقـد تلوثـوا جميعـاً بالمرارة، ولذلك لم يعـد بالامكان أكلهـن بأي حـال من الأحـوال، ولذلـك أرغمت على رمي اللحم، والخبـز والجبن، واليقطين كلـه مع بعضــه، وفي الوقت نفسـه تلوثت السلة نفسهـا بطعم المرارة، وهكذا كـان كل مـاوضعته فيهـا فيما بعد، قد التقط طعم المرارة.

وارتحلنا على طـول قعـر مجرى السيل هذا، بين هـذه المزروعـات الخضراء، باتجاه الغـرب، حيث سـايرنا طريق القناة، وبعـدمـا سرنا بمحـاذاتها لمسـافـة طويلة، انتهت الجبـال الصخـرية، ووصلنا ثانيـة إلى منطقة رمـالها ناعمة جـداً وعميقة، وقـد كانت الرمـال تنصب في ذلك الوادي من الجبال، ولم يكـن في ذلك الجزء لاأعشاب ولاأوراق، ولاأي شيء أخضر، كـان من الممكن رؤيته، لأنه مـامن نبات يزرع هناك كـان يمكنه النمـو، على أسـاس أن البـذر كـان في أرض متعـرجـة متماوجـة

متبدلة، رملها الجاف يتحرك مع كل هبة للريح، والمحصول الوحيد الذي كان ينمو هناك هو تلك المزروعات التي كانت تنمو بسرعة فائقة، وبفضل التربة والمناخ، يمكنهن منع هجمات الرياح، وفي الحقيقة قد قيل أنه في هذه الأماكن تصل البذور إلى أقصى نموها في أقصى الأيام حرارة وعطشاً بعد زراعتها.

وعندما وصلنا إلى حيث بدأت حافة الوادي تصبح منخفضة، انحرفنا جانبا عن قعر مجرى ذلك السيل، وتسلقنا فوق الطرف الرملي للوادي، على الجانب الجنوبي، ونزلنا على الجانب الآخر إلى قعر مجرى سيل آخر، يجري من الجنوب نحو الشرق، ومن خلاله تصب المياه في البحر الميت، وذلك عندما يكون فيه أية مياه، ولوأن أي انسان ساير هذا المجرى، لمسافة عشرة أميال، لأمكنه أن يصل إلى البحر الميت، الذي يمتد على شكل لسان طويل من سدوم حتى هذه القفار، وكان قعر هذا المجرى وعراً، وكانت الحجارة والصخور في الجبال على الجانبين هناك بيضاء جداً، وكأنها مغطاة بالثلج.

وسرنا مباشرة عبر مجرى السيل هذا، ولم نسر إلى أعلاه أو نحو أسفله، بل نزلنا من الضفة الأولى، ثم تسلقنا الضفة الأخرى، وعندما صرنا في الأعلى، مضينا مسايرين لجرف لبعض الوقت، لأن الأرض كانت منحدرة كثيراً، ومن غير الممكن الصعود مباشرة، لأن الصخور في الأسفل كانت واقفة حادة مثل الأسنان، وعندما امتلكنا الفرصة للنزول، نزلنا عبر منحدر منزلق، ووصلنا إلى قعر مجرى سيل عميق آخر، كان اسمه مجدبا Magdabee ، وكان حجرياً وفي غاية الوعورة، وكان كله قاحلاً من دون أي شيء أخضر فيه مهما كان نوعه، وجعلنا جمالنا تنوخ في مكان وعر إلى أبعد الحدود، في قعر مجرى السيل هذا، ونصبنا خيمنا، واستعدينا للاقامة هناك تلك الليلة، وبعثنا بسائقي حميرنا ليحضروا لنا ماء من سبخة، قد قيل بأنها ليست بعيدة، لأننا لم

نتجرأ على نصب خيمنا مع جميع جماعتنا إلى جانب برك أو صهاريج في القفار، لأن البداة العرب ينصبون، بشكل عام، خيامهم هناك، ومن الصعب العيش معهم.

ووزعنا أنفسنا حول مجرى السيل، بحثاً عن عصي لنعمل ناراً لأنفسنا، وذلك حتى تحين عودة سائقي الحمير، وتطلعنا بشوق إلى عودتهم، لأننا كنا متشوقين إلى ماء طازج، لأننا أمضينا نهاراً مضنياً، وكنا ظمآنين بسبب الحر، ونتوق إلى الماء كثيراً، إنما عندما عاد سائقوا الحمير مع الماء، وصببنا ذلك الماء من الروايا في قدور الطبخ، بدا لنا أشبه بالحليب منه بالماء، لأنه كان أبيضاً وكثيفاً، ومقرف أكثر من الماء الذي مضى عليه وقت طويل في الجلود، وقد صار لونه أحمر ومالحاً بسبب الجلد، وبناء عليه أخذنا ذلك الماء الأبيض، وطبخنا طعامنا به، إنما استخدمنا الماء الأحمر للشرب، وأخذت كأساً من الماء الأبيض، وكأساً من الماء الأحمر إلى كالينوس، وسألته أيهما كان صحياً لشربه من الاثنين، فأجابني بأن الماء الأبيض كان سيئاً، وليس صحياً، وأن الماء الذي صار لونه أحمر، وصار حاد المذاق بسبب الجلد، ليس فقط هو غير سيء، بل هو طبي، وجيد جداً للصحة، وعند هذا تشجعنا وأقدمنا على الشرب من الروايا الجلدية من دون خوف.

وعندما عملنا ناراً من أجل عشائنا، فجأة هبت ريح شديدة، وقد جاءت من جهة البحر نحو مجرى سيلنا، ففرقت العصي المحترقة، وأخمدت النار، ولذلك لم نستطع طبخ شيء في تلك الليلة، فضلاً عن ذلك أثارت الغبار من الأرض، وملأت خيمنا وفرشنا، وبذلك انتشر الغبار والرمل فوق كل شيء كان لدينا، ووقفنا نحن بصعوبة في الغبار، وكأننا في سحابة كثيفة تتحرك بوساطة الريح التي لم تعرف الهدوء، وصار مجرى السيل كله مظلماً، وبدا الهواء غائماً، والسماء سوداء بسبب كثافة الغبار، وكنا جميعاً مثل أناس عميان، ننظر بأعين شبه مغلقة،

ومامن انسان أمكنه الاستقرار للنوم في ثياب فراشه بشكل جيد، من دون أن تكون الريح والغبار قد اتخذا سبيلهما بينهم.

وهبت هذه الريح من جهة البحر الكبير، حيث لابد أنه كانت هناك عاصفة عظيمة في البحر، لأننا رأينا لمعان وضوء البرق باتجاه البحر، الذي كان دوماً يسبب اضطراباً كبيراً، وعندما تمددنا أخيراً لإراحة أنفسنا، جاء الحاج الذي كان دوره بالحراسة تلك الليلة، إلى خيمتنا، وأخبرنا بأن اثنين من المتشردين البداة العرب قد وصلا إلى مخيمنا، وجلسا إلى جانب خيمتنا وسط الحقائب والسلال، فنهضت، لأنني كنت في ذلك الوقت رئيس جماعتنا، فوجدت هذين المتشردين، ففتحت كيساً، وأعطيتهما خبزاً لعشائهما، وملأت جرتهما من ماء الروايا الجلدية، وعملت لهما شارات للابتعاد عن خيمتنا وحقائبنا، الأمر الذي عملاه وهما شاكرين جداً للأعطية، ولو أنني لم أعطهما شيئاً لما كانا تركانا، ولسرقا منا ضعف ماأعطيتهما إياه، وبقي هذان الرجلان بصحبتنا لعدة أيام، لأنهما كانا يعرفان بعض سائقي الجمال، ولولا ذلك لما سمحنا لهما بالبقاء معنا.

وينتظر لصوص بداة العرب في البادية هبوب عاصفة، وعندما يظلم الهواء، والناس قد صاروا شبه عميان، يشقون طريقهم إلى احدى القوافل، ويستولون على كل ماتصل أيديهم إليه، ويرتحلون أحياناً معنا لمدة ثلاثة أيام، وهم أناس مامن أحد يعرفهم، كما ما من انسان يفهم كيف عثروا علينا، وطلبنا من كالينوس طرد هؤلاء الناس غير المعروفين وابعادهم عنا، غير أنه أجابنا بأنه لايستطيع ابعاد أي انسان أثناء النهار، لكنه سوف يطلب منهم أثناء الليل الابتعاد عن أثقالنا، وقد نصحنا—لابل رجانا— أن لانمنع الخبز والماء عن مثل هؤلاء الناس الذين قد نقابلهم، وقال بأننا سوف نكون أكثر أمانا، إذا مافعلنا ذلك، ولذلك كنا عند المساء ندعو جميع الغرباء ونعطيهم بعض الخبز وبعض

الماء بالمعيـار، ونأمرهم بعـدم إمضاء الليل قـرب خيمنا، بل عليهم الابتعـاد، وإذا لم يفعلوا ذلك، سـوف نبعـدهم عنا بوسـاطة العصي والهراوات، لأننا لم نسمح حتى لخدمنا بالنوم قربنا.

مغامرة الراهب فيلكس فابري المرعبة الغريبة

وفي اليوم الرابع عشر، الذي هو يوم تمجيـد الرب، والذي كان أيضاً الأحـد الخامس عشر بعـد التثليث، استيقظنا باكـراً، قبل ضـوء النهـار، وعملنا الاستعدادات للمغادرة، ومن جديد ثار خصام كبير بين الحجاج وبين سـائقي الحمير، حسبما كانت القضيـة كل يوم، وعانينا خـلال هذا الجزء من حجنا من سـوء سلوك وحماقة خـادمينا، الذين دفعنا لهما مـالاً كثيراً، واكتريناهما مقـابل أجـر كبير للقيـام بخـدمتنا، فكانا غير مخلصين لنا، وسرقـا منا كل شيء استطاعـاه، حيث كـانا أثناء الليل يأخـذان طريقهما إلى أكياس بقسماطنا، ويمزقان فتحات فيهم، ويحصلون على كل مايستطيعـان، وكانا يعملان الفتحـات بأسنانهما مثل الفئران، ولم نستطع قط القيام بحـراسة جيـدة، ولذلك سلبانا في كل ليلـة، لأنهما كانا لصين بارعين جداً، وبإمكانهما سرقة حاجيات الانسـان أمام عينيه، وبالاضافة إلى هذا كـانا كسالى في أعمال جمع أثقـالنا، ذلك أننا استأجـرناهما مع جمليهما لهذه الغـاية، وكـانا طوال وقـت تحميل الجمال يتـابعـان رمي حاجياتنا والتخـاصم معنا، ولم يكونا يتوليان رفع مارمياه مالم ندفع لهما المزيد من المال، الذي لم يكـن متـوجبـاً علينا، وقـامـا هذان الشقيـان بازعاجنا إلى أبعد الحدود، ولولا خوفنا من التعرض لخطر عظيم، لقمنا بضربهما مـراراً ضرباً مـؤلماً، لأنه كـان بإمكاننا أكلهما، حسب تعـابير العامة.

وقمنا بالوقت ذاته بترك كثير مما اقترف بحقنا لانتقـام الرب، وتحملنا آثامـاً فظيعة، وهكـذا حملنا دوابنا، وغادرنا قفر مجدبا، ودخلنا إلى بقعـة أكثر إرعاباً وأشـد قحطاً من الصحراء التي سرنا خلالها بالأمس، أو في

اليوم الذي تقدمه، حيث لم يعد بامكاننا تمييز أي اثر لانسان أو لحيوان، ولذلك وجهنا خطانا نحو نجم القديسة كاترين، وسرنا نحو الجنوب، دون أي طريق آخر، وذلك فوق مجاري مياه، ووديان، وجبال، وروابي، ودخلنا الآن إلى المنطقة والقفر اللذان اسمهما بالعربية جبل هلال Helell ، ويوجد في هذا القفرجبال عالية جداً، مكونة من صخور منزلقة، وقد سافرنا النهار كله بين هذه الجبال، ومع غروب الشمس وصلنا إلى مكان رملي، اسمه في القفار مغارثMagareth، وكان ذلك عند سفح الجبل، وهناك نصبنا خيمنا، وجمعنا حطباً لنطبخ به.

وكان على مقربة منا، كما هو واضح، جبل واحد مستدير، وقد كان عاليا، إنما من السهل تسلقه، وعلى قمته كان هناك نوعاً من أنواع البناء، ولقد أردت الصعود إلى هذا الجبل من أجل أن أشاهد ماكان على قمته، ولأحصل على فرصة مشاهدة القفار من جميع الجهات، ولم أرغب بالذهاب لوحدي، ومع ذلك لم يكن لدي أمل في إيجاد رفيق بين الحجاج، وهكذا شجعت نفسي، وتركت الجماعة وكأنني قصدت القيام بصلواتي، وذهبت وحيداً في داخل السهل، ووصلت إلى أكوام من الرمال، سرت بينها مسرعاً نحو الجبل، دون أن يعرف أحد ماالذي كنت أفعله، وبعد مسير ساعة وصلت إلى سفح الجبل، لكن مظهره خدعني كثيراً، لأنه انتصب بعيداً عن خيمنا أكثر مما قدرته، وكان أكبر وأعلى ممابدا عن بعد، وعلى الرغم من هذا كله، عزمت على إنهاء المهمة التي كنت قد بدأتها، وتسلقت فوق الجانب المنحدر من الجبل بين جروف وصخور صماء، ومع كثير من التعب والتعرق وصلت إلى القمة، التي لم أجد شيئاً عليها سوى كومة من الحجارة، وضعت احداها فوق الأخرى.

ووقفت حيث أنا هناك، ونظرت من حولي، غير أنني لم أستطع رؤية أي شيء في أي مكان، إلاّ قفاراً بلاحدود، تقطعتها، جبال، وروابي،

ومجاري سيول، حيث هي غير مسكونة لابشر، أو طيور، أوحيوانات، ولم أستطع رؤية خيمنا، لأنهم كانوا على مسافة بعيدة، لكنني رأيت جبالاً بيضاء وسوداء، ووجه الأرض كله قد شوي بحرارة الشمس، ولم أشاهد أي شيء أخضر، لاكبيراً ولاصغيراً، بل القحط الملعون ممتد فوق الأرض، وكانت كومة الحجارة على قمة الجبل علامة لتبيان الطريق، لأنه في كل مكان في أرجاء القفار، هناك أكواماً من الحجارة قد وضعت على قمم الجبال، لتري المسافرين أين ينبغي أن يسيروا في الوديان، وحيث لاتوجد هذه العلامات، مامن انسان يمكنه الارتحال خلال القفار، لأن القاعدة: هناك بعض الوديان التي لايمكن عبورها، بل هي مغلقة في النهاية القصوى، لذلك بعدما ينفق الانسان ثلاثة أيام أوأربعة في مسايرة طريق ذلك الوادي، عليه في النهاية العودة ثانية، والشيء نفسه يحدث في البحار الصخرية، حيث كانت هناك أكوام من الحجارة، مقامة فوق التلال كعلامات لتبيان الطريق عبر البحر، وإذا لم تكن هذه العلامات موجودة، تتورط كثير من السفن في ممرات بين الجبال، وتصل إلى صخور خطيرة، وإلى مآزق مهلكة، ومثل هذا هنا يمكن لكثير من الناس أن يهلكوا، إذا لم تتوفر مثل هذه العلامات فوق الجبال، هذا ويستخدم العرب هذه العلامات استخدامات غيبية واهمة، ذلك أنهم يصعدون في بعض الأوقات إلى الجبال، ويدعون إلى محمدﷺ، لأن هذه الكومة كانت مليئة بأسمال بالية، وبقطع من الأقمشة، وبقمصان، وهم اعتادوا على هذا لإظهار التشريف لأي مكان يعتقدون أنه مقدس، مثلما سلف وتحدثت عن الشجرة، ذلك أنه عندما ينهي أحدهم صلاته، يمزق قطعة من ثيابه، ويعلقها هناك، ثم يمضي مغادراً، وأسباب هذه الممارسات الحمقاء، معطاة في ص١٣٩٥ من القسم الثاني، ولذلك انتزعت جمع هذه الأسمال وقطع الأقمشة من على الحجارة، ورميتهم فوق الأرض، ووضعت صلباناً في مكانهم، ونصبت على القمة صليباً مصنوعاً من القصب، ورسمت صلبانا على أكبر الحجارة، وعلى حجارة

أخرى حـادة، لأنني كنت متذكراً تمجيد الصليب، الذي كـان يوم عيده ذلك اليـوم، وفعلت ذلك من أجل أن المسلمين عندمـا يأتون إلى هنا، يمكنهم أن يجدوا رمز المسيح، ويمكنهم أن يعـرفوا أن مسيحياً قـد كان هنا.

ورغبت بعد هذا بالنزول، وحـدقت بعناية عبر السهل، حتى يمكنني تحديد مكان خيمنا، لتوجيـه خطواتي نحوهـم، لكن لم يكن بإمكاني رؤية أي شيء، ولاأي دخـان من نارنا، لذلك بدأت أرتعد في خـوف رهيب، خشيـة أن لاأتمكن من العثور على طريقـي للعودة إلى رفـاقي، عبر تلك المنطقـة التي هي بلاممـرات ولاطرقـات، ولو أنني أخـذت ذات اليمين وذات اليسـار، لحل بي الظلام وأنا أبحث، ولو أن شيئاً من هذا القبيل وقع لي، لكنت بـالتأكيـد رجـلاً ميتـاً، والشيء الوحيـد الذي منحني الشجـاعة، هو أنني عندمـا عبرت فوق الـرمال تركت عـلامات قـدمي هناك، وأملت بأنني سـوف أتمكن من اتباع طبعات قـدمي هذه، وهكذا نزلت نحـو الأسفل وعنـد سفح الجبل، وجـدت بالفعل عـلامـات خطواتي، غير أنها كانـت تقريباً مغطاة، لأن الـريح ألقى الرمال فـوقها، ولو أنني تأخـرت قليلاً فوق ذلك الجبـل، لكانت علامـات خطواتي قد سترت تماماً، وكان من المؤكد وقتهـا فقداني لحياتي، لأني بت في وضع لم أعـد أدري فيـه أي اتجاه عليّ أن أذهب، لأنه كـان هناك سهل كبير عند سفح الجبل، فيه أكوام كثيرة من الرمـال، لأن تلك المنطقة صارت كلها تلالاً منخفضة، ولقد تبعت علامات خطـواتي مسافة جيدة، لكن عندما وصلت إلى أعلى جـزء من الأرض كـانوا قـد اختفـوا تمامـا، ولم أستطع إيجاد أثرهم بأية وسيلـة، وقمت هنا بالاستـدارة وسرت عـائـداً فـوق العـلامـات الجديدة التي عملتها، إلى المكـان الذي رأيت فيه عـلامـات خطواتي القـديمـة، حتى أستطيع تفحصهم بدقـة أكبر، لكنني لم أستطع العثـور عليهم، فبت مغضبـاً من نفسي، ولمت نفسي بحـدة متناهيـة من

أجل فضولي وافتراضاتي، وكدت أن أمزق لحيتي، ولطمت وجهي، وضربت على صدري أسفاً وقلت مخاطباً نفسي:« بالـلأسف، كم أنا رجل تعيس، لماذا تركت رفاقي؟ وأية حماقة مني حتى ابتعدت عن إخواني في هذه الأرض التي لاطريق فيها والمرعبة، أين تعتقد أنك سوف تجدهم؟ هاهي الشمس قد مالت نحو المغيب، وحل الليل، ولم أعد فيلكس أنا بين الناس سوى الأكثر تعاسة، فالى أين سأذهب، وإلى أين سأسعى؟يارب ساعدني»، وماأن فرغت من هذا حتى انفجرت أقرأ مزامير الغفران السبعة الأخيرة، و Domine exaudi التي وجدتها صلاة جميلة ومؤثرة.

ومضيت متابعاً أغني هذا المزمور، وأنا غير متأكد حول اتجاهي، وتوليت تكراره أكثر من مرة حتى وصلت إلى كومة عالية من الرمال، فرأيت علامات طبعات قدمي الماضية على طرفها، وكان بامكاني تقبيلهم لشدة فرحي، ولم أشعر قط بالسرور مثل شعوري برؤية طبعات الأقدام تلك، وعندما كنت بسرور أراقبهم وأتبعهم، وقع إليّ أنهم ربما طبعات قدمي واحد من البداة العرب، وبدأت أشك فيما إذا كنت على طريقي إلى المكان الذي منه قدمت وأثناء هذا الشك، نظرت عن قرب أكثر نحو طبعات القدمين، فوجدتهم طبعات قدمي رجل متنعل في حين يسير البداة العرب فوق القفار عراة الأقدام، ومضيت ثانية متابعاً السير على طريقي وأنا مطمئن، وبعد قليل رأيت شيئاً أبيض، وخمنت أنهم ثلاثة من المسلمين، أو البداة العرب، الذين يرتدون ثياباً بيضاء، لكن عندما اقتربت أكثر، كانوا خيمنا، ونظرت نحوهم فشكرت الرب وأنا راكع على ركبتي، وقررت أن لاأفارق أصحابي ثانية، وقد وجدت اثنين من الحجاج وهما يتعشيان في الخيم، وعندما ذهبت إليهما وبخاني لقدومي للعشاء متأخراً هذا القدر، وقالا بأنهما انتظراني لوقت طويل، فقلت لهما بأنني كنت مشغولاً بشؤوني الشخصية، وبعد العشاء أخذتهما

إلى خارج الخيمة، وأشرت إلى الجبل، وأخبرتهما بالذى وقع إليّ، وقد اندهشا لعودتي بمثل هذه السرعة، وكانت الشمس قد غابت الآن، ووضعنا أنفسنا للاستراحة، وأوى كل انسان إلى فراشه.

متاعب في بحر الرمال

وفي اليوم الخامس عشر، بدأ سائقو الحمير، قبل منتصف الليل بالصراخ، وهم يشكون بأن اثنين من حميرهم، قد فكا من رباطهما وسرقا من قبل اللصوص، وبصراخهم استيقظنا من نومنا، وجلسنا على فرشنا نتحدث حول المسألة، وفي الوقت ذاته بحث سائقو الحمير في المنطقة فوجدوا الحمارين معا، ذلك أنهما فكا نفسيهما وشردا، وعند إعادة الحمارين أمرنا كالينوس بتحميل جمالنا، وأن ننطلق قبل الوقت المعتاد، لأن الوقت كان مايزال مبكراً جداً، أي حوالي منتصف الليل، وهكذا نهضنا، وعندما بتنا مستعدين، تركنا قفر مغارث ووصلنا إلى صحراء قاحلة جداً، وقد دخلنا إلى قسم منها كان بارداً برداً شديداً، وكان هذا على عكس القاعدة العامة في الشرق، وقد عانينا كثيراً من البرد الشديد، حتى أن أيدينا، وأقدامنا، وأنوفنا تيبست بسبب البرد، وأسناننا اصطكت، وعانينا كثيراً من هذا البرد، لأننا حتى الآن كنا نعيش في حر عظيم جداً، والآن دخلنا إلى برد شديد من دون أن نلبس مانحمي به أنفسنا ضده، وبين جميع الأشياء التي تجدد نشاط الحاج خلال القفار، والذي يحدث بشكل رئيسي كل يوم، لابل كل ساعة تقريباً، هو أنه يدخل إلى مناطق جديدة، وإلى تربة حديثة، وأنواء، ويدخل أيضاً إلى مابين جبال ذات أشكال جديدة وألوان، ممايجعل الانسان يعجب مماهو حاضر، وأن يتطلع بتشوق لرؤية ماهو مقبل، وهناك دوماً شيء مايحدث، ويملأ الانسان بالدهشة والاعجاب، إما نحو المنظر الغريب للجبال، وألوان الأرض والصخور، والأنواع التي لاتحصى من الحصا، أو من الأراضي الشديدة الوعورة، والقحط، والطبيعة القاحلة للبلاد،

وهذه أشياء تبهج العقل السؤول، وأعترف أنا من جهتي بأنني شعرت ببهجة في القفار القاحلة أكثر مما شعرته في الأرض الغنية والخصبة في مصر، مع جميع جمالها الجذاب.

ومع حوالي اشراق الشمس، خرجنا من المنطقة الباردة، ودخلنا إلى منطقة من نوع مختلف، ذلك أننا وصلنا إلى مجرى سيل رملي، وتسلقنا مع كثير من التعب فوق جبال قد تكومت حديثاً بوساطة العاصفة، وكان من غير الممكن عبور ذلك الطريق في الوقت الذي كانت فيه تلك الأكوام الرملية تجلب إلى هنا، لأن الرمل يتطاير هناك فوق الأرض مثل تطاير الرذاذ أثناء العاصفة في البحر، ويملأ الهواء كله، بحيث لايمكن لانسان أن يقاتل ضده، وكما قلت من قبل يهلك الناس والحيونات يومياً في القفار، بعد قهرهم من قبل العواصف الرملية، مثلما يحدث في البحر، حين يُقهرون من قبل الأمواج العاصفة، وهكذا هلك جيش قمبيز في الرمال التي أثيرت بوساطة ريح جنونية، كما قرأنا في Speculum Historiale— الفصل:٥٨.

وكنا الآن في خطر عظيم، لأن الرمال تطايرت نزولاً نحونا، ومامن انسان كان بامكانه أن يرى أو يسمع انسانا آخراً، وكان بامكانه بصعوبة بالغة أن يرى بعينيه شبه المغمضتين رأس الدابة التي كان يمتطيها، لأن الهواء كان مليئاً بالرمال، التي تطايرت فوق الأرض مثل نهر سريع جداً، وكان كل واحد خائف خوفاً شديداً، من أن تفقد دابته طريقها، وتشرد في أرض أخرى، عن الجماعة الأساسية، لأنني غالباً ماقلت أنه مامن انسان كان يمكنه أن ينظر من حوله، لأن أفواهنا وأعيننا كانت مليئة بالغبار، وكان ردائي الأسود مليئاً بالغبار، إلى درجة يصعب عليك فيها أن تقول بأنه كان أسود، وأخيراً في حوالي الظهيرة توقفت العاصفة، وتسلقنا فوق روابي رملية، وانتقلنا من مجرى السيل ذاك إلى مجرى آخر، كان كبيراً وواسعاً، وتمتعنا بسفرنا على طول هذا المجرى،

ووقتها دعانا كالينوس جميعاً، وقال لنا:«انتبهوا ياسادتي الحجاج، لديكم الآن حق الاختيار:إذا أردتـم اختصار رحلتكم، وأن تسافـروا ثلاثة أيام بسـلام ودونما انزعـاج من العـواصف، علينـا أن نسير عبر قعـر مجرى السيل هذا، لكننا لن نجد لابرك ماء ولاآبار، طوال الطريق يمكننا نحن أو دوابنا أن نشرب منها، واعلموا ان الماء في روايانا بدأ يتناقص، إنما إذا أردتم الحصـول على الماء، علينا أن نعبر هـذا المجـرى، لننزل في مجرى آخر، ربما سنجد عليه آباراً مليئة بالماء، وأنا أعلم بوجود بئر هناك، لكن هل فيه أية ميـاه أنالاأعرف، وإذا كان فيه مـاء، أخشى أن يكون مطوقاً بالبـداة العـرب، الذين سـوف يرفضـون تمكيننا من الحصـول على الماء، مماسوف يسبب لنا اضطراباً، وإذا لم تكن فيه مياه، نكون قد قمنا برحلة طويلة خارج الطريق المباشر من دون فائدة، تشاوروا، وقرروا أي طريق تفضلون، ولسوف أخاطر بالمضي على أيهما معكم».

وأجبناه على هذا باختصـار بأننا بـالحري نؤثر الأذى والنهب من قبل البـداة العرب على أن نعـاني من الجفـاف ونموت عطشـاً، وقلنا:« دعنا نأمل بأن البـداة العرب سـوف يتلقـون منا خبزاً ومـالاً، ونحصل منهم على مـاء»، ولذلك خـرجنا من قعـر ذلك المجـرى، وصرنا فـوق سهل كبير، كـان كلـه نقيـاً من الرمل، لأن الـرياح قـد أطارت جميع الـرمـال وأبعـدتها، مع أنه كـان بامكاننا أن نرى بوضـوح بأنه كـان هناك جبـال رمليـة، ولدى متـابعتنا سيرنا وصلنا إلى نهاية هذا السهـل، ونظرنا إلى منطقـة رمليـة أخرى، وكـان دوننا سهل واسع،وهو القفـر الذي اسمـه الحسا Hachseve، ورأينا كثيراً من الخيم والأكـواخ قائمة مـع بعضها فوق هذا السهل الواسع مثل بلـدة، مع نيران مشتعلة وأناس وحيوانات جيئة وذهاباً، وقد اعترتنا الـدهشة تجاه هذا المنظر، فقد كـانوا من البداة العرب، يسكنون في القفار، وقد نصبـوا خيامهم حول البئر، وقد مضينا نحوهم ونحن نـرتجف، ولدى مشاهدتهم لنا وقفوا على أبـواب خيامهم

يتظروننا والرمــاح في أيديهم، وعندمــا وصلنا إلى السهل، وصرنا على مسافة رمية حجر عن خيـامهم، نصبنا خيامنا وأنزلنا أثقالنا إلى جانبهم، وهنا ركض أولادهم نحـونا بسرور وكـانوا عـراة وسوداً، قـد شـوتهم حـرارة الشمس، وأعطيناهم على الفـور خبزاً، وقـد تلقـوا ذلك بسرور عظيم، وعـادوا إلى خيامهم، وبعـدهم جـاء أطفال آخـرون، لهم أعطينا الهدية نفسها، وزيادة على هذا جاءت بعض النسوة، وكان بعضهن كباراً مع طفل، وأخــريات مع أطفـال على أذرعتهــن، ولهن مثل ذلك أعطينا خبـزاً، وبفعلنا ذلك كسبنا قلوب هـؤلاء البـداة العـرب نحـونا، الذين طلبـوا منا الإقبـال والحصـول على الماء لأنفسنا ولـدوابنا، ولقـد مـلأنا روايانا الجلدية وجــرارنا من دون أدنى معيق، وهو أمــر لم نكن نأمل بحـدوثه مطلقـاً، وكـان الماء مـوحـلاً، ومـالحاً قليـلاً، لكنه كـان قـابلاً للشرب، وكنا ممتنين للحصــول عليــه، وليس لدي شك أننا لـوطردنا الصغـار الذين ركضـوا نحونا، ولم نعطهم خبـزاً، لما حصلنا مطلقـاً على مائنا بسلام، لابل كنا أرغمنا على إعطـاء الخبز والمال بسنان الرمح، وقد أقمنا هناك لمدة ثلاث سـاعـات، وعملنا صـداقـات مـع هؤلاء البـداة العرب بقـدر مانستطيع، ذلـك أن فرساننـا الشباب رقصوا مـع شبابهم فوق السهل، وتراكضوا متسابقين معهم، وبعـد هذا، وبعدما حملنا جمالنا بسرعة، وكنـا على وشك المغادرة، استدعينـا مقدم هؤلاء البـداة العرب إلينا، وصدوراً عن كرمنا أعطيناه دوقية، لأنه تعامل معنا بسلام، وتسلم البــدوي قطعــة الذهب باحترام كبير، وأخبرنـا أننا إذا رغبنا، ســوف يصـاحبنا ويدافـع عنا ضـد كل هجـوم، غير أننا استـأذنا منه وودعناه، وتركنا البئر، وارتحلنا مسرعين.

وعند غيــاب الشمس دخلنـا إلى قفــر مخيف اسمــه منشين Mins-chene حيث كــان هناك مجرى سيل كبير محاطاً بالصخــور، وبجبــال حجرية، كلها كانت شديدة البياض، وكانت الأرض مثل كلس محروق،

ونصبنا خيامنا في قعر هذا المجرى لإمضاء الليل، ومع كثير من السعي إلى هنا وهناك تمكنا بصعوبة من جمع مايكفي من أجل النار، ولابد أنه كان قبلنا قافلة من الجمال مرتاحة هناك، لأنه كان هناك كثيراً من الروث في ذلك المكان، وكان الروث آنذاك جافاً، وقد جمعناه واستخدمناه من أجل النار، لأنه لم يكن في ذلك المكان أية نباتات نامية.

وفي اليوم السادس عشر، أيقظنا كالينوس بعد منتصف الليل، حتى نشرع بسفرنا، ونهضنا ونحن نتذمر بضيق، لأن تعب رحلتنا بدأ ينهكنا ويعيينا، ولاسيما بالنسبة للمرضى منا، فهؤلاء اشتكوا فيها بعد بصوت مرتفع بسبب قسوة السفر، لأن الارتحال طوال النهار في الحرارة المحرقة للشمس، مع شطر من الليل في البرد والندى، ومن دون أي طعام مطبوخ، مع مثل هذا العطش الكبير، كان مؤلما حتى بالنسبة للانسان السليم، فكيف للانسان المريض، وغالبا ماتساءلت وأنا في القفار، لماذا تولت الكتابات المقدسة نقد ولوم بني اسرائيل بمثل هذه القسوة، لتذمرهم، وأنه ينبغي عقوبتهم بشدة متناهية لتذمرهم، كما قرأنا في أخبار الأيام الأول:١٠، حيث جاء بأن الذين تذمروا قد جرى تدميرهم بالأفاعي، مع أنهم تذمروا بسبب متاعبهم(العدد:١١)، أو بسبب جوعهم وعطشهم(الخروج:١٦)، أو بسبب مطالبهم البشرية، وقد تعرضوا دوماً لعقوبات شديدة ومؤلمة كثيراً.

وأصبحت مضطرباً في تفكيري، وغالباً ماخشيت من الغضب الرباني، بسبب تذمرنا، وتساءلت عماإذا كان تعبنا قد عدّ بالنسبة لنا صالحاً ومفيداً، عندما نتذمر هكذا كثيراً، ولذلك حملنا الجمال، وأسرجنا الحمير، وغادرنا قفر منشين، وعند شروق الشمس كنا نسير في قفر وعر، ومنطقة هي الأكثر قحطاً، وهي التي أسماها بنو اسرائيل —اذا جاز لنا القول— المكان الشرير(العدد:٢٠)، واسم هذه المنطقة قفر La-rich، وكان هناك على يميننا، ومثل ذلك خلفنا، جبالاً عظيمة البياض،

كما كان باتجاه الشرق سهولاً واسعة جداً، فيها كانت الحجارة والرمال سوداء، ومشوية وكأنه كانت هناك نيران قد أحرقت كل شيء كان هناك قابلاً للاحتراق، علاوة على ذلك صدرت رائحة النار من الأرض، ولم يكن باستطاعتنا رؤية نهاية هذا السهل الشاسع، الذي لم يكن محاطاً بجبال أو تلال، ودهشنا نحو هذا القفر المرعب، وسألنا كالينوس المسلم عن نهاية هذا السهل، فأجاب بأنه لايوجد انسان حي قد وصل قط إلى نهاية هذا السهل بوساطة هذا الطريق، وقال:« لو أن انساناً قُدّر له أن يسافر بشكل خاص، وأن يقطع عشرة أميال ألمانية كل يوم، فانه لن يتمكن بعد مضي شهرين من الوصول إلى ماء أو إلى انسان حي، علاوة على ذلك إن الحرارة هناك عظيمة إلى حد أنها شوت هذه السهول، ولهذا فإن أي انسان وان امتلك ماء لايمكنه الوصول إلى نهايتهم وهو حي».

ولقد قيل بأن حدود هذه السهول قريبة من جبال الفردوس الأرضي، ولذلك فإن بريق السيف الناري، الذي وضعه الرب أمام مدخل هذا الفردوس، قد أحرق هذه السهول ليمنع الجميع من الاقتراب، وفي الحقيقة يمكن للانسان أن يفترض بأن هذه الحقول هي« حقول البهجة» التي هي سهول كبيرة جداً وواسعة، وهي خالية من السكان البشر، حيث لايمكن لإنسان حي السكن فيها، وإلى هذه الحقول— وفقاً للشعراء— أحضر ميركوري الأرواح وأعادها من المناطق السرمدية، لأنهم اعتقدوا بأن أرواح الناس قد خلقت مع بعضها في البداية، وبعد ذلك وضعت هذه الأرواح في البشر أثناء الحمل بهم، وأننا عندما نموت تذهب الأرواح إلى المناطق التي في الأسفل، وهناك تتعذب، حتى تكون الذنوب التي اقترفتها في الحياة قد تطهرت منها وزالت، وبعد هذا يخرجهم ميركوري من«حقول البهجة»، ثم انه بعض مضي ألف سنة يأخذهم ميركوري إلى نهر النسيان حتى يمكنهم أن

يشربوا منه، وينسـون متاعب هذه الحيـاة، وبذلك يمكن أن ترغب هذه الأرواح بالعودة ثانية إلى الأجساد، التي إليها أرسلها ميركوري.

ويقـول الذين قامـوا بأعمال استكشاف أوسع في هذه السهـول بأنهم وجـدوا ضريحاً أو قبراً بني من الحجـارة في ذكــرى واحـد من العمالیق الهائلين، ويعتقــد بعضهم أن عــوج ملك باشــان، المذكــور في سفــر التثنية:٣، قد دفن هناك، لأن سريره أو مهده، الذي تمدد فيه وهو طفل، والذي كـان مصنوعاً من الحديد، جـرت العـادة على عرضـه في ربّات، وكان طوله تسعـة أذرعة، وعـرضه أربعة أذرعـة، ونما هذا العملاق إلى انســان ضخم، إلى حد أن حقـلاً شـاسعاً، احتيج إليـه لضريحه، وهكذا كـانت سعـة هذا الحقل، إذا تـوجب علينا قبـول الشرح العبري، للنص المتقدم الذكـر، الذي حدثنا بمثل هذه الحكايات العجيبة حول ضخـامة هذا الانسان، وأقصـد هنا سفر التثنيـة:٣، وواضح مع ذلك أن المؤمنين المسيحيين يحكون حكايـة أولى حــول هذا الحقل، وأن اليهـــود يحكون حكاية ثانيـة، والشعـراء حكاية ثالثـة، والسكان المحليـون هناك يحكون حكاية رابعـة، فنحن المسيحيين نقـول بأن هذا الحقل قـد شوي بأشعـة السيف النـاري، وإذا كـــان هذا صحيحـــا، فإنها تصـل حتى أرض الفـردوس، ويقول اليهـود بأن هذا الحقل هو من بعض الجوانب يشكل حـدود«حقــول البهجـة»، غير أن السكان المحليين يعتقــدون بأن هذا السهل يمتـد من هنا حتى المنطقـة الحارة، وأن بإمكان الانســان العبـور خلاله حتى المنطقة الحارة، والبقاء حياً.

وســافرنا طوال ذلك النهـار كله خـلال أرض العجائب هذه، وكـان على يميننا جبال احترقت فصـارت جرداء وبيضاء بسبب الحرارة، وعلى يســارنا«حقـول البهجة»، وهي مشـوية سـوداء، حيث لاعشب أخضر، أوورقـة نبات يمكن العثـور عليهـا، وعندما كـانت الشمس على وشك الغياب، وصلنا إلى مجرى سيل وعر، وهـذا السيل يجري في موسمه على

شكـل سيل عنيـف، ونصبنا في مجرى السيـل هذا خيـــامنا، وعملنـا الاستعـدادات لإمضـاء الليل فيـه، وبعـد نصب خيـامنا، ذهبت— كما اعتدت— إلى كالينوس، لأسأله عن اسم المكان، وفي هذا المساء، عندما ذهبت إليـه كما أنا معتـاد، وسألته عن اسم هـذا القفر والمجرى، ففكر لبعض الوقت، ثم قـال، وهو يضحك، إن اسم هذا المكان هو«البراق»، وكان هناك بعـض البداة العرب والمسلمين واقفين هناك، وقـد ضحكوا مثله عندمـا سمعـوه، وعملوا شـارات لي لأن أكتب كلمة«براق»، لأنه كـان وقتهـا بيـدي قلم وحبر، وورقـة للكتـابة، وهكذا عندمـا أخبروني كتبت« البراق»، أمام أعينهـم، وعندما كتبت الاسم وقـرأت الذي كتبه، ضحكوا كثيراً، ولم أعـــرف في ذلك الوقـت سبب ضحكهـم، لكنني عـرفت ذلك فيما بعد، فقـد مزح كـالينوس والمسلمون الآخـرون معي، وقد أخبروني باسم دابة محمدﷺ عوضاً عن اسم هذا المكان، وكان هذا سبب ضحكهم، فقد قـرأنا في القرآن، أن محمـداًﷺ كان واقفـاً في أحد الأيام عند باب بيتــه في مكة، فجـاء الملاك جبرائيل إليـه، وإليــه اقتـاد بعنانها أعظم الدواب جمالاً وسرعة، وكـان اسمها«البراق»، وكان شكل هذه الدابة هو كما يلي: كـانت أكبر من الحمار، وأصغر من البغل، وكـان لها وجه جميل كأنه وجه انسان، وكـان شعرها من اللآلىء، وصدرها من الزمرد، وذنبهـا من الياقوت، وكانت عيناها مشعتـان أكثر من الشمس، وكانت قدماها وحوافرها مثل قدمي وخفي الجمل، وكان سرجها أثمن مما يستطيع عقـل انســان أن يتصــوره، ولم تكن هذه الـدابة تسمح لأي انسان بركـوبها مالم يشهـد جبرائيل على صلاحـه، وأقسم جبرائيل بالله الحي أنها لم تقابل انسـاناً قط خيراً من محمدﷺ، ولذلك يتـوجب عليها حمله على ظهـرها، وعندمـا سمعت الدابة بهذا، قـالت بأنها لم تحمل قط أي انســان بمثل الـرغبـة التي ستحمل بها محمـــداًﷺ، وهكذا ركب محمـدﷺ وجبرائيل ممسك بالركاب، وعندمـا صار على السرج، قـدمت مجمـــوعـة كبيرة من الملائكة، ووقفـت حـول الدابة، ثـم شرعت الدابة

بالذهاب سائرة بشكل لطيف وهادىء لايمكن لأي لسان أي يصفه، وكانت سرعتها مثل سرعة الريح، ووصلت حتى القدس إلى المسجد حيث وجد جميع البطارقة والأنبياء، الذين أرسلوا إلى هناك من قبل الله، حتى يقوموا باستقباله وتشريفه، وقد شاهد كثيراً من الأشياء العجيبة هناك(١).

وبهذه الحكاية خدع محمدﷺ كثيراً من الناس البسطاء، لكنه في أحد الأيام عندما كان يروي ماحدث لحشد كبير من الناس، فارقه ستون ألفاً(كذا) من الناس لأنهم تصوروا أن الواقعة كانت غير صحيحة، ومن الممكن الوقوف على هذه الحكاية في« حصن الايمان»، وهو كتاب يعالج حروب المسلمين، في الفصل الموقف على الشرائع التي أعطاها محمدﷺ، ومن الممكن أن يكون كالينوسنا، قد اعتقد بأن اسم البراق يمتلك في نفسه بعض القدرة الربانية، يمكن أن تؤثر على عقلي، ضد إرادتي، أو بدون معرفتي، لكن هذه الحكاية القرآنية هي حمقاء أكثر من أي حماقة بشرية(كذا).

منطقة مدهشة حقاً

وفي اليوم السابع استيقظنا في المجرى المتقدم الذكر، باكراً قبل ضوء النهار، وبعدما حملنا دوابنا، تسلقنا مباشرة الطرف المنحدر لهذا المجرى، القائم على جهة اليمين، ونزلنا عبر طرف آخر إلى مجرى سيل آخر، وكان هذا المجرى وعراً جداً ومليئاً بالحجارة، وكانت حجارته، وصخوره، والحصى فيه سوداء، وكأنها أحرقت بالنار، لكن قمم التلال على الطرفين كانت شديدة البياض، وكأن ثلجاً جديداً قد انتشر فوقهم، مع أنه لم يكن هناك ثلج، ومن المرجح أن الثلج لم يسقط هناك قط أو سوف يسقط قط، مثلما أنه ليس هناك في الأسفل نار تقوم بتسويد

١- واضح أن فابري اعتمد هنا على ترجمة لواحد من نصوص كتب الاسراء والمعراج، وليس على ترجمة للقرآن الكريم كما ذكر أعلاه.

الحجارة، لكنها الشمس بقوتها العجيبة قد سودت الجهة الأولى، وبيضت الجهة الأخرى، ومثل هذا تحوّل هي بقوتها بعض الأشياء فتجعلها ناعمة، وأشياء أخرى قاسية، وهي تعمل بعض الأشياء حلوة وأشياء أخرى مرة، وتصنع السمات المتعاكسة بعملية القدرة نفسها، وذلك وفقاً لطبيعة المادة التي تعمل عليها وتؤثر.

ولدى متابعتنا رحلتنا وصلنا إلى حيث صار مجرى السيل عريضاً، وواجهنا هناك ريحاً باردة كثيراً، حيث أخذنا نرتجف منها بشدة، وتمنينا لو أننا كنا نرتدي ثياباً شتوية، وتسلقنا بعد هذا حافة مجرى السيل، ووصلنا من الجهة الأخرى إلى واد عظيم، لم يكن لاحجرياً ولارملياً، ولكن موحلاً، مكوناً من صلصال أبيض دبق، مناسب للاستخدام من قبل الفاخوري، ووجدنا أنه من الصعب جداً السير خلال هذا الوادي، لأن الماء عمل الأرض وعرة، كما أنه كان مليئاً بأقنية كبيرة ومنزلقة، ولذلك توجب علينا دوما إما الصعود إلى رابية أو النزول من رابية، وهو أمر لم يكن مناسباً لطريقة الجمال بالسير، وكان متعباً جداً لحميرنا، ومزعجاً لنا أنفسنا، ولو كانت هذه الأقنية مليئة بالماء— كما كانت من قبل— لما كان بامكاننا شق طريقنا خلال ذلك الوادي، وجاهدنا لساعات كثيرة على طول هذا الطريق السيء، وكان علينا أن نؤثر عليه طريقاً كله صعوداً إلى التلال أو هبوطاً منها، وأن تكون المنطقة حجرية أو رملية، وأن لانستخدم هذا الطريق الذي عنه أتحدث.

ووصلنا أخيراً عند نهاية هذا الوادي إلى أرض مستوية، كان الطريق فوقها جيداً، وعلى بعد كانت هناك بعض التلال المنبعثة من هذه الأرض المستوية، وكانت كلها طويلة، ولم تكن عريضة أوواسعة، وسرنا نحوهم لعدة ساعات، وذلك قبل أن نصل إليهم، وعندما وصلنا إلى قرب هذه التلال دهشنا نحوهم دهشة لم تكن قليلة، لأنهم انتصبوا—كما قلت— من الأرض المستوية، وكان لونهم أبيض، وكانوا

مستـديرين، وكأنهم عملوا على دولاب، ولم يكن من السهل القـول فيما إذا كـانوا قد عملـوا بالصنعة أم من قبل الطبيعـة، ويعتقـد بعضهم أنهم أضرحة لملوك مصر القدماء، الذين كـانوا قد اعتادوا على الاهتمام بإقامة مثل هذه المنشـآت فـوق أضرحتهـم، كما رأينا بأعيننا في مصر فيما وراء النيل، قـــرب طيبـــة، كما ســـوف نتحـــدث عن ذلك فيما بعـــد في الصفحة:٧٩ظ.

ولدى اقترابنـا منهم، رأينـا أنهم من عمل الخالـق النافـع، ولم يعملوا بصنعـة انسان فـاني، وذلك مالم يقـع اختيارنا على الرواية التي تتحـدث بشكل اسطوري عنهم، ويتناقلها العامة الجهلاء، الذين يقولون بأن هذه التـلال قد وضعهـا هرقل على ظهر تيتـان، الذي حملهم إلى هذا السهل، من أجل أن يضع احداهن فوق الأخرى، حتى يتسلق إلى السماء، وهذه حكايـة من السهل أن يتمكن انســـان من أن يقنـع بها رجل أحمق وأن يصدقها في هذا المكان، أو أنهن بنات أطلـس، اللائي حوّلهن فيرسيوس Perseus إلى تلال، وبين هذه التـــلال واحـدة أعلى من البقيـــة، وهي بالفعل مدهشـة جداً، ذلك أنها جـادة، وكأنها صيغت ببراعة بيـد عامل ماهر، ولهذا السبب نالت لنفسها اسما دون سـواها، واسمها لدى البداة العرب Calpis ، والذي أعتقده أن هذا الاسم لم يمنح لها بالصدفة، أو حسب عـادات العوام، بـل إنه أخذ من واحـد من عمـودي هرقل، الذي اسمه الاســم نفسه أي Calpis،لأنه هناك جبلين هما: أبيلا -Abi la، وCalpis، وهما مرتفعان كثيراً حيث يصلان إلى السماء، وهما يقفان أحـدهما مقـابل الآخـر، ويقف الأول من هذين الجبلين في مـوريتـانيـا، (للغرب) والثـاني في اسبانيا، ومن بينهما يتدفق البحـر المتوسط إلى وسط الأرض.

ويؤكـــد بعـض الناس أن هذين الجبلين هما أعمـــدة هـرقل، ويخبرنا بعض القدماء بأن هذيـن الجبلين كانا فيما مضى متصلين في جبل واحد،

وأن البحر المتوسط لم يكن بعد قد أرسل من قبل المحيط، لكنه كان مغلقاً بكتلة جبلية لايمكن تحطيمها، لكن قوة هرقل خرقت فيما بينهما، وتدفق البحر إلى البلاد صدوراً عن المحيط، وذلك إلى أماكن لم يكن فيها بحر من قبل، وصار هذا البحر يعرف باسم البحر المتوسط، كما هو الحال في هذه الأيام، وبذلك فصل هرقل أورباعن أفريقيا بمضيق ضيق، والآن إنه بسبب أن هذا الجبل في العربية يشبه ذلك الذي هو في اسبانيا، أطلق عليهما معا الاسم نفسه، هذا وهناك جبل آخر في صقلية، يدعى بهذا الاسم نفسه، للسبب نفسه.

وغادرنا جبل Calpis، وتركناه خلفنا، وبعدما عملنا رحلة طويلة في ذلك اليوم، وصلنا إلى القفار التي يدعوها البداة العرب باسم مسمار Meschmar، ودخلنا هنا إلى مجرى سيل جاف جداً حيث أنزلنا حموله دوابنا، ونصبنا خيمنا، وبعد صعوبة بالغة تمكنا من جمع مايكفي من حطب لعمل نار نستطيع أن نطبخ عليها أي شيء، وكان على يسارنا جبل مرتفع ممتد لمسافة طويلة، لكن لم يكن بعيداً عنا، وذهبت إلى هذا الجبل وحيداً راغباً في رؤية مايمكن أن يوجد عند سفحه، وقد رأيت هناك كهوفاً كثيرة وممرات تحت سطح الأرض، تؤدي إلى قاعدة الجبل، وتصورت بأن هذه الأماكن كانت حيث حفرت المناجم في العصور القديمة، وعندما نظرت إليهم، تذكرت على الفور، كيف قرأنا بأن كثيراً من الآباء المقدسين للكنيسة قد اختاروا السكنى في بيوت مثل هذه مهجورة، كانت لعمال التعدين، ومن هؤلاء الآباء على سبيل المثال القديس هيلاريون Hilarion ، والقديس بولص، الذي كان الناسك الأول، الذي أثناء قيام جيروم في رسالته بامتداح القفار قال عنه، بأنه سار مسافة طويلة في القفار إلى جبل مفرغ حيث وجد كهفاً كبيراً مغلقاً بحجارة، وعندما أزال الحجارة، رأى في داخله قاعة كبيرة ومبنية بقوة، وهي مضاءة بوساطة فتحة في الصخر، ولقد كانت هذه مكان ضرب

العملة غير القـانونيـة التي ضربت في الأيام التي كـان فيهـا أنطونيـوس مُفتناً من قبل كليوبترا، وعلى مقربة من هذه القاعة كان هناك عدداً كبيراً من القاعات، كان فيهـا مقاعد(؟) لابل حتى سندانات ومطارق، وذلك حيث كانوا يضربون النقود، ومثل هذا وجدت كهوف العمال القدماء في المعادن، ونظرت في هذه الكهوف بقـدر مااستطعت، لكنني لم أتجرأ على الدخـول إليهم، خشية أن يكون هناك مأوى لحيـوانات شريرة، ولم تكن الكهوف معمـولة من قبل الطبيعة في الجبل، بل محفورة بصنعة انسـانية، وعندمـا نظرت من حولي وأنا مندهش وجـدت كومـة قديمة جـداً من الفضلات، التي كانت عبارة عن الخبث الذي استخرج من المعادن لدى تصفيتهـا في النار، ولم يكـن هذا الخبث فضـلات حـديد أو أي معـدن عادي آخـر، بل أفضل أنواع ذهب العـربية، الذي استخرج بـالحفر من هنا، ولهذا أطلق القـديس جيروم في مصنفـه« حـول المسـافـات بين الأماكن» على هـذه الجبال اسم Catachrysia، وقال بأن بني اسرائيل قـد أقامـوا قربهم لبعض الوقت، عندمـا كانوا يسكنون في القفـار، وأن موسى كتب سفـر التثنية هناك، ومامن شك لدي بأن الرهبـان المقدسين القدماء قد بنوا لأنفسهم قلايات في هذه الكهوف، لأننا غالباً مانقرأ في« حيـاة الآباء» بأن القـديسين سكنوا في الصحـراء في كهـوف رجـال التعـدين، وقـد أخـذت بعض القطع من الخبث، وجلبتهم إلى مـوالي الفرسان، الذين طلبـوا مني منحهم هذه القطع بمثابة هدايا، لأنه كانت لهم أشكال غريبة.

يوم سفر شديد

وفي اليـوم الثامن عشر، وبعـد منتصف الليل ارتحلنا من قفـار مسمار ومن جبـال Catachrysia ، ووصلنا إلى منطقة كان فيها على يميننا جبال بيضاء كأنها غطيت بالثلج، وعلى يسارنا جبال حمراء كأنها صبغت بالدم، وكـان وجـه الأرض مغطى بألـواح ناعمـة من الحجـارة، وكأنها

— ٥٥٥٥ —

رصفت بشكل طبيعي بـألواح مصقـولـة من الصخر الأصـم، ولذلك سارت دوابنا عليهم بخوف، وذلك خشيـة الانزلاق، وبعد هذا صعدنا إلى رابية منحـدرة ثم وصلنا إلى مجرى سيل آخر، حيث توفـر سير ناعم وجيد، ويبـدو أن هذا المجرى كان في بعض الأوقات مليئاً حتى حـافته بمياه وافـرة، ومن هناك نزلنا إلى سهل، وجـدنا عليه نبـاتات وأعشاب، وعليق أخضر، ولدى رؤيتنا لذلك سررنا كثيراً حتى أملنـا أن نجد مـاء هناك، على أساس أن هذه النبـاتات لايمكنها النمو إلاّ في أمـاكن رطبة، وسرنا بين هذه النباتات، ووجدنا أنه بالفعل قـد كانت هناك مياه، لكن لايوجـد شيء منهـا الآن، وعلى كل حـال وجـدنا هذا الموضع المنعش هناك، حيث كـانت أغصـان وأوراق النبـاتات مبللة بندى الصبـاح، وبالنقاط التي تجمعت هناك أثناء الليل، وقام واحـد من الحجاج، وكان عطشـانا، فقطع غصنا ووضعـه في فمـه، على أمل انعـاش نفسـه بلعق الندى، لكن وهو يعتقـد أنه يلعـق ندى منعشـاً، وجـد فمـه مليئا بملح مذاقه حـاد جداً، فأصيب بالرعب، ظاناً أن مصيبة أوكـارثة قد نزلت به من عند الرب، ولذلك طلـب من رفـاقـه الحذر من الندى، لكنه لم يقل شيئاً حـول مـرارته، وفي الحقيقـة وجـدنا نحن جميعـاً بأن الندى لم يكن سـوى ملح ذائب، لـه طعم حـاد جـداً، وبذلك علمنـا بالخبرة بأن هذه كانت« الأرض الملحة» التي تحدث عنها إرميا(١٧/٦) حيث قال الرب للمذنب بأنه سوف يكون مثل العرعر في الصحراء، الذي له أوراق مرة مغطاة بندى ملحي.

وهكذا تابعنا سيرنا خلال هذه النباتات العـرعرية، ولم نجد ماء، وفي الحقيقـة كنا في ضـائقـة كبيرة بسبب الحاجـة إلى الماء، ولهذا قمنا في هذا اليوم بفتح الجرار التي جلبناها وهي مليئة بالماء من غزة، لأنهم أخبرونا في غـزة بأن الماء لن يأسن إذا مـابقي في جـرار محكمـة الاغـلاق، وأننا يمكننا استخـدام ذلك الماء وقت الحاجـة، ولكن عندمـا فتحنا الجرار

صـدرت رائحة مقيتـة من الماء الآسن، إلى درجـة أن مـامن انسان كـان يمكنه أن يلمس ذلك الماء، فكيف بشربه، لابل أكثـر من هذا، لم تستطع حميرنا على الرغم مـن عطشهـا الشـديـد، الشرب من ذلك الماء، وهكذا أرغمنا على رمي الميـاه التي جلبناها معنا لمسـافـات طويلة، عبر القفـار، والتي حول حملهـا تخاصمنا كثيراً مع سائقي جمالنا البـداة العرب، والتي من أجلهـا دفعنا مبلغـاً كبيراً، لأننـا أملنا أننا في وقت الضيق الشـديد سـوف نستفيـد منهـا، والآن وقـد خـاب أملنا، ولم يعـد بامكاننا تحمل العطش وقتـاً أطول، دعونا كـالينوس لإعطائنا مـاء، ورجوناه ورجـونا أدلاءنا، بأن لايجعلـوا رحلتنا أطول، بل أن يقـودونا خـلال أي طريق جانبي في القفار، إلى أي ماء أو سبـاخ حيث يمكننا الحصـول على ماء، ووافقوا على هذا، وانحـرفوا جانباً نحـو اليمين، بعيداً كثيراً عن الطريق الحقيقي، فوصلنا إلى سهل قـاحل تماماً، وقابلنا فـوق هذا السهل قافلة، أي مجموعـة من التجار المدنيين، كانوا يحملون سلعـاً من البحر الأحمر، وكـان هؤلاء الناس لأيام كثيرة من دون مـاء ورجـونا بالحاح أن نعطي كل واحـد منهم شربـة مـاء، لأنهم كـانوا على حـافـة الاغماء، ولذلك أعطيناهم مـاكـان قـد بقي معنا من مـائنـا، لأننا كنا سنصل إلى بعض السبخ قبل المساء، وبعـد ساعة من الزمن قـابلنا قافلة أخرى قـادمة من أطراف الشرق، ومرّ هـؤلاء الناس بنا بصمت وحـدقـوا بنـا بمـلامح مقطبة مكفهرة، حسبما يفعل الشرقيون والغربيـون، عندما يقابل أحدهم الآخـر، ولولا أن العقل يضبطهم لإنقض أحـدهم على الآخر مبـاشرة، مثلما تفعل الكلاب المسعورة عندما تلتقي، أو الخيول الشريرة التي يحيّي أحدها الآخر بالعض.

ووصلنا ونحن نتـابع سيرنـا فـوق هذا السهل، أخيراً إلى مـوضع سفـوحـه منحـدرة نحـو الأسفل، ونزلنا هنا عبر هضبـة طويلة متعبـة، ونحن نعـاني من حـرارة الشمس، التـي لاتحتمل ومن العطش ووصلنا

بعد لأي إلى حافة مجرى سيل عميق جداً ومخيف يسمونه Hallicub، وكان مغلقاً من على جانبيه بجدارين عاليين من الصخر، وكان عميقاً وهاوية ضيقة، أن تنظر إليه تصاب بالرعب، ولم نكن نستطيع لأن نشاهد أو نسمع صوت أي ماء فيه، مع أن الوادي كله كان موائماً لأن يجري فيه نهر عظيم، وتذمرنا ضد كالينوس لأنه اقتادنا عبر مجرى سيل جاف، بعدما كان قد وعدنا بالماء، حيث لايوجد شيء من هذا هناك، وكان كالينوس رجلاً يتكلم بشكل ناعم، فقد طمأننا، قائلاً صحيح بأن مجرى السيل ليس فيه مياه متدفقة، لكن هناك مياه راكدة في بعض الكهوف، والحفر في الصخور، والبؤر في الأرض،

وطلب منا الترجل من على ظهور حميرنا، وإعطائهم إلى سائقي الحمير، في حين نزلنا نحن في تلك الهاوية إلى مكان مامن انسان يستطيع أن يتسلق نزولاً جانبيها الصخريين، وهكذا اقتاد سائقو الحمير مع سائقي الجمال الدواب بعيداً عنا إلى بقعة مستوية على ضفتي الهاوية، وهناك أنزلوا الأثقال عنهم، وسعينا نحن نحو الحافة، نبحث عن طريق فوق الصخور، وعندما عثرنا على طريق نزلنا إلى القعر، فوجدنا ماء في كهوف وجروف الصخور، كان قد بقي هناك منذ أن كان مجرى السيل مليئاً بالماء قبل بضعة أشهر، وكان هذا الماء دافئاً، وله رائحة كثيبة جداً، وكثيفاً، مثل القار، وكان لونه أخضر، وكان موحلاً، وكان مليئاً بالعلق الذي يتكاثر في الماء الآسن، لكن طعمه لم يكن مكروهاً، ولم نعبأ بهذه السمات المنفرة للماء، وانبطحنا فوراً على صدورنا، ونضحنا الماء بأيدينا، وشربنا منه بشره كبير، دونما أدنى اهتمام أو تأبي للماء، لأن الانسان العطشان لايهتم ولايرى مايشربه، بل يبادر مسرعاً إلى الشرب، وأعتقد بشكل أكيد لو ان انساناً شرب من هذا الماء لإطفاء مجرد عطش عادي، ماكان لينجو مطلقاً من التعرض لأذى شديد، لكن العطش المحرق، والعمل الشاق قبل الشرب وبعده كان يدمر كثيراً ذلك الأذى.

وبعدما ملأنا أجوافنا بالماء، وأطفأنا عطشنا، تفتحت أعيننا، فرأينا أن الماء كـان قـذراً مليئاً بالعلق المتحـرك، لكننا كنا قـد ابتلعنا كل شيء، وأوساخ وعلق، وأقدر أنني شربت مع الماء مايزيد على مـائة علقة حية، ومثلي فعل الآخرون، وهكـذا صفينا الماء من خلال قطع أقمشـة وملأنا جرارنا الفارغة والروايا الجلدية، ورمينا بالعلق والفضلات الآسنة، التي من قبل شربنـاها بسبب اهمالنا، ولـذلك صرنا خـائفين على حيـاتنا، وانتظرنا فعـل وتأثير الشراب المضر بخـوف وأسـف إنما بحماية الرب لم نعـان من أي أذى كـان، ولم نشعر بـأدنى ضيق، ولو أننا وصلنا بعطشنا اللامحدود إلى مـاء طازج بارد، وصـافي، لسبـب ذلك مـوتنا بدون أدنى شك، من خـلال قـابليتنـا للشرب غير المحـدودة، وأخيراً عشـر أدلاؤنا هناك على طريق نحـو الأسفل، فأنزلوا الجمال والحمير وسقـوهم، ولم تشرب هذه الحيـوانات من دون انتبـاه كما فعلنا، بـل امتصت الماء من الأعلى، حتى لاتبتلع العلق مع الماء، وصعد بعض الحجاج نحو الأعلى وأنزلوا الأناس المرضى إلى الوادي لانعـاشهم، لأن الوادي كـان عميقـاً وظليـلاً، وبسبب الصخور الخطيرة والحجـارة المفصـولة المعلقـة فوقـه، وكـان في الوادي شعـراء وصفصـاف، وكهـوف فيهـا جلسنا وغسلنا رؤوسنا وأجسـادنـا وثيـابنا ومناديلنا، ونظفنا أنفسنـا من حشرة اسمهـا القمل، التي لم يكن واحد منا، مهما كان أصله نبيـلاً، متحرراً منها وهذا القمل يشكل واحـداً من المزعجات الرئيسيـة للمسـافر في البحـر أو في الصحراء، لأن القمل يتكاثر في كل لحظة بأعداد هائلة.

وغـالبـاً مـانعجب من تكاثر القمل السريع، لأنه مـاأن يقـوم انسـان بتنظيف نفسه في احدى الأمسيات، حتى يجد على نفسه مباشرة في المساء التالي المزيد الكثير من القمل، ومـن ذوات الحجم الكبير، وكأنه لم يتفقد قميصه منـذ شهر، والويل للذين شعـورهم طويلة، لأنهم يحملون معهم مأوى ومكاناً لحفظ القمل، والويـل أكثر للذين هم كسـالى جـداً حيث

لايقومون بتنظيف أنفسهم كل ليلة، وكان هناك فارس شجاع في جماعتنا لم يلمس قملة قط باصابعه لإمساكها أو لقتلها، بل كان يأخذ دوماً حجرين، وعندما كان يرى قملة على قميصه، اعتاد أن يضع القميص على الحجرة الأولى، ويضرب القملة بالحجرة الأخرى حتى يقتلها، وكنا نضحك من هذا الفارس، ومن طريقته في قتلهم.

وبعدما فرغنا من تنظيف أنفسنا، أشعلنا ناراً في الوادي، وطبخنا طعاماً لعشائنا مع سرور عظيم، ولم نمتّع أنفسنا خلال الرحلة كلها أفضل مما عملناه هناك، وكتبت في هذا الوادي عرضاً عن الرحلة كلها من غزة إلى هذا المكان، لأنني عندما كنت أجلس على ظهر حماري كنت أكتب حول طبيعة المنطقة واتجاهات الطرق على لوح شمعي، حملته معي في جعبتي، وكتبت هنا كل ماكنت قد كتبته في كتاب، ومسحت الشمع حتى أتمكن من كتابة المزيد عليه فيما بعد، وغالباً ماكنت أترجل من على ظهر حماري،وأكتب وصف الطرقات، والجبال، والوديان، لأن مامن انسان يمكنه أن يحتفظ بهذه الأشياء جميعاً في عقله، مالم يقم بتدوينهم كل ساعة تقريباً، وبعد العشاء نوينا امضاء الليل في الوادي، وبدأنا في اعداد الأماكن لننام تحت الصخور، لكن عندما سمع كالينوس بهذا نزل إلينا، ومنعنا من النوم هناك، مهما كان الأمر، بل جعلنا نصعد إلى أثقالنا، وبناء عليه صعدنا إلى المكان الذي كانت فيه الأثقال والدواب، ونصبنا خيمنا، وأعددنا أنفسنا للنوم، وكان اسم هذا القفر، أي السهل والوادي بالعربية الفوجيا Elphogaya.

متابعة سفرنا الأكثر انهاكاً

في اليوم التاسع عشر استيقظنا عند منتصف الليل، وارتحلنا من قفر الفوجيا، ووصلنا الآن إلى واد في غاية الوعورة، وسرنا بتعثر متابعين سفرنا في الظلام فوق الصخور والحجارة، ومع أن القمر كان مشرقاً، لم تستطع أشعته الوصول إلينا، لأن بعض الجبال كانت بينه وبيننا، وأخيراً

خرجنا من هذا الوادي، وشرعنـا بصعود جبل مرتفع، وتسلقنا سـائرين فـوق سفح شـديد الانحـدار، ووعـراً للغـايـة، وتابعنا السير على هذا الطريق المتعب حتى اشراق الشمـس، وعندمـا أشرقت الشمس كنا قـد أنهينا تسلقنا، ووصلنا إلى قطاع قـاحل كان فيه سهـول قاسيـة وواسعة، وكـان اسم هذه المنطقـة Rachhaym، وكـانت أرض، وحجـارة، وصخـور هذه المنطقـة حمراء، وظهـروا وكأنهم فـوق نار، وتابعنا السير باتجاه الجنوب، وتواجهنا مع ريح باردة، وقـوية، وقـارسـة، ومعاكسـة، لأننا كنا في منطقـة مـرتفعـة، وليس لدينا جبـال تحمينا من قـوة الريح، ولذلك عانينا بألم من البرد في ذلك الصباح.

وبعدمـا تابعنا سفرنا لمدة سـاعة أو أكثر فـوق هذه الأرض المرتفعة، وصلنا إلى نهاية تلك السهـول، وتلك المنطقـة، التي منهـا يقـود الطريق نزولاً عبر منحـدر في غـاية الوعـورة والانزلاق إلى القفـار في الأسفل، وعندمـا كنا واقفين على حـافة هذه الرابيـة، ونرتجف ونحن ننظر نحـو الأرض المنخفضة البعيدة تحتنا، شرع سائقـو الجمال يلقون نظرات فرحة نحـونا، وأشـاروا بأصـابعهم إلى شيء مـافي الجنوب، غير أننا لم نفهم لاكلماتهم ولااشـاراتهم، وعلى كل حـال جـاء كـالينوس وأرانا منطقـة بعيدة، جبلية مكتظة، وكـانت هذه الجبال عالية جـداً، وبدت بالنسبة لنا ضبابية ومظلمة بعض الشيء، لأنهم كـانوا بعيدين جداً، وأشار بين هذه الجبـال إلى واحـد كبير جـداً، ومـرتفع كثيراً، كـانت لـه قمتـان، كأنهما رأسان، كـان الأول بينهما أعلى بكثير من الآخر، وعندمـا كنا جميعاً ننظر نحو هذا الجبـل قال:« انتبهوا ياسـادتي الحجاج، هذا هو جبـل حوريب المقدس» وجبل سيناء، الذي عنده سوف ينتهي حجكم المتعب».

وعندمـا سمعنا هذا، ترجلنـا على الفـور عن ظهـور حميرنا، ومـددنا أيدينا نحو الجبل المقدس، وصلينا إلى الرب على ركبنا، ولدى فراغنا من صلاتنا، نهضنا فرأينا شطراً كبيراً من البحر الأحمر على جهة يميننا، وبدا

لنا أن البحر الأحمر كان قريباً تماماً منا، وكأن الانسان يستطيع الوصول إليه على ظهر فرس في ست ساعات، غير أن كالينوس أخبرنا أنه يبعد مسافة سفر ثلاثة أيام طوال، وعند لحف الجبل الذي وقفنا عليه، كان هناك سهل شاسع، كان خلفه جبال ارتفعت باستمرار حتى وصلت إلى المنطقة الجبلية الأكثر ارتفاعاً في قفار سيناء، ولدى رؤيتنا هذا كله، أحضرنا أطعمتنا من جعبنا، وتناولنا طعام الافطار، ونحن جلوس مع بعضنا، وبعد هذا أنزلنا مرضانا من السلال من على ظهور الجمال، حتى يمشون معنا على الأقدام، وينزلون المنحدر الكبير، ولم يكونوا راضين بالقيام بذلك، ومع ذلك كان من الضروري أن يسيروا بأنفسهم، نزولاً عبر ذلك المنحدر الخطير جداً.

ونزلت الجمال أولاً مع خوف وارتجاف، وكان أحدهم يقوم بالخطوة الأولى بعد الثانية بحذر عظيم جداً، وكانوا يخشون على أنفسهم، وعلى أحمالهم، وقد ساروا ببطيء شديد، فبعدما كان أحدهم يقوم بالخطوة الأولى ، كان ينتظر طويلاً قبل القيام بالخطوة الثانية، لأن المنحدر كان منزلقاً وخطيراً، وعندما وصلنا إلى منتصف الطريق نزولاً من هذا الممر، حدث لجمل كان يحمل على جانبه واحدا من الحجاج المرضى، وكان واحداً من خيرة جماعتنا وأكثرهم نبلاً، وكان هذا الجمل قد حمله طوال الطريق عبر الصحراء، والذي حدث هو أن هذا الجمل حاول النزول من فوق احدى الصخور، لكنه عندما مدّ قدميه الأماميتين، بقي واقفاً على الصخرة أعلاه، وفجأة انزلق القتب من على ظهره مع جميع حمله، وصار فوق رقبة الدابة ورأسها، ثم سقط يتدحرج طوال الطريق نحو الأسفل، وقد تحطم كل شيء كان في السلتين قابلاً للتكسير، وتعرض للتلف، وكان في السلة الأولى من هاتين السلتين قوارير الأدوية، والمنعشات، والماء المقطر، فهذا كله تلف، لأن هذا الجمل قد حمل صندوق أدوية الحجاج، ولو أن اللورد المريض بقي في سلته— وهذا

ماكان يفضل فعله— لكان قد صار مائة قطعة، ولو كان له ألف رقبة، لكانوا قد تحطموا جميعاً.

وإنه لمفيد للرجل المريض أن لايسمح له بفعل مايرغب بفعله، ذلك أن هذا الرجل قد رجانا كثيراً حتى نتركه ينزل وهو في سلته، غير أننا لم نصغ لتوسلاته بأي شكل من الأشكال، لأننا كنا نستطيع رؤية الخطر الذي منعه مرضه من رؤيته، وبعد بذل جهد كثير تمكنا من جمع الذي استطعنا العثور عليه من الأشياء التي وقعت، وأعدنا تحميل الجمل، ومن ثم تابعنا سيرنا مع حذر أكبر من ذي قبل، ومكثنا مدة خمس ساعات ونحن نبذل جهودنا نازلين وذلك قبل أن نصل إلى أرض مستوية، وعندما وصلنا أخيراً السهل الموجود عند لحف الجبل، استدرنا ونظرنا إلى الخلف إلى طرف الرابية الذي نزلنا منه، لكننا لم نستطع رؤية الطريق الذي نزلنا عليه، بسبب الصخور المتقطعة، والجروف المنحدرة، والممرات المنزلقة والمتعرجة، لذلك عجبنا كيف استطعنا النزول نحو الأسفل، لأنه بدا لنا تعذر النزول واستخدام مثل ذلك اللحف المنحدر بحيوانات محملة، فضلاً عن هذا تعجنا كيف استطعنا النزول سالمين من قمة الجبل، لأن القمة بدت لنا معلقة فوق الجزء الأدنى من طرف الجبل، ولذلك لابد أننا قفزنا من قمة الجبل نحو الأسفل، أو تدلينا فنزلنا بوساطة حبال، ولقد اعترف موالي الفرسان الذين رأوا كثيراً من أجزاء العالم، أنهم لم يشاهدوا قط طريقاً بمثل هذه الخطورة.

وعندما كنا على السهل في الأسفل، بدا لنا الأمر حقيقة، أننا كنا في عالم آخر، لأن القفار هنا بدأت تظهر أنها أكثر حضارة، حيث توفرت بعض الشجيرات والنباتات، كما أنه في أماكن هناك كان يمكن للرعيان وقطعانهم، أن يعيشوا، وهنا لم يعد الندى مالحاً كما كان من قبل، بل مذاقه مذاق العسل والمن، كما سوف أتحدث من بعد، فهنا بداية أرض مدين التي تحتوي بعض القبائل، بعضها مستقر وبعضها الآخر رحل،

وسـافرنا عبر السهل وكـان بامكاننا السفـر في ذلك اليوم حتى الجبـال، لكن إخـوانا المرضى صرخـوا وتذمـروا بسبب التعب، ولـذلك من أجلهم نصبنا خيمنـا في ذلك السهل، في مكان يدعـوه العـرب باسم رمتاييم Ramathaim وكان يوجد في هـذا المكان كهوف في الصخر، ليست كثيراً تحت الأرض، وأجلسنا أنفسنا في هذه الكهـوف للاستراحة أثناء حرارة الشمس، التي خرقت خـلال أقمشة الخيام وجعلت داخلها مثل أفران، ولهذا السبب امتلك المدينيون والأحبـاش خياماً معمولة من الجلد لرد حرارة الشمس(حبقوق:٣/ ٧).

وهكذا استرحنا في كهـوف الصخر هناك حتى المسـاء، وعندما جـاء المساء، جمعنـا عصياً، وطبخنا طعامنـا، وبعد تناول طعام العشـاء، وعند غيـاب الشمس رغبنـا بالنوم في الكهـوف، لكن كـالينوس أرغمنا على النزول إلى الأرض المنبسطة إلى خيـامنا، وكـان هـذا السهل مليئاً بأجمل الحصـا، الـذين كـانوا براقين، وشفـافين ولهم ألوان متنوعـة: أسـود، وأبيض، وأحمر، ورمـادي، وأزرق، وأخضر بحـري، وقـد أعجبنا بهم، وجمعنا بعضـا منهم، ووجدنا أيضاً هناك طبعات أقـدام نعامـات، وهو طائـر كبير يركض بين القفار، ولسـوف نتحدث عن هذه الطيـور وعن مظهرهـم في ص٨٣، وقد وجدنا آثارهم في أماكن أخرى من القفار.

متابعة الترحال

واستيقظنا قبل ساعتين من ضـوء نهار صباح اليـوم الثاني والعشرين، وغـادرنا المكان المتقـدم الذكـر، وعنـدمـا وصلنا إلى نهايـة السهل الصحراوي، دخلنا بين جبـال وعرة جـداً، عن طريق واد جميل وواسع، وكـانت الأرض في هذا الوادي مغطاة بالأزاهير والأعشـاب، وانتصبت هناك أشجار شوكية عاليـة، كانت مزهرة آنذاك، وقد ملأت الوادي كله بأجمل الروائح وأطيبهـا، ولاأعتقـد أنني شممت قـط مثل هذه الروائح الطيبـة التي صـدرت عن هذه الأشجـار الشوكيـة، لأن هذه الأشجـار

لاتحمل ثماراً غير الأشواك، وكنت قد توليت في ص ١٣٠٢ وصف هذه الأشجار من قبل، عندما حدثتكم عن الممارسات الخرافية التي يقوم بها المسلمون بالنسبة لهذه الأشجار، ذلك أنهم يقلدون في كثير من القضايا أخطاء الكفار القدماء، الذين اعتادوا على تكريس أشجاراً مزهرة ونباتات أخرى من الأنواع ذوات الروائح الطيبة إلى Ham-adryads مع Dryads ربي الحدائق، والورد، والأشجار، ووفقاً لهذا أعتقد أن هذا الوادي مع أشجاره ووروده، كان مكرساً بشكل خاص إلى هذين الربين، لأن اسم هذا الوادي الذي هو Hinischenam يقترح ذلك.

والجبال التي تحيط بالجبل من الجانبين هي عالية جداً، وصخرية ولونها أحمر، وفي الأماكن التي تسقط فيها أشعة الشمس عليهم يلمعون مثل لمعان الصخور التي دهنت بالزيت، وقد عجبت من ذلك كثيراً إلى درجة أنني سرت نحو الجدار الأول من الصخر، ونظرت إليه عن بعد فرأيته وكأنه مرطب مبلل بالزيت، ومع ذلك برهنت باللمس بيدي أنه لم يكن رطباً، وأن لمعان تلك الصخور كان مرده إلى نعومتها العظيمة مثلما يكون الحال مع الأحجار المصقولة.

وعند الظهيرة رأينا على قمة الجبل حيواناً ينظر نحونا، وعندما رأيناه خيّل إلينا أنه كان جملاً، غير أننا تساءلنا كيف يمكن لجمل أن يعيش وحده هناك، وتحول السؤال بيننا إلى هل هناك جمال وحشية، لكن كالينوس جاء وقال بأن ذلك الحيوان هو وحيد القرن، فضلاً عن هذا أشار إلى قرن واحد نابت على جبينه، وحدقنا برغبة صادقة نحو هذا الحيوان الفخم جداً، وغضبنا لأنه لم يكن قريباً منا حتى نراه عن قرب، وهذا الحيوان متفرد في كثير من الجوانب، فهو في المقام الأول— كما يقولون— حيوان حاد جداً، وله قرن قائم في وسط جبينه، وأربعة أرجل طويلة، وهو حاد وقوي إلى حد أن كل شيء ينطحه إما أن يطوح

به في الهواء، أو يتولى خرقه من وسطه(كذا) ويلقي به على الصخور، وقرنه يلمع بشكل عجيب، ويعدّ عظم ذلك القرن باهظ الثمن وثميناً مثل الحجارة الكريمة، ويوضع في الذهب والفضة[٤٠] وهو قوي إلى حد أنه لايمكن انتزاعه بأية وسيلة من وسائل القوة، وذلك من قبل الذين يصطادونه، وقد قيل من قبل كتّاب حول التاريخ الطبيعي أنهم يضعون عذراء شابة على طريقه، وهي تقوم بالكشف عن صدرها وهو يركض نحوها، وأن ذلك يفقده كل حدته، ويضع رأسه(في حضنها) وبذلك يمسك، ويعد تجريده من قواه وقوائمه، يؤخذ للذبح بسكاكين الصيادين، وإذا ماأمسك حياً، لايمكن الاحتفاظ به ضد إرادته، وإذا ماربط بشدة يموت فوراً لشدة غضبه، لأنه حيوان لايمكن ترويضه، وهو قوي إلى حد أن قوة الرب في الكتابات المقدسة(العدد:٢٣/ ٢٢) شبهت بقواه، وكذلك ورد الأمر نفسه في أيوب: ٣٩/ ٩ على صيغة سؤال نصه:«أيرضى الوحيد القرن أن تربطه برباطه في التلم؟»الخ، وذكر داوود أيضاً في مزاميره الوحيد القرن اطراء وهجاء، وهو حيوان ضخم، له جسد حصان، وأقدام فيل، وذنب خنزير، ولونه لون خشب البقس، وخواره مرعب، وهو يشن الحرب ضد الفيل، ويتغلب عليه بنطحه بقرنه في الأجزاء الناعمة من جسده، وكما قيل هو يظهر احتراماً غريباً للعذارى.

وقد أحضر بومبي الكبير وحيد قرن إلى روما للعرض، فهذا ماأورده ألبيرتوس في كتابه عن الحيوانات، ولذلك توقفنا طويلاً عند سفح الجبل الذي وقف الحيوان عليه، وبدا لنا أن النظر إليه أمر مفرح بالنسبة لنا، وكذلك مشهدنا بالنسبة له، لأن الحيوان وقف دونما حراك، ولم يهرب حتى بعد مغادرتنا له.

وبعدما مضينا على طريقنا رأينا راعياً يقود قطيعه عند لحف الجبل، وكان هذا أمراً رائعاً بأعيننا، لأننا منذ مدة طويلة لم نر انسانا ولاحيوانا

مـدجناً، ووصلنا بعـد هذا إلى مكان أدركنا أن البـداة العـرب لابد قـد أقاموا فيه مؤخراً، لأن بعض الأكواخ من الأغصان كانت ماتزال قائمة، وكـان بعضها مـايزال يحترق، وكانت النيران مشتعلة تماما هناك، لذلك خفنا من أنهم سـوف يلقوننا في مكان مـا، وهذا مـاوقع لنا بالفعل، كما سوف نتحـدث عن ذلك في مكانه، ومع حلول المسـاء دخلنا إلى القفر الذي اسمه Schoyle، ونصبنا خيامنا في واد كبير، وبقينا نحرس طوال الليل بعناية أكبر ممـا هو معتـاد، خشيـة أن ينقض البـداة العـرب علينا بشكل مفاجىء.

ترحال يوم شاق خلال القفار

وفي اليـوم الحادي والعشرين، الذي كـان يوم عيـد القـديس متى الرسـول والانجيلي، والذي كـان الأحـد السـادس عشر بعـد التثليث، غادرنا Schoyle في الصباح الباكـر، وسرنا عبر واد جيد، كان على جـانبينا صخـور وجبـال عـالية، وكـانت هـذه الجبال غـريبـة ورائعـة بأشكالها، وكأنها كـانت مكللة بشجر البرقـوق، بينما الأرض في الأسفل كانت طينيـة ومعشوشبـة ومن الممكن بسهولة فهم أشكـال هذه الجبال من الحكاية الشعـرية التـاليـة، التي تفترض بأن الجبـال الـداخليـة قـد وجدت قبل صنع الجبـال الخارجية، وتمضي الحكاية لتقـول بأن ديانا ربة الجبـال، وصائـدة وحيد القـرن، وحاميـة الطرق، قدمت من شـواطىء البحـر الأحمر في أرض مـدين، وكانت راكبـة لعـربة ثمينة جـداً، يجرها وعـول بيضاء، ومضت نحـو أعلى الجبال، التـي كان القـدماء يسمـونها الحدائق، والتي بعـد منح الشريعـة إلى مـوسى صـار اسمهـا حـوريب وسيناء، وقـد أرادت أن تصطاد هناك، وعندما وصلت إلى مـوضع هذا الوادي الذي لم يكن آنذاك وادياً، توقفت الوعول التي كانت تجرّ عربتها عن سيرها، لأنهم غطسوا بالأرض، لأن الأرض كانت موحلة، مشكلة من صلصـال سميك دبق، فيـه توقفت الوعول والعـربة عن التحـرك،

ولدى رؤية ديانا لذلك دعت هرقل للقدوم إلى مساعدتها، فجمع على الفور تيتانه Titans ، وأمرهم باطاعة أوامر ديانا، وبما أنها كانت حامي الطرق والجبال أمرت الطين الذي غطى وجه الأرض، بأن يتجمع على شكل أكوام، وأن تقف كل كومة من هذه الأكوام على قمة واحدة أخرى على الجانبين من الطريق، وذلك قبل الوقت الذي شوتهم فيه حرارة الشمس وحولتهم إلى صخور، وعلى هذا اعتاد هؤلاء التيتان على حمل جبال تجمعت على شكل أكوام، ثم كدست الأكوام كلها على الطرفين قبل أن يقسو هؤلاء ويتحجروا بوساطة الشمس، والذي حدث هو أن الأكوام السفلى ضُغط عليها بالأكوام التي هي فوقها، فتسطحت بسبب وزنها، وبناء عليه فإن الطبقة الدنيا منهم هي الأكثر انتشاراً بينهم، والطبقة الثانية هي الأقل تسطحاً، ثم ان الثالثة أقل منها، وهكذا حتى نصل إلى القمة، حيث واضح أن الكتل والقطع باقية كما هي لم تتغير، وعلى هذه الشاكلة بدا الطريق وكتل الجبال إلى جانب الطريق قد تشكلوا، لأن هذه الجبال ليست معمولة من تجمع لكتل من الصخور، مثل الجبال الصخرية الأخرى، بل من كتل من الصلصال الأرضي الترابي، التي لم تكن في البداية جافة أو مشوية، لكن من بعد ذلك صارت قاسية، وهكذا نستطيع من خلال هذه الحكاية تتبع أصول شكل هذه الجبال.

وفيما نحن سائرون على طول هذا الوادي، رأينا حشداً كبيراً من الناس من رجال ونساء وأطفال، مع جمال، وحمير، وخيول، كانوا جميعاً وقوفاً عند سفح الجبل على استعداد لاستقبالنا، وعندما اقتربنا منهم، ركض رجالهم نحو الأمام لملاقاتنا مع صرخات غاضبة وحركات، وانقضوا أولاً على الجمال، وأنزلوا من عليهم الأثقال، وخلال ثورتهم وعنفهم مزقوا واحداً من أكياس البقسماط، ونثروا البقسماط على الأرض، في حين بدأت نساؤهم وأطفالهم بالتقاطهم، علاوة على ذلك،

عاملنا سائقو جمالنا بسوء وغش، فقد ساعد بعضهم البداة العرب على سلب أشياء من الجمال، وبما أن أدلاءنا لم يهتموا بصراخنا، وكانت حاجياتنا تتناثر فوق الأرض، ركضنا نحو الأمام وانتزعنا بقوة أكياس البقسماط من أيديهم، واتخذنا موقفاً صارماً منهم وأظهرنا غضبنا نحوهم، وعندما شاهدوا ذلك أوقفوا عنفهم، واستداروا نحو كالينوس الذي أزعجوه بقسوة متناهية، وأفترض أنهم انقضوا عليه لأنه سمح لنا بمقاومتهم، وجمعنا الأشياء التي انتزعت من الجمال، ووقفنا حولها مع أسلحتنا بأيدينا لحراستها، ومع ذلك لم نتوقف عن منح البقسماط إلى النساء والأطفال الذين قدموا إلينا وحذرنا كالينوس من أن نكون متعنتين، بل ينبغي جمع مبلغ مامن بيننا، بحيث يسهم فيه كل حاج بدفع مبلغ مندوس أو مندوسين، وعندما نجمع هذا المبلغ نعطيهم إياه كخفارة، وقد تصرفنا هكذا وعملنا اتفاقاً مع مقدمهم مقابل عدد من المندوسات، وبعدما دفعنا هذا المبلغ، سمحوا لنا بمتابعة سيرنا على طريقنا، لكن بعض الشباب بقيوا معنا حتى جبل سيناء.

وبعد رحلة طويلة خلال ذلك الوادي، وصلنا إلى نهاية الوادي، وعبرنا ثانية إلى سهل فسيح، يوجد على جانبه الآخر جذور الجبال، التي كان بينها جبل سيناء المقدس، وسرنا عبر هذا السهل نحو الجبال التي كانت قائمة في مواجهتنا، ودخلنا إلى واد، عملنا فيه استدارات إلى هنا وإلى هناك، فقد كنا ساعة على هذا الجانب وساعة أخرى على الجانب الآخر، وذلك تبعاً لتعرجات الوادي ومنحنياته، وجرى اقتيادنا جانباً بعيداً عن الممر المستقيم نحو الجبل المقدس، وعبرنا ودياناً بدت وكأنها تقود إليه مباشرة، لأن جبل سيناء وقف مباشرة إلى الجنوب منا، ولكن بما أن الوادي اعترض طريقنا، ارتحلنا مسايرين الوديان المتعرجة، الآن نحو الشرق، وبعد قليل نحو الشمال، وأحياناً نحو الغرب، مما أزعجنا كثيراً، بسبب أننا رأينا أحياناً جبل سيناء يقف تماما خلفنا.

ووصلنا حـوالي الظهيرة إلى مكان حيث انحـرف الـوادي وعمل استدارة أخـرى نحو الجنوب، وخلفنا هنا الجبـال المرتفعة خلفنا، ورأينا قمة جبل سيناء أكثر وضوحـاً، فوق قمم الجبال الأخـرى، وفي الحقيقة يوجد في قفار سيناء مناطق مدهشـة، هي في غاية الارتفاع وجبال حادة القمم، وبعـدمـا سرنا مسـافـة قصيرة، ونحـن مسرورين، باتجاه الجبل المقـدس، تركنا الوادي الذي يقـود نحـو الجنوب، والذي بدا بأنه يقـود نحو سفحه مباشرة، وقمنا ونحن نتبع أدلاءنا، فانعطفنا إلى جانب وادي يقود نحـو الشمال، وبذلك أدرنا ظهورنا لجبل سيناء للمرة الثانيـة، وقد تابعنا سيرنا على طريقنا ونحن نتذمر، وكنا غير راضين تماما، ولقد تردد بين الحجاج بأن البداة العرب الذين كـانوا يتولون سوق جمالنا، اقتادونا عن عمد عبر هـذه الممرات الملتوية في القفـار، في محاولة منهم لإنهاكنا ، حتى ندفع لهم مالاً، من أجل الذهاب عبر الطريق الأقصر.

وفي الحقيقـة ابتعـدوا عـن الوادي الذي بدا بأنه يقـود نحـو البقعـة المرغوب بها، ونزلوا إلى وديان قادت نحـو الاتجاه المعاكس، ولذلك فإن الحجـاج الذين شعروا بأنهم خـدعوا وتوجسـوا بأنهم اقتيدوا عن عمـد بعيداً عن طريقهم ثاروا، ولعنوا كالينوس، ولعنوا الأدلاء، هذا من جهة ومن جهة أخـرى قال بعض الحجاج، بأن هذا لم يكن تصرفـاً صحيحاً، وأنه ليس هناك خدعة حول القضية، ووجه هؤلاء اللوم إلى الذين ثاروا من أجل الشتـائم، وبناء عليـه تخاصـم اثنان من الفـرسـان أحـدهما مع الآخر، وشرعـا يتبادلان الشتائم ولغـة قذرة، وقد لعن أحـدهما الآخر، وأصبح هذان الفـارسـان غـاضبين إلى حـد أنهما تـرجـلا عن حماريهما، وامتشقـا سيفيهما وخطا أحدهما نحـو الآخر خطوات مع تسـديد رأسي السيفين كل واحـد نحو الآخر، وكـان كل واحد من الفـارسين بارع في المدافعـة، ومنع بذلك كل واحـد منهما الآخر من طعنـه بسيفه، وعندمـا رأى بقية الحجـاج هذا ركضوا وسعوا للفصل بينهما، لكن مـامن واحد

تجرأ على الاقتراب منهما خوفاً على جلده، لأن كل واحد منهما كان غاضباً جداً، ولوحا بسيفيهما من دون حذر، وركض البداة العرب الذين كانوا معنا نحوهما، ومع أنهم كانوا عراة، وضعوا— دونما خوف— أنفسهم بينهما، ووقفوا تحت سيفيهما، وبهذه الوسيلة انتهت المشاجرة، لأن مامن واحد منهما كان بإمكانه طعن الآخر، من دون أن يجرح الأبرياء العرب، ولولا أنه تمّ الفصل بينهما بهذه الطريقة، لكان أحدهما، أوكلاهما، قد هلكا، ومركز البداة العرب على هذه الصورة أنفسهم ووضعوها في هذا الخطر العظيم، ليس بسبب شجاعتهم، بل بسبب مبادىء ايمانهم..... لأنهم يعتقدون أن ساعة موت كل انسان وشكل ذلك محددة من قبل الله، وأن هذه الساعة لايمكن تقديمها أو تأخيرها، حتى وان ضرب انسان نفسه بالسيف ليموت، أو رمى نفسه من شاهق إلى مكان منحدر لتدمير ذاته، وهم يعتقدون أنهم لايمكن أن يموتوا، ولايمكن أن يقتلوا إذا لم تحن ساعتهم المقررة، ولذلك يمضون إلى القتال من دون دروع واقية للجسد.

وبعد الفصل بين هذين، استطعنا بعد صعوبة أن نقنعهما بأن يقسما بالمحافظة على السلام في الوقت الحالي، وقد أقسما بالحفاظ على السلام حتى الوصول إلى القاهرة، لأن الملك السلطان موجود هناك مع قضاته، وأنهما يرغبان بالمثول أمامهم، والخضوع لحكمهم، وعانينا أثناء ذلك القتال من خوف رهيب، لأنه لوجرح أحدهما الآخر لهبّ رفاقه إلى مساعدته، ولانقضوا على الآخرين، وكان رفاق الآخر سيقفون إلى جانبه مساندين له، لأننا كنا مقسمين إلى ثلاث مجموعات، كما تحدثت عن ذلك من قبل، علاوة على ذلك، كان سيلقى بنا في السجن، ومن ثم المثول أمام السلطان بسبب خرقنا جواز الأمان المعطى إلينا، وهكذا مضى كالينوس إلى المتنازعين، وأمرهما بالحفاظ على السلام باسم السلطان، لكنهما لم يباليا، لأن القضية كانت معلومة أمام النالس جميعاً.

وعندما انتهى هذا الشجار، سرنا مسافة طويلة، ونحن مديرين لظهورنا إلى الجبل المقدس، لأن كالينوسس مع البداة العرب أخبرونا بأننا لن نتمكن من الوصول إلى سفح جبل سيناء، من خلال أي وادي، باستثناء واحد، علينا أن نشق طريقنا نحوه، وهو الوادي، الذي ذهب من خلاله آباؤنا من بني اسرائيل، إلى الجبل المقدس، وبعدما سرنا مسافة طويلة، انعطف الوادي نحو الجنوب، أي الى الجبل المقدس، وسرنا على طريقنا ونحن مسرورين، لأن جبل سيناء بات أمام أعيننا، وعند غياب الشمس وصلنا إلى سهل شاسع، محاط من كل جانب بجبال عالية، وكان شكل هذا السهل مستديراً في وسط الجبال، وكانت التربة معشوشبة وجميلة جداً، وكان في وسط السهل كثيراً من الصخور والحجارة المنبعثة من الأرض في مكان واحد، مشكلة بذلك جبلاً صغيراً، ونصبنا عند سفح هذه الجروف والشعاب خيمنا، وقررنا إمضاء الليل هناك، وكان اسم هذه المنطقة والسهل بالعربية Machasea، وكان السهل محاطاً بالجبال إلى حد أننا لم نستطع أن نرى أي طريق للخروج منه، كما أننا لم نتمكن من رؤية الطريق الذي جئنا عبره، وفي هذا الطريق أطعم موسى قطعان يثرو (شعيب) الذي كان ختنه، والذي عنه قرأنا في سفر الخروج:٤، ومن هناك قاد قطيعه إلى الجانب الخلفي من الصحراء، وإلى سفح جبل سيناء، الأمر الذي لم يتجرأ أي راع قبله على فعله، بل كانوا يقيمون جميعاً في الخارج، في هذا المكان، أو في مكان آخر بين الوديان، كما سوف أحدثكم.

وعلى الجبل المجاور لنا، أشار أدلاؤنا ودلونا على مكان بين الصخور، موائم للانسان ليقف عليه، حيث من هناك مشهد عبر السهل كله، ويقال بأنه هنا قد اعتاد موسى على الجلوس عندما كان يطعم قطعان يثرو، كاهن مدين، ولكي نفهم هذا بشكل أوضح، علينا أن نعرف بأن مدين كانت مدينة على شاطىء البحر حتى الأحمر، ومن اسمها عرفت

المنطقـة كلهـا الممتدة من شـاطىء البحـر القفـار باسم مـدين، وفي هذه المدينة عـاش رئيس المنطقـة، وكـان يعـرف باسم كـاهن مـدين، وكـان الكاهن في أيام مـوسى هو يثـرو، وكـان أيضـاً يعـرف باسم رعـوئيل، وسيفـوس Civeus و أوباب Obab ، وإلى هذا الرئيس إلتجأ موسى عندما هرب من مصر (الخروج:٢)، وبما أن موسى خـدمه بشكل جيد، أعطاه احـدى بناته زوجـة له، وجعله راعيـا لقطعـانه من الأغنام، التي كـانت شيئـاً عظيماً، لأن ثروة الناس كلهـا في القـديـم تمثلت بقطعـانهم وأسرابهم.

وأقـام موسى مع قطعـان الأغنام في الأماكن المعشـوشبة من القفـار، مثل التي توفرت في وديان قفار سيناء، وكان هو وبقية الرعيان يترددون على هذا الوادي أكثـر مـن سـواه، لأنه كـان واسعـاً، وجيـداً لإطعـام الأغنام، وقـد رعى أغنامه هنـاك لسنوات كثيرة، وكان من وقت لآخـر يذهب إلى المدينة، التـي كـانت بعيـدة، وذلك لرؤية زوجتـه، لكن في القسط الأكبر من السنة كـان في القفـار مع الأغنام، مثلما يفعل رعـاة البقر(في بلادنا) الذين يسكنـون في الألب، فيبقون معهم قسطاً كبيراً من السنة، وكان هذا السهـل يشكل التخم بالنسبة للمراعـي، ومامن راعي تجرأ على أن يقود قطيعـه خلفه نحـو جبل سيناء، لأن الذي كـان رائجاً بشكل عام بأن هـذا كان جبل الرب، وأن الرب قد سكـن فيه، ولذلك مـامن انسـان كـان يتجـرأ على الاقتراب منه، خـاصـة وأن بعض الذين دخلوا إلى هناك، لم يشاهدوا بعد ذلك وماتوا فيه.

ومن هذا واضح أنه من قبل أيام مـوسى كـان هذا الموضع مع الجبل محل تقدير، إنما مع كثير من أوهام الكفـار واعتاد بعضهم بأن يقول بأن أرباب الجبـال قد اتخذوا هنـاك حدائق جعلوها مكانـاً للالتقاء فيـه، ولم يكونوا يسمحون لأي انسـان حي بالحضور معهم، ولهذا أطلق الأرباب على هذه الجبال اسم الحدائق، وقـال آخرون بأن هذا الجبل كان مقـدساً

لدى أبولو الذي كان راعي قطيع أدميتوس Admetus ملك ثيسالي Thessaly، وعمل رباً للحكمة، واعتاد آخرون على عبادة موبسوس Mopsus هناك، الذي كانت له السلطة في سهول Grynean، والذي اعتاد بعد موته على إعطاء الهواتف في الهيكل الذي بني هناك.

إنما موسى، لكونه مؤمناً حقاً، كانت لديه آراء أخرى حول هذا الجبل، وفي الحقيقة كان رجلاً عظيم الحكمة، وكان الأول الذي أعطى اليهود أبجدية، التي منها اشتق الفينيقيون أبجديتهم، ومن الفينيقيين تلقى الاغريق أبجديتهم، كما تعلمنا من الفيلسوف يوبوليوس upolius الذي أعلن أنه هو الذي اخترع أسلحة الحرب، وأعطى الأبجدية إلى الكهنة المصريين، وكان رجلاً عظيم القدر بين المصريين، حتى أنهم اتخذوه مثل الاله ميركوري، علاوة على ذلك لقد وصف مظهره قائلاً بأنه كان رجلاً طويلاً، له بشرة شقراء، وشعر شائب، وكان شعره طويلاً وكذلك لحيته، وعبّر في وجهه وشكله عن جلالة لايمكن وصفها.

وكان هذا الرجل العظيم، بعدما طرد من مصر— كما سلف وقلنا—، يقوم برعي القطعان في هذا المكان، وهنا غالباً ماجرى تحريضه— بدون شك من قبل الروح القدس— ودفعه للدخول إلى الجزء الأقصى الداخلي من القفار، وهكذا قام في وقت كان محدوداً من قبل الرب بقيادة قطيعه إلى قلب المكان هناك، حتى سفح الجبل المقدس، كما سنوضح ذلك في مكانه، وهكذا نمنا في الخارج تلك الليلة، ناوين أن ندخل في الغد مثلما دخل موسى.

مقال لاهوتي حول المنّ الذي وجدناه

وفي اليوم الثاني والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس موريس ورفاقه، استيقظنا مبكراً جداً، وحمّلنا دوابنا، وتبعنا نجمة القديسة

كاترين، العـذراء المباركة، التي بـدت قائمة على مقـربة منا، وسرنا نحو جدار الجبل، الذي كنا مطوقين مـن قبله، وعندما وصلنا إلى هذا الجدار الصخري، وجـدنا فجاً ضيقـاً في الصخر، أعطانـا مدخلاً، ومـن خلال هذا الفج عبر مـوسى مع قطيعــه إلى الأجزاء الداخليـة القصـوى من القفـار، وكـان من الصعب على جمل محمل المرور من خـلال هذا الممـر الضيق، وعندمـا أصبحنا في الداخل، دخلنا إلى سهل آخـر، جميل جـداً، يوجـد فيــه عشب، ونبـاتات وشجيرات، وهنا أنعشنا أنفسنـا بالندى المتساقط، الذي كـان أحلى من العسل، ويختلف اختلافـاً كلياً عن الندى الذي تذوقناه في اليـوم الثامن عشر، كما ذكـرنا من قبل، ذلك أن الندى الذي يتسـاقط هناك حـول تلك الأمـاكن المقـدسـة يرينا كم كـان حلواً مذاق المن الذي أعطي هناك إلى البطارقـة، وفي هذه الأيام يتساقط المن، أو ندى المن، حـول جبل سيناء لمدة شهـرين هما:آب، وايلـول، ويقـوم البـداة العرب بجمع هذا المن، ويبيعـونه للحجاج، ورأيت أنا شخصيـاً هذا المن وأكلت منه، وقـال فنسنتـوس في مصنفـه Speculum Nat-urale— الكتاب الخامس، الفصل:٨٥، بأن المن هو ندى يتساقط فوق الأوراق أو الحجارة، وهو كثيف مثل العسل، ويغدو جافاً مثل الصمغ، ثم يصبح قـاسياً وبعـد ذلك يجري جمعه، وفي الشرق يتسـاقط في الليل، لكن بما أنه يعثـر عليه بكميـات قليلة، يغش كثيراً، وعندما يكون نقيـاً، وليس ممزوجاً مع أشياء أخرى، تكـون رائحته طيبة جداً، ويكون ثميناً، ولونه أقرب إلى البياض، وأحلى من أي شيء آخر في العالم، وهو حلوى طيبـة جـداً، ويقال بأنه مـن النوع نفسه الذي عـاش عليـه العبرانيين في القفـار لمدة أربعين سنة، وتشكل ذلك المن بمعجزة ربانيـة، ولذلك فإن شكله وطعمه قـد تغير وصار مالحاً، أما بالنسبـة لهذا المن الطبيعي فانه يتساقط أدنى من المن الاعجـازي، على أساس أن المن الطبيعي لايتـوفر كل ليلة، أو كل مـوسم من مـواسم السنة، بينما كـان يتم العثـور على الآخر كل صبـاح، حيثما كان شعب الرب مقيماً، ومثل هذا هو مـوجود

في بعض مناطق بلاد الاغريق.

وفيما يتعلق بالمن الذي أعطي إلى بني اسرائيل، نقرأ في سفر الخروج: ١٦—١٤:« وفي الصباح كان سقيط الندى حول المحلة. ولما ارتفع سقيط الندى إذ على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور، دقيق كالجليد على الأرض»، ومعنى هذا النص أن الجليد سقط فوق الأرض، ثم تبع ذلك سقوط المن عليه، وبعد ذلك تجمد بعض الندى عليه، وعلى هذا الأساس كان المن بالفعل موجوداً بين طبقتين، مخزوناً بذلك بشكل نقي بين غلافين، الغلاف الأول هو الجليد، والغلاف الثاني هو الندى، لكن الندى الذي يتم العثور عليه في هذه الأيام لايغطي وجه الأرض، إنما يتعلق فوق أوراق النباتات، وعلى رؤوس الأحجار، مثل الندى المعتاد وليس له طعم حلاوة الحلوى نفسها، بل إنه يحصل على الحلاوة من طبيعة النباتات، أو الأعشاب، أو الحجارة التي عليها يتساقط.

واعتاد القدماء على أن يقولوا بأن الندى هو ابن القمر والهواء، ويتساقط الندى بشكل غير مرئي، فينعش الأرض، ويجعلها خصبة، وهو حلو وشفاف، وقليل من الحرّ يجففه، ويسبب الندى المتساقط الخصوبة، وعندما تحمله النحلات إلى خلاياها يتحول إلى عسل حلو، وعندما يتساقط في الأصداف البحرية يتحول إلى لآلىء ثمينة، وهكذا مصصنا في ذلك الصباح، الندى الحلو للقفار مع الشعور بالسرور، وعندما صرنا في دير القديسة كاترين اشترينا منّاً، لكن وجدناه قد تعرض لكثير من الغش والتزييف، وذلك حسب تصوري مما قد قيل، وفي الحقيقة لاقينا النصيب نفسه الذي لاقيناه مع المن هنا مع البلسم فيما بعد.

وبعدما عبرنا خلال الفج الضيق المتقدم ذكره، وصلنا إلى واد فسيح، مليء بنباتات طيبة الرائحة، وكان هذا الوادي مطوقاً بصخور عالية جداً، ذات لون أحمر، ففي هذا الوادي وفي أحوازه المحيطة بجبل سيناء،

سكن بنو اسرائيل، في خيم وأكـواخ وفقاً لأسبـاطهم ولأسرهـم، وذلك في الوقت الذي كان فيه مـوسى مع الرب في الجبل، وهذه مسألة سوف أتوسع حولها كثيراً في ص ٨٣ظ.

وسرنا لبضع ساعـات نحو الشرق، وتخلينا أخيراً عن السير في ذلك الاتجاه، وانعطفنا نحو الجنوب، ودخلنا إلى واد آخر كبير وجميل، وبعيداً عنا وأمامنا، رأينـا جداراً جبلياً عـالياً جـداً ومرعباً مكونـاً من الصخر، وباتجاهه تسلقنا، وتسـاءلنا في أي مكان سوف نخـرج من ذلك الوادي، لأنه لم يوجد أمامنا، كما أننا لم نشاهد على أي من الجانبين من حولنا أي ممر يقـودنا إلى خـارجـه، والذي رأيناه أنفسنا فقط محصـورين من قبل جـدران جبلية صخـرية وعاليـة جداً، وعندمـا وصلنا تقريبـاً إلى الجدار الجبلي الكبير الذي وقف أمـامنا، فجأة ظهـر أمـامنا فج في الجبل على يميننا، ممتـد من القمـة إلى القعـر، من خـلاله، وليس من خـلال طريق آخـر، هناك طريق يقود إلى سفح الجبل المقـدس، ولذلك سرنا عبر هذا الطريق الضيق، ووجـدناه وعـراً جـداً للسير عليـه، ومـرعبـاً للحمير وللجمال، وبعدما سرنا قليلاً خلال هذا الممر وعندما أخذ الوادي يتسع قليـلاً، رأينا أبنيـة، ومسـاكن بشريـة، وكنيسـة لها شكل مستطيل، وقـد كانت دير القديسة كاترين، العذراء المباركة جداً، وما عرف باسم كنيسة ومصلى العذراء مريم المباركة، عند العليقة، وذلك عند سفح جبل سيناء العظيم القـداسـة، وعندمـا رأينا هذا كله ترجلنا من على ظهـور حميرنا، وجثونا بسرور عظيم على ركبنا، وتعبدنـا نحو المكان، ففي المكان نفسه الذي يقـوم عليـه الدير، رأى مـوسى المعجـزة المشهـورة، وهي الأجمة(العليقة) التي كـانت تحترق من دون أن تتأذى أوراقها الخضراء وثمارها، ولم تتعـرض أغصانها التي كـانت تحمل ثماراً مطلقاً للخـدش بالنار، مع أن لهيب النار كان حاداً وسريعاً.

ووقفت العليقة المدهشة في المكان الذي يقوم فيـه الآن مزار القديسة

مريم عند العليقـة، عند رأس الكنيسة، وكـان موسى عندمـا شاهد هذا عجب وقــــال:« أميـل الآن لأنظر هـذا المنظر العظيـم، لماذا لاتحترق العليقة، فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه»، وهكذا إلى آخـر مانقرأه في سفر الخروج:٣/ ٣—٤.

وسرنا مسرعين مـن هذا المكـان خلف الجمال والحمير، وذلـك باتجاه الدير، وعندمـا وصلنا إلى الدكة الواسعـة أمام باب الدير، وجـدنا كثيراً من البداة العـرب يجلسون هناك مسلحين وفق طرائقهـم، وخرج هؤلاء الناس مرغمين من القفار بسبب الجوع، وأجبروا على الذهاب إلى الدير من أجل لقيمات من الخبـز، وعندما رأينـاهم بتنا خائفين جـداً، وخشينا من أن نبتلى بهم أمام باب الدير، كما أن كثيراً من البداة العرب قد ذهبوا معنا، وكانوا قد لحقوا بجماعتنا في القفار.

وبناء عليه أنزلنا الأثقال من على ظهور دوابنا، وجمعنا أثقالنا في مكان واحـد، ووقفنـا من حـول حقـائبنـا، خشيـة من اللصـــوص الذين كنا بحضرتهم، فقـد خفنا من أن يستولـوا على أي شيء منا، وعندمـا سمع الرهبان بحضورنا، وبوجودنا هناك، قدم بعضهم ورحبوا بنا بلطف، كما أنهم ساعـدونا في حمل جميع حقائبنا إلى الداخـل، أي إلى بيت الضيوف، وكان في بيت الضيوف كثيراً من القلايات الفارغة، عليها وزعنا أنفسنا، وذلك تبعاً لتـوزع جماعاتنا، فضلاً عن ذلك كانت هناك بيعـة للطقوس اللاتينية وفيهـا مذبح، وهنا، بما أن الظهيرة لم تكن قد مضت قـام واحد من الحجـاج بقـــراءة قـداس لنا، أصغينا إليـه بخشـــوع، واشترينا بعـد القداس حطباً للنار من الرهبان، لنطبخ به، وطبخنا وأكلنا بعض الطعام الذي جلبناه معنا من الأرض المقـدسـة، وتمددنا بعـد هذا للاستراحـة، وعندما انتهت استراحتنا، ذهبنا إلى كنيسـة القديسـة كاترين، وإلى مصلى القديسـة مريم عند العليقـة، وزرنا أماكن مقـدسة أخـرى، سوف أتولى وصفهـا في أماكنهـا، وبعـدمـا قمنا بهذا كله، أقمنا في داخل الدير وعلى

أرضه ولم نذهب إلى خارج الأسوار في ذلك اليوم.

الاضطراب الذي ألمّ بالحجاج

وكنا في اليوم الثالث والعشرين مستعدين للصعود إلى جبال: سيناء، وحوريب، والقديسة كاترين، ولكن إخواننا المرضى سألونا انتظارهم حتى الغد، حتى يكونوا قد استردوا قواهم، وأن يكونوا قادرين على الصعود معنا، وأصغينا إلى توسلهم، وبصبر بقينا مرتاحين، وحدث أنه بعد تناول طعام الغداء، أن زرنا ثانية الأماكن المقدسة في الدير، حتى نتمكن الحصول على غفرانات(+) وتجولنا في جميع جهات الدير، ورأينا كل طرف من أطرافه.

ومع حلول المساء، وصل واحد من المقدمين العرب، وكان رئيسا للصوص الصحراء، وقد قدم ومعه كثير من الأتباع المسلحين، ودخل إلى الدير، وعسكر مع رجاله قرب أماكن إقامتنا، حيث راقبوا دخولنا وخروجنا، ذلك أنهم قدموا بسببنا، علّهم يستخرجون مكوسهم غير العادلة منا، وقد أزعجنا هذا كثيراً، وأغضبنا، وألقى ظلالاً على سرورنا، لأنه لم يعد بامكاننا العبور من أماكن إقامتنا إلى كنيسة القديسة كاترين، لأن البداة العرب جلسوا في الساحة ليلاً ونهاراً، وراقبونا عن قرب لدى صعودنا ونزولنا من على السلالم، كما أننا لم نستطع الذهاب إلى البئر للحصول على الماء إلاّ بالمرور من وسطهم، ولم يفعلوا شيئاً لنا، إن كان خيراً أو شراً، كما أنهم لم يصرخوا علينا، ومع ذلك كان جلوسهم هناك مزعجاً لنا.

وعندما اقترب ميقات العشاء، طبخنا طعاماً من أجل عشائنا، وكذلك من أجل غدائنا في اليوم المقبل، حسبما اعتدنا أن نفعل في القفار، لأنه في الغد لن يتوفر لدينا وقت نقوم به بطبخ طعام الغداء، كما سوف نرى.

كيف صعد الحجاج إلى جبل حوريب وسيناء المقدس، وكيف وقعت لهم حوادث متفرقة وهم على طريقهم أثناء صعودهم، مع وصف للجبل وللطريق

استيقظنا في اليــوم الرابع والعشرين قبل شروق الشمس، وأقمنا قداسـات في البيعة اللاتينية، وبعـد انتهاء هذه القداسـات، جاء راهب، هو الحافظ لمقـدسـات الدير، واسمـه نيقوديمـوس، جـاء ليقـودنا لدى الصعود إلى الجبـال المقدسـة، وقام باستعـراض جميع الحجاج، ونظر إلى كل واحـد منهم عن قرب، ولم يسمح مطلقـاً للذين نظر إليهم على أنهم مـرضى بالانطلاق معنا، لأنه قـال بأن الممـر شـديد الانحـدار وشـديد الانهاك، ولذلك بقي بعـض الحجـاج المرضى خلفنـا، لكن بعضهم،— وإن كانوا مرضى— رفضوا جميعاً البقاء والتخلف، وحملنا مزاود طعامنا مع طعامنا، وقوارير مليئة بـالخمرة، وجراراً من الماء، تكفينا لمدة يومين، وأعطيناهم إلى سائقي حميرنا لحملهم، لأنهم كانوا على استعداد للذهاب معنا، والقيام بخدمتنا.

ولدى فراغنا من هذه الاستعدادات، اقتـادنا الراهب نيقوديموس إلى خـارج الدير من خـلال البـاب الذي دخلنـا منه، وسرنا باتجاه الجنوب عند لحف الجبل المقـدس لسيناء وحـوريب، والذي على جـانبـه هناك جرى بناء الدير، وفي الحقيقـة لهذا الجبل المقدس اسمين هما: لقـد عرف من الدير حتى بيعة القديس إليـاس باسم سيناء، ومن هناك حتى القمة عرف باسم حوريب، وجـرى منح هذين الاسمين له، وفقاً لما تمّ عمله هناك، فـلأن الوصـايا والشريعـة قـد أعطيت هناك، أطلق عليـه اسم« سيناء»، أي «العقيـدة»، وكـذلك لأن الرب ظهـر هناك في نار ودخـان، وكـان الجبل كلـه فـوق نار ودخـان مثل أتون، كما قـرأنا في سفـر الخروج:١٩، فقد أطلق عليه اسم حوريب، أو خوريب، أي«حرارة».

ولدى شروعنا بتسلق الجبل المقـدس، وعندمـا كنا سائـرين بصمت،

ووقار وخشوع، تفجـر نزاع وصراخ، وخصام، بين سائقي حميرنا الذين حملوا أثقالنا، والبداة العرب الذي رافقونا، حيث لم يسمح البداة العرب لسائقـي حميرنا بخدمتنا بل قـالوا بأن هذا اختصاصهم، وعليهم تقـديم هذه الخدمات، وذلك مثلما قالوا بأن جـواز الأمان والخفارات من أجل عبور الصحراء، واقعة في منطقتهم، وهكذا بذل البداة العرب جهودهم من أجل الحصـــول على حقـائبنا، ورفض الآخــرون اعطاءهـم إياها والتخلي عنهــا، ونظرا لقيــام هذا الاضطراب ووصـــوله إلى هذا الحد، أخذنـا بأنفسنا حقائبنا، ورفضنا اعطاءها لأي فـريق منهما، بل وضعناها على أكتـــافنا، واستـدرنـا، وعـدنا على خطـانا نحـو الـدير، لإنهاء ذلك الخلاف بمساعدة كالينوس، وراعي الدير، ومقدم البداة العرب، وذلك حتى نتمكن من صعـود الجبل بسلام، وعندمـا شاهد البـداة العرب مع سـائقي الحمير ذلك، صـاروا أصدقـاء مع بعضهم بعضـاً، ووعـدوا أن سيكونوا هادئين، وسيحـافظوا على السـلام، ورجـونا بعـدم العـودة إلى الدير فقط، وأخذوا الأثقال ثانية منا، ومضوا من دون أي ازعاج.

وعندمـا صعدنا إلى الأمـاكن المنحـدرة، ووصلنا إلى الجزء الأعلى من الجبَل، فإن الحجـــاج المرضى أغمي عليهم، ولم يعـد بامكانهم متـــابعـة الصعود، لذلك أعيـدوا مباشرة إلى الدير، وتابعنا التسلـق، وصعدنا على الدرجـات الحجــرية، التي عملهـا الرهبـــان هناك، ومن دونها لايمكن لانسان الصعود إلى الأعلى، بسبب شـدة انحدار طرف الجبل، والجدران الصخرية العاليـة، وكان هناك في هذا المكان فج مظلـم ومخيف في الجبل، في وسطه هناك درجـات للصعـود عليهـا مع وجـود جـروف على كـلا الجانبين، لذلك مامن انسان كـان يستطيع السير على تلك الدرجات على قدميه، بل توجب عليه التسلق بوساطة قدميه ويديه، وذلك مثلما تسلق يوناثان على يديه وقـدميـه كما جـاء في سفـر صمـوئيل الأول:١٤/ ١٣، وأثناء صعـودنا نحو الأعلى، وصلنا هناك إلى نبع مـاء عذب، تفجـر في

البداية هناك بوساطة معجزة، سببها سوف أحدثكم عنه بعد قليل، ومع أننا كنا مانـزال صائمين، شربنا من النبع، لأننا كنا لتعبنا نتصبب عـرقاً، وكنا عطاشى.

وفي أثناء متـابعتنا للسير في الفج صعـوداً في الجبل، وذلك عبر طريق وعـر للغاية وكثير الحجـارة، وصلنا إلى بيعـة شرفت بحمل اسم مـريـم المبـاركة، والتي بنيت عقب مـاسـوف نتحدث عنه فيما يلي، وكـان هناك واحـد من رهبـان الدير يسكن إلى جـانبهـا في كوخ مـائل في مـواجهـة البيعة، وقـد فتح الباب لنا، وعندما كنا داخلين إلى البيعـة، حدثنا دليلنا الراهب نيقوديمـوس بالحكاية التاليـة، حول أصل النبع والبيعـة، وكان يتحـدث باللغــة الايطاليـة: حـدث فيما مضى من زمــان أن الأفـاعي والثعابين، والعـلاجيم، ومخلوقات سامة أخـرى، ازدادت وتضاعفت في داخل الدير، ومن حـوله إلى درجـة أن الرهبان لم يعـد بامكانهم العيش هناك، بل قـرروا هجر المكان، وترك الدير، ونقل أنفسهم إلى بقعـة آمنة ونظيفة، وبناء عليـه، دعا راعي الديـر في اليوم المحدد جميع الـرهبان إلى الاجتماع، وأمـرهـم بالقيـام بمسيرة وقــورة وخـاشعــة إلى جبل سيناء المقدس، وبعـد انتهاء المسيرة إلى الجبل المقدس، أومـى بأنه سوف يرتحل من ذلك المكان، ولذلك حملوا صلبـانهم، وآثارهم المقـدسـة، وصعـدوا وهـم يغنون الترانيم إلى الجبل المقـدس، حتى القمة، حيث تسلم مـوسى الشريعة والألواح من يد الرب.

وبعـدمـا قبّلوا الأمـاكن المقـدسـة وهم يبكون، نزلوا بوضع حـزين، لأنهم كـانوا كارهين ترك المكان ومغـادرة الجبل المقـدس، وهو ماكـانوا عـازمين على فعله والمضي من هناك في اليوم التـالي، وهـم يحملون معهم جميع أثاث الدير، لأنهم طـردوا من هناك بسبب الضرورات التي تقـدم ذكرها، وعندما كـانوا على طريقهم نازلين، وصلوا إلى المكان الذي تقوم فيه البيعة الآن، وفجأة تفجر ضوء عظيم، وظهرت لهم العذراء المجيدة،

الأم العذبة للرب، بجلال، وأمرتهم بعدم مغادرة المكان الذي هو عظيم القداسة، ووعدتهم بأنهم سوف يكونوا بأمان، واختفت، واطمأن الرهبان بهذه الرؤيا، وتابعوا النزول، لكنهم تعرضوا إلى اغواء مؤلم، وأن ماراأوه كان مجرد وهم، ولذلك عندما وصلوا إلى هذا المكان، حيث مكان النبع، حيث لم تكن هناك مياه، توقفوا، وصلوا للرب بخشوع عظيم، وسألوه إذا كانت الرؤيا صحيحة ليتلطف ويمنحهم علامة على ذلك، وحدثت معجزة، ففي أثناء صلاتهم، تفجر نبع ماء عذب من الصخر الأصم إلى جانبهم، حيث لم يكن هناك أثر يمكن أن يرى لماء هناك، وقد سبب ذلك لهم سروراً عظيماً أثناء صلاتهم، وهذا النبع لم يتوقف من ذلك الحين حتى هذا اليوم عن الجريان، وأثناء تدفق المياه من بين الصخور نراها تمنح الراحة للذين يصعدون الجبل أو ينزلون منه، وبعدما تلقى الرهبان هذه العلامة، نزلوا فرحين، فوجدوا الدير كله والمنطقة كلها من حوله قد تنظفت من الهوام، التي لم تكتف فقط بالفرار بعيداً في ذلك الحين، بل إنها لم تقارب المكان حتى هذا الوقت، وفي الحقيقة إذا ماظهر ثعبان في الخارج، فإنه يموت بمجرد اقترابه من الأسوار.

وبعدما حدثنا الراهب نيقوديموس بهذه الحكاية، حمدنا الرب، ودخلنا إلى البيعة، حيث سلمنا على مريم العذراء الطاهرة، وحصلنا على غفرانات(+) لمدة سبع سنوات، حيث تلونا الأغنيات التجاوبية، والترانيم الجماعية، وجمعنا ماهو معيناً في كتب مسيرات الأرض المقدسة.

وغادرنا هذا المكان أخيراً، وتسلقنا نحو الأعلى مع كثير من التعب، حتى وصلنا إلى قنطرة حجرية، ممتدة من طرف الهوة الأول إلى الطرف الآخر، وهي منحنية تشبه بوابة، ومعمولة من حجارة مربعة قديمة جداً من حيث البناء والعمل، ولايوجد أي طريق نحو الأعلى، إلاّ من خلال هذه البوابة، التي ينقصها أبواب، وعلمنا هنا بشكل مؤكد وصحيح أن

مـامن يهودي يمكنه المرور من خلال هذه البـوابة، وهو أمر، قـالوا بأنه غـالباً مـاتبرهنت صحتـه، لأن الذي يحدث إمـا بسبب رعب أو بسبب معجـزة، عندمـا يصلون إلى هنا يصـدون ويطردون حتى وإن حـاولوا التمويه يجري كشفهـم، وهـم يتشوقون برغبـة عارمـة لرؤية المكان الذي جـرى فيـه منح شريعتهم، وذلك مثلما نتشـوق نحن لرؤية مكان صلب معطي شريعتنا، لكنهم يقفون تحت هذه البوابة مقصرين، ومتيبسين، ثم يغمى عليهم، ويرتجفون، ويجري طردهم بوساطة معجزة سماوية.

وقـد حـدث قبل بضـع سنوات مضت أن يهودياً غير مـن شكل ملابسـه، وأخفى يهوديته، والتحق بجماعة من الحجـاج المسيحيين، وقد ارتحل معهم عبر القفـار حتى هذا المكـان، وعندمـا عبر الحجـاج الذين مضـوا قبله خـلال البـوابة، لحق بهم حتى المكان نفسـه، لكنه لم يستطع المتابعة ووقف دونها حراك، وعندمـا سألوه عن الذي حدث معه، ولماذا لم يدخل، أجـابهم بدموع وبتنهـدات عميقـة:« أيها الحجاج، ويالإخـوتي، إنني أراه مصلوباً فوق القـوس، ولايسمح لي بالدخول، وهو محق بهذا، فأنا لأسفـي، أعترف بأنني يهودي، وأنا حتـى هذا الوقت كنـت دومـاً عدواً للمسيح المصلوب، وقد موهت نفسي على أنني حاج مسيحي، من أجل أن أقـوم هنا بتقـديس مـوسى، معطـي شريعتنا، غير أنني أرى بوضوح أنني لاأستطيع الوصول إلى موسى إلاّ من خلال الذي صلب، وبناء عليه إنني من الآن فصاعـداً، أؤمن بالمسيح المصلوب، وأعد بأنني سوف أتعمـد، ذلك أنني أرغب في أن أموت مسيحياً» ومـا أن فرغ من التفـوه بهذه الكلمات حتى اختفى الصليب، ودخـل مع الآخـرين دونما معيق، وهو يمجـد الرب، وتلقى بعـد هـذا العماد وقص على كل من قابله مـاحدث معـه، وكان ذلك بمثـابة شهادة ضد عمـى اليهود، ومنذ ذلك الحين مامن يهودي قـد غامـر بالصعود، وفي الحقيقـة لو أنهم كانوا قـادريـن على الجواز بدون عـوائق، لتـوفـر دومـاً حجـاج يهود هناك.

وسرنا من هذه البـوابة مسافـة لابأس بها، فوصلنا إلى بوابة أخـرى، إلى جـانب البـوابة المتقدم ذكـرها، وعبرنا خـلال هذه البـوابة، فـوصلنا إلى سهل رائع، الـذي يشكل نهاية امتـــداد جبل سيناء، ومن هـذا السهل، ينبعث منتصباً هناك جبلاً مستديراً وعالياً، صخرياً كله، هو الذي اسمه جبل حوريب، ويطلق في بعض الأحيـان اسم حوريب، على الجبل كله، أي الجزء الأسفل وكذلك الجزء الأعلى، ويقال في بعض الأحيان للجزء الأعلى، صخرة حوريب، بسبب وعورة هذا الجزء وكثرة صخوره.

وهكذا بعدما عبرنا من خلال البوابة، مضينا عبر السهل المعشوشب، القـائم هنـاك بيننا وبين حـوريب، لأن السهل ينحـــدر انحـداراً كبيراً، ويصل إلى كنيســة كبيرة وجميلة، فهناك ثلاث بيع كلها متصلة ببعضهـا، وهي محاطة بسور واحد، والبيعة الأولى هي بيعة القديسة مارينا، والبيعة الثـانية هي بيعـة النبي المقدس اليشـع، والثالثـة هي بيعة النبي المقـدس إيليا، والمدخل هو من خلال بـاب صغير ومنخفض، ومن خلال البوابة المنخفضة، دخلنا إلى بيعـة العذراء القديســة مارينا، حيث انكببنا بأنفسنا نحو الأرض، وقـرأنا الصلوات المحددة، من كتـاب المسيرات، وحصلنا على غفرانات(+).

وهناك حكاية بديعـة حول هـذه العذراء المقـدسة في« حيـاة الآباء». تحدثت كيف أنها عـــاشت لسنوات طـويلة في دير الرهبـــان، دون أن تكتشف بأنها كانت امرأة، وكيف أنها بصبر تحملت الملامة لأنها أغويت وهي فتاة، وكيف أنها تابت توبة قـاسية جداً بسبب هذه الخطيئة، وكأنها كـانت مـذنبـة، وهناك أنهت أيامها، وقـد أصبحت فيا بعـد مشهـورة، وعملت معجزات رائعة، ولقد اعتقد أنها جديرة ببيعة هنا في هذا المكان الأعظم قداسة.

ثم إننا دخلنا إلى بيعة النبي المقدس اليشع، وغنينا الصلوات المحددة، وحصلنا على غفرانات(+)، وعندما كـان اليشع هذا حياً عمل معجزات

عظيمة جداً، وعندما كان ميتاً أقام رجلاً ميتاً وبعثه إلى الحياة، كما قرأنا في سفر الملوك الثاني:١٣/ ٢١، ومن المعتقد أنه غالباً مازار هذا الجبل المقدس، تقليداً لإيليا معلمه، ذلك أنه كان تلميذه، وأخبرنا أيضاً بأن إيليا قد حمل ورفع في عربة نارية، وكما قرأنا أيضاً في سفر الملوك الثاني:٢/ ١١، بأن اليشع ذهب إلى هذا المكان، وبحث عنه، ظاناً بأنه قد حمل إلى هنا، أو أنه طلب من أناس البحث عنه هنا، كما قرأنا في سفر الملوك الثاني:٢/ ١٧.

ودخلنا بعد هذا إلى البيعة الثالثة، وهي بيعة إيليا، حيث قرأنا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات مزدوجه(++)، ففي البيعة، وأعنى في كهفه، الموجود خلف المذبح، وهو الكهف الذي سكن فيه إيليا، أكثر أنبياء الرب حماسة وغيرة، وقد جاء سكناه بعدما أنجز ذلك العمل المتميز جداً في اقناع أنبياء بعل، وقتل أربعمائة وسبعين رجلاً، الذين ذبحهم إلى جانب جدول قيشون، كما قرأنا في سفر الملوك الأول:١٨،وكان عندما علمت ايزابل، تلك المرأة الشريرة جداً بهذا، أقسمت بأنها سوف تقطع رأس إيليا، ولذلك خاف وهرب عبر القفار، واختبأ في هذا الكهف، ووردت حكاية النبي إيليا هذه بالتفاصيل في سفر الملوك الأول:١٩، وكهف إيليا عبارة عن مغارة ضيقة في الصخر، فيها لايمكن لانسان أن يقف قائماً منتصباً، بل يمكنه الوقوف مستنداً أو الجثو، أو الجلوس.

وبعد فراغنا من رؤية هذه الأشياء، خرجنا من الكنيسة، ونظرنا فوقها، فوجدنا معلق فوقها صخرة عظيمة مستديرة، حيث تحدثت الحكاية بأن الغراب الذي جلب الطعام إلى إيليا اعتاد على الوقوف فوق هذه الحجرة، واعتاد ايليا على الخروج من الكهف، والتسلق إلى هاهنا وأخذ الطعام، لأن الرب اعتاد أن يتدبر تأمين حاجيات نبيه المقدس بوساطة الغربان، حسبما قرأنا في سفر الملوك الأول:١٧/ ٦ قوله:«

وكانت الغربان تأتي إليه بخبز ولحم صباحاً، وبخبز ولحم مساء».

وغـادرنا هذا المكان، وتابعنا سيرنـا، فتسلقنا إلى حـوريب، الذي هو جبل الرب، ويوجد على مقربة من الممر صخرة كبيرة، مكسرة إلى قطع، وهي مقطوعـة من صخرة كبيرة مـوجودة في الأعلى، كانت قـد سقطت نحـو الأسفل، وهي تشكل عقبة على الطـريق الذي يقود نحـو الأعلى، حيث بات على الانســان بسبب هذه الكتلة الصخـرية أن يستــدير من حـولها، وهم يقولون بأن هـذه الصخرة قـد تحطمت وانفصمت في أيام النبي ايليا، عنـدما أمره الرب بـالخروج من الكهف، وعندما كـان واقفاً بحضرة الرب:« رأى الرب عــابراً، وريح عظيمـة وشـديـدة قـد شقت الجبال وكسرت الصخور»[الملوك الأول:١٩/ ١١]، وفي الحقيقـة يوجد إلى جـانب هـذا الشطر من الجبل تصـدع كبير في الصخــور، وصخـور مقلوبة عاليهـا سافلها، ومن الواضح أن هذا قد حـدث، على مشهد من ايليا، ليس فقط أمام عقله، بل أمام ناظريه الجسديين أيضاً، ولذلك قال مصنف Speculum Naturale بأن هذه العلامات الثلاث التالية هي التي لم يكن الرب فيهـا حـاضراً، ومع ذلك كـانوا جميعا حقيقـة مـادية، أولاهن: الريح القوية جـداً، التي شقت الصخور، وثانيهما: الزلزلة التي قلبت الجبال، وثالثهما: النار العظيمـة التي أحرقت الصخـور والتهمتها، والآثار المرعبة لهذه العاصفة، من الممكن مشاهدتها حتى هذا اليوم.

وتسلقنا خـلال هذه الحجارة المكسـورة، وأزحنا بعض الصخـور مع كثير من التعب والتعـرق، ووصلنا تقريباً إلى قمـة الجبل، عندما وجـدنا تحت القمة، على رقبة الجبل، صخرة فيها نقرة وهذه النقرة هي التي ورد الحديث عنهـا في سفـر الخروج:٣٣، فعندما كـان مـوسى يتحـادث مع الرب، رغـب في أن يرى وجــه الـرب، ومجد الرب، لكن الرب قــال له:«لاتقدر أن ترى وجهي، لأن الانســان لايراني ويعيش»، وقال الرب له:« هوذا عندي مكان، فتقف على الصخـرة، ويكون متى إجتـاز مجدي

أني أضعك في نقـرة من الصخـرة وأسترك بيـدي حتى أجتـاز»، ولذلك صـدوراً عن التقـوى وضعنا جميعـاً أنفسنا في النقـرة، حيث مـدد الرب مـوسى على معـدته، وفي تقليـد منا للنبي لـوينا أنفسنا بصعـوبة في هذه النقرة، والنقـرة عالية قليـلاً فوق الأرض، ومنخفضة وليست مـرتفعة، ولذلك يمكن لانسان واقف فـوق الأرض أن يمد ذراعيه ورأسـه نحو داخلهـا، وإذا مـاأراد أن يدخل صدره إلى النقـرة، عليـه أن يرفع نفسـه قليلاً فـوق الأرض، وبذلك يمكنه أن يضع ذراعيه، وصـدره ورأسه في الحقيقة فيها، لكن ساقيه مع الأجـزاء الخلفية من جسده، تبقى معلقة في الخارج حتى سرته، وهكذا يجلس الانسـان وكأنه بين حجري طاحـون، لأنه يجلس وهو مستند حتـى معـدته على الصخـرة في الأسفل، وتلمس الصخرة الموجـودة في الأعلى ظهره، وإذا ماالختـار انسان يمكنه أن يضع نفسه جميعاً في النقرة، لأنها عميقة، لكنني لاأستطيع أن أرى كيف يمكنه أن يخرج ثانية من دون مساعدة، ووجود انسان آخر يشده ويخرجه، لأنه لايمكنه أن يحرك نفسه نحو الخلف مثل السرطان، لأنه يكون معاقاً عن التحرك بوجود الصخرة التي فـوق والأخرى التي هي تحت، يضاف إلى ذلك لايوجـد متسع لاأمامـه ولاخلفه، لأنه لايوجـد مكاناً يستطيع أن يتحرك فيـه ومن ثم اخراج رأسه أولاً، وتبعاً للأخبـار الدينية، هذه هي النقرة في الصخـرة التي وضع الرب فيهـا موسى ليرى الأجـزاء الخلفية من الرب، وإذا مـاأراد أي واحد أن يعـرف مـاهو وجه الرب ومـا هي الأجـزاء الخلفية للرب، يمكنه العـودة إلى ماكتبـه نيقولا دي ليرا حـول هذا النص.

وعندما أردنا فحص هذه النقرة، صعدنا حتى القمة العليا لهذا الجبل الأعظم قـداسـة، وذلك فـوق الصخرة حيث تـوجد الصخـرة المتقـدم ذكـــرها، فهـــذه هي الصخـــرة التي أمـــر الرب مـــوسـى أن يقف عليهـا(الخروج:٣٣) قائـلاً:« هوذا عندي مكان، فتقف على الصخـرة»،

فعلى هذه الصخرة قد بنيت بيعة في هـذه الأيام، واسمها كنيسة القديس المخلص، وهي مغلقـة بثبـات بوسـاطة باب معـدني، وهي قائمـة فـوق المكان الذي تسلم فيه النبي المقـدس موسى الوصـايا وقد كتبت باصبع الرب فوق لوحين حجريين، وعندما وقف موسى وحده مع الرب فوق قمة الجبل، حسبما جاء في سفـر الخروج:٣٤، أعطيت الشريعة له، وكان ذلك في السنة ١٤١٥ قبل ميلاد الرب.

وعندمـا قام الراهب نيقـوديمـوس، الذي رافقنا من الدير بفتح باب البيعة، خلعنا أحذيتنا، ودخلنا حفاة احتراماً منا لقداسة المكان، وكما هو متوجب انكببنا بأنفسنا نحو الأرض بخشوع خاص، وقبلنا المكان الذي عليـه تلقى مـوسى الشريعـة وتسلمها مـن يد الرب، وهذا المكان معلم بحجرتين، وبعدما قرأنا الصلوات المحددة في مسيرات الأرض المقدسة، حصلنا على غفرانات مطلقـة، وبعدمـا تفوهنا بصـلاتنا ذهبنا إلى السدة، وسرنا من حـول المذبح، ونظـرنا متفحصين إلى المكان بخشـوع عظيم وبسرور كبير، وغالبا مـاقبلنا أماكن خطوات الملائكة الذي ظهروا هناك إلى مـوسى، ورآهم بأشكال جسـدية مشـاهدة، ومثل ذلك قبلنا أمـاكن خطوات النبي المقـدس مـوسى، وكما قلت هناك حجـرتين عند مـدخل السـدة، وهما تغطيـان مـوضعي الخطـوات المقـدسـة، ففي المكان الأول وقف الملاك، وفي المكان الثـاني جثـا مـوسـى وطوى ركبتيـه، فهناك حجرتين من الرخام الأبيض موضـوعتين في البلاط، وقد قيل بأنه تحت هاتين الحجرتين من الممكن حتى الآن رؤية عـلامات ركبتي موسى على الصخرة.

وبعد رؤيتنا لهذه الأشياء، خرجنا من الكنيسة، ولبسنا أحذيتنا مجدداً، وسرنا نازلين قليـلاً، مـايقـارب خمس عشرة خطوة، إلى جـانب البيعـة، ودخلنا إلى كهف تشكل بوساطة الصخـرة المعلقة من فوق، وهنا انكببنا بأنفسنا نحـــو الأرض، وتفـــوهنا بالصلـوات المحـــددة، وحصلنا على

غفـرانات(+)، ففي هذا الكهف أقـام مـوسى عندمـا لم يرغب الرب في عقـد مؤتمر معـه، وصام هنا لمدة أربعين يومـاً وأربعين ليلة، حتى يكون جـديراً باستـلام شريعـة الـرب، وهذا الكهف واسع وكبير، وليس فيـه ضوء إلاّ مايأتي من المدخل، وهو موائم للسكنى لراهب متأمل، ومقابل الكهف مـوضع مـرتفع بني عليـه مسجـد، وإلى جـانبـه جلس كثير من المسلمين، كـانوا مثلنا أنفسنا قـد تسلقـوا الجبـل في سبيل زيارة المكان المقـدس، وفي الحقيقة يقـوم بداة عرب، ومصريون، ومسلمـون، وأتراك بالحج إلى هنا من أمـاكن نائيـة في العـالم، صـدوراً عن الاحترام لموسى، فباستثناء اليهود يتدفق الناس من جميع الديانات والطوائف، مع بعضهم إلى هذا المكان، ولايستطيع اليهـود الصعـود، حتى وإن استطاعـوا، فإن الشعـوب لن يسمحـوا لهم، بأي حـال مـن الأحـوال، بالدخـول، هذا ولايتحمل المسيحيون وجودهم معهم، والصلاة هناك بجوارهم.

عـلاوة على ذلك، يوجـد على هـذا الجبل بئر كبير، يحتـوي على مـاء جيد، وبارد، وصحي، لكن لم نتمكن من الحصول على أي من هذا الماء، لأن البئر كـــان عميقـــاً جـــداً، ولم يكن معنا شيئاً ننضـح به الماء، وهم يطلقـــون عى هذا البئـر اسم جب مـــوسى، لأنه منـه شرب، لكن هذا لايتوافق مع الكتابات المقدسة، التي تقول بأنه صام هناك.

وتجولنا حـول قمـة الجبل، وتفحصنا كـل شيء هناك، وقـد شـاهدنا خـرائب كبيرة لأسوار قـديمـة كـانت من حولها، ومـن المعتقد أنه كـان هناك دير، كله قد خرب باستثناء كنيســة، إلى جانبها يقيم دوما اثنان من رهبان دير القديسة كاترين بشكل مستمر.

وهذا الجبل متميـــز في أن الجزء الأعلى منه مستـدير، وليـس متصـلاً بالجبال الأخـرى، وهو ليس أعلى من الجبال الأخـرى، لكنه قائم بذاته، وأكبر صعوبة في التسلق، ويوجـد من الدير إلى قمة الجبل حـوالي سبعة آلاف خطوة، ليس فيهـا الأمـاكن التي يصعـد الانسـان إليهـا، ليس

بالخطوات بل بوساطة درجات سلالم، ويوجد من هذا الجبل مشهد للمناطق النائية، لكن هذه المناطق من الممكن رؤيتها بوضوح أكبر، من جبل القديسة كاترين، ولسوف أتحدث عن هذه المناطق أثناء وصفي لهذا المكان، ووصف الجبل المقدس واضح مما قد قيل، أما مايتعلق بإطرائه وقداسته فمن الممكن جمعها من كثير من المواضع من الكتابات المقدسة القانونية، من ذلك على سبيل المثال من سفر الخروج: ٣،و١٩،و٢٠، ومن سفر التثنية:٥، حيث ورد الخبر بأن الجبل احترق بنار وصلت حتى السموات، وكذلك من خلال التوراه، والمزامير والأنبياء، فمن هذه الأماكن كلها علمنا بأن جبل حوريب من سيناء هو جبل رائع جداً ومرتفع، وأنه جبل مسكون من قبل الرب، وتتردد الملائكة عليه، وهو جبل الضياء، والنار، والاحتراق، وهو جبل غيوم مخيفة وظلام، وكذلك جبل حكمة وتعلم، وأيضاً جبل رحمة ووعد، وصلاح ولعنة، وجبل أبواق وصراخ وضجة، وجبل لطف وتحالف، وجبل شفقة وعدالة ومساواة، وقبل قربان وصلاة، وجبل خصب، وجبل رؤيا وتأمل.

وعندما فرغنا من رؤية جميع الأماكن المقدسة على هذا الجبل، جلسنا وتناولنا الطعام، حيث أكلنا وشربنا ماكنا قد جلبناه معنا، وبقينا لمدة تزيد على الساعة فوق الجبل المقدس، لأننا احتجنا إلى ثلاث ساعات للوصول من الدير إلى قمة الجبل، وبعدما عملنا هناك كل ماتوجب علينا عمله على الجبل المقدس، أعددنا أنفسنا للأعمال المتبقية، وانطلقنا على طريقنا كما يلي.

متابعة الحج

نزول الحجاج من جبل حوريب، وصعود بعض الحجاج إلى جبل القديسة كاترين

وبعدما تناولنا طعامنا، وأرحنا أنفسنا لوقت قصير، نزلنا من الجانب الغربي من الجبل، عبر طريق منحدر وخطير، ومخيف وكثير الشعاب، إلى حد أننا أرغمنا في بعض الأحيان بأن ندع أنفسنا ننزلق نحو الأسفل عبر صخور منحدرة، وذلك بالانبطاح على أمعائنا، وغالبا مااصطدمنا أثناء نزولنا برؤوس صخور، كانت معلقة فوق ممر ضيق، حيث اذا ماانزلقت، كان معنى ذلك الموت، لأنه كان في الأسفل جدراناً عالية من الصخر، أية خطوة خاطئة عندها كانت ستسبب سقوط الانسان في وديان مرعبة، وأخيراً وصلنا إلى دير عرف باسم دير« الأربعين قديساً»، حيث دخلنا إلى الكنيسة وصلينا، وحصلنا على غفرانات(+)، وفي ذلك الوقت جلب لنا اثنان من رهبان دير القديسة كاترين، كانا مقيمان هناك، تيناً، وتمراً جافاً، وماء، بهم أنعشنا أنفسنا.

وبعد هذا، لم يكن الوقت قد وصل إلى الظهيرة، لذلك جلسنا وتناقشنا: هل سنصعد جبل القديسة كاترين أيضاً في ذلك اليوم نفسه، أونستريح حتى الغد، وقد توصلنا إلى قرار هو أن الشباب والرجال الأقوياء منا، وكل من يرغب، يقومون بالصعود إليها وقتها، وأن يعودوا بعد زيارة المكان، قبل غياب الشمس، في حين يستفيد الحجاج الأسن والأضعف من برد الصباح من أجل القيام بصعودهم، وقام عشرة من الحجاج الأقوياء، واستعدوا للقيام بالصعود في الحر الشديد، وأسماؤهم كما يلي: اللورد جون، كونت سولمس، وهو فارس، واللورد هري أوف سكومبيرغ وهو فارس، واللورد سغسموند أوف مارسباخ، وهو فارس، واللورد كاسبر أوف سيكولي، وهو فارس، والمعلم

لازينوس، وهو رئيس شمامسة وقانوني كنيسة ترانسلفانيا في هنغاريا، والراهب فيلكس من أولم، من طائفة القديس دومينيك، والأب باولوس غوغلنغر من طائفة الفرنسيسكان، والراهب توماس، وهو راهب علماني من الطائفة نفسها، وخادمين للكونت، اسميهما: جون، وكونراد، وقد رافق هؤلاء بعض البداة العرب، وقد شرعوا بتسلق الممر الشديد الانحدار، صعوداً إلى جبل القديسة كاترين.

وصعدنا إلى الجبل عبر ممر طويل، ووعر، وخلال وديان بلاممرات، وفوق جروف منحدرة، وفوق حجارة معلقة، وصخور مخيفة، وطرق منحدرة مرعبة وشعاب صخرية، تحت شمس محرقة جداً، ووجدنا على كل حال ماواسانا، وتمثل ذلك بنبعين لمياه باردة، على طريقنا صعوداً، وعندهما أنعشنا أنفسنا، وغلب واحد من الفرسان بالعمل الشاق، ووقع كلياً، وجلس في واحد من الأماكن الشديدة الانحدار، عاجزاً عن متابعة صعوده، وكنا قد تجاوزنا أكثر من منتصف الطريق، وكان بامكاننا رؤية قمة الجبل، ومع ذلك قد بقي طريق طويل أمامنا، وبناء عليه عندما رأى الفارس الضعيف أنه لن يكون بامكانه الوصول الى القمة، رجانا بمتابعة الصعود، وأن ندعه ينتظرنا لوحده، وكانت إجابتنا لذلك تشجيعه وإرغامه أن يمشي قليلاً بعد نحو الأعلى، ولكن عندما رأيناه قد سقط مراراً من أيدينا على الأرض وكأنه بدون وعي، ربطنا منشفة طويلة حول حقويه، بها جرّه بعضنا، في حين أمسك آخرون بيديه، وشدوه بذراعيه، ووقف آخرون خلفه ودفعوه صعوداً، وبناء عليه عملنا عملاً رائعاً، وبذلنا جهوداً كبيرة مع ذلك الحاج، وأخيراً وصلنا بعون الرب إلى قمة جبل سيناء، إلى الضريح الملائكي للقديسة كاترين، العذراء الأعظم مباركة، وانكببنا هنا أرضاً، وبخشوع قبّلنا المكان الذي إليه جلبت الملائكة جسدها المقدس، وحصلنا على غفرانات(+)، وغنينا أولاً القداسات المعينة في مسيرات الأرض

المقدسة، وجلسنا بعد الصلاة، وبدأنا نتحرق رغبة إلى خبز وماء، وقد رغب كل رجل منا لو أن معه سلته وقارورته.

ولست أدري لأي سبب، أنني وحدي كان معي سلة مليئة بالبقسماط، وبيض مسلوق، ولحم مدخن، وجبنة، وكنت قد جلبت ذلك لي وحدي، في حين ترك الآخرون جميع زادهم مع الحجاج الذين بقيوا في الأسفل، وبدأ واحد منهم يرجوني منحه قطعة من اللحم، وآخر قطعة من الخبز، وثالث لقمة من الخبز والجبن، وطلب مني آخرون جرعة من الخمرة، وعندما رأيت هذا دهشت، ولم أعط شيئاً لأي واحد منهم، بل أخذت سلتي وصببت ماكان فيها على صخرة مقعرة كانت ملاصقة لنا، وذلك في المكان الذي وضع فيه رأس القديسة كاترين فيما مضى، وهكذا قمت بأريحية بدعوة النبلاء والحجاج قائلاً: « اعلموا ياسادتي إنه قضي بالحكمة الإلهية، بأن تكونوا هنا جميعاً ضيوفي، وأن أكون وحدي مسؤولاً عن تكريمكم، الأمر الذي أنا على استعداد للقيام به، حيثما أنا قادر على تقديم ضيافة جيدة لكم، لأنه في هذا البيت، وفي هذه القاعة، وفي هذا الفراش، أقامت ونامت لمدة تزيد على الثلاثين سنة، بعد آلامها، القديسة كاترين، أحب الطاهرات إليّ، التي خطبت إليّ، من بين جميع الفتيات الثمينات جدا لمملكة السماء، وقد كان هذا في يوم عيد هذه العذراء من عام ١٤٥٢، فصدوراً عن حبها تخليت عن الدنيا، ولبست رداء الرهبان المبشرين، وبعد مضي سنوات، قمت في اليوم نفسه بالاعتراف بشكل علني مهيب بالطاعة(إلى هذه الطائفة)، وبذلك ربطت نفسي بشكل أبدي بخدمة الرب وبخدمة هذه العذراء وبناء عليه، أقبلوا أنتم جميعا الذين هنا، وكلوا بسرور»، وعند هذه الدعوة أقبلوا جميعاً، وأكلوا بسرور كل ماكان لدينا، وفي وليمتي هذه، كان هنالك كونتات، وفرسان، وكهنة، ورهبان، فضلاً عن ذلك كان هناك رجال علمانيون: مسيحي هرطقي، وبداة عرب، ومسلمون،

أكلوا جميعاً مما كان في السلة، وكانت هناك كميات وافرة من الخمرة، بسبب أن الحجاج الآخرين قد جلبوا قواريرهم، إنما كانت هناك حاجة إلى الماء.

وعندما رأى ذلك واحداً من البداة العرب من ضيوفنا، أخذ جره، ولم يركض، بل انزلق نحو الأسفل من طرف الجبل، وبعد وقت قصير عاد، وهو يحمل جرة مليئة بالماء الطازج، جلبه من واحد من الينابيع لم يكن معروفاً بالنسبة لنا، وبناء عليه مزجنا خمرتنا بالماء، وعندما أكملنا تماماً أكل جميع طعامنا حتى أصغر لقمة، وفرغنا من شرابنا، أنهينا وجبتنا، ولم يحدث قط خلال حجنا كله أن فرغت حقيبتي تماماً، وصارت نظيفة مثلما حدث في هذا المكان، وفي الوقت نفسه بدأت الشمس تميل نحو الغروب، وأنذرنا البداة العرب للقيام بالنزول قبل غيابها، ولذلك نهضنا وركضنا مسرعين نحو الأسفل، والتحقنا برفاقنا بعد الغياب مباشرة عند دير الأربعين قديساً، وفيما يتعلق بوصف الجبل، وبطبيعة الأرض، فسوف تظهر فيما يلي:

صعود جبل القديسة كاترين

وفي الخامس والعشرين، استيقظنا قبل ضوء النهار، ونهضنا من فوق الأرض التي تمددنا عليها في الهواء الطلق، في ساحة الدير، عازمين على تسلق الجبل للمرة الثانية، مع جميع اخواننا الذين بقيوا خلفنا في اليوم المتقدم، وعلى كل حال بقي الجزء الأكبر من الذين صعدوا في اليوم المتقدم دونما حراك، وأخذنا معنا خدماً من البداة العرب، وسائقي حمير، أعطيناهم حقائب أطعمة وجرار ماء لحملها، وتبعنا دليلنا الراهب نيقوديموس، بخطوات لطيفة تقديراً منا لمرضانا والضعفاء منا، ويقود الطريق من الدير ويسير لمسافة كبيرة خلال حدائق وآجام امتداداً حتى سفح الجبل، وامتلك طريقنا هذا ضوء القمر، ولكن عندما وصلنا إلى حيث نبدأ بصعود الجبل، دخلنا إلى واد كان مغلقاً بجدران عالية من

الصخور، ومضينا صاعدين من هذه الأعماق، فوق طريق وعر للغاية، ومن دون أي ضوء، لأننا كنا مطوقين بجروف من الصخر، ولذلك لم يكن بامكان نور الشمس الوصول إلينا، وشعرنا في هذا الوادي بالبرد، إلى حد أن أسناننا أخذت تصطك، وتمنينا أنه لو كانت لدينا نار، لكن لم يكن معنا مانعمل به ناراً، وعلى كل حال قام البداة العرب شفقة منهم علينا لما كنا نعانيه، فجمعوا بعض الخشب الجاف، وحكوهم ببعضهم بالأيدي، حتى صاروا جاهزين لالتقاط النار، ثم أخذوا حجرتين من قعر المجرى، وضربوهما ببعضهما بشدة حتى أعطيا شرارة أشعلت الأعشاب، وجمعنا عصياً وعملنا ناراً كبيرة، وقفنا من حولها وأدفئنا أنفسنا.

وأعتقد أن البداة العرب لابد أنهم تعلموا استخراج النار من الحجر الصوان من بروميثيوس بن يابيتوس Prometheus son of ia-petus الأسيوي، ومن حورية، كان في أيامها— كما أخبرنا الشعراء— هناك رجل صاحب حكمة عظيمة، فهو بعدما عمل شكل انسان من الصلصال، وضع فيه حياه بسرقة نار من السماء، وكان الانسان الأول الذي علم بني البشر، أن النار من الممكن استخراجها من حجارة الصوان، ويقال بأن النار قد اكتشفت أولاً من قبل فولكان Vulcan، لأنه عندما احترقت شجرة بسبب البرق، لقطت بقية الأشجار النار منها، واحترقت الغابة كلها، وفرح فولكان بسبب الحرارة، ووضع وقوداً جديداً عندما بدأت النار تخمد، وبذلك أبقى النار مشتعلة، وأظهر للناس أنه هو الذي اخترعها، وبذلك حصل على جائزته بتعيينه ملكاً على مصر كلها.

وبعدما شعرنا بالدفء وبالراحة، أخذنا بعض الجمرات المحترقة، وتابعنا سيرنا عبر الوادي ونحن نحملهم معنا، ووصلنا في الوادي إلى أماكن حيث هناك جروف، وجدران من الصخر، عليهم تسلق البداة

العرب، ثم قاموا بسحب الحجاج واحداً تلو الآخر، وغالباً ماتفكرت في ذلك الصباح كم هي مدهشة طرق الرب، ففي الأمس كنا بصعوبة بالغة نستطيع التنفس بسبب الحر، واليوم بصعوبة بالغة يمكننا العيش بسبب البرد، لأننا كنا كلما صعدنا أكثر، شعرنا بشدة البرد أكثر، ووصلنا في الوقت نفسه إلى نبع، إلى جانبه مجدداً أشعلنا ناراً، وعلى الفور بدأنا نتمتع بحرارة النار، مثلما متعنا أنفسنا في اليوم المتقدم ببرودة الماء في تلك البقعة، وبعدما أدفئنا أنفسنا للمرة الثانية، مضينا نسير على طريقنا، فتسلقنا منحدراً طويلاً منزلقاً، وعند رأس هذا المنحدر وصلنا إلى جدار كبير من الصخر، من حافته كانت تتساقط مياه نقية جيدة، مع أننا لم نهتم بالشرب منها، لأن الوقت كان مايزال الصباح الباكر، وكنا نعاني من البرد كثيراً، وتساقطت هذه المياه في مكان مقعر من الصخرة، وعملت هناك نوعاً من أنواع الصهاريج، وأشعلنا مجدداً ناراً إلى جانب هذا الصهريج وأنعشنا أنفسنا بحرارتها، ذلك أن البرد كان عظيماً إلى درجة أننا لو لم يكن لدينا نار، لأغمي علينا ونحن نرتجف.

ولدى متابعتنا سيرنا، تسلقنا الأماكن الصخرية، ووصلنا إلى منحدر كان منزلقاً جداً، وكان ناعماً— أي بدون صخور أو نباتات— وكان هذا المنحدر مليئاً بالأعشاب مثل مرج من المروج، وعندما كنا ندفع أنفسنا صعوداً، فجأة أشرقت الشمس، وازدادت الظلال، ورأينا بعيداً فوق هذه الشقة الضيقة رأس الجبل، وهو مشهد وقفنا نحوه مندهشين، مندهشين تجاه الارتفاع المتبقي، وذلك بعد صعودنا لمثل هذه المسافة الطويلة، ورأس هذا الجبل أو قمته، من غير الممكن رؤيته من الأسفل من قرب سفحه، لأن شكله هو كما يلي: أولاً، له قاعدة واسعة جداً، حيث ينبت فيها كثيراً من العليق والنباتات والشجيرات، ووصلنا بعد هذا إلى صخور طويلة يتخذ الانسان طريقة فيها صعوداً خلال فجاج تقوده إلى جوف الجبل، الذي يتنامى ويتسع كثيراً من كتلة الجبل، وكأن

الأرض نسفت نسفاً، وبسبب هذا الاتساع لم يكن بإمكان الانسان أن يرى من الأسفل لارأس الجبل ولارقبته، وعلى هذا المكان المتسع طريق واسع، يحتوي على كثير من الأماكن المعشوشبة، هي ممتازة لحمل عشب جيد، وجوف الجبل هذا يحتوي أيضاً على ممر طويل يقود إلى قمم الجبال المجاورة، بطريقة أن الانسان يمكنه العبور على طول الجرف إلى قمم الجبال الأخرى، وعند نهاية هذا الجوف تقف تلة جبل سيناء، لأن كثيراً من الصخور الملتوية والوعرة تنبعث مرتفعة في ذلك المكان، مندفعة من الأرض المتفخة، وذلك مثلما تنمو رقبة الانسان من جسده.

وهذه الرقبة عالية إلى حد أن الانسان يرتجف لدى التحديق بها، وفوق الرقبة هناك رأس الجبل، وتنصب الصخرة المشكلة للرقبة مباشرة نحو السماء، وهي مشكلة بوساطة جروف عالية وحادة، حتى أن الانسان الذي يقف في الأسفل، لايمكنه أن يتصور أنه ممكن لأي انسان الصعود إلى القمة، وفي الحقيقة إنه قبل ظهور القديسة كاترين هناك، مامن انسان غامر بتسلقه، ولذلك نقرأ في Speculum Historiale— الكتاب: ١٩، الفصل: ١٧، عن بعض الرجال المسنين الذين عندما كانوا يزورون آباء الكنيسة يقولون لهم:« انظروا إلى قمم جبل سيناء، التي رأسها يمتد حتى السماء، ولايمكن بأي حال من الأحوال الاقتراب منه».

ولم نعبأ بجميع هذه المعيقات، بل أعددنا أنفسنا برجولة للمهمة التي بدأناها، وقد وصلنا حتى الرقبة، على طول حافة الجبال الأخرى، وبدأنا الآن بالصعود إلى الرقبة نفسها، التي كانت منحدرة جداً، وتسلقنا فوق الصخور والجروف مثل انسان يتسلق شجرة، حيث كنا نشد أنفسنا من صخرة إلى أخرى، ومضى الأقوى منا في الأمام، ومدوا أيديهم إلى الذين تبعوهم، وبذلك سحبوهم نحو الأعلى، ولم يكن هناك مكان لرجل ضعيف القلب، أو لأناس يفقدون توازنهم لدى نظرهم

من الأسفل إلى الأعلى، ولم نتسلق بشكل نظامي واحداً تلو الآخر، بل كل واحد صعد إلى المكان القريب منه شخصياً، وإلى حيث فكر أنه الأفضل، لأنه كانت هناك كثيراً من الأشياء ليمسكها الانسان بيده، وليرتاح عليها بقدمه، وهكذا صعدنا نحو الأعلى، ونحن نزحف حول كتلة الصخور الممتدة من وجه الجروف، وكنا مثل نملات تتسلق شجرة، وأخيراً بما أن« التعب الذكي يتغلب على كل شيء»، وصلنا إلى رأس أو قمة الجبل المقدس، وعندما كنا هناك، كانت هناك ريح قاسية جداً، وباردة، وقوية، ثائرة، لذلك لم يكن بامكاننا تلاوة صلواتنا أو فعل أي شيء جيد من دون نار.

وجمع البداة العرب على الفور حزماً من الأخشاب، وعملوا كومة منهم، وأشعلوا ناراً كبيرة، وقفنا إلى جانبها، حتى علت الشمس— التي كانت قد أشرقت منذ بعض الوقت— أكثر، وصارت حدة الريح أقل قسوة، وعندما شعرنا بالدفء، وانتعشنا بعض الشيء، مضينا إلى الضريح الذي إليه حمل الملائكة القديسة كاترين، العذراء المجيدة، وبسرور رتلنا القداسات المحددة في كتب مسيرات الأرض المقدسة، وصلينا بخشوع عظيم، وتأملنا لوقت طويل بصمت، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++).

وشعرنا بسرور خاص فوق هذه البقعة المتميزة، لأنه حتى الآن حملتنا أسفارنا بشكل دائم بعيداً عن وطننا وديارنا، والآن شرعنا من هذا المكان المرغوب فيه بالاستدارة بأنفسنا نحو العودة، وصرفنا وجوهنا بثبات نحو اتجاه مواطننا، وبلداننا، وكم هو ممتع وسار شيء لايمكن أن يفهمه انسان، إلاّ الذي أقام مدة طويلة في أجواء بعيدة، والذي عاش منفياً في أرض غريبة بين قوم لايعرفهم، ولايعرف طباعهم، ولايفهم لغاتهم، والذي سكن لبعض الوقت مع شعب له طائفة غريبة، ودين غريب، ويعبد مايبدو رباً غريباً، وإنني أقول هو وحده قادر على أن

يفهم قول الشاعر:« هذا لي، وهذه أرضي الخاصة»، وهذا مايشهد عليه هوغو رغيولير Hugo Regularis عندما قال:

« عزيز على كل فاني وطنه

فنحن لانستطيع نسيانه أينما تجولنا»

وبناء عليه شعرنا في هذا المكان المقدس بسرور مزدوج، وكان السرور الأول صادر عن تذكرنا، الحديث لبلادنا الخاصة، التي نحوها كنا الآن ندير وجوهنا، وسرور آخر من وجود قبر العذراء الذي رأيناه بأعيننا، وتعاملنا معه كما نحب، ويقوم هذا القبر كما يلي: يتشكل رأس أو قمة جبل سيناء كله من قطعة واحدة من الصخر، هي في القمة مسطحة، مشكلة مايشبه موضعاً مستديراً ليس واسعاً جداً، قياسه حوالي ست خطوات عبره كله، وأرض هذا الموضع هي قشرة الصخرة ويدور من حوله عند الطرف جدار من الحجارة الجافة، يشبه سياجاً، وقد بني خشية أن يسير أي انسان بلا انتباه فيسقط منتكساً نحو الأسفل، وأيضاً خشية أن يصاب الذين ينظرون نحو الأسفل بالدوار، من أي جزء نظروا، بسبب الارتفاع العظيم، وكذلك من أجل أن يسير الانسان هناك ويتجول مع حرية أعظم وخوف أقل، وفي وسط هذه الأرضية الحجرية هناك مكان مجوف لتلقي جسم انسان مسطح ومتمدد على طوله تماما، وهذا التجويف ليس عميقاً جداً في الصخر، بل إنه عميق بما فيه الكفاية لاستيعاب جسم انسان متمدد حيث أنه يملأ التجويف، وبذلك يصير مستوياً مع بقية الأرضية، وهذا التجويف ليس مصنوعاً بأية أدوات معدنية، أي بعمل انساني، بل إنه مضغوط في الصخر بوساطة معجزة، لأنه عندما حمل الملائكة جسد العذراء إلى هنا من الاسكندرية ووضعوه فوق هذه الصخرة القاسية جداً، والناعمة، قامت الصخرة على الفور فانفرجت بقوة عمل ملائكي لاستيعاب جسد القديسة، وصارت الصخرة لينة مثل الشمع تنفرج وتنضغط تحت

أي شيء قاس وثقيل يمدد فوقها، وهكذا ضغط جسد القديسة موضع لحد له يتوافق مع شكله، فهناك تمددت مرتاحة لمدة ثلاثين سنة، غير معروفة من قبل البشر، ومحروسة من قبل الملائكة.

والبرهان المقدم على هذه الحراسة هي الأماكن المجوفة على الجانبين بشكل موائم للجلوس فيها، وكأن انسان ما قد جلس هناك، وفي الحقيقة يقال بأن الملائكة الذين تولوا حراسة جسدها قد سكنوا هناك، ربما بأجساد مادية، مثلما ورد في الكتابات المقدسةوقيل بأنهم جلسوا، وساروا، وطاروا، فالملائكة الذين أعلنوا عن قيام الرب، قيل بأنهم جلسوا على حجرة الضريح(متى:٣٨، مرقص:١٦/ ٥)، وعلى كل حال، إذا ما أراد ملاك استعارة جسد مادي، عندما يرغب بالجلوس، هو لايحتاج إلى مقعد أو كرسي، وكذلك هو ليس بحاجة لإراحة نفسه بالجلوس، ومع ذلك صنع الملائكة أماكن مناسبة للجلوس إلى جانب الجسد المقدس للعذراء، حتى يظهروا أنهم يحرسون الجسد المقدس، وباقين دوما إلى جانبه، أما كيف تم العثور على جسد العذراء هنا، وكيف جرى نقله من هنا إلى الدير فقد تقدم تبيانه من قبل.

وانكببنا بأنفسنا نحو الأرض أمام المكان الذي تمددت فيه العذراء، ووضعنا أنفسنا فيه، ليس من باب الرياء، أو الفضول، بل من باب التقوى، ولقد استخلصنا أنها لابد قد كانت طويلة القامة، وأخيراً بعدما قدمنا جميع التشريف المستحق، أو في جميع الأحوال جميع التشريف الذي كنا قادرين على تقديمه إلى هذا المكان المقدس، غادرنا لمشاهدة الأشياء الأخرى.

بلدان العالم التي رأيناها في أطراف الدنيا الأربعة من قمة هذا الجبل المقدس، ووصف للأراضي، والمياه وهكذا دواليك.

ووقفنا على حافة جبل القديسة كاترين، وألقينا نظرة على الأراضي،

والمناطق، والمقاطعات القائمة في تلك الأحواز، واستطعنا أن نرى بعض المناطق البعيدة من العالم، لأننا كنا واقفين في أماكن عالية جداً، ولم تكن مشاهدنا محجوبة بأية غيوم أو بأية معيقات، وألقينا أولاً بأبصارنا باتجاه الشرق، نحو مساحة كبيرة من الماء، أي نحو الخليج العربي، الذي يعرف أيضاً بالبحر الأحمر، الناشيء عن المحيط الهندي، وباتجاه الشرق لم يكن باستطاعة أعيننا رؤية شيء سوى المياه، التي امتدت حتى جبال مدين، وكذلك رأينا البحر الأحمر وهو يحيط بجبل سيناء.

والملاحة في البحر الأحمر صعبة جداً وخطيرة، ولذلك فإن القديس جيروم في رسالته عن الحياة الديرية التي وجهها إلى الراهب روستيكوس Rusticus قد قال عن هذا المكان كما يلي:« يصل الذين يبحرون فوق البحر الأحمر إلى مدينة كبيرة، وبعد كثير من المصاعب والمخاطر، لأن الشواطيء مسكونة من قبل قبائل أناس متنقلون، أو بالحري من قبل أكثر الناس وحشية، وعلى الملاحين أن يكونوا دوماً محترزين، والأسلحة دوماً في أيديهم، وأن يحملوا معهم أطعمة لمدة سنة كاملة، فالبحر مليء بصخور غاطسة، وضحله قاسية جداً، لذلك يتوجب على القبطان أن يجلس على رأس السارية، ويصرخ معطياً أوامره من هناك لعمل السفينة، وسوف تكون رحلة سعيدة، إذا ماوصلت السفينة إلى ميناء البلدة المتقدم ذكرها خلال ستة أشهر، وهي التي يبدأ بعدها المحيط بالانفتاح بنفسه، وبصعوبة يمكن أن تصل عبر هذا المحيط إلى الهند خلال سنة ابحار متواصل، حيث تصل إلى نهر الغانج، وهو الذي تدعوه الكتابات المقدسة باسم فيشون Phison، حيث ينمو هناك كل شيء مرتفع الثمن كثيراً جداً، وحيث هناك جبال من الذهب، مامن انسان يستطيع الاقتراب منها بسبب الغريفونات(الأسود الخرافية المجنحة) والتنينات، والمخلوقات الرهيبة الأخرى ذوات الأحجام الهائلة، هذا ماذكره القديس جيروم.

ويمتد من بحر الهند هذا نفسه خليج كبير آخر، باتجاه الشرق، هو الخليج العربي، فهو يمتد داخل البلدان العربية، ومنها قد نال اسمه، وعلى مقربة منه البلاد التي اسمها في الكتابات المقدسة فارس، وهكذا اسماها الإغريق اشتقاقاً من اسم فرسوس Perseus، ملك الأرغريفيين Argives، الذي استولى عليها بعد كثير من المعارك، وأجبر الناس الذين كانوا حتى ذلك الحين بدائيين، على الاستقرار والعيش وفق طريقة حضارية، كما أنه منح تلك البلاد اسمه، وحول فرسوس هذا يروي الشعراء كثيراً من الأساطير، هذا وتقدم لنا الحديث عن حصانه المجنح من قبل، وكان في هذه البلاد فيما مضى مدينة قوية جداً، اسمها فيرسيبولس Persepolis وهي التي قد تأسست من قبل فرسوس، وحدثنا بليني في كتابه الخامس، بأن التفاح الفارسي الذي نسميه نحن في ألمانيا الدراق، كان يحمل من تلك البلاد إلى بلادنا، ولذلك أطلق عليه اسم التفاح الفارسي، وهذا التفاح سام في بلاد فارس، لكنه هنا حلو، وطيب المذاق، وذلك وفقا لما ورد في«الكاثوليكونCatholicon » [رسالة حول فلسفة الزهد]، وهذه البلاد متصلة بميديا، وفقط مفصولة عنها ببعض الجبال العالية، القائمة بينهما، وذلك مثلما ايطاليا هي منفصلة عن ألمانيا، وكانتا في القديم مملكتان عظيمتان، وحدهما قورش في مملكة واحدة.

وبلاد ميديا واقعة إلى الشرق من جبال القوقاز، وإلى الجنوب من فارس، وإلى الشرق من بلاد الفرس بلاد الهنود، وإلى الجنوب البحر الأحمر(الخليج العربي)، وكان في بلاد ميديا فيما مضى Egbathanis، وكانت مدينة قوية جداً بناها أرفخشد، حسبما جاء في سفر يهوديت:١، ومدينة سوسة التي قرأنا عنها في سفر أستير.

وألقينا بعد ذلك بأبصارنا نحو الجنوب، في خليج البحر الأحمر، وقد رأينا خلف مجراه جبالاً عالية جداً، وفي هذا المكان أكثر القفار عزلة،

وهي قفـار طيبة Thebaid ، التي عاش فيها فيما مضى أكثر الرهبان قبولاً، ويتـاخم هذه القفار من الجنوب المحيط، ومـن الغرب النيل، نهر مصر، ففي هذه القفـار، اعتـاد أن يعيـش القـديس أنطوني الكبير، وهو صاحب اسم مشهور في العـالم كله، ومثله فعل القديس أرسينيوس Ar-senius ، وكـذلك القـديسون الثـلاثة، الذين كـان اسم كل واحـد منهم مكاريوس، مع قديسين آخرين ذوي قداسة عظيمة جداً.

والأشياء الأولى التي رأيناها في البحـر الأحمر كانت جـزراً مهجورة، كانت صخورها تلمع بملح أبيـض، هذا ويوجد في هذا البحر كثيراً من الجزر الثمينة جـداً، التـي لم يكن بامكاننا رؤيتهـا، ورأينـا على شـاطىء البحر الأحمر، الذي كـان على طرفنا ميناءً بحرياً متميزاً جـداً، الذي كان اسمه فيما مضى Berenice أو Arolech واسمه الآن الطور، وتلقي السفن التي تأتي من الهند حاملة العطور والتوابل مراسيها في هذا الميناء، ومن هناك يجري حمل التـوابل إلى مصر، ومن مصر عبر البحر المتـوسط حتى بلادنا، وهـذا أقصى ميناء في الشرق معـروف بالنسبـة لنا، وهناك يوجـد دوماً سفنـاً هندية كبيرة كثيرة، وهي معمولـة ومبنية مع بعضهـا بحيث ليس فيهـا حـديد، كما أنهم لايتجـرأون على امتـلاك مـراسي حديدية، أو سـلاسل، أو صحون، أو مسـامير، ولاأية أسلحة معـدنية، ولافؤوس، ولاحراب، ولاأية أدوات حـديدية مهما كان نوعها، وسبب هذا هو أنه هناك على شواطىء البحر الهندي فجـاج وجبال معمولة من حجر المغنطيس، ومن قـرب هذه الأماكن السفن المتوجهة نحـو العربية تحتاج إلى المرور، وبناء عليه إذا وجدت أية سفينة تحتوي على أي حديد، وعليها المرور بتلك الأمـاكن التي فيها حجـارة مغنطيس، فإن المغنطيس سـوف يجذب السفينة فـوراً بسبب الحديد، وبذلـك سـوف تصطدم بالصخور وتغـرق، لأن المغنطيس يجذب الحديد إلى نفسه بشكل عجيب جـداً، والذي يهمـه أن يقرأ أكثـر حـول هذا، عليـه أن ينظر في -Spec

ulum Historiale— الكتاب:٢٠، الفصل:٢٠.

علاوة على هذا، في عدة مناطق من الشرق هناك صخور، لها مثل هذه الطبيعة، أي أنهم يجذبون إليهم أناس يرغبون بعبورهم، وذلك مثلما يجذب المغنطيس الحديد، وعندما يُجذب مثل هؤلاء المسافرين، يضحكون، ويصبحون مسرورين، ثم يصطدمون بالصخور، ويهلكون، وقد تحدث كونسيلياتور Conciliator عن هذه الصخور في كتابه Doctrina— الفصل:٦٧، حيث قال بأنه بسبب العوائق مامن انسان يمكنه أن يبحر إلى أجزائنا من الأرض، حتى وإن لم يمنعهم الاتساع الهائل للمحيط.

وأخبرنا الراهب نيقوديموس، أن رهبان القديسة كاترين يتقاسمون مع سلطان مصر المكوس التي تدفعها السفن المحملة المستخدمة لهذا الميناء، وأنهم يمتلكون إلى جانب شاطيء البحر بستان أشجار نخيل كبيرة، منها يجنون تموراً كثيرة كافية لهم طوال السنة، ومع ذلك فإنهم يبيعون الجزء الأكبر من هذه الثمار.

ورأينا عندما نظرنا نحو الغرب، خلف هذا الخيج البحري باتجاه الجنوب، جبلاً عالياً اسمه أولمبوس السودان، لتمييزه عن أولمبوس مقدونية، ويتدفق هذا الجبل عند شروق الشمس بلهب على شكل مخيف لمدة خمس ساعات، ومن هذا الجبل تبدأ بلاد السودان، وهي بلاد كان اسمها في القديم أطلنطا، ويحدها نهر النيل، وهي بلاد واسعة جداً، وتنتج رجالاً غريبين مع حيوانات رائعة في قفارها، وينظر بعض هؤلاء الرجال نحو الشمس عندما تشرق، وعندما تغيب مع لعنات مرعبة، وهم دوما يشتمون الشمس بغضب، بسبب معاناتهم من الحرارة، وهناك يسعى ساطير ويتجول، وهوالذي يشبه الانسان إلى حد أنه يعد انسانا حقيقياً، ويحد هذه البلاد ليبيا، وهي منطقة واسعة من مناطق أفريقيا، وكذلك تحدها مصر.

وسحبنا أعيننا من هناك، وعن التطلع إلى تلك المناطق النائيـــة، وثبتناها على السهل الصحراوي الواقع بين جبل سيناء، والبحر الأحمر، ودهشنا تجاه حجمه وعزلته، وأخبرنا الراهب نيقوديموس أنه كان يوجد في تلك القفار دير لرجال مقدسين، وهذا الدير لم يستطع انسان في العصر الحديث أن يعثر عليه، مع أن أصوات النواقيس تسمع كل يوم، وهو تقرع في الساعات القانونية، ولقد حاول بعض رهبان دير القديسة كاترين العثور عليه، وقد أعلنوا أنهم سمعوا صوت النواقيس، لكنهم لم يتمكنوا بأية وسيلة من الوسائل العثور على الدير نفسه، وهم يعتقدون بأن هذا المدير مخفي بنعمة الرب، بسبب ذنوب البداة العرب، ولكي لاينزعج الذين يسكنون فيه، بسبب وقاحتهم، مثلما يحدث للديرة الأخرى في الصحراء، وفي هذا الطريق نفسه اختبأ لوط من شعب سدوم(التكوين:١٩)، وأخفيت مدينة دوثان عن السوريين، حتى لايتمكنوا من اعتقال النبي اليشع(الملوك الثاني:٦)، وكان على كل حال هناك بعض البداة العرب مع الراهب، وقد أعلنوا— وربطوا اعلانهم بالقسم— أنهم قد كانوا في ذلك الدير، ولكن بعدما خرجوا منه أضاعوا مباشرة الدير والطريق إليه.

ويختفي في بعض الأحيان بعض رهبان القديسة كاترين، ولايعرف انسان إلى أين ذهبوا، ومن المعتقد أنهم نقلوا إلى ذلك الدير ليشغلوا أماكن الذين يموتون من وقت إلى آخر، وينبغي أن لايستخف أي انسان بهذا وينظر إليه على أنه صبياني أو خيالي، فقد قرأنا مثل هذه الحكاية في« حياة الآباء»، وكان ذلك حول الصحراء نفسها، وتقول الحكاية بأنه سكن هناك رجل مقدس، لم يستطع أي انسان العثور عليه، وكان راعي الدير بوستوميوس Postumius في زيارة للآباء والقديسين الذين كانوا يسكنون في القفار، وقد بحث عنه لوقت طويل، لكنه لم يستطع العثور عليه، لأنه كان كلما حاول رجل أن يقابله، كان يهرب

بعيداً في داخل القفار إلى بقعة غير معروفة، ويتجنب الحديث مع أي واحد من بني البشر، ومع ذلك لقد قيل بأنه التقى براعي الدير، الذي كما افترض، حصل على هذه الفضيلة بسبب قوة ايمانه، وعندما تحادثا، سأله راعي الدير، لماذا يتشدد في تجنب بني البشر، أجابه« إذا كان الرجال سوف يتحدثون معي، فإن الملائكة الذين أتحدث الآن معهم، سوف يهربون مني»، وقرأنا الشيء نفسه عن القديس هيلاريون، الذي عرفه اللصوص الذين يتصيدون في القفار، وغالباً مابحثوا عنه، لكنهم لم يستطيعوا بأي سبيل من السبل العثور على قلاية الرجل العجوز، انظر Speculum Historiale— الكتاب:١٧، الفصل:١٩، والكتاب:١٩، الفصل:١٧، وجيروم في كتابه« حياة القديس هيلاريون»، الفصل:٩، الذي هو النص الأصيل.

وتحولنا من هناك واتجهنا نحو الشمال، حيث يتصل بالشرق، وألقينا بأبصارنا باتجاه بلاد العربية التي تحتوي على صحارى شاسعة جداً، وهي مليئة في كثير من أجزائها بعطور ثمينة متنوعة، ولهذا السبب عرفت باسم« العربية المباركة»، وهي تمتد فيما بين الخليج العربي والبحر الأحمر، وتدعى باسم «المباركة» بسبب الجودة الخاصة للتربة، لأنه عندما يجري حفر الأرض في بعض الأماكن تخرج بعض الكتل الترابية ذات الرائحة الطيبة، ويتم العثور عليها، ويستخرج الذهب من تلك البلاد بعد الحفر عليه، ولايتم تذويبه بالنار كما يجري عادة العمل في المناطق الأخرى، بل يستخرج من الأرض على شكل قطع بحجم اللوز، والكستنا، ولونه لامع إلى حد أنه يغري بجلب الأحجار الكريمة ووضعها في ذلك الذهب، وفي العربية هذه بلدة مكة، وهي مدينة النبي محمدﷺ، وفيها معبد ضريحه(كذا)، الذي يقال بأنه معلق ببراعة متناهية، بوساطة أعمال آلية، يعتقد الذين لم يعرفوا كيف عملت، أن الضريح معلق بالهواء بوساطة بعض القوى الربانية، والحقيقة هي أنه

هناك أحجار مغناطيس تحمل أجزاء متساوية بين قسم وآخر، فقد جرى وضع قسم من الأحجار في الأرض من تحت، ثم قسم آخر في سقف مقبب من الأعلى، وتابوت محمدﷺ الذي هو من حديد، معلق في الهواء بين هذين القسمين من الأحجار، وكأنه مثبت هناك بوساطة إرادة ربانية، وهناك شيء مشابه قد صنع من الحجارة وفق الطريقة نفسها في مشكاة فينوس، التي يندهش الكفار نحوها، علاوة على ذلك كان هناك في واحد من الهياكل صنم حديدي معلق في الهواء وفق الطريقة نفسها، كما ورد إلينا الخبر في Speculum Historiale— الكتاب:٩، الفصل:٢٠، وفيما هو مقبل في ص٧٢ظ.

واستدرنا الآن أكثر نحو الشمال، ونظرنا باتجاه بلاد الكلدان، التي تحدها العربية، ففي هذه البلاد بنيت مدينة بابل العظيمة من قبل نبوخذ نصر، حسبما قرأنا في سفر دانيال.

وكان في بابل هذه مسلة عظيمة، كانت احدى عجائب الدنيا السبع، فقد أمرت الملكة سميراميس بقطع حجرة من جبال أرمينيا، طولها مئة وخمسين قدماً، وسماكتها أربعة وعشرين قدماً، وبجلبها إلى بابل، حيث نصبتها، مما أدهش جميع الناظرين إليها، ويوجد على مقربة من هذه المدينة حقل دورا Dura ، حيث التقى العفاريت مع بعضهم بعد الطوفان، من أجل بناء برج بابل، وهناك أيضاً حدثت بلبلة الألسن، وأقام في هذا الحقل نبوخذنصر تمثالاً ذهبياً للرب، وهو الصنم الذي رفض أنانياس Ananias، وآزارياس Azarias وميسائل Misael، رفضوا عبادته، لذلك ألقى بهم في أتون نار مضطرم، وهنا كان صنم بعل، وعرين الأسود، وكانت هذه المدينة قد تزينت بنعمه سوزانا، زوجة يواكيم، وغالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة، وجاء من هذه البلاد، كما قلت من قبل، الغجر، الذين ندعوهم الـ Zigeuner(النور) وانتشر هؤلاء الناس مع أزواجهم وأولادهم، في أيامنا، فوق أوروبا

كلها، ولم يسمح لهم بالدخول إلى المدن، لأنهم الأبرع بين اللصوص.

وطردهم البنادقة كلياً من مملكتهم، بسبب لصوصيتهم ولأنهم اتهموهم بكونهم، جواسيس، ووفق الطريقة نفسها لم يسمح لهم اللورد ايبرهارد Eberhard، دوق وورتمبورغ Wurtemburg بالدخول إلى دوقيته، لأنه عانى منهم شخصياً ومن خيانتهم عندما كان في أزمة في الأرض المقدسة، فقد خانوه لصالح المسلمين، ولكي تجري معاملتهم بشكل أفضل من قبل الأناس المسيحيين، أعلنوا بشكل زائف، بأنهم قدموا من مصر العليا، وقد نفيوا من هناك، حتى يتمكنوا من التوبة، لأنهم لم يظهروا حسن استقبال للعذراء المباركة، وللطفل يسوع، وليوسف، عندما هربوا إلى مصر، وهذه حكاية زائفة، ومثل هذا يتظاهرون بأنهم مسيحيين، وأنهم تعمدوا وقتاً بعد آخر، ويهزأون من المسلمين، وسألت مرة واحداً منهم، من أي بلاد هو قد جاء، فأجابني بأنه هو والبقية قد جاءوا من بلاد الكلدان، وأنه اعتاد دوماً على استخدام اللغة الكلدانية.

وجاء بعد بلاد الكلدان بلاد الآشوريين، التي هي بلاد واسعة، فيها بنى نينوس NINUS مدينة نينوى العظيمة جداً، وهاتان المدينتان: نينوى، وبابل، قائمتان على ضفة نهر الفرات(كذا)، وقد بنيت الأولى منهما من قبل نينوس، وبنيت الأخرى من قبل الملكة سميراميس، وهما تبعدان عن بعضهما مسافة طويلة، وخلفهما بلاد الجزيرة، فيما بين الفرات والدجلة، نهر الجنة، وبعدها تأتي بلاد أرمينيا وبلدان أخرى كثيرة.

ثم استدرنا بعد ذلك نحو الغرب، ورأينا على يميننا جبال العربية، الذين يسمونهم« سلسلة العالم»، وتقوم هذه الجبال في مقابل الأرض المقدسة، على الجانب الأقصى من الأردن والبحر الميت، وبين هذه الجبال، الجبال الرئيسية هي جبال: نبو، وجبل فسغة، وجبل عبريم،

التي إليها صعد موسى بناء على أمر من الرب لرؤية الأرض المقدسة، وذلك حسبما قرأنا في سفر التثنية: ٣٤/ ١، وكان بامكاننا من جبل سيناء أن نرى هذا الجبل بوضوح، هذا وتقدم الحديث عن هذه الجبال.

ورأينا أيضاً في القفار هور، حيث مات هرون(العدد:٢٠/ ٢٦)، لكن بسبب جبال القفار وجبال العربية المتقدم ذكرها، كنا غير قادرين على رؤية اليهودية، ولافلسطين، ولاالبحر الكبير، وكذلك بسبب أنهم كانوا بعيدين كثيراً، ومع ذلك فإننا نعرف بشكل ممتاز، أوضاعهم والمكان الموجودين فيه في الأرض المقدسة، ولذلك انحنينا بأنفسنا وبرؤوسنا نحو الأرض المقدسة، ومدينة القدس المجيدة، وتعبدنا ضريح الرب، والأماكن المقدسة، ونعتقد واثقين بأن صلواتنا هذه كانت مؤثرة، لأنه قد كتب:« إذا ماصلى شعبك إليك باتجاه الأرض المقدسة والمدينة التي أنت قد اخترتها، ونحو البيت الذي بني لاسمك، أنت يارب سوف تصغي إليه»،(الملوك الأول:٨).

ورأينا أيضاً القفار والأماكن الصحراوية التي تجول فيها بنو اسرائيل لمدة أربعين سنة، والجبال التي مررنا بها، من ذلك على سبيل المثال جبل كالب، الذي تحدثنا عنه من قبل، وكذلك منحدر رحوئيم الذي أيضاً تحدثنا عنه، ورأينا أيضاً جبل حوريب المقدس في سيناء بعيداً عنا ودوننا على مسافة بعيدة، مع الجبال الأخرى المنبعثة منه والمنتشرة هناك، هذا ومع أنه لم يكن هناك أي جبل بيننا وبينه، كان بعيداً جداً، إلى حد أننا صحيح رأينا الجبل ورأينا قمته، مع ذلك لم نستطع بأية وسيلة من الوسائل رؤية البيعة التي كانت قائمة على القمة هناك، وبدت جميع الجبال هناك مجرد تلال، مقارنة مع جبل القديسة كاترين وبعدما شاهدنا جميع البلدان القائمة من حولنا، قريباً وبعيداً، جلسنا أرضاً، وأحضرنا طعامنا من مزادنا، وتناولنا وجبة رائعة إلى جانب الضريح الذي إليه حملت الملائكة القديسة كاترين.

نزول الحجاج من جبل العذراء القديسة كاترين في سيناء

وعندما فرغنا من عمل كل ماينبغي هناك على الجبل المقدس، قبّلنا المكان المقدس، ومضينا عائدين مع كثير من البهجة، ولم نكن نسير سيراً، بل نركض ونقفز نزولاً، لأننا كنا الآن بادئين لعودتنا إلى الوطن، ومع أنه كانت هناك مسافة شاسعة بيننا وبين بلادنا، لكن لم يكن ثابتاً بلاحراك أن الذين يريدون العبور من هنا إلى هناك لايمكنهم فعل ذلك، وعند جوف الجبل، وصلنا إلى النبع الذي يسمونه نبع القديسة كاترين، وشربنا هناك واسترحنا لبعض الوقت، ومن هناك سرنا أو انزلقنا مسافة طويلة، ووصلنا إلى نبع آخر، حيث قطعنا أغصاناً، قيل بأنها من النوع نفسه من العليقة التي ظهر فيها الرب لموسى، والتي قالوا أيضاً بأنها تمتلك قوة عظيمة، في مساعدة الذين لديهم أمراض مقعدة إذا حملوها معهم، وفيما إذا كان هذا صحيحاً، على القارىء الحكيم أن يقرر ذلك، وتابعنا النزول من هذا النبع، فوصلنا إلى حقل قصب، وقطعنا من هناك عصياً طويلة، قالوا إنها من النوع نفسه الذي كانته عصا موسى، التي عمل بها كثيراً جداً من المعجزات والتي وضعها فوق، في تابوه العهد، وهي التي قرأنا عنها في سفر الخروج:٤ ,١١ ,١٤، وفي أماكن كثيرة من الكتابات المقدسة، ويقول بعضهم إذا كانت هنالك امرأة تعاني من آلام المخاض، وأمسكت واحدة من هذه العصي بيدها، سوف تضع دونما مخاطر، هذا وهذه القصص رائجة بين العلمانيين وأنا لاأهتم بها كثيراً.

وبعد كثير من الجهد والتعب وصلنا نازلين إلى دير الأربعين قديساً، حفاة تقريباً، لأن الصعود إلى هذين الجبلين والنزول منهما دمرّ لنا أحذيتنا، ولذلك توجب على بعض الفرسان البقاء حفاة من هنا حتى القاهرة، وامتلك آخرون أحذية مقطعة من دون نعال، ومن الصعب أن يكون زوجاً من الأحذية جديداً كافياً للصعود إلى هذين الجبلين

والنزول منهما، وفيما يتعلق بقضية الأحذية لم نجهز أنفسنا منها بما فيه الكفاية، وعندما كنا على وشك مغادرة دير القديسة كاترين للصعود إلى هذين الجبلين، حدثت لي الحادثة السعيدة التالية، فقد جلب لي واحد من الفرسان المرضى الذين تخلفوا عنا، زوجاً جديداً من الأحذية، كان قد ابتاعه من القدس، وهو مصنوع من جلد جيد، رمادي أو بالحري أصفر اللون، وقال:« إليك ياأخ فيلكس، لقد اشتريت هذا الزوج من الأحذية وبنيتي تسلق هذين الجبلين المقدسين بهما، لكن وأنت ترى الآن أنني لاأستطيع التسلق إلى هناك، لذلك أرجوك أخذهما، ودعني أشارك في الخطوات التي سوف تعملها بهما، لذلك قمت على الفور بتجربة الحذاء الجديد لأرى فيما إذا كان يناسب قدمي، وتركت القديم المهترىء في غرفتي، لأنه كان من المؤكد عدم صموده أثناء صعودي حتى للجبل الأول، وبعدما وصلنا إلى دير الأربعين قديساً، طبخنا معجنات لغدائنا، وبعثنا بسائقي حميرنا إلى دير القديسة كاترين لإحضار الحمير لنا، لأنه لم يعد بامكاننا السير أكثر، بسبب تعبنا وحاجتنا إلى الأحذية، وبسبب حرارة الشمس.

زيارة إلى الأماكن في داخل الدير وفي الحدائق خارجه

وبعدما تناولنا طعام الغداء، قمنا بمسيرة إلى الأماكن المقدسة في الدير، ودخلنا أولاً إلى الكنيسة حيث انكببنا بأنفسنا نحو الأرض، وحصلنا على غفرانات(+)، وفي هذه الكنيسة جرى دفن الأربعين راهبا، الذين قتلوا في سبيل الايمان بالمسيح، في الدير، من قبل البداة العرب، بطرائق تعذيب متنوعة، ولهذا السبب أطلق على هذا المكان اسم« دير الأربعين قديساً»، ويسكن هناك اثنان من رهبان دير القديسة كاترين لوحدهما، بمثابة حارسين للمكان، ويعاني هذين الراهبين من كثير من الاهانات من البداة العرب، الذين يتجولون في تلك القفار، وتجولنا بعد ذلك بين قلايات الدير، التي هي تعيسة وفقيرة، وهي معمولة من

القصب المنسـوج الذي جرى التطيين فـوقه، لكن هناك من حـول الدير يوجد سور جيد وقوى، مثل سور يحمي قلعة، وليس له دائرة كبيرة.

وبعدمـا فرغنا من مشـاهدة الدير، خرجنا من بابه إلى حـديقة الدير، التي هي بشكـل رائع لاتشبـه القفـر المجـاور لها، فهـي مليئة بأوراق خضراء، وفـاكهـة، لأنـه ينمـو فيهـا هناك أشجـار طـويلة، وحشـائش «للصلطة»، وأعشاب، وقمح، وشاهدنا فيها أكثر من ثلاثة آلاف شجرة زيتـون، وكثيراً من أشجـار التين، والرمـان، وكميـات من اللوز وهكذا دواليك، ويحصل دير القديسـة كاترين على مايكفيـه من الزيت من هذه الحديقة لتغـذية المصابيح في الكنيسة، ولاستخدامـات الطعام في المطبخ، ويرسل الرهبان في كل سنة جراراً مليئة بفواكه هذه الحديقة إلى القاهرة، إلى ملك مصر، السلطان، كهـدية له، وكتعـويض لرعـايته وحمايتـه، كما سـوف أتحدث عـن ذلك لكم فيما يأتي، ولديهم« صلطـة» ومنكهـات لخبزهم، طوال السنة من الحشائش التي تنمو هناك، وقش من الأعشاب لإطعـام دوابهم، وإنه لأمـر مـدهش وجـود مثل هذه الجنة في القفـار، حيث أن كل شيء جـاف ومحترق من قبل حـرارة الشمس، وفي الرمـال القـاحلـة مـامن بذور أو جـذور يمكن أن تنمـو، ومع ذلك مـاالذي لايمكن للعمل الانسـاني أن لاينجزه؟ وفـوق هذه الحديقـة، عند سفح الجبلين حفر الرهبان ثلاثة آبار عظيمة، بعيدة عن بعضها مسافة قصيرة، وفيهم يمكـن تلقي جميـع الميـاه التـي تجري نزولاً مـن الجبلين في أيام الشتـاء، وتتدفق الميـاه بوساطة أنابيب من بئر إلى آخـر، وأخيراً تجري في الحديقة مثل مياه حيـاة، وهي تجر خلال الحديقة بوساطـة سواقي، وقد جعلت هذه السقـاية المتواصلة، الـرمل خصباً وجعلت الصحـراء تحمل ثماراً مثل الثمار التي تنتجها الأرض الزراعية، وقـد اعتاد الآباء القدماء، الذين عبـدوا الرب في القفـار، على عمل هذا، وذلك كما قـرأنا في Speculum Historiale — الكتاب ١٩، الفصل ١٤.

ويوجد في هذه الحديقة كثيراً من الصخور والحجارة، المندفعة من الأرض، ويوجد تحتهم كهوف، هي التي كانت فيها مضى قلايات الرجال المقدسين القدماء، وتمتد هذه الحدائق البديعة مسافة طويلة في قلب الوادي، وطولها ميل ايطالي، وعرضها رميتي حجر، واشتكى الرهبان لنا بأنهم تأذوا من شح المطر في هذه السنة، وبذلك أرغموا على التقتير كثيراً في سقاية حديقتهم مع أنها إذا لم تسق يوميا، فانها سوف تجف على الفور، ومثل هذا اشتكوا أنهم في بعض السنوات تسقط أعداد لاتحصى من الجراد على حديقتهم، وعلى الأشجار المثمرة، عندما تكون مزهرة، وتغطي وجه الأرض كله، وتأكل كل شيء أخضر، من عقد الأزهار، إلى الأوراق والأغصان ولحاء الأشجار وتحدث دماراً وأذى، وبعدما فرغنا من رؤية الحديقة، عدنا إلى الدير وانتظرنا حميرنا هناك.

إطراء ومديح جبل حوريب المقدس في سيناء وجبل القديسة كاترين المقدس في سيناء

من الممكن فهم الجبلين نوعا مامن خلال الوصف المتقدم، والصورة المرسومة هنا، ومن الممكن النظر إلى هذين الجبلين على أنهما جبل واحد، ذلك أنه مع أن قمتيهما منفصلتان، فإن سفحهما واحد، لأن كل واحد منهما يرتفع من سفح واحد هو نفسه، ويرتكز على الأساس نفسه، وذلك مثلما نتحدث عن يد واحدة، مع أن في اليد خمس أصابع مفصولة احداهن عن الأخرى، لكنهم متحدين معاً في قاعدة واحدة، وعلى هذا الأساس ينبغي أن نفهم وضع جبل القديسة كاترين، الذي يقال بأن جسد كاترين المباركة قد مدد فيه من قبل الملائكة، وذلك في المكان نفسه الذي أعطى فيه الرب الشريعة لموسى، أي أن تقول في الجبل نفسه فيما يتعلق بالقاعدة، ولكن ليس الجبل نفسه فيما يتعلق بالقمة لكل منهما، وبناء عليه سوف يظهران هنا تحت وصف واحد، وذلك مثلما يدعيان بالاسم نفسه، وهوسيناء.

وسيناء هو جبل في منطقة مدين فوق أرض العربية، وهو متفوق على الجبال الأخرى بالارتفاع، ويبدو رأسه وكأنه واصل إلى السماء، وهو جدير بالاحترام الأعظم بسبب الظهور المتتابع للرب الحقيقي في العصور الخالية، على أولى قممه، والدفن الرائع للقديسة كاترين الأعظم مباركة على القمة الأخرى، وهاتان القمتان للجبل المقدس لم تطأهما قدم انسان قبل أيام موسى وكاترين، لأنه مامن انسان تجرأ على التسلق إلى قمة حوريب، لأن المعتقد الرائج بين الناس قبل موسى كان أن الرب المخيف يسكن فوق قمة الجبل، وأن مامن انسان يستطيع النظر إليه أو الاقتراب منه والبقاء حياً، كما أنه لم يغامر أي انسان بالتسلق حتى قمة جبل سيناء، لأنها بدت وكأنها ملاصقة للسماء، ثم إن الجروف المنحدرة والعالية بدت وكأنه ليس فيها مكان لانسان يمكنه أن يتسلق منه، علاوة على ذلك، غالباً ماشوهدت النار مشتعلة على قمة الجبل الأول قبل أن يذهب موسى إلى هناك، بينما كانت القمة الثانية دوماً مغطاة بثلج متحول إلى جليد قاسي قبل أن يجري دفن القديسة كاترين هناك.

وهناك كثير من الجبال في العالم تندفع منها النيران، من ذلك على سبيل المثال بركان أيتنا Aetna وبركان بوبيوس Bobius(؟)، لكن لهبهما لم يتسبب بالطريقة نفسها، لأن هذا الجبل تدفق باللهب الناري، لأن النار قد اشتعلت بشكل اعجازي من قبل الرب ذاته شخصياً، وذلك حسبما قرأنا في سفر التثنية:٥، وسفر الخروج:١٩، فهنا ورد الخبر بأن الجبل قد اشتعل بالنار مع نزول الرب وقد زعق صوت البوق، وكان عدد الحشد كله آنذاك ليس أقل من مائة ألف، ولمدة خمسة أيام كانت النار المشتعلة في كل مكان، وقد شوهدت من قبل الجميع، ومع ذلك لم يحترق شيء هناك، لابل بقي العشب أخضر، انظر يوسبيوس De Evang praepar— الكتاب الثامن، الفصل الثالث.

وهناك جبال كثيره مغطاة بالثلج، الذي تجلد فصار قاسياً، لكن هذا

الجبل مغطى كشهادة على عذرية القديسة كاترين، علاوة على ذلك هناك جبال كثيرة، فيها كهوف، اعتاد الكفار على أن يمارسوا فيها أوهامهم وعبادة الأصنام، لكن هذاالجبل يحتوي على كهوف فيها انتظر الأنبياء وحي الرب، وعاش فيها الرهبان للتأمل حول الأشياء الربانية وكثيرة هي الجبال المكرسة للأرباب، مثل جبل أرسينثوس Aracinthus لمينيرفا، وماليا Malea لأبولو، وأولمبوس ليوف Jove وميسينوس(كذا) Misenus لاينياس Aeneas وأطلس لساطير Satyrs... وجبل العدوان لمولوك، وجبل بافوس في قبرص لفينوس، وهكذا دواليك، لكن جبل سيناء هذا مكرس للرب الحقيقي الواحد، وهو الجبل الذي يسره أن يسكن فيه، ذلك أن الرب سوف يسكن هنا حتى النهاية، وهم يقولون بأن جبل أطلس هو بعلوه أعلى من الغيوم، وهو يحتوي على مخلوقات غير معروفة هي في حرب ضد حياة الانسان، وفي وضح النهار جعله صمته الرهيب المتواصل من غير الممكن لأحد الاقتراب منه من دون أن يرتجف، مع الشعور بوجود شيء ما رباني مختفي فيه، ويبدو في النهار غائماً وقذراً، لكنه في الليل يلمع بكثير من الأضواء مثل النجوم في السماء، وتتردد في أرجائه أصوات الغناء وضرب الكوسات، وأصوات المزامير للرجال الخلعاء وساطير، لكن جبلنا له ارتفاع موائم لبني البشر، وليس فيه أية حيوانات مرعبة، وفيه ظلام وضوء مثل أي جزء من الطبيعة، وليس فيه رؤى مرعبة، بل كل مافيه مقدس ورباني.

ولقد قيل بأنه على مقربة من البحر الأحمر هناك جبل اسمه كليماكس Climax، حيث يقال هناك نساء متميزات بلحاهم الطويلة، وهؤلاء النساء يمضين أوقاتهن في صيد متوحش جداً، ويستخدمن النمور عوضاً عن الكلاب، ويربين الفهود والأسود، لذلك مامن انسان يتجرأ على الاقتراب من ذلك الجبل، خوفاً من أولئك النساء المتوحشات،

اللائي يحملن وهن عاريات على الرجال المسلحين، ويتغلبن عليهم بمساعدة الحيوانات اللائي دجننهن، ولايسكن مثل هذه الكائنات فوق الجبل المقدس، بل فقط قلة من الجائعين التعساء، وكل هؤلاء يمكن اطفاء غضبهم بمنحه من فتات الخبز، ويمكنني أن أروي كثيراً من الحكايات عن رعب الجبال(الأخرى)، التي تسبب للناس الخوف والرعب منهم، في حين نجد فيه، جبل سيناء براء كله من مثل هذه الأنواع، وعلى العكس هذا الجبل مرغوب به من جميع الجوانب، وذلك لبهائه لجميع بني البشر، إلى حد أن رجالاً من أعلى المراتب يتدفقون إليه من أقصى أجزاء الدنيا، وليكن في هذا كفاية عن جبل سيناء.

عودة الحجاج إلى دير القديسة كاترين والأماكن المقدسة الكثيرة على الطريق

وجلبت الآن حميرنا إلينا من دير القديسة كاترين، إلى دير الأربعين شهيداً، وامتطيناهم وسرنا إلى طرف الحديقة في الوادي القائم بين الجبلين، وعندما وصلنا تقريباً إلى نهاية الحديقة دخلنا إلى الحديقة من خلال سور الحجارة الجافة، وتركنا حميرنا في الخارج بعهدة أدلائنا، ووصلنا هنا إلى صخرة عظيمة، حيث هناك كنيسة مكرسة، وقد دخلناها وتلونا فيها صلواتنا علّنا نحصل على غفرانات(+)، ويقال قد سكن في هذا الكهف القديس أونوفريوس Onofrius ، الذي كان واحداً من كبار النساك، وهناك حكاية جميلة قد حكيت عنه في كتاب« حياة الآباء»، وكيف أنه وهو ساكن هنا في كوخ عند فم الكهف في ذلك المكان قد وقع أرضاً، فوقعت الأشجار القائمة حول الصخرة، ويبست، وذهبنا من هذا المكان نازلين في الوادي، ووصلنا إلى صخرة منعزلة قائمة إلى جانب الطريق، وليست متصلة بالجبل، بل واقفة بذاتها منبعثة من الأرض، إلى مقدار ارتفاع قامة الانسان مرتين، وهي عريضة في القاعدة، لكنها حادة في الأعلى، وتبدو وكأنها ليست متجذرة في

الأرض، بل قـائمـة مثل اهرام مصنـوع، وليس كقطعـة طبيعيـة من الصخـر، ومن المعتقـد أن هذه هي صخـرة حوريب، التي أخـرج منهـا مـوسى الماء بضربها بعصاه(الخروج:١٧—٦)، عـلاوة على ذلك يرى بعض الناس أن خروج الماء الثاني المذكـور في سفر العدد: ٢٠، كان من هذه الصخـرة نفسهـا، وهي الميـاه التي عـرفت باسم مياه الضرب، ولم تعط الصخـرة ماء أكثر مما طلب لسقـاية الناس مع مـواشيهم، وبذلك تظهر بوضوح أكبر على أنها معجزة، ولهذا السبب، كانت الصخرة أيضاً صخـرة منعـزلة، ليسـت متصلة بالجبل، ولامثبتـة على الأرض، حتى يتمكن بنو اسرائيل من مشـاهدة أن الرب عمل مـاءً طازجـاً جـديداً في الصخرة ليشربوا، ولم يجلب لهم جدولاً من الأسفل، ولو أن الماء استمر بالتدفق منذ ذلك الحين، فإن المعجـزة وقتها لن تكون معجزة كبيرة، بل معجـزة عـادية، لأننا رأينا أن القـديس كليمنت مع كثير من القـديسين الآخـرين حصلوا على الماء بوسـاطة صلـواتهم، وقـد تدفق من الأسفل على شكل ينابيع في أمـاكن لم يكن ماء فيها من قبـل، ولم يكن ذلك ماء جـديداً قـد خلق، بل كـانت ميـاها مـوجـودة في عـروق الأرض تحت التراب، وقـد جـرى توجيههـا إلى هناك واستمـرت من ذلك الحين تنبع وتتـدفق، وذلك مثل ما يمكنك أن تقـرأ حول قضيـة النبع الذي أعطي إلى الرهبـان كعـلامـة وهو أمـر أتينا على ذكـره مـن قبل، لكن نبع هذه الصخرة، لم يتدفق من المياه الموجودة تحت الأرض، بل من كنوز الرب، ولذلك قـال مـوسى في(سفـر العـدد؛٢٠):« افتح لهم يارب كنوزك، وامنحهم نبع ماء».

★★ ★★ ★★

وعن نبعنا قـال المزمـور:« شق صخـوراً في البرية وسقـاهم كأنه من لجج عظيمـة»«(المزامير٧٨/ ١٥)، وتحمل هذه الصخـرة في اليـوم الحالي عـلامـات الفتحـات في أمـاكـن متعـددة، لأن الماء لم يصـدر من أسفل

الصخـرة، بل من جميع أطراف الصخـرة نفسها، حسبما يمكن مشـاهدة ذلك في هذا اليــوم، وهذه الصخـرة جـديـرة بالاحترام العظيم، بسبب تدفق الماء منهـا، وبسبب معناها النموذجـي، لأنه تبعاً للرسـول(كورنثـا الأولى:١٠/ ٤) هي تشير إلى المسيح نفســه بقـوله:« والصخـرة كـانت المسيح»، ولذلك سرنا حـول هـذه الصخـرة، التي كـانت بذاتها المسيح، وقبلناها.

وتابعنا سيرنـا من هناك، ووصلنا إلى واد اسمـــه تولاس Tholas حيث رأينا خـرائب دير قـديم، فيـه سكن في القـديم رجال مقـدسـون كثـرة، وإلى جــانب الدير هنـاك كهف عظيم وعميق يقــود إلى جـوف الجبل، الذي إليه انكفأ الآباء القدمـاء، وأخفوا أنفسهم عن ضوء النهار المخلوق، حتى يمكنهم في الظلام رؤية الضـوء غير المخلوق، فقد قـرأنا في انجيل يـوحنا:١« والنـور يضيء في الظلمـــة»، وقـــال داوود في المزمـور:١٣٩/ ١٢:« الظلمـــة أيضـاً لاتُظلم لديك والليـل مثل النهـار يضيء، كـالظلمـــة هكذا النور»، وكـــان هذا الكهف بالفعل مــدرسـة للتأملات الربانية، حيث اقتيد الناس خلال الظلام المادي إلى رؤيا النور السماوي، وليس مثل كهف آخـرون Acheronقـرب مدينة هرقليـــة، والذي يقـود إلى المناطق الداخلية، أو مثل كهف الهبرنيـان Hibernian الذي اسمه خلوة القـديس باتريك Patrick، ففيه يرى الذين يدخلون إليـه مشاهد مـرعبة، ويخافـون رؤى مخيفة، وكأنهم غطسـوا في الجحيم، ولايحدث هذا بوساطة قـوى ربانية، أو بوساطة معجـزات، بل بوساطة قوى طبيعيــة، واضطراب في العقل، لأن المعلم هنري دي هاسيا -Has sia....(استـاذ في جامعـة فينا، مات سنة ١٣٩٧) نقل عن نيقـولا أور Ore، وكان حكيماً على درجـة عالية من المعرفـة في العلوم الطبيعية، بأن ذلك الكهف كان موجوداً في ايرلندا، فيـه في أماكن متفرقة هواء زفيري كثيف، نتيجتـه أن الذيـن يدخلون إلى هناك يقعـون نيـامـاً، ويحلمـون

بأحلام رائعة، ويرون أشياء مخيفة بوضوح وكأنهم في اليقظة مع أنهم نيام، وبالطبيعة الشريرة والهواء السيء في المكان يبتهجون ويسلبون من عقولهم، ولذلك(عندما يستيقظون)يكتبون ماشاهدوه، وكأنه كان معجزات، ويصفون مشاهداتهم، وكأنها حوادث وقعت بالفعل، مع أنها حدثت لهم في حالة غير صحية في حالات تخيلهم، مثل أوضاع المنام، التي غالباً ماتبرهن انها تحدث مع بعض الناس عندما يكونون في حالة اليقظة.

وبعد مغادرة تولاس ، نزلنا إلى الوادي، ووصلنا إلى دير آخر، الذي هو الآن دير صغير، لكنه كان فيما مضى واسعاً، ويدعى باسم دير القديسين كوزما ودامين، وكانا كما قيل لنا في حكايتيهما من العربية، وهي بلاد جاء منها أطباء ماهرين جداً، وأعتقد أن هذا هو سبب تكريس دير إليهما في العربية هنا، تفضيلاً لهما على غيرهمامن القديسين الآخرين، وقد بني هذا الدير فوق المكان الذي طعن فيه أكثر من ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة رجل من قبل الرب، فهؤلاء هم الذين هلكوا في تمرد قورح، وداثان، وأبيرام(العدد:١٦)، ففي هذا المكان انشقت الارض تحت أقدام هؤلاء القوم الأشرار، وفغرت فاها وابتلعتهم وبيوتهم، ومضوا سريعاً إلى جهنم، وبعدما حدثت هذه الاشياء، عادت الأرض ثانية ناعمة مجدداً، وكأن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث، وذلك حسبما حدثنا مؤلف Speculum Historiale، ولذلك لم نستطع رؤية أية أثر مهما كان لإنشقاق الأرض هذا.

ووقفنا في هذا المكان ونحن نرتجف، ولخوفنا من قسوة حكم الرب وسرعة تنفيذه، لأن أولئك المتذمرين وقفوا مستعدين لإثارة تمرد وشقاق، ولم يخافوا عندما انشقت الأرض تحت أقدامهم، مع أنه من الذي لايخاف عندما يسمع بهذا؟، ولقد قرأنا بأن الشيء نفسه قد حدث في أيام القديس أمبروز في قرية في توسكانيا، عندما انشقت الأرض

وابتلعت بيت رجل غني مع كل مايتعلق به، لكن بقيت هوة كبيرة فوق البقعة، لتكون شهادة ودليلاً، وقرأنا أيضاً في حكاية القديس بندكت، كيف أن شرفة قد سقطت فجأة على رجل عارض ذلك الرجل المقدس، وقتلته، وكذلك قرأنا أيضاً في«حياة» القديس جيروم، كيف أنه أصلح بعض الراهبات لعلاقاتهن الجنسية مع بعض المترهبنين، لكن بما أنهن لم يقومن سبلهن، انشقت الأرض، وابتعلت الدير، والراهبات وكل شيء.

★★ ★★ ★★

وانصرفنا من ذلك المكان المتقدم ذكره، ونزلنا في ذلك الوادي العريض والشاسع، الذي سافرنا خلاله قبل ثلاثة أيام، ونحن ماضون إلى دير القديسة كاترين، وذلك حسبما تحدثنا من قبل، وهذا وادي جميل وواسع، يمتد بين الجبال على شكل صليب، هذا والجبال التي من حوله عالية، ومع ذلك فإن الوادي مضيء ومشرق، بسبب مسافة الجبال بين واحد وآخر، ولو أنه كانت هناك مياه فقط في تلك المنطقة، لكانت قطعة ممتازة من الأرض للبشر للعيش فيها، ولإقامة مدن وقرى، فهناك في هذه الوديان نصب بنو اسرائيل معسكراتهم بعدما عبروا البحر الأحمر(الخروج:٢١)، ويطلق على هذه المنطقة اسم قفار سيناء، لأنها تقع في مقابل جبل سيناء، حيث فيها أقام بنو اسرائيل الجزء الأعظم من الأربعين سنة التي أبقاهم الرب خلالها في القفار.

ووصلنا الآن ونحن نازلين إلى مكان تتصل فيه الوديان مع بعضها، وتشكل سهلاً عظيماً، ورأينا هناك حجرة طويلة كانت تشبه منبر واعظ، وعلى هذه الحجرة، يقال بأن موسى وقف وأخبر الناس بكلمات الرب، وأنه من هناك أعطاهم الشريعة وبينها لهم، وهي الشريعة التي أعطيت له، وتلقى أجوبة الناس هناك، وحملها عائداً إلى الرب على الجبل، وهنا أيضاً كان غالباً مايخبر الشعب بأوامر الرب.

وفي الحقيقـة كان المكـان موائماً كثيراً لأعمال الوعظ، وهنـاك مساحـة كبيرة جداً تحت من أجل النـاس، وهذه المساحة الشـاسعة كـانت محتاج إليها، لأن تعـداد الناس كان كبيراً، فقـد بلغ عددهم ستمائـة ألف رجل حاملين السلاح، وذلك إلى جانب النساء، والأطفال، وعلاوة على ذلك حشـداً لايحصى عـدده من أخـلاط الناس الذين قـدمـوا معهم، وأغنام وسائمة من كل نوع بأعداد عظيمة جداً. (الخروج:١٢).

وفي هذا المكان كـان بنو اسرائيل يضحـون للعجـل الذهبي، وذلك بسبب أنه كـان شـاسعـاً واسعـاً، والوديـان من حـوله لها مناظر عليـه، والعجل الذهبي هو الذي صنعـه هرون لهم أثناء غياب مـوسى، عندما كان مع الرب في الجبل، وقد رقصـوا عراة حول العجل، وجمعوا الناس وحشـدوهم كلهم مـن جميع أمـاكن سكناهم وخيمهـم، حيث أعلنوا بشكل عـام عن عيـد العجل قـائلين:« هذه آلهتك يـا إسرائيل التي أصعـدتك من أرض مصر»، وحـدث أنه حتى بعض الشيـوخ والحكام ذهبـوا إلى المكان الذي اعتـاد موسى على الوقوف عليـه والتحـدث إلى الناس، وعرضوا على الناس العجل، ونصبوه لهم لعبادته.

وجرى اقتراف هذا العمل المرعب والمخيـف على هذه البقعة، ليكون عاراً أبديا لليهود، لأنه في هذه الأيام إذا ماتحدث انسان عن هذا العجل إلى يهودي، يحمر وجهه خجلاً، ولقد برهنت أنا شخصياً على صحة هذا الأمـر مراراً عندمـا كنت أتحدث إلى يهود، فعلى هذه البقعة نسي اليهـود الرب، كما قـال صـاحـب المزامير، نسيـوا الرب مخلصهـم الذي عمل أعمالاً مدهشـة في أرض حام، وأشيـاء مخيفة في البحـر الأحمر، فكان أن صنعـوا العجل في حـوريب، وعبـدوا وثنا مصنوعـاً، وبذلك استبـدلوا مجدهم بصورة عجل يأكل قش الأرض.

★★ ★★ ★★

ولدى متـابعتنا لسيرنا وصلنا إلى مكان، حيـث كـانت هناك أكـوام عظيمـة من الـرمل وتضخم في الأرض، ويقـال بأنه في هـذا المكان قـد جـرى دفن الذيـن قتلوا من أجل وثنيتهم بناء على أوامـر مـن مـوسى، وكـان عـددهم ثلاثة وعشرين ألف رجـل(الخروج:٣٢ وأخبـار الأيام الأول:٢٠)، وتابعنا من هناك سيرنا في ذلك الوادي العـريض، ووصلنا إلى واد ضيق يقود إلى دير القـديسة كاترين، وقـد دخلناه، وسرنا خلال حـديقـة الدير، وتمتـد هذه الحديقـة مسـافـة طويلة، كما تحدثنا عن ذلك الدير، وتجري سقايتها وفق الطريقة نفسهـا مثل حديقة الأربعين شهيداً، كما تحدثنا عن ذلك في مكانه، وهذه الحديقـة مـزروعـة بشجر الزيتـون، وبأشجار مـن أنواع أخرى، وهي واسعة وجميلـة، وبها أماكن كثيرة ورد ذكرها في الكتابات المقدسة.

وعندمـا كنّا سـائـرين من خـلال هذه الحديقـة، طلب منا أدلاؤنا أن ننظر إلى الأعلى نحـو قمم الجبال، وقـد رأينا فوق رأس صخـور عاليـة جداً، واقفـة أمام جبل حـوريب، عجلاً واقفاً هناك وهـو يتطلع نحونا، وكأنه على وشك القفز نحو الأسفل، ولقد رأيناه بوضوح تام، مع جميع أطرافـه، وهو مـوزع بشكل متوازن، وكأنه حقيقـة حيـوان حي، أو أنه شبيـه بعجل مصنوع بشكل فني، مـع أنه بالحقيقـة لم يكن هناك عجـلاً لاطبيعيـاً أو اصطناعيـا، بل كـان هناك قشرة صخرة، رأسهـا مكسـور، ومن دون أن يصنعه انسان، يبدو من الأسفل حين تنظر إليه وكأنه يشبه عجـلاً، ولذلك غـالبا مـاقـام رهبان الديـر، يحركهم الفضول، فتسلقـوا الجبل، ولكنهم لم يعثـروا على أي تمثـال لعجل على قمتـه، بـل وجـدوا صخوراً مكسورة، وجروفاً حادة، عندما ينظر الانسان إليها من الأسفل تبـدو له وكأنها عجل، وذلك مثلما هناك صخرة في بحـر ايجه، لها شكل ماعزة، عندمـا ينظر الانسان إليها من مسافـة، ولهذا السبب عرف البحر باسم بحر ايجه، لأن« ايجه» بالاغريقية تعني ماعزه.

وفي مكان آخر من البحر نرى صخرة عندما ننظر إليها عن بعد، نجد أن لها شكل صل، لكن عندما نقترب منها، نجدها حجرة كبيرة، ومثل هذا، عندما يذهب انسان من بلدة ويزازتيغ Wisastaig (كذا) قرب أولم، يرى فوق التلال حجرة طويلة محفورة وكأن لها شكل انسان، ولكن عندما يقترب الانسان منها، لايمكنه أن يرى سوى صخرة وعرة، وعلى الرغم من ذلك فإنه مع العجل المتقدم ذكره، نجد أن خداع المنظر قد قاد إلى خطأ بين كل من الطوائف الشرقية، والمسيحيين والمسلمين، إلى حد أنهم يعتقدون أن الشيطان قد أخذ العجل الذهبي ، الذي صنعه اليهود، كما تقدم ذكره، وحمله إلى ذلك المكان، ليكون ملامة دائمة وعاراً ثابتاً لليهود، وخشية من أن يجري نقله من قبل أي انسان، جعل الرب من غير الممكن العثور على العجل نفسه، لكن هذه الحكاية كلها مخترعة وتتعارض مع نص التوراه(الخروج:٣٢) الذي يقول بأن موسى قد أخذ العجل الذهبي وطحنه ناعماً، كما سوف يظهر معنا بعد قليل.

وابتعدنا اخيراً عن ذلك الشبه المتخيل للعجل، ووصلنا ونحن سائرين إلى هوة كبيرة وعميقة، تشبه صهريجاً، كان فيها كثيراً من الماء، من الممكن جره لسقاية الحديقة، وقد قالوا بأن هذه الهوة كانت دوماً هنا، ولم تعمل من قبل عمل بشري اصطناعي، أو بأي جهد، بل من قبل الطبيعة، ففي أيام الشتاء تجري المياه إليها، وكان موسى عندما طحن العجل الذهبي، رش المطحون على هذا الماء، وأحضر الناس، وجعلهم يشربون منه، وحدث أن الذين كانوا مجرمين قد احتفظوا بلون الذهب في وجوههم، ولذلك بدت لحاهم ذهبية، وتورمت أجوافهم بشكل سيء بوساطة الماء الذي شربوه، إنما الذين لم يشاركوا في هذا الإثم، فقد شربوا الماء من دون أذى، ولم يظهر أي لون ذهبي على وجوههم. انظر الخروج:٣٢، و Postilla لدي ليرا، وقرأنا عن نبع

مماثل في تايانا Tyana، مكرس لجوبتير، وهو في الحقيقة نبع رائع جداً، وقد قيل بأن مياهه تأتي إلى هذا النبع باردة جداً من خلال ممرات تحت الأرض، حيث تغلي على الفور، وهذه المياه عذبة وصحية بالنسبة للذين يسكنون على مقربة منها إذا ماكانوا شهوداً صادقين على أي مسألة، ولكن إذا لوثوا أنفسهم بشهادة زور، فإن الماء يطير خارجاً من النبع ضدهم، ويضرب أعينهم، وأقدامهم، وأيديهم، ويسبب لهم أمراض الاستسقاء، وفقدان الشعر، ولايمكنهم المغادرة من دون أذى مالم يعترفوا بشهادة الزور إلى الأشخاص الذين حلفوا لهم حانثين مزورين.

ومثل هذا أيضاً حدث لميداس، ملك الفريجيين الجشع، الذي عبد الذهب على أنه ربه، فقد تلقى من باخوس منحة، أي أن شيء يلمسه يتحول إلى ذهب، ولذلك مات من الجوع، وبعد موته ألقي به في نهر باكتولوس Pactolus ، الذي امتلك رمالاًذهبية، من أجل أن الذي لايمكنه العيش من دون ذهب، يمكن أن يفسد في الذهب، لأنه مهما أذنب الانسان، فإنه به سوف يعذب، ولذلك فقد اليهود كأس الحياة الذهبي، لأنه قدموا القرابين إلى عجل ذهبي.

وغادرنا ذلك الصهريج، ومضينا على طريقنا صعوداً، فوصلنا إلى مكان شاسع مفتوح في الحديقة الذي لاأعرف سبب قحطه، حيث مامن عشب ينبت فيه، مثلما يحدث في بقية أجزاء الحديقة، ومن المعتقد أن هذا الفراغ هو المكان الذي أذيب فيه العجل الذي عمل من قبل هرون، وذلك حسبما قرأنا في سفر الخروج:٣٢، ذلك أنه أخذ من النساء ومن الناس أقراطهم الذهبية والخواتم والكؤوس الذهبية، وألقى الجميع في النار، ومن هناك جاء من خلال عملية للشيطان عجل ذهبي، الذي اعتقدوا أنه صل، وذلك مثلما يفعل المصريون، لأن المصريين يأخذون الصل من الماء على شكل ثور، ومثل ذلك فعل بنو اسرائيل فأخذوه نفسه من النار على شكل عجل.

وفي الحقيقـة اعتـاد الكفـار على عبـادة رجـال عملوا أرباباً، ليس في أشكالهم البشرية الحقيقيـة ولكن بأشكال هذه الحيوانات، التي تتحـدث الحكايات أنهم تحولـوا إلى أشكالها، من ذلك أن جـوبتير قـد تحول إلى غـزال وعبـد تحت شكـل غـزال، والصل تحت شكـل عجل، وفينوس كسمكة وساتورن كحصـان، ونيوب Niobe كحجرة، وهيرمون Her-mione، كثعبـان، ويونو Juno كبقـرة، وأكتيـون Acteon كـوعل، وأنتيغون كلقلق، وألدونا Aldonaكطائـر مغرد، ودفنـي كغار، وعُبـد أطلس الـذي غيّره فيرسـوس إلى جبل، على شكـل جبل، والـرعـاة الأركـاديون Arcaodian على أشكال ذئـاب، ويمكنني أن أقـدم المزيد من الأمثـال، وهكذا اختـار الشيطـان تشكيل عجل في النار وآثره على عمل شكل انسان.

ومضينا في طريقنا، فوصلنا إلى صخـرة منعزلة قـائمة عند سفح جبل حـوريب، مثل قـدر كبير، وهذه هي الصخرة التي رمـى عليها مـوسى لوحي الوصايا العشر، وكان ذلك عندما شاهد العجل والناس يقدمون القرابين إليه، هذا ومعـروف أن هذين اللوحين قد نحتهما الرب، وكتب عليهما باصبعه، وكـانا من أثمن الحجارة وأكثرها صقلاً، وعندمـا جرى تحطيمهما اختفيا كليـا، وقال اليهـود بأن الكتابه كـان من الممكن قراءتها من على أي جانـب من الحجرة، وهو أمـر اعجازي، لأن رؤية الحروف ممكنة من على الطرفين من ورق رق رقيق وشفـاف، ولكن القـراءة ممثلة من على جانب واحد فقط، لأن الصفحـة عندما تُقلب، تنقلب الحروف وتصبح معكوسة.

ولهذا السبب، من المعتقد أن الحجـرة لابد وأنها كانت نقيـة، ولامعة، وشفافة، حيث اقتضى الحال أن تكون هكذا، لأنها حتى في الظلام، وفي أوقـات الليل أشعت، ودائماً جعلت الكتابة ممكنة القـراءة، مثلما توجب الحفـاظ على الوصايا التي كتبت عليهـا في جميع الأوقات، لكن مـوسى

حطم هذين اللوحين، ولم يعد من الممكن بعد ذلك القراءة، ولم يكن هناك حظر على الناس ومنع لهم من الابتهاج بسبب تحطيمهما، ومن الممكن المحاججة بأنه عندما ألقى موسى باللوحين على الصخرة تحولا مباشرة إلى غبار لافائدة منه، وكان اللوحان الآخران، اللذان نقرأ عنهما في سفر الخروج:٣٤، قد نحتا من قبل موسى نفسه، وتمت الكتابة عليهما باصبع الرب، ويقول اليهود بأن الرب جعل موسى يرى كتلة من الزفير، نحت منها لوحين، وأن موسى صار غنيا كثيراً من خلال البقايا والقطع التي تشظت من تلك الكتلة، وأدع الأمر إلى أي رجل عاقل ليحكم كم من الصدق يمكن توفره في هذه الحكايات، لكنهم لايستطيعون اقتياد أي انسان إلى ضلالهم وإلى أي من أخطائهم، مثلما لايمكن لحكايات الشعراء، التي نقلتها والتي أتعرض لها، عندما تصدفني على طريقي.

ومضينا من هناك نتابع سيرنا نحو الدير، وهنا أشار الراهب نيقوديموس وبيّن لنا جبلاً متصلاً بجبل حوريب، قال بأنه كان جبل موسى، فإلى هذا الجبل:« صعد موسى وهرون.... وسبعون من شيوخ اسرائيل، ورأو إله إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة»[الخروج:٢٤/ ١ , ١٠]، ومن هذا الجبل أُمر موسى بالصعود إلى جبل حوريب، لأن هذا الجبل واقع فوق كتف جبل حوريب، باتجاه الشمال، وكان موسى قد أُمر بالصعود إلى هذا الجبل من أجل صلوات خاصة، وليتلقى الأجوبة من الرب حول قضايا خاصة، ومن المعتقد أن الرب ظهر مراراً هناك إليه.

وقد صلينا ونحن ننظر نحو هذا الجبل، وتابعنا سيرنا إلى أن وصلنا إلى مكان مغلق ملاصق لأسوار الدير، فهنا أرض مقبرة الرهبان، وبناء عليه قرأنا هنا الصلوات من أجل الأموات، وقمنا بتقديم الاحترام إلى الرجال المقدسين الذين دفنوا هناك، لأن هناك مايزيد على تسعة آلاف

راهب قد دفنوا هناك، أسماؤهم مدونة واحد تلو الآخر في كتاب الدير، ومما لاشك فيه أنه كان بينهم عدداً كبيراً من القديسين، وبعدما خرجنا من المقبرة دخلنا إلى الدير، فوجدنا أن عدد البداة العرب، قرب مكان إقامتنا قد ازداد، ومع ذلك طبخنا طعام عشائنا، ودعونا الراهب نيقوديموس ليتناول العشاء معنا، ورجوناه أن يقوم بعمل الترتيبات مع السيد راعي الدير، حتى يرينا آثار القديسة كاترين والأماكن المقدسة الأخرى في الدير في الغد، الأمر الذي فعله، كما سوف نبين ذلك في مكانه، وأمضينا الوقت ونحن حزينين، لأننا رأينا أعداد البداة العرب المقيمين في مواجهتنا بازدياد مستمر.

ضريح القديسة كاترين العذراء الأعظم مباركة وآثارها المقدسة، والتراتيب التي أبدوها هناك نحو السادة الحجاج المسيحيين، والوضع الحالي للزيت الاعجازي الذي يقال بأنه يتدفق من قبرها، وعليقة موسى، والأماكن الأخرى التي يجري فيها منح الغفرانات، وسيشغل وصف هذا كله هذا الفصل بأكمله

في اليوم السادس والعشرين، مباشرة بعد منتصف الليل، قمنا بعد قراءتنا لصلواتنا، بإعداد أنفسنا لإقامة قداسات، وأعدّ الفرسان العلمانيون أنفسهم لتلقي القربان المقدس، وكان هذا اليوم هو يوم جمعة، وكنا نأمل بأن يكون اليوم المقبل يوم مغادرتنا، وبناء عليه بعد تلاوة صلوات مابعد منتصف الليل، والصلاة الأولى، سمعنا اعترافات فرساننا، وأقام كل واحد منا بدوره قداساً في بيعتنا، وتلقى جميع الحجاج العلمانيين القربان، وخلال ذلك الوقت صار النهار مشرقاً، فنزلنا إلى كنيسة القديسة كاترين لرؤية آثارها، وعندما كنا في الكنيسة، قدم راعي الدير مع جميع رهبانه، وكل واحد منهم يحمل بيده شمعة مضاءة، ووفق الطريقة نفسها، أشعل كل واحد منا نحن الحجاج حوامل الشموع التي كانت بأيدينا، ومن ثم تحلقنا واقفين حول ضريح العذراء المقدس، من كلا الجانبين هناك، وجاء الآن حافظ مقدسات الدير مع مفاتيحه، وحاول أن يفتح أقفال الضريح، لكنه لم يستطع أن يفعل ذلك، لأن كل من الأقفال والمفاتيح كانوا جميعاً قد غطاهم الصدأ، وتعطلوا، وأمكن أخيراً بمساعدة الرهبان الآخرين، وبعد بذل كثير من القوة والجهد، فتح الأقفال، وعرض قبر الجسد المقدس، وعندما جرى إزاحة الغطاء الرخامي الذي يغطي القبر، شرع الرهبان بغناء ترنيمة تجاوبية، كانت الكلمات والموسيقى اغريقية، التي منها لم يكن بإمكاني فهم ولاكلمة واحدة، باستثناء كلمتي «رسل» و«شهداء» ، لأنهم غنوا بهاتين الكلمتين، ورددوهما بين الكلمات الأخرى، ذلك أن

هاتين الكلمتين هما نفسيهما في كل من الاغريقية واللاتينية، وقد أخذنا بالأصل من اللغة الاغريقية إلى اللغة اللاتينية.

وأثناء قيامهم بالغناء، وصل راعي الدير إلى مكان الضريح، وبعد قيامه بانحناءة كبيرة، صعد نحو التابوت، الذي كان قائماً في مكان مرتفع، وهنا غطس برأسه في داخل التابوت، وقبل مستودع ذخيرة الحكمة السماوية، وأعني بذلك رأس العذراء المقدس، ثم رفع نفسه وانتصب قائماً ثانية، وبقي واقفاً إلى جانب رأس التابوت، وبعد ذلك اقترب الرهبان منه، مبتدئين بالأسن منهم، وقبلوا الآثار المقدسة، وفق الطريقة نفسها التي عملها راعي الدير، وجئنا نحن الحجاج بعد الرهبان وتعبدنا الآثار بالطريقة المعتادة، وبعدما فعل قائدو حميرنا الشيء نفسه، وبعدما فعلنا ذلك، أعطاني جميع النبلاء منا جميع مجوهراتهم من الذهب ومن جواهر الفضة، حتى ألمس الآثار المقدسة بهم، وهكذا أخذت كل من المجوهرات التي عهد بها إليّ في أولم، من قبل الناس الأعزاء علي، ومجوهرات رفاقي من موالي الفرسان، ووضعت كل قطعة منهم في التابوت، حيث لمست بهم الرأس المقدس للعذراء النبيلة.

ومن أجل توضيح للمس الآثار بالجواهر، إنظر إذا رغبت ماتقدم في ص١٩٨، وعندما كنت أفعل هذا لم يرفع راعي الدير الذي وقف إلى جانبي ناظريه عني، وراقب يدي بعناية كبيرة، وذلك خشية سرقة أي من الآثار المقدسة، لأنه بالفعل جرت سرقة كثيراً من الآثار المقدسة في ماضي الأيام من قبل الحجاج، أو أخذت بناء على التماسات الأباطرة، والأساقفة والملوك، وجرى اعطاء الكثير وفق هذه الطريقة، حتى أن المتبقي الآن من الجسد المقدس أقل من النصف، ولأنهم يعرفون هذا، فإنهم يتولون حراسته بكل عناية من اللصوص، ولايمكن الآن لأعمال التوسل أو الرشوة أن تقنعهم بالتخلي عن أية قطعة، ومايزال الجزء الأكبر موجود هناك، أي مازال موجوداً: رأس العذراء المقدسة، مغطى

بتاج ذهبي مرصع بكثير من الجوهر، مع رمز القداسة، والذراع الأيسر الذي أصابعه مغطاة بخواتم ثمينة جداً فيها أحجار كريمة، وكانت اليد الأخرى— كما أخبرنا الرهبان في جورجيا، لكن الذين في رودوس يتبجحون بأنهم يمتلكونها، وهم يعرضونها على الحجاج، وقد رأينا بعض الأضلاع، وقطع من العظام، وكثيراً من أطراف العذراء المقدسة موضوعين في التابوت.

ويبدو أن العظام المقدسة قد وضعت في زيت، لأن لونهم ليس أبيض، لكن لونهم لون عظام أو قطع من الخشب قد وضعت في الزيت، ومن المعتقد في الكنيسة المقدسة أن أطراف العذراء تعرقت فيما مضى زيتاً، لكن هذه المعجزة قد توقفت منذ زمن طويل مضى، والأطراف المقدسة ملفوفة الآن بالحرير، وقد جرى اعطاء قطع منه إلى الحجاج عوضاً عن الزيت، وهم ينقعون هذه القطع من الحرير في المصابيح المعلقة في بيعة القديسة مريم في العليقة، ويحملونهم معهم إلى مواطنهم بمثابة زيت القديسة كاترين.

وكان معي قارورة صغيرة ملأتها بالزيت نفسه، وغطست فيها كثيراً من الصوف، هذا وإنني أعلم أن الزيت الذي من المكان المتقدم ذكره، مؤثر جداً على الحرير، وعندما أخيراً أراد راعي الدير اغلاق تابوت العذراء، أشرنا له بإبقائه مفتوحاً قليلاً من الوقت بعد، وذهبنا ثانية واحداً تلو الآخر، بالنظام والترتيب نفسه كما كان من قبل، وقبلنا الآثار المقدسة ووضعنا تقديماتنا من الذهب والفضة في التابوت، فقد وضع بعضنا أربع دوقيات، وبعض آخر ثلاثة، وبعض دوقيتين، ووضع الشطر الأكبر مالايقل عن دوقية واحدة، وعندما كنا نفعل ذلك غنينا ترنيمات تجاوبية جماعية إلى جانب التابوت، وتلونا المجموعات المحددة في كتب المسيرات، وحصلنا على غفرانات مطلقة(++)، ثم قام حافظ المقدسات بجمع تقدياتنا، وأغلق التابوت.

وهذا التابوت قائم فوق مكان مرتفع على الجانب الأيمن من السدة، وهو مصنوع من رخام أبيض مصقول، ومحفور على وجهه كله صور، ونباتات، وأوراق، والتابوت ليس مصنوعاً بطول جسم انساني، بل أقصر من ذلك بكثير، لأنه صنع لحفظ العظام فقط، ومعلق إلى جانبه كثيراً من المصابيح المضاءة، كانت تغذى فيها مضى من الزيت الذي رشح من أطراف العذراء، ولكن عندما توقفت هذه المعجزة، ظلت أطرافها مليئة بالزيت، لكنها توقفت عن الرشح، إلاّ إذا حكت بشدة وبناء عليه قرأت في كتب حج قديمة، أن الرهبان اعتادوا، بناء على طلب من الحجاج على حك واحدة من عظام العذراء، وكان الحجاج يأخذون الزيت الذي يرشح من العظم، لكن هذه المعجزة، قد توقفت، إنها قد تبعتها معجزة أخرى، ففي كل سنة، في يوم عيد العذراء يطير إلى هنا بعض الطيور الجميلة جداً، من أنواع غير معروفة، يحمل كل منها في منقاره أغصاناً خضراء من شجر الزيتون، مغطاة بالثمار، وتقف هذه الطيور على سقف الكنيسة، وترمي بالأغصان نحو الأسفل، حيث كان الرهبان يلتقطونهم، ويستخرجون منهم زيتاً طيب الطعم، بكميات وافرة تكفيهم طوال السنة لمائدتهم ولمصابيحهم.

وأخيراً توقفت هذه المعجزة، إما بسبب أن عصر المعجزات قد انقضى، أو لأن المعجزات أسيء استخدامها، أو بسبب عدم جدارة الانسان، وأن الذنوب أعاقت المعجزات عن الحدوث، أولأن الرب جهز وسائل أخرى، لأن القاعدة لدى اللاهوتيين، أن الرب لايعمل معجزات مالم تكن هناك حاجة خاصة إليها، ففي الأيام الخوالي، عندما عاش الرهبان الذين سكنوا هنا بفقر وشقاء، أمدهم الرب بشكل إعجازي، لأنهم وضعوا جميع آمالهم فيه واعتمدوا عليه، كما قال المزمور:« ألقوا أثقالهم على الرب، وهو سوف يطعمهم» وقال أيضاً: «المسكين صرخ والرب استمعه»(المزمور:٣٤/٦)، غير أنهم مع مرور

الوقت أخـذوا يخافـون من الفقـر، فصـاروا يعملون زاداً لأنفسهم، ويطلبـون الصـدقـات، ويشترون الموارد، ويحصلون على خفـارات، ويزرعون بساتين من حول الديـرة مع بذل جهود كبيرة، ويرعون زراعة أشجار الزيتـون في الأماكن الصحـراوية، وعندما غـدت هذه الأشجار قائمة، لم تعد هناك حاجة مطلقة لأية معجزات.

ومثل هذا كان قد حدث مع بني اسرائيـل، فهم عندما كانوا يعيشون في الصحراء عاشوا على المن اللذيذ، إنما عندما حصلوا على ثمار الأرض المقدسـة للأكل، توقفت معجزة المن(يشـوع:٥/ ١٢) كما أنه لم تعد هناك حـاجة لعصر المعجـزات، حيث لم تعد هناك حـاجة للزيت ليتـدفق من أجل معـالجة المرضى، أو للبرهنة على قـداسـة العـذراء، ولذلك فإن المعجـزات قد توقفت هنا وعند أضرحـة القـديسين الآخرين، ولم تعـد تصنع، هذا وإن عظام العذراء المقـدسة كما يبدو مليئـة بالزيت، وعندما يُضغط عليهـا ترشـح زيتـاً، كما هو واضح، ولذلـك ينبغي أن لايظنن انسان بأن معجزات القديسة كاترين قد توقفت كليا، مع أنهم لم يعودوا يُصنعـون إلى جـانب ضريح العـذراء المبـاركـة، لأننا غـالبـاً مـانشـاهد معجزات كبيرة تُعمل من قبل القديسين في أماكن ليست فيها أجسادهم ولاقبورهم، فمعجـزات عظيمة صنعت في هذه الأيام من قبل القـديسة كـاترين في أمـاكن كثيرة، من ذلـك على سبيل المثـال، في دير للراهبـات القـانونيـات النظاميـات في روانورث Reuenorth ، في أبرشيـــه كـولون، وهو مكان تحدث فيه معجـزات لم يسمع بمثلها، فقـد قيل بأن الزيت، والحليب، والبلسـم، والمن، يتـدفق من قطعـة صغيرة من عظام القـديسة كـاترين، وأشيـاء أخرى مـدهشة قـد قيل بأنها حـدثت هناك، وذلك استناداً لشهادات شهود موثوقين، وجاء في حكاية« حياة القديس هيلاريون» بأنه مـامن معجزة قد صنعت في ذلك المكان الذي يرقـد فيه جسـده في سـورية، بل صنعت معجـزات جبـارة في احـدى الحدائق

الصغيرة في قبرص، حيث سكن في أيام حياته، وكذلك الأمر مع القديسة كاترين.

والذي بقي علينا الآن أن نرى كيف تم العثور على جسد القديسة كاترين وكيف أنه أحضر إلى هنا، فعندما صدر الحكم الجائر للامبراطور مكسينتوس Maxentius في الاسكندرية، جرى قطع رأس العذراء الفضيلة بعد كثير من العذاب، ووقتها اختفى جسدها بشكل مفاجىء، وعندما اجتمع المؤمنون مع بعضهم، حتى يقوموا بنقل الجسد ودفنه، لم يتمكنوا من العثور على شيء، ولم يعرفوا إلى أين ذهب، ذلك أن الكائنات غير المرئية التي ترعى القديسين، وهم الملائكة المباركون، قد حملوها في اللحظة التي قد فارقت فيها الحياة، ونقلوها خلال الهواء إلى قمة جبل سيناء، إلى المكان الذي تقدم وتحدثنا عنه، وافترض أهل الاسكندرية بأن جسدها وروحها قد حملا معاً إلى السماء، وبقي جسدها المقدس ممدداً هناك لمدة ثلاثمائة سنة، وفي أثناء تلك المدة تلقت العربية كلها ومصر عقيدة المسيح، وعندما حدث وامتلأت القفار كلها برهبان مقدسين، جرى بناء دير في سفح جبل سيناء تشريفاً للعذراء مريم المجيدة جداً، وذلك في عليقة موسى(المشتعلة)، وقد كان هناك نوعان من الرهبان الذين سكنوا في القفار، فقد كان هناك رهبان مقيمين، سكنوا مع بعضهم في ديرة، وعبدوا الرب في ظل نظام، وكان النظام الذي أعطي لحياتهم قد قدمه إلى القديس باخوميوس Pachomius ملاك، وهو مكتوب على ألواح من النحاس، وذلك كما ورد في -Spec ulum Historiale — الكتاب الثامن عشر، الفصل السابع.

وكان النوع الآخر منهم من النساك ، الذين عاشوا حياة عزلة، ورفضوا الحديث مع بني البشر، وتجولوا حول قلب القفار وسكنوا في كهوف في الأرض، وكان هناك بشكل خاص في قفار سيناء كثيراً من الرهبان الأتقياء من النوعين، وكان في الدير القائم تحت جبل حوريب،

راعياً للدير رجـلا جيداً، كان غـالباً مافكر بالـذهاب مع رهبانه للبحث عن القديسين في القفـار، لكن دوما منع من القيـام بذلك، لكنه تلقى في احـدى الليـالي أمـراً في المنـام للانطلاق في الغـد مع رهبـانه، حيث سيكتشف كنزاً سـوف يشتهيـه الشرقيـون والغربيـون سـواء، وفي الغـد استـدعى جميع رهبـانه، وأخبرهـم بما تعهـد به، وجعل قلوبهم تتحـرق برغبة عارمة للعثـور على ذلك الكنز، وانطلقوا جميعا من الدير بحثاً عن الكنز وتحولوا في القفـار، غير عـارفين إلى أين يذهبـون، لكنهـم كـانوا متشوقين وكلهم رغبـة، وفتشوا بفضـول وبحثوا بين شعـاب الصخور، وكهـوف التـلال، وتجولوا فـوق الصخـور الوعـرة، وفتشـوا بكل دقـة الجبـال، والوديان، ومجاري السيـول، وفيما هم يفعلون ذلك اقتـادهم الرب إلى كهف تحت صخرة عالية، حيث وجدوا راهباً قديماً، لم يكونوا قد رأوا وجهه من قبل، وقـد سأل الرهبان عما يريدون، وعن الذي عنه يبحثون، وقد أجابوه:« لقد قدمنا بناء على أوامر من الرب بحثاً عن كنز يشتهيه الشرقيـون والغربيون»، ورد عليهم الرجل العجوز قـائلاً:« وأنا أيضـاً غالبـاً ماأمـرت بفعل الشيء نفسه، لكنني كنت أخشى من غـواية العـدو، وقد أجلت فعل ذلك حتى الآن، إنما الآن سـوف أذهب معكم من دون خـوف للبحث عنه»، وسألـه الرهبـان:« وأين تعتقـد علينا أن نبحث»؟ فأجـابهم« فـوق، على قمـة هذا الجبل المرتفع، حيث غـالبـاً مارأيت ضوءاً مشعاً واضحاً، وأنا لاأشك أن شيئاً مقدساً مامخفياً هناك، لكن كما ترون ذلك المكان مـرتفـع، ومن الصعب الوصـول إليـه بسبب علوه، ثم إنني لم أمتلك الشجاعة قط للتسلق إلى هناك، كما أنني لم أتجرأ في البحث وحـدي في مجد الرب الذي أشع من هذا الجبل، لكن دعـونا الآن، نصعـد معـاً ونبحث هناك»، وكان ذلك جبـل القديسـة كـاترين، الذي لم يصعـد إليـه انسـان قبل هذا الوقت، وهكذا ذهبـوا مع بعضهم وبعـد بذل كثير مـن الجهـد، والتعـرض لكثير من المخـاطر وصلوا إلى القمـة، وعنـدمـا وصلوا إلى هناك، وجـدوا الجسـد الكامـل للعـذراء،

موضوع بشكل اعجازي في لحد من الصخر، وكان هذا اللحد مليئاً بالزيت، ولم يشكوا بأن هذا كان هو الكنز، الذي وعدوا به، غير أنهم جميعاً لم يعرفوا إلى من عاد الجسد، ولاإلى أية قداسة، ولذلك انكبوا بأنفسهم نحو الأرض حول الجسد، والتمسوا من الرب أن يمن عليهم بفضله فيبين لهم اسم تلك القديسة وفضائلها، وأثناء صلاتهم، فجأة ظهر أمامهم ناسك مسن آخر، ووقف فوق الصخور، وقال:« اعلموا أيها الإخوة، بأن الرب قد أرسلني إليكم لأبين لكم: اسم، وحياة، وفضائل، ومجد هذه العذراء العظيمة القداسة»، وشرع بعد هذا يخبرهم عن أصلها، واسمها، وأسرتها، وعن تحولها إلى المسيحية، وعن آلامها، ومكان آلامها، وعن اسم قاضيها، وعن الزمان الذي وقعت فيه هذه الأحداث، وعن موتها، وعن النقل الاعجازي لجسدها إلى هذا المكان، وعن الحراسة المتواصلة والحفظ لها من قبل الملائكة حتى ذلك اليوم، ثم أمرهم ذلك الراهب بأخذ جسدها من هناك، وبحمله إلى دير القديسة مريم عند العليقة، لأنه ينبغي أن يقدم الناس من أقصى أطراف الأرض لزيارة هذه الآثار المقدسة، وعندما فرغ الراهب من كلامه هذا، قبّل العظام المقدسة، ثم انزلق فجأة مغادراً فوق الصخور، وركض نازلاً من الجبل، وعاد إلى كهفه، وهو مكان مامن انسان عرفه، ولم يشاهد ثانية من قبل أي مخلوق.

وتولى الرهبان نقل جسد القديسة كاترين مع احترام عظيم، وحملوه إلى كنيسة القديسة مريم عند العليقة، حيث وضعوه في تابوت رخامي، كما هو مشاهد حتى هذا اليوم، وصار مطلوباً من جميع المسيحيين المؤمنين الموزعين في طول الأرض وعرضها، مقابل المخاطرة بحياتهم، ومع أعظم الجهود المبذولة والمتاعب والنفقات، ولذلك أمر واحد من البابوات بشكل خاص بتحريم القيام بهذا الحج، مع فرض عقوبة الطرد من الكنيسة، وذلك بسبب مصاعب الرحلة، والمخاطر المحيطة بها،

وجـرى تحريم الحج إلى القـدس بسبب المسلمين، وفي الحقيقـة إن هذا الحج هو عطلة، ورحلة ممتعة مقارنة بهذه الرحلة.

وعندما فرغنا من أعمالنا عند ضريح القديسة كاترين، سرنا في مسيرة خارجين من السـدة إلى بيعة القديس يـوحنا المعمدان، حيث هناك كثيراً من الآثار، وغفرانات عظيمـة، وهنا صلينا إلى القديس يوحنا، وحصلنا على غفرانات(+)، وعنـدما انتهت صلواتنا في تلك البيعـة، جلسنا جميعاً بناء على أمر حافظ الذخائر، ودخلنا حفاة إلى بيعة أخرى ملاصقة لتلك البيعـة، ولقـد مـررنا من خـلال باب صغير، قـائم عند رأس الكنيسـة الكبيرة، وكانت أرض هذه البيعة مغطاة بسجاد ثمين جداً، أما الجدران فكانت مغطاة بألواح من الرخـام المصقول الثمين، وكـانت البيعة منارة بكثير من المصابيـح، وكان كل شيء في هذه البيعة جميل، مـزين، وتقي، فهنا هو المكان الذي قامت فيه معجـزة عليقة موسى، التي رآها تحترق، واللهب يتصاعد عالياً منها، ومع ذلك لم تتضرر بأي نار، ذلك كما قرأنا في سفر الخروج:٣، وأكثـر إعجازية من هذا كـان تحقق هذه الرؤيا، أي عندمـا اشتعلت مـريم، التي هي العليقـة الدائمـة الاخضرار، والدائمـة الازدهار، والرائحـة الطيبـة، وحملت بوسـاطة النار الربانيـة، في حين لم تتعرض عذريتهـا لأي أذى، وحول هذه العليقة المقدسـة تغني الكنيسة Rubum quem viderat moses incombustum، الخ، وقـد غنينا هذه الترنيمـة هناك، وانكببنا بأنفسنا نحـو الأرض حيث وقفت العليقـة، وقبلناها بخشـوع فائق، وحصلنا على غفـرانات مطلقـة(++)، وتحت المذبح الموضع الذي من المعتقـد أن العليقة وقفت عليـه، ويوجد في الأرض لوح نحاسي، حفـرت عليه صورة العليقـة المشتعلة، وموسى جالس، وهو يخلع نعليه.

وكثير من المصـابيـح هي معلقـة فـوق الموضع، لأنـه مـوضع احترام عظيم من قبل جميع الناس، ويتـوسل مسلمـون، وبداة عـرب، وأتراك،

باخلاص حتى يسمح لهم بالدخول إلى هذا المكان، وعندما يُسمح لهم لايدخلون إليه إلاّ وهم حفاة، ويكون اليهود في غاية السرور للدخول إليه، لكن لايُسمح لهم بذلك، ويعدّ هذا المكان مقدساً بشكل خاص من قبل جميع المسيحيين، من كل من الشرقيين والغربيين، لكن الشرقيين قد قاموا بحرماننا نحن الغربيين من ممارسة الصلوات وعمل القداسات فيه، وهم لايسمحون لنا بالدخول إلى ذلك المكان لتلاوة قداس، على أساس أن المذبح في البيعة هو ملك للاغريق، الذين لايسمحون لنا، بأي حال من الأحوال، بإقامة قداسات على مذبحهم، وذكرت هذه العليقة من قبل الرب(مرقص:١٢)، وقد ظهر الرب إلى موسى في العليقة، خشية أن يعمل اليهود لأنفسهم وثناً، حسبما ورد إلينا الخبر في التعليقات على الخروج:٣، وكانت هذه العليقة من أكثف أنواع العليق، أو شجرة شوكية مع ثمار توت حمراء اسمها Hagdorn.

وعندما فرغنا من بيعة العليقة، عبرنا إلى بيعة أخرى، مكرسة إلى القديس جيمس، فيها تلونا صلواتنا، وحصلنا على غفرانات(+)، وذهبنا من تلك البيعة إلى بيعة القديس أنتفيتوس Antiphitus، حيث تعبدنا الرب، وحصلنا على غفرانات(+)، ودخلنا بعد هذا بيعة القديسة هيرينا Hyrina العذراء، حيث صلينا، وحصلنا على غفرانات(+)، وغادرنا تلك البيعة، ودخلنا إلى بيعة العذراء مريم المجيدة، التي دعونا إليها بخشوع، وحصلنا على غفرانات(+)، وعبرنا من هذه البيعة إلى صحن الكنيسة، وفي هذه الكنيسة اثني عشر عموداً عليهم رست المنشأة كلها، حيث هناك ستة من الجانب الأول، وستة من الجانب الآخر، وطولانيا قد بنيت وفق نموذج كنائسنا، ويوجد في هذه الأعمدة كثيراً من الآثار المقدسة محفوظة، ومعلق على كل عامود صورة رسم عليها القديس الذي تعود إليه الآثار التي يحتوي عليها العامود، ويجري الاحتفال بأيام أعياد هؤلاء القديسين في مواسمهم، لأن الاغريق لديهم ترتيب

للتقـويم، فيـه في كل شهـر من أشهر السنة يـوم واحد للاحتفـال بعيـد القـديسين الذين آثارهم مـوجودة في الأعمـدة في وقت واحـد، أي على سبيل المثال، يأخـذون في شهر كانون الثـاني العمود الأول، مع كثير من القـديسين، يجري الاحتفــال بأعيـادهم جميعـاً في يوم واحــد من ذلك الشهـر، ولايقتصر الاحتفـال على القديسين الـذين صورهـم مرسـومـة ومعلقـة على ذلك العمــود، أو الذين آثارهم محفـوظة فيــه، بل يشمل الاحتفـال جميع القديسين الذين وقعت أيام وفيـاتهم أوولادتهم في ذلك اليــوم، وعلى هذا المنوال فإن العمــود الثـاني مخصـص لشهـر شبــاط، والعمود الثالث لشهر آذار، وهكذا دواليك، هذا ولكل عمود غفرانات خاصة متعلقة به، أسرعنا للحصول عليها.

وذهبنا إلى عمود كـانون الثاني، وجثونا من حـوله، وتوجهنا بالدعاء إلى القديسين الموجـودة آثارهم فيه، وقـدمنا أيضاً التشريف إلى قـديسينا الذين دونت أسماؤهم في التقويـم الثاني(لشهر كـانون الثاني)، وحصلنا على غفـرانـات لمدة سبع سنوات(+)، ثم إننا نهضنا، وذهبنـا إلى عمـود شهـــر شبـــاط حيـث تلونا صلـواتنا، حسبما تقــدم، وحصلنا على غفــرانات(+)، وذهبنا بعــد ذلك إلى عمــود شهــر آذار، حيث صلينا بخشوع، وحصلنا على غفرانات(+)، وجثونا بعد هذا حول عمود شهر نيسان، ودعونا إلى أسماء القديسين، وحصلنا على غفرانات(+)، ومضينا من ذلك العمـود إلى عمـود شهر أيار، حيث جثـونا للصـلاة، وحصلنا على غفـرانات(+) ونهضنا من هناك، وذهبنا إلى عمـود شهـر حـزيران، حيث صلينا، وحصلنا على غفرانات(+)، وكـان هذا العمود هو الأخير على الجانب الأيمـن، وبعــد هذا سرنـا عبر وسط الكنيســة إلى آخـــر الأعمدة، وهو عمـود شهر تموز، الذي صلينا إلى جـانبه لبعض الوقت، وحصلنا على غفرانات(+)، ومن هناك ذهبنا إلى عمـود شهر آب، الذي من حوله تـوسلنا إلى القديسين للحصول على غفـرانات(+)، وكنا نأمل

بأننا قـد أصغي إلينا، ومن هناك ذهبنا إلى عمـود شهـر تشرين الأول، حيث جثونا ودعونا جميع القـديسين حتى يصلوا من أجلنا، وحصلنا على غفرانات(+)، ثم نهضنا، ومن هناك توجهنا إلى عمـود شهر تشرين الثـاني، حيث تولينا الصلاة للحصـول على غفـرانات(+)، ومن هناك ذهبنا إلى رأس الأعمـدة وآخرها، الذي هو عمـود شهر كـانون الأول، وتعبـدنا قديسي شهـر كـانون الأول، وتابعنا سيرنا من هناك، فخـرجنا من(صحن) الكنيسة، إلى سدة الرهبـان، حيث تمددنا بأنفسنا أمام المذبح العـالي، وتوسلنا للحصول على الرحمة الـربانية، ولتلقي الغفـرانات(+)، ومذبح السـدة مكرس للامبراطور قسطنطين الكبير، ولأمه الامبراطورة هيلانة التي يتعبدها الاغريق مع الاحترام الأعظم.

وقـد منحت الغفرانات المتقـدمـة الذكر إلى هذه الكنيسـة، والبيع من قبل البابا، بناء على طلب من الاغـريق أو من قبل بطريرق الاسكندرية، الذي يسكن بالعادة في روما.

وأخيراً عدنا إلى ضريح القديسة كاترين، العذراء المجيدة، حيث قبلنا التـابوت المقـدس، وقمنا بإنهاء مسيرتنا، وينبغي أن يُلاحـظ، أننا زرنا الأماكن المتقدمة الذكـر للغفرانات، ليس فقط في ذلك اليوم، بل في كل يوم، والذي كان في ذلك اليوم هو مسيرتنا المهيبة.

وبعدمـا أنهينا مسيرتنا، مضينا إلى أماكن إقـامتنا، وطبخنا طعامنا من أجل الغداء، وجلسنا باكراً للغداء، لأننا جميعاً كنا قد تناولنا قربان عشاء الرب، وفي أثناء جلوسنا إلى المائـدة، جاء اثنان من رهبان الـدير،، جرى ارسـالهما من قبل راعي الدير، مع هدية لنـا، فقد حملا طبقـاً مغطى فيـه أرغفة من الخبز المبروم المصنع بالتوابل، مثل الحلويات بالعسل، أو الخبز بالزنجبيل، وذلك مع تمور وتين، وعنب، وزبيب، ولست أدري من أين حصلوا عليهم، إنما قـدمـوهم لنا بلطـف، وتسلمناهم باحترام، وأعطينا بعض المندوسـات إلى الحاملين، وأرسلنا بعـد الغـداء خلف كـالينوس

ورجوناه عدم التأخر أكثر، وأن يتولى قيادتنا على طريقنا إلى مصر، وذلك تطبيقاً لشروط عقدنا، وعلى هذا أجاب كالينوس، أنه على استعداد للانطلاق في أية لحظة نريد، غير أنه قال بشكل خاص: « إنني أخشى أننا لن نكون قادرين على مغادرة هذا المكان بسلام، لأن الدير مليء بالبداة العرب، الذين جاءوا من أجلنا».

وصف دير القديسة كاترين، وتأسيسه، والكنائس الثلاث القائمة هناك، وأشياء كثيرة أخرى

يفضل الآباء المقدسون الذين سكنوا في القفار قفر جبل سيناء هذا على جميع الأماكن الأخرى. وموضع العليقة حيث ظهر الرب إلى موسى، وقد ترددوا على زيارة هذا المكان، وتعبدوه على أنه بقعة ذات قداسة عظيمة جداً، وموقع موائم لأعلى التأملات، وامتلك بعض الرجال القدماء أيضاً قلايات هناك، وفي أيام حكم الامبراطور جستنيان في سنة ٥٢٨ لتجسيد ربنا، تحرك هذا الامبراطور نفسه بتوسلات رجال مقدسين من أجل تأسيس كنيسة ودير، فوق مكان العليقة، تشريفاً للعذراء مريم المباركة، وقد أطلق على هذه الكنيسة اسم كنيسة القديسة مريم في العليقة، وهي تعرف بالشرق حتى هذا اليوم بهذا الاسم، لكننا، سميناها منذ نقل القديسة كاترين إلى هناك باسم كنيسة ودير القديسة كاترين.

والسور المحيط بالدير ضخم، لأنه سميك ومرتفع، مع شرافات، وأبراج ناتئة، وله ممر حوله كله بالأعلى، وقد بني من حجارة منحوتة مربعة، وهو محصن بشكل ممتاز في الجزء القريب من المدخل ومن البوابة، حيث يمكنه أن يصمد لوقت طويل ضد أي واحد يحاول اقتحامه، وإحداث عيث، كما ربما قد يفعل بعضهم، لأنني لاحظت أن السور قد تحطم في بعض الأماكن بشكل واسع وأعيدت عمارته.

ويوجـد في داخل اطار السـور ثـلاث كنائس، الكنيسـة الأولى منهن اغريقيـة، والثانيـة لاتينية، والثـالثة(مسجـد) اسلامـي، والكنيسة الأولى والرئيسية بين هذه الكنائس هي كنيسة القـديسة مريم في العليقة، حيث يستريح جسد القـديسة كاترين، وهي في حفظ رهبان يتبعـون الطقوس الاغريقيـة، وهذه كنيسة مستطيلة واسعة مسقوفـة بالرصاص، من دون قبة أو برج، وأيضاً من دون نواقيس أو ألواح قـرع خشبية، وعوضاً عن ذلك لديهم أداة أخـرى بوسـاطتهـا يدعـون المؤمنين للاجتماع من أجل الصلوات الدينية، فهناك عصا من الحديد معلقـة من مكان مرتفع، وقد تعلق عليها أجراس بـرونزية لها أصوات عميقة، ويقرع حافـظ الذخائر على هذه الأجراس بمطـارق، بترتيب خاص ومعيار، فيصـدر عن ذلك موسيقى جميلة جداً، إلى حـد أنه يمكن للانسان أن يرقص على الصوت الصـادر عن الأجـراس، لأن التلحين جيـد جـداً، وهو لحن بهيج، هذا ولقد أطلق عليهـم بشكل موائم جداً اسـم الأجراس الصغيرة، لأنه في القـديم قبل استخـدام الأجـراس الكبيرة، كـان يجري دعـوة الناس إلى الصلوات بوسـاطة الأجـراس الصغيرة، وداخل الكنيسـة جيد التـزيين، وهي مقسمة إلى كثير من البيع، وفيها معلق الكثير من المصابيح، وذلك إلى جانب مصـابيح القديسة كـاترين، والمذابح، والأعمدة الاثني عشر، وكان أمـام مقعد كل راهب مصبـاح مضاء، وتتصل هذه الكنيسـة عند رأسها بكنيسة العليقة، التي تقدم ذكرها.

والكنيسة الثـانية هي الكنيسة اللاتينيـة، إلى جانب قـلايات الحجاج، وهي ضيقة، عبـارة عن قاعة مستطيلة، مع مذبح جيـد التزيين، مكرس للقديسـة كاترين، وجدران هذه الكنيسـة من الطين، غير أنهم مستورين بحصر من ألوان متنوعة، وقد جرى تصنيعهم وتزيينهم بسعف النخيل، وجـرى تعليق كثيراً من الأوراق على هذه الحصر، كتب عليهـا صلوات جميلة موجهة إلى القديسة كـاترين، وجرت كتابتها من قبل حجاج، لأنه

قد جرت العادة أن تقوم كل جماعة من الحجاج بكتابة أشعار حول القديسة كاترين، وتعليقها على الجدار، وفي هذه الأشعار لابد من مدح كاترين المباركة، وذكر اسم كل واحد من جماعة الحجاج، ويكون هذا إذا توفر واحد بين الجماعة يمكنه أن ينظم الشعر، وكان في الفئة الثالثة من جماعتنا من الحجاج المعلم المبجل جون لاسينوس Lacinus (كذا) وكان رئيس شمامسة سيبين كريشين Sieben kirchen (في ترانسلفانيا)، كما أنه كان خطيباً متعلماً، وقد كتب مباشرة من دون تحضير، الأبيات الشعرية التالية من أجل رفاقه:

تسلمي تاجك، الذي هو جائزة حياتك العذرية،

أتوسل إليك ياكاترين الشهيدة المجيدة،

تقبلي التعب الذي من أجلك تحملناه،

باركينا، مع أننا قد نكون اليوم، غير جديرين.

من مدينة جوليا القائمة قرب الدانوب،

كان جون اللاوي أول من انحنى أمام عرشك،

ثم تلاه فيلكس، المجيد من أرض أولم،

المتعلم بشكل مزدوج، وللرب أعطى كل تراثه،

وهنري أوف سكومبيرغ، وكاسبر أيضاً، اثنان،

مثل نيسوس ويوريالوس في التقوى.

ولورد أوف مارسباخ من فرانكونيا العادل،

وبطرس فلسخ أوف أرجنتاين القوي،

جميع هؤلاء إلى معبدك قد جاءوا،

وهم جميعاً عائدون إلى وطنهم،

وهم يرجونك أنهم فوق الأرض والبحر الذي بلاحدود،

علهم جميعا يرتحلون عائدين بسلام.

وقد بدأ يكتب أشعاراً للفتتين المتبقيتين، لكنه لم يجد الوقت لانهاء ذلك بسبب مغادرتنا المباشرة.

وباخلاص رجوت الرجل المتعلم المتقدم ذكره لابدال كلمة «مجيد» من أبيات شعره، لأنها بدت لي أنها لاتوائمني، وأن يقول ماهو صحيح، غير أنني لم أستطع اقناعه لأن يفعل ذلك، وقال: « إذا كانت غير صحيحة من جانب أول، إنها سوف تكون صحيحة من جانب آخر، والذي قد كتبته قد كتبته».

والكنيسة الثالثة، التي لاتستحق أن تدعى كنيسة، هي مسجد للمسلمين، وهي بناء واسع مربع، مع منارة طويلة ملتصقة به، من عليها ينادون بمديح محمدﷺ وفق طريقتهم، وهذا المسجد قائم بين الكنيستين الاغريقية واللاتينية، وذلك في الوسط وكأنه المكان الرئيس بين الثلاثة، ودخلنا إلى هذا البيت أيضاً، عندما لم يكن البداة العرب هناك، فلم نجد هناك لامتعة ولاتدين، ولاغفرانات، بل بيت فارغ مع جدران مطلية بالبياض، ولم نجد هناك مذبحاً، لأنهم يدخلون إليه فقط للقيام بشعائر لامعنى لها، ومكاتب الدير الأخرى صغيرة وتعيسة، والقلايات صغيرة جداً، وهي مصنوعة من قصب منسوج بالطين، وتستند واحدة على أخرى من دون نظام متبع، وهي مجرد غرف صغيرة، مثل أكواخ الرعيان، أو بيوت الأدوات في الحدائق.

والدير مبني جزئياً على سفح جبل حوريب، وتستند القلايات العليا على القلايات الدنيا، وهي ملتصقة احداها على الأخرى مثل عش الدبابير، وعندما شاهدتهم تذكرت تاكسوسTaxeus ابن كولوس

Colus، الذي عنه حدثنا بليني في كتابه حول« التاريخ الطبيعي»، بأنه كان أول من اخترع البيوت الطينية، حيث أخذ أعشاش الدبابير نموذجاً له، لأن المهندسين في تلك الأيام لم يكونوا قد بنوا القصور بعد، وقد مارس هذه الطريقة المتواضعة في البناء الآباء المسيحيون المشهورون والعظيمون للأيام الخوالي، لأنه بالفعل سكن روملوس، مؤسس مدينة روما، في بيت ريفي صغير، وسكن ابراهيم، الذي كان رجلاً غنيا جداً، في خيمة في أرض الميعاد، كما ورد الخبر في حبقوق:١١/ ٩، وهناك زاره الملائكة(التكوين:١٨/ ١).

ودوما تمدد الفيلسوف ديوجينيس Diogenes في إنبوب، واعتاد التنقل هناك حسبما كان يرضيه، وفقاً لاتجاه هبوب الريح، وحكى أوفيد أن الشخصين القديمين فايلمون Philemon وبوسيس Baucis كان لديهما بيت ريفي مصنوع من الخوص، وقد زاره الربانان جوبتير وميركوري عندما كانا يتجولان فوق الأرض معاً، وبعد ذلك كان الربان ممتنان لحسن الضيافة التي لقياها، وأمرا ببناء هيكل كبير على تلك البقعة، وجعلا منهما كاهناً وكاهنة للطقوسس المقدسة هناك، وبعد موتهما جعلا معا ربين، علاوة على ذلك قضى ربنا يسوع بأن يولد في اسطبل نزل، ولم يمتلك قط بيتاً خاصاً به، وكان أيضاً القديس بولص، وهو أول النساك، قد سأل القديس أنطوني، عما إذا كان المسيحيون قد شرعوا ببناء بيوت عالية مثل الكفار، وعندما سمع بأنهم فعلوا ذلك، وقع يبكي بمرارة بسبب حماقتهم، ومثل هذا فعل القديس برنارد عندما شاهد أكواخ الرعيان المصنوعة من القصب، فبكى لدى تذكره أن الرهبان السسترشيان قد سكنوا فيما مضى بمثل هذه الأكواخ، وهم الذين كانوا قد شرعوا آنذاك في الاقامة في أبنية عظيمة.

وعندما عاد القديس دومنيك من بولونا Bologna، بعدما كان غائباً لوقت طويل، وجد مهجعاً وقلايات قد ارتفعت فوق الأرض، التي

ارتاحـوا عليهـا من قبل، وعنـدمـا شـاهد هذا حـزن حـزناً عظيماً وقال:«ياإخوتي إذا كنتـم قد بنيتم أماكن وأنا ماأزال حيـاً، مالذي سوف تعملونه بعدما أكـون ميتاً»؟ وأمرهم بهدم كل مارفعـوه، وباعادة الأبنية إلى ماكـانت عليه من قبل، وكان لدى الأسقف العظيم القـديس مارتن قلاية خشبية قرب كنيسته، وقد قرأنا عن واحد من النساك الذي امتلك قـلاية عملت على شكل قبر، ولـذلك عندمـا سأله الامبراطـور عن المساحة التي استخـدمها في بناء قلايته، أجـابه:« جسدي شخصياً، ذلك أن هذا المكان كـافياً لي كبيـت مادمت حيـاً، وكقبر عندمـا أكون ميتـاً»، وأضـاف بأنـه من الأفضل القفـز إلى السماء من كـوخ من أن نقفـز إلى جهنم من قصر، ومثل هـذا قـال القـديس برنـارد: «إخـواني، في حجنا خـلال هـذا العـالم، وفي منافعنا هنـا، دعـونا لانبني بيـوتاً على الأرض للسكنى فيها، بل خيماً لنزحف منهـا، مثل أناس سوف يستدعـون حالاً لمغـادرتهم للشروع برحلتنا إلى الوطن»، ولقـد حكي بأن فولكان حـداد جوبتير كان أول من أبدع الأبنية الفخمة.

رهبان دير القديسة كاترين وعاداتهم الشريرة وآثامهم الشديدة

إنهامسألة جـادة بالنسبـة للانسـان الحريص على تحرير نفسـه من كل ذنب أن يقوم بلوم شرور الآخـرين، وطالما أنني الآن مقبل على الحديث عن رهبان دير القـديسة كاترين، أنا مجبر بالصـدق على توجيه اللوم لهم بدلاً من مدحهم، لكن ليس بتوجيه النقد إلى حياتهم الخاصة، واحتوى هذا الدير فيما مضى كثيراً من الرهبـان مع الذيـن كانوا مقـدسين جـداً، والذين فيـه الآن مجرد قلة، وهـؤلاء عميـان نحـو الحقيقـة، وقبل مضي سنوات قليلة كان هناك حوالي المائة، والذين وجدوا مؤخراً كانوا ثمانين، لكن الآن ليس هناك فيه ثلاثين راهبـاً، ولهؤلاء الرهبان عادات تستحق الثناء، ولكن بعضها ممقوت، وأنا أثني عليهم لأنهم يأخذون بنظام محدد هو نظام القـديس باسيل، ففي ظل قيادته يمارسـون حياة قـاسية بما فيـه

الكفاية تجاه الاقلال من الأطعمة والملابس الخشنة، وطعامهم مثل طعام جميع الشرقيين، هو قليل وشرابهم اليومي هو الماء، باستثناء في بعض أيام أعيادهم العالية جداً، فوقتها يعطى لكل راهب شربة من خمرة، وثيابهم خشنة ووضيعة، وهذه الثياب هي قمصان لها ألوان متنوعة، فراهب يرتدي قميصاً من نوع، وراهب آخر قميصه من نوع مختلف، ومع ذلك مامن واحد من القمصان لونه براق أو من قماش جيد، وهذه القمصان طويلة، تشبه غفارة كاهن، وهم يتمنطقون بحزام عريض، وهم ليس لديهم أوشحة كتفية، بل طواقي رأسية هي ليست مغلقه حول أعناقهم ورقابهم، بل تتدلى نازلة من رؤوسهم حتى ظهورهم، ويوجد أمام الصدغين قطعتين تتلديان من القبعة، وهما تغطيان الجزء الأمامي من الكتفين، وتنزل حتى الحقوين، وهم جميعاً يدعون شعورهم ولحاهم تطول كثيراً، ويلتزمون بطرائق النصارى، حيث لايأكلون اللحوم مطلقاً، ولايستخدمون الخمرة كما تقدم القول.

وكثير منهم شيوخ تقدمت بهم السنون، وقورين، ورجال جدّ، وهم يستقبلون أي واحد يأتي إليهم، مهما كانت طائفته، وذلك باستثناء اليعاقبة والأرمن، شريطة أن يخضع نفسه عن طواعية لأحكامهم، سواء أكان لاتينياً، أو اغريقياً، أو ألمانياً، أو مصرياً، وكان من المعتاد قبل أيامنا عمل معجزات فيما بينهم، بسبب قداستهم، ومامن واحد كان يجري اختياره راعياً، بعد موت الذي كان قبله، مالم يأتي تعيينه بوساطة معجزة ما، مثل اضاءة مصباحه الذي في قلايته بشعلة من السماء، أو بوساطة رؤيا ما، أو هاتف صوتي.

وأبنيتهم، كما أخبرتكم ليست محط اعجاب، ولاعالية النفقات، وقد تمددت في قلاية واحد من الآباء المتقدمين بالسن، فلم أجد فيها شيئاً سوى علائم الفقر الشديد، ومامن امرأة تدخل إليهم، ولاحتى النساء الحاجات من مناطق ماوراء البحر، لأنهن إذا ماقدمن إلى هناك، يعرف

الرهبان الملاحظة الساخرة المرة:

« إلى المكان الذي تقطن فيه النساء،

يقول السلام والهدوء وداعاً،

لايمكنهما معاً قط استنباط،

طريقة للازدهار تحت سقف واحد،

والذي يعيش حياة منفردة،

هو وحده الذي يعيش من دون صراع»

هذا من دون الحديث عن المخاوف الأخرى التي لاتحصى والتي يواجهها الرهبان بالسكنى مع النساء، ولهذه المصاعب عليهم جميعا إعطاءها ماتستحقه من ثقل، وأن لايسمحوا لأية امرأة بالاقتراب منهم.

واعتاد هؤلاء الرهبان في الأيام الخوالي، عندما كانوا مايزالون مطيعين للكرسي الرسولي، على الترحيب بالحجاج بلطف عظيم جداً، وببشاشة، ويؤمنون لهم مايحتاجون إليه ويعطونهم أحذية، ولهذا السبب أرسل القديس البابا غريغوري— كما قرأنا في حكايته— مبلغاً كبيراً من المساعدات من روما إلى جبل سيناء إلى هؤلاء الرهبان، لأنه في تلك الأيام عملت أعمال كثيرة جيدة في الشرق لصالح كنيسة روما، لكن في هذه الأيام، ماالذي يمكنني قوله؟، لو أنني رأيت هؤلاء الإخوة والرهبان، قد أقاموا الموتى، وقرأوا القداسات، واعترفوا بالذنوب، وشغلوا أنفسهم بالأشياء السماوية، وتعاملوا بسلام أحدهم مع الآخر، والتزموا بأحكام نظامهم، وبددوا أجسادهم بالصيام والسهر، وبالغيرة على الفضيلة، ومارسوا الأعمال التقوية الأخرى، مع هذا كله سأقول بجرأة بأنهم ليس لديهم قداسة، وعلينا أن لانشك أنه لايوجد بينهم استقامة حقيقية، ولاأعمال مقبولة من الرب، ولاتدين يرضي الرب،

لأنهم ليسوا في الكنيسة الكاثوليكية، بل خارجها، فهم كما هو واضح منشقين بالدرجة الأولى، ولاصرارهم على انشقاقهم أصبحوا هراطقة، ولذلك ليسوا في موضع الرعاية ، لأن أعطية الروح القدس، التي بها تنصب الرعاية في قلوب الناس، لاتمنح للذين خارج حظيرة الكنيسة، وذلك كما تعلمنا من الشريعة القانونية، والذين هم خارج حظيرة الكنيسة لايمكنهم الحصول على المعرفة الحقيقية أو الفهم الصحيح للرب، كما تبرهن في الشريعة القانونية، ويتبع هذا أنهم لايستطيعون الاستفادة من قداس القربان، كما أنهم لايمكنهم التحرر من الذنب بالاعتراف، لأن لعازر لم يقم من الموت إلا في بيت عنيا، الذي هو بيت الطاعة للكنيسة الرومانية، كما أنه لم يكن بإمكان مرثا العيش حياة فعالة، ولامريم حياة تأمل إلاّ في ذلك البيت نفسه، كما أنه لايمكن أن يكون هناك أي سلام أو فضيلة خارج الكنيسة.

ومن الواضح الآن أن هؤلاء الرهبان محرومون كنسياً، ومنشقون، وهراطقة، لأنهم اغريق، والكنيسة الاغريقية بدون رأس، وبالتالي هي ليست شيئاً، علاوة على ذلك انهم شرقيون، بالنسبة لهم الشمس الحقيقية قد غابت، ويمكنني أن أبرهن على هذا الشيء نفسه بالتجربة، فنحن عندما نكون مقيمين في مكانهم نظرنا إليهم على أنهم محرومين كنسيا، ولم نشارك في أي من صلواتهم أو طقوسهم التعبدية عندما كنا هناك، لأنهم نظروا إلينا نحن أتباع الكنيسة الرومانية، على أننا محرومين.

وتبرهن هذا الأمر بحقيقة أخرى، هي أنهم لم يمنحونا مذبحاً في كنائسهم لإقامة قداس، وقالوا بأن القانون في كنيستهم هو أنه إذا ماأقام أي لاتيني قداساً على مذبح عائد للاغريق، فإن ذلك المذبح يكون محروماً كنسياً، مدنساً، ويتوجب تكريسه مجدداً من قبل أساقفتهم، وكنا قد أشرنا إلى هذا الموضوع فيما تقدم، ومن هذا كله تظهر بينهم بعض المعايير لعدم حبهم لنا، ولذلك عندما نسير في بلدهم ونسافر في عبادة

الرب يتعاملون بقسوة معنا، ولايفعلون شيئاً لنا من باب الاحسان، بل كل مايفعلونه لنا يفعلونه من أجل المال، وذلك مثلما يفعل المسلمون، وفي الحقيقة يتعامل المسلمون معنا في كثير من الجوانب بإخلاص أكبر مما يفعل هؤلاء المتقدم ذكرهم، وأنا أعرف من الخبرة أنهم لايرضون بفتح باب كنيستهم لأي حاج مالم يروا ماله في يده ليعطى لهم مقابل فتح الباب، وهم لايعطون انسانا شربة ماء من دون أخذ للمال مقابلها، كما أننا لم نستطع بأية وسيلة من الوسائل اقناعهم بتزويدنا بأحذية لفرساننا الحفاة، بل إنهم رفضوا كل شيء، وأما الأشياء التي لم يكن بامكانهم رفض اعطائنا إياها، فقد أعطونا إياها بنظرات كلها شذر وتأفف، لكن بقضاء الرب الصحيح تبرهن صحيحاً في هذه القضية المثل الذي يقول:« الذي ضُن به على الشريف منح إلى المنحطين»، لأنهم بالفعل يضنون على الحجاج باستقبال مشرق، حيث أنهم لايلتزمون بوصية القديس بطرس في قوله:« كونوا مضيفين بعضكم بعضاً بلا دمدمة»(بطرس الأولى٤/ ٩)، ولم يتصرفوا حسبما قال جيروم:« نحن نرحب بجميع الضيوف بملامح مشرقة ونغسل أقدامهم، مالم يكونوا هراطقة»، ولذلك تراهم بموجب الحكمة الربانية يقومون بدون تذمر بخدمة المسلمين ورعايتهم مع البداة العرب، وقطاع الطرق واللصوص، ويعملون أقل الخدمات إلى الذين هم من آل بيت الإيمان، مع أن الرسول يقول:« فلنعمل الخير للجميع ولاسيما لأهل الإيمان»[غلاطيه:٦/ ١٠]،كماأنهم لايقيمون وزناً في عقولهم ولايتذكرون الوصية التاسعة لكاتو Cato في قوله:« انظر جيداً نحو أخلاق الرجل الذين أنت معطيه»، فلطالما هم لايعطون لمن ينبغي الإعطاء، إلى الذي يكون شاكراً للأشياء الصغيرة، هم مرغمون على الاعطاء بكميات وافرة إلى الذين لايستحقون، أي إلى هؤلاء الناكرين من البداة العرب، الذي لايبالون لابالرب ولابالانسان، فهم يعطون في كل يوم خبزاً وشيئاً ما ليؤكل مع الخبز لما لايقل عن ثمانين من عرب الصحراء، أي إلى أولئك

اللصوص، الذين غالباً مايأتي مائة منهم، وأحياناً أكثر، وإذا لم يعطهم الرهبان مباشرة ماطلبوه، ينقضون عليهم وينشرون الفوضى في الدير، علاوة على ذلك هم أغنياء، ولديهم ممتلكات كثيرة، ذلك أن واحداً من رؤساء أساقفة كريت— وكان من محبي القديسة كاترين العذراء— قد منح الدير العشر الأعظم لكل جزيرة كريت، وشطراً من المكوس في تور Tor، إلى جانب منافع أخرى أنالاأعرفها، وبالإضافة إلى هذا، يجري إرسال صدقات كثيرة إليهم من جميع بلدان العالم المسيحي، وذلك من قبل كثيرين من الذين يعتقدون أنهم ينفقون أموالهم على أعمال جيدة، في حين أنها في الواقع تصرف على شؤون سيئة جداً، لأن الرهبان أنفسهم ينبغي عدم رعايتهم من قبل المؤمنين، على أساس أنهم هراطقة، إليهم لايجوز بموجب أحكام القانون إعطاء مساعدات أوصدقات، ثم إنهم مما يعطى إليهم يتولون بالفعل رعاية اللصوص من البداة العرب، الذين يتوجب اعدامهم، كما أنهم لايبنون شيئاً تشريفاً للرب، حتى وإن بنوا كنائس، يتوجب على المؤمنين عدم الاسهام في بناء كنيسة للمنشقين، وهنا من المناسب أن أحدثكم بما وقع لي في السنة الأخيرة:

عندما كنت على المنبر في أولم أعظ الناس في يوم عيد القديس ميكائيل، جاء بعد القداس رجل، وقدم إليّ مرسوماً، ورجاني بقراءته للناس بصوت مرتفع في الكنيسة الأبرشية بعد القداس، وكان رسالة طويلة، عليها ختم كبير هو ختم السيد بطريرك الاسكندرية، المقيم في روما، وكان فحواها هو أن كنيسة القديسة كاترين في جبل سيناء بحاجة إلى الترميم، وزادت أن ذلك العمل ينبغي أن يقدم له الناس أيدي المساعدة، وجرى منح الذين يفعلون ذلك غفرانات طيبة، وكان الرجل الذي جلب الرسالة، راهباً اغريقيا مسناً، وقد وقف إلى جانب مذبح الصليب المقدس، وذلك على مقربة من المنبر، أمام وجهي، وقد وضع آثاره المقدسة مع تزيينات، وشموع مضاءة، ووقف إلى جانب

المنبر مستعـدا لاستـلام المال، وفي ذلك الـوقت كـان الناس ينظرون إليّ وإليه، وعندمـا قرأت الرسالة قلت للناس بصريح العبـارة:« اعلموا أن الذي يقف هنا هو واحـد من رهبـان جبل سيناء، وقـد جـاء من أعظم الأماكن قـداسة، حيث كنت أنا هناك، وهو يطلب مـالاً من أجل إعادة ترميم كنيسـة القديسـة كاترين، وهناك وعـد بالغفرانات مقـدم من قبل بطريرك الاسكنـدرية، إلى الذين ســوف يتبرعـــون، وإنني أستحلفكم بـالـرب أن لاتعطـوا شيئـاً إلى هـذا الـراهـب، لأنـه كما تـرون منشـق، وهرطقي، وغير مــؤمن، وهو لايجوز السماح له بالدخـــول إلى كنيستنا، وأن لايكون حاضراً أثناء صلواتنا، لأنه مرتد.

وثانيـا: لاتعطوا مالاً من أجل ترميـم كنيسة القـديسة كـاترين، حتى وإن كـانت مهـددة بالسقـوط، مـع أنها غير مهـددة بالسقـوط، بل هي سليمة تماماً، وسبب هذا ويالأسف تلك الكنيسة ليست كاثوليكية، بل هرطقية، وليس فيهـا مكان للاتين التابعين للكنيسـة اللاتينية الرومـانية، الموجـودين في ذلك المكان، كما لايوجـد فيهـا مكان لإقامـة قـداس، أو لإقـامـة الصلوات، لابل حتى عندمـا نرجـوهم، لايسمحـون لابقـراءة ولابغناء الصلوات في تلك الكنيسـة، لأنهم يعـدون الكنيسة الـرومانيـة محرومة. ولذلك دعونا نسمح لها بالانهيار.

وثالثـا: إن السيد البطريرك، عندمـا يقدم الغفـرانات من أجل ترميم هذه الكنيسة، هو إما قد أسيء تزويده بالمعلومات، أو أمراً آخر أنا أميل للأخذ به، وهو أن الرسالة مزيفة لأن رهبان ذلك الدير لديهم راعي أو بطريرك في الشرق، هـم له مطيعـون، وهـم لايعبأون بالمقيم في رومـا، الذي لقبه فقـط« بطريرك الاسكندرية»، علما بأنه لم ير الاسكندرية قط، كما أنه ربما ليست لـديه أية نيـة،برؤيتهـا، وليس لديه هنـاك من يطيع أوامره، ويعرف هؤلاء الرهبان بأن الكنيسة الرومانية تقدم أساقفة حتى إلى الأمـاكن التي ليس فيها أتبـاع، ولذلك يفرون من أمـاكنهم، ويأتون

إلى روما، ويعترفون برجل كأسقف لهم، ويطلبون عونه من أجل منفعتهم، مع أنهم لايظهرون له أي تشريف، أو يطيعونه من أجل خاطر المسيح، ويعطونه رسائل مزيفة، أو كتبت من دون عناية، من أجل أخذ أموالنا لاستخدامها من قبل المراطقة.

ورابعا: إن هذا الراهب الواقف هنا، ويطلب منكم ذهباً وفضة لالشيء، لأنني أعرف بالتجربة بأنه هو نفسه في مكانه لن يفتح واحداً من أبواب كنيسته لنا مقابل لاشيء، ولن يعطينا شربة ماء بارد، ولن يعيرنا Celindrium(؟)، ولن يمنحنا قطعة من الجلد لتصليح أحذيتنا، وأيضاً ولاقطعة من قماش قديم، لابل أكثر من ذلك توجب علينا شراء عصينا منهم، أو أن ندفع لاستئجار عصا، يأخذها كل انسان عندما يتسلق الجبل المقدس، وأنا لم أذكر هذا فيما دونته من قبل، لكن هذا ماوقع بالفعل، فعندما كان الحجاج على وشك الصعود إلى الجبل المقدس، جاء الرهبان مع عصي، إما باعوهم لنا، أو أعارونا إياهم تأجيراً، إنما لم يقدموهم لنا مقابل لاشيء ولابشكل من الأشكال، وهكذا وقفوا بالاتجاه المعاكس، ودمروا روح كلمات:« بكرم أنت تلقيت، وبكرم أنت أعطيت».

وعندما فرغت من حديثي على هذه الصورة، وانتهى القداس، تفرق الناس، ولم يعطوا ذلك الراهب شيئاً، لابل أكثر من هذا، لقد أنذر بأن من الأفضل له مغادرة المدينة بأسرع وقت يستطيعه، وذلك قبل أن يجري تفتيشه واستجوابه، وفي الحقيقة إنني أعتقد أنه إذا لم يجمع شيئاً من المال، لن يستطيع قط الوصول إلى جبل سيناء، ولقد سمعت فيما بعد أن ماكسيميليان امبراطور وملك الرومان التقي جداً، وكذلك ملك هنغاريا، اللذان تولى الرسول المتقدم الذكر خدمتهما قد أعطياه مبلغاً كبيراً من المال، لكن ذلك كله كان عبثا، لأنهما لم يلتزما بالحكمة القائلة:« انظر جيداً واعرف ماهي أخلاق الرجل الذي أنت معطيه»،

وفي الحقيقة هذا المكان مقدس، وثمين لدى المسيحيين، وهذا مايعتقدونه حـوله، ولذلك لايطرحـون أسئلة حـول أخـلاق الناس الذين يسكنون هناك، والـذين لايعـدون شيئاً بين النـاس، هذا(٦٢) وإنه بـالنسبـة للغفـرانـات الممنوحـة من قبـل الآباء الرسـوليين بـاسم الرب إلى تلك الكنيسة هي ذات تاريخ قديم، وقد منحت عندما كانت الكنيسة ماتزال تحت سلطة البـابا، وهم مـايزالـون يتمتعـون بسلطانهم حتى هذا اليـوم لصالح الحجـاج الذين يحصلون عليهم، حتى وإن زاروا المكان من دون اعطاء أي منح وتقـديمات هناك، ثم إن الحجـاج لايفعلون فعلاً صـالحاً عندمـا يودون الحصـول على الغفـرانات فيقـدمـون أعطيـات إلى استخدامات الهراطقة.

مغادرة الحجاج وسفرهم من جبل سيناء، والاضطرابات والابتزازات والازعاجات التي عانوا منها قبل أن يتمكنوا من مغادرة الدير إلى الصحراء ثانية.

وفي اليـوم السـابع والعشرين استيقظنا قبل ضـوء النهـار، وأقمنا قداسات في بيعتنا، بعدها نزلنا إلى كنيسة القديسة كاترين، وحصلنا على غفرانات(++) في بيعة العذراء المباركة في العليقة، وعند ضريح القديسة كـاترين، وبعدمـا قبلنا الأماكـن المقدسـة حصلنا على إذن من القديسـة كـاترين للعـودة إلى أوطاننا، وصعـدنا إلى مـوضعنا وقمنا بالإعـدادات لمغادرتنا، وبصعـوبة استطعنا اقناع الرهبان بالسماح لنا بتعبئة روايانا من بئر الدير، لأنه كان في السـاحة بئر كبير وعميق جداً، مع ميـاه تجري فيه من القعـر، ولم تكن مياه مطر، وهو شيء لم أره في أي جـزء من الشرق، إلاّ هناك، وهم يقـولون بأن مـوسـى قـد حفـر هـذا البئر، وأنه بفضل صلواته تدفق الماء فيه لانعـاش بني اسرائيل، وكان مـوسى قد تعلم فن حفـر الآبار هذا في مصر، لأن بليني حـدثنا في كتـابه الأول من« تاريخه الطبيعي» بأن دانوس Danaus ابن بلوسBelus كان أول من قام

بحفر آبار بمصر، وأنه عندما أبحر إلى بلاد الاغريق، عمل هناك الشيء نفسه، ومن هناك انتشرت معرفة هذا الشيء في المناطق الأخرى.

وعندما رأى البداة بأننا نقوم بالاستعداد للمغادرة، أرسل مقدمهم خادماً إلينا، حذرنا بوجوب عدم التفكير بمغادرة المكان الذي كنا فيه، من دون أن ندفع له حقوقه أولاً، وهكذا حدث بعد كثير من المناقشات أن أعطيناه بعض الدوقيات، وأملنا لذلك أننا أصبحنا أحراراً، وانتظرنا الآن قدوم سائقي جمالنا، الذي تأخروا كثيراً عن القدوم إلينا، وأخيراً جاء واحد وقال بأن الجمال كانت في أيدي رجال مسلحين، لن يتركوهم من دون دفع خفارة لهم، وبناء عليه عقدنا اتفاقاً معهم، وحررنا جمالنا منهم مقابل مال، وجاء سائقو الحمير أيضاً وأخبرونا بأن حميرهم محبوسة من قبل المسلمين، وأن علينا أن ندفع إليهم مالاً من أجل تخليصهم، ولذلك ظلت حوافظ نقودنا مفتوحة باستمرار، لأننا كنا مرغمين على الدفع حتى ننجو من هذه الاضطرابات، وفي الوقت نفسه بعث إلينا راعي الدير رسالة يشتكي فيها بأن واحداً منا قطع شظية من تابوت القديسة كاترين، بأداة معدنية، وإذا لم نقم على الفور بإرجاعها عن طواعية، سوف نرغم بالحال على فعل ذلك من قبل البداة العرب، الذي سوف يضع القضية بين أيديهم.

وعندما سمعنا هذا بتنا خائفين خوفاً شديداً، علاوة على ذلك وجدنا التابوت مشوهاً بالحقيقة، لكن مامن واحد منا اعترف بأنه فعل هذا الشيء، ونظر كل واحد منا إلى جاره، ولعن الذي فعل ذلك، ومع أن كل واحد منا رجا الآخر وقال بأن المجرم ينبغي أن لايخجل من الاعتراف، وينبغي أن يعيد القطعة المكسورة ثانية، وأعلنا جميعاً بأننا سوف نقف إلى جانبه، وسوف ندفع كل ماتوجب عليه دفعه، ومع ذلك مامن أحد اعترف بذلك، وقال كالينوس أخيراً، إن على المجرم أن يعطيه القطعة المكسورة من الحجارة بشكل سري، وهو سوف ينهي

القضية بهدوء ودونها إعلان، وهذا ماكان، وأنا حتى هذا اليوم لم أعرف من الذي كان المجرم من بيننا.

ولقد تحملنا كثيراً الاضطرابات والخزي خلال حجنا هذا كله، بسبب الرغبة الحمقاء لبعض من جماعتنا بالحصول على قطع مقطوعة من الأماكن المقدسة، وهذا ماكنت قد تحدثت عنه من قبل، وعندما جرت تسوية هذه المشكلة، جاء رهبان الدير والموظفين وسألوا من دون حياء مالاً كوداع، أو هدية مغادرة، وهو أيضاً ماأعطيناهم إياه، مع أنهم لم يستحقوا ذلك، ثم جاء راعي الدير بشخصه ذاتيا، وكان رجلاً قد تقدم قليلاً بالسن، وقوياً وعاقلاً، وقد طلب منا اصطحاب أربعة جمال محملة بالفواكه، لترتحل معنا إلى مصر، لأنه في كل سنة ، وفي مثل هذا الموسم، يرسل راعي الدير فواكه إلى السلطان، ملك مصر، وتوضع هذه الفواكه في صناديق خشبية، وهي تجمع من قفار سيناء وحوريب، ويقدر السلطان هذه الهدية تقديراً عظيماً، لأن الفواكه قد نمت في تلك البقعة المقدسة، ويقوم بتوزيعها بين أعظم أعيان مصر، الذين يتسلمون تلك الفاكهة على أنها شيء مقدس أرسل إليهم من السماء، ولذلك أخذنا تلك الجمال الأربعة بصحبتنا، ومن أجل وصف للحدائق في القفار، حيث تنمو هذه الفواكه انظر ماذكرناه من قبل ص١٤١٠.

وأخيراً عندما جرى اعداد كل شيء بسلام، وجرى الدفع إلى جميع الرجال، خشينا من أن يقوم البداة العرب بعد مغادرتنا للدير باللحاق بنا وإنزال الأذى بنا في القفار، لذلك توجهنا مع كالينوس إلى المسجد، حيث كان مقدم البداة العرب، واستدعيناه إلينا، ورجوناه أن لانتعرض للاضطراب من قبل رجاله عندما نصير خارج الدير، وقد وعدنا بأننا لن نعاني من أي أذى على أيدي قومه، وقال بأننا إذا مارغبنا بأن نكون سالمين تماماً، فلسوف يرسل بعضاً من عبيده معنا لسفر ثلاثة أيام أو أربعة خلال القفار لحمايتنا، ولقد كنا راضين بهذا الجواب، وتركناه

ونحن متحررين من الخوف، وقد أعاقت كل المشاكل المتقدمة الذكر مغادرتنا حتى منتصف النهار، وقمنا الآن تحت الحر الكامل للشمس بتحميل جمالنا مع كثير من التعب، ووسط مخاصمات كبيرة، لأن سائقي الجمال ألقوا روايا الماء التي ملأناها ماء، وقمنا نحن من جانبنا بوضعهم مجدداً، لكنهم رموهم، ووصل بنا الحال إلى الضراب، وأزعجنا بعضنا بعضاً بحركات غاضبة، وجاء أخيراً بعض البداة العرب وصالحونا على شرط أن ندفع كراءً جديداً إلى سائقي الجمال مقابل حمل روايا الماء وفعلنا ذلك، ولوفعلناه من البداية لماكان ثار أدنى خلاف.

وتمّ أخيراً تحميل جمالنا، وغادرنا الدير، لكن مالبث البداة العرب أن جاءوا يسعون خلفنا، وهم يحملون حصيراً وحقيبة، كان سائقو جمالنا قد تركوها عن قصد، ولذلك أرغم الحاج الذي عادت الحصير إليه على شرائها من البداة العرب، وعندما حصل على الحصير رفض سائق الجمل وضعها على جمله مالم يتم دفع بعض الفلوس له، وبهذا تعرضنا للمضايقة والأذى تماماً، وغادرنا الدير الآن، وسافرنا خلال الوادي نفسه الذي جئنا عبره، وذلك حيث عبد بنو اسرائيل العجل الذهبي، وسرنا بخطوات بطيئة لمدة أربع ساعات، ونصبنا في المساء خيمنا في مكان دعاه البداة العرب باسم Wachya ، ووجدنا هنا مصاعب في الحصول على مايكفي من العصي للنار من أجل طهي طعامنا، ونصب البداة العرب الذين كانوا مع الجمال التي حملت الفواكه خيمهم في وسطنا، وهكذا أمضينا تلك الليلة.

الرحلة

وفي اليوم الثامن والعشرين، الذي كان الأحد الثامن عشر بعد التثليث، استيقظنا ثلاث ساعات قبل ضوء النهار، وحملنا جمالنا، وغادرنا مكان Wachya، وعبرنا خلال ذلك الممر الضيق، الذي كنت قد تحدثت عنه من قبل، وأدرنا ظهورنا إلى أعلى جبال سيناء، وعدنا

ثانيـة إلى Machera ، حيث اعتـاد مـوسى على رعي قطعـان يثـرو، وعلى هذا السهـل المنبسط ابتعـدنـا عن الطريـق الذي كنا قـد جئنا عليه[٦٣] أثناء قدومنا، ولقد غـادرناه وتركناه على الجهة اليمنى، عندما استدرنا نحـو اليسار، ونزلنا مجرى سيل بلا ممرات، وهـو مع ذلك كان مكانا جميـلاً، لأنه كـان مليئاً بأشجار التمـر الهندي وشجيرات أخـرى، وعندمـا كانت الجمال والحمير عـابرة قطفـوا الأوراق مع الندى عليهم، من الأغصـان الصغيرة، وفي الـوقت نفسـه مصصنا النـدى من على الأوراق، ذلك أنه كـان حلواً مثل السكر أو العسل، ومنه جرى إعـداد المن اللذيذ والحلو الطعمـة، وفي حـوالي الظهيرة وصلنا من نهاية مجرى السيل ذاك إلى الوادي حيث كنا قـد اصطـدمنا مع البـداة العـرب، قبل ثمانيـة أيام مضـت، وأثناء عبـورنا لمجـرى السيل هـذا، فجأة قـدم حمار وحشي مسرعـاً من الأعـالي، وكـان يجري نحـونا بسرعـة كبيرة، وكأنه سوف يندفـع في وسط جماعتنا، ونحن الذين لم نر قط من قبل حماراً من هذا النوع، لم نظن أنـه أي شيء سـوى حمار أهلي، وكنا مشـدوهين تجاه سرعتـه وجماله، وقـد ركض وهو ينظـر نحـو حميرنا، وأتصـور أنه كـان يريدهم، متصوراً أنهم سوف يتجنبون مرافقة الانسان، ولحقه واحد من البـداة العـرب بحـذر، وسـار على محاذاته، مع قـوس وسهـام ناوياً الاطلاق عليه، وهربت الدابة قبل أن تكون في مـدى الرماية، ومع ذلك سارت ببطىء مبتعدة عن مطاردها، وكأنها كـانت تريد استدراج الرجل ليدخل في سباق معها، وأخيراً عندما صـار العربي قريباً من الحمار، فوّق قـوسه ورمى سهماً جـرح به الدابة، فـرمت على الفـور السهم، وذهبت ماضية عبر المكان المنحدر، وجلب لنا الشاب السهم وكان هناك دم على رأسـه، وبعـد مضي وقت قصير رأينا خمسـة حمير وحشيـة مع بعضهم يركضون بين الصخور.

ولدى الذين كتبـوا عن التاريخ الطبيعي الكثير ليقولـونه حول الحمار

الوحشي، والأخــدر أو حمار الوحش، هو دابة جميلة رشيقــة، لها رأس أصغـر من الحمير العــامـة، وهو حـر، وغير مـدجـن، وحيـوان مفعم بالحيوية يسكن في المناطـق الجبلية، والأماكن القـاحلة، وهو سريع جداً، حيث يمكنه أن يسبق الدب، والـذئب، والأسـد، ولهذا السبب عـدّ من قبل القـدمـاء بين الأرباب الرئيسيــة، وليس بين الـ Diomedes كما أخبرنا يوسيبيوس في مصنفه De Evangelica Praeparatione— الكتــاب الخامـس، الفصل الثـالث عشر، ويمكنـه أن يتحمل العطش لوقت طويل، أطول من المخلوقـات الأخـرى، وعندما يكون غير قـادر على الوصــول إلى الماء، يعيش على الريح، حيث يقف فـوق الصخـور ويستنشق الهواء، وهذا مــاورد في سفـر إرميـا في قـوله:« ووقف حمار الوحش على الهضـاب يستنشق الريح مثل التنين» [ارميا:١٤/ ٦] وجـاء في المزامير قــــــــــولـه:« ويطفــيء الحمار الــوحـش عطشه»(المزمـور:١٠٤/ ١١)..... وينهق الحمار الوحش اثنتي عشرة مرة في النهار واثنتي عشرة مـرة في الليل، وبناء عليه يستطيع الذين يسكنون في القفار تمييز ساعـات الليل.... والبغال السريعة هي التي تلد من حمار وحش وفـرس، ولكن الأسرع من البغـال هـذه هو الحمار الذي يلد من حمار وحش وأتان مدجنة، والبغـال المولودة لها أثمان مرتفعـة جداً، لأنها تركب من قبل الأمـراء والرجال العظماء، ووصلنا عند غـروب الشمس إلى مجرى سيل منعزل وجـاف، يطلق عليه البـداة العرب اسم Elphat، وهنا أنزلنا الأثقـال من على دوابنا، ونصبنـا خيـامنا، وتمددنا هناك أثناء الليل، وكان المكان جافاً وقـاحلاً إلى حد أننا لم يكن لدينا أمل في العثور على مايكفي من خشب لاشعـال نار، لكن وجدنا مـايكفي لتسخين ماء لصنع فطيرة.

وفي اليـوم التـاسع والعشرين، الذي هو يوم عيـد القـديس ميكائيل، استيقظنا قبل ضوء النهـار، وارتحلنا خلال مجرى السيل نفسـه المهجور،

وهو الذي جئنا عبره من قبل، وعانينا من يوم صعب ومرهق، لأننا عملنا رحلة طويلة فوق أرض سيئة، وليس فوق رمال، كان من الممكن لنا تحملها بصبر، فلقد سرنا فوق غبار، لابل فوق رماد، وعجبنا كثيراً واستغربنا من أين جاءت الكميات الهائلة من الغبار والرماد، التي انتشرت فوق تلك المنطقة، لأنه لم يكن هناك سكان من البشر، ولانار، ولاشيء سوف يحترق، ولقد أجبنا على هذا السؤال كما يلي، وذلك وفقاً للإيمان الكاثوليكي:« مادام الرب قد أرسل اللعنات الموجهة إلى جميع البلدان، إلى هذه الصحراء الحجرية، قد أرسل أيضاً هذه الواحدة أيضاً، أي مامن مطر، أوثلج، أوندى ينبغي أن يسقط هنا، بل أمطار من الغبار والرماد، وهو قد هدد بوجوب سقوط مثل ذلك على الأرض المقدسة، بالشكل نفسه، إذا لم يحافظ الذين يسكنون هناك على وصاياه»، « فالرب سوف يجعل مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل عليك من السماء حتى تهلك»[التثنية:٢٨/ ٢٤]، فهذا ماعمله الرب لأرض مصر، عندما أخذ موسى وهارون— بناء على أوامره— حفناً من الرماد من الموقد وذراه نحو السماء، فأصبح يغلي وانتشر على شكل بثور على الناس وعلى الحيوانات، وذلك حسبما قرأنا في سفر الخروج:٩/ ١٠، وهكذا تصورنا بأن ذلك الجزء من القفار قد أصيب أيضاً بالوباء نفسه مثل مصر، وخشينا أن يتحول إلى بثور مثلما حدث للمصريين، وعلى كل حال حفظنا الرب أصحاء لدى عبورنا خلال تلك الأرض من الرماد.

ووصلنا إلى واد، حيث وجدنا صنماً على شكل طفل سوداني، واقفاً في كهف في الصخر، ويقدم البداة العرب من وقت إلى آخر تقديمات إلى هذا الصنم، وكانوا سيبدون امتنانهم لوأننا قدمنا بعض الفضة، لكننا لم نفعل ذلك، وقطع بعضهم قطعاً من قمصانهم وعلقوها أمام الصنم، وذلك حسبما اعتادوا أن يفعلوا في أماكن اعتقدوا بوجود أية قداسة فيها، وكنا قد رأينا شيئاً من هذا القبيل من قبل، وبالنسبة لهذه العادة

السخيفة بالتعبد بوساطة أثمال من القماش، يمكن للانسان أن يقول بما أن بعض الناس يعتقد أن مامن شيء في الدنيا هو أكثر قيمة ومكانة وقبولاً لدى الرب من جلد المخلوقات الميتة، التي عليها كتب الرب أسراره الأكثر عمقاً، مع نظام العالم كله، إنه مثل هذا، بالمساواة المنطقية الأثمال التي لاقيمة لها من الكتان وقطع القمصان، جديرة بالاحترام، على أساس أن مامن أشياء أدنى قد كتبت عليهم مما كتب على جلود المخلوقات الميتة، لأن جميع الأشياء مقدسة، وانسانية، وسماوية، وارضية، وخالدة، ومتحولة، وحاضرة، ومستقبلية، ومرئية وغير مرئية، وطبيعية، واعجازية، وأشياء ينبغي أن تعتقد، وأشياء يمكن البرهنة عليها، وأشياء منطقية، وأشياء وهمية، وجميع الأشياء الأخرى، من كل من الجيد والسيء، وأشياء مرغوب بها، وأشياء مرفوضة، كلها قد كتبت إما على رق أو ورق، ولعله لهذا السبب يعتقد الكفار بأن هذه الأثمال مقبولة بالنسبة لأربابهم، ولهذا يقدموها لهم.

وسرنا من هذا المكان على طريقنا حتى المساء، وقد نصبنا خيمنا في مكان موحش، يدعوه البداة العرب باسم Effkayl، وعندما استقر بنا الحال بدأنا مجدداً نشعر بالحاجة إلى الماء ونعاني من نقصها، وكان هذا مزعجاً لنا بلا حدود، وقاسياً لايمكن تحمله، ففي ذلك المساء بالكاد امتلكنا من الماء مايكفي لطهي حساء أو المرق لنأكله مع بقسماطنا أو خبزنا، وتفكرنا حول الكميات الوافرة من لحوم الأوز والبط، التي نجدها تقريباً في كل بيت في بلادنا عشية عيد القديس ميكائيل، وبدأنا نتحرق رغبة إلى قدور اللحم، وإلى السفود المليئة باللحم المشوي، وإلى سلال السمك، والمعجنات الساخنة، والذي حدث معنا، كان مثل الذي حدث مع بني اسرائيل في القفار، وذلك عندما تذكروا وفرة الأشياء في مصر، وتشوقوا إلى اللحم، وإلى السمك، وإلى البصل، والثوم والبطيخ(الخروج:١٦/ ٣) وبتفاصيل أكثر في سفر العدد:١١/ ٥، لكن

رغباتنا كانت بلافـائدة، لأن موسى لم يكن معنا ليجلب لنا السلوى من بلدان مـاوراء البحـر، كما جلب لهم، وعلى كل حـال نزل غضب الرب عليهم لأن المزمـور يقـول:« وطعـامهم بعـد في أفـواههم صعـد عليهم غضب الرب وقتلهـم» [المزمــور:٧٨/ ٣١]، وعلى هذا أمضينـا عيـــداً ميكائيليا تعيسـاً، وليلة غير هادئة بسبب الرمـاد، والرياح التي نشرته في الجو.

كيف عانينا بسبب نقص المياه

وفي الثلاثين، أي اليوم الأخير من ايلول، وكان يوم عيد القديس جيروم، غادرنا المكان المتقدم ذكره، بعد منتصف الليل مباشرة، أي أربع ساعات قبل ضوء النهار، وتابعنا سيرنا خلال القفار التي بلا ممرات، مخلفين وراءنا أعلى السلاسل الجبلية والداخلية منها، وعندما أضاء النهار وصلنا إلى قفر راماثيم، أي إلى المكان الذي خيمنا به في اليوم التاسع عشر، عند سفح منطقة Rachkaym ، حيث نزلنا إلى جانب الهضبة المنحدرة، كما سلف وتحدثنا من قبل، ولم نسر فوق ذلك المكان المنحدر ثانية إلى الجبال، بل تركنا المنطقة التلية على يميننا، ومضينا نازلين نحو البحر الأحمر، فهنا ابتعدنا عن الطريق الذي قدمنا عبره، وانعطفنا مبتعدين عنه نحو مصر، وكنا في ذلك الحين نعاني من الحاجة إلى الماء، وتذمرنا من أجل الماء وقلنا لكالينوس، الذي كان موسانا:« أعطنا ماء حتى نشرب» وذلك مثلما قال اليهود لموسى(الخروج:١٧/ ٢)، وأجابنا كالينوس بأننا إذا أردنا الماء، يتوجب علينا الانحراف قليلاً عن الطريق الصحيح، بعيدين عن الجمال الذين لايمكن اقتيادهم فوق تلك المنطقة التي بلاممرات، فقلنا: ينبغي أن نمتلك ماء، لأننا خلال الطريق كله من سيناء إلى هذا المكان لم نر الماء، وقد أفرغنا تقريباً روايانا، وبناء عليه أخبر واحد من البداة العرب، الذين التحقوا بنا في القفار، كالينوس بأنه يعرف مكانا فيه كثيراً من الآبار، وأنه سيقودنا إلى هناك، وبناء عليه تركنا الجمال وكالينوس يذهبون مباشرة نحو البحر الأحمر، وتبعنا العربي في المنطقة الأخرى، ووصلنا معه إلى منطقة قفر أي إلى مجرى سيل صخري، مغلق من على الجانبين بجدران عالية من الصخور، والذي خلاله تجري المياه في موسمها بشدة عالية إلى درجة أنها تنقل الصخور الكبيرة، وسرنا مسافة طويلة خلال مجرى السيل، هذا، وبدأنا نصبح خائفين، لأن المكان كان

صحـراء موحشـة، وتحدث أحدنا مع الآخـر، وعجبنا من أنفسنا، كيف أننا حتى نحصل على الماء تركنا كل أغراضنا على الجمال، وتركنا أدلاءنا، وسائقي حميرنا، وسائقي جمالنا، والتحقنـا برجل فرد— هو الأغرب بين الغـرباء— وكنا نلحق به فـوق ذلك القفـر الذي بلا ممرات، ومع ذلك اعتقدنا جميعـاً بأن ذلك العربي كان انسانا جيـداً، لأنه بذل جهده في كل سبيل حتى يشجعنا، وركض بنشـاط أمامنا، مشيراً إلى الصخور العـالية وإلى مجرى السيل الجاف الذي أمامنا، وكأنه هو شخصياً يبحث هناك.

وبعدمـا سرنا مسافة طويلة، تسلقنا على الصخـور وخرجنا من مجرى السيل، ووصلنا إلى مكان كـان مليئاً بالنبـاتات والحشـائش الخضراء، وبعـدمـا اجتزنا هـذا المكان وصلنا إلى سهل رملي، حيث رأينا كثيراً من علامـات سير الناس والجمال والحمير مرسـومة على الرمـال، وكان هذا السهل، مملوءاً بالشجيرات وبأشجار الفاكهـة، وكان فيه كثيراً من الآبار والحفر المليئة بالماء، وعندما رأيناهم قفزنا من على ظهور حميرنا، وسررنا لدى عثورنا على الماء، وركضنا نحو الحفـرة الأقرب، وأنزلنا فيها الدلاء المصنوع من الجلد، الـذي حمله عـربينا معـه، ونضحنـا منهـا بعض الماء الكثيف الموحل، وعندمـا أردنا أن نشرب منه، تذوقناه فـوجـدناه مـالحاً جـداً، وكأنه قد نضح من البحـر، ولذلك حتى حميرنا لم تستطع الشرب منه، إنما عندمـا نظرنا ناقدين نحـو دليلنا العـربي وكأننا نقول بأنه مـزح معنا، وجلبنا إلى هنـا لالشيء، أشـار إلينـا بوجـوب تذوق مـاء الآبار الأخرى أيضـاً، والبحث عن ماء عذب، وهكذا ذهبنا إلى حفـرة أخرى ونضحنا بعض الماء، وقد وجدناه بلا طعـم، ومع ذلك كان أقل ملوحة من الأول، وهكذا طفنا حول جميع الحفر، وقد وجدنا ماء لدوابنا، لكننا لم نجـد ماء لأنفسنا في تلك الآبار، وبنـاء عليه بدأ يحفـر ويرمي التراب بيديه، وكـان ذلك في حفرة جافـة كان قد وجـدها، وهي لم تكن عميقة جـداً، وبعـدمـا حفـرنا لبعض الوقت، بدأ الماء يتـدفـق، ومع أنه كـان

موحلاً، لكنه كان عذباً.

وملأنا بهذا الماء روايانا وأجوافنا، دون أن نعبأ بوحـولته، فكل انسان يعـرف هذا السهل يفعل هـذا، ويحفـر بئراً لنفسـه، لأن الماء في الأسفل عـذباً، لكن عندمـا تشرق الشمـس في الآبار، تجعل الماء مـالحاً، ولذلك وجـدنا ماء مـالحاً في الآبار المحفـورة فقط، ولو أن هذه الآبار حفـرت عميقاً، وطويت، وغطيت من حـرارة الشمس، أعتقد سيكون هناك ماء جيـداً للشرب في ذلك المكان، وفي الحقيقة إنه لأمـر عجيب كيف توفـر الماء في تلك التربة الرملية، وعجبنا مـن نبتون، رب البحر، الذي بعـدما أطلق سراح ابنة دانوس Danaus من سـاطير في القفـار، واغتصبهـا هناك غـرس رمحه الثلاثي الشعـب فوق الأرض في المكان الذي تعـاشر فيـه مع الفتـاة، فتفجر نبع، لكننا هنـا لم يكن معنا لارمح ثلاثي الشعب أو مسحـاة، بل عملنا نبعـاً بأيدينـا، ووجـد في هذا المكان ينابيع مـالحة جداً، مثل ميـاه نبع اسمه Exampeus الذي هو موجود في بلاد Ca-liopades (؟)، ويرسل هذا النبع مياهاً مالحة إلى حد أنها حولت النهر التي تجري فيه إلى نهر مالح تماماً، ومن جهة أخرى هناك أيضاً نبع اسمه أليس Alis ، حلو جداً لتشرب منه حتى أن الشارب منه لايعبأ بمشروب آخر، ومثل هذا، وجـدنا على هذه البقعة ميـاهاً حلوه ومالحه معا، هذا ورأيت في بعض الأمـاكن من بلادنا صفاتاً أكثر عجبـاً في ماء واحد هو نفسه، ففوق كوبلنز Coblenz قرب بلدة ناسو Nassau هناك يتـدفق من بين الصخـر مـاء حـار مـالح، ومن الجروف وشعـاب الصخرة نفسهـا تجري مياه أشد حرارة وأكثـر ملوحة، ومع ذلك أمكن العثـور على مياه عـذبه في المكان نفسه، وكـذلك على مياه مـالحة بارده، وهذه الميـاه كلها تنبـع من صخرة واحـدة، واسم هذا المكان«ميـاه إمس Ems » وهناك أماكن إقامـة للذين يرغبون بالاستحمام هناك، لأن المياه طبية.

وبعـدمـا سقينا أنفسنا، وسقينـا دوابنا، غـادرنا مسرعين، ووصلنا إلى مجرى سيل آخر شـاسع، وبعدمـا سرنا على طوله مسافـة طويلة، تسلقنا واحداً من طرفيـه، فرأينا جمالنا تسير بعيـداً عنا، ولذلك أسرعنا بخطانا ولحقنا بهم، وفي الوقت الذي وصلنا فيـه إليهم سخن الماء الذي كان في جرارنا، وبات غير قـابل للاستخدام، لأن ذلك الماء ماأن يشعـر بحرارة الشمس حتى يميل لأن يصبح مـالحاً، وسـافـرنا في ذلك اليـوم في ظل شمس حارة جـداً، فوق مجاري سيول مـدهشة بقحطها وبصحـراويتها، ووصلنا عنـد المسـاء إلى مجرى سيـل اسمـــه لديهم Laurara ونصبنا خيـامنا على جـانب، وعلى مقـربة من هضبـة حجـرية، يشرف عليهـا نتوءات صخـرية، وهنا حملت جماعتنا فرشنا ووضعـوهم في كهف كبير، حيث أقررنا فيه أنفسنا، لأننا كـرهنا خيامنا، وبتنا غير راغبين بالجلوس فيها مـالم نكن مرغمين على ذلك، لأننا كنا عندما نرقد فيهـا نبدو وكأننا مسجـونين واحـدنا إلى جـانب الآخـر، وأصبح كـل منا مغطى بقمل الآخـر، وكـانت جميع الصخـور، والحجـارة، والأرض في هذا المكان مشكلة من تربة في غـايـة البيـاض، ولذلك انتشر علينا الغبـار الأبيض، وبتنا وكأننا في طـاحـون قمح حيث يتطاير الطحين هناك، وعنـدمـا كنا نجمع عصياً ونطبخ، قدم أدلاؤنا والبداة العـرب، وتحلقوا حول خيامنا يلتمسـون الحصول على البقسماط، والبيض، وأشيـاء مماثلة للأكل، ومع ذلك أكلوا قليلاً في تلك الأمسية، وسبب ذلك سوف أوضحه فيما يلي.

الفصل الثامن
ويحتوي على أعمال الحجاج خلال شهر أيلول
وأشياء أخرى كثيرة

قبل ساعتين من انبلاج فجر اليوم الأول من شهر تشرين أول، استيقظ المسلمون والبداة العرب— وكانوا جميعاً من أتباع ديانة محمدﷺ— الذين كانوا معنا وأشعلوا ناراً وشموعاً، وبدأوا يأكلون، وكانوا مسرورين، يضحكون ويغنون، وصاروا مرحين أكثر مما اعتادوه، وأيقظونا بصراخهم، ودعونا لنشاركهم في مرحهم، وعندما سألناهم عن سبب هذا الاحتفال الكبير، أخبرونا أنه من الصباح المقبل يبدأ صومهم، ولذلك أكلوا وكانوا مسرورين قبل الفجر، ذلك أنهم هكذا يلتزمون بالصوم الذي فرضه عليهم محمدﷺ في قرآنه، ذلك أنهم لايصومون خلال السنة كلها، إلاّ في شهر تشرين أول(كذا) ففيه يصومون كل يوم من قبيل الفجر، وذلك عندما يكون هناك مايكفي من ضوء لتبيان الخيط الأسود من الخيط الأبيض، وهم يصومون حتى غياب الشمس، وخلال النهار هم لايأكلون ولايشربون، ولايتحدثون مع زوجاتهم، بل يرتاحون، وينامون، ويمضون النهار من دون عمل، لكن ماأن تغيب الشمس، حتى ينهضون، ويمدون الموائد، ويأكلون ويشربون، لكن ليس دفعة واحدة، بل في الأوقات التي يرغبون بها، ويصرخون طوال الليل ويغنون، ويسعون إلى هنا وهناك، وفي كل ليلة من ليالي الصيام يصبحون مجانين هكذا، ويسلون أنفسهم مع زوجاتهم، والذين لايستطيعون السهر طوال الليل، يتمددون للنوم، لكنهم يستيقظون قبل الفجر بساعتين للأكل، ويتوقفون عن الأكل عندما يرون الفجر.

وفي المدن، يسعى— بناء عليه— رجال دينهم في الشوارع قبل

ســـاعتين من الفجــر ويضربون بقطع مـن الخشب بعضهــا ببعض، ويوقظون الناس حتى يأكلون ويمتعون أنفسهم، ولكم هو صيام غريب وغير طبيعي، مناسب فقط للناس الجسـديين والشهـوانيين، وهو بعيـد، بعيد عنا الـذي يدعو إلى صيام مـن هذا النوع، فبعد انتهـاء الصوم أثناء النهـار، يمضـون الليل في أعمال الغـريزه، والأكل والشرب، والتسليـة، وكأن هذا الصيام— كما يبـدو— قد عمل لغـرض واحد، هو أن الناس بعـد انتهـائـه ينغمسـون بتلبيـة رغبـاتهم المنحطة مع كثير من السرور والأكل، ولقد انزعجنا كثيراً أثناء الليل بصراخهم طوال الشهر، حسبما سنصف فيما يلي.

وعندمـا اقترب النهار، وأشبعوا أنفسهم، وكـانوا سيقومـون بتحميل الجمال، وجدوا أن واحداً من جمالهم قـد سرق، لأن اللصوص يتجولون خلال القفـار، ويقفون في النهار فـوق رؤوس صخور عاليـة، ويراقبون جماعات الناس العابرة، ليروا أين سيقفون لإمضاء الليل، وعندما يكون الجميع نياماً، يندس اللصوص بينهم بكل هدوء، ويفكون جمالاً أو حميراً من مقاودهم، ويأخذون حقائب ومزاود إذا استطاعوا.

وغضب سـائقو الجمال تجاه هذا، وحمل اثنان منهم رمـاحـاً، وخرجـا يركضـــان في المنطقـــة للبحث عن الجمل، وفي تلك الأثناء قمنـا بوضع حمولة الجمل المفقود على ظهـر جمل آخر، وانطلقنا من Laurara وسرنا فـوق طريق رملي، وبعـد مضي ثلاث سـاعـات رجع سـائقـا جمالنا مع الجمل المفقود، وكانت ثيابهما ملطخة بالدمـاء، وكانت الدماء تتقاطر من رمحيهما، فقد وجـدا اللصين مع الجمل في كهف، وقد قـادهما إليه تعقب آثار سير الجمل واللصين، وقـد قتـلا واحـداً منهما بالرمح، وقـد هرب الآخـر ونجا من الموت، وهذا هو الشيء نفسـه الذي حدثنا به فـرجيل بأنه حـدث إلى هرقل، فبينما كـان هرقل يحتفل مع ايفـاندر Evander، وضع ثيرانه بين قطيع ايفاندر، وكان يسكن ليس بعيداً عن ذلك المكان،

في كهف عفريت له حجم كبير، اسمه كاكوس Cacus ابن فولكان، كان ينفث النار من فمه، وكان قد أزعج المنطقة كلها بسرقاته ولصوصيته، وخرج هذا العفريت من كهفه أثناء الليل، وجر ثيران هرقل إلى كهفه من ذيولهم، وعندما رأى هرقل بأن بعض ثيرانه قد سرقت، ولم يستطع أن يخمن إلى أين ذهبوا، رأى وقتها آثار طبعات أقدام اللص من موضع القطيع إلى الكهف، وبناء عليه ركض هرقل، وأخرجه من الكهف، وقتله بعكازه، وساق ثيرانه عائداً بهم.

وفي الوقت نفسه— أثناء متابعتنا سيرنا على طريقنا تجاوزنا الجبال ووصلنا إلى أرض مدين، على شاطىء البحر الأحمر، ومع ذلك كنا مانزال بعيدين عن مياهها، وعرفت هذه المنطقة باسم مدين صدوراً عن اسم مدينة مدين، التي بنيت من قبل واحد من أبناء ابراهيم من قطورة، وكان اسمه مدين،(التكوين:٢٥/ ٢)، وقد سماها باسمه، والتجار الأوائل الذين قرأنا عنهم، أي الذين اشتروا يوسف(التكوين:٣٧/ ٢٨) كانوا من هذه المدينة، ومن هذه المدينة كان يثرو، الكاهن الرئيس لمدين وملكها، الذي كنت قد أشرت إليه من قبل، وهو الذي إليه هرب موسى من مصر والتجأ، وقد تزوج من ابنته(الخروج:٢).

ولدى متابعتنا سيرنا، وصلنا إلى نهاية القفار التي بلاممرات، ومنها إلى الطريق السلطاني العام الذي يقود من مصر إلى فلسطين وغزة، وهو الذي كنا قد غادرناه على مقربة من غزة، كما تحدثنا عن ذلك من قبل، وذلك عندما دخلنا إلى القفار، فمن ذلك المكان إلى هنا لم يكن لدينا طريقاً نتبعه بل سرنا في النهار وفي الليل نوجه مسارنا بوساطة الشمس، والقمر، والنجوم، وذلك مثلما يفعل الناس في البحر، وكنا مسرورين إلى أبعد الحدود لدى عثورنا على الطريق، وبدا الأمر لنا وكأننا عدنا إلى الدنيا، وفي هذا المكان ينشطر الطريق الذي يقود من مصر إلى طريقين:

الأول منهما يساير شاطىء البحر الكبير إلى فلسطين، ومن هناك إلى

اليهودية والقدس، وعبر هذا الطريق الناس باستمرار يأتون ويذهبون من الأرض المقدسة إلى مصر وبالعكس، ويقود الطريق الآخر من مصر إلى شاطىء البحر الأحمر، فمدين، فالطور، وهو ميناء على البحر الأحمر، تقدم ذكره من قبل، وهكذا سرنا عبر هذا الطريق العام نحو مصر ونحن مسرورين، وكنا فرحين لأننا بذلك عشرنا ثانية على علامات خطوات الرب يسوع، لأنه عبر هذا الطريق جلب يوسف العذراء مريم، والطفل يسوع إلى مصر، بناء على طلب من الملاك،(متى:٢).

ومع حلول المساء وصلنا إلى قفار إيليم، حيث عسكر بنو اسرائيل بعد عبور البحر الأحمر، وحيث كان هناك اثني عشر بئراً من الماء وسبعين شجرة نخيل(الخروج:١٥/ ٢٧) لكن سرنا بعيداً عن المكان الذي كانت فيه الآبار، وانعطفنا جانباً بعيداً عن الطريق العام لمسافة ميل ايطالي واحد، ونصبنا خيمنا في مكان قذر يدعونه Derondon، وكانت الأرض هنا مليئة بالهوام والحشرات وبقملة فرعون، بأعداد لاتحصى، وكنت قد تحدثت عن هذا من قبل، وكنا غاضبين من كالينوس لأنه لم يأمر بنصب الخيام في المكان الذي فيه الآبار، لكنه قدم تسويغاً منطقياً لهذا، قائلاً بأننا كنا ساخنين وعطاشى إلى درجة أننا لو توقفنا إلى جانب الماء، فلن نتوقف عن الشرب حتى نقتل أنفسنا، والسبب الآخر، أنه كان هناك إلى جانب هذه المياه مستنقعات، وفي هذه المستنقعات أعداد لاتحصى من الأفاعي من مختلف الأنواع، وديدان، وثعابين، ولذلك لم يكن موائماً السير إلى جانب المياه، وسبب آخر هو أن البداة العرب من لصوص الصحراء قد اعتادوا على نصب خيامهم إلى جانب المياه، وفي بعض الأحيان يأتون ليلاً إلى الأماكن التي فيها المياه، وإذا ماوجدونا هناك، فلسوف يلحقون بنا البلاء ويسرقوننا، وهناك سبب آخر، هو أنه إلى جانب هذه المياه هناك قرية مليئة بأكثر المدينيين سوءاً، وكان هؤلاء سيزعجوننا بطرق كثيرة، حتى أثناء الليل، وذلك

إذا ماعلموا بأننا نصبنا خيامنا هناك، كما أن هناك سبباً آخر، هو أن الطريق العام الذي يمر قرب الآبار، هو الطريق الذي يسلكه كل من التجار واللصوص من البداة العرب، والمدينيين، وهم يعبرونه أثناء الليل، ويتوجب علينا عدم الانزعاج من قبلهم.

وهكذا قمنا بعدما نصبنا خيامنا، فنزلنا جميعاً مع سائقي حميرنا إلى موضع الآبار، وأشجار النخيل، وملأنا روايانا وجرارنا، وقد عاد بهم سائقو حميرنا إلى الخيام، ذلك أننا مكثنا في تلك البقعة الرائعة، وخلعنا ثيابنا، وتحممنا، لأننا وجدنا كميات هائلة من الماء النقي، والدافىء لنغسل أنفسنا به، وقد كان إلى جانب تلك المياه شجيرات ونباتات، وليس بعيداً عن ذلك القرية، التي كان فيها حشد كبير من أشجار النخيل، وفي الأيام التي عسكر بها بنو اسرائيل في هذا المكان، كان هناك اثني عشر بئراً، وسبعين شجرة نخيل، لكن في هذه الأيام ليس هناك تماما اثني عشر بئراً، لكن هناك كثيراً من ينابيع الماء على جانب الرابية، تتدفق بالمياه بكل اتجاه، كما أنه ليس هناك سبعون شجرة نخيل، بل أكثر بكثير، ومع ذلك فالمكان هو نفسه.

وبسبب تدفق هذه الينابيع بالمياه، إن الذي أعتقده أنه لابد أن احدى الحوريات قد صنعت هذا المكان مشهوراً في تصورات الشعراء، وتتأكد هذه الفكرة بالاسم العربي للمكان الذي هو دورندون Dorindon، ذلك أن دروس Doris كانت ابنة كيولوس Coelus وفستا Vesta التي كانت زوجة أوقيانوس، وأم جميع الحوريات، هذا وأنا لاأعرف نسبة إلى أي من الحوريات تقدس هذا المكان، كما أنني لست متأكداً فيما إذا كان قد تقدس لأنه كان المحطة السادسة لبني اسرائيل أثناء فرارهم من مصر، حسبما جاء في سفر الخروج:١٥/ ٢٧، وسفر العدد:٣٣/ ٩،

وقد مكثنا عند هذه المياه لمدة تزيد على الساعتين، وأنعشنا أنفسنا هناك بشكل كبير، وشربنا واستحمينا، ونظفنا أنفسنا من الهوام، وفي

الوقت نفسه قدمت بعض الفتيات الجميلات مع قطعانهن إلى المياه، وقد وقفن عند واحد من جوانب المياه، وعجبن من وجودنا، ونظرن بتمعن نحونا وضحكن، وبدين كأنهن يصلين، وأنا لم أنس في هذا المكان شهوانية تلك المرأة المدينية غير المحدودة التي رافقت واحداً من بني اسرائيل، على مشهد من موسى ومن جميع الناس، ولاغيرة فيناس الذي ضربهما معا بسكين، ولذلك السبب مات أربعة وعشرون ألفاً من الناس في قفار شطيم(العدد:٢٥)، ولذلك بدا ضحك الفتيات وحركاتهن أمراً مريباً بالنسبة لنا، وتظاهرنا وكأننا لم نر ابتساماتهن، ومع ذلك لم نستطع منع بعض الشبان من الفرسان، من ابداء بعض اشارات الاعجاب نحوهن، وبما أننا مكثنا وقتاً طويلاً في هذا المكان، بعث كالينوس بدوياً عربياً، إلينا مع رسالة بوجوب عودتنا إلى خيمنا بكل سرعه، وذهب إلى حد ابداء انزعاجه منا، وبناء عليه عدنا إلى هناك، ووجدنا طعام عشائنا جاهزاً، الذي أكلناه بمتعة غير كبيرة، لأن شربنا للماء قد أثر علينا، وكأننا قد شربنا من النبع الأحمر الموجود في السودان، والذي يقولون بأن من يشرب منه يغدو مجنوناً، وبينما كنا فرحين، جلس مسلمونا وبداتنا، آسفين، وشاحبين، وصامتين، بسبب صومهم اللعين، لكن ماأن غابت الشمس، عندما طلبنا الراحة، حتى شرعوا بدورهم، يمرحون ويغنون ويصرخون، ويقصفون، ويأكلون، ويشربون، ولم يمنحونا راحة طوال الليل تقريباً، وبهذه الضجة كانوا ينفذون أحكام صومهم، ونهضنا في بعض الأحيان، وخرجنا من خيامنا، وركضنا نحوهم، وأجبرناهم بالتهديد على أن يكونوا صامتين، وفي بعض الأحيان، عندما كانوا يخبزون معجناتهم في الرماد، بقينا معهم، ونظرنا إلى حماقاتهم.

رحلة خلال القفار ورعب الحجاج

استيقظنا مبكرين في اليوم الثاني من شهر تشرين الأول، لكننا غادرنا متأخرين، بسبب فقدان ثلاثة جمال، خيل إلينا أنهم سرقوا، لكن باتباع

آثارهم، تمّ العثور عليهم وهم يرعون في البرية، وقد أعيدوا بعد شروق الشمس، وهكذا حملنا دوابنا، وغادرنا ايليم، وسرنا عبر الطريق العام، فوق حقول واسعة نزولاً باتجاه البحر الأحمر، وخلفنا جاء بعض الرجال الآخرين مع جمال، وكانوا يسيرون على الطريق القادم من الطور، وخشينا من أن يكونوا لصوصاً، لأنهم كانوا مسرعين كثيراً، وسبقونا، وعندما صاروا بقربنا، رأينا بأن جمالهم كانت محملة ببضائع من التوابل، وتوجسنا أن يكون أولئك الناس عائدين إلى البلاط(السلطاني)، وكان قائد القافلة رجلاً مليئاً ووسيماً، وقد ساق جماله في وسطنا، ونظر نحو كل واحد منا بملامح غاضبة، وقال وهو غاضب لكالينوس:« كيف تتجرأ، وأنت مسلم، على قيادة فرنجة خلال بلاد مولانا السلطان، وبذلك هم يزحفون مثل رجال عسكريين على طول الطريق السلطاني العام»؟ وقد أجابه كالينوس باحترام عميق:« هؤلاء الرجال هم حجاج، وجاءوا إلى هنا لزيارة الأماكن المقدسة في بلادنا، وهم لايرغبون بايذاء، أو مهاجمة، أو الاعتداء على أي انسان، لكن بما أنهم سمعوا في غزة— أو بالحري في القدس— بأن بعض الأفراد الأشرار يتجولون في القفار، وهم في كل مكان يغامرون دونما اقامة تقدير لأمان مولانا السلطان، وهم يسيئون معاملةالذين يسافرون خلال الصحراء، حتى وإن كانوا من أعيان القاهرة، وبما أن حجاجنا لديهم روح الرجولة، فقد التمسوا إذنا من ترجماننا بحمل السلاح، من أجل أن يتمكنوا هم أنفسهم من صد وطرد أي واحد يهاجمهم، ويخرق الأمان الذي منحهم اياه لطف مولانا السلطان، وهذا هو السبب في سيرهم وهم يتمنطقون بالسيوف، ويحملون القسي»، وعندما سمع هذا الجواب التفت إلى خدمه، وقال بسرور:« انظروا إن هؤلاء الفرنجة أشجع من المصريين، ولو أن مغاربتنا ومسلمينا، أو المماليك، كانوا هكذا شجعاناً، لكانت القفار قد تنظفت منذ وقت طويل من اللصوص ومن قطاع الطرق»، وهكذا كان هذا الرجل راضياً تماماً، وقدم لنا تحيات من

خلال كالينوس، وسأله عن رحلتنا، وعن مواطننا، وعن مسائل أخرى، وفي الوقت نفسه سألناه من خلال كالينوس، عما إذا كانت سفن التجار من الهند قد جاءت مع بضائعها من التوابل والبخور، وعما إذا كانت هذه التوابل سوف يجري حملها إلى الاسكندرية، وكان سبب سؤالنا هذا السؤال، هو أننا أملنا بعبور البحر إلى ايطاليا مع هذه التوابل في السفن من الاسكندرية، وفهم الرجل مباشرة ماكنا نفكر حوله، وأعطانا جواباً كاملاً وكافيا، وقال بأن السفن الايطالية قد وصلت إلى الطور منذ أيام كثيرة مضت، وفي هذه المرة، إن التوابل والبخور المحمولين على ظهور الجمال إلى مصر وجهتهم القاهرة، ولسوف يجري حملهم من القاهرة عبر النيل إلى الاسكندرية، ومن ثم إلى البحر الكبير، لأنه يوجد الآن في الاسكندرية اسطول تجاري من البندقية، وهو الآن جاهز، ولسوف يبحر حالما يجري تحميل السفن، وعندما سمعنا هذا أصبحنا قلقين، وخفنا خوفا شديداً من أن تغادر هذه السفن الاسكندرية قبل وصولنا إلى هناك، لأنه إذا ماحدث هذا فلسوف نرغم على قضاء الشتاء في الاسكندرية، الأمر الذي سوف يكون ممقوتاً كثيراً إلينا، وبعد انتهاء هذا الحديث، ساق الرجل وسبقنا بسرعة، في حين تبعناه نحن وجمالنا على مسافة مناسبة، وبدأنا من تلك الساعة نصبح قلقين، وأقلقنا كالينوس أيضاً وكذلك سائقي جمالنا، وحثثناهم في الوقت المناسب وغير المناسب للسير بشكل أسرع، وللتسرع برحلتهم.

الضياع المرعب جداً، والانحراف جانباً في القفار بالابتعاد عن الطريق الصحيح، الذي قام به حجاج الفئة الثالثة.

وتابعنا سفرنا فوق سهول رملية واسعة، عبرها جاء موسى المقدس من البحر الأحمر وذلك عندما جاء من أرض مصر مع بني اسرائيل كلهم، وفي ساعة مبكرة، وكان مايزال هناك وقتاً كبيرا متبقياً من النهار، أنزلوا الأثقال عن الجمال في مكان اسمه وردكي Wardachii ، وقد

أزعجنا هذا لأننا كنا متعجلين للوصول إلى الاسكندرية، لكن أدلاؤنا لم يعبأ وا بهذا، لأنهم أرادوا أن يناموا وأن يرتاحوا قبل غروب الشمس، حتى يمكنهم البقـاء يقظين وهم يصخبون طوال الليل، وذلك وفقاً لصيامهم غير المفيد، وعندما أردنا أن ننصب خيامنا في هذا المكان، لم يكن بالامكان تثبيت الأوتاد الخشبية التي تربط بها الحبال، بسبب نعومة الرمال، ولم يكن قد بقي معنا كثيراً من العصي لأن البقية كانوا قد ضاعوا في القفار، ولذلك جلسنا ونحن منزعجين جدا فوق الرمال الجافة أثناء الحرارة الكاملة للشمس، وأخذنا نتذمر ضد أدلاءنا، ومن ذلك المكان كان هناك مشهد ضم أكواماً من الرمال بيننا وبين البحر الأحمر، وكان بامكاننا رؤية البحر الأحمر بكل وضوح من بينهم، وقد بدا لنا أنه بالكاد يبعد عنا ميلاً ايطالياً واحداً، وقال واحد من الفرسان من الفئة الثالثة التي كنت أنا منها:« لماذا نجلس هنا من دون عمل، ونحن نهلك مع حرارة الشمس،؟ انظروا هناك البحر الأحمر، ومازلنا نمتلك كثيراً من النهار قد بقي لدينا، أرجوكم، دعونا ننزل إلى هناك، لإنعاش أنفسنا، ولتمضية الوقت»، وعندما قال هذا مامن أحد أجابه، ولذلك استطرد يقول:« ألايوجد بينكم أتباع موثقوين يتجرأون على الذهاب عبر هذا الطريق القصير، معي، لسرورهم ولسروري؟ وأنا على استعداد للقتال من أجلكم، فهلاهناك من يأتي معي ويستحم معي؟ هل أنتم خائفون؟»، وعندما قلنا له بأن كالينوس لن يدعنا نذهب، مالم تذهب الفئتان الأخريتان أيضاً، ضحك منا واستخف بنا، وتفوه بكثير من الكلمات رمى بها بالحاجة إلى صداقتنا الطيبة، ورمانا بالجبن، وبناء عليه، نهضنا نحن جميعاً، الذين كنا في الفئة الثالثة، ونحن الذين كنا وحدنا مسؤولين عن هذه القضية، لقد نهضنا مغضبين، وعاودنا ركوب حميرنا، وانطلقنا جميعاً نحو البحر الأحمر، وعندما شاهد كالينوس هذا، دعانا للعودة بصوت مرتفع، وبالطريقة نفسها فعل البداة العرب، وكذلك فعل سائقو الجمال، وسائقو الحمير، وكذلك استدعانا بقية

الحجـــاج، ورجــونا حتـى ننتظرهم، لكننا تظـاهرنا بأننـا لم نسمعهم، وغـادرنا مبتعـدين عنهم، وكنا سبعـة، هـم: المعلم بطرس فيلسخ، وهو فـارس وهو أيضـاً كـان قـائـد الفئة الـدوري، واللورد هنري أوف سكومبيرغ، وكـان فـارسـاً، واللورد كـاسبر أوف سيكولي، وهو رئيس مطارنة، والـراهب فيلكس، الخادم للبقيـة، وجـون طبـاخ السـادة في المجمـوعة الأولى، وخـادم كونت سـولمس، وكان قـد أشعل ناراً لعمل فطيرة، وعندما رآنا نـازلين نحو البحر، أخبر سـادته أن يتوقعـوا عودته حـالاً، فالذي قصـده هو انعـاش نفسـه، والعودة ليطبخ لسـادته طعـام العشاء، لأنه مثل الآخرين، اعتقد بأن البحر يبعد عنا غلوتين أو ثلاثة.

وعندمـا رأى كالينوس أننا كنا مصرين، ولأنه كـان يعرف المخـاطرة التي كنا مقبلين عليهـا، دعـا جميع الحجـاج، وسـائقي الجمال، وسـائقي الحمير، وقال لهم:« اعلموا أن هؤلاء الحجاج نازلون نحو البحر ، وهم سـوف يعـرضـون أنفسهم إلى خطر عظيم، لأن مـن المحتمل فقـدانهم لطريقهم، والانفصال عنا، وإذا ماحدث هذا، فإنهم سوف يكونون أبناء الموت، وبناء عليـه إنني أعلن لكم وأشتكي إليكم بأنني لم أرسلهم، كما أنني لم آمرهـم بالذهاب، بل دعوتهم للعودة، وحرمت عليهم النزول إلى هناك، لكنهم استخفوا بي ولم يصغوا إليّ، وإذا لم يعـودو إلينا قبل الغد، يتـوجـب عليكم إعطائي تقـريراً مكتـوباً عن الذي عملتـه أنا في هذه القضيـة، حتـى يعـرف الناس جميعـاً بأنني بريء بالنسبـة لموت هؤلاء الحجـاج، وعليّ أن أجيب حولهم عـدداً من الناس، وإذا حـدث وانتشر خبر القضيـة في القـاهرة، فلسـوف أمثـل أمـام السلطان لأجيب حـول أمـرهـم، ولسـوف يبحث الترجمان عنهم ثم إن جـانم، حـاكم القـدس، وكالينوس الرئيس، سوف يتهماني بالاهمال، وبناء عليـه إنهم مالم يعودوا هذه الليلة، فلسـوف أطلب شهادة مكتـوبة منكم، لأنه حدث أيضـاً في رحلة أخرى أنني فقـدت اثنين من الحجاج، بالطريقـة نفسها، مما تسبب

لي من أجلهما مصيبة كبيرة، كما عانيت من اضطراب كبير جداً، دون أن تكون الغلطة غلطتي»، ولدى سماع هذا، وعـده الجميع بأنهم سـوف يكتبون له ماطلبه منهم.

وفي الوقت نفسه، تابعنا سيرنا على طريقنا ونحن مسرورين، ووصلنا إلى مـابين أكـوام من الرمل، ولذلك لم يعـد بإمكاننا رؤيتهم بعـد ذلك، وبعدمـا سرنا لمسافـة طويلة، كان بإمكاننا رؤية البحـر، لكن بقي أمامنا مسـافة لابأس بها حتى نصل إليـه، وبعـدما سرنا بخطوات سريعـة لمدة ثلاث ساعات، رأينا أنه بقي لدينا الكثير من ضـوء النهار، وفقط عندما قررنا أننا بتنا على شـاطىء البحر، ظهر أمـامنا قطاع عريض بيننا وبينه، وعندما عبرنـاه توفر قطاع آخـر توجب علينا اجتيازه، ولهذا قـال واحد من الفـرسان لي:« من الـواضح ياأخانا، أننا قـد جـرى تضليلنا من قبل الشيطان، لأن البحـر لايمكن أن يهرب منـا، لكن هذا رأيناه يهرب منا، ولهذا لايمكن أن يكـون هو البحـــر، بـل لابد أن يكون هـو الشيطان، تحول إلى شكل البحـر»، وعنـدمـا غـابت الشمس، اقتربنـا من البحـر، وعندما شرعنا بـالنزول من الشاطىء إلى المياه، وصلنـا إلى مكان موحـل غـرقت فيـه الحمير حتى بطونها، ولذلك تـرجلنا مع ضيق شـديد، لأننا أيضـاً غطسنا في الوحل، واقتدنا الحمير إلى خـارج الوحل، ثم ربطناهم إلى بعض النباتات الشوكية.

وسرنا بعـــد ذلك في الوحل، وبصعــوبة وصلنـا إلى الماء، حيث نلنا راحـــة قليلة وفقيرة، لأننا لم نخلع ثيــابنا، بل غسلنا أيدينا باختصـــار، وشعرنا بالغضب من أنفسنا لقيامنا بمثل هذه المخاطرة الكبيرة من دون فـائدة، وبعـدمـا فـرغنا من غسل أيدينا التقطنا بعض أصـداف سرطان المحـار الغـريبـة، من على الشـاطىء، كبرهان على أننا وصلنا إلى البحـر الأحمر، ثم شققنا طريقنا ثانية خلال الـوحل، ليس مغسولين بل قذرين، وليس منتعشين بل منزعجين، وليس مسرورين، بل آسفين، وبهذه الحالة

تركنا البحر، وفي ذلك الوقت من الليل، كانت الدنيا مظلمة، إلى حد أننا كنا غير قادرين على رؤية آثار حوافر حميرنا ولابطريقة من الطرق، ولذلك بما أنه مامن واحد منا قد عرف أين هو الطريق، أونحو أي جانب ينبغي أن نسير، نشب خلاف بيننا حول هذا، وترجل بعض الحجاج، وأخذ يتلمس طبعات حوافر الحمير في الرمال، لكنهم لم يعثروا على أي شيء مؤكد، وذلك بسبب الظلام، ولذلك وقفنا بلاحراك، والشك يساورنا حول أي اتجاه يتوجب علينا التوجه بوجوهنا.

وقد توقفنا، وشرعنا بالتشاور بشكل جدي فيما بيننا، لأننا شعرنا أننا نواجه عدة أنواع من الموت، وأن ذلك قريب منا، وأشار بعضنا بعدم السير، وأن نبقى ثابتين حيث كنا، لأننا إذا سرنا في الظلام ربما نقع في مخاطر غير معروفة، وسيكون من غير الممكن بالنسبة لنا الالتحاق برفاقنا فوق هذا السهل الشاسع والمخيف، في حين أننا في الصباح يمكن لنا اللحاق بهم، فور توفر ضوء النهار ليقودنا، وعلى العكس من هذا قال آخرون بأن هذا السهل سوف يكون موضع موتنا، لأنه من المؤكد أنه ماأن يمر منتصف الليل، حتى يكون كالينوس وحشده قد غادروا المكان، وإذا ماانتظرنا حتى الصباح، لن نكون قادرين على اللحاق بهم خلال ذلك النهار كله، ولابدّ وقتها من أن تهلك دوابنا، لأننا لا نمتلك طعاماً كافياً حتى لمدة يومين وليلتين، لأننا لم نحمل معنا أيا من الضروريات للحياة، أي لاخبز ولاماء، ثم إننا في اليوم الذي تقدم لم نأكل سوى القليل جداً، وكذلك لم نشرب، وبناء عليه أعطى الشطر الأكبر منا صوتهم للرحيل، لكن في أي اتجاه، كانوا جميعاً غير قادرين تماما على القول، لأن الظلام كان شديداً إلى حد جعل من غير الممكن رؤية الجبال التي كانت أمامنا، كما أنه لم يكن بإمكاننا رؤية أي طريق، وبصعوبة بالغة كان بامكاننا رؤية البحر من خلفنا، مع أن البحر

يشع بشكل طبيعي بعـض الشيء في الظلام، ولذلك تجولنا فـوق طريق غير مـؤكـد، الآن إلى اليمين، ثم الآن إلى اليســار، وفي بعض الأحيـان بشكل مستقيم، وكنا في وقت نستمع إلى نصيحـة انسـان، ثم بعـد قليل إلى نصيحة انسان آخر، ووقفنا في بعض الأحيان دونما حراك، وأصغينا، آملين بسماع صوت أناس يتكلمـون أو يصرخون، لكن بما أننا لم نستمع شيئاً، صرخنا نحن أنفسنا بصوت مرتفع، وبفعلنا هذا، لم نخف من أي لص، لأننا رغبنا بقدوم انسان إلينا، حتى نتمكن من معرفة شيء مامنه، وإثر هذا، رأينا على الفـور ناراً تلتهب أمـامنا، وترسل أشعتهـا المضيئة، وتجاه ذلك كنا مسرورين، لأننا اعتقـدنـا أن رفـاقنا قـد أشعلوا ناراً من أجلنا، لكن عندما شرعنا بسرور بتتبع هذا الضوء، عرفنا على الفور، أننا قد خـدعنا، لأن الذي كان عبـارة عن نجم ساطع، عنـدما أشرق، نشر اشعاعاته من فوق رؤوس الجبال.

وقـام الآن اللورد هنـري أوف سكومبيرغ— وكـان رجـلاً عـاقـلاً ومفكراً— فـوجـه خطاه باتجاه أحـد النجـوم، وطلب منـا اللحـاق به واتباعـه، قائـلاً بأنه وجد في السماء، طريقـاً محدداً يقود إلى جماعتنا، لكن كيف وجد ذلك، أنا لست عـارفاً، والذي أعرفـه، أننا لوتبعناه، لوصلنا مباشرة إلى معسكرنا، والذي حـدث أننا بعدما تبعناه لمسافـة جيدة، قال أحـدهم بأننـا كنا نميل كثيراً نحـو اليمين، ولذلك تركنـا الطريق الذي نصحنا به اللـورد هنري أوف سكومبيرغ، وسرنا على طـريق آخـر على يســاره، وأثناء قيامنا بهذا، تخاصمنـا في بعض الأحيان، لأن واحـداً أراد الذهاب في هذا الطريق، وآخـر في ذلـك الطريق، وفي أثناء هذه الشـدة، كان هناك أمران خفت منهما كثيراً بقدر ماخفت من الشدة نفسها: وكان الأمـر الأول، هو أن يشرع الفـارسـان الـرئيســان بيننا بالقتـال، ويجردا سيفيهما أحدهما ضـد الآخر، لأنني عرفت أن أحدهما كـان يكره الآخر بمرارة، ولذلك عندما كان يتجادلان حول الطريق، حرصت على وضع

نفسي وحماري بينهما، حتى لايحركهما الغضب بسرعة باقتراب أحدهما من الآخر، والأمر الآخر، هو أننا اختلفنا حول الطريق الصحيح، وهنا خفت أن يتبع أحدهم رغباته، وينفصل عنا، ويهلك، ولذلك بذلت جهداً كبيراً في تهدئة الذين كانوا يتجادلون، ولإرجاع الذين كانوا سيبتعدون، وقلت من وقت إلى آخر لرفاقي المحيطين بي:« لاتكونوا خائفين كثيراً، ولاأن يغضب أحدكم من الآخر، ولاينفصلن أحدكم عن الآخر، لأننا إذا راعينا هذين الأمرين فلن نهلك»، وبناء عليه تابعنا سيرنا في شك، وأخذنا نخشى أننا ربما قد تجاوزناهم، لأنه بدالنا أننا الآن في العودة قطعنا مسافة أطول من المسافة التي قطعناها أثناء توجهنا نحو البحر.

وكان الوقت الآن منتصف الليل، وقد اتفقنا جميعا على وجوب أخذ راحة قصيرة، فوق منطقة مرتفعة، وكنا على مقربة من رابيتين رمليتين وعرتين، لم نتذكر أننا رأيناهما ونحن على طريقنا نازلين نحو البحر، مع أنهما لم تكونا عاليتين بما فيه الكفاية، وبناء عليه صعدنا إلى إحدى هاتين الرابيتين، ونظرنا إلى ماحولنا،وأصغينا، وصرخنا، وولولنا، لكن لم يكن هناك من صوت، ولافهم، ولذلك ربطنا الحمير مع بعضها، ومددنا أنفسنا فوق الأرض، للاستراحة ولاسترداد أنفاسنا وليس للنوم، لأنه لم يكن هناك نوم لدى أناس كانوا في مثل هذا القلق، ذلك أننا كنا أبناء الموت، وكان لدينا فقط قليلاً من الأمل الموجع في أن نقع، قبل أن نهلك في أيدي البداة العرب، أو المدينيين، أو المصريين، فلهؤلاء كنا على استعداد أن نستسلم بإرادتنا، ونقدم أنفسنا أسرى، بسبب« أن قتلى السيف كانت خيراً من قتلى الجوع»[مراثي ارميا:٤/٩]، ومع هذا وضعنا ثقتنا أخيراً بالرب، وفي العذراء مريم المجيدة، وفي القديسة كاترين، في أن لايسمحوا بهلاكنا بهذا الشكل التعيس في القفار، ودعونا بعضنا بعضاً في أن لانستسلم للنوم، بل أن نرتاح بشكل نبقي فيه آذاننا

مفتوحـة، لأننا إذا مـاكنا على مقـربة من جماعتنا، يمكننا سماع الصراخ المعمـول من قبل الناس والحيـوانـات، أثناء تحميل الجمال، لأن الجمال اعتادت أثناء تحميلها على الصراخ، واعتاد الناس على الصراخ أو الغناء، وقد أملنا أن نسمع مثل هذه الأصوات.

وعندما كان الجميع قـد تمددوا على الأرض صامتين، لم أستطع البقاء متمـدداً فـوق ذلـك الفـراش الذي كـان في غـاية الخشـونة، بل قمت بالتجول من حـولهم، أقرأ الصلوات السـاعية للعذراء المبـاركة، وفعلت ذلك بصمت بتحـريك شفتي فقط، وكنت أنشـد مزاميرها الصحيحـة، وأثناء سيري وتجوالي رأيـت ظلاً في الوادي، عند أسفـل جبل أجـرد، فـاعتقـدت أن ذلك لابد أنه أيكة نوع من الحشـائش الخضراء، لذلك نزلت إلى هناك للحصـول على بعضهـا لتقديمهـا إلى حماري الذي كـان صـائماً مثلي، إنما عنـدمـا وصلت إلى المكان، لم تكـن أيكة خضراء، بل أشـواك جـافـة كثيفـة، ولذلك ذهبت مـن ذلك المكان إلى قمـة الرابيـة الواقعـة مقـابل رابيتنا، لربما يحدث فـأرى أوأسمع أي شيء من هناك، وعلى تلك الـرابيـة تجولـت هناك في هـذا الاتجاه وفي ذاك، لأن الناس القلقين والغارقين بالتفكير، يسيرون من مكان إلى مكان من دون اختيار من قبل أنفسهم، ودون معرفة إلى أين يسيرون، وبعد وقت قليل رغبت بالعـودة إلى رفـاقي، فتسلقت الرابيـة المقابلة معتقـداً أن جماعتي كـانت معسكرة هناك، ولكنني لم أجـدهم هنـاك، ولذلك ركضت نحـو رابيـة أخـرى، لكنني لم أتمكن من العثور عليهم، ولذلك وقفت في حـالة قلق شديد، ولعنـت الليلة قائلاً:« أيتهـا الليلة المقلقة، التي أنـت جديرة بهذا الاسم، أنت بـالحقيقـة ابنة الارض، من أب غير معـروف، جئت إلى الوجود مـن خلال صراع الأرض مع نفسها، ومن زواجهـا من اربوس Erebus المخيف، وعـدو الـراعي المفيـد جـداً، فـانتيس -Pha netes(الكوكب Planetes ؟)، وتبعـاً لذلك، وكما يقـول المثل

الشائع، صديقة لاأحد، إلاّ مقترفي الشرور، لأن فاعلي الشرور يمتلكون الضوء، ويفرون للالتجاء إليك، لأنك عدوة الشمس، ولذلك:

يغادر اللصوص وكرهم عند منتصف الليل

ليقطعوا أعناق الناس الأبرياء

وفي الحقيقة إنه بسبب الشكوى التي أبداها الليل وقدمها إلى جوبيتر، عندما أراد أن يتحدث إلى محبوبته ألكمينا Alcmena ، أجيز بعربة وأربعة، وفي هذه العربة يدور باستمرار حول الأرض، وتلقى أيضاً القدرة على القمع، قمع حتى الآلهة، وهكذا نراه مع عربته يلوم، ويضغط، ويخفض شجاعة حتى الرجال الأشداء، المليئين بالأفكار العالية، وذلك حتى قدوم الفجر».

وعندما فرغت من ملامتي لليل، اشتد غضبي من نفسي، لأنني عهدت بنفسي إلى تلك الليلة الأعظم خيانة، والمليئة بالفخاخ إلى جميع الذين يسافرون بالبر أو بالماء، ولذلك لجأت بنفسي إلى المصدر الطبيعي للنفس في الآلام، وللروح المضطربة، الذي هو الصراخ بصوت مرتفع(باروخ:٣)، ورفعت صوتي بالنداء إلى الفارس الأقوى والأنبل، والأكثر اخلاصاً، والأعظم معرفة بالنسبة لي، ودعوته بلقبه فقط، وصرخت« سكومبيرغ»، وفي الحال سمعني، فانتصب قائماً، ومع الآخرين جاء الرد من على بعد:« فيلكس، فيلكس»، وصرخت للمرة الثانية قائلاً« هو، هو»و « أين يمكن أن أجدكم؟ تحدثوا إليّ، إنني أتوسل إليكم، حتى أصل إليكم، لأن الظلام والصمت قد أضلاني»، وهكذا صرخ أحدنا إلى الآخر، حتى وصلت إليهم، وعندها لاموني بحدة لقيامي بجولتي الخطيرة والمنعدمة التقدير، لأنني كنت بعيداً عنهم أكثر مما قدرت وفكرت، وعندما عدت إلى هؤلاء الذين كانوا مايزالون واقفين، تمددوا على الأرض ثانية.

وكان منتصف الليل قد انقضى الآن، وصار الوقت هو الوقت الذي اعتاد فيه سائقو الجمال على الشروع بتحميل دوابهم، وهكذا جلسنا بسكون، وصمت، آملين بسماع أصوات الجمال، وبعدما مكثنا هكذا بعض الوقت، فجأة، بدأ صوت الجمال الذي تشوقنا إليه يصل إلى مسامعنا، وبدأ هدير أصواتهم مسموعاً بالنسبة إلينا، ويستطيع الحديث عن المتعة التي شعرنا بها عندما سمعنا هذا، فقط الذي كان واقفاً في رعب على حياته، وفجأة سمع مخلصه وهو قادم، وبالنسبة لنا كان ذلك الصراخ المرعب للجمال، أحلى من أية موسيقى عذبة، ومساوياً تماماً للأغنية القوية التي غناها أورفيوس Orpheus على قيثارته، وقد حدثنا الشعراء أنه بقيثارته جعل الجبال تقفز مرحاً مثل كباش، وجعل أشجار الغابة ترقص، وأوقف مجاري الأنهار، ودجن الحيوانات المتوحشة، فضلاً على هذا ربح بغنائه على قيثارته السيدة النبيلة يوريدايس Eu-rydice، التي كانت الأكثر جمالاً، وكانت غنية وحكيمة، وعندما بعد الموت أخذت إلى الظلال تحت، لحق بها إلى قعر جهنم، حيث غنى ولعب على قيثارته، حتى تمكن بحبه من تحويل قلوب الذي كانوا يتحكمون في ذلك المكان، وجعل المدانين ينسون عذابهم، وأضاء ظلمات تارتاروس Tartarus، وحظي بمحبوبته يوريدايس ثانية، ومثل هذا في تلك الساعة كان هدير أصوات الجمال مثل قيثارة أورفيوس، لأن سرورنا جعلنا نرى التلال تقفز مرحاً، والغابات ترقص، والماء الذي يجري حزيناً قد توقف عن الجريان، وسررنا كثيراً لأننا جرى اقتيادنا بهدير أصوات الجمال، واخراجنا من بين فكي الموت.

ونهضنا على الفور، وامتطينا ظهور حميرنا، ونزلنا من جانب الهضبة، أو بالحري قفزنا، وعندما وصلنا إلى الصخور في الأسفل، طرنا فوقها إلى السهل، وسرنا باتجاه الضجيج الصادر عن الدواب، ونزل بنا الآن رعب جديد، فقد خشينا أن يصدف، فتكون هذه قافلة غريبة للبداة

العـرب، أو المدينيين، وأنـه من الممكن أن نقع في أيدي أعـداء، لكن عندما اقتربنا، سمعنا أصـواتاً معروفة بشكل جيـد بالنسبة لنا، ومع حمد الاسم الربـاني دخلنا إلى المعسكر ثانيـة، ووجـدنا هناك جملين محملين بالخبز والماء، مع بدويين عـربيين من السائقين كان رفاقنا قـد عزموا على إرسـالهم للبحث عنا، لكنهم لم يشعلوا ناراً في المعسكـر في تلك الليلة، من أجل معاقبتنا، لأننا رفضنا الطاعة عندما دعانا كل واحد إلى العودة.

واستقبلنا كـالينوس استقبالاً سيئاً، وأظهـر عدم رضـاه عنا بكل من الكلمات والتصرفـات، وأخبرنا بحكاية حـول كيف حـدث فيما مضى، على مقربة مـن هذه البقعة تماماً، أن اثنين من الحجـاج نزلا بشكل سري نحو شـاطىء البحر، وأضاعا طريقهما، كما حـدث معنا، وركضاً في هذا الاتجاه وفي ذاك حـول القفـار، لمدة ثلاثة أيام، وأخيراً تمّ العثـور عليهما من قبل بعض المدينيين، يتجـولان بشكل جنوني، وقـد أحضروهما في تلك الحالة إلى رفـاقهما مـن الحجـاج الآخـرين، الذين كـانوا آنذاك في مصر، حيث مـاتا خـلال بضعـة أيام، ولولا أننا وجـدنا— بفضل رحمة الرب— طريق عـودتنا إلى رفـاقنا، لاشـك لدي أننا كنا سنقع في أقسى الشدائد، ولكان الفارس الذي حـرضنا على الذهاب قد جرى تمزيقه إلى قطع من قبل الآخـرين من الحجـاج، ومهما عشت في هذه الدنيـا، أنا لم أشهد ليلة أشد كآبة من تلـك الليلة، وفي الحقيقة كان الذي حدث معنا مثل الذي حـدث مع رفـاق يوليسيس Ulysses الذين جميعاً جلبوا إلى المخـاطر مـن قبل رفيقهم الملاح يوريـالوس Euryalus، مع أنهم حذروا بعدم الابحار.

رحلة إلى البحر الأحمر وسرور الحجاج العارم

في اليوم الثالث من الشهر، وقبل اكتحال الفجر، غادرنا حسب عادتنا وردك(كـذا) وسرنا فـوق سهـول رمليـة شـاسعـة، وقبل اشراق شمس النهـار، قـابلنا مجمـوعتين من(الرجـال الممتطين) للجمال، كـان لابد

لمجموعتنا من الوقـوع في وسـطهم، لولا أننا وصلنا إلى رفـاقنا، وعندما صـار النهار مضيئاً، وصلنا إلى برية سين، وكنا قـريبين تماماً من البحـر، وكـانت هذه أول بـرية وصل إليهـا بنو اسرائيل بعـد عبــورهم البحـر الأحمر(الخروج: ١٦/ ١).

علاوة على ذلك عندما كانت هاجـر مولاة سارة هاربة من أمام وجه سيدتها، وكانت تريد العودة إلى مصر، حيـث كانت قد ولدت، وجدت ملاك الرب يتجـول وحده في هذه القفـار، وقد أمرت مـن قبله بالعودة إلى سيـدتها ساره، وأن تتـواضع أمامهـا، وقـام بالوقت نفسه بالتنبـؤ لها كثيراً حول ولدها الذي حملته برحمها، أي ابنها اسماعيل، الذي كان ولداً لجميع الاسماعيليين، والهجاريين، والمسلمين، وسكان جبل سعير.

والآن بما أن عـدداً كبيراً من مواليّ الحجـاج لم يكونوا قد رأوا البحـر الأحمر، سألوا كـالينوس عما إذا كــان بإمكانهم النزول إلى هناك، لاسيما وأن المكان كان قـريباً من المكان الذي قيل بأن بني اسرائيل قد خـرجوا فيـه من البحر الأحمر إلى بريه سين(الخروج:١٧/ ١)، وبناء عليـه أعطى كالينوس إلى الحجاج خدمه من البداة العرب، ليكونوا أدلاء لهم، ونزلنا جميعـاً معهم نحو البحـر الأحمر، لأنه وإن كـان حجاج الفئة الثـالثة قـد نزلوا إلى البحـر، مع ذلك هم لم يتعلمـوا شيئاً يتعلق به، وقـد تشوشـوا كثيراً ورغبوا في رؤيتـه بوضوح كامل، ولذلـك نزلوا مع الآخرين، غير أن الجمال تابعت سيرها على الطريق العام، وبعد مسير ساعة، وصلنا إلى مياه البحـر، ومع أن الوقت كان مايزال باكـراً، خلعنا ثيابنا، واستحمينا في البحر الأحمر، وهناك عمّدنا أنفسنا، وإنني أقول، إنـه في ذلك البحر ذاته— حسبما حدثنا الرسول(كورنثا:٩/ ١)— قد تعمد آباؤنا الأولون حتى موسى، لأنه هنا سـار بنو اسرائيل فوق أرض جافـة من الشاطىء الأول للبحـر حتى الشاطـىء الآخر، فبوسـاطة معجزة انحسرت ميـاه البحر ووقف على شكل كـومة على كلا الجانبين، وفي الحقيقـة إن البحر

ليس عريضاً في هذا المكان، ولربما هناك ميل واحد إلى فم الحيروث على الجانب الآخر، ومع ذلك البحر عميق وهائج، وكان عند فم الحيروث على الشاطىء المقابل لنا، قد ضرب موسى البحر بعصاه، ففتح طريقاً، ومضى بنو اسرائيل في البحر، ولحقهم فرعون بعرباته وفرسانه.

وحدثنا أوروسيوس Orosius ، أنه في هذا المكان، من الممكن مشاهدة براهين مؤكدة عن الذي حدث هناك، لأن آثار العربات والدواليب من الممكن رؤيتها، ليس على الشاطىء فقط، بل أيضاً في المياه العميقة، وبذلك بقدر ماتستطيع العين أن تنفذ وأن ترى، ومن الممكن أن يرى على قعر البحر كذلك حفر عميقة جداً، فيها مضى المصريون نحو الأسفل مثل الرصاص، وبعد وقوع هذه الأشياء، لم يكتف المصريون الأحياء أنهم لم يعرفوا الرب، بل جعلوا ذلك مناسبة للوثنية، لأنه في« حياة الآباء»، أخبرنا أبولونيوس Apollonius، بأن المصريين الذين لم يذهبوا مع فرعون، اعتقد كل واحد منهم بأن الشيء الذي كان مشغولاً به، أثناء غرق البقية، هو ربه، وقد عبده، قائلاً:« هذه الحشائش، أو هذا الخشب، أو هذا الخبز، أو هذه الدابة، وهكذا دواليك، هو اليوم ربي، الذي أنقذني من الغرق في البحر مع فرعون»، وهكذا تضاعفت أعداد الأوثان في أرض مصر، وفاقت بتعددها جميع البلدان الأخرى في العالم.

وهنا على هذا الجانب من البحر، حيث كنا نستحم، قذف البحر بأجساد المصريين، وهنا قام بنو اسرائيل بنهبها وسلبها، ووجدنا على شاطىء البحر أصدافاً غريبة، وأصداف المحار من مختلف الأشكال والألوان، وكميات هائلة من المرجان الأبيض، ولم نر هناك أي مرجان أحمر، مع أنه ينمو ويتكاثر هناك، هذا ويقول بعضهم بأن المرجان أثناء نموه في البحر، هو دائماً أبيض وناعم، وأنه فقط عندما يؤخذ من البحر ويجفف يغدو أحمر اللون، كما هو الحال بالنسبة للمرجان المستخرج من

بحر صقلية.

وأطلق على هذا البحــر اسم البحــر الأحمر، بسبب اللــون الزهري لأمـواجـه، لكن لون ميـاهه بالطبيعـة ليس أحمر، كما قـد يوحي الاسم، وتنصبغ هذه الميــاه وتندبغ بوســاطة شـواطئه التـي تحيط به، لأن جميع الأراضي المحيطة بهذا البحــر حمراء، أو ذات لون دمــوي، وبناء على طبيعـة التربة، فإن ميـاه البحـر تضرب بالتــدريج الشـواطىء، ومن ثم تذوب التربة في الميـاه وتلونها، وعلاوة على ذلك يعثر الناس على هذه الشـواطىء على جواهـر حمراء، وأصداف محار حمراء، وينمـو على الجزر هناك شجر البرازيل الأحمر، وتذوقنا مياهه، وقـارنا ملوحتها مع ملوحة بحرنا المتوسط، فوجدناها أكثـر ملوحة ومرارة من بحرنا، مع أن البحر الأول، والبحر الآخر يصدران عن مصدر المحيط نفسه، الذي هو نفسه مالـح جداً، وعلل فـلاسفة الطبيعة هذه الملـوحة بعدة أسبـاب، ومثلهم فعل اللاهوتيــون والشعـراء القــدمـاء، وكنـت قـد عــرضت من قبل الأسبـاب الطبيعية واللاهوتيـة في ص٢٢٣—٢٢٦، واحتفظت بالسبب الشعري حتى الآن.

فلقد ذكر بعض أقـدم الشعراء بأن واحداً اسمه ديمــوغورغون De-mogorgon وكـان عفريتـاً مـرعباً جـداً، وأعظم أبناء الأرض، وقــد عـاش أولاً بين الأرباب على شكل بشر، ومن المفترض أنه قـد قيل من قبل الرجـال المذنبين القــدمـاء، بأنه كـان المسبـب الأول وخـالق جميع الأشيـاء، وذلك حسبما يمكن قـراءتـه في كثير من الشعـر القـديم، وقـد حكوا حـول ديموغـورغـون أسـاطير كثيرة، عن كيف أنه لم يكن هناك ضياء في قبة السماء، وذلك عندما لم تكن هناك أرض، بل كانت محجوبة في الظلام، ولذلك ضجـر ديموغورغـون من الظلام اللامحدود، فتسلق إلى قمة جبـال أكروسيرونيـان Acroceraunian، واقتطع منهم قطعة كبيرة كانت كتلة ضخمة جداً كـانت ملتهبة، وقد جعل أولاً هذه الكتلة

كروية بألسنته، ثم طرقها حتى صارت قاسية فوق جبل كوكاسوس Caucasus، ثم حملها إلى ماوراء تابروبين Taprobane، وغطسها في مدار مضيء ست مرات في الأمواج، وطوّح بها من حوله في الهواء مرات كثيرة، وقد فعل هذا من أجل أن لايتلاشى مطلقاً، أو يتيبس ويصدأ، ويتساقط إلى قطع خلال العصور، ولكي يستطيع التحرك بنشاط إلى جميع أجزاء العالم، ثم إنه رفع نفسه مباشرة، ودخل إلى كيان السموات، وملأ جميع مملكة أبيه بالضوء.

وحدث أنه بسبب التغطيس بالماء، الذي كان من قبل عذباً، فإن هذا الماء صار مراً مع ملح، وصار الهواء مغلقاً بشكل محكم وذلك بسبب الزوابع، أي حتى تتلقى أشعة من الضياء، ويكفي الآن ماقيل عن هذا.

ومع أن هذه والقصص المشابهة قد تظهر أنها خيالية من الظاهر، لكن زبدتها ملئية بالحقائق الطبيعية واللاهوتية، وذلك كما تعلمنا من كتاب يوبيت Jobait (؟) حول« أنساب أرباب الكفار»، حيث استخرج خلاصات جميلة جداً من كتابات الشعراء.

ويقول الملاحون بأن ملوحة البحر تؤثر فقط على ماء السطح، وأنه على بعد عشر خطوات تحت السطح يمكن العثور على المياه العذبة، ولاأمتلك أنا خبرة تبين هل هذا صحيحاً أم لا، وكان هذا البحر الأحمر يدعى في العصور القديمة جداً باسم بحر الايريتيريين Erythraean اشتقاقا من اسم الملك ايرترايوس Erythraeus ، الذي كان ابن فرسوس وأندروميدا، وحكم هذا في البلاد القريبة من هذا البحر، وفي الجزر الموجودة فيه، وقد كان ملكاً جباراً، ولذلك عندما مات على أعظم الجزر شهرة، بنوا له ضريحاً واسعاً وتعبدوه كرب، وأطلقوا على البحر الأحمر اسم بحر الأيريتيريين، وكان ذلك اشتقاقاً من اسمه، ويدعو الاغريق البحر باسمه هذا حتى هذه الأيام، لكن العبرانيين يسمونه جام سوف Jam suph، وذلك حسبما حدثنا جيروم في

رسالته إلى فابيولا، حول الأبعاد الاثني عشر.

ومكثنا نتمشى على ساحل هذا البحر لمدة تزيد على الساعة، وبعد ذلك امتطينا ظهور حميرنا، وسرنا مسرعين عائدين نحو الطريق العام، وبادرنا مسرعين خلف جمالنا، الذين قطعوا مسافة طويلة أمامنا، ذلك أننا كنا قلقين من التخلف وراءهم، وعندما شاهد البداة العرب رغبتنا بالسير بسرعة، ساعدونا في دفع حميرنا للاسراع بوخزهم من الخلف برماحهم، وعندما شعر الحمير بهذا طاروا مسرعين مثل الخيول، بخطوات سريعة للنجاة من وخزات البداة العرب، لكن البداة العرب تابعوا وخزهم لهم، وأنالم أشهد قوماً مسرعين، مثلما ركضوا هم، فقد امتلكوا أرجلاً طويلة ملتوية، ولم يرتدوا أحذية، أوصنادل، أوأحزمة، وكانوا يأكلون القليل من الخبز، ويشربون القليل من الماء، ولذلك كانوا عندما يركضون لايشعرون بأي ألم في أجوافهم، أو ضغط على صدورهم، أو قصور في التنفس، وهو مانعاني منه كله جميعاً، وأفترض أن ذلك بسبب اطعامنا أنفسنا أكثر مما يلزم في كل يوم، ويركض البداة العرب« خفاف الأقدام كظبي البر»، مثلما فعل عسائيل[صموئيل الثاني: ٢/ ١٨]، ولايستطيع رجل ممتطياً لفرس سريع أن ينجو منهم، لأنهم يمكنهم متابعة الركض لمسافة طويلة، ويفعلون ذلك مع السرور والمرح، ولم أضحك من قلبي خلال حجي كله مثلما فعلت عندما صعدنا من شاطىء البحر إلى الطريق السلطاني العام، لأن البداة العرب مزحوا معنا، وسبقونا، ورقصوا وتقاتلوا مع بعضهم برماحهم، وكان بينهم بدوي عربي غريب، أنا لم أره من قبل، وقد لعب ألاعيب غريبة مدهشة وتهريجية، وقد جعلني أضحك مراراً إلى حد أنني خفت أن أسقط من على ظهر حماري لإفراطي بالمرح.

وسرنا بهذه السرعة، مع البداة العرب وهم يلعبون من حولنا، لمسافة تقارب ميلين ألمانيين، وعندما وصلنا إلى الطريق السلطاني العام، نزلنا

إلى داخل سهل آخر شاسع حيث رأينا جمالنا وقد أناخوا إلى جانب بعض الآبار، ومعهم سائقي الجمال، ولذلك نزلنا نحو ذلك المكان، ووقفنا عند تلك الينابيع، حيث سقينا جمالنا وحميرنا، غير أننا أنفسنا مججنا الماء الذي كان مالحاً بعض الشيء، وكان علاوة على ذلك ساخناً من قبل الشمس، وله لون أحمر، ويعرف هذا السهل وهذا القفر باسم ماره[الخروج: ١٥/ ٢٣، العدد:٣٣/٨]، فبعدما عبر بنو اسرائيل البحر، وسلبوا المصريين الذين قذفوا على الشاطيء، بحثوا عن الماء، لكنهم لم يجدوا شيئاً، إنما حدث ربما بتوجيه واحد ما أن نزلوا إلى هاهنا، ووصلوا في اليوم الثالث إلى هذا المكان، وطلبوا الماء وبحثوا عنه، ولأنه لم يقع على طريقهم، انحرفوا جانباً عن طريقهم للحصول على الماء للشرب، كما غالباً يفعل الناس في القفار، وعندما وصلوا إلى هنا لم يستطيعوا شرب مياه ماره، لأنها كانت مياه مرّة[الخروج:١٥/ ٢٣]« فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب؟ فصرخ إلى الرب، فأراه الرب شجرة فطرحها في الماء، فصار الماء عذباً»، وورد ذكر هذا أيضاً في سفر يهوديت:٥، وقال اللاهوتيون بأنها كانت شجرة من خشب مالح جداً، ولكي تكون المعجزة مدهشة أكثر، تتحول المياه المرة إلى مياه عذبة وقابلة للشرب برمي خشب مرّ فيها، وهذا التعاكس كما يبدو هو الذي عُني بالإلهيات:٣٨/ ٥ قوله:« ألم يجعل الماء عذباً بخشب»؟ لأن النص المقدس قد تحدث هناك عن السمات الطبيعية للذي ينمو في الأرض، والذي أعتقده أن هذه العذوبة، التي عملت في هذه المياه بوساطة الخشبة لم تستمر، إلاّ فقط حتى مغادرة بني اسرائيل، وبعد ذلك عادت إلى مرارتها الطبيعية.

وملوحة هذه المياه طبيعية، ولذلك من الممكن شربها من قبل الدواب، ومن قبل بعض الناس، لكن ليس من قبلهم جميعاً، والسهل كله مستنقعي ومليء بالماء، التي تنبع وتتدفق من البحر الأحمر، ويعتقد

كثير من الناس بـأن الأردن يجري من البحـر الميت، بعيـــداً حتى هذا المكان مـن خـلال قناة تحت الأرض، وينبع هنا، وذلك كما تقـــدم لي وذكـرت، ويحكـي البـداة العـرب حكايـات خيـالية كثيرة حــول هذه الينابيع، من ذلك أن نعجـات كن يشربن هناك قـد حملن بخرفـان حمر، وذلك مثلما قرأنا عن النبع الذي اسمه ميلا Mella ، من أن نعجات شربن من هناك فحملن بخـرفـان سـود، عـلاوة على ذلك إنهم يفترون على هذه الينابيع، ويقولون إن كل من يشرب منهم يصاب بمرض، من نوع أنه لايبقى رجلاً بعد ذلك، وبعدما شربنا حملنا الجمال ثانية وغادرنا ماره إلى شاطىء البحـر الأحمر، وسرنا فوق سهول رملية شـاسعة جداً، ووصلنا عند غيـاب الشمس إلى مكان يدعـوه العـرب باسم Hanada حيث نصبنا خيامنا، لكن المنطقة كـانت جرداء، لذلك واجهنا كثيراً من المصـاعب في العثور على مـايكفي من عصي جافـة لنطبخ لأنفسنا بعض الطعام الساخن.

مسائل يتوجب ذكرها من أجل فهم صحيح للكتابات المقدسة

وفي اليوم الرابع، الذي كـان يوم القديس فـرانسيس المعترف، غادرنا Hanada في الصباح البـاكر، قبل اشراق الشمس، وسرنا فـوق سهول شاسعـة جداً، ومقفرة على جـانب البحر الأحمر، حتى وصلنا إلى بعض الجبـال، عند سفحهـا يرسل البحـر لســاناً نحـو الأمـام ويصل هنا إلى النهاية، وفي المكان الذي ينتهي فيه البحر الأحمر هناك، هناك ميناء تصل إليه السفن، وفي هذا الوقت تحررت مـن شك كبير، ساورني وبقي معي طوال الرحلة كلهـا، لأنني وان كنت أعـرف بشكل أكيـد أننا ينبغي أن نخـرج من القفار إلى أرض مصر لم يكن بإمكاني التخمين كيف سنقـوم بعبـور البحر الأحمر، لأنني كنت أعتقـد أن البحر الأحمر متصل بالبحـر المتـوسط، لأن بني اسرائيل قـدموا إلى القفـار بعـد عبور البحـر الأحمر، وكنت لاأفترض أن مسيحيـاً يمتلك أي طريق مـن الأرض المقـدسـة

وجبل سيناء، إلاّ عبر ذراع البحر الأحمر، الذي عبره خرج بنو اسرائيل من مصر، وأننا نحن لايمكننا فعل غير ذلك، وذلك إذا ماكان البحر الأحمر متصلاً بالبحر المتوسط كما افترضت، ومع ذلك اعتدت على التساؤل، إنه إذا لم يكن هناك طريق إلى مصر إلاّ عبر البحر الأحمر، كيف لم تعمل الكتابات المقدسة أية إشارة إلى ذلك، حيث أننا قرأنا عن كثير من الناس كانوا ينزلون إلى مصر من الأرض المقدسة، ويعودون ثانية، ومع ذلك لم ترد الاشارة إلى البحر الأحمر، إلاّ عندما خرج بنو اسرائيل من مصر، وإذا كان بإمكان الانسان أن يخرج من مصر إلى جبل سيناء بطريق آخر، لماذا جرى اقتياد بني اسرائيل عبر طريق غير عادي عبر البحر، وليس عبر الطريق العام فوق اليابسة؟ ووضعت الخبرة اليوم نهاية لشكوكي، لأن البحر الأحمر ليس متصلاً بالبحر المتوسط، بل هناك مكاناً شاسعاً وكثيراً من التلال تفصل أحدهما عن الآخر، ويجري بين الاثنين طريق عام من الأرض المقدسة إلى مصر، من دون عبور لذراع البحر، والذين يرغبون بالذهاب من مصر إلى جبل سيناء يعبرون فوق هذا، ويسيرون صاعدين إلى هناك، على طول شاطىء البحر الأحمر، وذلك من دون عبور للبحر في السفن، ثم يمكنهم الصعود من أرض مصر مباشرة إلى جبل سيناء، كما يمكنهم أخذ طريق أقصر بكثير من ذلك الذي يقود الآن، حول رأس ذلك البحر.

ولذلك اقتاد الرب بني اسرائيل، وأخرجهم عبر الطريق الأقصر عبر ذراع البحر، لأنه يقع في مواجهة جبل سيناء، ووفر على الناس القيام بالاستدارة، وبذلك كان بامكانهم الوصول بشكل أسرع إلى جبل الرب، وأعماله الرائعة، وذلك حتى يمكنه إظهار قدرته، وأغرق أعداء شعب الرب، ولو أن الرب قد رغب باقتياد بني اسرائيل مباشرة إلى الأرض المقدسة، وقتها كان الطريق الآخر عبر الفراغ فيما بين البحرين، طريقاً أقصر بالنسبة للوصول إلى فلسطين، لكن الرب لم يختر هذا، وقد

جرى تبيان سبب هذا في سفر الخروج:١٤، وكذلك من قبل، وانظر أيضاً تعليقات دي ليرا على النص، وكذلك كتابات مصنف -Spec ulum Historiale.

وشاهدنا في هذا المكان، وفي المنطقة التلية عند نهاية البحر الأحمر الأعمال الهائلة لقدماء ملوك المصريين الذين سعوا إلى جلب البحر الأحمر إلى النيل، ولذلك شرعوا بالحفر خلال جبال البرزخ عند رأس البحر، لتقسيم التلال، وللحفر خلال وسط الحجارة والصخور، وعملوا قناة ومجرى للمياه إلى مدينة Arsinoe التي تعرف أيضاً باسم الكليوبترية، وبدأ العمل في حفر هذا المجرى أولاً من قبل سيسوستريس Sesostris ، ملك مصر، قبل حرب طروادة، وذلك مقابل نفقات كبيرة، وبعد ذلك من قبل داريوس ملك فارس، الذي حاول عمل ذلك، لكنه تركه دون انتهاء، وأكمل فيما بعد بفن من الطراز الأول من قبل بطليموس الثاني، وجاء ذلك وفق طريقة أن المجرى كان ينغلق وينفتح من قبل نفسه فقط، وقصد الناس القدماء من هذا العمل وصل الشرق والغرب مع بعضهما، لأن نهر النيل يجري ليصب في البحر المتوسط، وإنه إذا مادخل إلى البحر الأحمر، يمكن للناس وقتها الإبحار خلال ذلك النهر من البحر المتوسط والمحيط الغربي إلى داخل البحر الأحمر، وإلى الخليج العربي، وإلى البحر الفارسي والبربري، لابل حتى البحر الهندي في الشرق، وبذلك يمكن للسفن القدوم حرّة من الهند، وفارس، وجزيرة العرب، وميديا، وجميع ممالك الشرق، إلى اليونان، وايطاليا، وفرنسا، وايرلندا، وانكلترا، وألمانيا، في حين على العكس من ذلك لايمكن للسفن من بلدان المشرق القدوم إلى ماوراء نهاية البحر الأحمر، حيث تتصل صحراء العربية بمصر، كما لايمكن للسفن القادمة من البلدان الغربية الذهاب أبعد من الاسكندرية التي تشكل حداً لآسيا وأفريقيا.

وفي أيامنا حـاول واحـد من ملـوك اسبـانيـا أن يعثـر على طريق من المحيط الغربي— أي أن تقول من البحـر الخارجي، الواقع خارج أعمدة هرقل— إلى المحيط الشرقي وإلى بحـر الهند، لكن هذه المحـاولة كـانت بلافائـدة، مع أنهم قالوا بأنهم اكتشفـوا بعض الجزر الثمينة، التي لم تكن معروفة من قبل.

وكان للبطالمة ملوك مصر، من محاولتهم لوصل الشرق بالغرب، وفق هذه الطريقـة هدفين اثنين تطلعـا إليهما، كـان أولهما التمكن من امتـلاك السلطة على كلاهما، لأنهم حسبما كانوا، كانوا قائمين فيما بينهما، والهدف الثاني أن يتوفر طريق إلى جميع أجزاء الدنيا، للتجار وللتجارات، ولذلك يمكن للمصريين جبـاية الخفارات وضرائـب العشور من تجارات العـالم كله مشـاهدين أن الطريق لابد من أن يمر خـلال بلادهم، وصدقـاً، لو أنهم أكملوا ذلك العمل، لكان عمـلاً رائعاً، فـوقتها كـان يمكن للناس الابحار إلى مصر من البندقية، لابل من فلاندرز ومن ايرلندا، ويمكنهم الذهاب عبر النيل إلى الخليج العربي، والوصـول إلى أرض القرفة، ومن ثم الوصول إلى بلاد الهند الثرية جداً، التي حُدثنا أنه يوجد بين عجائبها أنها تمتلك شتـائين وصيفين في سنة واحدة، وجبـالاً من الذهب، جبـالاً حقيقيـة، وليس مجرد كـلام، وأن فيهـا أربعـاً وأربعين منطقــة مختلفـة، ووقتها سيتوفر من خـلال البحر الهندي طريق لنا نحن الغربيين إلى بلاد فـارس، وفرثيـا، وميديا، والعـربيـة المباركـة، وسبأ، وكلدانيا، ولسـوف تمتلك شعوب الشرق طـريقاً تستطيع أن تقدم عبره إلينا، وبنـاء عليه إنه بهذا العمل يمكن جمع الأجزاء الأسـاسية من العـالم مع بعضها، وأعني بذلك: آسيا، وأفريقيا، وأوربا.

وحاول البطالمة المصريون، وقـد جذبتهم هذه الآفـاق، مع فن وبراعة عظيمة تقسيم قمم الجبال الصخرية وشقها، وجلب المياه وتركها تجري، وكأنهم تقمصـوا بقدرة هرقل وجبروتـه، الذي ووفقاً لما جـاء في حكاية

قديمـة جداً، قام بشق الجبل الذي أوقف جـرفه الأصم المحيط، وعمل جبلي أبيـلا Abila وكـالب Calpe، من الجبل الواحـــد، حيث من بينهما أطلق البحر المتـوسط، الذي لم يكن موجـوداً في الأرض بعد، كما كنا قد تحدثنا عن ذلك من قبل.

ولو أنه كان مع المصريين في هذه المحـاولة هرقل ليساعـدهـم، وتيتان وأولاده، الذي ذهب إلى الحرب، مع يوف Joveوالأرباب الآخـرين، وللصراع لانتزاع السماء منهم، ولذلك قيل بـأنهم كدسوا الجبـال أحدها فـوق الآخـر، حتى يتخـذوا لأنفسهـم طريقـاً إلى السماء، أقـول لو أنهم امتلكوا مثل هؤلاء، لأمكنهم إزاحة الجبـال فوراً، ولاستطاعـوا بسهولة جلب البحر إلى مصر.

وعندما كـان المصريون يبذلون غاية جهـدهـم في سبيل العمل المتقدم ذكـره، اجتمع حكماء مصر مع عقـلائها، وتناقشـوا حـول العمل الذي شرع به، وتناظروا عما إذا سيكون مفيـداً وعمليـاً أم لا، ولدى توصلهم إلى الحقيقة، أشاروا على الملك بطليموس التوقف عن العمل بكل وسيلة من الوسـائل، لابل إنهم استخـدمـوا كل الوسـائل التي توفـرت لديهم وكانت بمقـدورهـم لجعل مصر كلها تتحد معهم في مقـاومة ومنع الذي سيطلق البحر عليهم، لأنهم اعتقدوا أن ذلك سوف يكون أشد الأعداء خطراً على بلاد مصر وأراضيها، لأنه بالتقاء هذين البحرين سوف يجري ابتلاع مصر كلهـا، ولسوف تغمـرها أمواج المحيط، وقـد قالوا: « نحن نعرف أن ميـاه البحر الهائجـة لاتستقر في مكان واحـد، بل أينما وجدت طريقـاً للجـريان تندفع بشدة متنـاهية، وتقهـر كل شيء، لابل أكثـر من هذا، فنحن إذاماافترضنا أن مياه البحر سوف تستقر في قناة النيل، فإنها سـوف تلوث مياه النيل الصحيـة والعذبة، وهي الميـاه التي تسقي مصر كلها، ومنها تشرب جميع مصر، لانعـدام الآبار في البلاد، ولسوف تجعل ميـاه النيل مرة، وغير قـابلة للشرب، وبلافائـدة، فكيف على هذا يمكن

لمصر أن تبقى إذا فقدت خدمات النيل؟ فبالضرورة سوف تكون غير مسكونة، لأنها لاتتلقى نعمة مطر السماء، الذي يتساقط على بقية أجزاء العالم، علاوة على ذلك، وإلى جانب هذا كله، نحن نعرف بشكل صحيح، أن ماانخشاه على مصر بهذا العمل هو أنها سوف تتعرض للدمار مع الأراضي البعيدة، وذلك عندما نقدر الحجم الكبيرللمحيط، والهائل الذي لامثيل له، مع جبال أمواجه العاتية التي تصل حتى السماء، والفتحات المظلمة فيما بينها، ويبدو لنا أننا ماأن نسمح للمياه الهائجة غير المدجنة بالعبور فوق حدودها، سوف يعقب ذلك على الفور تدفق كتل هائلة من المياه، وأول ماسيحدث هو أن جميع جزر البحرين سوف تطغي عليها المياه، ولسوف تجرف المياه: الفرس، والميديين، والعرب أيضاً جميعاً مع المصريين، ولسوف تغرق جميع الأراضي على شاطىء البحر، ثم إن ايطاليا لن تنجو من تلقي نصيبها من القوى غير الملجومة، ولسوف يطوف الأرخبيل البندقي وينغمر، ولن يتوقف البحر حيث هو، كما أن أمواجه لن تتوقف مطلقاً حتى تملأ الوديان الدنيا للألب، وتصل حتى سفوح أعالي الألب، وذلك كعلامة تبرهن على أن هذه الجبال قد عملت قبل عصرنا»، هذا وتقدم لي أن تحدثت بعض الشيء عن هذا الموضوع في ص٢١٧ وماتلاها.

وعندما سمع الملك بطليموس هذا، وتصور أن ذلك صحيحاً، تخلى عن العمل، ومع ذلك ترك برهانا أبدياً حول تصاميمه العظيمة حول هذه الجبال والتلال، وفي الحقيقة لولا أن مستشاريه وضعوا نهاية لهذه الأفكار، بتقديمهم الذي اعتقدوه حول هذه المسألة، لكان من المؤكد أنه أنهى هذا العمل ونفذه، لكن ليس التنفيذ والنهاية التي أرادوها، ثم إن ذلك لم يكن مسألة صعبة جداً، مشاهدين أن المسافة بين النيل والبحر الأحمر لاتتجاوز ستة أميال ألمانية.

وانظر أيها القارىء إلى أي مدى استطردت وتجولت بعيداً عن

حجي، وارتحلت تقريباً حول العالم كله، وذلك بسبب قلل الجبال والصخور القائمة هنا أمام أعيننا، وهكذا وقفنا عند نهاية هذا البحر لوقت طويل، ونحن نحدق ونتعجب منها، وأخيراً سرنا على طريقنا، وأدرنا ظهورنا للبحر الأحمر، وارتحلنا فوق سهل رملي شاسع.

حج المسلمين إلى مدينة مكة وشعائرهم السخيفة في معبد محمدﷺ

وقابلنا على هذا السهل في هذا اليوم وفي كل مكان حشوداً من الناس مع جمال محملة، ومع حمير وخيول، وجهاز ثمين، وفي الحقيقة كان هناك في قافلة واحدة مايزيد على خمسمائة جمل، يحملون الضروريات لاستخدام الناس الكثيرين من كلا الجنسين الذين رافقوهم، وكان هناك أناس فاخرين من أغنياء المسلمين، كانوا ذاهبين للحج إلى مكة،[ولزيارة قبر نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم] وفي الحقيقة صدر الأمر إلى أتباع محمدﷺ بالذهاب كل سنة إلى مكة، إلى بيت الله، الموجود هناك، وأمروا أن يقوموا هناك بالعبادة، وبالسير حول بيت الله، وهم يرتدون ثياباً غير مخيطة، وأن يرموا حجارة من بين أطرافهم نحو الخلف لقمع الشيطان.

ويقول المسلمون، بأن آدم بعدما نفي من الجنة، تولى بناء هذا البيت تشريفاً لله، وكان هذا البيت، بيت صلاة لجميع أولاده، حتى أيام إبراهيم، فقد أعاد ابراهيم عمارته وترميمه وقدم أضحية هناك فيه، وبعد موته تركه إلى ابنه اسماعيل وله ولأولاده، وبقي مكاناً للصلاة لسنين طويلة متوالية حتى ولادة محمدﷺ، فعندما ولد أعطاه الله إياه بمثابة ميراث له ولجميع الأجيال التي جاءت من بعده، والآن كم هي هذه حكاية غير أصيلة وقطعة من الزيف، لأن كل ماقيل فيها يتعلق بهذا

البيت ليس له مايؤيده أو يزكيه في أي جزء من الكتابات المقدسة(١)، بل هو مدسوس فيها على شكل تعليقات، لأن هذا البيت كان قبل أن يبشر محمدﷺ بشريعته مليء بالأوثان، وقف هنا قليلاً أخي الانساني، فأنا أرجوك فعل ذلك لأنني سوف أبرهن لك بوضوح وأبين أي نوع من البيوت كان في البداية، ومالذي كان مقدساً فيه، ولماذا أمر محمدﷺ شعبه بالذهاب إلى هناك، والقيام بالأعمال التي بيناها من قبل، فلقد اعتاد ولدا لوط: عمون، ومآب، على تشريف هذا البيت، وعبادة صنمين كانا هناك فيه، كان أحدهما معمولاً من رخام أبيض، واسمه ميركوري، وكان الآخر من رخام أسود، وقد دعوه باسم خيموش CHEMOSH ، وقد عبدوا ذاك المصنوع من الرخام الأسود حتى يقدموا التشريف إلى ساتورن(زحل) وعبدوا المعمول من الرخام الأبيض تشريفاً لمارس(المريخ)، وعبدوا هذين الصنمين مرتين في السنة، وقدموا لهما الطاعة، أولاً لمارس، عندما تدخل الشمس أولاً إلى برج« الكبش»، لأن الكبش مقدس عند مارس، وعندما يغادره يجري بالعادة رمي حجارته، وثانيا لساتورن، عندما تدخل الشمس إلى برج« الميزان»، لأن الميزان مقدس عند ساتورن، ووقتها يحرقون البخور وهم عراة ورؤوسهم محلوقة.

واعتاد العرب أيضاً على عبادة هذين الوثنين مع العمونيين والمآبيين، وبعد مضي سنين طويلة كثيرة جداً جاء محمدﷺ الذي رغب في إزالة العادات القديمة السالفة الذكر، للناس، وغير طرائق العبادة بعض الشيء، وسمح بالسير حول البيت، وهم يرتدون ثياباً غير مخيطة، ثم إنه خشية منهﷺ أن يبدو وكأنه يعلمهم التضحية للأصنام، بنى لهم تمثالاً

١— أن يقول راهب هذا هو أمر منطقي بالنسبة له، لكن علميا تحتاج الكتابات المقدسة إلى من يزكيها،، لأنها ركام متبدل متنوع من المعلومات المخترعة الزائفة، وكان هذا مدركاً لدى الأوائل، انظر كتاب« الدين والدولة» لعلي بن ربّن الطبري—ط. بيروت ١٩٧٩

لساتورن، وذلك في جدار زاوية البيت، ثم إنه خشية من رؤية وجه هذا التمثال ترك ظهره ظاهراً من الجدار الخارجي، أما بالنسبة للوثن مارس، فقد دفنه تحت الأرض، لأنه كان محفوراً من كل جانب، وبعدما دفنه وضع حجرة فوقه، لكنه علّم قومه الذين قدموا إلى هناك للصلاة، بأن يقوموا بتقبيل هذه الحجارة، بشكل خاشع ورؤوس حليقة، وأن يرموا الحجارة نحو الخلف من بين أرجلهم، علاوة على ذلك عروا ظهورهم، وذلك كعلامة على الشريعة القديمة، وقالوا بأنهم رموا الحجارة وفق هذه الطريقة لإرغام الشيطان على الفرار، وهم الشياطين الذين بالحري يتعبدونهم بشكل سري في صلواتهم، وهذا هو العمل المشهور— أو بالحري العمل السيء— لمحمدﷺ فهو مع أنه حظر عبادة الأصنام الأخرى على قومه، سمح في مدينة مكة بإقامة واحد تشريفاً لفينوس، [٧٢—ظ] لابل إنه لم يسمح لهم بالمغادرة جميعاً من دون تشريف هذه السيدة فينوس، التي بفنونها تفاخر بأنه الرجل الأقوى، وعندما مات أخيراًﷺ قام أبو بكر خليفته فعمل له ضريحاً فخماً وضعه في المعبد المتقدم ذكره، ووضعه داخل تابوت حديدي فيما بين مغناطيسين، حسبما تقدم القول من قبل(١).

وبناء عليه، يسافر المسلمون إلى مكة، ليس فقط تنفيذاً لأوامر محمدﷺ بل يذهب العديد منهم حتى يتمكنوا من رؤية تابوت محمدﷺ معلقاً بالهواء من دون حبل أو سلسلة، وكأن ذلك لأسباب طبيعية، وينخدع الناس بهذه الحيلة، ويعتقدون بأن جسدهﷺ مرفوع هكذا بسبب قداسته، وبذلك فإن الناس غير الواعين يتصلبون في خطيئتهم ويتمسكون.

علاوة على ذلك اعتقد بعض المسيحيين بأن هذا التعليق إعجازي،

١— القيمة الوحيدة لهذه المعلومات أنها تمثل درجة جهل فابري بالاسلام، ومدى حقده عليه.

فتخلوا عن الإيمان بالمسيحية، واقتاد بعضهم الفضول للقيام بالحج مع المسلمين، وذلك بالتظاهر بالرغبة بمشاهدة ضريح محمد ﷺ، وبسرور أخذ المسلمون مثل هؤلاء الناس معهم، حتى من دون تحليهم عن ايمانهم، وسمحوا لهم بالدخول إلى نزلهم القائمة على طول الطريق، من أجل رعاية الذين يذهبون في هذا الحج، وأعترف أنني غالباً ماأغريت بزيارة ذلك الضريح(المبارك) وفق هذه الطريقة، وأن يكون معي مرافق واحد، وبصعوبة منعت نفسي وأوقفتها عن القيام بمثل هذا العمل، وهنا يقوم السؤال التالي: هل الذي يقبل قبر محمدﷺ أو يركع أمامه، أو يفعل أي شيء من هذا القبيل بالتعبد هناك، هو كافر؟ وأجاب الاسكندر أوف هول Hall (كذا) على هذا بقوله:« إنه إذا مافعل ذلك كمجرد كلام، وليس من قلبه كله، فهو على ذلك مقترف لذنب عظيم، ومع ذلك هو ليس مهرطق أو محروم كنسياً، كما أنه ليس بحاجة للذهاب إلى البابا أو إلى الأسقف للحصول على التحليل»، فهذا ماقاله الاسكندر، لكن الذي يدخل وهو متظاهر بالتعبد، ويقدم التشريف للقبر بحركاته الظاهرية، لكن هو في عقله مستخف به، وفي قلبه ينظر نحو أخطائهم وحماقاتهم مع نية تبيان ذلك للناس المسيحيين، إن مثل هذا الانسان، وإن عدّ مقترفاً لذنب صغير بسبب فضوله وطفيليته، هو ينبغي— كما اعتقد— أن يعاقب عقوبة خفيفة، أو حتى يعفى عنه، وقد حكيت عجائب كثيرة حول ضريح محمدﷺ هذا، وفي الحقيقة، حدث في القديم أن جميع العالم، اندهش نحو التمثال الحديدي العائد لبيليروفون Bellerophon في مدينة سميرنا Smyrna، وإنه مثل هذا جميع الناس مندهشون تجاه هذا الضريح، ولقد كان الضريح المتقدم ذكره واحداً من عجائب الدنيا السبعة، بسبب بقاء مثل هذه الكتلة العظيمة من الحديد معلقة في الهواء، وذلك من دون أن تكون مربوطة بسلسلة من الأعلى، أو مدعومة بأية دعامة من الأسفل، لأن حجر المغنطيس وضع من الأعلى على ظهر قوس طويل جداً، كما أنه وضع

أيضاً في البلاط من تحت بالشكل نفسه، وبذلك جرى جذب التمثال نحو الأعلى ونحو الأسفل، وهكذا بقي معلقاً بين الاثنين، وبهذه الطريقة نفسها القبر الحديدي لمحمدﷺ معلق في الهواء بقوة مغناطيس، وذلك باستثناء أن قبر محمدﷺ هذا ليس عظيم الوزن مثلما كان تمثال بيليروفون، الذي احتوى على خمسة آلاف رطل (Pounds) من الحديد، لأنه كان مكونا من فرس عظيم مع رجل على ظهره.

هذا ولقد سمعنا رواية صادقة ومؤكدة، أنه في سنة ١٤٨٠ لتجسيد ربنا هبت فجأة عاصفة مرعبة، أرسلتها الحكمة الربانية، مع برق مضيء، ورعد مخيف تردد سماعه، ووقتها نزلت نار من السماء، ترافقت مع تساقط برد عظيم فوق مكة، وقد جرف ذلك المعبد والقبر لذلك النبيﷺ إلى أعماق الأرض، كما أن شطراً كبيراً من المعبد قد تهدم، وأتلفته النيران، وهكذا جرى حرمان المسلمين من آثار جسد نبيهمﷺ واضطربوا بذلك اضطراباً تاماً، لو أنهم تفكروا بذلك وفهموه، لكن قلبهم الأحمق قد ازداد قسوة، وهم الآن يذهبون حاجين إلى ذلك المكان كما فعلوا من قبل، وسيستمرون ربما بفعل ذلك من بعد، كما سلف لي وأشرت إلى ذلك من قبل، وهكذا قمت الآن من أجل حج وحجاج محمدﷺ بترك حجي الخاص، وعملت حجاً معهم بالخيال، وذلك من أجل أن أرى الفارق فيما بين حجنا وحجهم، لأن حجنا هو إلى ضريح يسوع المسيح ابن الرب، وكذلك سعياً وراء آثار العذراء القديسة كاترين الأكثر فضيلة، في حين إنهم يرتحلون إلى ضريح محمدﷺ، ويبتغون خدمة فينوس تلك العاهرة الأكثر شهوانية(كذا).

ولأستأنف الحديث عن حجنا: لقد مضينا على طريقنا، وقابلنا آخرين كثر من الحجاج المسلمين، الذين كانوا يسيرون على شاطىء البحر الأحمر إلى العربية المباركة، حيث توجد مدينة مكة على شاطىء البحر الأحمر(كذا)، ذلك أنها مدينة جميلة، وميناء بحري هام، إليه يجري جلب

كميات كبيرة، من البخـور، والفلفل، وأكباش القرنفل، والقـرفـة، وماشابه ذلك، وذلك بوساطة البحر، وتحمل هذه السلع من هناك على الجمال من قبل الحجـاج، ويجري ارسالها حتى دمشق وأماكن أخرى، وكـان سبب مصـادفتنا لمثل هـذا العـدد الكبير من الحجـاج، هو أن صيامهم كـان قـد بدأ، وهم يفضلون في هذا الوقـت الذهاب للقيام بالحج، وذلك مثلما يفعـل المسيحيـون، عـلاوة على ذلـك، إنه في ذلك الفصل من السنة تتراجع حرارة الشمس الهائلة بعض الشيء.

ووصلنا عند الظهيرة إلى ساحـة كبيرة مع كثير من القـاعـات، وقـد كـانت هذه عبارة عن نزل، وبعـد دخولنا إلى ساحة النزل وجـدنا بئراً كبيراً وفخماً، مع دواليب وأحواض حجرية ومصبات ماء، وهم يطلقون عليه اسم جـب السلطان، وتقـوم الثيران بنضح المياه منـه باستمـرار، وبعـدمـا دخلت جمالنا إلى هـذا المكان، ترجلنا من على ظهـور حميرنا، وتذوقنا الماء، لكننا لم نستطع الشرب منه لأنه كـان ساخنا، وبلاطعمـة، لابل كـان مـالحاً بعض الشيء، لكننا سقينا دوابنا، وأعتقـد أنه لابد قـد وجـد فوق هذه البقعـة خان منذ القـديم، لأنه هنا تلتقي الطرقـات مع بعضها، وهي الطرقات التي تقود من مصر إلى جميع أجزاء الدنيا، ولربما أقام مـوسى في هذا النزل، وعندما أراد الرب أن يقتله، لأنه لم يختن ابنه Eliezer، وهناك قامت صفوره بختانة(الخروج:٤/ ٢٤—٢٥)، وبعدما شـاهدنا هذا المكان، تابعنا سفـرنا فوق ذلك السهل الجاف حتى غيـاب الشمس، وأنزلنا الأثقال من على ظهـور دوابنا للاستراحة في مكان فوق السهل اسمه Choas، وهبت هناك ريح قـوية وعنيفة جـداً، ولذلك لم نستطع بأي سبيل نصب خيـامنا، فما أن ثبتنـاهم بالأوتاد، حتى اقتلعت الريح الأوتاد من الأرض، وألقت الخيـام فـوقنا، وبعدمـا ألقتهم الريح عـدة مـرات، مللنا من هذه المهمـة وتعبنا وتركنـاهم ممدودين فـوق الأرض، كما أننا تجولنا حـول المنطقـة حسب عـادتنا لإلتقـاط بعض

العصي من على السهل، غير أننا لم نجـد شيئاً يمكن أن يحترق، ولذلك أخذنـا بعض الأوعية الخشبيـة مما فرغ مما كـان فيه خمرة وماء، وكـذلك سـلال بيضنا، وصناديق دجـاجنا وكسرنـاهم جميعـاً، وعملنا ناراً منهم، لكن الريح التي كـانت قوية بعثـرت النار التي عملناها، ولذلك أرغمنا على الوقوف من حـول النار حاملين أقمشتنا وثيـابنا، لصد عنف الريح عن النار، وبناء عليه أكلنا في تلك الليلة، وشربنا ونمنا في الهواء الطلق، وانزعجنا كثيراً بهبـات الريح وبتحـركات الرمـال، وقـدم في تلك الليلة إلينا بعض الفقراء من البداة العرب، ورجونا منحهم بعض الخبز، الذي برغبـة منا ورضـا منحناهم بعضاً منه لأنهم بـدو أنهم متواضعين جـداً، ويتصرفون بشكل لائق.

واستيقظنا في اليوم الخامس عند منتصف الليل، وكان ذلك اليوم هو الأحد التـاسع عشر بعد التثليث، وعندما جـرى تحميل الدواب، غادرنا Choas، وسرنا فـوق ذلـك السهل القـاحل والشـاسع، حيث لم يكن هناك شيء أخضر مهما كان نوعه، وقبل شروق الشمس وقع لنا حادث، لن أتجاوز ذكـره، فقـد كـان في مجمـوعتنا الأولى النبيل العظيم والسيد الكبير برنارد فـون بريتنبـاخ Braithenbach، الذي كـان وقتهـا حـاجب الكنيسـة المطرانيـة في مينز، والذي هو الآن عميـدها الأعظم جدارة، فبسبب ضعفه وسوء صحتـه عمل الرحلة كلها خلال الصحراء في سلة على ظهر جمل، وقبل فجر اليوم أمر الجمل الذي كان على ظهره أن ينوخ حتى يتمكـن من انعـاش نفسـه بالمشي بضع خطوات فـوق الرمال، وبعـدما أنعش نفسـه، تسلق ثانية إلى سلتـه، وسار جمله خلفنا، لكن بعدما سرنا بعض الشيء، أدرك السيد المذكور أن ماله كله قد وقع منه، من داخل صدره، حيث كـان قد وضعه، وخاط عليـه داخل حزام اعتاد أن يحزم به نفسـه أثناء الليل، وذلك بغية إبقـاء ماله مصـاناً، وكان معـه هناك كميـة كبيرة من الدوقيـات، وقـد وقعـت منه على الرمل في

المكان الذي توقف فيه.

وقد استدعى كالينوس إليه، واشتكى إليه فقدانه لماله، وهنا أمر كالينوس بوقوف القافلة، وأمر جمله بأن ينوخ، حتى يتمكن من الترجل، ويركض مسرعاً عائداً إلى المكان الذي اعتقد المعلم برنارد بأن ماله قد وقع فيه، وذهبنا نحن الحجاج إلى هناك معه، وبحثنا من أجله، لكننا لم نجده، وقد بحثنا فوق جميع المنطقة التي حوت آثار طبعات قدميه، لكننا لم نجد المال، وكان تعبنا بلافائدة، وكان يعرف بشكل أكيد أن ماله قد وقع في ذلك المكان وليس في غيره، ولذلك تجولنا في ذلك الموقع، وبحثنا فوق الرمال بأيدينا، وأخذنا حيطتنا بأن لايقترب منا أحد البداة العرب، ولامن سائقي الجمال أو سائقي الحمير، الذين أمسكناهم مراراً متلبسين بأعمال السرقة، إنما بعدما بحثنا لوقت طويل وتقصينا لم نجد شيئاً، فحكمنا بأن ذلك المال قد تمّ العثور عليه وسرقته من قبل واحد من البداة العرب، أو من سائقي الجمال، وبعد التشاور فيما بيننا حول ماينبغي القيام به وفعله لاسترجاع المال، تمنينا لو أنه كان قانونيا القاء القرعة أو البحث بوساطة التكهن بالقداح، مثلما تبرهن بأن عخان كان لصاً(يشوع:٧)، وكذلك عندما أخذ يوناثان طعاما[صموئيل الأول:١٤/٢٧]، لكن في قضية مثل هذه ليس قانونيا إلقاء القرعة، على أساس أنها محرمة بالقانون ضد التكهن بالقداح، ولذلك فكرنا ثم اتخذنا قرارنا باحضار جميع البداة العرب مع سائقي الجمال وسائقي الحمير الذين كانوا معنا، وجمعهم في مكان واحد، وأن نطلب منهم إعادة المال إلينا، ووقتها إذا لم يعيدوه إلينا، سوف ننقض عليهم ونربطهم ونجردهم من ثيابهم، ونضربهم، ونسيء معاملتهم، ونعذبهم حتى يعيدوه إلينا، لأننا كنا بالعدد أكثر منهم، ورجالاً أفضل منهم إذا وصل الأمر إلى الضراب، وبعدما أبرمنا هذه الخطة ركبنا حميرنا، ونحن كلنا أسف، وغضب، وحنق، وسرنا خلف الجمال الذين كانوا يسيرون

أمامنا.

وعندمـــا وصلنا إلى أولئك الناس، نظرنـا شـــذراً إليهـم، وأخبرنا كـالينوس بالذي عـزمنا على القيـام به، وعندمـا سمع هذا انزعج كثيراً، واستدعى إليـه جميع الرجال الذين شك بهم، وطلب باخـلاص وجدية منهم إعادة الذهب الذي وجدوه، لكن مامن واحد أجابه صادقاً، وقمنا نحن أنفسنا فرجـوناهم بإعادة المال، وعرضنا منح جـائزة للرجل الذي وجده، لكننا لم نحصل على شيء بعملنا هذا، وهنا غضبنا وازداد حنقنا، فشرعنا نتهـــددهم، وسعينـا إلى إلقـــاء الأحمال من على الجمال، في حين وقف الفـــرســان من حـولنـا، وسيـوفهم مجردة، ولم يسمحـــوا لأحـد، بالابتعاد، وعندما رأى سائقو جمالنا وسائقو حميرنا بأننا كنا جادين، وأننا سـوف نتعـــامل معهم على الفـــور بخشـونة أعظم، اعترتهم الـدهشـة، والتمسـوا من كـالينوس تخفيف غضبنا، خشيـة أن تسـاء معـاملة أناس أبرياء، وشرح لهم كالينوس مانوينا عمله، قائلاً بأننا سوف ننزل الأثقال كلهـا، ونفتش في جميع الحقائـب التي كانت على ظهـور الجمال والحمير، وأننا إذا لم نجـد المال هناك، سوف ننقض عليهـم ونجردهم من ثيـابهم حتى يكونوا عراة، ونستخرج مالنا منهم بالتعذيب.

وكنا في ذلك الوقت قد ألقينا بالأثقال من على ظهور الجمال، وشرعنا بتفكيكهم، ثم أخـذنا بإلقـاء سلـع أولئك التعسـاء من حـولنا، في حين وقفوا هناك يراقبـوننا وهم يرتجفون ويبكون، وفي أثناء القيـام بهذا، جاء واحد من أولئك البداة العرب، وكـان قد التحق بنا في ذلك المساء، جاء سراً إلى كـالينوس، وأخبره بالعثور على المال، وهنا صرخ كـالينوس على الفـور إلينا وطلب منا التعـامل معهم بســلام، لأن المال قد عثـر عليـه، وبناء عليـه أعدنـا تحميل الجمال، وتابعنا السير على طريقنا، وتسلم ذلك السيد مـاله من كالينوس، وقد منح دوقية إلى ذلك العـربي الذي وجده، وكـان عربيـاً صـاحب مظهر بسيط ووجـه بريء، وقـال البداة العـرب

الآخرون عنه بأنه وجد في وقت آخر كنزاً كبيراً، كان قد وقع في القفار، وأنه أخذه إلى صاحبه وأرجعه إليه.

وسرنا بعد ذلك فوق ذلك السهل الأجرد، ومشينا طوال النهار في شمس محرقة بحرارتها حتى غياب الشمس، وقد قررنا أن نستريح في مكان اسمه المفرق Maffrach وذلك إلى جانب الطريق العام، ولكن عندما عسكرنا لم نستطع نصب خيامنا، لأننا لم نتمكن من تثبيت الأوتاد في تلك الرمال الناعمة جداً، وكنا جميعاً منهكين فاقديين لوعينا، ولذلك لم نطبخ أي شيء في تلك الليلة، لأننا لم نستطع العثور على أي من الوقود، وقدم إلينا كالينوس تحذيراً بوجوب التيقظ والحراسة في تلك الليلة أكثر مما هو معتاد، لأن المكان خطير بسبب المنبوذين الذين يطردون من وقت إلى آخر من مصر إلى القفار بسبب جرائمهم، فهؤلاء الناس يكمنون في مثل هذه الأماكن، وغالبا مايؤذون الذين يعبرون ذلك الطريق، ولذلك نمنا في تلك الليلة بصعوبة، لخوفنا من كل من المهاجمة، وبسبب الرياح القوية، والبرد الذي عانينا منه، وتمددنا هناك تحت قبة السماء، وكنا منهكين من شدة التعب، ومن مشاق القفار، وكل ماحصلنا عليه من راحة هو بأن نهاية متاعبنا باتت وشيكة، وأن حدود القفار لم تعد بعيدة، وماكنا لنبقى في القفار، ونمكث أربعة عشر يوماً أخريات مقابل جميع كنوز الدنيا كلها، لأنه بدا الأمر بالنسبة لنا أننا لن نستطيع تحمل المزيد من مثل هذا العمل.



توقفت عند هذه النقطة حكاية فابري عن أن تكون لها أية علاقة بكل من فلسطين وسيناء، وكان بالود الحديث كيف أنه شاهد« حديقة البلسم»، والقاهرة التي كانت أعظم مدينة في العالم، مع جميع المخلوقات الغريبة فيها من فهود، ونعامات، وببغاوات، وهكذا دواليك، مما رآه هناك، لكن المكان لايسمح بذلك، وفيه تكرارا لما جاء بالرحلات

الأخرى، والمهم هو أن الحجاج نزلوا بقارب عبر النيل إلى الاسكندرية، وقد تعذبوا كثيرا وأسيئت معاملتهم، ومن هناك أبحروا إلى وطنهم على ظهر الاسطول البندقي، وقد عملوا رحلة طويلة وواجهوا مصاعب جمة، وأخيرا وصل فابري ورفاقه إلى البندقية في الثامن من كانون الثاني سنة ١٤٨٤، وقابل هنا بعضاً من أهل مدينته أولم، الذين لم يتمكنوا في البداية من التعرف عليه، لأنه كان شاحباً قد أنهكه السفر، وكانت السيدة مرغريت صاحبة نزل القديس جورج، الذي كان البيت الألماني في البندقية، قد تزوجت ثانية، وكان زوجها هو نيقولا فريج الذي كان واحداً من خدم البيت، وقد حدثنا فابري بأنه كان مسروراً بمعرفته بصاحب النزل الجديد، لأنه كان رجلاً جيداً وبشوشاً، ويبدو أنه لاقى استقبالاً جيداً، وأنه تلقى دعوة من المعلم برنارد بريتنباخ لزيارته في مينز، ليصوغا رحلتهما معاً، لكن فابري لم يستطع القيام بذلك، لأن واجبه كان الذهاب أولاً إلى ديره في أولم، وعندما وصل إلى هناك بعد كثير من المغامرات كان الرهبان يتعشون، لكن كلب الدير عرف خطواته، فأصدر عواءاً عالياً جداً، وأخذ يخدش الباب الذي جرى فتحه فوراً، وقد رحب به جميع الرهبان وكأنه انسان عاد من الموت، وفي الوقت نفسه جاء خلال الاسبوع التالي جميع أعيان المنطقة إليه للترحيب به، ولتهنئته بالعودة، وهنا لابد لنا من أن نقول له: وداعاً.

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

ورود التاريخ

تصنيف

روجر أوف ويندوفر (ت ١٢٣٧)

(٤٤٧ — ١٢٣٥ م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء التاسع والثلاثون

دمشق ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م

الموسوعة الشامية في
تاريخ الحروب الصليبية

ورود التاريخ

الجزء الأول

(١٠٩٩ــ١٢٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

كان على رأس المصاعب التي واجهتها أثناء عملي في هذه الموسوعة مسألة استيفاء المصادر والانفاق عليها، وأعترف هنا أنني لدى شروعي بالعمل في هذه الموسوعة لم أكن مقدراً تماماً مقدار النفقات التي سوف أحتاجها لاستيفاء المصادر والحصول عليها، مع تقديري الكامل لحجم العمل ومتاعبه، مع الاستمرار بالعمل الجامعي وبنشاطات ثقافية أخرى متعددة، وليس من الغلو القول بأن ماأنفقته خلال السنوات الخمس الماضية تجاوز مايعادل مائة ألف دولار أمريكي، مع مواجهة لمردود ضعيف نظراً لمايعانيه الكتاب الآن في الوطن العربي، وللأوضاع الاقتصادية المتردية لجمهور القراء العرب، ولأن الناس لايثقون كثيراً بالكتاب الموسوعي قبل أن يكتمل.

وأثناء العمل لاقيت التشجيع من قليل من الناس في موقع المسؤولية السلطوية وفوجئت بموقف بعض الوزراء الأكاديميين في دمشق، لكن لم أعبأ بذلك، فأنا حين شرعت بعملي هذا كان اتكالي على الله واعتمادي المطلق عليه جلت قدرته، وذلك من مصدر ايماني ثابت، ومعرفة مؤكدة بما ذكره محمد بن الحسن الشيباني في كتابه الكسب بأن« هذا العلم دين»، فما من دين شجع على العلم مثلما فعل الاسلام الحنيف، الذي ترافقت بدايته بالقراءة والكتاب والقلم، ولم يعرف التاريخ الانساني أمة اعتنت بالكتاب والعلم مثل أمة الاسلام.

ومادام هذا العلم دين، فقد تكفل الله بحفظه، وعلى هذا الأساس كنت كلما واجهت صعوبة في الحصول على مصدر من المصادر، كانت تنفرج بعد وقت، لكن مع زيادات كبيرة وفوائد جديدة، فلقد سعيت

للحصـول على نسخـة من تاريخ متى باريس، الذي أرخ فيـه من سنة ١٢٣٥ حتى ١٢٧٣، وكان هذا الكتاب قد طبع منذ مائة وخمسين سنة، فلم أجد في لندن مبتغاي، كما لم أقف على نسخة منه في واشنطن، حيث كنت قد بعثت بابنتي إلى الولايات المتحـدة، وقد فتشت هناك فلم تقف على ذكر لهذا الكتـاب، وفي الوقت نفسه كنت كلما زارني أحـد الباحثين من العـالم الغربي أعطيه اسـم الكتاب وأتمنى عليـه مساعـدتي للحصول على نسخة مصورة منه.

وأثناء مؤتمر أكاديمي انعقد منذ عـام في مدينة الرياض التقيت بمدير القسم الشرقي في مكتبـة جامعـة كمبردج، وطلبت مساعـدته، وبالفعل كتب لي عن وجود نسخة من الكتاب في جامعة كمبردج، وأن تصويرها سـوف يكون باهظ النفقـات، وقـال بأن هناك كتـاباً اسمـه« ورود التـاريخ»، يعدّ هو الأصل لتـاريخ متى باريس، وهنا انفتح أمـامي باب معـرفـة جـديدة مع أمل بالحصـول على نسخـة من تـاريخ متى باريس، وبالفعل زارني صـديق قـديم مقيـم في لندن، فأعطيتـه اسـم الكتـاب، وبينت له أن معلوماتي بأنه طبع بالتصوير حديثاً وأنه متوفر في المكتبات، وناولته مايغطي ثمن نسخة مع أجور البريد وزيادة.

وسـافـر الرجل إلى لندن، ومع أنـه قـدم إلى دمشق بعـد ذلك أربع مـرات، لكنه لم يجلب شيئاً معـه، وكـان في كل مـرة يعتـذر بشكل من الأشكال، وحـدث في تلك الآونـة أن تلقيت من ألمانيـا طرداً بـريدياً، عندما فتحته فوجئت بوجـود نسخة مصورة من تاريخ متى باريس فيه، فسررت كثيراً، وقد أرسله صديق حلبي متـزوج من ألمانية، زارني معها، ذلك أنها كانت تعد رسالة دكتوراه في التاريخ، وبعد مـرور عدة أشهر تسلمت صورة نسخة أخرى من تاريخ متى نفسه من مونتريال في كندا، أرسلتها سيـدة سورية من درعا تعيش هناك، وتحضر رسـالة دكتوراه في التاريخ العبـاسي، ولما يئست من وصول نسخـة من« ورود التاريخ» من

لندن، قــام ابني مصطفى الذي يختـص بالطب هناك بتأمين نسخــة لي، وهكذا بات لدي نسخـة من ورود التـاريخ مع نسختين من تاريخ متى باريس، ولدى دراستي للكتـابين تبين لي أن« ورود التـاريخ» مصنف في التاريخ بدأ أخباره بالخليقـة، وهكذا حتى سنة ١٢٣٥م، وقد جرى سنة ١٨٤٨ نشر جزء منه تضمن أخباره من سنة ٤٤٧م، حتى نهاية الكتاب، وجــاء ذلك في أربعـــة مجلدات، وطبعت هذه المجلـدات في لندن سنة ١٨٤٩، ونسب هذا الكتـاب إلى روجــر أوف ويندوفـر Wendover، الذي لانعـرف شيئاً مؤكـداً عنه غير اسمـه، ونستخلص من هذا الاسم أنه كــان من أهالي بلـدة ويندوفــر في بكنهـام شير، لكــن لاندري سنة ولادته ولادرجة تعليمه ولاتاريخ أخذه بالرهبانية في دير القديس ألبان، ولقد تدرج في المناصب حتى صـار قائد جـوقة المرتلين في ديره، وترقى بعد ذلك إلى مـرتبة رئيس الرهبـان في بلفوير Belvoir ، وهو مـــركز رهبـاني ملحق بدير القـديس ألبـان، ولعلـه وصل إلى هذا المنصب أيام الملك جـون— أخو رتشارد قلـب الأسد— وقـد عزل منه بعـد ارتقاء هنري الثالـث للعرش، وذلك بحجة تبـديده لأموال بيتـه الديري، لأنه كان مبذراً.

وقد استقينـا هذه المعلومات من متى باريس، الذي ستكون لنا وقفـة معه في المستقبل، حيث يبـدو أن متى أخذ كتاب« ورود التـاريخ» وأعاد نسخـه مع تعـديلات طفيفـة وذيل عليـه، وأوصل أخبـــاره حتى سنة ١٢٧٣، هذا وجـرى فيها بعـد استـدعــاء روجـر أوف ويندوفـر إلى دير القديس ألبان حيث توفي في يوم السادس من أيار سنة ١٢٣٧.

وكتـاب« ورود التاريخ» كتـاب بالغ الأهميـة، فيه مـادة مفيدة جـداً، استقـاها مصنفه من مـؤرخين أوربيين غربيين وشرقيين بيـزنطيين، ومع ذلك وقع اختيـاري على ماتعلق ببدايـة الحروب الصليبية منذ ١٠٩٥م، لدى انعقاد مـؤتمر كليرمونت برئـاسة البابا أوربـان الثاني، وجعلت هذا

الاختيار في مجلدين، ينتهي أولهما مع أخبار سنة ١٢٠٠م، وينتهي ثانيهما مع نهاية الكتاب، ذلك أنه على أهمية مواد الكتاب كلها، إن الأخبار التي عاصرها المؤلف وتشمل خمس عشرة سنة هي الأعظم أهمية وتفصيلاً.

ولم ألجأ في تعاملي مع مواد هذا الكتاب إلى أعمال الإنتقاء، لأن كل مافيه هام بشكل مباشر أو غير مباشر بالنسبة لأحداث الحروب الصليبية، لأن العرب آنذاك، وبشكل محدد منذ أن وحد نور الدين بلاد الشام مع مصر، وقفوا في وجه أوربا كلها، وشكلوا مكافئا لها حتى معركة مرج دابق واحتلال العثمانيين لأرض الشام ثم مصر.

أرجو أن تحصل الفائدة من هذا الكتاب، وأن يمنحني الله القدرة والعون على اكمال مشروع هذه الموسوعة، ولله الحمد دوماً وأبداً، فأفضاله لاتعدّ ولاتحصى، وصلى الله على نبيه المصطفى، وعلى آله وصحبه أجمعين.

دمشق:٢٣ رجب ١٤٢١هـ.

٢١ تشرين الأول٢٠٠٠م.

سهيل زكار

المجمع الذي عقده البابا أوربان بخصوص الحملة إلى أنطاكية

في السنة نفسها، أي في سنة ١٠٩٥م عقد مولانا أوربان مجمعاً في كليرمونت وهي مدينة في أوفرين Auvergne، وأصدر الأوامر التالية المتوجب مراعاتها من قبل الكنيسة كلها:

لايجوز لأي سقف، أو راعي دير، أو أي واحد من رجال الدين، تسلم أية مرتبة دينية من أيدي أمير أو أي واحد من العلمانيين.

لايجوز لأي رجل دين شغل عملين في كنيستين أو في مدينتين.

لايجوز لأي واحد أن يكون أسقفاً وراعي دير في الوقت نفسه.

لايجوز شراء أو بيع أي مرتبة لاهوتية.

لايجوز لأي واحد، مهما كانت مرتبته في الطوائف المقدسة استخدام التجارة الجسدية.

إن الذين حصلوا على منافع بسبب جهلهم للقانون سوف يعفى عنهم.

إن الذين يحتفظون عن معرفة بأوقاف كنسية شروها هم أنفسهم، أوشريت من قبل آبائهم سوف تنتزع منهم.

لايجوز لأي رجل علماني أكل لحم من أربعاء الرماد(أول الصوم الكبير)، كمالايجوز لأي رجل دين أكل لحم من أحد الخمسين حتى الفصح.

إنه في جميع الأوقات سوف يكون الصوم الأول للفصول الأربعة في الأسبوع الأول من الصوم الكبير.

إن الطوائف المقدسة سوف تكون في جميع الأوقات في أوضاع مهيبة،

وإما في عشية يوم السبت أو يوم الأحد، إذا ماستمر الصوم.

إنه مـــامن مكتب يكون في وضع مهيب في سبت الفصح، إلاّ بعـد الساعة التاسعة.

يحتفل بالصوم الثاني في اسبوع أحد العنصرة.

إن جميع الأوقات من الأحد الرابع قبل الميلاد حتى اليوم الثامن من عيد الغطاس، وكـذلك من أحد الخمسين إلى اليوم الثامن من الفصح، ومن اليوم الأول من أيام الإبتهـال إلى اليوم الثامن بعـد أحد العنصرة، ومن اليـوم الرابع من الاسبوع، عند غيـاب الشمس، حتى اليوم الثاني من الاسبـــوع، عند اشراق الشمس، ســوف تكون أيام هـدنة(للرب)، ينبغي مراعاتها.

إن كل من يعتقل أسقفا، يعدّ من جميع الجوانب، خارج القانون.

إن كل من يعتقل أي رجـل دين، أو أيا من خـدمهم، ســوف يكون ملعونا.

إن كل من يسلب سلـع الأسـاقفـة أو رجـال الديـن، سـوف يكون ملعوناً.

إن كل من يتـزوج في إطار القرابة الوثيقـة حتى الجيل السابع سـوف يكون ملعوناً.

لايجوز انتخاب أي انسـان إلى الأسقفية، مالم يكن كـاهنا، أو شماساً، أو معاون شماس، أو أن يكون مـن حيث الأصل محترماً بما فيـه الكفاية، وذلك مـــالم تكـن هناك ضرورات ملحـــة، ويكون ذلـك بترخيص من البابا.

ولايجوز السماح لأبناء الأساقفة، أو لأبناء خليـلاتهم بالدخول بسلك الكهنوت، مالم يكونوا قد تبنوا الحياة الرهبانية أولاً.

إن كل من فــر إلى الكنيسـة أو إلى الصليب، ســوف يكون آمناً على أعضائه، وسوف يحول إلى العدالة، أو يطلق سراحه إذا كان بريئاً.

إن لكل كنيسة عشورها الخاصة، التي لايجوز تحويلها إلى أي آخر.

لايجوز لأي علماني شراء أو بيع العشور.

لايجوز استيفاء رسم من أجل دفن الموتى.

وجــدد البــابا أوربان في هذا المجمـع أوضـاع هيلــد براند Hilde-brand [بابا روما] والحرمــان الكنسي لفيليب ملك الفرنسيين، لأنه متزوج زوجـة رجل آخر، أعني زوجة فولك كـونت أوف آنجو، مع أن الكونت وزوجته السالفة كانا معا أحياء.

موعظة البابا في المجمع حول الحملة إلى الأرض المقدسة

عندمـا شارفت أعمال المجمع— الذي عقـد في تشرين الأول— على الانتهاء، وجه البابا موعظة إلى الناس حول حمل الصليب، وفق الطريقة التــاليـة، حيث قــال:« إخـواني، وأعــز أبنائي، ســواء من الملوك، أو الأمـراء،أو الدوقـات، أو المركيـزات، أو الكونتـات، أو البـارونات، أو الفرسان، وكذلك أنتم الذين في الطوائف، وباختصار أنتم جميعاً، الذين أنقذتم بالآلام الجسدية، وبسفك دم مولانا يسـوع المسيح، استمعوا إلى شكاوى الرب نفســـه، التي وجهت بـالخطاب إليكم جميعـــاً، حــول الأخطاء، والأذى الذي لايوصف، الذي أنزل به.

فبعد سقـوط الملائكة، خلق الله العالم، وقسمـه إلى ثلاثة أجزاء هي: أوروبا، وآسيا، وأفريقيـا، ووضع الناس بهم، ليزيلوا ردة سكان السماء، ولكي يتمكنوا مـن استحـواذ الأرض وعبــادته فيهــا مع المخلوقــات الأخرى، وليتمكنوا بعد الموت من الصعود والحكم معه في السماء، لكن بعـد وقت قصير ضل الجنس البشري، بعدم الطاعـة وبالعـدوانية ضـد

الرب، ووصل الأمـر إلى حد أنه لم يعد هنـاك بين الجنس البشري، أحد عمل خيراً، ذلـك أنه ممايـرعب النفس أن العـــالم كله بـات مليئاً بغير المؤمنين، وبالكفار المجدفين، الذيـن عبدوا العصي والحجارة، وهكذا إنه لخزي المسيحيين القلائل الذين بقوا، استولى غير المسيحيين على سورية، وأرمينية، ومقاطعات آسيا الصغرى: بيثينيـا، وفريجيا، وغلاطيا، وليديا، وكاريا Caria، وبامفيليا، وايسرانيا Iraenia، وليشيا Lycia، وكليلية، واحتلوا أيضاً، وتملكوا بشكل أبدي آسيا، الجزء الثالث من العالم، والتي لاقت تقـديراً عـاليـاً من قبـل أجـدادنا مسـاوياً لامتـدادها إلى الجزئين الآخرين، حيث فيهـا لاقى جميع الرسل— باستثناء اثنين— الشهادة من أجل الرب.

وفي هذه المناطق، يدفع المسيحيـون— إذا كان قد بقـي أحد منهم— الجزية إلى هـؤلاء غير المسيحيين، ومع الشعـــور بالخزي، نقـــول إنهم استحـوذوا الآن على أفريقيـا، التي هي الشطر العظيم الثـاني الآخـر من أجـزاء ذلك العـالم وهم منذ ثلاثمائـة سنة وأكثـر، يتملكون ذلك العـالم الذي كان من قبل الحاضن لقدرات رائعة، وموثوقة، وذلك بإعطاء بني البشر الكتابات المقدسـة، وبقمع آثار الكفر، كما هو معلوم لجميع الذين يعرفون الأدب اللاتيني.

وفي الجزء الثـالـث من العـــالم الـذي هو أوروبا، التي نتملـك نحن المسيحيون شطراً صغيراً منها، إن ذلك الشطر مهدد بشكل متواصل من قبل الأتراك والمسلمين، هذا وإن اسبانيا وجزر البليارد خاضعة لهم منذ ثلاثمائة سنة، وهم يأملون الآن بالتهـام المتبقي، فلقد استولوا على ايليريا Illyricum وعلى جميع المنطقة التي دونها وذلك حتى البحر، الذي اسمه ذراع القـديس جـورج(البـوسفـور)، وهم يدّعـون ملكيـة ضريح ربنا، ويبيعون بالمال إلى حجاجنا إذن الدخـول إلى المدينة المقدسة، التي ينبغي أن لاتكون مفتوحة لأحـد غير المسيحيين لو أن في صدورهم القليل من

فضيلة الايمان.

وعلى هذا، أعدوا أنفسكم للقتال يامقـاتلي الشجعان، ومن أجل حملة لاتنسى ضـد أعداء الصليب، واجعلوا عـلامة الصليب تزين أكتـافكم، كدليل على أنكم سـوف تقدمون العون من أجل نشر المسيحيـة، ودعوا جهـودكم الظاهرية تعبر عن إيمانكم الداخلي، أديروا ضد أعـداء المسيح هذه الأسلحـة التي حتى الآن لطختموها بالدمـاء في القتال والمبـارزات فيما بينكم، ولتكن غيرتكم في هذه الحملة تكفيراً عن السلب، والسرقة، والقتل، والفسوق، والزنا، وأعمال الحرق المتعمـد، التي بها أثرتم غضب الرب.

لتكن لديكـم رحمة نحـو إخـوانكم الذين يسكنـون القـدس وفي السواحل هناك، وأوقفوا رعونة البرابرة، الذين هدفهم هو تدمير الاسم المسيحي، وبالنسبـة لنا نحن، اننا سنثق برحمة الرب القـدير، وبسلطان رسوليـه المباركين: بطرس وبولص، وبفضـائل القدرة التي منحنا الرب إياها، مع أننا غير جديرين بها، ولربط وتحليل جميع الذين سينضمون إلى هذه الحملة بأشخـاصهم، وعلى نفقتهم، إنهم سوف يتلقـون عفواً عـاماً عن جميع ذنوبهم، التي سـوف يستغفـرونها في قلوبهم، مع الاعتراف بها بشفاههم، وزيادة في توزيع العدالة، نحن نعد هؤلاء أنفسهم بشطر زائد من الخلاص الدائم، وهذا الغفران سوف يشمل أيضاً جميع الذين سوف يسهمون وفقـاً لقدراتهم في سبيل نجـاح هذه الحملة أو سوف يقـدمون نصائحهم، أو مساعدتهم من أجل تقدم نجاحها واستطراده.

وعلى هذا انطلقوا أيها الفرسان الشجعان، واضمنوا لأنفسكم الشهرة في العـالم، وتخلوا عن جميع المخـاوف من الموت وانفـوها من عقـولكم، لأن آلام هذا العالم لايمكن مقارنتها مع المجد المستقبلي الذي يتجلى لنا، وهذه هي أوامرنا لكم أيها الحضـور، وهذه هي تعليماتنا حتى توصلوها إلى الغياب، ونحن نعين الـربيع المقبل كموعد لبـداية عمليتكم، والرب

سوف يرافقكم في زحفكم، والموسم السنوي سوف يكون موائماً في كل من وفرة الثمار وفي جودة الأنواء.

والذين سوف يموتون سوف يجلسون في قاعة الضيوف السماوية، والذين سوف يبقون أحياء سوف يرون بأعينهم ضريح ربنا، وسعداء هم المدعوون إلى هذه الحملة، لأنهم سوف يتمكنون من رؤية الأماكن المقدسة التي تحدّث فيها ربنا مع بني البشر، والذين من أجلهم قد ولد، وصلب، ومات، ودفن، وقام ثانية».

ولقد كانت هذه كلمات أوربان، حيث أمر بعدها أساقفة الكنيسة الذين كانوا حضوراً بالعودة إلى أوطانهم، وتحريض الناس الذين تحت عهدتهم باخلاص وفهم، للمشاركة في الحملة المتقدم ذكرها.

حول أسماء النبلاء الذين حملوا الصليب وحول اجماعهم

عندما سمع رجال الدين والشعب كلمات الخطبة المذكورة أعلاه، رددوا بصوت واحد الموافقة على الموعظة، وأعلنوا عن استعدادهم للذهاب والقيام بالحج، ومع هذا قام بعض النبلاء الذين كانوا في المجمع، فألقوا بأنفسهم وجثوا على ركبهم أمام البابا، وكرسوا أنفسهم وكل مايملكون لصالح المسيح، وكان الأول بين هؤلاء أدهمر أسقف بوي، الذي تلقى من يد البابا علامة الصليب، وقد جاء على الفور وليم أسقف أوراشيا Aurasia ، وحشد من الآخرين من جميع الأعمار والأوضاع، وبعد انتهاء أعمال المجمع، عادوا جميعاً إلى الوطن، وانتشرت شهرة الذي حدث خلال العالم، ولم تقتصر إثارتها على البلدان المتوسطية بل شملت أيضاً جميع الذين كانوا في الجزائر النائية، أو الذين كانوا في الشعوب البربرية، ممن سمعوا باسم المسيح.

وكان من بين الذين حملوا الصليب: هيوج الكبير، أخو فيليب ملك فرنسا، وغودفري دوق اللورين، وريموند كونت طولوز، وروبرت

دوق نورماندي، وبوهيموند، الذي كان من أبوليا من حيث المسكن، إنما كان نورماندياً من حيث المولد، وروبرت كونت فلاندرز، وستيفن كونت تشارترز، وبلدوين ويوستاس، أخوا الكونت غودفري، وبلدوين ثاني هو بلدوين أوف بورغ، وغارنر كونت ديجرس Degres، وبلدوين كونت أوف أمانسي Amanci، وايسوارد Isoard كونت ديي Die، ووليم كونت أوف فوري Foreis ، وستيفن أيرل أوف ألبمارل Albemarle، وروتو كونت بيرشي Perche ، وهيوج كونت أوف سينت بول، وهنري دي أسكا Asca ، ورالف دي بانغنتياك Bangentiac، وهيبراندي بوساك، ووليم أمون Amauen ، وغنتون دي بار، وغاست دي بدري Gast De Bederi ، ووليم دي مونت بيسولان Pessulan ، وجيرالد دي كيريسياك Ceresiac ، وروجردي بارنيفل Barneville وغي دي بوسس Possessa ، وغي دي غارلانديا Garlandia ، وتوماس دي سبريا Sprea ، وغالودي شومنت Chaumont، وستيفن كونت أوف بلوا، وكان هؤلاء جميعاً هم مقدمي وقادة الفرسان والآخرين من المؤمنين، الذين انتظروا الوقت المناسب للانطلاق، وكانوا مستعدين مع كتل بشرية كبيرة من الرجال المسلحين للالتحاق بالأعمال العسكرية الصليبية، وبشكل خاص لتكريس أنفسهم لهذا الحج من أجل اسم المسيح.

حول الرؤيا التي عملت لبطرس الناسك بخصوص المغامرة المساه أعلاه

لقد أثيرت هذه المهمة العسكرية كثيراً بوساطة أعمال التبشير التي تولاها بطرس الناسك، والحديث عن هذه الأعمال لن يكون بدون ثمار، من أجل فائدة الذين لم يسمعوا بها قط، ولاسيما الرؤيا الربانية التي عملت له، فقد كان هناك راهباً اسمه بطرس، يمارس أعمال النسك،

وكـان قبل قليل من وقوع هذه الأحـداث قد ارتحل إلى خـارج فرنسـا، ذلك أنه كان مرتبطاً بعهد الحج إلى الأرض المقدسة، وكان عندما وصل إلى مقصده، دفع الرسم الذي كان مفروضاً بموجب القانون الذي تولى تنظيم قبـول الحجاج، ودخـولهم المدينة، وقـد تسلم مقـر إقامـة في بيت أسرة مسيحية، وسمع من مضيفه رواية عن الأوضاع التعيسة للمؤمنين الحقيقيين، الذين أقاموا تحت سلطة المسلمين، وتأيد الذي سمعه هنا فيما بعد بما رآه شخصياً بأم عينيه.

وقد سمع بأن سمعان بطريرك المدينة، كـان رجلاً متديناً وكان يخاف الرب، وقـد ذهب إليـه وتحدث إليـه كثيراً، وكـان هـذا البطريرك— استخلاصـاً من كلمات بطرس— رجلاً واعياً، وقـد بين له جميع المعاناة التي يتحملهـا شعب الرب، الساكنين في تلك المدينة، وتعـاطف بطرس مع التعـاسة التي عـانى منهـا إخوانه، ولم يستطع منع نفسـه من البكاء، وقد قال للبطريرك: «كن متأكداً لو أن الكنيسـة الرومانية وأمراء الغرب، أمكن إعلامهم بهذه الأوضاع والأحـوال المأساوية من قبل من يمكنهم الاعتماد عليه، لكان من المؤكـد بذلهم الجهد لإيجاد عـلاج لماتعانون منه، وبناء عليه اكتب رسـالة إلى السيد البابا، وإلى الكنيسة الرومـانية، وأيضاً إلى ملوك وأمـراء الغرب، وأنا— ليعينني الرب، ولأجل إنقـاذ نفسي— سوف أتحدث عن ضخـامة عـذابكم، وسوف أدعـو الجميع وكل واحد للاسهـسـام في سبيـل تخليصكم»، وقـــد أفـــرح هذا الكلام البطـريرك والآخـــرين الذين كـــانوا حضـوراً، ووضع في يـد بطرس، مع كثير من الشكر— الرسالة التي طلبها.

وحـدث أنه في أحـد الأيام، أن كـان رجل الرب هذا قلقـاً أكثر من المعتاد، وراغبا بالعودة إلى بلده، حتى يتمكن من تنفيذ المهمة التي تعهد بها، وقـد وجـه تفكيره نحو نبـع الرحمة، فدخل إلى كنيسـة قيـامـة ربنا، حيث أمضى الليل في صـلاة وصـوم، وأخيراً، وقد وجـد نفسـه منهكاً

تمدد فوق البلاط ليتمتع بقليل من النوم، وماأن كاد يغمض عيناه حتى رأى ربنا يسوع المسيح، واقفاً أمامه، وهو يحثه على تنفيذ المهمة المذكورة أعلاه، ويقول له:« انهض يابطرس، وأسرع، ونفذ بدون خوف، الذي عهد به إليك، ذلك أنني سوف أكون معك، لقد آن الوقت لتطهير الأماكن المقدسة، ولنجدة عبيدي والتفريج عنهم في تعاستهم».

واستيقظ بطرس وهو مطمئن بالرؤيا الربانية، ورحب بالنصيحة الربانية، ولم يعد يشعر بالخوف والأسى بل قدم صلاتاً، ثم بادر مسرعاً نحو شاطىء البحر، وصعد هنا إلى ظهر سفينة، ووصل بعد رحلة موفقة إلى باري، وتابع من هناك إلى روما، حيث وجد البابا أوربان، فأعطاه رسالة البطريرك، وقدم له رواية متوازنة وصادقة حول التعاسات التي يعاني منها الذين في الأرض المقدسة، واستقبله البابا بلطف، ووعده أنه سوف يتعاون معه في الوقت المناسب باخلاص عظيم، وسافر بطرس خلال ايطاليا كلها، ثم قام بعد أمد بعبور الألب، وتمنى على أمراء الغرب بكل اخلاص أن لايسمحوا للأماكن المقدسة— التي عينها الرب لتتشرف بحضوره—بالبقاء مدة أطول وهي ملوثة بدنس غير المسيحيين، ثم إنه لم يرتح راضياً بهذا، بل إنه شجع الناس والذين كانوا أدنى مرتبة، على القيام بهذا الواجب المقدس نفسه، وهكذا قام بطرس مع مرور الأيام، مع حشد كبير من الناس، كان قد جمعه بعد كثير من المتاعب من فرنسا والامبراطورية، بالالتحاق بالحملة المسلحة، وسعى باخلاص في سبيل مصالح الصليب.

حول وولتر الذي كان الأول بالانطلاق إلى الحج

في سنة ١٠٩٦م، وفي شهر آذار، وفي اليوم الثامن من ذلك الشهر، انطلق وولتر الذي لقبه سان— أفوير Sans-avoir (والمعروف بالمعدم)، وكان رجلاً من أصل نبيل، انطلق مع حشد كبير من المشاة

المسلحين، وقد كان معه قليلاً من الفرسان، كما أنه كان الأول فيمن حمل الصليب، في الانطلاق بالحملة، ومن ثم عبور مملكتي ألمانيا وهنغاريا، والوصول إلى نهر ماروك Maroc ، وعبر هذا النهر، فدخل إلى بلاد بلغاريا، ووصل إلى مكان كان اسمه بلغريف Belgrave ، حيث كان بعضاً من أتباعه قد بقيوا في مالا— فيلا Mala-villa[سملين Semlin] من دون أن يعرف هو بذلك، وذلك من أجل شراء بعض المؤن، حيث ألقي القبض عليهم من قبل البلغار، وجردوا من ثيابهم، وعراهم البلغار وجلدوهم، وبعد ذلك أعادوهم إلى رفاقهم، وبناء عليه طلب وولتر إذنا من دوق بلغاريا لشراء ضروريات وحاجيات، وعندما لم يحصل على طلبه أقام معسكره أمام مدينة بلغريف، وعانى هنا من خسائر عظيمة، لأنه لم يستطع ضبط جيشه الذي كان بحاجة ماسة إلى المؤن، لأنهم عندما لم يسمح لهم بشراء أي شيء من بني البشر الأشرار هاجموا القطعان والأسراب العائدة للبلغار، وحملوها معهم إلى معسكرهم، ولدى سماع البلغار بهذا حملوا أسلحتهم لإنقاذ ماسلب منهم، وهزموا النهابين، وألقوا النار في المعسكر، الذي إليه هرب مائة وخمسون من أجل الحماية، وقد أحرقوهم جميعاً، أماباقي الرجال فهربوا.

ثم وصل وولتر بعد هذا مع جيشه إلى سترالايس Stralice التي كانت عاصمة داشيا الداخلية وقدم شكوى إلى حاكم المدينة ضد الأذى الذي اقترف بحق جيش الرب من قبل البلغار، وبعدما حصل على ترضية كاملة لما لحق به من أذى، استأنف سيره من هناك نحو المدينة الملكية(القسطنطينية) حيث مثل في حضرة الامبراطور ألكسيوس، وطلب منه السماح له مع جيشه بالبقاء قرب المدينة، حتى وصول بطرس الناسك، مع إذن عام بالبيع والشراء ووافق الامبراطور ومنحه هذا الامتياز.

حج بطرس الناسك

وكان التالي لوولتر بالانطلاق للقيام بالحج، هو بطرس الناسك، الذي ارتحل عبر اللورين، وفرانكونيا، وبافاريا، والنمسا، ووصل إلى حدود هنغاريا مع أربعين ألف رجل مسلحين ، ومن هناك تابعوا السير نحو مالا— فيلا، وهناك سمعوا بالخسائر الكبيرة التي عانى منها أتباع وولتر هناك، فحملوا سلاحهم ونهبوا ماكان العدو قد سلبه وعلقه على أسوار المدينة كرموز على مانالـه من الصليبيين، ذلك أن ذلك المنظر قد ملأهم بغضب محق، ولذلك حملوا أسلحتهم واقتحموا المدينة، وقتلوا بالسيف أو أغرقوا بالنهر جميع السكان تقريباً، وبعدما استولوا على المدينة على هذه الصورة، مكثوا فيها لمدة خمسة أيام، لكن بطرس عندما سمع بأن ملك هنغاريا كان يحشد قواته للانتقام للمذبحة التي نزلت برعاياه، أعطى أوامره إلى الجيش لإعتماد كل سرعة في عبور النهر مع القطعان والأسلاب التي أخذوها من المدينة، وهكذا وصلوا بعد زحف استمر مدة ثمانية أيام إلى أمام مدينة نيش Niz الحصينة، وعبروا النهر، ونصبوا معسكرهم هناك، وعندما حلّ وقت المغادرة، زحفت الكتلة الأساسية من الجيش نحو الأمام، لكن بعضاً من الأتباع الحمقى من أصل ألماني انفصلوا عن البقية، وألقوا النار في سبعة أرحاء كانت قائمة على مقربة من الجسر الذي تقدم ذكره، وكان تعداد هؤلاء حوالي المائة، وقام هؤلاء في سبيل ارضاء جنونهم، فأضافوا إلى تعاستهم، بأن ألقوا النار بالطريقة نفسها في بيوت بعض الناس، التي كانت قائمة في الأرباض، ثم إنهم بادروا مسرعين للالتحاق بالجيش الذي كان تقدم أمامهم، لكن سيد تلك المنطقة، وقد أغضبه ماحدث، استدعى شعب المدينة، وشجعهم على حمل السلاح، وانطلق على الفور مع كتلة كبيرة من الناس ليتمكن من اعتقال النهابين، قبل التحاقهم ببقية الجيش، وعندما وصل إليهم هاجمهم بشدة، وجعل معظمهم طعمة

للسيف:

وكـان بطرس جاهلاً تماماً بجميع هذه الحوادث، لأنه كان مشغولاً بقيادة الجيش الذي تقدم نحو الأمام، لكنه عندما سمع بالذي حدث، عقد اجتماعاً مع كبار ضباطه، وبناء على نصيحة منهم رجع إلى المكان الذي تمددت فيه جثث الذين قتلوا، ولقد بكى لدى رؤيته لجثثهم، وكـان راغباً في معرفة سبب مثل هذا العمل الدموي، وفي سبيل هذه الغاية بعث رسولاً إلى سادة المدينة، وعلم منهم أن ماحدث جاء نتيجة غضب محق لسكان المدينة، وهنا تهورت مجموعة قليلة من الحجاج بمحاولة الانتقام فأيدتها فرقة كاملة أثيرت بالرغبة بالانتقام لما حدث لهم، وكـان تعداد المتهورين المقترفين لعمل أحمق ضد المدينة حوالي الألف رجل، وعندها خرج بعض سكان المدينة للتصدي لهم، فأعقب ذلك معركة قاسية جداً، وقد قتل خمسمائة من رجالنا على الجسر، وغرق البقية لأنهم كانوا يجهلون مخاضات النهر، ولدى وقوع هذه الهزيمة القاسية ومقتل رفاقهم، غضب رجال جيش بطرس، وبادروا إلى حمل سلاحهم ومن ثم إلى القتال، فكان أن جرى قتل حوالي عشرة آلاف من الحجاج، واستولى البلغار على أموال بطرس، وذلك مع عربته وكل شيء كان لديه.

وبعد مضي أربعة أيام عاد جمع الذين هربوا وانهزموا، وكـانوا حوالي الثلاثين ألفاً، فأعاد هؤلاء تجهيز أنفسهم لاستئناف رحلتهم، وبالفعل تابعوا سفرهم، لكن مع كثير من المصاعب، وبعد زحف سريع وصلوا إلى القسطنطينية، وهنا قابل بطرس الامبراطور، وبناء على ذلك أقام مع جيشه عدة أيام، ثم إنه— بناء على أوامر الامبراطور— عبر البوسفور، ودخل إلى بيثينيا، التي كانت أول المقاطعات الآسيوية، ومن هناك وصلوا إلى مكان قائم على البحر نفسه اسمه ستتوث Cinitoth حيث نصبوا معسكرهم.

موت الثلاثين ألفاً من الصليبيين

وقام هذا المكان على حدود المملكة التركية، وكان فيه وفرة من كل شيء، خاصة بالمؤن، وعندما مكثوا هناك لقرابة شهرين، شرع قسم من هؤلاء اللاتين، وكان تعدادهم عشرة آلاف رجل، باجتياح المنطقة وسوق القطعان والأسراب والاستيلاء عليها، وقد زحفوا في صفوف عسكرية نحو مدينة نيقية، ثم عادوا إلى معسكرهم مع كثير من الأسلاب، ودون أن يفقدوا رجلاً واحداً، وعندما شاهد الشطر الألماني في الجيش كيف أن اللاتين قد نجحوا في تلك المغامرة، قرروا القيام بمحاولة مماثلة، وبناء عليه انطلق حوالي عشرة آلاف منهم بصحبة مائتي فارس نحو مدينة نيقية، ومنها إلى بلدة كانت على بعد نحو أربعة أميال منها، وقاموا بهجوم عنيف جداً عليها، وقد تغلبوا على جميع من تصدى لهم من السكان، واستولوا على البلدة، وقتلوا جميع من كان فيها من سكان، وحصلوا على أسلاب كثيرة، وشحنوا الحصن، وأعجبوا بخصب المنطقة وطبيعتها المرضية، ولذلك قرروا الإقامة هناك حتى وصول الأمراء، لكن حدث أن(قلج أرسلان بن) سليمان، الذي كان صاحب المنطقة، قد سمع بأن الجنود الألمان قد قرروا البقاء والاحتفاظ بالبلدة، فزحف إلى هناك بكل سرعة، وحاصر الحصن واستولى عليه عنوة وجعل طعمة للسيف كل من وجده فيه، وفي الوقت نفسه انتشر الخبر في المعسكر بأن العساكر الألمان قد وقعوا في أيدي(قلج أرسلان ابن) سليمان، وعندما باتت هذه الحقيقة معروفة، هب الجيش إلى السلاح على الرغم من إرادة قادته، وتوفر ساعتها خمسة وثلاثين ألفاً من الرجالة وخمسمائة فارس، فزحفوا على تعبئة قتالية نحو نيقية، وقد وجدوا(قلج أرسلان بن) سليمان مع حشد هائل من التركمان في السهل، وقد هاجموه بكامل القوات، ولكن الأتراك الذين عرفوا أنهم يقاتلون في سبيل حياتهم، قاوموا بعنف، وتمّ الضغط بشدة على

الصليبيين، حتى أنهم لم يعـودوا قـادرين على تحمل ثقل القتـال، ولذلك مزقوا صفوفهم وتخلوا عن مواقفهم، وشرعوا بالفرار، وأخذ الأتراك في الوقت نفسـه بمطاردتهم وألحقـوا بهم خسـائـر وهزمـوا الجيش، وهناك سقط في تلك المعـركـة: وولتر المعـــدم ، ورينالد دي بريس Breis ، وفولتشر أوف أورلين، وثلاثين ألفاً من الرجـالة، وخمسمائة من الفرسان الذين خرجوا من المعسكر، ولم ينج أحـد تقريباً من القتل أو من الأسر، وهكذا كانت أحداث هذه المعركة، معركـة عدم الطاعة ، التي قاتل فيها الناس بتهور عظيم، مراغمة لأوامر قائـدهم الذي نصح جيشه الجاهل بالبقاء منتظراً عند القسطنطينية حتى وصول الأمراء الذين كانوا قادمين خلفـه على الطريق، والذين كـانـوا أكثـر حكمـة من رجـال هذا الجيش أنفسهم، وأعظم خبرة في المسائل العسكرية.

هذا ولم يقتنع[قلج أرسـلان بن] سليمان بـالنصر الذي ناله، فهـاجم المعسكر بحـــدة، وجعل الذين فيـــه طعمـــة للسيف من دون رحمة، من شيوخ وصغار، ورهبان ورجال دين، وعقيلات، وفتيات، وأطفال، علما بأن بعضهم قد توسط عمـرهـم أو شكلهم لصالحهم، فأنقـذت حياتهم، ليكونوا عبيداً أرقـاء مدى الحياة، وكان على كل حال، يـوجد على مقربة من المعسكر إلى جانب شـاطيء البحر، قلعة قديمـة غير مسكونة، إليها فـرّ ثلاثة آلاف من الحجـاج للنجـاة من الموت، ، وألقى[قلج أرسـلان ابن] سليمان الحصـار فـوراً عليهـا، لكن الذين كـانوا فيهـا دافعـوا عن أنفسهم بشجـــاعـــة، وتمكن بالوقت نفســـه بطرس من المثـــول بحضرة الامبراطور، واقناعـه بعد كثير من التـوسلات لأن يرسل جيشـه لانقاذ الذين بقيـوا من الناس، وعندمـا عمل هذا بقي بطرس في القسطنطينيـة مع بقية الجيش، ينتظرون وصول الأمراء.

حول مقتل بعض الحجاج غدراً

ثم جـاء بعـد هؤلاء للحـج كـاهن ألماني اسمـــه غـودرشـــال -Go

derschal، امتلك أعطية الاقناع، ولذلك قاد حوالي الخمسة عشر ألفاً من الرجال من الممالك الألمانية، إلى هنغاريا، وقد نال هؤلاء بناء على أوامر الملك امكانية الحصول على المؤن وفق شروط مناسبة، من البلغار، لكنهم أفسدوا هذا الامتياز، وغرقوا بالسكر، وغضب الملك محقاً تجاه هذه الأعمال، ودعا قومه إلى السلاح وإلى الانتقام منهم، وعملوا على الانقضاض على هؤلاء الحجاج الآثمين عند بلغريف، وعندما رأوهم قد استعدوا للقيام بالمقاومة، لأنهم كانوا رجالاً شجعاناً، ومعتادين على استخدام السلاح، قرروا الايقاع بهم غدراً وليس عن طريق القتال، ولهذه الغاية، أرسلوا رسلاً إليهم، وخاطب هؤلاء غودرشال مع القادة الآخرين وفق العروض التالية:« لقد وصل إلى مسامع مولانا الملك بأنكم قد ألحقتم أضراراً بالغة بشعبه، وجازيتموه بالنكران والشر مقابل الاحسان، هذا ويعرف ملكنا بشكل جيد بأنه يوجد بينكم رجالاً أتقياء ويخافون الرب، وأن هذه الأفاعيل التي بحق أثارت غضب الملك، قد اقترفت ضد ارادتهم، ولذلك رغبة منه، ولكي لاتلقى عليكم جميعاً جريمة قلة فقط، قد قرر عدم ملاحقة الحجاج في الوقت الحاضر، لكنه يطلب منكم، أن تقوموا بأنفسكم بتسليم عتادكم وسلاحكم، وتضعوه بين يديه بشكل غير مشروط، وإذا لم تفعلوا ذلك، إنكم لن تنجوا من الموت، بما أنكم لاتمتلكون القدرة على النجاة».

وعلق غودرشال آمالاً كبيرة على الرحمة الملكية، فأقنع الجيش— بعد صعوبات جمة— بتسليم أنفسهم مع جميع أسلحتهم وعتادهم ووضعهم تحت سلطة الملك، وبذلك أرضى شكاويه لكن ماأن حدث هذا حتى واجهوا الموت بدلاً من الرحمة، فقد انقض هؤلاء الناس الخونة على الجيش، الذي كان أفراده قد جردوا من سيوفهم، ودون أن يميزوا بين المتدين وبين الشرير، اقترفوا مذبحة عامة، ولوثوا المنطقة كلها بالدم، وبجثث القتلى، وقلة منهم نجوا— على كل حال— من الخطر العام،

وعادوا إلى الوطن، وقصوا هناك خبر مقتل رفاقهم الحجاج، ونصحوا باخلاص الحجاج الذاهبين بأن يضعوا دوماً أمام أعينهم غدر تلك الأمة الشريرة وأن يكونوا متنبهين وحذرين أثناء تنظيم خط زحفهم.

حول بعض الحجاج الذين عذبوا اليهود ثم قتلوا بعد ذلك

وفي حوالي الوقت نفسه تجمع من بلدان الغرب وخرج حوالي المائتي ألف من الرجالة مع نحو ثلاثة آلاف من الفرسان، كان بينهم من النبلاء: توماس دي فيريا Feria، وكلا من رنبولد دي فندول Vendole كونت هيرمان، ووليم الملقب بالنجار، وكان هؤلاء جميعاً مشحونين بروح الجنون، وهاجموا اليهود في البلدان والمدن، التي وقعت على طريقهم، وقتلوا عدة آلاف منهم، ووقع هذا بشكل خاص في مدن مينز، وكولون، وقد كان هناك أيضاً كونت اسمه ايميكو Emico، وكان نبيلا مشهوراً في تلك المناطق، وقد انضم بنفسه إلى تلك الجماعة، وشارك في أعمالها الشريرة وحثها على اقتراف جرائمها.

وعبر هؤلاء القوم من خلال فرانكونيا وبافاريا، ووصلوا إلى حدود هنغاريا، حيث اعتقدوا أنهم يمكنهم الدخول إلى تلك المملكة بحرية كما يريدون، وقد أرغموا على التوقف عند ميزبورغ Meezeburg، لأن مدخل الجسر كان مغلقاً في وجوههم، ذلك أن ملك البلاد قد أمر بوجوب منعهم من الدخول إلى أراضيه، صدوراً عن الخوف، أنه إذا ماسمح لهم سوف يسعون للانتقام من أفراد شعبه، لقيامهم بقتل أتباع غودرشال، وبناء على ذلك إلتمس الحجاج من الملك السماح لهم بالمرور بسلام، لكن ذلك لم يمنح لهم بكل اصرار، ولهذا تحدثوا واتفقوا على نهب وتخريب أراضي الملك الواقعة قرب الأنهار والسباخ، واحراق مناطق الضواحي ، وانزال كل مايمكنهم من اضرار به.

وعندما حدث في أحد الأيام، أن كـان هناك سبعمائة من رجال الملك كـانوا مبحريـن هناك بغرض حماية المنطقـة من هجمات الحجـاج، فجأة وقع هؤلاء في أيدي الأعداء، الذين عرضوهم على السيف، فقتلوهم إلاّ قلة منهم، أنقـذوا أنفسهم بالتخفي بين القصب والمستنقعـات، وتحمس الحجاج بهذا النجاح، فاقترحوا الآن القيام بحصار البلدة، بتشييد جسر، وشق طريقهم إلى داخل المملكـة بالسيـوف، وبناء عليـه، جـرى تشييـد جسور، مـدت حتى أسوار البلـدة، وكان إصرار الحجـاج كبيراً إلى حد أنهم كادوا أن يشقوا طريقاً لهم إلى البلدة، وأن البلدة صارت في أيديهم، لكن حـدث فجأة أن أصيبـوا بالرعب، وشرعـوا بالفرار، دون معـرفـة السبب، وهكذا كان نتيجة لما اقترفـوه من ذنوب أن أداروا ظهورهـم إلى العـدو، الذي استقى الثقـة من رعبهـم، وطاردهم بشجـاعـة، وجعلهم طعمة للسيف، بعدما حرمهم من الأمل بالنجاة، وهرب الكونت اميكو مع عساكره بشكل فوضوي، ورجع بصعوبة إلى بلاده، كما وصل النبلاء الذين ذكـرناهم أعـلاه إلى ايطـاليـا، وحـاول بعضهم النجـاة بالطريقـة نفسها، وأخذوا طريقهم بحراً إلى ديراخيوم Dyrrachium ووصلوا إلى ساحل بلاد الاغريق.

رحلة الدوق غودفري ورفاقه في الحملة الصليبية

في السنة المتقـدم ذكـرها، أي سنة ١٠٩٦م، وفي شهـر آب، في اليـوم الخامس عشر من الشهر، قـام غودفـري، دوق اللورين المشهور، اتبـاعاً منه لبطرس الناسك، وغـوردشـال والآخريـن، باستدعـاء الذين كـانوا سيرافقـونه، وانطلق في الحملة الصليبيـة، وكـان معـه النبـلاء التـالين: بلدوين، أخوه النصفي، وبلدوين كونت أوف هاموشي Hamauci ، وهيـوج كـونت أوف سينـت بول مع ابنـه انغلران Engelran ، وغارنر كونت دي غري Gres ، ورينالد كونت أوف تول Tull ، مع أخيـه بطرس، وبلـدوين دي بـورغ، وهنري دي أوشي Auche

مع أخيه غودفري، ودودو كون دي Dodo de cons، وكونو دي مونتأكيوت Montacute ، وتبع هؤلاء حشد من الفريزلانديين، والسكسون واللورينيين، وأناس من جميع البلدان القائمة بين الرون وغارون Garonne ، وزحف هؤلاء جميعاً مع بعضهم خلال النمسا وهنغاريا، وأعطوا الملك رهائن، وتابعوا زحفهم إلى بلغريف، وهي بلدة في بلغاريا، ومن هناك إلى نيش، وسترلتز Strelitz ، ثم إنهم تابعوا زحفهم إلى داشيا الداخلية، وهي التي تعرف باسم آخر هو موشيا Moesia ، ونزلوا إلى ديرة القديس باسيل، ثم وصلوا إلى مدينة فيلبه الواسعة والفخمة، وهنا سمعوا بأن هيوج الكبير، أخو فيليب ملك فرنسا، موضوع في السجن مع الآخرين، من قبل الامبراطور ألكسيوس، فقام قائدهم غودفري اللامع، فأرسل رسلاً، وطلب اطلاق الأشخاص المتقدم ذكرهم، لأنهم حملوا الصليب.

هذا وكان هيوج المتقدم ذكره، بين أوائل من انطلق للحج، فقد عبر الألب، وسار من خلال ايطاليا إلى أبوليا، ومن هناك عبر مع حاشية صغيرة إلى ديراخيوم Dyrrachium ، وقد مكث هناك ينتظر بقية الحجاج، وهناك جرى اعتقاله من قبل حاكم تلك المنطقة، وأرسل وهو مغلول إلى الامبراطور، الذي احتفظ به في السجن وكأنه لص أو قاتل، وتلقى رسل الدوق غودفري، رفضاً أكيداً، ونتيجة لذلك اجتاح الصليبيون المنطقة كلها واستباحوها لمدة ثمانية أيام مع عساكرهم، وعندما سمع الامبراطور بهذا، أرسل إلى الدوق، وعرض عليه اطلاق سراح السجناء النبلاء، على شريطة توقف الصليبيين عن السلب والنهب، وبناء عليه أوقف الدوق رجاله عن متابعة النهب، وتابع سيره إلى القسطنطينية، حيث تسلم السجناء النبلاء، دونما أذى، وكانوا: هيوج الكبير، ودوغو دي نيل، وكلارمبولد دي فندول Clarembald de vendole ، ووليم النجار، وقد شكروه جميعاً بامتنان من أجل

حريتهم.

غدر الامبراطور ألكسيوس

كان ألكسيوس الامبراطور الاغـريقي رجـلاً شريراً ومخادعاً، وكـان عندمـا خدم في قصر سلفـه نقفـور كان الجندي الأول في البـلاط، لكنه تآمـر بشكل منحط ضـد سيـده، وقبل خمس سنوات أوست كـانت قـد انقضت قبل هذه الحملة إلى الأرض المقدسة، كان قد خلع مولاه وصار امبراطوراً مكانه، ولقد استخدم باتصالاته مع الحجاج دوماً لغة مخادعة، لأنه نظر بريبـة نحو تعـداد الصليبيين وقوتهم، وإذا كان قـد تمنع في أي وقت من الأوقـات عن إلحاق الأذى بهم، فقـد كـان ذلك ليس نتيجـة شرف وأمانة بـل نتيجة خوف، لأنه عنـدما عسكر الدوق غـودفري مع جيشه أمـام مدينة القسطنطينية، قـدم رسل من لدن الامبراطور، يدعون الدوق إلى زيارة البلاط مع عـدد قليل من حاشيتـه، وقام الدوق— بناء على نصيحـة من مستشـاريه، بالاعتـذار عن الذهـاب، ولذلك غضب الامبراطور، ورفض تزويـد جيش الدوق بسـوق، وخشي الأمـراء من نقص مـؤنهم، فاجتـاحـوا مناطق الضـواحي برجال مسلحين، وجمعـوا أعـداد هائلة من الأغنام والقطعان، بحيـث صار هناك أكثـر من اللازم لتمـوين الجيش، وبهذا أرغـم الامبراطور ثانيـة على السماح للصليبيين بسوق.

كيف انطلق الأمير بوهيموند في حملة الصليب

وفي الوقت الذي كانت فيـه هذه الأحداث تقع في القسطنطينيـة، قام الأمير بوهيموند بن روبرت غويسكارد، وصاحب تارنتومTarentum، بعبور الأدرياتيك، قبل بداية الشتاء، ونزل في ديراخيوم، ومن هناك سار من خلال صحـارى بلغاريا، للالتحـاق بالذين كانوا قـادمين من بعده، وكـان هؤلاء يتبعـون رجـالاً نبـلاء، هم: تانكرد بن[إقـرأ:أخـو] وليم

المركيز، ورتشـارد دي بروفانس مع أخيـه ريموند، وروبرت دي اكس، وهيرمـان دي كـارفي، وروبـرت دي سـوردفيل sourdevaile ، وروبرت فتـز— ثورستـان Fitz-thurstan ، وهمفري فتز— رالف، ورتشارد ابن كونت رانولف Ranulph ، وكونت دي روسيلون مع أخيه بولي Boeleis أوف تشارترز، وأولبيرد دي كونان Albered de cognan ، وابنه همفـري، وقـد تبع هؤلاء جماعـة من الايطاليين مع آخرين كانوا يعيشـون بين بحري التيرنيان Tyrrhenian والأدرياتيكي، وقد سار هؤلاء جميعاً خلف راية بوهيموند حتى مدينة كاستوريا -Cas torea ، حيث أرغموا على سوق القطعان والأسراب والاستيلاء عليها بالقوة، لأن شعب المنطقـة رفض بيعهم المؤن، وبعد مغادرتهم من هناك، عسكروا في منطقة بيـلاغونيا Pelagonia ، حيث سمعوا بأن هناك بلدة في الجوار مسكونة مـن قبل الهراطقـة، فـزحفـوا مسرعين إلى هناك، فـاستـولوا على القلعـة، وألقـوا النار في البيـوت، وحملوا معهم كميات هائلة وثمينة من الأسلاب.

حول حج كونت طولوز

وتبع حج الذين تقـدم ذكـرهـم تحرك ريمـوند كـونت طولوزوأدهمر أسقف لي بوي، وكـان معهما النبلاء التالين: وليم أسقـف أوراشيا -Au rasia ، وكونت بينبولد Bainbald ، وغوستوس دي بدري Gaustus de Bediers ، وجيرارد دي روسلون Rouseillon ، ووليم دي مـونت بيسـولان Pessolan ، ووليم كونت أوف فوري Foris ، وريموند بيلز Pelez ، وغانتون دي بار، ووليم أمانن Amanen ، وقد تبعهم قـوط وغاسكون، وقـوم آخرون يسكنون فيما بين البيرنيـز والألب، وسـار هؤلاء على آثار الحجـاج المتقـدمين، فعبروا إيطاليـا، ولومبارديـا، ومنطقة فـوريولي Forioli ، ونزلوا من هناك إلى استريا ودالماشيـا، واحتاجـوا إلى مالايقل عن أربعين يومـا لعبور البـلاد

الأخيرة، ووسط خطر كبير، وتمكنوا — على كل حال — أخيراً من الوصول إلى ديراخيوم، حيث تلقى الكونت رسالة مشجعة من الامبراطور، وبعدما عبر منطقة الغابات والجبال التابعة لايبروس، عسكر جيشه في منطقة بالاغونيا، التي كانت مليئة بجميع أنواع الحاجيات، وهنا هوجم الأسقف المبجل أوف بوي وأخذ أسيراً من قبل البلغار، ذلك أنه كان قد نصب خيمته بعيداً عن بقية الجيش، وطلب واحد منهم منه مالاً، وحماه من الآخرين وحدث هياج، أثار الجيش كله، فحمل السلاح وأنقذ الأسقف من بين أيديهم.

واستأنف الحجاج زحفهم، وتابعوا سيرهم من خلال سالونيك، ومقدونية، وبعد سلسلة من الأعمال المتواصلة والمتاعب وصلوا إلى روديتوس Rodetus ، وهي مدينة قائمة على شواطىء البوسفور، وذلك على بعد أربعة أميال عن القسطنطينية، حيث تقابلوا مع رسل من الأمراء الذين ذهبوا قبلهم، يرجونهم إنهاء أعمالهم مع الامبراطور، والالتحاق بهم بالسرعة الممكنة، وبناء عليه استجاب الكونت إلى المطالب التي أتت من قبل كل من الامبراطور ومن أمراء الصليبيين، فترك الجيش تحت رعاية الأساقفة والنبلاء الذين كانوا في المعسكر، وأسرع بقدر ماأمكنه مع حاشية صغيرة إلى القسطنطينية، وحصل على لقاء مع الامبراطور، الذي استقبله بكل تشريف، وعندما حُثّ على تقديم يمين ولاء إلى الامبراطور، رفض بإصرار، وانزعج الامبراطور من ذلك، فقام باجراءات تهديدية، وضايق جيشه بكل أنواع المضايقات، وأمر عساكره بالقيام بهجوم على الصليبيين، وأن يحاولوا تدميرهم، وبناء عليه قام قادته وضباطه الذين قادوا عساكره، وكانوا مطيعين لأوامر سيدهم، بمهاجمة كشافة الكونت وهم غير منتبهين، وكان ذلك أثناء الليل، ولذلك فاجأوهم بشكل كامل، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وعندما سمع الكونت بهذا اتهم الامبراطور بالتصرف غير

الأمين، وقد أسف ألكسيوس لما اقترفه، ودعا بوهيموند إلى الاجتماع به(ذلك أنه لم يكن قد عبر البوسفور بعد) وبذل جهده بوسائطه الشخصية وبوساطة أصدقائه لمصالحته مع الكونت، ورأى الوسطاء— مع أنهم كانوا غاضبين نحو ماحدث— أنه لاتوجد امكانية للانتقام، لأنه كانت هناك أهدافاً عليا أمام أنظارهم، ولذلك صالحوا الكونت مع الامبراطور، وقام الكونت بأداء يمين الولاء وفق الطريقة نفسها التي أداها الصليبيون الذين تقدموه، وغادر حضرة الامبراطور مع كثير من الهدايا، وكل مظاهر التشريف، وكان يمين الولاء الذي أداه جميع أمراء الغرب ووافقوا عليه يقضي بأن أية مدن وقلاع وممتلكات أخرى، ظهر أنها من ممتلكات الامبراطور، وتمكن الصليبيون من استردادها، يتوجب عليهم على الفور تسليمها للامبراطور ليكون مالكاً لها، لكن يمكن للصليبيين الاحتفاظ بجميع الغنائم التي سوف يجدونها هناك، وبدا هذا الشرط شرطاً غير عادل بالنسبة لبعض الأمراء، بأن تذهب جهودهم لصالح آخر ولمنفعته، ولكي يرضي الامبراطور الحجاج، أقسم أنه سوف يقدم لهم معونات عينية ونصائح، يمكنهم بها على الفور هزيمة أعداء الإيمان المسيحي، ووصلت في الوقت نفسه عساكر الكونت إلى القسطنطينية، فقامت— بناء على أوامره— بعبور المضائق، وألحقوا أنفسهم من دون أي تأخير ببقية الجيش.

كيف انطلق روبرت دوق نورماندي وأصحابه للقيام بالحج

وحوالي الوقت نفسه، حمل روبرت دوق نورماندي علامة الصليب، وانطلق بحيث كان آخر الحجاج إلى القدس، وقام أولاً بوضع نورماندي، تحت ولاء أخيه الملك وليم، مقابل عشرة آلاف مارك من الفضة، والتحق بجيشه روبرت كونت أوف فلاندرز، ويوستاس دوق بولون، وستيفن كونت أوف بلوا وكونت تشارترز، وستيفن كونت أوف ألبمارل Albemarle، وروتروك Rotroc كونت أوف بيرشي،

وروجـر دي بارنفيل Barneville، مع المقـــــدمين اللامعين فيراند Fergand ، وكونان أوف بريتاني Bretagne ، يتبعهما رجال من انكلترا، ونورماندي، وفلاندرز، وبريتاني، وأنجو، وغربي فرنسا، وبلدان أخـرى قائمـة بين البحـار البريطانية والألـب، وقد انطلق هؤلاء جميعـاً حـوالي بداية الشتاء، ومـروا من خلال أبوليـا، وكالبيرا، ولكي يتجنبوا شـدة الثلج والجليـد مكثـوا في تلك المنطقـة، حتى حلـول فصل أكثـر اعتـدالاً، وفي حـوالي ذلك الوقت نفسـه تأسست كنيسـة نوروك Nor-wick، وحل الرهبان هناك محل رجال الدين.

كيف حاصر الصليبيون مدينة نيقية

في سنة ١٠٩٧م، كـان الدوق غـودفري مع رجـاله في القسطنطينيـة، والدوق بوهيمـوند في كـاسترويا Castorea ، وكـــونت طولوز في بالاغـونيا، وقـد احتفلوا بعيد ميـلاد ربنا، وتشريفـاً لذلك اليوم قـرروا إيقـاف أيـديهم عن كل أعمال النهب والايذاء، وجمعـوا في بـداية الربيع أثقالهم، وتابعـوا رحلتهم مع عربات، وخيول تحميل، وتقـدموا بزحف بطيء نحـو نيقية، ومن هناك إلى نيقـوميديا التي كـانت حاضرة بيثينيـا، حيث التقـوا بالمبجل بطرس النـاسك، وذلك على رأس عسـاكـر قليلة، كان قـد أنقذهم من هزيمتهـم المتقدم ذكرها، واستقبلـه الأمراء بلطف، وشـاركوه أسـاه حول الخسـائر التي عانى منهـا، وأعطوه بعض الهدايا الجيــدة، وهكـذا ازداد جيش الصليبيين بالعــدد، وتابـع زحفــه بيسر، وبفضل من الرب وصل الصليبيون إلى نيقية، حيث عسكروا من حولها، وأحاطوا بها إنما تركوا مكانا فارغـاً من أجل الحجاج القادمين، وشرعوا بحصـار المدينة في شهر أيار، وفي اليـوم الخامس عشر من الشهـر، وهو يوم الصعـود، أكمـل كـونت طولوز الآن أعماله في البـلاط، وبإذن من الامبراطور، بادر بأقصى سرعة ممكنة نحـو نيقية، حيث التحق مع قواته بجيش الحصار الصليبي.

كيف قدم الدوق روبرت إلى حصار نيقية

وسمع الآن روبرت دوق نورماندي بأن مدينة نيقية محاصرة من قبل الصليبيين، الذين ذهبوا قبله، فدعا إليه رفاقه بالسلاح، ومأأن أعدّ أثقاله، حتى توجه إلى جانب البحر، وكان متشوقاً لتعويض الوقت الذي أضاعه في أبوليا، فعبر من خلال ايليريا، ومقدونية، فتراقيا من دون معيقات، ووصل إلى القسطنطينية، وهنا استقبل من قبل الحضرة الامبراطورية، وأدى مع النبلاء الآخرين الذين قدموا معه يمين الولاء الذي عُرض عليهم، ولهذا السبب لاقوا معاملة أفضل وحظوة أعظم، وشرفوا بالهدايا، والذهب، والملابس الثمينة، والأواني من أجمل المصنوعات، وأثمن المواد، مع أثواب من الحرير الخالص، ممالم يسمع بمثل قيمته، ومما لم يشاهدوا مثيله من قبل، والذي سبب دهشة كبيرة جداً للذين تسلموهم، لأنهم تفوقوا على جميع مارأوه من قبل، وحصلوا بعد هذا على إذن الامبراطور، فعبروا البوسفور، وساروا مع قواتهم إلى نيقية، حيث جرت تحيتهم بسرور من قبل الأمراء الذين تقدموا عليهم بالوصول، ونصبوا خيامهم بالأبهة الأعظم في ذلك المكان، الذي تركه الآخرون فارغاً من أجلهم، وبهذه الصورة، تشكل للمرة الأولى جيش واحد للرب من كتل متعددة من العساكر تكونت أعدادها من ستمائة ألف من الرجالة ومائة ألف فارس دارع، وقد أقام هؤلاء جميعاً طوقاً حول أسوار المدينة المتقدمة الذكر، مع تكريس تقوي للرب جميع ثمار أعمالهم الدينية.

المعركة بين الصليبيين والأتراك، التي انهزم فيها الأتراك

كانت نيقية مدينة كبيرة في بيثينيا، وكانت فيها وفرة من جميع أنواع الثروات، وكان صاحبها زعيم تركي قوي جداً اسمه[السلطان قلج أرسلان بن] سليمان، وكان معنى اسم سلطان بالفارسية« ملك»، وقد حكم جميع المنطقة المجاورة، وكان أجداده قد كسبوا هذه المنطقة من

الامبراطور الاغريقي رومانوس، الذي حكم في الطبقة الثالثة قبل ألكسيوس، وأوصلوها إلى[قلج أرسلان بن] سليمان هذا مع جميع المقاطعات من طرسوس في كيليكية حتى البوسفور، وعلى هذا كانت سلطته قد وصلت حتى ضواحي القسطنطينية، وجمع رجاله الجزية والضرائب من جميع هذه المناطق لصالح سيدهم ولاستخداماته، وكان [قلج أرسلان بن] سليمان نفسه معسكراً مع حشد كبير من الرجال المسلمين بين الجبال المجاورة، وذلك على بعد ليس أكثر من عشرة أميال، وقد تفكر حول أفضل طريقة يمكنه بها أن يخلص مدينته من الحصار المقام حولها من قبل الصليبيين، ولكي يرفع من معنويات المحاصرين بعث برسولين تمكنا من شق طريقهما إلى المدينة بوساطة قارب من قوارب البحيرة، وبذلك أوصلا أوامره، لكن واحداً منهما أسره الصليبيون، وجرى قتل الآخر، وجرى استجواب الأسير، وأرغم على الاعتراف، ومنه عرفوا بأن[قلج أرسلان بن] سليمان سوف ينزل من الجبال في اليوم التالي، وسوف يحاول رفع الحصار، وبناء عليه، ظهر السلطان في حوالي الساعة الثالثة من اليوم التالي في السهل، كما كان الأسير الرسول قد أخبرهم، وكان على رأس خمسمائة ألف رجل.

وأرسل أولاً عشرة آلاف فارس لمهاجمة كونت طولوز، الذي كان معسكراً أمام الباب الجنوبي، وقد تلقاهم الكونت بشجاعة، وصد الهجوم، وكانوا على وشك التفرق، عندما قدم السلطان مع مزيد من العساكر العديدة، فأعاد تجميع المنهزمين، وأرغمهم ثانية على الهجوم معه، والقتال مع رجالنا، ولدى رؤية الدوق غودفري، والأمير بوهيموند، وكونت فلاندرز مع أتباعهم— وكانوا مسلحين ودارعين تماما— بأن رجال الكونت قد ضغط عليهم بشدة، حملوا على الأعداء بنشاط، وبعدما قتلوا خمسة آلاف منهم، وأخذوا عدداً قليلاً من الأسرى، أرغموهم على الفرار، وهكذا حصل رجالنا على أول نصر،

وتابعوا الحصار مع عساكرهم، وقد صفوهم حول المدينة وفق النظام التالي: كان عند الباب الشرقي الدوق غودفري مع أخويه ورجالهم، وكان عند الباب الشمالي الأمير بوهيموند، وتانكرد وأمرائهما الآخرين، أما الباب الجنوبي فقد عين للكونت ريموند وأسقف لي بوي، أما الباب الغربي فقد أوكل إلى روبرت دوق نورماندي وكونت فلاندرز مع أتباعهما، وبذلك أغلقت المدينة من كل جانب، ولم تشهد الشمس من قبل جيشاً مجيداً مثل ذلك الجيش الذي وقف من حول الأسوار، وقام رجالنا بقطع رؤوس القتلى، ورموا بهم بوساطة مناجيقهم إلى المدينة حتى ينزلوا الهلع في قلوب المحاصرين، وجرى ارسال ألف من هذه الرؤوس مع عدد منتخب من الأسرى، إلى القسطنطينية هدية إلى الامبراطور.

كيف جرى لغم أحد الأبراج واسقاطه

وقرر الأمراء بعد هذا استخدام الأساليب العملية والآلات الأخرى لتهديم أسوار المدينة، وبناء عليه بدأ الحرفيون بالقيام بأعمالهم، واهتزت المدينة بالضربات المتوالية، لمدة سبعة أيام، حيث حدث إثر ذلك في اليوم الأول، أن الهجوم كان كالمعتاد، وباصرار، ووقتها حلت كارثة برجالنا، حيث فقدوا اثنين من النبلاء هما: بلدوين كالدرون Calderon ، وبلدوين أوف غنت Ghent ، فقد أصيب الأول بصخرة، وأصيب الثاني بنشابة، وحدث ذلك عندما كانا يقاتلان بشجاعة، ويهاجمان المدينة، وفي حملة أخرى تمت الموافقة عليها من قبل مجلس الأمراء، جرى قتل كل من الكونت وليم دي فوري Foreis، وغالو دي لآيلGalo de lisle ، بنشابتين، وأصيب أيضاً غي دي بوسيس Possessa بمرض حاد، مات منه، وحدث في يوم آخر، والأمراء جميعاً يستخدمون آلاتهم بنشاط عظيم ضد الأسوار، أن قام الكونت هيرمان، وهنري دي أسكي Asche ، وكانا من النبلاء

الألمان، بتركيب آلة غـريبـة صنعـاهـا ببراعـة كبيرة، وحـوت هذه الآلة عشرين فـارساً، وقد دفعـا بها حتى الأسـوار، ولقد كان المدافعـون من الشجاعة والبراعة بمكان، حيث حطمـوا الآلة بحجرة كبيرة رموها من الأعلى، وقد هلك جميع الذين كـانوا في داخلها، وتابع الآخرون— على كل حـال— الحصار من دون توقف، وكـرروا الحملات، ولم يسمحـوا للمحاصرين بدقيقة راحة.

وكـان العائق الأكبر الذي وقـف في وجه الجيش بحيرة كبيرة كـانت متصلة بالمدينة، فبـوساطتهـا امتلك الأعداء امكانات الاتصـال من دون عـــوائق، وأحضروا كثيراً من المؤن، مما أحبط كثيراً أعمال المحـــاصرين، ولكي يتخلصوا من هذه المشكلة، جلبوا سفناً إلى البحيرة، ووضعوا على ظهرها رجالاً مسلحين، وبهذه الواسطة انقطعت الامدادات عن المدينة، وكان هناك أيضـاً برجاً على الجهـة الجنوبية من المدينة، أعلى وأقـوى من الأبراج الأخرى، وعندما وجد الصليبيون أن الوسائل التي استخدموها للاستيلاء عليـه قد أخفقت، قرروا ترتيب رجالاً للغمـه، وبهذه الطريقة أمكنهم بعـد جهـد كبير، سحب جميع الأحجـار من الأساسـات، وقـد وضعوا مكانهم قطعاً من الخشب، وبعد ذلك ألقوا النار بين الأخشاب، فــاحترقت، وتهاوى البرج مع صـوت هائل ومـــرعب، وكأن الأرض أصيبت بـزلزال، فقـــد أصيبت قلوب جميع الذيـن سمعـــوه بالـرعب، ولاسيما سكان المدينة الذين ارتعـدوا رعبـاً لسقوطه، وهنا لدى صـدور هذه الإشـارة هبت عسـاكـر الصليبيين إلى السـلاح، وشجعـوا بعضهم بعضاً للاستعداد للزحف إلى داخل المدينة.

الاستيلاء على نيقية وإعطاء هذه الغنيمة إلى الامبراطور

وأصيبت زوجة السلطان بالرعب نتيجة لسقوط البرج، ولم يعد لديها أمل، ولذلـك حـــاولت النجـــاة بشكل سري والفـــرار من المدينة عبر البحيرة، لكن رجـالنا الـذين كـانوا على ظهـر السفن يتـولـون مـراقبـة

البحيرة، استطاعوا أسرها، وقد حملوها إلى أمام الأمراء، وأسروا معها ولديها، وكانا مايزالان صغيرين، وقد وضعا الآن مع أمهما في سجن محكم، وركز الدوق اللامع غودفري اهتمامه على واحد من الأتراك، كان قد قتل عدداً كبيراً من رجالنا بسهامه، وفضلاً عن ذلك تولى شتم الأمراء من فوق الأسوار، وقد تربص فيه فرصته، وعندما توفرت رماه بسهم أصابه به في جبينه، فسقط الرجل ميتاً، ووقع من فوق السور في الخندق، ونهض الجميع الآن للقيام بالهجوم، وزحفوا للقتال ضد المدينة، وكان ذلك لدى سماعهم صوت الأبواق والنفر، وامتلأ الهواء بالضجيج، وبالنشاب، وبالحراب المتطايرة، والحجارة، وقطع الأخشاب، إنما دون أن تؤثر شيئاً على المحاصرين، ذلك أن سلاحهم وشجاعتهم ازدادت وكذلك كان نشابهم أكثف بالتساقط من ذي قبل، ومع ذلك كان عبثاً ذلك كله، ذلك أنهم أرغموا أخيراً على الاستسلام، وقد سلموا المدينة إلى تاسينوس Tacinus ، وكان ضابطاً لدى الامبراطور الاغريقي، وجاءت هذه الترتيبات متماشية مع موافقة الأمراء، الذين كانت لديهم أهدافاً عليا نحو ذلك، فذلك كان متوافقاً مع الاتفاقية التي دخلوا فيها، وتسلم الحجاج على كل حال واستردوا جميع عبيدهم، وكذلك أسراهم الذين أخذوا من قبل السكان أثناء الحصار، ومثلهم الذين كانوا من جيش بطرس الناسك، حسبما تحدثنا من قبل، ثم أرسل الأمراء رسائل إلى الامبراطور يحثونه بها على أن يبعث بعدد كاف من ضباطه لحراسة المدينة، وبسرور وفرح بعث الامبراطور بعضاً من وزرائه المعتمدين لتسلم المدينة مع جميع مقتنيات الأسرى من ذهب وفضة مع جميع الأشياء المنقولة، وأرسل مع الرسل الذين قدموا إليه هدايا كبيرة لكل واحد من الحجاج، محاولاً بوساطة كل من الرسائل وكلمات الفم الحصول على رضاهم جميعاً، وقدم لهم امتنانات وافرة على الخدمات والأعمال التي قدموها، والاضافة العظيمة التي صنعوها لمالكه. وكان قد جرى الاستيلاء على نيقية في الحادي

والعشرين من شهر حزيران، في سنة ١٠٩٧ لتجسيد ربنا.

كيف تابع الصليبيون زحفهم والنصر المفجع الذي نالوه

أما وقد انتهى الحصار، استأنف الجيش الصليبي زحفه، وجاء ذلك بناء على أوامر الأمراء، وكان ذلك في التاسع والعشرين من حزيران، وبعد عبورهم لأحد الجسور، قسموا جيشهم إلى قسمين، فقد سار على جهة اليسار: الأمير بوهيموند، وروبرت دوق أوف نورماندي، وستيفن كونت أوف بلوا، وهيوج دي سينت بول، وتانكرد، وقد وصلوا إلى واد اسمه غورغوني Gorgoni، وسار البقية على جهة اليمين، وأكملوا نهار زحف، ومع ذلك لم يكونوا على مسافة تتجاوز الميلين عن المكان الذي عسكرت فيه الكتلة الأخرى، غير أن السلطان الذي لم ينس الأذى الذي تلقاه، ظهر في اليوم التالي، في حوالي الساعة الثانية من النهار مع حشد كبير من الأتراك قيل تجاوز عدده المائتي ألف.

وجرى انذار جيشنا، ووصله خبر اقترابهم من قبل الكشافة، ولذلك وضع أثقاله وعرباته والمرضى، إلى جانب سبخة قصبية كانت قائمة بالقرب، وأعد جنودنا أنفسهم للقتال، وأرسلوا رسلاً إلى رجال الشطر الآخر، الذين بحماقة افترقوا، وشكلوا فريقاً مستقلاً، وحثوهم على القدوم بكل سرعة إلى مساعدتهم، وبدأ في الوقت نفسه الجند الصليبيون يعانون بشكل مرعب، لأن خيولهم لم تكن معتادة على الجلبة التي أحدثها الترك، فقد كانت زعقات أبواقهم وأصوات كوساتهم تمنع الخيول عن الاطاعة والتقدم، ولذلك أرغموا على التراجع، وشاهد هذا روبرت اللامع، كونت نورماندي، وكان واصلاً نحوهم، فصرخ بصوت مرتفع: « إلى أين أنت فارون ياجند؟ إن خيول الأتراك أسرع من خيولنا، ولذلك ليس مجدياً الهرب والابتعاد، ومن الأفضل الموت من أن نعيش مع العار، أقبلوا يارجالي الشجعان، وافعلوا كما أفعل، واتبعوني»، وماأن فرغ من كلامه حتى حمل على تركي فطعنه فخرق

ترسه ودرعه برمحه، ثم طعن ثانيا، وأتبعه بثالث بالطريقة نفسها، وذلك بدقيقة واحدة، واسترد الصليبيون شجاعتهم، وأعقب ذلك صراع مميت، وقد تم قتل اثنين من أمرائنا في هذه المعركة، فقد هاجم وليم— أخوتانكرد— أميراً تركيا، وقد طعن كل منهما الآخر برمحه، وأصيب غودفري، دورمونت Durmont بسهم قاتل، عندما كان يقطع رأس تركيا، وتم قتل الكونت روبرت أوف باريس بطريقة مماثلة، وجرى قتل ألفين من الحجاج، وصدت عساكرهم، لكن عندما كانوا في هذا الوضع اليائس، قامت المجموعة الأخرى، التي قادها غودفري، وكانت مشكلة من أربعين ألف رجل مسلح، بالانقضاض بشكل مفاجيء على الترك، الذين اعترتهم الدهشة لدى رؤيتهم قدوم جيش جديد، وارتقبوا وكأن السماء وقعت عليهم، ولذلك انهزموا مع قائدهم السلطان.

وطاردهم الصليبيون من دون توقف، ولذلك تغطت الأرض لمسافة أميال عن المعسكر بجثث قتلاهم، وقد عادوا إلى معسكرهم جالبين معهم الذين أخذهم الترك أسرى، في بداية القتال، وقد وجدوا هناك كميات وافرة من الذهب والفضة، والأمتعة، والخيول والقطعان، والأغنام، والمؤن من كل نوع، وسرادقات، وخيام، وخيول وأغنام، وقد أخذوا هذا جميعه إلى معسكرهم، ولقد قيل بأنه سقط في تلك المعركة من جانب الأعداء ثلاثة آلاف من رجاله الأشداء ومن أعيانهم، وجرت هذه المعركة في اليوم الأخير من حزيران، مع عدم تكافؤ كبير في القوى، لأن الترك كانوا مائة ألف وخمسين ألف رجل، في حين وصل تعداد جيش الصليبيين إلى خمسين ألفاً فقط.

كيف تابع الحجاج زحفهم من نيقية إلى أنطاكية خلال المناطق التي أخضعوها

وبعد استراحة ثلاثة أيام، كانت ضرورية لهم أنفسهم ولخيولهم،

اجتاز الجيش جميع منطقة بيثينيا، ثم دخل إلى بيثيديا، ونزل بعدها إلى سهل وعر جاف، حيث لم يستطيعوا الحصول على أية مياه، وعسكروا هناك، وعانى الناس كثيراً إلى حد أن أكثر من خمسمائة منهم ماتوا، وأخيراً عندما تمكنوا من تخليص أنفسهم من هذه المصيبة، دخلوا إلى منطقة خصبة على مقربة من أنطاكية الدنيا، التي هي العاصمة في بيثينيا، وهنا قسموا قواتهم ثانية، ووزعوا أنفسهم على جميع المناطق للاستطلاع، ولجلب المعلومات التي يمكنهم الحصول عليها إلى أمرائهم، وكان هؤلاء بعدما غادروا المعسكر، اجتازوا هرقلية، وهي مدينة في ليكونيا وذهبوا إلى قونية التي هي عاصمة هذه المنطقة نفسها، وقد وجدوها مهجورة كلياً من السكان، لأن الأتراك عندما سمعوا بقدوم الصليبيين تركوا مدنهم وقلاعهم، ولم يتجرأوا على الدفاع عنهم بالسلاح.

ولنعلم أن كيليكية تحد سورية المجوفة من الشرق، في حين تحدها ايزوريا من الغرب، وهناك في الشمال تحدها طرسوس، وفي الجنوب بحر قبرص، وهي لها عاصمتين هما مدينتي: عين زربة، وطرسوس، التي هي مسقط رأس بولص، معلم الأمم، وأخضع هذه المدينة بلدوين أخو الدوق غودفري، واستولى روبرت، دوق نورماندي على مدينة اسمها (بارتزرابرت؟) Azen وأعطاها إلى سيمون الذي كان واحداً من فرسانه، واستولى الأمير بوهيموند مع ايرل ريموند على مدينة أخرى أعطياها إلى بيتر دي ألبيبوس Alpibus ، ثم إنهم زحفوا إلى مدينة كوكسون التي استولوا عليها، واستولى بيتردي روسيلون على الروج مع عدة قلاع، واستولى بيرغندي اسمه غولف Guelf على مدينة أذنه، وبترحاب استقبل تانكرد عندما وصل إلى هناك، وتابع تانكرد زحفه من هناك فوصل إلى المصيصه، حيث قتل الأتراك وأخضع المدينة، ومن هناك زحف إلى الاسكندرية الصغرى، التي استولى عليها، وجعل المنطقة كلها خاضعة له.

واستأنف بلدوين— أخو غودفري— حملته، وأخضع المنطقة كلها الممتدة حتى الفرات، وانتشرت شهرته، ووصلت إلى الرها فيما وراء الفرات، ولدى سماع سكانها بوصول مثل هذا القائد اللامع من بلاد الغرب، دعوه بتواضع للقدوم ليكون بينهم، وليستولي على حكم المدينة، ومدينة الرها، وهي التي تعرف أيضاً باسم راغس Rages ، هي مدينة فخمة في الجزيرة، فإلى هذا المكان كان توبت الكبير قد أرسل ابنه توبت الأصغر، ليسترد العشرة أرطال (من الفضة) من قريبهما غابل Gabel، وبناء عليه إلى هذه المدينة ذهب بلدوين، وقد استقبل من قبل حاكمها وشعبها بتمجيد وتشريف، وذهب من هناك إلى سميساط، وعندما وجد أنه لايمكنه الاستيلاء عليها بقوة السلاح، اشتراها بمبلغ عشرة آلاف قطعة من الذهب من حاكمها، وأضافها إلى ممتلكاته، وكانت سروج المدينة التالية على طريق زحفه، فحاصرها واستولى عليها.

وبات الطريق كله مفتوحاً لكل من يرغب بالذهاب من الرها إلى أنطاكية، وفي الوقت نفسه زحف الجيش الأساسي إلى مرعش، التي أخلاها الأتراك لدى وصوله، ولم يتركوا فيها سوى الشطر المسيحي من السكان، ومن هناك أرسلوا أمامهم روبرت دوق نورماندي مع كونت فلاندرز إلى أرتاح، التي ما أن سمع سكانها بقدوم الصليبيين حتى ثاروا على الترك، الذين استبدوا بهم منذ أمد طويل، وقتلوهم جميعاً، وألقوا برؤوسهم إلى خارج أسوار المدينة، وهي تبعد خمسة عشر ميلاً عن أنطاكية، وتعرف هذه المدينة أيضاً باسم قالي— قلا(كليكية)

حول عبور أحد الجسور وحصار أنطاكية

وجرى الآن استدعاء جميع فرق الجيش المتفرقة إلى الاجتماع والاحتشاد معاً، وعندما اجتمع الجميع، صدر إعلان بمنع تفرقهم ثانية، وزحفوا في الصباح التالي نحو أنطاكية، وكان طريقهم عبر العاصي،

الذي يعـرف أيضـاً باسم فرفـر، وسمعـوا هناك أنه سـوف تكون هناك صعـوبات كبيرة في عبـور الجسر، ولذلك أرسلوا أمـامهم روبرت دوق نورمـاندي مع قـوات خفيفة، ليتقـدم وليستطلع الطريق، وليعـرف هل هناك من معيقـات يمكن أن تقـوم حتـى يتصـدوا لها، وبناء عليـه تابع الدوق المذكـور زحفـه حتى وصل إلى الجسر المذكـور، وكـان مبنيـا من الحجارة مع برجين قام واحد منهما عند أحد مدخليه، وكان فيه مائة من الرجال الشجعـان، والبارعين في استخـدام القوس العقار، قـد تمركزوا لمنع أي انسان من عبور النهر سـواء عبر الجسر، أو عبر المخاضة، فضلاً عن هذا قدم من أنطاكية سبعمائة فـارس، تمركزوا فوق الجهة المقابلة من النهر لمنع رجالنا من العبور، بقدر مالديهم من قوة، وعندما وجد الدوق روبرت أنه لن يستطيع عبور النهـر، ونتيجة لمعارضة القـوات التي تقدم ذكـرها، نشبت معـركة حـاميـة الوطيس، وقـد استمرت حتى وصـول الكتلة الأسـاسيـة من الجيش، ووقتهـا زعقـت البـوقـات، وهاجم الصليبيـون الجسر، وطردوا المدافعين، بينما بحث الآخرون عن مخاضـه، وأوقعوا الهزيمة بالأعداء، واستـولوا على الشاطىء المقابل، وعندها عبر الجيش كله، ثم توقف هناك لتمضيـة الليل، وتابعـوا في الصبـاح التـالي سيرهم، عبر الطريق العـام، وكـان ذلك بين الجبـال والنهـر، وعسكروا أمام المدينة، على مسافة أقل من ميل عن أسوارها.

وأنطاكية مدينة واسعة الشهرة، وقد نالت اسمها من أنطوخيوس ابن الاسكندر المقدوني(كذا) وهو الذي اتخذها عاصمة لمملكته، وفيها وضع فيها بعد أمير الرسل كرسيه الأسقفي، وكان ذلك تحت رعاية ثيوفيلوس Theophilus المبجل، الذي كـان الرجل الأقـوى بين سكانها، ومنه عـرفت بعـد ذلك باسم ثيـوفيليس Theophilis، وكـان اسمهـا في العصور القـديمة ريلة(كـذا)، فهنا جلب صدقيـا ملك يهوذا ليمثل أمام نبو خـذ نصر، ثم حرم من بصره، وهي قـائمة في سورية المجـوفة، التي

هي منطقة في سورية، وهي مشهورة، لخصوبة أرضها، ولجداولها الجميلة، وينابيعها الرائعة، وكان صاحب المدينة رجلاً اسمه يغي—سيان، وكان تركي الأصل، ومن أسرة السلطان الكبير لفارس، الذي اسمه بركيـاروق Belfecho ، وكان قد طرد جميع المسيحيين، وأخضع جميع هذه البلدان إلى سلطانه.

وبناء عليه قرر أمراء الغرب، إلقاء الحصار على هذه المدينة، وفي الثامن والعشرين من تشرين الأول نشروا جيشهم وأحاطوا بأسوار المدينة، وكان هناك خمسة أبواب للمدينة، اثنان منهما لايمكن اغلاقهما بسبب تدفق مياه النهر خلالهما، ولذلك ترك العدو هذين البابين وركز اهتمامه على الأبواب الثلاثة الأخرى، وتولى الحملة على الباب الأعلى بوهيموند والذين تبعوا رايته منذ البداية، ثم قدم إليه روبرت دوق نورماندي، وكونت فلاندرز مع رجالهما، وقد التحقا بمعسكر بوهيموند قرب باب الكلب، وتلا هؤلاء كونت طولوز، وأدهمر أسقف لى بوي وذلك مع النبلاء الآخرين الذين ساروا تحت رايتيهما، وكان بعد هذين الدوق غودفري مع أخيه يوستاس، وبلدوين مع كثير من العساكر الأخرى التي تبعته لأنه قائدها.

كيف قتل بوهيموند كثيراً من الترك لدى بحثه عن المؤن

وهكذا وضعت المدينة تحت الحصار، ووضعت الآلات في مختلف الأماكن، وضمت هذه الآلات، المجانيق، والعرادات، وآلات الرمي الأخرى، التي قذفت بحجارة كبيرة إلى المدينة، مما قذف رعباً كبيرا في قلوب السكان، كما أنهم شيدوا قلاعاً خشبية ذوات حجم كبير، ووضعوا في أعلاها رماة قسي الزنبورك، حيث تولوا رماية السهام المحترقة، والمسمومة، وقام الأتراك من جانبهم ببناء آلات مقابلة، ورموا مقابل كل حجرة حجرة، وكل سهم سهم، على الحجاج، حتى مضى بعض الوقت، وقد جرى قتل عدد كبير من على الطرفين، وبشكل

خـاص من بين الذين خرجـوا يمتـارون، ذلك أنهم بدأوا يحتاجـون إلى الطعـام، وقـام الأمير بوهيمـوند، وكـونـت فـلاندرز، وروبرت، باجماع أصوات مجلس القادة، بالانطلاق لتـأمين الميرة، وقد سمعوا بأن الأتراك يمتلكون قلعــة ومـدينـة كبيرة مليئة بجميع أنواع الثـروات، وذلك في منطقة معـادية، وقد زحفـوا إلى هناك مع رجالهم، ومع أنهم كـانوا قلة، تمكنوا بإرادة الرب، من قتل أعداد كبيرة من الأعداء، وأخذوا كثيراً من الأسـلاب لاستعمالاتهم، واكتشفـوا وقتهـا، بوسـاطة طلائعهم، وجـود حشـد كبير من الأتراك ليـس بعيـداً عنهم، وأرسل بوهيمـونـد كـونت فلاندرز مع كتلة من الرجال لمواجهة هؤلاء الأتراك، ووعده بأنه سوف يلحق به مع كتلة أكبر من الجند، وقام الكونت الذي كان رجلاً شجاعاً بمهاجمة الأعـداء بنشاط، وقتل مـائة منهم، وفيما هو عـائد إلى المعسكر، أخبره جاسوس، بوجـود قوة أعظم تزحف على الجانب الآخر، وهاجم الحجـاج على الفور هؤلاء بشـدة أعظم، وبفضل الرب هزموهم جميعـاً، وطاردوهم لمسـافة ميلين محدثين فيهم مـذبحة كبيرة، وهكذا عـادوا إلى المعسكر منتصريـن، مع خيــول، وبغــال، وجمال، وحمير، ومــواشي، وأسلاب كثيرة كانوا قد جمعوها.

وامتـلأت الحقول من حـول المعسكر، والأمراء الذين كانوا يعـانون كثيراً من العوز، تحمسـوا الآن مع بهجة وسرور، لكن مـع أن الأسلاب كانت كبيرة، إنها لم تكن كافية لتـزويد ذلك الحشد الكبير لأكثر من أيام قليلة، وخـلال وقت قصير بدأت المجـاعـة تنتشر في المعسكر، وعـادت أعـداد هـائلة من الجنود نحــو أوطانها بشكل سري، ناسيــة تعهـداتها وإيمانها، وكـــان بين هؤلاء تـاسينوس، الوزيـر البـــارع والأثير عند ألكسيوس، ذلك أنه خشي أن الحجاج سوف يعملون بشكل استبدادي، وقد ترك أسرته خلفه في خيامهم، ليخفي خيانته، ذلك أنه غادر ولم يعد مطلقاً.

وفي هذه الآونة حمل سوين Swain ابن ملك الدانمارك شارة الصليب، وعندما كان على طريقه للمشاركة بحصار أنطاكية مع ألف وخمسمائة من الرجال المسلحين بشكل جيد، فوجئ بكمين تركي، ليس بعيداً عن نيقية، وقد قتل مع جميع رجاله، وبسبب مقاومتهم الشجاعة، جرى الانتقام لمقتلهم بشكل نبيل، ودفع العدو ثمناً باهظاً لانتصاره.

كيف تأثر الحجاج بالمجاعة وبالوباء وعانوا منها

باتت في هذه الآونة المجاعة بين الصليبيين كل يوم أكثر فأكثر، وتبعها الوباء، وعين أسقف لي بوي— الذي كان نائب البابا في المعسكر— صوماً لمدة ثلاثة أيام فرض على جميع الناس الأخذ به، ومراعاته، لأن الرجال الأكثر حكمة وعلماً بين الناس، قد اتفقوا على أن ذنوبهم كانت السبب في معاناتهم، كما أنهم أمروا بإبعاد جميع المشردات من الإناث من الجيش، مع عدم التسامح مع السكر، والعربدة، أو النرد، أو الأيمان الكاذبة، وجرى تحريم جميع أعمال الغش والخديعة والتصرفات الشائنة، وجرى تقديم صلوات خاشعة، من أجل أن تتطلع الرحمة الربانية إليهم وتنزل عليهم، وهكذا بفضل نعم الرب الوافرة، عاد الناس إلى الطريق الأقوم للحياة، وخمد غضب الرب قليلاً، لأن الحجاج كانوا قد ارتعبوا إلى أبعد الحدود عندما علموا بوجود جواسيس في المعسكر، من كل الشعوب في الشرق، وهم من غير المؤمنين، وبات كل رجل في المعسكرقلقاً ليعرف كيف يمكنه الدفاع عن نفسه ضد أعداد هائلة من المقاتلين، من الممكن أن تزحف ضدهم.

هذا وكان من السهل بالنسبة للجواسيس البقاء غير مكشوفين في المعسكر، داعين أنفسهم بأنهم تجار من بلاد الاغريق، أو من سورية، أو من أرمينية، جلبوا مؤناً لبيعها للجيش، ونظراً لأن هؤلاء الجواسيس كانوا شهوداً على المجاعة والوباء اللذان انتشرا في المعسكر، خاف الحجاج بالفعل من قيام هؤلاء الجواسيس بالانتشار بين الشعوب، الأمر

الذي سوف يغريها للقدوم مع القوات لتدميرهم جميعاً، واحتار الأمراء ولم يعرفوا العلاج الذي ينبغي استخدامه ضد هذا الشر، لكن بوهيموند عرف كيف يتصرف، ذلك أنه كان رجلاً ذكياً، فعند حلول المساء من الليلة التالية، عندما كان رفاقه جميعاً منشغلون في جميع أرجاء المعسكر، بإعداد الطعام لعشائهم، أمر باحضار عدد من الأتراك، كانوا لديه في السجن، وأمر بقتلهم، ثم بشي أجسادهم فوق نار كبيرة، لإعدادهم من أجل المائدة، فضلاً عن هذا، أمر خدمه أنهم إذا ماسئلوا عما كان يحدث أن يجيبوا أن أوامر عامة قد صدرت، تقضي أنه منذ الآن فصاعداً، بتقديم جميع الأتراك الذين سوف يجلبهم الكشافة أسرى، ليكونوا طعاماً لكل من الأمراء والناس عامة.

وسمع الجيش كله أخبار هذا العمل المدهش الذي قام به الأمير بوهيموند، فركضوا جميعا ليتعرفوا على الأخبار، واعتقد الجواسيس الأتراك الذين كانوا في المعسكر، بأن هذا العمل كان عملاً جاداً، لارجعة فيه، ولذلك خافوا من أن يحدث الشيء نفسه لهم أنفسهم، ولذلك غادروا المعسكر، وعادوا إلى بلدانهم، حيث أخبروا سادتهم بأن رجال جيشنا كانوا شرسين جداً، مثلهم مثل وحوش الغابة، ولايقنعهم اخضاع المدن والقلاع، والاستيلاء على أسلاب أعدائهم، وهم لايكتفون بتعذيب أسراهم وقتلهم، بل يقومون بملىء أجوافهم من جثثهم، وهم يتغذون على دماء ضحاياهم، وانتشر هذا الخبر ووصل إلى أقصى مناطق الشرق، وأرعب البلدان النائية جداً، واضطربت أنطاكية لسماعها أخبار هذه الفعلة، وتجلت رحمة الرب نحو شعبه بفعل حماسة الأمير بوهيموند، وبهذه الوسيلة توقف إلى أبعد الحدود الخوف من الجواسيس.

شفاء الدوق غودفري من مرضه وسبب مرضه

وكان هناك سبب آخر لسرور الجيش هو شفاء الدوق غودفري،

الذي كـان في تلك الآونة قـد استرد صحتـه من مـرض شـديد، لأنهم عندما كانوا في أنطاكية الصغرى أصيب بجراحة كانت قاتلة تقريباً، وقد أصيب بها من دب، فقـد ذهب الدوق إلى الغـابة بقصـد الاستجمام، فوجد حـاجا مسكينا يحمل خشبا جافـاً، مهاجماً من قبل دب، وكان غير قـادر على الدفـاع عن نفسـه، لذلك ركـض هارباً وهو يدعـو بصـوت مرتفع للنجدة، وشـاهده الدوق، وهو يركض، ويصرخ بصوت مرتفع، والدب قريـب منه وجاهز لإلتهـامه، فاندفـع نحو الحيوان، وهو شـاهر لسيفـه، لانقـاذ الـرجل المسكين، وعندمـا شـاهده الـدب، وهو يزحف نحـوه، وسيفـه مجرد مشهـور، ترك الحاج المسكين، وانقض على عـدوه الأعظم، وخاف حصـانه خوفاً شديداً، فترجل راكبـه، وتابع القتال على قـدميـه، وبصـوت مـرتفع وفكين مفتـوحين استخـف الدب بالدوق وبسيفه، وسعى للاشتباك معه، وعندما حاول الدوق طعنه بسيفه تجنب الدب رأس السيف، وأمسك الدوق بمخـالبه الأمـاميـة، وحاول رميـه أرضـاً حتى يمزقـه إرباً إربا، غير أن الدوق الذي كـان قـوياً، وعسكرياً رياضيـاً، أمسك الدب بيـده اليسرى، وغـرس السيف بجسـده حتى غمده، فألقاه ميتاً على الأرض، ونظراً لأنه أصيـب بجراحة بالغة، ولأنه تغطى بالدم، وللنزيف الكبير الذي عـانى منه، خارت قـواه، حتى أنه لم يعـد قادراً على العـودة إلى خيمته، ومـا أن تولى الحاج المسكين— الذي أنقـذ مـن الموت بتـدخل الدوق— نشر الخبر في المعسكـر حتى هبت العسـاكر نحـوه، ووضعته على محفـة، وحملته وسط أسف عـام من قبل جميع الجنـود في المعسكر، حيـث حظي بعنايـة الجراحين حتى شفـي من جراحته، وبما أن هذه الحادثة وقعت في الآونة التي أشرنا إليها من قبل، لذلك توفر سرور عارم بين صفوف الجيش كله.

كيف جرت سيامة سامبسون أسقفاً لوركستر

وقـام في السنة نفسهـا، أنسلم رئيس أسـاقفـة كـانتربري بسيـامـة

سامبسون أسقفاً لوركستر Worcester، وكان ذلك في لندن، في كنيسة القديس بولص، يوم الأحد ٢٥ حزيران، وكذلك عمل رتشارد دي اسي Essaie راعي دير لكنيسة سانت ألبان الشهيد في انكلترا، وقد أدارها بأمانة لمدة اثنتين وعشرين سنة، أصلح خلالها الأوضاع الدينية داخل أسوار الدير، وأثراه في الخارج بالقلايات، مع ممتلكات الأراضي، والمقتنيات من كل نوع.

حول مقتل ألفي تركي

العام ١٠٩٨م: الحجاج منشغلون في حصار أنطاكية، وقد احتفلوا بعيد ميلاد الرب بشكل فخم جداً، مع قداسات دينية، وتقديم للصدقات، وفي الوقت نفسه كان أهل أنطاكية قلقين على مدينتهم، في وضعها الحرج آنذاك، ولذلك دعوا أمراء المسلمين، من القريب والبعيد، إلى عونهم، وبناء على طلباتهم الملحة بعث أهالي مدن: دمشق، والقدس، وقيسارية، وحلب، وحماه، وحمص، وبعلبك، ثمانية وعشرين ألفاً من المحاربين، وقد تجمعوا عند حارم، التي تبعد حوالى أربعة عشر ميلاً عن أنطاكية، وكانوا عازمين على الانقضاض بشكل مفاجىء تماما على الحجاج، في الوقت الذي يكون فيه هؤلاء منصرفين نحو الهجوم على المدينة، غير أن قادتنا وقد عرفوا بهذه النية المبيتة، تركوا رجالتهم يتابعون الحصار، وجمعوا جميع الفرسان عند أول الغسق، وغادروا المعسكر بصمت، وتوقفوا خلال الليل على بعد ميل واحدعن المعسكر المعادي، بين بحيرة وبين العاصي، وقد هبوا إلى السلاح في الصباح الباكر، ووزعوا قواتهم إلى ست فرق، لكل منها جرى تعيين قائد، وعرف الأتراك الذين لم يكونوا بعيدين بأن رجالنا كانوا على مقربة منهم، وقد أرسلوا سريتين من الجند نحو الأمام، في حين لحقوا هم بهم على مهل، وكان تعداد الصليبيين سبعمائة رجل فقط، إنما من القوة التي حصلوا عليها من عليين، ظهروا بالنسبة لأنفسهم آلافاً كثيرة.

وأثناء زحف القــوات نحــو الأمـــام من على الجانبين، حمل الصف الأول من الأتراك بشـــدة متناهيـــة على الصليبيين، واثقين أنهم بعــد اطلاقهم لنشابهم عليهـم سوف يكون بإمكانهم التراجع إلى عسـاكرهم، لكن رجـالنا تحملوا، ثم حملـوا عليهم بالسيـوف مجردة، ورمـاح مثبتـة، ودفعوهـم حتى جعلوهـم يتكدسون بين البحيرة من جهة وبين النهر من الجهـة الأخرى، ولذلك أعيق الأتـراك عن التحرك بحـرية هناك حسبما هي طريقتهم المعتادة، وعندمـا وجدوا أنفسهم غير قـادرين على التعامل مع الصليبيين في القتال، أخلـدوا إلى الفرار، لأنه كان الوسيلـة الوحيدة للنجـاة، وطاردهم الصليبيـون بشدة حتى معسكرهم، الـذي كان يبعـد عشرة أميال عن ميـدان القتال، ولدى رؤية سكان حارم للعساكـر وقد هزمـوا، وأن أكثرهم صـاروا طعمـة للسيف، قـامـوا بإحـراق بلدتهم، وهربوا منهـا أيضـاً، وقـام الأرمن مع المسيحيين الآخـرين السـاكنين في تلك المناطق بالاستيــلاء على البلدة، وسلمـوها للصليبيين، وجـرى في ذلك اليوم مقتل ألفي رجل من الأعداء، وقدم رجالنا حمداً وافراً للرب من أجل نصرهم، ثم عـادوا إلى المعسكر، حـاملين معهم خمسمائـة رأس من القتلى، مع ألف من الخيول الرائعـة، وكميات هائلة من الغنائم، وفي الوقت نفسـه خرج سكان المدينة، وأغـاروا بشجاعة على رجـالنا طوال النهـار كله، لكنهـم تـراجعـوا إلى داخـل المدينة لدى اقتراب الأمـــراء، وعندما وصلت الفرقة المنتصرة إلى المعسكر، رمت بمائتي رأس تركي إلى المدينة، لإعـــلام السكان بانتصـــارهم، وثبتـــوا البقيـة على عصي أمـــام الأسوار، حتى يزيدوا بمشاهدتهم من آلام المحاصرين.

كيف جرى تدمير ثلاثمائة من الحجاج من قبل الترك

وبعدمـا عاد الأمراء إلى الحصار، قـاموا بهجوم عـام على المدينة، وقد جرت مـواجهتهم بكل شجاعة من قبل المحـاصرين، الذين قتلوا حامل علم أسقف لى بوي مع عدد كبير آخر، وأخيراً بعدما مضى على الحصار

خمسة أشهر، وصلت بعض المراكب الجنوية جالبة حجاجاً وميرة، وبعث البحارة بعدة رسل يطلبون من الأمراء قوة ترافقهم إلى المعسكر، ومنحت هذه الأخبار الرضا إلى الحجاج الذين كانوا منذ أمد يعانون من الحاجة إلى الطعام، ونزل عدد كبير منهم إلى ساحل البحر، حيث أنهوا أعمالهم واستعدوا للعودة ثانية إلى المعسكر.

وكان الأمير بوهيموند، وكونت طولوز، وايفرارد دي بوساكو Everard de Busaco وغارنر Garner كونت دي غري Gres، هم القادة الذي كلفوا بمرافقة الحجاج القادمين الجدد مع الآخرين الذين نزلوا لمقابلتهم، وعندما سمع أهل أنطاكية أخبار هذه الحملة أرسلوا أربعة آلاف من العساكر الخفيفة لإعتراضهم وتدميرهم، وبناء عليه عندما كان الحجاج الأدنى مرتبة— الذين لم يكونوا مسلحين— على طريقهم إلى المعسكر، مع المؤن على ظهور الخيول، خرج الأتراك من الكمين، وهاجموهم بفعالية، ودافع عنهم الأمراء لوقت طويل، لكن عندما رأوا أخيراً استحالة متابعة القتال ضد مثل ذلك الحشد الكبير من الأتراك، تراجعوا إلى المعسكر مع أكبر عدد أمكنه أن يلحق بهم، لكن العدد الأساسي من الحجاج، وكانوا حوالي ثلاثمئة من الجنسين، ومن جميع الأعمار، قد قتلوا في ذلك الاشتباك.

وفي الوقت نفسه وصلت أخبار إلى المعسكر بأن الحجاج الذين نزلوا لتوهم إلى اليابسة قد فوجئوا من قبل كمين نصبه الأتراك ، وأنهم جميعاً كانوا طعمة للسيف، وفي أثناء انتشار هذه الأخبار، دخل بوهيموند، يتبعه كونت طولوز إلى المعسكر، وشرحوا إلى الأمراء أخبار الحادث المشؤوم الذي حدث، وشاهد يغي سيان، حاكم المدينة، بأن رجاله قد انتصروا ولذلك أمر بفتح أبواب المدينة، حتى تتمكن القوات من الدخول بحرية لدى عودتها، لكن قادتنا كانوا تواقين للانتقام لدماء رجالهم، فحملوا السلاح، وبادروا مسرعين لمواجهة الأعداء، وانقضوا

بغضب وعنف على الأتراك، الذين تفرقوا وتبددوا خوفاً، وتصارع الفريقان في سبيل السيطرة على جسر المدينة، وتمكن الدوق غودفري دوق اللورين من مركزة رجاله على الجسر، وقام هؤلاء إما بقتل الأتراك، أو بصدهم وطردهم نحو الأمراء الذين كانوا يتولون مطاردتهم، وبذلك صاروا غير قادرين على مقاومة أي من الفريقين، ولم يستطيعوا بأية وسيلة الفرار، لهذا جرى تمزيقهم إلى إرب إرب، ورأى يغي سيان فرار عساكره، ولهذا فتح الأبواب لإدخال الذين بقيوا منهم أحياء على الأقل، ولذلك توفر هناك حشد كثيف فوق الجسر، ولذلك سقط عدد كبير جداً في النهر، وتمكن الدوق غودفري بقواه الذاتية، وبضربة واحدة، من قطع رؤوس عدة عساكر أتراك ورأى واحداً منهم وهو يحمل بشدة على رجالنا، فقطعه إلى قسمين، وهو لابس لدروعه، وهكذا سقط القسم الأعلى على الأرض، بينما بقي القسم الأسفل على ظهر الحصان الذي حمله إلى داخل المدينة، ذلك أن هذا الحصان اندفع يصهل ويشخر بين الأتراك، وكأنه مدفوع من قبل الشيطان، وقد أرعب الجميع بمنظر الجثة الفظيع فوق ظهره، وسدد روبرت دوق نورماندي ضربه مماثلة لتركي آخر، كان يتحارب معه، وكانت الضربة قوية إلى حد أنها نفذت من خلال الخوذة، والترس، والرأس، والأسنان والرقبة نزولاً حتى الصدر، وكان مثل شاة قطعت إلى قسمين من قبل الجذار، وعندما سقط إلى الأرض، صرخ الدوق بصوت مرتفع قائلاً:« إنني أوصي بروحك الدموية إلى جميع العاملين في جهنم»، فقد جرى في ذلك اليوم مقتل ألفين من الأتراك، ولولا قدوم الليل، لكانت أعمال أنطاكية قد وصلت إلى النهاية، وعلم رجالنا بشكل مؤكد من الأسرى، أن اثني عشر رجلاً من بين أعيان الأتراك قد سقطوا في هذه المناسبة، وقام سكان المدينة بدفن أجساد الذين قتلوا منهم أثناء الليل، لكن رجالنا نبشوا قبورهم وأخرجوهم ثانية، وجردوا هؤلاء الكلاب المدفونين من جميع الذهب والفضة والثياب الثمينة التي كانوا يرتدونها، وأعطوا

الجميع للاستخدام من قبل حجاجهم الذين كانوا فقراء.

كيف استولى الحجاج على ألفين من الخيول

بعد هذا النصر الذي أرسلته السماء، بنى الحجاج بعض المحطات الجديدة والآلات من أجل ازعاج المدينة، وسمعوا بأن سكان المدينة لديهم نقص بالأعلاف، لذلك أرسلوا خيولهم للرعي في مكان يبعد حوالي الأربعة أميال عن المدينة، فزحفوا مسرعين إلى هناك، وقتلوا الذين كانوا هناك مسؤولين، واقتادوا إلى المعسكر ألفين من الخيول الأصيلة، إلى جانب البغال من الجنسين، وحوالي الوقت نفسه، سمع بلدوين، أخو الدوق غودفري— الذي كان، كما روينا، قد تسلم حكم الرها— بأن الحجاج في عوز للضروريات فأرسل إليهم هدايا كثيرة، وذهباً، وفضة، وملابس حريرية، وخيولاً ثمينة، بها تحسنت أوضاع الأمراء كثيراً، وأرسل إلى أخيه غودفري أيضاً جميع موارد أراضيه قرب الفرات من حبوب وخمرة وشعير، وزيت، وذلك إلى جانب خمسين ألف قطعة من الذهب.

وفي هذا الوقت أيضاً جلب الجواسيس أخباراً إلى الأمراء، بأن سلطان فارس قام بناء على الطلبات الملحة من أهل أنطاكية، ثم بفضل تدخل رعيته، فأرسل إلى سورية جيشاً عظيماً، وأن هذا الجيش بات وشيك الوصول، وأرعبت هذه الأخبار الأمراء كثيراً إلى حد أن ستيفن كونت تشارترز، تظاهر بالمرض، فحصل على إذن من رفاقه بالمغادرة، وغادر مع أربعة آلاف رجل ولم يعد ثانية، واجتمع الأمراء الذين كانوا خائفين تمام الخوف من هذه الكارثة المقبلة، وتشاوروا حول العلاج المتوجب الأخذ به، قبل أن يقوم الآخرون باحتذاء حذو هذا المثل القاتل، ولذلك تقرر بالاجماع أن كل واحد سوف ينسحب من دون موافقة الأمراء ويترك المعسكر من دون إذنهم، سوف يعد مجرماً بتدنيس المقدسات، أو بالقتل، وهكذا حدث أنهم جميعاً، تعهدوا عن طواعية،

وأقسمـــوا وكأنهم في الدير، وربطوا أنفسهم على أن يكـونوا مطيعين للأمراء.

حول فيروز الذي خان أنطاكية

من المعروف أن الرحمة الربانيـة غالبـاً ماتقدم العـون إلى عبيد الرب، عندما تخفق جميع الوسائل الأخـرى، ولاتحيجهم للتعرض للمحنة فوق طاقتهم بالتحمل، فقـد كـان هناك في أنطاكيـة رجـلاً من أصل نبيل، وكـان متميزاً في ميـدان المسيحيـة، وكان اسمـه فيروز Emifer، وكان رجلاً صـاحب سلطان كبير ونفوذ لـدى يغي سيان، وكـان مسؤولاً في قصره عن ديوان الوثـائق(كـاتب بـالعـدل)، وكــان مشهـوراً لنشــاطه وحكمتـه، وكان هـذا الرجل قد سمـع بأن بوهيمونـد كان أميراً لامعـاً ومجيداً، ولذلك قام فور إلقاء الحصار على المدينة بإرسال رسل موثوقين لديه إليه لضمان صداقته وكان في كل يوم يفشي إليه بصورة الأوضاع في المدينة، وكان يبين له بشكل سري كيف عليـه أن يعمل، وقام بوهيموند من جـانبـه بإخفاء سر صـديقـه، بحيث لم يكن بإمكان الرسل من كـلا الجانبين تحصيل أية معرفة عن مراسلاتهما.

واستمـرت هذه الصـداقـة بينهما لمدة سبعـة أشهر، وكـان مـوضـوع مـــداولاتهما يتعلق بكيفيـــة الطريقـــة التـي يمكن بها إعـــادة المدينة إلى المسيحية، وغالباً ماطرح بوهيموند هذا السؤال على فيروز، الذي أرسل إليه ابنه يحمل هذه الرسـالة:« إنه إذا أمكن طرد الكلاب القذرين الذين نحن الآن تحت نيرهم من المدينة، واسترداد المدينة لحريتها القديمة، وإثر ذلك إعـادة اسكانها ثانيـة مـن قبل شعب الرب، إنني على يقين سـوف أنال جـائزة السعـادة الأبدية مع أرواح المبـاركين، وإذا لم أستطع الوفـاء بوعـــدي، لاشك بأن بيتـي واسم أسرتي ســوف يمحى من الوجـــود، وبذلك لن يسمع به ثانية، وإذا— على كل حـال— تمكنت من الحصول على مـوافقـة حلفـائك، بأن المدينة حينما ستسلم إليك من قبلي، سوف

تصبح ملكاً لك، إنني من أجلك سوف أكرس نفسي لهذه المغامرة، وإنني سوف أسلم إليك هذا البرج العظيم الحصانة وأضعه بين يديك، فهو ماأن تتملكه، سوف يستطيع الأمراء لديك استحواذ ممر مفتوح إلى أي جزء من أجزاء المدينة، وكن على يقين أن هذا إذا لم يفعل في يوم الغد، فإنه لن يفعل مطلقاً، لأن هناك مائتي ألف من الفرسان قادمين من جميع ممالك الشرق لمساعدة هذه المدينة، وهم الآن معسكرون على شواطىء الفرات».

وعندما سمع بوهيموند هذه الكلمات، رجع إلى المعسكر، ودعا إليه جانبا كبار الأمراء وخاطبهم قائلاً مايلي:« إنني أرى ياأصدقائي الأعزاء واخواني أنكم قلقون تجاه اقتراب كربوغا مع جيشه الهائل، الذي بعدما أمضى أسابيع في حصار الرها، هو الآن قادم لمساعدة أهالي أنطاكية، وبناء عليه، إنه يبدو لي أن علينا السعي للاستيلاء على أنطاكية، قبل وصول هذا الحشد، وإذا ماسألتم كيف يمكن فعل ذلك، أجيبكم بأن هناك وسيلة يمكن بها تحقيق رغباتنا، إن لدي صديقاً في المدينة، إليه موكل حفظ برج قوي، وقد تعهد بتسليمي إياه، متى سألته ذلك، وبناء عليه إذا كنتم ترون أن من الحكمة تسليم المدينة إليّ، لتكون ملكاً لي، وذلك إذا ماأمكن الاستيلاء عليها، إنني على استعداد لتنفيذ حصتي من الصفقة، لكن إذا كان لدى أي منكم اقتراح مخالف، أنا جاهز لإعطائه محلي، والتخلي عن دعواي».

حول الاستيلاء على أنطاكية وحول سلبها ونهبها

وعبّر المقدمون عن رضاهم الكامل وقناعتهم بهذه الكلمات، باستثناء كونت طولوز، وقدموا تعهدات مهيبة، بأنهم لن يخبروا بهذا السر أي انسان، وحثوا في الوقت نفسه بوهيموند على صرف عنايته القصوى نحو ضمان نجاح هذا المشروع، وارفض الاجتماع، وأخبر بوهيموند صديقه بأنه حصل على الشروط المطلوبة، وطلب منه ترجمة أقواله

وأفكاره إلى أفعـال في الليلة المقبلة، وقـام فيروز من جانـب آخر، بتنبيـه بوهيمـوند إلى وجوب مغـادرة جميع الأمراء المعسكر في حـوالي الساعـة التاسعة، وكأنهم ذاهبون لمواجهـة الأعداء، وأن يعودوا بشكل سري مع أول سـاعات الليل، حتى يكونوا في منتصـف الليل جاهزين للالتحـاق بالمغامرة.

وجرى تنفيـذ هذا كله، واقترب حلول منتصف الليل، وكانت المدينة وقتهـا كلها تغط بالنوم، عندها أرسـل بوهيموند واحـداً من خدمـه إلى صديقه ليسأله عما إذا كان يمكـن لحاشية سيده اظهار أنفسهم؟ ووصل الخادم وسلم الرسالة، وعليها ردّ فيروز قائلاً:« اجلس هنا ولاتقل شيئاً حتى أعـود»، وقـد انتظر لبعض الـوقت حتى قـام رئيس الحرس الذي كان معتاداً على الطواف على الأسوار ثلاث مرات أو أربع كل ليلة، مع المصـابيح ليرى إذا كـان أحداً من الحراس نائماً، أثناء مـروره به، وبعـد ذلك بحث عن فـرصته فـوجـدها، فعـاد إلى الرسول وقـال له:« ارجع سريعاً وأخبر سيدك ليقدم إلى هنا مع عصبـة من الرجال المنتخبين بقدر مـا أوتي من سرعة»، وعـاد الرسول، فـوجد سيـده جاهزا مع الأمـراء، وكـان الجميع قد استعـدوا، وحضروا بأنفسهم كتلة واحـدة عند أسفل البرج، وكانوا بمثـابة رجل واحد، ودخل فيروز إلى البرج، فوجـد أخاه هناك نائماً، ولأنه كـان يعـرف أن عقله سـوف يكون مضـاداً لمثل هذه المغامرة، وخوفاً منه أن يقف عائقاً ضد نجاحها، طعنه حتى قلبه، وكان هذا عمـلاً صحيحاً، وفي الـوقت نفسه دمـوياً، ثم إنه ذهب ونظر نحـو الأسفل على الأمـراء، ورمى إليهم بحبل، به سحب إلى الأعلى سلماً من أجلهم من أجل الصعود عليه، وبعدمـا نصب السلم، مامن واحد منهم صعد عليـه، خوفاً من خيانة، وذلك دون الاهتمام بتحـريض بوهيموند، وعندمـا رأى بوهيمـوند ترددهم، تسلق على السلم بنفسـه مغامـراً بها، وأخذه فيروز بيده وسحبـه إلى البرج وقال له:« عاشت يمناك هذه»، ثم

اقتاده نحـو الداخل، حيث كانت جثة أخيه ممدة، وأوضح لصـديقه لماذا تولى قتله، واحتضن بوهيموند صديقه، وأطرى على ثبات موقفه ورأيه، ورجع إلى السلم، وحث رجـاله على الصعـود، لكن مامن واحـد منهم رغب بالصعود، حتى نزل بوهيموند ثانية، وأعطاهم برهاناً واضحاً على أن كل شيء كان سليماً.

وصعـد الرجـال جميعـاً بسرعـة كبيرة، وامتـلأ البرج بهم، ولم يقتصر ذلك على ذلك البرج بل امتـد إلى أبـراج مجاورة، حيث جـرى احتـلالها بسرعة، بعد قتل الحراس الذين كانوا بداخلها، وأخيراً فتحوا باباً سرياً، منه دخل جميـع الأمـراء الذيـن كـانـوا في الخارج ، وبهذه الوسيلة ازداد عددهم، فأغـاروا نحو باب الجسر، حيث فتحـوه بالقوة، وذلك بعـدما قتلوا المدافعين عنه، وأدركوا الآن أن فجر اليـوم قد دنا، ولذلك شرعوا يصـدرون أصواتـاً بالأبواق، وبالنفر لايقـاظ الذين كـانوا مـايزالون في المخيم، ورفع علم بـوهيمـوند وأخـذ يخفق من فـوق واحـد من أعلى الأبراج معلنـاً بأن المدينة قـد سقطت، واستيقـظ السكان من نـومهم، وتساءلوا عن هذه الضجة غير الاعتيادية وعن معـانيها، وعندما— بعد أمـد طويل— شـاهدوا بأن جميع الشوارع تسيل بها الـدماء، مع وجـود رجـال مسلحين في كل جهـة، قـامـوا بمغـادرة بيـوتهم والتخلي عنهـا، وحاولوا الفرار مع زوجاتهم وأطفالهم، لكنهم تواجهوا في كل مكان مع تعاسة الموت.

وتطاير المسيحيـون الذين سكنوا في أجـزاء مختلفـة من المدينة، إلى السلاح، والتحقـوا بمحرريهم، وألحقـوا خسائـر كبيرة بالأعـداء، ولقد فتحت جميع البيوت، واستبيحت بما كان فيها من سلع، وذهب، وفضة، ومـلابس ثمينة، وجـواهر، وآنيـة لاتقدر بقيمـة، وسجـاد، وثيـاب من الحرير الخالص، وهذه كلها جـرى اقتسامهـا بالتساوي بين الناس الذين كـانوا قبل قليل يعانون مـن العوز ومن الجوع، فلقـد بات هؤلاء لديهم

الآن الوفـرة من كل شيء، ولقـد قيـل بأن أكثـر من عشرة آلاف من الأتراك قد جـرى قتلهم في المدينة، وكانت جثثهم المرمية بالشوراع من دون دفن تشكل منظراً تعيساً لمن ينظر إليها، وتم العثـور في المدينة على نحو خمسمائة حصان عربي، وكـانوا جميعاً نحيفين من الحاجة إلى الطعام، لأن قليـلاً مما هو مناسب للأكل من قبل الخيول أو الناس، كـان ماعثـر عليه بالمدينة لدى الاستيلاء عليها.

وفاة يغي سيان أمير أنطاكية وصاحبها

وعندما شـاهد يغي سيان، صـاحب أنطاكية، بأن المدينـة قد احتلت، خـرج منها وحيـداً من خـلال باب خلفي، وكـان مضطرباً بعقله كثيراً، وقـد حاول النجـاة، لكنه واجـه أحد الأرمن الذي عـرفـه، فرمـاه على الأرض، وقطع رأسـه بالسيف، وحمله وقـدّمه إلى الأمـراء أمـام الجيش كله، وكان بعض أعيان المدينة غير عارفين ماذا يفعلون، لذلك سعوا إلى الفـرار نحو الحصـن العالي، لكن قـابلهم بعض رجـالنا الذين كـانوا في أمـاكن أعلى منهم، وقـد اعترضـوا سبيلهم، وتضـايقـوا من منحـدرات الرابيـة، وضغط عليهـم من الأعلى من قبل رجـالنا، ومـع أنهم بذلوا جهـودهـم للدفـاع عن أنفسهم لقـد وقعـوا على طول الطـريق هم وخيولهم، وماتوا وكان تعدادهم حوالي الثلاثمائة، وحاول آخرون الفرار إلى المناطق الجبلية، لكن رجـالنا طاردوهم، وأسروا بعضاً منهم، وتمكن الآخـرون بفضل جـودة خيولهم، مـن النجاة إلى الجبـال، وهكذا جـرى الاستيـلاء على أنطاكيـة في السنة الـرابعـة عشرة بعـد استيـلاء المسلمين عليها، وكان هذا في سنة ١٠٩٨م، في اليوم الثالث من شهر حزيران.

حول شمس الدولة وتسليمه القلعة إلى كربوغا

وعندمـا خمدت الفـوضى التي تـرافقت مع الاستيـلاء على أنطاكيـة، وصار كل شيء هادئـاً، اجتمع الأمراء مع بعضهم، وقـرروا الصعود إلى

الرابيـة التي أشرفت على المدينة، والاستيلاء على الحصن واقتـلاع الذين فيـه منه، لكـن عندمـا وصلوا إلى الموضع، أدركــوا أنهم لن يستطيعـوا الاستيــلاء عليـه إلا بالتجــويع، ولذلك صرفــوا اهتمامهم نحــو هذه المسائل، وكان شحنة القلعة وحـاكمها هو شمس الدولة ابن يغي سيان المتقـدم ذكــره، وكـان معــه عـدد كبير من جند الترك، وعندمــا سمع بكربوغـا مع الجيش الفارسي بأنـه دخل إلى منطقة أنطاكيـة، وضع أمله فيه، وبـادر مسرعاً لمقابلتـه، وأخبره عن وفاة أبيــه، وعن مأساة أنطـاكية وعـزلتهـا، وأجـابه كـربوغــا:« إذا مـاأردتني أن أبذل كل جهـودي في سبيلك، سلمني حصنك، فعنـدمـا أكــون آمنا في ذلك الموقع، ســوف أهاجم أولئك الـرعــاع بجميع قــواتي»، ورضي شمس الدولة وسلمــه حصنه، وأودع الدفاع عنـه بين يديه، ومأأن تسلم كربـوغا الحصن حتى وعد مخلصاً بمساعدة شمس الدولة.

ولدى سماع الأمراء بدخـول كربوغا إلى أراضي أنطاكية، سعـوا نحو تقوية المدينة، وشحنها بالحاجات الضرورية، وهنا فجأة ظهر ثلاثمائة من فرسان جيش كربوغا، واقتربوا مـن المدينة بتهور، وأغروا رجالنا للتقدم نحوهــم والقتال معهم، وهنا قـام روجردي برانفيل وكـان فارسـاً جيداً مـرتبطاً بروبرت دوق نورماندي، فأخـذ معه خمسـة عشر مرافقـاً وحمل بشجــاعــة عليهم للتصــدي لهم، لكن الأعـداء هـربوا بشكل مخادع، وطاردهم روجر حتى وصلوا إلى مـوقع كمين لهم، وقام الكمين بشكل مفـاجيء وحمل على رجــالنا وأرغمهم على الفـرار، ولم تستطـع قـوات روجـر القتـال مع العـدو، بسبب قلتها، ولتفـوق الأعـداء على رجـالنا بسرعة خيولهم، وقد قتل روجر، ونجا رجاله إلى داخل الأسوار، وقطع الأعداء رأسه، وعادوا دون أن يصابوا بأذى إلى معسكرهم.

الحصار الثاني لأنطاكية من قبل كربوغا

وفي اليوم الثـالث بعد الاستيلاء على انطاكية، نصب كـربوغا، الأمير

الفـارسي معسكره أمام المدينة، مع جيش عمـلاق، وطوق بشكل محكم جميع الجانب الجنوبي، وذلك امتداداً من الباب الشرقي إلى الباب الغربي، وكان إلى جـانب الباب الشرقي قلعة تولى حـراستها بوهيمـوند،فطوقوا هذه القلعـة، وقـامـوا بحمـلات متـواليـة عليهـا، واستثير بوهيمـوند بجـرأتهم، فحمل عليهم، لكنه قـوبل بقوة تركيـة متفـوقة، أرغمتـه على الانسحاب متراجعـاً إلى المدينة، ولدى احتشاد عـامة الجند عنـد الباب، قتل منهم حـوالي المائتين، من جـراء الحملة العنيفـة للأعـداء، وفي مـرة ثـانيـة، هاجم الأتراك أيضاً، القلعـة التي شيدت حـديثاً، بشدة متنـاهية، ولولا أن الناس هبوا لنجدتها بسرعة، لكانـوا استولوا عليها بكل تأكيد، ولقـد كان روبرت دوق نورمـاندي هو الذي جـاء لنجدتها مع رجـاله، وقد قتل وأسر عـدداً كبيراً من الأعداء، وأرغم البـاقي على الفرار، وفي مناسبـة أخرى، طلب الأتراك مبـارزة رجالنا بالقتـال، حتى أن بعضهم ترجلوا عن ظهـور خيـولهم، وأظهـروا اخـلاصـاً غير معتـاد، ودعـوا الآخرين لحذو حذوهم، وعندمـا كانوا يتبارزون على هذه الصورة، حمل تانكرد من البـاب الشرقي، وهاجم الأعداء قبل أن يتمكنوا من معـاودة امتطاء خيولهم، وقتل ستة منهم، في حين نجا الباقون.

العذاب الذي سمح الرب بنزوله على الحجاج بسبب آثامهم

وعانت المدينـة في الوقت نفسه معانـاة هائلة من المجاعـة، وكان هذا عقاباً لآثام الحجاج، بسبب أن كثيراً منهم، نزلوا من فوق الأسوار وهم مرعوبين، وتدلوا بوساطة الحبال، أو وضعوا أنفسهم داخل سلال، وقد تخلوا عن رفـاقهم، ونجـوا إلى شـاطىء البحـر، وكـان هؤلاء الذين تشككوا بجود الرب وبرحمته، ليسوا فقط من عامة الناس ومن الفقراء، بل أيضاً من النبـلاء ومن ذوي الأنسـاب العاليـة، من أمثـال وليم دي غرانتمينيل Grantmenil، من أبوليا، مع أخيه ألبيرك Alberic، ووليم النجار مع أخيه غي، ولامبرت، وأعداد كبيرة أخرى معهم، وإلى جانب

هؤلاء، كان هناك بعضاً ممن يئسوا من العـون، فالتحقوا بالعدو، وتخلوا عن الإيمان بالمسيح، وفكر آخـرون بالفرار بشكل جـدي، لكنهم أعيدوا إلى الثبات من قبل أسقف لى بوي، وبوهيمـوند، الذي جعلهم يقسمون أنهم لن يتخلوا عن قضية المسيح، حتى انتهاء المعركة، التي سوف تجرى في وقت أو آخر.

وكـانت المجاعـة قاسيـة في المدينة إلى حد أن الناس، التفتـوا، بسبب قسوة المجاعة المتناهية إلى أعمال وتصرفات مخجلة: فلقد بيعت الدجاجة بمبلغ خمسـة عشر شلنا، وبيعت البيضـة بشلنين، والجوزة ببنس واحـد، ولقـد أكلوا الأشجـار، والأشـواك، وجلود ولحوم الخيـول والحمير، والبغـال، والكلاب، وباتت الأشيـاء القذرة جـداً، لذيذة للغـاية، وبات أمـراً محزنـاً أن ترى رجـالاً كـانوا من قبل أقـوياء، ومتميـزين بنبـالة مولدهـم، يتكئون لضعف أجسـادهم على عصي، وباتوا غير قادرين على استخـدام أسلحتهم، وفي الـوقت نفسـه تولى وليـم دي غـرانتمينيل، وستيفن كـونت أوف تشـارترز مع الآخـرين الذين انهزمـوا معهم، الحديث إلى الجميع عما عانى منه الصليبيـون في أنطاكية، ولكي يسـوغوا فـرارهم، وصفـوا هذه المعـاناة بشكـل مضخم عـدة مـرات بعيـداً عن الحقيقـة، وقـد وصلوا إلى الإمبراطور، الذي كـان مـع أربعين ألفـاً من الجنود اللاتين، إلى جـانب آخرين جنّـدهم من بلدان مختلفة، وكـان على طريقه لمساعدة الصليبيين في أنطاكية، ونصحوه بعدم الذهاب، وقالوا له حـول هـذا الشأن:« أيها الامبراطور الأقـوى، عندمـا استـولى قـادتك المخلصون على أنطاكية، اعتقدوا أن الحرب قد انتهت، لكن هذه الغلطة الأخيرة كانت أسوأ من الأولى، فما أن مـرّ يوم واحد على الاستيلاء على المدينة، حتى قدم فجأة كربوغا الأمير الأعظم قوة من فارس، مع قوات عمـلاقة من الشرق، مـامن انسـان يمكنه تعدادها، وألقى الحصـار على المدينة نفسهـا، وذلك في الوقت الذي كان فيـه قومنا مقهـورين من قبل

الجوع، والبرد، والحر، وحد السيف، إلى حد قيل فيه إنهم لايمتلكون مؤناً في المدينة كافية حتى ليوم واحد، ولذلك قمنا نحن الذين هنا، عندما شاهدنا قضية إخواننا غير ناجحة، بتقديم النصيحة إليهم مراراً، بالنظر نحو سلامتهم الشخصية، وبالتخلي عن هذه المغامرة المستحيلة، وبالاقدام على الأخذ بالفرار من دون تأخير، لكن عندما لم نتمكن من زحزحتهم عن نواياهم، شرعنا نفكر حول سلامتنا، والآن إذا كان يرضيك، وإذا كان هذا هو موقف مستشاريك، لاتتابعن التقدم، خشية أن يغرق الذين معك بالخطر نفسه، ولسوف يؤكد تاتين وزيرك الحكيم والمخلص صدق ماقلناه، لأنه شاهد ضعف رجالنا، وانسحب من بينهم شخصياً حتى يتمكن من تبيان هذه الأشياء لجلالتك».

وسمع الامبراطور هذه الكلمات، وقام بناء على نصيحتهم بتسريح فرقه، وعاد وهو يبكي إلى قصره، وعندما وصلت أخبار عودة الامبراطور إلى أنطاكية، ضاعفت نصر المسلمين وزادت من ضعف الصليبيين، وكانت المجاعة هائلة بين صفوف شعب الرب، وكذلك حدة الأعداء في كل من الداخل والخارج، حتى بدا أنه ليس هناك مخرج أو علاج وتهدئة، وكان الشيوخ والشباب غارقين في الكارثة نفسها، ولم يكن بامكان طرف تقديم المواساة إلى الطرف الآخر، وقد فكروا حول زوجاتهم وأولادهم، وأهليهم الذين تركوهم في الوطن، للقدوم والقيام بالحج من أجل المسيح، وتذمروا تجاه عدم رضا الرب القدير، الذي لم يتوفر لديه احترام نحو آلامهم، بل تركهم وكأنهم شعب غير معروف من قبله، ليقعوا في أيدي أعدائهم.

المواساة التي أضفاها الرب على الحجاج المعذبين

ونظر الرب أخيراً نحو شعبه المعذب، وبعث إليه المواساة من كرسي رحمته، فقد جاء حاج مسكين، كان كاهنا بين أفراد الجيش، إلى الحجاج والأمراء الغربيين، وخاطبهم بالكلمات التالية:« اسمعوا ياإخواني

وياأصدقائي الأعزاء، خبر الرؤيا التي أنا رأيتها، فلقد عزمت على امضاء الليل في كنيسة أم الرب، وأن أصلي إلى الرب حتى يخفف من آلامنا، وكنت في وضع لاأدري أكنت فيه نصف نائم، أو مستيقظ، الرب وحده يعرف، فلقد رأيت ربنا يسوع المسيح، دون أن أعرفه، وكانت أمه المباركة حاضرة أيضاً، مع بطرس أمير الرسل، وعندما نظرت إليهم، قال الرب لي: ألاتعرفني؟ فأجبته: لاياسيدي، وفي الوقت نفسه، أضاء صليب فوق رأسه، وعاد ثانية فسألني السؤال نفسه، ولسؤاله أجبت: مولاي لئن فهمت بشكل صحيح من علامة الصليب فوق رأسك، فإني أرى أنك مخلصنا، وعلى هذا ردّ قائلاً: إن الأمر كما قلت، ووقتها ألقيت بنفسي على قدميه، مبللاً ركبتيه بدموعي وقلت له: مولاي، يامولاي، ارحمنا، ارحم شعبك، يامولاي ساعدنا، وعندها أجاب الرب قائلاً: لقد ساعدتكم حتى الآن، ذلك أنني سمحت لكم بالاستيلاء على نيقية، وحميتكم في كثير من المعارك، وفي ظل توجيهي تمكنتم من الاستيلاء على أنطاكية والسيطرة عليها، واستجبت لرغباتكم أثناء الحصار نفسه، لكنكم كنتم كافرين لنعمتي، وتمردتم عليّ، فظلمكم وطغيانكم الذي صدر عنكم صار شيئاً كثيراً، ولقد أثرتم غضبي بالأضرار التي ألحقها شعبكم بي، وذلك باقترافكم الزنا مع نساء غريبات، فلقد وصلت آثامكم إلى السماء ، وجعلتني أشيح بعيني عنكم، إنني سوف أجازيكم على كفرانكم للنعمة، ولن أستثني فجوركم وفسوقكم، ولن أغفل عنه»، ثم سقطت أم الرحمة وبطرس على قدمي المخلص الرحيم، وحاولا تسكين غضبه وتوسلا إليه قائلين:« مولانا، لسنين كثيرة تملكت الشعوب الكافرة ذلك البيت، الذي كان بيت الصلاة، وقد دنسوه بشكل مهين، واستحوذوا عليه، فهل أنتم، لذنوب قلة، مقبلون في غضبكم على تدمير جميع المسيحيين، الذين حرروا بيتك بدمهم؟ لتكن لديك رحمة يامولانا، رحمة يامولانا على شعبك، ولاتسلم ميراثك للدمار، ولاتدع الأمم تنتصر عليهم».

وأصغى الأعظم قداسة إلى صلوات أمه والرسول، وابتسم بلطف وقال لي هذه الكلمات: اذهب واخبر شعبي ليتولى إزالة كل فسوق ودنس من بين صفوفه، وأن يغسل عاره بدموعه، وأن يعود إليّ، وعند ذلك سوف أعود إليه، وخلال خمسة أيام سوف أقدم له مساعدة في وقتها، بسبب أنني أنا رب الرحمة، وعلى أفراد شعبي أن يغنوا في الوقت نفسه: أعداؤنا اجتمعوا، وتفاخروا بقوتهم، أزل أنت قدرتهم، يارب، وفرقهم حتى يعرفوا أنه لايوجد أحد يقاتل من أجلهم، إلاّ أنت فقط، يارب»، وعندما فرغ الكاهن انصرف الشعب كله إلى النحيب، وحث أحدهم الآخر على الاعتراف بذنوبه، وبات بإمكان كل انسان رؤية الدموع تجري على خدودهم، والناس من جميع الأعمار يحملون الرماد فوق رؤوسهم، وهم يسيرون حفاة إلى الكنائس للصلاة، وللتوبة، ولإلتماس العون من عليين، ثم قام بوهيموند— وكان رجلاً حكيما وعاقلاً— فحث كل واحد منهم على أن يربط نفسه بقسم ليتعهد فيه بعدم التخلي عن عصبة الحجاج حتى يقبلوا الضريح المقدس للرب، وفقاً للنية الأصيلة لحجهم، وجرى تلقي النصيحة من قبل الجميع، وقد أدوا جميعاً القسم، وبذلك قويت نشاطاتهم بشكل رائع.

كيف وجدوا حربة المخلص

وفي حوالي الوقت نفسه، جاء كاهن اسمه بطرس من بروفانس إلى أسقف لي بوي وكونت طولوز، وأكد لهما بأن الرسول القديس أندرو قد ظهر له في المنام، وبإخلاص أمره ثلاث مرات أو أربع، بالذهاب إلى الأمراء، بأنهم سوف يجدون في كنيسة أمير الرسل الحربة التي بها جرى طعن جنب المخلص، وقد أوضح المعطيات وبين المكان الذي يمكن أن توجد فيه وحده، وبناء عليه قدم إلى الأمراء، كما أمر، وأخبرهم بكل شيء، وأضاف بأن الرسول استخدم تهديدات كثيرة، إذا لم يقم بالإطاعة، وأنه كان مرغماً على ايصال الرسالة، خشية منه أن يقتل،

وعندما جرى ايصال هذا الخبر إلى بقية الأمراء، اجتمعوا مع بعضهم في المكان الذي حـدد إليهم في الكنيسـة، وبعـدمـا حفـروا الأرض قليـلاً، وجـدوا الحربة كما جـرى إخبـارهم، وسمع الناس بهذا الاكتشـاف، فتـدفقوا على الكنيسـة، وتعبدوا الأثر الثمين المقـدس، وبدأوا يستردون أنفـاسهم مما كـانوا يعانون منه، وأخـذوا يسيرون بجـرأة أعظم في طرق الرب.

كيف حشدت العساكر وزحفت وهي على تعبئة قتالية من المدينة

وعلى هذا اجتمع الأمراء والناس مع بعضهم، وقـد وجدوا أن الرب أنزل عليهم إلهاماً جديداً وفضلاً، ولذلك قـرروا بالاجماع إعلام كربوغا أنهم سـوف يقـاتلونه في يوم الغـد، وحمل هذه الرسـالة إليـه بطرس الناسك، وعنـد الفجـر تدفقت جميع العسـاكـر على الكنائس لسماع القـداسـات، وطلب الكهنة وقتهـا من الحجـاج الاعتراف بذنوبهم، وبتحصين أنفسهم بالمشاركة بتناول جسـد المسيح ودمه، ولذلك زحفوا بجرأة ضـد أعداء الصليب، وبناء عليـه طلبوا في الثـامن والعشرين من حزيران العون الرباني، وعبأوا جيشهم إلى فـرق، وعينوا لكل فرقة خط عملياتها.

وعينوا لقيـادة الفرقـة الأولى هيـوج الكبير، وأنسلم ريبوغيسمـونت Riburgismontمع عـدد كبير آخـر، نحن لانتذكـر أسماءهم، واقتـاد الفـرقـة الثـانيـة كـونت فـلاندرز، وروبرت الفيرزون Frison ، مع آخرين كانـوا قد تبعوا رايته منذ البداية، وقـاد روبرت دوق نورماندي، وستيفن كـونت أوف ألبمارل Albemarle مع نبـلاء آخـرين تابعين لجماعتهم، الفـرقة الثـالثـة، وقـاد الفرقـة الرابعـة أدهمر أسقف لي بوي، وكـونت طولوز مع أتباعها، الذيـن حملوا معهم حربة الرب، واقتيـدت الفـرقة الخامسـة من قبل رينارد كونت أوف تول، وبطرس دي ستـادني Stadeneis ، وغارنر دي غري وهنـري دي آشـي، ووولـتر دي

دومدارت Domedart مع آخرين كثر، وقاد الفرقة السادسة رينبولد كونت أوف هورني Horinges ، ولويس دي ماسكون Mascons، ولامبرت بن كونون دي مونت أكيوت، وكان قائد الفرقة السابعة الدوق غودفري مع أخيه يوستاس، وكان الفارس النبيل تانكرد قائد الفرقة الثامنة، أما الفرقة التاسعة فقادها هيوج كونت أوف سانت بول مع ابنه ايغلران Egelran ، وتوماس دي فيريا Feria، وبلدوين دي بورغ، وروبرت فتز-جيرارد، ورينولد أوف بوفياس Beauvais، وغالو دي شومنت Chaumont ، وقاد الفرقة العاشرة روترو Rotrou كونت أوف بيرشي Perche ، وايفرارد دي بوساك، ودرغو دي مونسي Monci ، ورالف فتز- غودفري، وكونان أوف بريتاني، وقاد الفرقة الحادية عشرة إيسوارد Isoard كونت أوف ديي Die، وريموند بيليت Pilet ، وغاستوس أوف بايترني Bi-terne ، وجيرارد دي روسلين، ووليم دي مونت برسولان Pres-sulan ، ووليم أماني Amane ، وكانت الفرقة الثانية عشرة هي الأقوى من الفرق الأخرى، وقد قادها بوهيموند، الذي كانت وظيفته تقديم العون إلى أية واحدة من الفرق الأخرى تتعرض للضغط الشديد من قبل الأعداء.

وكان كونت طولوز في وضع صحي سيء، ولذلك ترك ليتولى حراسة المدينة، ولحماية الضعفاء والجرحى، وذلك خشية أن يقوم الأتراك الذين كانوا مايزالون في القلعة العليا بمهاجمتهم أثناء غياب الأمراء، واختلط مع مختلف الفرق، أثناء زحفها، الكهنة، والشمامسة، وكان من الممكن مشاهدتهم في أرديتهم البيضاء، وهم يحملون في أيديهم شارة الصليب، أما الذين بقيوا في المدينة، فلبسوا ثيابهم المقدسة، وصعدوا فوق أسوار المدينة، وقدموا الصلوات من أجل حماية شعب الرب، وأثناء خروج جيشنا وتجاوزه للأسوار تساقط عليه ندى لطيفاً،

وقد نزل من عليين على رجاله، وبدا ذلك وكأنه أرسل من قبل الرب القدير لمباركة أسلحتهم، وشعر بتأثيره ليس فقط الرجال، بل الخيول أيضاً، التي مع أنها لم تأكل شيئاً لأيام كثيرة سوى أوراق الأشجار وأغصانها، تمكنت في ذلك اليوم من التفوق على فرسان العدو في كل من السرعة والقوة.

المعركة الرهيبة والنصر الرائع التي أعقبها

وفي الوقت نفسه لدى رؤية كربوغا الصليبيين يخرجون من المدينة، قام بصف قواته وتعبئتها للقتال، تحت قيادة تسعة وعشرين أميراً وملكاً أسماؤهم كما يلي: الملك رضوان، والأمير سليمان، والأمير سيف الدين، والأمير دقاق، والأمير عين الدولة، والأمير محمد، والأمير غياث، وقطب الدين، ومجد الدولة، وطولون، وبولق، وبرسق، والأمير باقي، ويغي سيان، وشمس الدولة، والأمير جناح الدولة، والأمير طغتكين، والأمير وثاب، والأمير سكمان، وبلدق، والأمير الياس، وشمس الدين، وجكرش، والأمير يونس، وأرسلان تاش، وأمير جاولي، والأمير تقاق، والأمير موسى(١)، وحث كربوغا هؤلاء الأمراء جميعاً، ورجاهم إذا كانوا يحبونه أن يبذلوا جهودهم ويظهروا شجاعتهم، وأن يستخفوا بالمقاومة التي يبديها هؤلاء الرعاع، الجائعين، والبلهاء وغير المجربين، أي الجنود الصليبيين، علاوة على ذلك قدم(قلج أرسلان بن) سليمان أمير نيقية مساعدته الفعالة للقوات المعبأة، وميز بين الذين سيزحفون في المقدمة والذين سيبقون في الساقة، واحتل أمراؤنا في الوقت نفسه جميع السهول القائمة أمام المدينة والجبال امتداداً حتى مسافة قرابة الميلين من المدينة، وعندما زعق البوق زحفوا نحو الأمام لمواجهة الأعداء، وحملت الفرق الثلاث الأولى عليهم بالسيوف والرماح، وقد تقدم عليهم

١ — تشوهت الأسماء إلى حد استحالة الضبط، والقراءة المقدمة تقديرية، اعتماداً على ماتوفر بالمصادر العربية.

الرجـالة، الذين كـان معهم القسي الطـويلة، والقسي الزيّارة، ثم فتحـوا الطريق أمـام الحملة الثقيلة للفرسـان الذين كانوا يتبعـونهم، وبعد مضي بعض الوقت كـانت الفـرق كلها، قـد اشتبكت بالقتـال، باستثناء فرقـة بوهيمـوند، ونتيجة لاشتبـاكهم مع الأتراك فقـدوا أعداداً من رجـالهم، وبدأوا يضطربون ويفرون، عندمـا وصل(قلج أرسلان بن) سليمان من المناطق القـريبــة من البحـر، مع ألفين من الرجــال، وقــد حمل على بوهيموند بعنف شـديد من الساقـة، وأرسل رجاله سحبـاً من النشاب، غطوا بها الصفـوف تقريبـاً، ثم وضعـوا قسيهم جـانباً، وتـابعوا القتـال بالسيـوف والدبابيس، بعنف بلغ حـداً كـان بوهيمـوند مـرغماً فيـه على التراجع أمـامهم، لولا قـدوم غـودفـري وتانكرد، حيث قـاتلا بنشـاط يستحق الثناء، وحولا تيـار الدم والقتل نحو العـدو، ثم لجأ وقتها(قلج أرسلان بن) سليمان إلى وسيلة أخـرى، حيث ألقى النار في بعض القش والأعشـاب، واستعـد لاستغـلال ذلك، وصحيح أنـه توفـر القليل من اللهب، لكن كل شيء تغطـى بدخـان كثيف، وقتل الأعـداء تحت هذا الغطاء من الدخـان عدداً مـن رجالتنا، إنما بعـد وقت قصير، غيّر الرب الذي يتحكم باتجاه الريح، اتجاه الدخـان نحو الأعداء، الـذين لم يعودوا يبصرون واختنقـوا به، ولذلك انهزمــوا، وقـد لحق بهم الجند الصليبي، وطردهم بشدة بالغة نحـو الخلف، وألقى بهم فوق صفوفهم المضطربة، وقتلهم من دون رحمة، ولاحقهم حتى خيامهم، حيث عـرفوا بأن هناك قد اجتمعت قـواهم الرئيسية، وقاومهـم الترك هناك بكل ماامتلكوا من شجاعـة، وقام قتـال رهيب، وصدرت الأصـوات عن الخوذ البرونزية، مثل الأصـوات التي تصـدر عن قـرع السندان، وتطاير الشرر من قـرع الفـولاذ بالفــولاذ، وكـانت أصـوات السيـوف مثل أصـوات الرعـد، وتناثرت أدمغــة الناس على الأرض، وتحطمـت الدروع والســوابغ إلى شظايا، وتدفقت أحشـاء الذين كانوا يرتدونهم فـوق الأرض، وتصببت الخيـول عـرقـاً من شـدة التعب، ولم تنل لحظـة توقف من قبل ركـابها،

واشتبك الجيشان الآن مع بعضهما، وتقاتل بعضهم يداً بيد، ورجلاً برجل، وتكادموا بأجسادهم، وتصارع واحدهم مع الآخر، وتابعوا الصراع المميت، وساد الشك الآن حول إلى جانب من سيكون النصر، لكن حدث فجأة أن شوهد جيش كان مخفيا، ينزل من الجبال، وكان مقاتلوه يمتطون خيولاً بيضاء، ويحملون أعلاماً بيضاء في أيديهم، وعرف الأمراء من بينهم القديس جرجس، والقديس ديمتريوس، والقديس ميركوريوس Mercurius وبعث هذا المشهد الذي أرعب المسلمين، آمالاً جديدة في نفوس الصليبيين.

ولم يرهم الجميع، بل فقط الذين سمح الرب لهم بمشاهدة مقاصده السرية، وأدى ذلك إلى اضطراب صفوف الترك، ومن ثم الانتصار المباشر لأعدائهم، لأن الأتراك— كما قلنا— ماأن شاهدوا هذه الشارة، حتى لاذوا بالفرار بسرعة، مخلفين وراءهم سلعاً كثيرة ثمينة، ورأى بعض رجالنا أيضاً ملائكة يطيرون في الهواء، ويرسلون صواعق محرقة على الأتراك الفارين، وكان كربوغا قد بقي منعزلاً عن الجيش منذ بداية المعركة، واتخذ موقعه في مكان مرتفع، وعندما شاهد فرار فرقه، تخلى عن عساكره وفرّ حتى ماوراء الفرات، وقد غير خيوله، فعندما كان يشعر بتعب الذي يمتطيه كان يغيره بواحد أحسن حتى يضمن تراجعه الشخصي، وكان قادتنا يدركون أن خيولهم لن تستطيع المطاردة والمثابرة، لذلك تخلوا عن المطاردة البعيدة، وذلك باستثناء تانكرد وعدد قليل آخر طاردوا الأعداء ودمروهم حتى غياب الشمس، لأن التجلي الرباني شحنهم بخوف عظيم، بلغ حداً أنهم لم يعودوا يستطيعون مقاومة حملاتنا وقتالنا، ولاالدفاع عن أنفسهم وحمايتها من سيوفنا، ولذلك بدا بالنسبة إليهم عشرة من رجالنا يساوون عشرة آلاف.

الغنائم الثمينة للأتراك الذين هربوا والخيمة الرائعة

ومع انتهاء هذه المعركة المجيدة، عاد قادتنا إلى معسكر الأعداء،

حيث وجدوا كميات هائلة مـن الثروات من ذهب وفضة، ومجوهرات، ومـلابس حـريرية، وأواني لايمكن تقـديرها بثمن، وكـانت الغنائم من الكثرة بمكان أنهم لم يتمكنوا من تعدادها أو تقديرها، وكان هناك أيضاً عدداً كبيراً من الخيـول، والمواشي، وقطعان الأغنام، والميرة، والرقيق من الغلمان والفتيـات، والخيـام والسرادقـات، وقـد حملوهـا كلهـا إلى معسكرهم، وكان بين الأشيـاء الأخرى خيمـة رائعة، مبنيـة مثل مدينة، مع أبراج، وأسـوار، وشرافات، منسوجـة من مختلف الألوان من أحسن أنواع الحرير، ومن مـركـزها، الـذي شكل القـاعـة الرئيسيـة، تفـرعت مقاصير على جميع الجوانب شكلت مـايشبه الشـوارع، يمكن فيها لألفي رجل أن يجلسـوا بكل راحـة، وبعـد هذا، قـام الأتراك الذين كـانوا في القلعة العليـا بالاستسلام لقادتنا، وجـاء ذلك بعدما رأوا حلفـاءهم قد فـروا، وكـان استسـلامهم على شرط أنهم يستطيعـون الذهاب إلى أي مكان يرغبـون به، وحدثت هذه الأمـور في اليوم الثـامن والعشرين من حزيران لعام ١٠٩٨م.

ترميم الكنائس ووصف أنطاكية

وبناء عليـه عاد قـادتنا من المعركـة، وعادت المدينة إلى حـالة الهدوء، وبدا لهم جميعـاً ولاسيما إلى أسقف لي بوي، أن مـن المناسب، إعـادة الكنيسة الرئيسيـة التي شيدت فيها مضى تشريفـاً لأمير الرسل، مع بقية كنائس المدينة، إلى سالف مجدها، وأنه يتـوجب تعيين عاملين دينيين فيها يتـولون عبـادة الرب ليـلاً ونهاراً، كما أنهم أعـادوا البطريرك يوحنا إلى منصبه الرفيع السالف، وعينوا أسـاقفة لكل المدن المجاورة، وذلك حيثما كان من قبل أسـاقفة، وأعطوا سلطة المدينة إلى بوهيمـوند، الذي جرت العادة على دعوته بلقب أمير، أو بالمقـدم الأول والأعلى بين رجاله، وقد بدأوا الآن يعتادون على استخدام اصطلاح أمير أنطاكية.

وكـانت المدينة نفسهـا جميلة جـداً، ومحصنة بشكل جيـد، وتمتلك

بداخلها أربع تلال مرتفعة، فوق الأولى منهن قلعة مشرفة على المدينة كلها، وبنيت المدينة في الأجزاء المنخفضة بشكل نظامي، وهي مطوقة بسورين: السور الداخلي مرتفع وواسع، في دائرته أربعمائة وخمسين برجاً محاطة بشرافات جميلة، ولم يكن السور الخارجي مرتفعاً كثيراً، لكنه كان متميزاً بقدمه، وتحتوي أنطاكية على ثلاثمائة وأربعين كنيسة، ويوجد تحت رئاسة بطريركها مائة وثلاثة وخمسين أسقفاً، والمدينة محاطة من جهة الشرق بأربع تلال، ويوجد من جهة الغرب النهر، الذي يسميه بعضهم نهر فرفر، وبعضهم نهر الأرنط، وأسهم في بناء المدينة خمسة وثمانون ملكاً، ومن الأول منهم وهو أنطيخوس نالت اسمها، واستولى الصليبيون عليها بعد حصار استمر ثمانية أشهر مع يوم واحد، وبعد الاستيلاء عليها، حاصرها المسلمون ثانية لمدة ثلاثة أسابيع، قبل خروج الصليبيين منها والقتال معهم، ومكث المنتصرون الآن في المدينة لمدة خمسة أشهر وتسعة أيام، خلالها أصيبوا بموتان، غير معروف سببه، لكنه كان هائلاً، حتى أنه خلال عدة أيام مات خمسين ألفاً من الجنسين، وكان من بين الضحايا أدهمر، أسقف لي بوي، الذي رعى الشعب كأب وكحاكم، وقد دفن وسط نحيب الجيش كله في كنيسة أمير الرسل، فوق البقعة التي تمّ العثور فيها على حربة مخلصنا، وسقط بين الضحايا هنري دي أسكي، ورينالد دي آرم باخ Armesbach ، وكانا رجلان متميزان لأصالة مولدهما، ولكي يتجنب بقية الأمراء الخطر نفسه اتفقوا على التفرق على شرط الاجتماع ثانية في الأول من تشرين الأول، وذلك عندما يكون كل من الرجال والخيول قد استردوا قواهم، ومن ثم اكمال مابقي عليهم عمله للوفاء بعهد حجهم، وزحف ريموند الذي لقبه بايلت Pilet مع عساكره واستولى على قلعة اسمها تل منس، ومن هناك زحف إلى المعرة، التي هي مدينة مليئة بالمسلمين، وخرج السكان للتصدي له، وهزموا في البداية، لكنهم نالوا في النهاية النصر، وقتلوا عدداً كبيراً من الصليبيين.

كيف أرسل هيوج الكبير إلى الامبراطور لكنه لم يعد

وأثناء حدوث هذه الأمور، أرسل هيوج الكبير من قبل الأمراء، إلى الامبراطور ألكسيوس، وقد أساء كثيراً إلى شهرته الماضية، بعدم العودة شخصياً، وبعدم إرساله أي جواب إلى الذين أرسلوه، ناسياً مصداقية بيت شعر جوفينال Juvenal :

..... الجريمة الأكبر هي للشخص

الذي هو الأكبر

وفي الوقت نفسه تولى كونت طولوز حصار مدينة البارة والاستيلاء عليها، وتدبر رسم بطرس أوف نربون أسقفاً هناك، ثم بدأ الأمراء من اليوم الأول من تشرين أول بالتجمع والاحتشاد مع بعضهم وفقاً لإتفاقهم، واستعدوا للزحف إلى القدس، وفي الثامن والعشرين من تشرين زحفوا إلى المعرة، وألقوا الحصار عليها، وتقع هذه المدينة على بعد سفر ثلاثة أيام عن أنطاكية، وكان سكانها متشامخين بسبب غناهم، ذلك أنهم ثبتوا صلباناً على أبراج وأسوار المدينة بعدما لوثوها بالبصاق عليها، وبطرائق أخرى، وذلك تحديا للصليبيين، وقد غضب رجالنا لهذا، وبعد اشتباكات استمرت عدة أيام، نصبوا السلالم، وتسلقوا فوق الأسوار، واستولوا على المدينة عنوة، لكنهم لم يجدوا سكاناً فيها، ونتيجة لذلك استولوا على كنوزها من دون معارضة أو ضجة، فقد كان السكان قد فروا إلى كهوف تحت الأرض، وبذلك بقيوا سالمين لبعض الوقت، لكن في الصباح أشعل رجالنا نيراناً عند مداخل الكهوف، وأرغموهم على الاستسلام، فقطعوا رؤوس بعضهم، وألقوا بالآخرين في السجن، وفي الحادي عشر من كانون الأول مات وليم أسقف أوراسيا هناك، وكان رجلاً متديناً ومستقيما، وكان يخاف الرب، وقد أمضى الحجاج في تلك المدينة شهراً واحداً وأربعة أيام.

كيف ظلم الملك وليم الانكليز بالضرائب

وفي السنة نفسها، كان وليم ملــك الانكليز، الملقب روفوس Rufus في نورماندي، مشغول تماماً في مشاريع حربية، في حين لم تكتف مكوسه في انكلترا بتجـريد الناس، بل بالفعل جردتهم وكشطتهم تمامـا، ولذلك كـان مكروها من قبل جميع النـاس، ومـات في الوقت نفسـه وولكلاين Walkeline أسقف وينكستر، وهيوج شرويشـاير Shropshire مات مقتولاً من قبـل الايرلنديين، وقد خلفه أخـوه روبرت دي بلسمي Be-lesme

كيف استعد الأمراء لمتابعة زحفهم بسبب تذمر الشعب

سنة ١٠٩٩م، احتفل أمـراء الغرب والحجـاج بشكل مهيب، بميـلاد ربنا في المعـرة، ووقتهـا نشب خـلاف بين بوهيمـوند، وكـونت أوف طولوز، لكن بما أن ذلك لاعلاقة كبيرة له بموضوعنا الحالي، دعونا نعبر إلى القضـايا الأخـرى، فنبين كيف أن الشعـب قـد غضب بسبب أن الأمراء عملوا تأخيراً غير ضروري، واختلفوا فيما بينهم حول كل مدينة جرى الاستيلاء عليهـا، مهملين في الوقت نفسه— كما وضح— العمل الأسـاسي للحملة، ولكي يرضي الناس، قـام كونت طولـوز فأخذ معـه عشرة آلاف رجل مسلح مع ثـلاثمائـة وخمسين فـارسـاً، وانطلق نحـو القـدس، وتبعـه في الوقت نفسـه روبرت دوق نـورمـاندي وتانكرد مع ثمانين فـارسـاً وعـدداً كبيرا من الرجـالة، وبعـد عدة أيام، عندمـا عبروا المنطقة المعترضة، نزلوا إلى سهل حول مـدينة اسمها عرقة، لم تكن بعيدة عن ساحل البحر، ونصبوا خيمهم على مقـربة منها، وكانت هذه إحدى المدن الفينيقيـة عند سفح جبل لبنان، وقد تأسست— وفقـاً للمأثور من الروايات القديمة— من قبل عرقوس، الذي كان الابن السابع لكنعان، ومن بعده تصحف الاسم فصار عرقة.

وحـاصرها الصليبيـون لوقت طويـل، لكن من دون نجـاح، وهنا أثيرت مجدداً القضية المتعلقـة بالحربة التي طعن بها جنب ربنا، فقـد قال بعضهم بأنها ظهرت بعدما جـرى الارشاد إليها بإلهام رباني، وكان ذلك من أجل مواساة الجيش، في حين رفض آخرون ذلك باستخفاف وقالوا بأن المسألة كـانت خطة مـدبرة من قبل كـونـت طولوز، ولم يكن هناك اكتشـاف، بل مجرد اختراع للربح، وبنـاء عليـه أشعلت نار كبيرة جـداً، كانت بحجمها كافية لإخـافة حتى الواقفين إلى جوارها، وعندما اجتمع الناس مع بعضهم في اليـوم السادس من الاسبـوع قبل انتقال ربنا، قـام الكاهن بطرس— الذي إليـه عمل اكتشاف الحربة— بالدخـول بالمحنة المرعبـة، فبعدمـا قام بالصـلاة، أخـذ الحربة، واجتاز، دون أن يتعـرض للأذى، خـلال وسط النار، لكن بها أنه مـات بعـد ذلك بعـدة أيام فإن المحنة لم تعط قناعة كاملة للحزب المعارض.

وفي حـوالي هذا الوقت استعـد الدوق غـودفري والقـادة الآخـرون، الذين بقيـوا في أنطـاكيـة، لمتـابعـة الزحـف، وجـاء ذلك بناء على طلب مستعجل من الجيش، ووصـل في اليـوم الأول من آذار إلى اللاذقيـة في سورية، مع خمسة وعشرين ألفاً من الجنود الشجعان، وكانت هذه المدينة مقطونة من قبل المسيحيين، وقـد طلب غـودفـري من متـوليهـا اطلاق سراح غـونمير أوف بولون Guenemer of Boulogne، الذي كان معتقـلاً هناك في سجـن، ولم تتجـرأ السلطات على المقـاومـة، وأطلقت سراحه مع جميع رفـاقه ومع اسطوله كله، لأن غـونمير كان بعـدما حمل الصليب، قـد رسـا هناك مع اسطول قـوي، غير أنه فـوجىء من قبل السكان، وألقي به في السجن، ووضعه الـدوق ثانية على رأس اسطوله، وأمره بمتابعة السير خلف الجيش على طول الساحل.

كيف عبر الأمراء خلال كثير من المناطق ووصلوا إلى طرابلس

وساير الأمراء الآن ساحل البحـر حتى مدينة جبلة، التي تبعد حوالي

اثني عشر ميلاً عن اللاذقية، ونصب الجيش خيمه حول المدينة، وقد حاصروها لبعض الوقت، عندما عرض واليها الذي كان وكيلاً لسلطان مصر، على الدوق دفع ستة آلاف قطعة ذهبية، وهدايا أخرى إذا ماتخلى عن الحصار، لكنه عندما لم يستطع الحصول على هذا المطلب، أرسل رسلاً عرض بوساطتهم المبلغ نفسه على كونت طولوز، إذا ماستطاع انقاذ المدينة من السقوط بيدي الدوق، وأخذ الكونت المال، وبعث أسقف البارة إلى الدوق يحثه على ترك الحصار، والقدوم إليه بكل سرعة، لأنه سمع بأن حشداً كبيراً من الأعداء قادماً من فارس للانتقام للخسائر التي عانوا منها عند أنطاكية تحت قيادة كربوغا، وأن هذا قد تأكد لديه من مصادر معلومات وثيقة يمكن الاعتماد عليها، وصدّق الدوق مع الأمراء الآخرين ما أخبروا به، وتخلوا عن الحصار، فمروا بمدينة بانياس، على يسار المرقب، والتي هي أول مدن فينيقيا، ووصلوا إلى طرطوس، وتابعوا زحفهم من هناك، ونصبوا مخيمهم قرب مدينة عرقة، واجتمعوا هنا مع تانكرد الذي أباح لهم خبر خدعة كونت طولوز، ونتيجة لذلك عزلوا خيامهم عن خيامه، ولم يعسكروا على الأرض نفسها معه، ورأى الكونت الغضب الذي تسبب بالشعور به من قبل الأمراء نحوه، فأرسل إليهم هدايا وتصالح معهم، وجذبهم إليه باستثناء تانكرد.

وعندما ترك الأمراء حصار عرقة، أوكلوه إلى أسقف البارة مع بعض الآخرين، ووجهوا زحفهم نحو طرابلس، فوجدوا هناك حاكم المكان وجميع سكان المدينة قد تعبأوا واصطفوا للقتال، وقد انزعجوا تجاه هذا العرض، فهاجموهم بحنق وشدة، وحطموا صفوفهم من الحملة الأولى، وطردوهم وأعادوهم إلى داخل المدينة، بعدما قتلوا سبعمائة منهم، واحتفل الأمراء بعيد الفصح أمام طرابلس، ولدى مشاهدة حاكم المدينة واقع الحال وإدراكه أنه غير قادر على مواجهة رجالنا في الميدان أرسل

سفـارة، وحصل على شروط اتفاق من الأمـراء أنهم سوف يمـرون من خـلال أراضيـه دون إلحاق أي أذى بها، شريطة أن يعطيهم خمسـة عشر ألف قطعة من الذهب مع خيول، وبغال، وملابس حريرية، وآنية ثمينة، ومـواشي وأغنام، وعندها سايرت عسـاكرنا سـاحل البحر، وكـان على يمينها جروف جبل لبنان، وقد عبرت جبيل، وعسكرت قرب البحر في مكان اسمه جـونية، وبعد ذلك توقفـوا لمدة ثلاثة أيام أمام بيروت، وفي اليـوم التـالي وصلوا إلى صيـدا، واجتـازوا في اليـوم الذي تلاه الصرفند حيث كـان النبي إيليـا قـد نشأ، ثم وصلو إلى مـدينة صور العـاصمـة، وزحفـوا من هنـاك إلى عكا، تاركين الجليل على اليســـار، بين الكرمل والبحر، ومن هناك إلى قيسارية التي هي حاضرة فلسطين، والتي تدعى أيضاً باسم برج ستراتو، وعبر بعض الأمـراء من خلال قلعة بيت أولا، ووصلوا إلى مدينة بـاروخ، وكان ذلك في يوم صعود ربنا، ثـم مروا من خـلال الزيب إلى دورا ثم إلى حيفـا، حيث التقـوا جميعـاً في قيسـارية، واحتفلوا بعيد العنصرة يوم الثامن والعشرين من حزيران.

تخريب كنيسة القديس جرجس الشهيد من قبل الأتراك

وبعد التـوقف هناك لمدة أيام، استأنفوا زحفهم وتـابعوه، تاركين على يمينهم المناطق البحـرية لأرسـوف ويافا، وعبروا مـن خلال اليـازورية ووصلوا إلى اللد، التي تعـرف أيضاً باسم هليوبولـس، حيث يوجد قبر الشهيد المشهور القديس جرجس، وكانت كنيسته قد تعرضت للتخريب من قبل أعـداء الإيمان، قبل وصول الحجـاج، لأنهم خافـوا أن يستخدم الجيش عوارض السقف، التي كانت طويلة جداً، من أجل تشييد آلات لقتال المدينـة بها، وانطلق من هناك روبرت كونت فـلاندرز يؤم الرملة، حيث وجـد الأبواب مفتـوحـة فـدخل مع أتبـاعـه إلى المدينة، لكنهم لم يجدوا أحـداً فيها، لأن الأتراك عندمـا سمعوا بزحف عسـاكرنا، أنقـذوا أنفسهم بالمغـادرة في الليلة المتقـدمـة، ووصل في اليـوم التـالي بعض من

القـادة الآخـرين، فوجـدوا هناك كميـات وافـرة من الخمـرة، والزيت، والحبوب، وقـد وقفوا هناك لمدة ثلاثـة أيام، عملوا خلالها رجـلاً اسمه روبرت النورمـاندي أسقفـاً لتلك المدينة وعينوا له أسقفيـة دائمـة تضم الرملة واللد مع المناطق المحيطة بها.

ثم تابعت قـواتنا زحفهـا من هناك إلى نيقـوبوليس، وهي مـدينة فلسطينية، كانت تعرف من قبل عندما كانت قرية، باسم عمواس، ومن المعـروف أن المسيح سار هنا، بعـد قيامتـه مع كليوفـاس، ويوجد أمـام المدينة نبع مـاء عذب، يغتسل به الناس المرضى والمواشي لتنقيـة أنفسهم من مختلف العلل، لأنه يحكى بأن المسيح عندما مرّ مرة بهذا النبع قد قام بغسل قـدميـه به، وبذلك حصل الماء على القـدرة على شفـاء مختلف الأمراض.

كيف حصن الترك المدينة المقدسة وسلبوا المسيحيين

وفي الوقت نفسـه، علم الترك الذين سكنـوا في القـدس، باقتراب الحجـاج، فقـامـوا بتحصين المدينة بكل نشـاط، وسلبـوا المؤمنين الذين وجـدوهم فيهـا مـن جميع أمـوالهم التي امتلكـوها، وبدأوا بـذلك بالبطريرك، الذي كـان رأس المدينة، وجمعوا من بقيـة الناس خمسة عشر ألف قطعة من الذهب، وبعـد عملية السلب هذه طردوا جميع المسيحيين من المدينة، باستثناء الضعفاء، والنساء والأطفال، وفي الوقت نفسه رأى الصليبيون أن التأخر خطر، لذلك قاموا عند فجر اليوم بمتابعة رحلتهم مع خشـوع في القلب، وعندمـا اقتربوا من مشـاهدة مـدينة القـدس المقـدسة، أرسلوا الآهات مع دمـوع الفرح، وخلعـوا أحذيتهم وتابعـوا زحفهم بأقدام حافية، وتابعـوا على هذا الشكل حتى صاروا في مواجهة المدينة، وشرعوا في حصارها يوم السادس من حزيران.

ولقـد قيل بأن تعـداد الجيش المحـاصر بلغ حـوالي الأربعين ألفـاً من

الرجالة، مع ألف وخمسمائة من الفرسان، وذلك إلى جانب الشيوخ والمرضى، والرعاع من الآخرين، الذين كانوا لايحملون سلاحاً، ولقد قيل بأنه كان في المدينة أربعين ألفاً من الترك المسلحين بشكل جيد، الذين كانوا قد تقاطروا عليها للدفاع عن المدينة الملكية، ولتأمين سلامتهم أيضاً، وأدرك الأمراء أنهم لن يفلحوا في الحصار من الجهات الشرقية، والغربية والجنوبية من المدينة، بسبب وجود الوديان العميقة، ولذلك قرروا حصارها من جهة الشمال، ولهذه الغاية نصبوا خيامهم بين الباب المعروف باسم باب اسطفان، وبرج داوود، وكان في الصف الأول غودفري، وتلاه روبرت كونت نورماندي، وكونت فلاندرز، وتمركز اللورد تانكرد مع بعض آخرين كانوا معه حول برج عرف بسبب قربه من احدى زوايا السور، باسم برج الزاوية، وتولى كونت طولوز مع عساكره إلقاء الحصار على الأسوار ما بين برج آخر والباب الغربي، وجرت مركزة جزء من قواته باتجاه الشمال، على الجبل الذي عليه بنيت المدينة، وذلك بين المدينة نفسها وبين الكنيسة التي تعرف باسم كنيسة صهيون، التي هي على بعد حوالي رمية سهم عن الأسوار، وهذا هو المكان الذي يقال بأن مخلصنا تعشى فيه مع تلاميذه، وغسل فيه أقدامهم، ويقال أيضاً بأن هناك كذلك نزل الروح القدس على التلاميذ على شكل لسان ناري، وهناك دفعت أم الرب دين الطبيعة، وقبر القديس إسطفان، أول الشهداء موجود هناك ويحظى باحترام حتى هذا اليوم.

أول حملة شديدة على المدينة

وعندما اكتمل نصب المعسكر على شكل دائرة حول المدينة، وذلك في اليوم الخامس عشر بعد وصولهم، جرى استدعاء الجميع بصوت البوق للقيام بحملة عامة على الأسوار، وبعدماوضع الجميع سوابغهم ودروعهم على أجسامهم ولبسوها، تقاطروا جميعاً من العالي والداني على

مهاجمة الأسوار، وقد حملوا بشجاعة وإقدام، حيث تمكنوا من هزيمة الحامية المدافعة عن المدينة، وخرقوا الدفاعات الخارجية، وانهزم المدافعون إلى داخل المدينة في خوف شديد، ولو كان لدى الصليبيين آلات رمي، وسلالم تدعم حماستهم، لكان من المؤكد استيلائهم على المدينة في ذلك اليوم، لكن عندما رأوا بعد قتال استمر لمدة سبع ساعات أن جهودهم كانت بلامحصلات، لأنهم كانوا بلا آلات، قاموا بتأجيل الهجوم لوقت آخر، وبعد تعب شديد حصلوا على الخشب، وأخذوا يصممون صنع آلات، وعندما صارت مواد آلاتهم جاهزة، جروها بعد تعب شديد وجهد عظيم إلى قرب الأسوار، وعملوا منها أبراجاً، ومجانيق، وعرادات، وكباش، مع آلات للغم الأسوار، لأنهم قدروا أن كل مابذلوه من قبل هو لاشيء، إذا ماأخفقوا في الاستيلاء على المدينة، الذي هو الهدف الأساسي لحجهم المتعب، ولذلك عمل جيشنا بشكل مواظب لصنع الآلات، والأسيجة المتنقلة، والسلالم، التي بها طال الحصار، وبما أن المنطقة التي هي قرب الأسوار جافة وبلامياه، فقد أرغموا على استخدام الجداول، والينابيع، والآبار، الواقعة على مسافة خمسة أميال أو ستة عن المدينة، ولذلك تحمل الناس وقاسوا من العطش الشديد.

وكان الأتراك أيضاً عندما سمعوا بأن الصليبيين قادمين، ملأوا أكبر عدد من الآبار بالرمال وبأشياء أخرى، لمضايقة المحاصرين، وحطموا جميع البرك والصهاريج الأخرى، حتى لايمكنهم احتواء الماء، أو أنهم أخفوا بعضهم، حتى لاتتمكن العساكر العطشى من الاستفادة منهم، ولذلك أجبروا على التفرق في مختلف الجهات للحصول على الماء، وكانت إذا ذهبت فئة صغيرة منهم ووجدت بعد كل صعوبة جدولاً، قبل أن يجده سواهم، كانت تأتي فئة أكبر إلى المكان نفسه، وكان أحياناً يحدث قتال بينهم، وماتت أيضاً خيولهم، وبغالهم، وحميرهم،

ومواشيهم، وقطعانهم بسبب العطش، ثم إن جثثهم تعفنت وسببت روائح كريهة لايمكن تحملها وكان ذلك بسبب الحرارة، ولذلك فسد الهواء.

ووصل في الوقت نفسه رسول تحدث بأن اسطولاً جنويا قد وصل إلى يافا، وهو يطلب من الأمراء مرافقة تتولى قيادهم إلى المعسكر، ووقع اختيار كونت طولوز للقيام بهذه المهمة على واحد اسمه غولدمار Galdemar ، وكان فارساً شجاعاً، وعين معه ثلاثين فارساً وخمسمائة من الرجالة، وإليهم أضيف لمزيد من الضمان ريموند بايلت، ووليم سابران Sabran مع خمسمائة من الفرسان، وقد وصلوا إلى المنطقة مابين مدينتي اللد والرملة، حيث اصطدموا هناك مع ستمائة من الأتراك، وحدث اشتباك قتل فيه أربعة من فرساننا وعدد من العساكر الرجالة، لكن في النهاية انتصرت قواتنا، وتمّ قتل مائتين من الأتراك، أما الباقي فأرغموا على الفرار، وسقط— على كل حال— هناك من جانبنا اثنان من رجالنا هما غيلبرت دي تريفا Gilbert de treva، وأيكارد دي مونت ميرلا Aicard de Monte Merla، ووصل البقية إلى يافا سالمين، وبذلك جرت مرافقة القادمين إلى القدس بسلام، حيث جرى استقبالهم بسرور، وكانوا ذوي فائدة عظيمة للجيش الصليبي.

اكتمال صنع الآلات ومهاجمة المدينة مجدداً

ومع نهاية الشهر اكتملت الآلات، وأعطى الأساقفة مع شيوخ الجيش أوامر للقيام بمصالحة عامة بين الجنود، مع صيام، ومسيرات، وصلوات للرب، وجرى تنفيذ هذا كله بنظام، وفي يوم محدد اجتمع حشد الحجاج كله وهو حامل للسلاح، وهم جميعا مجمعون على هدف واحد: إما أن يقدموا حيواتهم في سبيل المسيح، أو أن يستردوا المدينة ويعيدوها إلى الحرية المسيحية، وزحفوا إثر ذلك جميعاً نحو الأسوار، وبذلوا جهودهم لإحضار الآلات ومركزتها، حتى يمكنهم محاربة

الأتراك بشكل أفضل، وكـان هؤلاء يقـاتلـون من الأبراج وكـذلك من وراء شرافـات الأسوار، هذا وقـاوم العـدو بشجاعـة، ورمـوا علينا مع أصوات مـرتفعة الحراب، والسهام، والحجـارة من آلاتهم، وقام في ذلك الوقت رجـالنا، وقـد تستروا بترستهم وبالحواجـز المتنقلة، بالرمـاية على الأتراك بالقسي الطويلـة، وبالقسي العقـارة، ورمـوا كميـات كثيفـة من الحجارة، وزحفـوا أقرب فأقرب من الأسـوار، ولم يمنحوا الجنود الذين كانوا على الأسوار أية فرصة للاستراحة.

وقام آخرون من جنودنا فمركزوا الآلات والأبراج، وقذفوا بحجارة كبيرة من المجـانيق والعـرادات على الأسوار، فقـد كـان هدفهم خلخلة هذه الأسـوار وتسبيب سقوطهـا، في حين قذف آخرون بحجـارة أخف من آلات أصغـر، وسددوا رمـاياتهم ضـد الذين كـانوا فوق الأسـوار، وبهذه الطريقـة صرفـوا أنظارهـم عن رجـالنا الذيـن كـانوا يزحفـون بالأسفل، ومع ذلـك تقـدم هؤلاء قليـلاً، لأن الأتراك الذيـن كـانوا في الداخل دلّوا فـوق الأسـوار أكيـاسـاً من القـش، وزرابي، وعـوارض خشبية، وفرشاً مليئة بقطع القماش، وقد أخمدت نعومة هذه الأشياء قوة القـذف، وبددت تعب رجالنا وجهـودهم، يضاف إلى هذا أن الحجـارة والنشـاب الذين رمـوهم من آلاتهم، سببوا توقف رجـالنا أثناء القتـال، وهم يحاولـون طم الخندق بـالتراب، والحجـارة، ونشـارة الخشب، والفضـلات، وذلك بغيـة أن يكون أسهل بالنسبـة لهم الوصـول إلى الأسوار، وقام المحاصرون، من جهة أخرى، حتى يحبطوا جهود رجالنا، بإلقـاء قطع محترقـة، وأسهماً مشتعلة بعـدمـا جـرى تغطيسهـا بالزيت والكبريت، وذلـك بهدف اشعـال النار— إذا أمكـن— في آلاتنا، وفي مـواجهـة لهذه المقذوفـات، قـام قـادتنا برمي الرمـال وبصب الميـاه من الأعلى، وبذلك أطفأوا النيران، وتمت الحملة مـن ثلاثة أمـاكن في وقت واحـد، وتولاها: الدوق غودفـري، وروبرت دوق نورماندي، وكـونت

طولوز، واستمرت هذه الحملة طوال النهار، من الصباح حتى الليل، وأخيرا تولى الظلام الفصل بين المتصارعين.

الحملة الثالثة والاستيلاء على المدينة

استأنف الجيش كله في الصباح الباكر القتال بخفة ورشاقة، وعاد كل رجل إلى المركز الذي كان معيناً له في اليوم المتقدم، فقد رمى بعضهم بحجارة الطواحين من الآلات ضد الأسوار، ودفع آخرون الأبراج، وتولى آخرون الرمي بالقسي الزيارة والقسي الطويلة، أو بالحجارة، إبعاد المحاصرين عن الشرافات، إلى حد أن مامن واحد منهم بات بإمكانه اظهار يده فوق الأسوار، وحاول في تلك الأثناء سكان المدينة استخدام وسائل جديدة، كان منها قطعاً من الأقمشة المحترقة، وقدوراً صغيرة مليئة بالنيران، من النوع السريع التحطم، وباستخدام أشياءأخرى، كما فعلوا من قبل، لتدمير آلات الصليبيين، وكانت هناك مقتلة كبيرة من على الجانبين، بسبب المقذوفات التي استخدمت، وكان من غير الممكن القول من من الفريقين قاتل بشجاعة أكبر، وكانت هناك واحدة من آلاتنا قد رمت حجارة كبيرة ضد الأسوار، كانت مدهشة بحجمها، وعندما وجد العدو أن وسائله غير فعالة جلب ساحرتين لتتوليا سحرهما وابطال مفعولها، وعندما كانتا هاتين تقومان بسحرهما وإلقاء تعاويذهما، أصابتهما حجرة كبيرة من الآلة نفسها، وقتلتهما، مع ثلاث نساء أخريات كن يتولين خدمتهما، وسقطت أجساد الخمسة في الخندق، وصدرت صرخة مدوية عن الجيش لدى رؤيتة لهذا المشهد، أما معنويات الأتراك فقد تدمرت بشكل كامل، وكانت الآن الساعة السابعة من النهار، وكان رجالنا قد ملوا من بذل جهودهم غير المجدية، وكانوا يفكرون بالتراجع وبسحب أبراجهم التي كانت تحترق، وكذلك آلاتهم، وبإيقاف الهجوم حتى اليوم التالي، وقتها أظهرت المعونة السماوية ذاتها، وألهبت الأمل في قلوبهم، فقد ظهر فارس نازل من جبل

الزيتـون حامـلاً بيـده ترساً بريقـه يزيغ العيـون، وقد أعطى إشـارة إلى عساكرنا للعودة إلى القتال، واستئناف الهجوم، وتشجع الدوق غودفري بالإشارة، فـاستدعى الجيش بأصوات مـرتفعة، وبصرخات عاليـة، وقد أطاعـوا أوامره بخفـة ونشاط، حتى بـدا الأمر وكأن المعـركة قـد بدأت آنذاك.

وأعطاهم ناسك أملاً ونشـاطاً، بإخبارهم بأنهم سـوف يستولون على القـدس في ذلك اليـوم، وكـان هذا نفسـه قـد سكن في جبل الزيتـون، وشجعت هذه الشـارات جميعاً الجيش، وجعلت عسـاكره متأكـدين من أنهم سـوف ينالون النصر، وتمكن أخيراً الدوق غـودفري، بالنعمـة التي منحهـا الرب إليـه، من إزالة جميـع العقبـات وتسـوية الأرض، ومن ثم الوصول بحرية إلى الأسوار، التي كـان المحاصرون الذين يدافعون عنها في غاية الانهاك، وقام رجاله بناء على أوامره بإلقاء النيران على الأكياس والفـرش التي كـانت مليئة بـالقش، ومعلقـة من فـوق الأسـوار، ونشر اللهب الذي حـركتـه الريـاح دخـاناً انتشر في المدينة كلهـا، إلى حـد أن المدافعين عن الأسـوار لم يعـد بامكانهم متـابعـة بذل الجهـود والمثـابرة فانسحبـوا من وراء الشرافات، وأمسك الدوق عـوارض الخشب، التي علقوها من الأسـوار لإزعاج رجالنا بها، وجعـل نهاياتها مربوطة بالبرج بمسـامير، والنهايات الأخـرى فوق الشرافـات، ثم ألقى بالجسر بحيث امتد من طرف البرج إلى شرافات السور، وهكذا كان الدوق، الذي كان فـارسـاً شجـاعـاً، أول من دخل المدينـة، ولحق به أخـوه يوستـاس، ثم روبرت دوق نورماندي، وبعدهم كونت فلاندرز مع أخويه ليتولف Li-tolf، وغلبرت، وتجمع فوق الجسر حشد كبير من الفرسان والرجالة إلى حد أنه لم يعد يستطيع تحملهم.

وعندمـا شاهـد الأتراك بأن جنودنا، قـد استولوا على الأسـوار، وأن الدوق قـد نصب رايتـه فـوقهـا، تخلـوا عن الأبراج، وهربوا إلى الأزقـة

الضيقـة، وأيضـاً لدى إدراك عامـة جندنا بأن الأمـراء قـد حصلوا على مـوقع في الأبراج، نصبـوا السـلالم، وأسنـدوها على الأسـوار بالسرعـة الممكنة، والتحقـوا بقـادتهم من دون تأخير، ثم أرسل الدوق غـودفـري بعضـاً من رجالـه لفتح الباب الشمالي، الذي مـايزال يعـرف باسم باب القـديس بولص، ومـاأن تمّ فتحــه، حتى دخل الجيش، وكـان ذلك في السـاعـة التـاسعـة، من اليـوم السـادس من الاسبـوع، فـآنذاك جـرى الاستيلاء على القدس، وكان ذلك في سنة ١٠٩٩ لتجسيد ربنا، أي بعد أربع سنوات منذ أن ربط الحجاج أنفسهم بعهد الحج، وكان آنذاك البابا أوربان الثـاني جالسـاً على كرسي الكـاثوليك الرومان، وكـان هنري هو امبراطور الرومـان، وألكسيوس هو امبراطـور الامبراطورية الاغريقيـة، وكان فيليب يحكـم في فرنسا، ووليم روفـوس في انكلترا، في حين حكم على جميع الناس وعلى كل الأشياء الرب يسوع المسيح، إلى أبد الآبدين، فله التشريف والمجد لعصور بلانهاية.

كيف جرى قتل جميع الأتراك ومن ثم تنظيف المدينة المقدسة

وجرى الاستيلاء على المدينة وفق هذه الطريقة، وقام الدوق غودفري مع الأتباع المؤمنين بالتحكم بالطرقـات بسيوف مجردة، وتولوا قتل جميع الأتراك الذين قـابلوهم، وكـان عـدد الجثث كبيراً جداً، وكـذلك عـدد الرؤوس التي فصلت عن أجسـادها، حتى أنه لم يعد بإمكان أي انسـان السير في الطرقـات من دون أن يسير فوق أجسـاد ميتة، وأثناء حـدوث هذا كله، كـان كونت طـولوز مع الأمراء، الآخـرين يقـاتلون بشجاعـة حول جبل صهيـون، غير عارفين بما حدث، لكن عندمـا سمعوا صراخ الفريقين المتصارعين، وشاهدوا مقتلة سكان المدينة، عرفوا بأن المدينة قد جـرى الاستيلاء عليهـا بعد اقتحـامها، وأن عسـاكرنا قـد نالت النصر، وبناء عليـه أسندوا على الفور السـلالم على الأسـوار، ودخلوا إلى المدينة من دون مقاومة، وقتلوا من الأعداء أعداد كبيرة، وفتحوا الباب الجنوبي

الذي كـان بجـوارهم، وتركـوا بقيـة الجيش يدخل، وهكذا فإن الأتراك الذين انهزموا مـن الدوق ومن رجـاله، وقعـوا الآن أمـام هذا العـدو الجديد، وصـاروا بين نارين، وكانـت المذبحة التي اقترفت في كل جـزء من أجزاء المدينة هائلة، وكـانت كميات الدماء المراقـة كثيرة إلى حد أنها سببت الانزعاج والقرف للمنتصرين أنفسهم.

وسمع تانكرد بـأن عـدداً كبيراً من الأتراك قـد هربوا للالتجـاء في سـاحات المعبـد، فاندفـع إلى هناك مع عدد كبير من الرجـال المسلحين، وشق طريقه إلى داخـل المعبد بالقوة، وقتل عـدداً كبيراً من الناس هناك في داخله، ويقـال بأنه انتزع، وسلب، وحمل معـه، كميـات واسعـة من الذهب والفضـة، ولدى سماع بقية الأمراء بهذا اندفعـوا إلى الداخل مع حشد من الفرسان والرجـالة، وقتلوا كل من واجهوه، وملأوا الطرقات بالدماء، ويقال بأن عشرة آلاف مـن الأتراك قد قتلوا بين أطراف المعبد، وذلك بالاضـافـة إلى الذين قتلـوا في الطرقـات في أحـوازه حيث بلغ تعدادهم مثل ذلك، ثم إن رجالنا تفرقوا خلال الشوارع، وبحثوا في كل مكان سري أو خفي، وأخرجوا كل من وجـدوه من سادة وسيدات مع أطفـالهم وأسرهم، لقـد جـروهم من غـرفهـم السرية ومن حيث خبأوا أنفسهم، وقتلـوهم إمـا بـالسيف، أو أطـاحـوا بهم من الأعلى على رؤوسهم، فدقوا أعناقهم، وكـان كل من تملك بيتاً أولاً أو قصراً، ادعى ملكيته بشكل دائم، لأنه كـان هناك اتفاق بين الأمـراء، أنه عندما يجري الاستيـلاء على المدينة، ينبغي أن يحتفـظ كل انسـان بكل مـايمكنه الاستيلاء عليه، وهكذا أقدم كل من استولى على بيت قبل سواه، بتثبيت علم، أو ترس، أو أي نوع من السـلاح، عند الباب، كعلامـة بأن البيت قد جرى احتلاله وتملكه.

كيف زار الأمراء الأماكن المقدسة

وبعـدمـا عـاد الهدوء إلى المدينة، بعد الاستيلاء عليهـا، وجـرى جمع

الغنائم والأســلاب من قبل الحجـاج، شرعـوا مع الآهـات والدمـوع، وبأقدام حافية، ومع كل علامـة من علامات التواضع والخشوع، بزيارة كل مكان مقدس، كـان ربنا قد قدسه بحضوره، وبشكـل خاص كنيسة قيامة ربنا وآلامـه، ولكم كان ممتعا أن تشاهد مـدى الخشوع الذي أبداه المؤمنون من الجنسين، بينما حلقت نفـوسهم بمتعـة روحـانيـة، واقتربوا وهم يسكبون الدمـوع من الأماكن المقدسة، وهـم أيضـاً يقدمون الشكر للرب لتمكينهم من ايصـال جهـودهم التقـويـة وصلواتهم الطويلة إلى النهاية المطلوبة، ومن هناك حصلوا على آمال، بأن ماعملوه سوف يكون نافعـاً في القيامـة المستقبليـة، وأن الفوائـد الحاليـة سوف تعطيهم توقعـاً مؤكـداً حول كل مـاهو مقبل، وأن القـدس الأرضية التي سـاروا عليها الآن، سوف تكون بالنسبة إليهم الطريق إلى القدس القائمة في السماء.

وقام الأسـاقفة أيضاً والكهنـة، بتطهير كنائس المدينة، ولاسيما أحواز المعبـد، وكرسـوا للرب الأمـاكن المقدسـة، ثم أقـاموا القـداسات أمـام الناس، وقدمـوا الشكر للمباركـات التي تلقوها، وفي ذلك اليـوم أيضاً، قيل بأن أدهمر أسقف لى بوي، صاحب الذكرى الخالدة، والذي قلنا بأنه قد توفي في أنطاكيـة، قد شوهد مـن قبل عدد كبير من الناس في المدينة، لابل أكثر من هذا، لقد أكّد كثير من الناس من أعظمهم ثقة بأنهم رأوه بأعينهم يتجول مـع الأمراء ويقوم بزيارة الأمـاكن المقدسـة، يضاف إلى هذا، أن كثيرين آخرين، من الذين مـاتوا في سبيل المسيح أثناء الحج، قد ظهروا في المدينة أمام الكثيرين، وهـم يزورون بخشوع الأماكن المقدسة.

أمـا بالنسبة لبطرس الناسـك، الذي كان قبل خمس سنوات، قـد زار البطريرك والسكان المؤمنين للمــدينة المقـدسـة، والذي تـولت حماسته وغيرته إقناع أمراء الغرب بالتعهد بالقيام بالحج، بطرس هذا قد اعترف الجميع به، وحيــوه بعـاطفـة جيــاشـة، وقـد تلقى شكرهـم، لأنه قـام باخـلاص عظيم باثارتهم للقيام بهذه المهمـة، وجعل الأمراء والشعـوب

يتولون بذل هذا الجهد العظيم من أجل المسيح وفي سبيله.

وعندما تمّ الفراغ من هذا كله، عاد الأمراء إلى بيوتهم وأماكن سكناهم، التي كان الناس في تلك الأثناء قد أعدوها لهم، وقد وجدوها مليئة تماماً بكل شيء ضروري، وصار لدى الجميع من أدناهم إلى أعلاهم وفرة عظيمة من كل شيء يرغبون به، من: ذهب، وفضة، وجواهر، وملابس ثمينة، وقمح، وخمرة، وزيت، وذلك بالاضافة إلى كميات عظيمة من المياه، وقام الذين عانوا كثيراً من العوز والفاقة أثناء الحصار، والذين تملكوا الآن البيوت، وصار لديهم قدرة، قاموا بسد العوز لدى إخوانهم المحتاجين، ونتيجة لذلك توفرت في اليوم التالي للانتصار كميات عظيمة من كل شيء يمكن أن يرغب به الانسان معروضة للبيع في السوق العام بأسعار متدنية، حتى أن أدنى الناس مكانة صارت لديهم وفرة من كل شيء.

كيف انتخب الأمراء ملكاً وبطريركاً

وبعد سبعة أيام أمضيت بالراحة وبالمتعة الروحانية، اجتمع الأمراء مع بعضهم في اليوم الثامن، ليقرروا بفضل نعمة الروح القدس، أياً من أفرادهم سوف يكون ملكاً لتلك المنطقة مع المدينة المقدسة، هذا ولايجوز لي أن أغفل أن جميع الأمراء طلبوا الإلهام من ملاك الحكمة في عليين، أن ينتخبوا ملكاً الذي يتولى الرب تعيينه، وأعطيت وقتذاك شمعة إضاءة إلى كل أمير، على أساس أن الذي سوف يختاره الرب من بينهم بإضاءة شمعته تتوجب تحيته ملكاً من قبلهم جميعاً، ووقع الاختيار على روبرت دوق نورمساندي، فقام هذا بإطفاء الضوء، ومن دون سرور أبعد الاختيار الرباني، ذلك أنه قال بأنه سوف يتمتع من بعد بسلطان أعظم، عندما يعود إلى وطنه في انكلترا[ذلك أنه كان قد سمع للتو نبأ وفاة أخيه وليم روفوس]، وقام الأمراء الآن بعد كثير من النقاشات، باختيار الدوق غودفري، واصطحبوه وسط الحمد،

والترانيم، والمزامير إلى أمام ضريح الرب.

كما أنهم قرروا القيام بتعيين بطريرك للمدينة المقدسة، وبفضل جهود روبرت دوق نورماندي، حصل أسقف من ماتورين Maturane في كلابريا على التعيين لإيشاره له، وكان اسمه أرنولف، كما كان ابنا لكاهن، ومعروفاً بين الحجاج بفسوقه وطيشه، هذا ومالبث أرنولف أن مات، وبذلك انتهت عملية تعيينه، وبقي الكرسي بعده شاغراً لمدة خمسة أشهر، وقام الأمراء الذين كانوا موجودين، بعد كثير من المناقشات، باختيار ديبرت Daibert المحترم، لأن يجلس على عرش البطركية، وليمارس عنايته الرعوية، وكان من قبل أسقف كنيسة بيزا، وكان رجلاً عظيم المعرفة، وقد نشأ منذ طفولته وسط المسائل اللاهوتية.

كيف جرت هزيمة جيش سلطان مصر من قبل الصليبيين

وقبل مضي وقت طويل على استيلاء المؤمنين على المدينة المقدسة، سمع سلطان مصر ودمشق، الذي كان الأقوى بين الأمراء الشرقيين، بالذي حدث للقدس، فاستدعى أمير الجيوش لديه، وكان اسمه الأفضل، وأمره بالزحف إلى سورية مع جميع قوات مصر، وامبراطوريته كلها، لإزالة الشعب الطائش من على وجه الأرض، حتى لايذكر اسمه ثانية، هذا وكان الأفضل من أصل أرمني، وولد من خلال أبوين مسيحيين، لكنه من أجل الثروة ارتد عن الايمان، وكان اسمه التعميدي إميريوس(١) Emyreius، لكنه بعدما غير دينه، أصبح يدعى باسم الأفضل، وعلى هذا قام عدو صليب المسيح هذا بحشد جميع قوات مصر، والعربية، ودمشق، ووصل إلى عسقلان، وهناك نصب معسكره مع جميع عساكره، وبنيته متابعة الزحف إلى القدس، ليقوم بمحاصرة الجيش الصليبي هناك وأن يقوم بعد هزيمته له، بتدمير ضريح ربنا

١ — كذا ولعل هذه التسمية تصحيفاً لكلمة« أمير الجيوش» اللقب الذي حمله الأفضل من بعد أبيه ووراثة عنه.

تدميراً كـاملاً، ولكن حجـاج الصليب لم يكونوا على استعداد للتعـرض ثانية لمحنـة ومآسي الحصار، ولذلـك احتشدوا جميعاً من شعـب ورجال دين عند ضريح ربنا، وطرحوا أنفسهم على الأرض، وتوجهـوا بالدعاء إلى الرب، بقلوب متضرعـة مع كثير مـن النحيب، والتمسـوه أن يكون رحيماً فيحرر شعبه من مخاطره الهائلة، وبعدما حصلوا على الثقة من هذا العمل الديني، زحفوا بشجاعة نحـو عسقلان لمواجهة العدو في الميدان، وحملوا معهم قطعـة من صليب الرب، كـانت قد اكتشفـت مؤخـراً من قبل واحد من سكان القـدس اسمه سيروس Syrus ، الذي كان قد أبقاها في حفظه، وأنها وصلت إليه من عصور قديمة.

ووصل الدوق، الـذي هو الآن ملك القـدس، إلى الرملة، مع بقيـة الأمـراء، وعلم هناك بشكل مؤكـد بأن إميريوس المتقدم الذكـر معسكر مع جيشـه عند عسقـلان، ولذلك بعث أمـامه بمائتين مـن الفـرسـان، لاستطلاع الطريق، وللتجسس حـول أوضـاع العـدو، وبعدمـا سـاروا مسـافـة قصيرة، وجـدوا بعض قطعـان الثيران، والخيـول، والجمال، مع رجال مسؤولين عن جميع هذه الحيوانات، وكذلك بعض الفرسان الذين كانوا يتـولون حراستهم، وقـد هرب هؤلاء في اللحظة التي اقترب فيها رجـالنا، وتركوا الأسراب للعنايـة بأنفسهم وجرى— على كل حـال— اعتقـال بعض هؤلاء، وتمّ الحصـول على معلومـات منهم فيما يتعلق بخطط العدو، وأن قائدهم الأعلى، الذي كـان على بعد سبعة أميال، قد اقترح القيام بعـد يومين بالهجوم وتدمير جيشنا، وكـان تعداد الصليبيين حوالي اثنتـي عشرة مائة فـارس، أما الرجـالة فكانوا حـوالي ستة آلاف، وقـام هؤلاء وقـد وثقـوا من الحصـول على النصر، بتعبئة رجـالهم، فجعلوهم في تسعـة أقسـام، وضعـوا ثلاثة منهم في المقـدمـة، وثلاثة في الوسط، وثلاثة في الساقة، حتى إذا ماخرق العدو القسم الأول والقسم الثـاني، أو من أي جانب، يمكنه أن يجد خطاً آخـر جاهزاً للتصـدي له،

وكـانت الأسلاب التي كـانوا قـد حصلوا للتو عليهـا كبيرة جداً، وقـد أمضوا الليل حيث كـانوا مع سرور عظيم، وفي الصباح جـرت دعوتهم بوساطة البـوق للاستعداد للقتال، وعهـدوا بأنفسهم للرب، ومع ثقتهم المطلقـة به، زحفـوا نحـو الأمـام كـأنهم رجل واحـد لمواجهـة العـدو، وتقدمت الكتائب وفق نظام عسكري، وزحفت بشكل قتالي ثابت، وفي تلك الأثناء تمكنوا من الاحتفاظ بالمواشي والدواب، ودفعها بقوة ربانية، ولذلك بدا مـن الأثر، ومما أحـاط بالعسـاكـر من على اليمين ومن على اليسار من غبار، أن القوات الزاحفة كبيرة، إلى حد أن مامن أحد يمكنه منعها.

ورأى العـدو عن بعـد هذا المشهـد، من خـلال نور الشمس غير الواضح، فبدأ يشعر بالخوف، قبل حدوث القتال، لأنه اعتقد أن الجيش الصليبي كان جيشـاً ضخماً جداً، مع أن تعـداد قوات هذا العـدو كانت أكبر بكثير من حيث الرجـال، وقام روبرت دوق نورمانـدي الذي كان قـائد الصليبيين وحـامل علمهم بإنجـاز، لايمكن إلاّ الثناء عليـه كثيراً، فقد شاهد عن بعد راية أمير الجيـوش ولها تفاحة ذهبية على رأس رمح، وكانت تشع مع صفائح فضية، فـافترض بأن أمير الجيوش شخصياً كان هناك، فحمل عليـه من خـلال وسط الأعـداء، وسبب له جرحـاً مميتـاً، ولذلك ألقى برعب كبير بين صفوف المسلمين.

نحيب أمير الجيوش والنصر والغنائم

وعندمـا كـان أمير الجيـوس بالرمق الأخير، لجراحتـه المميتـة، تفـوه بكلمات النحيب التاليـة وتوجه بها إلى الرب القدير قـائلاً:« ياأعظم من كل شيء، أي مصير صعب مصيري هذا، وأية وصمـة عـار لسـلاحنا، عندما انتصرت فئة صغيرة من الرجال المعوزين على قواتنا العظيمة، فقد قدت إلى هنا مـائتي ألف من الفرسان(كذا) وأعـداد أعظم من الرجالة، وكان— كما هو مفترض— عليّ أن أقهر العالم كله، لكنهم الآن— إذا لم

أكن مخطئاً– قد انهزموا بشكل مشين من قبل أقل من ألف من الفرسان، وبضعة آلاف من الرجالة، ولاشك أن ربهم هو القدير، وقد قاتل في سبيلهم، أو أنه غاضب علينا، وعاقبنا بغضبه الشديد ومهما كان الحال، إنني لن أعود ثانية للالتقاء بهم في معركة، بل سأعود مجللاً بالعار إلى بلدي، إذا مابقيت حياً»، وجدد بهذه الكلمات بكاءه، وغرق في نحيب عظيم، وكان الأتراك وقتها يفكرون بالهزيمة، وفيما هم كذلك قام فارس من اللورين، كان معينا في الساقة مع الدوق غودفري، بالحملة عليهم من على الجناحين، وحرمهم من فرصة التراجع، وبهذه الصورة هوجموا من الأمام من قبل دوق نورماندي، وحرموا من التراجع من قبل الذين كانوا خلفهم، ولذلك مزقوا إلى قطع حسب مشيئة الصليبيين، وهرب القائد ونجا على ظهر جمل بفراره بسرعة كبيرة، ووقتها وصل جيشنا، وقد أنعم عليه بالنصر من عليين، إلى معسكر العدو، حيث وجد وفرة عظيمة من الذهب، والفضة، والمقتنيات، والحجارة الثمينة، وثروات غير معروفة في مناطقنا من العالم، وقد امتلأوا حتى التخمة بها، حتى أن الأدنى بينهم كان يمكنه أن يردد مع الشاعر (أوفيد):

« الوفرة عملتني فقيراً»

واستنقذ الدوق روبرت الراية السلطانية مقابل عشرين ماركاً من الفضة، أعطاها للذي احتفظ بها أثناء قيامه بمطاردة العدو، وحملها إلى ضريح ربنا، لتكون شاهدة على تخليد نصره، وباع رجل آخر سيف القائد نفسه مقابل أربعين قطعة ذهبية، وبهذه الطريقة لحقت الهزيمة بالأعداء، وحصل جيشنا بهبة من الرب، على النصر، وعاد مسروراً جداً إلى القدس، مثقلاً بكثير من كميات الأسلاب.

عودة روبرت دوق نورماندي وكونت فلاندرز إلى وطنيهما

وبعـدمـا أكمـل روبرت دوق نورمـاندي وكـونـت فـلاندرز حجهما بنجـاح، عادا إلى بلديهما، وقـال بعضهم بأن الرب قـد غضب منه، لأنه رفض تسلم السلطة في القـدس، ولم يسمح له بعد ذلك بالنجـاح في أي شيء، كما سـوف يتحـدث التاريـخ فيما بعد، وبناء عليـه، بعـدمـا ذهب هذان الأميران، احتفظ الملك غودفري معه بتـانكرد، وغارنر كونت دي غري، وببعـض آخر من الأمراء الغـربيين، وقد أدار المملكة التـي منحه الرب إياها بنشاط وحكمـة، وقد منح مدينة طبرية، القـائمة على بحيرة جنسارث مع جميع منطقـة الجليل، ومدينة حيفا البحرية والمعـروفة أيضاً باسم بروفيريا إلى اللورد تانكرد، الذي كـان راغباً في حكمـه في إرضاء الرب، حتى أن كنائس تلـك المنطقـة تتحـدث حتى الآن عن حكومتـه بفخار، وبعد مضي عامين جرت ترقيتـه لفضـائله إلى إمارة أنطاكية، وقد أغنى الكنائس، التي كـانت مجيدة في العصور الخاليـة، بكثير من الهدايا، وذلك بالاضافـة إلى أنه وسع حدود إمـارته بأن أضاف إليها عـدة مدن وقلاع استولى عليها.

وضع المدينة المقدسة والمدن الواقعة من حولها

من المعـروف بشكل جيـد أن مدينة القـدس واقعـة في منطقة جبليـة عـاليـة، وفي ديار سبط بنيـامين، وكان في غـربيهـا ديار سبط شمعـون، وأرض الفلسطينيين، والبحـر المتوسط، وهي تبعـد عنه حتى مدينة يافـا أربعـة وعشرين ميـلاً، وفي منتصف الطريق إلى هناك قلعـة عمـواس، ومودين، حصن المكابيين المبـاركين، ونبن قرية الكهنة، واللد التي شفى فيهـا بطرس عنيـاس العـاجز، وحيث عـاش سمعـان في بيت سمعـان الدباغ، وذلك عندما تسلم الرسالة، فأعاد إلى الحياة في يافا التلميذة التي اسمها تابيثا، ويقع على الجهة الشرقية من القدس نهر الأردن، وصحراء أبناء الأنبياء، وعلى أربعـة عشر ميلاً، هناك واد كثير الأشجـار، وكذلك البحر الميت، وعلى هذا الجانب مـن الأردن مدينة أريحا، والجليل مسكن

اليشع، وهناك على الجانب الآخر: جلعاد، وبيسان، وعمون، ومآب، اللائي جرى فيما بعد، اقتسامهن بين سبطي رأوبين، وجاد، ونصف سبط منسى، وتمتد المنطقة هذه الآن وتعرف بشكل عام باسم العربية، وإلى الجنوب من القدس ديار سبط يهوذا، حيث في دياره: بيت لحم التي تقدست بولادة ربنا، وتقوع بلدة حبقوق وعموس، وحبرون، التي هي قرية أربعة، وأيضا مدفن البطاركة اليهود، وتقوم في الشمال جبعون، التي حظيت بالشهرة، بسبب نصر يوشع بن نون، وسبط إفرايم، وشيلوه، وشيكار، ومنطقة السامرة، وبيت إيل، الذي شهدت ذنب يربعام، وسبسطية، وقبر اليشع، وعوبديا، والمنطقة التي شهدت استشهاد يوحنا المعمدان، وكانت هذه المنطقة تعرف من قبل باسم السامرة اشتقاقاً من جبل سومر، وكان هذا كذلك اسم المنطقة كلها، التي كانت هي مملكة ملوك اسرائيل، وهناك أيضاً توجد مدينة نابلس— أونيقوبولس— حيث قتل شمعون ولاوي ابنا يعقوب شكيم ابن عمور Emmor، لاغتصابه اختهما دينه، ودمرا مدينته بالنار.

والقدس هي حاضرة اليهودية، وكان اسمها في البداية— وفقاً للتاريخ القديم— سالم، اشتقاقاً من اسم سام أكبر أبناء نوح، الذي بناها وحكم عليها، وهو الذي عرف فيما بعد باسم ملكيصادق، الذي قدم خبزاً وخمرة إلى ابراهيم عندما عاد من قتله للملوك الأربعة، ومعنى كلمة« ملكيصادق» « ملك العدالة»، وقد حفظه الله من الطوفان، حتى يلد المسيح من سلالته، وكان هناك في ذلك الوقت مدينة أخرى، اسمها— تبعاً لجيروم— سالم، وقد حُكمت أيضاً مثل المدينة المتقدمة من قبل ملكيصادق، ومن الممكن رؤية خرائبها حتى هذه الأيام قرب مجرى نهر الأردن، ومع مرور الأيام صارت المدينة تعرف باسم يبوس، وذلك اشتقاقاً من اسم واحد من ملوكها، وهكذا بدمج هذين الاسمين:« يبوس» و« سالم» صارت تعرف باسم « يبوس سالم»، ثم

جـرى استبـدال حرف«ب» بحـرف«ر» فصـارت تعـرف باسم« يروس سـالم»(أورشليم)، وفيما بعـد عندمـا استولى داوود على يبـوس، عـرفت باسم مـدينة داوود، وعندمـا حكمها ابنه سليمان صـارت تعـرف باسم هيروسوليما أي هيروسالم، التابعة لسليمان.

وفي السنة الثـانيـة والأربعين، بعـد آلام ربنا، وبسبب آثـام اليهـود، حـوصرت هذه المدينة وجـرى الاستيلاء عليهـا من قبل تيتـوس الأمير المجيد للرومـان، الذي دمرها، إلى حد أنه وفقاً لكلمـة الرب لم تبق فيها حجـر فوق حجـر آخـر، وقد بنيت فيما بعـد من قبل ايليـوس هدريان، الذي كـان الامبراطور الرابع بعـد تيتوس، وباتت تعـرف باسم إيليـاء، اشتقاقـاً من اسمه، هـذا وكانت من قبل قـائمة فـوق الجروف المنحدرة للجبل، وتوجهت بشكل مستمر ومنحدر نحـو الشرق والجنوب، قائمة على جـانب جبل صهيـون وجبل موريا، وفيهـا فقـط الهيكل، وقلعـة أنطونيا على قمة الرابية لكن قام الآن الامبراطور هدريان بنقلها كلياً إلى القمة، وبذلك أغلق موضع آلام ربنا وأدخله داخل دائرة الأسوار.

الأماكن المقدسة في داخل المدينة المقدسة

إن هذه المدينة المقدسة، المحبـوبة من الرب، ليست واسعة بقدر المدن العظمى في العـالم، غير أنها أوسع من عـدد كبير من المدن الصغـرى، وهي من حيث الشكل مستطيلة، لها أربعة أضلاع، حيث أول الأضلاع أطول من البقيـة، والأضلاع الثـلاثة المتبقية محاطة بوديان عميقـة، فمن الجهة الشرقية منها هناك وادي شعفـاط، الذي في قعره كنيسة أم الرب، حيث من المعتقد أنها قد دفنت، وقبرهـا المجيد مرئي هناك، ودون ذلك هناك جـدول قدرون، الذي يعـود بأصوله إلى الأمطار التي تتسـاقط في ذلك المكان، وحوله قد قيل:« لقـد مضى إلى مـاوراء جدول قـدرون» الخ، وهناك من الجنـوب وادي جيحـون، وهو متصل بالـوادي المتقـدم الذكر، وهو في تقسيم البلاد عائد إلى سبطي بنيامين ويهوذا، ويرتفع هذا

الوادي نحـو قمـة الجبل القـائم في مـواجهـة بيت عنان Beennon في الغـرب، وهنـاك حقل الدم الذي شري بالمال الذي دفـع من أجل ربنا، وهو مكرس لدفن الغرباء فيه، وفي الجانب الغربي من هذا الوادي نفسه هناك مـوضع فيه بركـة قديمة، كـانت مشهورة في أيام ملوك اليهـودية، وهناك بالأعلى بركـة أخـرى اسمها« جب البطريـرك»، على مقربة منهـا الكهف المقبرة الذي اسمـه« كهف الأسـد»، ومن الجانب الشمالي، من الممكن الوصـول إلى المدينة عبر أرض مستـوية، وذلك عند المكان الذي يقال بأن الرائد الشهيد اسطفان قد رجم فيه.

وتحت سلطان بطريرك هذه المدينة المقدسة أربعـة رؤساء أساقفة هـم: رئيس أساقفة صـور، ورئيس أساقفة قيسارية، ورئيـس أساقفة الناصرة، ورئيس أسـاقفـة البتراء، التي تعـرف أيضـاً بـاسم الشـوبك، ورئـاسـة الأسقفيـة الأولى في فينيقيـة، والثـانيـة في منطقـة فلسطين، والثـالثـة في الجليل، والرابعة في منطقة مآب، ويساعد رئيس أساقفة قيسارية، أسقف سبسطيـة، وتحت رئيس أسـاقفة صـور أربعـة أسـاقفة مسـاعـدين هـم: أسقف عكا،وأسقف صيـدا، وأسقف بيروت، وأسقف بانيـاس، التي تعـرف أيضاً باسم قيسـارية فيليب، وفي منطقـة الناصرة كرسي أسقفيـه واحد هو الموجود في طبرية، ولدى رئيس أسـاقفة البتراء أسقف مساعد واحد أيضاً، هو أسقف إغـريقي في جبل سيناء، وإلى جانب الذين تقدم ذكرهم، لدى البطريرك أيضاً تحت سلطته الرعوية المباشرة أساقفة: بيت لحم،واللد، وحبرون، حيـث جـرى دفن: آدم، وحـــواء مع ابـراهيم، واسحق، ويعقوب.

والأمـاكن المقـدسـة في المدينة هي: كنيسـة قيـامـة ربنا على جبل الجمجمـة، والموضع المعروف بالجلجلة، وهناك هيكل آخـر، يوجد فيـه رجال دين، ويوجـد في كنيسة جبل صهيون رهبـان نظاميون، لهم راعي دير على رأسهم، وفي كنيسـة وادي شعفـاط رهبـان سـود تحت رئـاسـة

راعي دير، وهناك في كنيسة اللاتين رهبان سود تحت رعاية راعي دير، وهؤلاء جميعاً رؤساء ديرة متوجون، وهناك فضلاً عن ذلك مدن أخرى ليس لها أساقفة، وهذه هي: عسقلان، وهي خاضعة لأسقف بيت لحم، ويافا التي هي تحت سلطة كهنة الهيكل، وحيفا، وهي خاضعة لرئيس أساقفة قيسارية، والناصرة، وهي المكان الذي ولدت فيه مريم أم ربنا، وفيها جرى الحمل بابن العلي الأعلى في رحم العذراء، وبيت لحم، التي ولد فيها خبز الحياة، والأردن، وهو النهر الذي كان تعميد المسيح فيه، وهناك مكان آخر فيه صام المسيح، وأغوي من قبل الشيطان، وبحيرة جنسارث، حيث دعا تلاميذه، وعمل كثيراً من المعجزات، وجبل الطور حيث عليه ظهر وتغير شكله.

وفي داخل المدينة المقدسة هناك الهيكل الذي جرى تقديمه فيه، وجبل صهيون حيث تعشى مع تلاميذه، وحيث نزلت الروح القدس على التلاميذ، وحيث أيضاً غادرت أم ربنا هذا العالم، وجبل الجمجمة هو المكان الذي عانى فيه من الموت، والضريح حيث مدد، ثم قام ثانية في اليوم الثالث، وجبل الزيتون حيث جلس على أتان، وجرى تعبده من قبل الأطفال، ومنه صعد إلى السماء، وبيت عنيا حيث أقام لعازر من الموت، وسلوان حيث أعاد النظر إلى الذي كان قد ولد أعمى، وجيسماني، أو وادي شعفاط هو المكان الذي اعتقل فيه المسيح من قبل اليهود، وحيث جرى دفن الأم مريم، وكنيسة القديس إسطفان، حيث جرى رجمه حتى الموت، وسبسطية حيث جرى دفن يوحنا المعمدان مع النبيين: اليشع، والياس، ولابد أن يكون في هذا كفاية للقارىء في الوقت الحالي فيما يتعلق ببلاد القدس والمدينة المقدسة.

كيف نظر الملك وليم إلى بلاطه في القاعة الجديدة في وستمنستر

وفي السنة نفسها التي هي سنة ١٠٩٩م، عاد وليم ملك انكلترا، إلى انكلترا بعد مغادرته نورماندي ونظر إلى موضع بلاطه للمرة الأولى، في

القاعة الجديدة في وستمنستر، عندما دخل إليها أولاً مع حاشية كبيرة من الجنود لتفقدها، وقال بعضهم بأنها كانت واسعة أكثر من الضروري، لكن الملك رد على ذلك بقوله بأنها نصف حجم ماينبغي أن تكون عليه، وأنها يمكن أن تكون فقط غرفة نوم، في توزيع القصر الذي عزم على بنائه.

وبعد مضي وقت قصير، وعندما كان يصطاد في الغابة الجديدة، وصل إليه رسول أخبره بأن أسرته كانت محاصرة في مين Main، فبادر الملك على الفور مسرعاً بالنزول إلى شاطيء البحر، وصعد إلى ظهر سفينته، غير أن البحارة قالوا له:« أيها الملك العظيم، لماذا أنت مسافر بالبحر وسط هذه العاصفة؟ أولست خائفاً من التعرض للغرق؟» وقد رد على ذلك قائلاً:« إنني لم أسمع بأن ملكاً قد غرق»، ووفق هذه الطريقة عبر البحر، ولم ينل مثلما ناله من سمعة حسنة طوال حياته بوساطة هذا العمل، لأنه ماأن وصل إلى مين حتى تولى طرد الكونت هلياس Helias، وعاد إلى انكلترا بعد استيلائه على المدينة.

وفي السنة نفسها أعطى الملك وليم أسقفيه درم Durham إلى راندولف Randolph الذي كان رجل الإدعاء لديه، وكان رجلاً سيئاً، وفارق أوسموند Osmund أسقف سالسبري هذه الحياة، وأوصل سيغبرت Sigebert راهب غمبلور Gemblours تاريخه إلى هذا التاريخ(الصحيح أوصله حتى ١١٥٢)، وشوهد الدم في السنة نفسها ينبع من الأرض في فينكهامبستد Finchampstead في بيركشاير Berkshire، واستمر ذلك طوال الليلة التالية، وبدت السموات حمراء، وكأنها كانت تحترق بالنار.

موت وليم روفوس وبعض الشارات التي بشرت بموته

في سنة١١٠٠ عقد الملك وليم روفوس بلاطه في عيد الميلاد وسط

أبهة كبيرة وكان ذلك في غلوكستر Gloucester ، وفي عيد الفصح في وينـــكستر Winchester ، وفي أحد العنصرة في لندن، وفي اليوم التالي، الذي كان يوم عيـد القديس بطرس في الأغلال(٢—آب)، ذهب إلى الصيـد في الغـابة الجديدة، وهنـاك عندمـا كـان وولتر تيرل Tyrrel يرمي نحـو وعل، أصـاب— دونما قصـد— الملك، حيث خـرق السهم حتى القلب، دون أن يتفـوه بكلمـة، وهكـذا أنهى مـوت تعيس حيـاته الوحشية، وكانـت قد ظهرت عدة علامـات أشرت على موته، ذلك أنه حلم قبل يوم من وفـاته بأنه قد فصـد من قبل طبيب، وأن دمه المتـدفق وصل حتى السماء وحجبهـا، ولذلك استيقظ من نـومـه، ودعـا باسم القديسـة مريم، وطلب مصباحـاً، وأبقى حجابه معـه طوال بقية الليل، وفي الصباح، كان هناك راهب أجنبي، كـان موجوداً في البلاط من أجل بعض الأعمال المتعلقـة بكنيستـه، وقـد قص هـذا الراهب على روبرت فتـز— هامون، وكـان نبيلاً له سلطانـه، ومقرباً من الملك، بأنه قـد رأى مناماً مدهشاً في الليلة المتقدمة: فقد رأى بأن الملك قد دخل إلى كنيسته، وألقى بنظرته المتكبرة على المجتمعين من حـولـه، ثم إنه تناول الصليب ووضعـــه بين أسنانه، وضغـط عليـــه حتـى كـاد أن يقتطـع الذراعين والقدمين ويفصمهما، وكان الصليب في البـداية مماشياً للملك، لكنه بعد ذلك ركل الملك بقـدمه اليمنى، ولذلك سقط على البـلاط، وأخرج من فمـه لهباً عظيماً صعـد دخانـه مثل سحابة وصلت حتى النجـوم، وأخبر روبرت الملـك بهذا المنام، فقـــال وهـو يضحك:« إنه راهب، مثلـه مثل جميع الرهبـان، حلم بهذا ليحصل على شيء به، أعطه مـائـة شلن، حتى لايقول بأنه حلم عبثاً».

وجرى الإخبار المتقدم بموت الملك التعيس— كما ذكرت من قبل— بوســاطة الدم الذي خـرج مـن الأرض، مع أنه لم تكن هناك حـــاجـة لعلامة أخرى تبشر بالحادثة نفسها، لأن أنسلم رئيس أساقفة كانتربري،

عندما كان منفياً لمدة ثلاث سنوات، من خلال طغيانه، سافر من روما إلى مرسينياك Marcenniac، من أجل التمتع بالحديث مع هيوج راعي دير كلوني، وكان ذلك في حوالي بداية آب، وهناك جرى الحديث بينهما حول الملك وليم، وقد أكد رئيس الأساقفة، بصدق لايمكن نقضه، بأنه قد رأى في الليلة المتقدمة الملك، وقد جرى احضاره إلى أمام عرش الرب، وقد أتهم بجرائمه، وحكم عليه من قبل الحكم العدل بالإدانة، لكنه لم يوضح كيف جرى إخباره بذلك، كما أن رئيس الأساقفة، والذين كانوا حضوراً آنذاك لم يقدموا على سؤاله، بسبب قداسته العظيمة وذهب رئيس الأساقفة في اليوم التالي أيضاً إلى ليون، وفي الليلة نفسها عندما غنى الرهبان الذين رافقوه الصلاة الليلية، كان هناك شاب، قد ارتدى ملابس بسيطة، وكانت ملامحه لطيفة، وقد وقف إلى جانب واحد من كهنة رئيس الأساقفة، وكان فراشه على مقربه من باب القاعة، ومع أنه لم يكن نائماً، أبقى عينيه مغلقتين، وقد دعاه باسمه قائلاً:« آدم هل أنت نائم»؟ فأجابه الكاهن:«لا»، فتابع الشاب كلامه قائلاً:« هل تود سماع بعض الأخبار»؟ فأجابه آدم« بكل ترحاب»، فتابع الشاب حديثه قائلاً:« على هذا اعلم بكل تأكيد بأن الخصام مابين رئيس الأساقفة والملك وليم قد انتهى الآن»، ولدى سماع الكاهن هذه الكلمات نهض ونظر من حوله بعينين مفتوحتين فلم ير أحداً، وفي الليلة التالية أيضاً، عندما كان واحد من رهبان رئيس الأساقفة نفسه واقفاً في مكانه، وهو ينشد الصلاة الليلة، تصور بأن أحد الموجودين هناك ناوله ورقة صغيرة ليقرأها، وقد قرأ الراهب عليها الكلمات التالية:« الملك وليم قدمات»، وقد فتح على الفور عينيه، لكنه لم يشاهد أحداً باستثناء مرافقيه، وبعد وقت قصير جاء إليه(رئيس الأساقفة) اثنان من رهبانه، وأخبراه بأن الملك قد مات، ونصحاه باخلاص بالعودة على الفور إلى كرسيه الأسقفي.

حول أخطاء الملك وليم

إنه صحيح أن الملك وليم قد انقطع بالموت في وسط ظلمه، لأنه فاق جميع الناس، وفعل دوماً كل شر كان بإمكانه فعله، وكان بذلك يتبع نصائح مستشاريه الأشرار، فقد كان طاغية لشعبه، وسيئاً بالنسبة للغرباء، وأسوأ كل شيء لنفسه، وأغضب رعيته بضرائبه ومكوسه المستمرة، وفي الوقت نفسه أثار جيرانه بالحروب وبالغرامات، ولم يكن بامكان انكلترا التنفس تحت وطأة مافرضه عليها، لأن الملك وخدمه ألقوا بأيد عنيفة على كل شيء، وأوجدوا اضطراباً وفوضى على جميع الجوانب، وكانت أعمال اغتصابهم، وفسوقهم وغشهم، وظلمهم، قد وصلت إلى درجة لم يسمع بمثلها في سابق العصور، وكان هذا الملك الشرير، المكروه من قبل كل من الرب ومن شعبه قد استولى من أجل استخداماته الشخصية، في يوم موته، على رئاسة أسقفية كانتربري، وأسقفتي: ونكستر، وسالسبري، إلى جانب اثني عشر ديراً، هو إما قد باعهم، أو أنزلهم للضمان، أو احتفظ بهم بين يديه، وهو لم يمارس جرائمه في الفسوق سراً، بل بشكل مكشوف في وضح النهار، فهل أنا بحاجة لقول المزيد حول هذا الموضوع؟ فقد كان كل مايرضي الرب، ويرضي العبيد المؤمنين للرب، من المؤكد كان لايرضي الملك وأتباعه، وقد دفن في اليوم الذي أعقب يوم وفاته في ونكستر ، هذا ولم يبلل قبره بدموع أحد، وكان السرور عظيماً هو الذي شعر به الناس لدى مغادرته.

كيف جرى تتويج هنري الأول ملكاً على انكلترا

وبعد وفاة الملك وليم، لم يعرف نبلاء انكلترا ماالذي حدث لأخيه الأكبر، روبرت دوق نورماندي، الذي كان قد مضى على غيابه خمس سنوات في الحملة إلى القدس، وكانوا غير راغبين في أن تبقى المملكة وقتاً طويلاً من دون حاكم، وكان هنري هو الأصغر بين أخوته

وأكثرهم حكمة، وقد أدرك الوضع، فجمع الناس ورجال الدين مع بعضهم في لندن، ومن أجل أن يقنعهم بمساندة قضيته ويعملونه ملكاً، وقد وعدهم بإعادة النظر بالقوانين وتصحيحها، وهي القوانين التي ظلمت بها انكلترا في أيام الملك المتوفى، وعلى هذا ردّ رجال الدين والشعب أنه إذا ماقام بتأكيد هذا في صك منشور يضمن جميع الحريات والعادات التي كانت مرعية في أيام حكم الملك المقدس ادوارد، هم سوف يستجيبون لرغباته ويعملونه ملكاً، وكان هنري جاهزاً للقيام بهذا، وقد تعهد بذلك وأكده باليمين، وقد جرى تتويجه في وستمنستر في يوم البشارة للقديسة مريم وكان ذلك مع اعتراف الناس ورجال الدين، والمناداة به، وبعد ذلك باخراج هذه الامتيازات كتابة، وفعل ذلك تشريفاً للكنيسة المقدسة ولسلام شعبه.

الحريات التي منحها الملك هنري إلى مملكته

من هنري، ملك انكلترا بنعمة الرب، إلى العمدة هيوج دي بوكلاند Bocland، وإلى جميع شعبه المؤمنين من فرنسيين، وانكليز في هارنفورد شباير Hertfordshire، أمنيات الصحة، اعلم أنني برحمة الرب، وباجماع بارونات المملكة قد تتوجت ملكاً على انكلترا، وبما أن المملكة كانت مضطهدة بكثير من الجبايات غير العادلة، إنني أقوم تشريفاً للرب، ولمحبتي لكم جميعاً التي أحملها بقلبي، بمنح الحرية للرب منذ الآن وللكنيسة المقدسة، بحيث أنني لن أجعلها خاضعة أو عرضة لبيع أو ايجار أو ضمان، كما أنني عندما يموت رئيس أساقفة، أو أسقف، أو رئيس دير، لن أتسلم أي شيء من ممتلكات الكنيسة أو من ممتلكات أتباعها، حتى يتعين والياً جديداً لها، وإنني أعلن عن إلغاء جميع المكوس الشريرة التي ظلمت بها الكنيسة بشكل غير عادل، ومن هذه المكوس الشريرة سوف أذكر هنا بعضها.

إذا مامات أي واحد من باروناتي، أو ايرلاتي، أو من الآخرين

التابعين إقطاعياً لي، لن يقوم وريثه بـإنقاذ أراضيه كما كان من المعتاد أن يفعل في أيام أبي، بل سيـدفع بشكل عادل وقـانوني للتفريج عنهـا، وفي الطريقـة نفسها سـوف يسترد التابعـون لباروناتي أراضيهم من سـادتهم وإذا مارغب واحـد من باروناتي أو من الآخرين بإعطاء ابنتـه، أو أخته، أو حفيـدته أو ابنة عمـه(أو خـاله) إلى أي انسـان للزواج، واتصل بي حول الموضـوع، إنني لن آخذ أي شيء منه مقـابل الإجازة، كما أنني لن أمنعه من اعطائها للزواج، مـالم يكن طالب الزواج رجلاً عدواً لي، وإذا مامـات واحد من باروناتي أو من الآخرين، تاركـاً ابنة لتكون وريثة له، إنني سـوف أعطيهـا للزواج مع ميراثهـا، بمـوافقـة من باروناتي، وإذا مـامـات الزوج، وبقيت الزوجـة حيـة من دون أولاد، إنها سـوف تنال مهـرها مع حقهـا بالزواج، كما أنني لن أزوجهـا ضـد رغبتهـا وارادتها، لكن إذا بقيت الزوجـة حية ولديها أولاد فإنها سوف تحصـل على مهرها وحقهـا بالزواج، وذلك أثناء محافظتها على شخصهـا وفقاً للقـانون، كما أنني لن أزوجهـا ضـد إرادتها، ولسـوف تبقى أراضي الأطفـال تحت وصاية الزوجـة، أو تحت وصاية واحد من الأقرباء المقـربين وذلك وفقاً للعدل والحق، وإنني آمر أتبـاعي بالتصرف بأنفسهم وفق الطريقة نفسها نحو أبناء وبنات وزوجات أتباعهم.

وبالنسبـة للنقود التي هي بالاستخـدام العـام، والتي أخذت خـلال المدن والمناطق، والتي لم تكن كـذلـك في أيام الملك إدوارد، إنني ألغيهـا تماما وأحـرمها، وإذا ماألقي القبض على أي واحـد سواء من الماليين أو الآخـرين، ومعه أمـوال مـزيفة، لندع العـدالة تأخـذ مجراها نحوه وفقـاً للقانون، وإنني ألغـي جميع دعاوى الاستئناف والديون التي كـانت حقاً لأخي الملك، بـاستثناء مـزارعي، وأيضـاً باستثناء مـاهـو معين لورثة الآخـرين، أو للأشيـاء التي تخص بشكـل أكثر، الناس الآخـرين، وإذا مـاقـام أي انسـان بعمل أية صفقـة حـول ميراثه، إنني أعفـو عن ذلك

وألغيه مع جميع التفريجات، التي جرى الاتفاق عليها من أجل المواريث الحقيقية، فإن ذلك سوف يلقى التثبيت من قبلي، لكن إذا مامنع بجراحة في الحرب، أو بالمرض، فلم يتمكن من ذلك أو من التصرف بماله، فإن زوجته أو أولاده، أو أبويه، وأتباعه القانونيين، سوف يتقاسمونه من أجل راحة نفسه، وذلك حسبما يرون أنه الأفضل، وإذا كان قد جرى تغريم واحد من باروناتي أو أتباعي بغرامة، فإنه سوف يمنح كفالة رحمة من أجل ماله، مثلما كان يفعل في أيام أبي أو أخي، إنما وفقاً لدرجة الغرامة، كما أنه لن يكفر عنها، كما كان سيفعل في أيام أبي أو أخي، لكنه إذا مااقترف خيانة أو جريمة، فإن تكفيره سوف يكون وفقاً للجريمة، ولقد جرى العفو عن جرائم القتل الماضية حتى يوم تتويجي، أما الجرائم التي سوف تقترف في المستقبل، فلسوف يكون التكفير عنها، وفقاً لقانون الملك إدوارد، وإنني أحتفظ بالغابات في أراضي، بموافقة جميع باروناتي، وفق الطريقة التي احتفظ بها أبي، وإنني أتنازل إلى جميع الفرسان الذين يدافعون عن أراضيهم بالسلاح وأسمح لهم بالاحتفاظ بجميع الأراضي الموجودة في ممتلكاتهم، معفية من جميع ضرائب التاج، والهدايا إليّ شخصيا، حتى إذا ماتحرروا من جميع المكوس الثقيلة، يمكنهم نيل الخبرة، في الفروسيه والسلاح، ويكونوا جاهزين لخدمتي، وللدفاع عن المملكة كلها.

إنني أقيم السلم خلال جميع ممتلكاتي، وآمر بمراعاته منذ الآن فصاعدا، وأعيد إليكم قانون الملك إدوارد، مع التحسينات والاصلاحات التي عملها أبي بموافقة البارونات، وإذا كان أي انسان قد استولى على أي شيء لانسان آخر منذ وفاة أخي الملك وليم، عليه إعادة ذلك بكل سرعة ودونما تغيير، إنما إذا مااحتفظ أي انسان بأي جزء من ذلك، وسوف يتم العثور على ذلك، فلسوف يدفع غرامة كبيرة لي مقابل ذلك.

شهـد على ذلك التـالين: مـوريس أسقف لنـدن، ووليم المنتخب لونكستر، وجيرارد أسقف هيرفـورد Hereford، وإيرل هنري، وإيرل سيمون، وايـرل وولتر جيفورد Gifford ، وروبرت دي مـونتفورد، وروجر بيغود Bigod، مع آخرين كثر.

وقـد جـرى عمل نسخ كثيرة من هذه الوثائق، بقـدر مناطق انكلترا، وبناء على أوامر الملك، جرى وضعهم في ديرة كل منطقة للذكرى.

عودة أنسلم رئيس أساقفة كانتربري إلى إنكلترا

وهكذا جـرى تتويج الملك هنري، وإثر ذلك أعطى أسقفية ونكستر إلى وليم جيفـرد، وقام على الفـور بمنحـه جميع الممتلكات العائـدة إلى الكرسي الأسقفي، وذلـك بشكل يتعـاكس مـع شروط المجلس الجديد التي ذكـرناها اعـلاه، ثم إنه قـام بناء على نصيحـة الكنيسـة الانكليـزية كلهـا، بـإرسـال سفـارة مهيبـة إلى الخارج إلى أنسلم، رئيس أسـاقفـة كـانتربري، لدعـوته بإخلاص للعـودة بدون تأخير، حتى يقـوم بتملك كرسيه الأسقفي.

وفي الوقت نفسـه كان الدوق روبرت، أخو الملك، قـد أكمل بشكل مجيـد حجـه إلى القـدس، وقـد عـاد إلى نورمـاندي، بعـد غيـاب خمس سنوات، وقد استقبل بسرور وتشريف من قبل جميع رعيته، وكان الملك في ذلك الحين لديه في السجن رالـف[فـلامبـارد Flambard] أسقف درم، فهو قد كـان رجلاً منحرفاً بأخلاقـه، جاهزاً لإقتراف كل نوع من أنواع الشرور، لإزعـاج انكلترا كلهـا، وقـد عين أسقفـاً لدرم من قبل الملك وليم، ونظراً لاستعـداده للتماشي مع ذلك الملك، عهـد إلى جميع وكلائـه في جميع أنحاء المملكة بالقيـام بنهب، وتخريب، وتدمير ممتلكات كل انسان من أجل منفعة محاسب الملك وجـابيه، لكن عندما مات ذلك الملك الظالم، وجـرى تتـويج هنري مكانه، قـام الملك بـرميـه بالسجن،

الذي منه هرب برشـوته للحرس، وعبر إلى نورمانـدي، حيث حـرك الدوق روبرت ضد أخيه.

وبعث الدوق برسائل خاصة إلى نبـلاء انكلترا، أظهر فيهـا بأنه كان الابن الأكبر لوليم الذي استـولى على انكلترا بسـلاحـه، وبهذا الادعـاء طالب بعـرش انكلترا لنفسه، وعندمـا سمع النبـلاء بهذا، آثر كثير منهم الوقوف إلى جانبه، ووعدوه بـالاخلاص والمساعدة، واستعد روبرت في الوقت نفسه للعمل على تحقيق دعواه، لكن بما أنه كـان قد عاد للتو من الحج، أجّل نواياه لبعض الوقت، حتى تتهيأ الفرصة المناسبة.

ومـات في السنة نفسهـا تومـاس رئيس أسـاقفـة يورك، وقـد خلفـه جيرارد، وأوصل سيغيبيرت Sigisbert راهب غيمبلور Gem-blours تاريخه الذي كُتب بشكل أنيق، إلى هذه السنة الحالية.

فضائل الدوق غودفري وموته المبكر

مات في السنة نفسهـا البابا أوربان، وقـد خلفه باسكال، الذي جلس ثمانية عشر عامـا على كرسي روما، وقام في السنة نفسهـا غودفري، ملك القـدس، بتحريض من بعض باروناته، بعبـور نهر الأردن، وبعدمـا جمع أسلاباً كثيرة من بـلاد العموريين، التي كانت مسكونـة من قبل العرب، عـاد إلى مملكته منتصراً، وقـد أثار هذا الهجوم واحـداً من كبار الأمـراء العرب، وكـان قوياً، ومقاتلاً قـديراً، فقام هذا في البـداية بالحصول على اذن وأمان من الدوق بـإرساله رسولاً إليـه، ثم قدم إلى زيارة غـودفري مع حـاشيـة من النبـلاء من أهل بلاده، ذلك أنه سمع أخبـاراً عن قـوة وأبهة الملك وشعب الغـرب، الذي أخضع مناطق شـاسعـة بالطول والعـرض في الشرق، وبما أنـه كـان يتحـرق بالرغبـة لرؤيتـه، مثل في حضرته، وحياه باحترام، وبعدمـا نظر بإعجاب لبعض الوقت إلى المظهر الخارجي لجسم الملك، طلب منه بإلحاح شـديد أن يريه قوته بـاستخدام

سيفـه على جمل كان قـد جلبه معـه لهذه الغاية، وقـام الملك— ليس من باب التبجح، بل من أجل أن يلقي الرعب في قلوب العـرب— بسحب سيفـه، وبضربة واحـدة قطع رأس الجمل، وكـأنه كـان خيطاً، واندهش العربي تجاه هذا المشهـد، لكنه عزا ذلك في ذهنه إلى أن سيفه كـان حاداً، ثم إنه حصل على إذن بالكلام، وهنا سأل الملك عما إذا كان يمكنه فعل الشيء نفسه بسيف انسـان آخر، فابتسم الملـك وطلب من الأمير اعارته سيفه، حيث به قطع رأس جمل آخر من دون أدنى صعوبة، وفعل ذلك فـوق البقعـة نفسهـا، وبذلك وجـد العـربي أن الأخبـار عن قـوة الملك كانت صحيحة، فأعطاه كثيراً من الهدايـا من الذهب والفضة، والخيول، وأشياء أخرى ثمينة، وبعدما ضمن صداقته، عاد إلى قومه، حيث حدّث كل واحد عن القوة المدهشة للملك.

وبعـد هذا، أصيب الملك المجيـد، في شهـر تموز بمـرض غير قـابل للشفاء، وبعدما تلقى قـربان الخلاص، لفظ آخر أنفاسه، وهو يردد اسم المسيح حتى يتمتع بسعـادة سرمدية مع الملائكة في السماء، وقـد مات في الثامن عشر مـن تموز من هذه السنة الحالية، وقد دفـن في كنيسة ضريح ربنا، تحت جبل الجمجمـة، حيث قـام خلفـاؤه بتعيين مكان لأنفسهم للدفن، حتى اليـوم الحالي، وبقيت مملكة القـدس شـاغـرة لمدة ثلاث سنوات بعد موته، وتم أخيراً بقرار من جميع الأمراء والشعب، استدعاء اللورد بلدوين، الذي كان أخـا غير شقيق للملك المتوفى، للقدوم لتسلم العرش، ولأن يحكم بعد أخيه، وذلك حسبما تطلبت العدالة.

كيف جرى تتويج بلدوين ملكاً على القدس وحول تقواه

في سنة ١١٠١م قدم بلدوين كونت الرها، وأخو الملك غودفري لأمه إلى القـدس، ومسح وتوج ملكاً على القـدس في يوم عيـد ميـلاد ربنا، وكان ذلك بيدي ديبرت البطريرك، غير أن النبيل تانكرد لم ينس الإهانة التي كان قد تلقـاها قديماً من بلدوين، المنتخب الآن ملكاً، والتي كنا قد

تحدثنا عنها من قبل، ولذلك حصل على إذن بمغادرة البلاد، وسلم إلى الملك الجديد مدينتي طبرية وحيفا اللتين تلقاهما أعطية من الملك غودفري، وعاد إلى أنطاكية، حيث جرى الترحيب به من قبل سكان المدينة، لأن بوهيموند، أمير أنطاكية كان قد وقع بالأسر في مدينة ملطية، وهي احدى مدن الجزيرة، وكان الذين أسروه هم الدانشمند الأتراك، ولم يكن قد استرد حريته بعد، وكان تانكرد قد تلقى دعوات متوالية لتسلم حكومة المدينة والشعب حتى يتحرر بوهيموند، وقد قبل الدعوات أخيراً، وتسلم حكم المدينة والمنطقة.

وفي حوالي الوقت نفسه، عبر أيضاً الملك بلدوين الأردن، ونهب ودمر داخل العربية، واستهدف التجسس على المناطق الضعيفة للشعوب المجاورة، وانقض في احدى الليالي فجأة على كتلة كبيرة من الترك، وأخذ كثيراً منهم على حين غرة وهم في خيامهم مع أزواجهم وأولادهم ومع جميع مقتنياتهم، واستولى على اعداد لم يسمع بمثلها من الجمال والحمير، هذا وقد نجا معظم الرجال على ظهور خيولهم السريعة، تاركين أزواجهم وأولادهم مع أثقالهم في أيدي الصليبيين، وعندما كان الملك على طريق عودته، وجد امرأة كانت زوجة واحد من كبار المقدمين، في آلام الوضع فأمر بوضع فراش لها، وزودها براوية من الماء، وبكثير من الحليب، وببعض الخادمات للعناية بها، وبعدما أعطاها رداءه للفها به، تابع الزحف مع جيشه، وفي اليوم التالي، كان المقدم العربي القوي قلقاً على زوجته، فلحق بجيشنا، ووصل إلى المكان الذي كانت زوجته ممددة فيه، وقد دهش تجاه المشهد، وحمد انسانية الملك، وأثنى عليه حتى النجوم، ومنذ تلك اللحظة ارتبط باخلاص لتلبية كل متطلباته الضرورية.

كيف تزوج الملك هنري من ماتيلدا ابنة ملك الاسكوتلنديين

وعاد في السنة نفسها أنسلم رئيس أساقفة كانتربري إلى انكلترا،

وخطب ماتبندا ابنة ملكولم ملك الاسكوتلنديين، وكذلك ابنة الملكة القديسة مرغريت، إلى هنري، الملك الجديد لانكلترا، وبعد الاحتفال بالزفاف، لم يكن هناك اضطراب قليل في المملكة، وذلك بسبب روبرت دوق نورماندي، الذي قيل بأنه كان قادماً مع جيش كبير لاخضاع انكلترا، ولدى سماع الملك هنري بهذه الأخبار، أرسل قوة بحرية للتصدي إلى أخيه، لكن الجزء الأعظم من الجيش خضع إلى روبرت لدى اقترابه، وجاء الدوق للرسو في بورتموث في اليوم الأول من آب، وزحف الملك ضده مع جيش كبير، غير أن النبلاء لم يقبلوا بهذا الخلاف بين الأخوين وعملوا صلحاً بينهما وفق الشروط التالية: يتوجب على الملك أن يدفع ثلاثة آلاف مارك فضة كل سنة من الممتلكات الانكليزية إلى أخيه روبرت، وأنه إذا مامات واحد منهما من دون ورثة فإن الآخر سوف يخلفه في الممتلكات، وتأكدت هذه الشروط بأيمان اثني عشر نبيلاً من كل جانب، وبعدما بقي الدوق روبرت مع أخيه حتى عيد القديس ميكائيل(٢٩--ايلول)، عاد إلى بلاده.

وفي هذه السنة نفسها(الصحيح:١٣—نيسان١١١١) وصل هنري(الخامس) إلى عرش الامبراطورية الرومانية، وقد حكم لمدة خمس وثلاثين سنة.

وفي السنة نفسها أعطى الملك هنري أسقفية هيرفورد Hereford إلى واحد اسمه رينيلم Reinelm ، من دون عمل انتخاب، وقد نصبه باحتفال عام، مخالفاً قرارات المجمع الجديد.

المجمع الذي عقد في لندن وتجريد بعض رعاة الديرة

في سنة ١١٠٢، حاصر هنري ملك انكلترا قلعة أرونديل Arundel التي كانت ملكاً لروبرت دي بلسمي Belesme، الذي احتفظ بها ضد موافقة الملك، وكانت قلعة من الصعب الاستيلاء عليها، فتولى بناء قلعة

أخرى من الخشب مقابلها، وفي تلك الأثناء حاصر قلعة بردجنورث Bridgenorth واستولى عليها، وأخيرا استسلمت قلعة أرونديل، وقام الملك بنفي روبرت دي بلسمي من انكلترا.

وعقد في السنة نفسها أنسلم رئيس أساقفة كانتربري مجمعاً في لندن في كنيسة القديس بولص في حوالي عيد القديس ميكائيل، وكان الملك مع الأساقفة المساعدين بين الحضور، وجرى في هذا المجمع الحرمان كنسياً للكهنة الذين لديهم خليلات، مالم ينفصلوا عنهن على الفور، إنما وإن كان هذا نال رضا بعضهم، لم يوافق آخرون عليه، خشية أنه بممارسة معايير أخلاقية على سلطتهم، سوف يقعون في أمور لاأخلاقية، ثم إنه عرض بلغة واضحة ماجرى رسمه في المجمع العام في روما وتقريره بشأن التعيينات في الكنائس، والمعني بذلك أن مامن رئيس أساقفة كنيسة، أو أسقف، أو راعي دير، أو كاهن يجوز أن يستلم أيا من المناصب اللاهوتية من يد رجل علماني، وبناء عليه قام رئيس الأساقفة أيضاً بتجريد بعض رعاة الديرة الذين حصلوا على مراتبهم من أيدي رجال علمانيين، وعن طريق الشراء، وكان هؤلاء هم: رتشارد أوف إيلاي Ely، وألدوين أوف رمزي Aldwin of Ramsey، مع رعاة ديرة: بورغ Bourg ، وتافيستوك Tavistock، وكرنلي Cernely، ومدلتون Middleton الذين لانتذكر أسماءهم، ولأنه رفض تكريس بعض الأساقفة ورسمهم بناء على أوامر الملك، لأنهم كانوا قد تسلموا مناصبهم من الملك، ولأنه رفض حتى الاتصال بهم، غضب الملك، فأمر جيرارد رئيس أساقفة يورك القيام بسيامتهم، لكن وليم جيفورد المنتخب لونكستر، والذي كان من المفترض السيامة من قبله، رفض السيامة من قبل جيرارد، فكان أن نفي من المملكة بموجب قرار الملك، وأعاد رينيلم أسقف هيرفورد، الذي نال منصبه من الملك، الأسقفية إليه.

كيف ذهب أنسلم رئيس أساقفة كانتربري إلى روما آخذاً معه رعاة الديرة المجردين

في سنة ١١٠٣، بعدما تلقى أنسلم رئيس أساقفة كانتربري كثيراً من المكابدات والازعاجات من الملك، أخذ طريقه إلى روما، وقد اتفق مع الملك على أن يصطحب معه رعاة الديرة المجردين ووليم المنتخب لونكستر، واستقبله البابا باسكال بلطف، وفي تاريخ يوم محدد قام وليم وورواست Warewastكاهن الملك والمسؤول عن شؤون ملك انكلترا، بعرض قضيته وسط أشياء أخرى، وأكد بكل حزم أنه لن يتخلى عن التنصيب في الكنائس، حتى لو أن ذلك سوف يكلفه فقدان مملكته، وأكد هذا الموقف الثابت بكلمات تهديد عرضها، وعلى هذا رد البابا قائلاً:« إذا كان كما تقول لن يتخلى ملكك عن تعيينات الكنيسة، ليبقي مملكته، مثل ذلك إنني لن أدعه يفعل ذلك مقابل حفظ حياتي»، وبذلك خسر الملك قضيته، وتدخل رئيس الأساقفة أنسلم لدى البابا من أجل رعاة الديرة المجردين، لكي يمنحهم عفواً حتى يستردوا مناصبهم، ثم إن الكرسي المقدس، الذي لم يرفض عرض أي انسان، إذا ماارتبط ذلك بالذهب والفضة، توسط بين الفرقاء، وبرحمة أعاد الأساقفة ورعاة الديرة المتقدم ذكرهم إلى مناصبهم السالفة، وأعادهم مسرورين إلى مقراتهم.

وفي السنة نفسها جرى حرمان روبرت دوق نورماندي من الثلاثة آلاف مارك التي كانت تدفع له سنويا، وجاء ذلك ببراعة من أخيه، ولصالحه فقط.

كيف هلك كثير من النبلاء كانوا على طريقهم إلى القدس بخيانة من الامبراطور

حمل في حوالي ذلك الوقت كثير من النبلاء من الغرب الصليب،

وانطلقوا يؤمون القدس، تحت قيادة النبلاء الأقوياء: وليم دوق أكوتين، وهيوج الكبير كونت فيرومادا Viromadaالذي كان قد عـاد لتوه من الحج، وستيفن كـونت تشارتـرز وبلوا، مع ستيفن كـونت بيرغندي، ووصل هؤلاء مع حاشية كبيرة إلى القسطنطينية، وهـم جميعا يلتهبـون حماسة، وجرى استقبالهم باحترام— لكن خداعاً— من قبل ألكسيوس، ووجدوا هناك كـونت طولوز، الذي كان منذ أن حمل الصليب قـد قرر عدم العـودة إلى بلاده، وبعدما حصلوا على إذن الملك، جـرت مرافقتهم من قبل كـونـت طولوز عبر البـوسفـور حتى نيقيـة في بيثينيـا، ثم قـام الامبراطور ألكسيـوس، الخائن الشرير، الذي كـان يشعـر بالغيرة من نجـاح رجـالنا، فبعث برسـائل إلى مقـدمي الأتراك المسلمين، الذين من ديارهم كـان الصليبيـون على وشـك العبـور، وحثهم بإلحاح على عـدم السماح لمثل هذا الجيش الصليبي الكبير بعبور أراضيهم.

وكـان الآن رجالنا يتصرفـون من دون حذر، وكـانوا لايتوقعـون أي شر، بل كـانوا يزحفـون على شكل فئات متفـرقـة، دون أن يكون هناك رابط بينهم، وبـذلك ألقيـوا في أيدي الأتراك الذين كمنوا بـانتظارهم، وقـد جـرى في ذلك اليوم مقتل أكثـر من خمسين ألفـاً منهم، أمـا الذين نجـوا فـوصلوا مجردين من كـل شيء إلى طرسـوس في كيليكيـة، حيث مات هيـوج الكبير، ودفن في كنيسة رسول الأمـم، ثم تابعوا سيرهم إلى أنطاكيـة، ومن هناك سـاروا مسرعين يـريدون القـدس، وقـد وصلوا طرطوس، حيث بعـدمـا حـاصروها لأيام قليلة استـولوا عليهـا، فقتلوا سكانها أو حولوهم إلى عبودية دائمة.

كيف أخضع ملك القدس ثلاث مدن

ووصل في هذه الآونة اسطـول كبير إلى يافـا، وفي أيام عيـد الفصح ذهب من كـان فيـه إلى القـدس، وتمكن الملك بلدوين بمسـاعـدتهم من محاصرة المدن الساحلية التالية والاستيـلاء عليها وهي: أرسوف، فبعدما

استولى على الحصن الذي فيهـا، زحف إلى قيسارية، التي استـولى عليها، بعد صعوبات جمة، فقتل السكان، ووزع أسـلاباً كثيرة بين رجاله، وكان في واحد من أجزاء المدينة مسجـد لله، إليه هرب الناس للأمان، لكنهم اقتحمـوه وأعقب ذلك مـذبحـة هائلة للـذين كـانوا في داخله، وكـانت مـذبحـة مـرعبـة أن تنظر إليهـا، ووجـدوا في ذلك المسجـد وعـاء لونه أخضر، على شكل صحن، وقد أخذه الجنويون عـادّينه من الزمرد، وقد أخذوه مقابل مبلغ كبير من المال، وقـدموه بمثابة هدية ثمينة لكنيستهم، وجـرى استـدعاء أمير المدينة، وقـاضيهـا إلى حضرة الملك، ووضعـا في أغـلال الحديد، لاستخراج أكبر فـدية ممكنة منهما، ثم عين الملك رجـلاً اسمـه بلدوين ليكون رئيس أسـاقفـة للمـدينـة، وكـان بلدوين هذا ممن قـدمـوا مع الدوق غـودفري، وبعـدمـا ترك فيهـا شحنة عسكرية كبيرة تكون مسؤولة عن المدينة، زحف مسرعاً نحو الرملة.

وفي تلك الآونة كـان خلـيفة مصر قـد أرسـل أمير جيـوشـه ضـد بلدوين مع أحـد عشر ألفـاً من الفـرسان وعشـرين ألفـاً من الرجـالة، وأمـره بطرد الرعـاع الصليبيين من ممـالكه، وذلك حسب عبـاراته، وتوجـه الملك بلدوين من دون خـوف للتصـدي إليهـم مـع مـائتين مـن الفرسـان، وتسعمائـة من المشاة، وبعـون من الرب، انقـض عـلى العـدو، وألحق به الهزيمـة، وطـارده حتى عسـقلان، وظـل يقتـل برجـاله حتى مسافـة ثمانية أميـال، وعسكر الصليبيون المنتصرون في تلك الليـلة في ميـدان المعـركة، وجـرى قتـل خمسـة آلاف مـن جانب الأعداء، أمـا من جانبنا فالذين قتلوا كـانوا سبعين فارساً، وأكبر من هذا العـدد من الرجالة، غير أن هـذه الأعداد ليست مـؤكدة تمامـاً، ووصل في الوقت نفسـه أمراء الغـرب الذين تقـدم ذكرهم إلى القـدس وخـرج الملك إلى استقبـالهم، ورافقهم مـع كثير من السرور إلى داخل المدينة المقدسة.

كيف أخلى الملك هنري مناطق أخيه روبرت من سكانها

في سنة ١١٠٤م تفجـر خـلاف لأسبـاب محددة بين الملك هنري وروبرت دوق نورمـاندي وأرسل الملك إلى مناطق أخيـه قوة مسلحـة، تعـاونت مع بعض الخونة من رعيـة الدوق فـاقترفت كثيراً من أعمال الدمار خلال تلك المنطقة، وأظهر وليم كونت أوف مورتين Mortaine الذي كان قـد نفي من انكلترا لتوه من قبل الملك، بسبب الخيـانة، نفسه رجلاً شجاعـاً، وحمل السلاح ضد عساكـر الملك، وقام الدوق روبرت، وقـد خشي من قوة أخيـه، فحصن قلاعـه مع جميع النقاط الضعيفـة في أراضيه إلى أقصى حـد ممكن بقدرته، وظهـر في السنة نفسها في الجنوب أربع دوائر بيضاء حول الشمس.

كيف جرى منع رئيس الأساقفة أنسلم من العودة إلى انكلترا

ووصل في تلك الآونة رئيس الأسـاقفـة أنسلم إلى ليون لدى عـودته من روما، وقـام وليم دي وورواست المشرف على شؤون ملك انكلترا، والذي ذكرناه أعلاه، بمنعه من العودة إلى انكلترا ثانية باسم الملك، مالم يعد بـإخلاص بمراعـاة جميع الامتيـازات المعتادة لأبيه وأخيـه، وعجب أنسلم لدى سماعه بهذا، عـارفاً بأنه قد غـادر انكلترا وفق شروط أخرى مختلفـة تماما، وبناء عليـه، لدى وصـوله إلى ليون بقي مع هيـوج رئيس أسـاقفة تلك المدينة، معطيـا اهتمامه إلى الخشـوع والتدين، وعندمـا رأى الملك هنري أن البابا ورئيس الأساقفة كانا غير مرنين معه، وضع رئاسة الأسقفية بين يديه، وصادر جميع ممتلكات أنسلم.

حول تركي تلطف فساعد على نجاة الملك بلدوين

وفي حـوالي هذه الآونة قام العـرب والمصريون بالدخـول إلى الحدود الصليبية قـرب اللد،وسارونا، والرملة، وقد بلغ تعـدادهم عشرين ألفاً، وقـد ركـزوا جهودهـم على السلب والنهب، ولدى سماع الملك بلدوين

بهذا، تصرف بطيش غير معتاد، ذلك أنه أهمل استدعاء القوات من المدن المجاورة، وقام وهو واثق بشجاعته ومعتمد عليها بمهاجمة الأعداء مع قرابة المائتي فارس، الذين كانوا أدنى من أن يتمكنوا من الوقوف في وجه مثل ذلك الحشد العظيم من المسلمين، ولذلك قتل أغلبهم، ولاذ البقية بالفرار، والتجأ الذين هربوا إلى بلدة الرملة، وسقط في تلك المعركة كل من النبيلين اللذين اسميهما ستيفن ممن وصل حديثاً، وذلك إلى جانب عدد كبير آخر من النبلاء، الذين دونت أسماؤهم في كتاب الحياة، ومع أن الملك لم يكن كبير الاعتماد على الرملة ودفاعاتها، فقد لجأ إليها لانقاذ حياته، وكان متوقعاً أن يحاصر من قبل الأعداء، لكن في سكون الليل المظلم، حدث فجأة أن اقترب الأمير العربي من المدينة، وهو الأمير الذي— كما ذكرنا من قبل— أبدى الملك كثيراً من اللطف نحو زوجته، عندما كانت في آلام المخاض، وبعدما اقترب من البلدة صرخ بصوت منخفض إلى الحرس الذين كانوا على الأسوار، وقال:« لدي رسالة سرية إلى الملك، دعوني أمثل في حضرته»، وعندما مثل أمام بلدوين، وعده باقتياده إلى مكان أمين، إذا ماغادر المدينة مع حرس قليل فقط، ودون إثارة أية ضجة، لأن العرب قد قرروا مهاجمة البلدة، في اليوم التالي، واقتنع الملك أخيراً بمغادرة البلدة، وبتوجيه من صديقه وإرشاده، هرب إلى الجبال، ولدى مغادرة الأمير العربي، وعده بأنه سوف يقدم الطاعة إليه في أول فرصة مناسبة، ونجا الملك مع اثنين من مرافقيه فقط من خلال وسط الأعداء إلى أرسوف، حيث استقبل بسرور من قبل شعبه، ونال بعضاً من الراحة بعد التعب الذي عانى منه.

وحاصر العرب المنتصرون في اليوم التالي الرملة، وقتلوا أو استعبدوا الحامية العسكرية التي كانت فيها، وفي الوقت ذاته التحق هيوج أوف سانت أومر، الذي إليه منح الملك مدينة طبرية، التحق به في أرسوف

مع ثمانين فارساً، وبذلك قويت صفوف بلدوين، فأخذ معه رجال يافا مع تسعين فارساً، وزحف للتصدي للعدو مع ثقة كبيرة بالنجاه، وبالرد عليه والانتقام منه للأضرار التي ألحقها به، وكان الأعداء حوالي ثلاثة آلاف من حيث العدد، وقامت قوات الملك، وهي تتمتع بالقوة من عليين بالهجوم عليهم بشدة، فمزقت صفوفهم، وقتلت عدداً كبيراً منهم، وأرغمت البقية على الفرار، ثم رجع جيش الصليبيين إلى معسكر الأعداء، حيث حصلوا على غنائم من الحمير والجمال، والسرادقات، والخيام والمؤن، وقد بقيوا بعد ذلك بهدوء لمدة سبعة أشهر تقريباً.

وفي حوالي الوقت نفسه حاصر اللورد تانكرد أفاميا واستولى عليها، وأفاميا هي عاصمة سورية المجوفة، وزحف بعد ذلك ضد اللاذقية، واستولى عليها أيضاً، وامتلكت كلتا المدينتين مساحات واسعة من الأراضي مع بلدات وأحواز واسعة، وفي الوقت نفسه بعدما بقي بوهيموند أربع سنوات بالأسر، فدى نفسه، وعاد إلى أنطاكية.

استسلام عكا إلى الملك بلدوين

وفي السنة نفسها ألقى بلدوين الحصار على مدينة عكا البحرية في فينيقية، وكان لهذه المدينة ميناء في كل من داخل أسوارها وفي خارجهم، حيث يمكن للسفن البقاء والتحرك بأمان، ويقال بأنها تأسست من قبل أخوين هما: بطليموس وعكون، وكانا قد إقتسماها فيما بينهما، وحصناها بأسوار قوية وسمياها بطولميس اشتقاقاً من اسم الأول منهما، وعكون من اسم الثاني منهما، وحوصرت هذه المدينة الآن من قبل الملك مع أمرائه من جهة البر، في حين قطع الاسطول الجنوي والسفن المنقارية، التي اسمها غلايين، جميع اتصالات المدينة من جهة البحر، وأقيمت الآلات من حول الأسوار، وجرى قتل أعداد كبيرة من السكان بوساطة الحملات المتوالية التي تمت ضدهم بوساطة كل من الجيش والأسطول، وبعد قتال استمر عشرين يوماً استسلمت المدينة على شرط أن جميع من

سيختارون مغادرتها يمكنهم بأمان فعل ذلك مع أزواجهم وأولادهم ومقتنياتهم، وأن جميع الذين سوف يختارون البقاء عليهم أن يدفعوا جزية سنوية إلى الملك، وبالتالي البقاء تحت حمايته.

وبهذه الحادثة منح الحجاج الذين يزورون الأرض المقدسة بحراً، إمكانية الوصول بأمان بعدما جرى تنظيف الساحل جزئياً من الأعداء، وعبر في السنة نفسها بوهيموند، والكونت بلدوين، وتانكرد، وجوسلين مع جميع فرقهم، الفرات، وألقوا الحصار على مدينة حران، التي عنها نقرأ في حياة ابراهيم، ولأن السكان لم تتوفر لديهم آمال بالمساعدة، عرضوا تسليم المكان ولكن نشب خلاف بين بوهيموند وبلدوين حول من سيتملك المدينة، ولذلك أخروا الاستيلاء عليها حتى الصباح، حتى يتمكنوا من تسوية هذه المسألة الصعبة، وقبل فجر النهار كانت هناك كتلة كبيرة من الترك تزحف لنجدة سكان المدينة، حتى أنه لم يبد هناك أمل أمام رجالنا بالنجاة، وحثهم البطريكان اللذان كانا حاضرين على أن يكونوا شجعاناً، لكن هؤلاء الذين فارقتهم نعمة الرب، كان لايمكن مساعدتهم بالكلمات أو بالتذكير، ومع الحملة الأولى أداروا ظهورهم بخزي وتخلوا عن كل من المعسكر والأثقال، وعبثاً حاولوا انقاذ أنفسهم بالفرار، ووقع هناك بالأسر بلدوين كونت الرها مع أخيه جوسلين، لكن بوهيموند وتانكرد، مع البطريكين نجوا سالمين إلى الرها، ووضعت سلطة هذه المدينة مع مقاطعتها كلها الآن بين يدي اللورد تانكرد وذلك حتى يتم تخليص بلدوين من الأسر.

حول العمل الخالد للملكة ماتيلدا

في سنة ١١٠٥م، عبر هنري ملك انكلترا إلى نورماندي للقتال ضد أخيه الدوق روبرت، واستولى بمساعدة كونت أوف أنجو على كين Caen وبايوكس Bayeux وعلى قلاع أخرى كثيرة، وخضع تقريباً جميع البارونات النورمان إليه، وقدم في الوقت نفسه داوود أخو الملكة

ماتيلدا إلى انكلترا لزيارة أخته، وذهب في احدى الليالي لزيارتها في جناحها، بناء على دعوتها، فوجد البيت مليئاً بأناس مجذومين، والملكة واقفة في الوسط حيث كانت تغسل، وتمسح وتقبل أقدامهم، وسألها أخوها عما كانت تفعله، وقال:« من المؤكد أن الملك إذا ماعلم بهذا هو لن يضع شفتيه على شفتيك، بعد تقبيلك لهؤلاء الناس المجذومين»، وردت الملكة عليه وهي تبتسم:« إن قدمي الملك السرمدي مفضلة لدى شفتي الانسان الفاني، ولقد أرسلت وراءك ياأخي حتى تتعلم وتحذوا حذوي، وأن تفعل الذي رأيتني أفعله»، فرد عليها أخوها أنه من المؤكد لن يفعل مارآها تفعله، وبناء عليه استأنفت الملكة عملها، وتركها أخوها وهو يضحك، وعاد في السنة نفسها الملك هنري إلى انكلترا بعد تسويته لأعماله الضرورية في نورماندي.

كيف أخذ الملك هنري أخاه أسيراً على أرض المعركة

سنة ١١٠٦م، جاء روبرت دوق نورماندي إلى أخيه في نورثأمبتون، وسأله بطريقة لطيفة، أن يجدد العهد الأخوي الذي خرق، لكن الرب لم يسمح لهما أن يكونا صديقين، فعاد الدوق غاضباً إلى نورماندي، فلحق به الملك وألقى الحصار على قلعة تنشبري Tenchebrai، وكان معه تقريباً جميع نبلاء نورماندي وأنجو مع نخبة انكلترا وبريتاني، حتى يتمكن من قهر أخيه تماماً، وبناء عليه زحف الدوق روبرت لرفع الحصار ومعه روبرت دي بلسمي، وإيرل مورتون Moreton مع مشايعين آخرين، وعندما زعق البوق حمل جيشه الصغير بشجاعة على الأعداء الذين كانوا أكثر منه بكثير، وبما أن الدوق نال خبرة في القتال في الأرض المقدسة، فقد تمكن من مهاجمة عساكر الملك وردهم، ودفع وليم إيرل مورتون الجيش الانكليزي إلى الخلف من نقطة إلى نقطة، وكاد أن يهزمه، لكن هنري مع رجالته منعه من الهزيمة وجعله يعود إلى القتال، وبعد مرور بعض الوقت حملت قوة الفرسان البريطانيين على

عساكر الدوق، فخرقت صفها، وتمكنت بتفوقها العددي من طردها من الميدان، وفي هذه المعركة ميز وليم دي أوبني Aubeny وهو بريطاني، نفسه بشكل خاص، فهو الذي جلب المعركة إلى النهاية بفضل شجاعته الشخصية ووقع الدوق النورماندي الشجاع بالأسر مع وليم ايرل مورتون، وتمكن روبرت دي بلسمي من النجاة عندما شاهد رفيقيه يؤسران.

وبهذه الهزيمة انتقم الرب لنفسه من روبرت لرفضه مملكة القدس، ولاختياره العيش بنعومة وسهولة في الوطن بدلاً من خدمة الذي يحكم الملوك جميعا، في القدس، وكعلامة على هذه الحادثة، ظهر في السنة نفسها، مذنب على بعد ذراع واحد من الشمس، واستمر ذلك من الساعة الثالثة حتى الساعة التاسعة، وجرّ وراءه ذيلاً طويلاً من الضوء، كما جرت مشاهدة قمرين كاملين في يوم عشاء ربنا، وكان أحدهما في الشرق وثانيهما في الغرب، وبذلك تحقق ماقاله الملك وليم، وهو على فراش موته، لابنه هنري، الذي سأله بعدما أعطى انكلترا إلى وليم، ونورماندي إلى روبرت وقال له:« ومالذي أعطيتني إياه ياوالدي؟» فأجابه أبوه:« لقد أعطيتك خمسة آلاف باوند من الفضة من خزينتي»، فقال هنري:« لكن ماالذي سوف أفعله بالمال، إذا لم يكن لدي مكان أسكن فيه؟» فقال الملك:« كن صبوراً ياولدي، وثق بالرب، ودع أخويك يتقدمان عليك، فأنت سوف تحصل في الوقت المناسب على جميع التشريف الذي حصلت أنا عليه، ولسوف تتفوق على أخويك بالثراء والسلطان».

كيف تصالح الملك هنري مع رئيس الأساقفة أنسلم

سنة ١١٠٧م، وبعدما استطاع الآن الملك هنري تدمير جميع أعدائه، وانزالهم إلى درجة الخضوع له، وبعدما جعل نورماندي تخضع لإرادته، ذهب إلى بك Bec، وبوساطة من الأصدقاء التقى برئيس الأساقفة

أنسلم، الذي— بناء على طلب الملك— عاد إلى انكلترا، واستأنف إدارة كرسيه الأسقفي، وعـاد هنري بعده بقليل إلى انكلترا، حيث وضع أخاه روبرت ومعه وليم كـونت مـورتون في السجن مـدى الحيـاة، وأضفى الرب القـدير المنح التـاليـة على الملك هنري، وهي: الحكمـة، والنصر، والثروة، التي بها نجح في كل شيء، وتفوق على أسلافه.

وكـان في السنـة نفسهـا هناك اجتماع للأسـاقفـة، ورؤسـاء الديرة، والنبـلاء في لندن، في قصر الملك، تحت رئاسـة رئيس الأساقفـة أنسلم، حيث رسم الملك في هذا الاجتماع أنـه من ذلك الحين فصـاعـداً، مـامن أسقف أو راعي دير يجوز أن يتسلم السيـامة بالعصـا والخاتم، من يدي الملك أو أي انسـان علماني، ومن الجانب الآخـر تنازل رئيس الأساقفـة وقبل أنه لايجوز رفض سيامـة أي واحد، جرى انتخـابه إلى منصب ما، وذلك بسبب الولاء الذي عمله للملك، وجـرى في السنة نفسها سيـامة وليم أسقف ونكستر، وروجر أوف سالسبري، ورينلم Reinelm أوف هيرفـورد، ووليم اكستير Exeter ، وأوربان أوف غـلامـوران Gla-morgan، وأنسلم رئيس أساقفة كانتربري، في كانتربري، في يوم الأحد الحادي عشر من آب، وفي حـوالي الوقت نفســه مـات مـوريس أسقف لندن، مـؤسس كنيسـة القـديس بولص، وادغـار ملك الاسكوتلنديين، الذي خلفه أخوه الاسكندر.

كيف جرت خلافة جيرارد رئيس أساقفة يورك من قبل توماس

سنة ١١٠٨م، فيهـا توفي جيرارد رئيس أسـاقفـة يورك، وقـد خلفـه توماس، حاجب الملك، حيث جرت ترقيته إلى الكرسي الشاغر، لكن ما أن جـرى انتخـابه حتى اعترض أنسلـم رئيس أسـاقفـة كـانتربري على ممارسته واجبـاته الأسقفية حتى يتـولى تقديم الطاعـة الدينية والقـانونية نفسها، التي قدمها من قبله سلفاه: توماس وجيرارد، وذلك وفقاً للعادة القـديمـة، وقـال أنسلـم له:« وإذا لم توافق على هذا، فإننـا نمنع جميع

أساقفة بريطانيا، تحت تعرضهم لعقوبة الحرمان الكنسي، إذا وضعوا أيديهم عليك، أو قبلوا بأن تكون رئيس أساقفة، على افتراض أنك سوف تحصل على السيامة من الخارج»، وفي السنة نفسها، جرت سيامة رتشارد دي بومي Beaumeis المنتخب للندن، وتكريسه من قبل أنسلم في باكنهام، بحضور كثير من أساقفته المساعدين، وفي حوالي الوقت نفسه خلف لويس فيليب على عرش فرنسا.

موت القديس أنسلم رئيس أساقفة كانتربري

سنة ١١٠٩م، فيها مات أنسلم رئيس أساقفة كانتربري، والفيلسوف المسيحي، وحدثت وفاته أثناء الصوم الكبير، وكانت حياته اللامعة، وأعماله المتميزة، وموته قد تبعها معجزات متوالية، بها جرى حث خلفاءه على أعمال الرحمة.

وأرسل في السنة نفسها هنري، امبراطور روما، سفراء يطلبون للزواج ماتيلدا ابنةالملك، وبناء عليه عقد الملك بلاطه في وستمنستر، أثناء عيد العنصرة، مع أبهة عظيمة، كانت أكبر مما كان في أية مناسبة متقدمة، حيث قبل اقتراح الامبراطور، وزوج ابنته ببضع كلمات بسيطة، وأخذ ثلاث شلنات، حسب عادة الملوك الانكليز— من كل هايد Hide من البلاد خلال انكلترا.

وفي السنة نفسها، وبناء على أوامر الملك، اجتمع رتشارد أسقف لندن، ووليم أسقف ونكستر، ورالف أسقف روكستر، وهيربرت أسقف نورروك Norwick ، ورالف أسقف تشستر، ورالف أسقف درم، وهيرفي أسقف بنغور Bangor ، اجتمعوا مع بعضهم في ٢٧—حزيران، في كنيسة القديس بولص، لسيامة توماس المنتخب ليورك، وعندما اعترف توماس بالطاعة القانونية لرئيس أساقفة كانتربري، ولخلفائه، جرت سيامته من قبل رتشارد أسقف لندن، وفي

السنة نفسهـا رفّع دير إيلاي Ely إلى كـــرسي أسقفي، وعمل هنري أول أسـاقفتها، لأن رتشـارد، آخـر رؤساء الديـرة في الجزيرة كان ميتـاً، وأخـذت كمبردج الآن من أسقف لنكولـن، وأعطيت لتكون أبرشيـة للأسقف الجديد، وفي حوالي الوقت نفسه ولدت خنزيرة خنزيراً له وجه انسان، وولد فروج بأربعة أرجل.

كيف عاث بوهيموند فساداً في أراضي الامبراطور الكسيوس

وفي هذه الآونة، قـام بوهيمـونـد أمير أنطاكيـة، وهو يحمل في ذهنه، الأذى الذي تسببـه الامبراطور الشرير ألكسيـوس، وأنزله دومـا بالذين عملوا الحج إلى القـدس، فـأراد الانتقـام للقضيـة العـامـة، فأغـار على أراضيه مع خمسـة آلاف من الفرسان، وأربعين ألفـاً من الرجالة، ونهب تقريبـاً جميع المدن الساحلية، وكـذلك إيبروس الأولى والثانيـة، وحاصر أخيراً ديرأخيـوم، التي كـانت عـاصمة منطقـة ايبروس الأولى، وعـاث فسـاداً في المنطقـة كلهـا بالنار والسيـف، ولدى سماع الامبراطور بذلك جاء مع جيش كبير للدفـاع عن رعاياه، لكن بوسـاطة الأصدقـاء، أعيد السـلام بينهما، وجـرى الاتفـاق وتـأكـد بالأيمان أن الامبراطور سـوف يؤمن مـرور الحجاج بمساعـدتهم بكل طريقة ممكنة، وبنـاء عليه زحف بوهيموند إلى أبوليـا حيث استدعي لقضـاء عمل خاص هناك، وجمع في الصيف التـالي قـوة كبيرة من العسـاكـر ليعـود إلى أنطاكيـة، لكنه وقع مريضاً ومات، مخلفاً ولداً، أيضاً اسمه بوهيموند، ولد له من كونستانس ابنة فيليب ملك فرنسا.

وفي تلك الآونة نفسهـا مـات الملك الـلامع فيليب، وقـد خلفـه ابنه لويس، الذي كـان في الثـامنة والعشرين من عمـره، وفي حـوالي ذلك الوقت جـرى اطلاق سراح بلدوين مع أخيــه جـوسلين من الأسر التركي، وجرى تقـديم رهائن من أجل تحريرهم، لكن حدث بعـد عدة أيام أن قتل الرهائن حـراسهم وعادوا إلى أصدقـائهم، ووصل في السنة

نفسها برتراند كـونت طولوز، وابن الكونت ريمونـد إلى مدينة طرابلس مع اسطول جنوي واستـولى على جبيل، التي هي مـدينة سـاحلية في فينيقيا، وتمكن بوساطـة أعمال المحـاصرة وبمسـاعـدة ذلك الاسطول الجنوي من السيطرة على منطقة طرابلس، وقد منحها إلى برتراند.

كيف نفى الملك هنري بعضاً من أعدائه

سنة ١١١٠م، فيهـا حـرم الملك هنري فيليب دي بروس Brause، ووليم مالت، ووليم بينارد Binardمع آخرين كانوا خـونة بالنسبة له، من مواريثهم، وأعدم كونت هلياس Helias الذي انتزع منه منطقة مين، ولدى سماع جيوفري كـونت أوف أنجو بهذا، استقبل ابنة هلياس المذكور، وتسلم منها المنطقة، واحتفظ بها على الرغم من ارادة هنري.

وقام في السنة نفسهـا رتشارد رئيس دير القـديس ألبان، وسط سرور عـارم لرجال الـدين والشعب، بنقل الآثار الثمينة للملك أوسين Os-winالمجيد والشهيـد، إلى الكنيسة الجديدة للقـديسة مـريم في تينيماوث Tynemouth، وذلك من البيعـة القـديمـة لأم الرب المقدسـة نفسهـا، حيث تمّ العثـور على جسده المقدس أولاً، ووضع في مزار، وعمل هذا النقل في يوم آلام الشهيـد، أي في الثـالث والعشرين من آب،[وفي هذه السنة نفسها زوّج الملك هنري ابنته إلى امبراطور ألمانيا].

وفي هذه السنة نفسها، بدأ أيضاً القديس غودريك Godric حياة التنسك في فنشلي Finchale ، واستمر بها بطريقة محمودة لمدة أربعين سنة، حين تحرر من الجسد، ودخـل قصراً في السماء هناك ليتمتع بسعادة أبدية مع القديسين فوق.

وظهر في هذه السنة أيضـاً مذنب بطريقـة غير اعتيادية، ذلك أنه وإن أشرق من الشرق، وارتفع نحـو السماء، بدا وكأنه لايتحرك نحـو الأمام بل نحو الخلف.

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، أخضع بلدوين ملك القدس بيروت بقوة السلاح، وهي مدينة ساحلية في فينيقيا، وأضافها إلى الممتلكات الصليبية، وهي واقعة بين جبيل وصيدا.

كيف عاث الملك هنري فساداً بشده في أراضي كونت أنجو

سنة ١١١١م، عبر الملك هنري إلى نورماندي، وهاجم كونت أوف أنجو، الذي استولى على مين التي كانت تابعة له، ضد ارادته، وعاث فساداً في أراضيه من كل جانب بالسيف والنار، [وكان في هذا الوقت موتان كبير للحيوانات، ومجاعة شديدة في نورماندي، ووضع أيضاً هنري الملك الألماني البابا باسكال في السجن].

حول القديسة فرايدسوايد وبناء كنيستها

وأعطى في حوالي الوقت نفسه روجر أسقف سالسبري مكانا في أكسفورد، حيث كانت العذراء القديسة فرايد سوايد Frideswide مدفونة، إلى راهب نظامي اسمه ويموند Wimund الذي شكل هناك جماعة من الرهبان النظاميين، تحت نظام مقرر، وكان هو أول رئيس لهم، وكان المكان في الأيام الخالية مكرساً للاستخدام من قبل الراهبات، وذلك صدوراً عن الاحترام لتلك القديسة التي رفضت المتعة الأرضية من أجل المتعة في السماء لتكون عروساً هناك، وذلك أن ابنا لأحد الملوك رغب في الزواج من هذه العذراء، واستخدم عبثا كل الوسائط والمغريات، ثم حاول أخيراً استخدام القوة، وأدركت فرايد سوايد نواياه، فهربت بشكل سري إلى الغابة، غير أنها لم تنج من محبها، الذي كان مستنفراً لمعرفة إلى أين ذهبت، وبناء عليه هربت العذراء أثناء الليل، وجعلت الرب دليلها، فوصلت إلى اكسفورد، وعندما وصل محبها المتعنت إلى هناك، يئست من النجاة، وكانت منهكة وغير قادرة على متابعة السير، فدعت إلى الرب حتى يحميها ويعاقب مطاردها،

وكـان الشـاب قـد دخل إلى المدينة مع أتبـاعـه وعنـدها أصيب بالعمى بضربة سماوية، فأدرك أنه قـد عـوقب بسبب عناده، فأرسـل إلى فـرايد سـوايـد، ورجـاها التـوسط له عند الرب، ودعت العـذراء إلى الرب، وبوسـاطة دعـواتها استرد الشـاب بصره بسرعـة مثلما كـان من قبل أن أصيب بالعمى، ولهذا السبب يخاف ملوك انكلترا دومـا من الدخول إلى تلك المدينة، لأنه قـد قيل بأنها قـاتلة لهم، وهم لايرغبـون في تجريب الحقيقـة على حسـاب تعـرضهـم للخطر، وبنت العـذراء ديراً هناك، وترأست هي شخصياً على مجموعة من العـذراوات التقيـات اجتمعن هناك، وكـان هـذا الدير قـد التهمتـه النيران في أيام الملك إيثلرد Eth-alred مع الدانيين Danes الذين هـربوا إلى هناك للإلتجـاء، عندمـا حكم على جميع رجـال تلك الأزمـة بالموت، وبعـد مرور وقت قصير أعيـدت عمارتـه من قبل الملك نفسـه، وقـد أوقف عليـه كثيراً من الممتلكات.

ومات في هذه السنة روبرت كونت فلاندرز، الذي ميز نفسه كثيراً في الحج إلى القـدس، ولذلك سوف يظل اسمـه مـذكوراً إلى الأبد، وصـار ابنه بلدوين كونتاً بعده.

وفي هذه السنة نفسهـا، تمت محاصرة صيـدا، الـواقعـة على سـاحل البحر، وجرى الاستيلاء عليها من قبل الملك بلدوين اللامع.

الخلاف بين البابا والامبراطور

سنة ١١١٢م، نشب فيهـا خـلاف بين البـابا بـاسكال والامبراطور هنري، نتيجـة للسبب التـالي: فقـد رغب الامبراطـور في استخـدام الامتيازات التي تمتع بها أسلافه لمدة ثلاثمائة وستين سنة في ظل البابوات الرومان، وذلك بمنح الأسقفيات ورعاية الديرة، بوساطة الخاتم وعصا الأسقفيـة، لكن البـابوات الرومـان أرادوا عـدم السماح بإعطاء الخاتم

والعصا، ولاأن يتسلم أي لاهوتي منصباً من واحد علماني، وأقيم على كل حال السلام بين الامبراطور والبابا على شرط أن يتسلم الأساقفة ورعاة الديرة مناصبهم في المستقبل من الامبراطور ومن خلفائه من بعده، ويكون ذلك بوساطة الخاتم والعصا، إنما يتوجب عليهم قبل ذلك عمل اعتراف بالطاعة إلى الأسقف الذي يعنيه الأمر، ومنه يتلقون السيامة المعهودة، وجرى الاعلان عن هذا الإتفاق أمام مذبح الرسولين بطرس وبولص، وعندها سمح البابا للامبراطور بتناول جسد المسيح المقدس والمشاركة فيه.

ومات في السنة نفسها تانكرد اللامع الذي أنجز أعمالاً رائعة في فلسطين، وكان أميراً لأنطاكية كما كان كونتاً للرها، وقد خلفه روجر فتز— روجر، وكان رجلاً نبيلاً وذلك على شرط أنه عندما سيطالب بوهيموند الشاب بتملك أنطاكية، سوف يسلمه إياها على الفور.

حول الخلاف بين رئيسي أساقفة كانتربري ويورك

سنة ١١١٣م، أعطى فيها الملك هنري كرسي كانتربري إلى رالف أسقف لندن، ونصبه بوساطة الخاتم والعصا الأسقفية، ومات في السنة نفسها توماس رئيس أساقفة يورك، حيث خلفه ثورستان Thurstan، ونشب جدل كبير بين رالف رئيس أساقفة كانتر بري، وثورستان رئيس أساقفة يورك، لأن هذا الأخير كان غير راغب في تقديم الطاعة المعهودة إلى رئيس أساقفة كانتربري، كما فعل أسلافه من قبله، وغالبا ماأثيرت هذه المسألة أمام الملك، وأمام مولانا البابا، لكنها لم تحسم تماماً، وفي السنة نفسها قاد الملك هنري جيشاً إلى داخل ويلز، وأرغم السكان على الخضوع لمشيئته الملكية.

وظهر في شهر أيارمن السنة نفسها مذنب كبير، وتبع ذلك بعد وقت قصير زلزلة هدمت شطراً من مدينة المصيصة، التي ليست بعيدة عن

أنطاكية، مع قلعتين هما: الأثارب ومرعش، وغزا في السنة نفسها أيضاً مودود، ملك الفرس بلاد الصليبيين مع جيش كبير، من غير الممكن ذكر تعداده، وبعدما عبر مناطق كثيرة نصب معسكره قرب الجسر الذي يجري من تحته نهر الأردن، ولدى معرفة بلدوين ملك القدس بهذا، دعا روجر أمير أنطاكية إلى مساعدته، لكن الملك اندفع قبل وصول حلفائه، واثقاً بقوته المفترضة كثيراً، وقد زحف مع جيش صغير للتصدي للعدو، فوقع في كمين نصبوه له، وبذلك تغلبوا عليه بتفوقهم العددي، وأرغموه على الفرار، تاركاً رايته على أرض المعركة، ومثله فعل أرنولف البطريرك والأمراء الآخرون الذين كانوا معه، حيث تخلوا عن معسكرهم مع جميع أثقالهم، ولازوا بالفرار بشكل مهين، وسقط في القتال ثلاثين فارساً وألف وخمسمائة من الرجالة، وعرف الترك أن الأجزاء الأخرى من المملكة ليس فيها قوات عسكرية تحميها، فقسموا جيشهم واجتاحوا المنطقة كلها بالنار والسيف، ونهبوا مناطق الضواحي، وأسروا المزارعين وجمعوا أسلابهم في القرى والبلدات، وهرب الملك بلدوين، ودخل قلعة كانت في أراضيه ودافع عنها وقتاً طويلاً ضد هجمات الأعداء، لكنه استسلم أخيراً على شرط السماح له بالعودة إلى قومه من دون إعاقة.

كيف جعل الملك هنري نبلاءه يؤدون يمين الولاء لابنه

سنة ١١١٤م، جعل فيها هنري ملك انكلترا جميع نبلاءه يؤدون يمين الولاء لابنه وليم، الذي ولدته له الملكة ماتيلدا، وفي السنة نفسها، في شهر كانون الأول أصبحت السماء فجأة حمراء، وكأنها كانت فوق نار، وكان هناك خسوف للقمر.

سيامة رالف رئيس أساقفة كانتربري

سنة ١١١٥م، فيها جرت سيامة رالف رئيس أساقفة كانتربري، في

كـانتربري، من قبل أنسلم(حفيـد أنسلم الكبير) ونائب البـابا ومندوبه، وكـان ذلك في السـابع والعشرين مـن حـزيران ، وتسلم الطيلسـان من يده، وفي اليـوم نفسه كرس رئيـس الأساقفة ثيـوفيلوس Theophilus لكرسي ووركستر، وبرنارد لكـرسي القـديس داوود، وبعـد عـدة أيام وجهت الدعوة إلى ثـورستان المنتخب إلى يورك، من قبل رئيس أسـاقفة كـانتربري ليتسلم منـه المبـاركـة المعتـادة، وليقـدم اعترافـاً بـالطاعـة له ولكرسي كـانتربري، لكن ثورستان ردّ بأنه على استعـداد لتلقي المباركـة منه، لكنه لن يقـدم اعتراف الطاعــة المطلوب، ولدى سماع الملك هنري بهذا، احتج بصـوت مرتفـع، بأنه لن يعمل الاعتراف المطلوب، كما فعل أسـلافـه، وإذا فعل ذلك سـوف يحرم من رئاسـة أسـاقفـة يورك، ومن المباركـة أيضاً، وعندها أصدر رئيس أسـاقفة كـانتربري نداء لمنع تسلمه السيامة من أي انسان آخر عداه شخصياً، وهكذا تفرق الفرقاء.

تكريس كنيسة القديس ألبان

سنة ١١١٦م، فيهـا كـان الملك هنـري في أيام الميـلاد، وفي يوم عيـد الأبرياء المقـدسين، حاضراً أثناء تكريس كنيسـة القديس الشهيـد ألبان، وقـد تولى التكريس روبرت أسقف لنكولن، الذي استدعي للقيام بهذا الواجب من قبل المبجل رئيس رهبان تلك الكنيسـة، وكان بين الحضور أثناء الاحتفـال: الملك، والملكة ماتيلدا، وجيـوفري رئيس أسـاقفة روان Rouen، ورتشـارد أسقف لندن، وروجـر أسقف سـالسبري، ورالف أسقف درم، مع كثير من الايرلات من انكليـز ونورمـان، الذين احتفي بهم بكرم من قبل رتشارد، رئيس الرهبـان، ومنح الملك هنري الأسقفية لتكون أبدية دائمـة التملك من قبل الكنيسة المتقـدم ذكرها، وأكـد هذه المنحة بصك براءة.

وكان في السنة نفسهـا خصام شديد بين ملكي انكلترا وفرنسـا، وقد ثار للسبب التـالي: حمل في تلك السنة ثيـوبـولد كـونت أوف بلوا وابن

اخت الملك هنري، السلاح ضد ملك فرنسا، وأنزل الملك هنري، في دفاعه عن ثيوبولد، أضراراً كبيرة بالملك الفرنسي لويس، الذي دعا إلى عونه كل من كونتي: فلاندرز، وأنجو، لأنهما أقسما معا، بأنهما سوف ينتزعان نورماندي من الملك هنري، وإعطائها إلى وليم ابن الدوق روبرت، أخو الملك هنري، الذي يمتلك حق الادعاء بها، لكن بما أن الملك الانكليزي كان عاقلاً وحكيماً، فقد ضم إلى جانبه بريتاني مع ثيوبولد المتقدم ذكره، وقام بجمع قوات انكلترا، ونورماندي وبريتاني وتوحيدها، ووقف ينتظر وصول الأعداء، ودخل الملك الفرنسي وجيش كبير مع الكونتين المتقدم ذكرهما اللذان كانا متحالفان معه، إلى نورماندي، لكنه أمضى ليلة واحدة فوق الحدود، ذلك أنه كان يخشى من أن يزحف ملك انكلترا ضده، ثم انسحب إلى أراضيه دونما قتال، وفي السنة نفسها أثقلت انكلترا بمختلف أنواع الجبايات والمكوس لتأمين حاجيات الملك.

اضطراب أحوال العناصر الأساسية

سنة ١١١٧م، فيها كانت رعود، وزوابع، وبروق، وتساقط برد، وهزات أرضية، دمرت الكنائس، والأبراج، والأشجار، وبني الانسان في لومبارديا، ومات في السنة نفسها أيضاً إيفو Ivo المبجل، أسقف تشارترز، وكان مشهوراً بمعارفه بالكتابات المقدسة.

كيف تفجر الشقاق في روما حول جيلاسيوس البابا المضاد

سنة ١١١٨م، فيها مات البابا باسكال، وخلفه جيلاسيوس Ge-lasius البابا المضاد لمدة سنة واحدة، وماتت في السنة نفسها ماتيلدا ملكة انكلترا، ودفن جسدها بسلام في وستمنستر، وصعدت روحها إلى السماء، كما كان واضحاً من خلال علامات متوالية ومعجزات، وكانت هذه الملكة المباركة قد بنت داراً للمجذومين في لندن، مع بيعة وأبنية

موائمة، وهي المعروفة حتى هذا اليوم باسم« مشفى القديسة مرغريت».

أصل طائفة فرسان الداوية

في حوالي هذا الوقت كرس بعض النبلاء من طائفة الفرسان، من رجال الدين الذين كانوا يخافون الرب، أنفسهم لخدمة المسيح، وفق طريقة الرهبان النظاميين، وتخلوا عن جميع المباهج تطوعاً بإرادتهم، وعملوا تعهداً إلى بطريرك القدس بأن يعيشوا بطهارة أبدية وبطاعة، وكان أول هؤلاء المحترم هيوج دي باني Paganis ، وغودفري دي سينت أومر، وبما أنهم لم يمتلكوا مقراً ثابتاً، فقد منحهم الملك بلدوين مسكناً في قصره، وذلك في الجانب الشمالي من هيكل الرب، وأعطاهم رهبان الهيكل الفسحة المفتوحة العائدة إليهم والقائمة حول القصر، ليبنوا مكاتب عليها، وقام البطريرك أيضاً، والملك، مع نبلايه مع بقية أساقفة الكنائس، بتقديم هدايا لهم من ممتلكاتهم، حتى يؤمنوا مايحتاجون لأنفسهم، ويزودوها بالطعام والكساء، وكان هدفهم الأول— من أجل التخلص من ذنوبهم— تنظيف الطرق من اللصوص، وهي الطرق التي كان يتوجب على الحجاج عبورها، وهم على طريقهم إلى القدس.

وأخيرا جرى منحهم بعد تسع سنوات، نظاماً، وكان ذلك من قبل مجمع تروي Troyes ، وعُين لهم رداءً من قبل البابا هونوريوس، وبعد انقضاء السنوات التسع، وحيث كان عددهم تسعة في البداية، قد بدأ هذا العدد بالازدياد بسرعة، وكذلك ممتلكاتهم، وخاطوا فيما بعد، في أيام البابا يوجينيوس صليباً أحمر على أرديتهم حتى يميزوا أنفسهم عن الآخرين، وازدادت أعدادهم في وقت قصير حتى بات هناك مالايقل عن ثلاثمائة فارس في بيتهم، وذلك إلى جانب الرهبان الآخرين الذين كان عددهم غير محدود، ويقال أنهم في هذه الأيام يمتلكون ممتلكات هائلة على طرفي البحر، إلى حد أنه ليس هناك أياً من جميع البلدان

المسيحية لم يمنحهم جزء من ثرواته، وهم في هذه الأيام يتفوقون حتى على الملوك بالثراء، وبسبب إقامتهم قرب هيكل الرب، أطلق عليهم اسم فرسان الهيكل.

ومع أنهم التزموا لوقت طويل بمؤسستهم الأصيلة، تخلوا الآن عن تواضعهم الذي كانوا قد آمنوا به، وابتعدوا بأنفسهم عن البطريرك، الذي منه تسلموا مؤسسة طائفتهم، وأول المنح والهبات، وتوقفوا عن تقديم الطاعة إلى الكنيسة وعن دفع العشور إليها، وبذلك أصبحوا مبغوضين من قبل كل انسان.

وفي هذه السنة نفسها مات بلدوين الأول، ملك القدس، وكان أميراً رائعاً، أخضع إلى سلطانه مدن: عكا، قيسارية، وبيروت، وصيدا، وطرابلس، وأرسوف مع جميع بلاد العرب حتى البحر الأحمر، وقد خلفه كونت الرها، الذي كان اسمه أيضاً بلدوين، وقد جرى تتويجه ملكاً في شهر نيسان، وذلك في اليوم الثاني من الشهر.

موت البابا جيلاسيوس وخلافة كاليكستوس له

سنة ١١١٩م، فيها مات البابا جيلاسيوس، وقد خلفه كاليكستوس، Calixtus، الذي مكث عشر سنوات، وعشرة أشهر، وثلاثة عشر يوماً، وقد كان من قبل أسقف فينا تحت اسم غي، وعندما جرى تكريسه بابا اتخذ اسم كاليكستوس، وقد عقد مجمعاً في ريمس، حضره بعض الأساقفة الانكليز والنورمان، الذين أرسلوا إلى هناك من قبل الملك هنري، وحصل ثورستان المنتخب ليورك على إذن الملك بالذهاب إلى هناك، وقد أعطى في البداية تعهداً بأنه لن يتسلم التبريك من كاليكستوس، لكنه عندما وصل إلى هناك إلى المجمع كسب الرومان إلى جانبه -كما يحدث دوماً في مثل هذه الأحوال -بوساطة الهدايا، فأقنع البابا بالقيام بتكريسه، وعندما سمع الملك بهذا ، منع رئيس الأساقفة

هذا من أن يطأ بقدميه أياً من أراضي الملك، وفي هذا المجمع أدان البابا نفسه خطيئة المعلم غيلبيرت بوريتا Poreta الذي يقال بأنه أخطأ في أربعة مسائل محددة هي: أولاها، أنه قال بأن الطبيعة الإلهية التي نسميها لاهوت، هي ليست الرب، بل شكل هو دون الرب، مثلما الانسانية هي ليست الانسان، بل شكل دون الانسان، وعلى هذا رد المجمع بقوله: «نحن نعتقد بأن الطبيعة الساذجة للاهوت هي الرب، وما من عقل كاثوليكي يمكنه أن ينكر بأن اللاهوت هو الرب: وعلى هذا حيثما الرب يقال بالحكمة هو حكيم، وبالعظمة هو عظيم، وبالخلود هو خالد، وواحد في وحدة، ورب باللاهوت، ونحن نعتقد أنه ليس حكيماً إلاّ بالحكمة التي هو بها رب، وأنه ليس عظيماً إلاّ بالعظمة التي هو بها رب، كما أنه ليس خالداً إلا بالخلود الذي هو به رب، كما أنه ليس واحداً إلاّ بالوحدة، التي هو بها رب، كما أنه ليس رباً إلاّ باللاهوت الذي هو نفسه، يعني أنه حكيم في نفسه، وعظيم، وخالد، وإله واحد»، وثانيها: لقد قال بأن الأقانيم التي هي الآب، والابن، والروح القدس، ليسوا إلهاً واحداً، ولاجوهراً واحداً، أو أي شيء واحداً، لكن هؤلاء ثلاثة أقانيم (أشخاص) وثلاثة أشياء مختلفة في العدد أيضاً، كما لو أن ثلاثة أفراد وجدوا ذوي طبيعة بشرية واحدة، وعلى هذا ردّ المجمع قائلاً: «إننا عندما نتحدث عن ثلاثة أشخاص: أب، وابن، وروح قدس، نحن نعتقد أنهم إله واحد، ولاهوت واحد، وجوهر واحد، والعكس صحيح: لأننا عندما نتحدث عن رب واحد، ولاهوت واحد، وجوهر واحد، نؤمن أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة رب واحد، وجوهر لاهوتي واحد»، وثالثها: قال غيلبيرت بأن الخاصية لكل واحد من الأشخاص هي علاقات أبدية خاصة، وهي ليست كذلك بسبب أن الأشخاص مختلفون بالعدد، ومنقسمون منفصلون بالجوهر، ولهم ثلاث وحدات، وبالتالي كثير من الأشياء غير الخالدة، ما من واحد منها هو رب، وعلى هذا ردّ المجمع قائلاً: «نحن نعتقد بأن الرب هو

الآب، والابن، وروح القدس، فقط وحده خالد، وأن ما من شيء سواء دعي باسم علاقـات أو خاصية، أو وحدات، هو عـائد إلى الرب، وهم غير متأصلين بالخلود، وليســوا رباً» ورابعهــا لقـد أعلن بأن الطبيعــة اللاهوتيـة لم تصبح متجسدة، وعلى هذا ردّ المجمع قـائلاً: «نحن نعتقـد بأن اللاهوت، سـواء قيل لـه: جـوهر لاهوتي، أو طبيعـة لاهوتيـة، قـد تجسد بالابن».

القتال بين ملكي فرنسا وانكلترا

نشبت في السنة نفسها معـركة قتالية بين لويس ملك فـرنسا، وهنري ملك انكلترا، وعمل ملك فـرنسـا صفين من العسـاكـر وضع في الأول منهما وليم ابن الدوق روبرت، أخـو الملك هنري، واتخذ هو موقعـه مع الكتلة الأساسية من القـوات في الصف الثاني، وعبأ هنري ملك انكلترا جيشه في ثلاثة صفوف، حيث وضـع في الصف الأول نبلاء نورماندي، وفي الصف الثاني، اتخذ مـوقفه مع آل بيته وعسـاكره، ووضع في الصف الثـالث ولـديه مع القـوات الأسـاسيــة المؤلفـة من الرجـالـة، وعندمـا تواجهت القـــوات واشتبكت، خــرق الصف الفـــرنسي الأول صف النورمـاندين، وألقاهم من على خيـولهم وفـرقهم، ثم هاجم الفرنسيـون رجـال الصف الذي كان هنـري يقوده شخصيـاً، وقـاموا بحـدة بردهم نحو الخلف، لكن الملك الانكليـزي تمكن برجولة من إعـادة جمع رجاله ووقف ثابتاً في مكانه، وأعقب ذلك اشتباك عنيف بين العسـاكر الملكية، حيث تكسرت رماحهم، واشتـد القتال وازداد التـلاحم في مناطق عدة، والسيــــوف بالأيـدي، وتمكن وليـم غـــــريسبن Grispin كونت إيفروكس Evreux ، الذي لسوء فعـاله، كان الملك هنري قـد أبعده ونفـاه، تمكن هذا مرتين من ضرب الملك على رأسـه بالسيف، وصحيح أن السابغـة والخوذة كان لايمكن خرقهما، مـع ذلك دفعت شدة الضربة السابغـة إلى خرق رأس الملك، وبذلك تـدفقت الدماء بغـزارة، وعندما

شعر الملك بأنه قد جرح امتلأ غضباً، وبضربة واحدة قذف بالكونت وبحصانه إلى الأرض، وأمسك الفارس على الفور، وحمل أسيراً، ثم قام الرجالة، الذين كان بينهم ولدي الملك، والذين لم يشاركوا بعد في القتال، بتشريع رماحهم، وحملوا فوراً على الأعداء بثقل عظيم وبقوة بلغت حداً جعلت جميع العساكر الفرنسية تنكص على أعقابها، وتدير ظهورها، وتفر، معطية النصر إلى الملك هنري، الذي بقي في ساحة المعركة حتى فرار الملك الفرنسي، وإلى أن وقع نبلاءه بالأسر، وجلبوا إلى أمام ملك انكلترا، وحمل كونت فلاندرز على محفة ونقل إلى موطنه، وهو مصاب بجراحة قاتلة، وعاد الملك هنري إلى روان حيث استقبل بقرعات النواقيس والترانيم في الكنائس، وقد قدم شكراً خاشعاً إلى رب الحشود.

موت رتشارد رئيس رهبان القديس ألبان

في السنة نفسها فارق هذه الحياة رتشارد دي أوبني Aubeney [سماه من قبل دي Exaquis] رئيس رهبان القديس ألبان، وصار غيوفري دي غورهام Gorhamرئيس الكنيسة نفسها، رئيساً للرهبان هو السادس عشر، ومات في السنة نفسها هيربرت أسقف نوروك، وبلدوين كونت فلاندرز من الجراحة التي تلقاها في إيو Eu في نورماندي، وقد خلفه شارل ابن كنوت Cnut ملك الدانمرك، وجاء في تلك الآونة البابا كاليكستوس إلى عند الملك هنري في نورماندي، وعقد هذان الاثنان، اللذان كان أولهما الحبر الأعظم، وثانيهما الملك، محادثات فيما بينهما في غيسور Gisors:

كيف جرى مقتل أمير أنطاكية

في حوالي ذلك الوقت، قاتل روجر أمير أنطاكية، مع ثلاثمائة فارس، وثلاثة آلاف من الرجالة، ضد الأمراء الثلاثة للأتراك، ورجال دمشق،

والعـرب، الذين كـان معهم مـالايقل عن ستين ألف رجل في جيشهم، وفي هذا الصراع غير الاعتيادي، قتل الأمير مع جميـع رجاله، حتى أنه لم يبق هناك من يحمل أخبار الهزيمـة، وبعد هذه المعركة استـولى المسلمون على بلدتي كفـرروما، وزردنا، وعندمـا سمع بلدوين ملك القـدس بهذه الحادثة، سـار بشجاعـة للتصدي للأعـداء، وقاتل مع جيشـه الصغير في جبل داوود ضـد عسـاكـرهـم الكثيرة، وهزم الأمـراء الثـلاثة، وأعـاد الاستيلاء على بلدتي كفر روما، وزردنا، المتقـدمتي الذكر، وطارد العدو المنهزم، موقعاً فيه كثيراً من القتلى، واستمر في ذلك حتى حلول الليل.

كيف غرق في البحر الكثيرون من آل بيت الملك هنري

سنة ١١٢٠م، فيها بعدما أخضع الملك هنري جميع أعـدائه في فرنسا، وهدّن كـل شيء في نورمـــاندي، عبر منتصراً إلى انكلترا، لكن ولـديه: وليم، ورتشارد، وابنته وحفيدته، مع رتشارد ايرل أوف شستر، وسقاته، وخدمـه، وطهاته، وكثير مـن النبلاء، قيل بأنهم كـانوا جميعاً قـد فسدوا بسبب ممارسـة إثم اللواطة، قد غـرقـوا في البحر، وهلكوا جميعـاً بشكل تعيس، لأنهم لم ينالوا دفنا مسيحيا، فقد ابتلعهم موت مفاجىء مع جميع دنسهم، مع أن البحر كان هادئاً آنذاك.

كيف اتخذ الملك هنري زوجة

سنة ١١٢١م، فيهـــا تزوج هنري من أليـس، ابنة دوق لوفين Lou-vain، لبهائهـا وجمالها، وقد جرى تكريسهـا ملكة من قبل رالف رئيس أسـاقفة كـانتربري، في لندن، في أيام عيـد العنصرة، حيث جلست هناك بشكل رسمي وراء مـائـدة والتـاج عليها، وكـانت برفقـة الملك، وبعـد الفـراغ من هذا زحف الملك على رأس جيش كبير إلى ويلز، لكن شعب ويلز قابله متضرعاً، وخضع لإرادته الملكيـة، وفي هذه السنة نفسها أخذ البابا كـاليكستوس واحداً اسمـه موريس كـان الامبراطور قد جعله بابا

مضاد، ورسمه راهباً.

موت رالف رئيس أساقفة كانتربري

سنة ١١٢٢، فيها سدد رالف رئيس أساقفة كانتربري، وجون أسقف بـــــاث Bath ، دين الطبيعة، وفي هذه السنة نفسها أسر القائد بلك جوسلين كونت الرها وأخيه جاليران.

كيف هلك واحد من مستشاري الملك بشكل تعيس

سنة ١١٢٣م، فيهـا أمضى الملك هنري عيد الميـلاد في دنستيبل Du-natable، وســار بعـد العيـد من هناك إلى بيركهـامبستـد Berk-hampstead، وكان برفقته مستشار اسمـه رالف، الذي كان لعشرين سنة مصابا بمرض شديد، ومع ذلك كان نشيطاً بما فيه الكفاية في سبيل جميع أنـواع الجرائم، ذلـك أنه ظلـم البريء، وسلب أراضي الكثيريـن، ومع أنه كان ضعيفاً بالجسد، زاد من قـوة اندفاع عقله، وبينما كان يرشد الملك إلى بيتـه، عندما وصـلا إلى قمة رابيـة، منها كـان من الممكن رؤية قلعــة الملك، تحمس كثيراً وانفعل إلى حــد أنه سقـط من على ظهــر حصانه، فقام راهـب من رهبان دير القديس ألبان، كـان قد استولى على أرضـه، بالمرور فوقـه وحصـانه يعدو بدون انتبـاه، وبذلك أنهى حيـاته البائسة خلال عدة أيام انقضت.

ومات في السنة نفسها روبرت أسقف لنكولن، وقد خلفه الاسكندر، وأعطى في السنة نفسهـا الملك هنري رئاســة أساقفة كـانتربري إلى وليم دي كــوربـويل Corboil رئيس رهبــان شيك Chick [في اسكس Eeesx]، وأعطى أسقفية باث إلى غـودفري، الذي كـان حاجب الملكة في تلك الآونة، وثار كذلك روبرت دي ميدلنت Medlent على الملك، الذي تولى حصـار قلعتـه بونتـوديمير Pontaudemer واستولى عليها، وبنى في الـوقت نفسه سوراً عـالياً، وعـريضاً مع شرافـات حول

برج روان، ومتن برج قلعة كين Caen ، وبالاضافة إلى ذلك جعل قــلاع: آرشـــي Arches ، وغيســور، وفــلاسي Falaise ، وأرغنتول Argenteuil، ودو مفرونت Domefront، وأوكسيم Ox-ismes، وأمبرت Ambert، وفير VIR، قـلاعـاً لاتـرام، وكـذلك برج فيرنون Vernon.

كيف جرى أسر ملك القدس من قبل الأمير التركي بلك

واقتاد في السنة نفسها، بلدوين ملك القـدس جيشاً في مناطق كونت الرها، وبينما كـان يسير بدون حـذر في إحـدى الليـالي، وعسـاكـره غير منتظمة، حمل عليـه بلك أمير الترك، من كمين، وأخـذه أسيراً، ووضعه في السجن في قلعة خرتبرت، وكان مسجـوناً في القلعة نفسها: جوسلين كـــونت الرهـا، وأخيـــه جـــاليران، اللذان من أجـل اطلاق سراحهما وتحريرهما جــاء الملك إلى تلك المناطق، وعندمـــا سمع أمـــراء القـدس بالأخبار المشؤومة المتعلقـة بأسر الملك، عينوا لحكم المملكة رجلاً اسمه يوستاس غرنت، وكان رجلاً حكيماً ومخلصاً، وكان عليه معالجة الأمور، وتسيير الأحوال أثناء غيـاب الملك، وفي تلك الأثناء حاصر الأمير بلك يافــا مع ستـــة عشر ألف رجل مسلح، ولدى سماع أخبــار ذلك قــام بطريرك القدس، مع الحاكم يوستاس والأمراء الآخرين، تصحبهم رحمة الرب، فزحفـوا إلى هناك مع سبعة آلاف رجل، فهـزموا الأعداء بعـدما قتلوا سبعـة آلاف رجل منهم، واستـولى على كميـات هـائلة من الغنائم اقتسموها بالتساوي فيما بينهم.

وفي تلك السنة نفسها ذهب وليم المنتخب لكانتربري إلى روما حيث تسلم الطيلســان، ثم عاد إلى انكلترا، حيث جـرت سيامته في كـانتربري من قبل وليم أسقف ونكستر، لأن رتشارد أسقف لندن، الذي إليه عاد ذلك الواجب، كان قد مات قبل وقت قصير.

كيف جرى أسر بعض أعداء الملك

سنة ١١٢٤م، فيها دخل بقوة السلاح إلى نورماندي: روبرت كونت ميلنت Mellent مع ابن أخته هيوج دي مونتفورت، وهيوج فتز -غيرفياس Gervais ، لكن وليم دي تانكرفيل Tankerville -حاجب الملك -قاتلهم واشتبك معهم في معركة، حيث أخذهم أسرى، وأرسلهم إلى الملك هنري، الذي وضعهم في السجن.

ومات في السنة نفسها ثيوفيلوس أسقف ووركستر، وأرنولف أوف روكستر، وحوصرت في السنة نفسها صور، حاضرة سورية، من قبل ميكائيل دوج البندقية من جهة البحر، في حين حاصرها أمراء مملكة القدس من جهة البر، وبدأ الحصار في ٢٥ - شباط، وجرى الاستيلاء على المدينة في ٢٩ -حزيران، وقدّم في السنة نفسها بلدوين ملك القدس رهائن من أجل اطلاق سراحه، وعاد سالماً إلى شعبه.

كيف فوجيء نائب البابا وهو يقترف الزنا

سنة ١١٢٥م، جاء إلى انكلترا جون أوف كريما Crema، كاردينال الحضرة البابوية، بترخيص من الملك، وزار الأسقفيات والديرة، وقد حصل على هدايا واسعة قدمت له، وعقد مجمعاً مهيباً في لندن في يوم ميلاد العذراء مريم، حيث تحدث بحدة ضد اتخاذ الخليلات من قبل رجال الدين، وقال بأن ذلك كان ذنباً عظيماً أن يصدر من جانبهم، وأن يعمل جسد المسيح، لكن حدث في تلك الليلة، بالذات أن فوجيء برفقة عاهرة كان يجامعها، مع أنه كان في ذلك اليوم قد كرس جسد المسيح، وكانت الحقيقة واضحة بحيث لايمكن انكارها، وهكذا تحولت مكانته السامية إلى خزي عظيم.

وفي السنة نفسها، أعطى الملك هنري إلى سيمون، كاهن الملكة، أسقفية ونكستر، وإلى جون رئيس شمامسة كانتربري أسقفية روكستر،

وإلى سيفرد Sifred راعي غلاستونبري Glastonbury ، أسقفية شستر، وأيضاً نشب خلاف بين وليم رئيس أساقفة كانتربري وثيرستان رئيس أساقفة يورك حول الأولوية، التي حاول كل واحد منهما أن يبرهن أنه الأحق بها.

وفي هذه السنة مات الاسكندر ملك الاسكوتلنديين، وقد خلفه أخوه داوود، وكان رجلاً صاحب قداسة عظيمة، وكرم مدهش، فضلاً عن هذا أمر الملك هنري بجميع الماليين في انكلترا، فتعرضوا لسوء العذاب، وكذلك أمر بقطع أيديهم اليمنى لأنهم اقترفوا تخفيض عيار النقود، ولم يحافظوا على نقاوتها.

كيف انتصر بلدوين ملك القدس على الأتراك

وفي حوالي هذه السنة نفسها اجتمع البرسقي، الذي كان أميراً شرقياً قوياً، مع طغتكين ملك دمشق، وبعدما عبر نهر الفرات، عاث فساداً في أراضي أنطاكية، واستولى على حصن كفرطاب، وتابع زحفه فألقى الحصار على بلدة عزاز، وعندما سمع بلدوين بهذا، وكان وقتها مسؤولاً عن كل مملكة القدس وإمارة أنطاكية، زحف إلى هناك مسرعاً مع عساكره، فوجد العدو المتقدم ذكره مايزال مشغولاً بالحصار، فهاجمه بشدة، وبرحمة ربانية هزم الأعداء جميعاً، وقتل ألفين، كلهم وجدوا قبورهم في النار، وبالأموال التي وجدها الملك هناك، قام بفداء ابنته، التي كانت طفلة في الخامسة من عمرها، كان قد أعطاها من قبل رهينة من أجل تحريره شخصياً، وعاد من هناك حيث جمع الأسلاب قرب عسقلان، وكان قد قتل عدداً من الأتراك وجدهم على طريقه، ثم عاد إلى شعبه.

كيف مات الامبراطور وكيف عادت الامبراطورة إلى أبيها

سنة ١١٢٦م، فيها فارق هنري امبراطور الرومان هذه الحياة، وقد

خلفـــــه لـوثير Lothaire ، الذي حكم اثني عشر عاماً، ثم عادت الامبراطورة ماتيلدا إلى أبيها الملك هنري، وسكنت في قصره مع الملكة، لأن الملك قد أحبها كثيراً، لأنها كانت وريثته الوحيدة، وكان قد عاد إلى انكلترا في أيام عيد القديس ميكائيل، وجلب ابنتـه معه، بعد وقت قليل من فقـدانها -كما قلنا -زوجها الذي كـان رجلاً عظيماً، وقام بعـد ذلك بقليل، وبناء على أوامر الملك، جميع نبلاء انكلترا ونورماندي بتأدية يمين الولاء إليهـا، وكذلك إلى ستيفن كـونت بولون، ابن أديلا، أخت الملك، وكونت أوف بلوا.

الخلاف بين رئيسي أساقفة كانتربري ويورك

سنة ١١٢٧م، عقد الملك هنري بلاطة لعيد الميلاد في وندسور، حيث رغب ثورستـان رئيس أسـاقفـة يورك القيـام بتتـويج الملك، وذلك على الرغم من معارضـة رئيس أساقفة كـانتربري، لكنه منع من ذلك باتفاق عام، وجرى طرد حـامل صليبه، الذي حمل الصليب إلى بيعة الملك، هو والصليب الذي كان يحمله.

وعندما كان الملك في وندسور، جاءه رسول ليخبره بأن شارل كونت أوف فلاندرز، الذي كـان أعز أصدقائه لديه، قـد قتل بشكل خياني من قبل نبلائـه في كنيسة في بروج Bruges ، وأن ملك فرنســا قد أعطى الكونتيـة إلى وليم بن روبرت أخو هنري، أي ابن أخي هنري وعـدوه، وأن وليم قـد استقـر في الكونتيـة، وأنه قـد قتل قتلة شـارل مع مختلف أنواع العـذاب، وقد انزعج هنري تجاه ذلك، لأن الشـاب كان شجـاعاً ورجـلاً نشيطاً، وقـد هدد بطرد هنري من كل من نورمـاندي وانكلترا، التي قال بأنها من حقه وملكاً له بشرعة الوراثة.

ومات في الوقت نفسه رتشارد أسقف لندن، وخلفه غيلبرت العالمي، الذي تلقى السيامة من وليم، رئيس أساقفة كانتربري.

زواج الامبراطورة ماتيلدا من غيوفري كونت أوف أنجو

عزم في تلك السنة نفسها فولك كونت أوف أنجو على الذهاب إلى القدس، والاستقرار بها مدى الحياة، فسلم الكونتية إلى ابنه غيوفري، الذي كان لقبه بلانتغنت، وكان شاباً بارعاً جداً، وأخذ فولك طريقه إلى القدس، حيث وصلها سالماً، وفرح ملك القدس كثيراً بوصوله، وزوجه من كبرى بناته، مع توقع أن يغدو ملكاً من بعده شخصياً، وعندما بات ذلك معروفاً لدى الملك هنري، عبر إلى نورماندي، وزوج ابنته الامبراطورة إلى غيوفري كونت أنجو المتقدم ذكره.

وعبر في الوقت نفسه بوهيموند بن بوهيموند الكبير إلى سورية، وتسلم من ملك القدس بلدوين، ميراثه الأبوي، أي حكم أنطاكية، مع الابنة الثانية للملك لتكون زوجة له، واستولى بوهيموند بعد ذلك على كفر طاب، وقتل جميع الأتراك الذين وجدهم هناك.

سنة ١١٢٨م، فيها زحف هنري ملك انكلترا بطريقة هجومية إلى فرنسا، لأن لويس ملك فرنسا حمى كونت فلاندرز، الذي هو ابن أخيه وعدوه، وعسكر في هيسبارد Hespard (ربما ايبرنون Epernon) لمدة ثمانية أيام، وهو آمن مطمئن كأنه كان في ممتلكاته، وبهذا أرغم ملك فرنسا على رفض تقديم العون إلى كونت فلاندرز، وعندما كان الجيش هناك، سأل الملك واحداً من الرهبان -وكانت لديه معلومات كثيرة عن أمة الفرنسيين -عن نسب الملك لويس، فأجابه الراهب قائلاً: «أيها الأمير الأعظم قوة، إن الفرنسيين مثلهم مثل الشعوب الأوربية الأخرى يستمدون أصولهم من تروجان Trojans، وعندما حدّث الملك بحكاية نسب ملوك فرنسا كلها شروعاً من حكاية البيضتين، أضاف «كان فيليب ملك فرنسا، الذي هو والد لويس الذي هو في الحكم الآن، لو تمكن فقط من تقليد أسلافه بالقوة، لما كان بامكانك البقاء آمنا كما أنت الآن في مملكته»، فابتسم الملك وعاد إلى نورماندي.

وفي تلك الآونة جاء دوق اسمه ثيودورك من ألمانيا، بناء على دعوة من هنري، وأغار على فلاندرز، وكان معه بعض النبلاء الفلمنكيين، وزحف وليم لمواجهته على رأس جيش صغير، وتحارب الطرفان بشجاعة، لكن كونت فلاندرز سدّ عجز قواته بقوة غير مرئية، لأنه كان حاداً في استخدام السلاح، وقد حطم صفوف أعدائه، مثل البرق، بسيفه، وبناء عليه لم يعد بامكان أعدائه تحمل ثقل ضرباته، فأداروا ظهورهم وهربوا، وبذلك نال الكونت وليم النصر، لكن عندما كان يحاصر ايو Eu ، ضد الملك هنري، ومتوقعاً في اليوم التالي تسلمها بعد استسلامها، لأن العدو كان منهكاً تماما، مات الشاب من جرح خفيف في اليد تاركاً وراءه شهرة لاحدود لها.

ومات في السنة نفسها رالف أسقف درم، ووليم أسقف ونكستر، وأوصل المعلم هيوج دي سينت فكتور تاريخه إلى هذا التاريخ.

كيف عقد الملك هنري مجمعاً حول خليلات الكهنة

سنة ١١٢٩م، جلس هونوريوس خمس سنوات وشهرين على كرسي البابوية في روما، وفي السنة نفسها عقد الملك هنري مجمعاً كبيراً في لندن، في اليوم الأول من آب، حول منع الكهنة من اتخاذ خليلات، وكان موجوداً في هذا المجمع وليم رئيس أساقفة كانتربري، وثورستان رئيس أساقفة يورك، مع أساقفتهم المساعدين، وقد خدعهم جميعاً الملك هنري من خلال سذاجة رئيس أساقفة كانتربري، لأنهم منحوا الملك الحق القضائي على خليلات الكهنة، وهو أمر انتهى بشكل مهين، لأن الملك تسلم مبالغ كبيرة من المال من الكهنة لانقاذ خليلاتهم، ثم إنه، عندما صار الوقت متأخراً جداً، أسف الأساقفة من أجل الإجازة التي منحوها، وذلك أنه بات واضحاً للأعين كلها انخداع الأساقفة وظلم الشعب، وفي السنة نفسها صار هنري رئيس دير غلاستونبري أسقفاً لونكستر، وعُمل روبرت أسقفاً لهيرفور، وروبرت آخر (الصحيح

الاسكندر) أسقفاً للنكولن.

وفي هذه السنة، عندما كان فيليب ابن ملك فرنسا، الذي توج رسمياً ملكاً بعد وفاة أبيه، راكباً للتنزه في أحد الأيام، قابله خنزير، ركض بين أرجل حصانه، وبذلك رمي الملك الجديد أرضاً، فاندقت عنقه، ومات حيث هو.

وقدمت في هذه السنة نفسها أسراب عظيمة من الطيور الطائرة، حتى أنها احتلت شطراً كبيراً من السماء، ثم إنهم قسموا أنفسهم إلى مجموعات منفصلة، واشتبكوا في القتال وقتلوا بعضهم بعضاً بشكل مخيف، ولعل ذلك بشّر بالشقاق التي قام بين المرشحين للبابوية.

الشقاق بين البابوين

سنة ١١٣٠م، فيها مات البابا هونوريوس، وقام بين الرومان حزبين حول من سيخلفه، فقد اختار بعضهم انوسنت، واختار الآخرون أناكلت Anaclet ، وقد بقي الثاني في المدينة، بسبب إخوانه، الذين كانوا رجالاً لهم نفوذهم، ويمتلكون إمارة قلعة كرسنتيور Crescentior ، وقام انوسنت، المطرود من قبل الرومان، بعبور جبال الألب، ووصل إلى غاليا حيث جرى استقباله باحترام في تشارترز من قبل هنري ملك انكلترا، الذي احتفى به ثانية بعد عيد الفصح في روان، وتمكن بسلطانه من جعل الجميع يعترفون به بابا، ثم إنه بوساطة ملك انكلترا، جرى تتويج لويس، أخو الملك فيليب ملك فرنسا المتوفى، وكان التتويج في ريمز Rheims من قبل البابا، ثم إنه بعد هذا، في أيام عيد ميلاد القديسة مريم، أعطى الملك ابنته الامبراطورة زوجة إلى غيوفري، كونت أوف أنجو.

موت بوهيموند أمير أنطاكيه

في هذه السنة نفسها أغار رضوان أمير حلب على منطقة أنطاكية،

وزحف بوهيمـــوند على رأس جيش للتصـــدي له، فأصيب ومـــات في كليكية، وفي ظل هذه الفاجعة الكبيرة طلب شعب أنطاكية المساعدة من ملك القدس، الـذي زحف إلى هناك مسرعاً، فهـزم رضوان وأعطى إلى ابنته بائنتهـا مدينتي: اللاذقية، وجبلـة، بعدما ضمن حكم أنطاكيـة بعد موت بوهيموند إلى ابنته الصغيرة، عن طريق أداء يمين الولاء لها، وعاد بعد هذا إلى القدس.

موت بلدوين ملك القدس

سنة ١١٣١م، وقع الفارس الشجـاع، بلدوين ملك القدس، مـريضاً مـرضاً شـديداً، ولتوقعـه اقتراب نهايته، دعـا إليه ختنه وابنتـه مع ابنهما الذي كان آنذاك في الثانية من عمـره، وكان أيضاً اسمه بلدوين، وأوكل إليهـم العناية الكـاملة والمسـؤوليـة عن المملكة، وبعـــدمـا أكمل جميع واجباته التي كـان عليه تأديتهـا كمسيحي، أسلم الروح، وذهب ليجني ثواباً سرمـدياً مقـابل جهوده التـي بذلها، وليكون مع أسـلافه الأتقيـاء، وخلفه ختنه فـولك، وكان فـارساً نبيلاً، وتسلـم في يوم تمجيد الصليب تاج المملكة.

كيف أوجد ملك انكلترا أسقفية جديدة في كارلآيل

سنة ١١٣٢م، فيهـا أوجـــد هنري ملك انكلترا أسقفيـة جـديدة في كـارلآيل Carlisle على حـدود انكلترا وغـالووي Galloway، وعين فيها ليكون أسقفها الأول إيثلوولف Ethelwulf، رئيس رهبان أوسولد Oswald ، والذي كان متلقي اعترافاته، ووضع الأسقف على الفور أنظمة قانونية في الكنيسة، وأضفى عليها كثيراً من التشريفات.

وولد في السنة نفسها لغيـوفري كونت أوف أنجـو ولداً ذكراً من ابنة الملك هنري، أعطاه اسم هنري، ولدى سماع الملك بهذه الأخبار، وتلقيه لها، دعـا إلى الاجتماع جميع أمـــراء مملكتـه وعين ابنتـــه ووريثتـه لتكون

شخصياً وريثة لجميع ممتلكاته بعد وفاته.

ومات في السنة نفسها روبرت أسقف شستر، الذي كان لقبه بيكهام Peckham وهو الذي بإجازة حصل عليها من الملك نقل مقره إلى كوفنتري Coventry ، التي جعلها عاصمة لأسقفية ميرسيان Mercian ، وقد خلفه روجر رئيس شمامسة لنكولن، وامتلكت هذه الأسقفية حتى الوقت الحالي ثلاثة مقاعد هي: شستر، وليشفيلد Lich-field، وكوفنتري.

كيف قتل فولك ملك القدس ثلاثة آلاف من الترك

عبر في السنة نفسها جيشاً كبيراً من الترك نهر الفرات، وعسكر في منطقة أنطاكية، فدعا سكان تلك المدينة ملك القدس إلى مساعدتهم، وزحف فولك إلى هناك مع جيش، وانقض على الأعداء، فقتل ثلاثة آلاف منهم، ونجا البقية فراراً، وعاد رجالنا إلى أنطاكية مع غنائم كثيرة لم يعرفوا كيف يتصرفون بها، وفي تلك الآونة شيد بطريرك القدس حصناً قرب نوبه التي تعرف بشكل عام باسم بيت نوبه، وفي حوالي ذلك الحين تزوج ريموند كونت أوف بواتو Poictou من كونستانس ابنه بوهيموند الأصغر، وأعاد في هذه الآونة فولك ملك القدس، بناء مدينة بئر السبع القديمة، التي تبعد حوالي العشرين ميلاً عن عسقلان.

شفاء واحد من الكهنة من قبل أم الرب

سنة ١١٣٣م، كان فيها واحداً من العلماء قد أصيب بمرض شديد أقعده، وتمدد ليلاً ونهاراً وهو يصرخ كأنه امرأة في آلام المخاض، وهو يدعو الأم المقدسة للرب حتى تساعده، وفي إحدى الليالي عندما كان في عذاب شديد، شاهد العذراء الأم المباركة للرب، واقفة إلى جانبه برداء أبيض، وذلك استجابة لصلواته، وقد مدّت يدها نحوه، وارتجف

الرجل المريض، لكنه ما أن شعر بلمستها حتى استرد على الفور صحته كما كانت، ومات في السنة نفسها هيرفي أسقف إيلاي وعين الملك نيغل Nigel لخلافته، وأعطى الملك في الوقت نفسه أسقفية درم إلى مستشاره غيوفري.

كيف أنجبت الامبراطورة ماتيلدا ولداً اسمته غيوفري

سنة ١١٣٤م، فيها ولدت الامبراطورة ماتيلدا ولداً أسمته غيوفري، ونتيجة لذلك وبسببه عبر الملك هنري إلى نورماندي، وبقي هناك لبعض الوقت بسرور عظيم بشأن حفيديه، ومات في تلك الآونة للانداف Llandaff، وهو على طريقه إلى روما، وغيلبرت أسقف لندن، ومات في السنة نفسها روبرت كورتهوز Curthose، أخو الملك هنري، ودفن في غلوستر، وتمددت في هذه الآونة الامبراطورة مريضة لوقت طويل، بسبب المصاعب التي عانت منها أثناء ولادتها لابنها، وقدمت هذه العقيلة التقية كثيراً من الأعطيات إلى الأرامل، واليتامى، والكنائس، والديرة، فنجت من خطر الموت.

موت هنري ملك انكلترا

سنة ١١٣٥م، فيها عندما كان الملك هنري في نورماندي، عاد في أحد الأيام من الصيد، فتوقف في سينت دنس Denys ، في غابة الأسود، ليأكل بعض الجلكى، وهو سمك (كالأنقليس) كان مغرماً به كثيراً، مع أنه كان لايوافقه، وغالباً ماحذره الأطباء من أكل هذا النوع من السمك، لكنه لم يكن يصغي إلى نصائحهم، وجعل الطعام دم الرجل المسن يرتجف بشكل مميت ويشعر بقشعريرة شديدة سببت له مرضاً مفاجئاً وشديداً، وقاومت الطبيعة ضده، فكان أن عانى من حمى حادة، وذلك في محاولة لمقاومة أسوأ مؤثرات المرض، ولم يستطع هذا الملك العظيم تحمل قوة علته، فمات في اليوم الأول من كانون الأول، بعدما

حكم خمساً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، وقد بشّرت بموته ريح عنيفة، في مســاء عيـد الرسـولين سمعـان ويهوذا، هدمت الأبراج، والبيـوت، واقتلعت الأشجـار مـن كل جـانب، وانخسف القمـر أيضاً في السنة نفسهـا في اليوم التـاسع والعشرين من تموز، وكان هذا الملك قـد أسس ديرة: ردنغ، وسسرينستر، وبري `Preقـرب روان، ومــورتيمير Mor-timer، كما شيد خمساً وعشرين بلدة فخمـة إلى جانب الأبراج والقلاع، وبقي جسد الملك ملقى فـوق الأرض في روان لمدة طويلة، حيث جرى دفن أحشائـه، ومخه وعينيه، وجرى تقطيع بقيـة جسد الملك بالسكاكين، وجرى تمليحـه لقتل الروائح الكريهة التي كانت عظيمـة، وقد أزعجت كل من اقترب منهـا، وقـد لف بجلـد ثور، وجـرى دفع مبلغ كبير من المال إلى الطبيب لكي يفتح رأسه بفأس، وليخرج مخه بعـدما فسد كثيراً، ومع ذلك جـرى لف الرأس بعـدة مناديل، وصار مسماً بـرائحة قـاتلة، وهكذا كان المال الذي تسلمـه قاتلاً له، وبذلك كان آخـر ضحايا الملك هنري، ذلك أنه كـان قـد قتل عـدداً كبيراً قبله، وبعـد ذلك صـدر على الفور من الجسد من جلد الثـور سائل ودم، تولى جمعه الخدم في طشت، وكان ذلـك أمراً مرعبـاً للذين رأوه، وأخيراً جرى حمل جسـد الملك إلى انكلترا، ودفن وسط أبهة ملكية في يوم عيد ميلاده، في ردنغ، في الكنيسة التي كان قد أسسهـا شخصياً، وكان رؤساء الأساقفة والأسـاقفة ونبلاء المملكة حضوراً أثناء الدفن.

كيف جرى تتويج ستيفن بن ثيوبولد كونت بلوا ملكاً

عندمـا مـات هنري، وقبل أن يجرى دفنه -كما تحدثت -قـام حفيـده ستيفن، عن طريق اختـه أديلا، زوجـة ثيـوبـولد كـونت بولون، وأخـو ثيوبولد الأصغـر، كونت بلوا، بالاستيـلاء على تاج المملكة، مع أنه كان قـد أدى قسم الـولاء للامبراطورة، لكنه أغـوي من قبـل الرب، وكـان رجـلاً صاحب شجـاعة كبيرة، ونشـاط عظيم، ذلك أنه عندمـا اجتمع

نبـلاء المملكة في لندن، وعـد بوجـوب اصـلاح القـوانين بما يرضي كل واحـد منهم، هذا وتولى وليم رئيس أساقفـة كانتربري، الذي كـان أول النبــــلاء في تـأدية يمين الـولاء إلى الامبراطورة كملكـة لانكلترا، تولى تكريس ستيفن ليكـون ملكاً، وخـلاصـة الأمــر أن جميع الأسـاقفــة، والإيرلات، والبـارونـات، الذين كـانوا قـد أقسمــوا يمين الولاء لابنة الملك ووريثته، قدموا المسـاندة إلى الملك ستيفن، قائلين بأنه من العار أن يخضع مثل هذا العـدد من النبـلاء أنفسهم إلى امـرأة، وأقسم في الوقت نفسـه هيوج بيغـود، قهـرمان الملك هنري، وشهـد أمـام رئيس أساقفـة كـانتربري، أنه عندما كان الملك على فـراش الموت، حـرم الامبراطورة وجعل ستيفن خليفتـه، وبناء عليـه تسلم الملـك الجديد تاج المملكة من يدي وليم رئيس أسـاقفـة كـانتربري، في وستمنستر، وسط هتـافـات الشعب وتأييـده الحار، وكان ذلك في يوم عيـد الشهيد الرائد، القـديس اسطفان، وأقيمت مائدة ملكية في غاية الأبهة.

وأكملت أعمال التتـويج بأبهة عظيمة، وعندمـا انتهت مراسم تقـديم الولاء، ذهب الملك ستيفن إلى أكسفـورد حيث أكد وعـوده التي عملها للرب، وللشعب والكنيســة، في يوم التتـويج، وهي كمايلي: فقــد وعـد أولاً، بعـد أداء اليمين، أنه عندمـا يمـوت أسقف، لن يحتفظ بمقـره بين يديه، بل سيوافق على الفـورعلى إجراء انتخـاب قـانوني، وتكريس كل منتخب من دون تأخير، ووعـد ثانياً أنـه سوف يبقي بين يديه الغـابات التي هـي ليست ملكـاً لرجـل دين أو رجـل علماني، وأن يحذو في ذلك حـذو الملك هنري الذي كـان يقاضيهم كل سنـة إذا ما أخـذوا قط لحم طرائد في غاباتهم، أو إذا تولوا نقلهم أو استخـدامهم لتأمين حاجياتهم، واستمـر هذا النوع من المقاضـاة طويلاً، ومـورس بشكل ظالم، ذلك أنه كان إذا مـانظر المشرفون الملكيـون عن بعد إلى غابـة كانت ملكاً إلى أي واحد كانوا يعرفون بأنه رجل صـاحب أموال، كانوا على الفور يقدمون

شكوى بوجود تجاوزات، سواء أكان هذا صحيحاً أم لا، وذلك بغية إرغام الملاك، على تخليص غابته دونما استحقاق، وثالثا وعد بأن الشلنين (danegelt) اللذان كانا يدفعان كل سنة عن كل هايد hide من الأرض، وهو المبلغ الذي كان أسلافه يتسلمونه كل سنة، وعد بإلغاء ذلك إلى الأبد، ولقد كانت هذه هي الأمور المحددة، وكانت هناك أمور عامة أخرى وعد بمراعاتها، غير أنه لم يحافظ على أي من هذه الوعود، مع أنه قطعها على نفسه أمام الرب.

حول التحالف بين الملك ستيفن وملك الاسكوتلنديين

وقام في تلك الآونة، داوود ملك الاسكوتلنديين، الذي كان قد أقسم يمين الولاء، إلى الامبراطورة، بغزو انكلترا، واستولى على كارلآيل، ونيوكاسل -على -التاين Tyne، ووضع حاميات عسكرية فيهما، ولذلك قاد ستيفن ضده جيشاً كبيراً، والتقاه في درم، حيث عقدت معاهدة بينهما، بموجبها أعاد الملك داوود نيوكاسل، واحتفظ بكارلآيل، وذلك بموافقة من ستيفن، ولم يقدم الملك الاسكوتلندي يمين الولاء إلى الملك ستيفن، لأنه كان قد أقسم على تقديم الولاء إلى ابنة خاله الملك هنري، ومع ذلك اعترف الملك داوود بأنه من أتباع الملك ستيفن، وتلقى مقابل ذلك منطقة هنتنغدون Hun-tingdon ملكاً له ولورثته من بعده إلى الأبد.

ثم عاد الملك إلى وطنه، وعقد بلاطه في لندن، أثناء الاحتفالات بعيد الفصح، بأبهة أعظم مما عرف قط من قبل، بسبب وفرة الذهب، والفضة والمجوهرات، والملابس الثمينة، وأشيع في يوم عيد صعود الرب، في جميع أنحاء انكلترا بأن الملك قد مات، وقد سبب هذا اضطراباً عظيماً في المملكة، ولذلك استولى هيوج بيغود على قلعة نوروك، وأعلن أنه لن يسلمها إلى أحد سوى الملك، لابل أعلن إنه غير مستعد للتخلي عنها حتى إليه، وبدأت الخيانة تنتشر الآن بين النورمان، لكن الملك قاومهم

برجـولة، واستولى على قلعـة بادنغتـون، التي كـانت ملكاً لواحد اسمـه روبرت، كـــان متمـرداً، وقـد زحف مـن هناك إلى إكستير، التي وقفت ضـده وقاومتـه بوساطة بلدوين دي رفـرRivers، وتمكن بصعوبة من الاستيـلاء على كل من المدينة والقلعة، وقـد سمح للمتمـردين بناء على نصيحة المستشـارين الأشرار بالذهاب دون عقاب، ولذلك ثـاروا ثانية، واستطاعوا بشكل خياني تحصين عدد مـن القلاع ضده، وسار الملك من اكستير إلى جزيرة وايت، التي انتزعها من بلدوين دي رفر المتقدم ذكره، ونفـــاه إلى انكلترا، وبعـد هذه النجـاحـات ذهب الملك إلى الصيـــد في برانتـون ليس بعيـــداً عن هنتنغـدون، حيث دخل إلى غـابـات نبـلائـه، واصطاد خارقاً بذلك العهد الذي قطعه على نفسه للرب وللشعب.

كيف أخضع غيوفري كونت أوف أنجو بعض البلدات في نورماندي

وتمكن في تلك الآونة غيـوفري كـونت أوف أنجو وزوجته مـاتيلدا، من الاستيلاء بسهـولة على بعض القلاع في نورمـاندي، مع جميع المزارع التي أبقـــاها الملك بيـده، وذلـك عندمـا طردا وليـم تيلفـــاز Talevaz مـلاكهم السـالف، وقدمـا في شهـر آب إلى روان حيث ولدت مـاتيلدا للكونت غيوفـري ولداً ثالثاً، سمته وليم، وغضب نبـلاء نورماندي من هذا، فبعثوا إلى ثيوبولد كونت أوف بلوا، الذي كان الأخ الأكبر للملك ستيفن، ودعـوه للقـدوم ومساعـدتهم على استرداد نورمـاندي، ووصل ثيوبولـد إلى ليزكس Lisieux في صوم الشهـــر العاشر، وهناك سمع بأن أخـاه ستيفن قـد توج ملكـاً على انكلترا، وعندها تخلى روبرت ايرل أوف غلوستر، عن فـالي Falaise وسلمهـا إلى ثيوبولـد، وكان قـــد أخذ أولاً مبلغاً كبيراً من المال من خزانة الملك هنري.

ومات في السنة نفسهـا وليم رئيس أساقفـة كانتربري، ووليم أسقف

إكستر، وجون أسقف روكستر.

كيف تلقى ملك فرنسا ولاء يوستاس ابن الملك ستيفن عن نورماندي

سنة ١١٣٧م، فيها عبر الملك ستيفن إلى نورماندي، فهرب كونت أوف أنجو من أمامه، مما ساعد على عمله العسكري، فنجح في كل شيء تولاه، وهزم أعداءه، واستولى على قلاعهم، وبرهن على أنه شخصياً من أكثر الرجال تميزا، وعمل معاهده مع ملك فرنسا، الذي إليه قدم ابنه يوستاس الولاء من أجل نورماندي، ولدى مشاهدة غيوفري كونت أوف أنجو لهذا، وهو الذي سلف لستيفن أن قدم لزوجته الولاء، طلب منه اعادة انكلترا، ولكن بما أن القوة الملكية كانت متفوقة عليه كثيراً، وافق على عقد هدنة، بموجبها تسلم من الملك خمسة آلاف مارك سنويا شرط الحفاظ على السلام، أما بالنسبة لثيوبولد أخو الملك، وكونت أوف بلوا، فقد اشتكى بأن ستيفن الذي كان الأخ الأصغر، قد استولى على تاج انكلترا بشكل غير عادل، ولذلك وافق الملك على أن يدفع له سنويا مبلغ ألفي مارك، وهكذا افترق الأخوان على وفاق، وعاد ستيفن بعد هذه النجاحات إلى انكلترا.

ومات في السنة نفسها لويس ملك فرنسا، وقد خلفه ابنه لويس، الذي تزوج من إليانور ابنة دوق أكوتين، ومنها ولد له ابنتان، الكبرى منهن تزوجت من هنري أكبر أولاد كونت فلاندرز، وتزوجت الصغرى من ثيوبولد الابن الأصغر للأمير نفسه.

حول عداء الاسكوتلنديين نحو الملك ستيفن

سنة ١١٣٨م، فيها حصل كونراد على الامبراطورية الرومانية، وحكم لمدة خمس عشرة سنة، وفي السنة نفسها، حاصر الملك ستيفن، في يوم عيد ميلاده قلعة بدفورد Bedford قائلاً لاينبغي ترك عدو واحد يرتاح

حتى لمدة ساعة»، لكنه لم يستطع اخضاع القلعة، لأن الاسكوتلنديين قادوا مع ملكهم جيشاً إلى نورثأمبرلاند Northumberland، واقترفوا أعمالاً شائنة جداً، وبحكم أن ملكهم كان قد أقسم يمين الولاء إلى الامبراطورة، شرعوا الآن ينتقمون لصالح قضيتها، حيث كانوا يستخرجون الأطفال من أرحام أمهاتهم، ويطوحون بهم على أسنة رماحهم، وقد قتلوا الكهنة على المذابح، وقطعوا رؤوس الصلبان ووضعوهم على جثث الذين كانت رؤوسهم مقطوعة، ووضعوا مكانهم رؤوس ضحاياهم الدموية، وكانوا حيثما ذهبوا هناك مشهد واحد من الوحشية والرعب، والنساء يولولن، والشيوخ يبكون، وكل حي هو في رعب شديد.

وبناء عليه، زحف الملك ستيفن مع عساكره نحو اسكوتلندا، لكن قبل أن يصل إلى تلك البلاد عاد الملك الاسكوتلندي إلى مملكته، وانسحب إلى معاقله، وتولى الملك ستيفن نهب جنوب اسكوتلندا، ثم عاد إلى انكلترا، وكان في ذلك الوقت غضب شديد ضده بين النبلاء، حتى أن الاضطراب أحاط به من كل جانب، حيث استولى وليم تالبوت على قلعة هيرفورد ضده،واستولى أيضاً روبرت ايرل غلوستر -وهو ابن غير شرعي للملك هنري -على قلعتي ليدز وبرستول، واستولى وليم لوفل Luvell على قلعة كاري Cary ، واستولى باغانل Paganel على لودلو Ludlow، واستولى وليم دي موين Moiun على قلعة دنستر Dunster ، واستولى روبرت أوف لنكولن على وورهام Warham، واستولى يوستاس فتز-جون على ملتون، واستولى وليم فتز -ألان Alan على شروبري Shrewbury ، وقام الملك ستيفن بالاستيلاء على آخر هذه القلاع تسمية بالقوة، وشنق بعضاً من حاميتها، وعندما بلغ ذلك إلى مسامع وولكلاين Walkeline الذي كان مستوليا على قلعة دوفر، سلمها على الفور إلى الملكة التي كانت تحاصرها.

كيف أغار ملك اسكوتلندا ثانية على نورثأمبرلاند

عندما كان الملك ستيفن مشغولا على هذه الصورة في الجنوب من انكلترا، قاد داوود ملك اسكوتلندا جيشاً ضخماً إلى نورثأمبرلاند، وواجهه هنا النبلاء الشماليون، فتمكنوا بقيادة ثورستان رئيس أساقفة يورك من غرس العلم الملكي في ألفيرتون (North Alerton) Alver-ton ، وبرجولة قاوموا الأعداء، وكان الرجال الرئيسيون الذين شاركوا في هذا القتال هم: وليم ايرل أوف ألبمارلي Albemarle، ووليم أوف نوتنغهام، وولتر إسبك Espec ، وغلبرت دي لاسي، وحال المرض دون حضور رئيس الأساقفة، غير أنه أرسل مكانه رالف أسقف درم، حتى يذكّر الناس بواجباتهم، وكان كلامه الذي وجهه إليهم من العالي إلى الداني كمايلي: «يانبلاء انكلترا الشجعان، أيها النورمان المولد، الذين ارتجفت شجاعة فرنسا أمام قوتهم، والذين بحدة أسلحتهم أخضعوا انكلترا، والذين أيضاً تحت حكومتهم ازدهرت أبوليا الغنية ثانية، والقدس الشهيرة جداً، وأنطاكية الواسعة الشهرة خضعا معا أمامكم، والآن اسكوتلندا، التي هي بالشرع خاضعة لكم، تجرأت على مقاومتكم، وعرضت حماقاتها، التي غير مؤيدة بأسلحتها، وهي موائمة -كما هي- للخصام وليس للقتال والمعركة، وعلى هذا لاتكونوا خائفين، بل كونوا بالحري غاضبين، من أن هؤلاء الذين دوما طاردناهم وقهرناهم دوماً في بلادهم، يقومون الآن بخرق النظام المعتاد، وقد طلبونا بشكل أحمق على أراضينا، وإنني أخبركم، بصفتي أسقفكم، بأن هذا قد عمل بمثابة تحذير رباني لكم، بأن هؤلاء الذين انتهكوا حرمة معابد الرب، ودنسوا المذابح، وقتلوا كهنته، ولم يوفروا الأطفال ولا النساء الحوامل بالأطفال، يمكن أن يتلقوا على هذه الأرض العقوبة التي يستحقونها على جرائمهم، وعلى هذا كونوا شجعانا أيها المقاتلون البارعون، وقوموا بوساطة الشجاعة العائدة إلى

جنسكم، لابل بمعرفتكم المتقدمة بالرب، وصدوا هؤلاء الأعداء من الغربان، الذين لايعرفون حتى كيف يسلحون أنفسهم في يوم المعركة، ولاتتطلعوا إلى أية احتمالات مشكوك فيها كما يحدث في الحرب، فصدوركم مغطاة بدروعكم الطويلة السابغة، وعلى رؤوسكم خوذكم، وعلى أرجلكم ساترات السوق، وأجسادكم كلها محمية بترستكم، وبذلك لن يجد العدو أي مكان يضربكم به، لأنه يراكم وأنتم محاطون بالسلاح من كل جانب، فلماذا أنتم مترددون تجاه غير المسلحين وغير أهل الحرب؟ فالعدو يزحف بغير انتظام، ولا أريد أن أقول أكثر، إن الأعداء يتدفقون نحوكم بصورة فوضوية، وهذا أمر يفرحني، ثم إن كل واحد منكم يسقط وهو يقاتل في سبيل الرب، وفي سبيل بلادكم، نحن نحلله من العقوبات المستحقة على ذنوبه، وذلك باسم الآب، الذي قتل الأعداء مخلوقاته بشكل مخجل ومريع، وباسم الابن الذي دنسوا مذابحه، وباسم الروح القدس، الذي أزالو نعمته باقتراف مثل هذه الكمية من أعمال الشر»، وردّ الجيش الانكليزي على هذا الخطاب بالصراخ عالياً: آمين، آمين، ورددت الجبال والروابي أصداء ذلك.

حول المعركة التي نشبت بين السكوتلنديين والانكليز

ولدى سماع الاسكوتلنديين الصراخ، قاموا مثل النساء برفع صرخات حربهم «ألبان»، «ألبان» ثم مالبثوا أن اندفعوا بشكل مخيف، واشتبك الجيشان بالقتال، وقامت كتلة من الرجال من اللوثيين Loth-ian ، كانوا حصلوا من الملك على شرف تسديد الضربة الأولى،قاموا بالحملة باقدام على الفرسان الانكليز الدارعين، وجاءت حملتهم برمي الحراب، وباستخدام الرماح الطويلة، ولقد سقطوا على الانكليز مثل سقوطهم على سور، لأن الانكليز بقيوا دونما حراك، ثم اختلط الرماة الانكليز مع الفرسان وصبوا نشابهم مثل السحاب على الاسكوتلنديين، وأصابوا الذين لم يكونوا محميين بالدروع، وفي ذلك الحين تحلقت

القوات الانكليزيه كلها حول العلم، ومعها فخار ومجد النورمانديين، وبقيوا صامدين لم تتخلخل صفوفهم، وسقط قائد الرجال اللوثيين قتيلاً لإصابته بنشابة، وشرع رجاله بالفرار، لأن الرب العلي الأعلى كان غاضباً عليهم، ولذلك تدمرت قواهم بالمعركة مثل بيت للعنكبوت، وهربت الكتلة الأساسية من الاسكوتلنديين، وكانوا يقاتلون في جانب آخر من أرض المعركة، وجاء ذلك بعد رؤيتهم رفاقهم ينهزمون، فوقتها فقدوا شجاعتهم، وتراجعوا أيضاً، وبدأت عساكر الملك التي كانت من عشائر مختلفة، أولاً بالفرار بشكل فردي، ثم نكصوا على أعقابهم بشكل جماعي، مع أن الملك وقف في مكانه ثابتاً، لكن رفاقه أرغموه على امتطاء ظهر حصانه والفرار، وفي الوقت نفسه لم يعبأ ابنه الشجاع بفرار الآخرين، بل انصرف نحو نيل المجد، فحمل على صفوف العدو بتصميم وشجاعة واصرار، مع أن رجاله لم يكن بمقدورهم إلحاق الأذى بالفرسان الذين كانوا محميين بدروعهم، وقد أرغموا أخيراً على الفرار، لكن من دون، سفك عظيم للدماء، وجرى طردهم بشكل مهين وفروا في كل اتجاه، ولقد روي بأن أحد عشر ألفاً من الاسكوتلنديين قد قتلوا، إلى جانب الذين أصيبوا بجراحات مميتة في حقول القمح والغابات، وانتصر جيشنا بسرور مع قليل جداً من الخسائر بالحياة، ومن بين جميع الفرسان، كان أخو غيلبرت دي لاسي Lacy الوحيد الذي قتل، وجرى القتال في هذه المعركة في شهر آب، من قبل الناس الذين سكنوا في المنطقة وراء الهمبر Humber.

وفي هذه السنة نفسها، أرغم في شهر تشرين الأول كونت أوف أنجو سكان أورسمي Orismes على الاستسلام، كما أنه ألقى الحصار على بيوكس Bayeux وفالي Falaise.

كيف جرى انتخاب ثيوبولد رئيس أساقفة لكانتربري

وقدم في هذه السنة نفسها ألبيرك Alberic أسقف أوستيا Ostia،

ومندوب الكنيسة الرومانية، إلى انكلترا، وعقد مجمعاً في لندن في أيام عيد الميلاد، وذلك في كنيسة القديس بولص، وهناك قام بأمر من المندوب البابوي هنري أسقف ونكستر برسم رتشارد دي بيومي Beaumeisشماساً، وفي اليوم نفسه، وفي أثناء القيام بأعمال السيامة جرى انتخاب ثيوبولد رئيس دير بلك، من قبل الأساقفة، رئيساً لأساقفة كانتربري، وكان إرميا رئيس رهبان كانتبري بين الحضور، وبعدما جرت سيامته من قبل النائب البابوي ذهب إلى روما حيث تسلم الطيلسان من البابا إنوسنت.

كيف غزا الملك ستيفن سكوتلندا وعاد مع ابن ملك الاسكوتلنديين رهينة

سنة ١١٣٩م، استولى فيها ستيفن بعد يوم الميلاد على قلعة ليد، وذهب بعد ذلك إلى اسكوتلندا وبالسيف والنار، أرغم ملك تلك البلاد على أن يتصالح معه ويقبل بشروطه، ويعطيه ابنه هنري رهينة، ثم عاد ستيفن إلى انكلترا، جالباً الشاب معه، وقام على الفور بإلقاء الحصار على قلعة لودلو Ludlow ، حيث جرى سحب هنري هذا من على ظهر حصانه، ورفعه بوساطة كلاب حديدي من قبل المحاصرين، حتى كادوا يرفعونه إلى القلعة، لكن الملك ستيفن، تصرف من جانبه كفارس شجاع فأنقذه بيديه، وما أن استسلمت القلعة، حتى زحف ستيفن إلى أكسفورد، وقام بشكل قبيح بأن اعتقل في بلاطه: روجر أسقف سالسبري، والاسكندر أسقف لنكولن، وكان حفيده، مع أنهما لم يرفضا تسوية المسائل عن طريق العدالة، وألقي بالاسكندر في السجن، وجرى حمل أسقف سالسبري من قبل الملك إلى ديفيزي Devizes قلعته، التي لم يكن هناك قلعة أجمل منها في أوربا، وأبقي هنا من دون طعام، وجرى تهديد ابنه الذي كان مستشاراً بالمشنقة، وبهذه الوسائط حصل الملك على استسلام القلعة، وحصل بعد ذلك مباشرة على استسلام قلعة

شيربيرنSherburne بالطريقة نفسها، وبعدما وضع أموال الأسقف بين يديه، حصل على يدكونستانس، أخت لويس ملك فرنسا، لتكون زوجة لابنه يوستاس، ثم عاد من هناك، حيث عامل أسقف لنكولن وفق الطريقة نفسها حتى سلم إليه قلعتي: نيوآرك Newark، ولاتفورد Latford.

كيف قدمت ماتيلدا الامبراطورة السالفة إلى انكلترا

وفي تلك الآونة قدمت إلى انكلترا ماتيلدا، ابنة الملك هنري، والتي كانت من قبل امبراطورة، والتي إليها جرى ضمان المملكة عن طريق الأيمان، وقدم معها أخوها روبرت، وقد رست في آرونديل Arundel، حيث استقبلت بالسرور والترحاب والهتافات من قبل وليم دي أوبني Aubeny زوج الملكة أليس، التي كان في بائنتها من الملك هنري قلعة وايرليه آرونديل، وزحف روبرت ايرل غلوستر مع عشرة فرسان، وعشرة رماة فرسان، في وسط ممتلكات الملك ستيفن إلى وولنغفود Wallingford ومن هناك إلى غلوستر، حيث أعلن لبرين فتز -ايرل Brian Fitz-Earl ، وإلى ميلو أوف غلوستر بأن الامبراطوة قد نزلت إلى اليابسة، وهي الآن موجودة في آرونديل مع زوجته، ومسؤولين آخرين، وفرح الفارسان فرحاً شديداً لدى سماع هذه الأخبار، واستعدا للقتال بشكل فعال إلى جانبها.

ومات في السنة نفسها روجر أسقف سالسبري، جزئيا بسبب التقدم بالسن، وجزئيا بسبب الأسى، وبعد وفاته نفى الملك نيغل Nigel أسقف إيلاي، لأنه كان حفيد روجر أسقف سالسبري، الذي نتيجة لاجحافه به اقتيد إلى دماره، فمنذ ذلك الحين لم تعد تعقد هناك بلاطات، أو احتفالات مهيبة في انكلترا، كما أنه لم يعد هناك شيء اسمه سلام، فقد كان في كل مكان قتل، وحرائق، واضطراب، ونحيب، ورعب، في كل موضع، وأيضا مات ثورستان رئيس أساقفة يورك، وقد

خلفه وليم، خازن الكنيسة نفسها.

كيف حاصر ستيفن قلعة لنكولن

سنة ١١٤٠، فيها ألقى الملك ستيفن قبل عيد الميلاد، الحصار على لنكولن، وهي القلعة التي كان رالف ايرل شستر قد تسلمها لتوه، وقد دافع عن المدينة ضد الملك حتى عيد طهارة العذراء المباركة، ثم إن الايرل المتقدم الذكر مع روبرت ايرل غلوستر، ابن الملك هنري وختنه قدموا إلى لنكولن مع جيش كبير لرفع، الحصار، وبجرأه عبروا مستنقعاً كان تقريبا متعذر العبور، وقاموا بصف قواتهم واشتبكوا مع الملك في القتال، وكان الإيرل رجلاً صاحب قوة خارقة، وهو الذي تولى قيادة الصف الأول، وكان على رأس الصف الثاني الذين كان ستيفن قد نفاهم، وقاد الصف الثالث روبرت ايرل غلوستر، واستمع في الوقت نفسه الملك ستيفن إلى قداس مع كثير من الخشوع، وعندما وضع أثناء القداس بين يدي الاسقف الاسكندر حامل شمعة ملكي، كما هي العادة ليكون تقدمة للرب، انكسر فجأة وانطفأت الشمعة، مماسبب الحزن للملك، ووقع القربان أيضاً على المذبح مع جسد المسيح ، بسبب انقطاع خيط، وكان ذلك نذير شؤم عن دمار الملك.

وقام ستيفن، وهو واقف على قدميه بتعبئة قواته بعناية كبيرة، وصف من حوله ببراعة جميع رجاله بدروعهم من دون خيولهم، لكنه صف ايرلاته مع خيولهم للقتال على شكل رتلين، وكان جيش الايرلات المتمردين صغيراً جداً، بينما كان جيش الملك كبيراً جداً، ومتحد تحت علم واحد، وفي بداية القتال حمل المنفيون الذين كانوا في الساقة على جيش الملك بشدة متناهية، وكان في المكان الذي تعرض للحملة: ايرل ألان، وروبرت ايرل دي ملّنت Mellent ، وهيوج بيغود، وإيرل سيمون، ايرل شرقي أنجليا Anglia، وإيرل وورني Warenne، وقد تعرض بعض هؤلاء للقتل، وبعضهم للأسر، وهرب الباقون، وحملت

الفرقـة التي كانت بقيـادة ايرل أوف ألبمارل Albemarle، ووليم أوف يبري Ypres، على الويلزيين، الذين تقدمـوا من على المجنبة، وهزمتهم، لكن ايرل شستر هاجم هذه الفـرقـة، وهزمها مثلما هزم البقيـة، وبذلك هرب جميع فرسان الملك، وحـدث أن وليم أوف يبري الذي كان رجلاً يحمل مرتبـة إيرل، مع آخرين لم يستطيعوا الفـرار فأخذوا أسرى وألقي بهم في السجن، ووقعت هنا وقـائع مـدهشـة، فقـد بقي الملك ستيفن كالأسد المزمجر وحـده في الميدان، ومامن واحد تجرأ على منـازلته، وكان يصك أسنانه ويخرج الزبد من فمـه وكأنه خنزير جبلي، وقد صـد ببلطة حربه العسـاكر التي حملت عليه، ونال شرفاً مـؤبداً، بالتدمير الذي أنزله بمقـدمي أعـدائـه، ولوكان هناك مـائـة مثله، لما كـان من الممكن أخـذه أسيراً، ذلك أنه عندما كان وحيداً وجد نفسه في ضيق في مواجهة حشد أعدائـه، ولذلك أخذ أسيراً في يوم عيد طهـارة العذراء المباركـة، واقتيد إلى أمام الامبراطورة التي سجنته في قلعة برستول.

كيف جرى الاعتراف بالامبراطورة ماتيلدا من قبل كثير من الناس سيدة لهم

ونتيجة لهذا النجـاح جرى الاعتراف بسيـادة الامبراطورة ماتيلدا من قبل جميع شعب انكلترا تقـريبـاً، باستثناء رجـال كنت، حيث استمـرت ملكة الملك ستيفن ووليم أوف يبري يقـاتلـون ضـدها بجميع قـواهم، وبعد ذلك من قبل وليم أسقف ونكستر وسكان لندن، وقد حدث بعد ذلك إمـا عن طريق اقتراح قـوم مخادعين، أو بحكمـة من الرب، أن الامبراطورة طـردت من قبل اللندنيين، فـأعطت أوامـــر بوضـع الملك ستيفن في أغلال الحديد، ثم إنها قامت بعد بضعة أيام أقامتهم مع خالها ملك الاسكوتلنديين وأخيهـا الايرل روبرت وعساكـر أخرى، بحصـار برج أسقـف ونكستر، لكن أرسـل هذا الأسقـف إلى الملكة، وإلى وليـم أوف يبري مع النبـــلاء الآخـــريـن الذين آثروا الملك ستيفـن، وجمعهم

لمساعدته، وقام بهجوم حاد على جيش الامبراطورة، وهزم القوات التي كانت تحاصر برجه، وكان بين من أسرهم أثناء المطاردة الايرل روبرت أخو الامبراطورة، الذي كان مسؤولاً عن سجن الملك ستيفن، وبأسره فقط توفرت فرصة لإطلاق سراح الملك، وأسر الايرل في يوم عيد تمجيد الصليب المقدس، وعلى الفور جرت مبادلة الملك به، وبذلك استرد كلاهما حريتهما، وفي تلك الآونة عمل وولران Waleran كونت دي مولانت Meulant، الذي كان على رأس النبلاء النورمان، معاهدة مع غيوفري كونت أوف أنجو، متخلياً له عن قلعتي: مونتفورت، وفالي Falaise، وهكذا استسلم جميع النبلاء إليه من السين حتى حدود رايل Risle، وقدموا الولاء له، ومات في السنة نفسها غيلبرت أسقف لندن، والذي كان لقبه العالمي، وقد خلفه روبرت دي سيغللو Sigillo.

كيف اقتاد الايرل روبرت بعض الرهائن إلى نورماندي

سنة ١١٤١م، فيها عبر روبرت ايرل غلوستر إلى نورماندي، آخذا معه بعض الرهائن من النبلاء الانكليز، الذين آثروا كونت أوف آنجو، حتى يمكنه الاحتفاظ بهم، وعبر أيضاً حتى يتمكن من اخضاع المملكة، وهذا مارفض الكونت فعله لبعض الوقت، وذلك بسبب عصيان أهل أنجو مع رعاياه الآخرين الذين ضايقوه، ومع ذلك وضع بين يدي الايرل هنري أكبر أولاده، ليأخذه معه لدى عودته إلى انكلترا، وعندما كان الايرل روبرت مايزال في نورماندي، استولى على قلاع أوني Au-nay، ومورتين Mortaigne، وتوشبري Teuchebrai، وسيرنس Cerences، وكانوا جميعاً ملكاً لكونت دي مورتين، واستسلم له طواعيه سكان: أفرانش Avranches، وقسطنطين Constantine، وفي السنة نفسها عندما كان الملك ستيفن يقوم بتحصين قلعة في ونكستر، هاجمه جيش كبير عائد للحزب المضاد، وأرغمه على الفرار،(كذا: وهذا وقع عند ولتون سنة ١١٤٣)، وأخذ في هذه المعركة وليم

مــارتل أسيراً، وكــان قهــرمــان الملك ستيفـن، ووضع في السجن في وولنغفـورد Wallingford ، تحت حـراسـة بـرين فتـــزـــ ايرل، ولم يطلق سراحـه ثانية حتى أعطى إلى الامبراطورة قلعــة شيربورن Sher-bourne، كثمن لاطلاق سراحه.

كيف حوصرت الامبراطورة ماتيلدا وكيف نجت بخداعها الملك ستيفن

وفي تلك الأثناء سمع الملك ستيفـن بأن الامبراطورة كـانت في قلعـة أكسفورد مع حاشية صغيرة، فحشـد جيشاً كبيراً، وزحف إلى هناك بعد عيد القـديس ميكائيل، وحاصر تلك القلعـة حتى عيد الميـلاد، وعندما رأت الامبراطورة أن مامن أحد من أصدقائها قدم لمساعدتها على الرغم من مضي وقت طويل، لعبت خـدعـة نسائيـة مع الملك ستيفن، ونجت أثناء الليل عبر نهر التايمز الذي كـان متجلداً، حيث لبست ثياباً بيضاء، وكـان معها عـدد قليل من الأعـوان، وهكذا نجت لأنه لم يكن بامكان الأعـداء رؤيتها، لأن لون الثلج يزيغ العيـون، وهناك تشـابه باللون بينه وبين ملابسها، وبناء عليه هربت إلى قلعـة وولنغفورد، وعهدت بنفسها إلى برين فتزـــ ايرل، وعلى هذا الأسـاس استسلمت قلعة أكسفورد إلى الملك.

المجمع الذي عقد بلندن

١١٤٢م، فيهـا عقـد وليم أسقف ونكستر، ونائب الكرسي الرسـولي البابوي، مجمعـاً في منتصف أيام الصوم الكبير، في لنـدن، بحضور الملك مع الأسـاقفة الآخـرين، لأن مـامـن احترام أبدي في تلك الأثناء نحـو كنيسة الرب والعـاملين المكرسين فيها، من قبل التعسـاء المتهتكين الذين نهبوا البلاد، بل اعتقل كل انسان سجناء أو أطلق سراحهم مقابل فدية، كما يريد، دونما تفـريق بين رجال دين أو علمانيين، ولذلك تقـرر أن أي

واحد يخرق حرمة كنيسة أو رجل كنيسة، أو يعتقل بعنف رجل دين أو أي من الكهنة الآخرين، سوف لن يكون قادراً على تلقي التحليل إلاّ من البابا نفسه، كما رسم أن فلاحة الحقول، والفلاحين الذين يعملون فيها، سوف يكونون مقدسين، كما لو أنهم كانوا يعملون في ساحة الكنيسة، كما أنهم حرموا مع شموع مشتعلة كل الذين سيعارضون هذا المرسوم، وهكذا أمكن ضبط شرور هؤلاء الأوغاد قليلاً.

وفي تلك الآونة نفسها، اعتقل الملك ستيفن وليم دي ماندفيل Mandeville في سينت ألبان، وأرغمه على تسليم برج لندن مع قلعتي وولدن Walden، وبلسي Plessis، وذلك قبل أن يعيد إليه حريته، وبذلك جرده من ميراثه الأبوي، ثم هاجم دير رامسي Ramsey، وطرد الرهبان، وملأ المكان بأوغاده، وقد كان رجلاً شجاعاً، غير أنه كان عنيداً في اقتراف الذنوب ضد الرب.

موت فولك ملك القدس

وفي حوالي تلك الآونة نفسها، كان الملك فولك، ملك القدس يعبر سهول عكا، فصدف أن انبعث أرنب بري من مكمنه، فأخذ الجميع يطاردون الحيوان بصوت مرتفع، وتناول الملك رمحه وشارك بالمطاردة، وحث حصانه بدون انتباه، وألح عليه إلى أبعد الدرجات، فكان أن كبا الحصان وألقى بالملك فتهشم رأسه إلى قطع، وخرج دماغه من أذنيه، وبادر الجميع مسرعين إلى مساعدته، لكنه كان قد مات، وقد حدث هذا في الثالث عشر من تشرين الثاني، وجرى حمل جسده إلى القدس، حيث دفن هناك في كنيسة ضريح ربنا وسط دموع الحشود التي أحاطت به، وكان الذي تولى ادارة طقوس الدفن الرسمية البطريرك وليم، وما ان انتشر خبر موت الملك في الخارج بين المسلمين، حتى قام زنكي، وهو أمير تركي قوي، على رأس جيش كبير، فألقى الحصار على الرها، وبعد بذل جهود كبيرة جعل المدينة تخضع له، وقد قتل جميع المسيحيين الذين

وجـدهم هناك، دونها رحمة، ودونها تمييـز بين الجنس أو العمـر، وهكذا فإن هذه المدينة القـديمـة جـداً، التـي تشرفت باعتناق الإيمان المسيحي، والتي تحولت إلى المسيحية بفضل العمل التبشيري لثاديوس الرسول، قد صـارت الآن— ويااللعــار أن تقــول ذلك— تحت سلطة المسلمين ، ويقـال بأنه في هذه المدينة مدفـون أجساد : القـديس توماس الرسـول، والقديس ثاديوس المتقدم ذكره، والملك أبجر المبارك، وأبجر هذا الأمير المشهـور، هو الذي— وفقـاً للتـاريـخ اللاهوتي ليـوسيبيـوس — بعث رسـالة إلى ربنـا، وقـد تشرف بتلقي جـواب رسـالتـه، وأعطانا المؤرخ يوسيبيـوس نص كل من الـرسـالتين، وأضـاف الملاحظة التـاليـة:« لقـد وجدنا هذه الحقائق ضمن وثائق مدينة الرها، وذلك حيث حكم أبجر، منسـوختـان في ورق، كان يحتـوي فيها مضى أعمال ذلك الملك نفسـه»، وقد قـرأنا عن هذه المدينة بأنها غـالبـاً مـاجرى الاستيلاء عليهـا من قبل المسيحيين، ثم استردها المسلمون ثانية.

موت بابوين رومانيين

ومات في السنة نفسهـا البابا انوسنت، وقد خلفـه البابا سيليستينوس Celestinus ، الذي مـات أيضاً بعـد جلوسه بخمسـة أشهر، وقـد خلفه لوسيوس Lucius الذي ترأس الكرسي البابوي الروماني لمدة أحد عشر شهـراً وثلاثة عشر يوماً، ومـات في السنة نفسها وليم أسقف ونكستر، وقد خلفه هنري، وإلى هنري هـذا أرسل لوسيوس الطيلسان، راغباً في إقامـة رئاسة أساقفة في ونكستر، وأن يضع تحت رئـاسته سبعة أساقفـة، وفي هذه السنة أيضاً، أنهى المعلم وليم، راهـب أوف مالمزبري Malmesbury تاريخه عن انكلترا.

كيف عبثاً حاصر الملك ستيفن لنكولن

سنة ١١٤٣م، مـات البابا لوسيـوس، وقـد خلفه يوجينيـوس، الذي

بقي في منصبه ثمانية أعوام وأربعة أشهر، وواحداً وعشرين يوماً، وفي السنة نفسها حاصر الملك ستيفن لنكولن، وشرع في بناء برج آخر مقابل القلعة، التي كانت بيد رالف ايرل شستر، ولكن حوالي الثمانين من رجاله قد قتلوا من قبل الايرل، وتمّ التخلي عن العمل، وفي السنة نفسها قُتل روبرت مارميوم، الذي كان فارساً من أهل الحرب، والذي كان قد طرد رهبان كوفنتري من ديرهم، وحوّل الكنيسة إلى قلعة، وجاء قتله في أحد الأيام أمام الدير، وهو يقاتل ضد أعدائه، مع أنه كان في وسط عصابته من اللصوص، ومامن أحد جرح إلاّ هو نفسه، وبما أنه مات وهو محروم كنسيا، لقد نال موتاً هو من نصيبه الى الأبد، وفي الوقت نفسه أصيب غيوفري إيرل أوف ماندفيل، الذي اقترف عمل الشر نفسه في دير رامسي، بسهم أطلقه عليه عسكري عادي من المشاة، ووقعت هذه الحادثة أمام الكنيسة نفسها، ومثله مثل الايرل، كان يقاتل في وسط عساكره، ونزفت الكنيسة أثناء استخدامه لها كقلعة، كثيراً من الدماء من جدرانها، كدليل على عدم رضا الرب، وحدث لأرنولف ابن الايرل نفسه، الذي استحوذ على الكنيسة كقلعة، بعد وفاة والده، أن وقع أسيراً للملك، الذي نفاه من المملكة، ووقع قائد عساكره من على ظهر حصانه، ومات فوق البقعة، وحكم على رينير أيضاً بالنفي، وهو الذي كان قائد المشاة، وكان من عادته إحراق الديرة وتهديمها، وعندما كان يعبر البحر، فجأة وقفت السفينة من دون حركة في المياه، وعندما ضرب البحارة القرعة، وقعت القرعة ثلاث مرات على رينير، وبناء عليه وضعوه في قارب صغير مع زوجته ومع أولاده وكل ماكان يمتلكه، وغرق القارب على الفور، وهلكت جميع الأسرة التعيسة، في حين أبحرت السفينة فوق بحر هادىء، من دون صعوبة أو عوائق.

وفي السنة نفسها جرى استقبال غيوفري دوق أنجو بشكل رسمي

لائق من قبل سكان روان، وحمل منذ ذلك الحين لقب دوق نورماندي.

استيلاء الملك ستيفن على قلعة فارنغدون

سنة ١١٤٤م، فيها طرد الملك ستيفن ايرل غلوستر مع عدد آخر من أعدائه، من أبنية قلعة فارنغدون Faringdon ، واستولى على تلك البلدة، وأبقاها محفوظة من قبله.

كيف أسر الملك ستيفن ايرل أوف شستر

سنة ١١٤٥م، فيهـا اعتقل الملك ستيفن رالف ايرل شستر، أثناء قدومه إليه بطريقة سلمية إلى نورثأمبتون Northampton، وأبقاه في السجن، حتى أعاد إليه قلعة لنكولن، مع الحصون الأخرى، التي احتفظ بها بين يديه، وهكذا حمل الملك تاجه بشكل رسمي إلى لنكولن.

كيف عبر هنري الملك المستقبلي إلى نورماندي

سنة ١١٤٦م، فيها عبر هنري ابن دوق أنجو والامبراطورة ماتيلدا إلى بك Bec في نورماندي، حيث احتفي به كثيراً من قبل الدير، وصار في السنة نفسها وليم دي سينت بربارة، عميد يورك، أسقفاً لدرم، ومات في هذه السنة أيضاً غيوفري، صاحب الذكرى الجليلة، ورئيس دير القديس ألبان، الذي كان رائد الشهداء الانكليز، وقد جاء موته بعدما حكم ذلك الدير بطريقة مرضية جداً لمدة ستة وعشرين عاماً، وحرمت هذه الكنيسة من راعي لها من ٢٥— شباط إلى أيام الابتهال قبل عيد الصعود التالي، عندما انتخب الرهبان رالف غوبي Gubby، وكان راهباً من كنيستهم، كما كان جيد التعليم، ورجلاً جيداً، وعندما جرى الانتخاب، جاء الملك ستيفن إلى سينت ألبان في يوم الصعود، وعن طواعية قدم موافقته في أن يكون يصبح رالف المتقدم ذكره، راعياً ومات في السنة نفسها أسيلين Ascelin ، أسقف روكستر، وكذلك روجر أوف شستر، وروبرت أوف هيرفور، وقد خلف أسيلين ولتر

رئيس شمامسة كانتربري، وخلف روجر، وولتر رئيس رهبان دوفر، وخلف روبرت، غيلبرت رئيس دير رهبان غلوستر، وفي السنة نفسها خلف هنري— الذي كان راهبا من رهبان دير السسترشيان— ثورستان في رئاسة أساقفة يورك، وظهر في تلك الآونة مذنب حيث بقي عدة أيام في الغرب، مضيئا السماء بأشعته إلى مسافة عظيمة من حوله.

حول الخلاف الذي ثار بين البابا يوجينيوس والملك الفرنسي

وقدم في السنة نفسها البابا يوجينيوس إلى باريس، حيث تولى تكريس واحداً اسمه بطرس، كان حفيداً لإيميرك Aimeric مستشار الحضرة البابوية، كرسه ليكون رئيس أساقفة لبورغ Bourges، على الرغم من معارضة لويس ملك فرنسا، وغضب الملك كثيراً لدى هذا الاعتداء على كرامته، وأقسم على الآثار المقدسة، بحضور كثير من الشهود، بأن رئيس الأساقفة المذكور سوف لن يدخل مدينة بورغ، مادام هو شخصياً في الحياة، ولهذا السبب عاش هذا الملك لمدة ثلاثة أعوام تحت الحرمان الكنسي، ولذلك كان أينما ذهب إلى أية مدينة، أو بلدة، و قلعة، تعلق القداسات الدينية هناك، وأخيرا أمكن باقناع له من برنارد راعي دير كليرفو، أن غيّر الملك موقفه، واستقبل رئيس الأساقفة، واعتذر عن ذنبه، ووعد بأنه سوف يذهب إلى الحج إلى القدس، ولهذا السبب والغرض جرى تحصيل جبايات عامة جرى فرضها في جميع أنحاء غاليا، ولم يُعف أحد لجنسه أو لمرتبته، أو لمكانته من الدفع أو قبل عذره عن تقديم العون إلى الملك، ولهذا السبب لحق حجه اللعنات من قبل رعيته، كما سوف تظهر الرواية المقبلة.

كيف عقد البابا يوجينيوس مجمعاً في ريمس من أجل انقاذ الأرض المقدسة

وفي هذه السنة نفسهـا، في أيام الابتهال الكبير، جـرى استقبال البـابا يوجينيوس بمسيرة مهيبة في جنيف، وضرب خدم الكنيسة بالعصي كهنة ورجال مـولانا البابا، وأراقوا دمـاءهم داخل جدران الكنيسـة، وعقوبة على هذا التجـاوز من قبل الخدم، جـرى هـدم البناء، وطرد الرهبـان النظاميين من أمـاكنهم، وغـادر البـابـا من هناك إلى ريمس حيث عقـد هناك مجمعـاً، فيـه أدان هرطقـة يدو Eudo، النبي المزيف، الذي فيما يتعلق بتعـويذاته وخيـالاتـه، من الأفضل أن لانقـول شيئاً، وعين في المجمع أيضـاً أشخـاصـاً للتبشير حـول ارسـال المسـاعـدة إلى الأرض المقدسـة، التي كانت تحت ضغط شـديد من قبل المسلمين، الذين تجولوا فيها من دون معارضة، وذهبـوا إلى حيث ماأرادوا، وبناء عليه، وبسبب تبشير برنارد رئيس دير كليرفـو، حمل كـونراد امبراطور الرومـان شـارة الصليب، ومعه حشد كبير من أشخاص آخرين.

وفي شهر أيار المقبل، انطلق الامبراطور على رأس سبعين ألف فارس مسلح، ولحقـه أيضـاً لويس ملك فـرنسا، مـع عدد مسـاوٍ من الرجـال المسلحين، وكـان عازمـاً على الزحف على طريق منفصل، حتى يمكنهم بصـورة أفضل الحصـول على المؤن لأنفسهم ولخيـولهم، وبعـدمـا عبروا بافـاريا، والدانوب، والنمسا، وهنغـاريا، ومقـاطعتي بانونيا، وبلغـاريا، ومـاشيـا Maesia، وداشيـا، وصلوا أخيراً إلى تراقيـا، ومن هناك تابعـوا سيرهـم إلى القسطنطينيـة، حيث هناك اجتمع الامبراطور والملك مع الامبراطور مـانويل، ثم إنهم عبروا البـوسفور الذي يشكل حـدود أوربا، ودخلوا إلى بيثينيا التي هي أول مقاطعـات آسيا، ونصبوا خيامهم في منطقة خلقيدونية.

وعندمـا عبر الامبراطور كـونراد البـوسفـور، كـانت غـلاطيـة، وبافـلاغـونيـا ومقاطعتـي بنطش على يسـاره، وفريجيـا، وليـديا، وآسيـا الصغري، على يمينـه، ثم زحف خلال بيثينيـا وبتركه نيقيـة على يساره،

وصل إلى ليكونيا.

حول الخيانة المقيتة لامبراطور القسطنطينية

ولدى سماع سلطان قونية بوصول مثل ذلك العدد الكبير من الأمراء، عمل طويلاً من أجل جمع نجدات من جميع بلاد المشرق، وركز تفكيره كله على انقاذ نفسه من الخطر الداهم، فحشد عساكره واتخذ موقفه على حدود ليكونيا، حتى يمكّن نفسه، إذا واتاه الحظ ووافقه المكان من ايقاف زحف العدو، وزود امبراطور القسطنطينية امبراطور الرومان بأدلاء، بسبب مصاعب المنطقة، التي سوف يزحف مع قواته خلالها، لكن هؤلاء الرجال— كما قيل— مارسوا الخداع المعهود للاغريق، وقادوا الجيش خلال القفار، حيث امتلك العدو فرصة جيدة للقتال، مع مزية أن الجيش المتقدم جاهل بالمنطقة، ولدى رؤية السلطان الصليبيين وقد انشغلوا في ممرات تلك القفار، انقض عليهم، وهم غير حذرين، وجاء هجومه مع عساكره الممتطين لخيول نشيطة، ومعلوفة بشكل جيد، في حين كان جند الرومان ضعفاء بسبب ثقل أسلحتهم ودروعهم، وكانوا يمتطون خيولاً نصف جائعة، ولذلك كانوا غير قادرين على مقاومة العدو، وأعقب ذلك مقتله رهيبة، وبقدر من الرب الخفي، ولكن العادل، بالكاد بقي من السبعين ألف فارس مسلح، مع مثل هذا العدد من الرجالة، عشرهم، فهؤلاء هم الذين نجوا، وهلك البقية بالسيف وبالجوع، أو أنهم أسروا، وحملوا إلى المعتقلات من قبل العدو.

كيف خدع الامبراطور نفسه الملك الفرنسي وجيشه

سنة ١١٤٧م، فيها وصل الامبراطور كونراد في بداية الربيع، بالسفن إلى عكا، وتابع من هناك سيره إلى القدس، حيث جرى استقباله من قبل الملك بلدوين ومن قبل رجال الدين والشعب بالترانيم وأغاني الحمد،

وجرت مرافقته إلى داخل المدينة المقدسة، ووصل في ذلك الوقت لويس ملك فرنسا، إلى مخاضات نهر ميناند، وجاء ذلك إثر لحاقه بالامبراطور، وبعد رحلة متعبة، وكان على رأس سبعين ألف رجل مسلح، وذلك إلى جانب الاسطول الذي لحق به، وعند النهر، ولدى محاولة الفرنسيين العبور، وجدوا الضفة المقابلة محتلة من قبل جيش المسلمين، الذين قاوموا عبورهم، ولكن أخيراً عندما وجدوا المخاضات، هزموا الأعداء، وقتلوا كثيراً منهم وأرغموا البقية على الفرار، وجمعوا بعد هذا الأسلاب، وفرحوا بالنصر الذي نالوه، وعبروا من هناك إلى لوديسيا، فوصلوا إلى جبل مرتفع، كان من الصعب صعوده، هذا وكان من عادة الفرنسيين، اختيار بعض أشجع عساكرهم، للسير في الأمام، وأن يتبعهم البقية من الخلف، من أجل حراسة أثقال سواد الناس الذين كانوا من غير العسكريين، وللإعداد مع الأمراء حول طريقة الزحف وحول كمية مؤنهم.

وكان في ذلك اليوم النبيل غيوفري دي رانكون Rancon هو الذي يقود المقدمة وعندما وصل إلى قمة الجبل، انقض الأتراك على حين غرة على الجناح الفرنسي، ذلك أنهم كانوا يتبعونه من أجل مفاجئته وقد حطموا الصفوف الفرنسية، وحدث في ذلك اليوم حادث مأساوي، سقط فيه فخار فرنسا وشجعانها، الذين كانوا غارقين في عمى آثامهم، حيث لم يجلبوا معهم تقديماتهم السرية للرب، لكن الملك ماكان ليتحول عن مقصده بسبب هذه المأساة، وانطلق على رأس القوات مع الملكة إليانور، وقد وصل أخيراً إلى القدس، حيث جرى استقباله بترحاب من قبل الملك الشعب، وتعاطفوا معه تجاه المأساة التي حلت به.

كيف حوصرت دمشق من قبل الأميرين المتقدمي الذكر وخيانة الأمراء الشرقيين

وعندما انتهت الصلوات المعهودة، دعا الامبراطور الروماني إلى

اجتماع مع ملكي القدس، وفرنسا، للتباحث حول كيف سيعملون لضمان ثمار هذا الحج العظيم، من أجل منفعة الأرض المقدسة، وتقرر أخيراً بالاجماع القيام بحصار دمشق، التي أنزلت أضراراً كبيرة بالصليبيين، وبعد القيام بالاستعدادات، زحفوا نحوها حتى اقتربوا منها، ثم إنهم زحفوا متقدمين نحو النهر القريب من أسوار المدينة، حتى يتمكنوا من الحصول على الموارد المائية، وقد وجدوا على ضفافه حشداً كبيراً من العساكر، قد اصطفت عند الضفة، وبذلك لم يكن بإمكان لاملك القدس ولاملك فرنسا الاقتراب من النهر، وعندما وصلت أخبار ذلك إلى الامبراطور كونراد، زحف وهو غاضب، من خلال العساكر الفرنسيين، ووصل إلى ميدان العمل، وضرب واحداً من الأتراك المتقدمين، وكان قد اعترض سبيله، ضربه بسيفه ضربة شديدة فصلت رأسه عن الخوذة مع رقبته ودرعه وسابغته، وذراعه الأيسر وجزء من طرفه الأيسر عن بقية جسده، وبذلك أرعب الأعداء، إلى حد أنهم تركوا النهر وهربوا، وبذلك نال الصليبيون السيطرة على ضفة النهر، وبما أنه صار بإمكانهم الوصول إلى المدينة من دون عوائق، ألقوا الحصار عليها من جميع الجوانب، وبعدما استمر الحصار لبعض الوقت، خاف السكان من شجاعة الصليبيين وأعدادهم، فجمعوا أثقالهم وقرروا تأمين نجاتهم بالفرار أثناء الليل.

لكنهم سعوا أولاً، وقد وجدوا أنفسهم غير قادرين على التغلب على رجالنا بقوة السلاح، أن يفسدوا عقولهم بالرشاوى، ودفعوا مبالغ كبيرة من المال إلى بعض أمرائنا من المشارقة، الذين تعهدوا بشكل خياني برفع الحصار، ولتحقيق هذا الغرض، تحدثوا إلى الامبراطور وإلى الملك عن مصاعب الحصار، ونتيجة لهذه الريبة، وللتخلي المخادع للأناس الشرقيين، قام جميع جنود الغرب، وعلى رأسهم الامبراطور والملك الفرنسي بالعودة إلى بلدانهم عبر الطريق نفسه الذي قدموا منه، ومنذ

ذلك الوقت شعـــروا بالعـداوة العظمى، ليس فقط نحـو الـذين كـانوا مسؤولين عـن الخيانة، بل أيضـاً نحو جميع أمراء الشرق، وأيضـاً جعلوا آخرين فاتري العزيمة نحو مسألة الحج.

وفي السنة نفسهـا جـرى تنصيـب روبرت دي كيسني Chaisney رئيس شمامسة ليكستر، أسقفاً للنكولن بعد الاسكندر، والذي نصبه هو ثيـوبولد رئيس أسـاقفـة كـانتربري، وكـرس أسقفاً بعـد صـوم الشهـر السابع.

كيف جرى قتل ريموند أمير أنطاكية من قبل الأتراك

سنة ١١٤٨م، فيهـــا دخـل نور الدين بـن زنكي، بعـــد مغـــادرة الامبراطور وملك فـرنسا، إلى أراضي أنطاكيـة، وكـان نور الدين أعظم أمـراء الترك قـــوة، وقـد ألقى الحصـار على قلعـة إنـب، وضـده زحف ريمـــوند أمير أنطاكيـة، على رأس جيشــه، ولكن لأنه لم يجمع جيشـــه بالعناية الكافية، ولابالعدد الكافي، جرى قتل ريموند مع عدد من نبلائه في المعـركة، وتابع نور الدين زحفـه من دون عـائق لإلقاء الحصـار على قلعة حارم، وشعث المنطقة المجـاورة كلها، حتى قدوم ملك القدس مع جيش قوي حيث أرغمه على التراجع.

وفي السنة نفسهـــا، قــام داوود ملك الاسكوتلنديين، في أيام أحـــد العنصرة بتنصيب هنري فارساً، وهو الـذي كان آنذاك دوق نورماندي، وكان الابن الأكبر لغيوفري بلانتغنت، من خلال ابنة أخته الامبراطورة السالفة ماتيلدا.

كيف أعطى الدوق غيوفري نورماندي إلى ابنه هنري

سنة ١١٤٩م، فيها قام غيوفـري دوق نورماندي، بإعطاء الدوقية إلى ابنه هنري، التي كانت ميراثه من جهـة أمه، وذلك على الرغم من حظر الملك الفرنسي، وبذلك توفر سبب لنشوب خلاف بين الملك والكونت.

كيف تلقى الملك لويس الولاء من الدوق هنري

سنة ١١٥٠م، فيها قدم الملك لويس مع يوستاس ابن الملك ستيفن على رأس جيش كبير، إلى أمام برج أسكي، وكان ذلك نتيجة للخلاف الذي تقدم ذكره، وكان الدوق هنري دوق نورماندي أيضاً موجوداً، وكذلك والده غيو فري كونت أوف أنجو، مع قوة لابأس بها من أنجو، وبريتاني، ونورماندي، ورأى القادة من على الجانبين أنه إذا ماوقعت الحرب بين الطرفين، لن ينقضي ذلك من دون إراقة للدم، فبدأوا يفكرون بمحاولة الوصول إلى وفاق، وبناء على ذلك، وبفضل وساطة الأصدقاء، تلقى الملك الفرنسي الولاء من هنري دوق نورماندي، وعلى ذلك افترق الطرفان على سلام، وبناء عليه، أخذ الدوق هنري مع نبلائه بالإعداد للعودة إلى انكلترا، لكن حدث أن والده غيوفري الذي كان مريضاً مرضاً خطيراً، قد توفي في قلعة سيري Seriفي اليوم الثالث عشر من شهر ايلول، وبوفاته صار ابنه هنري الكونت لأنجو والدوق لنورماندي.

وفي السنة نفسها، وقع رالف راعي دير سينت ألبان مريضاً، فقام بناء على نصيحة الدير كله بتعيين روبرت دي غورهام Goreham، الذي كان رئيساً للكنيسة نفسها، وكلفوه في أن يكون نائبه، وأن يحكم الدير عوضاً عنه.

حول المراطقة الذين اسمهم الحشيشية

وجرى في السنة نفسها قتل ريموند كونت طرابلس، من قبل الحشيشية، وكان رجلاً قوياً وشجاعاً، وبكى موته بلدوين ملك القدس مع جميع الناس، لأنه كان مصدر خطر عظيم على المسلمين، وعلى أمراء المسلمين، وكانت هناك فئة من الناس، سكنت في الجبال، في منطقة صور في فينيقيا حول أسقفية طرطوس، وكان بأيدي هؤلاء عشر قلاع،

مع مناطق واسعة ملكاً لهم، وقد بلغ تعدادهم إلى ستين ألف رجل، أو أكثر، ولايأخذ هؤلاء القوم بمبدأ وراثة السلطة، بل يعتمدون الفضائل الشخصية، وينتخبون واحداً مقدماً لهم وسيداً وحاكماً، يطلقون عليه لقباً واحداً، هو لقب« شيخ الجبل»، وقد تعهدوا بطاعته دوما وبلا تردد في كل شيء، مهما كان الأمر صعباً وخطيراً، وكان هؤلاء، إلى جانب المناسبات الأخرى، إذا ما اتخذوا أي أمير هدفاً لكراهيتهم، أو موضع ريبتهم، يتسلم واحد منهم أو أكثر مدية من مقدمهم، وينطلقون دون إعطاء أدنى اهتمام لنتائج عملهم أو العقوبات الناجمة عنه، فيتوجهون إلى مكان إقامة ضحيتهم، فيجعلونه هدفهم الوحيد وموضع اهتمامهم حتى يقضى لهم باغتياله، ويعرف هؤلاء القوم باسم الحشيشية من قبل المسلمين والصليبيين سواء، لكن أصل هذا الاسم غير معروف، وقد مضى عليهم أربعمائة سنة وهو يرعون شرائع وتقاليد المسلمين، ومامن أحد يمكن مقارنته بهم بالطهارة والغيرة، وكان رئيسهم في هذه الأيام الأخيرة رجلاً غاية الفصاحة، والبراعة، والاخلاص، وهو بالاضافة إلى عادات أسلافه، قد حصل على كتاب الأناجيل، وعلى كتابات الرسل، حيث درس المعجزات المسيحية وأفكارها، وهذا ماجعله يتخلى عن شرعة محمدﷺ.... والتحول إلى الشرعة الحلوة الفضيلة العائدة للمسيح، وقد شرع الآن بهدم المساجد التي استخدمها شعبه من قبل، وجعل شعبه يصلي وفقاً لعادات المسيحيين، وبدأ يرغب بالقبول في الحظيرة المسيحية، وبناء عليه، أرسل واحداً من رجاله، وكان انساناً حكيماً ومخلصاً، إلى الملك بلدوين، ملك القدس، من أجل أن يتمكن بوساطته من الحصول على تكريس المعمودية، لكن الشيطان الذي هو دائماً غيور من تقدم الكنيسة، لم يسمح لهذا بالحدوث، لأن رسول هؤلاء القوم المتقدم ذكرهم قد جرى قتله من قبل فرسان الداوية، مما ألحق ضرراً بالكنيسة، وهذه النية، التي بدأت بشكل مخلص، لم تكتمل حتى اليوم الحالي.

وفي هذه السنة نفسها جرى طلاق لويس ملك فرنسا من الملكة اليانور، لأنهما كانا قد ارتبطا أحدهما بالآخر بالدرجة الرابعة من قرابة العصب.

كيف تزوج هنري دوق نورماندي من اليانور

سنة ١١٥١م، فيها تزوج هنري، دوق نورماندي، من الملكة اليانور، التي تطلقت في العام المتقدم من الملك لويس، وقد حصل بوساطة هذا الزواج على دوقية أكوتين، وكونتيه بواتو، وذلك بالاضافة إلى دوقية نورماندي، وكونتيه أنجو، وعندما سمع الملك لويس بهذا بات غاضباً غضباً شديداً ضد الدوق هنري، لأنه امتلك ابنتين من اليانور المتقدمة الذكر، وهاتان سوف تحرمان من الميراث إذا ماولدت، ولداً من أي زوج آخر، وبعد عيد القديس يوحنا، عندما كان الدوق هنري في باربيفلور Barbefleure وهو على طريقه إلى انكلترا، زحف ملك فرنسا، ومعه يوستاس ابن الملك ستيفن، والكونت روبرت دي بيرشي Perche، وهنري كونت أوف شامبين، وغيوفري أخو الدوق هنري، على رأس جيش كبير، لتجريد هنري من نورماندي، وأنجو وأكوتين، ومن جميع ممتلكاته الأخرى، التي توافق هؤلاء الأمراء الخمسة على اقتسامها فيما بينهم، واجتمعوا كلهم من أجل هذه الغاية في نوفمارشي Neufmarche— التي ألقوا عليها الحصار، وبعثوا بغيوفري شقيق الدوق على رأس قوة كبيرة لمهاجمة أنجو، ولدى سماع الدوق هنري بهذه الأعمال زحف من باربيفلور، ليرفع الحصار عن القلعة، لكنه قبل أن يصل وجدها قد استسلمت إلى الملك الفرنسي عن طريق خيانة الحامية، وكأنها سقطت عنوة.

ثم أقام الدوق هنري معسكره قرب أنديل Andelle، ونهب شطر فكسين Vexin القائم بين نهري إيكا Icca وأنديل، وكانت هذه المنطقة تابعة إلى دوقية نورماندي، لكن غيوفري كونت أوف أنجو أعطاها

بشكل مؤقت إلى الملك لويس، وأحرق هنري أيضاً قلاع: باسكرفيل Baskerville، وشيتري Chitrey، وستيربنـــي Stirpiney، وهي قلاع كانت عائدة إلى أعدائه وذلك إلى جانب قلعة هيوج دي غورني Gornay، التي اسمهـا كـافيري La Ferte، لأن هيوج هذا رفض تقديم خدماته المتوجبة، ثم إنه أحرق قلعة بروبول Brueboles، وأخرى اسمها فيل Ville، ثم دخل من هناك إلى نورماندي حيث ألحق أضراراً بالغة برتشارد دي أقويلا Aquila، الذي كان زاحفا ضده مع مساعدة لأعدائه، وأحرق قلعته بونفيل Bonnville، وفي حوالي شهر آب، وضع الدوق عساكر لحراسة نورماندي، ومن ثم أخذ طريقه إلى أنجو، وألقى الحصار على قلعة جبل سورل Sorel، التي كان فيها وليم صاحب القلعة، الذي آثر قضية أخيه، وكان معه عدداً من الفرسان الآخرين، وجرى أسر هؤلاء جميعا، وبهذه النازلة تمّ ارغام أخيه غيوفري على إقامة سلام.

وفي الوقت نفسه اغتنم ملك فرنسا فرصة غياب الدوق، فدخل إلى نورماندي فأحرق شطراً من بورغ ريغولر Bourg Reguliar مع قرية تابعـة لقلعـة فيرنيل Verneuil، ثم أمكن بوساطة تدخل رجال الدين إقامة هدنة بين الملك والدوق.

وقدم في هذه السنة أيضاً الملك ستيفن إلى سينت ألبان، وأخبر هناك بمرض راعي الدير رالف، وأعطى هناك بناء على وساطة الأساقفة ورجال الدين الآخرين، إلى الرهبان امتيازاتهم في انتخاب راعي الدير، وبهذا الإذن انتخبوا بالاجماع رئيسهم روبرت غورهام Gorham، الذي تبعاً لذلك تلقى المباركة المعتادة في ١٧— حزيران، ومات سلفه بعد تسعة عشر يوما من انتخابه، ودفن مع الاحترام المستحق، في بيت الكهنة مع الرعاة الآخرين، وفي السنة نفسها أوحي إلى رجل في المنام بأنه إذا ماقطع يديه ورجليه، فلسوف يضمن خلاصه الأبدي، وتبعا

لذلك نفذ هذا العمل، فمات إثر ذلك على الفور.

وفي تلك السنة، في يوم تمجيد الصليب المقدس، ماتت ماتيلدا زوجة الملك ستيفن، وحدث موتها في هينغهام Hiangeham ، وهي قلعة تابعة للكونت ألبيرك دي فير Ver ، ودفنت في دير فيفرهام Faversham ، الذي كان الملك ستيفن قد بناه، وفي السنة نفسها جرى تعيين يوحنا، راهب أوف سيز Seez ، أسقفاً ثانيا لجزيرة مان Man ، الواقعة فيها بين انكلترا وايرلندا، ولكن أقرب إلى انكلترا، ولهذا السبب أسقفها تابع لرئيس أساقفة يورك، وكان أول الأساقفة هناك هو ويمسوند Wimund، وهو راهب من سيفني Savigny ، ولكن لفساد سلوكه جرى حرمانه من النظر، ونفي، ومات في السنة نفسها وليم، أسقف درم، وغيوفري[أوف مونماوث Monmouth] الذي لقبه آرثر، وهو الذي ترجم تاريخ البريطانيين من البريطانية إلى اللاتينية، وكان قد عمل أسقفاً لسينت آساف Asaph في شمالي ويلز، وقد تقرر من قبل مجمع الرهبان السسترشيان عدم تأسيس أية ديرة جديدة لطائفتهم، لأن عددهم كان قد تجاوز الخمسمائة، وجرى اعفاء جون بابيرو Rapiroالذي كان كاردينالاً في تلك الآونة، من وظيفة النائب البابوي، في ايرلندا، حيث أقام أربع رئاسات أساقفة، وأثناء مرور هذا النائب البابوي في انكلترا أقسم يمين الولاء للملك ستيفن.

حول الطريقة الاعجازية التي أفحمت فيها هرطقة هنري

في هذه الآونة، كسبت عقيدة هنري المهرطق الفاسدة، كثيراً من القوة خاصة في غاسكوني، حتى أثار الرب روح فتاة شابة في تلك المنطقة، قامت بنقضها، لأن الهرطقة التي دعا إليها وبشرّ بها كانت مناقضة لمبادىء الإيمان، فقد تمددت هذه الفتاة لمدة ثلاثة أيام من كل أسبوع دونما صوت، أو شعور، أو تنفس، وعادت بعد ذلك إلى وعيها حيث

قالت بأن العذراء المباركة قد صلّت من أجل الشعب المسيحي، وأن القديس بطرس قد علمها العقيدة الكاثوليكية، ولذلك جادلت بحكمة بالغة حول العقيدة الكاثوليكية، وتمكنت بشكل خاص من دحض هرطقة هنري، وأعادت إلى صدر الكنيسة كثيراً ممن كان قد أضلهم.

حول بعض الأعمال الخالدة للامبراطور كونراد

ومات في السنة نفسها الامبراطور كونراد، وكان رجلاً حكيماً، ومستقيماً، وعنه قد قرأنا بأنه عندما كان حاضراً في أحد الأيام القداس اللاهوتي في اليوم الأول من أحد العنصرة، في احدى المدن، بحضور رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والأمراء العائدين للامبراطورية، نشب خلاف أثاره الشيطان بين رجال الدين المتقدم ذكرهم، وكان ذلك حول من منهم سيكون الأعلى مرتبة في الصف الكاتدرائي، وأن يكون الأقرب بالجلوس إلى جانب الامبراطور، وعندما كان الأساقفة ورجال الدين الآخرون يتخاصمون حول هذا، اندفع خدمهم بسيوف وهراوات، واقتلعوا الفئة الأولى من مقاعدها، لكن ليس من دون ضراب، ووضعوا الفئة الأخرى في مكانها، وحطموا الحواجز والمنصات من على كل جانب، وسفكوا كثيراً من الدماء في الصرح المقدس، وانزعج الامبراطور كثيراً تجاه هذا المشهد، وأمر خدمه بطرد أولئك المنشقين من الكنيسة وتهدئة الاضطراب، وكان هذا مافعلوه، وانتقد الامبراطور رجال الدين بحدة، وأمرهم بالتكفير عن خرقهم لحرمة الكنيسة، خشية أن يغضبوا الروح القدس، وإلاّ فإنه سيرفض حضور القداسات في مثل هذه المناسبات المهيبة، وبذلك هدأ الاضطراب، وتمّ عمل التكفير، حسبما هو مطلوب، وبدأت أعمال القداس، دونما التفات إلى أنه كان قد بدأ بمثل تلك الأعمال الطائشة، كما أظهرت الواقعة بوضوح، ومع ذلك تابعوا حتى وصلوا إلى قراءة الانجيل، لكن حدث أنه عندما شرع المرتلون بغناء البيت التالي:« أنت عملت هذا اليوم يوماً

مجيداً» رفع الشيطان صوته عالياً، وقال بشكل واضح، حتى أنه سمع من الجميع:« أنا عملت هذا اليوم يوم حرب» ولدى سماع هذا الصوت المتميز، نظر كل واحد نحو الآخر متسائلين عما يمكن أن يعني هذا، ثم إن الامبراطور، الذي كان رجلاً مخلصاً، وعبداً تقياً للرب، أدرك بأن هذا كان صوت الشيطان أراد عن قصد توبيخ الأساقفة والسخرية منهم ومن انقساماتهم، ولذلك أمر على الفور، بأن يقوم رئيس الأساقفة بالتوقف عن متابعة القداس، حتى تتم أعمال التكفير، لأن الروح القدس قد أغضب كثيراً، وهي التي اعتادت في مثل هذا الوقت على إنارة قلوب المؤمنين بكثير من الهبات الخفية.

ثم إنه أرسل جميع خدمه للتجول بشوارع المدينة والقيام بجمع كل الفقراء والعجزة، وحشدهم في داخل الكنيسة وفي خارجها، أي الكنيسة التي خرقت حرمتها، وقد أطعم الجياع، وأعطى شراباً إلى العطاش، وكسى العريانين، وأعطى أحذية إلى الذين احتاجو إليها، وفعل الشيء نفسه إلى الشيوخ والمتقدمين بالسن، والمتمددين في فرشهم، في جميع أرجاء المدينة، كما أعطى كل واحد منهم قطعة من الذهب، وطلب منهم جميعا الدعاء بطلب الرحمة الربانية، حتى لاتلحق الناس جريره تشامخ رجال دينهم، ولكي لاتحرمهم من حضور روح قدسه، فضلاً عن هذا خلع الامبراطور ثوبه الأرجواني، وارتدى ثوباً من المسوح، وسار على أرض الكنيسة حافي القدمين، حيث تولى خدمة الفقراء، وضرب مثلا للجميع في تقديم الصدقات وفي التواضع، حتى رأى هذا الأمير المجيد أن بلاط الكنيسة قد تبلل بالدموع، وهو الذي كان قد تلوث بالدماء من قبل، ثم أعطى بثقة الأوامر بوجوب الابتداء بالقداس، وقد أنهوا القداس بأعظم خشوع، وعندما وصلوا إلى ذلك البيت:« أنت عملت هذا اليوم يوماً مجيداً»، أمر الامبراطور بتكرار بيت الشعر من قبل جوقة المرتلين الثالثة، كطريقة للتعبير عن الانتصار على

الشيطان، وبعد الفراغ من ذلك أمر الجميع بالصمت لبعض الوقت، ليستمع هل سيقول العدو القديم شيئاً سخرية كما فعل من قبل، إنما بعدما انتظروا لبعض الوقت، ولم يسمعوا شيئاً، قال الامبراطور: «كونوا على ثقة بأن عدونا قد غادر وهو مضطرب»، وعندها ابتهج الجميع بالرب، وأوصلوا القداس إلى نهاية سعيدة، ومجدوا الروح القدس، التي ألهمت الامبراطور بهذا الرأي السديد، وقد خلفه في حكم الامبراطورية الرومانية حفيده فريدريك.

مات في هذه السنة البابا يوجينيوس ومات معه عدد كبير من الرجال الأغنياء

عام ١١٥٢م، فيه مات في شهر حزيران البابا يوجينيوس، وقد خلفه أناستاتيوس، وقد مكث في منصبه سنة واحدة وأربعة أشهر، وأربعة وعشرين يوماً، وجرت في هذا العام سيامة رتشارد دي بومي Beau-meis رئيس شماسة مدكس، أسقفاً للندن، وفارق هذه الحياة برنارد راعي دير كليرفو، وهنري مورداك Murdach رئيس أساقفة يورك.

وفي هذا العام، عندما كان يوستاس ابن الملك ستيفن ذاهباً لنهب أراضي القديس ادموند الشهيد، بتره الموت، وقد دفن في دير فيفرهام، الذي كان أبوه ستيفن قد بناه، ومات في العام نفسه داوود ملك الاسكتلنديين، وقد خلفه حفيده مالكولم.

كيف نزل الدوق هنري في انكلترا مع قوة

في هذا العام نفسه عبر إلى انكلترا هنري دوق نورماندي وأكوتين، وكونت بواتو وأنجو مع ست وثلاثين سفينة وجيش كبير، وفي الثامن من عيد الغطاس حاصر قلعة مالمبري Malmesbury واستولى عليها، ثم تابع من هناك زحفه إلى كرومارش Crowmarsh، وألقى الحصار على القلعة، لكن تردد رسل بين الملك والدوق، وتمّ الاتفاق على أن

يقوم الملك بهدم تلك القلعة على حسابه، وهكذا تمّ التخلي عن الحصار، ولم يكن هذا بعيداً عن قلعة وولنغفـورد، كما تسلم الدوق، هنري ملكية قلعتي ردنغ وبرايتـول Brightwell ، وطردت غيمـــدرد Gimdred كـونتسـه ووروك عسـاكـر الملك هنري من القلعـة، وسلمت البلدة إلى الدوق هنري، الذي ازدهـرت قضيتـه بهذه الوسـائل كثيراً، وولدت في العام نفسـه اليانور زوجـة الدوق هنري له ولداً، أسماه وليم، وهو اسم عام بالنسبة لدوقات أكوتين، وكونتات أنجو.

حول المعاهدة بين الملك ستيفن والدوق هنري

عام ١١٥٣م، فيه عقد ستيفن والدوق هنري معاهدة في وولنغفورد، وجـاء ذلك بفضـل عـدالة السماء، وحـرص ثيـوبولد رئيس أسـاقفـة كانتربري وأساقفة المملكة، وجاءت المعاهدة كما يلي: بما أن الملك ستيفن محروم من الورثاء، باستثناء الـدوق هنري فقط، لذلك جـرى الاعتراف خلال اجتماع كامل للأساقفـة مع نبلاء المملكة الآخرين، بالحق الوراثي للدوق هنري إلى مملكة انكلترا، ووافق الدوق بلطف على أن يقوم الملك ستيفن بـالتمتع بالسلطة، كما يـريد، حتى وفــاته، عـى شرط أن يقسم الملك، والأسـاقفة، ونبـلاء المملكة الآخـرين، على أنه بعد وفـاة الملك، سـوف يتـولى الدوق— إذا كـان وقتهـا حيـاً— السلطة من دون أية معيقات، وبذلك تحققت نبوءة ميرلين Merlin التي تقول« سوف تؤذي التقـوى الذي استحـوذ على الأشيـاء من دون تقـوى حتى يتملك(أي يتبنى) أباً» فمن الواضح: أن الملك ستيفن قـد تبنى هنري ليكون وريثـاً له، مع أنه لم يكن ابنه، وجعله شريكاً في المملكة، وخليفة له بعـد وفاته، وانحنـى الجميع إلى الـدوق على أنه هـو الملك، وإلى الملـك على أنه هـو الدوق.

ومنذ الآن فصاعـداً سوف يستعيد الملك سلطاته الملكيـة، التي جرى اغتصابها في كل مكان من قبل نبلائه، وسوف تعود الأراضي التي جرى

نهبها، الآن، إلى أصحابها الشرعيين، الذين كانوا في أيام الملك هنري، وأما بالنسبة لقلاع المتمردين التي بنيت بمبادرة منهم في أيام الملك، وعددها ألف ومائة وخمس عشرة قلعة، سوف يجري هدمها الآن، وسوف يقوم الملك الآن باسكان المزارع بالعمال، ويعيد بناء البيوت التي أحرقت، وسيملأ المراعي بالقطعان، وسيغطي قمم التلال بالأغنام، ولسوف يفرح رجال الدين لاستعادة الهدوء الصحيح، ولن يتعرضوا بعد الآن للظلم بمكوس غير عادلة، وسيعاد تعيين العمد في أماكنهم المعتادة، ولن يعاني واحد منهم من الظلم، ولسوف يظهرون الآن الرعاية والعناية نحو أصدقائهم، ولن يهملوا الجرائم بالتورط بها، ولسوف يحمون كل انسان في ممتلكاته الخاصة به، ولسوف يعاقبون المجرم، وأما اللصوص وقطاع الطرق فستكون عقوبتهم المشانق والاعدام، وسوف يحول الجنود— تبعاً لإشعيا— سيوفهم إلى سكك محاريث، ورماحهم إلى مساحي، وسوف يعود الفلاح من المعسكر إلى المحراث، ومن الخيمة إلى ورشة عمله، وسيعود البقية مع السرور مع أتباعهم بعد متاعبهم في الحراسة، ولسوف يتمتع الريفي بالإستقرار بسلام وهدوء، ولسوف تغني التجارة التاجر، ولسوف يجري ضرب نقد واحد جيد، وعام، للملكة كلها، وهكذا فإن الحرب التي استمرت لمدة سبعة عشر عاماً، ودمرت المملكة كلها، قد انتهت بهذه الواقعة، إلى الأبد.

حول الفارس أون الذي تولى التطهر وهو حي

بعدما تأكدت المعاهدة التي أبرمت— كما روينا— بين الملك ستيفن والدوق هنري، حصل فارس اسمه أون Owen، كان قد خدم لسنين كثيرة في ظل الملك ستيفن، على إذن الملك، وذهب لزيارة والديه في ايرلندا، التي هي موطنه الأصلي، وبعدما أمضى بعض الوقت هناك، بدأ يستعيد من ذاكرته صورة حياته الشريرة، التي أمضاها منذ صغره في

النهب والعنف، وتأسف بشكل خاص من خـرقه لحرمة الكنائس، ومن غزو الممتلكات اللاهوتية، وذلك بالاضـافة إلى ذنوب أخرى كثيرة كان قد أجرم باقترافها، وذهب وهو في حالة الأسف والتوبة هذه إلى أسقف تلك البـلاد، الذي استمع إلى اعترافه، ولامـه بقسوة، وأكـد بأنه اقترف عدواناً عظيما ضد رحمة الرب، وبدأ الفارس يفكر حول كيف يمكنه أن يظهر توبة حقيقية عن آثامـه، ورغب الأسقف في أن يفرض عليه كفارة تكون عـادلة نوعـاً مـا، وعلى ذلك ردّ الفـارس:« إذا كنت تقـول بأنني أغضبت خـالقي إلى هذا الحد، فلســوف أخضع نفسي إلى كفـارة تكون قـاسيـة أكثـر من المعتـاد، ومن أجل إزالة ذنوبي، سـوف أتولى تنفيـذ الدخـول إلى مطهرة القـديس باتريك»، والرواية التاليـة هي التي أعطانا إياها مؤرخ ايرلندي قديم حول هذه المطهرة وأصلها.

حول طبيعة المطهرة المتقدم ذكرها

بينها كـان باتريك الكبير يبشر حـول عمل الرب في ايرلندا، ويكسب كثيراً من الاحترام بوسـاطة المعجـزات التي قـام بها هناك، رغب في أن يسترد من أعمال الشيطان ويخلص الناس ذوي الغــرائز البهيميـة لتلك البلاد، وذلك بوسـاطة التحذير من عذاب جهنم، والرغبـة بالسعادة في الجنة، لكنهـم أخبروه بأنهم لن يتحـــولوا إلى المسيح، مـــالم يريهم أولاً بأعينهم الأشيـاء التي أخبرهم عنهـا، وبناء عليـه، عندما كـان القـديس باتريك، متوجهـا نحو الرب، وهو صـائم، وسهران، ومصلي، من أجل إنقـاذ ذلك الشعب، ظهـر ابـن الرب إليـه، واقتـاده إلى مكان مهجـور، حيث أراه كهفاً مستـديراً، ومظلماً في الداخل، وقال له:« إن كل من هو في توبة حقيقيـة، وإيمان ثابت، وسـوف يـدخل إلى هذا الكهف لمدة يوم وليلة، سـوف يتطهر من جميع الذنـوب، التي اقترفها ضـد الرب، طوال حيـاته كلهـا، وهو سـوف لن يـرى فقط عـذاب الشقي، بل إنه إذا مـا حـافظ بثبـات على محبـة الرب، سـوف يكون أيضـاً شـاهداً على بهجـة

المباركين».

ثم اختفى المسيح، وكـان القـديس باتريك مسروراً لـرؤيتـه المسيح، ولاكتشافـه الكهف، وصار أخيراً واثقـاً من أنه سوف يكـون قادراً على تحويل النـاس التعســاء في ايرلندا إلى الايمان الحقيقـي بالمسيح، ثـم إنه قـام— بناء عليـه— على الفـور ببناء خلوة فـوق تلك البقعـة، وأحـاط بسور الكهف الذي كان في أرض مقبرة قائمة أمام الكنيسة، ووضع باباً هناك، وبذلك بـات من غير الممكن لأي انسـان الدخـول إلى هناك من دون إذن، ثم عين بعد ذلك هناك طائفـة من الرهبان النظاميين، وأعطى المفتـاح إلى رئيسهم، مـع أوامـر أنه كل من يأتي إلى رئيس الـرهبـان مع إجـازة من الأسقف في تلك المنطقــة، ينبغـي السماح له بالدخـول إلى المطهـرة، وحصل عدد كبير من النـاس على شرف ذلك الامتياز عندمـا كان القديس باتريك مايزال حياً، وعندمـا كانوا يخرجون كانوا يشهدون بأنهم شـاهدوا عذاب الأشرار، وكـذلك السعادة التي لايمكن وصفهـا التي تمتع بها الأخيار.

كيف بإذن من الأسقف دخل أون إلى المطهرة

وبناء عليـه ثابر الفـارس المتقـدم ذكـره على طلب الإجـازة المطلوبة، ولدى رؤية الأسقف اصراره منحه رسالة إلى رئيـس الرهبان، طالباً منه العمل وفق الطريقة المعتـادة، وبعدما قـرأ رئيس الرهبان الرسـالة، اقتاد الفـارس إلى الكنيسـة، حيث بقي مصليـا لمدة خمسـة عشر يومـاً، وبعـد انتهـاء هذه المدة، أقام رئيـس الرهبان أولاً قـداسـاً، وقدم إليـه القـربان المقدس، ثم اقتاده إلى باب الكهف، الذي كـان مفتوحـاً، ورش عليه الماء المقدس، وقال:« إنك سوف تدخل إلى هنا باسم يسوع المسيح، ولسوف تسير خلال الكهف حتى تصل إلى سهل مفتوح، حيث ستجـد قاعة قد بنيت بشكل بارع، ادخل إليها، ولسوف يرسل إليك الرب أدلاء يتولون اخبـارك بالذي يتـوجب عليك فعله»، ودخل الرجـل إلى هذا الموضع

للاصطراع مع الشياطين، بشجاعة، وعهد بنفسه إلى صلوات الجميع، ورسم على جبينه علامة الصليب المقدس، ثم اجتاز الباب بجرأة، وأغلق رئيس الرهبان الباب خلفه، وعاد في مسيرة إلى الكنيسة.

كيف وصل الفارس إلى القاعة المتقدم ذكرها وكيف دخل إليها

واجتاز الفارس بشجاعة خلال الكهف كله حتى صار وسط ظلام كامل، وأخيرا بدأ الضوء ينزل عليه من جديد، ووجد نفسه في السهل حيث كانت القاعة التي أخبر عنها، ولم يكن الضوء أكثر من ضوء الغسق، ولم تكن القاعة محاطة بجدران بل بأعمدة، مثل السدة داخل الدير، وقد دخل إليها، وجلس ينظر من حوله في جميع الاتجاهات، ويتعجب من جمال البناء، وبعدما جلس هناك لوقت قصير، دخل إلى القاعة خمسة عشر رجلاً في أردية بيضاء يشبهون السماويين وقد حلقوا شعورهم منذ وقت قصير، وجلسوا، وحيوه باسم الرب، والتزموا بعد ذلك بالصمت باستثناء واحد منهم قال له:« بورك الرب القدير، الذي ألهمك اتخاذ هذا القرار الصالح، بالدخول إلى هذه المطهرة من أجل التخلص من جميع ذنوبك، وعلى كل حال، إنك مالم تتصرف بنفسك بشجاعة، سوف تهلك بالجسد والروح معاً، لأننا عندما سنترك هذا المبنى، سوف يمتلىء بحشد من الأرواح غير الطاهرة، الذين سوف يعذبونك كثيراً، ويهددونك بعذاب أكبر، وهم أيضاً سوف يعدونك باقتيادك إلى الباب الذي دخلت منه، إذا ماامتلكوا فرصة لخداعك، وبذلك لن تستطيع الخروج ثانية، وإذا ماسمحت لنفسك بأن تقهر بتعذيبهم، أو ارتعبت من تهديداتهم، أو خدعت بوعودهم، وتراجعت ووافقت، فإنك سوف تهلك بكل من الروح والجسد، وإذا ماكنت— على كل حال— ثابتاً بالايمان، واضعاً كل أملك بالرب، ولم تستسلم أمام تعذيبهم أو تهديداتهم، أو وعودهم، بل رفضتهم جميعا بمجاميع قلبك، فإنك سوف تتطهر من جميع ذنوبك، ولسوف تشاهد تعذيب

الأشرار، وراحة الأخيار، وطوال الوقت الذي سوف يعذبك به هؤلاء الشياطين، ادع اسم الرب يسوع المسيح، وبدعوتك لاسمه، سوف تتخلص على الفور من جميع عذابهم، ولايمكننا الآن البقاء معك مدة أطول، وسنعهد بك إلى الرب القدير.

كيف عذب الشياطين الفارس بشكل مؤثر

وبناء عليه ترك الفارس لوحده، وأعد ذهنه لمواجهة نوع جديد من الصراع، وما أن فرغ من تهيئة نفسه لتكون شجاعة حتى سمع ضجة حول المبنى، وكأنها صادرة عن جميع رجال الدنيا مع الحيوانات والدواب، وكأنها معمولة من قبلهم جميعاً، وجاءت بعد هذه الضجة أشباح مرعبة من الشياطين البشعة، وقد تدفقت حشود هائلة منها إلى داخل القاعة، وباستخفاف وسخرية خاطبوا الفارس قائلين: «إن الرجال الآخرين الذين يخدموننا، قانعين بالانتظار حتى موتهم، وذلك قبل أن يقدموا، ولكن حضرتك شرفت هذه الجماعة من أسيادك، بأن قدمت إلينا بالروح والجسد وأنت ماتزال حياً، فهل جئت لتتلقى عقوبة على ذنوبك؟ إنك سوف لن تتلقى سوى الحزن والأسى بيننا، ولكن بما أنك خادم غيورلنا، إذا مارغبت بالعودة من خلال الباب الذي منه قدمت، سوف نقتادك إلى هناك دون التعرض للأذى، حتى تتمكن من تمتيع نفسك ثانية بالدنيا وبجميع مسراتها، وهكذا تكلم الشياطين راغبين في خديعته بالتهديد أو بالإطراء، لكن جندي المسيح لم يخف لامن تهديداتهم، ولم يقنع بإطراءاتهم، وأدار نحوهم أذنا صماء، ولم يجبهم ولابكلمة، وغضب الشياطين لمعاملتهم باللامبالاة، فأشعلوا ناراً عظيمة في القاعة، وأمسكوا الفارس بيديه ورجليه ورموه في وسطها، وسحبوه بكلاليب حديد نحو الأمام ونحو الخلف في النار، وعندما شعر للوهلة الأولى بالعذاب دعا اسم يسوع المسيح قائلاً: «ارحمه يايسوع المسيح»، وبقوة هذا الاسم انطفأت النار، ولم يبق منها شرارة

واحدة، ولدى إدراك الفارس لذلك لم يعد يخشاهم، لأنه شاهد بأنهم زالوا باسم المسيح.

حول مكان العقاب الثاني الذي اقتيد الفارس إليه

وغادر الشياطين القاعة الآن، وجروا الفارس خلال قفار سوداء ومظلمة، نحو مكان حيث تشرق الشمس في الصيف، وبدأ الآن يسمع ولاويل، وكأنها صادرة عن جميع شعوب الدنيا، وأخيراً جر من قبل الشياطين إلى سهل طويل وعريض، مليء بالمصائب والآلام، وكان طويلاً إلى حد أنه كان من غير الممكن رؤية ماوراءه، وكان مليئاً بأشخاص من كلا الجنسين ومن كل سن، كلهم عريان وجالس مع أمعائهم ممتدة حتى الأرض، لأن أجسادهم وأطرافهم كانت مربوطة بالأرض بشكل مرعب، وذلك بوساطة مسامير من الحديد محماة ومغروسة بالأرض، وكانوا يقومون أحيانا وهم يتألمون ويعانون بقضم الرمال، وهم يصرخون ويولولون قائلين:: «أبقنا، أبقنا، ارحمنا، ارحمنا»،مع أنه لايوجد هناك من يرحمهم أو يبقيهم، ويدوس الشياطين فوق هؤلاء المخلوقات التعساء وهم يوجهون إليهم ضربات ثقيلة، وذلك أثناء مرورهم، وقد قالوا للفارس: «إن صنوف العذاب هذه التي تشاهدها، سوف تعاني أنت منها شخصياً، مالم توافق على أن تقاد إلى الباب الذي دخلت منه، ولسوف يجري اقتيادك إلى هناك بسلام»، لكن الفارس تذكر كيف أن الرب قد أنقذه من قبل، أصم أذنه تجاه ماقالوه، ثم إنهم رموه أرضاً، وحاولوا أن يسمروه إلى الأرض مثل الآخرين، ولكنه عندما دعا اسم يسوع المسيح لم يعودوا قادرين على إلحاق المزيد من الأذى به في ذلك المكان، ولذلك جروه بعيداً إلى سهل آخر مفتوح، ولاحظ هنا الفرق التالي بين الناس الذين كانوا هنا والناس الذين كانوا في المكان الأول، ففي الوقت الذي كانت فيه أمعاء الأول مربوطة إلى الأرض فإن جميع الذين كانوا هنا كانوا متمددين على ظهورهم، وكانت

هناك تنينات نارية جالسة فوق بعض منهم، وهي تقضمهم بأسنان حديدية، ولذلك كانوا يعانون من آلام لايمكن التعبير عنها، وكان آخرون ضحايا ثعابين نارية، التفت حول رقابهم، وأذرعتهم، وأجسادهم، وكانت هناك أوتاد حديدية مثبتة في قلوبهم، وأيضاً جلست علاجيم ذات أحجام ضخمة جداً، ومرعبة أن تنظر إليها، على صدور بعضهم وحاولت تمزيق قلوبهم بمناقيرها القبيحة، ومشت الشياطين أيضاً عليهم وهي تجلدهم أثناء مرورها، بحيث لم تسمح لهم بدقيقة راحة من عذابهم، ثم إن الشياطين جروا الفارس إلى سهل آخر للتعذيب، حيث كان هناك حشد عظيم بدا وكأنه أكثر عدداً من سكان العالم كله، وكان بعضهم معلقاً فوق نار فحم مشتعلة، بوساطة سلاسل حديدية مربوطة بأقدامهم وأرجلهم ورؤوسهم باتجاه الأسفل، وكان آخرون معلقون بأيديهم وأذرعتهم، وبعضهم بشعور رؤوسهم، وكان بعضهم معلقاً بكلاليب حديدية محماة فوق اللهب، وكانت الكلاليب مارة من خلال أعينهم وفتحات أنوفهم، وبعضهم كان معلقاً من خلال آذانهم وأفواههم، وآخرون من خلال صدورهم وأعضائهم السرية، ووسط أنينهم وولاويلهم، لم تتوقف أعمال الجلد من قبل الشياطين لحظة واحدة، وهنا حاول العدو في هذا المكان الآخر للتعذيب، تعذيب الفارس، لكنه دعا اسم يسوع، فكان آمنا.

حول الدولاب الحديدي المحمى حتى بات أحمر

ومن مكان التعذيب هذا، جر الشياطين الفارس إلى دولاب حديدي محمى، وكانت اشعاعات الدولاب وأطره مثبة بمسامير حديدية محماة، وعليها جرى تعليق أناس، احترقوا بلهب الفحم المحترق بشكل فظيع، وكان اللهب منبعثاً من الأرض، وحرك الشياطين هذا الدولاب بقضبان حديدية، بسرعة بلغت حداً بات فيها من غير الممكن تمييز انسان عن آخر، لأنه بسبب سرعة الحركة بدوا جميعاً وكأنهم كتلة واحدة من النار،

وعـانى آخرون من أنواع مسـاوية من العذاب، حيث جـرى تثبيتهم إلى أوتاد، وأجلسوا من قبل الشياطين في معـدن ذائب، في حين كان آخرون يجري شيهم في أفـران، أو فـوق مقـالي مشتعلة، وفضـلاً عن هذا رأى الفارس، لدى سحب أدلائه له، بيتـاً مليئاً بعدد كبير من المراجل، كانت مليئة باسفلت ذائب، وبكبريـت ومعـادن ذائبـة، وكـان فيهـا مخلوقـات بشرية من كـلا الجنسين، ومن جميـع المراتب والأعمار، وكـان بعضهم غاطسين كليـاً، وبعضهم حتى أعينهم وآخرون حتى شفـاههم ورقابهم، وآخرون حتى صـدورهم، وأخرون أيضـاً حتى ركبهم وأرجلهم فقط، وكان بعضهم يده أو قدمه مغطسـة، وبعضهم كلاهما معاً، وكان الجميع يولولون، ويصرخـون بشكل مـؤلم بسبب معـاناتهم الكبيرة وآلامهم، وعندما حاول الشياطين اغـراق الفارس في المراجل مع البقية، دعا اسم المسيح، وقد أنقذه ذلك.

حول الريح القوية والنهر الآسن

ودفع الشياطين الآن بالفارس إلى قمة جبل مرتفع، وأروه عدداً كبيراً من الناس من كـلا الجنسين، ومن مختلف الأعمار، كلهم كانوا جـالسين وهم عراة منحنيين حتـى أصابع أقدامهم، واتجاههـم نحو الشمال، ومن الواضح أنهم كـانوا ينتظرون برعب وصول الموت، وفجأة هبت زوبعـة من الشمال جرفتهم والفارس معهم، وحملتهم وهم يبكون وينوحون إلى جـزء آخـر من الجبل، إلى نهر بارد وآسن، وعندمـا حـاولوا الخروج من مياهه الباردة، سـار الشياطين فوق وجه الماء، وجعلوهم يغطسـون ثانية في أعماقه، ودعا الفارس -على كل حال -اسم المسيح، فوجد نفسه على الفور على الضفة الأخرى، ثم جـره الشياطين نحو الجنوب، وأروه لهب له بعض الضجيج، وكان هذا اللهب مرتفعاً مع رائحة آسنة صادرة من بئر هناك، فوقه رجال عراة، لونهم أحمر من شدة الحرارة، وقد قذف بهم في الهواء مثل الشرار، وعندمـا كان اللهب يخبو كـانوا يسقطون في الهوة

تحتهم، وقـال الشيـاطين للفـارس: «إن ذلك البئر الناري هو المدخل إلى جهنـم، حيث نعيش، وبما أنك خدمتنا باخـلاص حتى الآن، إنك سوف تبقى معنا هنا إلى الأبد، وإذا مادخلـت إلى هذه الهوة فإنك سوف تهلك جسداً وروحاً معـا، ولكن إذا أصغيت لنا حتى الآن، وعدت إلى الباب الذي جئت منه، فإنك سوف تعبر دون أن تصاب بأذى»، لكن الفارس اعتمد على عون الرب، الذي غالبـاً ماأنقذه، فجعل أذنه صماء تجاه جميع تحريضـاتهم، وغضب الشيـاطين، فـاندفعـوا نحـو هـوة نارية، وجـروا الفـارس معهم، وكـان كلما ذهب أعمق، صـارت الهوة أوسع، وكـانت العقوبات التي شـاهدها أكثر رعباً، وفي تلك الهوة، شعر الفـارس أيضاً بالرعب والتعاسة، حتى أنه نسي لبعض الوقت الذي أيده وسانده، لكن أخيراً بنعمـة مـن الرب، دعـا اسم يســوع، وعلى الفـور جــرى دفعـه واخراجه بوساطة اللهب إلى الهواء الطلق في الأعلى، حيث وقف لبعض الوقت وهو مندهش ومصعـوق، إنما فجأة، ظهر بعض الشيـاطين الجدد من فم الهوة وقـالوا له: «أنت ياهذا، الواقف هناك، لقـد أخبرك رفـاقنا بأن هذا فـم الجحيم، لكن الأمـر ليس كـذلك، فنحن معتـادون على الإخبـار بالأشيـاء الزائفـة، ذلك أننـا إذا لم نستطع الخداع بالحقيقـة والصــدق، نحـاول ذلك ونفعله عن طـريق الزيف، إن هـذه ليست الجحيم، بل نحن سوف نقودك إلى هناك».

حول الجسر الذي كان ضيقاً وعاليا ومنزلقاً

وجر هؤلاء الأعـداء الجدد الفارس مع ضجة مرعبـة إلى نهر عريض وآسن، مغطى بـاللهب ونار الفحم المحترقـة، وهـو مليء بالشيـاطين، الذين أخبروه أنه تحت ذلك النهـر توجد جهنـم، وكـان هناك جسر ممتد فوقـه، فيه ثلاثة عـوائق مرتبطة به، لايمكن تجاوزهـا، ففي المقام الأول كـان منزلقـاً، ومع أنه كـان عريضـاً كـان من المستحيل على أي انسـان الوقـوف ثابتـاً عليـه، وفي المقام الثـاني كـان ضيقـاً إلى حـد أنه من غير

الممكن لأحد السير عليه أو حتى الوقوف عليه، وفي المقام الثالث كان عالياً فوق النهر إلى حد أنه كان يزيغ البصر أن تنظر منه نحو الأسفل، وقال له الشياطين: «عليك عبور ذلك الجسر، والريح التي سوف تقذفك إلى النهر الآخر، سوف تقذفك إلى هذا، ووقتها سوف يلقى القبض عليك من قبل رفاقنا الذين هم في النهر، ومن ثم سيغرقونك في هوة الجحيم»، لكن الفارس قام بالدعاء إلى اسم يسوع المسيح، ووضع قدميه على الجسر، فوجد أنه كلما صعد أكثر، ومضى أبعد، صار الجسر أعرض، حتى صار عريضاً مثل طريق عام، ولدى رؤية الشياطين أن الفارس يسير من دون عوائق عبر الجسر، حركوا الهواء بصرخات عالية، مما أزعج الفارس وضايقه أكثر من جميع العذاب الذي تحمله من قبل منهم، وقام آخرون من أعدائه، كانوا تحت الجسر بإلقاء كلاليب حديد محماة نحوه، لكنهم لم يستطيعوا لمسه، وهكذا عبر الجسر بأمان، لأنه لم يتواجه مع أي شيء يمكن أن يمنعه.

كيف تحرر الفارس من شرور الشياطين

تحرر الفارس الشجاع الآن من تعذيب هذه الأرواح غير النظيفة، ورأى أمامه جداراً عالياً، معمولاً بشكل رائع، وفيه باب واحد،كان مغلقاً، وكان هذا الباب مزيناً بحجارة كريمة لمعت بشكل مضيء، وعندما اقترب الفارس من الباب، انفتح الباب، وصدرت عنه رائحة طيبة، بها استرد الفارس شجاعته، وانتعش من كل ماعانى منه من عذاب، وقدم إلى استقباله مسيرة لم ير مثلها في العالم، وكانت المسيرة أثناء تقدمها تحمل الصلبان مع الشموع، والأعلام، وسعف النخيل الذهبية، وقد تبعها حشد من النساء والرجال من كل مرتبة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الأديرة، والرهبان، والكهنة، ورجال دين من جميع المراتب، وكانوا جميعاً في الملابس المقدسة الموافقة لرتبهم، وقد استقبلوا الفارس بتحيات سارة، وبأغاني لامثيل لها في عذوبتها،

واقتادوه وسط ذلك إلى داخل باب النصر، ولدى انتهاء الغناء، تحدث معه اثنان من رؤساء الأساقفة، وباركوا الرب الذي أضفى على روحه الشجاعة حتى قاوم العذاب الذي مرّ خلاله، وعانى منه، ولدى اقتياده خلال المنطقة أروه أجمل المروج التي كانت مزينة بمختلف أنواع الورود، والثمار، مع كثير من أنواع النباتات والأشجار، وتمتع بالروائح الطيبة التي تصور أنه من الممكن العيش عليها إلى الأبد، ولم يتوفر شعور بالظلام في تلك المنطقة، لأنها كانت مضاءة بنور شعشعاني سماوي لايتوقف أبداً، وشاهد هناك حشداً عظيماً من الرجال والنساء، كانوا من كثرة العدد إلى حد إفترض فيه أن بقية العالم لايمكنه أن يستوعب مثلهم، واعتلت فرقة المرتلين سدة المرتلين، وكلهم مجدوا الرب بأغاني عذبة، الرب خالق كل شيء، وقدم بعضهم وهم متوجون مثل الملوك، وكان آخرون يرتدون ملابس ذهبية، وبعضهم الآخر ملابس ثمينة مختلفة الألوان، وذلك وفقاً لما كانت عليه عاداتهم، عندما كانوا في هذا العالم، وفرح بعضهم لسعادتهم، وآخرون لتحرر ولسعادة البقية، وكلهم عندما رأوا الفارس، شكروا الرب، على وصوله، وهنأوه على نجاته من منطقة الموت، وما من واحد هناك شعر بحر أو برد، كما أنه لم يشاهد هناك أي شيء يمكن أن يسبب عدواناً أو أذى.

كيف اقتيد الفارس إلى الجنة السماوية حيث شاهد سرور المباركين

ثم قال الأحبار المقدسون، الذين جعلوا الفارس يرى هذه المنطقة البهية، له: «بما أنك، بفضل رحمة الرب، قد وصلت إلى بيننا دونما أذى، عليك أن تسمع منا شرحاً لكل ما شاهدته، فهذه المنطقة هي الجنة الدنيوية، التي طرد منها الانسان لذنوبه، وغرق في تلك الأوضاع التعيسة، التي يموت فيها الناس في الدنيا، ونحن جميعاً الذين هنا قد ولدنا بالجسد، وفي الذنب الأصيل، وبإيماننا بالرب يسوع المسيح، الذي

تلقيناه بتعميدنا، رجعنا إلى هذه الجنة، لكن بما أننا اقترفنا ذنوباً فعلية من دون احصاء، وكان ذلك بعد تعميدنا، لقد أمكن فقط بعد تطهيرنا من ذنوبنا، وبعد تلقينا العقوبة من أجلهم، أن استطعنا الوصول إلى هذا المكان، لأنه التوبة التي قمنا بها قبل موتنا، أو أثناء ساعة الموت، لكننا لم نكملها على الأرض، كان لابد من التكفير عنها بالمعاناة في أماكن العقوبات التي رأيتها، وذلك وفقاً لطبيعة الذنب وكبره، وكلنا جميعاً الذين نحن هنا قد مررنا بأماكن العقوبات تلك من أجل ذنوبنا، وجميع الذين رأيتهم هناك يعانون من العقوبات، سوف يقدمون إلى مكان الراحة هذا، ويتم خلاصهم أخيراً، إلاّ باستثناء أولئك الذين كانوا عند فم الهوة الملتهبة وفيها، والذين يتم خلاصهم يأتي بعضهم كل يوم إلى هنا، وقد تطهروا من ذنوبهم، ونحن نذهب لاستقبالهم، ولجلبهم إلى الداخل، كما فعلنا معك، وما من واحد منا يعرف كم من الوقت سوف نبقى هنا، إنما بوساطة القداسات، والمزامير، وبالمساعدات والصدقات وبصلوات الكنيسة المسكونية، وكذلك بالمساعدات الخاصة من أصدقائهم، سوف تقلل كثيراً عقوبات الذين في المطهرة، أو أنهم سيتلقون نوعاً من العقوبات الخفيفة، عوضاً عن الذين أدينوا أولاً، حتى يمكن في النهاية خلاصهم جميعاً، وهكذا كما ترى نحن هنا نتمتع كثيراً بالهدوء، مع أننا لسنا مؤهلين بعد ولاجديرين بالدخول في السعادة الكاملة، في الجنة، وكل واحد منا، سوف يعبر، عندما يحل الوقت الذي حدده الرب، إلى ملكوت السماء، وفقاً لما سيهيئه الرب.

كيف أنعش الفارس بالرؤيا السماوية وتقوى بالطعام الروحي

وقاد الأحبار المبجلون الفارس الآن إلى الجانب المنحدر من الجبل، وأمروه أن ينظر نحو الأعلى، الأمر الذي عندما فعله، سألوه عن لون السماء بالنسبة للمكان الذي وقف عليه، فأجابهم اللون مثل لون

الذهب عندما يكون حاراً أحمر في الأتون، فقالوا له: «إن هذا الذي أنت تراه الآن، هو مدخل إلى السماء، وإلى الجنة السماوية، وذلك أنه عندما يغادرنا واحد منا، فإنه يصعد على هذا الطريق إلى السماء، ومادمنا نحن باقين هنا، فإن الرب يطعمنا من الطعام السماوي، الذي سنجعلك تتذوق طبيعته الآن»، وما أن اكتمل التفوه بهذه الكلمات، حتى نزلت حزمة من الضوء من السماء، غطت المنطقة كلها، أما اللهب المستقر في حزمة الضوء، على رأس كل شعاع منها، فقد دخل إلى أجساد الجميع، وشعر الفارس بلذة حلاوة أنعشت فؤاده وجسده كله، حتى أنه لم يعد يعرف فيما إذا كان حياً أم ميتاً، لكن هذا الشعور مرّ بلحظة وعبر، وود بسرور أنه لو بقي إلى الأبد في هذا المكان، ولو أنه استطاع التمتع بهذه المسرات، لكن عندما صار في المكان الآخر، جرى إخباره بأشياء أخرى ليست سارة بالقدر نفسه، فقد قال له الأحبار المقدسون: «بما أنك الآن ألقيت بناظريك على مسرات المباركين، وذلك وفقاً لرغبتك وأيضاً رأيت جزئيا عذاب الأشرار، يتوجب عليك العودة عبر الطريق الذي جئت عليه، وإذا (لاسمح الرب) عندما تعود إلى الدنيا، مارست حياة شريرة، فقد رأيت هنا العذاب الذي هو بانتظارك، وإذا - على كل حال --مارست حياة جديدة ودينية، يمكنك أن تعتمد على عودتك إلينا ثانية، وذلك عندما تتحرر روحك من الجسد وعليك أن لاتكون خائفاً من تعذيب الشياطين على طريق عودتك، لأن الشياطين لن يكونوا قادرين على الاقتراب منك، كما أن تعذيبهم الذي شاهدته لن يؤذيك»، ورد الفارس وهو يبكي: «إنني غير قادر على العودة من هذا المكان، لأنني أخشى من أن ضعف الطبيعة البشرية، سوف يقودني إلى الخطيئة، ومن ثم سوف أمنع من العودة» فقالوا له : «إن هذه الأشياء ليست كما ترغب، بل ستكون وفقاًلرغبة الذي خلقنا نحن وأنت»، ووقتها اقتيد الفارس عائداً إلى الباب مع الأسف والنواح، وبعدما اجتاز الباب مكرهاً، أغلق خلفه.

- ٥٩٠٥ -

كيف كرس الفارس نفسه بعد عودته إلى الدنيا على الحج إلى القدس

وعاد الفارس أون عبر الطريق نفسه كما كان قد ذهب إلى القاعة المتقدم ذكرها، لكن الشياطين الذين رآهم أثناء عودته قد فروا منه مذعورين، وأنواع العذاب التي مرّ من خلالها كانت غير قادرة على إيذائه، وعلى الفور عندما دخل إلى القاعة، مجّد الخمسة عشر رجلاً، الذين تقدم وصفهم، الرب، وحمدوه لمنحه تلك الحماية تحت العذاب، وقالوا له: «عليك أن تغادر من هنا بكل سرعة، لأن اليوم هو في فجره في بلادك، وإذا لم يجدك رئيس الرهبان، عندما سيفتح الباب، هو سوف يظن أنك ضعت، ولسوف يغلق الباب، ويعود إلى الكنيسة»، وعندما تلقى الفارس مباركتهم، أسرع عائداً، فالتقى برئيس الرهبان في اللحظة التي فتح بها الباب، وقد اقتاده مع الحمد والشكر إلى المسيح، وأدخله إلى الكنيسة، حيث بقي لمدة خمسة عشر يوما في الصلاة.

وحمل بعد هذا شارة الصليب، وانطلق إلى الأرض المقدسة، ساعياً للتأمل المقدس في ضريح ربنا وفي الأماكن المقدسة الأخرى، وعاد من هناك إلى الوطن بعدما وفى بنذره، وتقدم بالرجاء إلى مولاه الملك ستيفن، حتى يتمكن من إمضاء بقية حياته في خدمة الدين، وأن يصبح جنديا في جيش ملك الملوك، وحدث في تلك الآونة، أن حصل غيرفياس Gervais راعي دير لاوث Louth من الملك ستيفن على منحة أرض حتى يبني عليها ديراً في ايرلندا، وقد بعث واحداً من رهبانه، واسمه غيلبرت إلى الملك، ليحصل على ملكية الأرض، وليبني عليها الدير، ومثل غيلبرت أمام الملك، واشتكى إليه بأنه لم يعرف لغة تلك البلاد، وعليه ردّ الملك بأنه بعون الرب سوف يجد على الفور، له مترجماً قديراً، ودعا أون للمثول أمامه، وأمره بالذهاب مع غيلبرت والبقاء في ايرلندا، وجاء هذا موافقاً لأون، الذي ذهب وهو مسرور مع

غيلبرت، وخدمه باخـلاص، لكنه لم يرتد ثوب الرهبان، لأنه اختار، أن يكون بالحري خادمـاً وليس سيداً، وقد عبرا إلى ايرلندا، وبنيـا ديراً، فيه عمل الفارس أون مترجماً للراهب وخادماً مخلصاً في كل ما عمله، وكانا كلما جلسا منفـردين، كان الراهب يسأله بدقـه فيما يتعلق بالمطهرة، وعن أشكال التعـذيب المدهشـة، التي رآها هناك وشعـر بها، وقـام الفـارس، الذي لم يكن يستطيع السماع حـول المطهـرة دون البكاء بمرارة، بإخبـار صـديقـه، مـن أجل تنويره، إنما بشرط السرية المطلقـة، بكل مـارآه ومـاعـاناه، وأكد لـه بأنه رأى كل ذلك بعينيـه، وبعناية واهتمام من قبل هذا الراهب قـام بتدوين كل مـارآه ذلك الفـارس، وذلك مع حكايات الأسـاقفـة ورجـال اللاهوت الآخـرين لتلك البـلاد، الذين في سبيل الصدق، أعطوا شهاداتهم على تلك الحقائق.

كيف جرى دس السم لوليم رئيس أساقفة يورك وموته

عـام ١١٥٤م، عين في هذا العـام البابا أنـاستاسيـوس خليفـة لهنري رئيس أساقفة يورك، الذي كما كنا قد ذكرنا كان متوفى، والذي عينه هو وليم، الذي كان البـابا يوجينيوس قد عـزله من قبل، وأعطاه الطيلسان في رومـا، وبحضوره تولى سيـامـة هيوج دي بوسـات Pusat، حفيد الملك ستيفن، كأسقـف لدرم، لكن بعـد وقت قصير من عـودة رئيس الأساقفة نفسه إلى منصبه، وأثناء قيامه بقداس مات، من سم أخذه -كما قيل - من كأس القربان، وقد خلفه روجر رئيس شمامسة كانتربري.

وعبر في هذا العـام هنري دوق نورمـاندي إلى نورمـاندي، واستأنف إلى درجـة بعيدة سلطـات حكمه للمتلكات التي كـان والده قـد أعطاه إياها، وتوجـه من هناك إلى أكوتين، حيث قضى بيـد قوية على عصيـان بعض باروناته.

ومات في العـام نفسه البـابا أناستاسيـوس، وقد خلفـه نيقولا أسقف

أوف ألبانو، الذي اتخذ لنفسه اسم أدريان، وكان رجلاً متدينا، وكان من الشعب الانكليزي، وقد ولد في ممتلكات دير القديس ألبان.

وفي تلك الآونة نفسها عقدت معاهدة بين لويس ملك فرنسا، وهنري دوق نورماندي، وفق الشروط التالية: يعيد الملك فيرنويل Ver-neuil ونوفمارشي Neufmarcheإلى الدوق، الذي دفع إليه ألفي مارك من أجل نفقات أخذ، وحفظ، وتحصين هاتين القلعتين.

موت الملك ستيفن وتتويج الدوق هنري

ومات في العام نفسه ستيفن الملك الشجاع والتقي، وكان ذلك في الخامس والعشرين من تشرين الأول، ودفن جسده في دير فيفرهام، الذي هو أسسه، وذلك حيث كان قبل وقت قصير جرى دفن زوجته ماتيلدا، وابنهما يوستاس، وعندما سمع هنري دوق نورماندي بوفاة ستيفن، قدم إلى باريبفلون Barbefloune، حيث انتظر لمدة شهر مجيء ريح مناسبة حتى يعبر القنال، وكان هناك في الوقت نفسه هدوء عظيم جداً في انكلترا، وهو نادراً ماحدث عندما يموت ملكها، وكان سبب ذلك المحبة والخوف اللذان شعربهما الناس تجاه الدوق هنري، حاكمهم المقبل، وفي السابع من كانون الأول نزل في انكلترا، وقد استقبل بسرور عظيم من قبل كل من رجال الدين والعلمانيين، وفي التاسع عشر من كانون الأول الذي كان الأحد التالي قبل يوم الميلاد، أعلن عنه ملكاً وسط احتفال عام، وجرى تتويجه في وستمنستر، من قبل ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري، وكان ذلك بحضور، رؤساء الأساقفة، والأساقفة وبارونات كل من انكلترا ونورماندي، وما أن جرى تتويجه حتى شرع بممارسة سلطته على المدن، والقلاع، والبلدات العائدة للتاج، وبتدمير القلاع المتمردة، وبطرد الأجانب، وبشكل خاص الفلمنكيين، من المملكة، وبخلع الإيرلات المزيفين، الذين كان سيتفن قد أنفق عليهم جميع واردات الخزينة تقريباً.

وحشد في السنة نفسها بلدوين، ملك القـدس، جيشاً كبيراً، وحاصر عسقـلان، التي استسلمت بعـد حصـار طويل إليـه على شرط امتـلاك الأتراك الذين فيهـا هم وأزواجهـم وأولادهم حق المغـادرة لها مع جميع مـايملكـون، وبعـد ذلك استسلمت المدينة إلى الملـك، الذي أعطاها إلى أخيه كونت يافا، ليحتفظ بها لنفسه.

حول حياة القديس وولفرك الناسك

وغـادر في العـام نفسـه الناسك المقـدس وولفـرك Wulfric أوف هيزلبيرغ Heselberg هذه الحياة، وبذلك أنهى حرباً سعيدة ومنتصرة، استمرت تسعـة وعشرين عاماً، ضـد أعداء بني الانسـان، وبشأن حياته وفضـائله، نعتقد أننا لن نخـرج عن الموضوع إذا مـاقدمنا عنهـا عرضـاً مـوجـزاً، نزين به التـاريـخ: كـان القـديس وولفـرك قـد ولد من أسرة انكليزية، في أوضاع عـادية، في كونتون، التي كانت قـرية على بعد ثمانية أميال عن برستـول، فهناك كان أيضاً قد تعلم، وأمضى بضعـة أعوام في طائفـة دينيـة، حيث من المعتقـد أنـه استقبل هناك باستخفـاف في طيش الشبـاب، وليس باستقـرار هدف عقلـه، لأنه لم يعـرف الرب، وبالحري اقتيـد بالجسـد وليس بالـروح، وقـد أمضى كثيراً من وقتـه بين الكلاب والصقور، وفي أحد الأيام عندما كان منشغلاً في مثل هذه الأعمال، جاء إليه رجل، بدا من نظراته وثيـابه أنه محتاج، وسأله اعطاءه قطعـة جديدة من النقـود تكون صـدقـة، لأنه كـان في تلك الآونة نقـود جـديدة في انكلترا، في أيام الملك هنري الأول، لكنهـا كانت نادرة بسبب حـداثتها، ورد عليه وولفرك أنه لايعرف إن كـان معه أية نقود جديدة أم لا، وبناء عليه قال له الرجل: «انظر في حافظة نقودك، ولسوف تجد هناك قطعتان ونصف القطعـة»، ودهش وولفرك تجاه ذلك، وفعل مـاأمـر به، فوجـد المال فقـدمـه بتقوى صـدقـة له، وتسلم الرجل المال وقـال: «علّ الذي فعلت هذا من أجله يعـوض عليـك تعـويضـاً مناسبـاً، وإنني أحـدثك

باسمه، بأنك سوف تنتقل بعد وقت قصير من هذا المكان إلى مكان آخر، ومن هناك إلى مكان ثالث، حيث ستجد أخيراً الاستقرار، فهناك سوف تثابر على عبادة الرب، الذي سوف يستدعيك في الأخير للالتحاق بجماعة القديسين».

حول تحول القديس وولفرك وحياته المتقشفة

وبعد وقت قصير ارتبط وولفرك بوليم صاحب قريته الأصيلة، وتناول الطعام في كل يوم على مائدته، وهناك أيضاً، أعد نفسه لحياة التقشف بالتخلي عن استخدام اللحوم، وصار رجل الرب الآن متشوقاً إلى حياة العزلة، وقد أرسل من قبل مولاه، أي الفارس المتقدم ذكره،إلى هيزلبيرغ، وهي قرية تبعد حوالي الثلاثين ميلاً إلى الشرق من اكسيتر Exeterومن المعتقد أنه ألهم بفعل ذلك باقتراح من قبل الروح القدس، وهنا عزل نفسه في قلاية قرب الكنيسة، وكرس نفسه على عبادة المسيح، الذي حصل على رضاه بوساطة كثير من الجهد والتعب في كل من الجسد والروح، ذلك أنه أجهد جسده وأفناها بالتقشف والسهر، إلى حد، أن جلده، بات بعد وقت قصير، بالكاد متعلقاً بعظامه، وقدم ذاته إلى عين المشاهد، مظهراً، ليس عائداً لجسد بل لكائن روحاني، وأقنع نفسه بلباس بسيط كان تحته قميص من المسوح، ولكن بعدما تلف هذا خلال عدة أيام، بدأ يفكر باستبداله بسابغة من الحديد، وعندما سمع مولاه، أي الفارس المتقدم ذكره، بهذا، بعث إلى رجل الرب، بسابغة من الحديد، مكرسة لتكون أداة للحرب في خدمة المصالح السماوية، واعتاد في الليل على أن يغطس وهو عريان في حمام ماء بارد جداً، وهناك كان يقدم إلى الرب مزامير الملك داوود، وبهذه الطريقة غالباً ماأمات الجسد ببرد الماء، ذلك أن جسده كان ضعيفاً، وحدث هذا بالغالب بقوة شديدة، وكان متواضعاً ولطيفاً في كلامه إلى جميع الناس، وكانت خطبه تردد مثل نشيد سماوي بالنسبة إلى الذين

سمعوه، مع أنه تحدث دوما إلى الناس ونافذته مغلقة.

معجزة مدهشة حول قطع سابغة

وخرق في الوقت نفسه رجل الرب وولفرك، الذي الرب وحده قد عرفه حقيقة، وانبثق مثل الفجر المبكر فوق المعرفة لبني البشر بجهده في سبيل انقاذهم وتخليصهم، لأنه عندما أعاقته السابغة التي كان مرتدياً لها، وأصابت ركبتيه، وحالت دون حنيهما بشكل مستمر، دعا إليه الفارس الذي كان معتاداً على أسراره، وتحدث إليه بشأن طول سابغته فقال له الفارس:« إنني سوف أرسلها إلى لندن وأقطعها وفق الطريقة التي تختارها» فأجابه رجل الرب:« إن هذا سوف يسبب تأخيراً كبيراً، ويمكن أن يظن أن ذلك برهان على المباهاة، خذ هذا المقص، وقص باسم الرب وقم بالعمل بيديك»، وما أن فرغ من كلامه هذا حتى ناول الفارس مقصاً، كان قد جلبه من بيت الفارس، ولدى رؤيته للمقص تردد وظن أن الناسك كان مجنونا، فتابع الناسك كلامه قائلاً:« كن شجاعاً ولاتتردد، إنني سأذهب وأصلي إلى الرب حول هذا، وفي الوقت نفسه أقلع أنت واشرع بالعمل وأنت واثق» وكان المقاتلان الآن كلاهما منشغلين، أولهما في الصلاة، والآخر بالقطع، وتقدم العمل تحت أيديهما، لأن الفارس قد شعر وكأنه يقطع قطعة من القماش، وليس حديداً، وقد عمل المقص بشكل فعال ومفيد، لكن عندما قطع رجل الرب صلاته، لم يعد الفارس، الذي لم يكن قد فرغ من عمله، قادراً على متابعة القطع، ووقف وولفرك وسأله كيف سارت الأمور معه، فأجابه الفارس قائلاً، بشكل جيد جداً حتى الآن، لكن الآن عندما قدمت توقف المقص عن القطع»، فقال الناسك له:« لاتخف، تابع القص كما بدأت، بالمقص نفسه»، واستأنف الفارس عمله وهو مطمئن، وأنهى عمله وهو مطمئن بالسهولة نفسها، كما كان الأمر من قبل، وصقل المقصوص من دون أية متاعب، وقام رجل الرب منذ ذلك الحين فصاعداً، بقطع حلقات من

السـابغة من دون مقص، بل بأصـابعه الضعيفـة، لكن ليس بإيمان أقل، ووزع تلك الحلقـات من أجل شفاء الأمـراض، وأعطاها لكل من سأله إياها صدقة، ولدى رؤية الفارس لقدرتها أصيب بدهشة أصمته، وسقط على قـدمـي رجل الرب، الذي رفعـه بـاضطراب، وطلب منه أن لايخبر بذلك أحداً مـادام هو نفسه حياً، ولكـن شهرة ذلك لم يكن من الممكن اخفاءها، مادام عدداً من رجال الدين يتفاخرون بأنهم يمتلكون حلقات من تلك السابغة، وانتشرت شهرة رجل الرب في جميع أجزاء المملكة.

كيف قدم رجل الولاء للشيطان وشفي من قبل رجل الرب

كان يوجـد في الأجزاء الشمالية مـن انكلترا رجل شقي، لم يكن قادراً على تحمل الفقـر، فأذعن، وقـدم ولاء للشيطان، وبعـدمـا شعـر لبعض الوقت بظلم سيده الجديد، أدرك هـذا الرجل الشقي جـريمتـه، وشرع يتوب منها، ونظر من حوله إلى رجل يحميـه يمكن أن يعهد بنفسه إليه، فيتحـرر من موت الروح، فقـرر أخيراً القيـام بزيارة القديس وولفـرك، الذي قيل بأن في يده يقـع الخلاص، وعندمـا عبرّ عن قلقـة حـول ذلك وعن نيته إلى واحد من أصدقائه، وقف الشيطان إلى جانبه بشكله المعتاد والمعـروف بشكل جيد، واتهمـه بخرق الثقـة والعهـد، وهدده بمعاقبتـه بشكل وحشي، وألزم الرجـل نفسـه بالصمـت، لأنه رأى بشكل واضح أن العـدو لم يعـرف ماكـان يفكر به سرياً بقـرارة نفسـه، حتى قـام أولاً بتطوير نوايـاه واخـراجهم على شكل كلمات واشـارات، ولذلك أخفى لبعض الوقت نواياه بالتوبة، وانطلق أخيراً للقيام برحلته المقترحة لزيارة وولفـرك رجل الرب، وبعـدمـا أكمل الجزء الأعظم من الطريق، وصل إلى مخاضة النهـر خارج قـرية هيزلبيرغ لأن الرب أنجح رحلتـه، ودخل الآن إلى المخاضة، وكان متأكداً من عون القديس وولفرك، ووقتها ظهر الشيطان، وهو ملتهب بالغضب، وألقى بيـديه بكل عنف عليـه، وقـال له:« مـالذي كنت أنت قـاصـد أن تفعله أيها الـرجل الخائن، أولست

تحاول خــرق تحالفنا، لكن عبثــا، لأنك الآن ســوف تعــاني من أجل خيــانتــك، أولم تقم أنت من قبل بالتخلي عن عبــادة الرب وخـــدمتــه، وتسعى الآن للتخلي عن خــدمتي أيضــاً، إنك سوف تغـرق الآن بشكل تعيس»، ثم أمسكه الشيطـان، وثبتـه بشـدة حتى أنه لم يعــد قــادراً على التقدم نحـو الأمام، ولا الانحـراف بنفسه إلى جـانب أو آخر، وعنـدما كـان هذا يحدث في النهـر، جـرى إخبـار رجـل الرب وولفـرك بذلك، بوساطة رؤيا ربانيـة، فدعا إليـه كاهنه الذي اسمه بريثـريك، وقال له:« امض مسرعــاً، وخـذ الصليب، وبعض الماء المقــدس، وقــابل الرجل المحبوس من قبل الشيطان في المخاضـة خلف القرية، ورش عليه بعض الماء المقدس، وأحضره إليّ، ومضى بريثريـك مسرعاً، وأثناء توجهه رأى الرجل ووجـده على ظهر حصـان في النهـر، غير قادر على التحـرك من المكان الذي كان فيه، وقام بريثـريك على الفور برش الماء المقدس عليه، باسم الأب، والابـن، والروح القــدس، وعلى الفـــور انهزم الشيطان، وتحرر الأسير من عـدوه، واقتيـد إلى حضرة رجل الرب، الذي كـان في ذلك الوقت، يصلي بقلق إلى الرب لصالحه، وخلفـه جاء الشيطان الذي طالب برجلـه، وأمسك به دون أن يعبأ بصراخـه إلى رجل الـرب طلبـاً للمساعدة، وأمسـك القديس بالرجل من يده اليمنى، والشيطان من يده اليسرى، وقـام رجل الرب برش الماء المقـدس على وجـه العـدو، الذي هرب على الفـور وهو مضطرب، ثم اقتاد القـديس الرجل الذي أنقـذه من فكي عــدوه، إلى قــلايتـــه، واحتفظ به هناك حتى اعترف بـذنوبه، وأخرج منه السم وقـذف به أمام قدمي القـديس، وهو السم الذي كان الشيطان قد أفسده به، ثم جرت مباركته على مشهد من ربنا، وقدمه إليه بالجسد من قبل رجل الرب، وعندمـا سئل عما إذا كان يؤمن بقلبه كله، أجـاب :« أنا أؤمن يامـولاي، وأنـا في حـالتي التعيسـة والمذنبـة، بأنني رأيت في يديك جسد، ودم ربنا يسـوع بالجسد» فقـال القديس:« الشكر للرب، دعنا الآن نصلي معــا، حتى يُعتقـد أنك جـدير بأن تراه بشكله

الصحيح والحقيقي»، ثم أقام قداساً، به ثبّت إيمانه، وبعد ذلك سمح له بالذهاب بسلام، وقد مات القديس وولفرك في العشرين من شهر شباط، وقد دفن في خلوته في هيزلبيرغ، حيث جرى تنفيذ العديد من المعجزات تشريفاً للرب وللقديسين، وماتزال تمارس حتى الوقت الحالي.

حول نسب الملك هنري

عام ١١٥٥م، فيه في اليوم الأخير من شهر شباط، أنجبت الملكة إليانور إلى الملك هنري ولداً صحيحاً وقانونياً، أطلق عليه اسم هنري، هذا وكان الملك هنري ابن ماتيلدا، التي كانت من قبل امبراطورة وفيما بعد كونتسه أنجو، وكانت أمها هي ماتيلدا، ملكة انكلترا، وزوجة هنري الأول، وابنة القديسة مرغريت ملكة اسكوتلندا، وكانت مرغريت هذه ابنة ادوارد من أغاثا Agatha ، أخت هنري الامبراطور الروماني، وكان ادوارد ابن اديموند الطرف الحديدي Ironside، ابن إيثلرد Ethelred ، ابن ادغار Eadgar الهادىء، ابن إدموند، ابن ادوارد الأكبر، ابن الملك النبيل ألفرد، ابن ايثلوولف Ethelwulf، ابن ايغبرت Egbert ، ابن ألكموند Alcmund ، ابن إيوفا Eoffa ، ابن إيوبا Eoppa ، ابن انغلز Ingels ، أخو آين Ine الملك اللامع، ابن كنرد Kenred ، ابن سيولوولد Ceolwald، ابن كوثا Cutha، ابن سيرتك Certic ، ابن ايليسا Elessa ، ابن ايغلا Egla ، ابن ويغ Wig ، ابن وودن Woden ، ابن فريتوولد Fretewald ، ابن فريوليتر Freolater ، ابن فريثوولف Frethewulf ، ابن فرنجولدف Fringolduff ، ابن غيثا Getha ، ابن تاتوا Tatwa، ابن بيو Beau ، ابن سلدوا Seldwa ، ابن هيرمود Hermod، ابن إيترمود Itermod ، ابن هاثرا Hathra ، ابن والا Wala ، ابن بدوي Bedwi ، ابن سام، ابن نوح.

وقام في العام نفسه الملك هنري بحرمان وليم بيفيريل Peverel، من ميراثه لأنه أمر بوضع السم لرالف ايرل شستر، وقد قيل بأنه كان شريكاً في كثير من الجرائم من هذا النوع، وجعل الملك هنري— في الوقت نفسه— نبلاءه، يؤدون قسم الولاء إلى ابنيه وليم، وهنري من أجل تاج انكلترا، ومات أيضاً روبرت أسقف إكستير، وقد خلفه روبرت عميد سالسبري، وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل هنري أسقف ونشستر كنوزه بعيداً مقدماً، لتكون في حفظ راعي دير كلوني، ثم مالبث هو نفسه، أن غادر انكلترا بعد ذلك مباشرة، من دون الحصول على إذن الملك، ولهذا الاعتداء أمر الملك بهدم قلاعه الثلاث وتسويتها بالأرض، وفي حوالي الوقت نفسه، قام هيوج دي مورتيمير -Mortim er، وكان رجلاً أرعناً، بتحصين قلاعه ضد الملك، وهي: أبراج غلوستر، وويغمور، وبردجنورث، لكن الملك حمل عليه فجأة، فاستولى عليهم ودمرهم، ثم أقيم سلام فيما بينهما.

وفي ذلك الحين أيضاً، تزوج لويس ملك فرنسا، من ابنة ألفونسو، ملك اسبانيا، الذي كانت عاصمته طليطلة، وهم يدعونه باسم امبراطور اسبانيا، لأن له السيادة على الملكين الصغار في أرغون وغاليشيا، [وجرى تكريس فريدريك امبراطوراً من قبل البابا أدريان، وأعيدت يد القديس جيمس إلى دير ردنغ] وفي الوقت نفسه جرى تعيين توماس رئيس شمامسة كانتربري، وعميد بيفرلي، والقانوني لعدد من الكنائس الانكليزية، مستشاراً للملك.

كيف أعطى البابا أدريان جزيرة ايرلندا إلى الملك هنري

وفي هذه الآونة أرسل هنري ملك انكلترا سفارة مهيبة لتسعى لنيل إذن البابا أدريان، حتى يتمكن من غزو ايرلندا واخضاعها، وجلب سكانها البهيميين إلى طريق الصواب، بإزالة بذور الشرور من بينهم، وبسرور نال هذا المطلب موافقة البابا أدريان، الذي أرسل إلى الملك

الرسالة التالية:

« **من أدريان، أسقف وخـادم عبيـد الرب، إلى ابنه العـزيز في المسيح، الملك اللامع لانكلترا، تمنيات الصحـة، ومباركته الرسـولية:** بثناء وتقدم عزمت جلالتك على مضاعفة احترامك على الأرض، لكي تنال لنفسك جائـزة السعادة الأبدية في الجنة، وذلك في سعيك، كأمير كـاثوليكي، لمدّ حـدود الكنيسـة، ولتعليم الشعـوب الهمجيـة عقـائـد الايمان المسيحي، ولإزالة بذور الشر مـن حقل الرب، ولنجـاح هذا المشروع وفـائـدته الفضلى، سألت تأييد الكرسي الرسولي، ولقد أبديت في سبيل تنفيذ هذه النية اخـلاصاً عظيماً، وستنال نصيحة أعظم من عليين، تجعلنا أكثـر ثقة بنجاحك، ولقد بينت لنا ياولدنا العزيز في المسيح، نيتك في غزو ايرلندا، واخضـاع سكانها، وجعلهم يعيشون طائعين تحت شريعـة المسيح، ومن ثم إزالة الشرور من بينهم، مع النية أيضـاً بأن تدفع إلى القديس بطرس مبلغـاً سنويـاً، وهو بنس واحـد عن كل بيت، وبـأن تحفظ للكنائس في تلك البـلاد، حقوقهـا كـاملة ودونما نقصـان، ونحن نوافق الآن بشكل قانوني على نيتك هذه المحمودة، ونستجيب بسرور لطلبك، ونحن أيضاً مسرورين لأنك تعمل في سبيل توسيع حـدود الكنيسة، لضبط الشرور، وتقويم الأخـلاق، ولبذر الفضيلة، وأكثر لمدّ وتوسعـة الديانة المسيحية، فأنت في سبيل ذلك سـوف تغـزو تلك الجزيرة، وتفعل كل شيء يبـدو مفيـداً في رفع شأن الرب، ويفعل خيراً لـذلك الشعب، الذي سـوف يستقبلك ويحترمك بمثـابة سيد له، شريطـة بقاء حقـوق الكنيسة كـاملة ودفع البنس الواحـد سنوياً مـن كل بيت، وأن يحافظ عليـه قـانونيـا للقـديس بطرس، لأن جميع الجزر التـي أشرقت عليهـا شمس العـدالة، والتي تلقت الخلاص بوساطة الإيمان المسيحي، هي بلا شك عـائدة إلى القديس بطـرس، وإلى الكرسي الروماني المقـدس، حسبما اعترف نبلاؤك أيضـاً، وبناء عليه إذا كنت ترغب في انجـاز ما نويتـه في عقلك، ادرس

القيام بتعليم ذلك الشعب الأخلاق الصالحة، وابذل جهدك من خلالك ومن خلال الذين سوف توكل إليهم مسألة إرشادهم أن يكونوا من حيث الحياة، واللغة، والإيمان أهلاً للقيام بهذا الواجب، حتى يزينوا الكنيسة في تلك البلاد، وأن يمكن غرس المسيحية هناك ومن ثم نموها، وكذلك عمل كل شيء يميل إلى تشريف الرب، وتخليص النفوس، وأن يسود النظام هناك، حتى تتسلم من الرب تاج السعادة الأبدية، وأن تؤمن لنفسك مادمت على الأرض، مجداً لايزول».

حول اكتشاف معطف مخلصنا الذي كان بلاحاشية

عام ١١٥٦م، فيه تم العثور في آرجنتويل Argentoil، وهو دير في منطقة باريس، على معطف مخلصنا، وكان ذلك بوساطة وحي رباني، وكان هذا المعطف من دون حاشية ولونه قاتم، وقد ورد في الكتابات التي تمّ العثور عليها، في الوقت نفسه، بأنه صنع من قبل الأم المجيدة، عندما كان مايزال طفلاً.

وعبر في العام نفسه الملك هنري إلى نورماندي، حيث استولى بعد حصار طويل على قلعتي ميربو Mirabeau، وشينون Chinon، وكانت قلعة لودون Loudon قد استسلمت له من قبل، منذ مدة قصيرة، وبعدما قام أخوه غيوفري بطرد هول Hael ، كونت بريتاني، واستولى على نانتي Nantes بموافقة سكانها، عمل سلاماً مع الملك، على شرط أن يتسلم سنويا ألف باوند من النقود الانكليزية، وألفين من نقود أنجو، فبموجب هذه الاتفاقية صنع سلام بينهما.

وفي العام نفسه، دمر وليم، ملك صقلية، تدميراً كلياً مدينة باروم Barum ، وهزم الاغريق واسترد المدن والقلاع، التي كانت قد أخذت منه، وصنع سلاماً مع البابا أدريان، وسمح له بسيامة أساقفة مملكته، وفي تلك الآونة ولدت اليانور، ملكة انكلترا، للملك ابنة

أسميت ماتيلدا،[ومات في العام نفسه وليم أكبر أولاد هنري، ودفن في ردنغ].

كيف عمل ملكا انكلترا وسكوتلندا سلاما بينهما

عام ١١٥٧م، فيه عبر الملك هنري إلى انكلترا، وإليه أعاد مالكوم ملك سكوتلندا مدينة كارلآيل، وقلعة بامبورغ، ونيوكاسل على التاين، وجميع منطقة لوثيان، ومن جهة أخرى أعاد هنري إليه إيرلية هنتنغدون، وفي الطريقة نفسها، سلم وليم الابن غير الشرعي للملك ستيفن، وإيرل مورتون، ووورني Warenne ، إلى الملك قلعتي بيفني Pe-vensey، ونوروك Norwick ، إلى جانب جميع الحصون في انكلترا ونورماندي، التي كان محتفظا بها كمنحة من أبيه، وفي المقابل أعطاه الملك هنري كل الذي كان بيد ستيفن في اليوم الذي توفي فيه هنري الأول، وتخلى في الوقت نفسه أيضاً هيوج بيغود عن قلاعه إلى الملك، وأعدّ في السنة نفسها الملك هنري قوة عسكرية كبيرة لمهاجمة ويلز بحراً وبراً، وفي هذه الحملة طلب من كل فارسين تأمين نفقات تسليح فارس ثالث، وعندما كان كل شيء جاهزاً، دخل الملك إلى ويلز، فقطع الأشجار والغابات، وفتح طريقاً لجيشه، وألقى الحصار على قلعة ريدلار Rhydlar ، واسترد جميع الحصون التي انتزعت من أسلافه، وأعاد بناء قلعة بيزنغويرك Basingwerk ، وبعدما أخضع الويلزيين عاد منتصراً إلى انكلترا، وفي العام نفسه ولدت له الملكة اليانور ولداً أسماه رتشارد، وأوصل روبرت دو مونت سينت مايكل تاريخه إلى هذا الوقت.

كيف وضع الملك هنري تاجه جانباً

عام ١١٥٨م، فيه جرى تتويج الملك هنري في يوم عيد الميلاد، في ووركستر، وبعد انقضاء حفل التقديس، وضع تاجه على المذبح، ولم

يلبسه بعد ذلك، وفي العام نفسه ولدت له الملكة اليانور ولداً منح اسم غيوفري، كما جرى ضرب نقود جديدة في انكلترا أيضاً، وذهب توماس، مستشار الملك في سفارة، مع كثير من الأبهة، لاستقبال مرغريت، ابنة ملك فرنسا، لتكون زوجة للأمير هنري، ابن ملك انكلترا، وقام الملك هنري، عقب وفاة أخيه غيوفري بعبور القنال، واستولى على مدينة ناتي، وفضلاً عن ذلك، تولى زيارة ملك الفرنسيين في باريس، وجاء ذلك بناء على دعوة، وأقام هناك في القصر وأقام لويس مع ملكته في دير الرهبان النظاميين للقديسة مريم العذراء.

كيف حاصر الملك هنري طولوز

عام ١١٥٩م، فيه زحف الملك هنري ضد طولوز، واستولى على عدة قلاع في أحوازها، وكان آنذاك الملك الفرنسي في تلك المدينة، ولم يرغب هنري بمهاجمة المدينة نفسها، صدوراً عن احترامه للملك الفرنسي، الذي كانت أخته كونستانس قد تزوجت من كونت طولوز، وولدت له ولداً، وكانت هذه القضية هي سبب العداوة بين الملكين، كما ستظهر النتائج، ومات الآن البابا أدريان، وقام شقاق بين الاسكندر وبين أوكتافيان، وكان الأخير مؤيداً من الامبراطور ورجال دينه، أما الأول فكان مؤيداً من قبل ملكي فرنساوانكلترا، وكتب الامبراطور إلى الملكين معاً معاً، بأن عليها الاعتراف بأوكتافيان، لكنهما رفضا الاستجابة وبذلك حصل الاسكندر على البابوية.

كيف تزوج هنري الملك الأصغر لانكلترا

عام ١١٦٠م، فيه عاد الملك هنري من طولوز، وزوج ابنه هنري من مرغريت ابنة ملك فرنسا، التي كانت موجودة تحت عهدته، وتسلم ملكية قلعة غيسور، التي رغب بتملكها منذ زمن طويل، وانزعج ملك فرنسا تجاه ذلك، وادعى بأن ذلك قد عمل قبل أوانه، ولهذا السبب، قام

مع مساعدة ثيوبولد كونت فلاندرز، فحصن شومونت Chaumont على الرغم من إرادة ملك انكلترا، لكن هنري زحف إلى هناك مسرعاً، وتراجع الملك الفرنسي وكونت فلاندرز، واستسلمت القلعة بعد عدة أيام من الحصار إلى هنري، وذلك مع الخمسة والخمسين فارساً الذين كانوا شحنة فيها، وبناء عليه جرى الاحتفال بالزواج فيما بين الأمير هنري، الذي كان في السابعة من عمره، وابنة الملك الفرنسي التي كان عمرها ثلاثة أعوام فقط، وكان الاحتفال في نيوبورغ Newbourg في اليوم الثاني من تشرين الثاني، بمباركة هنري أوف بيزا، ووليم أوف بافيا، وكانا كاردينالين وممثلين للكرسي الرسولي، ومات في هذا العام ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري.

حول سيامة بارثوليو اكستير والمعجزة التي رآها

عام ١١٦١م، فيه جرت سيامة بارثوليو Bartholomew، الذي كان رجلاً متديناً، وله معارف جيدة باللاهوت، لكرسي أكستير Exet-er من قبل أسقف روكستر، وفيها يتعلق بهذا الأسقف المبجل، يحكى عنه أثر معروف بشكل جيد، بأنه عندما كان يزور أسقفيته، ومركزا جهده حول إنقاذ الأنفس، استراح في احدى الليالي مع رجال دينه، وكانت الاستراحة في احدى قرى المنطقة، وقد نام فوق قطعة أرض مطلة على كنيسة وأرض مقبرتها، وفي منتصف الليل، عندما أفاق لتأدية الصلاة الليلية، وجد المصباح الذي يشتعل بالعادة طوال الليل في غرفته قد انطفأ، ولذلك دعا حاجبه وأخبره بوجوب احضار اضاءة بالسرعة الممكنة، وفي أثناء انتظاره للإضاءة سمع صرخات عدد من الأطفال كانوا يقومون بمسيرة من ساحة الكنيسة، وكانوا يتفوهون بالكلمات التالية بشكل واضح:« الويل لنا، الويل لنا، من الذي سيصلي من أجلنا؟ ومن الذي سيقدم صدقات إلينا، أو سيقيم قداسات من أجلنا؟»، واندهش الأسقف تجاه هذه الكلمات، وتساءل إلى أبعد الحدود

عن المعنى الذي تقصده، وذهب في الوقت نفسه الحاجب لإحضار الاضاءة، لكنه لم يجد اضاءة لافي القاعة ولافي المطبخ، فذهب وهو قلق إلى القرية، فركض إلى هناك مسرعاً، فوجد هناك كاهن الأسقفية مع عدد من الرجال والنساء، متحلقين حول جثة رجل، يبكون وينتفون شعورهم، ولم يهتم كثيرا حول هذه المسألة، ولم ينشغل بها، بل وضع الضوء في مصباحه، ورجع حيث أخبر الأسقف حول ماراه، وفور انتهاء الليل، وعندما صار الوقت ضياء، استدعى الأسقف الكاهن مع بعض سكان القرية، وسألهم عن الميت وأي نوع من الرجال كان هو، واتفق الجميع على أنه كان رجلاً مستقيماً، كان يخاف الرب، وكان أباً لليتامى ومواسيا للمحتاجين، ذلك أنه كان قد أعطى كل ممتلكاته للفقراء، وهو مايزال حياً، وكذلك إلى الغرباء، فضلاً عن هذا احتفظ في بيته براهب، حيث أبقاه على حسابه ليصلي وليعمل قداساً يوميا من أجل أرواح الموتى، وما أن سمع الأسقف بهذا، حتى أدرك على الفور، أن النحيب الذي سمعه من ساحة الكنيسة، صدر عن أرواح الذين كانوا مدفونين في ساحة الكنيسة، وذلك أثناء حزنهم على الرجل الذي كان يفيدهم بصدقاته وقداساته، ثم بعث الأسقف وراء الكاهن الذي كان يتولى تلاوة تلك القداسات من أجل الموت، وأعطاه حصة في الكنيسة، وتمنى عليه تلاوة قداس وإقامة الصلوات من أجل الموتى في كل يوم مادام حياً.

كيف عقد ملكا فرنسا وانكلترا معاهدة بين أحدهما والآخر

عام ١١٦٢م، فيه كان قد حشد الآن لويس ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا جيشاً كبيراً على كلا الجانبين، وكان من المتوقع نشوب معركة فيما بينهما في فريتفال Freitval ، عندما عقد سلم كان غير متوقعا صنعه بينهما، وولدت في العام نفسه إليانور ملكة انكلترا لزوجها ابنة في روان Rouen ، وأعطت المولودة اسم أمها، وسار رتشارد

أسقف لندن على طريق جميع الأجساد، وأمر الملك بأداء يمين الولاء لابنه هنري، وكان الأول في أداء اليمين توماس، مستشار الملك، الذي أقسم أنه سيكون مخلصاً للأمير الشاب، باستثناء حق ابيه الملك فقط، فهو سيبقى بخدمته طوال حياته وطوال رغبته في حكم المملكة.

كيف جرى اختيار توماس مستشار الملك رئيساً للأساقفة

واجتمع في العام نفسه جميع رجال الدين والناس العائدين لمنطقة كانتربري في وستمنستر، حيث جرى بشكل مهيب انتخاب توماس مستشار الملك، بدون معارضة، لأن يكون رئيس أساقفة، وقد حدث هذا في أحد عيد العنصرة، وتمت سيامة المستشار ليكون كاهنا، من قبل وولتر أسقف روكستر، في كنيسة كانتربري، وفي الأحد التالي جرى تكريسه من قبل هنري أسقف ونكستر وجرى اجلاسه على العرش بشكل مهيب، وعلى الفور تم ارسال رسل إلى روما، وقد قابلوا البابا على هذا الجانب من الألب، وهو داخل إلى فرنسا، وقد عادوا إلى انكلترا، وهم يحملون معهم الطيلسان، الذي وضع على المذبح في كنيسة كانتربري، وبعدما أدى توماس الأيمان المعهودة، تسلم الطيلسان من على المذبح، ووضع على نفسه بشكل مهيب أردية كاهن أعلى، وكان التغيير باللباس عملاً تمهيدياً لتغيير في القلب أيضاً، لأنه تخلى الآن عن الاهتمامات العلمانية، وركز اهتمامه فقط على الاهتمامات الروحية للكنيسة، ولكسب الأرواح.

وأرسل رسلاً إلى الملك في نورماندي، متخلياً عن منصب المستشار، ومعلنا استقالته عن حمل الختم الكبير، وأثر هذا العمل تأثيراً عميقاً على فكر الملك، الذي عدّ نفسه وحده المسؤول عن استقالته، وكانت هذه هي المرة الأولى التي امتلأت فيها نفسه وشحنت نحو توماس، رئيس أساقفة كانتربري، وكان توماس واحداً من سكان لندن، وقد اعتاد منذ صغره على التمتع بالدعاء إلى العذراء المباركة، وبعد المسيح، ركزّ جميع

آماله عليها، وعندما انتهى من تعليمه، دخل في خدمة ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري، وفي أثناء عمله، كسب طريقه لصنع صداقة حميمة وإلفة معه، هذا وليس من السهل الحديث عن كيف أنه في خدماته وأعماله في سبيل قضية كنيسة الرب، قد زار مراراً عتبات الرسولين حول مسائل كانت تتعلق بالأعمال، ولاكيف أنه نجح في القيام بمهامه، ذلك أن عقله كله كان منصرفاً كليا لفحص القضايا وتقريرها، ولتوجيه الناس، وجرت ترقيته أولاً من قبل رئيس الأساقفة لأن يكون رئيس شمامسة كانتربري، وصار بعد ذلك بوقت قصير مستشار الملك، حيث تمكن في إطار عمله بحكمة وعقلانية من إيقاف أعمال سلب الأوغاد الذين كانوا قد تآمروا لسلب أملاك كل من المنطقة والكنيسة، ولعل في هذا كفاية للوقت الحالي فيما يتعلق بالحياة المتقدمة لرئيس الأساقفة توماس، وذلك حتى يكون القارىء قادر بشكل أحسن على فهم الذي سنقوله عنه فيما يلي.

حول التسوية النهائية للخلافات بين كنيستي سينت ألبان ولنكولن

تمّت في هذا العام التسوية نهائياً وسلمياً للخلاف بين كنيسة لنكولن، ودير القديس ألبان، وتولى عرض قضية كنيسة لنكولن والحفاظ عليها من قبل اسقفها روبرت أوف شيسني Chaisney ، أما قضية الدير فتولاها راعي الدير روبرت دي غورهام Gorham ، وكان ذلك بحضور الملك هنري الثاني، وتوماس رئيس أساقفة كانتربري، وروجر رئيس أساقفة يورك، وذلك إلى جانب الأساقفة التالية أسماؤهم: هنري أسقف ونكستر، ووليم أسقف نوروك، وجوسلين أسقف سالسبري، وبارثولميو أسقف اكستير، وهيلاري أسقف سشتر، وهيوج أسقف درم، ورتشارد أسقف كوفنتري، وغيلبرت أسقف هيرفورد، وغودفري أسقف القديس آساف Asaph، ورويرت ايرل أوف ليستر، وكان أيضاً

مسؤول العدالة في انكلترا حاضراً، مع الإيرلات، ورؤساء الديرة، ورؤساء الشمامسة، مع حشد عظيم من الناس، وكان ذلك في وستمنستر يوم الخميس قبل الفصح، ووقتها جرى توقيع الصك التالي:

« *من روبرت، الذي هو بنعمة من الرب، أسقف لنكولن إلى جميع أبناء أمنا الكنيسة المقدسة، تمنيات الصحة:* ليكن معلوماً من قبلكم جميعاً، أن الخلاف الذي أنا أثرته ضد روبرت راعي دير القديس ألبان ورهبانه، فيما يتعلق بالدير نفسه، وبالخمس عشرة كنيسة ذوات الامتياز التي يمتلكونها على أراضيهم، والتي أنا أدعي، كأسقف لهم، وجوب أن يكونوا رعية وطائعين لي شخصياً، قد انتهى الآن وإلى الأبد، فلقد تخليت مع موافقة من مجلس الكهنة عن هذه الإدعاءات والمطالبات بحضور الشهود المتقدم ذكرهم، علاوة على ذلك، لقد تسلمت أيضاً بموافقة من مجلس كهنتي، من راعي الدير المتقدم ذكره، مع رهبانه، قرية أوف تنغهيرست Tinghurst مع كنيستها، ومع جميع حقوق الامتياز لعشرة عقارات من الأرض، ليجري تملكها من الآن فصاعداً وإلى الأبد من قبل كنيسة لنكولن، وذلك مقابل التخلي عن الادعاءات المتقدم ذكرها، علاوة على ذلك إن الحقوق التي أدعيها على الدير المتقدم الذكر، ممثلاً بشخص الراعي روبرت وخلفائه، وعلى الخمس عشرة كنيسة المتقدم ذكرها، بمثابة كونها عائدة إلى كنيستي، ولشخصي ولخلفائي، قد تخليت عنها ووضعتها في يدي مولانا الملك نيابة عني شخصياً وعن خلفائي إلى الأبد، وبناء عليه، لتكن— من الآن فصاعداً— الحرية ممنوحة إلى دير القديس ألبان، والخمس عشرة كنيسة المتقدم ذكرها، لتلقي الميرون، والزيت، والمباركة، والتكريسات الأخرى العائدة للكنيسة، من أي أسقف يرضون، من دون أية معارضة منا أو من كنيستنا، وعلاوة على ذلك فإن تلك الكنيسة سوف تبقى حرة في يدي الملك، بمثابة ملك له، لكن الكنائس الأخرى العائدة للدير نفسه

في منطقة أسقفية لنكولن، فلسوف تقدم الطاعة والخضوع الرعوي لأسقف لنكولن، مثل بقية الكنائس، ولكي لاتعود هذه المسألة إلى الخلاف ثانية، قمت بتأكيد هذا الاتفاق الحالي في الكتابة الحالية، وبوضع ختمي هنا عليها، وأختام الكهنة».

وجرى تأكيد هذه التسوية السلمية من قبل الملك، ومن قبل رئيس الأساقفة توماس، والبابا الاسكندر، الذي حذا حذوهما فوافق عليها بموجب صلاحيات الكرسي المقدس، مع الموافقة الكتابية لجميع الكرادلة.

وفي العام نفسه دفع بلدوين، ملك القدس دين الطبيعة، وقد خلفه أخوه عموري.

السبب الثاني لمعاداة توماس رئيس أساقفة كانتربري

عام ١١٦٣م، فيه عاد الملك هنري إلى انكلترا، بعد أنهى عمله فيما وراء البحر، وجاء توماس رئيس أساقفة كانتربري للقائه، وقد استقبله بالقبلة المعتادة، إنما من دون الحظوة الكاملة كما كان واضحاً لجميع الذين كانوا حاضرين، وذلك بإشاحة الملك وجهه عن وجهه، وجرى في العام نفسه، بمبادرة من الملك ومع موافقة البابا، نقل غيلبرت أسقف هيرفورد، إلى كرسي لندن، وجلس على عرشه بشكل مهيب في تلك الكنيسة في ٢٨— نيسان، وكذلك غلب روبرت دي مونتفورت هنري أوف اسكس، في مبارزة واحدة، وذلك بتهمة الخيانة للملك، أما هنري الذي هزم فقد جعل نفسه عرضة للتجريد والمصادرة، لكن سمح له فيما بعد بتدخل من الملك بلبس الرداء الرهباني في دير ردنغ، وفي هذا العام أيضاً عمل رئيس الأساقفة توماس كاهنه غيوفري رايدل Ridel رئيس شمامسة لكانتربري، وجاء ذلك بناء على طلب ملح وسريع من الملك، ومع ذلك لاحظ أن حظوة الملك لم تعد إليه كاملة، وكان الازعاج

الأول له عندما استقال من حمل ختم الملك، وظهر الانزعاج الثاني بالبرودة التي أبداها الملك نحوه عندما استقبله بالقبلة المعتادة، وذلك من دون الحظوة الكاملة، ووضح الآن ذلك للمرة الثالثة عندما منح رئيس الأساقفة رئاسة الشمامسة، حسب طلب الملك، فقد أدرك في ذلك الوقت أن الحظوة الملكية لم تعد إليه كاملة.

وسعى في العام نفسه كليرنبولد Clarenbald راعي الدير المنتخب لدير القديس أوغسطين، للحصول على المباركة المعتادة من رئيس الأساقفة، إنما في كنيسته الديريه، ومن دون مسيرة، وكان يستهدف بهذه الوسائل أن يسحب نفسه من الخضوع لرئيس الأساقفة، واستجاب الملك لرغبات راعي الدير المنتخب هذه، حاثاً على ضرورة المحافظة على العادات القديمة للملكة، وبذلك عاكس رئيس الأساقفة ووقف ضده وكانت هذه المناسبة التالية التي وقف فيها موقفاً عدائياً ضده، وجرى في هذا العام بحث عام وتقصي في أوضاع الممتلكات الإقطاعية في جميع أرجاء انكلترا، وقد تبين من خلال ذلك أنه في مقاطعة كنت، كان المتوجب على دي روز Roos، في تكليفه في بعض الخدمات، الاعتراف بالملك كرئيس له وليس برئيس الأساقفة، وصارت هذه العداوة الشخصية أمراً ثابتاً بالنسبة للكنيسة، وكانت هذه هي المناسبة الخامسة في اتخاذ موقف عدائي من رئيس الأساقفة، وأظهرت المناسبة السادسة نفسها عندما منح رئيس الأساقفة كنيسة آينفورد Eynsford الشاغرة لواحد اسمه لورانس، لكن وليم صاحب القرية، ادعى الولاية على الكنيسة، وطرد لورانس، الأمر الذي نال من أجله الحرمان الكنسي من قبل رئيس الأساقفة، وكان هذا قد حدث من دون استشارة الملك، الذي أبدى انزعاجه الكبير تجاه الاجراءات، والذي ادعى أن من صلاحياته الملكية وجوب عدم تعريض أي اقطاعي رئيسي لديه، أو واحداً من عماله، للحرمان الكنسي، من دون الحصول على إذنه، وذلك

خشية امكانية اتصاله بواحد محروم كنسيا من دون أن يعرف، سواء أكان إيرلاً أو باروناً، والسماح له بقبلة، أو بالحضور إلى مجلسه للاجتماع به، وظهرت حالة الغضب السابعة للملك، بعد إرساله سفراء إلى روما، للحصول على تثبيت لعادات المملكة، ولدى عودة السفراء، لم يستطيعوا تهدئة الملك وإزالة غضبه سواء نحو رئيس الأساقفة، أو نحو عدة شخصيات أخرى.

كيف عقد البابا الاسكندر مجمعاً في تور

وعقد في العام نفسه البابا الاسكندر مجمعاً في تور، في كنيسة القديس مارتن، وكان ذلك في الحادي والعشرين من أيار، وحضر هذا المجمع— بناء على إذن من الملك— عدداً كبيراً من الأساقفة الانكليز، ورجال الدين، كما كان هناك رئيس الأساقفة توماس مع أساقفته المساعدين، وقد جلس على يمين البابا، في حين جلس روجر، رئيس أساقفة يورك مع أسقف درم على يساره.

وقدّم في العام نفسه مالكوم ملك الاسكوتلنديين، وريس Rees أمير ديمشيا Demetia ، أي جنوب ويلز، مع ملوك آخرين، وأمراء كامبريا Cambria، الولاء للملك هنري، وإلى ابنه الأمير هنري، وكان ذلك في اليوم الأول من حزيران، في وود ستوك Wood stock، علاوة على ذلك جرى استدعاء روجر إيرل أوف كلير Clare، لتقديم الولاء إلى رئيس الأساقفة توماس في وستمنستر من أجل قلعته قلعة أوف تونبردج Tunbridge وتوابعها، لكن بناء على تحريض من الملك رفض، قائلاً بأن جميع موارد اقطاع تلك القلعة ينفق على الخدمات العلمانية للملك، وهي بذلك بيد الملك، وليست بيد رئيس الأساقفة، ولقد كان هذا السبب الثامن للعداوة بين الملك وبين رئيس أساقفة كانتربري.

كيف تمّ الاعتراف بعادات انكلترا في كليرندون

عام ١١٦٤م، فيه جرى اجتماع بحضور الملك هنري، في كليرندون Clarendon ، في الخامس والعشرين من كانون الثاني، وذلك برئاسة جون أسقف أكسفورد، بناء على طلب من الملك، وكان بين الحضور أيضاً رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والإيرلات، والبارونات ونبلاء المملكة، وفيه جرى الاعتراف— أو البحث— ببعض العادات وحريات التصرف العائدة لاجراءات الملك، التي هي اجراءات قضائية لها علاقة بالملك هنري وبجدّه وبآخرين، وهي اجراءات قضائية ينبغي مراعاتها والتمسك بها من قبل الجميع في المملكة، وذلك فيما يتعلق بالخلافات وعدم الوفاق الذي غالباً مايتفجر بين رجال الدين والقضاة التابعين لمولانا الملك، ولنبلاء المملكة، ومن هذه العادات جرى الاعتراف آنذاك بقسط منها هو الموجود في الستة عشر بنداً المقبلة فيما يلي:

١— بالنسبة للأوقاف والهدايا إلى الكنائس؛ إذا نشب أي خلاف بين العلمانيين، أو بين رجال الدين والعلمانيين، أو بين رجال الدين، ينبغي محاولة حسم ذلك في محكمة بلاط مولانا الملك.

٢— لايجوز منح الكنائس الموجودة في إقطاعية الملك، بشكل أبدي من دون موافقته وإجازته.

٣— سوف يجري استدعاء أي واحد من رجال الدين المتهمين[1] بأية جريمة من قبل القضاء الملكي إلى محكمة البلاط الملكي، للإجابة على أي سؤال سوف تقرر محكمة البلاط الملكي وجوب طرحه عليه، وكذلك إلى المحكمة اللاهوتية للإجابة على أية سؤال يقررون وجوب طرحه عليه، هذا ولسوف يرسل القضاء الملكي إلى محكمة الكنيسة المقدسة ليرى كيف ستتم معالجة القضية، وإذا مااعترف رجل الدين أو

أدين، فلن تتدخل الكنيسة في المستقبل لحمايته.

٤— مامن رئيس أساقفة، أو أسقف، أو أي شخص صاحب منصب رفيع، يجوز له مغادرة المملكة من دون الحصول على إجازة من الملك، وإنهم إذا مارغبوا في مغادرتها، سوف يستعد الملك ويملك السلطة— إذا مارغب— في الحصول على الضمانات منهم، في أنهم لن يقوموا لابإيذاء الملك أو المملكة، لافي أثناء الذهاب، أو البقاء، أو الإياب.

٥— ليس على الأشخاص المحرومين كنسيا تقديم كفالة« ad re-manens »، وليس عليهم أداء يمين، بل الذي عليهم تقديمه كفالة مع تعهد، بأنهم سوف يمثلون أمام القضاء الكنسي حيث يجري تحليلهم.

٦— سوف لن يجري اتهام أي رجل علماني، إلاّ بتهم قانونية، وشهود بحضور الأسقف، وبذلك لن يفقد رئيس الشمامسة حقوقه، أو أي شيء يصبح حقاً له من خلال ذلك، وإذا كان المستدعون إلى المحاكمة من النوعية التي لايرغب أحد باتهامهم أو يتجرأ على ذلك، سوف يقوم عمدة القرية، بناء على طلب من الأسقف، بجعل اثني عشر رجلاً مخلصاً، يقسمون أمام الأسقف، بأنهم سوف يعلنون الحقيقة المتعلقة بتلك المسألة وفقاً لضمائرهم.

٧— مامن واحد له مكانته عند الملك، أو أي واحد من خدمه الخاص، سوف يجري حرمانه كنسيا أو وضع أراضيه تحت الحرمان الكنسي، حتى تجري مشاورة الملك، إذا كان في المملكة، أو إذا كان مسافراً فتتم استشارة قضاته، حتى يتم فعل ماهو صحيح حول هذه المسألة، وبذلك تجري تسوية كل ماهو عائد إلى محكمة البلاط الملكي فيها، وكذلك من جهة أخرى بالنسبة لما هو عائد الى المحكمة اللاهوتية.

٨— الالتماسات، إذا ماتم رفعها، فستكون من رئيس الشمامسة إلى الأسقف، ومن الأسقف إلى رئيس الأساقفة، وإذا ماأخفق رئيس الأساقفة في معالجة القضية على الفرقاء الذهاب للمثول أمام مولانا الملك، حتى يمكن بتدخله انهاء الخلاف في محكمة رئيس الأساقفة، وبذلك لن تتطور الاجراءات أكثر من دون موافقة مولانا الملك.

٩— إذا ماانشب خلاف بين علماني وكاهن، حول مبنى، رغب الكاهن أن يدعي أنه ديني، لكن العلماني ادعى أنه ملك علماني، فإن القضية يجري حلها، عن طريق شهادة اثني عشر رجلاً مخلصاً، من خلال المحكمة الملكية الرئيسية، فالشهود سيقررون فيما إذا كان المبني دينيا أو علمانيا، وذلك بحضور قاضي الملك، فإذا تقرر أن المبنى دينيا، فسوف تجري المرافعة على القضية في المحكمة اللاهوتية، وإذا ماكان ملكاً علمانيا، فلسوف تجري المرافعة في المحكمة الملكية، مالم يكن الاثنان قد تداعيا حول مبنى يعود للأسقف نفسه أو البارون، فوقتها تجرى المرافعة في محكمته، وينبغي أيضا عدم حرمان المتولي للمبنى قبل الدعوى حتى يتم القضاء عليه بذلك، واعلانه.

١٠— إذا ماكان أي انسان، ينتمي إلى مدينة، أو قلعة، أو منطقة، أو قرية ملكية، جرى استدعائه من قبل رئيس الشمامسة أو الأسقف للتحقيق معه حول جريمة، ولم يستجب للدعوة، سوف يكون قانونيا وضعه تحت عقوبة المنع، لكن ليس الحرمان الكنسي، حتى يتم اعلام المسؤول الملكي الرئيسي في ذلك المكان بالأمر، حتى يتدبر استجابته للدعوة، وإذا ماأخفق المسؤول الملكي في هذه المسألة، فإنه سيكون تحت رحمة الملك، وسوف، بناء على ذلك، يقوم الأسقف بإرغام الفريق المتهم بموجب النظام اللاهوتي.

١١— سوف يحتفظ رؤساء الأساقفة والأساقفة، وجميع الشخصيات الأخرى ذات المكانة لدى الملك بممتلكاتهم الملكية، مثل البارونات،

ومقابل ذلك سوف يستجيبون لاستدعاء إلى العدالة الملكية وللمسؤولين الملكيين، وعليهم مراعاة جميع العادات الملكية واتباعها، والتصرف باستقامة مثل البارونات الآخرين، حتى يجري تطبيق قرارات العدالة على الأعضاء الخاسرين، أو الموت.

١٢— إذا ماشغرت رئاسة أساقفة، أو أسقفية، أو رعاية دير، أو رئاسة رهبان من مملكة الملك، فلسوف تكون بيده، ولسوف يتلقى منها جميع الموارد، وتكون الإجراءات القضائية فيها مثلما هي في مملكته، وعندما يحين الوقت للتعيين في تلك الكنائس، سوف يقوم مولانا الملك بالتوصية بأفضل الأشخاص إلى تلك الكنيسة، وستتم أعمال الانتخاب في بيعة الملك ومع موافقة الملك وبمشورة الملك بالنسبة للأشخاص الذين سوف يجري استدعائهم لذلك الغرض، وسوف يقدم الشخص المنتخب الطاعة والولاء لمولانا الملك، ليكون سيده ومولاه عن حياته وعن أطرافه، وعن سمعته الأرضية، باستثناء نظمه قبل تكريسه.

١٣— وإذا مارفض أي واحد من نبلاء الملك تقديم العدالة إلى رئيس أساقفة، أو أسقف أو رئيس شمامسة عن نفسه أو عن أي من رجاله، سوف يتولى مولانا الملك الفصل القضائي بينهم، وإذا صدف وقام أي واحد بالاعتداء على أي من حقوق الملك، سوف يتولى رئيس الأساقفة، أو الأساقفة، أو رؤساء الشمامسة إجراء المحاكمة من أجله وتقديم الترضية إلى الملك.

١٤— لايجوز حجز المواشي العائدة للمصادرة لصالح الملك، في الكنيسة أو في المقبرة، مراغمة للعدالة الملكية، لأنهم ملك للملك، سواء أو وجدوا في الكنيسة أم خارجها.

١٥— الالتماسات من أجل الديون المستحقة، سواء أكانت مفروضة بيمين توثيق أم لا، هي من اختصاص المحكمة الملكية.

١٦ — لايجوز حجز أبناء الفلاحين من دون موافقة مولاهم، الذي من المعروف أنهم ولدوا في أرضه.

وأقسم على الاعتراف بهذه الطرائق أو وسائل التقصي فيما يختص بالعادات السيئة، والحريات، والمفاخرات، المكروهة من قبل الرب القدير: من قبل رئيس الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين، إلى جانب الايرلات، والبارونات، والنبلاء، الذين عبروا عن وعودهم سواء بكلمات الفم، أو في كلمات الوعد الصادق، بأنهم سوف يحافظون على هذا كله ويراعونه لصالح مولانا الملك، ولورثته، بإيمان صحيح، ومن دون ريبة بالنوايا، إلى الأبد.

كيف ندم رئيس الأساقفة توماس لتسرعه بإعطاء الموافقة على العادات

ونتيجة لهذه القواعد التشريعية،مارست السلطة العلمانية الجباية من دون معارضة، من جميع المؤسسات اللاهوتية، سواء أتعلقت بالأشياء أو بالأشخاص، خارقة بذلك الامتيازات اللاهوتية، لأن الأساقفة التزموا بالصمت، أو بالحري تذمروا مستهجين صمتاً بدلاً من المقاومة المعلنة، وبناء عليه اكتشف رئيس الأساقفة توماس توريطه لنفسه، وتسرعه في الموافقة على هذه القوانين غير التقية، التي يتوجب على جميع المسيحيين مقتها ورفضها، ولأنه أقسم على مراعاتها، فلقد سبب له هذا ندماً عظيماً، وأثر على نفسه تأثيراً كبيراً، فأخضع جسده إلى استخدام أخشن الطعام، وأقسى أنواع الملابس، وأوقف نفسه عن تأدية الصلوات عند المذبح، حتى اعتقد من قبل البابا الحاكم أن اعترافه وثمار توبته جديرة بتحليله، ذلك أنه أرسل على الفور رسلاً إلى بلاط روما، ليعرض أمام الحبر الروماني، كتابة فيها شرح لقضية الكنيسة، وهي القضية التي كانت أيضاً قضيته، وتمنى على البابا أن يحلله من تعهده المتسرع، ولقد حصل على هذا التحليل في كلمات الرسالة التالية:

تحليل رئيس الأساقفة من قسمه المتسرع

« من الاسكندر أسقف[وخادم عبيد الرب إلى أبنائه بالمسيح، تمنيات بالصحة]، ليكن معلوماً لديكم ياإخوتي بأن أخباراً قد وصلت إلى أذني، أنكم اقترحتم بسبب بعض الاضطرابات والفوضى التوقف عن ترتيل القداس وعن تكريس جسد ودم ربنا، وإن خطورة مثل هذا القرار، وبشكل خاص من قبل هؤلاء الأشخاص الهامين، مع امكانية قيام شرور من ذلك، ينبغي أن يكون موضوعاً لتفكير وتمعن عميق من قبلكم، وأن يشغل ذلك نشاطكم واهتمامكم، ولسوف تتولى حكمتكم تقدير الفوارق بين الأعمال المدبرة وبين الأعمال التطوعية، وبين مايقترف صدوراً عن الجهل أو صدوراً عن الحاجة، لأننا نقرأ بأن الذنب لابد أن يكون دوماً تطوعيا، لأنه لولم يكن كذلك لتوقف عن كونه ذنباً، وبناء عليه، إذا كان بإمكانكم اتهام أنفسكم بأي عمل، ضميركم غاضب منه، مهما كان نوعه، ننصحكم بالاستغفار منه وبالاعتراف به إلى كاهن يكون مستقيماً وحكيماً، وهو إذا مافعل، فإن الرب الرحيم، الذي ينظر إلى قلوبكم أكثر من نظره إلى أعمالكم الظاهرة، سوف يتولى برحمته الغفران لكم، ونحن أيضاً باعتمادنا على فضائل الرسولين: بطرس وبولص، نقوم بتحليلكم مما اقترفتم، وبتحريركم منه بوساطة سلطاتنا الرسولية، وفضلا عن ذلك ننصحكم، لابل نأمركم ، بأن لاتتوقفوا منذ الآن فصاعداً، على هذا الأساس، عن الإحتفال بالقداسات»، [صدر في١— نيسان ١١٦٤م].

كيف رسم الملك بوجوب تلقي رجال الدين العقوبة من العلمانيين

وفي العام نفسه، بما أن الملك كان راغباً بالتأكيد على معاقبة الجرائم بالقسوة المستحقة، وأن كرامة جميع الطوائف ينبغي معاملتها بعدل، أكد

أنه من غير المنطقي، أن يقوم رجال العدالة لديه بالارغام على تسليم رجال الدين، الذين أدينوا بجرائم إلى أسقف الأسقفية من دون عقوبة، ولذلك أمر بأن جميع رجال الدين الذين وجدهم أساقفتهم مجرمين، يتوجب تجريدهم واخراجهم من طوائفهم، بحضور رجال العدالة الملكيين، وأن يسلموا بعد ذلك إلى المحكمة الملكية من أجل المعاقبة، واتخذ رئيس الأساقفة موقفاً معارضاً، بأن مامن أحد يجوز تجريده واخراجه من طائفته من قبل أساقفته، ثم تلقيه بعد ذلك أية عقوبة من محكمة علمانية، لأن ذلك سوف يبدو وكأنه انزال عقوبة مزدوجة على جريمة واحدة، ويعود أصل هذا الخلاف إلى فيليب دي بروك، قانوني بدفورد Bedford الذي عندما استدعي للمحكمة بتهمة القتل، استخدم لغة مهينة نحو القاضي، وهذا مالم يستطع نكرانه عندما مثل أمام رئيس الأساقفة، ولذلك جرد من وقفه الكنسي، ونفي من المملكة لمدة عامين، وكان هذا هو السبب التاسع لتوفر مشاعر البغضاء بين الملك وبين رئيس الأساقفة.

كيف أهين توماس المبارك من قبل الملك في نورثأمبتون وترك المملكة

وبناء عليه، عندما رأى رئيس الأساقفة أن حريات الكنيسة قد أزيلت تماماً الآن، ركب سفينة من رومني Romney ، وعزم على الذهاب إلى روما، من دون علم الملك، لكن الرياح كانت معاكسة، وساقت السفينة عائدة إلى انكلترا، وأضاف هذا سبباً عاشراً إلى العداء بينه وبين الملك، ولهذا السبب جرى استدعائه للمثول أمام القضاة الملكيين، للاجابة على شكوى قدمها جون ماركال Mareschal، فيما يتعلق باحدى القرى، التي — كما قيل — تملكها رئيس الأساقفة من دون اعاقة بتملكها، وذلك لمدة طويلة، وأخيراً وبعد نقاش طويل جرى نقض القرار، وحكم بغرامة للملك قدرها خمسمائة باوند، وقدم رئيس

الأساقفـة على الفور ضمانة بالدفع في ذلك الموضع، وشكـل هذا المناسبة الحادية عشرة للعدوانية ضد رئيس الأساقفة، الذي مازال ضميره نقياً.

واتهم في نورثأمبتـون حـول أعمال عملت أثناء مستشـاريته، وظهـر هناك شخصيـاً في الثـالث عشر من تشرين الأول، حيث تقـرر هناك أن من المتوجب عليـه تقديم حسـاب عن المال الذي كان قـد تسلمه طوال السنين العـديدة التي تسلم فيهـا الأثاث في قلعتي آي Eye وبيركها مبستد، وفيما يتعلق بما كان قبل سيامته لرئاسة الأساقفة، جرى الاعلان من قبل هنري ابن الملك وولي عهده، ومن قبل القضاء الملكي تحرره من جميع المطالب المدنيـة، ومع ذلك حـاول النجاة مـن القرار غير العـادل، بالمرافعـة إلى الكرسي البـابوي، حيث جـرى الحظر على كل أسـاقفتـه المسـاعـدين، وعلى سـواد المؤمنين اصـدار أحكام عليـه، لأنه أبوهـم وقـاضيهم، لكن النبـلاء والأسـاقفـة، الذين جمعهـم الملك لهذه الغـاية أصدروا قـرار حكم عليه، مع أنه لم تجر إدانتـه، ولم يعترف شخصياً بأنه مجرم، بل رافع ملتمسا الامتياز له شخصيـاً ولكنيسته، وهكذا قام رئيس الأساقفـة الذي شعر بالضيق، والإهانـة، وبالهجران من قبل الأسـاقفة، برفع صليبه عالياً بيديه، وغادر المحكمة بشكل مكشوف، وقام في الليلة التاليـة بمغادرة البلدة بشكل خاص، وأخفى نفسـه أثناء النهار، وارتحل أثناء الليل فقط، ووصل بعد عدة أيام إلى ميناء ساندوش Sandwich، حيث أبحر في قـارب صغير، وعبر إلى فلاندرز، وهكذا وصـل المدفوع إلى المنفى، والمعترف بالمسيح إلى السين Sens حيث جرى استقبـاله من قبل البابا الاسكندر، ومنح مسكنا في دير بونتني.

إفادات رسل الملك ضد رئيس الأساقفة

وجرى في الوقـت نفسه إرسال رسل من قبل ملـك انكلترا إلى البابا في السين، وقـد أخبروا قداستـه بإصرار كـامل، أنه نتيجـة لخلاف نشب الملك وبين رئيس أسـاقفـة كـانتربري، جـرى تحديد يوم، بمـوافقـة من

الطرفين ، حتى يمكن تسوية الخلاف بينهما في مؤتمر، وفقا للعدالة، وفي اليوم الذي تحدد من قبل السلطات الملكية، اجتمع رؤساء الأساقفة، والأساقفة،مع رجال الكنيسة الآخرين من أجل أن تكون الإجراءات القضائية معروفة من قبل المؤتمر كله، وأن يكون من السهل تقصي الأمور إن كانت عادلة أو مزيفة، وأضافوا أنه في اليوم المحدد قدم المفسد للسلام والمثير للاضطراب في المملكة نفسه أمام الملك، غير واثق بعدالة قضيته، ورافعاً أمامه صليب ربنا، وكأنه كان داخلاً إلى حضرة طاغية، ومع ذلك لم ينزعج جلاله الملك، بل عهد بالقرار حول المسألة إلى الأساقفة، حتى يمكن بهذه الطريقة إزالة جميع أنواع الشكوك، والذي بقي هو فقط قيام الأساقفة باتخاذ القرار حول القضية، حتى يمكن إعادة الصداقة ثانية إلى مابين الفريقين، فيعودا صديقين، ويدفنا كل العداوات بينهما، لكن الفريق الثاني قدم اعتراضاً على أنه سيحاكم من قبل الملك، وأن ذلك فيه ابتعاد عن حصانة الكرسي المقدس، غير مدرك أنه حتى وقار الكنيسة وشرفها لايجوز تعريضه بأية وسيلة إلى التسويات، وكان المرغوب فيه، هو المداجاة لبعض الوقت حتى يمكن للكنيسة أن تعيش لبعض الوقت بسلام، علاوة على ذلك سارع إلى منح نفسه اسم« أب»، حتى يكون من الرعونة بالنسبة للأبناء إدانة أبيهم، بل أن يكون من الضروري تواضع الأبناء للحفاظ على كرامة الأب، حتى لايوصلوا كراهية الأب إلى الأبناء، وكان المطلب الرئيسي للسفراء أن يرسل البابا اثنين من نوابه، ليقوما — من دون التماسات — بحسم الخلاف بين رئيس الأساقفة والملك، وحاولوا أخيرا، بوساطة مختلف الوعود، إقناع البابا حتى يقوم بتثبيت العادات والصلاحيات المطلقة في إنكلترا، التي ادعى الملك بأنها عاداته الموروثة، وأنها انتقلت إليه من جده هنري الأول، لكن بعدما عاد الرسل وأخبروا الملك بأنهم أخفقوا في مهمتهم، ثار غضبه، وانفعل كثيرا، وبعث بالرسالة التالية إلى عمد مناطق إنكلترا لتعميمها.

رسالة الملك إلى عمدة كنت ضد رجال دين توماس المبارك

إنني آمرك من الآن فصاعداً، أنه إذا ماسيحاول أي واحد، سواء أكان من رجال الدين، أو العلمانيين الاستدعاء إلى بلاط روما، أن تعتقله، وتضعه في السجن حتى يجري اعلام جلالتي، وأن تستولي على، وتضع بين يديك، جميع موارد، وممتلكات رجال دين رئيس أساقفة كانتربري، كما سوف يبين لك راندلوف دي بروك Randolf de Broc وضباطي الآخرين، وأن تعتقل جميع آباء وأمهات، وأخوان، وأخوات، وأحفاد، وحفيدات رجال الدين الذين هم مع رئيس الأساقفة، وأن تضعهم مع قطعانهم في حفظ أمين حتى يجري إعلام جلالتي، وأن تجلب هذه العجالة معك عندما يجري استدعائك.

وكتب إلى غيلبرت أسقف لندن، الرسالة التالية:

رسالة الملك إلى أسقف لندن كما تقدم أعلاه

إنك غير جاهل بالتعامل المؤذي الذي تلقيته أنا ومملكتي من توماس رئيس أساقفة كانتربري، وكيف بانحطاط قد هرب من البلاد، وبناء عليه، إني آمرك أن تتولى منع رجال الدين الذين بقيوا معه بعد فراره، وجميع الآخرين الذين عملوا في سبل الإساءة إليّ أو إلى مملكتي، منعهم من تلقي أية اجراءات قضائية لصالحهم في أسقفيتك من دون إذني، وأن لاتعطي أية تسهيلات أو تأييد مهما كان نوعه لرجال الدين المذكورين

وكتب الملك أيضاً إلى رجال القضاء لديه وفق مايلي:

رسالة الملك إلى رجال القضاء لديه
ضد رئيس الأساقفة توماس المبارك

إذا تم العثور على أي واحد حاملاً رسائل أو توصيات من مولانا البابا، أو من رئيس الأساقفة توماس تحوي منع خدمات تعبدية مسيحية

في انكلترا، ينبغي اعتقـاله وابقـائـه بالسجن حتى تعلم جـلالتي بذلك، علاوة على ذلك، مامن كـاهن، أو راهب، أو راهب نظامي، أو مهتدي، أو أي رجل آخـر، سـوف يسمح له بعبــور البحـر، إلاّ إذا كـانت لديه رسائل مـن قاضينا أو منا شخصيـاً بشأن عودته، وإذا مـاتم العثور على أي واحد يعمل بشكل معاكس ينبغي اعتقاله وايداعه السجن، ولايجوز لأي انسان الادعـاء إلى البابا أو إلى رئيس الأساقفـة توماس، كما لايجوز النظر بأي دعوى باسميهما، أو تسلم وصاية منهما في انكلترا، وإذا مانظر أي انســان أو قبل بأية دعـوى من هـذا القبيل، ينبغي اعتقـاله وسجنه، وإذا مـــــاراعى أي أسقـف، أو راعي ديـر، أو رجل ديـن، أو علماني، واعترف بأي قرار منـع، فلسوف ينبغي نفيه من المملكـة على الفور، مع جميع أقـربائـه، ولايجوز أن يأخـذ معـه أيـاً من قطعـانه معـه، بل ينبغي الاستيـلاء على قطعانه وكل ممتلكاتـه، ووضعها في أيدينا، وجميع رجـال الدين الذين لديهم مـوارد في انكلترا، سـوف يجري إزالتهـا كليـا في كل منطقـة من مناطق انكلترا، إلاّ إذا عـادوا إلى ممتلكاتهم في انكلترا خـلال ثلاثة أشهر، وذلك إذا رغبـوا في الحفاظ على هذه الممتلكات، ولكن إذا لم يعـودوا إلى انكلترا مطلقـا، فإنه ســوف يجري انتـزاع مـواردهم من أيديهم، هذا ويتوجب مثـول أسقفي لندن ونوروك أمام رجـال عدالتنا، لفعل ماهو صحيح، لأنهما تصرفا بشكل مضاد لقوانين المملكة، وأصدرا قرار منع كنسي ضـد الايرل هيوج، كما أصــدرا قرار حرمـان من شركة المؤمنين ضــد هذا الإيرل نفســه، وواظبــوا على جبــايـة بنس بطرس والاحتفاظ به، حتى تعلموا من جلالتنا الملكية قرارها حول ذلك».

وأمـر الملك أيضـاً بمصادرة ممتلكات كنيسـة كـانتربري مع ممتلكات رئيس الأساقفة وكهنته، وبنفي جميع أقربائه— وهو عمل لم يسمع بمثله في جميع التـاريخ الماضي— بصرف النظـر عن الأوضـاع، أو الجنس، أو العمر، وبدون المبالاة بأن الكنيسة الكـاثوليكية قد اعتادت أن تصلي من

أجل الهراطقة، والمنشقين، وغير المؤمنين، واليهود، فقد منع الملك الآن كل انسان من الصلاة من أجل رئيس الأساقفة.

حول الإفادات التي عملها توماس رئيس الأساقفة المبارك أمام مولانا البابا

وعندما وجد توماس المبارك، وهو يعاني من كل هذه الأضرار، أنه حرم من صلوات أساقفته المساعدين، انطلق يؤم البلاط الروماني، وهناك عمل الخطاب التالي أمام مولانا البابا:

« إلى حضرتك أيها الأب المقدس، قد طرت أنا طالبا اللجوء، وأنا أنتحب لأن الكنيسة مع امتيازاتها قد دمرت حسب إرادة الأمراء، ومن أجل هذه القضية، اعتقدت أنه صحيح أن أمنع نفسي من الاقتراب من الشر، ولقد استدعيت كرجل علماني إلى أمام الملك للاجابة على بعض الأمور الإدارية، التي كنت عنها مسؤولاً عندما كنت مستشاراً، علماً أنه في الوقت الذي رقيت فيه، صدر الاعلان بأنني كأسقف منتخب متحرر من جميع الواجبات المدنية، وجاء ذلك من قبل الابن الأكبر للملك، ومن قبل قاضي المملكة، وأنا الآن مهجور في المنطقة التي تطلعت إليها للمساعدة، لأنني علمت بأن إخواني الأساقفة قد أرسلوا إلى المحكمة، وهم مستعدون لاصدار قرار ضدي، وهكذا وأنا مسحوق تقريباً من قبل حشد أعدائي، لقد فررت إلى حضرتك، التي هي الملاز الأخير للمظلومين، ففي ظل حمايتك يمكنني أن أبرهن أنه لاتجوز محاكمتي من قبل أولئك الحكام، كما أنه لاتنطبق عليّ أحكامهم، لأن ذلك ماذا يمكن أن يكون سوى سلب الكنيسة من حقها؟ إن معنى ذلك هو اخضاع السلطة الروحية إلى السلطة الدنيوية، وإنه ماأن تجري الموافقة على هذه السابقة، حتى سيتم تطبيقها بشكل عام، ويقول الأساقفة بأن هذه الأشياء هي التي لقيصر وينبغي تسليمها لقيصر، وإذا كان الأمر كذلك، فينبغي بالحقيقة إطاعة الملك في أشياء كثيرة، لكن إذا جرى ذلك

سيتوقف عن كونه ملكاً، ولن يعمله ذلك قيصراً، بل طاغية، وهنا إن الذين سوف يقاومونه، سيفعلون ذلك لصالحهم وليس لصالحي، وماالذي كانه سبب هذه العداوة الكبيرة، ثم أوليس القضاء عليّ، سوف يكون قضاء عليهم أيضاً؟ ففي الوقت الذي أهملوا فيه واجباتهم الروحية من أجل واجباتهم الدنيوية، لقد أخفقوا وسقطوا معا، وبناء عليه انظر بتمعن، أيها الأب المقدس، بمسألة نفيي وأحوال تعذيبي، وتذكر أنني كنت من قبل في موضع الفخار، وأنني منه طردت ظلماً، وفي سبيلك، طبّق عقوباتك الحادة، واضغط على الذين سببوا هذا العذاب وأثاروه، لكن لاتلق بالقضية أمام باب الملك، لأنه هو الوكيل والأداة، إن لم أقل هو الفاعل لكل هذه المؤامرات.

كيف ألغى البابا الحكم الذي أصدره الأساقفة ضد رئيس الأساقفة

وبعدما استمع البابا إلى هذه الافادات، اجتمع — كما قيل — مع كرادلته للتشاور، وبعد ذلك بعث بالرد التالي على رئيس الأساقفة: « إن الأدنى لايمكنه أن يحكم على سيده الأعلى، وخاصة على الذي هو متوجب عليه تقديم الطاعة له، بحكم كونه أسقفه، وكل من القانون اللاهوتي والقانون البشري واضح تماما بهذا الشأن، وكذلك أوامر الآباء المقدسين، والآن، نحن الذين واجبنا هو تصحيح الذي فعل بشكل ضار، نعلن أن القرار الذي أصدره الأساقفة والبارونات بمصادرة جميع ممتلكاتك، هو ليس فقط مضاداً للعدالة، بل لجميع القوانين اللاهوتية أيضاً، على أساس أنه ليس لديك مقتنيات، غير التي صودرت من الكنيسة، ولذلك قررنا بأن مثل ذلك القرار هو ملغى ولاشأن له، وقد قمنا هنا بموجب سلطاتنا الرسولية بإلغائه، ونعلن أنه لن يمتلك قوة من الآن فصاعداً، ولن يشكل سابقة قانونية فيما بعد بالنسبة لك ولخلفائك، أو بالنسبة للكنيسة التي هي مودعة بعهدتك، وبالنسبة

للبقية، إذا كان أولئك الذين قاموا بالعدوان أو تسببوا بأذى لك أو لكهنتك في الممتلكات أو في الحاجيات، العائدة لكنيستك عندما تخفق الاجراءات القانونية في استرداد الذي أخذوه، أو تقديم ترضية مقابلة للأشياء نفسها، عليك عدم التردد في ممارسة عدالتك اللاهوتية في أول فرصة مناسبة، وكل ماتراه مناسباً بشكل منطقي لفعله في ذلك الشأن، نحن سوف نرى ذلك جيداً وساري المفعول، أما بالنسبة لشخصية الملك، فإننا لانعطيك سلطة محددة عليها، علما بأننا لانلغي سلطاتك الأسقفية التي تسلمتها لدى سيامتك، بل على العكس إننا نرغب في الحفاظ عاليها بشكل كامل وسليم»، وانسحب بعد هذا رئيس الأساقفة للعيش في دير بونتني Pontigny.

زواج ماتيلدا ابنة الملك من دوق سكسوني

عام ١١٦٥م، فيه قدم رينالد رئيس أساقفة كولون، الذي كان قد أيد انشقاق أوكتافيان ضد البابا الاسكندر، إلى الملك هنري في وستمنستر لمرافقة عودة ماتيلدا الابنة الكبرى للملك، لتكون زوجة لهنرى دوق سكسوني، واستقبله النبلاء الانكليز بشكل فخم، لكن روبرت ايرل ليستر— القاضي الملكي— رفض تحيته بقبلة، لأنه لم يحلل قط منذ أن جرى حرمانه كنسيا من قبل البابا الاسكندر، ولذلك فإن جميع المذابح التي عمل عليها المنشق قداسات جرى هدمها، وفي العام نفسه ولدت الملكة اليانور للملك هنري ابنة أعطيت اسم جوانا، وجرت سيامة غيوفري، أسقف القديس آساف بالميرون والزيت في كنيسة أول الشهداء الانكليز، القديس ألبان، وكان ذلك عند المذبح العالي، في يوم عشاء ربنا، وذلك بفضل امتيازات الدير، وبحضور راعي الدير روبرت.

وفي العام نفسه، ألقى نور الدين، الذي كان أميراً تركياً قويا، الحصار على قلعة حران، في منطقة أنطاكية، ولدى السماع بذلك من قبل بوهيموند أمير أنطاكية، وريموند كونت طرابلس، وسلمان أسقف

كليكية، وطوروس أمير أرمينيـة(الصغـرى)، قـامـوا بـرفع الحصـار، وأرغمـوا نور الدين على رفع الحصار، وقـاموا من دون حـذر، وبطيش بمطاردته إلى مسـافـة بعيـدة، لكن نور الدين تمكن من إعـادة تجميع رجاله، واستدار لمواجهة مطارديه، فـاستطاع أسر النبلاء المتقدم ذكرهم، وألقـاهم في السجن في حلب، وتـولى بعـد ذلك معـاودة حصـار البلدة والتضييق عليها، فاستسلمت بدون صعوبة مرغمة على فعل ذلك.

كيف حرم كنسيا القديس توماس الذين اعترفوا بعادات انكلترا

عـام ١١٦٦م، فيـه عبر الملك هنري إلى نورمـاندي، في بداية الصـوم الكبير، وعندمـا سمع رئيس أساقفـة كانتربري بذلك، غـادر بونتني إلى فيـزلي، وقـام في يوم الصعـود، بحضـور الناس الذيـن اجتمعـوا هناك للاحتفال بالعيـد، من كل من السكان المحليين والغربـاء، بارتقاء المنبر، وتولى الحرمـان كنسيـاً مع شمـوع مضـاءة، جميع العـادات الموروثة لانكلترا، مع جميع المعترفين بها، والمدافعين عنهـا، والمحـرضين عليهـا بشكل عـام، وخص بالتسميـة رتشـارد دي لوسي، ورتشـارد رئيس شمامسة بواتيه، وجوسلين بوليل Baliol ، وألان دي نيفل Neville ، وآخريـن كثر، ولكن بما أن جميع هؤلاء قـد حرمـوا كنسياً غيابيـا، ومن دون استدعـائهم، والتبين أنهم مجرمين، فقد استأنفـوا إلى البابا، وأخبروا بذلك رئيس الأساقفة نفسه، ولم يتمنعوا عن الدخول إلى الكنيسة، وبعد مدة قصيرة، جـرى إرسال وليم أوف بـافيا Pavia، وجون أوف نابل Naples، كمندوبين رفيعي المستـوى a latere للحبر الأعظم، وقـد استدعيـا الملك هنري، ورئيس الأساقفة لمقـابلتهما في مونتميريل Mont-mirail ، وشعـر رئيس الأساقفـة أنهما يميلان إلى ترجيح وجهـة نظر الملـك، ومـع ذلـك خضـع لحكمهما على شرط، أن يتملـك مجدداً هـو وكهنتـه— تماشيـاً مع قـوانين الكنيسـة— جميع الممتلكات التي أخـذت منهم، ولكن بما أن المنـدوبين لم يكونا راغبين بالموافقـة على هذا، وغير

قادرين، عادا إلى بلاطهما من دون نجاح، وكانا على كل حال، قد قاما أولاً بتحليل الذين تولى رئيس الأساقفة حرمانهم كنسياً، وجرى تحليل آلان دي نيفيل من قبل غيلبرت أسقف لندن، على شرط— أكده بقسمه— أنه وهو على طريقه إلى القدس، سوف يمر بالبابا، وسيلتزم بقراره.

وقدم في الوقت نفسه لويس ملك فرنسا إلى بونتلي، ولكي ينقذ طائفة رهبان السسترشيان من ضغوط ومؤثرات غضب الملك هنري، لأنهم آووا رئيس الأساقفة توماس لديهم لمدة عامين، أخذ رئيس الأساقفة معه إلى سين وحافظ عليه هناك لمدة أربعة أعوام، في دير القديس كولومبا Columba ، وجرى في الوقت نفسه فرض ضريبة أربعة بنسات على كل هايد في جميع أرجاء انكلترا، بهدف ارسال المساعدة إلى الأرض المقدسة، وجرى جرّ بعض الوعاظ بعقائد مزيفة في أكسفورد إلى أمام القضاة، بحضور الملك والأساقفة، وجرت إدانتهم بالابتعاد عن الايمان الكاثوليكي، وجرى أولاً رسم علامات على وجوههم ليتمكن الناس جميعاً من معرفتهم، ثم نفيوا من المملكة، وولدت في السنة نفسها اليانور، ملكة انكلترا، ولداً منح اسم جون، وأيضاً فارق هذه الحياة روبرت راعي الدير الثامن عشر لسانت ألبان، وكان ذلك يوم عيد الرسولين سمعان وجود Jude ، بعدما حكم الدير بكثير من الأبهة خلال أربعة عشر عاماً.

رسالة توماس رئيس الأساقفة المبارك إلى ملك انكلترا

وأمل بالوقت نفسه، توماس رئيس أساقفة كانتربري، أنه بتواضعه في نفسه، سوف يقهر الملك هنري، فكتب إليه الرسالة التالية:

« لقد اشتقت،واشتقت إلى رؤية وجهك، والتحادث معك، جزئيا— في الحقيقة— لصالحي، إنها بشكل رئيسي لصالحك ومن أجلك، ذلك

أنك إذا مــارأيـت وجهي، يمكنك أن تستعيــد في ذهنـك وتتــذكــر، الخدمات التي قـدمتها لك بأعظم حماس، حتـى يكون ضميري راضياً، وبناء عليه ليعينني الرب، في يوم الحسـاب الأخير، عندما سنقف أمـام حسابه، لنتلقى وفقاً لما عملنا في الجسد، سـواء أكان خيراً أم شراً، وأن تتـولى الرأفـة علي، لأنني أنا الآن مـرغم على العيش على الصـدقـة، بين أناس غـرباء البـلاد، ومن أجلـك لثـلاثة أسبـاب هي: لأنك مـولاي، وملكي، وولدي في الـروح، وكمـولاي، يتـوجب عليّ أن أقــدم لك مشـورتي، وكملكي إنه مفترض بي أن أقــدم لك الاحترام والتــذكير، وكـابن لي عليّ تهذيبك وتقـويمك، فـالملوك يجري مسحهم على الرأس، وعلى الصـدر، وعلى الذراعين، وفي ذلك إشارة إلى: المجـد، والقداسـة، والقوة، ومعـروف أن الملوك في قديم العصـور، الذين لم يراعوا وصـايا وأوامـر الرب، بل أذنبـوا ضد أوامـره، قـد حرمـوا من كل من المجـد، والقداسـة، والقوة، وخذ مثـالاً على ذلك شاؤول، وسليمان، لكن الذين بعدمـا اقترفوا الذنوب، وتواضعوا بأنفسهم أمام الرب، كـان أن حظيوا بنعمـة الرب، مثلما حـدث لداوود، ولحزقيـا، ولآخـرين كثر، وهنا إذا كنت ترغب يامــولاي بنصيحـة تابعك، وبتهـذيب أسقفـك، وبرعـاية والدك، تمنع عن أن تكون لك صداقـة في المستقبل مع المنشقين،ولاتعقد أية اتفـاقـات معهم، وتذكـر الوعـد الذي قطعتـه، ووضعتـه كتـابة على المذبح في وستمنستر، في أن تحفظ حـريات الكنائس وكنت قــد فعلت ذلك عندمـا كرست ومسحت لأن تكون ملكاً، أعـد كنسية كـانتربري، التي منهـا تلقيت ترقيتك وتكريسـك، إلى الوضع الذي كـانت عليـه في أيام سلفنا، لكن إذا لم تفعل هذه الأشيـاء كن متأكداً أنك سـوف تشعر بقساوة انتقام الرب».

كيف ارتيب بتوماس المبارك من قبل الأساقفة

وكان في العـام نفسه قد سمع مساعـدو الأساقفة لكنيسـة كانتربري،

بأن القديس توماس، ورئيس أساقفة كانتربري قد حرم كنسيا المؤيدين للعادات السيئة لانكلترا والمدافعين عنها، وقد شمل الحرمان بشكل عام كل من أسمائهم مع الملك، وخشية منهم من أن يعيد القرار ضد كل واحد منهم بالاسم، لجأوا إلى الاستئناف مع أن ذلك مضاد للأشكال الاعتيادية للعدالة:

« إلى أبيهم المبجل ومولاهم توماس، رئيس أساقفة كانتربري، من الأساقفة المساعدين للكنيسة نفسها، ومن الأشخاص الآخرين الذين يعيشون في الأسقفية نفسها، خضوع تام، وطاعة: لقد أخبرنا من قبل بعض الأشخاص، أمراً ننزعج لدى استعراضه في ذاكرتنا، وهو أنك أرسلت تهديداً إلى مولانا الملك، حيث حذفت من رسالتك التحية المعتادة، وكل ماجاء فيها من تفكير ومن طغم للعبارات هو بعيد عن مشاعر الصداقة، فلقد وضعته موضع التهديد بالمنع، وباقتراح اصدار قرار حاد ضده يقضي بقطعه عن الكنيسة، والآن، إنه إذا ماجرى التفوه بهذا القرار بالقسوة التي جرى التهديد بها، نحن نعتقد، ولانتوقع أن الاضطراب الحالي، من الممكن تهدئته، لابل إنه سوف يتفجر لهيباً لخلاف مستمر، ولقد رسخ بمشاعر بعضنا وعقولهم أنه ماأن يظهر الملك نحوك حظوة كبيرة، ومحبة من روحه كلها، وبذلك يضع كل شيء بالكامل تحت سلطتك، فإن ذلك سيكون لمصلحة أناس برأي الدنيا، ينظرون إليك باحترام، وعندما يود هو تفويتك تقلبات الحظوظ الدنيوية، ويبذل جهده لوضعك بشكل ثابت في كنيسة الرب، نأمل بأنه سيتمكن في المستقبل من الحكم بسعادة وأمان، وأن يحظى بمنافع نصائحك الجيدة، ولذلك إنك ربما لن تكون بحاجة للسعي لمدّ يدك على مولانا الملك، وعلى مملكته، وأيضاً على الكنائس والأسقفيات المعهود إلينا بادارتها، ولقد لجأنا إلى الاستئناف، في وجه الكنيسة وضد الأخطاء التي نخشاها، ونجدد نحن الآن استئنافنا إلى البابا، رافعين

التماسنا واستئنافنا في يوم صعود ربنا».

رسالة رئيس الأساقفة توماس المبارك إلى أساقفته المساعدين

« وصلت رسالتكم الجماعية للتو إلينا، لكن لاأستطيع بسهولة أن أصدق أنها صدرت عن حكمتكم الجماعية، وقد ملأتني بالدهشة، وتبدو محتوياتها أنها تحمل مشاعر عدوانية أكثر من المصالحة، وودت لو أنها أمليت بغيرة تقوية ومشاعر رعاية وليس باقتراحات الرغبات المرادة، وشيء واحد يمكنني أن أقوله لكم، إذا ماتمكنت من قوله من دون أن أسيء إليكم: لقد لازمت الصمت طويلاً، منتظراً أن يحدث فيلهمكم الرب، بأن تستردوا شجاعتكم ثانية، بعدما وليتم هاربين في يوم المعركة، وأن يحاول ولو واحد منكم فينطلق ضد العدو، ويعرض نفسه كسور أمام بيت الرب، ضد أولئك الذين لم يتوقفوا يوميا عن ذم جيش الرب، لكن لايوجد ولاواحد سوف ينطلق، وبناء عليه، الرب سوف يقضي بيني وبينكم، ولسوف يحاسبكم على اضطراب الكنيسة، التي سواء أشاءت الدنيا أم لم تشأ، ينبغي أن تقف ثابتة بكلمة الرب، عندما تحين الساعة، وعندما ستنتقل من هذا العالم إلى الرب، هل نسيتم كيف أنني وكنيسة الرب قد جرت معاملتنا في نورثأمبتون عندما حوكم المسيح للمرة الثانية، ممثلاً بشخصي، من قبل محكمة من الأمراء، وعندما أكره أسقف كانتربري، بسبب الإيذاء الذي تعرض له من كل جانب، وتعرضت له كنيسة الرب، إلى التماس السماع له من قبل الكرسي الروماني؟ ومن الذي رأى أو سمع برئيس أساقفة لكانتربري، قد حوكم، وأدين بتقديم كفالة في المحكمةالملكية، وذلك بشكل خاص من قبل أساقفته المساعدين؟ وإذا كان— كما أخبرتموني— كل شيء قد اضطرب لدى مغادرتي للمملكة، دعو الذي تسبب بذلك يتحمل الملامة بشأن ذلك، لأن الخطيئة— بدون شك— جاثية عند باب الذي عمل عملاً ليس من شأنه، والذي انسحب من مواجهة مؤثراته، والذي

تصرف بشكل عدواني، وليس الذي تجنب الأذى، فبينما كنا في البلاط ننتظر الاتهام الذي سوف يقدم ضدنا، صدر الأمر إلى موظفينا بعدم طاعتنا بشكل مطلق في المسائل الدنيوية، بل على العكس إطاعة أوامر الملك، وأمروا بعدم تقديم أية خدمات لنا في حال من الأحوال، وجرى حرمان ومصادرة كهنتنا وعلمانيينا، رجالاً ونساء، وأمهاتاً وأطفالاً رضع، وحاجياتنا، وميراث الذي صلب، قد أضيفت إلى الخازن: جزء للاستخدام من قبل الملك، وجزء للاستخدام من قبل أسقف لندن، وقد استأنفتم— كما أخبرتموني— إلى البابا، لكن لايمكنكم ايقاف سلطاتي بهذا الاستئناف، ولامنعي من اتخاذ اجراءات ضدكم، أو ضد كنائسكم، إذا كان حجم عدوانكم يتطلب ذلك، لأننا نعلم أن كل واحد يقدم التماس استئناف، يفعل ذلك باسمه، أو باسم واحد آخر، فإذا كان باسمه، فلابد أن ذلك من خطأ اقترف بحقه، أو يخشى أن يقترف بحقه، ونحن الآن متأكدون— بنعمة الرب— أن مامن خطأ لحق بكم من قبلنا، يسوغ لكم تقديم التماس الاستئناف، وبناء عليه إذا كنتم قد استأنفتم خشية الخطأ، أو خوفاً من أن أتخذ أي خطوة نحوكم أو نحو كنائسكم، فإن هذا ليس استئنافا يمكنه تعطيل سلطتي أو سلطاني الذي أتمتع به عليكم وعلى كنائسكم، وإذا كان استئنافكم قد جاء باسم الملك، فإن ادراككم ينبغي أن يعلمكم أن التماسات الاستئناف قد عملت لمساعدة انسان على نفي الأذى، وليس من أجل الايذاء، وللتفريج عن المظلوم، وليس لزيادة الظلم، وإذا كان الرجل الذي قد قمع حرية الكنيسة، والذي غزاها واستولى على ممتلكاتها، لم يستمع إلى التماس استئنافه، يكون أدنى منه بكثير الذين يتقدمون بالتماسات استئناف إليه، ونحن لانقول هذا، لأننا فعلنا، أو ننوي أن نفعل أي شيء متطرف، يمكن أن يؤثر على مولانا الملك، أو على مملكته، أو على أشخاصكم، أو على كنائسكم، وكنا نعتقد أننا أكثر عرضة للنقد لطول معاناتنا، لامن أجل قسوتنا أو حدتنا، وبناء عليه إننا

نخبركم باختصـــار وبشكل حـــاسم، بـأن مـولانـا الملك، لايمتلك أي مسـوغ للشكوى، وإذا كـانت أعمال التـذكير التـي تسلمهـا من كل من البابا ومنا أنفسنا، بدون تأثير، فلابد وقتهـا للملامة اللاهوتية أخيراً، أن تأخذ سبيلها ضده».

وفي الرسـالة نفسهـا، أمـر رئيـس الأسـاقفـة غيلبرت، أسقف لندن، بحكم طاعته، أن يقوم خلال أربعين يوماً بعد استلام الرسالة بإعادة— من دون تأخير، أو تعليل— كل الذي جرى تحويله للاستخدام من قبل كنيستـه، من المصـالح العائـدة للكنيسـة مع الممتلكات الكنسيـة للكهنة الذين نفيـوا من المملكة مع رئيس الأسـاقفـة، وهي الممتلكات، التي وضعت بموجب أمر الملك تحت عهـدة الأسقف المذكور، وعندما تلقى الأسقف هذه الأوامر، كتب إلى ملك انكلترا، بما يلي:

« لقـد كان جـلالتكم قد تفضل بالأمـر بوضع الكنائس العائـدة إلى كهنة رئيس الأساقفة، والموجودة في أسقفيتي لندن وكنت، تحت عهدتنا، والرب يعـرف، أن عمل المعـروف هـو الذي دفعنا للقيـام بهذا الحمل، حتى إذا مـــاتمكن الكهنة أنفسهـم من استرداد حظـوتكم، مـن تسلم كنائسهم ثانية دون أن يلحقها ضرر، لكن رئيس الأساقفة المتخفي، كان ينتظر فـرصته ضـدي دون سواي، وسعى لأن يحول ضـدي ولضرري، التصرف الذي أملت أن يكون مفيـداً للآخـرين، ففي رسـالـة جـرى تسلمهـا للتـو، قد أمـرني، بحكم طاعتي، بـأن أعيد إليـه شخصيـاً وإلى كهنتـه كل مـاانتـزع منه ومنهم، ولذلك أتمنى على جـلالتكم أن تسندوا العناية بهذه الكنائس إلى شخـص آخـر، حسبما تراه مناسباً، ومبلغ المال الذي تسلمته منهـم، وهو مائة باوند وثمانية باوندات، وأربعة عشر شلناً، وستـة بنسـات، يمكن أن أسلمها إلى عهـدة انسـان أو آخـر، حتى يبين المولى الطريقة التي يمكن بها إنهاء هذه المسائل».

رسالة البابا الاسكندر إلى رئيس الأساقفة توماس

في عام ١١٦٧م، كتب البابا الاسكندر، إلى رئيس الأساقفة توماس كما يلي: « احتذاء بمثل سلفينيا: باسكال، ويوجينيوس، صاحبا الذكرى المباركة، نحن نعطي إليك، وإلى خلفائك، رئاسة كنيسة كانتربري، كاملة كما كانت متملكة من قبل لانفرانك Lanfranc، وأنسلم، وأسلافهما وبالنسبة لجميع المناصب والامتيازات المعروف أنها عائدة إلى الكنيسة، نحن نقوم بتأكيدها بالرسالة الحالية، مثلما تمتع أسلافك بها، وذلك بموجب سلطات الكرسي الرسولي، منذ أيام القديس أوغسطين».

وفي العام نفسه انتقل إلى الرب، روبرت أسقف لنكولن، وكان رجلاً عظيم التواضع، وكان ذلك في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني، وجرى أيضاً اختيار سيمون رئيس رهبان سانت ألبان لأن يكون راعي تلك الكنيسة، من قبل غيلبرت أسقف لندن، وبمهابة جرى تكريسه أمام المذبح العالي في الدير.

ونشب في ذلك الوقت خصام بين ملكي فرنسا وانكلترا، كانت نتيجته أن شمومنت Chaumont على مقربة من غيزور Gizors، قد أحرقت من قبل النورمان، وجرى أسر عدد كبير من الفرسان ومن السكان، ولكي ينتقم من هذه الفعلة أحرق ملك فرنسا قرية أندلي An-delis ، وعاد إلى فرنسا في اليوم نفسه، وقد فقد أكثر من ألف رجل أثناء زحفه، وبعد أمد قصير، جرى أسر كثير من الفرسان الفرنسيين في منطقة بيرشي Perche، من قبل النورمان.

رسالة الملك هنري إلى رينالد رئيس أساقفة كولون

عام ١١٦٨م، فيه غضب الملك هنري ضد البابا الاسكندر، لمنحه رئاسة انكلترا إلى رئيس أساقفة كانتربري، فقام بإرسال الرسالة التالية إلى رينالد رئيس الأساقفة المنشق في كولون، وكان عدواً للاسكندر: «

لقد رغبت منذ زمن طويل، في أن أجد سبباً مسوغاً لسحب نفسي من البابا الاسكندر ومن كرادلته الخونة، لأنهم يقومون برعاية رعاياي العصاة ضدي، وأعني بذلك توماس رئيس أساقفة كانتربري، وبناء عليه، إنني— بناء على موافقة باروناتي وكهنتي— على نية إرسال سفارة إلى روما مكونة من الشخصيات البارزة في مملكتي وهم التالية أسماؤهم: رئيس أساقفة يورك، وأسقف لندن، ورئيس شمامسة بواتيه رتشارد دي لوسي، وجون أوف أكسفورد، ليعلنوا بوضوح وبشكل عام إلى البابا الاسكندر، وإلى كرادلته، نيابة عني وعن رعيتي في جميع أرجاء ممالكي، بأن عليهم بعد الآن عدم التمسك بقضية ذلك الخائن، بل أن يحرروني منه، وذلك حتى أتمكن، بموافقة كهنتي من تعيين رئيس أساقفة آخر لكرسي كانتربري، وأن عليهم القيام على الفور بإلغاء جميع قرارات توماس المذكور، وهم أيضاً سوف يطلبون أن يقسم البابا بشكل علني عن نفسه وعن خلفائه، القيام بالاعتراف بجميع العادات الملكية لجدي الملك هنري الأول، بشكل كامل وبدون خرق إلى الأبد، لكن إذا رفضوا تقديم الموافقة على أي من مطالبي، لن أقوم لاأنا ولاباروناتي ولاكهنتي بالاستمرار بطاعتهم، بل سنأخذ بشكل معلن موقفاً ضد البابا نفسه وضد كرادلته، ولسوف أطرد من المملكة كل واحد، سوف يؤيد من ذلك الوقت موقفه، وبناء عليه أطلب منك، كصديق عزيز لنا، أن ترسل على الفور إلينا، وبدون تأخير الراهب أرنولد الاسبتاري، ممثلاً لك شخصياً وللامبراطور، ليتولى مرافقة السفراء خلال ممتلكات الامبراطور، ووداعاً،» ولقد روي من قبل بعض الكهنة كتّاب الملك، بأن غيلبرت أسقف لندن، قد أملى هذه الرسالة، بناء على طلب الملك، ليدمر قضية البابا، ورئيس أساقفة كانتربري، والكنيسة الانكليزية بمجملها، ولذلك حدث في إحدى الليالي، أنه عندما كان غيلبرت متمدداً في فراشه وهو مستيقظ، وكان يفكر، من دون تقدير، كيف يمكنه أن يسبب الأذى والاضطراب

لرئيس الأساقفة، بوساطة هذه الرسالة المثيرة للاضطراب، سمع صوتاً مرعباً يقول له بصوت مرتفع وبعبارات واضحة:

ياغلبرت فوليوت Foliot

وأنت تفكر حول مثل هذه الأشياء الكثيرة

إن ربك هي عشتروت

رسالة البابا الاسكندر إلى غيلبرت أسقف لندن

وفي حوالي الوقت نفسه، كتب البابا الاسكندر، إلى غيلبرت، أسقف لندن حول قضايا كنيسة كانتربري كما يلي:« لانعتقد أنه زال من ذاكرتك، كيف قام ولدنا المحبوب في المسيح، هنري ملك انكلترا اللامع، فطلب منا بشكل رسمي مع كثير من الإلحاح، في أن نسمح لك بالانتقال من كرسي هيرفورد، الذي كنت تترأسه آنذاك إلى كرسي لندن، ولكي يقنعنا بالموافقة على طلبه، ألح كثيراً على الحاجة الملحة لذلك وعلى الفائدة من مثل هذا الاجراء، على أساس أن لندن كانت هي مقرة الملكي، ولأنه عدّك متفوقاً على سواك في التقوى والاستقامة، ولذلك أراد أن يستفيد من نصيحتك، في كل من المجال الروحي والدنيوي، وذلك فيما يتعلق بخلاص الأرواح وتحسين سلطته والحفاظ عليها، ولهذه الأسباب أرادك أن تكون على مقربة منه، ولذلك قدرنا كم ستكون المنفعة من تقواك وحكمتك لخلاص الملك ومملكته، والفوائد التي يمكن أن تنجم عن ذلك، فقدرنا تماما رغباته، ووافقنا على وجوب انتقالك إلى كرسي لندن، وبناء عليه جاءت موافقتنا بالاستجابة لطلبه، وكان ذلك ترقية لمقامك، ولكي يكون نشاطك المفرح في سبيل تحسين الكنيسة والحفاظ عليها، والعمل بمزيد من الاخلاص، حتى يمكننا أن نلاحظ الخير المتوقع وقد أخذ يتدفق من النوايا الملكية، ونعتقد الآن، أنك لايمكن أن تكون جاهلاً، إلى أي مدى ابتعد الملك عن انصرافه

التقوي نحو الكنيسة، وفي مجالات كثيرة، منهـا مثلاً في الالتماسات، وفي الزيارات، وفي الاتصـالات مع الذين كان قـد جرى حرمـانهم بالاسم، ومع المنشقين، ولقيـامـه بإرغـام أخـانا المبجل، تومـاس رئيس أسـاقفـة كانتربري، على مغادرة مملكته، وبذلك بدا، وكأنه بالفعل يعذب الكنيسة ويظلمهـا، وبنـاء عليـه نحن نسألك بسبـب حـرصك على مصـالحهـا، ونحثك في الوقـت نفســه ونأمـــرك فيما يتعلق بأخينـا المحترم روبرت أسقف هيرفـورد، لحث الملك باخــلاص ونصيحتــه في أن يتخلى عن مقـاصـده في جميع المجـالات العـدوانيـة، وأن يقـدم ترضيـة صحيحـة وتكفيراً عن ذلك، وأن يعـود في قلبـه إلى محبـة خـالقـه، وأن ينظر بعين احترامه المعتادة إلى الكنيسة الرومانية المقدسة، التي هي أمه، وأن لايعيق الذين يودون زيارتها، وأن لايمنع الذين يودون تقديم الالتماســات إليها من فعل ذلك، وأن يعيد استدعاء أخـانا المتقدم ذكره أي توماس رئيس أسـاقفـة كانتربري، إلى كـرسيـه، وأن يظهـر نفسه ابنا مخلصـاً للقـديس بطرس، ولنا أنفسنا، وأن ينصرف إلى أعمال الرحمة والشفقـة، حتى يقوم الذي من خلالـه يحكم الملوك، بحفظ مملكته الدنيويـة له، مادام هو على الأرض، وأن يمنحه مملكة دائمـة فيما بعد في السماء، ومالم يبـادر مسرعاً بتقويم هذه الأخطاء، عليه أن يخشى من أن يكون الرب غـاضباً غضباً شـديداً، من أجل ذلك كله، وأن ينتقم منه انتقـامـاً حـاداً، مـادمنا نحن أنفسنا بتنا غير قادرين أن نكون صـابرين أكثر، كما أننا لانحث على هذا بسبب دوافع تتعلق بنا أنفسنا، بقـدر ماالأمـر متعلق به، لأننا نرغب في علو مجده، ورفعة مقامه من قلبنا وروحنا».

الرد المفترض لغيلبرت أسقف لندن على البابا الاسكندر

« تم تلقي أوامرك الشرعية، ياأبانا الأعز في المسيح، مع كل الاحترام المستحق، وقمنا على الفـور بـالمثـول شخصيـاً أمـام ابننا العـــزيز، الملك اللامـع لانكلترا، وفيما يتعلق بأخينا المبجـل روبرت أسقف هيرفـــورد

حثثناه بإلحاح ووفقاً لما جاء من أوامر في رسـالتك، وعرضنا أمامه جميع الخصوصيات في رسالتك، والتمسنا منه وتنـاقشنا معه، حول ماهو لائق بالجلالة الملكية، من أنه إذا مابتعد في أي مجال عن الطريق القويم، عليه أن لايتأخـرــ بناء على تشجيعنا— على العـودة إليه، وأن يتبع نصـائح أبينا، بالابتعـاد عن الأعمال الشريرة، وأن يحب الرب من كل قلبـه، وأن ينظر باحترامه المعتـاد إلى الكنيسة الرومـانية، وأن لايمنع الذين يودون زيارتها، وأن لايحول دون رفع الالتماسات القضائيـة إليها، وأن يعيد إلى أبينا السيـد رئيس أساقفـة كانتربري كـرسيه، وأن يظهـر نفسه ابنا تقياً وثابتاً للقـديس بطرس، وأن يصرف اهتمامه كلـه إلى أعمال التقوى، وأن يتوقـف عن الإضرار بالكنائس وبرجال الدين، أو أن يعـرضهم للأذى من قبل الآخرين، حتى يقوم الذي من خلاله يحكم الملوك بحفظ مملكته الدنيوية له، مـادام باقياً على الأرض، وأن يمنحه بعد ذلك سيـادة دائمة في السماء، وإذا لم يصغ إلى هذه الآراء السليمـة، فقـداستك التي تحملت حتى الآن التعـامل بصبر، لن تقوم بعـد الآن بالمعـاناة أكثر، وقـد تلقى الملك تشجيعنا مع كثير من الشكر، وأجابنا بلطف حول كل جزء منها، وقد أكد في المقام الأول أنه لم يبتعد بعقله عنكم، وأنه لم ينو نوايا أخرى مطلقاً، شريطة أن تبـدي نحوه رعـاية أبوية من أجل مصـالحه، أكثر من أن تحبه كأب له، من أجل تأييد ورعاية الكنيسـة الرومانية المقدسة، وأن يطيع أوامرك، باستثناء مايعرض كرامته وكرامة مملكته للضرر، وإذا كان لم ينظر إليكم بالاحترام المعتاد، فهو يقول بأن سبب ذلك هو مايلي: فهو قد حـافظ على احترام حـاجـاتك وقضيتك بالعناية من كل قلبـه، ونفسه وروحه، وقوته، أما أنتم فلـم تبـادلوه الشيء نفسه في وقت الحاجة، لابل إنه تشكى أنه في كل شيء تقـريبـاً قـد طلبـه منكـم، ووجـه من قبلكم بالرفض، وصدوراً عن الثقة بمحبة الأب، الذي سوف يصغي دوماً إلى التماسـات وتضرعـات ابنه، وأمـلاً في عطايا لطيفـة من اهتمامك، هو سيبقى ثابتاً ومستمراً في تقديره للقديس بطرس ولك، وسوف لن يمنع

أي انسان من زيارتك، ثم إنه لم يمنع أحداً من زيارتك في الماضي، وأما بالنسبة لالتماسات الاستئناف، فإنه يدعي بأن هذا امتياز خاص به، وهو واجبه، بموجب العادات القديمة لبلاده، حتى لايقوم أي رجل دين من مملكته بمغادرة المملكة من أجل دعوى مدنية حتى يحاول الحصول على العدالة في إطار سلطات الملك الخاصة ورعايته، لكن إذا توفر أي اخفاق في العدالة في هذا المجال، فوقتها يمكن الاستئناف إلى غبطتكم، ووقتها لن يقوم الملك بأي اعتراض على ذلك، وفي ظل هذا العنوان نفسه أيضاً، إذا كانت حقوقكم وامتيازاتكم قد تعرضت للإساءة في أي مجال من المجالات، يعد الملك بأنه سوف يتولى اصلاح ذلك بكل سرعة، بعون الرب، وبمشورة جميع رجال الدين في ممتلكاته، أما بالنسبة للامبراطور، فإنه مع أن الملك يعرف أنه منشق، هو لم يسمع قط أنكم قمتم بحرمانه كنسيا، وإذا ماأخبرتموه بأن هذا هو الحال، وكان الملك قد دخل في أية علاقات غير قانونية معه، أو مع أي شخص آخر، فإنه سوف يترك هذه النقطة أيضاً إلى قرار وقضاء الكنيسة في ممالكه، فضلاً عما تقدم أكد الملك أنه لم يرغم أبانا رئيس أساقفة كانتربري على مغادرة المملكة، ذلك أنه غادرها باختياره الشخصي، ويمكنه أن يعود إليها بحرية كما تركها، شريطة أنه في رضاه عن النقاط التي اشتكى حولها، هو سوف يعترف مخلصاً بعادات الملك الملكية، التي أقسم عليها، وإذا أمكن البرهنة على أن أي كنيسة، أو شخص لاهوتي قد أخطأوا بحقه، هو على استعداد لتقديم التعويض، وفقاً لحكم الكنيسة كلها، فهذا الجواب الذي تلقيناه من مولانا الملك، الذي كما يبدو يضع بشكل رئيسي، قضيته، على الارادة باحالة كل نقطة إلى حكم الكنيسة في ممالكه، ونتأمل من غبطتكم أن تتذكروا في أذهانكم القول: «لاتقطع قصبة مكدومة، ولاتطفىء كتانا يدخن»، وإذا كان على هذا الاعتدال يرضيك، لبعض الوقت في حدود التعقل، فإن الحماس الذي شرع بالانتقام لكل خطأ لحق بكنيسة الرب، بوساطة التهديد بإصدارك قرار

المنع، أو أخيراً بقرار الحرمان الكنسي، وإنك بذلك سوف تلحق الضرر بعدد لايحصى من الكنائس التي تهدمت، وبذلك سوف تبعد عنك الملك مع عدد لايحصى من الأشخاص معه، وعن ولائك، لاسمح الرب بذلك، لأن الدم الملكي يسمح لنفسه فقط بالغلبة عندما يزول من الوجود، لكن ليس من العار لديه التنازل لدى كسبه للنصر، ونحن في الحقيقة عندما نتكلم إليك هكذا حمقى، إنما في حدود الرعاية الحقيقية، والحظوة، لأنه إذا كان يضع نهاية لهذه القضية، في أن يفقد رئيس أساقفة كانتربري كل شيء، وأن يقنع نفسه بالنفي، في حين تتوقف انكلترا عن الخضوع لسلطانك، فإن هذا سوف يكون أفضل لبعض الوقت، ومسايرة للحال، من أن نكون عبيداً لمثل هذا النوع من الممارسات القاسية، لأنه إذا كان التعذيب لم يكن قادراً على فصل المزيد وابعادهم عن طاعتك، لن تكون هناك حاجة إلى بعض ممن سيركعون إلى بعل، أو يقبلون من دون تقدير للدين بتلقي طيلسان كانتربري من يد الوثن، كما لن تكون هناك حاجة إلى رجال يشغلون كراسينا المقدسة، ويظهرون طاعتهم له مع جميع التقوى التي في عقولهم، وكثيرون قد تكهنوا متنبئين بمثل هذه الأشياء، آملين بقيام الاعتداءات وعلوها، وبإمكانية تدمير الاستقامة، ولهذا السبب، نحن ياأبانا الأعظم قداسة لانتحب لسوء حظنا فقط، وإنك مالم تقابل الشر بكل سرعة، نخشى أن تتدمر كنيسة الرب بشكل مهين، وأن نصبح يائسين من حياتنا، وأن نلعن اليوم الذي ولدنا فيه».

وفي العام نفسه، حرم رئيس الأساقفة توماس كنسياً، آلان دي نيفيل لأنه وضع في السجن قسيسه وليم، ومات كونان إيرل بريطانيا الصغرى، وترك من خلال زوجته كونستانس، أخت ملك الاسكوتلنديين، ابنة ورثت ممتلكاته، وهي التي أخذها هنري زوجة لابنه غيوفري، وبعمله من أجل إقامة السلام في كل مكان من بريتاني

قام بارضاء عقول كل من رجال الدين والناس في تلك المقاطعة.

رسالة البابا الاسكندر إلى الملك هنري فيما يتعلق بالمصالحة مع توماس المبارك

عام ١١٦٩م، فيه كتب البابا الاسكندر إلى ملك انكلترا، حول مايتعلق بكنيسة كانتربري كما يلي: « غالباً ماقمنا بوساطة الأبوة والمشاعر الطيبة بالاتصال بجلالتكم، وحثثناكم بكل من الرسائل والرسل للمصالحة مع أخينا المحترم توماس رئيس أساقفة كانتربري، وأن تعيد إليه وإلى كهنته كنائسهم، وممتلكاتهم الأخرى، وهو أمر حكمتكم السامية لايمكن أن تخفق في معرفته، لأنه بات معروفاً ومنتشراً، في كل جزء تقريباً من العالم المسيحي، وبناء عليه بما أننا حتى الآن لم نحرز تقدما في هذا المجال، كما لم نخمد بالتصرف اللطيف الغضب في ذهنك، نحن حزينين وآسفين لذلك، ويؤلمنا أن نجد بأن آمالنا قد هزمت، وخاصة لأننا نحبك باخلاص بمثابة ابننا الأعز بالرب، ونحن نرى خطراً عظيماً يتهددك، ولقد كتب:« اصرخ عاليا ولاتتوقف، وارفع صوتك مثل بوق، وأعلن إلى شعبي تجاوزاته»، ولهذا قررنا عدم الاستمرار بتحمل قساوة قلبك، كما هو الأمر حتى الآن، من أجل تأمين العدالة، وكذلك خلاصك، كما أننا لن نستمر في إغلاق فم رئيس الأساقفة بأية وسيلة من الوسائل، أو نمنعه من تأدية واجبه بحرية، ولسوف ننتقم بالسيف اللاهوتي الحاد، من الأخطاء التي اقترفت بحقه شخصيا، وبحق الكنيسة الموضوعة بعهدته».

وكتب البابا أيضاً إلى سيادة[رئيس أساقفة] كانتربري بما يلي:« بما أننا حتى الآن قد انتظرنا طويلاً مع الصبر واللطف، لأن يتوب ملك انكلترا، وكررنا حثه باتصالات لطيفة ومهدئة، وأحياناً بقسوة وملامة، حتى يعود إلى شعوره الصحيح، نقوم الآن بإعلامك بأنه إذا لم يُعد إليك ولأصحابك، وكذلك إلى الكنيسة جميع الممتلكات والمناصب

الرفيعـــة التي انتـزعت، إنـك تمتلك السلطة الكاملة بممارســـة النظام اللاهوتي وتطبيقـه على جميع الأشخـاص والأفـراد التـابعين لسلطانك، باستثناء فقط أشخـاص الملك، وزوجتـه، وأولاده، ومن دون التماس، شريطة فعـل ذلك مع الحكمـــة والوعـي، حسبما يتماشى مع اعتـــدال الكهنة».

وفي الوقت نفســه، قــام غيلبرت أسقف لندن، حتى يتجنب قــراراً بحقه من رئيس أساقفة كانتربري، بتـوجيه الدعوة لاجتماع رجال الدين والناس من مـدينة لنـدن، في يوم الأحـد الأول من الصـوم، في كنيسـة القـديس بولص، ورفع التماس استئنـاف إلى الكرسي البـابوي، ومع أنه غـالبا مـاجـرى حثـه من قبل رئيس الأسـاقفة نفســه، لإعـادة الكنائس والمنافع إلى كهنته، وهو مـاكان قد تلقاه وعهـد به إليه من الملك، وذلك مع جميع الأمتعة والحاجيات التي أخذها منه ومنهم، مع ذلك استمر في عصيانه ولهذا كله، وللاجراءات القانونيـة، قام رئيس الأساقفة، دون أن يعلـم بالتماس استئنافـه، فحـرمــه بشكل مهيب، في كليرفـو، يوم أحـد السعف، وذلك بحكم كونه مؤيـداً للعادات الظالمة للملك، وحول هذا الموضوع تعطينا الرسالة التالية فهما كافياً.

كيف قام رئيس الأساقفة توماس بحرمان أسقف لندن كنسياً

« من تومــاس، بنعمـة الرب، رئيس أســاقفـة كــانتربري، والنائب للكرسي البابوي، إلى غيلبرت أسقف لندن، الذي يرغب بأن يقول أخيه، لو أنه ابتعـد عن الشر وعمل الخير، لقـد تحملنا إسرافك طويلاً، ونأمل أن لايكون صبرنا حاسماً بالنسبة للكنيسة كلها، كما هو بالنسبة لأنفسنا، فلقد أفسدت صبرنا، ولم ترغب بالاصغـاء إلى البابا أو إلينا أنفسنا بشأن النصـائح المتعلقة بخـلاصك، لكنك بعنادك صرت أسـوأ فأسـوأ، حتى قمنا صدوراً عن تقديرنا للواجب المقدس، واستجابة لمتطلبات الشريعة، ومن أجل أسباب واضحـة، باصدار قـرار بحرمـانك كنسياً، وبفصـمك

عن جسـد المسيح المقـدس، الذي هو الكنيسـة، حتى تقـوم بترضيـة مـوائمـة، ولذلك نحن نأمـرك بحكم طاعتك، وخشيـة على خـلاصك وعلى مقامك الأسقفي، وعلى الأنظمة الكهنوتية، أن تتمنع— كما تقضي القـوانين الكنسيـة — عن جميع الاتصـالات مع المؤمنين، خشيـة أنه بالاتصال بـك، سوف يضل قطيع الرب ويتدمـر، في حين أنه ينبغي أن يتوجه بتعليمك، وأن يقاد بمثلك إلى حياة سرمدية».

والآن مع أن الأسقف كـان قـد رفع التماس استئناف قبل صـدور القرار ضده، تواضع وأطاع أوامر رئيس الأساقفة، وتوقف عن الدخول إلى الكنيسة، وبرسالة من رئيس الأسـاقفة وجهها إلى عميـد لندن وإلى رجال الدين أمرهم بالتوقف نهائيا عن الاتصال بالأسقف.

وفي هذا العام أيضـاً، تزوجت إليانور ابنة الملك هنري، من ألفـونسو ملك كاستيل.

رسالة الملك هنري إلى غيلبرت أسقف لندن

« من هنري، ملك انكلترا، إلى محبـوبه والمخلص له، غيلبرت أسقف لندن، تمنيـات بالصحة ومحبـة: لقـد، سمعت بالاساءة التي ألحقهـا بك وبآخـرين من رعيتي، ذلك الخائن، والعـدو لي شخصيـاً، تومـاس، وأنا منزعج من ذلك إلى حـد، وكأنها وقعت عليّ شخصياً، وبناء عليـه ليكن بمعلومك شخصيـاً وبشكـل مـؤكـد أنني سأبذل جهـدي، من خـلال مولانا البـابا، وملك فرنسـا، وجميع أصدقـائي، في أن لايكون بمقدوره من الآن فصـاعـداً توجيـه الأذى إلينا وإلى ممالكنا، وإنني أريد، وأنصح أن لاتدع هذه تؤثـر على تفكيرك، بل عليك الدفـاع عـن نفسك بأفضل ماتستطيع، وإما أن تقدم إليّ إلى هنا على الفور إلى نورمـاندي، أو البقاء في انكلترا، حسبما تراه مناسبـاً، ذلك أنني أدع هذا إلى مشيئتك، وعليك أن تكون متأكـداً، أنك إذا ماقـررت القدوم، ومتـابعة السفـر إلى روما،

سوف أزودك بكل شيء ضروري لرحلتك، أو أن ذلك يمكن أن يفضي بي للحفاظ على كرامتي».

كيف أرسل البابا نواباً عنه لصنع سلام بين الملك وبين القديس توماس

وجرى في العام نفسه ارسال مندوبين سامين هما: فيفيان Vivian وغراشيان Gratianus ، لصنع سلام بين ملك انكلترا ورئيس أساقفة كانتربري، ومع أن سلطتيهما كانت متساوية، فقد كانت مواقفهما متباينة، وبدا أنهما في النهاية لن يتوصلا إلى اتفاق، لأنه منذ البداية كانت مشاعرهما متصارعة كثيراً، وهكذا أخفق غراشيان في الحصول على حظوة لدى الملك، وفيفيان لدى رئيس الأساقفة، فقد مثلا بحضرة الملك، وكذلك أمام رئيس الأساقفة في بيوكس Bayeux في نورماندي، وبعد مناقشات كانت تقريباً بلانهاية، بدت بوادر للتوصل إلى اتفاق، عندما أرسل وليم رئيس أساقفة السين رسالة يحذر فيها المندوبين— وفقا لتعليمات كان قد تلقاها من البابا— من الاستمرار في المباحثات من دون أخذ رأيه، والتداول معه، ولذلك غادر المندوبان بلاط الملك دون أن يكملا أي شيء، لأن الملك هنري لم يكن على استعداد للتوصل إلى أي اتفاق، مالم يتم تقديم الاحترام الكامل للعادات السيئة لمملكته ومفاخرها، وهذا مالم يكن المندوبان يعتقدان أنه من الموائم الموافقة عليه.

رسالة الملك هنري إلى البابا الاسكندر

وعبر في العام نفسه غيلبرت، أسقف لندن، البحر، ليمثل أمام البابا الاسكندر، وليقدم إفادة عن دواعيه إلى الاستئناف، وقد عبر من خلال نورماندي، حيث كان هنري، وتشاور مع الملك حول كيف يمكنه أن يتغلب بالمراوغة على رئيس أساقفة كانتربري المبارك، ويسوّد قضيته

الصحيحة في عيني الحبر المقدس، واتفقا أخيراً معا، على أن يرسل الملك إلى روما سفارة مهيبة تذكر بشكل واضح، أنه مالم يقم البابا على الفور وبشدة بقمع عجرفة رئيس الأساقفة، سوف يعلن هو نفسه وجميع باروناته وكهنته عن تخليهم عن الطاعة إلى البابا، وكان فحوى رسالة الملك كما يلي:

« تعلم جلالتكم السامية بشكل جيد مدى القلق الذي لحق بي من قبل عدوي توماس، مع أن ضميري يشهد بأنني لم أستحق ذلك، فأنا لم أعمل شيئاً يستحق كل هذا الغضب، وقد أضاف الآن أذى جديداً إلى الكثيرين، واستمر ولم يتوقف عن إيذاء واحد هو بريء، فبتفويضك كما أعلن، قد حرم كنسيا هؤلاء الذين هم أبناء أتقياء خلص للكنيسة الرومانية، وأقصد بذلك أسقفي لندن وسالسبري مع بعض أصدقائي، مع أنه لايمتلك سببا معقولاً ضدهم، وكم هو صعب بالنسبة لي التعامل مع مثل هذا التصرف، وكم ذلك مضر بسمعتي وسمعتكم، وأعتقد أن هذا ليس من الصعب عليكم إدراكه، هذا ويبدو لي أن عنايتكم الأبوية قد أهملتني كلياً، لأنكم سمحتم لعدوي بزيادة آلامي وشقائي، في الوقت الذي يتوجب فيه أن يقوم اعتدالكم الأبوي بإيقاف عنفه وظلمه، ولذلك ألتمس وأتمنى على سموكم، كما هو صحيح، أن تظهروا نحوي العاطفة التي أستحقها كابن، لتصحيح— من دون تأخير— الأذى الذي اقترف بحقي وبحق مملكتي، ولإزالة كل ماعمله خصمي مما هو مضاد للعدل، ضدي وضد رعيتي، سواء أكانوا من الكهنة أو من العلمانيين، لأنه يتوجب عليك الاستجابة إلى الطلبات التي تقدمنا بها إلى تقديرك الأبوي، آخذين بعين التقدير أنك عندما بعثت برسوليك: فيفيان وغراشيان، بأنه ينبغي أن نعيد إلى رئيس أساقفة كانتربري رئاسة أساقفيته، وحظوتنا، وضعنا جانبا كل تقدير لكرامتنا، ووافقنا، أمام المندوبين نفسيهما، مع ثمانية رؤساء أساقفة،

وأساقفة، ورعاة ديرة، مع أن توماس كان قد غادر المملكة دون أن نعلم بذلك، ودون وجود أي إكراه من جانبنا، على أنه يمكنه العودة مجدداً بسلام وأن يستأنف كل أعماله ويسترد كل ممتلكاته، كما تركهم في اليوم الذي غادر فيه المملكة، ومثله كذلك جميع كهنته الذين غادروا المملكة معه، أو من أجله، إنما مع الحفاظ دوماً على كرامة المملكة، وبناء عليه نحن نلتمس من سموكم الرفيع أن تقدروا بعناية الاحترام والخدمة التي قدمناها لكم ولبلاطكم، وسنستمر في تقديمها، مالم يكن ذلك من خطأ منكم، في أن تستمروا بالاعتدال تجاه المسائل القائمة حاليا، أي في أن لاتستمر شرور ذلك الخائن والمتمرد الذي هو من رعيتي، وأن لايشوش أذهاننا الصافية، بل أن تقوم تماشياً مع استراحاماتنا بتحليل أولئك الذين حرموا كنسيا، وأن تتدبروا أن لايقوم ذلك الحاقد نفسه بإصدار قرارات حرمان كنسي ضد آخرين، وخشية أن تصموا أذنكم عن سماع التماسنا، فندفع نحو اليأس من حسن عواطفكم نحونا، وأن تدفعونا، بحكم الضرورة، إلى البحث عن وسيلة لأمننا بعد ذلك، وبما أنه من الصعب في أن ندون كتابة كل مانرغب في قوله، نبعث إلى أقدام كرسيكم الأبوي، خادمينا الموثوقين: رينالد رئيس شمامسة سالسبري، ورتشارد دي باري Barre ، اللذان سوف يوضحان بكلمات الفم كل الذي حدث، وجميع المسائل التي نود أن نوصلها إليكم».

كيف شوّه رسولا الملك قضية رئيس الأساقفة كثيرا جداً.

ووصل رسولا الملك إلى البلاط الروماني، ووضعا أمام البابا رسالة سيدهما، مع أشياء أخرى عهد بها إليهما، وابتغيا بوساطة الهدايا ولغة الإطراء، جعل البابا يميل إلى إيثار الملك، والذي فعلاه يمكن العثور عليه في الرسالة التي أعادها البابا إلى رئيس الأساقفة توماس، والتي جاءت بدايتها كما يلي:

« تعرفون بغيرتكم النشاط والعناية اللذان أبداهما ابننا العزيز في

المسيح الملك هنري ملـك انكلترا، في حكمـه لمملكتـه، وقـد طلب منا إعطاءها قـوة على سلطة الكنيسـة الرومانيـة، وأن تبقى عـادات المملكة القديمـة وامتيازاتها من دون نقصـان، ثم إنه طلب مني زيادة على ذلك بالحاح أن أمنح السلطة القـانونيـة على انكلترا كلهـا إلى رئيس أسـاقفـة يورك، وتقديراً منا للوضع الحرج لهذه الأيام، قد منحنا السلطة القانونية إلى رئيس أسـاقفـة يورك، وذلك بناء على طلب الملك، لكن مع الوعـد السالف لرسـوليه، بناء على كلمـة الصدق، وتأكيـد ذلك باليمين، بعدم إعطاء الرسـائل إلى رئيس أساقفـة يورك من دون موافقتك»، وأيضـاً في رسالة أخرى أمـر البابا رئيس الأساقفة المتقدم الذكـر، بموجب طاعته، أن لايتفوه بقـرار منع، أو حرمان كنسي، أو تعليق، ضـد الملك، أو ضد مملكتـه، أو ضـد رعيتـه، مالم يصر الملـك على عناده، فيرفض قبل بداية الصوم الكبير أن يعيـد إليه حظوته مع الممتلكات العائدة إليـه شخصيا، وإلى كهنتـه، وذلك من أجل خـلاص روحـه، والهدوء لحكمـه، وحكم ورثته إلى الأبد» .

المعاناة العقلية لرئيس الأساقفة المبارك

هكذا كـانت إذن نار المحنة، والمعاناة العقليـة، التي عـاشها تومـاس المعترف الجريء، حتى أنه شرع الآن يتألم في عقله بآلام الشهـادة التي لم يصلها بعـد في جسده، لأنه رأى الذي يتـوجب أن يكون قائـد القوات العسكرية للكنيسة لم يقف بنفسه أمام سـور الدفاع عنها في يوم المعركة، بل انهزم مثل كبش من دون قـرنين، ولـذلك قنط الآن، وفقـد كل أمل من انسـان، وصرف تفكيره لتلقي المواسـاة من الرب، وصلى من دون توقف من أجل أوضـاع الكنيسـة، مـرهقاً جسـده بالسهـر، والصـوم، والصـلاة، من أجل الذين كرهوه وعـذبوه، وبتنهدات ودمـوع صلى إلى الرب ليحفظ الكنيسة، التي أنقـذها وكرسهـا بدمه، ومن الذي يستطيع وصف المعاناة والآلام العقلية لرجل الرب هذا، الذي سيق والده وأمه،

وأخـوانه، وأخواته، وأحفـاده وحفيداته وكهنتـه وموظفيـه الدينيين، إلى المنفى بسببه، وأجبر هو، على الرغم من مكانته السامية في كنيسة الرب، وهو حزين، على أكل خبـز الغرباء، في أرض أجنبيـة، ولكن على اعتبار أن مـامن واحـد وصل فجأة إلى الكمال، فإن آلامـه وقعت لتمتن عقله، ولتمكنه من تلقي شرف الشهادة من حـد السيف، لأن مكان استشهاده لم يحدد له بعد.

صيغة الالتماس الذي قدمه رئيس أساقفة كانتربري إلى الملك

وفي العام نفسه، في الثامن من يوم عيد القديس مارتن، وبوساطة من الحبر الأعظم، جـرى عقد مـؤتمر في باريس بين ملكي فرنسـا وانكلترا، وقـد حضره رئيس الأساقفـة من دون أن يمثل في حضرة الملك هنري، وهنا بعـد صرف وقت طويل في محاولة المصـالحة بين الملك وبين رئيس الأسـاقفـة، قام رئيـس الأساقفـة هذا، بناء على نصيحـة ملك فـرنسـا، وأساقفته، ونبلائه، الذين كـانوا حاضرين، بإرسال الالتماس التالي كتابة إلى ملك انكلترا:

« نحن نسأل مولانا الملك، استجـابة لأوامر مولانا البابا ولنصائحه، في أن يقـوم مـن أجل محبـة الرب، ومـولانا البـابا، وتشريفـاً لكنيستنا المقدسة، ولخلاص كل من نفسه وورثته، فيتقبل بحظوته جميع الذين من أجلنا، وكـانوا بصحبتنا، قـد نفيوا من المملكة، وأن يمنـح إلينا سلامـه، وأمـانا تامـا على يديه نفسـه وعلى أيدي المشـايعين له، من دون تراجع، وأن يعيـد إلينا كنيسة كـانتربري، كـاملة ومتحررة، كما أخـذناها عندمـا عملت رئيسـاً للأسـاقفـة، مع جميع ممتلكاتها، لنتملكهـا، ولنضعهـا بين أيدينا، حـرة، ومطمئنة ومشرفـة، كما ينبغي للكنيسـة، وكما ينبغي لنا أن نستحـوذ عليهـا، أي مثلما كانـت عندما جـرت أولاً ترقيتنا إلى مـرتبـة رئاسـة الأساقفة، وأن يسمح بالطريقة نفسهـا لجميع أتباعنا أن يتملكوا جميع كنائسهم مع جميع الأوقـاف العائدة لرئـاسة الأسقفيـة، التي غدت

خالية منذ أن غادرنا المملكة، وأن نتصرف بهم وكأنهم ملك لنا، وحسبما يبدو جيداً لنا ولأتباعنا».

ورفض ملك انكلترا الموافقة على هذين الشرطين، لأنه بالنسبة لشرط إعادة التمليك، بما أنـه لم يرغم رئيس الأساقفـة على مغادرة انكلترا، هو لم يكن مجبراً، وفقـاً لكرامتـه الملكيـة، على دفع أي شيء، أو نقض منح الكنائس الشاغرة، التي منحت إلى بعض الأشخاص، هـذا وأكد الملك بحضور ملك فرنسا أنه على استعداد لتقديم ترضية إلى رئيس الأساقفة، أو إذا رغب في مناقشة القضيـة بعـرضها للمحـاكمـة في قصر الملك في باريس، أمام رجال دين فـرنسيين، أو أن يستمع للمرافعات من الجانبين فـريق من العلماء من جميع المناطـق، وهكذا فإن الملك الذي كـان جلب لنفسـه من قبل المشاعـر السيئة لكثير من الناس، ربح بهذه الاقتراحـات تأييدهم، وبهذه الطريقـة، وبوساطة أصدقـائهم، صار من الممكن تحقيق اتفـاق بين الملك وبين رئيـس الأسـاقفـة، لكن الملك رفـض منحـه قبلة السلام، مع أنه كان على استعداد لمنحه كل ضمانة، لكن رئيس الأساقفة من جانبـه، رفض عمل أي سلام، إلاّ إذا استطاع أن يضعه على قـواعد ثابتة وأمينة.

كيف أقسم نبلاء بريتاني يمين الولاء إلى الملك هنري وإلى ابنه غيوفري

عام ١١٧٠م، فيه عقد، هنري ملك انكلترا بلاطه في يوم عيد الميلاد، في نـانتـي Nantes مع أساقفة وبارونات بريطانيا الصغرى، الذين أقسموا جميعاً يمين الولاء له ولولده غيوفري، ثم عبر في الصوم الكبير التالي إلى انكلترا، وكاد أن يغرق مع جميع أناسه.

تحليل أسقف لندن

وفي هذا العـام أيضاً، وصل غيلبرت أوف لندن إلى ميـلان وهو على

طريقه إلى روما، وهناك تسلم رسالة من مولانا البابا، فيها الاعلام التالي:« لقد أمرنا رئيس أساقفة روان، وأسقف اكستير، بأن يتلقيا منك، عوضا عنا، يمينا بأنك سوف تلتزم بالقرار الذي صدر ضدك، ومن ثم القيام بتحليلك، على أساس أن لايتسبب حرمانك الكنسي أية خسارة في مرتبتك أو مقامك، أو يسيء إلى سمعتك من الآن فصاعداً»، وبذلك نجح الأسقف بتحقيق هدف رغباته، وجرى تحليله بشكل علني في روان في يوم أحد الفصح.

حياة وفضائل القديس غودريك الناسك

وفي هذا العام نفسه، غادر هذه الحياة غودريك Godric الناسك، إلى الحياة الأبدية، وسوف نقدم فيما يلي بعض الملاحظات عن حياته، ومعجزاته، ونهايته المجيدة، لأنه سيكون من الظلم بالنسبة للقديس أن نمر مرور الكرام بأعماله المجيدة، وكان صديق الرب هذا قد ولد في نورفولك Norfolk، وكان اسم ابيه أيلوورد Ailward واسم أمه إيدوينا Eadwenna، وقد ربي من قبل والديه في قريته وولبول Wal-pole، وهناك أمضى شطراً من حياته بصحبتهما، وبعدما أمضى السنين البريئة من طفولته، أصبح تاجراً، في البداية بصورة متواضعة، ثم أصبح بعد ذلك يتردد على السوق العام مع التجار الآخرين، وفي أحد الأيام عندما كان يسير وحيداً على الشاطىء، وجد ثلاثة دلافين مرمية من قبل البحر، وقد بدا واحداً منهم ميتاً، والاثنان الآخران يموتان، ولأسباب انسانية، ترك اللذين كانا حيين دون لمسهما، وحمّل نفسه قطعة من الذي كان ميتاً، وانطلق عائداً إلى البيت، ثم أخذ التيار بالارتفاع كما هي العادة، ووصلت المياه في البداية إلى قدميه ورجليه، وأخيراً ارتفعت حتى رأسه، لكن بما أنه كان قوي الايمان، تابع سيره تحت الماء، بتوجيه من الرب حتى وصل إلى الأرض الجافة، وقدم السمكة إلى والديه، وأخبرهما بكل الذي حدث له.

وكان في بعض الأحيان يستغرق بالتأمل عندما يكون وحيداً، حول الأشياء السماوية وحول الصلاة الربانية والعقيدة، ولحماسته للدين ذهب إلى سانت أندرو في سكوتلندا للصلاة، وبحماسة ليست أدنى من ذلك ذهب إلى روما، وبعد عودته من هناك ألحق نفسه ببعض التجار، وأسهم في النقل بالبحر، مما درّ عليه ثروة كبيرة إلى حد أنه صار مالكاً لنصف سفينة وربع أخرى، ولكونه قوياً بجسده ونشيطاً في عقله أبحر إلى مختلف بلدان العالم، وزار الأماكن المقدسة للقديسين.

حول الفتاة التي تدبرت للقديس غودريك حجه

وبعدما أمضى ستة عشر عاماً في الربح من هذه الرحلات التجارية، قرر أن ينفق في سبيل الدين الثروة التي جمعها بجهوده، وبناء عليه حمل الصليب وزار بخشوع ضريح ربنا، وفي طريق عودته إلى انكلترا مرّ[بمزاز] القديس جيمس [في كومبوستالا في اسبانيا]، وشعر بعد مضي بعض الوقت بالرغبة بزيارة العتبات[المقدسة] للرسولين، وأوصل هذه النية إلى والديه، وعندما عبرت أمه عن رغبتها بمرافقته، إذا سمح لها، وافق بسرور، وبطاعة بنيوية، وقد حملها على كتفيه، كلما تطلبت وعوره الطريق ذلك، وعندما عبرا خلال لندن اقتربت منهما امرأة ذات جمال عظيم، وطلبت الإذن بالالتحاق بحجهما، وقد وافق على ذلك بدون تردد، والتحقت بهما بنشاط عظيم وتقوى، ذلك أنها غسلت أقدامهما وقبلتهما، وخدمتهما أحسن من الآخرين، وتصرفت على هذه الصورة طوال الطريق في الذهاب وفي الإياب، ومامن أحد سألها من كانت ولامن أين جاءت، كما أنها لم تذكر ذلك قط، ولدى مرورهما خلال لندن أثناء عودتهما، حصلت على موافقتهما بالمغادرة، وقالت لهما قبل مغادرتها:« حان الوقت بالنسبة لي للذهاب إلى المكان الذي جئت منه، وأنت ينبغي أن تقدم الشكر إلى الرب، الذي لم يهمل قط الذين وضعوا ثقتهم به، وأنا أخبرك أنه من المؤكد حصولك على الذي صليت من

أجله في روما، من الرسولين»، وما من أحد من الجماعة رأى هذه المرأة، باستثناء غودريك وأمه فقط.

كيف ذهب رجل الرب للاعتزال في الصحراء بعد عودته إلى الوطن

وبعدما أعاد أمه بالأمان إلى حماية أبيه، باع كل ماكان يمتلكه، وتلقى مباركتها، وتركها من أجل أن يصير ناسكاً، في أقصى مناطق انكلترا، وذهب إلى مدينة اسمها كارلآيل، حيث وجد بعضاً من أقاربه وقد حصل من واحد منهم على هدية حوت بعضاً من مزامير القديس جيروم، التي شرع بعد وقت قصير بتلاوتها عن ظهر قلب، ثم ذهب من دون أن يعرف رفاقه للاعتزال في الغابات، حيث عاش لبعض الوقت على الأعشاب والثمار البرية، وجاءت الأفاعي والحيوانات المتوحشة ونظرت إليه، ثم كان أن تركته بعد مضي بعض الوقت دون أن تسبب له أي أذى، وأمضى في هذه الصحراء أياماً كثيرة كناسك، حيث كان في بعض الأوقات يجثو على ركبتيه، وفي أوقات أخرى وهو رافع ذراعيه نحو السماء، أو ساجداً على الأرض، وطوال ذلك كان يصلي بشكل متواصل إلى الرب، وأخيراً وجد مكاناً، كان كهف ناسك، وقد دخل إليه، حيث تلقى تحية« مرحبا ياأخ غودريك» وقد رد عليها بقوله: « كيف أنت ياأب إيلريك Ailric ؟» مع أنه لم يعرف أحدهما الآخر من قبل، وأجابه الرجل العجوز: « لقد أرسلت من قبل السماء لتدفن جسدي الشائخ بعدما أموت»، وعاش هذان الرجلان مع بعضهما لمدة عامين، مع أن أيا منهما لم تكن لديه أية حاجيات، وأخيراً صار الناسك العجوز ضعيفاً جداً، وكان غودريك يحمله، ويجلب إليه الطعام، وقد أحضر له كاهنا ليسمع اعترافه، وقد قدم له القربان، وعندما رأى غودريك بأن حالته قد تدهورت قال له:« إن روحك قد خلقت مشابهة للرب، لذلك أرجو بحق الرب القدير أن لاتغادر هذا الجسد من دون علمي»، وبناء عليه مات الرجل العجوز على الفور،

ورأى غـودريك نوعاً من الأجسـاد الكروية، مثل ريح حـامية ومحرقـة، أشعت مثل أكثر الزجاج صفـاء في وسط بياض لامثيل له، مع أنه مامن أحـد يمكنه وصف حجم الروح وصفـاتها، ولدى انتشـار أخبار مـوت الرجل المقـدس، ووصـولها إلى رفـاقـه الذين كـانوا في بلاط كـوثبيرت Cuthbert حيث عاش المتـوفى عندما كـان شاباً، قـاموا بدفنه في مقبرة درم.

كيف ذهب غودريك المبارك إلى القدس وعاد سالما

بعدما جـرى دفن الراهب المتقدم الذكر، عـاد غودريك إلى الصحراء متسائلا عن طبيعة الارادة الربانيـة حوله، وبينما كان يصلي باخلاص إلى الرب حـول هذا الموضـوع، جـاء صـوت من السماء يقـول له:« من الأفضل لك الذهاب إلى القـدس والعـودة ثانيـة»، كما ظهـر كـوثبيرت المعترف المقدس للمسيح، له وهو يقـول:« إذهب إلى القدس، وانصلب مع الرب، وأنا سـوف أكـون هنـاك معـاوناً لك وحـامياً في كل شيء، وبعـدمـا تكمل هذه الـرحلة، سـوف تخدم الرب تحت حمايتي في فنشلي Finchale ، وعاد غودريك إلى درم، وحمل الصليب، وتلقى مباركة الكاهن، وفي أثناء رحلتـه لم يأكل شيئا سوى خبـز الشعير، وشرب ماء، كما أنه لم يغير ثيابه ولم يغسلها حتى وصل إلى الأماكن المقدسة، وعندما وصل إلى ضريح الرب، والأماكـن المقدسة الأخـرى، صلى بخشوع إلى الرب، وسكب كثيراً من الدمـوع، وقبل الأماكن طويلاً وبخشـوع كان من الصعب أن يفكر أحـد أن ذلـك ممكنا، ثم إنه ذهب إلى نهر الأردن، وهو يرتدي المسوح، ويحمل كأساً في جعبتـه، وصليباً صغيراً، حمله دوماً بيـده، ودخل إلى النهر، الذي أحبـه دوما فيما بعـد، وخلع ثيابه، وتقـدم نحو الأمام واغتسل وتنظف، لكنه رمى بنعليه وقال:« أيها الرب القدير الذي قد سار حافياً على هذه الأرض وتألم بقدميه حين خرقتهما المسامير على الصليب، أنا لن ألبس بعد الآن أحذية»، وبعدما وفى بعهده بالحج،

عاد إلى انكلترا.

كيف اختار غودريك المبارك بإلهام من الرب مسكنه في فنشلي

وبعدما عاد من الحج، وجد مكاناً سرياً في الغابة، في الشمال من انكلترا اسمه اسكديل Eskdale اعتقد أنه مناسب للسكنى به، وبناء عليه بنى كوخاً من جذوع الشجر، وغطاه بالعشب والطين، وسكن هنا سنة وبضعة أشهر، ولكن عندما بدأ ملاك الأرض بإزعاجه، تركها وذهب إلى درم، حيث تعلم بسرعة المزامير مجدداً، وصار يعرف كثيراً من المزامير، والترانيم والصلوات، وذلك بما فيه الكفاية، وبناء عليه ألهم في أحد الأيام من عليين، فذهب إلى غابة في الجوار، حيث سمع راعياً يقول لرفيقه« دعنا نذهب ونسقي مواشينا في فنشلي»، ولدى سماع غودريك هذه الكلمات أعطى الراعي البنس الوحيد الذي امتلكه، لكي يقوده إلى ذلك المكان، وفي أثناء سيره نحو داخل الغابة قابله هناك ذئب حاد، له حجم غير عادي، وقد اندفع نحوه وكأنه يريد تمزيقه إلى قطع، واعتقد غودريك أن ذلك كان واحداً من خدع العدو القديم فعمل شارة الصليب بيده قائلاً:« أستحلفك باسم الثالوث المقدس أن تغادر من هنا بسرعة، إذا كانت العبادات التي أنوي تقديمها إلى الرب في هذا المكان مقبولة إليه»، وبهذه الكلمات سجد بنفسه مع قدميه غير التقيين، وكأنه يطلب العفو من الرجل المقدس.

كيف سكن القديس غودريك في فنشلي بين الحيوانات المتوحشة والأفاعي

وبناء عليه عزم غودريك على عبادة الرب في هذا المكان، فقام، بناء على إذن حصل عليه من رالف أسقف درم فعمل كهفاً بالأرض قرب شاطىء نهروير Wear ، وبعدما غطاه بالعشب والطين سكن فيه بين حيوانات البرية والأفاعي، وكان عدد الأفاعي مرعباً، لكنهم كانوا جميعاً

مـدجنين نحو رجل الرب، سمحـوا لأنفسهم بالحمل والتناول، وكـانوا مطيعين لأوامره وكـان في بعض الأحيان عندما يجلس أمـام النار، كانوا يلتفون حـول رجليه، أو يكورون أنفسهم في صحنـه أو كأسه، وبعـدما أمضى بضع سنوات على هذه الشاكلة من الحياة، رأى أن الأفاعي تعيق صلواته، ولذلك عندما رآهم في أحد الأيام من حوله، كما جرت العادة، أمـرهم بعدم دخـول بيته ثانيـة، وبناء عليـه تركته هذه الهوام تمامـا، ولم تعاود عبور عتبته، وعندما كـانت الهدايا من الطعام وأشياء أخرى تقدم إليه رفضهم جميعا، مفضلاً العيش بوسـاطة العمل في أرضه، وقد أحرق بعض أغصـان الشجر وفروعهـا حتى صارت رمـاداً، ومزج الرمـاد مع طحين الشعير بنسبـة الثلث للجميع، وأخضع الجسـد وطوّعـه بالبكاء، والسهر، والصوم، وبناء عليه كـان يمضي أحيانا ستة أيام من دون أكل، وبعـدما حـاول الشيطان إغواءه بالـرفاهيـة، ظهر له على شكل حيـوان متـوحش: أحيانا على شكل دب، أو أسـد، أو ثور، أو ذئب، أو ثعلب، أو علجوم، وحـاول إخافتـه، غير أنه كان قويـاً في إيمانه، فاستخف بهم جميعـاً، ولكي يخمد نار الجسـد، أخضع جسمه باستخـدام أخشن أنواع المسـوح، وارتدى لمدة خمسين سنة سـابغـة من الحديد، وكـانت مـائـدته حجرة عـريضة مسطحة، عليها وضع خبـزه كما وصفت نوعه من قبل، غير أنه مـاكـان ليتذوقـه حتى يرغم بجـوع حتمي، وكـان شرابه نقـاطاً معتدلة مـن الماء، وفقط عندما كـان يجد نفسه مرغماً بعطش شـديد، ولم يسترح قط في الفـراش بل كـان يتمـدد على الأرض عندما كـان يشعـر بالانهاك، ومسوحه تحته، ورأسه مستند على الحجر الذي اتخذه مائدة له، وعند اشراق القمـر، كان يصرف نفسـه إلى عمله، ويدع النوم، ويمضي الوقت بالصـلاة، وفي الشتـاء وسط الثلـج وتسـاقط البرد، كـان يدخل النهر عارياً، وهناك كان يقـدم نفسه طوال الليل قربانا حياً للرب، والماء واصل إلى رقبتـــه، وكـــان في هـذا الوضع يتـــدفق بانشـــاد المزامير، والصلوات، ويسكب الدموع، وهو مايزال في داخل الماء، وغالباً ماظهر

له الشيطان وجميع أطرافه مشوهة، وعلى حافة الانقضاض عليه، لكنه كان يصده وهو مرتبك مضطرب بوساطة شارة الصليب المقدس، وكان على كل حال يحاول سلب ثياب الرجل المقدس، لكن كان يتولاه الرعب من صرخات غودريك، فيرميهم، وينهزم بعيدا.

كيف شاهد القديس غودريك في أحد الأيام طفلاً يخرج من فم المصلوب ويقر نفسه على صدر أمه

وفي أحد الأيام، عندما كان رجل الرب، جالساً في خلوته، يكرر المزامير، رأى طفلاً صغيراً قد خرج من فم المصلوب، وذهب إلى تمثال العذراء المباركة، الذي كان قائماً في الجهة الشمالية من اللوح، وأجلس نفسه على صدرها، وقامت هي من جهة أخرى بمدّ يديها لاستقباله، واحتضنته بين ذراعيها لقرابة ثلاث ساعات، وكان الطفل يتحرك طوال ذلك الوقت وكأنه حيّ، وفي كلتا الحالتين عندما جاء وعندما ذهب، اهتز تمثال العذراء كثيراً، حتى بدا اللوح وكأنه سيسقط، واعتقد غودريك أن أطراف التمثالين كانت ممتلئة بروح الحياة، وأن الطفل لم يكن سوى عيسى الناصري، وعاد الطفل بعد ذلك إلى فم المصلوب وفق الطريقة نفسها التي جاء بها.

كيف ظهرت أم ربنا ومريم المجدلية إلى القديس غودريك وحول الأغنية التي علمته إياها أم منقذنا

وفي وقت آخر، عندما كان رجل الرب يصلي أمام مذبح العذراء المباركة، أم الرب، رأى فتاتين، في عمر الشباب، وكانتا على غاية من الجمال، تقفان عند طرفي المذبح، وترتديان ثوبين ببياض الثلج، وقد وقفتا لبعض الوقت تنظر إحداهما إلى الأخرى، ولم يتجرأ غودريك على التحرك، بل نقل عينيه من واحدة إلى الأخرى، وطأطأ رأسه أحيانا بتعبد، ثم اقتربت العذراء منه، وكانت على يمين المذبح وسألته:« هل

تعـرفني ياغودريك؟» فأجـابها قائـلاً: « إن هذا من غير الممكن، إلاّ إذا كنت تنوين التعريف بنفسك» فردت عليه قائلة:« إن ماقلته قلته صادقاً، أنا أم المسيح، ومن خـلالي سوف تنال نعمـة، وهذه السيـدة الثانيـة هي الرسـولة الأنثى بين الرسل، إنها مريم المجـدلية»، ورمى غـودريك الآن بنفسـه على قـدمي أم الرب قـائـلاً:« إنني أعهـد بنفسي إليك ياسيـدتي، وألتمس منك أن تضعيني تحت حمايتك»، ثم إنها وضعت كلتا يديها على رأسه ومسحـت شعره، وملأت المكان بـرائحة طيبة، وغنت بعـد ذلك، وعلمت غـودريك أن يغني أغنيـة، صار في الغـالب يرددها بعـد ذلك، وقد انطبعت ثابتة في ذاكرته، والأغنية بالنظم الانكليزي هي كما يلي:

“Seinte Marie,Clane Virgine,
Moder Jesu christ Nazarene
Onfo, Scild, help Thim Godrich
Onfang, bring heali widh The in Coderich
Seinte Marie, Thristes bour,
Meidenes Clenhed, moderes flour,
Delivere mine Sennen. regne in min modm
Bringe me to blisse wit selfe, God”

ومن الممكن نقل هذه الأغنية إلى اللاتينية هكذا:

“Sancta Maria virgo munda moter Jesu christi nazareni, suscipe adduc, sarcta, tecum in dei rgnum. Sancta maria, christi thalamus, virginalis paritas, matris flos, dele mea crimina, vegna in mente mea duc

me ad felicitatem cum solo deo"

وعلمت أم المسيح غودريك أن يغني هذه الأغنية كلما كـان خائفاً أن يُقهر بالألم، أو الأسف، أو الإغواء، وتابعت تقـول له:« وعندما تدعوني بغنائك بها، سـوف تنال على الفور مسـاعـدتي»، ثم إنها رسمت علامـة الصليب على رأسـه، وصعـدت أمـام نـاظريه إلى السماء، مخلفـة وراءها رائحة طيبة.

كيف أقام القديس غودريك شخصين ميتين
وردهما إلى الحياة ثانية

وجاء في أحد الأيام إلى رجل الـرب زوج وزوجة، ورجواه أن يكون رحيماً فيرد إلى الحيـاة ابنتهما التي كـانت ميتـة، وقـدمـا في الوقت نفسـه جثتها وأخـرجاها من كيس كانا قد جلبـاها به معهما، وعدّ رجل الرب نفسـه غير جدير للقيـام بمثل هذا العمل الإعجازي، ولم يعمل جـواباً، بل ذهـب إلى الحقل من أجل عملـه الاعتيـــادي، الأمـــر الـذي أزعج الشخصين، فغـادرا، تاركين الجثة في خلوته، ذلك أنهما قـالا:« من أجل أن يحتفظ بالجثة ويدفنها، أو أن يعيدها إلى الحياة، وهو مايمكنه فعله إذا رضي»، وعاد غودريك في المساء، فوجد الجثة في زاوية خلوته، فبدأ على الفـور يصلي بخشوع إلى الرب، الذي هـو نبع الحياة والصحـة للجميع، من أجل إعـــادة الفتـاة إلى الحيـاة، واستمـــر يفعل هذا لمدة ثـلاثة أيام وليلتين، وفي اليـوم الثالث، وعندمـا كـان مـايزال متمدداً أمـام المذبح، شـاهد الفتاة تتقـدم نحـوه، وبناء عليه دعـا والديها، وردها إلى عنايتهما، وجعلهما في الوقت نفسه يقسمان أنه مـادام حياً، لن يبوحا بهذا السر إلى أحد من الناس، وفي وقت آخر، عندما جلب والدان بشكل سري جسد ابنهما الصبي الميت، إلى رجل الرب، أمـرهما بوضعه على مـذبح العذراء المباركة في خلوته، قائلاً:« لاتفترضا بأن الصبي هو ميت، بل اجثيا معي

على ركبتيكما، واسألا الرحمة اللاهوتية للصبي»، وبعدما فرغوا من الصلاة، أمرهما بالذهاب، وأخذ الطفل من على المذبح، الأمر الذي عندما فعلاه، وجداه حياً ويبتسم، ثم ربطهما رجل الرب بيمين أن لايبوحا بهذا الصنيع إلى أي واحد، مادام حياً.

الجواب الذي أعطاه رجل الرب إلى واحد طلب أن يكتب حياته

كان لرجل الرب أصدقاء مقربين بين رهبان درم، خاصة واحداً كان اسمه[رينالد]، وحُثّ هذا الرجل مرارا لأن يكتب حياة القديس غودريك وفضائله لصالح الأجيال المقبلة، ولكي يحصل على مزيد من المعلومات الأكيدة حول الموضوع، جاء إلى رجل الرب، ليعلم منه ماالذي ينبغي أن يكتبه، وبينما كان جالساً عند قدمي القديس، قال بأنه يقترح بأن يكتب حياته، وأوضح المنافع التي سوف تنجم لصالح الأجيال المقبلة من معرفة الذي عمله، وعلى ذلك ردّ رجل الرب مع كثير من الانفعال قائلاً:« إن حياة غودريك ياصديقي هي كما يلي: في المقام الأول غودريك، فظ، وقذر، وزاني غير نظيف، وزائف، وحانث باليمين، وغشاش، ومتشرد، ووقح، ونهم، وكلب قذر، ودودة منحطة، وليس ناسكاً بل منافق، وليس سائحاً بل انسان فاقد للعقل، وملتهم للصدقات، وضال، ومحب للمتع، وكسول، ومبدد لوقته، ومبذر، وطماع، وغير جدير بخدمة الآخرين ودائم النميمة واللوم للذين يتولون تدبير أموره، وهذه الأشياء، لابل ماهو أسوأ من هذا الذي سوف تكتبه حول غودريك»، وبعدما فرغ من هذه الكلمات، التزم بالصمت وهو غاضب منزعج، فانسحب الراهب، وهو مضطرب، إنما بعد مضي عدة سنوات، لم يتجرأ ثانية على سؤال القديس حول حياته الماضية، حتى قام غودريك، رحمة به، أو لأنه ندم على الخطأ الذي عمله له، فأخبره طواعية من ذاته عن الأشياء التي رغب بمعرفتها، وفي الوقت نفسه رجا الراهب بحكم الصداقة والاحترام المتبادل بينهما بعدم اظهار

الكتاب إلى أحد خلال حياته.

الجواب الذي أعطاه غودريك عندما سئل عما يتعلق بمفارقة الروح وعن أوضاعها بعد الموت

وفي وقت آخر، عندما جاء الراهب نفسه إليه، في عيد القديس يوحنا المعمدان ليقيم قداساً معه، جلس خارج باب خلوته، وسمع غودريك وهو يغني بالداخل، وبعد العشاء سأله الراهب عن طبيعة مغادرة الروح، وعن ذلك تلقى هذا الجواب حيث قال:« تغادر روح التقي بلطف من الجسد لكن روح المذنب، بما أنها غير موائمة للمغادرة، تحرض على ذلك بوساطة كثير من الجلدات، وفور مغادرتها للجسد، ترتفع عاليا تنتظر الأوامر من القدير، ويوجد في الهواء بوابة حديدية ضيقة، محروسة من على الجانبين بأرواح خيرة وشريرة، من خلالها يجري قبول أرواح الأتقياء بتسهيل المرور، لكن أرواح الأشرار تعاق بشدة، وتتعرض للعذاب، وتطرد نحو الأسفل بشكل تعيس، ولقد رأيت في هذا اليوم روح رجل مستقيم تمر من خلالها، ولسروري لذلك، بدأت أغني مع الملائكة الذين تولوا قيادتها، وكان هذا الذي سمعته مع دهشة كبيرة جداً».

كيف أقام القديس بطرس قداساً للقديس غودريك

وفي مناسبة أخرى، عاد الراهب نفسه، إلى هناك ثانية، ليسأل رجل الرب عما إذا كان يرغب بسماع القداس، وقد ردّ عليه قائلاً:« لقد سمعت في هذا اليوم قداس الثالوث المقدس، وتلقيت القربان من يد رجل كان مرتديا البياض، وقد نزل من السماء، ثم صعد إلى هناك، بعدما جعلني أعترف بذنوبي، وقد أخبرته بكل ماوقع لي، وماااقترفته من ذنوب، وقد أعطاني تحليلاً، وتناولت القربان من يديه، وبعد ذلك رفع يديه فوقي، وصعد إلى السماء، فهل بعد هذا يابني تطلب مني أن أتلقى

الاعتراف أو القربان من يديك»؟ وقال الراهب بأنه لايتجرأ أن يفعل ذلك، لكن في الوقت نفسه سأله، من كان ذلك بين القديسين، وأجابه رجل الرب بأن ذلك كان بطرس الرسول، فهو الذي أرسل من قبل الرب لتحليله من ذنوبه، وقال هو:« وعلى هذا هل تقيم قداساً تشريفاً للعذراء المباركة، حتى يمكن بوساطتها أن نحصل على حظوة ابنها؟» وقدم الراهب الشكر للرب وهو مسرور، وفعل الذي أمر به.

كيف تحرر القديس غودريك من الشياطين بالصلوات وبعلامة الصليب

وبعد أن أمضى غودريك أربعين سنة في العزلة في فنشلي، أنهكته الأمراض مع تقدم السن، واقترب من النهاية الأخيرة، ذلك أنه في السنوات الثمان الأخيرة تقريباً، التزم الفراش، ولم يعد بإمكانه التقلب على جانبه من دون مساعدة انسان ما، وكانت آلامه في تلك الآونة واغواءاته كثيرة جداً، حيث لايمكن للسان أن يتحدث عنها، ولاالقلم أن يكتبها، وقدم إليه شيطانان، يحملان رسالة وقالا له:« لقد قدمنا لنحملك إلى جهنم، لأنك رجل عجوز مجنون، وبعدما كنت عاقلاً صرت مجنوناً، لكن غودريك عمل شارة الصليب، وتفوه بصلاة إلى الرب، مما أرغم الشيطانين على الفرار.

كيف ضرب الشيطان غودريك على رأسه وموته

وفيما بعد عندما كان رجل الرب مستلقياً على فراشه، سمع الذين كانوا يتولون خدمته صوتاً يستدعيهم، ذلك أنهم كانوا بالخارج، وركض أحدهم نحو الداخل، فوجده متمدداً على أرض خلوته وهو قد تعرى من ثيابه، فوضعه على الفراش، وسأله لماذا كان متمدداً على الأرض، فقال غودريك:« وقف الشيطان إلى جانبي، ورآني متمدداً من دون انتباه، بعد إغماءة، فقام فجأة فرماني من فراشي وضرب رأسي

بالمقعد» وبعدما قال هذا جعلهم يرون التورم في رأسه، ثم أضاف قائلاً:« لقد هجم الشيطان علي بشكل مفاجىء، حيث لم يتوفر لدي الوقت لحماية نفسي برسم علامة الصليب، وهو يقول: آه ياغودريك الأخرق، أنا لم أستطع قتلك بوساطة أتباعي، لكن وأنت في إغماءة على فراشك، قد قتلتك الآن، وبناء عليه ليكن معلوماً من قبل كل واحد كم هو خطر الاستسلام إلى متع البدن، أو أن يستغرق الانسان بالكسل، فالرب لاينوجد مطلقاً بين الذين يعيشون برفاهية»، ولقد مات الأب المبجل غودريك في الحادي والعشرين من أيار، الذي وافق اليوم الثامن من عيد صعود ربنا، وكانت حياته وأعماله أكثر مما هي انسانية، وفوق قدرة الانسان ليتولى وصفها، وقد دفن في الجانب الشمالي من خلوته أمام درجات مذبح يوحنا المعمدان، وقبره حتى هذه الأيام مقدس بوساطة المعجزات التي تعمل هناك.

تتويج الملك هنري الشاب

في هذه الآونة، أي في عام ١١٧٠م، وفي الثالث عشر من تموز، التقى، بناء على أوامر الملك، واجتمع في وستمنستر روجر رئيس أساقفة يورك، وجميع الأساقفة المساعدين لكنيسة كانتربري، لتتويج هنري أكبر أولاد الملك، وقد جرى تتويجه إثر ذلك من قبل رئيس أساقفة يورك، في اليوم الثامن عشر من تموز، مراغمة لحظر مولانا الملك، الذي بعث برسائل إلى رئيس الأساقفة والأساقفة الآخرين، كان مغزاها مايلي:« نحن نمنعكم بموجب سلطاتنا الرسولية من تتويج الملك الجديد، إذا تمّ العمل من دون موافقة رئيس أساقفة كانتربري وكنيسته، كما لايجوز لأي منكم وضع يده مراغمة للعادات القديمة لتلك الكنيسة ولكرامتها، أو تسهيل القيام بالتتويج المتقدم ذكره»، وكان هذا الحظر— على كل حال— بلا فائدة، فقبل إذاعة الرسائل، كان الملك الشاب، قد جرى تتويجه، وقام الملك بعد ذلك على الفور بعبور البحر، وعقد مؤتمراً

مع رئيس أساقفة مونتميريل Montmirail ، حيث حضر ملك فرنسا أيضاً، وبعد مناقشات طويلة حول اقامة سلام بينهما، وعندما وصلا إلى القبلة استخدم رئيس الأساقفة العبارات التالية:« أنا أقبلكما تشريفاً للرب»، لكن الملكان تمنعا عن التقبيل، وكأنهما اتفقا اتفاقاً مشروطاً، لأنه وإن كانت نوايا رئيس الأساقفة صافية تماماً، اعترض الملك دوماً على شكل الكلمات التي استخدمها، من ذلك على سبيل المثال:« إبقاء شرف الرب، وابقاء نظامي، وإبقاء الايمان المقدس للرب»، وكان رئيس الأساقفة شاكاً في هذه التوجسات من جانب الملك، خشية أنه إذا ماقامت الاتفاقية، أن يعتقد بأنه اعترف بالعادات الظالمة لملك انكلترا.

كيف صنع سلام بين الملك هنري وتوماس رئيس أساقفة كانتربري

عقد ملك فرنسا ثانية مؤتمراً مع ملك انكلترا، ووليم رئيس أساقفة السين، وأسقف نيفار Nevers، وكان ذلك في فريتفال Freitval، حيث ركب الملك هنري ورئيس الأساقفة على انفراد عن البقية، وقد ترجلا مرتين عن فرسيهما ثم عاودا الركوب ثانية، وأمسك الملك مرتين الركاب ورئيس الأساقفة راكب، وأخيراً توصلا بوساطة روتريك Rot-ric رئيس أساقفة روان إلى اتفاق في أمبويز Amboise، وصنع سلام بينهما، وكتب الملك هنري الرسالة التالية إلى ابنه الملك الشاب:« هذه الرسالة لإخبارك بأن توماس رئيس أساقفة كانتربري قد عمل سلاماً معي حسبما يرضيني، وبناء عليه آمرك بعدم التعرض بسوء إلى جميع المؤيدين له، وأن تأمر بإعادة جميع ممتلكاته إليه وكذلك كل ماهو عائد إلى كهنته والآخرين الذين غادروا انكلترا من أجله، وذلك كما كانوا بحوذتهم ثلاثة أشهر قبل مغادرة رئيس الأساقفة لانكلترا، وعليك أيضاً استدعاء بعضاً من أقدم الفرسان في سالتوود Saltwood للمثول أمامك، وأن تتأكد بوساطة أيمانهم الأملاك هناك التي امتلكها كرسي

كانتربري، وكل ماوجد عائد له سوف يتملكه نوابه، وداعاً». وقبل أن يعبر رئيس الأساقفة إلى انكلترا، أرسل رسالة إلى البابا أخبره فيها بأنه عمل سلاماً مع الملك، وقدم البابا في جوابه الشكر إلى الرب، على الشكل التالي:« القلق في القلب وآلام الروح قد قهرانا، عندما نتذكر الآلام والهموم التي أثقلتك، والأخطاء التي تحملتها طويلاً من دون ملل، وذلك في سبيل العدل، ولكي تكمل فضائلك، حافظت على مقاصدك، ولم تهزم من قبل العدوان، الأمر الذي نبدي إعجابنا به وبثباتك، ونهنئك من قلبنا بالرب من أجل هذه المعاناة الطويلة، ولقد تعاملنا منذ وقت طويل مع ملك انكلترا، وغالباً ماحذرناه بلغة ناعمة ولطيفة، وأحيانا بقسوة وبحدة، بأن عليه إعادة النظر بسلوكه وتقويمه، وإنه إذا لم يف بجميع الشروط العائدة لـلاتفاق الذي عقده معك، ولم يعد إليك وإلى أصحابك جميع الممتلكات التي صودرت، نحن نمنحك سلطة كاملة على الأشخاص جميعاً والأماكن العائدة إلى سلطاتك، حتى تمارس تطبيق النظام اللاهوتي عليهم، من دون استئناف، وفقاً لماتراه مناسباً».

عودة رئيس الأساقفة من المنفى إلى انكلترا

بكفالات من البابا ومن الملك، أبحر رئيس الأساقفة إلى انكلترا، ونزل في ساندويش في اليوم الأول من كانون الأول، وفور وصوله، وحيث لم تكن هناك حاجة للتسرع إلى مجد الشهادة، التي تشوق إليها بشدة، بعث بالرسالة التالية إلى رئيس أساقفة يورك:« بما أن ملك انكلترا قد رغب بتتويج ابنه، وبما أنه من المعروف أن وظيفة التتويج عائدة إلى رئيس أساقفة كانتربري صدوراً عن الأعراف القديمة، يبدو لي أخي رئيس الأساقفة أن الملك المذكور، قد وضع جانباً رئيس الأساقفة المتقدم الذكر، وأمر بوضع تاج المملكة على رأس ابنه بيديك، وأن اليمين المكتوب والقاضي بالحفاظ على حريات المملكة، لم يؤخذ

فقط، لابل إنك لم تطالب به، وعلى العكس من ذلك، نجد أن العادات الظالمة للملكة التي عرضت كرامة المملكة للخطر وللغرق، قد تأكدت بوساطة اليمين الذي أعطي بالاحتفاظ بها إلى الأبد، وبالنسبة إلى هذه القضية، لاننكر أن شدة الملك وعنفه قد سببا كثيراً من الاضطراب، لكننا مع ذلك انزعجنا أكثر تجاه الضعف الذي أبديته أنت مع إخوانك الأساقفة، ويؤسفنا أن نصفه بأنكم كنتم أشبه بكباش بلاقرون، وأنكم تراجعتم بشكل مخجل أمام مطاردكم، ولربما كان قانونيا ياأخانا إيداع هذا المنصب في مقاطعتك لكن في مقاطعة آخر، هو بشكل خاص في المنفى من أجل العدالة، وهو وحده تقدم ليعطي المجد للرب، نحن لايمكننا أن نجد شيئاً من المنطق في ذلك، ولافي قوانين الآباء المقدسين وأعرافهم ليسوغ مثل هذا الصنيع، فلقد سمحت لتلك الأعراف الظالمة بأن تتثبت باليمين، وأهملت حمل ترس الايمان، والوقوف للدفاع عن بيت الرب في يوم المعركة، وبناء عليه لن نلتزم بعد الآن بالصمت، فنكون متورطين في يوم الحساب، بالادانة نفسها مثلك شخصيا، ولذلك نقوم هنا بموجب سلطات الكنيسة الرومانية المقدسة، التي أنا خادمها تحت الرب فنعلن تعليقك عن العمل بأي منصب له علاقة بمركزك الأسقفي».

وبفضل رسالة أخرى من البابا، علق رئيس الأساقفة توماس أيضاً وأوقف عن الممارسات الأسقفية أساقفة: لندن، وسالسبري، واكستير، وسشتر، وروكستر، وسينت أساف، وللانداف، وكذلك الآخرين الذين ساعدوا في التتويج المتقدم الذكر، وجاء محتوى رسالة البابا كما يلي:« إن القضية التي من أجلها دُفع أخانا المبجل، توماس رئيس أساقفة كانتربري، ونائب الكرسي الرسولي، إلى المنفى، لاأحتاج أنا الآن لأشرحها لكم وأبينها، لأنكم كنتم شهوداً على ذلك وحضوراً، ولأن أخبار ماحدث قد انتشر خلال كنائس الغرب كله، هذا وبما أن ثيوبولد،

صاحب الذكرى الطيبة، ورئيس أساقفة كانتربري من قبل، وسلف رئيس الأساقفة الحالي، هو الذي وضع التاج على رأس ملك انكلترا، وبهذه الوسائط، امتلكت كنيسة كانتربري— كما كانت— الحق في ممارسة هذا العمل، وإنكم لم تترددوا الآن بتجاهل وتحدي رسائلنا الرسولية إلى عمل العكس، في المساعدة على تتويج الملك الجديد، علماً أن رئيس الأساقفة لم يتم إعلامه بذلك، والاحتفال قد جرى في مقاطعته، وأنتم الذين كان بإمكانكم تخفيف نفي رئيس الأساقفة بمثل هذه المواساة، وكان بمقدوركم فعل ذلك، قمتم بالحري بزيادة المسألة سوءاً ضده، ويحزننا أن نقول: زدتم على آلام جراحاته، وفي هذه الحالة، لن نثار لإتخاذ اجراء ضدكم يعادل ماتستحقه خطيئتكم، ومع ذلك أن نمرّ بها ونتجاوزها كليا بصمت خشية— لاسمح الرب— أن يصدر قرار العقوبة الربانية ضدي وضدكم، وذلك إذا أهملنا معاقبة الجرائم التي اقترفت بشكل علني أمام مرأى الناس، وليكن معلوماً بالنسبة إليكم، أننا بوساطة السلطة التي نتملكها من الرب، قد أوقفناكم عن ممارسة عملكم الأسقفي، حتى تظهروا أمام كرسينا الرسولي، وتعملون ترضية، وذلك مالم تعملوا الترضية المتقدم ذكرها، أمام رئيس الأساقفة المتقدم ذكره، بطريقة يرى فيها أنكم أهل لتخفيف حكمنا ضدكم».

كميف أمر وكلاء الملك القديس توماس القيام بتحليل الأساقفة المحرومين كنسيا

بعدما عاد أسقف كانتربري المبجل إلى كنيسته وسط سرور، وخشوع وتقوى كل من رجال الدين والناس، ظهر موظفوا الملك أمامه مباشرة ووصلوا إليه، مع أوامر من سيدهم ليقوم بتحليل الأساقفة المعطلين وآخرين كان قد حرمهم كنسياً، بحجة أن كل ماصنع ضدهم يزيد من إيذاء عادات المملكة ويفسدها، فأجابهم رئيس الأساقفة، إنه إذا ماأقسم الأساقفة المحرومين وفقاً للشكل الذي وضعته الكنيسة، أي الالتزام

بأوامر البابا، فإنه سوف يوافق على تحليلهم من أجل خاطر الملك، ومن أجل السلام في الكنيسة، وعندما روي هذا إلى الأساقفة، أجابوا بأنهم لن يؤدوا مثل هذا اليمين من دون موافقة الملك، وبعد ذلك بوقت قصير ذهب رئيس الأساقفة لزيارة الملك الشاب في وودستوك، لكنه قوبل من قبل رسل، أمروه باسم الملك بعدم المتابعة، بل العودة إلى كنيسته، وتبعاً لهذا عاد إلى كنت، وهناك أعد العدة للاحتفال بموسم الميلاد الذي كان قد اقترب.

الاستشهاد الرائع لتوماس رئيس أساقفة كانتربري

عام ١١٧١م، فيه في يوم الميلاد، اعتلى رئيس أساقفة كانتربري المنبر، ليقدم قداساً للناس، وبعد الفراغ منه تولى الحرمان كنسيا لنيغل دي ساكفيل، الذي استولى بالعنف على كنيسة هيرجي Herges، وكذلك لنائب رئيس الكنيسة نفسها روبرت دي بروك، الذي استخفافاً برئيس الأساقفة قام بتشويه واحد من خيوله كان محملاً بالمؤن، وبعد هذا حدث في اليوم الخامس بعد يوم الميلاد، وفي حوالي ساعة العشاء، عندما كان رئيس الأساقفة جالساً مع رجال دينه في قاعته، اقتحم الغرفة وليم دي تريسي Tracy ، وريनالد فتز— يوري Fitz-urse ، وهيوج دي مورفيل Morville ، ورتشارد برايتون Briton ، وكانوا قد قدموا من نورماندي، وكانوا حين اقتحموا الغرفة مثل المدفوعين بجنون، وقد أمروه باسم الملك بإعادة الأساقفة المعطلين، وبتحليل الذين تولى حرمانهم كنسيا، وعلى هذا أجاب رئيس الأساقفة بأن القاضي الأدنى لايمكنه التحلل من قرار حكم رئيسه الأعلى منه، وأن مامن انسان يمكنه إلغاء قرار صادر عن الكرسي الرسولي، وإذا ماقام أسقفا لندن وسالسبري مع الأشخاص المحرومين الآخرين بتأدية يمين بالالتزام بطاعته، سوف يوافق بسرعة من أجل تنفيذ ماكان بأذهانهم، وجاءت مغادرتهم بعنف، وفي تلك الأثناء دخل رئيس الأساقفة إلى الكنيسة

للقيام بالقداس، وكان ذلك بناء على نصيحة رجال دينه، ولأن ساعة العشاء كانت قد دنا حلولها، وتولى فعلة الشر ومدبروه لبس دروعهم وحمل أسلحتهم، وتتبعوا عن قرب رئيس الأساقفة، فوجدوا الأبواب مفتوحة خلفه بناء على أوامره، لأنه قال:« إن أبواب كنيسة الرب ينبغي أن تظل مفتوحة، لأنها مكان التجاء لجميع الناس، وعلى هذا لاتدعونا نحوّلها إلى قلعة»، وبدأت الحشود تركض الآن من على جميع الجوانب، ودخل الرجال الأربعة من دون احترام إلى الكنيسة وهم يصرخون:« أين هو الخائن للملكه؟، أين هو رئيس الأساقفة؟»، ولدى سماعه الدعوة إليه استدار لمقابلتهم، ذلك أنه كان قد ارتقى ثلاث أو أربع درجات من درجات السدة وقال لهم:« إذا كنتم تطلبون رئيس الأساقفة، فها هو هنا هو واقف»، وبعد ذلك استخدموا لغة قاسية ضده مزيجة بالتهديد، فقال لهم:« إنني على استعداد للموت، ذلك أنني أفضل الحفاظ على عدالة الكنيسة وحريتها على حياتي»، فاندفع القتله نحوه بسيوف مجردة، وسقط وهو يردد هذه الكلمات« إلى الرب وإلى القديسة مريم حماة هذه الكنيسة، وإلى القديس دينس أعهد بروحي وبقضية الكنيسة»، وهكذا جرى قتل هذا الشهيد المجيد أمام مذبح القديس بندكت، بتلقي جرح في ذلك الجزء من جسده، الذي كان من قبل قد تلقى عليه الزيت المقدس الذي كرسه للرب، ولم يتورعوا عن تلويث الكنيسة بدم الكاهن، وافساد ذلك اليوم المقدس، بل إنهم قطعوا قحف رأسه، ونثروا بسيوف ملطخة بالدم دماغه على أرض الكنيسة.

كيف نهب القتلة أسلاب الشهيد المبارك وطريقة موته المزعجة

وجرى نقل الشهيد المجيد إلى المملكة السماوية، في حين قام القتلة الدمويون بنهب مقتنياته، واستولوا على ألبسة كهنته، وعلى كل ماوجدوه في مكاتب خدمه، وفي الوقت ذاته كانت جثته المباركة ممددة على أرض الكنيسة، فحملت في حوالي وقت الشفق إلى أمام المذبح

العالي، حيث اكتشف النـاس الواقفون هناك الحقيقة التي كـانوا من قبل يجهلونها، لأنه وإن كـان رئيس الأسـاقفة متخفيـا تحت الرداء الرهبـاني، وهو اللباس الرهباني الذي إرتداه منذ ترقيتـه، فقد وجد مرتدياً لقميص من المسوح، وهذا مالم يسمع به من قبـل، وكان قميصاً طويلاً، حتى أنه غطى حقويه أيضـاً، وكان هناك بعض التساوق في حياته، سـوف نعدده هنا باختصـار: ففي يوم الثـلاثاء كـان رئيس الأسـاقفة قـد غـادر بلاط الملك في نورثأمبتون، كذلك غادر انكلترا في يوم الثلاثاء إلى المنفى، وفي يوم ثلاثاء عاد إلى انكلترا، تماشياً مع وصـاية البابا، وفي يوم ثلاثاء واجه الشهـادة، وفي الصبـاح البـاكـر من يوم الأربعـاء انتشرت الأخبـار، بأن القتلة قرروا سلب الجسد من الكنيسـة، ورميه خارج المدينة حتى يمزق إلى قطع من قبـل الكلاب والغــربان، فكان أن بادر راعـي دير بوكسلي Boxley مع رئيس الدير والدير التـابع لكنيسـة كـانتربري، بسرعـة إلى دفنه، من دون الغسل المعتـاد له، لأنه كـان قـد ذبل من طول التقشف، والتف بقميص المُســوح، وتقـدس بالغسيـل بدمـه، وكــان من الممكن مـلاحظة كثير من العلامـات المدهشـة التي تزامنت مع شهادته، وكـان أولاها أنه عـانى في تأكيـد العـدالة وفي الحفاظ على حـريات الكنيسـة، وثانيـا، إن مكان آلامــه لم يكن كنيسـة عـادية، بل كـانت أم الكنائس الانكليـزية، وثالثا كـان الزمن هو أيام عيـد الميلاد، وذلك عندمـا أكمل أولئك الخونة عملهم الخيـاني، ورابعاً، هو لم يكن كـاهنا عاديا، بل كـان مقـدم جميع كهنـة انكلترا وأبوهم، وخـامسـاً، هو لم يتـألم في واحـد من الأمـاكن العادية التـابعـة له، بل في المكان الذي تلقى فيـه السيامـة لأن يكون كاهنا، وحيث جرى صب زيت المسح المقدس.

ندامة الملك وكيف أرسل رسلاً إلى روما لتسويغ فعلته

وكان الملك هنري في أرجنتون Argenton في نورماندي، عندما سمع بأخبـار هذه الفعلة الشنيعـة، وفي البـداية انـزعج بذلك انزعـاجـاً

كبيراً، وغير ثيابة الملكية واستبدلها بمسوح ورماد، ودعا إلى الرب القدير ليكون شاهداً بأن هذه الفعلة قد عملت من دون رغبته أو موافقته، وكل ماهنالك أنه كان مذنباً في أنه لم يحب رئيس الأساقفة كما ينبغي، وحول هذه النقطة أخضع نفسه لحكم الكنيسة، ووعد بأن يلتزم بتواضع بحكمها مهما كان، ولهذا الغرض أرسل رسلاً لتسويغ موقفه أمام الحبر الأعظم، ولتأكيد براءته، لكن البابا رفض استقبالهم، ولم يسمح لهم حتى بتقبيل قدميه، وقد استقبلوا بعد ذلك من قبل الكرادلة، لكن من دون فائدة سوى سماع كلمات رسمية، وفي يوم الخميس قبل الفصح، وعندما كان البابا مرتديا ثيابه للاعلان بشكل عام قرارات التحليل أو الحرمان الكنسي ضد من يستحقون ذلك، جرى اخبار سفراء ملك انكلترا بأن البابا قد قرر، بناء على نصيحة جميع أعضاء المجلس، أن يصدر قرار حرمان من شركة المؤمنين على سيدهم بالاسم، خلال ممالكه كلها، وأن يؤكد القرارات التي كانت قد صدرت على رئيس أساقفة يورك، والأساقفة الانكليز الآخرين، وفي هذا الوضع أخبر الكرادلة البابا بأن رسل الملك قد صدرت إليهم تعليمات في أن يقسموا بأن سيدهم سوف يلتزم بكل قرار يصدر عن البابا والكرادلة في كل مجال، وتبعاً لذلك الاقتراح أدى الرسل اليمين بالموافقة على ذلك، وبذلك أمكن تجنب قرار الحرمان من شركة المؤمنين، وحذا رسل رئيس أساقفة يورك والأساقفة الآخرون حذوهم وفعلو مافعلوه، وبناء عليه قام البابا في ذلك اليوم بحرمان القتلة الأشرار للقديس توماس رئيس أساقفة كانتربري الشهيد، كنسيا، وكل الذين أشاروا عليهم بذلك، أو ساعدوهم أو وافقوا على فعلتهم، وكذلك ضد كل من يستقبلهم في أراضيه، أو يحتفظ بهم، وكان الرجال الأربعة آنذاك في نيربوراKnaresborough، التي كانت قلعة الملك، حيث بقيوا هنالك لمدة سنة.

المعجزات التي بدأت الآن بالظهور تكريماً للشهيد المقدس

بعد وفاة توماس الشهيد المبارك، توقفت كنيسة كانتربري لمدة سنة كاملة عن إقامة الطقوس اللاهوتية، وعملت نحيباً مستمراً عليه، فقد جرى نزع البلاط، وأوقفت النواقيس عن القرع، وجردت الجدران من زينتها، وأقامت الكنيسة كلها مآتم في حزن وخنوع، ورجالها يرتدون المسوح ويضعون الرماد، وفي نهاية السنة، وفي يوم عيد القديس توماس الرسول، اجتمع معاونوا الأساقفة مع بعضهم بناء على استدعاء كنيستهم الأم، كنيسة كانتربري، وجاءوا بناء على توجيه البابا، وذلك من أجل استعادة الكنيسة الملوثة بعد تعليقها الطويل، إلى سالف عهدها، ووقتذاك قام بارثوليوأوف اكستير، بالاحتفال بقداس مهيب، بناء على طلب الرهبان، وألقى موعظة بالناس، بدأها بهذه الكلمات:« بعد حشود من حزني، توبتكم تبهج روحي».

حول الرعود التي سمعت بشكل عام وأعمال التكفير التي عملها الملك من أجل وفاة القديس توماس

عام ١١٧٢م، فيه في ليلة عيد الميلاد، سمعت أصوات رعود، بشكل عام في جميع أرجاء انكلترا وايرلندا، وغاليا، وكانت مفاجئة ومرعبة، تدعو الناس من مختلف الأقطار للقدوم وشهود المعجزات الجديدة للقديس توماس الشهيد، ذلك بما أنه سفك دمه من أجل الكنيسة العالمية، لذلك ينبغي أن تتثبت شهادته في الذاكرة التقوية لجميع الناس، وفي الوقت نفسه، عندما كان الملك هنري في ايرلندا، بدأ هيوج دي سينت مور Maur، ورالف دي في Fay، عم الملكة اليانور— بموافقتها كما قيل— بابعاد الملك الشاب عن أبيه، حيث أكدوا أنه وضع متناقض أن يكون الواحد ملكاً، ومع ذلك لايمتلك أية سلطة على ممالكه، وقام في الوقت نفسه والده الملك، قبل مغادرة ايرلندا، بالدعوة إلى مجمع في ليسمور Lismore ، حيث جرى الترحيب بسرور بقوانين انكلترا

من قبل الجميع، وجرى تأكيدها بالأيمان، ثم وضع الملك جميع المدن، والقلاع التي استولى عليها في ظل حماية أمينة، وبما أن قضايا الأعمال المتنوعة قد تطلبت من الضروري، وجوده في مكان آخر، أقلع في مساء عيد الفصح، ورسا في اليوم التالي في ويلز، وتابع من هناك إلى بروكستر، وعبر إلى نورماندي بريح موائمه، ومن هناك ذهب من دون تأخير لمقابلة سفيري البابا: ألبرت، وثيودواين Theodwine وأقسم أمامهما بعد نقاش صعب يمينا أن موت الشهيد المجيد توماس، لم يكن متماشياً مع رغباته أو بموافقته، أو جرى بوساطة أية مؤامرة من قبله، بل كل مافي الأمر أنه تفوه ببضع كلمات وهو غاضب، أثارت مجموعة من الفرسان ومن حاشيته، الذين انفعلوا كثيراً فأقدموا على إتخاذ موقف ضد رئيس الأساقفة، وانتظروا مناسبة لمقتله، وبذلك وضعوا رجل الرب للموت، وقد طلب الملك التحليل مع أعظم التواضع، وفي سبيل ذلك. وعد— بناء على اقتراح النائبين البابويين— بتقديم مايكفي من المال للانفاق على مائتي فارس لمدة سنة، للدفاع عن الأرض المقدسة، ثم أن يجري السماح للاستئنافات أن تعمل من دون أية عوائق إلى الكرسي المقدس، وأن يلغي العادات التي أخرجت في أيامه والتي هي مضادة لحريات الكنيسة، وأن يعيد إلى كنيسة كانتربري كل ماأخذ منها منذ مغادرة رئيس الأساقفة، وأن يسمح للذين كانوا منفيين، من كلا الجنسين، من أجل الشهيد المبارك، بالعودة إلى الوطن، واستئناف تملكهم لممتلكاتهم، وحول هذه النقاط جميعاً أقسم الملك على الالتزام والتطبيق، وفقاً لأوامر مولانا البابا، من أجل غفران ذنوبه، وأقسم اليمين نفسه الملك الشاب ابن الملك هنري، الذي عبر إثر ذلك مباشرة مع قرينته مرغريت إلى انكلترا، وفي العشرين من الشهر نفسه، قام روتروك Ro-troc رئيس أساقفة روان، يعاونه الأساقفة المساعدون لكانتربري بتتويج مرغريت المتقدم ذكرها ملكة على انكلترا، وفي العام نفسه أعيد غيلبرت أسقف لندن إلى منصبه الأسقفي بعدما أقسم أنه في إطار أحسن مايعرفه

هو لم يحّرض على مـــوت القـــديس تومـــاس الشهيـــد لا بـالكلام، ولا بالأفعال، ولا بالكتابة.

حول زواج جون ابن الملك
وحول الانتخاب إلى كرسي كانتربري

سنة ١١٧٣م، فيها حصل الملك هنري بوساطة الزواج لابنه جون — المعروف باسـم بلا أرض — على الابنة الكبرى لهيوبرت كونـت مورين Maurienne، من خلال زوجتـه أرملة هنري دوق ساكسـوني، مع أنها لم تكن قـد بلغت السابعـة من عمـرها، وانتخب في السنة نفسها أيضـاً، روبرت راعي دير بك رئيساً لأساقفة كانتربري، وجرى ذلك في السابع من آذار، في لامبث Lambeth بحضـور الأسـاقفة المسـاعـدين لتلك المنطقـة، لكن راعي الدير رفض كليـا أن ينتخب، ولاندري أكـان ذلك لضعف، أو لأسباب ودوافع دينية، فهذا مالم نعلمه.

وفي السنة نفسهـا اتبع الملك هنـري الشـاب النصـائح الشريرة، فترك والده، وانسحب إلى بلاط والد زوجتـــه، أي ملك فـرنسـا، وبناء عليـه اختار رتشـارد دوق أكوتين، وغيوفـري كونت بريتـاني أخاهم بدلاً من أبيهم، وكان ذلـك — كما يقال — بناء على نصيحة أمهم الملكـة إليانور، وهكذا تطور الشقاق من على الجانبين وازداد تدهوراً مع السلب وأعمال الحريق، وبذلـك نحن نعتقـد بشكـل صحيح أن الرب أراد أن يعـاقب الملك هنري لسلوكه نحو القديس توماس، فأثار ضده أولاده الذين هم من لحمه ودمـه الذين طاردوه حتى الموت، كما سيظهر التـاريخ المقبل، وصار في السنة نفسها رالف دي وورنفيل Warneville الحافظ لغر فة الآثار المقدسـة في روان، وخازن يورك، مستشـاراً لانكلترا، وفي الوقت نفســه، وافق هنري ملك انكلترا على أن تجري الانتخـابـات للكنائس الشاغرة بشكل حـر، وجاء ذلك بناء على تحريض الكاردينالين ثيودواين

وألبرت، وجرت التعيينات التالية بموافقة قاضي الملك: رتشارد، رئيس شمامسة بواتيه إلى كرسي ونكستر، وغيوفري رئيس شمامسة كانتربري للمنصب نفسه في إيلاي، وغيوفري رئيس شمامسة لنكولن إلى المنصب نفسه في لنكولن، وريانلد رئيس شمامسة سالسبري إلى المنصب نفسه في باث، وروبرت رئيس شمامسة أكسفورد إلى المنصب عينه في هيرفورد، وجون عميد شستر إلى أسقفية الكنيسة نفسها.

انتخاب رتشارد إلى رئاسة أساقفة كانتربري وتطويب القديس توماس

وفي السنة نفسها، في التاسع من تموز، انتخب الأساقفة المساعدون لمنطقة كانتربري مع مقدمي الدير، رتشارد رئيس رهبان دوفر، لرئاسة الأساقفة، وأقسم على الفور الأسقف المنتخب يمين الولاء للملك،« بالحفاظ على نظامه»، ولم تكن هناك اشارة إلى الاعتراف بعادات المملكة، وجرى هذا في وستمنستر، في بيعة القديسة كاترين، وذلك مع موافقة قاضي الملك، وقرىء في المؤتمر أيضاً رسالة البابا، على مسمع من جميع الأساقفة والبارونات، وقد حوت هذه الرسالة إلى جانب أمور أخرى مايلي:« إننا نحث أخوتكم بوساطة سلطاتنا الرسولية، ونأمركم بدقة بالاحتفال في كل سنة بيوم توماس الشهيد المجيد، وهو اليوم الذي تألم فيه، وأن تسعوا بصلواتكم النذرية إليه، للحصول على العفو عن ذنوبكم، ذلك أنه من أجل المسيح تحمل النفي بشجاعة خلال حياته، والشهادة في الموت، علّه يتوسط لدى الرب من أجلنا، من خلال ابتهالات المؤمنين»، وماأن اكتملت قراءة هذه الرسالة، حتى رفع الجميع أصواتهم عالياً، وصرخوا:« الشكر لك يارب»، لأنه فضلاً عن ذلك كان جميع أساقفته المساعدين، لم يظهروا نحوه الاحترام الذي هو جدير به، كأب لهم، عندما كان في المنفى، أو بعد عودته من منفاه، بل قاموا جميعاً بتعذيبه، فاعترفوا الآن بشكل معلن بأخطائهم وذنوبهم، بفم

واحد منهم، ردد مايلي:« كن حاضراً يارب، واستمع إلى ابتهالاتنا، حتى نتمكن نحن الذين نعـرف أنفسنا مذنبين، من التحـرر بوساطة القـديس تومـاس، الشهيـد والكاهن الأعلى»، وفي السنـة نفسهـا، عملت مـريم، أخت الشهيد المقدس نفسـه، راعية لدير باركنغ Barking، وجاء ذلك بناء على أمر من الملك، وكذلك ألقى هنري، الملك الصغير، الحصار على قلعة غـورناي Gornai ، وأسر هناك هيـوج صاحب القلعـة ، وابنه مع أربعـة وعشرين فارسـاً، وقـام بإحراق القلعـة، وأرغم سكان البلدة على دفع غرامـة، وفي السنة نفسها تخلى أيضـاً روبرت ايرل أوف ليستر، ووليم دي تـانكرفيـل Tankerville ، مـع كثير من الكـونتـات والبارونات، عن الملك هنري، والتحقوا بالملك الشاب.

ملك فرنسا يغزو نورماندي مع جيش

وحشد في السنة نفسها لويس ملك فرنسا، جيشاً كبير العدد، للاغارة على نورماندي وتشعيثهـا، ودخل إلى تلك المقاطعـة، وألقى الحصار على ألبمارل Albemarle ، وأرغـم وليم صـاحبهـا، مع الكونت سيمـون مع عدد آخر من النبلاء، على الاستسلام، ثم استولى بعد ذلك على قلعة درينكورت Driencourt ، ووضع حـامية فيهـا، وزحف من هناك إلى قلعة آرش Arches وفقد على طريقـه كونت أوف بولون، وبناء عليـه حزن كـونت أوف فـلاندرز على أخيـه، وعـاد إلى منطقته، وكـان هنري الملك القديم طوال ذلـك الوقت في روان، كما يبدو غير مهتم بما كان يجري، لابـل أكثر من ذلك عـزم على الصيد، وقد أبدى نحـو جميع الذين جاءوا إليـه السرور وملامح ضاحكة، لكن الذين كـان قد جمعهم من حـوله منذ سنواته الأولى، بدأوا ينفضون من حوله، لأنهم اعتقـدوا أن ابنه قـد امتلك كل الظروف المسـاعـدة ليكون فـوراً ملكاً في مكانه، وكـان ملـك فـرنسـا الآن، مـع الملك الصغير، يحاصران فيرنويل Ver-neuil عندمـا أرسل الملك هنري رسـلاً إلى الملك الفـرنسي، ينذره بأن

يغـادر نورمـاندي من دون تأخير، أو أنه سـوف يزحف ضـده في ذلك اليـوم بالذات، وكـان ملك فرنسـا، يعـرف بأن ملك انكلترا أميراً قـوياً جـداً، وحـاد الطبع، لذلـك اختـار الانسحـاب وآثر ذلك على القتـال، ولذلك تراجع من أمام وجه الملك هنري، وعاد بكل سرعة إلى فرنسا.

تدمير ليستر

وفي السنة نفسهـا، جـرى في الرابع من تموز، حصـار مـدينة ليستر، وذلك— كما قيل— بناء على أوامر الملك، لأن الايرل صـاحبها قد تخلى عن الملك، والتحق بـابنه الملك الشـاب، وعندمـا جـرى احـراق الجزء الأكبر من المدينة، بدأ سكانها يبحثـون مسألة السـلام وتم الاتفـاق على شرط أن يدفعوا ثلاثة آلاف مارك إلى الملك، مع منحهم الإذن بالانتقال إلى أي مكان يختارونه، وبناء عليـه أعطي لهم الإذن بالذهاب والسكنى في أي من مـدن الملك وقـلاعه يختـارون، وبعـد مغادرتهم، جـرى هدم أبواب المدينة مع جزء من الأسـوار، وأعطيت هدنة إلى الجنود الذين في القلعة حتى عيـد القديس ميكائيل، وبناء عليه انتهى الحصـار في الثامن والعشرين من تموز، وبعـد هذا ادعى وليـم ملك اسكوتلندا ملكيـة مقاطعـة نورثأمبتون، التي كانت قـد منحت إلى جده الملك داوود،الذي تملكهـا لبعض الوقت، لكن الملك الانكليـزي رفض منحـه إياها، وبناء على ذلك حشـد وليم جيشـاً من الويلزيين والاسكـوتلنديين، وزحف بصورة انسان واثق خلال أراضي أسقف درم، وأحرق عدداً من القرى، وقتل كل من الرجال، والنساء والأطفال، وحمل معه منهوبات لاتحصى، وفي سبيل صـد الغزاة احتشد النبـلاء الانكليز مع بعضهـم، وأرغموا وليم على التراجع، ولاحقـوه حتى لوثيـان Lothian ، ودمـروا تلك المنطقـة بالنار والسيف، وقـد نهبـوا كل مـاوجـدوه في الحقـول، وأخيراً عملوا هدنة، بناء على مبادرة من الملك الاسكوتلندي حتى عيد هيلاري Hilary، وعادوا منتصرين إلى انكلترا.

كيف جرى أسر ايرل ليستر وكونت فلاندرز وسجنهما

وعندما سمع روبرت ايرل ليستر بالذي حدث لمدينته، امتلأ بالأسى، وعبر من خلال فلاندرز مع زوجته وهو على طريقه إلى انكلترا، وحشد هناك عدداً كبيراً من النورمان والفلمنكيين من الفرسان والرجالة، وأبحر ونزل في والتون في سفولك Suffolk في التاسع والعشرين من ايلول، وقام على الفور بإلقاء الحصار على القلعة، لكن من دون نجاح، وزحف من هناك في الثالث عشر من تشرين الأول، وهاجم قلعة هيجنت Hagenet ، وأحرقها، وأسر هناك ثلاثين فارساً، وأرغمهم على دفع الفدية، ثم إنه عاد إلى فيرمنغهام Fermingham، لكنه أثناء اقامته أعطى الحكم إلى هيوج بيغود Bigod صاحب القلعة، وحوّل تفكيره واهتمامه نحو ليستر، وزحف في ذلك الاتجاه، وحاول وهو على طريقه أن يفاجىء إدموندبري Edmunbury، لكنه منع من قبل جيش الملك الذي كان معسكراً هناك لحماية تلك القطعة من البلاد، وبناء عليه جرى تطويق الايرل بقوات ضخمة، وكان مع الإيرل ثلاثة آلاف فلمنكيين، فيهم وضع ثقة خاصة، ولذلك قرر المغامرة بالقتال، وبناء عليه بدأ الاشتباك، وبعد تقلبات عديدة، وقع الايرل، والكونتسة، مع جميع الفلمنكيين، والنورمان، والفرنسيين، بالأسر، وقد حدث هذا في السادس عشر من تشرين الأول، وكان بيد الكونتسه خاتم جميل، فطوحت به في النهر القريب، مؤثرة ذلك على السماح للعدو بالحصول على مثل هذا الربح، بحكم وقوعها بالأسر، وأخيراً جرى قتل الجزء الأكبر من الفلمنكيين، أما الباقين فقد أغرقوا، ولكن الآخرين اتخذوا أسرى.

كيف أخذ الملك كثيراً من أعدائه أسرى

وعندما كان الملك هنري الأب متوقفاً في نورماندي، جرى اعلامه بأن عساكره مع رجال برابانت Brabantوقطاع الطرق، قد

فاجأوا العساكر الفوضوية لابنه، وحصروهم في مدينة دول Dole ، وفور تلقيه هذا الخبر، ركب حصانا، ووصل في الصباح التالي إلى المعسكر، وبعد عدة أيام من المقاومة تسلم المستسلمين، لكن قبل وصوله كان الجزء الأكبر منهم قد قتل من قبل قطاع الطرق، وكان بين الأسرى رالف ايرل شستر، الذي كان قبل وقت قصير فقط قد هجره والتحق بابنه، ووليم فورليغري Fulgeriis، ووليم باتريك، ورالف دي لى هي Haie ، وهاسكلف Hasculph دي سينت هيلاري، وذلك إلى جانب ثمانين فارساً، وزحف في السنة نفسها النبلاء الانكليز بصحبة جيش كبير، لقمع عجرفة بيغود، لكن عندما كانت الأوضاع بحال اعتقد فيها الجميع أنه سوف يهلك، توسط الوسطاء بينهم، وجرى عقد هدنة حتى أحد العنصرة، وبناء عليه رافقه أربعة عشر ألفاً من الفلمنكيين سالماً خلال اسكس وكنت، وجُهز في دوفر بسفن لعبور القنال، وفي السنة نفسها ذهب إلى روما رئيس أساقفة كانتربري المنتخب، ويرافقه أسقف باث.

الاستيلاء على قلعة إكسهولم وأسر كتلة كبيرة من الرجال

عام ١١٧٤م، فيه أعلن روجر دي ماوبري Mowbray عن تخليه عن الولاء للملك القديم، ورمم القلعة المهدمة في جزيرة إكسهولم، غير أن عدداً كبيراً من رجال لنكولنشاير عبروا إلى هناك بالقوارب، وألقوا الحصار على القلعة، وأرغموا شحنتها مع جميع الفرسان على الاستسلام، ثم إنهم أعادوا هدم القلعة وحولوها إلى خرائب، وفي اليوم الأخير من شهر نيسان، سمع الملك القديم بأن ابنه رتشارد قد استولى على قلعة سانتونغ Santonge ، فزحف ضده لاستردادها مع رجال بواتو، وأظهر فرسان رتشارد عدم احترام لكل من الرب والكنيسة، فدخلوا إلى الكاتدرائية، وحولوها إلى قلعة، وشحنوها بالرجال المسلحين والمؤن، وسمع الملك بأن الأعداء يحتلون ثلاثة مواقع حصينة،

فاستعد للهجوم عليهم، وعلى الفور جرى الاستيلاء على موقعين، ثم إنه اقترب من الكاتدرائية التي كانت مشحونة بالعساكر، وبأناس غير منضبطين، ولم يرغب بالهجوم عليها، بل أراد تنظيفها من المنتهكين لحرمتها، وكان تعداد مجموع الذين جرى أسرهم، وكانوا في الكنيسة أو في مكان آخر، ستين فارساً وأربعمائة من أصحاب القسي الزيارة، وبهذه الوسيلة عاد الهدوء إلى هذه المنطقة، وهنا وجد هنري نفسه مرغماً على العودة إلى نورماندي، لأن فيليب كونت أوف فلاندرز، كان قد أقسم على الانجيل المقدس، بحضور لويس ملك فرنسا مع نبلاء ذلك الملك، بأنه سيقوم بعد خمسة عشر يوماً من حلول عيد القديس يوحنا المعمدان بغزو انكلترا بالقوات، واخضاعها ووضعها تحت حكم الملك الشاب، وتحمس الملك الشاب لدى سماعه لهذه الأخبار، فوصل إلى وتساند Witsand ، في الرابع عشر من تموز، مع نية إرسال رالف دي لى هي مع جيش إلى انكلترا، وأرسل ايرل فلاندرز مقدما ثلاثمائة وثمانية عشر فارساً محنكاً لنقلهم إلى انكلترا أيضاً، ومالبث هؤلاء أن نزلوا في آرويل Arwell(قرب هيرويك Harwick) ، وكان ذلك في الثامن والعشرين من حزيران، واستولى هناك على غنائم كثيرة، إلى جانب إرغامهم كثيراً من الأسرى الذين اعتقلوهم على دفع مبلغ كبير من المال فدية لأنفسهم، وعندما رأى رجال العدالة الملكية هذا، اتفقوا بالاجماع على ارسال رتشارد، الأسقف المنتخب لونكستر لإخبار الملك بالمخاطر التي تهدد انكلترا، وعبر الأسقف من دون تأخر إلى نورماندي ووضع أمام الملك تقريراً صادقاً حول كل ماكان يجري في انكلترا.

كيف عاد الملك إلى انكلترا وقيامه بزيارة لضريح القديس توماس للصلاة هناك

واستقبل الملك الأسقف، بالاحترام اللائق، واستعد على الفور للعبور إلى انكلترا، وأخذ معه الملكة إليانور، والملكة مرغريت، وابنه

جـون، وابنتـه جـوانا، وأرسل أمـامـه ايرل ليستر مـع كـونتسـة ليستر والأسرى السجناء الآخرين إلى باربفلوف Barbefleuve، حيث ذهب على ظهـر سفينة مـع جيش كبير، لكن الريح لم تكن مـواتيـة، وخـاف البحارة من المغـامرة في ذلك اليوم، وأدرك الملك أن البحر كـان هائجاً، فرفع عينيه نحو السماء، وتفوه بالكلمات التالية بحضور جميع قومه:« إذا كانت نواياي موجهة للحفاظ على السلام لكل من كهنتي وشعبي، وإذا كـان ملك السماء قـد قضى بإعـادة الهدوء إلى مملكتي عندمـا أصل إلى هناك، ليمنحني وقتهـا الوصـول إلى الشـاطىء بأمـان، ولكن إذا كـان غضبه قـد ثار، وقضى بأن أزور مملكة انكلترا بعصـا غضبـه، أتمنى أن لايسمح لي بالوصـول إلى شـواطىء تلـك البـلاد»، وعندمـا أكمل هذه الصـلاة، أقلع في ذلك اليـوم نفسـه، وبعـد عبـور طيب وصل إلى ثاوثأمبتون بسلام، ثم إنه صـام على الخبز والماء، ولم يدخل إلى أي مدينة حتى وفى بعهد كان قـد قطعه على نفسه بفكره، في أن يصلي عند ضريح القـديس تومـاس، رئيس أساقفـة كـانتربري والشهيـد المجيد، وعندمـا وصل إلى مقربة كانتربري، ترجل عن ظهـر حصانه، ووضع جانباً جميع الشعارات الملكيـة، وسار حافي القـدمين، وعلى شكل حاج نادم مبتهل، ووصل إلى الكاتدرائيـة في يوم الجمعة الثـالث عشر من حـزيران، ومثل حزقيـا توجه نحو ضريح الشهيـد المجيد مع الدمـوع والتنهدات، وتمدد سـاجـداً على الأرض مع يديه ممدودتان إلى السماء، وتابع تـأدية صـلاة طويلة، وفي الوقت نفسـه قام أسقف لندن بالاعـلان أمام الناس— بناء على أمـر من الملك— في مـوعظة وجههـا إلى الشعب، بأنه لم يأمـر، ولم يرغب، ولم يتآمر بأي شكل مـن الأشكال من أجل موت الشهيد، الذي اقترف نتيجـة لسـوء فهم من القتلة لكلمات تفـوه بها الملـك متسرعـاً، ولذلك طلب التحليل مـن الأسـاقفـة الذين كـانـوا حـاضرين، وجـرد ظهره، فتلقى من ثلاث إلى خمس جلـدات، من الأعداد الكبيرة من كتلة اللاهوتيين الذين تجمعـوا هناك، ثم قـام الملك بإعـادة ارتداء مـلابسـه،

وعمل تقـدمة ثمينة مكلفـة إلى الشهيـد، وعين مبلغ أربعين باوند سنويا من أجل الشمـوع لإحراقها حـول ضريحه، وأمضى بقية اليـوم والليلة التـاليـة في حـزن وآلام في النفس، ولمدة ثلاثة أيام لم يعـط الملك نفسـه راحة، بل أسلم نفسه للسهر، والصلاة والصـوم، وبهذه الوسائط أمكن تأمين حظوة الشهيد المبارك ورضـاه، وفي ذلك اليوم بالذات الذي صلى به حتى يرى عـلامـة الغفـران، ألقى الـرب بين يديه وليـم ملك الاسكوتلنديين، الذي وضع قيد الاعتقـال في قلعة رتشموند، وفي ذلك اليوم نفسه حدث أيضاً أن الاسطول الذي جمعه الشـاب من أجل غزو انكلترا تشتت بسبب الأنواء وكـاد أن يضيع، ودُفع الملك الشاب عـائداً إلى ساحل فرنسا.

أسر وليم ملك اسكوتلندا

والطريقة التي أصبح بها الملك الاسكوتلدني أسيراً، كانت باختصـار كمايلي: فقـد غزا نورثأمبرلاند كما فعل في السنـة المتقدمـة، بقصد دمجها بممتلكاته، لكن نبـلاء تلك المنطقة، تصـدوا له بالسلاح، وبعـد نشوب معـركـة أخـذوه أسيراً، وجـرى مقتل عـدد كبير من أولئك الأشرار الاسكوتلنديين، وكـانوا لايعـدون ولايحصـون، ووُضـع الملك رهن الاعتقـال في قلعـة رتشمـوند، وبذلـك تحققت نبـوءة ميرلين في قـوله:«سوف يـوضع لجام على فـكيه مصـنوع من قلـب أرمـوريكا Armorica »، يعني قلعـة رتشمـوند، التي كـانـت في تلك الآونة مملوكة من قبل أمراء أرموريكان، وكانت كذلك منذ العصور القديمة.

ولكي نقدم تقويماً صحيحاً للمنافع التي نتجت للملك من توبته عند ضريح الشهيد، والوساطة التي عملهـا الشهيد من أجله، علينا أن نفعل ذلك في نهاية تاريخنـا، وعندمـا فـرغ الملك من صلـواته ذهب إلى لندن، حيث استقبل باحترام من قبل الشعب، ومن هناك ذهب إلى هنتنغـدون حيث حاصر القلعة واستولى عليهـا في التاسع عشر من تموز، وقدم إليه

هناك فـرسـان ايـرل ليستر، وسلمـوا إليـه قلعتي غـروبي Grobi، وماونتسورل Mountsorel ، من أجل أن يظهر تقـديراً أعظم نحو سيـدهم، وفي الثـاني عشر من تموز، استولى النبـلاء الشماليـون، مع الأسقـف المنتخب للنكـولـن، وابن الملـك على رأسهـم، على قلعـة ميلسارت، Malessart، التي كانت قلعة روجر دي ماوبري، وأخذت العسـاكـر الآن تتقـاطر من كل جـانب، ولذلك قـرر هنري أن يحاصر قلعتي هيـوج بيغـود: بنغي Bungay، وفـرامنغهـام Framingham، وشعـر الايرل أن لاأمل لديه بالمقـاومـة النـاجحـة، لذلك قـدم رهائن، ودفع ألف مـارك، وبذلك ضمن السـلام، وكـان ذلك في الخامس والعشرين مـن تموز، ووقتهـا جـرى السماح لجيـش الفلمنكيين، وهو الجيش الذي بعث به من قبل الكونت فيليب، بالعودة لكن بعدما أرغم أفـراده أولاً على أداء يمين أنهم لن يغـزو إنكلترا ثانية، وأيضـاً غـادرت انكلترا عساكر الملك الشـاب، وهي التي كان يقودها رالف دي لى هي، من دون معيقات، فضـلاً عن هذا أرسل روبرت ايرل أوف فيرار -Fer rars، وروجر دي ماوبري Mowbray، اللذان كانت قلعتاهما: ثيرسك Thirsk وستوتبري Stutbury، آنذاك محاصرتين من قبل الملك، أرسلا مندوبين يسألان السـلام، والتقى وليم ايرل أوف غلوستر، ورتشـارد ايرل أوف كلير، الملك، ووعـداه الالتـزام بطاعة أوامـره، وهكذا وجـد الملك نفسـه وقد قهر جميع أعدائـه، واسترد السلام إلى انكلترا، عبر إلى نورمـانـدي في السـابع من تموز(كـذا)، ومعـه أسراه: ملك اسكوتلندا، وإيرل ليستر، وهيوج دي كاستيلو Castello .

كيف تخلى ملك فرنسا عن حصار روان

وعندمـا نزل الملك هنري في نورمـادي، في الحادي عشر من تموز، وجـد مـدينـة روان محاصرة، لأن لويس ملك فـرنسـا، وهنري الملك الشاب، وكونت فـلاندرز، كانوا قد حشدوا قـوة كبيرة في غياب الملك،

وضغطوا بشـدة على السكان، لكن عندمـا سمع ملك فـرنسـا بوصـول ملك انكلترا، تراجع، لكن ليس من دون الإسـاءة إلى سمعته، واسـتولى الجند الانكليز على كميات واسعة من أسلحته وعتاد الحرب.

وعاد في السنة نفسهـا رئيس أساقفـة كانتربري من رومـا، وقد جلب معه الطيلسان ورئاسـة انكلترا، فقد وصل إلى لندن في الثلاثين من آب، فـاستـدعى رجـال الدين الـرئيسيين العـائـدين إلى الكنائس الشـاغـرة، وكذلك الذين انتخبوا أسـاقفة مؤخراً وجديداً، وثبت وكـرّس الأساقفة المنتخبين لوينكستر، وإيلاي، وهيرفورد، وشستر، أمـا غيوفري الأسقف المنتخب للنكولن، والذي لم يكن قـد تثبت بعد، فقد عبر البحـر، وبنيته ارسال رسل إلى روما، أو الذهاب إلى هناك شخصياً.

كيف صنع جميع أبناء الملك سلاما مع أبيهم

سنة ١١٧٥م، فيهـا بدأ لويس ملك فرنسـا، وكونت أوف فـلاندرز، يشعـران بالنفقات الكبيرة التي تحمـلاها في سبيل مساندة الملك الشـاب لانكلترا، وتفكرا بالخسـائـر بالأرواح والأمـلاك التي ألمت بشعبيهما، فـوعدا بالتمنع عن غـزو نورمـاندي، وبذلا جهديهما لمصـالحة الملك مع أولاده، الذين عـرفوا جيـداً، بأنهم جنوا غضب أبيهم، وكـراهية رجـال الدين، ولعنة الناس جميعـاً، وبناء عليـه علم الملك من خـلال تقـارير الرسل، بأن جميع خصـومه قد أصبحـوا نادمين، فاستعـد لاستقبالهم في مان Mans ، حيث قدم في البداية ولداه: غيروفري ورتشارد الولاء إليه، وأقسما يمين التابعية، وبعد عدة أيام، مثل أمام الملك القديم، الملك الشـاب، مع رئيس أسـاقفـة روان وعـدد كبير آخـر من الأسـاقفـة والبارونات، في بوري Bure في نورماندي، وقد ألقى بنفسه على قدمي أبيه، وطلب رحمته، وأثير الملك والده بالعاطفـة نحو ابنه، لأنه كان يحبه بشكل كبير، ولأنه أدرك اخلاصه، توقف عن غضبه عليه، وتلقى ولاءه مع يمين التـابعيـة، وعندمـا اكتمل عمل السـلام، وتأكـد تمامـا بالقبلة،

أطلق سراح تسعمائة وستة وتسعين فارساً من دون فدية، وكان قد أسر هؤلاء خلال الحرب، لكن قلة، كانت أعمالهم الشريرة جداً قد دفعته إلى الغضب، على الرغم من ميوله الرحيمه، أبقاهم بالاعتقال، وأيضاً، أطلق الملك الشاب جميع الفرسان الذين أسرهم في الحرب، من دون فدية، وقد تجاوز عددهم المائة الواحدة، ثم أرسل والده الملك رسائل إلى جميع المناطق في ممالكه لإخبارهم عن المصالحة التي تمت، حتى يمكهنم وهم الذين عانوا بشكل عام من الحرب وتألموا، أن يبتهجوا في إعادة إقامة السلام، وأوضحت الرسائل أن جميع القلاع التي حصنت ضده أثناء الحرب،، ينبغي أن تعود إلى وضعها الذي كانت عليه قبل بداية الأعمال العدوانية.

إقامة وليم ملك اسكوتلندا سلاماً مع الملك هنري

وأقام في السنة نفسها وليم ملك اسكوتلندا، الذي كان سجينا في فالي، سلاماً مع الملك هنري ملك انكلترا، وكان ذلك في الثامن من كانون الأول، وفق الشروط التالية: أعلن ملك اسكوتلندا عن نفسه تابعاً لملك انكلترا، وقدم ذلك عن مملكة اسكوتلندا وعن جميع ممتلكاته، وقدم الطاعه له والولاء على أساس أنه مولاه الخاص، وكذلك إلى هنري ابن الملك، ماحتفظ باخلاصه إلى ابيه، وبالطريقة نفسها فعل الأساقفة، مع الايرلات، والبارونات العائدين إلى اسكوتلندا، الذين رغب الملك في أن يتلقى منهم الطاعة والولاء، ليس فقط عن أنفسهم بل أيضاً عن خلفائهم، وليس له فقط بل إلى خلفائه إلى الأبد، من دون أية تحفظات من أي نوع، فضلاً عن هذا وعد ملك اسكوتلندا مع رجاله بعدم منح ملجأ في أي جزء من ممالكهم لأي لاجىء قادم من انكلترا، بل يتولون اعتقال كل من يأتيهم ويسلمونهم إلى ملك انكلترا وإلى قضاته، وكضمانة على الالتزام بهذه المعاهدة أعطى ملك اسكوتلندا إلى الملك هنري وإلى خلفائه قلعتي بيرويك، وبكسبورغ Boxburg إلى

الأبد، وإذا ماحاول ملك اسكوتلندا خرق هذه المعاهدة، تعهد أساقفة اسكوتلندا وايرلاتها وباروناتها بمعارضته والوقوف ضده، وأن يقوم الأساقفة بوضع مملكته تحت الحرمان من شركة المؤمنين حتى يعود إلى تأدية واجبه نحو ملك انكلترا، وهكذا أعطى الملك وليم رهائن، وعاد إلى انكلترا متحرراً من السجن، حتى يجري تسليم القلاع وفقاً لصفقته مع الملك، وبالنسبة للحصون الكثيرة التي أقيمت في أرجاء انكلترا ونورماندي أثناء الانقسامات بين الأب والابن، فقد جرى الآن هدمها بموجب أمر الملك.

كيف قام الملكان الأب والابن بزيارة ضريح القديس توماس

سنة ١١٧٦م، فيها، أكل ملكا انكلترا، الأب والابن، بعد عودتهما إلى انلكترا، على المائدة نفسها في كل يوم، وناما كل ليلة في غرفة النوم نفسها، وقاما أيضاً معا بزيارة الشهيد المبارك، القديس توماس، لتقديم صلواتهما وعهودهما عند ضريحه، وتجولا بعد ذلك في جميع أرجاء انكلترا، واعدين بالعدالة لكل انسان، من رجال الدين ومن العلمانيين، وقد قاما بعد ذلك بتنفيذ كامل الوعود، وفي السنة نفسها، حشد وليم دي بروز Brause بشكل تآمري جمعاً من الويلزيين في قلعة أبير جافني Abergavenny، ومنعوا المسافرين من حمل السكاكين والقسي، وعندما عارضوا هذا الأمر، أمر بهم فعوقبوا بالاعدام، ومن هذا يمكنك أن تفهم كيف أنه اقترف خيانته تحت رداء العدالة، وأقدم على فعلته هذه للانتقام لعمه(خاله) هنري أوف هيرفورد، الذي كانوا قد قتلوه في يوم سبت عيد الفصح المتقدم.

وعين في السنة نفسها رتشارد رئيس أساقفة كانتربري ثلاثة رؤساء شمامسة في أسقفيته هم: سفاري Savary ، ونيقولا، وهيربرت، وجرى في السنة نفسها تكريس جون عميد سالسبري أسقفاً لنورويك، وليس بعد أمد طويل هدم الملك هنري ملك انكلترا

تماماً قلاع: ليستر، وهنتغدون، وولتون، وغوربي، وستوتبري، وهي، وثيرسك، إلى جانب قلاع أخرى كثيرة، وذلك مقابل الأضرار والأذى التي غالبا ماألحقها أصحاب هذه القلاع به، ثم إنه قام بناء على نصيحة ابنه والأساقفة بتعيين قضاة في ستة أقاليم من مملكته، ووضع في كل جزء ثلاثة، أقسموا بأنهم سوف يعطون عدالة كاملة لكل انسان.

كيف منح الملك أربعة بنود إلى بطرس مندوب الكرسي الروماني

ووصل في هذه الآونة بترو– ليونيز، النائب البابوي، إلى انكلترا، ووافق الملك على منحه أربعة بنود هي التالية، ووعده بمراعاتها في مملكة انكلترا، وكان أولها، أنه لن يجري في المستقبل سحب أي رجل دين ليمثل شخصياً أمام قاضي مدني، من أجل أي جريمة أو عدوان، باستثناء قضية الغابة أو الأجور الاقطاعية، سواء أكانت أجوراً مستحقة للملك أو لأي اقطاعي آخر، وكان ثانيها، أنه لايجوز اعتقال رؤساء أساقفة، أو أساقفة، أو رعاة ديرة في أيدي الملك لمدة تتجاوز السنة، باستثناء إذا كان ذلك لسبب واضح، أو لضرورة ملحة، وكان ثالثها، وجوب معاقبة رجال الدين، الذين أدينوا، أو اعترفوا، أمام قضاة الملك، بحضور الأسقف، وكان رابعها، وجوب عدم إرغام رجال الدين على الخدمة في الحرب، وفي السنة نفسها، كانت جوانا، ابنةالملك، التي أعطيت زوجة إلى ملك صقلية، في التاسع من تشرين الثاني في سانت جايل، ومن ثم جرى حملها إلى زوجها، وذلك برعاية جماعة من الرجال اللامعين، الذين شهدوا على ذلك، وفي السنة نفسها وضعت جميع قلاع انكلترا في الحفظ بناء على أوامر الملك، وقام كذلك وليم إيرل غلوستر، الذي لم يكن لديه ولد يرثه، والذي لم يرغب بتقسيم ميراثه ين ابنتيه، بتعيين جون ابن الملك الذي بلا أرض، وريثاً له.

كيف أخضع الملوك الأجانب خلافاتهم إلى قرار ملك انكلترا

وفي هذه الآونة نشب خلاف بين ألفونسو ملك قشتالة، وزوج ابنة ملك انكلترا، وبين عمه سانشو ملك نافار، فأرسلا سفراء إلى ملك انكلترا، ووعدا بالالتزام بقراره، وعندما مثل السفراء أمام الملك في وستمنستر، وأمام الأساقفة، والايرلات، والبارونات، قد عرضوا أولاً موقف ألفونسو، من أنه عندما كان مايزال صغيراً ويتيماً، انتزع منه سانشو ملك نافار، بشكل ظالم وبعنف قلاع وأراضي: لوغتيوم Log-toium، ونفارات Navarret، وأنثيلينا Anthlena، وأبتول Aptol، وأغوسن Agosenمع متعلقاتهم، مع أنهم كانوا ملكاً لوالد ألفونسو قبل أن يموت، ومن ثم آلوا إلى ألفونسو نفسه منذ سنوات تملكه، ولهذا السبب طالب بإعادتهم إلى صاحبهم، ولم ينكر سفراء سانشو هذه الحقائق، لكنهم أكدوا بأن ألفونسو قد استولى بالقوة على قلعتي ليجين Legin، وبورتيل Portel، وبأنهما بيد غودين Godin، وبما أن رجال الفئة الثانية لم تعارض ذلك، فإنهم طالبوا بالمساواة ومن ثم إعادتهم إلى صاحبها، وقد أعلنوا أيضا عن إقامة هدنة بين الفريقين لمدة سبع سنوات، وأنها تأكدت باليمين، وبعدما تشاور ملك انكلترا مع أساقفته وإيرلاته، وباروناته حول موضوع هذا الخلاف، بدا أن مامن واحد من الفريقين أنكر استخدام العنف على الطرفين، وظهر أنه لايوجد سبب يحول دون اعادة متبادلة، ولذلك قرر الملك وجوب أن يعيد كل فريق الذي استولى عليه، وأن يراعيا الهدنة ويلتزما بها طوال المدة، ومن أجل خاطر السلام، ينبغي أن يدفع ألفونسو إلى سانشو، لمدة عشر سنوات، مبلغ ثلاثة آلاف[دينار] مرابطي، وأنه بناء على هذه الشروط ينبغي أن يكون هناك سلام نهائي بين الاثنين.

واجتمع في تلك الأيام سفراء من عند مانويل امبراطور القسطنطينية، ومن لدن فريدريك الامبراطور الروماني، ومن عند وليم رئيس أساقفة

تريف Treves، ومن عند هنري دوق ساكسوني، ومن عند فيليب كونت فلاندرز، وانشغل كل واحد منهم بعمله المنفصل، والتقوا بالملك في البلاط في وستنمنستر، وكأنهم على اتفاق، وكان ذلك في الثاني عشر من تشرين الثاني، ولقد أتينا على ذكر هذه الحقيقة كبرهان على المكانة والتقدير الذي نظر به العالم أجمع إلى أبهة وعظمة الملك، حيث اندفع كل واحد بالطلب إليه النصيحة وفض خلافاتهم.

نقل الرهبان المدنيين من كنيسة وولتهام

سنة ١١٧٧م، فيها جرى نقل الرهبان الذين يسمون بالمدنيين من كنيسة وولتهام Waltham ، وأحل محلهم رهبان نظاميون، بموجب سلطات الحبر الأعظم، وكان ذلك عشية أحد العنصرة، وجاء ذلك بناء على أوامر الملك، الذي كان حاضراً لتلك المناسبة، وفي اليوم نفسه تسلم رالف قانوني أوف شستر حكم تلك الكنيسة نفسها، من يدي أسقف لندن، الذي إليه عادت الأسقفية، وقد ربط نفسه بعبارات تفوه بها بأن يلتزم بالطاعة الرهبانية، ودخل بعد ذلك إلى الكنيسة بصحبة الراهب، الذي عينه الأسقف ليكون رئيساً للرهبان، وجلس على عرشه بشكل مهيب.

وبعدما أنهى ملك انكلترا مشاكل مملكته وأرسى قواعدها حسب رغباته، عبر إلى نورماندي في الثامن عشر من آب، وعقد مؤتمراً مع ملك فرنسا، إثره أبرمت المعاهدة التالية:« أنالويس ملك فرنسا، وأنا هنري ملك انكلترا، نعلم هنا جميع الناس، بأننا بإلهام من الرب، قد وعدنا وأكدنا باليمين، في أن ندخل في خدمة مخلصنا المصلوب، وأن نأخذ الصليب، وأن نذهب إلى القدس، ورغبتنا أن نكون صديقين، وأن يحافظ كل واحد منا على حياة وعلى أعضاء، وعلى الشرف الدنيوي للآخر، ضد جميع الناس، وإذا ماحاول أي واحد إيذاء أي واحد منا، أنا هنري سوف أساعد لويس ملك فرنسا، بحكم أنه مولاي، ضد جميع

الناس، وأنا لويس سوف أساعد هنري ملك انكلترا، بحكم كونه رجلي المخلص، ضد جميع الناس، محافظين على الاخلاص الذي ندين به لرجالنا، ماداموا متابعين الاخلاص لنا»، ووقع هذا في مينانكورت Mi-nancourt، في الخامس والعشرين من أيلول.

تأسيس دير وستوود

سنة ١١٧٨م، فيها، قام رتشارد دي لوسي، مسؤول العدالة في انكلترا، في الحادي عشر من حزيران بإرساء قواعد كنيسة ديرية على شرف القديس توماس الشهيد في مكان كان اسمه وستوود West-wood، في منطقة روكستر، وأيضا بعدما أمّن الملك هنري جميع الحصون في ممالكه كلها من البيرينيز إلى المحيط البريطاني، وبعدما فض كل شيء وفقاً لرغباته قام في الثالث عشر من حزيران بزيارة ضريح القديس توماس الشهيد، وبعد ذلك بوقت قصير عمل في السادس من آب، في وودستوك ابنه غيروفري فارساً بحزام.

حول الرؤيا التي عملت إلى أحد النساك فيما يتعلق بالقديس أمفيبالوس

كان في السنة نفسها رجلاً عادياً، يعيش في بلدته الخاصة، سينت ألبان، وقد تمتع بأخلاق كانت متحررة من النقد بين أهل بلدته، فقد عاش منذ صغره حتى الوقت الحالي باستقامة، وذلك بقدر ماسمحت له مقدرته وحظه بذلك، وكان مداوماً تقياً على الكنيسة، وبينما كان هذا الرجل متمدداً في فراشه في إحدى الليالي، في حوالي وقت نداء الديك، دخل رجل طويل جلالي الطلعة إلى حجرته، وهو متدثر بالبياض، وكان ممسكا بيده صولجاناً جميلاً، وأشرق البيت كله وأشع لدى دخوله، وأضاءت الحجرة وكأنها في وضح النهار، واقترب من فراشه وسأله بصوت لطيف:« روبرت هل أنت نائم؟»، وأجاب روبرت وهو يرتجف

خوفاً ودهشة:« من أنتم ياسيدي»؟ فقال له:« أنا الشهيد القديس ألبان، وقــد جئت لأخبرك بإرادة الرب فيها يتعلـق بمــولاي الكاهـن الذي علمني الايهان بالمسيح، الذي وإن كـانت شهـرته عظيمـة جـداً بين بني البشر، فإن مكان ضريحه مازال غير معروفاً، مع أن المعتقد بين المؤمنين بأنه سـوف يظهـر في العصور المقبلة، وبناء عليـه انهض، والبس ثيـابك واتبعني فأنا سأريك البقعة المدفون فيها بقاياه الثمينة»، وبناء عليه نهض روبرت من فراشه— كما بدا— ولحقه، وذهبا معا خلال الشوارع العامة نحـو الشمال، حتى وصـلا إلى سهل، قد ترك منـذ أجيال غير مـزروع، وذلك على مقـربة من الطريق العام، وكـان السطح مستـويا، فيه مـرعى جيـد للمواشي، ومكان استراحـة للمسافـرين، وذلك عند قرية اسمهـا ردبورن Redburn، على بعد نحـو ثلاثة أميال من سينت ألبـان، وكان في هذا السهل مـرتفعين اسمهما« رابيتي الأعلام»، لأنه جـرت العادة أن يكون حـولهما تجمعـات للمـؤمنين، عندمـا كـانوا— وفقـاً للعـادات القـديمة— قـد اعتادوا سنـويا على عمل مسيرة مهيبة إلى كنيسـة سينت ألبـان، وتقـديم الصلوات، واستـدار هنا القـديس ألبـان قليـلاً خـارج الطريق، وأمسك بيـد الرجل واقتاده إلى احـدى الأكوام، التي أحتـوت ضريح الشهيـد المبـارك، وقـال وهو ملتفت إلى تابعـه:« هنا ترقـد بقـايا معلمي»، ثم إنه فتح الأرض قليــلاً على شكل صليب بابهام الانسـان، وأخـرج قليـلاً من الطين والعشب، وفتح صندوقـاً صغيراً، فصـدر منه ضـوء مشع، ملأ أولاً الغـرب كله بأشعته ثم العـالم بأجمعه، وبعـد ذلك انغلق الصندوق ثانية، وعاد السهل إلى مظهره السالف، واعترت الرجل الدهشة حتى يسأل القـديس ماالذي عليه أن يعمله، فقـال له القديس: لاحظ البقعـة بدقـة، وتذكر الذي عـرض عليك، ولسوف يحل الوقت سريعاً، عندما ستظهر المعلومـات التي أخبرتك بها بشكل خاص، لمنفعة كثيرين»، ثم استطـرد يقـول:« انهض الآن، ودعنا نذهـب، ونعــود إلى المكان الذي جئنا منه»، وعندما كانا عائدين على طريقهما، دخل القديس

إلى كنيسته، ورجع الرجل إلى بيته، وذهب إلى فراشه مجدداً.

كيف أباح الرجل خبر الرؤيا التي رآها

واسيقظ الرجل في الصباح، وكان منزعجاً جداً في تفكيره، متشككاً هل عليه أن يبوح للآخرين بما شاهده بالرؤيا، أم لا، ذلك أنه آمن بها حقيقة، وهنا خاف أنه إذا أخفاها سوف يغضب الرب، وأنه إذا باح بها سوف يتحمل استهزاء بني البشر به، وفي حالة الشك هذه، تغلب الخوف من الرب، ومع أنه لم يعلن خبر الرؤيا بشكل عام، أوصل الخبر إلى بعض أصدقائه المقربين والخاصين، وقام هؤلاء على كل حال باعلان ماسمعوه في ظلام الليل، بوضح النهار، والذي سمعوه بآذانهم أعلنوه على رؤوس الأشهاد، وهكذا انتشرت الحكاية في جميع أرجاء المقاطعة، لذلك احتشد الناس في دير القديس ألبان، وأخيراً وصل الخبر المفرح إلى سيمون راعي الدير، الذي بفضل نفوذه، التالي لنفوذ الرب، حظي الخبر لديه باهتمام كبير، فقام على الفور بتقديم الحمد والشكر للرب، وعقد اجتماعاً ضم الرهبان، فاختار بعضهم للذهاب إلى المكان، الذي يتوجب على الرجل السالف الذكر قيادتهم إليه، وفي الوقت نفسه صلى الرهبان في الدير بخشوع إلى الرب، وسار في الوقت ذاته الرهبان الذين تعينوا للمهمة إلى المكان، على أمل العثور على آثار الشهيد، وعندما وصلوا إلى هناك، وجدوا حشداً كبيراً من الناس، اجتمعوا مع بعضهم من مختلف أجزاء المنطقة، وقد اقتادهم الروح القدس، ليكونوا شهوداً على اكتشاف آثار الشهيد، وفيما هم ينتظرون وقوع الحادث، اقتاد الرجل المتقدم الذكر الرهبان إلى السهل حيث رقدت أجساد القديسين، وكان اليوم يوم جمعة قبل عيد القديس ألبان، عندما عُمل هذا، ومن ذلك اليوم حتى جرى نقل أجساد القديسين، كانت هناك حراسة مستمرة ومتواصلة فوق تلك البقعة، وقد تعاون رهبان الدير مع العلمانيين للقيام بهذا الواجب.

وفي الوقت نفســـه شرع الدير في تطبيق نظام حيـــاتي دقيق، وأعلن للناس عن مناسبـة مهيبـة للصـلاة والصـوم، ونال هذا المكان الذي تمّ العثـور فيه على الآثار المقـدسة الآن مظهـر سـوق، حيث كانت عندمـا تغادر البقعة طائفة زارتها بغرض التقوى، تصل طائفة أخرى.

المرأتان اللتان شفيتا بزيارتها للقديس

وبينما كان الشهـداء مايزالون تحت الأرض بدأت معجـزات بالظهور بظواهر مدركة بشكل جيـد، معطية آمالا بأعمال أعظم سوف تحدث فيما بعد، فقد كـانت هناك امرأة من غيتدن Gatesden، مربوطة منذ عشر سنوات بالكتفين وبالحقوين، وكـانت بسبب عجزها محط عـدم إعجاب من قبل زوجهـا، فغسـادرت مكانها المحلي، ولـدى مـرورهـا بردبورن، تمددت ونامت قرب المكان الذي دفن فيه الشهداء، ولم تنهض من هناك حتى شفيت تمامـاً، وكـانت هناك امـرأة أخـــرى من دنستيبل Dun-stable، اسمها سيسيليا Cecilia ، لها انتفاخ أعطاها مظهر الحامل، وقـد عـادت هذه إلى الصحـة بزيارة البقعة، وكـان هناك أيضـاً فتـاة في الخامسـة من عمـرها، لم تتمكن من المشي منذ ولادتها، بل كـانت تحمل دوماً من قبل والديها، فـوضعت إلى جانب البقعـة ذاتها، على مشهد من عـدد كبير من الناس المؤمنين، وبعـــد نوم قصير، نهضت وركضت على قدميها، مما أعطى والديها سروراً عظيماً، وفي الـوقت نفسه حلّ يوم عيد القديس ألبان الشهيـد، ومع أن هذا اليوم كان مشهوراً بحـد ذاته، صار الآن أعظم شهرة بنشر أخبار هـذه المعجزات، وجرى حث المؤمنين على تقديم الصدقات بشكل أكبر لـلاستخدام في التقشف في الطعام، وجرى تكرار مسيرة مهيبة في اليوم التـالي، ثم إن الأيام التي كانت قد مضت لم تتبـدد في الكلام الفارغ، ذلك أنـه منذ ساعـة اكتشـاف الآثار المقدسـة، ظهرت معجـزات كثيرة ونفذت، فقـد سخر رجل من كنغبري Kings-bury ، من الذين كانوا يحفرون بحثاً عن القديسين، وقد قدم إلى

البقعـة مع البقيـة، إنما مع تفكير مختلف عن تفكيرهم، حيث على الفـور استـولى عليه جنون، ومـزق ثيابه، وعـوضا عن سخـريته بالذين كـانوا يحفرون، صار مشهداً يهزأون هم منه، وبعدما تعذب لبعض الوقت أمام جميع الذين كانوا موجودين، توقفت يد الرب عن معـاقبته، وعاد سالماً إلى منزله، وإن كان معـاقباً منبوذاً، وضحك رجل آخـر من الذين كانوا يحفرون بحثـاً عن القديسين، وقد أصيب أيضـاً بضربة انتقام رباني، لأنه عندما كان في وسط كلامه، قهر بعنف ولفظ فوق البقعة روحه الكافرة، وقدم رجل اسمـه ألغار Algar من دنستيبل إلى البقعة في عربة، كان فيهـا برميل جعة للبيع، وجـاء إليـه رجل فقير مريض ورجـاه من أجل محبـة الشهداء منحـه جرعـة صغيرة لإطفـاء عطشه، وغضب ألغـار من طلبه، وقـال له بأنه لم يقدم إلى هناك تقديراً منه للشهـداء، بل للحصول على الربح ببيعه بضائعه، وعندما كان هكذا يهين الرجل الفقير، سقطت نهايتا البرميل، وتـدفقت الجعة على الأرض، وهكذا حدث أنه بـوساطة القديسين لم يجث الرجل الفقير الذي أنكر عليـه نيل جرعة صغيرة، على ركبتيـه لوحـده، بل فعل ذلك عـدد كبير آخـر معـه جثـوا على ركبهم، وشربوا مارغبوا، لأن مامن أحد منعهم، وهكذا أمكن عن طريق تدخل الشهـداء قمع شرور المعتدي، ونال المؤمنـون الأتقياء الجائـزة، ذلك أنه خلال الأيام الثـلاثة التالية نال عشرة أشخـاص من الجنسين الشفاء من مختلف الأمراض، فحمداً للرب وللشهيد المقدس.

اكتشاف القديس أمفيبا لوس ورفاقه التسعة

وفي صباح اليوم الـذي جرى فيه اكتشاف أجسـاد القديسين والعثور عليهم، وصل الأب المبجل الراعي سيمـون إلى البقعـة المقدسـة، وذلك بعـدما أقـام قداسـاً لأسرار مخلصنا في بيعـة القديس جيمس المجـاورة، وصدوراً عن الاحترام للشهيـد القديس ألبـان أمر الرهبان الـذين كانوا حضـوراً بالبحث بيقظة أكبر، وأن يستخـدمـوا على الفـور المزيد من

الحفارين، وكانت بيعة القديس جيمس قد بينت تكريماً للشهيد، عقب نزول بعض اشعاعات الضوء دوماً على القطعان، كلما ساقهم رعاتهم للرعي فوق تلك البقعة، ولهذا السبب أيضاً أقام الراعي المتقدم الذكر قداساً، وطلب عون الشهيد لمباركة بحثهم، وبعد عودة الراعي ورهبانه إلى الدير، جلسوا لتناول الغداء، فقرأ واحد منهم بصوت مرتفع حكاية آلام القديس الذي كان يحفرون من أجله ومن أجل رفاقه، الذين بعدما تحرروا من الجسد دخلوا في المجد السرمدي، وبناء عليه، عندما كان أهل الدير يبكون وراغبين في سماع خبر وحشية القاضي، وشرور معاونيه، وتفاصيل طويلة عن موتهم، دخل شخص فجأة إلى الغرفة، وأعلن أنهم للتو قد اكتشفوا أجساد أمفيبالوس وثلاثة آخرين، ولماذا علي أن أتحدث عن أثر هذا الخبر؟ فقد تبدلت تنهداتم إلى حمد وشكر، وأعقبت البهجة الأسى، ونهضوا من وراء المائدة، وساروا جميعاً إلى الكنيسة، وقدموا الشكر تعبيراً عن البهجة التي ملأت قلوبهم، وكان الشهيد المقدس أمفيبالوس راقداً بين اثنين من رفاقه، بينما تمّ العثور على الثالث وهو راقد بشكل اعتراضي في مكان منفرد لوحده، كما أنهم وجدوا قرب المكان سبعة شهداء آخرين، صاروا مع القديس أمفيبالوس عددهم كلهم عشرة، وكان بين الآثار المكتشفة المتعلقة ببطل المسيح هذا سكينين كبيرين أولهما في جمجمته والثاني في صدره، وبذلك تأكدت الأخبار التي وصلتنا من العصور القديمة في كتاب قصة استشهاده، لأنه وفقاً لذلك الكتاب، إنه في حين هلك الآخرون بالسيف، نزعت أحشاء أمفيبالوس أولاً، ثم طعن بالحراب والسكاكين، ورجم أخيراً حتى الموت، ولهذا السبب أيضاً لم يتم العثور على أي من عظامه كاملاً، مع أنه في أجساد رفاقه لم يكن هناك عظماً مكسوراً.

كيف جرى نقل آثار القديس أمفيبالوس إلى دير القديس ألبان

وكما رأينا ، عندما سمع الراعي بالأخبار السارة، بادر مسرعاً مع

رئيس الرهبان وبعض الرهبان إلى المكان، وأمر بإخراج الآثار المكتشفة، ولفها بأقمشة مناسبة، وإدراكاً منه للأذى الذي يمكن أن يحصل من ضغط الحشود، الذي لايمكن إبعادهم عن الكنز الذي وجدوه، أصدر أوامره بوجوب حمل الشهداء المقدسين إلى كنيسة القديس ألبان، حيث يمكن العناية بهم بشكل أفضل، فهل أنا بحاجة لقول المزيد؟ وعاد الراعي والرهبان إلى الدير وهم يحملون معهم بشكل منفصل أجساد القديسين، أما بقية الرهبان الذين كانوا قد بقيوا في الدير، فقد خرجوا لاستقبالهم، وهم يحملون جسد الشهيد المبارك القديس ألبان، الذي برهن حملته أنه كان ثقيلاً بشكل عام، لكنه كان في تلك الحالة خفيفاً إلى حد بدا فيه وكأنه يطير، وليس راسياً على أكتافهم، وهكذا قابل الشهيد الشهيد، والتلميذ معلمه، وجرى استقباله لدى عودته بشكل علني من قبل الذين كان فيما مضى قد علمهم الإيمان الصحيح في بيت ريفي متواضع، وعلى كل حال، ينبغي عدم المرور بما حدث بصمت، فقد عمل الرب معجزة في العناصر عندما التقت هذه الآثار، فقد كان هناك انحباس للمطر، سبب جفاف كل شيء، وأوصل المزارعين إلى حالة اليأس تقريباً، ففي تلك اللحظة، تساقط مطر عاصف، مع أنه لم تكن هناك سحابة مرئية، ورويت الأرض، وتجدد الأمل بموسم مستقبلي، وكان العثور على القديس أمفيبالوس ورفاقه في يوم السبت الخامس والعشرين من حزيران لعام ١١٧٧م، وكان ذلك العام عام ثمانمائة وستة وثمانين بعد استشهاده، وجرى وضع الآثار المقدسة كما كانوا مدفونين في تلك البقعة، وكان في سبيل مجد الرب، وشهيده قد جرى شفاء المرضى من مختلف الأمراض، واستردت الأطراف المعاقة قوتها، وفتحت أفواه الخرسان، ورد البصر إلى الأعمى، والسمع إلى الأطرش، وتمكن الأعرج من المشي، فهل بقي هناك المزيد من الأمور الإعجازية، فالذين كانوا متلبسين من قبل الشياطين قد تحرروا، وتمّ شفاء المصروعين، ونقاء المجذومين، وأعيد الميت إلى الحياة، وإذا مارغب أي

واحد بقراءة أخبار المعجزات التي عملتها الرحمة الربانية بوساطة هؤلاء الشهداء، عليه استخدام كتاب معجزاته، والآن نطلب السماح من قرائنا من أجل الاستطراد، ونبادر مسرعين نحو المواضيع الأخرى.

كيف أقام هنري الملك الشاب مباريات مبارزات

عام ١١٧٩م، فيه عبر هنري الملك الشاب إلى غاليا، حيث أمضى ثلاثة أعوام في الصراعات وفي الاسراف في النفقات، واضعاً جانباً الأبهة الملكية، ومتخذا سمة فارس، وصارفاً نفسه إلى تمارين الفروسية، ونائلاً للنصر في كل مبارزاته، وناشراً لشهرته في جميع الأرجاء من حوله، وعندما اكتملت سمعته عاد إلى أبيه الذي استقبله بالتشريف اللائق، وقرر في العام نفسه لويس ملك فرنسا القيام بزيارة للصلاة عند ضريح القديس توماس الشهيد، ولهذه الغاية قدم إلى انكلترا، الأمر الذي هو لم يفعله من قبل، ولاكذلك أي واحد من آبائه، فقد نزل في دوفر واستقبل في الثاني والعشرين من آب من قبل ملك انكلترا، الذي أظهر نحوه ونحو حاشيته كل علامات الاحترام الممكنة، وسار رئيس أساقفة كانتربري مع أساقفته المساعدين، والايرلات، والبارونات، وذلك إلى جانب رجال الدين والناس، سار هو و هؤلاء بموكب مهيب إلى الكنيسة، تشريفاً للملك الكبير، وما من أحد يعرف كم هو كثير الذهب والفضة، والأحجار الكريمة والصحون التي منحها الملك هنري إلى النبلاء الفرنسيين، ولذلك مامن انسان يمكنه الحديث عن شيء مماثل، وتبرع ملك فرنسا بمائة معيار من الخمرة، لتوزع سنوياً في باريس صدوراً عن الاحترام للشهيد المجيد، وكذلك من أجل استخدامات دير كانتربري، وعرض الملك هنري على الملك الفرنسي وحاشيته رؤية جميع ثروة مملكته، مما جمعه هو شخصيا، أو من قبل أسلافه، وأمسك الفرنسيون أيديهم عن تسلم الهدايا، خشية أن يبدو أنهم جاءوا لغرض آخر غير رؤية الشهيد المبارك، وحين تمنعوا هكذا لعلهم تحملوا نوعاً من

الشهادة العقلية، وهكذا بعدما أمضى ملك فرنسا ثلاثة أيام في السهر، والصوم، والصلاة، في كانتربري، وتلقى قليلاً من الهدايا الصغيرة من ملك انكلترا، كبرهان على المحبة، أبحر عائداً إلى فرنسا في السادس والعشرين من آب، ومات في السنة نفسها روجر أسقف أوف وينكستر في التاسع من آب.

مجمع روما برئاسة البابا الاسكندر

وعقد في العام نفسه مجمع عام في روما، حضره ثلاثمائة أسقف وعشرة أساقفة، وكان ذلك في التاسع والعشرين من آذار، في اللاتيران، وقد ترأسه البابا الاسكندر الثالث، وكانت القرارات التي اتخذت آنذاك، والتي تستحق الثناء العالمي، قد جاءت تحت تسعة وعشرين عنوانا كما يلي: حول انتخاب الحبر الأعظم، وحول الهراطقة الألبينيين، ومختلف أسمائهم، وحول قطاع الطرق والنهابين في برابانت، الذين أضروا بالمؤمنين، وأن مامن أحد سوف يتقدم إلى الأسقفية، أو إلى أية مرتبة لاهوتية، مالم يكن في العمر القانوني، وقد ولد من زواج شرعي، وأنه لايجوز منح أية منافع وتوزيعها مادام المكرسين لها أحياء، وأن لاتبقى أكثر من ستة أشهر شاغرة بعد وفاة المكرسين لها، وحول الاستئنافات أن لايشغل أي واحد من الطوائف المقدسة أو من الذين يعيشون من الموارد اللاهوتية، نفسه بالأعمال المدنية، وحول تثبيت الهدن، وتثبيت تواريخها، وأن يمتلك رجال الدين كنيسة واحدة، وكذلك الأساقفة، إذا مارسموا أشخاصا من دون ألقاب محددة، عليهم الاحتفاظ بهم، حتى يمكن تعيينهم لمنصب في الكنيسة نفسها، وأن لايتولى الحماة والعلمانيون ظلم الكنائس أو أي انسان لاهوتي، وأن لايتملك اليهود والمسلمين أيا من العبيد المسيحيين، لكنهم إذا اختاروا التحول إلى المسيحية فلايجوز انتزاع هؤلاء العبيد من أسيادهم، وأن يتملك الأشخاص المجذومين، الذين يعيشون في عزلة عن المجتمع،

مصلى خـاص بهم مع كاهن لهم، وأن لايجري نقل الممتلكات اللاهوتيـة وتحويلهـا إلى أية استخـدامـات أخـرى، وأن لايصرف العمـداء الذين يمارســون الأعمال القضـائيــة الأسقفيـة مـن أجل مبلغ محدد من المال، وبالنسبة لأعمال الانتخاب والتكريس اللاهوتي يجري تنفيذ إرادة الشطر الأكثـر من المجلس، وأن لايسمح للذيـن يمارسـون الربـا بشكل علني بتناول القـربان عند المذبح، وأن لايتلقـون دفنا مسيحيا، وسـوف يتمتع المزارعون والمسافرون بسلام عام وأمان، وعدّ جميع أعمال التكريس التي تجري من قبل المنشقين لاغية، وفـارغة، وكل المنافع التي تمنح من قبلهم منقوضـة، ولاتجوز المطالبة بأية مدفـوعات من أجل سيامـة الأشخاص اللاهوتيين، ودفن الموتى، والتفـوه بـالمبـاركـة أثناء الزواج، أو من أجل التكريســات الأخـرى في الكنيســة، ولايجوز لأي أشخـاص دينيين أو آخـرين الإقـدام على تسلم كنائـس أو عشـور من يدي علماني من دون مـوافقة الأسقف وتفـويضـة، ولايجوز أيضاً للداوية أو الاسبتـارية فتح كنائسهم تحت الحرمـان، مرة في السنة، وأن لايتولوا وقتهـا دفن الموتى، ولايجوز لأحـد، من أجل المال، مصـادرة الملابس الدينيـة، ولامصـادرة أحداً من رجال الدين لديهم ممتلكات خـاصة، ولايجري تجريد الأساقفة إلاّ بسبب التخـــريب أو العجـــز عـن كبح النفس جنسيـــا، ولايجوز للمسيحيين بيع الأسلحـة إلى المسلمين، وأن لايتجـــرأ أحـد على سرقـة الذين تجنح سفنهم، ويتـوجب على الكهنة في الطوائف المقـدسـة العيش بعفة، وإذا عثر عليهم وهـم يمارسون ذلك النوع من الممارسات المعارضة للطبيعة، فلسوف يجري حرمـانهم كنسياً، ويطردون من الكهنوتية، وعلى رؤساء الأساقفة الذين يتـولون زيارة الأسقفيات أو الكنائس، أن يقنعوا بحـاشيـة تتكون من أربعين إلى خمسين فـارساً، والأسـاقفـة بعشرين أو ثلاثين، والنـواب البـــابويـون بعشرين أو خمس وعشريـن، ورؤســـاء الشمامسـة بخمسـة أو سبعـة، والعمـداء ليس بأكثـر من اثنين، ولايجوز لأحـد ممارسـة المبـارزات، والذيـن يمـوتون فيهم يحرمـــون من الدفن

المسيحي، وعلى كل كنيسة كاتدرائية أن تتملك معلماً يتولى تعليم الطلاب الفقراء والآخرين، شرط عدم مطالبة أي واحد بالدفع من أجل التعليم، ويتولى القسيس إدارة كنيسة واحدة، ولايجوز للأولياء استخراج مال من الكنائس أو من أراضيهم، ولايجوز إرغام الأساقفة والأشخاص اللاهوتيين على الظهور في المحاكم المدنية، وأن لايدفع الرجال العلمانيين عشوراً إلى أناس علمانيين، وإذا ماتسلم أي انسان ملكية من آخر كضمان من أجل دين، ثم إنه بعد حسم النفقات جمع ماله من انتاج تلك الملكية، عليه وقتها إعادة الضمان إلى المستدين منه.

رسالة البابا الاسكندر ضد هرطقة بطرس لومبارد

وأخبر البابا الاسكندر نفسه بأن المعلم بطرس لومبارد، قد ابتعد في بعض كتاباته عن أسس الإيمان وقواعده، ولذلك بعث بالرسالة التالية إلى وليم رئيس أساقفة سين:

« من الاسكندر، أسقف وعبد عبيد الرب، إلى وليم رئيس أساقفة سين، تمنيات الصحة:

عندما كنتم من قبل في حضرتنا، أعلمناكم بكلمات الفم، وطلبنا منكم حث أساقفتكم المساعدين في باريس، وأن تستخدموا أفضل جهودكم لتدمير العقيدة الزائفة، لأسقف باريس السالف، التي أكدت أن المسيح، هو انسان، وليس شيئا آخر، ولذلك نأمرك ياأخي بكتابتنا الرسولية، مثلما أمرناك من قبل بكلمة الفم أن تجمع أساقفتك في باريس، وأن يكون معهم آخرين من رجال الدين وأهل الحكمة، لتقوموا بإبطال العقائد المتقدم ذكرها جميعاً، وأن تجعلوا المعلمين يعلّمون التلاميذ في اللاهوت بأن المسيح إله كامل، وهو أيضاً انسان كامل، يتكون من جسد وروح، وعليك أن تأمر جميع الناس بأن لايقدموا بأي حال من الأحوال على التبشير بالعقيدة المزيفة المتقدم ذكرها، بل أن

يقوموا بمقتها كلياً».

حول كتاب الراعي واكيم الذي كتبه ضد بطرس اللومباردي

وكتب في هذه الأيام واكيم راعي دير فلور Flore كتاباً ضد بطرس اللومباردي، أطلق عليه فيه اسم هرطقي واسم مجنون، لأنه قال لدى حديثه عن الوحدة أو جوهر الثالوث، بأن الآب، والابن والروح القدس، هم جوهر واحد سامي، هو لم يلد ولم يولد، بل انبثاق واحد، وبسبب هذا التأكيد اتهم الراعي بطرس بأنه لم يؤمن بثلاثة أشخاص هم الرب، بل بوجود رابع، أي الثلاثة المعتادين، وجوهرهم العام، الذي هو رابع بشكل ما، أي ليس هناك شيء هو الآب، أو الابن، ولاروح القدس، ولاجوهر، ولاأساس، ولاطبيعة، مع أنه أقر بأن الآب، والابن، والروح القدس هم جوهر واحد، وأساس واحد، وطبيعة واحدة، وقام واكيم نفسه بتأكيد وضعه بالنصوص التالية:« هناك ثلاثة لهم الوجود في السماء، وهم: الآب، والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد، وهناك ثلاثة لهم الوجود في الأرض، وهم: الروح، والماء، والدم، وهؤلاء الثلاثة هم واحد»، وقال ثانية:« وأرغب ياأبي، أن يكونوا واحداً فينا، مثلما هم أيضاً واحد»، وعلى هذا بدا أن واكيم المتقدم الذكر، لم يعترف بوحدة صحيحة وكاملة من هذا النوع، بل بنوع من الوحدة التراكمية، تشابهت عناصرها فصارت مثلما ندعو عدداً كبيراً من الناس، شعباً واحداً، وكثيراً من المؤمنين كنيسة واحدة.

كيف أدان البابا انوسنت كتاب واكيم

وبقيت هذه الخلافات غير محسومة لسنين طوال، وذلك منذ أيام البابا الاسكندر إلى أيام البابا إنوسنت، أي طوال مدة بابويات: لوسيوس Lucius ، وأوربان، وغريغوري، وكليمنت، وسيلستين

Celestine الذي خلفه انوسنت الثالث، الذي قام في سنة ١٢١٥ لتجسيد ربنا، فعقد مجمعا عاماً في روما، وأدان كتاب واكيم ضد بطرس بهذه العبارات:« نحن نوافق، ونستحسن في هذا المجمع، ونعتقد، ونعترف مع بطرس بأن هناك عنصر سامي واحد، لايمكن مقارنته ولاوصفه هو حقاً الآب، والابن، والروح القدس، وأنهم مع بعضهم ثلاثة أشخاص، وكذلك كل واحد منهم منفصل، وبناء عليه هناك ثلاثة أشخاص وليس أربعة في الإله، لأن كل واحد من هؤلاء الثلاثة أشخاص هو الشيء نفسه، أو العنصر الأساس، أو الجوهر للطبيعة اللاهوتية، التي هي بداية جميع الأشياء، وإلى جانبها لايوجد شيء آخر، وأن ذلك العنصر الأساس لم يلد ولم يولد، ولم ينبثق، بل الأب هو الذي ولد، والابن هو المولود، وروح القدس هي المنبثقة، وبناء عليه هناك تمييز بين الأشخاص، ووحدة في الطبيعة، لأنه مع أن الآب، والابن، والروح القدس، هم أشخاص مختلفون، لكنهم ليسوا مختلفين بعنصر الأساس، فالأب بولادته لابن من الأبدية أوصل إليه عنصرة الأساس، وهذا ماأكده هو نفسه بقوله:« ذلك الأب الذي أعطاني هو أعظم من الجميع»، كما أنه لايمكن القول بأنه أعطى الابن جزئاً من عنصر الأساس واحتفظ بالباقي لنفسه، لأن عنصر أساس الآب لايمكن تقسيمه، وهو كله ساذج، كما أنه لايمكن القول بأن الآب قد نقل أساسه إلى الابن بولادته له، أي أنه بإعطائه هكذا الابن هو لم يحتفظ به لنفسه، وإلاّ فإن عنصره الأساسي سوف يتوقف، لكن الابن تسلم بالولادة كل العنصر الأساسي للآب، وهكذا فإن الآب والابن لها عنصر الأساس نفسه، وهما الشيء نفسه، وكذلك الروح القدس التي انبثقت من الاثنين، وبقيت فيهما معا، ذلك أن العبيد المؤمنين للمسيح ليسوا— كما قال الأب واكيم، هم عنصر أساس للجميع ، بل واحد فقط في وحدة الرعاية والنعمة، لكن بالنسبة للأشخاص اللاهوتيين هناك وحدة بالذات وفي طبيعتهم، وبناء عليه نحن ندين

ونشجب كتاب وعقـائد واكيم، ونأمر أنـه إذا ماحاول أحـد الدفاع عن مواقفـة في هذه القضية، أن يُنظر إليـه على أنه هرطقي بيّن جميع الناس»، وبشأن هذا المجمع والبـابا المذكـور أعلاه، سـوف يقـال المزيد في مكانه المناسب.

كيف جرى تكريس فيليب ملكاً لفرنسا

وجرى في العام نفسه، تتـويج فيليب بن لويس ملك فرنسا، ملكاً في يوم عيـد جميع القـديسين في الرايم Rheims ، من قبل وليم رئيس أسـاقفـة تلك المدينة، وكـان أبـوه مـايزال حيـاً، وقـدم كل شيء تطلبـه التتـويج، وجلب أيضـاً كـادوولان Cadwallan، أمير ويلز، في هذا العام، ليمثل في حضرة ملك انكلترا، حيث وضعت كثيراً من الاتهامات ضده، ولدى عودته إلى ويلز، بموجب أمان منحه إياه الملك، هوجم من قبل أعدائه، وقتل في الثـاني والعشرين من ايلول، حيث كان ذلك تحديا كبيرا للملك، وعلى هذا لايمكن توجيه اللوم إليـه، ذلك أنه أمر بعقوبة مقترفي هذه الجريمة بعقوبة حادة.

التحالف بين ملك فرنسا وملك انكلترا

عام ١١٨٠م، فيـه جرى عقد مؤتمر بين فيليب الملك الجديد لفـرنسا، وبين الملك هنري في مكان بين غيسور، وتراي Trie، حيث جرى ابرام المعاهدة التالية بينهما:« أنا فيليب بنعمـة الرب، ملك فرنسا،، وأنا هنري بالنعمـة نفسهـا ملـك انكلترا، نعلم جميع الناس، بأننـا جـددنا يمين التحـالف والصداقـة بيننا، ولكي نتجنب جميع مناسبات الخلافـات بيننا من الآن فصـاعـداً، اتفقنا أن مـامن واحـد منا سـوف يدعي ملكيـة أية أرض ضـد الآخـر، والممتلكات والأشيـاء التي بأيـدينا الآن، وذلك باستثناء أوفـرين Auvergne التي يوجـد حولها الآن خـلاف بيننا، وباستثناء الرسم الاقطاعي لقلعة رالف، وباستثناء رسوم صغيرة أخرى

واقتسام لأراضينا في بيري Berri، التي حولها لم نتمكن من التوصل إلى اتفاق، وقد اختار كل منا ثلاثة أساقفة وبارونات ليقرروا فيما بيننا، ونحن سنلتزم بقرارهم بعد الموافقة على ذلك بنوايا طيبة»، ومات في السنة نفسها لويس ملك فرنسا في باريس، وكان ذلك في الثامن عشر من أيلول، ودفن في دير السسترشيان في باربوكس Barbeaux، الذي أكملت عمارته على حساب الملك نفسه.

كيف شعث رتشارد كونت أوف بواتو
أراضي غيوفري دي ليزينياك

وفي تلك الآونة استثير رتشـــــارد دوق أوكتين وابن الملك هنري بعجرفة غيوفري دي رانكون وبسبب كثير من الأذى الذي ناله منه جمع عساكره، وألقى الحصار على تيلبورغ Tailburg ، التي كانت احدى قلاعه، وكانت مغامرة جريئة مامن واحد من أسلافه قد أقدم عليها، لأن القلعة كانت حتى ذلك الحين غير معروفة من قبل أعدائها، وكانت محمية بثلاثة خنادق وأسوار، إلى جانب أسلحة من جميع الأنواع، والحواجز والموانع، كما كانت متوجة بأبراج متحركة منصوبة على مسافات، وكان يوجد على شرافاتها كميات واسعة من الحجارة، إلى جانب مخازن من المؤن، وعدد كبير من الفرسان والعساكر المجربين، ولذلك لم تشعر بالخوف من وصول الدوق رتشارد، وقام هو بمهاجمة أراضيها بأكثر من غضب أسدي، واستولى على المنتجات المجموعة من الأعناب، وأحرق القرى، ودمّر كل شيء، ثم نصب خيامه قرب القلعة، وأقام آلات رمي مقابل الأسوار، مما سبب ذعراً حقيقياً عظيما بين صفوف الحامية، الذين ماكانوا يتوقعون وقوع مثل هذا الشيء، ولقد رأوا— على كل حال— أنه شائن أن يتعامل مثلهم من العساكر المجربين ويرغموا على البقاء محصورين داخل الأسوار، لذلك قرروا بالاجماع القيام بهجوم مفاجىء على جيش الدوق، وجرى تنفيذ هذا

القـرار بشجـاعـة، لكن الـدوق جمع رجـاله، وأرغمهم على التراجع إلى ماوراء أسوارهم ، وفي أثناء تراجعهم كان هناك قتال شديد، وكان سيئا بالنسبة لكل من الرجال والخيول، وللسيوف والرماح، والقسي، والقسي الزيارة، والترسـة والحراب، مع كل نـوع آخـر من السـلاح، والسـوابغ والدروع الدفاعيـة، فهذه جميعاً جرت تجربتهـا في تلك المبارزات، ونجم عن ذلك أن أهل البلدة، وجـدوا أنفسهم غير قادرين على متـابعة تحمل حملات الدوق، فتراجعـــوا إلى مـــاوراء الأســـوار، واندفـع الدوق في مطاردتهم ودخل مع المطاردين، وامتـلأت الشـوارع بالسلب والحرائق، لأنه لم يكن قـــد ترك لهم طريق للنجـاة، وكـــان سكان البلدة محظوظين بالفـــرار إلى البرج الرئيسي، وتمت تســوية الأســـوار الجميلة بالأرض، وعانى الآخـرون الذين مكثوا في القلعـة الثائرة من الحتف نفسـه خلال شهـــر، واكتمل كل شيء حسب رغبـــات الـدوق، وعند ذلك عبرا إلى انكلترا حيث جـــرى أستقبـاله بـالتشريف الأعظم من قبل أبيـــه الملك هنري.

كيف أخضع فيليب ملك فرنسا تصريف مملكته إلى ملك انكلترا

عام ١١٨١م، فيـه، ذكّر بعض وزراء ملك فـرنسا سيـدهم، كيف أن ملك انكلترا قـد حكم ممالكه الـواسعـة بسـلام، وأبقـاهم سـالمين، من أولئك البرابرة مـــن شعـــوب الويلزيين والاسكـوتلنديين، ولهذا أخضع الملك الفرنسي— بناء على نصيحة آل بيته— مملكته وكذلك شخصه إلى تصريف ملك انكلترا، حيث تأثر بطرائقـه وحـذا حـذوه، فـوضع جميع نورماندي، تحت اشراف الملـك الشاب ابنه، وعبر إلى انكلترا في الخامس والعشرين من تموز، وقـام بزيارة هـدفهـا الصـلاة عند ضريح القـديس توماس الشهيد.

ومـات في العـام نفســه في العشرين من تشرين الثـاني، روجـر رئيس أساقفـة يورك، الذي حصل أثناء حياته على امتيـاز من البابا الاسكندر،

قضى أنه إذا ماقام أي كاهن كان تحت سلطانه، بعمل وصية وهو على فراش موته، ومات دون أن يتولى توزيع ممتلكاته بيديه، وقتها يستولي رئيس الأساقفة على جميع ممتلكات المتوفى، وبما أن كل واحد ينبغي أن يخضع للقوانين التي وضعها للآخرين، نجد الآن أنه عندما مات رئيس الأساقفة، فإن جميع كنوزه قد صودرت بموجب حكم عادل من الرب، وقد بلغت أحد عشر ألف باوند من الفضة، وثلاثمائة قطعة من الذهب، وكأس ذهبي واحد، وسبعة كؤوس من الفضة، وتسعة طوس من الفضة، وثلاث ممالح من الفضة، وثلاثة كؤوس من المر، وأربعين ملعقة، وتسع قصعات من الفضة، وطشت فضي واحد، وقصعة فضية كبيرة.

رسالة البابا الاسكندر إلى بريستر جون ملك الهند

وفي هذه الآونة كتب البابا الاسكندر إلى بريستر جون ملك الهند، كما يلي:« من الاسكندر الأسقف، إلى ولده المحبوب في المسيح، صحة ومباركات رسولية، لقد سمعنا منذ زمن طويل مضى، بوساطة العلاقة بكثيرين، عن النشاط الذي أبديته في انجاز الأعمال التقوية، منذ أن تبنيت الديانة المسيحية، هذا وأبدى ولدنا المحبوب، فيليب الطبيب، الذي قال بأنه تحادث مع عظماء وأشراف الرجال في مملكتك، إلحاحه وإخلاصه المعهود، في العمل على تبيان نواياكم وخططكم، وأوضح لنا رغبتكم في توجيهكم في العقيدة الكاثوليكية والرسولية، وأن هذا هو شغفكم، الجامح، وذلك بالنسبة لشعبكم ولكم أنفسكم، وأن لاتتمسكوا بشيء يبدو مخالفا لعقائد الكرسي الرسولي، وإلى ذلك ينبغي أن نضيف الفضيلة السامية المتعلقة برغبتكم— كما قال فيليب المتقدم الذكر، بأنه سمعها من شعبكم— بأن تتملكوا كنيسة ومذبحاً في مدينة القدس، حيث يمكن لرجال دين وحكماء من مملكتكم البقاء والتعلم بصورة أوفى والتدرب بشكل أكمل على الأنظمة الرسولية، التي

بوساطتها يمكنكم أنتم أيضاً وشعبكم أن تتلقوا بصورة أسهل العقائد المسيحية، وتتمسكون بها، وبناء عليه، رغبة منا في إبعادكم عن الأفكار التي تنأى بكم عن الإيمان المسيحي، قد بعثنا إلى سمسوكم فيليب المتقدم الذكر، الذي من خلاله يمكن أن تتعلموا أفكار الإيمان المسيحي، وذلك حيث تبدو أنت ويبدو أتباعك أنكم تختلفون عنا، وهكذا لاعليك أن تخاف من أي شيء يمكن أن يصدر عن أخطائكم، في أن يعيق خلاصكم أو خلاص أتباعكم، أو أن يلقى بأية وصمة على إيمانكم بالمسيحية».

كيف خلف لوسيوس البابا الاسكندر

ومات في العام نفسه البابا الاسكندر، بعدما جلس في منصب البابوية الرومانية لمدة اثنين وعشرين عاماً، وقد خلفه همبولد Humbald أسقف أوستيا، الذي اتخذ لنفسه اسم لوسيوس الثالث، ومكث أربعة أعوام في الكنيسة الرسولية، وأيضاً تزوج فيليب ملك فرنسا من مرغريت ابنة بلدوين كونت أوف هينولت Hainult ، من مرغريت أخت فيليب كونت فلاندرز، وفي هذا العام ألغي أيضاً النقد القديم، وصدر نقد جديد في يوم عيد القديس مارتن، وفي العام نفسه، خلف بلدوين راعي فورد، وهو دير سستر شياني، روجر، وصار أسقفاً لوينكستر.

كيف رفض غيوفري المنتخب للنكولن الانتخاب

عام ١١٨٢م، فيه قام غيوفري المنتخب للنكولن، والذي هو ابن ملك انكلترا، بعد تأكيد انتخابه من قبل البابا وحكمه لتلك الكنيسة نفسها بسلام لمدة سبعة أعوام، قام في يوم عيد الغطاس في مالبورا Marlborough ، بالتخلي عن انتخابه، وكان ذلك بحضور الملك والأساقفة، مع أن مامن أحد أرغمه على فعل ذلك.

وفي الوقت نفسه، منح هنري بحضور نبلاء المملكة في وولتهام، وبكرم منه ألفي مارك من الفضة وخمسائة مارك من الذهب لمساعدة الأرض المقدسة، وعبر بعد ذلك إلى نورماندي، وفي هذه الأيام جرى نفي هنري دوق سكسوني من قبل الامبراطور، وهنري هذا كان ختن الملك، وقد وصل إلى الملك مع الدوقة، وولديه: هنري وأوتو، وهناك زوده الملك لمدة ثلاثة أعوام بسخاء، بكل الأشياء التي احتاجها، وبأعظم الكميات، وفي هذا العام نفسه جرى تكريس كونستانتي -Con stantiis رئيس شمامسة أكسفورد، أسقفاً للنكولن، من قبل رتشارد رئيس أساقفة كانتربري، في آنجو في كنيسة القديس لود Laud، ومات أيضاً وولتر أسقف روكستر في هذا العام.

وفاة الراعي سيمون وتعيين وارن

عام ١١٨٣م، فيه مات سيمون راعي دير القديس ألبان، وقد خلفه وارن رئيس رهبان الكنيسة نفسها، وكان ذلك في يوم عيد ميلاد أم الرب، حيث وقتها تلقى المباركة كراعي دير.

موت هنري الملك الشاب

وفي هذه الآونة بذل الملك هنري جهده في سبيل جعل ولديه غيوفري ورتشارد يقدمان الولاء للملك الشاب، بحكم كونه الابن الأكبر له، وذلك عن بريتاني، ودوقية أكوتين، ولهذه الرغبة وافق غيوفري على الفور، وقدم الولاء من أجل ايرلية بريتاني، لكن رتشارد ماأن سمع بطلب أبيه حتى انفجر غاضباً، وقائلاً إنه من غير المنطقي، طالما والدهم مازال حياً، أن يخضعوا أنفسهم إلى أخيهم الأكبر، الذي ولد من الأب نفسه والأم نفسها مثلهم أنفسهم، وأن يقوم الأخ الأكبر بادعاء وراثة الأب، إنه هو نفسه، أي رتشارد، له الحق بالمطالبة بوراثة ممتلكات أمه، وكان الملك هنري منزعجاً جداً تجاه هذا التصرف، وسعى

باخلاص شديد لجعل ابنه الشاب، يبذل غاية جهده لخضد شوكة عجرفة أخيه، وبعدما اجتمعا مراراً من أجل هذا المقصد، ووضح أنه مامن أمل في السلام، حشد الملك الشاب جيشاً كبيراً، وقرر محاربة أخيه، لكن حياته انقطعت فجأة مثل خيط، ومعه آمال الكثيرين، ففي الوقت الذي كان فيه بنضارة شبابه، وعندما فقط أكمل الثامنة والعشرين من عمره، توفي في ذلك الجزء من غاسكوني الذي اسمه تورونيا Turonia في قلعة مارتل، في يوم عيد القديس بارنباس -Bar nabas الرسول، وجرى لف جسده بأثواب من الكتان، هي التي لبسها لدى مسحه بالميرون أثناء تتويجه، وحمل إلى روان، حيث دفن إلى جوار المذبح في الكاتدرائية، بتشريف عظيم يليق بأمير كبير مثله، وفي هذا العام نفسه مات جيرارد الملقب بلي بوسل Pucelleوكانت قد جرت سيامته لكرسي كوفنتري، وجاءت وفاته بعد عشرة أسابيع من صيرورته أسقفاً، وقدم أيضاً وولتر دي كاوتانس Coutance أسقف لنكولن إلى انكلترا، وجلس على عرش أسقفيته بشكل مهيب.

عام ١١٨٤م، فيه مات رتشارد رئيس أساقفة كانتربري، في ألنغهام Allingham ، وهي قرية عائدة لأسقف روكستر، واصطحب الملك هنري دوق سكسوني مع أرسرته إلى انكلترا، حيث ولدت الدوقة بعد ذلك بعدة أيام ولداً أعطي اسم وليم، وكان ذلك في وينكستر، وفي العام نفسه جرى انتخاب بلدوين أسقف ووركستر، ليكون رئيساً لأساقفة كانتربري، كما تمّ انتخاب وولتر أوف لنكولن ليكون رئيساً لأساقفة روان، وتلقى هذين الأسقفين الطيلسان، وبمهابة جلسا على عرشيهما، وقدم في هذه الآونة إلى انكلترا فيليب رئيس أساقفة كولون، وفيليب كونت أوف فلاندرز، ليقدما نذريهما إلى الشهيد المبارك، القديس توماس، وخرج الملك هنري لاستقبالهما، ودعاهما للقيام بزيارة لندن، المدينة الملكية وعندما وصلا إلى لندن، أقامت تلك العاصمة

احتفـالاً، لم يشاهـد مثل منظره من قبل، وغنت جميع شـوراعهـا فرحـاً وحبوراً، وجرى استقبال رئيس أساقفة كولون وكونت فلاندرز بمسيرة مهيبة في كنيسـة القديس بولص، وقدم لهما في اليوم نفسـه تشريف آخر، وبعـد ذلك استضيفا لمدة خمسـة أيام في القصر على حسـاب الملك، لكن هل حملا معهما وهما عـائـدين إلى الوطن كثيراً من الهدايـا أم لم يحمـلا، يبدو أن مـن الفضول البحث في ذلك، ومـات في العام نفسـه جوسلين أسقف سالسبري.

كيف هاجم المسلمون اسبانيا المسيحية وتراجعوا باضطراب

وفي هذه الأيام، في حوالي يوم عيد القـديس يوحنا المعمدان اقتاد أبو حفص ملك المسلمين في اسبـانيـا ملك ملوك المسلمين الذي اسمـه أبو يعقـــوب، على رأس سبعـــة وثلاثين ملكاً آخـــر، إلى داخل أراضي المسيحيين، وحاصروا أولا شنترين، وبعد قتال استمر ثلاثة أيام وثلاث ليالي، أحـدثوا ثغرة في الأسوار، ودخلـوا إلى البلدة، وهربت الحامية إلى القلعـــة، وفي الليلة التـاليـة انقض أسقف البرتغـــال مع ابن الملك على المسلمين، وقتلوا الملك أبو حفص مع خمسـة عشر ألفاً من رجـاله، وقد كـوموا جثثهم في مكان الأسـوار التي أحـدثت فيهـا الثلمة، وفي اليـوم التـالي الذي كـــان عيـد القـــديس يـوحنا، والقـديـس بولص[٢٦— حزيران]، حشد رئيس أساقفة سـانتياغو عشرين ألفاً من الرجال، وقتل عند الفجـر ثلاثين ألفـاً من المسلمين، وفي اليـوم التالي الذي كـان عيـد القديسة مرغريت دمّـر المسلمون عند العقاب عشرة آلاف امرأة وطفل، غير أن الذين كـانوا في بلدة العقاب خـرجوا منهـا وحملوا على المسلمين فقتلوا ثلاثة ملوك مع جيشهم كله، وبعـد ذلك في عشيـة عيد القـديس جيمس سمع الملك أبو يعقـوب بأن ملك قشتـاله كـان قـادمـاً لقتـاله، ولذلك عندما رغب في امتطاء حصانه وقع أرضـاً ثلاث مرات ومات، وبناء عليـه هرب جيشـه كله، مخلفـاً وراءه جميع أمـواله، وأعطى ملك

البرتغـال بعضاً من أسرى المسلمين كرقيق للعمل في خدمة البنائين في اعـادة عمارة الكنائس، وعمل بالذهب بيعة ذهبية في القديس فنسنت Vincent، وقدمت بعد ذلك عدة غلايين إلى لشبونة جالبين معهم مركباً ضخماً، كان فيه آلة رمي ذات طبيعة أنه كان بإمكان المسلمين الرمي فيها إلى ماوراء الأسوار، والعودة ثانية، وبفضل الحكمة الربانية، تمكن أحدهم من الغطس في الماء تحت هذا المركب، وفتح ثغرة كبيرة في أسفله، مما سبب غرقه، وقدّر المسلمون أنهم صدوا، ولذلك هربوا مخلفين وراءهم جميع أثقالهم.

انتخاب غي لوزغنان حامياً لمملكة القدس

كان في هذه الأيام يحكم في القدس بلدوين ابن الملك عموري، وقد كان منذ بداية حكمه مصاباً بمرض الجذام، وكان هذا المرض قد حرمه بصره، والقدرة على استخدام قدميه ويديه، ومع ذلك على الرغم من ضعف جسده، كان قوياً في فكره، وقد بذل جهوداً فوق طاقته لتأدية واجباته الملكية، وفي سبيل هذه الغاية حث نبلاء مملكته، وكان ذلك بحضور أمه والبطريرك من أجل تعيين غي لوزغنان، كونت يافا وعسقلان، ليكون وكيلاً للمملكة، وكان غي هذا قد تزوج من سنيبيلا أخت الملك، التي كانت من قبل زوجة مركيز مونت فرات، الذي منه ولدت بلدوين، لكنه بعدما صار لبعض الوقت وكيلاً للمملكة، ولم تتقدم المملكة، عزل الملك غي، وعين ريموند كونت طرابلس في موضعه.

كيف دمّر صلاح الدين سلطان مصر عدة مدن عائدة للصليبيين

أخضع في هذه الآونة صلاح الدين، سلطان دمشق، جميع ممالك المسلمين في أرجاء الشرق، وبذلك صار من الممكن تسميته عن حق ملك الملوك، وسيد السادة، وصار الآن مقصده اخضاع جميع الصليبيين

أيضاً، فعبر نهر الأردن في بداية تموز، وأغار على المنطقة من حول قلعة الكرك لجمع الغلال والأعلاف، ومنطقة الكرك هي التي كانت تعرف من قبل باسم البتراء في الصحراء، ثم إنه عبر إلى بلدة نابلس، التي نهبها ثم أحرقها، وفي سبسطية تمكن الأساقفة من دفع فدية عن المدينة وعن الكنيسة بتسليمه ثمانين من الأسرى، وزحف من هناك صلاح الدين إلى العربية فشعث تلك المنطقة، واقتلع النساء والرجال وحملهم معه أسرى، وتابع من هناك زحفه إلى قلعة جيريين الكبرى التي دمرها، وقتل كل من الرجال والنساء وذلك باستثناء عدد قليل اتخذهم أسرى، وكانت جيرين الصغرى قرية تابعة للداوية، وقد شاركت بالمصير نفسه، وعاد المسلمون بعد ذلك عبر طريق كوكب الهوا، وكانت قلعة تابعة للداوية فقتلوا بعضا من سكانها وحملوا البقية أسرى.

انتخاب ملك انكلترا ملكا للقدس

وعندما مات أخيراً بلدوين الملك المجذوم للقدس، حكم مكانه طفل كان في الخامسة من عمره، كان ابن أخت الملك المتوفى من أخته سيبيلا ووليم مركيز أوف مونتفرات، وكان بعد تتويجه أن عهد بتربيته لريموند كونت طرابلس، ولكن عندما رأى الناس ورجال الدين أن المملكة تدهورت إلى حالة بات من غير الممكن الحفاظ بها عليها، أخذوا يفكرون بالخطوات المتوجب اتخاذها، مقدرين في ظنونهم أن السلطان من غير الممكن أن يبقى طويلاً من دون عمل مؤثر، وكانت لديهم آمال قليلة للافادة من سني طفولة الملك، لذلك اتفقوا جميعاً على ارسال سفراء إلى هنري ملك انكلترا، وعرضوا عليه مملكة القدس، مع مفاتيح المدينة المقدسة، وكذلك مفاتيح ضريح ربنا، وتولى هرقل البطريرق بناء على طلبهم القيام بهذه السفارة، وكان برفقته مقدم الداوية مع آخرين، وقد عبروا البحر المتوسط، ووصلوا إلى روما، وحصلوا على رسائل من البابا لوسيوس، فيها رجاء لملك انكلترا بالموافقة على طلبهم.

وصول البطريرك هرقل إلى انكلترا وإعلامه الملك هنري بانتخابه

عـام ١١٨٥م، فيه وصل هرقل بطـريرك ضريح القيـامـة المقـدس، وروجـر مقـدم الاسبتـارية في القـدس، إلى الملـك هنري، في ردنغ، وأوصلوا إليـه رسـالة البـابا، وشرحـوا له الهدف من رحلتهم، والوضع المأسـاوي لمدينـة القـدس ولجميع منطقتهـا، وأثارت الكلمات الملك والمجتمعين وجعلتهم يبكون، فقـد تفاعلت عواطفهم مـع ميلاد الرب، وآلامه، وبرج داوود، ومفاتيح الضريـح المقدس، وراية المملكة، فهؤلاء قد قدرهم الملك واحترمهم بدون حدود، وجاء محتوى رسالة البابا، بين مواضيع أخرى مايلي:

رسالة البابا لوسيوس إلى ملك انكلترا

من لوسيوس، أسقف وعبد عبيد الرب، الخ

« لما كـان سلفك قـد شهـروا فوق جميـع أمراء العـالم بالشجـاعـة في السلاح، والنبالة في العقل، تعلم النـاس من المؤمنين أن يتطلعوا نحوهم كحماة لهم في محنهم، وليس من دون مسوغ أن تقدموا إليكم، أنتم الذين ورثتم جميع فضـائل أبيكم وكـذلـك مملكتـه، في اللحظة التي بات فيهـا ليس الخطر فقط ولكن الدمـار الوشيك معلقـاً فـوق الشعب الصليبي، يطلبـون أن تتـولى بسلطانكم الملكي حماية أتبـاع المسيح، المسيح الذي سمح لكم بالوصول إلى مقام مجدكم الرفيع الحالي، وجعلكم سور دفاع ضد الذين يهاجمون اسمه بشكل شرير، فضلاً عن هذا ليكن معروفاً من قبل سموكم بأن صلاح الدين ذلك المعذب الشرير لاسم المصلوب، قد بلغ حداً خطيراً من العمل العدواني ضـد صليبيي الأرض المقدسة، وأنه إذا لم يضبط عـدوانه، هو قد بات متطلعـاً لأن يصب نهر الأردن كله في فمه»، الخ.

رفض الملك هنري مملكة القدس

وبعـدمـا تسلم ملك انكلترا هـذه الرسـالة دعـا إلى الاجتماع رجـال الدين، والناس، والنبلاء التابعين لمملكته، وكان ذلك في الثامن عشر من آذار في كليركنول Clerkenwell في لنـدن، وفي أثناء اجتماع الملـــك بالبطريرك مع مقـدم الاسبتـاريـة حث بشكل مهيب جميع أفـراد رعيتـه المخلصين، أن يعلنوا عـن الذي يرونـه مفيـــداً لخلاص روحـــه بشأن الموضـوع المعـروض أمامهم، مضيفـاً أنه مصمم بشـدة في عقله الأخـذ بالنصيحـــة التي ســـوف يقـدمـــونها، وتولى المجلس كلـه فحص الذي سمعوه، فـرأى أنه من الأسلم والأفضل لخلاص روح الملك هو حكمه لمملكته كلها باعتدال صحيح، والدفـاع عنها ضد غارات البرابرة، وهذا خير من أن يتولى بشخصـه الاشراف على مصالح شعب الشرق، لكنهم لم يتـوصلوا إلى أي قـرار، فيما يتعلق بأولاد الملك، الـذين كـانوا غيـاباً، والذين طالب بطـريرك القـدس بارسـال واحـــد منهم إلى القــدس، إذا مارفض الملك الذهاب شخصياً.

ورسم في هذا العـام نفسه جـون ابن الملك فارسـاً بنطاق، وذلك من قبل أبيه في وندسور، في اليوم الأخير من آذار، وبعد ذلك عبر الملك إلى ايرلندا، ثـم إن الملـك عبر مع البطريرك إلى نورمـــاندي، واحتفل بعيـــد الفصح في روان، ولدى سماع ملك فـرنسـا بوصول ملك انكلترا، جـاء مسرعـاً تماماً إلى فـودرويل Vaudreuil حيث أمضى الملكان ثلاثة أيام من المحادثات العادية، وحمل كثير من النبلاء الصليب بحضورهما، لكن الملكين نفسيهما وعدا بأنهما سـوف يرسلان مساعـدة سريعة إلى الأرض المقدسة، لأنهما اعتقدا أنها سوف لن تكون مسألة سهلة القيام بمثل هذه المغامرة المهمة من أقصى حدود الغـرب، وخابت آمال البطريرك بالنسبة لهدفه، وحبطت آماله، فعاد إلى بلاده.

وفي العام نفســه، قتل هيوج دي لاسي، الذي كـان صاحب مقـاطعة

اسمها ميديا(ميث Meath في ايرلندا) في الخامس والعشرين من تموز، ومات في الوقت نفسه ايرل أوف هنتنغدون من دون أولاد، فأعطى الملك الايرلية مع متعلقاتها إلى وليم ملك اسكوتلندا، وأيضاً جرت سيامة غيلبرت دي غلانفيل رئيس شمامسة ليوكس Lisieux أسقفاً لروكستر في التاسع والعشرين من إيلول، وعاد هنري دوق سكسوني— بإذن من الامبراطور— إلى وطنه، وأقنع نفسه وأرضاها بميراثه الأبوي الخاص.

بلدوين رئيس أساقفة كانتربري يتسلم الطيلسان والسلطات الشرعية

عام ١١٨٦م، فيه تلقى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري الطيلسان مع التفويض الشرعي، والسلطة على المقاطعة التي يحكمها، وكذلك جرت سيامة وليم دي فير Vere أسقفاً لهيرفورد، وكان ذلك في يوم عيد ميلاد القديس لورانس، ومات في العام نفسه غيوفري كونت بريتاني، وابن ملك انكلترا في التاسع عشر من آب، وقد دفن في باريس في كنيسة نوتردام في سدة الرهبان النظاميين، وقد خلّف ابنتين من زوجته كونستانسي ابنة كولون الذي كان من قبل كونت بريتاني، وقد ولدت بعد وفاته ولداً أعطي اسم آرثر، وفي العام نفسه، تمت سيامة هيوج أوف بيرغندي، رئيس رهبان طائفة الكارثوسيين Carthusian في انكلترا، أسقفاً للنكولن، وكان ذلك في يوم عيد القديس متي، وفي اليوم نفسه جرت أيضاً سيامة وليم دي نورهيل Norhale أسقفاً لووركستر Worcester، ومات البابا لوسيوس، وخلفه أوربان، وتمت سيامة جون قائد جوقة المرتلين في اكستير أسقفاً لتلك الكنيسة.

البابا أوربان يمنح إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري إذناً لبناء كنيسة في أكنغتون

وفي تلك الآونة، كتب البابا أوربان إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري كما يلي:« نحن نعلمكم بوساطة هذه التقديمات، بأنكم تمتلكون الإذن ببناء كنيسة على شرف الشهيدين المباركين: اسطفان، وتوماس، وبتزويدها بأشخاص مناسبين ليكونوا مرتبطين بها، وعليك أن تعين لهم جميع مايحتاجون إليه للحفاظ عليها، وذلك وفقاً للكيفية التي سوف تعينهم بها، كما أن جميع التقدمات التي تعمل عند آثار القديس توماس الشهيد، تكرس ربع ذلك لاستخدامات الرهبان، وربع من أجل أعمال الكنيسة، وربع للفقراء، والربع المتبقي للاستخدامات التي تراها مناسبة.

تتويج سيبيلا ملكة على القدس

ومات في تلك الآونة، بلدوين الملك الطفل للقدس، ولم يكن هناك من يخلفه إلى العرش سوى سيبيلا، زوجة غي كونت يافا، وأخت الملك المجذوم، وأم الملك الطفل، الذي توفي آنذاك، وبما أن الهدنة بين صلاح الدين وبين الصليبيين كانت على وشك الانتهاء، باتت حماية المملكة في حالة حرجة، وأنها سوف تتحطم بعد وقت قصير، لأنها ماعادت تحتمل التأخير، وبناء عليه عقد اجتماع للنبلاء، وتم الاتفاق على وجوب تتويج سيبيلا زوجة غي ملكة، لأنها وريثة المملكة، وجرى رفض غي على أساس أنه غير أهل للحكومة، ورفضت سيبيلا الملك على أساس هذه الشروط، حتى يوافق النبلاء على منحها حق اختيار الرجل الذي سوف يكون زوجها، وأقسموا على إطاعته كملك، وطلب منها غي عدم اهمال العناية بالمملكة من أجله، وهكذا جرى بعد عدة أيام من التأخير قبول سيبيلا ورضوخها وهي تبكي، وتوجت ملكة بشكل مهيب، وتلقت الولاء من جميع الناس، في حين جرى تجريد غي في اللحظة نفسها من زوجته ومن تاجه، وعاد إلى قومه، وانتشر في الوقت نفسه تقرير، مالبث أن تأكد بوساطة الحقائق، عن اقتراب عدوان صلاح الدين، وبناء عليه

استدعت الملكة رجال اللاهوت لديها مع نبلائها المدنيين، وتباحثت معهم حول اختيار ملك، وكما حدث من قبل أن سمحوا لها جميعاً باختيار من ترغب به، وتطلعوا بقلق إلى الاختيار الذي سوف تعمله، فقالت لغي الذي كان واقفاً بين الآخرين:« مولاي غي، لقد اخترتك لتكون زوجاً لي، وأعطيتك نفسي ومملكتي، ولأن تكون الملك المستقبلي»، واعترت الدهشة الجميع بسماع كلامها، وعجبوا كيف أن امرأة بمثل هذه البساطة، قد خدعت مثل هذا العدد الكبير من المستشارين العقلاء، وفي الحقيقة جاء تصرفها جديراً بالثناء الكبير، بسبب كل من عدالته وحكمته، لأنها أبقت التاج لزوجها، وأبقت زوجها لنفسها.

وحدث في تلك الآونة زلزال مخيف، حتى انكلترا التي نادراً ماشهدت مثل هذه الأشياء، قد هدمت فيها عدة بيوت، وحدث أيضاً أن أم صلاح الدين، كانت على طريق عودتها من مصر إلى دمشق مع حاشية كبيرة وفخمة، وقد عبرت من خلال الأراضي الصليبية الواقعة على الطرف الآخر من نهر الأردن، وكانت واثقة بالهدنة، ولكن أرناط(رينودي شاتليون) هاجم الجماعة واستولى على كل ماهو ثمين كان معهم، وتمكنت أم صلاح الدين من النجاة بالفرار، وغضب صلاح الدين لما حدث، وطالب بإعادة المنهوبات، وبترضيته، وفقاً لشروط معاهدة الهدنة، ولدى مطالبة أرناط برد المنهوبات، ردّ بقسوة وبجواب مهين، وبناء على ذلك ابتهج صلاح الدين إلى أبعد الحدود لأن الصليبيين كانوا أول من خرق المعاهدة، وأعدّ نفسه للحرب وللانتقام، [وفي العشرين من كانون الثاني حمل ملك فرنسا وانكلترا الصليب].

صلاح الدين يشعث الأرض المقدسة

عام ١١٨٧م، فيه حشد صلاح الدين وهو يتحرق غضباً ضد الصليبيين: الفرثيين، والبداة، والترك، والمسلمين، والعرب، والميديين،

والأكــراد، وشعث جميع الأرض المقـدســة، ولم يقتنع باحتــلال بعض الحصون الصغيرة في الجليل، بل أعد نفسه لحصار جبل الجمجمة(أكرا)، وزحف إلى هناك مع مختلف أنواع الآلات الحربيــة، وتمكن وهو على طريقـه من انزال الهزيمة بكتلة كبيرة من الصليبيين، وقتل المقـدم الأعلى للداوية مع ستين من فرسان الداوية، وتحمس بهذا النجاح، فتابع العمل ومتـابعة الحصـار، ولدى سماع ملك القدس بأن المدينة [مـدينة طبـرية] قـد حـوصرت، والسكان قـد ضغـط عليهم بشـدة، أعلن النفير العـام وبوساطتـه حشد جميع قوات مملكتـه، ولم يترك أحداً إلا العـاجزين عن القتـال، بسبب عمـرهم أوجنسهم، وقد أبقـاهم للدفـاع عن الحصــون، وكـان موضع الاحتشـاد هو نبع الصفـورية، وعندما زحفـوا من هناك، وصل تعـدادهم إلى عشرين ألف مقاتل، وجـرى تعيين ريموند كـونت طرابلس قائداً أعلى لهم، وانطلقوا نحـو طبرية، وعندما حل يوم المعركة الحاسمـة رأى حاجب الملـك في منامه، بأن نسراً قسد طار فـوق معسكر الصليبيين، وهو حامل في مخالبه سبعة أسهم، ويصرخ عاليا:« الويل لك ياقدس، الويل لك يـاقدس»، وفي ترجمة لهذا الحلم وشرح له، يكفي أن نتذكر كلمات الروح القدس التي تفـوهت بها على لسان النبي في قوله:« فوّق الرب قوسه، وفيه أعدّ وريد الموت».

صلاح الدين يستولي على مدينة القدس ويأسر الملك شخصياً

ولدى سماع صــلاح الدين باقتراب الملـك لرفع الحصـــار، زحف بشجـاعـة لمواجهـة الصليبيين، مـدركـاً بأنهم قـد أنهكوا بضيق الطريق وقسـوة الصخــور، وليس بعيـداً عن طبرية، وفي مكـان اسمـه حطين، انقض على جيش الملك وهو واثق من النجـاح، وقد تلقـاهم الصليبيون بشجـاعـة وذلك بقـدر ماسمحت لهم طبيعـة الأرض، واشتـد القتـال، وحمي الوطيس، وسقطـت أعــداد من على الجانبين، إنما أخيراً، وبسبب آثام الصليبيين، انتصر الأعــداء لأنهم— كما يقــولون— أنزل كـــونت

طرابلس — الذي كـان يقـود الجيـش — علمـه بشكل خيـاني، وجعل جنوده يفكرون بالفـرار، علما بأنه لم يكن أمـامهم سبيل للفـرار، إلاّ من خـلال الأعـداء، ووقع الملك غي بالأسر، وتمّ الاستيـلاء على الصليب المقـدس، وتعـرض الجيش كله إمـا للقتل بالسيـف، أو للأسر من قبل الأعـداء، وذلك باستثناء كونت طـرابلس، الذي من المعتقد أنه خـانهم، ونجا أيضا اللورد رينالد حاكم صيدا، واللورد بالين مع عدد ضئيل من فرسان الداويـة، وكان القتال في هذه المعركة المأسـاوية، في يومي الثالث والرابع من تموز، في الأيام الثمانيـة للقـديسين: بولص، وبطرس، ونجـا مقدم الداوية من هذه المأساة، إنما مع خسـارة مائتين وثلاثين من رهبانه الفـرسـان، وكانت نجـاة كـونت طرابلس دون الاصـابة بجـراح برهاناً للافتراض بأنه خان الجيش، وتمكن العدو من قهر الصليب المقدس، مع أسقف عكا، ورئيس جـوقـة المرتلين في ضريح ربنا، أمـا الأسقف فقـد قتل، وأمـا رئيس الجوقـة فقـد وقع بالأسر، ومثله حـدث للصليب المقـدس، وهـو الذي كـان من قبل قـد جـرى تحريـره من قبل من نير الأسر، قـد اتخذ الآن أسيراً بسبب ذنـوبنا، وبذلـك تدنس بـأيدي غير المسيحيين.

كيف جرى اخضاع المدينة المقدسة وتقريباً جميع المملكة لصلاح الدين

وبعد حصول صلاح الدين على هذا النصر، رجع إلى طبرية، وبعدما استـولى على القلعة التي كـانت قـد بقيت مستعصية عليـه، أرسل الملك وأسراه إلى دمشق، ثـم إنه دخـل إلى الجليل، فلـم يجد أحـداً يعترض سبيله، فاستولى عليهـا من دون سفك للدماء، وتابع من هناك زحفه إلى القدس، ونصب آلات رميـه في جميع الجهات من حول الأسـوار، وأقام سكان المدينة من الـدفـاعـات الذي استطـاعـوا اقـامتـه، لكن قسيهـم، وقسيهم الزيارة وآلات رميهم للحجـارة قـد تكدست من دون فـائـدة،

وتجمع الناس وهم مرعوبين حول البطريرك وحول الملكة، التي كانت تحكم المدينة في ذلك الوقت، وطالبوا الدخول بمباحثات مع صلاح الدين من إجل تسليم المدينة، وتلا ذلك عملية استسلام تستحق البكاء ولاتستاهل الوصف، وقضت الشروط أن يدفع كل رجل عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والطفل دينار واحد، لكن كان في المدينة أربعة عشر ألفاً من الجنسين كانوا غير قادرين على دفع هذه الفدية، وبذلك نزلوا إلى درجة العبودية الدائمة، وبذلك استسلمت مدينة القدس إلى أعداء المسيح، وسقط الضريح في أيدي الذين كانوا يعذبونه، وهو المكان الذي دفن فيه، وصار الذين يدنسون المصلوب متملكين لصليبه، ودخل صلاح الدين إلى المدينة مع أصوات الطبول والأبواق، وبادر مسرعاً إلى الهيكل، فأزال الصليب الذي كان مبنيا هناك، وجميع الأشياء التي نظر الصليبيين إليها نظرة احترام، ثم إنه أمر بغسل الهيكل بماء الورد من الداخل ومن الخارج، وبإعلان النداءات المتعلقة بدينه في زواياه الأربع، وتركت كنيسة القيامة مع ضريح ربنا في أيدي بعض السريان مقابل دفع جزية مقررة، ثم تابع صلاح الدين زحفه واستولى على بقية المدن والبلدات، باستثناء عسقلان، وصور، والكرك، الواقعة فيما وراء الأردن، والتي تعرف باسم آخر هو مونتريال(كذا ومونتريال هي الشوبك).

البابا يمنع بناء كنيسة أكنغتون

وكتب في هذه السنة البابا أوربان إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري بالصيغة التالية:« إلى أولادنا الأعزاء، ورئيس الرهبان ورهبان كنيستك، لقد أرسلتم لنا رسائل حول موضوع الكنيسة التي شرعتم بعمارتها، ذاكرين أنه مالم يتم التوقف عن متابعة العمل فإن سمعة وأوضاع كنيستهم سوف تتضرر كثيراً، وبناء عليه رغبة منا وحرصاً بأن لاينشب خلاف بينكم وبين إخوانكم، وبما أنكم لن تستطيعوا القيام بشكل

صحيح بأداء واجباتكم المقدسة عندما ينشب خلاف بينكم أنفسكم، وبناء على نصيحة إخواننا، نحذر، ونأمر بدقة إخوتكم، أنه حتى نقرر انطلاقاً من أسباب معروفة من قبلنا، الذي ينبغي عمله بشأن هذه المسألة، أن تضعوا جانباً جميع مناسبات الالتماسات، وتتوقفوا عن أعمال بناء تلك الكنيسة، حتى يجري منحكم رسائل من الكرسي الرسولي، بعدم معارضة ذلك».

ومات في العام نفسه البابا أوربان، وقد خلفه غريغوري، وأيضاً بعدما شغل هذا الكرسي لمدة شهرين مات، فجرى تعيين كليمنت الثالث في العشرين من كانون الأول، وفي هذا العام أيضاً دفع غيلبرت، أسقف لندن، دين الطبيعة، وسمع في العام نفسه رتشارد، كونت أوف بواتو، بأنباء الكارثة في الأرض المقدسة، والاستيلاء على الصليب، فقام على الرغم من نصيحة أبيه وارادته بحمل شارة الصليب، فكان بذلك أول نبلاء ماوراء البحر بفعل ذلك، وقد تلقى هذه الشارة من يدي رئيس أساقفة تور.

كيف حمل كثيرون الصليب بناء على التبشير بالحملة الصليبية

عام ١١٨٨م، فيه حمل فردريك امبراطور الرومان شارة الصليب، بناء على تبشير هنري أسقف ألبا Alba ، الذي كان نائباً للكرسي الرسولي، والذي كان قد أرسل من قبل البابا كليمنت، وفي الوقت نفسه توجه كل من فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا للاجتماع في مؤتمر في نورماندي بين تراي Trie وغيسور، وذلك من أجل تقديم المساعدة إلى الأرض المقدسة، وقد قاما بعد كثير من المداولات بالاتفاق، أمام فيليب كونت أوف فلاندرز وبحضوره، بشكل متبادل ومتضامن، على حمل شارة الصليب والاسراع برحلتيهما معا إلى القدس، وبناء عليه، كان ملك الانكليز أول من حمل شارة الصليب من يدي رئيس أساقفة الرايمز، ووليم الصوري، ووليم هذا كان البابا قد عهد

إليه بوظيفة النائب البابوي للمسائل الصليبية في غربي أوربا، وبعد هذا أخذ أيضاً ملك فرنسا وفيليب كونت فلاندرز الصليب، وكان المثل الذي أظهروه هكذا وضربوه قوياً وفعالاً، لذلك تناول الصليب في مملكتي وممتلكات الملكين المتقدمي الذكر بحماس، كل من رؤساء الأساقفة والأساقفة، والدوقات، والمراكيز، والكونتات، والبارونات، والعساكر، والناس من الطبقتين الوسطى والدنيا سواء، وتمّ الاتفاق بين الأمراء على أن يرتدي جميع الفرنسيين صلباناً من اللون الأحمر، والانكليز من اللون الأبيض، وأتباع كونت فلاندرز صلباناً من اللون الأخضر، أما بالنسبة لممتلكاتهم، فقد تمّ الاتفاق على أنه حتى انجاز حجهم، وبعد إمضاء كل واحد منهم أربعين يوماً في بلاده، فإن جميع الأشياء سوف تبقى كما كانت قبل حملهم للصليب.

كيف نأت عواطف رتشارد كونت أوف بواتو عن أبيه

في هذه الآونة، قتل غيوفري أوف ليزنياك Liziniac بشكل خياني واحداً من أصدقاء رتشارد كونت أوف بواتو، وثار الكونت من أجل الانتقام لهذه الجريمة، ولجأ إلى السلاح، لكنه تذكر شارة الصليب التي حملها، فوفر حياة الذين كانوا راغبين بحمل شارة الصليب من أتباع غيوفري، أما البقية فقد قتلهم، وأخضع عدة قلاع، وكان غيوفري يعتمد على الأموال والمساعدات— التي قيل— بأن ملك انكلترا كان يرسلها له، ولذلك قام بمقاومة الكونت رتشارد، إنما مع قليل من النجاح، وأبعدت هذه الظروف عقل الكونت عن أبيه، وبعد اخضاع غيوفري، كان الكونت قد أصيب بجراحة على يدي كونت طولوز، ولذلك غزا أراضي هذا النبيل، وأخضع في وقت قصير سبع عشرة قلعة، وغضب ملك فرنسا لمهاجمة رتشارد لأراضي كونت طولوز من دون معرفته، فقام بشكل سري بمهاجمة قلعة رالف، وأرغم جميع الذين كانوا هناك على تقديم ولائهم له، وبدا هذا مخلاً كثيراً بالشرف من

جانب مثل هذا الأمير العظيم، خاصة وأن ملك انكلترا عندما كان على وشك العبور إلى انكلترا، قد عهد بالعناية بأراضيه إلى الملك الفرنسي، وحقق بعد هذا الملك الفرنسي صداقة بعض المتملكين للقلاع التي كانت خاضعة لملك انكلترا، وكان ذلك بعضه بالوعد، وبعضه الآخر بالوعيد، وهكذا بإغواء من الشيطان، نشبت الخلافات بين الملكين، اللذان قاما بعد حملهما للصليب بانزال جراحات متبادلة، كل على الجانب الآخر، وغزا أخيراً الملك الانكليزي المملكة الفرنسية، وأحرق كامل المنطقة الممتدة من فيرنويل Verneuil إلى ميودان Meudan، ومات في هذا العام رتشارد أسقف وينكستر في الثاني والعشرين من كانون الأول، ودفن في وينكستر.

رسالة فردريك الامبراطور الروماني إلى صلاح الدين

وكتب في هذا العام الامبراطور الروماني فردريك إلى صلاح الدين، فيما يتعلق بالأرض المقدسة، الرسالة التالية:

«[نحن] فردريك، بنعمة الرب امبراطور الرومان، المهيب الدائم، والمنتصر المجيد على أعداء الامبراطورية[والحاكم السعيد للمملكة كلها]، إلى صلاح الدين اللامع، وحاكم المسلمين، عله يتعظ بفرعون، ولا يلمس القدس.

لقد تسلمنا الرسائل التي أرسلتها حضرتكم إلينا منذ وقت طويل مضى، حول مسائل ثقيلة وهامة، كان من الممكن أن تستفيد منها، لو أمكن الاعتماد على كلامك، الذي بات واضحاً لجلالتنا، وكنا على نية الاجابة على اتصالاتكم برسالة تليق بعظمتكم، لكن بما أنك الآن دنست الأرض المقدسة، التي هي خاضعة لحكمنا بموجب التخويل من الملك السرمدي، وبحكم كوني الوصي على اليهودية، والسامرة وفلسطين، فإن هذا يدفع مقامنا الامبراطوري للمبادرة بالزحف ضد

أعمال الاغتصاب المجرمة والشريرة بكل سرعة وفعالية، وبناء عليه، إنك مالم تقم قبل كل شيء، بإعادة الأرض التي استوليت عليها، وبإعطاء تعويضات مرضيه، تتوافق مع القوانين المقدسة، من أجل هذه التجاوزات العدوانية، ولكي لانظهر بإثارة حرب غير شرعية، فإننا نعطيك مهلة من الأول من تشرين الثاني، مقدارها اثني عشر شهراً، وإنك بعدها سوف تجرب حظ الحرب، في ميدان صوعن، وذلك بفضل الصليب المانح للحياة، وباسم يوسف الحقيقي، لأننا لايمكن أن نصدق إلاّ بصعوبة بالغة أنك جاهل بها تحدثت عنه الكتابات الماضية والقديمة وشهدت عليه، فهل يمكنك أن تدعي أنك لاتعرف بأن كل من الأحباش، والموريتانيين، والفرس، والسكيزيين، والفرثيين كانت بلادهم هي التي لاقى فيها قائدنا ماركوس كراسيوس موتاً قبل أوانه، وأن اليهودية والسامرة والعربية، والجزيرة، والعراق، ومصر هي[من المخجل القول أن مواطناً رومانيا هو أنطونيوس، الرجل الذي تمتع بفضيلة واحدة، لأنه تجاوز حدود ضبط النفس، وعمل ضد ماكان ينبغي عمله بحكم كونه جنديا أرسل من قبل دولة عظيمة، قد أخضعها لحبه غير الطاهر لكليوبترا، وهل يمكنك أن تدعي أنك لاتعرف بأن] أرمينيا مع بلدان أخرى لاتحصى هي خاضعة لسلطاننا؟ فهذا أمر معروف بشكل جيد بالنسبة إلى أولئك الملوك الذين غالبا ماتلطخ السيف الروماني بدمائهم، وأنت شئت أم أبيت سوف تعلم بالتجربة قدرة نسورنا المنتصرة، وستصبح عارفاً بعساكرنا المكونة من عدد كبير من الشعوب منها: الغاضبين الألمان، والشرسين من الراين، والشباب من ضفاف الدانوب، الذين لايعرفون كيف يفرون، والبافاريين أهل الأبراج، والسوابيين البارعين، والفرنجة الحذرين، وأهل سكسوني الذين رياضتهم هي استخدام السيف، والتورنجيين، والوستفاليين، والبربانتيين النشطين، واللوريين الذين غير معتادين على السلام، والبيرغنديين الحادين، وسكان جبال الألب الرشيقين، والفريزونيين مع

خناجـرهم وأسـواطهم، والبـوهيميين الجاهزين دومـاً لموت شجـاع، والبـولونيين الأشجع من أشجع الحيـوانات المفترسـة، وأهالي: النمسـا، وستيريا، وروانيا، واستيريا، ورروكمفيا، وإليريا، ولومبارديا، وتوسكانيا، وتخوم أنكونا، والبنادقة أصحاب الادارة، والبيازنة البحارة، وأخيراً، من المؤكـد أنك سوف تتعلم كيف أن يميننا— التي تفـترض أنها ضعفت بسبب تقـدم السن— مـاتزال قـادرة على استخـدام السيـف، في ذلك اليـوم، الذي هو يوم الاحـترام والسـرور، الذي تقـرر من أجـل نصر قضـية المسيح».

جواب صلاح الدين إلى الامبراطور فردريك

« إلى الملك الكبير، والصـديق المخلص، فردريك اللامع ملك ألمانيـا: بسم الله الرحمن الرحيم: الحمـد لله الواحـد الأحـد، القـادر، والقـاهر، والباقي، الذي ليس لملكه من نهاية.

نحمـده دومـاً، الذي نعمتـه على العـالم كله، وندعـوه لينزل شـآبيب رحمتـه على جميع أنبيائـه، وخـاصة على معلمنـا، رسوله النبي محمـدﷺ، الذي أرسله بالـدين الصحيح الذي سيظهـره على الـدين كله، ونود أن نعلم الملك المخلص والقـوي، الذي هو صـديقنا اللطيف، ملك ألمانيـا، أنه قـد وصل إلينا رجل اسمه هنري، ادعى أنه رسـولكم، وأعطى إلينا رسـالة، قـال بأنها من يدكم، ولقـد أمرنا بقـراءة الرسـالة، وسمعنا منه كلاما تفوه به، والكلام الذي تفوه به جاوبناه أيضا بكلام، وإليكم الآن جـواب رسـالتكم: لقـد عـددتم الذين تحالفـوا معكم للقـدوم ضـدنا، وسميتهم، وذكرت اسم هذه البـلاد، واسم تلك البلاد، وهذا الكونت، وذلك الكونت، وبينت وجـود كذا من رؤسـاء الأساقفـة، والمركيزات، والفـرسـان، وإذا مـارغبنا أن نعـدد الذيـن هم في خـدمتنـا، والذين يستجيبـون لأوامـرنا، والذين يطيعـون كـلامنـا، والذين سيقـاتلون من أجلنا، لطالت القـائمـة حتى لايمكن وضعهـا كتـابة، وإذا مـا أحصيت

عـدد أسماء المسيحيين، فإن عـدد المسلمين أكبر مـن عـددهم، لابل هم ضعف أضعـاف المسيحيين، وإذا كـان البحـر يقـوم بيننـا وبين الذين سميتهم مسيحيين، ليـس هناك من بحـــر يفصـل بين المسملين، الذي لايمكن تعـدادهم، وبيننا وبين الذين سيقـدمـون لعـوننا ليس هناك من عـوائق، ويوجد لدينا البـداة، البـداة، البـداة، الذين سيكون بهم وحدهم كفـاية لمواجهة أعـدائنا، والتركمان، الذين يمكنهم من دون مساعـدة تدميركم، حتى فـلاحينا، إذا مـاأمـرناهم، فإنهم سـوف يقـاتلون بشجـاعـة ضـد الشعـوب التي ستأتي لغـزو بلادنا، ولسـوف تسلبهم ثرواتهم، وتفنيهم، أوليس لدينا في جانبنا العسـاكر الذين يحبون القتـال، والذين بوساطتهم فتحنا البـلاد وحصلنا عليهـا، وأخـرجنا أعـداءنا وطـردناهم؟ وهؤلاء جميعا وكل الملوك المسلمين لن يتأخروا عندمـا نحشدهم، ولن يتقاعسوا عندمـا نستـــدعيهم، وعندمـا سيتـم حشـد عسـاكـرك، كما ذكـرت في رسـالتك، ولدى قيـامك بقيـادتهم، كما أخبرنا رسـولـك، فإننا سـوف نواجههم بقدرة اللـه، كما أننا لن نكتفي بالأراضي القائمـة على شاطىء البحر، بل سوف نعبر نحوكم— بمشيئة الله— ونأخذ منكم أراضيكم، بعون الله وقدرته، لأنك إن كنت ستقدم، سوف تقدم مع جميع قواتك، ونحن نعلم أنه لن يبقى في وطنك أحـد للدفـاع عن أنفسهم أو للقتـال من أجل بلادهم، وعندمـا سيعطينا الله بقـدرته النصر عليكم، لن يبقى لنا من عمل نقـوم به ســوى الاستيـلاء على أراضيكم، بقـدرته تعـالى، ومشيئته، لأن المسيحيين المتحـدين قد جاؤوا مرتين ضـدنا في مصر، مرة إلى دميـاط، وثانية إلى الاسكنـدرية،[وكان هناك أيضـاً في سـاحل بلاد القدس أراض بيد المسيحيين، وفي بلاد دمشق، وفي بلاد المسلمين، وكان في كل حصن صـــاحب له عــرف مصـــالحه]، وأنت تعـرف كيف أن المسيحيين قد عادوا في كل مرة، وإلى أية نتـائج قد وصلوا، هذا ويحتشد قـومنا ويجتمعون مع بعضهم في بلادهم، وقـد زود الله بلادنا بالوفـرة، ووحـدها بـالطول والعـرض تحت سلطاننا، فبـلاد مصر مع متعلقـاتها

وبلاد دمشق، وساحل القدس، وأرض قيسارية مع قلاعها، وبلاد الرحبة مع متعلقاتها، وبلاد الهند مع متعلقاتها، هي بنعمة الله في أيدينا، وبقية ملوك المسلمين هم في سلطنتنا، لأننا إذا ما أردنا أن نأمر الملوك اللامعين للمسلمين فإنهم لن يتخلوا عنا، وإذا ماحثثنا خليفة بغداد[حفظه الله] للقدوم إلى عوننا، فلسوف ينهض عن سرير دولته العظمى ويقدم لمساعدة سعادتنا، يضاف إلى هذا، نحن تملكنا بفضل عون الله القدس وأراضيها، والمتبقي هناك هو ثلاثة مدن بأيدي المسيحيين هي: صور، وطرابلس، وأنطاكية، والذي بقي علينا هو وجوب احتلالهم أيضاً، وإذا كنت تريد الحرب، وإذا كان الله قد أراد لنا أن نحتل جميع بلاد المسيحيين، فإننا سوف نلقاك بمشيئة الله، كما قد كتب في رسالتنا، ولكن إذا كنت تطلب منا سلاماً حقيقيا، فما عليك إلاّ أن تأمر أصحاب هذه الأماكن المذكورة أعلاه، بتسليمها لنا من دون مقاومة، ونحن بالمقابل سوف نعيد إليكم صليب الصلبوت، وجميع الأسرى المسيحيين في بلادنا كلها، وسوف نكون بسلام معكم، ولسوف نسمح لكم بوجود كاهن واحد في الضريح، ولسوف نعيد الديرة التي كانت موجودة في أيام المسلمين، وسنحسن إليهم، وسنسمح للحجاج بالوصول خلال حياتنا، وسنكون في حالة سلم معكم، وإذا كانت الرسالة، التي وصلت إلينا على يدي هنري، هي رسالة الملك، فقد كتبنا هذه الرسالة جواباً لها، وكتبت هذه الرسالة في سنة ٥٨٤ لهجرة نبينا محمدﷺ بفضل الله الواحد[وحفظ الله نبينا محمدﷺ وأمته، وحفظ الله حياة وسلامة مخلصنا، مولانا اللامع، والملك المنتصر، ومعطي الوحدة، والكلمة الصادقة، والحامل للواء الصدق والمتمسك به، مقوّم العالم والشريعة، سلطان الاسلام والمسلمين، خادم الحرمين الشريفين، والحرم القدسي الشريف، أبو المظفر الناصر يوسف بن أيوب، محيي ذرية المروانيين».

كيف أطلق سراح غي ملك القدس من الأسر

وجرى في هذا العام اطلاق سراح غي ملك القدس، من الأسر من قبل صلاح الدين، وذلك بعدما بقي في الأسر لمدة عام، وجاء اطلاق سراحه على شرط خلع نفسه عن ملكه، والذهاب فوراً إلى المنفى فيما وراء البحار، غير أن رجال الدين في المملكة كانوا يرون بأن هذه الاتفاقية ينبغي أن تعد لاغية، وأن مصداقية العهد لايجوز الحفاظ عليها في الحالة التي يكون فيها الدين في خطر، ومادامت أرض الميعاد ليس فيها أمان، لأنها ليس لها رأس أو حاكم، وليس للحجاج الممكن وصولهم قائد، ولايوجد للناس من يحميهم، وباطلاق سراح الملك، نجد أن كثيراً من الحجاج الذين كانوا قد وصلوا مؤخراً، أخذوا يحتشدون مع شعب البلاد، وقد شكلوا جيشاً كبيراً، وقد رغب هؤلاء بدخول صور، لكن المركيز رفض السماح لهم، مع أن المدينة قد عهد له بها على شرط، أنها بناء على طلب الملك والورثة للمملكة، أن تعاد إليهم، وعلى كل حال إنه عند وفاة المركيز، التي كانت بعد أيام قليلة توقف هذا الاضطراب، ومات أيضاً في الوقت نفسه ريموند كونت طرابلس، الذي إليه عزيت مأساة أرض الميعاد كلها، ولهذا السبب، لم يتلق— كما قيل— الطقوس الأخيرة للمسيحية في ساعة موته.

وبعد هذه الوقائع أخذ الملك طريقه نحو عكا، وذلك مع جيشه الذي تألف من بارونات المملكة، الذين ظلوا مرتبطين به، وذلك بالاضافة إلى الداوية والاسبتارية، والبنادقة الذين وصلوا مؤخرا، وكذلك الحجاج من جنوا، وتجاوز تعداد كامل عساكره التسعة آلاف رجل، ووصل ملك القدس، إلى قرب المدينة، فأمر عساكره بتسلق جبل بين الجبال هناك، وهو جبل بسبب استدارته، ولأنه شابه البرج في قمته أطلق عليه اسم تورون Turon (تل المصلبين)، وارتفع هذا الجبل بشكل شاهق على الجانب الشرقي من المدينة، وامتد على شكل دائرة

ناشرة نفسها فوق السهل، وفي اليوم الثالث لوصول الصليبيين، ألقوا الحصار على المدينة، الذي لم يخفف حتى أيام الاستيلاء عليها من قبل فيليب ملك فرنسا، ورتشارد ملك انكلترا، وتحمس عامة الجند كثيراً، إلى حد أنهم لم ينتظروا وصول الملكين، بل تقاطروا واحتشدوا من جميع الجهات للخدمة في جيش الرب.

كيف تراجع صلاح الدين من عكا باضطراب

وقام ملك القدس، وهو محاط بحشوده الضخمة من الحجاج، باصدار الأوامر إلى جميع عساكره بالنزول من تورون، وقام معهم بنصب معسكره أمام المدينة، وقدم بعد عدة أيام صلاح الدين لمواجهتهم والتصدي لهم، وأقلع مع قوة قوية بالهجوم على الصليبيين، وكأنه فكر أنه سوف يقهرهم بحملة واحدة، ولكن جيش المؤمنين الذي كان متراصاً، وكأن رجاله يقاتلون من أجل أرواحهم، تصدى بشجاعة لقوات صلاح الدين، وأعطى صلاح الدين أوامره بتطويقهم، مقدراً أنه لن يكون من الممكن لأي واحد منهم النجاة، لكن كان قد قضي عكس ذلك من قبل، الذي يسبب الاضطراب لخطط الأشرار، فبعد تحمل القتال لمدة ثلاثة أيام، والحملات من قبل المسلمين، الذين أوقعوا بهم من جميع الجهات، وعندما بدأوا يسقطون لأنهم أضعفوا من قبل الأعداء وحملاتهم، شاهدوا اسطولاً فيه اثني عشر ألفاً من الدانيين والفريزيين مبحراً بسرعة، وقد دخل إلى الميناء، وقد وصلوا — بعون الرب — بعد رحلة موفقة وارتعب صلاح الدين لدى مشاهدته لهذا المنظر مع حوادث مشابهة، فتراجع إلى الأجزاء المنخفضة من بلاده.

العائق الكبير لقضية الأرض المقدسة

وكان في هذه الآونة هناك انتكاسة كبرى بالنسبة لقضية الأرض المقدسة، وبسب الخلافات التي نشبت مؤخراً، لابل منذ أن حملوا شارة

الصليب، وهذه الخلافات التي تفجرت بين ملك فرنسا، ورتشارد كونت بواتو من جانب، وبين هنري ملك الانكليز من الجانب الآخر، وكان النزاع بينهم على درجة كبيرة من الشدة، حيث انتزع أحدهم قلاعاً من الآخر، واقترف تجاوزات كثيرة، بالقتل والاغتصاب، وأخيرا اجتمعوا من أجل السلام في مؤتمر في نورماندي، لكن الشيطان ألقى ببذور الشقاق بينهم، ولذلك افترقوا وهم متعادين.

كيف سعى جون كاردينال أوف آناجنيا لإقامة سلام بين الملكين فيليب وهنري

عام ١١٨٩م، فيه عندما كان الملك هنري مايزال مقيماً في بلاد ماوراء البحار، شعر بانزعاج كبير وبحنق كان الذي سببه له ملك فرنسا، وابنه رتشارد كونت أوف بواتو، وفي يوم الميلاد كان في سومور في أنجو، مقيماً لاحتفال الميلاد هناك، مع أن عدداً من كونتاته وباروناته قد تخلوا عنه وتحولوا إلى جانب ابنه رتشارد، وبعد عيد القديسة هيلاري خرقت المعاهدات التي كانت قائمة بين الملكين، ودخل فيليب الملك الفرنسي، والكونت رتشارد إلى مناطق ملك انكلترا، ونهبوها، وتخلى عنه البريتانيون أيضاً، والتحقوا بالكونت رتشارد، وكان البابا كليمنت مندهشاً لأن السلم لم يعقد بين الملكين، لذلك بعث بجون كاردينال آناجنيا Anagnia، مع سلطة كاملة لإزالة الخلاف من بينهما، وحاول هذا الأسقف توصيلهما إلى الاتفاق، أحيانا بالملامة، وأحيانا أخرى بالمناقشات اللطيفة، وأخيرا أعطى الملكان مواثيق وضمانات، وأقسما بالالتزام بقرار لجنة تحكيم تألفت من رؤساء أساقفة: بورغ، وروان، وكانتربري، وأن أي واحد منهما سوف يخفق في ميثاقه، بأن يجعل السلام بينهما أقل ثباتاً، أو أنه سوف يؤخر الحملة إلى القدس، فإنه سيصدر ضد الفاعل لذلك قراراً بالحرمان الكنسي، وسيجري الاعلان عن ذلك بوساطة سلطة مولانا البابا، وسوف يعدّ مدمراً لصليب ربنا،

وللديانة المسيحية كلها، واتخذ الكاردينال على الفور موقفاً ضد جميع رجال الدين والعلمانيين، حين يقرر من منهم كان السبب في ذلك الشقاق بين الملكين، وذلك باستثناء شخصي الملكين المتقدمي الذكر.

رسالة ابن المركيز فيما يتعلق بمحنة الأرض المقدسة

« من كونراد ابن مركيز مونتفرّات، إلى بلدوين رئيس أساقفة كانتربري، تحيات: اضطربت أحوال الدنيا، وإنه لخطير بالنسبة للايمان الكاثوليكي رؤية القدس وقد انفصلت عن الكرسي الرسولي، فقد أصبحت القدس جثة هامدة، وعجز الصليبين يتحدث عنه المسلمون بكل ازدراء، فلقد دنسوا ضريح ربنا، وهم الآن يدمرون الجمجمة، ويستخفون بموضع ميلاد المسيح، ولقد دمروا بشكل كامل ضريح مريم العذراء المباركة، وكرسي القسطنطينية لايبدي الاحترام لكرسي روما، وأنطاكية أيضا، كما هو معروف تعيش في رمقها الأخير، وجميع هذه الأشياء قد وقعت— كما هو معروف— بسبب تقاعس المسيحيين، هذا وتستحق مدينة القدس المقدسة كثيراً من البكاء والنواح عليها، لأنها حرمت من متعبدها، وأيضاً حيث فيما مضى، أمضى المسيح ساعات النهار والليل في الصلاة، وهناك الآن اسم محمد ﷺ هو موضع الاجلال بصوت مرتفع، وبناء عليه إنني أضع أمام سموكم صلواتي ممزوجة بالدموع، بأن تتلطفوا بمواساة آلام الأرض المقدسة، بتذكير الملوك، وبحثّ ذوي الإيمان الصحيح حتى يقوموا بطرد هؤلاء الكلاب من ميراث يسوع المسيح، وأن يقدموا المساعدة على تحريره من الأسر، وأن يخلصوا من حكم المسلمين الأرض التي مشت عليها وداستها القدمين المقدستين لمخلصنا، وبالاضافة إلى كتلة الظلم هذه والإضرار بالمسيحية، هناك صداقة مزدهرة بين صلاح الدين وامبراطور القسطنطينية، الذي إليه— كما يقال— سلم صلاح الدين جميع كنائس أرض الميعاد، وأن تمارس الطقوس المقدسة فيهم من قبل أتباعه وفقاً

للعادات الاغـريقية، فضـلاً عن هذا أرسل صلاح الدين أيضـاً بناء على موافقـة ذلك الامبراطورد وثنة إلى القسطنطينية حتى يعبـد هناك بشكل علني، لكن بفضل من الرب أسر في البحر من قبل الجنويين وجلب مع السفينة التي حملته إلى صور، وظهـر أخيراً جيش جهزه الامبراطور أمام أنطاكية، وقد وعد صلاح الدين بمائة غيلون، وأعطاه صلاح الدين جميع أرض الميعاد، إذا مامنع زحف الفرنسيين لمساعدة الأرض المقدسة، وكل واحد يقدم في القسطنطينية على حمل الصليب، يلقى به في السجن، ولقد حظينا بمـواساة واحدة هـي أن أخا صلاح الديـن وابنه أيضاً قـد وقعا بالأسر أخيراً أمام أنطاكية، وقد أودعا بالاعتقال في السجن، وداعاً».

الأسباب التي اقتادت رتشارد للثورة ضد أبيه

وعقـد في العـام نفسـه، بعـد الفصح، مـؤتمر بين الملكين في فيرت— برنارد Ferte- Bernard والتقيـا أخيراً في أيام اسبوع أحـد العنصرة، وطالب الملك الفـرنسي بوجـوب تزويج ابنتـه، أليـس الموجـودة تحت وصـاية الملك هنري، من الكونت رتشـارد، مع ضمانة لرتشـارد بعـرش انكلترا بعد وفـاته، وكذلك أن يقوم ابنه جون بتبني الصليب والمشـاركة في الحروب الصليبيـة، لأن رتشـارد لن يذهب مـن دونه، ورفض ملك انكلترا الموافقـة على هذه المقترحـات، وافترق الملكـان بغضب، وقـام الكاردينال المتقـدم الذكـر، بالتهـديد بشكل ايجابي، أنه إذا لم يعمل ملك فرنسـا والكونت رتشارد سلامـاً مع ملك انكلترا، فهو سيضع ممتلكاتها تحت الحرمان، فـرد ملك فرنسـا عليه، أنه لن يكون خائفـاً من مثل هذا القـرار الظالم، وكـذلك ليس من صـلاحيـة كنيسـة رومـا اصـدار قـرار حـرمـان ضـد الملك أو مملكة فـرنسـا، من أجل حمل السـلاح في سبيل معـاقبـة رعـايا متمـردين، وأن الكـاردينال قـد شم رائحـة البـاوندات الاستيرلنيـة لملك انكلترا، ولـذلك هو بات يشك بحكمـه الذي أفسـد بذلك، ومن جهـة أخرى نصح رؤسـاء الأساقفة والنبـلاء ملك انكلترا

بالموافقة على مطالب ابنه، قائلين إنه أمر صحيح اعطاء مثل هذا الولد النبيل والفارس الشجاع بعض الضمانات بشأن الحصول على المملكة بعد وفاة أبيه، لكن الملك رفض فعل ذلك، في تلك الأوضاع، خشية أن يقال بأنه فعل ذلك بالضغط وتحت الإكراه، وليس بإرادته الحرة، ولدى سماع الكونت رتشارد بهذه الاجابة، قدم الولاء للملك الفرنسي أمامهم جميعا، عن جميع أراضي أبيه التابعة لتاج فرنسا، باستثناء إقطاعية أبيه مادام حياً، وكذلك باستثناء الولاء المستحق لأبيه، وهكذا انتهى المؤتمر، وافترق الملكان وجميع الناس.

كيف استولى ملك فرنسا على أربع قلاع من ملك انكلترا وطرد الملك نفسه من مدينة مان

وغادر ملك فرنسا المؤتمر بصحبة الكونت رتشارد، واستولى على حصون فيرت— برنارد، ومونت فورت، وبالفيركيو Baalverque، وكانت هذه الحصون تابعة لملك انكلترا، وبقي بعد الاستيلاء عليهم أربعة أيام، ثم تابع زحفه إلى مين، وتظاهر بالذهاب إلى تور، وفي يوم الاثنين التالي، عندما اعتقد ملك انكلترا ورجاله أنهم بأمان هناك، عبأ قواته للقيام بهجوم على مدينة مان Mans، وألقى ستيفن دي تورنهام، الذي كان نائب ملك انكلترا في أنجو النار في الأحواز، فتجاوزت النيران الأسوار، وحولت المدينة إلى رماد، وبناء على هذا تابع الفرنسيون زحفهم إلى جسر حجري، حيث تصدى لهم غيوفري دي بيورلون Biurlunمع عدد كبير آخر كانوا مع من أتباع ملك انكلترا، وسعى هؤلاء إلى تدمير الجسر، ونشب قتال شديد هناك، وسقط كثيرون من على الجانبين، ووقع غيوفري بالأسر بعدما تلقى جراحة في رقبته، ووقع بالأسر عدد كبير آخر وحاول البقية النجاة إلى المدينة، فدخل الفرنسيون معهم، ويئس ملك انكلترا من المقاومة، فهرب مع سبعمائة فارس، وطارده الملك الفرنسي والكونت رتشارد لمسافة ثلاثة

أميـال، ولولا أن الجدول الذي خاضـوه لم يكن عـريضاً وعميقـاً، لكان من الممكن أخـذ جميع الفـرسـان مع حاشيـة ملك انكلترا أسرى، وقـد هلك في هذه المعـركة عـدد كبير من الويلزيين، والتجأ الملك هنري على رأس فئة قليلة إلى قلعـة تور، أمـا بقيـة رجـاله فـالتجأوا في برج مـان، وحاصر ملك فـرنسا على الفور، البرج، وتمكن جـزئياً بوسـاطة مجانيقه، وجزئيـا بوساطة لغاميـه من السيطرة على الحصن ومن كان فيـه، وكانوا يتألفـون من ثلاثين فارسـاً، وستين رجـلاً مسلحاً، فقـد استسلم هؤلاء جميعـاً، وزحف من هنـاك للاستيـلاء على مـونـت— دبل -Mont Double، وترو Trou، ودي روكـر Rocherومـونتـويري -Mon toire، وكـارسير Carciere، وشـاتو— دو— لوير -Chateau- du Loir، وشـومنت Chaumont، وأمبيـويز Amboise، وروشي— كوربون Roche - corbon، وبومونت Beaumont.

الاستيلاء على اشبيلية

وعبرت في العام نفسـه خلال البحـار البريطانية، العـديد من السفن، ودخلت باتفـاق مع حجـاج انكلترا، وقـد غـادرت دارتماوث -Dart mouth في الثامـن عشر من أيار، وكان تعـدادها سبعة وثلاثين مـركباً، محملة بشكل كثيف، ووصلت بعد أنواع من المغامرات إلى لشبونه، وقد رأى ملك البرتغال أن هذه المراكب محملة بالأسلحـة وبعساكر مسلحين بشكل جيد وجاهزين للقتال، فرجاهم تقديم العون له في الاستيلاء على مـدينة اشبيليـة، ووعـدهم بأن يعيرهم سبعـة ثلاثين غليـون وكثيراً من السفن الأخـرى، وعقـد معهم أيضـاً اتفـاقيـة، تأكـدت بالأيمان، بأنهم سـوف يحتفظون بكل ماسيجـدونه في تلك المدينة لدى الاستيلاء عليهـا من ذهب، وفضة، وأسلاب أخـرى، وأن يعطوه المدينة فقط، وبناء عليه غـادروا لشبـونة مع رياح طيبـة، وسرعان مـاوصلوا إلى ميناء اشبيليـة، حيث أوصلوا سفنهم إلى الشاطىء، ونصبوا معسكرهم، وألقوا الحصار

على الفـور على المدينة، وكـان عدد رجـالهم القـادرين على القتـال ثلاثة آلاف وخمسمائـة، وقـامـوا في اليـوم الثـالـث بهجـوم حـاد وعنيف على الأسوار، وشقـوا طريقهم بالقوة خـلال الأرباض، حيث كان هناك نبع محاط بنبع مزدوج، وله سواتر دفاعية مكونة من تسعة أبراج، ومنه كان أهل المدينة يحصلون على الماء، وقـد طمـسوا النبع بالروث والحجـارة، وارتعب سكان المدينة لانقطاع مـواردهم من الماء، فـذهب السيـد أمير المدينة إلى ملك البرتغـال، فسلم المدينة إليـه من دون معرفـة الصليبيين، وهكذا استولى الصليبيون على المدينة بهذه الصورة الرائعة، ووجدوا فيها ستين ألفـاً من الناس جعلوهم كلهم طعمـة للسيف باستثناء ثلاثة عشر ألفاً من الجنسين، وبرحمة من الـرب جـاء الحصـول على هذا النصر من دون خسـائر بين صفـوف الصليبيين، وبعـدمـا نظفت المدينة من الجيف المهترئة، كرس ملك البرتغال المسجد الكبير ليكون كنيسة على شرف أم الرب، وعين أسقفاً لها، كـان واحداً من الحجـاج الذين جاءوا إلى هناك من فلاندرز.

كيف أرغم الملك هنري على عمل سلم مع ابنه رتشارد

وقدم في العام نفسـه، في اليوم التالي لعيد القـديس بطرس، والقديس بولص، إلى سـومـور: وليم رئيس أسـاقفـة الرايم، وفيليب كـونت فـلاندرز، وهيـوج دوق بيرغنـدي، من أجل السعي لصنع سـلام بين الملك الفـرنسي وبين الكونت رتشارد، كـونت بواتو، وكان الكونت قـد ضم البريتـانيين إلى رجـال بواتو، وقد حصلـوا على رسائل مـوثقـة من ملك فـرنسا، تعهـد فيها أنه لـن يعمل سلامـاً مع الملك هنري من دون شمولهم بالمعاهدة، وألقى في الوقت نفسه ملك فـرنسا، ورتشارد كونت بواتو الحصـار على تور، وفي يوم الاثنين التـالي للعيـد المتقـدم ذكـره، وضعوا سلالم التسلق على أسوار جانب اللوار Loire ، الذي كان فيه القليل من الماء، واستولـوا على المدينة مع حاميتها التي تـألفت من تسعة

وستين فارساً، ومائة رجل مسلحين، ثم أرغموا ملك انكلترا على ابرام سلم مهين، وفق الشروط والعبارة التالية:« وضع ملك انكلترا نفسه تحت اشراف ملك فرنسا، وبالتالي كل مايراه الأخير مناسباً ليفعل، يفعله ملك انكلترا من دون مخالفة»، ثم قدم ملك انكلترا الولاء إلى ملك فرنسا، مثلما كان قد فعل من قبل في بداية الحرب، وكان بين الشروط وضع أليس أخت ملك فرنسا تحت عهدة الكونت رتشارد حتى عودته من الحج إلى الأرض المقدسة، وعند ذلك سوف تصبح زوجته، واشترط أيضاً وجوب تلقي الكونت رتشارد الولاء من رعية أبيه على طرفي البحر، وأن مامن واحد من البارونات أو الفرسان، الذين ارتبطوا خلال هذه الحرب بالكونت رتشارد، يجوز أن يعود إلى انكلترا، إلاّ في الشهر الأخير، قبل مغادرة الملك نحو الأرض المقدسة، حيث سيكون موعد ذلك في منتصف الصوم الكبير، فضلاً عن هذا عليه أن يدفع إلى ملك فرنسا عشرين ألف مارك من الفضة من أجل خدماته في مساعدة كونت رتشارد، وأن ملك فرنسا والكونت رتشارد سوف يحتفظان بمدن: مان، وتور مع شاتو— دو— لوار، وترو، حتى يتم الوفاء بالشروط المتقدم ذكرها، وبعملية الانتقال هذه بدا أن نبوءة ميرلين قد تحققت، بأن لجاماً جرى صنعه في شواطىء آرموريكا سوف يوضع بين فكيه، لأن لجاماً قد وضع بين فكي ملك انكلترا، لأن الممالك التي كان سلفه قد حصلوا عليها في أوفرين، أصبحت ممتلكات واحد آخر، لأنه أرغم الآن على التخلي لابنه رتشارد— شاء أم أبى— عن أولئك الذين هجروه، أي: غيوفري دي ميدون، وغي دوفال، ورالف دي فولتشر، وكانوا جميعاً يسكنون داخل سواحل آرموريكا، أي بريتاني، التي هناك من خلالها ممر آمن بين بريطانيا وفرنسا، من دون اللجوء إلى سواحل نورماندي.

حول مغادرة امبراطور الرومان إلى الحج

في هذه الآونة، وفي يوم عيد القديس جرجس، انطلق فردريك، امبراطور الرومان ليقوم بحجه، وجاء، انطلاقه من ريمبورغ Re- mesburg، وقد عزم على الزحف خلال هنغاريا وبلغاريا.

موت الملك هنري

وعاد الملك هنري من شينون، من المؤتمر وهو محبط تماماً، وقد لعن اليوم الذي ولد فيه، وبعد مضي ثلاثة أيام لم يعد موجوداً، فقد توفي في ثمانية عيد الرسولين: القديس بطرس، والقديس بولص، بعد حكم دام أربعة وثلاثين عاماً وسبعة أشهر وخمسة أيام، وأعدوه في اليوم التالي لحمله للدفن، وعرضوه في ملابسه الملكية، وتاجه، وقفازيه، وحذائه، وخاتمه، وصولجانه، وسيفه، وعندما كان ممدداً ووجهه غير مغطى، وعندها عندما سمع رتشارد الأخبار عن موته، فجاء ليقابل الجنازة، وقتها تدفق الدم من فتحي أنف الميت، وكأن ذلك جاء غضباً لحضور الرجل الذي من المعتقد بأنه سبب موته، ولدى رؤية الكونت رتشارد لهذا بكى بحرقة، وتبع جثة أبيه، وهو عظيم الحزن والاضطراب، إلى فونت— ايفرود Font- Evraud، حيث أمر بدفنه مع التشريف، وذلك من قبل رئيسي أساقفة تور، وتريف، وحيث كان الملك المتوفى غالباً مايقول بأن العالم كله ينبغي أن لايكون كافياً لمطامح ملك واحد، هناك نقش موضوع على قبره، قد جاء فيه مايلي:

« هنا يرقد الملك هنري، أنا الذي كثيراً من المهالك

قد أخضعت، وكنت كونتاً وملكاً.

ومع أن بلدان العالم كله لم تكن

كافية لي فيما مضى، ثمانية أقدام من الأرض، الآن

كافية لي، أيها القارىء فكر بالموت،

وانظر إليّ، كما ينبغي على جميع الناس أن يفعلوا».

وبودي أنا أن أضيف هنا في هذا المكان القوانين التي عملها الملك هنري لصالح مملكته، لولا خوفي من إنهاك صبر قرائي، وماتت في الوقت نفسه تقريبا ماتيلدا، ابنه هنري، وزوجة هنري دوق سكسوني.

كيف حصل الايرل رتشارد على دوقية نورماندي

وهكذا عندما بات الملك هنري ميتاً، قام ابنه رتشارد على الفور بإلقاء القبض على ستيفن دي تورنهام Turnham [لعل الأصح: تور] الذي كان نائب الملك في أنجو، وألقاه بالسجن. وطالبه بتسليم القلاع والأموال التي كانت بين يديه، وكانت عائدة إلى أبيه، ثم إنه احتفظ مع التشريف بكل الذين خدموا والده، والذين على اخلاصهم يمكن الاعتماد، وكافأ كل واحد منهم وفقاً لما يستحقه لطول الخدمات التي أداها إلى والده، علاوة على ذلك عندما قدم أخوه جون لرؤيته استقبله بكل تشريف، ثم أخذ الطريق بعد هذا إلى روان في نورماندي، وفي اليوم الثالث عشر قبل غرة شهر آب، قام بحضور الأساقفة، والايرلات، والبارونات، والفرسان بأخذ سيف دوقية نورماندي، وتولى هذه الرسوم رئيس الأساقفة، من على مذبح مريم العذراء المباركة، وبعد تلقي الولاء من كل من رجال الدين والناس، أكد كليا لأخيه جون تملكه لجميع الأراضي التي أعطاه إياها والده في انكلترا، وهي ملكية بأربعمائة مارك، وكل كونتية مورتين Mortaigne، ومنح كذلك إلى أخيه غيوفري، الذي كان من قبل الأسقف المنتخب للنكولن، رئاسة أساقفة يورك، وقام غيوفري على الفور بإرسال كهنته مع رسائل الدوق، واستحوذ، على رئاسة الأساقفة، ووضعها بين يديه، وطرد حراس الملك، وهيوبرت وولتر، عميد الكنيسة نفسها، الذي كان قد

جرى انتخابه أسقفاً من قبل بعض الرهبان النظاميين، وفي اليوم الثالث من حكمه، عقد الدوق مقابلة مع الملك الفرنسي، بين شومنت Chau-mont، وتراي Trie، وفي تلك الأثناء طالب ملك فرنسا بقلعة غيسور وجميع المقاطعة المجاورة، لكن بسبب أن الدوق كان مقبلا على الزواج من أليس أخت الملك، أوقف الضغط لتحقيق طلبه لبعض الوقت،ووعد الدوق من جانبه بدفع أربعة آلاف مارك زيادة على المبلغ الذي وعد به والده.

كيف أطلق الملك رتشارد سراح أمه من اعتقالها المديد

وكانت في الوقت نفسه أمه الملكة إليانور، التي أبعدت عن فراش والده، ووضعت في اعتقال مضيق لمدة ستة عشر عاما، قد تلقت الآن من ابنها الإذن بإدارة القضايا والأمور في المملكة وفقاً لرغباتها، وصدرت التعليمات إلى النبلاء باطاعتها في كل مجال من المجالات، وقامت الملكة من خلال الصلاحيات هذه التي منحت لها باطلاق سراح جميع الذين كانوا بالسجن في انكلترا كلها، عارفة من خبرتها كم هو مؤلم للانسان أن يكون بالسجن، وتحققت في هذه الأيام نبوءة ميرلين، التي تقول:« سوف يبتهج نسر المعاهدة المخروقة في عشه الثالث»، والذي عني بالنسر هو الملكة، لأنها مدت جناحيها على المملكتين: فرنسا، وانكلترا، وقد انفصلت عن الملك الفرنسي بالطلاق بسبب قرابة العصب، وعن ملك انكلترا بسبب الريبة والسجن، وعلى هذا كانت من على الجانبين هي نسر المعاهدة المخروقة، ومن الممكن فهم الشطر التالي من الجملة:« وهو سوف يبتهج في عشه الثالث» وفق مايلي: كانت الملكة قد ولدت ابنها الأول، الذي اسمه وليم، وقد مات هذا وهو مايزال طفلاً، وكان ابنها الثاني هو هنري، الذي رقي إلى مرتبة ملك، وهذا أيضاً كان قد سدد دين الطبيعة، بعدما تورط في أعمال عدوانية ضد والده، وكان رتشارد هو الولد الثالث، وهو الذي قصد«

بالعش الثالث» وهو قد كان مصـدر بهجة إلى أمه وقد أطلق سراحها— كما قلت— من شقاء سجنها.

قدوم الملك رتشارد إلى انكلترا وتتويجه

وبعـد الفـراغ من ترتيب هـذه الأمـور جميعهـا، تولى الدوق رتشـارد تطبيق عدل صحيح بالنسبة إلى جميع رعيته، ثم إنه وصل إلى باربيفلوف Barbefleuve، ونزل إلى اليـابســة في بورتماوث في النصف الأول من آب(١٣—آب)، ومالبث خبر وصـوله أن انتشر في جميع أرجاء انكلترا، وسبب كثيراً من البهجـة إلى كل من رجـال الـدين والناس، لأنه مع أن بعضهم قـد حـزن لوفـاة والـده، قـد وجـدوا الآن المواسـاة من كلمات الشاعر هذه:

« غنيت مندهشاً لأن الشمس حجبت نورها

ومع ذلك لم يتبع ذلك الظلام».

وتوجه الدوق إثر وصوله مباشرة إلى وينكستر، حيث أمر بوزن جميع كنوز والده، وبعمل قـائمة جـرد بهم، وقـد وجدوا هناك تسعمائـة ألف باوند من الذهب والفضة، إلى جـانب أحجار كريمـة، وتوجه من هناك إلى سالسبري، ومن هنـاك سافر من مكان إلى آخـر، حيث منح إلى جميع الرعية مـاطلبوه في شكاويهم، ومنح كثيراً من الأراضي إلى أناس لم تكن لديهم أمـلاك من قبل، فضلاً عن هـذا منح إلى أخيه جـون ابنة روبرت ايرل غلوستر مع ايرلية وقـلاع: مالبورا Marlborough، ولوتغارشيل Lutegareshale، وبولسوفير Bolsover، ونوتنغهام، ولانكستر، مع المراتب الشرفية العـائده لها، والمرتبـة الشرفية العـائدة إلى وليم بيفيريل، وجرى تأكيـد منح هذه الممتلكات إلى أخيه جـون، الذي تزوج من ابنة الايرل المتقــدم ذكـرها، على الرغم مـن تحريم بلدوين رئيس أســاقفـة كانتربري، لأن والديها كانا في المرتبة الثالثة من قرابة العصب.

وفي هذه الآونة نفسهـا قـام بعض من الرهبـان النظاميين في يورك بانتخاب غيـوفري، أخي الدوق، وغنوا ترنيمـة بشكل مهيب، ثم أكدوا الانتخـاب وثبتوه بوضع أختامهم، غير أن المعلـم بارثوليـو ومـوظف هيوبرت وولتر عميد تلك الكنيسة، لم يرغبا بقيـام ذلك الانتخاب أثناء غياب أسقف درم، وكـذلك هيوبرت وولتر العميـد، لأنه كان لهما الحق بالحضور أثناء الانتخاب، لذلك تقدما باستئناف إلى مولانا البابا ضده.

موت غيوفري أوف ايلاي من دون وصية

ومات في الوقت نفسه غيوفـري أسقف إيلاي من دون وصية، وكان ذلك في اليـوم الثـاني عشر قبل غـرة شهـر ايلول(٢١— آب)، ولذلك جـرت بمصادرة ثلاثة آلاف مـارك فضي وألفي مـارك ذهبي مما كان قـد خلّفـه، وكـانت المصـادرة لصـالح الملك، وذلك مع كميـة من أثاثه، ومخزون من الخواتم، وصحـون الذهـب والفضـة، والقمح، والملابس الثمينة، وأشياء أخرى، كثيرة جداً.

تتويج رتشارد الأول

ولدى الفراغ مـن جميع الاستعدادات من أجل تتويـج الملك رتشارد، جـاء إلى لندن، حيث كـان هناك احتشـاد لرؤسـاء أساقفـة: كـانتربري، وروان، وتريف، وقـد جرى تحليله من قبلهم لحمله السـلاح ضد أبيـه، بعـد حمله للصليب، وكـان رئيس أسـاقفـة دبلن هنـاك أيضـاً مع جميع الأسـاقفة، والايرلات، والبـارونات، والنبـلاء، العائـدين للملكة، وفق الترتيب التالي، فقد جاء أولاً رؤساء الأساقفة، فالأساقفة، فرعاة الديرة، فالكهنة، وهـم جميعاً يلبسون أرديتهم، وقـد عملوا مسيرة مع الصليب، والماء المقـدس، والمبـاخـر، حتى وصلوا إلى القـاعـة الـداخليـة، حيث استقبلوا الدوق، فاقتادوه إلى كنيسة وستمنستر، إلى أن وصلوا إلى المذبح العالي، وكـانت المسيرة مسيرة مهيبة، وسـار في وسط الأساقفـة والكهنة

أربعة بارونات يحملون حوامل الشموع مع الشموع، وجاء من بعدهم اثنان من الايرلات، حمل أولهما الصولجان الملكي وعلى رأسه صليب ذهبي، وحمل الآخر الصولجان الملكي وعلى رأسه حمامة، وجاء بعد هذين الإيرلين ثالث بينهما، كان يحمل ثلاثة سيوف مع أقربة من ذهب، كانوا قد جلبوا من خزينة الملك، وكان قد وضع عليهم الرنوك الملكية والأردية، كما أنه سار خلفهم ايرل آخر حاملاً بشكل مرتفع تاجاً ذهبياً، وجاء بعد الجميع الدوق رتشارد، حيث كان من على يمينه أسقف، ومن على يساره أسقف آخر، وقد نشرت فوقهم مظلة حريرية، وتابعوا سيرهم حتى المذبح كما سلف وقلنا، ووضعت الأناجيل المقدسة أمامه مع آثار بعض القديسين، وقد أقسم بحضور رجال الدين والناس بأنه سوف يحافظ على السلام، والشرف، والاحترام طوال حياته، وذلك نحو الرب، والكنيسة المقدسة، وقوانينها، وأقسم أيضاً أنه سوف يمارس عدلاً صحيحاً نحو الناس الموضوعين تحت عهدته، وسوف يلغي جميع القوانين السيئة، والعادات غير العادلة، وذلك إذا ماوجد شيء من هذا القبيل في ممالكه، وهو سوف يراعي بشكل ثابت كل ماهو جيد، وجردوه بعد هذا من ثيابه كلها باستثناء سراويله وقميصه الذي رفع فوق كتفيه، وذلك من أجل تلقي القربان، ثم ألبس نعلاً منسوجاً بخيوط ذهبية، ومسحه بلدوين رئيس أساقفة كانتربري ملكاً في ثلاثة أماكن هي: على رأسه، وعلى كتفيه، وعلى ذراعه الأيمن، وكان يستخدم صلوات نظمت من أجل المناسبة، ثم جرى وضع قطعة من قماش الكتان مكرسة، على رأسه، فوقها وضعت قبعة، وعندما ألبسوه مجدداً ملابسه الملكية مع مئزر ورداء، أعطاه رئيس الأساقفة وسلمه بيده سيفاً يدمّر به أعداء الكنيسة، وبعد انجاز هذا، ألبسه اثنان من الايرلات حذاءه في قدميه، وعندما تسلم العباءة، طلب منه رئيس الأساقفة، باسم الرب، أن لايقدم على تسلم هذه التشريفات، مالم يكن قد نوى في عقله بشكل ثابت القيام بمراعاة الأيمان التي عملها والحفاظ عليها، وقد

أجاب بأنه بعون الرب، سوف يحافظ بصدق وإيمان على كل شيء وعد به، ثم أخذ الملك التاج من على المذبح وأعطاه إلى رئيس الأساقفة، الذي وضعه على رأس الملك، مع الصولجان في يده اليمين، والعصا الملكية في يده اليسار، وهكذا اقتيد والتاج على رأسه من قبل الأساقفة والبارونات، وقد تقدمت أمامه الشموع، والصليب، والسيوف الثلاثة المتقدم ذكرها، وعندما وصلوا إلى تقديم القداس وتلاوته، اقتاده الأسقفان المتقدم ذكرهما نحو الأمام ثم نحو الخلف، وهكذا حتى جرى انشاد القداس، وانتهى كل شيء وفق الصورة الصحيحة، وقتها اقتاده الأسقفان المتقدم ذكرهما، وأبعداه والتاج على رأسه، وهو يحمل بيمناه الصولجان، وبيسراه العصا الملكية، ثم إنهم عادوا إلى السدة بمسيرة، وهناك خلع الملك ملابسه الملكية، وارتدى ملابس أقل وزنا، ووضع على رأسه تاجاً أخف، ثم إنه سار نحو مائدة الغداء، التي جلس إليها: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والايرلات، والبارونات، مع رجال الدين والناس، وجاء جلوسهم كل واحد حسب مرتبته ومكانته، واحتفلوا بشكل فخم، ولذلك تدفقت الخمرة على أرض البلاط وعلى جدران القصر، وحدث هذا كله يوم الأحد قبل الخامس من ايلول.

تعذيب اليهود

وكان الكثير من اليهود حضوراً أثناء هذا التتويج، وذلك مراغمة لأوامر الملك، ذلك أنه كان قد أمر بأن يعلن في اليوم المتقدم، بأنه لايجوز حضور أي يهودي أو امرأة التتويج، بسبب التعاويذ السحرية التي كانت تحدث أحيانا أثناء التتويجات الملكية، وقد ألقى رجال البلاط القبض عليهم، مع أنهم جاءوا بشكل سري، وبعدما سلبوهم وجلدوهم بشكل مرعب رموهم خارج الكنيسة، وقد مات بعضهم، وبعضهم الآن من الصعب أن نقول بأنه قد بقي فيهم رمق من الحياة، ولدى سماع سكان المدينة بحملة رجال البلاط هذه على اليهود، قاموا

بحمـلات مماثلة على الـذين بقيـوا في المدينة، وبعـدمـا قتلوا عـددا من الجنسين، وهدمـوا بيوتهم وسـووها بالأرض وأحـرقوها، نهبـوا ذهبهـم وفضتهـم، وكتاباتهم وثيـابهم الثمينة، أما اليهـود الذين نجوا من الموت، فقد التجأوا إلى برج لندن، وبعد ذلك اتخذوا مساكن لهم هنا وهناك بين أصـدقائهم، وقـد تسببـوا بأن يصبح آخرون أغنياء بسبب خسـاراتهم، وبدأت أعمال التعذيب في سنة يوبيلهم، التي يسمـونها سنة الغفران، ولم تتـوقف قبل نهاية السنة، وعلى هذا مـاكان ينبغي أن يكون سنة غفـران، تحول في يوبيلهم إلى الاضطراب، وعندمـا سمع الملك في اليـوم التـالي بالخطأ الذي اقترف وعمل، عدّ ذلك وكأنه خطأ اقترف بحقـه شخصياً، ولذلك أمر باعتقال ثلاثة منهم، تولى محاكمتهم قضاة بلاطه، وقد شنقوا واحداً منهم لأنه استولى على أشياء كانت ملكاً لمسيحي، وأعدما الاثنين الآخـريـن لأنهما كـانا قـد أشعـلا النار في المدينة، الأمـر الذي تسبب باحتراق بيـــوت بعض السكان المسيحيين، وعنـدمـــا سمـع الشعب الانكليزي في جميع أرجاء البلاد بأخبار هذا الهجوم على اليهود في لندن، حملـوا عليهـم بـإجماع مـن الآراء، وأنـزلـوا بهم أضراراً كبيرة، وقتلـوا أشخاصاً منهم ونهبـوا مقتنياتهم، ثم كان في اليوم التـالي ليوم التتويج أن تلقى الملك رتشـارد الـولاء مع يمين التـابعيـة الاقطاعيـة من النبـلاء، فأصـدر أوامـره بعدم متـابعـة تعذيب اليهـود، وأنهم ينبغي أن يعيشـوا بسلام في أرجاء جميع مدن انكلترا.

سخاء الملك رتشارد

عندمـا اجتمع الرهبـان السسترشيان من جميع أنحـاء العـالم، وعملوا مجمعاً لطائفتهم، منحهم الملك رتشارد مـائة مارك من الفضة لكل سنة، وأكد ذلك بصك.

كيف أعطى الملك رتشارد قسماً للكنائس التي كانت شاغرة في جميع أرجاء انكلترا

وفي اليوم التالي ليوم ارتقاء الصليب المقدس،[١٧— ايلول] كان الملك رتشارد في بايبول Pipewell[في نورثأمبتونشاير] حيث قام بعقد مجمع كبير، بناء على نصيحة، رؤساء الأساقفة والأساقفة، وأعطى إلى أخيه غيوفري رئاسة أساقفة يورك، وعيّن في تلك الأثناء غودفري دي لوسي إلى أسقفية ونكستر، ورتشارد رئيس شمامسة إيلاي إلى أسقفية لندن، وهيوبرت وولتر إلى سالسبري، ووليم دي لونغشامب إلى إيلاي، هذا وقام بلدوين رئيس أساقفة كانتربري، بعد اتمام أعمال الانتخاب، بمنع غيوفري المنتخب لرئاسة أساقفة يورك من تسلم أعمال السيامة، أو التكريس الأسقفي من يدي أحد سواه هو شخصيا، ولأجل هذه المسألة عمل مرافعة إلى الكرسي الرسولي.

كيف حصل هيوج أسقف درم على لقب إيرل بالمال

وعزل في هذه الآونة الملك رتشارد من وظيفة نائب الملك، رالف دي غلانفيل، ورئيس العدالة في انكلترا، مع جميع عمد المناطق في انكلترا والعاملين في مكاتبهم، وأرغمهم على دفع غرامات كبيرة لتخليص أنفسهم، وعمل من أجل جمع المال من أجل استرداد الأرض المقدسة من أيدي المسلمين، بعرض كل شيء للبيع: اللوردية، والقلاع، ورئاسة البلدات، والغابات، والمزارع، ووظائف العمد، وماشابه ذلك، وبناء عليه، اشترى هيوج دي بوساز Pusaz ، أسقف درم، لنفسه ولكرسيه، الحقوق الملكية لبلدة سيغسفيلد Segesfeld، مع ويبنتيك Wapentake، ومتعلقاتها، وإيرلية نورثأمبرلاند، خلال حياته، وعندما منطقه الملك بالسيف الذي يخوله حمل لقب ايرل، قال وهو يضحك:« لقد عملت ايرلاً شاباً من خلال أسقف عجوز»، ومضى الأسقف أبعد من هذا، واشتط، ولكي يكمل مهزلة الأشياء، أعطى إلى الملك عشرة ماركات من الفضة، من أجل تعيينه مسؤولاً عن العدالة في انكلترا، ولكي لايذهب إلى الأرض المقدسة، وكاحتياط ضد جميع المعترضين

دفع مبلغاً كبيراً، بمثابة رشوة إلى الكرسي الرسولي، الذي لم يعترض قط على وجهة نظر أي من الأشخاص، وهكذا حصل على إذن بالبقاء، وبهذه جعلته المطامح الدنيوية يقوم بالتخلي عن شارة الصليب، التي أخبرنا المبشرون، بوجوب حملها من قبل جميع الناس، وبشكل خاص الأساقفة، وحقق الأسقف بهذا السلوك نبوءة القديس غودريك الناسك، فقد جاء في بداية ترقيته إلى الناسك وسأله حول تطورات مستقبله، وعن طول المدة التي سيحياها، فاعتاد الناسك أن يستخدم هذه الكلمات ويقولها له:« بالنسبة لتقدمك المستقبلي وعدد السنوات التي ستعيشها، عليك أن تسأل عنها الرسل المقدسين ومن شابههم، لأنني هنا أقوم بالتوبة من ذنوبي، ويحزنني القول بأنني مازلت مذنباً تعيساً، ويهمني أن أخبرك أنك سوف تعاني قبل وفاتك بسبع سنوات من عمى محزن جداً»، وترك الأسقف رجل الرب، وقد وقرت في نفسه الكلمات التي سمعها، ولأنه كان عظيم الثقة بالناسك، اهتم اهتماماً كبيرا بعينيه، واستشار عدة أطباء حتى يتمكن من الاحتفاظ بنظره طوال الوقت الذي سيعيشه، وبعد مضي عدد كبير من السنوات، أصيب بالمرض الذي منه مات، فسأل الأطباء، بقلق كبير، ماهو أفضل مايمكنه فعله، فأجابوه جميعاً بصوت واحد، ونصحوه بأن يفكر بأوضاع روحه، ذلك أنه لن يلبث أن يغادر هذا العالم مرغماً، ولدى سماع الأسقف هذه الكلمات، قال:« لقد خدعني غودريك، فهو قد وعدني سبع سنوات من العمى قبل موتي»، ويمكننا نحن الآن أن نقول بشكل مسوغ، أنه بالتأكيد كان أعمى، لأنه اغتصب بالرشوة لنفسه لقب ايرل الفارغ، ووظيفة العدالة، وورط نفسه بالمشاكل الدنيوية، ثم إن عدم حجه إلى الأرض المقدسة، وإيلائه القليل من الاهتمام لنجاة الأرواح، مع واجبات الأسقفية، لم يحرمه فقط من بصره، بل أغرقه في ظلام دامس، وبذلك مات هذا الأسقف، وفقاً لما قاله رجل الرب في نهاية السنوات السبع، ومات في هذه الآونة وليم إيرل أوف مانفيل في روان.

معركة مجيدة قاتلها الصليبيون ضد المسلمين

في الرابع من تشرين الأول لهذا العام، نشبت معركة بين الصليبيين والمسلمين عند أنطاكية كانت على الشكل التالي: كان على الجانب الصليبي: ملك القدس، والداوية، والاسبتارية، وموركيز أوف مونتفرات، والفرنسيون، وثيبولد المفتش، وبطرس لايونيس اللاندغريفي، Landegrave مع التيتون والبيازنة، فقد حشدوا مع بعضهم جيشاً مؤلفاً من أربعة آلاف من الفرسان، ومائة ألف من الرجالة، وكان الجيش المسلم تحت قيادة صلاح الدين، وقد تكوّن من مائة ألف فارس، مع حشد هائل من الجنود الرجالة، وكان الصليبيون يحملون شارة الصليب على أسلحتهم، وقد بدأوا القتال في حوالي الساعة الثالثة من النهار، وكان الرب إلى جانبهم، لذلك دفعوا بالمسلمين إلى معسكرهم، وطاردوهم بحد السيف، وهاجموهم ودمروا لهم سبع فرق، وقتلوا خمسمائة فارس من فرسان صلاح الدين، كان من بينهم قطب الدين ابن صلاح الدين،وأصيب أخاه تقي الدين بجراحة مميتة(١)، وعندما كان الفريقان يتقاتلان هكذا بشراسة، قام خمسة آلاف من المسلمين بانقضاض مفاجىء، وقاتلوا الصليبيين، ولدى رؤية صلاح الدين لذلك ارتفعت معنوياته واسترد قوته، واشتد الضغط على الفرنجة من الجانبين، فوجدوا أنفسهم مرغمين على التراجع من خلال معسكر المسلمين، لكن بعدما فقدوا مقدم الداوية، وعدد كبير آخر، كانوا قد قتلوا في ذلك اليوم.

١- كذا، والمرجح أن المقصود هنا معركة عكا التي ذكرها أبو شامة في الروضتين ص ٨٦٨٧، علماً بأن صلاح الدين لم يفقد أيا من أبنائه في الحروب، وكان تقي الدين عمر، ابن أخي صلاح الدين، مؤسس المملكة الأيوبية في حماه أبرز قادة صلاح الدين في هذه المعركة وفي غيرها.

وصول رسل من لدن الملك الفرنسي إلى الملك رتشارد لسؤاله الاسراع بحجه إلى الأرض المقدسة برفقة الملك الفرنسي

في شهر تشرين أول نفسه، وصل إلى انكلترا روترود كونت أوف بيرشي، كرسول من قبل الملك الفرنسي، ليخبر الملك رتشارد وبارونات انكلترا، بأنه أقسم في مؤتمر عقد في باريس، مع نبلاء مملكة فرنسا، يميناً قضى بوصوله حتما بمشيئة الرب مع نبلاء مملكته إلى فنزلي، بعد عيد الفصح، ومن هنالك سوف ينطلق إلى القدس، وكبرهان على هذا القسم، بعث الملك الفرنسي رسالة إلى ملك انكلترا، يطلب منه أن يعطيه ضمانة حول الموعد نفسه من أجل تنفيذ الرحلة، وبناء على ذلك جمع ملك انكلترا أساقفة ونبلاء المملكة في وستمنستر، وبعد سماعه ليمين الملك الفرنسي، من أنه سوف يسرع بالمغادرة من دون تردد، أمر وليم الايرل القائد لديه بعمل قسم عنه شخصيا، بأنه رتشارد سوف يلتقي بالملك الفرنسي في فينزلي، في ذلك الموعد المحدد، من أجل أن يشرعا معا بالانطلاق من ذلك المكان نحو أرض الميعاد، وبعدما نفذ الرسل مهام بعثتهم، عادوا إلى بلادهم، وفي الأول من تشرين الثاني، من هذا العام، تلقى غودفري دي لوسي أسقف وينكستر، وهيوبرت وولتر الأسقف المنتخب لسالسبري، التكريس على يدي بلدوين رئيس أساقفة كانتربري، في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر.

المحادثات التي جرت بين رئيس أساقفة كانتربري وبين رهبان ذلك المكان ومسائل أخرى

ووصل في شهر تشرين الثاني نفسه إلى انكلترا جون كاردينال آناني Anagni، ونزل في دوفر، ولأن الملك كان في الأجزاء الشمالية من المملكة، مُنع من قبل الملكة إليانور من متابعة السفر من دون موافقة من الملك، ولذلك أمضى ثلاثة عشر يوماً، على حساب رئيس الأساقفة، وذلك حتى يمكن صنع سلام بين رئيس أساقفة كانتربري وبين رهبان

كـانتربري حول بيعـة أكنغتون، وبما أن رتشـارد كان ملكاً حكيما جـداً، ولأنه تلقى إلتماسات من كلا الفـريقين، قدم في شهر تشرين ثاني نفسه، وأعد شروط مصـالحة وسلام بينهما كـانت كمايلي: أولا— وجوب خلع روبرت رئيس الرهبان الذي عينه رئيس الأساقفة في ذلك المنصب، على الرغم من معـارضـة رغبات الرهبـان، وأن يجري هدم تلك البيعـة التي بناها رئيس الأسـاقفـة في الضـاحيـة، من دون مـوافقتهم، وأن يظهـر الرهبـان المتقـدم ذكرهـم، وفقا لنظام القـديس بندكت، طـاعة قـانونيـة ورعـوية إلى رئيس الأسـاقفـة، كما اعتـادوا أن يفعلوا لسلفـه، وأعطى الملك، بناء على طلب رئيس الأسـاقفـة، إلى رئيس الرهبـان المخلوع، رعاية دير ايفهام Evesham ، وتقرر أيضاً عـدم منح البيعة المتقدم ذكرهـا امتياز التعميد، أو الـدفن، أو إقامة الطقـوس المقدسـة، باستثناء الذي يقام من قبل كاهن علماني.

كيف قدّم وليم ملك الاسكوتلنديين الولاء إلى الملك رتشارد في كانتربري

وقـدّم في العـام نفســه وليم ملك الاسكوتلنـديين الولاء إلى ملك انكلترا عن حقوقه في انكلترا، وأعـاد الملك رتشارد إليه قلعتي روكسبرا Roxburghe وبيرويك Berwick ، ومقـــابـل تخليص هذيـــن الحصنين، وترضيـة لمطالبة الملك رتشـارد بالحقوق الاقطاعيـة على ملك اسكوتلندا، وفيما يتعلق بولاء هذا الملـك، وتثبيتـاً لصكه دفع هذا الملك إلى ملك انكلترا عشرة آلاف مارك فضي.

كرم الملك رتشارد وسخائه

وفي هذه الآونة، أعطى الملـك رتشـارد إلى أخيـه جـون كـونتيـات: كـورنوول Cornwall، وديفـون Devon، وسمـرست Somerset، ودورست Dorset ، وأعطى إلى أمه إليانور بائنتها المعتادة، مع أراضي

وتشريفات مضافة إليها.

عبور الملك رتشارد البحر إلى نورماندي

في الخامس من كانون الأول من العام نفسه، أقلع الملك رتشارد من مدينة كانتربري إلى دوفر، وعبر من هناك البحر، وتبعاً لذلك قام في عشية عيد العذراء القديسة لوسي، بالابحار إلى فلاندرز، حيث استقبل ببهجة من قبل الكونت فيليب، الذي رافقه أيضاً إلى نورماندي، وعين الملك هيوج أسقف درم، ووليم أسقف إيلاي، ومستشاره هيوج باردولف Bardulph، ووليم بريوير Briwere أوصياء على مملكة انكلترا، للحفاظ على قوانين وأعراف المملكة ولمراعاتها، ولتطبيق العدل ومنحه للذين يطلبونه، وكان هناك تمايز بين هؤلاء الأوصياء، وكان ذلك لصالح هيوج أسقف درم، ووليم أسقف إيلاي، فلقد عهد إلى الأول بإدارة العدالة في جزء البلاد الممتد من نهر همبر Humber الكبير، إلى البحر الاسكوتلندي، في حين احتفظ الثاني بالقضاء في البلدة الممتدة من النهر المتقدم الذكر إلى بحر غاليا، وقد أغضب هذا كثيراً هيوج أسقف درم، الذي علم آنذاك للمرة الأولى، أن الملك عمل منه رجل العدالة، ليس من أجل تطبيق العدل، بل من أجل استخراج المزيد من المال— كما تقدم الذكر— ولهذا السبب نادراً ماكان هو والمستشار على وفاق، وذلك كما يقال:

.... ذلك أن كل سلطة

تغار من منافستها

كيف ألقى رئيس الأساقفة حرماناً على أراضي جون أخو الملك، لكن الكاردينال نقضه

وفي هذه الآونة، رفع جون أخو الملك، استئنافا وشكوى شديدة إلى النائب البابوي، والأساقفة بأن رئيس الأساقفة قد أنزل حرمانا على

جميع أراضيه، وفعل ذلك حتى بعد الالتماس الذي عمله إلى الكرسي الرسولي، وسبب ذلك زواجه من ابنة ايرل غلوستر، التي كانت قريبة له قرابة صلب من الدرجة الثالثة، ولدى سماع النائب البابوي لهذه الشكوى وقف إلى جانبها، وحرر الأراضي من الحرمان.

كيف جرى منح عشر ممتلكات انكلترا لمساعدة الأرض المقدسة

وفرضت في هذه الأيام ضريبة العشر على كل ماهو متحرك عام في انكلترا، وجمعت من أجل إرسال مساعدة إلى الأرض المقدسة، وسببت هذه المكوس العنيفة شروراً كبيرة أثناء جمعها، وذلك تحت اسم صدقات، مما أزعج كثيراً رجال الدين والناس جميعاً، وجرى في هذا العام انتخاب رتشارد أسقف لندن، ووليم أسقف إيلاي، وتم تكريسهما في لامبث في اليوم الأخير من كانون الأول.

كيف قرر الملكان المتحالفان المغادرة معا إلى الأرض المقدسة

عام ١١٩٠م، فيه كان الملك رتشارد، ملك انكلترا، أثناء عيد الميلاد في بيور Bure في نورماندي، وأمضى وقت ذلك العيد المهيب مع أعيان تلك البلاد، وجرى بعد الميلاد اجتماع بين ملكي انكلترا وفرنسا عند مخاضة القديس ريمي Remy، وجرى الاتفاق، على وجوب— بمشيئة الرب— الاسراع بمغادرتهما إلى القدس في الوقت نفسه، وعملت صيغة من الاتفاق من أجل المحافظة على السلام بين البلدين، في يوم عيد القديسة هيلاري، وكان ذلك بحضور الأساقفة والنبلاء من المملكتين، وبعدما تأكدت بالقسم من قبل الملكين، جرى الأمر بكتابتها، فجاءت كما يلي:« أنا فيليب ملك فرنسا سوف أحافظ على الاخلاص نحو رتشارد ملك انكلترا، على أساس أنه صديقي، وحليفي، فأحفظ حياته، وجوارحه، وشرفه الدنيوي، وأنا رتشارد ملك الانكليز، سوف أحافظ على الاخلاص الجيد نفسه مع ملك فرنسا، على أساس أنه صديقي،

ومولاي، فأحفظ حياته، وجوارحه، واتفقنا أيضاً على تقديم المساعدة أحدنا إلى الآخر، إذا كانت ضرورية، في الدفاع عن أراضي بعضنا، كل واحد منا بالغيرة نفسها التي يدافع بها عن ممتلكاته»، وأقسم نبلاء وبارونات المملكتين على عدم التخلي عن ولائهم إلى ملكيهما، أو عمل حرب، حتى مضي أربعين يوماً في سلام عقب عودة الملكين، وشارك الملكان في أداء القسم، وأقسم رؤساء أساقفة، وأساقفة المملكتين على اصدار قرارات الحرمان الكنسي ضد الذين سوف يخرقون هذا التحالف أو ينفذون خلاله، وتقرر أيضاً، أنه إذا مامات أحد الملكين أثناء الحملة، فإن الذي سيبقى حياً، سوف يتولى المسؤولية عن أموال وقوات المتوفى، ليتولى تنفيذ الخدمة التي يدينان بها للرب، ولما كانا غير قادرين على تنفيد هذه المعاهده بكل دقة، فقد أجلا الأعمال حتى عيد ميلاد القديس يوحنا، وذلك بغية تمكين الملكين، وجميع الصليبيين من الاجتماع من دون تقصير في فينزلي، للدخول في أعمال حجهم إلى الأرض المقدسة، وورد في نص المعاهدة الكلمات التالية«: وإذا ماحاول أي واحد إعاقة اتفاقنا هذا، فلسوف توضع أراضيه تحت الحرمان الكنسي، وكذلك سوف ينال أصحابهم الحرمان الكنسي»، وبعدما رتبوا القضايا على هذه الصورة، أنهوا المؤتمر،[وفي هذه الآونة عقد بلدوين رئيس أساقفة كانتربري اجتماعاً في وستمنستر، فيه عمل وداعاً لرهبانه وانطلق يريد الأرض المقدسة في رتل فخم].

كيف جرى تعيين أسقف إيلاي مستشارا

أرسل رتشارد ملك انكلترا سفراء برفقة آخرين كان قد أرسلهم وليم أسقف إيلاي، إلى البابا كليمنت، وحصلوا من الحبر الأعظم على المرسوم التالي:« نحن البابا كليمنت— تحيات: استجابة للطلب موضع الثناء، من ابننا المحبوب بالرب، رتشارد، الملك واسع الشهرة لانكلترا، قد قررنا في ادارتنا الرسولية على أن يعهد إلى عنايتكم الأخوية بواجبات

المستشارية لجميع انكلترا، وويلز، وفي رئاسة أسقفيتي كانتربري ويورك، وفي تلك الأجزاء من إيرلندا التي يمتلك فيها سلطة، جون ايرل أوف مورتون، أخو الملك، صدر في الثاني من حزيران، في السنة الثالثة من بابويتنا».

كيف علق رئيس أساقفة كانتربري الأسقف هيوج

وكتب في هذا العام بلدوين رئيس أساقفة كانتربري إلى رتشارد أسقف لندن كما يلي:« عندما كنا في روان علقنا عن ممارسة الواجبات المقدسة أخانا هيوج أوف كوفنتري، لأنه قام من دون اهتمام واحترام لكرامة المرتبة الأسقفية، فاغتصب وظيفة العمدة، لكن بناء على وعده الصادق بالاستقالة بين أيدينا من مسؤوليات ووظيفة العمدة، وأن لايشغل نفسه ثانية بأعمال من هذا النوع، اعتقدنا وقتها أنه يستحق التحليل، وبناء عليه نرسل هذا الأسقف إليكم مع رسالتنا هذه، ونأمركم القيام من دون تأخير بالتعاون مع أسقف روكستر وكهنتنا، بتحديد موعد ومكان للسماع ولاتخاذ قرار عادل حول التهم التي من أجلها جرى تعليق ذلك الأسقف من قبلنا.

حول مذبحة اليهود في عدة أماكن

قرر في هذا العام كثيرمن الناس في جميع أرجاء انكلترا، من الذين كانوا على نية السفر إلى القدس، قبل أن يسافروا، أن يتسببوا بثورة ضد اليهود، وتفجر هذا أولاً في نورويك، حيث كان اليهود من الكثرة بقدر ماهو ممكن، فقتلوهم في بيوتهم، ونجا على كل حال قليل منهم، والتجأوا إلى قلعة في ذلك المكان، وحدث بعد هذا في السابع من آذار، أن ذبح كثير منهم في ستامفورد في يوم السوق، وفي الثامن من عشر من آذار، قيل بأن سبعة وخمسين قد قتلوا في سينت إدموند، وعلى هذا جرى قتل اليهود، حيثما وجدوا على أيدي الصليبيين، باستثناء الذين جرت

حمايتهم من قبل موظفي المناطق والمدن، هذا وينبغي أن لانعتقد أن مثل هذه المذابح لليهود، كانت مرضية للناس العقلاء، لأنه قد كتب:« لاتقتلهم، خشية أن ينسى الناس».

حول المذبحة الرهيبة لليهود في يورك

وفي العام نفسه، أثناء الصوم الكبير، أي في الخامس عشر من آذار، قام يهود مدينة يورك، الذين كان عددهم قد بلغ خمسمائة إلى جانب النساء الأطفال، من خلال الخوف من هجوم عليهم يشنه الصليبيون، فحصلوا على إذن من العمدة ومن حاكم القلعة، بأن يعتصموا في القلعة، وعندما طلبت منهم الحامية ارجاع القلعة، رفضوا فعل ذلك، ولدى رفضهم ذلك تمت حملات متوالية على القلعة في كل من النهار والليل، وبعد مرور وقت طويل، تفكر اليهود بالأمر، فعرضوا مبلغاً كبيراً من المال مقابل حياتهم، لكن ذلك رفضه الشعب، ثم نهض واحد منهم، وكان بارعاً بالشريعة، فخاطب رفاقه على الصورة التالية:« آه، يارجال اسرائيل، اسمعوا رأيي، إنه من الأفضل، كما تأمرنا شريعتنا، أن نموت في سبيل شريعتنا، على أن نقع في أيدي أعدائنا»، ووافق الجميع على هذا، وجاء رأس كل أسرة بموسى حادة، فقطع أولاً رأس زوجته، وأولاده وبناته، وبعد ذلك جميع أسرته، وألقوا بعد هذا ببعض أجساد القتلى، الذين عدّوهم بمثابة ضحايا للشيطان، على المسيحيين في خارج القلعة، ثم إنهم حبسوا أنفسهم في بيت الملك، وأوقدوا النار فيه، فاحترق فيه كل من الأحياء والأموات مع البناء، وبعد هذا أحرق السكان والجنود بيوت اليهود، مع أوراق دائنيهم، واحتفظوا بأموالهم في سبيل استخداماتهم الخاصة بهم.

تكريس غيوفري رئيس الأساقفة المنتخب ليورك كاهناً

وفرض في تلك الآونة الأسقف وليم، مستشار الملك، والمسؤول عن

العـدالة في انكلترا ضريبة جـوادين مع سـائقين على كل مدينة من مـدن انكلترا، وجواد واحـد مع سائق واحد على كل رعـوية، وكرس في هذه الأيام أيضاً، جـون أسقف وايزرن Whithern ، والأسقف المساعد لكنيسـة يورك، غيوفـري رئيس أسـاقفة يورك المنتخب، ليكون كـاهنا، وجرى في الوقت نفسه تثبيت انتخـاب غيوفـري المتقدم ذكـره من قبل البابا كليمنت، الذي بين أشياء أخرى عملها، كتب إلى هيئة كهنة يورك، مضيفـاً هذه الكلمات،:« وبناء عليـه نحث جميع إخوانيتكـم أن تقدمـوا الاحترام والتشريف إليـه بمثابـة أسقف لكم، فتبرهنون بذلك على أنكم جـديرين بالثناء بنظر الرب والناس، صـدر في اللاتيران، في السـابع من آذار، في السنة الثالثة من بابويتنا».

نظام تعبئة الجيش الصليبي أثناء حصار عكا

كان نظام تعبئة الجيش الصليبي أمام عكا في هذه الآونة كما يلي: كان أمـام جبل المصلبين، قـرب البحر، الجنويين، وجـاء بعـدهم الاسبتـارية ومـركيـز أوف مـونتفـرات، ثم تـلاهم بالترتيب هنري كـونت أوف شامبين، وغي أوف دونبيرك Duinperc، وكونت برين Brenne، ثم كـان بعد ذلـك كونت بار، وكـونت شـالون Chalons، ومن بعدهما روبرت أوف دروكس Dreux، وأسقف أوف بوفيا Beauvais، وكان على مقـربة منه باتجاه السهل، ثيوبولد كـونت أوف كليرمونت، وهيـوج دي غورني، وأوثودي تريسـون، وفلورنتوس Florentius دي هوجي، وولكلاين دي فيرار Walkeline de Ferrars، ثم جـاء فلـورنتـاين Florentines، ثم أسقف كامبري Cambray، وإلى جانبه كان أسقف سـالسبري، مع جميع القـوات الانكليـزية، ثم جـاء وكيل فـلاندرز، مع جـون دي نيل، وأوگو دي هام، والفلمنكيين ، وجـاء من بعـدهم صاحب هيسولدون Hissoldone، وفيزكونت أوف تور، وعلى مقربة منها ملك القـدس وهيوج أوف طبريا مع أقـربائهما، ومن بعدهما كـان

الداوية، وجيمس دي أفني Avennes، وكان إلى جوارهما اللاندغريف Landegrave، وكـــــــونـت أوف غيلـدر Geldres مع الألمان، والداشيين، والتيـوتون والفـريزلانـدريين، وكـان بينهـم قـد نصب دوق سوابيـا معسكره بجوار المسجد، وبعدهم، وعلى مقـربة من البرج تمركز بطريرك وأسقف عكـا، وأسقف بيت لحم وفيـزكـونـت أوف شـاتل— هيرلوت Chatel- Herault، مع رينالد دي فلشي Fleche، وهمفري أوف تور، وكان صرافـو النقود تحت تورون، وفي الطرف الأقصى، على مقـــربة من الميناء، رئيس أســاقفـة بيـزا مع البيــازنة، وجـاء بالأخير اللومبارد.

بناء بيعة عند عكا تشريفاً لتوماس الشهيد المبارك

وفي هذه الآونة عندمـا كـان شماس انكليزي اسمـه وليم، وكـان من المقـــربين من رالف دي ديسيتـــو، عميـــد لندن، على طريق رحلتــه إلى القدس، عمل نذراً، أنه إذا ماوصل سالماً إلى ميناء عكا، سوف يبني على حسابه بيعـة على شرف توماس الشهيد المبارك، ولسـوف يتولى تكريس مقبرة على اسم ذلك الشهيـــد، وقـــد وفى بنـذره، وتقـــاطر كثيرون من مختلف الجهات مع بعضهم إلى الصلـوات في تلك البيعة، وحمل وليم— بقـــرار من جميع الصليبيين، اسم رئيس الرهبـــان، ولكي يبـدي تقـــواه كجندي للمسيح، عمل شغله الشـاغل رعاية الفقـراء، وبصورة خـاصة دفن الذين هلكوا من الأمراض وكذلك الذين قتلوا في المعركة.

مقدمو جيش صلاح الدين

كان المقدمون في عكا تحت قيـادة صلاح الدين هم كما يلي: قراقوش، الذي عمل فارساً من قبل كربوغـا أثناء حصار أنطاكية، وهو الذي ربى صلاح الدين، وكـان معه جمال الدين، وقليج، وسنجر شـاه، وشيركوه، وأبو الهيجـاء السمين، وفخر الـدين، وقطب الدين، وكـان قادة جيشـه

هم هؤلاء: أولاده الثـلاثـة: الملك الأفضل، والملك العـزيـز، والظاهر غـازي، مع اثنين من أبناء أخـوته هم: تقي الـدين، وشمس الدين، مع المقدمين: زيـن الدين، وقايماز، وبدر الدين، والمشطوب، وسـابق الدين، وامتلك جميع هؤلاء المقدمين سلطة على الجزيرة والرحبة، والبيرة، وعلى الفرس، والتركمان، والعرب، والاسكندرية، ودمياط، وحلب، ودمشق، وجميع الأراضي الواقعـة فيها وراء الفرات والممتدة حتى البحـر الأحمر، وفيها وراءها إلى المغرب، وحكم تقي بلاد مصر، وعهد إلى أخوة صلاح الدين الأربعـة بحكم بلدان: العبـاسيـة، واليمن، والمغـرب، والنوبة، وقيسارية وعسقـلان، وآمد، وميافـارفين، وسنجار، والناصرة، ونابلس، وحمص، وحلب، ومـرعش، وتولى العـادل سيف الديـن حكم الكرك والشـوبك، وغازي جـزء من أرمينيـا، هذا وكـان صلاح الدين السيـد الحاكم عليهم جميعاً(١).

كيف جرى احراق آلات الحصار الصليبية من قبل المسلمين

وجـرى في العـام نفسـه، قـذف النفـوط والنـار الاغـريقيـة من قبل المسلمين الذين كـانوا محاصرين في مـدينة عكـا، على الآلات التي بناها الصليبيون بنفقات عالية جداً، من أجل اخضاع المدينة، وانتشرت النار، على الفور، وحـولتهم إلى رماد، وقـد حدث هذا في هذا اليـوم الخامس من أيار.

كيف جرى اكتشاف خونة بين الصليبيين

وكشف في هذه الآونة العادل صاحب الكرك والشـوبك عن مؤامرة كان قـد أعدها مع أسقف بـوفيا Beauvais وأخيه الكونت روبرت، وغي أوف دونبيرك Duinperc ، واللاندغريف، وكونت أوف غيلدر Geldres، الذين دخلوا بالمؤامرة مع صلاح الدين، ولذلك تسلموا من

١ــ تشوهت الأسماء بالأصل إلى حد صعب فيه نقلها إلى العربية بدقة.

ذلك الأمير ثلاثين ألف دينار ذهبي، ومائة مارك من الذهب، بالاضافة إلى رشوة مقدارها أربعة جمال، وفهدين، وأربعة صقور، قد تسلمهم اللاند غريف، وقد وافقوا، مقابل هذه الهدايا على ايقاف الهجوم على المدينة، وترك أبراج حصارهم تحترق.

رسالة الملك رتشارد بشأن مستشاره

وأصدر في هذه الآونة رتشارد ملك انكلترا رسائل بعث بها إلى جميع التابعين من رعيته في جميع أرجاء انكلترا، كان نصها كما يلي:« من رتشارد بفضل الرب إلخ: نحن نأمركم ونحثكم بالنسبة لما يتعلق بنا وبمملكتنا، وكذلك بكم أنفسكم وبممتلكاتكم، لابل في جميع الأشياء، أن تكونوا طائعين إلى صديقنا، والعزيز علينا، المستشار، أسقف إيلاي، في جميع الأشياء التي فيها فائدة لنا، وأن تعملوا معه وتطيعوا أوامره لصالحنا، وكأننا نحن أنفسنا كنا في المملكة، شهدت على ذلك بنفسي في بيون Bayonne.

حول قادة اسطول الملك رتشارد والقوانين التي عملت ضد المجرمين

وفي هذه الآونة اختار الملك رتشارد وعين في اجتماع للنبلاء: جيرالد رئيس أساقفة أوكسين Auxienneوبرنارد أسقف بافاريا، وروبرت دي سابل Sabels، ورتشارد دي كانفيل Canville، ووليم دي فورت Foret ، ليكونوا قضاة للأسطول المتحد لانكلترا، ونورماندي، وبريتاني، وبواتو، الذي كان على نية الابحار إلى الأرض المقدسة، وبعث برسائل يرخصهم بها كانت كما يلي:«.من رتشارد بنعمة الرب ملك انكلترا، إلى جميع رعاياه الذين على نية الابحار إلى الأرض المقدسة، التحيات: ليعلم جميع الناس، بأننا عملنا هذه القوانين التالية بناء على نصيحة مجلسنا الجيد: كل من يقتل على ظهر السفينة رجلاً

آخـر، سوف يربط بالرجل الميـت، ويلقى في البحر معـه، وكل من يقتل رجلاً آخر على اليابسـة يربط مع الرجل الميت، ويدفن معه، وإذا ماأدين أي واحد لإشهـاره سكين ليضرب بها واحداً آخـر، أو أنه أسال دم من واحد آخـر، فإنه سوف يفقد يـده، وإذا ماضرب أي واحد انسـانا آخر، فإنه سيغطس بالبحر ثـلاث مرات، وكل من يقدم إهانة، أو مـلامة، أو لعنة لرفيقـه، فإنه سيجري تغـريمـه بأونسات من الفضـة، بقـدر ماقـام بإهانتـه، والسارق الذي يدان بالسرقـة سوف يجري صب قـار يغلي على رأسه، ويعـد ذلك يجري رش رماد فـوقه ليعرف بـذلك، ولسوف يطرد من السفينة عند أول ميناء تصل إليـه»، وقـد جعل الجميع فـرداً فـرداً يقسمـون على الحفـاظ على هذه القـوانين، وأنهم بناء على ذلك سـوف يطيعـون رجـال العدالـة المتقدم ذكـرهم، وبعـد هذا أمـر قـادة اسطوله بالاقلاع واللقاء في مرسيليا.

كيف تسلم الملك رتشارد الصك والعصا في فنزلي

التقى في هذا العـام الملكان الفـرنسي والانكليـزي في ثمانيـة القـديس يوحنا المعمـدان، في فينزلي، حيث كـان جسد القـديسـة مـريم المجدليـة مدفوناً، وقد مكثا هناك لمدة يومين، وهنا تسلم الملك الانكليزي الصك والعصـا في كنيسـة القـديس دنس، وانطلق بعـد هـذا الملكان مع جميع قـواتهما نحو ليـون على الرون، حيث عندما كـانا هما وشطر من جيشهما يعبران الجسر، تحطم الجسر، فغـرق كثيرون من كـلا الجنسين، وافترق بعـد هذا الجيشـان، لأن مكانا واحـداً لم يكن واسعـاً بما فيـه الكفـاية لاستيعـاب مثل تلك القـوات الضخمـة عندمـا تتحـد، وأخـذ الملك الفـرنسي الطريق إلى جنوى، واتجه ملـك انكلترا نحـو مسينـا، ولدى وصـول رتشارد إلى ذلك المكان وجـد أن كثيراً من الحجـاج قد أنفقـوا أموالهم، بسبب إقامتهم الطويلة هناك، واحتفظ الملك رتشارد بعدد كبير من هؤلاء وألحقهم بجيشه، وبعدمـا أقام هناك في ذلك المكان لمدة ثمانية

أيام، وهو يتوقع وصول اسطوله، وجد أنه خدع بآماله، فجمع عشر بطسات كبيرة، وتسعة غلايين جيدة التسليح، وأقلع بهذه المراكب، ذلك أنه كان قلقاً بسبب تأخر أسطوله، ولكي لايبدو أنه كان كسولاً، أبحر مع قوة عسكرية جيدة، فعبر من أمام جزيرة القديس اسطفان، فأكويليا Aquileia ، فالجبل الأسود، فجزيرة القديس هونوراتوس Hon-oratus، فمدينة ميس Meis، ثم المدينة التي اسمها وينتيليماين Win-tilimine، ثم ارتحل من هناك إلى قلعة سين Seine ، وفي اليوم الرابع عشر من آب، وصل ملك الانكليز إلى ميناء دوفين Dauphin، ومكث هناك خمسة أيام، وعندما كان في ذلك المكان، أرسل إليه ملك الفرنسيين يطلب منه تزويده بخمسة غلايين، وقدم له الملك الانكليزي ثلاثة، لكنهم رفضوا من قبل الملك الانكليزي، وفي الرابع والعشرين من آب، وصل الملك إلى بورتوير Portesweire، الذي وقع في منتصف الطريق بين مرسيليا ومسينا، وبعد عبوره بأماكن مختلفة دخل إلى نهر التايبر Tiber ، الذي كان يوجد قرب مصبه برج ممتاز، والتقى في هذا المكان مع أوكتافيان أسقف أوستيا، مع رسالة لصالح البابا، بأن يزوره الملك، وقد رفض الملك هذا، قاذفاً الأسقف بالسيمونية، والكهنة الرومان بالجشع، مع تهم أخرى كثيرة، مضيفاً بأنهم قد تسلموا سبعمائة مارك، من أجل تكريس أسقف مين، وتلقوا ألفاً وخمسمائة مارك فضي من أجل منح نيابة البابا إلى وليم أسقف إيلاي، وعلاوة على ذلك تسلموا مبلغاً كبيراً من المال من رئيس أساقفة بوردوكيس Bour-deaux ، الذي اتهم بجريمة من قبل كهنته، وبناء عليه، دخل، بعد رفضه زيارة روما إلى أبوليا قرب مدينة كابوا Capua.

كيف عين الملك رتشارد ابن أخيه آرثر وليا لعهده

وأعطى في هذه الأونة، تانكرد ملك صقلية[الذي خلف الملك وليم] إلى الملك رتشارد عشرين ألف أونسة فضة، من أجل أن يحتفظ

بشروط للسلام معه، ومقابل جميع ماادعاه ضده، وكمية من الذهب، مقابل الدعوى المتعلقة بالوصية التي كان الملك وليم قد عملها لصالح الملك هنري، والد رتشارد، وتقديراً للزواج الذي جرى التعاقد عليه بين آرثر دوق بريتاني وابنة الملك تانكرد، وبناء عليه عين الملك رتشارد آرثر المتقدم ذكره ولياً لعهده، في حال وفاته من دون أي وريث شرعي، وانطلق بعد هذا على طريق حجه.

كيف تركت الملكة إليانور مع ابنها لدى مغادرته بيرنغاريا

قررت في هذه الآونة الملكة إليانور، السير خلف ابنها الملك، وقد عبرت جبل جانوس Janus ، وسهول ايطاليا، والتقت به أخيراً، وبعدما أمضت معه أربعة أيام، حصلت على إذنه ورجعت إلى انكلترا، وتركت مع ابنها بيرنغاريا، ابنة ملك نافار، التي كان رتشارد سيتزوجها، لأن الملك رتشارد كان قد أعطى الملك الفرنسي عشرة آلاف باوند كترضية له من أجل عدم زواجه من أخت هذا الملك، وبهذه الاتفاقية تخلى أيضاً ملك الفرنسيين عن مطالبته بقلعة غيسور وجميع فكسين Vexin.

وفي هذا العام أيضاً، عبر فردريك الامبراطور الروماني، في السنة الأربعين من حكمه، خلال بلغاريا، في طريقه إلى القدس، وفي أثناء زحفه من قونية نحو أنطاكية، وبعدما عبر بأمان جيشه النهر الأسود، سقط الامبراطور من على حصانه في الماء وغرق.

كيف ظهر توماس الشهيد المبارك إلى قادة اسطول الملك رتشارد

تعرض في العام نفسه اسطول ملك انكلترا إلى كثير من المخاطر، ففي طريقه إلى لشبونة استدار حول الجبل المرتفع الذي اسمه غدتيرا Go-desterre، ثم عبر بريتاني والقديس متى أوف فنزتيرا Finisterre على يساره، والمحيط الذي كان عليه طريقه إلى القدس على اليمين، ثم غادر

بواتو وغسكوني على يساره، وكان الاسطول في يوم صعود ربنا في البحر الاسباني، وتعرض وقتها الاسطول إلى عاصفة فرقت السفن على الفور، وفي أثناء هياج العاصفة، وعندما كان الجميع خائفين يدعون إلى الرب، ظهر توماس الشهيد المبارك، رئيس أساقفة كانتربري في أوقات ثلاثة متنوعة، إلى ثلاثة أشخاص مختلفين، كانوا على ظهر سفينة اللندنيين، وقال لهم:« لاتخافوا، لأنني أنا، وإدموند الشهيد المبارك، والقديس نيقولا المعترف، قد جرى تعييننا من قبل الرب، من أجل حراسة اسطول ملك انكلترا، وإذا مانأى البحارة وقادة الاسطول بأنفسهم عن الذنوب، وتابوا من ذنوبهم الماضية، سوف يمنحهم الرب رحلة موفقة، وسيوجه سبلهم في ممراته»، وسمعت هذه الكلمات ثلاث مرات متواليات، وإثرها اختفى القديس توماس، وتوقفت العاصفة وهدأت، وكان بين بحارة تلك السفينة واحداً اسمه وليم ذي اللحية، وآخر اسمه وليم فتز— أوسيبرت Fitz- osbert، وغيوفري العامل بالذهب، وكان معهم كثيراً من سكان لندن، وعبر هؤلاء الآن لشبونة، ورأس القديس فنسنت Vincent ثم اقتربوا من مدينة اشبيلية، التي شكلت آنذاك النهاية القصوى للمسيحية في اسبانية، وفي الحقيقة كان الايمان المسيحي مايزال ضعيفاً هناك، لأنها قد غدت مسيحية قبل عام واحد مضى، حيث جرى الاستيلاء عليها وانتزاعها من سلطة المسلمين، ووجه بحارة السفينة اللندنية، سفينتهم وقادوها على مقربة من المدينة، فوجدوا بعض الاشارات الدالة على سكنى المسيحيين هناك، ولذلك رسوا هناك، وقد استقبلوا بكثير من التكريم من قبل الأسقف وبقية السكان، وكان على ظهر هذه السفينة ما يزيد على ثمانين من الشباب المسلحين، بهم احتفظ أهل المدينة مع ملك البرتغال، وأبقوهم في خدمتهم، وذلك لخوفهم من ملك المغرب، وأعطوهم كل نوع من الضمانات في أن يدفعوا لهم الذي يطلبونه، ووعدوهم بالاضافة إلى ذلك بهدايا كثيرة، وإلى جانب هذه السفينة كان هناك مايزيد على عشر سفن

من الاسطول الانكليزي، مع بحارتها قد تفرقوا هنا وهناك، وأخيرا، وصلوا بفضل من الرب إلى مدينة لشبونة بوساطة نهر تاجه Tagus، وبعد هذا كان رئيس أساقفة أوكسيا Auxia ، وروبرت دي سابل Sables، ورتشارد دي كانفيل Canville، ووليم دي فورتز Fortz، قد أخذوا طريقهم بين أفريقيا واسبانيا، ووصلوا بعد كثير من العواصف، في ثمانية القديسة مريم إلى مرسيليا، وكان ذلك مع جميع الاسطول الذي كان تحت عهدتهم، وقد وجدوا الملك هناك، لذلك توقفوا للقيام بالترميمات الضرورية لسفنهم.

كيف نزل بلدوين رئيس أساقفة كانتربري مع آخرين في صور

في حوالي الوقت نفسه، كان بلدوين، رئيس أساقفة كانتربري، ورالف دي غلانفيل، وهيوبرت أسقف أوف سالسبري، الذين كانوا مسؤولين رسميا عن العدالة في انكلترا، والذين تقدموا على الملك الانكليزي في الرحلة نحو القدس، قد أخذوا طريقاً مباشراً، مخلفين صقلية على اليسار، ووصلوا بعد المعاناة من كثير من المخاطر، إلى صور، في حوالي أيام عيد القديس ميكائيل، وكان جون أوف نورويك قد ذهب إلى البابا، فحصل منه على الاذن، فوضع جانباً صليب الرب، وأخذ حقائبه، وعاد إلى انكلترا، وقد تحلل من عهوده.

نشوب خلاف بين الملكين في مسينا

وصل في السادس عشر من إيلول من العام نفسه فليب الملك الفرنسي إلى مسينا، وتمت استضافته في قصر الملك تانكرد، ووصل الملك رتشارد في الثالث والعشرين من الشهر نفسه، لكن لم يسمح له بالدخول إلى المدينة، لأن الفرنسيين كانوا خائفين من أن الأطعمة سوف لن تكون كافية للحشود التي تبعت الملكين، ولدى سماع رتشارد بذلك، أرسل قادته إلى شيوخ المدينة، وطلب منهم بيع مؤن إلى جيشه، حتى

لايتعــرض أفـراده إلى ضغط الحاجــة، وقـد رغـب سكان المدينة بفتح أبوابهم واستقبال مثل هذا الأمير العظيـم والترحيب به، لكن الفرنسيين لم يسمحـوا لهم، فقـد تسلقـوا فـوق الأسـوار، وهم يحملون السـلاح، وقرروا الدفـاع عن الأبواب، وعند هذا أمر الملك رتشارد عسـاكره بأن يهبوا إلى السـلاح، وأن يشقوا بالقوة طريقاً له ولأتبـاعه، على الرغم من أعـدائهم، وأطاعت العسـاكـر أوامـر الملك، وهاجمت الأبواب، وشقت طريقها بالقـوة إلى المدينة، وبعدما قتلوا عدداً من الفـرنسيين، حيث كان ملكهم على رأسهم، أرغمـوا البقيـة على الفـرار، وعندمـا بلغت هذه الأخبار إلى مسـامع الملك الفرنسي شعـر بغضب عظيم جداً ضـد الملك الانكليـزي، ولم يخلص نفسـه من ذلك طوال حيـاته، ومع ذلك اجتمع الملكان، وتحادثا بسـلام، وكان ذلك في اليـوم نفسـه، ولم يأتيا على ذكـر ماحدث.

كيف أخضع الملك رتشارد بعض الحصون

في الرابع والعشرين من ايلول من هذا العام، صعـد الملك الانكليزي إلى سفنه، وأراد الاقـلاع لكن الريح لم تكن مـواتيـة، فعـاد إلى مسينا في اليـوم نفسه، وفي الثـلاثين من ايلول عبر الملك رتشارد نهر الفـار Var، واستـولى على مكان حصين جـداً في كـالبيريا كـان اسمـه لابامير Lab-amare ، ووضع هناك أختـه جـوانا، التي كـانت ملكة صقليـة من قبل، وعـاد إلى مسينا، واستـولى في اليــوم التـالي على حصن اسمـه دير الغـريفـون Griffones ، بين مسينا وكالبيريا، وقام الغريفون في هذا المكان بهجوم على هيـوج برون Brun ايرل أوف مارش March، وقد جرى ردهم مـن قبل رتشارد، وبناء عليه أغلقـوا أبواب المدينة، وحملوا أنفسهم إلى الشرافات، ومن هناك قتلوا وجرحـوا عدداً من رجال الملك وخيـولـه، وغضب الملك لهذا وهاجم واقتحم الأبـواب، واستـولى على المدينة، ومركـز في الرابع من تشرين الأول أتباعه فيها، وفي اليـوم التالي

أعطى شيوخ المدينة رهائن من أجل رعاية صحيحة للسلام من قبلهم، وشيد بعد هذا قلعة هناك، أطلق عليها اسم ميت— غريفون Mate-Griffon، وعُقد في هذه الآونة مؤتمر اقليمي، كان الرئيس فيه، وليم أسقف إيلاي، النائب للكرسي الرسولي، لكن الذي أنجز في هذا المؤتمر كان قليلاً أو لاشيء من أجل تهذيب الكنيسة الانكليزية.

كيف تحررت الكنيسة النورماندية من نير العبودية

وفي هذه الآونة تحررت كنيسة الرب في نورماندي- بموافقة الملك رتشارد- من نير العبودية الذي تحملته طويلاً، فقد تقرر بالدرجة الأولى، وجاء ماتقرر بمنحة من الملك، أنه بالنسبة للكهنة، لايجوز اعتقالهم بأي حال من الأحوال من قبل السلطات المدنية، كما كانت العادة من قبل، مالم يكن ذلك من أجل قتل، أو سرقة، أو الاحراق عمداً، أو جرائم من هذا النوع الرهيب، وأن يكون ذلك على الفور بناء على طلب القضاة اللاهوتيين، حيث يتوجب تسليمهم للمحاكمة في محاكم لاهوتية، وبالاضافة إلى ذلك فإن جميع المسائل المتعلقة بعدم الوفاء بالعهد، أو الحنث باليمين، يجري تقريرها في هذا السياق في البلاط اللاهوتي، وأيضاً بالنسبة لقضايا المهور، أو هدايا الزواج، حيث كانت تجري المطالبة بمقتنيات أو بسلع حية، فهذه سوف يشار إليها من قبل التحكيم الكنسي، وأيضاً فيما يتعلق بالممتلكات الديرية، وانتخاب رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وراعيات الراهبات، فإن هذا كله ينبغي أن يتم بموافقة أسقفهم، وكذلك ليس للمحاكم المدنية صلاحيات حيث يمكن للمحاكم اللاهوتية البرهنة على ذلك، إما بالفعل، أو بشكل آخر إذا كانت الملكية صدقة أو وقف، وأن هذا ينبغي الاشارة إليه في قرار القضاة اللاهوتيين، وكذلك إن التصرف بالممتلكات الممنوحة بوصية ينبغي اقراره من قبل السلطات الكنسية، وأنه لايجوز استخراج عشر من ذلك، وكذلك بالنسبة لسلع الكهنة، ومع أنه قد قيل

بأنهم كانوا يمارسون الربا، فإنهم إذا ماماتوا، ليس للسلطات المدنية من صلاحيات تجاه مخلفاتهم، بل إنها ينبغي توزيعها من قبل السلطات الأسقفية على أعمال تقوية، وكذلك مهما كانت الممتلكات التي أودعها رجال علمانيون أثناء حياتهم، وتحت أي عنوان غربوها، ومع أنه يمكن تسميتهم مرابين، الأمر نفسه، لايجوز نقضها بعد موتهم، ولكن أي شيء أمكن العثور عليه غير مغرب بعد موتهم، وإذا أمكنت البرهنة على أنهم كانوا مرابين في أيام موتهم، فالذي ينبغي هو مصادرتهم، وكذلك إذا كان شخص ميت كان لديه أية رهينة قد حصل بها على الفائدة، فإن حصته ينبغي إعادتها إلى المودع للرهينة، أو إلى ورثته، والشيء نفسه ينبغي عمله بحصص زوجته وأولاده بعد موتهم، وإذا مات أي واحد موتاً مفاجئاً، أو بوساطة حادث، وكان من غير الممكن توزيع ممتلكاته، فإن توزيعها ينبغي أن يعهد به إلى السلطات الكنسية.

موت بلدوين رئيس أساقفته كانتربري

وفي هذه الآونة كان بلدوين رئيس أساقفة كانتربري، على حافة الموت في عكا، فتبرع بجميع ممتلكاته لمساعدة الصليبيين في الأرض المقدسة، وبعد وفاته تولى هيوبرت أسقف سالسبري- الذي كان رئيس الأساقفة قد عينه منفذاً لوصيته- توزيع ممتلكاته بأمانة ولاستعمالات تقوية، وكان قلقاً حول حرس المعسكر، فدفع لهم، مثلما قرر رئيس الأساقفة في أيام حياته أن يفعل، وعين رواتب لعدة أيام لعشرين فارساً، ولخمسين لخدمهم، وقد أخذ على نفسه العناية دوماً بالفقراء، ملقيا عين الرحمة على المعوزين، وقائماً في جميع الأحوال بواجبات أسقف صالح.

هذا ولم تتأثر عكا بالحملات المتوالية للصليبيين، وقاومت بشجاعة وتصميم، لأنها كانت محاطة بأسوار جيدة، وكانت مشحونة بشكل جيد، ومزودة بالآلات الحربية، علاوة على ذلك كان جيش صلاح

الذيـن محيطاً بالمحـــاصرين من جميـع الجهــات، ولهذا السبـب وبسبب انسحـاب بعضـاً من الصليبين، وكـذلك بسبب الأعـداد الكبيرة التي قتلـت منهم، فـإن جيش المسيـح قـــد ضعف كثيراً، ومـع ذلك فـإن الصليبيين الذين وثقـوا بمسـاعـدة المسيح، كـانـوا متأملين أنه سيكون بامكانهم تحمل المصـاعب ومتاعب الحصار حتـى وصول الملكين، ذلك إذا ماوصلا إليهم مع أيام الفصح، لكن إذا لم يصلا فإن أموالهم ستكون أنفقت، واستهلكت، وسوف تتبدد جميع الآمال بمعونة أرضية.

حول تشامخ وليم أسقف إيلاي ومستشار انكلترا

أمـر في هـذه الآونة وليم، قـاضي انكلترا، ونائب الكـرسي المقـدس، بحفر خندق عميق حول برج لندن، آملاً أن يكون قادراً على جلب المياه من نهر التيمز إلى المدينة، لكن بعد انفـاقه كثيراً من الأموال من الخزينة، تبرهن أن جهـوده بلاثمار، عـلاوة على هـذا أصبح هذا المستشـار نفسـه عظيماً جداً بين جميع شعوب الغـرب، وكان في انكلترا هو ملك وراهب معـا، ولم يعـد يبـدي اهتمامـا بأي شيء، ذلك أنه لم يعـد قـانعـاً بالمكانة الأسقفية لوحـدها، بل أظهر بأن تفكيره مـركّز على أشيـاء كانت عـالية جداً بالنسبة لـه، ذلك أنه أظهر عبثيته وعجرفته بقـوله في مطلع رسائله كلها:« نحن وليـم، أسقف إيلاي بفضل نعمة الرب، ومستشـار مولانا الحاكم، وقاضي انكلترا كلها، ونائب الكرسي الرسولي، التحيات، إلخ»، وقـد مارس تجاوزات كثيرة بوسـاطة مـراتبه التي شغلهـا، والتي حصل عليها بوساطة الرشوة، وسعى إلى ترميم المؤسسـات المقدسة التي سلبها في سبيل حصـوله على مراتبـه، وكان يوزع الأمـوال على موائـده، حتى يتمكن من القدوم ثانية واستخراج الأموال نفسها، لكن مع فائدة، ذلك أنه مارس واجبـات النيابة البابوية، التي حصل عليهـا بكلفة ألف باوند من الفضـة، وبات متعجـرفـاً إلى حـد غـدا فيـه عبئاً ثقيـلاً على جميع المؤسسـات في انكلترا من كل من الديرة، والكاتدرائيـات، وفي الحقيقـة

ارتحل خلال انكلترا كلها مع رتل تألف من ألف وخمسمائة من الخدم، ورافقه أيضاً حشد من الكهنة، وأحاطت به كتائب من الجند، وقد أهمل جميع الأشياء التي ارتبطت بمرتبته الأسقفية، وقد خدمه على مائدته جميع أبناء النبلاء الذين زوجهم من حفيداته مع الاناث من قريباته، وقد اعتقد الذين احتفظ بهم، بمثابة خدم، أنفسهم محظوظين، ولم تكن هناك أرض معروضة للبيع إلاّ واشتراها، ولم تكن هناك كنيسة فارغة أو دير شاغر، إلاّ ووزعه أو احتفظ به لنفسه، ولم تكن هناك قلعة من القلاع أو بلدة من البلدات إلاّ وحاول الحصول على الوصاية عليها، عن طريق التهديد أو الرشوة، وبهذه الأعمال، وبتصرفات مماثلة في سماتها، ألقى الرعب في قلوب الناس، وصارت مملكة انكلترا صامتة بحضوره، ومامن أحد تذمر، لأنه لم يبق في انكلترا قوة تقاومه، وكان موكبه مكوناً من:

Ambubaiarum collegia, Pharmacopolae,

òMendici, mimae, balatrones,hoc genusomne.

وهكذا عندما كان يسير على الأرض، كان تتبعه جميع أنواع الموسيقى والغناء، مثلما يتبع الملائكة المقدسون الرب الكلي القدرة في السماء، ولقد عمل في كل مجال تماماً بطريقة بدا فيها وهو يسعى لأن يضع نفسه على سوية الرب، ولسوف نحكي خبر نهاية هذا كله في أحداث التاريخ المقبلة في وقتها.

حول الموتان عند عكا

عام ١١٩١م، فيه مات بعد موت بلدوين المبجل رئيس أساقفة كانتربري، نبلاء وفرسان مجربين بشكل جيد وأقوياء، وذلك أثناء حصار عكا، وقد قيل بأن ذلك جاء بسبب الأجواء غير الصحية، وكان بين هؤلاء رالف دي فولتشر، والكونت روبرت دي بيرشي، وثيوبولد أوف

بلوا، وأخوه الكونت ستيفن، والكونت الابن للامبراطور فردريك، وايرل فيّرار Ferrars ، والايرل روبرت دي ليستر، ورالف دي غلانفيل، ورالف هوتيرايف Hauterive، ورئيس أساقفة كولستر، وإلى جانبهم آخرون لايمكن تعدادهم، وفي تلك الأثناء كان الملك هنري الانكليزي مع الملك الفرنسي، ينتظران في صقلية حلول الربيع حتى يتجنبا السفر في الشتاء.

ومات في هذا العام أيضاً البابا كليمنت، بعدما شغل الكرسي الرسولي لمدة أربعة عشر شهراً، وقد خلفه سيليستين، الذي كان يعرف من قبل باسم هاياسينثوس Hyacinthus.

كيف أقلع فيليب ملك فرنسا ورتشارد ملك انكلترا من مسينا

وفي التاسع والعشرين من آذار من هذا العام أقلع الملك الفرنسي من مسينا، وأبحر مباشرة باتجاه القدس، ولحقه في العاشر من نيسان الملك رتشارد، وسط أبهة عظيمة، مع أسطول تألف من ثلاث عشرة بطسة من ذوات الأشرعة الثلاثة، إلى جانب مائة سفينة نقل، وخمسين غليون من ذوي الصفوف الثلاثة للمجذفين، وبعد مسير عشرين يوماً اقتربوا من جزيرة رودوس، وبعد عشرة أيام رسوا عند قبرص، هذا وقدم اسحق حاكم الجزيرة، الذي اتخذ لنفسه لقب امبراطور، مع قوة مسلحة كبيرة، لمنع الملك من الدخول، وأسر عدداً من أتباعه كانت سفينتهم قد جنحت، وسلبهم، وألقاهم في السجن ليموتوا جوعاً، وقام الملك الانكليزي، وهو يتحرق غضباً، بمهاجمة عدوه، وهزمه على الفور، وأخذه أسيراً واحتفظ به، وأخضع ابنته الوحيدة مع الجزيرة كلها وكل الأماكن الحصينة، وعمل اسحق اتفاقاً مع الملك في أن لا يبقيه بأغلال من حديد، ووفى الملك بوعده، وغلّه بأغلال من فضة، وأمر بوضعه في قلعة قريبة من طرابلس اسمها المرقب، لكنه احتفظ بابنته مكرمة مع الملكتين تحت الحراسة في بيته الخاص به، وفي سبيل انعاش نفسه وأتباعه

بعـد رحلتهم المتعبة، ومن أجل الحصـول على المزيد من المؤن الطازجـة قـرر الملك رتشارد التـوقف في هذه الجزيرة، من دون إلحاق الضرر بأي انسان، لكـن اسحق المتقدم ذكره منعـه من محاولة الدخـول إلى أراضيه، لابل أكثر من هذا منع كل واحد من رعيته بيع أية مؤن إلى جيش الملك الانكليزي، أو عرض أية أدوات وأشياء أمـامهم لبيعها، وبهذه الوسائل أغضب الملك وأثاره، وأرغمـه على انزال ماكان قـد أنزله به من أضرار ذكـرناها من قبل، وعنـدمـا تمكن الملك أخيراً من الحصـول على أموال الجزيرة، وأعـاد ترتيب الأمـور بها بما يرضيــه، تزوج من بيرنغـاريا ابنة ملكة نافار، وهي نفسها التي كانـت الملكة إليانور قد أحضرتها له عندما كان مقيماً في صقلية.

وفي اليوم الرابع من اسبـوع الفصح لهذا العام كـرس البابا سيليستين هنري ابن الامبراطور فـردريك امبراطوراً، وفي هذا العـام أيضـاً مـات فيليب كونت أوف فلاندرز، الذي أبحر نحو الأرض المقدسة مع الملك الفرنسي، من دون أن يخلف أولاداً.

كيف جرى سجن غيوفري رئيس أساقفة يورك في دوفر

وحـدث في هذه الآونة أن جـرت سيامـة غيـوفري المنتخب ليـورك، أسقفاً، من قبل بارثوليـو رئيس أساقفة تور، وجـاء ذلك بناء على أوامر الحبر الأعظم، وانطلق غيـوفـري بعد سيـامتـه يريد انكلترا، ووصل مع أتباعه إلى دوفـر، وكان متى دي كلير Clere عمدة تلك الكونتيةقد تلقى قبل وقت قصير رسـالة من وليم أسقف إيلاي جـاء فيها مـايلي:« نحن نأمرك إنه إذا ماوصل الأسقف المنتخب ليورك إلى أي ميناء، واقع تحت سلطتك، أو أي رســول من قبله، أن تتـولى اعتقـالـه حتى تتلقى أوامـر منا تتعلق به، ومثل هـذا نأمـرك أن تتـولى احتجـاز جميع رسـائل مـــولانا البـــابـا، أو رســـائل أي رجل عظيم، يمكـن أن تصل إلى هذه المناطق»، وبناء عليه عندما عرف متى بوصـول رئيس الأساقفة، قام بناء

على نصيحة أخت أسقف إيلاي، التي كانت وقتذاك مسؤولة عن القلعة، بتنفيذ تعليماته من دون إبطاء، فحاصره لمدة ستة أيام ومعه عصابة من الرجال المسلحين، في مقر رئاسة رهبان القديس مارتن، وأنزله إلى ضائقة شديدة، ذلك أنه في تلك الأثناء حصل على المؤن بصعوبة بالغة، وكان ذلك عن طريق الصدقات التي كان من الممكن وصولها له، هذا وازدادت خيانة الساخطين يومياً، ووصل إلى الكنيسة المذكورة أعلاه مجموعة من جنود أسقف إيلاي مع العصي، واندفعوا وهم مسلحين إلى حضرة رئيس الأساقفة، وأمروه بصلف وبشكل حاسم بمغادرة المملكة من دون تأخير، وبالإبحار إلى فلاندرز، وقد رفض إطاعة هذه الأوامر، ووقف ورداؤه فوق كتفيه والصليب بيديه، فسحب بالقوة من أمام المذبح، وجر من قدميه، ومن ذراعيه، ومن رجليه، ورأسه يلتطم بالأرض، وأخذ مع كهنته، ورجال الدين الذين جاءوا لرؤيته من مناطق كثيرة، وحملوه إلى القلعة، وألقوه بالزنزانة، حيث بقي سجيناً مضيقاً عليه لمدة ثمانية أيام، ووصلت أخبار هذه المعاملة إلى أسقف لندن، فذهب هذا الأسقف على الفور إلى المستشار، وبعد كثير من المصاعب، وبعد معالجات طويلة، حصل على اطلاق سراح رئيس الأساقفة، لكن بعدما أعطى أسقفيته كلها ضمانة له، وبناء عليه أطلق سراح رئيس الأساقفة، وخرج من السجن، وقدم إلى لندن، حيث استقبل من قبل الأسقف، والكهنة والشعب بكل تشريف، وبمسيرة مهيبة، ويعزى إلى هذا العمل الطائش— كما ستظهر أحداث التاريخ المقبلة فيما بعد— كثيراً جداً مما حل فيما بعد من إهانات بالمستشار.

كسوف متميز للشمس

في شهر حزيران من العام نفسه، ظهر يوم الأحد، عشية عيد القديس يوحنا المعمدان، في حوالي الساعة السادسة من النهار، كسوف للشمس،

استمر حتى الساعة الثامنة، وكان القمر وقتها في السابع والعشرين، وكانت الشمس في برج السرطان.

كيف استولى الملك رتشارد على مركب شحن كبير

وفي الحادي والعشرين من آذار، من هذا العام، وصل فيليب ملك فرنسا إلى عكا[كذا: علماً بأنه غادر مسينا في التاسع والعشرين من آذار]، ونزل الملك رتشارد الذي لحق به، في قبرص، مع كميات واسعة من المؤن، وسمع بأن جيش الملك الفرنسي كان يعاني في عكا من الجوع وندرة الحاجيات إلى حد أن سعر الربع من القمح صار يكلف ستين ماركاً، ولذلك بادر بالاسراع للتفريج عن هذه الضائقة والآلام بسفنه المحملة بكميات كبيرة من القمح، وعندما كان مبحراً نحو عكا في ريح طيبة—وعكا هي المدينة التي كانت تعرف من قبل باسم بطوليس— رأى في الأفق، في السادس من حزيران، سفينة كبيرة اسمها درمونه Dromund، كانت مرسلة وهي محملة بكمية كبيرة من المال، من مدينة بيروت من قبل سيف الدين أخو صلاح الدين، الذي كان آنذاك سلطان مصر، وكانت مكلفة بحمل المساعدات إلى المسلمين المحاصرين في عكا، وكان مع المسلمين على ظهر هذا المركب النفوط، وكثيراً من الجرار المليئة بأفاعي سامة، وطاقم بحارة مؤلف من ألف وخمسمائة مقاتل، وذلك بالاضافة إلى ألف وخمسمائة من الرجال الأشداء، الذين بهم تقوت السفينة واندعمت، وأمر الملك رتشارد رجاله بالاستعداد على الفور للعمل، وصفت الغلايين إلى جانب بعضها بعضاً، ثم نشبت معركة قاسية بين الطرفين، لكن السفينة المعادية أصبحت يائسة بسبب توقف الرياح، وبعد بعض الوقت اقترب واحد من عمال التجذيف لدى الملك، وكان غواصاً بارعاً، من سفينة المسلمين من تحت الماء، وفتح فيها ثغرة، وبعد مافعل ذلك عاد تحت حماية المسيح، إلى سفينته، وأخبر الملك بالذي فعله، ودخل الماء في وقت قصير إلى السفينة،

ووصل سطحها، وعلى الفور فقد جميع البحارة الأمل بالنجاة، بعدما كانوا واثقين من سفينتهم، وجرى اغراق ألف وثلاثمائة من هؤلاء بناء على أوامر الملك رتشارد، أما المائتين الذين بقيوا فاحتفظ بهم رهائن.

وصول الملك رتشارد إلى عكا والاستيلاء على تلك المدينة

وبعدما جمع الملك رتشارد جميع أسلاب السفينة المسلمة، وصل إلى ميناء عكا، الذي اتجه نحوه مع ريح موائمة، وفي الثامن من حزيران دخل الملك إلى الميناء، وزعقت أصوات الأبواق والنفر، وملأت أصوات القرون الهواء قرب الشاطىء، وأعيد التصويت بها حتى تملأ المنطقة الداخلية إلى مسافة بعيدة، وشجعت هذه الأصوات الصليبيين على القتال، لكنها قذفت بالرعب في قلوب المسلمين المحاصرين، لأنها أعلنت عن وصول مقدم كبير، وعبر الملك رتشارد عن مشاعره الطيبة وأظهرها نحو الجميع بتزويد الجيش الجائع بالأطعمة، ثم أعدّ الملكان على الفور، يعاونهما حشد من الفرسان والجنود المجانيق والآلات الأخرى ونشروها حول المدينة، وتمكنوا بوساطة وزن مقذوفاتهم، ومتابعة الرماية من المجانيق نهاراً وليلاً، من دك أسوار المدينة، ولذلك أصيب المسلمون بالرعب، وفقدوا كل ثقة بقدرتهم على المقاومة، وأخيراً عقدوا اجتماعا، وباشروا التباحث من أجل السلام، وكانت شروط الاتفاق، أن يعيد صلاح الدين الصليب الحقيقي، مقابل اطلاق سراح حامية المدينة، وكان هذا الصليب هو الذي استولى عليه أثناء القتال، وكان على صلاح الدين أيضاً اطلاق سراح ألف وخمسمائة من الأسرى الصليبيين، يجري اختيارهم من قبلهم، وبالإضافة إلى الاتفاق المتقدم ذكره كان عليه أن يدفع سبعة آلاف دينار، وبموجب ذلك جرى تسليم المدينة، بما كان فيها من سلاح وعتاد وكل شيء، باستثناء أشخاص المسلمين، إلى الملكين في الثاني عشر من تموز، وعندما حل موعد الدفع، لم يف صلاح الدين بما وافق عليه، وعقوبة على هذا الخرق الكبير،

وبسببه جرى اعدام ألفين وستمائة من المستسلمين، والذي احتفظ به كان عدداً صغيراً من الأعيان، حيث وضعوا في السجن، تحت تصرف الملكين.

كيف عاد الملك الفرنسي إلى بلاده بسبب الحسد

وبعد اخضاع المدينة أعدّ الملك الفرنسي نفسه للعودة إلى وطنه، وكأن الحرب قد انتهت تماماً، ذلك أنه كان غاضباً إلى أبعد الحدود، لأن الفضل بنجاحات الجيش الصليبي قد عزيت كلها إلى الملك رتشارد، وبناء عليه تذرع بالحاجة إلى المال، واتخذ الفقر عذراً فقال بأنه لايستطيع الإقامة مدة أطول، لكن الملك رتشارد، الذي كان يتحرق رغبة لرفع شأن قضية الصليبيين، عندما سمع بهذا، وعد بأنه على استعداد لتزويد الملك الفرنسي بشطر جميع ماملكه من مال، ومؤن، وخيول وسلاح، وسفن، من أجل أن يبذلا الجهد متحدين في سبيل اخراج أعداء المسيح من الأرض المقدسة، ولكن الملك الفرنسي قابل هذا كله بأنه قد أقسم على العودة، وبتصميم بات أعد نفسه للعودة، ولم يعبأ برفع أتباعه أصواتهم احتجاجاً على ذلك، واستثير الجيش كله وعبر عن انفعاله الكبير، ولذلك انطلق عائداً إلى بلاده مع فئة صغيرة برفقته، علاوة على ذلك نشب بين الملكين، عدم اتفاق بشكل سري، ولذلك اقترح ملك فرنسا تسليم مدينة عكا، وجميع المدن الأخرى، والقلاع والمناطق التي سوف يستولون عليها إلى مركيز مونتفرات، وأن يجري تعيينه ملكاً على الأرض المقدسة، ولهذه الغاية تزوج هذا المركيز نفسه من ابنة الملك عموري، وأخت ملكة القدس التي توفيت مؤخراً، وكان الملك رتشارد معارضاً بشكل كلي لهذه الرغبة، وبرهن بشكل واضح، أن الذي عليهم فعله والذي هو الأصح هو إعادة الملك غي إلى مملكته، التي حرم منها منذ وقت قصير، بدلاً من تعيين واحد جديد، وهو مايزال بين الأحياء، ولاسيما أنه كان من الواضح أنه فقد سيادته ليس بسبب تقاعسه بل

بسبب اقدامه وشجاعته في حرب حادة، وقع فيها بالأسر مثلما وقع الصليب بأسر المسلمين، وكان سبب ذلك تفوق عدد أعدائه، وضعف جيشه، ولقد كان هذا هو السبب الأساسي للخلاف بين الملكين المتقدمي الذكر، مع أن الخلاف قد تفجر بينهما في المقام الأول— وإن ظل مخفياً— في مسينا في صقلية، عندما استحوذ الملك رتشارد على المدينة بالقوة المسلحة، ودمر كثيراً من أتباع الملك الفرنسي، بسبب قسوة الجيش الفرنسي وفظاظته وسوء معاملته للانكليز، يضاف إلى هذا أن الملك الفرنسي رأى أن الناس من مختلف البلدان، الذين تدفقوا على الأرض المقدسة، قد وضعوا أنفسهم تحت قيادة الملك رتشارد، وأن شهرة رجولة هذا الملك ومقدرته قد إزدادت يوميا، وذلك بسبب أنه كان أفضل تزويداً بالمال، وأعظم كرماً في منح الأعطيات، ثم إنه امتلك جيشاً أكبر، وكان أشجع في قتاله لأعدائه، ولقد اعتقد الملك الفرنسي بأن شهرته قد خبت وكذلك مقدرته تجاه ماتمتع به الآخر، ولذلك تعجل العودة، وبالاضافة إلى هذا كله، لقد رغب في أن يستحوذ لنفسه أراضي كونت فلاندرز الذي مات مؤخراً، وبناء عليه قام— بعدما أقسم أنه لن يغزو أراضي الملك الانكليزي، أو أراضي القادة الذين بقيوا معه— بالمغادرة، وتدبر الملك رتشارد بعد هذا ترميم الثلم في أسوار عكا، وتنظيف خنادقها، وشحنها بقوة من الرجال المسلحين.

نجاحات الملك رتشارد وتقدمه

بعد هذه الحوادث، وفي عشية يوم عيد صعود مريم المباركة، أخذ الملك رتشارد مع أتباعه المجربين الطريق خروجاً من أبواب عكا، وانطلق بجرأة زاحفاً ليحاصر، ومن ثم ليستولي على مدن ساحل البحر، وأمر بنصب معسكره على مقربة ومشهد من جيش صلاح الدين، وذلك في المكان الذي أعدم فيه الألفين والستمائة من المسلمين، كما تحدثنا من قبل، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى المسلمين الذين احتلوا

المدن الساحلية، خافوا من أن يقوم الملك أثناء غضبه بإنزال عقوبة مماثلة بهم، أي مثل العقوبة التي أوقعها بعكا، ولم تتوفر لديهم ثقة بمساعدة صلاح الدين لهم، بما أنه رفض أن يدفع فدية الآخرين التي طلبت منه، ولذلك أفرغوا مدنهم وهربوا على الفور لدى سماعهم باقتراب الملك، وكانت هذه هي الحالة مع سكان: حيفا، وقيسارية، وأرسوف ويافا، وغزة، وعسقلان، وهكذا— بإرادة من الرب— سقطت جميع المناطق البحرية في ذلك الشطر من البلاد في أيدي الصليبيين، وهذا على كل حال لم يكن من دون بعض القتال الحاد، لأن جيش صلاح الدين تبع من الخلف، أجنحة الجيش الصليبي، وأوقع ضربات قاسية بالأطراف، ونجم عن ذلك مذابح كبيرة من على الطرفين، وعانى منها الجيشين معا، وبعدما قام الملك رتشارد بتحصين المدن المتقدم ذكرها، عاد منتصراً إلى عكا،[وعاد بعد أيام إلى يافا التي هي غير بعيدة عن قيسارية، حيث أنزل بصلاح الدين هزيمة مهينة، وبعد ذلك منح مملكة القدس إلى هنري ابن أخته، مع أرملة مركيز مونتفرات كزوجة له، وأنقذ في الوقت نفسه آثار عدد كبير من القديسين كان صلاح الدين قد استولى عليها، ودفع مقابل ذلك مبلغاً كبيراً من المال].

وهذه الرواية التي قدمناها، نستطيع أن نفهمها أكثر بتقديم نص رسالة كان رتشارد قد بعث بها إلى وولتر رئيس أساقفة روان حول هذا الموضوع نفسه:« من رتشارد، بنعمة الرب، ملك انكلترا، الخ— اعرف بأن مولانا ملك فرنسا قد عاد إلى الوطن، وبعد ذلك تولينا ترميم الأماكن المهدمة والثلم في أسوار مدينة عكا، ثم قمنا بعد هذا في سبيل رفع شأن القضية الصليبية، ومن أجل الوفاء بأهداف نذرنا، فزحفنا إلى يافا، بصحبة دوق بيرغندي مع أتباعه الفرنسيين، والكونت هنري وعساكره، وعدد كبير آخر من الكونتات والبارونات، هذا وتوجد منطقة شاسعة بين عكا ويافا، والطريق إلى هناك طويل، وبعد زحف

مـديد، مع كثير من التعرق والتعب، وصلنا إلى قيسـارية، وفقد صـلاح الدين أيضاً بعضـاً من أتباعه أثناء الزحف نفسه، وبعـدما استراح جيش الرب لبعض الـوقت في يافـا، استـأنفنا مجدداً زحفنا الموفق، وعنـدمـا تقدمت طلائع قواتنا وكانت تنصب المعسكر قرب أرسوف، قام صلاح الدين مع حشد كبير من المسلمين بـالهجوم على ساقـة قواتنا، إنها بفضل الرب أرغم على الفرار، وقد طارده جندنا لمسافة مرحلة، وأوقعوا مقتله كبيرة في ذلك اليـوم بين أعيـان المسلمين، وكـان اليـوم هو عشيـة عيـد القديسة مريم، وهناك في أرسوف عـانى صلاح الدين في يوم واحد مالم يعـاني من مثله خـلال أربعين سنة مضت، ووصلنـا بعـد هذا بعناية من الرب وإرشاد إلى يافا، وقويناها مع خنادقها وأسوارها، ذلك أن هدفنا، هو أننا إلى حيث نستطيع الـوصـول، العمل على رفعـة الشأن الصليبي، بقـدرما نمتلك من قـوة، وفي الحقيقـة، لم يتجرأ صـلاح الدين، منذ يوم الهزيمـة المتقـدم ذكـره أعـلاه، على الاقتراب من الصليبيين والاشتبـاك معهم، لكنه نصب بشكل سري كمائن لتدمير أصدقاء الصليب، مثله في ذلك مثل أسد في عـرينه ينتظر الشاة المقـدر لها الذبح، وكان— على كل حـال— لدى سماعه بأننـا كنا زاحفين بسرعة نحـو عسقـلان، قد قـام بتـدميرها وتسويتهـا بالأرض، والآن بما أنه لم تعد لديه خطة، ولاقـدرة على التحـرك والتحرير، ترك سورية كلهـا إلى قدرها، وهذا مـاشجعنا، وجعلنا نمتلك آمالاً جيـدة في أن نتمكن خلال وقت قصير من استرداد جميع ميراث ربنا— وداعاً ثم وداعاً».

كيف أعطى الملك رتشارد مملكة القدس إلى ابن أخته هنري

ولدى عـودة الملك رتشـارد إلى عكا، كما ذكـرنـا من قبل، أعطى ابن أختـه هنري، مملكة القدس، مع زوجـة مـركيز مـونتفرات، لأنها كـانت وريثة المملكة، بعد وفاة أختهـا ملكة القدس، ووافق على هذه الترتيبات برضـا غي أوف لوزغنان، الـذي كـان الملك المتقـدم لتلك المملكة، وفي

سبيل ضمان السلام تسلم هو جزيرة قبرص، التي كان انتزعها في الحرب الأخيرة الملك الانكليزي من ملك تلك الجزيرة، وقدم غي الولاء إلى الملك الانكليزي من أجلها، وكان المركيز قد قتل مؤخراً في صور من قبل الحشيشية المسلمين، وبوفاته قيل بأن مملكة القدس صارت بموجب حق الوراثة لزوجته.

كيف أنقذ الملك رتشارد جميع الآثار المقدسة للأرض المقدسة

كان صلاح الدين قبل مضي بعض الوقت قد أسر غي ملك القدس، واستولى على صليب ربنا، وإثر ذلك مباشرة ألقى الحصار على القدس، وكان السكان الذين بقيوا في المدينة، محبطين بما نزل بهم، ويائسين من القدرة على مقاومة صلاح الدين، لذلك قاموا على الفور بتسليم المدينة له، وهو لم يسمح لأحد منهم بالمغادرة، مالم يدفع عشرة دنانير فدية عن كل انسان، وتمكن الأغنياء على الفور من دفع الفدية عن أنفسهم، لكن سبعة آلاف رجل وجدوا في المدينة، كانوا لايمتلكون وسائل الدفع، وقام بقية سكان المدينة بالعطف عليهم وتأسفوا لسوء حظهم، واتفقوا بالاجماع على أخذ الصلبان الذهب والفضة والكؤوس، والتمائم، وجردوا ضريح ربنا من زينته، وأخذوا الحلي الأخرى التي وجدوها في الكنائس، وأنقذوا بذلك فقراء أبناء المدينة، وجمعوا أيضاً جميع آثار القديسين التي وجدوها في المزارات، ووضعوها في أربعة صناديق كبيرة من العاج، ولدى استسلام المدينة لصلاح الدين، كان من بين الأشياء التي رآها بعدما استولى عليها هذه الصناديق، وقد سأل باهتمام عما كانت تحتويه، ثم أمر بإرسالهم إلى بغداد، وأن تعطى الصناديق إلى الخليفة، حتى لايتمكن الصليبيون من متابعة الاعتزاز بعظام أناس أموات، وأن يتوقفوا عن الاعتقاد، بأن أصحاب العظام التي يعبدونها على الأرض سوف يشفعون لهم في السماء، لكن مقدم أنطاكية والبطريرك مع مؤمنين آخرين، كرهوا تماماً تشويه مثل هذه الذخائر

الثمينة، وفقدانها، فوعدوا، وأقسموا أنهم سوف يدفعون اثنين وخمسين ألف دينار، لانقاذ هذه الآثار نفسها، وأنهم إذا عجزوا عن دفع المبلغ المذكور، في موعد جرى الاتفاق عليه، سوف يتخلون عن الآثار المذكورة له ويعيدونها إليه، وأخذ مقدم أنطاكية الآثار وهي مختومة، وشعر الآن جميع أتباع المسيحية بحزن قاهر شديد، وباتوا خائفين، لأن موعد الدفع المثبت من قبل صلاح الدين قد اقترب حلوله، وبات على المقدم المتقدم ذكره الذي أخذ الآثار معه أن يعيدها مختومة كما تسلمها، إلى صلاح الدين، هذا وسمع رتشارد الملك الانكليزي بهذا، وكان آنذاك بالفوله، وعلم بأن جميع الأشياء قد رتبت بشكل صحيح، فأمر على الفور بدفع المبلغ المتفق عليه إلى صلاح الدين مقابل الآثار المقدسة، وحافظ بتقوى على تعهدات القديسين بأن الذين ينقذون عظام رجال الرب هؤلاء من الأيدي غير التقية على الأرض، سوف ينالون الشفاعة لعون أرواحهم في السماء، وكان كل صندوق كبير الحجم كثيراً وثقيلا جداً، إلى حد أنه تعذر على أربعة رجال حمله لأي مدة من الزمن.

اكتشاف آرثر الملك الأعظم شهرة في بريطانيا

وفي هذا العام نفسه، تمّ العثور على عظام آرثر، الملك المشهور لبريطانيا، وقد عثر عليها مدفونة في غلاستونبري في ناووس قديم جداً، قام إلى جانبه هرمين، وعليهما كان محفوراً كلمات، لكنها كانت غير مفهومة بسبب خشونتها، وانعدام شكلها، وكانت مناسبة العثور عليها كما يلي: كان بعض الناس يحفرون في المكان نفسه قبراً، لراهب تمنى أثناء حياته بشغف في أن يدفن هناك، فوجدوا نوعاً من أنواع النواويس، عليه موضوع صليب رصاصي، مع هذه الكلمات محفورة عليه:« هنا يرقد آرثر المشهور، ملك بريطانيا، وقد دفن في جزيرة أفالون Avalon، وكان المكان محاطاً من جميع جوانبه بسبخ، وكان يعرف من قبل باسم«

جـزيرة أفـالـون»، أي جـزيرة التفـاح، وفي هـذا الـعـام جـرى تكريـس روبـرت، الـذي كـان راهـبـاً نظاميـا في كنـيسـة لنـكـولـن، وكـان ابنا لوليـم مفـوض الجيش في نورماندي وتمّ تكريسه في كـانـتربـري أسقفـاً لوينكسـتر، مـن قبل وليم، نائـب الكرسي الرسولي.

كيف أخذ الملك رتشارد تتولاه الشكوك تجاه المستشار

وأخـذت في هـذه الآونـة تتوارد الشكـاوى الجادة يومـاً تلو آخـر إلى الملك حـول عجـرفـة مستشـاره، وعن الأذى الذي ألحقـه بكثيرين، ولهذا كتب إلى نبـلاء انكلترا بما يلي:« نحـن رتشـارد ملك انكلترا، إلى مـارشـالنا وليم، وإلى غ. فتـز— بطرس، وهـ. باردولف Bardolph، وو. بروبير W.Bruyere، الخ، إذا صـدف، ولم يقم مستشـارنا الذي عـهدنا إليـه بـإدارة أمـور مملكتنـا، بالتصرف بإخـلاص في تنفيـذ واجباته، نأمـركم باتخاذ الاجراءات من أجل إداره شـؤون المملكة وفقاً لإخـلاصكم واستقـامتكـم، وذلك فيما يتعلق بمـواريث الـدولة والحصـون»، وقـدم في هذه الآونـة إلى انكلترا، وليم رئيس أسـاقفـة روان، حـامـلاً رسـائل من الملـك بهذا الخصـوص جـاء فيهـا:« نحن رتشـارد، بنعمـة الـرب، ملك انكلـترا، إلى وليم المارشـال، والآخـرين من نظرائـه، تحيات— اعـرفـوا أننا رأينا من المناسب، أن نرسل إليكـم، من أجل الدفـاع عن مملكتنا وترتيب شؤونها، الأب المحبـوب من قبلنا، وليـم رئـيس أساقـفة روان، الذي استـدعي من حجه وعاد بمـوافقة من الحبر الأعظم، وبنـاء علـيه نحن نأمـركم، ونفـرض عليكـم بدقـة، أن تقـومـوا أثنـاء إدارة شـؤوننـا، أن تأمـروا بكـل شـيء وفقـاً لنصيحـته، وإن إرادتـنا تقـضي، أنـنا مـادمـنا في حجنا، أن تتبـادلوا الآراء مع بعضـكم، في ترتيـب جميع الأمـور— هـو معكم، وأنتم معه».

إهانة المستشار وسقوطه

في هذا العام نفسه، وفي يوم السبت التالي لعيد القديس ميكائيل، وبناء على طلب من الإيرل جون، أخو ملك انكلترا، اجتمع النبلاء الانكليز قرب جسر لندن فيما بين ردنغ ووندسور، لعقد مؤتمر حول المسائل الهامة بالنسبة للملك وللملكة، وفي اليوم التالي للمؤتمر، قام رئيس أساقفة روان، وكذلك رئيس أساقفة يورك، وجميع الأساقفة الذين اجتمعوا في ردنغ، ليكونوا حضوراً في المؤتمر، قاموا بشكل مهيب، ومع شموع مشتعلة، بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بجميع الذين أشاروا، أو ساعدوا، أو أمروا بالإبعاد عن الكنيسة، وبالمعاملة السيئة والسجن لرئيس أساقفة يورك، وذكروا بشكل خاص اسم ألبرت دي مارلين، والاسكندر بونتيل Puintil، وفي يوم الاثنين التالي، عرف الايرل المتقدم ذكره، بأن المستشار يخشى من هجوم منه عليه، فاقترح عليه، ليزيل من نفسه جميع الشكوك، القدوم إلى مؤتمر في مكان قرب قلعة وندسور، وذلك بناء على طلب المستشار، وأعطاه ضمانة على سلامته من قبل أسقف لندن، وعلى كل حال لم يقتنع المستشار بهذه الضمانة، فهرب على الفور، والتجأ إلى برج لندن، ولدى معرفة الايرل بفرار المستشار، جاء شخصياً إلى لندن، وعندما كان على وشك الدخول إلى المدينة، قابلته مجموعة من فرسان المستشار، بسيوف مجردة، وقام هؤلاء الفرسان بهجوم عليه وعلى أتباعه، وقتلوا واحداً من النبلاء اسمه روجر دي بلين Planes ، وفي اليوم التالي الذي كان يوم الثلاثاء، اجتمع الايرل جون مع رئيسي الأساقفة، والأساقفة، والفرسان، والبارونات، في بيت هيئة كهنة كنيسة القديس بولص، وكان ذلك بحضور المستشار، وبعد نقاش طويل، أقسموا على الولاء للملك رتشارد، وكان الإيرل جون أول من أدى اليمين، وتبعه رئيسا الأساقفة، وجميع الأساقفة، والفرسان والبارونات، الذين كانوا في الاجتماع، وفي

يوم الخميس التـالي لهذا الاجتماع، جـرى عقـد مـؤتمر آخـر، في الجزء الشرقي من برج لندن، حضره النبـلاء الذين تقـدم ذكـرهم، وفيه تقـرر بشكل حاسم بالاجماع، وجوب عدم وضع مملكة انكلترا مرة ثانية تحت حكم رجل واحـد، سببت إدارته انحطاط الكنيسـة، وإنزال الناس إلى درجـة الحاجة والعـوز، لأن المستشار المذكـور وأعوانه قـد أنهكوا جميع ثروات المملكة، إلى حد أنهم لم يتركوا لانسان حزامه الفضي، ولا لامرأة طوقهـا، ولالنبيل خاتماً، أو مـالاً، أو أي شيء له قيمـة عند يهودي، كما أنهم أفرغـوا خزائنهـا، إلى حد أنه بعـد مرور عامين، مـامن شيء يمكن العثور عليـه في صناديقهـا، غير المفاتيح وأواني فـارغة، وتقـرر أيضاً أن جميع الحصـون التي قـرر المستشـار اسنادها إلى اتباعـه، يتـوجب عليـه التخلي عنها وإعادتها، وفي المقـام الأول برج لندن، ولقد أقسم المستشار على التقيد بهذه القـرارات، وتطبيقاً لهذا قـام يوم الثلاثاء التـالي بمغادرة البرج مـع آلـه وحـاشيتـه، وعبـر نهـر التيمـز إلـى بيـرمـوندسـي Bermondsey، تاركاً أخـويه: هنري، وأوسبرت Osbert ، بمثابة ضمانة لإعـادة القلاع، لأنه أقسم على أنه لن يغـادر المملكة، حتى يكون قـد تم التخلي عـن القـلاع وتسليمهـا، ثم إنه ذهب مـن هناك إلى كـانتربري، وحمل صليب الحج المقـدس، متخليـاً عن وظيفـة النائب البابوي، التي شغلهـا لمدة سنة ونصف السنة، بعد مـوت البابا كليمنت، من أجل الإضرار بالكنيسـة الرومـانيـة، وكذلك بالكنيسـة الانكليـزية، وبعـد فعله هذا ذهب إلى دوفر برفقـة غيلبرت أسقف روكستر، وهنري دي كورنهل Cornhill ، وعمدة كنت، وظن أن بإمكانه اغلاق أعين البحـارة هناك، فـاقترح نوعـاً جـديـداً من الخداع، فقـد غير الرجل إلى امرأة، مثلما غيّر رداء الكاهن واستبدله بثـوب عاهرة، حيث ألبس نفسه بثـوب امـرأة لونه أخضر، مع رداء من اللون نفسـه ووضع قبعـة على رأسه، وذهب نحو الشاطىء يحمل بعـض الأقمشة الكتانية كأنها للبيع، وعندمـا كـان الكاهن جـالسـاً على هذه الصـورة على صخـرة قـرب

الشاطىء، منتظراً ريحاً طيبة، كان هناك ملاح أراد أن يمزح مع المرأة، فاندهش لرؤيته سراويل على امرأة، فصرخ على الفور بصوت مرتفع قائلاً:« تعالوا إلى هنا، جميعكم، تعالوا إلى هنا وشاهدوا رجلاً بثياب امرأة»، وتجمع عدد من النساء من أهل البطالة، وسألن بإلحاح عن سعر القماش الذي حمله للبيع، فلم يجبهن، وكأنه كان لايفهم اللغة الانكليزية، وبناء عليه تشاورن فيما بينهن، وتوجسن أن يكون محتالاً، لذلك وضعن أيديهن على حجابه الذي غطى فمه، وجذبنه ونزعنه من على أنفه وسحبنه نحو الخلف، فاكتشفن ملامح رجل، داكن، وقد حلق مؤخراً، فصرخن على الفور إلى بعضهن بعضاً قائلات:« أقدمن، ودعونا نرجم هذا الوحش الذي أساء إلى كلا الجنسين»، واحتشد هناك وتجمع حشد من النساء والرجال، فانتزعوا قبعته من على رأسه، وبطحوه أرضاً وسحلوه بشكل مهين وجروه من أكمامه ومن ردائه، فوق الرمال والحجارة، مسببين الجراحة الكثيرة لهذا الأسقف، وبعد أمد جاء أتباعه لتخليصه، لكن من دون نجاح، لأن الناس لحقوه برغبة جامحة، وشتموه، وهاجموه بالضربات، وبصقوا عليه، وبعدما سحلوه في الشوارع، ألقوه في الزنزانة سجيناً، وبذلك بات هدفاً لسخرية الناس، وكان من المتمنى أنه لو أهان نفسه فقط، ولم يهن الكهنوت كله، وهذا الذي تولى سحل رئيس أساقفة يورك وأودعه السجن، هو الآن قد جرى سحله وايداعه في السجن، وصار المعتقل الآن معتقلاً، والمقيد الآن مقيداً، والسجان سجيناً، وبناء عليه يمكن عدّ درجة العقوبة التي نالها متساوقة مع درجة عدوانه، وأخيرا، لم يعط تقدير للرهائن التي أودعها، وأقسم أنه لن يغادر مملكة انكلترا قبل أن يجري تسليم القلاع، ولدى الفراغ من ذلك، عبر المستشار المذكور البحر إلى نورماندي في التاسع والعشرين من تشرين الأول.

حادثة لم يسمع بمثلها

وفي هذا العام نفسه، كان شاب من حاشية أسقف لندن، قد علّم صقراً على اصطياد البط النهري الصغير فقط، وكان البط يطير فجأة ويهرب لدى سماع أصوات نقرات أداة اسمها الطبلة، كان يضرب عليها الذين سكنوا على شاطيء النهر، ولدى طيران البطات اعترض الصقر غنيمته، ثم اندفع نحو سمكة كراكي كانت تسبح في الماء، وأمسكها، وحملها بشكل مرئي لمسافة أربعين قدما فوق اليابسة، واندهش الأسقف تجاه هذا الحادث الفريد، وأرسل الصقر والسمكة، كمؤشر غريب على مستقبل الأيام، إلى الايرل جون، وكان ذلك في الثاني والعشرين من تشرين الأول.

موت رينالد رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري

عام ١١٩٢م، فيه مات رينالد أسقف باث، الذي انتخب لرئاسة الأساقفة من قبل رهبان كانتربري، وكان موته في يوم عيد الميلاد، بعد تسعة وعشرين يوماً من تعيينه، وقد دفن في كنيسته في باث، قرب المذبح الكبير.

وصول الملك الفرنسي إلى باريس قادماً من حجه

وعاد في هذه الآونة الملك الفرنسي من حجه، وقد استقبل في باريس بمسيرة مهيبة، في السابع والعشرين من كانون الأول.

الاستيلاء على الدارون من قبل الملك رتشارد

وبعد عيد الفصح من هذا العام نفسه، وصل الملك رتشارد إلى الدارون، وهي الحصن الأخير للصليبيين مما يلي مصر، وبعدما حاصر البلدة لخمسة أيام استولى عليها، وترك الحامية تغادر، بعد دفع فدية كبيرة.

كيف استولى الملك رتشارد على سبعة آلاف جمل محملة بالثروات

وبعد هذا النصر جاء دوق بيرغندي مع العساكر الفرنسية التي كانت لديه، واقتادها بموجب تفويض من الملك الفرنسي، الذي عينه قائداً، ورئيسا أعلى لها، والتحق بالملك رتشارد، وأعطى الملك رتشارد إلى هذا الدوق، أثناء العيد المنصرم مبلغ ثلاثين ألف دينار، على شرط أن يقف إلى جانبه باخلاص في الحرب ضد أعداء المسيح، وفي أثناء مؤتمر بينهما قررا الذهاب إلى القدس من دون توقف، وعندما وصل الملك رتشارد إلى قلعة النطرون، وبيت نوبه قرب عمواس، قدم إليه بعض البدو، وكانوا خاضعين إلى اتفاق مع الملك بأن يجلبوا له الأخبار، فأوصلوا إليه أخباراً بأن جماعة كبيرة من التجار، كانوا على طريقهم من مصر إلى القدس، مع سبعة آلاف جمل محملة بالتجارات من مختلف الأنواع، وأن هذه الجماعة تحت حراسة بعض من أشجع نخبة قوات صلاح الدين، وجيشه، وزحف الملك مع عدد صغير من الجند، لاعتراض هذه الجماعة، وعند الصهريج الأحمر فاجأها كلها، وأخذ الجمال مع أثقالها، ثم قام بسخاء بتوزيع ماناله على جيشه، وعاد بعد ذلك إلى المعسكر الآنف الذكر، وبحكمة شحن كل مدينة وقلعة بالقوات،[وجاء في هذه الآونة دوق النمسا للوفاء بنذره بالحج، بوساطة الخدمة في الجيش الصليبي، ولكي يتعبد في الأماكن التي سار عليها مخلصنا، وعندما تدبر مارشاله مقراً له لسكناه، وقام بالترتيبات اللازمة، جاء مسرعاً فارس نورماندي من حاشية الملك رتشارد، وشرع بحماقة يتبجح، وفق طرائق ذلك الشعب وعاداته، بأنه يمتلك أعظم الحقوق في تلك الأماكن، وأنها قد عينت له بحكم كونه القادم الأول، وثار خصام، ووصلت الضجة إلى مسامع الملك، الذي أظهر نفسه أنه مؤيد للنورماندي، واشتعل غضباً ضد رجال الدوق، ولم يأخذ بها حثّه عليه الرب، بالذهاب ورؤية كيف كانت الأمور تسير، بل أصدر الأوامر بتسرع ومن دون روية

بإنزال علم الدوق، الذي نصب فوق مقراته، وبرميه في الخندق، وبذلك حرم الدوق من مسكنه، فذهب وسط سخرية النورمان وإهاناتهم ليتشكى إلى الملك، لكنه لم يحصل على شيء، سوى السخرية مما زاد من آلامه، وهكذا لدى استخفاف الملك به، توجه وهو يبكي بالدعاء إلى ملك الملوك لأن ينتقم له مما لحقه من أذى، وذلك وفقاً لما كتب:« الانتقام لي، هكذا قال الرب، وأنا الذي أسدد»، وإثر هذا مالبث أن عاد الدوق إلى بلاده وهو مضطرب، وفيما بعد خجل الملك رتشارد من هذه الفعلة خجلاً عظيماً].

حول احدى النساء التي كانت صديقة للصليبيين وبشكل خاص للملك رتشارد

وعاد الملك رتشارد منتصراً مع جميع أسلابه إلى قلعة النطرون، التي تبعد ثلاثة أميال عن القدس، وحث بإلحاح كل واحد من المقدمين على الزحف، وإلقاء الحصار على القدس، طالما أنهم يمتلكون تلك الوفرة من كل شيء، أي من العتاد والمؤن، والدواب للحمولة، وذكرهم بالمنافع التي سوف تضفى عليهم في حججهم من قبل الرحمة اللاهوتية، علاوة على ذلك، كان الملك قد تشجع إلى أبعد الدرجات، من قبل امرأة متدينة، وكانت سورية من حيث البلد، وكانت قد سكنت في مدينة القدس، فقد أوصلت هذه المرأة إليه جميع أسرار المدينة، وكيف أن المسلمين كانوا مرعوبين، ومن دون معنويات، بسبب قرب وصوله، وأخبرته أيضاً أن جميع أبواب المدينة كانت مغلقة باستثناء باب اسطفان في الجانب الشمالي من المدينة، وقد نصحته أن يمركز قوات جيشه إلى جانب هذا الباب، كما أرسلت له مفتاحاً يمكن بوساطته فتح الأبواب، وعلى كل حال، إنه بعدما تقرر من قبل الجميع إلقاء الحصار على القدس، تشاور دوق بيرغندي مع الداوية والمقدمين الفرنسيين، فأقنع بنقض قراره، فقد أكدوا أن الدوق مع جميع الفرنسيين سوف يجنون

غضب الملك الفرنسي الأعظم شدة، إذا ماتمكن الملك رتشارد من الاستيلاء على مثل هذه المدينة العظيمة والواسعة الشهرة، وما من شيء من فضل وسمعة ذلك، سوف يعزى إلى الدوق نفسه أو إلى الفرنسيين، مع أنه بمساعدتهم جرى الاستيلاء على مثل هذه المدينة العظيمة.

كيف جرت رشوة دوق بيرغندي من قبل صلاح الدين ومغادرته للأرض المقدسة

وجرى في الوقت نفسه إرسال رسل من قبل الدوق إلى صلاح الدين، لكن لأية غاية، ماضي الأحداث ومستقبلها سوف يري ذلك، ففي إحدى الليالي، عندما كان الملك الانكليزي مقيماً أمام المعسكر المذكور، وكان الدوق مع أتباعه في بيت نوبة، سمع جاسوس تابع للملك رتشارد اسمه جوموس Jumaus ، أصوات جمال ورجال وهم يتحركون نازلين من الجبل، فتبعهم خلسة، فوجد أنهم قوم أرسلهم صلاح الدين إلى معسكر الدوق، مع خمسة جمال محملين بالذهب والفضة والسلع التجارية، وأقمشة حريرية وهدايا أخرى كثيرة، وبادر الجاسوس عائداً بسرعة إلى سيده وأخبره بجميع هذه الأوضاع ثم أخذ بعضاً من خدم الملك، وجلس بشكل حذر على الطريق الذي سوف يعود عليه الرسل، وكمن بانتظارهم، وعندما كانوا عائدين أخذهم أسرى، وجلبهم إلى حضرة الملك، وقام أحدهم بعدما تعرض للتعذيب، بالاعتراف— وهو مكره— بأنه تنقّل فيما بين الدوق وبين صلاح الدين، وفي النهار أمر الملك، بعدما أبعد الرسل عن المشاهدة، بالبعث خلف الدوق، والبطريرك، ورئيس رهبان بيت لحم، وعندما صاروا مع بعضهم في مكان منعزل، أدى على الفور قسماً بحضورهم على الآثار المقدسة، بأنه جاهز مستعد، كما تم الاتفاق بينهم، ثم أكد ذلك باليمين، وقال بأنه هو وجيشه على استعداد للزحف للهجوم على القدس،

ومـدينة باروخ، التي من دون الاستيـلاء عليهـا من غير الممكن تتـويج ملك القـدس، وبعـدمـا أقسم الملك على هذه الصـورة، دعـا الدوق أن يقسم من أجـل الغـرض نفســه، وهذا مـــارفض الـدوق أن يفعله، مما أغضب الملك كثيراً، ودعـــاه على الفـور باسم خـائن، ولامــه لتسلمـه مختلف الهدايـا من صـــلاح الديـن، وكـــذلك بشأن الـرسل السريين، والاتصالات التي قـامت بينهما، وأنكر الدوق وبذل جهده للـدفاع عن نفسه ضد هذه الاتهامـات، فأمر الملك بالرسل الذي اعتقلهم الجاسوس فأحضروا، وأباحوا جميع أسرار الاتصـالات، وأمر الملك خـدمه برميهم على مـرأى من الجيش كله، مع أن الجيشين كـانا جـاهلين أسبـاب هذه الوحشية، ولم يعرفوا مـاالذي فعلوه، أو من أين أتوا، أما بالنسبة للدوق فقـد استـولى عليه الخجـل، وغضب لأنه تبرهن أنه خـائن، لذلك بادر بأقصى سرعـة ممكنة بالمغـادرة مع الجيش الفـرنسي، وانطلق نحـو عكا، وكان الملك مدركاً لنواياه وعارفاً بها، فأرسل رسالة إلى قادة تلك المدينة بعدم السماح لأي رجل بالدخول إليها، ولذلك أقاموا معسكرهم خارج المكان.

حول ناسك تنبأ بأن مدينة القدس لن يتم اخضاعها

وفي الليلة التي تلت مغادرة الدوق على هـذه الصورة التي وصفناها، جاء إلى الملك أحد المريدين، وجلب إليـه رسالة من ناسك مقدس، بأن يأتي مسرعاً لرؤيتـه، ونهض الملك على الفور، ومع أن الوقت كـان ليلاً، ذهب نحـو رجل الرب، آخـذاً معـه خمسمائـة من الحرس، ولقـد عـاش رجل الرب هذا منذ وقت طـويل على جبل القـديس صمـوئيل، وكـان محبيا بروح التنبـؤ، فمن يوم الاستيلاء على صليب ربنا، وأخـذ الأماكن المقدسة، هو لم يأكل شيئاً سـوى الأعشاب، ولم يلبس شيئاً يغطيه سوى شعــر لحيتــه الطـويل، وحــدق الملك لبعـض الوقت بالنـاسك، وهو مندهش، ثم سأله مـاالـذي يريده منه، وفـرح الرجل المقـدس بوصـول

الملك، وأخـذه معـه إلى داخل خلـوته، وأزاح هناك حجـرة من الجدار، وسحب من هناك صليبـاً خشبيـا، وأمسكه بكل خشـوع أمـام الملك، وأوضح بأن هـذا الصليب، مصنوع من دون شك مـن خشبـة صليب ربنا، وبين أشيـاء كثيرة، أخبر الملك، بـأنه لن يتمكن بأية طريقـة من الطرق في الوقت الحالي، من الاستيـلاء على تلـك المنطقـة، مع أنه عمل بدأب شديد، ولكي يجعل الملك أكثر استعـداداً لتصديقه، أوضح له بأنه هو نفسـه سوف يغـادر هذه الحيـاة في اليوم السـابع من ذلك التـاريخ، ولكي يتمكن الملك مـن الوقـوف على برهان على صحـة كلماته، أخـذ الناسك معـه إلى المعسكر، وحـدث أنه كما قـال سلفـاً، فمات في اليـوم السابع.

الموت التعيس لدوق بيرغندي

وفي اليـوم التالي لـوقوع هذه الأحـداث، نقل الملك معسكره، وسـار عـائـداً على طريق دوق بيرغندي ونصب معسكره على مقـربة من ذلك المقدم، خارج مدينة عكا، غير أنه ماكاد يرتاح مع جيشه لمدة ثلاثة أيام، حتى وصله انذار على يد بعض الرسل، الذين بعثوا من يافـا مع أخبار، بأن صـلاح الدين، ومعه جيشـه كله قد ألقى الحصـار على تلك المدينة، وقـالوا بأنه لن يلبث أن يستـولي عليها، وأن يقتل الفـرسـان والعساكـر المعسكرين فيهـا، مالم يحمل على الفـور المساعدة إلى المحـاصرين، ولدى تلقي هذه الأخبـار انزعج الجيش الصليبي كله انزعـاجـاً كبيراً وحـزن، وكـان بين الآخـرين الملك رتشـارد في حـالـة قلق عظيم، وبذل جهـده وجهود الآخرين لإعادة دوق بيرغندي الغـاضب لعقد اتفاق وتصالح، ورجاه بالحاح ليقـدم له مساعدته للحيلولة دون وقـوع مثل هذه المأساة الكبيرة، وعلى كل حـال تمنع ذلك المقـدم عن الإصغـاء إلى وسـاطتهم، ولأنه لم يرغب أن ينزعج بمطالبهم، انطلق مع أتباعه نحو مدينة صور، إنما فـور وصـوله إلى هناك حلت به مصيبـة من الرب، وأصبح مجنوناً،

وأنهى حياته بموت تعيس.

كيف أرغم الملك رتشارد صلاح الدين على رفع الحصار عن يافا

بعد وفـاة دوق بيرغنذي، أقلع الملك رتشارد على ظهر سفن حـربية، مع قوة صغيرة، وأسرع نحو يافا لتقـديم المساعدة إلى المحاصرين، لكن بسبب عنف الرياح وشـدة هيجـان البحـر دفعت سفنه بشكل معـاكس نحو قبرص، ولدى رؤية سكان عكا ذلك خيل إليهم أنه كـان عائداً إلى وطنه، لكن الملك شـق طريقـه على الرغم مـن شـدة الرياح، بوســاطة التجذيف القـوي، وعند انبلاج الفجر في اليوم الثـالث وصلوا إلى يافا، لكن ثلاثة سفن فقط، وحـدث في الوقت نفسه أن تمكن صـلاح الدين، بعـد حملات متـواليـة، من الاستيـلاء على المدينة، وقتل جميع العسـاكـر المعاقين والجرحى، وهم الذين بقيوا هناك بسبب ضعفهم، غير أن خمسة منهم، وكانوا أشجع من البقيـة، وكان رتشارد قـد تركهم مسؤولين عن المدينة، تركــوا الآن المدينة، وحملوا أنفسهم إلى القلعـة، حيـث وجـدوا الناس هناك يتناقشـون حول تسليم القلعة قبل إرغـامهم على فعل ذلك بهجمات الأعـداء، وكـانوا عَلى وشك فعل ذلـك، لولا أن تمّ توجيههم من قبل البطريـرك، الذي مُنح أمـانـا للتنقل بين الجيشين، ذلك أن جند جيش صـلاح الدين، كـانوا يريدون الانتقام لموت رفـاقهم وأقـربائهم، الذين أعدمهم الملك رتشارد بلا رحمة في أماكن كثيرة، وقد أقسموا على قتلهم جميعاً، وذلك دون مـراعاة لمنح صلاح الـدين لهم ممراً آمنا، وأمانا بالمغـادرة، وعلى هذا كـانوا في خطر عظيم بمواجهـة الموت، وكـانوا في ريبة حول مـايمكنهم فعله، مقدرين عدد أعدائهم وشـدتهم، وكان عدد الموجــودين هناك قليــلاً، كما أنهم كــانوا غير واثقين من قــدوم الملك لمساعدتهم، وعندما— على كل حـال— علموا بوصول الملك، أصبحوا أكثر جرأة ودافعوا عن أنفسهم بشجاعة، وعلم الملك من القتال الشديد بين كل من من المهـاجمين والمحاصريـن، بأن قلعة المدينة لم تسقط بعـد،

فقفز برشاقة إلى البحر، وهو مسلح، وألقى بنفسه ومعه أتباعه، مثل أسود غاضبة، بين أكثف مكان لعساكر الأعداء، وشرعوا بتقطيعهم واسقاطهم من على اليمين واليسار، ولم يستطع الترك تحمل هذا الهجوم المفاجيء، واعتقدوا بأنه جلب معه جيشاً أكبر عدداً، فتخلوا عن الحصار فوراً، وحثوا الآخرين على الفرار، وأعلنوا عن الوصول غير المتوقع للملك، وكان رعبهم أثناء ذلك الفرار من غير الممكن كبحه، حتى أنهم دخلوا مدينة الرملة، وقاد صلاح الدين فرارهم طوال ذلك الوقت وهو في عربته، وبعدما ألحق الملك رتشارد هذه الهزيمة بالأعداء نصب معسكره خارج المدينة، وذلك للسرور غير المتوقع للمحاصرين.

كيف هزم الملك رتشارد مع قوة صغيرة اثنين وستين ألفاً من المسلمين عند يافا

وبعد يوم فراره، أخبر صلاح الدين، بأن الملك قد جاء مع جيش صغير فقط، وأن الذي لديه ليس أكثر من ثمانين فارساً، إلى جانب أربعمائة من رماة الزنبورك كانوا برفقته، ولدى سماع صلاح الدين بهذا غضب غضباً عظيماً من رجال جيشه، لأنهم كانوا آلافاً مؤلفة، وقد هزموا من قبل مثل هذا العدد الصغير، وبناء عليه، قام لإزعاج جيشه، باستعراضه هناك وتعداده، وأصدر أوامره الامبراطورية، بوجوب عودة اثنين وستين ألفاً منهم فوراً إلى يافا، وأسر الملك نفسه، وجلبه حياً في اليوم التالي إلى حضرته، وكان الملك هنري وجيشه مرتاحين في تلك الليلة بأمان، ولايخشون أي هجوم مفاجيء، وعند انبلاج الفجر جاء الجيش المسلم كله، وطوق بشكل كامل معسكر الملك، بشكل أن رجال الملك لم تعد تتوفر لديهم فرصة بالفرار إلى المدينة، فقد تمركزت قوة كبيرة جداً بينها وبين معسكر الملك، واستيقظ الملك وجميع قواته الصليبية بسبب ضجيجهم وأصواتهم، واعترتهم الدهشة لدى رؤيتهم لأنفسهم وقد جرى تطويقهم من كل جانب من قبل أعداء الصليب.

وأدرك الملك على كل حـال مـدى الخطر الكبير، فقام على الفـور بتسليح نفسه، وركب ظهـر حصانه وكأنه يطير بجناحين، وطرح جـانبا كل الخوف من الموت، وكأنه قد تشجع بعـدد الأعـداء، وبث الحماس بصوته بين رجاله للقيـام بالمنازله، وقام هو مع أحد عشر فـارساً، كانوا وحـدهم، من بقية الأعـداد قـد امتطوا خيولهم، بشق طريق بجـرأة بين صفوف الأعداء، فبسيفـه المجرد، ورمحه المسدد، وجه ضربـات صاعقة، وقرع بسيفه على رؤوس أعدائه المغطاة بالخوذ، فحرر الخيول العربية من أصحـابها الذين امتطوا ظهورها، ووزع هذه الخيـول بين فرسـانه الذين كـانوا يسيرون على أقـدامهم، فقـام هؤلاء بـامتطاء ظهـورها برشـاقـة، وبوسـاطة الملك الذي قاد دومـاً الطريق وكان على رأس أتبـاعه، فـرقوا عساكر الأعداء من على جميع الأطراف، وقتلوا من دون رحمة كل الذين اعترضـــوا سبيلهـم، وصرخ المسلمـــون الذين سقطـوا تحت ضربات أعدائهم بأصوات مرعبة، وأسلموا أرواحهم إلى الجحيم، وتولى في هذه المعركة رماة الزنبورك زمـام الأمور، وتصرفوا بشكل استحقوا به الثناء، وذلك بسبـب شجـــاعتهم التي لامثيل لها، ولاسيما بصـــدهـم لحملة الأعـداء، وإذلالهم لجرأتهم، ولقد أشعت شجـاعـة الملك كثيراً، في هذه المعـركـة، وكـذلك بالقـدر نفســه أشعت مقـدرة رجـاله وشجـاعتهم، فـالآلاف المؤلفـة من الأعـداء التـي أرغمـوها على الفـرار، تبـدو أمـراً لايمكن تصـديقـه، لولا وجـود يد ربانيـة قـد تـولت حمايتهم، لأنه من يمكنه أن يصدق أن ثمانين فارساً، كـان يمكنهـم هكذا التعامل بغلبة مع اثنين وستين ألفاً من الرجال والقتال معهم طوال النهار، وأمكنهم تحمل زخـــات من رشقـات نبـــالهم، وضربات حـــرابهم، وذلك من دون أن يتراجعـوا عن مواقعهم الأولى، ولو لمسـافة قـدم واحد، لابل أكثـر من ذلك تمكنهم مـن تمزيق صفـــوف أعـــدائهم وتفـــريقهم في كل اتجاه، وإرغامهــم على الفرار، وقطعاً مـاكان لهم نيل هــذا النصر المفرح، وغير المنتظر منهم، لولا أنهم اعتمـدوا على عـون الرب، واعتقدوا أنهم كـانوا

تحت حماية السماء، وبعد أمد رأت شحنة يافا الشجاعة المنتصرة للملك ولأتباعه، فقام أفرادها بالإغارة بشكل مفاجىء على ساقة الأعداء، وانقضوا عليها، وبحملات متوالية من جانبهم، مع حملات الملك، أدار المسلمون ظهورهم، وهربوا بشكل فوضوي، مع خسائر كثيرة، ولجأوا إلى الآجام والكهوف لصيانة أنفسهم.

كيف وصل الجيش الصليبي لمساعدة الملك رتشارد

ووصلت في الوقت نفسه أخبار إلى رجال الجيش الذي كان الملك قد تركه في عكا، بأنه كان محاصراً من جميع الجهات في يافا، من قبل الأعداء، وأنه كان في خطر عظيم، مالم يذهبوا بكل سرعة للتفريج عنه، وألقت هذه الأخبار الرعب والكآبة في قلوب الجميع، وفكروا جميعاً بالفرار، لكن رجال الشطر الأكثر شجاعة في الجيش اجتمعوا للتداول حول فرص أن يكونوا قادرين على تقديم العون إلى الملك، ولذلك زحفوا باتفاق من الجميع إلى قيسارية، ولم يتجرأوا على التقدم مسافة أبعد خوفاً من العدو، وقد علموا هناك بالنصر غير المتوقع للملك، فغلبهم الفرح، وقدموا الشكر للرب لأنه الحافظ لهم جميعاً، ووقعت هذه المعركة أيام عيد القديس بطرس في الأغلال.

كيف قرر الملك رتشارد العودة إلى الوطن

وبعد هذا النصر الذي لانظير له، بقي الملك سبعة أسابيع في يافا، كان خلالها مريضاً مرضاً شديداً، سببه الأجواء غير الصحية، فقد حمل المرض عليه وعلى أتباعه بهجوم مدمر، وقد هلك جميع الذين أصيبوا بهذا المرض، باستثناء الملك، الذي حفظ بصحته من قبل العناية الربانية، علاوة على ذلك اكتشف الملك في تلك الآونة أن أمواله قد أصبحت قليلة جداً، بسبب العطايا الكبيرة التي وزعها باسراف بين جنوده، ووجد أن الجيش الفرنسي والآخرين الذين احتفظ بهم، بعد وفاة دوق

بيرغندي، مقابل نفقات عالية، كانوا الآن قلقين راغبين في تركه، وكذلك وجد جيشه يتناقص بالعدد، بوساطة المرض المميت، والصراعات مع الأعداء، الذين كانت أعدادهم تتزايد يوميا، ولذلك عقد مشاورات مع الداوية والاسبتارية، والمقدمين الذين كانوا معه، وأعدّ العدة للعودة إلى الوطن على الفور، مقيداً نفسه باليمين بالعودة لحصار المدينة المقدسة، فور تمكنه من تقوية جيشه، وتزويد نفسه بالمال، وبالإضافة إلى الأسباب المتقدمة من أجل مغادرته، كان السبب الأعظم ثقلاً وتأثيراً عليه، هو ماعلمه من أن أخاه جون كان يتآمر لوضع انكلترا تحت سيادته، وقد برهنت النتيجة أنه قد رغب بفعل ذلك، وبما أنه كان واضحاً أن مغادرة مثل هذا الجيش الكبير مع أمير مثل رتشارد، لايمكن إلاّ أن تعرض الذين سيبقون هناك إلى خطر عظيم، وفقدان المنطقة التي أخضعوها ، ولذلك تمت الموافقة— بناء على طلب الجيشين ومشورتهما— على عقد هدنة بين الصليبيين والمسلمين لمدة ثلاثة أعوام، تبدأ من يوم الفصح المقبل.

كيف عاد الملك رتشارد من حجه

وبناء عليه، عندما صارت سفنه في فصل الخريف جاهزة، وجميع ترتيباته قد اكتملت، أقلع الملك رتشارد مع ملكته، وأخته جوانا، ملكة صقلية ونبلائه، لعبور البحر المتوسط، وأثناء سفرهم ثارت عواصف غير معتادة، وعانوا من كثير من المصاعب في الوصول إلى اليابسه، وعاني بعضهم من جنوح سفنهم، ونجا بعضهم بعدما جنحت سفنهم، إلى الشاطىء، عراة تقريباً، مع فقدانهم لمقتنياتهم، وقليل منهم هم الذين وصلوا إلى المرسى المنشود آمنين، ووجد— على كل حال— الذين نجو من المخاطر في البحر، في كل مكان أنفسهم يتعرضون للهجوم من قبل الأعداء على الشواطىء، وقد أُسروا من قبلهم، وسُلبوا، وأرغم بعضهم على دفع فدية ثقيلة، ولم يكن هناك مكان يلجأون إليه، وكأن البر

والبحر قد تآمرا ضد الصليبيين العائدين، ومن هذا هناك برهان كاف، بأن مغادرتهم قبل انجاز هدف حجهم، لم يكن مرضياً بأي شكل من الأشكال للرب، الذي كان قد قرر بعد وقت قصير إغنائهم في تلك البلاد، بجلب أعدائهم وجعلهم خاضعتين لهم، وبمنحهم الأرض التي قاموا في سبيلها بذلك الحج المرهق، وبعد أمد قصير من غيابهم، أنهى صلاح الدين ذلك الغازي للأرض المقدسة، حياته الشريرة أثناء الصوم الكبير التالي، بموت تعيس ، ولقد قالوا بأنه لو كان حياً في تلك الأثناء، لتمكن بسهولة من الاستيلاء على الأرض المقدسة، لأن أبناء وأقرباء صلاح الدين نفسه اختلفوا فيما بينهم أنفسهم، وتصارعوا من أجل ملك أبيهم.

كيف نجا الملك المذكور من كثير من الكمائن التي نصبت له من قبل أعدائه

وبعدما تعرض الملك رتشارد مع بعض من أتباعه لزوابع شديدة لمدة ستة أسابيع، اقتربوا من سواحل المغرب، أي كانوا على بعد مسافة ابحار ثلاثة أيام من مرسيليا، حيث علم من تقارير متواترة بأن كونت سانت جايل وجميع الأمراء الآخرين، الذين كان سيسافر من خلال أراضيهم، كانوا بالاجماع يتآمرون ضده، ونصبوا في كل مكان الكمائن له، ولذلك رتب بشكل سري أن يعود عن طريق ألمانيا، وبناء عليه انطلق عائداً مع قليل من أتباعه، الذين كان من بينهم بلدوين أوف بيثيون Bethune، والمعلم فيليب، وكاهنه، وأنسلم شماسه[الذي رأى وسمع بهذه الأشياء، وأخبرنا بها]، وبعض رهبان الداوية، ونزلت هذه الجماعة في بلدة في سلافونيا اسمها غزارا Gazara، وأرسلوا من هناك على الفور رسولاً إلى أقرب قلعة يسألون السلام، ويطلبون أمانا من صاحب تلك المنطقة، الذي كان حفيداً للمركيز، وكان الملك رتشارد قد اشترى أثناء عودته من تاجر بيزي ثلاث جواهر من النوع الذي يعرف

باسم الياقوت، مقابل تسعمائة دينـار، وأمر عندما كان على ظهر السفينة بوضع احـدى هـذه الجواهر في خـاتم ذهبي، وأرسل هـذا الخاتم مع الرسول المذكـور إلى صاحب تلك القلعة، وعندمـا سأل الحاكم الرسول عن الذين طلب لهم الأمـان، أخبروه بأنهم كانـوا حجاجاً عائـدين من القدس، وسأله الحاكم عن أسمائهم، فأجابه الرسول قائلاً:« واحد منهم اسمه بلدوين دي بيثيون، واسم الآخر هيـوج، وهو تاجر قد أرسل لك هذا الخاتم»، ونظر صاحب القلعـة بدقة أعظم نحـو الخاتم، وقال:« هو ليس اسمـه هيـوج، بل الملك رتشـارد»، ثم أضـاف:« مع أنني أقسمت على اعتقال جميـع الحجاج القادمين مـن تلك الجهات، وعلى عـدم قبول هدية منهم، إنني مع ذلـك بسبب قيمـة الهدية، وكـذلك بسبب المرسل، الذي شرفني كثيراً، مع أنني غريب بالنسبة له، أعيد إليه هديته، وأمنحه إذنا بحـرية المغـادرة»، وبهذا عـاد الرسـول، وأخبر الملك بجميع مـاقـد حدث، وخشية من هذا الاكتشاف، اشترت الجماعة خيولاً، وانطلقت في منتصف الليل بشكل سري من البلدة المتقـدم ذكـرها، وسـارت لبعض الوقت خـلال تلك المنطقـة مـن دون معيقـات، لكن ذلك الحاكم بعث بكشـاف إلى أخيـه سـار خلفهم، ليخبره بالقيـام باعتقـال الملك عندمـا يدخل إلى أراضيه، وبناء عليه عندمـا وصل الملك إلى هناك، ودخل إلى المدينة التي كـان يعيش فيهـا أخـو الحاكم المتقـدم ذكـره، قـام هذا الأخ فبعث خلف صـديـق مـوثوق لديه، اسمـه روجـر، وكـان من الشعب النورماندي، من أهالي أرجنتون، وكان قـد عاش معه عشرين سنة، وقد تزوج من حفيدته، وأمره أن يبحث بدقة في جميع البيوت التي يقيم فيها الحجاج، ووعده إذا أمكنه أن يعثر على الملك، ويتعرف عليه إما بوساطة اللغـة، أو بوساطـة أية شارة أخـرى، بإعطائـه نصف المدينة لاسيما، إذا مـااعتقله، ووجـد هذا الرسـول الملك، بعـدمـا بحث في أمـاكن إقـامـة الحجـاج، واحداً واحـداً، وبعد كثير من الخداع والمراوغـة، أرغم الملك بالأخـذ والرد وببكاء البـاحث بصدق، على الاعتراف بشخصيـة، وبناء

على ذلك تقدم بالرجاء إلى الملك وهو يبكي، في أن يقوم على الفور بالفرار، وأعطاه جواداً ممتازا، وعاد بعد هذا إلى سيده، وأخبره بأن ماسمعه عن وصول الملك كان غير صحيح، بل هم بلدوين دي بيثون، ورفاقه عائدون من حجهم، وغضب سيده غضباً شديداً، وأمر باعتقالهم جميعاً، وكان الملك مع وليم دي إيستينغ Estaing وصبي كان يفهم اللغة الألمانية، قد نجا من المدينة خلسة، وبقي على الطريق لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي من دون طعام، ووقتها دفعه الجوع إلى الانعطاف نحو قرية اسمها غيناشيا Gynatia، على الدانوب وليكتمل سوء حظه، كان دوق النمسا متوقفاً فيها آنذاك.

كيف جرى اعتقال الملك رتشارد من قبل الدوق ورميه في السجن

. وهكذا وصل الملك رتشارد إلى النمسا وتوقف هناك، وبعث بالطفل إلى بلدة غيناشيا، إلى السوق ليشتري بعض الطعام إلى رفاقه الجياع، ولدى توجه الطفل نحو السوق أظهر عدة دنانير، وتصرف بعجرفة وبتبجح، ولذلك جرى اعتقاله من قبل أهل البلدة الذين سألوه من هو، فأجابهم بأنه كان خادم تاجر غني، وصل إلى تلك البلدة، بعد سفر ثلاثة أيام، وبناء عليه تركوه يذهب، فذهب خلسة إلى المقر السري للملك، ونصحه بأن يهرب على الفور، وأخبره بالذي حدث له، ولكن الملك رغب— على كل حال— بعد الذي عاناه أثناء السفر، أن يرتاح عدة أيام في البلدة المسماة أعلاه حيث كان يرسل أحيانا هذا الطفل نفسه إلى السوق العام، لشراء حاجياته، وحدث في إحدى المرات في يوم عيد القديس توماس، أن كان هذا الطفل يحمل من دون حذر قفازات سيده الملك تحت حزامه، ورآه المشرف على المنطقة، فاعتقله ثانية، وأنزل به مختلف أنواع العذاب، وضربه، وهدده بسحب لسانه وقطعه إذا لم يعترف على الفور بالحقيقة، وأخيراً أرغم الطفل بوساطة تلك الأنواع

من العذاب على إخباره بحقيقة الأمور، فبعث ذلك المشرف على الفور خبراً إلى الدوق وطوق بيت الملك، وأمره بشكل مهين أن يسلم نفسه بهدوء، ولم ينزعج الملك لدى سماعه للضجة والصراخ، ورأى أنه ليس بمقدوره الوقوف ضد مثل ذلك العدد من البرابرة، فأمر بوجوب احضار الدوق، واعداً بأنه سيسلم نفسه إليه فقط، ولدى قدوم الدوق سلمه نفسه مع سيفه، وطار الدوق فرحاً بذلك، وأخذ الملك معه بطريقة محترمة، ثم وضعه تحت حراسة جنوده، مع أوامر بوجوب حراسته بكل دقة وعناية، مع سيوف مجردة ليلاً ونهاراً.

وعلينا الآن أن لانعدّ أن هذه النازله من سوء الحظ قد نزلت من دون قرار من الرب القدير، ولم يكشف لنا، فيما إذا كان ذلك جزاء للملك على ذنوب شبابه، أو عقوبة على آثام رعيته، أو أن ذلك جاء تذكرة لهذا الملك ليتوب، وليكفر عن جريمته لدى سماعه نصيحة الملك الفرنسي ونيله مساعدته حيث حاصر والده شخصياً، أي الملك هنري عندما كان مريضاً في فراشه في مدينة مين، وصحيح أنه لم يذبحه بسيفه، لكنه أرغمه بالحملات المتوالية على ترك ذلك المكان، ومما لاشك فيه أن جميع هذه الظروف والمعطيات كانت السبب في موته.

وفي هذا العام، جرى أيضاً انتخاب سافاري Savary رئيس شمامسة نورثأمبتون أسقفاً لباث، ثم إنه ذهب إلى روما، وهناك جرى رسمه كاهنا، وفي التاسع عشر من إيلول تلقى السيامة من ألبان أسقف ألبانو.

كيف باع دوق النمسا ملك انكلترا إلى الامبراطور

عام ١١٩٣م، فيه بقي الملك رتشارد سجينا لدى دوق النمسا، حتى باعه هذا الأمير إلى الامبراطور الروماني مقابل ستين ألف باوند من الفضة، بعيار كولون، ثم إنه أمر به في يوم الثلاثاء بعد أحد السعف أن يحرس بعناية، ولكي يرغم الملك على دفع مبلغ كبير فدية لنفسه، أمر به

فأودع السجن في تريفي Treves ، وهو سجن لم يدخله أحد وخرج منه حتى ذلك الحين، وهو المكان الذي يقول عنه أرسطو في كتابه الخامس:« Bonum òest mactare parentes Intreves »، وعنه قال في مكان آخر:

Sunt loca, Sunt gentes quibuse mactare parentes

ففي هذا المكان جرى وضع الملك تحت حراسة قوية من الجنود، والخدم، وقد رافقه هؤلاء إلى حيث ذهب مع سيوف مجردة نهاراً وليلاً، لابل حتى أنهم تابعوا الحراسة حول فراشة بحيث لم يسمحوا لأحد بالبقاء بقربه أثناء الليل، ولم تؤثر أياً من هذه الظروف على ملامح الملك حيث بدا دوماً مشرقاً ومقبولاً لدى محدثيه وشجاعاً وجريئاً في أعماله، وذلك حسبما تطلب الوقت، والمكان، والسبب، والشخص، وإلى آخرين أدع حكاية مزاحه مع حرسه، وكيف جعلهم يسكرون، وكيف انقض على أشخاصهم الضخمة عن طريق المزاح.

كيف اتهم الامبراطور الملك رتشارد بأشياء كثيرة وكيف رد الملك بحكمة عليهم .

كان الامبراطور لزمن طويل يحمل مشاعر غضب، وحقد ضد الملك، حتى أنه لم يتنازل لاستقباله في حضرته، أو حتى التحادث معه، لأنه تشكى بأن الملك قد أضرّ به وبرفاقه في مجالات كثيرة، وتظاهر بأن لديه كثيراً من التهم ضده، وأخيراً بعد وساطات عدد من الأصدقاء من وقت إلى آخر، ولاسيما راعي دير كلوني، ووليم مستشار الملك، دعا الامبراطور إلى الاجتماع: أساقفته، ودوقاته، وفرسانه، وجلب الملك إلى حضرته، وهناك اتهمه بعدة اعتداءات، أمامهم جميعاً، وعدّدها وكان أولها في المقام الأول، أن الامبراطور خسر بسبب نصيحة رتشارد ومساعدته، مملكة صقلية وأبوليا، التي بموجب الحق عائدة له، إثر وفاة

الملك وليم، ولكي يحصل عليها حشد جيشاً كبيراً، وأنفق مبلغاً لانهاية له من المال، وقال بأن الملك المذكور، قد وعده بصدق بتقديم مساعدته للحصول على تلك المملكة من تانكرد، ثم تعرض لقضية ملك قبرص، الذي كان قريباً له، واتهم رتشارد، أنه خلعه بشكل غير عادل عن عرشه، وأنه سجن ذلك الملك، وأنه غزا بلاده بالقوة، وسلبه أمواله، ثم باع الجزيرة إلى أجنبي، ثم اتهمه بتدبير مقتل مركيز أوف مونتفرات، ووريثه، وأكد أنه بسبب خيانته وتآمره قد جرى قتل ذلك الرجل النبيل من قبل الحشيشية، وأنه قد أرسل هؤلاء القوم أنفسهم لقتل مولاه ملك فرنسا، الذي لم يحافظ على الاخلاص له، أثناء حجمهما معا، كما كان الاتفاق معقوداً ومؤكداً بالأيمان بينهما، واشتكى أخيراً، أنه ألقى في يافا بين الأوساخ علم قريبه، دوق النمسا، مراغمة له، وأنه أهان دوماً ألمانه في الأرض المقدسة وآذاهم بالكلام والسلوك.

وبعد توجيه هذه التهم وأمثالها من قبل الامبراطور، وقف الملك الانكليزي على الفور، وتقدم نحو وسط الاجتماع، ورد على التهم واحدة واحدة، وتكلم بشكل واضح تماما ومقنع، إلى حد أنهم نظروا إليه بإعجاب، واحترام من قبل الجميع، ولم يبق هناك أدنى شك فيه أنه لم يكن مجرماً أو مقترفاً لأي عدوان، في أذهان المستمعين إليه، لأنه برهن على ذلك بوضوح وبصدق، وبسياق كلماته، وبصدق تأكيداته، وماشابه ذلك في مناقشة القضية، وبذلك قضى على كل التهم، ولم يبتعد عن حقيقة ماقد وقع، ورفض بكل ثبات تهمة الخيانة، أو أنه كان المتآمر في قتل أي أمير، مؤكداً أنه يمكنه البرهنة على براءته بالنسبة لجميع هذه التهم، كما ينبغي على محكمة الامبراطور أن تقرر، وبعدما ترافع لوقت طويل أمام الامبراطور ونبلائه بمقدرة عظيمة حيث دفع جميع التهم، أعجب الامبراطور بفصاحته، فنهض وبعث وراء الملك ليأتي إليه، وعانقه ومنذ ذلك الحين تصرف نحوه بلطف ولين، وعامله بود عظيم،]

وجرى فيها بعد حرمان دوق النمسا كنسياً من قبل مولانا البابا مع جميع كرادلته، وعندما كان على فراش الموت، لم يقدم التكفير المتوجب، وخشية أن يتعرض للضياع، جرى تحليله من قبل أساقفته، ومات بشكل مريع].

كيف دفع الملك رتشارد غرامة مائة وأربعين ألف باوند مقابل اطلاق سراحه

وبعد هذه الأحداث، وبناء على وساطة الأصدقاء من وقت إلى آخر، جرى بحث دفع فدية الملك، واحتاج ذلك إلى وقت طويل، وكانت النتيجة في النهاية، وجوب دفع مائة وأربعين ألف مارك فضي، من عيار كولون، نقداً إلى الامبراطور، مقابل اطلاق سراحه، وأن يكون ذلك قبل الوصول إلى أية اتفاق، وتبعاً لذلك، أقسم في يوم القديس بطرس والقديس بولص الرسولين: الأساقفة والدوقات، والبارونات يمينا، أنه فور دفع الملك للمبلغ المسمى أعلاه، سوف يطلق سراحه ويمتلك الحرية في العودة إلى مملكته، وجلب أنباء هذه المعاهدة إلى انكلترا مستشار الملك، وليم أسقف إيلاي، الذي أحضر معه رسائل من مولانا الملك، وكذلك الختم الذهبي للامبراطور، وصدر على الفور قرار عن رجال العدالة الملكية، يقضي بأن يدفع جميع الأساقفة، والكهنة، والإيرلات، والبارونات، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان مساهمة مقدارها ربع دخلهم في سبيل اطلاق سراح الملك، وعلاوة على ذلك أعطوا أوانيهم الذهبية والفضية من أجل ذلك العمل التقوي، ولقد أخذ جون أسقف نورويك نصف ثمن الأواني الموجودة في جميع أرجاء أسقفيته، وأعطى هذا النصف إلى الملك، وأعطت طائفة السسترشيان، التي كانت حتى ذلك الحين معفية من جميع الضرائب، جميع صوفها من أجل اطلاق سراح الملك، وفي الحقيقة مامن كنيسة، أو طائفة، أو مرتبة، أو جنس، نجا من دون أن يرغم على الدفع في سبيل اطلاق سراحه،

وظهــرت العـلامــات الدالـة على وقـوع هذه الكـارثة في المواسم غير الاعتيادية، وفي فيضانات الأنهار، والعواصف المرعبة والزوابع والأمطار ثلاث مـرات أو أربع في كل شهر، مع برق مخيف على امتـداد السنة، مما سبب نقصاً شديداً في حاصلات الفواكه والقمح.

تبرئة الملك رتشارد من تهمة قتل المركيز

وعندما كان ملك انكلترا متهماً بشكل ظـالم بقتل المركيز، بعث رسلاً إلى مقـدم الحشيشيــة يسأله أن يكتب رسـالـة إلى دوق[النمسـا] أو إلى امبراطور[ألمانيـا] حتـى يبرهن براءته، ومنه حصل الملك على الـرسـالة التاليـة:« من شيخ الجبل، إلى ليوبولد دوق النمسا، تحيـات: بما أن عدداً من ملوك وأمراء مـاراء البحر، قد اتهموا مـولانا رتشارد، ملك انكلترا، بقتل المركيــز، إنني أقسم بالله الـذي يحكم إلى الأبد، وبالشريعــة التي نؤمن بها، أن مـامن مـلامة يمكـن إلصاقهـا به، فيما يتعلق بمـوت ذلك النبيل، ولقد كان سبب موت المركيز كما يلي: كان واحد من اخوتنا قادم في مركب من أضاليا إلى منطقتنا من البـلاد، عندما دفعت عاصفة به إلى صور، حيث اعتقله المركيز، وقتله، واستولى عـاى مقتنياته التي تكونت من مبلغ كبير من المال كان ملكه، وبعثنا برسل إلى المركيز نطلب منه أن يعيـد إلينا مال أخينا، وأن يتفق معنا حـول التعويض عن مقتله، الأمـر الذي لم يفعله، بل أهان رسلنا واتهم بمقتل أخينا رينالد صاحب صيدا، مع أننا نستطيع أن نؤكد الصـدق عن طريق بعض أصدقـائنا بأن المركيز نفسه هو الذي تدبر قتل الرجل وسرقته، ثـم بعثنا إليه برسول آخر اسمه ادريس وقـد أراد رمي هذا الرجل بالبحـر، لكن رفـاقنا سـاعـدوه على مغادرة صـور، ولقد عاد على الفـور، وأخبرنا بهذه الأشياء، ورغبنا من تلك الساعة بموت المركيز، وبناء عليه بعثنا باثنين من إخواننا إلى صور، وهناك قتلوه بشكل مكشـوف، وأمـام جميع السكان تقريبـاً، وهذا كـان سبب مقتل المركيـز، ونحن في الحقيقـة، نتحـدث الصـدق في قـولنا بأن

مولانا الملك رتشارد لم تكن له علاقة بموت ذلك النبيل، الذي عاني بسببه ظلماً، من كثير من الأذى وذلك من دون سبب، ونؤكد لكم أيضاً بأننا لم نقتل أي انسان بهذه الطريقة من أجل جائزة، أو من أجل المال، بل فقط عندما ألحق الأذى بنا، واعلموا بأننا قد كتبنا هذه الرسالة في بيتنا في حصننا مصياف بحضور إخواننا، وختمناها بختمنا في منتصف شهر ايلول في سنة ألف وخمسمائة لتوقيت أيام الاسكندر(١)».

كيف جرت سرقة هيوج أسقف شستر وسلبه جميع مقتنياته

وفي هذه الآونة كان هيوج أسقف شستر مسرعاً مع هدايا كثيرة، كان قد اشتراها مع صعوبات جمة، لرؤية الملك، لكن عندما كان متوقفاً أثناء الليل قرب كانتربري للاستراحة، جرى اعتقاله وسرقته وسلبه جميع ماكان معه، وأظهر متى دي كليرا Clera شحنة قلعة دوفر التعاطف مع اللصوص ولذلك جرى حرمانه كنسيا من قبل رئيس الأساقفة، وليس من المعروف الآن فيما إذا كان قد كفر عن ذنبه.

موت صلاح الدين وخلافة سيف الدين له

وفي هذه الآونة نفسها، أصيب صلاح الدين العدو المعلن للحقيقة والصليب بزيارة الرب له، في أيام العيد في الناصرة، ومات فجأة، وبناء على ذلك اغتصب أخوه سيف الدين الملك هناك، لكن كان هناك معه الأبناء السبعة لصلاح الدين، وضدهم أبناء نور الدين، الذين طردوا من ملك أبيهم من قبل صلاح الدين ، حيث زحف هؤلاء مع حشد من الفرس، ومن هؤلاء أخوين هما صلاح الدين وسيف الدين، وذريتهما، والخلفاء من أولادهما، هناك حاجة قليلة للحديث عنهم من أجل توضيح هذا التاريخ، وذلك سوى القول بأنهم مشهورين في كل مجال لدى المسلمين، وكان صلاح الدين لدى موته، الذي ذكرناه، قد

---

١ — انظر ص ٦٣٦، حيث ورد نص هذه الرسالة بشكل فيه بعض الخلاف.

خلف تسعة أولاد يرثون مملكته، لكن سيف الدين، أخاه الأصغر، قتل جميع أبناء أخيه، باستثناء واحد اسمه غياث الدين كان متملكاً لحلب مع جميع المدن المجاورة لها، والبلدات، وأماكن أخرى حصينة، كان عددها أكثر من مائتين، وكان لسيف الدين، الذي جعل من نفسه سيداً لمملكة أخيه، وقتل أبناء أخيه، خمسة عشر ولداً، سبعة منهم جعلهم ورثة لمالكه التي حصل عليها بالقتل، وكان أول أولاده اسمه الكامل، الذي ورث حكم الاسكندرية، والفسطاط، والقاهرة، ودمياط، وتنيس، مع جميع بلاد مصر، وامتلك ابنه شرف الدين دمشق والقدس، وجميع المناطق الصليبية، الحاوية لأكثر من ثلاثمائة مدينة، وحصن وقلعة، وذلك إلى جانب القرى، وامتلك ابنه الملك الأشرف منطقة اسمها حران(وخلاط) مع جميع المنطقة التي فيها أكثر من أربعمائة مدينة، وحصن، وقلعة، إلى جانب القرى، وامتلك ابنه الرابع الذي اسمه Mehemodain مملكة آسيا، التي احتوت على مايزيد على ستمائة مدينة، وحصن، وقلعة إلى جانب القرى، وامتلك ابنه الخامس Mechisemphat منطقة Sarcho، حيث قتل هابيل، وتحتوي هذه المملكة على تسعمائة مكان وأكثر، بما في ذلك: المدن، والحصون، والقلاع، إلى جانب القرى، وحكم ابنه السادس Machinoth، منطقة بغداد، حيث يعيش بابا المسلمين، الذي يدعى باسم الخليفة، وهو الذي يخشى منه ويحترم في شريعتهم مثل الحبر الروماني بيننا نحن أنفسنا، ويشاهد رجل الدين هذا مرتين في الشهر فقط، عندما يذهب مع تلاميذه— الذين يحتفظ بهم، مثل احتفاظ البابا بالكرادلة— إلى المسجد، حيث تجري— كما يقال— عبادة محمدﷺ رب الهاجريين، وبعدما يسجد هناك، ويؤدي صلاته وفقاً لشريعتهم، يقوم جميع الحضور، قبل مغادرتهم المعبد بالأكل والشرب، وبعد ذلك يعود إلى قصره، وزيارة محمدﷺ وتعبده هناك، هي مثلما يتعبد المسيحيون المسيح المصلوب، علاوة على ذلك إن مدينة بغداد التي فيها محمدﷺ والخليفة،

هي عاصمة الهاجرين، مثلما روما هي عاصمة الشعوب المسيحية، واسم ابن سيف الدين السابع Salaphat ، وبهذا لم تكن لديه منطقة ليرثها، غير أنه سكن مع أخيه الكامل، وهو الحامل لرايته، وإلى الكامل هذا نفسه، يرسل كل واحد من أخوته إليه سنويا، ألف دينار اسلامي، ومائة قطعة ذهبية، وفرسين مجهزين بشكل جيد، وعندما كان والدهم سيف الدين يذهب لزيارة أولاده، كان يقدم ورأسه مغطى بغطاء من الحرير الأحمر، وكان أولاده يخرجون لاستقباله، فسيجدون أمامه أربع مرات، ويقبلون قدميه، ثم يعانقهم ويصافحهم، وكان يجلس مع كل واحد من أولاده ثلاثة أيام كل عام، ويلبس كل واحد من أولاده خاتماً محفوراً عليه صورة أبيه، وكلما ركب سيف الدين المذكور وخرج، لايكشف عن وجهه سوى عشر مرات في العام، وعندما يتلقى رسلاً من عند أي أمير، يستقبلهم في قصره في اليوم الأول بوساطة أتباعه المسلحين، وفي اليوم الثاني يُعطي لهم جوابه حسب مقتضيات المناسبة، لكنه لايعطيهم الإذن بالاقتراب منه حتى اليوم الثالث، ويعيش أولاده الثمانية وفقاً لترتيبات أبيهم وفق الطريقة التالية: إثنان منهم مسؤولون عن ضريح المسيح، وإليهما يجري دفع المنح التي تقدم إلى الضريح، ويقتسمان ذلك بينهما، ودخلهما أكثر من عشرين ألف[دينار] اسلامي، ويتلقى الأربعة الآخرين الضرائب المجبية من النيل، ويساوي دخلهم أكثر من أربعين ألف دينار اسلامي، ويقف الابنان الآخرين أمام محمدﷺ، وإليهما يجري دفع الأعطيات التي تقدم عند قدمي النبي ﷺ، والتي تساوي أكثر من ثلاثين ألف دينار اسلامي، وعند سيف الدين خمس عشرة زوجة، والعدد نفسه من الورثة، واعتاد أن ينام مع زوجاته كل واحدة بدورها، وإذا كانت احداهن حاملة كان ينام معها بحضور البقية جميعاً، وعندما احدى هؤلاء الخمس عشرة تموت، كان يأتي بواحدة جديدة محلها، وذلك حسبما عادة شريعتهم، ويمتلك هؤلاء القوم شريعة مكتوبة أعطيت لهم من قبل محمدﷺ اسمها القرآن،

ويجري الحفاظ على أوامر ذلك الكتاب من قبل ذلك الجنس غير التقي من الناس(١)، كما نحافظ نحن المسيحيون على الانجيل.

كيف رغب جون أخو الملك بالاستحواذ على حكم انكلترا

وعندما كان الملك رتشارد— كما ذكرنا— محتجزاً من قبل الامبراطور، سمع أخوه جون بما نزل به، فاعتقد أنه لن يعود، فدخل في تحالف صداقة مع فيليب ملك فرنسا، وبوساطة النصيحة المؤذية لذلك الملك، عمل ترتيبات من أجل تتويجه مكان أخيه، لكن الانكليز باخلاص معلن لم يسمحوا بذلك.

كيف سعى الملك الفرنسي للاستيلاء على نورماندي

أطلق ملك فرنسا الآن العنان لكراهيته ضد الملك الانكليزي، فغزا مع جيش كبير نورماندي ولم يوفر أحداً من مرتبة، أو جنس، أو عمر، وبعث غيلبرت دي واسكويل Wascuilخلف الملك المذكور، وسلم بشكل خياني غيسور إليه، حسبما كان متفقاً بينهما، وأخضع بعد ذلك الملك المذكور منطقة فكسين Vexin النورماندية كلها، جزئياً من خلال الخيانة، وجزئياً بوساطة القوة، وكذلك كونتية أومرل Aumarle بعيداً حتى ديبي Dieppe مع وادي رويل Ruil ، وذلك مع الحصون الرئيسية، واستولى أيضاً على منطقة هيوج دي غورناي، الذي استسلم مع آخرين للملك الفرنسي، وفضلاً عن هذا حاصر روان، ولكنه صد بوساطة شجاعة ايرل أوف ليستر، ومقدرة السكان وصلابتهم، وطرد من تلك المدينة وهو مضطرب، مع خسارة لبعض عساكره، واستولى الملك المذكور على مدينة ايفروكس Evreux، ثم أعطاها لتكون تحت وصاية[جون] الايرل المذكور.

١— هذه المعلومات مشوهة إلى أبعد الحدود، هذا واستحالت مطابقة بعض أسماء أبناء الملك العادل مع الأصول المعتمدة عن بني أيوب.

كيف تزوج الملك الفرنسي من أخت ملك الدانمارك ثم طلقها على الفور

واقترن في هذه الآونة الملك الفرنسي بأخت ملك الدانمارك، التي اسمها إنغلبورغ Ingelburg وكانت سيدة ذات جمال مدهش، لكنه طلقها بعد الزواج، ووضعها بين الراهبات في سواسون Soissons، وأمر بالوقت نفسه جميع الدانيين الذين جاءوا معها بالعودة إلى بلادهم، وجرى في العام نفسه انتخاب هيوبرت وولتر، أسقف سالسبري، بشكل قانوني، رئيساً لأساقفة كانتربري، وفي اليوم التالي لعيد القديس ليونارد، وضع على عرشه، وإلى عنايته عهد بأمر من الملك رتشارد، بمملكة انكلترا، وبإدارة الأعمال هناك، فقد جرى ارسال وولتر رئيس أساقفة روان، من قبل الملك، إلى ألمانيا، وكان مصحوباً أيضاً بإليانور، أم الملك التي كانت متشوقة لرؤية ابنها.

كيف أطلق سراح الملك رتشارد ووصوله إلى انكلترا

عام ١١٩٤م، فيه جرى دفع الجزء الأكبر من الفدية، كما جرى فيه تسليم رهائن كضمانة مقابل المبلغ المتبقي

وفي اليوم المحدد، وهو يوم طهارة مريم المباركة، أطلق سراح الملك رتشارد، وسمح له بالعودة إلى مملكته، وبناء على ذلك انطلق مع أمه، والمستشار، وعبر من خلال أراضي دوق لوفين Louvain، ووصل إلى القناة البريطانية، وفي يوم الأحد، بعد عيد القديس غريغوري، وصل إلى انكلترا إلى ميناء، ساندويش، مما سبب السرور العظيم إلى جميع الطبقات، وفي الساعة نفسها التي وصل فيها الملك مع مرافقيه ونزلوا إلى اليابسة، وكانت الساعة الثانية من النهار، وعندما كانت الشمس مشرقة بوضوح، ظهر وقتها في السماء شكل شعشعاني غير معتاد، امتد بمقدار طول انسان وعرضه بعيداً عن الشمس، وكان أبيض لامعاً كثيراً

وأحمر اللون، وكأنه نوع من أنواع قوس قزح، وأعلن عدد من الناس الذين رأوا هذا اللمعان، بأن الملك هو على وشك الوصول إلى انكلترا، وفور وصول الملك انطلق يؤم كانتربري ليقدم تقديساته وعباداته في مزار القديس توماس، وذهب من ذلك المكان إلى لندن، واستقبل هناك بترحاب كبير، فقد تزينت المدينة كلها وتجملت من أجل قدوم الملك، وذلك بمختلف أنواع الزينة التي كان يمكن للثروة أن تنتجها، وعندما بات خبر وصوله معروفاً، خرج النبلاء والعامة لاستقباله على الطريق، بتشوق عظيم، ذلك أنهم كانوا قلقين جداً من أجل عودته من الأسر، بعدما كانوا يخشون أنه لن يعود مطلقاً، وتوقف الملك أقل من يوم في وستمنستر، قبل أن يأخذ طريقه إلى القديس إدموند ليعيد الشكر، وبادر من هناك مسرعاً إلى نوتنغهام ليحاصر وليعتقل أولئك الذين تآمروا ضده والتحقوا بالايرل جون، وكان جيش انكلترا قد استولى على كل قلعة عائدة لذلك الايرل المتقدم ذكره، وذلك باستثناء هذه القلعة فقط، التي كانت صامدة، ومدافع عنها بشجاعة، لكن عندما ألقى الملك الحصار عليها، وقام بهجوم واحد، بات المحاصرون على قناعة بعدم القدرة على الصمود بعد وصوله، فسلموا القلعة إليه، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الملك، واعتمدوا على رحمته، وقد سجن بعض هؤلاء، وأطلق سراح آخرين لدى تسلمه فدية مناسبة، حيث كان نهماً كثيراً وعظيم التشوق إلى مال كل واحد، لابل مالهم جميعاً، لأنه كان آنذاك في وضع ضائق كثيراً، وقد دفعه سببان إلى اتخاذ هذا المنهج، وهما التمكن من إطلاق سراح الرهائن الذين أعطيوا إلى الامبراطور من أجله، ولكي يستطيع أن يحشد جيشاً كبيراً ضد ملك فرنسا، الذي كان يلحق الدمار بممتلكاته في كل مكان، بالنار والسلب، ومع أنه لهذا السبب، قد استخرج أموالاً من أسراه بجشع أكبر مما يتواءم مع كرامته الملكية، إنه كان معذوراً ، وينبغي تسويغ عمله بدلاً من وصم سمعته، بسبب حاجاته الملحة.

تتويج الملك رتشارد وعبوره البحر على الفور إلى نورماندي

بعد تسوية هذه المشاكل في انكلترا واخضاع جميع المتمردين ضده بكل سرعة، جرى تتويج الملك رتشارد، وذلك بناء على نصيحة نبلائه مع أن ذلك ماكان ليضيف شيئا إلى شهرته، وكان التتويج في وستمنستر في اسبوع الفصح، وعمل القداس أثناء ذلك الاحتفال هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وكان ذلك بحضور وليم ملك الاسكوتلنديين، وقام بعد ذلك في يوم عيد القديسين نيرو Nereus وآخيل Achilles بالاقلاع من بورتماوث، وأبحر إلى نورماندي[في ١٢— أيار]، ولدى وصوله توقف تلك الليلة للاستراحة في بارفلور Barfleur، وإليه قدم إلى هذا المكان أخوه جون متضرعاً، وألقى بنفسه مع كثير من عساكره على قدمي الملك، سائلاً الرحمة من أخيه مع كثير من الدموع، ومتهماً نفسه بكثير من الحماقات في كثير من المجالات، وبما أن الملك كان عاطفياً، فإنه لم يتمكن من حبس نفسه من الدموع، وأشفق على سوء حظ أخيه، ورفعه من على الأرض وأرجعه إلى متقدم حظوته لديه.

كيف أرغم الملك رتشارد الملك الفرنسي على الفرار من فيرنويل

وعلم الملك رتشارد بأن ملك فرنسا قد ألقى الحصار على فيرنويل Verneuil، وأنه عمل لمدة ثمانية أيام من دون نجاح، في محاولة بناء بعض آلات رمي الحجارة، وفي جلب أحجار كبيرة، وفي لغم الأسوار، والتضييق على الحامية المحاصرة، بأخذ طريقه نحو ذلك المكان بكل سرعة— وكان يوم أحد العنصرة قد اقترب حلوله— لكي لايتبجح الفرنسيون بالحصول على نصر في ذلك اليوم المقدس، وسمع الفرنسيون قبل حلول ظلام ذلك اليوم، بأن الملك الانكليزي كان مستعداً للقتال، وأنه سوف يصل عند انبلاج النهار، وقتها أصيب الفرنسيون بالرعب لدى سماعهم لهذا الخبر، ولأنهم كانوا كثيراً ماخبروا شجاعة الملك،

اختاروا لذلك الفرار وآثروه على القتال، وتراجعوا من معسكرهم، جالبين العار الأبدي على أنفسهم والشنار.

كيف عمل هيربرت المسكين أسقفاً لسالسبري

وجرى في هذه الآونة نفسها انتخاب هيربرت Herebert الملقب بالمسكين، والذي كان رئيسا لشامسة كانتربري، أسقفاً لسالسبري بشكل قانوني، وتمت سيامته كاهنا في يوم أحد العنصرة، وجرت سيامته في اليوم التالي أسقفاً، من قبل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، في وستمنستر، وقام الملك الفرنسي، في الوقت نفسه، أثناء تراجعه من فيرنويل، وهو غاضب يتهديم حصن صغير اسمه فاونتين Fountains ، وذلك حتى لايظهر بأنه لم يحدث شيئاً، فبتخريبه لهذا الحصن أعطى نفسه مظهر المنتصر، فعاد إلى ممالكه.

الاستيلاء على لوكس من قبل الملك رتشارد

وبعد هذه الأحداث، وصل الملك رتشارد إلى تور، وتسلم مبلغ ألفي مارك فضي عن طريق الهدية من برجوازية نوفشاتيل Neufchatel، حيث يرقد جسد القديس مارتن، ثم إنه زحف داخل حدود تور، وألقى الحصار على قلعة لوشي Loches ، حيث استولى عليها بالقوة بعد عدة أيام، وكان ملك فرنسا قد تسلم هذه القلعة من ضباط الملك الانكليزي، عندما كان هذا الملك سجينا، وذلك كنوع من أنواع الضمانة، حتى لايخرقوا المعاهدة المعمولة بين الملكين، وقد سلموه اياها وهي مشحونة بشكل جيد بالمؤن، ووضعوها بعهدة خمسة عشر فارساً، وثمانين جنديا، ووصل في هذه الآونة ابن ملك نافار لمساعدة الملك الانكليزي، مع جيش كبير، وكان بين أتباعه خمسين من رماة القسي العقارة إلى جانب مائة آخرين، وألحق هذا الأمير

الدمـار بأراضي غيـوفـري دي رافين Ravanne وأراضي كـــــونت أنغوليم Angouleme.

كيف طرد الملك رتشارد الملك الفرنسي من منطقة تور

ودخل في هذه الآونـة أيضـاً فيليب ملـك فـرنســا إلى حــدود تور، ونصب معسكره قرب فيندوم Vindome ، ثم وجد بوساطة كشافته بأن الملك الانكليـزي كـان زاحفـاً ضـده، فقـوض في الصبـاح البـاكـر معسكره، وأسرع بقـدر مـاأمكنه نحـو فـريتفـال Freitval، لكن الملك الانكليزي طارده، واعتقل جميع أركـان فرقه، وكذلك أركـان الكونتات والبـارونات الذين كانوا يقـاتلون تحت قيـادته، وأشياء أخـرى لاتحصى عدداً، وحمل ذلك كله معه، وعبر بهذه الطريقـة إلى بواتو، وتمكن خلال أيام من اخضاع قلعة تيلبور Taillebure ، ومنطقة أعدائه، أي منطقة كـونت أنغـوليم، ومنطقة غيـوفـري دي رافين، وبذلك لم يبق ولا ثائر واحد ضده من قلعة فيرنويل إلى كارليكرويكس Charlecroix.

كيف سعى الملك الفرنسي إلى خداع رتشارد

وأرسل في هـذه الآونة الملـك الفـــرنسي أربعـــة رسـل إلى الملك الانكليزي، لخداعـه عن طريق استخدام كلام معسـول، بقصد الاقتراح لإنقـاذ الرعـايا على الجانبين، الذيـن أفـرغـا صناديقهم في حـروبهما من الذهب والفضــة، وليــوقفــا سفـك الدمــاء النبيلة في المملكتين، وأن إدعـاءات كل منهما يتوجب أن تتقـرر بناء على مبـارزة خمسة رجـال من على كل طرف، وأن ينتظر مقدمي كل مملكة نتيجة المبارزة، فبعد المبارزة مـن الممكـن الحكـم بما هـو حق لكـل ملـك، وأرضـى الاقتراح الملـك الانكليــزي إلى أبعــد الحدود، شريطـة أن يكون الملك الفـــرنسي هو الشخص الخامس من جـانبـه، وهو أي الملك الانكليـزي سـوف يكون كــذلك الخامس من الجانـب الانكليــزي، وأنهم ينبغي أن يحافظوا على

المساواة في الرجال والسلاح، وأن يشتبكوا بفريقين متساويين، وقد رفض الملك الفرنسي الموافقة على هذا، على الرغم من سخرية كثيرين به، وبعد هذا تم الاتفاق على هدنة بين الملكين الفرنسي والانكليزي، بناء على وساطة بعض رجال الدين بينهما، لكن المبادلات التجارية بين الطرفين كانت ممنوعة.

كيف أسس الملك رتشارد مبارزات في جميع أرجاء انكلترا

وعبر في هذه الآونة الملك رتشارد إلى انكلترا، وعين مواعيد مبارزات تعقد في بعض الأماكن، وقد اقتنع بفعل ذلك للسبب التالي: وهو إمكانية أن يجد الجنود الانكليز أنفسهم مضطرين للمواجهات من جميع الجهات والمناطق، ولذلك عليهم البرهنة على قوتهم، بتدريب خيولهم في الحلقة، وبذلك يكونون أكثر رشاقة وتجربة من أجل القتال ضد أعداء الصليب، لابل حتى ضد جيرانهم.

وجمع في هذه الآونة أيضا واحد اسمه الكسيوس بن مانويل— الذي كان من قبل امبراطور القسطنطينية— جيشاً، وسجن اسحق الامبراطور الحالي، الذي كان قد حاربه، وقد حرمه من نظره، وأخيرا أودعه السجن بشكل أبدي، بعدما خصاه، واستولى على امبراطوريته.

كيف قدم الملك الانكليزي شكوى أمام مولانا البابا ضد دوق النمسا لسجنه إيّاه

عام ١١٩٥م، فيه أرسل الملك رتشارد رسلاً إلى الكرسي الرسولي، مع توجيهات أن يضعوا الشكوى التالية أمام مولانا البابا:« أيها الأب المقدس، مولانا رتشارد ملك الانكليز يحيي سموكم، ويطلب اظهار العدل له ضد دوق النمسا، الذي اعتقله وسجنه، عندما كان عائداً من حجه المتعب، وآذاه بطريقة مضرة حتى لايكون أميراً له سمعته الكبيرة،

وباعـه بعـد ذلك إلى الامبراطور وكأنه كـان ثوراً أو حماراً، وإلتهم بعـد ذلك كـلاهما قـوام إمكانيـات مملكة انكلترا، بطلـب مبلغ لايحتمل من أجل فـديتـه، وعـلاوة على ذلك، زاره الذيـن لم يكونوا غـرباء بالنسبـة لقـوانين المسيحيـة بأحكام أشـد قسـوة في هذه القضيـة، مما كـان يمكن لصلاح الدين أن يفعله، لو أنه بسبب سوء حظ مماثل وقع في يدي ذلك المسلم نفسه، الذي إلى حربه ارتحل الملك المذكور من بلاده، تاركاً مملكته التي حصل عليها مؤخـراً، وبلاده، وأقـربائه، وأصـدقـائه، ولعله كـان يعرف كيف يقـدم الاحترام لنبالته وشجاعته، أو لجلالتـه كملك، الأمر الذي لم يعرف ذلك الجيل من البرابرة العنيدين كيف يقدرونه، لابل ربما فعلوا ذلك حتى يعـزون باعتقال مثل هذا الأمير العظيم، سمعـة النصر الطيبـة إليهم، مع أنهم ماكـانوا ليتجـرأوا مطلقاً على مـواجهته في قتـال مكشـوف، عنـدمـا يكون محاطاً مـن قبل جيشـه الشجـاع، ودعهم لايعتقدون أن إهانة الملك تأتي من قبلهم، لابل بالحري إن ذلك قدر من الرب ونصيب، الرب الذي بإرادته يذل دولاب الحظ انساناً ويعز آخر، ويسقط واحداً ويرفع آخر، وكـذلك كان مما أغضب مولانا الملك كثيراً، أنه اعتقل في أيام السلم، وعندما كانت حمايتكم ممنوحة إلى جميع الحجاج لمدة ثلاثة أعوام، وأن هذا كـان ملزما ومـؤكدا بوساطة عقـوبة الحرمان الكنسي، وأنهم على الرغم من ذلك جعلوه سجيناً، وهو عائد من حجه، وكـان يعدّ العـدة لعـودته ثانيـة، وألقوه في السجن، وأرغمـوه على دفع مبلغ ثقيل من أجل فـديتـه، فهل من الممكن لسمـوكم— بناء عليـه— إعطاء أوامـر إلى ذلك الـدوق، ليسمح لرهائن مـولانا الملـك، الذين مـايزالون محتجـزين لديه بمثابة سجنـاء مقابل جـزء من الفـدية لم يدفع بعد، لكي يغـادروا وهم أحراراً، وكذلك حتى يعيـد كامل المبلغ، الذي تلقاه ذلك الرجل المحروم كنسياً، من مـولانا، وأن يقدم تعويضاً مناسباً مقابل الأذى الذي أنزله به وبرعيته».

حرمان الدوق كنسيا من أجل الملك رتشارد

وبعدما ترافع رسل الملك بهذه الشكوى وبشكاوى أخرى كثيرة، أمام الحبر الأعظم، نهض عندها مولانا البابا مع كرادلته، وحرم كنسيا الدوق نفسه بالاسم، وبشكل عام جميع الذين عاملوا بعنف الملك ورجاله، ووضع كذلك جميع أراضي الدوق تحت الحرمان من شركة المؤمنين، وأعطى أوامر إلى أسقف فيرونا حتى ينشر قرار الحرمان الكنسي هذا في جميع أرجاء دوقية النمسا، وأن يعلن ذلك كل يوم أحد ويوم عيد، وأن يقول مايلي:« وإنه إذا ماقرر الدوق المذكور إطاعة قراراتنا، نأمره بفضل الرب وإرادته، أن يقوم باطلاق سراح جميع رهائن ملك انكلترا، وأن يلغي جميع الاتفاقات، وأن يعيد جميع المقتنيات التي أُخذت منهم من قبله ومن قبل أتباعه، وكذلك ماكان قد تسلمه بشكل ظالم بمثابة فدية من أجل الملك المذكور نفسه، وأن يرسل الرهائن المذكورين بأمان إلى بلادهم، وبالنسبة للمستقبل أن لايقدم على مثل هذه الأشياء ثانية، بل أن يقدم تعويضاً مقابل الأذى والأضرار التي أنزلها».

الموت التعيس لدوق النمسا

وجرى التفوه بهذا كله ضد الدوق من قبل أسقف فيرونا، غير أنه أصر على موقفه بعدم القبول بالوصاية الرسوليه عليه، وفي تلك الآونة أصيبت بلاده أيضاً بجدب لم يسمع بمثله، وبالمجاعة أيضاً، وبالأمراض، وفاض أيضاً نهر الدانوب في هذه الأيام بشكل غير معتاد في بعض أجزاء البلاد، وغرق بتلك الحادثة غير المتوقعة عشرة آلاف انسان، ولكن على الرغم من جميع هذه الأحداث والأشياء، لم يتغير غضب الدوق، لابل بالحري إزداد، وأصيب أخيراً هو نفسه بنازلة لاهوتية، ففي يوم عيد القديس اسطفان، كان يقوم بنزهة على ظهر حصانه مع أتباعه وحاشيته، فرمح الحصان الذي كان يركبه بعنف،

وأصاب بحافره ساق راكبه بجرح لايمكن شفائه، وعلى الفور تحولت الساق والقدم إلى السواد والإحمرار، والتورم، ولم تستطع كمادات الطبيب تخفيف ذلك، وتعذب الدوق بشكل لايحتمل بسبب لهيب الاصابة،— كما كانوا يسمونها— وذلك بالاضافة إلى التورم، وبعد طول عذاب لم يعد قادراً على تحمله، أمر ببتر قدمه، وأخذ هو نفسه، في الوقت ذاته فأساً، وقد رفض ذلك كل واحد برعب، لكنه لم ينج بهذا من عذاب آلامه، لأنه هو وطرفه وبقية جسده بدأ يتداعى من شدة الالتهاب، وبعد هذا، أخذ يعترف بالجريمة الشريرة التي اقترفها، من خلال تآمره، ضد الملك، وتخلى عن المتبقي من المال المستحق من أجل فدية الملك، ووعد أيضاً بأنه سوف يعيد ماتسلمه، وتعهد من ذلك الوقت فصاعداً، أن يكون مطيعاً لحكم الكنسية، وعندما رآه الأساقفة في هذه الحالة من الآلام، حللوه من الحرمان الكنسي، وقبلوه في شراكة المؤمنين، وهلك بعد ذلك وسط آلام مرعبة، وبقي جسده لبعض الوقت من دون دفن، حتى تغطى بذباب مخيف، وذلك لأن ابنه رفض تنفيذ أمر أبيه، غير أنه أخيراً أجبر على فعل ذلك من قبل أصدقائه، فأطلق سراح الرهائن وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم].

كيف أخضع الامبراطور هنري مملكة أبوليا

وفي هذه الآونة استولى الامبراطور هنري على مملكة أبوليا، وصقلية، فقد مات تانكرد الذي خلف الملك وليم بصورة غير عادلة، لأن هذا الامبراطور نفسه كان قد تزوج من أخت الملك وليم وإليها عاد الحق بالمملكة لدى وفاة أخيها.

غزوة مخيفة لاسبانيا من قبل المسلمين

تدفق في هذه الآونة ملك المغرب وانقض مع ثلاثين مقدما، وجيش من المسلمين لايمكن تعداده، من أفريقيا على اسبانيا، للإستيلاء على

أراضي ملك اسبانيا، وبعدما عاثوا في عدة مناطق أخرى بالنار، وسلبوها دون أن يوفروا أحداً لجنسه، أو مرتبته أو عمره، إلاّ الذين استسلموا بأنفسهم أمام غضبه، وقد تألف جيشه من ستة ملايين من الرجال المقاتلين، وارتعبت المسيحية كلها أمام هذه الغزوة غير المتوقعة،[وسمعوا بأن البابا اقترح الدعوة إلى عقد مجمع ديني عام، وتشكيل حملة صليبية ضدهم، يقودها رتشارد المجيد ملك انكلترا، الذي ملأت شهرته الشرق ،ونشر رعباً كبيراً في جزء كبير من أفريقيا، وكانوا قد سمعوا أيضاً بسجنه وباطلاق سراحه، وكيف أنه منذ ذلك الحين قد أرغم ملك فرنسا على الانصياع له، ولذلك عاد جميع المسلمون إلى بلادهم.

موت الراعي وارين وخلافة جون للرعوية

في التاسع والعشرين من نيسان من السنة نفسها، مات وارين راعي كنيسة سينت ألبان، بعدما شغل ذلك الكرسي لمدة أحد عشر عاماً، وثمانية أشهر، وثمانية أيام، وقد خلفه جون، الذي كان راهباً من المؤسسة نفسها، وقد جرى انتخابه في الحادي والعشرين من آب، وتلقى في الثلاثين من الشهر نفسه، المباركة من رتشارد أسقف لندن.

نيابة هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري للبابوية

وكتب في الوقت نفسه البابا سيليستين إلى جميع أساقفة انكلترا يقول:« من سيليستين إلى إخواننا المحترمين: رئيس أساقفة يورك، وجميع الأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والأساقفة الآخرين المعينين للكنائس في جميع أرجاء مملكة انكلترا، التحيات، الخ: بما أنه من مهامنا الأمر بتقديم العناية الأسقفية إلى جميع الكنائس، إننا ننظر الآن بعين تقديرنا الأبوي بشكل خاص إلى الكنيسة الانكليزية، وقد قمنا من أجل سلامة تلك المؤسسة، بناء على النصيحة العامة لإخواننا، فرسمنا، بأن

يكون أخانا المبجل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، الذي لمحاسنه، وفضائله، وحكمته، وعلمه، تبتهج الكنيسة كلها، هو شخصياً المتولي لإدارة النيابة البابوية، وأن يمارس بارادته جميع أعمالنا من أجل رفع شأن الكنيسة، وفي سبيل سلام وسلامة المملكة كلها، خلال جميع أرجاء انكلترا، من دون أية امتيازات، أو استثناءات لكم، أو لكنيستكم ياأخانا رئيس الأساقفة، أو لأي شخص آخر، وبسلطات هذه الأحوال على هذا، نأمر كل جماعتكم، أن تقدموا الاحترام المستحق والتشريف إلى هيوبرت المذكور، بمثابة نائب للكرسي الرسولي».

لوم البابا لملك فرنسا من أجل طلاقه لزوجته

وكتب في هذه الآونة البابا سيليسين بين أشياء مختلفة كثيرة إلى رئيس أساقفة السين كما يلي:« بما أننا نمنح من قرارة أنفسنا وعواطفنا تقديراً خاصاً لملك فرنسا، قمنا بارسال ابننا المحبوب معاون الشماس، كمندوب للكرسي الرسولي ونائب له في سبيل أن يطلب من الملك المذكور وجوب معاملته لزوجته بعواطف الزوج، الزوجه التي أبعدها عنه، باصغائه لمشورة شريرة، وأن لايستمع إلى أولئك الناس الذين يرون أنه مربح القيام بزرع الكراهية وعدم الوفاق بين الناس عندما يستطيعون، ولذلك قمنا بناء على نصيحة إخواننا، بإلغاء قرار الطلاق إلغاء كلياً، وهو القرار الذي صدر مضاداً للشريعة، ونأمركم برسائلنا الرسولية هذه، ونوصي بكل دقة أخوتكم، إنه إذا ماأراد الملك المتقدم الذكر، أو رغب خلال حياتها الاقتران بواحدة مكانها، أن تتولى بعناية منعه من القيام بذلك، وذلك بوساطة سلطاتنا الرسولية».

مرسوم البابا إلى أساقفة انكلترا بشأن الأرض المقدسة

وفي هذه الآونة كتب البابا سيليستين إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وإلى أساقفته الكهنة المساعدين حول مواضيع كثيرة من بينها

حول الأرض المقدسة قوله:« إخواني، رؤساء الأساقفة، والأساقفة، الذين إليهم موكلة العناية بالأنفس، عليكم القيام بصلوات مستعجلة ومستمرة إلى الرب، حتى تقنعوا كثيراً من الناس، خاضعين لحكمكم، من أجل حمل الصليب، وأن تثيروا أنفسهم حتى يسببوا الاضطراب إلى معذبي المسيحية، ذلك أننا نأمل كثيراً جداً، وعليكم أن تأملوا أيضاً، أن يقوم الرب بتبشيركم وبصلواتكم، فيدع شبكتكم تنزل للصيد، وسوف يثير مثل هؤلاء الناس من أجل الدفاع عن البلاد الشرقية، فبفضل احسان الرب وليس بفضل قدرتهم وبراعتهم بالقتال، سوف يثورون، وأعداءه سوف يتفرقون، والذين يكرهونه سوف يفرون من أمامه، هذا وبالنسبة للذين سوف يقومون بهذا الحج في سبيل محبة الرب، وسيبذلون قصارى جهودهم وقدراتهم للوفاء بعهودهم، سوف نقوم بفضل السلطة الربانية الموكلة إلينا، بمنحهم التحليل نفسه من أي عقوبة مفروضة عليهم من قبل رجال الكهنوت، وذلك كما هو معروف بأن سلفنا قد منحوا ذلك في أيامهم، أي أن أولئك الذين سيتجشمون متاعب هذا الحج، بقلب خاشع ونفس متواضعة، سوف يكون مضيهم في هذه الرحلة بمثابة غفران لذنوبهم، وإذا ماتوا مخلصين، فإنهم سوف يحصلون على تحليل كامل من جميع آثامهم، وعلى حياة سرمدية، ولتكن سلعهم أيضاً وأسرهم من وقت حملهم للصليب تحت حماية كنيسة روما، وكذلك الأساقفة وبقية أساقفة الكنيسة، وينبغي أن لايكون هناك خلاف بشأن الممتلكات التي امتلكوها بسلام في أيام حملهم للصليب، وذلك حتى عودتهم، أو حتى تتأكد معرفة موتهم، ولتبق ممتلكاتهم بالوقت نفسه دون أن تلمس من قبل أحد أو تتأثر، والذين بعثوا بممتلكاتهم، لمساعدة تلك البلاد، سوف ينالون العفو عن ذنوبهم، وفقاً لما يقضي به الأساقفة، وبالنسبة لك أيها الأخ رئيس الأساقفة، رأينا من الموائم أن نعهد إليكم بمجهود هذا العمل، ونأمركم باستخدام نفوذكم، مع ابننا المحبوب بالرب، الملك اللامع لانكلترا، الذي عمل

هدنة لمدة ثلاثة أعـوام في الأرض المقـدسة، لكي يرسـل فرسـاناً وجنداً مجهزين بشكل جيـد لحماية تلك البلاد، ونأمـركم أيضاً بالترحـال خلال انكلترا، والقيـام بحث النـاس بمناسبـة وغير مناسبـة بشكل مستمـر، والتبشير أيضـا لتحـريض النـاس على حمل الصليب والسفـر إلى بلاد مـاوراء البحـر للدفـاع عن الأرض المقـدسـة»، [وعندمـا وصلت هذه الرسـائل إلى مسـامـع الملك، تحمس كثيراً للعمل في سبيـل الصليب، وحث الآخـرين، ولاسيما الذين رقّـاهم، بكثير من الطرق، لأن يكونوا متحمسين مثله أيضـاً، وكـذلك في سبيله هو نفسـه، ومـن أجل تقـدم الصليب، وكـذلك في سبيل انقـاذ أرواحهـم، ولكي يكون أكثـر تأثيراً، وجـه اللوم إلى بعض الذيـن كـانوا غير مطاوعين لأعمال الحث والندب هذه، واتخذ لنفسه شكل واعظ، وغالباً مـاكرر النصيحة للذين كانوا من حوله].

عقد معاهدة بين ملكي فرنسا وانكلترا

عام ١١٩٦م، فيـه أمضى الملك رتشارد عيـد الميلاد في مـدينة بواتو، وبعد عيـد القديسة هيـلاري، التقى فيليب ملك فرنسـا، ورتشارد ملك انكلترا، في مؤتمر في لوافير Louviers، حيث عقدت فيها بينهما المعاهدة التالية: تنازل الملك الفرنسي للملك رتشارد ولورثته عن ايسودون Iso-udun مع تـوابعهـا، وعن جميـع الحقـوق التي لـه في بري Berry، وأوفـريـن وغـاسكوني، وأعطاه تملكـاً كـامـلاً لقلعـة آرشي Arches، وكونتيتي أوشي Auches، وأموريل Aumarle ، وحصونـاً أخرى كثيرة، هي التي استـولى عليهـا الملك الفـرنسي منذ عـودته من الحج إلى الأرض المقدسة، وتنازل الملك الانكليـزي إلى الملك الفرنسي عن دعواه بالنسبة لقلعة غيسور وجميع منطقـة فكسين النورماندية، وفي سبيل تنفيذ هذه البنود كلها وتأكيدها، أوجدا بشكل متبـادل ضمانات، وقررا غرامة خمسين ألف مـارك فضي على الذي يخرق المعـاهدة من الجانبين، لكن مع

مـرور الأيام، بعـدمـا تسلم رتشـارد الممتلكـات التي تقـدم ذكـرها مع الأمـاكن، ندم الملك الفـرنسي لعقـده لهذه الصفقـة، وجمع جيشـاً كبيراً ليلقي الحصـار على أمـوريل، وبناء عليـه أمـر الملك الانكليـزي بالقيـام بحجز جميع السلع والممتلكـات التي كانت في ممالكه، والتي هي عـائدة إلى رعاة ديرة: مـارمونتير Marmontier ، وكلوني، والقديس دنس، وتشـــــــارتي Charite ، الذين كان الملك الفرنسي قد قدمهم ضمانة للمعاهدة المتقدم ذكرها، وأخـذ عليهم العهد بدفع المال المذكور آنفاً إلى الملك الانكليزي، إذا لم يلتزم الملك الفرنسي بمـراعاة اتفاقه، واستولى في الوقت نفسه الملك الفـرنسي على قلعة أموريل بالقـوة، وهدمها، وأعطاه ملك انكلترا ثلاثة آلاف مارك من الفضـة من المال المذكور آنفـاً، مقابل فـدية فرسـان ذلك الحصن، مع أتبـاعهم، وأن يسمح لهم بالمغـادرة من دون خيولهم وأسلحتهم، وبعد هذا استولى ملك فرنسا على نونانكورت Nonancourt، واستولى الملـك رتشارد على قلعة غـامي Gameges، وهكذا شغل الملكان نفسيهما في عملية الاستيلاء على القلاع.

موت وليم الذي كان من سكان لندن من قبل

وتفجـر في هذه الآونـة خـلاف في مـدينة لنـدن، ونزاع بين الأغنيـاء والفقراء حول توزيع حصص الضرائب التي يتوجب دفعها إلى الخزانة، والتي— كما قالوا— غالباً لم تفرض بالمساواة، وكان السبب في قيام هذا الخلاف هو وليم فتز— أوسبيرت Fitz- osbert، الذي قـام مراغمـة لجلالة الملك، فعقد اجتماعات للناس، وربط كثيراً منهم به بالأيمان لدى اجتماعهم، وعـاقب حتى الموت أخـاه مع رجلين آخـرين بريئين وكأنهم أدينوا بالخيـانة نحـو الملـك، وفجـر أخيراً عصيـاناً واضطراباً في كنيسـة القديـس بولص، وعندما علم فيها بعـد بأنه بسبب جرائمـه أثار غضب الملك ضده بشكل حاد، اعتصم في داخل بـرج احدى الكنائس، وكانت ملكاً خـاصـاً لرئيس الأساقفـة، وبذلك عمل قلعـة من المبنى المقـدس،

وعندما رأى بأن عصابة من الرجال المسلحين قد التفت من حوله، ولكي يتجنب الموت الذي كان يخشاه، ألقى النار في هيكل العذراء المباركة، وأحرقت هذه النار شطراً من المكان الذي كان مكرساً للرب، وسحب أخيراً من داخل الكنيسة، ونقل إلى برج لندن، حيث تلقى حكماً نهائياً، ولكي تلقي عقوبة انسان واحد الرعب في قلوب كثيرين، جرى تجريده من ثيابه الطويلة، وبعد ربط يديه خلف ظهره، وربط قدميه مع بعضهما، وضع على ظهر حصان، وجرّ خلال وسط المدينة إلى مشانق في تايبورن Tyburn ، وهناك جرى تعليقه بالسلاسل مع تسعة من أتباعه المتآمرين، وذلك بهدف اظهار أن عقوبة مماثلة سوف تنتظر الذين يجرمون بجرائم مماثلة.

وفي العشرين من تشرين أول[تشرين الثاني] من السنة نفسها جرت سيامة جون عمدة روان لأسقفية وينكستر، وفي هذا العام أيضاً بنى الملك رتشارد قلعة جديدة في جزيرة أندلي Andelys ، وذلك مراغمة لرغبات وولتر رئيس أساقفة روان، وبعد انذاره مرارا للتوقف عن هذا المشروع، وضع رئيس الأساقفة المتقدم الذكر نورماندي كلها تحت الحرمان، وبناء عليه ذهب إلى بلاط روما.

أسر هيوج دي شومونت

ونشبت في العام نفسه معركة بين أتباع الملك الفرنسي وأتباع الملك الانكليزي، وقع فيها بالأسر هيوج دي شومونت Chaumont، وكان صديقاً كبيراً للملك الفرنسي، وقد حمل إلى أمام الملك الانكليزي، الذي أعطاه سجينا إلى روبرت دي روز Ros ، وأعطاه هذا الفارس إلى وليم دي ايبني Epinayليعتني به، وكان وليم تابعاً له، وبسبب خيانة هذا التابع نجا، وكان ذلك بعد حصوله على إذنه، فقد دلّى نفسه من سور قلعة بونفيل Bonville على التوك Tuke حيث كان مسجوناً، وهكذا قال وداعاً لهم، وغضب الملك رتشارد غضباً عظيماً من روبرت

دي روز، وأخذ منه ألفاً ومائتي مارك من الفضة لجريمته، وأمر بتعليق وليم دي ايبني على المشنقة.

أسر أسقف بوفياس ووليم دي ميرل

بعد هذا الحادث كان جون، أخو الملك وميركادوس Mercadeus أمير برابانت يقومان بغارة أمام مدينة بوفياس Beauvais وبنيتهما الاستيلاء على بعض الأسلاب، فخرج من المدينة فيليب أسقف ذلك المكان مع وليم دي ميرل Merle وابنه وعدد من الفرسان وبعض الجنود، للتصدي لهما، لكنهم وقعوا بالأسر بعد وقت قصير، وجرى قتل عدد كبير من الجنود، وفي هذا اليوم، وبعد عملية الأسر هذه، تابع النبيلان الانكليزيان نفساهما الزحف إلى ميلي Milli ، وهي قلعة كانت ملكاً للأسقف السالف الذكر، فاستوليا عليها بالقوة، ودمراهابعد ذلك، ثم عادا بعد هذا منتصرين، وأرسلا أسراهما إلى الملك الانكليزي، وبما أن الأسقف قد أسر بقوة السلاح، فقد أودع السجن، وغلّ بأغلال حديدية ثقيلة، وحدث في العام نفسه فيضان مفاجىء للسين، وتدفقت المياه وأحاطت بالأبنية المجاورة المبنية سواء من الخشب أو من الحجارة، وسببت دمارها، الأمر الذي أخاف ملك فرنسا كثيراً وموريس أسقف بيرشي، الذي كان مقيماً في باريس، وغادر الملك قصره، وأخذ ابنه لويس معه، وذهب لتمضية الليل في كنيسة القديسه جنيفا، وهرب الأسقف إلى كنيسة القديس فكتور.

حول رؤيا رآها أحد الرهبان وحول مطهرة ومكان للعقوبة القراءة حولهم مفيدة جداً

وقع في هذه الأيام واحداً من الرهبان العائدين إلى دير إيفهام Evesham مريضاً، وظل لمدة خمسة عشر شهراً يعاني من آلام مبرحة بالجسد، وكان دوما يتقيأ مايتناوله من طعام وشراب، إلى حد أنه صار

أحياناً كل تسعة أيام أو أكثر لايتناول شيئاً، أو على الأغلب بضع نقاط من الماء البـارد، ولم تستطع براعـة أي طبيب معـالجته، بل كـان كل مـايعطيه إياه أي واحـد من الأطباء له تأثير معـاكس، وهكذا تمدد على فـراشـه بلا حـراك، ذلك أنه فقـد كل قـوته الجسـدية، حتى أنه لم يعـد بامكانـه التحـرك من أي مكـان مـالم يجري نقله مـن قبل الخدم، ولدى اقتراب حلول يوم قيامـة ربنا بدأ يشعر بأن الأمـور باتت أسهل، وسار حول قلايته وهو يتوكأ على عصا، ثم مضى أخيراً في الليلة التي تقدمت على يوم عشـاء ربنا، وهو معتمـد على عصـاه، ودخل إلى قـاعـة كبيرة، مدفوعاً إلى ذلك بتقـواه، دون أن يعرف هل هو في الروح أم في الجسد، وهناك عندمـا كان الرهبـان المحتشدون يؤدون صلواتهم الليليـة المعتادة إلى الرب، شعـر بضغط عظيم للرحمة اللاهوتيـة، وللنعمـة السماوية، إلى حد أن خشوعه المقدس قد فاق الحدود، فمنذ منتصف تلك الليلة حتى الساعة السادسة من اليوم التالي، لم يستطع منع نفسه من البكاء، وتقديم الشكر للرب، ثم إنه بعث خلـف اثنين من الرهبـان، من الذين يسميهم رجـال الدين باسم« المعترفين»، واحـداً بعـد الآخـر، وقـام هناك وهو يبكي، ومع نقـاء وصفـاء بالقلـب، بالاعتراف لكل واحـد منهما بجميع أخطـائه، حتى بالأخطـاء الصغيرة جـداً منهم، سـواء أكـانـت ضـد القصـاص أو ضد وصـايا الرب، ثم إنـه سأل التحليل وحصل عليـه، وهكذا أمضى اليوم كله في خشوع وفي تقديم الحمد للرب.

كيف وُجد الراهب نفسه راقداً وكأنه ميت

وحصل في الليلة التـاليـة على قليل مـن النوم، وعندمـا قـرع جـرس الصلوات الليليـة، نهض من فـراشـه، وأخـذ طريقـه إلى الكنيسـة، لكن ماالذي حـدث هناك، هو الذي تحكيه الرواية التـالية: ففي صبـاح اليوم التالي، الذي كـان يوم استعداد، وعندما نهض الرهبـان من أجل الصلاة الصبـاحيـة، وكـانـوا يعبرون أمـام مكتب كهنة الكنيسـة، وذلك على

طريقهم إلى الكنيسة، رأوا الراهب نفسه متمدداً ساجداً بقدمين حافيتين، أمام كرسي راعي الدير، وذلك حيث اعتاد الرهبان على التماس السماح، وكان وجهه ملتصقاً بالأرض، وكأنه يسأل السماح من واحد كان جالساً أمامه، واندهش الرهبان أمام هذا المشهد، وحاولوا أن يرفعوه، فوجدوه من دون تنفس وبلا حراك، مع عينيه وقد جحظتا نحو الأعلى، وكان بؤبؤا العينان والأنف مبللين بكمية من الدم، فصرخوا جميعاً بأنه كان ميتاً، حيث وجدوه قد فقد كل نبض في عروقه منذ زمن طويل، وبعد أمد اكتشفوا أنه مايزال يتنفس لكن بضعف، فغسلوا رقبته، وصدره ويديه بماء بارد، فرأوه في المقام الأول يرتجف قليلاً بجسده كله، لكنه مالبث أن أصبح هادئاً دون حركة، وبقيوا لوقت طويل في شك كيف يعمل، غير عارفين بشكل أكيد، هل هو ميت أم تحسن بعض الشيء، وبعد طويل وقت، وبعد مناقشات طويلة، حملوه إلى المصح، ووضعوه على فراش، وعينوا بعض الأشخاص لحراسته بعناية، ثم إنهم وضعوا كمادات على صدره، وجربوا احساسه بوخز قدميه بالإبر، لكنهم لم يعثروا على اشارات بوجود حياة فيه، وبقي على هذه الصورة ممدداً على فراشه من دون حراك لمدة يومين، أي من منتصف ليلة يوم الاستعداد حتى منتصف يوم السبت التالي، لكن في يوم السبت العظيم عندما كان الرهبان على وشك الاجتماع من أجل قداس منتصف الليل، بدأ جفنا الراهب المتقدم الذكر بالتحرك بشكل لطيف، وبعد قليل بدأ شيء رطب يشبه الدموع يسيل على وجنتيه، ومثل أي انسان ينتحب أثناء النوم، بدا وكأنه يتنهد بشكل متوالي، ثم ظهر بعد قليل كأنه يتفوه بكلمات في حلقه بشكل عميق، لكن بصوت كان من الصعب سماعه، وبعد أمد عاد تنفسه إلى درجة ما، ثم إنه بدأ يدعو القديسة مريم قائلاً: « يامريم المقدسة، لأي جريمة حرمت أنا من السرور إلى هذه الدرجة العظيمة»؟ وأخذ وفق هذه الطريقة يكرر هذه الكلمات وكلمات أخرى، فجعل بذلك معروفاً، من قبل الواقفين،

حرمانه من بعض السرور العظيم، وبعد هـذا، هزّ رأسه، وكأنه قد أفاق من نوم عميق، وأخذ يبكي بمـرارة، وشرع بالتنهد، ودموعـه تتدفق من دون توقف، ثم إنه بيدين مغلقتين، مع أصابعه وقد تجمعت مع بعضها، أنهض نفسه فجأة، وأخذ وضع الجلوس، واضعاً رأسه على ركبتيه وقد غطاه بكفيه، لأنه بدأ بنواحه ونحيبه، وبعد كثير من المحاولات من قبل الرهبان، ليقوم بعد ذلك الصوم الكبير والمعاناة الطويلة، فيتناول شيئا ما ليأكله، أخـذ قطعة صغيرة من الخبز، ثم استمـر يقظاً وهو يصلي، ولدى سـؤاله عما إذا كان يتـوقع النجـاة من مـرضه، أجـاب:« سـوف أعيش طويلاً بما فيه الكفاية، لأنني شفيت تماما من ضعفي»، وفي الليلة التالية، أي ليلة قيامـة ربنا، وعندما قرع الجرس من أجل الصـلاة الليلية، ذهب إلى الكنيسة من دون مساعدة، ودخل إلى السـدة، وهو مالم يفعله خلال الأحد عشر شهـراً الماضية، وفي اليـوم التالي بعدمـا أدى صلواته بشكل موائم، عدّ جديراً بالانعـاش عن طريق المشاركة في تناول العشاء الرباني المقدس.

كيف حكى الراهب المتقدم ذكره خبر الرؤيا التي رآها

وبعـد هذا التحق هذا الراهـب نفسـه بحماس في الواجبـات الدينيـة للرهبان الآخرين، وهم بدورهم رجوه بالحاح اشباع رغباتهم بأن يحكي لهم الذي حـدث له، وكل الذي رآه في منامـه، لأنهم كـانوا مقتنعين بأن أشياء كثيرة قد أريت له، وذلك من خلال علامات واضحة، ومن سماع كلماته، ومن رؤية نحيبه المتـواصل عندما أفاق في اليوم المتقـدم، وبعدما أجلهم لبعض الوقت، صـاروا ملحين في طلبهم، قـام أخيراً وهو يبكي ويتأوه، وبصـوت متحشرج، فتحـدث عما ألم بـه وظروفـه وفق الترتيب التالي حيث قال:« عندما كنت— كما تعلمون— أعاني من عجز جسدي طويل وحاد، صرت أبارك الرب بالقول والتفكير، ورجعت إليـه شاكراً لتنازله بمطاردة عبـده الحقير بعصـاه الأبوية، وبعـدمـا فقـدت كل أمل

بالشفـاء، شرعت بإعـداد نفسي بقدر مـاأستطيع حتى أتمكن من النجـاة من عـذاب الوضع المستقبلي، بما أنني كنت على وشك الاستـدعـاء من الجسـد، وفيما أنا متفكر بشكل مثابر حـول هذه الأشياء، أغـويت في أن أسأل الرب أن يتلطف بطريقـة مـا، فيكشف لي أحـوال الحيـاة المقبلة، وماهي الأوضاع بعد هذه الحيـاة، وبعدما تتحرر الأرواح من الأجساد، ذلك أنني بمعرفة ذلك أصبح أكثر تأكيداً بوضوح من أنا، وما أنا مقبل عليه، لأنني اعتقـدت أنني سوف أغادر هذه الحيـاة وشيكاً، ثم ماالذي أنا علي أن آمل به، ومـاالـذي علي أن أخـاف منه، وذلك بهدف أن أنال قدر مايمكنني من عطف الرب، وعنـدما كنت أتقصى في هذه الأوضاع المتقلقلة، وبرغبة مني حتى أحقق هذا، ثابرت دونما انقطاع على التـوجه بالدعاء، أحيانا إلى ربنا مخلص العالم، وأحيانا أخرى إلى العذراء المجيدة، إنما أملت في أن أنال تلبيـة لطلبي التقـوي، بشكل خـاص من خـلال شفـاعـة القـديس نيقـولا المعترف الذي هو، الأعظم تقـوى وقـداسـة، ورأيت في احـدى الليـالي مـع دنو بداية الصـوم الكبير، الذي انقضى مؤخـراً، وأنا نائم قليلاً، قـد ظهـر لي شخص مبجل، وكله بهاء، وقـد خاطبني بلطف زائد، بما يلي:« أيها الابن الأعظـم محبة، خشوعك عظيم في الصلاة، ولقد امتلكت مثابرة عظيمة في مقصدك، ولن تكون أهداف صلاتك المستمرة، من دون ثمار من رحمة المخلص، وكن منذ الآن هادئاً في تفكيرك، وتابع الخشوع في صـلاتك، لأنه من دون شك سوف تحقق على الفـور طلب التماسك»، ولدى الفـراغ من حـديثـه هذا، اختفى شخص المتحدث، واستيقظت».

كيف رأى الراهب نفسه عندما كان يعبد صليب ربنا أن هذا الصليب أصبح دموياً

« وصحيح أنني استيقظت، غير أنني حـافظـت على رؤية هذه الرؤيا في عقلي باستمـرار، لمدة ستة أسـابيع انقضـت، وعندمـا نهضت في ليلة

العشـاء الرباني، من أجـل الصـلاة الليليـة، وتلقيت— كما تذكـرون— القصـاص على أيديكـم، شعـرت في وسطه بحـلاوة في الـذهن عظيمـة تغلغلت في جسـدي، حتى أنني في اليـوم التـالي شعـرت أنه ممتع جـداً البكاء من دون توقف، كما رأيتمـوني بـأعينكم، وفي الليلة التـاليـة بعـد هذه، التي كـانت ليلة الاستعـداد، غـرقت في نوم هادىء، لدى اقتراب ساعة النهوض للصلوات الليلية، ثم إنني سمعت بعض الأصوات، إنما بوســاطة من أوصلت إلى أذني، أنا لاأدري، والذي أدريه أنها قـالت:« انهض، واذهب إلى المصلى، واقترب من المذبح المكرس لعبـادة القـديس لورانس، وستجد خلف ذلك المذبح صليباً، هو الذي جرت عادة الدير بعبادته في يوم الاستعداد، وإنك مـالم تفعل ذلك، من غير الممكن انجاز أي شيء وتحقيقه من قبلك في اليـوم التالي، لأنه قـد بقيت أمامك رحلة طويلة، وبناء عليـه تعبد صليب ربنا في تذكـر له نفسه، وقدم قـربانا من قلب متـواضع ونادم، واعلم بشكـل مـؤكـد أن تقـدمتك الصـادرة عن تقـواك سوف تكون مقبـولة لدى الرب، وأنك سـوف تبتهج بعـد ذلك ابتهـاجـاً عظيماً بغناها»، وأفقت بعـد هـذا من النوم، وذهبت— كما بدا لي— مع الرهبان، لسماع الصلاة الليلية، التي كـانت قد بدأت، وقابلت في ردهة الكنيسة رجـلاً مسناً، مرتدياً ثيـاباً بيضاء، وكـان هذا هو الذي تلقيت منه في الليلة المتقـدمة القصـاص، ثم إنني أشرت إليه إلى العصـا المعتادة، ليقـدم لي قصاصـاً، الذي من أجله ذهبنا إلى بيت مجمع الكهنة، وبعدما نفـذ مطلبي، عدنا إلى المصلى، ثم إنني ذهبت بمفردي إلى المذبح الذي ذكـــر لي أثناء نـومي، فخلعت حـــذائي، وزحفـت على ركبتي، وقصدت المكان الذي أخبرت أن فيه يمكن العثور على صليب مخلصنا، وحسبما كنت قـد أخبرت قـــد وجـدته هناك، وإثر ذلك غــرقت كليـا بالـدمـــوع، وألقيت بنفسي على الأرض بطولي، حتـى أستطيع تعبـــده بخشـوع أعظم، وعندما كنت راكعـاً أمام تمثـال المصلوب، وكنت أقبله على الفم والعينين، شعـرت ببعض النقـاط تتسـاقط بلطف على جبيني،

ولدى تحريكي لأصـابعي، اكتشفت من لونهم، أنهم دم، وعـلاوة على ذلك رأيت الدم يتدفق من جـانب المصلوب على الصليب، وكأنه يتدفق من عروق انسان حي، عندمـا يجري قطعها لترك الدم يسيل، وأمسكت الدم بيـدي، ولست أدري مقـدار النقاط التي تسـاقطت، وبهذه الدمـاء قمت بخشـوع بمسح عيني، وأذنيّ، وفتحات أنفي، ولاأعـرف إن كنت قـد أذنبت بعـد هذا، فقـد ابتلعـت نقطة واحـدة، وفعلـت ذلك أثناء انفعالي، أما النقـاط الأخرى التي أمسكتها بيدي، فقـد قررت الاحتفاظ بها».

كيف انفصل هذا الراهب نفسه عن الجسد ودخل المكان الأول للعقوبة

« وبعـدمـا عبـدت هكذا صليب ربنا، سمعت بعـد وقت خلفي، صـوت الـرجل المبجل، الذي كنت قـد تلقيت منه في الليلة الفـائتـة، القصاص، ثم انني تركت حذائي وعصاي قرب المذبح، ولاأدري كيف أنني ذهبت إلى مجمع الكهنة، وبعـدمـا تلقيت القصـاص، ست مـرات متفرقات، كما كنت قد فعلت من قبل، تلقيت التحليل، وقد جلس هذا الرجل العجـوز في كـرسي راعي الدير، فسجدت بنفسي أمـامـه، ثم إنه اقترب مني، وقـال لي الكلمة التـالية فقط:« اتبعني»، وبعـدما أقـامني، أمسك بيمينـي بثبـات، إنما بلطف، وقـد بقينا طـوال الوقت ويـدينا متشـابكتـان مع بعضهما، وحـرمت في ذلك الوقت من جميع مشـاعـري الجسـدية والعقليـة، ثم إننا سرنا على طـريق سـوي ناعم باتجاه الشرق، حتى وصلنا إلى قطاع واسع مـن المنطقـة، مخيف أن تنظر إليـه، له وضع مستنقع، قـد تشـوه بصلصـال كثيف، وكـان في ذلك المكان حشـد كبير جداً من الناس، أو الأرواح، لايمكن لأحد تعـدادهم، وكانوا معرضين لأنواع من العـذاب لايمكن وصفهـا وذكـرها، وكـان في ذلك المكان حشد كبير من كـلا الجنسين، من كل وضع، واحتراف، ومـرتبة، وجميع

أنواع المذنبين الذين أدينوا وحكم عليهم بالتعذيب، وذلك وفقاً لتنوع حرفهم، ودرجات آثامهم، ورأيت خلال فسحة امتداد ذلك السهل، الذي من غير الممكن وصول نظر الانسان إلى أطرافه وشاهدت حشوداً من التعساء قد جمعوا على شكل أرتال، وصنفوا إلى فئات وفقاً للتشابه بين جرائمهم واحترافاتهم، وكانو جميعاً يحترقون بشكل متساوي، مع أن صرخاتهم كانت متنوعة، ولاحظت بوضوح بين جميع الناس الذين شاهدتهم، الذين يعاقبون لأنواع من الذنوب، كل حسب طبيعة ذنبهم، كانت درجة عقوبتهم، حيث كانوا يكفرون وقتها عن ذنوبهم وجرائمهم، أو كانوا— بفضل وساطة آخرين— قد وضعوا في مكان النفي، وحصلت العقوبة على اذن بتنفيذها في منطقة سماوية، هذا ورأيت بعضهم يتحملون عذاباً أشد قسوة بعقل هادىء، وكأن شعوراً بالمثوبة قد أعدّ من أجلهم، ولذلك كانوا يفكرون باستخفاف بآلام العذاب المرعب الذي كانوا يعانونه، ورأيت بعضهم يقفز فجأة، من مكان تعذيبهم، ويأخذون طريقهم بقدر مايستطيعون من سرعة إلى أطراف ذلك المكان، وبعد احتراقهم بشكل مخيف، ولدى ظهورهم من البؤر، يركض المعذبون نحوهم بمذاري، ومشاعل، وكل نوع من أنواع أدوات التعذيب، ويعيدونهم إلى مواضع تعذيبهم مجدداً، لينزلوا بهم كل نوع من أنواع العذاب، ومع أن هذا كان يصاب بجراحة، وهذا يطعن حتى القلب بضرباتهم، إنهم كانوا يعودون بعد ذلك، ويتدرجون من أقسى أنواع العذاب، إلى أقسى أنواع الآلام، لأن بعضاً من الأكثر آثاماً هناك يبقون في موت شنيع، دون المرور بمزيد من العذاب الشديد، وكان كل منهم يعامل وفقاً لما عملوه من منافع أو اقترفوه في افعالهم الماضية، أو بالأعمال الجيدة لرفاقهم، والذي رأيته كان أنواعاً لاحدود لها من العذاب، فبعضهم كان يجري شيه أمام النار، وكان آخرون يجري قليهم بالمقالي، وكانت مسامير حمراء لشدة الاحتراق تدفع إلى داخل بعض عظامهم، وجرى تعذيب بعضهم في نتن مرعب في حمامات من

القار والكبريت، ممزوجين برصاص ذائب، وبنحاس وبأنواع أخرى من المعادن، وكانت هناك هوام ذوات حجوم هائلة لها أسنان مسمومة يلتهمون بعضهم بها، وجرى وضع بعضهم من ذوي المراتب العالية على خوازيق لها أشواك نارية، وقد مزقهم المعذبون بمساميرهم، وجلدوهم جلداً مبرحاً، ومزقوهم بأنواع من الآلام الرهيبة، ورأيت في ذلك المكان كثيرين كانوا معروفين بالنسبة لي، وكانت لي علاقة وثيقة بهم أثناء هذه الحياة، رأيتهم يتعرضون لأنواع من العذاب، وكان بعضهم أساقفة، وبعض آخر رعاة ديرة، وبعض من مراتب أخرى، بعضهم من رجال اللاهوت، وكان بعضهم في مناصب علمانية، وبعضهم ذوي مناصب ديرية، فلقد رأيت كل هؤلاء، ورأيت الذين كانوا أقل دعماً بامتيازاتهم الشرفيه في الحياة الماضية، الأكثر لطفاً في تعرضهم للعذاب الذي أوقع بهم، وأخبركم في الحقيقة أنني أعرف إن مالاحظته بشكل خاص، هو أن جميع الذين عرفتهم بأنهم كانوا قضاة للآخرين، أو أساقفة في هذه الحياة، كانوا يتعذبون أكثر من الآخرين، وذلك مع درجات متصاعدة من الشدة، ويبدو أنه ممل بالنسبة لي الحديث عن شدة العذاب الذي تلقوه وهم يستحقونه، أو عن الذي عانوا منه، وكم كانت الأمور واضحة بالنسبة لي، وليكن الرب شاهداً عليّ، أنني لو رأيت واحداً، كان قد قتل جميع رفاقي وأقربائي، وحكم عليه بمواجهة مثل ذلك العذاب، أنا على استعداد لمواجهة الموت— إذا كان ذلك ممكنا— الدنيوي ألف مرة، من أجل انتزاعه من ذلك العذاب، لأن جميع مارأيته هناك من تعذيب، فاق جميع معايير الآلام، والحدة، والتعاسة».

حول المكان الثاني للتعذيب في المطهرةوأنواع العذاب

« بعدما تجاوزنا مكان التعذيب، مررت وأنا ودليلي وتابعنا سيرنا دون التعرض للأذى، مثلما فعلنا في أماكن التعذيب الأخرى، التي

سأتحدث عنها فيما يلي: ووصلنا بعد ذلك إلى مكان آخر للتعذيب، وقد انفصل المكانان عن بعضهما بجبل لامس بارتفاعه السحاب تقريباً، وقد عبرنا قمته بسهولة، وسرعة، وكان يوجد في الجانب الأقصى لهذا الجبل واد عميق ومظلم، محاط من كل جانب بشعاب من الصخور العالية، لايمكن فوقها للنظر أن يمتد، ويوجد في قعر الوادي نفسه بعضاً من المياه، لاأعرف إن كانت نبعاً أم آسنة، وهذه المياه لها مساحة واسعة جداً ومرعبة بسبب نتانتها، وهي تصدر بشكل دائم أبخرة ذات ألوان لاتحتمل، ويصدر جانب الجبل المطل على الجهة الأولى من البحيرة ناراً تصل إلى السماء، ويوجد في الجهة المرتفعة المقابلة من التلة نفسها برد هائل، سببه الثلج، والبرد، والعواصف الهوجاء، إلى حد أنني اعتقدت أنني لم أشهد من قبل أي شيء مرعباً ومزعجاً من البرد مثله في ذلك المكان، والمنطقة الواقعة فوق الوادي، واحتلت جوانب الجبلين، اللذان يحملان هذين المظهرين المرعبين للحر والبرد حشود من الأرواح، عددها من الكثرة مثل نحل في أيام طيرانها، وعذاب هذه الأرواح بشكل عام، هو رميها في البحيرة الآسنة أولاً، ثم في وقت آخر، لدى خروجها من هناك، يجري التهامها من قبل لهب هائل ليتصدى لها هناك، وأخيراً بعد أمد من قبل كرات متحركة من النار، وكأنها شهب خارجة من أتون، حيث كان يطوح بها نحو العالي، ثم تسقط إلى قعر الشاطىء الآخر، ثم كانت تعاد ثانية إلى زوابع الرياح، وبرد الثلج، وصقيع البرد، ثم يرمى بها من هناك، وأثناء طيرانها بسبب عنف العواصف، كان يلقى بها ثانية في نتانة البحيرة، والنيران الملتهبة بغضب، وجرى تعذيب بعض الأرواح بالبرد، وبعضها الآخر بالحر، لمدة طويلة، وأبقي بعضها لمدة طويلة في البحيرة الآسنة، ورأيت آخرين مثل زيتون في المعصرة، قد عصروا وتمازجوا معا في وسط لهيب غير متوقف، وهو أمر مرعب حكايته، وكانت أوضاع الذين كانوا يعذبون هناك وقتذاك كما يلي: لقد أرغموا من أجل انجاز طهارتهم على المرور خلال وجه

تلك البحيرة من البداية حتى النهاية، ولقد كان هناك— على كل حال— درجات كبيرة من التميز بين أولئك الذين كانوا يتعذبون في هذا المكان، ذلك أن بعضهم قد سمح لهم بمرور سهل وسريع، وفقاً لفضائلهم ، والمساعدة التي قدمت لهم بعد موتهم، في حين جرت عقوبة الذين كانوا من المقترفين لجرائم أعظم، أو نالوا مساعدة أقل بوساطة قداسات رفاقهم، بشكل أكثر حدة، وبمدة أطول، لكنهم جميعا، كانوا كلما اقتربوا أكثر من نهاية البحيرة، صاروا أقل شدة في التعرض للعذاب المتبقي، ذلك أن الذين وضعوا في البداية شعروا بالعقوبة والعذاب بحدة أكبر، علماً بأنهم لم يتألموا سواء، وأخف أنواع العذاب في ذلك المكان، كانت أكثر وحشية من أشد أنواع العذاب العائدة للمكان الأول الذي رأيناه من قبل، ورأيت في مكان العذاب هذا، وعرفت عدداً أكبر من المعارف، ممن رأيته في المطهرة الأولى، وفي الحقيقة، لقد تحدثت مع بعضهم، وكان بين من ميزته هناك صائغ كان لي معروفاً بشكل جيد في الحياة، وعندما رآني دليلي أمعن النظر إليه، سألني عما إذا كنت أعرفه، ولدى معرفته بأني كنت أعرفه بشكل جيد قال لي:« إذا كنت تعرفه، تحدث إليه»، ونظرت الروح إلينا، وظهر أنها عرفتنا بوساطة دلائل من السرور لايمكن وصفها، وقدمت الشكر إلى الرجل الذي كان دليلي، وبيدين ممدودتين، وبانحناءات لجسدها تعبدته، وقدم الرجل له الاجلال وشكره كثيراً لتلطفه بالحديث إليه، ولدى صراخه المتوالي قائلاً:«ارحمني يا نيقولا المقدس» سررت لاعترافه باسم شفيعي القديس نيقولا، الذي أرجو أن أنال منه الخلاص في كل من الجسد والروح، ولدى سؤالي بعد هذا الصائغ كيف مضى هكذا سريعاً خلال العذاب الوحشي، رأيته يتألم، ثم أجاب قائلاً:« أنت ياصديقي، وجميع معارفي، الذين رأوا خلال حياتي، بأنني قد حرمت من تأييد جميع الايمان المسيحي، مثل الاعتراف، وقربان الموت، وقد عددت من قبل المسيحيين رجلاً ضائعاً، دون أن يعلموا برحمة مولاي، الذي هو معي، وأعني

بذلك القديس نيقولا، الذي لم يتركني، أنا عبده التعيس، أعاني من موت مدان سرمدي، لأنه الآن، ودوما، منذ أن جرى تعييني لمكان العقوبة هذا، وعندما كنت أعاني تحت العذاب الشديد، جرى انعاشي مرارا بوساطة زيارة رحمته، هذا ربما أنني كنت في عملي بالذهب، الذي هو حرفتي، قد اقترفت كثيراً من أعمال الغش، وأقوم الآن بأقسى أنواع التكفير، فقد قذفت مراراً وسط كومة من المال المحترق، واللهب الذي لايحتمل، وغالبا ماأرغمت بفم مفتوح على ابتلاع هذه النقود كلها، وعلاوة على ذلك غالباً ماأرغمت على تعداد هذه النقود والشعور بأن يدي وأصابعي التهمت واحترقت بوساطتهم»، ثم إنني سألته، هل يستطيع الناس بوساطة أية وسيلة مخلصة تجنب مثل هذا العذاب المرعب، وعلى هذا أجاب وهو يتنهد:« إذا ماكتب الناس بأصابعهم يوميا كل واحد على جبينه، وعلى الأجزاء القريبة من قلوبهم» « يسوع الناصري، ملك اليهود»، فإن عناصر الايمان هذه سوف تحفظه من دون شك وتبقيه دون أن يصاب بأذى، وهذه الأماكن ذاتها سوف تشع بعد الموت بضوء رائع، هذا وأشياء أخرى كثيرة قد سمعتها منه، لكن دعونا الآن نسرع إلى وصف أشياء أخرى، وليكن فيما قيل كفاية».

مكان التعذيب الثالث والأنواع المضاعفة من العذاب

« ثم إنني قمت مع دليلي بمغادرة هذا الوادي، الذي يعرف حقاً باسم وادي الدموع، وهو الذي صرنا إليه في المكان الثاني، ووصلنا إلى سهل واسع قائماً في الأسفل في قلب قعر الأرض، وهو مابدا أنه لايمكن الوصول إليه، إلاّ لشياطين التعذيب، والأرواح المُعَذَّبة، وكان وجه هذا السهل مغطى بشكل فوضوي كبير ومخيف، ممزوج بدخان الكبريت، وبسحب من النتانة لايمكن تحملها، مع لهب قار أسود، وهذا كله كان متصاعداً من جميع الاتجاهات، وقد اختلط بطريقة مرعبة، خلال جميع تلك الفسحة الفارغة، ولقد امتلأ وجه المكان بحشود من

الهوام، مثل إمتلاء ساحات البيوت وتغطيتها بالطفح والاندفاعات، وهؤلاء مرعبين فوق التصور ولهم أحجام عملاقة وأشكال مشوهة، مع وجود فتحة بين الفكين، وكانوا ينفثون بنار مروعة من فتحات آنافهم، فتمزق حشود المخلوقات التعيسة بشراهة، حتى أنه مامن أحد كان ينجو منها، والشياطين تركض في جميع الاتجاهات، مغضبة مثل مخلوقات مجنونة، فتستولي على المخلوقات التعيسة، وتقوم على الفور بتقطيعها إلى قطع، قطع بمخالبها النارية، هذا حينا، وحينا آخر تمزق جميع أجسادها وتفصل اللحم عن العظم، ثم تلقيهم في وقت آخر في النار، وتذيبهم مثل إذابة المعادن، ثم تعيدهم على شكل لهب محترق، واعلموا— يشهد الرب— أنني لاأذكر شيئاً، أو ما أذكره قليلاً عن عذابات ذلك المكان، لأن الرب وحده يعرف، أنني رأيت في تلك الفسحة الضيقة من الوقت، هؤلاء التعساء من المخلوقات، قد دمروا بمائة نوع، أو أكثر، من أنواع العذاب ثم أعيدوا على الفورمجدداً، ومجدداً تحولوا إلى لاشيء تقريباً، ثم أعيدوا مجدداً، لأن حياة ضائعة تسببت في تعذيبهم في ذلك المكان، ونظراً لتعدد أنواع العذاب، لم تكن هناك نهاية لآلامهم، لأن لهب تلك النار هو ملتهم إلى حد أنك تظن أن النار العادية أو الحمى هي دافئة، مقارنة بها، وجمعت الهوام الميتة والممزقة إلى قطع، وتكدست في أكوام تحت التعساء، تملأ كل شيء بنتانة لاتحتمل، بشكل فاقت به جميع أنواع الآلام الأخرى، ويبقى ماهو أكثر مقتاً وحدة من كل شيء، هو ماستتحدث عنه؛ لأن جميع الذين عذبوا هنا، كانوا مذنبين بحياتهم بشرور غير مذكورة لها قيمتها عند المسيحيين، أو حتى عند الكفار أو المشركين، فقد جرت مهاجمة هؤلاء بشكل مستمر من قبل تنينات لها مظهر ناري، ومرعبات بشكل لايمكن وصفه، وهم لايعبأون بخصومهم ويقترفون عليهم الجرائم الملعونة، التي أذنبوها وهم على الأرض، وتتوالى صرخاتهم المخيفة حتى يغشى عليهم، ويظهرون أنهم موتى، ووقتها يعودون ثانية، ويتعرضون لعذابات

جديدة، وإنني أرتجف وأنا أحكي ذلك، وأنا مربك إلى أقصى الحدود تجاه قذارة جرائمهم، ذلك أنه حتى ذلك الوقت لم أسمع ولم أفكر أنه يمكن لكلا الجنسين أن يفسدوا بمثل هذه القذارات، أو الخزي، وهناك أعداد لاتحصى من الحشود التعيسة جداً، بشكل محزن جداً أن تأسف عليها، وأشكال الكثيرين في ذلك المكان، أنا لم أرها ولم ألاحظها، لأنني كنت مغلوباً بالرعب من الحجم الهائل للتعذيب، والقذارة، ووساخة النتانة، وكان ذلك مضايقاً إلى أبعد الحدود، حتى أنني لم أستطع الوقوف هناك للحظة واحدة، أو أن أنظر إلى ما كان يجري هناك، وحدث أخيرا أن صرخ أحدهم وسط الجلبة بصوت مرتفع:« واأسفاه، لماذا أنا لم أتب»؟ ولقد كان أنينهم مرتفعاً إلى حد أنه يخيل إليك، أن جميع المتألمين في العالم كانوا ينوحون هناك».

حول أحد المحامين وعذابه

« ومع أنني تجنبت قدرما استطعت النظر إلى شخص أثناء مروري هناك، لم أتمكن الهروب من رؤيته، وكان واحداً من رجال الدين، وكنت قد عرفته فيما مضى، وقد عدّ أثناء حياته رجلاً بارعاً جداً، وكان واحداً من الذين تولوا أعمال المحاماة، والتعامل مع القوانين، ولهذا السبب كان بالنسبة للموارد اللاهوتية، يغدو يومياً أغنى من البقية، ولقد دهشت تجاه حجم آلامه، ولدى سؤالي له عما إذا كان يتوقع الحصول على رحمة ما، أجابني وهو يصرخ« واأسفاه، واأسفاه، والويل لي، إنني أعرف، وأنا أعرف، أنني لن أتلقى رحمة في هذا الجانب من يوم القضاء، ثم بعدئذ أنا غير متأكد، لأنني منذ أن أخضعت إلى هذه الآلام، فإن عذابي يزداد سوءاً، ويجرني من سيء إلى أسوأ»، فقلت له: لماذا لم تقم أخيراً بالاعتراف بذنوبك، وتبت»؟ فأجابني؟« لأنني كنت آمل بالشفاء، فالشيطان قد ضللني، وكنت أخجل من الاعتراف بمثل تلك الجرائم المهينة، خشية أن أبدو غير محترم أمام الذين بدوت أمامهم مشهوراً

ونبيلاً، ولقـد اعترفت بواحد من أخف آثامي إلى راهـب، ولدى سؤاله لي عما إذا كنت واعيـا ومتـذكـرا للذنـوب أخـرى، طلبت منه وقتهـا أن يتركني، ووعـدت بأن أدعـه يعـرف، إذا مـاعـاد أي منهـا إلى ذاكـرتي، وعندما غـادر، وابتعد قليلاً، شعـرت بنفسي أنني أموت، وعندمـا أعيد إليّ من قبل خـدمي وجـدني أنني قدمتّ، ولهذا مـامن واحـد من أنواع العذاب الألف التي أتحملها يوميا يعذبني بقدر عمل تذكر آثامي، لأنني أرغمت بالفعـل على أن أكـون عبـداً لـدناءة ضعفي السـالف، لأنه بالإضافة إلى عظمة هذه العقوبة التي لايمكن وصفها، أنا مسحوق بعار لايمكن تحمله، عندمـا أظهـر على أنني واحـد لعين بسبب هذه الآثام الكبيرة»، وفي اللحظة التي كـان يتحـدث بها هكذا إليّ، رأيتـه يتعـذب بطرائق لاتعـدّ ولاتحصى، وقد تناقص في وسطهـا حتى تلاشى وأصبح لاشيء، وذاب بقـوة الحرارة، مثل ذوبان الرصـاص، وسألت أنا أيضـا القديس نيقولا، الذي وقف إلى جـانبي، عما إذا كان هذا العذاب يمكن أن يخفف بأي نوع من العـلاج، فـأجـابني:« عندمـا يحل يوم الحسـاب، وقتهـا سـوف يجري تنفيـذ إرادة المسيح، لأنه هو وحـده يعـرف قلوب الجميع، وعندها هو سـوف يعطي إلى الجميع جـزاء عادلاً»، وفيما بعـد، عندمـا عـدت إلى جسـدي، جـاء ذلك الكاهن الذي إليـه اعترف ذلك المحامي بذنوب خفيفة، ودعا الرب في حضور كثيرين وعدّه شاهداً على أن ماقلتـه كان صحيحـاً، لأن مامن أحـد عرف هذه الأشيـاء، إلاه هو نفسه، ولقد أسقطت ذكر عذاب الكثيرين ممن شاهدتهم، خشية أنني إذا مـاتكلمت أكثر منهم، سـوف أسبب الغثيان إلى قـرائي، وليكن في هذه الاختيارات القليلة كفاية».

الرؤيا التي رآها الراهب نفسه حول المجد السرمدي للمباركين

« أمـا وقـد قمنا بـالوصف الجزئي للأشيـاء التي رأينـاهـا من أمـاكن العـذاب والعقـوبة للتعساء، بقي علينا أن نتحـدث عن مـواسـاة الذين

كانوا في الراحة، وعن المجد السرمدي للمباركين، الذي رأيناه بأعيننا، فبعدما سرنا لوقت طويل، وسط مختلف أنواع العذاب التي قمت بذكرها أعلاه، وبعدما رأيت مختلف أنواع آلام التعساء، ولدى متابعتنا طريقنا نحو المناطق الداخلية، بدأ الضوء بالظهور على درجات بشكل مريح أكثر، وهنا كانت الروائح جميلة وطيبة، وهنا كان السهل الغني مـــزدهراً بمختلف الأنواع الكثيرة من الورود، التي منحتنا سروراً لايمكن وصفه، ووجدنا في هذا السهل آلافا لاتحصى من الناس أو الأرواح، الذين بعدما عبروا من خلال عقوباتهم، كانوا يتمتعون هناك بالراحة السعيدة للمباركين، وكان الذين وجدناهم في الشطر الأول من هذا السهل، يرتدون أردية بيضاء بالفعل، غير أنها لم تكن لامعة، ومع ذلك لم يظهر عليها أي سواد أو بقع، مع أنها لمعت بأدنى درجات البياض، ورأيت بين هؤلاء عدداً كانوا معروفين لدي من قبل، وقد لاحظت بينهم راعي دير قدم مؤخراً من أماكن العذاب، وقد لبس ثياباً غير ملطخة، مع أنها لم تكن كثيرة اللمعان، ورأيت هناك ولاحظت واحداً من رؤساء الرهبان، كان بعد تحريره من جميع العقوبات يتمتع بسلام سعيد مع أرواح المستقيمين، وكان يأمل بالتأكيد بالرؤيا اللاهوتية التي كان على وشك نيلها مكافأة له، ورأيت في ذلك المكان نفسه، كاهنا كان قد امتلك نعمة الوعظ متحدة مع مثالية الحياة الجيدة، وقد حرر من الذنب كثيراً من الناس ليس فقط في أبرشيته التي كان مسؤولاً عنها، بل أيضاً من الذين كانوا بعيدين عنه، وكذلك بتعاون الرب، وبإضفائه مجداً لايمكن وصفه على كثيرين، مثلما أضفاه عليه نفسه».

مكان الراحة الثاني ومجد الساكنين هناك

ولدى متابعتنا السير من هناك نحو داخل منطقة الحلاوة هذه، ووضوح الضوء، وطيب الرائحة التي انتشرات أكثر، وقد عدّ جميع الذين سكنوا في هذا المكان بمثابة سكان للقدس العلوية، وكانوا قد

عبروا خلال عقوباتهم بسهولة كبيرة جداً، لأنهم كانوا الأقل مشاركة بشرور العالم، والذي رأيناه لدى متابعتنا السير، لايستطيع اللسان التعبير عنه، كما أن الضعف الانساني غير مؤهل لوصفه، لأن من الذي هو جدير أن يبين بالكلمات، كيف أنه وسط الأرواح المباركة التي هي آلاف لانهاية لها قد وقفت هناك، وكأنها واقفة حول آلام الرب ذات المهابة المقدسة، والمخلص التقي للبشرية نفسه ظاهر وكأنه معلق على الصليب، والدماء تسيل من جسده كله بسبب الجلد، والاهانة بالبصاق، والتتويج بالشوك والمسامير قد دفعت إلى داخله، وقد طعن بالرمح، بينما تدفق نهر من الدماء فوق يديه وقدميه، وسال الدم والماء من جانبه المقدس، وإلى جانبه وقفت أمه، لكن الآن ليست قلقة ولاحزينة، بل مسرورة تنظر بملامح هادئة جداً، فهذا المشهد غير ممكن وصفه، فهل يمكن لأحد، في الحقيقة، تخيل بأية رغبة ركض الجميع نحو هذا المشهد، وأية تقوى توفرت بين الذين شاهدوه، وأية خشوع كان هناك، وكم كانوا كثرة الذين كانت مؤشراتهم تعبر عن الشكر لهذه النعمة العظيمة؟ ولدى تفكيري بعمق أكبر حول هذه الأشياء، لست أدري فيما إذا كان الحزن أو الخشوع هو الذي ضلل عقلي غير السعيد، ذلك أن الدهشة والاعجاب حرماني من الشعور، وكان الخشوع عظيماً إلى حد توجب معه قهر الشيطان، بهذا الازدراء، وأن تهزم جهنم، وتحرم من أسلحتها، وأسلابها، وأن يتعافى الانسان الضائع، وأن يجري انتزاع فرائس الشياطين من بيت جحيمهم السام، وأن يوضعوا في السماء بين جوقة الملائكة، وأشياء كثيرة أنا رأيتها هناك وسمعتها، أخشى من الحديث عنها، حتى لاتبدو غير معقولة ولايمكن تصديقها من قبل كثيرين، وأخيراً، بعد امضاء وقت طويل في النظر إلى هذه الرؤيا المباركة نفسها، اختفت فجأة، وفي المكان الفارغ، حيث كانت هذه المعجزة المجيدة موجودة، عاد الجميع وهم مسرورين، ورجع كل واحد إلى مكانه المحدد، وتبعت دليلي، وأنا ممتلىء بالإعجاب، إلى المناطق الداخلية، إلى

أمـاكن سكنى المبـاركين، وهنا كـان بريق الذين تجمعـوا، وهنا كـانت الروائح الطيبة المستنشقة، وهنا توفرت أيضاً تسابيح الذين حمدوا الرب.

مكان السرور الثالث ورؤى الرب

وبعـد السير لمسـافـة، ومع ازديادطيب الأمكنـة أمـامنا، رأيت مـابدا جداراً من الزجـاج الصافي(الكرستال) وكـان عالياً إلى درجـة أن مامن انسـان كـان يمكنـه أن ينظر من فـوقـه، وإلى امتـداد لانهاية له، ولدى اقترابنا منه، رأيتـه يشع بضـوء هو الأكثـر لمعانا، وكـان يصـدر عنه من الداخل، ورأيت أيضـاً مـدخله مفتوحـاً، ومعلما بشـارة حماية الصليب، وقـد اقترب من هناك حشـد كـان قلقـاً جـدا للدخـول لأنه صـار عند المدخل، ورفع الصليب الـذي كـان في منتصف البـاب، نفسـه عـاليـاً، وبذلك فتح مدخلاً للذين اقتربوا، ثم إنه سقط ثانية ومنع دخول الذين رغبـوا بالدخول، ولكم كـان سرور الذين سمح لهم بالدخـول، عظيماً، وكم كان تشـوق الذين بقيوا في الخارج ينتظرون الرفـع التالي للصليب، فهـذا كله مـالا أستطيع وصفـه، فهنا وقف دليلي معـي لبعض الوقت، ولكن أخيراً تقدمنا نحـو الأمام، حيث كـان الصليب قد ارتفع، وانفتح المدخل لنا للدخول، ودخل مرافقـي من دون صعوبة، وكنت أنا خلفه، وأثناء ذلك نزل الصليب فجأة على يدي، وكـاد يمنعني من اتباع دليلي، ولدى رؤيتي ذلك بت مـذعـوراً جداً، لكنني سمعـت الكلمات التاليـة تصـدر عنـه حيث قـال:« لاتخف، وضـع ثقتك فقط بالـرب، وادخل بسـلام»، ولدى سماعـي هذا عـادت إليّ طمأنينتي، وعنـدمـا منحني الصليب مدخـلاً، دخلت، ولكم كان الاشعاع هائلاً، فـالضياء لايمكن تصوره، ولكم كان الضوء قـوياً الذي ملأ جميع تلك الأماكن، لايسألني أحـد عن ذلـك، لأنني غير قـادر عـن التعبير عنه في الكلمات، كما لايمكنني استرجـاع ذلك في ذاكـرتي، فلقـد أزاغ ذلك اللمعـان الناعم والفخم ناظري، إلى حد أنني لم أستطع التفكير بشيء يمكن مقـارنته به،

مما كنت قد رأيته من قبل، لأن ذلك اللمعان لايمكن تصوره، فهو كما كان لايعمي نظر العين، بل بالحري يجعل هذا النظر أكثر حدة، وعندما نظرت إليه، مامن شيء واجه ناظري سوى ضوء الجدار الزجاجي النقي(الكريستال) الذي تقدم ذكره، علاوة على ذلك كانت هناك من أسفله حتى أعلاه سلالم ذوات جمال رائع، جرى إعدادها وفق طريقة تتمكن بوساطتها حشود الأرواح المسرورة من الصعود حالما تدخل من الباب، ولم يتعب الذين صعدوا، ولم يكن هناك مصاعب ولا تأخير بالصعود، لأن الدرجة الأعلى كانت دوما أسهل بالصعود من صعود الدرجة التي كانت قبلها، وعندما وجهت عينيّ نحو الأعلى شاهدت مولانا مخلص البشرية، جالساً على عرش المجد، على شكل انسان، وبدا لي أنه مابين خمسمائة إلى سبعمائة أرواح مخلوقات مباركة، الذين صعدوا أخيراً عبر الطريق المتقدم ذكره، إلى مكان العرش، حيث تحلقوا من حوله على شكل دائرة، مع شارات تقديم الشكر له، وتعبدوه، هذا والذي هو واضح بالنسبة لي، هو أن ذلك المكان الذي كنت قد رأيته هو أنه لم يكن سماء السموات، حيث سوف يظهر مولى الموالي في صهيون، كما هو في جلالته، ومن هناك تصعد الأرواح إلى تلك السماء المباركة بسبب وجود الإله الدائم، ويأتي ذلك بعد إزالة جميع المصاعب والتأخيرات، وشعرت أنا— على كل حال— في نفسي بفرح وسرور عظيمين، وبكثير من السعادة، والبهجة، فمهما حاولت العبقرية الانسانية التعبير عن سرور وفرح قلبي وما شعرت به، سوف تخفق».

كيف أعيد الراهب المذكور إلى جسده

« وبعدما رأيت هذا كله وسمعته، وأشياء أخرى لاعدّ لها، تحدث القديس نيقولا إليّ قائلاً:« انتبه يابني، لقد حصلت الآن على مارغبت به، وذلك بقدرما هو ممكن لك، فلقد رأيت من جانب شرط الحياة المقبلة، ومخاطر المذنبين، وعقوبات الأشرار، وراحة المتطهرين الأنقياء،

وسرور الذين سـوف أخيراً يصلون إلى بلاط السماء، وأسرار آلام ربنا، وعليك الآن العـودة إلى صراعـاتك المميتـة، ولسـوف تتسلم، إذا مـا واظبت على خوف الـرب، الأشياء التي رأيتها بعينيك، وأكثر من ذلك بكثير، إذا مـاسعيت بجسد طاهر وبقلب بريء إلى انتظار يوم دعـوتك الأخيرة»، وعندمـا كـان يتحـدث إليّ هكذا، سمعت فجـأة لحناً رائعـاً بعذوبته وكأنه صوت جميع نواقيس الدنيا، أو أن كل شيء موسيقي كان يصوت مع بعضه، وكان في هذا اللحن عـذوبة رائعة، ومزيج متنوع من التناغم الشجي، ولست أدري هل الاعجاب بذلك للعظمة أم للعذوبة، وعندما كنت أصغي بتشوق لهذا اللحن غير الاعتيادي، كنت قد فقدت ذاكـرتي ثم لقـد وجـدت نفسي مـاأن توقف اللحن حتى فقـدت رفقـة دليلي، وعادت إليّ قوة جسدي، وعاد النظر إلى عيني وصرت قادراً على الرؤية، كما أن آلام مرضي السالف قد تدمرت، وقد تحررت أنا كليا من ضعفي، وجلست بينكم قوياً وصحيحاً، مع أنني قلق وحـزين، وبعدما عـدت إلى نفسي، وما أن سمعت من الرهبـان بأن احتفال الفصح كـان يقترب، حتى عـددت تلك الموسيقى التي سمعتهـا هي علامـة، على أنه حتى بين سكان السماء يجري الاحتفـال بأسرار الخلاص البشري ببهجـة وبفرح من قبل سكان السماء، وذلك مثلما عملت على الأرض من قبله، وهو الـذي خلق السماء والأرض مـن لاشيء، وأعني بذلـك يســوع المسيح، الذي ليكن إليـه مع الآب والروح القـدس جميع التشريف ومجد العالم بلا نهاية، آمين».

وسقط في هذه الآونـة هنري أوف شـامبين، الذي خلـف غي ملكاً للقدس، من النافـذة العليا في بيتـه، إلى الشارع، فانـدقت رقبته، وقتل، ولقد كـان ابن أخت لكل من ملكي فرنسـا وانكلترا: فيليب ورتشارد، ذلك أنه كان ابن بنت لويس ملك فرنسا، والد فيليب، وهي الابنة التي جاءته من اليـانور، التي كانت آنذاك الملكة زوجتـه، والتي تزوجت فيها

بعد من الملك هنري، والد الملك رتشارد، وبناء عليه عندما مات الملك المذكور، تطلبت بالضرورة أوضاع الأرض المقدسة ملكاً جديداً، وبحكم ذلك جرى باجماع من رجال الدين والناس واتفاق، انتخاب رجلاً فرنسياً لامعاً هو جون بريين، وكان رجلاً بارعاً في القتال، وعلى الفور جرى تتويجه ملكاً، وتقدمت شؤون المملكة تحت حكمه كثيراً.

ارسال الملك رتشارد رسلاً إلى روما للشكوى ضد رئيس أساقفة روان

عام ١١٩٧م، فيه كان الملك رتشارد في بور Bure في نورماندي، وكان يعاني من اضطراب عظيم لأن رئيس أساقفة روان قد وضع نورماندي تحت التعليق والحرمان من شراكة المؤمنين، فقد كانت أجساد الموتى ملقاة في ساحات شوارع المدن من دون دفن مما سبب رائحة نتن شديد بين الأحياء، ولذلك بعث وليم أسقف إيلاي، وكان مستشاره، مع أسقفي درم وليزكس Lisiex إلى بلاط روما ليترافعوا بقضيته ضد رئيس الأساقفة المذكور، لكن وليم أسقف إيلاي قد مات وهو على طريقه إلى روما، في بواتو، ودفن في الدير السسترشياني في دسبن Dispin في التاسع والعشرين من كانون الثاني، وتابع— على كل حال— الأسقفان اللذان كانا معه رحلتهما، ووصلا إلى روما، وعندما اجتمع الفرقاء بحضور مولانا البابا، وتم الاستماع إليهم بعناية، وقدّر مولانا البابا مع كرادلته، بعد مناقشة مستفيضة الأضرار والاضطراب الذي يمكن أن يلحق بالملك في نورماندي مالم يتم بناء تلك القلعة في أندلي، ونصحوا رئيس الأساقفة بالوصول إلى اتفاق سلمي مع مولاهم الملك، وأن يتسلموا منه تعويضاً كافيا، حسب تقدير رجال حكماء لما تمت خسارته، لأنهم أعلنوا إنه كان أمراً قانونيا تماماً لأي انسان كان قادراً أن يفعل مافعله ملك انكلترا، في تقوية الأجزاء الضعيفة من مملكته، حتى لايتعرض للخسارة أو الضرر من هناك، وعاد رسل

الطرفـان مع شروط السلم هذه، وبذلك تمّ الحصـول على نقض لقـرار التعليق من شركة المؤمنين.

صيغة الاتفاقية التي عملت بين الملك رتشارد ورئيس أساقفة روان

كانت صيغة السلام والاتفاقية التي عملت بين ملك انكلترا، ورئيس أسـاقفة روان كما يلي:« رتشـارد ملك انكلترا، بنعمـة الرب، الخ: بما أن الكنيسـة المقدسـة هي قرينة الملـك الأبدي، والمحبوبة الوحيـدة من قبل الذي باسمه يحكم الملوك، ويمتلك الأمراء سلطاتهم، نحن نرغب في أن نعطيها المزيد من الاحترام والتقوى، ومـزيداً من الثبات في اعتقادنا بأنه ليست الملكيـة فقط صـادرة عـن الرب، بل جميع القـوى هي من عند الرب، ولذلك فإن كنيسـة روان المقـدسـة، التي هي، كما هو معـروف، الأعظم شهـرة بين جميع ممالكنا، تستحق لأن نتشاور دومـاً معها حـول مصالحنا وفقاً إلى حاجات الوقت، والظروف الأخرى، ولذلك رأينا أنه من المناسب دفع تعـويض من أجل تقـدم وازديادالكنيسـة نفسهـا، التي هي أمنا، وبما أن بلدة آندلي، وبعض المناطق المجـاورة الأخرى، العـائدة إلى كنيسـة روان لم تكن محصنة بما فيه الكفـاية، وكان هناك باب مفتـوح للعـدوان من قبل أعدائنا والتغلغل في بـلادنا في نورماندي، من خـلال هذه الأمـاكن نفسهـا، فبتلك الوسـائل يغيرون على المنطقـة نفسهـا، ويلحقون الضرر بها بالنار والاغتصاب، وبوسائل حربية شريرة أخرى، ولذلك قـام صاحب النيـافة أبـونا وولتر رئيس الأساقفـة مع هيئة كهنة روان، بتقدير صحيح لخسائرنا في المنطقـة المتقدم ذكرها، وبناء على ذلك تمت عمليـة مبـادلة بين كنيسـة روان وولتر رئيس الأسـاقفـة من الجهـة الأولى، وبيننا أنفسنا من الجهـة الأخرى، وذلك فيما يتعلق بعـزبة أندلي، كما يلي: لقـد منحنا رئيس الأسـاقفـة المذكـور، بمـوافقـة مـولانا البـابا سيليستين الثـالث ورغبتـه، ومع مـوافقــة هيئة كهنة روان، بشكل دائم

وتنازل لنا ولورثتنا عن عـزبة آندلي المتقدم ذكرها، مع قلعـة« الصخرة» الجديدة، والغـابة، وكل مـاهو متعلق بها، مع امتيـازاتها، وذلك باستثناء الكنائس، والحاجيـات للجنود، وباستثناء عـزبة فـريسـان Freisanas ومتعلقاتها، فذلك كله يحتفظ به رئيس الأسـاقفة المذكور وكنيسة روان، وله شخصياً ولـورثته، مع جميع امتيازاتهم، والاعفـاء من الجمارك، وهـم بشكل مـوحـد إلى الأبـد، ومقـابل عن عـزبة آندلي المتقـدم ذكـرها مع متعلقـاتها، قـد منحنا، وتنازلنا تنازلاً أبدياً إلى كنيسـة روان، وإلى رئيس الأساقفـة المتقدم ذكـره، وإلى خلفائه، عن جميـع الطواحين التي نمتلكها بروان، أثناء عمل هذه المبـادلة، وذلك مـع جميع توابع المطاحن وأدوات الطحن من دون أي احتفـاظ بالأشيـاء العـائـدة للمطحنة أو للطحن وذلك مع جميع الامتيـازات والاعفـاء من الجمارك، وهو مـااعتـادوا أن يتملكوه أو يتوجـب لهم تملكه، ولن يكون قانونيـا السماح إلى أي انسان ببناء طاحون في ذلك المكان، مـن أجل إعاقة الطواحين المتقـدم ذكرها، عـلاوة على هذا لقـد منحنـا إليهم بلدتي ديبي Dieppe وبوسلي Bu-celes مع توابعها وامتيـازاتها، وكذلك عـزبة لوري Loures وغابة هاليمونت Haliermunt مع الحيـوانات البرية والمتعلقات الأخـرى والامتيـازات، ولسـوف يتملك رئيس الأسـاقفـة المتقـدم ذكـره والذين سيخلفـوه جميع هذه الأمـاكن بدلاً عـن عـزبة أندلي المتقـدم ذكـرها إلى الأبد، والشهود هـم التالية أسماؤهـم.... وعملت هـذه المبادلة في روان، في سنة ١١٩٧م، وذلك في السنة الثامنة لحكمنا».

كيف حمل الملك رتشارد جسد القديس فاليري إلى نورماندي، وكيف أحرق هناك عدة سفن

وفي هذه الآونة أشير إلى الملك رتشـارد، أن سفناً قـد اعتـادت على القدوم من انكلترا إلى القديس فاليري Valery لجلب مؤن إلى ملك فـرنسـا وإلى أعـدائه الآخريـن، وبناء على ذلك زحف إلى ذلك المكان،

وأحرق البلدة، ودمر الرهبان، وحمل تابوت القديس فاليري مع عظامه إلى نورماندي، وقد وجد في الميناء هناك بعض السفن الانكليزية محملة بالقمح والمؤن، وبناء عليه أمر بشنق البحارة، وباحراق السفن، ووزع المؤن على جنوده.

كيف ضمن الملك رتشارد التحالف مع كونت فلاندرز

وفي هذه الآونة حرض الملك رتشارد بوساطة الهدايا، جميع الأقوياء في المملكة الفرنسية لإقامة صداقة معه، فقد أعطى خمسة آلاف مارك من الفضة إلى بلدوين كونت أوف فلاندرز من أجل مساعدته، وقدم ذلك الأمير رهائن إلى الملك كضمانة على أنه لن يعقد اتفاقاً مع ملك فرنسا من دون موافقته، وتخلى سكان شامبين مع سكان بريتاني أيضاً عن ملك فرنسا، وانضموا إلى جانب الملك رتشارد، وقام وليم كريبن Crepin، قسطلان أوج Auge— مرغماً بالقوة— بتسليم القلعة نفسها إلى الملك الانكليزي، الذي قام على الفور بشحنها بقوة عسكرية، وحشد الملك الفرنسي جيشاً، وألقى الحصار عليها، وبينما كان هذا يجري، قام الملك الانكليزي بنزول سريع على أوفرين، واستولى على عشر من قلاع الملك الفرنسي، وعلى عدد كبير من أتباعه، لكن قبل أن يعود الملك رتشارد إلى نورماندي استولى الملك الفرنسي على قلعة أنجو، إنما بتسلمه خمسين ماركاً من الفضة، أعطى لجنود حامية القلعة أماناً على حياتهم، وعلى جوارحهم مع خيولهم وأسلحتهم، واحتفظ الملك بالقلعة وقواها.

كيف جرى التضييق بشدة على الملك الفرنسي في نورماندي

وحاصر في الوقت نفسه بلدوين كونت فلاندرز قلعة أرآس Arras، وسمع الملك الفرنسي بهذا، فقدم إلى هناك مع جيش كبير، ولدى وصوله رفع الكونت الحصار، وغادر إلى ممتلكاته، والملك الفرنسي يطارده، إنما بعدما قطع هذا الملك مسافة كبيرة بين البحيرات وخلجان

البحر، قام كونت فلاندرز بتدمير جميع الجسور، وبفتح قنوات جر المياه، وذلك من أمام الملك الفرنسي ومن خلفه، ولذلك لم يعد بامكان الملك الفرنسي لاالتقدم ولاالتراجع، ولم يعد ممكنا جلب أية مؤن إليه، وعندما وجد الملك نفسه في مواجهة هذه المصيبة، بعث رسالة إلى الكونت، بأنه جاء إلى هناك مع نية عمل اتفاقية سلمية معه، أو استرجاعه من ولائه للملك الانكليزي، وعلاوة على ذلك أخبر الكونت بأنه كان تابعاً له ومن رعيته وعلى ذلك الأساس لايجوز له، وغير متوقع منه القتال ضد تاجه، وعلى كل حال قبل أن يسمح الكونت للملك فرنسا بالمغادرة جعله يقسم أنه سوف يعيد إليه نفسه— الكونت— وإلى ملك انكلترا، جميع القلاع والحقوق، التي استولى عليها خلال الحرب، وحدد يوما لإبرام هذه الاتفاقية، وأعدّ الترتيبات لأن يجتمع هو نفسه مع الملك الانكليزي الذي يتوجب حضوره إلى مؤتمر يعقد يوم الأربعاء بعد عيد تمجيد الصليب المقدس، بين غيلون Gaillon ، وأندلي، وبذلك نجا الملك الفرنسي من الأسر من قبل الدوق، وعاد إلى ممالكه، لكنه بعدما عاد إلى باريس، اجتمع للتشاور مع نبلائه من أجل خرق الاتفاقية والتخلص منها، لأنه لم ير نفسه ملزماً بالحفاظ على يمين أداه مكرهاً.

حول بعض القوانين المفيدة التي عملها الملك رتشارد

وفي العام نفسه، في يوم عيد القديس ادموند، أصدر الملك والشهيد، الملك رتشارد، بناء على تشجيع هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري ومتولي العدالة في انكلترا، مرسوماً في وستمنستر، قضى بوجوب أن تكون معايير القمح والقطاني في جميع أرجاء انكلترا، وفي المدن وفي الأماكن الأخرى ذات حجم واحد، وبشكل خاص معيار الجعة، والخمرة، وأوزان التجار، ورسم أيضاً أن تكون الأقمشة الصوفية في جميع أرجاء المملكة بعرض ذراعين مع الحواشي، وأن تكون جيدة في الوسط كما هي في الأطراف، وعلاوة على ذلك رسم أنه لايجوز لتاجر أن يعلق أمام

حانوته أقمشة حمراء أو سوداء، أو أي شيء آخر يمكن أن يزيغ نظر الشاري ويخدعه في اختيار القماش الجيد، وأصدر مرسوماً آخر قضى أنه لايجوز استخدام صباغ، إلاّ الصباغ الأسود في أي مكان في المملكة، إلاّ باستثناء مدن الحواضر، أو المناطق، وإذا ماخرق أي انسان هذه القوانين وأدين بذلك، ينبغي سجنه جسدياً، ومصادرة سلعه لصالح الميزانية الحكومية؛ وفي هذا العام نفسه جرى انتخاب فيليب، الذي كان كاهنا من مقاطعة بواتو التابعة للملك، أسقفاً لدرم، وجرى تكريسه في اللاتيران من قبل البابا سيليبستين.

تتويج أوتو ملكاً على ألمانيا

وفي السنة الثامنة من حكم الملك رتشارد، وبناء على توصية من هذا الملك نفسه جرى تتويج ابن أخته أوتو ملكاً على ألمانيا، وقد قام على الفور بالزواج من ابنة دوق لوفين Louvain ، وفي يوم تتويجه، جلس إلى المائدة في الكنيسة معها، مع أنها لم تكن متوجة في ذلك الوقت، وفي هذا العام نفسه، وإثر وفاة البابا سيليستين، خلفه انوسنت الثالث، وفي يوم عيد القديس بطرس، جرى تكريسه بابا ووضع فوق كرسي القديس بطرس، وتحت رعايته ظهر في ايطاليا فرقة جديدة من المبشرين اسمها فرقة« اليعاقبة»، لأن أفرادها قلدوا حياة الرسل، وتجول هؤلاء الرجال بين المدن، والشوارع والقلاع، يبشرون بكلمة الانجيل، ويأكلون قليلاً، ويرتدون ثياباً خفيفة، ومن دون ذهب، أو فضة، أو أية مقتنيات أخرى، وتكاثر هؤلاء القوم خلال وقت قصير في جميع أرجاء العالم، بسبب فقرهم التطوعي، وكانوا يسكنون في المدن الرئيسية كسبعة أو عشرة، دونما اهتمام بالمستقبل، وبلا احتفاظ بأي شيء من أجل الاستخدام في الغد، وقد عاشوا أيضاً وفقاً لأحكام الرسل، ومهما اجتمع على موائدهم من وفرة بالأشياء، من خلال هدايا الصدقات، كانوا يتولون توزيعه على الفور على الفقراء، وقد تجولوا في كل مكان

يبشرون بالانجيل، وناموا في ملابسهم، واستخدموا فرشاً قاسية، ووضعوا حجارة تحت رؤوسهم بدلاً من الوسائد.

التوبة الرائعة لهيوج أسقف شستر

ووقع في هذا العام هيوج دي نونات Nunant أسقف كوفنتري أو شستر، مريضاً جداً عندما كان على طريقه إلى روما، وعندما أقعد على الأرض بسبب مرضه، وعرف بأن موته قد اقترب، بعث خلف جميع رجال الدين في نورماندي كلها، ووراء رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وبقدرما استطاع من آخرين، وعلى مسمع منهم جميعاً، وببراءة وقلب نادم، اعترف وهو يبكي، بصوت مرتفع بجميع ذنوبه، وأخطائه، وجرائمه التي تمكن من تذكرها، وكانت توبته عظيمة جداً، وكذلك ندامته، إلى حد أن جميع الذين وقفوا ونظروا إليه انفعلوا وأخذوا يبكون، وقام أخيراً وهو يبكي وينتحب، وبيدين متشابكتين، فتوجه بالرجاء إلى جميع الكهنة، ورجاهم بفضل الرب، أن يفرضوا عليه توبة مناسبة وتكفيراً لائقاً، يكون بمثابة توبة من جرائمه الكبيرة، التي اقترفها، غير أن رجال الدين الذين وقفوا إلى جانب فراشه يسمعون عن الحياة الشريرة للأسقف، ويرون بالوقت نفسه الندامة القصوى لقلبه، نظر أحدهم نحو الآخر، وكانوا جميعاً صامتين، غير عارفين النصيحة التي عليهم تقديمها بشكل مفاجيء، ولدى رؤية الأسقف لذلك قال لهم:« إنني أعرف، وإنني أعرف، أنكم سمعتم عن هذه الآثام العظيمة، إنكم تشكون وسط أنفسكم، حول ماذا عليكم أن توقعوه بي عن طريق التكفير، لكنني أرجوكم باسم مولانا يسوع المسيح، أن تحكموا علي بوساطة طريق التوبة، من أجل إزالة ذنوبي، ولكي أبقى— وفقاً لمشيئة الرب— في عذاب المطهرة حتى يوم الحساب، أي برحمة مخلصنا، الذي قامت رحمته على قضائه، يمكن أن أنجو»، وقد أرضاهم هذا الرأي جميعاً، وذلك باستثناء الرحمة اللاهوتية التي ترغب دوما بانقاذ الجميع

ونجاتهم، وأن لايضيع أحـد، ثم قال الأسقف على مسمـع منهم جميعاً، واعترف وهو حـزين جـداً، بأنه طـرد الرهبـان من كـوفنتري، ولكي يضيف إلى أخطائـه أحل محلهم كهنة من رجال الدين، ولكي يكفـر عن ذنبه، لم يجد سوى طريقة واحـدة للتصحيح، هي أن يموت وهو مرتدياً لثوب من ثياب هؤلاء، الذين قام بمطاردتهم، وهو تحت تأثير الشيطان، وذلك طوال مـاكـان قادراً على ذلك، وأنزلهم إلى درجـة التسـول، ومن خـلال كراهيتـه وحقده آذاهـم بكل طريقة ممكنة، وبعـد هذا الاعتراف رجا أسقف بك Bec ، الذي كان واقفـاً إلى جانبـه بين الآخرين، أن يتصدق عليه، فيمنحه في سبيل عار الشيطان وخزيه، ثوب راهب، حتى يتمكن من اتخاذ وقـاة له في الحيـاة المقبلة الذين عـذبهم في هذه الحيـاة، وبعـدمـا جـرى منح ذلك له، أعطى كل مـاامتلكـه من ذهب وفضـة، وجواهر، وأواني ثمينة إلى البيوت الدينية وإلى الفقراء، وهكذا مات أكثر سعادة مما كان متوقعاً، وسط آمال ودموع الذين وقفوا من حوله.

حول استرداد كنيسة كوفنتري الديرية وطرد الكهنة

كـان في تلك الآونة يقيم في بلاط رومـا واحـداً من رهبـان الدير في كـوفنتري اسمه تومـاس، وكـان قد تعـرض للطرد مع رفـاقه كما تقـدم التبيـان أعلاه، مـن قبل الأسقف المتقدم الـذكر، وكـان يسعى بوسـاطة سلطات الحبر الأعظم أن يعيد الرهبان إلى سالف وضعهم، بعدما جرى تفـريقهم في جميع الجهـات، وكـان بعـض إخـوانه الرهبـان قـد مـات، وبعضهم قد ترك البلاط مرهقاً وفقيراً، وحافظ هو وحده وثابر مع هذه القضية، مع أنه بسبب فقـره، غالباً ماأرغم على التسـول في سبيل خبزه، وعندما سمع بالأخبار التي كان يتمناها، والتي تحدثت عن وفاة أسقف كوفنتري، ارتفعت آمـاله في قلبه بالرب، الذي أظهر جـوده نحو أولئك الذين وثقـوا به، وثابـروا على فعل الخير، وفي أحـد الأيام، عندمـا كـان البـابا الجديد أنوسنت جـالسـاً في مجلسـه مـع كـرادلتـه، اندفع الراهب

المذكور إلى وسطهم بشكل مفاجىء، وقدم إلى البابا شكوى طرح فيها قضيته، وبعدما قرأ البابا الشكوى، رد على الراهب المتعجل:« ألم يحدث أمام ناظري ومسمعي أن رفضت هذه الشكوى مراراً من قبل سلفينا: كليمنت وسيليستين، فهل تظن أنك ولم تستطع الوصول إليها، أن تفعل ذلك معي، وكأنني أحمق»؟ وأضاف وهو مغضب« غادر ياأخانا، غادر، لأن من المؤكد أنك تنتظر هنا من دون غاية»، ولدى سماع الراهب هذه الكلمات، ردّ وهو يبكي بحرقة قائلاً:« أيها الأب المقدس، ان شكواي عادلة، وهي كلها صادقة، ولهذا لم أنتظر عبثاً، ذلك أنني سوف أنتظر موتك، مثلما فعلت بالنسبة لمتقدميك، لأن الذي سوف يخلفك سوف يستمع إلى شكواي بشكل فعال»، ولدى سماع البابا لهذه الكلمات كان مندهشاً بشكل مؤثر، والتفت إلى كرادلته الذي جلسوا بجواره وقال:« هل سمعتم الذي قاله هذا الشيطان، فلقد قال بأنني سوف أنتظر موتك كما انتظرت موت سلفيك، ثم إنه التفت إلى الراهب وقال: ياأخانا، بحق القديس بطرس، لن تنتظر موتي هنا، لأنه جرت الموافقة على شكواك»، وقام على الفور، وقبل أن يتناول أي طعام، فأرسل أوامره إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، أنه فور تسلمه لرسائله، عليه الذهاب شخصياً إلى كنيسة كوفنتري فيطرد الكهنة، ويعيد اسكان الرهبان، وقام رئيس الأساقفة المذكور، وهو مؤيد بسلطات الحبر الأعظم، فنقل الكهنة المتقدم ذكرهم، وفي الثامن عشر من كانون الثاني أعاد الرهبان وأقرهم في موضعهم، وبما أن رئيس رهبان ذلك المكان كان قد مات عندما جرى طرد الرهبان إلى المنفى، عين رئيساً عليهم نورماندیا اسمه جويبيرت Joibert، الذي تولى الحكم على ثلاث رئاسات رهبان هي ديفنتري Davertry، ووينلوك Wenloc;، وكوفنتري، وكان ذلك بسبب براعته العالية في إدارة الأعمال المدنية، وقد قام على الفور، بناء على نصيحة الرهبان، فأقام انتخاباً لأسقف، وبموافقة من الجميع وقع الاختيار على غيوفري

موسكهامب Muschamp ، وكان رئيس رهبان بيرموندي Bermondsy يحتضر آنذاك، في تلك الآونة أيضاً، ولكي يرضى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري جشع جويبيرت المتقدم ذكره، أضاف إليه رئاسة الرهبان الرابعة هذه، وذلك مع الثلاثة المتقدمات.

حول سيامة أسقفين

وفي الأحد الرابع بعد الصوم الكبير، جرت سيامة يوستاس عميد سالسبري أسقفاً لإيلاي، من قبل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر، وبعد هذا جرت سيامة غيوفري الأسقف المنتخب لكوفنتري، من قبل رئيس الأساقفة نفسه في كانتربري، وكان ذلك في الحادي والعشرين من حزيران، وتساقطت في هذا العام نفسه زخات من الدم على الذين كانوا يبنون القلعة في آندلي في نورماندي، وربما كان ذلك انذاراً بموت الملك رتشارد الذي وقع بعد ذلك بوقت قصير، وعمل في هذه الآونة أيضاً، غيوفري رئيس أساقفة يورك سلاماً مع الملك وأخيه في نورماندي، لأن الملك كان منزعجاً منه لعزله مستشاره عندما كان سجيناً للامبراطور.

عزل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري من وظيفة رئاسة العدالة

ونشبت في هذه الآونة خلافات بين رئيس أساقفة كانتربري وبين رهبان الثالوث المقدس في ذلك المكان حول الكنيسة الجديدة التي بناها رئيس الأساقفة في لامبث، لأن الرهبان كانوا خائفين، من أن ينقل الكرسي الكاتدرائي إلى هذا المكان الأخير، وبناء عليه أرسلوا شكوى إلى روما، إلى البابا انوسنت، بأن رئيس الأساقفة، كان على الرغم من مكانته وسمو مركزه، يعمل رئيساً للعدالة في انكلترا، وقاضياً حول مسائل تتعلق بالحياة والموت، وأنه يهتم بالشؤون المدنية، أكثر من اهتمامه بشؤون اختصاصه، ويهمل شؤون الكنيسة، واتهموه بحقيقة، أنه بأمر

منه جرى تدنيس كنيسة القديسة مريم في آرشي Arches في لندن وخرق حرمتها، وذلك عندما جرى سحب وليم ذي اللحية منها، وربط إلى ذيول خيول، وجرّ خلال شوارع المدينة، وأخيرا جرى تعليقه على المشنقة، وبهذه الطريقة أنفق الرهبان كمية كبيرة من المال حولها، وأساءوا كثيراً إلى سمعة رئيس الأساقفة، ولدى سماع البابا بهذه الأشياء أمر ملك انكلترا، القيام على الفور ـ لدى تسلمه لرسائله، وتحت التهديد بعقوبة الحرمان من شركة المؤمنين ـ بعزل رئيس الأسافقة من وظيفة رئاسة العدالة، لأنه كان محرماً بشكل خاص على الأساقفة التورط في القضايا المدنية، وعزل الملك رتشارد رئيس الأساقفة، وعين غيوفري فتز— بيتر في موضعه.

معركة بين الانكليز والويلزيين سقط فيها كثيرون

وفي هذا العام نفسه، عندما كان الملك رتشارد، مقيماً فيها وراء البحر، حشد غيوفري فتز— بيتر رئيس العدالة في انكلترا، جيشاً كبيراً، وزحف إلى ويلز، ليساعد وليم دي بروز Brause وأتباعه الذين كانوا محاصرين في قلعة ماتيلدا من قبل وينيونون Wenunwen، ملك الويلزيين، ولدى وصوله إلى هناك نشبت معركة، لم يكن الويلزيون فيها قادرين على مقاومة الانكليز، ولذلك أرغموا على الفرار، وألقوا أسلحتهم في سبيل الفرار بشكل أحسن، مما شجع الانكليز، وقد قيل بأن أكثر من ثلاثة آلاف وسبعمائة منهم قد قتلوا، أي من جنودهم، وذلك إلى جانب الذين وقعوا بالأسر، والذين أصيبوا بجراحات قاتلة، وقتل من الانكليز رجل واحد فقط، وقد أصيب بسهم غرب رماه به من دون انتباه واحداً من جنود جيشه.

كيف أسر الملك رتشارد في معركة مع الملك الفرنسي عشرين فارساً

في هذه الآونة نفسها التقى فيليب ملك فرنسا مع الملك الانكليزي رتشارد في معركة بين جوميجي Jumieges وفيرنون Vernon، وأرغم الملك الفرنسي وأتباعه في هذه المعركة على الفرار، وانسحبوا إلى فيرنون من أجل السلامة، لكن قبل أن يتمكنوا من الدخول إلى القلعة، تمكن الملك رتشارد الذي كان يطاردهم بحد السيف، من أسر عشرين فارساً، وأكثر من ستين جنديا، وفي العاشر من ايلول من هذا العام دفع رتشارد أسقف لندن دين الطبيعة وسدده.

حول النصر الرائع الذي ناله الملك رتشارد

وحشد في هذه الآونة الملك رتشارد جميع قواته، وبتأييد من شجاعة عساكره الانكليز استولى بالقوة على ثلاث قلاع من قلاع الملك الفرنسي هي: سيرفونتان Sirefontan، وبور Burs وحصن كورسيل Curcel، وقدم الملك الفرنسي الذي لم يعتقد بأن قلعة كورسيل قد تم الاستيلاء عليها بعد، من نانتي Nantes لتقديم المساعدة إلى ذلك المكان، مع أربعمائة من الفرسان وعدد من المرافقين مع جميع جنوده، وعلم الملك رتشارد بهذا بوساطة كشافته، فقدم من الاتجاه المعاكس للتصدي له، واشتبك بمعركة إلتحامية مع الفرنسيين بين كورسيل وغيسور، ولم يستطع الملك الفرنسي الصمود أمام صدمة حملات القتال، فهرب مع مرافقته إلى قلعة غيسور، وعندما كان الهاربون منسحبين فوق جسر تلك البلدة، انهار بسبب الحشود التي اندفعت من دون صبر للعبور عليه، وسقط الملك نفسه مع فرسه ودروعه وسلاحه في نهر إيثي Ethe ، مع عدد لايحصى من الفرنسيين الآخرين، وعندما كان مرميا هناك، زحف وسط الوحل، وبصعوبة أنقذ من الموت، وفي الوقت نفسه قامت نخبة من العساكر الفرنسيين، بالتصدي للملك رتشارد، وقاموا بهجوم حاد عليه، وفعلوا ذلك من أجل مساعدة مليكهم، ولإنقاذه من السقوط بين يدي الملك الذي كان يطارده، وبذلك عرضوا أنفسهم

للموت في سبيل الحفاظ على ملكهم، ثم استعر القتال من على الطرفين، وقرعت السيوف على رؤوس الخوذ، وأصدرت شرراً بسبب الضربات المتوالية، ورمت الرماح القاسية بالأعداء في جميع الاتجاهات، هذا وليس لدي وقت للتفاصيل، المهم هو أن حدة القتال لم تتوقف حتى أسر الملك الانكليزي كل المجموعة المقاومة، وترجل الملك رتشارد في هذه المعركة، واتخذ أسرى لنفسه ثلاثة من نخبة الفرسان هم: متى دي مونتمورنسي Montmorenci، وألان دي روسكي Rusciوفولك دي جايلرنالي Gilernalles ، وجرى معهم أسر الرجال التالين من أصحاب المراتب في المملكة الفرنسية: غالي دي بورتا Galis de porta، وجيرارد دي كوري Chori، وفيليب دي نانتويل Nanteuil، وبيتر دي اسكان Eschans ، وروبرت دي سينت دني Denys ، وثيوبولد دي وولنغار Wallengard، وسيدونال دي تري Cedunal de trie، وروجر دي ميتلنت Meetlent، وإيم ترير Aim triers، ورينالد دي أسكي Asci، وبلدوين دي ليزني Leisniوتوماس دي أسغنت Asgent، وفيريوس دي باريس Ferrius de paris، وبيتر دي لاتوتنيا Latotnia، وغي دي نافار Nevers ، وفرومنتين أوف شامبين Frumentin of champagne، وثيودورك دي أنسي Anceis، وأنفريك دي بعليم AnFrie de Baalim، وايبورارد دي مونتني Eborard de montigny، وأودو دي مونتسيون Muntciun، وفونكارد دي روشي Funcard de Roche، وولتر روفوس Rufces، وأرنولف دي ليني De Arnulph leini، ووليم دي بانسيتو Banceto، وجوكن دي بري Joken de Bray، وبيتر دي بنسي Pinci وديتبرت دي أوجي Augi ، وبونكارد دو شاتيل Puncard du-chatel، ووليم دي ميرلون Merllon، وجون دي غرانجي Granges، وثيوبولد دي برون Breun، وروجر دي بومنت Beaumont، وغيلبرت دي بري Brayex، وبيتر دي ميدول Maidul ،

وجون دي سـيرني Cerni ، وألارددي لـوفـير -Alard de Lo viers، ورالف دي فـالنسيل Falencel، وفيري دي بروني Ferri de Brunaye، وتوماس دي كاستيل Castele ، ووليم دي روشمونت Rochemont، وثيـوبولد دي ميشي Misci وإلى جـانب هؤلاء الذين تقدم ذكـرهم، أسر الملك مائـة فارس، وغنم مـائتي فرس مغطاه بالدروع، وعدداً كبيراً جداً من الجنود الخيالة والرجالة ورماة الزنبورك، وبعث بعـد هذا رتشارد المنتصر رسـائل إلى جميع أصـدقائـه في انكلترا، مثل رؤسـاء الأسـاقفـة، والأسـاقفـة، ورعـاة الـديرة، والايرلات، والبارونات يرجوهم بإخلاص وحراره أن يشاركوه بتمجيد الرب، لأنه منحه مثل هذا النصر على أعدائه.

إبرام معاهدة بين ملكي فرنسا وانكلترا

وبناء عليه عندمـا رأى فيليب ملك فرنسـاأن قوة ملك انكلترا تزداد يوميـاً، في حين تزداد قـوته عجزاً، تراجـع أمـام الحاجـة، وأرسل بشكل سري رسله إلى الحبر الأعظم، عـارضـاً توسـلاتـه حتى يتفضل لعمل ترتيبات مع ملك انكلترا، أو أن يقيم هدنة يوقف خـلالها القتال لبعض الوقت، من أجل أنه بعد إقامة الهدنة وتثبيتها من قبل البابا نفسه، يمكن بالتعـاون معـه، لملكي المملكتين أن يكونـا قـادرين على الوفـاء بعهـدي حجهما، ومن تحرير أرض الميعاد من سلطان أعداء المسيح، ولكي يكون هذا مضموناً وموثوقاً، سأل الملك البـابا إرسال أحد الكرادلة مع سلطة ايقاع العقـوبة إلى البلدان الغربيـة، حيث يمكنه إذا دعته الضرورات أن يتفـوه بقـرار الحرمان مـن شركة المؤمنين، ضـد أي واحـد يجده معـاديا للسـلام والمصالحة، واقتنع البـابا انوسنت بهذا وبمطالب أخرى، ولأنه كـان راغبـاً بتقـدم القضيـة الصليبيـة، وتأثر أكثـر بالمال منه بالتـوسل، فـاستجاب فأرسل بطرس أوف كـابوا Capua، وكان واحـــداً من كـرادلتـه، لإقامـة سـلام بين الملكين، وبعـد وصـوله إلى ممتلكات الملك

الفرنسي، أخذ معه— بناء على نصيحة الملك الفرنسي— بعض الأساقفة من المملكتين، ولدى وصـــوله إلى عند ملـك انكلترا بيّن له المآسي التي كانت واقعة وسوف تستمر بالوقوع في مملكتي الملكين مالم يصنع سلام، على الفور، بينهما، وأجابه الملك الانكليزي مغضباً، قائلاً بأنه ليس ملزماً بالشريعة على فعل شيء بناء على أوامر البـابا، لاسيما وأنه سأله مـراراً، إرغام الملك الفرنسي بوساطة العقوبات الكنسية، لأن يعيد إليه الأراضي والقلاع، التـي استولى عليها الملك المذكـور بشكل ظالم، وبدون مـراعاة ليمينه، وذلك عندمــا كـان شخصياً في أرض الميعــاد، يعمل على طرد أعـداء الصليب، ويسعى إلى إعـادة الأرض المقـدسـة إلى وضع مـوائم، وبناء عليـه، لقد أرغـم، بسبب غلطة البابا نفســه، على انفـاق مبلغ كبير من المال في سبيل استعـــادة أراضيــه الموروثة، وبـذلك لم يقترف الملك الفـــرنسي إثم الحنث باليمين فقط، بل خـــرق أيضــاً عقـوبة الحرمـــان الكنسي، وعلاوة على هذا كلـه هو لم يعرف فيما إذا كان الملـك الفرنسي يوافق على الهدنة، وعند ذلك أخـذ الكاردينال الملك الانكليـزي جانبـاً، وأخبره— تحت التعهـد بـالسرية بأنه بمبـادرة مـن ذلك الملك ومطلب منه، قد جرى إرساله من قبل البابا لإقامة سلام بينهما، ونصح الملك أن يستجيب في هذه المرة إلى رغبـة البابا، وليكن واثقاً مطمئنـا إلى أن البابا سوف يصغي إليـه فيما يتعلق بملك فرنسا، وكـذلك فيما يتعلق بالمسائل الأخرى، وكـان الملك رتشارد راغباً إلى أبعد الحدود بمصـالح ابن أخته أوتو، الذي جرى تتـويجه مؤخراً ملكاً على ألمانيـا، وكان يريد أن يحصل له من البـــابا على وصـــول سهل إلى العـــرش الامبراطـوري، ولذلك استسلم إلى التـوسـلات التي صـدرت عن الجميع، ورضي بالترتيبـات، وبناء عليــه التقى الملكـان، وأقسما على الحفــاظ على الهدنة لمدة خمســة أعـوام، مع شرط السماح للرعـايـا والتجـار من الجانبين، أي العـائـدين للملكين، بالذهاب والإياب حسب رغباتهم، بغرض البيع أو والشراء، في جميع مناطق وأسـواق كـل من المملكتين، وبعـد عمل هذا وانجـازه،

أرسل ملك انكلترا راعي دير كيرتسي Chertsey وريموند الراهب العائد لدير القديس ألبان، الذي كان قد بُعث إلى نورماندي للقاء الملك من أجل قضايا الكنيسة، أرسلها إلى روما، لحمل المعاهدة المتقدمة الذكر ووضعها موضع التنفيذ، وفي سبيل تنفيذ هذا كله، فرض الملك ضريبة خمسة شلنات على كل هايد(فدان) من الأرض مفلوح في جميع أرجاء انكلترا، وذلك من أجل مساعدته.

كيف دمر هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري كنيسة لامبث

عام ١١٩٩م، فيه قام هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري بتدمير كنيسة لامبث، على نفقته، وفي جلب العار لنفسه ولآخرين كثر، وذلك بناء على طلب رهبان كانتربري، وأوامر الحبر الأعظم، وكانت هذه الكنيسة قد أسست من قبل سلفه بلدوين، وأنهاها هو نفسه.

وفاة الملك رتشارد

في العام نفسه، بعد إعداد الهدنة بين فيليب ورتشارد، ملكي فرنسا وانكلترا، حول الملك الأخير سلاحه ضد بعض البارونات المتمردين في بواتو، ونقل النار والسيف إلى مدنهم وبلداتهم، وقطع كرومهم وبساتينهم، وقتل بعضاً من أعدائه من دون رحمة، ووصل أخيراً إلى دوقية أكوتين، وألقى الحصار على قلعة كالوس Chalus في ليموزين Limosin، وهناك في السادس والعشرين من آذار جرح— كما قيل— بسلاح مسموم من قبل بيتر بازيلي Basilii، لكنه لم يعبأ بهذه الجراحة، وتمكن خلال الاثني عشر يوما التي عاشها من مهاجمة القلعة بشدة، والاستيلاء عليها عنوة، وقد ألقى بالفرسان وبأتباعهم في سجن ضيق، ووضع أتباعه في القلعة، وقوى في الوقت نفسه التحصينات، غير أن الجرح الذي أصيب به في هذا المكان، والذي لم يتلق العناية طوال ذلك الوقت، أخذ بالتورم، وأخذ نوع من السواد ينتشر حول مكان الجرح،

وقـد امتزج بالـورم، وسبب له ألماً لايحتمل، وأخيراً عندمـا أدرك بأن الخطر كـان عظيماً، استعـد الملك لنهـايتـه بـالتـوبة في القلب، وباعتراف طاهر نقي، وبقربان جسـد ودم ربنا، وقد غفـر للذي سبب موته، الذي اسمه بيتر، وهو الذي أصـابه بالجراحه وأمر بفك أغـلاله ومغادرته، ثم أمر بدفـن جسده في فونت— ايفـرولت Font- Evrault، عند قدمي والده، الذي اعترف بأن مـدمـره، كـان هو شخصيـا، ومنح قلبـه الذي لايقهر إلى كنيسـة روان، وأمر بـدفن أحشائـه في كنيسة القلعـة المذكورة أعلاه، وبذلك قـدمها هدية إلى سكان بواتو، وقد أباح لبعض أصدقـائه المقـربين— تحت وعـد السرية— أسبـاب قيامـه بتـوزيع جسـده هكذا، فللسبب المتقـدم ذكره أعطى جسده إلى أبيـه، وقد أرسل قلبـه هدية إلى سكان روان، نظراً لإخـلاصهم الذي لانظير لـه، الذي تمتع به دومـا، لكن بالنسبـة لسكان بواتو، ترك لهم أحشـاءه، نظراً لمعـرفته بخيـانتهم، عاداً إياهم غير جديرين بأي جزء آخر من جسده، وبعدما فرغ من قوله هذا، وصل التـورم فجأة إلى المناطق التي حـول قلبه، وفي السـادس من نيسـان، أسلم هذا الرجل المحارب روحـه، في القلعـة المذكورة أعـلاه، وذلك بعدما حكم تسعة أعوام ونصف العام، وقد دفن حسبما أمر وهو حيّ، في فـونت— ايفـرولـت، ودفن معـه— كما رأى كثيرون— أيضـاً فخار وشرف الفروسية في الغرب، وعن موته ودفنه نشر أحدهم النقش التالي:

أحشـاؤه أعطيـت إلى بواتو— وهي راقـدة مـدفـونة قـرب حصن كالوس؛

جسده راقد مدفون تحت— ألواح رخامية في فونت— ايفرولت؛

ونوستريا حصلت على شطرك— الذي هو قلب البطل الذي لايقهر.

وهكذا توزعت هناك في مدن ثلاث— بقايا ذلك الميت الجبار

وهذه الجنازة لايمكن أن تكون— لملك واحد بل لملوك ثلاثة

هنا البدايات حول الملك جون وأشياء أخرى وقعت في ذلك الحين

بعد انتقال الملك رتشارد المنتصر، الذي تقدم ذكره، من الجسد، احتفظ أخوه جون بتكريم بجميع الذين خدموا أخاه، وكذلك بالفرسان المرتزقة، واعداً إياهم بهدايا كبيرة، وأرسل مباشرة هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، ووليم مارشال إلى انكلترا، لإقامة السلام هناك وليتوليا المسؤولية عن المملكة، وذلك مع غيوفري فتز— بيتر، الذي كان آنذاك المسؤول عن العدالة مع غير هؤلاء مع نبلاء المملكة، ولدى وصولهما إلى هناك جعلا الناس يقسمون يمين الولاء إلى الايرل جون، واجتمعا مع غيوفري فتز— بيتر، ودعوا مع بعضهم جميع النبلاء الذين كانوا يشكون بهم كثيراً، وقد وعدوهم بأن الايرل جون سوف يعيد إليهم حقوقهم جميعاً، وعلى أساس هذا الشرط، أقسم وقتها الايرلات والبارونات يمين الولاء إلى الايرل المذكور، وذلك على الرغم من الآخرين، هذا وبعثوا رسالة إلى وليم ملك الاسكوتلنديين مع يوستاس دي فسكي Vesci ، بأن الايرل جون سوف— لدى عودته إلى انكلترا— يرضيه بالنسبة لجميع حقوقه في انكلترا، إذا ماحافظ— في الوقت نفسه— على الاخلاص والسلام مع الايرل، وهكذا جرى إخماد جميع النزاعات والخلافات في انكلترا وتسويتها.

كيف ربط بعض النبلاء أنفسهم بالايرل جون وآخرون بآرثر

وفي أثناء وقوع هذه الأحداث في انكلترا، ذهب الايرل جون إلى شينون Chinon حيث كانت أموال الملك المتوفى، مودعة، وقد سلمه إياها جون دي تورنهام Turnham الذي كان مسؤولاً عنها، وأعطاه معها قلعتي سومور Saumur وشينون وحصوناً أخرى،

كان معهوداً إليه العناية بها، لكن توماس دي فيرني Furnes ، حفيد روبرت المذكور، قد سلم مدينة أنجو وقلعتها إلى آرثر كونت بريتاني، والتحق بآرثر المذكور، والتحق أيضاً مقدمو أنجو، ومين، وتور بحزب آرثر لأنه كان مولاهم الاقطاعي، قائلين بأن هذه كانت عادة هذه المناطق وكان هذا موقفها، بأن آرثر هو ابن الأخ الأكبر، يتوجب أن يخلف عمه في الأسرة وفي الميراث، وهذا ماكان غيوفري والد آرثر هذا نفسه سيفعله لو أنه عاش بعد الملك رتشارد، علاوة على ذلك ذهبت كونستانسي، أم آرثر إلى تور، إلى الملك الفرنسي وسلمت آرثر المذكور إليه، وقام ذلك الملك على الفور بإرساله إلى باريس تحت حراسة حرس، وتسلم جميع القلاع والمدن العائدة إلى آرثر، ووضعها تحت رعايته، لكن الايرل جون والملكة اليانور، وصلا مع جيش كبير إلى مين Maine، واستوليا على المدينة والقلعة، وهدما البيت الحجري فيها، واتخذا السكان أسرى، وسجناهم.

كيف تسلم الايرل جون دوقية نورماندي

بعد هذه الأحداث أمضى الايرل جون يوم الفصح في بامفورت Bamfort في أنجو، وأرسل في اليوم التالي الملكة اليانور مع ميركادوس إلى مدينة أنجو، التي هاجماها، ودمراها، واتخذا سكانها أسرى، ووصل الايرل جون في الوقت نفسه إلى روان، وفي ثمانية يوم الفصح[٢٥— نيسان] تقلد سيف دوقية نورماندي في الكنيسة الأم، من قبل وولتر رئيس أساقفة روان، ووضع رئيس الأساقفة نفسه، وهو أمام المذبح الكبير، على رأسه، الإطار الذهبي مع الوردة الذهبية، المصنعة بشكل فني على شكل دائرة، فوق رأس الاطار، ثم إن الدوق جون أقسم بحضور رجال الدين والشعب، على آثار القديسين، وعلى الانجيل المقدس بأنه سوف يدافع باخلاص، ومن دون ممارسات شريرة عن الكنيسة المقدسة، وعن مكانتها، وعن شرف الكهنة المرسومين فيها،

وعلاوة على ذلك أقسم على إزالة القوانين السيئة، إذا ماوجد أي منها، وأن يجعل الآخرين بدلاً عنهم، وفي الثالث والعشرين من أيار من العام نفسه، جرت سيامة وليم الذي كان من أصل نورماندي وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، أسقفاً للندن، في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر وكان الذي تولى تكريسه هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري.

تتويج الملك جون

وقدم في هذه الآونة جون دوق نورماندي إلى انكلترا، ونزل في شورهام Shoreham في الخامس والعشرين من أيار، وفي اليوم التالي، الذي كان عشية صعود ربنا، ذهب إلى لندن، ليجري تتويجه هناك، ولدى وصوله إلى هناك، اجتمع رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والايرلات، والبارونات، مع جميع الآخرين الذين كان من واجبهم الحضور أثناء التتويج، اجتمعوا مع بعضهم في كنيسة رئيس الرسل في وستمنستر، وكان ذلك في السابع والعشرين من أيار، وهناك وضع هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري التاج على رأسه، ومسحه ملكاً، وقدم فيليب أسقف درم التماساً بمنع هذا التتويج أثناء غياب غيوفري رئيس أساقفة يورك، لكنه لم يحصل على رغبته، وربط الملك جون نفسه أثناء هذا التتويج بيمين مثلث، تضمن: محبة الكنيسة المقدسة، وكهنتها المرسومين، وحفظها سليمة من الأذى والعدوان والنوايا الشريرة، وأن يزيل القوانين السيئة، وأن يحل محلها قوانين جيدة، من أجل أن يرى العدل يطبق بشكل صحيح في جميع أرجاء انكلترا، ثم جرت بعد ذلك مناشدته من قبل رئيس الأساقفة نفسه، باسم الرب، ومنعه بكل دقة من الاقدام على تقبل هذه المرتبة العالية، مالم يكن قد نوى في عقله الوفاء، بما أقسم عليه، وفي جواب على هذا، وعد الملك أنه بعون الرب، سوف يحافظ باخلاص على اليمين الذي وعد به، وذهب في اليوم التالي، بعدما

تلقى الولاء والتابعية من رعاياه، إلى القديس ألبان، الشهيد الرائد لانكلترا، وذلك بهدف الصلاة، وبذلك عمل إقامة قصيرة في انكلترا، وقام وقتها بناء على نصيحة النبلاء بتسوية كل القضايا التي استرعت انتباهه.

كيف عبر الملك جون إلى نورماندي وصالح كثيراً من النبلاء مع نفسه

في يوم ميلاد القديس يوحنا المعمدان، عبر الملك البحر إلى نورماندي، ولدى وصوله إلى روان تدفقت عليه أعداد كبيرة مع بعضها من خيالة ورجالة، وبسرور احتفظ بهؤلاء في خدمته، واجتمع بعد ذلك مع ملك النمسا، ووقتها جرى الاتفاق على هدنة، حتى اليوم التالي ليوم صعود مريم المباركة، من أجل أن يتمكنوا في تلك الأثناء من إعداد شروط للسلام، وفي الوقت نفسه وصل إلى عند الملك جون وهو في روان كونت فلاندرز، وعدد كبير آخر من نبلاء المملكة الفرنسية، وأبرموا معاهدة تحالف معه، كما كانوا قد أبرموا من قبل مع الملك رتشارد، ضد ملك فرنسا، وبعد تبادل الضمانات عاد كل واحد إلى بلاده.

كيف التقى الملكان في مؤتمر لكن افترقا مختلفين أحدهما مع الآخر

وفي هذا العام نفسه، وفي اليوم التالي لعيد صعود العذراء، اجتمع الملك الفرنسي بمؤتمر مع الفرسان ذوي الأحزمة حول آرثر كونت بريتاني، وقام آرثر المذكور على الفور بتقديم الولاء إلى الملك الفرنسي عن: أنجو، وبواتو، وتور، ومين، وبريتاني، ونورماندي، ووعد الملك آرثر بتقديم العون له من قبله من أجل الحصول على هذه الأماكن، وبعد مضي يومين، اجتمع الملكان وعقدا مؤتمراً فيما بين قلعتي بوتافانت

Butavant، وغيلون Gaillon ، فيه تحادثا منفردين، بعيداً عن نبلاء المملكتين، وجهاً لوجه لمدة ساعة، ولم يكن معهما أحد أثناء المحادثات، وطلب الملك الفرنسي في ذلك الاجتماع لاستخدامه الشخصي جميع فكسين، أي المنطقة الواقعة فيما بين غابة ليون والسين من الجانب الأول، ونهري أندلي وإيثي Ethe من الجانب الآخر، وقال بأن غيوفري بلانتغنت كونت أوف أنجو، الذي هو جد الملك جون، قد أعطاها إلى لويس لى غروس Gros ، من أجل مساعدة قدمها له ذلك الملك، في سبيل الحصول على نورماندي، في مواجهة للملك ستيفن، وعلاوة على ذلك طالب لصالح آرثر بمناطق: أنجو، وبواتو، ومين، وتور، ونورماندي، وأشياء أخرى كثيرة، لم يرغب الملك جون بمنحها، وتوجب عليه عدم منحها، وهكذا ارفض الاجتماع، وافترقا على خلاف متبادل، وسأل النبلاء الفرنسيون الملك الفرنسي عن سبب موقفه العدائي الكبير من الملك جون، الذي لم يؤذه قط، فأجاب بأن هذا الملك استولى على نورماندي، والمناطق الأخرى المذكوره أعلاه من دون إذنه، حيث كان عليه، إثر وفاة الملك رتشارد، القدوم في المقام الأول إليه وتقديم الولاء إليه من أجل حقوقه، وبناء عليه غادر الملك الفرنسي، وقام وليم دي روبيبس Rupibus وكان نبيلاً بارعاً، فأخذ آرثر وأبعده عن وصاية الملك الفرنسي، وعمل مصالحة بينه وبين ملك انكلترا، وقد تنازل في الوقت نفسه إلى الملك الانكليزي عن مدينة مان، التي كان الملك الفرنسي قد وضعها مع آرثر تحت عهدة وليم المتقدم ذكره، لكن في اليوم نفسه جرى إخبار آرثر، بأن الملك الانكليزي سوف يعتقله، ويضعه في سجن أبدي، وبناء على ذلك نجا بشكل سري، وعاد ثانية إلى الملك الفرنسي.

كيف ذهب الملك أوتو إلى روما وحصل على لقب امبراطور هناك

وجرى في تلك الآونة إلغاء انتخاب فيليب دوق سوابيا وعدد كبير آخر، وتمّ انتخاب أوتو ملك ألمانيا، وقبل امبراطوراً في روما من قبل البابا انوسنت، ومن قبل جميع الشعب الروماني، وبعد تأكيد هذا الانتخاب من قبل البابا، جرى تهديد فيليب دوق سوابيا مع مؤيديه جميعاً بالحرمان الكنسي، مالم يتمنعوا عن تعذيبهم لأوتو، وارتفعت الأصوات في العاصمة روما عاليا تنادي« الحياة والصحة للامبراطور أوتو»، وبذلك تأكد اللقب من قبل الجميع، ووقتها تذكر أنه بوسائل الملك رتشارد، تقدم إلى هذا المقام العالي، وبناء عليه أرسل رسالة إلى الملك جون أن يوقف محاولات اتفاقات الصداقة مع الملك الفرنسي، لأنه، وهو الامبراطور، على استعداد لتزويده في وقت قصير بالمساعدة التي تسمح المكانة الامبراطورية بتقديمها.

وضع المملكة الفرنسية تحت الحرمان

وفي هذه الآونة، وضع بطرس الذي كان كاردينالاً، ونائباً للكرسي الرسولي، المملكة الفرنسية تحت الحرمان من شركة المؤمنين، بسبب سجن أخيه بيتر دي دوي Douay، الذي كان أسقفاً منتخباً لكامبري Cambray ، وقام الملك الفرنسي باطلاق سراح الأسقف المنتخب المذكور قبل سحب القرار، وفي العام نفسه وصل النائب البابوي نفسه إلى ملك الانكليز، وطلب— تحت التهديد بفرض عقوبة الحرمان من شركة المؤمنين— اطلاق سراح أسقف بوفياس الذي كان قد مضى على احتجازه بوحشية كبرى، في السجن عامين، والحصول على اذن الملك بالسماح إلى ذلك الأسقف بحرية المغادرة، ولكن بما أن ذلك الأسقف قد حمل السلاح مثل جندي أو قاطع طريق، دون أن يقيم تقديراً لمكانته الدينية، لم يسمح له بالمغادرة قبل أن يشبع نهم الملك، بدفع ستة آلاف مارك فضي بالعيار الاسترليني إلى خزينته، وأقسم بعد هذا، الأسقف المذكور على عدم حمل السلاح مرة ثانية ضد المسيحيين.

قرار حول الخلاف القديم بين كنيستي تور ودول

اتخذ في هذا العام قرار في روما حول الخلاف القديم بين كنيستي تور ودول Dol ، وجاء القرار بناء على تحكيم قطعي من قبل البابا انوسنت، فقد طالب رئيس أساقفة تور بخضوع أسقف دول له، وعارض أسقف دول ذلك، وكانت كنيسة دول هي الرئيسية في بيرتاني الصغرى، وكان الكهنة الأعلون لتلك الكنيسة ، وكذلك جميع الأساقفة الآخرين في بريتاني الصغرى، في أيام القديس مارتن، وقبل ذلك بوقت طويل، أساقفة مساعدين لكنيسة تور، غير أنهم ثاروا فيما بعد وتمنعوا عن التابعية لتلك الكنيسة، وكان السبب لذلك هو: عندما قدم الانكليز إلى بريطانيا الكبرى، وأخضعوها، مرض يوتربندراغون Uterpendragon ، ملك البريطانيين، مرضاً شديداً، واضطر إلى ملازمة فراشه في فيريولاميموم Verulamium، ولم يعد قادراً على عون نفسه، أو الدفاع عن مملكته ضد غارات برابرة المنطقة، ويقال بأن أعمال التدمير التي قام بها الانكليز(السكسون) قد امتدت إلى مسافات شاسعة، حتى أن المنطقة كلها لحقها التشعيث وغطى ذلك الجزيرة كلها من البحر إلى البحر، وسويت الكنائس المقدسة بالأرض، وأمام هذا تراجع رؤساء الأساقفة والأساقفة، وقد وجدوا أنفسهم معزولين والكنيسة المقدسة مشعثة، تراجعوا إلى أماكن أكثر أمانا، واتفقوا بالاجماع أنه من الأفضل تجنب غضب البرابرة لبعض الوقت، وعدم السكنى من دون ثمار بين أولئك المتمردين ضد الإيمان المسيحي، وكان بين هؤلاء القديس سامبسون، رئيس أساقفة يورك، وكان رجلاً لانظير له بالقداسة، وقد هرب، إلى أهل منطقته في بريتاني الصغرى(لأنهم كانوا من الأصل نفسه والمنطقة) وحمل معه الطيلسان الذي تسلمه من الحبر الأعظم الروماني، ولدى وصوله إلى تلك المنطقة استقبل بالترحاب من قبل بني قومه، وباجماع منهم كلهم انتخبوه إلى أسقفية

كنيسة دول، التي كانت قد حرمت مؤخراً من أسقفيتها، وتم الحصول على إذن الملك، فأجلس في تلك المرتبة، على الرغم من إرادته، وبقي في تلك الكنيسة بقدر ما عاش، وارتدى من بعد كثيراً من خلفائه دوماً ذلك الطيلسان الذي جلبه من الدبر في يورك، لكن فيما بعد لم يعد ملوك تلك المنطقة يسمحون لأولئك الأساقفة، لأنهم امتلكوا لممالكهم رئاسة أساقفة، وصار هؤلاء دوما أساقفة مساعدين بشكل رسمي لكنيسة تور، ويقدمون الطاعة المتوجبة لرئيس أساقفة تور المتقدم ذكره، وبعدها قرر رؤساء الأساقفة، أنه لايجوز ثانية لأساقفة بريتاني الصغرى أن تكون لديهم رئاسة أساقفة سوى رئاسة أساقفة دول، وبعد مضي حقبة مقدارها ثلاثمائة سنة أو أكثر منذ ذلك التاريخ، حاول البابا نيقولا بناء على تحريض من رئيس أساقفة تور إزالة هذه الغلطة، فكتب رسالة إلى سليمان ملك البريطانيين، موجودة في مراسيم غراشيان Gratian: المجموع الثالث— القضية السادسة، وكان نص الرسالة كمايلي:

رسالة البابا نيقولا حول القضية نفسها

« هذا هو مرسوم أباك المذكور، وهذه هي شريعة الكنيسة أمك، والمسألة هي أنك بعثت جميع أساقفة مملكتك إلى رئيس أساقفة تور، وطلبت حكمه، لأنه هو رئيس الأساقفة، وجميع أساقفة مملكتك هم أساقفة مساعدين، وحسبما تظهر كتابات أسلافي بوضوح، فهم انتقدوا بشدة، أسلافك لأنهم سحبوا أنفسهم من الخضوع لرئيس الأساقفة ذاك، وكأن رسائلنا أيضاً إليكم حول هذه القضية كانت كما يبدو غير كافية» وقال في جزء آخر:« وبما أنه هناك خلاف شديد بين البريطانيين حول لمن تعود الأسقفية، وأن مامن انسان يتذكر بأنكم امتلكتم رئاسة أساقفة قط في منطقتكم، وإذا كان يرضيكم، فيمكنكم بسهولة فهم مصداقية كلماتي، بما أن الرب القدير قد عمل، سلاماً بينكم وبين ولدنا المحبوب، الملك شارل المشهور، لكن إذا ما عزمتم على متابعة المرافعة

والمحاكمة، اسعوا لعرض القضية أمام كرسينا الرسولي، فبقرار حكمنا يمكن أن يكون أكثر وضوحاً معرفة من منكما كان قبل كنيسة رئاسة الأساقفة، وبذلك يتم نفي كل شك، وعلى أساقفتكم أن يعرفوا من دون تردد السبيل الذي عليهم اتباعه»، وعلى كل حال لم يقم الملك المذكور التقدير اللازم للتذكير المتقدم ذكره، بل إنه أصر وخلفائه على عدم الطاعة، وتابعوا الصراع، ووجد عدم الاتفاق بين أساقفة تور ودول واستمر حتى السنة الحالية، كما ذكرنا أعلاه، ووقتها تقرر بشكل حاسم من قبل البابا وجوب أن يكون أساقفة بريتاني كلهم، وليس فقط دول، خاضعين لرئيس أساقفة روان، وتحت إدارته القانونبة إلى الأبد، وتفوه البابا المذكور بقرار حكمه النهائي حول هذه القضية، وقد وقف بحكم كونه صاحب معرفة عالية، وجريئاً، وبارعاً— في الوقت نفسه— بالقانون، قائماً وتفوه كما يلي:« لتحزن دول، ولتفرح تور».

كيف أرسلت الملكة إليانور من أجل زواج السيدة بلانشي من لويس

عام ١٢٠٠م، فيه، عقد الملكان الفرنسي والانكليزي: فيليب وجون، مؤتمراً بعد عيد القديسة هيلاري في مكان بين قلعتي غيلون Gaillon وبوتافانت Butavant ، فيه جرى الاتفاق بين الملكين المذكورين، بناء على نصيحة كبار النبلاء في كل مملكة، بأن يقترن لويس ابن الملك الفرنسي ووريثه، بابنة ألفونسو ملك قشتالة، التي كانت أيضاً ابنة أخت الملك جون، وأنه ينبغي على الملك الانكليزي لدى عقد هذا الزواج أن يعطي إلى لويس، وذلك بمثابة حصة زواج، وإلى ابنة أخته بلانشي، مدينة ايفروكس Evreux مع جميع تلك الكونتية، وإلى جانب ذلك ثلاثين ألف مارك من الفضة، وعلاوة على ذلك طلب الملك الفرنسي من الملك الانكليزي أن يعطيه ضمانات بأنه لن يقدم مساعدة لابالجنود ولابالمال، إلى ابن أخته أوتو، في الحصول على الامبراطورية الرومانية،

لأنه قد قيل بأن فيليب دوق سوابيا كان بالتفاهم التآمري مع الملك الفرنسي، وبمساعدته، يقوم بتهديد أوتو وايذائه بشكل خطير، ذلك أنه في الحقيقة لم يتوقف على إلحاق الضرر به، دون أن يعبأ بقرار الحرمان الكنسي الذي ربطه به البابا، أما المعاهدة المذكورة أعلاه بين الملكين، فقد جرى أخيراً تأكيدها، وقد عينا العيد المقبل للقديس يوحنا المعمدان لوضعها موضع التنفيذ، وبعد ارفضاض المؤتمر، أمل الملك جون أنه بهذا الزواج سوف يتمتع بسلام أطول، ولذلك بعث أمه الملكة إليانور، لجلب السيدة بلانشي المذكورة، حتى تعود هذه السيدة معها بأمان في الوقت المتفق عليه، وأبحر الملك الانكليزي في الوقت نفسه إلى انكلترا، وفرض ضريبة ثلاثة شلنات على كل هايد[فدان] من الأرض في جميع أرجاء انكلترا، وبعدما أنهى بعض الأعمال، عبر البحر ثانية إلى نورماندي.

زواج لويس من ابنة ألفونسو ملك قشتالة

عادت بعد هذه الأحداث بوقت قصير، الملكة إليانور، مع السيدة المتقدم ذكرها لتتزوج من لويس، وقدمتها إلى ملك الانكليز، وبعد هذا عقد الملكان مؤتمراً في الحادي والعشرين من حزيران في مكان بين غولتون Guletune وبوتافانت، خلاله أعطى ملك فرنسا مدينة ايفروكس وتنازل عنها إلى الملك الانكليزي مع جميع المنطقة والأراضي في نورماندي، والمالك الأخرى العائدة إلى الملك الانكليزي التي استولى عليها وتملكها أثناء الحرب، وقدم الملك جون على الفور الولاء إلى الملك الانكليزي من أجل هذه المناطق ثم قدمهم جميعا وتنازل عنهم إلى لويس بمثابة حصة زواج وكذلك إلى ابنة أخته، وتلقى الولاء من لويس من أجلهم، وفي اليوم التالي تزوجت السيدة بلانشي من لويس في بورتمورت Portmort في نورماندي، بوساطة رئيس أساقفة بوردوكس Bourdeaux ، لأن مملكة فرنسا كانت آنذاك تحت عقوبة الحرمان

من شركـــة المؤمنين بسبب الملكة بـوتيلدا Botilda [أنغلبورغ ابنة ملك الدانمارك]، التي طلقها الملك الفـرنسي، وبعد الزواج مباشرة، حمل لويس زوجتـه إلى باريس، وسط السرور العــام والفـرح العظيم لدى رجال الدين والشعب في المملكتين.

كيف تزوج الملك جون من الملكة ايزابل

وحدث في العـام نفسه طلاق بين الملك الانكليزي وزوجتـه هاويسا Hawisa، ابنة ايرل غلوستر لأنهما كانا أقرباء في الدرجة الثالثة من قربة العصب، واقترن الملك المذكور، بناء على نصيحـة الملك الفرنسي بايزابل ابنة كونت أنغوليم Angouleme، وكانت من قبل زوجة هيوج، الذي لقبـه« لي برون» Le brun ، ايرل التخوم March، وكـان هذا الزواج مـؤذياً جـداً للملك الانكليزي، وكـذلك إلى مملكة انكلترا، وبعـد مضي وقت قصير من هذا عقـد الملكان مـؤتمراً في فيرنون، وهنـاك قـدم آرثر الولاء إلى ملك انكلترا من أجـل بريتـاني ومن أجل ممتلكاتـه الأخرى، ولأنه كـان مـايزال يخشى الخيـانـة من جـانب الملك جـون، مكث تحت رعاية الملك الفرنسي.

أمر من الرب وصل من السماء إلى القدس فيما يتعلق بمراعاة يوم السبت

ووصلت في هذه الآونة رسالة من السماء إلى القدس، وجرى تعليقها على مذبح القـديس سمعان في الجلجلة، حيث جـرى صلب المسيح من أجل خـلاص العالم، وجـرى تعليق هذه الرسـالة لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليـالي، والـذين رأوها انكبـــوا على الأرض يسألون الرحمة مـن الرب، ويتوسلون إليه ليريهم إرادته، وفي اليـوم الثالث، بعد الساعـة الثالثة من النهار، نهض البطريرك، ورئيس الأسـاقفة زكـريا من صلواتها، وفتحوا العصبة الموجـودة فوق المذبح العـالي، وأخذوا الرسـالة المقدسـة للرب،

وبعد تفحصهـا، وجدوا مكتـوب عليها:« أنا الرب، الذي أمـركم بالمحافظة على يوم السبت المقدس، الذي فيه استرحت من تعبي، وأن جميع الفانين عليهم الاستراحة دوماً في ذلك اليوم، لكنكم لم تحافظوا عليه، كما أنكم لم تتوبوا من ذنوبكم، وكما تكلمت في انجيلي: « السماء والأرض سوف تزولا، ولكن كلمتي لن تزول»، ولقد أمرت بالتبشير بالتوبة في الحياة إليكم، ولكنكم لم تؤمنوا، ولقد أرسلت ضدكم الكفار، والشعوب الذين سفكوا دماءكم على الأرض، ومع ذلك مازلتم لم تؤمنوا، ولأنكم لم تحافظوا على يوم الرب المقدس، فقد عانيتم لأيام من المجاعة، ومالبث الرب أن أعطاكم الوفرة، ففعلتم بعد ذلك الأسوأ، ولذلك إن ارادتي تقضي أنه من الساعة التاسعة في يوم السبت حتى شروق الشمس من يوم الاثنين، ينبغي أن لايعمل أحد شيئاً، إلاّ ماهو جيد، وكل من يفعل ذلك سوف يثاب على ذلك، وإذا لم تطيعوا أمري هذا، أقول مؤكداً لكم، وأقسم بكرسي وبعرشي، وبالكروبيين الذي يحرسون كرسي المقدس، بأنني سوف لن أرسل لكم أية أوامر برسالة أخرى، بل سأفتح السموات، وعوضاً عن المطر سوف أمطركم بالحجارة، والخشب والماء الساخن، وذلك في الليل، حتى لايستطيع انسان تجنب ذلك، لأنني سوف أدمر جميع مقترفي الشرور، وإنني أقول لكم، بأنكم سوف تموتون الموت، بسبب اليوم المقدس للرب والأعياد الأخرى لقديسيّ التي لم ترعوها، ولسوف أرسل عليكم وحوشاً لها رؤوس الأسود، وشعور النساء، وذيول الجمال، ولسوف يكونون جائعين كثيراً إلى حد أنهم سوف يلتهمون أجسادكم، ولسوف تتمنون الهرب إلى قبور الأموات لإخفاء أنفسكم، خوفاً من هذه الوحوش، ولسوف أخفي نور الشمس، وأرسل الظلام عليكم، حتى لاتعودوا قادرين على الرؤية، ولسوف يذبح أحدكم الآخر، وسوف أشيح بوجهي عنكم، ولن أريكم رحمة، لأنني سأحرق أجسادكم، وقلوب الذين لايحافظون على اليوم المقدس للرب، وعلى هذا اسمعوا صلواتي،

خشيـــة مـن أن أفنيكم من على الأرض بسبب اليـوم المقـــدس للرب وابتعـدوا عن الشرور، وتوبوا من ذنـوبكم، وإذا لم تفعلوا ذلك سـوف تهلكون هلاك سـدوم وعمـوره، واعلمـوا أنكـم الآن بأمـان بفضل صلوات مـريم الأم الأعظم قداسة، وبفضل ملائكتي المقـدسين الذين يصلون يوميـاً من أجلكم، ولقد أعطيتكـم القمح والخمرة بوفـرة، ومع ذلك إنكم لاتطيعوني، لأنكم يوميـا تجعلون الأرامل واليتامى يصرخون إليكم، ولاتظهـرون نحوهم أية رحمة، فلـدى الكفار مـرحمة وأنتم ليس لديكم، ولن أدع الأشجار التي تعطي الثمار تتجذر بسبب ذنوبكم، ولن تعطيكم الأنهار والينابيع المياه، فعلى جبل سيناء أعطيتكم شريعة، أنتم لم ترعـوها، أنتم رجال أشرار، لأنكـم لم تحافظوا على يوم الأحد المقـدس، الذي هو يوم قيـامتي، فلقـد استـوليتم على أملاك الآخـرين، وعـاملتم القضيـــة من دون اهتمام وتقـــدير، ولهذا أنا سأرسـل عليكم أســـوأ الوحـوش، الذين سوف يلتهمـون صدور النساء، ولسـوف ألعن الذي يتصرف بشكل غير عـادل نحـو إخـوانه، وسألعن الذين يحكمـون بشر الفقـراء واليتـامى، وأنتم الذين قـد هجـرتموني وتبعتم أمير هذه الحيـاة، استمعوا إلى صـوتي ولسوف تتلقـون الرحمة، لكن مادمتـم غير متوقفين عن اقتراف الشرور، وعن أعمال الشيطان، وبقدر ماتستمرون في اقتراف الحنث باليمين والزنا، فـإن الشعـوب سـوف تحيط بكم، وتلتهمكم مثل الحيوانات المتوحشة».

تبشير يوستاس راعي دير فلي حول الوصاية المذكورة

ولدى تمعن البطريرك ورجـال الدين في الأرض المقـدسة في فحـوى هذه الرسالة، ونظروا إلى الكلمات باعجاب ممزوج بالخوف، فتقرر برأي الجميع تحويـل الرســـالة من أجـل الفحص والتقـــدير مـن قبل الحبر الرومـاني، ذلك أنه يمكنه تقـرير مـاالذي ينبغي فعله، وجلبت الرسـالة ووضعت أخيراً تحت الفحص من قبل مولانا البابا، وإثر ذلك تولى على

الفور رسم أساقفة أرسلوا إلى كل جزء من أجزاء العالم، للتبشير بمحتوى الرسالة وهدفها، وتعاون الرب معهم، وأيد خطاهم بوساطة معجزات نتجت عن ذلك، وكان بين هؤلاء راعي دير فلي Flaye وكان اسمه يوستاس، وكان متديناً ورجلاً متعلماً، حيث انطلق إلى انكلترا، وأشع هناك بعمله عدداً كبيراً من المعجزات، فقد نزل قرب مدينة دوفر، وبدأ واجبه بالتبشير في مدينة اسمها واي Wiففي جوار ذلك المكان أضفى مباركته على أحد الينابيع، فبفضل الفضائل التي نالها بمباركة من الرب، صار الحال أنه بمجرد تذوق تلك المياه فقط، استرد الأعمى بصره، والأعرج قدرته على السير، والأخرس المقدرة على الكلام، والأطرش استطاعة السماع، وكل انسان مريض شرب من المياه وهو مؤمن، تمتع على الفور بعودة الصحة، فاحدى النساء قد هوجمت من قبل الشياطين، وتورمت وكأنها مصابة بالاستسقاء، فقدمت إليه هناك، تنشد العودة إلى الصحة بوساطته فقال لها: « اطمئني يابنتي، واذهبي إلى النبع في واي الذي باركه الرب، واشربي منه، وهناك سوف تستردين صحتك»، وغادرت المرأة، ووفقاً لنصيحة رجل الرب، شربت، وتحولت على الفور لأن تكون قادرة على الغثيان، وأمام جميع الناس الذين كانوا عند النبع لاسترداد صحتهم، خرج منها علجومان أسودان كبيران، وقد تحولا على الفور إلى كلبين كبيرين أسودين، من أجل اظهار أنهما كانا شيطانين، وأخذا بعد وقت قصير شكل حمارين، ووقفت المرأة وقد علتها الدهشة، لكن مالبثت بعد وقت قصير أن ركضت خلفهما وهي مغضبة، راغبة بإلقاء القبض عليهما، وقام الرجل المعين ليكون مسؤولاً عن النبع، برش بعض الماء بين المرأة والوحشين، وإثر ذلك طارا في الهواء واختفيا، مخلفين وراءهما بعض آثار قذارتهما.

كيف تسبب راعي الدير المتقدم ذكره بتفجر نبع ماء عذب

ووصل رجل الرب هذا إلى بلدة رومسنيل Rumesnel ، ليقوم بالتبشير، وكان هناك نقص بالمياه العذبة في ذلك المكان، وبناء على طلب شعب ذلك المكان، قام فضرب بعصاه صخرة في الكنيسة هناك حيث تدفق الماء منها بوفرة، وكثيرون ممن شربوا من المياه شفيوا من أمراض متنوعة، ثم إنه تنقل من مكان إلى مكان، ومن مقاطعة إلى مقاطعة، ومن مدينة إلى مدينة، وأقنع كثيرين بالتخلي عن عادات الربا، وأقنعهم بحمل صليب الرب، وانصراف قلوبهم نحو كثير من أعمال التقوى، كما أنه منع الأسواق والمواصلات في أيام الآحاد، وهكذا فإن جميع الأعمال التي كان من المعتاد القيام بها في أيام الأحد، في جميع أرجاء انكلترا، جرى اعدادها للتنفيذ في واحد من الأيام التالية، أثناء الاسبوع، وبذلك استخدم أهل الإيمان راحتهم في أيام الأحد، لتأدية واجباتهم نحو الرب، وتمنعوا كلياً عن التعب في ذلك اليوم، لكن مع مرور الأيام، عاد كثيرون إلى عاداتهم القديمة، مثل عودة الكلاب إلى قيئهم، ومنع القسس والكهنة في الكنائس، مع الأشخاص الخاضعين لهم، من ابقاء المصابيح مشتعلة بشكل دائم أمام القربان، من أجل أن يتمكن الذي يعطي الضوء إلى كل انسان يأتي إلى هذا العالم، من إعطاء الديمومة إلى الضوء الدنيوي، وأعطى وصية إلى جميع أصحاب المراتب العليا، خاصة من التجار والمواطنين، بأن يكون هناك دوماً على موائدهم صحن المسيح إلى الفقراء، فبأخذهم من وفرتهم المعتادة يمكنهم أن يرفعوا حاجات المحرومين ويزيلوها، كما أنه أمر عدّ يوم السبت من الساعة الثالثة مقدساً، ومنع جميع الأعمال فيه مثل يوم الأحد، وأيضاً جميع يوم الأحد والليلة التالية حيث يشكلان يوماً طبيعياً، وبهذا قدم رمزياً الرقود لراحتنا السرمدية.

معجزة مرعبة عملت على احدى النساء

في تلك الآونة نفسها، قامت مرأة من منطقة نورفولك Norfolk، على الرغم من تحذير رجل الرب، فذهبت في أحد الأيام لغسل الملابس بعد الساعة الثالثة من يوم السبت، وعندما كانت مشغولة بالعمل، اقترب منها رجل له مظهر مبجل، وغير معروف بالنسبة إليها، ولامها وسألها عن السبب في استخفافها هكذا وجرأتها، واقدامها على غسل الملابس بعد الساعة الثالثة على الرغم من حظر رجل الرب، فبعملها غير الشرعي هذا دنست يوم السبت المقدس، وعلاوة على هذا أضاف أنها مالم تتوقف على الفور عن عملها، فلسوف تجني بدون شك، على الفور غضب الرب، وانتقام السماء، غير أنها أجابت منتقدها بالمرافعة والتسويغ بوجود فقر مدقع، ولقد قالت بأنها حتى وقتها عانت من حياة تعيسة، بالتعب من هذا النوع، وأنها إذا توقفت عن عملها المعتاد، ستفقد بدون شك قدرتها على شراء وسائل عيشها، وغاب الرجل لبعض الوقت من أمامها، وجددت هي غسل الملابس وتجفيفهم بالشمس، بنشاط أكبر من ذي قبل، لكن مقابل هذا كله، انتقام الرب لم ينتظر، لأنه فوق البقعة نفسها، التصق خنزير أسود صغير على الجانب الأيسر من صدر المرأة، ولم يكن من الممكن، بأية وسيلة من الوسائل انتزاعه وازالته، بل استمر يمتص الدم ويسحبه، واستنفد في وقت قصير جميع القدرة الجسدية للمرأة التعيسة، وتحولت أخيراً إلى وضع، صارت فيه لحاجتها الماسة، مرغمة لوقت طويل، على التسول من أجل خبزها من باب إلى باب، وذلك على مشهد من كثير الناس، الذين دهشوا تجاه انتقام الرب، وقد أنهت حياتها تعيسة بموت بائس.

معجزة أخرى عملت على قطع رغيف من الخبز

وفي تلك الآونة نفسها، أمر أحد العمال في منطقة نورثأمبرلاند زوجته بصنع بعض الخبز في يوم السبت، من أجل أكله في اليوم التالي،

وأطاعت المرأة أوامر زوجها، وعندما في الغد وضعت الخبز أمام زوجها، وبدأت بقطعه، وقعت ساعتها حادثه هائلة ولم يسمع بمثلها، لأن دماً دافئاً تبع السكين وهي تقطع الخبز، وكأنه قد تدفق من حيوان قد ذبح للتو، وعندما وصل خبر هذه الواقعه إلى علم الناس، منعت كثيرين من العمل في ذلك اليوم.

كيف جرى حرمان غيوفري رئيس أساقفة يورك من جميع ممتلكاته

وفي هذه الآونة، جرى حرمان غيوفري رئيس أساقفة يورك— بناء على أوامر من الملك جون— من جميع أجور وتعويضات رئاسة الأسقفية، لأن جيمس عمدة يورك وأعوانه قاموا بالهجوم بعنف على قراه، وعلى ممتلكات رجال الدين والكهنة الآخرين، ثم اقتسموا جميع ممتلكاته، وبناء على ذلك تولى رئيس الأساقفة المذكور، حرمان جيمس المتقدم ذكره كنسيا بالاسم، وبشكل عام جميع الآخرين من مقترفي هذا العنف، وكان غيوفري قد أثار غضب الملك ضده وانزعاجه، وفي الحقيقة كان سبب غضب الملك منه له عدة أسباب، وكان أولها في المقام الأول عدم سماحه للعمدة المذكور أن يجمع من أسقفيته الضريبة من أجل استخدام الملك، مثلما سمح بذلك في جميع أرجاء انكلترا بشكل عام، وكان ثانيها بسبب عدم مرافقته الملك إلى نورماندي، لإقامة حفل الزواج بين لويس وبين ابنة أخته، ولعقد اتفاق مصالحة مع الملك الفرنسي، وثالثا بسبب حرمانه كنسيا للعمدة المذكور، ولوضعه جميع كونتية يورك تحت الحرمان من شركة المؤمنين.

تتويج الملك جون والملكة ايزابيل في لندن

وفي هذا العام، بعدما قام الملك جون بتسوية أموره على الجانب الآخر من الماء، عبر إلى انكلترا جالبا معه زوجته، وفي الثامن من تشرين

أول نزل في دوفر، ثم إنهما قدما بعد هذا إلى لندن، حيث جرى تتويجهما معا في وستمنستر من قبل هيوبرت، رئيس أساقفة كانتربري، بحضور نبلاء الملكة، وكان غيوفري رئيس أساقفة يورك الذي كان قد تصالح مع الملك، حاضراً في هذا الاحتفال، وفي هذه الآونة، بعث جون رسالة أيضاً إلى وليم ملك الاسكوتلنديين للقدوم إليه إلى لنكولن، في اليوم التالي لعيد القديس إدموند، حتى يرضيه بالنسبة إلى حقوقه في انكلترا.

حياة القديس هيوج أسقف لنكولن قبل حصوله على الأسقفية

وقدم في هذه الآونة هيوج أسقف لنكولن، صاحب الذكرى الطيبة، من القارة، ذلك أنه هوجم من قبل حمى الملاريا، في الهيكل القديم في لندن، فأنهى حياته السامية بموت رائع في السادس عشر من شهر تشرين الثاني، وكانت أحاديثه المقدسة أثناء حياته، كلها تعليمات للناس للأخلاق، ومثلاً للأعمال الجيدة، وهذا يرغمنا على اقحام أشياء قليلة حوله في أعماله، فقد ولد هذا الرجل المقدس في منطقة نائية في بيرغندي، وكانت أخلاقه أكثر نقاء من أسرته، وكان شديد الانصراف والمتابعة للآداب منذ صغره، وعندما كان في العاشرة من عمره عهد به إلى رهبان نظاميين ليتعلم العلوم اللاهوتية، وقد تعلم بينهم في ميدان كل من الأخلاق والعلوم، وبعد امضاء ستة عشر عاماً في القلاية، حصل على وظيفة رئيس رهبان، وسارت جميع الأمور وهو في هذا المنصب بشكل مزدهر معه، ثم إنه قرر أن يضع مراقبة أشد على آلام الجسد الخطيرة، وبأمر من الرب، ذهب إلى طائفة الرهبان الكارثوشيين Carthusian، وأظهر نفسه بينهم لطيفاً ودمثاً تجاه الجميع، وظل مع ذلك مخفياً جديته الدينية، ولذلك بعد مضي وقت جرى تعيينه مديراً للبيت كله، ومع مرور الأيام، وعندما جرى تأسيس بيت للرهبان الكارثوشيين في انكلترا من قبل الملك اللامع هنري ملك انكلترا، الذي كان يتحرق رغبة إلى رفع شأن قضية الرب، استجاب لتوسلات ذلك

الملك، ليصرف انتباهه إلى ادارة ذلك البيت، وبعدما جرت دعوته لتولي رئاسة الرهبان، جعل همّ دراسته الأول يوميا زيادة قداسته السالفة، ولهذا ولأحاديثه المقدسة نال حظوة عظيمة لدى الملك، الذي غالبا ماتمتع بالحديث معه، وكان الملك قد وضع بين يديه كنيسة لنكولن، التي كانت قد حرمت منذ عدة سنوات من عناية أسقف يتولاها، ولكي يكفر عن هذا الذنب، بقدرما يستطيع حصل على التعيين بوساطة الانتخاب للرجل المتقدم الذكر، أي هيوج، ليكون حاكماً لتلك الكنيسة، وفيما بعد عندما تمّ الاعلان عن انتخابه لرجل الرب، أجاب أنه لن يقبل بذلك المنصب، أي وظيفة الأسقفية، مالم يتم التوضيح له تماما أنه تولى ذلك بوساطة الموافقة الجماعية لكنيسة لنكولن، وذلك مع موافقة رئيس الرهبان الكارثوشيين، وبعدما جرى اقناعه بالنسبة لهذه النقاط، قدم عميد لنكولن مع شيوخ تلك الكنيسة إلى رجل الرب، وحصل بعد الاجتماع الأول بهم على تقديرهم إلى حد أن يكون أسقفهم وأباهم الروحي، بتقوى وعواطف مخلصة، ولكي تكون موافقتهم أكثر تأكيداً، جعلوه يعرف بأنهم انتخبوه هناك، وقام هو بناء على ذلك باعلامهم للمرة الأولى بالموافقة على ذلك، وبعد ذلك، بعدما جرى تكريسه، وفي الليلة الأولى التي نام فيها في أسقفيته، سمع بعدما صلى بخشوع صوتاً يقول له:« لقد مضيت أنت نحو سلامة شعبك وإلى السلامة مع المسيح».

فضائل الرجل المقدس في أسقفيته

جعل عبد الرب هيوج المكرس كنيسته تشع بفضائله، ووجه الناس وعلمهم أن يتخذوه مثلا لهم وفعل ذلك بالقول والعمل، وأظهر بأن اسم أسقف حقاً لائق به وجدير، ووضع أيضاً أشخاصاً منتخبين في الكنيسة التي بناها، وجعلها هيكلاً من خلال الأحجار الحية، وصدّ هو بشكل مستمر هجمات القوى العلمانية في القضايا المتعلقة بالكنيسة،

ذلك أنه أظهر أنه لايعبأ بالمخاطر المتعلقة بممتلكاته أو جسده، وبهذا المنهج حقق تقدماً كبيراً حيث استرد كثيراً من الحقوق، كانت قد ضاعت، وحرر كنيسته من أقسى أنواع العبودية، وبالاضافة إلى هذا، اعتاد رجل الرب على دخول بيوت المجذومين من الناس، التي كان يمر بها، وكان يقبّل جميع المصابين بالجذام، مهما كانوا مشوهين، ويضفي عليهم الصدقات بكرم، وحول هذا، حاول وليم، صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان مستشاراً للكنيسة نفسها، أن يجرب ويعرف فيما إذا كان عقله قد تأثر وأصيب بالعجرفة، بسبب ذلك، فسأله:« لقد شفى مارتن بقبلاته المجذوم، وأنت لم تشف المجذومين بقبلاتك»، فأجابه الأسقف على الفور قائلاً:« شفت قبلة مارتن جسد المجذوم، لكن قبلة المجذوم شفت روحي»، وبالنسبة لدفن الموتى، قام بواجباته الانسانية بيقظة تامة، ولم يهمل جسد أي ميت، اعتقد أنه قد عهد إليه القيام بواجبه نحوه، ومرة عندما كان هذا الرجل المقدس يقوم بواجب العناية برعيته، وكان وقتها يزور احدى الأبرشيات، وكان بين الأماكن التي زارها بلدة اسمها الكموندبري Alcmundeberi، حيث قدم إليه أبوان لأحد الأطفال، ومعهما طفل صغير لهما كان بدون حياة تقريباً، وهما يبكيان وينشدان مساعدته، ولدى سؤال الأسقف لهما ماذا يريدان، أجابته أم الطفل قائلة:« أخذ هذا الطفل الصغير بيده قطعة من الحديد طولها أكثر من انش وكذلك سماكتها، وكما يفعل الأطفال وضعها في فمه، غير أنه ابتلعها، ومضت سريعاً في بلعومه، وهي الآن تقتل الطفل، وبناء عليه ياأبانا المقدس، لقد أرسلك الرب كي تعيد إلينا طفلنا، الذي هو الآن على حافة الموت، ونظر الأسقف نحو الطفل، ولمس لسانه، وقرأ مباركة، ونفخها عليه، وبعدما رسمها بعلامة الصليب، أعاده إلى والديه، ولدى أخذهما له من الأسقف قفزت قطعة الحديد خارجة وكلها دماء، وشفي الطفل من تلك الساعة، وفي مناسة أخرى، عندما كان الرجل المقدس يمر خلال بلدة اسمها كستريهنت Cestrehunte

جاء إليه أقرباء أحد المجانين، الذي كان مرغماً منذ ثلاثة أسابيع على الحبس مغلولاً ورجوه أن يزوره ويباركه، ولدى سماع ذلك ترجل الرجل المقدس من على فرسه، وذهب إلى الرجل المجنون، الذي كان رأسه مربوطا إلى عمود، ويداه ورجلاه مربوطون كل على حده إلى أوتاد، وبارك الأسقف بعض الماء الذي كان قد جلبه معه، وعندما مدّ الرجل المجنون لسانه، وكأنه يريد أن يسخر منه، رش بعض الماء عليه، ثم قرأ على الرجل المجنون جزء الانجيل الذي فيه:« في البدء كانت الكلمة»، وبعدما أعطاه مباركته غادر، وبعدما ذهب، بدأ الرجل المريض بالنوم، وعندما أفاق عاد إلى وضعه الصحي المتقدم، وحدث في هذه الآونة أن كان هذا الرجل التقي في لنكولن، يساعد في أعمال عمارة الكنيسة الأم هناك، التي بناها بشكل فخم من الأساسات، وبينما كان يحمل حجارة وملاط في وعاء على كتفيه، كما كانت عادته بالغالب، وصل إليه رجل أعرج بالرجلين، وكان يتوكأ على عصاتين، ورجاه بالحاح أن يحمل الوعاء نفسه، آملاً في أن يسترد العافية إلى طرفيه بفضائل هذا الرجل المبارك، وحصل أخيراً على إذن معلم العمل بإعطائه الوعاء، وشرع وهو يتوكأ على عصاتيه يحمل الحجارة والملاط فيه، هذا وحدث بعد عدة أيام انقضت أن تخلى عن العصاة الأولى، ثم مالبث بعد ذلك أن تخلى عن الثانية، وبعد مضي وقت قصير صار قوياً، ومناسباً لحمل الوعاء نفسه في العمل في الكنيسة، من دون الاتكاء على أي عصا، وبعدما صار وضعه صحياً تماما أحب ذلك الوعاء كثيراً، وأعلن أنه لن يتخلى عنه مطلقاً، وحدث مرة أخرى في المدينة نفسها، أن أحد السكان أصيب بالجنون، إلى درجة أنه جرى تعيين ثمانية رجال يكونون مسؤولين عنه، وقد حبس بالأغلال ذلك أنه أصيب بجنون وصل إلى درجة أنه هدد بتمزيق زوجته وأولاده إلى قطع بأسنانه، وحمل أخيراً، وهو مربوط داخل عربة إلى رجل الرب، الذي ماأن رآه حتى رش عليه على الفور الماء المقدس، وأمر الروح الشريرة بالخروج منه،

وأن لاتزعجه أكثر من هذا، ووقع الرجل المجنون فجأة على الأرض، وكأنه رجل كان يموت، وصب الرجل المقدس الماء المبارك عليه بكميات كبيرة، ونهض بعد ذلك على الفور الرجل المجنون، ورفع يديه المربوطتين نحو السماء، وقدم الشكر للرب، وإلى الكاهن المبارك، وبناء على ذلك فكت أغلاله، وذهب في حال سبيله رجلاً معافى، وأيضاً كانت هناك امرأة في لنكولن لديها ولدين، أصيب أحدهما وهو مايزال طفلاً بتورم كبير في جنبه، وخافت أمه على صحته خوفاً كبيراً، فذهبت إلى هذا الأسقف المقدس، وحصلت على وعده بمباركة ابنها، وبناء على ذلك وضع الأسقف يديه، على الجزء المريض، وباركه ثم أرسله في حال سبيله، وبعد ذلك اختفى التورم، ومنذ تلك الساعة لم يعد يزعج الطفل، كما أن أمه لم تعد ترى أي أثر منه، وحدث في وقت آخر أن هذه المرأة نفسها، أخذ ابنها الآخر يعاني بشكل شديد من اليرقان، وقد تذكرت ملازها السالف، فحملته إلى أمام الأسقف المبارك ليبارك من قبله، وهذا أيضاً بعد تلقيه المباركة، عاد إلى وضعه الصحي المتقدم، وحدث ذلك خلال ثلاثة أيام.

كيف غادر القديس هيوج هذه الحياة

ومع نهاية العام الرابع عشر من أسقفيته، لدى عودة الأسقف المقدس هيوج إلى انكلترا من البيت الرئيسي لطائفة الكارثوشيين، حيث كان هناك بزيارة لرئيس الرهبان وللرهبان في ذلك البيت، وذلك بناء على رغبتهم الطويلة، وقتها وقع مريضاً بشده بحمى الملاريا، وكان ذلك في الهيكل القديم في مدينة لندن، وهناك جاء الملك جون لرؤيته، وقبل أن يتركه أكد وصيته، وذلك بناء على تشجيع من رجل الرب، ووعد بحق الرب، أنه في المستقبل سوف يقر الشهادات المعقولة للكهنة، ومع أن مرضه ازداد كل يوم ترسخاً، لم يسمح، بناء على نصيحة أي انسان، بأن يضع جانباً، ولو لوقت قصير، الثوب الصوفي الذي ارتداه

دوما، وقد أصر، مع اقتراب موته، على المحافظة على النظام القاسي لطائفة رهبان الكارثوشيين، وبناء على دعوة من الرب، غادر حياته هذه وهو سعيد، وعندما حمل سكان لندن جسد الرجل المقدس لدفنه في لنكولن، وقعت حوادث رائعة، فالمشاعل الذي أشعلت أمام الجسد لدى مغادرة لندن، ظلت تشتعل طوال أيام الرحلة الأربعة، لذلك لم يكونوا في أي وقت من دون ضوء واحد من المشاعل، مع أن الأنواء كانت سيئة بشكل غير معتاد، وذلك بسبب الرياح والأمطار، ومن هذه الأحوال، لم يكن هناك من شك، بأن الرب قد هيأ ضوءاً دائماً لروحه، لأنه تقديراً منه لجسده، لم يسمح للضوء الموقت بالانطفاء، ولقد مات عبد الرب هيوج، أسقف لنكولن في سنة ألف ومائتين لتجسيد الكلمة، وكانت وفاته في السابع عشر من تشرين الثاني.

كيف جرى حمل جسد القديس هيوج إلى لنكولن لدفنه

في الحادي والعشرين من تشرين الثاني، التقى جون ملك الانكليز، ووليم ملك الاسكوتلنديين في مؤتمر مع بعضهما بصحبة جميع النبلاء، ورجال الدين والعلمانيين من المملكتين، وعلى الرغم من نصيحة الكثيرين، دخل الملك جون إلى مدينة(لنكولن) بجرأة، الأمر الذي لم يتجرأ أحد من أسلافه على محاولته، ولدى وصوله إلى الكنيسة الكاتدرائية، قدم كأساً ذهبياً على مذبح القديس يوحنا المعمدان، الذي كان في البناء الجديد، الذي أنشأه من الأساسات، القديس هيوج المتقدم ذكره، والتقى في اليوم نفسه هو وملك الاسكوتلنديين، على رابية خارج المدينة، وهناك قدم الملك وليم الولاء للملك جون أمام جميع الناس، من أجل جميع حقوقه، وأقسم فيما بعد بحضور جميع نبلاء المملكة، يمين التبعية له، على صليب هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وعاهده على الاخلاص له بالنسبة للحياة وسلامة والأعضاء والشرف الأرضي، وفي ذلك اليوم وصل جسد الأسقف هيوج الأكثر قداسة، إلى هناك لدفنه،

وذهب الملكان لاستقباله، وكان يصحبتها ثلاثة رؤساء أساقفة هم: هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وغيوفري رئيس أساقفه يورك، وبرنارد رئيس أساقفة راغوا Ragua ، وثلاثين أسقفاً، وايرلات، وبارونات، وكهنة بلا نهاية، وقد استقبلوا جسده الأعظم قداسة، وتسلموه، وقام الملكان نفساهما، والايرلات والنبلاء، بحمله على أكتافهم إلى القاعة في الكنيسة الكاتدرائية، وعند باب الكنيسة استقبله رؤساء الأساقفة الذين تقدم ذكرهم مع الأساقفة، وجرى حمله من قبل هؤلاء الأساقفة إلى السدة، حيث ظل راقداً باحترام طوال الليلة، وكان هذا الأسقف قد اعتاد خلال أيام حياته، على القيام بكل نشاط بواجباته الانسانية في دفن الموتى، ولم يهمل قط دفن جسد أي ميت، رأى من واجبه حضوره والقيام به، ولهذا السبب، فإن الرب الذي يعرف كيف يكافىء فضائل المستقيمين، بجزاء مناسب، قد سمح له بمثل هذا الدفن المتميز، حتى بدا أنه يكافئه بالتشريف لفضائله المتقدم ذكرها، وحدث على كل حال أنه قبل الدفن لرجل الرب هذا، وبينما كانت طقوس الجنازة آخذة مجراها لدفنه، وكان هو نفسه — كما جرت العادة بالنسبة للكهنة العالون — ممدداً غير مغطى، وهو يرتدي القلنسوة على رأسه، والقفازان في يديه، والخاتم باصبعه وذلك مع بقية الزينه الحبرية، قدم أحد الجنود وكان معروفاً من قبل الرهبان النظاميين للكنسية، وكانت ذراعه متآكلة كلها بوساطة الجذام حتى العظام، وظهرت وهي مجردة من اللحم والجلد، فوضع ذراعه فوق جسد الأسقف، وبلل وجهه مراراً بالدموع ليتولى شفاء ذراعه المريض، وعلى الفور تمّ استرداد اللحم والجلد برحمة من الرب، من خلال فضائل قديسه، ولهذا عاد الجندي يحمد الرب، والأسقف المقدس، وغالبا ما أظهر نفسه لشماس الكنيسة، ولأشخاص موثوقين آخرين، وقدمت في الوقت نفسه امرأة، كانت فقدت بصرها باحدى عينيها منذ سبع سنوات، فاستردت بصرها على مشهد من الجميع ودهشة منهم، وقام في الوقت نفسه بشال، في

وسط ضغط الناس الذين تجمعوا حول عبد الرب، فانتشل حافظة نقود احدى النساء، ولكن بفضل الأسقف المبارك، الذي أظهر أنه لم يكن ميتاً بل حياً، اشتبكت يدا اللص الشرير، ويبست أصابعه، وثبتت على كفه حتى أنه لم يعد قادراً على امساك السلعة التي سرقها، فألقاها على أرض الكنيسة، وبدا وكأنه مجنون، وصار بعد ذلك هدف المقاطعة من الناس، وهكذا بعدما تعذب بالروح الشيطانية لمدة طويلة، جاء بذاته ووقف من دون حراك، ثم إنه بدا يبكي بحرقة، وقام على مسمع من الناس جميعاً، فاعترف بجريمته الدنيئة إلى جميع الذين أصغوا إليه، وعندما لم يجد سبيلا للنجاة، التفت نحو الكاهن وقال:« ارحمني، ارحمني، أنت يارفيق الرب، لأنني تخليت عن الشيطان وعن أعماله، الشيطان الذي كنت حتى الآن عبداً له، وصلّ للرب من أجلي حتى لايصدني في توبتي، بل أن يعاملني برحمة»، وفور تلفظه بهذه الصلوات للرب، انفكت أغلال الشيطان التي كانت يداه مربوطتان بها، وعاد صحيحاً شاكراً للرب وللأسقف المبارك.

دفن القديس هيوج

وبعد انقضاء السهر المطلوب على جسد الأسقف، وفي ظل ضوء اليوم التالي، قام رؤساء الأساقفة والأساقفة المتقدم ذكرهم، بعدما أنهوا القداس في الكنيسة الجديدة، التي كان هو نفسه قد بناها تشريفاً لأم الرب، فأودعوا بشكل لائق الجسد المقدس في القبر، قرب مذبح القديس يوحنا المعمدان، وتولوا القيام بواجبه بشكل متميز بدا وكأن الرب قد جمعهم من أجل هذه الغاية الخاصة، وقد دفن في الرابع والعشرين من تشرين الثاني، واستمرت المعجزات تعمل عند قبره، للذين طلبوهم، وسعوا إليهم مؤمنين، فبعد موته الرائع، كان هناك طفل من منطقة لنكولن نفسها، وكان مريضاً منذ خمسة عشر يوماً، وقد حمل مع ازدياد قوة المرض عليه ووضع أمام بيت الميت فأصبح جسده

فجأة متيبساً، وكأنه قد مضى على موته عدة أيام، ولدى رؤية ذلك، قامت احدى النساء وكانت واقفة بجواره، باغلاق عينيه، وبوضع يديه ومدّ أطرافه كما هي العادة مع الميت، وبعدما تمدد على هذه الصورة منذ صراخ الديك حتى صباح اليوم التالي، اقتربت أمه— التي حتى وسط دموعها لم يمت إيمانها مع ولدها — من الجسد بثقة، وأخذت بيدها خيطاً مما يصنع منه فتيل الشموع، وقاست به جسد ابنها من جميع الجهات، وقالت بعد ذلك وهي واثقة وفي وسط الدموع:« إنه حتى ولو دفن ولدي، بإمكان الرب إعادته من خلال فضائل القديس هيوج»، ومع مرور النهار، صلوا وقدموا صدقات لصالح روح الطفل، وبعثوا وراء الكاهن ليتولى دفنه، مع أن أمه استمرت تصرخ معارضة ذلك، وقبل وصول الكاهن الذي بعثوا خلفه، اكتشفت الأم، التي كانت قلقة من أجل الحفاظ على ابنها، الحياة فيه، وبناء عليه مجدت الرب، والأسقف المبارك، الذي إلى فضائله عزت هذه المعجزة، وليكن في عرض هذه الأمور المتعلقة بحياة رجل الرب كفاية، وذلك من بين كثير من الأمور المتعلقة بهذه المسائل.

ظهور خمسة أقمار

وفي هذا الشهر نفسه، وقبل وقت قصير من عيد الميلاد، وفي حوالي الساعة الأولى من الليل، ظهرت خمسة أقمار في السماء، وظهر الأول في الشمال، وظهر الثاني في الجنوب، وظهر الثالث في الغرب، وظهر الرابع في الشرق، وظهر الخامس في وسط الأربعة مع عدة نجوم من حوله، ودار القمر الأخير مع النجوم التي رافقته حول الأقمار الأخرى، خمس مرات أو أكثر، واستمرت هذه الظاهرة لحوالي الساعة، الأمر الذي أدهش جميع الذين شاهدوا ذلك.

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

ورود التاريخ

تصنيف

روجر أوف ويندوفر (ت١٢٣٧)

(٤٤٧ـــ١٢٣٥م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء التاسع والثلاثون دمشق ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠م

(٢)

الموسوعة الشامية في
تاريخ الحروب الصليبية

ورود التاريخ

الجزء الثاني

(١٢٠١ — ١٢٣٥)

كيف جرى تتويج ملك وملكة الانكليز في كانتربري

عـام ١٢٠١م،فيـه احتفل الملك جـون بعيد الميـلاد في غـولفـورد Guilford ووزع هناك عـدداً من أثواب العيـد بين فرسـانه، وفي محاولة من هيـوبرت، رئيس أساقفـة كـانتربري أن يجعل نفسه على مستـوى الملك، فعل الشيء نفسـه في كانتربري مما أثارغضب الملك الى درجـة عالية جداً، وبعد ذلك انطلق الملك الى نورثأمبرلاند، واستخرج مبلغاً كبيراً من المال من سكان تلك الكونتيـة ، ثم إنه عـاد الى كـانتربري بصحبة ملكته ، وفي اليوم التالي ليوم عيد الفصح، جرى تتويجهما معاً في ذلك المكان ، وتكلف أثناء الاحتفـال رئيس أسـاقفـة كـانتربري نفقـات عـاليـة وبشطط واسراف أثناء عنايتـه بهما ، وفي يوم عيـد الصعود التالي ، أصدر الملك في تويكبري Tewkesbury إعلاناً ، بأن يكون الايـرلات ، والبـارونات مـع جميع الذيـن يدينون بالخدمـة العسكرية اليـه، مستعـدين مع خيـولهم وأسلحتهم في بورتماوث لينطلقوا معه نحو المقـاطعات فيها وراء البحر، في يوم أحد العنصرة المقبل، لكن عندمـا حل الموعد المقـرر، حصل كثير منهم على الاذن للبقـاء وعـدم الذهاب، حيث دفع كل منهم الى الملـك مـاركين من الفضة عن كل محلجة.

كيف عبر الملك جون وملكته البحر الى نورماندي

بعد الاحتفـال بعيد العنصرة في بورتماوث، أقلع الملك مـع ملكته في اليـوم التـالي ، ووصـلاً بعـد كثير من الاضطراب الى نورمـاندي، وبعـد ذلك بوقت قصير عقـد للكان الفـرنسي والانكليزي مـؤتمراً قـرب جـزيرة أندلي حيث جرى الاتفاق على شروط سـلام، وبعـد مضي ثلاثة أيام ، ذهب الملـك جون الى باريس بناء على دعـوة من الملك الفـــرنسي ، واحتفي بـه هناك في قصر ذلك الملـك الذي اتخذ لنفسـه سكناً في مكان آخر، وبعـلما احتفي به هناك بتشريف زائـد

وكما يليق بملك، غادر وذهب الى شينون، وفي الوقت نفسه، ولكي يكون السلام مضموناً بشكل أعظم، لقد تقرر، وتثبت بالكتابة، أنه إذا ما أراد الملك الفرنسي خرق شروط السلام، بأية طريقة من الطرق، وهي الشروط التي تقدم ذكرها، فإن باورونات المملكة الفرنسية ، الذين اتخذهم ضمانة له، سوف يتحللون من جميع الولاءات له، ولسوف يلتحقون بالملك الانكليزي في القتال ضد الملك الفرنسي ، ومن ثم ارغامه على الحفاظ على السلم المذكور، وعقدت الاتفاقية نفسها على الجانب الانكليزي .

وثارت في هذا العام عواصف رعدية مرعبة ، وبروق ، وبرد ، مع أمطار فيضانات ، مما أرعب عقول الناس ، وسبب أذى عظيماً في مناطق كثيرة.

وفي هذه الآونة أيضاً ، جرى إعطاء جزء من أربعين من مداخيل الكنائس لمساعدة أرض الميعاد ،وجاء ذلك بناء على مبادرة من البابا انوسنت، وجرى إرغام النبلاء والعامة سواء — بواسطة العقوبات الرسولية — ممن وضع شارة الصليب جانباً على إعادة حملها.

حول نشوب خلاف بين ملكي فرنسا وانكلترا

عام ١٢٠٢م، فيه احتفل الملك جون بعيد الميلاد في أرجينتان -Ar gentan في نورماندي، وأثناء الصوم الكبير التالي عقد مؤتمر بين ملكي فرنسا وانكلترا، على مقربة من غولنتون Gulentune وفي هذا الاجتماع قام الملك الفرنسي، رهو يحمل كراهية قاتلة ضد الملك الانكليزي ، بتوجيه الأمر إليه وهو مغضب بوجوب أن يتخلى على الفور إلى آرثر كونت بريتاني عن جميع الممتلكات التي بين يديه في هذا الجانب من البحر، أي : نورماندي ، وتور ، وأنجو ، وبواتو،

وطلب منه أشياء أخرى كثيرة ، الأمر الذي رفضه الملك الانكلزي ، ولم يستجب له ، ولدى رؤية الملك الفرنسي نفسه أنه لم ينجح بتحقيق غاياته في المؤتمر، قام في اليوم التالي بهجوم مفاجيء على قلعة بوتافانت ، وسواها بالأرض وزحف من هناك فاستولى بالقوة على بلدة أوجي Augi مع قلعة ليون liuns وعلى عدد آخر من الحصون، كما انه حاصر قلعة ريدبونت Radepount لمدة ثمانية أيام، لكن بسبب قدوم الملك الانكليزي ضده ، تراجع من ذلك المكان باضطراب، غير انه تحول بعد عدة أيام نحو غورني -Gour naye وبشق فتحة في البحيرة ، تمكن بقوة اندفاع الماء من تهديم الجزء الأعظم من الأسوار التي أحاطت بالمدينة ، ونتيجة لهذا هربت الحامية،ودخل الملك الفرنسي ، وأخضع المدينة دون أن يعارضه أحد، ثم انه عاد الى باريس، ووضع آرثر بعهدة أناس أمناء، وأعطاه مائتي جندي فرنسي لمرافقته في بواتو ، وكانت الغاية من ذلك القيام بغارات عسكرية بغية التمكن من إخضاع تلك المناطق لصالح آرثر،وعندما كانت هذه القوات تزحف نحو الأمام مع ضجة كبيرة ، وصلت اليها رسالة بأن الملكة اليانور كانت مقيمة في قلعة ميرابو، ومعها حامية صغيرة ، ولذلك وجه جنود هذه القوات اندفاعهم للهجوم على تلك القلعة ، وجاء ذلك باتفاق عام منهم، وألقوا الحصار على القلعة، ولعدم وجود قوة كافية لدى الحامية لمقاومتهم استسلمت القلعة لهم باستثناء البرج الذي كانت فيه الملكة اليانور ، التي اعتصمت فيه مع عدد قليل من الجنود، ولم يستطيعوا الاستيلاء على هذه القلعة ، ولذلك وجهوا هجماتهم ضد البرج، وقدم في تلك المنطقة الى مساعدة آرثر جميع النبلاء والعساكر ذوي المراتب في بواتو، وقام واحد بشكل خاص اسمه هيوج، ولقبه لى برون وكان ايرل التخوم فأعلن عن نفسه بأنه عدو للملك الانكليزي، بسبب الملكة ايزابيل، حيث قيل بأن ذلك الايرل كان مرتبطاً بها

كزوجة له بكلمة الفم، وذلك قبل أن تتزوج من الملك جون، وبذلك شكلوا قوة كبيرة هناك، واستمروا بالحملات الشديدة على القلعة من أجل الاستيلاء عليها بأسرع وقت ممكن.

النصر الرائع الذي حصل عليه الملك جون في ميرابو

وعندما وجدت الملكة نفسها في هذا المأزق، بعثت رسالة مع استخدام كل سرعة، الى الملك، الذي كان وقتذاك في نورماندي، ترجوه بإلحاح وتحثه بعاطفة الأمومة أن يقدم الى مساعدتها، ولدى تلقي الملك هذه الأنباء انطلق بسرعة مع قوة شديدة، وسار ليلاً ونهاراً، وقطع مسافة طويلة بشكل أسرع مما هو معتقد ،ووصل الى ميرابو وعندما علم الفرنسيون وشعب بواتو بأن الملك كان على طريقه، خرجوا بصفوف صاخبة وكلها أبهة للتصدي له،والقتال معه، وعندما التقى كل فريق مع الآخر وهما على تعبئة، ومصطفين للقتال، وعند الاشتباك، صمد الملك بشجاعة لحملاتهم الشديدة، وأخيراً أرغمهم على الفرار، وطاردهم بسرعة فائقة بوساطة فرسانه، حتى أنهم دخلوا القلعة ساعة دخول الفارين إليها، ثم أعقب ذلك قتال حاد جداً داخل أسوار القلعة، إنما مالبث ذلك أن حسم بوساطة الشجاعة العالية الصيت للانكليز،ووقع أثناء القتال بالأسر مائتي فارس فرنسي، مع جميع نبلاء بواتو، وأنجو، وذلك مع آرثر نفسه، ولذلك لم يتمكن ولا واحد من العدد كله من النجاة والعودة، ومن ثم الحديث عن النازلة التي ألمت ببني منطقته، وبعدما وضع جميع أسراه بالقيود وبالأغلال، ألقى بهم في عربات، وهي طريقة جديدة ووسيلة غير معتادة للنقل، وأرسل الملك بعضاً منهم إلى نورماندي، وبعضهم الى انكلترا، وسجنهم في قلاع حصينة، منها ليس هناك من خوف من إقدامهم على الفرار، لكن آرثر أبقي في فالي Falis ،في سجن مضيق عليه.

كيف انسحب الملك الفرنسي وهو مضطرب من حصار قلعة آركوي

وأثناء وقوع هذه الحوادث في قلعة ميرابو، زحف الملك الفرنسي مع جيش كبير ضد قلعة أركوي Arques وألقى الحصار عليها وصفّ مجانيقه حولها، ولمدة خمسة عشر يوماً بذل قصارى جهده بوساطة القصف واللغم لخرق الأسوار والدخول منها، ومن جانب آخر قاومت حامية القلعة بشجاعة، وسعت بوساطة رمي الحجارة والنشاب الى طرد الأعداء ، وإبعادهم الى مسافة بعيدة، وعندما وصلت أخبار أسر آرثر وأتباعه الى مسامع الملك الفرنسي ، انسحب من الحصار وهو مغضب، وفي أثناء تراجعه دمّر وأحرق كل مكان وصل اليه ، حتى أنه حول الديرة العائدة الى رجال الدين إلى رماد ، ووصل أخيراً إلى باريس، ومكث من دون نشاط حتى نهاية ذلك العام .

موت آرثر كونت بريتاني

وبعد مرور بعض الوقت ، قدم الملك جون الى قلعة فالي ، وأمر بجلب ابن أخيه آرثر الى حضرته، وعندما مثل أمامه ، خاطبه الملك بلطف، ووعده بكثير من التشريفات، وسأله أن يفصل نفسه عن الملك الفرنسي، والالتحاق به هو نفسه ، بحكم أنه مولاه وعمه ، لكن آرثر— السيء المشورة — رد عليه برعونة وتهديد ، وطلب من الملك أن يتنازل له عن مملكة انكلترا وعن جميع المناطق التي امتلكها الملك رتشارد وقت موته، وقال بأن هذه الممتلكات جميعاً عائدة له بموجب حق الوراثة، وأكد بوساطة القسم أنه ما لم يقم الملك جون بسرعة بإعادة المناطق المتقدم ذكرها إليه، فإنه سوف لن يتمتع بالسلام أية مدة من الزمن، وانزعج الملك كثيراً لدى سماعه

كلماته وأمر بوجـوب نقل آرثر الى روان ، ليسجن في البرج الجديد هناك ، وأن تشدد عليه الحراسة ، إنما بعد مضي وقت قصير ، اختفى آرثر المذكور.

وقدم الملك جون في هذا العام نفسه الى انكلترا ، وجرى تتويجه في كانتربري من قبل هيوبرت رئيس أساقفة ذلك المكان،وكان ذلك في الرابع عشر من نيسان، وأبحر بعد هـذا الى نورماندي، وبعد وصوله الى هناك ظهـر رأي حـول وفـاة آرثر ، وقـد عمّ انتشـاره خـلال المملكة الفـرنسية والقـارة بشكل قيل فيه باتهام الملك جـون، وبأنه قد قتله بيـده شخصياً ولذلك ابتعـد كثير من الناس بعواطفهم عن الملك منـذ تلك السـاعـة والى الأبد وذلـك حيثما ملكوا الجرأة ، واحتفظوا بأعمق مشاعر العداوة ضده.

كيف تخلى النبلاء الانكليز عن الملك جون في انكلترا وهجروه

عام١٢٠٣م، فيه أمضى الملك جون عيد الميلاد في كين Caen في نورمـاندي، حيث القى جـانباً كـل تفكير بالحرب ، واحتفل مع ملكته بشكل فخم وأطال نومه في الصباح حتى وقت الافطار، لكن حدث أنه بعد انتهاء وقار أيام عيد الفصح التي روعيت، قام الملك الفرنسي فجمع جيشاً كبيراً ، واستولى على عدة قـلاع كانت عائدة الى ملك انكلترا، وهدم بعضها وسـواها بالأرض، لكن القلاع الحصينة أبقـاها سليمـة، ووصل أخيراً رسـول إلى الملك جـون مع الأخبـار قائـلاً بأن الملك الفرنسي قـد دخل الى أراضيك كعـدو،واستولى على كـذا وكذا من القـلاع، وحمل حكامهم بشكل مهين، وهم مـربوطين الى ذيول الخيـول ، وأتلف ممتلكاتـك ووزعهـا عن تصميم دون أن يعترضـه معترض، ورد الملك جون على هذه الأخبـار بقوله:« دعـوه

يفعل ذلك ، فمهما استولى عليه الآن ، سوف أسترده في يوم واحد »
و لم يتمكن هؤلاء الرسل ، ولا الآخرون الذين جلبوا له أية
أخبار أخرى مشابهة الحصول على جواب آخر ، وعندما سمع
الايرلات والبارونات والنبلاء العائدون للمملكة الانكليزية —
الذين كانوا حتى ذلك الوقت مرتبطين به ومؤيدين له بثبات —
كلماته هذه ورأوا كسله أمراً لا يمكن تقويمه حصلوا على إذنه ،
وعادوا الى الوطن ، متظاهرين أنهم سوف يعودون اليه، وهكذا
تركوا الملك مع عدد قليل من الجنود في نورماندي ، وقام هيوج دي
غورني Cournaye ، الذي منحه الملك جون كل التشريفات
وعهد اليه بقلعة مونتفورت ، بتسليمها الى ملك الفرنسيين وسمح
لجنوده بالدخول اليها أثناء الليل وبهذه الطريقة تخلى عن تابعيته
وعن ولائه للملك الانكليزي ، وهرب الى الملك الفرنسي، وفي
الوقت نفسه كان الملك الانكليزي مقيما مع ملكته دونما نشاط في
روان، حتى قيل بأنه كان مصاباً بالخبال بوساطة السحر، لأنه في
وسط كل خسائره وعاره كان يظهر ملامح مشرقة فرحة الى
الجميع ، وكأنه لم يخسر شيئاً ، وقدم الملك الفرنسي في الوقت ذاته مع
جيش كبير الى بلدة رويل Ruyl ، حيث كانت هناك قلعة فخمة ،
قام على الفور بتطويقها بآلات رميه الحربية لكن بعدما مركزهم ،
وقبل أن يقوم ولو بحملة واحدة، قام روبرت فتز— وولتر،
وسيردي كوينسي sayer de Quincy ، وهما النبيلان المسؤولان
عن القلعة بتسليمها سليمة الى الملك الفرنسي، دون أن تتعرض
حجرة واحدة من تلك القلعة للتحطيم ، ودون أن تصاب شعرة
واحدة من رأس أحد رجال حامية القلعة، لكن الملك الفرنسي الذي
كان غاضباً جداً ضدهم، أمر بهم فوضعوا في الأغلال، واحتفظ
بهم في سجن ضيق في كومبينCompegne ، حيث بقيوا في
وضع مهين حتى جرى دفع فدية ثقيلة من أجل اطلاق سراحهم ،

وعندما وجد الملك الفرنسي أن كل المعارضة له في نورماندي ومناطق ما وراء البحر الأخرى قد توقفت، زحف خلال المناطق كما يريد ودونما عائق وأعاد الاستيلاء على عدد من القلاع ، وقام أيضاً في هذه الآونة بإلقاء الحصار على قلعة صخرة أندلي ، التي كان الملك رتشارد قد بناها، لكن لحصانة القلعة ، ولإخلاص روجر دي لاسيlacy الذي كان لا مثيل له، وهو الذي كانت القلعة موضوعة تحت عهدته، لم يحصل الملك الفرنسي على أي شيء من الحصار باستثناء انه بمنعه الخروج على المحاصرين، منعهم من الحصول على المؤن ، وفي أثناء وقوع هذه الأحداث، انفصل بعض النورمان عن الملك الانكليزي انفصالاً نهائياً، وخفف آخرون العلاقات معه والارتباط به.

كيف جاء الملك جون الى انكلترا واستخرج مبالغ كبيرة من المال من النبلاء

وعندما رأى الملك جون أخيراً خطأه ، وانه قد حرم من جميع الموارد الحربية، أخذ سفينة وأبحر بها بكل سرعة، ونزل في يوم عيد القديس نيقولا في بورتماوث ، ثم جرى تحريضه ضد الايرلات والبارونات ، بحجة انهم قد تخلوا عنه ، وهو في وسط أعدائه في القارة ، وانهم بتخليهم عنه قد فقد القلاع والأراضي، فأخذ منهم سبع جميع ممتلكاتهم المتحركة، ولم يتمنع بهذا العمل من الاستيلاء بعنف على الممتلكات الديرية أو ممتلكات كنائس الأبرشيات، ومن أجل تحقيق هذه الغاية استخدم هيوبرت رئيس أساقفة كانتر بري وكيلًا له في هذه السرقات المتعلقة بممتلكات الكنيسة، وغيوفري فتز- بيتر، المسؤول عن العدالة في انكلترا ، فيما يختص بسلع العلمانيين، ولم يوفر هذان أحداً لدى تنفيذهما لأوامرهما .

وعندما علم الملك الفرنسي ، بأن ملك انكلترا قد غادر مناطق ما وراء البحار توجه مع قوة كبيرة نحو كل بلدة وقلعة في المنطقة، موضحاً الى السكان والى حكام القلاع، بأن مولاهم قد تخلى عنهم، وقال أيضاً بأنه هو السيد الرئيسي لهذه المناطق ، وانه إذا كان الملك الانكليزي قد تخلى عنهم بشكل شائن، ليس في نيته فقدان السلطة الرئيسية عليهم، التي هي عائدة اليه، ولذلك رجاهم كأصدقاء أن يستقبلوه كسيد لهم لعدم وجود سيد آخر ، وقد أعلن لهم وربط اعلانه بالقسم، انهم اذا لم يفعلوا ذلك طواعية ، وتجرأوا على الوقوف ضده، هو سوف يخضعهم كأعداء له ، ولسوف يعلقهم على المشانق، أو سيسلخهم وهم أحياء، وقرروا أخيراً، ووافقوا بالاجماع بعد كثير من المناقشات من على الطرفين، أن يقدموا رهائن الى الملك الفرنسي ، مقابل الحفاظ على هدنة لمدة سنة واحدة، فبعد مضي ذلك الوقت، انهم إذا لم يتسلموا مساعدة من الملك الانكليزي، سوف يحولون وقتها اعترافهم إليه كحاكم لهم، ولسوف يعطونه المدن والقلاع، وبعدما وصل الملك الفرنسي الى هذه الغاية عاد الى مناطقه.

ترقية وليم أسقفاً للنكولن

وفي هذا العام نفسه جرت سيامة المعلم وليم، رئيس جوقة المرتلين ، والكاهن في كنيسة لنكولن، أسقفاً للكنيسة نفسها ، وتمت السيامة في وستمنستر، في يوم عيد القديس بارثلميو الرسول ، من قبل وليم أسقف لندن، وترافع غيلبرت أسقف أوف روكستر، لصالح دعواه ومطالبته شخصياً، لكنه لم ينجح ، لأن هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، كان راقداً مريضاً جداً.

كيف جرى منح المساعدات من أجل الحرب بشكل كبير الى الملك

عـام١٢٠٤م، فيه احتفل الملك جـون بعيـد الميلاد في كـانتر بري، وقـدم هيـوبرت ، رئيس أسـاقفـة ذلك المكـان جميع الضروريات للاحتفاء بالملك، وبعد ذلك، وفي اليوم الذي جاء بعد عيد الختانة، التقى الملك مع النبلاء في اكسفورد في مـؤتمر ، وفيه جرى منح الملك المسـاعـدات من أجل الحرب وتمثل ذلك بماركين ونصف المارك من كل محلجة قطن، ولم يستطع الأساقفة ورعاة الديرة المغادرة من دون اعطاء وعد بتقديم العون نفسه.

كيف أصبح بشكل رائع زيت تمثال أم الرب لحماً

وحـدثت في العـام نفسـه ، في اليـوم الثـالث قبـل عيـد الفصح ، معجـزة هي الأعظم ادهاشـاً ، تعلقت بزيت تمثـال أم الرب في صيـدنايا ، وكـانت كما يلي: لقـد صـدف وجـود سجناء من الجنود الصليبيين في قلعة دمشق ، وقـد قام أحد الجنود بأخـذ قارورة من صندوقـه ، وضع فيهـا بعضاً من الزيت الذي تسـاقط من تمثـال أم الرب في صيـدنايا ، وعندمـا نظـر بدقـة نحـو القـارورة التي وضع الزيت فيها وهو شفاف مثل الماء، ظهـر الزيت أنه قد أصبح لحماً، لكنه انقسـم الى قسمين : القسـم الأول في الشطر الأسفل من القـارورة ، والقسم الثاني في الشطر الأعلى ، ثم أخـذ الجندي سكينه، وحاول أن يوحـد مـا بين الشطر الأعلى والشطر الأسفل ، لكن مـا أن لامس حـد السكين الزيت المتجسـد، حتى تسـاقطـت نقـاط من الدم منه، مما أدهش الشمامسة والفرسـان ، وجميع السجناء ، الذين كانوا ينظرون اليه، وبما أن كثيرين يجهلون الحقيقة المتعلقـة بتمثال الرب هذا، انه موائم كثيراً، أن نتحدث عن أصله، الى الـذين لا يعرفونه ، وذلك في

سبيل تقديم الثناء الى أم الرب المذكورة.

حول أصل التمثال المذكور وحول بعض معجزاته

عاشت هناك في دمشق ، التي هي المدينة العاصمة لسورية عقيلة محترمة، ارتدت ثوب راهبة، وصار عملها هو عبادة الرب بأعظم خشوع، ولكي تكون أكثر حرية في ممارسة واجباتها الدينية، ومن أجل أن تتجنب صخب المدينة، انسحبت نحو مكان اسمه صيدنايا، يبعد ستة أميال عن المدينة المذكورة أعلاه، وبنت هناك لنفسها بيتاً ومصلى تشريفاً الى أم الرب المقدسة، وقامت بواجبات الضيافة نحو الحجاج والفقراء، وحدث أن قدم راهب من مدينة القسطنطينية الى القدس من أجل التعبد، ورؤية الأماكن المقدسة، وبترحاب استقبل من قبل الراهبة المتقدمة الذكر ولدى معرفة هذه الراهبة أنه كان ذاهباً الى المدينة المقدسة، توسلت اليه بتواضع وبإلحاح، أن يجلب لها لدى عودته من القدس تمثالا ما، أي صورة مرسومة ما لتضعها في مصلاها ، يمكن أن تريها أثناء صلواتها، شبيه أم الرب، وبإخلاص وعدها بأنه سوف يجلب لها صورة، وبعدما وصل الى القدس، وأدى واجباته الدينية ، ولدى فراغه استعد للعودة، فنسي وعده للراهبة، وبعدما خرج من المدينة ، وفيما هو على طريق عودته ، وصل اليه صوت من السماء يقول له: «لماذا عدت فارغ اليدين؟أين هو التمثال الذي وعدت أن تأخذه الى الراهبة»؟

ولدى تذكيره بهذا الشيء، عاد الراهب الى المدينة، وذهب الى المكان الذي كانت تباع فيه التماثيل ، واشترى واحداً أرضاه وحمله معه أثناء عودته،ولدى وصوله الى مكان اسمه غيث Cith كان هناك الأسد كامناً في عرينه، يتولى افتراس البشر، وقد خرج الأسد لاعتراض الراهب على طريقه لكنه أخذ يلعق قدميه ، وهكذا نجا تحت حماية النعمة اللاهوتية دونما أذى، ووقع بعد ذلك في مكمن

للصوص، وعندما كانوا على وشك إلقاء القبض عليه بعنف، ارتعبوا كثيراً من صوت أحد الملائكة ، الذي قرعهم، لذلك لم يعودوا قادرين لا على الكلام ولا على الحركة، ثم ان الراهب ألقى نظرة على الصورة التي حملها، فعرف بوجود بعض الفضائل اللاهوتية الخفية فيها، ثم انه أزعج نفسه بالتفكير حول كيف يمكنه خداع الراهبة ، وبالتالي أن يحمل الصورة معه الى بلاده، ولدى وصوله الى مدينة عكا، صعد الى ظهر سفينة، راغباً إذا أمكن العودة الى الوطن لكن بعدما أبحروا بأشرعة ممدودة لعدة أيام، ثارت فجأة عاصفة، وكانوا مرعوبين كثيراً الى حد أن كل واحد رمى ما معه من سلع في البحر ، وعندما كان الراهب — بين البقية — على وشك أن يرمي حقيبته الى الأمواج، قال له ملاك الرب :«لاتفعل هذا بل ارفع الصورة عالياً بين يديك نحو الرب»، وعندما رفع الصورة عالياً مطيعاً بذلك أوامر الملاك ، توقفت العاصفة على الفور ، وبما أن البحارة لم يكونوايعرفون الى أين هم ذاهبون، عادوا الى مدينة عكا، ثم ان الراهب علم بما أراده الرب من الصورة ، وأنه يرغب أن يفي بوعده ، ولذلك عاد الى الراهبة ، وتمتع أخيراً بضيافتها ، وهي لم تعرفه بسبب تواتر الضيوف ، ولذلك لم تسأله عن الصورة ، ولدى رؤية الراهب ذلك فكر ثانية بأخذ الصورة معه والعودة الى الوطن ، ولكنه عندما حصل في الصباح الباكر على الإذن بالمغادرة ، ذهب الى المصلى للصلاة وبعدما أدى عباداته أراد الخروج ، فلم يتمكن من العثور على الباب ، ولذلك وضع الصورة التي كان يحملها على المذبح في المصلى ولدى فعله ذلك رأى الباب مفتوحاً، لكنه عندما أخذ الصورةمجدداً ، وسعى إلى الخروج لم يستطع ثانية العثور على الباب،وأخيراً عندما رأى أن الفضيلة اللاهوتية تحيط بالصورة وضعها على مذبح المصلى وعاد ثانية الى الراهبة ، وقص عليها بالتدريج وبانتظام جميع الأحوال التي أحاطت بالصورة كما

حكينا أعلاه، وبناء عليه قال بأن إرادة الرب قضت ببقاء الصورة هناك، ومن ثم أن يجري تعبدها بالتشريف الذي تستحقه وبناء عليه أخذت الراهبة الصورة ، وباركت الرب وأمه ، من أجل جميع ما قصه عليها ذلك الراهب، هذا وقرر الراهب نفسه امضاء بقية حياته في ذلك المكان نفسه ، بسبب المعجزات التي تسبب الرب بها بوساطة صورة أمه ، ثم بدأت الصورة تنال الاحترام من الجميع، وأعجب الجميع بأعمال الرب العظيمة والرائعة من خلالها (١).

كيف أخذ تمثال أم الرب يرشح زيتاً

وبعد هذه الأحداث، بنت الراهبة مكاناً بدا لها أكثر تكريما لوضع التمثال فيه، وطلبت من كاهن ظنت أنه كان أعظم جدارة منها نفسها، وكان مشهوراً بقداسته، كما اعتقدت، ليضع عليه ثيابه المقدسة، وليتولى نقل التمثال الى المكان المتقدم ذكره، وكان هو — على كل حال — قد خاف من لمسه، لأنه بعدما وضع على المذبح ، أخذ يرشح، ولم يتوقف من ذلك الحين عن اعطاء سائل واضح ونقي تماماً مثل الزيت، وتولت الراهبة في البداية مسح هذا البلل بقطعة رقيقة من القماش الكتاني، غير أنها اشترت فيما بعد وعاء صغيراً من النحاس الأصفر، جمعت فيه الزيت، الذي وزعته على المرضى وكان كلما جرى استخدامه باسم الرب وباسم أمه شفى أمراضهم، وأبقاهم بصحة حتى هذا الحين، انما عندما اقترب الكاهن المتقدم ذكره من التمثال من دون اهتمام ليأخذه وينقله ما أن لمس السائل الذي تدفق منه ، حتى يبست يداه، ومات بعد ثلاثة أيام وذهب الى الرب، ولم يتجرأ بعد هذا أحد على لمس هذا التمثال أو نقله من مكان الى آخر، باستثناء تلك الراهبة وحدها ، وبعد أمد وضعت المرأة المتدينة وعاء من الزجاج تحت التمثال حتى يمكن جمع الزيت الذي كان يتدفق منه، وحفظه لتزويد المرضى المحتاجين له به.

١ — تقدمت هذه الحكاية برواية أخرى في ص٤٢١٠—٤٢١١

كيف أخرج ذلك التمثال نفسه حلمات من اللحم

ومع مرور الأيام وقعت وقائع لم يسمع بمثلها حتى الآن، لأن ذلك التمثال المتقدم ذكره أنتج أنواعاً قريبة من الصدور اللحمية ، وبدأ يكسوها باللحم بطريقة مدهشة وبناء عليه بدا التمثال نزولاً من الصدر مغطى باللحم كلياً ، ومن هذا الجسد تساقط السائل من دون توقف،وأخذ رهبان الداوية، أثناء الهدنة مع صلاح الدين بعضاً من هذا الزيت، الى بيتهم لتوزيعه على الحجاج الذين كانوا يقدمون الى هناك للصلاة ، ولكي يتولوا، مع الاحترام، تمجيد واحترام أم الرب ونشر ذلك في مختلف مناطق العالم، ويوجد هناك بالحقيقة رهبان في بعض أجزاء الدير، للقيام بالواجبات الدينية، لكن المكانة والسلطة هي بيد الراهبات صدوراً عن الاحترام لتلك المرأة التي تقدم ذكرها ، والتي كانت أول من سكن ذلك المكان ، وبنت مصلى هناك على شرف مريم المقدسة، أم الرب .

كيف استرد سلطان بصره بوساطة هذا التمثال

وحدث في ذلك الحين ان سلطان دمشق الذي كان أعمى في أحد الأيام، أن هوجم من قبل مرض في العين، حتى لم يعد قادراً على الرؤية بها، وصار أعمى كلياً، وقد سمع بالتمثال المتقدم ذكره، الذي عمل من خلال قدرة الرب كثيراً من المعجزات ، فذهب إلى المكان ودخل إلى المصلى ومع أنه لم يكن مسيحياً كان لديه ايمان بالرب وأنه من خلال تمثال أمه، من الممكن ان تسترد صحته، وانكب على الارض وبقي ساجداً وهو يصلي وعندما نهض من صلاته رأى الضوء مشتعلاً في المصباح الذي كان معلقاً وهو يصلي، وعندما نهض من صلاته رأى الضوء مشتعلاً في المصباح، الذي كان معلقاً امام تمثال مريم أم الرب، واكتشف— لسروره— بأنه قد استرد بصره، وبناء عليه قام هو، وجميع الذين كانوا معه، ورأوا هذا، فمجد الرب ولأن أول شيء كان قد رآه

هو الضوء مشتعلاً في المصباح، عمل عهداً للرب، انه سوف يعطي منذ ذلك الحين وصاعداً، سنوياً ستين عياراً من الزيت الى مصابيح ذلك المصلى، الذي استرد فيه بصره من خلال فضائل فضائل مريم المباركة، أم الرب.

كيف استسلمت نورماندي وممتلكات ماوراء البحر الأخرى إلى حكم الملك الفرنسي

تمكن في هذه الآونة جيش الملك الفرنسي، الذي كان يحاصر قلعة صخرة أندلي، منذ قرابة العام، من لغم وتهديم جزء كبير من الأسوار، لكن النبيل والمقاتل روجر، قسطلان شيستر استمر في الدفاع عن المدخل ضد الفرنسيين ، إنما نقصت مؤنه أخيراً، وبلغت به الحاجة إلى حد، أنه لم يعد من الممكن تقديم وجبة واحدة من الطعام لأي عسكري، وكان يفضل أن يموت في القتال على الجوع، وبناء عليه حمل هو وجنوده أسلحتهم، وركبوا خيولهم ، وقاموا بحملة من القلعة، لكن بعدما قتلوا عدداً ممن تصدوا لهم ، وقعوا أخيراً بالأسر، مع أن ذلك كان بصعوبة كبيرة، وهكذا سقطت قلعة صخرة أندلي في يدي الملك الفرنسي في السادس من آذار، وحمل روجردي لاسي مع جميع أتباعه إلى فرنسا، حيث احتجز طليقاً بعد تعهده بعدم الفرار، وذلك بسبب الشجاعة التي أظهرها في الدفاع عن قلعته، وبناء على هذا أرسل جميع المتملكين للقلاع في مناطق ما وراء البحر مع المواطنيين وبقية رعايا ملك انكلترا، رسلاً إلى انكلترا لإخبار الملك عن الوضع الحرج الذي باتوا فيه، وان عليهم في ذلك ، وفقاً لشروط المعاهدة، وقد اقتربوا من موعد نهاية الهدنة إما ان يسلموا المدن والقلاع إلى الملك الفرنسي، أو تعريض الرهائن إلى التلف ، أي الرهائن الذين كانوا قد أعطوهم إلى الملك، وعلى هذه الرسالة أجاب الملك جون جواباً أعطاه إلى جميع الرسل، بأن قال عليهم عدم توقع مساعدة منه، والذي عليهم عمله هو

فعل الذي يسرونه هو الأفضل ، وهكذا سقطت جميع أنواع الدفاع في تلك المناطق، ووقعت نورماندي كلها، وتور، وأنجو، وبواتو، مع المدن، والقلاع، والممتلكات الأخرى، باستثناء قلاع: روشيل Rochelle، وثوارThouars، ونيورزNiorz ، وصارت ضمن ممتلكات ملك فرنسا، ولدى إخبار الملك الانكليزي بذلك لم يهتم لأنه، كان يتمتع بجميع مباهج الحياة مع ملكته، حيث اعتقد انه بصحبتها قد امتلك كل شيء أراده ، فضلاً عن ذلك لقد شعر بالاطمئنان، من خلال ضخامة الثروة التي جمعها، وكأنه بها يستطيع ان يسترد الأراضي والممتلكات التي فقدها.

موت غودفري أسقف وينكستر وخلافة بطرس دي روبيبس له

وفي الأول من نيسان من هذا العام نفسه ظهر في الهزيع الأول من الليل، في الجزئين الشمالي والشرقي من السماء احمرار ، اعتقد كثير من الناس انه نار حقيقية ، والأكثر ادهاشاً من هذا كله أنه ظهر في الجزء الأكثف من ذلك الاحمرار، بعض النجوم اللامعة ، واستمرت هذه الظاهرة حتى منتصف الليل.

ومات في العام نفسه غودفري أسقف وينكستر، وقد خلفه بطرس دي روبيبس Rupibus ، وكان رجلاً من مرتبة الفروسية ، وماهراً في فن الحرب، وقد جرى تعيينه بالأسقفية لصالح الملك جون، وقد انطلق إلى روما، وبعدما وزع هداياه بكرم كبير، بادر مسرعاً إلى الكنيسة في وينكستر ليجري تكريسه أسقفاً ، ووقع هذا في هذا العام في اليوم الأخير من الفصح في يوم عيد القديس مرقص الانجيلي.

بعض الحوادث العجيبة

عام ١٢٠٥م، فيه احتفل الملك جون بعيد الميلاد في تويكبري Tawkebesbury لكنه لم يمكث هناك يوماً واحداً، وفي الشهر

نفسـه، أي شهـر كـانون الثـاني تجمـدت الأرض إلى درجـة أن الأعمال الزراعية تأجلت من الرابع عشر من كـانون الثاني حتى الثاني والعشرين من آذار ، وبسبب ذلك بيع في الصيـف التـالي حمل القمح بأربعـة عشر شلناً، وفي حوالي عيـد أحد العنصرة من العام نفسه، حشـد الملك جون جيشاً كبيراً، وكأنه كـان على وشك عبور البحر، ومع أن رئيس أسـاقفة كـانتربري وكثير من الأسـاقفـة أثنوه عن عـزمـه هذا ، فإنه أمـر بجمع أسطول كبير في بورتماوث، ثـم انه أقلع مع جماعـــة صغيرة في الخامس عشر من تموز ، وسافر في البحر، لكن ما لبث ان غيّر مقصده، فقد نزل في اليوم الثالث في ستودلاند STUDLAND قرب وورهام WOR-HAM ولدى عـودتـه أخـذ مبلغـاً هائــلاً من المال، من الايرلات ، والبـارونات، والفـرسـان، ومن رجـال الدين، واتهمهـم بأنهم رفضـوا مرافقتـه إلى القارة لاسترداد ميراثه الضـائع، وفي هذا العام ، استسلمت قلعة شينون إلى الملك الفرنسي.

موت هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري وانتخاب نائب رئيس الرهبان في كانتربري

وفي الثـالث عشر مـن تموز من العـام نفسـه مـات هيـوبرت رئيس أساقفة كـانتربري في تنهام Tenham، مما بعث السرور في قلب الملك، الذي كان يتهمـه بأنه كان على عـلاقة وطيدة مع الملك الفـرنسي، وبعد وفاة رئيس الأسـاقفة ، وقبل ان يوضع جسـده في القبر ، انتخب بعض صغار الرهبـان من الكنيسة الديرية في كـانتربري —من دون إذن الملك وموافقتـه — رينالد نائب رئيس الرهبان، ليكون رئيساً للأسـاقفة، وفي منتصف الليل، غنوا بعـد انتخابه وأنشـدوا Te deumووضعوه أولاً على المذبح الكبير ، ثم بعـد ذلك على كـرسي رئـاسة الأسـاقفـة، لأنهم كانوا خـائفين من أن هذا الانتخاب الـذي جاء من دون موافقـة الملك، قـد يصل خبره إلى مسامع الملك، فيمنعهم من متـابعته والاستمـرار به،

وبناء عليه، قام نائب رئيس الرهبان هذا ، بأداء قسم، بأنه لن يعد نفسه منتخباً من دون إذن رهبان الدير، ورسائل خاصة منهم، وانه لن يري الرسائل التي لديه إلى أي إنسان، وأخذ بعض رهبان الدير معه، وذهب إلى بلاط روما، وعمل هذا كله في سبيل إبقاء خبر الانتخاب مكتوماً عن الملك حتى يجدوا فيها إذا سيكون بإمكانهم في بلاط روما تنفيذ الانتخاب الذي تولوه ، وجعله فعالاً، لكن رئيس الأساقفة المنتخب ، ما أن نزل في فلاندرز حتى أهمل القسم الذي كان قد أداه، وأعلن بشكل مكشوف، بأنه كان رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، وأنه كان ذاهباً إلى بلاط روما لتثبيت انتخابه، لا بل علاوة على ذلك جعل كل انسان يرى رسائل رهبان الدير التي كانت بين يديه، معتقداً بأنه بهذا سوف يفيد قضيته كثيراً ويرفع من شأنها، ووصل أخيراً إلى روما ، فتولى على الفور إخبار مولانا البابا بذلك ، وكذلك أعلم الكرادلة، وأظهر الرسائل وعرضها على الجميع، وبجرأة طلب من البابا تثبيت انتخابه بالمباركة الرسولية ، ولكن البابا أجابه بسرعة، بأنه سوف يحتاج إلى وقت طويل حتى يتمكن من تفحص الأمر ، في سبيل ان يكون أكثر وثوقاً حول الظروف المتقدم ذكرها.

انتخاب جون أسقف نورويك بناء على طلب الملك الانكليزي

وفي الوقت ذاته ، ما ان سمع رهبان كانتربري بأن نائب رئيس الرهبان لديهم قد خرق يمينه، وانه حالما وصل إلى فلاندرز، قد أعلن انه قد انتخب، وبذلك كشف سرهم، غضبوا كثيراً ، وبعثوا على الفور بعضاً من الرهبان من ديرهم إلى الملك، وطلبوا منه الإذن باختيار رئيس أساقفة يكون مناسباً لهم، ووافق الملك على الفور بلطف وبدون تردد على طلبهم، ولدى حديثه الخاص معهم ألمح بأن أسقف نورويك كان صديقاً كبيراً له، وانه هو وحده من بين الأساقفة الانكليز كان عارفاً بأسراره، وبناء عليه أكد لهم بأنه سوف يكون مفيداً له شخصياً

وللملكة، إذا كان بإمكانهم نقل الأسقف المذكور إلى رئاسة الأساقفة، وبناء عليه طلب من الرهبان بأن يقوموا مع كهنته الذين سوف يرسلهم إلى الدير، ان يتولوا تقديم هذا الطلب إلى رهبان الدير، ووعد بإضفاء منافع كثيرة على رهبان الدير إذا ما قرروا الاصغاء إليه، ولدى عودة الرهبان إلى مقرهم أخبروا إخوانهم الآخرين في الدير بأوامر الملك ، وبناء عليه اجتمع رهبان الدير جميعاً في بيت هيئة الكهنة، وفي سبيل إرضاء الملك والتصالح معه، وذلك بعد ما أغضبوه، وافقوا بالاجماع على انتخاب جون أسقف نورويك، وبعثوا على الفور بعض رهبان الدير إلى رئيس الأساقفة المنتخب، الذي كان في يورك يتولى تدبير بعض أعمال الملك ، لإخباره بالقدوم سريعاً إلى كانتربري، وبادر الرسل بتنفيذ رحلتهم المرسومة وأنجزوها بكل سرعة، ووجدوا الأسقف المذكور في نوتنغهام، فقام على الفور بتسوية أعمال الملك، وبادر مسرعاً إلى المناطق الجنوبية ، حيث التقى بالملك ، وانطلقا معاً يؤمان كانتربري، وفي اليوم نفسه اجتمع حشد عظيم في كنيسة رئاسة أساقفة كانتربري، وقام رئيس رهبان كانتربري فأعلن بحضور الملك ، وبشكل عام إلى الجميع عن انتخاب جون دي غري GRAI ، أسقف نوريك، ثم قام الرهبان باصطحابه ، وحملوه إلى المذبح الكبير وهم ينشدون «TE DEOM» وفي الأخير وضعوه على كرسي رئيس الأساقفة ، وبعد هذا الاحتفال وضع الملك في حوزة رئيس الأساقفة المنتخب جميع الممتلكات العائدة إلى رئاسة الأسقفية، وعاد الجميع إلى مساكنهم ، وبهذا عمل هذا الانتخاب نوعاً جديداً من الخطيئة الأولى، كما سوف تظهر النتيجة بشكل واضح.

الخلاف بين الأساقفة المساعدين في كنيسة كانتربري وبين رهبان ذلك المكان نفسه حول اختيار رئيس للأساقفة

عام ١٢٠٦م ، فيه احتفل الملك جون بعيد الميلاد في اكسفورد ،

وأرسل في الوقت نفسه بعض رهبان كنيسة كانتربري ، وكان بينهم بشكل خاص المعلم ايجاز دي برانتفيلد EHAS DE BRANT-FIELD أرسلهم إلى بلاط روما ، وزودهم بهدايا كبيرة من الخزانة الملكية من أجل الحصول من مولانا البابا على تثبيت لانتخاب جون أسقف نورويك، وأرسل أيضاً في الوقت نفسه بعض الأساقفة المساعدين لكنيسة كانتربري وكلاء إلى روما لتقديم شكوى جادة أمام مولانا البابا، فحواها بأن رهبان كانتربري قد تهوروا بالقيام بانتخاب رئيس للأساقفة من دونهم، مع أنهم -وفقا للحق العام، والعادات القديمة - كان من المتوجب حضورهم الانتخاب مع الرهبان، وعرض الوكلاء أيضاً مراسيم وأمثلة حول القضايا المتقدمة، وجلبوا بعض الشهود، وقدموا بعض الشهادات، وبذلك حاولوا اظهار أنهم -أي الأساقفة المساعدين- قد اختاروا ثلاثة رؤساء أساقفة بالتعاون مع الرهبان، وفي المقابل، وعلى عكسهم، أكد الرهبان، أنهم بوساطة امتياز خاص من الحبر الروماني، وأنهم أيضا بوساطة عادة قديمة مجازة، قد اعتادوا على القيام بالانتخاب من دون الأساقفة، ووعدوا بالبرهنة على ذلك بوساطة شهود مناسبين، وبعد الفراغ من الاستماع إلى مرافعات الطرفين، وتقديم الشهود، وفحصهم بكل دقة، تقرر الحادي والعشرين من كانون الأول من قبل مولانا البابا من أجل اعلان الحكم بين الفريقين، وقد جاءوا ليسماع الشرعة التي تقررت.

كيف عبر الملك جون إلى بواتو
واستولى بالقوة على قلعة مونتأوبان

وفي أيام عيد العنصرة من العام نفسه، حشد الملك جون جيشاً كبيراً في بورتماوث، وركب ظهرالسفينة في الخامس والعشرين من حزيران، ونزل في التاسع من تموز في روشيل ROCHELLE ولدى سماع السكان بهذه الأقاليم بذلك طاروا فرحاً، والتحقوا سريعاً بالملك

وأعطوه وعوداً مؤكدة بالمال والمساعدة ، ثم انه زحف بعد ذلك متقدماً مع ثقة أكبر، وأخضع شطراً كبيراً من تلك المنطقة ، ووصل أخيراً إلى قلعة مونتأوبان الفخمة MONTAUBANالتي كان فيها جميع النبلاء الأشداء في تلك المنطقة، وبشكل خاص أعداءه الشخصين، فهناك اتخذوا موقف الدفاع ، وقام هو على الفور بنصب مجانيقه حولها، وبعد مضي خمسة عشر يوماً دمر شطراً كبيراً من القلعة بالرمي المتواصل للمجانيق والنشاب من القسي العقارة والسهام، وتسلق الجنود الانكليز الذين كانوا مشهورين بهذا النوع من فن الحرب، الأسوار، وتبادلوا ضربات مميتة مع أعدائهم، وبعد مضي بعض الوقت سيطر الانكليز، وسقطت الحامية وتم الاستيلاء على قلعة مونتأوبان الحصينة، وهي قلعة لم يستطع شارلمان —فيما مضى —اخضاعها بعد حصار استمر سبع سنوات، وأسماء النبلاء والرجال المشهورين الذين استولوا على القلعة بخيولهم، وأسلحتهم، ونهبوها، أكثر من أن تحصى، وذكر الملك الانكليزي في رسالة له فيما بعد إلى رجال العدالة، والأساقفة، والنبلاء الآخرين في انكلترا، انه تم الاستيلاء على القلعة في يوم القديس بطرس«في الأغلال» (١ —آب).

النيابة الرسولية لجون أوف فيرنتنو في انكلترا

قدم في العام نفسه جون أوف فيرنتنو FERENTINO ،نائب الكرسي الرسولي، إلى انكلترا، وارتحل خلالها فجمع مبلغاً كبيراً من المال، وعقد أخيراً بعد يوم عيد القديس لوقا الانجيلي، مؤتمراً في ردنغ، ومن ثم سافر بعده مسرعاً، فحزم حقائبه، وأخذ طريقه إلى ساحل البحر، حيث قال وداعاً لانكلترا.

وفي تلك الآونة أيضاً توسط بعض رجال الدين من مختلف البلدان ، ونشطوا بحماس بين الملكين، وحصلوا في يوم عيد جميع القديسين على وعد منهما بالحفاظ على هدنة لمدة عامين، ولذلك عاد الملك جون إلى

انكلترا، ونزل في بورتماوث في الثاني عشر من كانون الأول، وفي عشية يوم الصعود من هذا العام نفسه، غادر هذه الحياة وليم أسقف لنكولن، وفي هذا العام تسلم جوسلين أوف ويلز، الذي انتخب أسقفاً لباث، من خلال وكالة وليم أسقف لندن ، المباركة.

القرار النهائي للبابا انوسنت فيما يتعلق برهبان كنيسة كانتربري

وفي تلك الآنة أرسل البابا انوسنت قراره النهائي إلى الأساقفة المساعدين لكنيسة كانتربري، وكان فحواه كما يلي:«أحيلت إلينا مسألة سلطة الكنيسة والعادات المجازة، من أجل ان يكون البت في القضايا الكبرى في المسائل الكنسية من قبل الكرسي الرسولي، وبما انه قد ثار خلاف بينكم وبين أولادنا المحبوبين رئيس رهبان ورهبان كنيسة كانتربري، فيما يتعلق بحق اختيار رئيس الأساقفة ، فلقد ذكرتم انه ليس فقط بوساطة الحق العام، بل أيضاً بالعادة القديمة، عليكم عمل الانتخاب لرئيس الأساقفة بالتعاون معهم، وفي المقابل هم أجابوا انه بوساطة الحق العام، والامتياز الخاص، وكذلك بوساطة العادات المجازة، لهم الحق بانتخاب رئيس الأساقفة من دونكم، ولدى مناقشة القضية الخلافية بشكل قانوني أمامنا من قبل وكلاء صحيحين، استمعنا بعناية لما قاله الفريقان، ولما عرضاه أمام حضرتنا، فقد عرض فريقكم كل من مراسيم وأمثلة، وقدموا أيضاً بعض الشهود ، وأظهرتم بعض الشهادات، التي حاولتم من خلالها ان تبرهنوا انكم اخترتم ثلاثة رؤساء أساقفة بالتعاون معهم، في حين تبرهن بوساطة رسائل وشهادات أخرى أنكم توليتم في مكان آخر ووقت آخر القيام بانتخابات من هذا النوع من دونهم، هذا وتبرهن بشكل قانوني بوساطة الشهود الذين تقدموا لصالح الرهبان، بأن رئيس الرهبان مع الرهبان في كنيسة كانتربري، قد انتخبوا منذ وقت طويل وإلى الآن رؤساء أساقفة في بيت هيئة كهنتهم من دونكم ، وأنهم حصلوا على تثبيت لهذه

الانتخابات من الكرسي الرسولي، هذا وجرى التدوين من قبلنا ومن قبل أسلافنا في كتاب امتيازاتنا ، انه لدى وفاة رئيس أساقفة لكانتربري، لايجوز تعيين واحد مكانه بالغش أو بالقوة، بل يجري اختيار واحد من قبل غالبية الرهبان ذوي الحكم الصحيح بالرب، وفقاً لبنود القانون المقدس الذي يقرر أمور الانتخاب، وبناء عليه، بعدما سمعنا وفهمنا بوضوح جميع الذي عرض علينا ، وبما أنه من الواضح من خلال تأكيداتكم أنه لايجوز لكم القيام بانتخاب من دونهم ، وأنه عندما كان يجري انتخاب حرم الرهبان من المشاركة فيه، كان الانتخاب غير صحيح، وأيضاً انتخاباً قد عمل من قبل الرهبان من دونكم، عدّ جديراً وصحيحاً ، ولذلك جرى تثبيته من قبل الكرسي الرسولي، وعدّ قانونياً، وانه في كلتا الحالتين توجب بحكم الضرورة تثبيته، نقوم نحن بموجب نصيحة إخواننا فنفرض صمتاً دائماً عليكم بالنسبة لحق انتخاب رئيس أساقفة ، ونحرر بقرارنا الواضح هذا والمحدد، رهبان كانتربري من أي هجوم أو ازعاج من قبلكم ومن قبل خلفائكم، ونرسم أيضاً بموجب سلطاتنا الرسولية بأن يتولى رهبان كنيسة كانتربري وخلفائهم في المستقبل انتخاب رئيس الأساقفة من دونكم، صدر في كنيسة القديس بطرس، في روما ، في اليوم الحادي والعشرين من كانون الأول ، في السنة التاسعة من حبريتنا».

رؤيا تتعلق بمطهرة وبعقوبة الأشرار وبمجد المباركين

في هذا العام انشغل احد الناس، وكان بسيطاً بطبائعه، وكريماً بقدر ما سمحت له امكاناته المتواضعة وكان يعيش في بلدة اسمها تونستد TUNSTED (هي ربما توينسد TUINSTED في اسكس) تابعة لأسقفية لندن، انشغل بعد ساعة الصلاة المسائية، في أمسية يوم الرسولين: القديس سمعان، والقديس جود، في سقاية حقله الذي كان قد بذره في ذلك اليوم، وكان عندما رفع عينيه، رأى رجلاً مسرعاً نحوه

من مسافة ، وبعدما نظر إليه بدأ بالصلاة الربانية، وعندما وصل الغريب إليه، سأله أن ينهي صلاته، وأن يتحدث إليه، وتبعاً لذلك ، ما ان أنهى صلاته حتى تبادلا التحيات، وبعد هذا سأله الرجل الذي جاء إليه،. أين يمكنه ان يجد في الجوار مكاناً يكون مناسباً للاقامة لليلة واحدة، وعندما أطرى الرجل المسؤول كرم الضيافة عند جيرانه، وجد السائل عيباً في كرم الضيافة عند بعض الذين ورد ذكرهم، وفهم العامل وقتها بأن الغريب كان يعرف جيرانه، فسأله برغبة شديدة ، بأن يقبل الاقامة معه، وبناء عليه قال الغريب :«لقد استقبلت زوجتك امرأتين فقيرتين للاقامة معها ، وأنا أيضاً سوف اتحول إلى بيتك من أجل هذه الليلة ، حتى أتمكن من اقتيادك إلى مولاك، أي إلى القديس جيمس ، الذي إليه — حتى في الوقت الحالي — قد صليت بخشوع، لأنني أنا جوليان المضيف، ولقد أرسلت من أجلك، لأكشف لك بوساطة الوسائل اللاهوتية ، بعض الأشياء المخفية عن الناس في الأجساد، ولذلك اذهب إلى بيتك، واسع إلى تجهيز نفسك من أجل رحلة، وبعد ما فرغ الرجل من هذه الكلمات ، أي الذي كان يتحدث معه، اختفى من البقعة، وبادر العامل الذي كان اسمه تورشيل TURCHILL عائداً بسرعة إلى البيت ، وغسل رأسه وقدميه، ووجد امرأتين ضيفتين هناك، حسبما كان القديس جوليان قد أخبره من قبل، وألقى بعد ذلك بنفسه على الفراش الذي كان قد أعده في بيته بعيداً عن زوجته، من أجل كبح نفسه عن الشهوة الجنسية، ونام خارج الغرفة ، وما أن بات جميع أفراد البيت نائمين، حتى أيقظ القديس جوليان الرجل ، وقال «ها أنا ذا، حسب وعدي ، انه الوقت لنذهب معاً ، ودع جسدك يرتاح على الفراش ، حيث انها روحك فقط هي التي سوف تذهب معي، ولكي لا يظهر جسدك انه جسد ميت، سوف أنفخ فيه نفس الحياة»، وبهذه الوسيلة غادرا معاً البيت، القديس جوليان يشق الطريق ، وتورشيل يتبعه.

كيف أخذ الرجل بعد ماتحرر من الجسد إلى كنيسة كان فيها اجتماع للأرواح

وبعدما ارتحلا إلى منتصف العالم، وذلك حسب قول دليل الرجل، واتجها نحو الشرق، دخلا إلى كنيسة ذات بناء رائع، كان سقفها مسنوداً بثلاثة أعمدة فقط، وكانت الكنيسة كبيرة وواسعة، لكن من دون تجزئة، وكلها على شكل قبة واحدة، مثل قلاية راهب، وكان هناك على الجهة الشمالية جدار، ارتفاعه ليس أكثر من ستة أقدام، وكان متصلاً بالكنيسة القائمة فوق ثلاثة أعمدة، وكان في وسط الكنيسة مكاناً واسعاً للتعميد، منه كان يصدر لهباً كبيراً، ليس محرقاً، لكنه كان يضيء الكنيسة كلها دونما توقف، وذلك مع الأماكن المحيطة بها، مثل شمس الهاجرة، وكان هذا الضوء صادراً -كما أخبره القديس جوليان -عن العشارين المستقيمين، وعندما دخلا إلى القاعة، استقبلهما القديس جيمس، وهو يرتدي قلنسوة كاهن، ولدى رؤيته الزائر الذي أرسل خلفه، أمر القديس جوليان، والقديس دومنينوس Domninus ، اللذان كانا يتوليان حراسة المكان، أن يريا زائره أماكن عقوبة الأشرار، وكذلك بيوت الأخيار، وبعدما قال هذا مرّ عابراً، ثم أخبر القديس جوليان رفيقه بأن تلك الكنيسة كانت المكان المعدّ لاستقبال أرواح جميع الذين توفوا مؤخراً إلى أن يمكن أن تعين لهم أماكن الاقامة، والمواضع وكذلك الادانة أو النجاة بوساطة كفارة المطهرة، التي هي مقررة لهم من قبل الرب، وصمم هذا المكان، من خلال وساطة مريم العذراء المجيدة، بشكل رحيم، لكي يمكن لجميع الأرواح التي ولدت مجدداً بالمسيح، أن تجتمع هناك، فور مغادرتها للأجساد، وهي متحررة من هجمات الشياطين، ولكي تتلقى الحكم وفقاً لأعمالها، ولقد رأيت في هذه الكنيسة التي اسمها «مجمع الأرواح»، كثيراً من أرواح المستقيمين، وهي كلها بيضاء، مع وجوه شباب، وبعدما أخذت إلى ماوراء الجدار الشمالي،

رأيت عدداً كبيراً من الأرواح، واقفة قرب الجدار، معلمة ببقع سوداء وبيضاء، وكان بعض هذه الأرواح بياضها أكثر من السواد، وأرواح أخرى كانت على عكس ذلك، وقد مكث الذين كانوا أكثر بياضاً باللون أقرب إلى الجدار، والذين وقفوا في الأماكن القصوى لم يمتلكوا مظهر بياض من حولهم، وظهروا وهم مشوهين في كل جزء.

العشارون الظالمون

على مقربة من الجدار كانت هناك بؤرة الجحيم، التي كان يصعد منها دخان من دون توقف، وهو دخان نتن جداً وله رائحة مقيتة، خلال الكهوف المحيطة، والقائمة في وجه الذين وقفوا هناك وكان هذا الدخان يصدر عن العشارين الظالمين المحبوسين، وعن جثث العشارين الظالمين، وكانت النتانة تسبب آلاماً لامثيل لها للذين كانوا مدانين بهذه الجريمة، وبناء عليه، بعدما شمّ الرجل هذه النتانة مرتين، انضغط عليه بها، حتى أنه أرغم على أن يسعل مرتين، وأعلن الذين وقفوا حول جسده، بأن جسده قد سعل في الوقت نفسه مرتين، وعندها قال له القديس جوليان: «يبدو أنك لم تعشر محصولك بشكل صحيح، ولهذا شممت هذه النتانة»، ولدى تسويغه عمله بسبب فقره، أخبره القديس بأن حقله سوف ينتج وفرة أكبر من المحاصيل، إذا مادفع العشر بشكل صحيح، وأخبره الرجل المقدس، أن عليه الاعتراف بهذه الجريمة في الكنيسة بشكل مكشوف إلى الجميع، وأن يطلب التحليل من الكاهن.

نار المطهرة والبحيرة والجسر، والكنيسة القائمة على جبل البهجة

وكان على الجانب الشرقي لتلك الكنيسة نار مطهرة كبيرة جداً، موضوعة بين جدارين، وكان أول هذين الجدارين قائماً في الجانب الشمالي، وكان الآخر قائماً في الجنوب، وكانا مفصولين عن بعضهما

بفسحة واسعة، امتدت طويلاً بالعرض على الجانب الشرقي، إلى بحيرة واسعة جداً، كان فيها يجري تعميد أرواح الذين كانوا يمرون خلال نار المطهرة، وكانت مياه البحيرة مالحة بشكل لامثيل له، وكذلك باردة، كما تبرهن فيما بعد إلى الرجل، وكان يوجد فوق هذه البحيرة جسر واسع جداً، مزروع كله بالشوك والحسك، وكان كل واحد مرغماً على المرور فوقه قبل أن يتمكن من الوصول إلى جبل البهجة، وكان مبنياً فوق هذا الجبل كنيسة كبيرة، ذات بناء رائع، كان واسعاً بما فيه الكفاية -كما بدت للرجل -لاستيعاب جميع سكان العالم، ثم اقتاده جوليان المبارك دون أن يجرح، خلال النار المتقدمة الذكر، وفوق البحيرة الآنفة الذكر، ومن ثم سار الاثنان مع بعضهما على الطريق الذي قاد من الكنيسة، خلال وسط اللهب، ولم تكن هناك مواد خشبية لإمداد تلك النار بالوقود، بل كان هناك نوعاً من اللهب، مرتفعاً، يشبه مايشاهد في أتون محمى بشكل كثيف، وكان اللهب موزعاً على جميع تلك الفسحة، وقد التهم الأرواح السوداء والمرقطة لمدة قصيرة أو طويلة، وذلك حسب درجات الجرائم، ونزلت الأرواح التي خرجت من تلك النار إلى تلك البحيرة المالحة والباردة، وذلك بناء على أوامر نيقولا المبارك، الذي ترأس على تلك المطهرة، وغمر بعض هؤلاء حتى مافوق الرأس، وبعضهم حتى الرقبة، وبعضهم الآخر حتى الصدر والذراعين،وبعضهم حتى السرة، وآخرون حتى الركب، ولم تصل المياه بالنسبة لآخرين حتى موطىء أقدامهم، والذي بقي بعد البحيرة هو اجتياز الجسر، الذي قام على الجانب الغربي للكنيسة، ومن أمام هذه الكنيسة عبرت بعض الأرواح بشكل ممل كثيراً وبطيئاً، وعبرت أرواح أخرى بشكل أكثر سهولة وسرعة، وعبرت أيضاً أرواح أخرى كما أرادت وبسرعة، دون أن تواجه أي تأخير أو مشاكل أثناء العبور، ذلك أن بعضهم مضى خلال البحيرة بطيئاً جداً، حتى أنهم مكثوا سنوات كثيرة، وسار الذين لم يتلقوا المساعدة من أي من القداسات الخاصة، أوالذين لم يسعوا أثناء حياتهم، للتخلص من

ذنوبهم بأعمال الصـــدقـة تجاه الفقـراء، ولدى وصـــول هؤلاء — أنا أقـول — الى الجسر المتقدم الذكـر، ومن ثم رغبتهم بالعبـور فوقـه الى المكان المخصص لهم للراحة ، ساروا بشكل مـوجع، بأقدام حافية، وسط الحسك الحاد والأشـواك التي كانت قـائمة فوق الجسر وكـانوا عنـدما يصـــبحـــون غـير قــادريـن على تحمـل آلام الوجع الحاد، يضعــون أيديهم على عصي حـــادة لتثبيـــت أنفسهم، ومنعهـا من السقـوط، ووقتها عندمـا تنخـرق أيديهم، كـانوا يتدحـرجـون وهم يتألمون كثيراً ويعـانون على بطونهم، وأجسـادهم كلها فـوق العصي الحادة، وذلك إلى أن يتمكنوا، مـــن الزحف على النهـــاية القصـــوى للجسر، وهم ينزفون بشكل مرعب، وكلهم قد خرقت أجسادهم من كل طرف، إنما عندمـا يصلـون الى قاعـة الكنيسـة المتقدم ذكـرها، يحصلـون هنـاك عـلى مـدخـل سعيـد ويتذكـرون قليـلا عـذابهم الشديـد.

كيف تولى القديس ميكائيل مع الرسولين بطرس وبولص توزيع الأرواح على الأماكن التي خصصت لها من قبل الرب

ثم بعد رؤية هـذه الأشياء كلها عـاد القديس جـوليان والرجل من خـلال وسط اللهب الى كنيسة القـديسـة مريم، ووقفـا هناك مع الأرواح البيضـــاء التـي وصلت مـــؤخـــراً ، وكـــانـــت هذه الأرواح مـــرشـوشـــة بالماء المقـــدس من قبل القـــديس جيمس، والقـــديس دومنينوس، في سبيل أن يصبحـوا أكثر بيـاضا ، وهنا مع أول ضـوء يوم السبت ، جـاء القـديس ميكائيل رئيس الملائكة مع الرسـوليين : بطرس وبولص ، لتوزيع الأرواح التي تجمعت في داخل الكنيسة وفي خـارجهـا ، على الأمـاكن التي خصصت لهم من قبل الرب، وفقـاً لما يستحقـونه، لأن القـديس ميكائيل أعطى الى الأرواح البيضـاء أمـاناً بالمرور خـــلال وسط لهب المطهـــرة ومن خـلال أمـــاكن التعـــذيب

الأخرى حتى مدخل الكنيسة الكبرى التي بنيت على جبل البهجة، مع باب على الجانب الغربي مفتوح دوماً، أما بالنسبة للأرواح المدموغة ببقع سوداء وبيضاء ،والتي كانت جالسة خارج القاعة على الجانب الشمالي فقد جلبت من دون مناقشة حول أعمالها ، من قبل القديس بطرس، وأدخلت من خلال الباب القائم على الجهة الشرقية، الى نار المطهرة، حتى يتمكنوا أن يتطهروا بوساطة اللهب الثائر من وصمات ذنوبهم.

وزن الخير والشر

وجلس بطرس المبارك أيضاً في داخل الكنيسة عند نهاية الجدار الشمالي، وجلس في الجهة المقابلة للرسول الشيطان مع زبانيته، واللهب الكريه الرائحة ، الذي كان ينقذف من فم بؤرة الجحيم ، كان قريباً من قدمي الشيطان ، وكان مثبتاً على الجدار بين الرسول والشيطان ميزاناً معلقاً بشكل متوازن، وكان وسطه معلقاً في الخارج أمام الشيطان، وكان لدى الرسول وزنتين واحدة كبيرة ، وأخرى صغيرة ، وكانت الوزنة الأولى تشع مثل الذهب، وكان لدى الشيطان أيضاً وزنتين، الأولى سخامية، والثانية سوداء ثم اقتربت الأرواح السوداء وقدمت من جميع الاتجاهات، وهي في حالة خوف عظيم وارتجاف ،واقتربوا روحاً بعد أخرى في محاولة لوزن أعمالهم،أخيراً هي أم شراً، لأن الميزان المذكور يزن الأعمال العائدة لكل روح من الأرواح، وفقاً للخير أو للشر الذي فعله، وبناء عليه عندما كان الميزان يميل بنفسه نحو الرسول كان الرسول يأخذ ذلك الروح ، ويضعه من خلال الباب الشرقي المتصل بالكنيسة ، في النار المطهرة، فهناك يكفر عن شروره، لكن عندما كان الميزان يميل ويرجح نحو الشيطان وزبانيته، يسرع ذلك الروح ويبتعد. وهو يولول ويلعن الأم والأب، لأنهما أنجبا صاحبه، ويمضي نحو العذاب

السرمـــدي ، ويـرمى وسط أنين عظيـم في الأتون العميق والمتـأجج بالنيران، الذي كـان عند قـدمـي الشيطان الذي كـان يتـولى الوزن، وغالباً ما ورد ذكـر وزن الخير والشر وفق هذه الطريقة في كتابات الآباء المقدسين.

حول أحد الأرواح الذي حوله الشيطان الى شكل فرس

وفي يوم السبت قرب ساعة المساء وعندما كان القديس دومنينوس والقديس جوليـان في الكنيسة المتقدم ذكرها، جـاء من الجهة الشمالية أحد الشيـاطين وهو على ظهر حصان أسـود وهو يجري بكل سرعة، وكـــان يحثــه خـــلال منعطفـــات المكان، وذلك وسـط كثير من الضجـة،وذهـب عـدد كبير من الأرواح الشريرة لاستقبـــاله، وهم يرقصون هناك ويزمجر أحدهم نحـو الآخر حول الصيد الذي جلب اليهم، وعندها أمـر القديس دومنينوس الشيطان الذي كـان ممتطياً للحصان، أن يقدم اليه مباشرة، وليخبره روح من الذي جلبه، ولكن الشيطان تمهـل كثيراً بسبب السرور العظيم الذي كـــان يتمتـع به فوق ذلك الروح التعيس، فتناول القديس على الفور سوطاً ، وجلد به بحـدة الشيطان، وبناء عليـه لحق بالقـديس إلى الجدار الشمالي، حيث وقف ميـزان الارواح، ثم سأل القديس الشيطان عن اسم صـاحب الروح الذي كـان يعـذبه على هذا الشكل بركـوبه له هكذا ، فأجـابه الشيطان قائلاً :« انه روح واحد من نبلاء مملكة انكلترا، قد مات في الليلة المتقدمـة من دون اعتراف ، ومن دون المشاركـة بتناول جسد الرب ، وكان بين الأخطاء التي اقترفها، وأعظمهـا جريمة، وحشيته نحو رجاله، الذين أنزل كثيراً منهم الى حالة العوز، وقد فعل ذلك، بشكل رئيسي بناء على تحريض زوجته ، التي دفعتـه دوماً نحو الأعمال الوحشيـة ، ولقـد مسختـه الى حصـان لأنه مسمـوح لنا تحويل أرواح المدانين الى أي شكل نرغب به، ولسـوف أقوم على الفـور بالنزول

معـه الى جهنم ، وسـوف أحوله نحـو العـذاب الأبدي، اذا لم تحل الآن ليلة الأحد، عندما تتوقف وظائفنا عن المباريات المسرحية ، وأن نوقع المزيد من العـذاب الشديـد على الأرواح البائسـة »، وبعدمـا تفـوه بهذه الكلمات، وجه نظره نحـو الرجل، وقال للقـديس :« من هو هذا الفـلاح الواقف معـك»؟وقـد أجـابه على سـؤاله قـائـلاً «أولم تعرفـه»؟ ووقتها أجابه الشيطان قائـلاً: «لقد رأيته في كنيسة تيـدستود Tidstude في اسكس في يوم عيد تكريسها»،ثم سأله القديس:«في أي ثوب دخلت الى الكنيسة »؟ فأجابـه: «في ثوب امرأة ، لكن عندما تقدمت نحو جـرن المعمودية عازماً على الدخـول الى الهيكل، تصدى لي الشماس بمـرشـة الماء المقـدس ، ورشنـي بها ، فجعلني أهرب بإندفـاع شديد، وصرخـت صوتاً عـاليـاً وقفزت من الكنيسـة حتى حقل وقع على مسـافة فـرسخين » وبين الرجل مع آخـرين من أهل الأبرشيـة ، وشهدوا على الواقعـة نفسها ، وأعلنوا أنهم سمعـوا تلك الصرخة، وكانوا يجهلون تمامًا سببها .

المباريات المسرحية للشياطين

وقـال بعـد هذا القـديس دومنينوس للشيطان :« نحـن نرغب بالذهاب معكم لمشاهدة مباريـاتكم». فأجابه الشيطان :« إذا ما رغبت بالذهاب معي ، فـلا تجلب هذا العامل معك، لأنه سـوف يقوم عند عـودته الى بني جلدته من الفـانين بإفشـاء خبر أعمالنا مع الأنواع السرية من عـذابنا، الى الأحياء، وسـوف يكسب الكثير ويمنعهم من خدمتنا»، فقـال القديس له:« سر مسرعاً وتقدم نحـو الأمام وسوف أقـوم أنا والقديس جـوليـان باتباعـك » وبناء عليه سـار الشيطان في الأمام، وتبعـه القديسـان، وأخذا الرجل معهما خلسـة،.ثم إنهم مضوا في سيرهـم نحو المنطقـة الشمالية، وكأنهم كانوا يصعدون جبـلاً وكان هناك بيتـاً واسعاً جداً ولـه مظهر مظلم، تحيط به أسـوار قديمـة، وكان

فيه كثيراً من الأزقة(plateae) كانت ممتلئة من جميع الجهات بأعداد لا تحصى من المقاعد الحديدية المحماة، وكانت هذه المقاعد مبنية مع أطر حديدية تتقد اشتعالاً الى حد باتت فيه بيضاء لشدة الحرارة، وكانت هنالك مسامير مدفوعة فيها في كل طرف، من تحت ومن فوق ، ومن على اليمين وعلى اليسار، وعليهم جلست مخلوقات متنوعة الأوضاع والجنس، وكان هؤلاء مخروقين بالمسامير المحماة من جميع جهات أجسادهم، وكانوا مربوطين من كل جانب بأطر نارية، وكان هناك عدداً كبيراً جداً من هذه المقاعد، ومثل ذلك من حشود الناس الجالسين فوقهم، الى حد أن ما من لسان يمكن أن يكون قادراً على تعدادهم، وكان هنالك حول تلك الساحات جدرانا حديدية سوداء،وكان الى جوار تلك الجدران مقاعد أخرى، عليها جلس الشياطين على شكل دائرة، وكأنهم كانوا يتمتعون بمشاهدة منظرمفرح،وكل واحد يزمجز نحو الآخر بسبب عذابات المخلوقات البائسة، وكانوا يذكرونهم بجرائمهم المتقدمة ، وكان على مقربة من ذلك المشهد المقيت ، ولدى النزول من الجبال هناك — كما قلنا — جدار ارتفاعه خمسة أقدام ، منه من الممكن الرؤية بوضوح الذي يصنع دوما في مكان العذاب ذاك ، ثم انه وقف القديسان المتقدم ذكرهما قرب الجدار في الخارج، وأخذا يشاهدان الذي كانت تعاني منه المخلوقات البائسة في الداخل، وكان الرجل متخفياً بينهما، وقد شاهد ما كان يحدث في الداخل.

رجل متشامخ وعذابه

وعندما جلس خدم النار يشاهدون هذا المشهد المعيب،قال رئيس ذلك الحشد الشرير الى زبانيته:« اسحبوا الرجل المتشامخ من مقعده بعنف ودعوه يمثل أمامنا»، وبعدما سحب من مقعده وألبس ثوباً أسود، قام بحضور الشياطين الذين صفقوا له بالدور، فقلد

جميع حركات رجل متكبر متشامخ بلا حدود ، فكان يمد رقبته ، ويرفع وجهه، ويحدق بعينيه مع جبين مقطب ، ويزمجر عالياً بكلمات متعجرفة ، ويحرك كتفيه، وبصعوبة بالغة يحمل ذراعيه لتشامخه، وأما عيناه فكانتا تبرقان، لإعطاء نظرة تهديد ومظهراً مخيفاً، وكان ينهض على رؤوس أصابعه، ويجلس برجلين متشابكتين، يتنفس الصعداء، ويمد رقبته ويجعل وجهه مربداً، مظهراً علامات الغضب بعينين تقدحان ناراً ، وكان يضرب أنفه باصبعه، معطياً انطباعاً بتهديدات كبيرة وهكذا تورم وانتفخ بتكبر داخلي، وشكل بذلك موضوعا للضحك بالنسبة للأرواح اللابشرية ، وعندما كان يتفاخر متكبراً عارضاً لملابسه، وأثناء ربطه لقفازيه، تحولت ملابسه فجأة الى نار،أتلفت جميع جسد ذلك المخلوق البائس، وقام الشياطين أخيراً، وهم مشتعلون غضباً بتمزيق أطراف ذلك البائس طرفاً طرفاً بمخالب وكلاليب حديدية، وقام أحدهم بوضع دهن مع زفت ومواد دهنية أخرى في مقلاة حامية جداً، وأخذ يقلي كل واحد من الأعضاء، عند انتزاعه ، في ذلك الدهن الذي كان يغلي وفي كل مرة كان الشيطان يرش عليهم الدهن، كان يصدر من الأعضاء فحيحاً يشبه الصوت الذي يتسببه صب الماء البارد على الدم الذي يغلي، وبعد قلي الأعضاء هكذا، كانوا يتحدثون ثانية ويعود ذلك الرجل المتكبر الى شكله السالف ، ثم انه اقترب من ذلك الرجل البائس حملة المطارق الجهنمية مع مطارق، وثلاثة قضبان حديدية محماة لونها لذلك أحمر، وهي مطروقة مع بعضها وفق تريب ثلاثي ، ثم انهم وضعوا قضيبين عند ظهر جسده ، واحد الى اليمين وآخر الى اليسار، ثم قاموا بوحشية بدفع المسمارين الحاميين في داخله بوساطة الطرق بمطارقهم، وكانت بداية هذين القضيبين عند قدميه، وقد خرقا صعوداً فخديه وحقويه حتى الكتفين، ثم لويا حول رقبته، أما القضيب الثالث فكانت بدايته عند وسطه، حيث مرّ بأمعائه، ووصل حتى أعلى

رأسه وبعد ما جرى تعذيب هذا البائس لوقت طويل، وفق الطريقة الموصوفة أعلاه، غرس بدون رحمة ، ثانية على كرسيه السالف، وعندما أجلس هناك، جرى تعذيبه من جميع الجهات بوساطة أظافر محماة حتى الاحتراق وبأصابعه الخمسة الممدودة، ثم انتزع بعد هذا من مكان التعذيب هذا ووضع في مقر الاقامة الذي عمله لنفسه عندما كان حياً لينتظر المزيد من العذاب.

حول أحد الكهنة

ثم جرى سحب كاهن بعنف من مقعده الناري للاستهزاء به، وأجلس أمامه هؤلاء العفاريت اللابشرية، من قبل خدم الذنوب، حيث قاموا بعد ذلك بقطع حلقومه من وسطه، وسحبوا لسانه وقطعوه من جذره ولم يقم هذا الكاهن — لدى تمكنه — بسداد ديون الناس الذين عهد اليه بأمر العناية بسلعهم الدنيوية، حيث أخذها منهم، لا بوساطة الإثارة الدينية ، ولابمثال الأعمال الطيبة، ولم يمنحهم التأييد بالصلوات أو بالقداسات ، وبعد ما — كما حكينا عما حدث للرجل المتكبر — مزقوا أطرافه طرفاً طرفاً، ثم أعادوه كما هو ، وأجلسوه في كرسي التعذيب .

حول أحد الجنود

وجلب بعده، ودفع نحو الأمام، أحد الجنود ، الذي كان قد أمضى حياته في قتل الناس الأبرياء في المبارزات والسرقات، وقد جلس على ظهر حصان أسود ، وبرفقته جميع أسلحته الحربية، وكان عندما يحث الحصان بالمهماز كان يقذف نحو الأمام لهباً من القار مع نتانة ودخان من أجل تعذيب ممتطيه وكان سرج الحصان مثقباً من جميع الجهات بمسامير نارية طويلة ، وكان الدرع والخوذة والترس والحذاء جميعاً مغلفين باللهب وكان الراكب مثقلاً جداً بحملهم

بسبب وزنهم، وكـانوا في الوقت نفسـه يحرقونه حتى العظام بعـذاب هائل، وبعـدمـا قـام تقليداً لعـاداته الماضيـة في الحرب، حث حصـانه ليركض بأقصى سرعـة وهـز رمحه ضـد الشيطان الذي تصـدى له، وأجبره على الترجل، ثم انه أنزل مـن على ظهـر حصـانه ، ومـزق الى قطع ، وقليت أطرافـه في السـائل المذكـور أعلاه ، وبعـد قلي أطرافـه أعيدت ولصقت ثـانية بالطريقة نفسهـا مثل الذين تقدمـوا قبله، ثم ربط بوسـاطة ثلاثة أوتاد، وعندما أعيـد الى ما كـان عليه غـرس بعنف في مقعده.

حول أحد المرافعين

وبعـد الجندي، جـرى سحب رجل كـان بـارعـاً جـداً بالقـانون الدنيوي، وشـد نحو الأمام الى الوسط مع عذاب شـديد ، جلبه على نفسـه من خلال سبيل شرير طويل نهجـه في الحياة ، ولقبـوله الهدايا من أجل منع القضـاء والحكم، وكـان هـذا الرجل معـروفـاً جـداً في المقـاطعات الانكليـزية، بين أوسـاط المراتب العليا، لكنه أنهى حيـاته بشكل بائس في السنة التي شـوهـدت بها هذه الرؤيا، ذلك أنه مـات بشكل مفـاجىء من دون عمل أية وصية، وجميع الثروة التي كان قـد جمعهـا بجشعه الشرير ، قـد حرم منهـا كلياً ، وأنفقت من قبل غـرباء عنه، وكان قد اعتـاد على الجلوس في خزانة الملك، حيث غالبـاً ما كان يتلقى الهدايا من الفـرقاء المتخـاصمين، وأيضـاً بعدمـا جرى جـره نحو الأمام من أجل السخـرية منه، وذلك بحضور الأرواح الشريرة، أرغـم بشكل مهين من قبل العفاريت على تقليـد أعمال حياته الماضية حيث كان يدير نفسه ساعة نحـو اليمين ثم ساعة أخرى نحو اليسار، ليعلم الفريق الأول كيف يعرض قضيته ، ثم ليعلم الفريق الثاني كيف يرد عليـه، وأثناء عمله هذا لم يتمنـع عن قبـول الهدايا، بل تقبل المال من فريق أول حيناً ، ثم من الفريق الثاني حيناً آخر ، وبعد عدّه لها

وضعها في جيـوبه، وبعدما شـاهد الشياطين لوقت طويل حـركات هذا الرجل التعيس، صارت الأموال فجأة حامية، وأحرقت الرجل البائس بطريقة ليس فيها مرحمة، وقد أرغم على وضع قطع النقود في فمه، مع أنهم كانوا يحرقـونه، ثم أرغم بعد ذلك على ابتـلاعهم، وبعد ابتـلاعه لهم قدم اليه إثنان من الشياطين مع عربة ذات دواليب حديدية، كلها مـزروعة بأوتاد ومسـامير، ووضعوها على ظهـر المذنب، ودوروها في جميع الاتجاهات، وبذلك مزقـوا ظهره كله بحركتها العنيفـة المحرقة والسريعـة وأرغمـوه على التقيـؤ بالأمـوال التي ابتلعهـا وسط عـذاب شديـد، والآن مع عذاب أشد وأقسـى وبعد التقيؤ بالمال، أمـره شيطان بجمعهم ثانيـة، حتى يمكن اطعامـه بهم ثانيـة، وبعد هذا بات خـدم الجحيم مغضبين كثيراً، فأنزلوا به جميع أنواع العـذاب التي ورد ذكرها أعـلاه، وكانت زوجـة هذا الرجل جالسـة فوق واحـد من المقاعـد ذوات الأوتاد النارية لأنها كـانت محرومة كنسياً في عـدة كنائس، بسبب خاتم قد وضعته في علبـة جواهرها دون أن تعرف، ثم أعلنت أنه قـد سرق، وهي لم تتحـرر من هذا الـذنب ، ومنعهـا من ذلك مـوت مفاجىء.

حول زاني وزانية

وجرى الآن إحضـار زاني وزانية الى أمام الشياطين الغـاضبين ، وقد عرضا وهما متحدين باتصالها القذر ، وكررا بحضور الجميع حركاتهما المهينة والمخجلة ، وذلك بخلجـات عنيفـة لإرباكهما، وسط لعنهما من قبل الشيـاطين، ثم بعـد مـا أصيبـا بالخبـال ، شرعـا بتمـزيق أحـدهما الآخـر، حيث غيرا الحب الظاهري، الذي بـديا وهما يتمتعـان به من قبل، أحدهما نحـو الآخر، وبدلاه الى كراهية ووحشيـة ، ووقتها جرى تمزيق أطرافهما من قبل الحشـود الغـاضبـة من حـولهما، وعـانيـا من العقوبات نفسها مثل الذين تقدموا قبلهما، وجرى أيضا تعذيب جميع

الزناة الذين كـانوا حضوراً بطريقة مشـابهة وكانت شـديدة وكثيفة الى حد أن آلامهم كـانت من الهول بمكان، أن قلم الكاتب ليس كـافياً لوصف ذلك.

المستهزئون

وبين المخلوقـات البـائسـة الأخـرى، جـرى احضـار اثنين من المستهـزئين الى الوسط ، اللذان قامـا مع تشـويه مستمر بفتح فـاهيهما حتى أذنيهما، وأدارا وجهيهما كل واحد نحو الآخـر، وحدق كل واحد منهما بالآخـر بأعين غاضبـة عـابسة ، ووضـع في فم كل واحـد منهما نهاية نوع من أنواع الرمـاح المحترقة، وكانـا يأكلانه ويلوكانـه بأفواه مشوهة، وسريعاً مـا وصلا الى وسط الرمح، واقتربا من بعضهما حتى كـادا يلتصقان، وبهذه الصـورة مـزق كل واحد، منهما الآخـر، ولوثا وجهيهما بالدم.

اللصوص والمحرقون

وكان بين الذين أحضروا ودفعوا نحو الأمـام ، لصوصاً وحراقين مع خارقين لحرمات الأماكن الدينيـة وقد وضع هؤلاء من قبل عبيد الجحيم فـوق دواليب حـديدية حمراء مـن شـدة الحرارة، مغـروسـة بالحسك والمسامير، ولشدة حماوتها كانت ترسل باستمرار شرراً من النار كـان يتساقط دومـاً مثل المطر على أولئك التعساء الذين كـانوا يدورون ، ويعانون من عذاب مخيف .

الباعة

ثم جاء الى البقعة أحد الباعـة مع موازين زائفة ، وأوزان ، وأيضاً مع الذين مـدوا أقمشـة جـديـدة في حـوانيتهم وشـدوها الى درجـة عظيمـة في الطول وفي العـرض حتى أن خيـوطهـا تمزقت وتقطعت وعمل فيهـا فتحـات ، وخـاطوا بعـد ذلك ببراعـة متناهيـة هذه

الفتحات، وباعوا هذه الأقمشة في أماكن مظلمة، وانتزع هؤلاء بقسوة متناهية من مقاعدهم، وأرغموا على اعادة تمثيل حركات ذنوبهم الماضية لإهانتهم ولزيادة تعذيبهم،من قبل الشياطين، وفق الطريقة التي وصفناها عن الآخرين من قبلهم، ورأينا الى جانب هذا الرجل، على مقربة من المدخل الى الجحيم المنخفض، أربع ساحات، كان وضعها كما يلي: حوت الساحة الأولى عدداً لا يحصى من الأفران، ومراجل مليئة حتى الأعلى بزفت محترق وبعناصر أخرى ذائبة، وفي كل ساحة من هؤلاء كدست الأرواح مع بعضها ،وهي تغلي بحدة، ورؤوسهم مثل رؤوس الأسماك السوداء، وذلك بسبب عنف الغليان ، وكانوا يرغمون أحياناً على الصعود نحو الأعلى فوق السائل، وفي أوقات أخرى كانوا يهوون نحو الأسفل، واحتوت الساحة الثانية مثل ذلك مراجل ، لكن مليئة بالثلج وبالجليد المتجمد ، فيها كانت تتعذب الأرواح وسط آلام لا تحتمل، وكانت مراجل الساحة الثالثة مليئة بماء كبريتي يغلي وبأشياء أخرى ، وكان يصدر عن ذلك روائح نتنة ممزوجة بدخان قذر، وكان هناك الأرواح التي ماتت وسط قذارة شبقها، وهناك كانت هذه منطقة عذابهم الخاصة، واحتوت الساحة الرابعة على مراجل مليئة بماء مالح أسود، حدة ملوحته تنزع لحاء أي نوع من الأشجار مباشرة عند رميها فيها، وكان في هذه المراجل حشود من المذنبين ، والقتلة ، واللصوص والنهابين، والسحرة ، والرجال الأغنياء، الذين ظلموا أتباعهم بشكل غير اعتيادي واستخرجوا منهم الأموال بشكل غير عادل، وكانوا يغلون بشكل مستمر، وكان عبيد التعذيب واقفين من حولهم، يضغطون عليهم معاً في الداخل حتى لا ينجو أحد منهم من حرارة السائل الذائب، وكان الذين جرى غليهم لمدة سبعة أيام في هذا الدهن المائع، قد ألقي بهم في اليوم الثامن في البرد، في السائل الذي كان يغلي، وفي الوقت نفسه فإن الذين كانوا يغلون في الماء المالح، قد

جرى تعذيبهم فيما بعد في النتانة، وكانوا دوماً يرعون عمليات التغييرات هذه كل ثمانية أيام.

الكنيسة القائمة على جبل البهجة والوساطات التي عملت من أجل الأرواح

وبعد رؤية هذه الأشياء، وعند بداية ظهور صباح يوم الرب، تابع القديسان اللذان تقدم ذكرهما مع الرجل الذي كانا يقتادانه، وساروا نحو جبل البهجة، وكان ذلك من خلال نار المطهرة، والبحيرة، وفوق جسر الحسك والشوك، وذلك حتى وصلوا الى قاعة قائمةعلى الجهة الغربية من الهيكل الذي تقدم ذكره، والذي كان قائماًعلى الجبل، وقد كان هناك باب جميل وواسع، مفتوح بشكل دائم، من خلاله جرى احضار الأرواح، التي جعلت بيضاء تماماً، من قبل القديس ميكائيل، واجتمع في هذه القاعة الأرواح التي تطهرت، وكانت تصلي بكل حرارة، متوقعة سماحاً سعيداً الى ذلك المكان، ورأى الرجل في الجهة الجنوبية خارج الهيكل عدداً لا يحصى من الأرواح، وكلهم ووجوههم قد التفتت نحو الكنيسة، وكانوا يصلون من أجل الحصول على مساعدة أصدقائهم الذين كانوا أحياء، فبتلك المساعدة ربما يمكنهم نيل الإذن بالدخول إلى تلك الكنيسة، وكانوا كلما حصلوا على مزيد من المساعدة، كلما اقتربوا أكثر من الكنيسة، ولاحظ في هذا المكان عدداً كبيراً من معارفه، وكذلك أولئك الذين قد عرفهم بشكل عابر أثناء الحياة، وأخبر القديس ميكائيل الرجل وجدثه عن جميع أولئك الأرواح، وبين له بكم من القداسات يمكن لكل روح أن تنطلق متحررة، ومن ثم يسمح لها بالدخول الى الهيكل، ولم تعان الأرواح التي كانت أيضاً تنتظر الإذن، من أية عقوبة، إذا لم يكونوا بانتظار أية مساعدة خاصة من أصدقائهم، ومع ذلك فإن جميع الأرواح التي وقفت هناك اقتربت

يومـياً من مدخـل تلك الكنيسة بوسـاطة المساعـدة العامـة للكنيسة كلها.

المراتب المتنوعة لتلك الكنيسة

ويعـد احضـار ذلك الرجـل الى داخل الهيكل من قبل القـديس ميكائيل، رأى هنـاك كثيرين كـان قـد رآهم في الحيـاة من كـلا الجنسين، في ملابس بيضاء، كانوا يصعدون الى الهيكل، ويتمتعون بهناءة كبيرة، وكـانت الأرواح كلما صعـدت أعلى فوق سـلالم الهيكل ، غـدت أكثر بياضـاً وأكثر اشعاعاً، وكـان من الممكن أن يرى في تلك الكنيسة العظيمـــة كثيراً مـن المنازل الأعظم جمالاً، فيهـــا سكنت أرواح الأتقياء، وكانت أكثر بياضـاً من الثلج،وكانت وجوههم وتيجانهم تبرق مثل بريق الذهب، وكـانوا يسمعون في سـاعة محددة من كل يوم أغـاني من السماء، وكأن جميـع أنواع الموسيقى كـانت تغنى بانسجـام وبلحن جميل واحد، وكانت هذه الموسيقى تلطف وتنعش جميع سكان الهيكل في نعـومتها المقبـولة،أثناء تمتعهم بجميع الأنواع اللذيذة من اللحـوم، لكن الأرواح التي كـانـت لاتزال واقفـة منتظرة في القـاعـات في الخارج، لم تسمع شيئاً من هذه الأغـاني السماويـة، وكـان في هذا المكان أيضـاً، قـد اتخذ عدد من القديسين مساكن لهم،حيث كانوا يستقبلون بسرور،أولئك الذين خدموا بشكل خاص أنفسهم بعد الرب في كل شي،حتى يمكنهم فيما بعد احضارهم على مرأى من الرب.

الجنة وآدم أبونا الأول

وانحـرفوا بعـد هذا جـانباً، نحـو الجهـة الشرقية من الهيكل المتقـدم ذكـره،ووصلوا الى مكان جميل جداً،رائـع بأنواع أعشابه ووروده،وكـان مليئاً بالرائحـة الطيبـة الصـادرة عن الأعشـاب والأشجـار،وهناك رأى الرجل نبعـاً عظيم الصفاء،كـان يتـدفق على شكل أربعة جـداول ألوان

مائها مختلفة،وكان فوق ذلك النبع شجرة ذات حجم مدهش،وارتفاع هائل،فيها وفرة من جميع أنواع الفواكه،ومن جميع أنواع الروائح الطيبة،وكان راقداً تحت هذه الشجرة وعلى مقربة من النبع رجل له شكل وسيم وحجم هائل،وكان مرتدياً من قدميه الى صدره ثوباً له ألوان متنوعة، ومن قماش جميل بشكل مدهش،وبدا هذا الرجل وكأنه يبتسم بالعين الأولى،ويبكي بالعين الثانية،وقال القديس ميكائيل:«إن هذا هو الأب الأول لبني البشر،إنه آدم، وهو يشير في العين التي يبتسم فيهاويعبر عن البهجة التي يشعر بها نتيجة مجد أبنائه الذين أنقذوا، وهو يعبر في العين الأخرى التي يبكي بها عن أسفه الذي يشعر به،بسبب عقوبة أبنائه والحكم العادل الذي صدر عليهم من الرب،أي على الذين أدينوا،وكان الثوب الذي تغطى به مع أنه لم يكن كاملاً،هو ثوب الديمومة،ورداء المجد، الذي حرم منه لدى اقترافه لذنبه الأول، ذلك أنه منذ أيام قابيل،ابنه الصالح،قد بدأ باسترداد هذا الثوب،واستمر يفعل ذلك خلال جميع أجيال أولاده الصالحين،ومثلما يشع النخبة بفضائلهم المتنوعة،كذلك يفعل هذا الثوب،المصبوغ بألوانه المتنوعة، وعندما سيكمل عدد النخبة من أولاده،وقتها سوف يلبس آدم كامل ثوب الخلود والمجد، وبذلك سوف يصل هذا العالم الى النهاية.

كيف عاد الرجل الى جسده

وبعد الابتعاد قليلاً عن هذا المكان،وصلوا الى أكثر الأبواب جمالاً،وكان مزيناً بالجواهر وبالأحجار الكريمة،وأشع السور الذي كان من حوله،وكأنه كان من الذهب،وما أن دخلوا ذلك الباب،حتى ظهر هيكل من النوع الذهبي،كان أكثر فخامة من الهيكل الأول،في جماله كله، وفي طيب رائحته،وفي أبهة أضوائه الشعشعانية،حتى أن الأماكن التي رأوها من قبل قد بدت ليست جميلة بالمقارنة مع هذا المكان، وبعدما دخلوا الى الهيكل، رأى الرجل في الجانب الأول،بيعةمتألقة بزينة

رائعـــة،وقـــد جلس فيهـــا ثـلاث عـــذراوات يشعـن بجمال لايمكن وصفـه،وقد كن كما أخبره رئيس الملائكة: القـديسة كـاترين،والقـديسة مـرغـريت،والقديسـة أوسيـز osith، وعندمـا كان يتأمل معجبـــــاً بجمالهن،قـال القـديس ميكائيل للقـديـس جـوليـان:« أعـد هذا الرجل مباشرة الى جسده،لأنه إذا لم تتم إعادته بسرعة إليه،فإن المياه البادرة التي يرميهـا الواقفـــون في وجهـه سـوف تخنقـه كليـاً»، وبعـد التفـوه بهذه الكلمات،لم يعـرف الرجـل كيف أعيـد الى جسـده، واستيقـظ وقـام من فـراشـه،فقـد كـان راقـداً على فـراشـه، وهـو بدون وعي،لمدة يومين وليلتين،أي من سـاعـة مسـاء اليوم السـادس من الأسبـوع حتى مسـاء الأحد التالي،وهو كأنه غاط في نوم عميق،وحالما جاء الصباح حتى بادر مسرعـاً الى الكنيسـة،وبعد قيامـه بقـداس، سأله الكاهن وبقيـة رجـال الأبرشيـــة،الذين كـــانوا قـــد رأوه وكأنه بدون حيـــاة قبل وقت قصير مضى،ورجـوه أن يخبرهم عن الذي كشف له، وتردد- على كل حـال- من خلال سذاجتـه الكبيرة، في القيام بالحديث عن رؤياه، حتى ظهر له في الليلة التاليـة القديس جـوليان، وأعطاه أوامـر بأن يكشف كل الذي رآه،لأنه- كما قال- أُخذ من فراشه،بقصد أن ينشر على الناس جميعاً كل الذي سمعه، وفي طاعة منه لأوامر ذلـك القديس، قام في يوم عيد جميع القـــديسين،وفي الأوقـــات التي تلـت ذلك،بالحديث عـن رؤياه بشكل واضح ومكشوف بـاللسان الانكليزي،وكل الذين رأوه عجبـوا مما حبي به من مقـدرة على الكلام بشكل غير اعتيـــادي،وهو الرجل الذي ظهـر من قبـل من خـلال ســـذاجتـــه أنه جلف وغير قـــادر على الكلام، وباستمراره في حكايته عن الرؤيا التي رآها، قد جعل الكثيرين ينفعلون فيبكون، وينوحون بمرارة.

كيف ذهب غيوفري رئيس أساقفة يورك إلى المنفى

عام ١٢٠٧، فيـه احتفل الملك جون بعيد الميـلاد في وينكستر،بصحبة

نبلاء المملكة، وفيما بعد في أيام طهارة مريم العذراء المباركة،فرض ضريبة في جميع أرجاء انكلترا،قضت بجباية جزء من ثلاثة عشر جزءاً من السلع المنقـــولة وغير المنقـــولة،على العلمانيين، واللاهوتيين والأساقفة،مما سبب شكوى عامة بين الجميع،مع أنهم لم يتجرأوا على المصارحة بمعارضة ذلك،وكان غيوفري رئيس أساقفة يورك هو وحده الذي لم يوافق على الضريبـــة،وقد تحدث بشكل معلن ضـدها،وغادر انكلترا بشكل سري،ولدى مغــادرته لعن وحـرم من شراكــة المؤمنين بشكل خاص جميع الذين شاركوا في هذه السرقـة، في رئاسة أسقفية يورك، وبشكل عام كان قراره ضــد جميع الذين يهاجمون الكنيسة أو ممتلكات الكنيسة.

وهبت في هذا العام نفسه، في السابع والعشرين من شباط،عاصفة عنيفة،في حوالي منتصف الليل،فدمرت الأبنية،واقتلعت الأشجار، ولأنها ترافقت مع سقوط كميات ضخمة من الثلج فقد سببت هلاك المواشي وقطعان الأغنام والسائمة.

وقـــدم في هــذا العــام نفســه الامبراطـور أوتو الى انكلترا،واجتمع للتحادث مع خاله، وبعد ذلك عاد الى مملكته،لكن بعدما تسلم من خاله مبلغ خمسة آلاف مارك من الفضة.

ونبغ في هذه الأونة،تحت رعاية البابا أنوسنت، طائفة من الواعظين اسمهـا الفـرنسيسكان،مــلأت الأرض ، وسكنت في المدن والبلدات بالعشرات والسبعـــات ، حيث لم يتملكـوا ممتلكات بشكـل مطلق، وعاشـوا وفقاً للانجيل، وأظهروا فقراً شـديداً، وساروا بأقدام حافية، وضربوا مثــلاً عظيماً بالتـواضـع الى جميع الطبقـات، وذهبــوا في أيام الآحاد وفي أيام الأعياد، من أماكن إقامتهم ، يبشرون بكلمة الانجيل في كنائس الأبرشيات ، وكـانوا يأكلون ويشربون كلما وجدوه بين الذين كـانوا يتولون وعظهم، وكانـوا متميزين جداً، نظراً لتقـديرهم

لأعمال السماء، ولمحاولتهم بأنهم أنفسهم غير مرتبطين بقضايا هذه الحياة ، ولا بمتع الجسد ، ولم يحتفظوا بأي نوع من الأطعمة امتلكوه الى الغد ليستخدموه، بهدف اظهار أن فقرهم الروحي هو الذي يتحكم بعقولهم، ولكي يظهروا أنفسهم الى الجميع فقراء في ملبسهم وفي أعمالهم.

إلغاء انتخاب أسقف نورويك
وكذلك انتخاب نائب الشماس من كانتربري

ومثل في هذه الآونة رهبان كنيسة كانتر بري أمام مولانا البابا، للترافع حول الخلاف المؤسف الذي تفجر بينهم أنفسهم، لأن شطراً منهم قدم رينالد، نائب رئيس رهبان كانتربري بوساطة رسائل صحيحة صادرة عن رهبان الدير ، على انه رئيس أساقفتهم المنتخب، وكرروا هذا مراراً ، وطالبوا بإلحاح تثبيت انتخابه، وكان لدى الشطر الآخرمن الرهبان أنفسهم ، رسائل أيضاً أصيلة، تقدم بها جون أسقف نورويك ،وقد أظهروا من خلال مناقشات كثيرة أن انتخاب نائب رئيس الرهبان كان لاغيا، ليس فقط بسبب أنه عمل أثناء الليل، ومن دون الطقوس والاحتفالات المرعية، ومن دون موافقة الملك، بل أيضاً لأن هذا الانتخاب لم يجر من قبل الجزء المسن والأكثر حكمة بين رهبان الدير، وهكذا عرضوا هذه الأسباب، وطالبوا بوجوب تثبيت الانتخاب، الذي عملوه أمام شهود موائمين، في وضح النهار، وبموافقة الملك، وأثناء حضوره، ولدى عرض هذا الجانب من القضية وبعد الفراغ من سماعه وفهمه بوضوح، قام المرافع الممثل لحزب نائب رئيس الرهبان، فعرض بأن الانتخاب الثاني باطل وفارغ، فمهما قيل عن طبيعة الانتخاب الأول، سواء أكان صحيحاً أم غير صحيح، كان من المتوجب الغاء الانتخاب الأول قبل عمل الانتخاب الثاني ، ولذلك طالب بشكل

ثابت، بوجوب الاعتراف بالانتخاب الأول ، وأنه هو الصحيح.

وأخيراً رأى مولانا البابا ، بعد المناقشات الطويلة من كلا الجانبين ، أنه لا يمكن اتفاق الفريقين على تثبيت شخص واحد ، وأن الانتخابين معاً قد عملاً بشكل غير نظامي، وليس وفقاً لمراسيم القوانين المقدسة ، وبناء عليه واعتماداً على نصيحة كرادلته، قام فألغى الانتخابين ، ووضع حرمانا رسولياً على الفريقين ، وأمر بقرار حكم محدد أنه لا يجوز لأي منهما التقدم لنيل مرتبة رئاسة الأساقفة .

ترقية المعلم ستيفن لانغتون وتكريسه

ومع إلغاء الانتخابين المتقدمين ، لم يرغب مولانا البابا بالسماح لقطيع الرب بالبقاء مدة أطول من دون رعاية راعي أبرشية ، فأقنع رهبان كانتربري الذي مثلوا بحضرته كمرافعين في مسألة كنيسة كانتربري، بالقيام بانتخاب المعلم ستيفن لانغتون Langton ، وكان هناك كاهناً كاردينالا، وكان — كما قلنا — با رعاً في العلوم الأدبية، ومستقيماً، ومصقولاً في أخلاقه، وأكد أن ترقية ذلك الرجل سوف تكون مفيدة جداً الى الكنيسة الانكليزية كلها، ومثل ذلك الى الملك نفسه، وأجابه الرهبان وأوضحوا له، انهم لا يمتلكون التخويل، إلاّ بموافقة الملك، وباختيار الكهنة وبالتالي لا يستطيعون الموافقة على انتخاب أي شخص ، أو القيام بانتخاب من دونهم، وقال لهم البابا ، وكأنه يلقي على مسامعهم كلاماً قالوه:« إنكم تظنون أنكم تمتلكون سلطات مطلقة في كنيسة كانتربري، وإنه ليس من المعتاد انتظار موافقة الأمراء فيما يتعلق بانتخابات تعمل لدى الكرسي الرسولي ، ولذا آمركم بحكم طاعتكم، وتحت عقوبة الحرمان والتكفير من قبلنا، آمركم أنتم الذين هنا، مهما كان عددكم ووضعكم — ففي ذلك كفاية تامة للقيام بالانتخاب— أن تقوموا بانتخاب الرجل الذي أعطيناكم إياه، ليكون رئيس أساقفة لكم، وأباً ، وراعياً لأنفسكم»،

ولم يتجرأ الرهبان على مواجهة قرار الحرمان الكنسي ، وأعطوا موافقتهم، بالاكراه وهم يتذمرون، وكان الوحيد بينهم الذي لم يوافق هو المعلم الياس دي برانتفيلد Brantfield ، الذي جاء من جهة الملك، وجهة أسقف نورويك ، وأنشد بقيتهم :« Te Deum »، وحملوا رئيس الأساقفة المنتخب الى المذبح، وبعد هذا تلقى التكريس من البابا المذكورفي مدينة فيتربو Viterbo، في السابع عشر من حزيران.

كيف بعث البابا انوسنت رسائل الى ملك انكلترا يطلب منه استقبال ستيفن لانغتون المكرس بمثابة رئيس للأساقفة

بعد تسوية هذه القضية ، بعث البابا انوسنت رسائل الى ملك انكلترا، يسأله برفق واخلاص أن يستقبل بلطف المعلم ستيفن لانغتون الذي هو كاردينال كاهن للقديس خريسوجونوس Chrysogonus والذي انتخب بشكل قانوني الى رئاسة أساقفة كانتربري والذي يعود أيضاً بأصوله الى مملكته ، وهو لم ينل لقب معلم في العلوم الدنيوية فقط ، بل هو دكتور في اللاهوت، وبما أن حياته وأخلاقه قد تفوقت على عظمة تعليمه ، فإنه بسماته سوف يكون ذا فائدة كبيرة الى روح الملك، وكذلك الى شؤونه الدنيوية.

وهكذا سعى البابا عن طريق حجج من هذا النوع ويعبارات مماثلة لطيفة ، أن يبذل قصارى جهده لاقناع الملك ونيل موافقته، وقام برسائله الى رئيس الرهبان وإلى الرهبان في كانتربري ، فأمرهم بحكم طاعتهم ، باستقبال رئيس الأساقفة المتقدم الذكر، بمثابة الراعي لهم، وأن يطيعوه بتواضع في المسائل الدنيويةوكذلك في القضايا الروحية،وعندما أخيراً وصلت رسائل مولانا البابا الى علم الملك الانكليزي، غضب الى أقصى الحدود بسبب ترقية ستيفن لانغتون، وكذلك بسبب الغاء انتخاب أسقف نورويك، واتهم رهبان كانتربري

بالخيانة، وقال بأنهم فعلوا ذلك لأنهم تجاوزوا حقوقه فانتخبوا نائب رئيس الرهبان من دون إذنه، ثم انهم بعد ذلك قاموا حتى يلطفوا غلطتهم بإعطائه ترضية، فانتخبوا أسقف نورويك وأنهم أيضاً تسلموا مالاً من الخزانة من أجل نفقاتهم، في سبيل الحصول على تثبيت انتخاب الأسقف المذكور من الكرسي الرسولي ولكي يكملوا عدوانهم، انتخبوا هناك ستيفن لانغتون ، الذي هو عدو مكشوف له، وحصلوا على تكريسه في رئاسة الأساقفة ، وبناء على ما حدث، أرسل الملك المذكور ، وهو يشتعل غضباً وانزعاجاً: فولك دي كانتلو Cantelu وهنري دي كورنهل Cornhill ، وكانا أكثر الفرسان وحشية ولاانسانية، مع اتباع مسلحين ، للقيام بطرد رهبان كانتربري، وكأنهم مذنبين بجريمة ضد جلالته المكلومة، وأن يكون الطرد من انكلترا، أو إنزال عقوبة كبرى ، وبادر هذا الفارسان بكل سرعة الى إطاعة أوامر مولاهما،وانطلقا نحو كانتر بري، ودخلا الى الدير بسيوف مجردة، وأمرا رئيس الرهبان بقسوة بأن يغادر هو والرهبان مملكة انكلترا على الفور ، بحكم كونهم خونة لجلالته الملكية، وأكدا باليمين بأن (الرهبان) إذا ما رفضوا فعل هذا ، سوف يلقيان بنفسيهما النار في الدير، وفي المكاتب المتصلة به ، ولسوف يحرقان الرهبان أنفسهم مع مبانيهم ، وتصرف الرهبان بشكل لاعقلاني، وغادر وا الدير من دون مقاومة، ومن دون أن يمدوا أيديهم ضد أي انسان، ولقد غادروا جميعاً باستثناء ثلاثة عشر مريضاً ،كانوا راقدين في المصحة، وغير قادرين على السير، ولقد عبروا مباشرة الى فلاندرز، حيث جرى استقبالهم بحفاوة من قبل راعي دير القديس بيرتينوس Bertinus وفي ديرة أخرى في القارة، وجرى بعد ذلك بناء على أوامر من الملك — وضع بعض الرهبان من طائفة القديس أوغسطين محلهم في كنيسة كانتر بري ، ليقوموا بالواجبات هناك، وتولى فولك المتقدم الذكر تدبر توزيع ومصادرة

جميع ممتلكات الرهبان أنفسهم ، وفي الوقت نفسه بقيت أراضيهم مع أراضي رئيس الأساقفة من دون زراعة، وحدث طرد الرهبان المتقدم ذكرهم من ديرهم ونفيهم في الرابع عشر من تموز.

كيف ارسل ملك انكلترا رسائل تهديد الى البابا

وبعدما نفى الملك جون رهبان كانتربري على هذه الصورة، بعث رسلاً مع رسائل البابا ، اتهمه فيها بعبارات تهديدية بأنه قام بشكل مهين بإلغاء انتخاب أسقف نورويك، وأنه كرس رئيساً للأساقفة في كانتربري ستيفن لانغتون ، وهو رجل غير معروف لديه، لكنه معروف منذ وقت طويل، ومشهور بعداوته المعلنة في المملكة الفرنسية، ومما زاد وضاعف الاعتداء عليه وعلى التعرض للامتيازات العائدة لتاجه ، أن موافقته، لم تعتمد بشكل أصولي على سؤال الرهبان وأخذ موافقتهم ، وهم الرهبان الذين يحق لهم الانتخاب، بل إن البابا أعطى بوقاحة الحق بالاقدام على ترقية ستيفن هذا نفسه، وأكد الملك أن عجبه بلا نهايةوكذلك دهشته، كيف أن البابا ، وكذلك بلاط روما كله، لم يتذكروا ما فيه الكفاية مكانة الملك الانكليزي بالنسبة للكرسي الروماني حتى الآن ، ولا المنافع التي حصل عليها هذا البلاط من مملكة انكلترا ، ذلك أن هذه المنافع أكثر من منافع جميع البلدان الأخرى القائمة على هذا الجانب من الألب، وأكثر من هذا أضاف بأنه سوف يقف مدافعاً عن حقوق تاجه، إذا كان ذلك ضرورياً حتى الموت، وأعلن أنه لن يتزحزح ، ولا يمكن تحويله عن انتخاب أسقف نورويك وترقيته، الذي يعرف أنه سيكون مفيداً له شخصياً ، وأوجز أخيراً القضية أنه إذا لم ينظر الى مصالحه في القضايا الخارجية، فلسوف يغلق الطريق البحري في وجه جميع الذاهبين الى روما ، وبذلك لن تفرغ مناطقه من ثرواتها ، وهو لن يكون نفسه بذلك أقل قدرة على طرد أعدائه من هذه المناطق، لاسيما وأن هناك كثيراً من رؤساء

الأسـاقفــة، والأسـاقفـة وكهنة آخــرين للكنيسـة في انكلترا، كما في مقاطعـاته الأخرى، وهم جميعـاً مزودين بجميع أنواع المعـارف، إذا ما أرادهم ، ولذلك هو لـن يستجـدي العـدالة والقضـاء مـن الغـرباء خارج ممالكه ولدى عرض هذا كله على البابا من قبل الرسل ، كتب ذلك الحبر الأعظم جواباً له كما يلي:

جواب مولانا البابا إلى الملك الانكليزي

«من انوسنت، عبـد عبيـد الرب، إلى ولده المحبـوب بالرب ، اللامع جـون، ملك الانكليز، الصحـة والمباركـة الرسـولية، عندمـا كتبنا اليك حـول قضية كنيسـة كانتربري، كتبنا بتـواضع وبحرص، وباثارة لطيفـة وطالبناك — إذا جـاز لي أن أقول — بكل احترام لسموك، وقـد كتبت جواباً لنا بتمـرد وعصيان ، وبتهديد، وبمـلامة، وفي الوقت الذي أبدينا فيه نحوك احتراماً أكثر مما ينبغي، أظهرت نحونا احتراماً أقل مما ينبغي، لأنه إذا كـان ولاءك ضروري جـداً لنا، يبقى احترامنا ليس أقل فـائـدة لك، ومع اننـا في مثل هذه الحالات لم نقـدم احترامـاً إلى أي أمير مثل الذي قدمناه إليك، لقد بذلت جهدك لانقـاص كرامتنا بطريقة لم يفعلها أي أمير في مثل هذه القضيـة، أو فكر أن يفعـل، ولقـد عـرضت بعض التعليلات التافهة، أكدت بها بأنك لن تعطي موافقة على اختيارنا لولدنا المحبـوب، المعلم ستيفن ، الذي يحمل لقـب كـاردينال كـاهن القـديس خريسوجـونوس لأنه كان من قبل صديقاً لأعـدائك، ولم يكن شخصياً معـروفـاً لديك، عـلاوة على هذا، كما قـال مثل سليمان:«ألقيت الشبكة عبثاً أمام عيون الطيـور » حيث أننا نعلم ان ما عددته له ذنباً، ينبغي ان يعـدّ له مجداً، لأنه عنـدمـا كـان لبعض الوقت في بـاريس، كـان يدرس الفنون الحرة، ولقد أحرز في ذلك تقدمـاً استحق عليه لقب استاذ، ليس في ميدان المعارف المدنيـة فحسب، بل في مجال العلوم اللاهوتية ،وهكذا بما ان حياته تـوافقت مع عقائده، أجيـز بمركـز كاهن فخـري في كنيسة

باريس، وبناء عليه، انه لأمر عجيب بالنسبة لنا، كيف ان رجلاً بمثل هذه الشهرة، ومستمد لأصوله من مملكتكم ، غير معروف لديكم، حسبما جاء في تقريركم، فكيف ذاك خاصة عندما كتبتم له ثلاث مرات، بعد ترقيته من قبلنا إلى مرتبة كاردينال، وأنكم كنتم على استعداد لدعوته إلى خدمتكم، وكنت مسروراً لترقيته إلى مرتبة عليا، ونلفت هنا انتباهكم، انه قد ولد في مملكتكم من أبوين كانا مخلصين ومحبين لكم، وأنه عمل كاهناً في كنيسة يورك، التي كانت أعظم بكثير، وأعلى في مقامها من كنيسة باريس، هذا ولقد تبرهن ليس بسبب الجسد والدم، لا بل بشغله مقاما لاهوتيا ومنصبا ، انه بعواطفه أكثر اخلاصاً لك ولمملكتك، لكن رسلك أعطونا سبباً آخر لعدم موافقتك على انتخابه، وكان سبباً واقعياً، لأنك لم تسأل عنه من قبل الذين توجب أن يسألوا موافقتك عليه، وقد أوضحوا بأن الرسائل التي أمرناك فيها، أن ترسل وكلاء مناسبين إلينا حول هذه المسألة، لم تصل اليك، وأن رهبان كانتربري، وإن كانوا قد ظهروا أمامك، حول شأن آخر، لم يرسلوا رسائل أو رسلاً يطلبون موافقتك على هذه المسألة، وبناء عليه سألنا الرسل أنفسهم باخلاص كبير، انه إذا كان يرضينا أن نحفظ إليك شرف وجوب قيام رهبان كانتربري بطلب موافقة ملكهم، وبما أن ذلك لم يعمل ، ينبغي أن نمنح تأخيراً مناسباً لعمل ذلك، حتى لا يحدث أي انتقاص من حقوقك، وقدموا أخيراً شيئاً ما ضد شخص رئيس الأساقفة المنتخب، وهو أمر عمل علانية ، وكان من المتوجب حبس ألسنتهم عن قوله خاصة —لو أن ذلك كان صحيحاً— لا يمكن أن يعوق انتخابه، ومع أنه ليس من المعتاد عند عمل انتخاب لدى الكرسي الرسولي، انتظار موافقة أي أمير ، لقد جرى ارسال راهبين إليك، لمقصد خاص، هو طلب موافقتك ، لكنهما حجزا في دوفر، ولذلك لم يكونا قادرين على تنفيذ مهمتهما، وأما الرسائل حول الوكلاء، فقد سلمت بحضورنا إلى رسلك ، لكي يقوموا باخلاص بتسليمها إليك،

ونحن أيضاً الذين نمتلك سلطة كـاملة على كنيسة كانتربري نفسهـا، قد تنازلنا لطلب حظوة ملـك، ورسولنا الذي سلم الرسـائـل الرسـوليـة إليك، سلمك أيضـاً رسائل رئيس الـرهبان والرهبـان الذين عملوا — بناء على أوامر الهيئة الكهنوتيـة كلهـا لكنيسة كـانتربري —الانتخـاب المتقـدم ذكره، وقـد كتب هؤلاء في رسـائلهم إليك يطلبون مـوافقتك ، وبناء عليه إننا لا نرى أن نقوم ثانيـة، بعد كل هذه التصرفات ، فنطلب الموافقة الملكيـة ، ذلك أننا نسعى ، دون أن نميل إلى يمين أو يسار، لأن نعمل مـا تأمـربه القوانيين الشرعيـة للآباء المقـدسين أن يعمل، حتى لا يكون هناك تأخير أو مصاعب في عمل الترتيبات الموائمة، لكي لا يبقى قطيع الرب أي مـدة أطول من دون رعـايـة راعي، ولذلك ينبغي أن لا يكون هنـاك أي اقتراح إلى كيـــاستـك الملكيـــة أو حكمتـك ، في أننا سننحـرف عن اتمام هذا العمل ، وبما أن انتخـابات قانونيـة قـد عملت وفقاً للنظام من دون تزييف أو مكر ، وذلك لشخص مناسب ، وهنا لا يمكننا من دون أن نفقـد اسمنا الجيـد وسمعتنا ، وتعـريض ضميرنا للخطر ، إذا قمنا بتأخير اكمالها ، وبنا ءعليه يـا ولدنا المحبوب، الذي في سبيل كـرامتـه قدمنا تنازلات أكثـر مما ينبغي أن نقـدم، اسع لأن تقـدم احترامـاً مناسباً لكرامتنا ، حتى تنـال جزاء أوفى من نعمـة الرب ، ومن حظوتنا ، إنما إذا مـا تصرفت بشكل معـاكس ، فإنك سـوف تجلب على نفسك المتاعب وتضعهـا في مصاعب ، لن تتخلص منهـا بسهولة، لأنها ستكون متعلقة بالذي هو الأعلى، والذي له تنحني كل ركبة، من الذين هـــم في السماء ، وعلى الأرض، وتحت الأرض، والـــذي أعمالـــه على الأرض نحن —مع أننـا لا نستحق — جـرى تعييننا لتنفيـذها ، وبناء عليـه لا تذعن لخطط الذين هم متشـوقون دومـاً لخلق الاضطراب لك حتى يمكنهم أن يصطادوا أفضل في الميـاه المضطربة ، بل اعهـد بنفسك إلى رعـايتنا الطيبـة، التي هي مـن المؤكـد تميل نحـو الثناء عليك ونحـو مجدك وكـرامتك، لأنه لن يكون سلبياً بالنسبـة لك في هذه القضيـة ، أن

تظهر مقاومة للرب، وللكنيسة، التي في سبيلها سفك منذ أمد وجيز، الكاهن الأعلى توماس، الشهيد المبارك ، دمه ولا سيما أيضاً أنه منذ أيام والدك وأخوك، صاحب الذكرى البهية ، قد جرى عندما كانا ملكين لانكلترا، إزالة هذه العادة الشريرة ، من أمام مندوبي الكرسي الرسولي ، ونحن إذا ما أذعنت بتواضع صحيح واستجبت لرغبتنا، سوف نهتم أن لا يلحقك أذى في هذه القضية، صدر في اللاتيران، في السنة العاشرة لبابويتنا».

وفي هذا العام نفسه ، في يوم عيد القديس ريميغيوس Remigius ولدت الملكة ايزابيل ملكة الانكليز للملك جون ، أول أولادها، وقد أطلق عليه اسم هنري، لأن ذلك كان اسم جده.

خسوف للقمر

عام ١٢٠٨م ، فيه احتفل الملك جون بعيد الميلاد ، في وندسور، حيث وزع ثياب العيد بين فرسانه، وحدث في اليوم الذي أعقب يوم طهارة القديسة مريم خسوف للقمر، ظهر أولاً على شكل لون أحمر دموي، وفيما بعد على شكل داكن ، وفي تلك الآونة نفسها سدد كل من فيليب أسقف درم وغيوفري أسقف شيستر دين الطبيعة، وفي هذا العام أيضاً ولدت الملكة ايزابيل ولداً شرعياً للملك جون سمته رتشارد.

تحذير ملك انكلترا من قبل مولانا البابا

في هذا العام نفسه ، بعدما علم البابا بأن قلب الملك جون قد ازداد قسوة، إلى حد أنه لابالاقناع ولا بالتهديد سيقنع ويذعن لاستقبال ستيفن كرئيس لأساقفة كانتربري، انزعج كثيراً ، وشعر بالحزن في قلبه، وقام بناء على نصيحة كرادلته، فأرسل أوامر إلى وليم أسقف لندن ، ويوستاس أسقف أوف ايلاي ، وموغرMouger أسقف وينكستر، بالذهاب إلى الملك المذكور، حول قضية كنيسة كانتربري ، وأن يقدموا

له نصيحة شاملة كي يتراجع أمام الرب في هذه القضية ، فهو بذلك سوف ينال حظوة المولى، لكن إذا ما وجدوه متمرداً وعاصياً ، كما هو حتى الآن، فقد أمرهم ان ينزلوا عقوبة الحرمان من شركة المؤمنين على انكلترا كلها، وأن يشجبوا الملك المذكور، وإذا لم يتوقف عن وقاحته بتلك الوسائل فهو — أي البابا— سوف ينزل به ضربة أكثر قسوة، لأنه من الضروري بالنسبة له قهره، فهو من أجل سلامة الكنيسة المقدسة ، قد أعلن الحرب وشنها ضد الشيطان وزبانيته، ودمر أجنحة الجحيم، وأعطى أيضاً بوساطة رسائل الكرسي الرسولي أوامر إلى نواب أساقفة كانتربري ، وإلى الكهنة الآخرين التابعين لتلك الأبرشية، أن عليهم بحكم طاعتهم ، استقبال رئيس الأساقفة المذكور كأب وكراعي، وأن يطيعوه بكل اخلاص.

كيف وضعت انكلترا تحت حرمان كامل من شركة المؤمنين

وتنفيذاً للمهمة الموكلة من البابا إلى أساقفة: لندن، وإيلاي، ووينكستر، ذهبوا إلى الملك جون ، وبعدما عرضوا بشكل صحيح الأوامر الرسولية ، توسلوا إليه بتواضع، وهم يبكون، أن يضع الرب أمامه، ويقوم باستدعاء رئيس أساقفة كانتربري والرهبان إلى كنيستهم، وأن يقدم التكريم والحب لهم بعاطفة كاملة، وأخبروه أن ذلك سوف يجنبه عار انزال عقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين، ثم إن المكافآت التي سوف ينالها —إذا فعل ذلك — هي مضاعفة لكرامته الدنيوية، ولسوف يضفي عليه بعد موته مجداً سرمدياً ، وعندما رغب الأساقفة المتقدم ذكرهم صدوراً عن التقدير للملك، إطالة الحوار، صار الملك أشبه بالمجنون لشدة غضبه، وانفجر يتفوه بكلمات التجديف ضد البابا وضد كرادلته، وأقسم باسم الرب، انه إذا ما تجرأوا هم أو أي كاهن مهما كان، على وضع ممتلكاته تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، فإنه سوف يرسل جميع أساقفة انكلترا والكهنة والأشخاص من المكرسين إلى

البابا، ولسوف يصادر جميع ممتلكاتهم، وعلاوة على هذا أضاف ان جميع رجال الدين التابعين لروما أو للبابا نفسه، الذين سوف يجدهم في انكلترا، أو في مقاطعاته الأخرى، سوف يرسلهم إلى روما، وقد قلعت أعينهم وجدعت أنوفهم، حتى يمكن أن يعرفوا بهذه العلامات هناك ويجري تمييزهم عن الناس الآخرين، وزيادة على ما تقدم أمر الأساقفة بشكل جلي أن يحملوا أنفسهم بكل سرعة، وان يغربوا عن وجهه، إذا ما رغبوا بالحفاظ على أجسادهم وعدم تعريضها للأذى، وعندما لم يجد الأساقفة أية توبة لدى الملك ، غادروا، وقاموا أثناء الصوم الكبير التالي، دونما خوف ، بتنفيذ الواجب الذي طلبه منهم البابا ، وبناء عليه ألقوا في صباح يوم الإثنين، في اسبوع الآلام، الذي حل في ذلك العام، في الثالث والعشرين من آذار ، حرماناً عاماً من شراكة المؤمنين، على جميع انكلترا، وبما أن هذه العقوبة قد صدرت بموجب سلطات مولانا البابا، فقد جرى الالتزام بها ، دون الاهتمام بالأشخاص أو الإمتيازات، ولذلك توقفت جميع العبادات الكنسية عن الممارسة في انكلترا، باستثناء الاعتراف وتناول القربان في الحالات القصوى، وكذلك تعميد الأطفال، وحملت جثث الموتى أيضاً إلى خارج المدن والبلدات ودفنت على الطرقات والخنادق ، من دون صلوات، أو حضور للكهنة ، فهل أنا بحاجة لذكر المزيد ؟وغادر الأساقفة: وليم أسقف لندن، ويوستاس أسقف ايلاي، وموغر أسقف وينكستر، وجوسلين أسقف باث، وجايل أسقف هيرفورد ، انكلترا بشكل سري، معتقدين انه من الأفضل تجنب غضب الملك الحانق لبعض الوقت ، بدلاً من الاقامة من دون إحداث أي تأثير مفيد في بلاد واقعة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين.

كيف صادر الملك جون بسبب الحرمان ممتلكات رجال الدين

وقام ملك انكلترا وهو يشعر بغضب عظيم، بسبب الحرمان من شراكة المؤمنين ، فبعث عمد مناطقه والموظفين الآخرين للتفتيش،

بعثهم إلى جميع أرجاء انكلترا، معطياً أوامر مع تهديدات مرعبة إلى جميع رجال الدين والذين هم خاضعين لهم، بوجوب مغادرة انكلترا على الفور ، وأن يطلبوا منحه العدل من البابا لما لحقه من هذا الأذى، وأعطى أيضاً هذه الأوامر إلى جميع الأسقفيات ، ورعاة الديرة ، ورؤساء الرهبان ، والمسؤولين من العلمانيين، وأمر أيضاً بمصادرة جميع موارد كل اللاهوتيين، لكن كان رجال مجمع اللاهوتيين لانكلترا قد حولوا انتباههم بحذر إلى هذا الأمر، ورفضوا التخلي عن ديرهم، ما لم يتم طردهم بالعنف ، وعندما وجد وكلاء الملك هذا الوضع لم يرغبوا باستخدام العنف نحوهم، لأنهم لم يحملوا ترخيصاً من الملك للقيام بذلك لكنهم حولوا جميع ممتلكاتهم، إلى الإستخدامات الملكية، وأعطوهم القليل من علاوات الخبز والملابس من ممتلكاتهم، وجرى خزن جميع قمح رجال الدين في كل مكان ومنعه عنهم، وتحول لصالح الخزانة ، وأخذ عبيد الملك خليلات الكهنة ورجال الدين وأرغموهم على دفع فدية عن أنفسهن عالية جداً، ولدى العثور على رجال دين أو أشخاص مكرسين من أي نوع، على الطرقات وهم مسافرين، جردوا من خيولهم، وسلبوا وعوملوا بشكل مهين جداً من قبل زبانية الملك، وما من أحد منحهم العدالة، وفي هذه الآونة قدم بعض عبيد أحد العمد من منطقة تخوم ويلز إلى الملك ومعهم لص معتقل يداه مربوطتان خلفه، لأنه كان قد سلب كاهناً وقتله على الطريق، وسألوا عن رغبة الملك في التعامل مع هذا اللص في هذه القضية ، فأجابهم الملك على الفور«إنه قد قتل عدواً لي ، أطلقوا سراحه، ودعوه يذهب »، وبالنسبة إلى رؤساء الأساقفة والأساقفة الذي وضعوا انكلترا تحت الحرمان من شركة المؤمنين، فقد جرى اعتقالهم حيثما تم العثور عليهم، وسلبهم من جميع ممتلكاتهم وسلعهم، وألقي بهم في السجن، وبينما كان الناس يعيشون في ظل هذه الشرور ويعانون منها ، كان الأساقفة المتقدم ذكرهم يقيمون في القارة، ويعيشون على جميع أنواع الطيبات، عوضاً

عن وضع أنفسهم سوراً لبيت الرب، وذلك كما قال المخلص:«عندما شاهدوا الذئب قادماً ، تخلوا عن الشياه وهربوا».

كيف تلقى الملك جون ولاء نبلاء انكلترا

وفي وسط هذه الاجراءات غير التقية وما يماثلها ، ولما نجم عنها من آثار بات الملك جون خائفاً انه بعد قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، ان يقوم مولانا البابا ، فينزل به عقوبة أشد، بحرمانه كنسيا بالاسم، أو بتحليل نبلاء انكلترا من الولاء له ، وذلك حتى لا يفقد حقوقه بالسيادة ، أرسل رجالاً مسلحين إلى كل واحد ذي مرتبة في انكلترا، ولا سيما إلى الذين كانوا يرتاب بهم، وطلب رهائن منهم يمكنه بوساطتهم، إذا ما جرى مع مرور الوقت حرمانه من ولائهم، أن يستدعيهم لأداء طاعتهم له كما ينبغي، وأذعن كثيرين إلى مطالب الملك وأعطى بعضهم إلى رسله أولادهم، وبعضهم أحفادهم، أو بعض أقربائهم الجسديين ، وعندما جاءوا أخيراً إلى وليم دي بروز Brause وكان رجلاً من أصل نبيل ، وطلبوا رهائن منه، كما أخذوا من الآخرين، قامت ما تيلدا زوجة وليم المذكور مع مجموعة من النساء الجريئات بإجابة الرسل ما قلن سمعنه من فمه:« إنني لن أرسل أولادي وأسلمهم إلى مولاكم، الملك جون، لأنه قتل بدناءة ابن أخيه آرثر، الذي كان من المتوجب عليه الاعتناء به وتشريفه»ولدى سماع زوجها كلامها هذا انتقدها، وقال:«لقد تحدثت مثل امرأة حمقاء ضد مولانا الملك، لأنني إذا كنت قد أغضبته في أي شيء فإنني سأكون على استعداد لتقديم ترضية إلى مولاي من دون رهائن وذلك وفقاً لقرار محكمته وأتباعي من البارونات، إذا ما شاء ان يحدد موعداً ومكاناً لمثل هذا العمل»، ولدى عودة الرسل إلى الملك، أخبروه بالذي سمعوه، ولقد غضب من ذلك غضباً شديداً، وبعث بشكل سري بعض الفرسان مع أتباعهم لاعتقال وليم وأسرته، لكن وليم كان تلقى التحذير من

بعض أصدقائه، فهرب مع زوجته، وأولاده ، وأقربائه إلى ايرلندا.

وفي هذا العام نفسه ، توقف الرهبان البيض ، بناء على صدور قرار الحرمان من شركة المؤمنين ، عن القيام بأعمالهم، لكن بعد ذلك استأنفوا القيام بممارسة واجباتهم المقدسة ، بناء على أمر راعيهم الرئيسي ، لكن هذا الاستئناف وصل إلى مسامع الحبر الأعظم ، فجرى توقيفهم وتعليقهم عن ممارسة أعمالهم، مما سبب لهم اضطراباً كبيراً.

كيف أرسل ملك الانكليز مبلغاً كبيراً من المال إلى ابن أخته أوتو

عام ١٢٠٩م ، فيه كان الملك جون في بريستول أيام الميلاد، ومنع هناك امساك الطيور في جميع أرجاء انكلترا ، وجاء بعد هذا هنري دوق سوابيا من عند أوتو ملك ألمانيا ، إلى انكلترا لرؤية الملك جون ، وبعدما تلقى مبلغاً من المال لاستخدامات أوتو المذكور عاد إلى وطنه ثانية، وفي هذا العام أيضاً ، جرى —بناء على وساطة ستيفن رئيس أساقفة كانتربري—السماح بإقامة الوظائف اللاهوتية مرة في الاسبوع ، ومنح ذلك إلى الكنائس الديرية في انكلترا، لكن الرهبان البيض منعوا من القيام، بهذا العمل لأنهم وإن كانوا قد تمنعوا مع بداية الحرمان عن أداء الواجبات الدينية ، قاموا فيها بعد بناء على أوامر راعيهم الرئيسي، فاستأنفوا أعمالهم، من دون استشارة البابا.

وفي هذه الآونة، تم رسم لويس بن فيليب ملك فرنسا، وابنه الأول وولي عهده الشرعي فارساً بحزام ، وتولى رسمه والده في كومبين، مع مائة نبيل معه .

كيف دخل ملك الانكليز بمعاهدة تحالف مع ملك الاسكوتلنديين

وحشد في هذه الآونة الملك جون قوة كبيرة ، ووجه سلاحه ضد سكوتلاندا ، وعندما وصل في كونتية نورثأمبرلاند إلى قلعة اسمها نورهام Norham صف هناك جيشه وأعده للقتال ضد ملك الاسكوتلنديين ، وعندما علم الملك الاسكوتلندي بذلك بات خائفاً من الاشتباك، لأنه كان يعرف نزعة الملك إلى جميع أنواع الوحشية ، ومع ذلك قدم لمواجهة ذلك الملك للتباحث من أجل السلام ، ولكن بما ان ملك انكلترا كان مغضباً ، فقد وجه اللوم إليه لأنه استقبل في مملكته الرعايا اللاجئين من مملكته، مع أعدائه المعلنين ، وقدم لهم المساعدة وأبدى اللطف نحوهم ، لاغضاب الملك الانكليزي وازعاجه، وعلى كل حال ، بعدما طرح جون جميع هذه القضايا أمام ملك الاسكوتلنديين المذكور ، دخلا في اتفاقية بموجبها كان الملك الاسكوتلندي سيدفع إلى الملك الانكليزي اثني عشر ألف مارك من الفضة كضمانة للسلام، وعلاوة على ذلك وكضمانة أفضل للسلام ، سوف يسلمه ابنتيه كرهينتين حتى يكون السلام بهذه الوسيلة ، أكثر تأكيداً بينهما، ثم غادر الملك جون من القلعة المتقدم ذكرها ، في الثامن والعشرين من حزيران ، وأعطى أوامره بإحراق جميع الأسيجة ، وبطم جميع الخنادق في جميع أرجاء غابات انكلترا ، حتى تكون المراعي مفتوحة من أجل رعي المواشي ، وتلقى بعد هذا الولاء من جميع مواليه الأحرار ، وشمل ذلك حتى الأطفال أبناء الاثني عشر عاماً في جميع أنحاء المملكة ، وبعد ما قدموا الولاء ، استقبلهم بقبلة السلام ، ثم صرفهم ، والأمر الذي لم يسمع به من قبل في العصور الماضية ، هو أن الويلزيين جاءوا إلى الملك في وودستوك وقدموا له الولاء ، مع أن ذلك كان مرهقاً للغني وكذلك للفقير.

وجرى في هذا العام نفسه تكريس أوتو ابن أخت ملك انكلترا ، امبراطوراً في روما من قبل البابا انوسنت في الرابع من تشرين الأول.

وفي هذه الآونة قتل واحـد من الكهنة ، كـان يدرس في اكسفـورد الفنون الحرة ، امرأة بحادث عرضي وعندما رآها ميتة ، بحث عن نجاته بالفرار ، ولدى اكتشاف عمدة المدينة مع أشخاص آخرين معه ، المرأة الميتة ، بدأ بالبحث عن القاتل في بيته ، الذي كان مستأجراً له، مع ثلاثة من رفاقه الآخرين ، وتولى اعتقال رفاقه الرهبان الثلاثة ، الذين كانوا جاهلين تماماً بمسألة القتل ، وألقى بهم بالسجن ، وبعد مضي عدة أيام ، أخذوا بناء على أمر من الملك — في تحد منه لحقوق الكنيسة — إلى خارج المدينة وشنقوا، وبناء عليه، انسحب الكهنة من اكسفورد، وكان عددهم ثلاثة آلاف ما بين طالب ومعلم ، وبناء على ذلك لم يبق أحد في الجامعة كلها ، وذهب بعض هؤلاء إلى كمبردج ، وآخرون إلى ردنغ، لمتابعة دراساتهم ، وبذلك تركوا مدينة أكسفورد شاغرة.

وجرى في العام نفسه انتخاب هيوج ، رئيس شمامسه ويلز، ومستشار الملك، لشغل أسقفية لنكولن، وكان ذلك بتدبير من الملك ، وتسلم بعد الانتخاب مباشرة من الملك اشرافاً كاملاً ومطلقاً على الأمور القضائية في الأسقفية كلها.

كيف جرى حرمان الملك جون كنيساً بالاسم

كان الآن قد مضى قرابة العامين على الملك جون ، وهو على حاله كما كان من قبل ، واستمرت الأوضاع الصعبة في جميع أرجاء انكلترا ، بسبب الحرمان من شركة المؤمنين ، واستمر هو في المطاردة الحادة والتعذيب ضد رجال الدين ، وكذلك ضد بعض العلمانيين ، وقد دمر تماماً كل أمل لدى كل انسان في حدوث أي تحسن أو ترضية ، ولم يعد بامكان البابا انوسنت تأجيل العقوبة على عصيانه، ولهذا قام ، بناء على نصيحة كرادلته ، وفي سبيل إجتثاث جذور هذه الاهانة بحق الكنيسة ، فأصدر أوامره إلى أساقفة : لندن ، وايلاي، ووينكستر، إلى اعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد الملك المذكور بالاسم ، وأن يجري التفوه بشكل

مهيب بهذا القـرار في كل يوم أحد وفي كل يوم عيـد، في جميع الكنائس الديرية ، في جميـع أنحـاء انكلترا ، وذلك بهدف ان يصبح الملك بشكل حـاسم منعـزلاً عن كل انسـان ، وعهـد الأسـاقفـة المتقـدم ذكـرهم، بموجب السلطات الرسولية باعـلان هذا القرار، إلى الأساقفة أتباعهم ، الذين بقيوا في انكلترا، وإلى بقية رجال الكنيسة ، لكن هؤلاء من خلال الخوف ، أو التقـديـر للملك ، أصبحـوا أمثـال كـلاب خـرسـاء ، لا يتجـرأون على العـواء ، وبذلك تخلوا عن القيـام بواجبـاتهم الملقـاة على عـواتقهم بموجـب الوصاية الرسـوليـة ، وأخفقـوا في السير وفقاً نحـو السبيل المعتـاد للعدالة ، ومع ذلك صـار القرار في وقت قصير معـروفاً من قبل الجميع في الطرقـات والشوارع، لا بل حتى في أمـاكن تجمعات الناس ، ووفر مـوضوعاً للمحـادثات السرية بين الجميع، وكان من بين الناس غيـوفـري، رئيس شمامسـة نـورويك ، فقـد كـان في أحـد الأيام جالساً في الخزانة في وستمنستر يتـولى القيام بأعمال الملك ، فشرع يتكلم بشكل سري مع مرافقيـه، الذين جلسوا معـه ، وكان موضـوع حديثهم القـــرار الذي صـــدر ضـــد الملك ، فقـــال انه ليس مـن السليم للناس المستقيمين المحـافظة أية مدة أطول على ولائهم إلى ملك محروم كنسيـاً ، وبعد ما قال هذا ، ذهب إلى بيته ، دون ان يطلب إذن الملك ، ووصلت أخبار هذه الحادثة فوراً إلى مسـامع الملك، فغضب غضباً شديداً، فبعث الفـارس وليم تـالبـوت Talbot مع بعض الجنود لاعتقــــال رئيس الشمامسة ، وبعـد اعتقاله غلوه بالأغـلال ، وألقوه في السجن، وبعـدما أمضى هناك بضعـة أيام ، وضعـــوا على رأسـه خـوذة من الرصـاص ، وذلك بناء أوامر من الملك ، وبعـد أمد قهره الجوع والحاجـة إلى الطعام مع وزن الخوذة الرصاصية ، ففارق إلى الرب .

حول النصيحة الشريرة للاسكندر الشرير

نال في أيام الحرمان ، لاهوتي مزيـف، اسمه المعلم الاسكندر ، ولقبه

ماسـون الحظوة Mason الحظوة لدى الملك ،وقـد آثار بمواعظه الظالمة الملك إلى أبعـد الحدود، للتصرف بشكـل وحشي، وقـد قـال بأن هذا البـلاء العـام لم ينزل بانكلترا بسبب أي خطـأ من الملك، بل بسبب شرور رعيته، كما أعلن بأن الملك كـان عصا الرب ، وأنه عمل أميراً من أجل ان يحكم شعبه ، والرعـايا الآخرين التابعين له ، بعصـا من حديد، وان يكسرهم جميعـاً «مثل إناء فخـاري» وان يغلهم بقـوة بأغـلال ، مع نبلائه بقيـود من حديد ، وبرهن من خلال بعض المناقشـات المخادعة ، انه ليس من شأن البابا التورط بالشؤون المدنية للملوك أو لأي صاحب سلطة مهما كـان، أو بالحكومات التـابعـة لرعاياهم ، لا سيما ان مـا من شيء منح من قبـل الرب للقـديس بطرس ، إلاّ السلطة على الكنيسـة فقط، وعلى ممتلكات الكنيسة ، وبهذا وما ماثله من زيف نال مكانة لدى الملك، وحصل على عدة منافع ، كـانت قد انتـزعت من رجال الدين ، بالعنف من قبل الملك المذكـور ، لكـن حـالما وصلت شرور هذا الرجل إلى مسـامع الحبر الأعظم، حتىٰ تدبر تجريده من جميع سلعـه ومنافعـه ، وأنزله بعـد أمـد إلى درجة من التعـاسـة ، انه أرغم بسبب الحاجـة ، ان يقـوم وهو يرتدي ثياب أشـد الناس فقـراً باستجداء خبـزه من باب إلى باب ، ونظر الناس إليه بازدراء قـائلين:«انظروا إلى الرجل الذي لم يتخذ الرب معيناً له ، لكن وضع ثقته في حشود ثرواته، وقوى نفسه بعبثياته، ولذلك لتختف ذكراه أمام الرب من على الأرض ، لأنه لم يضع في ذهنه إظهـار المرحمة ولا تذكـرها، ولهذا سـوف يـدمـره الرب حتى النهـاية ، وسـوف يكون كلامـه ضده كـذنب ، وبذلك ليمح وجوده وذكـره من أرض الأحياء».

تكريس هيوج أسقفاً للنكولن

حصل في العـام نفسـه هيـوج الأسقف المنتخب للنكولن ، على إذن الملك، بالعبـور إلى فرنسـا، حتى يتمكن من الحصـول على التكريس من

رئيس أساقفة روان، لكنه ماأن نزل في نورماندي، حتى ذهب إلى ستيفن، رئيس أساقفة كانتربري، وبعدما قدم طاعته القانونية إلى ذلك الأسقف، جرى تكريسه من قبله في العشرين من كانون الأول، وعندما جرى اكتشاف هذا من قبل الملك، استولى على الفور على تلك الأسقفية، وحول جميع الموارد فيها لاستخداماته الذاتية، كما أنه أعطى ختمه إلى وولتر دي غري، وعينه مستشاراً له، فاتخذ سرور الملك ومتعته وظيفته وعمله في إدارة جميع شؤون المملكة.

كيف أرغم اليهود على دفع فدية كبيرة

عام ١٢١٠م، فيه كان الملك جون في وندسور أيام عيد الميلاد، وكان جميع نبلاء انكلترا حضوراً ويتحدثون معه، دون الاكتراث بقرار الحكم الصادر بحقه، وكانت اشاعة حول ذلك قد عم انتشارها في جميع أنحاء انكلترا، إنما دون إعلان، ووصلت هذه الاشاعة إلى مسامع كل انسان، وسعى الملك إلى ايقاع الشر بكل من حاولوا تغييب أنفسهم والابتعاد عنه، وجرى بعد هذا بناء على أوامر الملك، اعتقال جميع اليهود من كلا الجنسين، في جميع أرجاء انكلترا، وأودعوا السجون وعذبوا عذاباً شديداً في تنفيذ رغبات الملك، بالنسبة إلى أموالهم، وتخلى بعضهم بعد التعذيب عن كل ماكان لديهم، ووعدوا بالمزيد، وذلك في سبيل النجاة، وأصر واحد من طائفة بريستول، حتى بعد تعذيبه بشكل مخيف، على عدم دفع فدية عن نفسه، أو وضع نهاية لآلامه، وبناء على ذلك أمر الملك رجاله بلكمه على خده، واقتلاع واحد من أسنانه يومياً، حتى يدفع له عشرة آلاف مارك فضي، وبعدما اقتلعوا له، خلال سبعة أيام، سناً كل يوم مع عذاب شديد عانى منه اليهودي، ولدى شروعهم بالعملية نفسها في اليوم الثامن، وجد اليهودي نفسه مرغماً على تقديم المال المطلوب، وسدد المبلغ وأنقذ سنه الثامن، مع أنه كان قد فقد سبعة.

الحرمان الكنسي للامبراطور أوتو

تذكــر في تلك الآونة أوتـو الامبراطور الرومــاني، اليمين الذي أداه لدى ترقيتـه إلى الامبراطورية مـن قبل البـابا، أي أنه سـوف يحافظ على كـرامـة الامبراطورية، وبقـدرما ستسمح له قـدرته سـوف يعيـد تجميع حقوقهـا الموزعة، وفي سبيل ذلك أمر بـاجراء بحث، بناء على يمين من قبل رجال قـانونيين، وذلك فيما يتعلق بقلاع مملكته، والحقـوق الأخرى العائدة إلى مقـامه الامبراطوري، وكل ماوجده عـائداً للعرش، سعى إلى تحويله لاستخـدامه الذاتي، وبهذا الصدد نشـب خلاف جدي بين البـابا وبين الامبراطور، لأنه عندما كان العـرش الامبراطوري شاغراً، استولى البــابا المذكــور، وتملك عــدة قــلاع مع أشيــاء أخـرى عــائــدة إلى الامبراطورية، وبناء عليـه، لأن الامبراطور سعى لاسترداد مـاهو عائـد إليـه، أثار كـراهيـة البـابـا، دون أن يستحق ذلك، وأغضب الامبراطور نفســه أيضاً بشكل جـدي فريدريـك ملك صقلية، الذي كـان قد قـام، بالطريقـة نفسهــا، عندمـا كـان العــرش الامبراطوري ليس مشغـولاً، فـاستـولى على بعض الأمـاكن الحصينة، وبناء عليـه تولى البـابا المذكـور بوســاطة الـرسل والرسـائل بشكل متـواتـر تحذير الامبراطور المذكـور، وطالبه بالتمنع عن إلحاق الضرر بكنيسة روما، وأيضاً بعدم الاقدام على تجريد ملـك صقليــة مـن ممتلكاته، لأنه مـــوضـــوع تحت الوصـــاية الامبراطورية، ويقـال بأن الامبراطور قام بالرد على رسل البـابا قائـلاً:« إذا مـــاأراد الحبر الأعظم ورغب بشكل غير عـــادل بتملك حقـــوق الامبراطورية، دعــوه يحررني من اليمين الـذي أرغمني على أدائــه أثناء تكريسي للمقام الامبراطوري، وهو اليمين الذي قضى باسترداد الحقوق المغتصبـة للامبراطورية، والحفـاظ على الحقـوق التي لدي»، لكن البـابا رفض تحليل الامبراطور من اليمين الذي اعتاد جميع الأباطرة على أدائه، أثناء تكـريسهم، على الانجيل المقــدس، ومن الجانب الآخــر، رفض

الامبراطور التخلي عن حقوق الامبراطورية، التي استرد معظمها بالقوة، ولذلك أصدر البابا المذكور قراراً بالحرمان الكنسي ضد الامبراطور، وحلل جميع نبلاء ألمانيا، وكذلك نبلاء الامبراطورية الرومانية من الطاعة له.

كيف قاد ملك انكلترا جيشاً إلى ايرلندا

حشد الملك جون في هذا العام جيشا كبيراً، في بمبروك Pembroke في ويلز، وأقلع يريد ايرلندا، حيث وصل إلى هناك في السادس من حزيران، ولدى وصوله إلى دبلن التقاه أكثر من عشرين مقدماً من تلك المنطقة وهم خائفين جداً، وأدوا الولاء له، وأدوا يمين التابعية إليه، ولم يفعل— على كل حال— بعضهم ذلك، ورفضوا القدوم إلى الملك، لأنهم سكنوا في أماكن منيعة، وقرر الملك هناك القوانين الانكليزية والأعراف الانكليزية، وعين عمداً للمناطق ووكلاء لحكم شعب تلك المملكة، وفقاً للقوانين الانكليزية، كما عين جون، أسقف نورويك، رئيساً للعدالة هناك، وهو الذي أمر بضرب بنس لتلك البلاد له الوزن نفسه مثل البنس الانكليزي، وأمر بضرب نصف بنس، وربع بنس مستدير، وأمر الملك أيضاً باستخدام النقود بشكل عام في انكلترا، ومثل ذلك في ايرلندا، وأن نقود المملكتين يتوجب وضعها معا في خزانته، وبشأن استدارة هذه النقود كان مورلين المتنبيء قد قال متنبئاً:« إن شكل التجارة سوف يكون مقسوما، والنصف سوف يكون مستديراً»، وسار الملك بعد هذا وزحف مع قوة عظيمة واستولى على عدد من حصون أعدائه وهرب من أمامه وولتر دي لاسي، وهو رجل من أصل نبيل، وجاء فراره مع عدد من الآخرين، كانوا خائفين من الوقوع بين يديه، ولدى وصوله إلى منطقة ميث Meath حاصر زوجة وليم دي بروز، ووليم ابنهما مع زوجته في حصن هناك، وأسرهم، وأرسلهم مثقلين بالأغلال إلى انكلترا، وأمر بسجنهم والتضييق عليهم

في قلعة وندسور، وبعدما رتب الملك جون الأمور حسب هواه في الشطر الأعظم من ايرلندا، أقلع منتصراً نحو انكلترا، ونزل هناك في التاسع والعشرين من آب، ثم بادر مسرعاً إلى لندن، وأمر باجتماع كل أساقفة انكلترا بحضرته مع رجال الدين جميعاً، وقدم إلى ذلك الاجتماع العام: رعاة الديرة، والكهنة، وراعيات الديرة، والداوية، والاسبتارية، ورؤساء ديرة الـ Vills ، وطائفة كلوني، وآخرون من مناطق أجنبية، وأناس من كل مرتبة وطائفة، وأرغم هؤلاء جميعاً على دفع غرامات ثقيلة، والانفاق بشطط من موارد الكنيسة، حتى قيل بأن الأموال التي استخرجت تجاوزت مائة ألف باوند استرليني، أما بالنسبة للرهبان البيض، فقد جرى تمييزهم عن البقية، وذلك بعدما حرموا من امتيازاتهم، ومع ذلك أرغموا أيضاً على دفع أربعين ألف باوند من الفضة إلى الملك، في حملة الضرائب هذه.

وحدث في هذا العام أيضاً أن السيدة النبيلة ماتيلدا، زوجة وليم دي بروز، وابنها ووريثها وليم مع زوجته، وكانوا في السجن في ويند سور، بناء على أوامر الملك، قد ماتوا جوعاً في ذلك المكان.

كيف أخضع ملك انكلترا أمراء ويلز

عام ١٢١١م، فيه كان الملك جون، أيام عيد الميلاد في يورك، بصحبة ايرلات وبارونات مملكته، وحشد في العام نفسه هذا الملك جيشاً كبيراً في ويتتشيرش Whitchurch ، ومن هناك زحف إلى داخل ويلز، في الثامن من تموز، وتوغل بقوة عظمى إلى داخل تلك البلاد حتى سنودون Snowdon ، وقد دمر جميع الأماكن التي وصل إليها، وأخضع جميع الأمراء والنبلاء من دون معارضة، وتسلم ثمانية وعشرين من الرهائن، ضمانة لخضوعهم في المستقبل، وعاد بعد هذه النجاحات، في يوم عيد صعود القديسة مريم، إلى ويتتشيرش، وذهب من هذا المكان إلى نورثأمبتون، والتقى هناك برسولين مع رسائل من مولانا

البابا، وكانا: باندولف Pandulph ، وهو نائب شماس وكاردينال للكرسي الرسولي، ودوراند Durand ، وهو راهب من فرسان الداوية، وقد جاءا من أجل اعادة السلام بين الكهنة والملك، وبعدما تشاور الملك مع الرسولين منح برضا الإذن إلى رئيس الأساقفة والرهبان، وإلى جميع الأساقفة الذين تقدم ذكرهم بالعودة إلى مواطنهم بسلام، لكنه رفض تقديم العون إلى رئيس الأساقفة والأساقفة مقابل الخسائر التي عانوا منها، أو تقديم ترضية لهم مقابل ممتلكاتهم التي جرت مصادرتها، وعاد الرسولان إلى فرنسا دون إكمال عملهما، وبعد هذا فرض الملك جون ضريبة على الفرسان الذين لم يكونوا في الجيش في ويلز، وكان مقدارها ماركين على كل محلجة.

وأنهى في هذا العام رجل نبيل، هو الفارس المشهور روجر، قسطلان شيستر، حياته.

كيف نفى الملك الفرنسي رينالد كونت أوف بولون

وجرى في هذه الآونة بشكل غير عادل، طرد رينالد كونت أوف بولون، من كونتيته، من قبل الملك الفرنسي، مع أنه كان جريئاً، ومحارباً، وقد حرم من جميع ممتلكاته، وبعد طرده، أعطى الملك المتقدم الذكر، الكونتية نفسها إلى ابنه فيليب، مع ابنة الكونت المذكور، ووريثته الشرعية، وقد أعطاه الكونتية ليتملكها، ولتكن حقاً له إلى الأبد، وذهب الكونت رينالد، إلى انكلترا، واستقبل بتكريم من قبل الملك جون، وبكرم تسلم منه ثلاثمائة باوند كمورد أرضي، ومقابل ذلك قدم الولاء إلى الملك المذكور، وأقسم يمين التابعية.

موت وليم دي بروز

أنهى في هذه الآونة وليم دي بروز الأكبر حياته في كوربيل Cor-beil، وكان قد هرب إلى فرنسا من الملك جون، وقد دفن مع التشريف

في دير القديس فكتور في باريس.

وفي هذا العـام تملكت الدهشة البـابا انوسنت إلى أقصى الحدود تجاه قحة الملك جون وتمرده، في رفضه النصيحة المفيدة التي قدمها له رسله، الذين بعث بهم إليه لمناقشة شروط للمصالحة، فحلل من الولاء والتبعية للملك الانكليـزي، الأمـراء، وجميع الآخـرين من أعلى المراتب وأدناها سـواء، من الذين عليهم واجبـات تجاه التـاج البريطاني، وجـاء هذا التحليل واضحاً، وتحت تهديد عقوبة الحرمان الكنسي، وقد أمرهم بدقة بوجـوب تجنب الالتقـاء به والتعـامل معه، على المائـدة، أو في مـؤتمر أو محادثة، وفي أيام الحرمـان هذه كان لدى الملك أكثـر المستشارين شروراً، الذين لن أحـذف أسماءهم، ولن أتخلى عن ذكـرها جـزئيـا هنا، وهـم: وليم، أخـو الملـك وايرل سـالسبري، وألبيرك Alberic دي فيرل، ايرل أكسفـورد، وغيوفـري فتـز— بيتر، المتولي للعـدالة، وفيليب أوف درم، وبيتر أوف وينكستر، وجون أوف نورويك، ورتشارد مارشال المستشار، وهيـوج دي نيفل المسـؤول عن الغـابات، ووليم دي وورثهـام مـدير الموانيء البحـرية، وروبرت دي فيبـونت Vipont، وأخـوه إيفـو Ivo، وبرين دي لآيل Lisle، وغيوفري دي لوسي، وهيـوج دي باليول Bal-iol، وأخوه برنارد، ووليـم دي كانتيلو Cantelu، وهنري دي كورنهل Cornhill، عمـــدة كنت، وروبـرت دي بريبروك Braybrook، وابنه هنري، وفيليب دي أوليكوت Ulecote، وجون دي باسنغبورن Bas-singbourne، وفيليب مارسي Marcy قسطلان أوف نوتنغهام، وبيتر دي مـولي Maulei، وروبرت دي غـوغي Gaugi، وجيرارد دي أتي Atie، واينغـلارد Engelard حفيـده، وفـولك ووليـم بريأوري Briuere، وبيتر فتـز— هيربيرت، وتومـاس باسيت Bassett، مع كثيرين آخرين، أن تتـولى ذكرهم سـوف يكون أمراً متعباً، وقدم هؤلاء جميعا نصـائحهم وفقاً لما رغبوا به في إرضـاء الملك ولسروره، ليس وفقاً

للعقل، بل وفقاً لما أملته مسرات الملك ومتعه.

كيف رسم ملك انكلترا الاسكندر ابن ملك الاسكوتلنديين فارساً

عام ١٢١٢م، فيه كان الملك جون في ويندسور وفي يوم أحد الفصح، في الصوم الكبير التالي، أقام الملك المذكور احتفال العيد في لندن، في القديس بردجيت Bridget، في مشفى أوف كليركنول Clerkenwell، ورسم عند المائدة الاسكندر ابن ملك اسكوتلندا وولي عهده فارساً.

ومات في العام نفسه في بونتني Pontigny موغر أسقف وينكستر، الذي كان في المنفى، ورجلاً مشهوداً له من أجل حماية حقوق الكنيسة، ولمحافظته على العدل.

كيف جرى تحذير ملك انكلترا بوجود خيانة ضده

وخرج الويلزيون في هذه الآونة من مكامنهم، واستولوا على بعض قلاع الملك الانكليزي، حيث قتلوا كل الذين وجدوهم فيهم من فرسان وجنود سواء، كما أحرقوا عدة بلدات، وقاموا بعد هذا كله بجمع كميات كبيرة جداً من الأسلاب، فحملوا أنفسهم ثانية عائدين إلى مكامنهم من دون أية خسائر لأنفسهم، وعندما باتت هذه الأحداث معروفة من قبل الملك، غضب غضباً شديداً، وحشد جيشاً كبيراً من الفرسان والعساكر الرجالة، مقرراً الانتقام ونهب المناطق الويلزية، وافناء سكانها، ولدى وصوله مع جيشه إلى نوتنغهام، وقبل أن يأكل أو يشرب، أمر بثمان وعشرين شاباً، كان قد تسلمهم رهائن من الويلزيين، في العام الماضي، بتعليقهم على المشانق، انتقاماً للأعمال العدوانية التي اقترفها أبناء بلادهم، وعندما كان بعد هذا جالساً إلى المائدة يتناول طعامه ويشرب، وصل إليه رسول من ملك اسكوتلندا، وناوله رسائل، حذره فيها من وجود مؤامرة تحاك ضده، وإثر ذلك مباشرة وصل إليه

رسـول آخر من ابنة الملك نفسـه، زوجـة ليـولين Leolin، ملك ويلز، وجلب الرسول الثـاني رسائل لاتشبه الرسـائل الأولى، وقد أخبر الملك بأن المحتويات كانت سرية، واختلى الملك به بعد الطعام جانباً، وأمره أن يشرح له معنى الرسـائل، فـوجـد أن الـرسـولين وإن قـدمـا من بلدين مختلفين قد حملا خبراً واحدا، وكان لهما غاية واحدة، وكان ذلك، أنه إذا ماواظب الملك على الحرب التـي بدأها، فإنه إما سيقتل من قبل نبـلائه، أو سوف يسلم إلى أعـدائه من أجل إهلاكه، وخاف الملك خـوفاً عظيماً لدى سماعه بهذا، ولأنه كان يعرف بـأن النبلاء الانكليز كانوا محللين من الولاء له، آمن أكثر بصحة ماجـاء بالرسائل، لذلك غيّر بعقلانية نواياه، وأمـر جيشه بالعـودة إلى الوطن، وذهب هو شخصياً إلى مـدينة لندن، حيث قام إثر وصـوله، بارسال رسل إلى جميع النبـلاء، الذين كان يشك بولائهم له شخصيـاً، وطلب رهائن منهـم، حتى يتمكن بهذا من معرفـة الذين كـانوا على استعـداد لطاعتـه، والذين لم يكونوا على استعـداد لطاعته، ولم يتجرأ النبلاء على عدم طاعة أوامر الملك، فبعثوا بأولادهم، وحفيداتهم، وبآخرين من أقـربائهم، للحصول على رضا الملك، وبذلك خمد غضبـه إلى حد مـا، وقام— على كل حـال— يوستاس دي فيـزكي Vesci، وروبرت فتـز— وولتر، وكانـا عرضـة للتهمـة بتدبير المؤامـرة المذكـورة أعـلاه، وكـانا مـوضع شك عظيم لدى الملك وريبـة، فغـادرا انكلترا، فقـد انسحب يوستـاس إلى اسكوتلندا، وذهـب روبرت إلى فرنسا.

بطرس الناسك ونبوءته

قطن في هذه الآونة في كـونتية يورك، ناسك اسمـه بطرس، وقد عـدّ رجـلاً حكيما، بسبب أنـه أخبر عـدداً كبيراً من الناس بـوقـائع كثيرة حـدثت، وبين أشياء كثيرة كـانت مـوضع روح التنبؤ لديه، قـد تعلقت بجـون ملك الانكليز، حيث أعلن بشكـل مكشوف، وأمـام الجميع بأنه

لن يكون ملكاً مع حلـول يوم عيـد الصعـود المقبل، لابل إنـه تنبأ بعـد ذلك أنه في ذلـك اليـوم سـوف ينتقل تـاج انكلترا إلى واحـد آخـر، ووصلت هذه التأكيدات إلى معرفة الملك، فأمـر باحضار الناسك أمامه، وسأله الملك، عما إذا كـان سيموت في ذلك اليوم، أو كيـف أنه سيحرم من عرش المملكة، فأجابه الناسك:« كن متأكداً بأنك لن تكون في اليوم الذي تنبأت عنه، ملكاً وإذا مـاتبرهن أنني أخبرت بالكذب، افعل معي مـاتريده»، وهنا قال له الملك:« ليكـن كما تقول»، ثم إنه عهـد بالناسك ليـوضع في السجن لـدى وليم دي هاركـورت Harcourt، الذي أثقلة بالسلاسل واحتفظ به في كورفي Corfe، بانتظار حادثة النبوءة، ومالبث اعـلان النـاسك هذا أن انتشر على الفـور في الخارج، حتى وصل إلى أقصى المناطق النائية، وبذلك صدقه معظم الذين سمعوه، وآمنوا بماتنبأ، وكأن هذه النبـوءة قـد أعلنت من السماء، وكـان في ذلك الحين في مملكة انكلترا، كثيراً من النبـلاء تولى الملك فضـح زوجـاتهم وبنـاتهم، لإهانة أزواجهم وآبائهم، كما كـان هناك كثيريـن استصفـاهم الملك وأنزلهم إلى الفقـر الشـديد، ومثل هذا كثيريـن أيضـاً كـان قـد تولى نفـي آبائهم وأقـربائهم، وحول ممتلكاتهم لاستخـدامـاته الشخصية، وعلى هذا كـان عـدد أعداء الملك المذكـور من الكثرة بمكـان بقدر تعـداد جميع نبلائـه، وبناء عليه، لدى معرفتهم في هذه الأزمـة، بأنهم كانوا محللين من الولاء لجون، كـانوا مسرورين جـداً، وإذا كـان من الممكن تصـديق الروايات، لقد أرسلوا أوراقـاً مختومة بأختـام كل واحد من النبـلاء المذكورين، إلى الملك الفـرنسي، يخبرونـه أنه يمكنه أن يأتي بـأمـان إلى انكلترا، حتى يستحوذ على المملكة، ويتوج بكل تشريف وكرامة.

كيف صدر قرار بالخلع ضد الملك جون

وفي هذه الآونـة، ذهب ستيفن رئيس أسـاقفـة كـانتربـري، مع الأسقفين: وليم أسقف لنـدن، ويوستـاس أسقف إيـلاي، إلى رومـا،

وأخبروا البـابـا بمختلف أعمال التمـرد والجرائم التي اقترفهـا ملك انكلترا، من وقت حرمانه مـن شركة المؤمنين حتى الوقت الحالي، فهو لم يتـوقف عن إلقـاء يد الاغتصـاب والاكـراه والوحشيـة على الكنيسـة المقدسة، معاداة منه للرب، والتمسـوا بناء عليه بتواضع أن يتفضل البابا برحمتـه التقيـة بمساعـدة كنيسـة انكلترا، التي كـانت تعـاني من لحظات بقـائها الأخيرة، وحـزن البابا وقتهـا حـزناً عميقاً من أجل إقفـار مملكة انكلترا وعـزلتها، فقـام بناء على نصيحـة كـرادلته، وأسـاقفتـه، والناس العقـلاء الآخـرين، فقضى بشكـل محدد بأن جـون ملك انكلترا، ينبغي خلعه من على عرش تلك المملكة، وأنه يتوجب اختيار واحد أفضل منه من قبل البـابا، ليخلفه، وفي سبيل تنفيذ قـراره هذا، كتب مولانـا البابا، إلى فيليب ملك فـرنسا القـوي، يعفيـه من جميع ذنوبه، ويأمره أن يتـولى القيام بهذا العمل، وأعلمـه أنه بعدما يتمكـن من طرد الملك الانكليزي من عـرش تلك المملكة، فإن خلفـاءه سـوف يستحـوذون مملكة انكلترا بشكل أبدي، وبالإضافـة إلى ذلك كتب إلى جميع النبلاء الفـرسان، وإلى أمثالهم من رجال الحرب الآخرين، في مختلف مناطق المملكة، آمراً إياهم بحمل شارة الصليب، وأن يتبعوا الملك الفرنسي، على أنه قائدهم، حتى يمكن خلع الملك الانكليزي، وبذلك ينتقمـون للإهانة التي ألقيت على الكنيسة العالمية، كما أنه أمر بوجـوب عدّ جميع الذين قدموا شخصيا، أو قدّمـوا مساعـدة شخصية في خلع ذلك الملك المتمرد، مثـل الذين ذهبوا لزيارة ضريح الـرب، وأن يبقـوا آمنين تحت حماية الكنيسـة، فيما يتعلق بممتلكاتهم، وأشخاصهم، واهتمامـاتهم الروحية، وبعث البـابا بعد هذا، من جانبه باندولف نائب الشماس مع رئيس الأساقفة والاسقفين، الذين ورد ذكرهم أعـلاه، إلى المناطق الفرنسية، حتى يمكن بحضـورهم تنفيذ جميع الأوامـر المذكـورة أعـلاه، ثم قـام باندولـف قبل أن يترك البـابا، وعندما كان البقية بعيدين عنه، فسأل البابا بشكل سري، واستوضح من قداسته، عن الذي سوف يـرضيه أن يفعل، إذا صدف ووجد أية ثمار في

توبة جون، وأنه سوف يقدم ترضيـة مقنعة إلى الرب، وإلى كنيسة روما، فيما يتعلق بجميع أعماله، وعندها أملى عليه البابا صيغة بسيطة للسلام، وقـال: إذا مـاقـرر جـون الموافقـة عليهـا، يمكنه أن يجد الحظوة لدى الكرسي الرسولي، ولسوف يأتي فيما بعد وصف لهذه الشروط.

عودة رئيس أساقفة كانتربري مع الأسقفين المذكورين من عند الكرسي الرسولي وموت غيوفري رئيس أساقفة يورك

عـام ١٢١٣م، فيـه عقـد الملك جـون بلاطه في عيـد الميـلاد في وستمنستر، برفقة عدد ضئيل جداً، من الفـرسان كانوا في ركابه، ومات في تلك الآونة غيوفري رئيس أساقفـة يورك، الذي كان قـد مضى على وجـوده بالمنفى سبعة أعـوام، وذلك بسبب دفاعـه عن حقوق الكنيسـة والحفاظ على العـدل، وفي شهر كـانون الثاني، مـن هذا العام نفسـه عاد ستيفن رئيس أسـاقفـة كـانتربري مع وليم ويوستـاس، أسقفي لندن وإيلاي، من بلاط روما، وعقـدوا مـؤتمراً في القارة، أعلنوا فيـه بوقـار مناسب عن القـرار الذي صـدر ضد الملك الانكليـزي بسبب عصيـانه، وجعلوا ذلك معلوماً من قبـل الملك الفرنسي، والأساقفـة الفرنسيين مع رجال الديـن، وكذلك إلى الشعب بشكل عـام، وبعد هذا، فـرضوا على الملك الفـرنسي وكـذلك على الآخـرين جميعـاً، باسم مـولانا البـابا، أنه مقابل إعفـائهم من ذنوبهم، يتوجب عليهم القيـام جميعاً متحـدين بغزو انكلترا، وخلع جون من عرش المملكـة، وتعيين واحد آخر محله، وذلك تحت السلطة الرسـوليـة، التي هي جـديرة بالقيـام بذلك، ولدى رؤية الملك الفرنسي، مـاتشوّق إليه قد اقترب حـدوثه، عمل جميع استعداداته من أجل الحرب، وأمـر رعـاياه جميعـا سواء، والدوقـات، والكونتـات، والبـارونات والفـرسـان، والأتبـاع، بـأن يعـدوا أنفسهم مع الخيـول والسـلاح، وأن يحتشدوا بقـواهم في روان في اليـوم الثـامن من الفصح، وذلك تحت عقـوبة الوصم بـالجبن، ونيل تهمـة الخيـانة، ومـثل هـذا

أمر جميع سفنه، وسفناً أخرى استطاع جمعها، بأن تشحن بشكل جيد بالحبوب، والخمرة، واللحوم، والمؤن الأخرى، حتى تكون لديهم وفرة بجميع الضروريات التي يحتاجها مثل ذلك الجيش الكبير.

استعدادات الملك جون لمقاومة أعدائه القادمين

ولدى اطلاع الملك جون، بوساطة الجواسيس، عما كان يجري في مقاطعات ماوراء البحر، تولى إعداد أفضل دفاع يستطيعه ضد الخطط، التي أعدت ضده، ولذلك أمر بإعداد قائمة بجميع السفن في كل ميناء من موانىء انكلترا، وجاء ذلك بوساطة تفويض عمله لكل واحد من الوكلاء، في كل ميناء للقيام بهذا العمل، وكان نص التفويض كما يلي: «من جون ملك انكلترا، الخ، نحن نأمركم أن تقوموا فور تسلمكم رسائلنا هذه، بالذهاب شخصياً مع الوكلاء في الميناء إلى كل واحد من المراسي الموجودة في وكالتكم، وأن تعملوا لائحة دقيقة بجميع السفن التي تجدونها هناك، قادرة على حمل ستة خيول أو أكثر، وأن تأمروا باسمنا القباطنة وكذلك أصحاب هذه السفن، أن يكونوا هم أنفسهم، مع سفنهم وجميع الممتلكات العائدة إليهم، في بورتماوث في منتصف الصوم الكبير، وأن تكون سفنهم مشحونة بالمؤن وبالمعدات بشكل جيد، مع بحارة مجربين، وعساكر جيدين، للدخول في خدمتنا، وليكونوا تحت تصرفنا من أجل خلاصنا، وأن تعدوا وقتها وفيها بعد لائحة واضحة وصحيحة بعدد السفن التي وجدتموها في كل ميناء، ولمن هم، وكم من الخيول تستطيع كل سفينة أن تحمل، ثم أن تخبرونا كم من السفن وما هي الأنواع، مما ليس موجوداً في موانئهم في يوم الأحد بعد أربعاء الرماد، وذلك كما أمرنا، وسوف يظل هذا التفويض قائماً، من أجل الأمر نفسه، شهدت بنفسي، في المعبد الجديد، في اليوم الثالث من آذار».

وبعدما عمل هذا بالنسبة للسفن وأعده، بعث الملك برسائل أخرى إلى جميع عمد مناطق مملكته، فيها الأوامر التالية:« من جون ملك انكلترا، الخ: أنذر بوساطة عمال جيدين، جميع الايرلات، والبارونات، والفرسان، وجميع الرجال الأحرار والأقنان— أينما كانوا، ومهما كان العقد الذي بين أيديهم، أنه يتوجب أن يكون لديهم سلاح، أو أن يتولوا شراء سلاح، والمقصود بهذا الذين قدموا الولاء لنا، وأقسموا على طاعتنا، ولديهم تقدير لنا، أن يكونوا هم أنفسهم، مع جميع مقتنياتهم في دوفر في نهاية الصوم الكبير المقبل، مجهزين بالخيول وبالسلاح، وبكل مايمكنهم إعداده وتوفيره، وذلك بغية الدفاع عن ذاتنا كما يدافعون عن ذواتهم، وعن أرض انكلترا، وينبغي أن لايتخلف انسان قادر على حمل السلاح، وذلك تحت عقوبة الوصم بالجبن، والإدانة بعبودية دائمة، وعلى كل انسان وجوب اتباع مولاه، وعلى الذين لايمتلكون أرضاً، ولكنهم قادرون على حمل السلاح، أن يقدموا ويشاركوا في خدمتنا كمرتزقة، وفضلاً عن هذا أرسل جميع المؤن الممكن نقلها، واجعل جميع الأسواق الموجودة في وكالتك أن تلحق بجيشنا، وأن لايعقد سوق في أي مكان آخر في وكالتك، وقم أنت نفسك بالحضور في ذلك المكان مع عمالك المتقدم ذكرهم، وكن متأكداً أننا نود أن نعرف كيف سارت الأمور في وكالتك، ومن الذي جاء ومن الذي لم يقدم، وانتبه بأن تقدم مزوداً بشكل جيد بالخيول وبالسلاح، حتى لانكون مرغمين على التعامل معك شخصياً، وينبغي أن يكون لديك ملفاً، لكي تتمكن من اعلامنا عن الذين بقيوا».

ولدى انتشار هذه الرسائل وتوزيعها في جميع أنحاء انكلترا، احتشد في موانيء البحر في مختلف المناطق، التي جذبت انتباه الملك مثل: دوفر، وفيفرهام، وايبسويتش Ipswich، أناس من مختلف الأحوال والأعمار، الذين لم يخافوا من شيء أكثر من خوفهم من اسم جبان، لكن بعد مضي

عدة أيام، نقصت المؤن لديهم بسبب أعـدادهم الكبيرة، ولذلك قام قادة الجيش بإعـادة أعداد كبيرة من النـاس إلى بيوتهم، ممن لم يكونوا رجـالاً مجربين، واحتفظوا عند الشـاطىء بالجنود، والأتبـاع والرجال الأحـرار، مع رجـال القسي الزيارة والرمـاة، علاوة على ذلك، قـدم جـون أسقف أوف نورويك إلى الملـك من ايرلندا، مع خمسمائـــة فـارس، وكتلة من الجنود الخيـالة، وقد استقبل بترحـاب كبير من قبله، ولدى اجتماع جميع القوات في بارهام داون Barham Down، جرى تعداد الجيش، فكان ستين ألفاً من الرجال الأشداء، بما فيهم الفرسان النخبة وأتباعهم، وهـم مسلحـون بشكل جيد، ولو كـانوا على قلب واحـد، وتوجه واستعـداد واحـد نحو ملك انكلترا، والدفـاع عن بلادهم، ماكـان هناك أمير تحت السماء لايمكنهم الدفـاع ضده عن مملكة انكلترا، وقـرر الملك الاشتباك بأعدائـه في البحر، ليغرقهم قبل نزولهم إلى اليـابسة، لأنه امتلك اسطولاً أكثـر قـــوة من اسطول الملك الفـرنسي، وفي هذه الخطة، وضـع أهدافـه الرئيسية في الدفاع.

قدوم باندولف إلى الملك

وعندما كان الملك الانكليزي مع جيشه ينتظر وصول ملك فرنسا إلى قرب سـاحل البحر، وصل اثنان من فـرسان الداوية إلى دوفر، وقدما إلى الملك بطريقـة صـديقـة وقـالا له:« لقـد أرسلنا إليك أيها الملك الأعظم قوة، لفـائدتك نفسك، وفائـدة مملكتك من قبل باندولف نائب الشماس والصـــديق المقـــرب من مـــولانا البـــابا، وهو يرغـب بالاجتماع معك والتحـــادث، ولســـوف يقترح عليك شكل مصـــالحة، فيهـــا يمكن أن تتصـالح مع الـرب، ومع الكنيسـة، مع أنك قـد حـرمت من حقك في تملك انكلترا، من قبل بلاط رومـا، وجرت إدانتك بوساطـة قرار حكم صـادر عـن ذلك البـلاط، ولدى استماع الملك لحديـث هذين الداويين، أمرهما بعبـور البحر على الفور، واحضـار باندولف إليه، وبناء على هذه

الدعوة جاء باندولف إليه، والتقى بالملك في دوفر، وخاطبه بهذه الكلمات:« اعلم بأن ملك فرنسا الأعظم قوة موجود الآن عند مصب السين مع اسطول لاعدّ له ولاحصر وجيش كبير من الفرسان والرجالة، ينتظر حتى يقوى بقوة كبيرة، كي يقدم إليك ويهجم عليك وعلى مملكتك، وليتولى طردك بالقوة بحكم كونك عدواً للرب، وللحبر الأعظم، وليتولى بعد ذلك، بتفويض من سلطة الكرسي الرسولي، على مملكة انكلترا بشكل دائم، ولسوف يقدم معه من هناك الأساقفة الذين نفيتهم منذ زمن طويل من انكلترا، وذلك مع رجال الدين المنفيين والعلمانيين، فهؤلاء سوف يقدمون له المساعدة لاسترداد كراسيهم الأسقفية بالقوة مع الممتلكات الأخرى، وليقدموا له في المستقبل الطاعة، التي أبدوها من قبل نحوك ونحو آبائك، علاوة على ذلك، لقد قال الملك المذكور بأنه يمتلك أوراقاً بالولاء والطاعة من الغالبية العظمى لنبلاء انكلترا، وهو على أساسها يشعر بالأمان والاطمئنان بأنه سوف يوصل العمل الذي شرع به إلى نهاية ناجحة تماماً، وعلى هذا فكر بمنافعك، وأقبل على التوبة، فأنت في اللحظة الأخيرة، ولاتتأخر في إرضاء الرب الذي أغضبته، ودفعته لأن ينتقم منك انتقاماً ثقيلاً، وإذا كنت على استعداد لتقديم ضمانة كافية، بأنك سوف تخضع لحكم الكنيسة، وأن تتواضع بنفسك أمام الذي تواضع بنفسه من أجلك، يمكنك وقتها أن تسترد سيادتك، برحمة من الكرسي الرسولي، وهي السيادة التي خلعت منها في روميا بسبب تمردك، والآن فكر وتمعن، خشية أن يمتلك أعداؤك سبباً للضحك عليك، ولاتضع نفسك في المآزق، التي منها لن تكون قادراً على التخلص، مهما رغبت بذلك».

كيف أثير الملك جون للاقدام على التوبة

واستمع الملك جون، ورأى في الذي سمعه الصدق، وقد غضب كثيراً، وارتعب لأنه شاهد كم هو الخطر قريب من جميع الجهات،

وتوفرت أربعـة أسباب لحضـه على التوبة والتكفير، وكـان أولها أنه كان قد مضى عليه حتى الآن خمس سنوات وهو تحت الحرمان الكنسي، وأنه قد أغضب الرب والكنيسـة المقدسة، إلى حد أضاع فيـه جميع الآمال في إنقاذ روحـه، وكان السبب الثـاني هو خوفـه الشديد من وصـول الملك الفـرنسي، الذي كـان ينتظر قـرب شـاطـيء البحـر مع جيش لايعـدّ ولايحصى، ولديه خطة لاسقاطه، وكان السبب الثالث خوفه من أنه إذا مااشتبك بالقتال مع أعدائـه الذين اقترب وصولهم، أن يتخلى عنه نبلاء انكلترا، ويتركوه في الميـدان لوحده، وأن يفعل ذلك شعبـه أيضاً، أو أن يسلمـوه إلى أعدائـه لتـدميره، وكـان السبب الرابع قد أرعبـه أكثـر من البقية، وتمثل باقتراب يوم صعـود الرب، فوفقـاً لنبوءة بطرس الناسك، التي تقـدم ذكـرها من قبل، سـوف يفقد حيـاته الدنيـوية ومعهـا حكم المملكة، وبما أنه قـد دفع إلى حـافـة اليأس بهذه الأسبـاب وبـأسبـاب مشابهة، فكان أن أذعن لضغط باندولف واقتنع، لكن ليس من دون ألم، فقبل بصيغــة السلم المدونة أدناه، وأقسم بـالانجيل المقـدس بحضــور باندولف، بأنه سـوف يكون مطيعـاً لحكم الكنيسـة، وأقسم أيضـاً ستـة عشر من أكثـر نبـلاء انكلترا قـوة، وتعهـدوا أنه إذا مـاأقـدم على نقض وعده، سوف يبذلون كل ماوسعهم من طاقة في إرغامه على الوفاء به.

صك الملك جون الذي أعطاه ترضية لرئيس أساقفة كانتربري مع رهبانها ورجال الدين الآخرين وأساقفة انكلترا، ومن أجل إعادة ممتلكاتهم المصادرة

وفي اليـوم الثـالـث عشر من أيار، الـذي كـان يوم اثنين، جـاء بعـد عيـد الصعــود المتقـدم، اجتمع الملك مـع باندولف، والايرلات، والبــارونات، وعدد كبير من الناس احتشدوا هنـاك، في دوفر، وهناك وافقوا بالاجماع على صيغة السلام المكتوبة أدناه:

« من جـون ملك انكلترا إلى جميع هؤلاء الحضـور، والذين سيقدمـون،

التحيات» إنه بوساطة هذه الرسائل المرخصة منا والمختومة بختمنا، نرغب أن يكون معلوماً، أنه قام بحضورنـا، وبناء على أوامرنا، البارونات الأربعة التـالية أسماؤهم: وليم ايرل سـالسبري، وهو أخونا، وريناللد كـونت أوف بولون، ووليم ايرل ويرني Warenne ، ووليم كونت أوف فيرار Fer-rars ، فأقسمـوا ضمانـة لأنفسنا، أننا سنقـوم باخـلاص بالحفـاظ على السلم الموصوف أدناه في جميع الأشياء، وبناء عليـه إننا نقوم في المقام الأول بالاقسـام بشكـل مهيب ودقيق، بحضـور النائب البـابوي، على الالتـزام بأوامر مـولانا البابا في جميع القضايا التي من أجلها حـرمنا كنسيا من قبله، وأننا سوف نمنح سـلاماً دقيقـاً ونلتزم به، ونقدم أمـاناً شامـلاً إلى الرجال المبجلين التـالي ذكـرهم: ستيفن رئيس أسـاقفـة كـانتربري، ووليم أسقف لندن، ويوستــاس أسقف ايلاي، وجـايل أسقف هيرفــورد، وجـوسلين أسقف باث، وهيـــوبرت أسقف لنكولن، وإلى رئيـس رهبــان ورهبــان كـانتربري، وإلى روبرت فتز— وولتر، ويوستـاس دي فيزكي، وأيضـاً إلى بقيـة رجال الـدين والعلمانيين المرتبطين بهذه المسألة، ونقسم بشكل علني، في الوقت نفسـه، بحضـور النائب البـابوي، أو المندوب البـابوي، بأننا لن نؤذيهم في ممتلكاتهم، أو نتسبب، أو نسمح بتعرضهـم للأذى بأشخاصهم، أو ممتلكاتهم، ولســوف نلغـي جميع غضبنا عنهم، وسنستقبلهـم بحظوتنا، وسنحـافظ على هذا ونرعـاه بصدق وإيمان جيـد، وكـذلك لن نعيق رئيس الأساقفـة المتقدم ذكره مع الأساقفـة أو نتسبب بإعاقتهم، أو نسمح بذلك، أي بمنعهم عن أداء واجبـاتهم بكل حـرية، وبالتمتع بسلطـات كـاملة في أعمالهم الإدارية والقضـائيـة، وذلك كما ينبغي لهم أن يفعلوا، ولهذا سـوف نمنح رسائلنا موثقـة معتمدة سواء: إلى مولانا البـابا، وإلى رئيس الأساقفة المذكـور، وإلى كل واحـد من الأسـاقفـة، وأن نجعل أسـاقفتنا، وايرلاتنا، وباروناتنا، بقدر ماسيختاره منهم رئيس الأساقفـة المتقدم ذكره والأساقفة المذكـورين، يتقـدمـون بأيمانهم وبرسـائل معتمـدة مـوثقـة أنهم أنفسهـم سيبذلون جهـودهم لرؤية السلام والترتيبات، قـد حفظت بثبات، وأنه إذا

ماحـدث— لاسمح الرب— فقمنا إما نحن بأنفسنا، أو بوسـاطة آخرين، بمخالفـة هذا، عليهم الالتزام بالأوامـر الرسوليـة، لصالح الكنيسـة، ضد الخارق لهذا السـلام ولهذه الترتيبات، وبذلك يمكن أن نفقـد بشكل أبدي إدارة الكنائس الشاغرة، وإذا حدث أننا لم نستطع اقناعهم بالموافقة على هذا الشطر الأخير من هذا اليمين، أي، بمعـارضــه ذلك، إمـا من قبلنا نحن أنفسنا، أو من قبل الآخـرين، عليهم الالتزام بـالأوامر الرسـولية لصـالح الكنيسة، ضد الخارقين لهذا السلام، ولهذه الترتيبات، وقدمنا في سبيل ذلك رسائلنا المعتمدة، وعهدنا إلى مولانـا البابا، وإلى كنيسة روما بجميع حقوق الرعـوية التي نمتلكها في الكنائس الانكليـزية، ولسوف نتـولى تحويل جميع هذه الرسـائل المعتمدة، التي منحت لضمانة رجـال الدين المتقدم ذكـرهم، وإلى رئيس الأسـاقفة، وإلى الأسـاقفة، قبل قـدومهم إلى انكلترا، وعلينا أن نطلب من رئيس الأساقفـة المذكور ومن الأساقفة، أنه باستثناء فقط كـرامة الرب، وشرف الكنـائس، عليهم تقـديم ضمانات مشفـوعـة باليمين وبالكتابة، أنهم سوف لن يعملوا لابأشخاصهم، ولابوساطة الآخرين، أية محاولة ضد شخصنا، أو ضد التاج، طوال الوقت الذي نمنحهم فيه الأمان المذكـور أعـلاه، وطوال محافظتنا على السـلام غير مخروق، ولسـوف نعيـد بشكل كامل جميع الممتلكات المصادرة، مع ترضية على خسائرهم، ويشمل ذلك رجال الدين، وكذلك العلمانيين، الذين لهم علاقة بهذا العمل، وليس ذلك فقط بالنسبـة لممتلكاتهم، ولكـن أيضـاً بالنسبـة لحقـوقهم، ولسـوف نحمي حقـوقهم المحفوظـة وبالنسبة لرئيس الأسـاقفـة، وأسقف لنكولن، سـوف نضمن ذلك من تاريخ تكريسهم، أمـا البقيـة فمن تاريخ بداية هذا الخلاف، ومـامن اتفـاقية، أو وعـد، أو منحـة، سوف تشكـل معوقاً لهذه الضمانات، أو تسبـب خسـارة، أو تعيق استرداد الممتلكـات المصـادرة للأمـوات وللأحيـاء سـواء، كما أننا لن نحتفظ بأي شيء تحت حجـة خـدمات مستحقـة لنا، وفيما بعد سـوف يجري تقديم تعـويضات مناسبة مقابل الخدمات التي تعمل لنا، وسنقوم منذ الآن باطلاق سراح، وصرف،

والاعادة إلى الحقوق جميع رجال الدين الذين هم موضوعين من قبلنا تحت الاعتقال، ومثلهم أي واحد من العلمانيين، الموجودين قيد الاعتقال بسبب هذا العمل، وفور وصول واحد، يكون شخصاً مناسباً لتحليلنا، سوف نقوم، من جانب أول بإعادة الممتلكات المصادرة، ثم تسليم الرسل الموكلين من قبل رئيس الأساقفة المذكور، والأساقفة، ورهبان كانتربري، مبلغ ثمانية آلاف باوند، تكون من الأموال الاسترلينية القانونية، لدفع ماهو مستحق، ومن أجل النفقات الضرورية، لكي يتم الانفاق عليهم من دون ديون أو اعاقة من قبلنا، ولكي يتمكنوا بكرامة من الاستدعاء والعودة إلى انكلترا، حالما يكون ذلك ممكنا، وأعني بذلك أن يكون الدفع إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري: ألفين وخمسمائة باوند، وإلى وليم أسقف لندن سبعمائة وخمسين باوند، وإلى يوستاس أسقف إيلاي سبعمائة وخمسين باوند، وإلى جوسلين أسقف باث سبعمائة وخمسين باوند، وإلى هيوبرت أسقف لنكولن سبعمائة وخمسين باوند، وإلى رئيس رهبان ورهبان كانتربري ألف باوند، وفور معرفتنا بأن السلام قد تثبت وتأكد، سوف نعين من دون تأخير إلى رئيس الأساقفة وإلى الأساقفة، وإلى رجال الدين، ولكل كنيسة لابل لها جميعاً، ونسلم إلى أيدي رسلهم أو وكلائهم جميع الممتلكات المتحركة، مع الحرية بإدارة هذه الممتلكات، ولسوف نصرفهم بسلام، وسوف ننقض بشكل معلن القرارات اللاقانونية، التي أصدرناها ضد اللاهوتيين، وأن نعلن بوساطة رسائلنا المعتمدة، التي سوف ترسل إلى رئيس الأساقفة، أن هذه الممتلكات ليست بأي حال من الأحوال عائدة لنا، وأننا سوف لن نصدر ثانية أحكاما ضد اللاهوتيين، وعلاوة على هذا سوف ننقض القرار اللاقانوني الصادر ضد العلمانيين، والمتعلق بهذه القضية، وسوف نعيد كل الذي تسلمناه من اللاهوتيين منذ صدور قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، وذلك باستثناء عرف المملكة وامتياز الكنيسة، وإذا ماثارت أية قضية حول الخسائر والمصادرات، أو أية كمية مخمنة منهم، فإن ذلك سوف يقرره نائب، أو موفد مولانا البابا، وذلك بعد سماع

الشهادات حول القضية، وبعدما يجري ترتيب هذا كما ينبغي، سوف يجري سحب قرار الحرمـان من شركة المؤمنين، وبالنسبـة للقضايا الأخـرى، فإنه إذا ماتوفـرت أية شكوك جديرة بالمعـالجة، أو أثيرت، فإنها إذا لم تعالج من قبل النائب البـابوي، أو من قبل مندوب مـولانا البـابا، يجري إحالتهـا إلى البابا نفســه، والذي سوف يقـرره، سيجري الالتـزام به، شهدت بنفسي في دوفـــر، في هذا اليـــوم الثـالث عشر مـن أيار، في السنة الرابعــة عشرة من حكمنا.

كيف تخلى الملك جون عن تاجه وعن مملكة انكلترا ووضعهما بين يدي البابا انوسنت

وهكذا جـرى ترتيب الأمـور، في اليـــوم الخامس عشر من أيار، والذي كان عشية يوم الصعود، ففي ذلك اليوم التقى الملك الانكليزي وباندولف مع نبلاء المملكة، وكـان اللقاء في بيت فـرسان الداوية قـرب دوفر، وهناك قام الملـك المذكور، أخذا بالمرسـوم الذي أعلنه في روما، فتخلى عـن عرش مملكتي انكلترا وايرلندا، ووضعهما بين يدي مـولانا البابا، الذي كـان يقوم بأعماله آنذاك، بـاندولف المذكـــور، وبعـدمـــا تخلى عنهما، أعطى المملكتين المذكورتين إلى البـابا وإلى خلفائه، وأكد ذلك إلى البـابا بالصك الوارد نصه فيما يلي:

« **من جون، بفضل الرب، ملك انكلترا، الخ، إلى جميع المؤمنين، من عبيد المسيح، الذين سـوف يرون هذا الصك، الصحـة في الرب**— نود أن يكون معلوماً بصكنا هذا الممهور بخاتمنا، أننا قمنا في كثير من الأشياء باغضاب الرب، وأمنا الكنيسـة المقـدسـة ونحن الآن بحـاجــة قصـوى إلى الرحمة اللاهوتيـة من أجل ذنوبنا، ولن نقـوم هنا بتقـديم تقدمـة جـديرة، كتكفير للرب، وبتسديد المطالب الحقـة للكنيسة، مالم نذل أنفسنا أمـامه الذي أذل نفســه من أجلنـا، حتى الموت، ولقـد خضعنا بوسـاطـة إلهام من الروح القدس، وليس بدوافع خوف من قـرار الحرمان من شركة المؤمنين، وفعلنا

ذلك بارادتنا ورضانا، وبناء على نصيحة عامة من باروناتنا قمنا بتعيين، ومنحنا للرب، ولرسوليه المقدسين بطرس، وبولص، وإلى أمنا الكنيسة المقدسة في روما، وإلى مولانا البابا انوسنت، وإلى خلفائه الكاثوليك، جميع مملكة انكلترا، وجميع مملكة ايرلندا، مع جميع الحقوق والمتعلقات، وذلك ككفارة عن ذنوبنا وعن ذنوب قومنا، من الذين هم أحياء ومن الأموات، ونحتفظ من هذا التاريخ فصاعدا بهذين البلدين وكالة عنه وعن كنيسة روما، كنائب وكيل، ونعلن عن هذا بحضور هذا الرجل المتعلم، أي باندولف الذي هو نائب شماس، وصديق مقرب من مولانا البابا، وقدمنا ولاءنا، وأقسمنا على التبعية لمولانا البابا، ولخلفائه الكاثوليك، وإلى كنيسة روما، بوساطة ماهو مكتوب هنا، ولسوف نؤدي ولاءنا ونقسم على التبعية، للأمور نفسها، بحضور مولانا البابا نفسه، إذا ماتمكنا من الذهاب والمثول أمامه، ولقد ربطنا خلفاءنا وورثتنا من زوجتنا بشكل دائم، بالطريقة نفسها، كي يقدموا الولاء، ويعلنوا عن التبعية من دون معارضة، إلى الحبر الأعظم، لهذا الوقت، وإلى كنيسة روما، وكعطاء ودليل على هذا الارتباط الدائم، سوف، لابل قررنا أن نعطي من الآن فصاعداً، من دخلنا، ومن مواردنا الخاصة، وجباية من المملكتين المذكورتين، إلى كنيسة روما، مقابل جميع الخدمات، والتوظيفات التي نحن ندين بها إليها— باستثناء بنس القديس بطرس— مبلغ ألف مارك من النقود الاسترلينية، سنويا، وأن يسدد ذلك كما يلي: خمسمائة مارك في يوم عيد القديس ميكائيل، وخمسمائة في عيد الفصح، وأن يكون ذلك: سبعمائة عن مملكة انكلترا وثلاثمائة عن ايرلندا، مبقين لنا ولورثتنا جميع حقوقنا، وامتيازاتنا، والعوائد الملكية، ورغبة منا في توثيق وتأكيد كل الذي كتب أعلاه، ربطنا أنفسنا وخلفائنا بعدم معارضة ذلك، وإذا ماتجرأنا نحن، أو واحد من خلفائنا على معارضة هذا، ليحرم بشكل دائم من حقه في المملكة، وليبق هذا الصك بما ارتبطنا به وبما منحناه، مؤكداً إلى الأبد.

شهدت على ذلك أنا نفسي في بيت فرسان الداوية، قرب دوفر، بحضور هنري رئيس أساقفة دوبلن، وجون أسقف نورويك، وغيوفري فتز— بيتر، ووليم ايرل سالسبري، ووليم ايرل بمبروك، ورينالد كونت بولون، ووليم ايرل ويرني، وسير ايرل وينتون، ووليم ايرل آروندیل، ووليم ايرل فيرار، ووليم بروير، وبيتر فتز— هيربرت، ووارن فتز— جيرالد، وكان هذا في اليوم الخامس عشر من مايس، في السنة الرابعة عشرة من حكمنا».

تقديم الملك جون الولاء إلى البابا وإلى كنيسة روما

بعد نسخ صك الملك المذكور أعلاه، قدمه إلى باندولف لأخذه إلى البابا انوسنت، وقدم بعد ذلك مباشرة، على مرأى من الجميع الولاء المدون فيما يلي:« أنا جون، بنعمة الرب ملك انكلترا، ومولى ايرلندا، سوف أكون من هذا الوقت، كما كنت من قبل، مخلصاً للرب، وللقديس بطرس، ولكنيسة روما، ولمولاي البابا انوسنت، ولخلفائه الكاثوليك، فأنا لن أعمل، ولن أتكلم، ولن أوافق على، أو أنصح بأي شيء، يمكن به أن يفقدوا حياة أو عضواً، أو أن يكونوا عرضة للاتهام بالخيانة، ولسوف أمنع الضرر عنهم، إذا ماكنت واعياً لذلك، وإذا كان بمقدوري أن أرمم ذلك، أو أنني سأخبرهم، عندما يكون بمقدوري فعل ذلك، أو أنني سوف أخبر بذلك إلى شخص، أعتقد متأكداً أنه سوف يخبرهم بذلك، وسأبقي الأمر سراً أية مسألة عهدوا بها إلي، أنفسهم شخصياً، أو بوساطة رسلهم، أو بالرسائل، وإذا ماعلمت بذلك، سوف لن أبوح بذلك إلى أي واحد، حتى لاأوذيهم، وسوف أساعد على الحفاظ والدفاع عن ميراث القديس بطرس، ولاسيما مملكتي انكلترا، وايرلندا، ضد جميع الناس، وذلك بقدر ما أستطيع، وهكذا ليكن الرب، والانجيل المقدس، بعوني، آمين».

وقد حدث هذا— كما قلنا— قبل عشية يوم الصعود، بحضور: الأساقفة، والإيرلات والنبلاء الآخرين، وتمّ التطلع إلى يوم الصعود في الغد، بعدم ثقة، ليس فقط من قبل الملك، بل من قبل جميع الآخرين، سواء

من الغائبين، أو الحضور، وذلك بسبب تأكيدات بطرس الناسك، الذي — كما ذكرنا من قبل — قد تنبأ إلى الملك جون، بأنه لن يكون ملكاً، في يوم الصعود، أو بعد ذلك، ولكن بعدما عبر اليوم المحدد، واستمر سليما وبصحة، أمر الملك ببطرس المتقدم ذكره، الذي كان مسجوناً في سجن في قلعة كورفي Corfe ، أن يربط إلى ذيل حصان في مدينة ويرهام، وأن يجر خلال شوارع البلدة، وأن يعلق بعد ذلك على المشنقة، مع ابنه، وقد بدا بالنسبة إلى كثيرين، أنه لم يكن يستحق العقوبة بمثل هذا الموت الوحشي، لأنه أعلن الحقيقية، لأنه لو أن الأوضاع التي ورد ذكرها أعلاه قد وقعت، وقدرت تمام التقدير، لتبرهن أنه لم يخبر بالزيف.

كيف عاد باندولف إلى فرنسا مع جزء قد أعيد من الممتلكات المصادرة

عبر بعد هذا، باندولف البحر إلى فرنسا، آخذا معه الصكوك التي تقدم ذكرها، وكذلك ثمانية آلاف باوند من النقود الاسترلينية، حتى يتمكن أن يعمل تعويضاً جزئيا لخسائر رئيس الأساقفة، والأساقفة، ورهبان كانتربري، وآخرين كانوا يعيشون في المنفى، بسبب قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، وبما أن مقاصد الصكوك وصيغة السلام الذي تقدم ذكره منح الرضا لهم جميعاً، نصح باندولف بشدة الأساقفة الذين تقدم ذكرهم، بالعودة بسلام إلى انكلترا، حتى يتسلموا هناك بقية أموال التكفير، ثم قام بعد هذا فأشار على الملك الفرنسي بإلحاح — الذي عمل الاستعدادات لغزو انكلترا بالقوة — للإقلاع عن مقصده، ومن ثم العودة إلى وطنه بسلام، لأنه من غير الممكن بالنسبة له مهاجمة ملك انكلترا، من دون اغضاب الحبر الأعظم، ولاحتى مهاجمة الملك شخصيا، لأن ذلك الملك قدم ترضية للرب، وللكنيسة المقدسة، ولأحبارها المكرسين، كما أنه وعد بإطاعة الأوامر الكاثوليكية الصادرة عن مولانا البابا، وغضب الملك غضباً عظيماً عندما سمع بهذا، وقال بأنه قد صرف ستين ألف باوند على تجهيز

سفنه، وعلى تأمين المؤن والسلاح، وأنه تولى القيام بهذا الواجب المذكور بناء على أوامر من مولانا البابا، والتوبة من ذنوبه والتخلص منها، ولنقل الصدق لم يرغب الملك المذكور بالاذعان إلى اقتراح باندولف، لولا أن فيليب كونت فلاندرز رفض اتباعه، لأن ذلك الأمير كان قد عمل معاهدة مع الملك الانكليزي، ورفض العمل بشكل مضاد لتلك الاتفاقية، وعلاوة على ذلك قال الكونت بأن الحرب التي قرر القيام بها لاخضاع الملك الانكليزي، كانت غير عادلة، لأن مامن واحد من ملوك فرنسا— حتى ذلك الحين— قد ادعى بأية حقوق في المملكة الانكليزية، وفضلاً عن ذلك أضاف بأن الملك الفرنسي قد استولى بشكل غير عادل على أراضيه— أي الكونت— وعلى قلاعه، وكان آنذاك محتجزاً ميراثه، ضد شرائع العداله، ولقد كانت هذه أسبابه لرفض الذهاب معه إلى انكلترا.

كيف قام الملك الفرنسي بهجوم على كونت فلاندرز

وكان الملك الفرنسي غاضباً جداً، تجاه هذه الكلمات التي صدرت عن كونت فلاندرز، ولأنه لم تكن لديه ثقة به، أمره بمغادرة بلاطه على الفور، وبعد مغادرته، غزا أراضي الكونت، ودمر كل مكان وصل إليه بالنار، وجعل السكان طعمة للسيف، وأعطى أيضاً أوامر إلى البحارة وإلى قادة أسطوله— الذين كانوا، كما قلنا من قبل، ينتظرون عند مصب نهر السين، مجهزين بكميات من الأسلحة— بالإقلاع مبحرين، بدون تأخير نحو سواين Swine التي كانت مرسى فلاندرز، وأن يبذلوا جهدهم للالتقاء به هناك، بكل سرعة، وقد فعلوا ذلك، وقام كونت فلاندرز، الذي خاف كثيراً من هجومه، بارسال رسالة مستعجلة إلى الملك جون، يرجوه فيها بالحاح، ارسال بعض العساكر لمساعدته، ولدى سماع الملك الانكليزي بهذه الأخبار، أرسل إلى مساعدة الكونت، أخاه وليم، إيرل سالسبري، ووليم دوق أوف هوتلاند Houtland ، ورينالد كونت بولون، وهم عساكر مقتدرين، مع خمسمائة سفينة، وسبعمائة فارس مع عدد كبير من

الجنود الخيالة والـرجالة، وأبحر هؤلاء الجند مع ريح طيبـة، لذلك وصلوا سريعاً إلى مرسى سواين، ولدى وصـولهم إلى هناك، دهشوا لرؤيتهم تجمعا كبيرا وحشداً للسفن، وعـرفوا عن طريـق الكشافة، بأن هـذا كان اسطول الملك الفرنسي، الذي وصل مـؤخراً، وقـد عرفوا أن المسـؤولين عن حمايته كان عددهم قليل جـداً، وهم مجرد بعض الملاحين، لأن الجنود الذين كانوا في الأسطول، وإليهم معهـودة أموره، قـد ذهبـوا لجمع الأسلاب، وكـانوا ينهبـون ويسلبون أراضي الكـونت، وعندما علم قـادة الجيش الانكليـزي بهذا، طاروا إلى السـلاح، وهاجموا الأسطول بعنف، وفي الحال هـزمـوا الملاحين، وقطعـوا حبال ربط ثلاثمائـة، من سفنهم كـانت محملة: بالقمح، والخمور، والدقيق، واللحـوم، والسلاح، ومخزومـات أخرى، وأرسلوهم إلى البحـر، لأخـذهم إلى انكلترا، وبالاضـافـة إلى هؤلاء، ألقـوا النيران في السفن وأحـرقـوا منهـا مـائـة أو أكثـر، وأغـرقـوهـم بعـدمـا أخـذوا جميع المخزومـات التي كانت فيهم، وبهذه النازلة، فقـد الملك الفرنسي، وتقـريباً جميع نبـلاء المناطق البحرية، جميع ممتلكاتهم الثمينة، وأثير بعـد هذا، بعض من النبلاء الانكليز، بالحقد إلى أبعـد الحدود، واندفعوا من سفنهم، وركبوا خيولهم، وحملوا أسلحتهم، وانطلقـوا يطاردون الفرنسيين الذين هربوا من المقتلة، لكن الملك الفـرنسي، الذي لم يكن بعيداً عن سـاحة القتـال، أرسل بعضاً من أكثر جنوده موثوقية لصد العدو، ومنع تقدمه، وللتأكد من معرفة من كـان هؤلاء الأعداء، وبناء عليـه حملوا على الفور أسلحتهم، وتصـدوا للفئة المهاجمة، واشتبك الفـريقان، لكن النبلاء الانكليز أرغمـوا على الفرار مع خسائـر، ونجوا بصعوبة إلى سفنهـم، وبعدما صعـدوا إلى سفنهم، عاد الفرنسيـون إلى معسكراتهم، وسأل الملك عن الذي حدث، ومـن أين جاء الغرباء، فحدثه الجنود بأن أولئك كانوا من الجيش الانكليزي، الذي أرسل لمساعدة كونت فـلاندرز، وعندها أخبروه بالكارثة التي وقعت، وبالخسائر التي لايمكن تعـويضها بالنسبـة لاسطوله، ولدى سماع الملك فيليب بهذا، تراجع بشكل مضطرب، وانسحب من فلاندرز، مع خسـائر كبيرة بالنسبة

له، ولأتباعه.

تحليل الملك الانكليزي في وينكستر

ولدى سماع الملك الانكليزي بما حدث في فلاندرز، سرّ سروراً عظيماً، وفي سروره في نفسه لدى معرفته بأن وصول الملك الفرنسي قد تعلق الآن، على الأقل لبعض الوقت، أمر النبلاء، والجيش كله، الذي كان قد جمعه على مقربة من شاطيء البحر، من أجل الدفاع عن بلادهم، بالعودة إلى مواطنهم، ثم إنه أرسل مبلغاً كبيراً من المال إلى الجنود في فلاندرز، واعداً إياهم بمساعدة الامبراطور، بغزو أراضي الملك الفرنسي بالنار وبالسيف، وجمع الملك نفسه جيشاً كبيراً عند بورتماوث، عازماً على العبور إلى بواتو، مقرراً لجم الملك الفرنسي ومملكته في المناطق الغربية، مثلما فعل الذين كانوا في فلاندرز، في الشرق، وأن يبذل كل ماباستطاعته لاسترداد المناطق التي خسرها من ممالكه، لكن الأشياء سارت على العكس مما توقعه، لأن النبلاء الانكليز رفضوا اتباعه، مالم يتم أولاً تحليله من حكم الحرمان الكنسي، ووسط هذه المصاعب، أرسل الملك وقتها وثائق الأربعة والعشرين من الايرلات والبارونات إلى رئيس الأساقفة المذكور، وإلى الأساقفة معه، مع ضمانات أعظم، وأخبرهم بازاحة كل خوف، والقدوم إلى انكلترا، حيث هناك يمكنهم تسلم حقوقهم مع أمان عن جميع ممتلكاتهم التي حرموا منها، وذلك وفقاً لشروط المصالحة التي كتبت من قبل، وبنصيحة من باندولف، قام هؤلاء، عندما باتوا جاهزين للعودة إلى الوطن، وهم: ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، والأساقفة: وليم أسقف لندن، ويوستاس أسقف إيلاي، وهيوبرت أسقف لنكولن، وجايل أسقف هيرفورد، بالركوب في السفينة بصحبة رجال الدين الآخرين والعلمانيين الذين كانوا منفيين بسبب الحرمان من شراكة المؤمنين، ونزلوا في دوفر في السادس عشر من تموز، ثم انطلقوا لرؤية الملك، ووصلوا إليه في وينكستر، في يوم عيد القديسةمرغريت العذراء، وعندما سمع الملك بوصولهم خرج لمقابلتهم،

وعندما رأى رئيس الأساقفة والأساقفة، سجد أمام أقدامهم، والتمس منهم وهو يبكي أن تكون لديهم رحمة عليه، وعلى مملكة انكلترا، ولدى رؤية رئيس الأساقفة المذكور والأساقفة التواضع العظيم للملك، أنهضوه من على الأرض، وأخذوه باليد من على الجانبين، واقتادوه إلى باب الكنيسة الكاتدرائية، حيث رتلوا المزمور الخامس، وكان ذلك بحضور جميع النبلاء الذين بكوا فرحاً، وقاموا بتحليله وفقاً لعادة الكنيسة، وأثناء هذا التحليل أقسم الملك على الأناجيل المقدسة، بأنه سوف يحب الكنيسة المقدسة ورجالها المكرسين، وهو سوف يبذل كل جهد مستطاع لديه في الدفاع عنهم، والحفاظ عليهم ضد جميع أعدائهم، وأنه سوف يجدد جميع القوانين الجيدة لآبائه، ولاسيما قوانين الملك إدوارد، ولسوف يلغي القوانين السيئة، وسوف يحكم رعاياه وفقاً للقوانين والمراسيم العادلة لمحاكمه، وسوف يعيد الحقوق إلى الأفراد وإلى الجماعات، كما أنه أقسم، بأنه سوف يعيد، قبل عيد الفصح المقبل الممتلكات المصادرة إلى جميع الذين لهم علاقة بقضية الحرمان من شراكة المؤمنين، وأنه إذا لم يفعل ذلك، سوف يوافق على إعادة قرار الحرمان الكنسي وتجديده، وفضلاً عن ذلك أقسم على الولاء والطاعة للبابا انوسنت، ولخلفائه الكاثوليك، حسبما ورد مكتوبا في الصك أعلاه، وعندها أخذ رئيس الأساقفة، الملك إلى داخل الكنيسة، وأقام هناك قداساً، واحتفل بعد ذلك رئيس الأساقفة والأساقفة والنبلاء، وعيدوا عند المائدة نفسها مع الملك، وسط البهجة والسرور، وأرسل الملك في اليوم التالي رسائل إلى جميع عمد مناطق المملكة، آمراً إياهم بارسال أربعة رجال تابعين من كل بلدة في اقطاعيتهم، مع الناظر، إلى كنيسة القديس ألبان في الرابع من آب، حتى يمكن من خلالهم ومن خلال وكلائه الآخرين، القيام بالتقصي حول الخسائر والممتلكات المصادرة لكل واحد من الأساقفة، وكم هو مستحق لكل واحد، ثم إنه أرسل بكل سرعة إلى بورتماوث، حتى يمكنه العبور من هناك إلى بواتو، وعهد بشؤون المملكة إلى غيوفري فتز—بيتر، وإلى أسقف وينكستر، مع أوامر بوجوب التشاور مع رئيس أساقفة

كـانتربري في تدبر أمـور المملكة وإدارة شـؤونها، ولدى وصـول الملك إلى بورتماوث وصل إليه إلى هناك عـدد كبير جداً من الفـرسان، يتشكون أنهم أثناء اقامتهم الطويلة هناك قـد انفقوا جميع أموالهم، وبناء عليـه إنه مالم يتم تزويدهم بالمال من الخزانة، لن يكون بامكانهم اتبـاعه، ورفض الملك هذا، وغضب غضباً عظيماً، وركب السفن مع مرافقيه الخاصين، ونزل بعد ثلاثة أيام في غورنسي Guernscy ، في حين رجع نبلاؤه إلى ديارهم، وعندما رأى الملك نفسـه مهجـوراً على هذه الصـورة، أرغم ذاتـه على العـودة إلى انكلترا.

إعلان القوانين والحقوق

وأثناء حدوث هذا، عقد غيوفري فتز— بيتر مع أسقف وينكستر مؤتمراً في كنيسة القديس ألبـان، مع رئيس الأساقفة، والأساقفـة، ونبلاء المملكة، وخـلال المؤتمر جرى إخبـار الجميع بالسلام الذي عمله الملك، ونيـابة عن الملك المذكـور، صدرت الأوامـر بشكل دقيق، بوجوب الحفـاظ على جيع قوانين جده الملك هنري، من قبل الجميع في جميع أرجاء المملكة، وأن جميع القـوانين غير العادلـة يتوجب إزالتهـا كليـاً، ومنع جميع عمـد المناطق، مع المتولين لحفظ الغابات، ووكلاء الملك الآخرين، تحت طائلة فقدان الحياة أو أحد الأعضـاء، من استخراج أي شيء من أي واحد بالقـوة، أو ايقاع أذى على أي انســان، أو عمل أية أتاوة في أي مكـان من المملكة حسبما جــرت عادتهم، ووجـد الملك جون ذاته في الوقت نفســه، مهجوراً من قبل بعض النبلاء كما ذكـرنا، فجمع جيشاً كبيراً، لإعادة المتمـردين إلى الطاعة ولتأدية واجبـاتهم، ولكنه مـاإن شرع باستخـدام الســلاح، حتى قـدم إليـه رئيس الأسـاقفـة إلى نورثأمبتـون وأخبره أنه سـوف يكون هناك كثيراً من الضرر بيمينه الذي أقسمه أثناء تحليله، إذا ماكـان سيقدم على إثارة حرب ضد أي انســان، من دون قـرار بلاطه، ولدى سماع الملك هذا، أجـابه وهو مغضب بأنه لن يتخلى عن شـؤون المملكة لصـالح رئيس الأسـاقفـة، لأن المسـائل

العلمانية ليست عـائدة له، وبناء عليـه، انطلق في اليوم التـالي في زحفه وهو حـانق، وأخـذ الطريق إلى نوتنغهــام، وتابع رئيس الأسـاقفـة— على كل حال— اللحاق به، وأعلن بكل جرأة، أنه مالم يتوقف عن مشروعه، سوف يلعن ويحرم من شراكـة المؤمنين، كل من يثير حرباً ضـد أي انسان، قبل أن يكون قد تحلل من الحرمان من شراكة المؤمنين، وذلك بالاضـافة إليه نفسه وحده، وهكذا حول رئيس الأساقفة الملك عن هدفه، ولم يتركه حتى أقنعه بتسميـة يوم لقـــدوم البـارونات إلى بلاطه، وهناك يخضعــون لإجـراءات العدالة.

سبب هياج البارونات ضد الملك

وفي الخامس والعشرين من آب من العـــام نفســه، اجتمع ستيفن رئيس أساقفـة كانتربري، مـع أساقفة المملكة، ورعـاة ديرتها، ورؤساء الـرهبان، والشمامسة، والبـارونات في كنيسة القديس بـولص في مدينة لندن، وهناك منح رئيس الأساقفة الإذن إلى أعضـاء الكنائس الديرية وكذلك إلى الكهنة العلمانيين بإنشـاد القـــداســات بصـوت منخفـض، وذلك على مسمع من أسـاقفتهم، وفي هذا المؤتمر دعا— كما أكـدت التقـارير— رئيس الأساقفـة المذكور بعض النبلاء للاجتماع به على انفراد، وتناقش معهم منفردين حول المسألة التاليـة حيث قال:« هل سمعتم، كيف أنني عنـدما حللت الملك في وينكستر، جعلته يقسم أنه سوف يزيل القـوانين غير العادلة، وسوف يعيد القـوانين الجيـدة، مثل قوانين الملك ادوارد، وأن يـأمر بمـراعـاتهم من قبل جميع المملكة، وقـد تمّ الآن العثـور على صك هنري الأول، ملك انكلترا، وبامكانكم إذا مارغبتم، أن تطالبـوا بوساطته إعادة حقوقكـم الضائعة منذ زمن طويل إلى وضعهـا الماضي»، ووضع ورقـة في وسطهم، وقـد أمـر بأن تقرأ بصـوت مرتفع أمـام الجميع حتى يتمكنوا من سماعها، وكـان محتواها كما يلي:

« من هنري، بفضل نعمة الرب، ملك انكلترا، إلى هيـوج دي بوكلاندي

Boclande، المتولي لأمور العـدالة في انكلترا، وإلى جميع رعاياه المخلصين، وكذلك إلى الفرنسيين والانكليز في هيرتفورد شاير، التحيات:

اعلموا بأنني، برحمة من الرب، قـد توجت ملكاً، بموافقة عـامة من قبل بارونات مملكة انكلترا، ولأن المملكة قد ظلمت بمكوس غير عـادلة، أقوم أنا، صـدوراً عن الاحترام إلى الرب، وعن المحبـة التي أشعـر بها نحـوكم، بالوعـد في المقام الأول بأنني سـوف أجعل الكنيسة المقـدسة للرب كنيسـة حـرة، وبذلـك أنا لن أبيعهـا، أو أضمنهـا، كما أنني، لـدى وفـاة أي رئيس أساقفـة، أو أسقف، أو راعي دير، لن آخذ أي شيء مـن ممتلكات الكنيسة، أو من ممتلكات شعبها، حتـى يأخذ خليفته مكانه، وإنني سوف أزيل منذ الآن جميع الممارسـات الشريرة، التي تعاني منهـا مملكة انكلترا ظلماً وبشكل غير عـادل، وهـذه الممارسـات الشريرة، أنا مقبل الآن على ذكـرها: إنه إذا مامـات أي بارون أو ايرل، أو أن واحد اً من الرعايا الآخـرين التابعين لي، والذين بحـوذتهم متلكات من عندي، فإن وريثـه لن يقـوم بانقـاذ أرضـه، حسبما كانت العادة في أيام أبي، بل إنه سوف يـدفع بدلاً عادلاً وقانونياً من أجلهـا، وبالطريقة نفسهـا سـوف يدفع التابعـون لبـاروناتي بدلا مماثلاً من أجل أراضيهم إلى مـواليهم، وإذا مـاأراد واحـد من بـاروناتي، أو من باقي رعاياي، أن يعطي ابنته، أو أخته، أو حفيدته، أو أية انثى قريبة له، للزواج، عليه طلب إذني حول هذه المسألة، وأنالن آخذ أيا من ممتلكاته في سبيل منح إذني، كما أنني لن أمنع اعطـائهـا للزواج، بـاستثناء أنه إذا رغب بإعطائهـا لواحـد من أعـدائي، وإذا حـدث لـدى وفـاة بارون ، أو أحـد من رعيتي الآخرين مـات، وترك وريثة هي ابنتـة، أنا سوف أقـوم— بناء على مشورة باروناتي— باعطائهـا زوجـة مع أرضها، وإذا حـدث لدى وفـاة زوج، أن بقيت زوجتـه من دون أولاد، فإنها سوف تأخـذ بائنتهـا من أجل أن تكون بمثـابة حصـة زواجهـا، ولن أعطيها زوجـة إلى زوج آخـر مـالم يكن ذلك بمـوافقتها، لكن إذا مـاعـاشت زوجـة ولها أولاد، إنها سوف تنال بائنتهـا

بمثـابة حصة زواج، مـادامت متوليـة حفظ نفسهـا وفقاً للقـانون، وأنا لن أعطيهـا إلى زوج مـالم يكن ذلك بموافقتهـا، وسـوف تكون الوصـاية على أرض الأطفـال إما للزوجـة، أو لواحد من أقـرب الأقرباء، يكون حقيقـاً بذلك وجـديراً، ولسوف أفـرض على باروناتي أن يتصرفوا بالطريقـة ذاتها نحـو أبناء وبنات، وزوجـات المتعلقين بهم، فضـلاً عن هذا إن المال العـام الذي كـان يؤخـذ في أيام الملك ادوارد، قـد جـرى منعـه منذ الآن، وإذا ماجـرى اعتقال أي انسان سـواء أكان ضارب نقـود، أو شخص آخر، مع نقـود مـزيفـة، ينبغي تطبيق العـدالـة الدقيقـة عليـه مقـابل ذلك، وجميع المرافعات والديون العائدة والمستحقـة لأخي الملك، إنني قد تنازلت عنها، باستثناء ماعاد إلى ضماناتي والديون التي جرى التعاقد عليها من أجل وراثة الآخـرين، أو بالنسبة لتلك الأشيـاء العـائدة بشكل صحيح إلى الآخـرين، وإذا ماأوصى أي انسان بأي شيء بعقد لميراثه، إنني أعفيه، وأعفو عن جميع البدلات التي جـرى العقد عليها من أجـل مواريث صحيحة، وإذا مـاكان واحداً من باروناتي أو من رعيتي مريضاً، فانني سوف أوافق على أي توزيع سوف يعمله بأمواله، وإذا لم يقم خلال الخدمة في الحرب أو المرض بتوزيع أمـوالـه، فبإمكان زوجتـه، أو أولاده، أو أبـويه، والمتعلقين الشرعيين به، توزيعها لصـالح فائـدة روحه، كما يرون أن ذلك هو الأفضـل بالنسبة لهم، وإذا ماأراد أي بارون أو أي واحـد آخر من رعيتي أن يعمل تكفيراً، إنه لن يدفع كفـالـة لحماية مـاله، كما كـان يفعل في أيـام أبي، أو في أيام واحـد من أجدادي، وإذا مـاأدين أي واحد بالخيانة، أو بجـريمة أخرى، فإن عقـوبته سـوف تكون حسب خطيئتـه، وإنني أعفـو عن جميع جـرائم القتل التي اقترفت قبل اليـوم الذي توجت فيـه ملكاً، لكن الجرائم التي اقترفت بعـد ذلك، فإنها سـوف تعـاقب وفقـاً لقـانون الملـك ادوارد، ولقـد احتفظت بحـوزتي بجميع الغـابات التي كانت بيـد أبي كما احتفظ بهم، وعـلاوة على ذلك جميع الفرسان الذين يستحوزون أراضي مقابل خدمات، مسموح لهم من الآن فصـاعداً الاحتفـاظ بممتلكاتهم محررة من جميع الغرامـات، ومن

الخدمات الشاذة، ذلك أنهم وقد أعفيوا هكذا من حمل ثقيل، يمكنهم تجهيز أنفسهم بشكل أفضل بالخيول وبالسلاح، وبذلك يكونون موائمين وجاهزين لخدمتي، وللدفاع عن مملكتي، وانني أمنح سلاماً مؤكداً في جميع مملكتي، وآمر بالحفاظ عليه من الآن فصاعداً، وأعيد إليكم قانون الملك ادوارد، مع التعديلات التي أجراها والدي، بوساطة نصائح باروناته، وإذا ماأخذ أي انسان أي شيء هو عائد إليّ، أو من ممتلكات أي شخص آخر، منذ وفاة أخي الملك وليم، عليه أن يعيد ذلك فوراً من دون أي تبديل، وإذا مااحتفظ أي انسان بأي شيء من ذلك، وجرى اكتشافه، فوقتها عليه أن يعوض إليّ بشكل ثقيل.

شهد: موريس أسقف لندن، ووليم الأسقف المنتخب لوينكستر، وجيرارد أسقف هيرفورد، والايرل هنري، والايرل سيمون، والايرل وولتر جيفورد Gifford ، وروبرت دي مونتفورت، وروجر بيغود، وآخرون كثر».

وعندما جرت قراءة هذه الورقة، وتم استيعاب مقصدها من قبل البارونات الذين سمعوها، كانوا مسرورين كثيراً بها، وأقسموا جميعاً بحضور رئيس الأساقفة، بأنهم عندما سيرون فرصة موائمة، سوف يقفون مطالبين بحقوقهم، وإذا اقتضى الأمر سوف يموتون في سبيلها، وبإخلاص وعدهم رئيس الأساقفة أيضاً بمساعدته، بقدر ما هو متوفر بطاقته، وما أن تمت الموافقة على هذه المسألة واقرارها فيما بينهم، حتى ارفض الاجتماع، وانتهى المؤتمر.

حول هرطقة الألبينيين واعلان حملة صليبية ضدهم

وفي تلك الأونة كسب الهراطقة الفاسدون، الذين عرفوا باسم الألبينيين، والذين سكنوا في غاسكوني ، وفي أرومنياArumnia، وألبي Alby ، قوة عظيمة، في المناطق حول طولوز، وفي مملكة أرغون، حتى

أنهم لم يكتفوا بممارسة هرطقتهم سراً، كما كانوا يفعلون في المناطق الأخرى، بل إنهم بشروا بعقيدتهم الخاطئة بشكل مكشوف، وأقنعوا البسطاء وضعفاء العقول بالالتحاق بهم، وعرف الألبينيون بهذا الاسم نسبة إلى مدينة ألبا Alba ، حيث يقال بأن تلك العقيدة قد نشأت فيها، وأثارت أخيرا طائفتهم الشريرة غضب الرب بشكل كامل لدى تحديهم له، ونشرهم لكتبهم المتضمنة عقيدتهم بين الطبقات الدنيا، أمام أعين الأساقفة والكهنة، حيث لم يقيموا تقديراً لالكأس القربان، ولا لـلأواني المقدسة، ولااحتراماً لجسد ودم المسيح، وحزن البابا انوسنت حزناً عظيماً لدى سماعه بهذه الأشياء، وأرسل على الفور وعاظاً ومبشرين إلى جميع مناطق الغرب، وفرض على الزعماء والأناس المسيحيين الآخرين، وجوب حمل شارة الصليب في سبيل التحلل من ذنوبهم، ومن أجل استئصال هذا الوباء، وفي مواجهة لمثل هذه الكارثة، عليهم حماية الشعب المسيحي بقوة السلاح، وأضاف أنه بموجب سلطات الكرسي الرسولي، فإن كل من يشارك في أعمال الإطاحة بهذه الهرطقة، وفقاً لوصاياه، سوف يكون مثل الذين زاروا ضريح الرب، ولسوف تشمل الحماية للمشاركين كل من ممتلكاتهم وأشخاصهم وبناء على هذا التبشير اجتمعت حشود كبيرة جداً من الصليبيين، ولم يكن من الممكن تصديق الأعداد التي احتشدت في بلادنا.

زحف الصليبيين ضد الألبينيين

وبناء عليه عندما احتشدوا جميعاً، واستعدوا للقتال، فوض رئيس أساقفة نربونة، ونائب الكرسي الرسولي، وكانا في هذه الحملة، وقادة الجيش، وهم دوق بيرغندي، وكونت نافار، وكونت مونتفورت، معسكرهم، وزحفوا لإلقاء الحصار على مدينة بيزير Beziers، لكن قبل أن يصلوا إليها هرب عدد من أصحاب بعض القلاع، لأنهم امتلكوا ثقة صغيرة في أنفسهم، وجاء فرارهم لدى رؤيتهم لجيش الصليبيين، وقام

الفـرسان والآخـرون الذين تركـوا مسـؤولين عن القلاع المذكـورة بالمضي بجرأة، بحكم أنهم كانوا كـاثوليك جيدين، وسلموا أنفسهم مع ممتلكاتهم، وكذلك القلاع إلى الجيـش الصليبي، وسلموا في عشية عيد القديسـة مريم المجدلية قلعة سيرمين Cermaine الفخمة إلى الرهبان، وقام صاحب القلعة الذي امتلك عدة قلاع أخرى حصينة جداً، بعدما هرب مع آخرين، بانذار أهل مدينة بيزير، من خلال أسقف تلك المدينة، وذلك تحت التهديد بعقـوبة الحرمـان الكنسي، بأن عليهم اختيـار واحـداً من أمـرين: إمـا أن يسلموا الهراطقة مع ممتلكاتهم إلى أيدي الصليبيين، أو أن يتولوا طردهم من بينهم، وإلاّ فإنهم سـوف يحرمون كنسيـا، وستكون مسـؤولية دمـائهم على رؤوسهم، ورفض الهراطقـة مع حلفـائهـم بغضب القبـول بهذا، وتبـادلوا الأيمان بالدفاع عن المدينة، وعندما تعاهدوا وأدوا أيمانهم، كانوا يأملون بأن يكونوا قـادرين على المقاومـة والتصدي لحمـلات الصليبيين لوقت طويل، وبعدما وضعت المدينة تحت الحصـار، في يوم عيد القديسة مـريم المجدلية، بحث البـارونات الكاثوليك عـن وسيلة يمكنهم فيهـا انقـاذ الذين كـانوا بينهم في المدينة وكانوا كـاثوليك، وقاموا بـالمفاتحة من أجل تحريرهم، لكن الرعـاع والطبقات الدنيـا من الناس، قـاموا بالهجـوم على المدينة، من دون انتظار تلقي الأوامـر من قـادتهم، وممـا أدهش المسيحيين، أنه عندمـا ارتفع نداء، إلى السـلاح، وكـان الجيش المؤمن مندفعـاً من جميع الاتجاهات، قـام الذين كـانوا يدافعـون عن الأسـوار من الداخل برمي كتـاب الانجيل من المدينة عليهم، وهم يشتمـون اسم الـرب وجـدفـوا ضـده، وسخـروا من مهـاجميهم وقالوا:« انتبهـوا إننا لانأخذ بشريعتكم، شريعتكم سـوف تظل شريعتكم»، وثار غضب جنود الايمان بمثـل هذا التجـديف، واندفعـوا في حملاتهم، وتمكنوا خـلال أقل مـن ثلاث سـاعـات من الزمـــان من عبـور الخندق، وتسلقـوا الأسوار بعـون الرب، وبذلك تمّ الاستيـلاء على المدينة وقـد نهبت في اليوم نفسـه وأحرقـت، ووقعت مذبحـة عظيمة في صفـوف الكفـار، جاءت بمثـابة عقوبة من الرب، وفي ظل حمايتـه، جرى قتل عـدد

ضئيل جداً من الكاثوليك، وبعد مضي وقت قصير، عندما انتشرت أخبار هذه المعجزة في الخارج، فرق الرب أمام وجه الصليبيين، الذين شتموا اسمه وجدفوا ضد شريعته، وجاء ذلك وكأنه من دون مساعدة الصليبيين، ثم ارتعب أخيراً أتباع هذه الهرطقة الفاسدة، إلى درجة كبيرة، حتى أنهم هربوا إلى قمم الجبال، ولايمكن لانسان أن يصدق أنهم تركوا أكثر من مائة قلعة لاترام بين بيزير وكاركسون Carcassone ، مشحونة بالأطعمة، وبجميع أنواع المخزومات، مما لم يستطيعوا أخذه أثناء فرارهم.

الاستيلاء على مدينة كاركسون وعلى قلعتها

ونقل الصليبيون معسكرهم من هذا المكان، ووصلوا في يوم عيد القديس بطرس« في الأغلال»، إلى كاركسون، وهي مدينة كثيفة السكان، وماتزال حتى الآن ممجدة بشرورها، وغنية بثرواتها، ومحصنة بشكل جيد، وقاموا في اليوم التالي بالهجوم، وخلال ساعتين أو ثلاث ساعات عبروا الخندق، وتسلقوا على الأسوار، وسط زخات النشاب من القسي الزيارة، وطعنات الرماح، وضربات سيوف المدافعين الأشرار عنها، ونصبوا بعد هذا آلات الحرب، وفي اليوم الثامن جرى احتلال الربض الأكبر للمدينة، بعدما جرى قتل العدد الأكبر من الأعداء الذين عرضوا أنفسهم من دون خوف، وجرى تهديم أرباض المدينة، التي بدت وكأنها أوسع من بلدة، تهديماً كلياً، وهكذا حوصر الأعداء في الأزقة الضيقة للمدينة، وعانوا من كثرة أعدادهم، وأكثر من ذلك من الحاجة إلى المؤن، ولذلك قدموا أنفسهم وجميع ممتلكاتهم مع المدينة إلى الصليبيين، على شرط الحفاظ على أرواحهم صدوراً عن الرحمة، وأن يجري الاحتفاظ بهم على الأقل لمدة يوم واحد، وبعدما عقد البارونات اجتماعاً، تسلموا المدينة كما هي تحت الاكراه، وكان ذلك بالمقام الأول— برأي الناس— لأنها عدّت لاترام، والسبب الثاني، هو أنه لو جرى تدمير تلك المدينة كلياً، لن يكون هناك مكان لاقامة أي نبيل من الجيش، سوف يتولى حكم تلك المنطقة، كما أنه لن يوجد موضع في

المكان المحتـل، يمكن له أن يسكـن فيــه، ولذلك: إن تلـك الأرض التي سلمهـا الرب إلى أيدي عبيده، كـان من الممكن الحفـاظ عليها تشريفـاً له، ولفائـدة المسيحية، وجرى بناء عليـه اختيار النبيل سيمون دي مـونتفورت ايرل أوف ليستر، حـاكماً لتلك المنطقـة، وجـاء ذلـك بمـوافقـة عـامـة من الأساقفة والبارونات، وإليـه جرى تسليم النبيل روجر، الذي كان من قبل فيـزكـونت وحـاكما لتلك المنطقـة، ليكون سجيناً، وشمل التسليم المنطقـة كلها، بما في ذلك حوالي مائة قلعة، قـرر الرب خلال شهر واحد إعادتها إلى الوحدة الكاثوليكيـة، وكان بين هذه القلاع، بعضاً بلغن من القـوة والمنعة، أن كن لا يخفن— برأي الناس— إلاّ قليـلاً من أي جيش كـان، وبعـد هذا الانجاز، عاد كونت نافار إلى الوطن مع شطر كبير من الجيش، في حين تابع دوق بيرغندي اللامع وبقيـة الأمـراء، وزحفوا مع جيـوشهم للقيـام بإفناء هذه الهرطقـة الفـاسـدة، ووضعـوا بعـد هذا بين يدي الايرل سيمـون دي مونتفـورت المزيد من القلاع التي استـولوا عليها إما بـوساطة الترغيب أو الترهيب.

إرسال رسل إلى طولوز من قبل الصليبيين

وبما ان مدينة طولوز موصـوفة—كما قيل—منذ زمن طويل بهذا الذنب الدنس،بعث البـارونات رسلاً خاصين إلى رئيس أسـاقفة ســانتونغ san-tong وأسقف فورولي Foroli وفيـزكونت أوف سينت فلورينتــوس Florentius وإلى اللورد أكـــالـد دي روزيلون Roussilon وإلى سكان المدينة، مع رسـائل منهم، آمـرين إياهم بتسليم هراطقـة تلك المدينة إلى جيش الصليبين، وذلك مع ممتلكاتهم، وذلـك إذا صـدف وقـالوا بأنه لم يكن هناك هراطقـــة، فإن هؤلاء المذكـورين والذين جـــرى ذكـر أسمائهم عليهم القــدوم إليهم، وعمل اعــلان واضح عن ايمانهم، وفقــاً للعــادة المسيحيـة ولكن أمام الجيـش كله، وإذا ما رفضـوا فعل هذا، فإنهم سـوف يحرمون كنسياً، بالرسائل نفسها، قادتهم الرئيسيين ومستشاريهم، ويضعون

بلدة طولوز مع متعلقاتها تحت حرمان من شراكة المؤمنين.

[وخلال ذلك العام نفسه، وأثناء الصيف التالي، نجم في فرنسا قيام عقيدة مزيفة، لم يسمع بمثلها من قبل، حيث قام شاب، كان ما يزال غلاماً في سنّه، لكنه صاحب عادات شريرة، قام بناء على إثارة من الشيطان، وذهب يتجول في المدن والقلاع في فرنسا، وهو ينشد بالفرنسية بهذه الكلمات: «أعد إلينا يا مولانا يسوع المسيح الصليب المقدس»وذلك مع اضافات أخرى كثيرة،وعندما رآه بقية الأطفال الذين من سنّه وسمعوه، تبعوه بأعداد ليس لها نهاية، وبما أنهم فتنوا بشرور الشيطان، تركوا آبائهم وأمهاتهم، وحاضناتهم، وجميع أصدقائهم، وصاروا يغنون بالطريقة نفسها مثل معلمهم،والذي كان مدهشاً ان ما من غلق كان من الممكن حبسهم فيه،كما لم يكن بالإمكان اقناعهم من قبل آبائهم ولا اعادتهم، وقد تبعوا معلمهم المذكور نحو شواطىء البحر المتوسط، وعبروه وساروا بمسيرات غنائية، ولم يكن بإمكان مدينة من المدن استيعابهم، بسبب أعدادهم،ووضع قائدهم نفسه في عربة مزينة مع سرير ومظلة، وقد أحيط بحرس مسلح كانوا يرفعون أصواتهم من حوله،وكانت أعدادهم كبيرة، حتى أنهم ضغطوا على بعضهم بعضاً، واعتقد أحدهم نفسه سعيداً، عندما كان يستطيع الحصول على خيط أو قطعة من ثيابه، لكن أخيراً، تآمر الشيطان الذي هو العدو القديم ضدهم، وهلكوا جميعاً إما على الأرض أو في البحر.

وفاة غيوفري فتز ـــ بيتر

ومات في العام نفسه غيوفري فتز—بيتر، وكان ذلك في اليوم الثاني من تشرين الأول، وكان المسؤول عن العدالة في انكلترا كلها، وكان رجلاً قوياً جداً، وصاحب سلطة واسعة، وسبب موته حزناً عظيماً للملكة كلها، وكان هذا الرجل عموداً ثابتاً للكنيسة، وكان رجلاً صاحب عقل نبيل، وعليماً بالقوانين وبالخزينة والموارد، وقد تمتن بأعماله الجيدة، وكان حليفاً

إما عن طريق القرابة أو بروابط الصداقة، لجميع نبلاء انكلترا، ولهذا السبب خاف الملك من جانبه منه أكثر من خوفه من بقية رعيته، حيث كان لا يقيم أي اعتبار له، لأنه أمسك بأزمة الحكومة، ولذلك غدت انكلترا لدى موته مثل سفينة في البحر بلا ربّان، وكان هذا الاضطراب قد بدأ لدى موت هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وكان رجلاً نبيلاً ومخلصاً، وبعد وفاة هذين الرجلين، لم يعد بإمكان انكلترا التنفس، ولدى وفاة بيتر المذكور، واخبار الملك جون بذلك، قال وهو يضحك:«دعوه عندما يصير في جهنم يقدم التحية إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، وذلك انه سوف يجده هناك بدون أدنى شك»، ثم التفت إلى الذين كانوا جالسين من حوله، فأضاف وهو يقول: بحق قدمي الرب، إنني الآن للمرة الأولى ملك انكلترا وسيدها»، ثم إنه امتلك منذ ذلك الوقت سلطة أكثر حرية للعمل بشكل مضاد لأيمانه واتفاقاته، التي عملها مع غيوفري المذكور، وليحرر نفسه من أغلال السلام التي ورط نفسه بها، وبناء عليه كان آسفاً لأنه اقتيد لإعطاء الموافقة على السلام المتقدم ذكره.

ارسال الملك وهو يائس رسلاً إلى أمير المؤمنين

وبناء عليه أرسل على الفور رسلاً سريين هم:الفرسان توماس هاردنغتون Hardington ورالف فتز—نيقولا،وروبرت أوف لندن، وكان رجل دين، إلى أمير المؤمنين، الملك الكبير لأفريقيا، والمغرب، واسبانيا، وهو الذي كان يعرف بشكل عام بلقب أمير المؤمنين، ليخبره، بأنه متطوعاً سوف يسلم إليه نفسه ويسلم مملكته، وإذا ما رغب سوف يليها منه مقابل دفع الجزية، وهوسوف يتخلى عن العقيدة المسيحية، التي يعدها عقيدة مزيفة، وسوف يرتبط مخلصاً بشريعة محمد (صلى الله عليه وسلم).

ولدى وصول الرسل المتقدم ذكرهم إلى بلاط الأمير المتقدم الذكر، وجدوا عند الباب الأول بعض الفرسان المسلحين يتولون القيام بحراسة

مشددة، بسيوف مجردة، ووجدوا عند الباب الثاني لذلك القصر، عدداً أكبر من الفرسان المسلحين بشكل كامل، وكانوا أكثر أناقة في ملابسهم، وأقوى، وأعظم نبلاً من الآخرين، وقد تولى هؤلاء حراسة المدخل بدقة أكثر، بسيوف مجردة، وكان هناك عند باب الغرفة الداخلية عدداً أكبر من الحرس، ووضح من مظهرهم أنهم كانوا أقوى وأكثر حدة من الفرسان المتقدمين، واقتيدوا أخيراً بسلام، بإذن من الأمير نفسه، الذي يدعونه الملك الكبير، وأدخلوا إليه، وقام هؤلاء الرسل، بتقديم التحية باسم مولاهم ملك انكلترا، بكل احترام، وشرحوا شرحاً كاملاً أسباب قدومهم، وسلموا إليه بالوقت نفسه رسالة الملك، التي تولى مترجم، استدعي من قبله، تفسيرها إليه، وعندما فهم هدف الرسالة ومحتواها، قام هذا الملك الذي كان متوسط العمر، وسامياً، وله مظهر كله رجولة، كما كان فصيحاً، وواعياً حذراً في حديثه، قام بإغلاق كتاب كان ينظر إليه، لأنه كان جالساً وراء منضدة، حيث كان يدرس، ثم إنه بعدما فكر ملياً، وراجع الأمور مع نفسه، أجاب بلطف قائلاً :«كنت للتو أنظر في كتاب لحكيم اغريقي ومسيحي اسمه بولص، وقد كتب بالاغريقية، وقد أعجبتني أفعاله وأقواله كثيراً، وهناك على كل حال، أمر واحد متعلق به لم يعجبني، هو أنه لم يلتزم بحزم بالعقيدة التي ولد عليها، بل تحول إلى عقيدة أخرى، مثل هاجر ومتقلب، وإنني أقول هذا بالنسبة لمولاكم ملك الانكليز، الذي تخلى عن شريعة المسيحية التي هي الأكثر نقاء وتقوى، التي ولد في ظلها، وبما انه صاحب رغبات، ومتقلب، وغير مستقر، يرغب بالتحول إلى عقيدتنا»، ثم استطرد مضيفاً :«ويعلم الرب القادر العارف، أنني لو كنت بلا شريعة لقمت باختيار تلك الشريعة، ولدى قبولي بها، لتمسكت بها باصرار»، ثم إنه سأل عن أوضاع ملك انكلترا، وعن أحوال مملكته، وعلى هذا أجابه توماس، الذي كان الأكثر فصاحة قائلاً:«ينحدر الملك بشكل شهير ونبيل، من ملوك، كبار وأراضيه غنية، وفيها وفرة من جميع أنواع الثروات، في الزراعة، والمراعي، والغابات، ومنها يجري استخراج جميع

أنواع المعـادن وتصنيعها، وشعبنا شعب جميل بهي، وأصيل، وبارع بثـلاث لغـات هي: اللاتينيـة، والفرنسيـة، والانكليـزية، وكذلـك في متابعـة جميع الأعمال النظرية والعمليـة، وبلادنا—على كل حال— لا تمتلك بنفسهـا أية كميـات من كـروم العنب وأشجـار الزيتـون، وليس فيهـا أيضـاً أشجـاراً مناسبـة، لكنهـا تحصل على هذه الأشياء بكميـات كبيرة وافـرة من البلدان المجاورة عن طريق التجارة، والمناخ فيهـا صحي ومعتدل، وهي واقعة بين الغـرب والشمال، وتتلقى الحرارة من الغــرب، والبرد من الشمال، وتتمتع بأنواء هي الأكثـر مواءمـة، وهي محاطة تمامـاً بالبحـر، ولذلك تدعى باسم ملكة الجزر، ومملكتنا تحكـم منذ القـدم مـن قبل ملوك معمـــدين، وشعبنا شعب حر، ويتمتع بالرجـولة، ولا يعترف بسلطان أحد إلا سلطان الرب، وكنيستنا وطقوسنا الدينيـة محترمة هناك أكثر من أي جـزء من العالم، وهي تحكم بسـلام بموجب قـوانيين البـابا وقوانيين الملك»، وتنهـد الملك بعمق لدى انتهــاء هذا الكلام، وأجـاب:« إنني لم أقـرأ قـط ولم أسمع بأن ملكاً يمتلك مثل هذه المملكة المزدهرة، التـي هي خـاضعـة له ومطيعـة، يرغب هكذا عن طواعيــة بتـدمير سلطانه بوضع بلاد هـي حـرة لأن تكون تحت الجزية، وذلك بإعطـاء غـريب مـا هو له وخــاص به، وبإبدال السعـــادة بالتعاسة، وبوضع نفسه على هـذه الصورة تحت إرادة واحد من الآخرين، بحيث يستــولي عليهـــا هكذا من دون أذى، ولقـــد قــرأت—بالحري— وسمعت من كثيرين بـأن كثيراً من الناس يشترون الحرية لأنفسهم مقــابل أنهار من دمــائهم، الذي هو عمل محمـود، لكننــي أسمع الآن بأن ملككم التعيس خامل وجبان، وهو لا يســاوي شيئاً، لأنه يرغب بتحويل نفسه من رجل حـر إلى إنســان عبد، فمثل هـذا هو أتعس الكائنات البشرية»، وسأل بعد هذا بإزدراء، مـا هو عمره، وحجمـه،وقوته،وفي جـواب لهذا السؤال، أخبر بأنه كان في الخمسين، أشيب تماماً، وقـوياً في جسده، ليس طويلاً، بل هو بالحري مـربوع مـدملج، وله شكل مناسب للقـوة، ولدى سماع الململك بهذا قال:«إن شبـابه وشجاعتـة ورجولتـه قد اختمـرت، وبدأ الآن يصبح

أكثـر برودة، وخـلال عشر سنوات—إذا عـاش كـذلك—سـوف تنهـار شجاعته، ولسوف تخونه قبل ان يتمكن من انجاز أي عمل صعب، وإذا ما بدأ الآن هو سوف يسقط نحـو الانحدار، وسـوف لن يكون صالحاً لشيء، لأن الانسـان ابن الخمسين يغرق بعـدم الادراك، ويعطي ابن الستين دلائل تشير إلى الانحدار، دعـوه يحصل ثانية على سلام لنفسـه، ويتمتع بالراحة»، ثـم إنه بعـدما قـرأ جميع الأسئلة، وأجـاب الرسل، انفجر بعـد وقت قصير بالضحك، وذلك كعـلامـة على التعـالي والغضب، ورفض عـرض الملك جون بهذه الكلمات:«ذلك الملك هو بلا تقدير، لكنه ملك صغير، بلا عقل، وقد غـدا عجوزاً، وأنا لا أهتم به، ولا أبالي به، وهو غير جـدير بأي تحالف معي»، وبالنسبـة لرالف وتوماس قـال وهو ينظر إليهما شذراً:«لا تأتيـا إلى حضرتي ثانيـة، ولا تدعـا عينيكما تريا وجهي ثانيـة، إن شهـرة، أو بالحري عدم شهـرة ذلك الأحمق المرتد، الذي هو سيـدكم، تصدر عنه رائحـة كلها نتانة أشمها بأنفي».

وأخـذ الرسل وقتهـا ينصرفـون، وهـم يشعـرون بالخجل، عندها رأى الأمير روبرت الكاهن، الـذي كـان ثالث الرسل، والذي كـان رجل دين صغير، ذراعـه الأول أطول من الثـاني، وأصـابعـه جميعـاً مشـوهة ذلك ان اصبعين كانا ملتصقين، وكان له وجه مثل وجه يهودي، فاعتقد أن مثل هذا الرجل اللافت للتأمل بشكله، ما كان ليرسل لتدبير أمور صعبة، ما لم يكن حكيماً ومـاهراً، وفهيماً متعلماً، ولدى رؤيتـه لقلنسـوته الرهبـانيـة، ورأسـه الحليق في وسطه، أدرك مـن ذلك بأنه كـــان رجل دين، وهنا أمـــر الملك باستـدعائـه، لأنه عندمـا كان الآخـران يتكلمان وقف هو حتى ذلك الحين صـامتاً، على مسـافـة منه، ولذلك احتفظ به، وأبعـد الآخرين، ثـم كـان له حـديث سري طويل معه، وكـان محتوى ذلك الحديث وفحـواه—كما أباح روبرت ذلك فيما بعـد لرفـاقـه—هـو أن ذلك الملك قـد سأله عما إذا كـان الملك جـون له طبائع عـادية، وعما إذا كان له أولاد شجعـان، وعما إذا كان

يمتلك طاقة طبيعية كبيرة، وأضاف أنـه —أي روبرت—إذا ما كذب عليه في هذه المسائل، هو لن يصدق مسيحياً ثانية، لا سيما إذا كان رجل دين، ثم إن روبرت— بناء على وعده كمسيحي— وعده بأن يعطيه إجابة صحيحة على جميع الأسئلة، التي سـوف يطرحهـا عليـه، وبناء عليـه أجـاب بشكل مؤكد، ان جـون كان طاغية، وليس ملكا، ومدمـرا أكثر منه حاكما، وظالما لشعبه، وصديقا للغرباء، وأسد على رعيته، وحمل بالنسبة للأجانب وللذين يقاتلون ضده، فبسبب فسـولته وتراخيه، قد فقـد دوقية نورماندي، وكثيرا من مناطقه الأخرى ، وأكثـر من هذا،هو متشوق لفقدان مملكة انكلترا، أو لتدميرها، وهوجشع في استخراج المال، ومهـاجما ومدمرا لممتلكات رعاياه الطبيعيين، وقد أنجب قليـلاً من الأولاد الأقوياء، أو بالحري لم ينجب أبداً أحد بشكل مطلق، بل فقط أولاداً على غرار أبيهم، وله زوجة مكروهة من قبله ومكروه من قبلها، زواجه لها سفاحاً، وهي شريرة، ومكشوفة، وإمرأة زانية، وبالنسبـة لهذه الجرائم غالباً مـا وجدت وهي مجرمة، وبناء عليـه أمر الملك باعتقال عشاقها، وخنقهم بالحبـل فوق فراشها، وعلى الرغم من هذا كله، إن هذا الملك نفسه حسود لكثير من نبلائه وأقربائه، وقد فضح بناتهم وأخواتهم اللائي كن في سن الزواج، وبالنسبة لمراعاته للديانة المسيحية هو متقلب ولا يمكن الوثوق به كما سمعـت». وعندمـا سمع الملك الأمير هذا كله هو لم يكتف بكراهيـة الملك جـون كما فعل من قبل، بل ازدراه، ووفقـاً لشريعته لعنه، وأضـاف:«لماذا يسمح الانكليز البؤسـاء لمثل هذا الرجل ان يكون حـاكماً وسيـداً عليهم؟ لا شك أنهم خـاملين وعبيـد»، فأجـابه روبرت:«إن الانكليز أكثـر الناس صبراً، حتى تجري اثارتهم وإلحاق الأذى بهم خارج حدود الاحتمال، وهم الآن مثل أسد، أو فيل، عندما يشعر نفسه قد جرح، أو يرى الدم، وهـم الآن حـانقون، ومستعدون، ويعملون —مع أن ذلك جاء متأخـراً—لإزالة نير الظالم من على رقابهم، ولدى سماع الملك الأمير لهذا، لام الأناة اللينة للانكليز، التي أكد المترجم الذي كـان موجوداً طوال الوقت، أنها بالحقيقـة خـوف، وتحادث الملك مع روبرت حول عـدة

موضـوعات أخرى إلى جـانب هذا الموضوع تحدث فيها بعـد روبرت عنها وأخبرها رفـاقه في انكلترا، ثم إنه قـدم إليـه بعد ذلك عـدة هدايا ثمينة من الذهب والفضـة ومختلف أنواع الجواهر والحرير، ثم صرفـه وفق اتفاقـات صداقة، لكنه لم يقـدم التحية للرسولين الآخرين عنـدما تركاه، ولم يشرفهما بأية هـدايا، ثم إنهم عـــادوا إلى الوطن، وأخبروا جـــون بكل الذي رأوه وسمعوه ، وقـد بكى بحرقة في نفسـه بسبب إزدرائه من قبل الملك الأمير، ولأنه صد بالنسبـة لمقاصده،وقـام روبرت—على كل حال— بعـدم تقديم الهدايا الأجنبيـة التي منحت له، إلى الملـك، ولم يعـرفـه بها،مع أنه كـان من الواضح بأنـه استقبل بعناية أكبر من الآخــرين، وذلك على الرغـم من أنه صد في البداية، وأمر بالتزام الصمـت، ولهذا السبب أكرمه الملك جون أكثر من الآخـــرين، ومنحــــه عن طـريق المكافـأة—هذا المصــادر المغتصب الشرير—المسؤولية عـن دير القديس ألبان، مع أن رئاستـه لم تكن شاغرة، وهكذا منح هذا المعتدي على الإيمان غصبـاً لكاهنه ما كـان ملكاً لآخر، ثم قـام روبرت هذا دون الرجـوع إلى رأي آخــر،وعلى الرغم من إرادة راعي الدير القـائم، وهوجـون دي سل Cellالذي كـان رجلاً عظيم التـــدين، ومن أكثـر الناس علماً، فاستـولى على كل شيء، كان آنذاك في الكنيســة وفي الدير حسبما رغـب، ووظف ذلـك كله لاستخـدامـاته الخاصـة، وأثناء كل وكـالة، ندعوها، نحن طاعـة، عين لنفسه حـاجبـاً، يتسم بالحزم، وبالقـدرة على البحث عـن كل شيء، وبتلك الـوســـائـل استطاع روبرت، الكـاهن المذكور، خداع الكهنة والرهبان وابتزازهم بمبلغ يزيد عن ألف مارك، وقد أقــام—على كل حـــال—تقـــديراً لبعض الخدم الرئيسيين لراعـي الدير، ولراهب من سينت ألبان، اسمه لورانس، وكان فارساً لدى المفوض العام، وإلى لورانس الكاهن، وإلى المعلم وولتر الراهب، الذي كان أيضـاً رساماً، وقد احتفظ بهم أصـدقاء مقربين منه، وإليهم كـان يظهر مجوهراته، والهدايا الأخـرى السرية التـي نالها من الأمير، كما كـان يقص عليهـم الذي جـرى بينهما، وكـــان متى هو الذي سمـع ذلك، وهو الذي كتـب هذه الحوادث

ورواها.

قرار جون بوضع انكلترا تحت الحكم البابوي

وبدأ الملك جـون منذ ذلك الحين، في تمتين هدفـه، الـذي فكر بالتراجع عنه، وأن يجعل الوضع أسـوأ فـأسـوأ، لصـالح تدهور المملكة، وقـد كـره —مثل أفعى ســامــة—جميع الناس من ذوي المراتـب النبيلة في المملكة، وبشكل خاص سيردي كـوينسي، ووروبرت فتز— وولتر، وستيفن رئيس أساقفة كـانتربري، وكان يعلم من خلال كثير من التجارب، بـأن البابا كان أكثر طموحـاً من بقية الناس، متفاخراً، ومتعطشـاً يسعى وراء المال، وكان مستعداً لاقتراف أي ذنب مقابل جـائزة، أو الوعد بمكافأة، ولذلك أرسل رسلاً، مع أوامر بالاسراع، وحـول معهم مبلغاً كبيراً من المال، له، مع وعد بالمزيد، وأنه سـوف يكون دوماً خـاضعاً له، يؤدي إليـه الجزية، على شرط، أن يسعى عندما تتوفر الفرصـة، لتحقير رئيس أساقفة كانتربري، وأن يحرم كنسيـا بارونات انكلترا، الذين وقفوا مـن قبل إلى جانبـه، وتشوق متطلعـاً لالحاق شروره بهم، بحـرمانهم من مـواريثهم، وسجنهم، وقتلهم، عندمـا يجري حرمانهم كنسيا، وهذه الخطط الشريرة التـي أبدعها، قد تولى تطبيقها وتنفيذها بشرور أعظم، كما سيأتي الحديث فيها بعد.

اهتمامات الملك جون بآرائه الشريرة حول الإيمان

وأصبح الملك جون في هذه الآونة مجنوناً، حتى أنه تصور أفكاراً شريرة حول قيـامة الموتى وقضايا أخرى تعلقت بالديانة المسيحيـة، وتفوه ببعض الألفـاظ الحمقاء التي لم يسمع بمثلهـا من قبل، ونعتقد أنه من المفيـد رواية حكـاية واحـدة من ذلـك، فقـد حدث أن جرى امسـاك وعل سمين جداً في الصيـد، وعندمــا أحضر لسلخــه بحــضرة الملـك، ضحك وقــال سـاخراً:«كم هو سمين هذا الحيـوان، مع أنه كبر من دون أن يسمع قداسـاً قط».

غلبة أمير المؤمنين وفراره

وعـزم في هذه الآونة الملك أو أمير المؤمنين، الذي ورد ذكره أعـلاه، مع جيش كبير كـان قـد حشده،مع مـوافقـة جـون، كما قلنا من قبل، وأراد أن يستـولي بالقوة، على مملكة اسبـانيـا، وقد تشجع بسبب تقلب الملك جـون بالنسبة للعقيدة، وبسبب حرمـان مملكته من شراكة المؤمنين، وملك الجرأة، لكن الذي حـدث هو أن المسيحيين من أتباع ملك اسبـانيا، عندمـا سمعوا بهذا، تصـدوا له بشجاعـة ومزقـوا جيشه كله، وطردوه من البـلاد، وذلك بعـدمـا قتلوا أكبر أولاده، واستـولوا على رايتـه الملكيـة(١)، وكـانت هذه المعركة ستكسب ملك أراغـون، وتعطيه شهـرة أبدية، لولا انه تكبر كثيراً وتعجـرف، وقـام بلا مبـالاة فـانتـزع من سيمـون دي مـونتفـورت، جميع الأرض التي حصل عليهـا من الألبينين ليتـولى حكمهـا والاحتفـاظ بها، وجاء انتزاعه لها، على الرغم من تحريم البابا، الذي طلب منه عدم انتزاعها، ولذلك أشعل بعمله هذا حرباً ضده شخصياً].

وفي الرابع عشر من تشرين أول، مات غيوفري فتز—بيتر، المسؤول عن العدالة في انكلترا، وأنهى حياته.

موت ملك أراغون في موريلي

وكان في هذه الآونـة جرى تتويج ملـك أراغون في روما، من قبـل البابا انوسنت، لكن مع أنه قـد تلقى أوامر دقيقـة جـداً، بعدم تقـديم المساعـدة لأعـداء العقيـدة، أو إبداء اللطف نحوهـم، لم يلتزم بتقـوى بأوامـر الأب المقدس، فقام بلا مبالاة بالعمل ضد الوصاية الرسولية، ذلك أنه ما أن عاد إلى الوطـن حتـى التحـق بهراطقـة، تلـك المنطقـة نفسها، التي جـرى للتو

١— هذه المعركة هي معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٣م/، التي خسرها محمد الناصر لدين الله الموحدي، وشكلت نتـائج هذه المعـركـة كـارثة حقيقيـة على الدولـة الموحـدية، وعلى عـرب الأندلس، انظر الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٦٠—١٦١ .

استردادها، تحت قيادة الرب وذلك بمساعدة الصليبيين، واتحد مع كونتات طولوز، وفويكس Foix وكومني Commenges، وقام بصحبة سكان طولوز وجيش كبير، في اليوم الثالث من الاسبوع، بعد ميلاد القديسة مريم، وألقى الحصار على قلعة موريلي Murelle وبناء على هذه الأخبار، تلقى الآباء المبجلون: أساقفة طولوز، ونسمي NISMES والقديسة أغاثا، وبوردو، وأوز Uzes ولوفين، وكومني، ورعاة ديرة: كليرفو، ومانفيل Magneville والقديس تايبيروس، الأوامر بالاجتماع، من رئيس أساقفة نربونة، الذي كان نائب الكرسي الرسولي، من أجل تدبير أعمال الحملة الصليبية، وانطلقوا مع بعضهم مع سيمون دي مونتفورت، ومع جيش من الصليبيين، لتقديم العون إلى القلعة المحاصرة، ووصلوا في يوم الأربعاء، من الأسبوع المشار إليه أعلاه إلى قلعة إسمها سافاردون Savardon،ومن هناك أرسلوا رسلاً إلى القادة الذين كانوا يتولون الحصار عند موريلي، حيث قالوا بأنهم جاءوا للتفاوض معهم حول السلام، ولهذا رغبوا بالحصول على أمان يمنح لهم، وفي اليوم نفسه غادر الجيش الصليبي سافاردون، لأن الضرورات الملحة اقتضت ذلك وتطلبته، وأسرع ذلك الجيش لتقديم العون لقلعة موريلي، وقرر—على كل حال— الأساقفة الذين تقدم ذكرهم الإقامة عند قلعة اسمها هانترايف Hanterive ، وذلك في منتصف الطريق ما بين سافاردون وموريلي، حيث كانت على بعد فرسخين عن كل منها، وأقاموا هناك ينتظرون عودة رسلهم، وعندما عاد هؤلاء ، جلبوا رسالة إلى الأساقفة من ملك أراغون، بأنه لن يمنحهم أمان، لأنهم وصلوا مع مثل هذا الجيش الكبير، الذي هم ليسوا بحاجة إليه، ولدى سماع الأساقفة بهذا دخلوا إلى موريلي مع الجيش الصليبي، في يوم الأربعاء من الأسبوع نفسه، ثم انهم أرسلوا على الفور اثنين من رجال الدين إلى الملك، وإلى سكان طولوز، لكنهما استقبلا بالمجافاة والسخريةمن قبل الملك في الجواب الذي أعطاه، ذلك لأنهما أرادا عقد مؤتمر معه، حول الأربعة البذيئين، الذين جلبهم الأساقفة معهم، هذا

وأخبرهما سكان طولوز—أي الرسولين— بأنهم متحالفين مع ملك أراغون، وأنهم لن يفعلوا شيئاً، إلاّإذا توافق مع رغبات الملك المذكور.

وعندما أخبر الرسولان هذا إلى الأساقفة ، قررهؤلاء الذهاب حفاة إلى الملك برفقة رعاة الديرة، ولدى اقترابهم على هذه الصورة، جرى اخبار الملك بذلك، ففتحت أبواب المدينة، وهنا كان ايرل مونتفورت وجميع الصليبيين غير مسلحين، لأن الأساقفة قد ذهبوا للتفاوض من أجل السلام، ومع ذلك حاول أعداء الرب أن يشقوا طريقهم بالقوة إلى البلدة، لكن بنعمة من الرب جرى صدهم ولم يحققوا ما نووه، ولدى رؤية الايرل مع الصليبيين عجرفتهم، وأنهم هم أنفسهم قد تطهروا كلياً من ذنوبهم بوساطة الندم في القلب ، وبالاعتراف الفعلي، صبوا على أنفسهم أسلحتهم، وذهبوا إلى أسقف طولوز، الذي كان مكلفاً بأعمال النائب البابوي هناك، وذلك بموجب صلاحيات السيد رئيس أساقفة نربونة، ولقد سألوه بتواضع وطلبوا إذنه للانقضاض والهجوم ضد أعداء الايمان، وكانت الأوضاع متأزمة، ولذلك جرى منح الإذن إليهم، وبناء عليه حملوا، بإسم الثالوث المقدس، على أعدائهم، أعداء الإيمان، على شكل ثلاث تشكيلات، وقدم أعداء الإيمان من جانبهم، وتقدموا من معسكرهم الحصين، على شكل عدة كتل من العساكر، ومع أنهم كانوا حشداً كبيراً بالمقارنة مع الصليبيين، فإن عبيد المسيح، اعتمدوا على مساعدته، وتسلحوا بالشجاعة من عليين، ولذلك قاتلوهم بجرأة، وتمكنوا على الفور،بفضل العلي الأعلى، بأيدي أتباعه، من شق طريقهم خلال الأعداء، وسحقوهم في لحظة ، لأنهم أداروا ظهورهم، وهربوا مثل الغبار أمام الريح، وقد نجا بعضهم من الموت تماماً بوساطة الفرار، ونجا بعضهم من السيف، لكنهم هلكوا بالماء، بينما جرى قتل آخرين في ميدان المعركة، ذلك أن ملك أراغون اللامع كان بين الذين سقطوا قتلى، ولأنه كان قد اتحد مع أعداء الإيمان، فقد توفر حزن عميق لذلك، ولأنه أغضب بصورة شريرة الكنيسة

الكاثوليكية، هذا ومن غير الممكن، بأية وسيلة من الوسائل، ذكر العدد الصحيح للذين قتلوا، لكن بالنسبة للصليبيين، لقد فقدوا فارساً واحداً إلى جانب قلة من الجنود قد قتلوا، ووقعت هذه المعركة، في اليوم السادس من الاسبوع، بعد ثمانية ميلاد القديسة مريم، في شهر ايلول من عام ١٢١٣.

وصول نيقولا أسقف توسكولوم والنائب للكرسي الرسولي إلى انكلترا

وفي أيام عيد القديس ميكائيل من العام نفسه، جاء إلى انكلترا نيقولا أسقف توسكولوم Tusuclum ونائب الكرسي الرسولي، وحل -بوساطة السلطة الرسولية -الخلاف بين العرش والأساقفة، ومع أن البلاد كانت تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، استقبل في كل مكان بحفاوة وبمسيرات مهيبة، ومع الموسيقى، والناس وقد ارتدوا ثياب العيد، ولدى وصوله إلى وستمنستر، قام على الفور بتجريد وليم راعي الدير، الذي اتهم من قبل رهبانه. بتبديد النفقات، وبعدم القدرة على كبح نفسه جنسياً، وجاء إليه إلى المكان نفسه، سكان أكسفورد، يطلبون التحليل، بحكم نيابته، وبشأن فرضية الكاهنين، اللذين أتينا على ذكرهما أعلاه، وكانا قد شنقا، فعين عقوبة توبة لهم بين أشياء أخرى، بأن أمرهم بالذهاب إلى كل واحدة من كنائس المدينة، وأن يخلعوا أرديتهم، وأن يكونوا حفاة، حاملين للأسواط في أيديهم، وأن ينشدوا هناك المزمور الخامس عشر، وبذلك يحصلون على التحليل من كهنة الأبرشيات، وقد سمح لهم بالذهاب إلى كنيسة واحدة في كل يوم، وذلك حتى يكون الآخرون خائفين في المستقبل من اظهار مثل تلك الوقاحة، وهكذا حدث أن النائب البابوي الذي جاء إلى انكلترا مع سبعة خيالة في ركابه، مالبث بعد قليل أن سار خارجاً مع قطار تألف من خمسين، ويحيط به لخدمته حاشية كبيرة جداً، وأخيراً اجتمع رئيس أساقفة كانتربري مع أساقفة ونبلاء المملكة في لندن، بحضور الملك والكاردينال، وهناك جرى نقاش لمدة ثلاثة أيام بين العرش والكهنة حول

خسائر الأساقفة وممتلكاتهم المصادرة، وتمّ إثر ذلك تقديم عرض من قبل الملك، يكون بمثابة تعويض كامل، وهو دفع مبلغ مائة ألف مارك فضي على الفور، واذا ماتبين من خلال البحث أن حراس الكنائس أو وكلاء الملك الآخرين قد أخذوا، أكثر من هذا المبلغ، فقد تعهد الملك المذكور بموجب يمين أداه مع تقديم ضمانات، بأنه بموجب قرار من الأساقفة والنائب البابوي نفسه، سوف يعمل ترضية قبل الفصح المقبل، تكون كاملة شاملة لجميع ممتلكاتهم المصادرة، ووافق النائب البابوي على هذا، ورغب في تسوية الأمور على الفور، وكان غاضباً لعدم قبول العرض على الفور، ولذلك توفرت شكوك بأن النائب البابوي قد انحاز إلى جانب الملك أكثر من انحيازه إلى الحق، ورغب الأساقفة -على كل حال -في إطالة الأعمال وتأجيلها، مستهدفين إلى وضع شروط للعرض، من أجل، أنهم بعدما يعقدون اجتماعاً، يعملون استقصاءً حول الممتلكات المصادره، وحول خسائرهم، حتى يكون بقدرتهم فيما بعد اعلان المبلغ الذي توصلوا إليه، وتحديد حجم خسائرهم، وأن يتسلموا في الوقت نفسه المبلغ الذي طالبوا به، ولدى سماع الملك بهذا التأخير، الذي ناسبه، أعطى على الفور موافقته، وهكذا تفرقوا في ذلك اليوم دون تسوية أعمالهم.

كيف تخلى الملك جون عن تاجه مع مملكتي انكلترا وايرلندا ووضعهما بين يدي النائب البابوي

وفي اليوم التالي، اجتمعوا كلهم ثانية، في كنيسة القديس بولص الكاتدرائية، حيث جرت هناك نقاشات متنوعة حول إزالة الحرمان من شراكة المؤمنين، أمام المذبح الكبير، بحضور رجال الدين والناس، حيث جرى ثانية فرض الخضوع غير المشرف والظهور المخزي على الملك، فبموجب ذلك تخلى عن تاجه وعن المملكة، ووضعهما بين يدي البابا، وإليه سلم كذلك مملكة ايرلندا مثل تسليمه لمملكة انكلترا، أما بالنسبة للصك الملكي، الذي كان قد ختم بالشمع من قبل، وجرى تسليمه إلى باندولف،

فقد ختم الآن بالذهب، وجرى تسليمه إلى النائب البابوي، لاستخدامه من قبل مولانا البابا وكنيسة روما، أما فيما يتعلق بإعادة الممتلكات المصادرة، فقد عينوا موعداً للاجتماع في ردنغ في اليوم الثالث من تشرين الثاني، ولدى اجتماعهم في اليوم المحدد، كما كان مقرراً من قبل، وعندما اجتمعوا في اليوم الثالث ثانية في وولنغفورد Wallingford، هناك وعد الملك، كما فعل من قبل، بأنه على استعداد لإرضاء الأساقفة وجميع البقية، بالنسبة للممتلكات التي جرت مصادرتها، لكن وضح أن هذا قليل الفائدة بالنسبة للذين جرى تهديم قلاعهم، وتدمير بيوتهم، والذين قطعت بساتينهم وغاباتهم، وبناء عليه وافق الملك ووافق الأساقفة أيضاً على الالتزام بقرار البارونات الأربعة، وأنهم سوف يكونوا جميعاً راضين بقرارهم، وفي السادس من تشرين الثاني، اجتمعوا مجدداً في ردنغ، وضم الاجتماع الملك، والنائب البابوي، ورئيس الأساقفة، والأساقفة، والنبلاء، وجميع رجال الدين الذين لهم علاقة بأعمال الحرمان من شراكة المؤمنين، وفي هذا الاجتماع أبرز كل واحد، وكذلك جميعا، ورقة تحتوي على تقدير للممتلكات المصادرة، ولخسائرهم، ولكن بما أن النائب البابوي أظهر ميلاً إلى الملك، جرى تأجيل الدفع، وذلك باستثناء مسألة رئيس الأساقفة والأساقفة، الذين نفيوا لمدة طويلة من انكلترا، حيث تسلموا هناك مبلغ خمسين ألف مارك من الفضة.

مراسلة البابا انوسنت إلى نيقولا أسقف توسكو لوم حول الكنائس الشاغرة

وأرسل في هذه الآونة البابا انوسنت رسائل إلى نيقولا، نائب الكرسي الرسولي، كانت تستهدف، وتحتوي مايلي: «بما أن كنائس الرب لن تكون أفضل حالاً إلاّ عندما يجري تعيين أساقفة موائمين بها، وتزويدها بهم، من الذين لايرغبون بامتلاك سلطات عليهم، بقدر العمل على ازدهارهم ورفعتهم، إننا نأمر أخوتكم بهذه الرسائل، أخوتكم التي لنا ثقة كاملة بها،

أن تؤمنوا أشخاصاً موائمين، وفقاً لتقديركم لتتم سيامتهم لتولي مناصب الأساقفة ورعاة الديرة في انكلترا، التي هي شاغرة الآن، وأن يكون ذلك إما عن طريق الانتخاب، أو بوساطة التعيين القانوني، وأن يكون هؤلاء موضع اعجاب وتقدير ليس فقط بسبب مسلك حياتهم، بل أيضاً بسبب معارفهم وعلومهم، وأن يكونوا في الوقت نفسه مخلصين إلى الملك، ومفيدين إلى المملكة، وفعالين مؤثرين في تقديم النصيحة إلى الملك، وأن يتم الحصول على موافقة الملك قبل كل شيء، وإننا -على هذا -عندما أمرنا برسائلنا هيئات الكهنة للكنائس الشاغرة، بالالتزام بنصائحكم، اعملوا دوما وأنتم واضعين الرب أمام أعينكم، وتشاوروا حول هذه المسائل مع أناس حكماء وأشراف، يمكن أن يكونوا على دراية تامة بفضائل الأشخاص، خشية أن تنخدع بمهارة أي واحد، وفي حال توفر أي نقد أو معارضة، اعتمد على وسائل الرقابة الكنسية، وأرغمهم على الطاعة من دون اعتراض. صدر في اللاتيران، في الأول من تشرين الثاني، في العام السادس عشر من حبريتنا».

ولدى تلقي النائب البابوي هذه الصلاحيات من البابا، رفض نصيحة رئيس الأساقفة مع أساقفة المملكة، وذهب إلى الكنائس الشاغرة مع الكهنة ووكلاء الملك، عازماً على تعيينهم، وفقاً للعادات الشريرة القديمة لانكلترا، مع أنهم أشخاص ليسوا مناسبين لهذه المناصب، أما بالنسبة لبعض الطوائف الرهبانية المتنوعة، الذين أبدوا أسبابا للشكوى، وطلبوا الترافع أمام الحبر الأعظم، فقد علقهم وأرسلهم إلى بلاط روما، وأظهر نفسه نحوهم جافياً وغير انساني، حتى أنه لم يسمح لهم ولابنس واحد من أموالهم لتغطية نفقاتهم أثناء رحلتهم، علاوة على ذلك وزع الكنائس الأسقفية الشاغرة في مناطق متنوعة على كهنته، دون طلب موافقة رعاتهم، مما جعله ينال لنفسه لعنة الكثيرين عوضاً عن الثناء عليه ومدحه، لأنه استبدل العدالة بالأذى، والحكم العادل بالقرار الظالم.

مرافعة رئيس أساقفة كانتربري وشكواه حول التعيينات في الكنائس الشاغره

عام ١٢١٤م، فيه عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في ويندسور، وفي تلك الأثناء وزع ملابس العيد على عدد من نبلائه، واجتمع بعد ذلك ستيفن رئيس أساقفة كانتربري مع أساقفته المساعدين في دنستيبل Dunstable، لبحث شؤون الكنيسة الانكليزية هناك، لأنهم كانوا غاضبين إلى أبعد الحدود من النائب البابوي، لأنه -كما ذكرنا من قبل -رعى رغبات الملك دون التشاور معهم، فكان أن عين أشخاصاً غير مؤهلين للكنائس الشاغرة، وجاء ذلك بالقوة القسرية أكثر منه عن طريق الانتخابات القانونية، وبعد مناقشات كثيرة حول موضوع وآخر، أرسل رئيس أساقفة كانتربري اثنين من الكهنة إلى بيرتون على الترنت، حيث كان النائب البابوي هناك، ليمنعه بوساطة التدخل بالمرافعة والشكوى من جانب رئيس أساقفة كانتربري، من تعيين أساقفة في الكنائس الشاغرة، من دون استشارته، ومن دون تقدير المنصب العالي لرئيس الأساقفة، الذي يمتلك الحق بالتعيينات في كنائس أسقفيته، ولم يظهر هذا النائب البابوي أدنى اهتمام بهذه الشكوى، لابل إنه قام بموافقة من الملك، فبعث باندولف المتقدم ذكره، إلى بلاط روما، ليعمل ضد رغبات رئيس الأساقفة والأساقفة، ولدى وصوله إلى هناك، قام بحضرة الحبر الأعظم، بتلطيخ سمعة وأخلاق رئيس الأساقفة بدرجات عالية جداً، ولم يكتف بذلك بل أثنى على ملك انكلترا ومدحه مدحاً كثيراً، وأعلن أنه لم ير من قبل قط ملكاً متواضعاً ولطيفاً مثله، وبذلك نال الملك جون حظوة كبيرة في عيني البابا، وعلى كل حال، كان هناك شخص واحد في ذلك البلاط، قد عارض باندولف، وهو المعلم سيمون دي لانغتون، أخو رئيس أساقفة كانتربري، ولكن بما أن الصك المختوم ذهبيا المتعلق بخضوع مملكتي انكلترا وايرلندا، قد جلب مؤخراً من قبل باندولف إلى مولانا البابا، فإن معارضة المعلم

سيمون ومناقشاته لم تلق أذناً صاغية، وعلاوة على ماتقدم أعلن باندولف المذكور بأن رئيس الأساقفة والأساقفة كانوا متشددين وجشعين في جباياتهم، وأيضاً في مسألة استرداد الممتلكات التي كانت مصادرة أيام قرار الحرمان من شراكة المؤمنين وأنهم ظلموا الملك نفسه، وانتهكوا حقوق المملكة بشكل غير عادل، ولذلك جرى تأخير مطلب رئيس الأساقفة والأساقفة لبعض الوقت.

كيف عبر الملك جون البحر إلى بواتو

وبعث في العام نفسه الملك جون بمبلغ كبير من المال إلى مقدمي جيشه في فلاندرز، ليمكنهم من مضايقة ملك فرنسا، ولينهبوا أراضيه، وليدمروا قلاعه بغارات هجومية، وعلى هذا، قاموا بناء على أوامر الملك، فعاثوا فساداً في أراضي كونت دي غوسني Guisne بالنار والسيف، وألقوا الحصار على قلعة برنكهام Bruncham ، ودمروها، وحملوا معهم بالأغلال عدداً من الفرسان مع خدمهم، وذلك بعدما أرغموهم على تسليم أنفسهم، كما أنهم حاصروا قلعة آريا Arria ، وبعدما أخضعوها، دمروها بالنار، كما أنهم استولوا بالقوة على قلعة لبين Liens ، حيث قتلوا أعداداً كبيرة، وأودعوا في السجن الذين أسروهم، كما أنهم نهبوا أراضي لويس ابن الملك الفرنسي في تلك المنطقة.

وقام الملك جون، بعدما بعث رسله إلى روما لسحب قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، بالاقلاع من بورتماوث، في يوم طهارة العذراء، وكانت الملكة بصحبته، ونزل على اليابسة بعد عدة أيام مع جيش كبير في روشيل، ومع انتشار أخبار وصوله، قدم إليه عدد من بارونات بواتو، وأقسموا له يمين الولاء، واستأنف بعد ذلك زحفه مع قوة كبيرة، فاستولى على عدد كبير من القلاع كانت ملكاً لأعدائه، والذي يود أن يعرف المزيد عما حدث هناك، عليه أن يقرأ الرسالة التي أرسلها الملك إلى رئيس العدالة وإلى المسؤول عن الخزانة.

رسالة الملك جون حول زحفه في بواتو

«من جـون، بنعمـة الرب، الخ -ليكن معلـومـاً لديكما، أنه لدى انتهـاء الهدنة التي منحناها إلى كونتي: لى مـارش ،وأوجي، وعندما وجدناهما غير مستعـدين لصنع سـلام مـوائم معنا، قمنا في يوم الجمعـة الذي قبل أحـد الشعـانين، فعبرنا مع جيشنا إلى ميرفـانت Miervant، وهي قلعـــة يمتلكها غيـوفري دي لوزغنان، ومع أن الكثيرين قـد لايصدقـون أنه كان من الممكن الاستيلاء عليها عنوة، استطعنا نحن في اليوم التالي، الذي وافق أمسية أحـد الشعانين، الاستيلاء عليهـا عنوة، بعد حملة واحـدة، استمرت من الصباح الباكر حتى الساعـة الواحدة، وتولينا في يوم أحد الشعانين من إلقاء الحصـار على قلعة أخـرى، عائدة إلى غيـوفري نفسـه اسمها «نوفنت Novent »، كـان فيهـا قد اتخـذ غيوفري مع ولديه موقف الدفاع، وبعد متـابعة الرمـايات من آلات قـذفنا لمدة ثلاثة أيام، توفـرت فـرصة مناسبـة واقتربت من أجل الاستيلاء على القلعة المذكورة، وقتها جاء إلينا كونت لى مارش، وعـرض علينا بأن غيوفـري المذكور قد ترامـى علينا بنفسه يطلب الرحمة، ووضع نفســـه وولديه، وقلعتـــه وكـل شيء فيهـا تحت رحمتنا، وعندما كنا هناك وصلت إلينا أخبار تحدثت بأن لويس ابن ملـك فرنسا قد ألقى الحصار على قلعة عائدة إلى غيوفري نفسه، اسمها «مونيونتور Mu-neuntur »، ولدى سماعنا بهذا قمنا على الفور بتحويل اتجاهنا للتصدي له، وبناء عليـــه حـدث أن كنا في يـوم الثـالوث المقـــدس في بارثني Par-thenay ، وإلى هناك قدم إلينا كـونتا: لى مارش، وأوجي، مع غيـوفري دي لوزغنان المتقدم ذكـره، وقدموا الولاء لنا، وأقسموا على التـابعية إلينا، وبما أننا كنا قد تفـاوضنا من قبل مع كونت لى مـارش من أجل اعطاء ابنتنا للزواج من ابنه، منحناه هذه الحظـوة، مع أن ملك فـرنسا كـان قـد طلبهـا لابنه، لكن بنوايا خيـانية، لأننا تذكـرنا ابنة أختنا التي تزوجت من لويس، ابن ذلك الملك، ونتيجـة تلك القضيـة، ولعل الرب يمنحنا نجاحـاً أكبر في

هذا الزواج، مما منحنا إياه في الزواج المتقدم، والآن بفضل نعمة الرب قد توفرت إلينا فرصة للقتال ضد عدونا الأبدي، الذي هو ملك فرنسا، وراء بواتو، نحن نخبركما بذلك لتفرحا بأخبار نجاحاتنا. شهدت على نفسي في بارثني، في السنة السادسة عشرة لحكمنا».

وفي الرابع والعشرين من حزيران، من العام نفسه، مات غيلبرت أسقف روكستر.

رسالة البابا انوسنت حول الغاء الحرمان من شراكة المؤمنين

وكتب في هذه الآونة البابا انوسنت إلى نيقولا أسقف أوف توسكولوم، حول إلغاء الحرمان من شراكة المؤمنين، كما يلي: «من انوسنت أسقف، الخ، إلى أخينا المبجل جون أسقف أوف نورويك، وإلى ابننا المحبوب روبرت دي مارسيكو Marisco ، رئيس شمامسه نورثأ مبرلاند، وإلى النبيلين توماس وآدم دي هاردنغتون، السفيرين المحبوبين لنا تماما في المسيح، وإلى جون ملك انكلترا اللامع، هذا من الجانب الأول، وإلى المعلم ستيفن دي لانغتون، وإلى أ A، وج G ، الكاهنين، رسولي أخينا المحبوب، ستيفن رئيس أساقفة كانتربري من الجانب الآخر، إنهم بعدما ظهروا أمامنا أعلنوا بتصميم واتفاق عام، أنهم حتى يتجنبوا خسائر كبيرة في الممتلكات، وخطراً حقيقياً على أرواحهم، إنه من الضروري جداً للمملكة، ومثل ذلك إلى الكهنة، أن يجري إلغاء قرار الحرمان من شراكة المؤمنين من دون تأخير، وبناء عليه، قمنا في إطار تقديرنا الأبوي، في سبيل الحفاظ عليهم، ومن أجل تقدم السلام، فاهتممنا بالقضية ورعيناها فيما بينهم، وكان أخيراً مع اذعانهم أن أبدعنا الشروط المدونة أدناه واتخذنا قرارنا حولها: يتوجب على الملك المتقدم ذكره أن يدفع إلى رئيس أساقفة كانتربري، وإلى أسقفي لندن وإيلاي -أو إلى من يمكن لهم أن يعينوهم لاستلام ذلك - قدراً من المال، هو عندما يضاف إلى مادفعه الملك المذكور لنا سوف يصل إلى مبلغ قدره أربعين ألف مارك، وفور دفعه له، وتقديمه

الضمانات التي تقدم ذكرها، قم بالغاء قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، واحذف جميع مرافعات الاعتراض أو المخالفات، وعليه بعد هذا أن يدفع اثني عشر ألف مارك سنويا، في تاريخين محددين: ستة آلاف مارك في يوم ذكرى جميع القديسين، والمبلغ نفسه في يوم عيد صعود ربنا، وذلك حتى يكتمل دفع المبلغ كله، ومن أجل الوفاء بهذا، ربط الملك المذكور نفسه بيمينه الشخصية وبرسائل موثقة منه وممهورة بخاتمه، وبكفالة أسقفي وينكستر، ونورويك، وإيرلات: وينكستر، وشيستر، ووليم مارشال، أي ورثة الملك المذكور، وخلفائهم سوف يكونون مربوطين بتعهدات مماثلة، وبناء عليه إننا نأمرك برسائلنا الرسولية هذه بمتابعة السير في هذه القضية وفقاً للصيغة التي تقدم ذكرها، مالم تقدم جميع الفئات على اتخاذ قرار، وفقاً لإرادتها بالقيام بتسوية القضية بشكل آخر. صدر في اللاتيران في السنة السادسة عشرة من حبريتنا».

إعادة الممتلكات المصادرة

في الوقت الذي تلقى فيه نيقولا أسقف توسكولوم، ونائب الكرسي الرسولي، هذا التفويض بوساطة رسل مولانا البابا، كان ملك انكلترا في مناطق ماوراء البحر، وكان لدى مغادرته انكلترا، قد عهد بدوره في القضية إلى النائب البابوي مع وليم مارشال، وعقد النائب البابوي المذكور مؤتمراً عظيماً في كنيسة القديس بولص في مدينة لندن، فقد احتشد في ذلك المؤتمر: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات، وآخرون لهم شأنهم في مسألة الحرمان من شراكة المؤمنين، وشرح النائب البابوي المذكور إلى الجميع شروط اعادة الممتلكات المصادرة، والتعويض عن الخسائر الذي جرى ترتيبه من قبل البابا في روما، مع موافقة الفرقاء، وأمر بوجوب اعطاء شهادة موثقة حول كمية المال الذي دفع إلى الأساقفة وللآخرين من قبل وكلاء الملك فيمايتعلق بمسألة الحرمان من شراكة المؤمنين، وبذلك فإنه عن طريقة معرفة مقدار المال

الذي دفع، من الممكن معرفة كم بقي ليدفع، وتبرهن بوساطة حساب دقيق مؤكد، أن رئيس أساقفة كانتربري ورهبان كانتربري مع أساقفة: لندن، وإيلاي، وهيرفورد، وباث، ولنكولن، قد استلموا قبل عودتهم إلى انكلترا من المنفى، اثني عشر ألف مارك، من العملة الاسترلينية، من يدي باندولف، واستلموا أيضاً منذ وصولهم - أي أولئك الأساقفة المذكورين، والرهبان المتقدم ذكرهم - وأثناء المؤتمر الذي عقد في ردنغ في السادس من كانون الأول، مبلغ خمسة عشر ألف مارك، ليجري توزيعها فيما بينهم، وهذا المبلغ مع المبلغ المتقدم الأول الذي جرى استلامه، يساوي مجموعه سبعة وعشرين ألف مارك، والخمسة عشر ألفاً التي بقيت لتدفع لتكمل وتتم مبلغ الأربعين ألف مارك، بقيت تحت ضمانة أسقفي وينكستر، ونورويك، برسائل موثقة من الملك، لتكون ضمانة أوسع، وذلك وفقاً لما ورد في رسائل مولانا البابا.

إلغاء الحرمان من شراكة المؤمنين

وبعد ترتيب الأمور على هذه الصورة، ذهب في يوم الرسولين: القديس بطرس، والقديس بولص، نيقولا، أسقف توسكولوم، ونائب الكرسي الرسولي، إلى الكنيسة الكاتدرائية، وقام هناك وسط قرع النواقيس وانشاد «Te Deum» فألغى بشكل مهيب قرار الحرمان من شراكة المؤمنين، الذي استمر لمدة ست سنوات، وثلاثة أشهر، وأربعة عشر يوماً.

كيف أجل النائب البابوي التعويض عن الممتلكات المصادرة

ولدى إلغاء الحرمان من شراكه المؤمنين، الذي تقدم ذكره، غضب النائب البابوي وانزعج بوساطة حشد لايعد ولا يحصى من رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وفرسان الداوية والاسبتارية، وراعيات الديرة، والراهبات، ورجال الدين والعلمانيين، الذين سألوه تقديم تعويض لهم عن الخسائر والأضرار التي عانوا منها خلال أيام الحرمان من شراكة

المؤمنين، ذلك أنهم أكدوا، أنهم وإن لم يغادروا انكترا لقد عانوا من الظلم المتواصل للملك ولعملائه بالجسد وبالممتلكات، حتى جرت مصادرة جميع ممتلكاتهم وأسيئت معاملتهم شخصياً، إلى حد لم يعودوا يعرفون فيه إلى أين يذهبون فراراً من مطاردة وقسوة أعدائهم، وأجاب النائب البابوي حشد الشاكين قائلاً بأنه لم يرد ذكر لخسائرهم وأضرارهم في رسائل البابا، وبناء عليه هو لايجوز له، ولايمكن له قانونيا المضي أبعد من حدود الوصاية الرسولية، لكن مع ذلك نصحهم بتقديم شكوى حول خسائرهم وأضرارهم إلى البابا، وأن يطالبوا بمنحهم عدالة كاملة، والذي حدث على كل حال، أن جميع ذلك الحشد من رجال الدين الشاكين، فقدوا الأمل في حظ أفضل، لذلك عادوا ثانية إلى مواطنهم.

وأنهى في العام نفسه جون راعي دير كنيسة القديس ألبان حياته، وكان ذلك في يوم القديس كينيلم Kenelem ، الملك والشهيد، وكان رجلاً متديناً ومتعلماً، وجاء موته عن سن متقدم، في السنة التاسعة عشرة من أسقفيته.

كيف اقتاد الملك جون جيشه في بريتاني

وفي هذه الآونة اقتاد الملك جون جيشه وزحف به نحو الأمام من بواتو إلى بريطانيا الصغرى، ومكث هناك ثلاثة أيام وثلاث ليال، ولدى وصوله إلى مدينة يدعوها سكانها باسم نانتي Nantes ، قرر الهجوم عليها، لكن السكان والفرسان الذين تركوا مسؤولين عن المكان من قبل الملك الفرنسي، عندما سمعوا باقتراب الملك الانكليزي، خرجوا للتصدي له، وعند جسر ليس بعيداً عن المدينة اشتبكوا بالقتال مع جيش الملك الانكليزي، ولحسن حظ الملك أنه حاز النصر، وأسر عشرين فارساً في المعركة، وكان بين الأسرى ابن ووريث روبرت دي دروز Drus خال الملك الفرنسي، وأثقل الملك هذا الفارس بالسلاسل، وحمله لدى عودته، وزحف الملك المذكور بعد هذا مع جيشه إلى قلعة روشو مين Rocheau

Maine ، وألقى الحصار عليها، ولدى سماع ذلك من قبل لويس ابن الملك الفرنسي، الذي كان أبوه قد بعثه ليوقف غارات الملك جون، بادر مسرعاً مع جيش كبير لمساعدة المحاصرين، ولدى معرفة الملك الانكليزي باقتراب الفرنسيين، أرسل كشافة من جيشه ليتعرفوا إلى عدد ومقدرة الأعداء الواصلين، وقام هؤلاء الكشافة بتأدية واجبهم الذي عين إليهم، ثم عادوا ليخبروا الملك بأنه - أي الملك الانكليزي -لديه قوة أكبر بكثير، ولذلك أقنعوه بالحاح للاشتباك بالأعداء في معركة مكشوفة، لأنه بفعله ذلك، هو بدون شك سوف ينال النصر على العدو، وتشجع الملك بهذه الأخبار التي جلبها له الكشافة، فأمر بحمل السلاح بالسرعة الممكنة، للاشتباك بمعركة مكشوفة مع لويس، لكن بارونات بواتو رفضوا اتباع الملك، قائلين بأنهم لم يكونوا مستعدين للاشتباك في معركة، وبما أن الملك جون كان يعرف تمام المعرفة الخيانة المعتادة لنبلاء بواتو، قام على الرغم من أن الاستيلاء على القلعة كان مؤكداً، برفع الحصار والانسحاب وهو غاضب جداً، وأيضاً عندما سمع لويس بأن الملك الانكليزي قد نقل معسكره، خاف من أنه سيهاجمه، ولهذا هرب بالاتجاه المعاكس لاتجاه الملك جون، وهكذا هرب كل جيش بشكل شائن وأدار كل جيش ظهره إلى الآخر.

كيف زحف الملك الفرنسي ضد جيش الملك الانكليزي في فلاندرز

كان جيش الملك الانكليزي قد نشر في فلاندرز الدمار في عدة مناطق، وكان الآن يقوم بالعيث فساداً في بواتو بطريقة قاسية جداً، وكان في هذه الحملة أعظم العسكريين وأكثرهم خبرة مثل: وليم دوق هولاندا، ورينالد، الذي كان من قبل كونت بولون، وفيراند كونت فلاندرز، وهيوج دي بوفي Boves ، وهو جندي شجاع، مع أنه كان متوحشاً ومتعجرفاً، لأنه أظهر سلوكه الوحشي في تلك المناطق، حيث لم يوفر

لاالنساء ولا الأطفال الصغار، وكان الملك جون قد عين أخاه وليم ايرل سالسبري مارشالاً على ذلك الجيش، وعلى فرسان المملكة، ليقاتل بالاتحاد والتعاون معهم، وليدفع أيضاً من الخزينة إلى الجنود الآخرين، وعلاوة على ذلك كان هؤلاء المقاتلين قد تلقوا المساعدة والحظوة من أوتو، الامبراطور الروماني، مع جميع قوات دوقي: لوفين Louvaine، وبرابانت Bra-bant اللذان كانا ساخطين بالدرجة نفسها ضد الفرنسيين، وعندما وصلت أخبار هذه الزحوف إلى مسامع فيليب ملك الفرنسيين، بات خائفاً كثيراً، من أنه لن يكون قادراً على الدفاع عن ذلك الجزء من البلاد، ولاسيما أنه كان قد أرسل مؤخراً ابنه لويس مع جيش كبير إلى بواتو، للتصدي إلى الملك الانكليزي، ولإيقاف غاراته هناك، ومع أن ذلك الملك غالباً مافكر بالمثل العامي الذي يقول:

«المنصرف عقله نحو الكثير من الخطط

من الصعب أن يصمم على أي منها».

قام على كل حال بحشد جيش من الايرلات، والبارونات، والفرسان، والجنود الخيالة والرجالة، مع عوام المدن والبلدات، وزحف في قوة عظيمة للتصدي إلى أعدائه، وأصدر أوامر إلى كل كاهن ورجل دين، وقسيس، وراهبة لإعطاء الصدقات، ولتقديم الصلوات للرب، وللقيام بالقداسات من أجل ثبات المملكة، وبعد ذلك زحف بجرأة مع جيشه ضد العدو، وقد سمع بأن هذا العدو قد وصل بعيداً حتى جسر بوفني Bovine في منطقة بونتويي Pontoise ، فقاد قواته في ذلك الاتجاه، ووصل إلى الجسر المذكور، وعبر النهر مع جيشه، وهناك نصب معسكره، وكانت حرارة الشمس عالية جداً، كما هي العادة في شهر تموز، ولهذا قرر الفرنسيون التوقف قرب النهر من أجل انعاش الرجال وكذلك الخيول، ووصلوا إلى أمام النهر المذكور، في يوم السبت، حوالي ساعة المساء، وتولوا صف عجلاتهم وعرباتهم، وجميع الآليات التي حملوا فيها طعامهم وسلاحهم،

وآلات حـربهم، وأسلحتهم، وعينوا على اليمين وعلى اليسـار حـراسـاً يراقبون جميع الطرقـات، ومن ثم استراحوا هناك تلك الليلة، وعندمـا جاء الصباح، وعلم القادة الانكليز بأن الملك الفرنسي قد وصل، عقدوا مؤتمراً، وقرروا بالإجماع، الاشتباك بمعركة مكشوفة مع الأعداء، لكن بما أن اليوم كـان يوم أحد، فإن الرجـال الذين كـانوا أكثر حكمـة في الجيش، ولاسيما رينالد، الذي كان من قبل كونت بولـون قالوا بأنه من غير اللائق الاشتباك بالقتـال في مثل يوم العيـد هـذا، وتلويث مثل هذا اليـوم بالقتل وبسفك الدماء البشرية، ووافق الامبراطور الروماني أوتو على هذا الرأي، وقال بأنه لم ينل نصراً قط في مثل ذلك اليـوم، ولدى سماع هيـوج دي بوفي Boves لهذا انفجـر يجدف ويشتم، ودعـا الكونت رينالد خـائنـاً منحطا، وانتقـده بامتـلاكه لأراض وممتلكات واسعـة تلقاها بمثـابة هدايا من ملك انكلترا، وأضاف إذا جـرى تأجيل المعركة في ذلك اليـوم سوف تعزى إليـه الخسارة التي لايمكن تعويضها، والتي سـوف يعاني منها الملك جون، لأن «التأخير دوما خطير عندمـا تكون الأشياء جاهزة»، ورد الكونت على شتـائم هيوج وهو مغضب وقـال: «سـوف يبرهن في هـذا اليـوم على أنني مخلص وأنك أنت خائن، لأنه حتى في هذا الأحد نفسـه، سوف - إذا كان الأمر ضروريا - أقف مقـاتلاً في سبيل الملك، حتى الموت، وأنت حسب عادتك، سـوف تهرب من المعـركة، وبذلك سـوف تظهـر نفسك بمثابة خـائن منحط كثيراً بحضـور الجميع» وبكلمات الشتـائم هذه وبشتـائم هيـوج المذكـور ثارت الحشـود وتحمسـت للقتـال، ولذلك طـاروا إلى السـلاح جميعـاً، وبجـرأة استعـدوا للقتـال، وعندمـا تسلحـوا جميعـاً، عبـأوا أنفسهم في ثلاث مجمـوعـات، حيث عينوا على المجمـوعـة الأولى فيراند كـونت فـلاندرز، ورينالد ايرل بولـون، ووليم ايرل سـالسبري بمثـابة قـادة، وأعطوا قيـادة المجمـوعـة الثـانيـة إلى وليم دوق هولانـدا، وهيـوج دي بوفي مع أتبـاعـه البرابانتيين Brabant، وكانت قيادة المجموعة الثـالثة قد عهد بها إلى أوتو، الامبراطور الروماني ورجاله المحاربين، وعلى هذه الصورة زحفوا متقدمين

ضد الأعداء، حتى باتوا على مرأى من الجيش الفرنسي، وعندما رأى الملك الفرنسي أن أعـداءه كانوا مستعدين للـلاشتباك بالقتال، أمـر بتدمير الجسر الذي وقع في خلفه، من أجل أنه في حالة محاولة أي واحد من جيشه وسعيه للفـرار، سوف لن يجد طـريقاً للهـرب، إلاّ من وسط الأعـداء، وعبأ الملك الفرنسي عساكره حول عرباته وآليـاته الأخرى التي تقدمت الاشارة إليها، ووقف هناك ينتظر هجوم أعـدائه، ومالبثت التشكيلات تحت قيـادة القادة الذين ورد ذكرهم أعـلاه، أن قامت بعـد وقت قصير بالحملة على صفوف الفـرنسيين، وكانت الحملة شـديدة إلى حـد أنهم تمكنوا في دقيقة من خـرق صفـوفهم، وشقوا طريقهم حتى إلى المكان الذي كـان فيه الملك الفـرنسي، وعندما رأى الكونت رينالد الملـك الذي كان قد حـرمه من ميراثه، وطرده من كونتيته، وضع رمحه جانباً، وكان قد أرغمه على الترجل، واستعد لقتله بسيفه، لكن واحداً من الجنود الذين كـانوا معينين حرساً شخصياً للملك، عرض نفسـه لضربة الكونت، وقد قتل عوضـاً عنه، ولدى رؤية الفرنسيين ملكهم على الأرض، اندفعوا بشـدة عظيمة وبغيرة لمسـاعدته، ومكنوه من امتطاء فـرسه ثانيـة، ثم استعر القتـال من على الجانبين وتقارعت السيـوف وصدر عنها شرر مثل البرق حـول رؤوس الخوذ، وكان الصراع حاداً جداً من على الطرفين، وصار الآن الكونتات الذين تقـدم ذكرهم الآن معزولين عن بقيـة أتباعهم من الجنود، وبات تقـدمهم وكـذلك تراجعهم نحو بقيـة الجيش متعـذراً، كما أن حملة الذين جـاءوا من بعـدهم قـد توقفت، وهكذا وجدوا أنفسهم غير قـادرين على الصمود في وجـه حملات الأعداد الكبيرة جداً من الفرنسيين، فاستسلموا أخيراً، وبهذه الصورة صار جميع الكونتات مع مجمـوعـة الجنود التي كـانت معهم، أسرى بعـدمـا كـانوا قـد أظهـروا شجاعة عظيمة.

نهاية المعركة

ولدى وقـوع هذه الأحـداث من حـول الملك فيليب، قـام كـونتـات:

شامبين، وبيرشي، وسينت بول مع كثير مـن نبلاء المملكة الفرنسيـة بهجوم على مجموع العساكر التي ورد ذكرها أعلاه، وكان يقودها هيوج دي بوفي، وأرغموا ذلك النبيل على الفرار مع جميع العساكر الذين تجمعوا من مختلف المناطق، وفي أثناء فـرارهم الـدنيء لحق بهم الفـرنسيـون وطاردوهم بحـد السيف حتى موضـع تمركز الامبراطور، وهكذا بفرارهم ألقـي ثقل القتال كله في لحظة واحدة على الأمبراطور، وقـا م الكونتات الذين تقـدم ذكرهم أعلاه باستدعائه، وبذلوا غاية جهودهم لقتله، أو لإرغامه على الاستسلام، لكنه أمسك سيفـه الذي كان حاداً مثـل شفرة بكلتا يديـه، وسدد ضربات فـائقة الشـدة إلى الطرفين، فلطخ بالدمـاء كل من ضربه، أو أنزل الفرسـان والخيول إلى الأرض، وخاف أعداؤه من الاقتراب منه، وقتلوا ثلاثة خيول تحتـه، غير أنه تمكن في كل مرة من معـاودة الامتطاء، وجـدد القتال بحـدة أكبر، وتركه أعداؤه أخيراً مع أتباعـه غير مقهورين، وتراجع هو من القتال دون أن يصـاب شخصيـاً بالأذى أو أتباعـه، وقـدم الملك الفـرنسي الشكر للرب، وهو مسرور بهذا النصر غير المتــوقع، على أعـدائــه، ووقعت هذه المعــركـة في الســابع والعشريـن من تموز، وبسـوء الحظ هـذا أنفق الملك الانكليزي، من دون فـائدة، الأربعين ألف مـارك التي كان قـد أخذها من رهبـان طائفـة السسترشيان، في أيام الحرمـان من شراكـة المؤمنين، وبذلك تحقق المثل الذي يقول:

«لن ينتهي سلب مهين نهاية جيدة قط»

ووصلت أخبـار ماحـدث إلى الملك جـون، فانزعج كثيراً، وقـال للذين كـانوا من حـوله: «منذ أن أصبحت متصـالحاً مع الرب، وأخضعت نفسي ومملكتي لكنيسـة رومـا، الويل لي، مـامن شيء سـار معي بشكل صحيح، وكل ماهو سيء الحظ قد وقع لي».

وفي هذا العام لنفســه، عندما كـان جون، أسقف أوف نورويك، عـائداً من بلاط رومــا، مـات في منطقـة بواتـو، وحمل جسـده إلى انكلترا، ودفن

مشرفاً في كنيسة نورويك.

عقد هدنة بين ملكي فرنسا وانكلترا

تم بعد وقوع الحوادث التي تقدم ذكرها أعلاه الاتفاق على عقد هدنة، وجاء ذلك بوساطة رجال الدين، وعقدت الهدنة في مناطق ما وراء البحر بين فيليب وجون، الملكين الفرنسي والانكليزي، وكان نصها كما يلي: «من **فيليب، بنعمة الرب ملك فرنسا، إلى جميع الذين سوف يرون هذه الأحرف، تحيات**: ليكن معلوماً من قبلكم، بأننا قد منحنا إلى الملك جون وإلى رجاله الذين ظهروا في الميدان إلى جانبه منذ هذه الحرب الأخيرة حتى يوم الخميس التالي بعد عيد تمجيد الصليب المقدس في أيلول، هدنة صحيحة منا ومن رجالنا الذي ظهروا في الميدان إلى جانبنا، حتى الفصح المقبل، وذلك سوف يكون في سنة ١٢١٥ لتجسيد الرب، وخمسة أعوام كاملة بعد الفصح المذكور، ومستثنياً أيضاً اليمين الذي أدته لنا بلدات فلاندرز، وهينلوت، ومثل هذا وبالطريقة نفسها مستثنياً إلى الملك جون الأسرى الذين تحت سلطانه، وسوف نبقى نحن ورعيتنا ومغامرونا في الوضع نفسه كما كنا في الخميس المتقدم ذكره، حتى نهاية الخمسة أعوام التي تقدم ذكرها، والذين سوف يتولون من جانبنا إملاء شروط هذه الهدنة وترتيبها، بيننا وبين ملك انكلترا، هم: ب— سافاري، وغي توربين Turpin راعي دير مارمونتير Marmontier وغ.G.رئيس شمامسة تور، ومن جانب ملك انكلترا: راعي دير القديس جون في انكلترا، وعميد الكرستاتون Christoton وأقسم هؤلاء جميعاً بثقة طيبة وباخلاص، من أجل تسوية جميع الخلافات والشكاوى التي يمكن ان تقوم في بواتو، أو أنجو، أوبريتاني، أوتور، وهم سوف يجتمعون في دير فولسيرلي Fulcirelle، ومن أجل الشكاوى الأخرى التي يمكن أن تقوم في بورج Bourges، وأوفرين، وفي كونتيتي لى مارش، وليموزين، ولسوف يجتمعون لترتيب الأمور في هذه المناطق».

وفي الخامس من تشرين أول في هذا العـام جرى تكريس رتشـارد عميد سـالسبري، ووولتر دي غـري مستشـار انكلترا، من قبـل ستيفن رئيس أسـاقفة كـانتربري، أسقفين، الأول منهما لكنيسـة شيستر، والثاني لكنيسـة وينكستر، وفي هذه الآونة أيضـاً، وفي التاسع عشر من تشرين الأول، كـان الملك جون قد أنهى جميع أعماله في مقاطعـات ماوراء البحر، لذلك عاد إلى انكلترا.

المؤتمر الذي عقده البارونات ضد الملك جون

وفي هذه الآونة اجتمع إيـرلات انكلترا وباروناتها، في كنيسـة القـديس إدموند، وكأنهم يريدون تأدية واجبات دينية، مع أن ذلك كان لسبب آخر، وبعـدمـا تبـاحثوا مـع بعضهم بشكل سري لبعض الوقت، وضع أمـامهم صك الملك هنري الأول، الذي كـانـوا قـد تسلمـوه، كما ذكـرنا من قبل في مدينة لندن من ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، ويتضمن هذا الصك بعض الامتيـازات والقـوانين التي منحت إلى الكنيسـة المقـدسـة، وإلى نبـلاء المملكة، وذلك إلى جـانب بعـض الامتيـازات التي أضافهـا الملك من قبل ذاتـه طواعيـة، وعـلى هـذا اجتمعـوا جميـعـاً في كنيسـة القديس إدمـوند الملك والشهيـد، وشروعـاً من الذين كـانوا مـن ذوي المناصب الأعلى، أقسمـوا جميعـاً على المـذبح الكبـير، أن الملك إذا رفض منـح هذه الامتيـازات والقـوانين، هم أنفسهم سـوف يتخلون عن ولائهـم له، وسيشنون الحرب ضـده، حتى يقـوم بتأكيـد كل شـيء طلبـوه في صك ممهـور بخاتمه، ووافقـوا أخـيراً بالاجماع أنهم بعـد الميـلاد سوف يذهبـون جميعـاً معـا إلى الملك، ويطلبـون تأكيـد الامتيـازات المتقـدم ذكـرها، وأن يقـومـوا في الوقت نفسـه بتجهيـز أنفسهـم بالخيـول وبالسـلاح، حتى إذا مـاسعى الملك إلى التخلص من يمينه، يمكنهـم الاستيـلاء على قـلاعـه، وارغـامه على الاستجـابة لمطالبهم، وبعـدمـا رتبوا هـذه الأمور عـادوا إلى مواطنهم.

حول وليم راعي كنيسة القديس ألبان

جاء في هذا العام بعد جون راعي كنيسة القديس ألبان وليم، وكان راهباً من الكنيسة نفسها، وقد جرى انتخابه بشكل مهيب في يوم عيد القديس إدموند الملك والشهيد، الذي وافق اليوم الخامس من الاسبوع، وفي يوم القديس أندرو الرسول، الذي وقع في يوم الأحد الأول من ميلاد مولانا، جرى بشكل حبري ومهيب تكريسه أمام المذبح الكبير في كنيسة القديس ألبان من قبل أسقف إيلاي، ويحكى بأن ترقية هذا الرجل قد شوهدت في رؤيا ليلية من قبل أحد الرهبان، من ذلك الدير، وكان ذلك حتى قبل عمل الانتخاب، وكان أول راعي دير لكنيسة القديس ألبان الشهيد الانكليزي، ويلغود Willegod الذي كان أول راعي دير جرى تعيينه، وقد أمر بمراعاة الطريق النظامية للحياة، في الأول من آب، في سنة سبعمائة وأربع وتسعين، لتجسيد ربنا، وكان ذلك من قبل الملك أوفا Offa ملك الميركانيين Mercians ، بعد اكتشاف جسد الشهيد، وتقديم الرهبان، مع أن الكنيسة لم تكن قد بنيت بعد، وجاء بعد ويلغود وخلفه: ايدريك Edric، ثم وولسيوس Wolsius، ثم وولنوث Wol-noth، ثم ايدفرد Edfred، ثم وولسين Wolsin، ثم ألفريك Alfric، ثم ايلدرد Eldred، ثم ادمار Edmar، ثم ليوفريك Leofric ، الذي عمل رئيساً لأساقفة كانتربري، وجاء من بعده وخلفه ألفريك أخو ليوفريك المذكور، وجاء من بعد ألفريك وخلفه ليوفستان Leofstan، ثم فريدريك، ثم بولص، ثم رتشارد، ثم غيوفري، ثم رالف، ثم روبرت، ثم سيمون، ثم وارين Warin وخلف وليم جون، وبذلك كان وليم راعي الدير الثاني والعشرين الذي جرى تعيينه لهذا المنصب، في العام السادس عشر من حكم الملك جون.

الطلب الذي عمله بارونات انكلترا من أجل حقوقهم

كان عام ١٢١٥م هو العام السابع عشر من حكم الملك جون، فيه عقد

بلاطه في وينكستر في عيـد الميـلاد، وذلك لمدة يوم، حيث بـادر بعـد ذلك مسرعاً إلى لندن، واتخذ مقـراً له في المعبد الجديد، وإلى هذا المكان، جـاء إليه النبلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه، في صفوف عسكرية بهية، وطالبوا بتأكيد الامتيـازات والقـوانين العـائـدة للملك إدوارد، مع الامتيـازات الأخـرى الممنوحة لهم وإلى الملكة، وإلى كنيسة انكلترا، حسبما ورد ذكرها في الصك، وكذلك قوانين الملك هنري الأول، التي ورد ذكرها أعلاه، وأكدوا أنه كان قد وعد، أيام تحليله في وينكستر بإعادة القوانين، والامتيازات القديمة التي التـزم بها، ووعـد بيمينه بمـراعـاتها، ولدى سماع الملك اللهجـة الجريئة للبـارونات في عملهم مطالبهم، خـاف كثيراً من هجـوم من قبلهم، وذلك عندما رآهم مستعـدين للقتال، وأعطى على كل حـال جواباً، بأن مطالبهم كانـت مسألة هامة وصعبـة، ولذلك طالب بهدنة حتى نهاية الفصح، حتى يتمكن بعد تقـدير وتمعن من إرضائهم، والحفاظ بالوقت نفسه على كـرامة تاجه، وبعد كثير من المناقشـات من على الطرفين، قام الملك -مع أنه لم يكن قـانعا - بالحصـول على رئيس أسـاقفة كـانتربري، وأسقف إيلاي، ووليم مـارشـال، ليكونوا ضـامنين له، في أنه سـوف يقوم في اليـوم الذي جـرى الاتفاق عليه، من دون اعتراض أو تعليل، بإرضائهم جميعاً، وبناء عليه عاد الجميع إلى مـواطنهم، وأراد الملك -على كـل حـال- اتخاذ احتيـاطات من أجل المستقبل، فجعل جميع النبـلاء في أرجـاء انكلترا كلهـا يقسمـون على الولاء له وحده، ضـد جميع الناس، وأن يقومـوا بتجديد تابعيتهم، ولكي يكون أكثر ضماناً لنفسـه، قام في يوم طهارة القديسـة مريم، فحمل صليب ربنا، وقـد لجأ إلى هذا العمل واقتنع به صـدوراً عن الخوف أكثر منه قناعـة بالتقوى.

ومـات فـي العـام نفسـه يوستـانـس أسقـف إيـلاي في ردنـغ، وكـان رجـــ/ ثـلاً بـارعـاً فـي اللاهـوت وكـذلـك بالمعـارف الانسـانية.

الأشخاص الرئيسيون الذين أرغموا الملك على منح القوانين والامتيازات

وفي اسبوع الفصح من هذا العام نفسه، اجتمع النبلاء الذين تقدم ذكرهم في ستامفورد مع خيول وسلاح، لأنهم كانوا قد أقنعوا الآن جميع نبلاء المملكة كلها بالالتحاق بهم، وشكلوا جيشاً كبيراً جداً، لأنه جرى تقدير وجود ألفي فارس في جيشهم، إلى جانب العساكر الخيالة والمرافقين والعساكر الرجالة، الذين كانوا مجهزين بعدة أشكال، وكان أعلى قادة هذا الطاعون: روبرت فتز -وولتر، ويوستاس دي فيسكي Vescy، ورتشارد دي بيرسي، وروبرت دي روس Roos، وبيتر دي بروس Brcuis، ونيقولا دي ستوتفيل Stuteville، وسير Saer ايرل أوف وينكستر، ور. R. ايرل أوف كلير، وهـ. H ايرل أوف كلير، والايرل روجر بيغود، ووليم دي مونبرى Munbray، وروجر دي كريسي Creissi، ورانولف Ranulph فتز - روبرت، وروبرت دي فيري Vere، وفولك فتز - وارين Warine، ووليم ماليت Mallet، ووليم دي مونتأكيوت Montacute، ووليم دي بوشامب Beauchamp، وس. S. دي كايم، ووليم مودوت Maudut ، وروجر دي مونت -بيغون Mont- Begon، وجون فتز - روبرت، وجون فتز -آلان، وغ. G. دي لافال Laval، وو.O. فتز -آلان، وو.W. دي فوكس Vaux، وغ.G. دي غانت Gant، وموريس دي غانت، ور.R. دي براكلي Brackele، ور. R. دي مونتفيكت Muntfichet، وو. W. دي لانفالي Lanvali، وغ.G. دي ماندفيل ايرل أوف اسكس، ووليم أخوه، ووليم دي هتنفيلد، وروبرت دي غريسليGrealei، وغ.Gمفوض أوف موتون Meau-tun، والاسكندر دي بونتير Puinter، وبيتر فتز -جون، والاسكندر دي سوتون Sutune، وأوسبرت دى بوبي Osbert de Bobi، وجون قسطلان سيشتر، وتوماس دي مولوتون Mulutune ، وآخرون كثر،

وكـان هؤلاء جميعاً متجـدين بالقسم، وكـانوا مـؤيدين برأي ستيفن رئيس أساقفة كـانتربري، الذي كان على رأسهم، وكان الملك في هذ الوقت ينتظر وصـول نبـلائه في أكسفـورد، وفي يوم الاثنين بعـد ثمانيـة الفصح، اجتمع البارونات المذكورون في بلدة براكلي Braekley، وعندما علم الملك بهذا، أرسل إليهم رئيس أساقفة كانتربري، ووليم مارشال ايرل بمبروك -Pem broke`، مع رجـال حكماء آخـرين، لمعـرفة أية قـوانين وامتيـازات كـانوا يطلبون، وبنـاء عليه سلم البارونـات إلى الرسل ورقة بقيـاس كبير تحتوي القوانين والأعراف القديمة للمملكة، وأعلنوا أنه مالم يقم الملك على الفور بمنحهم ذلك، وتأكيـد الممنوح بخـاتمه، فلسـوف يستـولون على قـلاعـه، ويرغمـوه على منحهم ترضيـة كـافيـة بالنسبـة لمطالبهم المذكـورة من قبل، وحمل رئيس الأسـاقفـة والرسل من أتبـاعـه الورقـة إلى الملك، وقـرأوا له عناوين الورقة واحداً واحداً حتى أكملـوها، وعندما سمع الملك بمقاصد العناوين، قـال سـاخراً، مع غضب شـديد: «لماذا لم يطالـب البـارونات بين هذه المطالب غير العادلة بمملكتي أيضاً؟ إن طلباتهم عـابثة وخيالية، وغير مؤيدة بأي عقل أو منطق مطلقاً»، وأعلن أخيراً وهو مغضب، وأيد إعلانه بالقسم، بأنـه لن يمنحهم مطلقـاً مثل هذه الامتيـازات، لأن ذلك سـوف يحوله ليكون عبداً لهم، والشطر الأكبر من هذه القـوانين والامتيازات التي طلبها النبـلاء وأرادوا تثبيت منحها لهم، قد جرى وصفهـا أعلاه في صك الملك هنري، وجـرى استخراج بعض منهـا من القـوانين القديمـة للملك ادوارد، حسبما سيوضحها هذا التاريخ في الوقت المناسب.

حصار قلعة نورثأمبتون من قبل النبلاء

وبما أن رئيس الأساقفة ووليم مـارشال لم يتمكنا بأية وسيلة اقناع الملك بالموافقـة على مطالبهم، فقـد عـادا -بناء على أمـر الملك - إلى البـارونات، وحكوا لهم تمامـاً كل الذي سمعوه من الملـك، وعندما سمع النبـلاء الذي قاله جون، عينوا روبرت فتز - وولتر قائـداً لجنودهم، ومنحوه لقب «قائد

جيش الرب والكنيسة المقدسة»، ثم إنهم طاروا أفراداً وجماعات إلى السلاح، ووجهوا قواتهم نحو نورثأمبتون، ولدى وصولهم إلى هناك، قاموا على الفور بإلقاء الحصار على القلعة، إنما بعدما أقاموا هناك مدة خمسة عشر يوماً، ورأوا أنفسهم أنهم كسبوا قليلاً، أو لم يحققوا أي تقدم، قرروا لذلك نقل معسكرهم، لأنهم جاءوا من دون مجانيق، ومن دون آلات الحصار الأخرى، ولأنهم لم يحققوا أهدافهم، زحفوا بشكل مضطرب إلى قلعة بدفورد Bedford وخلال ذلك الحصار قتل حامل راية روبرت فتز - وولتر مع آخرين، ذلك أنه أصيب برأسه بسهم قوس زيار، فمات، مما سبب الحزن لكثيرين.

كيف أعطيت مدينة لندن وسلمت إلى البارونات

وعندما وصل جيش البارونات إلى بدفورد، استقبل بكل احترام من قبل وليم دي بوشامب، وإليهم قدم إلى هناك أيضاً رسل من لندن، أخبروهم بشكل سري، أنهم إذا مارغبوا بالدخول إلى تلك المدينة، فعليهم الوصول إلى هناك فوراً، وتحمس البارونات بوصول هذه الرسالة الموافقة، وقوضوا معسكرهم على الفور، ووصلوا إلى وير Ware ، وزحفوا بعد ذلك طوال الليل، ووصلوا في الصباح الباكر إلى مدينة لندن، فوجدوا الأبواب مفتوحة، فدخلوا إلى المدينة من دون صخب، عندما كان السكان يقيمون الصلوات اللاهوتية، لأن أغنياء أهل المدينة كانوا يفضلون البارونات، وكان الفقراء يخشون من التذمر ضدهم، وحدث دخولهم في اليوم الرابع والعشرين من أيار، وكان يوم أحد هو التالي لما قبل صعود ربنا، وبعدما دخل البارونات إلى المدينة، مركزوا حرسهم وجعلوهم مسؤولين عن كل باب من الأبواب، ثم إنهم نظموا شؤون تلك المدينة بشكل جيد، وأخذوا بعد هذا رهائن من سكان المدينة، وأرسلوا رسائل إلى جميع أرجاء انكلترا، إلى الايرلات، والبارونات، والفرسان، الذين ظهروا أنهم مابرحوا مخلصين إلى الملك، مع أنهم تظاهروا بذلك فقط، ونصحوهم

مع التهديد، أنهم إذا أرادوا الحفاظ على سلامة ممتلكاتهم ومقتنياتهم، فماعليهم إلاّ التخلي عن الملك الذي كان حانثاً بقسمه، ومقاتلاً ضد البارونات، وأن يقفوا معهم بثبات، وأن يقاتلوا ضد الملك من أجل حقوقهم ومن أجل السلام، وأنهم إذا مارفضوا فعل ذلك فإنهم -أي البارونات -سوف يشنون الحرب ضدهم جميعاً، كما يشنونها ضد الأعداء المكشوفين، ولسوف يدمرون قلاعهم، ويحرقون بيوتهم والأبنية الأخرى، وسف يخربون حظائرهم، وحدائقهم وبساتينهم، وكانت أسماء بعض هؤلاء الذين كانوا لم يقسموا بعد على النضال في سبيل هذه الامتيازات: وليم مارشال، ايرل بمبروك Pembroke، ورالف ايرل أوف شيستر، ووليم ايرل سالسبري، ووليم ايرل وورني Warrenne، ووليم إيرل ألبيمارل Albemarle، وهـ. H. ايرل كورنوول Cornwall، وو.W. دي ألبيني Albiney، وروبرت دي فيبونت Vipont وبيتر فتز - هيوبرت، وبرين Brian دي لى آيل، وغ. G. دي فيرنيفال Furnival ، وتوماس باسيت Basset، وهنري دي بريبروك Braibroc ، وجون دي باسنغبورن Bassingeburne، ووليم دي كانتيلو Cantelu ، وجون مارشال، ووليم بريويري Briuerre ، وقام الشطر الأكبر من هؤلاء إثر تسلمهم الرسائل من البارونات بالانطلاق إلى لندن، والالتحاق بهم، متخلين عن الملك كلياً، وتوقفت مرافعات الخازن ومحاكم عمد المناطق، في جميع أرجاء انكلترا، لأنه لم يعد هناك من يعمل قيمة للملك، أو يطيعه في أي شيء.

المؤتمر بين الملك وبين البارونات

عندما رأى الملك نفسه وقد هجر من الجميع تقريباً، حيث لم يبق معه من الأتباع الملكيين إلاّ أقل من سبعة فرسان، خاف من أن يقوم البارونات بالهجوم على قلاعه ومن ثم الاستيلاء عليهم من دون صعوبة، لأنهم لن يجدوا عائقاً يعيق عملهم، فتظاهر خداعاً، وود أن يعمل سلاما لبعض

الوقت مع البارونات المتقدم ذكرهم، ولذلك بعث إليهم وليم مارشال ايرل أوف بمبروك مع رسل آخرين موثوقين، وأخبرهم أنه من أجل السلام، وفي سبيل رفعة المملكة ومكانتها، على استعداد لمنحهم القوانين والامتيازات التي يطلبونها، كما بعث رسالة مع هؤلاء الرسل أنفسهم إلى البارونات، لتعيين يوم مناسب ومكان موائم للاجتماع، لاخراج هذه المسائل إلى حيز التنفيذ، وبناء عليه جاء رسل الملك مسرعين تماماً إلى لندن، ورووا من دون خداع إلى البارونات الذي فرض عليهم خداعاً، فقاموا وسط سرورهم العارم، فحددوا يوم الخامس عشر من حزيران موعداً للملك ليلتقي بهم، في حقل قائم فيمابين ستين Staines ووندسور، وتبعاً لذلك جاء الملك والنبلاء في الوقت المحدد إلى المكان المتفق عليه، لحضور المؤتمر المعين، وعندما مركز أعضاء كل فريق أنفسهم بعيداً عن الفريق الآخر، شرعوا في نقاش طويل حول شروط السلام، وكان الذين حضروا من جانب الملك ولصالحه: ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، وهـ. H. رئيس أساقفة دبلن، والأساقفة: و . W. أسقف لندن. وب. P. أسقف وينكسر، و هـ . H. أسقف لنكولن، وج ..J أسقف باث، وولتر أسقف ووركستر، وو. W. أسقف كوفنتري، وبندكت أسقف روكستر، والمعلم باندولف الرجل المقرب من مولانا البابا، والراهب ألميرك Almer-ic مقدم فرسان الداوية في انكلترا، والنبلاء: وليم مارشال ايرل بمبروك، وإيرل سالسبري، وايرل ووربي، وإيرل آورنديل، وألان دي غالوي Gal-wey، وو.W. فتز -جيرالد، وبيتر فتز -هيربرت، وألان باسيت، ومتى فتز - هيربرت، وتوماس باسيت، وهيوج دي نيفيل، وهيوبرت دي برى Burgh مفوض بواتو، وروبرت دي روبلي Ropley، وجون مارشال، وفيليب دي أوبني، أما الذين كانوا من جانب البارونات، فليس من الضروري تعدادهم وذكر أسمائهم، لأن جميع نبلاء انكلترا كانوا مجتمعين مع بعضهم بأعداد من غير الممكن إحصاءها، وبعد ماجرى نقاش كثير من النقاط من كلا الجانبين، وجد الملك نفسه أدنى قوة من البارونات،

ولذلك وافق، دون أن يثير أية مصاعب، على القـوانين والامتيازات المدونة أدناه، وثبتها لهم بهذا الصك كمايلي:

صك الملك جون ليكون بمثابة منحة للحقوق العامة للبارونات

«**من جـون بفضل نعمـة الرب ، ملك انكلترا، الخ**، ليكن معلومـاً، أننا ونحن ننظر إلى الرب من أجـل سـلامـة نفسنا وسـلامـة نفـوس أجـدادنا وورثتنـا، ومـن أجـل تشريـف الرب، وتمجيد الكنيسة المقدسة، وتحسين أوضاع مملكتنا، تنازلناللرب، وقمنا بالتأكيـد في صكنا الحالي، أصالة عن أنفسنا وعن ورثتنا بشكل أبدي، بأن كنيسة انكلترا سـوف تكون كنيسة حرة، ولسوف نحفظ قوانينها كاملة سالمة وامتيازاتها غير مخروقة، ونحن نرغب بقدر ماهو ممكن بالحفاظ على حرية الانتخابات، التي تعد الأكثر أهميـة، والأعظم ضرورة للكنيسة الانكليـزية، وقد منحنا ذلك طواعيـة من قبل أنفسنا، وأكـدنا ذلك وثبتناه بصكنا، قبل قيـام أي خلاف بيننا وبين باروناتنا، وقـد حصلنا على تأكيـد لها وتثبيت من مـولانا البـابا انوسنت الثـالث، وسـوف نحتفظ بها نحن أنفسنـا، ونرغب بأن تراعى من قبل ورثتنا بإخلاص ووفـاء دائم، ومنحنا أيضاً إلى رعـايانا الأحرار في مملكة انكلترا، من أنفسنا، وعن ورثتنا بشكل دائم، جميع الإمتيـازات المدونة أدناه،لتكون لهم وليحتفظوا بها هم وورثتهم منا ومن ورثتنا،وإذا ما مات أي واحد من ايرلاتنا أو باروناتنا،أو أي واحد بحوزته ممتلكات منا بشكل رئيسي بخـدمـة فـروسيـة، وكـان وريثـه بعـد مـوته قـد بلغ السن(القانوني) وامتلك بدل التخليص، سوف يأخذ ميراثه، مقابل بدل التخليص القـديم، أي أن وريث ايرل—أو وريثته—سـوف يدفع مائـة باونـد من أجـل جميع بـارونيـــــة الايرل، ويـدفع وريـث بارون—أو وريثتـه— مبلغ مـائـة مـارك من أجل بارونيـة كـاملة، ويدفع وريث فارس—أو وريثتـه— مبلغ مائة شلن، كأقصى حد مقـابل جميع رسم فـروسيته، والذي يمتلك أقـل، دعوه يدفع أقل، وفقـاً للعـادة القديمـة

للأجـور، ولكـن إذا مـا كـان وريث أي واحــد من هؤلاء تحت السن (القانوني)، لـن يكون لمولاه الوصاية عليه أو على أرضـه، قبل أن يتلقى ولاءه وبعد ذلك سوف يكون مثل هذا الـوريث تحت الوصاية وعندما يصل إلى سن الحادية والعشرين، وقتهـا سـوف يستحـوذ على ميراثه من دون بدل أو غـرامـة، ومثل هذا إذا عمل الوريث، ورسم وهو مـا يزال تحت السن القانوني، فـارساً، ستبقى أرضه مع ذلك تحت وصـاية مولاه حتى يصل إلى السن الـذي تقـدم تحديده، وسـوف يأخـذ الوصي على ممتلكات وريث تحت السن القـانوني من أرض الوريث المذكـور، دخـلاً معقـولاً فقط، ومكسـاً معقولاً، وخـدمـة معقـولة، ويكون هذا كله من دون الحاق تهديم، أو تخريب أو ضرر للشخص أو للممتلكات، وإذا ما عهدنا بالوصاية على مثل تلك الأرض، إلى أي واحد، سواء أكان عمدة أو أي واحد آخر، عليه أن يقـدم حساباً لنا عن صادرات تلك الأرض، وإذا مـا تسبب أثنـاء وصـايتـه بتخـريب أو تبـديد لها، سـوف نأخـذ تعويضات منه، وسوف يعهد بالأرض إلى اثنين من التابعين الاقطاعيين، وإلى رجلين حكيمين بذلك الرسم، الذين عليهم — بالطريقةنفسها — تقديم حساب إلينا، كما تقدم الذكر أعلاه، وعلى الوصي، مادام مسؤولاً عن تلـك الأرض، الانفـــاق من الانتـــاج، على جميع البيـــوت والحدائق،والحظائـر، والبحيرات، والطواحين، والمنشآت الأخـرى لتلك الأرض، وعندما يصل الوريث إلى السن القانونية، أن يعيد الأرض إليه مجهـزة بالمحـاريث، وبالأشيـاء الأخـرى، وأن تكون على الأقل بحـالة جيــدة، كما تسلمهـا، وينبغي مــراعــاة هذه الأحكام جميعهــا من قبل الأوصيـاء على رئـاسـات الأسقفيـات، والأسقفيـات، ورعــاة الديرة، ورؤسـاء الرهبان، والكنائس، والمناصب العليـا الشاغـرة العائـدة إلينا، باستثناء وصايات أولئك التي ليست للبيع، ويمكن للوارثة الزواج دون أن يحط ذلك من قـدرها، ويمكن للأرملة إثر وفـاة زوجها مبـاشرة، أن تأخـذ دون أدنى صعـوبات، وتستحـوذ على حصـة زواجهـا أو الميراث

الذي امتلكته هي وزوجها، في يوم وفـاة ذلك الزوج، ويمكنها البقاء في البيت الرئيسي لزوجهـا لمدة أربعين يـومـاً بعـد وفـاة زوجهـا المذكـور، وخـلال ذلك الوقت سـوف تعطى لها بائنتهـا بعد تخصيصهـا لها، مـا لم تكن قد خصصـت لها من قبل، أو ما لم يكن ذلك البيت قلعـة، وإذا ما غادرت تلك القلعة، ينبغي تزويدهـا ببيت مناسب، يمكنها أن تقيم فيه حتى يجري تخصيص بائنتهـا لها، وفقـاً لما تقـدم ذكـره أعـلاه، ولسـوف تحصل على عـلاوة مناسبة لها شخصيـاً من الممتلكات العـامة، وسـوف يخصص لها من أجل بائنتهـا ثلـث حصـة من جميع أرض زوجهـا، التي كانـت له أثناء حياته، وذلك مـا لم تتسلم أقل كبائنة عند باب الكنيسـة، ولا ترغم أرملة على الزواج عندمـا تـرغب بالعيش من دون زوج، وإذا كانت تحتفظ بملكية منا، فعليهـا أن تقدم ضمانة بأنها لن تتزوج من دون مـوافقتنا، ولن نستـولي نحن أو وكـلاؤنا على أية أرض أو ممتلكات من أجل أي دين، ما دامت قطعـان المدين، الموجودة آنذاك بين يديه، كـافية لدفع الدين، والمدان نفسـه على استعـداد لتلبيـة طلبنا منهـم، ولن يكون كفـلاء المدين ملزمين بشيء ما دام المدين نفسـه شخصياً قـادراً على أن يدفع الـدين، وإذا عجـز المدين نفســه عن دفع الديـن، لأنه لا يمتلك وسائل الدفع، أو رفض الدفع مع أنه قادر، على كفلائه دفع ديونه، وإذا ما رغبوا فإنهم يستحوذون على أراضي ودخل المدين حتى تتم ترضيتهم بالنسبة للدين، الذي كانوا قد دفعوه عنه، وذلك ما لم يظهر المدين نفسه بأنه تخلص من الدين بالنسبة لكفلائـه، ولسوف تمتلك مدينة لندن جميع إمتيازاتها القديمة، وعوائدها الحرة، علاوة على ذلك سوف نمنح، لا بل منحنا، بأن جميع المدن الأخرى، والبلدات، والقرى، وبارونيات الموانيء الخمسـة، وجميع موانئنا سـوف تمتلك جميع امتيـازاتها وعوائـدها الحرة، ولن يكون على أي واحـد تقديم خـدمات أكبر مقابل رسـم فارس، أو من أجل أي مستغل حر آخر، أكثر مما يتـوجب عليه الدفع مقابل ذلك، ولن تكون المرافعـات والشكاوى العـامـة مـرافقـة لمحكمـة بلاطنا، بل

يمكن عقدها في بعض الأماكن المحددة، وبالنسبة لكفالة الممتلكات المنتزعة حديثاً، وموت جد، فلسوف تعالج بكونتيتها بهذه الطريقة، وإذا كنا موجودين، أو كنا خارج المملكة، سوف يتولى ذلك رئيس العدالة لدينا، ورجال عدالتنا خلال كل كونتية مرة في العام، وسوف يقوم مع فرسان الكونتية بعقد المحكمة المتقدم ذكرها في كل كونتية، والأشياء التي لايمكن تدبرها من قبل المرسلين المتقدم ذكرهم في المحكمة المذكورة، سوف يجري تدبرها في مكان آخر من قبل المرسلين أنفسهم خلال رحلتهم، والأشياء التي يتعذر تدبرها،بسبب بعض المصاعب المتعلقة بنقاط القضية، من قبل المرسلين المذكورين، سوف تحال إلى رجال عدالتنا أصحاب المنصة، وهناك يجري تقديرها، ولسوف تعقد المحاكم المتعلقة بآخر التقدمات إلى الكنائس، دوماًوتعرض أمام رجال العدالة ذوي المنصة، وهناك يجري تقريرها، وسوف يجري تغريم رجل حر من أجل عدوان صغير، وفقط وفقاً لدرجة خطيئته، أو من أجل عدوانه الكبير، وفقاً لكبر عدوانه— باستثناء أنفسنا—سوف يجري تغريمها بالطريقة نفسها تاجر، باستثناء تجاراته، ونذالة أي انسان — باستثناء أنفسنا— سوف يجري تغريمها بالطريقة نفسها، باستثناء أدوات زراعته، إذا ترامى بنفسه على رحمتنا، ولن يجري عمل أي من العلاوات المتقدمة الذكر، إلاّعلى أساس يمين رجال مجربين وقانونيين من جيران تلك الكونتية، ويجري تغريم الايرلات والبارونات فقط من قبل المساوين لهم بالرتبة، ووقتها فقط وفقاً لدرجة جريمتهم، وما من رجل لاهوتي سوف يجري تغريمه وفقاً لدرجة منافعه اللاهوتية، بل وفقاً لممتلكاته المدنية ودرجة جرائمه، وما من مدينة أو شخص سيكون مرغماً على عمل جسر فوق نهر من الأنهار، ما لم يكن ذلك متوجباً عليه فعله بموجب الأعراف القديمة أو الامتيازات، وما من نهر سوف يجري تطويقه أو عمل سد عليه، باستثناء الذين طوقوا أو عملت عليهم سدود أيام جدنا الملك هنري، وما من عمدة منطقة، أو مفوض، أو

محقق، أو أي من نوابنا الآخرين، يجوز له إقامة دعوى أو مرافعة باسم تاجنا، وإذا كان أي انسان بحوزته رسوم علمانية عائدة لنا، ومات، وأظهر عمدتنا أو وكيلنا رسائلنا المعتمدة مع انذار منا حول الدين الذي لنا بذمة المتوفى، سوف يكون قانونياً للعمدة التابع لنا أو لوكيلنا مهاجمة قطعان الميت التي يمتلكها في ارضه المقطعة مدنياً، وتسجيل هذه القطعان في حساب ذلك الدين، وفقاً لتقدير رجال قانونيين، ولذلك مامن شيء يجوز نقله من هناك، حتى يجري تحديد ديوننا والتأكد من دفعها، والبقية تترك بعد ذلك الى وصي المتوفى ليقوم بتصفيتها وفقاً لارادته، واذا لم يكن مداناً لنا بأي شيء، فإن جميع القطعان سوف تعطى إلى الوصي، باستثناء حصص معقولة إلى زوجته وأولاده، ولايجوز لأي قسطلان أو نائبه أخذ قمح أو قطعان أي واحد ليس عائداً للبلدة الموجودة القلعة فيها، مالم يقم بدفع المال إليه، أو كان له تصرف آخر حسب ارادة البائع، لكنه إذا كان من أهل البلدة، فإن عليه أن يدفع الثمن خلال أربعين يوماً، ومامن قسطلان سوف يرغم أي فارس على الدفع له من أجل الاعتناء بالقلعة اذا مارغب بفعل ذلك شخصياً، أو لسبب مسوغ آخر، إذا لم يستطع فعل ذلك بسبب معقول، وإذا ما أردنا إرساله إلى الجيش، فإنه سوف ينفصل عن إشرافه ما دام محجوزاً من قبلنا في الجيش، وذلك بالنسبة للرسم الذي من أجله خدم في جيشنا، ولا يجوز لأي نائب أو عمدة، أو أي وكيل تابع لنا، أخذ خيول أو عربات عائدة إلى أي انسان من أجل حمل السلع، ما لم يدفع الإيجار المقرر منذ القديم، أي أن يدفع لأي عربة مع حصانين عشرة بنسات يومياً، ولكل عربة مع ثلاثة خيول أربعة عشر بنساً لكل يوم، ولا يجوز أخذ أية عربة عائدة إلى أي شخص لاهوتي، أو فارس، أو إلى أية سيدة، من قبل الوكلاء المذكورين، كما أننا لن نأخذ نحن، ولا وكلاؤنا، أو أي واحد من الآخرين أخشاباً عائدة لانسان آخر لعمل قلاعنا، أو للقيام بأي عمل من أعمالنا، ما لم يكن ذلك بموافقة الفئة العائدة إليها ملكية

الأخشـاب، ولسـوف نحتفظ بأراضي المدانين بجناية لمدة سنـة واحـدة ويوم واحد، وبعد ذلك سوف يجري تسليمهم إلى السادة المسؤولين عن الرسوم، وسوف تجري إزالة جميع الأسيجـة كلياً في نهر التيمس ومدوي Medway وخلال أوروبا كلها، باستثناء سـاحل البحر، والمذكرة التي اسمهـا « Praecipe» سـوف لن تصـدر بعـد الآن من أجل أي إقطاعي، كي لا يفقـد إنسـان حر بلاطه، ولسـوف يكون هناك مكيـال واحد للخمرة وللبيرة في جميع أرجـاء المملكة، وقياس واحد للقمح هو الربع اللندني، وعـرض واحـد بالنسبـة للأقمشـة المصبـوغـة بالألوان الخمـرية والرمـادية، سـوف تكون ذراعين في داخل كل شقـة مع وزن متوافق مع القيـاس، ولسوف لن يعطى من الآن فصاعـداً أمراً بالتحقق لأي واحد يحتاج إلى تحقيق، فيما يتعلق بحياة أو بعضو من الأعضاء، بل إن ذلك سـوف يمنح حراً من دون نكران، وإذا مـا استحوذ واحـد منا بالايجار مـزرعة، أو استثمار أرض، أو اقطاعيـة، وكانت بيـده أرض من شخص آخر مقـابل خدمة فارس، سوف لـن نتولى الاشراف على وريثه أو إدارة أرضه، التي هي ملك لآخر، بحجـة تلك المزرعة المستأجرة، أو الأرض المستثمـرة، أو الأقطاعيـة، ما لم تكـن المزرعة المستأجـرة نفسهـا عليها خـدمة فـارس، وسوف لن نتـولى الاشراف على وريث أو أرض مأخـوذة من آخر مقـابل خـدمة فـارس، تحت حجـة وجود أي ضـابط صغير مستحـوذ لها منا مقـابل خـدمـة تقـديم سكاكين أو أسهم أو أي شيء من هذا النوع، وما من وكيل سوف يضع انساناً منذ الآن فصاعداً أمام المحاكمة أو يجبره على أداء يمين بموجب حجته البسيطة، وذلك ما لم يتوفر له شهود موثوقين، يجري احضارهم من أجل هذا الغرض، ولا يجوز اعتقال أي إنسان حر أو سجنه، أو طرده مـن أي ملكية عائدة له، أو حرمانه من امتيازاته، وأعـرافه الحرة، كما لايجوز عدّه خارج القانون، أو عقوبتـه بأية وسيلة أخرى، كما لاتجوز مهـاجمته من قبلنا، ولاارسـاله إلى السجن مالم يكن ذلك بموجب قرار قـانوني صدر عن إنسان يساويه

مـرتبــة، أو بمـوجـب قـانون الأرض، ولن نبيـع الحق والعـدل إلى أي إنسان، كما لن نرفض ذلك، أو إلغـائه، وللتجـار— مالم يكونوا ممنوعين بشكل معلن— الحق بالخروج مـن انكلترا والدخـول إليهـا، ولهم حق الاقامة والسفـر بالبر وبالماء، وأن يبيعوا وأن يشتروا من دون أي ابتزاز، وذلك وفقـاً للأعراف القـديمة والعـادلة، مالم يكن الأمـر أثناء الحرب، وهم انتمـوا إلى البلـد الذي هو في حـالة حـرب معنـا، وإذا وجـد مثل هؤلاء في أراضينا لدى بدايـة حـرب من الحروب، يجري اعتقـالهم دون الحاق ضرر بهم شخصيـاً أو بسلعهم، وذلك حتى نعلم نحن، أو رئيس العـدالة لدينا، كيف تجري معـاملة تجار بـلادنا في البلد الذي هو بحـالة حـــرب معنا، وعما إذا كـــان تجارنا في حـــالة أمن معهـم، فهم وقتهـا سيكونون بحالة سلم معنا، وإذا كان أي واحد يمتلك ملكية من ميراث عام، مثل مـن شرفية وولنغفورد، أو بولـون، أو لانكستر، أو نوتنغهام، أو من أي ملكية عـامة هي في أيدينـا، وهي بارونية، ومـات، فإن وريثه لن يدفع أي بدل، أو يقـدم أية خـدمة لنا،أكثـر مما يدفعـه أو يقدمـه إلى البارون، إذا كانت تلك البارونيـة بيدي بارون، ونحن سوف نستحوذها بالطريقـة نفسها كما استحوذها البـارون، كما أننا لن نستحوذ أيـة ملكية عامة بحجة مثل تلك البارونية أو الملكيـة العامة، أو نقوم بالوصاية على أي من رعيتنا، مالم يكن المستحوذ للبارونيـة أو الملكية العامة، مستحوذاً منا في مكان آخر بشكل رئيسي، ومـامن رجل حر سـوف يقوم من الآن فصاعداً باعطاء أو ببيع كثيراً من أرضه إلى أي إنسان، هو غير قادر على إدارتها، وذلك من البقيـــة، وخـدمتهـا حق لمولاه مقـابـل ذلك الرسم، وجميع رعـــاة الديرة الذيـن لديهم من ملوك انكلترا صكـوك وقف، أو يمتلكون ملكيـة من خلال اقطاع قـديم، سوف يكونون مسـؤولين عن رعـاية تلك الديرة عندمـا تصبح شـاغـرة، وذلك كما ينبغي أن يفعلوا، وكما جاء الايضاح والإعـلان أعلاه، ولايجوز اعتقال أي رجل وسجنه، بسبب شكوى امرأة، من أجل مـوت أي واحد، باستثناء أن يكون ذلك

الرجل زوجها، ولايجوز من الآن فصاعداً استحواذ أية كونتية إلاّ من شهر إلى شهر، وحيث تكون الشروط المستخدمة أطول، سوف تكون أطول، ومامن عمدة أو وكيل لها يمكنه جعل شروطه في المائة أكثر من مرتين في السنة، ووقت ذلك فقط في أوقات مناسبة ومعتاد عليها، أي مرة بعد الفصح، وثانية بعد عيد القديس ميكائيل، ووفق الطريقة نفسها بالنسبة للتعهد المفتوح، فإن ذلك سوف يقع في الموعد المذكور أي في عيد القديس ميكائيل من دون اخفاق، وبذلك يمكن لكل إنسان أن يمتلك امتيازاته، مثلما امتلكها، واعتاد أن يفعل في أيام الملك هنري جدنا، ومنذ ذلك الحين، أو ماحصل عليه منذ ذلك الوقت، وبالنسبة للتعهد المفتوح سوف يحافظ عليه، وبذلك يمكن المحافظة على سلامنا، ولاتتعرض العشور للضرر، حسبما كانت العادة جارية، وبذلك لن يطلب العمدة حجة، وسوف يكون راضياً بما اعتاد العمدة على تسلمه من أجل تقديم معاينته في أيام جدنا الملك هنري، كما أنه لن يسمح له من الآن فصاعداً، اعطاء أرضه إلى بيت ديني، وذلك من أجل استئناف تملكها بعد وضعها في حوذة ذلك البيت الديني، كما لن يسمح لأي بيت ديني بتسلم أرض لإعادتها مستأجرة له، من الذي تسلموا ملكيتها منه، وإذا ماأعطى من الآن فصاعداً أي إنسان أرضاً إلى بيت ديني،وأدين بفعل ماتقدم، فإن أعطيته سوف تكون لاغية كلياً، وسوف تصبح الأرض في حوذة صاحب الاقطاع، ولسوف يجري من الآن فصاعداً أخذ بدل الخدمة العسكرية، حسبما كان هو معتاد في أيام جدنا الملك هنري، وجميع الأعراف المتقدم ذكرها والامتيازات، التي هي عائدة لنا، وجرى منحها لمراعاتها في مملكتنا، وذلك نحو جميع رعايانا في مملكتنا، سوف يجري التمسك بها ومراعاتها من قبل كل من رجال الدين والعلمانيين، بقدر ماهي متعلقة بهم وأيضاً نحو المتعلقين بهم، باستثناء مايتعلق برؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الكهنة، والداوية، والاسبتارية، والايرلات، والبارونات، والفرسان،

وجميع الآخـرين من اللاهوتيين وكذلك من العلمانيين، فهـؤلاء سيكون لهم الامتيازات والأعـراف الحرة مثلما كان لديهم من قبل، شهـد هؤلاء الخ»، ولم يكن من الممكن تدوين الامتيـازات والأعـراف الحرة المتعلقـة بالغـابات على الورقـة نفسهـا، مثلما جـرى تدوين الامتيـازات المتقـدم ذكـرها، لأنها لم تكن واسعـة بما فيـه الكفـايـة، ولذلك جـرى تدوينهم ووضعهم في الصك التالي:

امتيازات الغابات

«من جـون بفضل نعمـة الرب ملك انكلترا، الخ، ليكن معلومـاً أننا قمنا ونحن نتطلع نحـو الرب، وفي سبيل حفظ نفسنا، وكـذلك نفـوس أجدادنا وخلفائنا، ومن أجل تمجيـد الكنيسة المقدسة، ومن أجل تحسين مملكتنا، وبناء على محض اختيارنا وحريتنا، وأصالة عن أنفسنا ونيابة عن ورثتنا، فمنحنا الامتيازات المذكورة أدناه، للحفاظ عليها بشكل أبدي في مملكتنا انكلترا، ففي المقـام الأول سـوف يجري تفحص جميع الغـابات التي عملها جدنا الملك هنري، ومن ثم تتم الموافقة عليها من قبل رجال قانونيين، وإذا عمل إنسـان غابة من أشجار حرش إنسـان آخر، أكثر مما هو عـائد لملكيتـه، من أجل إيذاء المتملك لتلك الأشجار، سـوف يجري على الفـور عدم عـدّها غابة، وإذا جعل أشجـار أحراشـه غابة، سـوف تبقى غـابة باستثناء المراعي العـامة، والأشيـاء الخاصـة في الغابة نفسهـا العائـدة لاستخدامات المستحوذين عليهـا، وجميع الناس الذين يعيشون خـارج حـدود غـابة مـن الغـابات، لن يجري إحضـارهم —من الآن فصاعداً— أمام المسؤولين عن قضايا العدالة المتعلقة بالغابات، بموجب استدعـاء عادي، مالم يكن قد أدعي عليهم، أو كـانوا كفلاء لشخص أو أشخـاص لهم عـلاقة بغـابة من الغـابات، وكل الأحـراش التي عملت غابات من قبل أخينا الملك رتشارد، سـوف تُزال عنها هذه الصفة على الفور، مالم يكونوا أحـراشاً في ممتلكاتنا، ورؤساء الأساقفـة، والأساقفة،

ورعاة الـديرة، ورؤساء الرهبـان، والايرلات، والبارونات، والفـرسان، والمزارعين المستأجـرين الأحرار، الذين لديهم أشجـار في الغابة، سـوف يتملكون حيازة أشجارهم مثلما فعلوا في أيام تتويج الملك هنري المتقدم ذكره، وبـذلك سوف يظلون دومـاً أحراراً، دون التعرض لـلازعاج، أو الاتلاف، ومن أعمال التحـرير التي عملت في هذه الغـابات منذ ذلك التـاريخ حتى بداية السنة الثـانيـة لتتـويجنا، وكل من يقـوم من الآن فصـاعـداً، باقتراف اتلاف، أو أعمال شريـرة، أو يقـوم بتحـرير في هذه الغـابات من دون إذننـا، سـوف يقـاضى من أجـل أعمال الاتلاف والاضرار أو التحـرير، وسوف يمضي مفتشـونا خـلال الغابات للقيـام بالتفحص، كما كانت عليه العادة أيام تتـويج جدنا المذكور الملك هنري، وليس عكس ذلك، والتحقيق، أو الرأي حـول تخصيص طرق في الغابة للكلاب، سوف يؤخـذ بعين التقدير من الآن فصـاعداً، عندمـا يتوجب إجـراء مسح، أي خلال كل سنة ثـالثة، وعند ذلك سـوف يجري اعتماد ذلك وفقاً لرأي وتقـدير رجال قانـونيين، وليس عكس ذلك، وإذا ماتم بعد ذلك العثـور على أي كلب لايسير على الممشى، وقتها يجري تغـريم صـاحبه ثلاثـة شلنات، ومن الآن فصاعـداً لايجوز اعتقـال أي ثور من أجل ممشى، بل يتـوجب تقـدير ذلك الممشى بشكل عـام، بأن يكون بمقدار حجم ثلاثة حوافر من حافره الخلفي من دون الكرة، ولن يحتاج الكلاب من الآن فصاعداً إلى ممشى، مالم يكن ذلك في أماكن من المعتاد أن يكون لهم فيهـا ممشى، كما حدث في أيام تتـويج جدنا المذكـور الملك هنري، ولايجوز من الآن فصاعـداً لموظف غابة أو رجل أحـراش فرض أتاوات أو جمع حزم من القمح أو من بقيـة أنواع الحبوب، أو أغنام، أو خنازير، أو تجميع أي شيء، وبعـد إجـراء التفتيش، سـوف يجري تعيين كثير من مـوظفي الغـابات لحراسـة الغـابات، بناء على رأي ويمين إثني عشر مفتشـاً، سوف يرون أن الموظف فيـه كفاءة بالعقل ويمكنه القيـام بالعمل، ولايجوز من الآن فصـاعـداً حجـز الرعـاة في مملكتنا إلاّ ثلاث

مـرات في السنة، أي قبل خمسة عشر يومـاً من عيـد القـديس ميكائيل، عندمـا يأخـذ مـوظفـونا بالتجـوال من أجل فـرض الضرائب من أجل الحفاظ على أسيجـة غاباتنا، وفي أيام عيد القـديس مارتن، عندمـا يتولى هؤلاء الموظفـون أنفسهم جبـاية رسـوم الأسيجـة والرعـاية، وفي أثناء هذين الموعـدين سـوف يجتمع عمال الغـابات، والرعـاة، وأصحـاب الخضراوات، والجبـاة، وليس سواهـم، بموجب وثيقـة مكتـوبة، وثالث مـوعـد للرعاة سـوف يكون في اليـوم الخامس عشر قبل عيـد القـديس يوحنا المعمـدان، من أجل اطعـام مـواشينا، وفي ذلك الموعـد سـوف يجتمع: الرعاة، وعمال الغابات، وأصحاب الخضراوات، والجباة، ومامن أحد سـواهم بموجب وثيقة مكتوبة، وعـلاوة على ذلك، على أصحاب الخضراوات، وعمال الغابات، الاجتماع كل أربعين يومـاً خلال كل عام، لتفقد وصلات الغابات، وكذلك بالنسبة لأعشاب المروج ولحم الطرائد أثناء حضـور هؤلاء العـاملين في الغابـات، حيث سوف يجري حـزمهـا ووصلهـا أثناء وجـودهم، وبالنسبـة للرعـاة فإنهم سـوف يحبسـون في الكونتيات، التي اعتيـد على حبسهم فيها، ويمكن لكل رجل حـر جباية ضريبة لإصلاح حواجز أحراشه في الغابة، ولسوف يتسلم تعويضاته في سبيل ذلـك، ونحن نمنح أيضـاً الإذن لكل رجـل حـر في أن يجلب خنازيره إلى داخل غـابات ممتلكـاتنا، بشكل حـر وبدون معيقـات، وأن يسيج عليهم في أحـراشـه، أو في مكان آخـر حسب مـايـرضيـه، وإذا مـاتجولت خنازير أي رجل حـر في غاباتنا لمدة ليلـة واحدة، سـوف لن يتخذ ذلك حجة ضده حتى لايحرم من أي من ممتلكاته، كما أنه لن يحرم من الحياة أو من عضـو من أعضائه لقيـامه بالصيـد في غاباتنا، لكن إذا ماجرى اعتقال إنسان، وأدين بالاستيلاء على لحم طرائد، فلسوف يدفع غـرامـة ثقيلـة، إذا امتلك الإمكانـات لفعل ذلـك، وإذا لم يمتلك الإمكانات فلسوف يسجن لمدة سنة ويوم واحد، وإذا ماتمكن بعد مضي السنة واليوم من ايجاد كفلاء، وقتهـا يطلق سراحه من السجن، لكنه إذا

لم يستطع، فلسوف يناشد مملكتنا مملكة انكلترا، وإذا ماحدث أن قام أي رئيس أساقفة، أو أسقف، أو ايرل، أو بارون، أثناء قدومه إلينا بناء على أمرنا، بالمرور خلال غاباتنا، يمكنه وقتها أخذ حيوان أو حيوانين أمام موظف الغابة، وإذا لم يكن موظف الغابة موجوداً، عليه أن يضرب بالبوق، حتى لايبدو، وكأنه أخذهما سرقة، ويمكنه أن يقوم بالعمل نفسه في طريق عودته، ويمكن لكل إنسان حر من الآن فصاعداً، أن يبني في غابته، من دون معيق، أو في الأرض التي يمتلكها في الغابة، طاحوناً، أو أن يعمل مطردة للصيد، أو بحيرة، أو بئراً للسماد، أو خندقاً، أو يترك بقعة منزرعة، خلف ماهو مسيج في أرض منزرعة، بشرط أن لاتكون مضرة لأي واحد من جيرانه، ويمكن لأي رجل حر أن يمتلك أنواعاً من طيور العقاب، أو من طيور الحر، أو النسور، أو مالك الحزين، ويمكنه ببعض الطرق أن تكون لديه مناحل في أحراشه، ومامن موظف غابات، هو ليس ضامن غابة مقابل رسم يؤديه لنا على وكالته، يجوز له من الآن فصاعداً، جباية أية ضريبة طريق في وكالته، بل ضامن الغابة الذي يدفع رسم لنا مقابل وكالته، يحق له أخذ ضريبة طريق، ويكون مقدار ذلك: بنسين عن كل عربة خلال نصف سنة، وبنسين آخرين مقابل النصف الآخر من السنة، ومن أجل حمولة حصان واحد ربع بنس عن نصف سنة، وربع بنس عن النصف الآخر من السنة، وتتم جباية هذا فقط من الذين يأتون من خارج وكالته، للتجارة في وكالته بناء على إذنه، ولشراء الأشجار، والحطب، والخشب، أو الفحم، ولأخذهم إلى مكان آخر للبيع، وذلك حيثما يودون، أما من العربات الأخرى ومن دواب التحميل، فلن تؤخذ ضريبة طريق، وتؤخذ ضريبة فقط من الأماكن التي جرت العادة على أخذها من قبل، أما الذين يحملون على أكتافهم حطبهم، أو خشبهم، أو فحمهم للبيع فلن يدفعوا أية ضريبة طريق، وإن كانوا يعيشون بهذه الوسيلة، ولن يتم دفع ضريبة طريق مقابل أخشاب الناس الآخرين في غاباتنا،

بل فقط مقابل أخشاب ممتلكاتنا، ويمكن لجميع الملاحقين قانونياً، بمسائل تتعلق بالغابات، منذ أيام جدنا الملك هنري حتى موعد تتويجنا، العودة بسلام من دون عائق، وعليهم توفير كفالات جيدة، تضمنهم أنهم لن يقوموا ثانية بتسبيب الأذى لنا فيما يتعلق بغاباتنا، ولايجوز لأي سيد اقطاعي، أو شخص آخر إقامة شكاوى حول الغابة سواء فيما يتعلق بأعشاب أسقف البيوت أو لحم الطرائد، لكن يمكن لأي موظف غابة برسم، أن يرفع شكوى تتعلق بالغابة، أو بالأعشاب المرجية، أو لحم الطرائد. وعليه أن يرفع شكاويه إلى أصحاب الخضراوات في الكونتية، وبعد تدوينهم، وختمهم بخاتم أصحاب الخضراوات، يجري تقديمهم إلى رئيس موظفي الغابات، وذلك عندما يأتي إلى ذلك الجزء من البلاد، لينظر في دعاوى الغابات، ولسوف يجري حسم ذلك بحضوره، وإنها إرادتنا هي القاضية بمراعاة جميع الأعراف والامتيازات التي منحناها في المملكة، نحو رجالنا، ومن جانبنا سوف تجري مراعاتها من قبل جميع شعب المملكة، ومن قبل رجال الدين والعلمانيين نحو رجالهم».

حول الخمسة والعشرين بارون الذين جرى تعيينهم من قبل الملك لمراجعة القوانين التي تقدم ذكرها

«صدوراً عن محبتنا للرب، ومن أجل إصلاح مملكتنا، ولحلّ الخلافات التي نشبت بيننا وبين باروناتنا وتسويتها، قد منحنا هذه الأشياء، راغبين بالحفاظ عليهم سالمين ومرتكزين على قواعد ثابتة، ونحن نمنح إليهم الضمانات المدونة أدناه، وهي:

أن يقوم البارونات باختيار خمسة وعشرين بارونا ممن يريدون من بارونات المملكة، وذلك حسبما يرغبون، وسوف يقوم هؤلاء مع كل ما باستطاعتهم من قوة بمراعاة، وبالحفاظ، وبالتسبب بمراعاة السلام، والامتيازات التي منحناها، والتي أكدناها بصكنا الحالي لهم، وبناء عليه،

إذا ماقمنا نحن شخصيا، أو صاحب العدالة لدينا، أو وكيل تابع لنا، باقتراف خطأ بحق بأي واحد، بأية طريقة من الطرق، أو خرقنا وتجاوزنا أي شرط من الشروط لهذا السلام وهذا الضمان، وأمكنت البرهنة على هذا الأذى من قبل أربعة من بين الخمسة والعشرين باروناً، عندها سوف يقدم هؤلاء البارونات الأربعة إلينا، أو إلى رئيس العدالة لدينا، إذا ما كنا خارج المملكة، ويتولون شرح ماحدث وتبيان الخطأ لنا، ويطلبون منا تقديم ترضية من دون تأخير، وإذا نحن - أو كنا نحن خارج المملكة - أو رجل العدالة لدينا، لم نعط ترضية خلال أربعين يوماً، تحسب من اليوم الذي أشير به بالقضية لنا، سوف يحيل البارونات الأربعة القضية إلى بقية الخمسة والعشرين، وعندها يتولى البارونات مع جميع الناس في البلاد ازعاجنا ومضايقتنا، بجميع الوسائل التي بين أيديهم، مثل الاستيلاء على قلاعنا، وأراضينا، وممتلكاتنا، وبمختلف الوسائل الأخرى، حتى نقدم لهم الترضية، وفقاً لقرارهم، وذلك باستثناء شخصنا، وشخصيات الملكة وأولادنا، وبعد تقديمنا الترضية لهم، هم سوف يطيعوننا كما فعلوا من قبل، وعلى كل واحد في المملكة، هو سوف يختار، أن يفعل كذلك، أن يقسم أنه من أجل الحفاظ على الشروط المتقدم ذكرها، أن يطيع أوامر الخمسة والعشرين باروناً المتقدم ذكرهم، وأنه سوف يضايقنا بالاتحاد معهم، إلى أقصى حد بطاقته، ونحن نمنح إذناً حراً ومفتوحاً، بأن يقسم هكذا إلى أي واحد يختاره ليفعل هكذا، ونحن لن نمنع أحداً من أن يقسم هكذا، هذا ولسوف نجعل جميع الذين في مملكتنا، الذين اختاروا أن يقسموا بالاتحاد مع البارونات من أجل مضايقتنا وازعاجنا، أن يقسموا على إطاعة أوامرنا المذكورة أعلاه، إنما في جميع الحالات التي عهد بها إلى تدبير هؤلاء الخمسة والعشرين باروناً، إذا حدث بالصدفة ولم يتفقوا بين أنفسهم حول أي نقطة، أو أن أيا منهم لدى دعوتهم إلى الاجتماع رفض الحضور، أو كان غير قادر على الحضور، ومهما كان الأمر تتولى الأكثرية

منهم اتخاذ القـرار، والقرار الذي سـوف يتخذ من قبلهم، سـوف يجري اقراره وتثبيتـه، وكأن الخمسة والعشرين قد وافقوا عليـه، ويتوجب على الخمسـة والعشرين بارونا أن يقسمـوا على أنهم يرعـون باخـلاص الشروط المتقـدم ذكـرها، وأن يبـذلوا غـايـة جهـودهم لجعلهم مـوضع الرعاية والتطبيق، ونحن لن نفعل شيئاً شخصياً أو بوساطة انسان آخر، في تسبيب نقض المنح والامتيـازات المذكورة، أو إتلافهـا، وإذا ماجـرى عمل أي منح من هذا القبيل، فسيكون ذلك لاغيـاً وفـارغاً، ولن نقـوم أنفسنا باستخـدام ذلك أو من قبل أي انسـان آخـر، وجميع الخلافـات والمهـاترات، والضغـائن التـي ثارت بيننا وبين رعيتنا، ورجـال الدين والعلمانيين، وذلك منذ نشـوب الخلافـات بيننـا، قـد أزلناها نهائيـا، وتسـامحنا بالنسبـة لها كلهـا، وبالنسبـة للذيـن تولوا مضـايقتنا أكثـر من سـواهم، وأقصـد بذلـك أصحـاب الأربـع قـلاع في: نورثأمبتـون، وكنيلوورث Kenilworth، ونوتنغهـام، وسكاربورا Scarborough، إن هؤلاء سـوف يقسمون اليمين للبـارونات الخمسـة والعشرين، بأنهم سوف يتصرفون بقلاعهم، وفقا لما سيقرره هؤلاء أو الأكثرية منهم، ولما سيأمرونهم به أن يفعل، وسـوف يجري تعيين شحن لهذه القلاع، يكونوا مخلصين دومـا، ولايحنثـون بأيمانهم، ولسـوف نبعـد مـن مملكتنا جميع الأجانب، وجميع أقرباء جيرارد دي أثي Athie ، الذين هم: انغلارد Engelard، وأنـدرو، وبيتر، وكـــــــــــــذلـك غـي دي تشـانسيليس Chanceles، وغي دي سيغـوإغني Ciguigny، وزوجة جيرارد المتقـدم ذكـره مع أولادهما، وغيـوفـري دي مـارتن Martenn وأخـويه، وفيليب مـارك وأخـويه، وغ. G. حفيـده، وفـالكو Falco، وجميع الفلمنكيين، واللصـوص الذين يسببون الأذى لمملكتنا، وعـلاوة على ذلك، إن جميع الانتهـاكـات التي اقترفـت بسبب هذا الخلاف منذ عيـد الفصـح الأخير، الذي وقع في السنة السـادسـة عشرة من حكمنا حتى تجديد هذا السـلام، هي معفية بشكل عام من قبلنـا،بالنسبة لجميع

رجـال الدين والعلمانيين، وبالنسبـة لنا هي مسـامحة تماماً، وعـلاوة على ذلك لقـد تدبرنا منحهم شهـادات ورسائل معتمـدة من مـولانا ستيفن رئيس أساقفـة كانتربري، ومن هنري أسقف درم، ومن باندولف، نائب رئيس الشمامسـه، والصـديق المقـرب من مـولانا البابـا، وكـذلك من الأساقفة المتقدم ذكـرهم، كضمانة لهذا وللمنح المتقدم ذكرها، وبناء عليه سوف نأمـر بدقة بأن تكـون الكنيسة الانكليزية حـرة، وأن تتملك جميع الرعيـة وتستحوذ على جميع الامتيـازات، والقوانين، والأعـراف، بشكل جيـد وبسـلام، وبصـورة حـرّة، وهادئـة، كـاملة وتامـة، لأنفسهم، ولورثتهم، منا ومن ورثتنا، في جميع القضـايا والأماكن كما قيل من قبل، وجرت أيضـاً تأدية قسم بحضور الذين وردت أسماؤهم أعـلاه، بمثابة شـاهد على أنفسنـا، وعلى البـارونات، بأننا سـوف نـرعى جميع المواد والشروط المتقدمـة الذكر باخلاص جيـد، ومن دون معيقات وتحفظات مخادعة. منح تحت أيدينا في الحقل الذي اسمـه رنيميد Runnymede، بين ستين ووندسـور، في اليـوم الخامس عشر من حـزيران، في السنة السابعة عشرة لحكمنا».

كيف أمر ملك انكلترا برسائل معتمدة بوجوب رعاية الامتيازات المتقدم ذكرها

بعـد هذا، بعث الملك جـون رسائل معتمـدة إلى جميع أرجـاء المناطق الانكليزية، أمـر فيها بكل دقـة جميع عمد المملكة كلهـا، بجعل السكان الموجودين في مناطق ادارتهم من كل مرتبة يقسمون على مراعاة القوانين التي كتبت أعـلاه والامتيـازات، وأن يقـومـوا بقـدر مـالديهم من قـوة بازعـاج الملك والضغط عليه، بالاستيـلاء على قلاعـه حتى يقوم بتنفيـذ جميع الشروط التي تقـدم ذكرها أعلاه، حسبما وردت في الصـك، وبعد هذا جاء كثير من نبلاء المملكة إلى الملـك يطلبون منه حقوقهم بالأرض والممتلكات، والولايـة على القـلاع، التي -كما قـالوا -عـائـدة إليهم

بموجب حق الوراثة، لكن الملك أجل هذه القضية، حتى يكون قد تبرهن بيمين رجال تابعين اقطاعيين، ماهو حق وواجب لكل واحد، ولكي تكون القضية أكثر تأثيراً وفعالية، حدد السادس عشر من آب، ليكون يوماً للجميع للقدوم إلى ويستمنستر، ومع ذلك أعاد إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري قلعة روكستر، وبرج لندن، لأنهما بموجب الحقوق القديمة يعودان إلى ولايته، ثم أنهى ذلك الاجتماع، وعاد البارونات مع الصك المذكور أعلاه إلى لندن.

كيف انسحب الملك جون بشكل سري إلى جزيرة وايت ووضع خططاً ضد البارونات

وحسبما ذكرنا، بعدما غادر البارونات المؤتمر، ترك الملك مع أقل من سبعة فرسان من بين جميع حرسه الشخصي وخدمه، وعندما كان مستلقيا في تلك الليلة من دون نوم في قلعة وندسور، خوفته أفكاره كثيراً وأرعبته، فهرب قبل انبلاج ضوء النهار خلسة إلى حزيرة وايت Wight، وأبدع هناك وهو يشعر بألم عظيم في عقله، خططا للانتقام من البارونات، وقرر أخيراً بعد كثير من التأملات، مع مساعدة بطرس الرسول، أن ينشد الانتقام من أعدائه بسيفين: السيف الدنيوي، والسيف الروحي، وبذلك إذا لم ينجح بالسيف الأول، يمكنه بشكل مؤكد تحقيق أهدافه بالسيف الآخر، ولكي يضربهم بالسيف الروحي، أرسل باندولف، نائب الشماس البابوي، مع مبعوثين آخرين، إلى بلاط روما، للتصدي بوساطة السلطات الرسولية لنوايا البارونات، كما أنه أرسل أسقف وينكستر ومستشار انكلترا، وجون أسقف نورويك، ورتشارد دي ماريسكو Marisco، ووليم غيرنون Gernon، وهيوج دي بوفز Boves ، مع ختمه الخاص، إلى جميع مناطق ماوراء البحر، للحصول على عساكر واكترائهم من هذه المناطق، واعداً إياهم بأرض، وبوفرة من السلع، وبمبالغ كبيرة من المال، ولكي يضمن طاعة الناس،

وانضمامهم إليسه، أمـرهم - إذا كـان الأمر ضروريا -منحهـم وثائق ضمانات من أجل الدفع إلى جميع الجنود الذين سيلتقحـون بهم، ورتب أن يلتحقوا به في دوفر في عيد القـديس ميكائيل، مع جميع الذين يمكن جذبهم إليهم، وعلاوة على ذلك، بعث برسـائل إلى جميع ولاة قلاعه في جميع أرجاء انكلترا، آمـراً إياهم أفراداً وجماعـات القيام بتـزويد قلاعهم بجميع أنواع المؤن والسـلاح، وبتحصين حصـونهم بالجنود، حتى يكون بامكانهم الدفاع عنهـم يوم تلقي الأمر بذلك، ثم إنه قـام بالوقت نفسه مع عدد قليل من الأتباع استعـارهم من حاشية أسقف نورويك، وشرع يشغل نفسـه في أعمال القـرصنة، وسخـر نفسـه من أجل كسب مـودة البحـارة في الموانىء الخمسـة، وهكذا أخفى نفسـه في الهواء الطلق في الجزيرة وقـرب شـواطىء البحـر، من دون أي مظهـر ملكي، لمدة ثلاثة أشهـر برفقة البحـارة، لأنه كان يفضل أن يمـوت على أن يعيش طويلاً دون أن ينتقم للإهانات التي ألحقها به البـارونات، وخلال ذلك الوقت جـرى بين الناس تداول تقـارير متنوعـة مـن قبل مختلف الناس حـوله، وقال بعضها بأنه تحول إلى صائد سمـك، وقال آخرون بأن صار تاجراً، وقـال بعض آخـر بأنه صـار قـرصـانا، وحكـى بعض الناس بأنه صـار مـرتداً، وبعـد مـا بحث عنه كثيرون، خـلال غيـابه المخطط له، بدون نجـاح، أخذوا يعتقـدون أنه قد غـرق، أو هلك بطريقة مـا من الطرق، وعـرف الملـك بجميع هذه التقـاريـر وتحملهـا برباطـة جأش منتظرا الوصول المتوقع لمبعـوثيه، الذي أرسل بعضهم إلى بلاط روما، وبعضهم الآخر لتجنيد عساكر لمساعدته.

الافادات التي عملها رسل ملك انكلترا للبابا

ومثل في الوقت نفسه رسل ملـك انكلترا أمام مولانا البـابا في روما، وعـرضوا عليـه وبينوا العصيـان والمضار التي اقترفهـا بارونات انكلترا ضـد الملك المذكور، واستخـرجـوا منه بعض القوانين والامتيـازات غير

العادلة، التي جعلت كرامته الملكية غير ثابتة، وأنه بعد كثير من الخلافات فيما بينهم وبينه، اجتمع الملك المذكور والبارونات عدة مرات للتفاوض حول السلام، وأنه أعلن بوضوح أمامهم جميعاً، بأن مملكة انكلترا هي بموجب حق الحكم عائدة إلى كنيسة روما، ولذلك هو لايحق له، ولاينبغي له، عمل أية ترتيبات جديدة، من دون معرفة مولانا البابا، أو تغيير أي شيء في المملكة لأن التغيير يتوجب تغييره من قبل الحبر الأعظم، ومع أنه عمل حول ذلك مرافعة شكوى، وأنه وضع نفسه وجميع حقوق مملكته تحت حماية الكرسي الرسولي، فإن البارونات المذكورين، لم يعيروا أدنى اهتمام وتقدير لشكواه، وقاموا بالاستيلاء على مدينة لندن، التي هي عاصمة مملكته، حيث سلمت إليهم بشكل خياني، وهم حتى الآن مستولون عليها، وطاروا بعد هذا إلى السلاح، وامتطوا ظهور خيولهم، وطلبوا من الملك وجوب تأكيد القوانين المتقدم ذكرها مع الامتيازات المذكورة، ولم يتجرأ الملك على رفض ماطلبوه، خشية أن يقوموا بمهاجمته، ثم أعطى الرسل المذكورون إلى البابا ورقة مكتوبة تحتوي بعض المواد من الصك المذكور، التي بدت أنها تؤيد قضية الملك كثيراً، وبعدما قرأهم البابا بدقة، قال متعجباً ومندهشاً: «هل يسعى بارونات انكلترا نحو الطرد من عرش مملكته، ملكاً قد حمل شارة الصليب، وهو موجود تحت حماية الكرسي الرسولي، وأن ينقلوا إلى آخر حكم الكنيسة الرومانية؟ بحق القديس بطرس لايمكننا تجاوز هذه الاهانة من دون عقوبتها»، ثم إنه قام بعد التشاور مع كرادلته، باصدار قرار حاسم لعن فيه الصك المذكور الذي قضى بمنح الامتيازات لمملكة انكلترا، وألغاه إلى الأبد، وكبرهان مؤيد لهذا، حول إلى الملك الانكليزي الاعفاءات التالية:

كيف جرى باعفاء من الكرسي الرسولي إلغاء الامتيازات التي منحت إلى البارونات الانكليز

« من انوسنت، أسقف وعبد عبيد الرب، إلى جميع المؤمنين بالمسيح، الذين سوف يرون هذه الورقة، أماني الصحة، والمباركة الرسولية، إنه مع أن ولدنا المحبوب جيداً بالمسيح جون الملك المشهور للانكليز قد أغضب الرب كثيراً، والكنيسة المقدسة - ولذلك غللناه بأغلال الحرمان الكنسي، ووضعنا مملكته تحت الحرمان من شراكة المؤمنين - إنه مع هذا فإن الملك المذكور، بالهام من رحمته الذي لايرغب بموت المذنب، بل إنه يريد منه أن يهتدي وأن يعيش طويلاً بعد اهتدائه، وتوبته بكل تواضع إلى الرب، والكنيسة، وبتوبته هو لم يعط التعويض فقط للذين خسروا، وأعاد الممتلكات المصادرة، بل إنه منح حرية كاملة إلى الكنيسة الانكليزية، وعلاوة ذلك لقد قام بعد سحب القرارين، بالتخلي عن مملكته في انكلترا، وكذلك عن مملكته في ايرلندا، إلى القديس بطرس، وكنيسة روما، وقد تسلمها منا بحرية، على شرط دفع مبلغ سنوي مقداره ألف مارك، وتأديته قسم التابعية لنا، كما ظهر بامتيازه الممهور بخاتم ذهبي، ورغبة منه في منح المزيد من الترضية للرب القدير، حمل شارة الصليب الحي، من أجل الذهاب لتقديم العون إلى الأرض المقدسة، الأمر الذي كان يعد نفسه إليه مع كثير من النفقات، لكن عدو الجنس البشري، الذي عادته هي كراهية الأعمال الجيدة وحسدها، تمكن بفنونه الماكرة من إثارة بارونات انكلترا ضده، لذلك اختل نظام الأشياء وفسد، حيث أنه بعدما اهتدى وكان يقدم التكفير إلى الكنيسة، هوجم من قبل الذين وقفوا إلى جانبه أثناء عدوانه ضد الكنيسة، واخيرا عندما ثار الخلاف بينه وبينهم، وبعد تعيين عدة أيام للتفاوض حول السلام، جرى ارسال مبعوثين خاصين إلينا، وبعد مناقشة القضية مطولاً معهم، وبعد تداول طويل وتمحيص كامل، كتبنا بوساطة المبعوثين أنفسهم، إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، وإلى أساقفة انكلترا، نأمرهم بأن يمنحوا عناية متواصلة ومساعدة مؤثرة، لإعادة السلام الحقيقي والوئام بين الفرقاء، ولإعلان أن جميع التكتلات والمؤامرات —إذا كان أي منها

قـد تشكل منذ بدايـة نشـوب الخلاف بين الملك والكهنة— هي ملغـاة بوسـاطة السلطـات الرسـوليـة، ولمنع، تحت التهـديد بعقـوبة الحرمـان الكنسي، أي واحـد من اظهـار مثل هـذه المظاهر في المستقبل، والقيـام بالوقت نفسه، بشكل لطيف ومؤثر بإنذار النبلاء والرجال ذوي المراتب في انكلترا، وأمـرهم بالسعي بوسـاطة مـؤشرات وبراهين واضحـة، وبتقـوى وتواضع، لعمل سلام مـع الملك، وعندئذ إذا مـا أرادوا طلب أي شيء منه، أن يسـألوه ذلك، إنما ليـس بشكل مهين، بل بتـواضع، مـراعين نحوه الاحترام الجدير بملك ومقـدمين إليـه الخدمات المعتـادة، التي قدمها إليـه هم وأجدادهم، ذلك أن الملك لا تجوز اهانته من قبلهم من دون حكم، وأنهم بذلك يمكنهم هكذا الحصـول بسهـولة أكبر على الذي كـان يسعـون له، وقـد طلبنا أيضـاً، ونصحنا الملك المذكـور، برسائلنا، وفـرضنا على رئيس الأساقفة المذكور والأسـاقفة ليطلبوا منه، وليحذروه، وليكون الأمـر بمثابة غفـران له من ذنوبه، أن يتـولى معاملة النبلاء المتقدم ذكرهم بلطف، وأن يولي شكاويهم العـادلة اهتماماً خاصاً، وبذلك يمكنهـم أن يعلمـوا، وأن ينالوا السرور، أنـه قـد تغير نحـو الأفضل، وأنه بهذه الـوسـائل يمكنهـم هم وورثتهم أن يكونـوا أكثـر استعداداً، وأكثـر إقبالاً على خدمتـه وخدمـة ورثته، وأن يمنحهم ضماناً كامـلاً بحرية الذهاب، والاقامة، والمغـادرة، وأنه إذا حدث أنه لم يمكن ترتيب السـلام فيما بينهم، فإنه يمكن للخـلافـات التي نشبت ايجاد حل لها وتسويتها في محكمة بلاطه بوساطة وكلائهم، ووفقاً لقوانين وأعراف المملكة، وحـدث أنه قبل أن يعـود الـرسل مع هذه النصيحـة الحكيمـة والعـادلة، أن قام هؤلاء البـارونات بالتخلي كليـاً عن يمينهم بالتابعيـة، (لأنه وإن قـام الملك بشكل غير عـادل بظلمهم، المتـوجب عليهم أن لا يعملوا ضده ما عملوه، وأن يكونوا في آن واحـد القاضي والمنفذ بالنسبة لقضيتهم، لأنه لا يجوز للأتباع التآمر بشكل مكشوف ضد مولاهم، ولا الفـرسـان ضـد ملكهم) وتجرأوا بالاتحاد مع آخـريـن هم أعـداءه

المكشوفين، على إثارة الحرب ضده، والاستيلاء على أراضيه بعد العيث فساداً فيها، وعلاوة على ذلك، لقد استولوا على مدينة لندن، التي هي عاصمة المملكة، حيث سلمت إليهم من خلال الخيانة، وفي الوقت نفسه، عندما عاد الرسل المذكورون، عرض الملك، بالتوافق مع وصايتنا، أن يظهر نحوهم عدالة صحيحة، لكنهم رفضوها، وحولوا أيديهم نحو اعتداءات أسوأ، بناء عليها توجه الملك نفسه، باسترعاء اهتمامنا، وعرض منحهم عدالة بحضورنا، والحق في تقدير هذه القضية عائد إلى حكمنا، وقد رفضوا هذا كلياً، ثم انه اقترح إليهم وجوب اختيار أربعة رجال بارعين من قبله ومن قبلهم من أجل أن يتمكن هؤلاء بالتعاون معنا، أن يضعوا نهاية للخلاف الذي نشب فيما بينهم، واعداً أنه سيتولى قبل كل شيء إزالة جميع الاساءات، التي ربما وقعت وعرفتها انكلترا في أيامه، لكنهم رفضوا محاولة هذا، وأخيراً شرح الملك إليهم—أنه ما دامت المملكة عائدة إلى كنيسة روما هو لا يمكنه، ولا يجوز له، من دون وصايتنا الخاصة، القيام بأية تغييرات فيها تأتي مضرة بنا، ولذلك توجه مجدداً بالشكوى إلى مسامعنا، واضعاً نفسه ومملكته، مع كرامتها وحقوقها تحت حماية الكرسي الرسولي، وبما أنه لم يحصل على أي شيء بهذه الوسائل، سأل رئيس الأساقفة والأساقفة القيام بتنفيذ وصايتنا، والدفاع عن حق كنيسة روما، وحمايته وفقاً لشروط الامتيازات التي منحت للذين حملوا الصليب، وبالإضافة إلى هذا، عندما لم يوافقوا على أي من هذه الشروط، ولدى وجود ه نفسه محروماً من كل عون ونصح، لم يتجرأ على رفض كل ما تقدموا بالمطالبة به، وبناء عليه لقد أرغم بوساطة القوة ومن خلال الخوف—الذي حتى أكثر الناس شجاعة عرضه للخضوع له—على الدخول باتفاقية معهم، هي لم تكن فقط شريرة ومنحطة، بل أيضاً غير قانونية، وغير عادلة، بل إنها تحط من كرامته ومن حقوقه وتزيلهما، وحسبما أخبرنا الرب من خلال نبيه في قوله: «لقد عينتك على الناس وعلى المملكة، لأقتلع

وأهدم، ولأبني ولأزرع» ومن خلال نبي آخر قوله:

«ارم وفكك أغـلال الشرور، ألق عنك أثقـال الظلم»، لهذا لم نختر المرور مرور الكرام بهذه الوقـاحة الشريرة، المتجهـة نحو ازدراء الكرسي الرسـولي، والى محق الحقـوق الملكيـة، والى اهانة الأمـة الانكليـزية، وإلى تعـريض قضيـة الصليب للخطر، لولا أن قمنا بوسـاطة سلطاتنا بنقض كل شيء استخرج من مثل هذا الأمير الـذي حمل الصليب، مع أنه كان على استعـداد للحفاظ عليهـم، وبناء عليه نقـوم نيـابة عن الرب، الأب القـدير، والابن، والروح القـدس، وبـوسـاطة سلطة رسـوليـه: بطرس وبولص، وبوساطة سلطتنا، وبناء على نصيحة إخواننا، بشجب، وبإدانة كـاملة لاتفاقيـة من هذا النوع، ونمنع الملك المذكور، تحت انزال عقـوبة الحرمـان الكنسي به من الحفـاظ على الصك، أو على الضمانات والقيـود التي أعطيت من أجل الحفاظ عليه، ونمنـع أيضاً البارونات ومن معهم من ارغام الملك على الحفـاظ على الصك أو على الضمانات والقيود التي منحت للحفـاظ عليـه، ونلغي هذا الصك كليـاً، ونـزيله وكأنه لم يكن، وأن لا يكون له أية فعالية، ونحذر أياً كان، الخ، ومهما كان، الخ، صدر في أغنانو Agnano في الرابع والعشريـن من آب، في السنة الثـامنة عشرة لحبريتنا».

البابا يلوم بارونات انكلترا من أجل اضطهادهم الملك

وبعدما ألغى البابا على هذه الصـورة الامتيازات المتقدم ذكرها، كتب إلى بارونات انكلترا وفـق الشروط التـاليـة: «من انـوسنت، الأسقف، وعبـد عبيـد الرب، إلى نبـلاء انكلترا، روح المشـورة الأعقل، حبـذا لو أنكم في اضطهـادكم الذي تسرعتم في ممارستـه ضد مـولاكم الملك، أن التـزمتـم بعناية أكبر بيمينكم بـالتبعيـة، واهتممتم بحقـوق الكرسي المقدس، وبالامتيـازات التي منحت إلى الذين حملوا الصليب، وبما أنكم من دون شك، لم تقـوموا بإجـراءات الادعاء بما عملتمـوه، ولذلك فإن

كل من شاهد مافعلتموه يرفض العدوان، خاصة وأنكم بالنسبة لقضيتكم، قد جعلتم أنفسكم القضاة والمنفذين، مع أن الملك المذكور كان قد استعد لمنحكم وفرة من العدالة في بلاط محكمته، وذلك بقرار من نظرائكم، ووفقاً لقوانين وأعراف المملكة، أو بحضرتنا نحن الذين نمتلك القرار بهذه القضية، بموجب حق السلطة، أو بحضرة محكمين يجري اختيارهم من كلا الجانبين، حيث يقومون متحدين بالاستدعاء والمرافعة في هذه القضية معنا، وبما أنكم لم تحاولوا أية واحدة من هذه الخطط، رفع شكواه إلى مسامعنا، ووضع نفسه ومملكته مع جميع امتيازاتها وحقوقها، تحت حماية الكرسي الرسولي، وأعلن صراحة أنه بما أن السلطة على تلك المملكة هي عائدة إلى كنيسة روما، لايمكنه —ولايجوز له— إحداث أي تغيير يسبب الضرر لنا، وبناء على هذا وبعد رؤيتنا لنوع الاتفاقية التي عملت، وهي اتفاقية أرغمتموه بالعنف وبالتهديد على عملها، وهي على هذا شريرة ومنحطة، وكذلك غير قانونية وغير عادلة، ولذلك يتوجب بشكل مسوغ رفضها من قبل الجميع، وذلك لسبب رئيسي هو نوعية الوسائل التي استخدمت للحصول عليها، ونحن الذين نرى أنه لزاماً علينا تأمين المنافع الروحية وكذلك الدنيوية للملك وكذلك للمملكة، نأمر برسائلنا الرسولية هذه، وننصحكم باخلاص شامل، أن تلتزموا بفضيلة الضروريات، وأن تتخلوا من قبل أنفسكم عن هذه الاتفاقية التي من هذا النوع، وأن تقدموا تعويضات إلى الملك وإلى أتباعه من أجل الأذى والضرر الذي ألحقتم به، حتى إذا ماسكن بوساطة مؤشرات التقوى الواضحة من عندكم والتواضع، يكون وقتها من الممكن أن يقدم طواعية من قبل ذاته تنازلات ينبغي تقديمها بموجب حقوقه بالمنح، وللقيام بمثل هذا نحن أيضاً سوف نقنعه، لأننا، وإن كنا لانرغب بحرمانكم من حقوقكم، نرغب منه التوقف عن مضايقتكم، حتى لاتكون مملكة انكلترا، في ظل حكمنا، عرضة للظلم بوساطة أعراف شريرة، وإلزامات غير عادلة،

وكل مـايتقـرر ويرسـم في هذا المجـال سـوف يجري تثبيتـه واعتماده إلى الأبد، وبناء عليـه، إن الذي يرغب بعـدم هـلاك أي انسـان، يمكنه أن يجعلكم تميلون للأخـذ بتـواضع بنصيحتنا الصحيحة وبـأوامرنا، خشيـة أنكم إذا مـاتصرفتم على العكس سـوف تجدون أنفسكم وقـد نزلتم إلى مضائق لايمكنكم النجاة منها من دون الكثير من الاضطراب، ومع أننا لانستطيع الحديث عن القضايا الأخرى، لانستطيع إخفاء الخطر العظيم المحيق بجميع شؤون الصليب، الذي سوف يكون في خطر حقيقي، مالم نقم، بوسـاطة سلطاتنـا الرسـوليـة، معـاً بإلغـاء جميع الوعـود التي استخـرجت بالقـوة من ذلك الملـك، الذي حمل شـارة الصليب، مع أنه يرغب بالحفاظ عليهم، وبناء عليه عندما سيمثل رؤساء أساقفة وأساقفة انكلترا أمـامنا، أثناء المجمع العـام الذي سوف نعقـده من أجل معـالجة مسـائل الكنيسة الأكثـر إلحاحاً، أقـدموا أنتم أيضـاً على ارسال مـراقبين موائمين للمثـول أمامنا، واعهـدوا بأنفسكم من دون خوف إلى رعـايتنا الخيرة، لأننا تحت نعمـــة الرب، ســوف نعــالـج القضــايا بـإزالة كل الاساءات في مملكة انكلترا، وبذلك سيكون الملك راضياً وقانعاً بحقوقه العادلة وبكرامتـه وعزته، وأن يكون رجـال الدين والشعب بشكل عام متمتعين بالسلام وبالامتيازات المستحقة لهم.

صـدر في أغنانو في الرابع والعشريـن من آب في السنة الثـامنة عشرة من حبريتنا»، وبعـدمـا —على كل حال— تسلمـوا هذه الرسـائل، التي هي رسائل وعد ووعيد، لم يقلعوا عن أهدافهم، وذلك بسبب تصرفات الملك، وقاموا بمضايقته بحدة أكبر وبشدة أعظم.

استيلاء وليم دي ألبيني على إمرة قلعة روكستر

وكـان في الوقت نفســه النبيل وليم دي ألبينيAlbiney قد تلقى رسائل متوالية من البارونات في لنـدن، ولأنه تعرض للملامة بدرجات عـالية بسبب تأخـره عن القدوم إليهم، قـأم أخيراً في يوم عيد القـديس

ميكائيل بشحن قلعته قلعة أوف بلفوير Belvoir بما يكفيها —لابل أكثر مما يكفيها— من جميع أنواع المؤن والسلاح، عهد بها إلى عناية رجال كانوا مخلصين له، ثم ذهب إلى لندن، حيث استقبل هناك من قبل البارونات بكثير من البهجة، وقد قاموا على الفور باعلامه بخطة كانوا قد قرروها، وقد قضت باغلاق الطريق ضد الملك، وبذلك لن يكون أي طريق مفتوح أمامه من أي اتجاه إذا مارغب بإلقاء الحصار على مدينة لندن، ولذلك انتخبوا قوة كبيرة وقوية من العساكر وعيّنوا وليم دي ألبيني لقيادتها، لأنه كان رجلاً شجاعاً ومجرباً في الحرب، وبعثوا به لاحتلال بلدة روكستر، وكانت قلعتها قد عهد بها قبل وقت قصير بثقة من الملك، إلى رئيس الأساقفة، الذي سلمها إلى أعداء الملك، وأنا لاأعرف ماهي المشاعر التي دفعته إلى ذلك، الرب وحده يعرف ذلك، ولدى دخول أعداء الملك إليها، وجدوا المكان ليس فقط فارغاً من السلاح والمؤن، بل أيضاً من كل نوع من أنواع السلع والعتاد، وذلك باستثناء ماجلبوه معهم، مما خيب آمالهم وفكروا بمغادرتها، لكن وليم دي ألبيني شجعهم واستمر دوماً في رفع حماس أتباعه، ودفع أصحابه نحو أعمال الشجاعة، وقال إنه ليس قانونياً بالنسبة للفرسان التخلي، خشية أن يشكل ذلك وصمة عار لهم، ولكي لايدعون بالتدريج باسم الفرسان الهاجرون، وبذلك تحمسوا كثيراً وتشجعوا بكلماته، فجلبوا إلى القلعة ماوجدوه من مؤن فقط في بلدة روكستر، وكان تعداد هؤلاء الفرسان مائة وأربعين فارساً، ومعهم جميع أتباعهم، ولم يتوفر لديهم الوقت لجمع الأسلاب من المنطقة المحيطة بهم، أو تجهيز أنفسهم بالمؤن من أي نوع.

كيف حاصر الملك جون قلعة روكستر

بعدما استحوذ وليم دي ألبيني وأصحابه —كما ذكرنا أعلاه— على قلعة روكستر، وبعدما أقام الملك جون ثلاثة أشهر في جزيرة وايت،

أقلع من تلك الجزيرة وأبحر إلى دوفر، وإلى دوفر وصل إليه رسله الذين كان قد بعثهم إلى مناطق ماوراء البحر، وجلبوا معهم حشداً كبيراً من الفرسان والجنود، حتى أن كل من رآهم أصيب بالرعب والازدراء، فقد جاء من منطقتي بواتو وغسكوني النبيل ورجل الحرب سافاريك دي موليون Savariec de Maulion وقدم الأخوان غيوفري، وأولفـــــردي بوتفيل Buteville تحيط بهما كتلة كبيرة من الفرسان والجنود، ووعدوا بتقديم طاعة مخلصة الى الملك، وجاء من مقاطعتي: لوفين، وبرابانت الفـرســان الشجعــان: وولتر بوك Buck وجيرارد وغودسكال دي سوسين Godeschal de Soceinne مع ثلاث وحدات من الجنود،ورماة القسي الزيارة، الذين تعطشوا إلى لا شيء أكثر من تعطشهم إلى الدم البشري، وجـاء إلى جانب هؤلاء إلى الملك من كونتية فلاندرز، ومن مناطق ما وراء البحر الأخرى كل الذين اشتهوا جشعاً أملاك الآخرين، وهكذا منحوا الملك أملاً كبيراً في الدفاع عن نفسه، حيث كان من قبل قد فقد كل أمل ، وما أن سمع جون بأن وليم دي ألبيني وأتباعه قد دخلوا إلى مدينة روكستر، حتى زحف إلى هناك، مع جميع الحشود التي تقدم ذكرها، بكل سرعة، وفي اليوم الثالث بعد دخولهم إلى القلعة، أغلق جميع طرقهم للخروج وحاصرهم، وقام على الفور بنصب مجانيقه وبقية آلات رميه، وضايق المحاصرين بشدة بزخات من الحجارة ومن الأسلحة الأخرى، وتحمل المحاصرون حملاتهم من دون إحجام، ودافعوا عن أنفسهم بشجاعة.

وفاة هيوج دي بوفز

وجاء في الوقت نفسه هيوج دي بوفز، وكان فارساً شجاعاً، لكنه كان متكبراً، ورجلاً غير مستقيم، ووصل إلى ميناء كالي في فلاندرز لمساعدة ملك انكلترا، وركب في السفن في ذلك المكان، وأقلع مع جميع قواته، واتجه إلى دوفر، لكن ثارت عاصفة بشكل مفاجيء قبل أن يصل

إلى الميناء المقصود، وقد غرق وغرقوا جميعاً وابتلعهم البحر بأمواجه، وقذف جسد هيوج المذكور إلى الشاطىء مع عدد من الفرسان الآخرين والأتباع، وكان ذلك ليس بعيداً عن بلدة يارماوث Yarmouth وتم العثور في كل ميناء من شاطىء البحر ذاك على حشد كبير من أجساد الرجال والنساء حتى أن الهواء نفسه قد تلوث بنتانتهم، وجرى أيضاً العثور على عدد كبير من أجساد الأطفال، وكانوا قد غرقوا وهم في أسرتهم، وقد جرفتهم المياه إلى الشاطىء، وكان ذلك منظراً رهيباً لأعداد كبيرة من الناس، وقد تركوا—على كل حال جميعاً— ليجري التهامهم من قبل حيوانات البحر، ومن طيور الهواء، وبذلك لم ينج أحد من الأربعين ألف رجل وبقي حياً، فقد كان جميع هؤلاء الناس قد قدموا إلى انكلترا مع نسائهم وأطفالهم، مع نية طرد جميع السكان المحليين، وافنائهم تماماً، واستحواذ أراضيهم لأنفسهم بوساطة حق دائم، لأن الملك بطبائعه قد أعطى—كما قيل—إلى قائدهم هيوج دي بوفز المذكور كونتيتي: نورفولك Norfolk وسفولك Suffolk لكن نعمة الرب بدلت مقاصدهم نحو الأحسن، وعندما حملت أخبار فقدان هؤلاء الناس إلى الملك حزن بشكل مخيف، ولم يتناول طعاماً في ذلك اليوم، حتى المساء، وظل وكأن جنوناً قد تلبسه واستحوذ عليه.

الاستيلاء على قلعة روكستر وسجن الذين أسروا هناك

وفي هذه الآونة، عندما علم بارونات انكلترا بأن وليم دي ألبيني وأصحابه باتوا محاصرين في قلعة روكستر، أصبحوا مضطربين كثيراً، لأنهم قبل أن يدخل وليم دي ألبيني إلى القلعة قد أقسموا على الانجيل المقدس أنه إذا حدث وحوصر، سوف يزحفون لرفع الحصار، ومن أجل أن يظهروا أنهم يعملون شيئاً يتماشى مع يمينهم واخلاصهم بعهودهم، طاروا على الفور إلى السلاح، وشرعوا بالزحف نحو بلدة دبتفورد Deptford معتقدين أنهم سوف يرغمون الملك على رفع

الحصار، بغارة واحدة، ومع أنهم واجهوا ريحاً جنوبية لطيفة كانت تهب في وجوههم، وهي ريح لا تزعج بالعادة أحداً، تراجعوا وكأنهم قد واجهوا عدداً من الرجال المسلحين، وتخلوا عن الحملة دون انجازها، ومع أننا لاينبغي أن نتراجع أمام كل هبة ريح، أداروا ظهورهم لوليم المحاصر مع أتباعه، وعادوا إلى مكمنهم القديم، وعندما عادوا إلى مدينة لندن، تولوا تحصينها بشكل جيد، وشغلوا أنفسهم بالتسلي بلعبة النرد الخطيرة، وبشرب أفضل أنواع الخمرة التي اختاروها حسب تذوقهم، ومارسوا بقية أنواع الشرور، وتركوا رفاقهم المحاصرين في روكستر يتعرضون لخطر الموت، ويعانون من جميع أنواع المآسي، وعندما علم الملك كيف اقترب البارونات بأبهة كبيرة لرفع الحصار، وكيف أنهم تراجعوا بانحطاط وجبن، صار أكثر شجاعة، وبعث بمن يتولى جمع المؤن من جميع الاتجاهات لدعم الجيش، ولم يسمح في الوقت نفسه للمحاصرين بأي وقت للراحة في الليل والنهار، لأنه أثناء رمي الحجارة من المجانيق والعرادات والنشاب من قبل رجال القسي الزيارة والنبالة، قام الفرسان وأتباعهم بحملات متوالية، وكان إذا ماعانى بعضهم من التعب الجسدي، كان يخلفهم آخرون جدد بالهجوم، وبهذه التغييرات لم يحظ الذين كانوا تحت الحصار بأية راحة، وعندما يئس المحاصرون من وصول أية مساعدة من البارونات سعوا إلى تأخير تدميرهم الذاتي، لأنهم كانوا مرعوبين جداً من وحشية الملك، ولكي لايموتوا من دون انتقام لأنفسهم أحدثوا مقتلة كبيرة في أوساط المهاجمين، وطال الحصار لعدة أيام بسبب عظم شجاعة وجرأة المحاصرين، الذين رموا حجراً مقابل كل حجر على العدو، واستخدموا سلاحاً ضد كل سلاح، من وراء الأسوار والشرافات، وأخيراً بعدما جرى قتل عدد كبير من القوات المهاجمة، وبعدما وجد الملك أن آلات قذفه كان لها تأثير خفيف، استخدم اللغامين، الذين تمكنوا في وقت قصير من هدم أجزاء كبيرة من الأسوار، وفي الوقت نفسه نقصت المؤن لدى المحاصرين، وقد أرغموا

على أكل الخيــول، لا بل حتى على أكل مطاياهم الثمينـة، واندفع جنود الملك الآن نحـو الثلم في الأسوار، وبحمـلات شديدة متـوالية أرغمـوا المحاصرين على التخلي عن القلعة، لكن ليس من دون خسائر كبيرة من جانبهم، ودخل المحـاصرون إلى البرج وسط حملات جنود الملك، الذين دخلوا إلى القلعــة مـن خــلال الثلم، وقــد تمكن وليـم دي ألبيني مع جنوده—بعد قتله لكثير منهم—من إرغامهم على التخلي عنها، وهنا لجأ الملك إلى استخدام لغـاميه ضد البرج، وبعد صعوبات جمة أحـدثوا ثلمة في الأسـوار، اتسعت لتستخـدم من قبـل المهـاجمين،لكن أثناء استخـدام جيشه وفـق هذه الطريقة، غـالباً ما أجبر جنوده على الإنسحـاب بسبب الخسائـر التي لحقت بصفوفهم وأنزلت بهم من قبـل المحاصرين،وأخيراً لم تبق لديهم أيـة مـؤن، وبناء عليــه رأى وليم دي ألبينـي مع النبــلاء الآخرين الذين كانوا معه أنه سيكون من العار بالنسبة لهم الموت جوعاً، في وقت لم يكن ممكناً فيـه قهرهم في القتـال، وبعد مـا عقد اجتماعـاً مع الآخرين في يوم عيـد القديس أندرو، تركت الحامية— وهي تقـريباً غير مصـابة—القلعـة، وذلك باستثناء فارس قـد قتل بوسـاطة سهم،وقـدم رجال الحامية، بعد المغـادرة، أنفسهـم إلى الملك، وقد استمر هذا الحصار لمدة ثلاث أشهر تقـريباً، وكان الملك غـاضباً كثيراً بسبب عدد العسـاكر الذين قتلوا، وكـذلك بسبب المال الذي أنفقـه على الحصار، وفي غضبـه أمـر بتعليـق جميع النبـلاء على المشــانق، غير أن النبيل ســافــاريك دي موليون Savaric de Mouleon وقف أمام الملك وقال له:« مولاي الملك إن حربنا لم تنته بعـد، ولذلك عليك أن تقدر بدقة كيف يمكن أن تتقلب حظوظ القتـال، لأنك إذا أمرت الآن بشنق هؤلاء الرجـال، ربما يحدث أن يأسرني البـارونات من أعدائنـا، أو يأسرون آخرين من نبـلاء جيشك، ويحتـذون حــذوك، فيقـدمـون على شنقنا، لـذلك لا تدع هذا يحدث، ذلك أنه في مثل هذه الحالة مـا من أحـد سوف يقـاتل من أجل قضيتك»، وعندها أصغى الملك، وهو مكره، لهذه النصيحـة، ولنصـائح

رجال حكماء آخرين، وبناء عليه جرى بناء على أوامره إرسال وليم دي ألبيني، ووليم أوف لانكستر، وو. W دي اينفورد Einford وتوماس دي مولتان Muletan ، وأوسبرت دي غيفارد Gyffard وأوسبرت دي بوبي Bobi وأودينل Odinall دي ألبيني مع نبلاء آخرين، إلى قلعة كورفي، ليوضعوا تحت حراسة مشددة ، أما روبرت دي كورن Chourn ، وريتشارد دي غيفارد Giffard مع توماس أوف لنكولن، فأمر بسجنهم في قلعة نوتنغهام، كما أمر بسجن آخرين منهم في أماكن أخرى، أما جميع الجنود الأسرى فأعطاهم إلى جنوده حتى ينالوا فديتهم، وذلك باستثناء بعض رجال القسي العقارة الذين قتلوا عدداً كبيراً من فرسانه وعساكره أثناء الحصار، حيث أمر بشنق هؤلاء، وبهذه الانتكاسة ضعفت قضية البارونات كثيراً.

الحرمان الكنسي لبارونات انكلترا بشكل عام

ولدى رؤية البابا انوسنت في هذه الأيام أن البارونات العصاة لم يتوقفوا عن اضطهادهم للملك، قام بحرمانهم كنسياً، وعهد بتنفيذ هذا القرار إلى أسقف وينكستر، وإلى راعي دير ردنغ، وإلى باندولف نائب الشماس في كنيسة روما، بموجب الرسالة التالية:«من انوسنت، أسقف الخ، إلى ب. P. أسقف وينكستر، وراعي دير ردنغ، والمعلم باندولف، نائب الشماس في كنيسة روما، تمنيات ومباركات رسولية، لقد دهشنا كثيراً وغضبنا، لأن ابننا المحبوب كثيراً بالرب، جون الملك المشهور لانكلترا، مع أنه قدم ترضيات أكثر مما توقعنا إلى الرب والكنيسة، وخاصة إلى أخينا رئيس أساقفة كانتربري وإلى أساقفته، فإن بعض هؤلاء لا يظهرون الاحترام المستحق— أو الاحترام بشكل مطلق— إلى شؤون الصليب المقدس، وإلى وصاية الكرسي الرسولي، وإلى يمينهم بالتابعية، ولم يقدموا العون، ولم يظهروا مشاعر طيبة نحو الملك المذكور، وبالوقوف ضد الاضطرابات في المملكة، التي هي

بموجب حق السلطة، عائدة إلى كنيسة روما، هذا إن لم يكونوا مطلعين، أو لنقل مشاركين في هذه المؤامـرة الشريرة، لأنه غير محرر من وصمـة المشـاركـة، الـذي يخفق في التصـدي للمعتـدين، فكيـف عمل هؤلاء الأساقفة المتقدم ذكرهم في الدفاع عن ميراث كنيسة روما؟ وكيف قاموا بحماية الذين يحملون الصليب؟ وعجباً كيف أنهم لا يعارضون بأنفسهم الذين يسعـون إلى تدمير عبـادة المسيح؟فهـؤلاء الرجـال هم بدون شك أسـوأ من المسلمين، بما أنهم يسعـون لأن يطردوا مـن مملكتـه الرجل المأمول أن يقدم مسـاعدة إلى الأرض المقدسة، ولذلك فإن وقـاحة مثل هؤلاء الناس، ينبغي أن لاتسـود، ليس فقط لما تسببـه من مخاطر لمملكة انكلترا، لا بل أيضاً لما تقـود إليه في تدمير الممالك الأخـرى، وفوق ذلك كله مـا تؤدي إليه من تهديم جميع قضـايا المسيح، وبناء عليـه أقوم نيـابة عن الرب القـدير، الأب، والابن، والروح القـدس، وبوسـاطة سلطات الرسولين: بطرس، وبـولص، وبوساطة سلطاتنا الخاصـة، بوضع أغلال الحرمان الكنسي على جميع الذين يتولون مضايقة الملك مع مملكة انكلترا، وكذلك على جميع الشركاء في الجرم، وعلى جميع المحرضين التابعين لهم، ونضع ممتلكاتهم تحت الحرمان اللاهوتي من شراكة المؤمنيين، ونحن نأمر بدقة متناهيـة رئيس الأساقفة المذكـور وأتباعه الأسـاقفة، بحكم فضيلة طاعتهم، أن يقـومـوا بشكل مهيب بإعـلان قـرارنا هذا في جميع أرجـاء انكلترا، وأن يكون ذلك في كـل يوم أحـد، ويـوم عيـد وسط قـرع النواقيس، والشمـوع مشتعلة، حتى يقـوم البـارونات المتقـدم ذكـرهم بتقديم ترضية إلى الملك حول خسائره، والإهانات التي ألحقوها به، وأن يعودوا بإخلاص إلى تأدية واجباتهم، ومن جانبنا نفرض أيضاً على جميع أتباع الملك المذكـور، تقديم المسـاعدة لهذا الملك في مـواجهة مثل هؤلاء المعتـدين، فـذلك سـوف يكون تكفيراً عـن ذنوبهم، وإذا مـا أهمل أي أسقف تنفيـذ أوامـرنا، ليكن معلوماً بـالنسبة له، أننا سـوف نوقفـه عن تأدية واجبـاته الأسقفية وسنسحب طـاعة الذين تحتـه، لأن من المشروع

أن الذين يهملون إطاعة الذين هم أعلى منهم والذين هم رؤساء لهم، أن لا تتم طاعتهم من قبل الذين هم أدنى منهم، وبناء عليه لا يجوز عدم تنفيذ الوصاية، أو تعطيلها من خلال تراخي أي واحد، وقد عهدنا إليكم بشؤون الحرمان الكنسي للبارونات المتقدم ذكرهم مع القضايا الأخرى المتعلقة بهذه الأعمال، وقوموا على الفور بوساطة رسائلنا الرسولية هذه، بتأجيل جميع مرافعات الشكاوي، والقيام بالاجراءات حسبما ترونه مناسباً، لكن إذا لم يعمل الجميع»، الخ.

انتخاب المعلم سيمون لا نغتون لكرسي يورك

وكان في هذه الآونة كهنة يورك منذ مدة طويلة من دون أسقف، لذلك حصلوا على إذن الملك واجتمعوا مع بعضهم لانتخاب واحد، ومع أنهم ضغط عليهم كثيراً وأغريوا من قبل الملك، لاستقبال وولتر دي غري Gray أسقف ووركستر، ليكون أسقفاً لهم، قاموا بسبب جهله برفضه، واستمروا في أعمال انتخابهم، فاختاروا سيمون لانغتون، الذي كان أخاً لرئيس أساقفة كانتربري، آملين أن ينالوا بعلمه الحظوة لدى الحبر الأعظم، لكن عندما بات خبر هذا الانتخاب معلوماً لدى الملك، بعث رسلاً إلى بلاط روما، وقام هؤلاء بحضرة مولانا البابا، بتقديم اعتراضات على الانتخاب، كما يلي: لقد أكدوا أن رئيس أساقفة كانتربري كان عدواً مكشوفاً لملك انكلترا، لأنه قدم التحريض للبارونات الانكليز للعمل ضد الملك المذكور، وأعطى موافقته على عملهم هكذا، وبناء عليه إذا ما جرت ترقية سيمون المذكور إلى مرتبة رئيس أساقفة يورك، وهو أخ لرئيس الأساقفة، فإن سلام الملك والمملكة لا يمكن أن يعيش طويلاً، وبعرضهم هذه الشكوى وأمثالها من الاعتراضات، أقنعوا البابا على الاتفاق معهم، ولذلك كتب إلى هيئة كهنة يورك كما يلي:

«من انونست، أسقف، الخ،عندما مثل المعلم لانغتون مؤخراً أمامنا

مع بعض الكهنة الآخرين من يورك، منعناه حرفياً من السعي للحصول على رئاسة أساقفة يورك، لوجود بعض الأسباب تمنعنا من السماح بذلك، وفيما يتعلق بما سمعه من كلمات منا، ذهب مع جميع الاحترام، واعداً باحترام هذا الأمر، ولذلك دهشنا، وغضبنا، كيف ان مطامحه أعمته، مع أنه يعرف أنه لا يمكن، بعد تحريمنا، وبعد وعده الصريح، أن ينتخب بشكل قانوني، وأن يعطي موافقته على مثل هذا الانتخاب، الذي وإن لم يعارضه أحد آخر، ينبغي أن نعده لاغيا وفارغاً، وهذا يتوجب ألا يكون مناسبة لخطيئة جديدة في انكلترا، أسوأ من السالفة، ولكي لا تبقى كنيسة يورك مدة أطول من دون رئيس أساقفة لها، نقوم بناء على نصيحة إخواننا، بوساطة رسائلنا الرسولية هذه، فنأمركم ونفرض عليكم بكل دقة بموجب فضيلة طاعتكم، بعدم قبول هذا الانتخاب، ولأننا لا يجوز لنا—ولا ينبغي—تحمل إهانة وتآمر من هذا النوع، من دون أي تعليل أو تردد، عليكم ارسال بعض إخوانكم مع تفويض كامل للمشاركة في مجمعنا العام الذي اقترب موعده، وأن يظهروا أمامنا مع الأول من تشرين الثاني، ووقتها يمكن مع نصيحتنا انتخاب، أو طلب رجل موائم ليكون رئيساً لأساقفتكم، أو أننا سوف نقوم منذ ذلك الوقت أنفسنا بتزويد كم برئيس أساقفة موائم لكم، ولسوف نتولى بشكل جدي انزال العقوبة بكل مخالف أومعارض، إذا وجد أي مخالف أو معارض، وستكون عقوبتنا بموجب العقوبات القانونية، وإذا ما أعطى سيمون المتقدم ذكره موافقته على هذا الإنتخاب، فإننا نرسم، كعقوبة لقبوله، أن يكون من الآن فصاعداً غير مؤهل، ولا يتمتع بالشرعية من الكرسي الرسولي، من أجل الانتخاب للمنصب الأسقفي، صدر في الثالث عشر من أيلول، في السنة الثامنة عشرة من بابويتنا».

تعليق ستيفن رئيس أساقفة كانتربري

وبعد هذا مباشرة، توجه بطرس أسقف وينكستر، والمعلم باندولف، الصديق المقرب من مولانا البابا، شخصياً إلى رئيس أساقفة كانتربري،وأمراه نيابة عن البابا المذكور، بأن يطلب من أساقفته المساعدين التابعين لكنيسة كانتربري القيام بنشر حكم الكرسي الرسولي، الذي كان قد صدر في روما ضد بارونات انكلترا بشكل عام، وأن يقوم هو شخصياً أيضاً بذلك، بما أن واجبه يفرض عليه الاعلان عن ذلك في جميع أرجاء أسقفيته كل يوم أحد ويوم عيد، وكان رئيس الأساقفة آنذاك قد صعد ظهر سفينة ليذهب إلى روما، لحضور المجمع هناك، ولذلك طلب تأجيل الموضوع حتى يتمكن من الاجتماع مع البابا والتحادث معه، وأكد بشكل ثابت، أنه بالنسبة لنشر القرار، هناك قرار ضمني قد صدر ونشر بالفعل ضد البارونات، وأنه لا يمكنه تعميم القرار الجديد بأي شكل من الأشكال حتى يعلم ما يرغب به الحبر الأعظم حول المسائل المتقدم ذكرها، بكلمة الفم، ولدى رؤية الوكيلين المعهود إليهما بهذه القضية، أن رئيس الأساقفة لم يطع أوامر البابا، قاما بوساطة السلطات المخولة إليهما، بتعليقه ومنعه من الدخول إلى الكنيسة، وممارسة الصلوات اللاهوتية، وقد قام بمراعاة هذا بكل تواضع، وذهب إلى روما بمثابة أسقف معلق، ووقتها قام أسقف وينكستر مع أخيه النائب باندولف بإعلان أن جميع بارونات انكلترا، الذين سعوا إلى طرد الملك من مملكته، هم محرومين كنسياً، ونشروا القرار، وتفوهوا به ضدهم كل يوم أحد، وكل يوم عيد، لكن بما أن ما من أحد منهم قد ذكر بالاسم في قرار البابا، لم يهتموا مطلقاً بالقرار المذكور، بل عدوه فارغاً وبدون تأثير.

المجمع العام الذي عقده البابا انوسنت في روما

وفي العام نفسه، أي عام ١٢١٥م، جرى عقد مجمع مسكوني مقدس في شهر تشرين الثاني، في كنيسة المخلص المقدس في روما، وهي التي تعرف بالقسطنطينية، وقد ترأس مولانا البابا عليه في السنة الثامنة عشرة

من بابويته، وقد حضره أربعمائة واثني عشر أسقفاً، وكان بين الشخصيات الرئيسية بين هؤلاء بطريركي القسطنطينية والقدس، ولم يتمكن بطريرك أنطاكية من الحضور، لأنه حبس بمرض شديد، لكنه أرسل نائباً عنه هو أسقف طرطوس، ولأن بطريرك الاسكندرية كان تحت سلطان المسلمين، فقد بذل غاية جهده، حتى أرسل شماساً هو ابن عمه —خاله— مكانه، وكان هناك سبعة وسبعين رئيساً للأساقفة ومطراناً بين الحضور، وأكثر من ثمانمائة راعي دير ورئيس رهبان، وأما وكلاء رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وهيئات الكهنة، الذين كانوا غياباً، فعددهم ليس معروفاً، وكان أيضاً بين الحضور حشد كبير من السفراء من لدن امبراطور القسطنطينية، وملك صقلية، التي انتخب امبراطوراً لروما، ومن انكلترا، وهنغاريا، والقدس، وقبرص، وأراغون، مع أمراء آخرين، ونبلاء، وأناس من مدن ومن أماكن أخرى.

وعندما اجتمع كل هؤلاء في المكان الذي تقدم ذكره أعلاه، ووفقاً لعادات المجامع المسكونية أخذ كل واحد مكانه وفقاً لمرتبته، ألقى البابا أولاً خطاباً تشجيعياً، ثم تبع ذلك قراءة الستين بنداً على المجمع كله، وقد بدت هذه البنود لبعضهم موافقة، ومملة لآخرين، وشرع أخيراً يبشر حول شؤون الصليب، واخضاع الأرض المقدسة، وقد أضاف مايلي:

«فضلاً عن هذا، مامن شيء قد حذف بالنسبة لقضية صليب المسيح، وإنها إرادتنا وأمرنا أن يقوم البطاركة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان مع الآخرين المعهود إليهم بالمسائل الروحية، بعرض موضوع الصليب إلى الناس الذين هم تحت رعايتهم، وإنني اتضرع باسم الأب والابن والروح القدس، الإله الواحد وحده، والأبدي، إلى الملوك، والدوقات، والأمراء، والمركيزات، والايرلات،

والبـارونات، والنبـلاء الآخـريـن، وإلى مجتمعـات المدن، والبلدات، والقرى، أنهم إذا كـانوا لايستطيعون الذهاب شخصياً لتقديم المسـاعدة إلى الأرض المقدسـة، أن يقومـوا بتجهيز عـدد مناسب من العساكـر مع جميع العتاد الضروري لمدة ثلاث سنوات، وذلك وفقـاً لوسائلهم، وهذا مقـابل اعفائهم من ذنوبهم، حسبما جـرى التعبير عن ذلك في الرسـائل العـامـة، وإرادتنا أيضـاً مـوجهـة إلى الذين يبنـون السفن من أجل هذا الهدف حيث أنهم سينالون نصيبهم من هـذا الإعفـاء من الذنوب، لكن بالنسبة لهؤلاء الذين يرفضون، إذا وجـد مثل هذا جاحدون، فإننا نعلن من جانبنا، أنهم من المؤكـد سوف يدفعون الحسـاب لنا في يوم الحساب العسير، للقاضي الصارم، وعليهم أن يقـدروا، قبل أن يقوموا بالرفض، بأية فـرصـة من الخلاص سوف يكـونون قادرين بها على الظهـور أمـام الرب الواحد، والابـن الوحيد الوليد للرب، الـذي الى يديه عهد الأب بجميع الأشياء، وذلك إذا ما رفضوا خـدمة ذلك المصلوب الوحيد، في خدمـاتهم الصحيحة، الذي بموجب عطائه هم مستحـوذون على الحياة، والذي هم بلطفه مدعومين، وبدمه قد جرى انقاذهم، ونحن من جانبنا نرغب في ضرب مثل لـلآخـرين، من أجل هـذه الأعمال، حيث سندفع ونمنح ثلاثين ألف بـاوند، إلى جـانـب أسطول، سـوف نـزود به الذين يريدون العبور من هذه المدينة، ومن المناطق المجاورة، وعلاوة على ذلك لقـد عيّـنا لإنجـاز هذا، ثلاثة آلاف مارك من الفضـة، وهي التي بقيت لدينا من صـدقـات بعـض ذوي الإيمان الصحيح، وبما أننا نرغب في أن يشارك الأسـاقفة الآخرين للكنائس، وكذلك رجـال الدين بشكل عام، في كل من فضيلة ذلك وثوابه، رسمنا بأن يسهمـوا جميعاً مع كل الناس العـاديين والأسـاقفـة، من أجل مسـاعـدة الأرض المقـدسـة بجـزء من عشرين من مـواردهـم اللاهوتيـة لمدة ثلاثة أعـوام، ويستثنى من ذلك الذين حملوا الصليب، والذين على نيـة حمله، وقد انطلقـوا نحو الأرض المقـدسـة شخصيـاً، ونحن مع إخـواننا من الكرادلـة في كنيسـة رومـا

المقدسة، سوف ندفع عشر كامل من مواردنا، وتقضي أوامرنا أيضاً، بأن يبقى جميع رجـال الدين والعلمانيين، بعـد حملهم للصليب، آمنين تحت حمايتنا، وتحت حماية القديس بطرس، وأيضاً تحت حماية رؤساء الأساقفة والأساقفـة وجميع كهنة كنيسة الرب، وأن تكون ممتلكـاتهم أيضاً كما هي مـرتبـة، وتبقى كـذلك دون أن تلمس أو تتعـرض للاضطراب، وذلك حتى تاريخ الحصـول على معلومـات مـؤكـدة تتضمن خبر مـوتهم أو عودتهم، وإذا صدف وكان واحـد ممن سيذهب في هذه الصليبية مرتبطاً بيمين دفع فـائـدة، فإن المقـرضين سـوف يكونون مـرغمين بوسـاطة السلطات اللاهوتية على إعفائهم من يمينهم، وأن يتمنعوا عن استخراج الربا منهم، ونحن نشمل بهذا القـرار نفسه اليهـود بوسـاطة السلطات المدنية، وذلك حتى يقتنعوا بفعل ذلـك، وعلاوة على ذلك ليكن معلوماً أن أسـاقفـة الكنيسـة الذيـن يهملون منح العـدالة إلى الصليبيين، أو إلى وكلائهم، أو إلى أسرهم، سـوف يواجهون عقوبات حـادة، وفضلاً على ماتقدم، لقـد قررنا —بناء على نصيحة رجال عقـلاء— أن الذين سوف يحملون الصليب هكذا، عليهم أن يعدوا أنفسهم للاحتشـاد في حزيران المقبل، والذين منهم قد قـرروا العبور بالبحـر عليهـم الاحتشاد في مملكة صقليـة، وآخـرون في بـروندسيـوم Brundusium وبعضهم الآخر في مـرسيليا، وهي المكـان الذي قررنا، تحت احسـان الرب، أن نكون فيـه حـاضرين، حتى يمكن بوساطـة مساعـدتنا ورأينا، للجيش الصليبي أن ينتظم بشكـل صحيح، ومـن ثم ينطلـق مع تبريكـات الرب والكـرسي الرسـولي، ونحن نعهـد إلى رحمة الرب القـدير، وإلى سلطات الرسـولين المبـاركين: بطرس، وبولص، ونحن نمنـح بفضل السلطة التي أضفـاها الرب علينا —مع أننا لانستحق ذلـك، وهي سلطة الحل والربط— كل الذين انخـرطوا في هـذا العمل شخصيـاً، وعلى حسـابهم الذاتي، عفـواً كـاملاً عن ذنـوبهم التي سوف يكونون حقـاً نادمين عليهـا من قلوبهم، والتي سوف يعملـون اعترافاً بها، وكثواب على ذلك نحـن نعد زيادة في

خلاص أبدي، وإلى الذين لايأتون شخصياً للمشاركة، بل يرسلون على حسابهم أشخاصاً موائمين، وفقاً لإمكانياتهم، وأيضاً إلى الذين يأتون شخصياً، على حساب الآخرين، إننا مع ذلك نمنح عفواً عاماً عن ذنوبهم، وإنها إرادتنا أن يشمل هذا الغفران، الذين سوف يزودون من ممتلكاتهم الخاصة بعتاد خاص ومؤن لمساعدة تلك البلاد المذكورة، أو يقدمون نصائح معقولة، ومساعدات حول القضايا المتقدم ذكرها، وبالنسبة إلى جميع الذين سيذهبون في هذه الحملة، يضفي هذا المجمع المقدس والمسكوني عليهم نعمة صلواته ورغباته وأمانيه الطيبة، من أجل أن يتملكوا بشكل أفضل، خلاصاً دائماً، آمين».

الاتهام الذي عمل في روما ضدّ ستيفن رئيس أساقفة كانتربري

برز في هذا المجمع راعي دير بولين Beaulien والفارسان توماس هاردنغتون Hardington وغيوفري دي كروكومب Crawcombe بمثابة وكلاء عن ملك انكلترا، ضد رئيس أساقفة كانتربري، واتهموه بشكل معلن بالتعاون مع البارونات الانكليز، وأكدوا أنه أبدى نحوهم التعاطف، وقدم النصيحة إلى البارونات المذكورين في محاولتهم لطرد الملك المذكور من عرش مملكته، ومع أنه تسلم رسائل من الكرسي الرسولي، تأمره بموجب الملامة اللاهوتية أن يوقف النبلاء عن اضطهادهم للملك، رفض أن يفعل ذلك، ولذلك جرى تعليقه من قبل أسقف وينكستر ورفاقه، ومنعه عن أداء الخدمات اللاهوتية، ومن دخول الكنيسة، ثم إنه بادر مسرعاً للقدوم إلى هذا المجمع، وبذلك أعطى برهاناً أظهر فيه نفسه أنه متمرد ضد الأوامر الرسولية، ولدى سماع رئيس الأساقفة لهذه الاتهامات ضده مع اتهامات أخرى، تصرف على الفور وكأنه قد أدين، واضطرب كثيراً، ولم يعط جواباً، سوى أنه طلب سحب التعليق، ويقال بأن البابا، عمل وهو مغضب هذه الاجابة قائلاً:

«إعلم ياأخانا، بحق القديس بطرس، إنك لن تحصل بسهولة على التحليل منا، بعدما أنزلت مثل هذا الأذى الكثير، ليس فقط بملك انكلترا، بل بكنيسة روما أيضاً، ولسوف نقوم بعد التداول مع إخواننا بتقرير كيف سنعاقب مثل هذه الخطيئة المتهورة»، وقام بعدما تناقش حول المسألة مع كرادلته بتثبيت قرار العقوبة الصادر ضد رئيس الأساقفة، بموجب الرسالة المكتوبة التالية:

تثبيت تعليق رئيس الأساقفة المذكور

«من انوسنت الأسقف إلى جميع الأساقفة المساعدين في كنيسة كانتربري، تحيات، نحن نود أن يكون معلوماً من قبلكم جميعاً بشكل عام، أننا قد وافقنا على قرار التعليق الذي تفوه به أخانا المبجل ب. أسقف وينكستر، وأخانا ب. نائب الشماس المقرب منا والمنتخب لأسقفية نورويك، بموجب السلطات الرسولية، ضد ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، ونأمر بمراعاة هذا القرار وتطبيقه بدقة حتى يستحق رئيس الأساقفة المذكور —الذي طبق القرار على نفسه بكل تواضع— تحريره منه، على أن يقدم ضمانة تبعاً لنموذج الكنيسة، ووفقاً لقرارات الالتزام المفروضة على الآخرين، وبناء عليه إننا نأمركم بموجب هذه الرسائل الرسولية مع جميع الإخوان لديكم، أن تقوموا أنتم الأساقفة بمراعاة القرار المتقدم ذكره وتطبيقه، وأن لاتظهروا في الوقت نفسه أية طاعة لرئيس الأساقفة المذكور. صدر في اللاتيران في الرابع من تشرين الثاني هذا».

وبعد هذا قدم كهنة يورك المعلم سيمون لانغتون إلى البابا، طالبين تثبيت انتخابه، لكن البابا قال لهم:

«اعلموا أننا لانعدّه منتخباً، لأننا لعدة أسباب لن نسمح له بالترقية إلى مثل هذه المرتبة العالية، وبسبب أن ذلك الانتخاب قد عمل معاكساً

لتحريمنا، فإننا نلغيه كلياً، وندينه إلى الأبد، وإن قرارنا يقضي أنه غير لائق شرعياً لأن ينتخب لمثل هذا المنصب الكهنوتي الرفيع من دون نحلة من الكرسي الرسولي»، وإثر إلغاء هذا الانتخاب، أمر البابا الكهنة بالقيام بإجراءات انتخاب آخر، وإذا لم يفعلوا ذلك هو سيقوم بتزويدهم برئيس أساقفة مناسب لهم، وبناء عليه قام الكهنة، بموجب التوجيه الذي تلقوه، بانتخاب وولترغري أسقف ووركستر، وذلك بسبب —كما قالوا— نقاوته من الشهوات الجسدية، لأنه استمر بالنقاء منذ ولادته حتى ذلك التاريخ، وعلى هذا أجابهم البابا المذكور:

«بحق القديس بطرس الطهارة فضيلة عظيمة، ونحن نمنحكم إياه»، ولهذا بعدما تسلم الأسقف المذكور الطيلسان، عاد إلى انكلترا، بعدما ربط نفسه، بدفع مبلغ عشرة آلاف باوند من النقود الاستيرلينية إلى بلاط روما، وبعدما أنجز الفارسان: توماس هاردنغتون، وغيوفري دي كروكومب مهمتهما على هذه الصورة، عادا إلى انكلترا، وذهبا إلى الملك، الذي —كما تحدثنا من قبل— كان قد أخضع قلعة روكستر، وقد قصداه لإخباره بالأخبار الموافقة، وفرح الملك كثيراً في عقله، عندما سمع بأن بارونات انكلترا، قد حرموا كنسياً، وأن رئيس أساقفة كانتربري قد جرى تعليقه، وأن وولتر دي غري قد جرت ترقيته إلى رئاسة أساقفة يورك، وأنه يمكنه أن يرتب الأمور، حسبما يشاء في قلعة روكستر، وبناء عليه قوض معسكره، وسار مسرعاً نحو كنيسة القديس ألبان، ولدى وصوله إلى ذلك المكان، مضى إلى بيت هيئة الكهنة، وبحضور الرهبان، أمر بقراءة الرسائل حول تعليق رئيس أساقفة كانتربري وطالب على الفور من رجال المجمع الديري تثبيت التعليق المذكور بأختامهم، ومن ثم إرساله إلى كنائس انكلترا، وإلى الديرة، وكذلك إلى الكاتدرائيات، ليتم نشره، ويصبح معروفاً من قبل الناس، وإثر انتهاء هيئة الكهنة من هذا العمل، ذهب مع عدد قليل من

مستشـاريه إلى داخل الدير، وعمل على إبداع خطط للإطاحـة بأعدائـه، ورتب الأمـور من أجل الدفع للأجـانب الذين كـانوا يقـاتلون تحت قيـادته، وبعـد ذلك قام الملـك بتوزيع جيشـه إلى قسمين، ليقـوم الشطر الأول بمهمة أعمال إنهاء اضطراب البـارونات الذين كانـوا مستقرين في مدينة لندن، في حين يتولى الشطر الثاني الذهاب تحت قيادته إلى الأجزاء الشمالية من انكلترا ليقـوم بالعيث فسادا بالمنطقـة كلها بالنار وبالسيف، ووقعت هذه الأحداث في كنيسة القـديس ألبان، في العشرين من كانون الأول، وكان القادة الذين جرى تعيينهم لقيـادة الجيش الذي تركه خلفه هم:وليم ايرل أوف سـالسبري، وهو أخـوه، وفـالكاسيـوس Fal-kasius وكان رجلاً خبيراً بالحرب، وسافاريل دي موليون مع جنود بواتو، ووليم بريوير Briwere مع جميع قـواتـه، ووولتر الذي لقبـه بوك Buck وهو الذي قـاد البرابانتيين، وكـان هنـاك آخـرون إلى جانبهم، حذفت ذكر أسمائهم.

كيف زحف الملك جون إلى الأجزاء الشمالية من انكلترا وعاث فساداً في تلك المنطقة

ثم غـادر الملـك جـون بلدة القـديس ألبـان، وزحف نحـو الشمال، واصطحب معـه: وليـم ايرل أوف ألبيمارل Albemarle وفيليب دي ألبيني، وجون مـارشال، والقادة من مناطق مـا وراء البحر: جيرارد دي سـوتنغين Sotengaine وغـودسيشـال Godeschal مع الفلمنكيين، ورجـال قسي زيارة مع أناس خـارجين على القـانون، ممن لا يخافـون الرب، أو يقيمـون تقديراً لانسـان، وقد استراح قليـلاً في تلك الليلة في دنستيبل Dunstable لكنه استأنف زحفه قبل انبلاج ضوء النهار باتجاه نورثأمبتـون ونشر قواته للقيـام باحراق بيـوت وأبنية البـارونات، حيث نهبهم وسلبهم كل مـا كـان فيهم مـن سلع ومـواشي، وبذلك دمـر كل شيء جاء في طريقه، وأعطى مشهداً مـرعباً لكل من شاهده، وحيث أن

النهار لم يقنع شرور الملك وشهوته لتدمير الممتلكات، أمر محرقيه بإلقاء النار في الأسيجة، والبلدات أثناء زحفه، حتى يمتع ناظريه بمشاهد الاتلاف التي لحقت بأعدائه، وأنه بوساطة السلب يمكنه أن يدعم عملاءه الأشرار في أعماله الظالمة، واتخذ جميع السكان من جميع الأوضاع والحالات والمراتب، الذين لم يلجأوا إلى ساحات الكنائس، أسرى، وبعد تعريضهم للعذاب أرغموا على دفع أتاوات ثقيلة، وكان شحن القلاع الذين تركوا مسؤولين عن حصون البارونات، عندما سمعوا باقتراب الملك، غادروا قلاعهم المتعذر احتلالها وهربوا إلى أماكن سرية، تاركين مؤنهم، ومختلف مخزوناتهم بمثابة غنيمة إلى أعدائهم القادمين، ووضع الملك أتباعه في هذه القلاع الفارغة، ووفق هذه الطريقة زحف مع أتباعه الأشرار إلى نوتنغهام.

أعمال السلب والنهب التي اقترفها جيشه في الجزء الجنوبي من انكلترا

وفي الوقت نفسه، كان وليم ايرل أوف سالسبري وفالكاسيوس مع العساكر التي تقدم ذكرها أعلاه، وهي التي تركها الملك معهما في بلدة سانت ألبان، قد أمرا ولاة قلاع: ويندسور، وهارتفورد، وبيركهامبستد، أن يمروا مع كتلة كبيرة من الجند من أمام مدينة لندن، ثم أن يعاودوا المرور لمراقبة البارونات ومضايقتهم، وللسعي لقطع المؤن والموارد عنهم، وبعد هذا نقلوا أنفسهم إلى كونتيات: اسكس، وهارتفورد، ومدلسكس، وكمبردج، وهنتنغدون، وجمعوا الأسلاب، وقاموا بأعمال النهب، وفرضوا غرامات على البلدات، وأخذوا أسرى من السكان، وأحرقوا أبنية البارونات، وأحرقوا الحدائق والحظائر، وقطعوا الأشجار في البساتين، ونشروا النار حتى ضواحي لندن، وحملوا معهم كميات هائلة من المنهوبات، وعندما قدم المراسلون من مختلف الأماكن يروون للبارونات جميع هذا ، نظر واحدهم نحو الآخر وقال :«الرب أعطى،

والرب انتزع وأخذ»،الخ وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني من هذا العام استولى فالكاسيوس على بلدة هامسليب Hamslape (لعلها هونسلو Hounslow) وكانت عائدة إلى وليم مودوت Moudut وجرى في اليوم نفسه الاستيلاء على قلعة تونبردج، وكانت ملكاً لايرل كلير، والذي تولى ذلك هي قوات شحنة قلعة روكستر، ووصل إثر ذلك مباشرة فالكاسيوس إلى قلعة بدفورد Bedford وطالب بتسليم القلعة من حاميتها، وحصلت الحامية على هدنة سبعة أيام، ولدى عدم تلقيها أية مساعدة من مولاها وليم دي بوشامب Beauchamp خلال ذلك الوقت، استسلمت الحامية وسلمت القلعة إلى فالكاسيوس المذكور في اليوم الثاني من كانون أول.

استسلام قلعة بيلفيور إلى الملك

عام ١٢١٦م، كان هو العام الثامن عشر من حكم الملك جون، ففي يوم عيد الميلاد كان في قلعة نوتنغهام، وقد نقل في اليوم التالي معسكره وارتحل فوصل إلى بلدة لانغر Langer حيث أمضى الليل هناك، وأرسل في الصباح رسلاً خاصين ومع تهديدات طالب بتسليم قلعة بيلفيور Belvoir من حاميتها، وكانت القلعة تحت عهدة نيقولا، وهو كاهن وابن لوليم دي ألبيني، مع الفارسين: وليم ستدهام Stud-ham وهيوج دي تشارنيل Charneles الذي سأل على الفور عن رأي رفاقه الفرسان وأتباعه، عما ينبغي فعله، لأنهم أخبروا من قبل رسل الملك على لسانه، أنه إذا ما تسلم اشارة واحدة عن رفضهم التسليم، فإن وليم دي ألبيني سوف لن يأكل ثانية، بل سوف يموت بشكل مهين، وعلى هذا كان وضع المحاصرين حرجاً من جميع الجوانب، ولم يعرفوا ما الذي عليهم أن يفعلوه، وبعد طول وقت أشار الجميع ووافقوا على انقاذ مولاهم من ميتة تعيسة، بتسليم القلعة، بدلاً من البقاء فيها، ومن ثم يفقدون مولاهم وبعد ذلك القلعة، ثم أخذ

نيقولادي ألبيني، وهيوج دي تشارنيل مفاتيح القلعة معهما وذهبا إلى الملك في لانغر، وسلما القلعة إليه على شرط أن يتعامل بشكل رحيم مع مولاهم، وأن يبقيا هما نفسيهما آمنين تحت حمايته، وبناء عليه جاء الملك في اليوم التالي إلى القلعة، وكان اليوم هو يوم عيد القديس جون الانجيلي، وبعدما تسلمها الملك عهد بها إلى غيوفري وأوليفردي بوتفيل Butevilleوكانا أخوين قدما من بواتو، وبعدما أقسم الجميع له يمين التابعية ويمين الطاعة المخلصة، منحهم رسائله موثقة، ضمن فيها لهم أماناً على جميع ممتلكاتهم.

أنواع العذاب التي عانى منها الشعب المسيحي

وقدم في الوقت نفسه شطر من جيش الملك إلى دوفنغتون، وكانت بلدة عائدة إلى جون دي لاسي، وقد وجدها الجنود غير مدافع عنها، فهدموها إلى الأرض، بأمر من الملك، وتوزع بعد هذا، هذا الجيش الشرير، وزحف نحو المقطاعات الشمالية، حيث أحرق الأبنية العائدة إلى البارونات، وسلب مواشيهم، ونهب ممتلكاتهم، ودمر كل شيء وصل إليه بالسيف، وتغطى وجه الأرض كلها بأطراف هؤلاء الشياطين، مثل الجراد الذي يتجمع من مناطق نائية لاقتلاع كل شيء من على وجه الأرض من البشر إلى المواشي، لأنهم كانوا يسعون هنا وهناك بسيوف مجردة، وخناجر مكشوفة، وقد نهبوا ودمروا البلدات، والبيوت، والأسيجة، والكنائس، ونهبوا كل انسان، ولم يوفروا لاامرأةولا طفل، وكانوا حيثما وجدوا أعداء الملك سجنوهم وغلوهم بالسلاسل، وأرغموهم على دفع غرامات ثقيلة، حتى الكهنة، عندما كانوا واقفين أمام المذابح نفسها،مع صليب الرب بأيديهم، وهم يرتدون الأردية المقدسة، جرى اعتقالهم، وتعذيبهم، وسلبهم، ومعاملتهم بالسوء، ولم يعد هناك لا أسقف، ولا كاهن ولا قسيس ليصب الزيت أو الخمرة على جراحهم، وأنزلوا عذاباً مشابهاً بالفرسان وبالآخرين من

كل وضع من الأوضاع، وعلقوا بعضهم من أوساطهم، وبعضهم من أقدامهم ومن أرجلهم، وبعضهم من أيديهم، وبعضهم من أصابعهم وأذرعتهم، ثم رموا ملحاً ممزوجاً بالخل في أعين هؤلاء التعساء، غير آخذين بعين التقدير أنهم خلقوا وفق صورة الرب، وكانوا متميزين بحملهم لاسم مسيحيين، ووضعوا آخرين فوق مراجل أو مشاوي، على نار فحم حامية، ثم قاموا بتغطيس أجسادهم المشوية بمياه باردة، وبذلك قتلوهم، وأثناء عمليات التعذيب كان إذا صرخ بعض هؤلاء التعساء بصرخات مؤلمة، وبأنات مرعبة، لم يكن هناك من أظهر نحوهم أية رحمة، ولم يكن هناك من شيء يقنع معذبيهم ويرضيهم غير المال، وقام عدد كبير بإعطاء جميع مقتنياتهم الدنيوية إلى معذبيهم، ومع ذلك لم يصدقوهم عندما أعطوهم كل شيء، أما الذين لم يمتلكوا شيئاً، فقد أعطوهم كثيراً من الوعود، من أجل أن يخففوا عنهم العذاب، أو على الأقل يوقفوه قليلاً، وهو العذاب الذي عانوا منه كثيراً، وكانت أعمال التعذيب هذه عامة ومنتشرة في جميع أرجاء انكلترا من قبل مواطنين آخرين، وتوقفت الأسواق وأعمال النقل والسفر، وعرضت البضائع للبيع في ساحات الكنائس فقط، وتوقفت أعمال الزراعة وتعطلت، وما من أحد تجرأ على الذهاب أبعد من حدود الكنائس، وفي هذه الآلام، التي تسببها البارونات، كان هؤلاء أنفسهم جالسين في لندن مثل نساء في آلام المخاض، مولين كل اهتمامهم إلى طعامهم وشرابهم، ومفكرين فقط بالملذات الجديدة التي يمكن أن توضع أمامهم، كي ترفع مشاعرهم بالغثيان، ولكي تعطيهم شهية جديدة، ومع أنهم تراخوا، لم ينم الملك حتى حصل على جميع أراضيهم، وممتلكاتهم، وقلاعهم، وبلداتهم، وسلطاتهم من الجنوب حتى البحر الاسكوتلندي.

حول الذين جرى تعيينهم حكاماً للقلاع المستولى عليها

عندما أصبحت ممتلكات البارونات المتقدم ذكرها معروضة تحت

تصرف الملك، عهد الملك بالمنطقة الممتدة مابين نهر تيز Tees وسكوتلندا مع الممتلكات والقلاع إلى هيوج دي باليول Baliol وفيليب دي أولكوت Ulcote ، وأعطاهما مايكفي من فرسان وجنود للدفاع عن ذلك الجزء من المنطقة، وعين في مدينة يورك روبرت أولبردج، وبرين دي لآيل، وغيوفري دي لاسي، وكلفهم بحراسة ممتلكات القلاع، وأعطاهم جنوداً، وأعطى إلى وليم ايرل ألبمارل Albe-marle حكم قلعتي روكنغهام Rockingham وسوفي Sauvey وقلعة اسمها بيهام Biham ، كانت ملكاً لوليم دي كولفيل Cole-ville، وأسند إلى فالكاسيوس حكم قلاع: أكسفورد، ونورثأمبتون، وبدفورد، وكمبردج، وأعطى إلى رالف لى تايري Tyris قلعة بيركها مبستد، وعهد بالوصاية على قلعة هارتفورد إلى وولتر دي غدرفيل Go-darville ، وكان فارساً يعمل في خدمة فالكاسيوس، وأعطى الملك إلى هؤلاء وإلى سواهم في جميع أرجاء انكلترا، بما أنهم يقدرون قيمة أجسادهم وممتلكاتهم وعهد، أن يقوموا بتدمير ممتلكات البارونات، أي أن يتولوا تدمير قلاعهم، وأبنيتهم، وبلداتهم، وحدائقهم، وحظائرهم، وبحيراتهم، وطواحينهم، ومثلما هو قد بدأ، أن يقوموا بانهاء الأعمال والمهام بوحشية مساوية، ولأنهم لم يتجرأوا على معارضة أوامر الملك مارسوا من الوحشية بقدر ماعينه لهم، أي جعلوا أمام مشهد من الناس أجمعين بيوت البارونات وممتلكاتهم الأخرى منظراً محزنا، وهكذا عاد الملك من الشمال بعدما رتب كل شيء وفقاً لرغباته، وكان الذي بقي تحت سلطة البارونات هناك قلعتي مونتسوريل Montsorrel ، وقلعة أخرى كانت ملكاً لروبرت دي روز Roos في كونتية يورك، وبعدما أخضع تلك المنطقة بوساطة مذبحة مرعبة، سار على طول حدود ويلز إلى المقاطعات الجنوبية، وطبق وحشيته على جميع الذين عارضوه، وحاصر عدداً من القلاع واستولى عليها وانتزعها من أعدائه، وقد دمر بعضاً من هذه القلاع، وشحن بعضها الآخر

بجنوده.

الحرمان الخاص للبارونات

وفي هذه الآونة جرى حرمان البارونات الانكليز -الذين سلف حرمانهم بشكل عام، من قبل الحبر الأعظم، لصالح ملك انكلترا -حرماناً فرديا، وفق الشروط التالية: «من انوسنت الأسقف، إلى راعي دير أبنغدون Abingdon ، ورئيس شمامسة بواتو، والمعلم روبرت المسؤول الرسمي عن كنيسة نورويك، تحيات: نحن نرغب في أن تعلموا بأننا قمنا في مجمعنا المسكوني الأخير، نيابة عن الرب القدير الأب، والابن، وروح القدس، وبوساطة سلطات الرسولين بطرس وبولص، وبوساطة سلطاتنا، بحرمان وبلعن بارونات انكلترا مع معاونيهم ومؤيديهم، بسبب اضطهادهم جون الملك الشهير للانكليز، الذي هو ملك قد حمل الصليب، والذي هو من الأتباع الاقطاعيين لكنيسة روما، ولمحاولتهم بوضعهم الحالي انتزاع المملكة منه، التي من المعروف أنها ملك للكنيسة الرومانية، وعلاوة على ذلك لقد حرمنا كنسيا ولعنا وشجبنا جميع الذين قدموا مساعداتهم أو أموالهم في سبيل مهاجمة تلك المملكة، أو لإعاقة الذين ذهبوا لمساعدةالملك المذكور، ونحن نضع أراضي البارونات المذكورين تحت الحرمان من شراكة المؤمنين في الكنيسة، ولسوف نضربهم بأيدينا بشدة أعظم إن لم يقلعوا عن نواياهم، ذلك أنهم في هذا المجال أسوأ من المسلمين، وإنه قرارنا في أن أي كاهن من أي مرتبة أو طائفة، إذا ماتجرأ على خرق قراراتنا المذكورة في الحرمان الكنسي، والحرمان من شراكة المؤمنين، ليكن معلوماً لديه وليكن متأكداً بأنه سوف يضرب بسيف الحرمان من شراكة المؤمنين، وسوف يخلع من كل منصب ومرتبة، وبناء عليه، اننا نعهد إليكم وإلى اخلاصكم، بموجب هذه الرسائل الرسولية القيام بنشر القرارات المتقدم ذكرها في جميع أرجاء انكلترا، والعمل بموجب

سلطاتنا على جعل هذه القرارات مرعية التنفيـذ، دون تعرضها للخرق، أو إلى الترافع والشكوى ضـدها بأي شكل من الأشكال، وعـلاوة على ذلك، إن ارادتنا وأوامرنا تقضي أن تقوموا بمـوجب السلطات الرسولية بتـوجيـه الملامـة بشكل علنـي، في جميع أرجـاء انكلترا إلى بعض نبـلاء انكلترا بحكم أنهم محرومين كنسيـا، وأن تتـدبـروا بكل دقـة تجنبهم من قبل الجميـع ومقـــاطعتهم، وهؤلاء النبـــلاء هـم الذين أعلـن أسقف وينكستر، وابننا المحبــــوب كثيراً في الرب، راعـي دير ردنـغ، والمعلم باندولف، نائب الشماس التابع لنا، والصديق المقرب إلينا، والمفوض من قبلنا، حرمانهم كنسيا شخصياً، بسبب أنهم وجدوهم مجرمين في المسائل المتقـدم ذكـرها، وهـؤلاء هـم: سكان لندن، الذين كـانوا المحـرضين الرئسيين للجرائـم المتقدم ذكرها، وروبـرت فتز -وولتر، وس. S ايرل وينكستر، ور. R ابنه، وغ. G دي مـاندفيل، وأخيـه وليم، ور. R ايرل أوف كلير، وغ. G ابنه، وهـ. H . ايرل أوف هيرفـــورد، ور. R. دي بيرسي، وإ. E دي فيسكي، وج. له مفـــوض أوف شيستر، ووليم دي ماوبري Mowbray، ووليم دي ألبيني، وو. W ابنه، ور. R دي روز، ووليم ابنه، وب. P دي بروز، ور. R دي كريسي Cressy ، وجون ابنه، ورالف فتـز -روبرت، ور.R ايرل بيغـود، وهـ .H ابنه، وروبرت دي وير، وفـــولك فتـــز -وارن، وو.W مـــاليت، وو.W دي مونتـأكيوت، وو.W فتـز -مارشـال، وو.W دي بوشامب Beau-champ ، وس. S دي كايم، ور. R دي مونت بيغون، ونيقولا دي ستـوتفيل، وآخـرين أيضاً ورد ذكـرهـم بالاسم في المرسـوم، بمثـابة مجرمين لاقترافهم الجرائم المتقدم ذكرها مع معاونيهم ومموليهم، وعليكم في كل يوم أحـد، ويـوم عيـد القيـام بشكل مهيب باعـــادة نشر القـرار المذكـور والأمـر بـالتقيـد به بكل دقـة، وأن تضعـوا مـدينة لندن تحت الحرمـــان من شراكـة المؤمنين في الكنيســة، وأن تضعـــوا جـانبـاً جميع مـرافعـــات الشكوى، وأن توقفـوا جميـع أحـاديث التـذمـر والشكوى

والمعارضة، تحت طائلة إنزال العقوبات الكنسية وتطبيقها، ونحن نأمركم بأن تقوموا بشجب المعلم غير فيس Gervase مستشار لندن، بحكم كونه محروماً كنسيا، الذي -كما سمعنا من المحكمين المتقدم ذكرهم- كان أكثر المضطهدين علانية للملك المذكور ولأتباعه، وعليكم تهديده بعقوبات أكثر شدة مالم يقم بالابتعاد عن أتباعه المعتدين، وإذا لم يلتزم الجميع، الخ، صدر في اللاتيران في اليوم السادس عشر من كانون الأول، في السنة الثامنة عشرة من بابويتنا».

تطبيق قرار العقوبات المتقدم ذكره

ولدى تسلم الرسائل التي تقدم ذكرها من قبل المحكمين، كتب البابا أيضاً إلى جميع كنائس انكلترا، وكاتدرائياتها، وديرتها يأمرهم بمايلي: «من انوسنت أسقف، الخ، نحن نأمركم بكل دقة بموجب وصايتنا هذه القيام بشجب بارونات انكلترا مع جميع معاونيهم ومحرضيهم بحكم كونهم محرومين كنسيا، وهم الذين قاموا باضطهاد مولاهم، الملك جون، ملك انكلترا، مع جميع الذين قدموا إليهم يد العون، أو المال، في سبيل الاستيلاء، أو الهجوم على المملكة المذكورة، أو عملوا على إعاقة الذين يذهبون لمساعدة الملك المذكور، وأن تعلنوا في أراضي البارونات المذكورين، بأنهم قد وضعوا تحت الحرمان اللاهوتي من شراكة المؤمنين، وأن تقوموا بشجب جميع البارونات الذين ورد ذكرهم أعلاه في رسالة مولانا البابا، وذلك بالاسم، بحكم كونهم محرومين كنسياً، مع جميع الآخرين الذين ورد ذكرهم بالاسم في قرار المحكمين المذكورين، وهم: وولتر دي نورتون، وأوسبرت فتز -آلان، وأولفر دي فوكس، وهـ. H دي بريبروك، ور.R دي روبل Ropele، وو. W دي هوبرجي Hobregge، وو. W دي موديت Mauduit ، وموريس دي غانت Gant، ور. R دي بيركلي Berkley، وآدم أوف لنكولن، ور. R دي ماندفيل، وو. W دي لانفالي Lanvaley، وفيليب فتز -جون،

ووليم دي تونتـونا Twintuna، وو.W دي هنتنغفيلد Huntingfield والاسكندر دي بونتون Puintune ، ور. R دي مونفكت -Mun fichet، ور. R دي غـريسلي Gresley، وغيـوفـري مفـوض أوف مينتـون Meantune، وو. W رئيس شمامسـة هيرفـورد، وج. J دي فيربي Fereby، ور.R قسيس روبـرت فتـز -وولتر، والاسكندر دي سـوتون Suttune، وو. W دي كـولفيل Coleville، ور. R ابنه، وأوسبرت دي بوبي Bobi، وأوسبرت، وجيفارد، ونيقولا دي ستوتفيل Stuteville، وتومـاس دي ميـولتـون Muletune، وسكان لندن، والمعلم غ.G المستشار، وأن تعلنوا بشكل عام بأن مدينة لندن موضوعة تحت الحرمـان اللاهوتي من شراكـة المؤمنين، وعليكم العمل على نشر قـراري الحرمان الكنسي والحرمـان من شراكة المؤمنين، وتجديد اعـلانهما بشكل مهيب في كل يوم أحد ويوم عيـد، في الكنائس وكذلك في الديرة بحكم كونها مدارس أبرشية تابعة لكم، وأن تنفذوا بشكل دقيق كل بند من بنود الوصـاية الرسـولية، وأن تـرعـوها بشكـل صحيح من قبل أنفسكم ومن جانبكم، حتى لاتتعرضوا لملامة الكنيسة، التي هي جديرة بالعصاة، وداعاً».

وعندمـا جـرى نشر قراري الحرمـان الكنسي، والحرمـان من شراكـة المؤمنين هذين في جميع أنحاء انكلترا، وأصبحامعروفين من قبل الجميع، عاملتهما مـدينة لندن وحدها من دون قبـول لأن البارونات قـرروا عدم الاعتراف بهما وتطبيقهما، وأن لايقـوم الكنهـة بنشرهما، لأنهم قـالوا بين أنفسهم، بأن الرسائل جميعها قد جرى الحصول عليها تحت تمثيل زائف، ولذلك هي بـلا أهميـة ولسبب رئيسي مهم آخـر هو أن إدارة الشـؤون المدنيـة ليست عائـدة إلى البابا، لأن الرسـول بطرس وخلفائـه قد عهـد إليهم من قبل الرب بإدارة القضايا الكنسية والاشراف عليها، ولذلك لم يقيمـوا أي تقـدير على الاطلاق لقـرار الحرمـان من شراكـة المؤمنين أو

لقرار الحرمان الكنسي، بل أقاموا العبادات في المدينة كلها، وكانوا يقرعون النواقيس، ويرتلون بأصوات مرتفعة.

العيث فساداً في جزيرة إيلاي

وفي الوقت نفسه دخل وولتر بروس مع البرابانتيين إلى جزيرة إيلاي من قرب هيربي Herebeie ونهب جميع الكنائس في تلك الجزيرة، وأرغم السكان بأقسى أنواع العذاب على دفع غرامات ثقيلة، ولم يكن هناك مكان لـلالتجاء يمكنهم أن يضعوا فيه ممتلكاتهم لابل حتى أنفسهم، للحماية من الخطر، لأن ايرل أوف سالسبري وفالكاسيوس مع سافاريك دي موليون قدموا من المناطق المجاورة، ودخلوا إلى الجزيرة بوساطة جسر ستونتني Stunteney ، وعاثوا فساداً بالمنطقة كلها، ونهبوا الكنائس واستولوا على كل ماتركه النهابون المتقدم ذكرهم، ودخلوا أخيراً إلى الكنيسة الكاتدرائية بسيوف مجردة، وبعدما نهبوها تمكن رئيس المكان بصعوبة من انقاذها من الاحراق بدفع تسعة ماركات من الفضة، وجرى سحب اللورد ستيفن رايدل Ridel من الكنيسة بالقوة، وفقد كل الذي امتلكه من خيول، وكتب، وأثاث منزلي، وسلع، وأواني، وحفظ بصعوبة بالغة نفسه من التعذيب، بدفع مائة مارك، وجرى اعتقال خمسة عشر فارساً في هذه الجزيرة، مع آخرين من مختلف الأحوال والمراتب، وقام الأغنياء، والأكثر نبلاً من الفرسان بالنجاة عبر البحر، وهربوا بعد صعوبات كبيرة إلى لندن، وعلى كل حال لم يتمكن بعض هؤلاء من اكمال رحلتهم بسبب اخفاق خيولهم من الضعف، وأخذوا أسرى، وهكذا وقع كل شيء في الجزيرة بأيدي هؤلاء اللصوص من دون معارضة.

كيف اختار بارونات انكلترا لويس ليكون ملكهم

أما وقد فقد بارونات انكلترا كل شيء له قيمة لديهم في الدنيا، كما

وضح من الرواية المتقدمة، وانعدم لديهم كل أمل بتحسن الأحوال، وباسترداد مافقدوه بوسائطهم، فكانوا في مأزق ولم يعرفوا كيف يعملون، ولذلك قرروا أخيرا، بموافقة عامة اختيار رجل قوي ليكون ملكاً، يتمكنون بوسائله من استرداد ممتلكاتهم، وامتيازاتهم السالفة، وبعد تردد طويل حول قرار من عليهم اختياره، قرروا بالاجماع تعيين لويس بن فيليب الملك الفرنسي ليكون حاكمهم، وليرفعوه إلى عرش انكلترا، وكان دافعهم الأساسي لهذا هو أن أفراد حشد الأجانب الذين أحاط بهم ملك انكلترا نفسه، كان معظمهم تحت حكم لويس وأبيه، وإذا ما أمكن بوساطة امكانيات هذين الملكين حرمان جون من مساعدتهم، فإنه سيترك معزولاً في الداخل وفي الخارج، وسوف يترك لوحده، غير قادر على التصدي لهم ومقاومتهم، وكان هذا القرار مرضياً لهم جميعاً، فأرسلوا س. S ايرل أوف وينكسر، وروبرت فتـــز - وولتر كمبعوثين خاصين إلى الملك فيليب وإلى ابنه لويس مع رسائل ممهورة بأختام جميع البارونات، يلتمسون بحرارة من الملك الأب أن يرسل ابنه ليحكم في انكلترا، وأن يأتي الابن ليأخذ التاج، وأسرع هذان الرسولان وأوصلا على الفور الرسائل إلى الملك الفرنسي، وإلى ابنه لويس، لكن فيليب، بعدما قرأ الرسائل، وفهم مقاصدهم، أخبر الرسولين بجوابه بأنه لن يرسل ابنه قبل—من أجل ضمانة كبرى— أن يتسلم رهائن جيدين من البارونات يكون عددهم على الأقل أربعة وعشرين، من أكثر الناس تميزاً في جميع المملكة، وبعد سماع الرسولين لهذا، أسرعا عائدين بقدر ما هو ممكن، وذكرا للبارونات الجواب الذي تلقياه، وعندما لم يجد البارونات حلاً آخر، أرسلوا الرهائن إلى الملك الفرنسي، وكان ذلك تلبية لرغباته وفق العدد الذي ورد ذكره أعلاه، ولدى وصول الرهائن، وضعوا في حبس أمين في كومبين، وتشجع لويس بهذا، فأعد عدته من أجل الحملة التي رغب بانجازها فوق كل شيء، لكن بما ان مغادرته للقيام بمثل هذه الحملة الصعبة كان لا يمكن

انجازها بسرعة، بعث قبل سفـره رسلاً إلى البارونات لاعطائهم الأمل، وأيضـاً لتجـريب ولائهم، وكـانت أسماء رسله هي: قسطلان القـديس أومر، وقسطلان أراس Arras وهيوج ثـاكون Thacun ويوستاس دي نيفل Neville وبلدوين بـريتيل Bretel وو.W دي وايمـــز wims وجـايلـزدي ميلون Melunوو.Wدي بومـــــونت -Beau mont،وجـايلز دي هيرسي Hersi ، وبيـزت دي فيرسي Biset de Fers، ووصل هؤلاء جميعاً مع حـاشية كبيرة من الفرسـان والأتباع إلى نهر التيمـز، وللسرور العظيـم للبـارونات، وصلوا إلى لندن في السـابع والعشرين من شباط.

وأعطى في هذه السنة ستيفـن رئيس أسـاقفـة كـانتربري ضمانات في رومـا بأنه سـوف يلتزم بقـرار البـابا حـول القضايا التي تقـدم ذكـرها، فجـرى تحريره من تعليقـه، إنما على شرط أنه لن يذهب إلى إنكلترا، قبل استرداد السلام الكامل بين الملك والبارونات.

تجديد القرار الصادر ضد البارونات لتمردهم

وفي العـــام نفســه، رأى في أيام عيــد الفصح راعي دير أبينغــدون Abingdon ورفـاقه من المحكمين استمـرار تمرد البـارونات مع سكان لندن، فأنزلوا بهم ضربات أشـد وأثقل، وتولوا إعـادة القـرار، وأعطوا أوامـر إلى جميع الكنائس الديرية في انكلترا لنشر القـرار الذي كـان قـد صـدر، وفق الصيغـة التـاليـة:«من هـ .H بنعمــــــة الرب راعي دير أبينغدون، الخ في متابعة لتنفيذ أوامر الوصاية الرسولية المفروضة علينا، ومثلما كـان مقصدنـا في رسائلنا التي حـولناها إليكم مـؤخـراً، نريد أن نفهمكم باستيعاب أكبر، أننـا لم نقم هذه المرة فقط، بل غالبـاً ما أرسلنا رسـائلنا تحتـوي كلمات مـرسـوم مـولانا البـابا إلى هيئة كهنة القـديس بولص، والقـديس مـارتن، وإلى غ. G دي بوكلاندي Boclande عميد الكنيسـة المذكور، وإلى المجمع الديري للثـالوث المقدس في لندن،

نأمرهم بوساطة السلطة الرسولية بالقيام على الفور بنشر قرارات الحرمان الكنسي والحرمان من شراكة المؤمنين، وعدم خرق مراعاتها وتنفيذها، وهي قرارات الحرمان التي صدرت ضد مضطهدي الملك المذكور، وضد مدينة لندن، ذلك أنهم قاموا من دون احترام بعدم تنفيذ قرار الوصاية الرسولية، وتحدوها، وقاموا بتمرد برفض نشر القرارات المذكورة، لا بل حتى بعدم الاعتراف بها، وتولوا وهم على دراية ومعرفة بالمساهمة في الخدمات اللاهوتية مع أولئك المحرومين كنسيا، وبذلك عبروا في كل جانب من الجوانب على أنهم خارقين لمراسيم مولانا البابا ورافضين بشكل علني لوصايته، الأمر الذي نحن على دراية كاملة به بوساطة رسائل موثقة من هيئة كهنة القديس بولص والقديس مارتن، وقد أرسلت خصيصاً إلينا من قبل كهنة ورسل العميد المذكور، وببراهين أخرى كافية، علاوة على ذلك وصل مؤخراً من المملكة الفرنسية بعض النبلاء مع عصبة من الفرسان المسلحين والأتباع، الذين نرغب في أن يغلوا جميعاً ويقيدوا بقرار الحرمان الكنسي، لأنهم يقومون بغزو مملكة انكلترا مراغمة لمولانا البابا وللكنيسة الرومانية، وهم ينبهونها يومياً، وجزئياً يحتفظون بتملكها، وبناء عليه إنه بموجب السلطات الرسولية، التي إلينا قد عهد بواجباتها وبأعمالها، نحن نشجب النبلاء المذكورين بمثابة محرومين كنسيا، وهم: قسطلان القديس أومر، وهيوج ثاكون، ويوستاس دي نيفيل، وقسطلان أراس Aras وبلدوين بريتيل، وو. W دي وايمز، وجايل دي ميلون، وو .W برمونت، وجايل دي هيرسي، وبيست دي فيرسي، مع معاونيهم، وجميع الذين منحوهم مساعدتهم، أو أموالهم، ضد الملك، لغزو مملكة انكلترا، والاستيلاء عليها، وكذلك العميد المذكور أعلاه، وكذلك جميع الكهنة ورجال الدين من كل مرتبة وطائفة في الكنائس المتقدم ذكرها، والمدينة ،الذين علموا بقرار الوصاية، وقاموا إما بتغييب أنفسهم، أو استخدموا كل وسيلة ، لمنع وصول القرارات إليهم

وتبلغهم بها، وبالسلطة نفسها نفرض عليكم أيضاً القيام بشجب جميع الذين تقدم ذكرهم أعلاه، بحكم كونهم محرومين كنسياً، وأن تدبروا نشر ذلك في جميع أرجاء أبرشيتكم، وذكر العميد بالاسم وكذلك ذكر النبلاء المتقدم ذكرهم، وإنه باظهاركم الاهتمام بهذه القضية، وكذلك تلك التي وردت في رسائله الأولى إليكم، يمكنكم تجنب الاتهام بالاهمال لدى الحبر الأعظم، وبالحري نيل الاطراء والسمعة لديه من أجل يقظتكم، وداعاً».

كيف أرسل لويس رسائل تطمين إلى البارونات

وفي هذه الآونة كتب لويس إلى البارونات الذي كانوا مقيمين في لندن، وإلى سكان المدينة كما يلي:«من لويس الابن الأسن للملك فيليب، إلى جميع أصدقائه وحلفائه في لندن، الصحة وأفضل التمنيات، كونوا متأكدين أننا لدى اقتراب أحد الفصح سوف نكون جاهزين في كالي، بفضل الرب، وذلك من أجل عبور البحر، وبما أنكم تصرفتم بأنفسكم بتماسك وشجاعة في جميع شؤونكم، إننا بالمقابل نرسل إليكم وفرة من الشكر، ونحن نطلب منكم بإخلاص ونسألكم الاستمرار كما فعلتم دوماً، وتصرفتم بأنفسكم بكل شجاعة، ونحن نود أيضاً أن تكونوا متأكدين أننا سنكون لديكم خلال وقت قصير لمساعدتكم، ونحن نرجوكم باخلاص بالنسبة لهذه القضية، أن لا تثقوا بالاقتراحات الأخرى الزائفة، أو بالمكاتيب أو بالرسائل، لأننا نعتقد أنكم سوف تتسلمون رسائل مزيفة، ورسلاً مضللين، وداعاً».

وفي هذه الآونة خرج البارونات من لندن،وتوجهوا على شكل جماعة واحدة مع الفرسان الذين وصلوا مؤخراً من فرنسا للتمتع برياضة التبارز بالرماح فقط، ولبسوا دروعهم، وبعد إمضاء جزء كبير من النهار في حث خيولهم على الركض بسرعة، وطعن أحدهم الآخر برماحهم سدد واحد من الفرسان الفرنسيين رمحه ضد غيوفري دي

ماندفيل ايرل أوف اسكس وأصابه بجراحة قاتلة، وقام الايرل على كل حال بالعفو عن الرجل الذي جرحه، وبعد مضي عدة أيام مات، مما سبب حزن كثيرين عليه.

كيف قدم والو بمثابة ممثل للبابا إلى الملك الفرنسي

وفي تلك الآونة نفسها، جرى إرسال المعلم والو Walo من قبل البابا إلى فرنسا مع سلطات رسولية لمنع لويس من الزحف إلى انكلترا، ولدى وصوله إلى الملك فيليب قدم إليه رسائل استنكار من البابا، كانت محتوياتهاوأهدافها أن لا يسمح لابنه لويس بالذهاب إلى انكلترا كعدو، أو أن يقوم بالتضييق على الملك الانكليزي بأية طريقة من الطرق، بل أن يحميه ويحبه، لأنه تابع لكنيسة روما، وبحكم أنه رجل مملكته وحق حكمها عائد إلى كنيسة روما المذكورة، وفور قراءة الملك الفرنسي لهذه الرسائل أجاب:«لم تكن مملكة انكلترا قط ميراثاً لبطرس، وليست هي الآن، ولن تكون، لأن الملك جون، قد حاول منذ وقت طويل مضى، ظلماً انتزاع مملكة انكلترا من أخيه الملك رتشارد، ولذلك اتهم بالخيانة، وأدين بها بحضور ذلك الملك نفسه، وحكم عليه بموجب قرار صدر عن ذلك الملك نفسه في بلاطه، وقد تفوه بقرار الحكم هيوج دي بوساز Pusaz أسقف درم، ولذلك هو ليس ملكاً حقيقياً، ولا يمكنه التنازل عن مملكته، بالاضافة إلى ذلك هو لم يكن قط ملكاً شرعياً، ثم إنه خسر مملكته فيما بعد بقتله لآرثر، ولهذه الفعلة أدين في محكمة بلاطنا» ثم إنه قال أنه ما من ملك أو أمير يمكنه تسليم مملكته والتنازل عنها من دون موافقة باروناته، الذين مفروض عليهم الدفاع عن تلك المملكة، وإذا كان البابا مصر على الدفاع عن تلك الخطيئة، سوف يكون ذلك مثلاً على درجة عالية من السوء بالنسبة إلى جميع الممالك، ووقتها أبدى النبلاء معارضتهم وعبروا عن ذلك بصوت واحد، بأنهم سوف يعارضون تلك المسألة حتى الموت، والمقصود بذلك

قيام ملك أو أمير وتمكنه حسب أهوائه وحده، بالتنازل عن مملكته، أو بجعلها تدفع الجزية وتحت سلطان هواها، لأن ذلك سوف يجعل نبلاء المملكة عبيداً، ووقعت هذه الأحداث في ليون في اليوم الخامس عشر بعد الفصح.

كيف منع المندوب البابوي نفسه لويس من الذهاب إلى انكلترا

وجاء لويس في اليوم التالي إلى حضور اجتماع، بناء على طلب أبيه، وقد نظر بوجه مقطب إلى المندوب البابوي، وجلس إلى جانب أبيه، ووقتها بدأ المندوب البابوي يرجو لويس بمختلف وسائل الاستعطاف بعدم الذهاب إلى انكلترا لغزو ميراث كنيسة روما أو الاستيلاء عليه، واستعطف والده كما فعل من قبل، بأن لا يسمح له بالذهاب، وقام الملك الفرنسي —على كل حال— بإجابة المندوب البابوي بهذه الكلمات:« لقد كنت دوماً حليفاً مؤمناً ومخلصاً لمولانا البابا، ولكنيسة روما، وسعيت في جميع الأحوال حتى الآن نحو رفع شأن البابا والكنيسة بشكل فعال، ولن ينال ابني لويس الآن نصيحتي بمحاولة القيام بأي شيء ضد كنيسة روما، وعلى كل حال إذا استطاع لويس أن يبرهن على وجود أي إدعاء محق في مملكة انكلترا، دعونا نسمع منه وأن نعطيه ما هو حق له» وبناء على هذا، نهض فارس كان لويس قد عينه للمرافعة باسمه، وأجاب على مسمع من الجميع قائلاً:«مولاي الملك، إنها حقيقة معروفة بشكل جيد من قبل الجميع بأن جون، المدعو باسم ملك انكلترا، محكوم عليه بالموت، بموجب قرار صدر عن نظرائه في بلاطكم، بسبب خيانته لابن أخيه آرثر، الذي قتله بيديه، ثم جرى خلعه بعد ذلك بوساطة بارونات انكلترا، من سلطانه عليهم، بسبب كثير من جرائم القتل واعتداءات أخرى وجرائم قد اقترفها هناك،ولهذا السبب شن البارونات المذكورون الحرب ضده، لطرده من عرش المملكة، وعلاوة على ذلك، أعطى الملك المذكور— من دون موافقة

نبلائه— مملكة انكلترا إلى مولانا البابا، وإلى كنيسة روما، حتى يتمكن من استئناف تملكها منهما، مقابل مبلغ ألف مارك يدفعه سنوياً وإذا لم يكن بإمكانه إعطاء تاج انكلترا إلى أي إنسان، من دون موافقة البارونات، بإمكانه— على كل حال— الاستقالة، وبمجرد استقالته من حمل التاج، توقف عن كونه ملكاً، وباتت المملكة من دون ملك، ولا يمكن تسوية مشكلة المملكة الفارغة من دون معرفة موقف البارونات، ولذلك اختاروا لويس ليكون مولى لهم، لسبب هو أن زوجته، التي أمها ملكة قشتالة، هي الوحيدة الباقية حية من بين جميع إخوان وأخوات ملك انكلترا المذكور»، واحتج النائب البابوي بأن الملك جون قد حمل الصليب، وبناء على ذلك، وبموجب قرار المجمع المسكوني يستحق تملك السلم لمدة أربع سنوات، وينبغي بقاء جميع أملاكه مضمونة وسليمة تحت حماية الكرسي الرسولي، ولذلك يتوجب أن لا يشن لويس في ذلك الوقت الحرب على الملك المذكور، أو حرمانه من مملكته، وعلى هذا رد وكيل لويس قائلاً: «لقد شن الملك جون قبل حمله للصليب الحرب على مولانا لويس، وحاصر ودمر قلعة بنكهام، ومثل ذلك استولى على آريا، وأحرق الشطر الأكبر منها، واعتقل عدداً من الفرسان مع أتباعهم في ذلك المكان، وما زال يحتفظ بهم أسرى لديه، وحاصر أيضاً قلعة لين Liens وقتل عدداً كبيرا من الناس في ذلك المكان، وعاث فساداً بالسيف والنار في كونتية غسني Gisnes التي هي اقطاع قانوني لمولانا لويس، وأكثر من هذا إنه ما انفك يشن الحرب ضد مولانا لويس حتى بعد حمله للصليب، ولذلك يمكن بشكل مسوغ إثارة الحرب ضد الملك المذكور».

ولم يقتنع النائب البابوي—على كل حال— بهذه المسوغات، فمنع لويس— كما فعل من قبل، تحت طائلة الحرمان الكنسي— من محاولة الدخول، ومنع أيضاً أباه من السماح له بالذهاب، ولدى سماع لويس

لهذا، قال لأبيه:«مع أنني تابع اقطاعي لك، في الاقطاعية التي منحتني اياها في هذا الجانب من البحر، إنه ليس من واجبك تقرير أي شيء يتعلق بمملكة انكلترا، وبناء عليه إنني أخضع نفسي لقرار نظرائي، حول عما إذا كان يجوز لك منعي من طلب حقوقي، ولاسيما الحق الذي لايمكنك تقديم العدل لي بشأنه، ولذلك أسألك أن لاتعيق مقصدي في السعي وراء حقوقي، لأنني من أجل ميراث زوجتي، سوف - إذا اقتضى الحال—أصارع حتى الموت» وما أن أكمل لويس النطق بهذ ه الكلمات، حتى انسحب من الاجتماع مع أتباعه، ولدى رؤية النائب البابوي لهذا، طلب من الملك منحه أماناً حتى يصل إلى ساحل البحر، وعلى طلبه هذا رد الملك قائلاً:«نحن بسرور نمنحك أماناً بالمرور في أراضينا، لكن إذا صدف ووقعت في يدي يوستاس الراهب، أو في أيدي أي واحد من رفاق لويس الآخرين، المسؤولين عن البحار، لا تلمني لأي شيء سوف يقع لك»،وإثر هذا غادر النائب البابوي البلاط مغضباً.

كيف حصل لويس على إذن أبيه وذهب إلى انكلترا

وفي اليوم التالي الذي كان يوم عيد القديس مرقص الانجيلي، ذهب لويس إلى أبيه في ميلون Melun ورجاه عدم إعاقة رحلته المقترحة، وأضاف بأنه أعطى يمينه إلى بارونات انكلترا، أنه سوف يقدم إلى عونهم، ولذلك هو بالحري يؤثر أن يجري حرمانه كنسياً لبعض الوقت من قبل البابا، ويفضل ذلك على نيل تهمة الزيف والخداع، ورأى الملك اصرار ابنه وقلقه، فأعطاه إذنه، وأرسله مع تبريكاته، وعندها أرسل لويس رسلاً إلى بلاط روما، ليعرضوا أمام البابا حقوقه التي يدعيها لنفسه في مملكة انكلترا، وبعد هذا بادر مسرعاً كل السرعة نحو شاطىء البحر، بصحبة ايرلاته، وباروناته وفرسانه وعدد كبير من الأتباع، حتى يتمكن من الوصول إلى انكلترا قبل النائب البابوي، وعندما وصل

وصحبه إلى ميناء كالي وجدوا هنـاك ستمائة سفينة، وثمانين غليون، كلها مجهـزة بشكل جيد، وكلهـا كـان يوستـاس الراهب قـد أعدها وجمعهـا بانتظار وصـول لويس، ولذلك أقلع الجميع على الفـور، وأبحـروا بكل سرعـة، باتجاه جـزيرة ثانت Thanet حيث رسـوا في مكان يدعى ستانهور Stanhore في الحادي والعشرين من أيار، وكان الملك جون آنذاك في دوفـر مع جيشـه، لكن بما أنـه كـان محاطاً بمـرتزقـة أجـانب، وفرسان من مناطق ما وراء البحر، لم يغامر بمهاجمة لويس وقت رسوه، خشية أن يتخلوا عنه أثناء القتال، وينضموا إلى جانب لويس، وتخلى عن قلعة دوفـر، التي عهد بها إلى هيـوج دي بورغ Burgh واستمر في فراره حتى وصل أولاً إلى غولد فورد، Guldford وبعد ذلك إلى وينكستر، وعندمـا لم يجد لويس من يعترض سبيلـه نزل في سـاندويش، وأخضع على الفـور المنطقة كلهـا باستثناء قلعـة دوفـر، ثم إنه ذهب إلى لندن، واستقبل هنـاك بسرور عـارم من قبل جميع البـارونات، وتلقى الولاء والتـابعيـة منهم جميعـاً، ومن سكان المدينة الذين كـانوا ينتظرون وصـولـه هناك، وأقسم هو نفسـه على الأناجيـل المقـدسـة بأنـه سـوف يمنحهم قـوانين جيدة ويعيـد مـواريثهم لكل واحد منهم ولهم جميعـاً، وكتب كـذلك إلى ملك الاسكـوتلنديين، وإلى جميع نبـلاء انكلترا، وبناء على هذه الأوامـر قـدم إليـه وليم ايرل وارني Warrene ، و.وW ايرل أوف آروندیل A rundel ، وو. W ايرل أوف سـالسبري، وو.W ميرسكال Marsckal الأصغر، وآخرون كثر بالاضافة إليهم، حيث تخلوا عن الملك جـون، وكأنهم كـانـوا متأكـدين تماماً بأن لويس سـوف يستحـوذ على المملكة، وعين لويس المعلم سيمـون لانغتـون مستشـاراً له، وهـو الذي تولى وعظ سكان لندن، وكـذلـك البـارونات المحرومين كنسياً، أثناء تأديتهم للخدمـات اللاهوتية، وأقنع أيضاً لويس بالموافقة عليها.

النائب البابوي والو يتبع لويس إلى انكلترا

وفي هذه الآونة، عندمـا سمع والو النائب البـابوي، بـأن لويس قـد غـادر إلى انكلترا، قام كنـائب نشيط للكرسي الرسـولي ووصايتـه، فعبر البحر للحاق به، وعبر من بين الأعداء دون أن يصاب بالأذى، ووصل إلى الملك جـون في غلوستر، واستقبله هذا الملك بسرور عـارم، وألقى بجميع آماله في أن يتمكن من مواجهة أعدائه عليه، وعندها جمع النائب البـابوي جميع الأساقفـة، ورعـاة الديرة، ورجـال الدين الذين تمكن من حشدهم، وقام وسط قرع الأجراس، والشموع المشتعلة، فحرم بالاسم لويس المذكور مع جميع المتعاونين معه ومحرضيه، وخاصة المعلم سيمون لانغتون، وأمر بالوقت نفسه الأسـاقفة المذكورين وجميع الآخرين، بنشر هذا القرار في جميع أرجـاء انكلترا كل يوم أحد ويوم عيـد، وقد ردّ على هذا كله المعلم سيمـون لانغتون، والمعلم غيرفـاس دي هوبرجي -Ho bregge قائـد جوقة المرتلين في كنيسة القـديس بولص في لندن، وعدد من الآخـرين، بأنهم قد عملوا مـرافعة استئناف نيـابة عن لويس، ولهذا هم يعـدّون ذلك القـرار لاغيـاً وفـارغـاً، وفي هـذا الوقت تخلى جميع الفرسـان والجنود من بلاد فلاندرز ومن مقـاطعات مـاوراء البحار عن قضيـة الملك جـون وذلك باستثناء الذين هـم من بواتو، وقـد التحق بعضهم بلويس، وعاد بعضهم الآخر إلى وطنهم.

كيف أخضع لويس المقاطعات الجنوبية لانكلترا

وفي هذه الآونة غادر لويس مدينـة لندن مع كتلة كبيرة من الفرسان، وهاجم كونتية كنت، ونظرا لعدم تصـدي أحد له، أخضعها على الفور، وذلك باستثناء قلعة دوفر، وتابع زحفه فاستولى بالقوة على سسكس مع جميع البلدات والحصـون، لكن كـان هناك شـاب اسمـه وليم، رفض تقديم الولاء إلى لويس، وحشد جماعة من ألف نبال، ولجأ إلى الأحراش والغـابـات التي كـانت كثيرة في تلك المنطقـة، واستمـر بالقتـال ضـد

الفـرنسيين خـلال تلك الحرب كلهـا، وقتل آلافـاً كثيرة منهم، ووصل لويس أخيراً إلى مـدينة وينكستر، وقـد أخضعهـا مع القلعـة والمنطقـة المجـاورة كلهـا، وذهب هيـوج دي نيفيل إلى لـويس، وسلم إليـه قلعـه مالبورا Malborough ، وقدم الولاء له، وذهب لويس بعد هذا إلى أوديهام Odiham، وهي بلدة كـانـت عـائـدة بملكيتهـا إلى أسقف وينكستر، وألقى الحصـار على البرج، وكان في هذا البرج ثـلاثة فرسـان فقط وعشرة عساكـر، وقد دافعوا بشجـاعة عنه، وفي اليوم الثـالث، قام الفرسـان الثلاثة المتقدم ذكرهم مع جنودهم بهجـوم مباغت من البرج، وذلك بعدما كان الفرنسيون قد رتبوا مجانيقهم حول البرج، وقاموا بعدة حملات حـادة عليـه، وقـد أسر هؤلاء من الفـرنسيين مثل عـددهم من الفرسان والجنود، وعادوا إلى البرج واستردوه دون أن يعانوا من خسارة بينهم أنفسهم، وبعـدما -على كل حـال- استمر الحصار لمدة ثمانيـة أيام سلمـوا البرج إلى لويـس، وخـرجـوا منه أنفسهم وعـددهـم ثلاثة عشر فقط، ومعهم خيـولهم وأسلحتهم مصـانة، مما سبب دهشـة كبيرة بين الفــرنسيين، وهكـذ وقعت جميع المناطـق الجنوبيـة تحت سلطـة لويس باستثناء قلعة دوفر، وِوندسور، التي كـانت مشحونة بشكل جيد، تنتظر وصول لويس، وفي الوقت نفسـه قام وليم دي مـانديفيل، وروبرت فتز -وولتر، ووليم دي هنتنغفيلد مع جيش قـوي من الفـرسـان والجنود، فأخضع كـونتيتي اسكس وسفـولك، ووضعهما تحت سلطة لويس، وفي أثناء حدوث هذا كله، وضع الملك جون مؤناً جيدة وأعتدة وأسلحة في قـلاع: وولنغفـورد، وكـورفي، وورهـام، وبريستـول، وديفيـزي De-vizes، مع أعداد أخرى كثيرة من الصعب ذكرها.

نشاطات رسل لويس في روما

وفي هذه الآونة كتب الرسل الذين أرسلهم لويس إلى بلاط روما إليه كمايلي: «إلى مولانا القوي جداً لويس الابن الأكبر للملك فرنسا، يتمنى له

الرسل: د. D دي كوربيل Corbeil، وإ i دي مونتفيستـــو Mon-tevisto، وغ. G لايمث Limeth، الصحـة والأدعية الصـالحة، ليكن معلومـاً من قبلكم ياصـاحب السمو أنه في يوم أحـد «ad mensem Pasclae »، وصلنا إلى مـولانا البـابا، من دون أذى لأنفسنا ولسلعنا، ومثلنا على الفور أمامه في اليـوم نفسه، وقد وجدناه مشرق النفس، لكن كما يبـدو لديه سبب مايـدفعه إلى الأسف، وعندمـا قـدمنا رسائلنا إليـه وحييناه باسمكـم أجـابنا: «إن مولاكم ليس جديـراً بتحيتنا» فأجبته على الفور قائـلاً: « أعتقد ياأبانا أنك عندما تسمع أسبـاب وتعليلات مولانا سوف تجده جديراً بتحيتك، كمسيحي وكـاثوليكي، وواحداً مخلصاً لك دومـاً، ولكنيســة رومـا»، وهكذا انسحبنا من حضرتـه في ذلك اليـوم، ولكن أثناء انصرافنا، أخبرنـا قـداستـه بلطف عظيـم، أنه على استعـداد لمنحنا مقـابلة أخـرى، عندمـا نرغب، وفي الـوقت الذي نريده، وفي يوم الثلاثاء التالي أرسـل مولانا البابا واحداً من حاشيتـه، إلى مكان اقامتك، آمـراً إيانا بالقـدوم إليه، وبناء عليـه مثلنا على الفـور بحضرته، وبعدمـا عـرضنا قضيتنا، قال الكثير في جـوابه لنا، ومـا أن أكمل عرضـه، حتى ضرب صدره وتنهـد عميقاً، وقال: «الويل لي، إنـه في هذه المشاكل، لن تستطيع كنيســة الرب النجـاة من الاضطراب، لأنه إذا مــاقُهــر ملك انكلترا، سوف نجـد أنفسنا متورطين في مشـاكله، لأنه تابع اقطاعي لنا، ومتوجب علينا حمايته، وإذا ما قُهر مولاكم لويس، ففي تعرضه للضرر، ضرر لكنيسـة رومـا، لأننا نعـدّ الضرر الذي يلحق به مثل الضرر الذي يلحق بنا أنفسنا، ولقد تمسكنا دومـاً بالأمل، ونحن نتمسك به الآن، في أن لايكون في جميع أوقـــات الحاجــة الســـلاح في قمع السلوان، وفي اضطهـاد اللاجئين إلى كنيسة رومـا»، وقال أخيراً بأنه يتمنى أن يمـوت الآن على أن يلحق بك أي أذى في هذه القضية، وهكذا غادرنا من عنده في ذلك اليوم، علاوة على ذلك، نحن -بناء على نصيحة بعض الكرادلة - بانتظار يوم عيد الصعـود، من أجل أن لايصدر أي قـرار ضدك، لأن

من عادة البـابا أن يكرر قراراته، ذلك أن البابا أخبرنا بنفسـه بأنه يتوقع رسائل من السيد والو، وداعاً».

فيما يلي

الاتهامات التي أثارها لويس وبارونات انكلترا ضد الملك جون

وكانت أول تهمة عرضت أمام مولانا البابا ضد الملك جون، من قبل الرسل المتقدم ذكرهم، أنه قام بشكل اجرامي بقتل ابن أخيه آرثر بيديه، وهو أسوأ أنواع القتل حسب تعريفات جرائم القتل الانكليزية، وبسبب هذه الجريمة أدين الملك المذكور وحكم عليـه بالاعدام، في محكمة بلاط الملك الفرنسي، من قبل قضاة من أمثاله مرتبة، وجاء اعتراض البابا على هذه التهمة، بأنـه لايمكن لبارونات الحكم عليه بـالموت، لأنه كان ملكاً معمـداً، وبالتـالي رئيسـاً لهم، ولايمكن أن يحكـم عليـه بالموت من قبل البارونات، لأنهم أدنى منه مـرتبة، ولأن الأعلى مـرتبة يمكنه من بعض الجوانب تدمير سلطة الأدنى مـرتبـة، وبـالاضـافـة إلى ذلك، واضح أنه معـارض للقـانون المدني، وعلى عكس القـانون الكنسي اصـدار قـرار بالإعـدام على رجـل غير حـاضر، ولم يتم استـدعـاؤه، ولاتجريمـه، أو اعترافه بأنه مجرم، وعلى هذا أجاب الرسل قائلين: «إن من أعراف مملكة فـرنسـا، أن يكون للملك جميع أنـواع السلطات القضـائيـة على رعـاياه الاقطاعيين، وملك انكلترا من رعـاياه الاقطاعيين، فقـد كـان كـونتـا ودوقـاً، ومع أنه كان في مكان آخـر ملكاً معمداً، هو بحكم كـونه ايرل ودوق، قـد كـان تحت السلطان القضـائي لمولانا، ملك فـرنسـا، وإذا مااقترف أي ايرل أو دوق مثل هذه الجريمـة في المملكة الفرنسية، يمكن -لابل ينبغي - الحكم عليـه بالإعدام مـن قبل نظرائه، وأكثـر من هذا، إنه حتى وإن لم يكن دوقـاً أو كونتـاً، أو تابعـاً اقطاعيا من رعـايا الملك الفـرنسي، واقترف هذه الجريمة في المملكة الفـرنسية، يمكن للبـارونات فيما يتعلق بجريمة اقترفت في تلك المملكـة، الحكم عليه بالاعدام، ومن

جانب آخر إذا كـان من غير المملكن الحكم على ملك انكلترا بالاعدام، لأنه ملك معمد، من الممكن قدومه إلى فرنسا، ومن ثم يدان بالقتل، من قبل البارونات لقتله آرثر، وعلى هذا أجاب البابا قائلاً: «هناك عدد كبير من الأباطرة والأمـراء، لابل حتى ملوك فـرنسيين، قـد أفيـد من قبل التاريخ بأنهم قتلوا كثيراً من الأشخاص الأبرياء، ومع ذلك نحن لم نقرأ بأن أي واحد من هؤلاء قـد حكم عليه بالاعدام، وعندمـا جرى سجن آرثر في ميربو، لم يكن انسـاناً بريئاً، بل كان مجرمـاً وخائناً لعمـه ومولاه الذي إليه قدم الولاء وأقسم على التابعية، لذلك من الممكن الحكم عليه بأسوأ أنواع الموت من دون محاكمة.

التهمة الثانية التي أثيرت من قبل المذكورين أعلاه ضد جون

وكانت التهمـة الثانية التي أثيرت ضـد الملك، أنه قد استـدعي مراراً للمثـول أمـام محكمـة بلاط فـرنسـا، وهو لم يظهـر شخصيـاً حتى ينال محاكمته، ولم يرسل أحداً نيابة عنه ليقوم بالاجابة عوضاً عنه، وعن هذه التهمـة رد البابـا، بأن ملك انكلترا لم يكن متمـرداً إلى درجة ظهـوره في المحكمة أو دعوته للمثول أمام المحكمة، وما من أحد يمكنه -أو ينبغي له - أن يعـاقب بالموت بسبب التمـرد أو العصيـان، ولذلك لايمكن لبـارونات فـرنسا الحكـم عليه بالموت، بل يمكـن لهم معاقبتـه بطريقـة أخـرى، أي بحرمـانه من اقطاعـه وتجريده منه، وقد أجـاب الرسل على هذا قـائلين: «إن العـرف في المملكة الفـرنسيـة، أنه عندمـا يتم اتهام أي واحد أمام القاضي بجريمـة قتل وحشية، ولم يظهر المتهم أمام المحكمة، ولم يرفع استئنافاً شرعياً يسوغ فيـه عدم ظهوره، فإنه يعد مجرماً، ويجري تجريمه وتجري ادانتـه بجميع التهم، حتى إلى حكم الاعدام، وكـأنه كان حاضراً»، وعلى هذا رد البـابا قائلاً، بأنـه من الممكن الحديث عن وجود اتفاق بين ملك فرنسا، ودوق نورماندي، أو عادة قديمة وبموجب ذلك يتـوجب على دوق نورماندي، إذا مـادعـاه ملك فرنسـا، أن يصل حتى

حدود دوقيته، ولذلك إنه إذا لم يستجب أثناء استدعائه، هو لم يقترف جريمة، كما لايمكن بسبب ذلك عقوبته بمثل هذه الطريقة، وقال البابا أيضاً، وبما أن القرار الذي صدر ضد ملك انكلترا -لم يتم تنفيذه، لأنه لم يعدم، فبموجب ذلك إن أولاده الذين ولدوا بعد ذلك، ينبغي أن يخلفوه في المملكة، لأن ملك انكلترا لم يقترف جريمة الخيانة، أو الهرطقة، لأن مقترفها فقط لايحق لولده أن يرث والده، بسبب جريمة أبيه، ورد الرسل على هذه الحجة قائلين: «إن العادة في مملكة فرنسا، أنه عندما يصدر الحكم بالاعدام على أي واحد، فإن أولاده الذين ولدوا له بعد صدور الحكم عليه لايحق لهم خلافته»، هذا ولم يرغب الرسل بمناقشة هذه النقطة، ثم قال البابا بعد ذلك، ومع أن ملك انكلترا قد صدر حكم الإعدام عليه، وقد ولد له أولاد من صلبه، فإن بلانشي لايجوز لها أن تخلفه، بل يخلفه الأقرب إليه من أسرته، أي أولاد أخيه الأكبر، وعلى هذا أخت آرثر، أو أوتو، الذي هو ابن أخته الكبرى، وإذا ماتقرر بأن ملكة قشتالة ينبغي أن تخلفه، وبعد ذلك ابنتها بلانشي بحكم أنها ابنتها، وهذا لايمكن أن يكون صحيحاً ولا لائقاً، لأن الذكر ينبغي أن يكون هو المفضل، أي ملك قشتالة، وإذا لم يتوفر ذكر، فإن ملكة ليون ينبغي أن تفضل لأنها الأكبر سناً، وعلى هذا رد الرسل قائلين: « إن أبناء الأخ لاينبغي لهم أن يخلفوه، لأن الأخ لم يكن حيا وقت صدور القرار، وأخت ابن أخيه آرثر لايجوز لها أن تخلفه لأنها لم تكن منحدرة من خطه النسبي مباشرة، مع أنها ابنة أخيه، ومثل هذا أم أوتو، لم تكن حية وقت صدور القرار، لذلك هي لم تخلفه، وبالنتيجة لذلك لايجوز لأوتو أن يخلفه، لكن ملكة قشتالة كانت حية، وهي أخته، ولذلك يحق لها خلافته، ولدى موت ملكة قشتالة فإن أولادها هم الذين يخلفونها وينبغي أن يخلفوه، وعلى هذا رد البابا قائلاً، بأن ملك قشتالة ينبغي أن يخلفه، لأنه كان الوريث الذكر، أو ملكة ليون لأنها أكبر الوريثات سناً، وعلى هذا أجاب الرسل، بأنه عندما يكون هناك عدة ورثاء، يتوجب أن

يرثوا انسانا واحداً، إن الذي يأتي أولاً في الخلافة، يظل هو المحور، لكنه إذا ما أهمل الدخول في عملية الوراثة، يحل محله الذي يليه بالوراثة، وإذا مارغب بالدخول في عملية الوراثة، يتوجب تعيينه وتوريثه، وذلك وفقاً لعادة معترف بها، مع استثناء حق الآخر إذا ماطالب به، وبناء عليه دخل مولانا لويس إلى مملكة انكلترا، بحكم أنها مملكته، ولكن إذا توفر من هو أكثر قرابة منه، فليتقدم بدعواه في هذه القضية، وسيلتزم مولانا لويس بما هو صحيح ويأخذ به.

الاعتراض الثالث ضد الملك جون

ثم قال البابا بأن مملكة انكلترا قد كانت مملكته، بحكم قانون التابعية الاقطاعية وبسببه، فلأجل ذلك قد تلقى قسماً يتعلق بها، وكذلك بسبب المورد الذي يدفع له من المملكة، وبما أنه لم يقترف ذنباً، فلايجوز للويس أن يشن الحرب عليه، لينتزع منه بالقوة مملكة انكلترا، خاصة وأن ملك انكلترا مستحوذ عدداً من الاقطاعات من ملك فرنسا، ولهذا السبب لاتجوز إثارة الحرب ضده، وفي ردهم على هذا قال الرسل: «إنها الحرب، وحرب عادلة قد خيضت ضد ملك انكلترا، قبل أن تصبح هذه المملكة عائدة إلى قداستكم، هذا وكان وليم صاحب السيف الطويل وكثير آخرون قد قدموا مع قوة كبيرة من مملكة انكلترا، وأنزلوا كثيراً من الأذى بفرنسا، وسببوا كثيرا من الخسائر للمولى لويس، لذلك يحق له بشكل مسوغ وعادل شن الحرب ضد ملك انكلترا»، وعلى هذا رد البابا قائلاً: إنه مع أن ملك انكلترا قد شن الحرب على لويس، لايجوز للويس أن يهاجمه ويشن الحرب ضده، بل يتوجب أن يشتكى منه إلى مولاه، أي إلى البابا، الذي له ملك انكلترا تابع اقطاعي ومن رعيته، وعندها أجاب الرسل بأن العادة قد جرت، أنه عندما تشن الحرب على أي واحد من قبل تابع اقطاعي لواحد آخر اعتماداً على سلطاته ومسؤوليته الخاصة، يحق للذي شنت الحرب عليه تقديم شكوى إلى

مولى الرجل الآخر، وإذا ماأقدم ذلك المولى على حماية ذلك التابع أثناء استمراره بشن الحرب، فإن المولى نفسه هو الذي قام بشن الحرب، ووقتها قال البابا بأنه قد تقرر في المجمع المسكوني وجوب قيام سلام، أو هدنة لمدة أربع سنوات بين جميع المختلفين، من أجل تقديم ضمانة إلى الأرض المقدسة، ولذلك لايجوز للويس شن حرب على مملكة انكلترا، أثناء تلك المدة، ورد الرسل على ذلك قائلين بأن لويس عندما غادر فرنسا، لم توجه إليه دعوة للحفاظ على السلام، أو الهدنة، لابل حتى وإن تلقى شيئاً من هذا القبيل، فإنهم يعتقدون بوجود نوايا سيئة من جانب ملك انكلترا، ذلك أنه لن يحافظ لاعلى السلام ولا على الهدنة، ثم قال البابا بأن ملك انكلترا قد حمل الصليب، وبناء عليه إنه بموجب قرار المجمع المسكوني، فإنه يتوجب حمايته وحماية جميع ممتلكاته من قبل الكنيسة، وعلى هذا أجاب الرسل، بأن ملك انكلترا قد شن الحرب على لويس قبل أن يحمل الصليب، وقد أنزل به كثيراً من الأضرار، واستولى على قلاعه، لابل إنه مازال يحتجز لديه فرسانه وجنوده في السجن، وعلى هذا هو مايزال في حالة حرب ضد لويس، وهو لن يمنحه سلام ولن يقيمه معه، ولن يعطيه هدنة، مع أنه غالباً ماطلب منه فعل ذلك، ثم قام البابا بإخبارهم، أنه بموافقة عامة من المجمع المسكوني جرى حرمان بارونات انكلترا كنسياً مع محرضيهم، وبناء عليه فإن لويس قد أوقع نفسه تحت طائلة هذا القرار، وأجاب الرسل على هذا بأن مولاهم لويس لايقوم بمساعدة بارونات انكلترا، كما أنه ليس محرضاً لهم، بل هو يعمل فقط على نيل حقوقه، ولويس لم يعتقد، ولايمكنه أن يعتقد بأن البابا أو المجمع يمكن أن يقوما بحرمان انسان كنسيا بشكل غير عادل، لأنه في وقت صدور القرار لم يعلم قداسته بأن لويس لديه أي ادعاء أو مطالبة بمملكة انكلترا، وبما أن هذا قد تبرهن له، فإن لويس لم يعتقد بأن المجمع سوف ينتزع حقوقه منه، وقال البابا بعد هذا بأن ملك فرنسا، وكذلك ابنه لويس، قد قام حتى بعد صدور قرار الحكم ضد

ملك انكلترا من قبل البارونات الانكليز، بدعوة جون باسم ملك، وعدّه ملكاً، وعمل معاهدات معه بحكم كونه ملكاً لانكلترا، وعلى هذا أجاب الرسل، بأنه بعدما صدر قرار الحكم ضد الملك من قبل البارونات، لم يعدّوه قط ملكاً، لابل دعوه باسم «الملك المخلوع»، وفق الطريقة نفسها التي يعامل بها راعي دير أو أي واحد آخر جرى خلعه، وأخيراً قال البابا، بأنه سوف يتخذ قراره حول هذه القضايا، قبل وصول الرسل من عند والو.

كيف عاث لويس فساداً في المقاطعات الشرقية من انكلترا

وقام لويس في هذه الآونة بهجوم على المناطق الشرقية من انكلترا، ونهب مدن وبلدات اسكس، وسفولك، ونور فولك، وقد وجد قلعة نورويك مهجورة، فشحنها بجنوده، وفرض ضرائب على جميع هذه المناطق، كما أنه أرسل قوة كبيرة ضد بلدة لين Lynn ، حيث جرى الاستيلاء عليها، مع أخذ سكانها أسرى، وإرغامهم على دفع أتاوة كبيرة، وعاد الفرنسيون بعد هذا مع غنائم كبيرة وأسلاب إلى لندن، وقدم في ذلك المكان غيلبرت دي غانت Gantإلى لويس، وإليه قدم سيف كونتيه لنكولن، ثم بعثه لويس من هناك للتصدي لغارات حاميتي قلعتي: نوتنغهام، ونيوآرك Newark لقيامهما بتدمير جميع مساكن البارونات وأبنيتهم الجميلة بالنار في تلك المنطقة، مع الاستيلاء على الأراضي التي كانت بحوزتهم وملكاً لهم، وفي تلك الآونة أخضع روبرت دي روس Roos، وبيتر دي بروز، ورتشارد بيرسي مدينة يورك وجميع المنطقة لصالح لويس، واستولى غيلبرت دي غانت وروبرت دي روبلي Roppelleعلى مدينة لنكولن وتلك المنطقة باستثناء القلعة، وفرضوا ضريبة سنوية عليها كلها، وزحفا من هناك إلى هويلاند Hoyland، فنهباها، وفرضا ضريبة عليها، وأخضع ملك سكوتلندا جميع كونتية نورثأمبرلاند، لصالح لويس، باستثناء القلعتين

اللتين كـان هيـوج دي بيللول Baillul وفيليب دي هيولكوت Hu-lecotes يدافعان بشجاعة عنهما ضد المهاجمين من الأعداء، وجرى على كل حال اخضـاع جميع هذه المقاطعـات، وأقسمت يمين الولاء للويس، وجبى في هذا العـام والو النائب البـابوي ضرائب على الـوكـالات من الكنائس الكاتدرائيـة، ومن البيـوت الدينية في جميع أرجـاء انكلترا، أي خمسين شلنا من كل وكـالة، وعـلاوة على ذلـك فـرز جميع منافع الكهنة ورجال الدين الذين قدموا مساعدة، أو مشورة، أو رعاية لقضية لويس، وحوّل ذلك كله لاستخداماته شخصيا ولاستخدامات كهنته.

حصار قلعة دوفر من قبل لويس

وفي هذا العام نفسه، ألقى لويس مع قـوة كبيرة من الفرسان والجنود الحصـار على قلعة دوفـر، وكان ذلك في يوم عيـد ميلاد القـديس يوحنا المعمـدان، وكان قـد أرسل أولاً إلى أبيـه ليبعث إليه آلـة قذف يدعـوها الفـرنسيـون باسم «Malvoisine»، وقد صف الفرنسيون هذه الآلة والآلات الأخـرى أمـام القلعـة، وبدأوا يقصفـون الأسـوار بشكل متواصل، لكن هيـوبرت دي بيرغ، الذي كان فـارساً شجاعـاً، قد تمكن مع مـائـة وأربعين فارسـاً وعـدداً كبيراً من الجنود كـانوا يدافعـون عن القلعة، من تدمير كثير مـن الأعداء، حتى إذا شعر الفـرنسيون بفـداحة خسـائـرهم نقلوا خيمهم وآلات رميهـم بعيـداً عن الأسـوار، وغضب لويـس لهذا عضبـاً عظيماً، وأقسم أنـه لن يغـادر المكـان حتى يجري الاستيـلاء على القلعة، ومن ثـم يتـم شنـق جميـع أفراد الحاميـة، ولهذا قـام الفرنسيـون حتى يبثـوا الرعب في قلوبهم، ببناء عـدد من الحوانيت مع أبنيـة أخرى أمـام مـدخـل القلعـة، لذلك بدا المكان وكأنه سـوق، ذلك أنهم أملوا أنهـم سـوف يرغمـوهـم على الخضـوع بوسـاطة الحصـار الطـويل والجوع، بما أنهم لم يتمكنوا من اخضـاعهـم بقـوة السلاح.

الاستيلاء على قلعة كمبردج

وقامت في هذه الآونة نفسها مجموعة من البارونات الذين كانوا مقيمين في لندن بغارة داخل المنطقة القريبة من كمبردج، ونهبوها واستولوا على القلعة في ذلك المكان، وأسروا عشرين جنديا وجدوهم فيها، وحملوهم معهم، ومن هناك اجتاحوا كونتيتي نورفولك وسفولك، فنهبوا المنطقة وكذلك جميع الكنائس، واستخرجوا غرامات كبيرة من بلدات يارماوث Yarmouth، ودنويتش Dunwich، وابسويتش Ipswich ، ثم إنهم بعدما جمعوا منهوباتاً كثيرة من حول كولشستر Colchester ، وعاثوا فساداً بالمنطقة هناك وفق الطريقة نفسها، عادوا إلى مآويهم القديمة في لندن.

حصار قلعة ويندسور

وبعد هذه الأحداث، حشد البارونات قوة كبيرة، وألقوا الحصار على قلعة ويندسور، وأسندت قيادة هذا الجيش إلى كونت دي نافار Nev-ers، الذي كان منحدراً من الخائن غونلون Guenelon وبعدما رتب رجال هذا الجيش آلاتهم، قاموا بهجوم حاد على الأسوار، وكانت هذه القلعة تحت عهدة انغلارد دي آتي، وكان رجلاً عظيم الخبرة بالحرب، يحيط به ستون فارساً مع أتباعهم، وقد دافع هؤلاء عن القلعة بشدة ضد أعدائهم، وما أن سمع جون بأن قلعتي دوفر وويندسور كانتا تحت الحصار، حتى جمع جيشاً كبيراً من حاميات القلاع التابعة له، وبوساطة هذا الجيش اجتاح أراضي الايرلات والبارونات في أيام الحصاد، فأحرق بيوتهم ومحاصيلهم، وأنزل أضراراً واسعة بأعدائه، وتجول بعد هذا في كونتيات نورفولك، وسفولك، محدثاً دماراً مماثلاً بين ممتلكات ايرلات: آرنوديل، وروجر بيغود، ووليم دي هنتنغفيلد، وروجر دي كريسي، ونبلاء آخرين، وعندما رويت أخبار هذه الحوادث كلها إلى البارونات الذين كانوا يحصلون على قليل من التقدم، أو على لاشيء مطلقاً لدى

حصارهم لقلعة ويندسور، قرروا رفع الحصار، من أجل أن يقطعوا طريق الانسحاب على الملك جون، الذي كان آنذاك -كما قيل -ينهب ويجمع الأسلاب حول ساحل سفولك، وقاموا بناء عليه، وعلى وصية ونصيحة من كونت دي نافار -الذي يقال بأنه تلقى رشوة بوساطة الهدايا من الملك -فرفعوا الحصار أثناء الليل، وغادروا خيامهم، وزحفوا مسرعين نحو كمبردج، من أجل تطويق الملك، وكان الملك قد أنذر مقدماً بهذا، بوساطة الكشافة الجيدين، وحصل ذلك قبل وصول البارونات إلى كمبردج، وحمل نفسه مثل رحالة بارع، إلى بلدة ستامفورد، ومن هناك أخذ طريقه نحو الشمال، ولدى سماعه بأن قلعة لنكولن كانت تحت الحصار، سار بأقصى سرعة نحو ذلك المكان، وقام غيلبرت دي غانت مع النورمان الآخرين، الذين كانوا يحصارونها، بالفرار من أمامه، ذلك أنهم ارتعبوا من حضوره، وجاء فرارهم مثل البرق، والبارونات أيضاً، الذين لحقوا الملك، عندما وجدوا أنفسهم قد خدعوا، انغمسوا في أعمال السلب والنهب، وركزوا اهتمامهم على تدمير الممتلكات، ثم عادوا مع منهوباتهم إلى لندن، حيث عينوا بعض الفرسان لحراسة المدينة، ثم زحفوا للالتحاق بلويس عند دوفر، وقام الملك جون في الوقت نفسه بمتابعة زحفه نحو حدود ويلز، حيث حاصر قلاع البارونات في ذلك الاتجاه واستولى عليها، وأمر بهدمها جميعاً، وتسويتها بالأرض، وقد وفرت أعمال التهديم التي اقترفها بوحشية بين البيوت والمحاصيل العائدة للبارونات المذكورين، مشهداً محزنا لكل من رآه.

وفي شهر تشرين الثاني من العام نفسه، قدم الاسكندر، ملك الاسكوتلنديين، لخوفه من الملك جون، ووصل مع جيش كبير، إلى لويس عند دوفر، وقدم الولاء له، بالنسبة للامتياز الذي يستحوذ عليه من ملك الانكليز، لكن حدث له، وهو على طريقه إليه، أنه عندما كان

مجتازاً لقلعة برنارد في منطقة هيلويركفولك Hailwercfolk، التي كانت في اقطاعية هيوج دي هيللول، قام هو ونبلاء تلك المنطقة بالركوب والسير حول القلعة لاكتشاف مكان مكشوف يمكن منه القيام بهجوم، وفي تلك الأثناء فوّق رجل من داخل القلعة قوسه العقار، وأطلقه، فجرح رجلاً من المرتبة العليا، هو يوستاس دي فيسكي، وأصابه في جبهته، فخرق دماغه، وقد مات حيث هو، وكان يوستاس هذا متزوجاً من أخت ملك سكوتلندا، ولذلك حزن هذا الملك عليه كثيراً ومعه الذين كانوا برفقته، وقدم -على كل حال- الملك المذكور الولاء وعمله، حسبما كان قد جرى إعداده من قبل، ثم عاد إلى وطنه.

الكشف عن خيانة الفرنسي

وحدث في هذه الآونة أن فيزكونت دي ميلون Melun ، وكان فرنسيا نبيلا، قدم إلى انكلترا مع لويس، قد وقع مريضا بشكل خطير في لندن، وعندما وجد أن موته قد اقترب، بعث وراء بعض البارونات، الذين تركوا في المدينة مسؤولين عنها، للحديث معهم، وعمل على مسمع منهم جميعاً الاعتراف التالي حيث قال: «أنا حزين بسبب عزلتكم ودماركم، لأنكم لاتعرفون الخطر المحيق بكم والمعلق فوق رؤوسكم، لأن لويس ومعه ستة عشر كونتا وباروناً فرنسياً قد أقسموا، أنه ما أن يخضع انكلترا، ويتوج ملكاً، حتى سيقوم بالحكم بنفي دائم على جميع الذين يقاتلون الآن معه ويضطهدون الملك جون، وسيكون حكمه عليهم بحكم كونهم خونة ضد مولاهم، ولسوف يدمر جميع عناصرهم مع بني جنسهم ويخرجهم من المملكة، وعليكم عدم الارتياب بهذا، لأنني أنا الآن متمدد هنا وأنا على حافة الموت، أعلن لكم وأنا أخاطر بنفسي بأنني كنت واحداً ممن أدى ذلك القسم مع لويس، وبناء عليه إنني أنصحكم أن تعدوا العدة في سبيل نجاتكم في المستقبل وأن تبقوا سراً الذي أخبرتكم به الآن»، ومع فراغ هذا النبيل من هذه الكلمات

مات، ولدى انتشار هذه المعلومات بين البارونات كانوا في وضع حرج، لأنهم عرفوا بإحاطة الاضطرابات بهم من كل جانب، لأن لويس لم يأبه بشكاويهم، فأعطى أراضيهم وقلاعهم التي أخضعها في أماكن متعددة إلى فرنسيين، لكن الذي ضايقهم أكثر من كل شيء، هو وصمهم بالخيانة، ولقد ازداد خوفهم وحذرهم أيضاً، بسبب ظروف حرمانهم كنسياً، يوماً بعد يوم، ولأنهم حرموا من الشرف والمكانة الدنيوية، ولذلك وقعوا في اضطراب عظيم في كل من الجسد والعقل، وفكر كثير منهم بالعودة بولائهم إلى الملك جون، لكنهم كانوا خائفين كثيراً بحكم الأذى الكبير الذي ألحقوه به، مما أثار سخطه عليهم، ومما قد يدفعه إلى عدم قبولهم حتى وإن كانوا تائبين.

موت الملك جون

في أثناء متابعة لويس حصار دوفر، واستمراره في ذلك من دون نجاح، اقترف جون مع قوة كبيرة أعمال دمار هائلة ونهب مريع في كونتيتي سفولك ونورفولك، وأخيراً أخذ طريقة من خلال بلدة لين Lunn ، حيث جرى استقباله بسرور من قبل السكان، وتلقى هدايا كثيرة منهم، ثم إنه تابع زحفه نحو الشمال، لكنه أثناء عبوره لنهر ويلستر Wellester فقد جميع عجلاته وعرباته وخيول حمل أثقاله مع جميع أمواله، وآنية ثمينة، وكل شيء له قيمة خاصة لديه، لأن الأرض انفتحت في وسط الماء، وسبب ذلك نشوء دوامات ابتلعت كل شيء، وكذلك الخيول والرجال، ولذلك ما من أحد نجا من هذه الكارثة، حتى الملك نفسه، ونجا هو بصعوبة بالغة مع جيشه، وأمضى الليلة التالية في دير اسمه سواينهد Swinehead، وشعر هناك بآلام مبرحة في قرارة نفسه حول الممتلكات التي ابتلعتها المياه، فاستبدت به حمى عنيفة وصار مريضاً، وازداد مرضه بنزيف معوي لأنه أتخم نفسه وأفرط في أكل الدراق، وشرب عصير الفواكه الجديدة، مما ضاعف حمّاه، وزاد

مرضـه، وغادر على كل حال ذلك المكـان في الفجر الباكـر، مع أنه كان موجوعاً، وأخـذ طريقه إلى قلعة لافورت Lafort ليعسكر هناك، وكان في ذلك المكان في حالة آلام مبرحة، إلى حـد أنه وصل بصعوبة في اليوم التـالي إلى نيوآرك وهـو على ظهر حصـان، وهناك أقعـده مـرضه، وقـام بالاعتراف بنفسه، وتلقى القربان مـن راعي دير كروكستون Croxton، وعين بعـد ذلـك ابنه الأكبر هنري وريثـاً له، وجعل مملكتــه تقسم على تقديم الولاء له، كما أرسل رسائل ممهـورة بخاتمه إلى جميع عمد المناطق، وإلى شحن القـلاع في المملكة، يأمـرهم واحـداً واحـداً وجميعـاً بإطاعـة الابن المذكـور، وسأله بعـد هذا راعـي دير كـروكستـون أين يرغب أن يدفن، إذا توفي، فأجابه: « إلى الرب، وإلى القـديس وولستان Wolstan أعهـد بجسدي وروحي»، وبعـد هذا فارق هذه الحيـاة في الليلة التاليـة بعد يـوم عيد القديـس لوقا الانجيلي، وكان هـذ بعدما حكـم لمدة ثمانية عشر عـــامـاً ونصف العـــام، وألبس جســده بثيـاب ملكيــة وحمل إلى وورسستر Worcester ، وهناك دفن في الكنيسة الكـاتدرائية بشكل مشرف من قبل أسقـف ذلك المكان، وعندمـــا كــــان الملك يقترب من الموت في نيــوآرك، وصل إليـه رسل إلى هناك مـع رسـائل من حــوالي أربعين من البارونات، الذين رغبوا في عمل سلم معه ثانية، لكن بما أنه كان على حـافة الموت، لم يكن بإمكانـه إعطاء انتباهه لهم، وقـام أحدهم بنظم نقشه الذي سوف يحفر على قبره بالأبيات التالية:

Hoc In Sacrophago Sepelitur Regis Imago

Qui Moriens Multum Sedavit In Orbe Tumultum.

Hunc Mala Post Mortem Timor Est Ne Fata Sequantur.

Qui Lgis Haec, Metuens dum Cernis Te Mositurum,

Discute quid rerum pariat mefa dierum.

حكم الملك جون ثمانية عشر عاماً، وخمسة أشهر، وأربعة أيام.

حول تتويج هنري الثالث ملكاً على انكلترا ووقائع حكمه

وبعد وفاة الملك جون، وفي عشية عيد الرسولين سمعان وجود، جرى عقد اجتماع في غلوستر بحضور والو، مندوب الكرسي الرسولي، وكان بين الحضور هناك بطرس أسقف وينكستر، وسيلفستر أسقف وورسستر، ورالف ايرل أوف شيستر، ووليم مارشال، إيرل أوف بمبروك، ووليم ايرل أوف فيرار، وجون مارشال، وفيليب دي ألبيني، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان وعدد كبير من الآخرين، للاعداد من أجل تتويج هنري الابن الأكبر للملك جون، وفي اليوم التالي وكانت جميع الإعدادات قد اكتملت، اقتاد النائب البابوي برفقة الأساقفة والنبلاء المذكورين الملك بمسيرة مهيبة إلى الكنيسة الديرية من أجل تتويجه، ووقفوا هناك أمام المذبح الكبير بحضور رجال الدين والناس، وأقسم، على الأناجيل المقدسة والآثار الأخرى المقدسة للقديسين، بأنه سوف يلتزم بمراعاة التشريف، والسلام، والتبجيل نحو الرب، ونحو الكنيسة المقدسة، ونحو رجالها المكرسين، طوال أيام حياته، كما أنه أقسم بأنه سوف يظهر عدلاً دقيقاً إلى الشعب الذي عهد إليه العناية به، ولسوف يزيل جميع القوانين السيئة والأعراف الفاسدة، إذا توفر أي منها في المملكة، وسوف يلتزم بمراعاة القوانين والأعراف الجيدة، ويتدبر أمر الالتزام بهم ومراعاتهم من قبل الجميع، ثم إنه قدم الولاء إلى كنيسة روما المقدسة، وإلى البابا انوسنت، من أجل مملكة انكلترا ومملكة ايرلندا، وأقسم أنه طوال تملكه لهاتين المملكتين، سوف يدفع باخلاص الألف مارك التي أعطاها والده إلى الكنيسة الرومانية، ووضع بعد هذا بطرس أسقف وينكستر التاج على رأسه، وعمّده ملكاً بالطقوس المعتادة، بالصلاة والأناشيد التي تتلى أثناء أعمال التتويج،

وبعد الفراغ من أداء القداس ألبس الأساقفة والفرسان الذين تقدم ذكرهم أعلاه، الملك الثياب الملكية، وقادوه إلى المائدة، حيث أخذ الجميع مقاعدهم وفقاً لمراتبهم، واحتفلوا وسط الفرح والسرور، وتلقى الملك في اليوم التالي الولاء والتابعية من جميع الأساقفة، والايرلات، والبارونات، ومن الآخرين الذين كانوا حضوراً، ووعده الجميع بولاء مخلص له، وجرى تتويج هنري وهو في العاشرة من عمره، في يوم الرسولين سمعان وجود، الذي كان اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول، وبقي بعد تتويجه مستمراً تحت وصاية وليم ايرل أوف بمبروك، الذي كان المارشال الأعظم، والذي أرسل على الفور رسائل إلى عمد المناطق وإلى شحن وولاة القلاع في انكلترا، موجباً على كل واحد منهم وعلى الجميع طاعة الملك المتوج حديثاً، ووعدهم بممتلكات وبالاضافة إلى ذلك الكثير من الهدايا، على شرط الارتباط باخلاص بالملك المذكور، وبذلك ارتبط به بقوة جميع النبلاء وولاة القلاع الذين خدموا والده، لأنهم اعتقدوا أن ذنوب الوالد لاتجوز مطالبة الابن بها، وبناء عليه بدأ الجميع بالاستعداد للدفاع عن قلاعهم ولتقويتها بقدر الامكان، وتشجع الذين وقفوا إلى جانب الملك، لأنهم شاهدوا أن شركاءه في الآثام ومحرضيه عليها كانوا يجري حرمانهم كنسيا كل يوم أحد، وكل يوم عيد.

كيف غادر لويس دوفر لدى سماعه بوفاة جون

وعندما تلقى لويس والبارونات الذين كانوا يحاصرون دوفر أخبار وفاة الملك جون، كانوا مسرورين جداً، وكأنهم شعروا بثقة بأنهم على وشك استلام مملكة انكلترا، وأنها صارت الآن تحت سلطانهم وفي أيديهم، واستدعى لويس هيوبرت دي بورغ قسطلان قلعة دوفر للاجتماع به وقال له: «إن مولاك الملك جون قد مات، ولايمكنك مواصلة التمسك بالقلعة ضدي لوقت طويل، لأنك بدون حامي لك،

ولذلك سلم القلعــة، وصر مخلصــاً لي، ولسـوف أغنيـك بالتشريفـات، ولسوف تحتل مركزاً عالياً بين مستشاريي»، ويحكى بأن هيوبرت قد ردّ على هذا العرض قائلاً: « مع أن مولاي قد مات، إن لديه أولاد وبنات، يتوجب أن يخلفـوه، وبالنسبة لتسليم القلعـة، سوف أتشـاور مع أتباعي من الفرسـان»، ثم إنه عاد إلى القلعـة، وأخبر رفاقه بالذي قـاله لويس، وقـد كـان مــوقفهم بالاجماع رفض تسليمهـا له، خشيــة أن يوصمـوا بالخيـانة، لخضـوعهم الجبـان، وعندمـا جـرى ابلاغ هذا إلى لويس وإلى البارونات، قرروا الاستيلاء على القلاع الصغيرة في أرجاء المنطقة، حتى إذا مافـرغوا من القلاع الصغيرة، وصـارت بين أيديهم، يمكنهم مهاجمة القـلاع الأكبر، ولذلك رفعـوا الحصـار، وعـادوا إلى مـدينة لندن، وإثر تراجعهم وفور ذلك خـرج الفرسـان الذين كانوا يدافعـون عن القلعة، وأحرقوا البيوت والأبنية التي شيدها لويس في مواجهة القلعة، ثم نهبوا المنطقة، فحصلوا على كميات وافرة من المؤن ومن الضروريات للحصن وللحامية.

حصار قلعة هارتفورد والاستيلاء عليها

وبعد هذا زحف لويس في اليوم التالي لعيد القديس مارتن مع جيش كبير إلى بلدة هارتفـورد، وألقى الحصـار عليها، وصف آلات رميـه من حـول القلعة لقصـف الأسوار، وقـد تولى وولتردي غـوداردفيل، الذي كان فـارساً شجـاعاً، من أتبـاع فالكاسيـوس، الدفاع عنهـا مع جنوده، وأوقع قتلى كثيرين بين الفـرنسيين، وحـدث على كـل حـال أنه بعـدمـا استمـر الفرنسيـون في مـواصلة الحصـار لوقت امتد مـن عيد القـديس مارتن حتى عيد القديس نيقـولا مقابل نفقات باهظة، استسلمت البلدة للويس، شرط الحفـاظ على الحامية، وعلى ممتلكاتها وخيـولها وأسلحتها، وهكذا جــرى التنازل عـن البلدة، فعمل روبرت فتــز - وولتر طلبــاً بتسليمها له، قائلاً بأن المسؤولية عنها عائدة إليه بموجب حق قديم، ثم

سأل لويس رأي الفرسان الفرنسيين حول هذه القضية، فأخبروه بأن البارونات الانكليز غير جديرين بتولي المسؤولية عن مثل هذه الأماكن، لأنهم خونة لمليكهم، وبناء عليه أخبر لويس روبرت المذكور بأن عليه الانتظار صابراً حتى يكتمل اخضاع المملكة، فوقتها سوف يعطي لكل واحد حقوقه.

وفي هذا العام نفسه، وفي يوم عيد القديسة كاترين القديسة والعذراء، أطلق سراح النبيل وليم دي ألبيني وخرج من السجن، بعدما دفع غرامة قدرها ستة آلاف مارك فدية عن نفسه، ثم إنه قدم الولاء إلى الملك هنري، الذي عهد إليه بولاية قلعة لافورت، التي حافظ عليها بنشاط.

الاستيلاء على قلعة بيركهامبستد

وبعد الاستيلاء على قلعة هارتفورد، كما ذكرنا أعلاه، زحف لويس في يوم عيد القديس نيقولا إلى قلعه بيركهامبستد، وأحاط بها بآلات حربه، وأثناء قيام البارونات الانكليز بنصب خيمهم، وكانوا يسعون لإقامتهم بانتظام، قام فرسان وجنود الحامية بهجوم مباغت، استولوا فيه على الأثقال وعلى حاجيات البارونات، وتملكوا راية وليم دي مانديفيل، وعادوا بها إلى القلعة، آسفين أنهم لم يتمكنوا من إلحاق أضرار أكبر بهم، وفي اليوم نفسه، عندما كان البارونات جالسين عند المائدة، قام فرسان وجنود الحامية ثانية بانقضاض، ولكي يوقعوا البارونات بالاضطراب، حملوا أمامهم الراية التي كانوا قد استولوا عليها قبل وقت قصير، وفكروا بمهاجمتهم وهم غارين، لكن هؤلاء البارونات جرى انذارهم قبل وصولهم، ولذلك طردوهم وأعادوهم إلى القلعة، وفي فجر اليوم التالي أمر لويس بالمجانيق وببقية آلات الحرب، فنصبت من حول المدينة، وما أن فرغوا من ذلك حتى داوموا على رميها بزخات من الحجارة المدمرة، لكن فالران Walleran ، وكان ألمانيا واسع الخبرة

بشؤون الحرب، عمل مقاومة شجاعة ضدهم، وأوقع مذبحة كبيرة وسط الفرنسيين المحرومين كنسيا، وأخيراً على كل حال قام فالران المذكور بتسليم القلعة بعد حصار طويل، وجاء تسليمه لها بناء على أوامر الملك، وقد أعطاها إلى لويس مستثنيا خيول رجال الحامية وسلاحهم، وكان ذلك في العشرين من كانون الأول، وفي اليوم التالي الذي كان عيد القديس توماس، ذهب لويس، بعدما وضع أتباعه في القلعة، إلى القديس ألبان، وطلب من راعي الدير تقديم الولاء له، وعلى هذا أجابه راعي الدير بأنه لن يقدم الولاء له حتى يتحرر من الولاء الذي عمله إلى ملك انكلترا، وقد غضب لويس من ذلك كثيراً، وأقسم بأنه سوف يحرق الدير والبلدة كلها، مالم يفعل الذي طلبه منه، وأخيراً أعطى راعي الدير المذكور إلى لويس غرامة عن نفسه وعن البلدة، وجاء ذلك بعدما تلقى تهديداً عظيماً، وبناء على وساطة سير Sayr ايرل وينكستر، وحصل على هدنة من لويس حتى عيد طهارة العذراء، وبعدما دفع له ثمانية ماركات من الفضة، وبناء على هذا عاد لويس إلى مدينة لندن.

حوادث تتعلق بأرض الميعاد

وفي العام نفسه، ولدى انتهاء الهدنة المعمولة بين الصليبيين في أرض الميعاد والمسلمين، وأثناء العبور الأول، بعد المجمع المسكوني الذي عقد في اللاتيران، احتشد جيش الرب في قوة عظيمة في عكا تحت قيادة ثلاثة ملوك هم: ملك القدس، وملك هنغاريا، وملك قبرص، وكان بين الحضور دوق النمسا، ودوق بوهيميا مع أرتال طويلة من الفرسان من مملكة ألمانيا، وذلك مع عدد من الكونتات ورجال من مختلف المراتب، وكان موجوداً رؤساء أساقفة نيقوسيا، وسالزبورغ Salzburgh وآرجيا Argia، وهنغاريا، وبيوكس Bayeux، وباورج Bawerge، وسيسينو Ciceno، ومنستر Munster، وأوترخت، وكان معهم النبيل

والقوي وولتر دي أفيني Avennes ، وبالاضافة إلى هؤلاء بطريرك القدس، الذي حمل بتواضع كبير، وسط رجال الدين والناس، وبتبجيل رمز الصليب المانح للحيـاة، وقـد انطلق خـارجـاً من عكا في اليـوم السادس بعد عيد جميع القديسين، يؤم معسكر جيش الرب، الذي كان قد ذهب إلى خربة كرداني Recordana، وكانت هذه قطعة من صليب الرب حفظت مخفيـة، بعد فقدان الأرض المقـدسة، والذين أخفـوها هم من الصليبيين، وقـد أخفـوها حتـى هذه الأيام، لأنه في أيام الصراع بين المسلمين الصليبيين في أيام صـلاح الديـن، جـرى قطع الصليب، حسبما سمعنا من شيوخنا، وقـد حملت قطعة منه إلى القتـال، وهذه القطعة هي التي ضـاعـت هناك، لكن القطعـة التي بقيـت أخفيت، والآن أظهـرت وعرضت، وقد زود بها جيش المؤمنين لتكون راية له، وقد زحف خلال سهل الفـولة Faba إلى نبع طوبانيـا Tubannia، وعـانى الجيش من زحفه كثيراً في ذلك اليوم، وأرسل الكشـافة للاستطلاع، حيث شاهدوا غبـاراً تسبب بإثـارته العـدو، لكنهم كـانوا غير متأكـدين فيما إذا كـان الأعداء متراجعين، أم متقدمين للتصدي لهم، وزحفوا في اليوم التالي بين جبال جلبوع التي كانت على يمينهم، وبحيرة على يسارهم، ووصلوا إلى بيسـان حيث كان العـدو معسكراً، وخـاف العـدو من دنو جيش الرب الحي، لأنه كـان جيشـاً كبيراً، ويزحف بانتظام رفيع، وقـوض العـدو خيمـه، وهرب، تاركـاً المنطقـة عـرضـة للسلـب والنهب من قبل جنود المسيح، وفي عشية عيـد القـديس مـارتن (٧ -تشرين ثاني) عبر جيش المؤمنين نهر الأردن، وقد استحم أفراده في ذلك النهر، واستراحوا هناك بهدوء لمدة يومين، حيث وجـدوا وفـرة مـن المؤن، وعملوا هناك ثلاث محطات على طول سـاحل بحيرة طبرية، وعبروا خـلال الأمـاكن التي تلطف ربنا فعمل بها معجـزاته، وتحادث بشخصه مع الناس، وشـاهدوا بيت صيـدا، التي هي مـدينة أندرو، وبطرس، واستـولوا على حصن صغير، ورأوا أيضاً الأمـاكن التي دعا فيهـا المسيح تلاميذه، وسـار فوق

الماء بقدمين حافيتين، وأطعم الحشود في الصحراء، وذهب إلى الجبال للصلاة، وحيث أكل بعد قيامته مع تلاميذه، ثم إنهم عادوا عبر طريق كفر ناحوم إلى عكا وهم يحملون مرضاهم معهم.

وعملوا بعد هذا حملة ثانية، وزحفوا نحو جبل الطور، حيث واجهوا أولاً ندرة في الماء، لكن بعد ذلك عثروا على وفرة عن طريق الحفر، وفقد مقدمو الجيش كل أمل في الصعود إلى الجبل، حتى جرى اخبارهم من قبل غلام مسلم بأنه من الممكن الاستيلاء على القلعة، ولذلك عقدوا اجتماعاً، وفي يوم الأحد الأول لشهر قدوم الرب (٣ -كانون أول)، عندما جرت قراءة قوله في الانجيل: «اذهبا إلى القرية التي أمامكما» (متى: ٢١/ ٢)، مضى البطريرك في المقدمة مع رمز الصليب، ووسط الصلوات، وانشاد الترانيم من قبل الأساقفة ورجال الدين، وصل الجيش إلى جانب الجبل، ومع أنه كان وعراً من كل جانب، وبدا أنه لايمكن تسلقه، إلاّ بوساطة ممر ملتوي، على الرغم من ذلك تسلقه الجميع غير هيابين، وتمكن جون ملك القدس، مع جنوده، من ترجيل قسطلان القلعة عن فرسه مع أمير، وكانا أول من هاجم العدو وتصدى له خارج الأبواب، وكانا يرغبان بالدفاع عن الجيب، وقد أربكاهما كثيراً وأرغماهما على الفرار، لكن الفخار الذي حصل عليه الملك وناله أثناء تسلقه للجبل، قد ضيعه في النزول، لأن عدداً من الداوية والاسبتارية والعلمانيين أصيبوا بالجراحة، عندما استرد العدو شجاعته، علماً بأن عدداً قليلاً قد قتل في هذه الحملة، وكذلك في الحملة المتقدمة التي أتينا على ذكرها، وقد أحضر الصليبيون معهم عدداً كبيراً من الرجال، والنساء، والأطفال، إلى عكا، حيث تولى الأسقف تعميد جميع الذين قدر على السيطرة عليهم بالالتماسات، أو بالمال، ووزع النساء بين الراهبات، وأمرهن بتعليمهن القراءة.

وفي الحملة الثالثة التي لم يكن البطريرك موجوداً فيها مع رجال

الدين ورمز الصلب، عانى جيش الايمان من المصاعب، ومن اللصوص وقطاع الطرق ومن قسوة الشتاء، ولاسيما عشية عيد الميلاد، فعندما كان رجال الجيش يزحفون، أزعجتهم الأنواء بعواصف الريح والمطر، في أحواز مدينة صور، وصيدا، وقرب الصرفند أيضاً، وقد واجهوا الكثير من المشاق، وعانوا من قسوة المناخ جسديا.

كيف فكر بارونات انكلترا مليا حول الحالة التعيسة لشؤونهم

عام ١٢١٧م، فيه كان الملك الصغير هنري أثناء عيد الميلاد في بريستول، برفقة والو، النائب البابوي، ووليم مارشال الوصي على الملك والمملكة، وتوفر في ذلك الحين الكثير من النقاش والحيرة بين بارونات انكلترا، حول أي حاكم يتوجب أن يعهدوا إليه بأنفسهم، هل هو هنري الصغير، أم لويس، ولأنهم عوملوا بشكل سيء كثيراً من قبل الفرنسيين، قام كثير منهم برفض مساعدتهم، وتضاعفت هذه الانفعالات العاطفية والدوافع المثيرة وازدادت بأعمال لويس نفسه الذي لم يقم وزنا لأيمانه وتعهداته، حيث أنه على الرغم من شكاويهم احتفظ بين يديه بأراضي وممتلكات وقلاع البارونات المذكورين، التي أخضعها بمساعداتهم، ووضع فرسانا أجانب وأناساً غرباء مسؤولين عنهم، هذا من جانب ومن جانب آخر، بدا أمراً مهيناً بالنسبة إليهم العودة بولائهم إلى ملك هم تخلوا عن الولاء له، خشية أن يعدوا مثل كلاب عائدة إلى قيئها، وفي وضعهم الصعب هذا من كل جانب لم يكن بامكانهم اصلاح أحوالهم المحطمة.

وفي العام نفسه، في العشرين من كانون الثاني قام فرسان وجنود حامية قلعة مونتسوريل Montsorrel بغارة لسلب ونهب المنطقة، لكن فرسان نوتنغهام علموا بمحاولتهم عن طريق كشافتهم، فخرجوا للتصدي لهم، واشتبكوا معهم بالقتال، فأسروا عشرة فرسان، وأربعة وعشرين جندياً، من الفئة المعادية، وقتلوا ثلاثة، وبعد ذلك عادوا

منتصرين.

كيف نهب فالكاسيوس بلدة سانت ألبان

وفي العام نفسه، في الثاني والعشرين من كانون الثاني حشد اللص الشرير فالكاسيوس قوة من الفرسان واللصوص من حامية قلاع اكسفورد، وبدفورد، وويندسور، وتوجه إلى سانت ألبان، وكان التاريخ هو ليلة عيد القديس فينسنت Vincent، حيث وصل عند المساء، وقام بهجوم غير متوقع على المكان، فنهبه، واتخذ أسرى من الرجال والأطفال، وأودعهم في سجن مضيق عليهم، وقتل عند باب الكنيسة بالذات واحداً من أتباع البلاط كان يسعى للالتجاء إلى الكنيسة، وبعد اقتراف هذه الجريمة الشريرة من قبل أولئك وكلاء الشيطان، أرسل أوامر قضت بوجوب أن يرسل إليه وليم راعي الدير على الفور مائة باوند من الفضة، أو أنه سوف يتولى على الفور إحراق البلدة كلها، مع الدير والأبنية الأخرى، وبناء على ذلك، دفع له راعي الدير، بعد كثير من التردد، المبلغ، ذلك أنه لم يكن أمامه مخرج آخر، وقام فالكاسيوس بعد هذا ومعه رفاقه المحرومين كنسيا، فأسرع مبادراً معهم وهم يحملون السلاح، يؤم قلعة بدفورد، حيث أخذ معه أسلابه وأسراه، وزحف من ذلك المكان مع أتباعه إلى غابة وولبورغ Walburg، وأسر هناك روجر دي كولفيل Colevilleوستين من رجال الدين والعلمانيين معه، كانوا متخفين هناك من أجل جمع الأسلاب.

معاهدة بين ملك انكلترا وبين لويس

وفي هذه الآونة، جلب الرسل الذين ذهبوا لصالح لويس إلى بلاط روما، رسالة له، أنه مالم يغادر انكلترا، فإن قرار الحرمان الكنسي الذي تفوه به والو النائب البابوي ضده، سوف يجري تثبيته في يوم عيد عشاء الرب، وبناء على هذا عقدت هدنة فيما بين لويس والملك هنري تمتد

حتى شهر الفصح، وبموجب هذه الهدنة جرى الاتفاق على إبقاء كل شيء حتى ذلك التاريخ، على حاله كما كان يوم الحلف على الهدنة، وذلك فيما يتعلق بكل من القلاع والممتلكات الأخرى، وبعدها عبر لويس البحر أثناء الصوم الكبير، وباقدامه على هذه الخطوة لم يحظ ثانية بثقة ومحبة بارونات انكلترا، كما حصل من قبل، لأنه من هذه الفئة، عاد: وليم ايرل أوف سالسبري، ووليم ايرل أوف آرونديل، ووليم ايرل وارني، وآخرون كثر، على الفور، إلى ولائهم إلى الملك هنري، وارتبطوا بقضيته منذ ذلك التاريخ، ودعا مجددا المارشال الكبير ابنه الأكبر، وليم

وقيســـارية، وهي ليست بعيـــدة عن البحـر، ولهذا السبب، فإن الذين صعدوا على الطريق الضيـق ونزلوا، وهم قـاصـدون للقـدس سمـوهـا «District»، وعلى رأس منافع هذه القلعـة وفـوائـدها، أن فـرسـان طائفـــة الداوية بعــد مغـادرتهم لمدينـة عكا، التي كـــانت مليئة بجميع الذنوب والآثام، رغبوا بالإقـامة بها حتى ترميم أسوار القـدس، وكانت المنطقة المحيطة بها مليئة بوفرة بمصائد السمك، والبحيرات، والغابات، والمراعي، والمروج، والحقـــــول، والأعشـــــاب، والكـروم، والحدائق والبساتين، ولم يكن المسلمون متملكون لأية بلدة فيها بين عكا والقدس، لذلك عانوا في سبيلها من خسائـر كبيرة، وعلى بعد ستة أميال من جبل الطور، فيها بين القـدس ونهر الأردن، يوجد ميناء طبيعي جيـد، ولذلك ليس بامكان المسلمين الزراعـة ولا الفـلاحـــة في السهل الواسع القـائم بينهما، لأنه موجود تحت حماية هذه القلعة، وبعد مافرغ جيش الرب من تحصين هذه القلعة، عاد إلى عكا.

العلامات في السماء التي أثارت مقاطعة كولون للمساعدة في الحملة الصليبية

في شهر أيار من هذه السنـة، وفي اليوم السادس قبل أحـد الشعانين، استيقظت مقاطعـة كولون لأداء واجبها إلى المخلص، فقـد ظهر في بلدة بيبون Bebon في فريزلاند، في السماء شكل الصليـــب في ثلاثة أماكن، واحـد متجه نحـو الشمال ولونه أبيض، وآخـر باتجاه الجنوب له الشكل نفسه واللون، والثـالث في وسط لون مظلم، على شكل صليب، وجسد انسان ممدد عليه مع ذراعين مرفـوعين وممدودين، ومع مسامير مغروسة خـلال القـدمين واليـدين، والرأس مطأطىء نحـو الأسفل، وكـان هذا الثالث في الـوسط بين الاثنين الآخرين، وعلى الاثنين الآخـرين لم يظهر تمثـال جسـد انسان، وفي وقت آخـر ومكان آخـر أيضـاً، أي في بلدة في فريزلاند اسمها فوسرهوز Fuserhuse ، ظهر قرب الشمس هناك،

صليب له لـون أزرق، وقـد رآه أنـاس أكثـر من الذين رأوا الصلبـان المتقدم ذكرهم، وظهـر صليب ثالث في بلدة اسمها دوكثام Doctham حيث كان القديـس بونيفيس قد تتوج بالشهادة، وكـان قد تجمع في عيد الشهيد المذكـور، آلاف كثيرة من الناس مع بعضهم، وكان وقتها مـرئياً صليبـاً أبيض كبيراً، وكـأن لوحين قـد وضعـا عبر بعضهما بشكل اصطناعي، وقـد تحرك هذا الصليـب بشكل تدريجي من الشمال نحـو الشرق، وقد رأى ذلك عدة آلاف.

حصار قلعة ماونتسوريل

وفي العام نفسه، احتشد بعـد الفصح، بناء على أمر من وليم مارشال الوصي على ملك ومملكـة انكلترا، من أجل القـاء الحصـار على قلعـة مـاونتسـوريل Mountsorel: رالف ايرل شيستر، ووليم ايرل ألبيمارل Albemarle، ووليم ايرل فيرار Ferrars ، وروبرت دي فيبـونت Vipont، وبرين دي لى آيل، وو. W دي كـانتـلأب Cantelupe، وفيليب مارك Marc، وروبرت دي غوغي Gaugi ، وفالكاسيوس مع ولاة قلاعه، وعدد كبير آخر من حاميات القلاع المختلفة، وقد قاموا على الفـور بترتيب آلات حـربهم في مواضع منـاسبة، وطوقـوا القلعـة، وكـان آمـر الموقـع هنري دي بريبروك Braybrooke ، وكان هناك معه عشرة فرسان، وكانوا رجـالاً ذوي شجاعة كبيرة، وعدد من الخدم، الذين ردوا بشجـاعة على مهـاجميهم الحجر بحجـر، والسلاح بسـلاح، وقام المحـاصرون بعدما دافعـوا عن القلعة لعـدة أيام، وخشية منهم أن يتعرضوا للحاجة للمؤن، من خـلال حصار طويل، قاموا بمراسلة سير Sayr، الذي كـان وقتذاك في لندن، يرجـونه للقدوم فـوراً لمساعـدتهم، ووقتهـا ذهب الايرل المذكـور - الذي كـانت القلعـة عائـدة إليـه -إلى لويس، الذي كان قد عاد مؤخراً إلى لندن، من مقاطعات ماوراء البحر، وطلب منه أن يرسـل بعض المسـاعـدة، حتى يمكن بـوسـاطتهـا رفع

الحصار، وبعد التشاور فيها بينهما، وصلا إلى قرار إرسال قوة من الفرسان لرفع الحصار، ولاخضاع المنطقة كلها إلى لويس، وتنفيذا لهذه الخطة، خرج من مدينة لندن ستمائة فارس، وأكثر من عشرين ألف من الجنود،الذين اشتهوا تملك أملاك الآخرين، وكان هذا الرتل تحت قيادة كونت أوف بيرشي Perche آمر الجيوش بفرنسا، وسير ايرل وينكستر، وروبرت فتز -وولتر، مع عدد كبير آخر قدروا أنهم أهل لقيادة الحملة، وقوضوا مخيمهم في الثلاثين من نيسان، وكان ذلك يوم اثنين هو التالي قبل صعود ربنا، وزحفوا إلى القديس ألبان، وقد نهبوا كل مكان مروا به وعبروه، وتجول هؤلاء اللصوص الفرنسيون وقطاع الطرق في أرجاء البلدات ولم يوفروا لا كنيسة ولامقبرة ،واعتقلوا الناس من السكان من كل مرتبة، وبعدما عذبوهم بشكل مريع، استخرجوا منهم غرامات ثقيلة، أما بالنسبة لدير القديس ألبان، الذي كان قد دفع راعية قبل وقت قصير ماأرضى به لويس، بمبلغ كبير من المال، فقد نجا من أيدي اللصوص، حيث أنهم لم يستولوا على شيء سوى اللحم والشراب.

معجزة صليب الرب

ونقلوا في التالي معسكرهم، وزحفوا نحو بلدة دنستيبل -Dunstable، وفي بلدة رد بورن Redbourn، نهبوا كنيسة القديس أمفيبالوس Amphibalus ، وجردوا الرهبان حتى من ملابسهم الداخلية، واخذوا أيضاً آثار القديسين من فوق المذبح الكبير، ودنسوهم بأيديهم غير التقية، واستولى أحدهم على صليب مزين بالفضة والذهب، وكان يحتوي في داخله على قطعة من صليب مولانا، وخبأه في صدره دون أن يعرف ذلك رفاقه، وحدث أنه قبل أن يغادر القلاية تلبسه شيطان، فسقط أرضاً وهو يصر بأسنانه، ويخرج الزبد من فمه، ثم إنه نهض بسرعة بناء على إثارة الشيطان له، وسعى إلى ضرب أصحابه بسيفه، وقد أشفق هؤلاء على آلامه، وربطوا يديه، ودون أن يعرفوا

سبب ماحدث له، أخذوه إلى كنيسة فلامستد Flamstead في حالة من الجنون المخيف، ولدى دخول أولئك اللصوص إلى تلك الكنيسة بقصد نهبها، تصدى لهم كاهن، كان مرتديا لثوب أبيض، وقد أراد إيقاف الشيطان المتلبس لأولئك الرجال غير الأتقياء، ونظراً لخوفهم على رفيقهم المجنون الذي جلبوه معهم، توقفوا عن النهب، وهناك بحضور الرئيس وعدد كبير آخر، قفز الصليب المذكور خارجاً من صدر الرجل المجنون، وسقط على الأرض، وتناوله الرئيس ورفعه بكل احترام ودهشة، وأمسك به، وسأل اللصوص عنه، وتمكنوا أخيراً بعد تقدير للأمر وتفحص من أن يعرفوا، وكان ذلك بوساطة زيارة الرب هذه، بأنه قد سلب بشكل اجرامي من الرهبان الذين نهبوهم في البلدة المجاورة، وكانوا جميعا في حالة من الارتباك والخوف، خشية أن تتلبسهم روح الشيطان، وأن تتولى تعذيبهم، كما فعلت برفيقهم، ولذلك قاموا وهم يشعرون برعب كبير بإعطاء الصليب إلى الرئيس، ورجوه بفضيلة الرب، وبخوفهم من طائفته، أن يقوم قبل أن يتناول أي طعام، فيذهب إلى المكان، ويعيد الصليب إلى الرهبان، وبناء عليه ذهب الرئيس بكل سرعة إلى قلاية القديس أمفيبالوس، وسلم الصليب بكل احترام، وروى حكاية الحوادث الاعجازية المتعلقة به، إلى رئيس الرهبان وإلى الرهبان.

رفع الحصار عن قلعة مونتسوريل وحصار قلعة لنكولن

وصل جيش لويس وبارونات انكلترا إلى دنستيبل، وهناك أمضوا الليل، وفي الصباح زحف نحو الشمال، مسرعاً للتفريج عن قلعة منتسوريل المتقدمة الذكر، وعلم بهذا الزحف رالف ايرل أوف شيستر مع الآخرين الذين كانوا يحاصرونها، وقد أخبرهم بذلك كشافتهم، ولذلك رفعوا الحصار، وتراجعوا إلى قلعة نوتنغهام، حيث قرروا مراقبة تقدم أعدائهم، وعندما وصل البارونات إلى قلعة مونتسوريل،

وبعد ما نهبوا — وفقاً لطبائعهم المعتادة — المقابر والكنائس على طريقهم، تقرر بموافقة الجميع متابعة الزحف إلى لنكولن، حيث تولى غيلبرت دي غانت مع البارونات الآخرين الذين تقدم ذكرهم أعلاه، حصارها [مونتسوريل] لوقت طويل دونما نجاح، ثم إنهم قاموا بالزحف خلال وادي بلفيور Belvoir وهناك سقط كل شيء بأيدي هؤلاء اللصوص، وذلك بحكم أن جنود مملكة فرنسا الذين كانوا حثالة تلك البلاد وخبثها، هم لم يتركوا شيئاً دون أن يدمروه، ولذلك كان فقر الناس وتعاستهم هائلة جداً إلى حد أنهم لم يجدوا من الملابس ما فيه كفاية لستر عوراتهم، ووصلوا أخيراً إلى لنكولن، وقام البارونات بهجمات حادة على القلعة، وفي الوقت نفسه رد المحاصرون على رماياتهم من الحجارة والنشاب بزخات من الحجارة ومن الأسلحة القاتلة بشجاعة عظيمة.

كيف حشد ملك انكلترا جيشاً لرفع الحصار عن قلعة لنكولن

وأثناء وقوع هذه الوقائع، قام وليم مارشال، الوصي على الملك وعلى المملكة، بناء على نصيحة والو النائب البابوي، وبطرس أسقف أوف وينكستر وآخرين كانت بآرائهم تترتب أمور المملكة وتدار، بجمع جميع ولاة القلاع العائدة إلى الملك مع الفرسان الذين كانوا مسؤولين عن القلاع في مختلف أنحاء المملكة، وأمرهم — بناء على أمر الملك — بالاحتشاد في نيو آرك، في اليوم الثاني من اسبوع عيد الشعانين، ليزحفوا من هناك معهم لرفع الحصار عن قلعة لنكولن، وكانوا يتحرقون رغبة للالتحام مع الفرنسيين المحرومين كنسياً، وليقاتلوا أيضاً في سبيل بلادهم، وقد وصلوا مسرورين إلى المكان المحدد من قبل، في الوقت المعين، ووصل معهم النائب البابوي نفسه، وعدد كبير من الأساقفة الآخرين للمملكة، مع خيول وجنود، للهجوم بالأدعية وكذلك بالسلاح على أولئك العصاة لمليكهم والمتمردين على مولاهم البابا، فقد

بدا الأمر بالنسبة إليهم أنهم يمتلكون قضية عادلة للقتال من أجلها، ولا سيما أن ملكهم كان بريئاً، وبعيداً عن الذنوب، هذا الملك الذي يسعى الأعداء بصلفهم لحرمانه من ميراثه، وعندما احتشدوا جميعاً مع بعضهم، لوحظ وجود أربعمائة فارس في ذلك الجيش، وذلك مع حوالي مائتين وخمسين من رماة القسي الزيارة، وكان أيضاً موجوداً حشد لا يحصى عدده من الأتباع والخيالة، الذين يمكنهم في وقت الحاجة القيام بواجبات الجنود، وكان قادة هذا الجيش: وليم المارشال، ووليم ابنه، وبطرس أسقف وينكستر، وكان رجلاً بارعاً في فن الحرب، ورالف ايرل أوف شيستر، ووليم ايرل أوف سالسبري، ووليم ايرل فيرار، ووليم ايرل أوف ألبيمارل، وكان هناك أيضاً من البارونات: وليم دي ألبيني، وجون مارشال، ووليم دي كانتلو(ورداسمه من قبل: كانتيلوب) ووليم ابنه، وفالكاسيوس الشهير، وتوماس باسيت، وروبرت دي فيبونت، وبرين دي آيل، وفيليب دي ألبيني، مع كثير من ولاة القلاع المجربين بالحرب، وقد أقاموا ثلاثة أيام عند نيوآرك حتى تستجم الخيول وينتعش الرجال، وشغلوا بالوقت نفسه أنفسهم بالاعتراف، وبتقوية، أجسادهم بالمشاركة بدم وجسد مولانا، سائلين إياه حمايته ضد حملات أعدائهم، وهكذا كانوا جميعاً جاهزين لمواجهة المخاطر، وقد قرروا الحصول على النصر أو الموت في سبيل القضية العادلة.

كيف عندما احتشد جيش الملك شجع النائب البابوي رجاله جميعاً من أجل المعركة

وبعد أمد، نهض النائب البابوي، في اليوم السادس من اسبوع الشعانين، بعد إقامة قداس قربان مقدس، وأوضح للجميع، كيف أن قضية لويس كانت قضية غير عادلة ومعه أيضاً البارونات الذين التحقوا به، ولهذا السبب حرموا كنسياً، وصاروا غرباء بالنسبة لجماعة

الكنيسة، ولكي يشجع الجيش للقتال، وضع عليه أرديته البيضاء، وقام مع جميع رجال الدين الذين كانوا هناك بإعلان الحرمان الكنسي للويس بالاسم مع جميع المتعاونين معه ومشجعيه، وبشكل خاص أولئك الذين كانوا يتابعون حصار لنكولن ضد ملك انكلترا، مع جميع المقاطعات، في الداخل وفي الخارج، وأما بالنسبة للذين تولوا القيام بالمساعدة في هذه الحرب شخصياً، فقد منحهم بوساطة السلطة المخولة إليه من الرب القديرومن الكرسي المقدس، غفراناً كاملاً من جميع ذنوبهم، التي عملوا عنها اعترافاً صحيحاً، وكجائزة للصالحين، وعدهم بثواب خلاص سرمدي، ثم إنهم بعدما تلقوا جميعاً التحليل، ومباركة الرب، طاروا إلى السلاح، وامتطوا خيولهم على الفور، وقوضوا معسكرهم وكلهم سرور، ولدى وصولهم إلى ستو Stoue على بعد ثمانية أميال من لنكولن، أمضوا الليلة هناك من دون خوف، وجرى في الصباح تشكيل سبعة أفواج كثيفة وحسنة التكوين، وزحفوا ضد الأعداء، وكانوا يخشون فقط من أن يهرب هؤلاء الأعداء قبل وصولهم إلى المدينة، وسار حملة القسي الزيارة، طوال الوقت، أمام الجيش بمسافة تقارب الميل، وسارت عربات الأثقال ودواب التحميل خلف الجيش في الساقة مع المؤن والحاجات الضرورية، وفي الوقت نفسه رفرفت الرايات ولمعت الترسة في جميع الاتجاهات، وألقت الرعب في قلوب الذين رأوهم.

كيف خرج البارونات من مدينة لنكولن واستطلعوا جيش الملك

وكان البارونات الذين كانوا في المدينة مع الفرنسيين قد شعروا بثقة كبيرة، واطمئنوا إلى نجاحهم في مسألتهم، إلى حد أنه عندما أخبرهم رسلهم بوصول خصومهم ضحكوا منهم واستخفوا بهم، واستمروا في رمي قذائفهم من مجانيقهم لتدمير أسوار القلعة، لكن روبرت فتز—وولتر، وس.S إيرل أوف وينكستر، عندما رأيا بأن جنود

العدو باتوا قريبين من المدينة، خرجا لمراقبة وصولهم ولتعدادهم، وبعدما أكملا عملية مسح دقيقة وتقدير للعدو الواصل، عادا إلى المدينةإلى رفاقهما، وأخبراهم قائلين:«إن العدو المقبل ضدنا هو في تعبئة جيدة، لكننا أكثر منه بكثير،ولذلك فإننا نرى وجوب خروجنا من المدينة لتسلق الرابية للتصدي له، لأننا إذا فعلنا ذلك سوف نمسك أفراده مثل طيور القنبرة»، وجواباً على ما قالاه، قال كونت أوف بيرشي، وناظر الجيش وآمره: «لقد عددتموهم وفقاً لرأيكما، ونحن سوف نخرج الآن ونقدر تعدادهم وفق الطريقة الفرنسية»، وخرجا لاستطلاع الجيش المقبل للملك، وفي تقديرهما له انخدعا، لأنهما عندما رأيا العربات والأثقال في ساقة الجيش، مع الحرس الذين تبعوا الأرتال التي كانت معبأة من أجل القتال، اعتقدوا أن هؤلاء لوحدهم شكلوا جيشاً قائماً بذاته، لأنهما شاهدا حشداً كبيراً من الناس، مع أعلام خفاقة، لأن كل واحد من النبلاء كان معه علمين، علماً—كما تقدم وقلنا—كان يتبع العساكر على مسافة في الساقة مع الأثقال، وعلماً آخر كان يتقدم أمام أشخاص كل واحد منهم، حتى يكونوا معروفين عندما يشتبكون في القتال، وعلى هذا انطلت الخديعة على كونت بيرشي مع ناظر الجيش، وعادا في حالة من الشك وعدم التأكد، إلى رفاقهما، ولدى عودتهما إلى المدينة اقترحا على أصحابهما الخطة التالية، ولم يعترض أصحابهما على ما أشارا به، وكانا قد اقترحا تقسيم النبلاء حتى يمكن حراسة الأبواب، ومنع العدو من الدخول منها، حتى يتمكن الآخرون من الإستيلاء على القلعة، الأمر الذي سوف ينفذ فوراً، وقد وافق كثيرون على هذه الخطة، لكن بعضهم لم يوافق عليها، ثم إنهم تدبروا حماية الأبواب، فعينوا حرساً لهم واستعدوا من أجل الدفاع.

المعركة التي نشبت عند لنكولن ويسميها بعضهم«العادلة»

واقترب جيش الملك في الوقت نفسه من الجانب الأقرب من القلعة،

وعندما انكشف ذلك قادة القلعة أرسلوا رسـولا خرج من باب خلفي للقلعـة ليخبر قـادة الجيش بالذي قـد عمـل في الداخل، وأخبرهم هذا الرسول أنهم إذا ما رغبوا فبإمكانهم الدخول إلى القلعة بتلك الطريقة، لكن أرسلوا فالكاسيوس مع جميع الفـرقة التي كانت تحت قيادته، وكل رماة القسي الزيـارة، ليقوموا بالعمل على شـق طريق بالقوة خـلال أحد أبواب المدينة ليـدخل منه الجيش، ثم زحـف الجيش كله نحـو البـاب الشمالي، وسعى نحـو الاستيلاء عليه وفتحـه بالقوة، ولم يعبأ البـارونات بذلك ، بل تابعـوا رمي الحجـارة الثقيلة من مجانيقهم ضـد القلعـة، وفي تلك الأثناء كـان فالكاسيـوس قـد دخل إلى القلعة مع جماعـة العساكـر التي كانت تحت قيادته، ومعهم رمـاة القسي العقارة، ومركـزهم بشكل مفـاجىء على أسطحـة الأبنيـة وعلى الشرافـات، حيث من هناك رمـوا بأسلحتهم القاتلة ضـد المهاجمين من البارونات، فكان أن ألقـوا بالخيول مع راكبيها على الأرض، وهكذا تمكنوا بطرفـة عين من رمي قوة كبيرة من الجنود الرجالة، والفرسان والنبلاء، وعندما رأى فـالكاسيوس أن عدداً كبيراً، أكثرهم من نبلاء الأعـداء، قد ألقى بهم على الأرض، شق طريقه بجرأة مع أتباعه واندفع من القلعة إلى وسط الأعداء، وقد وقع —على كل حال— أسيرا في أيدي الأعداد الكبيرة التي انقض عليها، وأخذوه، حتى جرى انقاذه بوسـاطة شجاعة رماة القسي العقـارة لديه والفرسان، وتمكنت الكتلـة الكبرى من جيش الملـك، في الوقـت نفســه مـن شق طريقهـا بالقوة خـلال الأبواب، وانقض رجالها بشجـاعة على الأعـداء، وشوهد شرر النار وهو يتطاير، وسمعت الأصوات وكأنها رعود مخيفة، وهي صـادرة عن ضربات السيـوف على خـوذات الرؤوس، لكن الذي حدث أخيرا هوأنه بوساطة رمـاة القسي العقارة، الذين ببراعتهم عقرت الخيـول ورميـت أرضـاً وقتلت مثل خنازيـر، أخـذ حـزب البــارونات يضعف كثيراً، لأنـه عندمــا كبـت خيــولهم وقتلت، وقـع المتطون لها أسرى، لأنه لم يكن هنـاك من ينقــذهـم، ثم إنه أخيراً عندمــا ضعف

البارونات على هذه الصورة، ووقعت أعداد كبيرة من جنودهم أسرى، وجرى وضعهم في أماكن أمينة، انقض فرسان الملك بصفوف متراصة على كونت بيرشي، وطوقوه تماماً، وبما أنه لم يعد بإمكانه الصمود أمام اندفاعهم القوي ضده، دعوه إلى الاستسلام حتى ينجو بحياته لكنه أقسم أن لا يستسلم لانكليزي، لأن الانكليز خونه للملكهم الشرعي، ولدى سماع ذلك انقض عليه فارس وطعنه بعينه،فخرق دماغه، فسقط إثر ذلك دون التفوه بكلمة أخرى، وعندما رأت الكتائب الفرنسية مقتل قائدها، شرعت بالفرار، وشارك في ذلك الجنود الخيالة والرجالة، مع خسائر كبيرة، لأنه مزلاج الباب الجنوبي ، الذي شرعوا بالفرار من خلاله، كان قد وضع بشكل معكوس، مما أعاق فرارهم كثيراً، لأنه كان عندما أي واحد يصل إليه، ويرغب بالخروج من خلال ذلك الباب، كان يرغم على الترجل من على ظهر حصانه، وبعد عبوره، كان الباب ينغلق ثانية، ويسقط المزلاج من جديد عبر الباب كما كان من قبل، وهكذا شكل هذا معيقاً كبيراً، وسبب اضطراباً عظيماً للفارين، ولاحقت قوات الملك البارونات والفرنسيين الفارين، ومع أن بعضهم وقعوا أسرى، فإن رجال الملك تظاهروا فقط بمطاردتهم، ولولا أنهم فعلوا ذلك بحكم العلاقات والقرابات، ما من واحد منهم كان يمكن له النجاة، ودون أن أطيل الرواية من دون هدف، كان من بين قادة البارونات الذين وقعوا أسرى: سير ايرل وينكستر، وهنري دي بوهون Bohon إيرل أوف هيرفورد، والكونت غيلبرت دي غانت، الذي جعل منه لويس مؤخراً إيرل لنكولن، وكان كونت دي بيرشي ممددا ميتاً هناك، وكان من بين الذين اتخذوا أسرى من البارونات: روبرت فتز—وولتر،ورتشارد دي مونتفتشت Montfitchet ،ووليم دي ماوبري Mowbray ووليم دي بوشامب Beauchamp ووليم دي مودوت Maudut وأوليفر دي هينكورت Haencurt وروجردي كريسي Creisiووليم دي كسولفيل، ووليم دي روز Roos

وروبـرت دي روبلي Roppele ورالف دي تشيندوت Choindut وآخرون كثر، أن تذكـرهم أمر متعب،وكان عدد الفـرسان الذي أسروا ثلاثمائـة، وذلك إلى جانب الجنود من خيـالة ورجـالة، وهؤلاء ليس من السهل تعـدادهـم، ودفن كـونت دي بيرشي في دير الاسبتـارية خـارج المدينة، أما رينالد الذي لقبه كروكوس Crocus وكان فارساً شجاعاً من حـاشية فـالكاسيوس، قـد قتل هناك، فقـد دفن في دير كروكستـون Croxton بشكل مشرف، وقـد قتل هناك في هذه المعركـة جنود من حزب البارونات، غير معـروفين من قبل أحد، ودفنوا خارج المدينة عند التقـاء أربعـة طرق مع بعضهـا، وذلك بحكم كـونهم محرومين كنسياً، وفقط الثلاثة الذين تقـدم ذكرهم أعلاه، قـد ورد ذكرهم بأنهم قتلوا في هذه المعركة الكبيرة.

نهب المدينة وسلبها

وبعـد انتهاء المعـركة على هـذه الصورة، وجـد جنود الملك في المدينة عـربات البـارونات والفـرنسيين مع خيـول التحميل، وكلهم مثقلين بالأثقـال، وأواني الفضـة، ومختلـف أنواع الأثاث، وأدوات المنزل، وقـد أخـذوا ذلك كله بأيديهم مـن دون معـارضـة، ثم إنهم نهبـوا بعـد ذلك المدينة إلى آخر أصغـر قطعة نقـد، ثم إنهم نهبـوا بعـد ذلك الكنائس.في جميع أرجاء المدينة، وحطموا وفتحـوا الصناديق وغرف الخزن بالفؤوس والمطارق واستولـوا على الذهب والفضة التي كانـت فيهم، وعلى أقمشة من جميع الألوان، وعلى الزيـن النسـائيـة، وخـواتم الذهـب، والأقـداح، والمجـوهرات، كما أن الكنيسـة الكاتدرائيـة لم تنج من هذا التـدمير، بل عانت مـن العقوبة نفسها مثل البقيـة، لأن النائب البابـوي أعطى أوامر إلى الفـرسان بمعـاملة جميع رجال الدين بمثـابة رجال محرومين كنسيـاً، وبالقـدر نفسـه بمثـابة أعـداء لكنيسـة رومـا وللملك انكلترا، منذ بداية الحرب،وخسر غيوفري دي دربنغ Drepinges قائد جوقة المرتلين في

هذه الكنيسة أحد عشر ألف مارك من الفضة، وبعدما استولوا هكذا على كل نوع من السلع، حتى إذا لم يبق أي شيء في أية زاوية من البيوت، عاد كل واحد منهم إلى مواليهم بمثابة رجال أثرياء، وجرى الاعلان عن السلم مع الملك هنري في جميع أرجاء المدينة، وقد أكلوا وشربوا وسط السرور والاحتفال، ووقعت هذه المعركة التي عرضت لويس والبارونات للسخرية، وأطلق عليها اسم «العادلة» في التاسع عشر من أيار، وكان ذلك يوم سبت في اسبوع أحد الشعانين، وقد بدأت فيها بين الساعة الأولى والساعة الثالثة، وانتهت من قبل الذين أداروها بشكل جيد قبل التاسعة، وكثير من نساء المدينة تعرضن للغرق في النهر، لأنهن—حتى يتجنبن الاهانة—أخذن قوارب صغيرة مع أولادهن وخدمهن من الاناث، والسلع الموجودة في بيوتهن، وقد هلكن وهن على طريق رحلتهن، وقد تم العثور فيها بعد في النهر من قبل الباحثين على أقداح من الفضة، وكثيراً من الأشياء كانت ذات فوائد كبيرة ومرابح للذين عثروا عليها، لأن القوارب كانت محملة أكثر مما ينبغي، ولم تعرف النساء كيف يتدبرن القوارب، فغرقن جميعاً لأن كل عمل، نفذ بسرعة كانت محصلته دوماً سيئة.

وبعد الفراغ من هذه الأعمال، أمر وليم المارشال جميع ولاة القلاع بالعودة إلى قلاعهم مع الأسرى، وأن يحتفظوا بهم هناك في سجون مضيقة، حتى يعلموا برغبة الملك حولهم، وعاد وليم المارشال المذكور في اليوم نفسه، قبل أن يتناول أي طعام، فقد عاد إلى الملك فأخبره بحضور النائب البابوي بالذي حصل، وهم بعدما صلوا إلى الرب وهم يبكون، ما لبثوا ان غيروا الدموع إلى ابتسامات، وفي الصباح وصل رسل إلى عند الملك، وأخبروه بأن الفرسان الذين كانوا في مونتسوريل قد غادروا القلعة وهربوا، وبناء عليه أمر الملك عمدة نوتنغهام بالذهاب شخصياً إلى القلعة وهدمها وتسويتها بالأرض.

فرار البارونات مع الفرنسيين من لنكولن

بعد مقتل كونت بيرشي— كما ذكرنا أعلاه— لجأ الجميع إلى الفرار خيالة ورجالة نحو مدينة لندن، وكان أبرز الشخصيات بينهم ناظر الجيش مع قسطلان أراس، وجميع الفرنسيين، وتعرض— على كل حال— كثير منهم للقتل، ولا سيما الرجالة، فقد قتلوا قبل وصولهم إلى لويس، لأن سكان البلدات التي عبروا منها أثناء فرارهم، خرجوا للتصدي لهم بالسيوف والهراوات، ونصبوا الكمائن لهم، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، ووصل حوالي المائتي فارس إلى لندن، ومثلوا أمام لويس، ليخبروه عن خسائرهم، وقد أخبرهم وهو موجه اللوم إليهم، أنه بسبب فرارهم، وقع أصحابهم بالأسر، لأنهم لو بقيوا للقتال لكان ربما من الممكن انقاذ أنفسهم، وكذلك انقاذ رفاقهم من الأسر ومن الموت، وينبغي أن نؤمن بأن هذه الهزيمة وقعت للويس ولبارونات انكلترا بمثابة جزاء من الرب، لأنهم كانوا قد أمضوا حتى الآن قرابة العامين تحت الحرمان الكنسي، ولولا أنه جرى تقويمهم بعقوبة ربانية، كان الناس سيقولون:«ليس هناك رب»ولن يكون هناك من يعمل بشكل صحيح، لا ولا واحد أبداً.

موت البابا انوسنت

وفي السادس عشر من تموز من العام نفسه، سدد البابا انوسنت دين الطبيعة البشرية، بعدما شغل كرسي الحبرية لمدة ثمانية عشر عاماً، وخمسة أشهر، وأربعة أيام، وقد خلفه هونوريوس، الذي كان معروفا من قبل باسم سينشيو Cencio ، وهوالذي شغل الكرسي في الكنيسة الرومانية لمدة عشر سنوات، وسبعة أشهر وتسعة عشر يوماً.

كيف بعث لويس إلى أبيه يطلب منه عساكراً

وبعد سوء الحظ الذي ألم بلويس في لنكولن، بات يائساً من فعالية

قضيتـه، وبناء على نصيحـة تلقـاها، بعث رسـلاً إلى أبيـه، وإلى زوجتـه السيـدة بلانشي، يخبرهما بالخسـائـر المؤسفـة التـي ألمت به وبالبـارونات الانكليز في لنكولن، وهي خسائر حلت بهم – كما قال – من عند الرب أكثـر منهـا من عند الانسـان، وأن ملك الانكليـز قـد أصبح الآن قـوياً جداً، إلى حد أنه يستعرض قوة ضخمة خلال المدن والبلدات من حول لندن، ويمنعـه ويمنع أصحـابه من مغادرة المدينـة، وقال: «عـلاوة على ذلك، نحن بحاجة مع أتباعنا إلى جميع أنواع المؤن لتناقصها لدينا، ثم إنه لو توفـرت المؤن هنا نحن ليس لدينا وسـائط لشرائهـا، ولذلك إنني أخبرك ليس لدينا وسـائـل للمقـاومـة، أو لمغـادرة انكلترا، مـالم تزودني بعون عسكري قـوي»، وعندما وصلت هذه الأخبـار إلى الأب من ابنه، وإلى الزوجـة من زوجهـا، قلقـاً كثيراً لوجـوده في ذلك الوضع الصعب والضائقـة، وبما أن الملك كان خـائفاً من تقـديم العون إلى ابنـه المحروم كنسيا، ولأنه غالباً ماتعـرض إلى اللوم الشديد من قبل البابا، لأنه منحه موافقته ألقى بثقل المسؤولية عن الأعمال كلها على زوجة لويس، التي لم تكن بطيئة ولامتوانية في القيام بالواجب الذي فرض عليها، بل أرسلت إلى زوجها مساعدة مكونة من ثلاثمائة فارس شجاع مجهزين بشكل جيد بالعتاد من أجل الحرب، وتحيط بهم كتلة كبيرة من الجنود، لكن هذا كله لم يكـن مـن الممكـن كتمانـه عـن ملـك انكلترا، الـذي استرد الآن شجـاعتـه،وتوفـر لديـه جيش كبير، كما أنه قـد تملك جميع السـواحل الجنوبيـة، لـذلك قـرر محاصرة مـدينة لندن، ومـن أجل ذلك وبناء على نصيحـة المارشال الأكبر أنـاب فليب دي ألبيني، وجون مـارسـاك، مع بحارة الموانى الخمسـة، وكتلة كبرى من العسـاكر، للقيـام بمهمة مـراقبة البحاربكل دقة، وأن يعملوا على منع وصول الفرنسيين.

وفي يوم عيد القـديس بارثلميو، أوكلت قيـادة الاسطول الفرنسي إلى يوستاس الراهب وكـان رجلاً فـاسداً جداً، وقـرصاناً شريراً، وقـد أمر

بقيادة الأسطول سالماً إلى لندن، وأن يسلمه إلى لويس، ووقتها أقلعت سفن الجنود المذكورين بالبحر، مع ريح قوية مناسبة، ساقتهم بسرعة نحو انكلترا، لكنهم كانوا جاهلين تماماً بالاستعدادات التي عملت ضدهم، وبناء عليه بعدما قطعوا مسافة جيدة على طريقهم، قدم قادة اسطول ملك انكلترا بوساطة طريق التفافي مع ثمانين سفينة للتصدي لهم، ولذلك كان الفرنسيون خائفين من الاشتباك معهم في البحر، بوساطة سفنهم القليلة العدد، التي لم يتجاوز تعدادها الأربعين مابين غليون وسفينة عادية، ثم إن الحادثة التي وقعت في لنكولن والتي انتصر فيها عدد قليل على عدد كبير جداً، شجعت الانكليز، فهاجموا بجرأة مؤخرة العدو، وعندما اكتشف الفرنسيون هذا، هبوا إلى حمل سلاحهم، وعملوا مقاومة جريئة ضدهم، وأرسل فيليب دي ألبيني مع رجّالة رماة القسي الزيارة ورماته العاديين بنشابهم ونبالهم بين الفرنسيين، مما تسبب بمقتلة كبيرة بين الذين تصدوا لهم، وقد خرقوا سفن أعدائهم، وبلحظة واحدة أغرقوا كثيراً منها، كما أنهم ألقوا برماد كلس حامي فوق البحر، وقد حملت الرياح هذا الرماد، فأعمت عيون الفرنسيين، وقام اشتباك حاد بين الاسطولين، لكن اسطول الفرنسيين الذي لم يكن رجاله بارعين في القتال البحري، مالبث أن هزم، لأن ملاحية سقطوا أرضاً بوساطة أسلحة البحارة الانكليز ونشابهم، ذلك أنهم كانوا معتادين على القتال البحري، فطعنوهم بحرابهم ونشابهم، أو مزقوهم بسيوفهم ورماحهم، في حين تمكن آخرون من فتح ثغرات في قعر السفن، وأغرقوهم، ولذلك لم يعد لدى الفرنسيين أملاً بالنجاة، فرموا بأنفسهم طواعية بين الأمواج حتى لايؤخذوا أسرى من قبل أعدائهم، ذلك أنهم آثروا الموت على أن يقعوا أسرى بين أيدي الانكليز، أما النبلاء الفرنسيون الذين بقيوا أحياء فأخذوا أسرى، وقطر الانكليز المنتصرون خلفهم السفن المأسورة، وأبحروا بعد نصرهم الرائع نحو دوفر، ورأتهم الحامية العسكرية لذلك المكان، ورأت هذا الفضل

الرباني غير المتـــوقع، لذلـك خـرج رجـالها لاستقبـــال أبناء وطنهم الواصلين، ووضعـوا الأسرى التعسـاء الفرنسيين في معتقـلات ضيقـة، وكـــان بين الأسرى ذلـك الخائن لملك انكلترا، والقــرصـــان الشرير، يوستـاس الراهـب، فبعـد بحث طويل عنه وجــدوه، وجـروه من مخبأ إحدى السفـن، وعندما وجـد نفسه أسيراً، عرض مبلغـاً كبيراً من المال مقابل حياته، وسلامة جسـده، ووعد في أن يقاتل في المستقبل باخلاص تحت قيادة ملك انكلترا، لكن قال له رتشارد الابن غير الشرعي للملك جـــون، وهو الـذي أسره: « إنك أيها الخائن الشرير، لـن تخدع في هذه الدنيـا أي انسـان بوعودك الـزائفة»، وبهذه الكلمات جـرد سيفـه وقطع رأسه، وجمع بعـد هذا أتباع الملك جميـع الأسلاب من السفن الفـرنسية، وتضمن ذلك: الذهب، والفضة، والأقمشة الحريرية، والأسلحة ،وعهد بالأسرى إلى سجـن أمين، وأخبر فيليب دي ألبيني الملـك بالـذي فعله، فقـدم على الفـور الشكر إلى المولى على هذا النصر الذي أرسلتـه السماء، والرب هو دائماً وفي كـل مكان مـــدهـش بأعماله بين الناس، وعنـدمـــا وصلت أخبـار هذه الحادثة إلى لويـس، كـان مـزعـوجـاً أكثـر من هذه الكارثة، مما شعر به إثر معركة لنكولن.

اتفاقية السلام التي عملت بين ملك انكلترا وبين لويس

وبعد هذا حشد المارشـال، الوصي على الملك والنائب له، جيشاً كبيراً من الفـــرسـان والجنود، وزحف بعـــزم شـديد إلى مـــدينة لندن، حيث حـاصرها من جميع الجهات بـراً وبحراً، وبذلك قطع الامـدادات والمؤن عن الحاميـــة العسكرية فيهـــا، وفكـر أنه بذلك سيرغم أفـــرادها على الاستســـلام، وعندمـا وجـد لويس نفسـه في هذا الوضع الحرج، أرسل رسالة إلى النـائب البابوي وإلى المارشال، أنه على استعـداد للتسليم وفق شروطهم جميعاً، على شرط أن يعملوا معه اتفاق سلام مناسب، يحفظون به كـرامته مع عـدم تعريـض أتباعـه للأذى، وبناء عليه، بما أن القضيـة

صارت بين أيديهم، ولأنهم رغبوا إلى أبعد الحدود بالتخلص من لويس، أرسلوا إليه شروطاً للسلام، دونت كتابة، وأخبروه أنه إذا ما وافق على الشروط، سوف يتعهدون بمنحه مخرجا حراً من انكلترا له شخصياً ولجميع أتباعه من المغامرين، لكنه إذا لم يوافق سوف يتدبرون تدميره، والحاق الأذى به من كل جانب، وعندما رأى لويس ومستشاروه هذه الشروط للسلام، كان مسروراً جداً بالسماح له بمغادرة انكلترا، حيث بدا له ولأتباعه أنه بلافائدة البقاء هناك أية مدة أطول، ولذلك أرسل رسالة إلى النائب البابوي، وإلى المارشال الأكبر، لتعيين مكان وموعد من أجل إبرام المعاهدة المذكورة وتنفيذها، ثم وافق الفرقاء على الشروط، واجتمعوا في مؤتمر قرب بلدة ستين Staines على نهر التيمز، لعقد السلام، وكان الملك هنري مع النائب البابوي والمارشال الأكبر، وآخرون كثر من الجانب الأول، ولويس مع الايرلات والبارونات والآخرون من أتباعه من الجانب الآخر، وكلهم هناك وافقوا بفضل النعمة الربانية على شروط السلام المدونة أدناه، وكان ذلك في الحادي عشر من ايلول.

صيغة السلام والعقوبات الثقيلة للمحرومين كنسيا بسبب الملك

وأقسم في المقام الأول لويس وجميع الذين كانوا محرومين كنسيا، وكل أتباعه من المغامرين، على الأناجيل المقدسة، أنهم سوف يلتزمون بقرار الكنيسة المقدسة، وأنهم سوف يكونون من الآن فصاعداً مخلصين لمولاهم البابا، ولكنيسة روما، وأقسم لويس أيضا أنه سوف يغادر على الفور انكلترا مع جميع أتباعه، وأنه لن يعود ثانية قط إليها مع نوايا شريرة، وأنه سوف يبذل أفضل جهوده لاقناع أبيه فيليب بأن يعيد إلى الملك الانكليزي هنري جميع حقوقه في مقاطعات ماوراء البحار، كما أنه أقسم أنه سوف يقوم على الفور بتسليم الملك وأتباعه جميع القلاع وكل الأراضي، التي احتلها هو وأتباعه في انكلترا أثناء الحرب، وأقسم ملك

انكلترا مع النائب البابوي والمارشال على الأناجيل المقدسة، أنهم سوف يعيدون إلى بارونات انكلترا وإلى الآخرين في المملكة جميع حقوقهم ومواريثهم مع جميع الامتيازات التي طلبوها من قبل، والتي هي متعلقة بالخلاف الذي تفجر بين جون ملك انكلترا والبارونات، أما بالنسبة للأسرى، والذين فدوا أنفسهم قبل إعداد ترتيبات السلام، وكذلك الذين تولوا دفع جزء من المال المتفق عليه من أجل فديتهم، هؤلاء جميعاً لايجوز استرداد الذي دفعوه، لكن بالنسبة للمتبقي فإنهم يحررون من دفعه تماماً، وفيما يختص بالأسرى الذي أسروا في لنكولن، أو في القتال البحري قرب دوفر، سواء أكانوا من جانب الملك، أومن جانب لويس، هؤلاء من المتوجب اطلاق سراحهم في كل مكان، وعلى الفور، ومن دون أية صعوبات، ومن دون دفع أية فدية أو غرامة.

وبعد إقرار هذا كله جرى تحليل لويس مع أتباعه وفقاً لطريقة الكنيسة، وأعطى كل واحد منهم إلى الآخر قبلة السلام، لكن عدداً كبيراً منهم فعل ذلك مخادعة، وتظاهروا بالسرور تظاهراً، وعاد لويس بعد هذا إلى لندن، حيث تسلم خمسة آلاف باوند استرليني للانفاق على مااحتاج إليه، ثم قام تحت توجيه المارشال الأكبر، بالتوجه بكل سرعة إلى ساحل البحر، ومن هناك عبر - وهو يحمل وصمة عار أبدية -إلى فرنسا.

واستثني من الافادة من هذا التحليل وهذا السلام، جميع الأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والكهنة، والمدنيين، وعدد من رجال الدين، الذين قدموا نصيحة وأظهروا ميلاً نحو لويس والبارونات، وبشكل خاص المعلم سيمون دي لانغتون، والمعلم غيرفاس دي هوبيرج Hobregge اللذان اشتطا كثيراً في عنادهما، وكانا وراء تقديم الخدمات الدينية والقداسات إلى لويس وإلى الباررونات المحرومين كنسيا، بوساطة كهنة محرومين كنسيا، ولذلك استثنيا من جميع المنافع،

وأرغما من قبل النائب البابوي على الذهاب إلى روما.

وفور مغادرة لويس لانكلترا، أرسل النائب البابوي مفتشين إلى جميع كونتيات انكلترا للبحث من أجل معرفة جميع الذين كانوا مجرمين، ولو بأقل المشاركات في العصيان، مهما كانت الطائفة الدينية التي انتموا إليها، ومهما كانت مراتبهم، وارسالهم إلى النائب البابوي بعد تعليقهم وتجريدهم من جميع المصالح، وقد قام بتوزيع مصالحهم بين كهنته، وهكذا أغنى أتباعه عن طريق افقار الآخرين، ووصل هيوج أسقف لنكولن إلى انكلترا أيضاً، ليسترد أسقفيته، وقد دفع ألف مارك استرليني نقداً لصالح البابا، ومائة إلى النائب البابوي، وحذا حذوه عدد من الآخرين من الكهنة ورجال الدين، حيث استردوا حظوة النائب البابوي مقابل تدمير الآخرين، وبمثل هذا الاستنزاف أفرغ حافظات نقود رجال الدين، والكهنة العلمانيين، وهكذا وحسب ماجاء في الانجيل، لقد جمع في مكان واحد، كل الذي كان متفرقاً في الخارج، وعمل من أجزاء متعددة كومة كبيرة.

كيف استعد سكان كولون وفريزلاند للزحف إلى الأرض المقدسة

وكان في هذه الآونة هناك حركة عظيمة لرجال شجعان ومقاتلين أشداء في مقاطعتي كولون،وفريزلاند، لأنهم قاموا منذ التبشير بالصليبية بعد المجمع المسكوني، بنشاط عظيم، فبنوا ثلاثمائة سفينة، وأقلعوا فيهن، للوفاء للرب بنذر الحج، ونشروا الأشرعة، ووصل الشطر الأعظم منهم مع أرتال كبيرة من الجنود إلى لشبونة، حيث تفجر خلاف شديد فيما بينهم، حول إلقاء الحصار على قلعة قوية اسمها القليعة Alchatia، فقد كان بعضهم متشوقاً لمتابعة الزحف، وأراد آخرون امضاء الشتاء حيث كانوا، وهكذا انقسم الاسطول، حيث أمضى القسم الأول منهم الشتاء

في غيطه Gaeta وسورنتو Sorrento ، وتولى القسم الآخر، وهو تحت قيادة قائدين هما: وليم دوق هولاندا، وجورج كونت ويز Weise إلقاء الحصار على القليعة، وأثناء انشغالهم بالحصار تجمعت قوة كبيرة من المسلمين ضدهم، واشتبك المسلمون معهم في القتال، وبوساطة العون الرباني غلبوا المسلمين، وجرى قتل ملك واحد من المسلمين، كما جرى قتل عدد آخر وأخذوا أسرى، وجرى أخيراً الاستيلاء على القلعة من قبل الألمان، واحتفظ بها الصليبيون.

حصار قلعة نيوآرك وروبرت دي غوغي

عام ١٢١٨م، فيه كان الملك هنري في أيام عيد الميلاد في نورثأمبتون، حيث قدم فالكاسيوس كل الضروريات من أجل الاحتفال الملكي، وكان في تلك الآونة في انكلترا كثير من النبلاء، كانت متعتهم الرئيسية أثناء الحرب الأخيرة، أن يعيشوا على النهب، والآن مع أنه أعلن عن السلام ومنح إلى الجميع، لم يكن بامكانهم منع أيديهم وإيقافها عن النهب، وكان رأس المثيرين لهذا العمل:

وليم ايرل أوف ألبيميرلي Albemerle ، وفالكاسيوس وولاة قلاعه، وروبرت دي فيبوت، وبرين دي آيل، وهيودي بالأويل Baliol، وفيليب مارسي، وروبرت غوغي، وعدد كبير آخر، الذين بتحد منهم لتحريم الملك، وضد موافقة الملاكين استأنفوا أعمال الاحتفاظ بين أيديهم بقلاع بعض الأساقفة والنبلاء مع أراضيهم وممتلكاتهم الأخرى، وكان بين هؤلاء روبرت دي غوغي، الذي رفض، بعد عدة انذارات من الملك تسليم هوغ أسقف لنكولن، قلعة نيوآرك مع البلدة ومتعلقاتها، مع أنها كانت حقاً لذلك الأسقف وأثارت هذه الظروف غضب المارشال الأكبر، فقام بناء على أوامر الملك فحشد جيشاً كبيراً، وزحف بصحبة الملك نفسه ضد القلعة المتقدمة الذكر، وعندما وصلا إلى أحوازها، أرسلا أمامهما بعض الجنود لمنع رجال الحامية من مغادرة

القلعـة، حتى لايتمكنوا من القيـام بهجـوم مفـاجيء ومن ثم يحرقـون البلدة، وعندمـا سمع روبرت وأصحـابـه بوصـول هذا الجيش، قـامـوا بانقضـاض عليه، لكنهـم أرغموا على التراجع ثانيـة بسبب قتـال جنود الملك، وقتل أثناء هذا القتال وليم دي ديفا Diva ، وكان فـارساً من حـاشيـة هوغ أسقف لنكولن، وجـاء قتله أثنـاء مطاردته للأعـداء وهم يتراجعون إلى القلعة، وقد جرح عـدد آخر، وقد انزعج الملك والمارشال الأكبر كثيراً تجاه هذا، وأمـرا بآلات حـربهما بالانتشـار والتمركـز حـول القلعـة ورمي الأسوار ومتـابعة القصف من المجـانيق، واستمر الحصـار لمدة ثمانية أيام تقريبا، خلاله تقدم أصدقاء روبرت المذكور بعرض سلام إلى أسقف لنكولن، وأخيراً توصل الفريقان مع مـوافقة الملك إلى اتفاق، قضى بوجوب أن يدفع الأسقف المذكور إلى روبرت غـوغي مائة باوند استرليني مقـابل المخـزونات في القلعـــة، وبمـوجب هذه الشروط رفع الحصار، وعاد كل واحد إلى بيته.

زحف القوات الصليبية من عكا إلى دمياط

وجـرى في هذا العـام تنفيـذ خطط البـابا انـوسنت، التي كـانت قـد تقررت في مجمع اللاتيران، أي جلب جيش المسيح إلى أرض مصر، ففي شهـر أيار، كـانت المراكب والغـلايين مـع عـدد من سفن التحميل قـد جـرى تحضيرها، وأبحر جـون ملك القدس والبطريرك من عكا برفقـة أسـاقفة نيقـوسيـا، وعكا، وبيت لحم، ودوق النمسـا، ومقدمـو الداوية واسبتـارية القـديس يوحنـا، والقـديسـة مـريم الألمان وحشـد كبير من الصليبيين، وبدأت الريح تهب قليلاً، وتمتع جيش الرب برحلة مـوائمة، ووصل في اليوم الثالث إلى دمياط، ونزل وقتها بعض الجنود إلى اليابسة، واستحوذوا على هذه الأرض العدوة من دون سفـك للدماء، وتصدى لهم عدد قليل من الفـرسان المسلمين، وعندما جثا واحـد من الفريزيين على ركبتـه اليمنى فـوق الأرض، وحمى نفسـه برمحه بيـده اليسرى وهز

حربته وسيفه بيده اليمنى، رآه أحد المسلمين فخيل إليه أنه يلعب، لكنه مالبث أن تلقى فجأة الجراحه على يد الفريزي، وسقط الفارس وفرسه نتيجة لذلك على الأرض، وهرب الباقون، وهكذا اختط جيش المؤمنون معسكره فيما بين الساحل وشواطىء النيل، ونصب آخرون خيمهم من دون عائق، وصنع الرب المعجزة التالية لشعبه المؤمن، فقد كانت مياه النهر قرب البحر عند أول وصولهم حلوة المذاق، ولكنها صارت بعد ذلك مالحة، وصولاً حتى القلعة، التي كانت تبعد ميلاً عن دمياط، وعندما وصل الصليبيون إلى هناك حدث خسوف كامل للقمر، وفسر الصليبيون ذلك أنه يشير إلى هزيمة المسلمين، لأنهم تنبأوا فعزوا وقوع وقائع كبيرة إلى نقص أو زيادة تلك الظاهرة الفلكية.

حصار برج دمياط فوق نهر النيل

وشاهد بعد هذا أتباع المسيح في وسط نهر النيل، وليس بعيداً عن دمياط برجاً عاليا ورشيقاً قد بني بشكل قوى من الحجارة، ومنه امتدت سلسلة ضخمة جداً من الحديد عبر النهر إلى المدينة التي قامت على الشاطىء الآخر للنهر، وكان رأي الجميع وجوب احتلال ذلك البرج قبل إلقاء الحصار على دمياط، لكن قام الفريزلانديون، مع انعدام الصبر المعهود لديهم، بعبور النيل، واستولوا على خيول المسملين، وكانوا يرغبون بنصب معسكرهم على الطرف الأقصى من النهر، ووقفوا يقاتلون ضد المسلمين الذين خرجوا للقتال ضدهم، ولقد استدعوا -على كل حال -من قبل البطريرك، بموجب قسمهم بالطاعة، لأنه بدا بالنسبة لقادة الصليبيين أنه ليس مفيداً ترك البرج خلفهم مملوءاً بالمسلمين، ورأى قادة جيش المسيح، أنهم وإن كانوا متشوقين للسيطرة على ذلك البرج، من غير الممكن الاستيلاء عليه بالتجويع، بسبب قربه من المدينة، كما لايمكن لغمه بسبب قوة جريان الماء الذي يحيط به، كما لايمكنهم اخضاعه بالقصف من مجانيقهم وعراداتهم، لأنهم قد حاولوا

ذلك لعدة أيام، فحصلوا على قليل من التقدم أو على لاشيء، وفي وسط هذه المعضلة توصلوا إلى القـــرار التـــالي، وهو وصل بعـض السفن والقـوارب مع بعضهـا، وأن يعدوا بعض السـلالم على قمم السـواري، ووضعـوا هناك بعض رماة القسي الزيارة والجنـود، وقد أملوا بوسـاطة هذه الخطة بتحقيق غـرضهم، ووقتهـا شيـد دوق النمسـا مع اسبتـارية القـديس يوحنا سلمين فـوق القوارب، وقـد رفعـا نحو الأعلى في عيـد القـــديس يوحنا (٢٤ حـزيران) وقـام المسلمـون طوال الـوقت بعمل مقاومة شجاعة، ومحزن أن نحكي بأن سلم الاسبتارية قد تحطم، وسقط جنودهم في النهر،، ومثل ذلك أيضاً حدث للسلم الثاني، أي سلم دوق النمسـا وسقط بالطريقـة نفسهـا مع سـارية السفينة، وغـرق الفـرسـان الشجعان والجنود في النيـل وقد أخذ المسيح أرواحهـم جميعاً إلى السماء، حيث تتوجـوا مع الشهداء الممجـدين، ولقد فـرح المصريون كثيراً جداً، وسخـروا من الصليبيين، وضربوا بأبواقهم استهـزاءاً بهم، في حين كـان الحال على العكس بالنسبة للصليبيين، حيث غلبهم الحزن واليأس، وقام الفـريزلانديون والألمان بقيـادة أدولفـوس دي مـونتي Adolphus de Monte ، وكان نبيلاً شجاعـاً ومقتدراً، وقتها بتحصين سفينة بسواتر وبقلعة صغيرة وضعوها على رأس السارية، وهوجمت هذه السفينة بشدة من قبل جنـود المدينة، والبرج، والجسر بالنفـوط وبـالمجـانيق، وأخيراً اشعلوا النار فيهـا، وعندما أصبح الصليبيـون خائفين أنها سـوف تحترق كليـاً، بذل الملاحـون في السفينة جهـوداً كبيرة لإطفـاء النار، ووقتهـا أحـدث رمـاة القسي العقـارة من الداخل دمـاراً كبيراً بين المسلمين، وكـانت سفن أخرى، أثناء ذلك الهجوم، تابعـة للصليبيين، قد جـرى تحصينها بالسواتر الدفاعية، وقد بادرت مسرعة نحو البرج بكل احكام، فتكبدت خسائر كبيرة بالرجال والممتلكات.

الاستيلاء على البرج المتقدم الذكر والشجاعة المدهشة للصليبيين

وبين الرب القـدير أخيراً الخطة التـالية، وقـام المهندسـون بإلهام منه، بامتـلاك القـدرة على تنفيذها، حيث قـام الجيش الصليبي، على حسـاب الفرسـان الألمان والفريزلانديين، وبالتعاون بين هذين الفـريقين فوصلوا سفينتين مع بعضهما بالألواح الخشبيـة والحبال، وبـذلك امتلكوا قاعـدة ثابتة، فشيدوا أربع سواري، ووضعوا على رأسهم بريج على شكل سلة، وغطوه بالجلود لمنـع تأثير النفـوط، وشيـدوا تحت البريج سلماً عـاليـاً، وعلقوه بحبال قوية، فوصل إلى مسافة ثلاثين ذراعاً أمام قيدوم السفينة، وتم الفـراغ من هذا العمل في وقت قصير، واجتمع قـادة الصليبيـون وقتهـا، لفحصـه، ولمعـرفـة فيها إذا كـان هناك أي نقص بالنفقـات، أو بعبقـرية الرجـال، حتى يمكن تدارك ذلك، ولقد تلقـوا جـواباً أن مثل هذه الآلـة لم يكن لها مثيل مـن قبل قـــد صنع مـن الخشب، واعتقـــد الصليبيـون أنه يتـوجب عليهـم استخـدام هذه المنشأة على الفـور ضـد البرج، لأن الجسر الذي وصل المسلمون به البرج، كان قد تدمر إلى حد كبير، بسبب الرمايات المتواصلة من آلات الفـرنجة، وفي اليوم السادس قبل عيد القـديس بارثلميو (١٨ -آب) زحف الصليبيون بشكل تقوي وبأقدام حافية، وبمسيرة مهيبـة إلى الصليب المقدس، وسار رجال الدين في الأمام وهم ينشـدون ويقرأون القداسـات، وبتواضع التمسـوا العون الرباني، وأن تكون القضيـة كلهـا محررة من جميع أنواع الغيرة والحسـد، وفارغة من كل تفاخر ورعونة من قبل أي أناس كانوا آنذاك في الجيش، واستـدعـوا عـدد اً من القـادة لرؤيـة نتيجـة هذا الهجـوم، مع أن الفريزلانديين والألمان كان فيهم كفاية لشغل السفن وادارتها.

وفي يوم عيد القديس بارثلميـو (٢٤ -آب) الذي كان اليوم السادس من الاسبـوع، مع أن النيل كان فـائضاً كثيراً، وقـوة التيار كانـت معيقة جـــداً للعمل، سحبت الآلـة نحـــو البرج، على الرغم مـن كثير من المصاعب والخطر، وسارت السفينـة التي ربطت إليها تحت الأشرعة، في

حين سار البطريرك، ورجال الدين على طول الشاطىء وهم يصلون إلى الرب، وعندما وصلوا إلى البرج لم يكن من الممكن جلب هذه الآلة المزدوجة إلى الجانب الغربي، ولذلك سارت بشكل مباشر إلى الجانب الشمالي، وأخيراً جرى تثبيتها، وبعد طويل وقت تم ضمان تثبيتها بالحبال والمراسي، مع أن قوة المياه الفائضة كانت تهدد بدفعها بعيداً، وعندما رأى المسلمون ذلك، أقاموا ست آلات رمي على أبراج المدينة لتدمير الآلة، لكن احدى هذه الآلات التي كانت أكثر فعالية بالتهديم من البقية، تحطمت بعد عدة رمايات، وباتت غير صالحة، ومع ذلك هم لم يوقفوا جهودهم بل أرسلوا رماياتهم وقذفوا بزخات من الحجارة المدمرة، ووضعت السفينة الأولى المربوطة إلى الآلة تحت سفح البرج، لكن وسط خطر عظيم، لأن النفوط التي قذفت منه سقطت عليها مثل البرق، وسببت رعباً شديداً للفرنجة، لكن تم اخضاع النيران باستخدام الخل والحصا ووسائل إطفاء أخرى، ثم قام الذين يديرون الآلة بهجوم حاد، ووقتها كان البطريرك ساجداً على الأرض أمام الصليب، ورجال الدين واقفون وهم حفاة، يصرخون بأصوات عالية نحو السماء، ومدّ أعداء الصليب والمدافعون عن البرج، رماحهم نحو الأمام، وصبوا الزيت على الجزء الأعظم من السلم، ثم استخدموا النفوط، وألقوا النيران عليه، واندفع الصليبيون الذين كانوا بالداخل وتقدموا لاطفاء النار، وضغط وزنهم على رأس السلم ضغطا شديداً، أدى إلى سقوط الجسر المستدير المتحرك الموضوع أمام واجهة البرج، وهبوطه نحو الأسفل، وسقط حامل راية دوق النمسا من عليه، واستولى المسلمون على راية الدوق وسط شماتة كبيرة، ووقتها اعتقدوا أنهم أنفسهم المنتصرون فرفعوا صراخهم حتى عنان السماء، وعندما شاهد الصليبيون ذلك سجدوا بأجسادهم على الأرض يصلون وتابعوا وهم يضربون أيديهم ويصفقون، الدعاء إلى الرب، وأثناء هذا التضرع ورفع رجال شعب المسيح أيديهم نحو السماء، رفعت العناية الربانية السلم، وأطفأت

دموع أهل الايمان النار، ثم استرد الصليبيون شجاعتهم، فاصطرعوا بشجاعة مع المدافعين عن البرج، بالرماح وبالسيوف، والدبابيس والنشاب وأسلحة الحرب الأخرى، وكان هناك شاب شجاع من أسقفية لييج، حيث كان هو أول من تسلق إلى البرج، ثم صعد إليه شاب من فريزلاند، وكان ممسكاً بيده عصا حديدية تستخدم من أجل فصل حبات القمح، وقد اتخذها سلاحاً للقتال، به مزق أعداء الايمان خلف الشرافات والسواتر الدفاعية، وأطاح بهم ذات اليمين وذات الشمال، وكان بين الذين قتلهم مسلم، هو الذي حمل الراية الصفراء للسلطان، وقد انتزعها، ثم تبع واحد الآخر في الصعود إلى البرج، مع أنهم ووجهوا بمقاومة عظيمة من الأعداء القساة والأشداء، وبعد لأي أمكن التغلب على المسلمين، وجاء بعد بكاء الصليبيين ونحيبهم، السرور والانتصار، لأنه لم يعد بامكان المسلمين تحمل ضغط الأعداد في البرج، ولذلك حاولوا النجاة بإلقاء أنفسهم من النوافذ، وقد غرق عدد كبير منهم، ذلك أن المياه كانت كثيرة وعميقة بالنسبة لهم، وجرى أسر حوالي المائة منهم وهم أحياء وجرى الاحتفاظ بهم من أجل الفدية، وقام المسلمون الذين تراجعوا إلى داخل البرج بإلقاء النار في سقفه، وبما أن الصليبيين المنتصرين وجدوا أنفسهم غير قادرين على تحمل الحرارة، عادوا إلى سلمهم، ثم إنهم أنزلوا الجسر، الذي كان متوضعاً في الجزء الأسفل من الآلة، ووضعوه فوق سفح البرج، الذي كان ضيقاً بسبب المياه التي تدفقت من حوله، وقاموا - على كل حال -بمهاجمة باب البرج بمطارق حديدية، وقد دافع المسلمون عنه من الداخل، وكانت الآلة المزدوجة ماتزال مثبتة باحكام إلى البرج، لكن أخشاب السلم كانت قد تحطمت في أماكن كثيرة، ومع أن جدران الآلة قد خرقت من أماكن كثيرة بوساطة مقذوفات آلات الأعداء، استمرت ثابتة لايمكن تحريكها من الساعة التاسعة من اليوم السادس من الاسبوع حتى الساعة العاشرة من الأحد التالي، وأخيراً عجز المسلمون كلياً عن متابعة

الدفاع عن البرج، ولذلك طلبوا منحهم هدنة، وسلموا أنفسهم إلى دوق النمسا، على شرط ابقائهم أحياء، وهكذا تمت السيطرة على البرج، وإثر ذلك زود الصليبيون أنفسهم بالمؤن وبجنود جدد، آملين بأن يتمكنوا بعد ذلك من اخضاع المدينة طالما أنهم أخضعوا البرج.

موت سيف الدين وتدمير أسوار القدس

بعد الاستيلاء على البرج في نهر النيل، بات سيف الدين أكثر شيخوخة في أيام الشرور، وكان هو الذي حرم أبناء أخيه من ميراثهم، كما كان المغتصب الشرير لمملكة آسيا، وقد قهره -كما قيل -الحزن فمات ودفن في الجحيم، وقد خلفه ابنه المعظم عيسى، وكان رجلاً قاسياً وشديداً، حيث قام، انتقاما منه لحصار دمياط بتدمير مدينة القدس الشهيرة تدميراً كلياً، وحوّل أسوار تلك المدينة إلى أكوام من الخرائب، وذلك باستثناء المسجد الأقصى وبرج داوود، ثم إن المسلمين تشاوروا من أجل تهديم الضريح الجليل لمولانا، وبعثوا برسائل تهديد حول ذلك إلى أهالي دمياط، من أجل مواساتهم وتطمينهم، والذي حدث على كل حال، هو أن ما من واحد منهم وضع يده على ذلك، صدورا عن الاحترام الذي امتلكه ذلك المكان، لأنه كتب في كتابهم الذي هو القرآن، بأن مولانا يسوع المسيح قد حمل به وولد من قبل العذراء مريم، التي يعترفون بأنها عاشت بين الناس من دون ذنب، وأن المسيح كان نبياً، لابل أكثر من نبي، لأنهم يؤكدون أيضاً مضيفين بأنه أعاد النظر إلى الأعمى، وشفى المجذوم، وأعاد ميتاً إلى الحياة، كما أنهم يعتقدون بأن كلمة وروح الإله الحي قد صعدت إلى السماء، ولهذا السبب كان رجالهم العقلاء، يذهبون أثناء الهدنة إلى القدس، ويطلبون رؤية كتاب الأناجيل، فيحترمونها ويبدون اعجابهم بطهارة الشريعة التي بشر بها المسيح، ولاسيما بانجيل لوقا، قوله: «جرى ارسال ملاك الرب»، الأمر الذي غالبا ماناقشه المتعلمون منهم ورددوه، لكن شريعتهم جاءت عن طريق

اثارة الشيطان ومن خلال الراهب المرتد والمهرطق سرجيوس (كذا)، وقد كتبها محمد (صلى الله عليه وسلم) بالعربية، ونشرها وعلمها إلى المسلمين، وقد بدأت بالسيف، وحوفظ عليها بالسيف، ولسوف تنتهي بالسيف، وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه رجلاً أمياً، كما برهن على ذلك من خلال القرآن، وقد بشر بالذي أملاه المهرطق المذكور أعلاه، ولأنه كان رجلاً قوياً، وسيداً للعرب، فقد تسبب عن طريق التهديد بالأخذ بشريعته...... (تكملة هذا الكلام حذفته لبشاعته القصوى ولعدم فائدته، ويرجح هنا أن مصدر مؤلفنا هنا هو المصدر نفسه في ج ٣٤ ص ٥٤ من موسوعتنا هذه).

وصول النائب البابوي بيلاغيوس وحجاج آخرون إلى دمياط

بعد اخضاع برج دمياط، كما تحدثنا أعلاه، وصل عدد كبير من الحجاج من مختلف الأصقاع لمساعدة الصليبيين، فيما كانوا يقومون به آنذاك، وكان بين الواصلين بيلاغيوس أسقف ألبانو، وهو نائب للكرسي الرسولي، ومعه المعلم روبرت دي كوركون Courcon، وعدد من الرومان، ووصل عدد من الأساقفة مع كونت نافار، ولدى تزايد المخاطر غادروا، مما سبب اضطراباً شديداً للصليبيين، ووصل في الوقت نفسه أيضاً إلى هناك من مملكة انكلترا رالف المشهور ايرل أوف شيستر، مع الايرل سير أوف وينكستر، ووليم ايرل أوف آرونديل، والبارونات:

روبرت فتز -وولتر، وجون قسطلان أوف شيستر، ووليم دي هاركورت Harcourt ، مع حاشية كبيرة، وأوليفر ابن ملك انكلترا، ووصل إلى هناك أيضاً إيرل أوف مارش، وايرل أوف بار Bar مع ابنه، وكذلك وليم دي كارنون، وايتيريوس دي توسي Iterius Tocce، وهيرفي دي أورسون Urson، وكثير آخرون.

الحملتان اللتان قام بها المسلمون على الصليبيين في دمياط

وبعد هذا وصل المسلمون بشكل مفاجىء في يوم عيد القديس ديونيسيوس Dionysius ، مع سفن وعساكر، وهاجموا أطراف المعسكر، حيث كان الرومان قد نصبوا خيامهم، وقد جرى -على كل حال -صدهم بوساطة قوة صغيرة من الصليبيين، وقاموا بانسحاب سريع إلى مراكبهم، لكنهم لم يستطيعوا النجاة من سيوف مطارديهم، ومن قوة تيار النهر، فقد علم الصليبيون فيها بعد من المسلمين، بأن خمسمائة من المهاجمين قد غرقوا في النيل، ومن جديد هاجم الأعداء في يوم عيد القديس ديميتريوس Demetrius، في الصباح الباكر، معسكر الداوية، لكنهم ألحقوا ضرراً صغيراً بالصليبيين، لأنهم أرغموا على الفرار من قبل قوة من الخيالة أرسلت ضدهم، ودفعوا حتى الجسر الذي كانوا قد بنوه على مسافة من هناك، وقد توفر حوالي الخمسمائة منهم هم الذين قتلوا من قبل الصليبيين.

فيضان نهر النيل الذي عانى الصليبيون منه خسائر كبيرة

وفي العيد التالي للقديس أندرو الرسول، حدث في منتصف الليل أن ارتفعت أمواج البحر، وعملت دوياً مرعباً، وصل حتى معسكر الصليبيين، وترافق ذلك مع فيضان مفاجىء للنهر، أخذهم من الجانب الآخر على حين غرة، وطافت الخيام هناك، وتمّ فقدان المؤن، وحملت الأسماك من البحر ومن النهر إلى خيم الصليبيين، ومع أنهم أمسكوهم بالأيدي، لقد كانوا بغنى عن التمتع بطعمهم، ولولا وجود الخندق، الذي جرى حفره من قبل بموجب خطة حكيمة، وعمله، وإن كان لغرض مختلف، لولا ذلك لكان بإمكان القوى المتحدة للبحر والنهر، أن تجرف بعيداً الناس والخيول والسفن المحملة بالمؤن والسلاح، ولتمكن الأعداء من الاستيلاء عليهم، ولم ينج - على كل حال - من هذا المصير المراكب الأربعة التي بنيت عليها السواتر الدفاعية، من أجل الهجوم على

البرج، فقد جرف هؤلاء مع سفينة خا مسة حصرت بينهم، وشكلوا كومة واحدة على الضفة المواجهة، وهناك جرى تدميرهم بالنفوط أمام أعين الصليبيين، وأنقذ عمل الرب آلة الفريزلانديين، والألمان، التي بوساطتها تمت السيطرة على البرج، لكن سفن النقل في الميناء قد تقطعت حبالهن وفقدن.

المرض الذي هاجم عدداً كبيراً من الجيش الصليبي

وفي هذه الآونة جرت مهاجمة الكثيرين من جيش الصليبيين بأشد الأمراض، وهو مرض عجز الأطباء بفنهم عن إيجاد علاج له، لأن الآلام هاجمت بشكل مفاجىء الأقدام والأرجل، حيث ظهر الجلد عليهما فاسداً وأسود، وفي اللثة والأسنان انتزع عنصر أسود القدرة على الأكل، وغادرت أعداد كبيرة، بعدما هوجمت بهذا المرض، وبعدما تألمت وقتاً طويلاً، إلى الرب، لكن -على كل حال -الذين صارعوا ضد المرض حتى الربيع، نجو بفضل منفعة الحرارة لذلك الفصل، وحفظوا من الموت.

وفي هذا العام نفسه، جرى بوساطة تدخل والو، نائب الكرسي الرسولي، تعيين رتشارد دي ماريسكو Marisco، وكان رجل دين من حاشية الملك جون وصديقاً مقرباً منه، أسقفاً لدرم، وتمت سيامته وتكريسه في الرابع والعشرين من تموز.

موت وليم المارشال

عام ١٢١٩م، فيه أمضى الملك هنري عيد ميلاد السنة الرابعة من حكمه في أسقفية وينكستر حيث وفر بطرس أسقف ذلك المكان وسائل الضيافة والتسلية له، وفي هذا العام أيضاً مات وليم المارشال، والوصي على الملك، ونائب المملكة، وبعد موته أبقى الملك هنري في منصب الوصاية بطرس أسقف وينكستر.

حصار دمياط وآلام الصليبيين

وفي هذه الآونة، كان بيلاغيوس، نائب الكرسي الرسولي، قد عقد العزم على حصار مدينة دمياط، ولشدة رغبته بذلك، طلب من الصليبيين بعد الاستيلاء على البرج، القيام بعبور النيل، وبناء عليه، ساروا مع سفنهم، على الرغم من المخاطر العظيمة، صعوداً فوق النهر، بين المدينة والبرج المستولى عليه، لكن كانت هناك معيقات كبيرة بوساطة مجانيق المدينة وبوساطة النفوط، وأرغمت احدى سفن الداوية بقوة تيار الماء على التوجه إلى الضفة القريبة من المدينة، وهكذا ألقيت في مدى أسلحة العدو، وقد هاجمها الأعداء لوقت طويل بالمجانيق وبالجروخ الحديدية، وألقوا النفوط عليها من أبراج المدينة، وعندما وجدوا أنفسهم غير قادرين على انجاز ماأرادوه بسبب شجاعة المدافعين عنها، تسلق المسلمون على ظهرها، وبجرأة هاجموا الداوية، وبعد قتال طويل خرقت السفينة، إما من قبل المسلمين، أو من قبل الصليبيين أنفسهم -كما هو مرجح -ومضت نحو قعر النهر، مع المسلمين والصليبيين سواء، تاركة رأس الصاري وحده فوق الماء، ومثلما فعل شمشوم الذي قتل من الأعداء عدداً أكبر أثناء موته مما قتله أثناء حياته، فعل هؤلاء الشهداء من أجل المسيح،فقد أخذوا معهم من الأعداء إلى أعماق المياه، أكثر مما أمكنهم تدميرهم بسيوفهم، وقام المسلمون وقتها بترميم الجسر، وتركوا فتحه ضيقة فقط، وهكذا لم يعد بامكان سفن الصليبيين السير صعوداً، من دون التعرض للخطر من قوة تيار النهر، واشتعل -تجاه هذا - الفريزلانديون والألمان غضباً، وكان ذلك من حقهم، فهاجموا الجسر بشجاعة بوساطة السفن الكبيرة جداً، وبوساطتها تم الاستيلاء على الجسر، ولم يكن لديهم من عون سوى عون السماء، وبذلك تمكن أقل من عشرة رجال من الشعبين المتقدمي الذكر، من التصدي لجميع قوى مصر، ووصلوا إلى الجسر، ودمروه على مرأى من

جميع رجال الحشد الصليبي، الذين أعجبوا إلى أبعد الحدود بجرأتهم، ثم انهم استولوا على السفن الأربع التي عليهن وضعوا الجسر، وعادوا معهن منتصرين، وبذلك تركوا ممراً حراً مفتوحاً للصليبيين ليبحروا من خلاله، وبعدما جرى تنفيذ هذا، أدرك المسلمون الخطر الذي يتهددهم، فأقدموا على تحصين ضفة النهر المواجهة للصليبيين بخنادق، وبحواجز من طين الأرض، وسواتر دفاعية من الخشب، وبوسائل دفاعية أخرى، ثم إنهم مركزوا مجانيقهم هناك، وبذلك حرموا الصليبيين من كل أمل بالمرور من ذلك المكان، ومن القلعة التي هي على بعد حوالي ميل عن المدينة حيث وضعت الدفاعات الجديدة، وأغرقوا أيضاً سفنا عبر النهر، وغرسوا أيضاً تحت الماء في قعر النهر أعمدة، لكن عساكر المسيح ومراكبهم المحصنة والمقواة بالسواتر الدفاعية، والمشحونة بالرجال المسلحين، والتي سار خلفها الغلايين والسفن الاخرى تحت قيادة المسيح نجت كلياً من هذه المكامن والمصائد، ووضع عدو الايمان -على كل حال - كل خوف جانباً، وعبأ صفوفه، وصفها لمواجهة الحملة البحرية للصليبيين، وكان الصف الأول من قواتهم مكوناً من الجنود الرجالة، وقد اصطف على طول النهر، ومعه ترسة تشبه الدرابىء، وكان الصف الثاني خلفه مثل الاول ومن النوع نفسه، وكان الصف الثالث طويلاً ومشكلاً من الجنود الخيالة، الذين ضايقوا الصليبيين وهددوهم بزخات من الحجارة ومن الاسلحة الأخرى، لكن الرب الحقيقي، الذي لايسمح بامتحان شعبه أكثر مما يمكنه ان يحتمل، تجلى على معسكر عبيده، وحول أسى الصليبيين وحزنهم إلى سرور وفرح، لأنه في ليلة عيد القديسة أغاثا الشهيدة، وعندما كان جيش المسيح مصطفاً بنظام لعبور النهر في اليوم التالي، سببت الأمطار والرياح كثيراً من الضيق للصليبيين، لكن حدث في الليلة نفسها بفضل تدخل الرب، أن سلطان مصر وجيشه أصابهم الرعب، حتى أنهم تركوا خيامهم،دون أن يكون ذلك معلوماً من قبل المسلمين، الذين أمروهم بالتصدي

للصليبيين ومواجهتهم، فقد رأوا أن نجاتهم وسلامتهم هي بفرارهم، وبناء على ذلك، كان هناك رجلاً مرتداً، قد خرق الشريعة المسيحية لبعض الوقت، ولذلك قاتل لوقت طويل تحت إمرة السلطان، ولقد جاء هذا الرجل إلى ضفة النهر، وصرخ باللغة الفرنسية قائلاً: «لماذا أنتم متأخرون؟ مما أنتم خائفون؟ لقد هرب السلطان»، وبعدما قال هذا طلب أخذه إلى ظهر سفينة صليبية، وهكذا بث في الصليبيين روح الثقة، وحثهم على عبور النهر، وفي الفجر الباكر، وعند انتهاء قداس «دعونا جميعا نبتهج في الرب» والفراغ من أدائه، جرى إعلام الملك والنائب البابوي بهذا بوساطة صلوات الصليبيين، وبناء عليه عبر الصليبيون، لدى معرفتهم بفرار المسلمين، النهر من دون سفك للدماء، ومتحررين من كل أنواع المعارضة، لكن الوحول جعلت من الصعب الوصول إلى هذه الأرض المعادية، وذلك بسبب عمق المياه، ولذلك استطاعت الخيول بصعوبة بالغة تسلق الضفة، وكان الداوية أول من صعد إلى الضفة، ولذلك بادروا مسرعين نحو المدينة، وألقوا أرضاً المسلمين الذين تجرأوا فخرجوا من الأبواب للتصدي لهم وللصليبيين القادمين، وبطردهم الى المدينة وردهم إلى داخلها، استولى جيش المسيح على خيام السلطان، وعلى أسلاب المسلمين الفارين، كما أنهم نهبوا عدداً من الدرابيء، والغلايين والبراكيس، ومراكب أخرى، هي التي وجدوها تحت القلعة وذلك امتداداً حتى المدينة، وبسبب العبور غير المتوقع للصليبيين، كانت حشود من رجال المسلمين قد هربت من دمياط، تاركين زوجاتهم وأولادهم خلفهم، ووقتها حوصرت دمياط وطوقت من كل جانب، لأن الجنود قد انتشروا بوساطة جسر امتد على طرفي النهر.

الهجوم الأول الذي قام به المسلمون على الصليبيين بعد شروعهم بحصارها

وبعد ما تم تطويق المدينة على هذه الصورة، استرد أعداء الايمان شجاعتهم، وقاموا مع السلطان وعساكر حلب، فاستولوا على المكان الذي عبر منه الصليبيون بشكل غير متوقع، ولولا أنه بإلهام لاهوتي وعون رباني، وبشكل رئيسي بفضل شجاعة الألمان، الذين تمكنوا من استرداد المعسكر الأول الذي قام بين البحر والنهر، فلولا ذلك لتعرضت قضية المسيح إلى خطر عظيم، وذلك أن المسلمين الملتئين بالخداع، أصبحوا الآن متهورين ومندفعين كثيراً، ففي فجر يوم السبت قبل الأحد الذي يغنى فيه «عيناي دوماً على الرب» ودون أن يعرف الصليبيون، ألقوا بأنفسهم على شكل كتلة هائلة ووصلوا حتى الخندق، لكن بفضل شجاعة الجنود من كل من الخيالة والرجالة جرى صدهم، لأن الصليبيين كانوا قد عملوا خلفهم خندقاً واسعاً وعميقاً، وذلك كوقاية، حتى إذا ما قام عدو الايمان بهجوم عليهم، يمكنهم أن يكونوا سالمين.

الهجوم الثاني على الصليبيين

وفي أحد السعف (٣١—آذار)جمع العدو جيشاً كبيراً وقوياً، لمهاجمة خندق الصليبيين ثانية من جميع الجهات، وبشكل خاص جسر الداوية ودوق النمسا، الذي قام بالآونة الأخيرة بالتعاون مع الألمان، بالدفاع بشجاعة، وترجل فرسان المسلمون من على خيولهم مع نخبة قواتهم، وقاتلوا الصليبيين بشجاعة نادرة، وتساقط القتلى والجرحى في جميع الاتجاهات، وبعد لأي كسب المسلمون الجولة إلى حد أنهم استولوا على الجسر، وأحرقوا قسماً منه، ووقتها أمر دوق النمسا أتباعه بالانسحاب من الجسر، والسماح للعدو بعبوره، الأمر الذي لم يتجرأوا على القيام به، وخلال ذلك الوقت كله قامت النساء بشجاعة بتزويد الجنود الصليبيين بالماء، والخمرة، والخبز، والنشاب، وقدم الكهنة المساعدة أيضاً بصلواتهم، وبمباركة الرب، وبتضميد جراحات الجرحى، وفي ذلك

اليـوم المقـدس، لم يسمح للصليبيين بفـرصـة القيـام بحمل أية سعف نخيل، غير القسي العقـارة، والأقـواس العـادية، والحراب والسيـوف، والترسـة ، والسهام، لأن أعـداءهم ، كانـوا يرغبون بتحـرير المدينة من الحصـار والمحـاصرين لها، لذلك داومـوا هجماتهم بدون توقف، وفعلوا ذلك من شروق الشمس حتى الساعة العـاشرة من النهار، فلم يسمحوا للصليبيين بأية راحـة، وأخيراً تعبـوا فـانسحبـوا من ميـدان القتـال مع خسـائـر كبيرة، ومجدداً هاجم المسلمـون في يوم الصعـود الصليبيين بطريقتهم المعتادة، براً وبحراً، وبعد حملات متوالية لم يتوصلوا إلى تحقيق غرضهم، لكنهم أ زعجـوهم قرب معسكرهم، وأوقع كـل فريق كثيراً من الجرحى بالفريق الآخر.

الحملة الشديدة الثالثة التي قام بها المسلمون على الصليبيين

وقـام الأعداء بعـد هذا في الحادي والثـلاثين من شهر تموز فجمعـوا جميع القـوات التي استطاعـوا حشـدها، وبعـد حملات متـواليـة عبروا الخندق، بعـدما تغلبـوا على المقاومـة التي أبدتها قوات الداوية، وشقـوا بالقوة صفوفهم، وأرغمـوا الرجالة الصليبيين، على الفرار، وبذلك بات الجيش كله في خطر محيق قريب، وحاول الفرسان مع الخيالة العلمانيين، والجنود الرجـالـة ثلاث مـرات صـدهم، لكن مـن دون تأثير، ورفع المسلمـون وقتهـا أصـواتهم، وتضـاعف رعب الصليبيين، لكن روح الحكمـة والشجـاعـة ألهمت الداوية، لأن مقـدمهم مع المارشـال وبقيـة الفرسـان الرهبان قـاموا بهجوم من خـلال الفتحة الضيقـة وبشجاعتهم أرغموا الأعـداء على الفرار، وعندما رأى الفرسـان الألمان والفريزيون، والفـرسـان مـن مختلف الشعـوب أن عسـاكـر الداويـة كـانوا في خطر، اندفعوا من أماكنهم القـريبة لمساعدتهم، وفقد مـائة من رجالة المسلمين ترستهم وقتلوا، وذلك إلى جانب الذين سقطوا في الخندق وماتوا هناك، ثم قـام الجنود الرجـالة من الصليبيـون بالحملة، وتراجع العـدو لمسافـة

قصيرة، ووقف الجنود الصليبيين وقتها تحت السلاح، حتى وضع حلول الظلام حداً للقتال، وكان المسلمون قد انسحبوا قبل ذلك الوقت، وبقي عدد من الذين قتلوا إلى جانب الخندق، وكان إلى جانبهم كثير من الذين كانت اصاباتهم قاتلة، حيث حملوا إلى المعسكر، وبفضل نعمة الرب، وبسبب شجاعة الداوية كان الذين قتلوا من الصليبيين أووقعوا أسرى عددهم قليل، وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الوقائع ناشبة، جرى احراق جميع مجانيق الصليبيين وسلالمهم التي أقاموها في مواجهة المدينة، وكان الذين تولوا احراقها هم رجال حامية المكان، مما سبب ضرراً كبيراً للصليبيين، وبعدما قام السلطان بهذه الحملات، لم يتجرأ ثانية على الاشتباك مع الصليبيين، بل نصب معسكره قرب الجيش المحاصر للمدينة، ومكث هناك على شكل كمين.

الاشتباك في معركة بين الصليبيين والمسلمين

عندما بذل جيش المسيح جهوده لمدة طويلة لتدمير أسوار المدينة بمجانيقه وعراداته مع بقية أنواع آلات الحرب، من دون تأثير، رأى القسم الأعقل من رجاله واكتشفوا أنه من غير الممكن الاستيلاء على دمياط من دون إرادة الرب وتدخله، وبناء عليه وعلى تذمرهم استيقظ في الصباح جميع الذين كانوا في المعسكر من أجل انزال العقاب بذنوبهم وخلافاتهم، ذلك أن بعضهم رأى وجوب الإشتباك بالقتال في معركة مع السلطان الذي بقي في معسكره على مقربة من الصليبيين في مكمن هناك، وأنهم بغلبته من الممكن السيطرة على دمياط، هذا من جانب ومن جانب آخر، كان من رأي ملك القدس، ورأي آخرين كثر إلى جانبه، أنه طالما أن الحصار ما برح مستمراً منذ مدة طويلة، ينبغي الاستمرار به حتى ترغم حامية المدينة على الاستسلام إما بارغام الرب لها على ذلك، أو بضغط المجاعة، لأن جميع الذين نجوا إما عن طريق الباب الخلفي، أو قاموا بتدلية أنفسهم من أعلى الأسوار، قد تبين من

مظاهر تورمهم وأوضاع الجوع الواضحة عليهم أن أبناء مدينتهم كانوا يعانون من المجاعة، وسيطر بالأخير رأي الذين قرروا الاشتباك بالقتال مع المسلمين، وفي اليوم الذي تقدم على يوم عيد القديس يوحنا المعمدان زحفوا جميعاً على شكل كتلة واحدة —مع أنهم كانوا مختلفين بين بعضهم أنفسهم— ضد معسكر المصريين، وكانوا يضمون الجيش كله حتى أنه بصعوبة بقي هناك رجال يتابعون أعمال الحصار، وتابعوا زحفهم، واكتشفوا وجود أعداء الايمان في معسكرهم بين البحر والنهر، وذلك حيث لا يمكن العثور على مياه نقية للشرب، وقام الأعداء لدى اقترابهم بتقويض خيامهم وتظاهروا بالفرار، وبعد ما توغل الصليبيون بزحفهم ما فيه الكفاية، ورأوا أنهم لا يمكنهم الإشتباك مع الأعداء بمعركة مفتوحة، عقد قادة الجيش اجتماعاً طويلاً، تناقشوا فيه عما إذا كان عليهم متابعة الزحف أم العودة، وانقسمت الآراء بينهم بعمق إلى حد أن التشكيلات المختلفة انفصلت دون الوصول إلى أي قرار، وذلك باستثناء الذين حافظوا على طاعة أطول، وأظهر فرسان قبرص، الذين تمركزوا على الجناح الأيمن أولاً علامات الخوف، وكان ذلك عندما هاجم المسلمون الجناح، وكان جنود الرجالة الرومان أول من لجأ إلى الفرار، وجاء من بعدهم فرسان من مختلف البلدان مع بعض فرسان اسبتارية القديس يوحنا، مع أن النائب البابوي، والبطريرك الذي حمل الصليب التمسا منهم الصمود في وجه العدو، لكن من دون فائدة، وكانت حرارة الشمس عالية جداً، وقد غلب الجنود الرجالة وقهروا بوزن دروعهم وأسلحتهم، وزادت الحرارة من متاعب الزحف، وقام الذين جلبوا خمرة معهم بشربها صرفة من دون ماء بسبب آلام عطشهم، ولحاجتهم إلى الماء، وأما الذين هربوا بعد الهاربين الأوائل، فظلوا يركضون، حتى انقطعت أنفاسهم، وسقطوا أمواتاً ، دون أن يصابوا بجراحة، وصمد —على كل حال— ملك القدس، مع الداوية، وطائفة التيوتون ، واسبتارية القديس يوحنا ، وايرلات : هولاندا،

وويكي Wicke وســـالسبري وتشيستر، وولتر بيرتـولد Bertold، ورينالد دي بونت، والفرنسيون، والبيازنة، وفرسان من مختلف البلدان، صمـدوا في وجـه حملة المسلمين، وكانوا بمثـابة سـور للفـارين، وحيثما أظهـر الأعداء وجـوههم، وتعرض ملك القـدس إلى الدمار شبـه الكلي بنيران النفـوط، ووقع بالأسر أثناء هـذا القتـال من الصليبيين الأسقف المنتخب لبـوفيـاس، مع أخيـه أنـدرودي نانتي، عمـدة دي بومـونت Beaumont ،ووولتر حـاجب ملك فـرنسـا وابنه جـون أوف آرك Arc وهنري أوف أولم Ulm ، وقتل ووقـع بالأسر ثلاثـة وثلاثين من فرسان الداوية، وذلك إلى جـانب مارشال فرسـان اسبتارية القديس يوحنا، مع بعض الفـرسان الرهبان من الطائفـة نفسها، ولم ينج فـرسان طائفة التيوتون من دون خسائـر، وإلى جانب هؤلاء جرى قتل الكثيرين وأخذهم أسرى، وكـان فرسـان الداوية دوماً أول من يهاجم وآخـر من ينسحب، وعلى هذا كـانوا آخـر الصليبيين وصـولاً إلى الخنـدق، فقـد تصدوا بشجـاعة إلى الأعداء، وتابعـوا صمودهم حتى تمكن جميع الذين كـانوا قـد دخلوا إلى تحصينـات المسلمين وقتـذاك من العـودة، ثم عـاد المسلمون وحملوا أسراهم ، وجمعوا الغنائم وعلم الصليبيون فيما بعد من المسلمين، أن رؤوس خمسمائـة من الصليبيين قدمت إلى السلطان، وكـان من الواضح أيضاً للصليبيين أن المسلمين عـانوا أيضاً من خسـائر كبيرة بين صفـوف عسـاكـرهم الرئيسيين، لأن السلطان أرسل واحـداً من الصليبيين الأسرى لديـه للتفـاوض لعقـد هـدنة أو سـلام، وتمكن الصليبيـون خـلال مـدة المعـاهدة هذه من تـرميم خندقهم بشكل جيـد وذلك مع آلات الحرب.

كيف غادر عدد من الحجاج دمياط من دون إذن

وقـام في تلك الآونة بعض البحارة، وبعض الخونة للصليبيـة ومعهم عدد من الصليبيين، بالتخلي عن جيش المسيح، قبل موعد العبور المحدد

بالعادة، وقد تركوه في أعظم حالات خطره، وبمغادرتهم زادوا من أحزان الصليبيين ومن جرأة المصريين، وبناء عليه خرق المسلمون المعاهدة، وقاموا عشية عيد القديس كوسماس والقديس داميان، وفي اليوم التالي(٢٦—ايلول)بمهاجمة الصليبيين بحدتهم المعهودة، وبشدتهم وقسوتهم المشهودة، وذلك مع غلايين مسلحة وبراكيس، وجاء الهجوم بالبر والبحر، وترافق الهجوم مع استخدام المنجنيقات، والدرابيء، وحزم من الأشياء لطم الخندق، وقتلوا بهذا الهجوم المفاجيء عدداً من الصليبيين، غير أن الذي نصر اسرائيل، وهو الرب القدير هيأ الأسباب لسلامة المعسكر، لأن سافاريك دي موليون وصل وقتها مع غلايين مسلحة وعدد كبير من الجنود، وعندما رأى الصليبيون هذا وهم في حالة خوفهم العظيم رفعوا أصواتهم نحو السماء، وقدموا شكرهم إلى الرب، وأصبحوا أكثر شجاعة، وبجرأة اشتبكوا مع الأعداء، وأرغموا المسلمين على التراجع بفضل منه هو الذي يحفظ الذين يثقون به.

الموتان بين حامية دمياط

ولسوف نتحدث الآن ونروي أخبار بعض الوقائع التي وقعت في المدينة، فقد عانى أهل دمياط أثناء حصار مدينتهم الطويل من الهجمات، ومن الجوع ومن الأمراض أكثر مما يمكن وصفه، وكانوا قد وضعوا ثقتهم في أمل أن يتمكن السلطان— كما وعد— بالتعجيل من أجلهم،بالتفاوض مع الصليبيين والاتفاق معهم، حتى يمكن بذلك نجاتهم من الموت، وفي الحقيقة كانت المجاعة في تلك الآونة قد عمت في المدينة، وبات السكان المحاصرون من دون مؤن، لأن القمح المصري غير قابل للخزن الطويل بسبب نعومة الأرض التي ينمو فيها، وذلك باستثناء المناطق العالية قرب القاهرة، حيث كان يحفظ بشكل [اصطناعي] لمدة سنة تقريباً، وأغلق المسلمون وقتها أبواب المدينة حتى لا يتمكن أحد من الخروج ليحدث الصليبيين بما كانوا يعانون منه،

لأنهم تألموا في كـل يوم بشكـل مـــرعـب، كما بدأت المؤن لـدى جيش السلطان، الذي كان يحاصر الصليبيين في الخارج بالنقـص الشديد عنده، حتى أن تينة واحـدة بيعت باثني عشر دينارا، وكـــان بين مختلف أنواع الآلام التي عانـى منها أولئك التعساء ليـلاً ونهاراً، أنهم هوجموا من قبل الأمـراض حتى أنهم لم يعـودوا قـــادرين على رؤية شيء حتى ولو أنهم فتحـوا أعينهم على اتســاعهـا، وإلى جانـب هذا، فإن النيل الذي يفيض بالعادة ويغمـر السهول ويسقيها من عيد القـديس يوحنا المعمدان حتى عيد تمجيد الصليب، لم ترتفع مياهه في هذا العام كما هي العادة، بل ترك أجزاء واسعة من الأرض جافـة، ولم يكن من الممكن بذرها أو فلاحتها في ذلك الجزء، ولذلـك سعى السلطان، وهو خـــائـف من المجـــاعـــة، ولرغبتـه بالحفاظ على دميـاط، وبذل جهده للإعـداد لاتفاق سـلام مع الصليبيين، وقويت عزيمته على الوصول إلى اتفاق بالاستيلاء الرائع على البرج، وبثبات الصليبيين أثناء القتال، فقد تمكن هؤلاء الذين كانوا مجرد قوة صغيرة من المؤمنين الحقيقيين، في أغلب الأحيان من مقاتلة القوات الاسلاميـة كلها بشجاعـة وأرغموها على الفـرار، وذلك إلى جانب قتل آلاف كثيرة منهم.

كيف عرض السلطان تسليم مملكة القدس إلى الصليبيين شريطة انسحابهم من دمياط

وعلى هذا استبـد القلـق بالسلطان كثيراً، فعقـد اجتماعـاً مع نبـــلائـه ومستشاريـه المخلصين، وخاطبهم كما يلي قـائلاً:«إن رب الصليبيين رب قوي، ومخلص وحليف قوي في القتال، وقـد عرفنا ذلك جميعاً، وبشكل خاص في الحالة الطارئة حالياً، فقد قاتل بشكل واضح من أجل أعدائنا وضدنا، ومما لاشك فيه، أن كل مايمكننـا عمله سوف يكون بلا فائدة، مادامـوا يحصلون على عونه، والاستيـلاء على دمياط بات وشيكاً، وهي مفتـاح مصر، وإذا مـا سقطت سـوف ينجم عن ذلك خسـارة كبيرة لنا

ولشريعتنا، فصحيح أنها حـوصرت مـراراً مـن قبل الصليبيين، هي لم تخضع قط لهم، وبناء عليه أعتقد أنه سوف يكون لمصلحتنا، أن نعيد إلى رب الصليبيين، جميع ما هو عائد إليه، حتـى باسترداده ما هو عائد إليه، لن يقـوم بالاستيـلاء منا على مـا هو عـائـد إلينا، ذلك أنه رب عـادل، ولايشتهي الاستيلاء على أملاك الآخرين، وإذا مارفض الصليبيون هذه العـروض العـادلة من أجل السـلام، التي ستكون مشرفـة كثيراً إليهـم، سـوف يثيرون بذلك غضب ربهم ضـدهم، إلى درجـة البغضـاء لهـم، وذلك بسبب جشعهم الشرير، وهـو في كـراهيـة منه ومقت لعجـرفتهم سوف يبتعد عنهم، ولسوف يجدون فيـه عدواً لهم، مع أنه هو الذي قدم لهم من قبل مساعـدته الرحيمة، ومع أن هذا الرأي كـان غير مقبول من قبل الكثيريـن، أرسل رسـلاً إلى الصليبيين، وعـرض عليهم إعـادة الصليب الحقيقي، الذي كـان صلاح الدين قـد استولى عليـه قبل بعض الوقـت الذي مضـى، وأن يطلق سراح جميـع الأسرى أي الذيـن يمكن العثـور عليهم أحيـاء في جميع أرجـاء مملكة القـاهرة ودمشق، وأن يدفع النفقـات اللازمـة من أجل ترميم أسـوار القـدس، وأن يعيـد المدينة إلى حالتهـا السالفـة، كما أنه عرض التخلي عن جميع مملكة القـدس باستثناء الكرك والشـوبك، ومن أجل الاحتفاظ بهذين المكانين عـرض أن يدفع سنويا جـزية مقـدارها اثني عشر ألـف دينار مـادام محتفظاً بهما، وهاتان القلعتان موجودتان في العربيـة ولهما سبعة تحصينات قوية، وموجودتان على الطريق الذي يسافر عليه بالعادة تجار المسلمون وحجاجهم من مكة وإليهـا، كما أن الذي يتملك هذين الموقعين يمكنـه أن يلحق الكثير من الأذى بالقـدس، وبالكروم والحقـول، وقـرر ملك القـدس باصرار مع ايرل شيستر وجميع القـادة الفـرنسيين والألمان، بأنه يتـوجب قبـول هذه الشروط المعـروضـة، وأنها سـوف تكون مفيـدة للصليبيين، وعلينا أن لانعجب نحـو هذا، لأن الصليبيين كانـوا من قبل على استعداد للقبـول بشروط للسلام أقل نفعاً من هذه، هي الشروط التي كـانت قد عرضت

عليهم قبل هذه الشروط، لولا أن ذلك قد منع من قبل الآراء الحكيمة، وكان النائب البابوي على كل حال راغباً بالاستيلاء على دمياط، وأن تصبح ملكاً له، وأيده بذلك البطريرك ورجـال الدين، ولـذلك تمت معارضة هذه الشروط وأصروا على أنه ينبغي الاستيلاء على دمياط، قبل جميع الأماكن وفوقها، وسبب هذا الاختلاف بالرأي شقاقاً، وبسببه غادر رسل السلطان وهم مسرورين جداً، وعندما جرى اخبار السلطان بهذا، أرسل بشكل سري قـوة كبيرة من الجنود الرجـالـة من خـلال مستنقعات دمياط، وقام مائتان وأربعون من هؤلاء بمهاجمة معسكر الصليبيين، عندما كانوا نائمين في ليلة الأحد بعد عيد جميع القديسين، لكن الجيش استيقظ بوساطة أصوات الحراس، ولذلك وقعوا بالأسر أو قتلوا، وكان عدد الأسرى قد بلغ مائة أو أكثر.

الاستيلاء الاعجازي على مدينة دمياط

وبعد هذه الأحداث قام الجيش الصليبي بحملات شديدة على مدينة دمياط، وأخيراً شاهدوا أن الشرافات باتت خالية من المدافعين، وبناء عليه وضع الصليبيون بكل سرعة سلالمهم على الأسوار وبرغبة عارمة دخلوا إلى المدينة، وهكذا بموجب قرار مخلص العالم، جرى في اليوم الخامس من شهر تشرين الثاني، الاستيلاء على مدينة دمياط من دون مقاومة، ومن دون صوت، ومن دون نهب، لذلك ينبغي أن نعزو النصر إلى ابن الرب وحده، ومع أنه جرى الاستيلاء على مدينة دمياط على مرأى ومشهد من ملك مصر، هو لم يتجرأ -كما هي العادة -على مهاجمة الصليبيين، بل هرب مضطرباً وأحرق معسكره، وتحت قيادة المسيح، دخلت عساكره وقتها دمياط، ووجدوا الشوارع مكتظة بجثث الموتى، وواجهوا رائحة نتانة لايمكن تحملها صادرة عنهم وعن أكثر المخلوقات البشرية بشاعة، فقد قتل الأموات الأحياء، وقتل الزوج زوجته، والأب ابنه، والسيد خادمه، فلقد هلكوا من روائح بعضهم بعضاً، ولم تكن

الشوارع فقط هي المليئة بالموتى، لأن الجثث كانت ممددة في البيوت وفي غرف النوم، وقد طلب الصبيان والأطفال الخبز، فلم يجدوا أحداً يقطعه لهم، وكان الأطفال الرضع معلقين على صدور أمهاتهم، وكانوا يتدحرجون فوق جثث الموتى، وقد مات الأغنياء المتخمين من الجوع مع أنهم كانوا محاطين بالقمح، فقد مات منذ بداية الحصار ثمانين ألفاً من الناس في تلك المدينة، وذلك باستثناء الذين وجدهم الصليبيون هناك أصحاء ومرضى، وقد بلغ تعداد هؤلاء ثلاثة آلاف أو أكثر، ومن هؤلاء وجد ثلاثمائة من ذوي المراتب العليا، وقد احتفظ بهم الصليبيون أحياء لمبادلتهم بأبناء جلدتهم ممن كانوا أسرى لدى المسلمين، وذلك باستثناء الذين يؤمنون بالمسيح وكانوا معمدين وكانت هذه المدينة قد حوصرت أولاً من قبل البيزنطيين، الذين أخفقوا بالاستيلاء عليها، ثم جرى حصارها من قبل اللاتين تحت قيادة عموري ملك القدس، لكن اللاتين لم ينجحوا، وفي هذه المرة التي هي المرة الثالثة، سلمها ملك الملوك، ومولى الموالي إلى عبيده، وكان مولانا يسوع المسيح هو الذي سيعيش وسيحكم إلى الأبد ثم إلى الأبد.

منهوبات دمياط الثمينة

وجد الصليبيون في المدينة كميات كبيرة من الذهب والفضة، والحرير، والأقمشة، والألبسة الثمينة، مع زين دنيوية، ومختلف أنواع السلع بكميات وافرة، ولقد أقسموا جميعاً على وجوب حمل الأسلاب إلى الخارج، ومن ثم تقسيمها بالتساوي بين المنتصرين، وقد صدر الأمر بهذا من قبل النائب البابوي تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، وأخذوا من أجل الاستخدام العام شطراً كبيراً من ثروات مصر من ذهب وفضه ولآلىء، وفواكه، وعنبراً، وخيوطاً ذهبية، وشراريب، ومختلف أنواع الأقمشة الثمينة، وقد جرى توزيعها بين أفراد جيش الرب مع القمح الذي وجدوه في المدينة، وتولى أسقف عكا تعميد جميع الأطفال الذين

عشر عليهم أحياء في المدينة، واتخذ النائب البابوي أيضاً من المسجد الكبير للمدينة كنيسة كرسها تشريفاً للعذراء مريم المباركة مع جميع الرسل، ولمجد ورفعة شأن الايمان بالتثليث، وكانت مدينة دمياط، بالاضافة إلى ماتمتع به مكانها من وضع طبيعي أمن لها الحماية، محاطة بثلاثة أسوار، فقد كان هناك سور منخفض في الخارج لحماية الخندق الخارجي، ثم سور ثاني أعلى من الأول، ثم سور ثالث أعلى من الثاني، وكان في السور المتوسط ثمانية وعشرين برجاً رئيسيا مع متاريس مزدوجة أو ثلاثية، قد بقيت دون التعرض للأذى، وذلك باستثناء واحد كان قد تعرض للرمايات من مجانيق الداوية، لأن الرب رغب في تسليم تلك المدينة إلى عبيده سليمة لتكون مفتاحاً وممهداً لجميع بلاد مصر، وكانت المدينة قائمة فيما بين رعمسيس وسهل تنيس في أرض جيرسين Gersen، وقد قدر الصليبيون أنها المراعي التي هرب منها بنو اسرائيل من فرعون في أيام المجاعة، حسبما وردت الحكاية في العهد القديم (التكوين: ٤٧).

الاستيلاء على قلعة تنيس

وجرى بعد الاستيلاء على دمياط على هذه الصورة، إرسال حوالي الألف رجل في يوم عيد القديس كليمنت (٢٣ -تشرين ثاني) على شكل طلائع في قوارب أبحرت داخل نهر صغير اسمه نهر تنيس، من أجل الحصول على المؤن من القلعة والبلدة، وللقيام بتفحص المواقع بشكل دقيق، ولدى اقترابهم من القلعة التي حملت اسم النهر، ورؤية المسلمين الذين كانوا يتولون حراستها، الصليبيين، اعتقدوا أن الجيش الصليبي كله كان هو القادم، ولذلك أغلقوا الأبواب وهربوا، ودخل الصليبيون، والمسيح قائدهم الوحيد، بتشوق وحماس إلى القلعة، وأعلن الصليبيون بعد عودتهم أنهم لم يشاهدوا قط قلعة في سهل أكثر حصانة منها، ذلك أن السواتر الدفاعية فوقها كلها مستديرة، وكانت محاطة

بخندق مزدوج مسور من على الجانبين مع ستائر خارجية، وكانت هناك منتشرة حول القلعة إلى مسافة بعيدة، ولهذا السبب كان من الصعب الوصول إليها من قبل الجنود الخيالة في الشتاء، وهي منيعة جداً في الصيف ولايمكن الاستيلاء عليها بالحصار من قبل أي جيش، وكانت هذه البحيرة فيها وفرة كبيرة من السمك، وعنه يجري دفع أربعة آلاف مارك سنويا إلى السلطان، وفي المكان أيضاً وفرة عظيمة بالطيور وبالمالح، وكان هناك عدد من القلاع من حولها كلها خاضعة لهذه القلعة، لأن المدينة التي كانت قائمة قبل القلعة، كانت موقعاً معروفاً كثيراً، وأوسع من دمياط، لكنها تحولت فيما بعد إلى ركام من الخرائب، وهذه هي تنيس التي أشار إليها النبي داوود في المزامير، وكذلك أشار إليها اشعيا بقوله: «الرؤساء الحمقى لتنيس» الخ، ويحكى أن إرميا قد رجم في هذه المدينة، وذلك حسبما وصلنا الخبر في العهد القديم، وتقع تنيس على مسافة سفر يوم من دمياط، وهي على الطريق البحري نحو أرض الميعاد، ولذلك سوف يكون من السهل وضع حامية هناك، وارسال المؤن إما بالبر أو البحر من عكا أو من دمياط، وكانت قد ألحقت أضرار كبيرة بالصليبيين أثناء حصار دمياط، عندما كانت سفنهم تذهب إلى أو تأتي من عند الجيش الذي ذهب إلى قرب ذلك المكان، لأن الشاطىء أمام تنيس هو رملي، ولايوجد ميناء هناك، بل هناك خليج واسع، ولايمكن للسفن التي تدفع إلى داخله الخروج من دون ريح طيبة.

وحصل في هذا العام النبيل رالف ايرل شيستر على إذن من النائب البابوي، وجاء ذلك بعدما قاتل لقرابة العامين في خدمة الرب، وعاد إلى الوطن مع المباركة من النائب البابوي، والأماني الطيبة من الجيش كله.

كيف هاجم لويس طولوز وأرغم على التراجع باضطراب

وفي هذه الآونة، حشد لويس، الابن الأكبر لملك فرنسا، جيشاً كبيراً،

بناء على تحريض من أبيه، لمحاربة الألبينيين الهراطقة، وزحف مع قواته كلها لإلقاء الحصار على مدينة طولوز، التي كانت مسكونة من قبل الملوثين بالهرطقة، وبعدما مركز مجانيقه من حول المدينة، شرع الفرنسيون بمهاجمتها من دون توقف، لكن عندما رأى سكان المدينة هذا، استعدوا للدفاع، ونصبوا منجنيقا أمام منجنيق، وبعدما استمر الحصار لمدة طويلة دونما تأثير، وقعت مجاعة كبيرة بين صفوف الجيش الفرنسي، وهي مجاعة تبعها موتان مخيف بين كل من الناس والخيول، وأصيب سيمون أوف مونتفورت قائد الجيش المحاصر للمدينة بجراحة أمام باب المدينة، بوساطة حجر قذفت من عرادة، ولأن جسده قد سحق كليا، فقد توفي في مكانه، وأصيب أخوه أيضاً، أثناء حصار قلعة قرب طولوز، وفق الطريقة نفسها، بحجرة مقذوفة، ومات، مما سبب حزنا عظيماً لكثيرين، ولذلك قام لويس بعد الموتان الكبير الذي لحق بجيشه، وبعدما عانى من خسائر كبيرة في جميع سلعه وعتاده، بالعودة وهو مضطرب إلى فرنسا، مع البقية من عساكره.

التتويج الثاني للملك هنري

عام ١٢٢٠، فيه كان الملك هنري في عيد الميلاد في مارلبورا، وكان مايزال تحت وصاية بطرس، أسقف وينكستر، وفي هذا العام وفي يوم عيد أحد الشعانين الذي كان في السابع عشر من أيار، صار الملك المذكور في السنة الخامسة من حكمه، ولذلك جرى تتويجه ثانية في كانتربري من قبل ستيفن، رئيس أساقفة ذلك المكان، بحضور رجال الدين والناس من مختلف أجزاء المملكة، وفي يوم العيد المقبل للقديس برنابا الرسول اجتمع الملك هنري، ملك انكلترا، مع الاسكندر ملك الاسكوتلنديين في يورك، حيث أبرمت معاهدة من أجل عقد زواج بين الاسكندر ملك الاسكوتلنديين واخت ملك انكلترا، وبعدما جرى تثبيت العقد، عاد ملك الاسكوتلنديين إلى وطنه.

تطويب القديس هيوج أسقف لنكولن

وجرى في هذا العام نفسه تطويب هيوج أسقف لنكولن من قبل البابا هونوريوس، وجرى قبوله في تعداد القديسين، وتم في البداية البحث في معجزاته من قبل ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، وجون راعي ديرة النبع، ووضعت محصلات ذلك في الشهادة التالية الصادرة عن مولانا البابا: «من هونوريوس الأسقف، عبد عبيد الرب، إلى جميع أولاده المحبوبين والمؤمنين بالمسيح، وإلى الذين سوف تأتي هذه الهدية إليهم بمثابة صحة ومباركة رسولية، فقد عينت الرحمة الربانية مكان هناءة في السماء إلى قديسيها ونخبتها، وفي وقت وجودهم على الأرض شرفتهم بالمعجزات، حتى يمكن إثارة خشوع المؤمنين بذلك من أجل التماس شفاعتهم، وبناء عليه، دوّنا بين أعداد القديسين، هيوج أسقف لنكولن، صاحب الذكرى المقدسة، التي هي واضحة وبينة بالنسبة إلينا، ولذلك حولتها الفضيلة الربانية مشهورة واضحة بوساطة عدد من معجزاته المجيدة، التي وقعت أثناء حياته، وبعدما لبس ثوب الموت، ونحن نأمر، وباسم الرب نحث جميع الرهبان لديكم لأن يلتمسوا بخشوع وساطته مع الرب، وبالاضافة إلى هذا نحن نأمر، أنه يتوجب اتخاذ يوم منذ تاريخ وفاته يكون عيداً له يحتفل به بشكل مهيب في كل سنة من الآن فصاعدا. صدر في فيتيربو في السابع عشر من شهر شباط، في السنة الرابعة من بابويتنا».

الاستيلاء على قلعتي ساني وروكنغهام

في هذا العام نفسه، وفي يوم عيد الرسولين بطرس وبولص (٢٩ -حزيران) استولى الملك هنري فجأة على قلعتي: روكنغهام Raching-ham وساني Sanney، على الرغم من ارادة وليم ايرل ألبيمارل Albe-marle وعندما وصل الملك المذكور إلى القلعتين لمهاجمتهما وجدهما فارغتين من جميع أنواع المؤن، حتى أنه لم يكن بهما معا ثلاثة أرغفة من

الخبز.

نقل القديس توماس رئيس أساقفة كانتربري

وفي العام نفسه، وفي اليوم التالي لثمانية القديسين بولص وبطرس، جرى اخراج جسد القديس توماس الشهيد ورئيس الأساقفة من ضريحه الرخامي، وتولى اخراجه ستيفن رئيس أساقفة كانتربري بحضور الملك، وتقريبا جميع الأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات في المملكة، ثم وضع بتشريف لائق في تابوت جرت صناعته بشكل متقن بالذهب والجواهر وكان حاضراً أيضاً أثناء عملية النقل: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وعدد كبير آخر من المملكة الفرنسية، ومن بلدان أخرى متعددة، لأنهم تشوقوا للاجتماع وحضور هذه المناسبة المهيبة كثيراً، لأنهم اعتقدوا أنه واجب عظيم القيام بتشريف وتبجيل هذا الشهيد المقدس في سبيل المسيح، وهو الذي سفك دمه من أجل الكنيسة المسكونية وقاتل دون توقف في سبيل ديمومتها.

حصار قلعة بيهام والاضطرابات في المملكة

عام ١٢٢١م، فيه عقد الملك هنري بلاطه في اكسفورد يوم عيد الميلاد، وقد شهد ذلك ايرلات وبارونات المملكة، وفي هذا المكان، بعد إقامة الطقوس والقداسات الملكية بنجاح وسلام، وزع بكرم على الجميع كل حسب استحقاقه، وفقاً للعادة القديمة للملكة، وقد رغب - على كل حال -وليم دي فوريت Foret [إيرل أوف ألبيمارل Albe-marle] أن يعكر صفو الهدوء في المملكة، فغادر دون أن يستأذن، وفعل ذلك في الليلة التالية وزحف بكل سرعة إلى قلعة بيهام Biham، حيث حشد بعد عدة أيام بعض العساكر، وهاجم بلدة تينهام Ten-ham ونهبها، وأخذ معه القمح العائد إلى كهنة برايدلنغتون Bridling-

ton إلى قلعة بيهام، كما أنه نهب بلدة دينغ Deping وأماكن أخرى في الكونتية نفسها واتخذ السكان أسرى، وبعدما عذبهم بقسوة أرغمهم على افتداء أنفسهم، وكان الذي حرضه على القيام بهذه الأعمال هم -كما قيل - فالكاسيوس، وفيليب مارك، وبيتر دي موليون، واينغلارد دي آثي، وآخرون كثر، فهؤلاء بعثوا إليه بشكل سري جنوداً لإثارة الاضطراب في المملكة، وفي أثناء هذه الاضطرابات هرب سكان ذلك الجزء من الكونتية إلى الكنائس من أجل السلامة، وحملوا معهم سلعهم إلى المقابر، واحتشد في الوقت نفسه نبلاء انكلترا أمام الملك في ويستمنستر لمناقشة شؤون المملكة، لكن ذلك الايرل الذي استدعي للاجتماع مع البقية، تظاهر بأنه سوف يقدم إلى هناك، لكنه مثل مسافر ماكر غير هدفه، وذهب إلى قلعة فوثرنغيFotheringay، وكانت هذه القلعة آنذاك بعهدة رالف ايرل أوف شيستر، ولكنها كانت شبه خالية من الفرسان والجنود، وعندما عرف الايرل المذكور هذا الوضع وضع سلالمه عليها، وحصل على مدخل إليها مع جنوده، ومالبث أن أخضعها، واعتقل الحرس القليل العدد الذي وجده هناك، وعهد بها إلى بعض من جنوده ووضعهم فيها، وبادر بعد ذلك مسرعاً كل السرعة إلى بلدة بيهام، ثم قام بنهب جميع المنطقة المجاورة بوساطة جنوده، وزود قلعته وشحنها من أسلاب الآخرين، ولكن عندما وصل خبر هذا التمرد إلى الملك وإلى مستشاريه، حشد على الفور جيشاً، وفي اليوم السادس بعد طهارة القديسة مريم، نصب جنود جيشه مجانيقهم حول القلعة، ودمروا في وقت قصير الأسوار والأبنية، حتى أنه لم يعد لدى المحاصرين مكانا آمنا يخبئون رؤوسهم فيه، وبناء عليه غادروا خرائب القلعة، لأنه لم يبق أمامهم مجال آخر، وفي اليوم الثامن من شباط خرجوا ومثلوا أمام الملك، الذي أمر بوضعهم في السجن حتى تشاور حول الذي ينبغي فعله معهم، وجاء في الوقت نفسه ايرل أوف ألبيمارل إلى الملك تحت توجيه وولتر رئيس أساقفة يورك، وقد سامحه الملك بناء على

توصية والـو النائب البـابوي، وبحكم أنـه كـان قـد خـدم بشجـاعـة واخلاص الملك وأبيـه في حروبهما، وجرى اطلاق سراح جميع الفـرسان والجنود من دون عقوبة أو غرامة، وجاء اطلاق السراح من قبل الملك، الذي أعطى بذلك مثـلاً سيئاً إلى المتمـردين الآخـرين ضـده، وجعلهم يطمئنون في مثل هذه الحالة.

الخلاف الذي نشب بين رتشارد أسقف درم والرهبان

ونشب في هذه الآونة خلاف شـديد بين رتشارد دي ماريسكو Ma-risco أسقف درم وبين رهبـان تلك الكنيسة، حول بعـض الامتيازات القديمة والأعـراف، التي تمتع بها الرهبان مدة طويلة في الماضي، وأرسل الأسقف مخادعة رسالة إلى الرهبان المذكورين ليقدموا إليه مع امتيازاتهم وكتـابات كنيستهم، حتى إذا كـان بهم أي نقص، يمكنه تزويـدهم به بقـرار منه، ورفض رئيس الرهبـان والرهبـان رفضـاً مطلقـاً تمكينه من مشاهدة كتاباتهم، لأنهم توجسوا شراً من خداعه وخافوا من غشه،وبناء عليه، عندما وجد الأسقف نفسه غير قادر على رؤية كتاباتهم، أقسم أنه سـوف ينقل جميع ممتلكاتهم ويحولها لاستخـدامـه الخاص، وأضـاف إلى ذلك أنه إذا ما وجد أي واحد منهم خارج باب ديره، هو لن يقبل فدية له أقل من رأسـه، وأقسم أيضـاً أنه مـادام حيـاً لن تعـرف كنيسـة درم الهدوء والسلام، وبعـد مضي وقت قصير قام أتباع الأسقف بجـر واحد من الرهبـان وأخرجـوه بالقـوة من الكنيسة، وعنـدما قـام هذا الراهب بعـرض شكواه عن سـوء معـاملتـه إلى الأسقف، أجـابه ذلك الأسقف بقوله بأن خـدمه كانوا سيحسنون صنعـاً لو أنهم قتلوه، وكان من ذلك الوقت، هذا الأسقف عدوانيا إلى أبعـد الحدود نحو الرهبان المذكورين، وصار ينزل بهم أعظم الأذى، ولذلك اضطروا إلى الترافع والشكوى إلى البـابا، ووضعـوا أنفسهم وجميع ممتلكاتهم تحت حمايتـه، ثم إنهم بعثـوا بعض رجال الدين والرهبان إلى روما حيث تقدموا بشكاوى كثيرة ضد

الأسقف، وجواباً على ماتقدم له حصلوا على الرسالة التالية من قداسته: «من هو نوريوس الأسقف، إلى أسقفي سالسبري وايلاي، وإلى الآخرين، تحيات، الخ، من الواضح تماماً أننا نتمتع بسماع الآراء الطيبة لإخواننا ورفاقنا، وأننا لن نتغاضى عن شرور آثام المعتدين، ولن يخطر على بالنا، تقديراً منا لقانوننا ونظامنا، تأييد المذنبين، الذين تجعلهم ذنوبهم جديرين بالموت، وذلك انسجاماً مع ماضربوه من أمثلة في اقتراف الذنوب لشعوبهم، التي تقلد فقط مثل هذه الجرائم التي شاهدوها بأعينهم، وبما أنه عندما يجري في الغالب التقليد، فاننا نشعر بالمسؤولية تجاه مايقوم به أخونا أسقف درم، ولأن أعماله متباينة تماما مع ماتقتضيه الكرامة الأسقفية جرت أخيراً اثارتنا بوساطة الالتماسات التي جذبت انتباهنا، وبناء عليه لن نسمح للأسقف المذكور الاستمرار أية مدة أطول من دون ضبطه وردعه عن شناعاته، لأن شكاوى ساطعة وتهما مكشوفة قد قدمت ضده، من أنه منذ ارتقائه إلى المرتبة الأسقفية صار مجرماً بسفك الدماء، والسيمونية، والزنا، والتجديف، والسرقة، والحنث باليمين، وكثيراً من الجرائم المضاعفة في التهور في ظلم الرهبان وقمعهم، مع اليتامى، ورجال الدين، وبمنع تقديم القربان للناس وقت موتهم، وفي التورط في الدفاع عن امتيازات الملك مراغمه لولدنا المحبوب باندولف الأسقف المنتخب لنورويك، ومع أنه تحت عقوبة الحرمان الكنسي، يتدخل بإقامة الطقوس الدينية والقداسات، وكذلك بالنسبة للشكاوى والمرافعات المقدمة لنا والمعروضة علينا، هو لم يقم تقديراً لكنيسة روما، ولم يلتزم بقرارات المجمع المسكوني، ولم يبشر بكلمة الرب لشعبه، وبسلوكه الفاسد، وبممارسات حياته قد ضرب مثلاً سيئاً إلى الذين هم تحت ادارته، فلقد أقسم بحضور عدد كبير من الناس، بأن كنيسة درم لن تعرف الهدوء والسلام أثناء حياته، وعندما تشكى له واحد من رهبان درم بأنه جرّ من الكنيسة من قبل خدم الأسقف، وضرب حتى سالت الدماء منه، أجابه بأنه كان يفضل لو أن

خـدمه قـد قتلوا الراهب، وعلاوة على هذا، لقـد داس بقدميـه في جميع المناسبـات الأحكام الرسـوليـة، التي حـددت أي نوع من الأشخـاص ينبغي أن يكون الأسقف، وبناء عليـه، حتى لانضـاعف أخطاء واحـد آخـر، الأمـر الـذي سنقترفـه لو أننا مـررنا مـرور الكرام على الذنوب الكبيرة والآثام العظيمـة للأسقـف المذكـور، لاسيما بعـدمـا وصلتنا الصرخات حول هذه القضيـة، نحن الآن لايمكننا الاستمرار بالتغاضي عن هذه القضـايا، ولذلك رأينـا من الأفضل النزول من مقـام منصبنا الرفيع، للبحث ولـرؤية فيما إذا كـانت هذه الشكـاوى صحيحيـة أم لا، وبناء عليه نحن نأمـركم بوساطة رسـائلنا الرسوليـة هذه القيام بالبحث والتقصي حول هـذه القضايا، وعندمـا تقفون على ما هو صحيـح تماماً، ارسـال محصلة أبحاثكم مغلقـة تحت ختمكم، إلينا، وذلك حتى نتمكن بعون الرب مـن اتخاذ قرار حول مـالذي يتوجب فعله في هـذه القضية. صدر في فيتيربو، في السنة الخامسة من بابويتنا».

كيف ذهب أسقف درم إلى روما للاجابة على شكاوى الرهبان

عندما وصلت رسائل مـولانا البابا إلى أيدي وكلائه، قـاموا بموجب الواجب المفـروض عليهم باستـدعـاء أسقف درم مع رعـاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والشمامسة، والعمـداء في مؤسسة البلاط والمحكمة في درم، وكـذلك جميـع الآخـرين من العلمانيين ورجـال الـدين في تلك المقـاطعة، الذين اعتقـدوا ان لهم عـلاقة تنظيميـة بهذه القضية، وعندمـا مثلوا جميعا في الموعـد المحدد والمكان المقرر أمام هؤلاء الوكـلاء، جرت قـراءة رسـائـل البـابا، على مسمع منهم جميعاً مـن أجل أن يحصل كل واحد منهم على معلومات واضحة عن القضية، وبعد الفراغ من القراءة وفهم المحتويات نهض رجـال دين الأسقف وعرضـوا بعض التعليلات الحمقاء الفاسدة، وجـاء ذلك رداً على الوكلاء، وأنهم لا يمكنهم متابعة التقصي والبحث، لأنهم سوف يترافعون أمام البـابا، وبعدما قدم إلتماس

استئنافه غادر مع رجال دينه وذلك بعد تحديد موعد من أجل متهميه للظهور ضده في حضرة البابا، وبعدما قدم الأسقف المذكور استئنافه، أخذ طريقة إلى بلاط روما، وجاء ذلك بعدما أرسل أمامه بعضاً من رجال دينه ليحصلوا له على الحظوة عند البابا ضد خصومه، وبناء عليه تمكن رجال الدين المذكورين، قبل وصول رهبان درم إلى روما من اضعاف قضيتهم كثيراً، وبناء عليه وبعد كثير من المشاحنات من على الجانبين في حضرة البابا، وبعدما أنفق الأسقف وكذلك الرهبان مبلغاً كبيراً من المال، جرى إرسالهم عائدين إلى انكلترا، إلى الوكلاء المتقدم ذكرهم، ليقوموا بتقرير وتحديد ما هو صحيح، ومنذ أن تفجر هذا الخلاف فيما بينهم، استمر لوقت طويل، حتى وضع موت الأسقف حداً للنزاع، كما كان هو نفسه قد أعلن.

بناء قلعة جديدة في مونتغمري

وفي العام نفسه، في حوالي عيد ميلاد القديسة مريم ألقى للويلن Llewellyn ملك ويلز الحصار على قلعة إسمها بويت Buet (Builth) وكانت بلدتها تابعة لرينالد دي بروز Brause فالتمس بالحاح المساعدة من الملك، حتى يمكن بوسائله رفع الحصار، بحكم أنه كان غير قادر بوسائطه الخاصة تدبر ذلك، وبناء عليه، ولأن الملك عليه عدم التخلي عن نبلائه، زحف إلى هناك مع جيش كبير، ورفع الحصار، وعمد الويلزيون— كما هي عاداتهم—إلى الفرا ر، وعندها زحف الملك نحو مونتغمري Montgomery مع جيشه، آمراً بجمع جميع سلع وممتلكات الويلزيين الذين قابلوهم مع مواشيهم من أجل دعم أتباعه الذين كانوا معه، ولدى الوصول إلى مونتغمري وبعد الطواف في المنطقة كلها هناك، رأى قادة الجيش أن المكان مناسب لبناء قلعة لأن موقعها بدا أنه لا يرام، وبناء عليه أمر الملك ببناء قلعة هناك من أجل ضمان تلك المنطقة، لأن من المعروف قيام الويلزيين بغارات من هناك، وبعد

هذا حصل الجميع على الإذن،وعــاد وا إلى مـواطنهـم، وجـرى السماح للنبلاء بالمغادرة بعد دفع ماركين من الفضة عن كل محلجة.

أوضاع الأرض المقدسة بعد الاستيلاء على دمياط وتنيس

[وفي هذه الآونة بعث مقـدم فرسـان الداوية بالرسـالة التـالية حـول شـؤون الأرض المقدسـة:] «إلى أخينا المحترم في المسيح، يرسل إليكم تحيـاته ن.N بنعمـة الرب أسقف إليمنيـوم Elimenum وبطرس دي مونتأليـوت مقدم فـرسان الداوية، نعلم قـداستكم بالرسائل المعـروضة أمـامكم عن سير أمور مـولانا يسـوع المسيح منذ الاستيلاء على دميـاط وعلى قلعة تنيس، وليكـن معلوم لديكم بالمقام الأول أنه بعـد الاستيلاء المذكـور، وصل إلى دميـاط عـدد من الحجـاج، شكلوا مع بقيـة الجيش الذي بقي، مـا فيه كفاية لشحن دميـاط وللدفاع عن المعسكـر، ومولانا النائب البـابوي ورجـال الدين، يرغبون في تقـدم قضيـة جيش المسيح، ولذلك غــالبـاً مــا يقـومــون بحثّ الناس وتحريضهم للهجـوم على المسلمين، لكن نبـلاء الجيش، وكذلك الذيـن من مناطق ما وراء البحـر ومعهم الذين هم من جانبنا من المياه،يرون أن الجيش ليس كافياً للدفاع عن المدينتين المتقــدمتي الذكــر والقلعتين، وفي الوقت نفســه لا يمكن المضي أبعـد في سبيل منفعـة المسيحيـة، ولذلـك هم لم يوافقـوا على هذه الخطة، لأن سلطان مصر مع حشـد لا يحصـى عـدده من المسلمين، قـد نصب معسكره قرب دمياط، وبنى على كل فرع من فروع النهر جسوراً ليعيق تقــدم الصليبيين، وهو هنـاك مع جيش عمـــلاق، وأن يقـــوم الصليبيـون بـالتقـدم أكثـر، فـإنهم وقتهـا سـوف يكـونون في خطر هو الأعظم، ومـع ذلك لقــد قمنـا بتحصين المدينة المذكـــورة، والمعسكر، والســاحل القــريب منا بخنادق من جميع الجهـات، متــوقعين أن تتم مواســاتنا من قبل الرب بوساطة مسـاعدة الذين هم قادمين لمسـاعدتنا، ورأى المسلمون -على كل حال - عدم كفايتنا، فسلحوا جميع غلايينهم،

وبعثوا بهم إلى البحـر في شهر ايلول، وسبب هـؤلاء خسارة كبيرة ألمت بالصليبيين الذين كانوا قادمين لتقديم العـون إلى الأرض المقدسة، وكان هناك في جيشنا عجـز كبير بالمال إلى حد أنه لم يعد بإمكـاننا الحفاظ على سفننا لأية مـدة أطول، ولدى معـرفتنا بأن خسـائـر كبيرة تنزل بالجيش الصليبي، بوســاطة غـلايين المسلمين تلك، قمنـا على الفــور بتسليح غلايينا، وسفننا ومـراكبنا الأخرى للتصـدي لهم، وليكن أيضاً معـروفاً لديكم بأن المعظم سلطان دمشق، قـد حشـد جيشـاً كبيراً من المسلمين، ولدى معرفتـه بأن مدينتي عكا، وصـور لم تكونا مزودتين بما يكفي من الفرسـان والجنود للتصدي له، قام بشكل مستمر بالحاق الأذى الشديد بهذين المكانين، بشكل سري، وبشكل علني، وبالاضـافة إلى هذا، غـالبا ماجاء ونصب معسكره أمام معسكرنا، الذي اسمه «المحج» [عثليت]، ملحقاً بنا كل أنواع الأذى، كما أنه حـاصر قيسارية في فلسطين واستولى عليها مع أنه كان هناك عدد من الحجاج مقيمين في عكا، وعليّ أيضاً أن أخبركم بأن الأشرف ابن سيـف الدين، وأخــو سلطاني مصر ودمشق، يقاتل مع جيش قوي ضـد المسلمين في المناطق الشرقية، وقد انتصر على أعظم أعدائـه قوة، لكن ليس ضد الجميـع، لأنه بفضل الرب سوف لن يكون بإمكانـه بسهـولة قهــرهـم جميعــاً، لأنه إذا مــااستطاع انهاء تلك الحرب، سوف يكون من الممكن أن يلتفت باهتمامه نحو كونتيه أنطاكية، أو نحـو طرابلس، أو عكا، أو مصر، ولسـوف نكون في الخطر الأعظم، إذا كـان سيتـولى حصـار أية واحـدة من قـلاعنا، لأننا لن نستطيع، بأي حال من الأحوال دفعه وابعـاده، هذا والحديث عن وجود خلافات بين المسلمين يمنحنا السرورة والراحـة، علاوة على ذلـك إننا متوقعـون منذ وقت طويل وصـول الامبراطور ونبــلاء آخـرين بهم نأمل أن نتحـرر، ونأمل بوصــولهم بانهاء هذه المسألة، التي بـدأت بأيدي كثيرة، إلى نهاية سعيدة، ولكن إذا خابت آمالنا بشأن هذه المساعدة، ولم تصل في الصيف المقبل -الأمــر الذي آمل أن لايحدث -ســوف يكون وضع البلـدين

اللذين هما مصر وسورية، وماتملكناه مؤخراً ، والذي نمتلكه منذ زمن طويل، في موضع شك، وبالاضافة إلى ما تقدم لقد ظلمنا نحن والناس الآخرين من جانبنا من الغرب بالنفقات العالية جداً في الاستمرار بهذه الصليبية،ووصل الحال والضيق بنا إلى درجة أننا سوف نكون غير قادرين على الانفاق على حاجتنا الضرورية، ما لم نتسلم، بفضل، الرحمة اللاهوتية، بأسرع وقت ممكن المساعدة من أبناء ديننا المسيحيين. صدر في عكا في العشرين من أيلول».

حج فيليب دي ألبيني إلى الأرض المقدسة

عام ١٢٢٢م، فيه أمضى الملك هنري عيد الميلاد في ويستنمستر، حيث زوده بطرس أسقف ذلك المكان بجميع الضروريات للاحتفال، وفي هذا العام أيضاً، انطلق فيليب دي ألبيني، الذي كان فارساً شجاعاً وأميناً وكان موجهاًمخلصاً لملك انكلترا، وأخذ طريقة نحو القدس، وقد وصل إلى هناك بعد رحلة موفقة، دون المعاناة من أية خسارة في الممتلكات والسلع، وما أن تعرف على شؤون الأرض المقدسة حتى بعث الرسالة التالية إلى رالف ايرل شيستر:

حول فقدان دمياط

«إلى صاحب القداسة والمولى والصديق رالف ايرل شيستر ولنكولن، يتمنى له صديقه المخلص فيليب دي ألبيني الصحة وخالص العواطف، عليّ أن أخبر معاليكم أنه في يوم صعود العذراء مريم أبحرنا من ميناء مرسيليا، وفي يوم الاثنين قبل ميلاد العذراء نفسها وصلنا إلى أمام دمياط، وهناك رأينا عدداً كبيراً من السفن تغادر البلدة، ولقد تحدثت مع واحد من المراكب وقدمت هدايا إلى الملاحين، وبناء عليه قدموا وتحدثوا إلينا، وجلبوا إلينا تقارير حزينة جداً، أفادت بأن شعبنا في دمياط، والنبلاء في تلك المدينة، وملك القدس، والنائب البابوي، ودوق

بافاريا، والداوية والاسبتارية ، مع آخرين كثر، بلغ عددهم إلى ألف صليبي وخمسة آلاف من الفرسان الآخرين، مع أربعين ألفاً من الجنود الرجالة، قد مضوا في حملة نحو القاهرة، وذلك على الرغم من معارضة الملك، حيث —كما قيل—قد غادروا في يوم عيد القديس بطرس في الأغلال، وهذا معناه أنه مضى على غيابهم في تلك الحملة ثلاثة أسابيع أو أكثر، وهم الآن في حوالي منتصف الطريق بين دمياط والقاهرة،وقدم وقتها سلطان القاهرة مع أخيه المعظم ومعهما جميع القوات التي تمكنا من حشدها، وغالباً ما هاجما قومنا، وكثيراً ما فقدا بعضاً من رجالهما، وعندما رغب شعبنا بالعودة إلى دمياط، أصبح النهر فائضاً، وطاف لعدة أيام على طرفيه، وانحصر شعبنا بين فروع النهر، ثم عمل المسلمون قناة من فرع إلى آخر على مقربة من جيشنا، وفي الوقت نفسه ازداد ارتفاع النهر بشكل كبير جداً، حتى أن شعبنا صار رجاله يخوضون في الماء حتى ركبهم وأوساطهم، مما سبب لهم شقاء عظيماً وآلاماً، وبذلك صاروا عرضة إما للقتل أو الوقوع أسرى بيد سلطان القاهرة، وذلك حسبما يرغب، وفي ظل هذه الأوضاع وافق شعبنا على هدنة لمدة ثمانية أعوام وأبرموها مع السلطان، على شرط تخليهم عن دمياط وتسليمهم لها مع جميع الأسرى الذين لديهم بالأسر، وفي سبيل مراعاة هذه الهدنة وتنفيذها، بقي ملك القدس، والنائب البابوي ودوق بافاريا والشخصيات الهامة الأخرى بمثابة رهائن، وقدم السلطان وأعطى عشرين رهينة من أجل مراعاة الهدنة من جانبه، وعندما سمعنا بهذه التقارير شعرنا بحزن عظيم، كما يتوجب على كل مسيحي أن يشعر، وبناء عليه رأينا أن من الأفضل أن نأخذ طريقنا إلى عكا، لأننا لم نرغب أن نكون حضوراً لدى تسليم دمياط، وقد وصلنا إلى عكا في اليوم التالي لميلاد العذراء مريم، وهو اليوم الذي أعقب يوم تسليم دمياط إلى السلطان، وقد قام السلطان نفسه بإطلاق سراح جميع الأسرى الذين كانوا لديه، وعليّ أيضاً أن أخبركم أن صاحب الجلالة

ملك القدس، على نية الذهاب إلى بلادكم، ولذلك أرجوكم أن تقدموا له العون، وفقاً للوعود التي عملت نحو الملك والنبلاء الآخرين، لأنه من الصعب وصف فضائله الكبرى التي هي موضع اعجاب».

رسالة أخرى حول القضايا نفسها

«من الراهب ب. pدي مونتأكيوت ، المقدم المتواضع لفرسان الداوية، إلى أخيه المحبوب في المسيح أ. A مارتل Martel الشاغل لمنصب مدرس في انكلترا، تحيات: لقد كنا من حين إلى آخر قد أخبرناكم عن تطور أحوال القضية التي نحن بشأنها والمتعلقة بشؤون يسوع المسيح، ونخبركم الآن بانتظام عن الانتكاسات التي واجهناها في أرض مصر، بسبب ذنوبنا، فلقد مكث الجيش الصليبي بعد الاستيلاء على دمياط وقتاً طويلاً، دونما حراك، في ذلك المكان، ولقد ألقى الناس الذين قدموا من مناطقنا في الغرب والذين جاءوا من مناطق ما وراء، البحر، الملامة والنقد علينا بسبب هذا السلوك، وقد وصل دوق بافاربا بمثابة قائد ممثل للامبراطور، وقد أوضح للناس بأنه قد جاء بغرض الحرب ضد أعداء الايمان المسيحي، وبناء عليه جرى عقد اجتماع ضم مولانا النائب البابوي، ودوق بافاربا، ومقدموا الداوية والاسبتارية وطائفة التيوتون، والايرلات والبارونات، فيه تقرر بالاجماع القيام بالتقدم، وبعدما جرى الارسال خلف ملك القدس المشهور، جاء مع باروناته ومعه اسطول من الغلايين والسفن المسلحة، ووصل إلى دمياط، ووجد جيش الصليبيين مقيماً في معسكره خارج الخطوط، وبعد عيد القديسين بطرس ، وبولص، استأنف وقتها صاحب الجلالة الملك والنائب البابوي ومعهما الجيش الصليبي كله، الزحف بشكل نظامي في كل من البر والماء، وقد اكتشفوا وجود السلطان مع حشد لا يحصى من أعداء الصليب، وقد هرب هؤلاء من أمامهم، وبناء عليه تابعوا زحفهم من دون خسائر حتى وصلوا إلى معسكر السلطان، وكان هذا المعسكر

محاطاً بنهـر كانوا غير قـادرين على عبوره، ولذلك أقـام الجيش الصليبي معسكره على ضفـة النهـر، وشيـد جســوراً للعبـور إلى أمـام معسكر السلطان الذي كنا مفصولين عنه بوساطة نهر تنيس، الذي هو فرع لنهر النيل العظيم، وبعدما أقمنا بعض الـوقت هناك، غادر عدد كبير جيشنا، من دون الحصـول على إذن، ولذلك نقص عـدد الجيش بعشرة آلاف أو أكثـر، وفي الوقت نفســه،عندمـا فـاض النيل أرسـل السلطان غـلايين وبراكيس إلى داخل النهر لإعاقة سفننا، وفعل ذلك من خلال أقنية كان قـد فتحها وأعـدها من قبل، وبهذه الطريقـة لم يكن من الممكن وصـول مؤن إلينا من دميـاط، وبذلك حرمنا من المؤن، لأن المؤن تعـذر وصولها إلينا عبر البر، بسبب أن المسلمين منعـوها مـن الوصـول، وهكذا فإن الطريـق بالبحـر وبالبر الـذي كـان من الممكـن عبره أن تصل المؤن الضرورية إلينا بات مغلقـاً، وعقـد الجيـش اجتماعـاً للتبـاحث من أجل العـودة، لكن أخـوا السلطان: الأشرف والمعظم، سلطانا:حلب ودمشق والسلاطين الآخـرون، خاصـة سلاطنة: حمص،وحماة، وقلعـة جعبر مع ملوك مسلمين كثير آخرين، وجيش لا يحصى عدده من المسلمين، كانوا قد جاءوا لمساعـدتهم، تولوا قطع طريق تراجعنا وغادر— على كل حال —جيشنا أثناء الليل وسار عبر البر والماء، لكنه فقـد كل المؤن في النهر، وذلك إلى جانب عـدد كبير من الرجال، لأنه عندمـا فاض النهـر، وجه السلطان الماء في اتجاهات مختلفـة من خـلال مجاري خفيـة وأقنيـة وترع، كانت كلهـا قد أعـدت قبل وقت مضى لإعاقـة تراجع الصليبيين وبناء عليـه تفـرق جيش المسيح بين الأغـواط، ولـذلك فقـد جميع حيـوانات الحمولة لديه، ومخزوناته، وجميع حاجياته الضرورية تقريباً، وصار بذلك محروماً من المؤن، وبذلـك لم يعد بإمكانه الإشتباك بـالقتال مع السلطان بسبب أنه كـان محاطاً بالنهـر، وهكـذا بات معتقـلاً في وسط الميـاه مثل سمكة، وعندمـا وجـد قـادة الجيـش أنفسهم في هذا المأزق، وافقـوا مكرهين على تسليم مدينة دميـاط إلى السلطان، مع جميع الأسرى الذين

يمكنهم العثــور عليهم في صــور وعكــا، مقــابل الصليب الحقيقي، والأسرى الصليبيين الموجــودين في مصر ودمشق، وبنـاء عليــه نبنا مع عدد آخـر من الرسل عن الجيش بشكل عام، وذهبنا إلى دميـاط لإخبار الناس في المدينة عن الشروط التي فـرضت علينا، مما أزعج كثيراً أسقف عكا، والمستشار، وهنري كـونت مالطا، الذي وجـدناه هناك، ذلك أنهم رغبوا بالدفـاع عن المدينة، وهو ما توجب علينا الموافقـة عليه، لو أمكن فعله والقيـام بـه مع أية منافع، لأننا كنا بالحري نـؤثر أن نوضع في أسر دائم على تسليم المدينة للمسلمين الذي هـو عـار للصليبيـة، وبناء عليـه قمنا بعملية بحث دقيقـة خلال المدينة، ومع الأفـراد والأوضاع المؤثرة، فلم نجـد مالاً ولا أنا سـاً يمكن بوساطتهم الدفـاع عن المدينة، ولذلك رضخنا لهذه الاتفـاقيـة وربطنا أنفسنا بالإيمان وبـاعطاء رهائن، ووافقنا على هدنة ثابتـة لمدة ثمانيـة أعوام، والتـزم السلطان -حتى الانتهـاء من الترتيبات- بدقة بما كان قد وعد به، وزود جيشنا الجائع بالخبز والدقيق لقرابة خمسة عشر يوماً، ولذلك تعاطف برحمة مع آلامنا، وساعدنا بقدر ما أنت تستطيع ووداعاً».

مباراة مصارعة واضطرابات في مدينة لندن

وفي العام نفسه التقى سكان مدينة لندن في يوم عيد القديس جيمس، في مشفى الملكة مـاتيلدا، خارج المدينة لـلانخراط بمبـاراة مصارعـة مع سكان المناطق القـائمـة حـول المدينـة، لمشـاهدة من منهم يمتلك القـوة الأكبر، وبعـدمـا تصـارعـوا لمدة طويلة وسط الصراخ من على الطرفين، تمكن سكان المدينـة من إحـداث اضطراب وسط خصــومهـم، ونالوا النصر، وكان بين الذين تعرضوا للهزيمة قهرمان راعي دير ويستمنستر، وقــد غـادر وهـو يفكر بعمق ويبحث عـن وسيلة ينتقم بها لنفســه ولأصحابه، وبعد لأي اعتمـد الخطة التالية للانتقام، فقـد عرض تقديم جـائزة من أجل المصـارعـة، في ويستمنستر، والذي سوف يبرهن نفسـه

على أنه المصارع الأفضل، ينبغي أن يتسلم الكبش بمثابة جائزة، وجمع في الوقت نفسه عدداً من المصارعين البارعين والأقوياء، حتى يمكنه بذلك استحواذ النصر، لكن لكون سكان المدينة كانوا راغبين في نيل انتصار آخر، قدموا إلى المباراة في قوة كبيرة، وبدأت المباراة والاصطراع من على الجانبين، واستمروا لبعض الوقت يرمون بعضهم الآخر، وبما أن القهرمان وأتباعه من الضواحي ورفاقهم من الأرياف، أرادوا الانتقام وليس الرياضة، بادروا إلى حمل السلاح وضربوا بحدة سكان المدينة، الذين قدموا إلى هناك غير مسلحين، وسببوا سفك الدماء بينهم، وأصيب سكان المدينة بالجراحة بشكل مخجل، وتراجعوا إلى المدينة وسط اضطراب عظيم وفوضى كبيرة، وبعدما صاروا بالمدينة حدث هياج كبير بين السكان، وأعطيت اشارة إلى السكان من مختلف المراتب للاجتماع، وجرى إخبار الناس بملابسات ماحدث، ولذلك اقترحوا جميعاً طرقاً مختلفة وخططاً متباينة للانتقام، لكن سيرلو Serlo، عمدة المدينة، وكان رجلاً حكيماً ومحباً للسلام، ارتأى أنه ينبغي استدعاء راعي دير ويستمنتسر للإجابة على هذه الاهانة، وإذا ماقدم ترضية مناسبة عن نفسه وعن أتباعه، فسيكون في ذلك رضا لهم جميعاً، وفي جواب على هذا، وقف واحد من أعيان المدينة، واسمه قسطنطين، وسط هتاف جميع السكان وقال إنه يرى وجوب هدم جميع أبنية دير ويستمنستر، وبيت القهرمان المتقدم الذكر وتسويتها بالأرض، وعندما أنهى كلامه، صدر القرار بذلك، وأنه ينبغي تنفيذ خطة قسطنطين، وما الذي يمكن أن يقال أكثر من هذا؟ واندفع السكان الحمقى والطائشين مع الآخرين في المدينة، وتوجهوا بشكل فوضوي، وكان قسطنطين على رأسهم، وقد دخلوا في حرب أهلية، حيث دمروا عدداً كبيراً من الأبنية، وألحقوا ضرراً كبيراً براعي الدير، وبما أن هذه الأحوال كان من غير الممكن إبقاءها سرية لوقت طويل، فقد وصلت إلى مسامع هيوبرت دي بورغ، المسؤول عن العدالة في انكلترا، فحشد قوة، وزحف نحو برج لندن،

ومن هناك أرسل رسلاً إلى المدينة، وأمر شيوخ السكان بالقدوم إليه بأقصى سرعة ممكنة، ولدى مثولهم أمامه سألهم عن رؤساء فعلة هذا الاضطراب، وهذه الفوضى في مدينة الملك، ومن الذي تجرأ على خرق السلم الملكي، ومثلما كان قسطنطين الذي كان هو الأجرأ في هذا الاضطراب، كان الآن هو الأجرأ بالإجابة، حيث أعلن أنه على استعداد للإجابة عن كل ماحصل، ولدى سماعه جميع الشكاوى، قال بأنه فعل الذي هو أقل مما ينبغي فعله، وعندما سمع المسؤول عن العدالة هذا الاعتراف، اعتقله من دون صدور أي صوت مع اثنين آخرين إلى جانبه، وأرسل في الصباح فالكاسيوس مع قوة من الجند عن طريق التيمز، وقد حمل قسطنطين بعيدا لكي يشنق، وعندما وضع الحبل حول عنقه، وفقد كل أمل، عرض دفع خمسة عشر ألف مارك من الفضة مقابل الابقاء على حياته، لكن ذلك كان بلافائدة، وقد جرى شنقه وقتذاك مع حفيده قسطنطين، وواحداً آخر اسمه غيوفري، وهو الذي كان قد أعلن الحكم الذي أصدره قسطنطين في المدينة، وهكذا بما أن سكان المدينة لم يعرفوا ماحدث، فقد جرى تنفيذ القرار الذي صدر بحقه من دون هياج وفوضى، ومضى بعد هذا المسؤول عن العدالة يتجول في المدينة مع فالكاسيوس وقوة من الجند، وقد اعتقل جميع الذين اكتشف أنهم كانوا مجرمين في الفتنة المذكورة وألقى بهم في السجن، وبعدما قطع أقدام بعضهم، وأيدي بعضهم الآخر سمح لهم بالمغادرة، وبسبب هذه الحادثة هرب بعض الناس من المدينة، ولم يعودوا إليها بعد ذلك ثانية، ثم أوقع الملك عقوبة كبيرة، حيث خلع جميع رجال العدالة في المدينة، وعين رجالاً جدد عوضاً عنهم.

عواصف رعدية وأحوال مناخية سيئة

وسمعت في الثامن من شباط من العام نفسه أصوات رعود مرعبة، وكانت أسهم البرق لدى اصطدامها قد أشعلت النار في كنيسة غراهام

في كونتية لنكولن، ومنها صدرت روائح كريهة جداً إلى حد أن الذين كانوا في الكنيسة لم يتحملوها، لذلك هربوا، وبعد مضي بعض الوقت أمكن عن طريق اشعال فتيل الشمع المقدس، ورش الماء المقدس، أمكن بعد بعض الاضطراب إطفاء النار، لكن آثار بعض اللهب ماتزال موجودة في الكنيسة، وكان هناك في العام نفسه، في يوم عيد تمجيد الصليب (١٤ -ايلول) كثيراً من الرعود في جميع أرجاء انكلترا، وقد تبع هذا هطول أمطار غزيرة، مع زوابع شديدة، ورياح عنيفة، واستمرت هذه الأنواء العاصفة مع المناخ الذي لم يكن معتاداً آنذاك حتى عيد طهارة العذراء،محدثاً دماراً عظيماً لعدد من الناس، وبشكل خاص إلى المزارعين، وقد بيع في الصيف التالي عيار القمح بمبلغ اثني عشر شلنا، ومجدداً سمع الرعد في العام نفسه في يوم عيد القديس أندرو الرسول (٣٠ -تشرين الثاني) في جميع أرجاء انكلترا بشكل عام، مما سبب دمار الكنائس، وأبراج الكنائس، والبيوت والأبنية الأخرى، وأسوار القلاع وسواترها الدفاعية، وفي بلدة اسمها بيلاردستون Pi-lardeston في كونتية ورويك Warwickدمرت العاصفة بيت أحد الفرسان، ودفنت زوجته، وثمانية أشخاص من كلا الجنسين، مما أفجع كثيراً من الناس رأوا المأساة، وازدادت العاصفة بعد هذا قوة وغضباً، فسقطت في البلدة نفسها، على بقعة من الحلفاء، كانت محاطة ببحيرة ذات ماء عميق، فجفت على الفور، فلم تترك فيها لاعشب ولاتراب، والذي بقي مجرد حجارة جافة، ومرة أخرى في عشية عيد القديسة لوسي Lucy(١٣ -كانون أول) العذراء، هبت بشكل مفاجىء ريح عاصفة، وقد ثارت بقسوة أعظم مما ذكرناه من قبل من العواصف، ذلك أنها أسقطت خلال انكلترا بشكل عام أبنية كأنها تعرضت للنفخ عليها من قبل الشيطان، وسوت بالأرض كنائس وأبراج، واقتلعت أشجار الغابات من جذورها وكذلك أشجار الفواكه، وبذلك نادراً مانجا انسان دون التعرض للخسارة والمعاناة منها.

كيف طالب ستيفن رئيس أساقفة كانتربري بامتيازات صك الحريات من الملك

عـام ١٢٢٣م، فيـه عقـد الملك هنـري بلاطه في عيـد الميـلاد في أكسفورد، ووصل إلى لندن بعد ذلك في ثمانية عيد الغطاس، لعقد مؤتمر مع البارونات، وهناك سأله رئيس أساقفة كانتربري وكـذلك سأله بقية النبلاء أن يؤكـد لهم الامتيازات والأعـراف الحرة، حتى يحصلوا عليها، وهي التي كـانت السبب في دخـول الحرب ضـد والده، ونظرا لما برهن عليه رئيس الأسـاقفة بكل وضوح، لم يتمكـن الملك المذكور تجنب منح هذا المطلوب، لأنه عندمـا غـادر لويس من انكلترا، كـان قـد أقسم هو ونبلاء المملكة على مـراعاة الامتيازات المذكورة، وأن يتدبـروا مراعاتهم من قبل الجميع، ولدى سماع هذا الطلـب، قـام وليم بريوير Briwere، وكان واحداً من مستشاري الملك، فتـولى الرد باسم الملك قائلاً: «بما أن الامتيازات التي تطالب بها قـد استخرجت بالقوة، ينبغي بالحقيقـة عدم مراعاتها»، فأصبح رئيس الأساقفة غـاضباً بسبب هذا الرد، فوجه اللوم إليـه قـائـلاً: «إذا كنت ياوليم تحب الملك، عليك عـدم إفسـاد سـلام المملكة»، وعندمـا رأى الملك بأن رئيس الأساقفة قـد أثير حتى الغضب قال: «لقد أقسمنا على مراعاة جميع هذه الامتيازات، والذي أقسمنا عليه نحن ملتزمون به»، ثم قام على الفور فعقد مؤتمراً، وبعث رسائل إلى كل واحـد من عمد مناطق انكلترا، آمـراً إياهم القيام بعمليـة بحث وتقصي بموجب قسم يؤديه اثني عشر فـارساً أو اقطاعياً أو رجـلاً حراً من كل كـونتية، حتى يعـرفوا أية امتيـازات كانت مـوجودة في أيام جـده الملك هنري وأن يبعثوا إليه بنتيجة البحث الخاصـة، إلى لندن في إطار خمسـة عشر يوماً بعد عيد الفصح.

خلاف بين الويلزيين ووليم مارشال

في هذا العام نفسه، عندما كان وليم مارشال ايرل أوف بمبروك في ايرلندا قام للويلين ملك الويلزيين مع جيش قوي، بالاستيلاء على قلعتين كانتا ملكاً لوليم المذكور، وقتل صبراً جميع الذين وجدهم فيهما، ثم غادر مبتعداً، تاركاً أتباعه الويلزيين في هاتين القلعتين، ووصلت أخبار هذه الوقائع بعد عدة أيام إلى مسامع وليم مارشال، فعاد مسرعاً كل السرعة إلى انكلترا، حيث حشد قوة كبيرة، ثم إنه حاصر القلعتين واستولى عليهما، وبما أن جميع أتباعه قد جرى قتلهم صبراً بعد استيلاء للويلين على القلعتين، مثل هذا فعل وليم انتقاماً فقتل صبراً جميع الويلزيين الذين أسرهم، وقام بعد ذلك حتى يزيد من انتقامه لنفسه فغزا أراضي للويلين، وأحدث دماراً في المنطقة حيثما ذهب وتوجه بالسيف والنار، ولدى سماع للويلين بهذا قدم للتصدي للمارشال مع قوة كبيرة، لكن الحظ وقف إلى جانب المارشال، حيث قاتل الأعداء، وبعدما قتل عدداً من الويلزيين، أرغم البقية على الفرار، وطاردهم بحرارة، وقتلهم من دون رحمة، فلقد جرى تعداد تسعة آلاف على أنهم قتلوا ووقعوا بالأسر، وفقط عدد قليل هم الذين نجوا بالفرار.

وفي العام نفسه، في حوالي أيام عيد صعود ربنا، جرى تكريس وليم موكلير Mauclere أسقفاً كارآيل Carlisle ليورك، وفي تلك الآونة نفسها، تدفق سائل زيتي نقي في الكنيسة الكبرى في يورك، من ضريح القديس وليم، الذي كان من قبل رئيساً لأساقفة تلك الكنيسة، وأمطرت السماء في العام نفسه مطراً لونه لون الدم، وقد صبغ الأرض في روما، لمدة ثلاثة أيام، مما سبب الدهشة لكثير من الناس.

موت فيليب ملك فرنسا

وفي العام نفسه، في حوالي أيام عيد القديس بطرس في الأغلال، مات

فيليب ملك فرنسا، وقد كان أشار إلى موته مـذنب له ذيل ناري، ظهر قبل أيام قليلة، ومـا أن بات خبر موته معلومـاً، حتى بعث هنري ملك انكلترا، رئيس أساقفـة كانتربري مع ثلاثة أساقفـة إلى ابنه لويس، وكان ذلك إثر تتويجه، وقد طلب منه إعادة نـورماندي، ومناطق ماوراء البحر الأخرى، إليـه، وهو ماكان قـد أقسم على فعله مع موافقة جميع نبـلائه، لدى مغـادرته لانكلترا، عنـدمـا أقيـم السـلام بينه وبين ملك انكلترا المذكور، وعلى هذا الطلب رد لويس بأنـه متملك لنورماندي وللأراضي الأخـرى كحق له، وهو على استعـداد للبرهنة على ذلـك في بلاطه إذا مارغب ملك انكلترا بالظهور به لتأييد دعواه هناك، وأضاف بأن اليمين الذي عمل من جانب ملك انكلترا قد خرق، وكـان ذلك بارغام أتباعه الذين أخذوا أسرى في لنكـولن، على دفع غرامة فـدية ثقيلة، كما أنه فيما يتعلق بامتيازات مملكة انكلترا، التي من أجل الحصـول عليها قد وقعت الحرب، وهي التي جـرى منحهـا أثناء مغـادرته، وجـرى الاقسـام على مراعـاتها من قبل الجميع، قد تصرف ملك انكلترا بالنسبـة لها بشكل أنه لم يكتف بوضع القـوانين السيئة مجدداً مـوضع التنفيـذ، وأعـادهم إلى أحوالهم، بل إنه عمل قوانين أخرى أسوأ مما كان موجوداً في جميع أنحاء انكلترا، ولما لم يكن بإمكان رئيس الأسـاقفـة والأسـاقفـة الحصـول على جواب آخر، عادوا إلى الوطن، وأخبروا الملك.

الألبينيون ينتخبون بابا مضاد

وفي هذه الآونة قام الألبينيون الهراطقة، في مناطق: بلغاريا، وكرواتيا، ودالماشيا، فاختاروا لأنفسهم بابا مضاد، وهو شخص اسمه بارثولوميو، كانت عقيدته الفاسـدة قد نالت تأييداً كبيراً في هذه المناطق، إلى حد أنها أثارت أسـاقفـة وآخـرين كثـر في هذه البـلاد وأغـرتهم للالتحـاق بهذا الانشقاق، وقـد وقف ضده وعـارضه أسقف بورتوس Portus الذي كان النائب البابوي في تلك المناطق، وقـد كتب كمايلي إلى رئيس أساقفة

روان: «إلى أخينا المبجل، الذي هو بنعمة الرب رئيس أساقفة روان، وإلى أساقفته المساعدين، التحيات في مولانا يسوع المسيح، عندما أرغمنا على طلب المساعدة منك في سبيل قرين المصلوب الحقيقي، فنحن نعاني من التنهدات والدموع، وكل مارأيناه سوف نخبرك به، ومثل ذلك سوف نفعل بالنسبة لكل ماسنكون شهوداً له، فذلك الرجل المفقود، الذي ارتفع إلى مافوق كل شيء، وهو الذي عبد أو الذي دعي باسم رب، له الآن ممثل في كفره ممثل بشخص رئيس الهراطقة، الذين يدعوه الألبينيون باسم باباهم، وهو الذي يسكن الآن ضمن حدود بلغاريا، وكرواتيا، ودلماشيا، على مقربة من سكان هنغاريا، وقد تدفق عليه الهراطقة الألبينيون، ليحصلوا منه على أجوبة لأسئلتهم، والنائب لهذا البابا المضاد، الذي اسمه بارثولوميو، هو أسقف للهراطقة، وكان قد ولد في كاركاسون Carcasson ، وهو يقدم أعظم اجلال غير تقوي إلى ذلك الرجل، وقد تخلى عن سكنه واقامته في البلدة التي اسمها بورلوس Porlos ، وحمل نفسه إلى منطقة قرب طولوز، وكتب بارثولوميو هذا في مطلع رسائله التي أرسلها إلى مختلف الجهات ألقابه كمايلي: «من بارثولوميو عبد عبيد الايمان المقدس، إلى فلان، تحيات»، وكان من بين آثامه أنه أوجد أساقفة، وأقدم بشكل شرير على تكريس كنائس، وبناء عليه، إننا بوساطة سلطات الكرسي الرسولي، الذي أنا نائبه في هذه المنطقة، نرجوك بالحاح، ونلتمس منك بحق دم يسوع المسيح أن تقدم في ثمانية الرسولين بطرس وبولص إلى السين Sens، وهو المكان الذي سوف يجتمع فيه بقية أساقفة فرنسا، في ظل فضل الرب، وذلك حتى تقدم نصيحتك حول القضية المذكورة أعلاه، ولتقوم مع الآخرين الذين سوف يكونون هناك، في اتخاذ الاجراءات المضادة والقمعية ضد هرطقة الألبينيين هذه، وإلاّ فإننا سوف نخبر البابا بعدم طاعتك، صدر في بلانيوم في الثاني من تموز»، ومالبث موت البابا المضاد المذكور أعلاه، أن وضع على الفور حداً لهذا العصيان والاضطراب.

كيف سعى بعض البارونات لاحداث خصام

وانتشرت في العام نفسه اشاعات كبيرة بين نبلاء انكلترا، الذين رغبوا في افساد السلام في المملكة، وكانت حول هيوبرت دي بورغ المسؤول عن العدالة، حيث قالوا بأنه أثار سخط الملك ضدهم، وعمل بشكل منحاز في إدارته للمملكة، وبالاضافة إلى هذا ازدادت سوء نواياهم لدى وصول رسل الملك، الذين أرسلهم إلى روما، حيث أنهم جلبوا معهم مرسوماً من مولانا البابا إلى رؤساء أساقفة انكلترا وأساقفتهم المساعدين، قضى فيه قداسته بأن ملك انكلترا قد بلغ السن القانونية تماما، ليباشر شؤون المملكة وادارتها بشكل رئيسي مع مساعدة مستشاريه، وأمر البابا أيضاً في هذه الرسائل، الوكلاء المتقدم ذكرهم، بموجب السلطات الرسولية، أن يقوموا بأمر الايرلات، والبارونات، والفرسان، وجميع الآخرين، المتولين مسؤولية القلاع، والمناصب العالية، والبلدات، التي هي تحت سلطان الملك، بالقيام فور رؤيتهم لهذه الرسائل، بتسليمهم إلى الملك دونماً تأخير، ولإرغام جميع المغامرين على تقديم ترضيات تحت طائلة العقوبات الكنسية، وبناء عليه كانت هناك فئة كبيرة من البارونات، الذين كانت قلوبهم مليئة بالجشع، قد شعرت بالغضب بسبب هذه الأوامر، وقد اجتمعوا مع بعضهم لإشعال حرب، وبما أن أخبار مؤامرتهم قد انتشرت بالخارج ولم تعد بالخفاء، لقد تمسكوا بالقضايا المذكورة كمسوغ لإفساد سلام المملكة، فرفضوا أوامر رؤساء الأساقفة والأساقفة، وقدموا اتهامات كما ورد أعلاه، مفضلين اللجوء إلى السلاح، على تقديم ترضية للملك حول القضايا المتقدم ذكرها، ولسوف نتحدث عن ذلك فيما سيأتي.

جلب صليب مولانا إلى برومهولم

وتكرر في هذا العام وقوع معجزات لاهوتية في برومهولم -Brom holm، وذلك من أجل تمجيد وتشريف الصليب المانح للحياة، الذي

عليه تألم المخلص من أجل انقاذ الجنس البشري، وبما أن بريطانيا هي مكان واقع في وسط المحيط، لقد ارتؤي أنها جديرة بالكرم اللاهوتي حتى تتبارك بمثل هذا الكنز، وإنه لمن الضروري والموائم، لابل من الموائم جداً، أن نغرس في أذهان أبنائنا معلومات توضح سلسلة الأحداث التي جلبت ذلك الصليب من مناطق بعيدة إلى بريطانيا: كان بلدوين كونت فلاندرز قد تحول من كونت ليكون امبراطورا للقسطنطينية، وقد حكم في ذلك المكان بنشاط وفعالية لكثير من السنوات، ولذلك جرت مضايقته والاعتداء عليه في وقت واحد بشكل مرعب من قبل الملوك الكفار، وقد زحف ضدهم دونما استعداد محكم، وأهمل في هذه المرة أن يحمل معه صليب الرب، والآثار المقدسة الأخرى التي جرت العادة بحملها أمامه من قبل البطريرك والأساقفة، كل مرة كان فيها على وشك الانخراط في القتال ضد أعداء الصليب، وواجه بسبب إهماله في ذلك اليوم محنة مرعبة، لأنه عندما انقض على الأعداء من دون تدبر مع جيشه الصغير، دون أن يقيم تقديراً إلى حشد أعدائه الذي تفوق على جيشه بعشر مرات، في وقت قصير جرى تطويقه مع رجاله من قبل أعداء المسيح، وقتلوا جميعا أو أخذوا أسرى، والعدد الضيئل الذي نجا من العدد العام لم يعرف شيئاً عما حدث للامبراطور أو إلى أين ذهب، وكان في تلك الآونة شماس من أصل انكليزي، تولى القيام بقداس لاهوتي مع كهنته في بيعة الامبراطور، وكان هو واحداً من الذين تولوا المسؤولية عن الآثار المقدسة للامبراطور وخواتمه والأشياء والمنافع الأخرى، وبناء عليه عندما سمع بوفاة مولاه الامبراطور (لأن الجميع أخبروه بأنه قتل) غادر مدينة القسطنطينية بشكل سري مع الآثار المقدسة المتقدم ذكرها، ومع أشياء أخرى كثيرة، ووصل إلى انكلترا، وبعد وصوله إلى هناك ذهب إلى سانت ألبان، وباع إلى أحد الرهبان هناك صليباً مكفتاً بالذهب والفضة، وذلك بالاضافة إلى اصبعين من أصابع القديسة مرغريت، وبعض

الخواتم الذهبية والمجوهرات، وهذه الأشياء كلها محفوظة بتبجيل عظيم في دير القديس ألبان، ثم أخرج الشماس المذكور من عباءته صليباً خشبياً وأراه إلى بعض الرهبان، وأعلن مقسماً، بأنه كان بلاشك قطعة من الصليب الذي عليه تمدد مخلص العالم وتعلق، من أجل انقاذ الجنس البشري، ولكن بما أن تأكيداته لم يتم تصديقها في ذلك المكان، غادر آخذاً معه الكنز الذي لايقدر بثمن، مع أنه لم يكن معروفاً، وكان لذلك الشماس ولدين صغيرين عن الانفاق عليهما وحفظهما كان مشغولا وقلقاً كثيراً، ولهذا السبب كان مقصده من عرض الصليب المذكور على عدد من الديرة، قد جاء مشروطاً، بأن يجري استقباله مع ولديه ليعيشوا مع رهبان الدير، وبعدما تحمل الرفض من الاغنياء في أماكن كثيرة، وصل أخيراً إلى بيعة في كونتية نورفولك، اسمها بروموولم -Brom holm وكانت بيعة فقيرة جداً، وكلها مجرد أبنية معدمة، وهناك بعث وراء رئيس الرهبان مع بعض الرهبان، وأراهم الصليب المتقدم الذكر، الذي كان معمولاً من قطعتين من الخشب وضعتا بشكل متعاكس احداهما عبر الأخرى، وكان عرضهما تقريباً بقدر يد الانسان، ثم إنه توسل إليهم بتواضع أن يستقبلوه في طائفتهم مع هذا الصليب والآثار المقدسة الأخرى التي كانت معه، وكذلك ولديه، وشعر رئيس الرهبان مع رهبانه بسرور عارم تجاه امتلاك مثل ذلك الكنز، وبوساطة من الرب، الذي يتولى دوماً حماية الفقراء المتواضعين، أودع الثقة في كلمات الراهب، ثم إنهم استقبلوا الصليب باحترام لائق، وهو صليب الرب، وحملوه إلى داخل قلايتهم، وحافظوا عليه هناك بكل تقوى وتشريف عظيم، وبدأت المعجزات اللاهوتية تحدث في هذا العام -حسبما تحدثنا من قبل -في ذلك الدير في سبيل مجد وحمد الصليب المانح للحياة، فهنا جرت إعادة الموتى إلى الحياة، واسترد الأعمى نظره، وامتلك العرجان القدرة على المشي، وشفيت جلود المصابين بالجذام وغدت نقية، وتحرر الذين تلبسهم الشياطين منهم، وكل شخص مريض اقترب من الصليب

المذكـور مع اليقين، غـادر المكان وهو سليم معـافى، ولقـد قيل بأن هذا الصليب قد جـرى تعبده مـراراً، ليس فقط من قبل الانكليز، بـل أيضاً من قبـل الناس الذيـن هم من منـاطق نائيـــة، ومن الذيـن سمعـــوا بالمعجـزات اللاهوتيـة التـي اقترنت به [وفي حـوالي ثمانيـة الرسـولين: بطرس وبولص، وصل جـون دي بريين ملك القـدس، والمقـدم الأعلى للاسبتاريـة في ذلك المكان، إلى انكلترا، لطلب المساعدة مـن أجل قضية الأرض المقدسة].

كيف وضع ملك انكلترا بين يديه قلاع التاج على الرغم من رغبات البارونات

عـام ١٢٢٤م، فيـه عقـد الملك هنري بلاطـه أيام عيـد الميـلاد في نورثأمبتون، وكـان معه رئيس أساقفة كانتربري، وكـذلك عدد كبير من الفرسان، وأمـا إيرل شيستر فقد أقام احتفال العيد مع المتـآمرين معه في ليستر، حيث تبجح وتلفظ بتهـديدات ضـد الملك وضـد المسـؤول عن العـدالة، وجــاء ذلك بسبب طلب الملك منه التخلي عن الـوصـاية على قلاعـه وأراضيه، وفي اليوم نفسـه، بعد الفراغ من القـداس المهيب، قام رئيس أسـاقفة كـانتربري وأسـاقفته المسـاعـدون، وهـم يرتدون الأردية البيضاء، ومعهم شمـــوع مضاءة، فأعلنوا عن الحرمـان الكنسي لكل من يخرق سلام المملكة، وكذلك للذين يغـزون الكنيسة المقدسة، وممتلكات الكنيسة، ثم أرسل رئيس الأسـاقفة المذكور رسالة خـاصة إلى ليستر إلى ايرل شيستر والمتعـاونين معه،مخبراً إياهم جميعـاً، وفـرداً فرداً، أنهم مـالم يقوموا في اليوم التالي، بوضع جميع القلاع والمراتب العالية العائدة للتاج بين يدي الملك، ســوف يقـوم هو مع جميع الأســاقفـة بشكل مـؤكـد بحـرمـانهم كنسياً بالاسم، وذلك حسبما تلقـوا الأوامـر من البـابا بفعل ذلك، وبناء على ذلك بات ايرل شيستر مع جميع المتعاونين معه في مأزق كبير، ولاسيما بعدما جرى اخبارهم من قبل جواسيسهم بأن الملك لديه

فرق عسكرية قوية أكبر من التي لديهم، لأنه لو توفرت لديهم الوسائل الكافيـة لعملوا حـرباً ضـد الملك بسبب المسـؤول عن العـدالة،لكن لإدراكهم لعجـزهم كانوا خـائفين من الدخول في صراع مشكوك فيـه، علاوة على ذلك كـانوا خائفين من أن يقـوم رئيس الأساقفة والأسـاقفة بحرمـانهم كنسيا، مـالم يقلعوا عن قصدهم، ولذلـك اتبعوا أحكم خطة وأعقلها، فـذهبوا جميعاً إلى الملك في نورثأمبتون، وقـام كل واحد منهم، شروعـاً بايرل شيستر فتخلوا إلى الملك عن القـلاع، والبلدات والمراتب العليـا وعن مسؤوليتهـا وعن كل مـا هو عـائد للتـاج، وبقيت على كل حـال، نواياهـم السيئة تجاه الملك وضده لأنه رفض صرف المسـؤول عن العـدالـة، وكـان الذين أثـاروا هذه الاضطرابات ضـد الملك هم: ايرل شيستر، وايرل ألبيمارل، وجـون قسطلان سيشتر، وفـالكاسيـوس مع رجـال قـلاعـه، وروبرت دي فيبـونت، وبرين دي لآيل، وبطرس دي مـوليون، وفيليب مـارك، وانغلارد دي آثي، ووليم دي كـانتيلو، ووليم ابنه، وآخـرون كثر، كانوا يستخـدمـون غـاية جهودهـم لافساد سـلام المملكة واثارة الاضطراب فيها.

كيف أخضع لويس ملك فرنسا روشيل وبقية بواتو

قـاد في العام نفسـه لويس ملك فـرنسا جيشـاً كبيراً إلى روشيل Ro- chelle للاستيـلاء عليها بالقـوة أو بالرشوة، ولدى وصـوله إلى هناك، عرض على السكان مبلغاً كبيراً من المال، مقـابل تسليمه المدينة، وتقديم الولاء له، ولإطـاعتـه في المستقبل، وفكـر هؤلاء، فـرأوا أنهم كـانوا مهجـوريـن من قبل ملك انكلترا، وأنهم مغلـوبين باغـراءات لـويس ورشـاويه، فتخلوا عنها لصـالحه، وعند ذلك وضع فرسـانه وجنوده في المدينة والقلعة، وبعـدما ضمن جميع منطقة بواتو عـاد إلى الوطن بسلام، من دون سفك للدمـاء، وروشيل هي ميـنـاء بواتو، حيث اعتـاد ملوك انكلترا وفـرسـانهم على الرسـو من أجل الدفـاع عن تلك المناطق، لكن

الطريق أغلق الآن ضـد الملك، بسبب المؤامـرات التي أعدت ضـده من قبل البارونات في انكلترا.

حصار بدفورد ومؤتمر نورثأمبتون

وفي العـام نفسه، في ثمانيـة الثـالوث المقدس، اجتمع الملك، ورؤسـاء الأساقفة، والأساقفة، والايرلات والبارونات وعدد كبير آخر، في مؤتمر في نورثأمبتـون للبحث في شـؤون المملكـة، لأن الملك رغب بالحصـول على نصيحة نبـلائه وآرائهم حـول ممتلكات ماوراء البحـر، التي استولى عليهـا لويس بدرجات، وكـذلك المسائل الأخـرى التي وقعت ولم تكن متـوقعة، وكـان مـوجوداً في ذلك الوقـت في دنستيبل بعضاً من رجـال العدالة لدى الملك الذين نسميهم «الجوالين»، وهـم: مـارتن دي بيتشول Pateshulle، وتوماس دي ميـولتون Muleton، وهنري دي بريبروك Braibroc مع آخـرين كـانوا متسلمين هناك مـرافعـات الملك من أجل قضيـة العصيان الأخيرة، وهناك ارتمى فـالكاسيـوس مع آخـرين، تولوا نهب كثير من الناس، على رحمة الملك، من أجل أكثـر من ثلاثين زوجـاً من الرسائل، في كل منهـا كان هو عليه أن يدفع غرامـة إلى الملك مبلغاً قدره مائـة باوند، وعندما جرى اخبار فـالكاسيوس بهذا، غضب غضباً عظيماً، وقـام بطريقـة حمقاء، فأمـر فـرسـانه الذين شكلوا حـامية قلعـة بدفــورد بالزحف نحـو دنستيبـل مع كتلة من الجنود لاعتقــال رجـال العدالة المذكـورين، وبعد ضمان اعتقـالهم، احضارهم إلى قلعـة بدفورد، ووضعهم في سجن محكم، وعرف رجال العدالة بهذا، فغادروا مسرعين إلى حيث قادهم الحظ،وكان من بين هؤلاء قد هرب هنري دي بريبروك من دون مـايكفي من الاحتراز، لذلك جرى اعتقـاله من قبل الفرسـان المذكورين أعلاه، وبعدما عـومل بوحشية كبيرة، سجن في قلعة بدفورد، وانتشر خبر مـاحـدث، فــذهبت زوجــة هنري المذكــور إلى الملك في نورثأمبتـون، وقدمت وهي تبكي شكوى حـول اعتقال زوجهـا، وجاء

ذلك على مسمع من المجلس الملكي كله، وانفعل الملك وغضب كثيراً تجاه هذه الفعلة، وطلب نصحية الكهنة والناس الذين اجتمعوا هناك، حول ماالذي ينبغي القيام به لمعاقبة هذه الجريمة، وكان رأيهم كلهم بالاجماع هو تأجيل جميع الأعمال الأخرى، ووجوب الزحف من دون تأخير مع قوة مسلحة نحو القلعة المذكورة، لمعاقبة مثل هذه الجريمة، ولاقى هذا الرأي قبول الملك، واتفق مع آرائه، فأصدر أوامره، فطار الجميع إلى السلاح، وزحف رجال الدين والناس كذلك إلى قلعة بدفورد، ولدى وصول الملك إلى هناك أرسل رسلاً إلى شحن القلعة الرئيسيين، وطلب منهم الخضوع، وأمرهم بإعادة هنري دي بريبروك، رجل عدالته، وقام على كل حال وليم دي بروت Breaute وهو أخو فالكاسيوس مع آخرين من الحامية، باخبار الرسل جواباً على ماطلبه بأنهم سوف لن يسلموا القلعة، مالم يتلقوا أمراً بفعل ذلك من مولاهم فالكاسيوس، لاسيما وأنهم غير مرتبطين بيمين ولاء أو تابعية إلى الملك، الذي إليه حملوا هذا الجواب عند عودتهم، وبذلك كان الملك غاضباً جداً، وأمر وهو غاضب جنوده بتطويق القلعة، وأعد المحاصرون أنفسهم أيضاً لمقاومة جنود الملك، وللدفاع عن الأسوار وعن الشرافات في كل مكان، وعندها قام رئيس الأساقفة ومعه جميع الأساقفة بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بفالكاسيوس وبجميع حامية القلعة، وفعلوا ذلك والشموع مشتعلة، ووضعت القلعة تحت الحصار في السادس عشر من حزيران، الذي وافق يوم الثلاثاء التالي بعد ثمانية الثالوث، وجرى بأمر من الملك، احضار آلات الحرب من أمثال المجانيق والعرادات، وجرى توزيعها من حول المدينة، وشرع الجيش المحاصر يقوم بحملات شديدة ومتوالية على القلعة، ودافع المحاصرون -على كل حال -عن الأسوار بشجاعة، وأرسلوا بمقذوفات مميتة على المحاصرين، ولكي أتحدث باختصار، لقد جرت اصابة الكثيرين بالجراحة وقتلوا من على الجانبين، وفي أثناء حصار القلعة، أرسل الملك مجموعة من الجنود

للبحث عن فالكاسيوس، ولدى العثور عليه، جلبه إلى حضرته، وجرى على كل حال انذار المذكور وتحذيره من قبل جواسيسه، فهرب إلى ويلز، وعاد رسل الملك إليه وأخبروه بأن جهودهم كانت بلاثمار، وغضب الملك كثيراً، فأقسم بروح والده أنه إذا جرى اعتقال رجال الحامية بالقوة، فلسوف يشنقهم جميعاً، وقد استثير هؤلاء أكثر لاقتراف المزيد من الخطأ،بموجب تهديد الملك، فمنعوا رسل الملك من الحديث معهم ثانية حول موضوع تسليم القلعة، وهكذا تضاعفت الكراهية والضغينة بسبب أعداد الذين قتلوا، وبذلك لم يوفر الإخوة اخوانهم ولا الآباء أولادهم، وأخيراً تمكن رجال الملك، بعد مذبحة كبيرة من على الجانبين، من بناء برج خشبي مرتفع، وفق مبادىء الهندسة، وقد وضعوا في البرج رماة قسي زيارة، يمكنهم منها مراقبة كل حركة في القلعة، ومنذ ذلك الحين لم يعد بإمكان أحد في القلعة خلع دروعه، مالم يكن قد تعرض لجراحة مميته، ولم يتوقف المحاصرون لهذا السبب عن قتل أعدائهم، ففي أثناء وجود بعض الفوضى داخل جيش الملك قتلوا فارسين من رجاله، كانا قد عرّضا بطيش كبير نفسيهما للموت، وبذلك أثاروا غضب أعدائهم ضدهم بكل الوسائل الممكنة.

الاستيلاء على القلعة وشنق الفرسان

وأمر الملك في تلك الأثناء بالاستيلاء على قمح فالكاسيوس ومواشيه في قراه وأراضيه في جميع أرجاء المملكة، ومصادرة ذلك كله، حتى يتمكن بهذه الوسائل لدى امتداد أعمال الحصار من الحصول على المؤن على حساب عدوه، وأخيراً أحضر جنود الملك، لكن ليس من دون خسائر كبيرة منجنيقين أطلق على أحدهما الفرنسيون اسم Bru-tesches، وهاجم القلعة من جميع الاتجاهات، وأرغم المحاصرين على التراجع، ودخل وقتها جنود الملك القلعة، فاستولوا على الخيول والدروع والمؤن، ثم هاجم المنتصرون البرج، ودمروا شطراً كبيراً من

الأسوار، ورأى المحاصرون وقتها أنفسهم أنه لم يعد بامكانهم الصمود أي وقت أطول، فقاموا في أمسية صعود القديسة مريم بإرسال بعض رجال الحامية من القلعة، يلتمسون رحمة الملك، لكن الملك أمر باعتقالهم والاحتفاظ بهم في مكان مضمون، وذلك حتى يتمكن من اخضاع البقية، وفي اليوم التالي خرج البقية، وهم مصابون بشكل مرعب ومجروحون، وقد أخذوا إلى أمام الملك، الذي أمر بشنقهم جميعاً، وجرى شنق أربعة وعشرين من فرسان وجنود الحامية، وهؤلاء لم ينالوا الرحمة من الملك بسبب العدوانية التي أظهروها نحوه في الحصار الأخير، وعاد هنري دي بريبروك سالما وصحيحاً إلى الملك،وقدم له شكره، وكان قد خيل لفالكاسيوس بسوء تقديره أن أتباعه يمكنهم الدفاع عن القلعة والحيلولة دون سقوطها لمدة سنة كاملة، وعندما سمع بشكل مؤكد بأن أخاه والبقية من رفاقه قد شنقوا، قدم تحت كفالة الاسكندر أسقف أوف كوفنتري، ووصل إلى الملك في بدفورد، وترامى على قدمي الملك ورجاه اظهار الرحمة نحوه، تقديراً منه لخدماته الكبيرة والنفقات العظيمة الذي بذلها لصالحه ولصالح والده في أيام الحرب، وحصل الملك وقتها على المشورة حول هذا الموضوع، فجرده من قلاعه وأراضيه وأملاكه، وأودعه في السجن لدى يوستاس أسقف لندن، إلى أن يقرر الذي ينبغي عمله معه، وهكذا حدث في لحظة واحدة أن تحول فالكاسيوس من الرجل الأغنى، إلى الرجل الأفقر بين الناس، وهو بذلك قدم مثلاً جيداً لكثير من الناس، وخاصة إلى المجرمين، وفيما يتعلق بهذا التغيير بالحظ، كتب أحدهم هكذا:

«وهكذا في شهر شديد فقد فالكو

الذي كسبه خلال سنين من الصراع؛

جرده القدر الآن مما قد كلفه

إيّاه خلال جميع حياته الماضية».

ومثلت زوجه فالكاسيوس هذا أمام الملك وأمام رئيس الأساقفة، وقالت بأنها لم تتزوجه بموافقتها، ولهذا فانها لما كانت قد اعتقلت بالقوة في أيام الحرب، وتزوجت منه من دون موافقتها، طالبت بالطلاق منه،ولذلك عين رئيس الأساقفة يوماً لتأتي به إليه، حتى يقرر في الوقت نفسه الذي يتوجب عليه عمله، وعلى كل حال، منحها الملك جميع أراضيها وممتلكاتها في جميع أنحاء انكلترا، ووضعها تحت رعاية وليم ايرل وارني Warrenne وبسبب الجهد الكبير الذي بذله الملك والنفقات العالية التي دفعها، فرض ضريبة على الأراضي المفلوحة في جميع أرجاء انكلترا،وقدرها ماركين من الفضة على كل محراث، وفرض ضريبة بدل على النبلاء، وقدرها ماركين من النقود الاستيرلينية على كل محلجة، ثم إنهم عادوا جميعا إلى مواطنهم، وأمر الملك بتهديم القلعة،فتحولت إلى كومة من الحجارة، وأعطى البيوت والأبنية الأخرى إلى وليم بوشامب. Beauchamp

منح جزء من خمسة عشر جزءاً من جميع الأشياء المتحركة إلى الملك

عام ١٢٢٥م، فيه عقد الملك هنري بلاطه في عيد الميلاد في ويستمنستر، وفيه كان رجال الدين والناس بين الحضور، وكذلك نبلاء المنطقة، وبعد الاحتفال بالعيد بشكل مهيب، طرح هيوبرت دي بورغ، المسؤول عن العدالة الملكية، باسم الملك المذكور، وبّين بحضور رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والايرلات، والبارونات وجميع البقية، الخسائر والأضرار التي عانى منها الملك في مقاطعات ماوراء البحر، وبذلك ليس فقط الملك، بل أيضاً كثيراً من الايرلات والبارونات، بالاضافة له، قد حرموا من مواريثهم، وبما أن كثيرين كانوا مهتمين بهذه الأمور ولهم

علاقة بها، فإن مساعدة الكثيرين سوف تكون ضرورية، ولذلك سأل نصحية ومساعدة الجميع، لتبيان الوسائل التي يمكن بها للتاج الانكليزي أن يسترد المراتب التي فقدها والامتيازات القديمة، ولكي يمكن تفعيل هذا كما ينبغي، اعتقد أنه سيكون كافياً لو أنه جرى منح جزء من خمسة عشر جزئا من الممتلكات المتحركة إلى الملك في جميع أنحاء انكلترا وأن يفعل ذلك رجال الدين والعلمانيين، وبعد طرح الاقتراح، قام رئيس الأساقفة مع جميع المحتشدين من الأساقفة والايرلات، والبارونات، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، بالتباحث حول الموضوع، وبعد شيء من النقاش قدموا جوابهم، بأنهم سوف يقبلون عن طواعية بمطالب الملك، إذا ما منحهم امتيازاتهم التي يطالبون بها منذ زمن طويل، وبناء عليه اقتنع الملك بسبب نهمه بالموافقة على طلبهم، وجرت كتابة صكوك ختمت بخاتم الملك، وجرى ارسال نسخة منها إلى كل كونتية في انكلترا، وأما الكونتيات التي كانت موجودة في داخل غابة، فقد أرسل إليها نسختين، نسخة حول الامتيازات العامة، والأخرى حول امتيازات الغابة، وقد جرت كتابة محتويات هذين الصكين من قبل في تاريخ حكم الملك جون، ولم تختلف صكوك الملكين عن بعضهما في أية نقطة، ثم تقرر تحديد يوم في شهر الفصح ليجري اختيار اثني عشر فارسا واقطاعيا، لكل كونتية في المملكة، الذي يتوجب عليهم بعد أداء اليمين تمييز الغابات الجديدة عن الغابات القديمة، من أجل اكتشاف الذي عمل غاباتاً منذ أيام تتويج الملك هنري جد الملك الحالي، حتى تتم على الفور نزع الصفة الغابية عنهم، وهكذا ارفض المؤتمر وأرسلت الصكوك كل واحد منها إلى كونتيته الخاصة، حيث جرى بناء على أمر الملك، ومن خلال قسم مكتوب، وجوب مراعاتها من قبل الجميع.

كيف أرسل الملك الانكليزي أخاه رتشارد إلى غاسكوني

وفي العام نفسه، وفي يوم عيد طهارة القديسة مريم، عمل من رتشارد أخي ملك انكلترا فارساً بنطاق، ومعه عشرة آخرين، جرى تعيينهم لخدمته ورعايته، وفي الربيع التالي، في يوم أحد السعف جرى ارسال رتشارد المذكور من قبل الملك إلى غاسكوني، يرافقه وليم ايرل أوف سالسبري، وفيليب دي ألبيني وأربعين فارساً، وبعد رحلة موفقة، وصلوا جميعاً سالمين إلى مدينة بوردوكس Bourdeaux، ولدى وصولهم أعلموا بذلك رئيس الأساقفة والسكان، فاستقبلوا بالتشريف من قبل الجميع، ثم قام رتشارد باستدعاء السكان للاجتماع مع رئيس الأساقفة وبحضوره، وبحضور رسل الملك، فأراهم رسائل أخيه، التي فيها رجا بتواضع جميع رعاياه المخلصين في تلك المناطق استقبال أخيه بشكل سلمي وودي، وتقديم النصحية له والمساعدة حتى يكون قادراً على استرداد أراضيه الضائعة، واستقبلته جميع الفئات بطرائق صديقة، وقدموا خضوعهم إلى ملك انكلترا من خلاله ، ثم وصل اليه عدد من الفرسان والجنود من تلك المناطق، وبقيوا في خدمته مقابل استلام عطاء كاف منه،لأن الملك كان قد أعطاه قبل ارساله الى مقاطعات ما وراء البحر كونتية كورنوول Cornwall مع جميع بواتو، ولهذا السبب عرف باسم كونت بواتو ،ووقتها زحف الكونت رتشارد مع عمه وليم ايرل— سالسبري وفيليب دي البيني ، يحيط بهم مجموعة كبيرة من الفرسان ، وساروا خلال البلدات وبين القلاع والمناطق ، وكانوا حيثما واجهوا مقاومة ممن لم يقدم الولاء ، ولم يعط الطاعة الى الملك، يتولون محاصرة قلاعهم وبلداتهم ، ويرغموهم على تقديم الطاعة بالقوة والسلاح، واستولى بعد حصار طويل على قلعة ريوكسRieuxمع البلدة، وتملك مدينة القديس ماكير Ma-caire وحاصر قلعة بريغيراك Bregerac وأعاد صاحبها إلى ولائه الى الملك ، لكن أثناء حصاره لقلعة ريوكس ، والهجوم عليها باستمرار ، أرسل لويس ملك فرنسا أوامر الى كونت أوف مارشي

والنبلاء الآخرين في بواتو، بالزحف الى تلك القلعة ، ورفع الحصار عنها ، واحضار الكونت رتشارد أسيراً ليمثل أمامه ، وبناء عليه قام كونت أوف مارشي بعدما التحق به بعض البارونات والفرسان المسلحين، بالزحف مع قوة كبيرة لرفع الحصار عن القلعة المذكورة أعلاه، وعلم بذلك الكونت رتشارد مع رفاقه ، وأخبره كشافته باقتراب وصول الأعداء ، فنصب كميناً لهم، وترك شطراً من قواته لمتابعة الحصار ، وسار هو ومعه كتلة من الجنود المجربين ، الى غابة كانت قريبة ، وانتظر هناك وصولهم ، وعندما كان هؤلاء يمرون عابرين للكمين ، قام الكونت وأتباعه بالانقضاض عليهم وسط زعقات الأبواق ، وهم مادين لرماحهم ومشرعين لها ، ونجم عن ذلك صراع عنيف بين الفئتين ، وأرغم العدو أخيراً على الفرار ، وقد طارد الكونت رتشارد بشدة فلول الأعداء ، وبعدما قتل عدداً من الفارين ، استولى على عرباتهم ، وعلى خيول تحميلهم ، وعلى أوانيهم الفضية وأسلاب أخرى ، وبذلك تمكن في وقت قصير من اخضاع غاسكوني كلها.

ومات في العام نفسه جون أسقف أوف إيلاي، وقد خلفه غيوفري دي بورغ ، رئيس شهامسة نورويك.

نفي فالكاسيوس الخائن

وفي هذه الآونة أي في شهر آذار ، اجتمع ملك انكلترا مع نبلائه في مؤتمر في ويستمنستر، فيه أمرهم الملك بالوصول الى قرار نهائي ، حول ما ينبغي فعله مع الخائن فالكاسيوس ،وقد اتفق النبلاء مع الملك ، أنه قد خدم الكثير من السنوات أباه بإخلاص ، وعلى هذا ينبغي عدم حرمانه من الحياة أو من واحد من الأطراف ، غير أنهم وافقوا بالاجماع على إدانته ، والحكم عليه بالنفي بشكل دائم من انكلترا ، وعندها أمر الملك وليم إيرل وارني warenne

بمصاحبته وهو سليم الى الساحل، وهناك وضعه على ظهر سفينة، لإرساله على الفور الى عرض البحر ، وعندما وصلا الى الساحل، وأثناء صعود فالكاسيوس على ظهر السفينة، قدم رجاء الى الايرل وهو يبكي بأن يحمل تحياته الى مولاه الملك، وأن يبين له، بناء على قسمه، بأن الاضطراب الذي تسببه في انكلترا، أثير على فعله بتحريض من نبلاء المملكة، ثم اطلق الأشرعة ومعه خمسة من المرافقين فقط نحو نورماندي، ولدى وصوله الى هناك اعتقل على الفورمن قبل وكلاء الملك الفرنسي وحمل الى أمام لويس، ولكن بما أنه كان يحمل شارة الصليب، فقد أطلق سراحه، فذهب الى روما، حيث ظهر أمام البابا مع روبرت باسلوpaslew الذي كان كاهنه، وسوف نتحدث عن مثوله أمام البابا في المكان المناسب.

معاينة الغابات لمعرفة أيها ينبغي إعفاءه من قوانين الغابات

في حوالي شهر الفصح من العام نفسه، انطلق هوغ دي نيفيل وبرين دي لآيل مع الأشخاص المعينين الآخرين، للتجول في جميع أرجاء انكلترا، بغرض اختيار في كل منطقة غابية اثني عشر فارساً ورجلاً حراً واقطاعيين للبحث عن حدود الغابات، وللتقرير — بناء على أداء اليمين — أي الغابات ينبغي أن تبقى في وضعها الحالي، وأيها ينبغي نزع الصفة الغابية عنها، وجرى تنفيذ أوامر الملك على الفور لكن ليس من دون معارضة كبيرة من كثيرين، وقام بعضهم أفراداً وجماعات بوضع هذه الامتيازات موضع التنفيذ، فباعوا منتوجات أحراشهم، وعملوا حظائر، ومناطق صيد، وفلحوا الأرض التي كانت من قبل غير مزروعة، وهكذا فعل الجميع ما اختاروه في الأحراش التي رفعت عنها الصفة الغابية، ولم يتمتع البشر فقط بهذه الامتيازات، بل تمتع بذلك الكلاب، الذين اعتادوا من قبل على لبس النعال، وباختصار استفاد من هذه الامتيازات، النبلاء،

والفــرسان والاقطاعيــون الأحــــرار، وهكـذا لم يجر حـــذف صك الملك.

جمع الجزء من خمسة عشر جزئاً من الممتلكات من أجل استخدامات الملك

وجرى في هذه الآونة جمع نصف جزء من خمسة عشر جزئاً من جميع الممتلكات المتحركة من أجل استخدامات الملك ، وجرى منح ايصال من أجل دفع الجزء المتبقي حتى عيد القديس ميكائيل، ودفع في هذا العام أيضاً هوغ بيغود ايرل انغليان الشرقية - East Anglians دين الطبيعة ، ووضع الملك جميع ممتلكاته ومراتبه العليا تحت عهدة المسؤول عن العدالة

حول خليلات الكهنة

صدرت في العام نفسه مذكرة عن رئيس أساقفة كانتربري وأساقفته المساعدين من أجل الغاية التالية :سوف لن تنال خليلات الكهنة ورجال الدين الذين هم في الطوائف الدينية ويتمتعون بالمنافع، دفناً كنسياً، ما لم يقمن بإصلاح حياتهن بشكل صحيح ، أو أن يبدين توبة كبيرة في أواخر أيام حياتهن تمكنهن من نيل التحليل ، علاوة على ذلك لن يسمح لهن بنيل قبلة السلام،أو المشاركة في نيل الخبز المكرس في الكنيسة ، طالما عشاقهن يحتفظون بهن في بيوتهم، أو بشكل مكشوف في مكان آخر،وكذلك إنهن إذا ما أنجبن أطفالاً، لن يتطهرن، ما لم يقدمن سلفاً ضمانة الى رئيس الشمامسة، أو لموظفه ، تكون كافية بأنهن سوف يصنعن توبة موائمة أثناء الاجتماع الكهنوتي بعد طهارتهن،علاوة على ذلك ، إن جميع الكهنة الذين يسكن في أبرشياتهم خليلات من هذا النوع،سوف يجري تعليقهم، مالم يقوموا بإخبار رئيس الشمامسة أو موظفة بذلك ، وقبل تحليلهم

سوف يخضعون الى عقوبة قاسية، وكذلك يتوجب على كل امرأة ضبطت بوجود صلات جنسية مع أي كاهن، أن تقوم بتوبة مهيبه ومعلنة وكأنها أدينت بالزنا ، ومع ذلك من الممكن تحليلها، ولكن إذا ما أدينت إمرأة متزوجة بجريمة من هذا النوع سوف تعاقب وكأنها زنت بشكل مضاعف خشية أن الافلات من العقوبة على اقتراف مثل هذه العقوبة سوف يقود آخرين الى اقتراف تلك الجريمة.

كيف نجا ايرل أوف سالسبري من غرق السفينة

وفي هذه الآونة أقلع مبحراً وعائداً الى انكلترا ايرل أوف سالسبري ، الذي كان يقاتل مع الكونت رتشارد في مناطق ما وراء البحر،وقد تعرض الى خطر عظيم ، واقتيد في مختلف الاتجاهات بفعل عنف الرياح،واستمر ذلك لعدة أيام وليال بشكل عام مع بحارته وجميع الذين كانوا على ظهر السفينة، ولدى فقدانه كل أمل بالنجاة، عهد الى الأمواج بخواتمه الثمينة وبجميع ممتلكاته من الفضة والذهب، والملابس الغالية، التي كانت معه على ظهر السفينة، من أجل أنه كما دخل عارياً الى الحياة الفانية،بذلك يمكنه العبور الى مناطق الخلود وهو مجرد من جميع الأمجاد الأرضية، وأخيراً عندما كانوا في حالة اليأس الأخيرة ، شوهد ضوء عظيم مشع من على رأس السارية ، من قبل جميع الذين كانوا على ظهر السفينة ، ورأوا أيضاً واقفاً الى جانب الضوء سيدة ذات جمال عظيم ، حافظت على ضوء الشمعدان، الذي أنار ظلام الليل، حافظت عليه حياً على الرغم من قوة الرياح والمطر الذي تساقط عليه، ومن هذه الرؤيا السماوية للنور، شعر الكونت نفسه وكذلك البحارة بالأمل بالنجاة، وتصور بإطمئنان بأن المساعدة الربانية باتت موجودة، ومع أن بقية الناس في المركب كانوا جاهلين بها بشرت به هذ الرؤيا، فإن الايرل وليم

المتقدم الذكر كان في اليوم الأول الذي عمل فيه فارساً بنطاق ، قد كرس شمعداناً ليبقى مشتعلاً بشكل دائم أمام مذبح أم الرب المباركة، أثناء القداس الذي جرت العادة بأن يغنى به كل يوم في ساعة الصلاة، تشريفاً للعذراء المذكورة، وذلك من أجل أن يتلقى تعويضاً دائماً من أجل الضوء الدنيوي.

كيف نجا الايرل المذكور من مصائد أعدائه

وعند حلول صباح اليوم التالي سيق الايرل مع أصحابه، بقوة العاصفة نحو جزيرة رهي Rhe وذلك على بعد ثلاثة أميال عن روشلي Rochelle،وبما أنهم صاروا في قواربهم الصغيرة، أخذوا طريقهم الى الجزيرة ، وكان في تلك الجزيرة، دير للرهبان السسترشيان ، واليهم أرسل الايرل رسلاً طالباً السماح له ليخفي نفسه عن أعدائه، حتى تهب رياح موائمة ، وعن طواعية منحه راعي الدير ذلك ، واستقبله مع أتباعه المسافرين بكل ترحاب، وكانت هذه الجزيرة آنذاك ، في عهدة سافاريك دي موليون، الذي كان آنذاك يقاتل تحت قيادة لويس، ملك فرنسا، وكان يتولى حراسة عدة جزر مع قوة كبيرة من الجند ، وكان اثنان من أتباعه يعرفان الايرل معرفة جيدة، وكان قد جرى تعيينهما مع آخرين لحراسة الجزيرة ، فذهبا بطريقة صديقة الى الايرل، وبعدما استراح هناك لمدة ثلاثة أيام ، أخبراه أنه ما لم يغادر الجزيرة قبل صباح اليوم التالي، سوف يجري اعتقاله من قبل أصحابهما الذين كانوا يتولون حراسة الجزيرة والبحر من حولها ، وعندها قدم الايرل الى الجنديين هدية قوامها عشرين باوند من النقود الاستيرلينية ثم أقلع على الفور، وصار في وسط البحر، حيث مكث ثلاثة أشهر قبل أن يتمكن من الرسو في انكلترا.

كيف وصل المعلم أوتو الى انكلترا لقضاء أشغال قداسة البابا

ووصل الى انكلترا في العام نفسه المعلم أوتو، بمثابة نائب للبابا، وقدم رسائل الى الملك حول مسائل ملحة تتعلق بالكنيسة الرومانية، لكن الملك عندما علم بمقاصد الرسائل، أجاب أنه لا يستطيع شخصياً— ولا يجوز له — إعطاء جواب محدد حول القضية، لأن ذلك هو مسؤولية جميع رجال الدين والعلمانيين في المملكة بشكل عام، ولذلك، قام بناء على نصيحة ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، بتحديد يوم، يكون في ثمانية عيد الغطاس، من أجل اجتماع رجال الدين والعلمانيين في ويستمنستر، حتى يتمكنوا وقتها من البحث في القضية المتقدم ذكرها، ولسوف يقررون الذي سيبدو لهم صحيحاً

كيف سعى أوتو المذكور الى إقامة سلام بين فالكاسيوس والملك

وبعد ذلك بوقت قصير، قام أوتو باسم البابا، بتواضع بتقديم رجاء الى ملك انكلترا حتى يتصالح مع فالكاسيوس،وأن يعيد إليه زوجته،وجميع ممتلكاته التي فقدها،وأن يستقبله ثانية على شروط الصداقة،كما كان قد خدم والده باخلاص وخدمه شخصيا في أيام الحرب،وعلى هذا أجاب الملك بأنه بسبب خيانته المكشوفة،قام بنفيه من انكلترا،وأن ذلك جاء بموجب قرار بلاطه مع موافقة جميع رجال الدين والناس في المملكة،وصحيح أن العناية بالمملكة معهود بها بشكل خاص اليه،هو عليه مراعاة القوانين والأعراف المقررة للمملكة،وعندما سمع اوتو هذا،توقف عن طلب أي شيء آخر من الملك لصالح فالكاسيوس،ثم قام أوتو بأخذ ماركين من الفضة من كل كنيسة ديرية

في انكلترا،تحت عنوان مال الوكالة،وينبغي أن نعرف أيضاً أنه عندما جاء المعلم أوتو الى انكلترا، أرسل البابا رسلاً الى جميع أنحاء الدنيا،طالباً جبايات غير عادلة،كما سنتحدث فيما بعد.

حول احدى الفتيات التي تخلت عن الدنيا وانسحبت الى طائفة الفرنسيسكان

وكان هناك في هذه الآونة فتاة من أصل نبيل في مقاطعة بيرغندي،كان أبواها قد عينالها ميراثاً ممتلكاتاً واسعة،وقد رغبا في اعطائها زوجة الى رجل له أصل مشهور ،لكن الفتاة التي كانت قد تمثلت منذ صغرها التعليم الحر،قد كرست بالسر،من قلبها الطاهر، عذريتها الى الرب، وبناء عليه غادرت مسكن والديها متنكرة بثياب حاج،وكانت الوسيلة الأسهل للفرار من أمام نظرهما،وحملت نفسها الى دير لبعض الرهبان من طائفة الفرنسيسكان، وقامت هناك بناء على طلبها ، وتماشياً مع الأحكام القاسية لتلك الطائفة،فخلعت نعليها،وألبست نفسها المسوح، وبإزدراء قصت شعرها الجميل،وسعت بكل وسيلة في حدود امكاناتها، لأن تحول جمالها الطبيعي الشخصي الى كل نوع مشوه،وبعدما حاولت هذا،لكن من دون فائدة،لأنها لم تكن قادرة،ضد إرادة الرب على تشويه جمال تناسقها الجسدي،الذي كان لايقارن في جميع توزيعاته،صبت جهودها على تكريس نفسها الى القرين الدائم، الذي هو في السماء،حيث أن طهارة الجسد كانت دائمة،وأسهل لتنفيذ غايتها وجعلها مؤثرة،وبناء عليه اختارت عن طواعية حياة الفقر،واتخذت لنفسها عمل الوعظ المقدس،وألبست نفسها ثياباً خشنة،واتخذت حشية من القش لتتمدد عليها،ووسادة من الحجر،وعاقبت الجسد بالسهر الدائم والصوم المتواصل، وتولت في صلواتها الملحة شغل نفسها بالتأمل في الأشياء السماوية، وبعدما أمضت عدة سنوات في تقشفها وحياتها القدسية ، قامت بالدراسة،

ولكي ترضي الرب ، شرعت بالتبشير بانجيل السلام خلال المدن والقلاع، ولاسيما بين النساء، وبات عدو الجنس البشري مزعوجاً جداً من كمالها ، فطوقها لمدة سبعة أشهر بكثير من المغويات الكبيرة، ولولا أنها كانت مؤيدة بالعون الرباني، لفقدت كل فضائل ايحاءات حياتها الماضية، لأن الشيطان أعاد إلى ذاكرتها ليلاً ونهاراً، وفرة أملاك والديها التي تخلت عنها،ومنتجات الكروم المثمرة، والمروج الجميلة المزينة بمختلف أنواع الزهور، والأصوات الجميلة لاندفاع المياه، والجداول الجارية البديعة، والأشجار العالية في الغابات، والخصوبة في الأولاد، ومعانقة الزوج، والتمتع بالحب،والفراش الناعم للأغنياء،وحركات البهجة، والخواتم الفخمة والجواهر، والمذاق الطيب للسمك، والفروج،ولحم الطرائد، وفي وسط هذه المغويات وما يماثلها، كانت الفتاة شبه يائسة ، وغالباً ما انغمست تفكر حول آراء متشعبة، وعما إذا كان عليها العودة إلى تركته، أو المثابرة على العمل الديني، وقد أمضت في هذه الحالة من العذاب في كل من الجسد والتفكير أياماً وليالي، لكن الرب الرحيم الذي لا يسمح للذين يثقون به أن يتعرضوا للغواية فوق طاقة الاحتمال، أعاد الى الفتاة عين الصواب،حتى تمكنت من اكتشاف كم هي عظيمةالأشياء الدنيوية وكم تحتاج من عناية وتعب ، ومعها كذلك المسارّ التي تقدم ذكرها، وكم هو مخجل ومهين الاتصال الجنسي، وكم هو كبير الجهد الذي يبذل في سبيل نيل الثروة الدنيوية وكم هو محزن فقدانها، وكم هو عظيم وهام المحافظة على الطهارة العذراوية مع الرب، الذي رغب في أن تكون أمه منتجة ، وبالوقت نفسه أن تبقى عذراء، والسرور الذي يتبع الأعمال الصالحة،والمتعة المتوفرة في التأمل المقدس واللاهوتي ، ووحدة سكان السماء، وكم هو طيب وممتع سرور الأرواح المقدسة لدى حكمها مع المسيح، حيث لا يوجد تأثير للبرد، والجوع والعطش لا تأثير لهما على أي إنسان، وحيث ما من أحد

يتملكه الغضب أو يؤثر عليه،ولا الخصام ، ولا المجد العابث، ولا الحسد، ولا التكبر، ولا الحقد، ولا الشره ولا الحسد، ولا الغيرة وغالبا ما رعت هذه العذراء المباركة هذه الأفكار وما يماثلها، وفي وسط جميع زوابع الاغواءات ، استمرت بالمحافظة على فضائلها السالفة، ولكونها مسلحة بأسلحة الرب ، هزمت بسعادة جميع المؤامرات الخادعة للشيطان وأرسلت به مضطرباً الى الجحيم.

كيف تحررت هذه الفتاة بوساطة شيطان من مغتصب

وبعد عدة أيام ، عندما تحررت هذه الفتاة تماماً من هجمات الشيطان هذه ، عاد اليها وحياها قائلا:«البقاء لك يا سيدتي ،أيتها العذراء المحبوبة من رب السماء، أنا الشيطان، الذي اقتادك مؤخراً لمدة سبعة أشهر من دون غاية ولا محصلة، الى عدد كبير من المغويات، من أجل ابعادك عن نواياك ، وللايقاع بك في هذه المتاعب، لكن بما أنني هزمت من قبلك، وأخفقت في مساعي المخادعة، لقد فرضت عليّ عقوبة من رب السماء، وهي أنني لن يسمح لي من الآن فصاعداً إغواء أي جنس من المخلوقات أو إعاقة أي واحد عن القيام بالأعمال الصالحة ، علاوة على هذا لقد أمرت من قبل الرب، الذي علي طاعته، أن أقوم على الفور بتنفيذ كل الذي تأمريني به ، وكذلك تحمل أي عقوبة من الممكن أن تفرضيها عليّ، ولدى سماع الفتاة بهذا قالت للشيطان:«إن ربي يحميني من أي تداخل معك، ومن أي واحد من أتباعك، لأنه يعلم بأنني لم أحب قط أي خادم من هذا القبيل»، وحدث بعدما قالت الفتاة هذا ، أنها ذهبت الى إحدى المدن للحصول على مأوى ومبات ، فدخلت إلى بيت امرأة، وحصلت على مأوى منها لتبات فيه معها، وعاد في المساء رجل شاب، كان هو ابن السيدة المذكورة، عاد الى البيت من عمله المعتاد وعندما رأى المرأة الشابة ، التي منحتها والدته مأوى صدوراً عن

الاحســان والصــدقــة، بـدأ يعجب من التكوين الطبيعـي والتــوزيع لأعضائها التي كانت مغطاة بثيـاب متواضعة جداً، وذلك على الرغم من أنها كانت شاحبـة ونحيفة،لأن فيها جاء تكوين الطبيعـة كاملا تمامـاً، لأنه لم يكن هناك من عيـب فيهـا من أخمص قـدمهـا حتى أعلى رأسهـا، بل إنها أظهرت بتـوزيع وتناسق جسـدها كله بوضوح نبـالة أصلهـا وعنصرها، واشتعل الرجل الشـاب بالرغبـة لنيل العـذراء، و اقترب منها طالبـاً منها تلبيـة رغبته، وقد رفضت بـردها بحزم، طلب الشـاب، وأعلنت أنها منذ صغـرها قــد كـرست عـذريتهـا الى الرب، وعلاوة على ذلك أعلنت أنه كفضيلة فـرضت عليها من قبل نذرها الديني ومن قبل طائفتهـا ، أن لا تقوم بخـرق ذلك التكريس، وبهذه الكلمات ابتعدت لتـأخذ مكان إقامتهـا الليلية في إحـدى زوايا البيت، حيث قـامت تماشيـاً مع أحكام طائفتهـا الدقيقــة بمـد حصير تحت جسدها لتكون فراشاً لها،وحجرة لتكون بمثابة وسادة لها تحت رأسها ، وكان الرجل الشـاب متحرقاً تمامـاً برغبته الجنسية ولذلك قـرر في قلبه أنه إذا لم يتمكن من الحصـول على مـوافقـة الفتـاة طواعيـة ، سـوف يحقق غرضـه بالقوة، ولذلك ذهب اليها وأخبرها بما قـرره، وشعرت المرأة المتدينة وقتهــا بآلام عظيمـة في عقلهـــا، وخشيت من تدمير عذريتها الطاهرة ، من قبل الشاب المتحرق رغبة، وهنا تذكرت ما كان الشيطان قـد أخبرهـا به ، وهو أنه سـوف يلبي على الفــور أية رغبـة تريدها، فـرفعت صوتها وقـالت:«أيها الشيطان ، أين أنت»؟ وأجـابها الشيطان على الفـور«يا سيــدة ، أنا هنا ، مـا الذي تريـدينه» ؟ وعندها قـالت الفتـاة:« حـررني من هـذا الشرير الذي أزعجني، ولا يسمح لي بالنوم »، وقـام على الفور، بسحب الرجل الشـاب بالقوة من قـدميه ورمـاه بعيـداً بعيداً ،جـداً عن المرأة الشـابة ، وفعل ذلك ثلاث مـرات خلال تلك الليلة ، وبذلك تحررت بوسـاطة الشيطان من عنف الرجل الشاب،وفي الصبـاح غادرت المدينة عذراء كما دخلتهـا ، لكن ما الذي

حدث للفتاة في النهاية غير معروف بالنسبة إليّ، وبناء عليه لا بد في الذي رويته كفاية ورضا للذين يحبون التقوى والصلاح.

حول إحدى الناسكات التي لم تتناول طعاماً لمدة سبع سنوات

وماتت في العام نفسه إحدى الناسكات في مدينة ليستر، وكانت لم تتناول طعاماً من أي نوع لمدة سبع سنوات قبل وفاتها ، باستثناء أنها في يوم الأحد شاركت في تناول قربان جسد ودم مولانا، وعندما وصلت أخبار هذه المعجزة الى مسامع هوغ أسقف لنكولن لم يضع ثقته في القصة، ورفض تصديقها كلية، وأمر بالناسكة المذكورة فوضعت في سجن محكم تحت حراسة كهنتها ورجال دينها لمدة خمسة عشر يوماً، وعندها برهنت خلال تلك المدة كلها أنها لم تتناول أيا من الأطعمة الجسدية ، وأن بشرتها كانت دوما بيضاء مثل الزنبق، مشربة باللون الأحمر الوردي ، كعلامة على الاحتشام والطهارة العذرية.

كيف رفضت كونتسة سالسبري الزواج

وصلت في هذه الآونة أخبار الى ملك انكلترا بأن عمه وليم ايرل أوف سالسبري قد غرق وهو عائد من مقاطعات ما وراء البحر،وعندما كان غارقاً في أحزان الحدث ، جاء اليه هيوبرت المسؤول عن العدالة في المملكة،وطلب منه اعطاء زوجة الايرل وليم المذكور لتكون زوجة لحفيده ريموند الذي آلت اليه رتبة تلك الايرليه بحق الوراثة ،وأعطى الملك الموافقة على هذا الطلب على شرط تمكنه من الحصول على موافقة تلك الكونتسة نفسها، وأرسل مسؤول العدالة على الفور ريموند المذكور في أبهة فروسيته الى الكونتسة ليسعى للحصول على موافقة تلك السيدة ، وعندما حاول ريموند المذكور بالكلام الناعم والوعود العظيمة أن يحصل على

موافقتها، ردت عليه بغضب عظيم أنها تسلمت مؤخراً رسائل تخبرها بأن زوجها كان سالماً وبحالة طيبة ، ثم أضافت بأنه لو كان زوجها بالفعل قد مات، فإنها لن تقبل به بأي حال من الأحوال زوجاً، لأن نبالة أسرتها تمنع مثل هذا الزواج، ثم قالت له:« ابحث عن زوجة في مكان آخر ، لأنك سوف تجد بالخبرة أنك قدمت الى هنا من دون غرض» ، ولدى تلقي ريموند هذا الرد غادر وذهب وهو مضطرب.

كيف طالب صاحب القداسة البابا بعطاء كهنوتي لاستخداماته

عام ١٢٢٦م،فيه احتفل الملك هنري بعيد الميلاد في وينكستر،بصحبة بعض الاساقفة وعدد من النبلاء،وبعد الاحتفال بهذا العيد بشكل لائق،ذهب الى مارلبورا،حيث أصابه مرض أقعده بالفراش لأيام كثيرة وهو في حالة ميئوس منها،وحل الآن في الوقت نفسه الموعد المحدد من أجل عقد مؤتمر في ويستمنستر في عيد القديسة هيلاري،حيث كان من المتوجب على الملك،ورجال الدين والنبلاء،العائدين لمملكة انكلترا الحضور لسماع رسالة البابا،وبناء عليه احتشد كثير من الاساقفة مع آخرين من رجال الدين والعلمانيين في المكان المذكور أعلاه،وتولى المعلم أوتو، رسول مولانا البابا، الذي تقدمت الاشارة اليه أعلاه،قراءة رسائل البابا، على مسمع من الجميع،وعرض البابا في هذه الرسائل الاساءات الكبيرة وسوء استخدام كنيسة روما المقدسة،وتولى بصورة خاصة إدانة الجشع،على أنه أصل جميع الشرور،وبشكل خاص أنه لايمكن لأي انسان تدبر أي عمل في بلاط روما،من دون اسراف بانفاق الأموال مع تقديم هدايا كبيرة، لكن بما أن فقر الكنيسة الرومانية هو السبب وراءجميع هذه الذنوب والشرور المسماة،فإن من واجب الجميع إزالة حاجة وفقر أمهم وأبيهم،بحكم أنهم أبناء طبيعين،ولأننا إذا لم نتسلم أعطيات منكم ومن الرجال الآخرين الصالحين والأشراف،سوف نكون

بحاجة للانفاق على ضروريات الحياة، وسوف يكون ذلك كله متنافراً مع كرامة ومكانة الكنيسة الرومانية،وبناء عليه إنه من أجل تدمير هذه الاساءات تدميراً كاملاً توصلنا مع نصيحة إخواننا كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة إلى وضع بعض القواعد، التي إذا ما وافقتم عليها سوف نحرر أمنا من الإهانة،ونحصل على العدل في بلاط روما من دون الحاجة الى تقديم هدايا،والقواعد التي وضعناها هي التالية : نحن نريد في المقام الأول الحصول على عطائين(أووقفين)كهنوتيين ليمنحا إلينا من جميع الكنائس الكاتدرائية ،يكون أولها عطاء من حصة الأساقفة،والثاني من حصة هيئة الكهنة،ومن الديرة وفق الطريقة نفسها،هناك حصص متنوعة لراعي الدير وللدير ،ومن رهبان الديرة،حصة راهب واحد،على أساس توزيع متساوي يعمل على ممتلكاتهم،والشيء نفسه من راعي الدير».

وبعد تقديم هذه المقترحات،تولى المعلم أوتو بناء على تفويض من مولانا البابا،توجيه النصيحة الى أساقفة الكنيسة الذين كانوا حاضرين شخصيا بالموافقة،وأوضح المنافع المذكورة أعلاه في الرسائل،وعندها اعتزل الأساقفة الذين كانوا وقتها بين الحضور جانباً، للتشاور حول القضية، وبعدما تناقشوا حول الاقتراحات لبعض الوقت، أنابوا جون رئيس شمامسة بدفورد فذهب ووقف أمام المعلم أوتو، وأعطاه الجواب التالي على مطالبه قائلا:«سيدي ، إن الأشياء التي عرضتها علينا فيها إشارة الى الملك بشكل خاص، والى المسؤولين عن الكنائس بشكل عام، وفيها أيضاً إشارة الى رؤساءالأساقفة مع مساعديهم من الأساقفة والى أعداد من الكهنة ذوي المراتب في انكلترا، وبناء عليه ، إنه بسبب مرض الملك ، ولغياب بعض رؤساء الأساقفة والأساقفة والكهنة الآخرين من ذوي المراتب ، نحن لا يمكننا — كما انه لا يجوز لنا — بغيابهم اعطاءك جواباً،لأننا إذا

مـا أقـدمنا على فعل ذلك ، سيكـون في ذلك الحاق الضرر بجميع الذين هم غيـاب»، وبعد هذا جـرى ارسال جون المارشـال ورسل الملك الآخـرين الى الكهنة ذوي المراتـب، المستحـوذين على مـراتب بارونيـة رئيسية مـن الملك، ليمنعوهم بكل دقـة من اشراك رسـومهم المدنية واخضـاعها لكنيسـة روما، فبـذلك سوف يكون حرمـاناً من الخدمـات المستحقـة له شخصيـاً، وعند سماع المعلم أوتو بهذا ، عين يوماً في منتصف الصوم الكبير من أجل الـذين كانوا آنذاك حضوراً للاجتماع ، وعندما يتم الحصول على حضور الملك والكهنة الغائبين، وبذلك يمكن وقتها إيصال هذه القضية إلى نهاية ، لكنهم لم يوافقوا على التـاريخ الذي حـدده من دون الحصول على مـوافقـة الملك مع الآخرين الذين كانوا غياباً، وبهذه الطريقة عادوا جميعاً الى الوطن.

الموت الرائع لوليم ايرل أوف سالسبري

وشفي في تلك الأثناء ملك انكلترا، تمامـاً من مـرضـه في مـالبـورا، وإليـه قـدم الى هناك وليم ايرل أوف سـالسبري ، الذي تمكن بعـد صعوبات جمة ، وبعـد تعرضه طويلاً للمخاطر في البحـر، من الرسو في كورنوول cornwall أيام عيـد الميلاد، وقـد استقبل بسرور عـارم من قبل الملك ، وعلى الفـور وضع أمامـه شكوى جادة ضـد المسؤول عن العـدالة ، بين فيها أنه عندمـا كان في المقـاطعات الأجنبيـة يعمل لصالح الملك ، أرسل مسؤول العدالة رجلاً من نسب منحط، سعى من أجل صنع اتصـال اجـرامـي مع زوجتـه، وهو مـا يزال على قيـد الحياة، وأن يعقـد معها عقد زواج زنى بالقوة، وأضـاف أنه ما لم يقم الملك بجعل مسـؤول العدالة يقـدم على إعطائـه ترضية كـاملة ، هو نفسـه سينتقـم لهذه الجريمـة العظيمـة ، ولهذا الافسـاد الكبير لسـلام المملكة ، ولأن مسؤول العدالة كـان حاضراً، فقد اعترف بخطيئته، وتصالح مع الايرل بوساطة هدايا من الخيول الثمينة والهدايا الكبيرة

الأخرى، وبذلك صار صديقاً مع الايرل،وإثر ذلك قام مسؤول العدالة هذا بدعوة الايرل الى مائدته، حيث يقال بأنه سممه سراً، لأن الايرل ذهب الى قلعته في سالسبري، فتمدد في فراشه وهو مريض بشكل كبير، وإزداد المرض واستفحل، ولدى شعوره بعلامات الموت ، بعث الى أسقف المدينة ليأتي إليه، حتى يتلقى الطقوس المتعلقة بالاعتراف، وليشارك بقربان الموت المسيحي ، وأيضاً لكي يعمل وصية رسمية فيما يتعلق بأملاكه،وعندما دخل الأسقف الى الغرفة التي تمدد فيها الايرل، وهو ليس مرتدياً شيئاً سوى سراويله ، قفز هذا الايرل من فراشه، ووقف أمام الأسقف ، الذي كان حاملاً لجسد ربنا ، وربط حبلاً خشناً حول رقبته ، وألقى بنفسه على الأرض، واعترف وهو ينوح بشكل متواصل بأنه كان شخصياً خائناً للملك العظيم ، ولن يسمح لنفسه بالنهوض حتى يقوم بالاعتراف ، ويشارك في قربان القداس المانح للحياة، ليبرهن عن نفسه بأنه عبد لخالقه، وهكذا استمر في أعظم حالات التوبة لعدة أيام ، حتى أسلم روحه الى مخلصه، وعندما جرى حمل جسده من القلعة الى الكنيسة الجديدة، التي كانت على بعد حوالي الميل،ليدفن هناك، ظلت الشموع، التي جرت العادة بحملها مشتعلة مع الصليب وكذلك المباخر، وذلك على الرغم من زخات المطر والرياح العنيفة، واستمرت الإضاءة طوال الطريق، وبذلك ظهر بشكل واضح بأن الايرل قد تاب توبة نصوحة، وأنه صار منتمياً الى تعداد أبناء الضياء.

كيف سعى المعلم أوتو الى مصالحة الملك مع فالكاسيوس

ووصل في تلك الآونة المعلم أوتو رسول البابا الى ملك انكلترا، وطلب منه باسم قداسة البابا استقبال فالكاسيوس في الحظوة ، وأن يعيد إليه زوجته، وأراضيه، وأملاكه، وجميع المقتنيات الأخرى التي أخذت منه، لكن الملك رد عليه، بأن فالكاسيوس، قد حكم عليه ،

بسبب الخيانة المكشوفة بالنفي الأبدي، وصدر هذا الحكم من قبل جميع رجال الدين والناس، وهو حكم لا يمكن ايقافه من دون العمل بشكل معاكس لأعراف المملكة المؤسسة قديماً، ولدى تلقي المعلم أوتو لهذا الجواب، توقف عن القيام بأية مطالب أو مباحث أخرى حول القضية، ثم إنه بعث برسائله الى جميع الكنائس الكاتدرائية أو الديرية في جميع أرجاء انكلترا، طالبا منهن أموال الوكالة المستحقة لرسل الكنسية الرومانية ، وحدد مبلغ كل وكالة بأربعين شلناً.

مجمع بورجي الذي ترأسه رومانوس المندوب البابوي الى الفرنسيين

وفي حوالي هذا الوقت نفسه،جرى ارسال رومانوس من قبل مولانا البابا الى فرنسا ، ليهارس هناك أعمال المندوب البابوي، وبعد وصوله جمع الملك الفرنسي، رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورجال الدين الغاليين مع كونت طولوز، لعقد مجمع ، من أجله وغاياته جرى إرساله الى تلك البلاد، كما ستبين الرواية التالية ذلك: فقد عقد المجمع في بورجي Bourges وقد حضره رؤساء أساقفة: ليون، ورايمز، وروان، وتور، وبورجي ،وأوكسين، وكان رئيس أساقفة بوردوكس في روما، وكانت كنيسة نربونة من دون رئيس أساقفة، ولقد اجتمع حوالي مائة من الأساقفة المساعدين من تسع مقاطعات مع رعاة الديرة ورؤساء الرهبان، ومفوضين عن كل هيئة كهنة، وذلك من أجل حمل رسالة البابا، هذا وقد ادعى رئيس أساقفة ليون السيادة على رئيس أساقفة السين، ورئيس أساقفة روان السيادة على رؤساء أساقفة: بورجي، وأوكسين، ونربونة، وخاف أساقفتهم المساعدون من زيادة الخلافات برعايتهما ، ولذلك لم يجلسوا كما لو أنهم في مجمع، بل وكأنهم في حالة تداول وتشار وبعد ما جلس الجميع ، وقرئت

رسـائل البابا ، مثل أمـامهم كـونت طولوزمن جانب، وسيمـون دي مونتفـورت من الجانب الآخر، وقـد طالب سيمـون بتسليمه أراضي ريموند كونت طولوز ، وهي الأراضي التي كانت قد منحها له فيليب ملك فرنسا ، وكذلك أبوه، وقـدم كتابات كل من البابا وفيليب، فيما يتعلق بهذه المنحة ، وعلاوة على ذلك أضـاف بأن الكونت ريموند قد حرم في المجمع المسكـوني في روما وجرد بسبب الهرطقـة ، وشمل الحرمـــان على الأقل الشطر الأكبر مـن الأرض التي يمتلكهـــا الآن، وأوضح الكونت ريموند في جوابه بـأنه سوف يفعل كل ما ينبغي أن يفعله نحو الملك الفـرنسي والكنيسة الرومـانية حتى يحتفظ بميراثه ، وهنا طلبت منه الفئة المضـادة الالتزام بحكم اثني عشر من نظرائـه الاقطاعيين الفـرنسيين ، وعلى هذا رد ريمـــوند : « ليقم الملك أولاً بتلقي ولائي، وعندها سوف أكون جاهزاً للمقاضاة ، وبدون ذلك ربما لن يعترفـوا بي نظيراً اقطاعياً لهم »وبعـد كثير من الردود من على الجنبين، أمر النـائب البابوي رؤسـاء الأساقفة والأسـاقفة الذين كـانوا حضوراً، بأن يجتمع كل منهم مع أساقفتـه المساعدين على انفراد في مكان خـاص للتبـاحـث حول القضيـة المتقـدم ذكـرها ، ومن ثم أن يقـدموا اليـه نتيجة مـداولاتهم، بشكل مكتـوب، ثم إنه حرم كنسيـاً كل من يفشي خططه حول هذه القضيـة ، قائـلاً بأنه يود أن يشرحها الى البابا، وأن يخبر بها الملك الفرنسي شخصياً.

كيف أعطى النائب البابوي خداعاً الإذن لمندوبي الكهنة بالمغادرة

وبعـد هذا المجمع، أعطى النائب البـابوي الإذن خداعـاً إلى مندوبي هيئات الكهنة بالعـودة الى مـواطنهم، وأبقـى رؤسـاء الأسـاقفـة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورجال الدين العاديين ، ولهذا السبب كان الأخيرون خـائفين ، ولم يكن ذلك مـن دون سبب ، في غيـاب أولئك

الأكثـر براعـة وخبرة ، والذين بسبب عـددهم ، هم الأقـدر على معـارضـة النـائب البـابوي سـوف يتم لـذلك اتخاذ بعض القـرارات الملزمـة أثناء غيـاب رجـال الدين، وبناء عليـه قـام مندوبو الكهنة بالتداول، وبعد مباحثات طويلة، بعثوا مندوبين من الكنائس المطرانية الى النائب البـابوي، وقـد شرح له هؤلاء الوضع بقـولهم ما يلي:«لقـد سمعنا يا مـولانا بأن لديك رسـائل من بلاط روما تتعلق بالحفـاظ على العطاءات الوقفية اللاهوتية في جميع الكنائس الديرية ، وأنت لم تقم في اجتماع التـداول الأخير بإعـلانها على مسـامعنا ، نحن الذين في مـوضع المسـؤوليـة الخاصـة تجاهها ، ولذلـك نلتمس منك باسم الرب بأن لا تدع هذا النزاع يتفجر في الكنيسة الفرنسية بوسائطك، لأننا نعلم تمام المعرفة بأن مثل هـذه الخطة لا يمكن وضعها موضع التنفيـذ من دون اقتراف آثـام كثيرة ، وإحـداث ضرر لا يمكن تصوره، ولنفترض أن أي واحد سـوف يوافق على ذلك ، إن موافقته لن تكون جـائزة في المسألة المتعلقـة بنا جميعاً وذلك عندمـا جميع الشيـوخ والنـاس بشكل عـام، وكـذلك الملك نفسـه والنبـلاء على استعداد لنقد ذلك ومعارضته ، الى حد لو أن ذلك قاد الى تعريض حياتهم لخطر الموت، ولفقـدانهم مـراتبهم العـاليـة ، وخـاصـة أنه سيكون بالمطالبة العدوانية بهم دمار المملكة والكنيسة بشكل عام ، وشيكاً،والسبب الداعـي لخوفنا هو أنك لم تبحث هذه القضيـة مع الممالك الأخـرى وأنك أمـرت بعض الأسـاقفـة ورعـاة الديرة ، أنهم حيثما وجـدوا العطاءات الوقفية اللاهوتيـة شـاغرة ، الاحتفـاظ بها لصالح البابا».

كيف طالب المندوب البابوي بعطائين من الأساقفة لاستخدامات كنيسة روما

ولدى استلام المندوب البابوي للرسالة المذكورة أعلاه، وأثناء مسعاه

لاقناع الجميع بالموافقة على طلبه، قام آنذاك للمرة الأولى بعرض تفويض البابا ورسالته التي طالب فيها بعطائين وقفيين كهنوتيين من كل كنيسة من الكنائس الكاتدرائية، عطاء من الهيئة الكهنوتية والعطاء الآخر من الأسقف، وبالطريقة نفسها بالنسبة للأديرة، حيث هناك حصصاً متنوعة، أي حصص رعاة الديرة، وحصص الدير، هذا ولقد طالب بعطائين، واحد من راعي الدير، والثاني من الدير، وطلب من الدير حصة راهب واحد، أثناء التوزيع المتساوي للممتلكات، وذلك حسبما فسر النائب البابوي ذلك شخصياً، والشيء نفسه من راعي الدير، ثم أخذ يشرح ويبين المنافع التي ستحصل من ذلك، أي أن ذلك سوف يزيل من الكنيسة الرومانية، التي هي الأم لجميع الكنائس، ويرفع عنها تهمة الجشع، التي هي أصل جميع الشرور، فما من أحد سوف يرغم على تقديم أية هدية، من أجل تسهيل العمل في بلاط محكمة روما، وما من أحد سوف يتسلم هدايا عندما يجري تقديمها.

اعتراضات المشرفين المفوضين على المطالب المذكورة أعلاه

وقال مندوب رئيس أساقفة ليون في جواب على هذا الطلب: «نحن ياسيدي لانرغب مطلقاً أن نكون بلا أصدقاء في بلاطك، أو أن لانتمكن من منح الهدايا»، وبين المندوبون الآخرون بالطريقة نفسها انعدام المنافع والمحبطات التي سوف يعملون في ظلها، مثل خسارة الممتلكات، والمشورة، والمساعدة، وأنواع الرعاية الأخرى، فبهذه الطريقة: «سوف يكون هناك باستمرار في كل أسقفية، أو على الأقل في كل مقاطعة، رسولاً، أو وكيلاً رومانياً، هو لن يعيش اعتماداً على وسائله، بل سوف يفرض غرامات ثقيلة وبدلات ويجبيها من الكنائس الأكبر، وربما من الكنائس الأصغر، وبذلك لن يكون هناك أحداً يتمتع بالحصانة، والشخص الذي يسمى المندوب المشرف هو الذي سوف يفرض مكوس وضرائب الأساقفة»، كما أنهم قالوا بأن التوزيع بين

الهيئات الكهنوتية سوف يتبع ذلك، لأن من المحتمل أن يأمر البابا، إذا ما اختار، المشرف المفوض من قبله، أو شخصاً آخر أن يكون حاضراً ممثلاً له في الانتخابات، وهذا سوف يثير الاضطراب بينهم ويزعجهم، وهذا سوف يجعل مع مرور الأيام الانتخابات تتحول إلى الاعتماد على بلاط روما، الذي سوف يتولى تعيين رومان، أو أشخاصاً مكرسين لهم، في جميع الكنائس، أو على الأقل في معظمها، وبذلك لن تكون هناك فئة من رجال الدين المحليين أو من رؤساء رجال الدين، وذلك بقدر ماسيكون هناك رجال لاهوت سوف يقدمون المزيد من التقدير إلى بلاط روما، أكثر مما سيقدمونه إلى الملوك أو المملكة، وأضافوا أيضاً أنه إذا ماتم التوزيع الصحيح للممتلكات، فإن ذلك البلاط سوف يصبح كله غنيا، لأن رجاله سوف يتسلمون أكثر من الملك نفسه، وبذلك لن يصبح الشيوخ أغنياء فقط بل الأغنى بين الناس، وبما أن علة الغنى هي التكبر، فإن المتكبرين نادراً ماسيصغون إلى المتشكين، بل سوف يطردونهم بلاتوقف، والذين دونهم سوف يكتبونهم غير راغبين، والبرهان على هذا واضح، لأنه حتى في هذه الآونة نراهم يؤجلون الأعمال بعد تلقيهم هدايا واستلامهم لضمانات، وهكذا سوف تكون العدالة في خطر، وسوف يرغم الشكاة على الموت عند أبواب رؤسائهم المتحكمين بهم، أي الرومان، وكذلك بما أنه من الصعب لنبع الشره أن يجف، فإن الذي يفعلونه الآن سوف يفعلونه آنذاك بوسائل الآخرين، ولسوف يحصلون على هدايا أكبر بكثير لوكلائهم وقتها، منها الآن، لأن الهدايا الصغيرة توزن الآن مع الأغنياء الجشعين من الناس، وعلاوة على ذلك فإن الثروة الكبيرة سوف تسبب الاحتكاك بين المواطنين الرومان أنفسهم، وبذلك سوف تنشب خلافات كبيرة وخصومات بين مختلف الوكلاء، ويخشى من أن هذا سوف ينعش ويستغل من أجل تدمير المدينة كلها، الأمر الذي ليست متحررة منه حتى في هذه الآونة، كما أنهم أضافوا، بأنه من الممكن للذين هم موجودين الآن أن يصدقوا على

هذا ويتعهدوا به، لكن لايمكنهم ربط خلفائهم به، كما أنهم لن يمتلكوا الارغام على الطاعة كأمر مشروع، واختصروا الموضوع كله أخيراً بقولهم : «من المحتمل يامولاي أن تقوم العاطفة الغيورة للكنيسة كلها وللكرسي الروماني المقدس بعزلك، وإذا ما جرى وضع هذا الظلم العام موضع التنفيذ، علينا أن نخشى أن سيكون الانفصال العام وشيكاً، نرجو الرب أن يجنبنا ذلك»، ولدى سماع النائب البابوي هذا، بدا وكأن مشاعره الطيبة قد تحركت نحوهم، فأجاب بأنه لم يوافق قط على هذا الطلب عندما كان في البلاط في روما، وأنه تلقى الرسائل بعدما وصل إلى فرنسا، وأنه كان آسفاً كثيراً بسبب هذه الأشياء، كما أنه أضاف بأنه يفهم بأن جميع الأوامر في هذه القضية قائمة على الفهم الضمني بأن الامبراطورية والممالك الأخرى سوف توافق عليها، كما أنه قال بأنه لن يقوم بمحاولات أخرى حول هذه القضية حتى يقدم الأساقفة في أرجاء المملكة الأخرى موافقتهم، الأمر الذي لم يعتقد بأنه سيحدث.

كيف عاد المعلم أوتو مرغماً إلى روما

وفي الصوم الكبير من العام نفسه، كان المعلم أوتو، رسول الامبراطور، على طريقه إلى نورثأمبرلاند لفرض ضريبة الوكالة المتقدم ذكرها، وقد وصل إلى نورثأمبتون، وفي ذلك المكان وصلت إليه رسائل من البابا، منحت بناء على طلب من رئيس أساقفة كانتربري، وقد حوت هذه الرسائل أمراً إلى أوتو المذكور، بالعودة فور رؤيتهم إلى روما، لأن نفوذه هناك كان قد تدمر تماماً، وما أن ألقى نظرة على هذه الرسائل، حتى ألقى بهم بالنار وهو مكتئب، وقام على الفور بتغيير خططه، وغادر انكلترا وهو مضطرب، حيث أنه أمر ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، حسبما جاء في رسائل البابا، بأن يجمع الملك وجميع رجال دين المملكة للتداول وأن يبعث إلى البابا بجوابهم حول المسألة

التي أرسل أوتو المذكـور من أجلها إلى انكلترا، وبعـدما أدار ظهـره إلى انكلترا، جمع ستيفن، رئيس أسـاقفة كـانتربري جميع المسؤولين عن هذه القضيـة، ليكونوا في مؤتمر في ويستمنستر بعـد عيد الفصح، وهناك قـام بحضـور الملك وجميع رجـال الديـن في انكلترا الذين اجتمعـوا بناء على دعـوته، فقـرأ الرسائل المذكـورة أعـلاه، فيما يتعلق بالهدايا إلى الكنيسـة الرومـانية، وبعـدمـا سمعوا الرسـائل، وفهمـوا مقاصـدها، ضحكوا في قـرارة أنفسهم تجاه جشع الرومـان الذي لم يفهمـوا الحكمة الأخـلاقيـة القائلة:

«إنها ليست الثـروة بل الفضيلـة هي التي سـوف تجعل الانسـان راضيا،

وليس المحتاج هو الانسان الفقير، بل المنصرف نحو تحصيل الربح».

ثم دعـا الملك بعض رجـال الدين والنبـلاء للاجتماع على انفـراد، ثـم إنهم أعطوا الجواب التـالي إلى رئيس الأسـاقفـة: «إن المنح التي ينصحنا البابا بالموافقـة عليها، تتعلق بالجماعة المسيحية كلها، وبما أننـا موجودين في أقصى زاوية من العالم، سـوف ننظر كيف ستتصرف الممالك الأخرى تجاه هذه المطالب، وعندمـا نشاهد أمثـولتهم سـوف يجدنا مولانا البـابا أكثر استعـدادا في تعاملنا مع هذه المطالب من الآخـرين»، وبالتفوه بهذه الكلمات سمح للجميع بالمغادرة.

الحركة الكبيرة التي عملت ضد كونت طولوز

وجـرى التبشير في الوقت نفسـه بصليبية في جميع مقـاطعـات فرنسـا بشكل عـام من قبل النائب البـابـوي، بأن على جميع الذين يمكنهم حمل السلاح، عليهم حمل شارة الصليب للحملة ضد كونت طولوز وأتباعه، الذين قيل بأنهم تلوثوا بلطخة الهرطقـة القذرة، ونتيجة لهذا التبشير حمل عدد كبير من رجـال الدين ومن العلمانيين الصليب، وقـد اقتنعوا بفعل

ذلك لخوفهم من الملك الفرنسي، أو لنيل الحظوة من النائب البابوي، وكان هذا أكثر من غيرتهم على العدل، لأنه بدا للكثيرين أنه سيكون ذنباً القيام بمحاربة المسيحيين الحقيقيين، لاسيما وأنهم جميعاً كانوا على معرفة، أنه أثناء المجمع الذي انعقد مؤخراً في بورجي، عمل الكونت المذكور توسلات كثيرة ورجا النائب البابوي أن يذهب إلى أية واحدة من مدنه في أراضيه، للبحث في قواعد ايمانهم، وأعلن أنه إذا ما وجد النائب البابوي أيا من سكان أية مدينة يتبنون مواقف وآراء مضادة للإيمان الكاثولكي، هو نفسه سوف يفرض عليهم ترضية كاملة، وأنه إذا وجد أية مدينة في حالة عدم الطاعة، هو سيتولى، بقدر مايملك من طاقة، ارغام تلك المدينة وسكانها على عمل تكفير وتوبة، وبالنسبة له شخصياً، عرض أنه إذا كان قد أذنب بأي حال من الأحوال، الأمر الذي لايتذكر بأنه فعله، أن يقدم ترضية كاملة للرب، وللكنيسة المقدسة، كمسيحي مخلص، وإنه إذا مارغب النائب البابوي هو على استعداد حضور محاكمة من أجل عقيدته، وقد رفض النائب البابوي هذه العروض جميعاً، ولم يستطع هذا الكونت الكاثوليكي الحصول على أية حظوة لديه من دون التخلي عن ميراثه والتنازل عنه بالنسبة له شخصياً ولورثته من بعده، وحمل الملك الفرنسي، بناء على تبشير هذا النائب البابوي، الصليب، ولكنه رفض الذهاب في هذه الحملة، مالم يحصل أولاً على رسائل من البابا إلى ملك انكلترا، يمنعه تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، إذا ماأزعج الملك الفرنسي، أو أثار حرباً ضده، بشأن أية منطقة هي الآن في حوزته، سواء أكان ذلك عادلاً أو غير عادل، وذلك طوال المدة التي سيكون خلالها في خدمة البابا وكنيسة روما، في العمل لاجتثاث الهراطقة الألبيين ومحرضيهم ومشاركي كونت طولوز، وكل من يقدم له العون والمساعدة والنصيحة بالابتعاد عن طريق الايمان، وعين بعد هذا الملك والنائب البابوي يوم صعود ربنا من أجل جميع الذين حملوا الصليب للاجتماع في ليون، تحت طائلة

الحرمان الكنسي، وأن يكونوا مجهزين بالخيول والأسلحة، ليتبعوهما في الحملة المقترحة.

كيف غير ملك انكلترا نيته في عبور البحر

وجمع في الوقت نفسه ملك انكلترا، الذي كان متشوقاً بشدة لغزو مقاطعات ماوراء البحر، مستشاريه، وقرأ عليهم رسائل البابا، التي كان قد بعث بها إليه، وسألهم عن نصيحتهم عن الذي يتوجب عمله تجاه هذا الحظر، وكان الرأي الذي قدمه جميع رجال الدين مع النبلاء هو التعبير عن رغبتهم بتأجيل الحملة المرغوب بها حتى يروا نتيجة هذه المغامرة الصعبة والمكلفة التي تولاها الملك الفرنسي، وكان الملك الانكليزي في تلك الاثناء قلقاً جداً حول أخيه رتشارد الذي كان آنذاك في غاسكوني يتابع الحرب، وقد تشوق الى عودته الى الوطن، وعندما كان الملك هكذا قلقاً ومشغولاً حول أخيه، وكان يرغب بمساعدته، وصل رسل اليه من عند أخيه المذكور، أخبروه أنه كان سالماً معافى، وأن كل شيء كان يسير معه بشكل جيد وموافق، وكان بين مستشاري الملك آنذاك المعلم وليم، الذي كان لقبه بييربونت Pierepunt، وكان منجماً، وقد أعلن بجرأة أمام الملك، أنه إذا ما حاول الملك الفرنسي القيام بالحملة التي كان على وشك الشروع بها، هو إما لن يعود حياً، أو أنه سوف يعاني من خسائر كبيرة في الممتلكات والأتباع، وشعر الملك بسرور عارم لدى سماعه بهذا، ووافق على خطة مستشاريه.

وفاة رتشارد أسقف درم

وكان في العام نفسه رتشارد دي ماريسكو Marisco، أسقف درم يسير مسرعاً مع عدد كبير من المحامين الصاخبين، يريد أن يكون في لندن في اليوم المحدد، ليقوم بالدعوة المهينة ضد الرهبان، وقد نزل على

الطريق في دير بيتر- بورا peter-borough، حيث أوى الى فراشه ليلاً، بعد عشاء فاخر، وفي الصباح الباكر عندما كانت الشمس آخذة بالاشراق، دخل كهنته الى غرفته بهدف ايقاظه، ووجدوه وقتها ميتاً، وشعروا لهذا جميعاً بانقباض، وأبقوا خبر موته سراًحتى مساء ذلك اليوم، لأنه مات دون اعتراف وتناول القربان، ثم إنهم أخبروا رئيس الرهبان بالواقعة الرهيبة وكذلك رهبان الدير، وقاموا بعمل محفة، وحملوا جسده ونقلوه الى الكنيسة في درم من أجل الدفن،وقد مات هذا الأسقف في اليوم الأول من أيار، بعدما بقي شاغلاً للأسقفية لمدة تقارب التسعة أعوام، وهناك واقعة لها علاقة به، نعتقد أننا لايجوز المرور بها صامتين، وهي واقعة حدثت قبل حوالي العامين من موته، فقد ظهر في المنام في إحدى الليالي الملك جون الأخير، الى واحد من رهبان دير القديس ألبان، وكان آنذاك مقيماً في تاينماوث Tynemouth، وكان هذا الراهب صديقاً مقرباً من الملكين: رتشارد، وجون، وتنفيذاً لأشغالهما قد أرسل في بعض الأحيان الى روما، وبعض الأحيان الى سكوتلندا، والى أماكن أخرى كثيرة جداً، وبانجازه لخدماته كان قد كسب حظوة الملكين المذكورين وعندما كان الراهب آنذاك نائماً على حشيته، وقف الملك المتقدم ذكره أمامه في ملابسه الملكية التي اسمها الثياب الامبراطورية، وعرفه الراهب على الفور، وتذكرأنه كان ميتاً، فسأله كيف هي أحواله، فأجابه الملك قائلاً: «مامن أحد أسوأ مني أنا، لأن ثيابي هذه التي تراها هي محرقة وثقيلة الى درجة أن مامن انسان حي يمكنه أن يلمسهم بسبب حرارتهم، أو يلبسهم بسبب وزنهم، إلاّ ويتعرض للموت، ومع ذلك إنني آمل بوساطة الرحمة الربانية التي لايمكن وصفها، أن أحصل في وقت ما على الرحمة، ولذلك ألتمس بحرارة من أخوتك وأرجو أن تخبر رتشارد مارش، الذي هو الآن أسقف درم، أنه ما لم يقم قبل موته بتغيير اسلوب حياته الشريرة، ويقوّمها، بتوبة نصوحة، وبتكفير موائم، هناك مكان معدّ له في جهنم،

وإذا مـا رفض تصـديق كلماتك ورسـالتي، ليقم بـوضع جميع الشكوك جانباً بهذه الشـواهد، فليتذكر أننا عندما كنا معاً لوحـدنا في مكان يعرفه بشكل جيـد، اقترح عليّ خطة، راقت لي وله شخصياً، وهـي أن أقـوم بأخـذ محصول سنة من الصـوف من الرهبان السسترشيـان، ولقد اقترح عليّ أيضـاً خططاً أخرى شريـرة، أنا أعاني من أجلهـا عـذاباً لايوصف، وهو ماينتظره، وإذا مااستمر متردداً في تصديق رسالتي، عليه أن يتذكر، بأنه أعطاني في المكان نفسـه، وفي الوقت نفسـه حجرة كـريمـة كان قـد اشتراها بمبلـغ كبير»، وبهذه الكلمات اختفى الملـك، واستيقظ الـراهب مندهشاً.

وبعد وفاة رتشارد أسقف درم، طلب رئيس الرهبان مع رهبان الدير الاذن من الملك مـن أجل انتخـاب أسقف، وبنـاء عليـه اقترح عليهم الشماس لوقا، ورجاهم أن يستقبلوه بمثـابة أسقف لهم، وأجابه الرهبان — على كل حـال — بأنهم لن يستقبلوا أي واحـد مالم يكـن قد جـرى انتخـابه بشكل قانـوني، وبناء على هذا الرفض، أعلن لهم الملك، وأشفع اعـلانه بالقسم أنهم ينبغي أن يبقـوا من دون أسقف لمدة سبعـة أعـوام، مـالم يقبلوا لوقا المتقـدم الذكر ليحتل منصب الأسقفيـة، وكان الرهبـان -على كل حـال -قـد اعتقـدوا أنه شخص غير لائـق لمثل هذا المنصب الرفيع، فقـاموا بمـوافقـة جماعية من جماعتهـم، بانتخاب كـاهنهم وليم، الذي كـان رئيس شمامسة ووركستر، وكـان رجـلاً متعلماً، ومستقيماً، وقـدموه إلى الملـك، وعمل الملك بعض الاعتراضات التـافهـة، ورفض استقباله، وبناء عليه أرسل الرهبان بعضاً منهم إلى روما، للحصول على تثبيت الانتخـاب، بمـوجب سلطة الحبر الأعظـم، وعندمـا سمع الملك بهذا، أرسل أسقف شيستر، ورئيـس رهبـان لانتـوني Lantony إلى رومـا، لمعـارضـة الرهبـان، ولإعاقـة مقـاصـدهم، ولأنهم استمـروا في الخلاف لمدة طويلة استمرت القضية من دون حسم.

حصار أفينون من قبل لويس ملك فرنسا

وحل في الوقت نفسه موعد عيد صعود ربنا، ففي ذلك اليوم صدرت الأوامر إلى جميع الصليبيين الفرنسيين الذين كانوا تحت قيادة الملك والنائب البابوي بالتجمع من دون تأخير، وكان الملك قد أنهى جميع إعداداته في ليون، فأخذ طريقه وارتحل مع قواته، وكانت هذه القوات جيشاً -كما بدت -عملاقاً لايقهر، وقد تبعها النائب البابوي، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورجال الدين الآخرون التابعون للكنيسة، وقدّر تعداد الجيش بأنه حوى حوالي الخمسين ألفاً من الفرسان، والجنود الخيالة، وذلك إلى جانب الجنود الرجالة، الذين كان من الصعب تعدادهم، ثم قام النائب البابوي فأعلن على الملأ الحرمان الكنسي لكونت طولوز ولجميع مشجعيه، ووضع جميع أراضيه تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وكما قلنا انطلق الملك مع الأعلام وهي تخفق والترسة وهي تلمع، وكان زحفه مرعباً حتى بدا وكأنه جيش من القلاع وهو يتحرك، وأخيراً دخل إلى مقاطعة كونت طولوز، وفي يوم أحد الشعانين وصلوا جميعاً إلى أفينون Avignon، التي كانت أول المدن في ممتلكات الكونت يصلون إليها، وقد قرروا على الفور أن يبدأوا هجومهم من هناك، وبالتالي اخضاع جميع أراضي الكونت مع سكانها من البداية حتى النهاية، ولدى وصول الملك والنائب البابوي طلب بشكل مخادع الاذن من السكان السماح لهم بالعبور من خلال المدينة، قائلين بأنهم قدموا إلى هناك بنوايا سليمة، وطلبوا معبراً من خلال المدينة حتى يتمكنوا فقط من تقصير مسافة زحفهم، وقام السكان بالتباحث حول هذا المطلب، وبعد ذلك لم يصدقوا تأكيداتهم، وقالوا إن مقصدهم الحصول داخل المدينة لنوايا عدوانية، وليس لاختصار المسافة، وهنا غضب الملك، وأقسم أنه لن يغادر المكان حتى يستولي على المدينة، وأمر على الفور بصف آلات قذفه حول المكان، وقام بهجوم

حاد، ونشب الآن قتال شديد استخدمت فيه بشكل متواصل: المجانيق، والقسي العقارة، وجميع أنواع الأسلحة الأخرى، وكانت المدينة -من جهة أخرى -لم تتعرض من قبل للهجوم عليها من قبل عساكر معادية، وكانت مدافع عنها بشكل جيد، بوساطة: خنادق، وأسوار، وسواتر دفاعية، وشرافات، وكانت من الداخل مشحونة بشكل جيد بالفرسان، وبآلاف من الجنود، كما كانت مزودة بشكل جيد بالخيول، وبالسلاح، وبأكوام من الحجارة من أجل المجانيق، وتوفرت فيها آلات رمي ومجانيق، كما كانت المؤن فيها وافرة، ولذلك لم يكن هناك خوف من المهاجمين، وقد قام المدافعون عن المدينة بشجاعة برمي حجرة مقابل حجرة، وسلاح مقابل سلاح، ورمح مقابل رمح، وسهم مقابل سهم، وأوقعوا جراحات مميتة بالقوات الفرنسية التي حاصرتهم.

الموتان والمجاعة بين المحاصرين

وبعدما استمر الحصار لوقت طويل، نقصت المؤن لدى المحاصرين وكادت أن تنعدم، وماتت أعداد من العساكر، لأن كونت طولوز، قام قبل وصول الفرنسيين بحكم كونه عسكرياً بارعاً، بنقل جميع أنواع المؤن مع المسنين من الرجال والنساء، وكذلك الأطفال، والخيول والقطعان، ولذلك حرموا من جميع أنواع المواد الأساسية والمؤن، ولم يتألم الناس فقط ويعانون، بل أيضاً خيول ومواشي الجيش، حيث هلكت من المجاعة، فقد كان الكونت قد تدبر من قبل فلاحة جميع الحقول في أرجاء المنطقة، ولذلك لم تتوفر هناك أية مواد للأكل وعلف المواشي، غير ماكانوا قد جلبوه من المناطق الفرنسية، ولذلك أرغمت كتل كبيرة من العساكر على التخلي عن المعسكر، للبحث عن الأطعمة من أجل الناس والأعلاف من أجل الخيول، واستولوا بوساطة هذه الغارات على كثير من البلدات التي وقفت ضدهم، إنما غالبا ماعانوا من خسائر كبيرة من حملات كونت طولوز، ومن كمائنه التي نصبها،

وكان الفرنسيون في هذا الحصار عرضة للموت بطرق كثيرة، منها كان من الموتان الذي انتشر بشكل مرعب بين الرجال والخيول، ومن الأسلحة المميتة، والحجارة القاتلة التي جاءت من عند المحاصرين، ومن المجاعة الشاملة التي استشرت بشكل رئيسي بين الطبقات الأشد فقراً، الذين لم يمتلكوا لا المال ولا الطعام، وذلك بالاضافة إلى التعاسات الأخرى، التي هاجمت الجيش من دون توقف، فقد صدر عن جثث الموتى من الناس والخيول، الذين كانوا يموتون في كل اتجاه روائح نتنه، وكانت بالاضافة إلى ذلك هناك أعداد هائلة من الذباب الأسود الكبير، وكانت تدخل إلى داخل الخيم، والسرادقات، والمقتنيات وتؤثر على المؤن والأشربة، وبما أنهم كانوا غير قادرين على ابعادهم عن كؤوسهم وصحونهم، سببوا موتاً مفاجئا بينهم، وكان الملك والنائب البابوي في وضع حرج جدا، لأنه إذا ماعادت هذه الحملة الكبيرة والقوية دون أن تنجز أهدافها، فلسوف يعاني الفرنسيون والرومان من وصمة عار، وعندما رأى قادة الجيش، أن التأخير صار طويلاً، بسبب أعداد الموتى، التمسوا ممن هم أدنى منهم رتبة وكذلك من رؤسائهم مهاجمة المدينة، ولدى قيام تلك الحشود الهائلة من الجنود بالزحف ضد المدينة، جاء ذلك الزحف فوق جسر كان قد بني فوق نهر الرون، فتدمر الجسر، إما من قبل سكان المدينة، أو بسبب ثقل الجنود الذين كانوا يقاتلون هناك،وقد غرق ثلاثة آلاف رجل في مجرى النهر السريع، ووقتها تصاعدت أصوات سرور من سكان المدينة، لكن ذلك أزعج الفرنسيين، وسيطر الاضطراب والقلق على الجيش الفرنسي، وكان سكان المدينة يترقبون فرصتهم، ولذلك أقلعوا بغارة شعواء من المدينة، وبقوة كبيرة، وجاء ذلك في أحد الأيام عندما كان الفرنسيون قد جلسوا وراء المائدة يأكلون ويشربون، ثم إنهم عادوا إلى المدينة دون المعاناة من خسارة بينهم أنفسهم، وقام سكان المدينة هؤلاء بغارات متواصلة ضدهم، وكان الملك الفرنسي يائساً، وقد أمر برمي جثث القتلى في نهر

الرون، من أجل تجنب روائح النتانة، لأنه بسبب كثرة عدد جثث القتلى لم يتوفر لديهم مكان آخر للدفن، ثم إنهم عملوا خندقاً عميقاً بينهم وبين المدينة، وتمت متابعة أعمال الحصار من على مسافة كبيرة عن المدينة، ولم يتوفر لدى النائب البابوي وحشد الأساقفة في ذلك الحين، من وسائل العقوبة غير انزال عقوبة الحرمان الكنسي بكونت طولوز، وبسكان المدينة، وبجميع سكان المنطقة.

وفاة الملك الفرنسي لويس

وقام في هذه الآونة الملك الفرنسي لويس، من أجل النجاة من الطاعون الذي كان يحدث دماراً هائلاً في المعسكر، باللجوء إلى دير اسمه مونتبنسير Montpensier ، على مقربة من البلدة المحاصرة، لينتظر سقوط المدينة، ووصل إليه إلى ذلك المكان كونت شامبين، وكان قد أمضى أربعين يوماً في الحصار، ووفقاً للعادة الفرنسية، طلب الإذن بالسماح بالعودة إلى الوطن، لكن الملك رفض السماح له، فقال بأنه خدم الأربعين يوماً المتوجبين عليه، وهو ليس مفروضاً عليه البقاء أكثر، ثم إنه لن يبقى أية مدة أطول، وثار غضب الملك، وأعلن مقسما بأنه إذا ماغادر الكونت، سوف يعيث فساداً في أراضيه بالسيف والنار، وكان الكونت -حسبما ذكرت بعض التقارير -واقعاً بالحب مع الملكة، فتدبر دس بعض السم إلى الملك، وتعجل بذلك، لأن الرغبة بالعودة قد استبدت به، وماعاد بإمكانه الانتظار أية مدة أطول، وقد قيل أنه بعدما غادر الكونت، وقع الملك مريضاً جداً، وسرى السم في عروقه، وأوصله إلى حافة الموت، هذا ويؤكد بعضهم أنه لم يمت بالسم بل بالاسهال الشديد، وعندما مات الملك أخفى النائب الروماني للكرسي الرسولي، الذي كان حاضراً أثناء الحصار، وكذلك الأساقفة الذين كانوا مستشاريه السريين، وكانوا أيضاً هناك، خبر موت الملك حتى تستسلم المدينة، لأنه لو رفع الحصار آنذاك،

لألقيت ملامة عظيمة عليهم، وبناء عليه تظاهر النائب البابوي ورجال الدين الذين كانوا هناك أثناء الحصار، بأن الملك محبوس بسبب مرض شديد، وقالوا بأن الأطباء يرون أنه سوف يتعافى على الفور، وبناء عليه حشوا قادة مختلف الوحدات على مهاجمة المدينة بكل مالديهم من قوة، وقد حفظوا جسد الملك بوساطة كميات كبيرة من الملح، ودفنوا أحشاءه في الدير، وقاموا بتغليف جسده بالشمع وبالكتان وبجلود الثيران، وحفظوه بعد ذلك في مكان أمين في الدير، ثم عاد النائب البابوي ورجال الدين إلى الحصار، وعندما وجد النائب البابوي أنهم لم يتقدموا بل كانوا يواجهون الاخفاق بشكل دائم، بسبب مختلف ألوان سوء الحظ، قام هذا النائب، بناء على نصيحة شيوخ المعسكر، فأرسل رسالة إلى داخل المدينة، وطلب من أهل المدينة ارسال اثني عشر شيخاً منها إليه بعد تسلمهم ضمانة وأمانا، وأن ينفذوا ذلك بأسرع وقت ممكن من أجل الاتفاق على السلام.

كيف تم الاستيلاء على أفينون من قبل الفرنسيين خيانة

وبعدما جرى تقديم رهائن إلى أهل المدينة ضمانة لوفد يأتي من عندهم، خرج من المدينة اثنى عشر رجلاً من سكانها لعقد مؤتمر مع النائب البابوي، وبعد نقاش طويل حول السلام، نصح أهل المدينة باخلاص أن يقوموا بتسليم أنفسهم، وبذلك يصونوا أنفسهم، وممتلكاتهم ومقتنياتهم، وامتيازاتهم إلى أقصى حد تمتعوا به في حياتهم، وعلى هذا رد الرسل بأنهم سوف لن يسلموا أنفسهم بأي شكل من الأشكال ليعيشوا تحت حكم الفرنسيين، الذين عانوا من عجرفتهم ورعونتهم القاسية في غالب الأحيان، وبعد نقاش طويل على الجانبين،طلب النائب البابوي الاذن له بالدخول الى المدينة مع رجال الدين الذين كانوا حاضرين، حتى يتفحصوا إيمان السكان،وأقسم بأنه أطال الحصار فقط من أجل تأمين النجاة والخلاص لأنفسهم،وأضاف

أيضـاً أن صرخـة الكفـر،التـي نالت القـوة في المدينة،قـدوصلت الى البـابا،ولذلك هو يرغب في معـرفة فيها إذا كـانوا يؤيدون هذه الصرخة بأعمالهم، ووثق السكان هنا بوعـود المندوب البـابوي ، ولم تتوفـر لديهم شكوك بوجـود خيانة، وبعد تأديـة اليمين من على الجانبين حول الشرط المذكـور أعـلاه، أعطوا إلى المندوب البـابوي وإلى رجـال الدين الإذن بدخول المدينـة من دون الآخرين، وبصحبتهم، لكن كما جـرى الإعداد من قبل، قـام الفرنسيـون بشكل خياني، وخـارقين بشكل معيب لليمين الذي أداه المندوب البـابوي، فشقـوا طريقهم بالقـوة إلى داخل المدينة، وجعلوا من السكان أسرى، وبعـدمـا حصلوا هكذا بشكل خيـاني على النصر، دمـروا الأبراج والأسـوار الموجـودة في هذا المكان البهي، وقـام النائب البـابوي بعـد ذلك بـوضع المدينة تحت عهـدة الفـرنسيين، ورفع الحصـار، وأمـر بحمل جسـد الملك إلى باريس، وأن يتـولى ذلك الكهنة الذين كـانوا محتشـدين هنـاك، وذلك من أجل دفنه بين أجـداده، حسبما كانت العـادة مع الملوك، ولقد قـالوا بأن الملك قد مـات في شهر ايلول، وقد أخفوا نبأ موته لمدة شهر أو أكثر، وقد مات من بين الذين ذهبوا إلى الحصـار مع الملك اثنين وعشرين ألفـاً في ذلك المكان، بما في ذلك الذين قتلوا وغـرقـوا، وكـذلك الذين مـاتوا من الطـواعين، أو مـاتوا بشكل طبيعي، وبذلـك توفـر سبب عظيـم للبكاء عليهم وللحـزن من قبل أزواجهم وأولادهم، ومن هذا اتضح تماما بأن حرباً غير عادلة هي التي خيضت، كـانت دوافعهـا الحسـد والنهم أكثـر من الرغبـة في محق الهرطقة.

تتويج لويس ملكاً على فرنسا الذي هو ابن لويس الملك المتوفى

وبعد وفاة لويس الذي كان ملك فـرنسا، دعت زوجته السيدة الملكة بلانشي رؤساء الأساقفـة، والأساقفة، ورجال الدين الآخـرين العائدين لمختلف الكنائس، وكذلك النبلاء الذين يدينون بالولاء للتاج، للاجتماع

في باريس في الثالث عشر من تشرين الثاني، من أجل تتويج لويس ابن الملك لويس المتوفى، وطلبت جماعة النبلاء الرئيسيون قبل اليوم المحدد -تماشياً مع العادة الفرنسية -اطلاق سراح جميع السجناء، وبشكل خاص فيراند كونت فلاندرز، ورينالد كونت أوف بولون، الذي أبقي في السجن -على الرغم من امتيازات المملكة -حتى الآن اثني عشر عاماً، وطالب بعضهم -على كل حال -بإعادة أراضيهم إليهم، التي احتفظ بها لويس والد فيليب وجدّ الملك الشاب، لمدة طويلة، وأبقاها بحوزته بشكل غير عادل، وأضافوا أيضاً أنه لايجوز حرمان أي واحد في المملكة الفرنسية من حقوقه، مالم يكن ذلك بقرار صادر عن اثني عشر من نظرائه، وينبغي أن لايعمل أحد حرباً من دون اشعار مسبق قبل سنة، وأعلنوا أنه فور تنفيذ هذه الاصلاحات، فإنهم سوف يقدمون من دون تأخير إلى التتويج، وخشيت الملكة أن التأخير قد يسبب خطراً، ولذلك قامت بناء على نصيحة النائب البابوي، باستدعاء رجال دين المملكة، مع قليل من النبلاء أمكنها جمعهم، وفي يوم عيد القديس أندرو الرسول، تدبرت أمر تتويج ابنها ملكاً، مع أنه كان طفلاً لم يبلغ العاشرة من عمره، وغيب دوق بيرغندي نفسه، ولم يحضر التتويج، ومثل ذلك فعل كونت شامبين، وكونت دي بار، وكونت سينت بولص، وكونت دي بريتاني، وتقريباً جميع النبلاء المتوجب عليهم طاعة التاج، واستعدوا للقتال أكثر من استعدادهم للسلام والتابعية الحسنة.

ولدى سماع الملك الانكليزي بهذه الخلافات بين النبلاء المتقدم ذكرهم، بعث وولتر رئيس أساقفة يورك والفارس فيليب دي ألبيني إلى مقاطعات ماوراء البحر، مع رسل آخرين خاصين، إلى نبلاء نورماندي، وأنجو، وبريتاني، وبواتو، الذين كانوا مرتبطين بولاء التابعية له، وطلب القبول بينهم، وقدم إليهم بالوقت نفسه وعوداً كبيرةً، إذا ما استقبلوه باخلاص جيد.

موت فالكاسيوس ونبوءة منذرة بتلك الحادثة

وأنهى في هذا العام نفسه فالكاسيوس حياته الشريرة في سينت سير Cyr ، وجاء ذلك بعد نفيه من انكلترا، وأثناء عودته إلى هناك بعدما رتب الأمور في بلاط روما، وكان هذا اللص الظالم فالكاسيوس، قد قام أثناء حياته، بنهب بلدة سينت ألبان بشكل وحشي، وقتل بعض السكان، وسجن البقية، واستخرج مبلغا كبيراً من المال من راعي الدير، وكذلك من البلدة، وذلك من أجل ابقاء الدير، والبيعة، والبلدة، والحيلولة دون إحراقهم من قبله، وكان قد حدث بعد هذا أن ذهب إلى سينت ألبان ثانية ليلتقي مع باندولف أسقف نورويك، وسأله هذا الأسقف لدى رؤيته له، على مسمع من راعي الدير نفسه وعدد كبير آخر، عما إذا كان قد أساء إلى القديس ألبان بأية طريقة من الطرق، فأجابه فالكاسيوس بأنه لم يقترف شيئاً من هذا القبيل، وهنا أضاف الأسقف قائلاً: «لقد سألتك هذا السؤال، بسبب أنني رأيت في إحدى الليالي الأخيرة، عندما كنت نائماً على حشيتي، في المنام في كنيسة القديس ألبان، نفسي واقفاً أمام المذبح الكبير، ولدى التفاتي بعدما قدمت صلاتي، رأيتك واقفاً في سدة الرهبان، ولدى نظري نحو الأعلى، رأيت حجرة كبيرة وثقيلة تسقط من البرج على رأسك بقوة شديدة، وبذلك سحق جسدك كله ورأسك، واختفيت فجأة، وكأنك قد غرقت في الأرض، ولهذا إني أنصحك، إذا ماكنت قد قدمت أدنى اساءة إلى الشهيد، أن تقوم بتكفير صحيح له ولأتباعه، قبل أن تسقط الحجر على رأسك»، ولكن حدث أن هذا التعيس عندما طلب فيما بعد المسامحة من راعي الدير ومن الرهبان بسبب آثامه، أعلن بوضوح، بأنه سوف لن يعيد أياً من المقتنيات التي استولى عليها، وعلى هذا بات واضحاً أن التوبة التي عملها كانت من دون تأثير لأن: «الذنب لايجري العفو عنه وغفرانه مالم تتم إعادة الممتلكات المسروقة»، كما أنه شعر بسقوط الحجر

على رأسه، عندما حدث بعد ذلك بوقت قصير في بدفورد حيث جرى شنق أخيه مع رفاقه، وهو نفسه أرسل إلى المنفى رجلاً فقيراً، وقد أنهى الآن حياته بميتة تعيسة.

ومات في العام نفسه الأسقف بندكت أسقف روكستر، وباندولف أسقف نورويك، وخلف باندولف توماس دي بلندفيل Blundeville، وكان محاسباً لخزينة الملك، وقد جرى تكريسه من قبل ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، وكان ذلك يوم الأحد التالي قبل عيد الميلاد.

استخراج الملك الانكليزي للمال

عام ١٢٢٧م، فيه احتفل الملك هنري بعيد الميلاد في ردنغ، وفي اسبوع الميلاد نفسه مات وليم ايرل اسكس مما سبب الحزن للكثيرين، لأنه كان شاباً، وكان محبوباً وكريماً، ثم ذهب الملك إلى لندن، واتهم سكان المدينة، أنهم سببوا له الخسارة، عندما دفعوا خمسة آلاف مارك من الفضة، إلى لويس، الملك الفرنسي الذي توفي مؤخراً، وكان ذلك أثناء مغادرته لانكلترا، ولذلك قام الملك بناء على نصيحة مستشاريه مسببي الاضطرابات، بإرغام سكان المدينة على دفع مبلغ مماثل له، وعلاوة على ذلك أخذ منهم الجزء من الخمسة عشر جزءاً من ممتلكاتهم المتحركة، وكذلك من جميع مقتنياتهم الأساسية، وكان هذا الشيء نفسه قد منح إليه من قبل في جميع أرجاء انكلترا، ولقد أخذ أيضاً من سكان بيتربورا Peter borough ونورثأمبريان Northumbrians ألفاً ومائتي باوند، وذلك بالاضافة إلى الجزء من الخمسة عشر جزئاً، الذي دفعه الجميع في جميع أنحاء المملكة بشكل عام، ولقد جرى إرغام حتى رجال الدين والكهنة ذوي الموارد على دفع الجزء من الخمسة عشر جزئاً من جميع مقتنياتهم، وكذلك من الممتلكات اللاهوتية والعلمانية، وجاء تقديم

التماس إلى البابا بلا فائدة، لأن نظم الأشياء والأمور، قد جرى تغييرها، وكذلك لحق التغيير رؤساء الأساقفة والأساقفة بموجب سلطات البابا، وتقريع الكنيسة، فقد أرغم هؤلاء على أن يدفعوا ما لاترغمهم السلطة العلمانية عليه، وهكذا حرموا من كل سبل التفريج.

كيف ألغى الملك صكوك الامتيازات في مجمع عقد في اكسفورد

وعقد الملك في شهر شباط من العام نفسه مجمعاً في اكسفورد، وقام أمام جميع الحضور باعلان نفسه بأنه قد وصل إلى السن القانوني، حتى يتحرر من الوصاية، ولكي يتسلم ممارسة شؤون المملكة والقيام بواجباتها، وهكذا تولى الملك الذي كان من قبل تلميذاً لوليم مارشال وتحت وصايته أثناء حياته، ثم بعد موته تحت وصاية بطرس أسقف وينكستر، تحرير نفسه تحريراً تاماً، بناء على نصيحة هيوبرت دي بورغ، المسؤول عن العدالة في انكلترا، من جميع آراء وقيود الأسقف المذكور ورفاقه الذين كانوا من قبل أساتذته، وصرفهم جميعاً من بلاطه، وقطع علاقاتهم كلها به، وقام الملك المذكور في المجمع نفسه أيضاً بإزالة جميع صكوك امتيازات الغابات في جميع كونتيات انكلترا، وذلك بعدما كانوا موضع التطبيق في جميع أنحاء انكلترا لمدة عامين، وأعطى سبباً علل فيه ذلك بأن تلك الصكوك قد منحت، وجرت كتابة الامتيازات، والتوقيع عليها، عندما كان تحت الوصاية، وليس لديه سلطة في ذاته أو في ختمه، وبما أنها اغتصاب غير معقول، لم يعد من المعقول استمرارها لعدم فائدتها، وبناء على هذا ثار عدد كبير بين الذين كانوا في المؤتمر، وقرروا جميعاً بأن هذا الظلم كان مقترفه المسؤول عن العدالة، وأنه هو صانع هذا الاضطراب، لأنه صار بعد ذلك مقرباً كثيراً من الملك، حتى بات جميع مستشاري المملكة وكأنهم بلاقيمة، ثم صدرت الأوامر إلى رجال الدين وإلى الآخرين، الذين كان بودهم التمتع بامتيازاتهم، أن يقوموا بتجديد صكوكهم تحت الختم الجديد للملك، لأنهم علموا بأنه بات

يرى بأن الصكوك القديمة باتت غير فاعلة، ولهذا جرى فرض ضرائب جديدة ليس وفقا لامكانات كل واحد منهم، بل إنهم أرغموا على دفع كل الذي قرره المسؤول عن العدالة وفرضه.

كيف عاد رسل الملك الذين بعثهم إلى فرنسا من دون تحقيق غرضهم

ومات في العام نفسه البابا هونوريوس في الثامن عشر من آذار، وقد خلفه غريغوري أسقف أوستيا، وفي العام نفسه، في حوالي عيد الفصح، عاد رئيس أساقفة يورك، وأسقف كارآيل، وفيليب دي ألبيني، وهم رسل الملك، من القارة، وكانوا قد أرسلوا إلى نبلاء تلك المناطق، التي كانت بموجب الحقوق القديمة تدين بالطاعة إلى ملك انكلترا، وكانوا قد أمروا من قبل الملك بمحاولة إقناعهم بحديث لطيف، وبوعود كبيرة لاستقبال الملك المذكور، وللاعتراف به بمثابة سيدهم الطبيعي، ولكن حتى لانطيل الحديث من دون فائدة، كان الملك الفرنسي، قد عمل سلاماً مع البارونات وتلقى الولاء منهم، وجاء ذلك بناء على تدخل أمه، وبعدما وزع بينهم بكرم زائد الأراضي والقلاع من الممتلكات الملكية، وهكذا اتخذ أصدقاء من «خلال الجشع غير العادل»، وكان هذا كله قد حدث، قبل وصول رسل الملك إلى تلك المناطق، وطلب الرسل المتقدم ذكرهم من كونت بريتاني إعطاء ابنته لتكون زوجة للملك الانكليزي، فرد بأنه قد عمل معاهدة سلام مع ملك فرنسا، وهو لن يقوم بخرقها بأي حال من الأحوال، ولذلك عاد الرسل، وأخبروا الملك بالذي عملوه، وفي شهر أيار من العام نفسه، وصل رتشارد أخو الملك إلى انكلترا، واستقبل بكثير من السرور من قبل الملك والنبلاء، وفي حوالي الوقت نفسه تلقى هنري دي سانفورت Sanfort، رئيس شمامسة شيستر، الذي جرى انتخابه بشكل قانوني أسقفاً لوركستر، السيامة والتكريس على يدي ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، وفي

الخامس من شباط من العـام نفسه، جرى تقديم هيـوبرت المسؤول عن العدالة في انكلترا مع سيف كونتيه كنت، من قبل الملك.

كيف ثار البارونات ضد الملك

في التـاسع من تموز من العـام نفسـه، نشب خـلاف بين ملك انكلترا وبين أخيـه رتشارد إيرل أوف كـورنوول، وكـان سببه هو كمايلي: كـان الملك جـون، والد الملك الحالي، قـد منح أثناء حيـاته إلى فـاليران، وهو ألماني، كان آنذاك قسطلان بيركها مستد، إحدى العزب العائدة إلى ايرلية كـورنوول، ولدى سماع الايرل رتشـارد الذي كـان قـد وصل منذ أمـد وجيز من القارة، بأن العزبة عائدة إلى ايرليته، أمر بالاستيلاء على البلدة لصـالحة، حتى يتمكن من معرفـة مـا التي كانتـه حقـوق فاليران فيهـا، وعندمـا سمع فـاليران بهذا قـدم مسرعـاً كل السرعـة إلى الملك، وقـدم شكوى ضد أخيـه رتشارد، وبناء عليه أرسل الملك رسـائل إلى أخيه أن يقـوم فـور تسلمهم بإعـادة العـزبة إلى فـاليران، وعندمـا قـرأ رتشـارد الرسـائل بادر مسرعـاً إلى الملك، وترافع من دون وجـود محامي، بشكل بارع ومنطقي بأن العـزبة عـائـدة له وحق له، ولذلك هو على استعـداد للالتـزام بقـرار محكمـة بلاط الملك وقـرار نبـلاء المملكة، ولقـد غضب الملك غضباً كبيراً وشـاركه في ذلك المسـؤول عن العدالة، لدى سماعهما ذكره للنبـلاء، وأمر الملك أخـاه بلهجة ملكيـة قاسيـة وبطيش، أن يقوم على الفـور بتسليم العزبة إلى فـاليران، أو أن يغادر المملكة وأن لايعـود مطلقـاً، وعلى هذا رد الايرل قائـلاً بأنه لن يتخلى عن حقه إلى فـاليران، كما أنه لن يغادر المملكة، من دون قـرار صادر عن نظرائه، ومـا أن فرغ من كلامـه هذا حتى غادر وقصد بيته، وخشي المسـؤول عن العدالة أن يعكر الايـرل السـلام في المملكـة، فنصح الملك -كما قيل - أن يـرسل بعض الفرسان لاعتقـال أخيه أثناء نومه في الليلة التـالية، وأن يودعه في سجن مضيق عليه، وبذلك يمكن للملك أن يتمتع بسلام دائم، وجرى

-على كل حال - إنذار رتشارد مسبقاً من قبل صديق له، فبادر مسرعاً مع فارس واحد برفقته، ولم يتوقف ويرخي عنان حصانه حتى وصل إلى ردنغ، ولحقت به عساكره في الصباح، وقد وجدوا مولاهم سالماً ومعافى في مكان كان متفقا عليه معهم، ثم أخذ الايرل طريقه نحو مارلبورا، والتقى في ذلك المكان بوليم مارشال، الذي كان صديقه، وحليفه المتعاهد معه، وقد أخبره بكل الذي حدث معه، وعندها ذهب الاثنان إلى ايرل شيستر، وحدثاه تماما عما حدث من وقائع، ثم أقسموا أن يكونوا أوفياء أحدهم نحو الآخر، وأرسلوا رسائل إلى الخارج فحشدوا جيشاً كبيراً، وخلال وقت قصير اجتمع في ستامفورد الايرلات مجهزين بالخيول، ومزودين بالسلاح، وهم: رالف أوف شيستر، ووليم مارشال، ورتشارد أخو الملك، وغيلبرت أوف غلوستر، ووليم أوف وارين Warrenne وهنري أوف هيرفورد، ووليم ايرل فيرير Ferrers، ووليم أوف ووريك Warwick وذلك إلى جانب عدد كبير من البارونات، وكتلة كبيرة من الجنود، ثم إنهم وجهوا إنذاراً شديداً إلى الملك، بوجوب أن يقوم على الفور باصلاح الخطأ الذي اقترفه بحق أخيه، لكنهم لم يضعوا الملامة حول هذا على الملك، بل على المسؤول عن العدالة، وعلاوة على ذلك طالبوا بجرأة أن يقوم الملك من دون تأخير، فيعيد إليهم تحت ختمه صكوك الامتيازات المتعلقة بالغابات التي قام مؤخراً بالغائها في اكسفورد، وإلاّ فإنهم سوف يرغمونه بقوة السلاح على إعطائهم ترضية كافية حول هذه القضايا،ولدى تسلم الملك لهذه الرسالة، أمرهم بالالتقاء به في نورثأمبتون في الثالث من آب، حتى يتمكن وقتها من منحهم عدالة مناسبة، وبناء عليه اجتمع الفرقاء في المدينة المذكورة أعلاه في الموعد المحدد، وقام الملك، بناء على طلب مستعجل من النبلاء، بأعطاء أخيه، الايرل رتشارد بائنة أمه كلها، مضافاً إليها جميع الأراضي العائدة إلى ملكية كونت بريتاني في انكلترا، وجميع ممتلكات كونت بولون الذي

توفي مؤخراً، وبعد هذا عاد الجميع بسلام إلى مواطنهم.

وفي العام نفسه، كان هناك ناسك يسكن في الألب وراء البحر، يقوم كما هي عادته فيقرأ في مزاميره، ولدى وصوله إلى المزمور الذي بدايته «ليقم الرب»، وجد ذلك المزمور محذوفاً، ووجد مكانه قد كتبت هذه الكلمات: «روماني سوف يثور ضد روماني، وروماني سوف يوضع مكان روماني، وعصي الرعاة سوف تضيء، ولسوف يكون هناك هدوء في راحة، ولسوف يتعكر صفو الساهر، وسوف يصلي، وسوف يكون في دموع الحشد راحة، وسوف يلعب القانوني مع المجنون، ولسوف تبرد الحمى المطفأة، وسوف يزحف قطيع جديد إلى القبر، والذين يتولون التنظيف بالأحراش سوف يتغذون بغذاء خفيف، وسوف تعاق ثقة المواسين وراحتهم في التأمين الذي عليه يعتمدون، والذين يسيرون في الظلام سوف يعودون إلى الضوء، والأشياء التي كانت مختلفة سوف تلقى المواساة بأشياء مختلفة، وما من سحابة صغيرة سوف تبدأ بالامطار، لأن مغير العمر قد ولد، وسوف تثور الحظوة ضد البساطة، والبساطة سوف تنفث وهناً، وسوف يتحول الشرف إلى لاشرف، وسرور الكثيرين إلى حزن»، ولسوف يظهر تأويل هذه النبوءة في الأحداث التالية واضحاً أكثر من الضوء، إذا ما جرى البحث فيها بدقة.

كيف جرت إثارة كبيرة في هذه الآونة للمساعدة في الصليبية

جرت في العام نفسه، في نهاية حزيران إثارة حركة كبيرة لمساعدة الصليب من قبل جميع الصليبيين في جميع أرجاء العالم، وكانت أعدادهم كبيرة جداً، حتى قيل بأن أربعين ألفاً من الرجال المجربين من انكلترا وحدها قد زحفوا وإلى جانبهم النساء والشيوخ، وقد أعلن عن هذا المعلم هيوبرت، الذين كان واحداً من المبشرين في انكلترا، وقد أكد أنه في الحقيقة قد دوّن في سجله قدر هذا العدد، وجميع هؤلاء، ولاسيما

الفقراء الذين عليهم تنزل البهجة اللاهوتيه، قد دخلوا للقيام بهذه الصليبية بتقوى عالية وايهان عظيم حتى أنهم قد حصلوا من دون شك على الحظوة والرضا عند الرب القدير، كما ظهر ذلك واضحاً في كثير من الاشارات، ففي ليلة ميلاد القديس يوحنا المعمدان، أظهر الرب نفسه في السماء، مثلما عندما صلب، فقد ظهر صليب مشع كثيراً وعليه جسد الرب مخروق بالمسامير، ومطعون بالحربة، وملطخ بالدم، وهكذا أظهر مخلص العالم بهذا إلى أتباعه المخلصين في الدنيا، بأنه كان راضياً بوساطة إيمان شعبه، ورأى هذا المشهد عدد كبير من الناس، وكان من بينهم تاجر، كان يحمل سمكاً للبيع قرب أوكسبردج Uxbridge، فقد أصيب بالدهشة تجاه ذلك المشهد الغريب، وخاف من لمعانه، وقد قيل بأنه غرق في الوجد، ووقف في حالة دهشة، غير عارف مالذي عليه فعله، وكان ابنه رفيقه الوحيد قد طمأن والده، وسأله أن يوقف عربته، ويقدم الشكر للرب الذي تلطف بأن أراهما مثل هذه الرؤيا، وقام في اليوم التالي - لا بالواقع في كل يوم فيما بعد عند عرض أسماكه للبيع - بإخبار كل واحد بشكل علني عن الرؤيا السماوية التي شاهدها، وأضاف ابنه شاهداً عليه وصدق كثيرون هذه الحكاية، لكن بعضهم لم يصدقوها حتى اقتنعوا بتصديقها، بوساطة الرؤى الكثيرة التي ظهرت في الوقت نفسه لكثير من الناس في أماكن مختلفة، ففي هذه الحالات طلب المصلوب بفتح السماء ليري المتشككين مجده الرائع، ببهاء عظيم، وكان بين الذين ذهبوا من انكلترا للالتحاق بالحملة الصليبية الأسقفان: بطرس أوف وينكستر، ووليم أوف ايكستر، اللذان وفيا بعهدهما بالحج منذ قرابة خمسة أعوام.

تطور أحوال الحملة الصليبية في هذه الآونة

سوف تظهر تطور شؤون الصليب في هذه الحملة الصليبية بشكل واضح في الرسالة التالية التي بعث بها البابا غريغوري إلى جميع الأتباع

المؤمنين للمسيح: «من غريغوري الأسقف، عبد عبيد الرب، إلى جميع المؤمنين المسيحيين، التحيات، الخ، ليكن معلوماً لدى جماعتكم كلها بأننا قد تسلمنا رسائل من بلاد ماوراء البحر محتواها هو كمايلي: من جيرالد الذي هو برحمة الرب بطريرك القدس، ومن ب .P رئيس أساقفة قيسارية،، الذي هو النائب الحقير والمتواضع للكرسي الرسولي، ومن ن.N رئيس أساقفة نربونة، ومن ب. P أسقف أوف وينكستر، ومن و. Wأسقف أوف ايكستر، ومن مقدمي الاسبتارية، ومقدمي فرسان الداوية، ومن طائفة اسبتارية التيوتون، إلى جميع من سوف تصلهم هذه الرسائل، تمنيات الصحة في مولانا يسوع المسيح، نحن مرغمون على اخبار جماعتكم كلها عن حاجاتنا الأكثر إلحاحا وعجلة، وعن تقدمنا في العمل في سبيل قضية مولانا يسوع المسيح، الذي سفك دمه من أجل جميع المؤمنين الصادقين، وإنه مع كثير من القلق والانزعاج في العقل، ومع سفح للكثير من الدموع، تعلمون أن صاحب المقام السامي، الامبراطور لم يقدم إلى سورية، كما كنا جميعاً نأمل بوصوله في شهر آب المنصرم، كما كان قد وعد، ونتيجة لهذا فإن الحجاج من تلك المناطق، عندما سمعوا بأن الامبراطور لم يصل في العبور المتقدم، وكان تعدادهم أكثر من أربعين ألفاً من الرجال الأشداء، عادوا في السفن نفسها، كما جاءوا، واضعين ثقتهم في انسان بدلاً من وضعها في الرب، وبعد مغادرتهم، قد بقي هنا قرابة الثمانمائة فارس، هم الذين مابرحوا يصرخون بصوت واحد: «دعونا إما أن نخرق الهدنة، أو اتركونا نغادر مع بعضنا»، وهم قد أبقيوا هنا ليس من دون صعوبات كبيرة، لأن دوق أوف ليمبورغ Limburg، وهو رجل من أصل نبيل، قد جرى تعيينه قائداً للجيش، في مكان الامبراطور، وجرى لهذا عقد مؤتمر ضم بشكل خاص: الاسبتارية، والداوية، والاسبتارية الألمان، وفيه تم الاتفاق على أن يقوم الدوق المتقدم الذكر بالعمل حسبما يكون الأفضل لصالح المسألة الصليبية والأرض المقدسة، ثم إن الدوق سأل،

وتلقى النصيحة حول النقاط التالية، وظهر في اليوم المحدد بشكل خاص من أجل القضية المعروضة، أمامنا وأمام نبلاء تلك البلاد، وهناك أعلن بشكل واضح بأنه يرغب في خرق الهدنة، وسأل المساعدة والنصيحة من الحضور حول كيف يمكنه السير بشكل هو الأكثر منفعة في سبيل تنفيذ تلك النية، وعندما جرى إخبار الدوق ومستشاريه أنه سوف يكون من الخطورة بمكان خرق الهدنة، ولأنها مؤكدة بالأيمان، سوف يكون ذلك غير مشرف أيضاً، أجابوا بأن صاحب القداسة البابا قد حرم كنسيا جميع الصليبيين الذين لن يلتحقوا بهذه الحملة الصليبية، مع أنه يعلم بأن الهدنة ينبغي أن تستمر لمدة عامين أكثر، وبهذا فهموا بأنه لم يرغب بالحفاظ على هذه الهدنة، وبالاضافة إلى هذا لن يبقي الحجاج هنا من دون عمل، وكان هناك أيضاً كثير من الناس قد قالوا بأنه ما أن يغادر الحجاج، حتى سيقوم المسلمون بعد مغادرتهم بمهاجمتهم، دون إقامة تقدير للهدنة، وقال بعضهم بأن الملك الأشرف مشغول بحرب شديدة مع حكام حماه، وحمص، وحلب، ولهذا السبب كان خائفاً أكثر مما هو معتاد من قيام الصليبيين بخرق الهدنة، وإذا ماجرى خرق الهدنة، اعتقدوا بأن الملك الأشرف، عندما سيجد نفسه معرضاً للضغط عليه بالحرب من جميع الجهات، ربما سيقدم شروطاً للسلام، وأخيراً، وبعد مناقشات طويلة حول هذه القضايا، وافقوا كلهم بالاجماع على الزحف إلى المدينة المقدسة، التي كرسها يسوع المسيح بدمه شخصيا، ولكي يكون الوصول إليها سهلاً، تقرر بالاجماع القيام بالمقام الأول بتحصين قيسارية أولاً ثم يافا، الأمر الذي أملوا أن يكونوا قادرين على انجازه قبل العبور الذي سيكون في آب المقبل، وعندها سوف يكونون في الشتاء المقبل قادرين بسرور على الانطلاق نحو بيت الرب، تحت حمايته، وجرى الاعلان عن هذا القرار خارج مدينة عكا، في يوم عيد الرسولين سمعان وجود،وجاء ذلك بحضور جميع الحجاج، وهناك أمروا بشكل صارم ووقور أن يكونوا جاهزين في

اليوم التالي ليوم عيد جميع القـديسين، للانطلاق نحو قيسارية، وبالنسبة للحجاج الذين لم يعرفـوا الخطة التي قررها الجيش، لدى سماعهم بهذا، بعد تحصين القلعتين المتقدم ذكرهما، تملكتهم فجأة رغبة عظيمة بالزحف نحـو القـدس، حتى أنهم بكوا بكاء كثيراً، وشعـروا بأنهم تمتنوا كثيراً بفضل نعمة الروح القدس، حتى أن كل واحد منهم شعر بأنه قادر على غلبـة ألـف من الأعـداء، وأن اثنين يمكنهما قهـر عشرة آلاف، ولذلك نحن لسنا بحـاجـة إلى استخـدام كثير من المثيرات لحثكم وتحريضكم، لأن هذه الضرورات الملحـة تتحـدث عن نفسهـا، وتطالب بمسـاعـدة فورية، لأن التـأخير يجلب الخطر، والسرعة سوف تكـون منتجة لأعظم المنافع، ويدعو دم المسيح من هذه البـلاد كل واحد منكم، وهذا الجيش الصغير والمتـواضع، لكن التقي، يلتمـس منكم مسـاعـدة سريعـة، وهو يضع أمله وثقتـه بالرب، بأن هذا العمل الـذي بدأ بكل تواضع، يمكن أن ينتهي بفضله نهاية سعيدة، وبناء عليه حثوا أنفسكم جميعا، وليقم كل واحد منكم ببذل غاية جهده لمساعدة الأرض المقدسة، لأن هذا يمكن عدّه القضية العامة لكم كمؤمنين ولجميع الشعب المسيحي، ونحن تحت عناية الرب وتوجيهـه لن نتوقف عن رفع شأن هذه القضيـة، آملين بثقة بأنها سوف تتقدم على أيدي المؤمنين المحفـوظين بثقة. صدر في اللاتيران في الثالث والعشرين من كانون الأول من السنة الأولى لبابويتنا».

كيف أعيقت الحملة الصليبية من خلال غياب الامبراطور

وفي الوقت نفسـه عزم الامبراطور فردريك، الـذي كان مع صليبيين آخـرين تحت عقوبة الحرمـان الكنسي من قبل البـابا منذ العبور المتقـدم الذكـر، على الوفـاء بعهـده والقيـام بـالحج، ولذلك ذهب نحـو البحـر المتوسط، وأقلع مع حاشية صغيرة، وبعـد التظاهر بالتوجه نحو الأرض المقدسة لمدة ثلاثة أيام، قال بأنه أصيب بمرض مفاجيء، ولذلك لم يعد بامكانه المخـاطرة بحيـاته، ولا أن يتحمل قسـاوة البحـر، والمناخ غير

الصحي، ولذلك غير اتجاهه،، وبعد ابحار ثلاثة أيام، عاد وتوقف عند الميناء الذي أقلع منه، وعلى هذا فإن الحجاج من مختلف أجزاء العالم، الذين كانوا قد ذهبوا إلى الأرض المقدسة، على أمل اتخاذه قائداً وحامياً في القتال ضد أعداء الصليب، قد أصيبوا بالرعب والاحباط لدى سماعهم بأن الامبراطور ليس قادماً في عبور آب كما كان قد وعد، ولذلك ركبوا السفن التي جاءوا بها إلى الأرض المقدسة، وعادوا إلى الوطن، وكان تعدادهم حوالي الأربعين ألف رجل مسلح، وأدى هذا التصرف من قبل الامبراطور إلى الاساءة إلى سمعته كثيراً، وإلى الإضرار بجميع شؤون الحملة الصليبية، وإنه بسبب هذا الذي حدث -برأي كثيرين -أظهر مخلص العالم نفسه، كما تحدثنا أعلاه، فقد أظهر نفسه إلى المسيحيين، وهو معلق على الصليب، مخروق بالمسامير، وملطخ بالدم، وكأنه كان متقدما بالشكوى إلى كل مسيحي، حول الأذى الذي لحق به من الامبراطور.

موت الراهب الذي أسس طائفة الفرنسيسكان

وفارق الحياة في روما في هذه الآونة، راهب من طائفة رهبان الفرنسيسكان، اسمه فرنسيس، وقد قيل بأنه كان هو المؤسس لتلك الطائفة ومقدمها، وكان فرنسيس المذكور متميزاً بأصالة مولده ونبله، وقد شرع منذ أيام طفولته يفكر ملياً حول الأشياء الجاذبة في هذه الحياة، وحول عدم استقرار الأشياء الدنيوية، وقدر بشكل دائم كم هي فارغة الأشياء الدنيوية كلها وزائلة، لأنه تعلم من الكتب ومن الدراسات اللاهوتية، التي تابعها وتولاها منذ صغره، حتى حصل على معلومات كاملة منها، والذي تعلمه هو ازدراء كنز كل ما هو زائل من أشياء، وأن يسعى لاهثاً وراء ملكوت السماء، ولكي يتماشى مع ماقرره في عقله تماماً، تخلى عن الميراث الواسع الذي وصله من أبويه، وعن جميع مباهج الحياة، ولبس قلنسوة راهب وثوباً من المسوح، وألقى نعليه

جانباً، وأمات جسده بالسهر والصوم، واختار الفقر التطوعي، وقرر أن لايمتلك شيئاً لنفسه، ولكي يبقي جسده تناول ماتلقاه من الآخرين عن طريق الصدقة، وكان بعد المشاركة في وجبة خفيفة، إذا مابقي شيء، لم يكن يحتفظ بشيء من أجل الغد، بل كان يعطي ذلك إلى الفقراء، وكان ينام بثيابه في الليل، وكانت لديه حصير لينام عليها، وحجرة اتخذها وساده، واستخدم غطاء أثناء الليل القلنسوة والرداء الذي كان يسير به أثناء النهار، ووفق هذه الحالة كان يسير حافياً، تماشياً مع الانجيل، وباعتناقه حياة رسول، قام بواجبات الوعظ في أيام الآحاد وفي أيام الأعياد في الكنائس الأبرشية، وفي التجمعات الأخرى للمسيحيين، وكان كلما ازداد بالامتناع عن ارضاء رغبات الجسد، وعن الحياة الطيبة، كلما ازداد تأثيره على عقول المستمعين إليه، ولكي يضع مقاصده كلها موضع التنفيذ، قام رجل الرب فرانسيس هذا، فأودع كتابة جميع المبادىء التي تقدم ذكرها أعلاه، مع بعض من الآخرين، وقد جرت مراعاتها بدقة متناهية من قبل رهبان تلك الطائفة حتى الوقت الحالي، وقد قدمهم إلى البابا انوسنت، عندما كان جالساً في محكمة بلاط روما، وسأل في الوقت نفسه تثبيت التماسه من قبل الكرسي الرسولي.

كيف ثبت البابا الطائفة المتقدم ذكرها بامتياز

وحدق البابا وثبت نظره على سحنة الراهب المذكور الشاحب، وعلى مظهره الحزين، وعلى لحيته الطويلة وعلى شعره غير المقصوص، والقذر، والمتدلي فوق جبينه، وبعدما سمع قراءة التماسه الذي كان صعباً، ولايمكن تطبيقه، ازدراه وقال له:

«إمض أيها الراهب، اذهب إلى الخنازير، الذين أنت أكثر مواءمة للمقارنة بهم من الناس، وأن تدرج بينهم، وأن تبشر بينهم بالأحكام التي استطعت أن تعرضها»، ولدى سماع فرانسيس هذا، طأطأ رأسه، ومضى، ولدى رؤيته لبعض الخنازير اندرج بينهم بالوحل حتى غطى

جسده وثيابه بالأوساخ من رأسه إلى قدميه، ثم عاد إلى محكمة البلاط، وعرض نفسه أمام البابا، وقال:

«لقد فعلت يامولاي الذي أمرتني به، أرجوك امنحني الذي التمسته منك»، واعترت البابا الدهشة لدى رؤيته للذي فعله، وشعر بالأسف لأنه عامله بازدراء، فأصدر بالوقت نفسه أوامره بوجوب غسل نفسه، والعودة إليه ثانية، وبناء عليه نظف نفسه من أوساخه وعاد مباشرة إلى البابا، وانفعل البابا كثيراً، وعندما وافق على التماسه، وبعدما ثبت تعيينه للتبشير وثبت أيضاً الطائفة التي طالب بتأسيسها، بامتياز من كنيسة روما، صرفه مع المباركة، وبنى عبد الرب فرانسيس هذا مصلى في مدينة روما، حيث يمكنه أن يجني ثمار تأملاته، ومثله مثل مقاتل نبيل، انشغل في المعركة ضد الأرواح الشريرة، وضد الآثام الجنسية.

وعظ الراهب المتقدم ذكره وموته الرائع

ثم إن فرانسيس أدى واجباته بتقوى، وذلك بالوعظ في جميع أرجاء ايطاليا، وممالك أخرى، وخاصة في مدينة روما، لكن الشعب الروماني، أعداء كل عمل صالح ومستقيم، استخفوا كثيرا ومقتوا وعظ رجل الرب هذا، الى حد أنهم كانوا لايرغبون بالاستماع إليه، ولايحضرون أعمال نصحه المقدسة، وبعد لأي، عندما تابعوا لوقت طويل الاستخفاف بوعظه، وجّه اللوم إليهم بشدة، وانتقد قسوة قلوبهم حيث قال:

«إنني حزين جداً من تعاستكم، ليس لأنكم فقط رفضتموني كعبد للمسيح، بل لأنكم ازدريتموه في شخصي، لأنني بشرت بينكم ووعظتكم بانجيل مخلص العالم، ولذلك إنني أدعوه ليكون شاهداً على هجرانكم، فهو شاهدي الأمين في السماء، وأنا ذاهب تارك مدينتكم ليكون ذلك عاراً عليكم، وسوف أذهب لأبشر بانجيل المسيح بين

الحيوانات المفترسة، ولطيور الهواء، حتى يستمعوا إلى الكلمات المانحة للحياة، وهي كلمات الرب، وليكونوا مطيعين لهم»، ثم إنه غادر المدينة، ووجد في الضواحي غربان بين جثث أموات، وطيور الحدأة، والعقعق مع طيور أخرى كلها كانت تطير في الهواء، وقال لهم:

«إنني آمركم باسم يسوع المسيح، الذي صلبه اليهود، والذي رفض الرومان الاصغاء إلى وعظه، أن تقدموا إليّ، وسماع كلمة الرب،وذلك باسمه هو الذي خلقكم، وحفظ نوح في السفينة من مياه الطوفان»، ووقتها اقتربت منه جميع أسراب الطيور، وأحاطت به، ووقتها صدر الأمر إليهم بالصمت، وصمتت جميع أنواع الطيور، فأصغت إلى كلمات رجل الرب ذاك، لمدة نصف يوم دون أن تتحرك من تلك البقعة، وكانت طوال الوقت تنظر إلى وجه الواعظ، وجرى اكتشاف هذه الواقعة الرائعة من قبل الرومان الذين كانوا ذاهبين إلى المدينة أو آيبين منها، وعندما تكرر الشيء نفسه من قبل رجل الرب إلى حشد الطيور، خرج رجال الدين مع جمع من الناس من المدينة، وأعادوا معهم رجل الرب مع كثير من الاحترام، ثم تمكن بزيت وعظه التضرعي من تليين قلوبهم غير المثمرة والقاسية وحوّلهم نحو الأحسن، ثم بدأت شهرته تنتشر في الخارج في جميع أرجاء ايطاليا، ولذلك احتذى حذوه كثير من ذوي الأصل النبيل، وتخلوا عن العالم وعن شروره، ورغباته، وأخضعوا أنفسهم إلى رغباته، ومالبثت طائفة الرهبان المذكورة أعلاه أن تضاعف انتشارها في جميع أنحاء العالم، وسكن رهبانها في المدن وفي القلاع، وهم يمضون في هذه الأيام على شكل سبعة أو عشرة يبشرون بكلمة الحياة في البلدات وفي كنائس الأبرشيات، لابل في حقول العمال، فهناك زرعوا جذور الفضيلة، ومنحوا إلى الرب كميات وافرة من الثمار حتى مع الربا، ولم ينشروا بين المسيحيين فقط بذور كلمة الرب، وندى العقيدة السماوية، بل إنهم ذهبوا إلى مقاطعات الشعوب والمسلمين، يقدمون

العظة حول الصـدق، وبوسائلهم هذه حصلت كثير من هذه الأمم على مجد الشهادة.

احتشاد الناس عند موت الراهب المتقدم الذكر

وبعـد وقـت طويل، وبعـدمـا قـام فـرانسيس رفيـق الرب هذا، مع إخوانه، بالتبشير بانجيل السـلام لسنوات كثيرة في مدينة رومـا والمنطقة المجـاورة، وكمرابي جيـد أعاد المبلـغ الذي عهد به إليـه، إلى المعطي مع فوائد مضاعفة كثيراً، بعد هذا كلـه جاءت ساعته ليفارق هذا العالم إلى المسيح، وليتسلم نتيجة لجهوده تاج الحيـاة مع الرب، حسبما وعد الذين يحبـونه، وظهرت في اليـوم الخامس عشر قبل مـوته جـروح في يديه وفي قدميه،وكـانت هذه الجروح تنزف الدم باستمرار، مثلما ظهر على مخلص العـالم على الصليب عندمـا صلب مـن قبل اليهـود، وقـد انفتح جـانبـه الأيمن أيضـاً وتلطخ بالدم حتى ان الفجـوات الداخلية من قلبـه باتت مرئية بوضـوح، ولدى انتشار خبر هذا، تدفقت حشود كثيرة من الناس من الجنسين عليـه، ودهشت أمـام مثل هذه الحالة الغـريبـة، وكـان بين الذين قدمـوا كرادلة، وبحثوا عن معنـى هذا المشهد وسألوه عنه، وعلى هذا أجاب:

«لقـد ظهــر هذا المشهـد بي، حتىٰ تتمكنوا أنتـم الذين بشرت بينكم بأسرار الصليب، فتؤمنون به، وهو الذي من أجل الحفاظ على العالم تألم على الصليب من الجراحة التي ترونها الآن، ولكي تعـرفوا أنني عبد له، وهو الذي بشرت به بينكم، وقد صلب، ومات، وعاد إلى الحياة، ولكي تزول جميع الشكوك، وبـذلك يمكنكم أن تتمسكوا بهذه العقيــدة حتى النهـاية،وإن هذه الجراحـة التي ترونها بي مفتـوحة وتنزف دمـاً، سـوف تندمل لحظة وفـاتي، وتنغلق، وبذلك سـوف تظهـر مثل بقية جسـدي»، وعلى الفــور جـرى تحريره من الجسـد من دون أية آلام جسـدية، أو معاناة، وتخلى عن روحـه وسلمها إلى خـالقه، وبعد مـوته لم تبق أية آثار

جراحة سواء في طرفه أو في يديه أو في قدميه، ودفن رجل الرب هذا في صـومعتـه، وقبله الحبر الروماني بين أعـداد القـديسين، وأمـر باتخاذ يوم وفاته عيداً يحافظ عليه ويحتفل به بكل مهابة.

بعض القوانين الجديدة التي عملها ملك انكلترا

عـام ١٢٢٨م، فيــه احتفل الملك هنري بعيـد الميــلاد بكل وقـار في يورك، وانطلق بعـد ذلك عبر الطريق المستقيم مباشرة إلى لندن، ووجـد أثناء هذه الرحلة نقصـاً في مقـاييس القمح، والخمـرة، والبيرة، ولذلك كسر بعضهـا، وأحـرق بعضهـا الآخـر، وأبدلها بمقـاييس أوسع، وأمـر بعمل الخبـز أثقل وزناً، وقضى أن الـذين سـوف يخرقـون هذا القـانون سوف يتعرضون لغرامات ثقيلة.

وفي شهـر كـانون الثـاني مـن العـام نفســه، أنهى روجـر دي ثيونيTheoney حياته قرب ردنغ، وكان فارساً شجاعاًمن أصل نبيل، وكـان رالف الأخ الأكبر لهذا النبيل، غائباً آنذاك وقد رغب بالتحـادث معهـه قبل مـوته، وجـاء مسرعـاً ليراه، لكـن قبل وصـوله كـان أخـوه المحبوب قـد مات، ولم يجد صوتاً فيـه ولااحساس، وكـان رالف حزيناً جداً لموت أخيه، وبدأ يصرخ وهو يبكي ويسستحلف أخاه، مع أنه كان ميتـاً، ليكلمـه صدوراً عن العـاطفـة الأخـوية، وبعـدما جـدّد صراخـه وتوسـلاته بحضور جنوده مع آخـرين كثر، قال بأنه لن يتناول الطعـام ثانية، مـالم يتمكن من الحديث معه، وبناء على ذلك جلس الرجل الميت في الفـراش، ولام أخاه بحـدة لإزعـاجه روحـه، باستـدعـائه ثانيـة إلى الجسد، وقال:

«لقد رأيت العـذاب الذي أنزل على الشرير، وسرور المبارك، ورأيت أيضاً بعيني العذاب الشـديد الذي قضي عليّ أنا الانسان التعيس، الويل ثم الويل لي، لماذا ورطت نفسي بـالمبـارزات وأحببتهم بشكل كبير»؟ ثم

سأله أخوه: «أولن بناء عليه تحفظ»؟ وعلى هذا أجابه:

«سوف أحفظ لأنني عملت عملاً واحداً لتشريف مريم المباركة والعذراء الدائمة، فبذلك سوف أحصل على الخلاص»، وعندها قال رالف:

«أوليس من الممكن تخفيف العذاب الذي قضي به عليك —كما أخبرتني— بالأعمال الصالحة، والقداسات، والصدقات»؟ وعلى هذا رد روجر قائلاً: «ذلك ممكن» وهنا قال له رالف:

«إنني أعدك باخلاص بأنني من أجل خلاصنا وخلاص أجدادنا، سوف أبني بيتاً دينياً، وعندما سوف أملأه بالرهبان، سوف يدعون الرب باستمرار لتخليص روحك، وكذلك أرواح أجدادنا»، ثم قال روجر:

«إنني بحاجة ماسة لما وعدت به، لكن لاأريدك أن تعد بشيء أنت غير عازم على الوفاء به»، ثم ودع أخاه مع الآخرين الذين وقفوا هناك، ومن ثم لفظ روحه، ثم قام أخوه رالف في السنة نفسها ببناء دير في غربي انكلترا، ووضع فيه بعض الرهبان من طائفة السسترشيان، وأوقف على المكان أملاكاً كثيرة مع موارد كبيرة.

نقل رتشارد أسقف سالسبري إلى درم

وفي العام نفسه، جرى إلغاء انتخاب المعلم وليم سكوت Scott الذي كان قد انتخب أسقفاً لدرم، وجرى انتخاب رتشارد أسقف أوف سالسبري، ومن ثم نقل إلى تلك الأسقفية، وإثر ترقيته، انتخب كهنة سالسبري المعلم روبرت بنغهام Bingeham وكان كاهناً من رفاقهم، لأن يكون أسقفهم، والمسؤول عن أرواحهم، ونشب في العام نفسه خلاف بين رهبان كوفنتري وكهنة لتشفيلد Lichfield حول انتخاب أسقف، وقد تقرر بوساطة مرسوم محدد من قبل كنيسة روما،

قضى أنه ينبغي منذ ذلك الحين انتخاب الأساقفة بالتبادل والتناوب، بحيث يقوم الرهبان بالانتخاب أولاً، ولدى وفاته يتولى الكهنة انتخاب الأسقف التالي، وبناء على هذا الشرط، كان رئيس رهبان كوفنتري يمتلك دوماً الصوت الأول في الانتخاب، وبدا هذا المرسوم أنه ينتقص كثيراً من امتيازات الرهبان، الذين كانوا حتى ذلك الحين ينتخبون الأساقفة دون طلب موافقة الكهنة.

ودفع في هذا العام أيضاً امبراطور القسطنطينية دين الطبيعة، تاركاً وريثاً له صبياً صغيراً، لم يكن لائقاً لتسلم المقام الامبراطوري.

القرار الذي صدر بحق الامبراطور

وفي هذه الآونة بدا للبابا غريغوري أنه سمح لعصيان الامبراطور، ومعاداته للمسيح بوقت أطول مما ينبغي من دون عقوبة، وأخيراً، ولكي لايبدو أنه مثل كلب غير قادر على النباح، قام بناء على نصيحة كرادلته بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بحق الامبراطور المذكور، وأمر بوساطة رسائل رسولية بنشر هذا القرار في مختلف أنحاء العالم، وكان من بين الذين أمرهم بنشره ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، الذي كتب إليه كما يلي:

«من غريغوري، أسقف، إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، تحيات، إلخ: لقد وضع مركب بطرس الكبير في البحر المحيط الواسع، أو بالحري تعرض للعواصف وللأمواج بشكل مستمر، إلى حد أنه في بعض الأحيان لم يمتلك قباطنته ولامجذفيه الوقت للتنفس وسط الأمطار العاصفة المتدفقة، وإذا ماحاول في بعض الأحيان التوجه إلى أحد الموانيء بأشرعة كلها ممدودة أمام رياح لطيفة، تندفع الريح فجأة عليه من الجهات المعاكسة، وتنقض عليه بوساطة الذي يلفظ لهب النار، ويجري حمل السفينة نحو المياه العميقة، وإلى البحر المحيط الشاسع،

حيث تحيط بها الأمواج العاتية، ومع ذلك لم تُقهر بعد، لأن الرب، الجالس فيها، قد استيقظ بصراخ تلاميذه، فهزم الأرواح العاصفة، وأمر البحر والريح، فكان هناك هدوء، وأربع عواصف هي التي تهاجم هذه السفينة، ذلك أن جنود الكفار غير الأتقياء محتفظون ومتملكون للأرض المشهورة، التي صارت مقدسة بوساطة دم المسيح، وغضب الطغاة يتولى نهب الممتلكات الدنيوية، ويدمر العدالة، ويضع تحت قدميه حرية الكنيسة، ويسعى جنون الهراطقة إلى تمزيق ثوب المسيح، وللقضاء على تكريس الإيمان، ويتولى الضلال المخادع للرهبان المزيفين والأبناء بهز أحشاء أمهم وشق طرفها وتمزيقه، وهكذا يوجد في الخارج قتال، ورعب في الداخل، والسيف يقتل في الخارج، وفي البيوت يهدد الموت بمثل ذلك، وهكذا غالباً ماحدث أن كنيسة المسيح قد تغلبت عليها الاضطرابات، ففي الوقت الذي يخيل إليها أنها تربي الأولاد وتغذيهم، هي بالفعل تغذي في صدرها ناراً، وأفاعي، وثعابين، تسعى بأنفاسها إلى تدمير كل شيء، وكذلك بنهشاتها ولهبها، ولكي يتولى تدمير التنينات من هذا النوع، ويهزم العصابات المعادية، ولكي يلطف الطباع الصعبة، قام الكرسي الرسولي في هذه الآونة، وسط عناية كبيرة، بتربية واحد من التلاميذ، اسمه الامبراطور فردريك، الذي تسلم المسؤولية كما كانت من رحم أمه، ورضع من صدرها، وحملته على كتفيها، وهي التي غالباً ماأنقذته من أيدي الذين استهدفوا حياته، وهي التي ربته ورعته حتى وصل إلى كمال الشباب، مقابل كثير من المتاعب والنفقات، وارتقت به إلى مقام الملكية، ودفعته أخيراً حتى أوصلته إلى القمة، أي إلى المحطة الامبراطورية، وكانت واثقة أنه سوف يكون صولجان الدفاع وعصا الأيام الخوالي.

وعندما ذهب إلى ألمانيا،ليتولى مقاليد الحكومة وضع أمام عيني أمه، مااعتقد أنه بشارة سعيدة، لكن حتى نكون صادقين أكثر، مايمكن عدّه

بشارة خطيرة، لأنه قام بمبادرة منه، وليس بناء على نصيحتنا، ومن دون معرفة الكرسي الرسولي، بتثبيت الصليب على كتفيه، وعمل تعهداً ونذراً ثابتاً، بأنه سوف يذهب لمساعدة الأرض المقدسة، وحصل بعد هذا على قرار بالحرمان الكنسي ضده شخصياً، وضد الآخرين الذين حملوا شارة الصليب، إذا لم ينطلقوا في وقت محدد، وطلب بعد هذا، وتلقى التحليل، لأنه أعطى أولاً يميناً بأن يلتزم بقرار الكنيسة حول هذه المسألة، وأضفى الكرسي الرسولي عليه كثيراً من النعم، ودعاه إلى التتويج، صدوراً عن هدف صحيح، حتى يتمكن بسرعة وبضمان، من الذهاب إلى الأرض المقدسة، وقام هو —ليس من دون رغبة— بناء على كثير من الوساطات، والرسائل الفخمة، باستخدام راية الصليب حتى هذه الآونة، وعندما تسلم التاج من يدي هونوريوس —سلفنا صاحب الذكرى الطيبة— في كنيسة القديس بطرس، جدد حمل الصليب من يدينا، حيث كنا آنذاك نشغل منصباً أدنى، وجدد بشكل معلن تعهده ونذره، وأقنع كثيرين بحمل الصليب، لأملهم بتأييده، وثبت موعداً من أجل عبور البحر، ثم إنه عقد بعد ذلك مؤتمراً مع الكنيسة الرومانية في فيرولي Veroli ووقتها أقسم بشكل علني أنه سوف ينطلق مع كل الأبهة وبما يليق به كامبراطور، وذلك في وقت محدد، تتولى كنيسة روما تثبيته، ثم انه قام بعد هذا في مؤتمر مماثل جرى عقده في فيرينتينو Ferentino فثبت تاريخاً لإقلاعه يكون بعد عامين من ذلك التاريخ، كما انه وعد أيضاً بقسم مهيب بأنه سوف يعبر البحر، وسيتزوج الابنة النبيلة لولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، جون ملك القدس، وهي التي كانت أيضاً وريثة ذلك الملك المشهور، وقد أضاف أنه بهذه الوسائل سوف يربط نفسه بخدمة الأرض المقدسة، ليس مثل الحجاج الآخرين، بل مثل الداوية والاسبتارية، إلى الأبد.

وعندما —على كل حال— اقترب حلول الموعد المحدد، بدأ يعمل

تعليـلات كثيرة، وأعلن أنه غير مستعـد للذهاب وقـدم أعطيـات كثيرة ومنافع وهـدايا، حتى يحصل على تأخير لمدة ثـلاث سنوات، وبسبب أن الأمـور كلها باتت متعلقـة بهذا الأمير، بعـد الكنيسـة الرومانيـة، ولكي لايجري إلغاء المشروع، وتذهب الجهود التي بذلت من دون فـائدة، عقد الكرسي الرسولي مـؤتمراً مع عدد من الأساقفة ورجـال آخرين، وناقش القضيـة، دون أن يسقط أيـاً من اشكاليـاتها وظروفهـا، ثـم بعثنا بأخينا المبجل ب. P أسقف ألبانو، وغ. G الكاردينال الحامل للقب كـاهن القديس مـارتن، حتى يتوليـا تأكيد الوعود التي عملها الامبراطور عن طواعية، بتقديم المساعدة الى الصليب، ثم انهما بناء عليه عقدا مؤتمراً مع عـدد من مقدمي وزعماء ألمانيـا في كنيسة القـديس جيرمين Germain وهناك قـام الامبراطور بمبـادرة منه فأقسم أنه خـلال عـامين من ذلك التـاريخ أي في عبـور آب الأخير، سـوف يزيل جميع الأعـذار بالتأخير، وسوف يقلع، وسوف يبقي هناك لمدة عامين، على حسابه الخاص، ألف فارس لتقـديم العون للأرض المقدسة، وأنه سـوف يرسل في العبورات الخمسـة المقبلـة مـائة ألـف أونصـة Ounces من الذهب لتـــــدفع لأشخـاص محددين هنـاك، ثم قـام الكاردينال الكاهـن، فأعلن بناء على موافقة الامبراطور، وبوساطة سلطات الكرسي الرسولي، وأمام المقدمين الموجـودين، وعلى مـرأى مـن النـاس، نحن، قرار الحرمان الكنسي، الذي سـوف ينزل بالامبراطور، إذا لم ينفذ واحداً من الوعود المذكـورة أعلاه.

وعـلاوة على ذلك تعهـد الامبراطور بجلـب مـائـة سفينة وخمسين غليـون، والاحتفـاظ بهم فيها وراء البحـر، وأنـه إلى جـانب هذا سـوف يعطي في أوقـات محددة عبوراً لألفي فـارس، وأقسم بروحه أنه سـوف يفي بهذه الوعود التي ذكرناها، وأبدى رضاه وموافقته على تنفيذ الحكم الصـادر ضده وضـد مملكته، إذا لم يقم بـالوفاء بها وعـد به، وأنت تعلم

الآن كيف وفى بهذه الوعـود، لأنه تحت ضغـوطه، وبسبب التماسـاته، توجّه عـدة آلاف من الصليبيين، تحت عقـوبة الحرمـان الكنسي، قبل الموعـد المحدد، إلى ميناء برنديزي، وسحب الامبراطور عطفـه من جميع مـدن الساحل تقـريبـاً، ومع أنه غالبـاً مـاأنذر من قبل سلفنا ومن قبلنا نحن حتى يقـوم بجميع الاستعـدادات اللازمـة، وأن يقـوم باخـلاص بالوفـاء بكل مـاوعـد به، قـام بعـدم الاهتمام بهذه الوعـود التي عملهـا بوساطة رسله ورسائله الشخصية، إلى الكرسي الرسولي وإلى الصليبيين، وذلك بإرسال الامـدادات وبقية الأشياء المحتـاجة، ولم يول أدنى اهتمام لخلاصـه الشخصي، واحتفظ بالجيش الصليبي وأعـاقـه في أعلى حـرارة الصيف، لمدة طويلة، في مناخ قـذر ومميت، ولذلك هلك عـدد كبير من عـامـة الجنـد، وليس منهم فقط، بل هلك عـدد لابـأس به من النبـلاء وذوي المراتب، بسبب الأمراض، والعطش، والحرارة، ولأسباب أخرى كثيرة، ومات بينهم أسقفا: أنجو، وأوغسبورغ Augsburgh صاحبا الذكرى الطيبة، وحوّل الذين بقيـوا من الجيش اتجاهاتهم للعودة، ومات عـدد كبير منهم في الغابات وفي السهـول، والجبال، والكهـوف، والذين بقيوا مع الصعوبات، حصلوا على الاذن بالمغادرة، ومع أنه لم يكن هناك مـايكفي من سفن لحمل امـدادات الناس وخيـولهم كما كان قـد وعـد، قامـوا في يوم عيد العذراء المباركـة، عندما حان موسم العـودة، وأقلعوا مبحـرين، معـرضين أنفسهم للمخـاطر، مـن أجل اسم المسيح، وكـانوا يعتقـدون بأن الامبراطـور سـوف يتبع خطواتهم، لكنه خـرق وعـوده، وقطع الروابط التي ربط نفسـه بها، وألقى جانبـاً كل الخوف من الرب، ولم يقـدم الاحترام إلى يسوع المسيح، ولم يهتم بلوم الكنيسـة، وتخلى عن الجيش الصليبي، وترك الأرض المقدسة، عـرضة أمام الكفار، واستخف بتقـوى شعب المسيح، ولكي يسبب العـار لنفسـه وللمسيحيـة انصرف نحو مباهج مملكته، وغادر بعدما تعلل بأوهى الأسباب، مدعياً الضعف الجسدي، كما قال.

وتمعن الآن، وانظر هل هناك من حزن مثل حزن الكرسي الرسولي، وأمك، التي غالباً ماجرى خداعها بوحشية وغشها بابنها، الذي أرضعته، والذي فيه وضعت الثقة، بأنه سوف يتولى تنفيذ هذه المسألة، والذي عليه حشدت كثيراً من الآمال والمنافع.

وأخفى في الوقت نفسه نيته بالتخلي عن قضية الأرض المقدسة عندما تتوفر الفرصة، مركزاً انتباهه على نفي الكهنة، والسلب، والأسر، وأعمال إيذاء مضاعفة، أنزلها بالكنائس، وبالممتلكات الدينية، وبرجال الدين، ولم يستمع إلى كثير من شكاوى الفقراء، مع كل من سواد الناس والنبلاء، الذين صرخوا ضده، والذين —كما نعتقد— دخلت أدعيتهم إلى أذني المولى رب السماء.

ومع أن كنيسة روما قد توجب عليها حماية ابن لها، نشأ وسط مثل هذه العناية، وجرى الاهتمام به إلى مثل هذا الحد، إنها الآن تبكي من أجله، وقد قهرت من دون قتال، وتداعت من دون وجود عدو، ولعاره الكلي، انحطت بشكل مشين، وليس أقل من هذا كله أسى، هلاك الجيش الصليبي، الذي أخفق ليس بسبب سيوف الأعداء، أو لفقدانه للشجاعة، لكنه تبدد بسبب هذه المصيبة المرعبة، وهي أيضاً تبكي لأن الجزء المتبقي من العساكر، هم عرضة لمخاطر البحر، وللأمواج الهائجة، من دون دليل، أو قائد، أو مقدم، مساقين إلى حيث لايدرون، يقدمون القليل من الفائدة إلى قضية الأرض المقدسة، ونحن غير قادرين —تبعاً لتعهدنا— أن نقدم لهم مواساة أو مساعدة، بسبب الوضع العاصف للبحر، وشدة وسوء أوضاع الموسم، والكنيسة أكثر من هذا، إنها تبكي دمار الأرض المقدسة، التي كنا آملين أن تكون الآن قد أنقذت من أيدي الكفار، وأن يكون الجيش الصليبي —كما قيل— قد استردها، مبادلة لدمياط، لولا أنه منع مراراً أن يفعل ذلك بوساطة رسائل الامبراطور، وماكان هذا الجيش نفسه أسيراً في أيدي الكفار، لو تمت

أعمال تجهيز السفن وتزويده بها، كما كان قد وعد من قبله، وكان ذلك من الممكن صنيعه، لأن دمياط قد جرى تسليمها —كما قيل— إلى رسله ووضعت تحت عهدتهم، وتزينت بالنسور الامبراطورية، وقد جرى نهبها في اليوم نفسه بشكل وحشي، ثم بعدما جرى تدميرها بشكل مهين، تمت إعادتها من قبلهم إلى الكفار، وقد أضيف أيضاً إلى أسانا وخسائرنا المتقدم ذكرها الجهود والنفقات التي تكبدناها في دمياط، وذلك بالاضافة إلى المعنويات بين المسيحيين، وكذلك الوقت الذي بُدد، وقد جرى إنفاق هذا كله من دون محصلة، ولم يتوفر هناك بين أبناء الكنيسة ولا واحد من أبنائها يتولى مواساتها، أو ليمسح دموعها من على وجنتيها، وبما أنه بناء على ذلك قد سمع صوتها في رامه، وراحيل تندب مع حزنها الذي لايمكن شفائه، ليس فقط من أجل أولادها بل أيضاً من أجل جميع تلك المصائب، فكيف على هذا يمكن للمسيحيين التمنع عن البكاء والنحيب؟ وأي واحد من الأبناء، عندما يرى الدموع تتدفق من عيني الأم، سوف يتمنع عن سفح الدموع؟ وأي إنسان سوف لن يرحم أحزان الأم، ولن يشارك في حزنها العميق؟، وأي مسيحي سوف لن يتحرق، بناء على هذه الأحداث، بمزيد من الرغبة الأشد من أجل مساعدة الأرض المقدسة، حتى لايمكن ظهور الشباب المسيحيين، وقد انبطحوا تماماً وأصيبوا بالرعب بسبب هذه الأحداث غير المتوقعة؟ أوليس من المتوجب أن يكون الرجال الحكماء وأبناء يسوع المسيح، الأكثر اندفاعاً لمساعدة الأرض المقدسة، كلما رأوا أكثر الذي لايمكن رؤيته من المصائب والمآسي وقد تراكمت على الأب والابن، المخلص والمخلَص، وعلى المسيح وعلى شعب المسيح؟ وبناء عليه نظراً لازدياد تشوقنا لأن نأخذ هذا العمل ونضعه بين أيدينا ثانية، ولكي نقترح بوساطة خطط أكثر إحكاماً أن نجد سبلاً للخلاص وللعلاج، تتماشى مع حاجياتنا وتعوض الحزن الكبير الذي تحملناه، ويكون هذا عندما يري الرب نفسه غاضباً قليلاً

مع شعبـه، ولايتلقى القرابين من أيـديهم، ومع ذلك إن رحمة الرب لم ترفع بعـد، كما أن شفقته لم تضمحل كلياً، ذلك أننا نثق بشفقـة الرب، الذي سيرينا الطـريق الذي يمكن أن نصل عبره إلى محصلـة ناجحـة في هذه القضيـة، وهو سـوف يرسل رجالاً يرتضيهم مـن قلبه، هم سـوف يقودون الجيش الصليبي بقلوب نقية وأيدي نظيفة.

وبناء عليه إننا نلتمس من أخـوتكم بوساطة هذه الرسائل الرسـولية، ونأمـر أخوتكم، أن تقـوموا باخـلاص بعرض هذه القضـايا على الناس وعلى رجـال الدين الذين تحت رعـايتكم، واقناعهم كيما يعـدّوا أنفسهم وعقــولهم للقيـام بهذه المهـام، وأن تحثهم بشكل دائم، وأن تدعــوهم للانتقـام لهذه الاهانة التي لحقت بيســوع المسيح، وبذلك عندمـا سيرى الكرسي الرسـولي، بعــد المزيد من المناقشـات المتبــادلة أن الوقت بات مناسبـاً ليطلب منهم مسـاعــدتهم، يمكنه وقتهـا أن يجدهم جـاهزين ومستعـدين، وعلى كل حـال، لكي لانبدو مثل كلـب أخرس غير قـادر على النبــاح، وأن لانظهـر أننا غضضنـا النظر عن هذا الرجل في عـدم تقـديـره للرب، من دون معـاقبتـه، وهو الذي ألحق أذى عظيماً بشعب الرب، إننـا نعلن —مـع أننا مكرهين— أمــام النـاس أن الامبراطور المذكـور فــردريك هو محروم كنسيـاً، طالما أنه لم يعبر البحــر في الوقت المحـدد، ولم يرسل إلى هناك مبلـغ المال الذي جـرى الاتفـاق عليـه من قبل، كما لم يحضر إلى هناك الألف جندي، للبقاء لمدة عـامين على حسابه من أجل مساعدة الأرض المقدسة، لكنه تقاعس عن تنفيذ هذه الشروط الثلاثة الواردة في اتفاقيته، حسبما كان قد ورّط نفسه عن طواعية ووضع نفســه في شبكة الحرمـان الكنسي المتقدم ذكـره، ونحن نأمـره أن يتجنب بدقة جميع الناس، ونأمركم أن تعلنوا شخصياً هذا القرار على الملأ، وأن تتدبروا نشره مـن قبل أساقفة الكنـائس الآخرين، ولسـوف نتابع السير ضده بحدة أعظم، إذا مااستدعى تمرده ذلك.

ونحن، عــلاوة على هـذا، نثق برحمة أبينا المقــدس، الـذي لايرغب بهلاك أي إنسـان، حتى يمكن لعيني عقله المظلم، عندما يدهن بمـرهم الكنيسة سـوف —إذا لم يكن متمرداً في قلبـه— أن يستنير، حتى يمكنه بذلك أن يرى عـريه، ويمكنه أن يتجنب العار الذي سقط فيـه، وبذلك يمكنه العـودة إلى الطبيب الصحيح، ويمكنه الرجعـة إلى أمـه الكنيسـة، وبتـواضع مـوائم صحيـح، وبتكفير نقي، يمكنه وقتهـا تلقي الخلاص، لأننا لانرغب أن يكون خـلاصــه الأبدي في الرب معلقـاً، لأننا أحببناه من قبل باخـلاص عندمــا كنا في منصب أدنى. صـدر في اللاتيران، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف أعلن الامبراطور أنه حرم كنسياً بشكل غير عادل

عندما علم الامبراطور بأنـه قد حرم كنيسـاً ارتعب كثيراً، ولأن البابا كـان قد أمـر برسائله بنشر قـرار الحرمـان في جميع بلدان المسيحية، قـام الامبراطور المذكـور بالكتابة إلى جميع الملوك المسيحيين والمقـدمين يشكو إليهم بأن قرار الحكم قد صدر خطـأ بحقه، وأخبرهم واحداً واحداً بأنه لم يتخل عن الحج، ولم يفتعل ذلك بناء على تعليـلات تافهـة، كما اتهمـه البـابا بشكل كـاذب، بل جـاء ذلك بسبب خطير جـداً، وفي هذا المقـام يطلب شهادة الشاهد الصحيح الموجود في السماء، وعلاوة على هذا لقد أعلن أنه مـا ان يمنحـه الرب الصحة الجسـدية، حتى سيقـوم بتشريف مناسب بالوفـاء للرب بعهـد الحج، وبشكل يليق به كـامبراطور، وكـان من بين الملوك الكاثوليك الذين كتب رسائل إليهم مختـومة بخاتم ذهبي الملك الانكليـزي، وأعلن فيهم بأن الكنيسـة الرومـانيـة مصـابة بجنون الشره، ومن الشواهد على جشعها أنها لم تعـد راضية باستحواذ ممتلكات الكنائس بارادتها، بل إنها تجرأت حتـى على حـرمـان الأباطرة، والملوك، والأمـراء من مـواريثهم، وجعلهم يؤدون الجزية إليهـا، ويمكن للملك الانكليزي نفسه أن يجد مثلاً شاهداً على ماقاله في حالة أبيه الملك جون،

الذي أبقته الكنيسة المذكورة لمدة طويلة من الزمن حتى جعل نفسه ومملكته يؤدون الجزية إليها، ويمكنهم أيضاً أن يجدوا مثلاً آخر في قضية كونت طولوز، وكثيراً من المقدمين التي سعت لإبقاء أراضيهم وأشخاصهم تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، حتى أنزلتهم إلى وضع التابعية، ونصح في نهاية رسالته جميع أمراء الدنيا، بالاحتراز ضد مثل هذا الشره الظالم، بمثل هذه الكلمات:

«انتبه عندما تحترق بيوت الجيران

فلربما يكون دورك هو المقبل».

كيف أثار الامبراطور روح الاضطهاد ضدّ البابا

أثار الامبراطور بوسائل الاثارة هذه روح الاضطهاد ضد البابا، وميراث الكنيسة الرومانية، وهاجم المدن واستولى على القلاع العائدة إليها، وعن ذلك أخبر البابا مندوب الكنيسة الرومانية في فرنسا بالرسالة التالي نصها:

شكاوى البابا ضدّ الامبراطور

«من غريغوري الأسقف، إلى المندوب الروماني بين الفرنسيين، تحيات، الخ، نرجوك الانتباه، لتعرف هل هناك أسى مثل أسانا، لأننا وجدنا في الابن الذي ربته الكنيسة الرومانية، ورفعته إلى أعلى المراتب، على أمل أن تجد فيه بطلاً ضد الكفار، مضطهداً قاسيا، وعدواً فعالاً، وعلينا أن لانمر بصمت بالأذى الأثيم، والدمار المريع الذي أنزله فردريك الامبراطور المذكور بشكل مستمر بالكنيسة وباللاهوتيين، فهو الآن يقوم بوسائل المسلمين وآخرين، بمهاجمة ميراث الكرسي الرسولي، والذي هو أكثر مقتاً، أنه يبرم الآن معاهدات مع السلطان ومع مسلمين آخرين، ويظهر اللطف نحوهم، ويبدي الكراهية المكشوفة نحو المسيحيين، إلى حد العمل على محق طائفتي الاسبتارية والداوية، مع أن

الآثار المقدسة للأرض المقدسة، قد حميت من قبلهما حتى الآن، لأنه بعدما خرقت المعاهدة بين المسلمين والصليبيين قد خرقت بناء على أوامره، قام المسلمون بغارة داخل أراضي الطائفتين المتقدمتي الذكر، وبعدما قتلوا عدداً كبيراً من أتباعهم أو أخذوهم أسرى، حملوا معهم كميات كبيرة من الغنائم، وبعد ذلك هاجمهم الداوية، وانتزعوا منهم بعضاً من الغنائم يصل ثمنها إلى ستة آلاف مارك، إنما الذي حدث هو أن توماس كونت أتري Aterrae وزير الامبراطور، هاجمهم بحدة عندما كانوا عائدين، وانتزع منهم بالقوة هذه الغنائم، وفي طاعة من الداوية لأحكام طائفتهم، لم يتجرأوا على رفع يد مسلحة ضد المسيحيين، وأعاد توماس المذكور هذه الغنائم إلى المسلمين، باستثناء بعض منها، قد قيل بأنه احتفظ بها من أجل استخداماته الشخصية، وإذا ماأخذ المسلمون أسلاباً من الصليبيين ليس فقط هو لايسعى لاستردادها، بل إنه لايسمح للصليبيين أن يأخذوا أسلاباً من المسلمين، وبهذه الوسائل صار المسلمون أكثر وقاحة وهاجموا بجرأة شعبنا، وخوفاً من شعبنا من الخيانة، كانوا أقل جرأة في مقاومتهم، وهكذا فإن إراقة الدم الصليبي تحولت في بعض الأحيان، لسوء الحظ لصالح كسب الامبراطور، ويقوم توماس المذكور —أو بالحري الامبراطور بحكم النيابة— الآن، باضطهاد الطائفتين المذكورتين أعلاه، وسلب منهما بالقوة بيوتهما وممتلكاتهما التي بين أيديهما، واظهاراً منه لاخضاعه لامتيازات الكنيسة، إنه يسعى الآن إلى حرمانهما من الامتيازات التي منحهما إياها الكرسي الرسولي، ومن ثم وضعهما تحت حكم الادارة الامبراطورية، كما أنه جمع مائة عبد كانوا لدى الاسبتارية والداوية في صقلية وأبوليا، وأعطاهم إلى المسلمين، دون أن يقدم أدنى تعويض عنهم إلى الطائفتين المذكورتين، وهكذا فإنه كما ظهر بشكل واضح من الظروف المتقدمة، هو يهتم أكثر، ويقدر عبيد محمد (صلى الله عليه وسلم) أكثر من تقديره لعبيد المسيح، وعليك أن تصدق حقيقة، أن

الامبراطور المذكور، كما قيل قد أنزل إلى البحر مع قلة من الفرسان، لقد أرسل جيشاً كبيراً من المسيحيين مع حشد من المسلمين، لمهاجمة ميراث الكنيسة، وبذلك قدم برهاناً واضحاً عن جميع آثامه، لكن كما قلت، لدينا الثقة، به، هو الذي أسس كنيسته على صخرة الإيمان، بأنه لن يسمح بالاطاحة بها، مهما كانت قوة الرياح وعنفها المرسلة ضدها، أو المياه التي تسعى لغلبتها، وبما أنه —بناء عليه— يتآمر بشكل شرير من أجل القضاء على الإيمان المسيحي، وعليه يصب جام غضبه، نحن محقون في أن نكون في أقصى حالات الرعب، ولكن مهما استمر ظلم هذا الرجل غير التقي وطال، لايمكنه السيطرة بذنبه، بل بالحري سوف يضيع فيه، وبناء عليه، إنه بموجب الواجب المفروض علينا —مع أننا غير جديرين بذلك— نحن مرغمون على منع نائب محمد (صلى الله عليه وسلم) هذا، من الاستمرار بصب جام غضبه على عبيد المسيح، لابل بالحري سينال الخزي في عدوانه، وسوف يرتفع شأن مجد الاسم المسيحي، ونحن نأمركم بهذه الرسائل الرسولية أن تذيعوا هذه القضايا في جميع أرجاء بلاد نيابتكم، وذلك من أجل أن يقف الشعب المؤمن بالمسيح بشجاعة في سبيل العقيدة، وتمسكاً بالدين الصحيح، ومراعاة له، وكأن كل واحد يعمل في سبيل الحفاظ على مصالحه، تماشياً مع التشجيع الذي سوف يستخدمه. صدر في اللاتيران، في الخامس من آب، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف ثار شعب روما بفتنة ضدّ الحبر الروماني

خلال الاحتفال بالفصح في السنة نفسها، ثار شعب روما بعصيان وتمرد ضد البابا غريغوري وطردوه من المدينة، ثم إنهم طاردوه إلى قلعة فيتربو، وهناك ازدادوا قوة فطردوه إلى بيروسيوم Perusium ولم يكن لدى البابا أية وسائل لمعاقبتهم، سوى حرمانهم كنسياً جميعاً.

وأرسل في العام نفسه ملك فرنسا حملة عسكرية كبيرة إلى بروفانس،

ضد كونت طولوز، لطرد ذلك النبيل من تلك المناطق، وقد سمعوا بأن الكونت كان وقتـذاك في قلعة اسـلامية، تابعة لمتلكاتـه، ولذلك قرروا محاصرته هنـاك، لكنه —على كل حـــال— أنـذر مسبقـــاً بقـــدومهم واقترابهم، ولذلك أعدّ كميناً عند وصولهم، وخبأ نفسه مع قوة كبيرة في غابة، كان على الفرنسيين المرور بها، وهناك جلس ينتظر وصول أعدائه، وعندمـا وصل الفرنسيـون إلى مكان الكمين، انقض الكونت مع قـواته عليهم، ونشبت معركـة شديدة فيها وقع بالأسر خمسمائة فـارس فرنسي، وجرى أيضاً قتل عدد كبير، كما وقع بالأسر حوالي ألفي جندي، وبعدما جرى تجريدهم جميعاً وتعريتهم، أمـر الكونت باقتلاع أعين بعضاً منهم، وبجـدع آناف آخـرين منهم، وببتر أقدام وأيدي بعضهـم الآخر، وبعـد ذلك سرحهم عائدين إلى مواطنهم، ليكونوا منظراً مشوهاً لبني جلدتهم من الفـرنسيين، وأمـر بالفـرسـان الأسرى فـوضعـوا في سجن مضيق عليهم، بعـدمـا جـرّدهم من جميع مقتنيـاتهم، ووقعت هذه المعـركـة في الثـامن عشر من أيار قرب القلعـة الاسلاميـة، وباختصار يمكن القـول بأنه جرى ارسال حملات ثلاث خلال ذلك الصيف، وفي كل مرة جرت هزيمة الفرنسيين أو أسروا، وسجنوا من قبل الكونت المذكور.

موت ستيفن رئيس أساقفة كانتربري

في التـاسـع من تموز من العـام نفســه، أنهى ستيفن رئيس أســاقفـة كانتربـري حياته في عزبتـه في سلندون Slindon وقد دفن في كانتربري في السادس من الشهـر نفسه «كذا»، وبعد دفنه حصل رهبـان كانتربري على إذن الملك، وفي الثـالث من آب انتخبـوا المعلم وولتر دي هينزهام Heinesham وكان راهبـاً من كنيستهم، لكن عندما قـدموه إلى الملك، وبعـد مـداولات طويلة، رفض استقبـاله على أسس محددة، وكـان أول اعتراض ذكـره إلى الرهبـان هو أنهم قد اختـاروا رجـلاً كان بـلا فائـدة لنفسه وللمملكة، وكـان الاعتراض الثاني هو أن والد المنتخب كـان قد

أدين بالسرقـة، وقد شنق بسبب ذلـك، وكان الاعتراض الثـالث هو أنه شـارك —أي والده— بـالعمل ضـد الملك جـون، في أيام التعليق من شراكة المؤمنين، علاوة على ذلك، اعترض الأساقفـة المساعدون لكنيسة كانتربري، على انتخاب ولتر المذكور، لأنه كان من قبل قد اعتدى على راهبة، وأنجب منها أولاداً، وأضافوا إلى ذلك أن انتخاب رئيس أساقفة لايجوز أن يتم من دون حضـورهم، وتمسك —على كل حـال— رئيس الأسـاقفة المنتخب بـالانتخاب، وعمل مـرافعـة، وأخذ معـه بعضـاً من رهبان كـانتربري، ومثل بحضرة البابا، سائـلاً إياه تثبيت انتخابه، وعند سماع البـابا —على كل حـال— بـأن الانتخـاب قـد عـارضـه الملك والأسـاقفـة، أجّـل القضيـة، حتى يتمكن من معـرفـة الحقـائق حـول القضية، وعندمـا علم الملك مع الأسـاقفة بأن رئيس الأسـاقفة المنتخب قـد ذهـب إلى بلاط روما، وضعـوا الاعتراضـات المتقـدم ذكرها كتـابة، وأرسلوهـم، ممهـورين بخاتم الملك وبـأختام الأسـاقفة إلى البـابا، بعناية أسقفي روكستر وشيستر، وعيّـنوا المعلم جون رئيـس شمامسة بدفـورد ليتـولى معالجة هذه القضيـة، ثم ذهب هؤلاء الرسل إلى روما، وسلمـوا رسـائل الملك والأساقفـة إلى البـابا، الذي قام بعـد تفحص متمعن لهم، وبناء على نصيحـة كرادلتـه، فحدد يومـاً لظهور الفـريقين أمامـه، يكون اليـوم التـالي ليـوم أربعـاء الرمـاد، وذلـك بغيـة التـوصل إلى فض هذا الخلاف بشكل صحيح، وتقرير الأمر بشكل حاسم.

ووقعت خـلال صيف هذا العام كله عـواصف رعـد وبرق مرعبـة، حيث أشعلت النيران في عـدد من الأبنيـة في أماكن متفـرقـة، وأهلكت الناس والماشيـة، وهطلت في الخريف التـالي أمطار فيضـان متـواصلة، سببت كثيراً من الأذى في أيام الحصاد.

حول عصيان الويلزيين

وفي شهـر آب من العام نفســه، قـام الفرسـان والجنود الذي تشكلت

منهم شحنة قلعة مونتغمري، الواقعة على الحدود الويلزية بغارات مع من كان من تلك المنطقة، في سبيل توسيع الطريق من القلعة، وتحويله إلى طريق أكثر أماناً، وذلك بسبب رجال العصابات الويلزية، الذين نهبوا وقتلوا المسافرين هناك، ولذلك زحفوا نحو المكان مع السيوف، والفؤوس، والهراوات، وأسلحة أخرى، وشرعوا بقطع الأشجار وإزالة الأسيجة والنباتات الشوكية، لجعل الطريق أعرض للمسافرين، ووصلت أخبار هذه الوقائع إلى مسامع الويلزيين، فقدموا في قوة كبيرة، وهاجموهم، وأرغموهم على التراجع إلى داخل القلعة، لكن ليس من دون وقوع قتلى من على لجانبين، ثم إنهم ألقوا الحصار على القلعة، لكن الحامية تمكنت على الفور من ارسال رسالة إلى هيوبرت، المسؤول عن العدالة، الذي كان الملك قد أعطاه مؤخراً تلك المرتبة مع القلعة، وبناء على ذلك زحف الملك شخصياً، نحو ذلك المكان، بكل سرعة، وأرغم الويلزيين على رفع الحصار، وكان الملك قد وصل مع قوة صغيرة، وكان متوقعاً التحاق نجدات به، وبالفعل مالبثت هذه النجدات أن التحقت به، وبناء عليه زحف مع كتلة كبيرة من الجنود نحو الغابة المتقدم ذكرها أعلاه، وقد قيل بأنها كانت واسعة جداً، تمتد نحو خمسة فراسخ، ومع أنها كانت واسعة، ومن الصعب كثيراً تدميرها بسبب كثافة الأشجار النامية فيها، لقد جرى تدميرها واحراقها بعد صعوبات جمة، ثم قاد الملك جيشه، وتوغل أكثر في البلاد، ووصل إلى مكان مسكون من قبل بعض الرهبان من طائفة الرهبان البيض، وكان اسم هذا المكان كريديا Cridia وقد أخبر الملك بأن ذلك المكان مستودع للأسلاب التي أخذت من قبل الويلزيين، وجرى، بناء على أوامر الملك، إلقاء النار في تلك الأبنية، فتحول إلى رماد، ونظر هيوبرت إلى الحصانة القصوى للموقع، فأمر —بناء على موافقة الملك— ببناء قلعة هناك، وقبل أن يكتمل هذا، جرى قتل أعداد من الطرفين، وعندما كان النبيل وليم دي براوس Braose يقوم بحملة جمع للأعلاف، اعتقل من قبل

الويلزيين، وحمل أسيراً، وحدث مثل هذا أيضاً إلى فارس، كان قد عمل مؤخراً فارساً بحزام من قبل الملك، فقد ذهب مع آخرين للاعتلاف، وعندما كان مع مرافقيه تمكن الأعداء من عزله وتطويقه، فانقض عليهم بشجاعة وصار في وسطهم، وبعدما قتل عدداً من الذين تصدوا له، سقط أخيراً قتيلاً، مع بعض الآخرين من جيش الملك، وكان عدد كبير من بين مقدمي جيش الملك متواطئين مع للويلين، مع أنهم تظاهروا بالوقوف إلى جانب الملك، ولهذا السبب، نقصت جميع أنواع الامدادات لدى الجيش، وقد أجبر الملك على عمل صلح مهين، وافق بموجبه على هدم القلعة، التي شارفت على الانتهاء، والتي احتاجت إلى جهد كبير، ونفقات عظيمة، وأن يجري الهدم على حساب الملك، وأن على للويلين أن يعطي إلى الملك مقابل أتعابه ونفقاته ثلاثة آلاف مارك، وما ان جرى التصديق على هذه المعاهدة، حتى عاد كل فريق إلى وطنه، وهكذا عاد ملك انكلترا مجللاً بالعار، فبعدما أمضى قرابة الثلاثة أشهر في بناء القلعة المذكورة، وبعدما بدّد مبلغاً لانهاية له من المال، عاد تاركاً النبيل وليم دي براوس أسيراً بين يدي للويلين، والسخرية التي ثارت من قبل كثيرين، صدرت بسبب أنه لدى الشروع ببناء القلعة، أعطاها المسؤول عن العدالة اسم «حماقة هيوبرت»، ولهذا عندما رأوها بعد كثير من المتاعب والنفقات قد هدمت إلى الأرض، قالوا جميعاً بأن المسؤول عن العدالة لم يكن فقط متنبئاً، لابل أكثر من متنبىء.

كيف وصل الامبراطور فردريك إلى الأرض المقدسة ورفع من شأن القضية الصليبية

وركب في العام نفسه الامبراطور الروماني فردريك سفينة عند البحر المتوسط، ووصل في عيد مريم العذراء إلى عكا، حيث خرج رجال الدين والشعب إلى استقباله، ورحبوا به بتشريف يليق برجل عظيم، لكن عندما اكتشفوا بأنه كان محروماً كنسياً، لم يمنحوه قبلة سلام، كما

أنهم لم يجلسوا على المائـدة معه، بل نصحـوه بأن يقدم ترضيـة إلى البابا، وأن يعود إلى جماعة الكنيسة المقدسة.

وكـان الداوية والاسبتـارية، لدى وصـوله، قـد حبـوا على ركبهم، وبجّلوه، وقبّلوا ركبتيــه، وأعطى أفـراد الجيش الصليبـي الذي كـان حاضراً الحمد للرب على وصوله، وأملوا أنه بوصوله سوف يكون هناك خـلاص بين أوساطهم، ثم اشتكى الامبراطور بمـرارة، إلى الجيش كله، ضـد الحبر الرومـاني، لأن هذا الحبر قـد تفـوه بشكل غير عـادل بحكم أصدره ضده، وأكد أنه تأخر عـن الزحف إلى مساعدة الأرض المقدسة، بسبب مرض شديد.

ولدى سماع سلطان القـاهرة بـوصـول الامبراطور إلى سـورية، بعث إليـه بهدايا ثمينة من الـذهب، والفضــة، والحرير، والجواهر، والجمال، وعاج الفيلة، والحمير، وأشيـاء أخرى رائعة ليست مـوجودة في البلدان الغربيـة، وعند وصول الامبراطور إلى عكا، وجـد الجيش الصليبي تحت قيـادة: دوق ليمبـورغ Limburgh وبطريرك القـدس، ورؤســاء أساقفة الناصرة، وقيسـارية، ونربونه، والأسقفين الانكليزيين لوينكستر، واكستير، ومقـدمي، الاسبتاريـة، والداوية، وطائفة اسبتـارية التيـوتون، الذين كان تحت قيادتهم الموحدة حوالي ثمانمائة فارس من الحجاج الحمر، وحوالي عشرة آلاف من الجنود الرجالة، تجمعوا من مختلف أجزاء العالم، وكلهم قـاموا مدفـوعين بشعور عـام من التقوى، بالزحف الى قيسـارية وقـد شحنوا هناك بعض القـلاع، وعلى هـذا كـان الذي بقي عليهم هو استرداد يافـا، ومن ثم الزحف على المدينـة المقـدســة، ولدى معـرفــة الامبراطور بأوضـاع الأرض المقـدسة، وافق تماماً على خطة الحجـاج، وبعدمـا عمل جميع الاستعدادات اللازمة للزحف نحو الأمـام، انطلقوا خــارجين يتقـدمهم الامبراطور، ووصلـوا في الخامس عشر من تشرين الثاني من دون إعـاقة إلى يافا، ولكن بما أنه كـان من غير الممكن بالنسبة

لكل إنسان أن يحمل براً من المؤن مافيه كفاية له شخصياً ولخيوله لعدة أيام، وذلك مع أثقاله، تمّ الحصول على سفن عند عكا من أجل حمل الإمدادات للجيش، ولكن هبّت عاصفة مفاجئة، وصار البحر هائجاً إلى حد أن الحجاج الصليبيين مكثوا لمدة سبعة أيام متواصلة من دون امدادات، وانتشر رعب هائل بين كثير منهم، وخيّل إليهم بأن الرب في غضبه سوف يدمّر شعبه، ويزيله من على وجه الأرض، لكن رحمة الرب التي لايمكن وصفها، والتي لاتسمح أن يمتحن أي إنسان أكثر من احتماله، قامت أخيراً بسبب شعبه المؤمن، وقد أمر الرياح والبحر، فكان هناك هدوء، ثم وصل عدد كبير من السفن إلى يافا، تحت قيادة الرب، وهي محملة بكميات هائلة من القمح، والشعير، والخمر، ومختلف أنواع الامدادات، ولذلك توفرت كميات وافرة من المؤن في الجيش، حتى كان الفراغ من إعادة بناء القلعة المذكورة.

اليهودي يوسف الذي مازال حياً ينتظر القدوم الأخير للمسيح

وفي هذا العام وصل إلى انكلترا، واحد من رؤساء الأساقفة في أرمينيا الكبرى، حاجّاً، ليرى الآثار المقدسة العائدة للقديسين، وليزور الأماكن المقدسة في تلك المملكة، وذلك مثلما فعل في ممالك أخرى، كما أنه قدم رسائل توصية، من صاحب القداسة البابا، إلى رجال الدين، وإلى أساقفة الكنائس، الذين كان مفروضاً عليهم استقباله، ومعاملته بالتقدير والاحترام المتوجبين، وبعد وصوله ذهب إلى دير القديس ألبان، حيث استقبل بكل الاحترام من قبل راعي الدير والرهبان، وفي هذا الدير، كان متعباً من جراء رحلته، ولذلك بقي هناك عدة أيام لإراحة نفسه مع أتباعه، وبدأت أحاديث بينه وبين سكان الدير، بوسائط تراجمتهم، وخلال ذلك تقصّى حول عدة أمور، تتعلق بالدين في تلك البلاد ومراعاتها للأمور الدينية، وروى أشياء كثيرة غريبة تتعلق بالبلدان الشرقية، وفي سياق الأحاديث سئل عما إذا كان قد رأى قط شيئاً أو

سمع عن يوسف، الذي كان موجوداً أثناء آلام ربنا، وتحدث إليه، والذي مايزال حياً، بمثابة برهان حول الإيمان المسيحي، وكجواب لذلك رد فارس كان في حاشيته، وكان هو ترجمانه، وقد تحدث بالفرنسية قائلاً:

«مولاي على معرفة جيدة بذلك الرجل، وقبل وقت قصير من أخذه طريقه إلى البلدان الغربية، تناول يوسف المذكور الطعام على مائدة مولاي رئيس الأساقفة في أرمينيا، وغالباً ماعقد أحاديث معه»، ثم سئل بعد ذلك عما دار بين المسيح وبين يوسف نفسه، وعلى ذلك ردّ قائلاً:

في أيام آلام يسوع المسيح، اعتقل من قبل اليهود، واقتيد إلى قاعة المحاكمة، إلى أمام بيلاطيوس الوالي، علّه يحكم عليه بناء على تهمة اليهود له، ولم يجد بيلاطيوس سبباً للحكم عليه بالموت، فقال لهم:

خذوه واحكموا عليه وفقاً لقانونكم، وازدادت صرخات اليهود، وبناء على طلبهم أطلق سراح بارأباس، وسلم يسوع إليهم لكي يصلب، وعندما كان اليهود —بناء على ذلك— يجرون يسوع، ووصلوا إلى الباب، قام كارتافيلوس Cartaphilus وكان بواباً للقاعة، ويعمل في خدمة بيلاطيوس، بضرب يسوع على ظهره وهو خارج من الباب، بيده بشكل غير تقوي، وقال له ساخراً: إذهب أسرع، يايسوع، اذهب أسرع لماذا أنت متباطىء؟ ونظر يسوع إليه بملامح حادة، وقال له: أنا ذاهب، وأنت سوف تنتظر حتى أعود، وبناء على ماقاله ربنا، فإن كارتافيلوس هذا، مابرح ينتظر عودته، وقد كان وقت آلام ربنا في الثلاثين من عمره، وهو كلما وصل إلى سن مائة سنة، يعود دوماً إلى العمر نفسه، كما كان عندما تألم ربنا، وبعد موت المسيح، وتأسس الإيمان الكاثوليكي، جرى تعميد كارتافيلوس هذا من قبل حنانيا «الذي عمّد أيضاً الرسول بولص»، ومنحه اسم يوسف، وغالباً ماسكن مابين قسمي أرمينيا، والبلدان الشرقية الأخرى، ممضياً وقته بين الأساقفة

والآخـرين من رجـال الكنيسـة، وهو رجل له أحـاديث قـدسيـة، وهو متدين، وهو رجل قليل الكلام، ومتحرز في سلوكه، وذلك أنه لايتكلم مطلقـاً، مالم يسئل من قبل الأسـاقفة ورجـال الدين، ثم إنه روى بعض أخبار أحداث العصور القـديمة، وبعض أخبار الأحداث أثناء آلام ربنا وقيـامتـه، وحـدثهم عن شهـود القيـامـة، أي الذين قـامـوا مع المسيح، وذهبـوا إلى المدينة المقـدسة، وظهـروا للناس، كما أنه تحدث عن عقيـدة الرسـل، وعن افتراقهـم وتبشيرهـم، وقـــد تحدث عن هـذا كله دون ابتسـامة، أو طيش في الحديـث، وفعل ذلك مثله مثل رجل خبير بالحزن والخوف من الرب، ينظر دوماً بخوف إلى قدوم يسوع المسيح، خشية أن يجده يوم الحساب الأخير غاضباً منه، وهو الـذي عندما كان على طريقه إلى الموت أثاره، لينتقم منه بشكل عادل، وتأتي إليه أعداد من الناس من مختلف أنحـاء العالم لتتمتـع بصحبته وبالحديث معـه، وإليهم، إذا كـانوا رجالاً مـوضع ثقة، كان يوضح جميع الشكوك حول القضـايا التي كانوا يسألونه عنها، وهو يرفض جميع الهدايا التي كانت تقدم إليه، حيث كان راضيـاً بقليـل الطعـام وخفيف الثيـاب، وهـو يضع أمله بالخلاص على أسـاس حقيقـة أنه أذنب من خـلال الجهل، لأن الرب قـام أثناء آلامـه بالدعاء لأعـدائه بهذه الكلمات: «اغفر لهم ياأبي، لأنهم لايعـرفون الذي يفعلونه».

كيف خلف المعلم روجر يوستاس أسقف لندن

وأنهى في هذا العـام نفســه يوستـاس أسقف لندن حيـاته، وانتخب الكهنة مكانه المعلم روجـر، الذي كـان لقبـه الأسـود، وكـان كـاهناً في كنيستهم، وقـد قـدم بعـد ذلك إلى الملك، واستقبل منه من دون أية معارضـة، وفي العام نفسه أيضاً، مـات في شهر كانون الأول، غيـوفري أسقف إيلاي، وقد دفن في الكنيسة الكاتدرائية في الثاني عشر من الشهر نفسه، وإثر مـوته اختار الرهبان بـاتفاق عام هيـوج، راعي دير القديس

إدمـوند، الذي عندمـا قدّم إلى الملك، استقبل منه عـن طواعية، وجـرى منحه جميع ممتلكات الأسقفية.

كيف دعا نبلاء القارة ملك انكلترا للقدوم إليهم

عـام ١٢٩٩م، فيـه عقـد الملك هنري بلاطه في اكسفـورد، يوم عيـد الميلاد، وفيه كان نبلاء المملكة حضوراً، وإلى ذلك المكان قدم إليه رئيس أسـاقفـة بوردوكس، الذي كـان قـد أرسـل من قبل نبـلاء غـاسكوني، وأكوتين، وبواتو، وقد استقبل بتشريف مناسب من قبل الملك، واحتفل بعيـد الميلاد معـه، وقدم إليـه رسل خاصين أيضـاً من نورماندي، وقـد جاءوا جميعاً لقضاء العمل نفسه معه، وهو لصالح النبلاء المذكورة أسماء مقاطعـاتهم أعلاه، لدعوته للقدوم شخصيـاً إلى مناطقهم، ووعدوه أنهم جميعاً سوف يقـدمون إليه مع الخيول والسـلاح، ولسوف يتبعهم شعب المقاطعـات، ولسوف يقفـون إلى جانبه من دون إحجـام، وبذلك يمكنه استرداد مقـاطعـاته المفقـودة، وكـان هنري لبسـاطتـه لايعـرف كيف يتصرف، ولذلك تشـاورمع المسؤول عن العـدالة، الذي كان مستشـاره الوحيد، والذي نصحـه بتأجيل القضية حتى فرصة مناسبـة أكثر، ولما لم يكن بإمكان الرسل الحصول على أي جواب آخر عادوا إلى الوطن.

كيف كتب منجّمو طليطلة حول مايتعلق بالكواكب

وكتب في العام نفسه منجّمو طليطلة رسائل إلى جميع المسيحيين، كان محتواها كما يلي:

«إلى جميع الأتبـاع المخلصين للمسيح، الذين يمكـن أن تصلهم هذه الرسائل، من المعلم جـون داوود الطليطلي، ومن جميع الآخرين للمكان نفسه، أمـاني الصحة ومـواساة الروح القدس، إنه منذ سنـة مولانا ألف ومائتين وتسع وعشرين، سـوف تكون الشمس في شهر أيلول لمدة سبع سنوات في برج الميزان، وسوف تجتمع وقتها جميع الكواكب مع بعضها،

وسوف تكون الشمس وقتها في ذيل التنين، وسوف تكون هذه شارة على حوادث هائلة ومرعبة، ولسوف تكون هناك عواصف ريح خلال زحل والمريخ، وسوف يرتفع البحر ويصبح عالياً بشكل غير معتاد، وسيكون هناك تصادم كبير للرياح، وكأنها متواجهة مع بعضها، ولسوف تحجب وتظلم الدنيا كلها، وسيصدر عنها أصوات مرعبة، تسبب خفقان قلوب الناس وتجعلها مضطربة، وستدمر الأبنية والأشجار، وسوف ترتفع عدة وديان إلى مستوى الجبال، وسوف تدمر عدة مدن وتسويها الأرض، خاصة القاهرة، وبغداد، وميتاس Methas وطرابلس، وبشكل رئيسي المدن القائمة في مناطق الحصباء والمناطق الرملية، وأثناء حدوث هذه الأشياء سوف يكون هناك كسوف للشمس، ولسوف يكون لون الشمس من الساعة الثالثة من النهار حتى منتصف اليوم أحمر نارياً، مما يشير إلى سفك كبير للدماء، ولسوف يتبع هذا خسوف للقمر، له ألوان متمازجة، مما يشير إلى اضطراب بين الأمم، وسيكون بعد هذا معارك ومذابح في الشرق وفي الغرب، وستكون هناك هزات أرضية وزلازل في جميع أنحاء الدنيا، وسيكون هناك موتان كبير وخلاف في الأمم والممالك، وبين واحدة وأخرى، وسوف يموت امبراطور كبير، وبعد هذه العواصف سيبقى قليل من الناس أحياء، وسيتمتع الذين سيبقون أحياء بوفرة من الخيرات والثروة، وسيثور خلاف بين المسلمين، وسيتركون مساجدهم وسيلتحقون بالمسيحيين ويتحدون معهم، وبناء عليه عندما اكتشفنا نحن بشكل عام هذه الحقائق مع جميع القضاة وأصحابنا من المنجمين في طليطلة، رأينا من الموائم كشفها إليكم، ونفرض عليكم في سبيل التخلص من ذنوبكم، ومن أجل خلاص أنفسكم، أن تقوموا بنشرهم إلى أناس ليسوا على دراية بهم، وأن تعدّوا أماكن سليمة لأنفسكم للبقاء فيها، مادامت هذه الرياح مستمرة، فهي سوف تهب في شهر أيلول، ووقته سوف يكون من الصعب أن تجدوا على الأرض أماكن آمنة للسكنى، ولذلك أعدّوا

كهوفاً قائمة على سهول محاطة بجبال، وليست مغطاة بالرمال أو الحصى، وعليكم تغطية الكهوف بالألواح، ووضع تراب عليها، ولاتتركوا أشجاراً قريبة منهم، حتى لاتنغلق أبواب الكهوف بهم، وضعوا في هذه الكهوف أطعمة لأنفسكم كافية لمدة أربعين يوماً، واعلموا أيضاً أنه حول هذا الأمر جميع الفلاسفة والمنجمين في اسبانيا، واليونان، والعربية، وأرمينيا، والعبرانيين، لديهم الموقف نفسه والرأي مثلنا نحن أنفسنا، وسمعنا أيضاً أن ملك Manichin يقوم ببناء برج من مواد فخمة، ويساعده في عمارته جميع الجيران، وسوف يكون البرج من الاتساع مثل جبل، وقد أعلمنا أيضاً ملك صقلية بالمخاطر التي بدت لنا قريبة الحلول، وبناء عليه لم يبق من شيء أمام المسيحيين في الأزمة الحالية، سوى أن يسعوا جميعاً لإعداد أنفسهم من أجل توبة مثمرة، بوساطة اعتراف خالص ومتواضع، وبتكفير موائم، من أجل أنه عندما يأتي العريس، لايقابلونه بمصابيح فارغة، مثل العذراوات الحمقى اللواتي ليس لديهن زيت، واللائي —لاسمح الرب— سيجدون الباب مغلقاً في وجوههن، بل أن يكن مثل العذراوات العاقلات، مع مصابيحهن المليئة، واللائي يمكن أن يسمح لهن بالدخول مع العريس إلى احتفال العرس»، ونحن نعتقد واثقين أننا سوف نرى خلال السنوات السبع المقبلات أشياء من هذا القبيل سوف تقع، وهي سوف تقع حقيقة أو بما يشبه ذلك، ومن الممكن أن نجد بعض مايتكيف مع رسائل المنجمين هذه، لكن هذا سوف يأتي فيما بعد.

كيف عمل البابا غريغوري حرباً ضدّ فردريك الامبراطور الروماني

كان في هذه الآونة البابا غريغوري غاضباً، لأن الامبراطور الروماني فردريك قد ذهب إلى الأرض المقدسة، وهو رجل محروم كنسياً ومتمرد، وصار يائساً بشكل مطلق من توبته، والقيام بعمل ترضية يعيد بها

الوحدة إلى الكنيسة، وبناء عليه قرر —بعدما رأى عصيانه وتمرده— أن يطرده من مقامه الامبراطوري، وأن يعين واحداً آخر مكانه يكون ابناً للسلام ومطيعاً، وبما أن معلوماتنا حول هذه القضية، يمكن أن تصلنا بوسائط الآخرين، سوف نقدم هنا رسالة، من واحد اسمه الكونت توماس، كان الامبراطور قد عيّنه لدى مغادرته، ليكون بالتعاون مع آخرين وصياً ونائباً على الامبراطورية، وقد أرسلت رسالة هذا النبيل إلى الامبراطور حول هذه القضية، وقد حصلنا عليها من واحد من الحجاج:

«إلى فردريك السامي والقدير، الذي هو بنعمة الرب أغسطس وامبراطور الرومان، والملك الأعظم قوة لصقلية، من توماس كونت أوف أتيري Atterae تابعه المخلص والمطيع في جميع المجالات، تمنيات الصحة والنصر على أعدائه، بعد مغادرة جلالتكم، حشد غريغوري، الحبر الروماني، والعدو المكشوف لمعاليكم، جيشاً كبيراً، بوساطة جون دي بريين، الملك الماضي للقدس، وبعض الرجال الجريئين الآخرين، الذين عيّنهم مقدمين على حملته، وغزا أراضيكم، وأراضي رعاياكم، دونما تقدير للشريعة المسيحية، وقد قرر اخضاعكم بسيف الفولاذ، ذلك أن جون المذكور قد جمع جيشاً كبيراً من مملكة فرنسا، ومن البلدان الأخرى المجاورة، على أمل الحصول على الامبراطورية، إذا ماتمكن من التغلب عليكم، وقد زود عساكره بعطاء من خزانة الكرسي الرسولي، ثم قام جون المذكور مع المقدمين الآخرين، بغزو أراضيكم وأراضي رعاياكم، وقد ألقى النيران في الأبنية والبلدات، واستولى على المواشي وعلى غنائم أخرى، وجعل السكان أسرى لديه، بعدما عذبهم بمختلف الطرق، وقد أرغمهم على دفع غرامات ثقيلة، وهم لم يوفروا لاعمراً ولاجنساً، ولم يظهروا رحمة إلى أي انسان خارج الكنائس أو المقابر، وهم يستولون الآن على البلدات وعلى القلاع، دون المبالاة

بحقيقة أنك الآن في خدمة يسوع المسيح، وإذا ماأشار أي انسان إلى الامبراطور، فإن جون بريين هذا يعلن أنه لايوجد امبراطور آخر إلى جانبه نفسه، وأصدقاؤك أيها الامبراطور، الأكثر قدرة، قد اعترتهم الدهشة تجاه هذه الأشياء، ولاسيما رجال الدين، وهم يتساءلون، بأي نصيحة وبأي شعور يمكن للحبر الروماني أن يفعل مثل هذه الأشياء، ويشن حرباً ضد المسيحيين، وخاصة أن الرب قد قال لبطرس، عندما كان على وشك أن يضرب رجلاً بسيفه الفولاذي:

«ضع سيفك في غمده، لأن كل واحد يضرب بالسيف، سوف يهلك بالسيف»، ومثل هذا هم أيضاً يتساءلون بأي حق يمكن للذي يقوم كل يوم بحرمان اللصوص كنسياً، والمحرقين، للمسيحيين والمعذبين لهم، والذي يطردهم من حظيرة الكنيسة، يمكنه أن يفوض، ويعطي موافقته على مثل هذه الإجراءات، وبناء عليه، ألتمس منك أيها الامبراطور الأعظم قدرة، أن تتخذ مايلزم من إجراءات من أجل سلامتك، وأن تحفظ كرامتك حتى لاتتدنس بالمسائل المتقدم ذكرها، لأن عدوك جون دي بريين المتقدم ذكره، قد شحن جميع الموانىء الموجودة على هذا الجانب من الماء، بعدد كبير من الجواسيس المسلحين، من أجل أنه إذا ماحدث وعدت من حجّك، يقوموا باعتقالك، لاسمح الرب بذلك.

وفي العام نفسه، لدى اقتراب حلول أربعاء الرماد، التي كانت اليوم الذي جرى تحديده من أجل رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، ولرسل الملك، لسماع القرار الحاسم للبابا، حول الذي ينبغي عمله بموجب الحق حول قضية الانتخاب، وعمل الرسل المتقدم ذكرهم، ولاسيما المعلم جون دي هوتون Houton مرافعات متوالية إلى البابا والكرادلة، لكنه وجد أنه من الصعب اقناعهم، فقد كانوا خائفين جداً من أن ينخدعوا في توقعاتهم، وبناء عليه عقدوا اجتماعاً بغيضاً حول القضايا المذكورة أعلاه، وأخيراً وعد ملك انكلترا البابا بعشر

جميع الممتلكات المتحركة في جميع انكلترا وايرلاندا، وأن يساند حربه ضد الامبراطور، على شرط أن يقف إلى جانب رغبات الملك وخططه، وكان البابا راغباً فوق كل شيء باذلال الامبراطور المتمرد، ولذلك فرح كثيراً تجاه هذه الوعود، واقتنع بالموافقة على شروطها، وبناء عليه أخذ مقعده في المحكمة اللاهوتية، وأصدر قراره كما يلي:

إلغاء انتخاب وولتر الراهب لرئاسة أساقفة كانتربري

«علمنا مؤخراً بالانتخاب الذي جرى في كنيسة كانتربري، لواحد من الرهبان اسمه وولتر، وقد علمنا بعد ذلك بأن الراهب المذكور قد ترافع عن نفسه ولصالحها من أجل انتخابه، كما سمعنا بالاعتراضات والاستثناءات التي عملت من قبل أساقفة انكلترا، ضد انتخابه المذكور، وضد سمات المنتخب، الذي مثل أمامنا بوساطة أسقفي كوفنتري، وروكستر، مع ابننا المحبوب كثيراً رئيس شمامسة بدفورد، ولقد عهدنا إلى إخواننا المبجلين: اللورد أسقف ألبانو، والمعلم توماس دي ستا سابينا Sta sabina والمعلم ب .P كاردينالنا، أن يقوموا بفحص لإمكانيات رئيس الأساقفة المذكور، وعندما مثل المنتخب المذكور أمامهم، وسئل عن نزول ربنا إلى الجحيم، أكان نزوله بالجسد، أو أنه كان محرراً منه، أجاب بشكل غير مرض، وأيضاً عندما سئل عن تكريس جسد المسيح عند المذبح، جاء جوابه غير صحيح، ومجدداً عندما سئل عن راحيل، كيف بكت من أجل أولادها، أجاب بشكل غير صحيح بأن ذلك «عندما ماتت أولاً»، وعندما سئل عن قرار الحرمان الكنسي إذا ما جرى التفوه به مضاداً للشريعة، فأجاب بشكل غير صحيح، وعندما سئل عن زواج، إذا مات واحد من الطرفين المتعاقدين غير مؤمن، فأعطى جواباً غير صحيح، وقد جرى فحصه حول جميع هذه النقاط بكل دقة من قبل الكرادلة، ونحن نقول إنه لم يجب فقط بلا مبالاة، ولكن بشكل غير صحيح، وبما أن كنيسة

كـانتربري هي كنيسـة جليلة، يلزمهـا رئيس أسـاقفـة جليل، وأن يكون انساناً مستقيماً ومتـواضعاً، وأن يكون واحداً مأخوذاً من صـدر الكنيسة الرومـانيـة، إنه بالنسبـة لهذا المنتخب الآن نحن نعلن أننا لانراه جـديراً بالمنصب، لابل أكثـر من هذا إذا مـاأردنا أن نتماشى مع العـدالة بدقـة، علينا أن نرغم على قول شيء أكثـر: إنه غير موائم تماماً لترقيته إلى مثل هذا المقـام العالي، ولـذلك نحن نلغي الانتخاب كليـاً، وهو الانتخـاب الذي عمل بـالنسبـة له، ونحتفـظ لأنفسنا بتـزويـد الكنيسـة المذكــورة [برئيس أساقفة]».

ترقية رتشارد إلى رئاسة أساقفة كانتربري

أما وقد جرى الآن إلغاء الانتخـاب المذكور أعلاه على هذه الصورة، قـام وكلاء ملك انكلترا مـع الأساقفـة المسـاعدين لكنيسـة كـانتربري، بحضـور البـابا، بابراز رسـائل معتمدة مـن الملك ومن الأسـاقفـة، فيهـا قدمـوا اقتراحاً لصالح المعلم رتشارد، مستشـار كنيسة لنكولن، وأعلنوا أنه انسان صـاحب حكمة عـالية، وثقافـة ممتازة، وأحـاديث طيبة، وأنه سـوف يكون مفيداً جـداً لصـالح كنيسـة روما، وكـذلك لصـالح ملك ومملكة انكلترا، وهكذا بعـدمـا أضفـوا جميع أنواع المديح على شخصـه، أقنعوا البـابا والكرادلة بالموافقـة على انتخابه، وبناء عليـه بما أن رتشارد المتقدم الذكر لم يجر انتخابه، بل أعطي لتولي رئاسة الأساقفة، قام قداسة البابا بإرسال رسائل إلى الأساقفـة المساعدين في كانتربري جاء نصها كما يلي:

«من غـريغـوري، أسقف، الخ، الخ، إنـه بمـوجب رعـايتنا بالمنصب الأسقفي الـذي عهـــد به إلينا، ومنـح إلينا من قبـل الرب —مـع أننا لانستحق ذلك— وبموجب وفـرة سلطاتنا الرسوليـة، وبسبب المشاكل الطارئـة التي تقوم يـومياً، نحن مـرغمـون على العناية بجميع الكنائس وبإدارتها جميعـاً، وعندمـا تقـوم الحاجـة، أن نزودها ونؤمن لها مـايلزم

صدوراً عن العدالة واللطف، وبالرعاية الأبوية، وإنه بين جميع الكنائس المقدرة والكراسي المطرانية، نفتح أعين تقديرنا على كنيسة كانتربري، ونهتم بحاجياتها، على أساس أنها العضو الأكثر إجلالاً بين أعضاء الكرسي الرسولي، وبحكم كونها أم الكنائس، فإن الكرسي الرسولي ينبغي أن ينظر إليها بتقدير أعظم وبمزيد من الحظوة، وذلك مثلما سكبت الرحمة الربانية فائضاً من النعمة، على الاهتمامات الدنيوية والروحية لذلك الكرسي، وبالنسبة لهذه الكنيسة قام الأعظم سمواً، لدى توزيعه للأشياء بزرعها مثل فردوس النعيم، وجنة الطيبات، فيها أخرج شجرة معرفة الأشياء الخيّرة والشريرة، وذلك في إقامته للمقام المطراني، وشجرة الحياة في الطائفة المنظمة للرهبان، وفي نظام مراعاتهم لعقائدهم، وهي شجرة حملت ثمارها بأشخاص الأساقفة المساعدين، الذين يعطون بأعمالهم الصالحة بهجة للناظر، ويقدمون بعقائد الإيمان طعماً طيباً، وينعشون بالمواقف الطيبة الرائحة، ونبع من المكان نفسه نهر، تميز بدم توماس الشهيد الرائع، وهو الذي انقسم أثناء جريانه إلى أربعة فروع رئيسة، حيث أنها تعيد الحياة إلى الميت، والصحة للمريض، والحرية للعبد، والشجاعة إلى الخانع، وعندما بحثنا في تأمل دقيق معجزاته السامية، وجدنا البهجة غير العادية والنادرة للزرع اللاهوتي، وبما أن الوصي على هذا الفردوس، ستيفن صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان مؤخراً رئيس أساقفة كانتربري، وكاردينالاً لدى الكنيسة الرومانية، وكان رجلاً متميزاً تماماً بمواهب العلم، مع النعمة السماوية، بما أنه أخذ من مشغل الجسد، ونقل —كما نأمل— إلى المتعة والهدوء في الفردوس السماوي، قام أولادنا المحبوبين في التجمع الديري في كانتربري بإعلامنا بانتخاب عملوه لواحد اسمه وولتر، وهو راهب من رهبان كانتربري، وبعدما بحثنا —بناء عليه— في فضائل ذلك الانتخاب، وعملنا فحصاً لمعارف ذلك الشخص، قمنا بناء على تقدير صحيح للعدل، بإلغاء ذلك الانتخاب، ورأينا من الموائم أن نضع في

ذلك الفردوس، لإدارته وحراسته، المعلم رتشارد مستشار لنكولن، وهو رجل صاحب كرامة، وواحد منفرد بحياته ومعارفه، وفهمه، وتكوينه، قد عمل وفق مثال الرب وشبيهاً له، وواحد متميز بصحة عقيدته، امتلك نفس الحياة، وذلك بناء على بينات إخواننا الذين عرفوه، أثناء متابعته لدراسته، واكتشفنا مما بيّنه إخواننا: أسقفا روكستر وكوفنتري، وعدد كبير آخر، أنه رجل صاحب تعليم متميز، وحديث طيب، وشهرة بدون شوائب، وحفاظ جيد، ومحافظ غيور على أرواح وامتيازات الكنيسة، ولقد قمنا بناء على نصيحة إخواننا، وبحضور الأسقفين المتقدم ذكرهما أعلاه، بتعيين رتشارد المذكور، رئيساً لأساقفة كانتربري ومديراً، وبناء عليه إننا في هذه الرسائل الرسولية نحذر ونحث اخوتكم، بحكم كونكم أبناء النعمة والتقوى، أن تستقبلوه، وتصغون إليه، في سبيل تشريف الرب، والكرسي الرسولي، وكنيسة كانتربري، وأن يكون ذلك بتواضع، وتقوى مخلصة، وأطيعوه بتواضع واخلاص بمثابة كونه أبيكم، ومدبر أرواحكم، ولأنه أسقفكم المطراني، ويتوجب عليكم بالحقيقة الابتهاج بالرب، لأنه بالتعاون مع نعمته التي وقت جهودنا وأعانتها، وهو تزويد محمود قد عمل لصالح تلك الكنيسة المترملة. صدر، الخ».

كيف أعيدت الأرض المقدسة إلى الامبراطور فردريك

وزار في العام نفسه ربنا يسوع المسيح، منقذ العالم ومواسيه، شعبه برحمته، وفي استجابة لصلوات الكنيسة العالمية، أعاد للشعب المسيحي بشكل عام، وإلى الامبراطور الروماني فردريك بشكل خاص، مدينة القدس، وجميع البلاد التي كرسها الرب مخلصنا، وابن الرب، بدمه، وهكذا كانت الارادة الطيبة لربنا نحو شعبه، الذي أعلى من شأن الرحمة ورفعها إلى الحياة السرمدية، ولعمله انتقاماً على الشعوب، ولاحداثه تمزقاً بين قبائل المسلمين، لأن سلطان مصر، كان في ذلك الوقت، يعيش

وسط لجّة من الحروب الداخلية الشديدة التي قامت ضده من جميع الاتجاهات، ولأنه لم يعد بإمكانه الصمود أمام حروب أخرى، كان مـــرغماً على عمل هدنة لمدة عشر سنوات مع الامبراطور، وأعطى الأرض المقدسة إلى الصليبيين من دون سفك للدماء، وهكذا أمكن بحرب جيدة أرسلت من قبل الرب، خرق سلام سيء، وإذا ما أردنا فهم هذا اللطف للرحمة اللاهوتية، واظهاره بشكل أوضح للقارىء، علينا قراءة الرسالة التالية، التي هي إحدى رسائل الامبراطور الروماني، وكان قد أرسلها، مختومة بالذهب، إلى هنري ملك انكلترا.

رسالة الامبراطور إلى الملك الانكليزي

حول القضية المذكورة أعلاه

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، أغسطس امبراطور الرومان، وملك القدس، وصقلية، إلى صديقه المحبوب كثيراً، الملك هنري، ملك الانكليز، تمنيات الصحة، والعواطف المخلصة، ليفرح الجميع ويبتهجوا بالرب، وليقم الذين هم مستقيمـــون في القلب بتمجيـــده، الذي لكي يجعل قدرته معروفة، لم يتفاخر بالخيول والعربات، بل حصل الآن على مجد لنفسه بندرة في جنوده، حتى يعرف ويفهم أنه عظيم بجـــلالته، مرعب في عظمته، ورائع بخططه نحو أبناء الناس، يغير المواسم بإرادته، ويجمع قلوب الشعوب المختلفة مع بعضهـــا، لأنه خلال أيام، وصل ذلك العمل الى نهاية، بوساطة معجزة، وليس بوساطة قوة، وهو عمل لم يستطع عدد كبير من الزعماء وحكّام العالم، وسط حشود من الأمم، إنجازه في الزمن الطويل الماضي حتى الآن بالقوة، مهما كانت كبيرة، ولابالرعب، ولكي لانبقيك معلقاً لوقت طويل بوساطة رواية طويلة، نحن نرغب في إعلام قداستكم، بأننا نضع ثقتنا بأن يسوع المسيح، هو ابنه، الذي بخدمته نحن معرضون أجسادنا بتقوى عظيمة جداً، وكذلك حياتنا، وهو لن يتخلى عنا في هذه البلدان النائية وغير المعروفة، وهو

سيقدم إلينا على الأقل نصيحة صحيحة، ومساعدة من أجل تشريفه، وحمده، ومجده، فبجرأة انطلقنا باسمه من عكا في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثاني، وعبرنا أخيراً، ووصلنا سالمين إلى يافا، عازمين على إعادة بناء القلعة في ذلك المكان بحصانة مناسبة، حتى يكون فيها بعد الوصول إلى مدينة القدس المقدسة ليس فقط أسهل، بل أيضاً أسلم، وأكثر أماناً بالنسبة لنا ولجميع الصليبيين، وبعدما صرنا هناك واثقين تماماً باعتمادنا على الرب، انشغلنا في يافا، وانصرفنا نحو الاشراف نحو بناء القلعة، والاهتمام بقضية المسيح، حسبما تتطلب الضرورات، ووفقاً لما تقتضيه واجباتنا، وفي أثناء انشغال حجاجنا بهذه المسائل، تكرر تبادل الرسل بيننا وبين سلطان مصر، لأنه كان مع السلطان سلطان آخر اسمه الأشرف Xaphat وهو أخوه، وكانا معاً مع جيش كبير عند غزة، على مسافة سفر يوم واحد عنا، في اتجاه آخر لمدينة شكيم، التي تعرف بشكل عام باسم نابلس، وهي قائمة في سهل، وكان ابن أخوه، سلطان دمشق، مقيماً مع عدد كبير من الفرسان، والجنود على مسافة سفر يوم واحد عنا وعن الصليبيين، وأثناء سير المفاوضات من أجل عقد معاهدة بين الطرفين على كلا الجانبين، من أجل استرداد الأرض المقدسة، تجلى أخيراً يسوع المسيح ابن الرب من الأعلى على صبرنا التقوي، ومثابرتنا الخاشعة في سبيل قضيته، وفي عطفه الرحيم علينا، جعل سلطان مصر يعيد إلينا المدينة المقدسة، وهي المكان الذي سار فيه المسيح بقدميه، وحيث عبد المؤمنون الصادقون الأب بالروح وبالحقيقة، وفي سبيل إخباركم عن كل واقعة من وقائع هذا التسليم كما حدثت، ليكن معلوماً من قبلكم أنه ليست المدينة المتقدم ذكرها وحدها هي التي سلمت إلينا، بل المنطقة كلها الممتدة من هناك إلى ساحل البحر، قرب قلعة يافا، وذلك في سبيل أن يمتلك حجاج المستقبل ممراً حراً وآمناً للذهاب إلى الضريح المقدس والعودة منه، على شرط أن مسلمي ذلك الجزء من البلاد —بما أنهم يقدرون الأقصى تقديراً عظيماً— يمكنهم أن

يأتوا إلى هناك ويترددوا عليه بقدر ما يختارون، على شكل زوار للتعبّد هناك، وفقاً لعاداتهم، هذا ولسوف نسمح إليهم بالقدوم من الآن فصاعداً بالعدد الذي نأذن به، من دون سلاح، كما أنهم لايمكنهم الإقامة بالمدينة، بل خارجها، وأن يغادروا فور تأديتهم لعباداتهم، وعلاوة على هذا أعيدت مدينة بيت لحم إلينا مع جميع المنطقة القائمة بين القدس وبين تلك المدينة، وكذلك مدينة الناصرة، والمنطقة كلها القائمة بين عكا وتلك المدينة، وجميع منطقة تورون، التي هي واسعة جداً، ومفيدة جداً للصليبيين، وأعطيت مدينة صيدا إلينا أيضاً مع جميع السهل وأحوازها، وسوف تكون أكثر قبولاً للصليبيين وأكثر منفعة، مثلما كانت حتى الآن بالنسبة للمسلمين، وخاصة أنه يوجد ميناء جيد هناك، ومن هناك من الممكن نقل كميات كبيرة من الأسلحة والحاجيات إلى مدينة دمشق، وفي الغالب من دمشق إلى القاهرة، ومع أنه مسموح لنا بموجب المعاهدة بإعادة بناء مدينة القدس، وأن نجعلها في أحسن حالة كانت عليها قط، وكذلك قلاع: يافا، وقيسارية، وصيدا، وقلعة القديسة مريم التابعة لطائفة التيوتون، والتي بدأ رهبان هذه الطائفة بعمارتها في المنطقة الجبلية لعكا، والتي لم يسمح للصليبيين قط بفعله أثناء أية هدنة سالفة، إنه مع ذلك، غير مسموح للسلطان، حتى نهاية الهدنة بينه وبيننا، والتي مدتها المتفق عليها عشر سنوات، بترميم أو إعادة بناء أياً من حصونه أو قلاعه، وهذا كان في يوم الأحد الثامن عشر من شباط الذي مضى مؤخراً، الذي هو اليوم الذي قام فيه المسيح ابن الرب من الموت، والذي هو بناء على قيامته يرعاه المسيحيون بوقار، ويحتفلون به ويعدونه مقدساً بشكل عام في جميع أرجاء العالم، وتأكدت هذه المعاهدة بتبادل الأيمان بيننا، وحقاً أشع هذا اليوم، على الجميع بشكل مفيد، وهو اليوم الذي فيه تغني الملائكة بحمد الرب:

«المجد للرب في الأعالي وعلى الأرض السلام، وحسن الارادة نحو

الناس»، وفي اعترافنا بمثل هذا اللطف العظيم، وهذا التشريف الجليل، الذي جاء فوق رغباتنا،وعلى عكس آراء كثيرين، والذي أضفاه الرب برحمته علينا، من أجل رحمته الدائمة المشهورة، ومن أجل أن نتمكن شخصياً أن نقدم إليه قرابين شفاهنا الملتهبة، ليكن معلوماً أننا في اليوم السابع عشر من شهر آذار من هذه الخمس عشرية الثانية، قمنا نحن برفقة جميع الحجاج الذين تبعوا معنا باخلاص المسيح ابن الرب، بالدخول إلى مدينة القدس المقدسة، وبعدما تعبدنا الضريح المقدس، جرى في اليوم التالي تتويجنا بحكم كوننا الامبراطور الكاثوليكي، وهو أمر منحنا إياه الرب القدير من عرش جلالته، عندما رقانا بنعمته الخاصة وجعلنا الأعلى بين أمراء العالم، وهكذا إنه أثناء دعمنا لشرف هذا المقام العالي، الذي عائد إلينا بموجب حق السيادة، بات واضحاً أكثر فأكثر إلى الجميع بأن يد الرب قد صنعت هذا كله، وبما أن رحمته فوق جميع أعماله، يتوجب على المؤمنين بالعقيدة السليمة، أن يعرفوا منذ الآن، وأن ينشروا في الطول والعرض في جميع أرجاء الدنيا، بأنه الذي هو المبارك دوماً قد زار شعبه وخلصه، وأنه رفع عالياً صوت الخلاص في بيت عبده داوود، وقبل أن نغادر مدينة القدس، قررنا بفخامة أن نعيد بناء أبراجها وأسوارها، ونوينا أيضاً أن نرتب الأمور بحيث تسير خلال غيابنا ليس بعناية أو رعاية أقل، أثناء سير الأمور كما لو كنا حاضرين شخصياً، ومن أجل أن تكون رسالتنا الحالية مبعث سرور كامل في جميع الأنحاء، وأن تكون نهايتها سعيدة مثل بدايتها، ولكي تبتهجوا بعقلكم الملكي، نرغب بأن يكون معلوماً لديكم، وأنتم حلفاء لنا، أن السلطان قد تعهد أن يعيد إلينا جميع الأسرى، الذين —بموجب المعاهدة المبرمة بينه وبين الصليبيين— لم يطلق سراحهم عند فقدان دمياط منذ بعض الوقت، وأيضاً الأسرى الآخرين الذين وقعوا بالأسر بعد ذلك. صدر في مدينة القدس المقدسة، في اليوم السابع عشر من شهر آذار، من عام تجسيد ربنا، ألف ومائتين وتسعة وعشرين».

العلامات التي تقدمت على استرداد الأرض المقدسة

يتوجب أن نلاحظ أنه فيما يتعلق بهذه الإعادة لأرض الميعاد والقدس إلى الصليبيين، أن منجمي طليطلة قد كتبوا، قبل حدوث هذا الفرح العام والسرور بين الصليبيين، عن التقاء الكواكب، وعن عواصف مرعبة من الريح، وأن العواصف سوف تتصادم، وأنه سيكون في الوقت نفسه زلزال، وكسوف للشمس وخسوف أيضاً للقمر، وهذا ماتقدم ذكره في سياق أحداث هذا العام، وبالطريقة نفسها حدث أخذ الأرض المقدسة وصليب ربنا، من قبل صلاح الدين الرجل العنيف والشديد، فقد كتب آنذاك أيضاً بعض المنجمين، الذين كانوا يعيشون وقتها في المدينة نفسها، إلى البابا كليمنت كما يلي:

«إنه من العام الحالي، الذي هو عام ألف ومائة وتسعة وسبعين لتجسيد ربنا، حتى مضي سبعة أعوام، وفي شهر أيلول، سوف تكون الشمس في برج الميزان، وذيل التنين، وسوف إذا أذن الرب يكون اجتماع للكواكب في برج الميزان وذيل التنين، وهذه شارة لها أهميتها حول حوادث ثابتة، وسوف يلي ذلك زلزال مخيف، ولسوف تتدمر أماكن الدمار المعتادة، ويلحقها الخراب من قبل زحل والمريخ، الخ، ولسوف ينتج اتحاد الكواكب هذا، ريحاً قوية، سوف تجعل الهواء كثيفاً ومظلماً، ومشبعاً بالسم، وسيكون صوت هذه الريح مخيفاً، ترتجف منه قلوب الناس، وسوف تثور الرمال من المناطق الرملية، ولسوف تغمر المدن القائمة على مقربة منها في السهول، وسيطال ذلك في المقام الأول المدينتين الشرقيتين: مكة، والقاهرة، وجميع المدن الواقعة قرب أماكن رملية، ومامن أحد سوف ينجو من غمره بالرمال والتراب، هذا ولسوف تتقدم على هذه الحوادث علامات دالة عليها، وسوف يكون بالعام نفسه قبل اجتماع الكواكب في الميزان، كسوف كامل للشمس، وفي الصراع المتقدم سيكون هناك خسوف كامل للقمر، وسوف يكون

كســـوف الشمس نارياً، ولوناً غير مــرئي، مما يشير أنـه ستكون هناك حـرب بين الزعماء قرب نهر في الشرق، ومثل ذلـك في البلدان الغربيـة، وسوف يـدب الشك بين اليهود وبين المسلمين، إلى حد يصلـون فيه إلى التخلي عن كنسهم وعن مسـاجدهم، وسوف تتعـرض طائفتهم —بناء على أوامـر الرب— إلى الدمار الكلي، والمحق التـام، وبناء عليه، عندمـا سترى كسوفاً، اعلم أن عليك مغادرة تلك البلاد مع جميع أتباعك».

كيف أنه للذنوب إنسان ضاعت الأرض المقدسة

وكـان في ذلك الـوقت كثيراً من الشرور بين الناس على الأرض، إلى حـد أن «جميع الأجساد قـد أفسـدت طريقهـا أمام الرب»، لأن ممارسـة الذنب قـد تفجر بين الناس وانتشر، إلى حـد أن الجميع قد ألقـوا جانبـاً حجـاب الخجل، وكان الميل في كل مكان إلى الشرور بشكل مكشـوف، وسـوف يكون متعبـاً جـداً تعـداد جـرائم: القتـل، والسلـب، والزنا، والفحش، والكذب، والخيانة، وجـرائم أخرى، خاصـة بالنسبة لنا نحن الذين ننوي أن نكتب عن الأحداث التي وقعت، وعلى كل حـال بعدما تمكن العدو القديم للانسان من نشر روح الفساد في الطول والعرض في العـالم، غزا سـورية بشكل خـاص، وهي المكان التي منهـا تلقت الأمم الأخـرى دينهـا في المقـام الأول، ثم إنها أخـذت مـن ذلك المكان المثل لجميع الدناسـات، ولهذا السبب —بناء عليـه— عندمـا شـاهد الرب مخلص العالم، بأن أرض ميـلاده، وآلامه، وقيامتـه، قد سقطت في أعماق الشرور، رفض ميراثه وازدراه، وسمح لعصـا غضبه، الذي هو صـلاح الدين، بصب جـام غضبـه، لمحق ذلك الجنس العنيـد، لأنه فضّل أن يجري استعبـاد تلك الأرض المقدسـة من قبل الطقوس المدنسـة للأمم، على أن يستمـر أولئك الناس بالازدهار أية مدة أطول، لأنهم كـانوا غير متمنعين عن اقتراف أي عمل غير شرعـي، بوسـاطة أي تقـدير لما هو صحيح، وأنذرت حـوادث متنوعـة باقتراب الدمـار الذي كـان سيقع،

وتجلى ذلك بمجاعة كبيرة، وبزلازل متوالية، وبكسوفات للشمس وخسوفات للقمر، أما بالنسبة لعاصفة الرياح، التي قال بوقوعها منجمو طليطلة من خلال مراقبة النجوم، وأنها سوف تأتي من اجتماع الكواكب، وأنها سوف تترافق مع موتان، وأجواء فاسدة، قد تغيرت بدون شك لتدلل على الحادثة التالية، لأنه كان في الربيع رياح قوية، هزت الأركان الأربعة للعالم، وهذه أنذرت بأن مختلف شعوب الدنيا، سوف تثور لإنشاب القتال، ولتدمير الأرض المقدسة، وقد بقيت مدينة القدس المقدسة مع جميع أرض الميعاد، وكذلك الصليب المانح للحياة، والعائد إلى ربنا، في أيدي أعداء المسيح لمدة اثنين وأربعين عاماً، حتى العام الحالي، وهو عام ألف ومائتين وتسعة وعشرين لتجسيد ربنا، عندما حان أخيراً الوقت لمولانا في رحمته، ليصغي إلى صلوات عبيده المتواضعين، وليعيد بناء صهيون، وليظهر بمجده في مكان ولادته المقدسة، وآلامه، وقيامته، وليستمع إلى نحيب شعبه المستعبد، وليحرر أبناء المدمرين، حقاً، وإنه لما لاشك فيه أن الرب سمع أنين شعبه المستعبد أثناء استعادة الأرض المقدسة، الأمر الذي تحقق في ذلك الوقت من خلال سهر الامبراطور فردريك، بالتعاون مع الرحمة اللاهوتية، ومثل هذا حدث إلى جميع الأسرى الذين كانوا تحت سلطة الكفار، وكانوا خاضعين إلى أسوأ أنواع العبودية، فقد تحرروا من نير العبودية، وقدموا إلى مدينة القدس المقدسة، حيث أظهروا أنفسهم إلى كثيرين، وبعدما فرغوا من عباداتهم في الأماكن المقدسة الموجودة في المدينة المقدسة، عادوا إلى بلدانهم في مختلف أنحاء العالم، يحمدون الرب، ويباركونه في جميع الأشياء، لأنهم سمعوا وشاهدوا الأعمال الرائعة التي عملها الرب من أجلهم، وأراهم إياها.

مصالحة مدينة القدس المقدسة والأماكن الأخرى

وكما سلف وقلنا، دخل الجيش الصليبي إلى مدينة القدس المقدسة،

وقـام البطريرك مع الأساقفـة المسـاعدين بتطهير هيكل الرب، وكنيسـة ضريحه المقـدس وقيـامته، وجميع الكنائـس الأخرى المقـدسـة في المدينة، وغسلوا البـلاط والجدران بالماء المقـدس، وعملوا مسيرات مع الترانيم والمزامير، وصـالحوا لأجل الرب جميع أماكنـه، التي تلوثت لزمن طويل بدنس الكفـار، لكن بحكم أن الامبراطور كان محرومـاً كنسياً، لم يتجـرأ رجل دين، طوال إقامتـه في داخل المدينة، على إقامة قداس فيهـا، وقام، على كل حال واحـد اسمه المعلم وولتر، وكان متـديناً، وحكيماً، ورجلاً مستقيماً، ومن أتباع طائفـة المبشرين، وكان قـد عهد إليه مـن قبل البابا، بواجب وعـظ جيش المسيح، وهو واجب قـام بـه على أحسن مـايرام لوقت طويل، قـام بعمل قـداسـات في كنائس الضـاحيـة، بها أثار كثيراً خشـوع الصليبيين، واستحـوذ بعد هذا جميع الأسـاقفـة من عـاليهم إلى دانيهم، وكـذلـك جميع رجـال الدين على كنائسهـم، وأعيـدت إليهم ممتلكاتهم القـديمة، وفـرحوا كثيراً بسبب هذه الأعطيـات السماوية التي أضفيت عليهم أكثر مما توقعوه، وانطلقوا جميعاً نحو العمل بالتعاون مع بقية الحجـاج، وبذلوا نفقات كبيرة وجهـوداً عظيمة لإعـادة بناء المدينة، ولإحـاطة الأسـوار بخنادق، ولترميم شرافـات الأبراج، ولم ينفـذ عمل هذا في مدينة القدس المقـدسة فقط، وإنما شمل ذلك جميع المدن والقلاع في تلك البلاد، التي سار فوقها يسوع المسيح بقدميه المقدستين، وكرسها بدمه المقدس.

أسباب شكوى البابا ضدّ الامبراطور

ووصل في العام نفسه المعلم ستيفن، الذي كـان قسيس ورسول البابا إلى انكلترا، إلى الملك، ليجمع العشور التي كـان رسل الملك المذكور قد وعدوا بها قداسته من أجل متابعـة حربه ضد الامبراطور الروماني، لأن البابا قد سمع عن جرائم كثيرة مقيتة اقترفت ضد الشريعة المسيحية من قبل الامبراطور المذكـور، وعنهـا قـد أمـر بكتـابـة رواية، وتدبر نشرها

برسائل أرسلت من قبل الكرسي الرسولي، في مختلف أجزاء العالم، وكانت أول التهم التي صدرت بحقه، قيامه في يوم بشارة مريم المباركة، بالدخول إلى كنيسة الضريح المقدس في القدس، مع أنه كان محروماً كنسياً، ووقف هناك أمام المذبح الكبير، فتوّج نفسه بيديه، وبعدما تولى تتويج نفسه، جلس هناك في المقعد البطريركي، وألقى كلمة بالناس لطّف فيها شروره، واتهم الكنيسة الرومانية بأنها عملت بشكل غير عادل ضده، ثم إنه خرج من الكنيسة، يحيط به جمهور من أتباعه، ولم يكن معه أياً من رجال اللاهوت، وكان مرتدياً تاجه، ومضى إلى قصر الاسبتارية، وقد قيل أيضاً، أنه أكل في قصره في عكا وشرب مع مسلمين، وقدم نساء راقصات مسيحيات للرقص أمامهم، وقد قيل بأنهم بعد ذلك تولوا الاتصال بهن، وأيضاً مامن أحد سواه عرف شروط المعاهدة التي أبرمها مع السلطان، وقد ظهر واضحاً —بقدر مايمكن للمرء أن يحكم من المظاهر الخارجية— بأنه توافق مع شريعة المسلمين، أكثر من توافقه مع شريعة إيماننا، إلى حد أنه اتبع عاداتهم في عدة نقاط، وورد كذلك في الاتفاقية المكتوبة بينه وبين السلطان، والتي تدعى باللغة العربية «مصافاه» شرط قضى أنه أثناء الهدنة سوف يساعد السلطان ضد جميع الناس من مسيحيين ومسلمين، سواء، وفي الجهة المقابلة سوف يساعده السلطان بالطريقة نفسها، وأنه أيضاً انتزع من كهنة الصليب المقدس في عكا، بعض مواردهم، التي كانت حقاً لهم في ميناء عكا، وأنه أيضاً نهب رئيس أساقفة نيقوسيا في قبرص، كما أنه في معاداة منه للبطريرك قام بحماية أحد الأساقفة السوريين، بوساطة السلطة المدنية، وكان هذا الأسقف قد رسم من قبل واحد كان محروماً كنسياً، ومنشقاً، كما أنه قام أيضاً بنهب كهنة الضريح المقدس، وحرمهم من منح ذلك الضريح، وسلب البطريرك أيضاً من المنح التي يجري تقديمها عند الجمجمة والجلجلة، وسلب أيضاً كهنة الهيكل المقدس من منحهم، وقد جمع كل هذه المنح بوساطة وكلائه، ولهذا السبب

الإجرامي حرمه كنسياً أخوه وولتر مع جميع أتباعه في مدينة القدس، وكذلك أمر في يوم أحد السعف بجر الوعاظ وانزالهم بالقوة من على المنابر، حيث كانوا يعظون، وأهانهم وسجنهم، كما أنه قام في حوالي أيام آلام ربنا بحصار البطريرك، وأسقفي وينكستر واكستير والداوية في بيوتهم، لكن عندما رأى أنه لن يحصل على مايريده غادر مضطرباً، ولهذه الأسباب —مع أنه ليست هناك حاجة لأسباب أخرى— لم يقدر قداسة البابا مطلقاً الذي فعله بالأرض المقدسة، وعمل حرباً ضده، مؤكداً أنها حرب عادلة وضرورية من أجل الإيمان المسيحي، وأن مسبب الاضطراب للكنائس ينبغي خلعه من المقام الامبراطوري، ويظل ماهو أعظم إثماً من جميع هذه الآثام، هو أنه أثار اضطهاداً مخيفاً ضد أمه كنيسة روما، واستولى على ممتلكات قلاعها وأراضيها، والمقتنيات العائدة إليها، وهو حتى الآن محتفظاً بهم، بمثابة عدو معلن.

العشور التي جمعت في انكلترا من أجل البابا غريغوري

وفي حوالي هذا الوقت، تولى المعلم ستيفن قسيس البابا ورسوله شرح أعمال البابا، وبيّن سبب قدومه إلى انكلترا إلى الملك، وبناء على ذلك، عقد الملك في الأحد الثاني بعد الفصح، اجتماعاً في ويستمنستر لرؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والداوية، والاسبتارية، والايرلات، والبارونات، وقساوسة الكنائس، وكل المتسلمين لوظائف عالية من قبله، لسماع الرسالة المتقدم ذكرها، وللتباحث حول القضايا الهامة بشكل عام، وعندما بناء عليه اجتمعوا جميعاً، علمانيين ورجال دين مع أتباعهم، قرأ المعلم ستيفن بحضورهم جميعاً رسائل البابا، المطالبة بجزء العشر من جميع الممتلكات المتحركة في جميع أنحاء انكلترا، وايرلاندا، وويلز، من رجال الدين، وكذلك من العلمانيين، حتى يتمكن من متابعة الحرب التي شرع بها ضد فردريك الامبراطور الروماني، كما أنه أعلن في هذه الرسائل أنه هو وحده تولى

القيام بهذه الحملة لصالح الكنيسة العالمية، التي يسعى الامبراطور المذكور إلى قهرها، مع أنه محروم كنيساً منذ وقت طويل ومتمرد، وبما أنه من الواضح أن الكرسي الرسولي لم يكن غنياً بما فيه الكفاية حتى يتمكن من تدميره، فهو قد أرغم على طلب المساعدة من جميع أبناء الكنيسة، فبوساطة هذه المساعدات قد يتمكن من ايصال الحملة المرغوب بها، التي بدأ بها، إلى نهاية، ذلك أنها الآن ببعض المعايير تتقدم، وأخيراً نصح البابا في نهاية رسالته الجميع أفراداً وجماعات، بتقديم مساعدة قوية إلى الكنيسة، لأنهم أطراف الكنيسة، مثلما هم الأولاد الطبيعيين لكنيسة روما، التي هي أم جميع الكنائس، ويخشى —لاسمح الرب— أنهم إذا ماعجزوا عن تقديم المساعدة، أن يستسلم الجسد كله وتتداعى الأطراف، وبمثل هذه المناقشات التي وردت في رسالة البابا، سعى المعلم ستيفن إلى اقناع الذين كانوا حضوراً بالموافقة على الطلب، عارضاً التشريف والمنفعة التي سوف يحصل عليها الذين سوف يكونوا مطيعين، وكان الجميع يأملون أن يقوم الملك بمعارضة هذه الجبايات، لكنه ماكان بإمكانه فعل ذلك، لأنه كان قد وعد بدفع هذه العشور في روما، بوساطة رسله، كما ذكرنا أعلاه، وبما أنه لم يقدم جواباً، بدا بصمته أنه موافق، لكن الإيرلات والبارونات وجميع العلمانيين، أعلنوا بشكل واضح، أنهم لن يوافقوا على هذه العشور، كما أنهم لايرغبون بوضع بارونياتهم، أو ممتلكاتهم المدنية تحت تصرف الكنيسة الرومانية، أما بالنسبة للأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين الآخرين، فقد قاموا بالموافقة، بعد مناقشات صاخبة لمدة يومين أو ثلاثة، ذلك أنهم كانوا خائفين من نيل عقوبة الحرمان الكنسي أو الحرمان من شراكة المؤمنين، إذا ماعارضوا الأوامر الرسولية، ثم أظهر المعلم ستيفن أمام جميع رجال الدين رسائل توكيل من البابا، بها عيّنه وقداسته وكيلاً عنه لجمع العشور المذكورة، وأنه يتوجب جمع هذه العشور، ليس مثلما كان قد فعل في فرض ضريبة جزء العشرين، التي

قـد دفعت قبل وقت قصير إلى الملـك حتى يحصلوا على امتيـازاتهم، بل ينبغي جمعهـا، وفق أحسن طريقـة لصـالح البـابا ومنفعتـه، وبناء عليـه توجب فرض الضريبة على جميع السلع والمقتنيـات المتحركة لكل واحد، حتى يـدفع أقصـى مـــايمكن، أي العشر مـن جميع الموارد، والمرابح السنوية، ومنتجات الأراضي المفلوحـة، والمنح، والعشور، والمؤن للناس وللدواب، وجميع مـــوارد الكنائس والممتلكات الأخــرى، مهما كـان العنوان الذي دونت تحتـه، دون أن يقومـوا في أية مناسبة من المناسبـات بحـذف ديون أو نفقــات، وكـان بهذه الرسـائل نفسهـا مخولاً بفـرض الحرمـان الكنسي على جميع المتـذمـرين، وأن يضع الكنائس تحت عقـوبة الحرمان من شراكة المؤمنين، وبناء عليه، بعدما عيّـن نوابه في كل كونتيه في انكلترا، حـرم كنسياً جميع الذين هم أنفسهـم، أو بوساطة الآخـرين، مارسوا أي تواطؤ، أو خداع، أو عملوا أية اتفاقات غير عادلة، أو قاموا بأي حــذف، فيما يتعلق بقضيـة دفع العشــور المتقـدم ذكــرها، وبما أن المسـاعدة الفـورية كانت ضرورية بالنسبـة لهذه المسألة، أمر جميع رجـال الدين والآخـرين، تحت طائلة عقـوبة الحرمـان الكنسي، أن يقومـوا بين أنفسهم، أو بطرق أخرى أو بآخريـن، على الفور بتسليم المال الذي كان قـد طلبـه، حتى يتمكن من ارســاله مبـاشرة إلى البـابا، وأنهم فيما بعـد يمكنهم استرداد مادفعوه كامـلاً، من العشور التي سوف تؤخذ من كل واحـد، لأنه قـال بأن البـابا متــورط بديون كثيرة، إلى حـد أنه هو غير عــارف كيف يمكنه متــابعــة الحرب، التي بـدأها، ثم أنهى الاجتماع، ومضى كل منهم منصرفاً وهو يتمتم منزعجاً.

الفرض المؤلم للعشور المذكورة

وأرسل بعـد هذا المعلم ستيفن رسـائل إلى كل واحـد من الأساقفـة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين، من مختلف الأوضاع، في جميع أرجـاء المملكة، آمـراً إياهم، تحت طائلة عقـوبة الحرمـان الكنسي،

والحرمـان من شراكـة المؤمنين، أن يرسـل إليهم، في يوم حـدده، مبلغـاً معيناً من المال الذي جـرت مؤخـراً الموافقة عليه، وأن يوزن بكـل دقة، حتى يتمكن من إرضـاء الذين أقـرضـوا البـابا، ولكي يتجنبـوا عقـوبة الحرمـان مـن شراكـة المؤمنين، وقـد مـارس في فـرض هـذه الضريبـة واستخراجها، جبايات كانت مؤلمة إلى حد أنه أرغم كل واحد أن يعطيه قيمة العشر، حتى من موسم الخريف المقبل، الذي لم يكن قد أثمر بعد، وعندما لم يجد الأسـاقفة أمامهم مـوارد للدفع، أخذوا كـؤوس القربان، والطوس، والأقـداح، والأواني المقـدسـة الأخـرى، من الكنائس، وقـد باعـوا بعضها، وبعضهـا الآخـر رهنوه مقابل فـائـدة، وامتلأت البـلاد، بشكاوى متـــواصلة، وإن كـــانت سرية، وصلى الجميـع من أجل أن لا تكون هذه الجبايات منتجة نفعاً للذين فرضوها، وكان رالف ايرل أوف شيستر هو الوحيد الذي رفض اخضاع أراضيه للتابعية، ولم يسمح لأي من رجال الدين والكهنة بتقديم هذه العشور وجبايتها من اقطاعيته، مع أن انكلترا، وويلز، وسكوتلندا، وايرلندا، كلهم أرغموا على دفعهم، وفي جبـاية هذه العشـور، توفـرت ناحيـة واحـدة أعطت شيئاً من المواسـاة والراحة، تمثلت بأن ممالك القارة، والممالك التي وقعت على بعد، لم تكن معفية من هذه الضريبـة، وعندما أخيراً وصل مبلغ المال الذي جمع بهذه الطريقة، إلى الحبر الأعظم، قـدمه بكرم إلى جـون دي بريين، وإلى القادة الآخـرين لجيشه، وسبب هذا أذى عظيماً للامبراطور، لأنهم دمّـروا أثناء غيابه بلداته وقلاعه.

وفي العـام نفسـه، في ٢٧- أيار، جـرت سيـامـة رويرت دي بنغهـام Bingeham الأسقف المنتخب لســالسبري، من قبـل وليم أسقف ووركستر، وجـرت السيامـة في شيبتـون Shepton وساعـده في ذلك الأسقفان جوسلين أوف باث، والاسكندر أوف كوفنتري.

و في هذا العام أيضاً، في أحد الشعـانين، في الثالث من حزيران، منح

الملك هنري حزام الفروسية إلى جون بن هيوبرت، مسؤول العدالة في انكلترا.

تكريس رتشارد رئيس أساقفة كانتربري، إلخ

وفي العام نفسه، في أحد الثالوث المقدس، اجتمع الأساقفة المساعدون لكنيسة كانتربري، في تلك المدينة، وجرى في ذلك اليوم تكريس رتشارد، رئيس الأساقفة المنتخب، من قبل هنري أسقف روكستر من دون الطيلسان، وبناء عليه سمح له إما برسم الكنائس أو بتكريسها، ومعه جرى في اليوم نفسه، الذي كان العاشر من حزيران، تكريس روجر الأسقف المنتخب للندن، وهيوج أوف إيلاي، من قبل الأسقف نفسه، أمام المذبح الكبير، في كنيسة الثالوث المقدس.

الاستعدادات الكبيرة لملك انكلترا للعبور إلى فرنسا

وفي هذه الآونة نفسها، أيام عيد القديس ميكائيل، جمع الملك هنري في بورتماوث جميع نبلاء مملكة انكلترا، أي الايرلات، والبارونات، والفرسان، مع حشد كبير من الجنود من خيالة ورجالة، بعدد ليس معتقداً أن أياً من أسلافه قد جمع مثله مع بعضه بعضاً قط، لأن حشداً كبيراً من الفرسان والجنود قد وصل إليه من بلدان: إيرلاندا، وسكوتلندا، وويلز، وغالوي Galway وقد أصيب الجميع بالدهشة، لأن الملك عزم على عبور البحر مع هذه القوة الكبيرة، لاسترداد الملكية على الأراضي التي كان والده قد فقدها، لكن عندما أراد مقدمو جيش الملك وقادته نقل الامدادات والأسلحة ووضعها على ظهر السفن، وجدوا قليلاً منها لم تكن كافية لنقل نصف الجيش، وعندما حملت هذه الأخبار إلى الملك، غضب كثيراً، وألقى اللوم كله حول هذا، على هيوبرت دي بورغ مسؤول العدالة، ودعاه أمام الجميع باسم خائن قديم، واتهمه باستلام خمسة آلاف مارك من ملكة فرنسا، حتى سبب

هذا النقص من أجل إعاقة خططه، وأثناء غضبه جرد سيفه، وحاول أن يقتل المسؤول عن العدالة، لكن رالف ايرل اوف شيستر تدخل مع آخرين كانوا حاضرين، وأنقذوه من الموت، وقد سحب نفسه من أمام حضرة الملك، حتى يهدأ غضبه ضده ويبرد، وفي الوقت نفسه، في التاسع من تشرين الأول، وصل هنري كونت بريتاني إلى ذلك الميناء، ليقود الملك آمناً إلى أراضيه، حسبما كان متفقاً عليه، ومؤكداً بالأيمان فيما بينهما، لكنه بالاتفاق مع بعض الحكماء الآخرين في الجيش، نصحوا الملك ليؤجل الحملة حتى عيد الفصح المقبل، لأنه كان خطراً القيام بمثل هذه الرحلة الصعبة أثناء الشتاء، وبناء على هذا أعطى الملك الإذن إلى جميع الجيش بالعودة إلى الديار، وتصالح هو والمسؤول عن العدالة، ثم قدم كونت بريتاني الولاء إلى الملك ضد جميع الناس، من أجل بريتاني، وأعاد الملك إليه جميع حقوقه في انكلترا، وبعدما أعطاه خمسة آلاف مارك للدفاع عن أراضيه، أرسله عائداً إلى مقاطعته، وفي العام نفسه، في ٢٣ تشرين الثاني، استلم رتشارد رئيس أساقفة كانتربري الطيلسان الذي أرسل إليه من قبل البابا، وبحضور الملك والأساقفة المساعدين عمل قداساً وهو مرتدياً للطيلسان، في الكنيسة الكاتدرائية في كانتربري.

الموت الشرير لمرابي

وعاش في هذه الآونة في بريطانيا الدنيا واحد من المرابين، الذي كان يقرض ماله مقابل فائدة، ومن ذلك جمع ثروة كبيرة، ومع أنه غالباً ما أخبر من قبل أسقف ذلك المكان، أنه كان أمراً غير قانوني أن يزيد أمواله بوساطة الربا، لم يصغ للأسقف، وثابر في مسعاه لجمع الثروة، مع أن ذلك كان وفق هذه الطريقة غير الصحيحة، وبناء على ذلك عندما وجد الأسقف أن الرجل غير قابل للاصلاح حرمه كنسياً، وأبعده عن جماعة المسيحيين، غير أنه استخف بذلك، لكنه مالبث بعد

ذلك طويلاً حتى أنهى حياته بشكل تعيس، دون أن يتناول القربان، أو يقوم بالاعتراف، وقد ذهبت زوجته وأولاده إلى كاهن البلدة، وطلبوا منه دفن المتوفى وفق طقوس الكنيسة، لكن الكاهن رفض ذلك، لأنه مات وهو محروم كنيساً، وأمرهم بدفنه خارج البلدة في مكان يلتقي فيه طريقان، وبناء على هذا ذهبت الأرملة مع أولادها إلى الكونت، وتقدمت إليه بشكوى بأن الكاهن رفض أن يدفنه دفناً كنسياً، لكنها أخفت السبب، وهو أنه مات محروم كنسياً، وقد غضب الكونت كثيراً من الكاهن، وأمر خدمه بالذهاب إليه، وأمره باسمه أن يدفن الرجل الميت، وإذا مارفض الكاهن تنفيذ ذلك، أن يربطوه إلى الرجل الميت وأن يدفنوهما معاً، وقد جرى تنفيذ هذا الأمر، وقام جميع أساقفة بريطانيا بحرمان الكونت، وبناء على ذلك جرى نفي اثنين من الكهنة مع جميع الأساقفة من قبل الكونت، وبقي هو نفسه تحت عقوبة الحرمان الكنسي حتى يمكن تثبيت ذلك من قبل البابا.

عودة الامبراطور الروماني فردريك إلى بلاده

وفي العام نفسه، بعدما استرد الامبراطور الروماني فردريك الأرض المقدسة إلى الحكم الصليبي، وبعدما جرى تبادل الأيمان على هدنة لمدة عشر سنوات مع سلطان دمشق، صعد ظهر السفينة وأقلع في يوم العثور على الصليب المقدس، ليعبر البحر المتوسط عائداً إلى بلاده، ولأنه سمع بأن جون دي بريين كان قد أقام له المصائد في موانىء هذا الجانب من المياه، لم يتجرأ على النزول إلى البر من دون حذر، حتى لايحصل أعداؤه على سرور إلقاء القبض عليه، وقد نزل في مكان آمن، وبعث أمامه جواسيس اقتادوه إلى مكان آمن، ووصل أخيراً آمناً مع حاشية صغيرة إلى صقلية، وهناك علم بأن أعداءه قد أخضعوا عدداً كبيراً من قلاعه وبلداته، لابل أكثر من هذا، إنهم كانوا يقومون بغارات داخل المناطق الامبراطورية، حيث مامن أحد كان يعترضهم، لكن عندما بات

خبر وصـوله معـروفاً من قبل رعـاياه الشرعيين، الذين كـانوا مـرتبطين بالولاء له، تدفقـوا عليه، مع أنهم أحيطـوا بهؤلاء، وعندما قـوي جانبـه بآخـرين قدمـوا إليه، انقض بشجاعـة على أعدائـه، وشرع خطوة خطوة يسترد أراضيه والقلاع التي كان قد فقدها.

كيف أمضى ملك انكلترا عيد الميلاد في يورك

عـام ١٢٣٠م، فيـه عقـد الملك هنري بلاطه في يورك، بـرفقـة ملك الاسكوتلنديين، الذي كان قد دعاه إلى العيد، وكان رئيس أساقفة المدينة حـاضراً هناك مع الايرلات، والبـارونـات، والفـرسـان، وكـانت هناك حـاشيـة كبيرة، وهناك أيضـاً وزع الملكـان كثيراً من مـلابس العيـد بين فـرســانهم، وكـــان الملك الانكليــزي مسرفــاً بكرمـــه نحــو ملك الاسكوتلنديين، حيـث أتحفــه بخيــول ثمينـة، وخــواتم، وجـــواهر، واستمـروا بالاحتفال لمدة ثلاثة أيام، مقيمين مـوائد فخمـة في كل يوم، وتفـرق الجمع في اليـوم الرابع، وعـاد الملك الاسكوتلندي الى وطنه، في حين أسرع الملك هنري إلى لندن.

وحدث في هذا العـام أيضاً، في يوم تحول القديس بولص واهتـدائه، انه عندمـا كان أسقف مدينـة لندن واقفاً أمام المذبـح الكبير في الكنيسة الكاتدرائيـة في تلك المدينة، مـرتدياً قلنسـوته، وكـان على وشك إقـامـة قداس بحضور سكان المدينة الذين كـانوا هناك، والذين اجتمعوا تكريماً للقـــديس بولص، وقتهـــا فجأة أصبحت السماء مغطـاة بغيـوم كثيفـــة، وبذلك باتت الشمس محجـوبة، حتى بات بصعـوبة يمكن للانسـان أن يرى جاره في الكنيسـة، وبات الجميع في حالة دهشـة، ومتوقعين أن يوم الحســاب قد حلّ، ووقتهـا انفجر صـوت تصـادم رهيب عاصف فـوق الكنيسة، حتى بدا البناء نفسه مع البرج العالي وكأنه على وشك السقوط على رؤوسهم، وصدر عن الغيوم الكثيفة برق هائل، بدت معه الكنيسة وكأنها مشتعلة بالنيران، وتصاعدت وسط هـذا كله رائحة نتانة لايمكن

تحملها، إلى حد أن جميع الحضور باتوا خائفين من الاختناق، وكان عدد الموجودين في الكنيسة حوالي الألف من الناس من الجنسين، وقد خافوا من موت من نوع ما، لذلك بادروا مسرعين بالفرار من الكنيسة، وأثناء خوفهم سقط بعضهم أرضاً، فبقيوا هناك لبعض الوقت من دون شعور أو حركة، ومن بين جميع الحضور الذين احتشدوا هناك، بقي فقط الأسقف وواحد من الشمامسة أمام المذبح الكبير، من دون اضطراب، ووقفا مرتديان ثيابها المقدسة، وهما ينتظران رضا الرب، وبعد لأي عندما صحت الدنيا، واسترد جميع الحشد ثقتهم بالسلامة، دخلوا ثانية إلى الكنيسة، وأكمل الأسقف بخشوع الجزء المتبقي من القداس، وأحدثت هذه الواقعة دهشة عظيمة في جميع أرجاء المدينة، وخشي الجميع من أنها مقدمة لوقوع واقعة عظيمة ومرعبة.

وفي العام نفسه، كان الامبراطور الروماني، قد استرد أثناء الصوم الكبير، كثيراً من القوة ضد أعدائه، حيث أنه استرد بالقوة ملكية جميع القلاع والممتلكات العائدة إلى الامبراطورية، وكل الذين أخذهم أسرى في القلاع إما سلخهم أحياء، أو علقهم على المشانق، وخشي جون دي بريين، الذي كان خصمه المعلن من الوقوع بين يديه، فهرب إلى فرنسا، موطنه الأصلي، وبعد ذلك تمت بناء على وساطة أصدقاء ورجال دين، الموافقة على عقد هدنة بين البابا والامبراطور، وذلك حتى يتوصلا إلى وضع شروط سلام.

وفي شهر نيسان من العام نفسه جرى شنق وليم دي براوس من قبل للويلين الزعيم الويلزي، وكان قد ألقي القبض عليه، وهو —كما قيل— يزني بامرأة ذلك الأمير.

وفي العام نفسه، أعطى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الكهنة في جميع أرجاء انكلترا، إلى الملك، بناء على طلبه، مبلغاً كبيراً من المال، حتى يتمكن من استرداد المقاطعات في القارة، التي

انتـزعت من والده، وأرغم سكـان لندن أيضـاً على إنقـاذ أنفسهم بدفع مبلغ ثقيل من أجل الغاية نفسها، وأرغم اليهـود أيضاً، سواء أشاءوا أم رفضوا عل دفع الثلث من جميع ماكانوا يمتلكون.

كيف عبر ملك انكلترا مع جيشه إلى بريتاني

بعد عيد الفصح حشـد الملك هنري جيشاً كبيراً في ردنغ، يضم جميع نبلاء المملكة، الذين كانوا يدينون له بالخدمة العسكرية، مع أعداد كبيرة أخرى من مختلف البلدان، ثم إنه نقل معسكره من ذلك المكان، وزحف إلى بورتماوث، حيث صعد إلى ظهر السفن مع جيشه كله،وأقلع مبحراً، وبفضل جهـود الملاحين في سفنـه نزل إلى اليـابسـة في سينـت مـالو Malo في بريتاني، ولم يستطع جزء من جيشه السير وراء الملك مباشرة، فنزلوا في اليـابسة في أماكن متنـوعة، لكن بعون الـرب وصلوا جميعاً إلى الملك في بريتـاني من دون أذى أو خسارة في مقتنياتهم، واستقبـل كونت بريتـاني الملك باحترام لائق، وبتكـريم، وسلم إليـه بلدات وقـلاع تلك المقـاطعة، ووصل إليـه عدد كبير آخـر من نبـلاء المقاطعـة، وقدمـوا له الولاء، وأقسمـوا على التـابعيـة له، ورفض أندرو دي فيتري Vitre وعـدد قليل آخر من النبـلاء، تقديم الولاء إلى الملك، وشحنوا قـلاعهم بالمؤن، واستعـدوا ببعض القـوة للمقـاومـة، ولدى سماع ملك فـرنسـا بوصـول ملك انكلترا، حشـد جيشـاً قـوياً، وزحف مع ترسـة تلمع ورايات تخفق إلى مـدينة أنجـو، حيث خـط معسكره، وتوقف وقفـة طويلة، لإعـاقة تقـدم الملك الانكليـزي نحو بواتو، وكـان الملك هنري آنذاك في مـدينة ناتي Nates ينتظر وصـول المزيد من نجـدات العساكـر، الذين كانوا قـادمين إليه من مختلف الأنحـاء، وخلال إقـامته هناك ألقى الملك الفـرنسي مع جيشه الحصـار على قلعـة ضعيفة اسمهـا أودون Oudon وكـانت على بعـد حوالي الأربعـة فـراسخ عن ناتي، وبسهولة استحوذ عليها، وهدّمها، وعاد بعد ذلك إلى مدينة أنجو.

وحدث في العام نفسه، في اليوم الرابع عشر من أيار، الذي كان يوم ثلاثاء، في اسبوع الابتهال قبل عيد الصعود، كسوف غير اعتيادي، في الصباح الباكر، بعد اشراق الشمس مباشرة، وأصبحت الدنيا مظلمة إلى حد أن العمال الذي كانوا قد شرعوا بأعمالهم الصباحية، قد أرغموا على ترك أعمالهم، والعودة ثانية إلى النوم في فرشهم، لكن بعد ساعة من الزمان، حدث لدهشة الكثيرين أن الشمس استردت ثانية أشعتها.

وحدث في العام نفسه أيضاً، أن وصل إلى انكلترا، دوق سكسوني، وكان من أقرباء الملك، فاستقبل بكل تكريم من قبل سكان لندن، وكان هذا الدوق عظيم الطول والحجم، إلى حد أنه أثار اعجاب كل انسان، واحتشد الناس لينظرون إليه، وكأنهم ينظرون إلى مهرجان.

حول الخلافات التي نشبت بين البارونات الفرنسيين

وفي تلك الآونة نفسها، كان جميع النبلاء الفرنسيين مشغولين تقريباً بالحروب أحدهم ضد الآخر، وقد روي بأن دوق بيرغندي، وكونتات: بولون، ودروكس Dreux وماكون، وسينت بول، وبار، والنبيلين: انغوراند دي كورسي Enguerrand de Courcy وروبرت دي كورتايني Courtenaye وعدد كبير آخر، قد أقسموا على التحالف مع ملك انكلترا، وأعلن هنري كونت بريتاني الحرب ضد كونتي: شامبين، وفلاندرز، ولدى إكمالهم جميعاً خدماتهم لمدة أربعين يوماً في حصار أنجو، حصلوا على الاذن من الملك الفرنسي، وعادوا إلى مقاطعاتهم، وعندما وجد الملك نفسه غير قادر على ابقائهم لحق بهم من أجل إقامة صلح فيما بينهم، لكنه لم يستطع تحقيق هذا بأية وسيلة من الوسائل، لأن النبلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه غزوا أراضي كونت شامبين، وشرعوا بالعيث فساداً فيها بالنار والسيف، وجاء هذا الكونت للتصدي لهم مع قوة كبيرة، وأنشب معهم القتال، لكن النبلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه كانوا أقوياء جداً بالنسبة له، وقد أسروا مائتين من

فرسانه وقتلوا ثلاثة عشر، ورأى كونت شامبين، بأن قـواته قد هزمت، فهـرب من ميـدان المعـركـة، وذلك بعـدمـا فقـد جميع أصحـابه، وتولى الأعداء مطاردته، وجعلوا طعمة للسيف كل من قابلهم من مؤيديه، ولم يتـوقفـوا عـن المطاردة حتى سـاقـوا الكونت، إلى داخـل أبواب مـدينة باريس، وهنا لم يختاروا متابعة مطـاردته، فعادوا إلى شامبين، فنهبوا جميع المقاطعة، وهدموا القلاع والبلدات وسووها بالأرض، وأحـرقوا القرى والمدن، وقطعـوا الكروم وأشجـار الفـاكهـة، ولم يوفـروا شيئاً وجـدوه خـارج الكنائـس، وقـام هؤلاء النبـلاء بمبـاشرة الحرب ضـد الكونت لخيانتـه للملك، لأنهم قالوا بأنه قـام أثناء حصار أفينون بدس السم إلى مـولاهم الملك لويس، بسبب حبـه للملكة، ومع أنهم غالبـاً مـاتقدمـوا بعرض الاتهامـات ضده في محكمة بلاط الملك الفـرنسي بحضور الملك، ورغبـوا في البرهنة على أن الكونت كـان مجرماً بمبارزة فـردية، قـامت الملكة التي تولـت ادارة جميع شـؤون المملكة، بسبب صغـر سن الملك، وانعـدام الخبرة لديه، برفـض الاصغـاء له، ولهذا السبب سحب النبـلاء المتقدم ذكـرهم ولاءهـم من الملك والملكة، وأحدثوا القـلاقل في المملكة بوسـاطة الحرب، وقد رفضـوا بإباء أن تكون سيـدة مثل الملكة حاكمـة لهم، التي —كما قيل— قـد تـدنست ليس فقط بعـلاقتهـا بـالكونت المذكور، لابل بعلاقتها أيضاً بالنائب البابوي.

مذبحة بين الايرلنديين واعتقال ملوكهم

وفي السنة نفسها، عندما علم في شهـر تموز واحد من ملوك كونّـوت Connaught الصغـار في ايرلاندا بأن ملـك انكلترا، ووليم مـارشـال كانا مشغـولين بالحرب في القارة، وأن مملكة ايرلاندا كانت خـاوية تماماً من القـوات العسكرية، جمع جيشـاً كبيراً من جميع أرجـاء البلاد، وكـان يأمل بأن يطرد جميع الانكليـز إلى ماوراء الحدود الايرلندية، وبناء عليـه غزا مقـاطعات الملك الانكليـزي، ونشر الدمار، بما في ذلـك الاغتصاب

والنهب، وأخيراً وصلت أخبار هذه الغـارات إلى غيوفـري دي مارش، الذي مـارس أعمال المسؤول عن العـدالة في ظل الملك في تلك المناطق، وبناء عليـه بعث وراء وولتر دي لاسي، ورتشـارد دي بورغ للالتحـاق به، ومعهما صار لديه قوة كبيرة، فزحف بجـرأة ضد الأعداء، وقد قسم جيشــه إلى ثلاثة أقسـام، وأعطى قيــادة قسمين من هؤلاء الثــلاثة إلى الكونتين، المذكـورين: وولتر دي لاسي، ورتشــارد دي بورغ، واحتفظ بقيـادة القسم الثـالث لنفسـه، وأخفى القسمين اللذين كـانا تحت قيـادة وولتر، ورتشـارد في الغـابات التي كـان على العـدو العبـور بها، وهكذا جعلهما كميناً للأعـداء، وعبأ القسم الثـالث الذي قـاده بنفســه، وأعـدّه لمواجهــة الأعـداء وجهـــا لوجــه، وليثيرهم للقتــال، وعندمـــا وصل الايرلنديون واقتربـوا منهم، ورأوا فقط وحـدة من الانكليــز، انقضـوا عليهم، وكأنهم كـانوا ضامنين للنصر ومتأكـدين منه، وتظاهر الانكليـز بالفــرار، وقـد جــرت مطاردتهم من قبل الايـرلنديين حتى دخلوا إلى مـوضع الكمين، ووقتها اندفع الذين كـانوا كامنين من مخبئهم، ومـلأوا الأجواء بصراخهم، وهاجموا الأعداء وقـاتلوهم من الجناح ومن الساقه، أمـا القسم الأول الذي كـان قـد هرب من أمـامهـم، فعـاد أيضـاً نحـو الايرلنديين، وأعقب ذلك مذبحة مرعبـة، وقد قيل بأن عشرين ألفاً من جنود الايرلنديين قد قتلوا هناك، وأسر ملكهم وسجن.

وفي تلك الآونة، تخلى فـولك بيـزنل Paisnel وكان نبيـــلاً من نورماندي، مع أخيه وليم، عن قـلاعهما وأراضيهما، ووصلا إلى بريتاني، حيث قدما الولاء، وأقسما على التبعية لملك انكلترا، ووصل معهما آنذاك ستين فارساً جريئاً وشـديداً، وكلهم أشاروا على الملك بغزو نورماندي، وأخبروه أنه سوف يتمكن بشكل أكيد من اخضاع تلك المقاطعة، وقبل الملك بخططهم، لكن هيـوبـرت دي بورغ لم يسمح لهم بتنفيـذ الخطط، قائـلاً إنها ستكون محاولة خطيرة إلى أبعد الحدود، ولدى سماع الفـرسان

هذا، طلبوا وقتها من الملك منحهم مائتي فارس من جيشه، للالتحاق بهم في غزو نورماندي، ووعدوه أنهم سوف يطردون جميع الفرنسيين من دون اخفاق من تلك المقاطعة، وهذا أيضاً رفض هيوبرت المسؤول عن العدالة السماح به، مؤكداً أنه سيكون عملاً ليس حكيماً أن يعرض الملك جنوده للموت فقط لتلبية رغبته ولسروره، وهكذا وجد هؤلاء النبلاء أنفسهم وقد خدعوا بشكل رهيب، لأن الملك الفرنسي، كان قد تولى على الفور حرمانهم من مواريثهم، وحوّل قلاعهم وممتلكاتهم إلى استخداماته الخاصة.

كيف زحف الملك الانكليزي إلى غاسكوني وتلقى الولاء هناك

وقام الملك بعد هذا، بناء على نصيحة هيوبرت دي بورغ، بالزحف من بريتاني مع جيشه خلال أنجو، ووصل إلى بواتو، وتابع زحفه من هذه المقاطعة إلى غاسكوني، حيث تلقى ولاء الناس، وبعدما قام ببعض الترتيبات من أجل أمان تلك المنطقة، عاد إلى بواتو، وهناك تلقى ولاء كثيراً من السكان، وفي هذه الحملة حاصر الملك قلعة ميربيل Mirebelle وبفضل الشجاعة العظيمة للانكليز، الذين استمروا بهجوماتهم الحادة عليها، أرغم الملك المحاصرين على الاستسلام، ثم غادر، آخذاً إياهم معه أسرى.

وفي شهر آب من هذا العام، توصل صاحب القداسة البابا غريغوري، والامبراطور الروماني فردريك، إلى اتفاق سلام، وجاء ذلك بوساطة تدخلات المسيحيين والحلفاء من على الجانبين، وذهب الامبراطور الروماني إلى روما، ونال هناك التحليل مع جميع الأماكن التي كانت تحت سلطان الامبراطورية، وأعادهم إليه بأحوالهم وأوضاعهم السالفة، ثم احتفل هذا الكاهن الأعظم مع ذلك الامبراطور الأعظم قدرة مع بعضهما لمدة ثلاثة أيام، في قصر الحبر الأعظم، وابتهج البابا والكرادلة والنبلاء العائدين للامبراطورية، بهذا

التثبيت المفاجىء للسلام، الذي كانوا قد فقدوا كل أمل بقيامه.

وفي العام نفسه، شحن رالف ايرل شيستر القلعة الموجودة في سينت جون دي بيفيرون Beveron وزودها بالامدادات والسلاح، وكانت هذه القلعة عائدة بموجب حق الوراثة إلى زوجته الكونتسة، لأن هنري كونت بريتاني قد تخلى عن القلعة إلى الايرل، عندما التحق بجانب ملك انكلترا، وتسلم من الملك جميع ممتلكاته وامتيازاته في انكلترا.

السلام الذي عمل بين الملك الفرنسي والبارونات

وفي هذا العام،حدث في شهر أيلول، أن الملك الفرنسي، وأمه الملكة، ونبلاء تلك المملكة، الذين كانوا منذ وفاة الملك لويس في حرب واحدهم ضد الآخر، كما ذكرنا أعلاه، أن التقوا في مؤتمر، لمعالجة إقامة سلام، وقد أعدّ وفق الشروط التالية: لقد تقرر بالاجماع من قبل النبلاء المتقدم ذكرهم، وجوب حمل كونت شامبين، الذي كان السبب الرئيسي في نشوب هذا الخلاف، الصليب، وأن يقوم مع مائة من الفرسان بالحج إلى الأرض المقدسة، ليقاتل هناك ضد أعداء المسيح، وأقسم الملك الفرنسي وأمه على الأناجيل المقدسة، بأنهما سوف يعيدا إلى كل واحد من النبلاء امتيازاتهم، وسوف يمارسان العدل نحو جميع رعايا تلك المملكة، تماشياً مع الأعراف التي كانت صحيحة ومحقة بالنسبة إلى الجميع.

عودة ملك انكلترا من بريتاني إلى انكلترا

كان الملك الانكليزي طوال هذا الوقت كله مقيماً مع جيشه في مدينة ناتي، ويفعل لاشيء سوى انفاق ماله، وكذلك فعل الايرلات والبارونات أيضاً، ولأن هيوبرت مسؤول العدالة لدى الملك ماكان ليسمح لهم بالاشتباك بالقتال ضد الأعداء، كان أحدهم يقوم بأعمال الضيافة لآخر، حسبما كانت عادة الانكليز، وأوقفوا أنفسهم على الأكل

والشرب كل بدوره، وكأنهم كانوا يحتفلون بعيد الميلاد، والذين كانوا فقراء بينهم فقدوا خيولهم وسلاحهم، وعاشوا من تلك اللحظة حياة غير سعيدة، وأخيراً بعدما أكمل الملك عمل جميع الترتيبات الضرورية للمنطقة، ترك هناك خمسمائة فارس، وألف من المرتزقة تحت قيادة رالف ايرل أوف شيستر، ووليم مارشال، ووليم ايرل ألبيمارل، مع نخبة من القادة الآخرين، وإثر هذا حمل نفسه وأخذ سفينة، وبعدما تعرض لمخاطر كثيرة، وصل في السادس والعشرين من تشرين الأول إلى بورتماوث، ونزل فيها، حيث قدم عدد كبير من رعاياه من مختلف المراتب لتقديم احترامهم له مع هدايا متنوعة.

ومات غيلبرت ايرل أوف غلوستر وكلير، أثناء عودته من القارة، وأسند الملك إلى هيوبرت المسؤول عن العدالة جميع أراضيه ومراتبه.

وبعد مغادرة ملكَ انكلترا للقارة، قام ايرل شيستر مع القادة الآخرين لجيش الملك هناك ومعهم كامل قواتهم بغارة داخل مقاطعة أنجو، وظلوا غائبين هناك في تلك المنطقة لمدة خمسة عشر يوماً، واستولوا في تلك الأثناء على قلعة غونورد Gonnord وهدموها حتى سووها بالأرض وأحرقوا البلدة، ثم استولوا على قلعة جديدة على السارت Sarte فدمّروها، وألقوا النار في البلدة في ذلك المكان، وعادوا بعد ذلك ثانية إلى بريتاني مع أسلاب كبيرة جداً، وليس بعد ذلك بوقت طويل نزلوا بهجوم على نورماندي، واستولوا على قلعة بونتويي Pontoise وقد دمروها بعدما أحرقوا البلدة، ثم عادوا إلى بريتاني دون المعاناة من خسائر بالنسبة لهم أنفسهم.

وفي العام نفسه، في الثاني والعشرين من تشرين الثاني، حدث خسوف بالقمر، استمر لمدة ثلاث ساعات، وكان جزء صغير جداً منه مرئياً، وكان عمره آنذاك ثلاثة عشر يوماً.

فرض ضريبة بدل عسكري من أجل حملة إلى القارة

عام ١٢٣١م، فيه عقد الملك هنري بلاطه أثناء عيد الميلاد، في لامبث، حيث احتفي به من قبل هيوبرت المسؤول عن العدالة، وفي السادس والعشرين من شهر كانون الثاني التالي، دعا الملك الأساقفة والنبلاء الآخرين العائدين للمملكة إلى اجتماع في ويستمنستر، وفيه طالب الملك بضريبة بدل عسكري مقدارها ثلاثة ماركات عن كل رنك، من جميع العلمانيين وكذلك اللاهوتيين، ومن الذين بأيديهم بارونيات، وبجرأة عارض هذا الطلب رتشارد رئيس أساقفة كانتربري، وعورض أيضاً من قبل بعض الأساقفة إلى جانبه، الذين قالوا بأن اللاهوتيين ليسوا ملزمين بالخضوع إلى الأحكام العلمانية، مثلما منحت ضريبة البدل العسكري في القارة عندما كانوا غير حاضرين، وبعد الكثير من المناقشات من على الجانبين، جرى تأجيل ماتعلق بمعارضة الأساقفة حتى مابعد عيد الفصح باسبوعين، أما بالنسبة للبقية من رجال دين وعلمانيين، وأناس عاديين، فقد استجابوا لرغبة الملك.

الخلاف بين الملك ورئيس الأساقفة

وجاء في هذه الآونة رتشارد رئيس أساقفة كانتربري إلى الملك، وقدم إليه شكوى ضد هيوبرت المسؤول عن العدالة، لأنه احتفظ بشكل غير عادل بقلعة تونبردج مع البلدة ومتعلقاتها، وأراض أخرى كانت عائدة إلى غيلبرت ايرل أوف كلير المتوفى، والتي هي عائدة لمسؤول العدالة نفسه وكنيسة كانتربري، ومن أجلها كان الايرل المذكور —وأجداده— قد قدم اعترافاً، وعمل ولاء له ولأسلافه، ولذلك من أجل ذلك السبب طلب من الملك أن يعيد إليه الوصاية على القلعة المذكورة مع متعلقاتها، وللاحتفاظ بامتيازات كنيسة كانتربري سليمة غير متعرضة للأذى، وعلى هذا الطلب رد الملك قائلاً، بأن الايرل المذكور كان مستأجراً اقطاعياً بشكل رئيسي منه نفسه، وأن الوصايات الفارغة لكل

من الايرلات والبارونات وورثتهم «حتى يصلوا إلى سن الرشد» عائدة إلى التاج، وللتاج الحرية في بيعها أو منحها لمن يشاء، وعندما وجد رئيس الأساقفة نفسه غير قادر على الحصول على أي جواب آخر، حرم كنسياً جميع الذين يعتدون على الممتلكات المتقدم ذكرها، وجميع الذين يقيمون اتصالات معهم باستثناء الملك، ومن هذه القضية ومن أجل قضايا أخرى وأسباب، توجه إلى روما للحصول على امتيازاته وامتيازات الكنيسة، ومن جانب آخر أرسل الملك المعلم روبرت دي كانتيلو، وبعض الرسل الآخرين إلى روما للمرافعة من أجل قضيته.

وفي شهر نيسان من هذا العام، بعد عيد الفصح، تزوج رتشارد أخو الملك من كونتسة غلوستر، التي كانت أخت وليم مارشال، ايرل أوف بيمبروك، وماكادت أفراح العرس تنتهي حتى توفي الفارس الشجاع وليم مارشال، وختم حياته، وقد حزن عليه وبكاه الكثيرون، وفي الخامس عشر من نيسان دفن في المعبد الجديد، في لندن قرب والده.

أعمال العيث فساداً المرعبة التي اقترفت من قبل للويلين في ويلز

وفي شهر أيار من هذا العام، خرج الويلزيون من مخابئهم مندفعين، مثل جرذان من جحورها، ونشروا النار والخراب في الأراضي التي كانت من قبل عائدة إلى وليم دي براوس، ولدى زحف الملك نحو هناك مع قوة عسكرية صغيرة، تراجع الويلزيون، كما هي عادتهم، إلى أماكنهم النائية، ثم ذهب الملك إلى الأجزاء الشمالية من البلاد، تاركاً هيوبرت المسؤول عن العدالة في هذه المنطقة، ليصدّ غارات الويلزيين، وكان هؤلاء ما ان سمعوا بمغادرة الملك، حتى استأنفوا حملات نهبهم، وأغاروا على المناطق القريبة من قلعة مونتغمري، وشرعوا باقتراف أعمال عيثهم فساداً في تلك المنطقة، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع الحامية في القلعة، نزلوا للاشتباك بالقتال ضد الويلزيين، لمنع تحركاتهم حول المنطقة من دون معارضة، ولقطع الطريق عليهم

للانسحاب، وقد قتلوا عدداً كبيراً منهم كما أنهم أسروا الكثيرين، وقد سلموا جميع الذين أسروهم أحياء إلى المسؤول عن العدالة، الذي أمر بإعدامهم، وبارسال رؤوسهم إلى الملك، وغضب للويلين من هذه الفعلة غضباً شديداً، فجمع جيشاً كبيراً، وأحدث دماراً مريعاً في أراضي وممتلكات البارونات الذين عاشوا على حدود ويلز، ولم يوفر لا الكنائس ولا اللاهوتيين، وأحرق عدة كنائس، مع عدد من النساء النبيلات والفتيات اللائي هربن إلى هناك من أجل السلامة.

كيف حرم للويلين كنسياً وكيف هاجم الملك ويلز

وعندما تلقى الملك هنري خبراً عن هذه الجريمة العظمى، جمع جيشاً كبيراً في اكسفورد في الثالث عشر من تموز، وهناك عندما اجتمع جميع نبلاء المملكة، ورجال الدين والناس، قام الأساقفة مع القساوسة الآخرين للكنائس، بحضور الملك، بحرمان للويلين كنسياً وأتباعه الذين أحرقوا الكنائس، وقاد الملك بعد هذا جيشه وزحف بكل سرعة إلى هيرفورد، وكان للويلين مقيماً آنذاك قرب قلعة مونتغمري، في حقل قرب النهر، مغطى بالسبخ، حيث كان ينتظر في كمين ليقاتل فرسان حامية القلعة، وقد قيل بأنه أرسل من ذلك المكان إلى القلعة واحداً من رهبان دير لطائفة السسترشيان كان موجوداً في الجوار، واسمه كوميرا Cumira وعندما رآه فرسان القلعة قادماً نحوهم، خرجوا من القلعة للتحادث معه، وسألوه عما إذا كان قد سمع أي شيء عن الملك للويلين، وعلى هذا رد الراهب بأنه رآه مع حاشية صغيرة في حقل قريب، حيث كان ينتظر ورود قوة أكبر، ووقتها سأل الفرسان الراهب عما إذا كان بإمكان الخيالة عبور النهر والحقل سالمين، وعلى هذا أجاب:

«إن الجسر الذي يستخدمه المسافرون من أجل عبور النهر، قد جرى تدميره من قبل للويلين، لأنه خشي من هجوم من جانبكم، لكن يمكنكم بأمان عبور النهر والحقل على ظهور الخيل، عندما تريدون

وبوساطة عدد ضئيل من الخيالة يمكنكم غلبة الويلزيين، أو ارغامهم على الفرار»، وصدق وولتر دي غودرفيل Godarville قائد حامية القلعة المعلومات المزيفة التي قدمها الراهب، وأمر على الفور أتباعه من الفرسان والجنود بحمل أسلحتهم، وركبوا خيولهم، ومالبثوا أن وصلوا إلى المكان، وعندما رآهم الويلزيون يتقدمون مسرعين، تظاهروا على الفور بالفرار إلى الغابة التي كانت قريبة، وطاردهم فرسان القلعة بكل اندفاع حتى غطسوا في النهر المتقدم الذكر وفي السباخ حتى بطون خيولهم، ولاسيما الطلائع بينهم، أما الذين ساروا خلفهم فقد تنبهوا بغطس رفاقهم، الذين أسفوا كثيراً لسوء حظهم، ولدى رؤية الويلزيين لأوضاع أعدائهم، انقضوا بكل سرعة وحرارة عليهم، وتسببوا برماحهم بمذبحة قاسية بينهم، أثناء خوضهم في الوحول، وأعقب ذلك قتال عنيف، وبعد مقتلة كبيرة من على الجانبين، كان الويلزيون هم المنتصرون، ووقع في هذه المعركة جايل بن رتشارد دي أرجنتون Argeton وكان فارساً شجاعاً، بالأسر، ومعه بعض الآخرين، الذين لم أسمع بأسمائهم.

الانتقام الذي تولاه الملك بعد خيانة الراهب هذه، إلخ

عندما وصلت أخبار الفاجعة التي نزلت بفرسانه إلى الملك الانكليزي، زحف بكل سرعة إلى الدير الذي انتمى الراهب إليه، أي الراهب الذي خان الفرسان المتقدم ذكرهم، وكعقوبة على خيانته، أحرق مزرعة عائدة للدير، وكان ذلك بعدما نهب كل شيء كان فيها، ثم إنه نهب الدير، وأمر بحرقه أيضاً، وقام راعي الدير من أجل انقاذ المباني التي كلفت كثيراً جداً من المال والجهد، فدفع إلى الملك ثلاثمائة مارك، وهكذا هدأ غضبه لبعض الوقت، وأمر الملك بعد هذا بإعادة بناء قلعة ماتيلدا في ويلز، بقوة بالحجارة، وهي قلعة كانت قد دمرت قبل بعض الوقت من قبل الويلزيين، وعندما انتهت مقابل نفقات عالية جداً،

وضع فيها حامية من الفرسان والجنود، لمنع غارات الويلزيين.

إبرام معاهدة بين ملكي فرنسا وإنكلترا

في شهر حزيران من العام نفسه، قاد الملك الفرنسي جيشاً كبيراً لغزو بريتاني، لكن هنري كونت أوف بريتاني، ورالف ايرل شيستر، أخبرا باقترابه، فكمنا له، وهاجما العربات ووسائل النقل التي كانت تتولى نقل الأسلحة والإمدادات في الساقة، واستوليا على جميع أثقاله، وأحرقا بعد ذلك جميع آلات حربه، واستوليا على ستين فرساً، وبدأ الفرنسيون بعد هذا يعدّون بريتاني بلداً لايرام، ويئسوا من الوصول إلى محصلة مناسبة مع هذه البداية الضعيفة، لذلك شرعوا بالتفاوض من أجل عقد معاهدة، بوساطة رئيس أساقفة الرايم، وفيليب كونت بولون من جانب الفرنسيين وملكهم، وكونت بريتاني، وايرل شيستر لصالح الملك الانكليزي، وفي الخامس من تموز جرت الموافقة على هدنة لمدة ثلاث سنوات بين الملكين، وجرى تثبيتها بالأيمان.

وفي شهر تموز نفسه، عاد بطرس أسقف وينكستر إلى انكلترا، بعدما أمضى قرابة الخمسة أعوام في أرض الميعاد، وفاء بعهده بالحج، واستقبل في الأول من آب بمسيرة مهيبة في الكنيسة الكاتدرائية في وينكستر.

ووصل إلى انكلترا في العام نفسه، بعد تثبيت الهدنة، كونت بريتاني، وايرل شيستر، مع رتشارد المارشال من القارة، وانطلقوا نحو الملك، الذي كان مايزال مشغولاً في بناء قلعة ماتيلدا في ويلز، وقد استقبلوا بترحاب من قبله، وقدم رتشارد مارشال نفسه إلى الملك على أنه الوريث لأخيه وليم مارشال، وعرض تقديم الولاء للملك مقابل ميراثه ومن أجله، ومن أجل كل ماعليه فعله في سبيل امتيازاته، وفي اجابة الملك له —بناء على نصيحة هيوبرت المسؤول عن العدالة— أخبره أنه سمع بأن زوجة أخاه المتوفى كانت حاملاً، وبناء على ذلك هو لايمكنه الاستجابة

لطلبــه، حتى يمكن كشف حقيقــة هذه المسألة، واتهم الملك رتشــارد المذكور بالتعـامل والتعايش مع أعدائـه المعلنين في المقاطعات الفـرنسية، ولهذا أمره بمغادرة المملكة على الفـور وإلى الأبد، وأعلن أنه إذا ماوجد في المملكة خلال خمسـة عشر يوماً، فلسوف يحكـم عليه بالسجن المؤبد، وعندمـا وجد رتشـارد نفسه غير قـادر على الحصول على جـواب آخر، أبحر على الفـور إلى ايرلاندا، حيث استقبل ببهجة من قبل جميع فـرسان وأتباع أخيـه المتوفى، وإليه سلمـوا جميع القلاع العـائدة لأخيه، وقـدموا الولاء له وأعلنوا التـابعيـة لـه، ثم إنه استرد ملكيـة قلعـة بيمبروك، مع جميع الألقاب والمراتب العـائدة إليهـا، ثم جمع جيشاً، وعقـد العزم على استرداد الاستحواذ على ميراثه، حتى ولو كان ذلك ضـد موافقة الملك، إذا مـااقتضى الأمر، لكـن الملك غيّـر أخيراً رأيه، خشية منه بأن يقـوم رتشارد المذكور بإثارة الاضطراب، وافسـاد سلام المملكة، فتلقى الولاء منه مع التـابعيـة، ومنحـه جميع امتيـازاته، وأبقى فقط الغـرامـة المعتـادة المستحقة له شخصياً.

كيف ذهب رتشارد رئيس أساقفة كانتربري إلى روما ومات أثناء عودته

ذهب في هذا العام رتشـارد رئيس أساقفة كـانتربري إلى بلاط روما، وقدم الشكاوى التـالية إلى البابا، فقد اشتكى في المقـام الأول ضد ملك انكلترا، أنه أدار جميع شـؤون المملكة وفقـاً لنصيحة هيـوبرت المسـؤول عن العـدالة وحـده، مستخفاً بذلك بجميع النبـلاء الآخـرين، واشتكى أيضاً أن المسؤول عن العدالة قد تزوج من امرأة كانت قريبة من زوجته الماضية، وقـد أمسك متلبساً بذلك، وهو مـايزال محتجزاً بعض ممتلكات كنيسة كانتربري، كما أنه اشتكى ضد بعض أساقفته المساعدين، لإهمالهم واجبـاتهم الأسقفيـة، فهم يجلسـون في محكمـة خـزينة الملك، ويتـولون فحص قضـايا العلمانيين، ويصدرون الأحكـام في قضايا الحيـاة والموت،

واشتكى أيضاً أن المنتفعين من الكهنة مع رجال من الطوائف المقدسة يحتفظون بين أيديهم بعدد من الكنائس، التي إليها معهود بوظيفة العناية بالأرواح، ومثل ذلك الأساقفة، حيث حذوا حذوهم، فهؤلاء الناس يتدخلون بالأعمال العلمانية، ويتورطون بالأحكام القضائية العلمانية، وبعدما عرض هذه الشكاوى وأمثالها على البابا، سأل ذلك الحبر استخدام عصا التصحيح لتقويم مثل هذه الآثام، وبعد تقدير صحيح لهذه القضايا، رأى صاحب القداسة البابا، أن شكاوى رئيس الأساقفة كلها مدعومة بالحق والمنطق، فأعطى أوامره على الفور، بوجوب الاعتناء بقضايا شكوى ذلك الأسقف، وأن تنال العدالة المستحقة، وترافع كهنة الملك، وعرضوا أسباباً كثيرة رداً على الشكاوى، لصالح الملك، لكن ذلك جاء بلا تأثير، لأننا إذا ماأردنا الحديث بإيجاز، حصّل نفوذ رئيس الأساقفة له، كل ماطلبه، وبعدما أكمل أعماله حسبما يرضيه، انطلق عائداً، غير أنه مات أثناء سفره، في دير القديس جيمينا Gemina في الثالث من آب، وماتت معه جميع المنافع التي نالها بشأن الأعمال المذكورة أعلاه.

كيف أقلع هنري عن الزواج من أخت ملك اسكوتلندا

في العام نفسه، في شهر تشرين الأول، كان ملك انكلترا، قد أكمل بناء قلعة ماتيلدا في ويلز، ولذلك عاد إلى انكلترا، وكان قد قرر آنذاك الزواج من أخت ملك الاسكوتلنديين، على الرغم من معارضة جميع الايرلات والبارونات وغضبهم، لأنهم قالوا بأنه من غير اللائق أن يتزوج الملك من الابنة الصغرى، في حين تزوج هيوبرت، المسؤول عن العدالة، الأخت الكبرى، واقتنع أخيراً بالاقلاع عن هذه النية بوساطة كونت بريتاني، وأعطى إلى تلك النبيلة خمسة آلاف مارك من الفضة، ومن ثم عادت إلى بلادها.

انتخاب رالف رئيساً لأساقفة كانتربري وإلغاء ذلك الانتخاب

بعد وفاة رتشارد، رئيس أساقفة كانتربري، الذي قصصنا خبره أعلاه، قرر رهبان كانتربري المطالبة بأن يكون رئيساً عليهم، رالف دي نيفيل Neville أسقف شيستر، الذي كان مستشار الملك، وبناء عليه، بعدما عملوا الانتخاب، قاموا في الرابع والعشرين من أيلول بتقديمه إلى الملك، الذي رحب بذلك وقبله، من جانبه وفيما يتعلق به، وقام على الفور بمنحه المزارع والممتلكات الأخرى العائدة لرئاسة الأساقفة، وعندها ذهب الرهبان الذين كانوا على نية الذهاب إلى روما، إلى رئيس الأساقفة المنتخب وسألوه المساعدة في تغطية نفقات رحلتهم، لكنه أخبرهم بوضوح أنه لن يدفع إليهم ولاحتى دريهم من أجل هذه الغاية، ومع ذلك، ذهبوا إلى روما، وطلبوا من البابا أن يثبت بوساطة السلطات الرسولية الانتخاب، أو أن يأخذ بالاقتراح الذي تقدموا به، وهنا طلب البابا القيام بفحص للقضية يتولاه —كما قيل— المعلم سيمون لانغتون، وأن يتعرف إلى سمات رئيس الأساقفة المقترح، وبعد هذا ردّ بأن رئيس الأساقفة المقترح هو من رجال الحاشية الملكية وأمي، ولذلك تولى إلغاء ذلك الانتخاب، وأعطى أوامر إلى مجمع الرهبان في كانتربري للقيام بانتخاب رئيس أساقفة مفيد لأرواحهم وأن يعمل على رفع شأن كنيسة انكلترا وتقدمها، وبناء عليه عاد الرهبان، وأخبروا إخوانهم كيف أنهم أخفقوا في تحقيق رغباتهم.

صلف رجال الدين الرومان

ثارت في هذه الآونة في انكلترا انفعالات مع هياج كبير، من الممكن دعوتها عمل طائش قام على التوهم، بسبب صلف رجال الدين الرومان، الذي دفع نبلاء المملكة، وكذلك الذين هم من مرتبة أدنى نحو الانفعال لإنزال عقوبات، كما هو محكي في النص التالي:

«إلى الأسقف الفلاني، وإلى هيئة الكهنة الفلانية، وإلى الجماعة كلها من الذين يؤثرون أن يموتوا على أن يهانوا من قبل الرومان، تحيات:

نعتقد أنه ليس سراً بالنسبة لكم كيف تصرف الأحبار الرومان ونوابهم حتى الآن بأنفسهم نحونا ونحو اللاهوتيين الآخرين في انكلترا، وكيف أنهم أضفوا منافع المملكة على أتباعهم وعلى مباهجهم في سبيل انزال الأذى والمضار بكم أنفسكم وبجميع الآخرين في المملكة، وكذلك كيف أصدروا وطبقوا أحكام الحرمان الكنسي ضدكم وضد أتباعكم من الأساقفة واللاهوتيين الآخرين، الذين إليهم تعود جمع المنافع بشكل صحيح، من أجل عدم اضفائكم أية منفعة على واحد من أبناء بلدكم حتى ينال خمسة من الرومان ذلك، أسماؤهم غير معروفة بعد، أي ابن رومفرد Rumfred وأبناء فلان وفلان من الناس، فهؤلاء سوف يعينون محلكم في كل واحدة من كنائسكم في جميع أرجاء انكلترا، وكل واحد سوف يكون دخله مائة باوند، بالاضافة إلى اثقالات أخرى، فرضوها على كل من النبلاء والعلمانيين في المملكة، وأرادوا جبايتها من النذور والصدقات التي عينت من قبلهم ومن قبل أجدادهم من أجل الحفاظ على الفقراء، وكذلك على الكهنة، وعلى رجال الدين الآخرين، فيما يتعلق بممتلكاتهم ومنافعهم، وهم غير قانعين بهذا كله، بل يرغبون أن ينتزعوا من كهنة المملكة جميع المنافع التي بأيديهم حتى آخرها، من أجل منحها واضفائها على أتباعهم الرومان، أي ليس وفقاً للعدالة، بل تبعاً لأهوائهم ومسارهم، وهم يسعون بهذه الطريقة إلى تحقيق ماجاء في النبوءة:

«لقد نهبوا المصريين لإغناء العبرانيين، وأن يضاعفوا أناسهم، وأن لايزيدوا سرورهم»، وهكذا كدسوا الأحزان فوق الأحزان، حتى بات الحال بالنسبة لنا الأفضل أن نموت على أن نعيش هكذا ونحن مظلومين، وبناء عليه، مع أنه قد يكون صعباً بالنسبة لنا «الرفس ضد القراميد»، إنه أيضاً الذي يحك أنفه بقسوة كبيرة يسيل الدم، وبناء عليه، نحن نعدّ حدة هؤلاء الذين جاءوا إلى هنا أولاً كرومان غرباء، والذين

.نم الآن لايستهدفون فقط الحكم، بل إدانتنا، وأن يفرضوا علينا أثقالاً لاتحتمل، وهم على غير استعداد لرفع احدى أصابعهم، بناء على ذلك قررنا بموافقة عامة —مع أن ذلك جاء متأخراً— أن نعارضهم، بدلاً من اخضاع أنفسنا أية مدة أطول لظلمهم الذي لايحتمل، أو لتحمل عبودية سيئة، وبناء عليه إننا نمنعكم بكل دقة —أثناء مسعانا لانقاذ الكنيسة، وكذلك الملك والمملكة من نير هذه العبودية الظالمة— من التدخل في قضية هؤلاء المقحمين لأنفسهم في القضايا المتعلقة بالرومان وبمواردهم، واستقروا وكونوا متأكدين أنكم إذا ماخرقتم هذا الأمر، الذي يحرمه الرب، سوف تكون ممتلكاتكم عرضة للحرق، والعقوبات التي سوف ينالها الرومان بأشخاصهم، سوف تنالونها. وداعاً».

التحريم ضدّ بيع المزارع أو الموارد إلى الرومان

«إلى رجال الدين، وإلى الآخرين الذين بأيديهم مزارع مضمونة من الكهنة الرومان، تقدم إليكم الجماعة المذكورة أعلاه التحيات، إنه بعد مظالم لاعدد لها ولاحصر وأضرار هائلة، تعرفونها أنتم جميعاً، وتعلمون أيضاً كيف أنها أنزلت من قبل الرومان بمملكة انكلترا حتى هذا الحين، من أجل إلحاق الأذى بالملك وبنبلاء المملكة، في المجال الذي يتعلق بنذورهم وصدقاتهم وبمنافعهم، وبما أنهم يسعون إلى حرمان رجال دين هذه المملكة من منافعهم، لإضفاء ذلك على الرومان في سبيل إلحاق الأذى الأعظم والعار بالمملكة وبنا أنفسنا، لقد قررنا بموافقة عامة من النبلاء —مع أن ذلك جاء متأخراً— أن نعارضهم، بدلاً من أن نخضع لهم من الآن فصاعداً، وأن نرضخ لظلمهم الذي لايحتمل، وأن نضبطهم بأن نسحب منهم جميعاً منافعهم في جميع أرجاء المملكة، حتى يتوقفوا عن متابعة ظلمهم مدة أطول، وبناء عليه نحن نأمركم بدقة، أن تتوقفوا من الآن فصاعداً عن الدفع للرومان ضمان الكنائس، أو موارد الأراضي التي بين أيديكم منهم، أو مدانين لهم بها، بل أن تجعلوا هذه

الايجارات والموارد جـاهزة وأن ترسلوا بها إلى وكيلنا المعين من قبلنا برسالة، من أجل أنه في يوم الأحد الذي يغنى فيه بمزمور «دعوا القدس تبتهج»، سوف يؤكد رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان في كنائسهم والقساوسة الآخرين ورجال الدين، والعلمانيين في كنائسهم، والبقية، بأنكم إذا لم تطيعوا هذا، فإن ممتلكاتكم سوف تكون عرضة للاحراق، ولسوف تجنون الخطر الذي الرومان معرضون له بأشخاصهم، وداعاً»، ونشرت هذه الجماعة المتقدم ذكرها، بوساطة فرسانها ووكلائها، هذه الرسائل، وهي ممهورة بختم جديد، عليه جرى حفر سيفين، وقد نقش النص التالي بين السيفين: «انظر هاهنا سيفين»، حسبما جرت العادة بالاقتباس بالنسبة للكنائس الكاتدرائية، مبينين أن كل من يجدوه معارضاً لهم، سوف يعاقبونه وفقاً لقوانينهم وأوامرهم.

المحكمة اللاهوتية التي عقدت في دير القديس ألبان والقاء القبض على سينشوس

وفي تلك الآونة نفسها، في السابع عشر من كانون الأول جرى عقد محكمة لاهوتية كبيرة في دير القديس ألبان، وضمت رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورؤساء الشمامسة وجميع نبلاء المملكة تقريباً، وقد اجتمعوا جميعاً بموجب أوامر البابا، من أجل احداث طلاق بين كونتسة اسكس وزوجها، إذا توفر سبب جيد لذلك، وفي اليوم التالي بعد انفضاض المؤتمر، وعندما كان الجميع عائدون إلى مواطنهم المختلفة، كان هناك رجل دين روماني، اسمه سينشوس Cincius وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، قد جرى اعتقاله بوساطة توكيل من قبل الجمعية المتقدم ذكرها أعلاه، وقد نقله بعيداً بعض الرجال المسلحين، الذين كانت رؤوسهم مغطاة، وقد نجا المعلم جون الفلورنسي، الذي كان رئيس شمامسة نورويك، فهو كان حاضراً أثناء المؤتمر، وقد نجا من القبض عليه، وهرب إلى لندن، حيث بقي هناك

متخفياً لعدة أيام، وبعد مرور خمسة أسابيع أعيد سينشوس سالماً وصحيحاً إلى لندن، لكن —كما قيل— وحافظة نقوده فارغة.

مصادرة بالقوة للقمح في ونغهام

عام ١٢٣٢م، فيه عقد الملك هنري بلاطه في عيد الميلاد في وينكستر، حيث قدم بطرس أسقف تلك المدينة الأشياء المحتاجة للاحتفاء به، وقدم هدايا ملابس العيد إلى الملك، وكذلك إلى أتباعه، وخلال أسبوع عيد الميلاد كانت هناك مخازن حبوب مليئة في ونغهام Wingham ملكاً لكاهن روماني وقد جرى نهبها من قبل مجموعة صغيرة من الرجال المسلحين، الذين كانت رؤوسهم مغطاة، وقد عملوا —كما قيل— بناء على أوامر من الجمعية التي تقدم ذكرها أعلاه، وعندما سمع المشرف والوصي على تلك الكنيسة بهذا العدوان، ذهب إلى عمدة الكونتية، وأخبره بهذا الخرق لسلام الملك، وعن الأذى الذي أنزل بمولاه، وماكان من العمدة إلاّ أن أرسل وكلاءه مع بعض الجنود إلى المكان، وأمرهم أن يكتشفوا ماكانته القضية، ولدى وصولهم إلى المخازن، رأى الجنود هناك أولئك الرجال المسلحين الذين كانوا غير معروفين تماماً بالنسبة إليهم، وكانوا آنذاك قد أفرغوا المخازن تقريباً، وباعوا القمح وفق شروط جيدة، لصالح جميع المنطقة، وأعطوا أيضاً من باب الصدقة شطراً منه إلى الفقراء الذين طلبوا ذلك، ولدى وصول الجنود إليهم سألوهم من أين جاءوا، وكيف تجرأوا على خرق سلام الملك، واقتراف مثل هذا العدوان، وبناء على ذلك أخذوا الجنود جانباً، وأروهم على الفور تراخيص من الملك، تمنع أي انسان من اعاقتهم، ولدى رؤية الجنود بأنفسهم ذلك، ومعهم بعض الآخرين الذين أقبلوا إلى هناك، انصرفوا بهدوء، وتمكن هؤلاء الرجال المسلحون، خلال خمسة عشر يوماً من بيع جميع القمح، ومن ثم انصرفوا وجيوبهم مليئة، ونقلت أخبار هذه الواقعة إلى روجر أسقف لندن، وبناء عليه جمع عشرة

أسـاقفـة، وقام في اليـوم الذي أعقب عيـد القـديسـة العذراء المبـاركـة سكولا ستيكا Schola stica [١٠-شبـاط]، في كنيســة القـديس بولص في لندن، فحـرم كنسيـاً جميـع مقترفي هذه العمليـة من جـرائم العنف، وأدخل في هـذا القـرار جميع الـذين ألقـوا أيـديهم بعنف على سينشـوس، الكاهـن في كنيسـة لندن، وشمل ذلك أيضـاً جميع أعضـاء الجمعية المذكورة أعلاه، وكذلك جميع الذين كتبوا وختموا الرسائل التي تقدم ذكرها أعلاه.

كيف طلب الملك هنري مساعدة مالية

في السـابع من آذار، في هذا العـام، اجتمع نبـلاء المملكة، والعلمانيين والأسـاقفة في مـؤتمر جرى عقـده في ويستمنستر، وذلك بناء على طلب من الملك، وحضوره، وهناك شرح لهم، أنه متـورط بديون ثقيلة، بسبب الحرب التي قام بها مؤخراً في القارة، وهو مدفوع بسبب الحاجة ليطلب المساعدة منهم جميعاً وبشكل عام، وإثر سماع هذا، قام رالف ايرل أوف شيستر، فتحدث باسم بقية النبلاء، وعمل رداً على الملك أوضح فيه بأن الايرلات، والبـارونات، والفـرسـان الذين كـانوا مستأجـرين اقطاعيين رئيسيين لدى الملك، والذين كـانوا حـاضرين أيضاً بأشخـاصهم، بأنهم صرفـوا أمـوالهم وبددوها من دون هـدف وغـاية، إلى حـد أنهم عندمـا غـادروا القارة، غـادروها رجالاً فقـراء، وبناء عليه، إنه بمـوجب الحق، ليس عليهم تقديم عون إلى الملك، وعند ذلك سأل العلمانيون جميعاً من النبلاء الإذن بالانصراف، وغادروا المؤتمر، أما الأسـاقفة فقد أجابوا على طلب الملك قـائلين بأن هناك عـدداً كبيراً من الأساقفـة، ورعـاة الديرة، الذين وجهـت الدعــوة إليهم، لكـن لم يحضروا، ولذلك سألـوا تأجيل القضية حتى يتمكنوا من الاجتماع ثـانية في يوم يجري تحديده، وبناء على ذلك جـرى تحديد يوم، وكـان بعـد مضي أربعـة عشر يومـاً، بعـد عيـد الفصح، ليجتمعوا فيه من أجل تقرير الذي ينبغي فعله بموجب الحق.

وفي العام نفسه، انتخب المجمع الديري في كانتربري، رئيس الرهبان جون، ليكون رئيس أساقفتهم، والمسؤول عن أرواحهم، ولدى تقديمهم إياه إلى الملك قبله، ثم إنه انطلق يريد روما ليحصل على تثبيت صحيح لهذا الانتخاب من الكرسي الرسولي.

رؤيا مدهشة تتعلق بالملك رتشارد

وفي تلك الآونة، كان هنري أسقف روكستر، يؤدي قداساً إلهيا، في يوم الأحد، عندما يغنى المزمور الذي فيه (تعالوا إلى الماء، أنتم أيها العطاشى جميعاً)، وكان ذلك في مكان اسمه ستينغبورن Sit-tingbourn بحضور رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، ومحاطاً برجال الدين وبالناس، عندما عمل بثقة وجرأة الاعلان التالي:

«اخواني في الرب الذين أنتم هنا حضوراً، افرحوا جميعاً، كونوا متأكدين وواثقين أنه في اليوم الأخير نفسه، قد خرج رتشارد، الذي كان من قبل ملك انكلترا، وستيفن، رئيس أساقفة كانتربري الأخير مع واحد من قساوسة رئيس الأساقفة المذكور، قد خرجوا من موضع العذاب، وظهروا أمام الجلالة اللاهوتية، وهؤلاء الثلاثة فقط قد غادروا المطهرة في ذلك اليوم، ويمكنكم أن تثقوا ثقة مطلقة بكلماتي، لأن هذا قد أبيح لي برؤيا، أو لواحد آخر ثلاث مرات، بكل وضوح، إلى حد أن جميع الشكوك قد زالت من عقلي»، وبما أن الاشارة قد وردت هنا حول الملك النبيل رتشارد، سوف أقص خبر واقعة حدثت له، من أجل تنوير قرائي.

كيف رأى رتشارد تمثال المسيح حانياً رأسه نحو متعبد

كان هناك خلال حكم الملك رتشارد، أحد الفرسان يعيش في الغابة الجديدة، وقد مارس لمدة طويلة بشكل سري صيد غزلان الملك، وقد ألقي القبض عليه في احدى المناسبات، ومعه لحم طرائد مسروق،

ويقرار من محكمة بلاط الملك المذكور أدين بالنفي، وكان رتشارد الملك الرحيم قد لطف القانون المتعلق بلحوم الطرائد المسروقة، الذي كان لأسلافه قاسياً جداً، حيث كان الذي يقبض عليه متلبساً بهذا العدوان، كانت تقتلع عيناه، وتجتث أعضاؤه مع يديه ورجليه، لكن هذه العقوبات بدت إلى الملك التقي رتشارد أنها غير انسانية، في أن يحرم الانسان، الذي خلق على شكل الرب من حياته أو من أطرافه من أجل حيوان، فالحيوانات، قد أعطيوا —وفقاً لقانون الطبيعة للاستخدام العام من قبل الجميع— فبموجب تلك القوانين بدا الانسان وكأنه أقل أهمية من حيوانات البرية، وقد رأى على كل حال وقدّر، أن العقوبة الكافية تماماً بالنسبة إلى أي انسان أمسك متلبساً باقتراف تلك الجريمة، إما أن ينفى من انكلترا، أو أن يدخل السجن، محتفظاً بحياته وأطرافه، وأرسل الفارس المتقدم الذكر إلى المنفى، وهذا الرجل الذي كان قد تمتع من قبل بجميع مباهج الحياة مع زوجته وأولاده، قد أرغم الآن على التسول من أجل خبزه بين الأجانب، وقرر الفارس بعد تقليب لوجوه القضية، أن يلتمس أخيراً رحمة الملك، وأن يطلب إعادة ملكيته الأرضية له، وبناء عليه ذهب إلى الملك في نورماندي، حيث وجده في الصباح الباكر في كنيسة على وشك الإصغاء إلى قداس، ودخل الفارس الكنيسة وهو يرتجف، ولم يتجرأ على أن يرفع عينيه نحو الملك، الذي وإن كان أكثر الناس رشاقة وبهاء أن تنظر إليه، كان هناك فيه شيئاً مرعباً في نظرته، ولذلك ذهب إلى تمثال المسيح على الصليب، فبكى بدون توقف، والتمس وهو جاث على ركبتيه من المصلوب، من خلال نعمته التي لايمكن وصفها، أن يصنع سلاماً بينه وبين الملك، به يتمكن من استرداد ميراثه المفقود، ورأى الملك الفارس، وهو يصلي هكذا بحرارة، ويبكي بتقوى غير خفية، وهنا شاهد واقعة رائعة جديرة بالحديث عنها، لأنه كان كلما حنى الفارس —الذي لم يعرفه بين حاشيته— ركبتيه ليتعبد التمثال، قام التمثال بكل تواضع بحني رأسه وكتفيه، وكأن ذلك

كـان استجابة للفـارس، وأصيب الملك بالدهشـة والعجب لدى رؤيتـه هذا يتكرر مـــراراً، ومـــا أن انتهت أعمال القـــداس حتـى أرسل خلف الفـارس ليتحدث إليـه، وسأله من كـان هو، ومن أين جاء، وردّ عليـه الفارس آنذاك وهو خـائف، وقال: «إنني يامـولاي من رعيتك التابعين لك، مثلما كان أجدادي أيضـاً»، ثم بدأ يقص عليه تاريخه، وأخبره كيف أنه حـرم من ميراثه، ونفي مع أسرته، لأنه ألقي القبض عليـه مع بعض لحم الطرائـــد المسروقـــة، ثم سأل الملـك الفـارس: «هـل فعلت قط في حيـــاتـك عمـــلاً جيـــداً صـــدوراً عن الاحترام والتشريـف للصليب المقدس؟»، ثم إن الفارس، بعدما تفكر حـول أحداث ماضيه بكل دقة، قص على الملك الحادثة التالية التي قام بها صدوراً عن احترامه للمسيح.

كيف أبقى الفارس على حياة عدوه صدورا عن احترامه للمسيح

ولقـد قال: «اقتسم أبي مع فـارس آخـر، بينهما بلدة، آلت إليهما بحق الميراث، وفي الوقت الذي كان فيه أبي محاطاً بجميع أنواع الثروات، كان الفارس الآخـر على العكس، دائماً فقيراً وبحاجـة، وصار حـاسداً لأبي، وقد قـام بشكل خياني بقتله، كنت آنذاك طفـلاً، لكن عندما وصلت إلى سن الرجولة ونصبت في ميراثي الأبوي، اتخذت قراراً الزامياً بقتل ذلك الفارس، انتقاماً لموت أبي، وقـد جرى تحذيره وانذاره مسبقاً بنيتي، وقد نجا لمدة سنوات ببراعته من المصائد التي نصبتها له، وبعد طويل وقت، كنت في يوم الاستعداد، الذي كان هو اليوم الذي حمل فيه يسوع المسيح صليبـه من أجل خـلاص العـالم، ذاهبـاً إلى الكنيسـة، لسماع القـداس، فرأيت عدوي أمامي أيضـاً وهو على طريقه إلى الكنيسة، فأسرعت أسير خلفه، وجـردت سيفي لأقتله، عندما نظر بالصدفـة نحو الخلف، ولدى رؤيتـه لي أنقض عليـه، هرب نحـو صليـب كـان واقفـاً قـرب الطريق، وحيث أنه كان منهكاً بسبب تقدمه بالسن، لم يكن قادراً على الدفاع عن نفســه، وعندما حـاولت سـاعياً لقتلـه بسيفي المشهور، ولتحطيم رأسـه

واخـراج ونثـر دمـاغـه، طوق الصليب بـذراعيـه، ورجـاني باسم ذلك المسيح، الذي علق في ذلك اليـوم على الصليب، لتخليص العالم كله، أن لا أقتله، ووعد مخلصاً ونذر، أنه سوف يعين قسيساً يؤدي قداساً اعتباراً من ذلك اليوم من أجل روح والدي الذي قتله، وأن يكون ذلك يومياً، وعندمـا رأيت الرجل العجوز وهـو يبكي أشفقت عليه، وصـدوراً عن حبي وتقديري للذي من أجـل خلاصي وخلاص الجميع قـد صعد إلى الصليب، وكرسـه بدمه الأعظم قداسة، فعفـوت عن ذلك الفارس من أجل مقتل أبي»، وعندها قـال الملك للفـارس: «لقـد تصرفت بحكمـة، لأن ذلك المصلوب قـد سدّد لك الآن حسنة إثر حسنة أخـرى»، ثم إنه استدعى الأسـاقفة والبارونات الذين كـانوا هناك معه، وعلى مسمع من الجميع قصّ عليهـم الرؤيا التي شـاهدها، وكيـف أنه كـان كلما عمل الفارس انحناءة بركبتيه، كان تمثال المسيح يقوم بتواضع بانحناءة برأسه وبكتفيه، ثم إنه استـدعى مستشاره إليـه، وأمره أن يكتب رسالة مـوثقة يأمر بها العمـدة الذي سوف يسميـه الفارس إليـه، أن يقوم فـور رؤيته الوثيقة، بإعـادة جميع الممتلكات العائـدة إلى الفارس، إليـه، في الأحوال نفسها كما تسلمها أثناء القيام بنفيه.

صبر الملك أثناء مضايقته

في الوقت الذي نتحدث فيـه عن فضائل ذلك الملك النبيل، علينا أن لانحذف ذكر، أنه فور تتويجه، قدم دوماً عدالة دقيقة إلى كل واحد، ولم يسمح قط بحرفها بوساطـة الرشوى، ومنح على الفور جميع الأسقفيات ورعـاة الديرة الشاغـرة إلى من يشغلها، من دون شراء، وجـاء المنح إلى كهنة جرى انتخابهم بشكل قانوني، ولم يمنح هذه المناصب، ولم يعهد بها قط إلى رجـال علمانيين، ونظر إلى جميع رجـال الدين المكرسين، ولاسيما أتباع الطوائف الدينية منهم، نظرة احترام كبيرة، ونظراً لاحترامه ليسوع المسيح، كان يخاف كثيراً من ايذائهم، حتى أنه حـدث في إحدى المرات،

عندما كان أساقفة المملكة جميعاً مجتمعين أمام الملك بناء على أمر من البابا، حتى يعملوا منحة جزء من عشرين من جميع الممتلكات المتحركة لمساعدة الأرض المقدسة، وكانوا جالسين على انفراد يتباحثون حول القضية، قال الملك بصوت منخفض لغيوفري فتز— بيتر، وإلى وليم بريوير اللذان جلسا عند قدميه: «هل تريان أولئك الأساقفة الجالسين هناك؟»، فأجاباه: «نعم نحن نراهما يامولاي»، وعندها قال الملك لهما: «لو علموا إلى أي مدى أحترمهم بالرب، وأنا أخاف منهم، وكيف أنني لاأرغب بإيذائهم، سوف يدوسون عليّ وكأنني حذاء قديم مهترىء»، وينبغي أيضاً أن نذكر باعجاب، كيف أنه تخلى عن مسار ومباهج المملكة التي حصل عليها حديثاً، حباً منه للملك الأبدي، وكيف أنه أنفق أمواله وأموال أبيه المتوفى في خدمة المسيح، ومن أجل تحرير الأرض المقدسة، وكيف استولى بشجاعة على جميع أرض الميعاد، إلى جانب مدينة القدس المقدسة، وانتزعها من أيدي أعداء الصليب، وعندما نقصت أمواله هناك، عمل هدنة لمدة ثلاثة أعوام، وحصل على إذن من صلاح الدين بالسماح للكهنة بإقامة قداس للصليب عند ضريح ربنا، وذلك كل يوم حتى انتهاء مدة الهدنة، وأن يكون ذلك على حسابه الخاص، ثم إنه غادر إلى بلاده، وجند قواته، وجمع مالاً، وعند نهاية الهدنة عاد، تاركاً المملكة وجميع الممتلكات التي كانت تحت سلطانه في البلدان الغربية، حتى يتمكن من التتويج ملكاً في مدينة القدس المقدسة، وتولى قيادة قواته، وقاتل في معارك رب السبت، وسعى لاخضاع أعداء الصليب مادام حياً، لكن عدو الجنس البشري الذي هو حسود بشكل دائم للأعمال الجيدة، ولتقدم المسيحية، أثار ضد هذا الملك التقي، دوق النمسا، والامبراطور الروماني، الذي نصب له المصائد، أثناء عودته من الأرض المقدسة، وعندما اعتقل من قبل أعدائه، بيع مثل ثور أو أتان إلى الامبراطور الروماني (١)، ثم سجن، وعومل بسوء بعيداً عما يليق

١ - تتناقض هذه الرواية مع جميع الروايات المتداولة.

بشخص عظيم مثله، وأرغم على دفع مبلغ كبير فدية له، وفضلاً عن هذا أعاق الملك الفرنسي خططه بغزوه ممتلكاته، عندما كان مشغولاً في خدمة الصليب، ومع أنه أعيق هكذا من قبل أعدائه في جميع الجهات، ثابر في عقله العمل على نيل الشهادة، التي لم يكن قد نالها بعد بالجسد، وكان قد قرر أن يحصل عليها في أرض الميعاد، لأنه اشتاق إلى العودة ولأن يموت في خدمة الصليب، وبالاضافة إلى هذه المحن كلها، عندما كان الملك المذكور غائباً في الحملة الصليبية، تآمر أخوه الايرل جون لاخضاع انكلترا لحكمه، وحاصر القلاع، وعمل حرباً ضد أخاه، ولكن لإخلاص الانكليز في ولائهم، أحبطت خططه.

ولكم هو رائع ثبات هذا الملك النبيل، الذي لم ينحن قط أمام العدوان، ولم يستبد به العجب أثناء النجاحات، وبدا دوماً مشرقاً، ولم يظهر فيه قط أية اشارة على عدم الثقة بالنفس، ومنحت هذه السمات وماماثلها ملكنا رتشارد مجداً في نظر الرب العلي الأعلى، وعلى هذا عندما حان الوقت الآن، وعندما وصلت رحمة الرب، جرى نقله باستحقاق —كما نعتقد— من أماكن العقوبة، إلى المملكة السرمدية، حيث وضع المسيح، ملكه الذي خدمه باخلاص، هناك لجنوده تاج العدالة، الذي وعد به الرب إلى الذين يحبونه، وحيث يعيش بحبور برفقته أولئك القديسين الذي أنقذ آثارهم في أرض الميعاد، وخلصها من صلاح الدين، مقابل اثنتين وخمسين قطعة ذهبية، مع التقدير أن هؤلاء القديسين ينبغي أن يساعدوه وقت الشدائد بوساطتهم بالحصول على حظوة الرب، وكانت هذه الآثار المقدسة قد تولى جمعها المسلمون من أرجاء اليهودية والجليل، في أيام الاستيلاء على الأرض المقدسة، وعلى الصليب المبجل، ووضعت في أربعة صناديق من العاج، كان كل واحد منها ثقيلاً إلى حد أنه ما كان بامكان أربعة رجال أن يحملوه إلاّ بصعوبة، وقد جرت حكاية هذه الوقائع بشكل كامل وأكثر تفصيلاً، أثناء رواية وقائع حكم الملك رتشارد المذكور.

بيع حاصلات رجال الدين الرومان

وجرى في العام نفسه الاستيلاء على قمح رجال الدين الرومان، وبيعه من قبل بعض الناس الذين كانوا غير معروفين، وذلك وفق شروط جيدة لصالح كثيرين، وقد شرعوا بهذا العمل الجريء في أيام عيد الفصح، واستمروا به من دون أية معارضة، وكانوا كرماء في منح الصدقات إلى المحتاجين الذين جاءوا إليهم، ونشروا أحياناً المال بين الفقراء، وجلس رجال الدين الرومان متخفين في الديرة، ولم يتجرأوا على التذمر من الأذى الذي لحق بهم، ذلك أنهم فضلوا أن يفقدوا جميع ممتلكاتهم على أن يحكم عليهم بالموت.

وكان الذين قاموا بهذه الأعمال الجريئة حوالي الثمانين من حيث التعداد، وكانوا في بعض الأحيان أقل من ذلك،وكان مقدمهم واحد اسمه وليم، ولقبه ويزر Witherوقد أطاعوا تعليماته في كل شيء، ومالبثت أخبار هذه الوقائع أن وصلت إلى مسامع الحبر الأعظم، فغضب غضباً عظيماً، وبعث برسالة حادة إلى ملك انكلترا، لامه فيها للسماح لمثل هؤلاء اللصوص بالاعتداء على اللاهوتيين في مملكته، دون أن يقدم الاحترام إلى اليمين الذي أداه، عندما جرى تتويجه، الذي قضى ليس فقط بالحفاظ على السلام نحو الكنيسة، بل بالالتزام بتطبيق عدالة دقيقة نحو رجال الدين ومثل ذلك نحو العلمانيين، وأمره بالرسالة نفسها بأن يلتزم بدقة —تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي والحرمان من شراكة المؤمنين— بالأمر بالقيام ببحث دقيق عن مقترفي هذه الجريمة، ومعاقبة المجرمين بشدة، من أجل أنه بمعاقبتهم يمكن أن ينزل الخوف والرعب في قلوب الآخرين، كما أنه بعث رسالة إلى بطرس أسقف وينكستر، وإلى راعي دير القديس إدموند، بأن يقوما ببحث دقيق وأن يتقصيا في الأجزاء الجنوبية من انكلترا، وأن يتوليا إدانة جميع الذين يجدونهم مدانين بهذه الجريمة، وأن يعدوهم محرومين كنسياً، حتى

يأتوا إلى روما من أجل التحليل من قبل الكرسي الرسولي، ووفق الطريقة نفسها، عهد في شمالي انكلترا، القيام بالبحث نفسه إلى رئيس أساقفة يورك، وإلى أسقف درم، وإلى جون الذي كان كاهناً في يورك، وروما نيا من حيث المولد، وأمرهم بارسال الذين هم مجرمين مدانين بهذه الجريمة، دون الالتفات إلى أي مرافعة استئناف.

البحث الذي عمل في قضية السرقة المتقدم ذكرها

وبناء عليه أقيم بحث وتقصي حول هذه القضية من قبل الملك، والأساقفة، والوكلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وبوسائط الحرمان الكنسي بناء على يمين، وعن طريق تقديم الشهود جرى الكشف عن عدد من المعتدين، كان بعضهم رئيسيين، وبعضهم الآخر محرضين، وكان بعض هؤلاء من أساقفة الملك ومن رجال الدين، وكان بعضهم أيضاً من رؤساء الشمامسة والعمداء، مع عدد من الفرسان والعلمانيين، وكان هناك أيضاً بعضاً من عمد المناطق والرؤساء الإداريين لديهم، وقد اعتقلوا بناء على أوامر الملك وسجنوا بسبب هذه الجريمة، وأخذ آخرون حذرهم، ورأوا أن سلامتهم بالفرار، ولذلك هربوا ولم يعد بالامكان العثور عليهم، وقد قيل بأن هيوبرت دي بورغ المسؤول عن العدالة لدى الملك، كان هو المحرض الرئيسي في هذه القضية، بسبب أنه أعطى هؤلاء اللصوص تراخيص من الملك، ومنه شخصياً، لمنع أي انسان من اعتراضهم أثناء السرقات المذكورة، وكان بين البقية الذين وصلوا إلى الملك، روبرت دي توني Tuinge وكان رجلاً جريئاً، وكان قد اتخذ لنفسه اسم وليم ويزر، ومع الآخرين الذين حرضوه باع محاصيل رجال الدين الرومان، وقد استأجر خمسة مسلحين ليكونوا أعواناً له ومساعدين في اعتداءاته، وأعلن هذا الرجل بشكل مكشوف أنه خرق القانون كراهية منه للرومان، وفي سبيل انتقام عادل، لأن أولئك الرومان المذكورين، كانوا يسعون بموجب قرار من الحبر

الرومـاني، وبشكل غير شرعي، إلى حـرمانه من الكنيسـة الوحيـدة التي امتلكها، وأضاف أيضـاً يقول بأنه بالحري يفضل بأن يحرم كنسياً لبعض الوقت على أن يسلب مـن مصـدر رزقـه من دون محاكمـة، وبناء عليـه نصح الملك مع الوكـلاء المذكـورين هذا الفـارس، بعـدمـا حصل على القـرار القـاضي بحـرمـانه، بـالاسراع بالذهاب إلى رومـا، وأن يعـرض قضيته أمـام صاحب القداسـة البابا، وليبرهن أنه استحـوذ على الكنيسة بشكل شرعي وقـانوني، وأعطاه الملـك رسـائل تشهـد له، ليسلمهـا إلى البابا، والتمس من ذلك الحبر، أن يوافق بلطفه على منح الفارس طلبه.

كيف جرى إلغاء انتخاب رئيس رهبان كانتربري في روما

في اسبوع أحد الشعانين من العـام نفسه، ذهب رئيس الرهبان جون، الذي هو رئيس الأسـاقفة المنتخب لكانتربري، إلى رومـا، وأظهر وثيقـة انتخابه وأراها للبابا، الذي بناء عليــه أمر المعلم جون دي كولونا Co-lonna وبعض الكرادلة الآخـريـن بفحصـه، واكتشـاف فيما إذا كـان شخصاً مناسبـاً ولائقاً للترقيـة إلى ذلك المقام الرفيع، وبعـد امتحان لمدة ثلاثة أيام، سـألوه خـلالها بدقـة حـول تسع عشرة نقطة، أعلنوا —كما قيل— إلى البابا أنهم لم يجدوا سبباً شرعياً لرفضه، لكن الذي بدا —على كل حال— للبابا هو أنه كان متقدماً بالسن كثيراً، وبسيطاً، وبالتالي غير لائق لمثل هذا المقـام الرفيع، ولذلك نصحـه بالاستقـالة، وبتواضع قـام رئيس الأساقفـة المنتخب بالاستقالة من الانتخـاب الذي عمل، وطلب الاذن ليعـود إلى الوطن، وعندئـذ منح البابا اذنـاً إلى الرهبان لانتخـاب واحـداً آخر، وأمـرهـم أن يختاروا واحـداً يمكن أن يعهـد إليه بواجبـه، وبالمسؤولية الأسقفية.

كي صرف الملك الانكليزي بعض وزرائه من مناصبهم

وأغـــار في هـذه الآونة للويلين الـزعيم الويلـزي على أراضي بعض

البـارونات الانكليـز، وشرع حسب طـريقتـه المعتـادة بالعيث فسـاداً في المنطقة بالسلب والنار، وبناء عليه ذهب بطرس أسقف وينكستر وبعض المستشـارين الملكيين إلى الملك، وأعلنوا أنه عـار كبير بالنسبـة لتاجـه أن يقـوم هؤلاء اللصوص الذين لايسـاوون شيئاً، أي الويلزيين، بالجولان كما يريدون خـلال أراضيهم وأراضي هـؤلاء البـارونات، وهم يعيثـون فسـاداً في جميع المناطق بالنار، ولايتركون شيئاً دون أن يتعـرض للأذى، وقال الملك في جوابه لهم:

«لقد أخبرني رجـال المال لدي، أن جميع موارد خـزينتي بالكاد تكفي لشراء طعام عام لي وملابس، ولدفع العطاءات المعتادة، وبناء عليه الفقر يمنعني من الدخول بالحرب»، ورد مستشارو الملك عليه قائلين:

«إذا كنت فقيراً، مـاعليك إلاّ لوم نفسك لذلك، لأنك حـولت جميع المناصب الشـاغـرة، والمسؤوليات، والوظائـف الساميـة، وأبعـدتها عن الخزانة، ولذلك لايمكن تسميتك ملكاً لثـرواتك، بل فقط بالاسـم، لأن أجدادك الذين كـانوا نبلاء، وأغنياء بمجد ثرواتهم، قد جمعـوا مبالغ من المال لاحـد لها ولاحصر، من منتجات المملكة وتعـويضاتها»، وقـد أثير الملك من قبل هؤلاء الذين سيكون سيئاً أن نذكـرهم بالأسماء، وغضب بسبب الاهانات التي تلقاها من مستشـاريه، وطلب على الفور من عمد المناطق، ومن النواب، والوكلاء الآخرين التابعين له، تقديم حساب عن الموارد، وعن كل شيء له عـلاقة بالخزينة الملكية، وكل مـن وجده بينهم مجرماً بالغش، صرفـه من وظيفته، وطالب المعـزولين بالمال المستحق له، مع الفـائدة، وأبقـاهم في السجن حتى دفعـوا الدين كله، وعـزل رالف الذي لقبـه بريتـون Breton وكـان المتسلم لخزينتـه الخاصـــة، من وظيفتـه، وأخـذ منه ألف باوند مـن الفضـة، وعيّــن مكانه بطرس دي ريفـوكس Rivaux وكـان من أهل بواتو، وهكذا قـــام الملك في وقت قصير، فملأ ثانية وظائفه الشاغرة، لكن ليس اشغالاً كاملاً.

كيف طلب الملك جرد حساب من هيوبرت المسؤول عن العدالة

وفي تلك الآونة، صرف الملك -بناء على نصيحة بطرس أسقف وينكستر- هيوبرت دي بورغ المسؤول الرئيسي عن العدالة، وعزله من وظيفته، وفي التاسع والعشرين من تموز، عيّن ستيفن دي سيغريف -وكان فارساً- مكانه، وبعد مضي عدة أيام، غضب كثيراً من هيوبرت الذي عزل مؤخراً، فطالبه بأن يقدم على الفور جرد حساب عن جميع الأموال الذي دفعت إلى خزينته، وعن الديون المستحقة له، خلال أيام أبيه، وأيضاً خلال أيامه، ثم طالبه بتقديم حساب عن ممتلكاته، التي آلت إليه وتملكها يوم وفاة وليم إيرل بيمبروك، الذي كان وقتها المارشال والمسؤول عن العدالة، وكذلك بالنسبة لما استحوذ عليه في انكلترا، وويلز، وايرلاندا، وبواتو، وأيضاً فيما يتعلق بالامتيازات التي كانت آنذاك بين يديه في الغابات، والمطارد، والكونتيات وفي أماكن أخرى، وتبيان كيف أنه احتفظ بهم، وكيف جرى عزلهم، وكذلك فيما يتعلق بضرائب الجزء من خمسة عشر، ومن ستة عشر، والدخول الأخرى المتسحقة لخزينته، وكذلك الحال بالنسبة للمعبد الجديد في لندن وفي أماكن أخرى، وكذلك مايتعلق بالغرامات التي فرضت من أجل التخلي عن حقوقه في الأرض، وكذلك الحال بالنسبة للممتلكات المتحركة، وكذلك مايتعلق بالخسائر التي عانى -الملك- منها بسبب اهمال هيوبرت، ومثل هذه الأموال التي جرى تبديدها بالحرب أو في أي طريقة أخرى، من دون أية فائدة له شخصياً، ومثل ذلك مايتعلق بالامتيازات التي تمتع بها هيوبرت شخصياً في الأراضي، والأسقفيات، والوكالات التي عينت له من دون ترخيص، والتي هي عائدة إلى الملك نفسه، وكذلك ماتعلق بالأضرار وبالأذى الذي لحق بالرومان وبرجال الدين الطليان، وبرسل البابا، وذلك ضد رغبات الملك، من قبل هيوبرت المذكور، الذي لم يقدم أية نصيحة كان من الممكن بها انقاذهم،

وهو ماكان ملزماً بفعله بموجب واجبات مركزه كمسؤول عن العدالة، وكذلـك لمعرفة كيـف جرت المحافظة على سـلام الملك نحو رعـاياه في مملكة انكلترا، وفي ايرلاندا، وغاسكوني وبواتو، وكذلك نحو الأجانب، وكــذلك مــاتعلق بما عمل بضرائـب بدل الخدمــة، وضرائب الأرض المفلوحة، والأعطيات، والهدايا، أو مجريات التعهـدات العائدة إلى التاج، وكذلك ماتعلق بحصص الزواج التي تركت لعنايته من قبل الملك جون أثناء وقت مـوته، والأشيـاء الأخـرى التي عهـد بها إليـه في أيام الملك الحالي.

وجـواباً على هذا، أخبر هيـوبرت الملك، بأن لديه تفـويض من الملك أبيه، قد حرره بموجبـه من تقديم أي حساب عن الأموال التي تسلمها أو التي سيتسلمها في خزينته، ولأنه كان موثـوقاً جداً من اخلاصه نحو الملك، لم يرغـب هذا الملك بسماع أي حســاب منه، وهنا قــال بطرس أسقف وينكستر بأن ذلك التفويض قد فقـد قوته عند وفاة الملك جون، ولذلك لم يعرف هو ولم يصل إليه أن الملك الحالي ملتزم بتراخيص أبيه، بل إنه يطالب بحســاب عن القضايا المذكـورة أعلاه، ولقد كـانت تلك بعض القضايا الخفيفة التي طالب الملك بجواب عنها من قبل هيوبرت، وتبع ذلك عدة اتهامـات جدية أخرى، فيها اتهم الملك هيـوبرت بالخيانة ضد شخصه الملكي، وهي كانت كما يلي:

وكـان أول اتهام جرى توجيهـه من قبل الملك ضـد هيـوبرت هو أنه عندمـا أرسل رسـائل، إلى دوق النمســا يطلب منه ابنة الأمير للزواج، أرسل هيـوبرت في الوقت نفســه رسـائل إلى الدوق ضـد الملك وضـد المملكة، وأقنع الـدوق بالاقــلاع والامتنـاع عن اعطاء ابنتــه للزواج، وكــذلك عـندمـا قـاد جيشــه إلى القـارة، لاسترداد مناطقـه الضائعـة، أقنعـه هيـوبرت بالامتناع عن غـزو نـورمـاندي، أو المناطـق الأخــرى التـابعـة لسلطـانه، وبنـاء عليــه لقــد أنفــق أمــواله من دون محصلة،

وكـذلك فعل النبلاء الذين رافقـوه، واتهمـه الملك أيضاً بأنه كـانت له صـلات مع ابنة ملك الاسكـوتلنديين، التي عهـد الملك جـون بشأن العناية بها إليـه من أجـل أن يتـزوجها هو نفسـه، وقد حصل منهـا على ولد غير شرعي، وبذلك ضـاجـع سيـدة نبيلة، واحتفظ بها لنفسـه على أمل الحصـول على مملكة اسكوتلندا، إذا مـاعـاشـت هـي بعـد وفـاة أخيهـا، وكـذلك قـام هيـوبـرت فـاختلـس بشكـل سري من خـزينتـه احدى الجواهر، التي تجعل حاملها غير مرئي في المعركة، وقـد بعث بها بشكل خيـاني إلى عـدوه للويلين الزعيم الويلزي، وأنه بسبـب رسـالة أرسلـت مـن قبـله إلى للـويلين، جـرى شنق النبيل وليم دي براوس مثل لص، وقـد اقترح خصـوم هيـوبرت المذكـور جميـع هـذه التهـم، سـواء أكـانت صحيحـة أو مـزيفـة للايذاء، اقترحـوها إلى الملك، الذي طلب بكل حماس الحصول على ترضية من هيوبرت المذكور، وفقاً لقرار محكمتـه، وفي هذه الضـائقـة طلب مسـؤول العـدالة منحـه فـرصـة للتفكير حول هـذه القضـايا، لأنه لم تكن أمامـه وسيلة أخرى، وأعلن أن الاتهامـات كـانت ثقيـلة، ومـن الصعب الاجابة عليهـا، أي التهم التي عملهـا الملك ضـده، وبنـاء عليـه، حصل بعـد صعـوبة بالغـة على فـرصـة حتى عيـد تمجيـد الصليـب المقـدس، وغـادر هيـوبرت لندن، وذهـب وهو مـرعوب كثيراً إلى ديـر ميرتون Merton وهكـذا فـإن هيوبـرت هذا الذي أثار من قبل حسـد جميع نبلاء انكلترا ضـده، بسبب تقـدير الملـك له، ولعنايتـه بالمملكـة، هـذا هو أصبح الآن من دون أصـدقـاء، ومهجـوراً من قبل الملـك، وبـات وحيـداً ومضطرباً، وكان لوقـا رئيس أساقفة دبلن الرجل الوحيـد الذي تكلم لصالحه عند الملك، وقـد فعل ذلك وهو يبكي وقـدم توسـلات كثيرة، لكن جـرائم المسـؤول عن العـدالة كـانـت كبيرة جـداً، ولذلك لم يمنح الموافقـة على طلبه.

بعض الاتهامات الكبيرة التي عملت ضدّ المسؤول عن العدالة

عندمـا رأى الناس أن تقـدير الملك الذي كـان يمنحـه فيما مضى لهيـوبرت، قـد تغير إلى كراهيـة شـديدة، نهض كثير من أعـدائه ضـده، واتهموه باقتراف أعداد هائلة من الجرائـم، فقد اتهمه بعضهم بأنه تسبب بموت نبيلين هما: وليم ايـرل سالسبري، ووليم مارشـال ايرل بيمبروك بالسم، وأنه قتل فالكاسيوس ورتشارد رئيس أساقفة كانتربري بالوسيلة الشريرة نفسهـا، وتقـدم سكان لندن بشكـوى إلى الملك ضـد هيـوبرت المذكـور، بأنه شنق ابن مـدينتهم قسطنطين بشكل غير عـادل ومن دون محاكمة، وطالبوا من أجل هذه الجريمة بانصافهم وتقديم العدالة إليهم، وبناء عليه أصدر الملك اعلاناً في جميع أرجـاء لندن، دعا فيه جميع الذين لديهم أية شكاوى ضد هيـوبرت، من أجل أي أذى مهما كان قـد صدر عنه، إذا كـانوا يطالبـون بالانصـاف والعـدالة من أجله، وعندمـا سمع هيوبرت بهذا، هرب مذعـوراً إلى الكنيسة في ميرتون، حيث أخفى نفسه بين الكهنة.

وفي خريف العام نفسه جرى انتخاب المعلم جون، الذي لقبه لي بلند Blund الذي كان رجل دين، وتلميذ لاهوت في اكسفـورد، إلى رئاسة أساقفة كـانتربري، وبعدما جرى قبـوله من قبل الملك، أخذ الطريق مع بعض الرهبـان إلى روما، للحصول على تثبيت انتخـابه من قبل الكرسي الرسولي.

المنحة التي أعطيت إلى الملك وتشمل جزئاً من أربعين من الممتلكات، إلخ

وفي الفصل نفسـه، في حـوالي أيام تمجيـد الصليب المقـدس، اجتمع الأساقفـة ورجال الدين الآخريـن من أصحاب الكنائس في المملكة، في مؤتمر أمام الملك في لامبث، عندمـا عملت منحة إلى الملك لوفاء الديون

التي عليه لكونت بريتاني، وكان مقدار هذه المنحة جزئاً من أربعين من جميع الممتلكات المتحركة، من الأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين والعلمانيين، وفقاً لما كان لديهم عندما جرى جمع القمح في الخريف، في هذه السنة السادسة عشرة من حكمه، أما بالنسبة لهيوبرت دي بورغ، الذي عيّن له الملك وقتاً محدداً للظهور من أجل الاجابة على التهم المذكورة أعلاه، والمطالب التي صدرت ضده، خاف من غضب الملك، ولم يتجرأ على الظهور، لأنه قد ألمح إليه بأن الملك عازم على إدانته، والحكم عليه بموت مهين، ولذلك هرب إلى الكنيسة في ميرتون، حتى تتوفر لأموره فرصة تبدو أكثر مواءمة، وأخيراً أرسل الملك رسالة إليه للقدوم إلى محكمة بلاطه، ليجيب على التهم المثارة ضده، لكنه أخبر الملك، بوساطة رسوله ومن خلاله، أنه خوفاً منه من غضبه، قد التجأ إلى الكنيسة، التي هي الملجأ الأخير والملاذ لمن يعاني من الأذى، وأنه لن يغادر حتى يعلم أن مشاعر الملك نحوه قد تحولت نحو الأحسن، وغضب الملك تجاه هذا كثيراً، ومع أن الوقت كان مساء، أرسل أوامر إلى صاحب الحركة في لندن، ليأخذ معه جميع سكان المدينة القادرين على حمل السلاح لمهاجمة ميرتون، وأن يجلبوا هيوبرت إلى أمامه ميتاً أو حياً، وضرب صاحب الحركة عند ذلك الناقوس العام، وأمر سكان المدينة بالاجتماع، وقرأ عليهم رسالة الملك، وأمرهم أن يطيروا إلى السلاح لتنفيذ أوامر الملك، في صباح اليوم التالي الباكر، وفرح سكان المدينة، عندما فهموا مقاصد الرسالة، لأنهم كانوا يشعرون ببغض مميت نحو هيوبرت، وبناء عليه غادروا المدينة قبل صباح اليوم التالي، وقد بلغ تعدادهم عشرين ألف رجل، وزحفوا على شكل أرتال نحو ميرتون في سبيل تنفيذ أوامر الملك، وأثناء هذا، اقترح على الملك من قبل ايرل شيستر، أنه إذا ما أثار مثل هذا الصراع بين السكان الحمقى وغير العقلانيين، لن تتوفر هناك فرصة، ما ان بدأ ذلك، إذا ما أراد تهدئة الاضطراب، ولذلك غير الملك رأيه، وبعث

بأوامـر إلى صاحب الحركـة، أن يعيد القـوات التي أرسلها على الفـور، وعلى هذا أعــاد سكان المدينة في حـالة دهشــة، دون أن يكملوا تحقيق أهدافهم.

كيف أخرج هيوبرت من الكنيسة بالقوة وألقي به في البرج

وبعــد هذه الحوادث، حصل رئيس أســاقفــة دبلن، بعــد كثير من الالتماسات، لهيـوبرت على مهلة حتى ثمانية عيـد الغطاس، حتى يمتلك مـايكفي من الوقت ليفكر حـول المطالب المذكـورة أعـلاه، التي كـانت ذات طبيعة مستعجلـة جداً، ويمكنه وقتها أن يقـدم جواباً معقـولاً، مع ترضيـات مـوائمـة إلى الملك، وبعـد تسلم هيـوبرت كفـالة تأمين له كما اعتقـد، وذلك بوسـاطة رسـائل مصـدقـة مـن الملك، ركب الطريق إلى كنيسـة القـديس إدمـوند، حيث كـانت زوجتـه مقيمـة، ومن هناك عبر خـلال اسكس، ثم استقر في بيت أسقف نورويك، في بلدة كـانت تحت سلطان الأسقف المذكــور، ولقـد أغضب هذا الملك كثيراً، الـذي كـان يخشى أنه إذا ما نجا هيوبرت منـه سوف يكون سبباً لإثارة هيجان كبير في المملكة، ولذلـك أسف للمهلة التي منحــه إياها، وهنـا بعث الملك الفارس غودفـري دي كروكمب Kraucumbe خلفه مع ثلاثمائة جندي، وأمره، تحت طائلة عقوبة الشنق، أن يعيد هيوبرت معتقلاً، وأن يسجنه في برج لندن، وزحفت هذه الفئة وقتهـا بكل سرعـة، ووجـدت هيـوبرت في كنيسة قـرب مقر إقـامته، يحمل صليب ربنا في يد، وجسـد المسيح في اليد الأخرى، لأنه كان قد أنذر بوصول هؤلاء الذين يطلبون حيـاته، فنهض وقتهــا من فـراشـه حيث كـان نـائماً، وهرب عـارياً إلى الكنيسة، ودخل غـودفري المتقدم الذكر إلى البيعة مـع أتباعه المسلحين، وأمره باسم الملك أن يغادر البيعـة، وأن يأتي معه إلى لندن ليتحادث مع الملك، وأجـابه هيوبرت بأنه لـن يغادر البيعـة بأية حال من الأحـوال، وبناء على ذلك قام غيوفري وصحبه بانتزاع الصليب وجسد مولانا من

يديه، وبعدما أوثقوه، وضعوه على ظهر حصان، واقتادوه إلى برج لندن، حيث وضعوه في سجن مضيق عليه، وبعد الفراغ من هذا كله، أخبروا الملك الذي كان ينتظرهم بقلق، وقد أعلموه بوصولهم، وبالذي فعلوه، وبناء على ذلك عاد راضياً إلى فراشه.

كيف أعيد هيوبرت إلى البيعة

وفي صباح اليوم التالي باكراً، عندما سمع روجر أسقف لندن، بأن هيوبرت قد أخرج بالقوة من البيعة، بادر مسرعاً إلى الملك، وبجرأة لامه لقيامه بخرق حرمة الكنيسة، وأخبره أنه مالم يطلق سراح هيوبرت، ويعيده إلى البيعة، التي أخرج منها بالقوة، سوف يتولى الحرمان كنسياً جميع مقترفي هذه الفعلة من العنف، ثم قام الملك، وهو مرغم، ومع أنه كان يعرف أن هيوبرت كان مجرماً، فأعاده في السابع والعشرين من أيلول، إلى البيعة التي أخرج منها بالقوة من قبل الجنود، وأعطى بعد هذا أوامر إلى عمدتي: هيرفورد، واسكس، تحت طائلة عقوبة الموت لهما شخصياً مع جميع سكان الكونتيتين، أن يقوما بتطويق البيعة، ومراقبة هيوبرت حتى لايهرب، أو يتلقى إمدادات من أي واحد، ومضى عندها العمدتان لتنفيذ أوامرهما التي تلقياها من الملك، وشرعا بمحاصرة البيعة ومعها بيت الأسقف، الذي كان قريباً، وقررا متابعة الحراسة لمدة اسبوعين، وتحمل هيوبرت على كل حال هذه المضايقة، براحة نفس —كما قيل— وعهد بقضيته إلى الرب، وتابع باستمرار يسأل الرحمة اللاهوتية أن تحميه من كل خطر، لأنه شخصياً اهتم ذاتياً بشكل دائم بكرامة الملك وسلامته فوق كل شيء، وأولى الملك —على كل حال— اهتماماً قليلاً لتخليه عن شخص خدمه بغيرة كبيرة، وقد جعل شغله الشاغل والوحيد تلبية رغباته، وأصدر الملك حظراً عاماً إلى الجميع أن لايتكلموا إليه لصالح هيوبرت، أو أن يذكروه أو أن يشيروا إليه بحضوره، والتمس لوقا رئيس أساقفة دبلن، الذي كان صديقه الوحيد،

ورجا الملك بشكل متواصل وهو يبكي، أن يخبره على الأقل عما كان ينويه، فيما يتعلق بهيوبرت، وعلى هذا يقال بأن الملك قد أجابه، بأن هناك عدة خيارات أمامه يمكنه أن يختار واحداً منها، وهذه الخيارات هي:

إما أن يغادر انكلترا بشكل دائم، أو أن يدخل سجناً أبدياً، بعدما يعلن عن نفسه أمام الملأ أنه خائن، أو أن يلقي بنفسه على رحمة الملك، وعلى هذا رد هيوبرت بأنه لن يقبل بأي من هذه الخيارات، لأنه يشك بنوايا الملك، ثم إنه لايتذكر أنه عمل قط عملاً يستحق هذا النكران، ومع ذلك هو على استعداد لمغادرة المملكة لبعض الوقت، إرضاء للملك، لكنه لن يتخلى عنها ويغادرها بشكل دائم.

وأمضى بعد هذا عدة أيام وليالي محصوراً في هذه البيعة، مع اثنين من الخدم، اللذان زوداه بالمؤن حتى منعوا —بناء على أوامر الملك— من جميع أنواع الأطعمة، وهما شخصياً طردا من البيعة، واعتقد هيوبرت وهو في هذه الشدة، أن من العار أن يموت جوعاً، فغادر البيعة عن طواعية، وسلم نفسه إلى العمدتين، اللذان كانا يراقبانه، ذلك أنه قال بأنه سوف بالحري يؤثر الوثوق برحمة الملك على أن يموت من الجوع، وعند ذلك تدبر العمدتان اعتقاله بشكل مضمون، ثم وضعاه على ظهر حصان، وأخذاه إلى لندن، حيث أودع السجن بشكل محكم، وربط بالأغلال، في برج المدينة.

جمع الجزء من أربعين من الممتلكات الممنوح إلى انكلترا

«من هنري، بفضل نعمة الرب، ملك انكلترا، إلى بطرس دي ثانيو Thaneo ووليم كولوورث Culworth وآدم فتز— وليم، الذين يتولون جمع الجزء من أربعين، التحيات، ليكن معلوماً لديكم أن رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ورجال الدين،

الذين بين أيديهم أراضي ليست ملكاً لكنائسهم، وأن الايرلات، والبارونات، والفرسان، والرجال الأحرار، والمزارعين في مملكتنا، قد عملوا منحة لنا، لمساعدتنا، ومقدارها جزئاً من أربعين من جميع ممتلكاتهم المتحركة، حسبما كانت بين أيديهم في اليوم التالي لعيد القديس متى، في السنة السادسة عشرة من حكمنا، وهذه الممتلكات هي:

القمح، والمحاريث، والأغنام، والعجول، والخنازير، وخيول التحميل، وخيول جر العربات، والأشياء الأخرى المستخدمة في عزبهم، باستثناء الممتلكات التي بين أيدي رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والأشخاص اللاهوتيين الآخرين الذين تقدم ذكرهم، لصالح الأسقفيات والكنائس الوقفية وكذلك الأوقاف، والأراضي العائدة للأوقاف، أو لها علاقة بالأوقاف، أو الكنائس الأسقفية، ولسوف تقدم بشكل عام من قبل رعايانا التابعين كما تقدم بشكل عام، وذلك بأن يتم تقدير الجزء من أربعين وجمعه كما يلي:

يجري اختيار أربعة أشخاص من أحسن الرجال في كل بلدة وأكثرهم براعة مع رؤساء الكنيسة في كل بلدة، الذين بموجب قسم منهم سوف يجري تقدير الجزء من أربعين من جميع الممتلكات المتحركة المتقدم ذكرها، وسوف يجري فرضه ضريبة على كل واحد، بحضور الفرسان المقومين المنتدبين لهذه الغاية، وبعد هذا، بناء علي يمين رجلين تابعين اقطاعيين من البلدة نفسها، سوف يجري تقدير الجزء من الأربعين وفرضه ضريبة على الممتلكات المتحركة العائدة للرجال الأربعة المتقدم ذكرهم مع رؤساء الكنائس، وينبغي أن يدون بشكل دقيق وواضح ويدرج اسم البارونية العائدة إليها البلدة جزئياً أو كلياً، وبعد تسليم الجزء من أربعين، يتوجب كتابة ذلك بلائحة فيها جميع الخصوصيات المتعلقة بكل قرية، وبكل كونتيه، على أن ترسل تلك اللائحة إلى قهرمان كل بارونية، أو إلى وكيل كل قهرمان، أو إلى نائب الامتيازية، حيثما

هناك أية امتيازية، أي حيث يمكن أن يكون بارون الامتيازية أو صاحبها لديه السلطة لجمع الجزء من أربعين المتقدم ذكره واستيفائه، لكن إذا لم يرغب بذلك، أو كان غير قادر على فعل ذلك، سوف يقوم العمدة بالاستيفاء المذكور، وبذلك لن يتسلموا شيئاً منه، بل ينبغي تسليم الجزء من أربعين كله إلى الفرسان المقومين المتقدم ذكرهم، في أوسع بلدة وأكثرها أماناً في كل كونتية، وسيكون هناك من كل بلدة حساب رئيسي متوفر بين قهرمان البارون، أو وكيله، أو بين قهرمانات صاحب الامتيازية، وبين المقومين المتقدم ذكرهم، ولسوف يودع المقومون المال في بعض الأماكن الأمينة في البلدة نفسها، وأن يضعوا أختامهم وأقفالهم، ومفاتيحهم على المال المذكور، ومثل هذا سوف يضع عمد المناطق أختامهم، وأقفالهم، ومفاتيحهم على هذا المال أيضاً، وفور الفراغ من تقدير الجزء من أربعين، على المقومين ارسال قوائمهم عن جميع الدائرة إلى الخزانة، ووفق الطريقة نفسها ما ان يكون المال المذكور قد جمع، حتى يتوجب عليهم إرسال قوائم إيصالاتهم إلى الخزينة، وينبغي حفظ المال المذكور في المكان الذي أودع فيه، حتى يجرى جلبه، بناء على أوامرنا، إلى المعبد الجديد في لندن، ومامن شيء سوف يؤخذ من أي انسان على سبيل الجزء من أربعين، إذا لم يكن يمتلك ممتلكات متحركة تساوي بقيمتها أربعين بنساً على الأقل، وقد عيناكم لتقدير الجزء من أربعين في كونتيه هارتفورد، وقد أمرنا عمدتنا في هارتفورد بأن يجمع كل القرويين في كونتيته، وذلك بناء على أمرنا، في أن يمثلوا أمامكم في موعد محدد، ومكان معين، أنت سوف تتولى تعيينه له ليفعل ذلك، وأيضاً ليساعدك ويطيعك في جميع المسائل المتعلقة بالعمل المذكور. وداعاً».

موت رالف ايرل أوف شيستر

في الثامن والعشرين من تشرين أول، من العام نفسه، مات رالف

ايرل أوف شيستر ولنكولن في وولنغفورد Wallingford وقد نقل جسده إلى شيستر للدفن، وقد خلفه بالايرلية ابن أخته جون بن داوود، أخو وليم ملك الاسكوتلنديين، واستحوذ ابن أخت له آخر من أخت ثانية على ايرلية لنكولن، وقد كان من قبل باروناً، وصار الآن ايرلاً، وكان ايرل آرونديل ابن أخت آخر له، وقد صار متملكاً لخمسمائة امتيازية.

وفي هذه الآونة، قبل عيد القديس مارتن [١١- تشرين ثاني]، أومي إلى الملك أن هيوبرت مسؤول العدالة المعزول لديه مبلغ كبير من المال في الهيكل الجديد في لندن، مودع بعناية الداوية هناك، وبناء عليه استدعى مقدم الداوية للاجتماع به، وسأله بشكل واضح عما إذا كانت القضية صحيحة، ولم يتجرأ هذا على إخفاء الحقيقة وانكارها أمام الملك، فاعترف له بأن مبلغاً من المال قد أودع لديه ولدى الرهبان، لكنهم لايعرفون مقداره، ولاكميته، وطلب الملك مع التهديد المال من الرهبان، معلناً بأنه قد سرق من قبل هيوبرت من الخزينة، ورد الداوية عليه، أنهم لن يسلموا إلى أي انسان المال الذي عهد به إليهم بثقة، من دون إذن من الشخص الذي أودع المال في الهيكل حفاظاً عليه، وبما أن ذلك المال كان معهوداً به إلى الكنيسة، لم ير الملك أنه عمل عقلاني اللجوء إلى العنف، وبناء عليه أرسل خازن بلاطه مع مسؤولي العدالة في خزينته إلى هيوبرت، الذي كان طوال الوقت مغلولاً في برج لندن، يأمره بتعيين المال المذكور إلى الملك، وعندما أخبر الرسل المتقدم ذكرهم هيوبرت بهذه الرسالة نيابة عن الملك، أجاب على الفور، أنه على استعداد أن يضع نفسه وكل مايملكه تحت إرادة الملك، وبناء عليه أعطى التعليمات إلى فرسان الداوية، أن يسلموا جميع المفاتيح التي هي باسمه إلى الملك، حيث يمكنه أن يفعل مايختاره بالممتلكات المودعة هناك، وجرى تنفيذ هذا، وأمر الملك بتعداد المال بشكل صحيح،

ووضعه في خزينته، وبكتابة لائحة بالممتلكات التي عثر عليها هناك، حتى تؤخذ وتعرض عليه، ووجد محاسبو الملك وخازنه هناك ثمانية آلاف باوند من الفضة، من أفضل النقود، ومائة وأربعين وعاء من الفضة وهي محلاة بالفضة والذهب، مع كمية كبيرة جداً من الجواهر، فاقت قيمتهم —كما قيل— جميع الممتلكات التي وجدت هناك، وعندما انتشر خبر هذه الحادثة وعمّ في الخارج، ذهب مضطهدو هيوبرت الذين لم يتعبوا، وقدموا شكاوى ضده، وقالوا اماوإنه الآن قد أدين بالسرقة والغش، فهو يستحق أن يعاني موتاً مهيناً، وعلى هذا ردّ الملك قائلاً:

«لقد خدم هيوبرت —كما أخبرت— منذ طفولته باخلاص، عمي الملك رتشارد، ثم أبي الملك جون، ومع أنه تصرف بشكل سيء نحوي، هو سوف لن يعاني بوسائطي من موت غير عادل، لأني سوف أعدّ بذلك أحمقاً، وملكاً ليناً، فضلاً عن نعتي بأنني ملك متوحش وطاغية»، وبهذه الكلمات منح إلى هيوبرت جميع الأراضي التي كانت بين يديه من قبل كهدية من أبيه، أو عن طريق الشراء، حتى يتمكن من تزويد نفسه ودعمها مع أتباعه بالحاجات الضرورية من ذلك الوقت فصاعداً، وعلى الفور أصبح بعد هذا الايرل رتشارد، أخو الملك، ووليم ايرل وارني، ورتشارد ايرل مارشال، ووليم ايرل فيرير Ferers كفلاء لهيوبرت، وقد أرسل إلى قلعة ديفزي Devites تحت عهدة الفرسان الأربعة المتقدم ذكرهم، حيث بقي سجيناً تحت الكفالة.

وفي العام نفسه، في اليوم التالي لعيد القديس مارتن سمعت أصوات رعد مخيفة، استمرت متقطعة لمدة خمس عشرة يوماً، الأمر الذي أرعب كثيراً من الناس، ولاسيما سكان لندن، الذين كانوا الآن معتادين تماماً عليهم، لأنهم كانوا كلما وقعوا في انكلترا، كانوا يسمعون في لندن، وقد تبع هذا خلاف محزن في المملكة بين الملك وبين نبلائه، كما سوف تظهر الرواية التالية:

الزيارة التفقدية لرجال الدين من كل طائفة في جميع أرجاء العالم

وفي هذا العام أيضاً عيّـن البابا غريغوري مفتشين لزيارة رجال الدين في جميع أرجاء العـالم المسيحي، بموجب التفـويض التالي: «من الأسقف غريغـوري إلى إخوانه الأساقفة المسـاعدين في كنيسة كـانتربري، تمنيات الصحة، والمباركات الرسـولية، ذهب الشيطان من أمام الحضرة الربانية، واضعاً يده في أعمال الوقاحة، وواثقاً ببراعته، وآماله للتوريط في الشرور الذين انتخبـوا في ميراث الرب، وأعدّ مصـائد أعظم ضـد أولئك الذين أمل أن يجد فيهم الفساد الأعمق، ولهذا وقع تحت مـلاحظتكم أنه غالباً ماوقعت كنائس مناطق كانتربري بشكل مـرعب ونأت في قضايا روحية ودنيـوية، وبسبب العقـول الشريرة وإهمال الـذين استخـدمـوا فيهم، لم نختر المضي مدة أطول والمرور بأغلاطهم صامتين، خشية اننا إذا سمحنا لهم بالمضي غير مقـومين أن نبدو وكأننا أخـذناهم على عهـدتنا، ولذلك عيّـنا زواراً خـاصين تفقديين، ومصلحين ومقـومين، وكذلك على رأس بعض الأطراف الأخرى، لـزيارة تفقدية لتلك الكنائس القـائمة في تلك المنطقـة، والمعـروف أنها عـائـدة مباشرة إلى الكنيسـة الرومـانيـة، وقـد أعطيناهم سلطة كاملة في زيارتهم التفقدية لتلك الكنائس لتقوّم وتصلح المخالفـات، التي هم سيكونوا متأكـدين أنها تحتاج التقـويم والاصلاح، ولكن دون أن تحط من قـدر أو تفسد المؤسسـات، والاصلاحـات التي عملت بشكل صحيح في الكنائس الاقليمية، ونحن —على كل حال— نحتفظ لأنفسنا، إلى أبعد الحدود، بالعناية القصوى بكل ماباشرناه، ومع ذلك إنه واجبكم، أنتم الذين دعيتم للمشـاركـة بما نعتني به، أن تكونوا معتنين ومتيقظين نحـو الرعية التي أسندت الـرعاية الخاصـة بها إليكم، حتى لاتهلك الشاة المريضة، وإنه بناء على ذلك إنها نصيحتنا، لابل أمرنا الدقيق إلى أخـوتكم، فرداً فرداً ولكم جميعـاً، أن تجعلوا شغلكم، في كل من المجال الشخصي، وبوساطة رجـال الدين الموجهين من أجل مقاصد

الزيارات التفقدية، أن تقوموا بزيارة تفقدية لمساكن الرهبان، والراهبات، والكهنة النظاميين والعلمانيين، الخاضعين لكم في كل من المدن والأسقفيات، وأن تقوموا بوساطة سلطاتنا، وكذلك بوساطة سلطاتكم بهذا الاصلاح بشكل عام والتقويم متناولين رؤوسهم والأطراف الأخرى، وذلك حيثما ترون أن مثل هذا الاصلاح والتقويم ضروري، وضعوا جانباً كل إثرة وكل رجاء، وتمسكوا بالأنظمة المتعلقة بالأشخاص الدينيين هناك، وفقاً لقرارات المجامع المسكونية، وأوقفوا أعمال التذمر والأقاويل بوساطة العقوبات الكنسية، وأجلوا جميع مرافعات الاستئنافات، وبتنفيذكم هكذا لتوجيهاتنا، يمكنكم في يوم الحساب العسير والعذاب الشديد، الذي سيجازى فيه كل انسان وفقاً لأعماله، أن لن تطالبوا بدمائهم على أيديكم، وأن لانكون محتاجين لاستخدام عصا العقوبات الرسولية. صدر في سبوليتو Spoleto في هذا اليوم التاسع من حزيران، في السنة السادسة من حبريتنا».

الزيارات التفقدية التي سوف تعمل في الكنائس المستثناة

وبالنسبة إلى الكنائس الأخرى ورجال الدين، الذين كانوا تحت السلطة المباشرة لكنيسة روما، هو لم يعين أساقفة كزوار تفقديين، بل رعاة ديرة، وكان هؤلاء بشكل خاص من طائفة السسترشيان، والبرامونستر تنشيان Praemonstratensians الذين كانوا رجالاً أشداء وغير قابلين للانحراف، ويقومون بواجبات زياراتهم التفقدية بعنف ومن دون رحمة، وهم يتجاوزون حدود واجباتهم في عدة أديرة، حتى أن أعداداً قد أرغموا على اللجوء إلى الشكوى ضدهم، والذين فعلوا ذلك، قد ذهبوا إلى روما، ومع كثير من النفقات والجهد قد حصلوا على زائرين تفقديين آخرين، وباختصار، عملت هذه الزيارات التفقدية ونفذت في جميع أنحاء العالم لافساد وليس لإصلاح عدداً من الطوائف، وبشكل خاص بالنسبة للذين يتبعون نظام القديس بندكت في

مختلف أرجاء العـالم، ونتيجة لهذه الزيارات التفقـدية فإن هذه الطوائف هي الآن على خـلاف، إلى حـد أنه يصعـب أن تجد بين جميع هذه الديرة والبيوت الدينيـة ديران أو بيتان متفقـان في نظاميهما حول الحيـاة، وكان هناك راعي دير في مونتبيلو Montebello قد سـاورته الشكوك حول مـا ينبغي عليه الاستمـرار به في هذه الزيارات التفقـدية، فسأل نصيحـة البابا حول بعض النقاط المشكوك فيها، وعلى ذلك تلقى الجواب التالي:

كيف استشير البابا حول الزيارات التفقدية المتقدم ذكرها

«إن هذه الواجبات التي رسمت بشكل عاقل من أجل كرامة الديانة، وسلامـة الجماعات الدينيـة، ينبغي تقويتهـا بالحماية الرسوليـة، وأن تنفذ بتقوى، وأن تراعى بيقظة، وبناء عليـه فإن أخانا المحبـوب جداً، راعي دير مونتبيلو، قـد عرض علينا بعض النقاط التـي بدت بالنسبة لكرامتنا ولحفظنا نقـاطاً جـديرة بالثناء من أجل تقـويم عـدداً من المخـالفـات والجرائم التي وجدت في بعض الديرة، وقد طلبنا فحص القضية ووفرنا ذلك، وأن يتم تقويمهـا، وأمرناكم بعدم انتهـاك الأنظمة، التي من أجل السـلامـة قــد ختمناها بأختـام إخـواننا المحترمين في أوستيـا Ostia وتوسكولوم Tusculum وإنها ارادتنا، وبوساطة السلطات الرسولية نأمركم، بأن تجمعـوا الزوار التفقديين في جلسة كهنوتية عـامة، ورؤساء الرهبـان حيث لايوجـد رعـاة ديرة بالذات، باستثناء وكـذلك بدون استثناء الذين لايعقدون بالعـادة هيئات كهنوتية، وسـوف يترأسون على هذا الاجتماع الكهنوتي، واضعين جانباً كل معوق قانوني، والذين سوف يرفضـون أو يهملون الحضـور سوف يرغمـون على فعل ذلك بوسـاطة العقوبات الكنسية، ولن يتوقفوا حتى يجعلونهم يقومون بتكفير صحيح، مثلما سيفرضون ذلك عليهم بشكل صحيح، وبوساطة العقوبات نفسها سوف يجعلون قـرارات الهيئة الكهنوتية نفسها تحظى بالتنفيـذ بكل دقة، وهم أنفسهـم وكذلك الزوار المتفقدين وبعض الآخرين، سوف يقدمون

في يوم الحساب الأخير تقريراً عن عملهم إلى الرب، الذي لديه كل شيء واضح ومرئي، وأن يجعلوا اهتمامهم أثناء الزيارات التفقدية للديرة منصباً مع كل عناية، وحرصهم على اصلاح وتقويم الانتهاكات للطوائف المتعددة، وعلاوة على ذلك عندما سيقوم الزوار التفقديون —وفقاً لقرارات المجمع العام— بتنفيذ واجباتهم، في الاجتماع الكهنوتي العام لرعاة الديرة، المتعلقة بالزيارات التفقدية، عليهم أن يتفحصوا بكل دقة أوضاع الديرة، وكيفية المحافظة على الأنظمة،وسوف يتولون القيام بأعمال التقويم والاصلاح حسبما يبدو إليهم ضرورياً، في كل من القضايا الروحية والدنيوية، وعلى هذا سوف يجعلون الرهبان المذنبين يتلقون العقوبة على يدي راعي المكان، وأن تفرض عليهم عقوبة كاملة، وفقاً لأحكام القديس بندكت، ولأحكام المؤسسات الرسولية، وليس وفقاً للعادة الشريرة التي تطورت إلى قانون في بعض الكنائس، ويتوجب على الزوار المتفقدين أنفسهم، أن يقوموا بوساطة العقوبات النظامية، ومن دون تقدير لأي أشخاص، عوضاً عنا، بانزال العقوبة بأي راهب يجدونه متلبساً بالتمرد، وأن لايوفروا أحداً بسبب صلاته، أو سلطته، أو أصدقائه، بل عليهم طرد الشاة المريضة من القطيع حتى لاتصيب الشياه الصحيحة، وإذا ما اكتشف بأن رعاة الديرة كانوا مهملين في تقويم أنفسهم، ينبغي وفقاً لسلطات الزوار المتفقدين، أن يعلن عنهم، ويجري اعتقالهم، ومن ثم انزال العقوبة بهم في اجتماع هيئة الكهنوت، وبذلك تكون عقوبتهم مثلاً للآخرين، وإذا ماجرى اكتشاف أي راعي دير —إذا لم يكن مستثنى— من قبل الزوار المتفقدين أنه مهمل ومتقاعس، عليهم توبيخه والشكوى ضده إلى أسقف المكان، الذي عليه أن يعين له وصياً وشخصاً حكيماً ليتعاون معه حتى الاجتماع التالي لهيئة الكهنوت، ولكن إذا ماتبين أنه مذنب بالتخريب، أو يستحق العزل لأي سبب كان، يتوجب إبعاده —بعد اخباره بالقضية من قبل الزائر المتفقد— وعزله من قبل الأسقفية، ومن إدارة ووظيفة الرعية،

ومن الدير من دون ضجة أو محاكمة، وأن يجري في الوقت نفسه تعيين مدير مناسب ليتولى المسؤوليات الدنيوية للدير، وذلك حتى يجري تزويد هذا الدير براعي جديد، ولكن إذا ماصدف لسبب ما ورفض الأسقف أو أهمل القيام بهذا الواجب، سوف يقوم الزوار المتفقدون أنفسهم، أو الذين يترأسون الهيئة العامة للكهنة، بتزويد الكرسي الرسولي، من دون تأخير بخطيئة ذلك الأسقف، وإن أوامرنا تقضي بوجوب مراعاة هذه الأحكام باحترام، بالنسبة لرعاة الديرة المعفيين، محتفظين للكرسي الرسولي بشؤون عزلهم، وفي أي وقت أعتقد أن أي راعي دير يستحق العزل أو التعليق عن ممارسة وظيفته، ينبغي تعيين مدير مناسب للدير، إما من قبل الزوار التفقديين، أو من قبل الذين يترأسون هيئة الكهنة، وإذا لوحظ أن آثام هؤلاء الأشخاص وأشياء أخرى جديرة بالايصال إلى هيئة الكهنة، على رئيس الهيئة الاتصال بنا بوساطة رسل موثوقين وحكماء، سوف يجرى تحمل نفقاتهم بوساطة مساهمة عامة لرعاة الديرة، كل واحد منهم حسب امكاناته، وعلى الزوار التفقديين الذين يقدمون فيها بعد أن يبحثوا بكل دقة وأن يتفحصوا اجراءات الزوار التفقديين المتقدمين، وأن يوصلوا أخبار أية ذنوب أو اهمالات صدرت عنهم إلى اجتماع هيئة الكهنة التالي، من أجل أن ينالوا عقوبتهم وفقاً لذنوبهم، وهذه الأشياء المتعلقة بالزوار التفقديين فيها كفاية.

وفي هذا العام اتهم روجر أسقف لندن، بين الآخرين، بالتحريض على نهب محاصيل الكنيسة الرومانية، ولذلك ذهب إلى روما للبرهنة على براءته.

كيف صرف الملك بعضاً من وزرائه من بلاطه

عام ١٢٣٣م، فيه، وهو العام السابع عشر لحكم الملك هنري، عقد هذا الملك بلاطه أيام عيد الميلاد في ووركستر، حيث قام —كما قيل—

بناء على نصيحة بطرس أسقف وينكستر بصرف جميع الموظفين المحليين في بلاطه من وظائفهم، وعيّــن في أماكنهـم أجـانب من بواتو، كما أنه صرف وليم دي رودون Rodune وكان فارساً قام بواجبات رتشارد المارشال الأكبر في بلاطه، وبناء على نصيحة الشخص نفسه صرف أيضاً وولتر أسقف كـارآيل من وظيفته كخـازن، ثم أخـذ منه مائـة باوند من الفضـة، وانتـزع أيضـاً منه بالقـوة بعض الودائع والوظائف التي منحـه الملك إياها بصك منه مدى الحياة.

وصرف بشكل مفـاجيء جميع مستشـاريـه السـالفين، وأسـاقفتـه، وايرلاته، وباروناتـه، والنبـلاء الآخـرين، ولم يضع ثقتـه بـأحـد سـوى أسقف وينكستر المتقـدم ذكـره، وابنه بطرس دي ريفــول Rivaulx وبعد هذا طرد جميع قادة القـلاع في جميع أرجاء انكلترا، ووضع مكانهم قـادة قــلاع تحت اشراف بطرس المذكــور، ولكي يحصل الأسقف على الحظوة الكاملة لدى الملك، ضم إلى نفسـه ستيفن سيغريف Segrave وهو رجل مطواع، وروبرت باسلوي Passelewe الذي تولى حفظ خـزينة الملك تحت اشراف بطرس دي ريفـول، وقد حكم المملكة كلهـا بمسـاعـدة هذين الرجلين ونصيحتهما، ثم دعـا الملك رجـالاً من بواتو وبريتـاني، كانوا فقـراء وشرهين يسعون وراء الثـروة، وقدم إليـه حوالي ألفي فـارس وجندي مزودين بالأسلحـة والخيول، أدخلهم في خـدمته، وجعلهم مسـؤولين عن القـلاع في مختلف أجـزاء المملكة، وبذل هؤلاء غـاية جهدهم لظلـم الرعايا الانكليـز الطبيعيين والنبـلاء، فقد دعـوهم باسم خـونة، واتهمـوهم بالخيانة تجاه الملـك، وصدق الملك، الذي كـان رجـلاً ساذجـاً أكـاذيبهم، وأسند إليهم المسؤوليـة عن جميع الكونتيـات والبــارونيــات، وعن جميع الشبــاب من النبــلاء من كل من النســاء والرجال، الذين استدرجوا إلى زيجات قذرة ومدنسة، وعهد الملك إليهم أيضـاً بأمـر العناية بخـزينتـه، مع إعـادة فـرض قـوانين البـلاد، وإدارة

العدالة، وباختصار لقد عهد بالقضاء إلى غير العادلين، وبالقوانين إلى الخارجين على القوانين، وبالحفاظ على السلام إلى مثيري الخصام، وبالعدالة إلى أولئك الذين هم أنفسهم امتلأوا بالأذى، وعندما قدم النبلاء شكاوى إلى الملك حول الظلم الذي تحملوه، تدخل الأسقف المذكور، ولم يكن هناك من يمنحهم العدل، وعمل بطرس المذكور اتهامات ضد بعض أساقفة المملكة الآخرين، ونصح الملك بتجنبهم على أنهم أعداء مكشوفين.

كيف احتج المارشال لدى الملك

عندما رأى الايرل رتشارد مارشال المملكة أعمال الأذى هذه وأمثالها التي ظلم بها الرفيع والوضيع سواء، وأن قوانين المملكة قد دمرت، أثير بسبب غيرته على قضية العدل، وذهب بجرأة بصحبة بعض النبلاء الآخرين إلى الملك، وقام على مسمع من عدد من الناس، بتوجيه الملامة له، وأنه نصح بشكل مضر بإدخال هؤلاء الأجانب من بواتو لظلم المملكة ورعاياه الطبيعيين ولإزالة الشرائع والامتيازات، ثم إنه بناء على ذلك توجه بتواضع بالرجاء إلى الملك أن يوقف على الفور هذه التجاوزات، التي نتيجة لها سوف يواجه التاج وتواجه المملكة خطراً عظيماً يقود إلى الدمار، وعلاوة على ذلك، أعلن أنه إذا مارفض تصحيح هذه القضية، سينسحب هو ونبلاء المملكة الآخرين من مجالسه مادام مقيماً للاتصالات بهؤلاء الأجانب، وعلى هذا ردّ رتشارد أسقف وينكستر بأن مولاه الملك، من المؤكد كان مسموحاً له أن يستدعي الأعداد التي يريدها من الأجانب من أجل حماية مملكته والتاج، وبقدر مايكون عدد هؤلاء كبيراً سوف يكون قادراً على اخضاع رعاياه المتشامخين والعصاة وانزالهم إلى طاعتهم الطبيعية، وعندما لم يستطع الايرل مارشال مع النبلاء الآخرين وكانوا غير قادرين على الحصول على جواب آخر، تركوا البلاط وهم في غاية الانزعاج، وقرروا بشكل

ثابت أحـدهم مع الآخـر القتـال في سبيل هذه القضيـة، التي تتعلق بهم جميعاً حتى تغادر أرواحهم أجسادهم.

العواصف الرعدية

وفي العام نفسه، في الثالث والعشرين من آذار، سمعت أصوات رعد رهيبـة، تبعتها أمطار متـواصلة طوال الصيف، دمـرت المطارد، وأزالت البرك والطواحين في جميع أنحـاء انكلترا تقـريباً، وفي الأراضي المفلوحـة وحقول الحصاد، وفي الأماكن الأخرى غير الاعتيادية في مختلف المناطق جـرت هنا وهناك على شكل جـداول، وشكلت بحيرات في وسط الغلة المحصـودة، التي فيهـا —لدهشـة كثيرين— شـوهدت أسماك الأنهار، والطواحين التي كـانت واقفة في أمـاكن متنوعة لم تعـد مرئية كما كـانت من قبل.

وفي العام نفســه، في الثامن من نيسان، وفي حوالي السـاعة الأولى من النهار، ظهـر في أحواز هيرفـورد، ووركستر أربع شموس زائفـة حول الشمس الحقيقيـة بألوان مختلفة، وكـان بعضهـا نصف دائري، وبعضهـا الآخر دائري، وشكلت هذه الشموس مشهداً رائعاً، وشوهدت من قبل أكثـر من ألف شخص مـوثوقين، وقـام بعضهم في ذكـرى لهذه الظاهرة غير الطبيعيــة، ولكي لاتهرب هـذه الظاهرة غير الاعتيــادية من ذهن الانسـان وذاكـرته، فـرسموا شمـوسـاً، ودوائـر من مختلف الألوان على الكاغد، وتبع هذا في العـام نفسه حربـاً مرعبة، وسفكاً مخيفـاً للدماء في هذه البـلاد، وكـان هناك اضطهاد عـام في جميع أرجـاء انكلترا، وويلز، وايرلاندا، وفي حـوالي الوقت نفسه، في شهـر حـزيران، شوهد ثعبـانين ضخمين جـدا من قبـل السكان، على مقـربة ســاحل البحـر، في الجزء الجنوبي من انكلترا، وكـانا يتقاتلان في الهواء، وبعـد صراع عنيف تغلب أحــدهما على الآخــر، وجعله يهرب، وطـارده إلى قلب البحـر، حيث ضاعا، ولم يشاهدا بعد ذلك.

إلغاء انتخاب رئيس أساقفة كانتربري

وفي تلك الآونة، كان قد جرى انتخاب المعلم جون، الملقب لى بلند رئيساً لأساقفة كانتربري، وقد أذيع في روما، أنه تسلم بعد انتخابه ألف مارك من الفضة بمثابة هدية من بطرس أسقف أوف وينكستر، إلى جانب ألف أخرى أقرضه الأسقف إياها لمساعدته على الحصول على ترقيته، هكذا تبرهن بشكل جلي أن صداقات الأسقف المذكور كانت مؤذية أكثر منها نافعة له، وبالاضافة الى هذا، لقد روي بأن جون المذكور قد اعترف في روما، أنه مستحوذ على مرتبتين كنسيتين إليهما معهود العناية بالأرواح، وذلك على الرغم من قرارات المجمع العام، وبناء عليه استحق تهمة الوقاحة، لكن بما أن انتخاب ثلاثة أساقفة لكنيسة كانتربري، جرى إلغاؤه مؤخراً، فقد بقيت الكنيسة المذكورة مدة طويلة من دون رئيس لها، ولذلك أعطى البابا إذناً إلى الرهبان الذين قدموا مع رئيس الأساقفة المنتخب المرفوض باختيار المعلم ادموند، الذي كان كاهناً في كنيسة سالسبري ليكون أسقفاً مسؤولاً عن أرواحهم، من أجل عدم بقاء كرسي مطراني له مثل هذه الأهمية، مدة أطول من دون رئيس أساقفة، وأرسل له في الوقت نفسه الطيلسان، وقرر الرهبان —على كل حال— عدم قبوله أو قبول أي واحد آخر، إلاّ بموافقة عامة من جماعتهم كلها.

الخلاف الذي نشب بين الملك وبين نبلاء المملكة

وحقن طوال هذا الوقت بطرس أسقف وينكستر ورفاقه قلب الملك بالكراهية والبغضاء لرعاياه الانكليز، إلى حد أنه سعى بكل ما أوتي من قوة ومن وسائل إلى محقهم، واستدعى فرقاً من شعب بواتو حتى يملأوا انكلترا كلها، وكان حيثما ذهب الملك، كنت تراه محاطاً بحشود من هؤلاء الأجانب، ومامن شيء صنع في انكلترا، إلاّ ماكان أسقف وينكستر وحشده من الأجانب قد قرروه، ثم أرسل الملك رسائل،

واستدعى جميع الايرلات والبارونات التابعين للمملكة للقدوم إلى مؤتمر في اكسفورد، يوم عيد القديس يوحنا، لكنهم رفضوا القدوم إلى الاجتماع، لأنهم خافوا من خيانة من هؤلاء الأجانب، وكذلك بسبب الغضب الذي شعروا به نحو الملك لأنه حشد هؤلاء الأجانب مراغمة للبارونات المذكورين، ولدى حمل رفضهم إلى الملك من قبل مراسلين خاصين، غدا غاضباً جداً، وأمر بإصدار قرار يمكنه فيه إرغامهم على حضور اجتماع بلاطه، ثم إنه تقرر وجوب دعوتهم ثلاث مرات، من أجل معرفة هل سيأتون أم لا، وفي هذا المؤتمر قام واحد من الرهبان من طائفة المبشرين، كان يقوم بالتبشير بكلمة الرب بحضور الملك، و بعض الأساقفة، قام بوضوح باخبار الملك بصوت مرتفع، بأنه لن يتمتع قط بسلام دائم، مالم يقم بصرف بطرس أسقف وينكستر، وبطرس دي ريفول ابنه من ادارته ومن مجالسه، وأخبر كثيرون كانوا حضوراً الملك بالشيء نفسه، وبناء عليه أرسل رسالة إلى النبلاء الذين تقدم ذكرهم للقدوم إلى مؤتمر يعقد في ويستمنستر في ١١- تموز، فوقتها سوف يتشاور معهم حول أي تقويم ينبغي عمله بموجب الحق، وكان النبلاء على كل حال قد سمعوا بأن أعداداً من هؤلاء اللصوص مزودين بالخيول والسلاح، تابعوا وصولهم من وقت إلى آخر بناء على دعوة الملك، ولدى عدم رؤيتهم أنه ليست هناك علامات تدل على الهدوء، رفضوا الحضور في اليوم المحدد، وطلبوا من الملك بوساطة رسل خاصين، أن يقوم على الفور بصرف بطرس أسقف وينكستر ومستشاريه النبلاء البواتيين، وإلاّ سوف يقومون بموافقة عامة بالاتحاد لطرده ولطرد المستشارين الأشرار من المملكة أيضاً، ومن ثم القيام بانتخاب ملك جديد.

كيف طرد الملك بعض نبلائه

أصيب الملك، وكذلك بلاطه كله بالانزعاج والغضب، وباتوا

خـائفين جـداً، من أن تكون غلطة الابـن أكثـر سـوءاً من غلطة الأب، ذلك أن النبـلاء قد قـرروا خلعـه من العـرش وطرده من المملكة، وبناء عليـه نصح الأسقف بطرس المتقـدم ذكره بالقيـام بالحرب ضـد نبلائـه المتمـردين، وأن ينتـزع قـلاعهم منهـم، ومن ثم أن يعطيهـا إلى النبـلاء البـواتيين، الذين سوف يدافعـون عن المملكة ضد هؤلاء الخونة، وكـان أول من ناله غضب الملك غيلبرت باسيت Bassett وكان نبيلاً وقد حرمه من احدى العزب، التي كـان قد تسلمها كأعطية من الملك جون؛ وعندما طلب من الملك أن يعيد إليه امتيازاته، سماه الملك خائناً، وهدده أنه إذا لم يغـادر بلاطه سوف يتعـرض للشنق، كما أمر برتشـارد سيوارد Siward وكان فارساً جـريئاً، فأودع السجن، ثم أحضر إلى أمامه لأنه —كما قيل— قـد تزوج من أخت غيلبرت المذكـور، من دون إذنه، وبما أنه صـار شـاكـاً بجميع النبـلاء الآخـرين وبـالرجـال ذوي المراتب في المملكة، طلب منهـم تقـديم رهـائن، وأرسل رسـائل إليهم بمـوجب مذكـرات أن يسلموا إليه رهائن، قبل الأول من آب، أي كـذا وكذا من الرهائن، وبذلك يمكنه أن يزيل من ذهنه كل ريبته نحوهم.

كيف أنذر المارشال بوجود مؤامرة ضدّه

وزحف الايرلات والبارونات في رتل عظيم من الفرسان إلى لندن في الأول من آب، لحضـور المؤتمر المحدد، وكـان من بينهم رتشـارد الايرل مارشال، الذي سكـن عند أخته، زوجة رتشارد أخو الملـك، وقد سألته عن سبب قدومه، فأجابها بأنه قد جاء لحضور المؤتمر، وعندها قالت له:

«اعلم ياأخي العزيز، بأن أعداءك يتآمرون لاعتقالك، ولإعطائك إلى الملك وإلى أسقف وينكستر من أجل أن يخدمـوك وفق الطريقـة نفسهـا التي خدموا بها ايرل كنت»، وكـان من الصعب على المارشال أن يصدق هذه الكلمات التي صدرت عن أخته، حتى أرته برهاناً يشهد على طريقة اعتقاله، وبمن سـوف يعتقل، ووقتها بدأ يصـدقها، وعندمـا حل المساء

أخذ الطريق، ولم يرخ عنانه حتى وصل إلى ويلز. هذا وقدم إلى مؤتمر لندن كل من ايرلي شيستر، ولنكولن، وايرل فيرار، وايرل رتشارد، أخو الملك، مع ايرلات آخرين وعدة بارونات، لكن مامن شيء عُمل هناك بسبب غياب الايرل مارشال وغيلبرت باسيت، وبعض النبلاء الآخرين الذين لم يقوموا بالحضور، وبناء على ذلك قام الملك بناء على نصيحة بطرس أسقف وينكستر، وستيفن سيغريف Seagrave بإرسال رسائل إلى جميع نبلاء المملكة، الذين يدينون له بخدمة الفروسية، فدعاهم إلى القدوم، مزودين بالخيول والسلاح، إلى غلوستر في يوم الأحد قبل صعود مريم العذراء المباركة، ورفض رتشارد مارشال وبعض الآخرين الذين كانوا متحالفين الحضور في الوقت المحدد، فما كان من الملك إلاّ أن عاملهم بمشابة خونة، فأحرق قراهم، ودمر حدائقهم ومطاردهم، وحاصر قلاعهم، وقد قيل كان النبلاء المتحالفين مع بعضهم بعضاً هم:

الايرل مارشال، وغيلبرت باسيت مع أخيه، الذي كان جندياً متميزاً، ورتشارد سيوارد، وكان رجلاً قد تدرب على السلاح منذ صغره، ووولتر دي كيلفورد Clifford وكان فارساً منتخباً مع عدد كبير آخر ممن التحقوا بقضيتهم، وأمر الملك بعدّ هؤلاء جميعاً، من دون أية محاكمة في بلاطه من قبل نظرائهم، مطرودين، ورجالاً محرومين من الحقوق، وأعطى أراضيهم إلى خدمه البواتيين، آمراً باعتقالهم شخصياً أينما تمّ العثور عليهم في المملكة.

كيف رشا أسقف وينكستر المتحالفين مع الإيرل مارشال

استطاع بطرس أسقف وينكستر، الذي بذل كل ما توفر له من إمكانات وماامتلكه من قدرة لاضعاف تيار الايرل مارشال والمتحالفين معه، أن يرشو ايرلي شيستر ولنكولن بأعطية مقدارها ألف مارك، للتخلي عن المارشال، وعن تيار العدل، والالتحاق بحزب الملك، لأن

رتشارد، أخو الملك، الذي وقف في البداية إلى جانب تيار المارشال، كان قد عاد قبل بعض الوقت إلى جانب الملك، وعندما اكتشف المارشال هذا، دخل بتحالف مع للويلين، أمير شمالي ويلز، ومع عدد آخر من مقدمي المقاطعة، وتبادلوا الأيمان، أن مامن أحد منهم سوف يعمل سلاماً مع الملك هنري، من دون موافقة الآخرين، وفي اليوم التالي ليوم صعود القديسة العذراء، وصل عدد كبير من الجنود من القارة إلى دوفر، وذهبوا إلى الملك في غلوستر، وبناء عليه قاد جيشه باتجاه مدينة هيرفورد، يحيط به حشد من هؤلاء ومن الآخرين.

الأذى الذي أنزل بوولتر أسقف أوف كارآيل

وفي هذه الآونة، عندما كان وولتر أسقف كارآيل جالساً، بعد بعض الأذى الذي لحق به من قبل الملك، صعد إلى ظهر سفينة في دوفر، ليعبر إلى القارة، لكن بعض عملاء الملك وصلوا، واعتقلوه مع جميع أصحابه، وأخرجوه معهم من السفينة، ومنعوه باسم الملك من مغادرة المملكة، من دون إذن ملكي، وأثناء وقوع هذه الحادثة نزل إلى اليابسة في ذلك المكان روجر أسقف لندن، لدى عودته من بلاط روما، وقد سمع بهذه الاهانة التي وجهت إلى الأسقف المذكور، فحرم كنسياً جميع الذين استخدموا العنف ضده، ثم انه ذهب إلى الملك، الذي وجده مع جيش كبير في مدينة هيرفورد في ويلز، وقام بحضور الملك ووجود بعض الأساقفة، فجدد قرار الحرمان الكنسي الذي تقدم ذكره أعلاه، بسبب العنف الذي تعرض له أسقف كارآيل، وذلك دون أن يعبأ بغضب الملك، الذي منعه من التفوه بالقرار، واتحد معه جميع الأساقفة الذين كانوا حاضرين، بحرمان جميع الذين شاركوا بذلك الاضطراب.

التحدي الذي أرسل إلى المارشال وحصار قلعة عائدة له

وأرسل الملك بعد هذا —بناء على نصيحة أسقف وينكستر—

أسقف القديس داوود إلى المارشال لتحديه، وأصدر الأوامر بشن الحرب ضده، وبحصار قلاعه، وبناء عليه، دخل الملك إلى أراضي الايرل مارشال، وألقى الحصار على احدى قلاعه، التي لاأتذكر اسمها، وبعد مهاجمتها بحدة لعدة أيام، بدأت الامدادات لدى الجيش المحاصر بالنقص، ورأى الملك أنه سيكون مرغماً على رفع الحصار، ولذلك شعر بالعار الدائم لقدومه إلى هنا، وبناء عليه أرسل بعض الأساقفة إلى الايرل مارشال، وسأله أن يقوم —صدوراً عن احترامه لشخصه الملكي، ولكي لايبدو الحصار أنه غير فعال— بتسليمه القلعة، على شرط أن يعيدها الملك إليه، خلال خمسة عشر يوماً غير معرضة للأذى، واشترط على نفسه، أنه سوف يقوم بالوقت نفسه، بناء على نصيحة الأساقفة الذين سوف يكونوا الضامنين لهذا، بالقيام بجميع الاصلاحات الموائمة في المملكة، وفي سبيل تنفيذ هذه الخطة، عيّن الملك يوم الأحد الذي سوف يحل بعد عيد القديس ميكائيل، من أجل المارشال وبقية النبلاء المجردين من الحقوق للاجتماع به في ويستمنستر، وعند ذلك أعطيت القلعة إلى الملك، ورفع الحصار.

نجاة هيوبرت دي بورغ

وفي هذه الآونة، كانت رغبة بطرس أسقف وينكستر الأولى، وفوق كل شيء، موت هيوبرت دي بورغ، الذي كان سجيناً في قلعة ديفزي، فالتمس من الملك بحرارة، ورجاه كثيراً، أن يعهد إليه بالمسؤولية عن تلك القلعة، وذلك دون أن يذكر اسم هيوبرت دي بورغ، وقد أمل بذلك أن يمتلك الفرصة لقتله، وقد أنذر هيوبرت بهذه الخطط من قبل أصدقائه الموجودين في بلاط الملك، وأباحوا بذلك إلى اثنين من خدم حامية القلعة، وكانوا يتوليان خدمته، واشفاقاً منهما على ما كان يعانيه، اخترعا خطة يمكنه فيها أن ينجو من الموت، وكذلك رصدا فرصتهما، وفي عشية عيد القديس ميكئيل، عندما كانت الحامية نائمة، أخذ واحد

منهما هيوبرت، واستمر الآخر بالمراقبة، وقد حمله كما هو مغلولاً على كتفيه، ونزل من البرج وهو حامل للصه التقي، وقد عبر به خلال القلعة كلها، دون أن تسمع الحامية به، وظل حاملاً له حتى وصل إلى الباب الكبير، حيث مرّ من خلاله، وعبر الخندق العميق، إنما بصعوبة كبيرة، وأخذ طريقه إلى الكنيسة الأسقفية، ولم ينزل حمله من على كتفيه حتى وصل إلى أمام المذبح الكبير، ورفض الرجلان اللذان أطلقا سراح هيوبرت أن يتركاه، عادين أنه سيكون مجداً عظيماً لهما إذا ما عانيا من الموت الدنيوي من أجل الحفاظ على حياة مثل هذا الرجل العظيم.

كيف سحب هيوبرت بعنف وأخرج من الكنيسة وسجن

وعندما استيقظت الحامية، ولم تجد هيوبرت في مكانه المعتاد، خافت خوفاً عظيماً، ونزلت بقوات حاملة للمشاعل وللأسلحة، ولم تترك مكاناً في المنطقة بحثاً عنه، وبعد بعض الوقت سمع رجال الحامية بأن هيوبرت كان في الكنيسة، وقد تحرر من أغلاله، وبناء عليه اندفعوا هائجين إلى هناك، فوجدوه أمام المذبح الكبير، والصليب المقدس بين يديه، وقاموا على الفور باعتقاله بالقوة، وضربوه وساقوه أمامهم بالسلاح وبقبضات الأيدي، وأعادوه إلى القلعة ومعه محرريه، حيث سجنوه بشدة أكبر من ذي قبل.

وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة الى مسامع روبرت أسقف سالسبري، ذهب إلى الكنيسة وأمر أولئك الذين خرقوا حرمة الكنيسة، باطلاق سراح هيوبرت على الفور، وبإعادته إلى حرم الكنيسة في الوضعية نفسها التي وجدوه فيها، لكن قادة القلعة أخبروه وهم يصرخون بأن هيوبرت ينبغي شنقه وليس اطلاق سراحه، وبناء عليه رفضوا تسليمه إلى الأسقف، وقام الأسقف بموجب السلطات الممنوحة له، بانزال عقوبة الحرمان كنسياً بجميع الذين احتجزوه بالاسم، والذين استخدموا العنف معه، ثم ذهب الأسقف وبصحبته روجر أسقف

لندن، إلى الملك، وقدما شكوى إليه، حول الأذى الذي لحق بهيوبرت، ولم يتركا الملك حتى حصلا منه على اطلاق سراحه، وهكذا جرى في الثامن عشر من تشرين الأول ارساله عائداً إلى الكنيسة، على كراهية من الملك لذلك، وقام الملك فأرسل أوامر برسالة إلى عمدة تلك الكونتية، بأن يحاصر الكنيسة من أجل إجاعة هيوبرت حتى الموت.

كيف استرد المارشال القلعة التي كان قد سلمها إلى الملك

انقضت في هذه الآونة مدة الخمسة عشر يوماً، منذ تسليم المارشال قلعته إلى الملك على شرط أن يعيدها إليه ثانية، عندما يسأله ذلك، ونظراً لمضي المدة، أرسل إلى الملك يسأله أن يعيد إليه قلعته، وفقا لمعاهدتها، التي من أجلها عمل أسقف وينكستر، وستيفن سيغريف، الذي مارس أثناء ذلك أعمال المسؤول عن العدالة، كفيلين له، وكانا قد أكدا كفالتهما بقسم، ورد الملك على طلبه غاضباً، وقال بأنه لن يسلمه إياها، بل هو بالحري سوف يستولي على قلاعه الأخرى ويخضعها، وعندما رأى المارشال أنه لا اليمين ولاشروط السلام قد روعيت من قبل مستشاري الملك، جمع جيشاً كبيراً، وألقى الحصار على القلعة التي كانت من قبل قلعته، ووزع آلات حربه من حولها، وبسهولة أعاد الاستيلاء عليها.

وكان الملك في تلك الآونة في ويستمنستر، حيث كان حاضراً في مؤتمر التاسع من تشرين الأول، حسبما كان قد وعد النبلاء من أجل التشاور معهم في سبيل عمل الاصلاحات الضرورية في المملكة، لكن النصائح الشريرة التي اتبعها حالت دون تنفيذ ذلك، وقام عدد من الأساقفة الذين كانوا حاضرين بالتوسل إلى الملك بكل تواضع، وباسم الرب بأن يقيم سلاماً مع باروناته ومع النبلاء الآخرين الذين حكم عليهم بالنفي من دون أية محاكمة من قبل نظرائهم، وأحرق قراهم وأبنيتهم، وقطع أشجار غاباتهم وأشجارهم المثمرة، ودمر حدائقهم وبحيراتهم، وقال الملك —على كل حال— بأنهم كانوا خونة، مع أنه

بمساعدتهم كـان من المتوجب إعداد خططه، وإدارة أعمال المملكة، وردّ أيضـاً بطرس أسقف وينكستر بأن النظراء في انكلترا ليسـوا مثل أولئك في فرنسا، ولذلك فإن ملك انكلترا يمتلك الحق، بوساطة رجال العدالة الذين عيّـنهم، أن يقـوم بنفي أية أشخـاص مجرمين من المملكة، وأن يدينهم بعـد المحاكمة، ولدى سماع الأسـاقفـة هذه الكلمات، هددوا بصوت واحـد، بأن يحرموا كنسيـاً بالاسم، الشخص الرئيس بين هؤلاء المستشارين الأشرار، وبين هؤلاء، سموا بشكل خاص:

بطـرس أسقف وينكستر، وابنـه بطـرس دي ريفـول، وستيفـن سيغـريف، المسـؤول عن العـدالة، وروبرت باسلوي المتسلم للخـزينة، وعلى هؤلاء ردّ مهـدداً، بطرس أسقف وينكستر، بأنه كرّس أسقفـاً من قبل الحبر الأعظم في رومـا، ولذلك هو معفي من سلطتهم، وقـد ترافع إلى الكرسي الرسـولي ضد تفـوههم بهذا القرار ضـده، ثم قام الأسـاقفة المتقـدم ذكرهم بالحرمـان كنسياً جميـع الذين أبعدوا عـواطف الملك عن رعاياه الانكليز الطبيعيين، ومن ثم أفسدوا سلام المملكة.

كيف استدعى الملك جميع الذين يدينون بخدمة الفروسية له للمثول أمامه

أثناء هذا المؤتمر وصل رسل إلى الملك، أخبروه بأن الايـرل مارشـال، قـد استرد قلعتـه في ويلز، وقد قتل بعض الفـرسـان الملكيين والموظفين هناك، وغضب الملك غضبـاً عظيماً لدى سماعـه هذه الأخبـار، وأمـر الأسـاقفـة بحـرمان المارشـال كنسياً بالاسم، لأنه استـولى على القلعـة المذكـورة، لكن الأسـاقفـة أجـابوه بأنه لايستحق الحرمـان الكنسي، لاسترداده فقط القلعة التي هي ملكه، وعند ذلك أرسل الملك الغاضب رسائل إلى جميع مناطق انكلترا، أمـر فيها جميع الذين يدينون له بخـدمة الفـروسية، بالاجتماع في غلوستر في اليـوم التـالي لعيد جميع القـديسين، وهم مجهزين بالخيول والسلاح، للزحف إلى حيث يرغب بقيادتهم.

وفي هذه الآونة نفسهـا، جرى حمل هيـوبرت دي بورغ المسـؤول السـالف عن العدالة بعيـداً عن كنيسـة ديفزي، من قبل بعض الرجـال المسلحين، وبعدما ألبسوه بشكل صحيح بلباس فارس، حملوه إلى ويلز، حيث التحق بأعـداء الملك في حـوالي السـاعـة الأولى من يوم ثلاثين تشرين أول.

كيف حارب النبلاء المطرودون جيش الملك عند غروسمونت

وكان الملك قد جمع في هذه الآونة جيشاً قوياً في غلوستر، زحف معه نحو هيرفـورد في ويلز، حيث غـزا أراضي المارشال، وسعى، مستخـدماً جميع الطاقـات التي توفـرت لديه، لأن يحرمـه من ميراثه، ولأن يأسره شخصيـاً، لكن ذلك العسكري الحذر، قـام —على كل حـال— قبل وصـول الملـك بسحب جميع المواشي والامـدادات، ولـذلك لم يستطع الملك الاقـامـة هناك، لانعـدام المؤن لديـه، فـانتقل مع جيشـه إلى قلعـة غـروسمـونت Grosmont وبعـدمـا أقـام هناك عـدة أيام، علم المارشـال مع المطرودين المتحـدين، بـوسـاطة الجواسيس، بأن الملك قـد أمضى الليل داخل تلك القلعـة، في حين عسكر جيشه خـارج الأسوار، لذلك زحفت كتلتهم كلهـا، بـاستثناء المارشـال، الذي رفض أن يقـاتل الملك، إلى هناك مع الزعماء الـويلزيين وجيش كبير، وجـاء زحفهم بعـد حلول الظلام في يوم عيـد القديس مـارتن، وانقضوا على عساكـر الملك الذين كانوا نائمين متمددين في خيامهم، فاستولوا على أكثر من خمسمائة حصـان، مع جميع أثقالهم وتجهيـزاتهم، وهـرب الرجـال أنفسهم، وهم عـراة تقـريبـاً في جميع الاتجاهات، ولم يـرغب المنتصرون —على كل حال— بجرح أو بأسر أياً منهم، وقد عثر على فارسين قد قتلا من بين العـدد كله، ثـم انهم أخـذوا جميع العـربـات والعجـلات الحاوية للمال، والامـدادات والسـلاح، وبعـدمـا أودعـوا بعنايـة غنائمهم، انتقلوا إلى أماكنهم السليمـة للاختباء، وكان جميـع النبلاء التاليـة أسماؤهم شهوداً

على هذه الواقعة:

بطرس أسقف وينكستر، ورالف أسقف شيستر، وستيفن سيغريف المسؤول عن العدالة، وبطرس دي ريفول المسؤول عن الخزينة، وهيوج بيغسود ايرل أوف نورفولك، ووليم ايرل أوف سالسبري، ووليم بوشامب Beauchamp ووليم دوبني Daubeney الأصغر، وعدد كبير آخر، شكلوا الذين هربوا وهم تقريباً عراة، وقد فقدوا جميع مقتنياتهم، وغادر إثر هذا عدد كبير من جنود الجيش، ولاسيما الذين فقدوا خيولهم وجميع أموالهم، وعادوا إلى مواطنهم وهم على درجة عالية من الاضطراب، أما الملك، الذي بقي هكذا وحيداً، في وسط أعدائه، عهد إلى قطاع الطرق من رجاله البواتيين بالمسؤولية عن قلاع ويلز، لصد هجمات أعدائه، وأعطى قيادة جيشه إلى النبيلين: جون أوف مونماوث Monmouth ورالف دي ثوني، وأعطى الأخير أيضاً قلعة ماتيلدا، العائدة إليه بموجب امتياز قديم، وبعدما أكمل الملك هذه الترتيبات، عاد هو شخصياً إلى غلوستر.

وسمعت في بداية شهر تشرين الثاني، من هذا العام نفسه، أصوات رعد، وقد ترافقت مع برق مخيف، واستمر ذلك لعدة أيام، وصار مثلاً عاماً بين العمال، بأن المرأة ينبغي أن لاتبكي لموت أبيها، أو أولادها، بل بسبب العواصف الرعدية، لأنهم يمنعون دوماً وصول المجاعة أو الموت، أو بعض مثل هذه الأشياء.

المعركة الحادة بين المارشال والبواتيين

وفي العام نفسه، وصل المارشال في احدى غاراته لجمع الأعلاف في مناطق أعدائه، إلى بلدة مونماوث، التي كانت معادية بالنسبة له، وفي الوقت الذي أمر فيه جيشه بمتابعة زحفه في حملته، تحول مع مائة من أتباعه الفرسان، وتوجه نحو قلعة ذلك المكان لفحص أوضاعها، ذلك

أنه كان يفكر بحصارها بعد عدة أيام، وعندما كان يتجول حول أسوار البلدة، شوهد من قبل بلدوين دي غوسني Guisnes الذي إليه كان الملك قد عهد بتلك القلعة مع عدد من البواتيين، وفهم بأن المارشال كان هناك مع عدد قليل من أتباعه فقط، من أجل القيام بفحص القلعة، فحمل مع ألف من الجنود الشجعان، والمجهزين بشكل جيد، وطارده بسرعة كاملة، ناوياً أن يأسره مع أتباعه، وأن يحملهم إلى داخل البلدة، وعندما شاهد رفاق المارشال الزحف الشديد للأعداء، نصحوه باللجوء إلى الفرار من أجل السلامة، وقالوا له إنها ستكون عملية تهور لعدد صغير مثلهم الاشتباك مع مثل ذلك العدد من الأعداء، وعلى هذا ردّ المارشال، أنه حتى الآن لم يدر ظهره إلى الأعداء في المعركة، ولن يفعل ذلك الآن، وشجعهم على الدفاع عن أنفسهم بشجاعة، وأن لايموتوا دون الانتقام لأنفسهم، وعند ذلك انقض أفراد العساكر الذين قدموا من القلعة، وحملوا عليهم بكل شدة، وأعقب ذلك قتال عنيف مع أن الفئتين لم تكونا متعادلتين، وكان هناك مئة فقط من جهة المارشال، كان عليها التصدي لألف من خصومهم، ولقد قاتلوا خلال الجزء الأكبر من النهار، وقام بلدوين دي غوسني مع اثني عشر من خيرة جنوده الأشداء والمسلحين بشكل جيد، بالحملة على المارشال شخصياً، وسعى إلى أسره وحمله معه إلى القلعة، وقد أبقاهم المارشال بعيداً عنه، وكان يضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال، ورمى كل من اقترب منه إما بقتله أو بايقاعه بقوة ضرباته، ولقد استطاع بقوة ذراع ويد واحدة أن يصمد ضد اثني عشر من أعدائه وأن يدافع عن نفسه لمدة طويلة من الوقت، وبعد مضي وقت طويل لم يعد أعداؤه يتجرأون على الاقتراب منه، فقتلوا حصانه الذي كان يمتطيه برماحهم، لكن المارشال الذي كان واسع الخبرة بطرائق الفرنسيين بالقتال، أمسك واحداً من الفرسان الذين كانوا يقاتلونه من قدميه، وسحبه وألقاه أرضاً، ثم امتطى بكل سرعة فرس عدوه، وجدد القتال، وشعر الفارس بلدوين بالخجل، من

أن المارشـال قد دافع عن نفسـه بيـد واحدة، ضـد مثل ذلك العـدد من أعدائه، وحمي غضبـه فقام بحملة يائسة عليه، وأمسك خـوذته وانتزعها بعنف من على رأسـه حتى أن الدم اندفع من فمه ومن فتحتي أنفـه، ثم أمسك حصـان المارشـال من لجامـه، وسعـى إلى جـره مع راكبـه نحـو القلعـة، في حين ساعـده آخرون في ارغـام المارشال ودفعـه من الخلف، وتمكن المارشـال باستخـدام سيفـه والضرب به نحـو الخلف، من إلقـاء اثنين من أعدائـه أرضاً بعدما أصـابها بالجراحة، لكنه لم يستطع تخليص نفسـه من قبضتيهما، وفي هـذه اللحظة، شـاهد واحــد من رمـاة القسي العقـارة من جماعــة المارشـال، بأن مـولاه في خطر، فأطلـق سهمـه من قـوسه، فأصـاب بلدوين، الذي كـان يجر المارشـال، في صدره، وخـرق درعه، فسقط أرضاً، معتقداً أنه أصيب بجـراح مميتة، وعندما رأى رفاقه هذا، تركـوا المارشال، وذهبوا لانهاض بلدويـن ورفعه من على الأرض، لأنهم ظنوا أنه قد مات.

المذبحة التي أوقعها المارشال عند قلعة مونياوث

وأثناء وقوع هذه الحوادث، وصلت أخبار إلى جيش المارشال تحدثت عن الخطر الذي كـان به، وبنـاء عليـه زحف جنوده نحـوه بكل سرعـة لمساعدته، وعلى الفور أرغموا أعداءهم على الفرار، وكان هناك جسر في جـوار القلعة، من فـوقه كـان الفـارون يأملون بالنجاة، لكنهم وجـدوه مدمراً، وبناء عليـه رمى عدد كبير منهم بأنفسهم بالنهر، وقـد غرقوا مع أسلحتهم وخيولهم، ولم يكن لدى آخرين وسائل للهرب، ولذلك قتلوا من قبل مطارديهم، واعتقل بعضهم وأخذوا أسرى، وعاد عدد قليل من الذين كـانوا قـد حملوا مـن القلعـة، ووقع بالأسر من جـانب المارشـال توماس سيوورد Siward وكان فـارساً شجاعاً مع اثنين من رفـاقه، ونقلوا إلى القلعة، ووقع من عساكر الحامية بالأسر خمسة عشر فارساً مع عـدد كبير من الجنود، وقـد أخـذهم المارشـال مع خيـولهم وأسلحتهم،

وأسـلاب أخـرى، وبقيت أعـداد من الذين قتلـوا ممددين على أرض المعركة، وكـان من بين الذين شوهدوا منهم ويلزيين وبواتيين، وأجانب آخـرين، وحمل بلدوين دي غـوسني إلى القلعـة وهو مصـاب بجـراحـة كبيرة، ووقعت هذه المعـركـة قرب القلعـة المذكـورة أعلاه في يوم عيـد القديسة كاترين «٢٥- تشرين ثاني».

ونصب بعـد هذه المعـركـة المارشـال مع غيلبرت باسيت، ورتشـارد سيوورد، وآخـرين من المطرودين المتحدين، كمائن للبـواتيين الذي كانوا مسـؤولين عن قـلاع الملـك، وبناء عليـه عندمـا كـان أياً منهم يخرج للاعتـلاف، كانوا يهاجمون، ولذلك لم يمنحـوا أية مكان، ونتيجـة لذلك أنتنت جميع الأجـواء في ذلك الجزء من المنطقـة وجـافت، بسبب أعـداد الأجانب الموتى الذين تمددوا هناك على الطرقات وفي الأماكن الأخرى.

حكمة المارشال العظيمة وتقديره للعدل

وفي حـوالي تلك الآونة نفسهـا، وفي يوم الخميس التـالي قبل الميـلاد، حدث أن كـان الايرل مارشال يمضي الليل في دير مـارغان Margan وفي ذلك المكان قـدم إليه راهب من رهبـان طائفة الفرنسيسكـان اسمه أغنل Agnell وكان تابعـاً للملك ومستشاراً، وقـد أخبره بالذي قيل حـوله في البـلاط من قبل الملك، ومـن قبل مستشـاريه، فقـد ذكـر بأنه «سمع الملك يقول:

إنه مع أن المارشال قـد حمل السلاح ضده بشكل خيـاني وغير عادل، إنه إذا مـا اختار —دون التقدم بشرط آخـر— أن يلقي بنفسـه كلياً على رحمة الملك، فالملك سوف يمنحه أمـاناً على حياته وعلى أطرافه، وسوف يسمح له بجـزء كاف من الأرض في هيرفـورد شـاير، يعيش منه بشكل مشرف، وسمع كـذلك من ستيفـن سيغـريف بأن شروط العفـو عن المارشـال، سوف يتعـرف المارشال عليهـا، بوساطة اثنين من أصـدقائه

الموثوقين، اللذان سوف يخبران المارشال بأنه يستطيع بأمان أن يثق برحمة الملك، إنما في الوقت نفسه هما لن يخبرا المارشال نفسه أو أي شخص آخر، لأن عليه أن يفعل ذلك، دون أن يعرف الشروط التي منحت له»، كما أنه سمع أيضاً من آخرين في البلاط، أنه سيكون من المفيد للمارشال أن يفعل كما ورد أعلاه، فذلك هو واجبه، وذلك سوف يكون مفيداً له ولصالحه، وسوف يكون سلبياً بالنسبة له أن يفعل ذلك، وأن ذلك كان واجبه، لأنه قد تسبب بإلحاق الأذى بمولاه، لأنه قد قام قبل أن يؤذي الملك ممتلكاته أو شخصه، بغزو أراضي الملك، فدمر وأحرق الحاصلات، وقتل الناس، وإذا ما ادعى المارشال وترافع بأنه قد فعل ذلك للدفاع عن ذاته، وعن ميراثه، فقد قالوا بأن الأمر لم يكن كذلك، لأنه لم تكن هناك أية نوايا شريرة ضده شخصياً أو ضد ممتلكاته، لذلك كان ينبغي عليه، عدم اللجوء إلى العنف ضد مولاه الملك حتى يكتشف بوساطة المشاهدة العينية بأن الملك كانت لديه مثل تلك النوايا الشريرة ضده، فوقتها كان مسوغاً له بأن يعمل الذي عمله».

وعلى هذا كله عمل المارشال الرد التالي إلى الراهب أغنل، حيث قال:

«إنه بالنسبة للحجة الأولى، وأن ذلك كان واجبي، لأنني غزوت أراضي الملك، هذا ليس صحيحاً، لأنني كنت دوماً جاهزاً للالتزام بالقانون، وبقرار نظرائي في بلاطه، وغالباً ماسألت الملك —بوساطة الرسل— أن يمنحني هذا، لكنه رفض دوماً منح ذلك لي، وقام هو نفسه بغزو أراضي، وقاتلني مراغمة لجميع شرائع العدل، وأملاً مني بإرضائه بخضوعي، دخلت بالمفاوضات معه عن طواعية وتقبلت شروط سلم معه، مع أنها كانت مؤذية جداً لي شخصياً، وبموجبها كان قد تم الاتفاق، أنه مالم يقم الملك من جانبه بمراعاة هذه الشروط وتطبيقها نحوي، ينبغي أن أبقى تماماً في الوضع نفسه، كما كنت من قبل الموافقة على السلم المذكور، أي أكون متحرراً من كل ولاء له، وفي حالة

رفض وتحد له، كما كنت من قبل أسقف القديس داوود، وبناء عليه، بما أنه أخفق في مراعاة شروط السلام في كل جانب من جوانبها، إنه كان مسوغاً بالنسبة لي، تبعاً لاتفاقي معه، أن أسعى لاسترداد ما كان ملكاً لي، وأن أضعف قدرته بكل وسيلة ممكنة، ولاسيما وأنه كان يسعى متشوقاً إلى تدميري، وإلى حرماني من ميراثي، ولاعتقالي شخصياً، وأنا من هذا كله متأكد تماماً، وإذا كان الأمر ضرورياً، يمكن أن أبرهن عليه، وزيادة على ماتقدم، أنه بعد هدنة الخمسة عشر يوماً، قبل دخولي إلى ويلز، أو بالحري، قبل اتخاذ أي إجراء للدفاع عن ذاتي ضد أي انسان، قام هو —من دون أية محاكمة— فحرمني من وظيفتي، وظيفة المارشالية، وجردني منها، مع أنها عائدة إليّ، ذلك أنني أحملها بموجب الحق الوراثي، ورفض بشكل قاطع ردها إليّ، عندما سألته ذلك، وبهذا اقتنعت بشكل واضح بأنه لاينوي التوصل معي إلى أية شروط سلام، لأنه هددني بعد الهدنة بشكل أسوأ من ذي قبل، ولذلك أنا لست خاضعاً له، بل متحرر من التابعية إليه، مع أنني سأعود إلى شروط أول حالة رفض، التي ذكرت أعلاه، وفقاً لهذه الاتفاقية، وبناء عليه، كنت مسوغاً ومازلت مسوغاً في الدفاع عن نفسي، وفي الوقوف ضد المؤامرات الشريرة لمستشاريه بكل وسيلة في مقدرتي»، وقال مستشار الملك أيضاً، بأنه سوف يكون لصالح المارشال ومنفعته أن يلقي بنفسه على رحمة الملك، لأن الملك كان أغنى، وأكثر قوة مما هو عليه، وإذا كان المارشال سيعتمد على عون الأجانب، يمكن للملك أن يجلب سبعة أشخاص مقابل كل واحد يمكن للمارشال أن يقنعه بمساعدته، لأن بعضاً من الأجانب أقرباء للملك، وقد عرضوا عليه تقديم مساعدتهم، وهؤلاء ليسوا اسكوتلنديين، ولافرنسيين، ولاويلزيين، ويمكن لهؤلاء أن يقدموا إلى انكلترا، وأن يجدوا عملاً من أجل جميع أعدائه، وهم يمكنهم أن يقدموا بحشود كبيرة كافية لتغطية وجه البلاد كلها، ورد المارشال على هذه الحجة قائلاً:

«صحيح أن الملك أغنى مني، وأكثر قوة، لكنه ليس أكثر قوة من الرب، الذي هو عادل بذاته، والذي فيه أضع آمالي بالسلامة، وفي الحصول على امتيازاتي في المملكة، وأنا لاأضع ثقتي في أجانب، ولاأنشد تحالفهم وعونهم، ولن أطلب مساعدتهم، مالم —لاسمح الرب— أرغم على فعل ذلك، بضرورات غير متوقعة، ولايمكن تجنبها، وأنا أعرف بشكل جيد أن بإمكان الملك أن يجلب سبعة مقابل واحد أجلبه، وأعتقد أنه سوف يجلب في أقرب وقت ممكن كثيراً منهم لمساعدته، إلى حد أنه لن يكون بامكانه، بأية وسيلة من الوسائل، تحرير نفسه والمملكة منهم، لأنني سمعت من أناس موثوقين، بأن أسقف وينكستر، قد صمم على اخضاع جميع انكلترا لإرادته، وأنه بات مشغولاً بذلك منذ الأيام التي كان فيها في القارة مع الامبراطور، ولذلك بدأ هذه الحرب، لكي يجد الفرصة من أجل طلب المساعدة من الامبراطور، ولكي يتمكن أيضاً من استدعاء الامبراطور للقدوم شخصياً، ويبدو أن هذا الذي سيكون، لأنه عندما نشب خلاف بينه وبين الملك، كان قد غادر انكلترا، وهاهو الآن قد أقسم بأنه سوف يرسل أعداد كبيرة من الأجانب إلى انكلترا، وسوف يتابع ذلك، حتى يغطي وجه البلاد كلها»، ومجدداً قال مستشار الملك أنه سوف يكون أميناً للمارشال وسليماً أن يلقي بنفسه على رحمة الملك، لأنه يمكنه أن يثق بالملك وبمستشاريه، وأن يثق بالملك، بسبب أنه كان رحيماً، وجديراً بالثقة، وأن يثق بمستشاريه لأنهم لم يتسببوا بأي أذى للمارشال، لأنهم بالفعل يحبونه بقلوبهم، وعلى هذا رد المارشال قائلاً:

«من الممكن أن يكون الملك رحيماً، لكنه مضلل بنصيحة هؤلاء الناس، الذين نشعر بقرارة أنفسنا أننا متأذين كثيراً منهم، وأن يكون الملك موضع ثقة، فهذا واضح بالنسبة له شخصياً، لكن بالنسبة لمستشاريه لدي هذا الذي سوف أقوله، إنه مامن وعد عمل لي قد

حوفظ عليه حتى الآن، والذي قـاله مستشاروه من أنهم لم يتسببوا بأذى قط لي، فهـذا زائف، ذلك أنهم جلبـوا جميع اضطراباتي وأنـزلوها إلي، وإليهم أعـزوها كلهـا بشكل رئيسي، كما انني لاأستطيع أن أصـدقهم عندما يقولون بأنهم يحبـونني، حتى أراهم يتصرفون بشكل مغـاير، لما رأيتهم دوماً يفعلونه لأنهم خرقوا عدة أيمان تعاون، أي فيما يتعلق بايرل أوف كنت، الذي إليه عملوا ثلاثة أنواع من الأيمان، التي لم يرعوها، بل حنثـوا بها وخرقـوها، وكذلـك فيما يتعلق بالشروط التي قدمهـا الايرل المتقـدم الذكر، التي حنثـوا بها وتخلوا عنهـا وفق الطريقة نفسهـا، ومثل هذا مـاتعلق باليمين الخاص بـالامتيـازات الموجـودة في الصك العظيم، الذي أيضـاً خـرقـوه، ومن أجل ذلك حـرموا كنسيـاً على أسـاس أنهم حـانثين باليمين، وقـد حنثـوا باليمين أنفسهـم فيما يتعلق بالاستشـارة الصحيحـة التي أقسمـوا أنهم سـوف يعطونها إلى الملك، لأنهم دومـاً يشيرون عليه بما هـو معاكس للعدل، وستيفـن سيغريف الذي كـان قد أقسم على رعاية القـوانين العادلة، يقـوم الآن بافسادهم، ويقـدم قوانين ليست مستخدمة منذ زمن طويل، ولأسبـاب أخرى كثيرة، هو وكذلك المتعاونين معه جديرين بعدم الثقة من قبل الرب ومن قبل الانسان، لأنه أوليس هو، وأوليسوا هم محرومين كنسياً؟»، وكـانت الحجة التالية التي قدمها مستشار الملك ضد المارشال، هي أنه قاتل شخص مولاه الملك في غـروسمونت، قبل أن يدخل الملك إلى أراضيـه، وبذلك سبب أذى له، وبناء عليـه إن واجبـه يقضي عليـه أن يسلم نفسـه ويضعهـا تحت رحمة الملك، كما ورد الذكـر أعلاه، في سبيل أن يشرفـه ويكرمه، وأن لايقـدم حجة للآخـرين للقيام بحمـلات معادية ضـده، وعلى هذا رد المارشال، بأنه بالنسبـة لما يتعلق به شخصيـاً، هو زيف وكـذب الإدعـاء بأنه كـان حاضراً أثناء ذلك القتال، وإذا مـاحدث وكان واحد من أتبـاعه حاضراً هناك، لقد قاتلوا أتباع الملك، وليس شخصه الملكي، ثم قال:

«وإنهم إذا مافعلوا ذلك ينبغي أن لاتعجب منه، لأن الملك قد قدم إلى أراضيّ مع جيشه لمهاجمتي ولإلحاق الأذى بي بكل طريقة من الطرق، وهذا مبرهن عليه بكل وضوح بوساطة الرسائل التي استدعى بها الجميع من كل أنحاء انكلترا لمساعدته على تدميري، وبما أن الاعتداءات المذكورة أعلاه قد عزيت إلي بشكل زائف، وأنه صحيح تماماً ان الملك قد تصرف نحوي بشكل سيء في الوقت الذي كنت أنظر فيه إلى رحمته أكثر من أي وقت مضى، وهو مايزال يمتلك النوايا نفسها نحوي كما كان من قبل، ومابرح يعتمد على مشورة هؤلاء الرجال، الذين أعلم أنه بسبب نصائحهم له قد حدثت هذه الأضرار ولحق بي مالحق من أذى، وكذلك بجماعتي، ولذلك ينبغي أن لانخضع لرحمته ولايمكننا فعل ذلك، ثم إنه لن يكون مشرفاً للملك ولا لصالح سمعته، إذا ما رضخت إلى رغباته، إذا لم تكن هذه الرغبات مؤيدة بأي منطق، لابل إن ذلك سيبدو بالحري وكأنني أقدم إهانة له وإلى العدل، العدل الذي من واجب الملك ممارسته ورعايته نحو رعاياه، ولسوف أضرب بذلك مثلاً سيئاً إلى كل انسان، هو التخلي عن قضية العدل، والتجرد والتخلي عن جميع امتيازاتي، بسبب خطأ بالتقدير، معاكس لكل عدل، ولالحاق الأذى برعيته، لأننا في تلك الحالة، سوف يظهر أننا نحب مقتنياتنا الدنيوية أكثر من العدل»، وعلى هذا أوضح المستشار وذكر ضد المارشال مجدداً، أنه قد تحالف مع أعداء الملك الرئيسيين:

الفرنسيين، والاسكوتلنديين، والويلزيين، وأنه بذلك بدا بالنسبة لمستشاري الملك أنه قد فعل ذلك من أجل اغضاب الملك وايذائه وايذاء المملكة، وعلى هذا رد المستشار قائلاً:

«أما بالنسبة للفرنسيين، فهذا زائف بكل وضوح، والحديث أيضاً عن الاسكوتلنديين والويلزيين هو زائف أيضاً، إلاّ باستثناء ملك اسكوتلندا، وللويلين، الأمير الويلزي، لأنهما لم يكونا أعداء، بل تابعين

مخلصين له، وقد بقيا كذلك، حتى نزلت بهما الأضرار من قبل الملك ومن قبل مستشاريه، فأرغما مكرهين مثلي على سحب ولائهما منه، ولهذا السبب شكلت حلفاً مع هذين الأميرين، ذلك أننا نكون أحسن حالاً عندما نكون متحدين، وأفضل مما لو كنا ممزقين، نناضل في سبيل امتيازاتنا، وندافع عن حقوقنا التي حرمنا منها بشكل غير عادل، وسلبت منا بمعيار كبير»، ثم إن مستشار الملك أوضح من جديد بأن المارشال، لايحتاج أن يضع ثقة في حليفيه هذين، لأن الملك يستطيع —دون أن يعرض أراضيه للخطر— ابعادهما عنه عندما يشاء، وعلى هذا ردّ المارشال قائلاً:

«انه لمما لاشك فيه أن هذه الواقعة تظهر بوضوح شرور مستشاريه، لأنهم يرغبون في أن يجعلوا الملك يتحمل كل نوع من الأذى، من هذين الذين دعوهما باسم عدويه الرئيسيين، من أجل ايذائي، مع أنهما كانا دوماً من رعاياه المخلصين، وطوال ماسمح لي، أنا سوف أكون كذلك، إذا ما أعاد لي وإلى أصدقائي حقوقهم الصحيحة»، وكانت الحجة الثانية التي قدمها مستشار الملك، بأن لدى البابا والكنيسة الرومانية تقدير خاص إلى الملك وإلى المملكة، والبابا على استعداد لإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بجميع أعدائه، ويبدو أن هذا قريب وفي متناول اليد، لأن الملك والمستشارين قد أرسلوا وراء المندوب البابوي، وعلى هذا رد المارشال قائلاً:

«إنني مسرور لسماع مايقولونه حول مايتعلق بالبابا وبالكنيسة الرومانية ومن أجل التقدير العظيم الذي لديهم للملك وللمملكة، فذلك يعني أنهم يرغبون أكثر منه أن يحكم مملكته ورعاياه وفقاً لشرائع العدل، وأنا أيضاً مسرور لسماع بأن البابا سوف يحرم كنسياً أعداء المملكة، لأن الأعداء هم أولئك الذين يشيرون على الملك بما هو ضد العدل، حسبما تبرهن أعمالهم على ذلك، لأن العدل والسلام يسيران معاً

يداً بيد، وعندما يفسد العدل، يخرق السلم أيضاً، ومجدداً أنا مسرور لأن المندوب البابوي قادم، لأنه كلما ازداد الناس هنا الذين سيسمعون بعدالة قضيتنا، كلما ازداد العار الذي سوف يلحق أعداء العدل، والآن مع أنني مقيم بشكل خاص مع أحزاني، يمكنني قول الشيء نفسه فيما يتعلق بأصدقائي، وحلفائي، وباسمهم ولصالحهم أتقدم بالشكوى نفسها التي أتقدم بها باسمي ولصالحي، ومن دونهم لايمكنني أن أعمل أي شيء مطلقاً، في سبيل الوصول إلى ترتيبات دائمة».

كيف احتفل الملك هنري بعيد الميلاد في غلوستر

سنة ١٢٣٤م، التي كانت السنة الثامنة عشرة لحكم الملك هنري، فيها عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في غلوستر، مع حاشية صغيرة فقط —لأنه هجر من قبل عدد كبير من النبلاء، الذين كانوا قد جردوا قبل وقت قصير مضى من جميع ممتلكاتهم— في قلعة غروسمونت، كما تحدثنا من قبل، ونزل في الوقت نفسه الصقيع بحدة كبيرة، حتى أن الحاصلات في الحقل قد دمرت، وجذور الأشجار في الحدائق قد اهترأت، وتجمدت جذور أشجار التفاح حتى عمق أربعة أقدام وماتت، واستمر هذا من دون تساقط للثلوج حتى عيد طهارة القديسة مريم، وقد أعقب هذا في العام نفسه أجواء غير صحيحة تماماً، وأنواء ليست في مواسمها، وتبع ذلك ندرة كبيرة في جميع منتجات الأرض.

كيف أحدث المارشال مذبحة كبيرة بين أعدائه

بعد يوم عيد الميلاد جمع جون أوف مونماوث، وكان رجلاً نبيلاً، قد قاتل إلى جانب الملك في ويلز، جيشاً كبيراً، ليفاجيء الايرل مارشال، وكان هذا الأخير قد أخبر بما ينويه، فحمل نفسه مع جيشه إلى الغابة التي كان عدوه سيمر بها، من أجل أن يغرر بالذين فكروا بتضليله، وعندما وصل رجال العدو إلى مكان الكمين، انقض المارشال وجيشه

عليهم وسط زعقــات الأبــواق والنفــر، وأخـــذوهم على حين غــرة، وأرغموهم فوراً على الفرار، وطاردوهم عن قرب، وقتلوا أعداد كبيرة من البواتيين ومن الآخرين، ونجا جون نفسه بعد صعوبات جمة وكان ذلك عن طريق الفرار، وبعد ذلك تقدم المارشال زاحفاً مع جيشه، ونهب وأحرق القرى والبيوت، والممتلكات الأخرى العائدة إلى جون المذكور، وبذلك جعله فقيراً ومتسولاً بدلاً من رجل غني، كما كان، ثم عاد إلى مناطقه محملاً بغنائم وأسلاب ضخمة جداً، وهو يسوق قطعان كبيرة من المواشي.

كيف أثار النبلاء المطرودون معارضة كبيرة ضدّ مستشاري الملك

وأثناء عيد الميلاد نفسه، شنت حرب قاسية ومحزنة ضد الملك، وضد مستشاريه، لأن رتشارد سيوورد بالتعـاون مع آخرين من النبلاء المطرودين، هاجموا ممتلكات الايرل رتشارد، أخي الملك، على مقربة من بريهل Brehull وأحرقت بيـوته ومحاصيله، حتى لحق ذلك المواشي التي كانت واقفة في الاسطبلات، كما أنهم قاتلوا سيغريف، بلد ستيفن المسؤول عن العـدالة، وغادروا ذاهبين آخذين معهم بعض الخيول الثمينة ومقتنيات أخرى، كما أنهم دمروا بالنار قرية عائدة لأسقف وينكستر، على مقربة من الموضع الآنف الذكر، وحملوا معهم كميات من الغنائم، وراعى هؤلاء الجنود حكماً واحداً بينهم بشكل عام، هو أنهم لم يلحقـوا الأذى أو يهاجموا أي واحـد، باستثناء مستشـاري الملك غير العادلين، الذين بوسائلهم قد سيقوا إلى المنفى، غير أنهم دمروا كل الذي عاد إلى هؤلاء الرجال، ودمروا وأحرقوا غاباتهم، واقتلعوا أشجار فواكههم من الجذور.

الحملة ضدّ شروبري

وبعد هذا، أثناء ثمانية عيد الغطاس، جمع الايرل مارشال، وللويلين

الزعيم الويلزي كل القوات التي تمكّنا من حشدها، وتوغلا مسافة بعيدة داخل الأراضي الملكية، ناشرين للنار حيثما ذهبا، ولذلك لم يتوفر مكان من حدود ويلز حتى بلدة شروبري Shrewsbury قد نجا من أعمال عيثهما وافسادهما، ثم إنهما أحرقا بلدة شروبري، وعادا بعد ذلك إلى ديارهما مع أسلاب ثمينة، وكان الملك هنري أثناء جميع هذه الاجراءات التي قام بها أعداؤه، مقيماً بدون نشاط في غلوستر مع أسقف وينكستر، لأنه لم تكن لديه قوة عسكرية كافية للتصدي لهم، ولذلك تراجع مقهوراً مجللاً بالعار، إلى وينكستر، تاركاً جميع تلك المنطقة معرضة للنهب من قبل أعدائه، كما كان ذلك واضحاً، ولقد كان منظراً مرعباً للمسافرين لأن يروا جثث القتلى، الذين كانوا لايمكن تعدادهم تقريباً، ممددين على الطرقات، وهم غير مدفونين، وعراة، طعمة للحيوانات المفترسة، ولجوارح الطير، وقد أفسدت الروائح التي صدرت عنهم الهواء إلى حد أن الأموات قد قتلوا الأحياء، وهكذا صار قلب الملك قاسياً جداً ضد المارشال، بسبب النصائح الشريرة التي أصغى إليها، وكان غضبه شديداً إلى حد أنه مع أن الأساقفة نصحوه بأن يعمل سلاماً مع ذلك الرجل النبيل، الذي قاتل فقط في سبيل نيل العدل، أجابهم بأنه لن يتوصل إلى أية اتفاقات تصالح معه، ما لم يتوسل إليه طالباً رحمته، وطوق حول رقبته، وأن يعلن عن نفسه خائناً.

التدبير الخياني الذي خطط له مستشارو الملك ضدّ المارشال

وفي هذه الآونة وجد أسقف وينكستر، وبطرس دي ريفول ابنه، مع بعض الآخرين من مستشاري الملك الأشرار، وجدوا أنفسهم قد هزموا في كل مكان من قبل المارشال، ونظروا بأسى إلى بلداتهم وقد أحرقت فاخترعوا أخيراً خطة لقهره، بوساطة عمل خياني، بحكم أنهم كانوا عاجزين عن فعل ذلك في قتال مكشوف، ولذلك عندما أعيقوا برغباتهم، ورأوا الأعداد التي لاتحصى من القتلى البواتيين الذين لاقوا

مصرعهم في ويلز، كتبوا رسائل تحتوي على خطط للخيانة لم يسمع بمثلها، وأرغموا الملك، وهو جاهل بمقاصدهم، بأن يضع ختمه عليها، وإلى جانبه وضع أحد عشر منهم أختامهم وثبتوها، ثم إنهم أرسلوا هذه الرسالة الدموية الرسمية إلى ايرلاندا، فلقد بعثت هذه الرسالة الخيانية إلى النبلاء الايرلنديين، وإلى موريس فتز —جيرالد، الذي تولى ممارسة أعمال مسؤول العدالة الملكية في تلك المملكة، وإلى وولتر وهيوج دي لاسي، وإلى رتشارد دي بورغ، وإلى غيوفري دي ماريسكو Marisco وإلى آخرين، الذين كانوا آنذاك حلفاء بموجب القسم إلى المارشال المذكور، وكانوا مخلصين له، وكان مقصد هذه الرسائل كما يلي:

لقد ذكر مستشارو الملك في المقام الأول، وأخبروا النبلاء المذكورين، بأن رتشارد، الذي كان من قبل مارشال الملك الانكليزي، قد نفي من انكلترا، بموجب قرار صدر عن محكمة بلاط الملك المذكور، وذلك بسبب خيانة مكشوفة، وأن جميع ممتلكاته، يعني قراه وبيته قد أحرقت، وأن حدائقه وأشجاره المثمرة قد قطعت، وبركه وأسماكه قد أتلفت، وماهو أكثر من هذا كله هو أنه قد حرم بشكل أبدي من ميراثه الأبوي، وعلى الرغم من حرمانه من ممتلكاته على هذه الصورة، هو مايزال يغضب الملك، ومابرح يمارس اعتداءاته ضده:

«وبناء عليه نحن نأمركم، بحكم يمينكم كرعايا مخلصين لمولانا الملك، أن تعتقلوه إذا صدف وجاء إلى ايرلاندا، وأن تحضروه إلى أمام الملك حياً كان أم ميتاً، وإذا فعلتم هذا، فإن جميع ميراثه وممتلكاته في مملكة ايرلاندا، التي هي الآن تحت تصرف الملك، سوف توزع فيما بينكم، وسوف تتملكونها بموجب حق الوراثة، ومن أجل وفاء مخلص بهذا الوعد المقطوع إليكم من مولانا الملك، نحن جميعا، الذين بنصيحتنا تدار أمور الملك والمملكة، سوف نكون ضامنين، لتنفيذ الخطة المذكورة أعلاه، وداعا».

كيف وافق النبلاء الايرلنديون على عرض مستشاري الملك

عندما سمع النبلاء الايرلنديون محتويات رسائل الملك، استولى الشره على عقولهم جميعاً، فتآمروا جميعاً أحدهم مع الآخر، فبعثوا رسلاً مع رسائل إلى مستشاري الملك المتقدم ذكرهم، مع توصية بالسرية، وقد أخبروهم أنه إذا ماجرى تأكيد الوعود الواردة في صك الملك، فلسوف يتولون تنفيذ الخطة، وقام مستشارو الملك بعد هذا، فعملوا بموجب صك ملكي منحة لهم جميع امتيازات المارشال، بحيث يجري تقسيمها فيما بينهم، فوزعوا أولاً الأماكن، ثم المقتنيات، وبعد ذلك الامتيازات التي سوف توزع عليهم جميعاً، وعندما تسلم هؤلاء الخونة الايرلنديون هذه الوثيقة، قاموا على الفور بربط أنفسهم بيمين بأن يتولوا تنفيذ الخطة المقيتة، عندما تتوفر لديهم الفرصة، وهكذا تآمروا ضد حياة انسان بريء، وقاموا على الفور بغزو بلاد المارشال، واستولوا على بعض القلاع العائدة له، وتوازعوا الأسلاب فيما بينهم.

مقتل الهراطقة الألبينيين في معركة قتالية

وصار في هذا العام الهراطقة الألبينيين في اسبانيا وفي تلك المناطق جريئين جداً، إلى حد أنهم رسموا أساقفة هراطقة للتبشير بعقائدهم الشريرة، وأعلنوا أن الديانة المسيحية وبشكل خاص أسرار التجسيد هي زائفة، وينبغي ازالتها كلياً، كما أنهم حشدوا جيشاً وغزوا مناطق المسيحيين، وأحرقوا الكنائس، وذبحوا المسيحيين من كلا الجنسين ومن جميع الأعمار من دون رحمة، لكن عندما انتشرت أخبار هذه الواقعة في الخارج، جرى على الفور ضبط ادعاءاتهم الخرافية، من قبل الأتباع المخلصين للمسيح، الذين حملوا الصليب بناء على دعوة من البابا غريغوري، وقدموا من مناطق الغرب من أجل الدفاع عن الإيمان المسيحي، وفي معركة تصادمية جرت في الربيع، جرى ذبح هؤلاء الهراطقة مع أساقفتهم حتى آخر رجل منهم، ثم استولى الصليبيون على

مدنهم وتملكوها، ووضعوا أتباع المسيح فيها، ورسموا كذلك أساقفة كاثوليك فيهم، ثم عادوا منتصرين إلى بلدانهم، والذين كانوا قد قدموا إلى هناك رجالاً فقراء، عادوا إلى مواطنهم أغنياء.

نصيحة الأساقفة إلى الملك حول الاضطرابات في المملكة

عندما كانت هذه الأحداث تقع في اسبانيا، عقد الملك الانكليزي في يوم طهارة القديسة مريم مؤتمراً في ويستمنستر، فيه وجّه اللوم بحدة إلى بعض الأساقفة، وبشكل خاص إلى الاسكندر أسقف شيستر، لأنه كان صديقاً للمارشال، واتهمهم بالسعي لطرده من العرش ومن المملكة، وعلى كل حال، عندما سمع ذلك الأسقف نفسه قد أتهم على هذه الصورة، وضع على نفسه ثيابه الحبرية، وحرم كنسياً جميع الذين كانوا فعلة هذه الجريمة ومقترفيها ضد الملك، ثم إنه بناء على وساطات الأساقفة الآخرين، صار الملك راضياً عنه، وكان المعلم ادموند، رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، حاضراً مع عدد من أساقفته المساعدين، ولقد عبّروا جميعهم عن أسفهم تجاه عزلة الملك والمملكة، وأخبروا الملك، وهم يتحدثون من قلوبهم قائلين:

«مولانا الملك، إننا سوف نحدثك باسم الرب، ونخبرك أن النصيحة التي تلقيتها الآن وعملت بموجبها، أي نصيحة بطرس أسقف وينكستر، وبطرس دي ريفول، هي ليست حكيمة، وليست سليمة، بل هي على العكس وحشية، وخطرة عليك شخصياً وعلى المملكة كلها، فهما بالمقام الأول يكرهان الشعب الانكليزي، وكلاهما يدعوان أفراده خونة لهما نفسيهما، كما أنهما جعلا الآخرين يدعوانهما كذلك، ولقد نأيا بعواطفك عن شعبك، ونأوا بعواطف شعبك عنك، كما هو واضح من سلوك المارشال، الذي هو أفضل رعاياك في ممالكك، وبالكذب الشرير الذي يخبراك به حول شعبك قد أفسدا جميع أقوال رجال شعبك وأفعالهم، وانه بموجب العمل بناء على نصيحة هذا الرجل نفسه، أي

الأسقف المذكور، قد فقد والدك أولاً عـواطف شعبه، وخسر بعد ذلك نورماندي وبعض المناطق الأخرى، وأخيراً ثروته، وتقريباً جميع السلطة على انكلترا، ولم يتمتع بعد ذلك بالهدوء، وانه بسبب نصائح هذا الرجل نفسه تشوشت المملكة، ووضعت تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وفي النهاية جلبت هذه الاضطرابات الموت إلى أبيك، وبموجب مشورة هذا الرجل نفسـه، في أيامنا هـذه، جـرى انتـزاع قلعـة بدفـورد منك، ولهذا السبب نفسـه خسرت بلدة روشيـل، ومجدداً إن هذا التمـرد الذي يهدد الآن مملكتك، كـانت أسبابه الآراء الاستشـارية الشريرة لهذين الرجلين، لأنه لو أن شعبك قـد حكم وفقاً لأحكام العـدل، وللشرائع الصحيحة العائـدة للبلاد، مـاكان لهذا الاضطراب أن يحدث، ولما كـانت ممتلكاتك قـد تعرضت للعيث فسـاداً فيها، ولما كـانت أموالك قـد أنفقت، ونحن نقـول أيضـاً، بحكم الولاء الـذي ندين به إليك، بـأن خططك ليست الخطط التـي سـوف تقـدم السـلام إلى مملكتك، بل فقـط ستسبب الاضطراب لأن هـذين الرجلين، بحكـم تكوينهما لايستطيعـان زيادة ثرويتهما بوسـاطة السـلام، وهما لذلك يسعيـان لإثارة الاضطراب بتشـويش شعب المملكة، وبتجريد الآخـرين من ممتلكاتهم، وكـذلك بما أنهما يضعان بين أيديهما قلاعك وقـوة ممالكك، يظهرانك وكأنك لاتضع ثقة بشعبك، وكـذلك بما أن خزينتك بين أيديهما مع ايداعـاتك الرئيسية ومـواريثك مـوجـودة تحت اشرافهما، فإن نوع الحسـاب الذي سـوف يقـدمانه لك سـوف تجده فيها بعـد، وكذلك أيضـاً من النادر أن تجد أي عمل له أهميـة في المملكة، موضـوع تحت ختمك ويعمل به بموجبـه أو بمـوجب تفـويضك، هو ليس أيضاً تحت ختـم وترخيص بطرس دي ريفـول، ومن ذلك واضح تمامـاً أنهما لايعـدانـك ملكاً على الاطلاق، ومجدداً، جـرى في المؤتمر نفسـه صرف جميع الـرعـايا الطبيعيين لمملكتك من بلاطك، ولذلك نحـن نشعـر بالخوف عليك وكـذلك على المملكة، وبقدر مـانعرف هو أنك تحت حكمهما أكثـر مما هما تحت حكمك، فهذا

واضح ومبرهن عليه بكثير جداً من الشواهد، وكذلك هما يضعان تحت اشرافهما أميرة بريتاني وأختك، ومثل ذلك عدداً من النساء النبيلات والفتيات، مع الوصاية عليهن ومع حصص الزواج، وقد حطّا من شأن هؤلاء بتزويجهن من أصدقائهما، وكذلك أساءا تطبيق العدالة وحرفاها، ومثل هذا فعلا بشريعة الأرض، التي أقسمت على الدفاع عنها تحت طائلة الحرمان الكنسي، ولذلك هما يستحقان الحرمان الكنسي، ونحن نخشى أن تنال العقوبة نفسها لتواصلك معهما، وأيضاً هما لم يفيا بوعودهما إلى أي انسان، وهما لايحافظان على الوفاء، ولا على أيمانهما، ولايلتزمان بأية اتفاقية مكتوبة، كما أنهما لايخافان من الحرمان الكنسي، ولذلك فإن الذين ابتعدوا عن الصدق سقطوا في حالة اليأس، أما الذين التزموا بالصدق فهم في حالة خوف وترقب، ونحن نقول هذا بإيمان صالح، ونحن ننصحك أمام الرب والبشر، ونرجوك ونحذرك كي تصرف مثل هذين المستشارين، ومثلما هي العادة في البلدان الأخرى أن تحكم بلدك أيضاً بوساطة مساعدة رعاياك المخلصين والذين أقسموا على الولاء لك من أهل مملكتك، هذا ويتوجب علينا أن نخبرك بحقيقة أنك مالم تقم بتقويم هذه المخالفات في وقت قصير، إننا سوف نسير للترافع بوساطة إجراءات العقوبات الكنسية ضدك وضد جميع الآخرين من المخالفين ونحن فقط ننتظر تكريس أبانا المحترم رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري»، وإثر سماع هذه الكلمات طلب الملك راجياً بكل تواضع منحه فرصة قصيرة من الوقت، قائلاً بأنه لايستطيع صرف مستشاريه هكذا فجأة، حتى يتسلم منهما حساباً عن المال المعهود به إليهما، وهكذا انتهى المؤتمر، وغادر الجميع وهم يحملون آمالاً مؤكدة بالحصول سريعاً على السلام في المملكة.

كيف خرج النبلاء المطرودين وباشروا أعمال الانتقام

وبعد انقضاء ذلك المؤتمر ذهب الملك إلى برومهولم Bromholm

ليبارس تعبداته، وعبر وهو على طريقه بكنيسة بلدة القديس ادموند، وقد أثيرت شفقته، فمنح إلى زوجة هيوبرت دي بورغ ثماني عزب من أراضي زوجها، التي كانت آنذاك تحت عهدة روبرت باسلوي، وذلك بناء على أوامره، ثم إنه بعدما أدى تعبداته رجع إلى الجزء الغربي من المملكة، ووصل إلى بلدة هنتنغدون، وأثناء إقامته في هذا المكان الأخير، ذهب رتشارد سيوورد بصحبة غيلبرت باسيت وآخرين من النبلاء المطرودين إلى ألموندبري Almondbury وكانت بلدة عائدة إلى ستيفن سيغريف، وتبعد ميلين عن المكان الذي كان فيه الملك، وأحرقوا جميع الأبنية العائدة الى ستيفن المتقدم الذكر، ونهبوا المكان، وشاهد ذلك النبيل الذي كان مع الملك لهب النيران يتصاعد من بيوته لينير المنطقة كلها من حولها، فبادر على الفور مسرعاً مع قوة مسلحة كبيرة لحماية ممتلكاته، ولكنه عندما سمع بأن رتشارد سيوورد كان الفاعل لهذه العملية من العنف، أدار ظهره، ونكص على عقبيه وكأنه هارب من قوة معادية، ولم يوقف حث مطيته، بل فرّ بكل سرعة إلى الملك الذي أثير مع جلسائه للضحك عليه، وفي ذلك الوقت أيضاً، اعتقل رتشارد سيوورد هذا نفسه ومعه أتباعه بعض الفرسان الذين قاتلوهم في الأراضي الويلزية، واتخذهم أسرى، ثم أرغمهم بموجب قانون الحرب على دفع فدية ثقيلة.

وفي هذا العام، في يوم الأحد الذي يغنى فيه بمزمور «دعوا القدس تبتهج»، الذي وقع في الثاني من نيسان، جرى تكريس ادموند رئيس أساقفة كانتربري المنتخب، في كنيسة المسيح في ذلك المكان من قبل روجر أسقف لندن، وبحضور الملك، وثلاثة عشر أسقفاً، وأقام في ذلك اليوم قداساً مهيباً، وهو لابس للطيلسان.

كيف صرف الملك أسقف وينكستر والبواتيين

في هذه الآونة، وفي الأحد الرابع من الصوم الكبير، الذي وقع في

التاسع من نيسان، جرى عقد مؤتمر في ويستمنستر، حضره الملك، والايرلات، والبارونات، ورئيس الأساقفة الذي جرى تكريسه مؤخراً مع أساقفته المساعدين، ولقد اجتمعوا لإيجاد تراتيب موائمة لاحتواء الاضطرابات في المملكة، واقترب وقتها رئيس الأساقفة مع الأساقفة ورجال الدين الآخرين الذين كانوا حضوراً، من الملك، وقدم له نصيحته، وكذلك نصائح الأساقفة فيما يتعلق بالأوضاع السيئة للمملكة واقتراب المخاطر منها، وكرروا إليه وأعادوا على مسامعه ذكر الأضرار التي عرضت عليه في المؤتمر الذي عقد قبل وقت قصير، وبجرأة أخبره أيضاً أنه مالم يقلع حالاً عن أخطائه، ويعمل سلاماً مع رعاياه المخلصين في مملكته، هو، أي رئيس الأساقفة مع جميع الأساقفة الحضور، سوف يتفوه على الفور بقرار الحرمان الكنسي ضده، وضد الظلمة الآخرين كلهم مع مثيري الاضطراب ومفسدي السلام، وأصغى الملك بشكل لائق وأديب إلى نصيحة الأساقفة، وأجاب بتواضع بأنه سوف يستجيب لنصائحهم في كل جانب، ثم إنه قام بعد عدة أيام، عندما تبينت له أغلاطه، فأمر بطرس أسقف وينكستر بأن يذهب إلى أسقفيته، وأن يتولى معالجة الأرواح، وأن لايتدخل من الآن فصاعداً،بأي شكل من الأشكال بشؤون المملكة، كما أنه أمر بطرس ريفول، الذي كانت انكلترا كلها خاضعة لرغباته، أن يتخلى من دون تردد ولامراجعة ويسلمه القلاع الملكية، وأن يقدم له حساباً عن الأموال الملكية، وأن يغادر بلاطه على الفور، معلناً مع القسم، أنه إذا تبرهن أنه انسان غير مفيد، ولم يعترف بحقوق رجال الدين، سوف يأمر بقلع عينيه، كما أنه طرد جميع البواتيين، من بلاطه ومن المسؤولية عن قلاعه، وأرسلهم عائدين إلى بلدهم، آمراً إياهم أن لايروه وجوههم ثانية، ثم إنه لشدة رغبته في عمل سلام وتحقيق ذلك، أرسل ادموند رئيس أساقفة كانتربري مع أسقفي شيستر وروكستر إلى ويلز لترتيب سلام مع للويلين ومع رتشارد المارشال، وبعدما طرد هكذا جميع المستشارين الأشرار لديه،

أعاد استـدعاء رعـاياه الطبيعيين إلى خدمتـه، وأخضع نفسه إلى نصـائح رئيس الأسـاقفة والأسـاقفة، آمـلاً أن يتمكن بمسـاعدتهم من أن يعيـد مملكته المضطربة إلى وضعها الطبيعي الصحيح.

كيف ذهب الايرل مارشال إلى ايرلاندا وتابع الحرب

وفي هذه الآونة وصل رسل إلى الايرل مـارشـال، وأخبروه كيف أن النبلاء الايرلنديين قد غزوا أراضيه، واستولوا على بعض قلاعه، وكانوا يتجـولون خـلال البـلاد متـورطين في أعمال النهب، وبما أن الملك، تخلى منذ عيـد الميلاد عن حملتـه ضـد ويلز، وذهب إلى الأجزاء الشمالية من المملكة، أقلع المارشـال مبحـراً إلى ايـرلندا، في حـوالي يوم عيـد طهـارة القـديسـة مريـم، ومعه خمسـة عشر فـارسـاً، من أجل التصـدي للنوايا العـدوانية لأعـدائه وضبطهـا، ولدى وصـوله إلى هناك، وصل إلى عنده غيوفري دي ماريسكو، وكان تابعه المعتمد، لكنه تبرهن أنه غير مخلص، وأنه قـد تحالف مع مـوريس المسؤول عن العـدالة، وهيـوج دي لاسي، ورتشـارد دي بورغ، وآخرين من أعـداء المارشـال، وتظاهر هذا الرجل بالالتحاق بحزبه، ونصحه بشن الحرب على أعدائه النبلاء الذين تقدم ذكـرهم أعـلاه، ومن ثم اخضـاع ايرلاندا، ثم سـار المارشـال خـلال أراضيـه، وجمع جيشاً، وهـاجم أعداءه، واسترد بعضـاً من القـلاع التي كانوا قد استولوا عليها وانتزعوها منه، ثم إنه استولى بعد حصار أربعة أيام على لايمـريك Limerick وهي مـدينة، مشهـورة في ايرلاندا، وأجبر السكان على تقديم الـولاء له، ثم تابع زحفه فـاستولى على بعض القـلاع العائـدة للملك، وكذلك على بعضهـا العائـد إلى أعدائـه، حيث أرغم قـادتها على تأدية يمين بعدم إعـاقته في أهدافـه، ولم يتجرأ النبـلاء الايرلنديون على مـواجهتـه، بل هربوا من أمـامه إلى أقصى مسـافـة من البلاد، حيث جمعوا فرسـاناً وجنوداً خيالة مع حشد لايحصى تعداده من الرجـالة، وأعـدوا أنفسهم إلى معـركـة تصادمية، وقـد أثاروا أتبـاعهم

بتوزيع أموال الملك بينهم، وبوساطة وعود كبيرة، وذلك إذا قتلوا المارشال، لأنهم بذلك سوف يصبحون أغنياء، وأرسلوا بعد هذا بعضاً من رهبان الداوية إلى المارشال، ليخبروه بأنه كان يعمل بمثابة خائن لمولاهم الملك، الذي يشن الآن الحرب ضده، مثلما شنها من قبل وفعل في انكلترا، وأضافوا أيضاً، أنه إليهم قد عهد الملك بالمسؤولية عن المملكة في ايرلاندا، لأنهم رعايا مخلصين بموجب القسم للملك المذكور، ولايمكنهم تحمل هذه الإهانة، من دون جنيهم تهمة الخيانة، وبناء عليه طلبوا منه هدنة حتى يعرفوا فيما إذا كان الملك ينوي الدفاع عن ايرلاندا، وأنه إذا مارفض أن يفعل ذلك، وقرر أن يترك البلاد لأجلها، سوف يتخلون على الفور عن البلاد كلها إلى المارشال، من دون قتال وسفك للدماء.

عدالة الحرب التي أنشبها المارشال ضدّ الملك

ولدى تسلم المارشال هذه الرسالة، ردّ على اقتراحاتهم واحداً تلو الآخر كما يلي، حيث قال:

«أقول في المقام الأول وأرد بأنني لم أتصرف بمثابة خائن ضد الملك، لأنه جردني من وظيفتي كمارشال بشكل غير عادل، ومن دون أية محاكمة من قبل نظرائي، وأمر بالاعلان عني منفياً في جميع أنحاء انكلترا، وأحرق بيوتي، ودمر ممتلكاتي، ولقد عدّني مرتين متحد خارج على السلطة، مع أنني كنت دوماً على استعداد للظهور في بلاطه، والاجابة على الاتهامات التي أثيرت ضدي، ومن ثم الالتزام بقرار نظرائي، ولهذا السبب أنا لم أعد تابعاً له، بل متحلل من كل أنواع التابعية والولاء له، وهذا لم يحدث بوسائلي بل بوسائله»، وبالنسبة للعروض التي قدمت إليه، ومسألة الهدنة، فقد بعث المارشال رسالة إلى النبلاء بوساطة الرهبان الداوية المذكورين، بأن يقدموا للاجتماع به في مؤتمر في اليوم التالي في ميدان بينه لهم وحدده، فهناك يمكن القيام

بالترتيبات من أجل السلام، وقـد أعلن —على كل حال— بدون تردد، أنه يمتلك عدالة كـاملة، وتسويغاً في السعي لاسترداد ماهو عـائد إليه، والعمل على اضعاف الملك ومستشاريه بكل وسيلة ممكنة له.

مشورة غيوفري مارش الخيانية

وعندما سمع النبلاء الايرلنديون جـواب المارشال من الداوية، كانوا مسرورين جـداً وراضين بالاقتراح للقدوم إلى المؤتمر، لأنهم عـرفوا أنهم يمتلكون قوة أكبر من قوة المارشال، وكـانوا قد عزموا على أن لايعودوا من دون الاشتباك في معـركة، وطلب المارشال في الوقت نفسـه نصيحة فرسانه حول القضية التي تقدم ذكرها، وقال:

«يبدو لي أنه يتوجب علينا أن نمنح هؤلاء النبلاء الهدنة التي طلبوها، لأن طلبهم كما يبـدو لي عـادل ومنطقي، وأنا أخـاف أننـا إذا مـارفضنا منحهم ماهو عدل، فإن شيئاً سيئاً قد يقع لي، وهنا انفجر موجهاً الكلام إليه، ومجدفاً ضده غيوفـري ماريسكو، وهو حليفة المتظاهر، والذي كان على دراية بالخيـانة المتفـاوض عليهـا، ذلك أنه مشـاركاً فيهـا، ثم أخـذ يتكلم وكأنه كـلام المشفق، قائـلاً إنه ليس ابن لذلك العظيم الذي كـان وليم مـارشـال، الذي تفـوق على جميع فرسـان الامبراطورية الغـربيـة، حكمة وعقلانية، وكذلك في الشجاعة والإقدام، وقال:

«لقـد غـدوت رجلاً ضعيفـاً، فأنت الآن بفسـولتك ترفض فـرصـة الحصول على سيـادة ايرلاندا التي بمقدورك الآن اخضـاعها، والهدنة في الحقيقة، التي يطلبها أعداؤك، هي مخادعة لك، من أجل أن يتمكنوا من إعـاقة تقـدمك، لكن ينبغي عليك أن تكون متأكـداً، بأن جميع أعـداءك عندما سيرونك مسلحاً ومستعـداً للقتال، حتى ولو مع قليل من الأتباع سـوف يديرون ظهورهـم، ويشرعون بالفـرار»، وقـد كان هناك حـوالي ثمانين فارسـاً، أو أكثر، الذين لديهم أراضي من المارشـال، والذين كانوا

قد نالوا الرشوة من أعدائه، وقد أشاروا عليه بالخطة نفسها التي تقدم طرحها، فقد كانوا يسعون خيانياً لخداعه.

المؤتمر الذي عقد بين النبلاء الايرلنديين والايرل مارشال

وعند حلول الصباح، وصل لحضور المؤتمر:

موريس المسؤول عن العدالة، وهيوج دي لاسي، ورتشارد دي بورغ، في الحقل المحدد لهم، وكانوا محاطين بمائة وأربعين فارساً جريئاً وشديداً، كانوا قد انتخبوهم من جميع أرجاء ايرلاندا، منذ اللحظة التي بدأوا فيها بنواياهم الخيانية، بقصد قتل المارشال، وقد جلبوا لتنفيذ هذه الغايات بوساطة أعطيات كبيرة ووعود مغرية، ولذلك كانوا جميعاً يرغبون بالقتال، ويفضلون ذلك على المؤتمر، ووصل المارشال أيضاً مع فرسان مسلحين، كانوا —باستثناء الخمسة عشر، من خاصته— قد تشكلوا من حاشية خاصة كانت معه، وقد تظاهروا بأنهم أعوانه ومؤيديه، وقد أخذ موقعه على مسافة قرابة الميل عن أعدائه، ثم بدأت المفاوضات حول السلام، بوساطة الداوية الذين حملوا الرسائل من كل من الفئتين، وباختصار، عندما عرف النبلاء الايرلنديون أن المارشال قد قدم مع عدد قليل من الأتباع، أخبروه بوضوح، بأن قرارهم الثابت، هو أنه مالم يمنحهم الهدنة التي طلبوها، فإنهم يتحدونه، وسوف يجربون على الفور بوساطة قوة السلاح، أي الفريقين كان الأقوى، وجرى حث الايرل مارشال على القبول بذلك، بوساطة نصيحة غيوفري دي ماريسكو وجماعته الآخرين المتظاهرين بالصداقة، فرفض وهو مكره طلب الهدنة، وطالب مراراً بوساطة الرسل بأن عليهم أن يعيدوا إليه بعض قلاعه، التي استولوا عليها بشكل غير عادل، ومازالوا محتفظين بها، ذلك أن الأمر بدا بالنسبة له أن منح الهدنة مضاد للحق، في وقت هو مسلوب من أملاكه، ورفض النبلاء الايرلنديون أن يفعلوا ذلك، وصفوا قواتهم وعبأوها استعداداً للقتال، وزحفوا لمحاربة المارشال

وكأنهم واثقين من نيل النصر، وعندما شاهد غيوفري دي ماريسكو ذلك قال للمارشال:

«إنني أشير عليك باخلاص صحيح، أن تمنحهم الهدنة، لأن زوجتي هي أخت النبيل هيوج دي لاسي، ولذلك لايمكنني القتال إلى جانبك، ضد الذي أنا متحالف معه بالزواج»، وعلى هذا ردّ المارشال قائلاً:

«إنك خائن شرير، أولم أرفض الهدنة الآن بناء على نصيحتك، مع أن ذلك جاء ضد رغبتي؟، وأنا لاأريد أن أبدو في الحقيقة رجلاً ذا عقل متقلب، إذا ماأقدمت هكذا بسرعة على منحهم الذي كنت قد رفضته قبل وقت قليل مضى، وإنني وقتها سوف أبدو، قد أقدمت على فعل ذلك من خلال الخوف، أكثر من خلال تقديري لهم، هذا وانني مدرك تماماً أنه مقدّر لي أن أموت في هذا اليوم، وانه أفضل بالنسبة لي أن أموت بشرف في سبيل قضية العدل، وأن لاأهرب من الميدان، واتحمل مسبة أتباعي من الفرسان إلى الأبد»، ثم نظر فرأى أخاه وولتر وكان شاباً جميلاً، فقال لأتباعه:

«خذو أخي إلى قلعتي القسرية، ولاتدعو أسرتي كلها تهلك في هذه المعركة، ذلك انني أثق بشجاعته، وأنه عندما يصل إلى سن البلوغ، سوف يظهر نفسه فارساً شجاعاً»، وخشية من النبلاء الايرلنديين من شدة المارشال وبسالته، أعطوا دروعهم إلى الفرسان الذين كانوا قد حشدوهم لغاية قتل هذا الرجل البريء، ذلك أنهم، وإن رغبوا بقتله، لم يرغبوا في أن يظهروا بمثابة مشاركين بهذه الفعلة.

المعركة التي وقع فيها المارشال بالأسر

وعندما صفت العساكر، رأى الايرل مارشال هناك أعداد كبيرة، سوف تشتبك فقط مع عدد قليل، وقام هو —على كل حال— بتشجيع رجاله على القتال، مؤكداً أنه قام بحروبه من أجل العدل والقوانين في

انكلترا، وبسبب ظلم البواتيين، معتقداً بأنهم جميعاً كانوا مخلصين له، في حين كانوا في الحقيقة خونة، ثم اندفع بجرأة إلى وسط الأعداء، وشق طريقه بينهم بالقوة، وبذلك فتح طريقاً لفرسانه بسيفه، لكن لحق به فقط خمسة عشر فارساً، الذين كانوا أتباعه الشخصيين، وسعوا لتفريق أعدائهم، أما أتباعه الفرسان الذين ارتبطوا به بالقسم، والذين وثق بهم، فقد قاموا بتسليم أنفسهم، وأخذوا أسرى من دون مقاومة، وذلك كما تقدم الاتفاق بين هؤلاء الخونة، فلقد سلموا أنفسهم دون أن يجرحوا لابرمح ولابسيف، وكأنهم كانوا أصدقاء، مسرورين برؤية أحدهم الآخر، وقد هرب بعضهم دون أن يضربوا ضربة واحدة، وجاء فرارهم إلى الكنائس والديرة، تاركين المارشال مع خمسة عشر فارساً فقط، وقد دافع هؤلاء عن أنفسهم بشجاعة، وكانوا غير معادلين لخصومهم أثناء الصراع، لأنهم كانوا يقاتلون ضد مائة وأربعين، ووقع ثقل المعركة —على كل حال— على المارشال، الذي عندما اكتشف الخطط الخيانية ضد حياته، أخذ يقاتل أعداءه من جميع الجوانب، وثابر على الدفاع عن نفسه، فقتل ستة منهم، وكان هناك فارس صاحب حجم عملاق، إليه أعطى رتشارد دي بورغ دروعه، ولقد غضب كثيراً عندما رأى مافعله المارشال، فحمل منقضاً على المارشال ليقتله على الفور، وسعى إلى انتزاع خوذته من على رأسه بالقوة، وعندما رأى المارشال هذا الرجل، اعتقد أنه كان رتشاد دي بورغ، فناداه متعجباً قائلاً:

«اهرب أيها الخائن الشرير حتى لاأقتلك»، وعلى هذا ردّ عليه قائلاً: «إنني لن أفر، بل سوف أقترب منك»، ثم إنه رفع يده ليمسك خوذة المارشال، لكن المارشال تمكن بضربة واحدة من سيفه من قطع يديه معاً، مع أنه كان مغطى بالدروع، وعندما رأى أحدهم رفيقه قد أصيب بالجراحة، اندفع بكل السرعة التي امتلكها حصانه نحو المارشال، وبذل كل طاقته لضربه على رأسه، لكن بفضل الخوذة، جاءت الضربة من

دون تأثير، ورد المارشال الضربة، فقطع عـدوه إلى نصفين حتى الوسط، وبعـد ذلك لم يعـد أحـد منهم يتجـرأ على الاقتراب منه لبعض الوقت، وكان قادة الأعداء في حالة احباط، لكنهـم مالبثوا أن حثوا رجال حشد الناس الـذين قـــدمــوا إلى هناك، وهـم يحملـون الرمـــاح، والمذاري، والفؤوس، والمطارد، أن يطوقوا المارشال، وأن يقتلوا فرسه، وينزلوه إلى الأرض، وقـد طوقوه على الفـور، وقهـروه، وأصابوا حصـانه بكثير من الجراحـات، ومع ذلك لم يتمكنوا من ترجيله، ولـذلك قطعـوا قـدمي الحصـان بفـؤوسهم، وعندها سقـط المارشـال مع حصـانه، وقـد غلبـه التعب، ذلك أنه كان قـد بدأ القتال من الساعـة الأولى واستمر من دون توقف حتى السـاعـة الحادية عشرة، وهنا انقض عليـه أعداؤه، ونزعـوا عنه دروعـه، وأصابـوه بجراحـة قـاتلة في الظهر، وعنـدما علم النبـلاء أنفسهم أنه أصيب بجـراحة مميتة، وأنـه كان متمدداً وكأنـه بدون حياة، نقلوه —دون أن تظهر عليـه علامات الحياة— إلى قلعتـه، التي استحوذ عليها موريس المسؤول عن العدالة قبل وقت قصير، وفي القلعة وضعوه في سجن محكم وشـديد الاغـلاق، ومعه فقط شـاب واحـد من أتباعـه يتـولى العناية بـه، وهناك بقي بين أيدي أعـدائـه، ووقـع القتـال في هذه المعركة يوم السبت في الأول من نيسان.

موت الايرل مارشال ودفنه

وبعـد مضي عـدة أيام بدأ المارشـال يسترد قـواه، حتى صـار بإمكانه الأكل والشرب، ولعب النرد، وأن يمشي ذهاباً وإياباً في غرفته، وعندما شـاهد أعـــداؤه هذا، سألوه باسم ملك انكلترا بأن يتخلى عـن قـلاعـه وأراضيــه في ايرلاندا، ذلـك أن جســده كـان الآن تحت سلطة الملك، وتحت رحمتـه ومن الممكن تعريضـه لأبشع الميتـات، حسبما يرضي الملك ويسره، لأن قرار البـلاط الملكي، قد قضي أولاً بنفيه، ثم جـرى وضعه في حالة التحدي، وهو الآن قد أخذ أسيراً في معركة قتالية جرت ضده،

وقالوا له:

«إنه سوف يكون لصالحك أن تفعل هذا من دون معارضة، وبذلك تحصل على رحمة منا»، ثم إنهم أروه ترخيص الملك، الذي أمروا به، أنه إذا حدث وجاء إلى ايرلاندا، أن يعتقلوه ومن ثم أن يرسلوه ليمثل أمام الملك حياً أو ميتاً، ولمعرفة المارشال أنه تحت سلطة أعدائه وفي أيديهم، أعطى أوامر، بوساطة رسالة، من أجل تسليم جميع قلاعه إلى الملك، وكان على غير دراية بأن تراخيص الملك قد منحت إلى هؤلاء النبلاء حق توزيع ممتلكاته بين أنفسهم، وأن يتملكوها بموجب الحق الوراثي.

وأخذت جراحته الآن بالتورم، وتسبب له آلاماً مبرحة، فطلب باحضار طبيب، وبناء عليه قام موريس المسؤول عن العدالة، والذي كان تحت مسؤوليته، باستدعاء واحد، إنما مع نية قتله وليس معالجته، وقام المارشال —على كل حال— قبل تناوله أي دواء جسدي، بالاستعداد للموت بالاعتراف، وبتناول القربان، وعمل شهادة قانونية، ثم عهد إلى الرب بمسألة بقائه حياً، أو موته.

ثم جاء الطبيب إليه، وقام بفتح جراحاته بأداة طويلة محماة، وجرفهم عدة مرات، وبعمق بوساطة تلك الآلة، وأخرج الدم منهم، ولشدة آلام المارشال أصيب بحمى حادة، وفي السادس عشر من نيسان، الذي كان اليوم السادس عشر بعد اصابته في المعركة، نام في الرب، وقد دفن في اليوم التالي في كيلكني Kilkenny في قلاية تابعه لبعض الرهبان الفرنسيسكان، حيث كان عندما كان حياً شيد قبراً رشيقاً، وهكذا مات الايرل مارشال، وكان فارساً نبيلاً، وبارعاً في المعارف، ومتميزاً بأخلاقه وبفضائله، وقد فارق هذه الحياة في أحد السعف، ليتسلم من الرب في السماء سعفة تكون جائزة له، فقد كان بين أبناء البشر شخصاً جميلاً جداً، إلى حد بدا فيه أن الطبيعة تصارعت مع الفضائل في تكوينه.

الانتقام الذي أخذه النبلاء المنفيين من مستشاري الملك

ولم يكن قد عرف بعد في انكلترا الذي وقع للمارشال في ايرلاندا، لكن عندما بات ذلك معروفاً، طلب رتشارد سيوورد وبعض الآخرين من النبلاء المنفيين، الانتقام من مستشاري الملك، الذين بوسائلهم قد طردوا، وقاموا في اليوم الرابع من اسبوع الفصح، فأحرقوا بعض الأبنية في سوينبورن Swainbourn كانت ملكاً لروبرت باسلوي، وطال ذلك حاصلات الحصيد، والمواشي، والمقتنيات الأخرى التى وجدوها هناك، وسببوا أذى عظيماً له، وأحرقوا بعد ذلك في السادس والعشرين من شهر نيسان بعض الهري قرب بلدة ستين Stains كانت ملكاً لروبرت المذكور، مع حاصلات الحصيد والمقتنيات التي وجدوها هناك، ومجدداً استولوا في الثاني من أيار، على ستة خيول محملة بالأثقال، كانت ملكاً لستيفن دي سيغريف، وذلك إلى جانب خيول ركب ثمينة، أما كل ماكان ملكاً للملك فقد تركوه يمر بسلام، وفي الثاني عشر من أيار أحرقوا آيفنغهو Ivinghoe وهي قرية كانت ملكاً لبطرس أسقف وينكستر، مع جميع البيوت والممتلكات الأخرى، مما سبب خسارة كبرى للأسقف، واستولى في العام نفسه النبلاء الايرلنديون على قلاع المارشال وعلى امتيازاته في ايرلندا، التي منحت إليهم بموجب ترخيص الملك، واقتسموها فيما بينهم.

كيف وصل جميع النبلاء المطرودين وعملوا سلاماً مع الملك

وفي هذه الآونة، بعد عيد الفصح مباشرة، ذهب الملك إلى غلوستر، بقصد مقابلة رئيس الأساقفة والأساقفة الذين كان قد أرسلهم إلى ويلز، كما روينا من قبل أعلاه، وعند وصوله إلى عزبته في وودستوك Woodstock أمضى الليلة هناك، وفي هذا المكان وصل إليه رسل من ايرلندا، جالبين له أخبار موت المارشال، ولدى سماعه ذلك انفجر بالنواح، مما سبب الدهشة إلى جميع الحضور، فقد بكى موت مثل ذلك

الفارس المتميز، وأعلن أنه عندما مات لم يخلف من يوازيه في المملكة، ثم إنه استدعى على الفور قساوسة بيعته، وأمرهم بغناء صلاة جنازة مهيبة من أجل روحه، وقام في اليوم التالي بعد حضوره القداس، فوزع كميات كبيرة من الصدقات على الفقراء، ولابد أن المباركة جديرة بمثل هذا الملك، الذي أمكنه أن يحب أعداءه، وأن يصلي بدموع إلى الرب من أجل مضطهديه، ثم إنه انطلق من وودستوك فوصل إلى غلوستر، حيث قابل ادموند رئيس أساقفة كانتربري، والأساقفة الذين رافقوه في مهمته إلى للويلين،وأخبر هؤلاء الرسل الملك بأنهم رتبوا من أجل سلام مع للويلين، على شرط، أنه قبل القيام بأي شيء، يتوجب على الملك أن يقوم على الفور، بتلقي النبلاء المنفيين، الذين كان للويلين متحالفاً معهم، والذين طردوا نتيجة للنصائح الشريرة لمستشاريه، وأن ينالوا حظوته، وعند تنفيذ هذا يكون السلم قد جرت الموافقة عليه تماماً، وعند ذلك، أصدر الملك الذي تشوق إلى السلام بأية وسيلة، رسائل دعا فيها النبلاء المطرودين للالتقاء به في مؤتمر في غلوستر، في يوم الأحد بعد وقوع عيد الصعود الذي سوف يكون في التاسع والعشرين من أيار، فهناك وقتها سوف يتلقون عفواً شاملاً وسوف يستردون مواريثهم، وأن بإمكانهم الوصول إلى هناك من دون أي توجس وريبة، تحت أمان رئيس الأساقفة والأساقفة، وبناء عليه وصلوا بناء على وساطات رئيس الأساقفة والأساقفة إلى اتفاق مصالحة مع الملك، وبناء عليه جرى قبول:

هيوبرت دي بورغ،، مسؤول العدالة السالف، وغيلبرت باسيت مع أخيه، ورتشارد سيوورد، وجميع الذين نفيوا معهم ومن أجلهم، بالحضرة الملكية، ونالوا منه قبلة السلام في الثامن والعشرين من أيار، وأعيدت إليهم جميع امتيازاتهم من قبله، وفي ذلك المؤتمر، وصل إلى عند الملك غيلبرت أخو الايرل مارشال، وأخبره بوفاة أخيه، وطلب منه أن

يوضع في ميراثه، وعرض تقديم الولاء إلى الملك، وأن يفعل كل ماعليه فعله نحـو مـولاه، ثم أعـاد الملـك إليـه —بناء على نصيحـة رئيس الأساقفة— جميع ممتلكاته الموروثة في انكلترا وكذلك في ايرلاندا، وتلقى الولاء منه، وفي يوم أحد الشعـانين التالي منح مرتبة الفـروسية مع نطاق إلى غيلبرت المذكـور، وسلم إليه عصـا المارشاليـة لبلاطه، ليحملهـا مع جميع المراتب والتشريفـات التي منحت إلى أجـداده، كما أنه قبـل أيضـاً هيـوبرت دي بورغ، وغيلبرت دي بـاسيت، ورتشـارد سيـوورد بين خاصته وأصدقائه المقربين، ومستشاريه، ثم اكتشف تماماً كيف أن ضلل ببراعـة مستشـاريه الماضين، الذيـن لأنهم كـانوا فـاسـدي الضمير، قـد انسحبوا من حضرة الملك.

الملك يطلب حساباً من بطرس ريفول، إلخ

وفي المؤتمر نفسه، قرأ ادموند رئيس أسـاقفة كانتربري، بحضور الملك ومجمع الأساقفة كلهم، والايرلات، والبارونات، الذين كانوا حاضرين، نسخة من الرسائل الحاوية للأوامـر الخيانية، فيما يتعلق برتشارد، الايرل مـارشـال، والتي أرسلت إلى نبـلاء ايـرلندا، من قبل مستشـاري الملك، ولدى سماع الملك نفســه لها، وكـذلك بقيــة الحضـور، حــزنوا بعمق، وانفعلوا حتى تساقطت دمـوعهم، واعترف الملك بحقيقة، بأنه بناء على اكراه من أسقـف وينكستر، وبطرس دي ريفول، ومستشاريـه الآخرين، قـد أمر بوضع ختمـه على بعض الرسـائل التي وضعت أمامـه، وأعلن مقسماً بأنه لم يعرف قط مقـاصدهم، وفي جواب من رئيس الأسـاقفة له قال:

«تفحص ضميرك يامليكـي، لأن جميع الذين تسببـوا بارسـال هذه الرسـائل كانوا على درايـة بالخيانة المنوية، وهـم بذلك مجرمون مـدانون بقتل المارشـال، وكأنهم قتلوه بـأيديهم»، ثم قـام الملك بعـدمـا تلقى نصيحـة، فـأصـدر رسـائل استـدعى فيهـا أسقف وينكستر، وبطرس

ريفول، وستيفن دي سيغريف، وروبرت باسلوي، للالتقاء به بمؤتمر في أيام عيد القديس يوحنا، ليقدموا له حساباً ليس فقط عن أمواله التي تسلموها وصرفت من قبلهم، بل عن سوء استخدام ختمه من دون معرفته، وأمرهم بالظهور في ذلك اليوم للاجابة على التهمة، ولقد وجدوا على كل حال، لدى عودتهم الى ضمائرهم أنهم مجرمون تجاه جميع التهم، وكانوا مرعوبين من غضب الملك من جهة أولى، ومن الجهة الثانية من غضب إخوان المارشال وأصدقائه، الذين تسببوا بموته، ولذلك هرب أسقف وينكستر، وبطرس دي ريفول إلى حرم الكنيسة، وأخفيا نفسيهما في الكنيسة الكاتدرائية في وينكستر، ونأيا بنفسيهما تماماً من أمام الناس، وأخفى ستيفن سيغريف نفسه في كنيسة القديسة مريم في ليستر، وهكذا فإن الذي هرب من قبل من كهنوتيته، وحمل السلاح، عاد الآن إلى واجباته الكهنوتية، واستأنف حمل سبحة صلواته، التي كان قد هجرها، من دون موافقة أسقفه، وطلب روبرت باسلوي الاختفاء في مكان ما من أحد يعرفه، ويؤكد بعضهم أنه ذهب إلى روما، ولم يتجرأوا بناء على دعوة الملك، أن يعبروا عتبة الكنيسة، لأنهم توجسوا من أن أعداءهم الذين أحرقوا قراهم وأبنيتهم ومخازنهم مع محاصيلهم ومع كل شيء آخر ثمين بالنسبة لهم، لن يوفروا حياتهم إذا ماامتلكوا الفرصة لانزال الأذى بهم.

كيف طالب الملك بحساب من بطرس ريفول

وأخيراً استطاع ادموند رئيس أساقفة كانتربري، الذي توسط بين الفئتين المتصارعتين، الحصول على إذن من الملك لهؤلاء الأشخاص بالظهور أمامه، تحت أمان منه شخصياً ومن الأساقفة، وجرى تحديد يوم لذلك، للاجابة على مطالبه، من أجل إنهاء هذا الشقاق في المملكة، والاستراحة منه، وبناء عليه حدد الملك يوم الرابع عشر من تموز من أجلهم، للظهور في ويستمنستر، وفي ذلك اليوم أحضروا أمام

الملك تحت كفالة رئيس الأساقفة المذكور والأساقفة، وكان أول من ظهر أمام الملك للاجابة على الاتهام بطرس دي ريفول، الذي قدم في ثياب كهنوتية، ورأسه محلوق وهو يرتدي اكليلاً عريضاً، وقدم التحية باحترام إلى الملك الذي كان جالساً على مقعد مع المسؤولين عن العدالة، ونظر الملك إليه نظرة ازدراء بسبب الملابس التي ارتداها، وقال:

«أيها الخائن، لقد وضعت دون أن أعرف، بموجب نصيحتك الشريرة، ختمي على رسائل تحتوي على خطط خيانية ضد المارشال، وإنه أيضاً بوساطة مشورتك الشريرة، قمت بنفيه وآخرين من رعاياي الطبيعيين من مملكتي، وبذلك أبعدت عواطفهم عني وتقديرهم لي، وبنصيحتك السيئة عملت حرباً ضدهم، وبددت أموالي وأموال رعيتي»، ثم طلب منه تقديم حساب حول خزينته، وعن التصرف بادارة الشباب الذين كانوا من أسر نبيلة وعهد إليه بالوصاية عليهم، وكذلك حول المواريث العائدة للدولة والموارد الأخرى التي كانت عائدة إلى التاج، وعندما اتهمه الملك بهذه التهم وبتهم جرائم أخرى كثيرة، واتهمه بالخيانة، هو لم ينكر أياً من هذه التهم ضده، بل سجد على الأرض أمام الملك، واستجدى رحمته، وقال: «مولاي الملك، لقد نشأت وأثريت بالمقتنيات الدنيوية بك، لذلك لاتدمر الرجل الذي عملت، بل أعطني الوقت للتفكر، حتى أتمكن من أن أعطيك حساباً صحيحاً فيما يتعلق بجميع الأشياء التي طلبتها مني»، وعلى هذا أجابه الملك: «إنني سوف أبعث بك إلى برج لندن، وهناك يمكن أن تفكر حول القضية، من أجل أن تقدم لي حساباً صحيحاً موائماً»، وعلى هذا ردّ بطرس قائلاً:

«مولاي إنني كاهن، ولاينبغي أن أسجن، أو أن احتجز في سجن للعلمانيين»، وعند ذلك قال الملك له:

«رئيس الأساقفة موجود هنا، وإذا رضي أن يأخذك تحت ضمانته، سأعهد بك إليه لتكون تحت عهدته، من أجل أن تعطيني جواباً صحيحاً لمطالبي»، وباختصار بعث به الملك إلى البرج، واستولى على ممتلكاته الدنيوية، لأنه كان مرتدياً تحت لباسه الكهنوتي سابغة مع دروع لم تكن موائمة لرجل دين ولانافعة له، وقد بقي في برج لندن يومي الخميس والجمعة بعد اعتقاله، ثم أطلق سراحه من قبل رئيس الأساقفة، الذي بعث به إلى الكنيسة الكاتدرائية في وينكستر، حيث بقي هناك.

كيف ظهر ستيفن سيغريف أمام الملك

ومثل في اليوم نفسه ستيفن دي سيغريف أمام الملك تحت حماية رئيس الأساقفة، للاجابة على التهم التي عملت ضده، ولدى ظهوره أمامه اتهمه الملك بأنه خائن شرير، ووجّه إليه الاتهامات نفسها، كالتي سلف ووجّهها إلى بطرس ريفول، وأضاف إلى ذلك أنه أشار عليه بصرف هيوبرت دي بورغ من وظيفة المسؤول عن العدالة، وبسجنه، وبشنقه، وبنفي النبلاء الآخرين من المملكة، وبعد اتهامه بهذه الجرائم وبجرائم أخرى كثيرة، طالبه الملك بحساب عن الذي تسلمه وعن الذي أنفقه في وظيفته المسؤول عند العدالة، وهي الوظيفة التي مارسها بعد صرف هيوبرت دي بورغ، وفيما يتعلق بهذه التهم، حصل رئيس الأساقفة وبعض الأساقفة على فرصة انتظار حتى عيد القديس ميكائيل من أجل اعطائه فرصة للتفكير، وبالنسبة لتهمة اعطاء نصائح شريرة إلى الملك، ردّ على ذلك، بأنه كان لدى الملك العديد من المستشارين، ولذلك فإن الشر الذي وقع لايجوز أن توضع المسؤولية عنه عليه وحده، وأما روبرت باسلوي، الذي شغل منصب الخازن بعد وولتر أسقف كارآيل، فقد أخفى نفسه، ولم يكن من الممكن العثور عليه من قبل الذين طلبوا حياته.

كيف تخلى كونت بريتاني عن ولائه

وفي ذلك العام نفسه، في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، وهو الوقت الذي انتهت فيه الهدنة، المعمولة بين الملكين الفرنسي والانكليزي في بريتاني، أرسل الملك الانكليزي ستين فارساً وألفى ويلزي إلى كونت بريتاني من أجل حماية الأجزاء الضعيفة من أراضي ذلك النبيل، وعند انتهاء الهدنة، جمع الملك الفرنسي جيشاً كبيراً من جميع قوى مملكته، وألقى الحصار على قلعة كانت ملكاً لكونت بريتاني، وتصدى فرسان الملك الانكليزي مع أتباعهم الويلزيين للفرنسيين، وقتلوا عدداً من خيولهم، وبذلك غيّروا الجنود الخيالة إلى جنود رجالة، واستولوا على عرباتهم وعلى عجلاتهم الحاوية لمؤنهم وأسلحتهم، وحملوا معهم خيولهم وغنائمهم الأخرى، وبعدما أنزلوا جميع هذه الأضرار بأعدائهم، عادوا إلى أماكن استقرارهم دون أية خسارة لحقت بهم أنفسهم، وغضب الملك الفرنسي من هذه الأضرار التي لحقت به، فقسم جيشه، وهاجم بريتاني من جميع الاتجاهات، ووجد الكونت نفسه في هذه الضائقة فطلب منحه هدنة وحصل عليها حتى عيد جميع القديسين، من أجل أن يرى فيما إذا كان الملك الانكليزي الذي هو حليفه، سيأتي شخصياً لعونه، ولكي يحصل على هذه الهدنة سلم إلى الملك الفرنسي ثلاثة من خيرة قلاعه، مع تفاهم أنه إذا لم يقدم الملك الانكليزي شخصياً لانقاذ أراضيه خلال الوقت المحدد، هو سوف يتخلى عن جميع بريتاني مع القلاع والمدن التي فيها، إلى الملك الفرنسي كلياً.

وبعدما عمل هذه الهدنة أعاد دوق بريتاني إلى الملك الانكليزي فرسانه مع أتباعهم الويلزيين، وقد نصح هؤلاء الملك، بأن لايبدد المزيد من أموال المملكة من أجل حماية كونت بريتاني، لأنه قد دخل الآن بمعاهدة مع الملك الفرنسي، بقصد التخلي عنه، وإقامة سلام مع الملك

الفـرنسي، وهو ينتظر فقط تبديد جميع الأمـوال الانكليزية، وبعـد مضي وقت قصير، قـدم الكونت المذكـور نفسه إلى انكلترا، وأخبر الملك بأنه أنفق جميع الأمــوال التي امتلكهـا للحصـول على هـذه الهدنة من الملك الفـرنسي، وطلب إعـادة تزويده بخمســة عشر ألف مـارك، وهو مبلغ —كما قال— أنفقه في الدفاع عن أراضيه، من أجل شرف وكرامة ملك انكلترا، وفي إجابة على هذا الطلب قـال الملك بأنه هو الذي حصل على الهدنة وهو الذي أبرمها، وأضاف بأن خزينة انكلترا لم تكن كافية للدفاع عن بريتـاني، وذلك كما تبرهن بتجربة السنوات الثـلاث، وهو لايرغب بأن تتضـاعف نفقـاته أكثر بمثـل هذه المشاكل والنفقـات، وإذا مـارأى كـونت بريتاني أنه —على كل حـال— يكفي، فهـو سوف يرسل أربعـة ايرلات من انكلترا مع فـرسـان وجنود فيهم كفـاية للـدفـاع عن تلك المنطقـة ضد الملك الفـرنسي، ولدى سماع الكونت هذا، ترك الملك وهو مغضب، وعبر إلى بلاده، وهـرب إلى الملك الفـرنسي، ولكـي يخفف من وقع خيـانتـه ضد ذلـك الملك، ذهب إليـه وطوق حول رقبتـه، معترفـاً بخيانته مسلماً إليه جميع بريتاني، مع البلدات والقلاع التي فيها، وقد قيل بأن الملك الفرنسي قد أجابه كما يلي:

«مع أنك خـائن شرير، وتستحق موتاً مشيناً، إنني سـوف أحفظ لك حياتك احترامـاً لمرتبتك، وسوف أعطي ابنك بريتـاني لمدى حياته، وبناء عليـه إنه بعد مـوته سوف يرث ملوك فـرنسا تلك المقـاطعة»، وعندمـا وجـد الكونت نفسـه قـد حرم مـن جميع ممتلكاته، وكأنه خـائن، تلطف ثانية وعرض بوساطة الرسل على الملك الانكليزي الولاء الذي عمله له من قبل، غير أن الملك استــولى على جميع ممتلكات كــونت بريتــاني في انكلترا، وحرمه من جميع مراتبه الشرفية.

واقعة اعجازية تتعلق بأحد الأساقفة

في هذه السنة التي كانت السنة الثالثـة بلا ثمار، انتشر الموت والمجاعة

في كل مكان، ومما لاشك فيه أن هذه الطواعين قد جلبت بوساطة ذنوب السكان، وكذلك بوساطة الأوضاع المناخية المتقدمة التي جاءت في غير مواعيدها، فتغيرت الأجواء، وأصيبت الأرض بعقم عام، وأصيب المريض ومات من الجوع، ولم يواجه سامري طيب ليعطيه ضيافة ويطعمه، أو ليداوي جروحه المميتة، وكانت الصدقات التي كانت تقدم بالعادة من قبل الأغنياء، قد تلاشت الآن، أما الأغنياء الذين كانت لديهم وفرة من الممتلكات، فقد أصيبوا بالعمى إلى حد أن المسيحيين كانوا يعانون مع أنهم خلقوا على شكل الرب، وكانوا يموتون لعوزهم للطعام، ولقد كانوا بالفعل عميان، حيث أنهم تفاخروا بتكديس الثروات، ليس عطاء من الرب، بل بفضل جهودهم وأعمالهم، وحالة مخجلة كهذه كانت منتشرة بشكل عام بين المسيحيين، وكانت مهينة أكثر بين الأساقفة، وبين قساوسة الكنيسة، وبين الرجال الرئيسيين الذين كانوا مشهورين بشرههم، أذكر وولتر رئيس أساقفة يورك، كنموذج للبقية، لأنه عندما ذهب إليه رؤساء ووكلاء عدد من عزبه، وأخبروه بأنه كانت لديه كميات كبيرة من الحبوب، صارت عتيقة بعد مضي خمس سنوات عليها، وهم يتوجسون كثيراً أن هذه الحبوب إما قد أكلت من قبل الجراذين، أو أنها اهترأت بسبب العفونة، هو حتى في زمن مثل ذلك العوز، لم يظهر احتراماً للرب، أو تقديراً للفقير، وأعطى أوامر إلى وكلائه وإلى رؤساء العزب بإعطاء القمح القديم إلى العمال في عزبه، وقال بأنه يتوجب عليهم أن يعيدوا إليه مقابل القديم جديد بعد الخريف المقبل، وحدث أن واحداً من وكلاء رئيس الأساقفة المذكور كان يفحص القمح في بلدة ريبون Ripon وقد أخرج القمح إلى خارج المخازن لدرسه، ووقتها ظهرت بين السنابل رؤوس هوام مثل الأفاعي والعلاجيم وزواحف أخرى، وهرب الخدم الذين جاءوا مع الوكيل للنظر إلى القمح وهم في حالة من الرعب، خشية التعرض للأذى من الهوام، وعندما أخبر رئيس الأساقفة بهذا كله، شعر بالخزي،

فبعث قهرمانه ليرى مـاالذي ينبغي فعله، وعندما قدم إلى المكان، ولدى وصـوله إلى الموضع لم يهتم بحشـود الـزواحف، فـوضع سـلالم على الأكـداس، وأرغم بعض العمال على الصعـود وفحص القمح، ولدى وصولهم إلى القمـة، صدر دخـان أسود من الأكداس، تـرافق بنتانة غير أرضيـة ولايمكن تحملهـا، لذلك نزلـوا إلى الأسفل وابتعـدوا عن الأكداس للنجـاة من الاختناق، معلنين أنهم لم يشموا من قبل مثل هذه النتـانة، كما أنهم سمعـوا صـوتاً بأن لايضعـوا أيديهم على القمح، لأن رئيس الأساقفة وكل شيء عائد إليه كانوا ملكاً للشيطان، وعندما شاهد القهرمان والذين جاءوا معه الخطر الذي نجم عن أعداد الزواحف، بنى جـداراً عـاليـاً حـول قمح الشيطان، وألقى النار في هذه الحبـوب حتى احترقت كلها، من أجل أن لاتنجو، وتؤثر على المنطقة كلها.

وضع اعجازي آخر يتعلق بشراهة أحد الكهنة

كـان يوجـد في منطقة يورك نفسهـا أحـد الكهنة الأغنيـاء، وقد تميـز بقـداسـة مـوقعـه بالوعظ، إنما مـع كل الشره، وقـد وقع في هذه الآونة مـريضـاً، واعتقـد الأطبـاء أنه مصـاب بمـرض مميت، ونظراً لشهـرته بالأفكار الدينيـة التي رعـاها وتبنـاها، والتي كـانت مضـادة لآراء جميع المنطقـة، تمت زيارته من قبل جيرانه من رعـاة الديرة ورؤساء الرهبـان، وهم غير عـارفين أنه مثل ذئب في البهتـان، ومثل ثعبـان في الأعشـاب، وبعدما رحب باحترام برجال الدين الذين جاءوا لرؤيته، لم يعط الرجل المريض الانتباه والتقدير إلى خلاص روحه، بل أخبرهم أنه صدوراً عن احترامه لهم قـام بمنحهم كمية كبيرة من القمح مـوجودة في بلاطه غير مخزونة في مخازنه، وأن عليهـم اقتسـامهـا فيما بينهم حسبما يظهـر هو الأفضل بالنسبـة لهم، ثم خـرج رعاة الديرة ورؤسـاء الرهبـان بناء على أوامر الكاهن المريض، ليلقوا نظرة على القمح الممنوح إليهم، لكن لدى وصـولهم إلى الأكداس، رأوا واقفـاً على مقربة منهم رجـلاً كأنه الكاهن

المريض الذي تركوه في البيت، يلبس مثله، وله المظهر الجسدي نفسه، وهو مشابه له من كل جانب من الجوانب، وخاطبهم هذا الشخص بحدة وقال لهم:

«ماالذي تريدونه هنا؟ أريدكم أن تعرفوا بأن هذا القمح كله، وكذلك الشخص الذي هو في كل مظهره مالك له، هو عائد إلي، لأن الكاهن الذي منح القمح إليكم هو خاضع إلي، وكل ما هو ملك له، هو ملك لي، لأنه قدم الولاء إلي بيدين مطبقتين، ويمكنكم أن تكونوا متأكدين بدون شك، أنه في اليوم الرابع من الآن سوف يموت، ووقتها سوف أسترد كل ماهو عائد إلي، مع الرجل الذي عملته غنياً عندما كان فقيراً»، وعندما سمع رعاة الديرة والذين كانوا معه هذا، أصيبوا بالرعب، وعادوا إلى الكاهن فوجدوه بالرمق الأخير، فأخبروه بكل الذين رأوه وسمعوه، وعندما أخبروه بأن الرجل ذاك عائد إلى الشيطان، أجابهم الكاهن بقوله:

«لقد تحدث بما هو صحيح لأنه قد مضى الآن عشرون عاماً من الوقت الذي كنت فيه رجلاً فقيراً، ووقتها قدمت الولاء إلى الشيطان الذي تحدث الآن إليكم، وذلك من أجل أن أتمكن من الحصول على مكانة أرضية وعلى ثروة دنيوية»، وعاد فور ذلك إلى الاستغفار وإلى الاعتراف، وتخلى عن الشيطان وعن جميع أعمال أبهته، ولقد تخلص من هذا كله بفضل الرحمة الربانية، ومن الآلام الجسدية، ومنح وقتاً كافياً للاستغفار، ومن هذا كان واضحاً تماماً بأن الرب لم يرغب بموت المذنبين، بل بالحري هو يفضل هدايتهم وحياتهم.

معجزة مدهشة وقعت خلال هذا العام

ومع أن الفصلين الذين كتبا أعلاه يريان بشكل واضح كيف أن جريمة الشره هي ممقوتة وينبغي أن ينظر إليها هكذا من قبل جميع

المسيحيين، سوف أضيف قضية ثالثة، كل كلمة فيها معتمدة على شهادة اثنين أو ثلاثة من الشهود، فبعدما تقدم العام الذي تحدثنا عنه أعلاه حتى وصل إلى شهر تموز، استمر يضغط بشدة على الفقير، الذي عانى يومياً من العوز، فقد اندفع الفقراء على شكل جماعات نحو حقول المحاصيل، والتقطوا سنابل القمح، مع أنها لم تكن قد نضجت بعد، وفركوها بأيديهم المرتجفة ساعين لدعم بريق الحياة غير السعيدة، الذي لم يكن ينبض في صدورهم، وهذه الحقيقة من الصعب توجيه اللوم إليها بين الفقراء، لأننا نقرأ في أعمال الرسل بأن حواريي المسيح قد فعلوا الشيء نفسه، وكان بعض عمال القرى، الذين لشدة شرههم كانوا دوماً يشكون بالفقراء، قد شعروا بالغضب الشديد لدى مرورهم بحقولهم ومن ثم اكتشافهم لهذه السرقة التقوية، وقام سكان بلدة اسمها البولديسلي Alboldesly في منطقة كمبردج، بالذهاب في الأحد التالي، الذي وافق السادس عشر من تموز، إلى كنيستهم وطلبوا وهم هائجين من الكاهن أن يعلن على الفور عقوبة الحرمان الكنسي، على جميع الذين التقطوا سنابل القمح من حقولهم، وبينما كان جميع الفلاحين يلحون على هذه النقطة، قام واحد من أهل البلدة وكان رجلاً متديناً وتقياً، عندما رأى بأن الكاهن كان جاهزاً للتفوه بالحكم، فرجاه باسم الرب القدير وباسم جميع القديسين، بأن لايدخله هو وحبوبه في الحكم، ثم إنه أضاف بأنه كان راضياً بما أخذه كل واحد من فقراء الناس من حبوب زرعه، وهم في حالة عوزهم، وأنه قد عهد بالذي بقي إلى عناية الرب، وعندما كانت البقية مصرة على متابعة غاياتها المجنونة، وقد بدأ الكاهن تحت الضغط بالتفوه بالحكم، هبت فجأة عاصفة رعدية، وبروق وزوابع، ترافقت بأمطار غزيرة غير معهودة ومعه برد تساقط بشدة، واقتلعت مزروعات القمح من الحقل بوساطة انفجار من الجحيم، والمواشي والطيور مع كل شيء قد نما بالحقول قد تعرض للدمار، وكأنما قد ديست المزروعات بعربات وخيول، وشوهدت في الهواء العالي

ملائكة الشيطان تطير هناك، وقد اعتقد أنهم وكلاء هذا العذاب، لكن بما أن الاحسان اللاهوتي مستمر نحو الناس الصالحين، إنه بعد توقف تلك العاصفة التي سببت الكثير من الأضرار لجيران ذلك الرجل الأمين والمستقيم، الذي زار حقله، فاكتشف أن مزارعه وأراضيه، وإن كانت في وسط ممتلكات الآخرين، أنها لاتحتوي على أي أثر من آثار أضرار العاصفة، وظهر من هذا واضحاً أكثر من النور، أنه مثلما أعطي المجد للرب في الأعالي من قبل ملائكته، هناك سلام ونوايا طيبة على الأرض نحو الناس، وبدأت هذه العاصفة على حدود بدفورد، وعبرت نحو الشرق خلال جزيرة إيلاي، ونورفولك، ووصلت إلى شاطىء البحر، وفي الحقيقة ثارت في هذا العام عدة عواصف من طبيعة مماثلة في أماكن متعددة، وكانت عواصف مرعبة، كما كانت مؤذية لكثيرين، وبدا مثل هذا وضعاً غريباً أن المزروعات التي بقيت بعد العاصفة، قد اكتشف أنها منتنة إلى حد أنه لاالخيول، أو الحمير، أو الثيران، أو الخنازير، أو البط، أو الدجاج، قبلوا أكلها، مع أنها قدمت إليهم للتغذي بها.

الخلاف الذي تفجر بين البابا وبين الرومان

نشب في هذا العام خلاف جدي بين شعب روما وسكانها من جهة وبين البابا من الجهة الأخرى، وكانت أصول أسبابه كما يلي: ادعى سكان المدينة لأنفسهم امتياز، هو أن الحبر الروماني لايمكنه لأي جريمة من الجرائم إنزال عقوبة الحرمان الكنسي بأي واحد من سكان المدينة، أو حرمان أي علماني من أهل المدينة من شراكة المؤمنين، وفي جواب على هذا قال الحبر الأعظم، أنه و إن كان أدنى من الرب، هو كان أعلى من أي انسان، وبذلك هو أعلى من سكان روما وسيداً عليهم، وبما أنه كان والدهم الروحي، هو ينبغي أن يعاقب أبناءه المذنبين، وهو أيضاً يمتلك الحق بفعل ذلك لأنهم رعيته في الايمان

بالمسيح، وبناء عليه هو بإمكانه قانونياً انزال عقوبة الحرمان الكنسي وأن يضع المدينة تحت عقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين، وذلك عندما يتوفر سبب منطقي لفعل ذلك.

ومجدداً جبت سلطات روما ومجلس شيوخ المدينة من الكنيسة الرومانية جزية سنوية، وقد دفعها البابوات الرومان بموجب عادة موجودة حالياً وكانت قديمة، واستمرت سلطات المدينة ومجلس الشيوخ بقبضها حتى أيام البابا الحالي، وعلى المطالبة بذلك قال البابا، بإنه إذا كان قد حدث في أيام اضطهاد الكنيسة الرومانية، قد لجأت هذه الكنيسة في سبيل الدفاع عن نفسها، ومن أجل السلام، فأقدمت أحياناً على منح أعطيات كبيرة وهدايا إلى سلطات المدينة، فهذا ينبغي عدم تحويله إلى عادة، فالذي ينبغي عدّه عادة هو ماتأسس على الحق، وكان مؤيداً بالمنطق، والذي هو أكثر من هذا هو أن المسيح على صليبه قد جعلها محررة تماماً بوساطة دمه، حتى أن أبواب الجحيم سوف لن تفوز ضدها، ولهذه الأسباب ولأسباب أخرى نشب الخلاف بينه وبين الرومان، وقام البابا مع كرادلته بمغادرة المدينة، وذهب إلى بيروجيا Perugia للاقامة، طالما الخصام مستمر، وفي الوقت نفسه ازداد الرومان جرأة في معارضتهم له، فهدموا بعض أبنيته في المدينة، ولفعلهم هذا حرموا كنسياً من قبله، كما أنه جعل نفسه موضع حظوة عند الامبراطور، وحشد جيشاً كبيراً ليقاوم حملات الرومان، ثم قامت الجيوش المتحدة للامبراطور وللحبر الأعظم بتهديم حوالي ثمان عشرة قرية، كانت مسكونة من قبل هؤلاء الرومان، وقائمة حول المدينة، وقطعوا أشجارهم في بساتينهم، وغضب سكان المدينة تجاه هذا، وأقلعوا بهجوم من روما في الثامن من تشرين الأول، وقد بلغ تعدادهم مائة ألف رجل مسلح، وذلك من أجل نهب مدينة فيتربو واحراقها، لأنها كانت ملكاً للبابا، ولكن عندما خرج هذا الحشد الأحمق من

المدينة، وكـان أفراده يزحفـون دونما تقدير للنظام، بل كـانوا مجموعـات فوضـوية، انقضت عساكـر البابا والامبراطور المدربة عليهم مـن أماكن الكمائن، واندفعت نحو الـرومان، فأحدثت مـذبحة مـرعبة بينهم، لكن مع بعض الخسـائـر لأنفسهم، وسقط من الجانبين حـوالي الثلاثين ألفـاً، وجاءت الخسائر الأعظم، عندما عهدوا بأنفسهم إلى الفرار نحو المدينة، وفـرقوا أنفسهم في جميع الاتجاهـات، وامتلأت الآن قلوبهم بحقـد كبير ضـد البابا، لأن عـدداً كبيراً من ذوي المراتب العليـا من أهل المدينة قـد سقطوا في هـذا الصراع، واستمـر الخصــام بين الفئتين المتنازعتين لمدة طويلة، لكن الرومان وجدوا دوماً أن حظ الحرب كان دوماً ضدهم.

ومات في هذه السنة هيوج فوليوت Foliot أسقف هيرفورد، وقد خلفه المعلم رالف دي ميدستون Maidstone وكان رجلاً مـدهشاً بعلومه، وقد تلقى السيامة على يدي ادموند رئيس أساقفة كانتربري.

ختان صبي مسيحي من قبل اليهود

عـام ١٢٣٥م، الذي كان العـام التاسع عشر لحكم الملك هنري، فيه عقـد الملك بلاطه في عيـد الميـلاد في ويستمنستر، وقـد حضره أسـاقفـة ونبـلاء المملكة، وفي الـوقت نفسـه، والمكان عينه جلـب إلى أمـام الملك سبعـة من اليهـود، الـذين كـانوا قـد سرقـوا طفـلاً من بلدة نورويك، واحتفظوا به كليـاً بعيـداً عن أنظار المسيحيين، وقـاموا بختـانه، وكـانوا عـازمين على صلبـه في الفصح، وقـد وجـدوا حـول هذه الحقيقـة بأنهم مجرمين، وفي حضرة الملك اعترفـوا بالحقيقـة، وقـد بقيـوا في السجن وحياتهم وأطرافهم قيد إرادة الملك.

وفي العام نفسـه، في السابع من شبـاط، مات هيـوج أسقف لنكولن، وعـدو كل الرهبـان، وقـد دفن في الكنيســة الكاتدرائيـة في لنكولن في العــاشر من الشهـر نفســه، وقـد خلفـه المعلم روبرت غـروستيست

Grosseteste وكان رجلاً صالحاً ومتديناً، وبارعاً في العلوم المقدسة، وجرت سيامته من قبل ادموند رئيس أساقفة كانتربري، في الثالث من حزيران في ردنغ، وأبدى رهبان كانتربري اعتراضهم ضد تكريسه، في أي مكان غير بلدته، وأخيراً سمحوا بذلك بهذه المناسبة، شرط أن لايتحول ذلك إلى عادة بعد الآن.

وفي تلك الآونة، بعد عيد طهارة القديسة مريم، عمل ستيفن سيغريف وروبرت باسلوي صلحهما مع الملك، بوساطة دفع ألف مارك، لكنهما لم يرجعا إلى مكانتهما وحظوتهما لديه.

وفي حوالي هذا الوقت أيضاً، في الرابع والعشرين من شباط، مات هنري دي ساندفورت Sandfort أسقف روكستر، وإثر موته انتخب رهبان ذلك المكان المعلم رتشارد دي ويندين Wendene وكان رجلاً متمكناً من العلوم الحرة، لكن عندما جرى تقديمه من قبل الرهبان إلى ادموند رئيس أساقفة كانتربري من أجل تثبيت انتخابه، لم يجر استقباله من قبل ذلك الأسقف، وبناء على ذلك عمل الرهبان مرافعة استئناف إلى البابا.

موت راعي الدير وليم وخلافة جون له

في اليوم التالي لعيد الرسول متى في السنة نفسها، مات وليم راعي دير القديس ألبان، بعدما أدار تلك الكنيسة لمدة عشرين سنة، وحوالي الثلاثة أشهر، ودفن في السابع والعشرين من شباط في بيت هيئة الرهبان، ثم حصل المجمع الديري على إذن الملك لاختيار راعي دير جديد، وفي اليوم الذي أعقب عيد البشارة إلى القديسة مريم، انتخبوا وسط كل المهابة جون رئيس رهبان هيرفورد، وكان واحداً من رهبانهم المحترفين، وقد اختاروه مسؤولاً عن أرواحهم، وقد جرى تقديمه إلى الملك في يوم أحد السعف، وقد استقبل بترحاب من قبله، وجرى

ارسال بعض رهبان وكهنة تلك الكنيسة إلى بلاط روما، وكانوا ممن وظيفة الخاصة وواجبه ذلك، أي العمل في سبيل الحصول على تثبيت للانتخاب، الذي حصلوا عليه دون مصاعب، وعادوا إلى وطنهم مع المباركة الرسولية، وفي اليوم الذي أعقب عيد ميلاد القديسة مريم، الذي كان يوم أحد، تلقى راعي الدير المنتخب المذكور المباركة كراعي دير من روجر أسقف لندن، وخلال هذه المدة الفاصلة، بقي الدير مع متعلقاته بلطف من الملك تحت عهدة الرهبان، من دون توقف لامتيازات الضيافة.

وحصل اليهود في هذا العام من البابا الروماني على امتياز عدم تعرضهم لسوء المعاملة من قبل الملوك أو الأمراء، وذلك عن طريق استخراج المال منهم، أو تعريضهم للسجن.

وفي الوقت نفسه لدى اقتراب عيد الفصح، ذهب بطرس أسقف أوف وينكستر إلى روما، بناء على استدعاء من البابا، لترتيب متابعة اجراءات الحرب التي كان قائماً بها ضد الرومان، لأن ذلك الأسقف، عندما كان شاباً في خدمة المقاتل المشهور رتشارد، وكذلك جون ملكي انكلترا، معهما تعلم قديماً استخدام الدرع قبل أن يرتدي الثوب الكهنوتي، وكان قادراً على تعبئة الجيش قبل أن يمارس التبشير بكلمة الإيمان.

الدعوة إلى حملة صليبية

في هذه السنة التي كانت السنة الثامنة عشرة التي جاءت بعد السنة التي عملت فيها هدنة العشر سنوات في أرض الميعاد، بين الامبراطور الروماني فردريك وبين سلطان مصر، جرت الدعوة إلى حملة صليبية خلال جميع أرجاء المسيحية، بناء على مبادرة من البابا غريغوري الذي بعث برسائل إلى مختلف أجزاء العالم، جاءت كمايلي:

مذكرة البابا

«من غـريغـوري، عبـد عبيـد الرب، إلى جميع العبيـد المؤمنين لمولانا يسوع المسيح المقيمين في انكلترا، تمنيات الصحة مع المباركات الرسولية، مثل راحيل من قبل عندمـا رأت بـداية أولئك الذين ترعـرعـوا في ظل المعركة الحقيقية لخلاصهم، هي أيضاً الكنيسة الرومانية، التي أسفها كبير من أجل الدمـار المتبادل لأولادها، قـد أصـدرت التنهدات ومـابرحت تصـدر التنهـدات مع الآهات والآلام، التـي نأمل بأن تسمع في السماء، وأن يستمـــر المؤمنون بالنحيـب وبالبكاء حتـى يتـولى الـرب رحمتهم، والكنيســة تبكي لأن بيت الخبـز اللاهوتي، وجبل صهيـون، ومن حيث صـدرت الشريعة ونشرت، ومن مـدينة الملك العظيم التي جاءت عنهـا كثير من أحـاديث المجـد، ومن الأرض التي قـدسهـا ابن الرب بسفكه لدمـه، هنـاك من أجلنا ضـاعت قـوة المملكة وجمالها، وهي تبكي لأنها كانت مرة أرضاً حرة، وهي الآن تحت نير طغيان غير تقي، وهي تبكي، لأنه هناك حيث غنـت الحشـود السماوية الكثيرة أغـــاني الســـلام، ظلم الشعب الذي هو أكثـر الناس عـدم طهـارة، فقـد أثار أعمال العـدوان، وخبأ الشرور، والانشقاقـات، وهو يحرك الحرب ويثيرها، وقد مـدّ يده، وطرد من هيكل الرب سيامة الأسقف، وشرائع الطبيعة نفسها من أجل إحلال تلـك الدناسة والقـذارة محلها، ولهذا تدنست القـدس في سبتها، وتلوثت من قبل أعدائها، لأنـه مع أن المدينة المذكورة، إلى جانب هيكل الرب، قـد استردت منذ بعض الوقت الذي مضى، إلى ولدنا المحبـوب جـداً في المسيح، فـردريـك الامبراطور الرومـــاني، وأوغسطس وملك صقليـة المشهـور، لكن بما أن الرب القـدير لم يتلطف آنذاك بمنح المزيد من المجد للمسيحيين عمل الامبراطور المتقدم الذكر هدنة مع السلطان، نهايتها الآن قـد اقتربت، إلى حد أن الوقت المتبقي من المعتقـد أنه لم يعد كافياً من أجل الاستعدادات، مالم نسرع فنقوم بالاستعدادات الضرورية

بكل عجلة، وبثقة وبإيمان فيه حرارة، لذلك ينبغي أن لايتخلف أحداً عن القيام بالحج من أجل ضمان تلك الأرض، وفي سبيل القتال من أجل بلدهم، مع أمل أكيد بالنصر، أو بالموت في سبيل تاج المجد، ومن أجل الحياة، ومن أجل تحمل الشدائد والمصاعب لبعض الوقت في سبيله ولصالحه، وهو الذي كره الإغواء، وتحمل البصاق عليه، وضرب بقبضات مضطهدية، وجلد وتوج بالشوك، وأخيراً ضرب بالمسامير على الصليب، حيث أعطي المرارة ليشربها، وطعن بحربة، وسلم نسمة الحياة بصوت مرتفع، هكذا أنهى حياته الدنيوية، وهو مقهور بالإهانات، من أجل حفظ الجنس البشري، وهو الذي، إذا ما أردنا الحديث بشكل أكثر تفصيلاً، لم يرفض النزول من عرش مجد أبيه، طاوياً السموات بشكل رائع تحته، وهو الذي من أجل حالة موتنا، لم يرفض التحول من كونه رباً ليصبح انساناً، ومن كونه خالقاً لأن يكون مخلوقاً، ومع أن الرب أخذ شكل عبد، من أجل أننا نحن الذين لايمكن أن نأمل بالغفران بموجب صلاحنا، يمكن أن نحصل على نعمة لم يسمع بمثلها، حتى نصبح ورثة الرب، ونتحد بالوراثة مع المسيح، ونشارك باللاهوتية، وننال نصيبنا في السعادة الأبدية، ومع أنه جرى تبنينا من قبله من خلال نعمته، نحن نقدم يومياً براهين على نكراننا للمعروف، ومع ذلك منحنا وفرة من الأشياء الجيدة، مثلما، حتى يبرهن على إيمان أتباعه، جعل الأرض التي بإرادة منه ولد فيها، ومات، وقام ثانية، تعاني من الاستيلاء عليها مطولاً والاستحواذ عليها من قبل الكفار، مع أن يد الرب لم تضعف، كما أن فضائله لم تزل بأي شكل من الأشكال، لأنه وهو الذي عمل الأشياء كلها من لاشيء، يمكنه بلحظة واحدة أن يجعلها حرة، إنه يطلب من رجال نعمة الحب والرحمة، أن يظهروا الاستيعاب الكامل والتطبيق النهائي للشريعة، فهو أولاً تلطف بالشفقة على الانسان في حالته المدمرة، وهو لن يسمح بأي حال من الأحوال للأيدي غير التقية بأن تقوى كثيراً وتشتد ضد الأتقياء، إذا لم يهتم بأن

أذانا ينبغي الانتقام له من خلال فوضانا، وأن يتم الحصول على نظامنا من نصره، وهكذا فإن الغارقين بأعماق الذنوب، وغير القادرين بأي حال، على عمل تكفير، هؤلاء الناس كانوا سيغرقون أكثر في ذلك البحر من الآثام بشكل يائس لولا أنه مدّ لهم لوحاً، ومنحه إليهم على هذه الشاكلة، حيث صار بامكانهم عن طريق الموت في سبيل المسيح، بيسر الوصول إلى الكمال لسنين طوال، لأن كثيرين ممن رغبوا في رؤية الأراضي التي وقف عليها مولانا، قد وصلوا إلى هدفهم من دون التعب في السباق، ونالوا التاج من دون محنة السيف وذلك من خلاله وهو الذي يجازي عساكره المؤمنين المخلصين، وهو ينظر فقط إلى الإرادة الطيبة في خدمته، وهكذا نحن نثق برحمة الرب القدير، وبسلطة رسوليه:

القديس بطرس، والقديس بولص، وبالقدرة على الربط وعلى الحل التي أعطاها الرب إلينا، وبموجب ذلك إننا نمنح إلى جميع الذين سوف يشاركون بأشخاصهم، وعلى نفقتهم الشخصية، أو الذين سوف يجهزون رجالاً موائمين عوضاً عنهم، أو الذين سوف يذهبون على نفقة آخرين، أو الذين سيقدمون مالاً يمكن به تقديم المساعدة إلى الأرض المقدسة، أو الذين سوف يقدمون النصيحة أو المساعدة من أجل الغاية نفسها، هؤلاء جميعاً نحن نمنحهم غفراناً كاملاً عن ذنوبهم التي سوف يستغفرون منها في قلوبهم، وسوف يعترفون بأفواههم، ونحن نتكفل بأن يبقى كل الذين سوف يحملون الصليب من كل من رجال الدين والعلمانيين، بأشخاصهم وممتلكاتهم آمنين تحت حماية القديس بطرس ونحن أنفسنا، وحماية رؤساء الأساقفة والأساقفة وقساوسة الكنيسة، حتى الحصول على معلومات مؤكدة عن موتهم أو عودتهم، وخلال تلك الآونة، مامن جباية ربا أو فائدة سوف تؤخذ منهم أيضاً، أو تجبى سواء من قبل يهود أو مسيحيين. صدر في سبوليتو Spoleto في

الرابع من أيلول في السنة الثامنة من بابويتنا».

وعيّن البابا أيضاً رهباناً من طائفة الفرنسيسكان والمبشرين للدعوة إلى الصليب في جميع أنحاء العالم، مع معلمين قادرين في اللاهوت، الذين انطلقوا يعملون بالانجيل، وتعاون الرب معهم، وثبت تبشيرهم في العلامات التالية:

فقد امتلكت كل منطقة بوساطة الوصاية الرسولية رئيس شمامسة لها وعمداء تولوا جمع الناس في الأسقفية كلهم من نساء ورجال مكفرين كل من يهمل حضور أعمال وعظهم.

معجزة تتعلق بامرأة كانت أطرافها متقلصة

في الحادي عشر من حزيران من العام نفسه، كان روبرت لاوي Lawes وهو راهب من طائفة الفرنسيسكان، يبشر بالانجيل لصالح الحملة الصليبية في بلدة كلير Clare وكانت هناك احدى النساء، قد حرمت من استخدام جميع أطرافها منذ ثلاث سنوات، وكانت تخشى عقوبة الحرمان الكنسي، وقد أعطت المبلغ الصغير من المال الذي امتلكته إلى أحد الجيران، ليحملها على كتفيه إلى المكان الذي كان روجر يبشر فيه، واستلقت هناك وهي تئن وتنوح حتى أنهى رجل الرب موعظته، وذلك عندما أثيرت عاطفة الرحمة لديه، لدى سماعه نواحها، ورؤيتها وهي مستلقية هناك، فذهب إليها وسألها عن سبب قدومها إلى هناك، فأجابته بأنها من خلال الخوف من الحرمان الكنسي قد جلبت إلى مكان تبشيره، وبناء على ذلك أمرها بالذهاب إلى بيتها، دون أن يعرف بأنها قد فقدت استخدام أطرافها، ولدى اخباره من قبل الموظفين هناك، بأنها فقدت استخدام أطرافها تماماً منذ ثلاث سنوات، سألها عما إذا كانت تعتقد بأن الرب قادر بما فيه الكفاية، أنه إذا رغب بتحويلها صحيحة فعل، وقد ردت على هذا: «إنني أؤمن بهذا ياسيدي»، وعند

ذلك أخذ رجل الرب بذراعي المرأة، ورفعها نحو الأعلى بثقة، وهو يقول في الوقت نفسه: «أرجو الرب القدير، الذي تؤمنين به، أن يحوّلك إلى سليمة»، وعندما أمرها بالوقوف والنهوض، فعلت ذلك، واضعة ثقتها في الرب، ولدى محاولتها الوقوف بدأت عظامها وأعصابها فجأة تطقطق، حتى أن الواقفين هنا اعتقدوا أن أطرافها قد تكسرت إلى قطع، وقد عادت هكذا —على كل حال— إلى سلامتها الماضية، وعادت إلى بيتها مسرورة، تسبّح الرب وتمجده لإضفائه مثل تلك القدرة على عبده.

كيف طلب الامبراطور أخت ملك انكلترا للزواج منها

وصل في شهر شباط من هذا العام اثنان من الداوية، مع بعض الفرسان والرسل الخاصين، إلى الملك في ويستمنستر، مكلفين برسائل مختومة بالذهب من الامبراطور فردريك، يطلبون يد ايزابل أخت الملك الانكليزي للزواج، وقد وصلوا إلى الملك في الثالث والعشرين من شباط، ورجوه تقديم جواب للرسائل وللطلب، حتى يتمكنوا من إعلام مولاهم بكل سرعة بقرار الملك، وعندها عقد الملك مداولات دقيقة مع أساقفة ونبلاء مملكته لمدة ثلاث سنوات، وبعدما قلبوا جميعاً وجوه القضية، وفحصوها بكل دقة، وافقوا بالاجماع بأن السيدة ينبغي أن تعطى إلى الامبراطور، وفي السابع والعشرين من شباط، أعطى الملك جوابه بالموافقة على التحالف المطلوب، وعند ذلك طلب الرسل الإذن برؤية السيدة، وبعث الملك بعض الرسل الموثوقين لاحضار أخته من برج لندن حيث كانت محروسة بعناية، ورافقها الرسل مع كل التكريم إلى الملك في ويستمنستر، حيث ظهرت أمام رسل الامبراطور، و كانت سيدة في العشرين من عمرها، جميلة أن تنظر إليها، مزينة بعذراوية لطيفة، ومتميزة بملابسها الملكية وبأخلاقها، وبعدما أنعشوا نظرهم لبعض الوقت بالتحديق بالسيدة، قرروا أنها الأعظم جدارة من جميع

الجوانب للسرير الامبراطوري، وثبتوا الزواج عن نفس الامبراطور باليمين، وقدموا لها خاتم الزواج باسمه، وبعدما وضعوه باصبعها أعلنوها امبراطورة روما، وصرخوا «عاشت امبراطورتنا»، ثم إنهم أرسلوا رسلاً، بكل سرعة لإخبار الامبراطور بالذي عملوه، فقام بعد عيد الفصح مباشرة بارسال رئيس أساقفة كولون، ودوق لوفين Lou-vaine مع صف طويل من النبلاء إلى انكلترا، لإحضار الامبراطورة إليه، وسط التكريم المستحق، ولإكمال احتفالات الزواج، حتى يتمكن من الدخول بها.

زينة عرس الامبراطورة والتحضيرات الفخمة

كانت هناك وفرة عظيمة من الزينة في هذا الزواج، بدت أنها تفوق الثروة الملكية، لأن الامبراطورة نفسها عمل لها تاج وصنع بشكل دقيق من الذهب الخالص، وزين بالجواهر، وحفر عليه صوراً تشبه الشهداء الأربعة والملوك المعترفين لانكلترا، الذين إليهم عهد الملك بشكل خاص العناية بروح أخته، وقد أشرقت بهذه الوفرة العظيمة من الخواتم والأطواق الذهبية، وجواهر أخرى فخمة، مع ملابس من الحرير والسلك الناظم، مع زينة أخرى مماثلة، التي تجذب بالعادة الأنظار وتثير رغبة النساء إلى حد الحسد، حتى بدوا أنهم لايقدرون بثمن، مع ثياب للعرس من الحرير، والصوف، والسلك الناظم، وكانت مزودة بشكل جيد، حتى بات من الصعب القول أيها سوف يجذب أكثر اهتمام الامبراطور، وكان سريرها ثرياً جداً بأغطيته ووساداته، وبألوانه المتعددة، مع مختلف أنواع الأثاث، وكانت الملاءات مصنوعة من الكتان الناعم الممتاز، إلى حد أنهن بنعومتهن كن يغرين المتمدد عليهن بنوم رائع، وكانت جميع أقداح الشرب من الذهب الخالص ومن الفضة، والذي ظهر أنه متفوق على كل شيء، هو آنية الطبخ، كبيرها وصغيرها، حيث كانت من الفضة الخالصة، ومن أجل ادارة هذا كله، والاهتمام

بهذه الأشياء، جرت إنابة خدم البلاطات وندبهم لخدمة الامبراطورة وأسرتها بطريقة ملكية، وبعدما جرى تزويدها بهذا اكله وبهدايا أخرى من أخيها، وبعدما تسلمت بائنتها منه، بقيت السيدة ايزابل تحت عناية أسقف اكستير، ورالف فتز— نيقولا، قهرمان الملك، ونبلاء آخرين من آل بيته، وتولى العناية بها سيدات نبيلات وعقيلات كن جميعاً بارعات بالأخلاق الملكية، وكان فيهن كفاية لخدمة الامبراطورة ومرافقتها، وبعد ترتيب الأمور على هذه الصورة، عقد الملك في يوم عيد القديس يوحنا احتفالاً مهيباً أمام البوابة اللاتينية في ويستمنستر، برفقة رئيس أساقفة كولون، والرسل الآخرين للامبراطور، وفي اليوم التالي أخذ الجميع الطريق نحو منطقة دارتفورد مع مرافقة الملك الذي كان بصحبته قطار كبير من الايرلات والبارونات، واشترى الامبراطور للسيدات اللائي سرن في موكب الامبراطورة عدداً من الخيول المتميزة بألوانها المتنوعة، وخطواتها اللطيفة، والتي تحمل ركابها بمتعة ولطف، دون أن تزعجهم بأية حركة من حركات أقدامهم، وكانت الركابات والسرج مذهبة أيضاً ومحفورة ومن أنواع كثيرة، وكانت اللجم والمقاود محكمة الصنع ومذهبة، وهي مريحة للراكب وللمطية أيضاً، وساروا من خلال مدينة روكستر، ووصلوا إلى دير فيفرهام Feversham وشرعوا من هناك فوصلوا إلى كانتربري، ليمارسوا عباداتهم وليقدموا تعبداتهم إلى توماس، رئيس الأساقفة الشهيد، وبعد تأديتهم لواجباتهم الدينية تابعوا السير إلى ميناء ساندويش، وكانوا قد بلغ تعدادهم حوالي الثلاثة آلاف فارس، ومن ذلك الميناء أقلعت الامبراطورة ورئيس أساقفة كولون مع النبلاء والسيدات، الذين جرى تعيينهم في حاشيتها، وكان الإقلاع في الحادي عشر من أيار، والانطلاق في البحر تحت أشرعة كاملة، ولم يكن الفراق —على كل حال— من دون بكاء بين الأخ والأخت، أي بين الملك والامبراطورة.

وصول الامبراطورة إلى كولون

وبعد رحلة استمرت ثلاثة أيام وثلاث ليال، دخلوا إلى مصب نهر الراين، وبعدما ساروا لمدة يوم وليلة صاعدين في النهر، وصلوا إلى أنتويرب Antwerp وهي مدينة كانت تحت الحكم الامبراطوري، ولدى نزولهم إلى اليابسة هناك استقبلوا بحشد كبير جداً من الرجال المسلحين، كانوا قد أرسلوا من قبل الامبراطور، ليعملوا بمثابة حرس للامبراطورة، وليتولوا حراستها بيقظة نهاراً وليلاً، لأنه قيل بأن بعضاً من أعداء الامبراطور، الذين كانوا متحالفين مع الملك الفرنسي كانوا يخططون لخطف الامبراطورة ومنع الزواج، وقد قوبلوا من قبل جميع الكهنة ورجال الدين العائدين للمناطق المجاورة بمسيرات مهيبة، وهم يقرعون الأجراس ويغنون الأغاني المبهجة، وجاء معهم أفضل المعلمين بكل نوع من أنواع الموسيقى مع آلاتهم، وقد رافقوا الامبراطورة مع جميع أنواع الأغاني الزفافية المبهجة خلال رحلتها، التي استغرقت خمسة أيام إلى كولون، وعندما صار موعد اقترابها معروفاً في ذلك المكان، خرج إلى استقبالها، مع الورود، وسعف النخيل، وبثياب العيد، حوالي عشرة آلاف من سكان المدينة وهم يمتطون الخيول الاسبانية، وبرفقة هذه الحشود الفرحة، سارت الامبراطورة خلال الشوارع الرئيسية للمدينة، التي كانت مزينة بمختلف الطرق والأنواع من أجل وصولها، وعندما علمت بأن كل انسان، ولاسيما السيدات النبيلات من أهل المدينة اللائي جلسن في الشرفات، كن يرغبن برؤية وجهها، رفعت قبعتها والغطاء عن رأسها، من أجل أن يراها الجميع، وبعملها هذا نالت الاطراء من كل انسان، وبعدما نظروا إليها وحدقوا بها أعطوها ثناء كبيراً من أجل جمالها، ومن أجل تواضعها، ثم اتخذت مقراً لها خارج أسوار المدينة، بسبب الضجة التي كانت فيها، وانتظرت هناك تعليمات الامبراطور.

زواج الامبراطور والامبراطورة في وورم

في الوقت الذي وصلت فيه الامبراطورة إلى كولون، كان الامبراطور مشغولاً بـالحرب ضد ابنه الذي تمرد ضـده، وقد قاد والـده جيشاً كبيراً جداً ضده، حتى أنه ألقى الحصـار على عشرة من قلاعه في وقت واحد، وقـد اتخذ ابنه مـوقف الدفـاع في واحـدة مـن هذه القـلاع، كـانت هي الأقوى، إنما لدى إلقـاء أبيه الحصار عليهـا، ولخوفه من شـدة أبيه، ترك القلعة، وألقى بنفسه عند قدميه، والتمس منه رحمته، وكان الأب —على كل حـال— بلا رحمة، فأمر به فـوضع بالأغلال، وحمله معـه إلى وورم، ومن هناك أرسل رسالة إلى الامبراطورة بـأن تأتي إليه إلى هناك، وبذلك كانت قد أقامت ستة أسابيع في كولون، وعند ذلك انطلق رئيس أساقفة كولون وأسقـف اكستير، مع النبلاء الآخريـن الذي كانوا في حـاشيتها، وأخذوا طريقهم فوراً نحو الامبراطور، وبعد رحلة سبعة أيام، أحضروا الامبراطورة وسط جميع أنواع الأبهة الاحتفـالية والفـرح، وقد استقبلت لدى وصـولها من قبل الامبراطـور بسرور واحترام، وبفـرح فـاق جميع الحدود بسبب جمالها، وتـم الزواج بشكل مهيـب في ذلك المكـان في يوم الأحد العشرين من تموز، ومع أن جمالها قد أفرح الامبراطور لدى نظرته الأولى إليهـا، هو ابتهج أكثر بعـد الزواج، وبعـد استمرار الاحتفـالات البهيجـة لمدة أربعة أيام متـواصلة، حصل أسقف اكستير والبقيـة الذين رافقــوا الامبراطورة إلى هناك، على الاذن مـن الامبراطور بالمغــادرة، وعــادوا مبتهجين إلى انكلترا، آخـــذيـن معهم منـه هدايـا إلى الملك الانكليـزي ثلاثة فهــود مع هدايا أخـرى ثمينة كـانت نادرة في بلدان الغرب، ووعده الامبراطور أيضاً بمساعدته ضد الملك الفرنسي.

النسب النبيل للامبراطورة

ولقـد كـــان هناك —على كل حـــال— كثيرون، في الامبراطورية الرومـانـــة، الذي اعتقـدوا، أنه انزال من قـــدر الامبراطور، وحط من

شأنه، وهو الذي كان قـوياً جداً، وغنياً، وكان بحكم وضعـه سيد العالم وحـاكمـه أجمع، أن يتـزوج من أخت ملك انكليـزي، لكن كما يعلم كثيرون إن هناك المزيد من الفخار في أن يكـون الانسان من أصل نبيل، أكثـر منـه أن يكون غنيـاً، وعلى القـارىء أن يعـرف أن والـد هذه الامبراطورة كـان جـون ملك انكلترا، وأن الملك الحاكم الآن لانكلترا، هو هنري أخاها، وأن الملوك المشهورين:

هنري، ورتشارد، وغيـوفري كـونت بريتاني، كـانوا أعمامها، وهؤلاء الملوك يتمتعون بالشهـرة لنبالة أصلهم، وقـد حكموا انكلترا وايرلاندا، منذ أن كانوا ملوكـاً، وحكموا في نورماندي وأكوتين بمـرتبة دوق، وفي بواتو وأنجو بمرتبة كونت، وبـالاضافة إلى ذلك امتلاكهم الإدعاء بحق السيادة على: تورين، ومين، وبري، وأوفـرين، وكان لديهم في جميع هذه المناطق سبعـة رؤسـاء أسـاقفـة خـاضعين لهم، مـع ملكي اسكوتلندا، وويلز، وجزيرتي ايرلاندا، ومان، وإلى جانب هؤلاء عدد لايحصى تقريباً من الأسـاقفـة، والايرلات، والبـارونـات، والفـرسـان، وكـانت أم الامبراطورة ملكة على جميع هـذه البلدان، وبالنسبـة لأختيهـا، كـانت الأولى ملكة الاسكوتلنديين، وكانت الثـانية كونتسـة بيمبروك، وكان لها خمس عمات: كـانت أولاهن زوجة ألفـونسو ملك قشتـالة، وأم بلانشي ملكة فرنسـا (التي ابنها لويس يحكم الآن في تلك المملكـة)، وقد تزوج روجـر ملك صقلية بواحـدة أخـرى، وتزوجت الثالثة من هنري دوق سكسـوني، وصارت أم أوتـو، الذي صار فيها بعـد امبراطور الرومـان، والذي أخـوه من هنري دوق سكسـوني صـار فيها بعـد ملك القـدس، وكانت الرابعة زوجة ريمـوند كونت طولوز، وقد تزوج روتروك Ro-troc كونت بيرشي Perche من الخامسة، وبهذا وبأشياء أخرى بدت الامبراطورة أنها «انحـدرت من نسل الملوك»، لأن أبيهـا الملك جون المتقدم الذكر، كان ابن الملك هنري المشهور، وكان هنري هذا، هو

ابن الامبراطورة مـاتيلدا، ابنة هنري الأول، ملك انكلترا، من ملكته ماتيلدا، وكـانت ماتيلدا هذه ابنة مـالكوم ملك الاسكوتلنديين، وملكته القديسة مـرغريت، وكانت مرغـريت ابنة ادوارد من أغاثا، أخت هنري الامبراطور الرومـاني، وكـان ادوارد هذا ابن ادمـوند الملك الانكليـزي، الذي كان لقبـه «الأطراف الحديدية»، الذي كان ابن الملك إيثلرد Eth-elred وكـان والد إيثلـرد إدغـار Edgar«المسـالم»، وكـــان والد الأخير هو ادموند، وكان والد ادموند هذا ادوارد الأول، الذي كان ابن ألفـرد Alfred الملك الواسع الشهـرة، وأعيـــد نسب هذا الملك في التـواريخ الانكليـزية، إلى آدم، أبـانا الأول، وبهذا وضح أن امبراطورة انحـدرت من أجداد كـانوا محترمين في كل جانب من الجوانب، جـديرة بالزواج من الامبراطور.

وإلى ها هنا وصلت تواريخ المعلم روجر دي ويندوفر.

«وهكذا كان في هذه الصفحات تاريخ عصرنا،

وهناك مايزال في الغيب كتّـاباً سوف يتولون من بعـد الآن إخباركم بالمزيد».

النهاية

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

التاريخ الكبير

تصنيف

متى باريس

(١٢٣٥-١٢٧٣م)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء أربعون (١)

دمشق ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١م

الموسوعة الشامية في
تاريخ الحروب الصليبية

التاريخ الكبير
تصنيف
متى باريس

القسم الأول
(١٢٣٥-١٢٤٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

سلفت بي الاشــارة من قبل إلى متى باريس وكتــابه في التــاريخ الذي أوصل به كتــاب «ورود التــاريخ» إلى أحــداث سنة ١٢٧٣، ومثلما هي معلوماتنا ضئيلة جداً كانت عن صاحب ورود التاريخ هي كذلك عن متى باريس، فهـو قد كان مثـل سلفه من رهبان ديـر القديس ألبان، وهـو شهر بلقب البـاريسي إمـا لأنه ولد في باريس، أو لأنه تعلم في باريس، ولم يشبـه متى سلفه، ولامعـاصريه من الرهبان حيث لم يسع لنيل المراتب الرهبـانية، مع أنه امتلك المؤهلات وكـان عالي الثقـافة، ويبدو أنه صرف اهتمامـه كله نحـو التـاريخ وكتـابته، وقليـلاً هو الوقت الذي صرفـه لدراسـة الكتـاب المقـدس وكتابة تعليقـات عليه، لاهوتيـة أو سوى ذلك، وسعى دومـاً إلى إعادة النظر بما كتبه في التاريخ تنقيحاً وتصحيحاً وإكمالاً.

ولقد صنف متى «التاريخ الكبير» الذي نقدمـه اليوم إلى القارىء العربي للمرة الأولى، وهـذا الكتاب جاء تكملة لعمـل روجر ويندوفر، وهـو معه يصوران أوضاع انكلترا وفـرنسا بشكل رئيسي منذ ماقبل سنة ١٠٩٥ حتى ١٢٧٣، أي مايقـارب القرنين من الزمان، أو بكلمـة أخرى معظم سنوات قرني الحروب الصليبية، ولقد كانت فـرنسا وانكلترا هما اللتان أسهمتا أكثر من غيرهما من بلدان أوربا في أحداث الحروب الصليبيـة، وطبعاً كما سوف يلاحظ القارىء ان روجـر ويندوفر ثم متى باريس لم يقصرا اهتماميهما على فرنسـا وانكلترا، بل شملا بذلـك أوربا كلها، وأن يمتلك الانسـان صورة أوربا خـلال قرني الحروب الصليبيـة فيـه فائـدة جليلة، ومع صـورة أوربا أحـوال الأرض المقــدسة ومجريات الحروب الصليبيــة في الشرق، فلقـد تطورت فكرة حمل الصليـب، وكـان للبــابويـة ورجـال الـلاهوت الدوز

الأعظم في تطوير عقيدة الصليبية والضمانات الممنوحة لحملة الصليب، ولم تعد الحملات الصليبية مقتصرة ضد المسلمين، بل شملت جميع خصوم كنيسة روما، وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ظلت الروح الصليبية متوقدة ضد المسلمين في الشرق، وكان بود البابوية مواصلة إرسال الحملات، لكن أعاقتها الصراعات الداخلية التي تفجرت في كل من فرنسا وانكلترا، حيث كان النظام الاقطاعي يعاني من مشاكل كبيرة، وقد ازدادت المطالب بالمزيد من الحريات العامة وتحديد صلاحيات الملوك، وتوفر صراع مستمر بين الكنيسة وبين التاج، وكانت بذور القوميات قد بدأت تنمو، وتوفرت الأجواء نحو الاتجاه إلى إقامة الحكومات الوطنية إن لم أقل القومية، وكانت نفقات الحملات الصليبية عالية جداً وثقيلة، وفرصة دائمة للاستمرار بفرض الضرائب والمكوس، يوماً لصالح التاج، ويوماً آخر لصالح الكنيسة، ولكن أكثر شيء لصالح البابوية، هذا ويلاحظ أن النهضة الثقافية كانت ضعيفة والعقلية الغيبية هي السائدة لكن توفرت مواجهات جديدة صعبة وتمردات ضد صيغة التثليث والعلاقات بين الأقانيم، ومع ذلك ظلت سلطات البابوية مطلقة وقوية جداً، وتخيف كل انسان بفرض العقوبات الكنسية، ولذلك كانت البابوية تتدخل بالشؤون الداخلية لكل واحدة من دول أوربا، وعانت الادارة البابوية من الفوضى، ومن فعالية الرشوة، وسوء القضاء، وهذا أيضاً عانت منه العروش في فرنسا وانكلترا فالملوك منذ رتشارد الأول ومعاصره فيليب أغسطس باتوا عديمي الخبرة، لابل أحياناً عديمي الوجود، واحتكر المستشارون السلطة، ولذلك لم تتوقف الصراعات السلطوية، وظلت القلاع لها دورها، ولاشك أن الحروب الصليبية كانت لها تأثيراتها على فنون بناء القلاع وتحصيناتها، وعلى التسليح.

هذا في الغرب الأوربي، أما في بلاد الشام والجزيرة ومصر، فقد شكلت الدول الأيوبية عبئاً ثقيلاً على أهل البلاد، حيث انشغل الأيوبيون

بصراعاتهم الداخلية، وتمنوا جميعاً لو أن القدس زالت من الوجود، لذلك كانوا يعرضون تسليمها إلى كل قائد حملة صليبية صغرت أو كبرت، ودفعت دمياط الثمن الباهظ في الدفاع عن مصر وعن القدس.

ومن مزايا كتابينا توفر كميات كبيرة من الوثائق البالغة الأهمية، والتواصل برواية أخبار الأحداث بصدق ودونما تصنيع، مع شيء من العاطفة الانكليزية، هذا وكنا قد ذكرنا أننا لانعرف الكثير عن حياة متى باريس، وبالفعل لاندري بالتأكيد السنة التي توفي فيها، ولعلها كانت سنة ١٢٧٣م التي توقف فيها عن متابعة التأريخ.

هذا وكتب متى كتاباً آخر بالتاريخ حول ملكي ميرشيا Mercia الأوفيين Offas وعن حياة ثلاثة وعشرين من رعاة دير القديس ألبان، واختصر أيضاً التاريخ الكبير بكتاب عرف باسم «التاريخ الصغير»، وأضاف فيها بعد بعض الاضافات إلى هذا الكتاب، وسلف أن ذكرت الجهود الكبيرة التي بذلتها في سبيل الحصول على نسخة من كتاب متى باريس، الذي طبع منذ مائة وخمسين سنة، وبكتاب تاريخ متى باريس، أكون قد دنوت كثيراً من الفراغ من المصادر غير العربية الأساسية.

وإنني إذ أتوجه بالحمد إلى الله تعالى على عونه وتوفيقه، ألتمس منه جلّ وعلا المزيد من العون والتوفيق، والصلاة والسلام على نبيّنا المصطفى وعلى آلة وصحبه أجمعين.

دمشق ١٧ صفر ١٤٢٢ هـ/ ١٠- أيار ٢٠٠١م

سهيل زكار

وهكذا رددنا على الحسد، وفرغنا من ذلك.

«وأعدّ يابرايثي Prythee الكاتب قلمك وجهزه،

وتحرك ثانية ودر في فلكك الخاص بك»

وفي الوقت نفسه، تسلم الملك ضريبة الهايد، أي ماركين عن كل هايد hide من أجل زواج أخته ايزابل، فقد دفع الملك أثناء زواجها إلى الامبراطور، في مدة قصيرة من الزمن ثلاثين ألف مارك، إلى جانب زينة الامبراطورة، والتاج الذي كان غالي الثمن كثيراً.

الانتقام الذي أخذ من أجل موت رتشارد الايرل مارشال

وفي حوالي ذلك الوقت تبجح هنري كليمنت Clement وكان كاهناً، قدم رسولاً من النبلاء الايرلنديين، وتفاخر بشكل غير حكيم، بأنه كان السبب في وفاة الايرل رتشارد المارشال، الذي قال عنه بأنه كان خائناً، وعدواً دموياً للملك، ولجميع المملكة، فقتل الرجل بشكل مهين في لندن، حيث كان الملك، واتهم غيلبرت المارشال بموته، لكنه قدم براهين وافرة على براءته.

وكلف في الوقت نفسه الملك هنري الثالث أسقف كارآيل، واستخدمه لابرام معاهدة زواج مع ابنة ايرل ووركستر، وأن يقدم تعهده، وكذلك تعهد الملك حول هذه المسألة، لكن الملك غيّر فيما بعد رأيه، نتيجة تهديد صدر عن الملك الفرنسي، أنه إذا ما أصر، سوف يجري حرمان والدها، وقد تزوجت فيما بعد من ألفونسو، ملك قشتالة، من أجل جمالها.

الفتاوى الغريغورية الجديدة

وفي هذه الآونة أيضاً، شاهد البابا غريغوري التاسع التداخل المتعب للفتاوى والمراسيم البابوية، فأمر بهم فاختصروا، وجمعوا في إطار صغير، ومن ثم أمر بقراءتهم بشكل مهيب ودقيق مسؤول، ونشرهم في جميع أنحاء

العالم، وبـدأت هذه الفتاوى المعـروفة باسم الغـريغورية نسبـة إلى مصنفها بالجملة التالية: سلام الملك، إلخ، وقـد بدل بعض خصوصياتهم، من ذلك على سبيل المثـال، أن بعض الأشخـاص غير المؤهلين ينبغي عـدم تسلمهم موارد أسقفيـة ولاهوتية، من دون أن يحصلوا أولاً على ترخيـص بالكفاءة من الكرسي الرسـولي، ولأنه عرف أن كثيراً من المنافع تحصل لبـلاط روما، من أجل الحصول على الشيء نفسه، بالطريقة نفسها كما هو الحال من قانون انوسنت، في سبيل أن يحمل ترخيصاً ما منافع أكثر من آخر.

ربا الكورسينيين

سيطر في هذه الأيـام وانتشر الأذى المرعب للكورسينيين Caursines إلى درجة أنه كان من الصعب وجود أي إنسان في جميع انكلترا، خاصة بين الأساقفة الذي لم يقع في شباكهم، حتى الملك نفسه كان مداناً لهم بمبلغ من المال لايمكن تعـداده، لأنهم طوقـوا المحتـاجين وقـت عـوزهم، وموهوا رباهم تحت مظهر التجارة، وتظاهروا أنهم لايعـرفون أن كل ما أضيف إلى الأساس هـو ربا، مهما كان الاسم الذي دعي به، لأنه كـان من الواضح أن قروضهم ليست موجودة في طريق المعونات، بقدر أنهم كانوا لايقدمون يد المساعـدة إلى الفقراء لاسعافهم، بل لخداعهم، وليس لمساعـدة الآخرين في جـوعهـم، بل ليـزيدوا من شراهتهـم، مشـاهدين أن «الدافـع يدمغ عملنا نفسه».

الشكل الذي ربط فيه الكورسينيين المقترضين منهم

إلى كل من سوف يرى الكتابـات الحالية —رئيس رهبان وراعي دير— صحة في الرب— ليكن معلوماً من قبلكم، بأننا قـد تسلمنا قرضاً في لندن، من أجل تسـوية مسـائل تتعلق بنا وبكنيستنا، من فـلان، ومن عـلان، من أجلهم أنفسهـم وَشركائهم، سكان وتجار مدينة— مائة وأربعة ماركات من نقود استيرلينية جيدة وقانونية، وكل مارك مقدر بحساب صرف ١٣ شلنغ

و٤ بنس استيرليني، وفيها يختص بالمائة وأربعة ماركات، نحن نعلن باسمنا وباسم كنيستنا، أننا من دون تنازل أو اعتراض، بأنهم دفعوا إلينا بالكامل، وننكر كلياً وجود أي استثناء بالمال، في أنه لم يجر تعداده، أو في أن المال المذكور لم يتم تحويله لاستخدامنا، ولاستخدامات كنيستنا، وأن المائة والأربعة ماركات استيرلينيات المتقدم ذكرهم، في الصفة والعدد المتقدم ذكره، بأن يحسب للتجار المذكورين، أو لواحد منهم، أو لوكيلهم المحدد، الذي سوف يجلب معه هذه الرسائل الحالية، في عيد القديس بطرس وفينكولا Vincula أي في اليوم الأول من شهر آب، في الهيكل الجديد، في لندن، في سنة ألف ومائتين وخمس وثلاثين لتجسيد ربنا، ونعد بميثاق شرعي، ونربط أنفسنا، باسمنا، وباسم كنيستنا، بأننا سوف ندفع ونسدد بشكل كامل، ونضيف زيادة على ذلك هذا الشرط، وهو أن هذا المال إذا لم يدفع ولم يسدد، في المكان والموعد المتقدم ذكرهما، كما قيل، فإننا نعد أننا منذ ذلك الوقت، وفي موعد هو دائماً قبل انتهائه، ونربط أنفسنا بالميثاق نفسه، بأن ندفع وأن نقدم إلى التجار المتقدم ذكرهم، أو إلى وكيلهم المحدد، في كل شهرين، عن كل عشرة ماركات، مارك واحد عن المال المذكور، وذلك تعويضاً للخسائر، وهي الخسائر والنفقات التي يمكن أن يتحملها هؤلاء التجار أو يتلقوها، وبناء عليه من الممكن المطالبة بالخسائر والنفقات والأساس بشكل فعال، حسبما ورد الذكر أعلاه، والنفقات هي نفقات تاجر واحد، مع فرس واحد، وخادم واحد، حيثما سيكون التاجر حتى يجري الدفع بالكامل لجميع ماتقدم ذكره، والنفقات التي صرفت، أو سوف تصرف من أجل استرداد المال نفسه، سوف تسدد، وتعاد إلى التجار أنفسهم، أو إلى واحد منهم، أو إلى وكيلهم المحدد، وبالنسبة للذي سوف يعوض عن الخسائر، والفائدة والنفقات، إننا نعد التجار المذكورين أننا سوف لن نحصيه أو نحسبه بالنسبة لأساس الدين المذكور، وأن لانحتفظ بالدين المذكور تحت حجة التعويضات المتقدم ذكرها، مراغمة لإرادة التجار المتقدم ذكرهم، تجاوزاً للشرط المتقدم ذكره، وفي سبيل تنفيذ جميع

الشروط المتقدم ذكرها، وأننا سوف ننفذها ونفي بها بكل تأكيد، وسوف نراعيها مراعاة كاملة، ونحن نربط أنفسنا، وكنيستنا، وخلفاءنا وجميع سلعنا وسلع كنيستنا المتحركة، وغير المتحركة، اللاهوتية والدنيوية، الموجودة الآن لدينا، أو التي سوف توجد من الآن فصاعداً، أينما كانوا وحيثما وجدوا، لصالح التجار المذكورين وورثتهم حتى يجري دفع كامل لجميع المتقدم ذكره، الذي إذا كان على شكل بضائع، نحن نعترف بتسلم ذلك منهم بوساطة تأجير مشكوك فيه، ونحن نوافق على وجود المتقدم ذكره في جميع الأماكن، وأمام أي محكمة، وأن نقوم بالتخلي عن كل المتقدم ذكره، بالنسبة لأنفسنا، وبالنسبة لخلفائنا، من كل من الجانب الشرعي والمدني، امتيازات كل من الكهنوت والبلاط القضائي، ورسالة القديس أدريان Adrian وكل عرف، وقرار، وجميع الرسائل، والتعهدات، والامتيازات المحصلة أو التي سوف يتم الحصول عليها من الكرسي الرسولي، لصالح ملك انكلترا، ولجميع شعب مملكته، وقانون De du-abus dieties ومنفعة الدفع الكامل، ومنفعة استئناف المرافعة وإعادة الاتهام، ورسائل المنع الصادرة عن ملك انكلترا، وجميع الاستثناءات الأخرى، حقيقة وشخصية، التي يمكن أن تعترض ضد هذه الأداة أو الفعل، ونحن نعد بمراعاة هذه الأشياء كلها باخلاص، وشهادة على هذه القضية التي نعتقد أنها صحيحة، نقوم بتثبيت خاتمنا على الكتابة الحالية، عمل في اليوم الخامس من Elphege في سنة النعمة ١٢٣٥م».

هكذا كانت الروابط التي لايمكن الخلاص منها، التي ربط بها الكورسينيين المقترضين منهم، وهم عن جدارة حملوا اسم كورسينيين، لأننا إذا أردنا أن نتعامل مع كلمة «كوسور» Causor نجد معناها ليغش، ومعنى كلمة Gapio ليأخذ، ومعنى ursine أي فظ، فهم أولاً أثاروا المحتاجين واستدرجوهم بكلمات ناعمة ومعسولة، ولكن في النهاية طعنوهم بالصميم بما يشبه الرمح، وبناء عليه، وبسبب أن كلماتهم

المكتوبة كانت بارعة جداً، ومأخوذة من كتب القانون، وهي متصلة لها قرابة بمخادعات مرافعات الاستئناف، يعتقد كثير من الناس بأن هذه الأعمال والصفقات لم تحدث من دون موافقة بلاط روما وفقاً لكلمات الانجيلي: «أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور في جيلهم» [لوقا: ١٦/ ٨]، حتى اليهود عندما شاهدوا هذا النوع الجديد من الربا، وقفوا بين المسيحيين يسخرون من سبتنا، ليس من دوق استحقاق.

ايثار بلاط روما للكورسينيين

ورأى في هذا العام نفسه، روجر أسقف لندن، وكان رجلاً متعلماً وتقياً، أن الكورسينيين كانوا يقومون بشكل مكشوف، بمضاعفة أموال الربا لديهم من دون حياء أو خجل، ويمارسون أقذر حياة، ويضايقون رجال الدين بمختلف أنواع الأذى، ويكدسون أكواماً من الثروات، من الأعداد الذين أرغموا على الخضوع إلى نير ظلمهم، فثار بغضب وبإباء عنيف، وأشعل بغيرة قضية العدالة، وبناء عليه وصمهم بالهرطقة، وأنهم الذين نأوا بأنفسهم عن العدل، وهم يثمنون خلال أرواحهم، وأن عليهم القيام بالتكفير عن أفعالهم الأثيمة، ونظروا إلى هذا الانذار نظرة استخفاف وضحكوا منه وازدروه، لابل إنهم هددوا، وبناء عليه سلح الأسقف نفسه بأسلحة العدل، وشرع بحملة تكفير ضدهم جميعاً، وبايجاز وحزم، أمرهم بأن يغادروا على الفور مدينة لندن، التي كانت حتى ذلك الحين محررة من ذلك الطاعون، ولكي لاتتلوث أسقفيته بمثل هذا الدنس، غير أنهم امتلأوا بالتشامخ، ووثقوا بالحماية البابوية، وحصلوا من بلاط روما من دون ضياع للوقت أو صعوبة على قرار، بأن الأسقف المذكور، صار الآن شيخاً كبيراً، وضعيفاً، ومخرفاً، ويتوجب نفيه بشكل قاطع إلى مناطق نائية فيما وراء البحار، وصدر قرار من قبل القضاة الذين كانوا أصدقاء للكورسينيين، ومختارين بناء على رغبتهم، بوجوب أن يمثل الأسقف أمامهم، للاجابة على مااقترفه من ذنب تجاه تجار البابا، ولكن الأسقف

اختـار أن يكون مثل سـام، في أن يغطي عورة أبيـة، وأن لايكون مثل حـام يقـوم بعرض هذه العـورة وكشفهـا، فوضع نهاية سلميـة لهذا الاضطراب الذي أثاره، وتظاهـر باخفـاء الذي وقـع، وأوكل أمـره وقضيتـه إلى حماية القديس بولص، الذي عندما كان يعظ حـول العدالة الصحيحة والشديدة كتب مايلي:

«وإذا مـابشركم مـلاك بعكس هذه الأشياء، فليكن آثماً» [غـلاطيـة: ١/ ٨].

وقاحة بعض الرهبان الفرنسيسكان

وفي هذه الآونة نفسهـا، دخل بعض الرهبـان الفـرنسيسكان، وكـذلك بعض الذين انتمـوا إلى طائفة المبشرين، إلى أراضي ديرة أحـد النبلاء، وهم غير مراعين لاختصاصهم، ولتعليمات نظامهم، وجـاء دخولهم تحت حجة القيام بواجبـاتهم بالوعظ، وتظاهروا بأنهم على نيـة المغادرة في اليـوم التالي بعـد الفـراغ مـن الوعظ، غير أنهم بقيـوا وأشـادوا مـذبحـاً من الخشب، ووضعوا عليه حجراً مكرساً، كـانوا قد جلبوه معهم، وأقاموا بشكل خفي تآمري، وبصوت منخفض قداساً، لابل إنهم تلقوا اعترافات كثير من أتباع الأسقفية، مما شكل تحدياً وتجاوزاً للكهنة، وقـالوا بأن لديهم التفويض من البابا بتلقـي الاعترافات من المؤمنين، الذين يستحون مـن عملها لكهنتهم، أو يأبون عملها، لأن الكهنة اقترفـوا الذنوب نفسها، أو أنهم كـانوا يخشون فعل ذلك لأن الكهنة كـانوا مخمـورين، وإلى هؤلاء أعطى الفـرنسيسكان تحليلاً، بعـدما فـرضوا تكفيراً عليهم، وأرسلوا في الـوقت نفسه مـراقباً إلى البلاط الرومـاني بكل سرعة، ليترافع من أجل قضيتهم ضـد رجال الدين، الذين كانوا مقيمين في منطقتهم، وحصلـوا على إذن بالبقاء هناك مع بعض المنافع الاضـافيـة وإذا حـدث وكـانوا غير راضين بهذا، فـإنهم انفجـروا بإهانات وتهديدات، شاتمين كل طائفـة، باستثناء طائفتهم، وأكدوا أن جميع البقيـة هم بين الذين قضي عليهم بـالادانة، وأنهم سـوف لن يوفـروا نعـال

أقدامهم حتى يبددوا ثروات خصومهم، مهما كانت ضخمة، وبناء عليه تنازل إليهم رجال الدين في كثير من النقاط، وتخلوا لتجنب مؤامرات هؤلاء وعدوانيتهم وهم في قوتهم، لأنهم كانوا المستشارين والرسل لدى النبلاء، لابل أكثر من هذا، كانوا أمناء سر لدى البابا، ولذلك حصلوا على كثير من الحظوة المدنية، ووجد بعضهم —على كل حال— أنفسهم معارضين في بلاط روما، فتراجعوا لأسباب بديهية، وغادروا مبتعدين بحالة اضطراب، لأن الحبر الأعظم قال لهم وهو ينظر إليهم نظرة غضب:

«مامعنى هذا يا إخواني؟ إلى أي مدى أنتم ذاهبون؟ أولم تتخذوا عقيدة الفقر وتتخذوها عن طواعية، وأنكم سوف تسافرون في البلدات والقلاع والمسافات البعيدة، حسبما يقتضي الحال، حفاة، غير متباهين، من أجل التبشير بكلمة الرب بكل تواضع؟ وأولم تقوموا الآن باستئناف اغتصاب هذه الممتلكات لأنفسكم، ضد رغبات أصحاب هذه الاقطاعيات؟ ويبدو أن دياناتكم قد أخذت تتلاشى إلى أبعد الحدود وهي في طريقها إلى الموت، وأن عقائدكم باتت مدحوضة»، ولدى سماعهم بهذا، غادروا وأخذوا يتصرفون بأنفسهم بلطف أكثر، مع أنهم كانوا من قبل قد تحدثوا بشموخ وغطرسة، ورفضوا أن يقادوا بموجب ارادة الآخرين، مع أنهم كانوا في بيوت ليست بيوتهم.

وجرى في هذا العام الاستيلاء على قرطبة —وهي مدينة مشهورة في اسبانيا— من قبل ملك قشتالة، وذلك بعد قتله لأخي أمير المؤمنين، وتمزيق جيشه وتفريقه.

موت روبرت فتز— وولتر وروجر دي سومريك

وفي العام نفسه، مع اقتراب ميلاد ربنا، غادر طريق الجسد روبرت فتز— وولتر، الذي كان باروناً من أصل شهير، وصاحب سمعة عالية، في البراعة في السلاح، وفي العام نفسه أيضاً، أخذ روجر دي سومريك -Su

meric وهو في زهرة الشبـاب، من بين الناس، وكـان رجـلاً فـريداً في فصـاحته، ومن أصل محترم، وصـاحب قوة متميـزة، وفي هذا العام أيضـاً، أرسل الامبراطور جملاً إلى الامبراطور، كعلامة على مواصلة تقديره.

زواج الملك هنري من إليانور ابنة كونت بروفانس

سنة ١٣٢٦ لتجسيـد الرب، التي كـانت السنة العشريـن لحكم الملك هنري الثـالث، وفيها عقـد بلاطه في وينكستر في عيـد الميلاد، وقـد احتفل بذلك العيـد بفرح، فقـد كـان في ذلك الوقت ينظر بتشوق إلى عـودة رسله الخاصين، الذين بعث بهم إلى بروفـانس، إلى ريموند كـونت تلك المقاطعـة مع رسـائل تتضمن تفكيره العميق واهتمامـه الكبير في التعاقـد زواجيـاً مع ابنته إليـانور، وكان الكـونت المذكور من أصل مشهـور، وكان شجـاعاً في المعـركـة، إنما بسبـب استمـرار الحروب، قـد بدد تقـريبـاً جميع المال الذي امتلكه، وكـان قد تزوج من ابنة تومـاس، كونت سـافوي المتـوفى، وأخت أميدوس Amadeus الكونت الحالي، وكانت سيدة ذات جمال مدهش، كـان اسمهـا بيترايس Beatrice وأنجبت هذه السيـــدة من الكونت المتقـدم الذكـر ابنتين لهما جمال عظيم، وكان اسم الكبرى مـرغـريت، وهي التي تزوجت من لويس ملك فرنسـا، حسبما حدثنا كاهن اسمـه جون دي غيت Gates وقـد طلب ملك انكلترا الآن بوسـاطة الرسل المذكــورين الزواج من الابنة الصغـرى، وكانت سيـدة شابة، ذات مظهـر رشيق، ومن أجل الحصول على هذه الحظوة، كان قد أرسل بشكل سري رتشارد، رئيس رهبـان هورل Hurle مقـدمـاً، وقـد تمكن بـاخـلاص وبمتـابعـــة بإنهاء القضيـة، وإثر عـودة رئيس الرهبان، وإخبـاره الملك بالنتيجـة، قـام الملك بمعاودة مراسلة الكونت، بوساطة بعض الرسل الآخرين، وهـم:

هيوج أسقف إيلاي، وروبرت أسقـف هيرفورد، والراهـب روبرت دي ساندفورد Sandford مقدم فرسان الداوية، واستقبل هؤلاء الرسل من قبل كونت بروفانس، لدى وصولهم بأعظم تشريف واحترام، وتسلموا من

يديه ابنتـه إليانور، من أجـل أن تتحد مع ملك انكلترا وبه تقترن، ورافقهـا أيضـاً «خالها» وليم الأسقف المنتخب لبلنسيـة Valentia وكان رجـــــلاً متميزاً، وأيضـاً من قبل كونت شامبين، وكان من أقـرباء الملك الانكليزي، ولدى معرفة كـونت نافار أنها سوف تسافر خـلال أراضيه، خرج مسروراً لاستقبالها، ورافق الركـب بمثابة دليل خلال ممالكـه، أثناء رحلة استمرت خمسة أيام وزيادة، كما أنه بدافع من كـرمه الطبيعي، دفع جميع النفقات لكل من الخيـول والمرافقين، وضم الركب أكثـر من ثلاثمائـة عسكري خيـال في الحاشية، دون أن نحسب العدد الكبير من الذيـن تبعوهم، ولدى وصولهم إلى حدود فرنسـا، حصلوا، ليس فقط على أمان العبور، بل على ممر تشريفي خلال تلك البلاد، تحت رعاية الملـك الفرنسي وملكته، أخت السيدة، التي كـانت على وشك الزواج من الملك الانكليزي، وأيضـاً من قبل بلانشي، أم الملك، وقد أقلعوا من ميناء سانـــدويش (الأقوم: قوانتافيك Quentavic أو ويسانت Wissant), وأخـذوا الطريق بأشرعـة منشورة إلى دوفـــر، حيث وصلوا بعد عبـور سريع، وذلك قبل أن يتوقعوا ذلك، وبعـدما نزلوا إلى اليـابسة بسـلام، انطلقوا نحـو كانتربري، وقـد استقبلوا من قبل الملك، الذي اندفع إلى مابين أذرعة الرسل، وبعدما رأى السيدة، واستحوذ عليها، تزوج منها في كانتربري، وعمل الاحتفـال في الرابع عشر من كانون الثاني، وأقام الاحتفال ادموند رئيس أساقفة ذلك المكان، يساعده الأساقفة الذين قدموا مع السيـدة، وذلك بحضور النبلاء الآخرين وأسـاقفة المملكة، وفي التـاسع عشر من كـانون الثـاني، ذهب الملك إلى ويستمنستر حيث جـرى احتفـال مهيب غير عادي، في اليـوم التـالي، الذي كان يوم أحـد، وفي ذلك الاحتفال كان الملك متـوجاً وكانت إليانور متـوجة ملكة، وعلى هذا تزوج هنري الثـالث في كـانتربري، أمـا الاحتفـال بالعـرس فجـرى في لندن، في ويستمنستر، وكان ذلك يوم عيد القديس فابيان Fabian والقديس سيباستيان Sebastian.

الاحتفالات أثناء زواج هنري الثالث

لقد اجتمع هناك أثناء احتفالات عـرس الملك حشد كبير من النبلاء من الجنسين، مع أعداد كبيرة من رجال الدين، وكذلك جمهور كبير من الناس، وأنواع كبيرة من الممثلين، إلى حد أن لندن، على الرغم من اتسـاعها الكبير، استـوعبتهم بصعـوبـة، وكـانت المدينة كلهـا مـزينة بـالأعـلام والرايات، والأكـاليـل، والمعلقـات، والشمـوع، والمصـابيح، مع ابداعـات رائعـة، وعـروض غير عادية، وكـانت جميع الطرق منظفة من الوحل والأوسـاخ، والعصي، ومن كل شيء مؤذي.

وخـرج سكان المدينة أيضـاً، لاستقبـال الملك والملكة، وكـانوا يرتدون ثياب الزينة، وتنافسـوا واحدهم مع الآخـر محاولين الاسراع بخيولهم، وفي اليوم نفسه عنـدما غادروا المدينة قاصديـن ويستمنستر، ليمارسوا واجبات الساقي للملك (وهي وظيفة قديمة عائدة إليهم بموجب امتياز قديم، أثناء التتـويج)، ساروا إلى هناك وهـم يرتدون ثياباً حـريرية، مع أردية معمـولة بالذهب، مـع غيـارات ثمينة، وقـد امتطـوا خيـولاً غـاليـة، تلمع باللجم الجديدة والسرج، وقد ركبوا على شكل عسـاكر، واصطفوا بأرتال، وحملوا معهم ثلاثمائة وستين قـدحاً من الذهب والفضة، وكـان يسير أمامهم حملة الأبواق والنفـر الملكيـة وهم ينفخـون بها، وهكـذا جعلت هذه المسيرة الاحتفالية الرائعـة، كل انسان يراها، يصاب بالدهشة، وقـام رئيس أساقفة كانتربري، بموجب الحق الخاص به، بممارسة واجب التتويج، وسط المهابة المعتـادة وتولى مساعـدته أسقف لندن كعميـد، وأخذ الأسـاقفة الآخـرون أمـاكنهم تبعـاً لمراتبهم، وبالطريقـة نفسهـا وقف رعـاة الديرة، وكـان على رأسهـم —بمـوجب امتيـازه— راعي دير القـديس ألبـان (لأن ب. ألبـان بحكم كونه رائد شهداء انكلترا، كان المقدم على جميع شهداء انكلترا، وبناء عليـه كـان راعي ديره المقدم على جميـع رعاة الديرة في المرتبـة والمقـام) لأن الامتيـازات الأصيلة لتلك الكنيسة قـد رسمت ذلك، وأدى النبلاء أيضـاً

واجباتهم التي جعلتها الامتيازات القديمة والعادات عائدة إليهم أثناء تتويج الملوك، وبالطريقة نفسها أدى بعض سكان بعض المدن بعض الواجبات العائدة إليهم بموجب امتياز أجدادهم، فقد حمل ايرل شيستر سيف القديس إدوارد، الذي اسمه Curtun أمام الملك، كعلامة على أنه كان ايرل ذلك القصر، وأن لديه حق السلطة في تقييد الملك وردعه إذا ما اقترف خطيئة، وكان مع الايرل قسطلان شيستر، وهو الذي أبقى الناس بعيداً بعصا عندما كانوا يضغطون نحو الأمام بطريقة فوضوية، وحمل المارشال الأعظم لانكلترا، الذي هو ايرل بيمبروك عصا أمام الملك، وأخلى الطريق أمامه في كل من الكنيسة، وفي قاعة الوليمة، ونظم المائدة وجلوس الضيوف حول المنضدة، وحمل حجاب الـ Cinque Ports الطيلسان فوق الملك، محمولاً فوق أربعة رماح، ولكن الادعاء بهذا الواجب لم يكن كلياً من دون خلاف، وزود ايرل ليستر الملك بطست فيه ماء ليغسل يديه قبل الطعام، وقام ايرل وارني Warrenne بواجب حامل كأس الملك، وحل بذلك محل اير آرونديل، لأن الأخير كان مايزال شاباً، ولم يعمل فارساً بحزام بعد، وكان المعلم ميكائيل بيليت الساقي ex officio وكان الايرل هيرفورد هو الذي مارس واجبات مارشال حاشية الملك، وشغل وليم بوشامب وظيفة موزع الصدقات، وأعد المسؤول عن عدالة الغابات الكؤوس على المائدة، على يمين الملك، ومع أنه قابل بعض المعارضة، فإنها سقطت إلى الأرض، ووزع سكان لندن الخمرة في جميع الاتجاهات، في كؤوس ثمينة، وتفوق الذين كانوا من وينكستر في أعمال الطبخ للاحتفال، وشغل البقية أماكنهم المتنوعة، وذلك وفقاً للقوانين القديمة، أو حاولوا فعل ذلك، ولكي لاتتعكر أجواء الاحتفالات الزفافية بأية خلافات، باستثناء امتياز أي واحد، علق البت بأشياء كثيرة آنياً، وترك ذلك إلى فرصة أكثر مواءمة، وعيّن مكتب مستشار انكلترا وجميع المكاتب المرتبطة بالملك واستحوذ عليها في الخزينة، ولذلك فإن المستشار، والحاجب، والمارشال، ومفوض الجيش، أخذوا مقاعدهم هناك

بموجب حقوق مكاتبهم، وذلك مثلما فعل البارونات، وذلك تبعاً لتاريخ خلقهم، في مدينة لندن، حيث عرف كل واحد مكانه، وكان الاحتفال رائعاً، مع ألبسة سرور ارتداها كل من رجال الدين والفرسان الذين كانوا حضوراً، ورش راعي دير ويستمنستر الماء المقدس، وتولى الخازن دور، نائب العميد، فحمل طبق القربان المقدس، ولماذا عليّ وصف جميع هؤلاء الأشخاص الذين خدموا بشكل جليل في كنيسة، وفقاً لمقتضيات واجباتهم؟ ولماذا عليّ وصف وفرة اللحوم والأطباق على المائدة، وكميات لحوم الطرائد، وأنواع السمك، والأصوات المبهجة لرجال الطرب، وسرور الخدم؟ فكل ماهو موجود في العالم، وكان بامكانه الاسهام في توفير السرور والأبهة كان هناك، قد جلب وجمع من كل جهة من الجهات.

هطول ثقيل للأمطار

وفي تلك الآونة، ولمدة شهرين وأكثر، أي في كانون الثاني، وشباط، وجزء من آذار، تساقطت أمطار ثقيلة متواصلة، لم يشاهد مثلها، ولم يسمع بمثلها في ذاكرة أي انسان، وفي حوالي أيام عيد القديس سكولاستكا Scholastica «١٠-شباط»، عندما كان القمر جديداً، ازدادت مياه البحر كثيراً بسبب أن نهر تورنتس Torrents صبّ فيه، وصارت جميع الأنهار، خاصة التي تصب في البحر، سبباً في تحويل جميع المخاضات بجعلها لايمكن عبورها، فقد تدفقت المياه وفاضت من على الطرفين، وأخفت الجسور، فلم تعد تشاهد، وحملت معها كل طاحون وسد، وغمرت الأراضي المزروعة، والمحاصيل والمروج، والسباخ، وكان بين الوقائع غير المعتادة، أن نهر التيمس، فاض فوق حدوده المعتادة، ودخل إلى قصر ويستمنستر الكبير، حيث انتشرت المياه، وغطت المساحة كلها، وصار بإمكان قوارب صغيرة أن تطفو هناك، وذهب الناس إلى بيوتهم على ظهور الخيول، وشقت المياه طريقها بالقوة إلى الأقبية التي كان من الصعب نضح

المياه منها وتصريفها، وأعطت علامات هذه العاصفة التي ظهرت قبلها براهين على تهديداتها ومخاطرها، لأنه في يوم عيد القديس داماسوس Damasus «١١- كانون الأول» سمع رعد، وفي يوم الجمعة التي جاءت بعد حمل القديسة مريم «٨- كانون الأول» شوهدت شمس زائفة إلى جانب الشمس الحقيقية.

وصول رسول إلى انكلترا من عند الامبراطور

وعند الانتهاء من احتفالات الزفاف، غادر الملك لندن، وذهب إلى ميرتون، حيث جمع النبلاء لسماع رسالة وصلت مؤخراً من الامبراطور، ولمناقشة شؤون المملكة، لأن رسلاً قدموا مباشرة من عند الامبراطور إلى الملك، مع رسائل تسأله، أن يرسل من دون تأخير أخاه رتشارد ايرل كورنوول Cornwall الذي أخبار براعته انتشرت بالطول وبالعرض، ليشن حرباً على ملك فرنسا، كما أنه وعد، أن يرسل على سبيل المساعدة، جميع قواته الامبراطورية، في سبيل مساعدة الملك الانكليزي، ليس فقط لاسترداد ممتلكاته القارية، بل بعد استردادهم، لتوسعة ممتلكاته السالفة، وعلى هذا أجاب الملك والنبلاء الذين اجتمعوا هناك، بعد مناقشات كاملة، بأنه سوف لن يكون سليماً وحكيماً، إرسال واحد مايزال شاباً بمثل هذا العمر إلى خارج المملكة، وتعريضه لتقلبات الحظ المشكوك فيها ولمخاطر الحرب، ولاسيما هو وحده ولي العهد الموجود للملك وللمملكة، وكانت جميع الآمال معقودة حوله بعد الملك، ولأن الملك، وإن كان متزوجاً، هو ليس لديه أولاد، والملكة زوجته كانت ماتزال صغيرة، وليس معروفاً بعد هل ستكون منجبة أم عقيمة، لكن إذا كان موافقاً لسموه الامبراطوري، استدعاء أي رجل شجاع آخر يختاره من بين نبلاء المملكة، لهذه الغاية، فإن الملك وجميع أصدقائه ورعيته موافقون على هذا الطلب، وسوف يقدمون له جميع المساعدات التي هي بإمكانهم، ولدى تسلم الرسل هذا الجواب، عادوا لإخبار مولاهم.

بعض القوانين الجديدة التي عملها هنري الثالث

وفي الوقت نفسه، عمل الملك هنري الثالث، بعض القوانين الجديدة، من أجل انقاذ روحه وتحسين أوضاع المملكة، وكان دافعه المؤثر عليه روح العدالة والتقوى، وقد أمر بمراعاة هذه القوانين وتطبيقها بلا استثناء في جميع أرجاء مملكته.

وتعلقت هذه القوانين بالمقام الأول، بأوضاع الأرامل، اللائي كن بعد وفاة أزواجهن، يحرمن من صداقهن، أولم يكن بامكانهن الاستحواذ على ذلك، وعلى بائنة كل واحدة منهن من مرافعة أو ادعاء، وقد رسم أن كل من يحرمهن بالقوة من صداقهن ومن منازلهن التي كانت بحوذتهن عند وفاة أزواجهن، ينبغي بعد ذلك للأرامل أن يستردن فيها بعد استرداد صداقهن بالمرافعة القضائية، ووقتها يحكم على الفئة المغتصبة بالظلم والاغتصاب وعليهم التعويض عن الخطأ والقيام بالاصلاح نحو الأرامل المذكورات، ودفع الثمن الكامل للصداق الذي هو حق كل واحدة منهن، وذلك من يوم وفاة الزوج إلى يوم استرداد الممتلكات بوساطة القضاء، ومع هذا سوف يكون المغتصبون تحت رحمة الملك، وأيضاً سوف تكون الأرامل من الآن فصاعداً يمتلكن الحرية بالحصول على جميع القمح الناتج عن أراضيهن، والصادر عن صداقهن، وكذلك من الأراضي الأخرى، والاقطاعيات المكتراة، باستثناء الخدمات المستحقة إلى مواليهن من صداقهن ومن الاقطاعيات المكتراة الأخرى، وكذلك كل من سيحرم من اقطاعيته المكتراة الحرة، وسوف يسترد الاستملاك بالاستيلاء على ملكية منتزعة جديدة أمام رجال العدالة، أو أنه قام بانتزاع الملكية بموافقتهم، وعندما يستحوذ المنتزع للملكيات من خلال العمدة، إنه إذا كان المستولي قد استولى عليهن بعد المرور بدائرة رجال العدالة، أو من خلال الدائرة نفسها، وسوف يدان بذلك، فإن المغتصبين جميعاً سوف يعتقلون، ويحبسون بسجن مولانا الملك، حتى يجري تحريرهم من قبله، إما بفدية، أو

بأي شكل آخر، والشكل التالي للادانة هو الذي ينبغي أن تجري مراعاته بالنسبة إليهم: عندما يقدم مشتكون إلى المحكمة الملكية، فإنهم سوف يحصلون على مذكرة من الملك ستكون حاوية على براهينهم على الاغتصاب للملكية التي تولاها مغتصب، وبالمذكرة سوف يؤمر العمدة بأن يأخذ معه مراقبي مرافعات التاج، وموظفين قانونين آخرين، وأن يذهب بشخصه إلى الملكية المكتراة أو المرعى، الذي حوله عملت الشكوى، وأن يقوم بحضورهم، بوساطة المحلفين أولاً، وبوساطة الجيران الآخرين، ورجال القانون، أن يقوم بحضور هؤلاء وبوساطتهم ببحث دقيق حول القضية، وإذا ماتم الاكتشاف وجود اغتصاب كما ورد الذكر أعلاه، فوقت ذلك يسيرون بالاجراءات، وفقاً للمواد القانونية المعلنة من قبل، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلسوف يكون أصحاب الشكاية تحت رحمة الملك، وسوف تذهب الفئة الأخرى بدون مسؤولية، والشيء نفسه سوف يعمل بالنسبة لقضية أولئك الذين سوف يستردون ممتلكات باستيلاء موت أسلافهم، فإن الشيء نفسه سوف يعمل أيضاً في قضية جميع الممتلكات الاقطاعية المستردة بوساطة القضاة في بلاط الملك، وأيضاً حيث هناك لدى عدد من نبلاء انكلترا فرسان مقطعين، واقطاعياتهم الحرة ممتلكات صغيرة في عزبهم، وقد اشتكوا أنهم لايستطيعون الإيفاء بما عليهم بالنسبة لما يتعلق بفضلة عزبهم، مثلاً بالنسبة للخسارة، والغابات، والمراعي، وبناء عليه حتى يمكن للفارس المقطع أن يمتلك الكفاية، بما هو متوائم مع أراضيه المكتراة، فقد تقرر ومنح أن مقطعين من هذا النوع، من أي واحد كان، سوف يحضرون ملكية منتزعة جديدة قد استحوذوها، ويعرضوها أمام رجال العدالة، فلسوف تجري الموافقة عليها وأنهم صار لديهم مرعى كاف، متوافقاً مع أراضيهم المكتراة، وذلك مع مدخل حر، ومخرج من أراضيهم المكتراة إلى ذلك المرعى، وأن يكونوا راضين بالشيء نفسه، وكذلك أولئك الذين جرى تقديم شكاويهم المماثلة، فهؤلاء سوف تتم ترضيتهم، بحصولهم على رغبتهم بالنسبة لقضية أراضيهم الخاسرة، وللغابات،

والمراعي، لكنهم إذا ما قالوا بأنهم لم يستحوذوا على مرعى كاف، أو مدخل ومخرج كافيين، فوقتها يجري التدقيق بالحقيقة من قبل المقومين، وإذا ماااكتشف من قبل المقومين، وجود أية عوائق كانت، كما تقدم القول، فوقتها سوف يتسلم ممتلكات بعد الفحص الذي يجريه المحلفون، وبناء عليــه على إخلاصهم، وعلى أيمانهم، يمكن للمشتكين أن يحصلوا على مراعي كافية، ومدخل حر، ومخرج، على الشكل الموضح أعلاه، وسوف يبقى المغتصبون تحت رحمة الملك، وسوف يدفعون ثمن الخسائر، كما اعتادوا أن يدفعوا من قبل هذا التنظيم، ولكن إذا تبين للمقومين بأن المشتكين لديهم مراعي كافية ومداخل حرة كافية ومخارج، كما قيل من قبل، لسوف يسمح للفئة الأخرى أن تعمل ما هو صحيح بالبقية، وسوف تغادر بهدوء، ومنح أيضاً من قبل مولانا الملك، مع موافقة النبلاء، أنه منذ ذلك الحين، سوف لن تتراكم الفائدة ضد قاصر منذ وقت وفاة سلفه، الذي هو وريثه، حتى يصل إلى السن القانوني، إنما على هذا الأساس لايجوز تأخير دفع الرأسمال الأساس، وكذلك فيما يتعلق بالذين اقترفوا اعتداءات في حدائق أو حظائر، جرى نقاش حول قضيتهم، لكن لم يتخذ قرار حول الأمر، لأن النبلاء طالبوا بأن يمتلك كل واحد منهم سجنه، لسجن المتجاوزين الذين يجري اعتقالهم في حدائقهم وحظائرهم، غير أن الملك لم يمنحهم ذلك، ولذلك بقي هذا الأمر كما كان من قبل.

كتابة أرسلت إلى البابا حول
أصل محمد(صلى الله عليه وسلم) وشرائعه

وفي هذا الوقت نفسه، أرسلت رسالة إلى صاحب القداسة البابا غريغوري التاسع من بلدان الشرق، من المبشرين الذين كانوا يرتحلون في تلك المناطق، وعندما نشرت للعالم، وحوت الحديث عن العقيدة الزائفة، وعن... محمد (صلى الله عليه وسلم) نبي الاسلام فإنها أثارت الكراهية والسخرية من قبل الجميع، وهذه الأشياء قد عولجت من قبل في مكانها

المناسب، في أخبار سنة ستمائة، عندما بدأ الوباء المحمدي.

ويصر السراسنة على أنهم عـرفـوا بهذا الاسم نسبـة إلى سـاره«١»، لكن والحق يقال ينبغي أن يقال لهم الهاجريين نسبة إلى هاجر، واسماعيليين نسبة إلى اسماعيل، الذي أنجبـه ابراهيـم من أمتـه هـاجـر، ومـن اسماعيل ولد أبناؤه:

قيـذار، نابت، يشجب، يعرب، تيرح، ناحـور، مقوم، أد، أدد، عـدنان، معـد، نزار، مضر، الياس، مـدركـة، خـزيمة، كنانة، النضر، مـالك، فهـر، غـالب، لؤي، كعب، مـرة، كـلاب، قصي، وعبـد مناف، الذي كـان لديه ولدين هما: هـاشم، وعبـد شمس، وأنجـب هاشم الذي هـو واحـد من الاثنين: عبد المطلب، وأنجـب عبد المطلب: عبد الله، الذي منـه ولد محمد (صلى الله عليه وسلم)، الذي يعدّ نبـي السراسنة.. وقد خلف محمد (صلى الله عليـه وسلـم) في مملكتـه وفي أوهامـه الخطاب (كـذا) وخلف الخطاب عمـر، وهو الذي كـان معـاصراً لكسرى، الذي قتلـه هرقل، الامبراطور الروماني.

الممارسات التي نشأ فيها محمد (صلى الله عليه وسلم)

وهذا الرجل، الذي اسمه محمد (صلى الله عليـه وسلم)، عند موت أبيه عبـد مناف، تولى العناية به رجل اسمـه أبو طالب، وقد صـار وصياً عليـه، ورباه، وكان رجلاً يرعى الأوثان في مكان اسمـه الكعبة، وأيضاً بيت الله، وعندما وصل إلى سن الشباب، أصبح يعمل لدى امـرأة اسمها خديجة ابنة خويلـد، التي أعطته أتاناً لخدمـاته، وليجلب بضائع إلى مناطق آسيـا، التي كانت هي تتسلم ثمنها، وأخيراً تصادق مع هذه المرأة وتزوجها، وقد ارتفع شأنه بذلك كثيراً، وبـدأ يتشـامخ، وسعى لأن يجعل نفسـه حـاكماً على كل القبائل،وعلى شعبه، وفي الحقيقة كان سيدعي لنفسه أنه الملك عليهم، لولا

١- أصل الكلمة هو التصحيف المعتاد لدى النقل من لغة إلى أخرى، لكلمة «شركة ثمود».

أن بعضهم الذين كانوا أكثر نبالة وقوة منه شخصياً قد عارضوا هذا المغتصب، وعند ذلك أعلن عن نفسه أنه نبي بعث من عند الله، وأن على جميع الناس الإيمان بكلماته، ولم يكن العرب الجاهلين والفقراء قد رأوا من قبل نبياً، ولذلك آمنوا به، وكان هناك أيضاً واحداً مرتداً، قد وقع بالهرطقة، وكان محروماً كنسياً، وقد دعا إلى العقيدة نفسها، وكتب عقيدته، وجذب محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى صداقته جميع قطاعي الطرق واللصوص الذين أمكنه جمعهم، ومركزهم في أماكن سرية على الطرق من أجل سرقة التجار وهم على طريقهم من آسيا، وكان في أحد الأيام قادماً من مدينتي اليمن والشام، فوجد على الطريق جملاً، كان ملكاً لرجل اسمه «أبي جهل ابن هشام»، فاستولى عليه على الفور، وهرب إلى مدينة مكة، غير أن سكان ذلك المكان، لم ينظروا إليه كنبي، فأهانوه، وطردوه من مدينتهم كمدعي، وكرهوه كسارق وسالب للمسافرين، ثم إنه ذهب إلى مدينة في الصحراء، كان شطر من سكانها يهود، والشطر الآخر كفار، ووثنيين، وفقراء، وأناس جهلة، وهناك بنى مع أصحابه معبداً فيه نشر عقائده المزيفة إلى الناس البسطاء، وبعد هذا أرسل واحداً من أتباعه اسمه حمزة بن عبد المطلب Gadimelic مع أربعين جندياً، لنهب التجار الذين كانوا يرتحلون مع مبالغ كبيرة من المال، والتقى هؤلاء الرجال بأبي جهل بن هشام (الذي كان محمد «صلى الله عليه وسلم» قد استولى على جمله)، وكان برفقته ثلاثمائة رجل من مدينته، ولدى رؤية هؤلاء هرب اللصوص الذين أرسلوا من قبل محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهذا يدل على أن هذا النبي المزيف لم يستطع أن يتنبأ مسبقاً بهذه الحادثة ليحترس ضدها، لأنه لم تكن لديه روح النبوة، ولذلك فإن السراسنة يكذبون عندما يقولون بأنه كان لديه دائماً عشرة ملائكة معه، كانوا يتولون خدمته في كل شيء.

وفي مناسبة أخرى أرسل محمد (صلى الله عليه وسلم) هذا، رجلاً اسمه عبيدة Gabeit ابن الحارث Alcharith مع أربعين عسكرياً، لجمع

الأسلاب، وقد هوجم هؤلاء من قبل مكرز Abizechem ابن حفص Nubar مع أصحابه، وقد هزم هؤلاء اللصوص وفـرقوهم بعدما قتلوا بعضاً منهم، ومامن واحـد من مـلائكة محمـد (صلى الله عليه وسلم) قـد سـاعدهم، ومجدداً أرسل محمـد(صلى الله عليه وسلم) في المناسبـة الثالثـة، واحداً من أتبـاعه اسمه عبد الله بن جحش... [إكتفيت بها تقـدم كنموذج وحـذفت البـاقي لعـدم الفـائـدة، وللتشـويه الشـديد الذي لحق بالأسماء، وللزيف الواضح].

هرطقة الباترينين والبوغارينين

وحصل في هذه الآونة الهراطقـة الذين يعرفون باسـم الباترينيين Pat-erinians والبـوغـارينيين Bugarians الذين يسكنون في مناطق مـاوراء الألب، والذين أفضل أن أقف صـامتاً تجاه آثامهم وأن لاأذكـرها، حصلوا على أرضية قوية حتى أنهم تجرأوا على تهديد نقاوة الإيمان في مناطق فـرنسـا وفـلاندرز، لكن بفضل نشـاط وادارة ومتـابعـة الواعظين من الفـرنسيسكـان، والمبشرين، واللاهوتيين، وبشكـل خـاص واحـد من المبشرين اسمه روبرت (الذي كـان لقبه بوغري Bugre وكان قد تحول من ذلك الإيمان ولبـس رداء المبشرين) وكـان قـد عـرف باسم مطرقـة الهراطقـة، فبفضلـه انحسرت أوهامهم، وجـرى الكشف عـن اثمهم وفضحه، وقـد رفض عدد من الجنسين التحـول إلى الإيمان الصحيح، فأمر باحراقهم، وهكذا أحرق خلال شهرين أو ثلاثة أشهر خمسين انسانا، وهم أحياء.

نشوب خلاف بين الامبراطور وبين الرومان

واشتعل في هذه الآونة غضب الامبراطور ضـد الايطاليين، إلى درجـة، أنه لإزدياده وحقنه يومياً تفجـر على شكل حقد شديد لايمكن اصـلاحه، ولذلك تقـدم بشكاوى كثيرة حـول صلفهم إلى صـاحب القداسـة البـابا،

مؤكداً ومصرّاً على أن تشامخ الذين يكرهونه هو الذي يسيطر دوماً، وسأل البابا أن يقوم مع مساعدة جميع البلاط الروماني، في أن يعطي اهتمامه كله، لإعادة إقامة سلام مشرف بينه وبينهم، أو أن يقدم إليه مساعدة فعالة، حتى يتمكن بوساطة استخدام السلاح من تدجينهم واخضاعهم، وانزالهم إلى وضعهم المعتاد بالطاعة، وكما أن البابا قد طُلب منه تقديم مساعدة إليه، وعد الامبراطور بتقديم المساعدة إلى الكنيسة الرومانية، عندما تجد نفسها في ضائقة ومحتاجة إليها، ولذلك وجدت الكنيسة نفسها في وضع حرج، ولم تعرف كيف تقرر التصرف، واشتكى الامبراطور بحدة كبيرة من مدينة ميلان التي كانت حاضنة الهراطقة وحامية المتمردين ضد الامبراطورية، ولكي يحارب ذلك المكان، حشد في المكان نفسه جيشاً كبيراً، وقد سجن ابنه هنري، الذي اتهم بالخيانة ضد أبيه، في سجن مضيق عليه.

عقد مؤتمر في لندن

اجتمع في العام نفسه، في ٢٨ نيسان نبلاء انكلترا في مؤتمر عقد في لندن، للبحث في شؤون المملكة، وكان الذي سبب دهشة كبيرة إلى الجميع أن الملك اتبع نصيحة الأسقف المنتخب لبلنسية Valentia بدلاً مما كان عليه، برفضها، فقد بدا للنبلاء أن مواضيعه العامة تستحق الازدراء، ولذلك غضبوا من الملك واتهموه بالتقلب، وقالوا فيما بينهم:

«لماذا لايحمل هذا الأسقف المنتخب نفسه، ويذهب إلى مملكة فرنسا، بما أن الملك الفرنسي قد تزوج من الأخت الكبرى لملكتنا، وذلك من أجل أن يدير المملكة الفرنسية، كما يفعل هنا، وبسبب أن ابنة أخته هي ملكة تلك البلاد؟»، وكانوا غاضبين جداً، وذهب الملك في اليوم الأول من المؤتمر إلى برج لندن، وبذلك أعطى سبباً كبيراً لعدم الرضا، لكثيرين حول هذه القضية، وقد شعروا بأحاسيس غير موائمة وليست مفيدة، ولذلك لم يذهب النبلاء لافردياً ولاجماعياً إلى برج لندن إلى الملك، خوفاً منهم من أن يقبل بالنصيحة الشريرة، وأن يثور غضبه عليهم، وقد أنذرتهم كلمات

هوراس Horace:

«لأن علامات أقدام هذه الحيوانات تشير نحو عرينك

مامن أحد منهم، بقدر مايمكنني الرؤية، قد عاد ثانية».

ومع هذا فإن الملك ضبط نفسه بعواطف الحكمة، فذهب من البرج إلى قصره، ليبحث هناك حول المسائل الملحة للمملكة، بشكل أكثر مواءمة مع نبلائه، وقد وصل إلى قرار يستحق الثناء، وهو وجوب صرف جميع عمد المناطق، و ينبغي تعيين آخرين مكانهم، لأنهم فسدوا بالرشوة، وابتعدوا عن طرق الصدق والعدل، ولذلك أحل الملك محلهم رجالاً امتلكوا المزيد من الأراضي الاقطاعية المكتراة، وكانوا أغنى، ومن أصل أكثر نبالة، ومن الذين لن تدفعهم الحاجة إلى اشتهاء الهدايا، كما أنهم لن يكونوا عرضة للفساد، كما أنه جعلهم يقسمون أنهم لن يقبلوا أية أعطية، مالم تكن على شكل طعام أو شراب، وفقط بشكل معتدل وليس متطرفاً، ولن يقبلوا هدية أية أرض بمثابة جائزة، فيها تتعرض العدالة إلى الفساد، وإلى هذا المؤتمر أرسل ملك سكوتلندا رسلاً خاصين، طلبوا من الملك بإلحاح الامتيازات العائدة إلى مولاهم، أي إلى ملك سكوتلندا المذكور، حيث قالوا بأن لديهم صكاً، وعندهم شهادات عدد كبير من النبلاء، ولكن وضع القرار حول هذه القضية في الوقت الحالي جانباً، وتأجل البت فيه، وفي الوقت نفسه، لأن الملك لم يكن بإمكانه إعادة إقامة سلام بين أخيه الايرل رتشارد، ورتشارد سيوورد، قام بنفي الأخير من المملكة، قائلاً بأنه يؤثر تحمل غضبه وليس غضب أخاه، وقام أيضاً، لدهشة الكثيرين بعزل مستشاريه من وظائفهم، وهم:

رالف فتز— نيقولا، قهرمان قصره، وعدد كبير آخر من كبار رجالات حاشيته، كما أنه طلب أيضاً على الفور استرداد خاتمه من أسقف شيستر، الذي كان مستشاره، مع أنه قام بواجبات وظيفته من دون ملامة، مبرهناً

على أنه عمـود مدهش للصدق في البـلاط، وعلى كل حال رفـض المستشار تنفيـذ ذلك، ورأى أن عنف الملك قـد تجاوز حـدود الاعتـدال، وقـال بأنه لايمكنه التنازل عنه بأي حال من الأحـوال، لأنه تولى مسؤولية هذا العمل بمـوجب مـوافقة عـامـة من المملكة، ولذلك لايمكنه الاستقـالة من دون الحصول على الموافقة نفسها.

وفي تلك الآونة نفسها أيضـاً، أرسل الامبراطور رسلاً إلى الملك، يطلب مبلغاً كبيراً من المال، كان الملك قد وعده به مع أخته.

معركة حوربت في سكوتلندا

وفي حوالي الوقت نفسـه، احتشد عدد من النبلاء ومن الرجـال الأشداء من مختلف مناطق الغـرب، وخـاصة من غـالووي Galleway وجزر الانسـان، ومن أجـزاء من ايرلندا، وجـاء احتشـادهم بناء على مبـادرة من هيوج دي لاسي، الذي كانت ابنته قد تزوجت من آلان صاحب غالووي، المتـوفى أخيراً، وقـد اتحدوا مع بعضهم من أجل هدف استرداد غـالووي واعادتها إلى الابن الشرعي لآلان المتقدم ذكـره، ولكي يزيلوا بالقوة، الخلع الذي عمله لتـوه ملك اسكـوتلندا، الذي وزع الميراث بين البنات الثـلاث لآلان، اللائي يعـود إليهن الميراث بموجب الحق الشرعي، وبناء عليـه إنه من أجل اعـادة النظر بذلك التوزيع أو إلغـائه، ولكي يعيـدوا الأراضي إلى توماس المتقـدم الذكر، أو إلى ابن تـوماس، الذي هو أخـو توماس، أو على الأقل إلى واحد مـن تلك الأسرة، هبّ أصحاب هذه الدعـوة من المقدمين إلى السـلاح، و انفجروا يمارسـون العنف، ويسعـون إلى تحرير أنفسهم من سلطة الملك، ولكي يجلبوا محاولاتهم إلى النتيجة المرجوة، دخلوا في معاهدة من نوع غريب، وذلك بوساطة عمل تقوي غريب، هو عائد إلى عادة شاذة لأجدادهم، حيث قام جميع هؤلاء البرابرة ومقدميهم ورجال العدالة لديهم بسحب الدم من العـرق القـريب من القلب، وصبـوا ذلك الدم في كأس كبير، ثم حـركوه ومـزجوه، وبعـد ذلك شرب كل واحد منهم تلو الآخـر

جرعة منه، كعهد على أنهم سوف يكونون منذ ذلك الوقت متعاهدين بعهد لايمكن فصمه، وبما أن معاهدتهم هي معاهدة قرابة في السراء والضراء، حتى لو كلفهم ذلك رؤوسهم، لذلك أثاروا الملك والمملكة للإقدام على الحرب، فأحرقوا بيوتهم وبيوت جيرانهم، حتى إذا ما وصل الملك سوف لن يجد لامأوى ولاطعاماً من أجل جيشه، وتورطوا في أعمال الاغتصاب والاحراق، وكدسوا الأذى فوق الأذى، ولدى سماع ملك الاسكوتلنديين بهذا جمع قواته من جميع الجهات، وزحف من أجل اللقاء بهم، وانقلب خط الحرب ضد الغالوويين وأرغموا على الفرار، وطاردتهم القوات الملكية بحد السيف، وقتلت عدة آلاف منهم، والذين أخذوا أسرى وهم أحياء، من قبل الملك وجنوده، واجهوا موتاً مهيناً، دون أية فرصة لفداء أنفسهم، وقد ألقى بعضهم بأنفسهم على رحمة الملك، فألقيوا بسجون ضيقة، حتى يتمكن من التشاور حول الذي ينبغي فعله بهم، وقد قام —ليس من دون مسوغ جيد— بحرمانهم وورثتهم من مواريثهم، وبعدما نال الملك هذا النصر، حمد الرب ومجده، الذي هو رب الجيوش، وأصغى إلى مشورة جيدة، فبعث رسالة إلى روجر دي كوينسي Quincy ايرل وينكستر، وجون بالأويل Baliol ووليم ابن ايرل ألبيمارك، حيث بما أنهم كانوا متزوجين من بنات آلان أوف غالووي، يمكنهم الآن، بعد القضاء على الاضطراب، الاستحواذ بسلام على الحقوق العائدة إليهم، ووقعت المعركة في شهر نيسان، وكان حظ الحرب لصالح ملك الاسكوتلنديين.

اضطراب في المملكة الفرنسية

في الربيع من العام نفسه، ثار كثير من النبلاء في عصيان، لانشاب الحرب ضد مملكة فرنسا، لأن غضبهم قد أثير بسبب أن فرنسا، التي هي ملكة الممالك، كانت تحكم بمشورة امرأة، والتحق رجال من ذوي المراتب العليا، ويتمتعون بالشهرة، وكانوا مدربين منذ صغرهم على استخدام السلاح، بالعصيان، وتحالف ملك نافار، وكونت شامبين، وكونت لي

مـارشي، وكـونت بريتـاني، وعدد كبير آخـر من النبـلاء، فيما بينهم، بعهـد ويمين ومعاهدة.

موت وليم دوبني

وفي هذه الآونة أيضـاً، في الســادس من أيار، أنهى وليم دوبني Dau-beny الأكبر حياته في سن متقدمـة، وكان فارساً شجـاعاً، وشهماً، وقد حُـبي بجميـع السمات النبيلة، وقـد خلفـه ابنه وليم، الذي كـان وريثـه الشرعي، والذي سار على نهج أبيه في كل مجال.

الاستيلاء على قرطبة وابرام سبتة هدنة

وهاجم في هـذا العـام نفســه، سكان جنوى، يســاعـدهم البيــازنة، والمرسيليين، وملك أراغون، بشكل مفاجىء مدينة فخمة في اسبانيا اسمها سبتة Cepta وكانت بيد المسلمين، وكانت تلحق منذ زمن طويل كثيراً من الأذى والضرر بالغزاة المذكورين، وبسبب الخوف من العدد الكبير من أعدائهم، وبسبب الهجوم المفـاجىء للأعداء، استسلم أهل سبتة إلى سلطة الأعـداء، وعملوا هدنة محدودة الوقت، اشترطت أنه إذا لم يقـدم مـولاهم ملك افـريقيـا الذي يعـرف عـادة باسـم أمير المؤمنين، أو لم يرسل إليهم مساعدة فعالة خلال ثلاثة أعوام، هم سوف يستسلمون طواعية ومن دون أية مصـاعب ويسلمون المدينة كلهـا إليهم، كما اشترط أنه في الوقت نفســه يمكن لملك أراغـون ولحلفائـه في أية وقت خـلال الأعوام الثـلاثة أن يبني بسلام برجـاً، وأن يحصنه حسبما يريد، وذلك على جسر، كانوا قـد استولوا عليـه قبل الإعـداد لهذه الهدنة، ثم جـرى بعـد ذلك الاستيـلاء على مـدينة قـرطبـة، وبما أن سبتـة كـانت قـد احتلت منذ أمـد، فقــد ارتفعت آمـال المسيحيين، واستبد الرعب بالمسلمين، وبشكل خاص بملك افريقيا.

أعجوبة

ظهرت في تلك الآونـة، في شهر أيار، وعلى مقربة مـن دير اسمه روشي

في الجزء الشمالي من انكلترا أيـدي فـرســان مسلحين بشكل Roche جيد، ويمتطون خيولاً ثمينة، مع رايات، وترسة، ودروع وسوابغ، وخوذ، وكانوا مزينين بتجهيزات عسكرية أخرى، وقد خرجوا من باطن الأرض، ثم اختفـوا وبعـد ذلك ظهـروا مجدداً، وقد استمـر هذا المشهـد لعـدة أيام، وجذب انتباه الذين نظروا إليه وشـاهدوه، ودهشوا تجاهه وتمتعوا، وركب هؤلاء الفـرسـان على شكل صفـوف وأرتال، واشتبكوا أحيـاناً بالضراب، وتبـارزوا أثناء المنازلات، وقصفـوا رمـاحهم وحطمـوها إلى قطع صغيرة أثناء الصـدام، وقـد رآهم السكان وشـاهدوهم، لكن ذلك كـان عن بعـد وليس من قـربهم، لأنهم لم يتـذكـروا أنهم شهـدوا مثل هذا المنظر من قبل، وقـال كثيرون بأن الواقعة لم تكن من دون مهـابة خـاصة بها، وكـانت هذه الواقعة أكثر وضوحاً في ايرلندا وعند حدودها، حيث ظهروا وكأنهم كانوا قادمين من المعركة، وقد جـروا خيولهم خلفهم، وكانوا معقورين منهكين، ومن دون ركّاب، وكان الفرسان أنفسهم مجروحين بشدة وملوثين بالدماء، والذي كــان أكثــر ادهاشــاً هـو أن اثر سيرهم ظهــر على الأرض وعلى الحشائـش النامية وعلى حركـاتها واهتزازاتها، وكثير من الناس عنـدما رأوا هذا المشهد هربوا مذعـورين من أمامهم، وحملوا أنفسهم إلى الكنائس وإلى القـلاع، معتقـدين أن المسألة لم تكن وهماً، بل معـركـة حقيقيـة، ووصلت أخبـار هذه الوقـائع إلى علمنا بعـد عـدة سنوات من وقـوعهـا، وذلك من خـلال تقـريـر ورواية صحيحـة عن الحادثة تم الحصــول عليهـا من ايرل غلوستر، ومن شهادات عدد كبير من الأشخاص.

الملك يسعى إلى إلغاء بعض المنح التي عملها

وفي العام نفسـه نال بطرس ريفول وستيفن سيغـريف، اللذين أتينا على ذكـرهما من قبل أعـلاه الحظوة لدى الملك، وفي هذا العـام أيضاً، في اليـوم الثـامن من حزيـران، اجتمع نبلاء انكلترا في ويستمنستر، بحضـور الملك، عندمـا حاول هذا الأخير، بـوساطة ترخيص من البـابا، إلغـاء بعض المنح

التي عملها لبعض منهم قبل أن يعقد زواجـه، على أساس أنه هو نفسه غير قادر على المنح، من دون رضـا البابا، الذي إليه —كما قال— تعـود حقوق منح الامتيازات في المملكة، وقد اندهش كثيرون تجاه هذا، وقالوا بأن الملك يسعى أكثر من قـدرته، أو أكثر من واجبه، ليضع المملكة مـوضع العبودية، أو أن ينزلها إلى آخر أحوال الضعف.

بعض النبلاء الانكليز يحملون الصليب

وحمل في هذه الآونة الايرل رتشارد، أخو الملك، وايرل غ. G وجون ايرل شيستر ولنكولن، وايـرل سـالسبري، وغ. G دي لوسي، أخـــوه، ورتشـارد سيـوورد، وعـدد كبير آخـر من النبـلاء، الصليب وأمر الايرل رتشارد، على الفور بقطع أشجار أحراشه وبيعها، وقد بذل جهده بمختلف الوسائل التي توفرت لديه لجمع المال لدعم حجه، وليس بعد وقت طويل من هذا وبوسـاطة سيمون دي مونتفـورت ايرل ليستر، و[كما قيل] بطرس دي ريفول، نال رتشارد سيوورد بشكل غير عادل، غضب الملك، واعتقل، ووضع في السجن، لكن مـالبث بعـد ذلـك أن أطلق سراحـه بالسهـولة نفسها.

مذبحة اليهود

وفي هذه الآونة، وقعت مذبحة كبيرة لليهـود، في القارة، وبشكل خاص في آسبانيا، ونتيجة لذلك فإن اليهود الموجودين على هذا الجانب من البحر، خوفاً منهم من أن يعانوا وفق الطريقة نفسها، قاموا فقدموا إلى الملك هدايا مالية، وبناء عليه أصدر أمراً، أمر بإعلانه بوساطة المنادين، بأنه لايجوز لأي انسان عمل أي ضرر، و التسبب بأية مضايقة لأي واحد من اليهود.

هدية الامبراطور

في هذا العام، في حـوالي عيد القـديس بندكت، أرسل الامبراطور هدايا لطيفـة إلى ملك انكلترا، تضمنت ثمانيـة عشر حصـانـاً ثميناً، وثلاثة بغـال

محملة بالحرير مع هدايا غالية أخرى، كما أرسل أيضاً بعض الخيول الغالية والأشياء المرغوبة إلى الايرل رتشارد، أخي الملك.

جفاف طويل وتضرر الحاصلات الزراعية

في صيف هذا العام، وبعد شتاء ممطر إلى أبعد الحدود، كما تقدم الذكر، حدث جفاف مستمر ترافق مع حرارة لايمكن احتمالها تقريباً، وجاء ذلك بعد الأمطار، واستمر لمدة أربعة أشهر وأكثر، ولذلك جفت البحيرات والمستنقعات إلى قعرها، وانفلقت الأرض، وتشققت كثيراً، ولم يرتفع نمو القمح في كثير من الأماكن إلى أكثر من قدمين.

تهدئة النبلاء الفرنسيين

وفي العام نفسه، ومع اقتراب انتهاء الصيف، تقدم نبلاء فرنسا، الذين انشغلوا في اضطرابات تلك المملكة، ببعض العروض للسلام، واستقبلوا في حظوة الملك، وفي هذه الآونة أيضاً قام بعض النبلاء في انكلترا، من الشجعان لكن المتهورين —الذين لاندري بأية روح أغويوا— بالتآمر مع بعضهم والدخول في تحالف لعين، من أجل نهب انكلترا، مثل لصوص وعصابات ليلية، وأصبحت نواياهم —على كل حال— معروفة، وكان رئيس التآمر، واحداً اسمه بطرس بفر Buffer وكان عمله بواباً لدى الملك، وجرى اعتقاله، وبوساطته أمكن اتهام البقية، وجرى نصب آلة مرعبة اسمها المشنقة في لندن، من أجل تعليقهم عليها، وبالفعل جرى تعليق اثنين من زعماء التآمر، وكان ذلك بعدما اشتبكا بمبارزة فردية، وكان أحدهما قد قتل بالمبارزة، وقد شنق ورأسه مفلوق، وعلق الثاني وهو حي، وقد لفظ روحه التعيسة على المشنقة نفسها، وسط نحيب الجماهير التي احتشدت.

خلاف بين سكان أورلين ورجال الدين

وفي العام نفسه، في حوالي أحد الشعانين، نشب خلاف مؤسف بين

رجال الدين والسكان في مدينة أورلين Orleans كان قد تأصل وتطور بوساطة صراخ شجار امرأة، وازداد الهياج وتضاعف إلى حد أن بعض العلماء، والشباب المشهورين من أسر نبيلة قد قتلوا في المدينة، من قبل أهل البلدة، وكان بين هؤلاء حفيد كونت لي مارشي، وحفيد كونت شامبين، وملك نافار، وقريب بالدم لكونت بريتاني، وقريب بالدم للبارون النبيل ايركنوولد Erkenwuled دي بوربون، وآخرين كثر، وقد أغرق بعض هؤلاء في نهر اللوار، وقتل بعضهم الآخر، وقد نجا بعضهم بصعوبة حيث أخفوا أنفسهم في كهوف، وكروم، وأماكن سرية، وبذلك نجوا من الموت، ولدى سماع هذا من قبل أسقف المدينة، غضب كثيراً وعظمت غيرته على العدل، فخرج من المدينة، فحرم كنسياً جميع المقترفين لهذه الجريمة، وألقى قراراً بالحرمان من شراكة المؤمنين على المكان كله.

ولدى سماع النبلاء المتقدم ذكرهم —أيضاً— بمقتل أقربائهم، هاجموا المدينة، وجعلوا كثيراً من سكان المدينة طعمة للسيف، دون انتظار لإجراءات المحاكمة، كما أنهم قاموا وسيوفهم تقطر دماً بقطع رؤوس الذين كانوا على الطريق عائدين من بعض الأسواق، وسلالهم محملة بالتجارات، ولم تتوقف هذه الفتنة حتى أقامت الوصاية الملكية —بناء على طلب الطرفين— مصالحة بينهما، وبذلك هدأ الهيجان، وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، وضعت عدة مدن ومقاطعات من المملكة الفرنسية تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وكان بينهم: الرايم Rheims وإيميان Amiens وبوفيا Beauvias وأماكن أخرى، وقامت الانشقاقات الدينية بينهم، وصدرت عن أسباب مختلفة.

الخلاف الذي تفجر في اكسفورد

ونشب في العام نفسه خلاف بين رجال الدين وبين سكان اكسفورد، وبصعوبة، وبعد وقت طويل، مال ذلك الصراع نحو الهدوء بوساطة تدخل الملك، والنبلاء، والأساقفة، ورجال آخرون من ذوي المناصب

والسلطة، واستردت الجامعة وضعها السالف.

وفي شهر آب من العام نفسه، غادر جون أسقف ووركستر، وتوماس أسقف نورويك هذه الحياة، وفي حوالي الوقت نفسه مات هنري أوف كرويلاند Croyland وكان رجلاً من أسرة مشهورة، وكان معروفاً بسبب تقواه، وجاء موته بعدما أدار كنيسته كلها مع الأبنية التي أعاد عمارتها، وذلك لقرابة خمسين عاماً.

شكوى ملك اسكوتلندا

ومضى في العام نفسه الملك، بناء على نصيحة نبلائه، إلى يورك، للتشاور معهم، ولعمل ترتيبات من أجل تسوية الخلاف بينه وبين الاسكندر، ملك اسكوتلندا، الذي تطور الآن إلى كراهية، لأنه بدا للرجال العقلاء الذين عرضوا أحداث المستقبل على ميزان العقل، أنه من الحماقة بالنسبة لمملكة انكلترا، المحاطة من كل جوانبها بالأعداء في القارة، أن تقوم بتوليد الكراهية الداخلية سراً، وكان سبب هذا الخلاف —كما قيل— هو مايلي:

لقد طالب ملك اسكوتلندا بشكل متواصل بكونتية نورثأمبرلاند، التي أعطاه إياها ا الملك جون بمثابة حصة زواج، لدى اقترانه بابنته جوهانا Johanna وأعلن أنه يمتلك لتأكيد ذلك صكاً، وشهادات عدد كبير من الأساقفة، ورجال دين من ذوي المراتب، وكذلك ايرلات وبارونات، وأعلن أنه من غير اللائق، وعملاً مقيتاً إزالة الذي تفوه به الملوك، وإلغاء ميثاق عمل بين شخصين لهما مثل تلك المكانة السامية، وأضاف أيضاً أنه مالم يقم الملك الانكليزي بإعطائه بشكل سلمي، ماهو واضح أنه حقه، ومبرهن على ذلك بالمنطق، فلسوف يطلب ذلك بحد السيف، وكان يشعر بالطمأنينة، بوجود صداقة سرية —مع وجود ريبة— مع للويلين، وحلفائه، وبتحالفه ومصاهرته مع غيلبرت مارشال، الذي تزوج من أخته مرغريت، التي كانت سيدة جميلة جداً، وكانت عداوة دوله القارية أيضاً،

في حالـة تآمر ضده، وعـلاوة على ذلك، كانـت قضيته عادلة، وقـد تبرهن ذلك بصكوك الملوك الماضين.

وبعـد مناقشــات طويلة من على الطرفين، قــام ملك انكلترا، في سبيل السـلام، ومن أجل حماية مملكتــه، فبـذل كل مــافي طاقتــه، فمنح ملك الاسكوتلنديين مـورداً قـدره ثمانين مـاركـاً من بعض المناطق الأخـرى في انكلترا، وذلك من أجل أن لاتكون حـدود مملكتـه في المناطق الشمالية غير عرضـة للخرق، وأثناء انتظار الفـريقين تسوية القضيـة بما يرضي الجانبين، انتهى المؤتمر، وبقي الجميع في تلك الساعة بسلام.

وفي تلك الآونة أنهى فيليب دوبني حيـاته بمـوت حميـد، وكان فـارسـاً نبيلاً، مكـرساً للرب، وشجـاعاً في القتال، وجـاءت وفاتـه بعدما قـاتل في سبيل الرب، في عـدة حجات في الأرض المقـدسـة، وفيها مـات ونال دفناً مقدساً في الأرض المقدسة، وهو ماكان اشتاق إليه طويلاً، عندما كان حياً.

الدعوة إلى حملة صليبية

وعمل في هذا العام، بنـاء على مذكرة من البـابا، تبشير مهيب في كل من انكلترا، وفرنسا، تولاه رهبان طائفتـي المبشرين والفرنسيكسان، مع رجال دين آخرين مشهورين، ولاهوتيين، وقساوسة، وقد منحوا إلى الذين سوف يحملون الصليب تحليلاً كاملاً من الذنوب، التي تابوا منها بصدق، وعملوا اعترافاً، وتجول هؤلاء الوعاظ بين المدن، والقلاع، والقرى، واعدين الذين سيحملون الصليب الكثير من الفرج في القضايا الدنيوية والمنافع، من ذلك مثلاً:

الفـائدة سـوف لن تتراكم عليهم وضـدهم من قبل اليهـود، وحماية من قداسـة البابا لكل مواردهـم وممتلكاتهم، وقدمـواعهوداً بتأمين الضروريات من أجل رحلتهم، وهكـذا أثاروا عـدداً كبيراً مـن الناس، لتقـديم العهـد بالقيام بالحج.

وأرسل البابا فيما بعد أيضاً، المعلم توماس، وكان من الداوية، وصديقاً مقرباً منه، وبعث به إلى انكلترا، مع ترخيصه للقيام بتحليل أولئك الصليبيين، الذين اختارهم، واعتقد أنهم مناسبين، وذلك من خلال عهودهم بالحج، ولدى تسلمه المال منهم، قدر أنه صار بإمكانه أن ينفق في سبيل فائدة قضية الأرض المقدسة، ورفعة شأنها، وعندما رأى الصليبيون هذا، دهشوا تجاه نهم البلاط الروماني الذي لايعرف الحدود، وشعروا بقرارة أنفسهم بالغضب، بسبب أن الرومان سعوا هكذا بوقاحة لافراغ حوافظ نقودهم بكثير من الحيل، لأن الواعظين أضافوا، أنه إذا ماقام أي واحد، سواء أحمل الصليب أم لا، وأنه سوف يكون غير قادر بشخصه على القيام بمثل هذه الرحلة المتعبة، عليه أن لاينسى الاسهام بقدر ماتسمح له امكاناته وممتلكاته، من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وهو إذا فعل ذلك سوف يتمتع بالغفران المتقدم ذكره، لكن هذه الأشياء كلها جعلت سامعيها متشككين، ذلك أنهم قالوا:

«هل سيبرهن تحليلنا بأنه صادق ووفي؟» وهذا ماحدث وكان، لأن البابا شعر بالغضب ضد الشعب، فعمل حرباً، وجمع الأموال واستخرجها، وجبى العشر من جميع البلدان، وكدس مبلغاً من المال لايحصى من أجل الدفاع عن الكنيسة، لكن السلام مالبث أن أقيم، وأصبح هو والامبراطور أصدقاء، أما المال فلم يسترد قط، وهكذا باتت التقوى لدى الكثيرين عرضة للضعف يومياً، واضمحلت ثقتهم وزالت.

استعدادات الامبراطور لقهر إيطاليا

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، منع البابا، برسائله الرعوية، الامبراطور بشكل دقيق من غزو ايطاليا، لأن الامبراطور، كان قد قام في الصيف بحشد جميع القوات الامبراطورية التي أمكنه حشدها، لمقاتلة الايطاليين الصلفين، وبشكل خاص سكان ميلان، لأن تلك المدينة كانت الحاوية لجميع الهراطقة، والـ Paterines والـ Luciferians والـ -Pub

licans والألبينيين،والمرابين، وقد بدا للامبراطور أن الاشارة عليه بخطة القيام بمساعدة الأرض المقدسة بحضوره شخصياً، مع مثل جيش الرب الكبير هذا، مشورة فاسدة، لأنه لايجوز أن يترك خلفه مسيحيين مزيفين، كانوا أسوأ من المسلمين، وعلاوة على ذلك كان عجب الامبراطور بلا حدود، من أن يقوم البابا بتقديم الحظوة للميلانيين بأي شكل من الأشكال، أو أن يظهر بحال من الأحوال مقدماً الحماية إليهم، وبما أنه بدا بالنسبة إليه أنه أصبح ليس أباً للأتقياء بل عصا للأشقياء، قام الامبراطور بلطف وحكمة، وتعامل مع مثل ذلك الأب المقدس لأنه بابا فرد عليه كمايلي:

جواب الامبراطور إلى البابا

«إيطاليا هي ميراثي، وهذا معروف من قبل كل الدنيا، وأن أطمع بممتلكات الآخرين، وأن أهمل ممتلكاتي، فذلك معناه إثم وذنب عظيم من قبلي، مثلما يفعل الايطاليون بشكل خاص، ولاسيما أهل ميلان، فهؤلاء قد أثاروني، وليس لديهم احترام مناسب لي، بأي طريقة من الطرق، علاوة على ذلك أنا مسيحي، وإنني وإن كنتُ عبداً حقيراً للمسيح، انني مستعد لاخضاع أعداء الصليب، وبما أن كثيراً من الهرطقات، لم تتفجر فقط في ايطاليا، بل نمت وغلظ أمرها، وبدأ السوس يخنق القمح، في جميع مدن ايطاليا، وخاصة في ميلان، لذلك بات أن تزحف لاخضاع المسلمين وأن تبقي هؤلاء من دون عقوبة، كمن يمسح الجرح، حيث دخل الفولاذ محدثاً ضرراً بليغاً، كما أن ذلك يعني احداث ندبة بشعة، وليس المعالجة، ومجدداً إنني وحدي، وأنا بشر ولهذا لست قادراً على القيام بمثل هذه المهمة العظيمة، التي هي اخضاع أعداء الصليب وذلك من دون قوة كبيرة لتساعدني، لأن أعدادهم كبيرة جداً وهم أيضاً أقوياء، ومرة ثانية، أنا وحدي ليست لدي الكفاية للقيام بأعباء مثل هذه القضية المرهقة، من دون كميات ضخمة من المال، ولقد قررت استخدام ثروة المنطقة المذكورة من

أجل تقديم العون إلى المصلوب، والانتقام له، لأن إيطاليا مليئة بالسلاح، والثروات، كما يعرف جميع العالم».

الامبراطور يزحف في إيطاليا للاستيلاء على ميلان

ولدى سماع البابا هذه المناقشة المنطقية العميقة، ولكي لايبدو أنه معارض في هذه المناقشات الجدلية، تظاهر بإعطاء موافقته، وأن بإمكان الامبراطور عبور الجبال والدخول إلى إيطاليا وفقاً لغرضه، وقد وعد قداسته —من دون تراجع، وبقدر مايستطيع أن يقدم له مساعدته الأبوية في كل أمر ضروري، وتشجع الامبراطور بهذا، فجمع بموجب مرسوم امبراطوري جميع القوات التي كان يمكنه حشدها، ودخل إلى ايطاليا، تتبعه كتلة كبيرة من العساكر، وشعر الميلانيون بالخوف —وحق لهم أن يخافوا— من غضبه المرعب، فبعثوا إلى البابا يطلبون نصيحته، والمساعدة الفعالة منه، وبعدما تسلم البابا منهم مبلغاً كبيراً من المال مع وعد بالمزيد، أرسل إليهم كثيراً من التفريج والمساعدة، مما شكل ايذاءاً للامبراطور، وبدا هذا أمراً لايصدق، ومعاكساً لموقف كل انسان، وعجبوا أنه في وقت الحاجة تحول الأب إلى عراب، ثم خرج سكان ميلان منها، وزحفوا من مدينتهم في قوة كبيرة، وصل تعدادها إلى نحو خمسين ألف رجل مسلح، وساروا ومعهم علمهم —الذي سموه Carruca أو Canochium للتصدي للامبراطور، وأرسلوا إليه رسالة، بأنهم كانوا جاهزين لمقاتلته، ووصل في هذه الآونة فارس من انكلترا اسمه بلدوين دي فيري Vere أرسله ملك انكلترا إلى الامبراطور ليعدّ لبعض الأعمال السرية المتعلقة بالملك المذكور والامبراطور، وحول هذه القضايا أعطى فيما بعد إلى مستمعيه معلومات كاملة.

وعندما سمع الامبراطور بأن الميلانيين قد خرجوا بمثل تلك الوقاحة للقتال ضده، قدّر على الفور بأنهم شعروا بهذه الجرأة اعتماداً على مساعدة آخرين، وليس اعتماداً على أنفسهم، وبعدما جرى تقدير القضية في مؤتمر

مع نبلائه، جرى الاتفاق مع التهليل من قبل الذين كانوا حضوراً من جانب الامبراطور، من العالي إلى الداني، على وجوب حمل السلاح من دون تأخير لمحاربة هؤلاء الغوغاء الميلانيين، الذين تجرأوا مثل جرذان خرجوا من جحورهم، لإثارة مولاهم ودعوته إلى الحرب مع محاولة تجريب منازلة قوتهم مع القوى الامبراطورية، وعندما علم الميلانيون بهذا القرار، توقفوا قليلاً، وقام واحد من شيوخ المدينة، الذي اعتمد على رأيه الجميع ليتكلم، فتحلق الآخرون من حوله، فخاطبهم قائلاً:

«أصغوا إليّ، ياأهل المدينة النبلاء، إن الامبراطور على مقربة منا في قوة كبيرة ومع جيش عظيم، وهو، كما هو معلوم لدى العالم أجمع، مولانا، وإنه إذا ماحدث هذا الصراع المؤلم، سوف يصدر عنه ضرر لا يمكن ترميمه، لأننا إذا ما كنا المنتصرين في الصراع، فلسوف ننال الملامة مع نصر دموي على مولانا، لكن إذا ماغلبنا نحن، فلسوف يدمر اسمنا وسمعتنا، واسم شعبنا وسمعة مدينتنا إلى الأبد، ولسوف نكون مهانين بين جميع الشعوب، وبما أنه من جميع الجوانب أمر مهين وخطير أن نزحف مسافة أطول بطريقة عدوانية، أرى إنها خطة حكيمة في أن نعود إلى مدينتنا، حيث أنه إذا مااختار الهجوم علينا، فلسوف يكون أمراً شرعياً بالنسبة لنا، أن نصد القوة بالقوة، وسواء أسمح لنا باقامة سلام معه، أو أرغمنا بالخروج من ديارنا بالقوة، سوف تكون مدينتنا مصانة وسوف يبقى اسمنا الجيد وسمعتنا الطيبة دونما تشويه»، وقبل جميع البقية بهذه الخطة، وعملوا بموجبها، وكان ذلك مشهداً باعثاً على السرور للامبراطور، ودون أن يظهر من جانبه خوف أو رعب، قام بمطاردة المنسحبين، واستعد للحصار، وأثناء وقوع هذه الأحداث أثيرت خلافات في المقاطعات الرومانية، إما بوساطة تآمر الكنيسة الرومانية أو بوساطة أعداء الامبراطور، وتولى ذلك دوق النمسا، وفي سبيل القضاء على هذه الخلافات الداخلية جرى ارسال رسائل ورسل بكل سرعة إلى الامبراطور تشرح له الوضع المنذر الجديد، وتستدعيه

للعودة على الفور، ولذلك رفع الامبراطور الحصار، الذي كان قد أعدّ له، وعاد إلى ألمانيا، ولدى سماع سكان ميلان بهذا، استولوا بالقوة على بعض القلاع التي كان الامبراطور قد استولى عليها، وأسروا حاميات هذه القلاع، ثم أعدموا جميع الفرسان والجنود التابعين للامبراطور، وعندما سمع الامبراطور بذلك، غضب غضباً عظيماً، وحق له أن يغضب، ولذلك صبّ جام غضبه المشروع على مقترف هذا الاثم، وعاقب دوق النمسا بحرمانه من جميع مراتبه، وأراضيه، وقلاعه، ومدنة، وبصعوبة بالغة أبقى على حياته ومنحه إياها، وعلى هذا بدا أن الانتقام الذي نزل به الآن عادلاً بسبب الجريمة التي اقترفت من قبله ضد الملك رتشارد أثناء عودته من الأرض المقدسة، ومع ذلك بدت حتى في هذا الوقت غير كافية، كما يقول النبي:

«الرب ينتقم بشدة من الأشرار وإن جاء ذلك متأخراً» و«يلاحق الأبناء بجرائم الآباء حتى الجيل الثالث، والرابع».

وفي هذا العام، في حوالي أيام عيد القديس ميكائيل، عاد بلدوين دي فيري إلى انكلترا، وكان رجلاً مستقيماً، ومخلصاً، وفصيحاً، وجلب جواب الامبراطور إلى الملك، وقدم رواية كاملة حول جميع هذه القضايا، إلى كل من اختار الاصغاء إليه.

وفي تلك الآونة أيضاً، عاد بطرس، أسقف وينكستر، من القارة، وهو محروم من جميع قواه الجسدية بسبب المرض، وقريباً من ذلك الوقت أيضاً، وبالتحديد في يوم الاثنين التالي لذلك العيد، نزلت أمطار ثقيلة في الأجزاء الشمالية من انكلترا، إلى درجة أن الأنهار والبحيرات فاضت فوق حدودها المعتادة، وسببت كثيراً من الدمار، بتدمير الجسور، والطواحين، والممتلكات الأخرى على مقربة من الشواطىء.

ومات في العام نفسه، في السادس عشر من آب، توماس دي بلندفيل

Blundeville أسقف أوف نورويك، ومات في حوالي الوقت نفسه وليم أوف بلي Bleis أسقف ووركستر، وهنري دي سانـدفورد أسقف أوف روكستر، ومـات أيضـاً تومـاس راعي دير ايفهـام Evesham في هذا العام، وخلفه رتشارد رئيس رهبان هيرل Hurle.

عواصف ريح عنيفة وفيضانات مدمرة

في اليوم التالي لعيد القديس مارتن، وفي ثمانية ذلك العيد، حدث هيجان كبير للبحـر بشكل مفاجـىء في الليل، وهبت ريح عاصفـة عنيفـة، سببت فيضـانات للأنهار، وكـذلك للبحـار، وفي بعض الأمـاكـن، خـاصـة على السـاحل، ساقـت السفن وأبعدتها عن مـوانئهـا، وفصلتهـا عن مراسيهـا، وأغرقت عـدداً كبيراً من الناس، وأهلكت قطعاناً من الأغنام، وأسراباً من الماشيـة، واقتلعـت الأشجـار من جـذورها، ورمت البيـوت وهـدمتهـا، وأفسـدت السواحل، وارتفع البحـر لمدة يومين وليلة بينهما، وهذا حـال لم يسمع بمثله من قبل، ولم يعرف البحـر المدّ والجزر كما هو معتاد، بسبب أنه أرغـم «كما قيل» بقـوة الريح المعـاكسة، وشـوهدت أجسـاد الذين غرقـوا، وهي مـرمية غير مـدفونة، في كهـوف تشكلت بوساطة البحـر، وعلى طول السـاحل وعلى مقـربـة منه، وعند وسبيتش Wisbeach والقـرى المجاورة، كانت هناك أعـداد لانهاية لها من المخلوقات البشرية قد هلكت، وفي إحـدى البلدات، ولم تكن مكتظة السكان، عهد بحـوالي مـائة جثـة إلى القبور، في يوم واحد، وفي ليلة أمسية عيد الميـلاد، ثارت أيضاً عاصفة ريح قوية جداً، صـاحبتها رعود، وأمطار غزيرة جـداً، وقد هزت الأبراج وبقية الأبنيـة، وحـولت اضطرابات الأنواء الطـرقـات والبحـار، إلى مـواضع لايمكن عبـورها، وهكذا في هذا العام، في أيـام موسم الاعتـدالات تولت الرياح مـرتان متكررتان اجتياح انكلترا، محدثة أضراراً لايمكن تعـويضها، وفي الحقيقـة، يبـدو أن الرب، قـد أرسل —بسبب ذنـوب العبـاد— هذا الطوفان، كسـوط عذاب إلى الأرض، ولينفذ التهـديد الموجود في الانجيل

قوله:

«سـوف يكون فـوق الأرض عـذاب للأمم، مع ارباك، وسـوف يزمجر البحر مع الأمواج».

ملك انكلترا يستخرج ضريبة جزء من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة في جميع أرجاء المملكة

في عام ١٢٣٧ لتجسيـد ربنا، الذي كان هو العـام العشرين لحكم الملك هنري الثـالث، عقـد الملك بـلاطه في عيـد الميـلاد في وينكستر، ومن هناك بعث بمذكرات إلى جميع أرجاء المقاطعـات الانكليزية، أمرفيها جميع النبلاء العائدين لمملكة انكلترا، وهم:

رؤساء الأساقفـة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤسـاء الرهبان المعينين، والايرلات، والبارونـات، أمرهم جميعاً بالاجتماع مـن دون عذر أو تخلف، في ثمانية عيـد الغطاس في لندن، لتدبير الشـؤون الملكية، والقضـايا المتعلقة بالمملكة كلهـا، ولدى سماع النبـلاء هذا، أطاعوا على الفـور دعـوة الملك، وبناء عليـه، في يـوم عيـد القـديسـة هيـلاري، قـدمت حشـود لاعـدّ لها ولاحصر، أي كل جماعـة نبـلاء المملكة، إلى لندن، وتوجهـوا نحـو القصر الملكي في ويستمنستر للاستماع إلى رغبـات الملك، وبعـدمـا أخـذ الجميع مقاعدهم، وقف هناك في وسطهم واحد اسمه وليم كيل Kaele وكان مقرباً من الملك، ورجلاً مستقيماً، وبارعاً بشرائع الأرض، وقد عمل بمثابة وسيط بين الملك والنبلاء، وقد أباح لهم برغبة الملك وبنواياه، حيث قال:

«مولاي الملك يود اخبـاركم أنه مهما كان الذي عمله حتى الآن، إنه منذ الآن فصـاعداً، سـوف يقوم مـن دون تردد، باخضاع نفسـه إلى نصيحتكم جميعـاً، بحكم كـونكم رعـاياه الطبيعيين والمخلصين، واعلمـوا أن الذين تولوا حتى الآن إدارة شؤونه، وكانوا مسؤولين عن خزينتـه، قد قدموا إليه حسابات غير صحيحة عن الأموال التي تسلموها، ونتيجة لذلك إن الملك

لا مـال لديه الآن، ومن دون المال، في الحقيقـة الملك مهجـور كئيب، وبناء عليـه إنه بكل تواضع يطلب مسـاعدة منكم بـالمال، على أساس تفـاهم أن المال الذي يمكن أن يجمع بوساطة ارادتكم الطيبة، سوف يجري الاحتفاظ به، حتى يصرف في سبيـل الحاجـات الضرورية للمملكة، تحت الاشراف الرشيـد لأي واحـد منكـم تختارونه لهذه الغـاية»، ولدى سماع النبـلاء المجتمعين لهذا الكلام، كـانوا جميعـاً غير متـوقعين أي شيء من هذا القبيل فتمتموا منزعجين بشكل كبير، ورددوا:

[ضاع كل مستمع في دهشة رهيبة

والتفت إلى وجه جاره محدقاً]

وقال كل واحد منهم للآخر:

[هزت الجبال في مخاضها الأرض

فولدت فأراً حقيراً].

ثم إنهم ردوا مغضبين، بأنهم ظلمـوا وضغط عليهـم من كل جـانب، وغالبـاً ماوعـدوا، وكانوا الآن جـزئاً من عشرين، ثم بعـد ذلك جزئـاً من ثلاثة عشر، وبعـد ذلك جـزئاً من خمسـة عشر، من أمـلاكهم، وأعلنوا بأنه سـوف يكـون مسيئاً إليهم، ومضراً بهم، السماح بمثل هذه السهـولة أن يضلل الملك، الذي لم يقم بصـدّ واحـد من أعـداء المملكة، أو بإخـافـة أي واحـد منهم حتى وإن كـان الأدنـى بينهم، والذي لم يستطع قـط زيادة أراضيـه، بـل إنه بالحري أنقصهـا، ووضعهـا تحت نير الحكم الأجنبي، لاستخـراج المزيـد المزيد من المال، وذلك بالغـالب، وبوسـاطة الكثير من الحجج، من رعاياه الطبيعيين، وكـأنهم عبيد، أو من أدنى الحالات، وذلك في سبيل ايذائهم، ومنفعـة الأجـانب، وعنـدمـا سمع الملك هذا، رغب في تهدئة عدم الرضـا العام ووعد مقسماً أنه سوف لن يقـوم ثانية بإثارة النبلاء أو اغضـاب أعيان المملكة، عن طريق الحاق الأذى بهم وفق هذه الطريقـة،

على شرط أن يدفعوا له جزئاً من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة في انكلترا، وأن يقدم هذا الجزء الآن إليه من أجل الاستخدام الحالي، لأن المبلغ الكبير من المال الذي كان لديه قبل وقت قليل، قد أرسله إلى الامبراطور —كما ذكر— من أجل زواج أخته، وكان أيضاً الذي أنفقه أثناء زواجه هو، قد أنهك إلى حد كبير امكاناته المالية.

وعلى هذا ردوا بكل صراحة، بأن الملك قد فعل هذا كله، من دون نصيحة رعيته التابعة له، وهكذا ينبغي عدم مشاركتهم بالعقوبة، لأنهم أبرياء، ولاعلاقة لهم بالجريمة، ثم إنهم انسحبوا إلى مكان خاص للتشاور حول إطاعة طلب الملك، ولتزويده بما هو محتاج إليه، ولمناقشة نوع وكمية المساعدة التي طلبها، وفي الوقت الذي كانوا فيه منعزلين من أجل هذا الغرض، قال غيلبرت باسيت للملك على مسمع من الجميع، وبحذر أقل مما ينبغي أن يفعله في كلامه:

«مولاي الملك، أرسل واحداً من رفاقك ليكون حاضراً أثناء مؤتمر باروناتك»، وعندما قال هذا كان جالساً على الجانب الأول من الملك، مع عدد صغير من الأشخاص بينهما، وفي رد على هذا الكلام قال رتشارد بيرسي، الذي كان موجوداً في مؤتمر النبلاء، ولم يكن يفتقد إلى المسوغ لغضبه: «ماالذي قلته، ياصديق غيلبرت؟ هل نحن أيضاً أجانب، ولسنا معدودين وسط أصدقاء الملك؟» وشعر غيلبرت بالملامة بوساطة هذا الكلام غير الطيب والمفاجيء، وهكذا امتد المؤتمر بوساطة مناقشات متراكمة لمدة أربعة أيام.

الشروط التي على أساسها جرى منح الملك جزئاً من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة

وكان الملك خائفاً جداً، ورغبة منه في الحصول على المشاعر الطيبة للبارونات، وعلى المصالحة معهم أخضع نفسه منذ ذلك الوقت فصاعداً،

لنصيحـة أتباعـه ورعاياه الطبيعيين، وذلك على عكس مـاكان قـد فعل من قبل، عـلاوة على ذلك، بـالنسبـة إلى التقـرير الذي أفـاد، بـأنه كـان يسعى بوسـاطة ترخيص حصل عليه من البـابا إلى إلغـاء المنح التي أعطاهم إياها من قبل، وأكدها بوسـاطة صك، بالنسبة لهذا، قـال الملك إنه زيف، وإذا ما كان شيئاً مـن هذا القبيل قد اقترح إليه، فقـد أعلن أن ذلك بلا فعـالية وأنه هو شخصياً قد تخلى كلياً عن مثل هـذا الهدف، وإلى جانب هذا قام بملامح هادئة، وبمبـادرة منه شخصياً، فوعـد أنه منذ ذلك الوقت فصاعـداً سوف يرعى من دون عـذر أو تردد امتيـازات الصك العظيم، نحـو جميع رعـاياه التـابعين له في مملكته، ولأنه بدا أنه غير متحـرر تماماً من قـرار الحكـم الذي تفوه به رئيس الأساقفة ستيفن مع جميع أساقفة انكلترا، ضد جميع الخارقين للصك المتقـدم ذكره، وهو الصـك الذي قام هو شخصيـاً بخـرقه إلى حـد بعيد، لهذا كله أمر بنشر قرار الحكـم المذكور، وبتجديده ضد جميع المخالفين للصك المذكور والخارقين له، ولذلك بات هو نفسه لايمكنه من خلال أي حقد أو تفكير شرير، القيام —ولو صدفة— بخـرقه، لأنه لو فعل وخرقه، سـوف يصبح أكثر تورطاً، وتحت طائلـة ذلك القرار، ونتيجـة لعمله هذا، وبوسـاطة كلماته تمكن من ارضـاء قلوب المستمعين إليـه، وتصالحهم معـه شخصياً، وتقرر أيضاً أنه سيكون عملاً قاسياً جداً وخشناً، الاقدام في ذلك الحين على عزل مستشـاري الملك، مهما كانوا أشراراً، ولهذا متنوا أعـدادهم بإضافة بعض النبلاء الآخرين، ولذلك عينوا وأضافوا: ايرل وارني، ووليم فيرار، وجـون فتــز— غيـوفـري، وكما فعل الملك من قبـل في ويندسـور، جعلهم يقسمون أنهم سوف لن يحيـدوا عن طريق الصدق، بأية وسيلة من الوسائل أو بالهدايا أو بأي شكل من الأشكال، بل سوف يقدمون إلى الملك نصيحـة جيدة، وكـل ماهو لمصلحـة المملكة، وعلى أسـاس هذه الشروط، جرى منح جزء من ثلاثة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة في المملكة، إلى الملك، لإعـادة تزويد خـزينتـه، باستثناء أنه أبقى —على كل حـال— لكل واحـد، فضتـه وذهبـه، وخيـوله وأسلحتــه، التي سـوف تكرس في سبيل

الصالح العام، وكان سوف يجري جمع الجزء من الثلاثة عشر جزئاً، في أرجاء كل كونتية وفق الطريقة التالية، وحسب الشكل التالي:

سوف يجري اختيار أربعة فرسان موثوقين، إلى جانب كاهن واحد، سوف يجري تعيينه من قبل الملك، وسيقوم هؤلاء الفرسان مع الكاهن بتأدية قسم بالتابعية للملك، وأنهم سوف يتولون جمع المال، وسيضعون هذا المال بعد جمعه في أحد الديرة، أو في بيت مقدس، أو قلعة، وبذلك إذا ماسعى الملك إلى التراجع عن وعوده، سوف تعاد ممتلكات كل انسان إليه، وسوف يجري توزيع صحيح، وكان أول من وافق على هذا رئيس أساقفة كانتربري، وأساقفته، وكهنته، وعلى شرط أن الجزء من ثلاثة عشر جزئاً من جميع الممتلكات المتحركة في المملكة، قد منح إلى الملك، وأن يجمع من جميع أرجاء المملكة بشكل عام، أي من كل أسقف وفارس تبعاً لاقطاعية بارونيته، وغالباً ماأضيف إلى الشروط، شرط أن يقوم الملك وقتذاك، ومن ذلك الوقت فصاعداً، برفض نصيحة الأجانب —الذين كانوا دوماً أصدقاء لأنفسهم، وليس للمملكة، وبددوا الثروات بشكل عام بدلاً من زيادتها— وكذلك برفض النصائح غير الطبيعية، وأن يلتزم بنصائح أتباعه ورعاياه الطبيعيين، وعندها ارفض الاجتماع، وانتهى المؤتمر، ولكن ليس قبل كثير من الغضب السري، وإثارة لعدم الرضا، لأنه بصعوبة كبيرة أمكنهم تحويل عقل الملك للأخذ برأيهم السليم، واقناعه بمسايرة نصيحة الذين منهم استحوذ على جميع مراتبه الأرضية، وعاد كل واحد إلى بلده وداره.

انتصارات المسيحيين في اسبانيا

جرى في العام نفسه، تكريس الكنائس والأساقفة في قرطبة، التي هي مدينة كبيرة في اسبانيا، التي جرى الاستيلاء عليها —كما ذكرنا من قبل— يوم الثلاثاء من اسبوع الفصح، وقد ذكر لوكان Lucan بأنه قد ولد في تلك المدينة، وهو الذي قال:

«أعطتني قـرطبة ميلادي»، وجـرى الاستيلاء عليهـا من قبل ألفـونسو الملك المسيحي العظيم لقشتـالة، ولدى استسـلامهـا للمسيحيين، تراكم السرور فوق السرور، وكذلك بـالاستيلاء على جزيرة مايوركـا الاسلامية الغنية، التي كـانت مليئة بالقراصنة، وقطاع الطرق، وكـانت بشكل خاص مضرة جـداً إلى التجار والحجـاج الذي يسافـرون بحـراً بين بلدان أفريقيـا واسبـانيا، وتحتـوي هذه الجزيرة على اثنتين وثلاثين قلعـة، ولزيادة سرورنا جرى الاستيلاء في السنة المنصرمة على مدينة بريانة، وعلى قلعة بنشكلة من قبل ملك أراغون، وبذلك تمكن بوساطة البراعة المتناهيـة من انجاز ماكان من غير الممكن انجـازه بوسـاطة القـوة، وهكذا أمكن خـلال عـامين الاستيـلاء على مدينة قـرطبة، وعلى جـزيرة مـايوركا، وعلى مـدينة بريانة، وعلى قلعـة بنشكلة، ومنحت هذه الأماكن كلهـا وتم التخلي عنها لصـالح السلطات المسيحيـة في اسبـانيـا، ووضعت تحت سلطة الرب وتشريفـاً لكنيسته المقدسـة، وبناء عليه استعد شعبنا في ظل مـؤشرات سعيدة لمهاجمة بلنسية، التي كانت أيضاً مدينة أخرى واسعة ومشهورة في اسبانيا، وبحكم محافظتكم على شجاعتكم وعلى آمالكم الطيبة، مع تذكر الأحداث الماضية، باتت مدينة سبته تخشى أيضاً سقوطاً مماثلاً.

للويلين يسأل ملك انكلترا تأكيد معاهدتها

أرسل في هذا العـام للويلين أمير ويلز، رسـالة إلى الملـك، حملهـا رسل خاصين، جاء فيها أن وقت حياته الحالية يتطلب منذ ذلك الوقت فصاعداً، التخلي عن كل الصراعـات، وخـوض غمار الحروب، وأنه ينبغي من أجل المستقبل التمتع بالهدوء والسـلام، ولذلك قرر وضع نفسـه وجميع ممتلكاته تحت سلطاته وحمايتـه، أي تحت الملك الانكليزي، ولسوف يستحـوذ جميع أراضيه منه بكل اخـلاص وصداقـة وسوف يدخل معـه بمعاهدة لايمكن إلغـاؤها، وإذا مـاكان الملك زاحفـاً في أية حملة عسكرية، هو سيبـذل غـاية طاقتـه، كتـابع ورعيـة لـه، لرفع شأن الحملة، بمسـاعـدته بالعسـاكـر،

والأسلحة، والخيول، والمال، وفي سبيل تأكيد هذه المعاهدة، وتصديقها، جرى ارسال أسقفي هيرفورد، وشيستر، بمثابة وسيطين للعمل على إنهاء مسألة المعاهدة المذكورة.

وقد قيل بأن سبب هذه المعاهدة، قد كان بسبب الشلل الذي أصيب به، فكان شخصياً غير قادر على التصدي للحملات الشديدة التي شنها عليه ابنه غريفين Griffin والحرب التي كان قد أعلنها عليه، ووافق كثير من نبلاء ويلز على هذه المعاهدة، وثبتوها في الوقت الذي ثبتها فيه للويلين، وعارض بعضهم بشدة اتفاقاتهم، هذا ويحتاج اخلاص الويلزيين إلى اخلاص، وهم لايظهرون رحمة عندما يمتلكون الحظ بأيديهم، وعندما يكون السعد صديقاً لهم، يقومون بتعذيب الذين يقعون بين أيديهم،ولكن عندما ينهزمون، إما يفرون، أو يذلون أنفسهم، ومثل هؤلاء الأشخاص، لايمكن مطلقاً الوثوق بهم، لأن الشاعر يقول:

«إنني أخاف من الإغريق، حتى عندما يجلبون هدايا»، وقد قال الفيلسوف سينكا أيضاً: «لايمكنك عمل أية معاهدة مع أي عدو».

زواج رتشارد ايرل غلوستر

وفي تلك الآونة نفسها، اشتعل غضب الملك مجدداً ضد ايرل كنت هيوبرت دي بورغ، بسبب أن رتشارد ايرل أوف غلوستر، وكان مايزال صبياً، تحت رعاية الملك، قد تزوج سراً من مرغريت ابنة الايرل هيوبرت، من دون اذن الملك، أو موافقته، لأنه كان قد قرر —كما روي— أن يوحد الشاب المذكور، أي ايرل غلوستر، مع كونتيته، ومراتبه، ومع الفتاة الشابة، وبقرابة قريبة، مع وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي كان من أهالي بروفانس، وأمكن أخيراً تهدئة غضب الملك، بوساطة كثير من الناس، وكذلك بناء على إعلان هيوبرت أنه لم يكن واعياً للأمر، وأن ذلك لم يفعل من قبله، يضاف إلى هذا وعد الملك بمبلغ من المال.

وفي العام نفسه، تمّ بتدبير من الامبراطور فردريك ايجاد سيناتور [شيخ] جديد في روما، في سبيل أنه بوساطة براعة وسلطة اثنين من الشيوخ متحدين، من الممكن ضبط صلف الرومان، وبذلك تصبح المدينة أكثر سلاماً، ومن ثم يجري حكمها بأمان أعظم، وبسهولة أكبر من قبل مستشاريها.

صلف الاغريق نحو الكنيسة الرومانية ونحو امبراطورهم

وتفجر في هذه الآونة صلف الاغريق المعتاد، بالشكل المجنون، نحو الكنيسة الرومانية، ونحو مولاهم امبراطور القسطنطينية، وبذلك نالوا سخط البابا والكنيسة كلها، حتى بات الرأي، وتوفرت الرغبة في ارسال جيش الصليبيين ضدهم، لأن الامبراطور، قام حتى يتجنب غضبهم بالمغادرة إلى البلدان الغربية، ليطلب النصيحة والمساعدة من الكنيسة الرومانية.

البابا يستدعي كونت بريتاني إلى مجلسه

واستدعى البابا في هذه الآونة كونت بريتاني إلى مجلسه، مما أثار دهشة الكثيرين، حيث استغربوا اقدامه على استدعاء رجل مشهور جداً بأعماله الخيانية المزدوجة، ليتولى ادارة شؤونه الصعبة، لكن تبين أنه اختار ذلك الكونت وانتخبه دون سواه، لأنه كان رجلاً بارعاً جداً في فن الحرب، شجاعاً في القتال، ومن أسرة مشهورة، وهو انسان قد نال تجربة من خلال صراعات متوالية بالبحر والبر، ليعهد إليه بقيادة وإمرة الجيش الصليبي، وليضع تحت تصرفه المال لانفاقه في سبيل الاعدادات الضرورية من أجل زحف الصليبيين.

سقوط أمطار غزيرة وتدفقها

ومع اقتراب موعد حلول شهر آذار، وبالتحديد في يوم عيد القديس فالنتاين، عمت عواصف ثقيلة من المطر، وغمرت البلاد، وبتدميرها

لضفاف الأنهار، جعلت المخاضات والطرقات غير ممكنة العبور لمدة ثمانية أيام متوالية، ومما يماثل ماحدث، من الممكن تصور حالات أخرى مشابهة، أي أن يقوم نهر التيمس في انكلترا، والسين في فرنسا، أثناء فيضانيهما بإزالة المدن، والجسور، والطواحين، وأن تنبع البحيرات في الأماكن الجافة من قبل، وتنتشر فوق امتدادات واسعة من البلاد، وإذا حدث ذلك سيكون خلال خمسة عشر يوماً، نتيجة للطوفان، من الصعب جداً، تمييز الطرقات على الضفاف.

وليم الأسقف المنتخب لبلنسية يغادر انكلترا لكنه مالبث أن عاد

ورأى في هذه الآونة، وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي إليه عهد الملك كلية بمقاليد الحكومة ان النبلاء قد شعروا نحوه —ليس من دون سبب— بغضب عظيم ضده، ولذلك قرر المغادرة إلى بلاده، وعهد بأراضيه، وبمزارعه الغنية التي أعطاه الملك إياها، إلى هرون، ووضعها بين يديه، وكان يهودياً من يورك، على شكل رهينة، وتسلم منه، عن طريق الدين، تسعمائة مارك من النقود الاستيرلينية الجديدة، وحمل ذلك بيديه، ثم إنه وجه خطاه نحو دوفر، تحت أمان الملك، وعلى ظهور دواب التحميل أوعية مليئة بالذهب والفضة، وهدايا ملكية متنوعة، إلى جانب بعض الخيول الاسبانية القصيرة المرغوبة، وخيول عليها سرج ثمينة، وهكذا تمكن هذا الرجل بمكر وبراعة من تدبر الأمور، حتى أن الملك تخلى عن المثل الذي ضرب له من قبل الامبراطور النبيل، وملك فرنسا الحريص، اللذان لم يسمحا لظهريهما بأن يداس عليهما من قبل زوجتيهما ومن قبل أقربائهما وأبناء بلديهما، فحرم من جميع أمواله، ومن كل مالديه، فأصبح رجلاً محتاجاً، وسمح لهذا الأسقف أن يمزق مملكته إلى مزق، وبما أنه كان تحت نفوذ زوجته، سمح له، وفقاً لأوهى الحجج بالتهام نتاج أراضيه الخاصة، كما أنه سمح للأجانب من: بواتيين، وألمان، وبروفانسيين، ورومان، أن يسمنوا على الأشياء الطيبة في بلاده، وبإيذاء مملكته.

وذهب آنذاك أسقف بلنسية المنتخب المتقدم ذكره، إلى فرنسا، وبعدما قدم هناك احتراماته إلى الملك وإلى أخته، قام من دون تأخير بالانطلاق مسافراً بسلام، وسمح له بالمغادرة من دون أية هدايا، ثم إنه أرسل الهدايا التي جلبها معه من انكلترا إلى بروفانس، وهناك وزعهم مع بعض الخيول المحملة بمبالغ كبيرة جداً من المال، ثم إنه عاد خالي الوفاض إلى انكلترا، حيث استقبل بذراعين مفتوحين، من قبل الملك.

انتخاب وولتر كانتلوب وجون رئيس رهبان نورويك

بعدما غادر أسقفا ووركستر ونورويك الطيبا الذكرى الحياة، انتخب رهبان ووركستر المعلم وولتر دي كانتلوب Cantelupe ابن وليم دي كانتلوب، القوي والواسع الشهرة، انتخبوه ليكون أسقفهم والراعي لأرواحهم، وقد قبله البابا من دون أية مصاعب، وكرسه أسقفاً، وانتخب رهبان نورويك رئيسهم، وكان رجلاً متديناً ومستقيماً، واختاروه ليكون رئيسهم، لكن هذا الانتخاب مع أنه عمل بشكل صحيح، لم يرض الملك، وبسبب أعذار مضحكة، واعتراضات بعض الذين وقفوا ضدها، بقي لمدة طويلة محروماً من التكريس، لكن ليس من دون بعض الشكوك التي صدرت عن أخطاء مرتاب بها.

الأوضاع التعيسة لانكلترا

أثناء هذا الوقت كله، أخذت بقية حرارة الإيمان الصحيح بالموت والتلاشي، وتحولت بقايا نارها إلى رماد، وبدت وكأنها لم يعد فيها بصيص شرارة واحدة، لأن السيمونية كانت الآن تمارس من دون خجل، والربا بشكل مكشوف، واستخرجت الأموال من الشعب ومن الصغار بمختلف الحجج، وزالت الصدقات، وسحق كرم الكنيسة، وديس على الدين، وبات بدون قيمة، وباتت ابنة صهيون، كما كانت دوماً، من دون حياء، وعاهرة من دون خجل، وأقدم رجال أميون من الطبقة الدنيا، وهم

مسلحون بالمراسيم من الكنيسة الرومانيـة، واندفعوا متقدمين مع التهديد، واستأنفـوا يوميـاً، على الرغم من الامتيـازات المقـدســة، التي نلناها من أجـدادنا وأسلافنـا المقدسين، وباشروا بنهب الموارد التي خلفهـا الرجـال الأتقياء من العصـور القديمة، من أجل الانفاق على رجال الدين، ولدعم الفقـراء، ولتقـديم الضيـافـة إلى الحجـاج، وحصلوا على الفـور على الذي طلبوه، وكان إذا مـالجأ انسان من المتضررين أو المسلوبين إلى وسيلة الترافع للقضـــاء، أو الترافع باســم الامتيـــازات، قــامـــوا على الفـــور بتعليقهم، وحـرمانهم كنسياً، بوساطة بعض الأسـاقفة الآخـرين، وذلك استناداً إلى التخويل والترخيص الممنوح من البـابا، وبهذه الوسيلة، لكن ليس بوساطة الرجـاوات، أو الطرائق الشرعيـة، بل بوسـائل استخراج ملـوكية عنيفـة، سرقوا القوم السذج، وذلك وفقاً لقول الشاعر:

«يتسول الرجل في السلطة بسيف مسلول».

ولقـد صـــار الحال الآن، أنه حيث كـــان فيما مضى رجـال ديـن نبـلاء وكرمـاء، وأوصياء على الكنيسـة ورعاة لها، كـانوا قد عـودوا أنفسهم على جعلهـا مشهورة خـلال جميع المناطق المجاورة، بـوساطة اكـرام المسافـرين والعناية بهم، وبانعـاش الفقراء، صـار محلهم رجال منحطين، فـارغين من الأخـلاق، مليئين بالمكر، وكـلاء للضـــامنين الرومـان، وتولى هؤلاء الآن الاستيلاء على كل ماهو مفيد، وثمين، ونقلوا ذلك إلى بلدان أجنبية، أي إلى ســادتهم، الـذين كـانوا يعيشـــون على الإرث اللذيذ للمسيح، ويتبـــاهون باستحـواذهم على أمـلاك الآخـرين، ثم كـان أن شـوهد حـزن عميق من القلب، منه تبللـت وجنات القـــديسين بالدمـــوع، وسمعت التنهــدات والشكاوى، وقد انفجرت عالياً، وتضاعفت، وقال كثيرون وهم يتنهدون:

«لقـد كـان من الأفضل أن نمـوت على أن نشـاهد معـاناة وآلام شعبنا، وقـديسينا»، الويل لانكلترا، التي كـانـت من قبل رئيسـة البلدان، وسيـدة الشعوب، ومرآة الكنيسة، وأساس الدين، هي الآن ملقاة تحت الجزية، وقد

داس عليها بالأقدام أناس وضعاء، وسقطت فريسة إلى أناس أخساء، لكن الذنوب المتنوعة للانكليز هي التي جلبت أسواط العذاب هذه وأنزلتها على أنفسهم، وذلك من خلال غضبه، الذي بسبب ذنوب الشعب، مكّن المنافقين من الحكم، وجعل الطغاة يتولون السلطة.

موت جون بريين والراهب جوردان

في هذا العام انتزع من بيننا جون بريين المشهور، وصاحب الذكرى الخالدة، الذي كان من قبل ملك القدس، والذي كاد أن ينال السلطة الامبراطورية للاغريق، والذي كان من الممكن له أن ينهي حياته بشكل سعيد، وبسلام في ضوء الشمس، لولا أنه جلب على نفسه عداوة فردريك الكبير، امبراطور الألمان.

وفي هذا العام أيضاً، فيما بين الشتاء والربيع، غرق الراهب جوردان، رئيس طائفة الرهبان المبشرين، وكان رجلاً متميزاً بقداسته، وواعظاً مشهوراً، وجاء غرقه في العاصفة، عندما كان مبحراً على طول السواحل الجنوبية لبلاد المغرب، من أجل أن يربحهم للرب بوساطة وعظه، وجلب جسده إلى اليابسة، من قبل بعض الذين غرقت سفنهم، لكن الحظ انتشلهم من الموت، وجاء ذلك نتيجة جهد كبير ومخاطر، وعهدوا به إلى القبر بشكل مشرف وبطريقة معروفة، وعندما كانوا يتولون دفن جسده المقدس، شموا رائحة طيبة رائعة، صدرت عن ملابسه، وكذلك عن شخصه، واستمرت حلاوتها تطيب أيديهم لوقت طويل.

وحوالي ذلك الوقت نفسه جرى تطويب القديس دومينيك، وتسجيله في لائحة القديسين، وكان راهباً من طائفة المبشرين.

موت رتشارد ثاني أسقف لدرم يحمل ذلك الاسم

وفي تلك الآونة، وبالتحديد في الخامس عشر من نيسان، مات رتشارد، الأسقف الثاني لدرم، الذي حمل ذلك الاسم، وكان رجلاً صاحب تقوى

لا نظير لها، ومعرفة عميقة، وقد حكم بقوة ثلاث أسقفيات كنسية هي، أسقفيات: شيستر، وسالسبري، وأخيراً أسقفية درم، التي ترأس عليها بكل ازدهار، وحررها من دين ثقيل، جناه رتشارد الأول، الذي كنيته مارش، والذي كان متقدمه، وكان مبلغ المال الذي سدده الأسقف المذكور، أي رتشارد الثاني، ودفعه في سبيل تسوية الدين، قد أحصي بأنه تجاوز أربعة آلاف مارك، ومعزو أيضاً إلى الثناء الأبدي عليه، أنه حوّل كنيسة سالسبري، من مكان فارغ وجاف في جوار قلعة الايرل، إلى موقع موائم، وأرسى بمعونة بعض المهندسين المشهورين، الذين جمعهم من بلدان نائية، أساسات كبيرة، ووضع هو شخصياً الحجر الأول، لرفع شأن هذا العمل وفي سبيل تقدمه، لم ينفرد به الأسقف بل قدم له يد المساعدة عدداً كبيراً من النبلاء مع الملك أيضاً، ولهذا قال أحد الحكماء:

«قدم الملك المال، والبنّاء يديه،

والأسقف العون، وهكذا وقف البناء».

وإلى جانب هذا أوجد مؤسسة للراهبات في تارنت Tarent وأعطاها إلى الملكة، وهناك اختار مكان دفنه، وعندما اقترب موعد مغادرته، ورأى الأسقف بأن الساعة قد اقتربت بالنسبة له للعبور من هذا العالم، قدم موعظة خاصة إلى جمع من الناس، وأخبرهم بأن موته بات وشيكاً، وفي اليوم التالي اشتد مرضه، فودعهم جميعاً، وسأل المسامحة من كل من أذنب بحقه، وجمع في اليوم الثالث أسرته، والذين كان مرتبطاً بهم، ليقدم لهم بشكل خاص الحماية، ووزع فيما بينهم ما رآه من الضروري توزيعه، وأعطى إلى كل واحد استحقاقاته، وبعدما رتب أموره كلها، وأكمل أعماله كلها بتوزيع موائم وصحيح، قام بتوديع رفاقه واحداً واحداً، وأخيراً قدم الصلاة التعبدية لمنتصف الليل، وأنشد البيت التالي:

«سوف أتمدد أنا بسلام وسوف أنام»، فوقع نائماً بالرب بكل سرور، ثم

قـام رهبـان درم، بعـدمـا استمـدوا العــون من عليين، بانتخـاب رئيسهم تومــاس، وكـــان رجـــلاً متـــديناً ومستقيماً، وجعلوه أسقفهـم والراعي لأرواحهم.

سبب عودة الامبراطور من إيطاليا

وفي هذه الآونة، وجـد الامبراطور فـردريك أن مـؤمـرات أعدائـه قـد سببت عودته إلى ألمانيا، وتركه لحملته التي كان عازماً عليها، وأن ذلك كان لغير صالح سمعتـه، لأنه كان قد أرغم على رفع الحصـار، والانسحاب من ميلان، وقام بإجـراء بحث لمعرفة من الذي تسبب له بهذه الإعاقـة، فوجد أن دوق النمسا قد أثار فوضى داخلية في ألمانيـا، وأنه كان السبب في إعاقته عن قصده، فهاجمه، وحرمه من أراضيه، ومن مراتبه، وثرواته.

الامبراطور يستدعي للاجتماع جميع أمراء المسيحية

وفي العـام نفســه، استـــدعى الامبراطور فـردريك بوســاطة مـراسلين خاصين، ورسـائل امبراطورية أمراء المسيحية الكبـار في العالم، للاجتماع في يوم عيـد ميلاد القـديس يوحنا المعمـدان، في فوكـــولور Vaucouleurs الواقعـة على حدود —أو على مقـربة من حـدود— الامبراطورية والمملكة الفـرنسيـة، وهدف الاجتماع هناك كـان بحـث القضـايا الصعبـة المتعلقـة بالامبراطورية، والمتعلقة أيضاً بالمملكة،وبما أن الملك الفرنسي رعى مشاعر الشكوك حـول هذا المؤتمر، توجه في الوقت المحـدد إلى المكان المعين، يحيط به ويرافقـه جيش كبير، كان قـد حشـده لتلك الغاية، وبذلك ضرب مثـلاً مرعباً وخبيثاً للآخرين، لأنه ذهب للبحث في مسائل السلام، وفق الطريقة نفسها التي يزحف بها عندما يريد قتال أعدائه، وقدم ملك انكلترا اعتذاراً منطقيـاً لعدم حضـوره شخصياً، وبعـث سفارة سلميـة، تتألف من بعض الشخصيات الـرئيسية للمملكة، فيها: رتشـارد ايرل كورنوول، أخيـه، مع بعض النبلاء الآخرين، المؤتمنين للعمل في مؤتمر تحت توجيه رئيس أساقفة

يورك المبجل، وأسقف ايلاي، مع أشخاص آخرين موثوقين، جرى اختيارهم لهذه الغاية، ومع أن أسقف وينكستر، قد جرى اختياره قبل الآخرين، رفض باصرار الذهاب، لكن ليس من دون تقديم سبب معقول، حيث قدم التعليل التالي لتسويغ عدم ذهابه، فقد قال:

«مولاي الملك، لقد تقدمت مؤخراً بشكوى ثقيلة ضدي، ورفعتها إلى الامبراطور، حيث أخبرته، بأنني قمت مع بعض النبلاء الآخرين، بإحداث الاضطرابات في مملكتك، وسواء أفعلت هذا بعدل أو من دون عدل، الرب يعلم، غير انني واثق من أنني حافظت على ضميري في كل مجال، وإذا كانت كلماتك قد وضعت الآن بثقة تفوهت بها من فمك، وأودعتها في رسائلك، وأن تعلن أيضاً أنني صديق مقرب منك ومخلص لك، فهذا سوف يظهر كأمر معاكس، وسوف يسبب لنا معاً، أنا وأنت بعض عدم الاستقرار، وسيسيء إلى سمعتك إلى درجة كبيرة، وبناء عليه، بسبب أن ذلك سوف يظهر مسيئاً لك، أنا لن أذهب بأي حال من الأحوال»، وبرأي كثيرين، أنه أعطى بهذا الرد تعليلاً كافياً عن نفسه، ولدى الفراغ من جميع الاستعدادات، وعندما باتوا جاهزين للاقلاع بهذه الرحلة، ووجهوا برسائل من الامبراطور، قال فيها بأنه لن يستطيع الذهاب إلى المؤتمر، آنذاك، كما سلف وله واقترح، لكن الذي لن يستطيع فعله وقتئذ، سوف —بمشيئة الرب— ينفذه في عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، من العام المقبل، وهكذا عاد كل واحد منهم من دون القيام بأي شيء.

وفي هذا العام، في يوم العشاء الأخير، تولى أسقف هيرفورد تكريس القربان المقدس، في كنيسة القديس ألبان، وفي هذه الآونة أيضاً، أغلق جون سكوت، ايرل شيستر حياته، وكان ذلك في حوالي أحد الشعانين حيث دسّ له السم بوساطة زوجته، ابنة للويلين، وتعرضت حياة أسقف لنكولن للوسيلة نفسها، ولكنه استرد بكل صعوبة من بوابات الموت، وفي العام

نفســه، في الأسبوع الذي حلّ قبل أحـد الشعـانين، كانت هناك عـواصف شـديدة، ترافقت مع سقوط برد، كان حجم البردة أكبر من التفاحة، فقتلت المواشي، وتبع ذلك تساقط الأمطار.

وصول أوتو النائب البابوي إلى انكلترا

وفي هذا العام أيضـاً، في حوالي أيام عيد القـديسين بطرس وبولص قدم المعلـم أوتو، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا في سجن توليان Tullian بمثابة مندوب بابوي، لكن لأي مقصد، فهذا لم يكن معروفاً، وجاء قدومه بناء على استدعـاء من الملك دون معرفة النبلاء، وبناء عليـه شعروا بغضب عظيـم وسخط ضد الملك، وقالوا:

«يتولى الملك الآن منع جميع الشرائع، وقـد حنث بعهده ووعوده، وبذل كل شيء عمله وألغاه، فهـو قبل مدة وجيزة اتحد ذاتيـاً بالزواج من أجنبية، دون استشارة أصـدقائـه ورعاياه الطبيعيين، والآن استـدعى بشكل سري نائباً بـابوياً ليقـوم بتغييرات في جميع أرجاء المملكة، فهـو ما ان يفتح الطريق أمـامــه حتى سيسعى لاسترداد الذي أعطاه»، وهكذا وفقـاً لهذا الأسلوب أخذت المملكة يومـاً فيوماً، تماشيـاً مع كلمات الانجيل، تنقسم على نفسها، وتعيش في فوضى وباتت مهجورة مخربـة بشكل رهيب، ويقال بأن إدموند رئيس أساقفة كانتربري، قد وجّه اللوم إلى الملك لتصرفه وفق الطريقة التي عمل بها، وبشكل خاص لاستـدعائـه النائب البابوي، عـارفاً بأنه قـد كان قبل وقت طويل السبب في إلحاق أضرار كبيرة بالمملكة، وبإلحاق اجحـاف عظيـم بمكانته، ولكن الملك رفض نصيحته، وكـذلك نصائح الآخرين من مستشــاريـه، ولم يرض بأي شكل من الأشكال الاقــلاع عما نواه في عقله، ولذلك قـدم المندوب البـابوي المذكـور بأبهة عظيمـة، مع سلطان عظيم، وذهـب الأساقفة والكهنة ذوي المكانة حتى الشاطيء لاستقباله، لابل أكثر من هـذا صعـد بعضهم على ظهور القـوارب لتلقيه، واستقبلوه بالهتـافات، وقـــدمـوا إليــه هدايا ثمينة، لابل حتى في باريـس إلتقـاه رسل عــدد من

الأساقفة، وقدموا له أقمشة أرجوانية، وكؤوساً ثمينة، ولفعلهم هذا استحقوا عقوبة جماعية، بسبب كل من الأعطيات، والطريقة التي أعطيت بها، لأنه بالأقمشة ولونها أعطى ذلك مظهراً بأن مكتب النيابة البابوية، ووصول النائب البابوي يلقيان القبول، ولدى وصوله هو لم يتسلم جميع الهدايا التي قدمت إليه، بل بعضها فقط، والذي لم يأخذه أمر بحفظه من أجله، ثم قام بكرم فوزع المناصب الشاغرة والمنافع بين أتباعه الذين جلبهم معه سواء أكانوا مستحقين لذلك أم غير مستحقين، واستقبله الملك شخصياً عند شاطىء البحر، وحنى رأسه حتى ركبتيه، وبعد ذلك استقبله وسار معه وسايره حتى داخل البلاد، وجاء الأساقفة أيضاً، وكذلك رعاة الديرة، وقساوسة الكنائس الآخرين، استقبلوه بكل تشريف واحترام، بمسيرات وموسيقى أجراس، مع هدايا ثمينة، بقدر ماتوفر لديهم، وأكثر مما توفر لديهم.

رسالة فيليب الراهب الدومينيكاني إلى البابا

وفي هذا العام، وصلت أخبار سارة من الأرض المقدسة، بأن واحداً من قادة الهراطقة في المشرق قد تخلى عن هرطقته وأوهامه، وتأثر بالروح القدس، فتحول إلى المسيحية بوساطة الوعظ المستمر والحث التبشيري للراهب فيليب، رئيس طائفة الرهبان المبشرين (الدومينيكان) في الأرض المقدسة، الذي قام من دون تأخير ببعث رسالة حول هذا إلى البابا، وإلى الراهب غودفري، متولي الاعتراف لدى البابا، ليبعث السرور في نفسيهما، بهذه الأخبار المفرحة، ثم إن الراهب غودفري، كتب إلى جميع رؤساء رهبان طائفتي المبشرين (الدومينيكان) في انكلترا وفرنسا يخبرهما بهذه الواقعة بالكلمات التالية:

«إلى الأبوين المبجلين في المسيح، رئيسي طائفتي الرهبان المبشرين في فرنسا، وانكلترا، من الراهب غودفري، متولي الاعتراف لدى صاحب القداسة البابا، أماني الصحة والبهجة في الروح القدس، ليكن معلوماً

لديكما بأنّ قداسته قد تلقى رسائل من الراهب فيليب، المسؤول الاقليمي في الأرض المقدسة، جاء بها مايلي:

إلى الأب الأعظم قداسة والمولى، وإلى غودفري، الذي هو بموجب الدعوة الربانية الحبر الأعظم، من الراهب فيليب، الرئيس الحقير للرهبان المبشرين، طاعة صحيحة وتقوية في كل شيء:

مبارك هو الرب، الأب لمولانا يسوع المسيح، الذي هو في أيامنا، أب مقدس، الذي أعاد برحمته راعي القطيع، الذي كان تائهاً منذ وقت طويل، لأنه في أيامنا قد أرانا سنة من لطفه، وبدأ يملأ الحقول بالوفرة، ومثل ذلك أعاد إلى طاعتكم، وإلى الاتحاد بالكنيسة الأم، شعوباً قد ضلت منذ زمن بعيد، وابتعدت عن تلك الجماعة، ذلك أنه في هذا العام، قام بطريرك اليعاقبة في الشرق، وهو رجل صاحب علم وصاحب أخلاق، ومحترم في سنه، قد جاء مع جماعة كبيرة، من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والرهبان من شعبه، للتعبد في القدس، وله أوضحنا قواعد الإيمان الكاثوليكي، وبالتعاون مع النعمة اللاهوتية، أحرزنا تقدماً كبيراً، حتى أنه في أحد السعف، في الوقت الذي تنزل فيه بالعادة المسيرات من جبل الزيتون إلى القدس، وعد وأقسم أنه سوف يطيع الكنيسة الرومانية المقدسة، وأنه سوف يتخلى في الوقت نفسه عن جميع الهرطقات، كما أنه قدم إلينا اعترافه مكتوباً بالكلدانية (السريانية) وبالعربية بمثابة دليل أخير، وبالاضافة إلى هذا تبنى لدى مغادرته لباسنا الكهنوتي، وهذا الرجل رئيس على الكلدانيين، وعلى الميديين، والفرس، والأرمن، التي دمّر أراضيهم التتار الآن واجتاحوها إلى حد كبير، وتمتد صلاته بعيداً حتى ممالك أخرى، إلى حد أن سبعين منطقة أخرى هي خاضعة له، فيها أعداد لاتحصى من المسيحيين يسكنون بمثابة عبيد للمسلمين ودافعين للجزية لهم، وذلك باستثناء الرهبان، الذين يعفونهم من الجزية، ووفق الطريقة نفسها فعل رئيسان للأساقفة، كان أولهما أسقف اليعاقبة في مصر، وكان الآخر أسقف

النساطرة في الشرق، وكـان لهما حقوق الرعـوية على الناس الذين سكنوا في سورية وفينيقيـة، ونحن الآن أيضاً مرسلون بكل سرعة أربعـة من الرهبان إلى أرمينيا، ليتعلموا اللغة، وذلك بناء على رجاء ملح ومستعجل من الملك والبـارونات، وفيها يتعلـق برجل آخـر، هو رأس الذيـن فصلتهم الهرطقـة النسطورية عن الكنيسة —والذي تمتد رعـويته في أرجاء الهند العظمى، أي مملكة بريستر جـون، والممالك الأخـرى التي هي أقـرب إلى الشرق— قـد تسلمنا عــدة رســائل منـه، أخبرنا بها بأنه قــد وعــد الـراهب وليم دي مونتفـرات، الذي مع راهبين آخرين، كـانوا يتعلمون تلك اللغـة، ولذلك أقاموا بعض الوقت معه، أخبرنا بأنه سوف يكون مطيعاً، وأنه سوف يعود إلى صـدر الكنيسـة المتحـدة، وأرسلنـا أيضـاً بعض الرهبـان إلى مصر، إلى بطريرك المصريين اليعاقبـة، الذين نأوا بالعادة بعيداً جـداً، وضلوا أكثر من الموجـودين في البلدان الشرقيـة، ذلك أنهم أضـافـوا الختـان إلى ذنوبهم الأخرى، أي هم مثل المسلمين، ومنه سمعنا مثل ذلـك بأنه يرغب بالعودة للاتحاد بالكنيســة، وأنه تخلى الآن عن جميع ذنوبـه المتقـدمــة، ومنع الذين خاضعين له من الختان، ويتولى هذا الرجل السيادة ويخضع له:

الهند الصغرى، واثيـوبيا، وليبيـا، ومصر، والليبيين والايثوبيين —على كل حـال— ليسـوا خـاضعين للمسلمين، أمـا بـالنسبـة للمـوارنة، الذين يسكنون في لبنان، فقـد كـانوا قـد عـادوا منذ زمن طويل، وهم مـابرحـوا محافظين في طاعتهم للكنيســة، وفي الوقت الذي نجـد فيــه أن جميع هذه الشعوب خاضعـة لعقائد التثليث وإلى ما نبشر به، فإن الاغـريق لوحدهم مثـابرون على التمسك بشرورهم، وهـم يعـارضـون في كل مكان، سراً أو علانية، الكنيسة الرومانية، وهم يـدنسون قداساتنا وقرابيننا ويطلقون على كل طائفة غريبة عنهم اسم أشرار، أو هـراطقة، وبناء عليه عندما رأينا مثل هذه البوابة العظمى مفتوحة أمامنا، وفي سبيل أن تنتشر حقائق الانجيل في الخارج، وجهنا اهتمامنا إلى تعلم لغـات تلك الشعـوب، ففـرضنا ذلك على

كل جماعة ديرية، وبذلك أضفنا جهداً جديداً إلى الجهود القديمة، وهم الآن —بفضل نعمة الرب— يتكلمون ويبشرون بلغات جديدة، وخاصة بالعربية، التي هي الأكثر انتشاراً بين الناس، لكن يالأسف، حدث مع جميع هذا السرور، والبهجة الروحية، التي قامت بيننا، نتيجة لتحوّل الكفار، أن مزج الرب من أعماق قضائه، ذلك ببعض المرارة، بوفاة رئيس طائفتنا، إذا لم نقل بأن وفاته قد تحولت إلى حياة للكفار، لأننا سمعنا من كثيرين ممن كانوا هناك حاضرين، ورأوهم، بأن معجزات كثيرة قد شوهدت هناك، إلى حد أن الميت قد بشر بفعالية أعظم بالمعجزات، مما يستطيع الأحياء بالكلمات، مبارك الرب، من أجل جميع الأشياء، ولهذا أرسلنا ثلاثة مبشرين إلى هؤلاء المسلمين، حتى لانظهر أننا مفتقرون إلى نعمة الرب، وبناء عليه، إن عملك أيها الأب المقدس، هو التجهيز والامداد إلى الذين يجتمعون مع بعضهم، وأن تقدموا السلام إلى أولئك العائدين إلى الكنيسة، خشية أن يحدث فيسقطون من بين ذراعي الحاضنة، فيغدون عرجاناً بالقدمين، وبذلك يكون الحال أسوأ من ذي قبل، لأن بعضهم الآن يعارضون أكثر من ذي قبل الرعوية الممارسة عليهم، وأنا لاأتجرأ على حبس انتباهك بالمزيد من الكلمات، فما هو ناقص وليس فيه كفاية، سيكون بامكان الرهبان الحاملين لهذه الهدايا أن يرووه لك، هذا ومات إلى جانب الرئيس وأتباعه: الراهب جيرالد الكاهن، والراهب ايفان المتحول، وإليك يايسوع المسيح كل الحمد والمجد، وشكراً، وشرفاً، وفضائلاً، وقوة، وعالماً بلا نهاية، آمين، وداعاً»، [وفعل هذه الأشياء كلها هذا الكاثوليكي الجديد، من خلال خوفه من التتار، فقد كان مرعوباً من عنفهم، ولأنه لم يكن قادراً على الحصول على المساعدة من الذين أمل بحمايتهم، لجأ هارباً إلى قربان المسيحيين، وبذلك تلقى مساعدة فعالة وسريعة، وفي أيام الرخاء تخلى عن الإيمان نتيجة لضغط نبلائه— إقحام].

هرطقة النساطرة

وبما أنه كانت هناك اشارة إلى النساطرة أعلاه، اعتقدنا أنه من الموائم أن نقحم في هذا الكتاب رواية عن أوهامهم، ففي بلدان المشرق، هناك شعوب همجية تختلف تماماً عن الاغريق وعن اللاتين، ويعرف بعض هؤلاء باسم اليعاقبة، اشتقاقاً من اسم رئيس لهم ومعلم اسمه يعقوب، كان تلميذاً لبطريرك الاسكندرية، وكان هذان الرجلان قد تعرضا منذ زمن طويل مضى لعقوبة الحرمان الكنسي من قبل ديوسكورس Dio-scorus بطريرك القسطنطينية، وطردا من كنيسة الاغريق، وهم الآن يسكنون في الجزء الأكبر من آسيا، وجميع المناطق الشرقية، وسكن بعضهم بين المسلمين، وآخرون متحالفون مع الكفار، المحتلين لمناطقهم، أي النوبة، القائمة على حدود مصر، حيث جزء كبير من أثيوبيا وجميع البلدان بعيداً حتى الهند، تحتوي —كما يؤكدون— على أكثر من أربعين مملكة، وكانوا جميعاً من قبل مسيحيين، ذلك أنهم تحولوا إلى العقيدة المسيحية، على أيدي الرسول متى مع الرسل الآخرين، لكن فيما بعد زرع العدو بذور خلافاته بينهم، فأصبحوا لوقت طويل مظلمين بالخطيئة المحزنة والتعيسة، يختنون أولادهم، من كلا الجنسين، مثل المسلمين غير مدركين أن نعمة التعميد، قد أزالت أوهام الختان للجسد، وذلك مثلما تتساقط الأزهار، وتزول، عند التحول إلى فاكهة، الأمر الذي قال عنه بولس الرسول في رسالته إلى أهل غلاطية: «إن اختتنتم لاينفعكم المسيح شيئاً» [٥/ ٢] وقال أيضاً: «لكن أشهد أيضاً لكل انسان مختتن أنه ملتزم أن يعمل بكل الناموس، قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس. سقطتم من النعمة» [٥/ ٣-٥]، ومن ذنوبهم الأخرى، ذنب ليس أدنى من الذنب المذكور أعلاه، هو أنهم يعترفون بذنوبهم، ليس إلى الكاهن بل إلى الرب وحده، حيث يضعون بعض البخور المحترق إلى جانبهم، وكأن ذنوبهم سوف ترتفع إلى الرب في الدخان، وخطيئة هؤلاء الأشقياء ليس من خلال

عدم فهم النصوص المقدسة، ومن ثم الهلاك بسبب سوء الفهم، فهم يخفون جراحاتهم عن الطبيب الروحاني، الذي عمله هو التمييز بين جذام انسان وجذام آخر، وبعد التفكر ملياً حول جريمة الختان، عليه أن يفرض التوبة، وذلك وفقاً للمفاتيح الممنوحة للكهنة والمعهود بها إليهم، بالقدرة على الحل وعلى الربط، وبشكل خاص الصلاة إلى الذين اعترفوا إليهم، وهكذا نجد في الانجيل أن الرب قال للمجذوم: «اذهب واعرض نفسك على الكهنة» وثانية قال جيمس: «اعترف بذنوبك ذنباً تلو الآخر»، وقال سليمان: «لاتستحي من الاعتراف بذنوبك»، ومجدداً إنه وفقاً للعهد القديم، يعترف الكاهن بذنوب الناس على رأس الأضحية، إنما كيف كان بإمكانه الاعتراف بذنوبهم، مالم تكن معروفة، و قد اعترفوا بها إليه؟، ومرة أخرى في العهد الجديد، قال القديس بولص في جزء آخر إلى الرومان: «لأن الإنسان يعتقد بالقلب ماهو صحيح، ويعترف بالفم من أجل الخلاص»، ونقرأ عن يوحنا المعمدان: «لقد عمدوا من قبله، واعترفوا بذنوبهم» ذلك أن الخجل، والشعور باللطف، والتواضع لدى الانسان المعترف هي الأجزاء الرئيسية للتوبة، ويصير الأشخاص —عرضة أكثر لاقتراف الذنب— هم الذين لايرون أنه عملاً صحيحاً أن يبوحوا بذنوبهم إلى الناس، لأنه قد كتب: «إن كل من يخفي ذنوبه لن يكون مستقيماً، لكن كل من يذنب ويعترف بذنوبه سوف ينال رحمة»، والخطيئة الثالثة لليعاقبة المتقدمي الذكر، هي جهلهم البدائي، مثلما ذلك دليل على سوادهم، هو أن عدداً كبيراً منهم يكوون أولادهم، ويضعون علامات عليهم قبل التعميد، وذلك بالضغط بحديدة محماة على جباههم، ويرسم بعضهم على أولادهم علامة الصليب إما على خدودهم، أو على جباههم، ذلك أنهم يعتقدون أنهم يتطهرون بالحديد المحمى، لأنه كتب في انجيل القديس متى بأن القديس يوحنا المعمدان قال عن المسيح: «هو سوف يعمدكم بالروح القدس وبالنار»، وإنه على كل حال لأمر واضح إلى جميع ذوي الإيمان الصحيح، أن إزالة الذنوب تكون بالنار الروحية، أي بوساطة الروح

القـدس، وليس بالنار المرئيـة، لأن الـرب أثناء نبـوته، غـالبـاً مـا لام بني اسرائيل، وأنزل بهم لعنات مخيفـة، لأنهم قلدوا الكفـار، بأمـرهـم أولادهم بالمرور خـلال النار، وجـاء في سفـر التثنيـة على لسان نبيـه مـوسى: «خـذ حـذرك فـلا تقلد آثام هذه الأمـم، وينبغي أن لايكون بينكم واحـد يتـولى تطهير ابنه أو ابنتـه بقيـادتها من خـلال النار»، ومن الـواضح إلى جميع المسيحيين، أنه لاربنا ولارسله، ولا أي واحـد من الآباء المقـدسين سمح بمـراعاة هذه العـادة في الكنيسة، كما أنهم لم يأمـروا الناس بالاحتراق وفق هذه الطريقة، ونحن قد رأينا علامات الحرق على أذرعة الذين يقطنون بين المسلمين، وكـذلك بين اليعـاقبة والسـوريين، ذلك أنهم أنفسهم عـرضـوا بالسماح لشـارة الصليب بأن تطبـع عليهم، ليميـزوا أنفسهم عن المسلمين، باحترامهم لذلك الرمـز المقـدس، وعندما بحثنـا بين الاغريق والسـوريين وسألناهم لماذا يزدرون اليعاقبة، ولماذا طردوهم من جماعتهم، أوضحوا بأن السبب الرئيسي قـد كـان لأنهم انغمسوا في هـرطقة ملعـونة، وهي الأكثـر شراً، بإعلانهم بأن هناك طبيعة واحـدة وشخص (اقنوم) واحد في المسيح، والهرطقات من هذا النوع قـد حرمت كنسياً وأدينت في مجمع خلقيـدونية، وأكـد بعضهم وأصروا بشكل شرير، على أن المسيح بعـدمـا اتخذ شكل انسان، لم يوجـد في طبيعتين، بل الذي بقي فيه هو الطبيعـة اللاهوتية فقط وكان الذي قدم هذه العقيدة الخاطئة هو يوتيخي Eutyches الذي كان راعي دير في القسطنطينيـة، هذا ويؤكـد بعضهـم الآن، بأنه من الطبيعتين كانت هناك طبيعة واحـدة في المسيح، وكان هناك أسقفان من الاسكندرية، اسميهما: ثيوديوس وغـالان، كانا مبدعـي هذه الخطيئة، وإنه على كل حال لمن الواضح، أنه وفقـاً لطبيعـة الوجود الانسـاني، قـد جاع يسـوع المسيح، وعطش وتحمل الحاجـة إلى أشيـاء أخـرى، وعـانى ألماً من الموت على الصليب، ولكن وفقـاً للطبيعة اللاهوتيـة هو جلب الموت إلى الحياة، وقـام بأعمال أخـرى جيـدة، كما قـال عن نفسـه: «كنت أنا قبل أن يكون آدم» و: «البـداية أنا الذي أتكلم إليكـم» وقـال مـرة أخرى: «أنا والأب واحـد»،

ولكن في اشارة إلى طبيعتـه كإنسان قـد قال: «الأب أعظم مني أنا» ومجدداً قال عندما كان الكأس يعبر بعيداً عنه: «إنها ليست إرادتي، بل إرادتك التي ستكون»، وبعـدما قمت بعمليـة تقص كاملة تماماً حول اليعـاقبة المتقـدم ذكرهم، عما إذا كانوا قد أعلنوا عـن وجود طبيعة واحدة فقط في المسيح، لم أعرف هل أنكـروا وجود غيرها من خـلال الخوف من الافحام الجدلي، أو لسبب آخـر، ولدى سـؤالي لماذا يعلمـون أنفسهم باصبع واحـد، أجـابوني بأنهم فعلوا ذلك بسبب اتحاد الجوهر اللاهوتي، ومع ذلك يشيرون في ثلاثة أمـاكن إلى الثـالوث، أي اهتماماً منهم بالثـالـوث المقـدس واتحاده، وهم يعلمـون أنفسهم في أربعـة أمـاكن، على شكـل صليب، وكـان السـوريون (السريان) والاغـريق —على كل حـال— مضاديـن لهذا، ولإظهار أهميـة الوحـدة، التي يؤمنون بها لـوحـدها أنها الموجـودة في المسيح، يعلمـون أنفسهم، ويرسمـون عليهـا بإصبع واحـد، ويستخـدم بعضهم الكتـابة الكلدانيـة (السريانية)، وآخرون العربيـة، التي تعـرف باسم الاسلاميـة، ويستخدم رجالهم العلمانيون كتابات أخرى ولغات، وذلك تبعاً لاختلاف شعوبهم وبلدانهم، لكن لغـة رجال دينهم، التي يستخدمـونها في الكتابات اللاهوتية، لاتفهمهـا الطوائف الدنيا، لأنهم وإن استخدموا اللغـة العربية، إنها لاتشابه العـربية الدارجـة، لكنها لهجـة خاصـة بهم أنفسهم، لايفهمها السواد الأعظم من الناس.

تواضع النائب البابوي

ولقـد تمكن النائـب البـابوي أوتو، الذي أشرنا إليـه من قبل، بالسلوك بنفسـه بشكل حكيم، وبلطف وتواضع، وبـرفضـه إلى حـد كبير، الهدايا الثمينة التي منحت إليـه، وذلك على عكس العادة الجارية للرومـان، تمكن بسلوكـه الطيب من تهدئة مشـاعـر الغضب، التي تكونت ضده، وكـذلك التي تكونت عند رجال الدين وعند النبلاء، وكانت مشاعر الكثيرين ضده قصيرة العمر.

تهدئة النبلاء

في المقام الأول، تولى النائب البابوي المذكور، تهدئة بعض النبلاء، الذين لسبب سري لم يحبوه، ووقفوا ضده، وبوساطة قبلة منه ثبتهم بالإيمان، وكان هؤلاء:

بطرس أسقف وينكستر، وهيوبرت ايرل كنت، وغيلبرت باسيت، وستيفن سيغريف، ورتشارد سيووردِ، وعدد كبير آخر، كانوا من قبل، لوقت طويل مضى معادين له، وهذه العداوة والكراهية قد وصلت إلى نهاية محزنة في مبارزات عقدت في بليث Blith في بداية الصوم الكبير لهذا العام، فيها واجه فرسان الجنوب، فرسان الشمال، وكانت النتيجة أن فرسان الجنوب تغلبوا على خصومهم، ووقع بعض الرجال من ذوي المراتب من على الطرف الآخر بالأسر، ونجم عن ذلك قتال نظامي بدلاً عن مباراة مبارزة، وفي هذه المنازلة ميّز ايرل بيغود نفسه بين الجميع، وبعد هذا هدّأ النائب البابوي الغضب بين هؤلاء النبلاء، وكتب إلى جميع أساقفة انكلترا للالتقاء به في لندن، في ثمانية القديس مارتن في كنيسة القديس بولص، لسماع مذكرة البابا المانحة له والساندة إليه صلاحيات كاملة بالنيابة البابوية، وفي المكان نفسه للاعداد لخطط من أجل إصلاح الكنيسة الانكليزية، ولعقد مجمع بحضوره.

مقتل فرسان الداوية قرب دربساك

انتشرت في تلك الآونة أخبار محزنة، وعممت الأسى في الأرض المقدسة، فإثر وفاة سلطان حلب، انتهت الهدنة التي كانت معمولة بين فرسان الداوية والسلطان المذكور، فوقتها رغب الفرسان الداوية في توسعة أراضيهم في سبيل كرامة المسيح، لذلك أعدوا العدة للحرب، واقترحوا إلقاء الحصار على قلعة اسمها دربساك Guaseum واقعة إلى الجانب الشمالي من أنطاكية، ونصبوا خيمهم هناك في سهل معشوشب قرب

القلعة، وعينوا وليم أوف مونتفـرات، الذي كان من أوفرين Auverone وكان الوصي على أنطاكية، قائداً لهم، وعندما اقتربوا من القلعة المذكورة في تعبئة قتـالية، شـاهد ذلك بعض الأسرى الصليبيين الذين كـانوا بين أيدي المسلمين، وكـانوا بالأغـلال، مع بعض المرتدين، ولدى اقترابهم صرخـوا لهم قائلين:

«اهربوا أيها الرجـال الأشقياء، لماذا أنتم مندفعـون نحو دمـاركم؟ إنكم جميعـاً ستمـوتون، ذلك أن أعـداءكم جـاهزون بأعـداد لاتحصى لقتلكم، وذلك بأمـر من سلطان حلب، الـذي نصب كمائن لكـم»، لكن الوصي على أنطاكية، وإن كان قد سمع ذلك، قد استخف بتحذيرهـم، ودعاهم مرتدين وخونة، وقـام كثير من فرسان الداوية، فقـدروا فرص الحرب، ونظروا إلى العـدد الصغير لقـوتهم، وإلى الحشـد الكبير لأعـدائهم، فنصحـوه بتجنب كمين العدو، حتـى يتمكنوا تماماً من تقـدير قدرتهم القتاليـة، وعلى هذا ردّ عليهم الوصي، بأنه لايرغب بأن يكون معه مثل هؤلاء الناس الخنوعين، في صراع مشكوك فيـه، ولا أن يشـاركـوا في نصر عظيم هو سيناله، ودعـاهم باسـم جبناء مزيفين، وبهذه الطريقة المعـاندة —مع أن عدداً قد تخلوا عنه— أثار العـدو وحرضـه على القتـال، لكن الذي حدث هو أن المسلمين كـانوا محتشدين ولـذلك انقضوا عليه قبل أن يتـوقع ذلك، ولذلك كـان غير قادر على تحمل صـدمة القتـال، وخالـف أنظمة الداوية بأن أدار ظهـره وهرب، وهرب معـه بعض الآخرين من أتبـاعه، الذين كـانوا من قبل قد شجعـوا البقية، وسقط في هذه المعـركة أكثر من مـائة من فرسـان الداوية، وثلاثمائة من رجال القسي العقـارة، دون أن نذكر المدنيين الآخـرين، وعدد كبير من الجنود الرجالـة، أما الذين قتلوا من التركمان، فكانوا حـوالي الثلاثة آلاف، وفي هذا الصراع غير السعيـد قتل فـارس داوي مـن أصل انكليـزي، كـان اسمه رينالـد دي أرغنتون Argenton وكــان هو الحامل للعلم في ذلك اليوم، لكنه لدى سقوطه، مثله مثل الآخرين الذين سقطوا، ترك نصراً كان

هو الأكثر دموية إلى أعـدائـه، لأنه دافع عن العلم بدون كلل حتى قطعت ساقـاه وذراعاه كما أرسل وصيهم وحده قبل أن يقتل حـوالي ستة عشر من الأعـداء إلى الجحيـم في الأسفل، دون أن نحسب الذين جـرحهم بشكل مميت، ووقع هذا الصراع البغيض في شهر حزيران.

إرسال ثيودوريك رئيس الاسبتارية لمساعدة الأرض المقدسة

عند سماع الداوية والاسبتارية الساكنين في البلدان الغـربية بهذه المصيبة، أعـدوا أنفسهـم لـلانتقـام لدمـاء إخـوانهم التـي سفكت في سبيل المسيح، وأرسل الاسبتـارية رئيسهم ثيودوريك، وكـان ألماني المولد، وكـان فارسـاً بارعـاً جـداً، وأرسل معهم مجمـوعة من الفـرسـان مع تابعين مأجـورين، ومبلغ كبير من المال لمسـاعدة الأرض المقـدسة، وبعـدمـا فرغـوا من جميع ترتيبـاتهم، انطلقـوا من بيتهم في كـلاركنول Clerkenwell في لندن، وسـاروا بنظام جيـد، مـع حـوالي ثلاثين ترسـاً غير مغطاة، ومع رمـاح مـرفوعـة، وأمامهم علمهـم، خلال وسط المدينة، نحـو الجسر حتى ينالوا مباركة المشاهدين، وحنوا رؤوسهـم مع قلنسواتهم نحو الأسفل، وعهدوا بأنفسهم إلى صلوات الجميع.

عودة الامبراطور إلى إيطاليا مع جيش كبير

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل من العـام نفسه، قام الامبراطور بعدما قمع الاضطرابات التي تفجـرت في ألمانيـا، وتمكن من تهدئـة جميع الفئات هناك، بالدخول إلى ايطاليا مع قوة كبيرة، وقرار بأن يستخدم جميع الوسائل للانتقام للأضرار المضاعفة، التي غالباً ما أنزلها به سكان ميلان، لأنه عندما عاد قبل وقـت قصير إلى ألمانيا، أثناء حدوث الاضطرابات الـداخلية، التي أثارها دوق النمسا من أجل دمـاره، ولدى سماع أهل ميلان بخبر تراجعه، قـامـوا وكأنهم يطاردون الامبراطور بحقـد شـديد، فقتلوا بشكل وحشي أتباعه، الذين وضعهم في القـلاع التي نال تملكها في ايطاليا، وبذلك أثاروا

يومياً غضب الامبراطور، وبناء عليه، ولكي لاينال تهمة عدم الطاعة، قام بمراسلة البابا مراراً وتكراراً، برسائل تضرع، وبعدة رسل خاصين، فتوسل إلى البابا شخصياً بحكم كونه رأس الكنيسة، ليقدم له المساعدة في الحصول على ميراثه، وبانزال العقوبة بسكان ميلان، للأضرار المضاعفة التي ألحقوها به، ولاجتثاث الهرطقة من كل مدينة سيئة السمعة في إيطاليا، ولاسيما أن واجب كنيسة روما، إذا ما صمت البقية، أن تقف ضد وقاحة مثل هؤلاء الناس.

ولدى سماع البابا بهذا، تظاهر بإخفاء نفسه، وسار نحو روما، وكأنه كان هارباً من أمام الامبراطور، لأنه كان غير راغب —أو غير قادر— بمساعدته، واستقبله الرومان بسرور، متصورين أنه منذ ذلك الحين فصاعداً، لن يتخلى عنهم، ويسافر بعيداً، كما فعل من قبل، لأنهم وجدوا أنهم عانوا أثناء غيابه، الذي استمر حتى الآن عشرة أعوام، من خسارة كبيرة في المال.

الحرب بين الامبراطور وبين الميلانيين

ولدى سماع الميلانيين بقرب وصول الامبراطور، الذي أثاروه إلى غضب مسوغ، عملوا جميع الاستعدادات، التي أمكنهم عملها، من أجل الحرب، فقد زودوا أبراجهم بالمؤن، وجعبهم بالسهام، وجهزوا بالسلاح الذين ليس لديهم أسلحة، ولذلك عندما صار الامبراطور قريباً مع جيشه الكبير، الذي قيل بأن تعداده قد تجاوز مائة ألف رجل، بالاضافة إلى المرتزقة المسلمين، وبعدما سار فصار على بعد زحف يوم عن المكان، خرج سكان المدينة مع حلفائهم من دون انذار، في صفوف قتالية، للتصدي له، ونصبوا مخيمهم حتى يتقرر يوم المعركة، وكان معهم حشد عدده حوالي خمسين ألف رجل، ونصبوا رايتهم حيث بدا الجيش أنه الأقوى، ولدى رؤية الامبراطور لهذا، جمع مستشاريه، وشجعهم بالخطبة الحربية التالية:

«انظروا كيف تجرأ هؤلاء الميـلانيـون الوقحـون على الظهـور أمـامنا، وشرعوا بإثارتي أنا الذي هو مـولاهم وتحريضي على القتال، وهم كما ترون أعداء الاستقـامة والكنيسـة المقدسة، وهم يتحملون وزر ذنوبهم، اعبروا النهر —لأنـه كان هناك نهر بينهما اسمـه أوغليو Oglio — وانشر رايتي أيها الحامل لها، وارفعـوا عـاليـاً نسري المنتصر، واشهـروا أنتم يافـرسـاني سيـوفكم المرعبـة، التي غـالبـاً مـاغمستمـوها في دمـاء أعـدائكم، وأنزلوا انتقـامكم بهؤلاء الجرذان، الذيـن تجرأوا في هذا اليـوم على الخروج من جحورهم ليتنازلوا مع رماح الامبراطور الروماني».

ولم ينالوا أي تأخير، لأن الميـلانيين انقضـوا على الفـور على العسـاكـر الامبراطورية، وقـاتلوا المسلمين بحماس، ذلك أنهم كانوا أول من تصـدى لهم، وفي وقت قصير قتلوهم جميعاً، وعزموا على اقتراف مذبحة مماثلة ببقية الجيش الذي تصـدى لهم، ولـدى رؤية الامبراطور لهذا ومعـه نبـلائـه الشجعـان الذيـن لايقهـرون، ألقـوا بأنفسهم كتلة واحـدة على الأعـداء، وبذلوا كل طـاقتهم، فصـدوا حملاتهم، وعندمـا رأى سكان المدينة —من الجانب الآخر— أنها مسألة حياة أو موت، تبـادلوا تشجيع أحدهم الآخر، للمحافظة على شجاعتهم، وقاتلوا الأعداء بشجاعة أكبر، وغرزوا سيوفهم البراقـة في أجسادهم،وحـوّلوا الهجوم إلى معـركة هي الأكثـر دموية، فقـد سقطت أعـداد كبيرة مـن على الجانبين، وامتـلأ الهواء بصراخ الجنود المتصـارعين، وبأنين الذين كـانوا يمـوتون وبتصـادم الأسلحـة، وبصهيل الخيـول، وصراخ راكبيهم وهـم يحثـونهم على الاسراع، وغـالبـاً مـاعلت أصوات قـرع الحديد مثل الصواعق، وأخيراً، وبعد عـدة حملات دموية من على الجانبين، أصبح الميلانيون، غير قـادرين في ذلك اليـوم على تحمل ثقل المعركـة، والاستمرار بالقتـال مدة أطول، لذلـك تراجعوا نحو مـدينتهم، عازمين على معـاودة القتال في اليوم التالي، وبعثـوا برسالة إلى الامبراطور، بأنهم سـوف في الصبـاح البـاكـر من اليـوم التـالي يجربون بكل تأكيـد حظ

الحرب، وهم وقتها سينـالون النصر أو عدوهم، تبعاً لإرادة رب الحشود، حتى لاتبقى عقولهم معذبة مدة أطول بسبب التعليق أو التأخير.

ولدى سماع الامبراطور بهذا عقد مؤتمراً، وكان بحكمة وحذر يرغب في قمع غضب أعدائـه، مؤثراً ذلك ومفضلاً له على متابعـة القتال المشكوك به بشكل غير حكيم، وعلى أن يعهـد بنفسه وبـأتباعـه المتعبين إلى حظ الحرب غير المؤكد، لأن مـذبحة كبيرة وقعت بين صفـوف النبلاء من على الجانبين، ستظل موضع نواح وبكاء لأجيال مقبلة، لكن الميلانيون نالوا الحظ الأسوأ في القتـال، لأن الامبراطـور قـد أخـذ ثلاثـة آلاف منهم أسرى، وذلك من مختلف مراتب أهل المدينة، وذلك إلى جانب قتل عـدد لايحصى من عامـة الجند بحـد السيف، يضاف إلى هذا، نصب كمينـاً بعد ذلك، فأسر ثلاثمائـة من النبلاء، واستولى على رايتهم، واعتقل عمدتهم، ابن دوج البندقية، الذي هو بالحري سقط في المعركة، وقتل أيضـاً كثيراً من النبلاء الآخرين، وسقط أسقفهم أيضاً، إمـا أثناء القتال، أو أخذ أسيراً، والحقيقـة المؤكدة، هو أنه لم يترك أحداً، ليقدم أية رواية عنه.

وأمر الامبراطور منذ ذلك الحين باغـلاق جميع الطرقات والمعـابر حول المدينة، وبحـراستهـا بدقـة، وباغـلاق المخارج والمداخل العـائـدة للتجـار والفـلاحين، بوضع حراس هناك ليـلاً ونهاراً، وبهدم الجســور، وبحراســة الطرقات، وكـانت الغاية من هذه الوسائل اضعـاف قوى أعدائه الثـائرين وتدجين وحشيتهم، وأصبح سكان المدينة الذين رفعـوا كعبهم ضـد الرب يائسين، ولايثقون بالرب، فـرفعوا المصلوب في الكنيســة من كعبيه، وأكلوا الجسد في اليوم السادس من الاسبوع، وفي الصيام الكبير، وانغمس كثيرون في هذه المتاهة من اليأس في جميع أرجاء ايطاليـا، وكانوا يشتمون ويجدفون، ومن دون احترام لوثوا الكنائس بالقاذورات، التي هي غير جديرة بالذكر، ولوثوا المذابـح، وطردوا الموظفين اللاهوتيين، واستــولى وقتــذاك الرعب والارتعـاد على مـدن ايطاليـا، وجـاءت أعـداد من السكان إلى الامبراطور يقـدمـون هدايا ثمينة، لكي لايتـورطوا بفـاجعـة مماثلة، وسلمـوا أنفسهم

ومـدنهم واستسلمـوا إليـه، وأعطوه أيديهم اليمنى معـاهدين، وتواضعـوا متعظين بأمثولة الآخرين الذين عانوا وتألموا، وهكذا تمكن الامبراطور قبل منتصف الصـوم الكبير من احكام قبضتـه على جميع ايطاليـا، وذلك إلى جانب بولونا Bologna وأربع مدن أخـرى هي التي لم تمتلك الوسائل للمقاومة، وكان جميع رجال الدين في بولونا مرعوبين خائفين على أنفسهم، لأن الامبراطور كان قد أخبرهـم في السنة الماضيـة وأمرهـم بالمغادرة بسلام، وقد رفضوا طاعة أوامره.

سخط نبلاء انكلترا ضدّ الملك

في الوقت الذي كانت فيـه هذه الوقائع جـارية في مناطق ماوراء الألب، اعتمـد الملك هنري الثـالث على نصيحـة شريـرة، ووثق بها، على عكس مـاقضى عليـه واجبـه، أو المنفعـة لـه، فنأى بنفسـه عن نصيحـة رعـاياه الطبيعيين، وأصبح متصلباً عنيداً ضـد الذين يرغبون به الخير، وضد الذين يتطلعون نحو منفعة المملكة، فقد أدار شؤونها، مع اصغاء قليل، أو معدوم لنصيحتهم، وكـان في سبيل أن يمتلك بعـض الحجج الماكـرة مـن أجل استخراج المال منهم، أعلن بناء على قسمه، في المؤتمر الذي دعـا إليه النبلاء من مسافات بعيدة، بأنه كان معدماً بلا مال، وأنه كان في وضع كبير العوز، ولذلك التمس بكل إلحاح منهم أن يمنحـوه جزئاً من ثلاثة عشر جـزئاً من أمـوالهم وأملاكهـم في جميع أرجاء انكلترا، حتى يمكن دعـم كرامتـه، أي كرامـة الملك، وكرامـة المملكة بطريقة أعظم تشريفـاً، ولكي توسع المملكة على أسس أكثر رسوخاً، وقد انزعج النبلاء كثيراً لدى سماعهم هذا، ورأوا كثيراً من الأجـانب يسمنون على ممتلكاتهم، وقـد ضعفت المملكة بسبب الفقر، وقد أحاقت بها مخاطر مضاعفـةمراراً، وكان بعد كثير من المناقشات فيها تواضع الملك بنفسـه، ووعد أنه منذ ذلك الحين فصاعداً سـوف يلتزم بنصائحهم من دون تردد، وجرى منحه الجزء من ثلاثة عشر جزئاً من جميع الممتلكات المتحركة، لكن ذلك لم يكن من دون صعوبات كبيرة.

وصـدر الأمر بعـد ذلك بجمع هذا الجزء، وبتقـدير ليس وفقاً للتقـدير الملكي، بل وفقـاً للتقـدير العـام، وأن لايوضع في الديرة والقـلاع، حسبما جـرى الاعداد من قبل وتقـرر، وأن لاينفق بناء على تصرف النبـلاء، لكن قام الملـك من دون أخذ مشورة أي واحـد من رعايـاه الطبيعيين في مملكته، فأعطـى المال إلى الأجـــانب لينقل إلى الخارج، وأصبح هـو مثل انســـان مسحور، إذا لم نقل إنه أصبح من دون عقل، ولذلك تفجرت الشكوى بين الناس، وازداد سخط النبلاء حماوة وشدة.

الايرل رتشارد يلوم الملك

وكـــان رتشـارد، ايرل كـــورنوول، وأخـو الملـك، أول من طلب الملك للاستجـواب، ولامه بحـدة للخراب الكبير الذي لحق بالمملكة، وكـان هو سببه، وأعلن أنه يقوم يومياً، بوساطة عذر جديد، بنهب نبلائه، وأتباعه من البـارونات، من ممتلكاتهم، وكل ماأخـذه منهم، وزعه بشكل غير معقـول، بين هؤلاء الذين كانوا يتـآمرون ضده، وضـد ممتلكاته، وأضاف الايرل بأن الملك قـد جمع موارد كبيرة، وجبى في أيامـه مبالغ ضخمـة من المال، وأنه لم يكن هناك لارئاسة أساقفة، أو أسقفية، باستثناء: يورك، وباث، ووينكستر، هي ليست شـاغـرة في أيامـه، وذكـر الشيء نفســه فيما يتعلق برعـاة الديرة، والكونتيـات، والبارونيـات، والادارات، والوكالات الأخـرى، ومع ذلك فإن خزينة الملك، التي يتـوجب أن تحتوي قوة المملكة واستقـلالها، لم تشعر قط بأية زيادة.

واستمـر الملك في رفضه لنصيحتـه، وكـذلك لنصائح رعـاياه الطبيعيين الآخرين، وازداد مـن سيء إلى أسوأ في جنانه الذي شعر بـه، وألم به، وعهد بنفســه كليـاً إلى إرادة الرومـان، وبشكل خـاص إلى النائب البـابوي، الذي أرسل خلفـه بشكل غير حكيـم، حتى أنه ظهـر وكأنه يعبـــد حتى خطواته نفسها، ذلك أنه أعلن أيضاً، أنه لايستطيع بالعلن أو بالخفاء ترتيب أي شأن من شـؤون المملكة، أو إحداث أي تغيير أو تبـديل من دون مـوافقة مـولاه

البـابا، أو النائب البـابوي، ولذلك مـن الممكن القـول أنه لم يكن ملكاً، بل تابعاً للبـابا، وبهذه التصرفات وأمثالها من المساوىء، أخـرج الملك ونبذ من قلوب نبلائه، وكان لديه أيضـاً مستشارين رجالاً غير مشهورين، ولا يمكن الوثوق بهم، وقد قيل بأنهم كـانوا المحرضين له على هذه الأفـاعيل، ونتيجة لذلك كـانوا مكروهين إلى أبعـد الحدود من قبل النبـلاء الانكليـز، مع أن أصـولهم جـاءت من المملكة نفسهـا، وكـان هؤلاء: جـون ايـرل لنكـولن، وس. S ايرل ليسـتر، وغ. G وكان من رهبان الداوية.

النائب البابوي يسمّـن نفسه على الأشياء الطيبة لانكلترا

وقـدمت في الوقت نفسـه، هدايا ثمينـة إلى النائب البـابوي، من خيـول صغيرة لركـوب السيـدات، وأوعيـة جميلة، ومـلابس ناعمـة ومضـاعفـة الحيـاكـة، ومختلف أنواع جلـود الحيـوانات البريـة، وأمـوال، ولحوم، ومشروبات، وعندمـا بدا لأسقـف واحـد، هـو بطرس أسقف وينكستر، ووضح بأن النائب البـابوي مزمع على إمضـاء الشتاء في لندن، أرسل إليـه خمسين رأسـاً من الماشية، ومـائة عبـوة من القمح، وثمانية دنان من الخمـرة الصـافية ليـدعم نفسـه بها، وقـدم له آخرون هدايا ممـاثلة، تبعاً لقـدرتهم، وللوسـائـل التي توفـرت لديهم، ولكـن النائب البـابـوي لطّـف الشره الرومـاني، ولم يقبل جميع الهدايا التي قـدمت إليـه، وقـد تقبل بعض الهدايا وتسلمها عن رضـا، وبملامح مشرقة، واضعـاً في ذهنه الملاحظة الفلسفية التي تعزى إلى افلاطون قوله:

«أن تتسلم جميـع الهدايا التي منحت إليـك، فـذاك شره، وأن لاتتسلم شيئاً، فذلك ازدراء، ولكن أن تتسلم بعض الهدايا، فتلك صداقة».

الملك يدعو كونت بروفانس إلى زيارته

وفي الوقت نفسـه توسل الملـك بحـرارة إلى كـونت بروفـانس —والد الملكة— بالرسائل، وبالرسل المتتـابعين، لكي يوافق فيقدم إلى أرض ختنه،

وليحمل وهو عائد بعض ماله معه أثناء رجعته، ومن المعتقد أن المال الذي استخرجه الملك كجزء من ثلاثة عشر جزئاً، كان من أجل التوزيع عليه وعلى آخرين من مثل هؤلاء الناس، واقتنع الكونت بحب الكسب، وجاء بناء على الدعوة، ولم يعق بأي إغراءات أو هدايا من الفرنسيين، مع أن الملك كان متزوجاً من ابنته الكبرى، لكن قبل أن يصل إلى البحر، ثارت حرب داخلية في مناطق بروفانس، ولذلك عاد مسرعاً، ولدى سماع الملك هنري بذلك أرسل إليه ألف مارك ليغطي بها نفقات سفره، وليشتري تجهيزات عسكرية من فرنسا.

لقاء في يورك بين ملكي انكلترا وسكوتلندا

وكتب في العام نفسه الملك إلى نبلائه ليجتمعوا بحضرته وبحضرة النائب البابوي في يورك، في يوم عيد تمجيد الصليب المقدس، للبحث في بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالمملكة، وتوجب على ملك سكوتلندا أيضاً القدوم إلى ذلك المكان لمقابلته، بناء على دعوة له من الملك ومن النائب البابوي، بغية الاعداد لشروط من أجل السلام بينهما، وأنه بفضل نعمة الرب يصبح من الممكن تسوية جميع الخلافات بينهما وإنهائها، وأن يكون كل واحد بينهما راضياً بتسلم ماهو حق له، وبعد وصولهما إلى هناك، تم الاتفاق على أن يتسلم ملك الاسكوتلنديين ٣٠٠ Librates [١٥,٦٠٠ acres تساوي الأكره الواحدة حوالي الأربعمائة متر] من الأرض في مملكة انكلترا، دون السماح ببناء قلعة عليها، وعليه أن يقدم الولاء إلى الملك، كما يتوجب إبرام معاهدة تحالف بينهما، وأن عليه أن يقسم على العمل باخلاص نحو ملك انكلترا، وأن يحافظ على المعاهدة، وكان المرجو أنه بهذه الوسائل إنهاء جميع الشكاوى والادعاءات من جانب ملك سكوتلندا، ولدى إلحاح النائب البابوي وتعبيره عن رغبته بالذهاب إلى مملكة سكوتلندا لفحص الشؤون اللاهوتية هناك مثلما فعل في انكلترا، أجابه ملك الاسكوتلنديين قائلاً:

«أنا لاأتذكر قط أنني رأيتُ نائباً بابوياً في بلادي، ولم تكن هناك حاجة قط لدعوة واحد إلى هناك، الحمد للرب، وليس هناك الآن أية حاجة لواحد، لأن كل شيء يسير على مايرام، كما أنه لم يسمح لأي نائب بابوي بالدخول إلى تلك المملكة في أيام أبي، أو أيام أي احد من أجدادي، وأنا لن أسمح بذلك مادمتُ قادراً على فعل ذلك، وبما أن التقارير قد تحدثت عنك بأنك رجل صاحب قداسة، إنني أحذرك، إنه إذا صدف ودخلت إلى أراضي، أن تسير بكل حذر، خشية أن يحدث لك أي حادث، لأنه يسكن هناك أناس متوحشون، ليسوا تحت السيطرة، وهم متعطشون يسعون وراء الدماء البشرية، وهؤلاء أنا لايمكنني تدجينهم، وإذا مارغبوا بمحاربتي، فسأكون غير قادر على منعهم، ولربما سمعت مؤخراً أنهم أرادوا محاربتي وطردي من مملكتي»، ولدى سماع النائب البابوي هذا، لطّف رغبته وشوقه إلى دخول اسكوتلندا، ولم يترك جانب ملكه، أي جانب ملك انكلترا، الذي أطاعه في كل شيء، لكن أحد الطليان، وكان من أقرباء النائب البابوي، بقي مع ملك اسكوتلندا، وأبقاه هذا الملك معه، وذلك حتى لايظهر أنه متمرد تماماً، وشرفه بمنحه رتبة الفروسية، ومنحه بعض الأرض، وهكذا إرفض المؤتمر، وعاد الملك مع النائب البابوي إلى الجنوب.

استعدادات النائب البابوي الكبيرة من أجل عقد مؤتمر

ومع اقتراب موعد عقد المؤتمر، أمر النائب البابوي بوضع كرسي فخم في مكان مرتفع، وأسنده فوق ألواح طويلة، وقد أمر بتشييده لنفسه في الجزء الغربي من كنيسة القديس بولص في لندن، ثم إنه أرسل رسائله إلى جميع قساوسة انكلترا، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان المعينين، يأمرهم أن يجلبوا —أو أن يرسلوا— رسائل توكيل عن ديرهم أو هيئة كهنتهم، وكذلك بأسمائهم، بأن كل شيء سوف يقرره النائب البابوي في المؤتمر، ينبغي أن يصدقوا عليه من على الجانبين، وبناء على هذه الدعوة قدم جميع قساوسة انكلترا الذين هم تحت سلطان

نيـابته البـابوية، مع أنهم تعـرضوا لكثير من الضيق والتعب في أجسـادهم، ومثل ذلك عانت خيـولهم، لأن فصل الشتاء كان قـد اقترب حلوله، ومعه أنواء عاصفة وقاسية.

عاصفة ريح ثقيلة ومدمرة

وكان من بين الذين قدموا إلى ذلك المؤتمر واحد اسمه المعلم وولتر بروز Pruz وكـان كـاهناً وقـد أعلن للجميع بأن جميع الكـواكب مقبلة على الاجتماع معاً، تحت برج واحـد من الأبراج هو برج الجدي، وسوف يسبب هذا هياجـاً عظيماً بالعناصر، ولسوف يثير عـواصف ثقيلة من الريح، وتنبأ أن دماراً هائلاً سيكون بين الحيوانات، خاصـة القرنية منها —التي ندعوها مـاشية أو قطعـان— وهذا سوف يتبع الزوابع، وأضـاف مازحـاً: «ربما لن تكون بشراً لهم قـرون»، أي «من الأسـاقفـة»، ولم تكن توقعـاته هذه كلهـا فـارغـة من الصحـة، لأنه حـدث فجـأة، عندمـا كـانوا مجتمعين في كنيسـة القديس بولص أن اهتزت بشكل مفاجـىء، بسبب تلك العاصفة الشديدة من الريح، فـاستولى رعب شـديد على الجميع، وبشكل خـاص على النائب البابوي، وفي ليلة عيد القـديسة سيشيليا Cecilia حدث أيضاً أنه عندما كان القمـر في ربعه الأول، أن انتشرت غيوم سوداء بشكل غـريب، شكلها مثل برج، وقد ظهرت في الجزء الغربي من السماء، وبدأ الرعد يزمجر، وشرع البرق يرسل ببريقـه، وثارت الريح، وخلال تلك الليلة كلهـا واليوم التـالي كـانت هناك عاصفـة ثقيلة ترافقت مع ريح هائجـة ما من أحـد يتذكـر أن مثلهـا قد وقع من قبل، واستمـرت هذه العاصفـة لمدة خمسة عشر يومـاً أو أكثـر من دون انقطاع، واقتلعت أشجـار البلوط من جـذورها، وسقطت، وسقطت الأبراج والأبنيـة أرضاً، أو أنها اهتزت، وهكذا بـدا أن الأنواء قد اتحدت في سبيل اقلاق الانسان.

الاجتماع والإعدادات للمؤتمر

مع أن رجـال دين انكلترا، قـد اجتمعـوا في كنيسـة القـديس بولص في

لندن، في اليوم الأول المحدد من أجل عقد المؤتمر، والذي كان اليوم الذي جاء بعد ثمانية القديس مارتن، لم يظهر النائب البابوي، لأن الأساقفة سألوه أن يمنحهم ذلك اليوم لفحص الترتيبات التي اقترح عملها، وللتداول حولها، حتى لاتتعرض مصالحهم لأضرار أعدت سلفاً، ووصل في اليوم نفسه فرسان مسلحون مع حوالي المائتي جندي، كان الملك قد زوده بهم بناء على التماس عظيم منه، ووضعهم في كمين، لأنه كان حذراً من جانبه، لأنه قد قيل بأنه قد حرض ضد الذين لديهم عدة مصالح وموارد، وبشكل خاص ضد اللاشرعيين، وقد ظهر هو شخصياً في الكنيسة المذكورة في الصباح الباكر، وكان ذلك في حوالي الفجر، وكان حشد رجال الدين الذي كان ينتظره كبيراً جداً، إلى حد أنه وجد صعوبة بالغة في الدخول إلى الكنيسة، وبعدما تمكن من شق طريقه، عرض نفسه في أثوابه الحبرية، أي في المدرعة الكهنوتية، والقبعة اللاهوتية المغطاة بفراء جلود مختلف أنواع الحيوانات،ثم لبس تاجه الأسقفي، وسار بعد ذلك بشكل مهيب مع رئيس أساقفة كانتربري ويورك، وحمل في المسيرة الوقورة الصليب وشموعاً مشتعلة، وكانوا يرددون الابتهالات، وصعد فوق الدرجات إلى مقعده، الذي —كما ذكرنا من قبل— قد أعدّ له وسط أبهة كبيرة، وصار الآن أكثر أبهة بالزرابي وبالمظلات، ثم أجلس رئيس أساقفة كانتربري نفسه على يمينه، ورئيس أساقفة يورك على يساره، لأن خلافاً نشب بينهما حول ترتيبات الجلوس، وتقدم رئيس أساقفة يورك بطلب للحصول على اليمين، الذي ادعاه لنفسه، وبناء عليه بعدما تمت قراءة: «أنا راعي جيد» من الانجيل، وقراءة بعض المجموعات المناسبة، وفقاً للعادة، من قبل النائب البابوي نفسه، وبعد غناء مزمور: «أقبل ياروح القدس، أيها الخالق أقبل»، تولى رئيس أساقفة يورك —كما ذكرنا أعلاه— تقديم طلبه، ومع ذلك أخذ رئيسا الأساقفة مقعديهما إلى جانب النائب البابوي، حيث جلس رئيس أساقفة كانتربري على يمينه، ورئيس أساقفة يورك على يساره، ورغبة من النائب البابوي، وقتها في إنهاء الخلاف من دون إلحاق ضرر بأي

واحد من الجانبين، قال لهما: «تظهر على مرسوم صاحب القداسة البابا، اصبع القديس بطرس على يمين الصليب المطبوع في وسط المرسوم، في حين تقف إصبع القديس بولص على اليسار، لكن بين هذين القديسين العظيمين، لم ينشب قط أي خلاف، لأنهما متساويين بالشهرة، إنما بسبب أنه [بطرس] يعد في وضعه حامل المفتاح، ولأنه رئيس الرسل، وكذلك بسبب مكانته الكاتدرائية، وأولويته في دعوته، يبدو أن صورته جديرة بالوضع على يمين الصليب، لكن بما أن بولص آمن بالمسيح الذي لم يره، فإن صورته أيضاً جديرة بالوضع على اليمين، لأنه قال: «بورك الذين لم يروني» الخ، وهكذا بما أن صاحب النعمة رئيس أساقفة كانتربري، هو الأول على كل انكلترا، وهو الرئيس على كنيسة كانتربري الأعظم شهرة، وكذلك على كنيسة لندن، التي هي عائدة إلى القديس بولص، يتوجب ليس من دون سبب في أن يوضع على الجهة اليمنى»، وفي الأيام التالية للمؤتمر، جلس رئيس أساقفة كانتربري على الجهة اليمنى للنائب البابوي، وجلس رئيس أساقفة يورك على الجهة اليسرى، وفي اليوم الأول من المؤتمر، جرى ارسال: جون ايرل أوف لنكولن، وجون فتز— غيوفري، ووليم دي ريل Raele وكاهن القديس بولص، باسم الملك، ليمنعوا النائب البابوي، نيابة عن الملك المذكور والمملكة، من الوصول إلى أي قرار في المؤتمر، يحط من مكانة التاج الملكي والمملكة، وفي سبيل الأخذ بهذا الطلب ومراعاته، بقي وليم دي ريل هناك، وعليه الدراعة الكهنوتية والقبعة، وغادر الآخران وذهبا، وفي اليوم نفسه، وعلى مسمع من جميع الحضور، طلب سيمون رئيس شمامسة كانتربري من النائب البابوي، أن يقرأ الترخيص بنيابته التي عهد بها إليه صاحب القداسة البابا،على مسمع من جميع الفئات، وهذا فعل، وفي اليوم نفسه، جرت أيضاً قراءة أحد الامتيازات —بناء على طلب من الملك— فيما يتعلق بأعياد القديس إدوارد والاحتفال بها في جميع أنحاء انكلترا، وبناء على أمر من البابا جرت قراءة واحد آخر يتعلق بمسألة تطويب القديسين: فرانسيس ودومينيك، وكان النائب البابوي قد سمع

عندما كان في مقر إقامته، بأن عدداً من الأشخاص، الذين في حوذتهم منافع في عدة كنائس، وكانوا نبلاء من حيث النسب والممتلكات، وغير شرعيين، والذين كان قد أتى على ذكرهم في قرار المؤتمر، قد غضبوا، وخططوا لعمل خياني ضده، ولذلك تمت حراسته، وكان قد تولى ذلك أيضاً بعض النبلاء من المؤتمر، وهم: غ. G ايرل مارشال، وج. J ايرل لنكولن، وكذلك بعضاً من حاشية الملك، وقد سلحوا أنفسهم بالسيوف، وبالأسلحة الأخرى، لحمايته وحماية أتباعه.

وأثناء المؤتمر عندما جرى نشر القرار ضد هؤلاء الذين لديهم عدة منافع، والذي كان معاكساً لقرار مجمع اللاتيران، وقف وولتر دي كانتلوب، أسقف ووركستر، في وسطهم، وانتزع تاجه الأسقفي، وخاطب النائب البابوي على الصورة التالية:

«أبانا المقدس، مع أن عدداً من النبلاء لهم نسبهم مثلنا، بين أيديهم عدة منافع، هم لم يتسلموا بعد إعفاء، وبعضهم من الذين تقدموا بالسن، وقد عاشوا حتى الآن بشكل مشرف، يظهرون الكرم إلى غاية قدرتهم، وقد وزعوا الصدقات بأبواب مفتوحة، يبدو أنه من الصعب جداً لمثل هؤلاء الناس، أن يحرموا من منافعهم، وأن يتحولوا إلى وضع فقر مهين، وبعض الشبان، الذين هم شجعان وجريئين، سوف يعرضون أنفسهم إلى أعظم المخاطر، قبل أن يسمحوا لأنفسهم أن تحرم من منافعها، مع الاحتفاظ بمنفعة واحدة، وحول هذا أنا يمكنني أن أحكم على نفسي، فقبل دعوتي إلى تلك المرتبة، كنتُ قد قررت في قرارة نفسي، أنني إذا كنتُ سأخسر منفعة واحدة، تحت حجة مثل هذا المرسوم، إنني سوف أخسر الجميع، وبناء عليه، نخشى أن كثيرين مازالوا حتى الوقت الحالي محتفظين بمثل هذا القرار، وبناء عليه، بما أن عدداً كبيراً جداً لهم علاقة بهذه القضية نلتمس من قداستكم، من أجل سلامتكم، وكذلك من أجل سلامتنا، أن تستشيروا البابا، قبل الوصول إلى قرار من هذا النوع، يضاف إلى هذا بما أن

مرسومكم بشأن الطائفة الدينية التابعة للقديس بندكت يمتد بسلطته لينال بالدرجة نفسها الجميع، إنه سوف يكون صعباً بالنسبة لأعداد كبيرة، بسبب فقر بيوتهم، وبشكل خاص من أجل الراهبات، لأنهن ضعيفات، وعاجزات عن مراعاة هذا المرسوم، ولذلك إنه من الضروري إظهار لين مخلص في فرض هذه الإجراءات القاسية، وبناء عليه، نحن نرجوكم فيما يتعلق بهذه القضية أن تستشيروا قداسة البابا».

وفي رد عليه، قال النائب البابوي، إنه إذا ماأراد رجال الدين، أي رئيسي الأساقفة والأساقفة الماثلون أمامه، أن يكتبوا إلى البابا حول هذه القضايا، هو عن طواعية سوف يوافق على ذلك، ويتوجب أن يكون معلوماً، أنه بسبب أن بعض الناس، قد فهموا من النائب البابوي، أن مراسيمه سوف تكون ثابتة ونافذة فقط أثناء أيام نيابته للبابا، قام المعلم أثو Atho وكان واحداً من كهنته، قام بناء على طلبه ووقف في وسط الاجتماع، وفتح كتاب التراخيص، الذي كان سجلاً لقداسة البابا، وذلك في سبيل زيادة سلطاته، ولكي يتمكن بشكل فعال أكثر من تحقيق آرائه ومشيئته، وقرأ هذا المعلم بصوت مرتفع بعض القرارات والمراسيم، التي أراد النائب البابوي أن يبرهن من خلالها بشكل واضح ومتميز صدقه، والتي أظهر من خلالها بوضوح، أنه بعد مغادرة النائب البابوي المذكور، فإن قراراته وقوانينه، سوف تكون ثابتة باستمرار، وينبغي أن لانتجاوز ذكر، أنه في اليوم الأول من المؤتمر، اتخذ رئيسا أساقفة كانتربري ويورك مقعديهما، كما ذكرنا من قبل، أولهما من على يمين النائب البابوي وثانيهما من على يساره، وبعد قراءة قوله في الانجيل «أنا الراعي الجيد»، وبعد قراءة المجموعة المتعلقة بذلك، جرى فرض الصمت على الحشد المجتمع، وطلب منه الالتزام بالنظام، فرفع النائب البابوي صوته، وكأنه كان صوت بوق، وبدأ حديثه، وافتتح ذلك بالنص التالي:

«في وسط العرش، وكان هناك من حوله أربعة حيوانات، مليئة بأعين

من الأمـام ومن الخلف»، وقلد رجل الدين ذاك أثناء قـداسـه، الحيـوانات بأعين من الأمـام وأعين من الخلف، حتى يكون حـذراً أثناء إدارة الأعمال الدنيـوية، وكـان حـذراً أثناء إدارة الشـؤون الروحيـة، جـامعـاً الماضي مع المستقبل، وبعـد القـداس أمـر بقراءة مـراسيمـه بشكل متميـز، وبصـوت مرتفع، وقد أمر بمراعـاة ذلك بدقة، وقد رأينا أنه من الموائم ذكر هؤلاء في هذا الكتاب.

افتتاح المؤتمر الذي عقد من قبل النائب البابوي أوتو في كنيسة القديس بولص في لندن

«منذ أن غدت القداسة هي بيت الرب وقسيسيه، لقد قيل من قبل الرب «كنت أنت مقدس لأنني أنا الرب مولاك مقـدساً»، ويسعى مكر عدو بني البشر لإزالة القـداسة أو لتـدميرها كلياً، وبناء عليـه أعاق في أمـاكن كثيرة الكنائس من أن يجرى تكريسهـا والقسـاوسـة من تأدية واجباتهم بشكل صحيح، بافساد أخلاقهم وتدميرها، وكذلك حياتهم بالسلوك ضد أحكام وقوانين الآباء المقدسين، وإعاقة كل شيء فيـه فائدة لتقدم الديانة المسيحية، وبناء عليـه ينبغي أن نقـاوم بكل إخـلاص وبيـد قـويـة ذلك من قبل جميع المسيحيين، ولأن نضعف مسـاعيـه، يتـوجـب استخـدام قـوى جـديدة ومتجددة، مثلما فعل اسحق حين سعى أولاً إلى تجديـد الآبار، التي حفرها أبناء إبراهيم، وهي التي كـان رجـال فلسطين قد طمـوها بالتراب، وبعـد ذلك حفر آباراً جـديدة، وأخيراً نحن أوتو، الذي بفضل النعمـة الإلهية هو كـاردينال شماس للقـديس نيقـولا في سجن تـوليـان، ونـائب الكرسي الرسولي، قد جرى إرسـالنا من قبل الكرسي المذكور، بوظيفة نائب بابوي، إلى بلاد انكلترا، لنقوم معتمدين على العـون الرباني، وعلى الأساقفة، وعلى المجمع الحالي، بتقـوية أوضـاع كنيسـة انكلترا، وبإصـلاحهـا، باستثناء المؤسسـات الشرعية الأخـرى، التي نتمنى ونرغب، المحـافظة عليهـا بكل احترام، وقد رأينا بوسـاطة السلطات المعهودة إلينا، أنه من الموائم، مـراعاة

بعض المراسيم، التي أمرنا بفرزها وترتيبها تحت بعض العناوين».

تكريس الكنائس

«من المعروف أن تكريس الكنائس، قد استقى أصله من العهد القديم، وروعي هذا وطبق في العهد الجديد، من قبل الآباء المقدسين، وهذا ماتتوجب مراعاته بمزيد من التقوى والدراسة، لأنه في الماضي كان ذبح الحيوانات فقط من أجل تقديمها قرابين، لكن صار فيها بعد القربان السماوي هو الحي والصحيح، لأن الابن الوحيد للرب يقدم لنا على المذبح على أيدي الكهنة، ولهذا رسم الآباء المقدسون بحكمة أن مثل هذا الواجب، ينبغي عدم ممارسته —إلاّ في الأوضاع الضرورية— في أماكن غير مكرسة للرب، وعلاوة على ذلك، كما رأينا نحن بأنفسنا، وسمعنا من كثيرين، بأن مثل هذه الطقوس مزدراة، أو على الأقل مهملة من قبل بعضهم، ولهذا نجد كثيراً من الكنائس، لا بل حتى كاتدرائيات، قد بنيت منذ القديم، ولم يتم تكريسها بعد بزيت التقديس، ولذلك إننا نرغب في أن نضع حداً لهذا الاهمال، وإننا نرسم، ونوجب أن يجري تكريس جميع الكاتدرائيات، والكنائس الديرية والأبرشيات، التي بنيت، واكتملت، في بحر عامين من قبل الأساقفة أصحاب المناطق الأبرشية الواقعة هذه المؤسسات تحت سلطانهم، أو من قبل أشخاص آخرين مخولين من قبلهم، ووفق هذه الطريقة، وخلال الحقبة الزمنية نفسها، سوف يفعل الشيء نفسه مع الكنائس التي سوف تُبنى من جديد، ومن أجل أن لايجري إهمال هذا المرسوم الصحيح، أو أن يناله الإهمال، نحن نرسم بأن أية كنيسة لن يجري تكريسها خلال عامين من موعد انتهاء عمارتها، سوف يجري تعليقها من شراكة المؤمنين، وبالتالي تمنع من إجراء القداس حتى يجري تكريسها، مالم يتوفر سبب معقول يحول دون ذلك، وبالاضافة الى هذا، إننا نمنع بكل دقة بموجب المرسوم الحالي جميع رعاة وقساوسة الكنائس من الاقدام على تدمير الكنائس القديمة المكرسة، تحت دعوى بناء كنائس أكثر جمالاً

وسعة، من دون الحصول على إذن وموافقة أسقف الأبرشية، حيث يتوجب على أسقف الأبرشية أن يقدر بشكل دقيق، فيما إذا كان من الموائم إعطاء الاذن، أو رفض السماح، وعليه، إذا ماأعطى الاذن، أن يولي عنايته، وأن يوجه مساعيه لإكمال العمل بأقصى سرعة ممكنة، وهذا شرط نحن نرسم بأن يمتد إلى الذين قد بدأوا، أما بالنسبة للقساوسة ذوي المراتب الأدنى، رأينا أنه من غير المناسب عمل أي مرسوم جديد، تاركين الطريقة وتوقيت تكريسهم إلى قرار كهنتهم».

قداسات قرابين الكنيسة

«تكون قداسات قرابين الكنيسة كما كانت في أوعية سماوية، تحتوي على علاجات الخلاص، وكذلك الزيت المقدس، والميرون، ونحن نرسم بالنسبة لها بأن تدار من قبل رجال الكنيسة بطهارة، وبتقوى، وأن تكون محررة من كل دوافع الشره، ودون إحداث أية متاعب أثناء ادارتهم،، تحت حجة أية عادة، بموجبها يمكن أن يقال أن أي شيء سوف يدفع من قبل الذي يتلقاهم، وقد رأينا أنه من الموائم أن نذكر كم هي القداسات الرئيسية، وهذه القداسات هي:

التعميد، والتثبيت، والتوبة، والقربان المقدس، والمسح بالزيت، والزواج، والتكريس، وقد جرت معالجة كل واحد من هذه القداسات بشكل كامل ومكرس في الشرائع المقدسة، ولكن بما أنها مسألة ليست بلا قيمة أن يكون الطبيب جاهلاً بفن المعالجة، نحن نرسم بوجوب فحص المرشحين لاستقبال معالجة الأرواح والكهنة بهذه النقاط بشكل خاص، وعلى رؤساء الشمامسة أثناء مقابلة عماداتهم، أن يسعوا بشكل رئيسي إلى تعليم الكهنة وتوجيههم حول هذه القضايا، وتعليمهم كيف عليهم أن يعملوا بشأن مايتعلق بالتعميد، والتوبة، والقربان المقدس، والزواج».

التعميد

«من أجل القداس المهيب للتعميد، جرى تعيين سبتين، بموجب الشرائع المقدسة، وذلك بسبب وقاره، وهما: السبت، قبل قيامة الرب، والسبت قبل أحد الشعانين، ولكن بعضهم كما سمعنا — في هذه المناطق، قد أضلهم الشيطان بخداعه، وخافوا على الأولاد من خطر التعميد في هذين اليومين، لكن التفكير، أو أن يكون الانسان خائفاً من أي من هذين اليومين، هو تماماً ضد الإيمان الصحيح، وقد تبرهن بشكل واضح أن ذلك زائف، لأن الحبر الأعظم يقوم شخصياً بأداء هذا القداس المهيب، ويتولى بشكل وقور تعميد الأطفال في اليومين المذكورين، والكنيسة ملتزمة بمراعاة ذلك وتطبيقه في الأجزاء الأخرى من العالم، ولذلك نحن نرسم بوجوب تحويل الكنائس عن هذه الخطيئة الكبيرة، بالوعظ المتواصل، وينبغي اقناعهم بأداء قداس التعميد، وأن يعمدوا أولادهم في اليومين المتقدم ذكرهما، ونحن أيضاً نرسم وجوب أن يتعلم كهنة الأبرشيات بشكل صحيح شكل التعميد، وأن يتولوا باستمرار شرح ذلك للناس بشكل عام في أبرشياتهم في أيام الأحد، حتى إذا كان ضرورياً، إقامة واحد منهم ليتولى تعميد أي انسان، حتى يتعلموا ذلك، ويكونوا قادرين على مراقبة ذلك، ويتوجب بعد ذلك سؤالهم بتيقظ عما إذا كانوا قد راقبوا ذلك وعرفوه».

الشره الذي يتوجب على الكهنة تجنبه

«لقد سمعنا برعب بأن بعض الكهنة الأشقياء — ربما من أجل فائدة مقراتهم الكنسية أو للضمان، أو لتكوين سبب آخر للكسب، أو لتسلم دخل مجموع من المذبح، أو من توبة الذين يأتون إليهم للاعتراف، ولايقبلون أولئك الذين يعترفون للتوبة، ما لم يجري وضع بعض الهدايا أولاً في صدرهم الجشع، ومثل هذا يفعلون بالنسبة للبعض الآخر من القداسات، هذا وإن الذين يفعلون مثل هذا، ويتصرفون وفق هذه الصورة، غير جديرين بملكوت الرب، ولابالمنافع اللاهوتية، ولذلك نحن

نفرض ونحن نرسم بوجوب قيام أعمال تفتيش وبحث من قبل الأساقفة حول هذه القضية، وكل من يكتشف مذنباً مقترفاً لمثل هذه الجريمة، يصرف كلياً من عمله ويحرم من منافعه التي بين يديه، ويعلق عن مباشرة العمل في وظيفته، التي شغلها بشكل فاسد».

الذي يعين لتلقي الاعترافات

«تماشياً مع ماجرى تقريره في أحد المجامع، نحن نرسم بوجوب تعيين رجال ذوي حكمة وموضع ثقة في جميع أرجاء كل عمادة، وذلك من قبل الأسقف لتلقي الاعترافات، لهم يمكن للقساوسة والكهنة الصغار —الذين يستحون، أو ربما يخافون من تأدية الاعتراف إلى العميد— أن يؤدوا اعترافاتهم، إنما بالنسبة للكنائس الكاتدرائية، نأمر بتعيين متلقين للاعترافات بشكل عام».

سمات الذين يتلقون التكريس

«إن منح الأحكام المقدسة واضفائها على شخص جدير، هام جداً، لابل الأعظم أهمية، لأن القداسات الأخرى تمنح من قبله، بعدما يكون قد تسلم هذه الأحكام، ومثل هذا بالخطورة أن يكرس لهذا العمل أناس غير جديرين، مثل الحمقى، أو غير الشرعيين، أو أشخاص غير نظاميين وأجانب، أو أي شخص من دون إجازة أو لقب حقيقي، وبناء عليه نحن نرسم، أنه قبل اضفاء الأحكام، يتوجب إجراء فحص وبحث دقيق، يتولاه الأسقف حول مثل هذه النقاط كلها، وأن يحترز دون الأشخاص غير الجديرين في تقديم أنفسهم بشكل تآمري، عوضاً عن رفضهم كما ينبغي، وتتوجب كتابة أرقام وأسماء الذين أجيزوا، أو أن يكتبوا أثناء الامتحان، أما الذين أجيزوا، أو سوف يجازون فيما بعد، يتوجب أثناء قراءة الأسماء المكتوبة، وقبل التكريس، أن يجري فحصهم بكل دقة واخلاص، وتبقى الكتابة محفوظة من قبل الأسقف، أو في الكنيسة».

ضمان الكنائس والعمل الأسقفي فيها

«بالنسبة لضمان الكنائس، أو التعيين العام لأساقفة فيهن، نحن لانرغب بأي حال من الأحوال أن ندعم ذلك بسلطاتنا، ولكن نتيجة لضعف الأعداد المسؤولة في هذه المسألة، نحن نخشى من اصدار مرسوم منع ضد هذه الأشياء، حتى لانبدو وكأننا نرمي مصائد بدلاً من ايجاد حلول ناجعة، لكن بالنسبة لبعض العادات الناشئة عن هذه المسائل، والتي لفت انتباهنا لها، نحن مرغمون على استخدام حل ناجع، لأنه غالباً ماحدث أن هؤلاء الذين يسمون ضامنين، يرغبون بالحصول على الربح أكثر من الرغبة بالدفع، وهم يمارسون هذه الجبايات التي في بعض الأحيان تنغمس حتى في ذنب السيمونية، وبناء عليه نحرم من الآن فصاعداً وضع المراتب الكنسية والمقامات الأسقفية وعرضها على الضمان، أو استخراج الموارد من ممارسة التسلط اللاهوتي أو الروحي، ومن التوبة أو من المذبح، أو أية قداسات أخرى».

كيف يمكن عرض الكنائس للضمان

«بما أنه أمر غير صحيح كلية بالنسبة للكنائس، أن تكون مضمونة من قبل رجل علماني أو من قبل أي واحد من الكهنة لوقت طويل، لأن ذلك من الممكن أن يكون مؤذياً للكنائس بسبب طول الاستمرارية، الذي يسبب بالعادة مخاطر، لذلك نمنع منعاً باتاً ضمان الكنائس لمدة تزيد عن خمس سنوات، سواء من قبل رجال علمانيين، أو حتى من قبل أشخاص لاهوتيين، كما أنه لدى انتهاء السنوات الخمس، لايجوز تجديد الضمان إلى الأشخاص أنفسهم، ما لم يقم بعض الأشخاص الآخرون بوضع أيديهم عليهم في وقت متوسط، ولكي تكون جميع الأشياء سليمة، نحن نرسم أن تعمل الاتفاقات من أجل الضمان بحضور الأساقفة، أو رؤساء الأساقفة، وأن يعمل منهم عدة نسخ، واحدة منهن تترك في حوذتهم».

حول الموضوع نفسه

«لقـد سمعنا أنه حـدث في بعض الأحيـان، عندمـا تكون كنيسـة غنيـة شاغـرة، وأن انساناً ما يرغب بالاستحواذ عليهـا، لكنه لايتجرأ —على كل حال— بأن يتسلمها باسمه، خشية أن يحرم من منافع أخرى هي بين يديه، فيعمل بمكر ويتدبر أن يتم ضمان الكنيسة من قبله بشكل أبدي، وذلك بأن يدفع مبلغاً صغيراً من المال من أجلها إلى آخر، تحت اسم الشخص، ويبقي كل البقية إلى نفسه، وبناء على ذلك نرسم بمـوجب قرار، إنه سواء أمنحت منفعة كلياً أو جـزئياً إلى أي واحد، وشكل ذلك محاولة لمعاكسـة مراسيمنا، فإن ذلك يعدّ ملغياً وفارغاً».

من الذي يتولى تكريس الأساقفة

«نحن نرسم بعـدم قبـول أي واحـد أن يكون أسقفـاً، مـالم يكن كـاهناً مكرسـاً، أو هو على الأقل شماسـاً، وهـو ينبغي أن يكرس خـلال أربعـة فصول تاليـة من السنة، وعليه أن يتخلى عن المنافع الأخـرى التي بين يديه، ولأنه صار مسؤولاً عن شفاء الأرواح، عليـه أن يقسم أن يتخذ مقر اقامته في البقعـة نفسهـا، وإذا كـان الأمـر غير ذلك نحن نـرسم بأن يكون تعيينه لاغيـاً، وبذلك يمكـن تجنب الغش، وينبغي تجنبـه، وهـو الذي غـالبـاً مايحدث، نتيجة دفع مبلغ صغير، إلى أي واحـد، تحت اسم شخص، كانت الكنيسـة قـد أعطيت إليـه، تحت اسم الأسقـف المختلق، الذي لخوفـه من فقدان منافعه الأخـرى، كان يخشى تسلمها شخصياً، أما بالنسبـة للأساقفة المعينين، والشـاغلين لمناصبهم، لكنهم ليسوا كهنـة، ولأن عليهم كأساقفـة خدمـة الأشخاص والكنائس، نحن نفـرض، ونرسم، بأن يؤمنوا تكريس أنفسهم ككهنة في بحر سنة على أبعـد الحدود، وإلاّ عليهم تحمّـل خطأهم، إذا لم يكرسـوا في بحـر سنـة —كما ذكـرنا— حيـث أننا نرسم بوجـوب حـرمانهم من منافعهـم، شروعاً من ذلك الوقت والتـاريخ، وينبغي تقـرير أمور سكناهم وفقاً لما قررناه أعلاه، فيما يتعلق بمؤسساتهم».

كنيسة الغائب ليس من الخطأ درس إمكانية إعطائها إلى آخر

«في سبيل تدمير خداع الأشرار، يتوجب على كل محب للاستقامة أن يستخدم المساعي الحكيمة، خشية أن تتطور براعة حكامهم وتنمو إلى بلادة، فالبساطة يمكن أن تستبدل بالمكر، وقد يعطي الصدق الطريق للزيف ليحل محله، لأننا علينا عن طريق ماصرّح به عدد كبير من الأشخاص، بأن بعض الناس قد ألقوا بعين الشهوة على منافع شخص متغيب، ونشر تقارير أعلنت بأنهم سمعوا بأن المستحوذ كان في عداد الأموات، أو أنه قد تخلى عن منفعته، وبالتالي تدبروا بوسيلة أو أخرى اقحام أنفسهم في تلك المنفعة، وإذا ماظهر الرجل الميت أنه مازال حياً،وعاد إلى كنيسته، سوف يتلقى الجواب التالي: «أنا لاأعرفك أيها الأخ»، ويغلق الباب في وجهه، وقد عمي بعضهم لشدة شرههم، إلى حد أنهم لم يترددوا في شق طريقهم بالقوة بالاستيلاء على تلك المنافع وسرقتها، وبالحري ليس سرقة الأشخاص الغائبين فقط، بل سرقة الحضور، أو القيام بالاستيلاء على أملاكهم وسرقتها عندما يستطيعون، وعندما تصبح بين أيديهم، لاقرارات الحرمان الكنسي، ولاأي شيء آخر يمكنه اخراجهم، لأنهم يقومون بالدفاع عن أنفسهم بقوة السلاح، وبناء عليه، سوف نقدم العلاجات المتوفرة، والتي باستطاعتنا تطبيقها، فنحرم —في كلتا الحالتين— بكل دقة، إعطاء منفعة أي انسان غائب إلى أي انسان آخر، على أساس دعاوي الضم، أو تقارير قد يجري نشرها تتعلق بموته، أو أنه تخلى عن منفعته، لكن على الأسقف الانتظار حتى يحصل على معلومات كاملة حول صدق أي واحد من التقريرين، وإذا لم يفعل ذلك فإننا نرسم بأنه سيكون ملزماً بالتعويض عن جميع الخسائر التي عانى منها الشخص الغائب، فيما يتعلق بهذه القضية، وبالنسبة للشخص الذي اقحم وفرضها في المنفعة، سوف يواجه حقيقة تجريده من كل وظائفه ومنافعه، وذلك إلى جانب تعويض المقتنيات، وهذا نحن ننوي أيضاً أن نمده إلى قضية أي

واحد، عندما يكون هناك متملك لمنفعة لاهوتية، فيحاول بناء على سلطته، أو بالحري بالقوة، أو بوساطة السرقة، فيستولي على تلك المنفعة، أو الذي، بعد الإعلان بأنها عائدة إلى شخص آخر، يسعى للدفاع عن نفسه وعن الذي استولى عليه بقوة السلاح».

عدم جواز تقسيم كنيسة واحدة إلى عدة أسقفيات

«لما كان فن الفنون كلها —كما شهد القديس غريغوري— هو حكم الأرواح، ولم يتوقف المعطل (السوفسطائي) القديم عن استخدام فنون خداعه القديم، وعن دراسة خداع أعمال الدعاوى الزائفة، وذلك حتى يكون قادراً على التطويق بأسس فنه، وعلى العزل عن الخلاص أولئك الذين يجدهم جهلة، أو غير دارين، فهذا هو الذي يجعلهم عدوانيين تجاه أوامر الرب، ومضادين لأحكام الآباء المقدسين، في الوقت الذي لايمكن فيه للمنهج الرباني، ولاللمراسيم الشرعية، رد المذنبين، وإعادتهم من طريقهم المنحرف، ويتطلب الآن فننا الكاثوليكي، أن يكون هناك معلم واحد في كنيسة واحدة، يتوجب أن يكون كاملاً بالنظام، والسلوك، والحياة، والمعرفة، والعقيدة، وأن تكون إدارة الكنيسة صافية وبسيطة، وتسبب معارضة الشيطان —على كل حال— ضلال كثيرين وابتعادهم عن هذا المرسوم، إلى حد يكون الحال فيه في بعض الأحيان، بناء على اقتراحه، اعطاء كنيسة واحدة، ليس لواحد فقط بل لعدد، تحت حجة امتلاكها لعدد كبير من الحصص، وهكذا يكون هناك عدة رؤوس لجسد واحد، حتى تبدو وكأنها تنين، وفي بعض الأحيان يوافق الشخص، مهما كانت المناسبة على أن شيئاً ما ينبغي أن يعطى إلى آخر تحت اسم كاهن، وإلى جانب هذا، إن الذي هو أسوأ، أن الكنيسة غالباً ما تبقى شاغرة، أي ما من قسيس يبقى فيها، لابل حتى لايوجد فيها أسقف بشكل مستمر، بل الذي ربما يبقى فيها كاهن ما جاهل، الذي لا حق له فيها، لابل ولا حتى ظل حق فيها، وإذا صدف وربما أقام القسيس أو الكاهن هناك، تجده هو ليس

كاملاً مناسباً في طائفتـه، لأنه ليس كاهناً، وليست له سماته، لأنه إذا ما نظر إليـه أي واحـد، سـوف يعتقـد أنه ليس حتى رجل ديـن، بل هو بالحري جندي، وهو —ويالللأسف— يعتني قليلاً بحيـاته، وبمعرفته، وبعقـائده، كما أن ترتيبـات الكنيسـة أيضـاً، نادراً مـاعملت بالعين البسيطة كما ينبغي، ولأن مكر الفنون الزائفـة للشيطان، ليست معـدومـة هناك، لأنه يحدث في بعض الأحيان —كما قـرأنا— أن تعطى كنيسة بشكل سري إلى واحـد ما، وفق شرط متفق عليــه، أن الرجل الـذي يقـدم أو يضـع، ينبغي أن يحتفظ ببعض المنافع فيهـا، أو وجوب أن يتسلم شخص ما آخـر، حصة مـا منها، وهذا ربما كـان بـوده الاحتفـاظ بها كلهـا، لو لا أنه تمنع عـن فعل ذلك من خـلال ضعـف قضيتـه، أو من خـلال الخوف من فقـدان منافـع أخـرى، ويحدث في بعض الأحيان أيضـاً أن يقدم انسـان على إقالة كاهـن، ثم يأخذ بعد ذلك الأسقفية من واحد جرى تعيينه فيها، وهذا أمر يمكن أن نفترض أنه لايفعل مـن دون غش، وبناء عليــه نحن نشجب هذه الانتفــاضـــات وأعمال التصغير، والتعيينات الخاصة والتغييرات، لأنها مخالفـة لما نؤمن به، ونمنع عملهم من الآن فصـــاعـداً، ونـرسم بكل دقـة، أنـه لايجوز مطلقـاً بالنسبة للمستقبل تقسيم كنيسة بين عدة أشخاص أو عدة كهنة، والكنائس التي مازالت مقسمـة حتى الآن، ينبغي حالما تتـوفر الظروف والامكانات، أن تعود موحـدة، ما لم تكن الكنيسة كنيسة مؤسسة منذ العصـور القديمة، بحيث يقـوم الأسقف والقسيس المتـوليان شـؤون مـواردها باقتسـام هذه الموارد بينهما بالتساوي، ويتوجب على الأساقفة ترتيب أن يكون هناك دوماً شخص مـا مقيم في الكنيسة عليـه أن يبذل اهتمامـه بكل غيرة نحو معـالجة الأرواح، وسوف يشغل نفسه ويستخـدم ذاته بشكل فعال وشريف في أداء القداسات الدينية، وفي إدارة قداسات القرابين».

السكنى في الكنائس

«فيما يتعلق بالقساوسة المتخـذين مساكن لأنفسهم في الكنائس، يبدو لنا

أنه يتوجب علينا أن نستشير الحقيقة أكثر من استشارة مواد القانون، لأن مجامع الأحبار الرومان، كما هو واضح قد تحدثت عن هذه المسألة بجلاء مثل جلاء النور، لأن التطبيق الدقيق للمواد القانونية هو المطلوب، وليس خرقها، ونقول الشيء نفسه ونعتقده في جميع المجالات المتعلقة بشأن الذين، بدون تخويل خاص من الكرسي الرسولي، يحتفظون بعدة مراتب، أو مراتب كهنوتية، أو منافع مرتبطة بعلاج الأرواح، بشكل مضاد لقانون المجمع العام، والخطر على خلاصهم الذاتي».

ألبسة الكهنة

«وفيما يتعلق بألبسة الكهنة، التي يبدو أنها ليست كهنوتية، بل هي بالحري عسكرية، قد نشأت فضيحة بين العلمانيين، ولذلك نأمر بكل دقة، ونرسم، أن عليهم، تحت طائلة الحرمان من منافعهم، الالتزام بدقة، بوساطة الأساقفة، بشكل اللباس، الذي اتفق عليه وتقرر في المجمع العام، وذلك فيما يتعلق بلباس الكهنة، وكذلك بتزيينات خيولهم، ولذلك يمكن للذين تولوا المسؤولية عن الكنائس وعن علاج الأرواح، ارتداء ملابس أصبحت معياراً، وعليهم ارتداء أغطية رؤوس ضيقة، عندما يجري تعيينهم في طوائف مقدسة، خاصة في كنائسهم، وكذلك أمام أساقفتهم، وفي اجتماعات الكهنة، وفي كل مكان في أبرشياتهم، وعلى الأساقفة أن يكونوا أكثر قدرة على الالتزام من الآخرين بأن تكون ملابسهم ملابس محتشمة، وكذلك فيما يتعلق بقص شعورهم، ومثل ذلك فيما يتعلق بتزيين خيولهم، وعليهم مراقبة هذه الأشياء والالتزام بها، حسبما تقدم التبيان، وذلك بالنسبة لأتباعهم من الكهنة، في أن يكونوا ملتزمين بأحكام الحشمة الكهنوتية في ملابسهم، وفي مهاميزهم، ولجمهم، وسرجهم».

ضدّ إبرام عقود زواج سرية من قبل قساوسة الكنائس

«لقد لفت انتباهنا من قبل عدد من الرجال الصادقين، أن عدداً من

الكهنة، قد تولوا دون الانتباه إلى خلاصهم، إبرام عقود زواج سرية، وتجرأوا على الاحتفاظ بملكية الكنائس بعد الزواج، ليحصلوا على منافع لاهوتية، ولكي يجري ترفيعهم مجدداً إلى طوائف مقدسة، وذلك محافظة لمراسيم الشرائع المقدسة، وسيبدو فيما بعد، مع مرور الأيام، أنه مفيداً للذين ولدوا من هذا الزواج، أسواء أكانت الأطراف أنفسها على قيد الحياة أم لا، أن يبرهنوا إما بوساطة شهود، أو بوساطة أدلة مكتوبة، بأن مثل هذا الزواج قد عقد، وبسبب أن الكهنة قد انشغلوا بزواجهم، أو كانت لهم علاقة غير شرعية بالنساء، فإن المحصلة ستكون دمار الأرواح، وقد جرى إهمال خلاصهم، ونهب مقتنيات الكنيسة، وقد رسمنا في سبيل التخلص من هذا الوباء الذي استشرى وترسخ رسوخاً كبيراً مايلي:

إنه إذا ما اكتشف بأن أي واحد قد أبرم مثل هذا العقد للزواج، يتوجب عزله من كنيسته، وحرمانه من المنافع اللاهوتية، وحول هذا نحن نرسم أنهم هم أنفسهم، أو أي واحد قد تزوج، سوف يحرم حتماً وبلا تراجع، وإذا ما تم الحصول على أية ممتلكات بعد زواج من هذا النوع، مهما كانت طريقة الحصول عليها، أي من قبلهم أنفسهم، أو بوسائل أشخاص آخرين، إن هذه الممتلكات، لن يجري الإفادة منها، بأي شكل من الأشكال، أو استخدامها من قبل الزوجات، أو الأولاد من مثل هذا الزواج، بل سوف تكرس من الآن فصاعداً لصالح الكنائس التي كانت بين أيديهم، أو التي استحوذوا فيها على منافع، أما بالنسبة لهم أنفسهم أيضاً، لن يسمح لهم كأشخاص بأي شكل من الأشكال بالقبول في الكنائس، أو في المنافع اللاهوتية، أو في الطوائف المقدسة، حتى يجري منحهم استحقاقاتهم بموجب التوزيع الشرعي».

حول رجال الدين الذين لديهم خليلات

«مع أن أحكام الكنيسة قد تناولت دوماً في دراساتها قرار طرد العدوى القذرة لشرور العمل الجنسي من أمام أبوابها، حيث لوث هذا العمل جمالها

ودنسه بشكل جـدي، مابرح هذا الدنس الـواسع الشر والضرر مستمراً في عرض نفسـه بكل وقاحة أمام الناس وعلى مشهـد منهم، ولذلك رغبة منا بعـدم المرور بمثل هذه الاهانة الكبيرة والاسـاءة إلى الكنيسـة، من دون ضبط، وكأننا نشير إليها بشكل عابر فقط، ينبغي أن نلتزم بقرارات الأحبار الرومان، ولاسيما مرسوم البابا الاسكندر، الذي جرى إعـلانه حول هذه القضيـة، نحن نرسم، أنه مـالم يقم رجـال الـدين، خـاصـة الذين منهم في الطوائف المقـدسة، الذين يحتفظون بشكل معلن بخليـلات في بيوتهم أو في بيوت الآخرين، بصرفهن من داخل بيوتهم في بحر شهر، وبعدم الاحتفاظ بهن مطلقاً مرة جديدة، أو بأخريات مهما كان الادعاء، فإنهم سوف يعلقون عن ممارسة أي عمل أو وظيفة ومنفعـة، وإلى أن يقوموا بتكفير مناسب عن هذا الذنب، لن يسمح لهم، بـأي شكل من الأشكال بالدخـول أو بالتقـدم من أية منافع لاهوتيـة، وإلا فإننا سـوف نرسم بحرمـانهم من هذه المنافع، وتقضي إرادتنا، كما أننا نأمر بأن يقوم رؤساء الأساقفة والأساقفة بتفتيشات دقيقة حول هذه القضيـة في جميع أرجاء عماداتهم، وأن الذي رسمناه سوف تجري مراعاته وتنفيذه».

حول الذين خلفوا آباءهم في كنائسهم

«مع أن الآبـاء المقـدسين قـد أعلنـوا بأن المنافـع اللاهوتيـة لايجوز الاستحـواذ عليهـا بمـوجب حق الوراثة، وأن خـلافتهـم من قبل أبنائهم الشرعيين ينبغي حـرمانها من شراكـة المؤمنين، ومع ذلك فإن بعض الذين ولدوا من خلال اتصال شنيع، يسيرون بخطوات الصفاقة، ويدوسون على سلطات الشريعة، والشرف، ويسعـون إلى فرض أنفسهم في منافع من هذا النوع، التي استحوذ عليها آباؤهم من قبل من دون مسوغ صحيح، وقاموا بادعـاء سريع وفرض واقع جـديد بالاستحـواذ عليهم، ولذلك، إننا نحن الذين قـدمنا إلى هذه البـلاد لإيجاد عـلاج لهذه النازلة التي ألمت بشرف الكنيسـة، نمنع بكل دقـة، أسـاقفة الكنائس مـن القيام من الآن فصاعـداً

—تحت أية حجة، أو بوساطة أي خداع— من تعيين أو قبول أياً من أمثال هؤلاء لاستحواذ منافع من هذا النوع، أو مما استحوذ عليه آباؤهم مهما كان نوع العنوان، سواء أكان الأمر كلياً أم جزئياً، ونحن نأمر أيضاً بهذا المرسوم الحالي، أن يجري حرمان كل من بين يديه منفعة من هذا القبيل، قد استحوذ عليها بشكل غير قانوني، وانتزاعها منه».

ضدّ الذين يحمون اللصوص

«للوقوف ضد جرائم اللصوص، الذين بهم المملكة الانكليزية ممتلئة، سوف يكون ذلك بلا فعالية، مادام أناس من ذوي المراتب يحمونهم ويحتفظون بهم، ولذلك رأينا من المناسب أن نرسم، أنه لايجوز لأحد أن يخفي في بيته أو في بلدته أولئك الذين معروف أنهم اقترفوا سرقة، أو الذين هناك براهين أو أدلة ضدهم، ولايجوز حمايتهم أو إيوائهم، والذين سوف يعملون ضد هذا المرسوم، إذا لم يقوموا بعد انذارهم ثلاث مرات من قبل قاض لاهوتي عادي، بطرد اللصوص وابعادهم عنهم، نحن نعلن أنهم سوف يكونوا خاضعين للحرمان الكنسي واللاهوتي، وإنها إرادتنا ومرسومنا أن انذاراً عاماً سوف يكون كافياً، وأنه ينبغي أن يعطى دون ذكر لأسماء أي واحد، أو الاشارة إلى أي واحد، شريطة اصداره بشكل علني، وبصورة مهيبة حتى يصل إلى علمهم».

حول أكل اللحوم من قبل الرهبان

«لقد سمعنا، وسررنا، أن الرعاة الدينيين لطائفة رهبان القديس بندكت في جميع أرجاء انكلترا، قد اجتمعوا مؤخراً في هيئتهم العامة، وذلك على شكل أبناء حقيقيين للكنيسة، ووفقاً للقول النبوي قد عادوا إلى حدودهم، وقرروا بشكل حكيم، أنهم من ذلك الوقت فصاعداً، التزاماً منهم بأحكام القديس بندكت، سوف يمتنعون عن أكل اللحوم، وذلك باستثناء الضعفاء والمرضى، الذين يتوجب، وفقاً لبنود الأحكام نفسها، تزويدهم

من مصحة العجزة، وبقدر ما نوافق على هذا نحن نرسم بوجوب مراعاة ذلك، من دون تعطيل أو استثناء، وبالاضافة إلى ذلك نحن نرسم، أنه لدى إنهاء المتنسبون الجدد سنة اختبارهم الأولى بعد ارتدائهم للباس الرهباني، يتوجب ارغامهم من قبل الرعاة، بوساطة السلطات اللاهوتية أو الشرعية، على عمل تكريسهم واعترافهم وفقاً لمرسوم أو قانون البابا أونوريوس، صاحب الذكرى الطيبة، وكل واحد لم يعمل تكريسه واعترافه، سوف لن يقبل للترقية إلى مرتبة راعي دير أو رئيس رهبان مهما كانت المسوغات، وهذا الذي رأيناه موائماً بالنسبة لعمل هذا الاعتراف عند انتهاء سنة الاختبار، نعتقد أنه موائم أن نجعله يشمل الكهنة النظاميين والراهبات وبالنسبة للقضايا الأخرى، التي نعلم أنها عائدة إلى تقويم أو اصلاح الكهنة وكذلك الكهنةالنظاميين نحن عزمنا على تقديم ماينبغي تقديمه، وسوف نرسم بمشيئة الرب بها سيكون مفيداً لكنائسهم ونافعاً لهم أنفسهم، ونحن نأمر بتعميم نشر هذه القرارات بشكل مهيب بين جميع هيآتهم الكهنوتية».

واجبات رؤساء الشمامسة

«فيما يتعلق برؤساء الشمامسة، نحن نرسم بوجوب زيارتهم إلى الكنائس، والقيام بشكل مخلص بالبحث والتقصي حول مايتعلق بالأواني المقدسة والملابس، وحول الطرائق التي تدار بها الكنيسة وتخدم بالنسبة لقداسات النهار والليل، وحول شؤونها الدنيوية وكذلك الروحية بشكل عام، والقيام بعناية بالاصلاحات التي تكون ضرورية، وعليهم عدم الضغط على الكنائس وظلمها بضرائب فيها مغالاة وشطط، بل الذي عليهم هو المطالبة بالحصول على ايجارات معتدلة، ويكون ذلك فقط لدى زيارتهم لهم، وعليهم عدم جلب أجانب معهم، وأن يرافقهم عدد معتدل من الخدم والخيول، وعليهم عدم قبول أية رشوى من أي واحد حتى لايزوروه ويقوّموه، أو لكي لايعاقبوا المذنبين، ويتوجب عليهم عدم

ادخـــال أي واحــد في الإدانـة بأحكامهم بشكـل غير عــادل، مـن أجل استخراج المال منهم، وبما أن مثل هذه الأشياء تخدم السيمونية، نحن نرسم أن كل من يتصرف بمثل هذه الطريقة، سـوف يرغم في مكان آخر على منح الممتلكات التي حصل عليها وفق هذه الطريقة، وأن يكون مقـدار ماسوف يرغم على دفعه ضعف المبلغ، ويكـون ذلك تحت عناية واخلاص الأسقف من أجل استخدامات تقـوية، وذلك مع ابقاء العقوبة القانـونية، وممارستها ضدهم، وعليهم جعل همهم وشغلهم الشـاغل أن يكونوا بشكل متواصل حـاضرين لدى اجتماع الهيئة الكهنـوتيـة في كل عمادة، ويتـوجب عليهم في هذه الاجتماعات، صرف اهتمامهم إلى أشياء كثيرة، يتصدرها توجيه الكهنة بانتباه ودقة، بعلم صحيح، وبفهم سليم، إلى كلمات الشريعة والتعميد، أي إلى مايشكل لب التعميد وأسسه».

وجوب عدم طلب أي شيء من تسوية الخلافات

«ومجدداً نحن نمنع بكل دقة وحزم رجال دين الكنائس، وبشكل خاص رؤسـاء الشمامسة والعمداء، أو مـوظفيهم، أو أي آخـرين جـرى تعيينهم بفضل سلطاتهم اللاهوتية، أو مناصبهم الروحية، من تقرير أسباب عامة، أو أية مسائل لها عـلاقة بسلطات الكنيسة، من منطلق فرض إعـادة السلام والعلاقـات الطيبة بين الأطراف، وذلك فيما يتعلق بخلافـاتهم، أو بأسباب الشكوى، لكن عندمـا تختار الأطـراف، يمكنهـم أن ينسحبوا من المحكمـة بتسـوية، إذا كانت القضيـة تحتمل التسوية بوسـاطة الشريعة بشكل مـؤثر، وسوف لن يكـون هناك استخراج أية مـدفوعات من الأطـراف حول هذه التسوية».

واجبات الأساقفة

«إن الواجبات المفروضة على هـؤلاء الآباء المحترمين: رؤساء الأساقفة، والأسـاقفة، الذين معنى ألقـابهم (المشرفين)، أي الذين يتـولون الاشراف

والنظارة، قد جرى تبيانها بكل وضوح، فعملهم هو القيام بالاشراف على القطعان وحراستها، وحسب كلمات الانجيل (القيام بالحراسة أثناء الليل)، وبما أنهم —بناء عليه— ينبغي أن يكونوا أمثولة طيبة للقطيع، الذي كله خاضع لهم، والذي عليه أن يتكيف ويتماثل معهم أنفسهم، وهذا ما لايمكن عمله، ما لم يضربوا بأنفسهم مثلاً للجميع، بناء على ذلك نحن نحثهم باسم الرب، ونتمنى عليهم، الإقامة بعض الشيء في كنائسهم الكاتدرائية، وأن يؤدوا هناك بطريقة صحيحة القداسات، على الأقل في أيام الأعياد الرئيسية، وفي أيام الأحد، أثنا الصوم الكبير، وأثناء الميلاد، وعلاوة على ذلك، عليهم الارتحال بين أنحاء أسقفياتهم في أيام المواسم، مصلحين، ومقومين المخالفات، ومكرسين للكنائس، وبذر كلمة الحياة في حقل الرب، وأفضل طريقة تمكنهم من أداء جميع واجباتهم، هي أن يتدبروا قراءة اعترافهم وتعهدهم الذي عملوه أثناء تكريسهم، مرتين في العام، وخلال الشطر الأكبر من الصوم الكبير».

مرسوم ضدّ القضاة غير البارعين

«بما أنه ليست السلطة فقط هي المطلوبة لوحدها في تصريف القضايا بشكل مستقيم، بل أيضاً الاستقامة والبراعة مطلوبتان بشكل خاص، يتوجب على الجميع إيلاء عناية خاصة أن لايتعين أحد للقضاء أو أن يكون ناظراً من الذين غير بارعين، أو جهلة، أو غير موائمين، أو غير عادلين، حتى لاتصدر عنهم أحكام تجري فيها تبرئة الفئة المذنبة، وإدانة الفئة البريئة، ولذلك رأينا أنه من الموائم أن نرسم بأن يعهد بالقضايا الزواجية، التي تتطلب فوق كل القضايا المعالجة ببراعة كبيرة ويقظة، إلى رجال واعين وموضع ثقة، وأن يكونوا ممتلكين لمعرفة وافية بالشريعة، أو على الأقل خبرة كافية فيها، وإذا صدف وكان أي واحد من رعاة الديرة، أو رؤساء الشمامسة، أو الشمامسة، يمتلك امتيازاً، أو عرفاً مخولاً بالقيام بالبحث في القضايا، على هؤلاء الاهتمام والاعتناء بفحص هذه القضايا بكل عناية

ودقة، وبذلك لايقومون هم أنفسهم، وكذلك وكلائهم بإصدار قرار حكم محدد، من دون القيام أولاً بعقد مداولات دقيقة، حول محاسن القضية مع أسقف الأبرشية، وذلك من دون طلب نصيحته أو الحصول عليها، ولهذه الغاية نحن نود أن يكونوا معفيين، أو محميين بوساطة امتياز خاص

يمين المطالب

«إن يمين المطالب مطلوب في القضايا اللاهوتية، وكذلك قول الصدق في الشؤون الروحية، لأن بذلك يمكن بسهولة أكبر الكشف عن الحقيقة، ومن ثم تقرير المسألة بشكل أسرع، ولذلك رسمنا أنه يتوجب العمل في جميع أرجاء انكلترا، في المستقبل وفقاً للشريعة والأوامر القانونية، وليس وفقاً للعادات الأخرى التي تؤدي إلى العكس، وإلى هذا المرسوم، نحن نضيف —من أجل منفعة الجميع— هذه الاضافة، وهي: من الممكن منح تأجيل للمحاكمة بناء على اختيار القاضي، وذلك وفقاً للأحكام القانونية والشرعية».

تعيين الناظرين

«إن عادة استخدام الوكالات، التي أدخلت إلى محاكم العدالة، أي أن قضية أي شخص لايمكنه شخصياً الحضور، من الممكن عرضها وايضاحها، من قبل آخر في أثناء غيابه، هذه العادة غالباً ما بدلها مكر العدو القديم إلى ممارسة شريرة، لأنه كما تقدم الذكر، عدّت العادة هنا أن الانسان الذي تجري دعوته للحضور في يوم محدد، من الممكن له تعيين ناظر فقط من أجل ذلك اليوم برسالة موقعة، وممهورة بختمه الأصيل، وقد حدث أنه إذا ما اختار الوكيل عدم طاعة الاستدعاء، أو اخترع أية حيلة في الرسائل، بوساطة تقديم شهود، أو وقائع أخرى معيقة، مامن شيء يمكن فعله في ذلك اليوم، وفي اليوم التالي تنتهي مهمة الناظر، وهكذا تسقط الأعمال إلى الحضيض من دون تأثير، وكذلك رغبة منا في عمل شيء لسدّ

هذا العجز، نرسم، أنه من الآن فصاعداً، يجري تعيين الوكيل، بالنسبة للقضايا اللاهوتية في مملكة انكلترا، ليس ليوم واحد، بل لعدة أيام، إذا كان ذلك ضرورياً، والاستدعاء سوف تجري البرهنة على صحته بوساطة كتابات صحيحة، ما لم يكن جرى تعيينه في تلك الساعة، أو أن الشخص الذي عيّنه لا يمكنه إيجاد ختم أصيل».

طريقة عمل الدعوات للمثول أمام القضاء

«ببراعة متناهية ومكر، تهاجم الفئات المتصارعة بعضها بعضاً، إلى حد أنه ما من أحد، يتردد في الدوس على العدالة، وأن يفعل كل شيء لهزيمة خصمه، ولقد سمعنا من كثيرين أن الذين لديهم دعوات، يرسلونها بوساطة ثلاثة أولاد إلى المكان الذي يُقال بأن الفئة المستدعاة ساكنة فيه، وفي ذلك المكان يضع اثنان من الرسل الدعوات على مذبح الكنيسة في ذلك المكان، أو في مكان ما آخر هناك، ويأخذ الثالث على الفور هذه الدعوات ويبعدها، وبذلك يتوفر شاهدان يشهدان بأنه جرى استدعاء صاحب القضية، ونتيجة لذلك يتعرض للحرمان الكنسي، تماشياً مع شروط ابلاغ قرار الحكم، وعادة المنطقة، أو يجري تعليقه بمثابة متمرد، مع أنه بريء تماماً من العصيان، وجاهل بالدعوة غير عارف بها، وبناء عليه نحن في غيرتنا على العدل، ومن أجل تقويم هذا الفساد الشنيع، وأمثاله، نرسم، أنه من الآن فصاعداً، بالنسبة للقضايا اللاهوتية في مملكة انكلترا، سوف لن يكون توجيه الدعوات بوساطة الذين يتقدمون لأجلهم، أو بوساطة رسلهم، بل يتولى القاضي، مقابل نفقة معتدلة يتحملها المشتكي، إرسالهم بوساطة رسل موثوقين من عنده، عليهم البحث بتيقظ عن الفئة المستدعاة، وإذا كان الرسول غير قادر على ايجاد المستدعى، عليه العمل على تدبر قراءة رسائل الاستدعاء، ونشرها في كنيسة المكان، الذي يسكن المستدعى بالعادة فيه، وذلك في يوم الأحد، أو في بعض الأيام الأخرى، أثناء أداء القداس، أو على الأقل إرسال الدعوات إلى العميد الذي يسكن

في عهادته الطرف المستدعى، فهـذا العميد سوف يقـوم باخلاص، بناء على أوامر القاضي بتنفيذ هذه الخدمـة شخصياً، أو بوساطة أحد الموثوقين لديه، أو برسل معتمدين، وسوف يكتب، من دون تقـاعس إلى القاضي، لإخباره بالذي عمل حول هذه القضية».

مامن أحد يضع ختمه على رسائل الاستدعاء ما لم يكن حاضراً أثناء كتابتهم

«هناك حاجة قصوى من أجل استخـدام الكتابات تحت أختام صحيحة أصيلة (وخـاصـة في مملكة انكلترا حيث لايوجـد كتاب للعـدل عـامين)، واتخاذ احتيـاطات دقيقة، حتى لايسـاء استخـدامها من قبل أي أشخـاص دون تجربة، لأننا سمعنـا، أن صكوكـاً كتبت ووقعت، ليس فقـط من قبل كهنة من المراتب الدنيا، بل أيضاً من قبل أساقفة، وأن عناية كبيرة قد بذلت نحو هذه الصكوك، لإظهار أن واحداً ما قد أحضروه ليكون موجوداً أثناء كتابة العقد، أو القضية المطروحة، أو أن انسـاناً استدعي للمحاكمة، وعليه الحضور، أو أن رسائل الاستدعاء قـد قدمت إلى واحد لم يكن قط حاضراً، أو ربما حتى لم يكن موجـوداً، أو هو ربما كان أثناء وقت الاستـدعاء يعيش في أسقفيـة أخـرى أو في منطقة ثانيـة، وأيضـاً بما أن رسـائل من هذا النوع تحتوي على الـزيف بشكل واضح، نحن نمنع بدقة هذه الرسـائل، أو عمل أي شيء مشـابه، وبعد مـداولات دقيقـة، وضعنا أسس مرسـوم قضى بأن الذين يمكن أن يدانوا بمثل هذا الذنب، أو الذين يقـدمون على الاستمرار بإصـدار مثل هذه الصكوك، سـوف يعانون من العقـوبات التي يستحقهـا المزيفون، أو الذين يستخدمون أدوات زائفة».

الأشخاص الذين يتوجب أن يكون بين أيديهم أختاماً أصيلة

«بما أنه لايوجد كتـاب عدل عـامين عاملين في انكلترا، بات لهذا السبب من الضروري منح المزيـد من الثقـة إلى الأختـام الأصيلة، ولـذلك نحن

نرسم بوجوب أن يحمل ليس فقط رؤساء الأساقفة والأساقفة، بل أيضاً موظفيهم، أختاماً، من أجل الحصول على مساعدتهم بسهولة أكبر، وكذلك يتوجب على جميع رعاة الديرة، ورؤساء الكهنة، والعمداء، ورؤساء الشمامسة وموظفيهم، وعمداء الأرياف، وكذلك أعضاء هيئة الكنائس الكاتدرائية، والتجمعات الرهبانية الأخرى، مع قساوستهم، أو بشكل افرادي، وفقاً لعاداتهم، أو أحكامهم، ووفقاً لتنوع الذين تقدم ذكرهم، يتوجب أن يحمل كل منهم ختمه الخاص، عليه اسم مرتبته، ووظيفته، وكليته، وكذلك اسم الذين يتمتعون بالمكانة، أو بمرتبة دائمة، أو وظيفة، وأن يكون ذلك محفوراً عليه بخط واضح، وبذلك يحملون أختاماً صحيحة، وأما بالنسبة للذين يشغلون منصباً دنيوياً مثل العمداء الريفيين والموظفين، فسيكون لديهم أختامهم، عليها قد حفرت أسماؤهم فقط، ولدى انتهاء وقت تعيينهم وعملهم في وظائفهم، عليهم تسليم الأختام من دون تأخير، إلى الشخص أو الأشخاص الذين تسلموا منهم تعيينهم، وفيما يتعلق بالوصاية على الأختام، نحن نوصي بالعناية الفائقة بها، أي أن يتولى كل واحد شخصياً الحفاظ على ختمه، أو أن يسلمه إلى شخص واحد، فيه يضع ثقته، وذلك ليتولى حفظه، وعليه أن يقسم على أنه سوف يتولى حفظه باستقامة، وأن سوف لن يختم به أي شيء إلى أي انسان، من ختمه يمكن أن ينشأ أي ضرر، وأن يتمنع عن ختم أي شيء إلاّ بعد أن يكون مولاه قد قرأه وتفحصه بكل دقة، ثم أمر به ليختم، وفي منح استخدام الختم يتوجب مراعاة الاخلاص واتخاذ الحذر والحيطة، فالثقة يمكن أن تمنح بسهولة إلى الذين يطلبونه، أما الحذر فيوجب منعه وعدم إعطائه إلى الأشخاص الزائفين والغشاشين، ونحن أيضاً نرسم بوجوب أن يذكر في بداية كل كتابة أصيلة وفي نهايتها، اسم اليوم، والزمان، والمكان».

القسم الذي ينبغي على المحامين أدائه

«لقد سمعنا صراخ العدالة، وهي تشكو، بأنها أعيقت كثيراً، بوساطة

مـراوغـة ومكر المحـامين، وأنها غـالبـاً وكثيراً مـاجحـدت من قبل قضـاة بارعين، من خـلال الجهل، الذي غـالباً مـاخـدعت به الأطراف بوسـاطة عصيانها، لأنه يحدث في بعض الأحيان أن شخصـاً قد يوضع في ملكية من أجل الحفـاظ على ممتلكات، فيسعى إلى الاحتفـاظ بالملكيـة، مع أن الفئة المعاكسة قـد عادت في بحر سنة، واستعدت لإرضـاء العدالة في كل شيء، وفي بعض الأحيـان أيضـاً، يكون الشخـص الذي أرسل للاستحـواذ على الملكية غير قـادر —مع أنه حكم بأنه المتملك الحقيقي— على الحصول على الملكيـة في بحر سنة، أو بعـد ذلك، لأن الفئة المضادة تقـاوم بقوة السـلاح، وبناء عليه نهضنا نحن إلى مسـاعدة العدالة، واعتماداً منا على مـا وافق عليه المجمع، نرسـم بأن على كل مـن يرغب بـالحصـول على مكتب المحـامي، أن يؤدي قسماً إلى الأسقفيـة، التي يعيش تحت سلطانها، أنه في القضـايا التي تحتـاج منه المرافعـة، أن يترافع باخـلاص، وأن لايعيق العـدالة، أو أن يحرم الفئة الأخـرى منها، بـل أن يدافع عن موكلـه وفقاً للشريعـة والعقل، وإلاَّ فإنهم لن يسمح لهم بالترافع في القضـايا الزواجيـة وفي الانتخـابات، مـا لم يؤدوا قسماً مماثلاً، ولن يسمح لهم بـالمثول في قضـايا أخـرى أمـام القـاضي اللاهوتي، لأكثر من ثلاث مرات، من دون يمين من هذا النوع، ما لم يحدث صـدفة أن يأتي طلـب لصالح هذه الكنيسـة، أو لمولاه، أو لصـديق، أو من أجل رجل فقير، أو من أجل أجنبـي، أو من أجل أي شخص تعيس، وعلى جميع المحامين أن يكونوا على دراية وحذر أن لايكونوا أنفسهم، أو بوساطة وسـائل الآخرين، شهـوداً كـاذبين، أو أن يأمروا الفـرقـاء بتقديم شـواهد مـزيفـة، أو أن يقمعـوا الصـدق، والذين سـوف يفعلون مثل هذا، سـوف يحرمـون حتماً من وظائفهم ومن منافعهم، حتى يقـوموا بتكفير مـوائم عما عملوه، وإذا ما أدينوا بفعلهم كـذلك، سوف يعاقبـون بشكل قانوني، دون الاهتمام ببقية القضـايا، وعلى القضاة، الذين يجهلـون القانون، إذا ما كـانوا شاكين حـول إحدى النقـاط التي قامت، والتي من الممكن أن يحصـل منها ضرر لواحـدة من الفئتين، أن يسألوا النصيحة من انسـان عاقل، على نفقـة

الفئتين معاً».

إحالة أعمال المحاكم إلى التدوين

«نحن فضلاً عما تقدم، نرسم أنهم بقدر ماهم مستطيعون، عليهم مراعاة مرسوم المجمع العام، وأن يبقوا بحوذتهم بشكل مخلص جميع الأوامر الأصيلة والصحيحة، وكذلك بشكل اعتيادي بمثابة محاكمات غير اعتيادية، أو أن يتدبروا شأن حفظهم من قبل كتابهم، حتى يتمكنوا ويكونوا قادرين على عمل نسخة عنهم للأطراف، كما ينبغي، ونحن نأمر ونرسم إنه بعد مايكونوا جميعاً قد نسخوا من قبل هؤلاء الكتاب، يتوجب نشرهم جميعاً من أجل أنه إذا كانت هناك أية أخطاء في الكتابة يمكن أن تصحح، وتكون الحقائق الصحيحة للقضية قد أصبحت ظاهرة».

تقديم ضمانة

«فضلاً عما تقدم على القضاة، الانتباه أنهم عندما يقررون وضع أي واحد في حالة التملك، بسبب عصيان الفئة المخاصمة بالنسبة لإعادة الممتلكات مع الانتاج، هذا إذا كانت قد تسلمت أياً منه، بعد حسم النفقات القانونية، وإذا ماعادت الفئة المخاصمة، في بحر سنة، فإنها سوف تأخذ ضمانة كافية، بناء على أوامر الشخص الذي من المفترض أنه وضع في التمليك، ونحن نرسم أيضاً، أن أي واحد أقدم على الاستحواذ على ممتلكات بالقوة، للاستيلاء على ماتركه آخر، بسبب تمرده، انه حتى وإن كان سيعين بمثابة الملاك الحقيقي بعد سنة، سوف يحرم من أي حق يمكن أن يكون له فيها».

ولدى اكتمال هذه المسائل في اليوم الثالث من المؤتمر، بدأ النائب البابوي يرتل:

(Te Deum) وعندها نهض الجميع من مقاعدهم، وبعدها جرى ترداد الترنيمة الدينية:

(Viaum Pacis) وغنائها، ثم أعقب ذلك غناء مزمور «مبارك هو الرب إله بني اسرائيل» ثم إنه غنى بعض المجموعات الخاصة، وبعد ذلك أضفى تبريكاته، وغادر الجميع بعد ذلك مسرورين كثيراً.

رسائل من الامبراطور إلى الايرل رتشارد أخبره فيها عن انتصاراته على الميلانيين

في العام نفسه، أرسل قبيل عيد الميلاد، ذلك القاهر القدير لأعدائه، الامبراطور الروماني فردريك، رسائل امبراطورية، مختومة بالذهب، كما هي عادته، إلى رتشارد ايرل كورنوول، ليخبره، وليخبر آخرين من خلاله، عن النصر الذي منحته السماء إياه على الميلانيين، حسبما ذكرنا، وجاء محتوى الرسالة ومقصدها كما يلي:

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى رتشارد ايرل أوف كورنوول، ابن ختنه المحبوب، الصحة، وأصدق العواطف: كم كان متهوراً ووقحاً قيام الليغوريين Ligurians [الجنويين] في ثورتهم ضد شخصنا الملكي، وقد أخبرت التجربة وقرب المكان، الناس الجيران وحملت أخبار الشرور المتأصلة إلى الناس إلى مسافات بعيدة، ونحن نعتقد أنك على دراية بما يعلمه الناس، عن تجاوزنا المستمر عن ذنوبهم لمدة طويلة، إلى حد إذا ما مضينا هكذا فإن تحملنا سوف يفقد اسم الصبر الحقيقي، وسوف ينال وصمة الجبن الشريرة، وذلك عوضاً عن الاسم الشريف ذي الفضيلة، وبعد تقدير وتأمل لبعض الوقت أن الجراحة التي لاتشعر بأي تأثير من استخدام الكمادات، ينبغي أن تقطع بالسكين، ولذلك فإن الحاجة قد أرغمتنا على اللجوء إلى السلاح، وإلى إيقاظ الامبراطورية النائمة من سباتها، هذا ولم نستطع لا في السنة الماضية، أو خلال السنة الحالية، اقناع رعايانا المتمردين باللجوء إلى مخاطرة مواجهتنا في قتال مكشوف، من أجل

أن ننال على الفور نصراً عليهم، وحدث لدى توفر فرصة سعيدة، أن الميلانيين مع حلفائهم قد احتشدوا عند حصن بريشيا Brescia وبذلك حال نهر بيننا وبينهم، وقد أحاط بهم هذا النهر، وكأن خندقاً قد أحاط بهم، وبناء عليه نصبنا معسكرنا، على الطرف الآخر من نهر أوغليو Oglio ووقتها عاد الفرسان المخلصين وسكان المدن إلى ديارهم، لأنهم لم يعودوا قادرين على تحمل التأخير الممل غير المتوقع، وقسوة الموسم، وقد وجهنا —على كل حال— خطانا مع كتلة منتقاة من جيشنا، فسرنا على طول شواطىء الطرف الآخر من هذا النهر، وقصدنا الجسور التي كان العائدون إلى ديارهم مرغمون على عبورهم،وبات الميلانيون وحلفائهم غير قادرين على البقاء مدة أطول في أماكن اختبائهم، وذلك بسبب قلة الحاجيات الضرورية لديهم، فعبروا نهر أوغليو، بوساطة المخاضات والجسور، ووصلوا إلى السهل المفتوح ودخلوه، ظانين أن بإمكانهم النجاة منا بالفرار سراً، ولعلهم لم يتصوروا أننا كنا على مقربة كبيرة منهم، وعندما —على كل حال— علموا بقربنا، استولى عليهم الرعب والخوف، ونزل بهم نزول صاعقة من السماء، ولدى رؤية مقدمة جيشنا الامبراطوري، وقبل تمكنهم من رؤية أعلامنا المنتصرة، والنسور الامبراطورية، نكصوا على أعقابهم، وشرعوا بالفرار من أمامنا باضطراب كبير، وفوضى عظيمة، وظلوا فارين حتى وصلوا إلى رايتهم، التي بعثوا بها أمامهم إلى نوفاكروسي Nu-ovacroce بسرعة فائقة، أي بقدر مايستطيع حصان سريع حملها، حتى أن ما من أحد من عساكرنا المطاردة لهم، استطاع أن يلمح وجوه الفارين، ولأننا اعتقدنا أنه بات من الضروري بالنسبة لنا المبادرة بالاسراع لتقديم المساعدة إلى القوات الاحتياطية، التي تقدمت وسارت أمامنا بقوة صغيرة، لذلك زحفنا خلفهم بسرعة كاملة، مع قوى جيشنا، وحيث توقعنا أن نجدهم قد صدوا بهجوم الأعداء المقاتلين، وجدنا أن تقدمنا معاق بأعداد الخيول التي كانت تركض هنا وهناك، من دون ركّاب، وكذلك بحشد الفرسان الممددين جرحى أو قتلى، في حين كان الذين بقيوا أحياء إما

واقفين أو متمـــددين على الأرض، لأنهم كـانوا مــرتبطين إمـا بســادة أو بفرسان، كانوا من أتباع مـواليهم، وبعد لأي عثرنا على رايتهم قرب أسوار نوفاكـروسي، وهي محاطة بخنادق، ومحمية بمجموعة كبيرة من الفـرسان، مع جميع جنودهم الرجـالة الذين قاتلوا بشكل رائع في الدفـاع عنها، وعند ذلك صرفنا اهتمامنا نحـو الهجـوم والاستيـلاء على هـذه الراية، ورأينا أن بعض جنودنا بعدما تمكنوا من شق طريقهم بالقوة إلى ذروة الخنادق، قاموا بشجاعـة محمودة فشقوا طريقهم بالقـوة نحو عمـود الراية، وكانت ظلال الليل على كل حال تقترب، وهـو ماتشوق إليـه رجالنا بشـدة، فتوقفنا عن القتال حتى الصباح الباكر من اليوم التالي، ذلك أننا كنا قد استلقينا للراحة فقط مع سيـوف مجردة، ودون أن ننزع سوابغنـا ودروعنا، مقررين العـودة لنيل نصر غير مشكوك فيـه، ولنستـولي على الـراية، ولدى انبـلاج الفجـر، اكتشفنا على كل حـال، أنها كـانت مهجورة، وقـد تركت وسط حشـد من العـربات السيئة، غير مدافع عنهـا تمامـاً ومهجورة، ورأس القصبـة حيث كـانت عـلامة الصليـب، كان الصليب قـد فصم، لكن يبـدو أنه ظهـر إلى الفارين ثقيل جداً، لذلك ترك في منتصف الطريق، أمـا بالنسبة لحامية قلعة نوفاكروسي وسكان المدينة، الذين ظننا أنهم سوف يلجأون إلى الاحتماء بها وينجـون إليها هرباً من هجماتنا، فقـد وجـدناهما مهجورين تمامـاً، ولم ينج رئيسهم الذي هـو ابن دوج البندقيـة من الوقـوع بين أيدينـا، وهو الذي بأوامـره رفعـوا رايتهم المأسـوفـة، ولكي نقـدم رواية مختصرة حـول هذه المسألة، يقـال بأن قـرابـة العشرة آلاف رجل قـد أسروا أو قتلوا، كـان من بينهم كثير من النبلاء والقادة للفئات الميلانية، وحول هذه المسائل كلها، قد أرسلنا لكم رسالة لنقـدم إليكم السرور، ولكي تروا كيف أن امبراطوريتنا قد ابتهجت بالأخبار التي نرويها لكم الآن.

صدر في كريمونا، في هذا اليوم الرابع من كانون الأول، في الحادية عشرة من الخمسعشرية».

رسالة بعثت إلى النائب البابوي حول أوضاع الكنيسة الرومانية

وكتب في هذا العام نفسه أيضاً، في حوالي عيد الميلاد السيد الكاردينال ج. ل دي كولونا، وكان قوياً ومستشاراً خاصاً للكنيسة الرومانية، إلى النائب البابوي في انكلترا، كما يلي:

«**من الأخ إلى أخيه، ومن الكاهن إلى الكاهن، ومن المحب إلى الحبيب، تمنيات الصحة في المسيح** —لو أن هذه الرسالة، التي أنا كتبتها يمكن أن تبقى سرية عن الغرباء، ولولا أنه بحكم المسافات بين الأماكن، كثير من الأشياء يمكن أن تتعرض للخطر، لأودعت كتابة كثيراً من الأشياء، التي اللسان صامت عنها لايتحدث، ولايبيحها إلى الصديق، وهذه أمور لاينبغي لي أن أخفيها عن معاليكم، وهي أن الأم قامت بتشوق، أو بالحري بشكل غير حكيم، بتغطيس نفسها واغراقها بين الأمواج، وعن طواعية واختيار من نفسها، ألقت بذاتها بين فكي الذئب، بوساطة خطط اثنين فقط، مع أن ثالثاً قدم تعاونه، أو بالحري لنتكلم بشكل صادق أكثر كان سباقاً بهذه الخطة، وبما أن الحرية قد ألقي بها جانباً، فقد بدأت العبودية، وغاب نجم القداسة، ونزل الميراث والحظ إلى مرتبة العبودية، وشموخ العالي والقوي نال الثناء، واشتري السجن، وازدري الشرف، وتم السعي وراء الفوضى، وتسلح الاضطراب، وأرغم الهدوء على الفرار، وما من اهتمام صرف نحو ذنوب الرهبان والغرباء، وتلا ذلك وأعقبه نتائج محزنة، ولحسن حظك أنك ابتعدت عن هذه المشاكل، وأنك ذهبت إلى بلاد نائية، حتى لاترى معاناة شعبك وآلامه، ولاتشاهد القديسين وهم يتعرضون للضربات اليومية، ويمزقون بأدوات نخس متواصلة، ولقد رغبنا، وغالباً ماحاولنا أن نقوم بإصلاح أحوال الكنيسة وأوضاعها، ذلك أنها هوت وفسدت وصارت بلا شكل وفي وضع سيء متدهور ومعزول، وأديرت المؤتمرات بشكل عابث، حيث أن الأهواء لم تضبط بضوابط العقلاء، بل أثيرت بعنفها، وبالإضافة إلى كتلة أحزاننا الأخرى، إن العمود النبيل،

الذي جرت العادة أن يدعم بشكل نبيل،، ويسند آلية الكنيسة، وهو مولانا أسقف سابينا، صاحب الذكرى الطيبة، قد اختطف فجأة من بين أوساطنا، فقد أصيب أولاً بالحزن تجاه اضطرابنا، ثم إنه هوجم فيها بعد بمرض بطيء، ومات، ليدخل تحت سلطان الرب، تاركاً مشهداً محزناً من الدماء لأمه، ورجع الرهبان من بلادهم وهم على خلاف مع رئيسهم، ولم تظهر علامات خطوات نحو السلام، لأن أتباع الخلاف لم يطيعوا العاملين في سبيل السلام، وقد انسحب أسقف أنطاكية من الجماعة، ولم يتوافق مع الذين عادوا، وبودنا ياصديقي لو أن ذلك أحيط بعناية حاشية صغيرة، وأنه بذلك لم يكن عبئاً على الآخرين، وأنه لم يمزق بأسنان المستخفين، ولكن بما أن قوة غمر فيضان المذنبين والعواصف الشديدة قد ازدادت قوة، لقد أصبحت لازماً لأمك، ولذلك أعدّ نفسك للعودة. صدر في فيتربو، في يوم عيد القديسة لوسي».

الإغريق يرفضون الخضوع للكنيسة الرومانية

وعندئذ ظهر من هذا ومن علامات مماثلة، ووضح أن الكنيسة الرومانية قد حصلت على غضب الرب، لأن الرؤساء فيها والأساقفة، لم يسعوا إلى دعوة الناس إلى التقوى، بل لجمع محافظ نقود مليئة بالأموال، وليس لكسب الأرواح إلى الرب، بل للاستيلاء على الموارد، وتكديس الأموال، وللضغط على رجال الدين وظلمهم، ولمصادرة أملاك وتكريسها لاستخداماتهم بوساطة الكفارات، والربا، والسيمونية، وما من تقدير قدم للعدل أو للشرف، ومامن انتباه صرف إلى توجيه الجاهل وتعليمه، وحالما ينال أي واحد منصباً لاهوتياً له منافع، تراه يبحث على الفور ليتعرف كم من المال سوف يحصل منه، وآخر سؤال يجري طرحه —هذا إذا طرح— يتعلق بقديسه، أو باسم الذي حملت كنيسته عنوانها، ولذلك فإن اللعنات والشكوى ثارت بين الناس، وأثير غضب الرب يومياً، لسبب صحيح، ولدى مشاهدة الكنيسة الاغريقية هذه الشرور وهذا الظلم، ثارت ضد

كنيسة روما، وطردت امبراطورها، وأظهرت الطاعة نحو رئيس أساقفتها فقط في القسطنطينية الذي كان اسمه جرمان German الذي في ضلاله ابتعد عن الإيمان الكاثوليكي، ودافع بجرأة عن العقائد الخاطئة للاغريق، وعن الأخطاء القديمة وكذلك عن الأخطاء المبدعة حديثاً، وعقيدتهم الحمقاء هي كما يلي:

هم يؤكدون أن الروح القدس لم تصدر عن الابن، بل عن الأب وحده، لأنه وجد مكتوباً في الكتابات المقدسة: «روح القدس التي صدرت عن الأب»، فضلاً عن ذلك هم يكرسون القربان من الخبز المختمر، وهم يعاكسون اللاتين ويخالفونهم في عدد من النقاط، ويمقتونهم، ويدينون الكنيسة الرومانية في عدة نقاط، وهم يولون بذلك أعمالها أكثر من أقوالها، وقام بناء عليه، مثل ابليس آخر، فأسس كرسيه في الشمال، أي أن تقول في القسطنطينية، التي هي المدينة المطرانية للأغريق، وكان بذلك ابناً ممسوخاً وبابا مضاداً، وسماها كنيسته، وأعلن أنها الأكثر جدارة، وقال أيضاً بأن الكنيسة الرومانية هي أختها، وليست أمها، لأن القديس بطرس، رئيس الرسل، كان قد أسس في الأيام الخالية كرسياً كاتدرائياً في أنطاكية، التي هي مجاورة للامبراطورية الاغريقية، وتابعة لها، وكان قد فعل ذلك قبل القدوم إلى روما، وأضاف أيضاً بأن أنطاكية أبدت كل التكريم والاحترام الذي كان في طاقتها إلى رسول المسيح، وبناء عليه وبسببه تشرفت بنيلها اسم «ثيوفيلوس» (Theophilus) في حين قامت روما بعد كثيرمن الاهانات، وأعمال تمرد كبيرة، فحكمت على بطرس المذكور، وعلى تابعه الرسول بولص بالموت، وهكذا كان الذي ظهر من الجانب الاغريقي وجرى التعبير عنه هو التشريف والاحترام، في حين كان ما ظهر من الجانب الروماني وجرى تقديمه هو عدم الاحترام والاهانة، ولذلك فإن الاغريق يستحقون عن جدارة وبموجب الحق، أن يدعو باسم «الأبناء»، والرومان باسم «أبناء الزوجات»، والذي يمكن استخلاصه من محتوى

الرسائل المقبل ذكرها، أن رئيس الأساقفة جرمان المذكور قد رغب في جمع إغريقه واللاتين —أي الرومان— مع بعضهم، من أجل أنهم بعد سماع الحجج المقدمة من الطرفين المتنازعين، يمكنهما الوصول إلى طريق ما للتفكير، وفقاً له يكون مؤيداً لحجج، أو يكون سلطة تثبت مواقفهم، وبذلك يمكن للكنيسة كلها التي تقاتل في سبيل الرب، أن تدعى كنيسة واحدة ومتحدة، وأنه وفقاً لما رسمه مخلصنا، يمكن أن يكون هناك راع واحد وقطيع واحد في جميع أرجاء العالم، ولهذا السبب كتب جرمان المذكور، إلى البابا بما يلي:

رسالة جرمان رئيس أساقفة القسطنطينية
إلى غريغوري البابا الروماني

«إلى الأعظم قداسة، والأكثر فخامة، البابا لروما القديمة، وأسقف الكرسي الرسولي، من جرمان، الذي هو بنعمة الرب رئيس أساقفة القسطنطينية في روما الجديدة:

آه يامولاي يسوع المسيح، امنحني الخلاص، وآه يامولاي الرب أعطني نجاحاً طيباً، لأنني أرى فيك، وأعدّك، الشرف، وحجر الزاوية الثمين المنتخب بمثابة أساس لهذه المناقشة التي يمكن أن تجلب الخلاص إلى جميع العالم، لأنني قد تعلمت بوساطة النبي اشعيا، بأن كل واحد يؤمن بك بأنك هذه الحجرة، سوف لن يرتبك بأي شكل من الأشكال، كما لايمكن تحريكه من أساس أهله، وهذا هو الصدق، وما من أحد يتجرأ على معاكسة ذلك، ما لم يكن تلميذاً لأبي الكذب، وعملك أنت الذي هو حجر الزاوية، أن تتولى توحيد الأشياء التي نأت عن بعضها بعضاً، أو توحيد الذين اختلفوا فيما بين بعضهم بعضاً، وأن تجمع الأشياء التي افترقت عن بعضها في وحدة الإيمان، فأنت الذي بشرت بإنجيل السلام إلى هؤلاء الذين يسكنون في القرب وفي البعد، وأنت الذي برفع يديك فوق الصليب، قد

جلبت نهاية طرف الأرض إلى الاستقامة، وبعد ذلك، حسب عادة الرب رفعتهم فوق كتفيك، وبناء عليه إنني أتوسل إلى رحمتك الواسعة، أنت الذي هو كلمة الأب الكلي القدرة، والذي هو من الجوهر نفسه في حكمة الرب، عمّر في صرح هذه المناقشة، وكن أنت أساسها وسقفها، فأنت وفقاً للقول الرباني ليوحنا، البداية والنهاية، البداية التي لايسبر غورها، والنهاية لكل شيء، فهكذا مددنا صلواتنا، وهكذا رفعنا في المقام الأول أبصارنا إلى الجبال السماوية، التي صلينا من أجل أن تأتينا المساعدة منها، ثم نتوجه بعد هذا بحديثنا إليك أيها البابا الأعظم قداسة، الذي حصلت على رئاسة الكرسي الرسولي، تلطف وانزل قليلاً من مجدك العالي، واصغ إلى كلماتي، أنا الذي ذي قيمة صغيرة، والتعيس في كل من الحياة والطريق، إذا كنت —كما أقول— تشابه الذي يسكن في عليين كرب، وينظر نحو الأسفل على الأشياء الموجودة هنا تحت، ومن هاهنا أنا سوف أبدأ:

إن الحكمة المبهمة للرب، التي عملت من لاشيء كل شيء، قد أبقتهم دوماً داخل الحدود، وحكمتهم بشكل عقلاني، قد عملت منذ زمن مضى عادة في أقل المناسبات، لبناء أشياء عظيمة على ذلك، وكأن الأساس قد أرسي منذ زمن طويل مضى، فيوسف قد بيع في مصر مقابل فضة، بعدما ألقي في الجب، ورمي به بعد ذلك في السجن، والأحداث التي تلت، وكم كانت مجيدة ومشرفة، وكيف تمجد الرب في وسط ذلك، هي معروفة بشكل جيد من قبل الفهم الحكيم لعقلكم، أيها الأب الأعظم قداسة، والذي يريد هذا الخطاب أن يشير إليه، ويقصده ويستهدفه، هو الرهبان الذين هم موجودين، والذين عددهم يساوي عدد العذارى الحكيمات، والذين اجتماعهم الخطير، وسجنهم غير العادل قد لفت انتباهنا له، وهذا ماسوف نبيّنه إلى قداستك، ذلك أن مصباح أعمالهم، مع النور الصادر عنه، أشع نحو الأمام من أجل مجد الأب السماوي، وهم بحكمة يزودونه دوماً بزيت الأعمال الطيبة، حتى لاينطفىء نوره، ولكي لايغرقوا هم

أنفسهم في الكسل، وبـذلك يرفض قبـولهم إلى الملكوت، وهم جميعـاً بلا عصي، وبلا نعـال، ولكل واحـد منهم مـلابسه الخاصـة، وأنا أعتقـد الآن —وفقـاً للرسل— أن أقـدامهم جميلة، حيث أنهم يبشرون بانجيل السـلام بين الاغـريق واللاتين، وهم من الممكن باختصار دعـوتهم، وكأنهم بلا أي عبء، أكثر الساعين رشاقـة وأسرعهم، مبادرين بسرعة نحو الرب، الذي هو هدف جميع الـرجـال الصـالحين، وعند وصـولهم إلى الهدف، سـوف يتـوقفـون عن الركض، ويتسلمـون جـائـزتهم التي تشـوقـوا إليهـا كثيراً، وهؤلاء الرجـال، الذين بالنسبـة للـرب يدعـون بالفـرنسيسكان، لكونهم متحدين برغبة واحدة، وبمقصـد واحد، ولأنهم مثل ذلك قد امتازوا برقم خمسة، هؤلاء قـد ظهروا بمثابة شـارة طيبة، وأعطوا أملاً جـديداً —برضا الرب— بالوحـدة والوئام، لأنهم تأسسوا بين خمس بطريـركيات، وهؤلاء الرهبـان أنفسهم، قد التحقـوا ببيتنا، كما أعتقد بمـوجب الحكمة الربانيـة، التي توزع جميع الأشياء لخير الفوائد والمنافع، وبعد مرور مناقشات من على الطرفين بيننا، اتجه الخطاب وتحوّل قبل كل شيء، نحـو الشقاق القـائم منذ أمد طويل، في ثوب التقـوى الذي لانظير له، والذي نسج هكذا من الأعلى إلى الأسفل، وهو الثوب الذي ألبست به أيدي الرسل الكنيسة الكاثوليكية للمسيحية، ولم تكن أيدي الجنود هي التي أقدمت على تمزيقه وتقسيمه، بل خـلافـات اللاهـوتيين هي التي فعلت ذلك، والتصـدع كبير، وله سنين طويلة قـائماً، وليس هناك من أحـد لديه رحمة نحـو قـرينة المسيح، المرتدية لثوب ممـزق، أو التي سوف تبكي على تعـاستها، وهذا —كما أعتقـد— قد رثاه داوود أيضاً في ميراثه، حيث قـال في كتاب المزامير: «لقد تفـرقوا دون ندامـة»، وإذا مـاأردنا أن نشعـر بالندامـة، ينبغي أن نحـزن وأن نشعـر بالأسف، وإذا كنا سنواجه الاضطراب والحزن، علينا أن نتوجه بالدعاء إلى اسم الرب، ومادمنا ننشـد عونه، سـوف يقدم إلى مساعـدتنا، وكأنه وسط تلاميـذه، يجلب الهدوء والسكينة إلى الذين هم على خـلاف، ويقـوّم عـدم الوفـاق في أفكارهم، أو لم تكن أحشـاؤه هي التي تمزقت؟ أوليسـوا هم

آسفين بسبب عدم اتفاقهم؟ نعم هم كذلك كثيراً، لأنه هو الأب، والأعظم قداسة بين جميع الآباء، ولا يمكنه تحمل رؤية أبنائه يبكون بشكل متبادل، ويدمر أحدهم الآخر، وفق هذه الطريقة العدوانية، وأن يرى أحدهم وقد إلتهم من قبل الآخر، على طريقة الأسماك، لأن العظيم قد ازتقى فوق الأدنى، والأعظم قوة يظلم الضعيف، فهل مثل هذا تعلمنا من قبل صياد السمك ذاك، الذي هو بطرس، والذي هو على عكس متقدميه، اقتاد الذين أمسكهم بشبكته من الموت إلى الحياة؟ وا أسفاه، من الذي سوف يعطي ماء إلى رأسي، ونبعاً من الدموع إلى عينيي، حتى أبكي ليل نهار على دمار القدس الجديدة، خارج أمم الكنيسة المجتمعة؟ وكيف نحن الشعب المختار من الرب قد انقسمنا إلى يهود واسرائيليين، ومدينتينا إلى القدس والسامرة؟ والحال نفسه كما وقع في قضية قابيل وهابيل، أو عيسو ويعقوب، اللذان كانا أخوين بالولادة، ولكن عدوين بالعقل، وهكذا عادى أحدهما الآخر، الحال هذا نفسه واقع الآن بيننا، وأنا حزين لإقحام هذه الأشياء في رسالتي، خشية أن أبدو وكأنني أجرح أولوية أخوتك، أو أن يظن بأنني أسعى للاستيلاء على حق الولادة للمولود الأول، وعلى كل حال، لم يصبح «أبي» مسناً، كما أن عينيه لم تغدوا غير بصيرتين، لكنه يسكن في السماء، وبوضوح يرى جميع الأشياء، وعلى الذين ظلموا بشكل غير عادل، قد أضفى تبريكاته، وهذه الأشياء في الحقيقة مؤلمة، وإلى انسان ذي فهم، هي الدودة التي تقرض عظامه، إذا ما استحضرت مراراً إلى الذهن، والذي بقي ليقال هو أكثر مرارة وحدة، وأكثر مضاء بالقطع من أي سيف ذي حدين، ضد أية طائفة من الناس جرى توجيهه، سواء أكانوا إغريقاً أم لاتيناً، وماذا هذا؟ دعونا نسمع الذي قاله بولص: «وسواء أكنا نحن، أو ملاك من السماء، يبشر بانجيل آخر إليكم، غير الانجيل الذي بشرنا نحن به، فليلعن»، ولقد ضرب بالسيف الذي هو من هذا النوع أكثر من مرة، وهو من الممكن أن يجلب علينا حزناً أعظم، للمرة الثانية أيضاً، بضربة ثانية، والذين يخافون الموت على أرواحهم، يطلبون الطبيب، وبعد هذا ماذا

يمكنني أن أقول أكثر؟ دعونا نطرد كل اهتمام آخر وقلق من عقولنا، مثلما ننفض الغبار من على أقدامنا ودعونا نستخدم كل مساعينا، لنكتشف من الذي أصـــابه هـذا السيف المرعب، وذي الحدين، والذين فصلهم عن اتحادهم بأطراف الكنيسة، التي المسيح هو رأسها، فإذا كان قد أصابنا نحن الاغـريق، أرونا الحز، وأزيلوا الدم من الجرح، واستخدموا رباطاً روحياً لربطه، واحفظوا إخـوانكم الذين هم في هـذا الخطر، خشية أن يهلكوا، وهكذا اتفقوا مع سليمان الذي ضرب هذا المثل «الصديق وقت الضيق»، ودعونا أولاً وبشكل رئيسي نصغي إلى الرب نفسه، الذي أعطى حكمة إلى سليمان هذا المذكور، والذي قال من خلال النبي:

«كل مـن يفصل الثمين عن الرخيص سـوف يكون وكأنه عظمي»، ولكن إذا كنا نحن الاغـريق مـن دون ندبة ومتحـررين من الجرح بهذا السيف، سيف اللعنة الكنسية، وإذا كان قد جرد ضد الايطاليين واللاتين، وقد رفع من أجل قتل البعض ولتدميرهم، نحن نعتقد أنكم لن تسمحوا لأنفسكم بالانفصال عن جانب الرب، من خلال الجهل، أو العناد الشرير، فكل واحد منكم يـؤثر عن طواعية تحمل عشرة آلاف مـوت، إذا كان ذلك ممكناً، على هـذا الانفصـال، وبما أن كـل من الخلاف الكبير، والتبـاين بالمواقف والتضـاد بالآراء، هي المدمـرة للأحكام الشرعية، أو المغيّـرة للعادات التي أورثنا إياها آباؤنا، وهي أيضاً مواد السياج التي فصلت هذه الأشياء، التي كانت من قبل متحـدة بروابط السلام والوئام، فالعالم كله سـوف يعلن بصوت واحـد، وهو يدعـو الرب، والسماوات والأرض لأن تشهد بأننا رجـونا بأعظم إخلاص لأن نتحـد يداً بيد معكم، أو أنتم معنا، بالقيام بتقص يقظ، وأن نمحص بحثاً عن الحقيقة حتى القعر، وأن نطلب مساعدة الروح القـدس، حتى لانكون عـرضـة مدة أطول إلى شقـاق مخز مماثل، وأن يتحـدث بسـوء عنا من قبـل اللاتين، أو أنتم تشتمـون من قبل الاغـريق، وأن نتمكن من الوصـول إلى اللب الحقيقي للصدق، فإن عـدداً

كبيراً من الرجال الأقـوياء والنبلاء سـوف يطيعونكم، إذا كـانوا لايخشون الظلم غير العادل، وطلب استخـراج الأموال الذي تمارسـونه، والخدمات غير المستحقـة التي تطلبـونها من الذيـن هم خـاضعـون إليكم، ونظراً لأن الحروب الوحشية تقـوم بين واحد ضد آخر، فهي مصـدر دمار المدن، وإنه لهذا السبب وضعـت الأختـــام على أبواب الكنائـس، ونظراً لنشـــوب الانشقاقات بين الرهبان، فإن عمليات خدمات الكهنة قد توقفت، ولذلك فإن الرب لايمجد في البـلاد الاغريقية وفـق الطريقة الصحيحة المتـوجبة، وواحد من الأشيـاء —كما نعتقد— قـد منح منذ زمن طويل، ووصف إلى الاغريق من عليين، هو حتى الآن مطلـوب، وهو زمن الشهادة، وعلى هذا إن الوقت الذي قـد بات الآن وشيكاً هو وقت افتتـاح منابر القضـاء، وأن توضع أختـــام المنازلات، مـن أجل تدفق الدمـــاء، ومن أجلنـا نحن لكي نصعد إلى ميدان الشهادة، وأن نقـاتل قتالاً جيداً حتى نتسلم تاج المجد من اليد اليمنى للرب القدير، وإن جزيرة قبرص الشهيرة تعرف أن الذي أقوله هو صـدق، فهـي تعـرف، وهي قـد أنتجت شهـــداء جـدد، ورأت جنود المسيح، الذين عبروا أولاً البحـــر، وتطهـروا في حمام الدمـــوع، وبالتعـرق اجتـــازوا أخيراً، وعبروا حتى من خـــلال النار، واقتيــدوا مـن قبل الرب —الذي أشرف على قتالهم— إلى مكان الاستراحة السماوية، أوليست هذه الأشياء جيدة أيها البابا الأعظم قداسـة، وخليفة الرسول القديس بطرس؟ وهل فـرض بطرس التلميـذ اللطيف والمتـــواضع للمسيح هذه الأشيـاء؟ وهل هكذا وجه الشيـوخ عندما كتب: «إنني أحث الشيـوخ الذين بينكم، ذلك أنني أنا شيخ، وشاهد على آلام المسيح، وكذلك شريك في المجد الذي سوف يظهر؟ أطعموا قطيع الرب الذي هو بينكم، واعتنوا به، ليس بالكره بل بالطواعية، ليس من أجل ربح قـذر، بل بعقل جاهز، وليس على شاكلة سـادة على ميراث الرب، بل بمثـابة مثل للقطيع، وعندمـا سيظهـر الراعي الرئيس، سـوف تتسلمون تاجـاً للمجد لايخبـو ولايتلاشى»، فهـذه عقيدة بطرس والذين لايطيعـونه سـوف يرونها، وقـد نلنا تهدئـة كافيـة وترضيـة

بذلك الجزء من رسالته، التي أمر فيها الحزينين، لأن يكونوا مسرورين تحت مغوياتهم المتنوعة، بقوله: «بأن محنة إيماننا أغلى بكثير من الذهب الذي يتلف، علماً بأن المحنة بالنار، يمكن أن تلقي المديح، والتشريف، والمجد، عند ظهور يسوع المسيح»، وامنحني عذراً، أيها السيد الأعظم قداسة، والأكثر رحمة بين جميع أسلافك لروما القديمة، وتحمل كلماتي، مع أنهن يحملن كثيراً من المرارة، لأنهن تنهدات قلب متألم، وقد منح الغفران إلى الرجال المستقيمين، الذين بسبب الحزن العظيم في القلب، انفجروا يتفوهون بكلمات مزيجة بالتنهدات، وبناء عليه احزم أمرك واشدد عزمك، وأضيء مصباح رشدك، وانشد الدرهم المتعرض للتلاشي من أجل وحدة الايمان، وسوف نكون متعاطفين مع قداستك، وسوف لن نوفر جسدنا الضعيف، ولن نسامح أنفسنا من مرافعة العصر القديم ولن نعفيها، كما أننا لن نشكو من الرحلة الطويلة، لأنه كلما كان العمل الذي نقوم به متعباً، كلما توفر هناك سبب من أجل عدة تيجان من المجد، لأن كل واحد سوف ينال مكافأته وفقاً لتعبه، كما قال بولص بأن المصارع العام في الحلبة مع منتصر خاص ينالان تاجاً للمجد، ونحن لسنا جاهلين، أيها الأب الأعظم قداسة، أنه كما نحن الاغريق، في الطريق نفسه، نسعى نحو مراعاة العقائد (الأرثوذكسية) المستقيمة والتقوية في كل شيء، وكذلك حتى لانضل فنبتعد عن أحكام الرسل والآباء المقدسين، كذلك تفعل كنيسة روما القديمة، حسبما نعرف بشكل جيد، فهي تناضل من جانبها حتى ترى نفسها لم تخدع في أية نقطة، وهي تؤكد أنها ليست بحاجة لا إلى الانقاذ ولا إلى التقويم، وهذا نعرفه، لأنه قد قيل في كنيسة الاغريق، وكذلك في كنيسة اللاتين، ولأن ما من أحد يمكنه أن يرى شيئاً قبيحاً في وجهه، ما لم ينظر في المرآة، أو يجري إخباره من قبل شخص آخر، كيف يبدو هو في وجهه، سواء أكان قبيحاً أم غير ذلك، ولدينا الكثير من المرايا الواسعة، وأعني بذلك الانجيل الواضح للمسيح، ورسائل الرسل، وكتب الآباء المقدسين، ودعونا ننظر فيهم، فهم يظهرون كيف يشعر كل انسان، سواء أكان بشكل

غير شرعي أم شرعي، هذا وإن كل من يستدعى إلى المرآة ليقوم بمحاولة، سوف عندما يبتعد يعترف —وإن كان من غير رضى— بأن وجهه قد تشوه، وأن رب السلام، سوف يكدم الشيطان تحت قدميه بعد وقت قصير، الذي هو صانع الخلاف، والذي هو السلام، الذي هو سبب جميع المحاسن، سوف يكدم الذي يكره الصلاح، ويسبب الخزي، ولعل الذي هو رب السلام أن يرسل إلينا، الذين هم رعاة لشياهه العاقلة، وملائكة السلام لتعلن الفرح العظيم، كما فعلت من قبل لرعاة الشياه البهيمية، عند ولادة المخلص بالجسد، وأن يجعلنا جديرين بأن نغني أغنية المدح تلك، أي: «المجد للرب في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وحسن الإرادة نحو الناس»، ولأن يحيي الواحد الآخر بقبلة مقدسة، وليكن معكم مجد مولانا يسوع المسيح، وسلام الرب الأب، والصلة الحميمة للروح القدس. آمين».

رسالة منه نفسه إلى الكرادلة

«من جرمان الذي هو بنعمة الرب، رئيس أساقفة القسطنطينية، روما الجديدة، إلى الكرادلة المشهورين، والأعظم قداسة واستقامة، شرف الكرسي الرسولي:

إنه بالفعل هناك فائدة كبيرة إلى العالم، ونافع جداً إلى جميع الناس، لأن نجتمع معاً، ونعقد مجمعاً، من أجل ترتيب المسائل، لأن ماأخفاه الرب أحياناً عن انسان ما، قد أباحه وكشفه إلى آخر، وهكذا إن كل ماكشفه من صلاح إلى أي انسان، إنه عندما يجلب لمنفعة الجميع ومعرفتهم، يجري تداوله، بدرجات متزايدة لصالح الحشود التي هي رعية له، ولئن كانت هناك عدة من المختلفين بالرأي، لكنهم رجال متعلمين ومخلصين عاقلين، كم كان عظيماً الربح، وكم كانت كبيرة المنافع التي حصلت إلى جماعة الخاضعين لهم؟ لأن الانسان الذي يعمل من دون مشورة يعاكس نفسه، كما قال سليمان بصدق: وعلى هذا إنه من جهة أخرى، كل من لديه نصيحة

طيبة يجذب أصدقاءه إليه، ويدني أعداءه ويقربهم من الصداقة معه، وكون هذا هو خطة ربانية وسماوية، النبي اشعيا هو شاهد على ذلك، حيث دعا الجوهر المتجسد لكلمة الأب، والملاك العظيم للحكمة، بأنه المستشار محط الاعجاب، حتى يمكن أن نفهم حقاً وبالواقع، كم هو ضروري في مسائل تتعلق بالرب، تمييز الفوارق بين الأشخاص، لأنه تبعاً للطبيعة اللاهوتية، هناك إرادة واحدة للأب، والابن والروح القدس، ولذلك يحصل كثيراً من التشريف إلى الذين ينصحون بأشياء جيدة، لأنهم من هذا يحصلون على اسم بالاشتراك مع الرب، إذا ما أعطوا مشورة من أجل الخلاص البشري وفقاً لما هو مقبول منه، وعلى هذا، مع موافقة الحكمة في عليين، التي توزع الأشياء كلها، تبعاً لأحسن المنافع، نجد أن روما قد وضعتكم في السلطة عليها، كجديرين بعظمتها ومجدها، وقد تفوقتم على جميع الكرادلة الآخرين من أسلافكم في الحكمة والتدين، وذلك حسبما أخبرنا إخواننا رهبان الطوائف الدينية، وبتواضع كما نحن، إنني أرجوكم القيام للدخول في الصراع الروحي، والبسوا دروع وسوابغ الروح، ودمروا حاجز العداء القديم القائم بين كنيسة الاغريق وبين كنيسة اللاتين، لأن أسلحتكم قوية لتدمير أعمال من هذا النوع، وبعد إزالة هذا الحاجز طمئنوا الأطراف الممزقة، واربطوها مع بعضها في وحدة السلام، والخير، والإيمان المشترك، وتلك الأشياء التي فرقت لسنوات طوال، وكونوا أنتم أيضاً نصحاء جديرين بالثناء ومقبولين لدى الرب، أمام البابا المقدس والسامي، الذي هو رجل متوافق مع رغباتكم، معروف عنه أنه مسالم، ولطيف بالروح، وتبعاً لاسمه، هو دائماً متيقظ، ودائم الصلاة، ومداوم على خدمة مولاه، حيثما تحرك، حتى يجعله جديراً بأعلى مراتب السعادة، والذي هو في بساطة قلبه يغذي أفراد شعب المسيح، وبوساطة يديه سوف يقودهم إلى مراعي الجنة، لأنه بالأيدي كما تعلمون، وحسبما جاء في الكتابات المقدسة، صممت العملية، ونحن في الحقيقة في الآمال والوعد الصحيح للمسيح، الذي أكمل الصدق في ضعفنا، وقد شرعنا بأعمال الوحدة، ونحن مرسلون

رسائل إلى صاحب القداسة البابا، وانني أصلي لملك السماء، الذي ارتدى شكل العبد، لصالحنا نحن عبيده الذين بلا فائدة، والذي صلب، والذي رفع إلى مستواه الذين سقطوا في أعمال التعاسة، ليزيل من قلوبنا كل تكبر بالتفكير، هذا التكبر الذي رفع ذاته معادياً لاتحادنا الأخوي، ونأمل أن ينير أفهامكم بنور المعرفة، حتى نتكلم موحدين والشيء نفسه، وأن لايكون بعد الآن تمزق بيننا، وأن نستمر نحن فنلقى التوجيه بعقل واحد هو العقل نفسه، وأن لايقال بيننا كما قيل بين المسيحيين القدماء: «أنا من أتباع بولص، وأنا من أتباع أبولو، وأنا من أتباع كيفاس Cephas وأنا من أتباع المسيح»، بل أن نكون جميعاً من أتباع المسيح، بحكم أننا نعرف باسم المسيحيين، لعلنا أيضاً نبقى نتلقى التوجيه من قبل واحد ومن قبل العقل نفسه، وأن نمارس تقديم الصدقات، التي هي تبعاً لشريعة المسيح، أن نضع في أفواهنا كلمات الانجيل التي هي: «رب واحد، إيمان واحد، وتعميد واحد» ولعلنا نتمكن من الاعتراف بالصدق، وأن نجعل منكم أصدقاء لنا، حتى تتمكنوا أيضاً من الاعتراف بها، كما كتب «إن كلمات الانسان الحكيم، الذي يقول الصدق، ويبرهن على الصدق مثل المسامير تثبت في الأعلى»، وغالباً ماينجب الصدق الأعداء، وذلك ومع أنني أخاف، ولكن سوف أعترف، بأن فصم اتحادنا قد نشأ عن طغيانكم وعن ظلمكم، وعن الإملاء القسري للكنيسة الرومانية التي عوضاً عن كونها أماً صارت زوجة الأب، ومثل طائر جشع جرى طرده عن فراخه، وطرد فراخه وأبعدهم عنه، وكلما ازدادوا تواضعاً، ونزعوا نحو الطاعة، كلما ازداد دوساً عليهم، وزاد من معاملتهم بالشر، والنظرة إليهم نظرة سوء، دون الاصغاء إلى قول الانجيل بأن «الذي كلما زاد من تواضعه، استحق الرفعة أكثر»، وبناء عليه دعوا الاعتدال يضبطكم، ومع أن الشره الروماني قد استقر فيكم لوقت قصير، دعونا نهبط إلى أمان الصدق، وبعد أن نقوم بفحص دقيق بالصدق، بالنسبة لما يتعلق بطرفي المسألة، دعونا نعود إلى اتحاد ثابت، لأننا كنا كلنا نحن الاغريق واللاتين، منذ وقت مضى، نتبع الإيمان نفسه، ونتقيد

بالأحكام الشرعية نفسها، في فرض السلام بيننا أنفسنا، يقاتل كل منا في سبيل الآخر، ومسببين الفوضى لأعداء الكنيسة، وعندما رأت الشعوب التي قدمت أيضاً إلى مابيننا من الشرق، أنها وجدت مكاناً آمناً للالتجاء إليه، هربت بكل سرعة إلينا، وقسم منهم إليكم، أي إلى روما الكبيرة، بحكم كونها حصن حصين لايتزحزح، وتلقوا الطمأنينة من على الجانبين، وهكذا باحسان متبادل جرى تلقي الأخ في صدر الأخ، وعندما جرى الاستيلاء على روما من قبل شعوب أخرى، تولت الامبراطورية الاغريقية تحريرها من طغيانهم، وقد فرّ آغابتوس Agapetus وفيجيلوس Vigil-ius لبعض الوقت إلى القسطنطينية، بسبب الخلافات في روما، واستقبلا بحفاوة ومنحا الحماية، مع أنكم لم تقدموا لنا قط مأوى، ولم تمدونا بالمساعدة، عندما كنا في وضع صعب، وإنه —على كل حال— واجبنا أن نتصرف بشكل جيد حتى نحو الجاحدين، لأن البحار هادئة من أجل القرصان، والرب يجعل الشمس تشرق على المستقيم وغير المستقيم، واأسفاه، وواأسفاه، بأي انفصام مرّ قد انفصلنا، فابتعد أحدنا عن الآخر، وتجنب كل واحد التحالف مع جيرانه، وكأنه معرض روحه للخطر، وماذا بعد هذا يمكن أن نقول؟ إذا سقطنا، أقيمونا وانهضوا بنا، ولاتعملوا مجرد عمل جسدي بالنهوض بنا من سقوطنا، بل اعملوا معنا أيضاً من أجل خلاصنا الروحي، ولربما سوف نعترف بأننا ندين لكم بالشكر، لكن إذا كان الاثم والشروع بالعدوان قد جاء من روما القديمة، ومن خلفاء الرسول بطرس، اقرأوا كلمات القديس بولص التي خاطب بها الغلاطيين حيث قال:

«لكن عندما قدم بطرس إلى أنطاكية واجهته وجهاً لوجه لأنه كان سيلام»، وهناك أشياء أخرى قالها بولص فيما بعد، فيما يتعلق ببطرس، لكن ينبغي أن نعتقد بشكل تقوي، أن مقاومة هذا النوع لم يكن السبب في أي خلاف، أو نزاع حاد، بل كان بالحري تفحصاً ومناقشة عميقة، أثارت

لطافة دنيوية، ذلك أنهم كانوا متحدين بالمسيح بروابط عاطفية، وبإيمان متماثل وعقيدة متشابهة، ولم يبتعدوا عن بعضهم بموجب أي طموح أو شره، ونحن في هذه المجالات نشابههم ومثلهم، ولكن ذلك بعث تفكيرنا نحو العدوانية، بأنكم فغرتم أفواهكم سعياً وراء الممتلكات الأرضية، كلما استطعتم جرفها وجمعها مع بعضها، وجمعتم الذهب والفضة، ومع ذلك أنتم تقولون بأنكم تلاميذ الذي يقول: «أنا ليس لدي لاذهب ولافضة»، فأنتم ترغمون ممالك لأن تكون تابعة لكم ودافعة للجزية إليكم، وأنتم تكدسون الأموال بالمقايضات المشبوهة، ولاتعملون بأفعالكم التي بشرتم بها بأفواهكم، ولذلك دعوا الاعتدال يضبطكم، حتى تكونوا مثلاً لنا، وكذلك للعالم أجمع، وأنتم تعلمون كم هو عمل صالح أن يعان الأخ من قبل أخيه، وإنه الرب وحده هو الذي لايحتاج إلى نصيحة أو عون من أي واحد، لكن الناس يتطلبون أن يعان كل واحد من قبل جاره، وبما أنني أحترم بطرس الرسول العظيم، الذي هو رأس رسل المسيح، وصخرة الإيمان، أود أن أعيد إلى ذاكرتكم كيف أن هذه الصخرة قد هزت إلى أساسها، وحركت من قبل امرأة منحطة، وذلك بإذن المسيح، وذلك وفقاً لأحكامه التي تنبأ بها بجميع الأشياء، وأحكامه هذه عميقة جداً، وهو الذي بصوت الديك، أعاد إلى ذاكرة بطرس كلمات النبوءة، وأيقظه من نوم اليأس، ولدى استيقاظه، غسل وجهه بالدموع، واعترف إلى الرب، وإلى جميع العالم، وصار مثلاً بالصبر، حاملاً لمفاتيح ملكوت السماء، ويركض بحضور جميع الناس وهو يقول: «أوليس الذي يسقط ينهض ثانية؟ انهضوا أنتم يامن سقطتم، وانظروا إليّ وأطيعوني، وأنا مبادر مسرع إلى الجنة اللاهوتية، التي امتلكت السلطة لفتح أبوابها»، وأنا أكتب هكذا إلى قداستكم، وإنني أذكر هذه الأشياء لأعيدها فقط إلى ذاكرتكم، لأنني أعلم أنكم قد وهبتم الحكمة كلها والمعرفة، وتتفقون مع سليمان الذي كلماته هي هذه:

«أعط الفرصة إلى رجل حكيم، وهو سوف يكون أكثر حكمة، وعلّم رجلاً صالحاً، وهو سوف يكون متشوقاً للتلقي»، وقد بقي شيء واحد سوف أضيفه، وعندها به سوف أنهي حديثي، وهو أن هناك شعوباً كثيرة تتفق معنا بالتفكير، وتتوافق في جميع النقاط معنا نحن الاغريق، وأول هؤلاء الأثيوبيين الذين يسكنون في الأجزاء الأولى من الشرق، ثم السريان، وآخرين هم أكثر نفوذاً وفضائلاً، مثل: Hyberians واللازي Lazi واللان، والقوط، والخزر، وحشود لاتعد ولاتحصى من شعب روسيا، والمملكة المنتصرة للبلغار، وهؤلاء جميعاً مطيعين لأمنا، ومابرحوا محافظين لايتزحزحون في أورثوذكسيتهم القديمة، ونرجو الرب المقدس، الذي من أجلنا أصبح انساناً، وقد وضع على رأس الكنيسة، أن يقوم بجمع الأمم ثانية، وحشدنا في وحدة الإيمان ولمّ شملنا، وأن يجعل الكنيسة الإغريقية تتحد مع أختها في روما القديمة، لتمجيد المسيح أمير السلام، بوحدة للإيمان من أجل إعادة الأورثوذكسية، التي عليها اتفقوا منذ وقت طويل مضى، نأمل أن تعطيكم يد الرب القدير، أيها الكرادلة الأعظم قداسة، عواطف أخوية، وأن تقودكم جميعاً، حتى تصلوا ببهجة إلى ميناء السلام، ولتكن نعمة الرب معكم، آمين».

رسائل من البابا

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أخيه جرمان المحترم، رئيس أساقفة القسطنطينية، تمنيات الصحة، والمباركات الرسولية: لقد جرى تقديم رسائلك الأخوية إلينا وإلى إخواننا، من قبل رسولك، ولقد استقبلناهم بمشاعر طيبة ومناسبة، وتم فهم مقاصدهم تماماً، وقد عملنا ترتيبات لأن نرسل إليكم بعض رجال الدين من ذوي المعارف المجربة، ليحملوا إليكم كلام الحياة، وليشرحوا لكم ببيان أوفى رغباتنا، ولكن بقدر «مايصدر عن الآكل اللحم، وعن القوي تصدر الحلاوة»، أو خشية أن يصدر عن فم الميت أسد، نحن نخجل أن نكتب بأن قرص العسل الذي

قـدمـه الأب قـد ازدري، ولقـد ارتأينا من المفيـد أن نرسل بضع كلمات في جواب، خشية أننا إذا لم نفعل ذلك، قد يبدو بأن رسائلك قد ازدريت، لأنه عندمـا يصغي الرجل العاقل سـوف يصبح أعقل، وإنه إذا مافهم، سـوف يستحوذ الحكومـة، ومع أن محتويات رسالتك تعيـد إلى ذاكرتنا بأن المسيح هو الأول، والأسـاس الرئيسي للإيمان، وهـذا مـا نعترف به، فبـدون ذلك مـامن شيء من الممكن إرسائـه، نحن نود أن نذكـر في المقام الثـاني، وذلك كأسـاس ثاني، الرسل، والأنبياء، وأسـاسات صهيـون في الجبال المقـدسة، وسكان القـــدس السماويـة، التي قيـل بأنها تأسسـت على أسس الـرسل والأنبياء، والأول بين هؤلاء والرئيس هو بطـرس المبارك، وذلك ليس من دون سبب، وبامتياز خـاص قد سمح له بأن يسمع من الـرب قوله: «أنت سـوف تدعى كيفـاس، الذي تـرجمتـه: الصخـرة»، وبما أن قـوة المشـاعـر الجسدية الكاملة مـركزة في الرأس، الذي منه تتدفق من خـلال معابر سرية أجـزاء إلى كل عضو من الأعضـاء، مثلما يصـدر النهر عن النبع، وكـذلك الطوائف الثـلاث للإيمان، وهم: نوح، ودانيال، ويعقـوب، يعني أن تقول الأسـاقفـة من كل من الرهبـان، والأشخـاص المتـزوجين، الذين قيل بأن حزقيـال، الذي قيل بأنه شوهـد كأشخاص لينقذوا، فبطـرس الذي جرى تعيينه الصخـرة، التي عليهـا قـد بنى الرب ليس بيتـاً من الخشب من جبل لبنان، وليس رواقـاً من الأعمدة، وليس بيت ابنة فـرعون، بل كنيستـه من أجل الناس المؤمنين، الـذين وقعـوا في شبـاكهـا، وكأنهم مـن جميع كتلة السمك، أي من جميع الأنواع، فهو قـد كان فعلاً أول الأوائل، الذي شرب من أنهار من ينابيع فهـم ربنا، التي لابد أن وسـائل الخلاص قـد صـدرت عنها، وبكل الصبر، والتبشير ليس بتمـرد، وليس بمقاومة متعجـرفة، لابد لظلام الخطيئة أن يزول، والـذي ذكـرته لايتعـارض مع هـذا، إذا مـاقمت بالتمييـز بين الزمان والمكان، وأن بولص قـد وقف في وجه بطرس، مـادام بإمكاننا أن نقـرأ بأن هذا قـد عمل مـن قبل الآباء الأورثوذكس، فبطـرس، بمعرفته بالشريعة الموسوية قد سعى لأن يربح اليهود، وأبعد بولص الختان

بكل الوسائل التي كانت في طاقته، وناضل ليكسب الشعوب ويبعدهم عن هذه العقيدة الزائفة، وغير ذلك يمكن المحاججة بأن بولص عندما كان مسافراً خلال سورية وكليكية، وصل إلى دربه ولستره، فختن تيموثاوس، الذي ولد من أب من الأميين، ومن أرملة ذات إيمان صحيح، وفي المكان الثاني والثالث، من الممكن أن نستخرج من المناقشة، بأن بولص عندما أبحر إلى سورية وكان بصحبته بريسيلا وأكويلا، قد حلق شعره في قيسارية، خوفاً من اليهود، ووفقاً للشريعة هو حلق هناك الشعر الذي أطاله بسبب نذر كان قد عمله، والذي يفعله النصارى بالعادة، الذين عملوا نذراً، وفقاً لأوامر موسى، وإذا مافهمت ياأخي فهماً كاملاً سر عظمة ومنصب سلطة بطرس وبولص، وإذا ماقدرت غيرتهما، التي التمست أرواح الناس، سوف تجد أن هذين الرجلين الذي حوّلهما الإيمان الواحد، والمعاناة الواحدة، إلى قريبين —بالحقيقة— أحدهما من الآخر، لم يختلفا في العقيدة، لا أثناء حياتهما، أو من بعد موتهما، لأنه مع أن بطرس وبولص قد مارسا عملهما بلغات مختلفة، وبطقوس مختلفة، حيث قدما الحليب إلى الأطفال، واللحم إلى الذين كانوا متقدمين بالسن أكثر، فقد عمل الأول بين العنيدين من سكان اليهودية، وعمل الآخر بين الشعوب، ومع ذلك حينما حلّ الميعاد واكتمل الوقت، عمل الاثنان مع بعضهما بالروح نفسها، وبشّرا لرب واحد، ولإيمان واحد، ولتعميد واحد، مع بقية أركان العقيدة، وفقاً للنعمة التي أضفيت على بطرس من قبل الرب، وذلك تبعاً لكلمات الرب، الذي تحدث إلى بطرس وإلى بقية الرسل قائلاً هذه الكلمات:

«كل الذنوب التي أنت تحللها، هم يحللونهم منها، وكل ذنب أنت تبقيه، هم سوف يبقونه»، وكان بولص مرتبطاً مع بطرس، يتولى ممارسة أسرار وظيفته، ووفقاً للكلمات التالية، أعطيت السلطات نفسها إلى بطرس بشكل خاص: «إن كل ماستربطه على الأرض سوف يربط في السماء، وكل ماتحله

على الأرض، سوف يحل في السماء»، وهكذا اعترف بمقام بطرس، ولذلك قدم إليه عادّاً إياه الرئيس ونبع انجيل الرب في القدس، ويشر بعد ذلك بالاتحاد معه ومع آخرين بالانجيل وفقاً للوحي، حتى «لايكون قد ركض عبثاً»، وقد تأكد الحال نفسه بكلمات ربنا التي تحدث بها إلى بطرس وحده، والتي فيها فرض: «إذا الأخ أذنب ضده، عليه أن يغفر له، ليس فقط سبع مرات، بل سبعاً وسبعين مرة» وإليه وحده فقط، وبشكل واضح، عهد بشياهه، وقد امتلك فضيلة عظيمة في عمل المعجزات، حيث جرى وضع المرضى على أرائكهم وعلى فرشهم في الطرقات، وقد شفيوا بظله، وتثبتت سلطته أيضاً بقوة أعظم بكلمات ربنا، عندما قال له: «أبحر نحو الأعمق»، وأتبع ذلك بوضوح أكبر عندما قال له: «ألق بشباكك لرمية واحدة»، وإنه بناء عليه، وعلى أساس سمو إيمانه، الذي صدقاً اعترف بطبيعتين في مسيح واحد، عندما قال: «أنت المسيح، ابن الرب الحي»، بطرس تسلم وحده على الأرض مفاتيح ملكوت السموات، وبما أن هناك رب واحد، وإيمان واحد، وتعميد واحد، وبداية واحدة، وجسد واحد للكنيسة المحاربة، وأن جسداً برؤوس عدة، يعدّ أمراً غير عادي، وواحداً من دون رأس، هو من دون بداية، ويبقى بالنسبة لحكومة الكنيسة العالمية، التي جمعها بطرس المذكور بالاتحاد مع بولص من بين الاغريق واللاتين والبرابرة، أنه من المتوجب —كما سلف القول— أن يتولى الرب تعيين رئيس لها، وأن يوضح من الذي سيخلفه، وهو —على كل حال— رأى متنبئاً بأن الكنيسة سوف يداس عليها من قبل الطغاة، وسوف تتمزق بوساطة الهرطقات وسوف تتفرق بالانشقاقات، فقال له: «إنني صليت من أجلك يابطرس، حتى لاينهار إيمانك، فأنت عندما تحولت متنت إخوانك»، ويستخلص من هذا بكل وضوح أن جميع قضايا الإيمان ينبغي أن تحال إلى كرسي بطرس، ولكن لنستخدم كلمات رسالتك الخاصة، نحن نقول بأسف إن الثوب الطويل والذي لادرزة له ليوسف الحقيقي، قد جرى الاقدام على تمزيقه، ليس بأيدي الجنود، بل بعواطف أشخاص لاهوتيين، ولذلك دعنا نرى

من الذي مـزقه، حيث أنه مـا أن انفصلت الكنيسـة الاغريقيـة عن الاتحاد والكنيسة الـلاتينية، حتى بادرت على الفـور إلى خسران امتيازات حـريتها اللاهوتيـة، وهي التي كانت مـن قبل حرة، صـارت عبدة للسلطة المدنيـة، وهكذا كـان بقدر من الرب، أن الكنيسـة التي لاتعترف لبطرس بالأولوية اللاهوتيـة، عليهـا أن تتحمل الحكم المدني، وإن كـان ذلك من دون رضـا، وفي ظل هذا القـــدر، انزلقت أشيـــاء كثيرة مكروهة —ليسـت من دون أهمية— بدرجات، وآمنت واعترفت بإيمان لاقيمة له، وجمدت فيها المشاعر الأخوية، وعـادت مسرعة إلى حقل الفسـاد والفوضى، وعلى هذا —دون أن نوجـه اللـوم إلى أي واحـد— أخفت مـاهو شرعي تحت مـاكـان غير شرعي، وابتعـدت عن معبـد بطرس، وكأنها قـد طردت من قبل الرب من قاعتـه، التي لم يقم يوحنا —بالتـوافق مع تحريم الرب— بقياسهـا بعصاه، لأنها أعطيت إلى الأميين، وهـي كما ترى بـوضــــوح جلبت إلى الاكتمال، وبسبب أن السـامـرة، أيضـاً انفصلت عن معبـد الرب، وعن يهوذا، وعن الاعتراف بالايمان الصحيـح، وأصبحت وثنيـــة، فقـــد تلاشـت بسبب الحروب المتـواصلة، وانحـدرت وتهاوت بسبب ثقل أوزارها وذنوبها (مع أن إيليـا واليشع أشرقا هناك مثل مصبـاحين في مكان مظلـم)، وأعطيت إلى الشعوب، وطردت عقوبة لها على تمردها وعلى وثنيتها، لأنها بذلك فصلت نفسها عن الرب، هذا وإذا كانت الكنيسة الاغريقية، تعدّ نفسها بأنها تمتلك سلطة بولص، عليها إظهار ذلك، أو التعـرف إليه، عندما ظهر مع بطرس، وبوسـاطة خليفـة بطرس، ونائـب يسـوع المسيح، في كنيسـة الرسل، التي بنيت من قبل قسطنطين، وقـد أشير أيضـاً إلى أسرار وظيفتـه، مع أنك في رسـالتك قـد ورد ذكـر ذلك بمثـابة سبب للنقـد والملامـة، من أن بطرس أنهض ثلاث مـرات وأوقظ بصراخ الديك، وقـد جعل حـاجب الجنة، من أجل أنه سوف يمتلك الأمر، يمكنه أن يعـرف ويعاني ويتعاطف،وبفضيلة سلطتـه ردد ثـلاث مـرات: «لاتطعم نفسك، أطعمني، وأطعم شيـاهي» —وليس شياه الآخرين— حتى يتمكـن أن ينقل إلى خليفته ويقدم له المثل

عن الراعي الحقيقي، وروح الرفق، وتقويم إفراط الناس، وإعادة وحدة الكنيسة، وأن يعطى إلى الشيطان أولئك الضائعين، وأن يعيد الشياه، وإن كان ذلك عن غير رضا، إلى الحظيرة الحقيقية، لكن إذا ما عدت —من منطلق الرحمة— كإسرائيلي حقيقي، إلى أولوية الكرسي الرسولي، وإذا ما تحركت أحشاؤك بندم حقيقي، من أجل تقديم رداء يوسف الذي بلادرزة، ومن أجل استخراجه، نحن نتعاطف مع آلامك، ومع الرسول نشاطرك حزنك، ونحن نقف لنقدم الشكر إليه الذي فتح عيني الابن الأعمى، وتوسل بتواضع إلى الذي أعاد الرؤية إلى عيني طوبيا، وذلك بوساطة مرهم صنع من صفراء سمكة، لإضاءة قلوب أتباع الكنيسة الاغريقية، وكذلك قلبك، وأن نعود بوساطة الحكمة الربانية، في أيامنا وفي أيامك إلى حظيرة واحدة، وإلى راع واحد، وبناء عليه قم ياأخانا العزيز، فخذ الكتاب الذي تقدم ذكره، والذي عمل من قبل يوحنا في رؤاه، وانظر فيه باخلاص، ومع أن ذلك سيؤلم معدتك بأشواك الندم، التي تنفذ في البداية فيها، إنها سوف تكون حلوة مثل العسل في فمك، وفقاً لكلمات العريس في المزامير قوله: «سوف تتردد كلماتك وترن في أذني، لأنها كلمات حلوة»، وبناء عليه، استشر ماتمليه عليك حكمتك، من دون أية أوهام، وعندما تنار، سوف تجد أن الكنيسة الرومانية، هي رأس جميع الكنائس وسيدتها، وتتبين أن لاشيء في المرآة، التي أتيت على ذكرها، أي في انجيل الرسل، أو في عقائد الرجال المتعلمين الآخرين، التي لم تأخذ لاتأويلاً أو تدبيراً، غير متوافق مع أحكام الآباء المقدسين، ومع الوحدة بالروح، وعند فتحك لهذا الكتاب، سوف تجد أن الحبر الروماني قد صار كل شيء إلى جميع الناس، حتى يكون الجميع سالمين، ومدعوين إلى محطته، ليس من أجل دراهمه القذرة، أو في سبيل رغباته، بل بوساطة أخوته، من خلال إلهام رباني، ومن أجل أن يصبح على الفور عبد عبيد الرب، هو قد وضع نفسه مع اخوانه، وقدمها بمثابة سور لإخوانه الرهبان، وأتباعه الأساقفة، وإلى الذين خاضعين لهم، في تصد للهراطقة، والمنشقين، والطغاة، وفي سبيل الدفاع

عن الامتيازات اللاهوتية، ومع أنه قد يكون هناك بعض الاستثناءات، مع ذلك إن كنيسة روما تتنفس في الأيام الحالية، متحررة من جميع غارات الفرقاء وحملتهم، لكن إذا كانت كنيسة الاغريق تستطيع (وأستخدم هنا كلامك) أن تتحمل بصبر الكلمات التي تغيظها، بالاضافة إلى المخاطر على الأرواح، التي تنشأ عنها، فإن هذه الاضطرابات يتوجب أن تكون كافية لإعطائهم حكمة كافية وإعادتهم إلى رشدهم، لأنه بأيديهم، قد انقسم النظام اللاهوتي إلى عدة أجزاء لشعوب متعادية في الشرق، وضعت نتيجة ذلك في أحوال فوضوية، ظلمت فيها حرية الكنيسة، أما كرامة رجال الدين فقد ديس عليها وصارت تحت الأقدام، وليس هناك من أحد بين أبنائها الأعزاء يقوم بمواساتها، لأنها —كما هو الحال— من دون رأس، وهم يرفضون العودة إلى رأس الكنيسة: «آه، عد بناء عليه، عد ياشونامايت Shunamite حتى يمكننا أن نعتني بك، لأنه وقتها، بالفعل يمكن للأخ أن يستعين بأخيه، وللابن الذي يعيش منعزلاً، وقد استهلك كل ماللديه، أن يستيقظ بإلهام من الرب، ويقول: «أبي، لقد أذنبت ضد السماء، وأمامك، وأنا لست جديراً بأن أدعى ابنك، اجعلني بمثابة واحد من خدمك المستأجرين»، ووقتها يركض الأب لاستقباله، ليس كخادم، بل كابن عائد، و«يقدم إليه أجمل ثوب، ويذبح أسمن عجل»، ويعمل احتفالاً عاماً لجميع المؤمنين من أتباع المسيح، ويعلن بكل سرور وبهجة، بأن الأخ والابن الذي كان ميتاً، قد عاد إلى الحياة، وقطعة المال التي فقدت، قد وجدت، وهكذا سوف نحن نستقبلك في صدر أمك الكنيسة، وأنت سوف ترى بوضوح الصدق في مرآة الصفاء، التي لاتتقبل الدنس أو الوسخ. صدر في ريت Reate الخ، في السنة السادسة [لحبريتنا]».

رسالة أخرى من البابا

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى المبجل رئيس أساقفة الاغريق، تمنيات بالصحة ومباركات رسولية:

إنه لمن المقرر، أنه وفقاً لشهادة الحق، يمكن للخطيئة أن تقع، ويمكن أن يكون هناك جهل بالكتابات المقدسة، لذلك موائم للجميع أن يقرأوهم أو أن يسمعوهم، لأن كل ماأقحمته الالهامات الربانية فيهم، من أجل توجيه الأجيال المقبلة، قد رغبت بمناولته بمثابة وسيلة انذار إلى شعوب العصور الحاضرة، فانقسام القبائل في أيام يربعام —الذي كما قرأنا: «قد سبب أن تذنب اسرائيل»— يشير بوضوح إلى انشقاق الاغريق، وإلى الحشود البغيضة للسامرة، ويبين بشكل واضح حشود الهراطقة المتنوعين، الذين انفصلوا الآن عن عبادتهم وعن تبجيلهم للهيكل الصحيح، الذي هو كنيسة روما، هذا وإن وجود خريسوستوم Chrysostom ونازيانزن Nazianzen وباسيل الكبير، وسيريل Cyril الذين تميزوا في مجالس المنشقين، كان برهاناً على الحكمة الإلهية، مثل إقامة إيليا واليشع، وأبناء الأنبياء بين الكفار الوثنيين، وبما أننا أوضحنا لكم بمزيد من التفاصيل، في الرسالة التي بعثنا بها إليكم مؤخراً، حول هذه القضية وقضايا أخرى، بشأن الأسباب التي آثرت أولوية كنيسة روما، نحن نضيف الآن هذه الفكرة، وهي إنه وفقاً لقراءة الانجيل، نحن نحمل السيفين العائدين إلى الحبر الروماني، فعندما كان يسوع المسيح يتحدث إلى تلاميذه حول استحواذ السيف الروحي، أروه سيفين، كانا موضوعين هناك، وكانا عائدين إلى ربنا، وكانا يعدان كافيين لإرغام كل من العدوانين الروحي، والجسدي، وبما أنك تعترف بأن السيف المادي عائد إلى السلطة الدنيوية، أصغ إلى ماقاله مولانا بطرس في انجيل القديس متى: «ضع سيفك في مكانه»، وبقوله: «سيفك» قصد السيف المادي، الذي به ضرب بطرس خادم الكاهن الأعلى، أما بالنسبة للسيف الروحي، فما من أحد يمكنه أن يرتاب حول منحه له، وكان ذلك بوساطة السلطات ذات النوع الروحي التي عهد بها الرب إليه (أي القديس بطرس) أي سلطة الحلّ والربط، ولقد عهد بهذين السيفين إلى الكنيسة، لكنها استخدمت فقط سيفاً واحداً، أما السيف الآخر فيكون تجريده، لصالح الكنيسة من قبل السلطة المدنية، أي

واحد يستخدم من قبل الكهنة، ويستخدم الآخر بناء على إرادة الكهنة من قبل الجنود، وإنه بناء على هذه المعطيات، ومعطيات أخرى، وبعد فحص دقيق للحقيقة، ولكي يكون من الممكن أن نجلب عواطف حقيقية بدلاً من الانقسام، رأينا من الموائم أن نرسل إليكم كحاملين لهذه الهدايا، الراهبين: هيوج وبطرس، من طائفة المبشرين (الدومينيكان) والراهبين: هيمون Haymon ورالف من طائفة الفرنسيسكان، وهم رجال مشهورين بشكل رائع من أجل تدينهم وفضائلهم، وهم مشهورين باستقامة أخلاقهم، كما أنهم موهوبين بمعارف الكتابات المقدسة، وفق فحوى الرسائل التي تقدمت تسميتها أعلاه، ولذلك إذا ما ناقشتهم بجرأة، وتحادثت معهم بلطف حول جميع النقاط التي هي موضع الاهتمام والمتعلقة بالقضية موضع المناقشة، من الممكن أن تسمع صوت العاصفة في العجلة، التي ظهرت تحت عجلة حزقيال، وأن تشاهد، في البحر الزجاجي، بأن آدم واحد قد وضع في الجنة ليتمتع بها وليعتني بها، وأنه اتخذ لنفسه زوجة واحدة، وكذلك مولانا يسوع المسيح قد خلق في عدالة واحدة، واتخذ لنفسه قرينة واحدة، هي الكنيسة وكيف أن لامخ، الذي معنى اسمه «التواضع» عندما قسم زوجة واحدة إلى اثنتين، أصبح رجلاً دموياً، وقتل رجلاً لإيذائه، وكذلك عندما نقرأ عن سفينة واحدة، قد وجهت فوق الطوفان من قبل بطريرك واحد، وأبقى أحياء عدداً صغيراً، لكن منتخباً من الأرواح، وكيف أن الرب أعطى للمرة الثانية شريعة لتكون مختلفة، مع أنها هي نفسها، وكيف أن وجهي اثنين من الكروبين، اللذان يظللان عرش الرحمة، لايتزحزحان عنه، بل ينظر أحدهما إلى الآخر، وكيف أنه كان لدى يوسف ثوب واحد، واصل إلى قدميه، وكان لدى مولانا ثوباً بدون لفقة، وعلى كل حال، إذا كان اعتقادك يختلف عن اعتقادنا، وأعطيت منطقاً لازدواجية قداس القربان، قدّر بأن الاغريق واللاتين يحتفلون بأسرار خلاصنا بالطريقة نفسها، من خلال رب واحد هو يسوع المسيح، الذي خضع للآلام الانسانية، عندما اتخذ لنفسه طبيعة

انسـانية من أجلنـا، ولكن بعد مـوته تحرر من جميع الآلام، ويتبع الاغـريق مثل التلميذ الصغير، وهـم غير واعين للرحمة التالية، وهي الرحمة التي تذكر يومياً برحمة الـرب، في أنه أصبح خاضعاً للآلام البشريـة، وذلك باستخدام كميات من الخبـز المختمر، في سبيل —وفقـاً للرسـول— أن الخبـز المختمر يمكن أن يمثل الفسـاد الذي كـان مـولانا خاضعـاً له، قبل قيـامتـه، لكن اللاتين يتبعون أمثولة الرسول الأكبر، الذي هو القديس بطرس، الذي كان الأول في دخـول الضريح، ونظر بـالحري إلى القماش الكتـاني الذي أحـاط بجسده المقـدس، أي الكنيسة، والمنديل الـذي كان حول رأسـه، ويحتفلون بقـداس جســده الممجـد بشكـل أكثر روعــة، بوسـاطة خبــز فطير من الاخـلاص، وكلاهما على كل حـال خبـزان صرفان قبل القـربان، ولذلك لايمكن التفريق بينهما كفطير أو مخمـر، لكن الأول من هذين هو الذي من المعتقد أنه خبـز الحياة الذي نزل من السماء، وأعطى حيـاة إلى العالم، وهذه هي العقـائــد التي علمهـا الروح القــدس، والمنطق الصحيح إلى الكرسي المقـدس، وأنا أصلي، أنكم أنتم الذيـن تتبعـون أمثـولة التلميـذ الأصغـر، والذين رأوا واعتقـدوا، أن تتمكنوا أخيراً من الدخـول، وأن تتفهمـوا كل شيء، حتى تغنوا معنا مزمور داوود ذاك الذي جاء فيه: «قدروا كم هو أمر ممتع للإخــوان ليسكنـوا مع بعضهم في وحــدة». صــدر في اللاتيران، في السابع عشر من أيار، إلخ، إلخ».

كيف تخلى الاغريق عن الطاعة كلها للكنيسة الرومانية

مع أن الاغريق قد سمعوا هذه التحذيرات الودية، لم يهتموا بها، كما أنهم لم يخضعـوا أنفسهم إلى الكنيسة الرومـانية، ربما بسبب الخوف من طغيـانها وشرهها، أو لأمر آخر، فكانوا متمردين، وذلك تبعاً لكلمات الانجيلي، من أن الذين دعيوا إلى العشـاء لم يقدموا «لكن قدّمـوا بالإجماع الاعتذار»، فهم متواضعون في اعتذاراتهم، ولكنهم متكبرون ومتمردون في ممارسة أعمالهم، وحول هذا قـام البابا وكرادلتـه بإجراء مناقشات ومـداولات، وحول هذه

المسألة، وقرروا ارسال جيش الصليبيين كله ضدهم، وبناء عليه جرى التبشير بحملة صليبية، وحمل بعضهم الصليب للزحف ضد الاغريق، وبشكل خاص ضد القسطنطينية.

وأصل هذا الشقاق، والخلاف بين الاغريق والكنائس الرومانية كان كما يلي:

كان هناك رئيس للأساقفة قد جرى انتخابه بشكل قانوني لتولي منصب رئاسة الأساقفة السامي لدى الاغريق، أو بالحري جرت تسميته هناك، فذهب إلى روما من أجل التثبيت، لكنه لم يتمكن من الحصول على سماع هناك من دون وعد بدفع مبلغ كبير من المال، مقابل الحصول على الذي طلبه، لكنه رفض السيمونية من ذلك البلاط المرتزق، وغادر دون الحصول على ماأراده وابتغاه، وأخبر بواقع الحال جميع النبلاء الاغريق، وجرى تقديم براهين أخرى من قبل آخرين كانوا قد ذهبوا إلى روما، وتحدثوا عن حالات مماثلة، أو أكثر سوءاً، ولذلك قاموا جميعاً، في أيام غريغوري هذا، بسحب أنفسهم من كل أنواع الخضوع للكنيسة الرومانية.

وفي الأسبوع الذي تقدم على عيد الميلاد، أقلع إدموند، رئيس أساقفة كانتربري وذهب إلى روما، ولم يرغب بالعودة، مع أن النائب البابوي استدعاه، ونتيجة لهذا أصبحا منذ ذلك الحين معاديين أحدهما للآخر.

وكان المناخ، خلال هذا العام كله عاصفياً، وغير مستقر، ومؤذياً للناس، وغير صحي، ولايوجد في ذاكرة أي انسان، أنه تألم مثل هذا العدد من الناس من الحمى الربعية.

زواج سيمون دي مونتفورت من إليانور أخت الملك

سنة ١٢٣٨، التي كانت السنة الثانية والعشرين من حكم الملك هنري الثالث، وفيها عقد بلاطه في لندن، في ويستمنستر، حيث حدث أنه في اليوم التالي لعيد الغطاس، الذي كان يوم خميس، اقترن سيمون دي مونتفورت

بشكل مهيب بـإليـانور، ابنـة الملك جـون، وأخت الملك هنري الثـالث، وأرملة وليم مارشـال، ايرل بيمبروك، وجرى الاحتفال مع قـراءة القداس في بيعـة الملك الصغيرة، الموجودة في زاوية من حجـرته، وعمل ذلك وولتر قسيس البيعة الملكيـة للقديس ستيفن في ويستمنستر، وقـدم الملك شخصياً العـروس إلى سيمـون المذكـور، الذي تلقـاهـا وهو عظيم الامتنان، وذلك بسبب حبه النـزيه، ولجمالها، وللشرف العالي المرتبط بها، ولسمـو الانحدار الملكي لها كسيدة، لأنها كانت ابنة شرعية لكل من الملك والملكة، وبناء عليه إن الذين سيلـدون من هذه السيـدة النبيلـة سـوف يكونـون من الأصل الملكي، وأعطاه صاحب القداسة البابا إعفاء معها، كما ستبين الرواية المقبلة ذلك.

وفي العشرين من كـانون الثـاني من هـذه السنة، سمع رعـد مخيف، قـد ترافق مع رياح قوية، وغيوم كثيفة.

الامبراطور فردريك يكتب إلى الإيرل رتشارد بشأن قلقه حول الحملة الصليبية

وفي حـوالي الوقت نفسـه، كـان الامبراطور فردريـك قلقاً حـول تقـدم الصليبيين، وإعـداداتهم حـول الزحف، وبشكل خـاص فيما يتعلق بتقـدم الايرل رتشارد، فكتب إلى الايرل المذكور كما يلي:

«من فـردريك، الذي هو بنعمـة الرب امبراطور الرومـان، والأغسطس الدائم، وملك القـدس وصقليـة، إلى ابـن ختنه المحبـوب، رتشـارد ايرل كورنوول، تمنيات الصحة، وعواطف خالصة:

غالباً ماأقنعنا التقدم العام للأرض المقدسة ومنفعتها، الأمر الذي يعتمد على جهود الصليبيين، أن نقوم بوساطة الانذار لهم، وتوجيه الرجاء إليهم، وأن نحثهم على تأجيل عبور الصليبيين في مملكـة فرنسا والأجـزاء الأخرى من العالم، حتى انتهاء موعـد الهدنة المقررة من قبل، أي من شهر آب المقبل

حتى نهاية السنة التاليـة، حيث نعتقد أن ذلك سوف يكون موائماً لمسـاعدة الأرض المذكـورة، ولمنفعتها، وأيضـاً لكرامـة الذين سوف يعبرون إليهـا، ذلك أن عبور حشـد ذي أعداد كبيرة جداً ينبغـي أن يكون في وقت موائم، أي بعـد الاحتفال المقبل بعيـد القـديس يوحنا المعمـدان، يعني حتى ذلك العيد في العام المقبل، ويتوجب أن لانمر بهذا كله صامتين، بما أن ثقل أعمال تحرير الأرض المذكـورة يقع على أكتافنا، أكثـر من وقـوعه على أكتـاف أي أمـراء آخـرين في العالم، وفي سبيـل ذلك المقصد، نحـن ملتزمـون بتقـديم المساعدة، وأن نصرف أموالنا، أي بأن نأخذ النصيحة مسبقاً، عندما يكونوا أنفسهم قد استعـدوا بشكل كامل من أجل خدمـة المسيح، مقدرين بشكل كـامل جميع الظروف من دون اسقـاط أي احتمال من الاحتمالات، وهؤلاء الأشخاص الذين أوقفوا قلوبهم وأجسـادهم على خدمة الصليب، والذين يرغبـون بتقـديم مسـاعـدة مفيـدة إلى المصلوب، قـد سألناهم حـول هذه القضيـة من قبل رسلنا ورسـائلنـا، وقـد أجـابوا بحكمـة وعقـلانيـة على اقتراحاتنا، أنه حتى انتهـاء الهدنة المتقدمة الذكر، سـوف يستجيبون لطلبنا، ولذلك وافقنا مع كثير مـن الشكر على الحكمـة التي ظهـرت في جـوابهم، وبناء عليـه إنه صدوراً عن عـواطفنا الأخوية في رؤيتكم شخصيـاً، وفي أن نحصل لكم على عبـور مشرف، نحن نرغب إليكم ونرجـوكم —إذا كنتم أحيـاء— أن تعملوا عبوركم في وقت مـوائم من خلال مملكتنا في صقليـة، لأنه سوف لن يكون مـرضياً لنا، إذا ماقمـت برحلتك عبر أي طريق آخر، دون أن نراك، لاسيما وأن مملكتنا قـائمـة بشكل مـوائم جـداً، ومن السهل أكثـر، ومن المناسب فيها تأمين معـابر من خـلالها إلى بلدان ماوراء البحـر. صـدر في فيرسيلي Vercelli في ١١ شبـــاط في الحادية عشرة من الخمس عشرية».

استدعاء النائب البابوي إلى روما وعدم عودته

وفي تلك الآونة، سمع قـداسة البـابا وبلاط رومـا كله، بأن اضطرابات

كثيرة قد تفجرت في انكلترا، بسبب أعداد الأجانب الذين استدعاهم الملك، وبشكل غير حكيم أرسل خلفهم، وبسبب وصول النائب البابوي إلى هناك، الذي أيضاً جذبه الملك إلى انكلترا، من أجل إفقار رعاياه، وبسبب الرسائل الكثيرة الغاضبة ضده، لذلك جرى استدعاء النائب البابوي المذكور بسرعة كبيرة، لكنه لطف من قسوة اجرائه بالكتابة إليه كما يلي:

«من غريغوري، إلخ، إلى ابنه المحبوب أوتو، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا، في سجن توليان، ونائب الكرسي الرسولي، تمنيات الصحة، والتبريكات الرسولية:

لقد فهمنا بأن هناك بعض رجال الدين في مملكة انكلترا، الذين بين أيديهم عدة منافع، والذين من غير الممكن السير ضدهم، وفقاً لمراسيم المجمع العام، من دون إثارة الاضطراب في المملكة، وتسبيب سفك الدماء، ومرد ذلك إلى قوة أقربائهم، وبما أننا نرى أنه لايجوز اقتراف الذنب حتى في سبيل تجنب الفضيحة، وأن العمل الطيب المتوجب صنعه يمكن أحياناً أن يتأخر لهذه الغاية، وإننا بهذه الرسائل الرسولية نفرض على استقامتكم، إذا كنتم لاتستطيعون السير ضد رجال الدين المذكورين من دون التسبب باقتراف الذنوب، أن تقوموا بتأجيل المسألة في الوقت الحالي»، وخشية من حدوث أي شيء سيء له، قام البابا بالرسالة نفسها، أو برسائل أخرى، باستدعائه للعودة على الفور، وكان النائب البابوي، يفضل —على كل حال— أن يطيل البقاء في انكلترا، وأن يجني مالم يكن قد زرعه، وبراعة تمكن من إعداد رسالة ومن ثم ارسالها إلى البابا، وهي تحمل أختام الملك، وأخيه الايرل رتشارد، وجميع الأساقفة، فهؤلاء جميعاً قد وضعوا أختامهم بمثابة برهان على صدق ماذكره وصرّح به، من أن إطالة إقامته في انكلترا، كان فيها فائدة عظيمة إلى الملك، وكذلك إلى المملكة، وإلى كنيسة انكلترا، وعندما أرسلت هذه الكتابة إلى البابا جعلت عقله يرتاح.

إرسال الامبراطور رسالة إلى الإيرل رتشارد حول ولادة ابنه

وقام الامبراطور رتشارد في هذه الآونة، تعبيراً عن عواطفه، فكتب الرسالة التالية إلى الايرل رتشارد، يخبره عن سروره، حيث أن ولداً قد ولد له، من قبل الامبراطورة ايزابيلا، التي كانت أخت الايرل المذكور:

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى ابن ختنه رتشارد، ايرل كورنوول، تمنيات الصحة، وكل الأماني الطيبة:

لقد حدثت حادثة بهيجة، وهي حادثة تطلع الانسان إليها مع رغبات الجميع بشكل عام، وهي أعطية، لابل هي أعظم العطايا حمداً بين الأعطيات التي تلقيناها من كرم الطبيعة وهي التي بوساطتها تباركت صولجانات الملوك، ومع رغبة الخلافة، رأينا أنه من الموائم أن يكون معلوماً لديك مبكراً، ذلك أنه بسبب جدة البهجة، لم يسمح لنا ذلك بالتأخير، لأنه توجب علينا أن نوصل إليكم أخباراً جيدة، ونحن نفعل ذلك الآن مع هذه التقدمات، وهي أنه بتقدير وعطاء من عند الملك الأعظم، الذي يعطي المزيد والصحة إلى الملوك، في اليوم الحادي عشر من شهر شباط، قد ولد لنا صبي من الرحم المثمر لقرينتنا الأوغسطة، وحفيد جديد قد أعطي لنا، ويشير ميلاده إلى مجد أبيه وخاله، ويجدد بهجة أمه، ويؤكد آمال رعايانا، وبهذا تمتنت العواطف الصحيحة المتبادلة، التي ارتبطنا بها بروابط المصاهرة، وهي تشير إلى زيادة ازدهارنا، وتحولت جودة قيصر مع الوقت إلى سرور وشرف الجماعة كلها، وحدث ميلاد هذا الطفل في وسط سرورنا، أثناء زحفنا السعيد في إيطاليا، التي تخضع الآن لسلطاتنا، وعند انتصارنا على أعدائنا المنهزمين، رافق نجم سعيد هذه الأحداث الميمونة، وبما أن هذا الولد المنتظر طويلاً قد ولد في وسط هذه الأحداث السعيدة وانتصاراتنا، ونحن نثق به، الذي بعد ولادة ابنة من قرينتنا المثمرة، أي أختك، قد منحنا ولداً ذكراً، وبذلك زاد بكرمه المجد القديم

لامبراطوريتنا، الذي كـان قـد تلاشى في الأوقات الماضيـة، وهو الآن قـد نهض متجـدداً بـولادته، في سبيل شرفنا ومجدنا، وازدهارنـا، ونحن نرغب لك، أنت الذي نعلم أنك تمنيت منـذ وقت طويل ولادة هذا الابن الأخت المتوقع، أن تشاركنا بسرورنا، وبسرور قرينتنا الأوغسطة. صدر في تورين، في اليوم الثالث من آذار، في الحادية عشرة من الخمسعشرية».

هيجان النبلاء الإنكليز ضدّ الملك

وشعـر الايرل رتشارد بسرور عظيم تجاه هـذه الأخبار، وأعطى الحمـد للرب، ذلك أنه كـان يأمل، أنـه سيحـدث له مع مـرور الأيام تقـدم عظيم شخصياً ومنفعـة كبيرة لمملكة انكلترا، من خلال هذه الحادثـة، ولكن وفقاً لتقلب الشـؤون البشرية، هـو استثير من جهـة ثانيـة، ووصل إلى حـد الغضب، لأنه سمع بأن هذا الزواج قـد جرى تثبيتـه بشكل سري، أي من دون معرفته، أو الحصول على موافقة النبلاء، وقد غضب كثيراً بشكل محق، وخـاصة وأن الملك قـد خـرق أيمانه وحنث بها، ولاسيما يمينه عندما وعـد بأنه لـن يفعل شيئاً له أهميتـه، مـن دون الحصـول على نصيحـة رعـاياه الطبيعيين ولاسيما هو نفسـه، ولذلك هاجم الملك وحمل عليـه بانذارات وتهديدات، وبذلك أعطى منفـذاً إلى رفع شكاوى كبيرة، وعدم رضـا ضد الملك، لأنه بتهـور أدار الأعمال الهامـة للمملكـة، آخـذاً بنصـائح هؤلاء الأجانب، الذين كـان قد أقسم من قبل على إبعادهم كليـاً عنه، وأنه سوف يصرف الآخرين من جانبه، وهو لم يصغ فقط إلى مشورة وآراء سيمون دي مونتفورت، وج. ل ايرل لنكولن، بل قام من دون تغاضي نبلائه، ففرض زواجـات غير مقبولة، فقـد عمل سيمون، كما تقـدم القول، وتدبر زواجـاً ليس شرعيـاً بينه وبين كـونتسـة بيمبروك، وأختـه، وجـون ايرل لنكولن، ورتشارد دي كلير ابن كـونت بولون، وابنته— ج. ل الايرل المذكور— من دون معرفة الملك.

وعندمـا ثـار الايرل رتشـارد ضـد الملك، التحق به الايرل غيلبرت

المارشـــال، وجميع ايرلات وبارونات انكلترا، والمواطنـون والناس بشكل عام، وكان المأمول وقتها بثقة عظيمة أن يقوم الايرل رتشارد بتحرير البلاد من العبـودية التعيسـة، التي ظلمت بها مـن قبل الرومـان، ومن الأجـانب الآخرين، وقـام جميع الفرقاء من الرجـل الشيخ إلى الطفل بتكديس الآمال عليـه، ومـا من أحـد وقف إلى جـانب الملك، باستثناء فقط هيـوبرت ايرل كنت، ولم يتـوفر خـوف منه، وذلك بسبب أنه أقسم أنـه لن يحمل سلاحـاً قط، وكذلك بسبب تقدمه بالسن، وبسبب حذره الذي تبرهن في مناسبات متنوعة.

وعندما وجـد الملك، كيف قامت القضـايا، شعر بالذعـر وأظهر ذلك، وأرسل رسلاً إلى كل واحد من نبـلاء المملكة، وعمل بحثاً دقيقاً ليعرف إن كان بإمكانه الاعتماد عليهم من أجل المساعدة، وإليه أجابوا جميعاً، وبشكل خاص سكان لندن، بـأن الذي بدأ به الايرل رتشارد، قـد أعلن آخذاً بعين التقـدير كـرامتهم، ومنفعـة المملكة كلهـا، مع أنه، أي الملك، لم يوافق على مساعيه، وهم بناء عليه لن يقفوا ضـد نواياه، وعندما وجد النائب البابوي هذا، ورأى بـأن الخطر بات وشيكـاً، شغل نفســـه بأعظـم يقظة واهتمام لمصـالحة الملك مع رعـاياه الطبيعيين، ونصح بشكل سري الايرل رتشـارد الذي كان المحرض الرئيسي على هذا العنـف، بأن يقلع عن مقصده، واعداً بأن الملك سوف يعطيه أملاكـاً أكبر، وأن البابا سوف يثبت الذي منح إليه، مضيفـاً أيضـاً، أنه من الممكن أن تثـور المملكة كلهـا ضـد الملك، الذي هو أخوه، لكن الـذي عليه هو الوقـوف إلى جانبه من دون كلـل أو ملل، ضد جميع الناس، وعلى هذا أجابه الايرل رتشارد:

«مـولاي النائب البـابوي، إنه بالنسبـة لتثبيت أراضي العلمانيين، لاشأن لك ولا عمل، عليك الالتـزام شخصيـاً بـالمسـائل المتعلقـة بالكنيسـة، ثم لاتندهش كـون أوضاع المملكة قـد أثارتني، لأنني أنا ولي العهد الوحيـد، لأنه مع أن الملك كان مسـؤولاً عن جميع الأسقفيات تقـريباً، وعن كثير من

مـواريث الدولة، مع ذلك لم تظهـر على خزينتـه أية زيادة، في سبيل الدفـاع عن المملكة، مع أننا محاطين بمختلف الأعداء من كل جانب، بالاضافة إلى هذا إن كثيرين أصيبوا بالدهشـة، لكون الملك الذي دوماً هو بشكل رئيسي في حـالة عـوز، وحـذر، لم يتبـع آثار الرجـال الواعين، فهـو لم يتبع أثر الامبراطور، الذي إليـه أعطينا أختنا بـالزواج، مع مبلغ كبير من المال آملين بأن ذلك سوف يكون لمصلحتنا ومنفعتنا، لكنه احتفظ فقط بزوجته، وأعاد حـاشيتهـا، من دون أن يضفي على أحـد أرضـاً أو مـالاً، مع أنه كـان مليئاً بالثروة والغنى، ومثل آخـر يمكن ذكره هو في قضيـة الملك الفرنسي، الذي تزوج من الأخت الكبرى لملكتنا، غير أن ملكنا الانكليزي هو على العكس قـد سمّن جميع آل وأقربـاء زوجته، بالأراضي، والممتلكات، والمال، وعقـد نوعاً من الزواج، لايمكنه معه أن يكون أكثر ثروة، لكن بالحري أكثر فقراً، ولذلك لايمكنه الحصـول على عون قوة عسكرية، إذا كـان ذلك ضرورياً، وعـلاوة على ذلك، سمح بالاستيـلاء على الموارد وعلى المنـافع اللاهوتيـة، التي كان أجدادنا الأتقياء قد منحـوها (خاصة إلى رجال الدين) أو بسلبها، ومن ثم أن يجري توزيعهـا على الأجـانب، مع أن هذه البـلاد نفسهـا مليئة بالرجـال المناسبين لتسلمهم، وبـاتت انكلترا، وكأنها كـرم من دون سـور، منها يجمع العنب كل من يعبر الطريق».

النائب البابوي يسعى إلى إقامة سلام بين الملك وبين نبلائه

ولدى سماع النـائب البـابـوي هذه الكلمات، ذهب إلى الملك، ومعـــه بطـرس أسقف وينكستر لتشجيعه، ولنصيحته، القيام بالخضوع إلى إرادة النبـلاء وطـاعتهم، وهم الذين نهضـوا ضـده لسبب عـادل، وكـذلك يسعـون إلى تقـويمـه مـرة أولى وواحـدة بالتهـديدات، ومـرة ثـانيـة بالانذارات، ومرة ثالثة بالالتماسـات، ثم إن الملك عندما رأى أن حملاته لم تلق التأييـد، وأن جميع الفرقـاء قد مالـت نحو أخيه الايـرل رتشارد، حـاول استخـدام كـل الدهاء الذي هو ممكـن، وطلب وقتـاً للتفكير

والتداول، من أجل أن يعطي جواباً أكثر مواءمة لطلباتهم، وبناء عليه واستجابة لطلب الذين سألوا ذلك (مع أن ذلك كان بعد صعوبات جمّة) منح وقتاً، حتى اليوم الأول، بعد الأحد الأول في الصيام الكبير.

إنتهاء المشاورات كلها إلى لاشيء

ثم اجتمع النبلاء في لندن، في اليوم المحدد، بغية ترتيب هذه المسائل، وقدم كثير منهم مجهزين بالخيول والسلاح، من أجل أنه إذا مارغب الملك بالانسحاب من وعده، يمكن إرغامه على تنفيذ الشروط التي تقدم ذكرها، ثم إنه بعد كثير من المناقشات والحوارات بين عدد كبير من الحضور، أخضع الملك نفسه إلى تدبير بعض الفئات الأكثر قوة، وأقسم على الالتزام بقرارها، الأمر الذي جرت الموافقة عليه، وجرى تدوينه كتابة، ووضع عليه أختام النائب البابوي والنبلاء الآخرين، حتى تتم مشاهدته من قبل جميع الفئات بشكل عام، وقبل الفراغ من إكمال ترتيب هذه المسائل، وعندما كانوا معلقين ينتظرون، أخضع سيمون دي مونت فورت نفسه وتواضع لايرل رتشارد وبوساطة كثير من الوساطات، وبعض الهدايا، حصل على قبلة السلام من الايرل المذكور، الحال الذي أغضب كثيراً بعض النبلاء الآخرين، الذين جرت هذه المحاولة من دون رضاهم، والذين الآن بجهودهم تطورت القضية تطوراً عظيماً، وقام ايرل جون أوف لنكولن، وفق الطريقة نفسها، فأطفأ غضب الايرل رتشارد، بوساطة الالتماسات وكذلك الرشاوى، وأعطى ضمانة أنه سوف يعوض عليه من جميع الجوانب حول كل ماوقف به ضده، وبوساطة هذه الإجراءات غير النظامية، أعيقت الأعمال كلها إعاقة كبيرة، ولم تنل التنفيذ، بل زادت من تعاسات المملكة، ولطخت بالسواد، إلى درجة كبيرة سمعة الايرل رتشارد وظللتها، وبذلك صار عرضة للشك، وهو الذي كان من قبل محور قوتهم.

موت جوهانا ملكة سكوتلندا

وفي هذه الآونة، وفي الرابع من آذار، أغلقت جوهانا Johanna ملكة سكوتلندا، وأخت ملك انكلترا، التي قدمت إلى انكلترا لزيارة أخيها، حياتها، وقد دفنت في تيرنت Tarenteالذي كان ديراً للراهبات، كان المبجل رتشارد، الأسقف الثاني لدرم الذي حمل هذا الاسم، قد أسسه، وبناه، ومنحه إلى الملكة إليانور، عندما قدمت إلى انكلترا. [لحق النص الأصلي هنا بعض الاضطرابات والخطأ، ومرد ذلك إما إلى النساخ أو إلى المؤلف نفسه].

سيمون دي مونتفورت يعبر بشكل سري من انكلترا

ورأى سيمون دي مونتفورت، أن قلبي الملك والايرل رتشارد، وكذلك قلوب جميع النبلاء قد تغربت عنه وجفته، ووجد أن الزواج الذي عقده مع أخت الملك، قد نظر إليه من قبل عدد كبير من الناس، وكأنه لم يكن موجوداً أو ملغياً، ولذلك انسحب وتوارى وهو حزين جداً، وبعدما استحوذ على سفينة، أقلع بها خلسة، بعدما استخرج كمية كبيرة من المال من كل جهة من الجهات، ومن سكان ليسترشاير Leicestershire ومن سيمون دي كورلافاش Curlevache وقد جمع مبلغ خمسمائة مارك ثم إنه ذهب إلى بلاط روما، آملاً أن يتمكن بأمواله، أن يقنعه، ويحصل منه على اذن يسمح له بالتمتع بزواجه غير الشرعي، وقام أولاً بالخدمة تحت ظل الامبراطور، في سبيل أن يرضيه، وحصل منه على رسائل ليأخذها إلى البابا حول القضية، وجلست في الوقت نفسه كونتسة بيمبروك مخفية نفسها، وكانت حاملاً، وأقامت في قلعة نيلوورث Kenilworth تنتظر نتيجة الواقعة.

حكم البابا في مسألة رهبان روكستر

صدر في هذا العام قرار حكم من البابا في قضية رهبان روكستر،

وذلك فيما يتعلـق بالخلاف الذي نشب بينهـم وبين رئيس الأسـاقفـة إدمـوند، فيما يتصل باختيـار أسقفهـم، وصـدر قـرار الحكم لصـالحهم، وكـذلك فيما يتعلق بمسألة الإدعـاء حـول الممتلكات، وفي يوم عيـد القـديس كـوثبيرت Cuthbert جـرى تثبيت انتخـاب الأسقف المنتخب رتشارد أوف ويندوفر، وجمع رئيس الأساقفة هذا الرهبان، وقد أنهكهم التعب، ولم يبق معهم مـال بسبب النفقـات، وكـانوا فضـلاً عن هذا، قد عبروا الألب، حتى يمكن تسوية هذا الخلاف بشكل صحيح، حسبما يفرض القانون.

ومثل هذا، صدر في الوقت نفسه حكم ضد رئيس الأساقفة المذكور، الذي كان مـوجوداً آنذاك في بلاط رومـا، في مسألة خلافية مهمة، هي النـزاع بينه وبين ايـرل أوف آرونـدل Arundel وأدين في القضيتين معاً بالنفقات، بحـوالي ألف مارك، وقرار الحكم الذي كـان صادراً ضد الايرل المذكور قـد سحب، لأنه كان له عدو قـوي جداً، تمثل في النائب البابوي أوتو، الذي كان قد حرض بفعالية الملك على هذا.

وصول امبراطور القسطنطينية إلى انكلترا

وقـدم في العـام نفسـه إلى انكلترا، بلدوين امبراطـور القسطنطينيـة، والابن الشاب لبطرس كونت أوكسري Auxerre ليطلب المساعدة، بعدما خلع ونفي من امبراطوريته، لكن عند رسوه في دوفر، أخبر باسم الملك، إنه كـان عمـلاً غير لائق، ونصيحـة سيئة لمثل هذا الأمير الكبير، أن يتطفل بالدخـول إلى مملكة أجنبية، دون أن يعـرف رأي الملك، ومن دون إذنه، وأن هذا قـد بدا أشبـه بالاستخفـاف والتكبر، وكـان هذا الوصول أيضـاً غير مرض في نظر الملك ومستشـاريه، لأنهم تذكروا كم من التشريفـات والمنافع قـد أضفتهـا انكلترا على الملك جـون دي بريين أثناء قدومه إلى هناك، وكيف أنه لدى عـودته إلى فرنسا، تصرف تصرف رجل شرير وبلا وفـاء، وخطط بشكل خياني ضـد مملكة انكلترا، وكان

على كل حـال، لدى مغـادرته فـرنسا، ولاستـدعـائـه تحت طالع سيء، لاستــلام السلطة الامبراطورية للإغــريق، لم يتمكن من تنفيــذ خططه الخيانية.

وإثر إخبـار امبراطـور القسطنطينيـة بهذه المسـائل، بات آسفـاً جـداً لقـدومه إلى انكلترا، واستعـد لعـودة سريعة، واشتكى في الوقت نفسـه وعبّــر عن براءته إلى الملك، وعرض بتـواضع أسباب رحلتـه، وبعدمـا سمع الملك هذا، وبعد تشـاوره حول الموضوع، بعث برسالة إليـه، قال فيهـا بما أنه لم يقـدم كعـدو يمكنـه دخـول المملكة، والقـدوم إلى لندن، حيث هو شخصيـاً سـوف يستقبله بتكريم مناسب ولائق، وبناء عليـه، وصل الامبراطور في الثاني والعشرين من نيسان إلى لندن، والتقى بالملك في وودستــوك، ونال منه قبلـة الســلام، وشرح إلى الملك، وإلى الايرل رتشـارد سبب قدومـه، ولدى فراقـه لهما، أغني بكثير من الهدايا الثمينة، وحمل معه حوالي السبعمائة مارك.

خلاف بين النائب البابوي وبين باحثي اكسفورد

ووصل في هـذه الآونة النائب البــابوي إلى اكسفــورد، واستقبل بتشريف هـو الأعلى، وذلك حسبما هو جــدير به، واحتفي بـه في بيت الكهنة الذي كــان في أوسني أبي Oseney Abbey إلى حيث أرسل إليـه البـاحثـون الكهنة قبل وقت الافطار، هديـة تكريميـة، على شكل لحم وشراب، وسـاروا بعـد الافطار إلى مكـان إقـامتـه ليقـدمـوا تحياتهم إليه، وليزوروه صدوراً عن الاحترام، ولدى وصولهم كان هناك بواب من بلاد ماوراء الألب، فقام بطريقة غير لائقة وبسلوك فج، فرفع صوته حسب طرائق الرومـان، وترك الباب مفتوحاً قليـلاً، وقال: «ماذا أنتم تريدون؟» وعلى هذا السؤال، رد الكهنة قـائلين: «نحن نريد سيادة النائب البابوي، حتى نستطيع تقـديم احتراماتنا له»، لأنهم اعتقدوا أنهم سـوف يتلقون تشريفـاً مقـابل تشريف، لكن البـواب رفض السماح لهم

بلغـة مهينة وبفظاظة، وأهانهم بعجـرفـة وتشـامخ، ولدى رؤية الكهنة ذلك اندفعوا نحو الأمـام بغضب وشقوا طريقهم بالقوة، في حين سعى الأتبـاع الرومـان إلى ردهم فضربوهـم بقبضـاتهم وبالعصي، وفي الوقت الذي كان فيه الطرفان مشتبكين يتبـادلان الضربات والشتائم، حدث أن كـان هناك شماس ايرلندي فقير، واقفاً عنـد باب المطبخ، وكـان يفتش بحرارة عن شيء ليعطى إليـه، باسم الرب، وفق طرائق الرجـال الفقراء والجائعين، ووقتهـا سمعه رئيس الطبـاخين لدى النائب البـابوي (الذي كان أخوه، وكان قـد وضعه على رأس تلك الوظيفة حتى لايدس السم إليـه، الأمر الذي كـان النائب البـابوي يخشاه كثيراً) لكنه لم يعبأ بطلبـه، وعندمـا صار غـاضباً من الرجل المسكين، رمى على وجهـه بعض الماء المغلي الذي نضحه من فوق مـرجل حيث كان لحم سمين يطبخ، ولدى رؤية هذا الأذى الذي لحق بالرجل الفقير، صرخ بصـوت مرتفع واحـد من الكهنة، وكـان من سكان حـدود ويلز: «عيب علينا تحمل أي شيء من هذا القبيل»، وفوّق قوساً كـان يحمله (لأنه عندما ازدادت الفوضى، حمل بعض الرهبـان ماوصل إلى أيديهم مـن سلاح)، ورمى بنشـابة منه، فخـرق جسـد الطبـاخ، (الـذي دعـاه الكهنة بطريقـة هجـائيـة باسم «نابوزردان "Nabuzardan" ومعنى ذلك رئيس الطبـاخين)، ولدى سقـوط الرجل ميتاً، ارتفع الصراخ، فأصيب النـائب البابوي بالدهشـة، وتلبسه الرعب، الذي يمكن أن يستبد بأشجع الرجال، فحمل نفسه إلى برج الكنيسـة، مـرتدياً لغطاء رأسـه الشرعي، وأغلـق الأبواب خلفـه، وعند حلول الظلام، وقيـام الليل بإنهاء الفـوضى، خلع ثيابه الشرعيـة، وبسرعـة امتطى أفضل خيـوله، وقـام تحت توجيـه وارشـاد بعض الأشخاص الذين يعرفـون أكثر المخاضات الخاصـة، فعبر النهر واجتازه من أقـرب منطقة منه، ومع أن ذلك قـد ترافق مع كثير من الخطر، فقـد كـان مقصـده الفـرار طيراناً إلى تحت حماية جناحي الملك، بأكبر سرعـة ممكنة، لأن الكهنة الـذين تعـاظم غضبهم، تابعـوا البحث عـن النائب

البابوي في أكثر المخابىء سرية، وكانوا يصرخون:

«أين ذلك السيموني المرابي، الناهب للموارد، المتعطش للمال، والذي أفسد الملك، ودمّر المملكة، وأغنى الأجانب بأسلاب أخذها منا»؟، وعندما كان النائب البابوي يسمع هذه الصرخات من مطارديه، قال في قرارة نفسه:

«عندما تركض الحماقة بسرعة كاملة

يطلب الرجل الحكيم ممراً لينأى بنفسه».

وبصبر تحمل هذه الأشياء كلها، وصار أشبه برجل لم يسمعهم، وكأنها ليست لديه قدرة على صدهم، وبعدما عبر نهر مع صعوبات جمّة (حسبما ذكرنا أعلاه)، ومعه عدد قليل من المرافقة، بسبب صعوبة المجاز، بقي الآخرون في الدير، وقد وصل إلى الملك مقطوع الأنفاس، وفي حالة ذعر، مع الدموع والتنهدات تقطع حديثه، وقد شرح للملك وكذلك إلى حاشيته سلسلة الأحداث التي وقعت، مقدماً شكوى جادةحول القضية، وحزن الملك لدى سماعه هذه الحكاية المؤسفة، وتعاطف كثيراً معه، وأرسل ايرل وارني Warrenne مع قوة مسلحة إلى أكسفورد، بكل سرعة لانقاذ الرومان الذين كانوا متخفين هناك، وللقيام باعتقال العلماء، وكان بين هؤلاء الأخيرين، واحد اسمه المعلم أودو، وكان محامياً، وقد اعتقل بخشونة، وأودع مع ثلاثين آخرين السجن بشكل مهين في قلعة وولنغفورد، على مقربة من اكسفورد، وبعدما تحرر النائب البابوي من المصيدة المحطمة، جمع إليه بعض الأساقفة ووضع أكسفورد تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وحرم كنسياً جميع المحرضين على هذا الاثم العظيم، وبات السجناء الآن تحت تصرف النائب البابوي، فجرى نقلهم بعربات مثل لصوص إلى لندن، وهناك أودعوا سجناً ضيقاً، وقد حرموا من مواردهم، وربطوا بالتكفير والحرمان.

مصالحة جامعة أكسفورد مع النائب البابوي

وكـان النائب البـابوي، الـذي انطلق برحلة نحـو شمال انكلترا، قـد حـوّل اتجاهه وعـاد إلى لندن، وهناك نادراً مـاتجرأ على الإقامـة في المقـر الملكي التـابع لأسقف وينكستر حيث كـان يقيم بالعـادة، وأرسل الملك رسـالة إلى مـدينة لندن، بأن يقـوم عمـدة لندن مع جماعـة سكان المدينة كلهـا، مع كتلة من الرجـال المسلحين بحـراسـة متـواصلة على النائب البابوي المذكور، وأن يحرسوه حراسة بؤبؤ أعينهم.

ثم استدعى النائب البـابوي بفضل السلطة التي توفرت لديه، رئيس أسـاقفة يورك، وجميـع أساقفـة انكلترا، للاجتماع به في لندن، في السـابع عشر من أيار للبحـث هناك في أحـوال الكنيسـة، وفي الوضع الخطير لرجال الديـن، واجتمع الأساقفة في اليـوم المتقدم على التـاريخ المحدد، وتباحثوا حول الوسـائل التي يمكن بها انقاذ مجموع رجال الدين كلهم، وكأنهم كنيسة ثانية، وتلطف النائب البـابوي نحوهم أيضاً، واستعطفهم من أجل انقاذ الكنيسـة الرومانية، حتى لايقال نقـداً، بأنه قدم من أجل إصـلاح رجـال الدين والكنيسـة، لكنه بالحري أفسـدهم، وأخيراً اقترح على النائب البـابوي من قبل الأساقفـة مع جميع رجال الدين الحضـور، بأن ينطلق النقـاش حول جماعتـه الشخصيين، ولكن لدى نهاية النقـاش حصل رجال الدين على النتيجة السيئة، لأنه بناء على أوامره، ألقي شطر كبير منهم في السجن، أمـا البقيـة منهم، فكـانوا على استعـداد لطاعـة أوامـره، وكانوا جـاهزين للتـواضع والخضـوع إليه، في مكان على سفـر ثلاثة أيام من أكسفورد، فهناك —بناء على التماس عدد كبير من الرجال العظماء— يتـوجب على عقله وتفكيره أن يميل نحـو الرحمة، وأخيراً تمّ الاتفاق، بأن يمنـح النائب البابوي رحمتـه، إنما على شرط، أن يقوم جميع الباحثين الـذين اجتمعوا هناك بالسير على أقـدامهم، بصحبة الأسـاقفة، أيضـاً على الأقدام، من كنيسـة القديس بولص، التي كـانت على مسافـة

تقارب الميل بعداً عن مقر إقامة النائب البابوي، وذلك حتى يصلوا إلى مقر إقامة أسقف كارآيل، وعليهم أن يذهبوا من هناك من دون أغطية رأس وأقبية، وحفاة، إلى مقر إقامة النائب البابوي، حيث سوف يلتمسون هناك العفو، الذي سوف يمنح إليهم، وسوف يصبحون متصالحين، وجرى تنفيذ هذا، ولدى رؤية النائب البابوي هذا التواضع والتذلل، استقبلهم ثانية في حظوته، وأعاد الجامعة إلى مقرها الإقليمي، وسحب برحمة منه التعليق من شراكة المؤمنين مع قرار الحرمان الكنسي، ومنحهم رسائل، أنه من جانبه من غير الممكن تلطيخ سمعتهم في أي وقت من الأوقات.

وبعد عيد الفصح مباشرة في هذا العام، أرسل ملك انكلترا قوة من الجند، تحت قيادة هنري دي تربلفيل Trubleville الذي كان عسكرياً بارعاً جداً، لمساعدة الامبراطور ضد رعاياه العصاة في المقاطعات الايطالية، وأرسل مع هذه الوحدة العسكرية ج. L مانسيل Mansel ووليم هاردل Hardel وكان محاسباً من سكان لندن، وقد بعث الملك معه مبلغاً من المال، حتى يوزعه بين المرتزقة، وبشجاعة قاتل جيش الملك هذا من أجل الامبراطور أثناء الصيف كله، حيث قهروا سكان بعض المدن التي قاومت، وأعادوا المدن إلى الامبراطور، وكان بين الذين ميزوا أنفسهم ج. مانسيل المذكور، وغضب البابا غضباً عظيماً تجاه هذا، وفي تلك الآونة أرسل ملك انكلترا رسالة إليه، رجاه فيها أن يتعامل بلطف أكبر مع الامبراطور، وجاءت ردة فعله على هذه الرسالة غاضبة بشكل جاد، وذلك بشكل غير معتاد الصدور عنه، وأثير وبلغ به الغضب إلى حد دفعه إلى الاستمرار به إلى وقت طويل، وإلى تعليق القضايا التي لها علاقة بالانكليز، وكان أسقف بلنسية عندما سمع بأن مثل هذا الجيش على وشك الإرسال إلى ايطاليا، قام بمكر وبراعة بالالتحاق باللورد هنري تربلفيل، كدليل لهم، وأبحر معه.

وعـاد في العام نفســه بلدوين امبراطور القسطنطينيـة، الذي تقـدمت الإشـارة إليه أعـلاه، بعدمـا حصل على مبلغ خمسمائة مـارك من الملك، وعلى مبلغ كبير من الايرل رتشـارد، إلى بلاده، وفي تلك الآونة أيضـاً، وجـد الأسقف المنتخب لبلنسيـة أن إقـامتـه في انكلترا لم تعـد مـوائمـة ولامقبـولة فقام إمـا رغماً عنه، أو عن طواعية، فأقلع مسـافراً ومغـادراً البـلاد، لكـن ليس من دون حـذر مناسـب لأن خيـوله كـانت محملة، وكانت سروج دوابه مليئة بأواني ملكية من الذهب والفضة.

موت السلطان الأعظم قوة

وفي هذا العام نفسـه، عندما كان السلطان [الكامل محمـد] الذي كان السلطان الأعظم قـوة على وشك الموت، وزع بكرم أعطيـات وافـرة، ومبـالغ كبيرة من المال على المسيحيين المرضى، الذين كـانوا قد بقيـوا في دار الاسبتـارية، وأطلـق سراح عـدداً كبيراً من الأسرى المسجـونين، وعمل أعمالاً أخـرى كثيرة قـدم فيهـا الصدقـات، ثم لفظ أنفـاسـه، مما سبب الحزن إلى الكثيرين، لأنه وإن كـان وثنياً، كـان —صدقـاً نقول— رجـلاً سخياً، كما كـان (بقـدر ما سمحت لـه صرامة عقيـدته وشكوك جيرانه) رجلاً رحيماً نحو المسيحيين، وعندمـا سمع الامبراطور الروماني بهذا، بكى موته بدموع، لمدة طويلة، ذلك أنه كان يأمل —كما كان ذلك السلطان نفسـه قـد وعـد— بـأنه سـوف يتسلم العماد، وأن المسيحيـة، سوف تتلقى بوساطته في وقت أو آخر كثيراً من الزيادة في ازدهارها.

سفر سيمون دي مونت فورت
من عند الامبراطور إلى البلاط الروماني

وحمل في الوقت نفسـه سيمون دي مـونتفـورت نفسه، مع الرغبـات الطيبـة للامبراطور، ومع رسـائل توصيـة منه، وتوجّـه إلى البـلاط الروماني، وحصل هناك، بوسـاطة مبالغ لا حـد لها من المال، والوعود،

على مرسوم من البابا —مع أن تعهده المهيب أمام ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، كان ضد ذلك— أن بإمكانه التمتع بزواجه غير الشرعي، وكتب قداسته، إلى النائب البابوي أوتو، آمراً إياه أن يعطي مرسوماً خاصاً لصالح سيمون دي مونت مونتفورت، ولدى سماع الراهب وليم دي أبينغدون Abiingdon من طائفة المبشرين، بهذا مع رجال متعلمين آخرين، كانت لديهم غيرة على الرب، وكانوا واضعين لها، أمام أعينهم، رفعوا أصواتهم عالياً بلوم هذا القرار، مؤكدين بصدق، بأنه قد فرض فرضاً على قداسة البابا، وأن ذلك يعرض الأرواح للخطر، وأن هذا يثير المسيح ويدفعه للغيرة، ومع أن الفئة المعارضة قد أعلنت، بأن المرأة مثار النقاش، قد تكون لم تقدم على ارتداء الثوب والحجاب، لكنها أخذت الخاتم، الذي به تكرست، أو بالحري زوجت نفسها للمسيح، وبالتالي اتحدت اتحاداً لايمكن فصمه بالمسيح الذي هو قرينها، وذلك كما هو واضح في الكتابة الأصيلة في مراسيم المعلم بطرس، في رسالته حول «التعهدات» في الكتاب الرابع، الذي فيه بعدما قدم الأسباب وسلطات القديسين والشرائع مضى ليقول:

«يبدو من هذه الأشياء أن العذارى أو الأرامل اللائي ربطن أنفسهن بعهد منع الذات عن الشهوة الجنسية، سواء أأخذن الحجاب أم لا، لايمكنهن الزواج بأي حال من الأحوال، وهذا يتوجب فهمه وفق الطريقة نفسها، بالنسبة إلى جميع اللائي عملن عهداً بمنع الذات عن الشهوة الجنسية، والذي كان قانونياً قبل النذر، سوف يكون غير قانوني بعده»، ولعل البلاط الروماني قد امتلك —على كل حال— وجهة نظر أعمق بمعانيها مما يمكننا فهمه.

التتار يجتاحون البلدان الشمالية

وجرى في هذه الآونة، إرسال رسل خاصيين من قبل المسلمين،

وبشكل خـاص من قبل شيخ الجبل، ولصـالحه، إلى الملك الفـرنسي، لاخباره بأن جنساً مـن البشر مرعباً وغير انساني البته، أخـذ بالتدفق من المناطق الجبلية الشمالية، وقد استولى على البلدان الكثيفة السكان والغنية في الشرق، وقـد أفـرغ هـؤلاء هنغاريا الكبرى مـن السكان، وأرسلوا رسـائل تهديد، مع سفـارات مـرعبـة، وأعلنوا بأن رئيسهم هو رسـول الرب من عليين، قـد أرسل لإخضاع جميع الشعـوب التي تمردت ضده، ولهؤلاء القـوم رؤوس كبيرة جـداً، غير متناسبـة تمامـاً مع أجسـادهـم، ويعيشون على الأسماك غير المطبـوخة، لابل حتى على لحوم البشر، وهـم رمـاة لايمكن مقارنتهم، ويعبرون أي نهر بقـوارب صغيرة معمـولة من الجلود، وهم رجال أقوياء البنيـة، وضخمة هي أجسادهم، وغير أتقياء، وصلبين عنيـدين، ولغتهم غير معروفـة لدى جميع من نعـرفهم، ولديهم قطعان كثيرة، ومـواشي، ويربون الخيول، وخيولهم سريعة جـداً، وقادرة على انجـاز رحلة ثلاثة أيام في يوم واحد، ويتسلح الرجـال منهم بشكل جيـد من الأمـام، وليس من الخلف، حتى لايفـرون، ورئيسهـم رجل شرس جداً، اسمه خان، ويسكن هؤلاء في المناطق الشمالية، إما في جبال بحـر قـزوين، أو في المواضع المجاورة، ويعـرفـون باسم «التتـار» وذلك اشتقاقـاً من نهر «تار»، وأعدادهم كبيرة جـداً، ومن المعتقد أنهم أرسلوا بمثـابة طاعـون لبني البشر، ومع أنهم تدفقـوا مهـاجمين في المناسبـات الماضيـة، يبدون في هذا العـام في حالة هيـاج حـادة أكثر مما هو معتـاد، وسكان بلاد القـوط Gothland، والفـريزيين، مـرعـوبين من حملاتهم، لذلك لم يقدموا إلى يارماوث Yarmouth، في انكلترا، كما هي عـادتهم، في أيام صيـد سمك الرنكة (مـن أنواع السردين)، حيث كانـت سفنهم تحمل به بالعادة، ولهذا السبب، عـدّ سمك الرنكة في هذا العام بلا قيمة، نظراً لكمياته الوافرة، وقد بيعت حوالي أربعين أو خمسين سمكة، من النوع الجيـد جداً مقـابل قطعـة واحدة من الفضـة، حتى في أماكن بعيـدة جداً عن البحر، وقدم هذا الرسـول المسلم والنبيل القوي

الذي وصل إلى الملك الفرنسي، باسم جميع أفراد شعب الشرق، ولصالحهم، للإخبار بهذه الأشياء، وقد طلب المساعدة من الشعوب الغربية، من أجل صدّ هجمة المغول المرعبة، وخضد شوكتهم، وقد أرسل أيضاً رسولاً مسلماً من جماعته إلى ملك انكلترا، وهو الذي وصل إلى انكلترا وروى أخبار هذه الوقائع، وليقول بأنهم أنفسهم، إن لم يستطيعوا الصمود أمام حملات مثل هؤلاء الناس، لن يبقى شيء يمنع اجتياحهم لبلدان الغرب، وذلك وفقاً لقول الشاعر:

«لأنه عندما يحترق بيت جارك،

سوف بدورها تستولي النار على دارك».

وبناء عليه طلب المساعدة في حالة الطوارىء السريعة والعامة هذه، حتى يتمكن المسلمون بمساعدة المسيحيين من مقاومة حملات هؤلاء الناس، وصدف أن كان أسقف وينكستر حاضراً آنذاك، وكان مرتدياً لعلامة الصليب، فقاطع خطابه، وأجاب مازحاً مستهزئاً قائلاً:

«دعونا نترك هؤلاء الكلاب يلتهم أحدهم الآخر، حتى يؤكلوا جميعاً، ويهلكوا، ونحن عندما سنزحف ضد أعداء المسيح الذين سيبقون، سوف نقتلهم وننظف وجه الأرض منهم، وبذلك سوف يكون العالم كله، خاضعاً لكنيسة كاثوليكية واحدة، وسوف يكون هناك راع واحد لقطيع واحد».

موت بطرس دي روشي أسقف وينكستر

وفي التاسع من حزيران من العام نفسه، مات بطرس دي روشي Roches أسقف وينكستر، وكان قد أغلق حياته، بعدما حكم كنيسة وينكستر لمدة اثنتين وثلاثين سنة، وأيضاً بعدما قام بحجه بشكل معلن، إلى الأرض المقدسة، بصحبة أسقف ايكستر Exeter وكان كذلك قد بنى عدة بيوت لأشخاص دينيين، وعمل عهداً نبيلاً، وكان

عندما مات متقدماً بالسن، وحدثت وفاته بعزبة فارنهام Farnham وقد دفن في كنيسة وينكستر، حيث كان خلال حياته، واختار قبراً متواضعاً، وبوفاته، فقد مجمع المملكة الانكليزية كله من ملكين إلى لاهوتيين خسارة لاتعوض، وينبغي أن لانسقط من الذكر، أن جميع التشريفات والمنافع التي منحت إلى الكنيسة، سواء أثناء السلام، أو أثناء الهدنة، أو حتى أثناء الحرب في الأرض المقدسة، عندما ذهب الامبراطور فردريك إلى هناك، كله تحقق بشكل نبيل وحكيم، وجرى تنفيذه بمشورة هذا الأسقف نفسه ومعونته، وإلى جانب هذا عندما تفجر الخلاف فيما بعد بين البابا وبين الامبراطور، وهدد حظ ومصير الكنيسة كلها، أعاد هو بسعادة، وبفضل نعمة الرب، السلام بين هذين الشخصيتين المشهورتين، وأسماء البيوت الدينية التي بناها، أو منحها ممتلكات، وأبنية، وموارد هي كما يلي:

في هيل Hales, لطائفة الـ Praemonstratensians, وتيكيفورد Tykeford للطائفة نفسها، وسيلبورن Selburn لطائفة القديس أوغسطين، يعني لكهنة نظاميين، والمشفى المشهور في بورتماوث، وفي الأرض المقدسة أيضاً، حوّل كنيسة القديس توماس الشهيد، من مكان غير لائق، إلى موضع مناسب، وغيّر طائفة الرهبان في تلك الكنيسة إلى طائفة أكثر جدارة وقوة، فاعتماداً منه على مساعدة بطريرك القدس، فإن هؤلاء الذين كانوا من قبل علمانيين بالفعل واللباس، حملوا الآن الصليب على صدورهم، وهم خاضعين لطائفة الداوية، وحصّن يافا، وجدد مكان لجوء للصليبيين، وقد عمل ميثاقاً رائعاً، وقدم مبلغاً كبيراً من المال، لكل من الأماكن المتقدم ذكرها، وإلى بيت القديس توماس في عكا، الذي كان أصغر مبلغ منحه إياه هو خمسمائة مارك، وبالاضافة إلى هذا ترك إلى خليفته أسقفية غنية، وواسعة في حقولها وقطعانها، وعندما سمع الملك بوفاة بطرس أسقف وينكستر،

تدبر تعيين وليم أسقف بلنسية المنتخب ليجري تعيينه في تلك الأسقفية، لكن المستشـــار رالف دي نيفيـل، أسقف شيستر، طُـلب بشكل محق ــضـد رغبـة الملك— من قبل ديـر وينكستر، الذي إليـه يعـود حق الانتخاب، وقـام الملك بصرف هذا الذي رغبوا به من مستشـاريته ومن بلاطه، وذلك بعـدمـا أخـذ منه الختم الذي كـان معهـوداً به إلى ذلك المستشار المذكور، بموجب نصيحـة المملكة كلها، وتمكن بوساطة محاميه المستقـرين في روما، وبانفـاق مبلغ كبير من المال، من إلغـاء طلب ذلك الدير، من قبل البابا.

حصار مدينة ميلان

وفي الوقت نفسـه من العـام، تابع الامبراطور حصـار ميـلان، وأثناء ذلك أرسل إليه تقـريباً جميع أمـراء المسيحية عساكـر إضافيـة، فقد بعث إليـه ملك انكلترا —ابن ختنه— مـائـة فـارس، مجهـزين بشكل جيـد بالخيـول والســلاح، تحت إمـرة هنري دي تربلفيـل، مع مبلغ كبير من المال، وبادر أيضاً الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي أجاد معرفة الأسلحة الدنيوية، أكثر من الأسلحة الروحيـة، إلى هناك مع الفرسان الذين بعث بهما كونتا طولوز وبروفانس لمساعدة الامبراطور، ومن المدهش لكثيرين ان الامبراطور، الذي أحـاط به ذلك الحشـد الكبير من النبلاء، قـد بدّد وقتاً طويلاً في الحصار، مع خسائـر كبيرة، باستثناء أنه في معركة واحدة، استطاع فيها هنري دي تربلفيل، مع الراية المنتصرة لملك انكلترا، ويتبعه الجنود الانكليز الذين كانوا تحت إمرته، بشجاعة وتمكن من صدّ حملات الأعـداء، وأرغمهم على فرار بلا أمل، ولذلك أعـاد الامبراطور الشكر إلى الملك بوساطة رسـالة بعث بها إلى الملك، وأعلن بها بأن ذلك القتال الشجـاع، كان السبب بسـلامته وكـرامتـه، وبعد أمـد وجيز، توجّـه مع جيش كبير لإلقاء الحصـار على بريشيا Brescia فأهالي ذلك المكان كانوا يمدون الميلانيين بالمساعدات، أثناء وضعهم المتأزم آنذاك، ولم يكن

الميـلانيـون، في الوقت نفسـه كسـالى، حيـث أحـاطوا مـدينتهم بخنادق عميقـة، وتابعـوا مراراً تقـديم العـون إلى سكان بريشيـا، وهكذا جـرى تبديد فصل الصيف، وعلى هذه الصـورة انتهى، وبناء عليه لدى اقتراب الشتاء، تمّ الاتفاق على عقد هدنة، بموافقة كلا الطرفين، والذين جاءوا لتقديم المسـاعدة إلى الامبراطور، غادروا دون أن يحققـوا هدفهم، وغدا الامبرطور نفسـه الذي لم يتمكن من قهـر مـدينة بريشيـا، واخضـاعهـا لتكون تحت حكمـه، مـع أنها كـانت مـدينة صغيرة بالمقــارنة مع المدن الأخرى، غدا أقل إخافة لأعدائه، وأدنى احتراماً من قبل أصدقائه.

عودة ادموند رئيس أساقفة كانتربري من بلاط روما

وعاد في حوالي ذلك الوقت نفسه، ادمـوند، رئيس أساقفة كانتربري، من بلاط رومـا، ووصل إلى انكلترا، ومع أنه غـادر انكلترا مع موافقـة المجمع الديري، فقد حصل من البابا على مرسـوم لصالحه، وضد رهبان كانتربري، وبسببه نشب خلاف متقطع وغير معلن بين الراعي وقطيعه، وعانت الكنيسة من كثير من الخسائر، وقلة الكرامة، والتعليق، ووصمة العار، وسـوء السمعة، وبناء عليه جرت دعـوة النائب البابوي لتصحيح هذا الشقـاق، وأثناء ترؤسه هيئة الكهنـة في كانتربري، وبسبب أن كتـاباً كـان يحتـوي على الامتيـاز الذي تمّ الحصــول عليـه في أيام القــديس توماس، جرى حرقـه بشكل أحمق من قبل بعض الأشخاص، قام بعزل رئيس الرهبان في ذلك المكان، وبعث به إلى طائفة أكثـر قسوة وخشونة، حتى يقـوم بممارسة أعمال توبة مستمـرة، وأبعد أحد الرهبـان لأنه (كما قيل) قـد أزال بشكـل سري من الامتيـاز المتقـدم ذكـره، الأشيـاء التي ظهرت بشكل واضح أنها ضد الرهبـان، وأقحم أشياء أخرى بدت بأنها تخدم مصـالحهم، ولأن مثل هذا المسح في ذلك الكتـاب الأصيل لم يكن لينجو من مـلاحظة الأشخاص الذين فحصـوه بدقة، قام أحـد الرهبان بشكل أحمق بـإحـــراق ذلـك الكتـــاب، وذلك حتـى لاينال الـدير

وصمةالعار والتزييف، وبناء عليه عندما أشار رئيس الأساقفة إلى ذلك الكتاب، وطلبه، وعندما لم يتم العثور عليه، عملوا اعترافاً صحيحاً بالذي وقع، واشتعل النائب البابوي —وهو محق— غضباً، وعقوبة على مثل هذه الغلطة العظيمة (حسبما تقدمت الإشارة أعلاه) طرد رئيس الرهبان وعزله من منصبه، وأبعد بعضاً من الرهبان الذين ظهروا بأنهم مجرمين، وأمرهم بأن يعيشوا بانضباط أعظم، وبتوبة مستمرة، وبعد ذلك، لأن رئيس الرهبان دخل إلى بيت الكهنة مع بعض العلمانيين لعمل انتخاب ضد العادة المعمول بها بالبيت، انتخب مجمع الدير رئيساً عليهم من دون موافقة رئيس الأساقفة، ثم سمع رئيس الأساقفة بهذا، فلم يوافق عليه، وألغى الانتخاب، ولم يكتف بانزال عقوبة التعليق، بل إنه حرم كنسياً رئيس الرهبان المنتخب مع الناخبين، لكن مجمع الدير، ترافع بجرأة واشتكى حول هذه القضية إلى البابا ضد رئيس الأساقفة.

الملك يسعى لتثبيت انتخاب وليم الأسقف المنتخب لبلنسية ليكون أسقفاً لأسقفية وينكستر

واستخدم الملك في هذه الآونة (مع أنه غالباً ما أقسم من قبل على صرف الأجانب وعلى عدم تقديم العون لهم) كل الوسائل الممكنة، وأكثر مما ينبغي، وبالوسائط غير الصحيحة، في سبيل ترقية وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، وانتخابه (وهو الرجل الذي وصف بأنه كان دموياً) لتسلم أسقفية وينكستر، لكن هذا رفضه الرهبان بين أنفسهم، وهم الرهبان الذين إليهم يعود حق الانتخاب بشكل معلوم، وذهبوا إلى الملك —كما جرت العادة، يطلبون الاذن بانتخاب أسقفهم— وقبل أن يعطيهم الملك أي جواب، رجاهم انتخاب وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي دعاه باسم عمه، ولم يوافق الرهبان، وطلبوا منحهم وقتاً للتداول حول القضية مع بقية أعضاء المجمع الديري، الذي يعود إليهم حق الانتخاب، وشعر الملك أنه بمنحهم هذه المهلة فإن التماساته سوف

تسقط من دون تـأثير، فتحــول إلى مكره المعتـــاد، وفي رد على التماس الرهبان قال:

«لقـد أخبرت بأن اثنين من شمامسة أسقفيتكم في وينكستر متـوجب عليهما الحضـور أثناء انتخـابكم، وأنـا لاأرى هذين في القضيـة الحاليـة، ولذلك لايمكنني الاستجابة إلى التماسكـم»، وعلى هذا رد الرهبان بأنهما «وإن كـان من المتوجـب حضورهما أثناء الانتخـاب (الذي يبـدو لنا أنه سخيف ولايتماشى مع العـدالة) هما لايحتـاجـان للحضـور أثناء التقـدم بالطلب للانتخـاب»، ومع أن الملك وقف عند هذا الأمـر طويلاً وتفكر به، هو لم يستطع معـارضة مطلبهم، لكن بعـد مضي بعض الوقت، علم بشكل يقيني بأن الرهبان يرعـون بشكل جـاد فكرة انتخـاب وليم دي ريل Raele وكـــان رجـــلاً جـــديراً كله بالثنـــاء، ليكون أسقفهم، فغضب غضبـــاً عظيماً، وأجـــابهم بسخـــرية: «أنتـم رفضتم الأسقف المنتخب لبلنسية، قائلين بأنه كان رجلاً دموياً، وانتخبتم الآن وليم ريل، الذي قتل بلسانه رجـالاً أكثر مما قتله أي انسـان آخر بالسيف»، وبتكبر واستخفـــاف أقسم أنـه لن يتحمل هذا بأي شكـل من الأشكال، ولهذا خـــاف الرهبـان من غضـــب الملك، فتخلوا عن نيتهم، ودمـــر الملك في الوقت نفسه ممتلكات وتحسينات الأسقفيــة، وغالباً مـا جلس في العزب التابعة لها، مع أعداد كبيرة من الأتباع كانوا يحيطون به.

الملك يتدبر إلغاء انتخاب رالف أسقف شيستر

ولدى رؤية الرهبـــان وقتهـــا التأثير المضر للتأخير، شرعـوا بنشـــاط متـواصل يفكرون حـول اختيـار رئيـس لأنفسهم، وعندمـا سمع الملك بهذا، بادر مسرعـــاً وعلى الفـور إلى هنـاك، ودخل إلى بيت إدارة الكهنة بنشاط وحماس أكبر مما هو معتاد، وطلب من الرهبـان بالوعد والوعيد، بأن عليهم انتخـــاب عمـه، الأسقف المنتخب لبلنسيـــة، وقـد حـــاولوا ببراعة، ورغبـوا في ازالة غضب الملك، وسعـوا لتهدئة عنفـه غير المحق

بوساطة التأخير، وكانوا غير راضين بالموافقة على مطالبه غير العادلة، وقد وافقوا بالاجماع على المطالبة برالف دي نيفيل، أسقف شيستر، ومستشار الملك، ليكون أسقفهم، والمسؤول عن أرواحهم، ووجد الملك أن التماساته، قد أخفقت مجدداً في التأثير عليهم، فعارض الطلب المحق للرهبان، وكدس كثيراً من الشناعات على الأسقف المذكور، وقال عنه بأنه كان قليل الصبر، وسريع الغضب، ورجلاً فاسداً، ثم وسمهم بالحماقة لأنهم طلبوه ليكون أسقفاً لهم، وبالاضافة إلى هذا، انتزع بعنف ختمه، الذي كان الأسقف المذكور قد تسلم المسؤولية عنه، بناء على رغبة عامة من المملكة، وعهد بالعناية به إلى الراهب غيوفري الداوي مع جون لكسنغتون، وذلك مع العطاء المعدّ للمستشارية، والمورد المعين للأسقف كمستشار، وتابع إجراءاته العدوانية، كما كان بدأها، فبعث سيمون النورماندي والاسكندر، وهو علماني، وكلاهما محاميين مستأجرين، إلى بلاط روما، الذي قام بوساطة هدايا كبيرة، ووعود من المال، فحرم رجلاً مستقيماً من حقه، وألغى قراراً محقاً، وألغى بشكل فاسد، الطلب المتقدم ذكره.

الميلانيون يرغبون بالتصالح مع الامبراطور فردريك

وفي هذه الآونة خاف الميلانيون من المقدرة الامبراطورية، فبعثوا إلى الامبراطور، يرجونه بكل الالتماسات الممكنة، بعدما أعلنوا أنه مولاهم الحقيقي وسيدهم الطبيعي، أن يزيل غضبه عنهم، وأن يوقف قتاله ضدهم، وأن يرعاهم، وأن يحميهم، بمثابة كونهم رعيته التابعين له، والموضوعين تحت جناحي حمايته القديرة، وأعلنوا أنهم سوف من الآن فصاعداً، كما فعلوا من قبل، يخدمونه بمثابة مولاهم وامبراطورهم، مع الاحترام كله، وكبرهان على طاعتهم، ومن أجل أن ينالوا حمايته بوساطة أسلحته وعواطفه، وفي سبيل نسيان عصيانهم السالف الذكر، ولعدم تذكره، وعدوا عن طواعية من أنفسهم أن يقدموا له جميع

المدخرات الأساسية التي يمتلكونها من ذهب وفضة، وعلاوة على ذلك، وكعلامة على خضوعهم وطاعتهم، وعلى نصره الامبراطوري، إنهم سوف يجمعون جميع راياتهم، ويحرقونها عند قدمي الامبراطور، وأنهم بالاضافة إلى هذا، عندما سيستأنف الامبراطور ثانية القتال في خدمة الصليب في الأرض المقدسة، سوف يزودونه سنوياً بعشرة آلاف جندي، في سبيل تقدم الكنيسة، وفي سبيل كرامته، شريطة أن يتولى محبة سكان المدينة من دون شوائب أو أذى، وأن تبقى حالة المدينة وسكانها كما هي محافظ عليها.

لكن الامبراطور، رفض بشموخ جميع هذه العروض، وطالب بشكل قطعي، أن يقوم السكان بشكل عام مع مدينتهم، ومع جميع ممتلكاتهم، بالتخلي عن أنفسهم وعن إرادتهم ووضع ذلك طوع رغباته، ورد السكان بموافقة عامة على هذا السلوك الطغياني، بأنهم لن يفعلوا هذا بأي حال من الأحوال، وقالوا:

«لقد تعلمنا بالخبرة، وبالخوف من وحشيتك، أن نفضل الموت تحت ترستنا، بالسيف، أو الرمح، أو بالنشاب، على الموت بالخيانة، والجوع، واللهب»، وبدأ الامبراطور منذ ذلك الحين يفقد الحظوة لدى الكثيرين، لأنه قد أصبح طاغية، ونال الميلانيون لتواضعهم التشجيع، وحصلوا على القوة، وذلك وفقاً لكلمات الانجيل في قوله: «يقاوم الرب المتشامخ، ويعطي النعمة إلى المتواضع»، ووقتها رأى الميلانيون أن المسألة مسألة موت أو حياة، فتولوا تحصين مدينتهم بمزيد من النشاط أكثر مما هو معتاد، بالسلاح وبالخنادق، وبالدخول بتحالفات مع مدن أخرى.

واقعة الراهب جون من طائفة المبشرين

وفي هذه الآونة نفسها، نبغ واحد من طائفة المبشرين، واسمه الراهب جون، وكان رجلاً متعلماً، وفصيحاً، وممتعاً في عمله كمبشر، وقد تمتع

بسمعـة عظيمـة واحترام كبير في ايطاليـا، إلى حـد أنه أطفأ الحروب بين السكان، وقـد عمل الرب معجـزات لـه، حيث أنه عبر الأنهار حـافيـاً، وأرغم الطيـور الجارحـة الطائـرة في الهواء على النزول إلى الأرض، بناء على أوامره، وأخيراً أصبح على كل حال، بوساطة مكر الشيطان متشامخاً بشهرته، وضعف بالعلاقة الجسدية الشهوانية لأصدقائه، وبذلك استحق فقدان محبة الرب، والتشريف لدى البشر، والاحترام لدى رجال الدين.

محاولة أحد الأشرار قتل الملك في قاعة نومه

ووقعت في السنة نفسهـا، واقعة مرعبـة للملك، جعلت الناس كلهم يرتعبون، ففي اليوم الذي جاء بعد ميلاد القديسة مريم، قدم واحد من السـادة المتعلمين —كما قيل— إلى بلاط الملك في وودستـوك، وتظاهر بأنه كـان مجنوناً، وقـال للملـك: «استقل من الملك لصـالحي، وسلمني حكم المملكة الذي اغتصبتـه بشكل غير عـادل، والذي حـرمتني منه لزمن طويل»، كما أنه أضـاف بأنه يحمل شـارة الملك على كتفـه، ورغب رجال حاشية الملك بضربه، وبطرده من الحضرة الملكية، لكن الملك منع الذين كـانوا منقضين عليـه من استخـدام العنف ضـده قائـلاً: «اتركـوا الرجل المجنون يهذي كما يريـد، وحسبما يأتيـه، لأن كـلام هؤلاء الناس ليس له تأثير الصـدق»، وفي منتصف الليل —على كل حـال— دخل هذا الرجل نفسـه إلى قـاعـة نوم الملك من النافـذة، حـاملاً بيـده مـدية مفتـوحة، واقترب من فـراش الملك، غير أنه أصيب بالاضطراب لعـدم وجـوده هناك، وبدأ على الفور يبحث عنه في عـدد من قاعـات النوم في مسكنه، وكان الملك، بفضل الرب نائماً مع الملكة، وكـان هناك بالصدفة واحدة من وصيفات الملكة مستيقظة، وكان اسمها مرغريت بيزث -Bis eth وكـانت تغني ببعض المزامير على ضـوء شمعـة (لأنها كـانت وصيفـة مقـدسـة، وواحـدة مكرسـة للرب)، وعندمـا رأت هذا الرجل المجنون، يفتش في الأمـاكن الخاصـة، ليقتـل الملك، وهو يسأل بصـوت

مــرعب عـن المكان الذي فيــه الملك، ارتعبـت كثيراً، وأخــذت تردد صراخها، ولدى سماع صراخها المرعب، استيقـظ حراس الملك، وقفزوا من أسرتهم بكل سرعـة، وركضوا نحـو المكان، وفتحـوا الباب بالقـوة، الذي كـان اللـص قـد أغلقـه بإحكام، واعتقلوا اللـص، على الرغم من مقاومته، وربطوه وغلوه بقوة، وضمنوه.

وقد اعترف هـذا الرجل بعد بعض الوقت، بأنه قـد أرسل إلى هناك، ليقتل الملك وفق طرائق الحشيشيـة، من قبل وليم مارش، ابن غيـوفري مـارش، وأفاد بأن آخـرين قـد تآمـروا لإقتراف الجريمة نفسهـا، ولدى معرفة الملك بهذا، أمر به، بحكم كونه مجرماً بمحاولة قتل جلالة الملك، بأن يمـزق طرف منه عن الطرف الآخـر بوسـاطة الخيول في كـوفنتري، وكـان بذلك مثـلاً مخيفـاً ومشهـداً مؤسفـاً لكل من يتجـرأ على التـآمـر لإقتراف مثل هذه الجرائم، وجـرى سحله أولاً وهـو ممزق إرباً إرباً، ثم جرى قطع رأسـه، وتقسيم جسده إلى ثلاثة أقسـام، ثم إنه جرى سحل كل جزء خلال إحدى المدن الرئيسية في انكلترا، وبعد هذا جرى تعليقه على المشنقة المعدة للصوص.

عاصفة من الريح ثقيلة

في حـوالي يوم عيـد القـديس متى (٢١- أيلول) ثارت عـاصفـة من الريح بعنف مـدمر، ومن دون أن أذكـر الأضرار التي تسببت بها والتي لايمكن تعويضها، غرقت أكثر من عشرين سفينة في بورتماوث.

عودة سيمون دي مونتفورت إلى إنكلترا

وفي يوم عيـد القديس كـاليكستوس Calixtus (١٤- تشرين أول) عاد سيمون دي مونتفورت من القارة، واستقبل من قبل الملك، ومن جميع الحاشية الملكية بقبلة السلام، ثم إنه انطلق بكل سرعة نحو زوجته إليانور، التي كانت مقيمة في نيلوورث Kenilworth وهي على وشك الولادة.

- ٦٩٢١ -

دعوة رعاة رهبان الطائفة السوداء للمثول أمام النائب البابوي في لندن

وفي العام نفسه، استدعى النائب البابوي أوتو، بناء على تفويض من البابا، جميع رعاة رهبان الطائفة السوداء، للمثول أمامه، في كنيسة القديس مارتن في لندن، ليتولى تقدير الدرجات التي أمر بها صاحب القداسة البابا —بعد مناقشة كافية— من أجل إصلاح الطائفة الرهبانية.

إصلاح أحكام رهبان الطائفة السوداء

وعندما اجتمع جميع رعاة طائفة الرهبان السود، نهض النائب البابوي، وحثهم ليكونوا جميعاً صبورين، ثم شرع بإلقاء خطبة منمقة كانت كما يلي:

«باسم مولانا يسوع المسيح، والأب والابن والروح القدس، آمين، إنها لمهمة عظيمة وصعبة القيام بتحصين مدينة الرب، التي هي الكنيسة، بمراسيم جديدة ومتطورة، ضد مصائد العدو الخبيث، الذي يسعى باستمرار ببدع قديمة وجديدة لإخضاعها، وقمنا نحن أوتو، الذي بفضل رحمة الرب، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا، في سجن توليان، والنائب للكرسي الرسولي، صدوراً عن واجبات النيابة البابوية المفروضة علينا، وتقديراً لأنفسنا بأننا مسؤولين عن تقديم المساعدة في مثل هذا العمل المفيد، فتدبرنا جمع وتدوين بعض الأحكام من نظام الأب المقدس بندكت، وكذلك من المجامع المقدسة، والمراسيم الشرعية، وكذلك من أحكام رعاة الرهبان التابعين لطائفة بندكت المذكور، التي إذا ما تولوا رعايتها سوف تخدم في مساعدة ديانتنا المقدسة والدفاع عنها».

الذين يجري قبولهم في الطوائف الدينية

«ورسمنا في المقام الأول، أنـه من الآن فصاعداً، لـن يجري قبول أي واحـد للقيـام باحترافـه وتكريس نفسـه للـرهبـانيـة، قبل إكماله سن العشرين، ولا لإختبار التأهيل قبل إكماله التاسعة عشرة من عمره».

عند انتهاء سنة اختبار التأهيل يبدأ التكريس للرهبانية

وكذلك كل من جرى قبوله لاختبار التأهيل، سوف، فور انتهاء سنة اختبار التأهيل، يقوم بأعمال التكريس للرهبـانية، أو سوف يغادر الدير، وخـلافاً لهذا، إن كل راعي دير، أو رئيـس للرهبان سـوف يحتفظ بأي واحد بعـد عام من دون القيـام بالتكريس للرهبنة، سوف يتلقـى عقوبة حـادة، من قبل رؤسـاء الهيئة الكهنوتية، ومع هـذا سوف يعـدّ المترهبن مرغماً على عمل التكريس، ولسوف يعدّ وكأنه مكرس للرهبنة».

لايجوز قبول أحد شرطياً أو مقابل دفع

«وكـذلك لايجوز استخـراج أي مـال من أي واحـد يرغب بدخـول الدير، والذيـن يقبلون سـوف يجري قبـولهم فقط مـن أجل الرب، ومن دون أي التزام، ومع ذلـك، إذا ماجرى تقـديم أي شيء مجاناً، من دون أي إلزام، أو استخـراج، أو ضريبـة، من الممكن قبـول ذلك من دون ملامة».

لايجوز لأحد أن تكون لديه أية ممتلكات خاصة به أو ذاتية

«وكذلك، إنه من الآن فصـاعداً، لايجوز لأي راهب أن يستحوذ أي شيء خـاص به، وإذا مـاكـان لديه أي شيء يتـوجب عليـه، على الفـور التخلي عنه إلى رئيسه».

لايجوز لأي واحد السكنى وحده في عزبة أو كنيسة

«وكذلك، لايجوز مـن الآن فصاعداً، لأي راهب الاقـدام على تسلم

أية عـزبة من رئيسـه، أو أيـة ممتلكات أخـرى، للضمان، وإذا فعل ذلك سـوف يعدّ متملكاً، وبالتـالي سـوف يعاقـب، وكذلك لايجوز للرهبـان السكنى في العــزب، ولاحتى في الكنائس، مــالم يكن هناك أكثــر من واحد، أو على الأقل اثنين».

على المطيعين تقديم حساب عن إداراتهم

«وسوف كذلك يجري تعيين المستقيمين، والرجال الموثوقين في بعض المناصب، وعلى هؤلاء أن يقدموا ثلاث مـرات في العام حساباً صحيحاً عن إداراتهم ومناصبهم، إلى رئيسهم، وذلـك بحضـور بعض الشيـوخ، وعند ذلك إن كل مايزيـد يمكنهم أخذه، مهما تضمن، سواء أكـان مالاً أو أية مقتنيــات أخـرى، إنهم ســوف يأخـذونها من دون منـاقشـة أو خلاف، وأن يضعوا جانباً كل غش، ثم أن يتخلوا عن ذلك إلى رئيسهم أو يعهــدون به إليـه، وكـل من يتصرف على عكس هذا، ســوف ينال العقوبة لكونه متملكاً».

ومثل هذا على رئيس الرهبان تقديم حساب

«وعلى راعي الرهبان أيضـاً، أو رئيس الرهبان، في حال عـدم وجود راعي، أن يقـدم حسـاباً وافياً، على الأقـل مرة واحـدة في السنة، حـول وضع ديره، وحـول إدارته للمجمع الرهبـاني، أو أن يقـوم بذلك بعض الشيـوخ الذين جـرى تفـويضهم وإنابتهم مـن قبل المجمع الديري لهذه الغاية».

من المتوجب التفوه بقرار الحرمان الكنسي ضدّ المتملكين بشكل علني

«ونحن نرسم أيضـاً، أنه يتوجب على الرؤسـاء المشرفين، أن يتفوهوا على الأقل مـرة واحـدة في العـام، بشكل علني بحكم الحرمـان الكنسي

ضـد المتملكين، أو معـاقبتهم بطرق أخـرى إذا لم يثـوبوا إلى رشـدهم، وبشكل رئيسي بعار عدم الدفن».

وجوب الالتزام بالصمت وفقاً للأمر

«ونحن نرسم أيضـاً، أنه وفقـاً للنظام، تتوجـب مراعـاة الصمت، في بعض الأماكن المخصصة، والأوقات، والساعات المحددة، وعلى الجميع أن يسعوا لمعرفة الشارات الضرورية».

تحريم أكل اللحوم

«وبالاضافة، إلى هذه الأشياء، إنه فيما يتعلـق بأكل اللحوم، قد جرى تحريمهـا على رهبـان الطائفـة السـوداء، بمـوجب أحكام نظام القـديس بندكت، وحكمنا، وكـذلك حكم الهيئة العامـة للرهبـانية برئـاسة رعـاة الديرة في انكلترا، ونحن في سبيل إزالة جميع مناسبات وقضايا الشكوى من بين هؤلاء الرهبـان الذين اعتادوا فيها على إثارة الفـوضى من أجل أكل اللحم، نأمـر الرعـاة والرؤسـاء بشراء —حسب إمكانات بيتهم— وتزويد الرهبـان، ببعض المواد الغـذائيـة المناسبـة عـوضـاً عما هو محرم عليهم».

وجوب تقديم ملابس مناسبة وكافية

«قـرار بوجوب امتـلاك الرهبـان مـلابس مناسبة وكـافيـة، لكل من أجسـادهـم وأسرتهم، وأن يزودوا بذلك وفقـاً لنظام البيـت وإمكاناته، لكن لايجوز لهم ارتداء قمصان من الكتان، أو أغطية رأس».

على الرهبان النوم مع بعضهم

«ويتوجب كـذلك نوم الرهبان مع بعضهـم، وأن يمتلكوا أسرة وفقاً للنظام، ولايجوز أن يكون مهجع نومهم من دون ضوء».

وجوب مراعاة الضيافة

«نحن نأمر ونرسم، بوجوب مراعاة الضيافة، من قبل كل من الرؤساء، ومن الذين هم أدنى منهم، وفقاً لقداسة النظام ولإمكانات المكان، وأن يكون ذلك مصحوباً مع كل الإحسان والسرور، وأن يجري دوماً ندب راهب لطيف وأديب من أجل هذه الغاية، ونحن نرسم أيضاً بوجوب مراعاة الشيء نفسه نحو الرهبان المرضى».

على الرهبان جميعاً الحضور أثناء القداسات الكبرى والصغرى

«وكذلك يتوجب على الجميع أن يكونوا حضوراً في ساعات القداسات الدينية، لاسيما أثناء القداسات الصغرى والكبرى، مالم يمتلك أحدهم عذراً جيداً للتغيب، بأن يكون مشغولاً مع ضيوف، أو بموجب إذن خاص من رئيسه، حيث يعدّ ذلك سبباً موجباً للغياب».

وجوب تجنب الاسراف

«ويتوجب على الأساقفة السعي لتحديد عدد خيولهم ومرافقيهم بقدر ما يستطيعون».

وجوب تدوين الأحكام وفقاً للنظام

«ونحن نرسم أيضاً، أن يتدبر رعاة الديرة ورؤساء الرهبان يومياً تدوين —وفقاً للنظام— مراسيم الأحبار الأعظميين، ولاسيما التي تشير بشكل خاص إليهم وإلى طائفتهم، والواردة في مجموع صاحب القداسة البابا غريغوري التاسع، والتي كتبت تحت العناوين الواردة أدناه وهي: «حول المدنيين الذين على وشك الدخول إلى البيوت الدينية» الخ، «حول دورك» الخ، «خشية الدين» الخ، «حول أوضاع الرهبان» الخ، «في كل منطقة» الخ، «الأشياء التي من أجل كرامة الدين» الخ، «حول السيمونية— أي حول التلوث بالسيمونية» الخ،

«حول قرار الحرمان الكنسي» الخ، «الجسد كله» الخ، «حول التحليل من هذه الأشياء كلها» الخ، «حول الراهبات» الخ، «حول الثبات— أي التأكد» الخ، «حول المدفوعات» الخ، «حول أي شيء كان».

الأشياء التي يجري بالغالب تكرارها

«ونحن نفرض أيضاً بكل دقة على جميع رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، أن يقوموا بدراسة الأحكام المتقدم ذكرها أعلاه وتعلمها، وهي أحكام نظام القديس بندكت، والمراسيم والنظم التي كتبت أعلاه، وأن يحتفظوا بهم دوماً على مقربة منهم، وأن يجعلوا شغلهم الشاغل ألا تكون هذه الموضوعات غير معروفة من قبلهم».

قراءة ماورد أعلاه مرة واحدة في اليوم

«ونحن نرسم أيضاً، ونأمر بمراعاة مايلي بكل دقة، وهو قراءة النظام الذي تقدم ذكره أعلاه، والمراسيم، مرة واحدة في كل يوم، في ساعة موائمة، في الدير بحضور جميع الرهبان، وأن يجري شرحهم إلى الذين لايفهمونهم».

قانون البابا أونوريوس الثالث المتعلق بالذين يدخلون البيوت الدينية

«**لقد تقرر من جهتكم مايلي، الخ**: من أنوريوس الثالث إلى أسقف أريزو Arezzo: من المعروف ان هناك بعضاً، مع أنهم ارتدوا منذ سنين طويلة ثياب الرهبان، هم لم يقوموا بالتكريس المطلوب ليكونوا رهباناً، ولذلك عندما يجري اتهامهم من قبلكم، أو من قبل آخرين، بأن لديهم ممتلكات، وأنهم يعيشون بشكل نظامي، هم لايخجلون من القول بأنهم غير ملزمين، أو غير متعهدين في أن يكونوا من دون ممتلكات خاصة، وفي سبيل الامتناع عن الشهوات، والأحكام الانتظامية

الأخرى، إنه ليس الرداء الرهباني هو الذي يعمل الراهب، بل التكريس النظامي، الخ، الخ، ولذلك إننا نأمر أخوتكم، بموجب الروادع الكنسية، أن ترغموا الخاضعين إليكم بموجب القانون الأسقفي، والذين يتجرأون على دخول الأرض بطريقين، وفق المنهج الذي تقدم ذكره، أن يقوموا بتكريسهم الرهباني المطلوب، وأن يراعوا النظام، وفقاً لأشكال الطائفة، وذلك بعد ارتدائهم للباس الرهباني لمدة سنة واحدة».

مرسوم البابا غريغوري التاسع حول الأمر نفسه

«نحن نرسم، بأن المترهبنين في أيام اختبارهم، وقبل ارتدائهم لرداء الرهبنة، الذي يعطى بالعادة إلى الذين عملوا تكريسهم المطلوب، هم أحرار في أن يغادروا ويعودوا إلى أوضاعهم المتقدمة، وذلك خلال سنة، اللهم مالم يظهر بشكل واضح بأن مثل هؤلاء الأشخاص قد اتخذوا قرارهم بشكل حاسم بتغيير طريقتهم في الحياة، وأن يخدموا الرب في تكريس تقوي مستمر، الذي معه يمكن أن يكون مفيداً التخلي عن ذلك الذي معروف أنه أضيف على فضائله الخاصة، ومع هذا نحن نرسم —في سبيل إزالة كل شك— بما أن أردية المترهبنين، في بعض البيوت الدينية لايمكن تمييزها عن أردية المكرسين، ينبغي أن تجري مباركة الملابس التي تعطى إلى المكرسين وقت التكريس، وبذلك يمكن تمييز ألبسة المترهبنين عن ألبسة المكرسين».

المزيد حول الموضوع نفسه

«خشية من أن يتعرض بعض رجال الدين في بعض المناسبات إلى السفر، ومن ثم الحصول على بعض الأذى بالنسبة لصحتهم، وأن تجري المطالبة بدمائهم على أيدي رؤسائهم، نحن نرسم، بأنه يتوجب على الرؤساء، أثناء شغلهم لمنصب رئيس الهيئة الرهبانية، وذلك تماشياً مع قانون المجمع العام، سواء أكانوا آباء، أو رعاة ديرة، أو رؤساء كهنة،

البحث بدقة كل سنة عن الرهبان الذين هربوا، أو الذين طردوا من طائفتهم، وإذا ما أمكن فيها بعد استقبالهم وفقاً للنظام القائم، أن يجري استقبالهم في ديرتهم، وأن يتم بموجب الروادع اللاهوتية إرغام رعاة ديرهم أو رؤساء رهبانياتهم، على استقبالهم، وذلك وفقاً لنظام الطائفة، لكن إذا كانت الطائفة لاتسمح بفعل ذلك، على الرئيس المذكور، القيام بموجب سلطاتنا، تأمين عزلهم في ديرة تابعة للطائفة نفسها، وفي أماكن مناسبة، على شرط أن يعمل ذلك من دون أي فضائح، وينبغي تأمين الضرورات المعاشية، وتزويد مثل هؤلاء الأشخاص بها في البيوت الدينية الأخرى للطائفة نفسها، ليقوموا هناك بالتوبة، لكنهم إذا وجدوا عدم طاعة من أي نوع، سوف يتولون حرمانهم كنسياً، ولسوف يعلن عنهم أمام الملأ ويشهر بهم على أنهم محرومين كنسياً، من قبل رؤساء الكنائس، حتى يعودوا بكل تواضع لدى استدعائهم».

وضع الرهبان

«لن يجري قبول الرهبان في الديرة بوساطة دفع المال، كما لن يكون لديهم أية ممتلكات خاصة بهم، وسوف لن يجري توزيعهم واحداً واحداً فيما بين الكنائس في البلدان المختلفة، وفي القرى، حتى لايكونوا هم أنفسهم بين المدنيين، لانتظار الصراع من الأعداء الروحيين، لأن سليمان قد قال: «ويل له، الذي يكون وحيداً عندما يقع، لأنه ليس لديه آخر ليساعده على القيام»، وإذا ما قام أي واحد لدى سؤاله، فأعطى أي شيء في سبيل القبول، إنه سوف لن يرتفع إلى الطوائف المقدسة، وسوف يجري تعليق المتسلم وايقافه عن عمله، وكل من سوف يبقي أي شيء لنفسه، ما لم يكن قد سمح له من قبل راعي الدير، من أجل بعض الخدمات المفروضة عليه، سوف ينقل مبعداً عن المشاركة بقداس العشاء الرباني عند المذبح، وإذا ماوجد أي انسان، في لحظته الأخيرة، مع أي ممتلكات خاصة، ولم يقم بالتوبة بشكل موائم، سوف لن تعمل أية

تقدمة إليه، كما أنه لن يتلقى دفناً بين جميع الطوائف الدينية، وليعلم راعي الدير الذي سوف لن يحترس بعناية ضد هذه الذنوب، بأنه سوف ينال الحرمان من منصبه، كما أنه لايجوز إعطاء رئاسات الرهبان أو المناصب، إلى أي واحد مقابل الدفع، وإذا حدث ذلك، فإن كلا من المعطي والمتسلم سوف يجري طردهم من مناصبهم، أما بالنسبة لرؤساء الرهبان، فإنهم بعد تعيينهم بشكل قانوني في كنائس ديرية، بوساطة الانتخاب من قبل هيئاتهم الرهبانية، لن يجري تغييرهم، إلاّ لسبب واضح ومعقول، مثل التخريب، أو الفسوق أو شيئاً من هذا القبيل يبدو أنها تؤهل للعزل، أو أيضاً إذا جرى نقلهم بناء على نصيحة رهبانهم إلى منصب أعلى».

المزيد حول الموضوع نفسه

«ونحن نمنع من الآن فصاعداً، بكل دقة، أياً من الرهبان، من ارتداء قمصان كتانية، كما اننا نحرم أيضاً على أي من الرهبان، بحكم فضيلة طاعتهم، وتحت تهديد الحساب اللاهوتي من امتلاك أية مقتنيات بأية طريقة من الطرق، وعلى الذي لديه أي شيء خاص به، التخلي عنه على الفور، وإذا ما وجد فيما بعد، لديه أية ممتلكات خاصة، وكان ذلك بعد تسليمه انذاراً نظامياً، سوف يطرد من الدير، كما لن يسمح له ثانية بالقبول به، مالم يكن قد قام بالتكفير، وفقاً لأنظمة الدير، وإذا ماجرى اكتشاف وجود أية مقتنيات، عند موت أي واحد، سوف يجري دفنها معه، في كومة من القاذورات، وذلك وفقاً لما قاله المبارك غريغوري وفعله، وبناء عليه إن أي شيء سوف يجري إرساله إلى أي واحد، بشكل خاص، يتوجب عليه عدم التجرؤ على استلامه، بل عليه تسليمه إلى راعي ديره أو إلى رئيس رهبانه، ويتوجب الالتزام بصمت مستمر في القلاية، وفي المطعم، وفي مهجع النوم، وفي الدير في بعض الأوقات، وفي بعض الأماكن، وذلك وفقاً للعادة القديمة للدير، ولايجوز لأحد

أن يأكل لحماً في المطعم، ولا في المناسبات العـامة الوقـورة، حسبما كانت العادة أحياناً في الدير، ولكن على الراهب أن يترك قليلاً في المطعم، وأن يخرج مع الـراهب ليأكل لحماً في الخارج، لأنـه في هذه الأيام تتــوجب مراعاة نظام خاص بدقة أعظم، ومع ذلك على الرهبان أن لايعتقدوا أنه مسمــوح لهم بأكـل اللحم خــارج المطعم، مــالم يكـن ذلك في مأوى المرضى، مع أنه يمكن أحياناً لراعي الدير، عن طريق الـرعاية، أن يدعو بعض الرهبان إليه، أحياناً واحداً، وأحيـاناً واحداً آخر، ليقدم لهم وجبة خاصـة في غرفتـه، بالاضافـة إلى هذا يمكن للرهبان المرضـى والضعفاء الذين يحتاجون للتقوية، أو لبعض الأدوية، أن يتسلموا كمية مناسبة، مما هو ضروري لهم، من كل من اللحم ومن الأشيـاء الأخـرى، وإذا كـان أحـدهم ناقهـاً، أو حتى ضعيفــاً، ولايمكن أن يكتفي بالطعـام العـام، ينبغي تدبر ذلك له هكذا، مـن دون فضائح بالنسبـة للآخـرين، أي إذا مـارغب راعي الدير أو رئيس الرهبان، أن يقـدم له معروفـاً خاصـاً في المطعم، يمكنه أن يتدبر تقديم كمية كـافية من الطعام أو جلبها له، لكن ليس أمـام الناس المرضى، بل أمـامـه نفسـه، ومـن ذلك يمكن للرجل المريض أن يأخـذ كميـة صغيرة ليـدعـم الطبيعـة، ويتـوجب تعيين مثل هؤلاء الأشخـاص لتأدية واجبـات الدير بشكل مخلص وأمين، ومـا من منصب، يجوز أن يعهـد به إلى أي واحـد، ليحتفظ به إلى الأبد، أي كأنه عين له مدى الحياة، لكن عندما يتوجب عزله، هو سوف يعزل من دون أية معـارضة مهما كـان نوعها، وسـوف يكون رئيس الرهبان هو التـالي لراعي الدير، وينبغي أن يكون فـوق البقية، مؤثراً في أعماله وفي كـلامه، وبذلك يمكن بمثل حيـاته، وبكلام عقيدته، أن يكون قـادراً على توجيه رهبانه نحو ماهو خير، وأن يبعـدهم عما هو شر، وأن تتوفر لديه الغيرة على الدين، وفقاً لمعارفه، وذلك حتى يتمكن من تقديم الرعاية اللطيفة، وأن يعتني بنيل طاعة مـريحة، وراعي الدير هو الذي على الجميع إطاعته في جميع القضـايا، ويتوجب أن يكون دومـاً —بقدر مـا هو ممكن— مع

رهبانه في الدير، وأن تكون لديه رعاية يقظة، واهتمام متواصل بشأن جميع الرهبان، حتى يتمكن أن يقدم إلى الرب حساباً صحيحاً عن المنصب الذي أسند إليه، ولكن إنه إذا ما سيكون خائناً لطائفته، أو مستخفاً بها، أو مهملاً، أو مبدداً، عليه أن يعرف بشكل مؤكد، أنه لن يخلع فقط من منصبه، بل إنه سوف يعاقب بطريقة أخرى، وفقاً لذنبه، وكأن ذلك ليس ذنبه الخاص، بل ذنب الآخرين، فهو سوف يكون مطلوباً على يديه، ولايجوز لأي راعي دير أن يفكر بأن بإمكانه إعطاء أي راهب ترخيصاً بامتلاك مقتنيات، لأن التخلي عن المقتنيات، والمحافظة على الإحسان أمران مرتبطان تماماً مع الأنظمة الرهبانية، ذلك أنه حتى الحبر الأعظم لايمكنه أن يمنحه ترخيصاً في هذه القضايا».

المزيد حول الموضوع نفسه

سوف يكون في كل مملكة، أو مقاطعة —كل ثلاث سنوات— باستثناء امتياز أساقفة الأبرشيات— اجتماع عام للهيئة العامة لرعاة الديرة ولرؤساء الرهبان، الذين ليس لديهم رعاة ديرة مرتبطون بهم، والذين غير معتادين على عقد مثل هذه الهيئات، حيث يتوجب أن يجتمع فيها جميع الذين ليس لديهم معيقات قانونية، في واحد من الديرة يكون مناسباً لهذه الغاية، مع التحذير التالي الذي يقضي بأن لايجلب أي واحد منهم معه أكثر من ست عربات وثمانية أشخاص، وعليهم أيضاً لدى شروعهم بهذه المسألة الجديدة، استدعاء اثنين من رعاة الديرة المجاورين من طائفة السسترشيان، لإعطائهم فرصة للنصيحة، ومساعدة، بحكم أنهم، منذ زمن بعيد معتادين، ولديهم معارف أفضل في عقد هيئات من هذا النوع، ودعوهم يوحدوا مع أنفسهم أي اثنين يرون أنهما موائمين، وليقم هؤلاء الأربعة بالترؤس على الهيئة كلها، وبذلك لايمكن لأي واحد منهم أن يدعي لنفسه الرئاسة الأسقفية، وعندما يكون موائماً، من الممكن عمل تغيير، بعد تداول وتفكير دقيق،

ويتوجب عقد اجتماع هذه الهيئة الرهبانية يومياً، لمدة عدة أيام، وفقاً لعادة طائفة الرهبان السسترشيان، ويتوجب الدخول في الاجتماع المذكور للهيئة الرهبانية بمناقشات دقيقة حول إصلاح الطائفة، والمراعاة المنتظمة للنظم، وكل مايجري تقريره مع التعاون مع هؤلاء الأربعة، سوف تجري مراعاته من دون أي تحفظ، أو معارضة، أو مرافعة استئناف، لكن مع تقرير موعد عقد اجتماع الهيئة الرهبانية في الحقبة المقبلة، والذين سوف يجتمعون هناك، سوف يعيشون مع بعضهم، وسوف يتوازعون فيما بينهم المشاركة بالنفقات بشكل عام، ولكن إذا لم يكن بإمكان الجميع العيش في البيت نفسه يمكن لعدد منهم العيش مع بعضهم في بيوت متنوعة، وسوف يجري أيضاً في هذا الاجتماع للهيئة الرهبانية تعيين أشخاص دينيين وواعين، عوضاً عنا، ووفقاً لنظام جرى تعيينه من قبل لهم، للقيام بزيارات تفقدية لكل رعوية في المملكة المذكورة أو في المقاطعة، ليس فقط للرهبان، بل للراهبات أيضاً، حيث يقومون بتقويم وإصلاح، كل مايعتقدون أنه يحتاج إلى الإصلاح والتقويم، وإذا ما وجدوا أن القسيس في أي مكان ينبغي عزله كلياً من منصبه، عليهم القيام على الفور إعلام أسقفه بقرارهم بعزله، وبذلك يقوم هذا الأخير بادخال العزل حيز التنفيذ، وإذا ماتقاعس الأسقف ولم ينفذ، على الزوار التفقديين رفع القضية إلى الكرسي الرسولي، ونحن نقضي ونأمر، أن على جميع الكهنة النظاميين —تبعاً لطوائفهم— مراعاة هذا النظام نفسه، وإذا ماانبعثت في هذه المسألة الجديدة، أية مصاعب، من غير الممكن إزالتها من قبل الأشخاص المتقدم ذكرهم، يتوجب إحالتها، من دون أي أذى، إلى الكرسي الرسولي، حتى يجري حلها، وبالنسبة لجميع الأشياء الأخرى، التي من الممكن الاتفاق حولها بشكل اجماعي، من المتوجب مراعاتها من دون مواربة، وزيادة على هذا، يتوجب على أساقفة الأبرشيات السعي لإصلاح الديرة الخاضعة لهم، من أجل أنه عندما يصل الزوار التفقديون، يمكنهم أن يجدوا أنهم

يستحقــون المزيد من الثنــاء، وليس التقــويم، وعليهم أيضــاً الاحتراز بالعنـاية الأعظم، حتـى لايجري تحميل الأديـرة المذكـــورة، واثقـــالها بحمولات غير مستحقـة، لأننا نرغب بمراعـاة امتيازات الرؤسـاء بقدر عـدم رغبتنا في أن يتعـرض الأدنى مرتبـة للأذى، وبالاضـافـة إلى هذه الأشياء، تقضي إرادتنا أن يقـوم أساقفة الأبرشيات وكـذلك الأشخاص الذين يترأسـون على اجتماعات الهيئات المذكـورة، بأن يلقوا جانبـاً جميع مـرافعات الاستئناف، وأن يمنعـوا جميع المحـامين، والنصراء، والقسس من خــارج الأبرشيـات، والكونتــات، والنبـلاء، والفـرســان، وجميع الآخرين، مـن الإقدام على انزال الأذى بالديرة سـواء في الأشخاص أو في المقتنيـات، وإذا صـدف وألحقوا بهم الأذى شخصيـاً، لإرغـامهـم من دون تقـاعس على عمل التكفير، وذلك مـن أجل أن يتمكنوا من عبـادة الرب بحرية أكبر، وبهدوء أعظم».

المزيد حول الموضوع نفسه

«**هذه أشياء هي من أجل كـرامة الدين، الخ، الخ:** علاوة على ذلك، بعـدمـا يكون قـد جرى تعيين الزوار التفقـديين، وفقـاً لقـانون المجمع العـام، من قبل الهيئة العـامـة لرعـاة الديرة، عليهـم الاقـلاع للعمل على شغل مناصبهم كزوار تفقـديين، وهنا يتوجب عليهم البحث بكل عناية في أوضـاع الرهبــان، وفي مـدى التـزامهم بالأنظمـة، ومـن ثم تقـويم وإصـلاح كل مايعتقـدون من المتـوجب إصلاحـه وتقـويمه، سـواء في المسـائل الروحيـة أو المسـائل الدنيـويـة، بشكل حكيم، بحيث يجعلون الرهبـان المذنبين يجري تقـــويمهم من قبـل راعي المكان، وأن تفــرض عليهـم العقـوبة المدنيـة وفقـاً لنظام القـديس بندكت، وأنظمـة المؤسسـة الرسولية، وليس وفقاً لأنظمـة العادات الشريرة، التي نمت حتى عدّت بمثابة شريعة في بعض الكنائس، ويتوجب على هؤلاء الزوار التفقديين، أن يضربوا، بالنيــابة عنا بأنظمـة المعــاقبـات والروادع الرهبــان الذين

يجدونهم متمردين وعصاة، وذلك وفقاً لدرجة ذنوبهم، وذلك دونما تقدير للأشخاص، وأن لايوفروا الأشخاص العصاة على أساس العلاقات والقرابات، أو قوة أصدقائهم، بل سوف «يلقون بالشاة المريضة خارج القطيع، حتى لاتعدي الشياه الصحيحة»، وإذا ماتبين أن الرعاة أثناء تنفيذهم للعقوبات، وفقاً لأوامر الزوار التفقديين، وللقوانين المرعية، مهملين، إما في أنفسهم، أو بالنسبة للرهبان، سوف يعلن عنهم، ويعتقلون ومن ثم يعاقبون لدى الاجتماع العام للهيئة، حتى تأتي عقوبتهم بمثابة مثل رادع للآخرين، وإذا ما وجد راعي دير، هو ليس معفياً، من قبل الزوار التفقديين، مهملاً، ومتغافلاً، عليهم القيام من دون تأخير، بشجبه، وإبلاغ ذلك إلى أسقف المكان نفسه، حتى يتولى تعيين معاون لذلك الراعي يكون مستقيماً وحريصاً، حتى يجري عقد اجتماع الهيئة العامة، وإذا كان مخرباً، أو يستحق العزل لسبب من الأسباب، يتوجب بعد اخبار الأسقف عنه، عزله من منصب حكم رعوية الدير، ومن الدير من دون هياج أو محاكمة، وأن يتولى في الوقت نفسه مدير موائم تسيير الشؤون الدنيوية للدير، حتى يجري تزويده براعي، لكن إذا مارفض الأسقف أو أهمل تنفيذ هذه الأوامر، يتوجب على الزوار التفقديين، أو على رئاسة الهيئة الرهبانية العامة، عدم التراخي عن الإعلان عن هذا التقاعس الذي قام به الأسقف، وإعلام الكرسي الرسولي به.

ونحن نأمر بعمل هذه الأشياء نفسها في مسألة إعفاء رعاة ديرة، بعدم عزلهم من قبل الزوار التفقديين، أو من قبل رؤساء الهيئة الرهبانية العامة، محتفظين بعزلهم، للعرض أمام الكرسي الرسولي، وبناء عليه إذا ظهر أن أي راعي دير يستحق النقل أو العزل، هو سوف يتعرض، إما من قبل الزوار التفقديين، أو من قبل رؤساء الهيئة الرهبانية العامة، إلى التعليق ومن ثم التوقف عن ممارسة الأعمال الادارية لمنصبه، ويتوجب

هنا تعيين اداري مـوائم لبعض الوقـت لشغل ذلك المنصب، وبالنسبـة لأخطائهم وللأشيـاء الأخـرى التي تبدو مهمـة، وأنها ينبغي أن تعـرض على الهيئة الرهبـانية العـامة، سـوف ترسل الرئاسـة رسالة إلينا بوسـاطة رسل مستقيمين وحـذرين وعقلاء، يتم صرف نفقـات سفرهم بوسـاطة مبلغ كـاف يجري أخذه مـن الاسهام العـام، وذلك وفقـاً لإمكانات كل فئة، ويتـوجب على الزوار التفقـديين الـذين يقـدمـون فيها بعـد، القيام بفحص آثار الزوار التفقـديين المتقـدمين بكـل دقـة، وأن يرفعـوا تقـارير حول إهمالهم وأخطائهم إلى اجتماع الهيئة الرهبـانية العامـة المقبل، حتى يتلقوا بشكل معلن عقوبات موائمة، وتتوافق مع أخطائهم، وهذا الشيء نفسه نحن نأمر بمراعاته من قبل رعاة الديرة المترئسين أثناء اجتماع الهيئة الرهبانية العـامة، ونحن نأمر أيضاً، بأنه لايجوز لرعـاة الديرة أو لرؤساء الرهبان أن يقبلوا في أي دير من الديرة كهنة علمانيين للأوقـاف الكنسية، كما أنه لايجوز للذين جـرى من قبل قبولهم في الديرة السعـي للادعـاء لأنفسهم، والحصول على مكان، أو صـوت في الهيئة الرهبانية العـامة، أو في مهجع النوم، أو في المطعـم، أو في القـلاية، كما لا يجوز لهم ممارسـة اختـلاط غير منطقي في تجمعـات الرهبـان، بل المتـوجب أن يسلكوا بأنفسهم بشكل شريف، وأن يكونوا راضين بالمنافع الممنوحة إليهم، وأن يقـدمـوا بشكل صحيح تعبـداتهم الموسميـة في الـديرة، وعليهم أن لايطلبوا، أو أن يغتصبوا أي شيء أكثر، سواء في مجالات الأمور الروحية أو الدنيوية في الديرة، وإذا ما وجد أي من هؤلاء مذنباً أو مسيئاً من قبل الزوار التفقديين، سوف يجري حرمانهم من المنافع المذكورة،ويكون ذلك بوساطة الأسقف، في الديرة غير المعفيـة، وبوساطة الزوار التفقديون، أو بوساطة رؤساء الهيئة الرهبانية العـامة في الديرة المعفية، ونحن نأمر أيضاً بمـراعـاة جميع هذه الأحكام في الديرة التي ليس لها رعـاة ديرة خـاصين بها، بل لها رؤساء رهبان فقط، وكذلك في ديرة الراهبات، وذلك في جميع النقاط الموائمة لراعيات الديرة وللراهبات».

حول السيمونية

«وبما أن وصمة السيمونية قد لوثت بالعدوى عدداً من الرهبانيات النسائية، إلى حد أن هذه الرهبانيات نادراً ماتقبل أي راهبة من دون دفع، وسعياً منا لتلطيف هذا الشر الذي لايحتمل، والفضيحة لكل الدين، بالدعوة من أجل الفقر، نحن نمنع كلياً من عمل هذا من الآن وصاعداً، ونرسم أنه إذا ما أقدم انسان ثانية على اقتراف مثل هذه الجريمة (سواء أكان من مرتبة عليا أو دنيا) من كل من المستقبلة والراهبة المقبولة، سوف يجري طردها من الرهبانية النسائية من دون أي أمل بأن يتم قبولها ثانية، بل سوف تحتجز في مكان له أحكام أكثر دقة وأكثر قسوة، للقيام بالتوبة، أما بالنسبة للائي جرى قبولهن من قبل على هذه الصورة، قبل هذا المرسوم الصادر عن المجمع الديني، نحن نأمر بطردهن من الرهبانيات التي جرى إدخالهن بها بشكل طائش، ومن ثم قبولهن، وأن يوضعن في بيوت أخرى تابعة للطائفة نفسها، ولكن إذا حدث أنه بسبب عددهن الكبير، من غير الممكن وضعهن بشكل موائم، في مكان آخر، من الممكن استقبالهن، ومن ثم توزيعهن في الرهبانيات النسائية نفسها، لمنعهن من الجولان ثانية في العالم ومن ثم دمارهن، وبهذا تكون أماكنهن الماضية قد تبدلت، وجرى توزيعهن وتعيينهن في أماكن أدنى منزلة، وهذا نرسم بمراعاته أيضاً بالنسبة للرهبان وللتنظيمات الأخرى، ولكي لايكون بإمكانهم تسويغ أنفسهم بإدعاء السذاجة، أو الجهل، نحن نأمر أن يقوم أساقفة الأبرشيات في كل سنة بتأمين نشر هذا بشكل مخلص وأمين، كلمة كلمة».

حول قرار الحرمان الكنسي

«في أية طريقة من الطرق يقوم فيها واحد من الرهبان، أو من الكهنة النظاميين، بضرب أحدهما الآخر في الدير، ليست هناك حاجة لهذا السبب للإرسال إلى الكرسي الرسولي، بل ينبغي اخضاع المتضاربين

للنظام تحت الاشراف العقلاني المتحفظ لراعيهم، وإذا لم تكن عقلانية الراعي غير كافية لتقرير عقوبتهم، لابد له من تلقي المساعدة من حكماء أسقفيته».

بند حول الموضوع نفسه

«لقد سمعنا السؤال الذي أثير من قبل جماعتكم، حول هل الرجل العلماني الذي يقدم على مدّ يده بالضرب بطيش لرجل دين، أو لراهب، أو لمختلس، بناء على توجيه أو أمر الرجل الذي يعمل في خدمته، هل سينال عقوبة الحرمان الكنسي، لاسيما إذا لم يكن هناك من سبب لضرب المضروب، يبدو لنا أنه —مالم يكن قد وجّه الضربة أثناء القيام ببعض التدريبات الدورية النظامية— يتوجب على الراعي شخصياً، أن يتفوه بالحكم، أو في حال الضرورات المستعجلة، عليه أن يؤمن التفوه بالحكم من قبل أحد الرهبان، أو واحد من رجال الدين ذوي المرتبة الدنيا، ويتوجب عدم نجاة الذي أمر بالضرب للذين ضربوا، وكذلك الذين مارسوا عملية الضرب (حتى لو توفر سبب لفعل ذلك) من عقوبة الحرمان الكنسي مع الحرمان من شراكة المؤمنين، حتى يصلوا إلى الكرسي الرسولي نفسه».

حول الموضوع نفسه

«مع أن تحليل هؤلاء الذين مدّوا أيديهم بالعنف على رجال الدين، ونالوا مهانة عقوبة الحرمان الكنسي —باستثناء بعض القضايا من قبل أسلافنا— محفوظة للكرسي الرسولي، فإن بعض الواقعين تحت الحرمان الكنسي، يقومون من دون مبالاة بقرار الكنيسة، فلا يخافون من أخذ طوائف مقدسة، وغالباً ماجاء السؤال إلى الاستفتاء الرسولي، حول ماالذي ينبغي فعله بالنسبة إليهم، وبالنسبة إلى هؤلاء، نعتقد أن علينا القيام بعملية تمييز، لمعرفة هل مثل هؤلاء الناس يعرفون أنهم مقيدين بأغلال الحرمان الكنسي، أو أنهم لايتذكرون الحقيقة التي من أجلها

وقعـوا تحت حكم القـرار الصـادر، أو أنهم على الرغم من معـرفتهم بالحقيقـة، هم يجهلون الشريعـة، ولايعـرفـون أنهم لذلك مقيـدين بها، ونحن نقـدر أنهم إذا كـانوا أولاً علمانيين، يتـوجب عـزلهم بشكل أبدي من جميع الطوائف التـي تسلمـوها، وفي الحالات الأخرى على رؤسـاء الأساقفـة والأساقفـة أن يعرفـوا أنهم لايمتلكون السلطة بمنح التحليل من دون وصـاية الكرسي الرسـولي، وأن منح الغفـران لمثل هؤلاء الأشخاص هو مدمر كلياً إليهم، وأن المسائل الكبرى، يتوجب أن يفهم أنها محظورة على الذين محظـور عليهم بشكل واضح المسـائـل الصغـرى فقط، وقضايا من هذا النوع من المتـوجب نقلها إلى أذني الحبر الروماني، حيث منه فقط يمكن الحصـول على جـواب، وفقـاً لصرامة القضيـة، أو عـدالتها، وذلك حسبما تراه حكمتـه مناسبـاً، لكن إذا مااقترف الرهبـان جـرائم من هذا النوع، ومع أنـه قـد رسم من قبل البـابا الاسكندر، أن الرهبان والكهنة النظاميين، أينما ضرب أحـدهم الآخر في الدير، لايجوز إرسـالهم —لهذا السبب— إلى الكرسي الرسـولي، بل ينبغي اخضـاعهم للنظام، بمـوجب حكمة الراعـي وحسن تدبره، وإذا لم يكن حسن تدبر الراعي كافياً لتقرير العقوبة، يتوجب مساعدته من قبل حكمة الأسقفية، ومع أنه قد قال في مكان آخر، بأن هؤلاء الذين فرّوا من الدنيا، ولبسوا الرداء الديني في الدير، والذين اعترفوا فيها بعد، بين أشياء أخرى، بأنهم اقترفـوا مثل هذا الذنب، وأنهم نتيجـة لمواجهـة هذه الحقيقـة قـد نالوا عقـوبة الحرمـان الكنسي، ولكـن من دون اذن الحبر الرومـاني، لايمكن للراعي ولايجوز له تحليلهـم، مع أنه يستطيع معـاقبـة المذنبين بتقـويم مـوائم، ونحن في سبيل مصلحـة الديـن، ومن أجل سحب مـادة المراوغـة،نرغب في اظهـار أكبر مـراعـاة لهم، ولذلك نمنح الإذن إلى أساقفتهم، في منـح منفعة التحليل إلى مثل هؤلاء الأشخـاص، مالم تكن ذنوبهم كبيرة، وهائلة (من ذلك مثـلاً إذا أقـدموا على مـدّ أيديهم بعنف على أسقف أو على راعي ديـر، من أجل تشـويه أطرافـه، أو من أجل

سفك دمـه) فـوقتهـا لايمكنهم المرور بمثـل هذه الجرائم وتجاوزها من دون فضيحـة، وإذا ما مـدّ أي واحد من سكان الدير، يديه بعنف ضـد أي رجل دين من ديـر آخـر، من الممكن تحليله من قبـل راعيـه وراعي الشخص الذي تعـرض للأذى، ولكن إذا مـا ضرب علماني رجل دين، هو فقط (في سبيل تجنـب الفضيحـة) سيحصل على نعمـة التحليل من خلال الكـرسي الرسولي، لكن إذا —وفقـاً للتمييز الذي تقـدم ذكره— حدث بأن هؤلاء الأشخاص قد جرت ترقيتهم إلى الطوائف، فإن الذي يعـرف أنه نال التكـريس، على الرغم من نظام الكنيسـة، نحـن نرسم بوجوب إستمـرار تعليقهم عن ممارسة واجبات الطائفـة التي تسلموها، أما بالنسبة للآخرين الذين إما أنهم لايتذكرون الحقيقة، أو أنهم جاهلين بالشريعـة، وهنا مقـدرين الاستعمالات التي حـدثت حتى الآن للديرة، يمكن لراعيهم، بعد فـرض توبة نظامية عليهم، وبعد قيـامهم بتنفيذها، أن يمنحهم تحليلاً، ما لم تكن الجريمة جادة وجـريمة متميزة بضخامتها، أو أن الذي اقترفها قد تقدمت به السن، وصار في عمر مميز، وأنه بالتالي عندمـا اقترف الذنب، اقترفـه من دون نسيـان أو جهل، ونحن نفـرض على جميع الرعاة الالتزام بكل دقـة بهذا النظام، وإلاّ إذا ما قام أي واحد منهم بإسـاءة استخـدام السلطـة الممنوحـة لهم، سـوف يستحق خسـارة امتيازه».

بند حول الموضوع نفسه

«وبالنسبـة للراهبات، فـإن اخوتكم قـد سألتنا، بوسـاطة من تضفى عليهن منفعة التحليل، إذا ماحدث، وأقـدمت إحداهن بطيش بمدّ يدها بعنف ضد واحـدة أخرى، أو ضـد رجل مختلس، أو ضد مختلسيهن، أو حتى ضـد رجـال دين، وفي ردّ على سـؤالكم هذا نحن نجيب، ونرسم بشكل ثابت، ونقرر، بأنه يتوجب تحليلهن من قبل الأسقف الذي يوجد ديرهن في أسقفيته. البابا انوسنت الثالث، في المجمع العام».

حول الضمانات

«إن الذي جرى تحريمه من قبل الكرسي الرسولي بالنسبة إلى بعض البيوت الدينية، نحن نرغب ونأمر بمدّه إلى الجميع، وأن تجري مراعاته من قبل كل واحد، ومن قبل الجميع، أي أنه لايجوز لأي رجل دين، من دون إذن الأكثرية من الهيئة الرهبانية، ومن راعيه، أن يصبح ضامناً لأي واحد، أو أن يستلم مالاً كقرض من أي واحد، أكبر من المبلغ المفروض من قبل المجمع العام، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الدير لن يكون مسؤولاً بأي حال من الأحوال، أو مرغماً على التسديد عنه، مالم يكن واضحاً، أن المقصود من ذلك كان منفعة البيت نفسه ولصالحه، وكل من يحاول العمل معاكسة هذا القانون، أو أن يعمل ضده، سوف يكون خاضعاً لعقوبة نظامية قاسية».

حول المدفوعات

«إذا أي واحد، الخ: نحن نمنع بدقة أي واحد من الإقدام على تحميل الكنيسة المعهود بها إليه ديون آخرين، أو أن يعطي بذلك كتابة إلى أي واحد، أو أن يضع الأختام على أي شيء، يمكن به للكنيسة أن تثقل، ونحن نرسم بكل دقة، ونأمر، بأن أي واحد سوف يعمل العكس، سوف تكون الكنيسة غير ملزمة بدفع هذه الديون، وأي واحد، يمكن أن يقدم من الآن فصاعداً على معاكسة الأحكام المتقدم ذكرها، عليه أن يكون متأكداً من أنه سوف يعلق ويوقف عن إدارة المسائل الروحية».

قبول القوانين

بعد الفراغ من قراءة هذه القوانين، سمع رعاة الديرة ورؤساء الرهبان المجتمعين بأن الديانة المقدسة، بعد إصلاحها على هذا الشكل، سوف تتلقى زيادة سعيدة، وبناء عليه تلقوا بتشوق، وبموافقة عامة،

هذا المنهج، وكأنه منحة أرسلت من السماء وأمروا بنشره في جميع هيئاتهم الرهبانية، وإنزال العقوبات النظامية الصارمة على جميع المتجاوزين لهذا، وتدبر كثيرون كتابة المراسيم في كتب الشهداء، من أجل أن تتم تلاوتها في بيت الهيئة الرهبانية، وفقاً لأحكام القديس بندكت، من أن يدخلوا إلى قلوب الذين سمعوهم.

تضييق الحصار على بلنسية المدينة الإسبانية

وشنّ في هذا العام النبيل والمسيحي الممتاز، ملك أراغون مع حلفائه، الحرب، بنشاط متميز ضد مدينة بلنسية العظيمة، حيث جرى تضييق الحصار عليها من جميع الجهات، حتى أنها ضعفت وقاربت على الهلاك.

تكريس بعض الكنائس الفخمة

وجرى في حوالي الوقت نفسه تكريس بعض الكنائس الديرية الفخمة من قبل روبرت أسقف لنكولن، في مارش Marsh في أسقفية لنكولن، وكان ذلك في: رامسي Ramesy وبورغ Burg [بيتر بورا Peter borough] وسوتري Sautery وجرى تكريس كنيسة رامسي في ٢٢- أيلول، وكان ذلك يوم عيد القديس موريس ورفاقه، وكنيسة بورغ في ٢٨- أيلول، وكنيسة سوتري في الأسبوع نفسه، وكنائس أخرى كثيرة في جميع أرجاء انكلترا، وفقاً للمؤسسات والأحكام التي نشرت في لندن من قبل النائب البابوي أوتو.

بلدوين امبراطور القسطنطينية يزحف في بلاد الإغريق مع قوة مسلحة

وانطلق في هذه الآونة الامبراطور بلدوين، امبراطور القسطنطينية،

يريد المقاطعات الاغريقية مع قوة كبيرة، واستهدف اخضاع الذين ثاروا ضده شخصياً، وضد الكنيسة الرومانية، تحيط به قوة كبيرة، وذلك بقدر ما أمكن لحلفائه وأقربائه أن يمدّوه به، وفي سبيل تزويد خزينته بالمال، باع أكثر آثاره قيمة إلى الملك الفرنسي، ورهن بعض أكثر مقتنياته ثمناً، لأنه (كما تقدم الذكر أعلاه) قد جاء من النبالة الفرنسية، وقام البابا، في سبيل ازعاج منافسه واغضابه، أي الامبراطور فردريك، فقدم إليه يد المساعدة، بقدر ما أوتي من قوة.

ولادة ولد ذكر لسيمون دي مونتفورت

ومع مقدم العام الجديد، عندما كان أ. A أسقف شيستر يسير متوجهاً إلى لندن بناء على استدعاء من الملك، ولد الابن الأكبر لسيمون دي مونتفورت من إليانور زوجته في نيلوورث، وذلك ليزيد من قوة المملكة وسعادتها، لأنه كان يخشى بأن تكون الملكة عاقراً، وبناء عليه، ولكي يزيد الأسقف من مكانته شخصياً لدى الملك، أقام هناك بعض الوقت، وقام بتعميد الطفل، وحمل في اليوم نفسه إلى فراشه، لأنه هوجم من قبل مرض شديد، أوصله إلى حافة الموت.

رئيس أساقفة أنطاكية يدعي التفوق على الحبر الروماني

وفي العام نفسه، قام رئيس أساقفة أنطاكية (مع موافقة جرمان، رئيس أساقفة القسطنطينية، والمحامي عن الاغريق، ونائب البابا المضاد) فأقدم بطيش وعنف واندفع بوقاحة كبيرة، أوصلته إلى حد أنه أعلن من خلال سلطات فارغة عن الحرمان الكنسي للبابا، مع جميع الكنيسة الرومانية وبلاطها، وبشّر بوقار بالتجديف، ووضع نفسه وكنيسته أمام قداسة البابا والكنيسة الرومانية، في مجالي العمر والرتبة، أي أن كنيسته كانت متفوقة على الكنيسة الرومانية، لأن القديس بطرس قد تولى في المقام الأول حكم كنيسة أنطاكية لمدة سبعة أعوام مع التشريف الأعظم،

لأنه قد استقبل هناك بأعظم احترام ممكن، ومثل ذلك جرى تتويجه بشكل مشرف، لكنه تعرض في روما للمضايقة الشديدة، وأوذي مراراً، ووجّه إليه اللوم، وأخيراً بعدما عانى وتألم مع تابعه الرسول بولص، في أيام الامبراطور نيرون، أنهى تعذيبه بموت مرعب، وبناء عليه الاستحقاق جدير بالمدينة والمقاطعة مع أهلها وسكانها، الذين كانوا الأعز والأكثر محبة لدى القديس بطرس، وبالذين أظهروا نحوه الاحترام، وليس للذين أنزلوا به العذاب، وأهانوه، وهكذا كان من الواضح أنه أضفى بكرم منه سلطة الربط والحل على الكنيسة الاغريقية، وليس على كنيسة روما، التي تلطخت الآن بوصمة السيمونية، والربا، والشره، وذنوباً أخرى كثيرة.

وبوساطة هذه المناقشات الخرافية وسواها، أغلق البابا المضاد المذكور مواضع تشوهاته وأخفاها، من أجل دماره، وعمل تسويغاً لذنوبه، لكن عمود الكنيسة، وهو البابا الصحيح، والخليفة لبطرس الرباني (مع أنه غير مقلد له تماماً) قد بقي ثابتاً دون أن يتحرك، واحتفظ بجميع انتقاماته حتى يوم الحساب.

فيضان للأنهار غير اعتيادي وغير طبيعي

وفي العام نفسه، تدفقت الأنهار بشدة، وفاضت فوق عدد كبير من الحقول والأراضي المستوية، وجاء ذلك بشكل غير اعتيادي وغير طبيعي، وكانت الأماكن التي غمرتها ليس فيها ماء من قبل وجافة تماماً، وازدادت فجأة، وبشكل سريع مرعب، إلى حد أن الأسماك سبحت في أرجائها، وسببت قسوة الأنواء وأمراضها سريان كثير من الأوبئة المتنوعة، وبذلك كانت قسوة الأنواء أشبه بطاعون على الأرض، وشعر شعب المنطقة مع المزارعين، وكذلك الفرسان، والنبلاء، ورجال الدين بسوط عذاب الرب هذا.

كيف أودع روبرت بيغر

وهو راهب ومحقق مع الهراطقة السجن الدائم بسبب وحشيته

وكان هناك في هذا الوقت نفسه راهب من طائفة المبشرين (الدومنيكان) اسمه روبرت بيغر Bugre وكان رجل علم وأدب، وكان قديراً وفصيحاً في عمله بالتبشير، وقد اكتشف وجود عدد كبير من الناس في مملكة فرنسا، قد تلطخوا بشرور الهرطقة، وبشكل خاص في فلاندرز، حيث بوساطة عادة قديمة، كان السكان مشهورين دوماً بشرور الربا، أكثر من أي شعوب أخرى، ولذلك غالباً ماتولى تفحص هؤلاء الناس بكل دقة بشأن إيمانهم، فوجدهم قد ابتعدوا أو بالحري ضلوا عن الطريق الصحيح، وبالتعاون مع السلاح المدني، مع عون ملك فرنسا، تدبر الراهب روبرت المذكور احراقهم، وقد تميز هؤلاء جميعاً وعرفوا باسم عام هو «البيغريين»، سواء أكانوا: بطرسيين، أو يهويين، أو ألبينيين، أو تلوثوا بهرطقات أخرى، وكان روبرت هذا نفسه قبل أن يرتدي الرداء الرهباني من جماعة «البيغريين»، ونتيجة لهذا عرف جميع رفاقه من الطائفة نفسها، فأصبح المتهم لهم، والمطرقة، والعدو الخاص، وأساء أخيراً استخدام السلطة التي أسندت إليه، وأصبح متشامخاً، وقوياً، ومرعباً، مزج الصالح بالطالح، وعاقب الأبرياء وذوي العقول الساذجة، ولذلك مُنع من متابعة ممارسة غضبه، في ذلك المنصب الرهيب، ولكن بما أن جرائمه (التي أعتقد أنه من الأفضل السكوت عنها بدلاً من حكايتها) أصبحت فيما بعد واضحة أكثر، ومشهورة، أدين وحكم عليه بسجن أبدي.

كيف بهتت شهرة الامبراطور فردريك

وفي خلال العام نفسه، أعتمت شهرة الامبراطور فردريك وتلطخت من قبل الأعداء الحسودين والخصوم، فقد عزي إليه أنه كان متشككاً

بالعقيدة الكاثوليكية، أو بالحري قد ضلّ وابتعد عن الطريق القويم، وقد تفوه في بعض خطبه بمايمكن أن يستخرج منه ويشك، بأنه لم يكن فقط ضعيفاً بالإيمان الكاثوليكي، بل إن الجريمة التي كانت أعظم وأشد خطورة هي أنه كان فيه هرطقة كبيرة جداً، وتجديف مخيف وكفر مكروه من قبل المسيحيين كلهم وملفوظ، لأنه قد روي بأن الامبراطور فردريك قد قال (مع أنه ربما من غير الموائم ذكر ذلك) بأن ثلاثة مشعوذين، قد قادوا ببراعة متناهية، وضللوا معاصريهم ليحصلوا لأنفسهم على سيادة العالم، وكان هؤلاء هم:

موسى، ويسوع، ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وأنه قدم بشكل غير تقوي بعض الهذيان الشرير، والذي لايمكن تصديقه مع التجديف، فيما يتعلق بالقربان الأعظم قداسة، ليكن هذا بعيداً، وليكن نائياً، عن أي رجل مستقيم، على الأقل هو مسيحي، بأن يفتح فمه ويحرك لسانه للتفوه بمثل هذا الهذيان، التجديفي، ولقد قيل أيضاً من قبل منافسيه، بأن الامبراطور وافق، لابل آمن بشريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) أكثر من إيمانه بشريعة يسوع المسيح، وأنه عمل بعض العاهرات المسلمات خليلات له، وسرت اشاعة بين الناس (لاسمح الرب أن تكون صحيحة بالنسبة لمثل هذا الأمير العظيم) بأنه متحالف منذ زمن طويل مضى مع المسلمين، وأن صداقته نحوهم أعظم من صداقته مع المسيحيين، وأن خصومه الذين يسعون نحو تشويه سمعته، قد حاولوا أن يؤكدوا هذا بعدة براهين، وسواء أأذنبوا أم لا، وحده الذي هو غير جاهل بشيء يعرف.

روبرت الناسك يصبح مشهوراً

وفي العام نفسه، أصبحت أيضاً شهرة روبرت الناسك معروفة في الخارج، لأن قبره في نيربورا Knaresborough أخذ —كما قيل— يرشح زيتاً دوائياً بكميات كبيرة.

-٦٩٤٦-

نهاية السنة

كان الشطر الأخير من هذا العام كثيف الغيوم وممطراً، واستمر ذلك حتى مضي الربيع، عندما تداعت كل الثقة بالموسم، وخلال شهرين أو أكثر من أشهر الصيف، كان المناخ جافاً إلى أبعد الحدود، وبشكل غير اعتيادي، وحاراً، ومع اقتراب الخريف أصبح المناخ رطباً، وممطراً، وبذلك استرد الموسم بشكل رائع، وأينعت نباتات جديدة مكان النباتات التي ذبلت، وكانت هناك كميات وافرة من القمح، وفي نهاية الخريف، حدث على كل حال، أن الذين أخروا قطافهم قد حرموا من مواسمهم، بسبب تساقط أمطار غزيرة متواصلة، حتى أن القش والقمح قد تعفن، وتسبب هذا الخريف غير الاعتيادي، الذي عدّ بشكل عام جافاً وبارداً بسريان عدة أنواع من الأمراض الخطيرة، وما من أحد قد رأى من قبل مثل كثرة الذين أصيبوا بالحمى الربعية، ويتوجب أن نوضح أيضاً، أنه في هذا العام كان حرف يوم الأحد هو ب. B وأن يوم الاستعداد كان يوم جمعة، وقد دعي يوماً مقدساً، وأن اليوم التالي قبل عيد الفصح (عند اليهود) كان يوم بشارة مولانا، وكذلك يوم آلامه، واليوم الثالث بعد الفصح الحقيقي هو يوم قيامة ربنا، لأن ربنا قام ثانية في السادس والعشرين من نيسان وتأكد في اليوم الرابع [كذا] قبل ذلك، أي في الرابع والعشرين من نيسان، وهكذا وقع كل شيء في هذا العام في وقته الصحيح.

خلاف بين الملك وبين غيلبرت الإيرل مارشال

في سنة النعمة ١٢٣٩، التي كانت السنة الثالثة والعشرين من حكم الملك هنري الثالث، عقد الملك بلاطه في عيد الميلاد في وينكستر، مع وفرة عظيمة من التشريف الصحيح، والسخاء الكبير، لأن الكنيسة في ذلك المكان استمرت بالحصول على مايكفي وتزويد الملك به، لا بل بوافر الحاجيات من أجل جميع هذه النفقات الخاصة بالقصف والشرب،

وهذا لم يكن الملك آسفاً البتة من أجله، لأنه من أجل هذا العمل، لو كان لديه موبخ صادق، وله نفوذه، ودقيقاً، لاستحق عليه ملامة شديدة، ولولا أن أعطيات صدقاته، التي استمر يمنحها بشكل واسع وبكرم (التي كما ورد في كتاباتنا المقدسة تغطي ذنوبنا) أنقذت مثل هذه الأعمال، لسببت رعباً عظيماً له نفسه وللمملكة، وذلك بإثارة غضب الرب ضده، وعندما —على كل حال— أقيم القداس في يوم عيد الميلاد، وأكمل بشكل مهيب، و بصورة فخمة، ومن أجل أن لاتأتي بهجة هذا العالم من دون شوائب، إن عدم النظر إلى الحادثة أزعج تماماً جميع سرورهم وقصفهم وأفسده.

وعندما عمل الملك ظهوره في قصره الملكي ليتناول طعام افطاره، وصل غيلبرت، الايرل مارشال إلى الباب، مع أتباعه الفرسان، ليحصل على قبول، لكن عندما صعد نحو الباب، ورغب بالدخول، حرمه حفظة أبواب الملك والمارشالات بفجاجة من الدخول، وردوه بعصيهم مع حاشيته بمهانة وازعاج، وعندما رأى الايرل ذلك، شعر عن قناعة بأن بعض النمامين قد زرع بذور الخلاف بينه وبين الملك، وأن هذا الذي فعل لم يكن من دون تفويض الملك، وقام هو —على كل حال— فكبت مشاعره، وعاد إلى بيته في المدينة، ثم إنه في سبيل استمرار هدوء العيد، ولكي لايفسد وئامه، دعا بوساطة صوت البوق، ليس فقط أصدقائه، بل عدداً كبيراً من الآخرين، اختارهم للاجتماع على مائدته، من أجل تناول طعام الإفطار، وفي صباح اليوم التالي، أرسل —على كل حال— بعض الرجال من ذوي المراتب العليا إلى الملك، وطلب منه أن يعلم لماذا أنزل به من دون سبب مثل هذا الأذى العظيم، مع أنه الايرل الذي كان خاضعاً باخلاص له، وهو صاحب أصل نبيل، ولاسيما في مثل ذلك اليوم، وأعلن أنه على استعداد لتبرئة نفسه بالمحاكمة، حول جميع النقاط التي أثيرت ضده، وضد جميع الذين أثاروا العداوة بين مثل

هاتين الشخصيتين المشهورتين، وأجابهم الملك وهو غاضب:

«من أين حصل الايرل غيلبرت على قرنيه؟ وكيف حدث أنه يهدد برفع كعبه فوقي، ضدي أنا الذي من الصعب بالنسبة له أن يرطم؟ وأخوه ايرل رتشارد الذي كان خائناً دموياً، وقد ثار ضدي وضد مملكتي، أنا جعلته سجيناً، عندما اشتبك بصراع مميت ضدي في ايرلندا، وقد جرد من ممتلكاته، ووضع في السجن وهو جريح، حتى أنهى انتقام الرب، الذي استحقه، حياته، وإلى الايرل غيلبرت هذا منحته ميراثه، بناء على الالتماسات المستمرة لادموند رئيس أساقفة كانتربري، وقد منحته ذلك كمعروف، وليس لأنه استحق ذلك البتة، مع أنني أرغب بسحبها منه».

ولدى سماع الايرل هذا، ارتعب إلى درجة كبيرة جداً، وسحب نفسه إلى المقاطعات الشمالية، لأنه الآن بدأ يعاني من غضب الملك المعلن، كما أنه بعد هذا لم يحب الملك، هو أو أخوه ولتر بعاطفة صادقة، كما فعلا من قبل، كما أنهما لم يعودا يتمتعان بالازدهار.

موت إدموند أسقف شيستر

في يوم القديس اسطفان، أغلق ادموند، أسقف شيستر حياته.

الملك يمنح كونتية ليستر إلى سيمون دي مونتفورت

في يوم طهارة العذراء المباركة، منح الملك كونتية ليستر إلى سيمون دي مونتفورت، وكان قبل ذلك قد استدعى أخاه الأكبر ايرل ألماريك Almaric وطمأنه وأرضاه حتى لايثير في أي وقت أي خلاف حول هذه المسألة.

استدعاء الملك ستيفن سيغريف إلى مجالسه

وفي هذه الآونة، استدعى الملك، ستيفن سيغريف إلى مجالسه.

النائب البابوي يستدعي رعاة طوائف الرهبان السود للاجتماع في لندن

وفي الوقت نفسه، استدعى النائب البابوي جميع أساقفة انكلترا، للاجتماع في اليوم الذي يغنى فيه مزمور: «دعوا القدس تبتهج» في لندن، ليناقشوا هناك شؤون الكنيسة، وهناك أعطى بعد مداولات دقيقة، إلى رهبان الطائفة السوداء، بعض القوانين، القصيرة والمحكمة، حتى تنفذ من قبلهم من دون جدل، وقد لطف النظام الشديد لديهم، في عدد من النقاط.

إلغاء انتخابي الأسقفين المنتخبين لنورويك وشيستر

وفي الوقت نفسه جرى بتدخل من الملك (بسبب أن هدفه بانتخاب وليم الأسقف المنتخب لبلنسية لم ينجح) إلغاء انتخاب الأسقف المنتخب لنورويك، الذي كان رئيس رهبان البيت نفسه، وكان رجلاً جديراً بالاحترام، من جميع الجهات، ومستقيماً، وفعل الشيء نفسه بالنسبة لانتخاب أسقف شيستر، أي ر. R مستشار الملك، الذي طُلب ليكون أسقفاً لوينكستر، وكان رجلاً صادقاً، ومستقيماً، وكان وحده تقريباً ركيزة الصدق بين رجال البلاط.

انتخاب وليم دي ريل أسقفاً لشيستر

وفي هذه الآونة، رأى رهبان كوفنتري أن الملك استمر دوماً يعيق الكهنة النظاميين ويمنعهم من القيام بانتخابهم، وأنه لم يوافق على أي واحد جرى انتخابه من قبلهم، مالم ينل الحظوة الملكية والقبول، ولكي لاتعاني كنيستهم من خسائر لايمكن تعويضها، ومن الأذى من خلال التأخير والتأجيل المتواصل والتوقعات، قاموا في حوالي أيام عيد القديس متى، فانتخبوا بالاجماع وليم دي ريل، وكان كاهناً خاصاً لدى الملك، وكان رجلاً مستقيماً، وواحداً من البارعين في شريعة البلاد، ولقد

انتخبوه ليكون أسقفهم والراعي لأرواحهم، لأنه بدا أنه كان رجلاً غير ملطخ بأي سوء، يمكن أن يثير الرفض أو الاعتراض.

استدعاء النائب البابوي للعودة إلى الوطن لكنه بقي في انكلترا بناء على طلب الملك

وفي تلك الآونة كان صاحب القداسة البابا، يسمع بشكل متواصل، لابالحري يومياً، ويتلقى اتصالات، بأن الفضائح التي تسبب بها الطمع الذي لايعرف الكفاية مع شره الرومان، قد ازدادت يومياً من سيء إلى أسوأ في انكلترا، فاستدعى نائبه أوتو، وطلب منه العودة فوراً إلى روما، وبناء عليه دعا النائب البابوي أساقفة انكلترا للاجتماع في لندن، للتباحث حول عودته، وللترتيب من أجل أمان مروره، وعندما سمع الملك بهذا، بات مرعوباً كثيراً على نفسه، من الاجتماع العام الذي كان على وشك الانعقاد في ثمانية الفصح، وذلك عندما كان متوقعاً وصول أسقف بلنسية المنتخب، ووضع ثقته كلها بالنائب البابوي، لأنه كان حاضراً، ومع ذلك كان حزيناً جداً وخائفاً، خشية أن يثور النبلاء والرجال ذوي المراتب في المملكة ضده باتفاق عام، بسبب تجاوزاته المتنوعة، وأعمال خروقاته المتكررة ضد القوانين التي طالما وعد وأقسم على مراعاتها والحفاظ عليها، ولذلك تقدم بالتماسات سريعة وملحة إلى النائب البابوي، حتى يرسل أكثر الرسل مواءمة، بكل سرعة ممكنة إلى البابا، لكي يبقى في انكلترا، حتى يمكن بوساطته قمع الاضطراب الوشيك، وبقي النائب البابوي، لأنه لم يرغب في ازعاج الملك برفض طلبه.

بطرس المسلم يقدم إلى الامبراطور مبلغاً كبيراً من المال مقابل فديته

وعرض في هذه الآونة بطرس المسلم، الذي احتجزه الامبراطور

فردريك أسيراً لديه، دفع مبلغ عشرة آلاف باوند استيرليني فدية، ولكي يحصل على حظوة الامبرطور، وبـذلك يجري اطلاق سراحـه ويتحـرر، وكان الامبراطور قـد وافق على هذا، على شرط أن يصبح صـديقه ملك انكلترا، ضامناً من أجل دفع مثل هذا المبلغ الكبير من المال، وأن لايقوم بطرس المسلم المذكـور ولا أي من أتبـاعـه، منذ ذلك الحين فصـاعـداً، بتسبب إلحاق الضرر بـالجلالة الامبراطوريـة، بأي شكل مـن الأشكال، ثم إن بطرس المذكـور كتب إلى صاحـب القـداسة البـابا، وإلى أصدقـائه الآخـرين، يرجوهـم، بما أنه كان دومـاً على استعـداد، وجاهزاً وراضيـاً بانفاق أمواله في سبيل رفع شأن الرومان ومصالحهم، لحث ملك انكلترا المذكور، بوسـاطة كل من النائب البابوي، وأصـدقائه المقـربين الآخرين ليتعهد باسمه شخصياً وباسم مملكته بالقبول بالشروط المذكورة.

وعندئذ صـار النائب البابوي وسيطاً نشيطاً، ووكيـلاً في هذا العمل، وقال بإنه لايستطيع بشرف أن يرفض تقديم المسـاعدة لرسوله السجين، لكن الملك رأى أن الفخ كـان منصـوباً له، وعـرف مقـدار الخطر الذي يمكن أن يحيق بمملكتــه، وأن ذلك ليس من شأن الرومــان، مـادامت مقتنيـاتهم محفـوظة إليهم، وانفجر متفـوهاً بكلمات غـاضبـة، وأقسم أنه آسف لأنه تخلى عن الرجال الانكليز الأمنـاء، واستدعى النائب البابوي إلى انكلترا، وهو الذي بدد ثروات البــلاد، ومـزج الصـواب مع الخطأ، وفي ظل مثـل هؤلاء الحكام أصبحت انكلترا آنئـذ —وبالفعل كــانت كذلك— كرماً، كل من يمر على الطريق يلتقط منه عناقيد، لأنه ليس له سور يحميـه ويحيط به، ولاحارس يحرسه، لأن الذي حرّمـه اللاهوتيون مرة بحرارة، سمحوا به مرة أخرى.

إعطاء سردينيا إلى الامبراطور

في هذا العام، عندما كان الامبراطور يمضي الشتاء في ايطاليا، أعطيت له الجزر الغنية، الواقعـة في البحر المتوسط، والمجـاورة لمدينة بيزا، والتي

كانت أكبرها وأعظمها قوة جزيرة سردينيا، وتمّ التخلي له عنها، وقد قيل بأن امتياز هذه الجزيرة، كان يعود بشكل خاص إلى ميراث القديس بطرس ووقفه، لكن الامبراطور أكد أنها تعود منذ زمن قديم إلى الامبراطورية، إنما بسبب انشغالات الأباطرة، ولكثرة الضغوط الأخرى والضرورات الامبراطورية قد جرت خسارتها، وأنه قام الآن باستردادها إلى جسم الامبراطورية، وقال:

«لقد أقسمت، كما يعرف العالم تمام المعرفة، بأنني سوف أسترد الأجزاء المتفرقة من الامبراطورية، وهذا لن أكون متراخياً في انجازه»، وبناء عليه هو لم يعبأ بتحريم البابا، وبعث ابنه، لتسلم حصة الجزيرة المتقدم ذكرها، التي منحت إليه، وعندما سمع البابا بهذا امتلأ بأعظم الغضب، ونهض للقيام بانتقام علني، لأنه عدّ فقدانها خسارة عظيمة، لأن جزيرة سردينيا —كما قيل— كانت في الحقيقة، مكان لجوء للتجار، وموضع راحة للناس الذين جنحت سفنهم، وملاذاً للمنفيين، وقد حكمت من قبل أربعة مقدمين، هم الذين أطلقوا عليهم اسم قضاة، وكانت الخسارة ثقيلة، لكن طريقة خسارتها كانت أثقل في تحملها، وقد بدت كإيذاء كبير، وظهر أن الكراهية التي تفجرت بين الامبراطور وبين البابا، كانت أشبه بجرح قديم، أنتج قضايا قذرة.

رئيس أساقفة كانتربري يرهق الرهبان

وفي هذه الآونة ألقى ادموند رئيس أساقفة كانتربري يده بثقل أكثر على رهبانه، وجرى وضع رهبان كانتربري تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، كما أن رئيس الرهبان الجديد الذين انتخبوه، قد وضعه أيضاً تحت الحرمان الكنسي، وكذلك وضع الذين انتخبوه.

خلاف بين أسقف لنكولن وبين كهنته

وأصبح أسقف لنكولن أيضاً مطرقة ومعذباً وحشياً للرجال الدينيين

في أسقفيته، لأنه ثار بدون تردد ضد الكهنة النظاميين العـائدين لكنيسته الكاتدرائية، الذين أوجـدوه، وطالب بكل حرارة بعـزل عميد لنكولن، وأنهم ينبغي زيارتهم زيارة تفقـدية مـن قبل الأسقف نفسـه، وذلك على عكس مـا كانـت عليه عـادة الكنيسـة منذ زمن مغـرق بالقدم، وتقـدم الكهنة على كل حال بشكوى مستعجلة، وقاموا بعد أعمال تأخير واعاقة طويلة، وخلافات كبيرة، فأحالوا القضية إلى محكمين هم: وولتر أسقف ووركستر، ورئيس شمامســة المكان نفســه، والمعلم أ. A أوف بكل Beccles وأنهم إذا لم يقـومـوا بالاجـراءات بشكل قـانوني، جـرى السماح لكل واحد من الطرفين بالترافع ثانية إلى البابا، وفي الوقت نفسه توقفت الفئتـان عن الزيارة، وبهذه الإضـافـة، أي «توقف الفـريقـان في الوقت نفســه عن الزيـارة» كـان معنى هذا أن فـريق الرهبـان كـان في خطر، لأن الأسقف لم يزرهم قـط، والذي لم يبـدأ قط لايمكن إيقـافـه، لأنه كما جــاء بالأمثـال، الـذي ليس لديه قــرنين، لايمكن أن يخسر أياً منهما، ومع هذا أن يتوقف العميد عن الزيارة، الأمر الذي كان في سبيله يناضل الكهنة، قـد ظهـر بذلك أنه قـد جـرد مـن ممتلكاته، ولو للوقت الحالي، وبـذلك ازداد الخلاف، ونشـأت فضيحـــــة كبيرة، وهكذا ثـار الخلاف والصراع فيما بينهم، ووصـل بذلك إلى حـــد إثارة مشــاعـــر الغضب، فلم يسمح الكهنة للأسقف بالـدخول إلى هيئة رهبـانيتهم، أو القيـام بأية زيارة تفقـدية بينهم، وأعلنوا بوضـوح أمـام الأسقف نفسـه بأنهم كـانـوا آسفين جـداً، أنهم أوجـدوا أسقفـاً مـن مثل هذا الشخص الدنيء، ونشب خلاف كبير، وبعـد قليل من الإنفاق بلا فـائدة من على الجانبين، عملت مـرافعة لتقـديمهـا إلى البابا، وجـرى تعيين المعلم أودو دي كنكلني Kinkelny محامياً عن الهيئة الكهنوتية، وفي أحـد الأيام وقعت واقعة مدهشة:

عندمـا كان واحـد من الكهنة المؤيدين لموقف الهيئة الكهنوتيـة، يعظ

الناس في بناء كنيسة لنكولن الفخم، قدّم إليهم جميعاً شكوى جادة ضد ظلم الأسقف، وتفوه بالكلمات التالية:

«نحن وإن كنا صامتين، فإن الحجارة سوف تصرخ رافعة صوتها عالياً»، وعندما تفوه بهذه الكلمات، تحطم جزء كبير من الكنيسة وتهاوى.

عواصف جديدة من المطر

ومع اقتراب الربيع، وفي حوالي أيام عيد الفصح، توقفت عواصف الريح، والأمطار الغزيرة، وذلك بعدما استمرت بشكل متواصل لمدة أربعة أشهر، عاملة الوحل على الأرض، إلى حد أن البحيرات والمستنقعات، كادت تخنق القمح، وتفسد الأجواء.

مقتلة المسلمين في إسبانيا

وفي العام نفسه، في يوم الثلاثاء بعد الفصح، عملت مذبحة كبيرة بين المسلمين في منطقة قرطبة، من قبل ملك قشتالة، أخو بلانشي، ملكة فرنسا، وأم الملك.

وفاة وليم دي كانتلوب

وفي تلك الآونة نفسها، وبالتحديد في السابع من نيسان، مات البارون الشهير، وليم دي كانتلوب Cantelupe والد أسقف ووركستر، عن عمر متقدم.

الملك يسعى لإعادة مستشاره

وفي هذه الآونة، وبالتحديد، في الأسبوع الذي أعقب عيد الفصح، أصبح الملك آسفاً، بسبب عمله غير النظامي وغير المستقيم، في انتزاعه ختمه، وإبعاده عن نفسه وعن بلاطه مستشاره، أسقف شيستر، الذي شغل من قبل ولمدة طويلة منصبه بأمانة، وقد سعى الآن بوساطة

مختلف وسائل الجذب والوعود إلى إعادته، لكنه كان —على كل حال— يؤثر التقاعد والاعتزال، والهدوء للعناية بنفسه، والاستمرار بربحه ونجاته من خطر حمل الخاتم، ولذلك رفض الوقوع ثانية بالمصائد التي نجا منها مرة، وتذكر كيف أنه دعي وجرت تسميته لأسقفية وينكستر، وكيف أن انتخابه قد ألغي من قبل الملك، الذي كان قد خدمه لمدة طويلة بكل اخلاص، وهو أيضاً قد خدم والده في منصب آخر.

ملك اسكوتلندا يتزوج من ابنة اينغلرام دي كوسي

وفي هذه الآونة اقترن الاسكندر، ملك اسكوتلندا بابنة اينغلرام دي كوسي Engelram de coucy وكان باروناً نبيلاً من المملكة الفرنسية، وكانت فتاة جميلة اسمها مريم، وجرى الاحتفال بالعرس بشكل مهيب في روكسبورغ Roxburgh في يوم أحد الشعانين.

عدم مغادرة النائب البابوي بناء على طلب الملك

كان النائب البابوي، وكأنه على وشك المغادرة، والعودة إلى البلاط الروماني، ولذلك استأذن الملك بتواضع، وكذلك رؤساء الأساقفة، والأساقفة، وسكان لندن، في قداس أعدّه خصيصاً لهذه الغاية، وقد باع الخيول الأصيلة التي أعطيت له، بشروط جيدة، واشترى خيولاً عادية مكانهم، وأعدّ حقائبه، وهيأ سرج ظهور المطايا، وكان الملك يعتقد أنه سوف يموت بغيابه، فبذل جميع الجهود التي كانت بطاقته، لاقناعه، بالمكوث ولو لمدة صغيرة أطول، ذلك أنه كان قد بعث إلى البلاط الروماني واحداً من محاميه، الذين احتفظ بكثيرين منهم (مثلما يحتفظ الصياد بكلاب الصيد) ليبقي منتخبي الأساقفة متفرقين، وكان هذا المحامي هو سيمون النورماني، وكانت مهمته الحصول من البابا على أمر إلى النائب البابوي ليطيل مكوثه في انكلترا، ليتحاشى كثيراً من المخاطر

هناك، ولم يكن في هذا الرأي مخدوعاً، لأنه عندما كان جميع أثاث النائب البابوي وحقائبه قد اكتمل إعداده، رجع سيمون النورماني، جالباً معه رسائل، حصل عليها بما يتوافق مع رغبة الملك، ولدى إطاعة النائب البابوي لمحتوياتهم غلب السرور على الملك، أما النبلاء الذين كانوا يعرفون تقلبات الملك مثل مراوغة الثعلب، فقد غادروا غاضبين، دون أن يحققوا هدفهم، ومقتوا كلام الملك مثل مقتهم كلام المغالطات السوفسطائية.

انتخاب وليم دي ريل إلى أسقفية نورويك

وكان رهبان كوفنتري قد فرغوا الآن من إعداد شروط مشرفة من أجل انتخاب الأسقف مع كهنة كنيسة ليشفيلد Lichfield ووافقوا —كما ذكرنا من قبل— بالاجماع، على انتخاب وليم ريل، ليكون أسقفاً لهم، وذلك من خلال الخوف، أنهم إذا ما انتخبوا أي واحد آخر، غير محظي لدى الملك، سوف يعارضهم الملك مواجهة، وسوف يسبب لهم الاضطراب، كما هي العادة، وفي الوقت الذي بقي فيه وليم المذكور في حالة تردد، وتعليق، ومثل رجل حكيم ومجرب، يزن حوادث المستقبل بميزان العقل، رأى رهبان نورويك، أنهم قد انتظروا لوقت طويل، لأنهم لم ينتخبوا وليم المذكور، أسقفاً لأنفسهم، ذلك أنهم بهذا الانتخاب سوف لن يزعجوا الملك ولا أي واحد آخر، ولذلك اجتمعوا على الفور مع بعضهم، وانتخبوا وليم دي ريل المذكور بمثابة أسقف لأنفسهم، وعند ذلك رفض وليم المذكور الأسقفية الأخرى التي حصل عليها بالحظوة وقبل أسقفية نورويك، ذلك أنه فضّل البقاء في انكلترا مع الانكليز، على الذهاب إلى ويلز، والبقاء مع الويلزيين غير المدجنين.

تحصين برج لندن

وجرى في هذا العام تحصين برج لندن، مما جعل سكان لندن يخشون

بأن يتحول هذا لإيذائهم، ولدى تقديمهم شكوى حول هذه المسألة إلى الملك، أجابهم بأن ذلك لم يكن للإضرار بهم أو لإهانتهم، وقال:

«بل إنني سوف أسعى، من الآن فصاعداً، بإعادة بناء قلاعي، لأن أقلّد إخواني، الذين أفادت عنهم التقارير، أنهم أكثر حكمة مما أنا عليه».

تزايد العدوانية والكراهية بين الامبراطور وبين البابا

وفي أيام الصوم الكبير من العام نفسه، رأى البابا المسيرة الطائشة للامبراطور، وسمع كلامه الذي سوغ به ذنوبه، حيث أنه بتقديمه الحظوة والمساعدة لبعض نبلاء سردينيا وقضاتها، استمر حتى استولى عليها، وأدخلها في حوزته، ومازال مستولياً على أرض وقلاع أسقف سردينيا، وقد أعلن باستمرار، بأنهم حصة من الامبراطورية، وأنه بيمينه الرئيسي والأول قد أعلن أنه سوف يحافظ على حقوق الامبراطورية، بقدر ماأمكنه من قوة، وأنه سوف يجمع الأجزاء المتفرقة منها، وأنه بعمله هذا قد زاد الغضب عنفاً ضده، ورفع ضده بعض الشكاوى الثقيلة والدعاوى، وغالباً ما كتب بجرأة وبدقة إليه، وكثيراً مانصحه بوساطة عدد كبير من الرسل الخاصين، الذين كانت سلطاتهم تستوجب أن ينالوا منه، أعظم الاهتمام، وأن يقلع عن حرمان الكنيسة من ممتلكاتها، التي منحت إليها بوساطة سجلات قديمة، وتعامل معه مثل الطبيب الماهر، الذي استخدم أحياناً الكمادات، ولجأ في وقت آخر إلى استخدام أداة الكي، ومزج التهديد مع الاقناع، والرسائل الصديقة مع الانتقادات المرعبة، وبقي الامبراطور —على كل حال— عاصياً رافضاً لطلبه، وعلّل أعماله وسوغها على حجج تأسست على المنطق، وبناء عليه قام صاحب القداسة البابا في أحد السعف، بحضور عدد كبير من الكرادلة، وفي حالة كان يغلي بها من الغضب في روحه، فحرم بشكل مهيب كنسياً الامبراطور فردريك المذكور، وكأنه كان يريد أن يخلعه من

منصبه الامبراطوري على الفور، وألصق به تهماً كثيرة، وأعلن أنه سيظل مملوكاً من قبل الشيطان حتى وفاته، وفي استخدامه لهذه الكلمات، التي كان وقعها مثل صواعق غضبه، أثار الرعب في قلوب جميع الذين سمعوه.

نص قرار الحرمان الكنسي الذي أعلن ضدّ الإمبراطور فردريك

«باسم الرب القدير، الأب، والابن، والروح القدس، وبوساطة سلطتي الرسولين: بطرس، وبولص، نحن نحرم كنسياً، ونحرم من شراكة المؤمنين الامبراطور فردريك المذكور، لأنه أثار عصياناً ضد الكنيسة الرومانية في المدينة، وحيث سعى لطرد الحبر الروماني وإخوانه من كرسيهم، كما قام في معاداة للإمتيازات، وللمرتبة، وللأشخاص، فداس على حرية الكرسي الرسولي، وعلى الكنيسة أيضاً، وذلك بوساطة العنف الطائش للقسم الذي ربط به هذه المسألة بالنسبة للكنيسة الرومانية، ونحن أيضاً نحرم كنسياً، ونحرم من شراكة المؤمنين الامبراطور المذكور، لأنه أمر بعضاً من رعيته، فأقدموا على حرمان أخانا المبجل أسقف برانستي Praeneste ونائب الكرسي الرسولي، من ممارسة أعمال نيابته التي عهدنا بها إليه، في مقاطعات الألبينيين، في سبيل تثبيت الإيمان الكاثوليكي، ومجدداً إننا نحرمه كنسياً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، بسبب أنه لم يسمح لإحدى الكاتدرائيات وكنائس أخرى شاغرة لأن تملأ، وبهذه الوسائط تعرضت حرية الكنيسة للخطر، ومات الإيمان، لأنه لم يعد هناك من أحد يعرض كلمة الرب، أو يحكم أرواحهم بغياب راعي الأرواح، وأسماء الكنائس الشاغرة هي كما يلي:

كاتانا Catana, وريغيو Reggio, وأكريفيارا Accriviara, وسكويلاتا Squilata, وريسا Resa, وبوتنزا Potenza, وأوترانتو Otranto, وبوليكاسترو Policastro, وسارتينا Saretina, وأفيرسانا Aversana, وفالفا Valva,

ومـونوبولي Monopoli, وبولوغناغنو Polognagno, وملفي Melfi, ورابيلا Rappella, وكريبـوتو Cributo, وألفانا Alifana, ومـزارا Mazara, وفيجيليرا Vigiliara, وفـسريثينا Frethina, مع الديرة في فينوسيـا Venusia, والمخلص المقدس في مسينا Messina, ومجدداً نحن نحرم كنسيـاً الامبراطور المذكور، ونحرمه من شراكـة المؤمنين، لأن الكهنة في مملكته يعتقلون، ويسجنون، ويحكم عليهم بـالموت، ويقتلون، ومن جـديد نحن نحـرمـه كنسيـاً، ونحرمـه من شراكة المؤمنين، لأن الكنائس المكرسة في مملكتـه للرب قد دمرت ودنست، ومجدداً إننا نحرمه كنسيـاً، ونحرمه من شراكة المؤمنين، لأنه لم يسمح بترميم سـورانو Sorano, ومجدداً نحن نحـرم كنسيـاً الامبراطور المذكور، ونحرمه من شراكـة المؤمنين، لأنه عندما كان حفيد ملك تونس قـادماً إلى كنيسة رومـا لتلقي قداس التعميـد، احتجزه، ولم يسمح له بالـوصـول، ومجدداً إننا نحـرم الامبراطور المذكـور كنسيـاً، ونحــرمــه من شراكــة المؤمنين، لأنه اعتقل، ووضع بـالسجن بطرس المسلم، مع واحد من نبلاء سكان رومـا، عندما كانا قادمين إلى الكرسي الرسـولي لصالح ملك انكلترا، ومجدداً إننا نحـرمه كنسيـاً، ونحرمـه من شراكة المؤمنين، لأنه استولى على أراضي الكنيسة في:

فيرارا Ferrara, وبنغنوغــومــا Pingnogoma, وبولونا Bologna, وأسقفية فيرارا، وأسقفية بولونا، وأسقفية لوكا Lucca, وكذلك مقاطعة سردينيا، بعنف طائش وخرق لليمين الذي ارتبط به إلى الكنيسـة حول هذه المسألـة، ومجدداً نحن نحرمـه كنسيـاً، ونحرمـه من شراكة المؤمنين لأنه استـولى على أراضي بعض نبلاء مملكته وعـاث فيها فسـاداً، وذلـك حيث الحكم للكنيسـة، ومجدداً نحـن نحـرمــه كنسيـاً، ونحـرمه من شراكـة المؤمنين، لأنه حرم بعض الكنائس الكاتدرائيـة من مقتنياتها، وهي:

كنيســة مـونت رويال، وسيفيــلادا Cephelada, وكـــــــاتانا Catana, وسكويلاتا Squilata, وأيضاً ديرة:

ميليتــو Mileto, والقــديســة يوفيميــا Eufemia الكبير، والقديس يوحنـا في لامنتانو Lamentano, ومجدداً نحن نحرم كنسيـاً الامبراطور المذكور، بسبب أن كثيراً من الكاتدرائيـات، وكنائس أخرى، وديرة في مملكتـه قام بمـوجب تفتيش غير عادل، بحـرمانهم من جميع مقتنياتهم تقـريباً، ومجدداً نحن نحـرمه كنسيـاً ونحرمـه من شراكة المؤمنين، لأن الداوية والاسبتـارية في مملكته الذين حرمـوا من ممتلكاتهم المتحركـة وغير المتحركة، لم يتم تعـويضهم تماماً، وفقـاً لشروط السلام، ومجدداً نحن نحـرمـه كنسيـاً ونحــرمــه من شراكـة المؤمنين، بسبب أن قساوسة الكنائس، ورعاة طائفة رهبان السسترشيان والطوائف الأخرى في مملكتـه، مـرغمين شهريـاً على دفع مبلغ محدد من المال، في سبيل بناء قلاع جديدة، ومجدداً نحن نحرم كنسياً الامبراطور المذكور، ونحرمه من شراكـة المؤمنين، لأنه بمخـالفتـه لبنود الســلام، أرغـم الذين وقفـوا إلى جـانب الكنيســة، على مغـادرة منـاطقهم، وكأنهم قـــوم محكوم عليهم بالإعـدام، وذلك في الوقت الذي جـرى فيه وضع زوجـاتهم وأولادهم في السجن، ومجدداً إننا نحرمه كنسياً، ونحـرمه من شراكة المؤمنين، لأنه بسببه تعطلت الحملة الصليبية، وكذلك استرداد الامبراطورية الرومانية، وبالنسبـة إلى جميع الـذين مـرتبطين به بمـوجب يمينهم بـالتـابعيـة، هم محللون من مراعـاة ذلك اليمين وتطبيقه، ونمنعهـم بكل دقة من مـراعاة مسألة تابعيتهم إليه، وذلك مادام مغلولاً بسلسلة الحرمان الكنسي، وأما بالنسبـة لظلمـه وأعمال الإيذاء الأخرى التي أنزلها بـالنبلاء، والفقـراء، والأرامل، والأيتــام، والآخـــرين في المملكة، الـذين لصــالحهم كـان الامبراطور فـردريك المذكـور، قد أقســم على الالتزام بأوامـر الكنيسـة، نحن ننوي أن نخلعـه، وبالنسبة لهذه المسـألة، سوف نسير بعـون الرب،

وفقاً لما توجبه العدالة علينا أن نفعل، وإنه علاوة على ذلك، بالنسبة لجميع الذنوب المتقدم ذكرها أعلاه، جماعياً وإفرادياً، والتي من أجلها كان فردريك المذكور قد جرى تنبيهه من قبلنا بكل دقة، وغالباً ما جرى لومه، ومع ذلك هو لم يكلف نفسه القيام بطاعتنا، إنه من أجل هذا كله نحن نحرم كنسياً فردريك المذكور ونحرمه من شراكة المؤمنين، ومجدداً لأن فردريك المذكور قد ساءت سمعته بشكل جاد بأفاعيله هذه، فإن عدداً كبيراً من الناس يصرخون، في جميع أنحاء العالم، بأنه لايلتزم بالرأي الصحيح فيما يتعلق بالإيمان الكاثوليكي، وبعون الرب، سوف نسير في هذه القضية في وقتها المناسب، ومكانها الموائم، وذلك وفقاً لأحكام الشريعة».

كيف اشتعل غضب الامبراطور ضدّ البابا

ولدى سماع الامبراطور بهذا اشتعل بغضب عنيف، وغالباً ماردد اللوم، واتهم الكنيسة وحكامها بعدم الوفاء له، وأنهم أعادوا إليه الشر مقابل الخير، وذكّرهم، كيف أنه عرض نفسه وممتلكاته إلى الأمواج العاتية الكبيرة، وإلى ألف نوع من المخاطر، في سبيل تقدم الكنيسة وازدهارها، ومن أجل زيادة الإيمان الكاثوليكي، وأكـــد أن جميع التشريف الذي تمتلكه الكنيسة في الأرض المقدسة، قد جاء الحصول عليه بفضل جهوده وتعبه، ثم قال:

«لكن البابا غيور من مثل هذه الزيادة السعيدة، لأنه تم الحصول عليها لصالح الكنيسة بوساطة رجل علماني، والذي يرغب بالذهب والفضة أكثر من رغبته بزيادة الإيمان، كما يشهد على ذلك أعماله، والذي يستخرج المال من جميع البلدان المسيحية، باسم العشور، قد بذل كل الإمكانيات التي توفرت له، وعمل كل مايمكنه، لأن يخلعني ويحلّ آخر محلي، وحاول حرماني وسعى في سبيل ذلك عندما كنتُ أقاتل في سبيل الرب، معرضاً جسدي لأسلحة الحرب، وللأمراض، ولمصائد أعدائه،

وبعد التصـدي للأمواج العاتيـة المدمرة، انظروا أي نوع من الحماية التي قدمهـا لنا أبونا، وأية أنواع من المساعدة وقت المصـاعب، قدمت لنا من قبل نائب يسـوع المسيح! والآن لم يقنـع غضب هذا المضطهـد، بل رأى أن عليـه أن يربكني ويدمـرني، ولهذا نصب أمامي رجـلاً معـادياً لي هو جـون دي بريين، الذي كـان من قبـل ملك القـدس، والذي عـرف أنه جـريء في الحرب، وبارع في النظام العسكـري، وحـاول أن يجعل منه أكثر الأعداء مرارة لي، وذلك في وقت لم يكن لدي أي تصور لشيء من هذا النوع، كما أنه أغنى نفسـه بمبلغ كبير من المال، استخـرج بظلم من قسـاوسـة الكنيسة الفقـراء في جميع أنحـاء العـالم، وليس من السهل أن أكشف أية نحيب، وأيـة دموع، أنتجـه هذا الأسـى ووضعـه في قلبي، عندمـا سمعتُ بهذه الأشيـاء مـن رعيتي، وهو لابد أنه يعـرف الذي لايجهل شيئاً، وقمتُ وقتهـا على الفور بـإخفاء هذه الآلام التي شعـرتُ بها بالقلب، وتحت ملامح هادئة، بدأت أفاوض من أجل السلام، وتمت الموافقة على هدنة، وبادرت مسرعاً بـالعودة، وذلك خشية من أن يحدث فيعلم عـدونا بهذا، فيصبح أكثر حماسـاً بنجاحـاتهم، وبذلك يغدو أكثـر عدوانيـة بالنسبة لنا، وعندمـا عدتُ إلى الوطن وجـدتُ أراضي مستولى عليـها، وهـي محتلـة من قبـل أقـربـاء البـابا وأصدقـائـه، الذين كـان قـائـدهم جون دي بريين المتقـدم الذكـر، ولقـد اعتقلت هؤلاء، ومع عـون الرب المنتقم لي، توليتُ معـاقبـة الذين أعـاقـوا شـؤون الصليب، حسب استحقـاقـاتهم، وليكـن الرب الحكـم بينـي، الـذي أنا جنديه، وبين البـابا نائبـه، والمسيح يعـرف، والعـالم يعـرف بأنني لم أبتعـد عن جادة الصـواب، وهذا هو جذر، وأصـل كراهيته، ولقـد نشب خلاف بين الناس، وانقسمـوا، لكـن بـوجـود سيـدهـم الطبيعـي، أي الامبراطور، عـاودوا الاتحاد، وتم استرداد قـوة الامبرطـورية في وقت قصير».

كيف وصل رهبان مونت كازينو إلى البابا في روما

ووصل في العام نفسه رهبان مونت كازينو Monte Casino, (حيث غرس القديس بندكت ديراً) الذين بلغ تعدادهم ثلاثة عشر راهباً، إلى البابا، في ثياب عتيقة وممزقة، وبشعر أشعث، ولحى غير مهذبة، والدموع في أعينهم، ولدى إدخالهم إلى حضرة قداسته، سقطوا على قدميه، وقدموا شكواهم بأن الامبراطور قد طردهم من بيتهم في جبل كازينو، وكان هذا الجبل لايرام، وفي الحقيقة لايمكن لأي واحد الوصول إليه، إلاّ بموافقة الرهبان، وبموافقة الآخرين الذين يسكنون عليه، غير أن ر. R غويسكارد Guiscard استطاع الاستيلاء على قلعة الرهبان، بحيلة تظاهره بأنه كان ميتاً، وقد حمل إلى هناك على محفة، وبذلك استولى —كما قلنا— على القلعة، وعندما سمع البابا بهذا أخفى أساه، وسأل عن السبب، وعلى هذا أجابه الرهبان: «بسبب أننا في طاعة لك حرمنا كنسياً الامبراطور»، وعندها قال لهم البابا: «إن طاعتكم سوف تنقذكم»، وبعد هذا ذهب الرهبان دون أن يتلقوا أي شيء زيادة من البابا.

كتابة مدهشة

وظهرت في العام نفسه لواحد من الرهبان من طائفة السسترشيان، يد بيضاء مكتوب عليها جسدياً الكلمات التالية:

«سوف يقطع الأرز العالي للبنان، وسوف يسيطر المريخ على زحل والمشتري، وسوف يعمل زحل مصائد للمشتري في كل شيء، وسوف يكون هناك رب واحد، أي ملك، فقد جاء الرب الثاني، ولسوف يجري اطلاق سراح بني اسرائيل من السبي خلال أحد عشر عاماً، وشعب عدّ بلا قائد سوف يصل أثناء تجواله، واأسفاه على رجال الدين، إذا ماسقطوا، فإن طائفة جديدة سوف تزدهر، وواأسفاه على إيمان الكنيسة،

وعلى الشرائع، وعلى الممالك، التغيير سوف يقع، وسوف يجري دمار أمة الإسلام».

كسوف الشمس

كان في الثالث من حزيران، من هذا العام كسوف للشمس، في حوالي الساعة السادسة من النهار، وفي حوالي الوقت نفسه من العام، جرى استدعاء وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية بتدخل من البابا (الذي رغب —كما قيل— بتعيينه قائداً للجيش ضد الامبراطور)، إلى الحلف الأسقفي بشأن الاحتفاظ بالحصول على الكرسي البلنسي، وكأنه غير ملطخ بتهمة القتل، ولذلك إنه لاعجب أن الناس قد اعترتهم الدهشة لدى سماع هذا، وأنه مايزال يسعى وراء كرسي وينكستر، وقد عيّن ملك انكلترا وكيلاً متحمساً لتأمين هذا الهدف، واأسفاه، واأسفاه، كيف أن كمية من المال جعلت بلاط روما يميل إلى إعطاء موافقته وإذنه.

ولادة إدوارد الأول ابن الملك هنري الثالث

في ليلة السادس عشر من حزيران، ولد صبي في ويستمنستر للملك من زوجته اليانور، وبمناسبة هذه الحادثة قدم جميع نبلاء المملكة تهانيهم ولا سيما سكان لندن، لأن الصبي قد ولد في لندن، وتجمعوا على شكل جماعات من الراقصين مع طبول ودفوف، وأضاءوا في الليل الشوارع بمصابيح كبيرة، وقام أسقف كارلآيل بطقوس تلقين الطفل، وتولى النائب البابوي تعميده مع أنه لم يكن كاهناً، لكن ادموند رئيس أساقفة كانتربري قد سانده وثبته، وبناء على رغبة من الملك أعطي له اسم ادوارد، وجرى إرسال عدد كبير من الرسل لنقل خبر هذه الحادثة، وقد عادوا وهم محملين بهدايا ثمينة، وقد بهتت الآن بعمق سمعة الملك بسلوكه، لأنه عند عودة الرسل إلى الملك، سأل كل واحد منهم عن الذي تسلمه، والذين كانوا قد تسلموا الأقل، مع أنهم جلبوا معهم

هدايا ثمينة، أمر بإعادتهم مع غضب ولم ينطفىء غضبه، حتى أعطى كل واحد هدايا مرضية بناء على طلب الرسل، وعلى هذا علق أحد النورمان الأذكياء بقوله: «الرب أعطانا هذا الطفل، لكن الملك باعه إلينا»، ولم يعف النائب البابوي أيضاً من الحصاد الذي لم يجنه، فأعطى الشخص الذي جلب له الأنباء على حساب الآخرين، وكما قلت من قبل، جرى تعميد هذا الطفل من قبل النائب البابوي في اليوم الرابع من ميلاده، ورفع من الأمام من قبل الأسقف روجر أسقف لندن، ومن قبل وولتر أسقف كارلآيل، وكذلك من قبل وليم الأسقف المنتخب لنورويك، وأيضاً من قبل رتشارد ايرل كورنوول، أخو الملك، ومن قبل الايرلات:

سيمون ايرل مونتفورت، وايرل ليستر، وهوغ دي بوهون Bohun ايرل هارتفورد واسكس، وكذلك من قبل سيمون النورماني، رئيس شمامسة نورويك، والنبيل بطرس دي مولاك Maulac وألماريك دي سينت أماند Almaric de Amand وبحضور عدد كبير من النبلاء والسيدات.

وفي هذه الآونة، قام رالف دي ثوني، وهو بارون نبيل، بتوديع أصدقائه، وغادر في سبيل الحروب الصليبية مع عدد كبير من النبلاء، وخاصة من مملكة فرنسا، وبعد استعدادات كبيرة انطلق بجرأة في رحلته إلى القدس، من أجل أن الناس عندما يجازون في اليوم الأخير من أجل أعمالهم الصالحة، يمكن أن يتوّجوا بأكاليل الغار، ويحصلوا على مكافأتهم النهائية.

انتخاب المعلم نيقولا أوف فانهارم أسقفاً لشيستر

وفي العام نفسه، بعدما جرى استدعاء وليم دي ريل، ومن ثم انتخابه ليتولى حكومة كنيسة نورويك، بموافقة من رجال الدين

والناس، قام رهبان كوفنتري على الفور، فساروا في إجراءات قضية انتخاب أسقف موائم لأنفسهم، حتى لايتعرضوا للمزيد من الغضب بالقيام بانتخاب يكون عرضة للروادع والرفض، ولذلك انتخبوا المعلم نيقولا أوف فارنهام Farnham وكان رجلاً مميزاً بكثير من الفضائل، وصاحب قامة جميلة، وفصيحاً في خطاباته، وناضجاً ومتواضعاً في سلوكه، وتصرفاته، ولذلك كان لايمكن لحديث تجريجي أن يقف في طريق مقاصدهم، ولكن بعدما قبله الملك وكذلك رجال الدين والناس، رأى المعلم نيقولا، وكان رجلاً عميق الفهم، أن المسألة عرضة لخلاف شرعي مكشوف، وأن الأسقفية موجودة على أقصى حدود انكلترا، وقدر بمثابة رجل متواضع ومستقيم، أنه غير قادر على تحمل مثل هذا العبء الثقيل، وأنه سيكون خطيراً بالنسبة له تقديم حساب عن المسؤولية عن مثل ذلك العدد من الأرواح، لذلك رفض قبول العرض ولابشكل من الأشكال، ورفض بثبات أن يتحمل ثقل هذا المنصب، واستقال من شرفه، لأنه كانت هناك قضية خلاف بين الرهبان والكهنة، لأن فريق الكهنة قد أكد أن أفراده هم الذين ينبغي أن ينتخبوا الأسقف هذه المرة، وذلك وفقاً لشروط الاتفاقية، التي بها جرت تسوية الخلاف فيما بينهما، وهي أنه بعد عمل انتخاب أول من قبل الرهبان، فإن مسؤولية الانتخاب الثاني تقع على عاتق الكهنة، لكن عندما عرض الكهنة هذا الإدعاء، ردّ عليهم الرهبان، بأن الانتخاب قد ألغي، ولم يصل إلى أية محصلة، وأنهم لم ينالوا ماأرادوه، ومردّ ذلك إلى حادثة غير متوقعة، تسببت ليس بتصميم منهم، بل بالقضاء الرباني، الذي يقضي بجميع الأشياء حسبما يشاء، وقال الكهنة في رد على هذا:

«نحن نرغب منكم أن تعرفوا، أنه ليس أسقفكم المنتخب هو الذي لايرضينا، ذلك أنه أهل تماماً لمثل هذا الانتخاب الرفيع، بل هو شكل

انتخـابكم هو الذي لم يرضينـا، بما أن دور الانتخـاب يقع علينا، وليس عليكم، وهذا قـد برهنا عليه بشكل جيـد بوسـاطة أعمالنا، لأننا انتخبنا عميـدنا بمثـابـة أسقف لنا، وحـارسـاً لأرواحنا»، ثم إنـه عندمـا ارتفع صـوت الاضطراب، الذي هدّد بأن يجلب خـلافاً مـدمـراً، قام العميـد الذي كان رجلاً تقياً، برغبة منه لوضع حد لعدم الاتفاق، فقال بصوت مرتفع أمام الناس:

«ليكن معلـومـــاً، وليكن معلـومـــاً، أنني لاأدري على أيـة أسس انتخبتمـوني أنا الذي تمامـاً لستُ أهـلاً لحمل أعبـاء منصب الأسقفيـة، ولذلك إنني من صميم قلبي وعقلي أعـــارض مثل هذا الانتخـــاب، وأتنازل عنه، ولنعمل على إنهاء هذا الاضطراب، ودعـونا الآن جميعاً في هذا الوقت الحالي، بمـوافقة عـامـة نقف إلى جانب ذلك الرجل الجيـد، الذي أفـاد التقـرير عنه بشكل طيـب»، وفي سبيل المحـافظة على حق كنيستهم من على الجانبين، قـامـوا جميعـاً أي الرهبـان وكـذلك الكهنة فـاتفقـوا بالاجماع، فبعثوا إلى المعلـم نيقولا المتقـدم الذكـر، وأخبروه أن جميع الذين لم يوافقـوا من قبل، قـد اتخذوا الآن قـرارهم بالاجماع، وقـد انتخبوه، وهـم بتـواضع يرجونه أن يتكرم بقبـول هذا الشرف، مهما كان ثقيلاً، وعـرضوه عليه وقـدموه إليه باسـم الرب ونيابة عنه، وردّ عليهم المعلـم نيقولا، وأجابهم قائلاً:

«وهو يصفق بيـديه، إنني أعيـد إليكم شكري أضعـافـاً مضـاعفـة، ياأصـدقائي ومعلميّ من كل من الكهنة والرهبـان، الذين كنت بأعينهم بالنهاية مستحقـاً لأن تنتخبوني لأن أكون راعياً لكم، لكن يا أصـدقائي إن وضعي الحالي يكفيني، وعـبء المنصب المعهـود بـه الآن إليّ يثقلني ويضغط عليّ بشـدة، وإن العناية، والمسؤولية، وكـذلك الحسـاب الذي ينبغي تقـديمه إلى الأرواح التي عهـد بها إليّ يزعجني ويخيفني، ولذلك توقفـوا ياإخواني الأحباء، تـوقفوا عن متـابعة تعذيبي وإغضـابي في هذه

المسألـة، وأود أن أخبركم بوضـــوح، ســـواء أوافقتم على ذلك أم لم توافقــوا، أنا لا أوافق على هذا الانتخــاب»، ولدى سماع هذا تشــاور الآخرون، وفقـاً للشكل الذي تقـدم ذكره، وانتخبوا ليكـون أسقفاً لهم، وحارساً لأرواحهم، المعلم هوغ دي بيتهل Pateshull (الذي كان ابناً للنبيل المشهـور سيمـون دي بيتهل، الـذي بآرائـه الحكيمـة حكمت انكلترا من قبل في بعض الوقت الماضي) وكان كـاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، ومستشـاراً للملك، وكـان هو أيضاً مثـل أبيه، ورجـلاً مستقيماً، وبعد تقليب طويل للقضيـة، وتفكير حول قـول الرسول: «كل من يريد أن يكون إدارياً جيداً، عليه أن يحصل لنفسه على مرتبة جيدة»، وقوله في مكان آخر: «إذا مارغب إنسان بمنصب الأسقف هو قد رغب بعمل جيـد»، وبعـد طويل وقت تحركت عـاطفتـه بسبب الوضع السيء للكنيســة وبكى بـدمـــوع المتضرع، ووافق على حمل العبء، والعنـاية بنفقات المنصب، حتى يتحول أسفهم إلى بهجة.

آلام اليهود

وفي العام نفسه، في يوم عيد القـديس ألبان، رائد الشهداء في انكلترا، وفي اليوم التالي، وقعت مذبحة كبيرة، ولحق دمار كبير باليهود، بناء على أوامر من غيوفري الداوي، الذي كان مستشاراً خاصاً للملك، فقد تولى ظلمهم، وسجنهم، واستخرج المال منهم، وأخيراً وبعد كثير من الآلام، قـام هؤلاء التعسـاء اليهـود، في سبيـل التمتع بالحيـاة والهدوء، وبسبب دمـارهم واضطـرابهم، فـدفعـوا إلى الملك ثلث جميع أمـوالهم، وديونهم وكذلك أثاثهم، وكـان السبب الأساسي لهذه النازلة اقتراف جـريمة قتل مفضوحـة من قبل يهود المدينة، وماحدث ليس بعـد هذا بوقت طويل، وتعلق بالصبي الذي جـرى ختـانه من قبل اليهـود، ولقـد أدين نتيجـة ذلك أربعـة مـن أغنى أفـراد تلك الطائفـة بشكـل واضح، وشنقـوا في نورويك.

وقوع رالف بريتون بالأسر

في مجريات أحداث السنة التي منح الرب فيها ولداً ذكراً للملك، وذلك استجانة لشكاوى الملك، وكذلك لرغبات الكثيرين، جاء هذا الولد وسط كثير من التهليل، وبما أن كأس هذه الحياة لايحتوي شيئاً صرفاً بلا مرارة الصفراء، قد كان هناك واحداً من رسل الملك اسمه وليم، قد أدين بعدد كبير جداً من الجرائم المضاعفة، وحكم عليه بالموت، ولدى جلوسه في سجن مضيقاً عليه قذف عدداً من نبلاء انكلترا وجاهة بتهم زائفة هي تهم الخيانة، وكان بين الكثيرين الذين وجّه التهم ضدهم باقتراف الجرائم رالف بريتون Briton وكان رجل دين وكاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، وكان لبعض الوقت صديقاً مقرباً من الملك، لابل كان خازنه، ولدى سماع الملك بهذا، أمر به بوساطة رسالة إلى عمدة لندن وليم غرومير Gromer (أوجيرارد بات Gerad Batt) ليلقى القبض عليه، وليسجن في برج لندن، وفضل العمدة إطاعته على إطاعة الرب، وحمل أوامر الملك ووضعها قيد التنفيذ، وجرّ رالف المذكور بعنف من بيته، في جوار كنيسة القديس بولص، وسجنه في البرج، ووثقه بسلاسل تدعى الخواتم، وعند سماع عميد لندن، المعلم غ. G دي لوسي Lucy بهذا العمل، قام مع أتباعه من الكهنة (لأن الأسقف لم يكن حاضراً وقتذاك) فتفوه بقرار حكم عام بالحرمان الكنسي ضد جميع الذين مارسوا هذا الاضطهاد والتجاوزات، ووضع كنيسة القديس بولص تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وصحيح أن الملك جرى تحذيره من قبل الأسقف، غير أنه لم يصحح هذه الأخطاء، بل إنه تابع بالتهديد تكديس الشرور على الشرور، وبناء عليه كان الأسقف على وشك وضع لندن كلها، التي كانت خاضعة له، تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، لكن عندما كان رئيس أساقفة كانتربري، وكذلك النائب البابوي،

وأسقف لندن، وعـدد كبير آخر مـن القساوسـة قـد استعدوا لإلقـاء يد ثقيلة على المدينة، أمر الملك، وهو مكـره، بإطلاق سراح رالف المتقـدم ذكره، وسمح له بالمغـادرة بسلام، وعندما كان قد رغـب بإضافة شرط، بوجوب الاحتفاظ به، ليكون جاهزاً لتقديم توضيح، عندما يختار الملك توجيه الاتهام إليـه، ردت الكنيسة بأنها لن تقبل بأي حـال من الأحوال بإبقـائـه هكذا على هذه الصـورة وكأنه رجـل سجين، وهي تقبل فقط بتسلمـه بمثابة رجل حـرّ تماماً، مثلما كـان حاله عندمـا قام أتبـاع الملك بانتـزاعـه بالقوة من بيتـه، وعندمـا جـرى اطلاق سراح رالف على هذه الصورة، وهو الـذي تعلم بالتجربة ماذا يمكـن لتقلبات الحظ أن تلحق أتبـاعهـا، انسحب بعـد هذه النـازلة، من بلاط الملك، أمـا ستيفن سيغريف، الـذي غالباً مـاعانى من مثل هـذا الظلم فقد مزج نفسـه مع شـؤون البـلاط، دون أن يقيم وزناً لعمـره، وأصبح هذه المرة المستشـار الرئيسي للملك، وتمكن بوساطة براعته الأصيلة من ممارسة قيود أكثر مما هو معتـاد على خطط الملك، وبعد ذلك بوقت قصير، جـرى شنق ذلك الشرير الذي تقدم ذكـره، والذي كما ذكرنا أعـلاه إتهم النبلاء مع رالف المتقدم ذكره، وجاء شنقه بشكل مهين خارج مدينة لندن، ووضع معلقاً على أداة التعذيـب التي اسمها المشنقة، وكـان عندما رأى أن مـوته بات حقيقيـاً ومـؤكداً، قـام —مع أن ذلك جـاء متأخـراً— فـاعترف بشكل مكشـوف أمـام الناس وأمام منفـذي العقـوبة به، بأنه عمل الاتهامـات الزائفة المتقدم ذكرها من أجل إطالة حياته.

نشر قرار الحرمان الكنسي ضدّ الإمبراطور فردريك

وفي هذه الآونة، تمّ بناء على أوامـر من البـابا، إعـلان قرار الحرمـان الكنسي ضـد الامبراطور فـردريك المذكـور، وجـاءت إدانة الامبراطور هذه في كنيسـة القـديس بولـص في لندن، وكـذلك خـلال جميع أرجـاء أسقفية لنـدن، وبعد ذلك في جميع أرجـاء المملكة كلها، ولم يتوفـر هناك

ولا واحد ليرفع ترس المعارضة ضد ذلك، مع أن الملك كانت لديه أسباب وجيهة لفعل ذلك، أمام جميع أمراء العالم، وذلك بسبب قرب العلاقات القائمة بينه وبين الامبراطور.

رسائل من الإمبراطور إلى شيوخ روما وشعبها

وفي العام نفسه، عجب صاحب الجلالة الامبراطورية من الضعف الشديد لقوة الرومان، ومن تراجعهم ونكوصهم عن ثباتهم في مراعاة خضوعهم باخلاص له، حسبما كانوا قد وعدوه من قبل، وذلك بسماحهم لقرار الحرمان الكنسي بأن يجري التفوه به ضده، وهو مولاهم، في مدينتهم، فكتب إلى كرادلة بلاط روما، وكذلك إلى شيوخ المدينة، وكذلك إلى سكانها كما يلي:

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى شيوخ المدينة وأتباعه الرومان، تحيات:

بما أن روما هي رأس امبراطوريتنا وسلطانتها، وأن الامبراطور عرف باسم الروماني من اسم مدينة روما، وبما أننا ندين لها بتقدم اسمنا وبسمعته، دهشنا دهشة عظيمة كيف أنه حدث، حيث من المتوجب رفع شأن شرفنا، وصدّ الإهانات الموجهة ضدنا، أن نواجه معاملة مضادة، بين الذين متوجب عليهم، والذين واجبهم، أن يعرضوا أنفسهم بمثابة سور للدفاع عن عرشنا الامبراطوري، والعجب أن يحدث هذا وهم أنفسهم يسمعون ويخفون الحقائق، وبناء عليه نحن في غاية الأسى، لأن الأسقف الروماني —كما روي لنا— قد تجرأ على أن يتصرف في المدينة، ضد الأمير الروماني، بطريقة ما كان له ليتجرأ على عملها في مكان آخر، وقام بشكل غير تقوي بتكفير الامبراطور الروماني، أساس المدينة، وجالب المنفعة للشعب الروماني، من دون أية مقاومة من قبلهم، وبناء

عليـه، يمكننا أن نقـول صـادقين بأن نبـلاء رومـا وكـذلك الشعب الرومـاني، الذي من أجلهم درسنا تقـديم مـايحتـاجونه بكرم، وبجـود تطوعي، ومازلنا نكافح في سبيل استمـرار تقدمهم، إلى حد أننا بتنا غير مهتمين بمنافعنا، قـد لازمتهم بلادة النوم، ولذلـك لم يكن بينهم، ولا حتى رجل واحـد بين ذلك العدد الكبير من النبلاء، وذلـك الحشد كله من السادة، أو بين الآلاف المؤلفة من الشعب الروماني، قد نهض للدفاع عنا، أو تكلم بكلمة واحـدة لصالحنا، أو كان مواسياً لنـا ومتعاطفاً معنا أثناء تعـرضنا للأذى، مع أننـا نتـابع الاضـافـة إلى شرف المدينة، ونزيد شهرتها بالانتصارات القديمة والأمجاد، بوساطة انتصاراتنا المتوالية الآن، ومازلنا مستمـرين في توجيه اهتمامنا لتقـويم الاسم الروماني، وجعله كما كـان في العصـور القـديمـة، وأن نرفع من شأن وأوضـاع الامبراطورية الرومـانيـة، وبناء عليـه لقـد دفعتنـا الضرورة لأن نطلب منكم بتحـذير وحث لكم، إذا كنتم قـد عملتم بعض التقصير من خـلال الاهمال أو البـلادة أن تظهـروا الآن أنفسكم بأنكم جـاهزين، وبالكلمـة وضرب المثل أن تقـومـوا باقناع الآخـرين بالنهـوض فـوراً، أفـراداً وجماعـات، للانتقـام للأذى الذي أنزل بنـا، وبكم بشكل عـام، لأن المسيء إلينا مـا كـان ليتجـرأ في مكان آخـر على التشهير باسمنا وتكفيرنا، ومـا كـان له ليتفـاخـر بأنه حـرض على مثل هذه الأشيـاء ضـدنا، سـواء أرغبنا أم لم نرغب، لولا أنه عـزا إليكم نكران المعروف حـول كل مافعلتمـوه، قبل حقيقـة معـارضتـه، وبعـد حقيقـة أنكم كنتم تتجنبـون الانتقـام لأذانا وأذاكم العـام، لأننـا كنا نحن وأنتم مـرتبطون مـن الجانبين، بأن نقـوم نحن بالدفاع عن الشرف الرومـاني، ويقوم الرومـان بالدفاع عن شرفنا، وإذا ماوجـدناكم ووجدناهم معكم مهملين في هذه القضيـة، كنا سنجد أنفسنا مـرغمين، على سحب إحساننا من جميع الذين أظهرناه نحـوهم حتى الآن، لأنه ليـس الخوف من الرومـان هو الـذي أرغمنـا عـلى إضفاء المنافع عليهـم، بـل بالحـري كان لطفنا هو الذي أقنعنا أن نفعل

ذلك. صـــدر في تريفيســـو Trevisoفي اليـــوم العشرين من شهـــــــر نيسان».

وكان الامبراطور قـد كتب أيضاً قبل وقت قصير مضى إلى الكرادلة، وسعى إلى إثارة الرومـــان في تلك الجهـــة، وقـد حثهم بعنف أكثـــر في الرسالة التالية:

رسائل أخرى من الإمبراطور إلى الكرادلة

«من فـردريك الذي هو بنعمـة الرب أغسطس، وامبراطور الرومـان، وملك القـدس وصقلية، إلى أصـدقائـه الأحباء، جماعـة كرادلة الكنيسـة الرومانية المقدسة، تمنيات الصحة وعواطف خالصة:

بما أن المسيح هو رأس الكنيسة، وباسم بطرس قد أسس كنيسته على صخرة، وعيّنكم بمثابة خلفاء للرسل، هكذا عمل بطرس القداس من أجل الجميع، وأنتم الذين هم شمـوع الكنيسة، قد وضعتم فـوق رابية، وليس تحت ستارة، حتى يمكن بأعمالكم الصالحة أن: «تعطوا الضوء إلى كل البيت»، وأن لاتسعـوا بمـــوافقـة عـامـة بـأن تسحبـوا أنفسكم من الصـوت العام للعـالم، بما أنه قـدر أنكم أهل لحمل حصة مسـاوية لأي واحد سـوف يترأس على كرسي بطرس، ومهما اقترح أن يعمـل، أو قرر أن يعلنه إلى العالم، مالم تكن الأوضاع المتقـدمة للكنيسة، والرغبة الجامحة بتجنب عـدوان عام، سـوف تقترح تحذيراً لكم من أجل المستقبل، لأنه من الذي لن يتسـاءل بأن الذي هو جالس على عـرش الكنيسة، والذي قـد قـوي بوسـاطة الاجتماع العـام لمثل هذا العـــدد الكبير من الآباء المحترمين، (والمتـوجب أن يكـون قـاضيـاً عـادلاً) سـوف يعمل هكذا بشكل غير مستقيم؟ وليس عجباً بأنه سـوف يتخذ مـوقفـاً —بناء على مجرد انفعـال— ضد الأمير الرومـاني، مع أنه هو المحامي عن الكنيسـة، والذي واجبـه هو الحفاظ على التبشير بالانجيل، وذلك بوسـاطة تجريد

السيف الروحي بشكل غير عادل لصالح العصاة اللومبارد؟، ودون أن نعبأ بهذا، وبوساطة المعايير السلمية، فإن جميع الإساءات ضد الكنيسة التي ترافع من أجلها، مهما كانت عناوينها العامة مغيظة وتضاعفت في أعمال فردية، هي إما أنها تلقت التقويم، أو أنها بوساطة تفكيرنا جرى الإعداد لها وهي على طريق الإصلاح، لأن أوامرنا قد قضت بذلك، ولسوف يتلو ذلك تعويض كامل، لأنه بوساطة رسائل موثقة من القساوسة الذين عيّنتهم الوصاية الرسولية بمثابة مشرفين، هناك شواهد من النوع نفسه قد أعطيت، ومرسومنا الجاري فيما يتعلق بإعادة دعوة القساوسة الذين عانوا من الأذى وتقديم توزيع ثاني لهؤلاء القساوسة، يعطي برهاناً واضحاً على المصداقية وذلك بوساطة رسائل رئيس أساقفة مسينا المبجل، التي أرسلت إلى مقومنا، المعين لهذه الغاية، وبناء عليه، إنه ليس من دون سبب جيد أن نتحب لأن الأب الرسولي يسعى بشكل جاد جداً للاعتداء علينا، وعندما ينزل مثل هذا الأذى الكبير على رجل شجاع، مع أننا نرغب بتحمل ذلك بصبر، إن ضخامة الاعتداء لا تسمح لنا بأن نفعل ذلك، لابل إن عنف الفعلة يرغمنا على الانتقام، وهو مااعتاد القياصرة أن يفعلوه ويمارسوه، لكن لدى تقديرنا لإنعدام الصبر لدى الذي يسير على هذا الطريق ويمارس هذا المنهج، والوضع الصعب للمدافع، علينا تقديرها أكثر تحملاً، لو أنه سمح لنا بحيادية أن نمارس انتقاماً خاصاً على الشخص الذي تسبب بالعدوان، وبذلك نتمكن من إنزال جزاء على الذين هم من دمه، وهذه المحاولة لإيذاء الكرسي سوف ترتد عليه وعلى آله، لكن بما أنه لا هو ولا جميع آله هم الذين سيعانون لهذا السبب، لهم أهميتهم، حتى تتشوق الكرامة الامبراطورية للانتقام منهم، ولأن سلطات الكرسي، تركت أعنة سلطاتها مرخية، وعمدت أن تظهر جماعة الرهبان المحترمة كلها وكأنها تؤثر ذلك في إصرارها، آلمنا هذا الاضطراب عقلياً، لأننا أثناء الدفاع عن أنفسنا ضد المضطهدين لنا، علينا في دفاعنا عن أنفسنا أن نكون

أكثر حدة في قتال الذين يقفون ضدنا، باستثناء قداسة الكنيسة من جميع الجوانب، التي نجلّها بتعبد مقدس وباحترام جدير بها، وبناء عليه نحن نلتمس من جماعتكم الجليلة، وصدوراً عن مداولاتكم اللطيفة أن توقفوا إجراءات الحبر الأعظم، التي من الواضح أنها كما يعرف العالم، هي غير عادلة، وبلا مسوغ، وأن تهيئوا الأوضاع من أجل تقديم سلام لعقولنا، لأننا وإن كنا مرتبطين بإيثار رفع شأن أعمالكم الصالحة جميعاً، نحن لايمكننا أن نفعل ذلك بتوازن في التفكير متمنع عن العدوان تجاه الأذى الذي يعمل ضدنا، كما أننا لن نكون قادرين على إيقاف البدايات، كما أن الأذى الذي لايمكن رده وإرجاعه، يمكن بتسويغ صده بأذى آخر. صدر في بادوا Padua في العاشر من آذار من الإحدى عشرية الأولى من الخمسعشرية.

كتابات تكهنية

وفي هذه الآونة، استدعيت بعض الكتابات التي ظهر أنها تتكهن بالمستقبل، إلى الذاكرة، وغالباً ماذكرت، وذلك بسبب المخاطر العظيمة للوقت، والخلاف الذي تفجر بين مثل هذه الشخصيات القوية، والتي لم يكن يعادلها بالقوة أي واحد، وكانت إحدى هذه الكتابات كما يلي:

«سوف تثار روما ضد الرومان، وبديل روماني سوف يفرغ روما من الرومان، وستصبح عصي الرعاة مضيئة، وسوف تكون راحتهم في اطمئنان، والحريص سوف يضطرب، وسوف يصلي، ودموع الحشود سوف ترتاح هناك، وسوف يلعب الرجل الضعيف مع المجنون، والجنون سوف يكون منطفئاً، وسوف يصبح لطيفاً، وسوف يزحف قطيع جديد إلى الرابية، والذين كانوا يستحقون منذ القدم، سوف يعلفون على طعام خفيف، والمستثنون من الثقة قد دمروا، والطمأنينة التي تنتج راحة هي مستقرة، والذين ساروا في الظلام سوف يعودون إلى الضوء، والأشياء التي كانت منفصلة وموزعة في الخارج سوف تتمتن،

وغيمة كبيرة سـوف تبدأ بالامطار، لأن مغيّـراً للعالم قـد ولد، والحمل سـوف يحل محل الأسـد، وسـوف تفترس الحمـلان الأسـود، وسيثـور الجنون ضـد ذوي العقـول السـاذجة، وسـوف تتنفس السـذاجة وهناً، وسـوف يتحـول الشرف إلى عـار، وسرور الكثيرين سيصبح حـزناً»، وجـرى التفوه بهذه الكلمات في سنة النعمـة ١١١٩، وقـد فهمت لتعني بأن التهديدات المذكورة كانت بالفعل قد وقعت.

وهناك كتابة أخـرى، يبدو أن الامبراطور قد حصل عليهـا، قد قيل بأنها ذكـرت الصـدق، فقد قيل بأن أبيـات الشعـر التـالية قـد وجـدت مكتـوبة في غـرفة نـوم البابا، لكـن كيف حصل هذا ومن الذي كتبهم؟ أمر غير معروف:

تقضي النجوم والمنايا وطيران الطيور

بأن عالمنا هذا سوف يضرب

روما تقاد مترنجة وسط أكوام من الآثام

وفي العالم سوف تتوقف أن تكون الرئيسة

وبما أن الامبراطور مع كثير آخـرين قد فسروا هذه الأبيـات على أنها تبشر بدمار البابا وعزلته مع البلاط الروماني، ردّ قداسته بالأبيات التالية ضد الامبراطور:

الشهر، والكتابات المقدسة، وذنوبك تخبر بصوت مرتفع

أنك بعد الموت سوف تلقى العذاب مؤبداً في جهنم

الامبراطور يبرىء نفسه بوساطة مرشدين

ولدى رؤية الامبراطـور في هذه الآونة أن سمعتـه الآن عـرضـة للخطر، وفي سبيل البرهنة على براءته، جعـل بعض الرسل الذين كـانوا

ذوي مكانة عظيمة، ولهم سلطان خاص يكتبون إلى البابا عارضين براءتهم مع براءة الامبرطور، وعدالتهم وعدله.

رسائل الرسل

«إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح، غريغوري، الذي هو بنعمة الرب، الحبر الأعظم، يرسل إليكم عبيدكم المخلصون، أساقفة ويتزبورغ Wirtzburg ووورمز Worms وفيرسلي Vercelli وبارما Parma تحياتهم بتواضع، وبجميع احتراماتهم المخلصة:

مع جميع الاحترام المستحق والاخلاص قد تسلمنا رسائل قداستكم الرسولية، التي أرسلت لتقريع صاحب السمو الأمير الروماني حول بعض النقاط، التي ورد ذكرها في الرسائل المذكورة، وقمنا نحن كما يفرض علينا الواجب —ومع ذلك شاكين فيما إذا كان سيتلقى تحذيراتنا بصبر— وذهبنا إليه باحترام وتقوى، وبعد شرح كل نقطة وردت في هذه الفقرات، وبعدما أعطيناه نسخة عن رسائلنا، وبنعمة من الرب، الذي يحكم قلوب الملوك ويوجهها بإرادته، أظهر نفسه بتقوى رائعة، وبتواضع غير متوقع جاهزاً لأن يصغي لانتقاداتنا، ومالت أذنا سيادته الامبراطورية نحونا، وعندما مثلنا أمامه كان هناك أيضاً موجوداً رئيس أساقفة بلرم «باليرمو» ومسينا، وأساقفة:

كريمونا، ولودي Lodi ونوفارا Novara, ومودينا Modena, وراعي دير القديس فينسنت Vincent إلى جانب عدد من الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان، الذين جمعوا من قبله، وقد ردّ على اقتراحاتنا واحداً تلو آخر، حسبما هو وارد بشكل كامل ومتميز في السطور المقبلة، ووفقاً للوصاية الرسولية، نحن نخبركم في الرسائل الحالية، ونحن على استعداد للبرهنة على صحة ذلك».

«*قضية الكنيسة:* إن كنائس مونت رويال، وسيفيلدي Cephaledi,

وكاتـانيا Catania, وسكويلاتا Squillata, وأديرة مـايليتو Mileto, والقـديسـة يوفيميـا Euphemia, وتيراـ مـاجـوري Terra- Mag giore والقـديس يوحنا في لامـا Lama, قـد جـــردت من جميع مقتنياتها تقـريباً، وكذلك تقـريباً جميع الكاتدرائيـات والكنائس الأخرى والأديرة، قد حرمت بتفتيش غير عادل، من جميع متعلقاتها.

جواب الامبراطور: فيما يتعلق بالأذى الذي لحق بالكنائس، اللائي ورد ذكرهن بدون تحديد، فإن بعض ذلك قـد اقترف من خلال الجهل، وقد صدر الأمر بانقاذهن من دون تأخير، وبعضهن قد جرى إصلاحه، كما هو واضح من تقــرير رسـولنا المخلص والعـامـل وليم دي توكتـو Tocto, الذي أنيب مـن أجل الغـايـة الخاصـة، والـذي أمـر أيضـاً بالذهاب إلى البلاط الروماني، وبعدما حصل على نصيحة المحترم رئيس أساقفة مسينا، في أن يسير وفقاً لنصـائحه، في إصلاح تلك الأشياء التي من الممكن أن يجدها بشكل مكشـوف خـاطئة، وبعـد دخـوله المملكة، وجد في تلك المناطق بعض الأشياء التـي كانت بين أيدي بعض الأتباع الامبراطوريين، وإلى هؤلاء لم يظهر رحمة، بل جـردهم على الفور، وأعاد الذين قـد جردوا من قبلهم، علماً بأنه كـان قد أمربأن يأخـذ من الخزينة الامبراطورية كل الذي يجده قـد تم الحصـول عليـه بشكل غير شرعي، وهكذا عندما وصل التقـرير عما فعله إلى بلاط روما، يقال بأن البـابا قد وافق على بصيرة المرسـل، وعلى يقظة الشخـص الذي أرسـل، ولكن بما أن المملكة مقسمة إلى مقاطعات، لم يكن بـإمكانه الترحال خلالهم جميعاً لإصلاح الذي اعتقد أنه بحاجة إلى الإصلاح.

ومجدداً، في إجابة إلى التهمـة المتعلقة بكنيسـة مونت رويال، لقـد أفاد أنها لم تتلق أي ضرر على أيدي الامبراطور، مـالم يرغب بالاشـارة إلى المسلمين الذين استـولوا على مقتنيـات الكنيســة أثناء الحرب، وأنهم لم يعترفـوا لا بالامبراطور، ولا بالكنيســة، وأنهم لم يوفـروا شيئاً وصل إلى

أيديهم ووقع تحت سلطانهم، حتى أنهم دمروا تلك الكنيسة ونهبوها إلى حد أنهم تركوها مجرد جدران عارية، وهم أيضاً لم يوفروا أحداً في صقلية، ولذلك كان الذين بقيوا من المسيحيين في تلك الجزيرة عددهم قليل، هذا إن بقي أحد.

واعترف الامبراطور بالواقع، بأنه محق هؤلاء الناس وأزالهم كلية من صقلية، وذلك بعد كثير من الاضطراب والنفقات، وإذا عدّوا ذلك إلحاق ضرر بالكنيسة، فإنه لايعرف قط أنه آذاها بأية طريقة من الطرق، كما أنه لم يرغب بإيذائها، ولقد قال الشيء نفسه فيما يتعلق بكنيسة سيفيلدي التي هي أفضل قلعة محصنة على ساحل البحر، وقائمة على حدود سردينيا، وهذه تملكها دوماً ملك صقلية، وكان البابا انوسنت —صاحب الذكرى الطيبة— قد أعطى أوامر إلى نائبه الذي كان آنذاك في صقلية، في خدمتنا، بأن يتسلمها من الأسقف، الذي وهي بين يديه أصابها الاضطراب، وليس بموجب الحق، وتدبر ذلك النائب، أثناء طفولتنا الاستحواذ عليها، والحفاظ عليها من أجلنا، وهي لم ترد إلى ذلك الأسقف، أو إلى الأسقف الحالي، كما أنه لاينبغي أن تعاد، لأنهما لا حق لهما فيها، وإلى جانب هذا، لقد أدين بوساطة بينات واضحة بأنه رجل زائف، ولوطي، وخائن، ومنشق، ولهذا إذا كان لديه أي ادعاء في القضية، (لاسمح الرب بذلك) ليس من الضروري بأن تعطى إليه، وكذلك بالنسبة لكنيسة كاتانا، لقد قال الشيء نفسه، وأنه مالم يكن رجال حاشية الملك هم المشار إليهم، هم الذين ذهبوا في أيام الحرب إلى كاتانا، بسبب حصانة المكان وخصبه، وأعلن الامبراطور بأنه قد استدعاهم إلى عزبته الخاصة، فوفقاً لبنود القانون العام للمملكة، يتوجب على الإيرلات، والبارونات وجميع رعايا المملكة، استدعاء رجال عزبهم، حيثما وجدوهم، سواء على أراضي الكنائس أو في مدن الامبراطور، ومع ذلك لقد صدرت صيغة مرسوم حول هذه القضية،

وجرى تحديد وقت وتثبيته وقبوله بناء على طلب الحبر الأعظم، كما ظهر من الرسائل الوصائية لبطريرك أنطاكية، ورئيسي أساقفة باليرمو (بلرم) ومسينا، ومجدداً إنه بالنسبة لقضية كنيستي مايليتو، والقديسة يوفيميا، مع أنه كان تغيير مواثم، وتبديل جرى تنفيذه مع رعاة ديرة ورهبان تيرا— ماجوري، وذلك بناء على رغبة القساوسة أنفسهم مع الجماعات الديرية، وفقاً لصيغة الشريعة، وهم أنفسهم حتى الآن بين أيديهم الممتلكات البديلة ومستحوذون عليها، وفيما يتعلق بقرية القديس سيفريوس Severius, التي هي ليست بشكل مطلق تابعة لراعي دير تيرا— ماجوري صاحب أنكونا Ancona, بل هناك فيها بعض الحقوق الموجودة في اقطاعية الامبراطور، وقد كانت بعد محاكمة قد دمرت لسبب صحيح، لأن سكان ذلك المكان، قد قتلوا أثناء الاضطرابات رجلاً اسمه بولص أوف لونغوثان Longothan, وكان حاملاً لعلم الامبراطور ونهبوا مواشي الامبراطور، ومع ذلك، وحسبما تقدم الذكر، أعطي بديل إلى راعي الدير والجماعة الديرية، وكان البديل لصالحهم، وهم مايزالون يحتفظون به حتى هذا اليوم، وموضع «لامـا» هو مغلق وفقاً لقرار صدر عن راعي دير القديس يوحنا المستدير، وقد يكون من العدل الدعوة إلى اجتماع من أجله وفقاً للشريعة المدنية واللاهوتية، وذلك حسبما يكون من أجل ممتلكات اقطاعية جيدة، في البلاط الامبراطوري.

قضية الكنيسة: لقد حرم الداوية والاسبتارية من ممتلكاتهم المتحركة وكذلك من مقتنياتهم الثابتة، ولم يعوض عليهم بشكل كامل، وفقاً لشروط السلام.

جواب الامبراطور: صحيح أنه بموجب قرار الأنظمة القديمة لمملكة صقلية أن بعض الأراضي الاقطاعية والمدنية قد سحبت من الداوية والاسبتارية، وهي قد كانت بين أيديهم بمثابة منحة من غزاة المملكة،

الذين إليهم قـدمـوا الخيـول، والسـلاح، والميرة، والخمـرة، والأشيـاء الأخـرى الضرورية بكميـات وافـرة، عندمـا كـانوا يغيرون على الامبراطور، وقد رفضوا تمام الرفض تقديم جميع أنواع المساعدات إلى الامبراطور، الذي كان آنذاك مجرد ملك في أيام التلمـذة والعطالة، وقد سمح لهم بالاحتفاظ ببعض الأراضي الاقطاعيـة والمدنية التي كـانوا قد حصلوا عليها، وكـانت بين أيديهم قبل وفاة الملك وليـم الثاني، أو التي كـانت بين أيديهم كمنحة من قبل أي واحـد من أسلافـه، ولكن بعض الأراضي المدنيـة، التي كـانوا قـد اشتروها، قـد سحبت منهـم، وفقـاً للقـانون القـديم لمملكة صقليـة، لأنه من غير الممكن عمـل أية منحـة أرض مدنية بين الأحياء، من دون موافقة أميرهم، كما لايمكن توريثهم بموجب وصية دائمة، دون أن يكـون مشروطاً أن يباعوا أو يمنحوا إلى مـدني علماني آخـر، إلاّ بعـد مـرور سنة، وشهـر، واسبـوع ويوم، وهذا القانون قـد عمل من قبل القدماء للسبـب التالي، وهو أنه لو سمح لهم من دون قيود وبشكل دائم بشراء أو بتسلم أراضي مـدنية، لأمكنهم في وقت قصير شراء مملكة صقليـة كلها، التي كما يبدو هي بمـوجب جميع قـوانين الدنيا ومفـاهيمها مناسبـة لهم كأحسن ما يكون، وهذا القـانون نفسه قيد التنفيذ فيما وراء البحار.

قضية الكنيسة: وكذلك هو لم يسمح للكاتدرائية وللكنائس الأخرى الشاغرة بأن تملأ، وبهذا تعرضت حرية الكنيسة للخطر، ومات الإيمان، وبغياب الراعي، ليس هناك من أحـد يتولى عرض كلمـة الرب، ويتولى حكم أرواحهم:

جواب الامبراطور: وفي جوابه قال الامبراطور بأنه يتمنى ويرغب، بأن يجري تكريس الكاتدرائيـة والكنائس الأخـرى، مع شرط المحـافظة على الامتيـازات والمراتب التي تمتع بها الملـوك من أسـلافـه حتى وقتـه هذا، الأمر الذي استخدمه بكثير من الاعتـدال، فاق به أسلافه، وهو لم

يعارض قط ملأ الكنائس.

قضية الكنيسة: فيما يتعلق بالضرائب والمكوس التي تستخرج من الكنائس والديرة، بشكل معاكس لما قضت به بنود السلام.

جواب الامبراطور: إن العشور والضرائب التي تجمع من الأشخاص اللاهوتيين، هـي ليست مفـروضـة على المقتنيـات الكنسيـة، بل على الممتلكات الاقطاعية والوقفية، وفقاً للقانون العام، وهذا مطبق في جميع أنحاء العالم.

قضية الكنيسة: لايتجرأ القساوسة على الترافع بالشكوى ضد المرابين، لوجود مرسوم امبراطوري.

جواب الامبراطور: لقد صدر مرسـوم عام من قبل الامبراطور ضد المرابين، به أدينوا بشكل علنـي مع جميع سلعهم، وقـد جـرت قـراءته بحضـور القسـاوسـة، وبناء عليـه إنهم غير معـاقين ويمكنهم الشكوى بفعالية.

قضية الكنيسة: إن رجال الدين عرضـة للاعتقال، والسجن، والقضاء عليهم بالاعدام،والاعدام.

جواب الامبراطور: إنه لايعرف شئيـاً عن رجال دين قد اعتقلـوا، وسجنوا، مـا لم يكـن بعضهم قـد جـرى اعتقـالـه من قبل الموظفين الامبراطوريين، وسـوف يسلمون للمحـاكمـة من قبل الأسـاقفة، وفقـاً لطبيعـة جـرائمهم، أمـا بالنسبـة للذيـن قتلوا، إنه بسبب استثناء رجـال الدين والرهبان من العقوبة، فإن كنيسـة فنيوسيوم Venusium, قد بكت لوفـاة قسيسها، الذي قتل من قبل واحـد من رهبانه، وفي كنيسـة القـديس فينسنـت قتل راهب راهبـاً آخـر، ولم يتبع ذلك لا إنتقـام ولاعقوبة قانونية على الجريمة.

قضية الكنيسة: ما يتعلق بتدنيس الكنائس المكرسة للرب وتهديمها.

جواب الامبراطور: أوضح أنه لايعرف شيئاً مطلقاً، مالم تكن الإشارة قد عملت هنا إلى كنيسة لوسيريا Luceria, التي قال بأنها انهارت من نفسها، بسبب العمر، وهي التي لن يسمح الامبراطور فقط بإعادة عمارتها، بل كان أيضاً جاهزاً، من أجل شرف الرب، والكنيسة، شخصياً، لتقديم مساعدة مناسبة للأسقف، من أجل إعادة بنائها.

قضية الكنيسة: إنه لم يسمح بترميم كنيسة سورانو Sorano.

جواب الامبراطور: إنه قد سمح فقط لكنيسة سورانو بالترميم، وليس المدينة، وذلك على الأقل في أيامه، لأنها قد دمرت بموجب حكم قانوني.

قضية الكنيسة: إنه مراغمة لبنود السلام، جرى تجريد الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة في أيام الخلاف، من مقتنياتهم، وطردوا إلى المنفى.

جواب الامبراطور: إن الذين وقفوا إلى جانب البابا ضد الامبراطور، أثناء الخلاف، يسكنون في المملكة بأمان، ربما باستثناء الذين كانوا متسلمين لمناصب، أو كانوا من مسؤولي القضاء، فإنهم لخوفهم من تقديم حساب، قد بقيوا خارج المملكة، أو من الآخرين الذين مكثوا في الخارج حتى لايدعون للمثول أمام القضاء من أجل أسباب إجرامية، وبالنسبة إلى هؤلاء إن الامبراطور على استعداد لقبول عودتهم آمنين، إذا ماقدموا حساباً إليه، وإلى الآخرين الذين اشتكوا ضدهم (ليس —على كل حال— لوقوفهم إلى جانب قضية الكنيسة)، وينبغي —على كل حال— التذكر، أنه عندما جرى إعداد بنود السلام، قام البابا مراغمة لهذه البنود، وفي موقف معارض لآراء جميع الرهبان تقريباً، فاحتفظ بمدينة كاستيلانا Castellana, ولاحتفاظه بها، ولإيذاء الامبراطورية، تسلم مالاً، وذلك في الوقت الذي كان فيه الامبراطور

يعمل في خدمته ضد الرومان، ففي هـذا المجال أنفق أكثر من مائة ألف مارك من الفضة، وحصلت الكنيسة على منافع كبيرة، وكذلك أيضاً من الأراضي التي أخـذت من الرومـان، أعيدت إلى الكنيسـة، وكـذلك من استرداد امتياز الكنيسـة في المدينة، على أسـاس مرافعـة الخدمة المتقـدمة الذكر.

قضية الكنيسة: فيما يتعلـق بحفيد ملك تونس، من أنه لم يسمـح لـه بالوصـول إلى الكرسي الرسولي، لحضـور قداس التعميـد، بل احتفظ به سجيناً.

جواب الامبراطور: لقد هرب حفيد ملك تونس من بلاد المغرب إلى صقلية، ليس من أجل التعميـد، بل للنجاة من الموت، الذي هدد به من قبل عمه (خاله)، وهو لم يحتفظ بـه أسيراً، بل ذهب بموجب خياره من خلال أبوليا، ولدى سؤاله عما إذا كان يرغب بالتعميد، أنكر قبول ذلك كليـاً، وإنه إذا كـان —على كل حـال— لديه رغبـة بالتعميـد، فإن الامبراطور قد سمح بذلك بكـل سرور، وهذا ماكان قـد ذكره من قبل حول هذه المسألة إلى رئيسي أساقفة باليرمو (بلرم)، ومسينا.

قضية الكنيسة: فيما يتعلق ببطـرس المسلم، الـذي هو خـادم مخلـص للكنيسـة والذي احتفظ به سجيناً، وهو في رحلة لصـالح الكنيسـة، وكذلك فيما يتعلق بالراهب جوردان، الذي احتفظ به أيضاً سجيناً.

جواب الامبراطور: إن بطـرس المسلـم قد اتخـذ سجيناً من قبله، لأنه عدو، ومفتري ضـده في المدينة وفي كل مكان آخر، وهو لم يقـدم بمهمة عمل لصالح الملك الانكليزي، بل جلب فقط رسائل منه، يتوسل إلينا، أنه إذا ماحدث وأخـذ أسيراً، أن يبدي الرحمة نحو الأسير، لكننا لم نول الاهتمام لها، لأن ذلك الملك لم يعـرف أية خيـانة قـد تـآمـر بها بطرس المذكور ضـدي، وفيما يتعلق بالراهب جوردان، أوضح الامبراطور أنه لم

يعتقله، أو أمر باعتقاله، مع أنه قد أساء إليه في قداساته، لكن بما أنه ظهر لبعض رعيته، أن وضعه وإقامته في تخوم تريفيسو ولومبارديا سوف يكون مؤذياً للامبراطور، وبعدما قدم ضمانه بأنه لن يبقى في التخوم أو في لومبارديا، أمر هو —الامبراطور— بإطلاق سراحه، وتسليمه إلى رئيس أساقفة مسينا، إذا كان على استعداد لتسلمه، بناء على الشروط الذي ورد هنا ذكرها.

قضية الكنيسة: إنه أثار اضطراباً في المدينة ضد الكنيسة، كان بوساطته يسعى لطرد الحبر الروماني وإخوانه من كرسيهم، وحاول بشكل مضاد لامتيازات، وكرامة، وشرف الكرسي الرسولي، أن يدوس على حرية الكنيسة.

جواب الامبراطور: أنكر أن أي اضطراب قد أثير في المدينة ضد الكنيسة من قبله، ذلك أنه واحد من الرعايا الصالحين في المدينة، مثلما كان أسلافه، كل من الأمراء الرومان وملوك صقلية، ومثلما اعتادوا أن يعملوا، لأنه يحدث في بعض الأحيان أن بعض الشيوخ الذين انتخبوا من قبل أعدائهم، بذلوا جهودهم لمعاداتهم، لذلك وقف دفاعاً عنهم، كما يتوجب عليه أن يفعل في قضايا مماثلة، وذلك حسبما يكون في الغالب مناسباً، ولكن عندما ينتهي السبب، أي عندما يجري انتخاب شيخ آخر بموافقة عامة، يتوقف الاضطراب المذكور أعلاه، حسبما ظهر من القضية نفسها، وفقاً لشهادة رئيسي أساقفة باليرمو (بلرم)، ومسينا.

قضية الكنيسة: إنه أعطى أوامر إلى بعض رعيته من أجل حبس أسقف برانستي Praeneste, الذي كان نائب الكرسي الرسولي.

جواب الامبراطور: إنه بالنسبة لإعطاء أمر باعتقال أسقف برانستي، هو لم يأمر قط بذلك، ولاحتى حلم بفعل شيء من هذا القبيل، مع أنه يمتلك التسويغ لفعل مثل ذلك له، لأنه عدوه، فهو مع أنه أرسل بمثابة

رجل دين من قبل البـابا، قام على الرغم من ذلك بناء على أوامـر البابا، كما قـال، بشكل مضر، فأثار جميع لومبـارديا إلى حـد كبير ضـده —أي الامبراطور— وشجع اللومبارد على الوقـوف ضده، بقـدر ماامتلك من قوة.

قضية الكنيسـة: أعيقت الحملة الصليبيـة من قبله، بسبب الخلاف الذي وجد مع بعض اللومبـارد، مع أن الكنيسة كانت مستعـدة لتقديم عونها، وكانت تسعى بشكل فعال لإرضائه شخصياً ولكي ترضي كرامة الامبرطورية بشكل فعـال، بسبـب الاعتـداءات التي اقترفت ضـده من قبل اللومبارد، لابل حتى اللومبارد أنفسهم، كانوا مستعدين لفعل هذا، ومن المتوجب سؤاله حول هذه النقاط ومن ثم إعلامنا بجوابه.

جواب الامبراطور: قال الامبراطور: إنه بالنسبة لقضية لومبارديا، بأنه قد أحـالها مراراً إلى الكنيسـة، غير أنه لم يحصل على أية فائـدة من ذلك، اللهم مـالم يكن أنه في المناسبـة الأولى قضي على اللومبـارد، أن يقـدمـوا أربعمائة فـارس، أمر البابا بأن يـزود بهم، بطريقة أنه أرسلهم إلى المملكة ضد الامبراطور نفسه، وفي المناسبة الثانية، أغرموا بخمسمائة جندي، هو لم يأمـر بإرسـالهم إلى الامبراطور، الذي ضده اقترف العـدوان، بل أمـر بإرسالهم إلى ماوراء البحر، تحت حماية البابا والكنيسة، وبناء على أمرهما، مع أن البـابـا لم يكن معـرضـاً للعــدوان، ومع ذلك هذا لم يحدث، وفي المناسبة الثـالثة، وبناء على طلب من الكاردينـالين وهما: الأسقف المتقدم لسابينوم Sabinum, والمعلم بطرس أوف كابوا، اللذان منحهما البابا سلطات كاملة، فقد أحيل العمل المذكور إلى الكنيسة، ولم يقل بعد ذلك ولا كلمـة واحـدة حـول القضيـة، باستثناء أنه عنـدمـا علم البـابا، بأن الامبراطور —الذي غـالباً ماخـدع من قبله— كان مستعـداً للنزول مع جيشه من ألمانيا إلى ايطاليا، عندها رجـاه بحرارة بأن يعهد بالقضية ثانية إليه، ومع أن الامبراطور، غـالباً ما عـانى من جنوح السفينة، في اسناد

المسألة المذكورة إلى الشخص نفسه، كان مع ذلك على استعداد لإحالتها له في يوم محدد، على شرط أن تتثبت لصالح شرفه، ولصالح منفعة الامبراطورية،وهذا الشرط، كما ظهر من رسائل البابا، قد رفض أن يقبله، مع أنه يقول الآن في رسائله، بأن الكنيسة كانت مستعدة لتقرير القضية، أي بأن تحافظ على حق الامبراطورية وعلى شرفها، ويظهر من هذا بأن البابا ورسائله يعارض أحدهما الآخر بشكل مكشوف تماماً، ولكي لايدعى بأن الامبراطور يرغب في تجديد إدعاءاته بايطاليا، من أجل إلحاق الضرر بالأرض المقدسة، كيف إذا حمل صاحب السيادة الامبراطور الصليب، وبعد ذلك لم يهمل الذي تولاه، وهذا واضح برسائله الجوابية التي كتبت إلى مختلف الملوك في جميع أرجاء العالم، وإلى الصليبيين الذين اختاروه سيداً لهم وقائداً، وفي هذه الرسائل هو أيضاً ردّ عليهم حول المسألة المذكورة، بأنه يرغب بإدارة ذلك العمل وتدبره وفقاً لنصيحة الكنيسة، وعلاوة على هذا أضاف الامبراطور في ردّه، بأن الذي هو أكثر فوضوية، وأكثر إثارة للعجب والدهشة لكل من سمع بها، هو أنه بعد مغادرة رئيسي الأساقفة المتقدمي الذكر، أي رئيس أساقفة باليرمو (بلرم) ومسينا، اللذين إليهما كان البابا قد وعد بأن يمدّ حظوة الكنيسة لصالح الامبراطور، وأنه ذكر بأنه يرغب أن تكون له منافع مشتركة، أما الامبراطور، فمن جهته لم يقم بنشاط كبير لتنفيذ هذا، بعد إعطاء جواب فيه كفاية لرئيسي الأساقفة المذكورين فيما يتعلق ببعض النقاط التي عرضت عليه، كما هو واضح بافادتيهما، جرى إرسال هذه الرسائل وأبلغت هذه العناوين إلى القساوسة، من وراء ظهري رئيسي الأساقفة المذكورين، ولتسبيب الارباك لهما، بحكم أنهما كانا جاهلين تماماً بالذي صنع، ومع أن هذه الرسائل تحتوي نوعاً من التحذير، هي تحتوي على براهين فيها تشهير بسمعة الامبراطور، وأخيراً ادعى الامبراطور في جواب عام، بأنه وإن كان غائباً عن المملكة، وكان جاهلاً بأحوالها، هو سوف يصدر أوامر، بأن أية أضرار قد ألحقت

بالكنيسة (بقيت لكي يجري اظهارها) يتوجب إصلاحها تماماً من دون أي خلاف، وعلاوة على ذلك، إنه في سبيل المنفعة العامة، التي تنتج من الاتحاد بينه وبين الكنيسة، هو على استعداد لإعطاء الكنيسة كل الحماية، التي تجعل من الكنيسة والامبراطورية واحداً، وذلك في سبيل شرف ورفعة شأن الإيمان المسيحي، ولحفظ شرف الكنيسة وحريتها سوف يبذل غاية جهده حتى يكون هو وهي واحداً. صدر، إلخ».

شكاوى الإمبراطور من الأضرار التي ألحقت به من الحبر الأعظم

عندما جلبت هذه الأجوبة إلى البابا، اشتعل غضبه، وفي تسويغ لنفسه، عدّ جميع المناظرات المتقدمة عبثية، ومراوغة عقيمة، واستخف بها ورفضها كأنها مجرد حكاية، ثم إنه كتب إلى أمراء المسيحية وإلى نبلاء العالم المسيحي، من علمانيين ولاهوتيين، وحلّل جميع الذين كانوا مرتبطين بالولاء مع الامبراطور فردريك، من إطاعته على أنه مولاهم، كما أنه تدبر نشر القرار الذي صدر ضد الامبراطور المذكور، بشكل مهيب في جميع البلدان التي كانت مطيعة له، ولاسيما في جميع أرجاء انكلترا، وأساء إليه وشوّه سمعته بشكل جاد، حيث أعلن عنه أنه عدو مكشوف للرب وللكنيسة، ووصلت بالحال أخبار عن هذا إلى الامبراطور وبناء عليه حزن كثيراً، وكتب إلى أصدقائه كما يلي، مقدماً شكاوى ثقيلة ضد البابا.

رسالة الامبراطور

«من فردريك، **إلخ، إلخ**:نحن نتحدث من دون رغبة، غير أننا لانستطيع المحافظة على سلامنا، لأن الفأس قد وضع الآن على جذر الشجرة، والسيف قد خرق الروح تقريباً، ففتح شفاهنا وأطلقها، وعلينا أن نكتب كيف أن الشرور قد كسبت حق القانون، ونحن نشعر بالحزن

لأن الأناس المتمردين قد رفعوا أيديهم اليمنى ضد أحشائهم، والخطأ مفضل على الصواب، والإرادة قد انتصرت على العدالة، لأن الشعوب تسعى الآن لطرد حاكم إيطاليا، والصولجان الامبراطوري، وهم غير واعين لمنافعهم فرضوا الحرية غير المسوغة وغير المحدودة على هدوء السلام، وفضلوا ذلك على الانصاف والعدل، ولاتظنن على كل حال بأن هذا التمرد نحن من تسبب به أولاً، لأننا نحن نقوم بالانتقام للأذى الذي لحق بأجدادنا وبآبائنا، ونسعى لقمع مجمل هذه الحرية المقيتة، التي امتدت إلى مناطق أخرى، ولاتظنن، أننا تمكنا بأية وسائل حتى الآن، من اخفاء هذه الأشياء، كما أننا لم نتجاوزهم بأعين القناعة، لأننا ما ان بلغنا مبلغ الرجال، وبدأت فضائل العقل والجسد تتوهج في داخلنا، حتى جرى ترفيعنا إلى المرتبة الامبراطورية، فوق جميع آمال البشر، وبإرادة من الحكمة الربانية وحدها، ووقعت مملكة صقلية، الميراث الطيب من أمنا في حوذتنا، ووجهنا بصيرة عقلنا إلى المسائل المتقدم ذكرها، وبعد أمد، وفي سبيل تحقيق هدفنا، وبسبب المأساة المروعة بفقدان دمياط في ذلك الحين، وبعد التشاور مع الأب المبجل أونوريوس، الحبر الأعظم في فيرولي، وبموافقة عامة، رأينا أنه من الموافق من أجل رفع شأن أحوال الأرض المقدسة، وفي سبيل إصلاح الامبراطورية، أن نعقد بلاطاً خاصاً في فيرونا، على أن نكون نحن وكذلك البابا المتقدم الذكر حضوراً، وتغيرت هذه النية، نظراً لتقلبات المجلس، والحالة المستمرة لاضطراب الأوضاع في ذلك الوقت، ولكن بما أننا لم نكن نرغب في التخلي عن مثل هذه النية الطيبة، وبعد عقد اجتماع آخر مع البابا في فيريتينو Ferentino, حددنا موعداً لعقد بلاط في كريمونا، إليه دعونا ابننا، وعدداً كبيراً من مقدمي امبراطوريتنا، مع حاشية موائمة من الفرسان، ومع ذلك فقد جلبنا معنا رتلاً كبيراً من الفرسان من المقاطعات الإيطالية، وذلك حسبما هو لائق بشرف المكانة الامبراطورية، وبمثل هذه القضية العظيمة، ومنذ ذلك الحين، بدأ

اللومبارد بالتمرد ضدنا، وضد شرفنا، بروح مضادة، وبمشاعر شاجبة، وقد تظاهروا بالخوف، لأننا كنا محاطين برجال مسلحين، وقد رفضوا طاعتنا، بحكم أننا مولاهم الشرعي، وبإغلاق الطرق أعاقوا دخولنا إلى ايطاليا، وأزاحوا ولدنا والمقدمين من أمام أنظارنا، ولزيادة شرورهم، مع أنها خفية وخيانية، أضافوا الاستهزاء، والإهانة المفتوحة، لأنهم في مؤامراتهم ضدنا وضد الامبراطورية، شكلوا —على الرغم من كوننا موجودين بينهم— مؤامرات شائنة، وهكذا أحبطت توقعاتنا في رؤية ولدنا، فعدنا في هذا الحال إلى أبوليا، لأن الوقت قد ضغط آنذاك من أجل عمل استعداداتنا للجواز عبر البحر، الأمر الذي كنا ملزمين به بعهدنا، وعهدنا بهذه القضية، استناداً إلى الترضية التي عملت لنا وإلى الامبراطورية، لأن يجري تقريرها بموجب قرار من الحبر الأعظم، الذين بقرار منه قد فرض عليهم تزويدنا على نفقتهم بخمسمائة جندي من أجل الخدمة في الأرض المقدسة، وبذروا في البداية الخلاف بين الكنيسة وبين الامبراطورية، فأرسلوهم إلى داخل أبوليا ضدنا، وهكذا بحركة ارتدادية بالترضية ضاعفوا ضررهم المتقدم، وعندما عدنا من مناطق ماوراء البحر، وبعد تسوية الخلاف بيننا وبين الكنيسة، بقينا ملتزمين بغايتنا في إصلاح أوضاع الامبراطورية، وبموجب نصيحة من أبينا الأعظم قداسة، الحبر الأعظم غريغوري، حددنا لعقد بلاط عام في رافينا، وسرنا إلى هنالك مع حاشيتنا المنزلية فقط، ومن دون سلاح، في سبيل إزالة جميع أسباب الخوف الطائشة، من وجود رجال مسلحين، وهناك لم يقتصر عمل اللومبارد المتقدم ذكرهم على عدم تقديم علامات الاخلاص والطاعة، بل ألقوا أمام أعيننا جانباً الاحترام الجدير بشخصنا، ونشروا رايتهم وسعوا بعنف لإهانة مدينة فيرونا، واكسيلينو Eccelino, اللتان انضمتا مؤخراً إلينا، خروجاً عن طاعة الرومان، ومنعوا أيضاً ولدنا من القدوم إلينا، وكذلك نحن من الذهاب إليه، وذلك خلال مناطق الامبراطورية، وبوساطة طرقها (والتي مع أنها لهم،

كـانت عامـة لاستخـدام الجميع)، وهكذا لم تتمكن عين الأب من رؤية الابن، وبتحـريض من العـاطفـة الأبوية، التي لايمكن كبحهـا، عهـدنا بأنفسنا إلى الحظوظ المريبة لعبور البحر، وذهبنا إلى أكويليا، بغرض رؤية ولدنا الحبيب والمقدمين، وباخلاص منهم قدموا إلينا، ولم نتخل حتى في ذلك الوقت عن رحمتنا الثـابتـة، بـل وضعنا جـانبـاً كل غضب، بسبب هجمات أعدائنا ومجدداً عهدنا بإقرار هذه القضية إلى الكنيسة، وقد رفعنا بينهم أبواق عدم الطاعة عوضاً عن الخطبة فيهم، كما كنا ننوي، لإعطاء مثل عن تواضعنا، ولقـد أعطونا تمرداً عوضـاً عن الطاعة المستحقـة لنا، وعـدم إخـلاص عوضـاً عن الاخـلاص، كما أن مـا من غضب حـول القضايا المتقدم ذكرها أعطاهم فهماً.

ظهور مذنب

وفي العام نفسه، وفي عشية عيد القديس جيمس، ومع حلول الظلام، وقبل ظهـور النجـوم، شـوهد في السماء الزرقـاء الصـافيـة، نجم كبير مشتعل، نهض مـن الجنوب، وطـار بشكل مستقيم، لكـن ليس نحـو الأعلى، ومر خارقاً الهواء، شـاقاً طريقه نحو الشمال، ليس بشكل سريع، بل مثلما يطير العقاب، وعندمـا وصل إلى منتصف قبة السماء، الذي هو نصفنا، اختفى، مخلفـاً وراءه دخـاناً وشرراً في الهواء، وكـان هذا النجم إما مذنبـاً أو «دراغون» أكبر بالنسبة للعين من الزّهرة، وله شكل سمكة من سمك البـوري، مشع كثيراً من معظم أجـزائه الأمـاميـة، غير أنه في الجزء الخلفي دخاني وله شرر، وأصيب جميع الذين شاهدوا هذه العلامة الرائعة بالدهشـة، ولم يعرفـوا بما هي منذرة أو مبشرة، وشيء واحد هو مـؤكد، هو أن الموسـم بعدمـا كـان على وشك الاختناق بسبب الأمطار المتـواليـة، تغير هذا الموسم في هذه الساعـة بالذات إلى واحـد من أكثـر المواسم خصبـاً، وحفظ الموسم الناضـج، الذي كـان فقط ينتظر المنجل، والقيام بجني المحصول وجمعه.

-٦٩٩٢-

مغادرة سيمون إيرل ليستر إنكلترا لأنه جنى غضب الملك

وفي حوالي ذلك الوقت، وبالتحديد في اليوم التاسع من آب، وصل إلى لندن بعض السيدات النبيلات لمرافقة الملكة إلى الدير من أجل طهارتها، حسبما كانت هي العادة، وعندما وصل سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر مع زوجته، دعاه الملك باسم رجل محروم كنسياً، ومنعه وكذلك منع زوجته، التي لوثها بشكل دنيء وفاضح، قبل عقد الزواج بينهما، منعه من الحضور أثناء الاحتفالات الوقورة، وبعدما منعه من الاقتراب منه، غادر الايرل مهاناً ومعه زوجته، وبادر مسرعاً عبر الماء إلى بيته (الذي كان قصر أسقف وينكستر المتوفى، والذي بكرم أعاره الملك إياه ليعيش فيه)، وأمر الملك بطردهما على الفور بالقوة، ومع أنهما عادا إلى الملك يرجوان عفوه بدموع ونحيب، لم يتمكنا من إطفاء غضبه، لأنه قال له:

«أنت أغويت أختي قبل الزواج، وعندما اكتشفت ذلك، أعطيتها لك بالزواج، مع أن ذلك كان ضد إرادتي، حتى أتجنب الفضيحة ولكي لايعيق نذرها الزواج، ذهبت إلى روما، ورشوت البلاط الروماني بهدايا ثمينة وبوعود كبيرة، حتى يمنحك الإذن لفعل ما هو غير شرعي، ورئيس أساقفة كانتربري حاضر هنا، ويعرف هذا، وقد أبلغ بحقيقة القضية إلى البابا، ولكن الحقيقة غلبت بالرشوات المتوالية، وهزمت أمام الشره الروماني، وبسبب إخفاقك في دفع الأموال التي وعدت بها، حرمت كنسياً، ولكي تزيد حجم شرورك، قمت بوساطة بينة مزيفة، فسميتني الضامن لك، من دون استشارتي ودون أن أعرف شيئاً حول القضية»، ولدى سماع الايرل هذه الكلمات قهره الخجل، ومع نهاية النهار، ركب في قارب صغير فوق التيمس مع زوجته وحاشية صغيرة، وسار بكل سرعة إلى شاطىء البحر، وأبحر من هناك على الفور من انكلترا.

عقد مؤتمر في لندن بين أساقفة انكلترا وبين النائب البابوي

وفي هذه الآونة نفسها، وفي التحديد في الحادي والثلاثين من تموز، اجتمع جميع الأساقفة في لندن، للبحث في مظالم الكنيسة، لأن النائب البابوي بعد جبايات يومية، كان الآن يطالب بوكالات، وبعد عقد المؤتمر، أجاب الأساقفة برأي واحد بأن المطالب الملحّة للرومان قد أنهكت ممتلكات الكنيسة، ولم يعد بإمكانهم التحمل أكثر مثل هذه المطالب، وقالوا:

«ليقم بإمدادك الذي دعاك من دون استشارة أي واحد حول القضية»، وهكذا تركوا المؤتمر، لكن ليس من دون تمتمة بعدم الرضا.

ذهاب النائب البابوي إلى سكوتلندا

وعمل في هذه الآونة النائب البابوي الاستعدادات، من أجل مغادرة سريعة إلى سكوتلندا، وبعدما قام بالترتيبات الضرورية، وبعدما أرسل أدلاء انكليز، للكشف عما إذا كانت هناك أية مؤامرة خيانية مدبرة ضده، شرع برحلته إلى هناك، مختاراً إقامات منظمة في الرعويات الديرية، وفي الكنائس الكاتدرائية، وقبل أن يدخل إلى الأراضي السكوتلندية، قوبل من قبل ملك تلك المنطقة، الذي لم يكن مسروراً لدخوله إلى مملكته، لأنه قال بأن مامن نائب بابوي قد دخل قط إلى سكوتلندا باستثنائه هو وحده، كما أنه أعلن، أنه ليست هناك من حاجة لفعله هكذا، لأن المسيحية قد ازدهرت هناك، وكانت الكنيسة في أوضاع متنامية، وأخيراً وبعد تضاعف المناقشات، وبعدما أثير الملك إلى حد منعه من الدخول إلى مملكته، تم الوصول إلى اتفاقية مكتوبة، جرى إعدادها بوساطة بعض النبلاء بينهما من كلا المملكتين، كان فحواها بأن مثل هذه العادة لن تصبح مسألة جارية بسبب قدومه إلى هناك، وعلاوة على ذلك يتوجب عليه توقيع هذه الكتابة عند مغادرته، وجرى ترتيب

هذا حتى لايعـود إلى انكلترا بحـال مضطرب، وكأنه رجل مطرود، ولم يقم —على كل حـال— بعبور البحـر، بل بقي في المدن الغنيـة على هذا الجانب من البحـر، حيث رتب جميع القضـايا اللاهوتيـة حسب رغبتـه، وجمع مبلغـاً كبيراً من المال، وبعـد ذلك، وعندما كـان الملك في المنطقـة الداخليـــة، قـام بالمغـــادرة بشكل سري، ومن دون إذن الملك، وأخـــذ الاتفاقية المكتوبة، المتقدم ذكرها، معه.

قراءة قرار الحرمان الكنسي الصادر ضدّ الامبراطور في إنكلترا

وعندمـا كان النـائب البابوي على طريقـه نحـو سكوتلندا، ذهب إلى بيت هيئة الرهبـان في سينت ألبـان، وبعـدما قـام أولاً بالوعظ بقـداس بمناسبة صعود العذراء المباركة (لأن هذا وقع خلال ثمانية ذلك العيد)، تولى حـرمـان الامبراطور كنسيـاً، لأن الـرهبـان كـانوا قـد حصلوا على رسـائل تعفيهم من أداء هذا الواجب، وجرى في الوقت نفسـه حرمـان الامبراطور المذكور كنسياً بشكل مهيب، ولعدة مرات في كنيسة القديس بولص في لندن، وذلك بوساطة إجـازة معتمدة من البابا، جـرى إرسالها إلى النائب البابوي.

رسالة حادة من البابا ضدّ الإمبراطور أرسلت إلى النائب البابوي

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى ولده المحبوب أوتو، الكاردينال الشماس لسينت نيقـولا في كارسير Carcere, توليانو Tulliano, نائب الكرسي الرسولي، صحة ومباركات رسولية:

الكرسي الرسـولي، مثله مثل بقية العـالم كله تقـريباً، قـد علم ببينات الحقيقـة، أن الكنيسـة منذ أن تسلمتـه من رحم أمـه، على ركبتيهـا، قـد أرضعت بعـواطفهـا الأبوية الامبراطور فردريـك، وحملته بين ذراعيهـا، وتلقتـه ليتربـى تحت حمايتهـا، وهو الذي كـــان من قبل بلا أمـل تمامـاً، ومهمـلاً، ومـوكـلاً إلى مستقبل مشكوك به، ووقفت بكل قـدرتها ضـد

جميع غزاة مملكته، الذي ألقوا بأعين الشره على أراضيه، والذين كانوا قد دخلوا إلى داخل حدود أراضيـه، وكانوا يقدمـون إدعاءات بها من دون معارضة، وحميناه مـن الذين تآمروا ضد حياته، لأنهم حسـدوا خلاصه، وكـانوا يسعـون لوضع حـدّاً لحيـاته، وليجتثوا ذكـراه من على وجـه الأرض.

وعندما وصل الامبراطور المذكـور إلى عمر أكثر نضوجـاً، مدافع عنه بوسـاطة ترس الحماية اللاهوتية لكل من شخصـه وللمملكة، وكان قـد جـرى ندب غ. G, دي غـولغـانم Gualganem, صـــاحب الذكــرى الطيبـــة، والكاهن في هيئـة كهنة القــديس أناستــاسيـوس، والكاردينال، فقـد بقي منابا لعدة سنوات، ليكون مسـؤولاً عنه، وذلك من قبل الكرسي الرسولي، ورفع أخيراً بوساطة الكرسي المذكور إلى قمة المناصب، ولكـن يبـدو أنه قـد فقـد منافع العنايـة التي أضفيت على شخصه، ونسي المتاعب التي عانت منها الكنيسة لصالحه، وذلك منذ أن أصبح ناسيـاً لمثل تلك المنافع، وغير ممتن لمثل ذلـك المعـروف العظيم، وكنا نرغب أنه لم يتجـاوز حـدود النكران للمعـروف بشكل متـوازن، الذي يكون به مكتفياً بنكران أن تلقى مثل تلك المنافع جانبـاً، بالاضافة إلى هذا إن كل ذنب يجعل الإنسان يشعـر باللدغة المريرة للأسف، وهذا —على كل حـال— كيف حل النكران محل الإحسان، وعـاد الشر بدلاً من الصلاح، ضـارباً بسلاح ثقيل، ومع أن الكرسي الرسولي يحبـه، وقد رفعـه إلى قمة السلطة المدنيـة، مع هذا فإنه نظراً لذنوبه الملحـة، التي مع أننا في الغـالب، حللناه منهـا، قـد رفض التكفير عنهـا، وهكذا أرغمنا، فأقدمنا ونحن غير راضين على توبيخـه، لأنه مع أن الحكمة الربانيـة قد رفعت آدم إلى أعلى المراتب والسلطة، ووضعت جميع الأشيـاء المخلوقـة تحت سلطانه، مع ذلـك لأنه تجاوز أوامـر صـــانعـه، لم توفـر خطيئتـه، والتعويضات التي تسلمتها الكنيسة من فردريك المتقدم الذكر على جميع

المنافع التي أضفيت عليه، لانرغب أن تكون جاهلاً بها، وسوف نعرض في هذه الرسالة أمثلة قليلة من بين الكثير.

فقد أثار في المدينة اضطراباً شديداً، وسعى بكل الوسائل التي توفرت لديه وفي قدرته، لمنعنا مع إخواننا واخراجنا من هناك، وبهذا جلب الإهانة إلى الكرسي الرسولي، وداس على حرية الكنيسة نفسها، وخرق بطيش الأيمان التي كان قد قطعها على نفسه، وقد تسبب بإعاقة أخينا المحترم أسمف برانستي، وإيقاف رحلته بوساطة بعض رعيته، وكان ذلك أثناء ارسال ذلك الأسقف إلى مناطق الألبينيين من أجل تقوية الإيمان الكاثوليكي، كما أنه لم يسمح ولا بأي شكل من الأشكال بملأ الكاتدرائيات والكنائس الشاغرة في مملكته، مسبباً بذلك الرعب والأذى الشديد لأرواح المؤمنين، ولم يكتف بهذا بل نهبهم وجردهم وجرد كنائس أخرى من جميع مقتنياتها، وفرض ضرائب واستخرج مكوساً ثقيلة من القساوسة، والرهبان، ومن رجال الدين العلمانيين الآخرين، وجرى انزال النبلاء، والقوم الفقراء، واليتامى، والأرامل إلى أقصى درجات الدمار، ولم تمنحهم قسوة وشدة جباياته ولا حتى فرصة للتنفس، وهكذا أنزل —بقدر مااستطاع— مملكته كلها إلى رماد وخبث، التي هي الوقف الروحي للقديس بطرس، والتي من أجلها هو مرتبط بيمين التابعية للكرسي الرسولي، وهو من مقطعيه، وبما أنه، بعد تلقيه التحذيرات من قبلنا، لم ير أن عليه أن يقوّم سلوكه، فإننا سوف نقوم بعون الرب، بالتعامل مع القضية، حسبما نرى ذلك مناسباً، وبالاضافة إلى هذا لقد أعاق قضية الأرض المقدسة والامبراطورية الرومانية، ومع أنه، في الأيام التي كان السلام قد أعيد تأسيسه بينه وبين الكنيسة، قد أقسم على يدي نواب الكرسي الرسولي في أن يطيع أوامر الوصاية التي تلقاها منهم، قد رفض تنفيذ الوصاية التي تسلمها منهم، ولا بأي شكل من الأشكال، أو السماح لهم بشغل الأراضي المصادرة

والتـابعة للكنيسـة، أو أراضيهم التي استـولى عليها ووضعهـا بين يديه، لابل استـولى عل أراضي الكنائس، وخـاصـة أراضي فيرارا Ferrara, وبولونا Bologna, وفوسينانو Fusignano, في لومبارديا، ومنطقة سردينيـا، ومسينا، ولوكا، ولقد استـولى على الأسقفيات، وخلع الأساقفـة، واستبقى الكنائس لنفسه، ونهب أراضيهم وعاث فيهـا فساداً على الرغم من أن النواب البـابويين قـد تفوهـوا بقرار الحرمـان الكنسي ضده، وفي حضوره، وذلك إذا لم يعمل في هذه القضية وفق أوامرهم.

ومجدداً يحتجز هذا الامبراطور سجيناً لديـه حفيد ملك تونس، الذي كان قـادماً إلى بلاط كنيسـة روما، ليتلقى طقـوس التعميد، كما أنه فعل الشيء نفسه مع ابننا المحبوب، بطرس المسلم، والمواطن الروماني النبيل، اللذين قـد أرسلا إلينا من قبل ولـدنا المحبوب بالمسيح، الملك المشهـور لانكلترا، ولقد كـانا قادمين إلى الكرسي الرسـولي، ومثل ذلك فعل بابن بطرس المذكور، ومع أنه تلقى التنبيـه مراراً من قبلنا، لم يشعـر بوجوب القيـام بالإصـلاح المخلص، وبما أن قروح ذنوبه أصبحـت أشد قسـوة، وصار يقدم يوميـاً على اقتراف المزيد من الجرائم الأسوأ، وبما أننا لم يعد بإمكاننـا التحمل مـدة أطول —دون أن نذنـب بحق المسيح— ولا أن نمـر مـرور الكـرام بهذه الأشيـاء ونحن صـامتين، وبوسـاطة نصيحـة إخواننا، وباسم الرب القدير (الـذي نحن نائبه على الأرض)، وبوساطة سلطتي المباركين: بطرس وبولص، وبمـوجب سلطاتنا —ومهما كنا غير راغبين— لقـد رأينا من المناسب إعـلان قـرار الحرمان الكنسي، وقـرار الحرمان من شراكة المؤمنين والتكفير ضـد الامبراطور فردريك المذكور، والعهدة به إلى الشيطان، حتى لايمكن تخليص روحه في يوم الرب، بعد وفـاة جسـده، وبالنسبـة إلى جميع المرتبطين بـه بيمين الولاء، نحن نرسـم بتحليلهم من مـراعـاة هـذا اليمين، مـادام مغلولاً بسلسلة الحرمـان الكنسي، وطوال بقـائـه كـذلك، وبناء عليـه نحن ننذركم، ونحثكم بناء

على اخلاصكم، ونأمـركم بوساطة هذه الرسـائل الرسوليـة، أن تتدبروا نشر قرار الحرمان الكنسي والتكفير المتقـدم الذكر، بشكل مهيب، في كل يوم أحد، وفي كل يوم عيـد، والأجراس تقـرع، والشموع مشتعلة، وأن تتـدبروا نشر التحليـل المذكـور مع الحظر، والتفـوه بهما في جميع أنحـاء نيابتك الرسولية، وحين تنفـذ أوامرنا وفق هده الطريقة، فإن اخلاصكم يستحق المكافأة من قبلنـا، ومجدداً بما أن فـردريك المتقـدم الذكـر أصبح مشهوراً بسبب جرائم أخرى عظيمـة وثقيلة، نحن سوف نتابع السير في هذه المســائل، في وقتهم المحـدد ومكانهم المعين، وذلـك حسبما تتطلبـه طبيعـة القضيــة، وبما أن صـوت الرعب يصرخ دومــاً في أذني الشرير، والأشرار دومـاً يتوجسـون من الخيانـة حتى عندما يكونون في أوضـاع سـلام، لأن الضمير المضطرب يتــوقع دومـاً الشر، نجــد أن فـردريك المذكـور، حتى قبل إعلان قـرار الحرمـان الكنسي ضده، قـرر أن يرسل بعض الرسـائل إلى إخـواننا، وهي الرسـائل التي أشير جزئيـاً إليهـا من قبل، والتي وصلت إلى علمنا وإلى علمهم، بعد صـدور القرار المذكور، وبما أن الرب يتـولى دومـاً كشف الأشيـاء المخفيـة والمخبأة في الظلام، وإباحـة أسرار جميع القلوب، قد رغـب في كشف الأفكار الخفية لقلبـه، ذلك أننا استنتجنا من محتـويات تلك الرسائل أية تقـوى يشعر بها نحـو الكنيسة الرومانية التي هي أمه، وأي احترام أو تقدير متوفر لديه للحبر الأعظم ولإخوانه وللكـرسي الرسولي، الذي هو من أتبـاعه الاقطاعيين بالنسبة لمملكته، لأنـه كما يبدو قد تآمر ضدنا وضـدهم، وظهر من ذلك بما فيه الكفاية أية نوع من الجرائم، وكم هي كبيرة الجريمة التي اقترفها، وكان بين كثير من الأشياء الواردة في رسالته هذه الكلمات المقحمة:

«وبناء عليــه نحن ننتحب، ليس من دون سبب مســوغ، لأن الأب الرسولي يسعى بشكل جاد لإلحاق الضرر بنا، لأنه عندما ينزل مثل هذا الأذى على إنســـان ثـابت، ومـع أننا نـرغب بتحمـل ذلك بصبر، إن

ضخامة الذنب لاتسمح لنا بفعل ذلك، بل إن عنف الواقعة يرغمنا على أخذ الانتقام، الأمر الذي اعتاد القياصرة أن يمارسوه»، وإننا —على كل حال— عندما نقدر انعدام صبر المهاجم، والوضع الصعب للمدافع، وإذا سمح لنا بحياد، أن نضع بالممارسة الانتقام الخاص الذي يمكن أن نمارسه على الرجل الذي كان أصل هذا العدوان وحلفائه بالدم، علينا أن نعتقد أنها أكثر احتمالاً، وأن محاولة إلحاق الأذى بكرسينا سوف تطاله وتنزل به وبالذي له، لكن بما أنه لاهو ولاجميع بني قومه، هم الذين سوف يعانون من أجل هذا، سوف يكون عظيم الأهمية بأن تكون جلالة الامبراطورية متشوقة جداً من أجل معاقبتهم، وبما أن سلطات الوضع قد سحبت كل الموانع من الوقاحة، ويبدو أن وزن العدد الكبير للإخوان المحترمين يدعمه على الثبات في العناد الذي تصوره مسبباً للغضب الذي مايزال يزعج عقلنا بعمق أكبر، ذلك أننا مادمنا نسعى لحماية أنفسنا من أي مهاجم، نحن قد أرغمنا في الدفاع عن أنفسنا، بأن نعطي هجوماً أعظم بوساطة مقاومتنا. صدر في اللاتيران، في الحادي عشر من نيسان، في السنة الثالثة عشرة لحبريتنا».

الغضب العظيم للإمبراطور ضدّ البابا وشكاياته الثقيلة ضدّه

وعندما أخبر الامبراطور بهذا التشويه لأخلاقه، وفي أنه طاغية وليس ملكاً، ثار غضبه —ليس من دون سبب— أكثر فأكثر ضد الميلانيين، وضد الخونة الآخرين له، الذين ساعدهم البابا بشكل مؤثر، وشجعهم ضده، وأصبح الميلانيون أكثر جرأة، بسبب المساعدة التي قدمها لهم البابا، ووجدوا أن المسألة هي مسألة حياة أو موت، فأقلعوا بهجمات شديدة جداً، يرافقهم نائب بابوي، كان قد أرسل من قبل البابا لمساعدتهم، وعندما كان الامبراطور قد ذهب إلى مناطق نائية، استولوا بالقوة على فيرارا، ومدن أخرى، وقلاع تابعة للامبراطور، ونهبوا المناطق المجاورة ونشروا الدمار والموت، والذين تعرضوا للحصار، قوبلوا من

دون رحمة، ومع أنهم توسلوا إلى النائب البابوي بدموع، في أنهم إذا ماسلموه مدنهم ومقتنياتهم كلها، ووضعوها بين يديه، أن تستثنى أشخاصهم وحدها باسم الرب، ولم يصغ إليهم، مالم يخضعوا أنفسهم وممتلكاتهم إليه بشكل كامل ومن دون شروط، واعترت الدهشة العظيمة رجال الدين المقدسين والرهبان، الذين سكنوا في المقاطعات المسيحية تجاه انعدام الانسانية والوحشية الدموية التي توفرت في نائب بابوي للكنيسة، وتفوهوا باللعنات ضده، لأنه باستخدامه السيف المادي فقط على هذه الصورة، هو تذكّر فقط عدم إبداء الرحمة، وقد استبد الخوف والرعب بقلوبهم، خشية أن يصب المولى رب الحشود غضبه على هؤلاء المخلوقات القساة، وأن تعاني الكنيسة من سقوط كبير، خاصة وأن حزب البابا لم يهتم بالصلوات، أو بالصوم، أو بالمسيرات، كما أنه لم يفرض على الجماعة العمل على تجنب غضب الرب، بتقديم الصلوات إليه، فبوساطة الصلوات تسترد الكنيسة بالعادة أنفاسها في أوقاتها العصيبة، وغالباً ما تحصل على الانتصارات على الظالمين لها، لكن بوضعها جميع ثقتها في ثرواتها، وفي السلب جعلها تندفع بدون توقف إلى السيف ولأن تقوم بانتقامها، ومن هذا قام حزن ودمار للمسيحيين، وتهديد للنبلاء، وغضب، وحقد، وكراهية، وعداء بين الكنيسة والامبراطورية، وهددت بدايات هذه الوقائع المحزنة بنهايات أكثر حزناً، وهكذا طُعن الامبراطور بآلام حزنه، ولذلك سعى لتسويغ نفسه، ولإتهام البابا، ولهذا كتب الرسالة التالية إلى عدد من الملوك والأمراء، وخاصة إلى ملك انكلترا، وإلى أخيه رتشارد ايرل أوف كورنوول، بحكم أنه ابن ختنه المحبوب، والذي فيه وضع ثقة خاصة:

رسالة الإمبراطور إلى رتشارد إيرل أوف كورنوول

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم وملك القدس وصقلية، إلى رتشارد ايرل كورنوول، وابن ختنه

العزيز، صحة وكل المباركات:

ألق عيناك من حولك، وانظر إلى أبناء الناس، وابك على فضائح الدنيا، والصراع بين الشعوب، والإقصاء العام للعدالة، بما أن شرور بابل قد صدرت عن شيوخ الناس، الذين ظهروا بأنهم حكامها، وفي ذلك حولوا القضاء إلى مرارة، وثمار العدل إلى دود الخشب، قف حيث أنت، أيها الأمير، ويا أيتها الشعوب افهمي قضيتك، واتركي أحكامك تصدر تحت نظر الرب، واجعلي عيونك تشاهد الانصاف لأننا نعرف، ونثق في فضيلة القاضي الأعلى، وحيث لايوجد معك أوزاناً مختلفة، ولامقاييس مختلفة أيضاً، فإنك بكل تأكيد سوف ترى تسامحنا، والبراءة الموزونة في ميزان حكمك، وكلمات الافتراء صادرة من شفاه المنتقصين لنا، واختراعاتهم السامة وزيفهم، ولكن نحن نعلم إنها ليست الآن المرة الأولى أن عدالة قضيتنا، وشرور الذي هو جالس على كرسي الرب، قد جلبت للعرض أمام معرفة العالم، وإلى جانب بدايات الشهرة السريعة التي غالباً ماتأخذ بريق الجدة من آذاننا، في جميع الحالات الهامة، ونحن أنفسنا نستطيع أن نؤكد بعروضنا التالية، أن الذي هو إشاعة، قد أعلن في الفرصة الأولى، أي كيف جرى تعيين هذا المقاتل الجديد رئيساً لكهنتنا تحت رعاية شريرة، فهو صديقنا الخاص مادام في مرتبة دنيا، لكن فور ترقيته، نسي أعمال المعروف التي أغنت بها امبراطوريتنا الكنيسة المقدسة، وغيّر الإخلاص مع تغيّر الظروف، وبدّل أخلاقه مع كرامته، وهو متأثر من بعض الجوانب برغبة شهوانية في إحداث اضطراب عام، فقد شحذ حد خبثه ضدنا، مع أنه هو رئيس الكنيسة وابنها الخاص، وقد اقتنص فرصته، عندما —حتى يتجنب فضيحة كبيرة— تفوه بالحرمان الكنسي ضدنا، وكان ذلك بعدما أخذنا يميناً، وربطنا أنفسنا بالعبور في وقت محدد إلى الأرض المقدسة، ثم إنه بسبب أننا تأخرنا لسوء الصحة (مضيفاً كثيراً من التهم الأخرى، نحن فيما يتعلق بها لم يتقدم قط بتحذيرنا أو بتذكيرنا) قام على الرغم من رغبة

الرب والعدل، فرفض كلياً تسويغنا، واتخذ ذلك سبباً للحرمان الكنسي، ولهذا خضعنا بكل تواضع وكأن الحرمان جرى التفوه به في المقام الأول بناء على رغبتنا، وصليّنا من أجل التحليل، ووعدنا أنه عندما تعود إلينا صحتنا الجسدية، سوف نستعد على الفور لعمل عبورنا، ومع أن شكوانا التي قدمناها بتواضع قد رفضت بشكل مهين، فقد عبرنا لانقاذها، بتنفيذ تقوي لتعهدنا، معتقدين أن نائب يسوع المسيح قد استهدف تنفيذ هذه المسألة، وليس زيادة كراهيته ضدنا، لكن الذي أملنا أن يكون منقذاً فقط للأشياء التي هي بالأعلى، والذي افترضنا أنه يتأمل الأشياء السماوية بعينيه، والذي يركز عليهم في تفكيره، وجدناه كلياً على الفور ليس فقط رجلاً فارغاً من الصدق، بأعماله الوحشية، لابل حتى منفصلاً عن جميع مشاعر الانسانية، لأنه إلى جانب المعيقات التي رماها في طريقنا في سورية، بوساطة رسله، ونوابه، ومثل ذلك برسائل منه —الحاملين لهم قد ألقينا القبض عليهم، ونحتفظ بالرسائل بمثابة بينات— فقد حذروا السلطان من التخلي لنا عن الأرض، التي أوقفت للعبادة اللاهوتية، ولشرائع مملكة القدس، وعمل دخولاً بالقوة إلى مملكتنا في صقلية، مقدماً سبباً مسوغاً لهذا الصنيع هو أن ر. R, ابن الدوق الماضي لسبوليتو Spoleto, كان يعدّ العدة لدخول أراضي الكنيسة، مع أن ذلك كان من دون موافقتنا، ومن دون معرفتنا، وقدمنا فيما بعد برهاناً على ذلك بمعاقبته،كما أنهم لم يزحفوا إلى هناك كما يفعل الرجال المقدسين، ومن ثم الاستيلاء على الممالك بالإيمان، بل زحفوا بالغدر والحنث باليمين للجميع، وإذا لم يكن من السهولة إيجاد أحد يمكن إغوائه بسهولة بالحنث باليمين بوساطة تأكيد بسيط، لقد كان هناك أولئك، حيث أغويوا على الفور، عندما قام قادة القوات البابوية أنفسهم، في سبيل الحصول بسهولة على أراضينا، فأكدوا باليمين، بأننا كنا أسرى في سورية، ومجدداً بعد عودتنا مما وراء البحار، قمنا ببساطة برد الخطأ الذي وضع علينا، وتمنعنا عن جميع المحاولات

للانتقام لأنفسنـا، وفقاً لعادة كـرامة وسمعـة امبراطوريتنا، ثم قمنا عن طواعية بالاصغاء إلى كلام السلام، الذي دفع به الوسطاء.

ونحن نعلم من اعترافنا بـالإيمان الكاثوليكي، أننا قـد وجـدنا أمّـاً حقيقية في الكنيسـة، لكن أبانا وجدناه دومـاً زائفاً، لأنه في اليـوم نفسه لصلحنا، اخترع خطة لتـدميرنا، حيث نصحنا بكل حـرارة بالعـودة إلى ايطاليا مع حـاشية غير مسلحـة وخاصة، محدداً سببـاً لذلك الخوف من أننا قد نقدم فرصة لخوف رعيتنا المخلصة، إذا ما قدمنا وبصحبتنا —كما كان الأمـر من قبل— مـرافقة مسلحة، وبالاضـافة إلى هذا، لقـد أعلن بأنه سـوف يعمل كل شيء لتأمين الحماية لنا، وسعى في الـوقت نفسـه لفعل كل مـاهو معـاكـس لهذا، برسـائله وبرسلـه، كما هو واضح من شهـادة عـدد كبير من رعيتنا المخلصين، الذيـن كـانوا في ذلك الحين مطلعين على كل شيء، وكأنهم كـانـوا مشـاركين في هذه المؤامـرات، وكذلك من مقدمين آخرين من ذلك الحزب.

وبناء عليه، بما أن جميع الطرق العـامة كـانت مغلقة في كل مكان من قبل رعايانا المتمردين ضد ابننا وبعض مقدمينا، الذين كانوا قادمين إلينا من ألمانيا، عـلاوة على ذلك، عندما كان ابننا المذكور في أكـويليا، ويريد الذهاب من هناك إلى ألمانيا، استرد بصعوبة الحماية لسفنه، ونحن أرغمنا على العودة إلى مملكتنا، بسبب النصيحـة —أو بالحري المؤامرة الماكرة— الصـادرة عن أبينا، التي قـد جـاءت إلينا، أنه على غير استعـداد لضبط تمرد رعيتنا، وهنا مجدداً، عندما كنا إلى بعض الحدود نتنفس بحرية أكبر، وآخذين راحة بعدمـا أنهكتنا متاعبنا، هاجم أبونا المقدس راحتنا، حيث اتخذ لنفسـه سمة المستشـار، وحرضنـا بحرارة ملتهبـة بأن نزحف بكل نشـاط ضد الرومـان، الذين كـانوا مخلصين لنا، وضـد رعايا متمـردين آخـرين تابعين لنـا في توسكانيـا، كـانوا ممسكين بحقـوق الكنيسـة والامبراطورية، وكنا واثقين من ضمان معروفـه، لأنه رغب في مشاركتنا

بها لدينا وبأعباء الامبراطورية، وبناء عليه قمنا تماشياً مع نصيحته المخلصة، بما هو متوجب علينا، فأعلنا الحرب لصالح الكنيسة، ضد الرومان، الذين كانوا في ذلك الوقت يهاجمون فيتربو، وكان هو في الوقت نفسه يرسل رسائل سرية إلى المدينة، بهدف القول، بأننا كنا نعمل على هذه الصورة صدوراً عن كراهيتنا للرومان، وبناء على رغبتنا وإرادتنا، من دون معرفته أو تعليماته، وقام في الوقت نفسه اضطراب في صقلية، وبذلك أرغمنا على زيارة مسينا، حتى نتمكن من مواجهة ذلك، في المراحل الأولى، وكان حزب يتشكل هناك، مقدماً لنا سبباً وحيداً، هو أننا كنا غير راغبين بالتخلي عن جزيرتنا الفخمة صقلية، وحدث في تلك المناسبة، من دون طلب رأينا، لابل في الحقيقة بإخفاء الحقيقة كلها وإبعادها عن معرفتنا، مع أن ذلك كان مضاداً لشريعة الشعوب، التي تقضي، بأن المتحالفين، والمتشاركين في مهمة واحدة وعمل عسكري هو نفسه، عليهم عدم التخلي أحدهم عن الآخر، حدث أنه عمل معاهدة مع الرومان، الذين أعلنا ضدهم الحرب، بناء على طلبه، كما ذكرنا أعلاه، وكان هذا أيضاً من دون الاهتمام بحقيقة، أننا بقينا ليس من دون مخاطرة، ورعب على كرامتنا، بقينا بلا دفاع بين الرعايا العصاة والمنشقين، وأننا كنا قد أرسلنا عدداً كبيراً من الجنود الأقوياء لمساعدته، مع أننا لم نكن قادرين على الحضور شخصياً.

بالاضافة إلى هذا، بما أن استقامة ضميرنا، واخلاصنا النقي الذي شعرنا به نحو الكنيسة، التي هي أمنا، لم يسمح للابن بملاحظة الحماقات غير الطبيعية لأبيه، فعزونا ما حدث إلى الحظ الذي هو عائد إلى المهارة، وكنا باستمرار على استعداد للاشارة إلى تسوية للإعادة المستحقة لنا على تحكيم زوج الأم هذا، الذي تولى في كل مناسبة خداعنا بخشونة أعظم، وسخر منا بمرارة أكبر، وفق نسبة كأن وعوده بتحكيم كامل كانت أكثر حسماً، وفي الوقت نفسه، عندما حكمنا من خلال

خلافاتنا الماضية، وجدنا أنه لم يبق أمل، أو الذي بقي هو شيء قليل لنا من أجل تسوية شؤون ايطاليا، بما يتوافق مع شرف الامبراطور، بوسائط البابا، وعندما كنا متوقعين الاضطهاد نفسه، وفي وقت كنا فيه ننتظر هكذا، اعتقد الجميع بأن الحظ قد ابتسم لنا، لأن الخصام بين الكنيسة والرومان بدأ مجدداً، وفي هذا الخصام كان تصرفنا نبيل جداً، فبإخلاص قدمنا أموالنا، وعرضنا شخصنا، لأننا اعتقدنا بأننا أزلنا تماماً صدأ المشاعر الشريرة من قلب رغباتنا السيئة، ولم نكن قانعين بهذا كله، بل رغبنا بأن نمنح الكنيسة أماناً لاجدل حوله، لأن مشاعرنا اشتعلت بأكثر العواطف حرارة نحوها مع الاخلاص، وكذلك ببواعث الاحسان بالرب، وهكذا ذهبنا شخصياً للمثول أمام هذا الحبر الأعظم، حتى من دون استدعاء، وأخذنا معنا ولدنا العزيز كونراد، المنتخب الآن ملكاً للرومان، والذي هو ولي العهد لمملكة القدس، وهو قد كان في ذلك الوقت الابن الوحيد الذي ترك لنا ليتمتع بعواطفنا الأبوية، وذلك بعد الاعتداءات الساطعة لأخيه علينا.

وبعدما قدمنا شخصنا إلى الكنيسة، لم نكن نظن أنه مخبأ لنا القيام بتقديم ولدنا هذا، ليكون رهينة كاملة إلى الحبر الأعظم، ونسأل بكل تواضع، وندعو الرب ليكون شاهداً على اخلاصنا، أننا كنا نريد اتحاداً كاملاً بيننا أنفسنا وبين الكنيسة، لأن هذا الأسقف على الكنيسة كلها، عندما كان منذ زمن طويل مضى، أسقفاً لأوستيا، قد أقنعنا بأن هذا هو واجبنا الذي علينا أن نطلب، وبناء على ذلك كله، وحيث أن العرض الذي تقدم ذكره لاقى تأييداً طيباً من جانب البلاط كله، وبما أن الخطابات الشاكرة ظهرت أنها تبدي نوايا مخلصة، وذلك من قبل الحبر الأعظم وبالقدر نفسه من الذين هم في بلاطه، وظناً منا بأننا تدبرنا كل شيء معهم بوساطة اقتراح نوايانا المخلصة، وليس أقل اعتماداً على خضوعنا، اعتقدنا أنه من الموائم، أن نشرح —بتقوى عالية— سبب

-٧٠٠٦-

الخلافات بيننا أنفسنا وبين اللومبارد، الذي غالباً ما سبب الحشرجة لصدر قاضٍ فاسد، وتسوية الخلاف بيننا أنفسنا وبين سكان ونبلاء أنكونا، ونظراً لأننا كنا نشعر بشكل أكيد بتفهم لصالحنا لكل قضايانا، سرنا شخصياً، بنية صالحة لخدمة الكنيسة، مع جيش كبير، كنا بوساطة انفاق ثقيل من خزانتنا قد تدبرنا جمعه من جميع أرجاء ألمانيا، وكذلك من ايطاليا، كما أننا لم نتمنع عن مواصلة تنفيذ هدفنا، قبل أن تكون قوتنا قد أعادت إلى وضعها السالف والصحيح، حرية الكنيسة، التي ديس عليها بالأقدام في المدينة وفي مناطقها، التي جرى الاستيلاء على خارجها، معتقدين بدون أدنى شك أن خضوعنا التقوي سوف يجني لصالحنا الحظوة المستحقة لاستقامتنا، والتي لم نكن قادرين على نيلها.

لكن استمعوا لتعرفوا الربح الذي أعيد إلينا بشكل رائع، وذلك مقابل إخلاصنا العظيم، ومقابل المنافع الكبيرة التي أسديناها، وتثبيتنا لمثل ذلك الإخلاص الذي لاشك فيه، الذي أعيد إلينا في كل قضية سعياً من قبل نائب المسيح هذا، هذا الذي هو راعي كنيستنا الكاثوليكية، وهذا المبشر بالإيمان.

ولنبدأ أولاً حول مسألة ماوراء البحر:

إن جميع الذي جرى ترتيبه بشكل منطقي من خلال وكالة رئيس أساقفة رافينا، وأميرنا المحبوب، والنائب الرسولي، وفقاً للصيغة المعبّر عنها التي أعطيت إليه من قبل الكنيسة بشأن إعادتنا نحن أنفسنا، وابننا كونراد المتقدم ذكره، إلى التملك الكامل، كما كان من قبل، لجميع حقوقنا في المملكة، وفقاً للمعاهدة، وذلك فور وصول رئيس الأساقفة إلى قيسارية، من دون انتظار النائب البابوي المتقدم الذكر، أو رسلنا الذين كانوا قادمين إلى البلاط، ومن دون المزيد من التأخير، أكثر من ذلك الذي يمكن أن يعتمد فيه على وصول البيزنطات (نقود ذهبية) صار العمل كله المتعلق قد تحول إلى غير منتظم كلياً، هذا دون أن نقول

شيئاً عن ترتيب الأمور، كما كان قد وعد، لصالح كرامتنا، وكرامة الامبراطورية، أو أيضاً عن إهماله عندما رجونا وكنا ملحين معه من أجل إعادة استدعاء أعدائنا، كما أنه لم يسمح لنا بالذهاب مع الجنود، الذين —كما قلنا— كانوا معسكرين في تلك النواحي، من أجل الدفاع عن مناطق الكنيسة، كما أنه لم يرغب بإرسال أي رسول أو رسائل، مما نجم عن ذلك سقوط أعداد كبيرة من الرجال قتلى في المعارك التي وقعت، وإحراق الكنائس.

ومجدداً أيضاً، هو لم يكتف بمثل تلك الدناءة غير الاعتيادية، فعندما كنا مقيمين معه في ريت Reate, ونحن ننفق آلافاً من الماركات في سبيله، رفض أن يتنازل لنا عن مدينة كاستيلانا Castellana, التي كان قد استولى عليها في بداية خصومتنا، وذلك حسبما كان ملزماً بموجب بنود السلام، وحسبما تلقى النصيحة من إخوانه، لأنه كان قد استلم مبلغ خمسين ألف مارك من ذلك المال فقط، فانظر كيف أحبنا أبانا هذا الأعظم قداسة!

وبعد هذا، وفي منفعتنا جميعاً، ومن أجل تهدئة ايطاليا (خاصة وأننا كنا قد أجبرنا على التخلي عن جميع الآمال بإبداء نوايا طيبة نحونا من قبل أبينا، أو بالحري زوج الأم) حملنا سلاحنا وترسنا، وجمعنا قواتنا من مقاطعات ألمانيا (التي إليها كنا قد دعينا في ذلك الوقت بحكم الضرورات، نتيجة للعب القذر لولدنا)، من أجل غزو ايطاليا وتمتين قضيتنا العادلة بجنود شجعان، لأننا كنا غير قادرين على الوصول إلى غاياتنا بالالتماسات، وعندما وصل هذا إلى علم الحبر الأعظم، قام هو، بناء على التماس الهدنة التي وافق عليها جميع الناس المؤمنين وأمراء الأرض، وفي سبيل مساعدة الأرض المقدسة، قام برسائل رسولية، فمنع دخولنا إلى ايطاليا، مع قوة مسلحة، ثم إنه نسي هذا، في اليوم نفسه الذي أعلن فيه الهدنة المتقدم ذكرها، وطلب منا بحكم كوننا المدافع عن

الكنيسة والمحامي عنها، بالزحف بقوة ضد الرومان، الذين —كما قال— قد استولوا على بعض مقتنيات الكنيسة، ومع أنه عدّ أمراً ليس شرعياً بالنسبة لنا، أن نسعى لشق طريقنا بالقوة لندخل إلى بيتنا، وإلى ممتلكاتنا التي أعطيت إلينا من قبل آبائنا، والتي أغلقها دوننا بعض العصاة الحمقى من رعايانا المخلصين، مع ذلك اعتقد أنه عدل بالنسبة له أن يعمل وفق هذا المنهج مع الرومان، الذين لم يكونوا مرتبطين بأي شكل من الأشكال بأبيه، أو بجده، أو بأي واحد من أسلافه.

وأضاف أيضاً بالرسائل المتقدم ذكرها، أنه بالنسبة لمسألة لومبارديا، يتوجب علينا من دون تأخير، ومن دون شروط، ومن دون التقيد بكرامة أو إدعاء إلى الامبراطورية، عمل تسوية معه، بها يستطيع أن يمنعنا إلى الأبد من المطالبة بأي إدعاء لنا، أو أنه يستطيع، إذا ما رغب، خنق حقوق وكرامة الامبراطورية، لكن بما أنه لانصيحة مقدمينا، ولاذكرى الخسائر الماضية، أوصتنا بفعل هذا، قام آنذاك باللجوء إلى بدع أخرى، فأرسل ذئباً مفترساً، يلبس ثوب حمل لمقابلتنا، والمعني بذلك هو أسقف برانستي، وقد أوصى به إلينا برسائل رسولية واصفاً إياه كرجل صاحب حياة هي الأكثر قداسة، الذي بوسائله، سحب لصالح حزب الميلانيين الناقضين للعهد مدينة بلاستيا Placentia التي كانت خاضعة لنا، وصديقة، معتقداً بثبات أنه بهذه الوسائل يستطيع بث الاضطراب بشكل عام بين رعايانا المخلصين، وذلك إلى درجة يستطيع بها أن يوهن هدفنا في الزحف إلى إيطاليا، وكان —على كل حال— في هذا الأمل، بفضل الرب، الذي يحمي امبراطوريته، مخدوعاً تماماً، والنار التي انتشرت بين رعايانا المتمردين، ونقص السكان وافراغ المدن الذي تسبب به المجرمون، نادى فوق رأسه بصوت مرتفع، موجهاً اللوم إليه، لأنه بث فيهم روح الثقة في عصيانهم، ولخرقه للصدق، لأنه كان قد وعدهم بأن يساعدهم ضدنا، وضد

الامبراطورية، ولأنه لم يستطع، تجاوباً مع طلبهم، انـزال عقوبة الحرمـان الكنسي بشكل مسوغ، أثناء الفـرصة المتقـدمة الذكـر، فقام بشكل سري برمي المعيقـات في طريق زحـوفنا في جميع الاتجاهات، بارسـال رسـائل ورسلاً إلى جميع أنحاء الامبراطورية، وإلى جميع أنحاء العالم، ليضلل كل من يستطيع تضليله عن متـابعـة الاخـلاص لنا، وللتـوقف عن إعـلان الولاء لنا، لكـن بما أن الوفـاء الطيب لرعـايانا، والعـواطف الجيـدة لأصدقائنا لم تسمح ببقاء أخبار هذه الأوضاع بعيدة عن علمنا، ولأننا لم نختر أن نغلب بالشر، ولأننا رغبنا بقهـر الشر بالصـلاح، قررنا ارسـال رسل خاصين إلى الكـرسي الرسـولي، وبناء عليـه بعثنا إلى هناك رئيس أساقفـة بلرم المحترم، وأسقفي فلورسنا وراتسبون، والمعلم تاديوس دي سيسـا Thaddeus de Sessa, الذي هو القـاضي لمحكمتنا العليـا، والمعلم ر. R أسقف بـورتاستيـلانا Portastellana, وهو واحـد من رعـايانا المقـربين لنـا والمخلصين، وبما أننا منحناهـم كل الثقـة من قبلنا ولصالحنا، جـرت النقـاشات لنقض اتهام الهرطقـة الذي عمل ضدنا، وكـذلك ماتعلق بامتياز الكنيسة، وإعـادة تأسيس امتيازات الكنيسة والامبراطورية (وهـو أمر مرغـوب به منذ زمن طويل ومتطلع إليـه بيننا وبين الكنيسـة)، وكـان الحبر الأعظم آنذاك حـاضراً بناء على نصيحـة جميع إخوانـه، وقد وافق على طلب سفـارتنا، في جميع النقـاط، ومن خلالهم وبوسـاطة رئيس أساقفة مسينـا، الذي بعث به رسولاً إلينا ليحصل على سلامـه، وعدنا بأنه سـوف يأمر بإيقـاف جميع المعيقات في جميع الأنحاء، وهي المعيقـات التي ألقاها في طرق زحفنا، وذلك حسبما اعترف بشكل مكشـوف بحضـور إخوانه ورسلنا، وهـذه الأشياء كلهـا مبرهن عليها بوضوح بشهادات رسائل جميع الأساقفة المتقدم ذكرهم.

وبهذا الجواب عـاد رسلنا إلينا، لكن قبـل أن يكونوا على بعـد سفـر ثلاثة أيام مـن البـلاط، ومن دون معـرفتهم، وفي سبيل إربـاكهم، منح

منصب نائب بابوي في لومبارديا إلى غ. G دي مونت لونغو Monte Longo, الذي كان قد أرسله في المقام الأول بمثابة رسول إلينا، وجرى تعيينه فيها بعد لاخضاع مانتوا Mantua, ولتضليل رعايانا المخلصين، معتقداً أنه كلما ازدادت الصلاحيات المعطاة له، سوف يكون أكثر قدرة على رمي المعيقات في طريقنا وطريق أتباعنا، وإلى مقدمينا وإلى القساوسة في ايطاليا وألمانيا، الذين كانوا مقيمين معنا في بلاطنا، أرسل رسائل ليس فيها القليل من التشهير بسمعتنا، مع تضمين بعض الفقرات، التي تعلقت بشكل خاص بالظلم الذي قيل بأننا مارسناه ضد بعض الكنائس في مملكتنا، والتي بشأنها قد أمرنا بإزالتها بوساطة المقدمين المذكورين، وحول جميع هذه القضايا للشكوى، وردودنا حول كل منها، قد بعثنا إليكم برواية عنه، تحت التوثيق العام، من أجل تفحصكم، وجرى ايضاح هذه الأشياء كلها إلى الأمراء والقساوسة، وإلى عدد من رجال الدين من كل طائفة، واحداً بعد الآخر (مع ان الأبناء شعروا بالخجل في أنفسهم من التقلبات الكبيرة للأب، وصدوراً عن الاحترام له، غطى الخجل وجوههم) ومع ذلك أعدنا بناء على نصيحتهم الى الكرسي الرسولي رئيس أساقفة بلرم المتقدم الذكر، والمعلم ت.T, والمعلم ر. R, أوف بورتاستيلانا، الذين هم رسلنا، مع رسل مدننا المخلصة، الذين من خلالهم أعلنا أننا أنفسنا جاهزين من دون أي تأخير، أو صعوبة، لتقديم كل ترضية، لكن حتى بوساطة هذا كله، لم يمكن إزاحة غضبه عنا، لكن هذا الذي يدعى باسم نائب المسيح، والمبشر بالسلام، والذي هو بالحقيقة المحرك للانشقاقات وصديق الخلافات، قام بمعارضة من قبله لنصائح الآباء المقدسين، عندما سمع بأن رسلنا كانوا يحملون إليه عرضنا بالطاعة في جميع القضايا، وخشية منه أنهم إذا ماوصلوه سوف يحجز بحواجز العدل وسيكون ربما غير قادر على السير أكثر من دون إثارة فضيحة عامة بادر مسرعاً بشكل كبير، فأبدع خطة مجهضدة، وتصرف على

عكس العادة الخاصة للكنيسة المقدسة الأم، فقذف في أحد السعف بقرار ضدنا، نحن الأمير الأعلى للمسيحية، ثم كرر بعد ذلك القرار نفسه، في يوم عشاء ربنا بموجبه (كما سمعنا من خلال تقرير، ينبغي أن نضع قليلاً من الثقة به) قام —كما قيل— بغلنا بسلاسل الحرمان الكنسي، وذلك بناء على نصيحة بعض الكرادلة اللومبارد، مع أن الشطر الأعقل من إخوانه قد عارضوه، كما أنه قام أيضاً بوسائط محرضيه على الشر، والذين يدورون بفلكه، والذين يعيشون على أوقاف الناس الفقراء، فمنع رسلنا الذين كانوا الآن قد وصلوا، من المثول في حضرته، ومن الظهور أمام الناس، للبرهنة على عدالة قضيتنا، وعلى براءتنا، وفي الحقيقة لتقديم ترضية تصل إلى حد تقديم ضمانة، وإنه فيما يتعلق بها، كان ذلك لسببين إفرادي وخاص، ونظراً لعدالة قضيتنا، ولسوء سمعة دعواه وإجراءاته، توجب، بشكل مسوغ أن نكون فضّلنا ذلك، ومع ذلك استمر بإجراءاته بطيش وبشكل غير نظامي، لنيل مخرج لشروره، ما كان —ربما من قبل— سيصبح معروفاً، ونحن نحزن ونشعر بالأسى في قلوبنا، بسبب العار الذي تسبب للكنيسة الأم المقدسة، التي عهد بها ربنا يسوع المسيح —تحت ظهور العذراء المباركة— إلى تلاميذه، بميثاق آلامه، وعدا عن ذلك، ولولا ذلك نحن ما كان من الممكن أن نعتقد أن أي أذى كان من الممكن أن يلحق بنا من قبل هذا الرجل، الذي نعتقد —لسبب صحيح— أنه ليس قاضينا، لأنه كان قد أعلن من قبل عن نفسه أنه عدونا الرئيسي، وكذلك قاضينا، بالقول والعمل، ورعى بشكل مكشوف العصاة ضدنا وضد الامبراطورية، علاوة على ذلك لقد حوّل نفسه بجعلها غير جديرة بأن يخضع لها مثل هذا الأمير العظيم، وفي الحقيقة هو غير جدير بالسلطات الحبرية بشكل مطلق، لأنه وقف ضدنا وضد الامبراطورية، وقدم برعايته المكشوفة الحماية لمدينة ميلان، التي هي —وفقاً لشهادة عدد كبير من الناس الموثوقين من رجال الدين— مسكونة في الجزء الأكبر منها من قبل الهراطقة، وكذلك عندما

أصدر أسقف فلورنسا —وهو رجل صاحب حياة مستقيمة، وأخلاق حميدة— عدة أحكام هرطقية ضد ر. R دي مانديلو Mandello, وهو رجل من أهل ميلان، وكان من قبل عمدة ميلان وكليرنتيا Clarentia, لم يصغ إليه وذلك صدوراً عن كراهيتنا ومحاباة للميلانيين، وعلاوة على ذلك نحن نعتقد أنه غير جدير بأن يعدّ نائباً للمسيح، وخليفة لبطرس، ومحللاً لأرواح المسيحيين، ليس بسبب الأضرار التي ألحقها بكرامتنا، بل للأخطاء الشخصية، وبسبب أعمال التحليل، المتوجب عدم منحها إلاّ فقط بعد مداولات كبيرة مع إخوانه، فهو يزن بميزان المقايضة، مثله مثل تاجر، ويمنحها في غرفته، مخفياً آرائه عن إخوانه (الذين متوجب عليه التشاور معهم، وفقاً للنظام اللاهوتي) وبذلك جعل من نفسه الذي يتولى الختم لنفسه، والكاتب، وربما أيضاً المحاسب، ومثل هذا هناك مسائل لانرغب نحن بالمرور بها صامتين، مثل التحليل المدهش، الذي عمله بناء على تسلم مبلغ صغير من المال، وسمح به لسيفا Sipha, ابنة المفوض المتوفى لمملكة قبرص، بأن تصبح زوجة لبالين دي جوسلين، وذلك مراغمة لقرار التفريق الذي تفوه به أسقف نيقوسيا في تلك المسألة، واليمين الذي أقسمه في الوقت نفسه بأنه لن يراجعها ثانية، وسمح كذلك لأخت جون صاحب قيسارية بالزواج من جيمس أوف أميندوليا Amendolia, الذي كان قد تزوج أختها من قبل، وذلك لأن كلاهما خائنين لنا، والامرأتين قريبتين له من الدرجة الثالثة، وكل ماهو معيب، رتق بمبلغ المال الذي دفع إليه، لأن هذا قد عمل بموجب درجة كراهيته لنا.

ونحن أيضاً نحزن للذنبه ولمراوغته حول حقيقته أن لم يرض بإنفاق المال في سبيل كسب نبلاء ومقدمي الرومان إلى جانبه، ولأن يصبحوا أتباعه ومرتبطين به، لقد بدّد مقتنيات الكنيسة الرومانية، التي عهد إلينا بالحماية الخاصة لها، عوضاً عن أن يمنح الرومان القلاع والمقتنيات التي

أعطيت إلى الآباء المقـــــدسين من قبل المؤمنين المسيحيين المخلصين الأتقياء، وبناء عليه يتوجب على الكنيسة العالمية، أو الشعب المسيحي، أن لايعجب، من أننا لانخاف من قرار مثل هذا القاضي، ليس تحدياً للمنصب البابوي، أو للمكانة الرسولية (التي يتوجب على جميع ذوي الإيمان المستقيم الخضـوع إليها، ونحن أكثر من غيرنا نفعل ذلك)، ونحن نلوم مراوغة هذا الشخص، الذي برهن عن نفسه أنه غير جدير بعرش مثل هذه الحكومة الكبيرة، ويتوجب على جميع النبلاء والأمراء الذين يحملون اسم مسيحيين، أن يعرفوا نيتي المقدسة، والغيرة والتقوى المخلصة المتوفرة فيّ، وأنه ليس من الكراهية القذرة، بل انطلاقاً من سبب هو الأكثر عدالة، استثير الأمير الروماني ضد الكاهن الأعلى الروماني، لأنه يخشى أن يقاد قطيع الرب، من قبل مثل هذا الراعي، فيقوده خلال ممرات مغلقة، انتبهوا، أننا ندعو برسائلنا ورسلنا كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، وبحق دم المسيح، وتحت شهادة الحكم اللاهوتي، أن يقوموا بالدعوة لاجتماع مجمع مسكوني للأساقفة ولآخرين من أتباع المسيح المخلصين، ونبعث نحن أيضاً لرسلنا، ولبقية الأمراء، الذين نحن على استعداد أن نقف أمامهم، وأن نشرح، وأن نبرهن كل الذي قلناه، لابل حتى مسائل أسوأ منهم، ولسنا نحن الأقل انزعاجاً، بالسبب المحتمل، لأن حاكم الكنيسة هذا، الذي ينبغي أن يتملك جميع أنواع الفضائل، وأن يكون الأعظم مثابرة، وأن يكون تابعاً منتخباً، من دون وصمة الشره، خشية أن أخطاء الزعماء، تتوالد وتزداد بين الذين هم رعية لهم، سعى لأن يدوس على حقوق الامبراطورية، وذلك على عكس وعده الذي أعطاه بناء على نصيحة إخوانه، وعبّر عنه برسائله، حيث وعـدنا بأن لايتخلى عنا، بل أن يقدم لنا النصيحة برأيه، ومساعدته، ورعايته، في استعادة قوة الامبراطورية المذكورة، وهو زيادة على ذلك يكدس التشهير بنا، إن لم نقل يتولى تكفيرنا، وقذف شخصنا، ولاسيما عندما نوازن الأمور في ضميرنا، فلا نجد في أنفسنا لامناسبة

ولاسبب يـدفع هذا الإنســـان غير الودود، لأن يكون مشـــاراً إلى هذه الدرجة من الحقد المرير علينا، ما لم يكن أن جلالتنا قد رأى أنه من غير اللائق، وعـدّه أنـه لايناسبنا، لأن ندخل معـه باتفـاقيـة من أجل زواج حفيـــــــدتـه بـابننـا الطبيعـي هنري، الـذي هـو الآن ملـك تـوري Torres وغالوريGalluri.

شاركنا بـالعزاء —بناء عليه— أيها الصـديق العزيز، وكـذلك الذين هم أحبـاء لديكم، ذلك أنك أمير سيفيد العـالم، ليس معنا فقط، بل مع الكنيسـة أيضـاً، التـي هي مجمع المؤمنين المسيحيين، لأن رأس الكنيسـة مريض، وأميرها في الوسط مثل أسـد جوال، ونبيّـها مجنون، ورجل بلا إيمان، وكـاهنهـا يتـولى تلويث معبـدها، ويتصرف بشكل ظالم ضـد الشريعـة، وهنا أن تكون ذنوب هذا الحبر موضع شجب من قبلنا أكثـر من قبل بقية أمـراء الدنيا، فهذا أمر مسوغ، لأننا الأقـرب إليه من حيث مكان الإقـامـة،والأكثـر تحالفـاً معـه في منصبنا، ولذلك كنـا نزيد من تشريفنا له، ونشعر بأعبائه.

هذا وينبغي أن لاننسى أن نذكـر هنا، صـدوراً عن قـرابتكم لنا، أننا نرجـوكم أن تقـدروا وأن تعـدوا الازدراء التي تكـدس علينا هو أذى لكم، وأن تبادر مسرعاً نحو بيتكم مع الماء، عندما تكون النيران مستعرة في بيوت الجيران، وانتبـه إلى أن سبب إجراءات الحبر ضـدنا، لأنه يقدم الرعـاية والمحاباة للمتمـردين علينا، وهذه مسألة، مع أنها غير مذكـورة الآن، من الممكن أن نستنتج بسهولـة، أن عليكم أن تخافوا، أن مثل هذه الإجـراءات من الممكـن أن تقـام ضـدكم في أعمالكـم، لأن المعتقـد أن إذلال الآخرين والأمـراء سيكون أمراً هيناً، إذا مـا أمكن أولاً الاطاحة بقدرة قيصر الرومـان، لأن ترسه يتحمل هزات رمايات نشـاب العدو، هذا وإن السبب الحقيقي الذي أثار قلب البابا وجعله يتحرق في داخله، هو مشكلة اللومبارد، وهو لم يتجرأ على جلب القضيـة إلى العلن، خوفاً

من إثارة فضيحة بيننا وبين جميع الذين سمعوا بها، ومن أجل هذه القضية، بعث إلينا برسول خاص موثوق من قبله (من الممكن جلب شهادة لتكون برهاناً على مصداقية هذا) قد وعد أننا إذا ما تركنا قضية اللومبارد تحل وفق إرادته، هو لن يتوقف فقط عن إلحاق الضرر بجلالتنا في أي شيء، بل إنه سوف يضع تحت استخداماتنا عشر جميع العالم، المكرس لتقديم المعونة الضرورية إلى الأرض المقدسة، ولا عجب حول هذا، لأنه كان مخروقاً بسفسطائية اللومبارد المتعجلة والحادة، وإليهم قد وعد —كما علمت من اعترافات بعض القساوسة— بأنه أعطاهم يمينه شخصياً بالعمل ضدنا وضد الامبراطورية، وعندما كنا في الحج في سورية، في خدمة يسوع المسيح، أرسلهم إلى المملكة، لكن عندما جاء وقت الوفاء بوعده المذكور أعلاه، أمكنه بشكل قانوني الحنث بوعده، وتغيير المرسوم الذي كان قد أصدره، ومحاباة منه لهم، هو لم يتردد أيضاً عن اقتراف عمل مرعب أن تسمع به، ومفرغ من كل منطق وحكمة، لأنه تولى من خلال غ. G أسقف بريشيا، وهـ. H أسقف كوما Cuma, وآخرين، تقديم النصيحة لنا: إما أن نتلقى ترضية من اللومبارد من خلاله، أو أن نعمل معهم —كما قال— هدنة لمدة أربع سنوات، في سبيل رفع شأن قضية الأرض المقدسة، علماً بأن خمس سنوات كانت قد انقضت منذ عقد الهدنة المذكورة، وأجلنا نحن —على كل حال— البت في المسألة، واحتفظنا بها للوقت الحالي، لنتداول حولها مع مستشارينا المخلصين، في حين كانت أعمال التحذير المتعلقة بموافقة النائب البابوي المتقدم ذكره غ. G دي مونت لونغو (الذي كان في الوقت ذاته مقيماً بين الميلانيين) قد وافقت على الهدنة المتقدمة الذكر، وهذه المسائل مبرهن عليها بوضوح بشهادات هؤلاء الأساقفة وقام في الوقت نفسه، من دون انتظار لقرارنا، أو لقيامنا بالتشاور مع مستشارينا، فتقيأ ولفظ ضدنا السم الذي كان محقوناً به، كما أوضح أقرباء بعض الأشخاص، وأخيراً، إنه من أجلنا نناشدك

ونسأل مساعدتك، ومساعدة جميع آلك وذويك، وأعيان وأمراء جميع العالم، ليس بسبب أن قوتنا غير كافية لإبعاد هذا الضرر عن أنفسنا، بل ليعلم العالم كله بأن مكانة جميع الأمراء العلمانيين عرضة للخطر، عندما يتعرض أمير واحد للخطر. صدر في تريفيسو في اليوم العشرين من نيسان، في العلامة التاسعة [الثانية عشرة].

حول الفضيحة المؤسفة التي تفجرت من الأعلى

وكان الامبراطور قد بعث بهذه الرسالة مع شيء طفيف من تغيير العبارات، وبعض الكلمات القليلة في النهاية، إلى ملك انكلترا، وإلى أمراء آخرين في جميع أرجاء العالم، من أجل أن يبرهن على براءته، وليظهر خداع البابا، وبدأت الفضيحة تنتشر في جميع أرجاء العالم، وقام البابا الذي عرف بالحقائق التالية من بعض الأشخاص الموثوقين، فشهر بالامبراطور أكثر فأكثر، وكدس الملامات عليه، وأعلن عنه مجرماً بهرطقة فوضوية، وفي سبيل إدانته، وجعله سيء السمعة في أعين العالم كله، بعث برسالة تنديدية إلى جميع أمراء وأساقفة العالم، هي كما يلي:

رسالة البابا

«من غريغوري، الأسقف وعبد عبيد الرب، إلى أخيه المحترم، رئيس أساقفة كانتربري وإلى أساقفته المساعدين، صحة ومباركات رسولية:

لقد قام من البحر وحش مليء بكلام الكفر، قد صيغ بقدمي دب، وبفم أسد هائج، وكان مثله مثل نمر في بقية أعضائه الأخرى، وقد فتح فمه بالتجديف ضد اسم الرب، وهو مستمر بالمهاجمة بأسلحة مماثلة خيمة عهده، والقديسين المقيمين في السماء، ويسعى هذا الوحش إلى تمزيق كل شيء إلى قطع بفكيه وبأسنانه المعمولة من حديد، ولأن يدوس بقدميه على العالم كله، حيث أعدّ من قبل بشكل سري آلات قذف ضد الإيمان، وهو الآن قد صفّ بشكل مكشوف آلات قذف

الاسماعيليين، صارفاً الأرواح عن الطريق المستقيم، وثائراً ضد المسيح، مخلص العالم، (الذي أفادت تقارير بأنه يسعى إلى تدمير سجلات انجيله بقلم هرطقة شريرة).

وبناء عليه توقفوا، لتعجبوا أنتم جميعاً، ولتسمعوا القذف والتجديف ضدنا، الذي صدر عن هذا الوحش، وإلى أي حد وصل ذلك، وإذا كنا نحن، الذين عبيد للرب في جميع أشكال العبودية، قد هوجمنا بنشاب مغتاب، لاعجب في ذلك، فالرب نفسه ليس بمنجاة من هذه الإهانات، وقفوا واعجبوا، إذا ما كان قد جرد سيف الأذى ضدنا، لأنه يستهدف الآن اجتثاث اسم الرب من على الأرض تماماً، هذا ويمكنكم أن تكونوا أفضل قدرة على التصدي لكذبه بصدق مكشوف، ودحض خداعه بحجج الصفاء، وقوموا بالتفحص بكل دقة، لرأس، ولوسط، وللأجزاء المنخفضة من هذا الوحش فردريك، المدعو باسم امبراطور، وبما أنكم سوف تجدون في كلامه البغضاء فقط والشرور، سلحوا قلوبكم المخلصة بترس الصدق، وقدروا كيف أن فردريك المذكور، قد سعى من خلال رسائله التي بعث بها إلى مختلف أنحاء العالم وبلدانه، أن يلطخ وأن يشوه اخلاص الكرسي الرسولي، وشخصنا بوساطة تصاريحه الملوثة، وهو الذي يعدّ مقترفاً للزيف، وجاهلاً بكل تسامح، ولايستحي من العار، قد قام بشكل زائف بالتأكيد على أننا بعدما ارتقينا إلى منصب الرسولية، قد تخلينا عنه، وهو الذي كان صديقاً لنا منذ القدم، منذ أن كنا في مرتبة أدنى، وأننا خرقنا عهودنا، وغيّرنا سلوكنا، وأنه عندما كان مقيداً بيمين، وبقرار الحرمان الكنسي الذي كان سيصدر ضده، إذا لم يسر لمساعدة الأرض المقدسة والدفاع عنها، في الوقت الذي جرى إعداده، وأنه كان غير قادر على الذهاب بسبب المرض، وأننا حاولنا أن نفرض عليه الحرمان الكنسي ونوجب تنفيذه ضده، وأننا رفضنا منحه منفعة التحليل لدى استرداده لصحته، وأنه عندما

كان متوجهاً لانقاذ الأرض المذكورة، أعقناه في أهدافه بوسائط رسلنا والنواب البابويين، وبارسالنا رسائل إلى السلطان، ليقف ضد تقدمه، حتى يمكن بذلك اعاقته في آماله التي تصورها في استرداد مملكة القدس، وعمل أيضاً شكوى زائفة، بأننا قمنا بشكل غير عادل وبالقوة فهاجمنا مملكة صقلية وغزوناها، وحرضنا الناس على اقتراف حنث اليمين بسبب أن رينالد ابن الدوق السالف لسبوليتو قد غزا أراضي الكنيسة، وأن ذلك عمل من دون علمه، وتفاخر بأنه عندما عاد من سورية إلى أبوليا، قد تمنع عن الانتقام للأذى الذي ألحق به، وقبل بعرضنا بالسلام والنوايا الطيبة، وعاد إلى الكنيسة الأم، لكن مع أن المعرفة العامة بالحقائق ترفض هذا الزيف وتنقضه، نجد في بعض الأحيان أن الكذب الخفي يستولي على مقعد الصدق في أذن الاخلاص، وذلك عندما لايجد الصدق محامياً عنه هناك، ولكي لايتسلل الزيف، ويجد سبيله بوسائل الغش إلى قلوبكم، من المتوجب عدم ترككم جاهلين لخواصنا ولطريقة سلوكنا، وكنا قبل، وبعد أن حملنا على أكتافنا أعباء المنصب الرسولي قد حبينا هذا المذكور فردريك بعناية خاصة، الذي هو مثل ذئب، في ثياب شاة، حتى تدمرت فينا جميع الآمال التي يتصورها ويتأملها أب في ابنه، لأن فردريك المذكور يتبجح بعظمته، وثمل سكران بالسلطة التي حصل عليها، وقد أعاد الشر مقابل الخير إلى أمه الكنيسة، وبدأ مثل ثعبان، واللدغة في ذيله، بنشر السم فيها، في الوقت الذي كان فيه يسعى إلى تخديرها بكلامه الملوث بالزيف، فهو كان منذ بعض الوقت الذي مضى، عندما استدعت ضرورات الأرض المقدسة، والقرار المتقدم الذكر، ويمينه، والوقت الذي جرى تحديده من أجل مغادرته حيث تطلب ذلك اقلاعه، فقد كانت هناك عدة آلاف من الصليبيين تنتظره في برنديزي، وقد طالبته بإلحاح أن يفعل ذلك، وقد حبس الصليبيين المذكورين هناك، حتى ولت مواسم أنواء كانوا غير معتادين عليها، فهلكوا بشكل مؤسف وتعيس بسبب مختلف الأمراض،

وبذلك نال متطوعاً تهمة الحنث باليمين، وقرار الحرمان الكنسي، فقد أهمل هذا الرجل صاحب الإيمان غير السليم، لكن السليم بالجسد، العبور الذي كان قد وعد به، حتى يتمكن، وهو آمن، من نشر الأكاذيب ضد الرب، وخداع الكنيسة، وقد تمدد، لبضعة أيام، على فراش المرض، متظاهراً بالضعف، ولم يتردد في ترك الأرض المقدسة معرضة لغارات أعداء المسيح، كما أنه لم يحزن البتة لموت النبيل لانغريف أوف ثورنجيا، صاحب الذكرى الطيبة، الذي واجه الموت هناك، ولا سمح الرب بأن كان ذلك قد تسبب بوساطة السم، حسبما راجت الأخبار في الدنيا، وعندما أخبرنا برسائل من الأساقفة الساكنين هناك، بمرضه الذي تظاهر به، وبالمسائل الأخرى المتقدم ذكرها، وخفنا نحن مع أسفنا، وخشينا من أن نصبح مع الكرسي الرسولي مفضوحين بسبب الاخفاق في استخدام عصا النظام ضد مثل هذه الجريمة الثقيلة، ولقد أسفنا لموت الصليبيين، والمخاطر التي تعرضت لها الأرض المقدسة، ورغبنا على الأقل في مسألة واحدة، هي أن نمسح دموع أسف الكنيسة باليد اليمنى بوساطة مواساة صحيحة، ولذلك قررنا بأنه خاضع لقرار الحرمان الكنسي، الذي صدر ضده وأجيز من قبله وبموافقته، بوساطة سلطات سلفنا، صاحب الذكرى الطيبة، البابا أونوريوس، ورعينا باخلاص فكرة إمكانية أن نسمع بأنه قوّم طرائقه، مع الاعتراف بأخطائه الكبيرة، وأن ذلك سوف يعطينا أملاً لتقديم العون، فعرضنا عليه برسائلنا بأننا سوف نمنحه منفعة التحليل بصيغة صحيحة، فور قيامه بالانطلاق للمشاركة بالصليبية المتقدمة الذكر، لكنه وهو الذي كان في صدره قليلاً من الاهتمام حول هذه المسائل، قدم قليلاً من الاهتمام لمفاتيح الكنيسة، وعبر إلى سورية دون الحصول على التحليل، ودخل هناك بمعاهدة لمدة ست سنوات مع السلطان، على شرط واحد هو فقط أن تعاد إليه أسوار القدس، وقد أرسل إليه عدداً كبيراً من الخيول والرجال المسلحين لمهاجمة المسيحيين، وترك هيكل الرب لجماعة

المسلمين، الذين أنشدوا هناك مدائح محمد (ﷺ) وقد تحوّل إلى مدافع عن العدو، وهاجم بكل امكاناته أخانا المحترم بطريرك القدس والداوية، وينبغي على كل حال أن لايعتقد من قبل أي إنسان صاحب عقل سليم، أننا نحن، أو نوابنا قد سعينا إلى إعاقته ومنعه من استرداد مملكة القدس، لأن الكنيسة قد حثت نفسها كثيراً لتحقيق هذا الهدف، وقد تحملت كثيراً من أعباء النفقات العظيمة، إنها من المعروف بشكل جيد بالنسبة للعالم أجمع، بأن فردريك المذكور، كان بالطريق نفسه مضطهداً لكنيسة الرب في سورية، وكذلك فعل من خلال وكالة رينالد المذكور، الذي —على الرغم من نصيحتنا— تركه بمثابة وكيله في مملكته، فقام بالتضييق على الكنيسة على هذا الجانب من البحر، لأن رينالد المذكور غزا أراضي الكنيسة، محمياً برسائل مختومة بالختم الذهبي، ومدعوماً بالمال، ومحاطاً بإقطاعي فردريك المذكور، وأقدم على تعليق، وتشويه وقتل بعض الكهنة ورجال الدين، وسعى أيضاً —بحكم أننا كنا في وضع مضطرب— إلى الاستيلاء على مقاطعة بيريوسيوم Perusium, العائدة إلى أراضي الكنيسة المذكورة، ومع أن رعايانا الأوفياء والمخلصين، الذين لم يعد بإمكانهم تحمل مثل هذا الزحف، قد طردوه من ذلك الجزء من البلاد، فإن المسيح قد أعطى النصر إلى قرينته، ومع ذلك وبسبب أن رينالد المذكور لم يكن ليقلع عن اضطهاده ولا بوسيلة من الوسائل، رأوا أنه من الحكمة قطع عروق أصل الشر، بدلاً من انتظار عنف السيل الذي قام بالازعاج، والذي كان يزداد ضخامة بوساطة بعض الجداول الجديدة، ولذلك دخلوا إلى مملكة صقلية، التي هي الوقف الروحي للكنيسة، حتى لايطلبوا منا نشاباً من تلك الجهة، التي منها ينبغي توقع وصول المساعدة، ومع أن كثيراً من سكان تلك المملكة صاروا مطيعين للكرسي الرسولي، ينبغي عدم عدّهم —لهذا السبب— من أي جانب من الجوانب مجرمين بالحنث باليمين، لأنهم قد حرروا من يمين الولاء الذي كانوا قد أعطوه إلى فردريك

المذكور بوساطة قرار الحرمان الكنسي الذي كان قد صدر ضده.

وعندما عاد فردريك المذكور من مناطق ماوراء البحر، ورجع إلى صدر الكنيسة الأم، فتحنا له صدر العاطفة الرسولية، وأعرناه أذناً صاغية، واستجبنا لطلبه بالسلم، ومنحناه منفعة التحليل، وبالاضافة إلى هذه الأشياء، فإن ابن الكذب هذا، تولى تكديس الزيف فوق الزيف، من أجل أنه كلما زاد تعثره في شباك الزيف، كلما كان الرعب الذي نصبه أعظم، هذا الرجل أعلن الآن بكتابة كاذبة، أننا في سبيل تدميره، وعدناه أنه إن كان سيذهب إلى لومبارديا بسلام، ومن دون جيش سوف نلطف جميع الصعوبات، وأننا من خلال المعارضة التي عملت برسائلنا وبمراسلينا أعقناه ومنعناه من الوصول إلى هدف نواياه، وأنه بسبب أنه لم يكن مدعوماً بالسلاح، قد أرغم على العودة إلى مملكته، وقد أكد بشكل زائف أنه بموجب مبادرتنا قد تحدى الرومان الذين كانوا آنذاك يهاجمون فيتربو، وأرسل كتلة كبيرة من الرجال لمساعدة شعب تلك البلدة، وقد اشتكى بأننا قد كتبنا إلى الرومان، قائلين بأن هذا قد عمل من دون معرفتنا، ومن دون استشارته، عُمل سلام معهم مرة ثانية، مطرياً نفسه بزيف جديد، بأن الرومان قد أبعدوا ثانية عن سلام الكنيسة، وجاء هذا الرجل نفسه، من دون دعوة، مع ابنه كونراد، الذي منحه لنا ليكون رهينة، ومثل أمامنا، وأخضع لتحكيمنا مسألة الخلاف الذي نشب بينه وبين اللومبارد، وأعاد إلى امتيازات الكرسي الرسولي، الأرض التي جرى احتلالها، وأعاد حرية الكنيسة إلى وضعها السالف والصحيح، فهل من الممكن أن يكون هذا الرجل الذي يتكلم الزيف، رجلاً يمتلك روحاً؟، وهل من الممكن أن يتملك رجل الدولة هذا نتيجة صحيحة؟ وبالنسبة لقضية الإعادة إليه وإلى كونراد المذكور امتيازاتها في مدينة القدس، التي حرما منها، وهي القضية التي جرى ترتيبها من قبل أخينا المحترم أسقف رافينا، اشتكى، من دون تقدير

للصدق، بأنه ما أن جُلب المال ودفع، حتى قمنا بتوزيعه بين المسيحيين (الذين كانوا متضررين بهجمات معادية، مترافقة باحراق الكنائس وقتل الرجال) وأننا حرمنا جميع المساعدات عنه، وأنه لهذا السبب لم يقم بإرسال رسول أو رسائل، وكذلك هو لم يستح أن يكتب بقلمه الكاذب رسائل ذكر فيها، أنه على الرغم من شروط السلام، ومن نصيحة إخواننا، جرى الاحتفاظ بمدينة كاستيلانا من قبلنا، لإلحاق الأذى بحقوقه، هذا ومع أنه لاتوجد حتى ذرة واحدة من الصدق ممزوجة مع هذا الزيف، على الأقل لإعطائهم شيئاً من التلوين، من أجل أن تكون أكثر قدرة على الفهم بوضوح أنه ولا نقطة من الزيف لم تلون هذه الافادات كلها، نحن نرغب منكم أن تعرفوا بشكل مؤكد، أنه كما هو معلوم من خلال مجرى الأحداث، يبدو من الموائم لعقل مستقيم أنه كان يمكنه بشكل أفضل الحصول على غاياته بالنسبة للومبارد، لو أنه أظهر نفسه أباً عاطفياً، وسيداً رحيماً لهم، بحكم أنهم كانوا أقوياء بعدد شعبهم، وبسماكة شرافات أسوارهم، وبعظم جيشهم وسعته، وبعلو أسوارهم، وذلك بدلاً من إقدامه على تجريد سيف الانتقام ضد رعيته، التي كانت ترتجف، بسبب الذنب المعزو إليهم، وأن يبث الرعب بينهم بالزحف ضدهم مع فيالق جنوده، أما نحن الذين كنا ملزمين برفع شأن منافع السلام، فقد نصحناه بكل اخلاص، بأن يتخلى عن فكرة الاستحواذ عليهم بوساطة عساكره، وأن يعيدهم إلى جادة الاخلاص المتوجب للامبراطورية بإلغاء التهديدات بالعقوبة، وبأن يظهر نحوهم العطف، ومع أنه سار إلى لومبارديا، محاطاً بحاشية غير مسلحة، ومع ذلك لتخليه عن نصيحتنا الودية، شارك في مذبحة الكريمونيين، وصار وكيلاً للانشقاق، وسعى للتسبب في فتق أوسع في لومبارديا، التي كانت ممزقة بالخلافات، وقام بوساطة الرعب والتهديد بابعاد الميلانيين عنه، وذلك على عكس ما كان عليه أن يفعل بجذبهم إليه برباط العاطفة، ونحن، في براءتنا، ينبغي أن لانلام لأنه عاد إلى أبوليا، محبطاً في آماله،

ذلك أنه هو شخصياً جلب الموت وأنزله على آماله.

وبعد هذا، إنـه بالنسبة لقضية حمايـة حرية الكنيسة، ولمحـق الهرطقة، هو أعلن عن نفسه بأنه مستعـد لإطاعة رغباتنا، وفي رد على ذلك أجبنا برسالة جاء فيها، بأنه طالما أن الوضع في مملكته هو أن ما من أحد حرك يداً أو قدمـاً من دون أوامره، وبناء عليه تنشر الهرطقة سمـومها بالطول وبالعرض فـوق الإيمان الكاثوليكي، وحيث أن حرية الكنيسـة قد ديس عليهـا تمامـاً تحت الأقــدام حيث كـانت، ولذلك مـن المعتقـد أنه ليس مناسبـاً استخـدام الدواء للرأس حيث أن القـدم نقلت المرض بوسـاطة الاتصـال، وخلال مـدة قصيرة من الزمن تبرهنت صحـة هذا الجواب، لأنه لدى سماعــه بـأن بعض الأشخــاص، الذين ضلـلـوا من قبل رأي شرير، كانوا يرغبـون بدخول أراضي الكنيسـة، فما كان منه إلاّ أن ذهـب بعيــداً إلى صقليـة، وكأنـه منهـزم، وذلك بغيــة أن لايسبب له وعــده المخروق تهمة الزيف، وهو لم يسر ضـدهم بأية طريقة من الطرق، سواء بالقول أو بالعمل، موجهاً الملامة إلينا، بسبب أننا برعاية أبوية سعينا إلى أن نعيد إلى إخلاصهم ونرجع إلى الكنيسة الرومانية الأم، الابن الخاص بالكنيسـة، الذي عـاد إلى المدينة، وقد فهم أيضـاً أن بعض أبناء الفسـاد كانوا يبـذلون جهودهم في سبيل إبعـادهم عن التعاطف نحـو الكنيسة، والاعتقــاد أنه بسهــولة أكبر يستطيع أن يقمعهــا ويقمعهم، إذا تمكن، بوسـاطة خداعـه المعتاد، وأن يؤذي مشـاعرهـم وعـواطفهم بعمق أكبر، فأسرع —مع أنه لم يكن مدعواً— إلى الكرسي الرسولي، حيث كنا آنذاك في رياتي Riati, وهناك وعد —مع كثير من التـواضـع— بأنه سوف يعيـد المناطق المفقـودة من الكنيسـة إلى أحوالها الماضيـة، وسـوف يدافع عنهـا بأقصى مــا يمتلك من قـوة، ومع ذلك فإنه أعــاق في توسكانيـا —التي قدّم إليهـا مساعدته— ووقف ضد استرداد إحـدى القلاع التي كان من السهـل إعادتها إلى حكم الكنيسة بقليل من الجهـد، وفي الوقت

الذي كانت فيه يد الخائن معنا على المنضدة، كان نائبه —بناء على إشارة معطاة منه، حسبما تبرهن ذلك بشكل مكشوف ضده، من خلال نتائج عمله، وبوساطة رسائله، التي احتفظ بها بمثابة برهان على خيانته الكبرى— قد عقد اجتماعاً مع أعداء الكنيسة، حول موضوع تلك القلعة، التي كان من المتوجب تسليمها في يوم محدد، وبذلك أعطاهم مسوغاً للبقاء تحت السلاح، فانظر أية خدمة قدمها هذا العدو السري، إلى الكنيسة، الذي لم يستح من تحويل نفسه إلى خادم لها نفسها، من أجل أن يمتلك وسائل أكثر تأثيراً في سبيل إلحاق الأضرار بنا، وعلى كل حال، نحن نرغب أن تكون متأكداً أننا مررنا بهذه القضايا المتعلقة به، صامتين، ولم نسمح للصفاء الرسولي أن يتعرض لأي تغيير، بل أمرنا بإعادة الحقوق، التي انتزعت منه ومن كونراد المتقدم الذكر، في مملكة القدس، إليهما بوساطة رئيس الأساقفة المذكور، الذي إليه كانت واجبات النيابة البابوية قد أسندت، والذي فعل ذلك، ومع ذلك تجاوز الترخيص الذي أعطي له، بسبب التماس رفع إلينا من قبله، وبعد التماس رفع ضد هذا القرار، وضعت الأرض المقدسة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وهو إجراء لم يسمع بمثيل له من قبل في أي وقت مضى، وبناء عليه، وتقديراً منا أنه نتيجة لهذا الإجراء، وبسبب الخطر العظيم الذي تعرضت له الأرض المذكورة، وكذلك الحجاج الذين كانوا يرغبون بمغادرتها، وكذلك أن الآخرين سوف يؤجلون عبورهم إليها، وبعدما تسلمنا ضماناً من البارونات، والنبلاء، ومن مناطق المملكة المذكورة، رأينا بكل اخلاص، وبناء على نصيحة إخواننا، أنه من الموائم سحب القرار المذكور، الذي جرى التفوه به بعد عمل التماس قانوني صار Ipso Jure, وملغياً وفارغاً، وجرى اتخاذ عناية خاصة بعدم خرق إجراءات رئيس الأساقفة المذكور في جميع النقاط الأخرى، وبناء عليه يتوجب أن لاينزعج تفكيركم، لأنه بسبب هذا، قد انتقدنا بشفتيه الملوثتين، لأنه مع أن الإناء مليء بخبث الشر، يظن بأن

لدغات الجريمة التي أصابت عقله، قد انتشرت إلى الآخرين، وبناء عليه بما أن التجريح الصادر عن الرجال الأشرار يتردد صداه ويعود مديحاً، ومديحهم تجريح، نحن نفضل كثيراً، أن نهاجم بافتراءات هذا الرجل، الذي كل كلمة من كلامه تعج بسوء السمعة، على المديح من قبله، ولعله يظن أنه يستطيع أن يغسل دنس آرائه بوساطة هذه الانتقادات، لأنه عندما كان مقيماً في فيتربو، ملوثاً ذلك المكان ومفسداً إياه، هرب بشكل مشين من أمام أعداء الكنيسة، وجاد بشرف الامبراطورية، وتراجع ووقف حيث هو خائفاً، ولم يذهب للدفاع عن رعاياه المخلصين، الذين كان أعداؤه يحاصرونهم أمام ناظريه، والذين لم يجدوا أحداً يمنعهم من العيث فساداً في المنطقة، وقد ادعى وأعلن أن زحفه لمساعدتهم قد منع من قبلنا، واتهمنا —ونحن أبرياء— لعدم إرسالنا رسولاً alatere لمنع الخسائر التي جنيت بوساطة هذه الحرب، وينبغي عدم التعجب تجاه هذا، لأن الكنيسة كانت آنذاك مرهقة بضغوط شديدة من قبل مضطهديها، ووصلنا إلى مدينة كاستيلانا، التي خرق سكانها يمينهم بالتابعية، وخانوا تلك الكنيسة من دون معرفة الكنيسة، وتخلوا عن أنفسهم واستسلموا إليه، لكنهم لم يتمكنوا بوساطة هذا الإجراء من نيل أي حق لأنفسهم، كما أنهم لم يستطيعوا إلحاق أي ضرر بنا، سواء بالنسبة لامتلاك المدينة، وكذلك بالقدر نفسه لما تعلق بامتلاكنا الإشراف القضائي، سواء ماتعلق بالمدينة وبسكانها، لأن الناس إذا ما تملكوا لمنفعة الآخرين، وليس لمنفعة أنفسهم، إنه من العبث أن نعمل مطالبات منهم، فبداية التملك لايمكن أن تدمر شرائع التملك، أو أن تضفي على غرباء حقوق المتملكين الحقيقيين، وكذلك أيضاً، بما أنه غالباً ما أعطى يمينه بأن يسترد الممتلكات العائدة إليه وبالنسبة للكنيسة، لقد بدا أنه يعمل بشكل غير حكيم في طلبه منا الذي لم يستطع الاحتفاظ بتملكه من دون أن يكون مداناً بالحنث باليمين، هذا ولايجوز أن يعتقد في هذا المقام وبالنسبة لهذه القضية أننا نزدري مشورة

إخواننا، لأننا على استعـداد لأن نقدم له كل نوع من أنواع العـدالة وفقاً لقـرار محكمين، أو وفق أية طريقـة أخـرى، ولكن بما أن رسله رفضـوا متابعة إجراءات المحـاكمة، التي كانت قد بدأت، وهي لم تطلب منا، بل كـان بالحري تصميمـه متابعـة السير بإجـراءات تلك الشكوى، فقط في سبيل مقصد مخادع، بأنه بذلـك قد نال فرصـة لإلحاق الشرور بالكنيسة وشتمها، ولتدمير السلام الذي كان قد عمل بيننا وبينه.

والأوضـاع التي أشارت إليهـا رسـالته الممقـوتة، فيما يتعلق بمصير الامبراطورية، وذلك بين أشيـاء أخرى، قـد تولى قلمنا وصفهـا في هذه الرسـالة الحالية، من أجل أنها كلها صـارت معـروفة أكثـر لدى الناس، الأكثر يمكن أن يضع الاضطراب فيما قاله، وقد اشتكى منا، بأننا عندما سمعنا بأنه كان زاحفاً في لومبارديا مع آلاف كثيرة من الجنود، لاسترداد حقوق الامبراطورية، قـد أمرناه بوساطة كتـابة رسولية، بعـدم الدخول إلى ايطاليـا بقوة السـلاح، وأن يوسطنا في قضيـة اللومبـارد من أجل أن نتمكن من تعليق ذلك فوقـه أبدياً، أو خنق الحق الامبراطوري من دون إعاقـة، وإرسالنا ضده، أخـانا المحترم أسقف برانستي، الذي يمكننا من خلال نيـابته، إلغاء نواياه، وأن نثير ضده عـدداً غير محدود من المعيقات السرية، بوساطة نوابنا، والرسائل من كل جهـة من جهات العالم، وهذا الذي حرم —ربما— بـإرادة ربانية، القدرة على الاعتراف بـالصدق، أو التفوه بالعـدل، ولذلك هو لم يخجل —على أسس زائفة— من النيل من شخصنا، ومثل ذلك هو لم يخش من عمل اعتذاره وتسـويغه وفق تأكيد مماثل، وأعلن من خـلال رسله الذين هم أخـونا المحترم رئيس أساقفـة بلرم، وبعض الآخرين، الذين كانوا قـد أرسلوا إلى المقام الرسولي، بأنه قـد عـرض إظهار إخـلاصـه في جميع القضـايا المتعلقـة بإعـادة تأسيس الكنيسة، واسترداد حقوقها وحقوق الامبراطورية، وقد أكد، أنه عندما كان رسله عـائدين إليه، قمنا نحن —مع أننا كنا قـد وعدناه بأن نسعى

لأن نبتعد عن إعاقته بأي طريق من الطرق— فعهدنا بواجبات النيابة البابوية، إلى ولدنا المحبوب كثيراً غ. G دي مونت لونغو، الموثق لدينا، من أجل تدمير رعيته، وختم بأن أفاد بشكل زائف بأنه لم يعبأ بهذا ولم يقف عنده، فأرجع رئيس الأساقفة المذكور مع رسله الآخرين، إلى المقام الرسولي، وأنه عرض من خلالهم تقديم كل نوع من أنواع الترضيات، وأننا قمنا على الرغم من الوصايا التي ورثناها عن الآباء المقدسين، ومن العادة الخاصة للكنيسة، فحرمناه كنسياً بشكل غير عادل، مع أننا كنا معارضين من قبل الشطر الأكبر من إخواننا، وأضاف لعاره، بأننا نحن، النائب للقديس بطرس ليس لدينا سلطة الربط والحل، وكأنه أراد أن يعلن بأننا قد كنا من دون سلطة المفاتيح التي أعطيت إلى رئيس الرسل، واحمل بناء عليه —نحن نرجوكم— ميزان العقل، وزن به فردريك المتقدم الذكر، مقابل الكنيسة، وزن أخطائه مقابل المنافع التي تسلمها منها، ولسوف ترى بوضوح، أن هذا التنين وإن كان قد صيغ لخداعنا، وأنه قد أعطي بمثابة طعام للشعب الاثيوبي، قد لفظ من فمه مياه الاضطهاد مثل نهر، في سبيل اخضاع الكنيسة، ومع ذلك تغلب المقام الرسولي على دناءاته، بالرحمة التي لايمكن تقديرها لمنافعه، لأنه منذ أن كان في سنين الضعف، عندما كان معرضاً —بشكل كامل ويعيش في بحيرة من الفوضى— لهجمات الذين تشوقوا بنهم للاستيلاء على أرضه، والذين استهدفوا حياته، وذلك عندما كان محروماً كلياً من مواساة أقربائه وأصدقائه، وعرياناً تقريباً، ووقتها رأت الكنيسة الأم أحواله هذه، فرعته واحتضنته، وقامت بواجباتها كحاضنة وغطته برداء المقام الرسولي، وانتزعته من شباك الصيادين، ومع كثير من الجهد والنفقات رفعته إلى عرش الامبراطورية وتاجها، وعلاوة على ذلك، إنها تقدر أنها بعملها هذا قد قدمت إليه القليل فقط، ذلك أنها ضمنت له حكومة مملكة القدس، ورفعت من شأنه في جميع أنحاء العالم، ومع ذلك ولحزنها، ومع شعورها بنفسها أنها جرحت من قبله،

وتأذت أضعافاً مضاعفة بطرق مختلفة، قامت قبل وقت قصير مضى بمساعدته بقوة ضد ابنه هنري، الذي أغوى شطراً كبيراً من ألمانيا، حيث تم التخلي عن الولاء له، ونسيت الجراحات التي لحقت بها من قبله، فرفعته مجدداً إلى المقام الامبراطوري، كما أنها قامت بناء على طلبه، باصلاح ألمانيا، بوساطة رسائل رسولية، وبهذا وبمنافع أخرى، نحن لايمكننا تذكرها، نهضت بالدفاع عن شرفه، ولكن عصا عدم التقوى هذا، وهذا الذي هو مطرقة الأرض، لديه رغبة في خلق الاضطراب في جميع العالم، وأن يسحق الممالك، وأن يجعل العالم صحراء، وأن ينزل حرية الكنيسة في مملكة صقلية المذكورة إلى حالة من المهانة هي حالة أخفض أحوال العبودية، وأن يقهرها بالقذارة، والأعباء، والمظالم الأخرى، والكنائس التي أراد أن يملأ كرشه من وهنها، قد جردها تماماً حتى العظم، وكما كانت، جردها من مقتنياتها المقدسة، التي عينت لاستخدامات الرجال المقدسين، وقضى بوضع اللاهوتيين بالسجن، وأرغمهم على التعرض للاتهامات، وأن يدفعوا الضرائب والمكوس، وأن ينهكوا ممتلكات الكنيسة، حتى يتمكنوا من انقاذ أنفسهم وتخليصها من مظالمه، وقام أخيراً بطردهم، وأبعدهم إلى المنفى، فقد حرمت الكنائس الأرامل من رعاتها، ولم يسمح لها بأن تتولى كل منها اختيار قرين لها، وأن تلقي جانباً ملابس الترمل، حتى تدع نفسها مرغمة بأن ترتمي بالزنا في حضن أي واحد، وقد بنى خارج أماكن سكنى المسيحيين أسوار بابل، ونقل الأبنية التي يعبد فيها اسم الرب إلى ذلك المكان الذي فيه محمد (ﷺ) محل تبجيل، ومنع التبشير المعلن بعقيدة واسم الذي صلب، في مملكته المذكورة، وذلك إلى الحشود التي اجتمعت من جميع الجهات، وقد أحبط استرداد الأرض المقدسة، وأحبط الحملة الصليبية، بمنعه إعطاء أي من ممتلكات رعيته في سبيل انجاز هذا الهدف، ومراغمة ليمينه الذي تعهد به، ولبنود السلام الذي أقيم بينه وبين الكنيسة، جرد النبلاء من قلاعهم، ومن ممتلكاتهم

الأخـرى، وسجن أزواجهم وأطفالهم، وأرغمهـم على مغادرة أمـاكنهم الخاصـة، وعلى نقل أمـاكن سكناهم إلى أمـاكن سكنى الآخـرين، وقـد أرغم الذين نشأوا في الأجـواء الأرجـوانيـة على التمـدد فـوق الوحل، وأنزلهم إلى أدنى درجـات الشقـاء، وكما أنه قـام في الوقت نفسـه بظلم الفقراء بوسائل أذى مماثلة، ونحن نعتقد أنه كلما زاد أكثر فأكثر من عدم إرضاء الرب، كلما زاد اعتقادنا أنهم أبرياء، ومـاذا يمكن أن أقول أكثر؟ فقـد قـام بوحشية لم يشهـد بمثلهـا بانزال بارونات، وفـرسـان، وأناس آخرين من مملكة صقلية المذكـورة، إلى أوضاع العبودية، والآن لايمتلك معظم سكان تلك المملكة، إمكانات الاستراحـة على فراش هو ملكهم، وكم هو شريـر أنهم يغطون عـوراتهم بمسـوح خشنـة، ويستطيعـون بصعـوبة ملء أمعـائهم بخبـز جـاف، وبما أن بكاء وشكاوى الكنائس المذكورة والناس قـد أقلقت مسامع الكنيسـة بشكل مستمر، وذلك منذ أيام سلفنا أونـوريوس المذكـور، وبما أنه كـان من الصعب المرور بهم صامتين من دون التألم في ضميرنا، قمنا بوساطة الرسل والرسائل، ليس مرة واحدة، بل عدة مـرات، بانذاره بوجوب تصحيح أخطائه، وانتظرنا بصبر عظيم لبعض الوقت الذي مضى، لنرى أنه ربما سيصدف أن يرفع عينيـه نحو السماء، وأن يخلع إنسـانه القـديم وأن يرتدي إنساناً جـديداً، وأن يوقـف يديه عن اقتراف مثـل هذه الجرائم الكبرى، وعـلاوة على ذلك مع أننا ظللنا شـاكين حول الإصـلاح المطلوب، لقد رغبنا بتقـديم التهنئة إليـه على تقدمـه في إصلاح وضعـه، وعندما دخل إلى لومبـارديا بقـوة السـلاح، بعثنا أوامـر، أنه في الأمـاكن الواقعـة تحت الحرمـان من شراكـة المؤمنين، ومهما كـان سبب ذلك، ينبغي التـوقف عن مـراعـاة الحرمـان من شراكـة المؤمنين، حيثما كـان مـوجـوداً، وحـذرنا برسـائلنا فردريك المذكـور، بأن يعطينا وعداً دقيقـاً، بعدم إعاقـة قضية الصليب، التي تولاها في سبيـل منفعـة الكنيسـة، والامبراطورية وجميع الجماعـة المسيحيـة، وأن لايزحف بقـوة السلاح ضـد اللومبـارد، حتى لايضرب

مثلاً فاسداً، سوف يعطي سبباً إلى كثير من الناس ليفترضوا بأن الكنيسة سوف تخدع البقية، ومجدداً إنه كما هو مفروض علينا في منصبنا، وهو منصب عبد عبيد الرب، في أن نرمم الرتوق التي تسببت بالانشقاق وفي سبيل أن ننهي جميع الخلافات القائمة بين الامبراطورية واللومبارد، رأينا من الموائم إرسال أسقف برانستي، المكلف بمنصب النيابة البابوية، ليعمل في سبيل اللومبارد وجميع المتخاصمين الآخرين، ولأن يكون في وضع غير مرتاب به في ا لتوزيع والانصاف وكذلك في أعماله، وأن لايتسبب حتى ولو قليلاً في الكراهية والمحاباة، لأنه هو الذي انسحب من العالم ومن الجسد، في سبيل العمل للدين المقدس، وارتقى إلى أعالي الحب اللاهوتي، ودعوا المنتقص يجيب نفسه، أية تهم يمكنه أن يجلب ضدنا على هذه الأرضيات، وضد الأسقف نفسه، لو أن الوئام تحقق في بليسنتيا بين الآباء والأبناء، وذوي القربى والأعمام، وهو نفسه حاضراً، ومحتجاً بأن هذا قد أنجز دون إلحاق أذى بمراتب الامبراطور وامتيازاته، وبالامبراطورية، وأية آخرين من الممكن أن تكون لهم علاقة، وعلاوة على ذلك، على هذا المجدف المذكور أن يفهم، أنه بالفعل يعد أمراً مهيناً بالنسبة له، أننا وإن قمنا بناء على طلبه وعلى طلب رسله، فبعثنا بأخينا المحترم أسقف أوستيا، وبولدنا ت. T الكاهن الكاردينال للقديسة سابينا، إلى تلك المناطق، لهدف إعادة تأسيس السلام بين الامبراطورية واللومبارد، وفقاً للبنود التي قدمت من رسله المذكورين، ومع أن النائب البابوي المذكور كان مستعداً لتنفيذ البنود المطلوبة، لابل حتى لمنح المزيد، قد وجدنا أنفسنا قد خدعنا، عندما رفض الموافقة على إعادة تأسيس السلام بناء على البنود الممنوحة من قبلهم.

وافهم الآن كيف أننا دسنا على امتيازات الامبراطورية، وافهم من المسائل المتقدمة كيف أنه كان معاقاً من قبلنا، لأنه قد قرر وجوب كدم

كتفيه، وأكتاف أولئك الذين هم أتباعه بوساطة جهد طويل وبلا فائدة، بدلاً من السماح لأن يعـــاد تأسيس امتيـــازات الامبراطوريـة من قبلنا، فضلاً عن هذا، لم يكن الرجل نفسه قانعاً ولامكتفياً بالأذى الذي ألحقه بالكنيسـة، وذلك بوسائط مبلـغ كبير من المال لبعض المتمردين ضـدنا، وسعى مـراراً لإثارة عصيان ضـدنا في المدينة، من أجل أنه بطردنا نحن مع اخواننا من مقامنا، وأنه بعدما يجري ترنح الرأس الذي وضعه الرب فوق الإيمان، البناء نفسه يصبح من السهل تدبر انهيـاره بأقل جهد يبذل من جهته، كما أنه جاء، وهو خـارق لقسمه، إلى لومبارديا، واستولى على فيرارا مع أراضي أخرى من أراضي الكنيسـة، وفيما يتعلق بهذا الإجراء، وكذلك بـأمور أخرى، أرسل إلينا أسقـف بلرم المتقدم ذكره مـع رسالة اعتماد، ظاناً أنه يمكنه خـداعنا بخطابات فارغـة، وبينما كانوا يعـرضون علينا تقديـم ترضية محترمة، ويحاولـون إصلاح الأخطاء المتقدم ذكـرها، قام قبل مغـادرتهم من بلاطنا، وبعد مغادرتهم، فشغل نفسـه بالاستيلاء على بلاد سردينيـــــا، وعلى أسقفيـــة مسينا لـــونينسيس Lunensis وكلاهما عـائدتين إلى الكنيسـة الرومانيـة، وقد علمنـا بهذا الإجراء، أن لانتـوقع منه أبداً أي إصـلاح، وبرهن ببينة أعماله، أنه لايجوز وضع أية ثقة به أو برسله، وبناء عليه ومع هذا المقصد في فكره، كـان قلبه موجهاً نحـو تـدمير الكنائس والإيمان الكاثوليكي، ولذلـك لسبب صحيح هو مشكوك بـه من قبلنـا، من قبلنا نحـن الذين لايمكـن له الاستمـــرار بالتخفي أمـامهم تحت رداء الزيف، لأننا نحن قـد صرنا شاكين بقـوته، وذلك صـدوراً عن التقـدير للعـدل، ولأنه من الأفضل منـع الإصـابة بالجراح على إيجاد العـلاج بعد الاصـابات بهم، عهـدنا بمنصب النائب البابوي إلى الموثق المذكور، من أجل ايقـاف تقدمه، الأمر الذي لم نعمله إلاّ بوسـائل الشك به، وكنا نأمل بوسـائل النائب البـابوي المذكـور، أن نكون قادرين على منع مذابـح الحرب، وعلى تفادي الرعب الذي أحاق بالأرواح والأجســـاد، وبحكم أننا كنا غير قـــادرين، بناء عليـــه على

الانطلاق من الظروف المتقدم ذكرها، ومن ظروف أخرى إلى جانبها، رعاية لآمال تقويمه، وحزناً منا أننا غالباً ماجرى تضليلنا بوعوده التي غالباً ما عملها، قمنا بناء على نصيحة إخواننا، فتفوهنا بقرار الحرمان الكنسي ضد فردريك المتقدم ذكره، ومع أنه وفقاً لهذا، كان عليه أن يسترد مداركه الضائعة، وأن يتواضع بنفسه أكثر أمام الرب، كان الذي عمله هو فقط الهذيان أكثر بغضب، وبناء عليه لأنه اكتشف اضطرابه، ولأنه خاف بشدة، من أن ذنب الأفعى لن يفتح بوساطة اليد الوسيطة للكنيسة، أعلن أننا غير جديرين بفضائلنا الشخصية بتسلم سلطات المنصب البابوي، وأعلن برسائله أنه لايمكنه أن يرتبط بالقرار المتقدم الذكر، الصادر عنا، وكذلك نحن الذين ضاعفنا في أيامنا —بنعمة من الرب— أوقاف الكنيسة بدرجة كبيرة، نحن متهمون من قبله بتبديد ممتلكات الكنيسة، وبالقيام بأعمال توزيع وتحليل، وبتسلم هدايا، ووسمنا بجريمة الشره الشريرة، وأكد أيضاً بشكل زائف، بأننا ثائرين ضده، لأنه رفض منح موافقته على عقد زواج بين حفيدة لنا وبين ابنه الطبيعي، وأعلن بشكل مكشوف بأننا أعطينا يميننا الشخصي إلى اللومبارد للعمل ضده وضد الامبراطورية، وأننا قد وعدنا بأن نحول لاستخدامه عشر جميع العالم، الذي كان محفوظاً لمنفعة الأرض المقدسة، إذا ما أخضع شؤون اللومبارد إلى قرارنا، ونحن نعترف بأننا مفتقرين إلى الفضيلة حتى نكون نائب المسيح، وأعترف أيضاً أنه ليس فينا كفاية لمثل هذا العبء الثقيل، الذي لايمكن لأي إنسان حي، مهما كان حاله، أن يتحمله من دون عون الرب، ومع هذا إننا نمارس واجبات المنصب الذي عهد به إلينا بشكل جيد، وبقدر ما يسمح لنا ضعفنا، ونسعى إلى تقرير الأمور، حسبما تتطلب طبيعة المكان، والوقت، والأشخاص والظروف، وعندما تتطلب الضرورات، نحن نمنح التحليل إلى أقصى درجات قدرتنا، بشكل حر، ووفقاً لواجبنا نحو الرب، وذلك إلى الذين يستحقونه، ومع هذا، إنه ليس سبباً للأسف أنه جرح الكنيسة بمثل هذا

العمق، مثلما أنه أيضاً لدى تجاوزه حدود المنصب الملكي، كان غير قادر على الإغارة على واجبات الكهنة، وبحكم الظروف، فإن هذا الرجل لتعطشه للذهب، قد أنزل مملكة صقلية المذكورة إلى درجة الرماد، وهو الذي لم يقدم طوال حياته شيئاً من العدالة النقية إلاّ لقليلين، وفي الوقت الذي باعها فيه بشكل فاسد إلى كثيرين، أحيا في شخصه سيمون الكبير، وقد يكون قادراً على تلويث الكنيسة بتهمة الربح الدنيوي، إنه يفعل ذلك حتى يُسمح له بالاغارة على المسائل الروحية، ولكي يبقى في دنسه الخاص، قد حاول بشتى السبل، بأن يخرق ويمر من خلال سور نقاء الكنيسة، وخاصة بمنح القلاع، وبرعاية مشاعر القرابة بين شعبه وشعبنا، وهو غالباً ما طلبه منا من خلال بعض كبار الأساقفة وبوساطة رسله كذلك، ولكن بما أنه لم يستطع الحصول على ذلك بوساطة أية التماسات، أو بوساطة أية نصيحة (كما هو معروف بشكل جيد في بلاطنا) ووجد نفسه ومعه أعوانه قد تركوا الآن إلى خداع نصائحهم، ويظل الأسوأ، هو أنه، طالما لم يعد يعرف الذي يمكن أن يفعله أكثر، أهان نفسه بالحط من شأن الآخرين بأقواله الزائفة، مثل العاهرة المصرية التي دعت يوسف لينام معها، ولأنه رفض ذلك، اتهمته، أمام زوجها وشكته إليه، وهناك شيء واحد، مع أننا ينبغي أن ننتحب من أجل رجل ضائع، عليكم الابتهاج كثيراً، لابل عليكم أن ترجعوا الشكر إلى الرب وتعيدوه، لأن هذا الرجل الذي يعتليه السرور لدعوته باسم الممهد للمسيح الدجال، إنه بإرادة الرب، لم يكن بإمكانه تحمل الاستتار بالظلام، وهو غير متوقع بأن إهانته ومحاكمته صارت قريبة، فهو بيديه ذاته، قد لغم سور بغضائه، وقد قام برسائله بجلب أعماله الظلامية إلى النور، حيث ذكر بهم بكل وقاحة أنه لايمكن حرمانه كنسياً من قبلنا، مع أنني نائب المسيح، وبذلك أكد بأن الكنيسة لاتمتلك سلطة الربط والحل، التي أعطيت إلى مولانا القديس بطرس، وإلى خلفائه، وبهذا أكد الهرطقة، وختم بمناقشة ناسبته، حيث برهن بأنه ينظر نظرة سيئة إلى

بقية بنـود الإيمان المستقيم، وذلك بقدر مـا يسعى إليه لحرمـان الكنيسة، التي عليهـا تأسس الإيمان ودعم، هذا وليس من السهل الاعتقـاد من قبل بعض الناس، بأنـه ألقى بنفسـه بالشراك بكلام فمـه، الـذي برهانه جاهز لنصرة الإيمان، لأن ملك الوباء هذا قـد أكد بشكل مكشوف بأن العالم كله قـد خدع من قبل ثلاثـة، هم يسوع المسيح، ومـوسى، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وأن اثنين منهما قـد ماتا بشكل مجيد، أمـا يسوع المذكـور فجـرى تعليقـه على الصليب، كما أنه أقـدم على التأكيـد (أو بالحري على الكذب) بـأن الحمقى هم الذيـن يؤمنون، بأن الـرب الذي خلق الطبيعـة، ويمكنه أن يفعل كل شيء، قـد ولد من العـذراء، وأكـد هذه الهرطقـة بعقيـدة زائفـة بأن مـا من واحـد يمكن أن يلد مـالم يكن الحمل به قد جرى من خلال الاتصـال بين رجل وامرأة، وما من انسان ينبغي أن يعتقـد بأي شيء لايمكن البرهنة عليـه بقـوة ومنطق الطبيعـة، وهذه الأشيـاء وكـلام كثير آخـر، وكـذلك أفعـال، التي بمـوجبهـا قـد هاجم، ومازال يهاجم الإيمان الكاثوليكي، يمكن بوضـوح البرهنة عليه في الوقت المناسب وكـذلك في الـوقت الموائم، وذلك حسبما نراه لائقاً وموافقـاً، وبناء عليـه نحن نسأل، ونحـذر، وبإلحاح نحث جماعتكم، ونأمركم بكل دقـة بوساطة هذه الرسائل الرسـولية، وبفضيلة طاعتكم، أن لاتسمحـوا لفـردريك المذكـور بأية وسيلة من الوسـائل بلغم قلوب المسيحيين المؤمنين بوسـاطة كـلامـه المخـادع، أو أن يلوث قطيع الرب بعـدواه، وأن تقومـوا أيضاً بنشر المسـائل المذكـورة أعلاه بشكل كـامل ومخلص إلى رجال الدين والناس الخاضعين لكم. صدر في اللاتيران، في الحادي والعشرين من أيار، في السنة الثالثة عشرة من حبريتنا».

وقـد أرسلت الفقـرة الأخيرة المدونة أعـلاه إلى سيـد المملكة، مع الرسالة المتقدمة، على هذا الشكل:

«ولهذا رأينا أنـه من المنـاسب أن ننصحكـم، وأن نحث سمـوكم

الملكي، بأن تتسبوا بشرح الذي تقدم بكل يقظة، حتى لايتعرض نقاء البراءة الملكية إلى التلوث بكلامه المخادع. صدر في اللاتيران، إلخ، كما تقدم أعلاه».

نهم الرومان يرفع ثقتهم

وجرى نشر هذه الرسالة وإرسالها إلى عدد كبير من الملوك، والأمراء، والنبلاء في جميع أرجاء العالم، مع تغيير فقط بالعنوان، وقد ألقت بالخوف والرعب، وكذلك بالدهشة في قلوب الذين يمتلكون إيماناً صحيحاً، وحولت رسالة الامبراطور لتكون موضع الشك، مع أنها تحتوي على حقائق ممكنة، وأعادت أيضاً تثبيت عقول كثيرين ممن كانوا من قبل في حالة شك وعدم يقين، ولولا أن شره الرومان قد أبعد اخلاص الناس عن البابا، أكثر مما هو موائم، ومما ينبغي، لكان العالم أجمع قد سخط بهذه الرسالة، ولكان ثار بالاجماع ضد الامبراطور، على أساس أنه عدو مكشوف للمسيح وللكنيسة، ولكن ياللأسف، الذي حدث هو أن كثيراً من الأبناء صاروا غرباء عن أبيهم، ووقفوا إلى جانب قضية الامبراطور، وأكدوا أن الكراهية التي لم يمكن اخمادها قد صارت الآن أشد فيما بينهم، وأثارت الصراع المتقدم ذكره، وأعمال التشهير، فقد ذكر البابا بشكل غير صحيح بأنه قد أحب فردريك المذكور، وارتقى بمصالحه في بداية ارتقائه، لأن هذا كله فعل صدوراً عن الكراهية لأوثو، الذي قامت الكنيسة، بمساعدة فردريك، بتعذيبه حتى الموت، وكان ذلك بسبب أنه سعى —تماشياً مع يمينه— أن يجمع بالقوة الأجزاء المتفرقة من الامبراطورية، مثلما يسعى الامبراطور الحالي فردريك، وأيضاً يفعل، وبناء عليه، إنه بفعله هذا، نجد أن فردريك قاتل من أجل الكنيسة، وأن كنيسة روما كانت ملزمة أكثر بربط الطاعة إليه أكثر مما كانه الامبراطور للكنيسة الرومانية، وشعرت الكنيسة في الغرب، وبشكل خاص طوائف الرهبان، وكنيسة انكلترا، التي كانت

من بين الكنائس الأخرى الأكثر اخلاصاً وتقوى للرب، يومياً بمظالم الرومان، ولكنها لم تشعر بأي شيء من هذا القبيل بعد من قبل الامبراطور، وأضاف الشعب أيضاً قائلاً:

«ماهو معنى هذا، في الماضي اتهم البابا الامبراطور أنه يؤمن بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وبالشريعة الاسلامية، أكثر من إيمانه بالمسيح وبالعقيدة المسيحية، لكنه الآن في رسالة التجريح هذه اتهمه (بما هو مرعب أن تذكره) بأنه سمى محمداً (ﷺ) وكذلك عيسى وموسى بأنهم أدعياء، وفي رسائله هذه، كتب الامبراطور بتواضع، وبطريقة كاثوليكية عن الرب، باستثناء أنه في رسالته الأخيرة هذه حطّ من شأن شخص البابا، وليس من المنصب، كما أنه لم يتفوه بأي شيء هرطقي أو مدنث أو أيده، والذي نعرفه أنه لم يرسل مرابين أو نهابين لمواردنا إلى بيننا»، وبهذه الطريقة ازداد التمزق وصار أكثر رعباً في نشوبه بين الناس.

ذهاب الفارس روبرت دي توينغ إلى روما

وفي هذه الآونة رفض فارس من أهالي المقاطعات الشمالية في انكلترا، باذلاً جهوده لعدم ربط رقبته إلى نير هؤلاء الرومان، وذهب إلى روما، بشأن وقف إحدى الكنائس الذي كان عائداً إليه، وعليه وضع الرومان أيدي الشره من خلال رئيس أساقفة يورك، وقد تقدم بشكوى ثقيلة أمام البابا، حول هذه القضية، وحصل على رسائل، وبهذا يمكن أن نستخلص أية تقوى أمسكت بها الكنيسة الرومانية، وكيف أنها كانت دوماً ملحاحة، وكيف أنها أحبت اللاهوتيين، الذين منهم أخذت دوماً ممتلكاتهم الكنسية، التي تقدم أن أضفيت عليهم من قبل الآباء بنوايا تقوية، وفي سبيل دعم الفقير.

غضب نبلاء انكلترا لحرمانهم من حق رعاية الكنائس

وأصبح في هذه الآونة، إيرلات، وبارونات وباقي نبلاء انكلترا،

الذين إليهم كـان معروفاً منذ قديم الزمـان يعود حق رعـاية الكنائس، أصبحوا غاضبين لأنهم جردوا من حريتهم ومن حق الكنائس المطعمة، وذلك بوساطـة شره الكنيسة الرومانيـة، وذلك في الوقت الذي استغنى الأجـــانب بهم بناء على أوامـــر البـــابـا، وكتب هؤلاء الناس الــذين شخصياتهم غير معروفة ولا أوضاعهم، وكـانوا مجهولين تماماً، إلى البابا مـؤخــراً، وبعثـوا برســالتهم بوسـاطـة روبرت دي توينغ Twenge المذكور، الذي كـان قد جرد بوسائل العنف ذاتها من حق رعـاية كنيسة لوتون Lutton في أسقفيــة يورك، وعمل شكوى ثقيلة إلى نبـــلاء المملكة، وبما أن رئيس الأساقفـة قد أكـد له أنه ليس لديه سلطة، أو أنه لايرغب بالتحـرك ضد الكنيسة الـرومانية، ذهب روبـرت المذكور بكل سرعة ممكنة إلى البـلاط الروماني، وقـدم الرسالة التـالية نيابـة عن نبلاء انكلترا.

رسالة النبلاء الانكليز إلى البابا

«إلى الأب الأكثـر سمـواً، اللورد غ. G, الذي هو بنعمــــة الرب، الحبر الأعظم، من عبيده المخلصين في شيستر ووينكستر، تمنيات الصحة، والاحترام، وإذا كان يرتضي، اخلاص جاهز:

بما أن سفينة حـريتنا آخـذة بالغرق، وهي التي حصلنـا عليها بدمـاء أجدادنا، وبسبب عـواصف أعدائنا التي ثارت ضـدنا واندفعت أكثر مما هو معتــاد، نحن أرغمنا على ايقـــاظ مـولانا، الذي هـو نائم في سفينة بطرس، ونحن نصرخ بدون توقف، وبصـوت واحد: «أنقذنا يـامولانا، أو أننا سنهلك»، وبما أن الحكـم والعـدل هما وسيلـة الاصـلاح لذلك المقام، من الممكن أن تسمح لكل واحـد منا بحقوقه، وأن تحفظه له غير فاسـد، خشية أنه إذا حدث غير ذلك، فإن الإحسان سـوف يتساقط إلى قطع، وسـوف يجري دمـار التقوى والاخـلاص، ومن الممكن أن يثـور الأبناء ضد أحشاء الأب، وأن تتلاشى مشـاعر العواطف المتبادلة، وبناء

عليه أيها الأب الأعظم قداسة، اعلم أن أجدادنا قاموا منذ أول تأسيس للمسيحية في انكلترا حتى الآن، بالتمتع بامتياز، أن يكونوا بمثابة رعاة للكنائس، وبتعيين أشخاص مناسبين لهن، ولدى وفاة قساوستهن المتقدمين، وبتقديمهم إلى الأساقفة حتى يجرى من قبلهم تثبيتهم في حكومة تلك الكنائس، ولكن في أيامكم، سواء برضاكم وبناء على رغباتكم، نحن لانعرف، فإن معارضة قد كسبت أرضية ضدنا، حيث أنه عندما يموت قساوسة الكنائس، يجري تعيين بعضاً من وكلائكم لهذا الغرض، وهم يقومون في كل مكان بمنح الكنائس التي هي تحت رعايتنا من أجل الاضرار بامتيازنا، ولإلحاق خطر كبير بحق الرعاية، مع أنكم أعطيتمونا منذ زمن طويل مضى، وعداً حول هذه القضية بضمانة رسائل رسولية، تحتوي أنه عند وفاة لاهوتيين سواء أكانوا روماناً أو طليانياً، كانت قد جرت ترقيتهم إلى الكنائس، بوساطة سلطات حكمتكم، من الممكن أن نمتلك الحق القانوني لتقديم أشخاص مناسبين لخلافتهم، ولكن الذي هو عكس هذا مانراه يومياً يجري الإصرار عليه، الأمر الذي أدهشنا كثيراً، لأن الماء العذب والماء المالح لايمكن أن ينبعا من نبع واحد هو النبع نفسه، وبما أن هذا الازعاج يمارس ضدنا جميعاً بشكل عام، ومنه قد يتفجر جدال، ونزاع، وغضب، وصراع، وكذلك مذابح بشرية، قررنا أن نعرض القضية أمامكم، وفي سبيل تقديم مثل، نعرض الأذى الذي أنزل على واحد من رفاقنا، وهو الذي عمل بشكل غير حكيم ضده، والخطر الذي تعرض له حقه بالرعاية، وفي سبيل أن تتفضلوا بسلطاتكم، إذا رغبتم بإزالته، وهو أن روبرت دي توينغ، راعي كنيسة لوتون، قام إثر وفاة ن. N, الذي كان قسيساً لتلك الكنيسة، فقدم شخصاً مناسباً لها، لكن بسبب أمر معاكس صادر عنكم، رفض رئيس أساقفة يورك أن يقبله، مع أنه لم يكتشف شيئاً ضد الشخص المقدم، بل عرض فقط تحريمكم، ومثلما عندما «يكون البيت المجاور يحترق، بيتنا عرضة لخطر قريب»، نحن

نرجـوكم بحكم كـونكم أبانا، بأن تسمحوا لسروبرت المذكور، وكـذلك لكل واحـد منا، ولنا جميعاً، بأن نتمتع بـالامتياز المتقـدم الذكر، بتقـديم كهنتنا إلى كنائسنا الشـاغـرة، وأن لايجري تطبيـق أمـركم المتقـدم، بأمـر رئيس الأساقفة المتقدم ذكره، بقبول ج. J كلارك Clerk الذي من أجله صببنا صلواتـاً تقيـة، وهو الذي جـرى تقـديمـه إلى الكنيسـة المتقدمة الذكر، من قبل روبـرت المذكور، خاصة وأنه ضروري من أجل تدبير أعمال الملك، وكـذلك أعمال مملكتنا، مـا لم يكن هناك أي اعتراض قانوني عليـه، وإنكم بفعلكم هكذا، ترفعوننا إلى اخلاص موجـود أكثر، وإلى خدمة الكنيسة، خشيـة، بما أن امتياز ابن الواقف المتقدم الذكر، هو واحد من الاقطاعيين، الذي من أجله نحن نخـدم مولانا، سوف نكون مـرغمين على طلب المسـاعـدة منه الذي هو ملزم بحماية الامتيـازات ورعايتها، وكذلك امتيازت الرجال العلمانيين».

رسالة البابا الجوابية إلى نبلاء انكلترا

«من غـريغـوري الأسقف، وعبد عبيـد الرب، إلى أولاده المحبـوبين، والنبلاء، ورتشارد ايرل أوف كورنوول، وبارونات انكلترا، الذين سوف إليهم تصل هذه التقدمات، الصحة والمباركات الرسولية:

بما أنه واضح من أعمالنا التي توفر برهان كامل على صدقها، أننا، من بين جميع الملـوك الأرثوذكس، والأمـــراء، والممالـك التي فيهـــا اسم المسيحيين موضع احترام، نحمل احتراماً خاصاً في أعماق العواطف، إلى شخص ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح الملك المشهور لانكلترا، وملكته، وأعظم الرغبـات اخـلاصـاً تتمنى سـلامهم وهـدوئهم، ولايمكن الافتراض، كما لاينبغي الاعتقـاد، أننا بقـدر مـانستطيع بعـون الرب، منعها، أو أن نرغب، أن نعمل، أو أن نسمح بأي شيء يمكن مع العدل أن يضر بكرامة جلالته الصافية، أو يتسبب بفضيحة في المملكة، بما أنه لم يكن بنيتنا، ولن يكـون، السماح بتبيير قـواعـد ادارة المنافع في انكلترا،

والمتعلقة بتقديم الرعايات المدنيـة، ولا الرضا بأن تضفى على أي واحد، بموجب سلطاتنـا، لأنه قد فهم بشكل واضح بموجب بعـض الرسائل التي أرسلت مـن قبل إلى انكلترا، والتي رأينا أنـه من المفيـد إرسـال محتواها إلى جلالته تحت ختمنا، ولقد اكتشفنا من رسائل الملك المذكور، وكـذلك من رسـائلك، بأن أحد الفـرسـان من المملكة المتقـدمة الذكـر مستحوذ على رعـاية كنيسة لوتون، في أسقفيـة يورك، التي قيل من قبل بأننا منحناها لواحد من بلادنا، حيث كنا جاهلين آنذاك بأن التقديم هو عـائـد إلى رجل علماني، واستجابة منـا لإلتماسات الملك المتقـدم الذكـر، ولالتماسـاتكم، فإننا نقـوم بمـوجب السلطات الرسـولية بإلغـاء المنحـة نفسهـا، ولقد أمـرنا برسـائلنا أخانـا المحترم، رئيس أساقفـة يورك، بأن يقبل الكنيسة المتقدمة الذكر، وأن يضع فيها الشخص الذي رآه الفارس المذكـور مناسباً بأن يقـدم إليهـا، بحكم أنها عائـدة للفـارس المذكـور، وبالنسبـة لمرور الوقت، لاقيمـة لـه، بما أنه لم ينشأ عن أي خطأ صـادر عنه، على شرط واحـد فقط هو أن لاتكون هناك أيـة أرضيـة معقـولة معـارضة لـه، وبموجب هذه التقـدمـات نحن نعلن أنه غير قـانوني من الآن فصاعداً، بمـوجب سلطات المقام الرسولي، منح كنائس في المملكة المتقـدم ذكرها، التـي فيها الرجـال العلمانيين رعـاة، وذلك من دون نيل موافقة الرعاة المذكورين. صدر، إلخ، إلخ».

رسالة أخرى منه هو نفسه إلى النائب البابوي

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى النائب البابوي، تحيات:

نحن نرغب أن تنتبهوا أنه لم يكن بنيتنا ولن يدور بخلدنا منح المنافع الموجودة في مملكة انكلترا العائدة إلى تقدمـات رعاة مدنيين، أو إضفائها على أي واحـد بمـوجب سلطاتنا، فلقد اكتشفنـا حديثـاً من معلومـات ولدنـا المحبـوب كثيراً في المسيح، ملـك انكلترا اللامع، ومـن إيرلات وبارونات المملكة، بأن واحـداً من فـرسـان انكلترا مستحـوذ على حق

الرعاية في كنيسة لوتون، في أسقفية يورك، التي قيل بأننا كنا قد منحاه من قبل وأضفيناه على واحد من الكهنة من بلادنا، ذلك أننا كنا جاهلين بأن حق التقديم عائد إلى رجل علماني، ولقد أصغينا إلى توسلات الملك والنبلاء المذكورين، وبموجب السلطات الرسولية قد ألغينا المنحة المذكورة، وقمنا برسائلنا، فأمرنا أخانا المحترم رئيس أساقفة يورك، بأن يقبل، وبأن يقيم في الكنيسة المذكورة، الشخص الذي رأى الفارس المذكور أنه مناسب لتقديمه لها، لأنها عائدة إليه، وبالنسبة للوقت الذي انقضى، بما أنه غير ناجم عن غلطته، لايقام له تقدير، شرط أن لايكون هناك اعتراض آخر معقول على الشخص المقدم، ونحن نعلم بكل دقة، أنه غير قانوني من الآن فصاعداً، منح كنائس —بموجب سلطات المقام الرسولي— في المملكة المذكورة، التي الرعاة فيها رجال علمانيين، من دون موافقة هؤلاء الرعا ة المذكورين. صدر، إلخ، إلخ».

ومن هذه الأمثلة وأمثالها، من الممكن بوضوح أن نزن بميزان المنطق، كيف كانت شدة القانون في ذلك الحين مسترخية نائمة، وكذلك احترام الكنيسة، والتقوى الدينية، لأن ممتلكات اللاهوتيين والرهبان المسالمين قد أعطيت لتكون فقط نهباً وأسلاباً، والعالم الآن مهدد بالسقوط في حالة الفوضى القديمة.

اجتماع الصليبيين في ليون

وفي هذه الآونة اجتمع النبلاء الذين حملوا لصليب في فرنسا وفي المناطق المجاورة، في مدينة مشهورة واقعة على الرون اسمها أغانو Agauno أو لوغدونوم Lugdunum أو بشكل عام ليون، وجاء احتشادهم هناك لعمل الترتيبات من أجل الانطلاق برحلتهم، وأثناء عقدهم لمؤتمر للتداول، وصل رسول قدم بكل سرعة من عند البابا، الذي كان قد حثهم من قبل بشدة وأقنعهم بالانطلاق في حملتهم، لكنه أراد الآن أن يثنيهم عن الانطلاق وحثهم بحرارة بعدم الاقلاع في

رحلتهم، وقام الرسل باسم المولى البابا بأمر كل واحد منهم بالعودة إلى موطنه على الفور، وعرض عليهم جميع المذكرات البابوية من أجل هذا العمل، وعلى هذا ردوا بالاجماع قائلين:

«من أين انبعث هذا التقلب في البلاط الروماني ولدى البابا؟ أوليس هذا هو الزمان والمكان اللذين جرى ترتيبهما منذ زمن طويل من قبل النواب البابويين والمبشرين المرسلين من قبل البابا، من أجل جوازنا عبر البحر؟ فوفقاً لكلام المبشرين ووعودهم، اشترينا المؤن، والسلاح، وجميع الأشياء الضرورية من أجل الانطلاق، فلقد رهنّا أو بعنا أراضينا مع بيوتنا وجميع أثاثنا، وقمنا بوداع أصدقائنا، ولقد أرسلنا جميع أموالنا قبلنا إلى الأرض المقدسة، وأرسلنا رسالة عن موعد وصولنا، وقدمنا إلى الميناء، والآن تعاق الحملة الصليبية وتمنع من الذهاب والمتابعة، فلقد غير رعاتنا لهجتهم ووقفوا ضدنا»، وقد غضبوا غضباً عظيماً وكادوا أن يقاتلوا رسل البابا، وأرادوا فعل ذلك، لولا أن حكمة الأساقفة ضبطت غضب الناس.

ووصل فوراً بعد هذا، رسل من عند الامبراطور، ونصحوهم بعدم الاقلاع من دون تروي، وأن لايتسرعوا، من دون توجيه الامبراطور نفسه وحضوره شخصياً، وقد جلبوا معهم رسائل منه لهذه الغاية، فيها قدم ببراعة، مايكفي من معاذير لاخفاقه في القيام بالجواز، وبناء على هذا أصبحت أوضاع الصليبيين بالفعل محزنة، لأن مؤتمرهم ارفض، وهم أصبحوا مثل رمل من دون ممسك، أو مثل جدار بلا ملاط، وعاد كثيرون إلى مواطنهم وهم يبكون، وقد أعطوا أنفسهم متنفساً للنقد ولمقت وازدراء التأكيدات الزائفة لبعض القساوسة، وذهب بعضهم إلى ميناء مرسيليا، وعهدوا بأنفسهم لحظوظ البحر، وأبحروا وهم يائسين نحو الأرض المقدسة، وانتظر عدد كبير منهم في صقلية حتى الربيع، متوقعين وصول مقدميهم، في حين سار بعضهم، من خلال نوع من

الاذن من الامبراطور، على شاطىء البحر، وتركوا الخليج الايطالي على اليسار، ومضوا إلى أحواز برنديزي.

اجتماع الأساقفة في لندن

اجتمع جميع الأساقفة في الحادي والثلاثين من تموز، في لندن، مفكرين بعمل بعض الترتيبات مع النائب البابوي، حول مايتعلق بمظالم الكنيسة الانكليزية، لكنه لم يكن مهتماً حول هذه القضية، فقد حصل منهم على بعض الوكالات، وبعدما عقد الأساقفة مؤتمراً أخبروه في إجابة، بأن القبضات الملحة لرومان، بمختلف أنواع الحجج قد أنهكت هكذا بالغالب ممتلكات الكنيسة، إلى حد أن جميع ثرواتهم قد ابتلعت تقريباً، وهم يستطيعون بصعوبة بالغة التنفس لبعض الوقت،وهم ماعادوا يحتملون هذه الجبايسات أي وقت أطول، وأضافوا قائلين:

«أية منفعة قد أضفيت على المملكة حتى الآن، أو على الكنيسة بوساطة سلطته الأسطورية، الذي هو الشريك الوحيد للملك، والذي ظلم الكنائس بمختلف أنواع الجبايات، التي منها نأمل الآن ببعض الراحة والمواساة؟ دعوا الملك، الذي استدعاه إلى المملكة من دون نصيحة رعاياه الطبيعيين يزوده»، وعندما رأى النائب البابوي هذا الثبات بين الشطر الرئيسي منهم، توجه بخطابه إلى الفئات الدينية الأكثر تواضعاً، واستخرج منها مبلغاً كبيراً من المال، تحت اسم الوكالات، وارفض الاجتماع وسط الشكاوى، وتمتمة وانزعاج الأساقفة.

وصول كونت فلاندرز إلى انكلترا

وفي حوالي عيد صعود مريم المباركة، وصل توماس كونت فلاندرز —عم الملكة— إلى انكلترا، ونزل في دوفر، وعندما أخبر الملك بوصوله، قام بطريقة غير معتادة من قبله، فذهب وهو مسرور إلى

استقباله، وأمر سكان لندن، عند اقتراب وصوله، بإزالة جميع الأعشاب، والأوساخ، والأوحال، وكل شيء معيق من الشوارع، وأن يقوم هؤلاء السكان أنفسهم بالخروج إلى استقبـاله وهم يـرتدون ثيـاب الأفـراح، ومعهم خيـولهم وقـد أعـدت بشكل جميل، وبعمـل الملك هكذا، أثار ضحك كثير من الناس وسخريتهم، وبعد مضي عدة أيام، غادر الكونت انكلترا، لأن إذنه بالغياب من ملك فرنسا، لم يكن لمدة طويلة، وقد حمل —على كل حال— معه خمسمائة مارك، كان قد تسلمها من الملك، وهذا هو المورد نفسـه، الذي قال بأنه عـائـد إليه بمـوجب حق قديم، وكـان يتسلمـه سنوياً مـن الخزانة الملكيـة، وذلك مقـابل ولائـه، من دون أية مصاعب أو تأخير.

البابا يمنع الصليبيين من الاقلاع

وفي هذه الآونة أعطى البابا أوامـر إلى النائب البابوي بمنع الصليبيين من الاقـلاع بحملتهـم إلى الأرض المقـدسـة حتى الـربيع المقبل، وذلك دون أن يعبأ بحلول الموعـد الذي كـان قـد تقـرر من قبل بوسـاطة المبشرين، وعلى عكس نواياهم، والآمال التي تصـوروها بناء على وعود المبشرين المذكـورين، وقضى البـابا بأن يكون الجواز في آذار، وأنهم إذا مافعلوا غير ذلك سوف لن يتمتعوا بالتحليل من ذنوبهم الذي سلف أن منح إليهم.

تكريس وليم دي ريل أسقفاً لنورويك

تسلم في هـذا العـام، وليم دي ريـل، الأسقف المنتخب لنـورويك شرف التكريس أسقفاً لذلك المقام من إدمـوند رئيس أساقفة كانتربري، وكان ذلك في كنيسـة القديس بولص في لندن، بحضور عـدد كبير جداً من الأساقفـة والنبلاء، وبما أن البشـارة التكهنية لهذا الرجل قـد كانت: «وكان هنـاك سرور بين ملائكة الرب من أجل توبة مـذنب من ذنوبه»،

إلخ، فقد تصور الجميع آمالاً جيدة منه، بأن يكون مثل متّى آخر، الذي ارتفع من كونه متسلماً للعشور إلى مقام الرسالة، وسلطة الانجيل، وأنه هو سوف ينهض من العمل في البلاط إلى سمو القداسة نفسها.

إدعاءات الملك ضدّ هـ إيرل كنت

وشاهد الملك في هذه الآونة أن الايرل المحترم لكنت قد صار الآن عجوزاً وضعيفاً، فوجّه ضده شكاوى جدية، واستخرج منه مبلغاً كبيراً من المال، واتهمه بشكواه بعدة جرائم عظيمة، مع نية ماكرة استهدفت أنه إذا ما مات الايرل أثناء قيام هذه الشكايات، وتعليقها فوقه، يستطيع الملك وقتها مصادرة جميع ممتلكاته ومقتنياته، وقد اتهمه أنه قام في زمن الملك —والده— فأغوى بشكل خياني، فتاة نبيلة، كانت ابنة ملك سكوتلندا، التي إليه عهد بأمر العناية بها، كما أنه أكد بأنه أضاع روشيل، وبواتو كلها، كما أنه قام بشكل دنيء، وسري، بمنع المال الذي أرسل لمساعدة المدينة والمنطقة، وأرسل سلالاً مليئة بالرمل إلى المحاصرين، وأعاق جنود الملك الذين كانوا ينتظرون مساعدة فقط من انكلترا، وكذلك أنه من خلال خيانته، جرى تدمير قلعة بدفورد، وخسرها —أي الملك— وأنه أيضاً عندما كان —أي الملك— تحت وصايته، قام بشكل خياني بتدبير أموره، وتبديد أمواله، وحوّلها لاستخداماته الشخصية، وقد حصل لنفسه على موارد، وأراض شاسعة وغنية، وحول أمواله —أي الملك— طالب الآن بتقديم حساب إليه، كما أنه أثناء الحرب في بريتاني ضد ملك فرنسا، قد خسر، بشكل لايعوض، شرفاً كبيراً، وشطراً كبيراً من الجيش، كما يشهد على ذلك كونت بريتاني، كما أنه اخترع خيانة كبيرة ضد الملك الذي هو مولاه، فيما يتعلق بالزواج السري الذي عقد، أو كان سيعقد، بين رتشارد كلير، وم. M, ابنته، ومجدداً لقد أعاق بدناءة زواج الملك بسيدة نبيلة، بإخبار السيدة المذكورة، وإخبار أسرتها، بشكل سري، بأن الملك كان

أحـولاً، وسخيفـاً، وعاجـزاً، وأن فيـه نوع من أنواع الجذام، وأنه كـان مخادعاً، حـانثاً باليمين، وضعيفاً، وهو امـرأة أكثر مما هو رجل، وأنه يجد متنفسـاً لغضبه فقط في صبـه على أتباعـه، وأنه كـان غير قادر تمامـاً على التمتع باحتضـان أي امـرأة نبيلة، ومجدداً اتهمـه بأنه قطع الأحـراش الملكية، والغابات التي عهد إليـه بأمور العناية بها، وبناء عليه هو يطالبه بتقديم حسـاباً جديداً عن المال الـذي تسلمه منهم، وكذلك، أنـه عندما كانوا مقيمين في وودستـوك، منذ بعض الوقت الذي مضى، وصدف أن كـان هو —الملك— وحـده في حجـرة، فـاندفع —الايرل المذكـور— بعنف، وانقض عليه مغضباً، وسعى بدنـاءة وخيانة إلى قطع عنقه، وهو سيـده ومولاه، بسكين مجردة، وكـان أنه لولا أن رفع صـوته بصعـوبة، وصرخ طالباً المسـاعدة، لما كان قـد تخلص من بين يديه، ولهذه الجريمة، هو أعلن أنه لم يستحق فقط تعليقه بحبل المشنقة، بل أن يمزق إلى قطع، وعند نهاية هذا الخطاب، الـذي آلمه كثيراً وأحـزنه، رد الايرل هيـوبرت بتواضع، وتذلـل بنفسه إلى الملك، وقال: «إنني لم أكن قـط خائناً لك أو لأبيك، وبفضل الرب، هذه هي بينة بك» وكأنه أراد أن يقول: «لو أنني رغبت أن أعمل خـائناً لك، لما كنت قـد تمكنت من الاستحـواذ على المملكة»، وبالنسبة إلى جميع التهم المذكـورة، أعلاه، ردّ بوسائل صـادقة، وبتمثيل صحيح، بوساطة واحـد اسمه لورانس، وكان كـاهناً من كنيسة القديس ألبـان، وكان قد بقي مـرتبطاً دونما انفصال بالايرل طوال جميع اضطرابه، وقـد نقض جميع التهم وردها، وعـرض براهين كـافيـة على براءته، ممـا أرضى جميع الذيـن احتشـدوا هناك، مع أن الملـك حـاول بوساطة الادعاء من وراء منصة القضاء أن يبرهن العكس.

وفي سبيل اطفـاء حنق الملك وغضبه، تقـرر أنه على الايرل، في سبيل استرداد المشاعـر الطيبة السـالفة والسـلام، أن يتخلى للملك عن الأربع قلاع التي كانت غالية جداً لديه، وهي قلاع:

بلانش Blanch, وغـروسمــوند Grosmond في ويلز، وسكنفريث Skenefrith, وهاتفيلد Hatfield, وتحمل الايرل الذي بسنه، وطول تجربته الاقطاعية، تمّ بالغالب الاحتفاظ بانكلترا إلى الانكليز، كل جحود الملك، ولومه، وإهاناته، وجميع حملات سوء الحظ، بهدوء وصبر، وإذا مـارغب أحـد في أن يعـرف بشكل كـامل أخبـار الخلاف الذي وقع بين الذيـن اتهمـوا هيـوبرت المذكـور، ايرل كنت، والمعلم لـورانس من سينت ألبــان، يمكـن أن يجدوا ذلك في كتــاب .Additamenta

الإيرل رتشارد وعدد من نبلاء انكلترا يقسمون على الشروع معاً بحملتهم المقترحة

وفي حـوالي الوقــت نفســه، وفي التحــديد في اليـوم التـالي لعيـد القـديس مـارتن، التقى النبـلاء الصليبيـون الانكليـز في نورث أمبتـون لإعــداد خطط للشروع بحملتهم إلى الأرض المقدســة، وفي سبيل أن لايعـاق يمينهـــم الشريف بوسـاطـة الاعتراضـات التـافهـة للكنيسـة الرومـانيـة، ولا أن تصرف جهـودهم جـانبـاً —في سبيل سفك دمـاء المسيحيين— إلى بلاد اليـونان أو إلى إيطاليـا، حسبما ألمح إليهم بأن ذلك كــان منوياً، أقسمـوا جميعــاً على الانطلاق في ذلك العــام إلى الأرض المقـدســة، لتحـرير الكنيسـة المقــدسة لـلرب، وكـان الأول الـذي أقســم بينهم جميعــاً الايـرل رتشــارد، الذي أدى القسـم على المذبح الكبـير في كنيسـة جميــع القديســين، في وســط المدينـة وردد بعــده الايرل غ. G مــارشـال القسم نفســه، عــلى شرط أن يصبــح متصالحاً أولاً مع الملك، ولكن الايرل رتشارد قال له: «لاتخفق في سبيل تلك المسألـة يابن ختني العــزيز، لأن ثقل ذلـك العمل أنا آخــذه على نفسي»، وجـاء بعـد ذلك رتشـارد سيـوورد Seward,ومن بعــــده هنري تربلفيل Trubeville, وعـدد كبير من النبلاء، كثير عــددهم

حتى نذكرهم، هم جميعاً بإرادة واحدة، وفكر واحد، أعدوا أنفسهم لخدمة الصليب.

الامبراطور والبابا يرهق أحدهما الآخر بشكل متبادل

وعندما رأى البابا في هذه الآونة، أن قوة الامبراطور وجرأته لم تضعف كما أنه لم يرضخ لإرادته أو لإرادة الكنيسة الرومانية، أرسل رسائل تحذير إلى جميع القساوسة والنبلاء المقيمين في ألمانيا والأجزاء الأخرى من الامبراطورية، وأمرهم بشكل بات بالثورة ضد امبراطورهم الذي كان عاصياً ضد الرب، وضد الكنيسة الرومانية، وأساء إلى سمعته بوساطة الكثير من التهم الجادة الأخرى، كما أنه حلل الذين كانوا مرتبطين بيمين الولاء إليه، وأقنعهم أنهم كانوا مخلصين في عدم اخلاص، ومطيعين في عدم طاعة، ولكن وضاعة الكنيسة الرومانية كانت مشجوبة من قبل الجميع إلى أبعد الحدود، حتى وصل الحد أن سلطات البابا كانت محترمة من قبل قلة، هذا إن احترمت من قبل أحد.

خذلان البولونيين والمشايعين الآخرين للبابا

في صيف هذا العام، وقبل وقت قصير من بداية الخريف، رغب الامبراطور منع البولونيين من تقديم المساعدة إلى رعاياه الخونة من الميلانيين، وقام بهجوم مرعب عليهم، لأنهم كانوا يسعون، محاباة منهم للبابا ولجيرانهم الميلانيين، أن يزحفوا ومن ثم ينقضوا بهجوم على جيش الامبراطور لكن في أثناء زحفهم، انقض الامبراطور بشكل مفاجىء عليهم، ووضع عساكره بين المدينة وبين سكانها، ومزق فيالقهم، وأوقعهم في حالة من الفوضى مرعبة، وحاول الفارون التراجع عبر الطرق الجانبية، وعرضوا أنفسهم لجروف النهر الذي كان من الضروري عبوره للوصول إلى المدينة، وبناء عليه كان الذين هلكوا منهم

بالموت بتعاسة غرقاً، أكثر من الذين هلكوا بالسيف.

ثم إن الامبراطور، بعدما قدم البولونيون إليه أيديهم اليمنى كعلامة على الصداقة، قاد جيشه ضد ميلان، ولأنه كان قد بنى آلاته، وشيد الجسور، تمكن في وقت قصير، مع جيشه الكبير، من عبور الخنادق، التي كان الميلانيون قد أحاطوا بها أنفسهم من جميع الجهات، ثم استولى الخوف والارتجاف على سكان المدينة، لدى وصول أخبار منازل بالبولونيين من مصائب، وتكدس الويل على الويل، وكان هذا العمل سينتهي في وقت قصير، ما لم يتفجر اضطراب خطير، أثاره البابا، واستدعى الامبراطور إلى أماكن نائية، ولدى معرفة سكان المدينة بهذه الظروف المستجدة، أصبحوا أكثر جرأة، ورفعوا رؤوسهم من جديد، فعاثوا فساداً في المناطق المجاورة، وألقوا الحصار على قلاع الامبراطور، ولكونهم أيضاً تقووا وتشجعوا بالنائب البابوي الذي أرسله البابا إلى هناك لطمأنتهم ولمواساتهم، طوقوا فيرارا، وألقوا الحصار عليها وبنصيحة النائب البابوي، الذي كان بلا رحمة، أرغموهم على الاستسلام، ذلك أنهم رفضوا جميع العروض لرفع الحصار، ما لم يستسلموا من دون شرط.

وفي هذه الآونة تم العثور أيضاً على واحد من رفاق القديس أوسوين Oswin.

الملك يفرض بريتانيا ليكون رئيساً للرهبان في دير وينكستر

وفي هذه الآونة مارس الملك ظلماً كبيراً على كنيسة وينكستر، فعلى الرغم من رغبات المجمع الديري، فرض بالقوة رجلاً أجنبياً وأدخله إلى الدير، ليتسلم إدارة الدير، وكان رجلاً صرف نفسه إلى السلوك الشائن، حيث ألقى جانباً الخوف من الرب، فاستولى على الأشياء كلها، وأضل عقول جميع الرهبان، وبدّد أموال الكنيسة، وكان كل ماسعى إليه هو أن

يرضي الملك، وتمكن رئيس الرهبـان هـذا الزائف نفسـه، على الرغم من حق حرية الانتخـاب الممنوح إلى الرهبان، من جر قـرابة نصف النجوم إلى قطاره، وأفسـد قلوب العـديـد منهم، وجعلهم يميلون إلى انتخـاب وليم، عم الملكـة، لأن الملك كـان منصرفـاً كليـاً من أجـل تمرير هذه المسألة.

موت وليم الأسقف المنتخب لليبج

مع اقتراب حلول عيد جميع القديسين، ختم وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، الذي أتينا على ذكره أعلاه، وأنه حصل على إذن من البابا حتى ينتخب أسقفـاً لليبج Liege، وأن يستلم أسقفيـــة وينكستر، ختم حيـاته في فيتربو، حيـث قيل بأن السم قـد دس له بـإيعـاز من المعلم لورانس، الذي كـان رجلاً انكليزياً، وقـد تمكن فيما بعد من تبرئـة نفسه تماماً من التهمـة، وعندما سمع البابا بهذه الحادثة، حـزن كثيراً، لأنه كان بنيته أن يجعل منه قـائداً لجيشه في حـربه ضد الامبراطور، وبذلك صنع منه تنيناً ووحشاً بعدة رؤوس، لأنه عـرف بأنه كان متحمسـاً في القتل، نزاعاً إلى سفك الدماء، ومتشوقـاً إلى الإحراق، كما أنه كان سيداً للملك الانكليـزي وصـديقـاً للملك الفـرنسي، وابن ختن لكل منهما، وعمّـاً للملكتيهما، وأخـاً لكونت سـافوي، وحليفـاً لكثيرين آخـرين بالقـرابة أو بالدم، وجاء موته غير المتوقع محبطاً لخطته كلها.

حزن الملك لموت وليم المتقدم الذكر

وعندمـا سمع الملك بهذه الأخبـار المبكيـة، لم يستطع منع نفسـه عن الحزن، فقد مـزق ثيابه وألقى بهم بالنار، وأفسح المجـال للبكاء بصوت مـرتفع، ورفض قبول المواسـاة من أي واحـد كان، والملكة أيضـاً، التي استثيرت، انخـرطت في حـزن أكبر من المعتـاد، وقـد بكـت مـوته لمدة طويلة.

وفي هذه الآونة أيضاً ماتت ايفيلين كونتسه ألبهارل، وكانت سيدة ذات جمال عظيم، ومات أيضاً في الحادي والعشرين من كانون الأول، هنري دي تربلفيل، وكان فارساً شجاعاً جداً، وكان صاحب خبرة كبيرة في الحملات الحربية.

البابا وبلاط روما ينتخبان روبرت أخا الملك الفرنسي امبراطوراً لهما لكنه رفض على الفور قبول هذا المنصب.

وفي هذه الآونة كتب البابا إلى الملك الفرنسي، وبعث رسلاً خاصين إليه مع رسالة أمر بأن تقرأ بكل وقار ودقة بحضوره هو، مع جميع بارونات فرنسا وكان موضوع هذه الرسالة ومحتواها كما يلي:

«ليكن معلوماً من الولد المحبوب للكنيسة الروحية الملك المشهور لفرنسا، وكذلك من قبل جميع جماعة بارونات تلك المملكة، بأننا، بعد مناقشة دقيقة، ومداولات مع اخواننا، قررنا، وفصلنا، الذي هو مدعو باسم الامبراطور فردريك، عن المنصب الامبراطوري، وقد انتخبنا الكونت روبرت، أخا الملك الفرنسي عوضاً عنه، الذي، ليس فقط كنيسة روما، بل الكنيسة العالمية، رأته مناسباً ومتوافقاً مع جهودها القصوى في السعي لمساعدة ذلك المقام ورفعه، ولاتكن بناء عليه متباطئاً، ولابأي شكل من الأشكال، في استلام مثل هذا المقام العالي بذراعين مفتوحين، الذي جاء منحه بشكل تطوعي، ولكي يستحوذ عليه، سوف نمنح المساعدات بكرم، في كل من الجهد والمال، فقد جرت إدانة فردريك المتقدم الذكر إدانة قطعية، وذلك بسبب الجرائم المضاعفة التي اقترفها، والتي العالم كله على دراية تامة بها».

ورداً على هذه المنحة اقترح الملك الفرنسي، العظيم الحذر، الجواب التالي: «بأية روح أو بأي طيش أقدم البابا على حرمان مثل هذا الأمير العظيم، وطرده من مقامه الامبراطوري، ذلك أن هذا الأمير العظيم

لايوجد نظير له، لابل إن المثيل له ليس موجوداً بين المسيحيين، وكيف يتم هذا وهو لم يُدن بعد، كما أنه لم يعترف بالتهم التي أثيرت ضده؟ وهو إذا ما كان قد استحق العزل، بسبب ذنوبه الكبيرة، لايجوز حرمانه من تاجه، مالم يكن ذلك بموجب قرار من مجمع عام، وبالنسبة لتهم تجاوزاته، لايجوز لنا أن نضع ثقة بأعدائنا، الذين من المعروف بشكل جيد أن البابا هو الرئيس، وهو بالنسبة لنا مايزال بريئاً، لابل أكثر من هذا، هو جار جيد، ثم إننا لم نشهد أي شيء شائن في سلوكه العلماني، أو في إيمانه الكاثوليكي، والذي نعرفه هو أنه قاتل باخلاص من أجل مولانا يسوع، وعرض نفسه إلى مخاطر البحر، والحرب لصالحه، ومثل هذا التدين لم نكتشفه لدى البابا، وهو الشخص المتوجب عليه رفع شؤونه ومصالحه، وأن يحميه أثناء قتاله في سبيل الرب، لا أن يسعى إلى تدميره، واستبداله، ونحن لانرغب في أن نلقي بأنفسنا في مثل هذه المخاطر العظيمة، من أمثال الاقدام على قتال أمير عظيم وقوي مثل فردريك هذا المذكور، الذي هناك ممالك كثيرة سوف تساعده ضدنا، ممن يرغبون في تقديم تأييدهم لقضية عادلة، وهل سوف يكون الجود بسفك دمائنا، مسألة لها أهميتها لدى الرومان، طالما أرضينا غضبهم؟ وإذا ما كان البابا سيقوم بالتغلب عليه بوسائلنا، أو بمساعدة الآخرين، فإنه سوف يدوس على جميع أمراء الدنيا، مدعياً لنفسه التبجح والفخار، بما أنه قهر أميراً عظيماً مثل فردريك، ولكي لانبدو بأننا تلقينا الوصاية البابوية، بمثابة رسالة فارغة، مع أن هذا واضح أنه صادر عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بسبب كراهية الامبراطور، وليس بسبب محبتنا، إننا سوف نرسل رسلاً حكماء من عندنا إلى الامبراطور، للقيام بعمل بحث دقيق، حول مواقفه من العقيدة الكاثوليكية، ومن ثم لنحصل على المعلومات من قبلهم، وإذا لم يكتشفوا شيئاً غير صحيح، لماذا بناء عليه تعريضه للانتقاص؟ لكن إذا ما اكتشفوا غير ذلك، إننا سوف نطارده ونعذبه ونعاديه حتى الموت، لابل إننا نفعل هذا مع البابا نفسه، أو مع

أي مخلوق يفكر بشكل شرير نحـو الرب»، ولدى سماع رسل البـابا هذا الجواب غـادروا باضطراب، وعند ذلـك جـرى ارسـال رسل فـرنسيين خـاصين إلى الامبراطور ليخبروه بشـذوذ الرسـالة التي تسلمـوها من البابا، وعندمـا سمعهم الامبراطـور، اعترته الدهشة تماماً نحو ضخـامة كراهيـة البابـا له، وأجاب بأنه كـاثوليكي، ومسيحي، ويرعى مواقـف وآراء صحيحـة نحـو جميـع أركـان الإيمـان القـويـم، وأضـاف قائـلاً:

«إنه مما يرضي الـرب أنني لـن أتخلى عن خطـوات آبائي النبـلاء وأسلافي، ولن أتبع خطوات هؤلاء المحكوم عليهم بالدمار، ليقم الرب بالحكم بيني وبينه الذي نـال مني بدناءة وشـوّه سمعتي في جميع أنحـاء العالم»، ثم إنه رفع يديه نحو السماء، وهو يتنهد ويبكي ودموعه تتساقط وهو يدعو قـائلاً: «لينتقم المولى، رب الانتقـام، منه، انتقامـاً عادلاً»، ثم إنه التفت نحو الرسل قائلاً:

«أصدقائي، وجيراني الأحباء، إنه مهما قال عدوي هذا، هذا المتعطش السـاعي وراء دمي، إنني أعتقـد الشيء نفسـه الذي يعتقـده المسيحيـون الآخـرون، وإذا مـاأردتم شن الحرب ضـدي، لاتندهشـوا بأنني سـوف أقـاتل ضـد الذيـن يهاجمونني، لأنني واثق من أن الـرب، الذي يحمي البريء سوف يحررني بقدرته من أعـدائي، لأنه يعرف أن البابا في وضع المحاباة لأعدائي المتمردين، وبشكـل خاص الميلانيين المراطقة، ذلك أنه رفع، في غضبـه، كعبـه ضـدي، وحـاربني، وبـالنسبـة لكـم أنا أدين بالامتنان، لأنكم قررتم قبل الاستجابـة لطلبه، أن تتأكدوا بأنفسكم من حقـائق القضيـة الحاليـة بوسـاطة أجـوبتي، وعلى هذا أجـاب الرسل: «ليمنحنا الرب أن لايدخل إلى قلوبنا قط التفكير بقتال أي مسيحي، من دون سبب واضح، وأن لاتثيرنا المطـامح، لأننا نؤمن بأن مـولانا ملك فرنسا الذي خـط نسبه الملكي قد دفعه لتسلم صـولجان فرنسا، هو أعلى

من أي امبراطور، لأنه الامبراطور يرفعه إلى منصب الامبراطورية مجرد انتخاب حر، وأنه يكفي الكونت روبرت أن يكون أخاً لمثل هذا الملك العظيم»، وبهذه الكلمات غادر الرسل، مع تمنيات طيبة، وشكر للامبراطور. وهكذا أخفق البابا الذي حاول أن يدفع بقضيته اخفاقاً كلياً.

البابا يستخدم كلّ مساعيه لجمع مال للدفاع عن نفسه

وسعى البابا بوسائل الاكراه والإثارة للناس بوساطة حجج مضاعفة، وعن طريق الدومينيكان والفرنسيسكان، الحصول على المال لنفسه، من أي مكان كان من الممكن الحصول عليه، وذلك في سبيل الحاق الأضرار بالامبراطور، وكان الدومينيكان والفرنسيسكان قد أصبحوا في هذه الآونة المستشارين الخاصين ومراسلي الملوك، فمثلما كان الذين يرتدون الثياب الناعمة من قبل في بيوت الملوك، هكذا صار هؤلاء الذين كانوا حينذاك يرتدون ثياباً خسيسة، في بيوت الأمراء، وغرفهم، وقصورهم، واستدعى الملك في هذا الوقت أخاه جون دي سينت جايلز (صنجيل) للاجتماع به للتشاور معه، واعترت الدهشة كثيراً من الناس، لأن البابا لم يحضر صلوات عيد الميلاد، حسبما قرأنا عن القديس بطرس عندما كان مودعاً في السجن.

الامبراطور يثني الصليبيين عن الإقلاع

وقام الامبراطور الآن، بوساطة رسالة، بنصيحة جماعة الصليبيين كلهم —مع أنهم كانوا مستعدين ووضح أنه تسبب بغضب شديد لهم— بأن ينتظروا بصبر، وأن لايقوموا بالمغادرة نحو القدس، حتى يكون انفجار غضب البابا قد سكن، فوقتها سوف يتمكن بسرور من مرافقتهم، لأن هناك حشداً لايحصى من الشعوب الشرقية، مستعدين بالسلاح للاصطدام بهم، وقد رفض البقية على كل حال الاصغاء

لنصيحتـه، فقام بناء على ذلـك، الامبراطور، وهو مغضب، فمنع تزويد أية مـواد غذائية، أو إيصـالها إلى الجيش الفرنسي، مهما كـانت الشروط، وذلك من مناطقـه الحدودية المثمـرة، أي من أبوليـا وقبرص، وعندمـا سمع المسلمـون بهذا، رفعـوا رؤوسهم، و أصبحوا أكثـر جـرأة وأنزلوا أذى كبيراً بالصليبين، بكل من أشخـاصهم وممتلكاتهم، وبجـرأة نشروا بينهم النار والقتل، وبالاضافة إلى رماياتهم الكثيفة، أقام الاغريق باباهم المضـاد، في وجه الكنيسـة الرومانيـة، وأقـام الامبراطور أيضاً، في وجـه البـابا وضـده، الراهب اليـاس، الذي كـان لبعض الوقت رئيس رجـال الدين، وواعظـاً مشهـوراً لدى طائفـة الفـرنسيسكـان، وهكذا بدأت الشرور تتضـاعف على وجـه الأرض، لأنه حلل جميع الذيـن حـرمهم البابا، وأثارت الكنيسة فضيحـة كبيرة، لأنه بدسائس هذا الوكيل، باتت كنيسة رومـا مشهورة بتهم: الربا، والسيمونيـة، والسرقة، وتحول الأبناء ضد أزواج أمهـاتهم، وأكد الراهب الياس المتقـدم الذكر بأن البـابا كان يصب غضبه ضـد حقـوق الامبراطورية، وأنه كـان متعطشـاً من أجل المال، وكـــان يستخـــرج المال بمختلف الحجـج، وأنه كـــان لايحضر الصلوات، والقـداسات، والمسيرات، والصيـام، التي من خلالها يتحـرر المظلومـــون من مضطهـديهم»، كما كتب: «حفظ، بناء عليـه بطرس في السجن، لكـن صلواتـاً عملت من قبـل الكنيســـة من أجلـه من دون توقف، إلى الرب»، وأنه كـان يمارس الغش بالنسبـة للمال الذي جمع من أجل مساعـدة الأرض المقدسة، وأنه كان يقـوم بشكل سري بختم مواد مكتوبة في غرفته، من دون الحصول على موافقة اخوانه، حتى أنه أعطى إلى رسله كثيراً جداً من البرامج الفـارغة، وهي مختومـة بختمه، أعطاها لهم على هذه الصـورة، ليكتبوا عليهـا مـايرضي رغباتهم، وهي رغبـات كـانت مـرعبـة، وقـد وجهت إلى البـــابا وعملت ضـده كثيراً من التهم الأخـرى، رفعـت صـوته إلى السماء، ولذلك قـــام البـابا بانزال عقـــوبة الحرمان الكنسي بالياس المذكور.

صرف سيمون النورماني والراهب غيوفري من مجلس الملك

وفي العام نفسه، وفي أثناء الاحتفال بعيد الفصح وسط كثير من البهجة، تحول غناء المعلم سيمون النورماندي إلى نحيب، واحتفاله إلى بكاء، لأن هذا الرجل قد كان قبل وقت طويل مضى، سيداً، ليس فقط للمملكة، وللختم الملكي، بل أيضاً الحاكم على الملك نفسه، ومدبر الشؤون في البلاط، حيث كانت جميع القضايا تدار حسب ارادته، وكان رجلاً صارماً، يحصد حيث لم يزرع، ولم يحصل على حظوة بسبب فضائله، بل كان يحمل نفسه فوق نفسه، وكان يوماً إثر يوم يثير غضب وكراهية النبلاء ضده، وعندما لم يعد الملك قادراً على تحمل خساسته أي وقت أطول وعجرفته، أمر به بأن يطرد من بلاطه، وأن يلقى بأمتعته وخزائن ثيابه، وكتبه، وأرديته الثمينة، خارج بيت الملك، وبالاضافة إلى هذا، انتزع منه ختم الملك، وعهد به إلى رتشارد، راعي دير ايفهام Evesham, وكان رجلاً مستقيماً وبارعاً، وحذراً في ادارة الأعمال، وعندما كان الملك مثاراً بروح مشابهة، أمر بالراهب غيوفري، الداوي، بأن يصرف من بلاطه، وهي حادثة، كان كثيرون متشوقين إليها، وأصل غضب الملك هذا وسببه الرئيسي هو أن سيمون المذكور قد رفض التصديق على إجازة بغيضة، مضادة لكرامة تاج الملك، وكان القصد من الاجازة، هو أن توماس كونت أوف فلاندرز ينبغي أن يتسلم ضريبة عشر، قدرها أربعة بنسات مقابل كل جوالق من الصوف يجري حمله من انكلترا، خلال مناطقه، ولم يرض غيوفري الداوي بالموافقة عليها، مع أن الملك رغب بها وتشوق إليها.

رهبان وينكستر يحصلون على انتخاب حر من البابا

وفي هذا الوقت نفسه، حصل رهبان وينكستر، لدى رجوعهم من البلاط الروماني، من البابا، على أمر، بعدم انتخاب أي واحد أجنبي ليكون وصياً على أرواحهم، أو أي واحد يكون ممقوتاً من جماعة

المملكة، وذلك بناء على مبادرة قاسية من الملك، أو بناء على التماس ملكي، بل وفقاً لما هو عادل، وقانوني، وأن يعملوا انتخاباً —من دن فرض— لأي واحد يرونه مناسباً لأن يكون أسقفهم وراعيهم، وبناء على هذا اشتعل غضب الملك ثانية إلى درجة عالية، وكأنه لم يكن بإمكانه أن يعثر على أي واحد انكليزي مناسب لتلك الأسقفية، ومنذ ذلك الحين سعى رئيس الرهبان، الذي فرضه الملك عليهم، وشغل نفسه بكل يقظة لاضعاف ثبات الرهبان وليمزق الاتحاد السلمي لأولئك الذين وقفوا برجولة منذ ذلك الحين، إلى جانب مصلحة الكنيسة.

الامبراطور يوجّه زحفه نحو المدينة

وعندما وجد الامبراطور في هذه الآونة أن البابا ليس فقط متعطشاً كثيراً يريد سفك دمه، بل يقف موقف المحاباة تجاه العصاة الميلانيين الهراطقة، لأنه كان متشوقاً لتنفيذ اسقاطه المهين، لذلك أجّل لبعض الوقت خطته المرسومة للحرب، وبجرأة اقترب من المدينة حتى يمكن أن يظهر بشكل مرعب أكثر، إلى رعيته، ولدى وصوله، خرج سكان فيتربو مع النبلاء ومع سكان المدن الأخرى المتميزة، ومع عدد كبير من الرومان، خرجوا إلى استقباله، مع كل احترام وتشريف، بحكم أنه مولاهم، ومن الممكن البرهنة على هذه الحقيقة من خلال رسالة بعث بها الامبراطور إلى ملك انكلترا.

رسالة الامبراطور إلى ملك انكلترا

«من فردريك، الذي هو بفضل الرب، أغسطس دائم، وامبراطور الرومان، وملك القدس وصقلية، إلى الملك المشهور لانكلترا، ابن ختنه المحبوب، تحيات وعواطف مخلصة:

إن اللدغات المضاعفة ثلاث مرات من الحزن التي تخرق قلوبنا

وتثيره، لاتسمح لنا الآن بالبكاء أكثر من دون انفجار حزننا الداخلي، على شكل آهات، وبعد ذلك انفجار آهاتنا على شكل عويل، وبالقدر نفسه بوساطة مواد خلافات جديدة، التي إليها دفعنا البابا حاكم الكنيسة العالمية، بوساطة بعض وسائل الارغام العنيفة، ولقد اكتشفنا المضار التي لحقت بالإيمان الكاثوليكي، ذلك أننا شاهدنا بوضوح ونحن نتألم الظلال التي سوف تلقى على عدالتنا، وتألمنا وأسفنا للخسارة التي سوف تعاني منها الأرض المقدسة، لكن نحن لسنا أقل تأثراً وتضرراً بهذا الحزن، حتى أن عيني الراهب ايلي صارتا لاتبصران، ولم يعد يعي أياً من هذه المخاطر، لأنه أثير بغضب شديد نحونا، وصار مربوطاً بمشاعر كبيرة من التعاطف مع الميلانيين ومع محرضيهم، الذين ثاروا ضد الامبراطور، ذلك أنه مع أن العالم كله بات عرضة لوقائع متوالية مشكوك بها، أو بالحري إلى مخاوف الحظ، نهض ليدوس على عدالة الامبراطورية المقدسة، وليقدم المساعدة إلى رعايانا الميلانيين المتمردين، غير أننا لم نطعن بلدغة صاحب ضمير مجرم في هذه القضية، كما أننا لانتوقع الحكم المضر لسمعتنا، لأننا منذ وقت طويل تمكنا بوساطة الالهام الرباني لضغوط هذه المخاطر، وبشكل دائم، من تجنب السبب الحالي للفضيحة، وقد سعينا بوساطة جميع الامكانات التي توفرت لقدرتنا، أن نحصل على حظوة هذا الحبر الأعظم، لكن عبثاً كان ذلك، حتى أنه لم يوفر تعبنا الشخصي، ولم يهتم بخسائرنا لممتلكاتنا، وغالباً كثيراً ما عرضنا حياة رعايانا المخلصين، بحرية، في سبيل مسـ ـمحته، ومساعدة الكنيسة الرومانية، لكن [ونحن نحكي هذا بأسـ ـ] أثناء الوقت كله لصراعاتنا، لم نتلق أي شيء منه، ولاحتى علامة من علامات العاطفة، قد دفعت لنا من أجل طاعتنا، بل إنه عارض دوماً بنفسه تقدم الامبراطورية المقدسة، وأعاقها، هذا والذي ينبغي ويتوجب عدّه أكثر وحشية لكل واحد، هو أننا عندما كنا مشغولين بخدمة الكنيسة المقدسة، كما هو مبرهن بوضوح من خلال

رسائله، قام بانتزاع مدينة كاستيلانا وسلبها من الامبراطورية، وكانت كاستيلانا هذه قد حولت إلينا مؤخراً، ولم نتمكن في ذلك الحين —على الرغم من جميع شكاياتنا— من الحصول على أي شيء لصالحنا، أو لصالح الامبراطورية، وقام بعد ذلك بوساطة رسائل سرية معارضة بتجريد النائب البابوي من جميع الصلاحيات، وهو النائب، الذي قال، بإنه أرسله إلى سورية، للحصول على ترضية تجاه المضار التي أنزلت بنا، وبابننا، من قبل سكان عكا، ومن قبل بعض نبلاء مملكة القدس، كما أننا لم نستطع في الوقت نفسه بالذات، الحصول على أية رسائل منه لمنع الميلانيين، من مهاجمة سكان كريمونا، الذين كانوا مخلصين للامبراطورية، ولامنع الفلورنسيين من إلحاق الأذى برعايانا البنادقة المخلصين، علماً بأنه لم يمنحنا الإذن بالذهاب لمساعدتهم، الأمر الذي رغبنا به، وكان ذلك حتى لانترك الكنيسة من دون دفاع، ومجدداً عندما كنا سائرين نحو ألمانيا، لضبط شرور ابننا الكبير، وعدنا بشكل مؤكد بأن يقدم لنا المحاباة في كل مجال، ومع ذلك قام بوساطة رسول من لدنه، يحمل رسائل اعتماد، بالفرض —بوساطة كل وسيلة وقدرة امتلكها— على المقدمين الذين كانوا موجودين معنا في البلاط في مينسي Mayence, بأن لايوافقوا ولابأي شكل من الأشكال، على انتخاب ولدنا الأصغر، أو أي واحد من بيتنا ودمنا، ثم بذل بعد ذلك كل براعته وقدرته، في سبيل إعاقة تقدمنا في إيطاليا، من أجل اصلاح أوضاع الامبراطورية وكان ذلك بوساطة رسائله ورسله، وبشكل خاص بوساطة أسقف برانستي، الذي تمكن بكل براعة ومكر، من أن يكسب إلى جانبه بياسينزا Pierenza, ومانتوا Mantua, وأخيراً عندما تمكنا بفضل نعمة الرب من الحصول على نصر على الميلانيين، بوساطة قتلهم، ولدى رؤيته أن رسائله السرية، مع نوابه البابويين، كانوا بلا فائدة بالنسبة له، وذلك بعد أن حقق سيف عدالتنا النصر على شروره المخادعة، بدأ بشكل أكثر علانية، بإلقاء المعيقات في

طريق تقـدمنا، ومنع بوضـوح مكشـوف سكان ونبـلاء تخوم أنكونا Ancona, ووادي سبـوليتـو Spoleto من مسـاعـدتنا، مع أن واجبهم كان مساعدة الامبراطورية وليس إلحاق الأذى بها، وأن يحاولوا القـدوم إلى لومبـارديا، أو أن يرسلوا عسـاكرهم إليهـا، كما أنه قـام على الرغـم من أمـرنا وتحريمنـا، ففـرض على سكان أنكونـا، والبلدات الساحليـة الأخرى، وذلك تحت تهديد عقـوبة الحرمان الكنسي وغـرامة عشرة آلاف مـارك، بأن يقدمـوا كل الأشيـاء اللازمة إلى البنادقـة الذين كانوا ثائرين ضد جلالتنا، وهذا كله مبرهن عليه بوضوح برسائله، وإلى بعض نبـلاء تخوم تـريفيسـو Treviso, الذي حـوّلهم إلى ضعفـاء ومتقلبين بولائهم إلينا، فبعث برسائل، وأمرهم بشكل مكشوف بالتخلي عن ولائهم، معطيـاً إليهم فهماً، أننا إذا لم نختر اسناد شـؤون لومبـارديا تماماً إليه، ووضعها تحت تصرفه، وسلطته، سوف يتفوه بشكل عاصف، بقرار حرمان كنسي ضدنا.

وبعد عقدنا مؤتمراً للتداول حـول هذه القضايا مع مقدمينا المحبوبين تمامـاً لدينا، ومع آخـرين كـانوا آنذاك يسـاعـدوننا أثناء حصـار بريشيـا Brescia, ورغبـة منا (كما ذكرنا مـن قبل) بعدم قيـام أية أسباب للخـلاف بيننا وبين الكنيسة، أرسلنا سفـراء خاصين من قبلنا إلى المقـام الرسـولي، وعرضنا من خـلالهم تقـديم ترضيات أيضـاً من أجل بعض الذنوب التـافهـة، التي كما قـال، قد اقترفـت في مملكة صقلية مـراغمـة لحقـوق ولامتيـاز الكنيسة، وطـالبنا مجدداً بوسـاطة الرسل أنفسهم، بأن يتم الاتحاد المرغـوب بيننا وبين الكنيسـة، وهـو الاتحاد الذي غـالبـاً مـا حـاولنا إقامتـه بوسـاطة عدد لايحصى من الرسـل، وقد طالبنا بتأكيـده بوساطة الرسل، وبوسـاطة ضمانات متبادلة، وقد قـال بأنه على استعداد للموافقة على هذا، وعهد بشكل الضمانات وصياغتها إلى حكمنا، ولكن عندما كان رسلنا ورسله، قد وثقوا تماماً بأن السلام والاتحاد قد تأسسا،

وكـانوا عـائـدين بنشـاط وبهجـة، إلينا، وصـاروا جميعـاً بعيـدين عن مشاهدته، عهـد بمنصب النيابة البـابوية في لومبارديا إلى غـريغوري دي مـونت لونغـو، الذي كان من قبل مـوضع ريبـة لدينا ولدى أصحـابنا، عندمـا تلقيناه بمثـابة مجرد سفير بابوي بسيط في تلك المقـاطعـة، وهو —أي البابا— قد وعد باستـدعائه من هناك، ولكي يضيف إلى شروره، أقـدم عندمـا اكتشف أننا كنا بلا حـرس، بحكم وثوقنا بوعـود الاتحاد، فأمـر باهـلاكنا، من قبل بعض مقـدمينا ورعـايـانا، وذلك بسبب بعض الذنوب، التـي قـال بأنها اقترفت مـن قبل مـوظفينـا ورسلنا في مملكة صقلية، ومدينة روما، ضده وضد الكنيسة.

وبعـــدمـــا أرسلنا إلى سيـــد هؤلاء المشرفين، بدلاً من أجـل حكم أشخاص دينيين آخرين، جواباً كـاملاً عن جميع هذه الأشياء، وحيث أننا كنا غير راضين بكل جواب من أجـوبتنا عن كل عنوان، أضفنا ملاحظة عـامة، بـأننا نترك رغباتنا والجواب في كل شيء إلى حكمـه، حسبما تأكـد وأجيز بوساطة الرسائل والبراهين العائدة إلى القساوسة، الذين هم جميعاً أهلاً للثقة، وعندما أرسلنا رسلنا حول جميع هذه النقاط، لحمل أجوبتنا، وللقيام بترضيـة كاملة، مدعمين بسلطاتنا، لوضع حد لإجـراءاته الماكرة ضـدنـا، قـام في يوم أحـد السعـف، وهو يوم ليس بالعـادة كليـاً اتخاذه لإجراءات العقوبات، وعلى الرغم من ممارسـات الكنيسة، قام بإجراءات حملة ضـدنا ولإلحاق الأذى بنا، وبما أننا عـددنا مثل هذا الإجـراء مليئاً بالطيش، وليس فيـه عـدالة، بعثنا برســائل إلى إخـــوانه، وإلى النواب البـابويين، نطالب بعقـد مجمع عام، نشترك فيـه للبرهنة، بوسـاطة حجج واضحة وضوح النور، على انحطاط وفسـاد القاضي، وعلى براءتنا، وبناء عليـه لن نقـول فقط كيف ازدريت براهين بـراءتنا، بل سنذكـر كيف أنه مراغمـة لشريعة الشعـوب، التي لاتسمح بإهانة السفراء أو الـرسل، قام هذا الرجل، الذي يقـدم نفســه على أنه «عبـد عبيـد الرب» فأمـر برسلنا

المتقدم ذكرهم، الذين هم أساقفتنا، بإلقائهم بالسجن بشكل مهين جداً.

ثم، ليكن موضع انتباهك، فيما إذا كانت هذه الإجراءات جديرة بباباً، وفيما إذا كانت أعمالاً موائمة وفيما إذا كان يليق بواعظ أن يجر العدالة نحو الدمار، وأن يدوس عليها بقدمه، وأن يتجاهل حكم جميع العيون المؤمنة، حكماً لصالح شعب ميلان غير المخلص، لكن ومع جميع هذه الأضرار وعلى الرغم من أنه كان يتحرك ضدنا بطيش، في ظل روحه الغاضبة، لم نتعرض للإثارة حتى نتسولى زيارته بالانتقام الامبراطوري، حتى أظهر نفسه، أنه كان مندفعاً نحو الأمام في سبيل تدميرنا دماراً كلياً وتجريدنا من ميراثنا الامبراطوري، ومثل هذا، وبالقدر نفسه، عندما كنا مقيمين في تخوم تريفيسو، من أجل تهدئة تلك المنطقة (التي وجدناها بسبب تمزقات قديمة مستمرة، ملطخة في كل مكان بالدم والقتل) قام بوساطة تقديم مبلغ كبير من المال، بإثارة مركيز دي ايستي Este وكونت أوف سينت بونيفاسيو Bonifacio (الذي قام بالتآمر ضد حياتنا بناء على اقتراح الحبر الأعظم) وكذلك مدينة تريفيسو، للثورة ضدنا وضد الامبراطورية، كما أنه قام بوسائط بولص ترافيرساري Traversari —الذي كان من قبل واحداً من أكثر رعايانا اخلاصاً لنا، ولكنه فسد فيما بعد بوساطة البابا— وعن طريق وكالة الكاردينال النائب البابوي، فانتزع منا مدينة رافينا، وأخذها من التخوم، ومن الامبراطورية، ومع أن أميراً وحبراً، قد تسلم منهم يمينهم بالولاء له وللكنيسة، أمر أيضاً بالطرق العامة التي تمر خلال التخوم والدوقية، التي استولى عليها وانتزعها من الامبراطورية، بأن تغلق ضد الرسل الذين كانوا قادمين إلينا، وجالبين الأشياء الضرورية إلينا وإلى جيشنا، وقام بعضهم بممارسة أعمال اللصوص وقطاع الطرق، فانتزعوا منهم جميع مقتنياتهم، وبإلقائهم بالسجن فيما بعد، وقد فعل هذه الأشياء كلها، إما ليجيعنا ويجيع جنودنا، من الايطاليين والألمان، أو

ليرغمنا على رفع حصارنا عن ميلان، وعن نهب منطقة رعايانا المتمردين، ولم يكتف بهذا كله، بل أعلن صراحة عن نفسه قائداً للحرب ومقدمها ضدنا وضد الامبراطورية، متخذاً قضية الميلانيين والخونة غير المخلصين، قضيته، وحوّل بشكل مكشوف شؤونهم نحو مايتناسب مع فوائده، وعلاوة على ذلك عيّن قائداً على الميلانيين أو بالحري على الجيش البابوي، رجله المتقدم الذكر، غريغوري دي مونت لونغو، والراهب ليو، الذي هو كاهن طائفة الفرنسيسكان، اللذان لم يكتفيا بتقلد السيوف، وإلباس نفسيهما السوابغ والدروع، واظهار نفسيهما، وكأنهما جنديان مزيفين، بل استمرا في ممارسة وظيفة منصبيهما في الوعظ، وفي تحليل الميلانيين وسواهم من ذنوبهم، أثناء قيامهما بتوجيه الاهانات إلى شخصنا، أو الذين هم أتباعنا، وفي هذا الوقت أيضاً، قام النائب البابوي، والراهب الفرنسيسكاني المتقدم الذكر، بتنصيب نفسيهما، حكاماً وسادة، ضدنا وضد الامبراطورية، وقد فهمنا من هذا بشكل واضح، بأن البابا ليس فقط صديقاً للكفار، الذين أعلن عنهم صوت العالم أنهم هراطقة، بل أيضاً المؤذي للامبراطورية، والهادف لحرماننا من ميراثنا، والرجل الذي اغتصب الحكم الدنيوي والسيادة على ميلان، وبناء عليه، لقد أثرنا إلى أبعد الحدود بهذه الخسائر الهائلة، وكنا مزعوجين جداً من هذا الأذى الكبير، ولذلك لم يعد بإمكاننا حبس أيدينا، بل حملنا السيف والترس بشكل معلن، في سبيل دعم قضيتنا وقضية الامبراطورية، ضد عدونا المعلن، مواجهين قوة دنيوية بقوة دنيوية، كما أنه لم يعد بإمكاننا الاستمرار بإبداء العاطفة البنوية نحوه، لأنه ليس فقط لم يبد نحونا العاطفة الأبوية، بل سعى لإيذائنا، ولحرماننا من ميراثنا، وهو متعطش بشكل وحشي يريد حياتنا ودمنا.

وبعدما أخضعنا بمساعدة الفرسان، ورماة القسي العقارة، جميع مقاطعة ليغوريا Liguria التي استسلمت لنا، وقمنا أيضاً أثناء

زحفنا خلال توسكانيا، بإصلاح الكثير من قوانين الامبراطورية، وبعثنا بولدنا المحبوب هـ .H الذي هو الملك اللامع لتوري Torrees وغالبوري، سفيراً للامبراطورية المقدسة في ايطاليا، ليعيد تخوم أنكونا إلى ولائه، وقمنا نحن أنفسنا برفع نسورنا المنتصرة، ووجهنا زحفنا شخصياً نحو دوقية سبوليتو، والمناطق الملاصقة للمدينة، وباستثناء مدن قليلة، أعدنا المنطقة كلها التي عبرناها أثناء تقدمنا، والممتدة حتى فيتربو، إلى طاعتها الصحيحة للامبراطورية، وقد استقبلنا من قبل سكان فيتربو، ومن قبل سكان المدن والمناطق التي من حولها، والقائمة في أحوازها بأعظم اخلاص، وبذلك عندما أرينا عدونا قوتنا، استولى عليه الرعب، وخاف كثيراً من اقترابنا منه، ولم يصدق أنه يستطيع أن يخلص نفسه بوساطة توبة متأخرة، ووقع في أعماق اليأس، وفقد الثقة بقوته، عندما كان الشعب الروماني يصرخ فرحاً أثناء اقترابنا من المدينة، وقد تمكن بوساطة دموع حقيقية غزيرة جداً بشكل غير اعتيادي بالسيطرة على بعض الصبيان والنساء العجائز، ومعهم عدد صغير من الجنود المرتزقة، فحمل الصليب ضدنا، مؤكداً كذباً بمواعظه لهم بأننا كنا نسعى للقيام باجتثاث الكنيسة الرومانية، وخرق حرمة الآثار المقدسة لكل من الرسولين المباركين جداً: بطرس، وبولص.

وبناء عليه، فإن جلالتك، سوف —بفضل تقديركم الصحيح— تتفهمون زحفنا وتعذروننا، فالذي دفعنا إليه هو القذف الخبيث لعدونا، والذي حثنا عليه العدل وعلى تبنيه من أجل شرفنا وشرف الامبراطور، وبالقدر نفسه شرف ومكانة ملوك وأمراء الأرض، وأنت فوق غيرك من الملوك الآخرين، ينبغي أن تقف إلى جانب قضيتنا بمحاباة أكبر، وأن تحافظ عليها بثقة أعظم، ولكونك شريكاً لنا في العبء كله والمكانة، قد جرى بثقة منا اختيارك —إذا كنت تتذكر، بشكل صحيح— لتكون حكماً في هذه القضايا، ولأنك أبعدت من قبل الحزب

المعـادي، وذلك حتى تتمكن من حماية بـراءتنا، وعـدالتنا الامبراطورية، بغيرة صافية، وبضمير أكثر اخلاصاً. صدر في فيتربو».

ذعر العالم وتكريس بعض الكنائس

ولدى تداول أخبار هذه الأشياء، وانتشارها ومعرفتها في جميع أرجاء العـالم تلقت سمعـة البـابا وسلطتـه صـدمـة، وتناقصت كثيراً، ونشأت فضيحـة كبيرة، وبدأ رجال حكماء ومقـدسـون يشعرون بذعـر كبير من أجل شرف الكنيسة، والبـابا، ورجال الدين كلهم، وصـاروا يخافون أن ينزل الرب في حالة غضبه العظيم بالناس جرحاً لايمكن شفائه.

وفي هذه الآونة، في التـاسع من آب، الـذي كـان يوم عيـد القـديس رومـانوس، جـرى تكريـس كنيسـة ديرية في أبنغـدون Abingdon, من قبل روبرت أسقف أوف سالسبري، أسقف ذلك المكان، وجرى في حوالي الوقت نفسه أيضاً، تكريس كنيسة في ويلز، وجرى في العام نفسه تكـريس كنـائس: ايفهـام، وغلوستر، وتـويكبري Tewkebury, وويكمبري Wicumbery, . وبيرشـور Pershore, وألدكستر، ومعهن جرى تكريس كنائس أخرى في جميع أنحاء انكلترا.

وفي حوالي أيام عيد القديس ميكائيل من العام نفسه، مات في البحر، روبرت دي ثوني، وكان رجلاً من أسرة نبيلـة، وفي حوالي الوقت نفسه، عندمـا كان أسقف لنكولن يتـولى تعـذيب كهنته، اشتكى واحـد منهم، أثناء وعظه بقداس إلى الناس، من الأسقف المذكور، وقال:

«ومع أننا يتوجـب علينا التمسك بسلامنا، فإن الحجـارة سوف ترفع صـوتها صـارخـة من أجلنـا»، وحـدث وقتهـا أن البناء الحجـري لبرج الكنيسـة الجديدة في لنكولن قد انهار، وسحق النـاس الذين كانوا تحتـه، وبسقوطه اهتزت الكنيسة كلها، وتضررت، ونظر إلى هذا، على أنه نذير سوء، ومع ذلك شرعوا بإعادة بنائه بشكل أفضل.

مذبحة التتار

وفي هذه الآونة، تعرض التتار، الذين هم عرق همجي من الناس، والذين هاجموا البلدان المسيحية، واقترفوا مذابح كبيرة، وكانوا يتجولون هنا وهناك في هنغاريا العظمى، للهزيمة، وأرغموا على التراجع، وقد قتل الشطر الأكبر من هؤلاء بحد السيف، وسقطوا أمام يد القدرة، لأنهم هوجموا من قبل خمسة ملوك مسيحيين ومسلمين اتحدوا لهذا الغرض، بفضل نعمة الروح القدس للرب، وبعد مقتل هؤلاء الهمج، أرسل ملكا داشيا Dacia, وهنغاريا بعض المسيحيين لسكنى البلدان، التي كانت قد تحولت إلى صحراء، من قبل التتار المذكورين، وذهب من داشيا وحدها أكثر من أربعين سفينة مليئة بهم.

وفي هذا العام نفسه، جرى الاستيلاء على مونت كازينو، وكان مكاناً لايرام، من قبل جيش الامبراطور، كما روينا بشكل أوفى من قبل.

خسارة ملك قشتالة الكبيرة

وجرى في العام نفسه، الاستيلاء على مدينة بلنسية، التي هي مدينة كبيرة في اسبانيا، من قبل ملك قشتالة، وبعد ذلك تابع الملك المذكور تقدمه ليلقي الحصار على اشبيلية، بحكم أنه حصل على ثقة كبيرة بنجاح مستقبلي من النصر الماضي، وبناء عليه ألقى الحصار على تلك المدينة، وهاجم سكانها بشدة، وفي أحد الأيام، بعدما رتب صفوف سراياه، وقام ببعض الحملات المميتة على سكان المدينة، خرج إليه مقدم المدينة، وكأنه يحمل نوايا مسالمة، ووعد بتسليم المدينة إلى الملك، على شرط توفير حياة السكان، لكن هذا كله عمل عن طريق الخيانة، ذلك أنه ألح على الملك وحثه على دخول المدينة شخصياً، لتسلم الولاء من الذين قرر سموه الملكي توفير حياتهم، ووضع الملك الثقة بكلامه وتنهداته، ودخل المدينة، لكنه ما ان أصبح داخل المدينة حتى أغلق

سكانها الأبواب، ورفعوا الجسور، وأحاطوا بالملك بسيوف مجردة، بالملك الذي كان محاطاً بعدد قليل فقط من الأتباع، حيث كان لايخشى شيئاً من هذا القبيل، وعندما رأى الملك نفسه وأصحابه أنفسهم مطوقين من قبل الأعداء، وعرفوا أن القضية باتت قضية حياة أو موت، أوقعوا قتلاً كثيراً، وبقدر مااستطاعوا، رداً على أعدائهم المتفاخرين، وبعد بعض الوقت ولأن أعداد أعدائهم تزايدت، لم يعودوا قادرين على متابعة تحمل ثقل القتال، وركزوا تفكيرهم فقط على كلمات النبي وصلواته: «يارب أنقذ الملك»، فقاموا بإبعاد ملكهم، وتمكنوا بشيء من الصعوبة من اخراجه من إحدى البوابات الخلفية، وبعد صعوبات جمة نجا هو وعاد إلى جيشه، الذي وجده ممزقاً إلى أبعد الحدود على أيدي الأعداء الذين هاجموه، وذلك وفق ماكان قد جرى إعداده من قبل، من قبل هؤلاء الخونة، وعلى كل حال، لدى رؤيتهم للملك، وهو سليم في بدنه، استردوا شجاعتهم، وهزموا أعداءهم، أما الذين كانوا محاصرين، وهم ملطخين بدماء أعدائهم، فقتلوا واتخذوا أسرى، وعاد الملك مع الذي بقي له من جيشه بشكل مضطرب إلى بلاده، وظل في الوقت نفسه أكثر استنفاراً وعزيمة في سبيل الصراع.

الملك يمنح نطاق الفروسية لبلدوين دي رايفر ويعطيه مرتبة الإيرلية على جزيرة وايت

سنة ١٢٤٠، وهي السنة الثالثة والعشرين من سني حكم الملك هنري الثالث، وفيها عقد بلاطه في عيد الميلاد في ويستمنستر، حيث منح في يوم الميلاد نطاق الفروسية إلى بلدوين دي رايفر Rivers وكان شاباً لامعاً، وأعطاه مرتبة الايرلية على جزيرة وايت Wight, وكان ذلك بحضور الايرل رتشارد وبمبادرة منه، حيث كان بلدوين المذكور تحت عهدته منذ سنوات طوال، وكان قد تزوج من أليس Alice ابنة زوجته ايزابيلا، التي كانت كونتسة غلوستر من قبل.

انتخاب هيوج دي بيتهل أسقفاً لكوفنتري

وتأكـد في هذه الآونة انتخـاب هيـوج دي بيتهل Pateshull, الأسقف المنتخب لكوفنتري، وقـد كـان في بعض السنين الماضية خـازناً للملك، وقـد سلك في عمله بشكل غير قابل للنقـد، وكان عندمـا اتخذ كـرسيـه وجلس في الخزينة الملكيـة، قـد ذهب إلى جميـع بارونات ذلك المكتب، بطريقتـه المعتـادة، ولدى قيـام الجميع كي يدفعـوا له الماركـات المعتادة للتشريف، كان قد قال لهم:

«أصـدقـائي الأعـزاء ورفـاقي، وداعـاً، إنني لن أتخلى عنكم قط، بل تخليت عن الخزينة فقط، فلقـد استـدعـاني الرب، مع أنني غير جـدير، لأتولى حكم الأرواح»، وقـد خـرقت كلماته تنهـداتهم، فقـام بتقبيلهم واحـداً واحـداً، حيث كانـوا في الوقت نفسه يبكـون بانفعال وعـاطفـة بسبب مغادرته.

موت إيزابيلا زوجة الإيرل رتشارد

وفي هذه الآونة حملـت السيـدة النبيلة ايزابيـلا كـونتسـة غلوستر وكـورنوول مـريضـة بشكل خطير لاصـابتهـا باليرقـان الأصفـر، وقـد وصلت إلى حافة الموت، ولدى اقتراب وقت تمددها (لأنها كانت حاملاً وقـريبة الولادة) أصبحت بلاشعـور، وبعـدما عـانت من ضغط شـديد جرى قص شعرها، وقـامت باعتراف كامل بذنوبها، وغادرت إلى الرب مع ولدها الذي ولدته، فهـو عندما وضح أنه لن يعيش، جـرى تعميده ومنحـه اسم نيقـولا، وكان الايرل رتشـارد قـد ذهب في ذلك الحين إلى كورنوول، وعندما سمع بهذه الحادثة، شرع يبكي وينتحب بمرارة، وقد حزن عليهـا حزناً عظيماً، وعاد بكل سرعـة، وتدبر دفن جسدها المحترم بكل تشريف في بيوليو Beaulieu, وهو بيت كان الملك جـون قد أسسه وبناه، ومنحه إلى طائفة رهبان السسترشيان.

سماع صراخ مدهش في كثير من أجزاء انكلترا

وسمع في هذه الآونة، صوتاً مخيفاً، وكأن جبلاً ضخماً قد رمي بعنف عظيم وسقط وفي وسط البحر، وقد سمع هذا في أماكن كثيرة، كل واحد منها بعيد عن الآخر، مما أرعب كثيراً الحشود التي سمعته.

شكاوى الأساقفة حول الظلم الذي لحق بالكنيسة

في ثمانية عيد الغطاس، اجتمع في لندن رؤساء الأساقفة، والأساقفة مع عدد كبير آخر من النبلاء، وكان النائب البابوي أيضاً حاضراً، وقد قدموا للملك شكاوى جادة عرضوها في بلاطه، حول المضار والمظالم، والأذى اليومي الذي ينزل بالكنيسة ويمارس ضدها، بوساطة آراء الملك غير العادلة، وأن ذلك جاء بمثابة معارضة طائشة لصكوك امتيازاته ويمينه، وأنه لم يسمح للكنائس المحرومة من رعاتها باستردادهم، وباستعادة أنفاسها، وسبب ذلك هو استخراج مقتنيات الكنائس منهم، حيث أنه احتفظ بهم بين يديه لعدة سنوات، مستخدماً حججاً متنوعة، وهو لم يسمح بإجراء انتخابات قانونية، وقد أعلنوا جميعاً أنهم مندهشين كثيراً تجاه هذه الأضرار، التي تتضاعف يومياً، وقد نزل ذلك بهم عندما —الملك— أقسم مراراً على المحافظة على امتيازات الكنائس من دون خرق، وقد فعل ذلك، أثناء السماع، عندما كان شخصياً يحمل شمعداناً، فوقتها تفوه جميع الأساقفة بقرار الحرمان الكنسي ضد الذي يخرق الامتيازات اللاهوتية، وفي أثناء إكمال إلقاء ذلك القرار، قام الملك مثل الآخرين فأدار الشمعدان نحو الأسفل وأطفأه، وكان هناك ثلاثين عنواناً في شكاوى الأساقفة ضد الملك، وذهبوا بعيداً إلى حد إعلان القرار المرعب والتفوه به ضد جميع مستشاري الملك، الذين كانوا يسعون إلى تحويل عقل الملك وإدارته نحو التجاوزات المتقدمة الذكر.

الحزن المضاعف لـ غ. G الإيرل مارشال

وجّه الملك في هذه الآونة اتهاماً إجرامياً ضد الايرل مارشال، حول بعض الأمور الشاذة التي أعتقد أنه من الأفضل السكوت عنها، وعدم ذكرها، وبسبب هذه التهم أثير حزن المارشال إلى درجة مضاعفة، لأنه من الجانب الأول حزن لإعادة ذكرى وفاة أخته اللامعة، أي إيزابيلا المتقدم ذكرها، والآن بسبب إحياء اضطهاد الملك ضده، وجرى على كل حال تعيين يوم يقوم فيه بالإجابة على بنود الاتهام ضده، وكان ذلك في ثمانيـة الفصح، التي تدعى عادة بشكل عام باسم Pasucha. Clausum

مذنب

وأثناء هذه الأيام، وبشكل محدد، خلال شهر شباط كله، ظهر نوع من النجوم كان مظلماً، في المساء، في الجزء الغربي من السماء، وكان يرسل أشعة نحو الشرق، وقد أعلن كثيرون بدون تردد أنه مذنب.

الامبراطور ينتقد الملك لسماحه بنقل مال من أراضيه من أجل إلحاق الأذى بهما معاً

وقبل انتهاء أعمال المؤتمرالمتقدم الذكر، قدم رسولان من عند الامبراطور إلى الملك، أرسل الامبراطور بوساطتهما رسالة إلى الملك مكتوبة، بأنه مندهش جداً لأنه سمح هكذا بشكل مهين للامبراطور للتعرض بصورة غير معقولة لعقوبة الحرمان الكنسي، في بلد هو أكثر البلدان تمسكاً بالمسيحية، وأن ذلك تمّ من دون أية معارضة من جانبه، ودون أن يتذكر المعاهدة والتحالف الذي دخلا به أثناء زواج ايزابيلا، التي هي الآن امبراطورة، وبذلك سمح لوضعه ولاسمه الجيد، كأمير أعلى، بالتعرض للذم، وبناء عليه طالب بطرد الذي ساعد على هذا العمل، أي النائب البابوي، الذي استدعاه الملك بشكل غير حكيم إلى

ممكلتـه، بطرده من المناطق الانكليـزية لأنه أعلن عنه عـدواً له وكـذلك لمملكة انكلترا، ذلك أنه جـرف بشكل وقح جميع الأمـوال التي وصل إليها ومن كل واحد وصل إليه، وذلك من أجل إشباع نهم البابا، ولكي يلحق الأذى بالمقام الامبراطوري.

وإلى هذين الرسولين أجاب الملك، بأن واجبه كان إطاعة أوامر البابا والكنيسـة، وأن يبادر إلى ذلك ويفعله، أكثر من طاعة أي أمير آخـر في العـالم، وبـذلك يستطيع أن يبرهن بأنه تابـع اقطاعي للبـابا يـؤدي إليـه الجزية بموجب الامتيـاز، وهكذا بقيامه بهذا الاعتـذار، قد جلب الاتهام ضـد نفســه، وأمل بأن يحصل على رضـا الامبراطور، فكتـب إلى البـابا يرجوه بحـرارة، بسبب عواطف الامبراطور نحـوه وقرابتـه، أن يتعامل معه باللطف، وعنـدما وصل هذا إلى البابا، انفجـر غاضبـاً بعنف وتفوه بكلمات الملامة التالية:

«في الحقيقـة لايمكـن العثـور على رجل صـادق واحـد في انكلترا»، وكـان رجـلاً واقفـاً هناك، فعقب على كـلامـه وكأنـه يدافع عن الملك، حيث قال:

«أيها الأب المقــدس، حـول هذا لاتعجـب، إذا لم يضع ملك انكلترا الثقـة في رعـاياه الانكليـز، بل وضعهـا في الأجـانب، لأنه لايوجـد بين الانكليز واحد أهل للثقة»، ويقال بأن الرجل الذي تفوه بهذه الكلمات، هو سيمـون النورماني، واستثير المعلـم روبرت دي سمركـوت Smer Cote وغضب غضبـاً عظيماً بسبب الكلمات التي جـرى تبـادلها من على الطرفين، لكنه —بحكم كـونه رجـلاً حكيماً— ضبط نفسه، خشيـة أن يتـولى النقد، لأنه كـان رجلاً انكليـزياً من حيث المولد، لكنه مـرتبط باخــلاص إلى البـابا، الذي عمـل منه كـاردينالاً، على الـرغم من جميع الاعتراضات عليه.

النائب البابوي يرفض العودة إلى وطنه على الرغم من انذاره بفعل ذلك

وصار الملك، يتوقع، نتيجة لما حصل، وقوع شيء في المستقبل له، لأنه اتخذ صديقاً مقرباً إليه من مثل هذا العدو السري للمملكة، أي النائب البابوي، لذلك نصحه بإخلاص، بعدم إثارة غضب الجلالة الامبراطورية بالاقامة مدة أطول في المملكة، بل عليه عبور الألب في أقصى سرعة ممكنة وفي أقرب وقت، والقيام بالتشاور مع البابا، وعلى هذا ردّ عليه النائب البابوي قائلاً:

«إنك أنت الذي دعوتني من بلاطي، وأنا أطالبك بأمان، حتى أتمكن من العودة سالماً»، أما بالنسبة لرسولي الامبراطور، اللذين أشرنا إليهما من قبل، فإنهما عندما علما بجميع هذه الأشياء، عادا إلى مولاهما لإخباره، بجميع مارأياه وماسمعاه، لأنهما كانا أشبه بجاسوسين عاقلين.

النائب البابوي يظهر نفسه جامعاً للمال لايتعب

ولم ينس النائب البابوي، في الوقت نفسه، عمله الخاص، بالاستيلاء على الأموال وعلى الموارد لصالحه الشخصي، مرغماً الناس على أن يدفعوا ضرائبه الاضطهادية، وفي حوالي أيام عيد بشارة القديسة مريم، أرسل أوامر دقيقة إلى الأساقفة، ورؤساء الشمامسة، كان نصها هو التالي:

رسالة النائب البابوي

«من أوتو، الذي هو برحمة الرب، إلخ، إلخ، إلى الرجل المستقيم، كذا وكذا أسقف، أو رئيس شمامسة، تحيات:

تقديراً لحكم الضرورات، ولرسالة أرسلت من الحبر الأعظم، نحن سنطيل إقامتنا هنا، وبما أننا لانستطيع القتال على نفقتنا الذاتية، نحن نأمركم ونطلب منكم، بموجب سلطات المنصب الذي نشغله،

وباسمنا، أن تتـدبـروا جمع أمـوال الوكـالات التي هي حـق لنا في أسقفيتك، أو رئـاسـة أسقفيتك، وأن ترسل إلينـا بأسرع وقت ممكن، وضبط جميع المعترضين بوسـاطة الروادع الكنسية، شريطة أن لاتتجـاوز كل وكـالة، في أي حـال مـن الأحـوال، مبلغ أربعـة مـاركـات، وإذا لم تتمكن كنيسة واحـدة من تقديم مبلغ وكـالة، يتوجب اتحاد كنيستين مع بعضهما بوكالة واحدة.

صدر في لندن، في هذا اليوم الخامس عشر من شباط، في العام الثالث عشر من حبرية صاحب القداسة، البابا غريغوري».

في سبيل استخراج المال الرومان يعفون الصليبيين من عهدهم

تلقى في هذه الآونة، النائب البـابوي أوامر من البابـا، بموجب خطة مـاكـرة أخـرى، لاستخراج المال من أتبـاع الكنيسـة، وهذا مـاتوضحـه محتويات الرسالة التالية، إلى القارىء الحريص:

«إلى الأسقف كـذا وكـذا، وإلى جميع أولاده المحبـوبين، وإلى رؤسـاء الشمامسة في أسقفيته، تحيات:

لقـد تلقينا رسـالة من صـاحب السمـو النائب البـابوي، مقصـدها ومحتواها هو مـايلي: من أوتو، إلخ: لقد عـرفنا بأن بعض الصليبيين من مملكة انكلترا، الذيـن هم غير لائقين للقتـال، قـد سـاروا إلى المقـام الرسولي، حتى يجري هناك تحليلهم من عهدهـم للصليب، وبما أننا تلقينا مـؤخـراً رسـالـة من البـابا، بأنه يتـوجب علينـا ليس فقط تحليل هؤلاء الأشخاص، بل أن نرغمهـم على انقاذ عهودهـم، ونحن نرغـب أن نوفر عليهم الاضطراب والنفقـات، بمـوجب فضيلـة المنصب الذي نشغله، ولذلك نطلب منكم، ونأمركم أيها الأب المقـدس، بأن تتولوا الإعـلان عـن السلطة التي منحـت إلينا من قبل الحبر الأعظم، من دون تأثير في أسقفيتكم، حتى يتمكـن الصليبيـون المتقـدم ذكـرهـم من نيـل

الفرصــة المتوفرة، وأن يقـدموا إلينا لتسلم المنفعة في هذه القضيـة، وفقاً للصيغــة التــي أرسلـت إليــنا. صــدر في لندن في الخامس عشر من شباط، في العــام الثالـث عـشر مـن حبريــة صاحـب القداســة البابـا غريغوري».

الإيرل سيمون يحضر نفسه من أجل رحلته إلى القدس

في الأول من نيســان لهذا العـام، وصل سيمون دي مـونت فـورت، إيرل ليستر، واستقبل بتشريف كبير من قبل الملـك، ومن قبل بلاطه، ثم إنه ذهب نحــــو ممتلكاته، وبـاع غــاباتـه وأراضيــه، وجمع المال لشراء الضروريات من أجل رحلتـه، لأنه كان على وشك المغـادرة إلى القدس، في العبور المقبل، أما زوجته التي كانـت حاملاً، فقد بقيت في القارة، ثم باع الايرل الغـابات الفخمـة العـائـدة لليستر إلى الاسبتـارية، وإلى كهنة ذلك المكان، وتسلم حوالي الألف باوند من أجلهم.

خلاف بين سكان أوكسفورد والباحثين فيها

وفي تلك الآونة نفسها، نشب خلاف جـاد بين الباحثين في أكسفورد وبين سكان المدينة، وبناء عليه، غادر عدد كبير من الباحثين تلك المدينة وذهبوا إلى كليات كمبردج، حيث حصلـوا على منحة بعض الامتيازات ضد البورجوازية، وحصلوا على صك الملك من أجلهم.

منع بعض القرصان من الدخول إلى انكلترا

وفي هذه الآونة أيضــاً، كـان الملك متيقظـاً، فقـد فتح عينيــه، ومنع القـرصان من الـدخول ثانيـة إلى ممتلكاته، وبشكل خـاص شعب السين Sens, الذين لوثوا بلاده الجميلة، بوساطة مصـادراتهم غير العادلة، ورباهم السري، ولقـد غضبوا وحـزنوا لمجرد التفكير بفقـدان مثل هذه البلاد المغذية الجيدة فقاموا عن طريق تقديم الأموال، الأمر الذي يرضي بالعــادة الرجـال الأشرار وغير العــادلين، فبقيــوا هناك بشكل سري،

وبأعداد كبيرة.

وفاة للويلين ونشوب خلاف بين أولاده

في الحادي عشر من نيسان من هذا العام، الذي وافق عيد القديس غوثلاك Guthlac, غادر الجسد للويلين، أمير شمالي ويلز، وكان ذلك بعدما أخضع غريفين Griffin, الذي رفع كعبة وشن الحرب ضده، وبعدما نشر السلام في المناطق الويلزية العائدة له، وإثر وفاته، قام ابنه داوود الذي إليه عيّن والده امتلاك ويلز، ولتكون ميراثه، وذلك مع موافقة أخيه الأسن غريفين، قام بنوايا خيانية، فاستدعى أخاه —غريفين المذكور— للاجتماع به، وبناء عليه، قدم بشكل مسالم، تحت جوار أسقف بنغور Bangor وبعض النبلاء الآخرين، ولكن داوود على الرغم من علاقة الأخوة، ومن الثقة الحسنة، أمر به فاعتقل، وأودعه السجن على الرغم من اعتراضات الذين منحوه الجوار.

الملك يتدبر تدشين ولاية ابنه ادوارد

وفي هذه الآونة جعل الملك سكان لندن، والمتولين للموانىء الخمسة، مع عدد كبير آخر، يقسمون يمين الولاء إلى ابنه الأسن ادوارد، وكانت في هذه الآونة أيضاً قد راجت تقارير أفادت بأن الداشيين Dacians يعدّون العدة لغزو انكلترا، لكن هذه الأخبار صدرت عن شيء لم يتجاوز أنهم كانوا، يستعدون في سفن محملة بالناس من كلا الجنسين، لسكنى المنطقة التي تعرضت للدمار على أيدي التتار، وزراعتها، وإعادتها للاستخدام من قبل المخلوقات البشرية.

تحليل بعض الصليبيين من عهودهم بدفع مبلغ من المال

بدأ الآن رهبان ووعاظ الفرنسيسكان، ورجال دين آخرون، ولاسيما اللاهوتيون، بتحليل الصليبيين من عهودهم، مقابل تسلم مبلغ من المال

من كل واحد منهم، بدا أنه كان معادلاً لما كان سينفقه الصليبي لشراء الحاجات الضرورية لرحلته، ونتج عن ذلك قيام فضائح كبيرة وانشقاقات كثيرة بين الناس، لأنه بدا أنه من غير المعقول، حتى بالنسبة لأبسط الناس عقولاً، المصائد المتنوعة التي سعى البلاط الروماني بوساطتها لتجريد شعب الرب الساذج من حاجاته الأساسية، حيث كان يسعى وراء شيء واحد فقط هو الذهب والفضة.

البابا يستخرج جزء الخمس من ممتلكات المنتفعين الأجانب في انكلترا

واقترح البابا الآن، وقرر استخراج جزء الخمس من ممتلكات وموارد منافع الأجانب ورجال الدين في انكلترا، في سبيل اغضاب الامبراطور، الذي كان محاطاً بالمخاطر من جميع الجهات من قبل أعدائه، الذين دعمهم البابا بالمال الذي جمعه عن طريق الاستخراج في انكلترا، كما أنه تابع العمل في تحليلهم جميعاً من التابعية التي كانوا مربوطين بها بالولاء للامبراطور المذكور، وبذلك ثبتت هذه العداوة المرعبة، وازدادت يوماً إثر يوم، وأيضاً قال المستشارون المخلصون للملك:

«مولانا الأكثر شهرة وسيدنا، لماذا سمحت لانكلترا لأن تكون مسلوبة ومنهوبة من قبل هؤلاء الذين قدموا إلى هنا، وجعلتها مثل كرم بلا سور، نهباً لكل عابر، وأن يتعرض للاجتثاث من قبل الأرانب البرية، مع أنك تمتلك امتيازاً فعالاً بمنع مثل هذه الاستخراجات في هذه المملكة، والذي هو غير جدير بذلك الامتياز، هو الذي يسيء استخدامه، بعدما منح إليه»، وعلى هؤلاء الذين نصحوه هكذا ردّ الملك قائلاً: «إنني لاأرغب كما أنني لاأتجرأ على معارضة البابا في أي شيء»، وبذلك استولى على الناس يأس محزن جداً.

قسوة الأنواء

في اليـــوم الذي أعقـب عيــد القـــديسين بيربتـــوا Perpetua وفيليسيتاس Felicitas (٧- آذار) هبت عواصف من الـريح قوية إلى أبعد الحدود وعنيفـة، أحدثت الاضطـراب في الأجواء كلهـا، وكان من بين نوادر عجـائب الوقـائع، أنها حملت حجـرة، من الصعب على رجل قوي رفعها من على الأرض، حملتهـا من رأس الكنيسة إلى مسافة بعيدة جداً عنها.

النائب البابوي يسعى إلى إرغام الأساقفة على دفع جزء الخمس من مقتنياتهم

اجتمع في هذا العـام رؤساء الأسـاقفـة، والأساقفـة، ورؤساء رعـاة الديرة مع بعض نبلاء المملكة، في ردنغ، لسماع رسـالة من البابا، أعلنها النائب البابوي، وعندما اجتمعوا كلهم هناك، قام النائب البابوي بعمل قـداس طويل، حـاول فيه استمالة قلـوب الذين استمعوا إليـه، ثم قـام أخيراً فبين لهم جميع أنواع المصـاعب التـي يعـاني منهـا البـابا، في سبيل الحصول على العـدالة للكنيسة، فطالبهم بإلحاح بدفع جـزء الخمس من جميع مقتنياتهم، فبـذلك يستطيع أن يصدّ الأذى الصـادر عن مثل ذلك العدو القوي، وعلى هذا ردّ الأساقفة —بعـد عقدهم مؤتمراً للتشاور— بأنهم لن يستطيعـــوا مطلقـاً تحمل مثل هذا العبء الثقيـل جـداً، الذي يتعلق بالكنيســـة كلهـا أيضـاً، من دون حـوار دقيـق، وتقليب لأوجـه الأمور طويل، وبناء عليه جـرى تحديد يوم لهم، في تاريخ بعيد، للحوار حول هذه الرسالة الهامة.

قيام الإيرل رتشارد بوداع الأساقفة الذين اجتمعوا في ردنغ

وقام الايرل رتشـارد، والفرسـان الصليبيون الآخرون، الـذين كانوا حضوراً في هذا المكان، فقالوا وداعاً لجميع الذين اجتمعوا هناك، لأنهم

كانوا جاهزين للشروع برحلتهم إلى القدس، وعندما رأى الأساقفة هذا، انفجروا كلهم يبكون، وقالوا للايرل رتشارد:

«لماذا أيها الايرل، ياأملنا الوحيد تتخلى عنا؟ أو بسبب من أنت تهجرنا؟ سوف نكون معزولين من دونك، ففي أثناء غيابك سوف يغزونا الأجانب الطامعين»، ثم إن الايرل، ردّ وهو يبكي على واحد منهم، وهو رئيس أساقفة كانتربري ممثلاً للجميع قائلاً:

«أبانا ومولانا، تريد الصدق، إنني حتى وإن لم أحمل الصليب سوف أذهب، وأغيب نفسي، حتى لاأرى الشرور التي لحقت بشعبنا، ولا الدمار الذي ألمّ بالمملكة، الذي من المعتقد أنني قادر على منعه، مع أنني في الحقيقة، أنا غير قادر على فعل ذلك».

تكريس الهيكل الجديد

وجرى في هذه الآونة تكريس كنيسة الهيكل الجديد في لندن، وكانت مبنى مشيداً بطريقة رشيقة، وجرى التكريس بحضور الملك مع كثير من نبلاء المملكة، وفي اليوم نفسه، الذي كان يوم الصعود، وبعد الفراغ من الأعمال الوقورة للتكريس، جرت حفلة ووليمة كبيرة على نفقة الاسبتارية.

إعدام عدد من قطاع الطرق

وفي اليوم الذي أعقب هذا الاحتفال المهيب، جلبت رؤوس عشرة من قطاع الطرق، كانوا قد اعدموا في المناطق الشمالية من انكلترا، إلى لندن، وكان واحد منهم اسمه جون أوف أكتون Acton, قد قيل بأنه كان مقدمهم وقائدهم.

وفاة إيرل وارني

ووقع في هذا العام وليم ايرل وارني Warrenne مريضاً في

لندن، وقد مات في السابع والعشرين من أيار.

جواب المحكمة حول الميراث الذي ينتقل إلى الأخوات

أرسل في هذا العام موريس فتزجيرالد، المسؤول عن العدالة في ايرلندا، أربعة فرسان إلى بلاط الملك وطالب بمعلومات حول القضية المذكورة أعلاه [فتلقى الجواب التالي]:

«من هـ . H بفضل نعمة الرب، إلخ، إلى المسؤول عن العدالة في ايرلندا، تحيات:

قدم إلينا مؤخراً بعض الفرسان من مقاطعة ايرلندا، وأوضحوا لنا بأن رجال عدالتنا، الذين يتجولون في تلك المناطق، هم غير متأكدين في القضية المتعلقة بالميراث الذي ينتقل إلى الأخوات في مملكتنا في ايرلندا، حيث توجب على الأخوات الأصغر أن يستحوذن على ممتلكاتهن من الأخت الأسن، وأن يقدمن الولاء من أجل حصصهن، أو من سيدهن الرئيسي، وأن يقدمن الولاء له، وبما أن الفرسان المتقدم ذكرهم قد سألوا عن العادة الجارية في مملكتنا في انكلترا في القضايا المماثلة، رأينا —بناء على طلبهم— أن نخبركم، بأن القانون في مملكتنا هو كما يلي:

إنه إذا ما كان هناك مستحوذ منا بشكل رئيس وكانت له بنات ورثة، سوف تكون إجراءاتنا عند وفاة الأب، هو أننا سوف نتسلم بشكل دائم الولاء من جميع البنات، وهن في هذه الحالة إفرادياً وجماعياً يستحوذن منا بشكل رئيسي، وإذا ما كن تحت السن، علينا تقع المسؤولية عنهن وكذلك تزويجهن، وإذا ما كن مستحوذات من أي شخص غيرنا، وكانت الأخوات تحت السن، فإن مولاهن يمتلك الوصاية وتزويج كل واحدة منهن، وسوف تقدم الأخت الكبرى فقط الولاء لمولاهن عنهن جميعاً وبالنسبة للأخريات، فعندما يبلغن السن، فسوف يقدمن خدماتهن إلى السادة أصحاب الاقطاع، بوساطة يد أختهن الكبرى، وسوف لهذا

السبب لن تفـرض الابنة الكبرى الولاء، أو الوصـاية، أو أي نوع من أنواع الطاعة الأخرى، على الأخـوات الأصغر، لأن جميع الأخوات هن ورثة متحديـن لملكية واحدة، وإنه إذا مـاسمح للأخوات الكبـار بتسلم الولاء، أو الوصاية من الأخـوات الأخريات، فإن الملكية نفسهـا سوف تتقسم، وبناء عليـه فإن الأخت الكبرى سـوف تكون فـوراً وبالوقت نفسـه السيـدة والوارثة لإقطاعيـة واحـدة، أو على الأقل الوارثة لحصتنا وسيـدة لأخـواتها، وهذا أمـر في هذه الحالـة لايمكن أن يكون، لأن الأخـت الكبرى لايمكن أن تطـالب بـأي شيء أكثـر من الأخـت الصغرى، ما لم تكن الدار الكبرى تحت عنوان الأسن، وإلى جانب هذا، إذا كـانت الأخت الكبرى ستكون الوارثة لجميع الأخوات الأخـريات، إذا ما متن مـن دون ورثة خاصين بهن، وإذا كانت تمتلك الـوصاية على أخـواتها، أو على أولادهن، فإن ذلك سـوف يكون مثـل إعطاء حمل ليجـري افتراسـه من قبل الذئب، وبناء عليـه إننا نأمـرك في هذه الحالة، بأن تأمر بمراعاة هذه العادة المتقدم ذكرها كما نراعيها نحن في مملكتنا في انكلترا، وأن يجري الإعلان عنهـا، وتطبيقها بدقـة، كما ذكرنـا أعلاه، في مملكتنا في ايرلندا. شهدت بنفسي في نورويك، في هذا اليوم الثالث عشر من آب، في السنة الرابعة والعشرين من حكمنا».

إلغاء إدعاءات رئيس الأساقفة من قبل الملك

كان في هـذه الآونة، إدموند رئيس أسـاقفة كـانتربري آملاً، ومتـوقعاً بثقـة، أن ينال المسـاعـدة نفسها أو مـايماثلهـا، كما نالها الشهيـد المبـارك تومـاس —الذي هو سلف رئيس الأسـاقفـة المذكـور— من البـابا الاسكندر، صـاحب الذكرى الطيبـة، فقد بـدأ برسائل حـزينة، وبرسل خـاصين، بعمل شكـاوى محزنة، بما كـان واثقـاً مـن التمكن من تحويل القلب الحجـري للبابا إلى قلب حي، وقـد رجـاه وحثه على إلغـاء تلك العادة المرفـوضة والمدمـرة للكنيسة، التي بوسـاطتها يقـوم الملوك، لابل

الطغـاة، ومن خلال أعـداء الكنيسـة والمتمرديـن ضدها، بعـدم السماح للكنائس الكاتدرائية والديرية، المحـرومة من رعـاتها، بالتنفس، ولا أن تزود أنفسهـا بشكل حـر وقـانوني برعـاة مـوائمين، وأن لايقـوم الملك، بإتباعـه لرغباته بدلاً من إتباع عقله، بإعـاقة انتخابهن، بوساطة وكـلائه الماكرين الذيـن احتفظ بهم من أجل هذه الغاية، وأنه إذا مـا كانت هناك أية كنيسة بين الكنائـس قد حرمت من راعيهـا وبقيت شاغـرة لمدة ستة أشهـر، يتوجب تزويدها براعي صـاحب كفـاءة من قبل رئيس أساقفـة المكان، ولكن عندما كـان إدموند المذكور كبير التـوقع والثقة بأن يصبح —من خلال الوعود المخادعة للبـلاط الروماني— توماساً جديداً، ومن خلال جهـوده المجيدة، سـوف يجري تدمير العادات الشريرة في انكلترا، وأن البـابا غــريغـوري سـوف يتقمص شخصيـة الاسكنـدر، بالنسبـة لتوماس المبـارك، الذي كان رفيقه بالمنفى ومساعـده، فلقد تبين أن البابا غـريغوري المذكـور هو رجل جبـان، فبناء على رسالة وصلتـه من ملك انكلترا، أعلن فيهـا أن هذا كان معـارضاً لكرامتـه الملكية، وقـام بنقض جميع المقـاصـد التقوية لذلك الـرجل وألغاها، وهو المقصـد الذي كـان رئيس الأساقفة المذكور، قد حصل من أجله على رسائل من البابا مقابل انفـاق كبير من المال، ولدى اكتشاف الملك لهذا، أصبـح طاغية أكثـر مما هو معتاد، ففرض انتخاب بونيفيس Boniface, وذلك على الرغم من امتيـازات كنيســة وستمنستر، وأعـاق الانتخـابـات الأخـرى التي عملت بشكل محق وبتقوى مهيبة.

رئيس الأساقفة يمنح جزء الخمس من جميع الموارد إلى البابا

وعندمــا كـان في هـذه الآونة عقل رئيس أسـاقفة كـانتربري، الذي هو رئيس جميع الأسـاقفة، في حـالـة شـك وأمــل، بالنسبـة للحصـول على غـاياتـه، أي الحصـول على النصر في قضيتـه ضـد الـرهبـان، وافق —وإن كـان بغير رضـاه — على طلـب منح جـزء الخمـــس مـــن

مــوارده، وقام بمبـادرة طيبـة، فـدفع إلى وكلاء الجبـاية البـابوية، مبلغ ثـمانمائــة مـارك، قبــل استخــراجهـــم منه بالقـــوة، وعنــدما رأى الأسـاقفـة الآخـرون لانكلترا هذا، كـانوا مرغمين على تحمل خسـارة مماثلة.

غاسكوني في خطر

وفي هذه الآونة، بعـدمـا جرى طرد كـافل المملكة في غـاسكوني من تلك المقـاطعـة، قـدم وهو يبكي ويشتكي إلى الملك، مخبراً إياه أنه مـا لم يتخذ إجراءات فعالة سريعة، في سبيل الحفاظ على تلك المنطقة، وإبقائها بين يديه، إنه بـلا شك سـوف يخسر جميع ممتلكـاته هناك في وقت قصير جداً.

الامبراطور يستولي أثناء زحفه إلى المدينة على عدة مدن أخرى

وكـان الامبراطور قد عمل في هذه الآونة هدنة، أو على الأقل نوعـاً من أنواع إيقـاف القتـال، مـع الميـلانيين والبـولونيين، فعـاث فسـاداً في المقـاطعـات الواقعـة في أحـواز المدينة، وكـان محاطاً بجيش كبير، وأنزل المدن والبلدات إلى طاعته، وأخذ السكـان مثلاً لهم بسكان فيتربو، وفقد البابا آنذاك كل أمل ووقع في متاهة اليأس، وكثير من الكرادلة تخلوا عنه وهجروه، وفي الحقيقة لم يبق بينهم ولا واحد تابع اتباعه، باستثناء المعلم روبرت سمـركـوت Summercote, الذي لم يكن بإمكانه التخلي عنه خجـلاً، لأنه هو الذي صنعـه كـاردينالاً، وجـاء تخلي الكرادلة عنه، لأنه كـان قـد تطرف كثيراً بعنفـه لوحـده، بدلاً من ضبط نفسـه بالعقل والحكمة.

الامبراطور يوجّه اللوم إلى ملك إنكلترا لأنه سمح بنشر القرار ضده وبجمع الأموال في أراضيه

وفي هذه الآونة نفسها، أرسل الامبراطور رسالة إلى ملك انكلترا بأنه

مندهش إلى أبعد الحدود، لأنه قام هكـذا بشكل غير حكيم فوزع أمواله بين الأجـانب، لإلحاق الأذى به، وهو الامبراطـور، وكتب إليـه رسـالة جاء محتواها كما يلي:

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى الـلامع ملك انكلترا، تمنيات الصحة وعواطف صادقة:

بما أن التحـالف والزواج يعقد التحـالفـات أحياناً بين ملوك وأمـراء العـالم، فإن العـواطف، أو الاتحاد، بناء عليـه، ينبغي أن يكون قـائماً فيما بينهم، وذلك بنسبــة تصــاعــدية، بما أنهم أعظم من الآخــرين، وكلما ازدادت علواً المكانة التي وضعـوا فيهــا، كلما توجب عليهم أن يضربوا مثلاً بالفضـائل للذين هم دونهم، وعندما يشـاهدون إجماعهم وإرادتهم الطيبة، فإن السـلام والوئام يزداد قـوة بين الناس، وبذلك يزداد الحفاظ على مكانتهم المحترمـة وتزداد حقـوق ممـالكهم قـوة من أجل المستقبل، ونحن نعتقد حتى الآن، أنه من خلال قرابتنا سوف تقوم المنافع من هذا النوع لكل منا ولكم، (ولاسيما وأن الأطفـــال، وهم الروابط المقـدسـة، سـوف يرعون ويجري بهم تثبيت رباط قـرابتنا) غير أننا وجـدنا العكس تمامـاً لنوايانا، ولذلك إننـا نكتب إليكم مكرهين، ونحن آسفين، عـلاوة على ذلك لقد وجدنا بأنكم عبرتم بعين الرضا واجتزتم بالأذى الواضح الذي أنزل بنا من قبـل الحبر الرومـاني، والذي اعتقـدناه أنـه غير مـؤيد تمامـاً، بالنسبـة لنا نحن الذين فـوق جميع أمـراء الأرض الآخـرين، هو أنكم سمحتم لقـراره غير العادل والكريـه ضدنا، أن يجري بمعـرفتكم، وعلى مسمع منكـم، نشره في جميع أرجـــاء مملكتكم، ممـا سبب ضرراً كبيراً، وإهانة، وحطـاً من شأن الامبراطورية، والآن قـــد علمنا مـــاهو حقيقة مؤكدة، أنك في طاعتك المفتونة، لهذا العدو المميت لنا، والمتشوق لتـدمير شرفنا، والمتعطش لدمنا، قـد سمحت بمـوارد المال، من مكوس

وتبرعــات، أن يزود بها، في سبيـل القتــال ضــدنا، وذلك مـن كنائس مملكتك، ومن أسلافـك (الذين تجبرنا مصاهرتنا على عـدّهم أسلاف لنا أيضــاً) التي أصبحت غنيــة من عطايـاهم التقــوية، وبناء عليــه، دع حكمتك الملكية، عندما لاتكون منحرفة بـوساطة النصائح الماكرة، تقدر فيما إذا كـان لائقاً بكم تعـريض ابن ختن لكم، وأخ لكم، أو على الأقل حليف، أو في جميـع الأحــوال ملـك أو أمير، ضــــده لم تعلن الحرب، تعريضه للهجوم، والحرب ضده بوساطة المساعدة بمالك، علماً بأن ذلك مخالف لشريعة وعادات الممالك، ومـاهي الفوارق فيما إذا كنت قد متنت دفاعـات عدونا بالذهب والفضـة أو بالسلاح من خـلال وساطتك، أو أنك توليت الاضرار بنا؟ وخــاصـة كما نعلم من خـلال التجــربة أنك لاتستطيع ايقاف يد المساعـدة له بشكل فعال عن طريق السماح بتزويده بالمال من مملكتك، الذي وعـد بأن يجند به مرتزقـة للميلانيين وللخـونة الآخرين ضـدنا، والذين يسعى بوساطتهم لاغـواء أعواننا المخلصين لنا بالتخلي عن ولائهم لنا، وهكذا تمكن بالبرطلة والرشوى من شراء ولاء بعض ضعفاء الرجال، مما سبب الحطّ من سمعتهم واظهار ذلك، وليس أقل من هذا هلاكهم الأبدي.

وباسم الرب، لاتدع أيها الأخ العزيـز، أن يتأسس بوساطتك —على ًقل ليس ضدنا— قيام الملوك بشكل جائر بالقتال من قبل الملوك، كما مليك أن لاتدع نير الحكم البابوي يضغـط بمثل هذه الشدة على عنقك لملكي، إلى حــــد يجعلك ترى أنـه مما يبعث السرور العظيـم في نفسك لاسـاءة إلى عقائـد الانجيل، وقـوانين الطبيعة، وإلحاق الأذى بجـارك، بابن ختنك، لابل بأخيك، وبشكل خاص في الحالة الحاضرة، فأنت إذا ـاقمـت بتقـدير المسألة بشكـل حكيم وعن قـرب، فإنـك سـوف تجد ـقضـة ليست لصـالحنا وليست لصــالحكم أنتم أنفسكم، ولا لصــالح ـلك والأمراء الآخرين العرضة للخطر نفسه.

وبناء عليه، إننا بهذا الغـرض، نسألك بعـاطفـة صـادقـة، ونرجـو جلالتك المخلصـة، بحكم تقديرك لعواطفنا ولشرفنا، أن تقوم بشجـاعة وبثبـات، بأن تعارض ببراعتك وقـوتك، تلك الإجـراءات التي نخشى أنها سوف تلحق ضرراً كبيراً بقضيتنا، وأن لاتسمح بحمل أية أموال إلى البـلاط الرومـاني، جبيت من الموارد، والضرائب، والتقـدمـات، أو من المصـادر الأخـرى لمملكتـك، وإنك لست أنت ولا هـو لائق بك، أن تتغاضى أو أن تخدع، أو أن تمر عبر هذا دونما اهتمام، مثلما هو غير لائق بنا أن نقبل تقـديم أية مسـاعـدة يمكن أن تطلب منا، أو بوسـاطتنا لتستخـدم ضدك، أو أن نسمح بتقـديمهـا بأية طريقـة من الطرق، وغير هذا، من الممكن في حـالة مشـابهة أو قضيـة أكثر عـدلاً، أن نحتـذي بمثلكم، فنقدم المسـاعدة ضـدكم وضد مملكتكم، وهو مـارفضناه حتى الآن، وتمنعنا عن تقـديمه للـذين لهم مشـاكل معكـم، وإلى الذين هم مرتبطين معنا بروابط عاطفيـة قديمة، وانظر إلى البابا، في متـابعة الدفاع عن قضيتنـا العـادلة، قـد وجـد الحظوة لنفسـه لديكم، في حين هو لم يقـدم إليكم شيئاً ولاعـلاقة له البتـة معكم، سـوى أنه يتبجح —وهذا مـانقـوله ونحن نشـعر بـالخجل— بأن له سـلطة السـيد الاقطاعي عليكم.

وفيما يتعلق بجميع القضايا التي جرى ذكرها أعلاه، وكذلك في سبيل تأدية خدمات أخرى لنا في أراضيك، قد أرسلنا هـ . H شالبوست Chalbost, وهو فـارس، وتابع مخلـص لنا، فهـو الحامل لهذه العروض إليكم، ونحـن نرجوكم بكل اخلاص، ونسـأل عاطفتكم، أن تصدقـوا من دون تردد كل مايمكن أن يقوله لكـم باسمنا وبالنيابة عنا، كما لو كنا نحن أنفسنا موجودين، وأن تنفذوا مطالبنا، وأن تعطوه جواباً دقيقـاً، ونهائيـاً، حـول الذي قـررتموه، وجـرى ترتيبـه من قبلكم بشأن القضايا المتقدم ذكـرها، لأننا نرغب في حالات الطوارىء أن نكون على

دراية، وأن نعرف من الذي يمكن أن نتوقع منه النصيحة، ومن الذي ينبغي أن نكون حذرين منه».

وعلى كل حال جرى تشويه الرسالة الشفوية التي عهد بها الامبراطور إلى الرسول المذكور هـ . شالبوست، مع الرسالة ذات اللهجة الصديقة، التي أوردناها أعلاه، وكثير من الأشياء حذفت ولم تذكر من قبله، ومهما يكن من أمر، كتب الملك له جواباً، بيّن فيه أنه لايتجرأ على معارضة البابا، وأنه مندهش إلى أبعد الحدود، أن أخته الامبراطورة، لم يجر تتويجها بعد بأبهة في الأماكن والمدن المعتادة للامبراطورية.

وصول كونت فلاندرز إلى انكلترا

قدم في خلال هذا العام، توماس كونت فلاندرز، الذي هو عم الملكة، إلى انكلترا بأبهة عظيمة، وكان ذلك بعد حصوله على إذن من الملك الفرنسي، ولدى وصوله، استقبل ليس فقط من قبل الملك ورجال بلاطه، بل من قبل حشد كبير جداً من سكان لندن، وهم على ظهور خيول مزينة بشكل فخم، مع الأبواق وكل مظاهر السرور والبهجة، وقد استقبل في لندن بكثير من التشريف، وأثقل بالهدايا، وأعطاه الملك على الفور خمسمائة (أو كما قال بعضهم ثلاثمائة) مارك من الأموال الاستيرلينية الجديدة، وعمل له منحة بالمبلغ نفسه سنوياً للعشرين سنة المقبلة، وذلك تقديراً للولاء الذي قدمه له الكونت المذكور، وبعد الفراغ من تسوية هذه القضية، توجه الكونت إلى ويندسور، ليزور حفيده الطفل ادوارد، ابن الملك، وعاد بعد هذا على الفور إلى فلاندرز، لأن الإذن بغيابه كان محدوداً بوقت قصير من قبل الملك الفرنسي، وعيّن قبل مغادرته المعلم هنري الفلاندري، وكيلاً له ليتسلم الهدايا التي منحت إليه، وقام الملك على الفور بمنح بعض الموارد اللاهوتية، فصارت فجأة من نصيب الكاهن هنري المذكور، ولدى تحميل الكونت

المذكور بالهدايا الثمينة من الملك، بدأ بإثارة الحرب في مقاطعاته، وحشد بعض الجنود المرتزقة والأتباع التي استأجرهم مقابل أجرة، وبعد حشده هكذا لجيش كبير، في وقت قصير من الزمن، هاجم الأسقف المنتخب لليج، الذي كان من حزب الامبراطور، ومن أقربائه، وهاجم أيضاً بعض الآخرين التابعين للامبراطورية، الذين كانوا —بناء على أوامر الامبراطور— قد بقيوا مع الأسقف المنتخب المذكور.

كونت فلاندرز يشنّ الحرب على الامبراطور

وعندما سمع صاحب الجلالة الامبراطور بإجراءات الكونت، أرسل إلى المذكور رسالة تهديدات مرعبة، ليتوقف عن إجراءاته الطائشة والجريئة، وإذا لم يتوقف —وذلك على عكس ما يستحقه الامبراطور منه— وتابع مضايقته، وهو المنزعج بسبب كثير من القضايا القاسية، وباغضاب البابا له، وكذلك إذا لم يتوقف عن مضايقة حلفائه، وبشكل خاص الأسقف المنتخب لليج، الذي هو صديقه وقريبه، والذي دعي إلى مقامه بشكل محق، وإذا لم يتوقف عن إثارة الاضطراب للامبراطورية، هو قد أمر أيضاً دوقي لوفيان Louvain وبرابانت وآخرين من الجيران الأقوياء، بالقيام بالتصدي لحملات كونت فلاندرز واضعافها، ثم إنه كتب أيضاً إلى كونت بروفانس، الذي كان من المعروف أنه من حزب الامبراطور، يأمره بحكم كونه حليفه المخلص بأن يتصدى لخطط كونت فلاندرز وأن يحبط محاولاته، وهي الخطط والمحاولات التي حرض عليها الكونت المذكور برعونة،ولكن بما أن هذين النبيلين: كونت بروفانس وكونت فلاندرز رفضا إطاعة أوامره، كتب الامبراطور إلى كونت طولوز، يأمره تحت طائلة آلام العقوبة المحقة، بأن يشن الحرب ضد كونت بروفانس، الذي تاه عجباً وصار عاصياً بسبب ابنتيه الملكتين، ورفض معاقبة كونت فلاندرز، وقام الامبراطور نفسه بإرسال مساعدة مؤثرة إلى كونت طولوز، من أجل

مضايقة كونت بروفانس، وقام النبيل المتقدم ذكره على الفور بإطاعة أوامره.

إخفاق محاولات كونت فلاندرز

ثم وجد كونت فلاندرز أن حملاته الطائشة والجريئة قد أخفقت في تحقيق الآمال الفعالة التي بنيت عليها، وأن قوة الامبراطور كانت أكثر ثباتاً ضده، وأصبح أكثر خوفاً من تهديداته، وقد أخبر بطرق عديدة بوفاة أخيه وليم، الذي جرى انتخابه من قبل حزب البابا، فأوقف بمهانة الحرب التي دخلها بشكل غير حكيم، وذلك بعد انفاقه مبلغاً كبيراً جداً، وبعدما أثار كثيراً من الأعداء ضده نفسه، ولأن الكونت المذكور كان عائداً لمملكة فرنسا، التي تدخلت وقدمت الحماية له، فقد أخفى مشاعره بالانتقام لبعض الوقت، مقرراً —على كل حال— أن يسدد له في بعض الوقت المستقبلي.

الحرب بين كونتي طولوز وبروفانس

وكان كونت طولوز على استعداد أكبر لإطاعة أوامر الامبراطور، ومرد ذلك إلى الأذى الذي غالباً مالحق به على أيدي الفرنسيين، وقد نهض وانبعث شخصياً بناء على استدعاء الامبراطور وزحف برغبة ونشاط ضد كونت بروفانس، الذي أنزل به أضراراً لاتعوض، وقام كونت بروفانس على كل حال بالفرار، ووضع نفسه تحت حماية الملك الفرنسي، ورجاه بتواضع، بسبب مكانة واحترام الملكة الفرنسية التي هي ابنته، بأن يعطيه مساعدة فعالة، لأنه يوجد في أفينون وبشكل خاص في المقاطعات الواقعة على الرون، بعض النبلاء الفرنسيين، الذين قدموا إلى هناك مع لويس الملك الفرنسي، والذين كانوا قد استولوا بالقوة، على بعض القلاع، والبلدات، والمدن، وانتزعوها من لويس المذكور، وذلك بناء على تحريض من البابا وبمساعدة منه، ومايزالون يحتفظون بهم بالقوة، وهم منتزعين منه، وعندما سمع هؤلاء الرجال

بأن أبا الملكة قد نال السوء في الصراع، وأنه كان يستجدي المساعدة بسبب محبة الملكة، ولكي يتمكن من استرداد أنفاسه احتشدوا، وطاروا إلى السلاح، لمساعدة كونت فلاندرز، وكان كونت طولوز —على كل حال— على دراية بخططهم، فنصب كميناً لهم، وواجههم بقوة عظيمة، وقتل عدداً منهم بحد السيف، وصدّ محاولاتهم حسبما رغب وأراد، ونجحت الحملة على يديه نجاحاً كبيراً، حيث تمكن في وقت قصير من الاستيلاء على حوالي عشرين قلعة، وانتزاعها من الفرنسيين ومن كونت بروفانس، وبعد طرده للعصاة المتملكين لهم، أعادهم إلى حكمهم السالف.

ملك انكلترا يكتب إلى الامبراطور لصالح كونت بروفانس

وعندما سمع ملك انكلترا بأن كونت بروفانس قد عانى من خسارة كبيرة في هذا الصراع المدمر، قام بناء على ضغط ومبادرة من الملكة، فكتب إلى الامبراطور، بطريقة صديقة، ورجاه من أجل خاطر القرابة، التي هي بالعادة توحد الأمراء، وبحكم رحمته الامبراطورية، أن يقوم بتوفير كونت بروفانس والحفاظ عليه، لأنه والد زوجته.

الملك الفرنسي يشنّ الحرب على كونت طولوز

وعندما سمع الملك الفرنسي، القوي جداً، بالأضرار الكبيرة التي أنزلت برعيته، ولأنه اعتقد بأن هذه الأضرار قد نزلت به ولحقت من قبل الامبراطور، انفجر غاضباً بعنف، ضد الامبراطور، وكذلك ضد كونت طولوز، ورغب باستخدام كل الوسائل لترميم خسائره وأضراره، وأن يعاقب هذه الأعمال الطائشة، فقام بوساطة تراخيص ملكية، وبسرعة رهيبة، بحشد جيش كبير من نبلاء فرنسا، وذلك بقدر ما استطاع، ولكي لايندفع هؤلاء النبلاء، وينزلقوا في صراع طائش متسرع، قاموا بتواضع مناسب، فسألوا الامبراطور نفسه، عما إذا كانت

الحرب قد تأصلت من قبله، وفي الوقت نفسه، وبسبب خسائر جيش الملك في الأرض المقدسة، ولكي لايخسر البقية بالتعرض للجراحة، أرسل ملك فرنسا سبعمائة من الفرسان مع عدد أكبر من الأتباع لصدّ حملات الأعداء في بروفانس.

تبرئة الامبراطور

وهكذا وجّهت الملامة إلى الامبراطور، ووصل الأمر إلى حد اتهامه بالاجرام، فأنكر ذلك كله بشدة، وقال بأنه لم يخطر بذهنه قط، تعريض أي واحد من المملكة الفرنسية للأذى من قبله، لابل كان هو بالحري على استعداد للوقوف ضد أعداء تلك المملكة، وعن طواعية وبرجولة للقتال ضدهم، لأنه يعرف أنهم لايستحقون شيئاً آخر منه، وقال بأنه «بعيد عن تعويض الخير بالشر، لكن إذا كان هناك بعض الأشخاص الفرنسيين المجاورين لأراضي كونت طولوز، قد قاموا إرضاء منهم للملكة بمهاجمة عدو أبيها، وذلك بشكل متسرع وبلا حكمة، وأقدموا من دون أمر من مولاهم الملك بشن الحرب علينا، فقام شعبنا الذي تعرض للأذى، بصدّ هذه الحملات، وانتقم للأضرار التي كانت غير متوقعة، فلا عجب في ذلك، يضاف إلى هذا أنه ليس هناك من شك، بأن الذين عملوا الشر أولاً قد أثاروا المخاطر الأولى، والأضرار الأولى،وبناء عليه يتوجب عليهم بقدر ماتوفر لديهم من قدرة، إعادة الممتلكات التي جرى الاستيلاء عليها من الجانبين، وعمل ترضية من أجل جميع الأضرار، حتى لاتتمكن بذور الخلاف التي زرعها عدو الجنس البشري من النمو والتكاثر بين مثل هذه الشخصيات المتميزة، ولكي لايمتلك أعداؤنا المسوغ لتهنئة أنفسهم بسبب خلافاتنا»، وعلاوة على ذلك صرح كونت طولوز إلى ملك فرنسا، بأن الامبراطور كان على غير دراية بما حدث، وبذلك برأه.

-٧٠٩١-

ولادة ابنة إلى الملك الفرنسي

ومنح الرب في هذه الآونة ابنة إلى الملك الفرنسي، من زوجته م. M, ليزيد من قوة مملكته وهنائها.

مذبحة مريعة للصليبيين في منطقة دمشق

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الأحداث في فرنسا، عانى قومنا —تحت طالع غير سعيد— من خسارة محزنة لجيشهم في دمشق، وشملت الخسارة الرجال، والخيول، والسلاح، والكرامة، وهو ماسنرويه بأسف، وكنا قد علمنا به من رسالة هي التالية:

«من الصديق كذا إلى الصديق كذا، تحيات: ليكن معلوماً من قبلكم بأن كونت بريتاني قد قام بغارة بوساطة الفرسان، أمام دمشق، وحصل على أسلاب كثيرة، جلبها سليمة إلى الجيش، وغار منه ايرلا: بار، ومونتفورت، ودوق بيرغندي، فقاموا بعد مضي ثمانية أيام بغارة أخرى، مراغمة لنصيحة كونت بريتاني، وفي هذه الغارة تعرض للقتل ايرل بار، واللورد سيمون دي كليرمونت، واللورد جون دي باري Barre, وروبرت ماليت، ورتشارد دي بيومونت Beaumont, وعدد كبير آخر، ووقع ايرل أماريك دي مونتفورت بالأسر، واقتيد بعيداً، وحمل إلى القاهرة، كما حدث أيضاً بالنسبة لدوق بيرغندي».

وفي الوقت نفسه، وصلت الرسالة التالية من ايرل أوف مونتفورت إلى زوجته الكونتسة وقامت هي بتحويلها إلى الايرل رتشارد:

«ليكن معلوماً لديكم، أن دمشق لم يتم الاستيلاء عليها، كما ذكر من قبل، بل عاد الجميع إلى عكا، وإلى جانب هذا عليّ إخباركم بأن الملك الفرنسي قد نقل جميع أمواله من الهيكل، لأن الداوية والاسبتارية قد رفضوا مساعدة الفرنسيين في هذه الأزمة، وينبغي أيضاً أن تعلموا بأن

ستين قد أسروا وهم أحياء، ثم بعد ذلك أثناء عودتهم، وقع عشرة نبلاء وفرسان واعدين في الأسر.

الامبراطور يحزن لسوء حظ الصليبيين

وعندما سمع الامبراطور بهذا، حزن كثيراً من أجل الصليبيين، مع أنهم رفضوا نصيحته الصحيحة بعدم الابحار من دونه، وكتب على الفور رسائل تهديد مرعبة إلى المسلمين في دمشق وكذلك في القاهرة، يمنعهم —إذا كانوا يقدرون حياتهم— من الإقدام على إساءة معاملة النبلاء الصليبيين، العبيد المحبوبين من الرب، الذين يحتفظون بهم أسرى، خشية أنه عندما سينقض عليهم ويهاجمهم بقواته المرعبة، وبنسوره المخيفة والمنتصرة، وقتها سوف يشعرون بالانتقام الامبراطوري، وبغضب الرومان وامبراطورهم، الذي غالباً ماتلطخت سيوفه بالدماء الشرقية.

رسالة الامبراطور حول القضية المذكورة

«من فردريك الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى هنري اللامع، ملك انكلترا، وابن ختنه المحبوب، تمنيات الصحة والعواطف الصادقة:

إن الكارثة العامة، وسوء الحظ المبكي للصليبيين، في مقتل الجيش النبيل للصليبيين، الذي وقع مؤخراً في بلدان ماوراء البحر، بانقلاب للحظ غير متوقع، نحن نبكي بحزن داخلي، وبإخلاص وباستحقاق أعظم، لأننا كنا نرى ذلك ونخشاه قبل مغادرتهم، وكان عقلنا يتوجس من المخاطر التي كانوا سيواجهونها، وكان حدسنا القائم على المواسم والأحداث، يقودنا، حتى عندما كانت أحوالهم متقدمة، لأن نرى سلفاً بمشاعر قلقة مصيرهم الحالي، ونحن نعتقد أنه ليس سراً بالنسبة لسموكم المخلص، كيف أننا حصلنا على خبرة حول مكر المسلمين، في

تلك البلدان في هـذه الأيام، وكنا نرغـب بتـوقعـات قلقـة أن نكون مستعـدين للمستقبل، خشيـة أن يكـون الحظ قـد أعـدّ لهم شيئاً ليس لصـالحهم، وهـم الذين كـانوا جـاهلين بالأعمال، ويقـومـون بـالوفـاء بعهـودهم من دون التقصي المستحق والمتوجب، ولـذلك قمنا بوسـاطة رسائل متـوالية، ومبعوثين خـاصين من قبلنا، فحثثنا مقدمي الصليبيين، وبعد ذلك جماعتهم كلهـا، ليقوموا بتأخير مـوعد جـوازهم، لأنه عندما تتهيأ الفـرصة المناسبـة وتقـوم، إما أن نكـون نحن شخصياً، مستعـدين لمرافقتهم وقيادتهم، أو اننا كنا سنرسل ولدنا معهم للانقـاذ، وذلك فور تمكننا بأية طريقـة من الطـرق من تسوية الأعمال الصعبـة، التي كـانت آنذاك تتطلب اهتمامنـا الطارئ في ايطاليـا، لأنـه ليس بإمكاننـا توريط أنفسنا بشكل مفيد باهتمامـات أخرى، حتى نتمكن من تحرير أنفسنا من الأعمال التي كنا متـولين القيـام بها، لأننا عندمـا نكون متحـررين من المسألة الأولى، يمكننا بسهولة معالجة الثانية.

ومع أن الصليبيين أفـراداً وجميعـاً، قـد قبلوا بنصـائحنا الصحيحـة، والتـزمـوا بخطتنا، التي لم يكن لها غـايات مـاكـرة أو سرية، حمّـل الحبر الرومـاني الحالي كلامنا وأعمالنا تفسيراً شريراً، وكأن الخطر سـوف يحيق بديانتنا وبالإيمان الكاثوليكي، بتأخير القضية حتى وقت موائم، فحرض الصليبيين وحثهم بوسـاطة إنذارات متـواليـة، وأوامـر وتهديدات حتى يقومـوا بالعبور، وذلـك وفقاً لكلمات الكتابـات المقدسة: «وضـع أعباء ثقيلة على الآخرين، وهي التي لايمكنه أن يحركها باصبعه».

وعندما علمنـا بهذا وعرفناه، قمنا بالتماسـات متوالية، ورجـونا الحبر المذكور أن لايثق بالتقلبات وأن لايعهد لمخاطرات الحظ مثل هذه المهمة العظيمة، التـي تتطلب آراء محكمة، ووقتـاً موائماً، واستعـدادات عظيمة بالرجـال والأشياء، وليس تسرعـاً ليس حميـداً، بتعريض خـدمة يسـوع المسيح للخطر، وكـذلك مساعـدة الأرض المقدسـة، التي ألهبت قلوبنا،

وكـــذلك قلوب كثيريـن، ومثل هذا العــدد العظيم مـن الناس، ولفتنا انتباهه وذكرناه أن ترميم مثل تلك الخســارة الكبيرة وتداركها ليس أمراً هيناً، ورجوناه أيضـاً أن لاينظر إلى وعدنا بتقديم مسـاعدة كبيرة في هذه المسألة، على أنه كـلام عابث، لأننا أملنا، بوسـاطة شخص ولدنا، الذي هو رعيـة لنا أن نتابع بكل جهـودنا خدمـة يسوع المسيح، والدفـاع عن الأرض المقــدســة، وتولينا تذكيره بحقيقــة أن السفـك الهائل لدمــاء الصليبيين، في كثير من المعارك المتعـاقبة في الماضي، قـد حقق قليلاً —أو لم يحقق شيئاً— من المنـافع في هذه القضــايا، لأنها غـالبـاً مــا أعيقت بوساطة نقص الرجـال والأشياء، وكانت الحشـود في بعض الأحيان من دون قـائد حـريص وصـاحب نفـوذ، فبـوساطتـه من الممكن أثناء قيـام الخلافات بين عـدة مقدمين، أو أن تقـاعس واحد منهم قـد يمنعهم من اغتنام منفعة الفرص الموائمة، أو توفر الحاجة لضبط سفاهة كثيرين، هو يمكنه أن يخدم مصـالح كل من الحملة والأفـراد، إذا مـا احتفظ بالآراء الصحيحــة من أجل لحظة منـاسبــة أكثــر، ووقتهـا مـن الممكن عمل استعدادات وافرة، وتحت قيادة قائد واحد شديد، هو ضروري للحشد، يمكن وقتها للـديانة المسيحية أن تتقدم أولاً بـالوقت نفسه، نحـو الغاية المرجوة، وأن تستقر واثقة بنصر مضمون.

وقد عدّ هذا الحبر الروماني جميع هذه الأشياء، بلا قيمة كبيرة، ونظراً لكراهيتــــه لنا، ولكي يتمكـن من تـدمير العمل كلـه، أصر بعناد على الصليبيين بوجـوب الاقلاع، من دون أن يعطي تقـدير إلى ان الصليبيين الذين بقيوا في المناطق الأجنبيـة، كانوا مع أعـداء الصليب المانح للحياة مستقرين بسلام تبعاً لشروط الهدنة التي عملت معنا، وأنه إذا ما خرقت المعاهدة بوسـاطة أية حركـة من قبل الصليبيين، فإنهم سوف يتعـرضون لمخـاطر السيف والجوع، لأنه من غير الممكن ارسـال مسـاعـدة سريعـة إليهم، أو تأمين المؤن إليهم.

وعلمنا أخيراً بأن البابا قد بعث ثانية رسائل إلى الصليبيين، يأمرهم بالقيام بالعبور، فكتبنا رسالة إليهم، بأن يقوموا بالزحف خلال مملكتنا إلى مكان ابحارهم، وأننا كنا مستعدين بسرور وبكرم لمساعدتهم إلى أقصى مانمتلكه من قدرة، وقد عبر بعضهم من خلال مملكتنا في صقلية، ومن هناك أبحروا، بينما اختار آخرون العبور بوساطة طريق مرسيليا، ولهذا انتصرت الآن يد عدونا العام على مثل تلك الآلاف المؤلفة من الفرسان، الذين كرسوا أنفسهم لخدمة الأرض المقدسة، مع أننا ينبغي أن نبكي في مقتلهم من الإهانة التي أنزلت بيسوع المسيح شفيع البشرية، وأن نبكي على المسيحية كلها، ونحن نشعر في قرارة أنفسنا ونتعاطف مع ما عانوا منه، وللأذى الذي لحقهم، وبشكل خاص بسبب خسارة أولئك الجنود الشجعان من مملكة فرنسا، فهذه المملكة قد عانت من خسائر قاسية أكثر من البلدان الأخرى.

ونحن على كل حال لانسمح للخسارة أن تكون بلا وسائل تعويض، ولا للحزن أن يكون بلا مواساة، لأننا سوف نسهم بسرور وبكرم من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وسنقدم كل ماتسمح به عظمة الامبراطورية، وبقدر ما تأذن لنا الحالة العاصفة للأحوال في الوقت الحالي، التي تسببت بالنصيحة الفاسدة للحبر الروماني، وكذلك غضبه، ونحن نعتقد، لو أن سلطان مصر، والد السلطان الحالي، مازال حياً، لقام إنطلاقاً من عواطفه الطيبة التي اعتاد أن يبديها نحو شخصنا الملكي، فتولى تلبية طلبنا بالنسبة لمسألة الفرسان النبلاء، الذي وقعوا أسرى أثناء الحروب، ونحن على كل حال سوف نستخدم اهتمامنا الخاص ووسائلنا مع السلطان الحالي، في سبيل اطلاق سراح هؤلاء الأسرى النبلاء، علاوة على ذلك نحن نرغب إليكم أن تضعوا ثقتكم الدقيقة وأن تعتمدوا على كل ما سوف يخبركم به عنا وليم دي كومبيسا Compesa, وهو فارس، ومن رعيتنا المخلصين لنا، حيث أننا

اعتـدنا أن نرسلـه في خـدمتنا بمثـابة رسـول إليكم. صــدر في فـوجيـا Foggia, في هذا اليـوم الخامس والعشرين من نيسـان، في العـلامـة الثالثة عشرة».

الامبراطور يسترد عواطف كثير من الناس وعقد مجمع عام

وعندمـا باتت محتـويات هـذه الرسـالة معـروفـة، استرد الامبراطور قلوب كثير من الناس، مـع أعـداد كـانوا من قبل متقلبين بعـواطفهم واحترامهم له، وقـد بـدأوا بالوقـوف إلى جـانبـه، وبدأ رجـال الشعب الرومـاني —على الرغم من وعـود البـابا— يقفـون بثبـات إلى جـانب جـلالته الامبراطـورية، وأعطاه الشيوخ ذوي الأصـول النبيلة المشهـورة عهـودهم، واجتمع بناء على ذلك شيخ كـان قـد أوجـده الامبراطور في روما في السنة الثالثة قبل هذه، والكرادلة، وأعلنوا أنهم ما عاد بإمكانهم تحمل عنف البـابـا، مما ألحق الخطر بالمسيحيـة كلهـا، ولـذلك بيّـنوا إلى البـابـا، بناء على طلب الامبراطور، ومـوافقتـه، أنهم استجـابـة لطلبـه، يرغبـون بعقد مجمع عـام بشكل موائم في أسرع وقت ممكن، وتقـرر أن يكون يوم الفصح المقبل الموعد لعقـد المجمع، حيث بها أن الرب قد قام ثانية في ذلك اليـوم، يمكن للكنيسة أيضـاً أن تقوم ثانيـة في ذلك اليوم، وتتنفس بحرية، وبسعادة.

ختان صبي في نورويك من قبل اليهود

وفي هذه الآونة ختن اليهود طفلاً مسيحياً في نورويك، وبعدما ختنوه أطلقوا عليه اسم يورنين Jurnin, ثم إنهم احتفظوا به ليصلبوه، في محاكـاة تأمليـة لصلـب يسـوع المسيح، وتمكـن والد الطفل —على كل حال— الذي منه سرق اليهود الطفل، بعد بحث متواصل، وبعد طويل وقت من اكتشـافـه، حيث كـان مسجوناً لدى اليهـود، فصرخ بصـوت مرتفع وأشـار إلى ابنه، الذي اعتقد بأنه قـد ضاع، لكنه كان محبـوساً في

غرفة واحد من بيوت اليهود، وعندما وصلت أخبار هذه الجريمة غير الاعتيادية إلى علم وليم دي ريلي Rele, وكان أسقفاً، ورجل دين حكيم ويقظ، وإلى مسامع بعض النبلاء الآخرين، قام باعتقال جميع اليهود في تلك المدينة وسجنهم، حتى لايتم اهمال هذه الإهانة الموجهة إلى المسيح من دون عقوبة من خلال اهمال المسيحيين، وعندما رغب اليهود في وضع أنفسهم تحت حماية السلطات الملكية قال الأسقف: «هذه قضايا عائدة إلى الكنيسة، وعندما تقوم قضية تتعلق بالختان وبإهانة الدين، فهي لاتقرر من قبل بلاط الملك»، وبناء عليه تبين أن أربعة من اليهود كانوا مجرمين باقتراف الجريمة المتقدم ذكرها، فجرى أولاً سحلهم بعد ربطهم إلى ذيول الخيول، ثم جرى تعليقهم على المشانق، حيث لفظوا مابقي من حياتهم التعيسة.

تكريس هـ . H بيتهول واستخراج الموارد

في الأول من تموز في هذا العام جرى تكريس هيوج دي بيتهول Pateshull, الأسقف المنتخب لكوفنتري وليشفيلد، وتولى التكريس إدموند، رئيس أساقفة كانتربري، في رئاسة الرهبانية الجديدة قرب غولدفورد Guildford, وجرى تعيين وليم دي هيفرهل Haverhull, وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، خازناً في محل هيوج المذكور، وفي هذه الآونة أيضاً جرى عقد أكثر الاتفاقيات ظلماً بين البابا وبين الرومان (كما روي) وكان الإتفاق، أنه حيثما كانت هناك منافع في انكلترا، يمكن للبابا أن يوزعها، ولاسيما منافع رجال الدين، ينبغي توزيعها بين أبناء الرومان وأقربائهم، وفق رغباتهم، على شرط أن يقوموا برأي واحد ضد الامبراطور، وأن يسعوا لخلعه من العرش الامبراطوري، وهكذا استحوذوا لأنفسهم، السمعة المحترمة لجرأتهم القديمة، وبناء عليه، أرسل البابا، بعد مضي عدة أيام، تراخيصه المقدسة إلى إدموند رئيس

أساقفة كانتربري، وإلى أسقفي لنكولن وسالسبري، يأمرهم الإعداد لثلاثمائة روماني لشغل المنافع الأولى التي سوف تشغر، وجعلهم يفهمون أنهم معطلون عن إعطاء أية منفعة حتى يتم الإعداد بشكل موائم للعدد المطلوب، وتجاه هذا الأمر تملكت الدهشة قلوب الجميع، وخافوا من أن الذي تجرأ على فعل مثل هذه الأشياء، سوف يغرق في أعماق اليأس.

رئيس أساقفة كانتربري ينفي نفسه

ورأى إدموند رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان قد خضع —بإرادة أو بدون إرادة— إلى الاستخراجات البغيضة، المتقدم ذكرها، ودفع ثمانمائة مارك إلى البابا، رأى الآن أن الكنيسة الانكليزية يداس عليها كل يوم أكثر فأكثر، وأنها كانت تحرم من ممتلكاتها، وتجرد من امتيازاتها، لهذا بات قلقاً من أن يعيش ليرى مثل هذه الشرور على الأرض، ولذلك بعدما طلب الإذن من الملك، وبعدما حصل على أجوبة غامضة، غادر البلاد، محرضاً من قبل هذه الأضرار المتنوعة، وأبحر إلى فرنسا، حيث اتخذ مقراً له مع حاشية صغيرة في بونتني Pontigny, وهو مكان كان سلفه القديس توماس قد عاش به في منفاه، وشغل نفسه في الصلاة والصوم.

إصرار أحد الهراطقة

وفي هذه الآونة كان هناك رجل، قد تظاهر بأنه رجل شريف وصاحب حياة متشددة، وكان يرتدي ثياب طائفة رهبان الكارثوشيين Carthusian, وقد جرى اعتقاله في كمبردج، لرفضه دخول أية كنيسة، وعندما سئل عن هذا الجنون، أجاب بطريقة ملتوية، فجرى حبسه والتضييق عليه، وبعد مضي عدة أيام أرسل إلى النائب البابوي، من أجل سجنه في برج لندن، لأنه أعلن صراحة التصريح

التالي:

«غريغوري ليس هو البابا، وهو ليس رأس الكنيسة، بل هناك رأس آخر للكنيسة، والكنيسة قد تدنست، والخدمات اللاهوتية لايجوز أن تعمل بها، مالم يتم تكريسها من جديد، وكذلك أوعيتها وملابسها يتوجب إعادة تكريسها، فالشيطان قد أطلق سراحه، والبابا هرطقي، لابل إن غريغوري هذا الذي يدعى البابا، قد دنس الكنيسة والعالم»، وسمع النائب البابوي هذا، وكان ذلك بحضور ر. R راعي دير إيفهام، والمعلم ن. N دي فينهام Finham, مع المعلمين ب. P أوف بوردو، وهـ . H أوف سوسا Susa, وعدد كبير آخر، وقد قالوا لهذا الرجل المجنون: «أولم تمنح السلطة من عليين إلى البابا بربط الأرواح وحلها، وأيضاً بشغل منصب القديس بطرس على الأرض»؟ وبينما كان الحضور ينتظرون جوابه، معتقدين أن الحكم عليه يتوقف على جوابه لهذا السؤال، عمل تأكيداً لكن على شكل سؤال حيث قال:

«كيف يمكنني أن أعتقد هذا برجل هو مجرم بالسيمونية، والربا، وربما متورط بجرائم أكبر، وقد منحت السلطة نفسها عندما منحت إلى القديس بطرس، عندما أصبح رسولاً للرب، وتبعه، ليس فقط في رحلاته وأسفاره، بل أيضاً في اشراقه وفضائله»؟، ولدى سماع النائب البابوي لهذه الكلمات أظهر علامات الخجل، وعمل واحد من الذين كانوا جالسين من حوله التعليق التالي:

الذي يتصارع مع الحمقى هو مطلقاً غير حكيم

فهو مثل الذي ينظر في الفرن حيث يجرح عينيه

وفتح هذا الرجل شفتيه الملوثتين بتجديفات أخرى، لأنه قال للذين استجوبوه:

«إنني أقر بجميع مبادىء الإيمان، ومع هذا أؤكد بأن المسيح أخذ شكل الجسد في العذراء»، وعندما سألوه عما إذا كان يعتقد أنه اتخذ شكل الجسد من العذراء، أجاب بعد بعض التردد: «هذا ما لا أقوله»، ذلك أنه لو عمل ذلك التأكيد، لبرهن بشكل واضح على أنه هرطقي، وذلك كما قال الرسول: «ابنه عمل من امرأة»، وحول هذا النص قال الكاهن بيد المبجل:

«عليهم عدم الاصغاء إلى الذي يعد التفسير هو أنه: ولد من امرأة عملت في ظل الشريعة، بل عمل من امرأة، وهو الذي استمد الجسد في رحم عذراء، ليس من لاشيء، وليس من مصدر آخر، إلاّ من جسد أمه، وإذا كان الأمر غير ذلك لما كان قد دعي باسم ابن الانسان، بكل صدق، وذلك إذا لم يكن قد استقى أصله من انسان، وبناء عليه إننا نقف ضد ماقاله يوتيخيا Eutyches, وجميع الأشخاص المفتونين على هذه الشاكلة، الذين أكدوا أنه لم يأخذ الجسد فقط في امرأة، بل من امرأة، هي العذراء مريم، ولو كان الأمر غير ذلك لما كان رحمها قد بورك، ولاثدييها اللذين رضع منهما».

موت ج إيرل لنكولن

وفي الثاني والعشرين من تموز لهذا العام، الذي وافق عيد القديسة مريم المجدلية، غادر ج. J ايرل لنكولن طريق الجسد، بعدما عانى من مرض طويل.

الملك يرسل قضاة ليقوموا بجولة في إنكلترا

وفي هذه الآونة، أرسل الملك قضاة ليقوموا بجولة في جميع انكلترا، وقد ارتحلوا وسافروا في جميع المناطق العائدة إلى الملك، مصححين تجاوزات الكثيرين، وتحت حجة إدارة العدالة، جمعوا مبالغ ضخمة من المال، من أجل استخدام الملك، الذي بدّد كل شيء، وقد عهد بالأجزاء

الشمالية من انكلترا إلى كفالة وليم أوف يورك، رئيس كنيسة بيفيرلي Beverley وأتباعه، كما أنه عهد بالمقاطعات الشمالية إلى روبرت أوف ليكسينغتون Lexington وزملائه، وفي هذه الآونة أيضاً، أرسل النائب البابوي مبلغاً كبيراً من المال مع كاهن من عنده اسمه مومل Mumel, إلى البابا، الذي تسلمه بسرور، ثم أعاد الرسول ليتسلم المزيد.

استخراج بغيض للمال من قبل البابا

انبعثت الآن في انكلترا طرائق جديدة، ولم يسمع بمثلها حتى الآن، لاستخراج المال، لأن أبانا المقدس البابا أرسل مستخرجاً للمال اسمه بطرس لي روج Rouge, إلى انكلترا، وكان بارعاً في استخراج المال، بطرائق لايمكن تصورها، من الانكليز التعساء، فقد ذهب إلى مقار هيئات رجال الدين، وأرغمهم أو أكرههم على الوعد بالمال، وعلى دفع المال عندما وعدوا، وذلك مثل بقية القساوسة، حيث أكد كاذباً بأنهم دفعوا المال برضاهم، ذلك أنه قال:

«إن الأسقف كذا والأسقف كذا، وكذلك راعي الدير كذا وكذا، قد لبوا طلباتي بإرادتهم، فلماذا أنتم هكذا متقاعسين كسالى، وكأنكم تريدون فقدان شكركم ومثوبتكم»؟ وجعلهم هذا الأفّاق أيضاً يقسمون أنهم سوف لن يعلموا أي شخص خلال مدة نصف عام، بطرائق استخراج المال التي مارسها، وبتصرفه هكذا تبع خطة لصوص البيوت الذين يستخرجون الوعود من الفئة المنهوبة، بعدم الكشف عن أسماء الذين سرقوهم إلى أي واحد، لكن صحيح أن الرجال سوف يلتزمون بالصمت، إن حجارة الكنائس سوف تصرخ عالياً ضد الذين يسرقونها، كما أنه من غير الممكن ابقاء هذا العمل الشرير في الظلام، لأنه إلى متى يستطيع القساوسة استخراج المال من الذين هم رعية لهم، مالم يخبروهم بأسباب المطالبات؟

-٧١٠٢-

شكوى رعاة الديرة إلى الملك
حول عملية الاستخراج المتقدمة الذكر

وبناء عليه ذهب رعاة الديرة إلى الملك وهم يتشكون بوجوه عابسة قائلين:

«ياصاحب الجلالة لقد ضربنا ولم يسمح لنا بالتشكي ضد ذلك، وقد قطعت أعناقنا، فنحن لانستطيع أن نصرخ، وعدم الامكان والعجز فرض علينا من قبل البابا، وجرت ممارسة عمليات الاستخراج البغيضة في جميع أجزاء العالم، وبارونياتنا التي بين أيدينا هي منك، ونحن لايمكننا افقارهن من دون إلحاق الأذى بك،وبالتالي لايمكننا اجابتك بالنسبة للعجز الذي لحقنا بهن، وفي الوقت نفسه ارضاء الاستخراج غير المتوقف للبابا، لأنه بهذه الوسيلة جرى اختراع أساليب جديدة للظلم من قبل الرومان، وهذه الأساليب تقوم دوماً بشكل غير متوقع ضدنا، وبذلك لاتسمح لنا بالتنفس بحرية، ولاحتى لوقت قصير، ولذلك ركضنا للالتجاء إلى مشورتك، وإلى صدرك الواقي، ونطلب نصيحتك ومساعدتك في حالة الدمار هذه»، وكان الذين خاطبوا الملك بهذه الكلمات: راعي دير القديس إدموند، وراعي دير بيوليو Beaulieu, وعندما سمع الملك شكاويهما، نظر إليهما نظرةعابسة، ولإرعابهما دعا بصوت مرتفع النائب البابوي، الذي صدف أن كان حاضراً، وقال مخاطباً له:

«انظر يامولاي النائب البابوي إلى هذين المغويين، إنهما يتوليان كشف أسرار البابا، مقدمين منفذاً للنقد واللوم، وليسا مذعنين لرغباتك، افعل معهما الذي يرضيك، ولقد منحتك واحدة من أحسن قلاعي لسجنهما فيها»، وعندما سمع الراعيان هذه الكلمات أصيبا بقرف لايمكن وصفه وبرعب، وقد غادرا بعدما وعدا بإرضاء النائب البابوي وبتلبية جميع

رغباته، وبعض رجال الدين —على كل حال— مع أنهم كانوا قلة رفضوا الاستمرار بالتردد، ورفضوا حني رقابهم لعبودية مثل هذه الحالة المزرية، ووقفوا صامدين في رفضهم الذي كان مطلوباً منهم، وبصعوبة جنبوا أنفسهم الخضوع بذريعة طلب وقت حتى يمنح لهم.

اجتماع للأساقفة في نورثأمبتون حول القضية نفسها

عندما فكر النائب البابوي، مع حليفة بطرس لي روج، بالتصرف وفق الطريقة نفسها مع الأساقفة الذين استدعيوا للاجتماع في نورثأمبتون لهذه الغاية، وجدوا هؤلاء قد تعلموا من قضية الراعيين فأجاباهما قائلين:

«لدينا رؤساء شمامسة خاضعين لنا، وهم الذين على دراية بمنافع رجال الدين الخاضعين إليهم، الأمر الذي نحن جاهلين به، وهذه القضية تخص جميع الفرقاء، ولذلك يتوجب اجتماعهم جميعاً مع بعضهم، وإنه ليس لائقاً ولا موائماً إعطاء جواب من دونهم»، وبناء عليه جرى تعيين يوم من أجلهم لإعطاء جوابهم، وأن يكون يوم عيد القديس يوحنا المعمدان، أي أن يكون ذلك في يوم عيد ميلاده، وبناء عليه، اجتمعوا كلهم بحضور النائب البابوي وأصحابه، وكانوا على غير استعداد للاستجابة للاستخراجات المتقدم ذكرها، وكانوا متصلبين وبدون خجل، ومصرين على رفضها وعلى عدم الموافقة عليها، ومع ذلك عارضوهم بطريقة لطيفة وحذرة، وترافعوا في ردهم بالاعتراضات المنطقية التالية:

اعتراضات الأساقفة على مطالب النائب البابوي

«لقد أفادوا أن عليهم عدم الاسهام، لسببين، أولها لأن الاسهام سوف يكون ضد واحد قد عمل تحالفاً مع أميرهم، ولأن هذا الاسهام قد عمل من أجل سفك الدم المسيحي، الأمر الذي هو واضح من كلام

مذكرات التراخيص الرسولية التي ورد فيها كلمات: «لشن الحرب على الامبراطور»، وكذلك لأن الاسهام سوف يكون مضاداً لحرية الكنيسة، وهذا أيضاً واضح من مغزى المذكرة نفسها، التي جاء فيها قوله: «ضبط جميع المعترضين بموجب الروادع الكنسية»، وهذه عبودية وإكراه، وعلاوة على ذلك، لأنهم كانوا قد أعطوا في وقت آخر عشر ممتلكاتهم إلى البابا، مع اعتراض ضد استخراج مماثل قد عمل فيها بعد، وبمنطق أدنى عمل الآن طلب أوجب دفع الخمس، وأيضاً لوجود سبب للخوف من أن يصبح ذلك عادة لأن العمل إذا ما عمل مرتين يصبح عادة كما جاء في القانون قوله: «فيما يتعلق بالاجتماعات الأسقفية: ما من رجل بالقانون، إلخ، إلخ»، وكذلك بسبب أنهم يرون من الضروري تسوية الأعمال في البلاط الروماني، الذي لايمكن الوصول إليه، ولايوجد ممر مفتوح إليه إلاّ من خلال الأراضي الامبراطورية، وهم على هذا يخشون من اعتقال الامبراطور لهم، وايداعهم في السجن، ووقتها هم متأكدون من توفر عقوبة شديدة.

ومرة أخرى، بسبب أن الملك له أعداء كثيرون، يتوجب عليه تحمل أعباء الحرب ضدهم، وخشية من وقوع الأسوأ، لن يكون عملاً سليماً متابعة افقار البلاد، خاصة وأنها الآن قد أفرغت إلى حد كبير من ثرواتها، وذلك لأن النبلاء قد انطلقوا في حملة صليبية، وقد حملوا معهم كميات ضخمة من المال، من أجل الانفاق على رحلتهم.

ومجدداً إن هذا سوف يتحول إلى ضرر رعاة الكنائس، ولاسيما أنه ليس من الواضح أنهم قد وافقوا على التقديمات المتقدم ذكرها، ومرة أخرى بسبب أن أوضاع الكنيسة بشكل عام كانت خطيرة، وبناء عليه ينبغي عقد مشاورات عامة، حتى يمكن عمل تقدمة عامة، إذا كان ضرورياً في تلك الحالة، وهي ليست الحالة الآن، لأن الأخبار قد تأكدت بأن مجمعاً عاماً سوف يجري عقده، فيه سوف يجري تقرير مثل

هذه القضايا، وإنه لمن الضروري أن يتقرر إزالة السبب العام للعدوان».

وعندما سمع النائب البابوي ورفاقه هذه الاعتراضات، أخفوا بصمت اضطرابهم، لكنهم قرروا أنه عندما تتوفر الفرصة، سيعيدون محاولة هذا ثانية، أو تدبر استخراجات أخرى من نوع مماثل.

النائب البابوي يجمع القساوسة في بيركشاير

وكان قد بقي لدى النائب البابوي وأصحابه بعض الأمل في تطويع آخرين للاستجابة لإرادتهم، ومن ثم اقناعهم بالمساهمة، فجمعوا قساوسة الكنائس في بيركشاير Berkshire وجمعوا آخرين، حثوهم بكثير من الحجج، وأضافوا التهديدات إلى التهديدات، والوعود إلى الوعود، وقد أجاب هؤلاء أيضاً بثبات، أنهم سوف لن يتخلون عن بنود جوابهم، واعتماداً على حججهم، التي مع أنها كافية، سوف نضيف هنا أجوبة أخرى.

أجوبة القساوسة المتقدم ذكرهم فيما يتعلق بالتقديات

قال كل واحد من القساوسة، وقال جميع قساوسة الكنائس في بيركشاير، بأن عليهم عدم الاسهام ضد الامبراطور مثل اسهامهم ضد هرطقي، لأنه لم يدن بوساطة قضاء الكنيسة، ولم يتبين أنه مجرم، مع أنه محروم كنسياً، ولكن ليس بسبب قيامه بالاستيلاء على ممتلكات الكنيسة، أو أنه هاجم ميراث الكنيسة الرومانية، لأن الكنيسة لاتستخدم السلاح الدنيوي ضد الهرطقة.

ومجدداً، وفي الطريقة نفسها للكنيسة الرومانية ميراثها الخاص، الذي إدارته عائدة إلى البابا، وللكنائس الأخرى أيضاً مواريثها، التي منحت إليها وأعطيت من قبل الملوك والأمراء، والنبلاء المسيحيين الآخرين، والتي هي غير خاضعة لفرض الضرائب عليها، ولا بأي شكل من الأشكال، ولادفع الجزية إلى الكنيسة الرومانية، ولذلك لايجوز ارغام

القساوسة على المساهمة من ميراث كنائسهم.

ومن جديد، ومع أنه بحرفية الشريعة، قد قيل بأن كل شيء هو عائد إلى الأمير، لكن ليس بالتملك والتسلط والتصرف بالتوزيع، بل الأمور متعلقة بعنايته وحمايته، ومثل هذا، إن الكنائس عائدة إلى البابا، فقط فيها يتعلق بالعناية والحماية، وليس فيها يتعلق بالتملك والسيادة، وبناء عليه، قالوا ينبغي عدم ارغامهم على الاسهام.

ومجدداً كما تقول الحقيقة: «أنت بطرس (الصخرة) وعلى هذه الصخرة سوف أنا أبني كنيستي»، فهو بهذا قد احتفظ لنفسه بالتملك، وعهد إلى بطرس بالعناية، كما هو ظاهر من كلام الانجيل الذي تبع ذلك في قوله: «وإن كل ماسوف تربطه على الأرض سوف يربط في السماء»، إلخ، إلخ، وهو لم يقل: «وإن كل ما سوف تفرضه على الأرض سوف أيضاً يفرض في السماء»، وبناء عليه لقد قالوا بأنهم لايستطيعون، ولاينبغي لهم، تماشياً مع كلام الرب والعدل، أن يرغموا على الاسهام.

ومرة أخرى، إنه اعتماداً على سلطات الآباء المقدسين، نجد أن منتجات الكنيسة مكرسة لبعض الاستخدامات المحددة، وهي استعمالات الكنيسة، ورجال الدين العاملين بها، والفقراء، ولايجوز تحويلها إلى استخدامات أخرى، مالم يكن ذلك بوساطة الكنيسة الأممية، وبناء عليه، ينبغي عدم إعطاء أية مساهمات من مقتنيات الكنيسة، من أجل شن الحرب، مالم يكن ذلك ضد المسيحيين.

ومجدداً، بما أن موارد كنائسهم هي بالكاد كافية لتأمين الطعام اليومي لرجال الدين، بسبب نقص حجمها وصغره، وبسبب أن المجاعة تهاجم في بعض الأحيان البلاد لدى سوء مواسم الحبوب، وأيضاً بسبب وجود عدد كبير من فقراء الناس والفقراء الذين يأتون إليهم، والذين رأينا بعضهم يموتون بسبب الحاجة إلى التغذية، ولأنه ما من أحد يمكنه أن

يستحوذ أكثر من منفعة واحدة، وبسبب ذلك هم الأفقر، وبصعوبة بالغة يمكنهم تزويد أنفسهم وتزويد الفقراء، ولذلك ينبغي عدم ارغامهم على الاسهام في مثل هذه الحالة.

ومن جديد، إنه مهما كان مفيداً بالنسبة لهم أن يسهموا، ومع ذلك يتوجب، لابل سوف يكون مفيداً أن ندع القضية تسقط، بسبب الفضائح التي قامت، وانتشرت في الخارج في جميع أرجاء العالم ضد الكنيسة الرومانية، فلقد جرى الاعلان على الملأ بأن الاستخراجات من هذا النوع قد عملت في أوقات مضت، وأفقرت رجال الدين بطريقة غير صحيحة البتة، وما أن جرى استخراج المال منهم، حتى توصل الامبراطور والبابا إلى التصالح، ومن ثم لم تجر إعادة ولافلس واحد، لابل أكثر من هذا، لو أن أية بقية كانت قد تركت من دون جباية، لقد جرى استخراجها بخشونة، حتى بعد ابرام الاتفاق بين الاثنين.

وتقول الأحكام القانونية، إنه مع أن الذنب العظيم لايجوز قبوله في سبيل تجنب فضيحة، وإنه بناء على ذلك، ولهذه الغاية يتوجب أحياناً اسقاط ماهو صالح وحذفه، وعلى هذا الأساس يتوجب علينا عدم الاسهام.

ومجدداً، إنهم إذا ما توجب اسهامهم ضد الامبراطور، فإن المقام الرسولي سوف يحيق به خطر الموت، في سبيل احراز العدل، وكذلك سوف يحيق خطر الموت بالذين يقومون بالحج إلى الأرض المقدسة، ومن أجل تحرير تلك البلاد، وبناء عليه، إلخ، إلخ.

ومن جديد، ينجم عن العمل المزدوج عادة، لأنه بما أن اسهاماً من هذا النوع قد عمل في وقت آخر، إنه إذا ما عمل الآن سوف يصبح عادة، وبناء عليه، إلخ، إلخ.

ومجدداً، إنه من اسهام من هذا النوع، مقدرين قدرة الامبراطور،

وضعف مملكة انكلترا وفقـرها، مـن الواضح أن ملك انكلترا ونبـلاء البـلاد سوف يكونون عـرضـة لخطر عظيم بفقدان ميراثهم، وبناء عليـه ليس من الموائم الاسهام، كما أنه لايجوز.

ومجدداً، إنه بالنسبـة لملك انكلترا والنبـلاء يمتلكون بمـوجب حق الوراثة، وكـذلك بمـوجب العـادات الصالحة المصـدق عليهـا، الحق في تقـديم الاعطيـات إلى كنائس انكلترا، والقسـاوسـة، المعينين بناء على أعطيـاتهم، لايرغبـون، كما أنه لايجوز لهم، ولايستطيعـون، الموافقـة على تقديـم أية منحة من دون التشـاور مع رعاتهم، لأنهم إذا مـا وافقوا على المنح من الممكن أن ينالوا الضرر من كنائسهم الخاصة، وبما أن الكنائس المذكـورة، قـد أعطيت وأغنيت من قبـل رعـاتها المذكـورين، بالأراضي والموارد، في سبيل مقاصد خاصة، هي أن يتمكن قساوستها من استقبال الضيوف سواء منهـم الأغنياء وكذلك الفقراء، وأن يظهـروا الضيافة إلى العلمانيين وكـذلك إلى رجـال الدين، وذلك وفقـاً لإمكاناتهم، وكـذلك حسبما تتطلب عـادة المكان، وإنه إذا ما تـم استخراج مثل هذه المسـاهمة منهم، فـذلك يوجب عدم استمـرارها، لأنه بهذه الطريقة سـوف يجري خداع الرعـاة وغشهم، في امتيازاتهم وفي نواياهم التي من أجلهـا منحوا الأعطيات، ولسوف يعيدون النظـر في أعطياتهم، أو أنهم سوف يبحثون ويفتشون عن أسـى آخر، ولن يؤسسـوا كنائس مرة أخـرى، أو يضفون عليهن منافع من ممتلكاتهم.

ومجدداً، بما أن هذا الطلب قد عمل ضد واحد هو داخل بتحالف مع أميرنا، خاصة بالزواج، لايجوز لنا الاسهام ضده من دون التشاور معه.

ومن جديد، بسبب أن العلمانيين، لدى اسهامهم فيما مضى، في قضية مماثلة، قد نالوا وعداً من الذين أعطوهم، بناء على تفويض من هذا البابا الحالي نفسـه، أنه لن تكون هناك عمليـة استخـراج ثانيـة من هذا النوع، ولأنهم أنفسهم مايزالون يشعـرون بالظلم بسبب العبء المذكور، ينبغي

أن لايسهموا، لأنهم يخافون من أنهم بمساهمات متوالية سوف يجرّون إلى العبودية وإلى عادات غير اعتيادية، ولاسيما أن كثيراً من البلدان، من بينهم فرنسا لم يوافق سكانها على هذا الاسهام، كما أنه واضح ومعروف بشكل جيد، أنه ما من مربح قد حصلت عليه الكنيسة من أي استخراج من هذا النوع، ليوفق الرب أن لاتكون لاعاقتها، ولقد قوي أعداء الكنيسة وأصبحوا أغنياء بوساطة ذلك، ومن كونهم أقوياء صاروا أقوى، وإنه لمن الصعب علينا أن نموت بأسلحتنا، ولذلك يتوجب علينا عدم الاسهام.

ومجدداً، بما أن الجميع، أو لنقل تقريباً الجميع، قد ارتبطوا بعهد خدمة الصليب، ولكي يفوا بأنفسهم، أو بوساطة أشخاص آخرين أكفاء، تسلموا أوامر من البابا، وإنهم لايمكنهم في آن، هو الوقت نفسه تلبية وتنفيذ هذا الواجب الصعب والمفيد، وأن يدفعوا أيضاً هذا الاسهام.

ومن جديد، بما أنهم محميين بامتياز أولئك الذين حملوا الصليب، والذين إليهم جرى منح إنتاج ودخول مواردهم جميعاً لمدة ثلاث سنوات، لايتوجب عليهم لهذا الاسهام في هذه القضية.

ومجدداً، بما أن كثيرين مرتبطين برسائل البابا، لأن يدفعوا إلى رهبان كلوني Clugny, في يوم محدد، من عشور كنائسهم، الذي من المعروف أن الرهبان المذكورين لهم حق الرعاية، أو التي ليس لهم فيها أي ادعاء دنيوي أو روحي، ولهذا ينبغي أن لايدفعوا.

ومن جديد، بما أن مولانا ملك انكلترا، له اعداء ألداء من جميع الجوانب، والذين هم مستعدون —كما أفيد— لإلحاق الأذى به، وبحكم أن المملكة محرومة من نصيحة ومن عون الرجال الشرفاء الذين يقومون باعداد الترتيبات للانطلاق إلى المناطق الأجنبية، والذين بذلك

سوف يأخذون معهم مبلغاً كبيراً من المال، سوف لن يكون سلبياً إفقار الكنائس والمملكة إلى درجة لايمتلكون فيها امكانات كافية لحماية الدولة، ولسوف يكون هناك بلا شك سبب للدمار المملكة لايمكن اصلاحه.

علاوة على ذلك، بما أن رجال دين الشعب الانكليزي، كانوا من قبل أغنىء منهم الآن، أي عندما استحوذوا جميعاً، أو على الأقل الشطر الأعظم منهم، عدة منافع من دون توزيع، ومن دون عمل أي استخراج من هذا النوع، مع أنه جرى في ذلك الوقت إرسال عدد من الآباء المقدسين إلى المنفى من قبل الأباطرة الطغاة، وعانوا في أنفسهم كثيراً من المصاعب في أشخاصهم وفي ممتلكات الكنيسة، لايتوجب علينا —لذلك السبب— أن نسهم.

وأخيراً، جرى منح كثير من العشور من قبل الآباء الرسوليين إلى فرسان المملكة الفرنسية، لحماية الكنيسة الرومانية، وبما أنه واضح أن مساعدتهم المتوجبة لم ترفض من قبلهم، كما أنها لم تقدم بعد، يتوجب علينا —بناء عليه— أن لانسهم.

النائب البابوي يثير خلافات بين القساوسة المتقدم ذكرهم

وعندما وجد النائب البابوي وأعوانه أن ثباتهم مدعوم بمثل هذه الحجج الصحيحة، وأنهم لايستطيعون تحطيمهم ماداموا هكذا متحدين مع بعضهم، لذلك قرروا إحداث شقاق وخلاف فيما بينهم، ولذلك ذهب النائب البابوي إلى الملك، وكسب على الفور ذلك الرجل الضعيف إلى جانبه لتلبية رغباته، ومضى معاونوه أيضاً إلى الأساقفة، وكذلك إلى رؤساء شمامستهم، وبشكل خاص المعلم آلان أوف بيكلي Beccles, رئيس شمامسة سدبري Sudbury, الذي كان من قبل أكثر اصراراً من جميع البقية، وإلى بعض الأشخاص الآخرين

الطموحين الذين كانوا يتطلعون إلى مناصب أعلى، ووعدوهم بمساعدة فعالة إذا لم يوافقوا على اصرار جماعة القساوسة المذكورة وقرارها، وبذلك أغووا بعضهم، لمعارضة الفئة المسيطرة.

إقلاع الإيرل رتشارد مع النبلاء الآخرين

بعدما أكمل في هذا العام، الايرل رتشارد، جميع الاستعدادات الضرورية من أجل رحلته إلى القدس، ذهب إلى دير القديس ألبان، ودخل إلى بيت هيئة الرهبان، ورجاهم تقديم المساعدة بصلوات الرهبان، وذهب من هنا إلى لندن، وكان ذلك فيما بين يوم الصعود، وأحد الشعانين، وقال وداعاً لأخيه الملك، وإلى النائب البابوي، وإلى بقية النبلاء، وأسرع بعد ذلك الخطى نحو دوفر، ووضع الملك تحت رعايته هنري ابن الايرل وكذلك ممتلكاته، ورافقه النائب البابوي مع عدد كبير من النبلاء، والأساقفة ورجال الدين في رحلته إلى شاطىء البحر، حيث عهدوا به بتقوى إلى التوجيه اللاهوتي، وبقي الراهب ثيودوريك، رئيس الاسبتارية ملازماً له، وكأنه مرافقه غير المفصول عنه، ودليله، وأقلع في الوقت نفسه عدد كبير من نبلاء انكلترا وكان من بينهم وليم لونغيوسبي Longuespee, ايرل أوف السبري، وعدد كبير من البارونات والفرسان، الذين ارتبطوا بهم بحكم أنهم قادتهم ومقدميهم.

ملك فرنسا يستقبل الايرل رتشارد بتشريف عظيم

ووصل الايرل رتشارد إلى شواطىء القارة، فدخل إلى الأراضي الفرنسية، وأخذ طريقه نحو الملك، وعندما بات قريباً، وصل الملك مع أمه ب. B, وكثير من نبلائه لاستقباله بسرور وبهجة، واستضافه في قصره، واحتفل معه، وكأنه قريب محبوب له، وأثقله بالهدايا الملكية، كما أنه، لدى مغادرة الايرل أرسل رئيس خيالته ليكون حامياً له ودليلاً،

خـــلال أراضيـــه كلهـــا، وقـــد زوده بشكـــل وافـــر، وبتشريف بجميع الضروريات للرحلة، وقدم له المأوى ولأتباعه حتى عبر الرون بسلام.

وخـــرج سكان أفينون أيضـــاً إلى استقبـــاله، بمسيرات سرور كبيرة، وبكرم ودون مقابل عـرضوا عليه تقديم الضيافـة له في مدينتهم، وذلك على نفقتهم، ثم أخـذ بعـد ذلك مـراكب في فيين Vienne, مقـــــرراً الابحـار نزولاً على الـرون إلى مـدينة آرل Arles, لكن سكان فيين والمدن الأخـرى المجاورة، طلبـوا من الايرل رتشارد أن يبيعهم قـوارب عبـوره، وأنهم سـوف يدفعـون له ثلاثة أضعـاف قيمتهم، ولدى رفض الايرل أن يفعل ذلك، أعلنوا أنه ليس تاجـراً، فاستـولوا على القوارب، واحتفظوا بهم بالقوة، وغضب الايرل لذلك كثيراً ومع ذلك تابع رحلته بقدر ما أمكنه ووصل إلى مـدينة آرل، وندم سكان فيين فيها بعد —مع أن ذلك جاء متأخـراً —لذنبهم العظيم الذي اقترفوه، وأرسلوا المراكب التي انتـزعـوها من الايرل، وأعـادوها إليـــه في بيـوكير Beawaire, لكن الايرل، قام وهو مغضب فـدمرهم جميعـاً، وغضب كونت طولوز كثيراً لإلحاق هذا الأذى بالايرل رتشارد، في ممتلكاته، لأنهما كانا أقرباء.

كونت بروفانس يستقبل الإيرل رتشارد

وعندمـا علم كونت بروفـانس، والد ملكة انكلترا، باقتراب وصـول الايرل رتشـــارد، خـــرج مـن تاراسكون Tarasconلاستقبـــــــاله بسرور وبهجة، وكان مستعداً لخدمتـه، وليقدم له كل لطف ممكن، وكان يأمل أن يتلقى مساعـدة منه ضد كـونت طولوز، الذي كان معـه بحالة حرب، ولأنه تعرض بسببه إلى مخاطر كثيرة.

زيارة الإيرل رتشارد لسينت جايل

وبعدما قطع الايـرل رتشارد هذه المسافات، وعرف أنـه لم يعد بعيداً عن مدينة سينت جايل (صنجيل)، بادر مسرعاً إلى هناك ليقدم تعبداته،

ووفق الطريقــة نفسهـا، عندمــا وجـد نفســه لديه وقت قصير، حضر الاجتماع العام للرهبان السسترشيـان، وصرف نفسه بكل تواضع لسماع صلواتهم وحضـورها، ولتقـواه وتعاطفـه منحهم دخـلاً سنوياً مقـداره عشرين مـاركــاً لتحسين أوضـاع الطائفـة، وذلـك حتى يتمكن بفضل القديس جايل أن يعبر بسلام ويمر خلال مخاطر البحر.

البابا يمنع الإيرل رتشارد من الإقلاع

عندما وصل الايـرل رتشارد إلى سينت جايل، تقـابل مع ناب بابوي ورئيس أساقفـة آرل، اللذان منعاه بموجب سلطات البـابا من الاقلاع، وأصيب الايرل تجاه ذلك بدهشـة عظيمـة، وأجـابهما أنه فيما مضى آمن بوجود صـدق في كلام المقام الرسـولي، وبالمبشرين الذين أرسلهم، وهو الآن غاضب كثيراً تجاه هذا المنع وقـال: «لقد عملت جميع الاستعدادات الضرورية من أجل عبـوري، ولقد ودعت أصـدقائي، وأرسلت أمـوالي وأسلحتي أمـامي، وجعلت سفني جـاهزة ومحملة بالمؤن، والآن تغيرت اللهجة، حيث مـا أن وصلت إلى شاطىء وأنا على وشك الاقـلاع، قام البابا، الـذي يدعى خليفة يسـوع المسيح ونائبه، فخـرق وعده، ومنعني من الاستمـــرار في خـــدمـــة المسيح، مـع أنني الآن مستعـــد لجميع الطوارىء».

وعندمـا رأى النواب البابويون أنهم لايستطيعـون منعه من الاقـلاع، نصحوه بأن يترك ميناء مرسيليا، وأن يقلع بحـرياً من ميناء أيغيو مورتي Aigues Mortes, وكـان هذا المكان الأخير ممقـوتاً من الجيش كله، بسبب قــذارته وأحــوالـه غير الصحيــة، ولذلك أقنعــوا الايرل بالاقلاع عن فعـل ذلك، وبناء عليه، قام على الرغم مـن الحجج الزائفة والمتناقضـة للنواب البابـويين، وبمقت منه وازدراء لازدواجية الكنيســة الرومانيــة، بالتمسك بروح متألمة كثيراً بنيـة الابحار من مرسيليا، وبناء عليه ذهــب في المقام الأول إلى روشي Roche, حيث استعد وحمّل

سفنه، كما أنه أرسل رسالة إلى الامبراطور بوساطة رسل خاصين، هم الفارس روبرت دي تويني Twenge, وآخرين، حيث أخبره عن أحواله، وعن بدع البابا الماكرة، وفي الأسبوع الذي تقدم على ثمانية ميلاد القديسة مريم، ركب متن البحر مقلعاً.

حرب بين ولدي للويلين

في يوم عيد القديس غوثلاك Guthlac, [١١- نيسان] في هذا العام، تفجرت حرب في ويلز بين ولدي للويليين، واستمرت من دون توقف، من اليوم المتقدم ذكره أعلاه، الذي قيل فيه غادر الأمير المذكور الحياة، حتى نهاية يوم عيد القديس ميكائيل، أي حتى تمّ أخيراً وضع واحد من الأخوين في السجن، وعند ذلك أوقف الويلزيون عنفهم، لأن داوود، الذي كان حفيد الملك، استدعى خيانياً أخاه الأسن منه للتشاور معه، من أجل التوصل إلى بعض الشروط المناسبة للسلام، ولدى قدومه للتفاوض تحت كفالة أسقف بانغور، أمر به أخوه داوود فاعتقل وسجن.

انتخاب بطرس دي ايغيو بلانشي أسقفاً لهيرفورد

وفي يوم عيد القديس بارثولوميو جرى انتخاب المعلم بطرس دي ايغيو بلانشي Aigueblanche, أسقفاً لهيرفورد Hereford, وكان من بروفانس من حيث المولد، وكاهناً مقرباً من وليم الأسقف المنتخب لبلنسية وقهرماناً لديه، وبعد مضي بعض الوقت استقبل بتشريف عظيم من قبل الملك، وجرى تثبيته في كرسيه من دون أية مشاكل أو معارضة، وكان هناك كاهن من ليشفيلد Lichfield, وكان رجلاً جديراً بالثناء، وقد جرى انتخابه من قبل، وقد رأى بأن الأوقات السيئة هي المقبلة، وأن الملك لايقدر أحداً سوى الأجانب، لذلك تخلى عن دعواه، وعهد بإدارة كنيسته إلى الرب، وإلى إخوانه الرهبان.

ولادة ابنة الملك

بعد انتهاء أيام الاحتفال المهيبة بعيد الملائكة المقدسين [٢- تشرين أول] ولدت الملكة إليانور ابنة إلى الملك، أعطيت اسم مرغريت، الذي كان اسم خالتها، ملكة فرنسا، ولأن الملكة دعت أثناء آلام الولادة القديسة مرغريت.

تكريس آندلم رئيساً لأساقفة أرماغ

وفي العام نفسه، وفي يوم عيد القديس جيروم [٣٠- أيلول] جرى تكريس المعلم آندلم Andelm, وكان من أهل كولون، وكان أيضاً رجلاً متميزاً بأخلاقه وثقافته، تكريسه في ويستمنستر، بشكل مهيب رئيساً لأساقفة أرماغ Armagh, (الكنيسة المطرانية لايرلندا كلها)، وكان ذلك بحضور الملك، والنائب البابوي، وعدة أساقفة، وكان أسقف ووركستر متولياً للأعمال الرسمية.

تكريس معبد القديس بولص في لندن

وجرى في يوم عيد القديس ريميغوس [١٢- أيار] تكريس كنيسة القديس بولص في لندن من قبل روجر أسقف المدينة، وكان ذلك بحضور الملك، وعدد كبير من الأساقفة والنبلاء الذين شاركوا جميعاً في ذلك اليوم بمأدبة احتفالية مع الأسقف والكهنة، وجرى منح جميع الذين قدموا وصلّوا بتقوى غفراناً لمدة أربعة عشر عاماً، وجرى تأكيد هذه الأشياء كلها وتثبيتها من قبل النائب البابوي، والأساقفة الذين كانوا حضوراً.

وفاة توماس دي ميولتون

وفي صيف هذا العام، غادر توماس دي ميولتون Muleton هذه الحياة، وكان فارساً مجرباً في البراعة الحربية، عندما ابتسم له سن

الشباب، وعندما صار متقدماً أكثر بالعمر، بات رجلاً لديه وفرة كبيرة من الممتلكات، وبارعاً كثيراً في القانون المدني، وأثناء رغبة هذا الفارس في توسيع أراضيه، غالباً ما تسبب بأضرار كبيرة، وخسائر لدير القديس ألبان، الذي جاورت مزارعه مزراعه.

نشوب خلاف بين دير القديس ألبان وبعض الفرسان

وكان في هذا العام هناك بعض الفرسان مع آخرين، كان دير القديس ألبان بلطف منه قد منحهم الإذن للصيد لبعض الوقت في مطردة حرة تابعة للقديس ألبان، وكانت قد منحت إلى الكنيسة منذ وقت طويل مضى، وجرى تثبيت ذلك من قبل الملوك، ومن قبل مؤسسيها، وذلك كما تبرهن على ذلك الكتابات النبيلة للكنيسة، ولقد أساء هؤلاء استخدام المعروف الذي منح إليهم، وقاموا وهم مصابون بعدوى الشر ونكران المعروف، فادعوا بأن هذا المعروف صار عادة، وحقاً دائماً، وسعوا لحرمان الكنيسة من حقوقها، أو بالحري لحرمانها من ميراثها، وقام الراعي جون، الذي كان آنذاك متسلماً للدير، والذي كان ملتزماً بموجب حق التكريس باسترداد الامتيازات المتضررة، والممتلكات الموزعة للكنيسة، بتقديم شكوى جادة حول هذه القضية إلى الملك، وحصل منه على المصدقة التالية ضدهم.

إجراءات محاكمة مطردة القديس ألبان

«من هنري، بنعمة الرب، إلخ، إلى عمدة هارتفورد Hertford, تحيات:

إذا قام راعي دير القديس ألبان فعهد إليك بمتابعة دعواه، قم عندئذ باستدعاء، بوساطة استدعاء صالح وقانوني غيوفري دي تشايلدويك Childwick, وأولاده: وليم، وجون، ورتشارد، ووليم دي غورهام Gorham, وتوماس دي ووز Wauz, وولديه: وولتر،

وهنري، وآدم دي سـومـري Sumery, وداوود دي غــــريبنفيل Grapenville, للظهـور أمام رجـال عدالتنا، في أول تبليغ، عندمـا يأتون إلى هذه المناطق، ليظهـروا السبب لماذا اصطادوا، وأمسكوا أرانب من دون إذنه (الراعي المذكور) في المطردة الحرة التابعـة لكنيسة القديس ألبان، ولتكن معك هذه الاستدعـاءات وهذه المذكرة. شهدت بنفسي في ويستمنستر، في هذا اليـوم السـادس والعشرين من حـزيران، في السنة الرابعة والعشرين مـن حكمنا. عمل في هارتفورد، أثناء شهـر واحد من عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، أمام وليم أوف يورك، عمدة بيفرلي وهنـري أوف باث، وروجـــر دي تيركبي Turkby, وغيلبيرت بريستون Preston, مسـؤول عدالتنا، في دائـرة تلك الكونتيـة، في السنة الرابعة والعشرين من حكم الملك هنري، ابن الملك جون».

دعوة للمثول أمام العدالة

جرى استدعاء غيـوفري دي تشايلدويك، وأولاده: وليم، ورتشارد، وغيـوفـري، ووليم دي غـورهـام، وتومـاس دي ووز، وولديه: وولتر، وهنري، وآدم دي سـومـري، وداوود دي غريبنفيـل، بموجب مـذكـرة مـولانا الملك، للاجـابة على شكوى راعي دير القـديس ألبان، لقيـامهم بالصيد، وإمساك أرانب في مطردته الحرة التابعـة لدير القديس ألبان من دون إذنه، وكـانت شكوى راعي الـدير هي، أنه في يوم الأربعـاء التـالي قبل عيـد القديس تـوماس الرسـول، لقـد جاءوا مع كـلاب، وأمسكوا أرانب في مطرده، ومثل هذا لقد اصطادوا في الحقول الوارد ذكرها أدناه التابعـة له، في المطردة وهي: في حقل القديـس ألبان، وفي حقل كنغبري Kingsbury, وفي حقــل بـــارك Park, ولانغلي Langley, وكـاشيـوبري Cashiobury, وركمانوورث Rickmansworth, وكــوديكوت Cuddicote, ووولدن Waldon, وســـاندردج Sandridge, وبـــارنـــت Barnet وردبـــــــورن Redburn,

وأراضي ممتلكاته وممتلكات أتباعه، وذلك على الرغم من امتيازه، الذي تمتع به من أيام الملك هنري الأكبر، والذي من أجله قد دفع غرامة قدرها أربعين ماركاً، وجاء غيوفري وأولاده، وآدم دي سومري، ودافعوا عن هذا الاعتداء والأذى، وقالوا بأنهم هم وأسلافهم منذ أيام الاستيلاء قد اصطادوا في الأماكن المتقدم ذكرها بموجب امتياز، وفي أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، وفي أيام الملك جون وفي أيام الملك الحالي هنري، وهم مستحوذون على هذا الصيد كامتياز لهم، وأنهم يقدمون خمسة ماركات إلى مولاهم الملك، هنا، حتى يمكن عمل إجراء بحث فيها إذا كان غيوفري المتقدم ذكره، وأسلافه وتوماس دي ووز وأسلافه، وآدم دي سومري وأسلافه، قد استحوذوا على هذه المصيدة كامتياز في أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، ومنذ ذلك الحين، أو أنهم استحوذوا على امتياز الصيد هذا بالقوة، أو بإذن من أسلاف راعي الدير المقدم ذكره، أو بوساطة البحث، وقد جرى تسلم ادعائهم، وأعطى راعي الدير المذكور خمسة ماركات أيضاً، للقيام بالبحث المذكور، وجرى تعيين يوم هو في ثمانية عيد القديس ميكائيل، من أجلهم للظهور أمام مسؤولي العدالة المذكورين في كمبردج.

الإجراءات في كمبردج في ثمانية عيد القديس ميكائيل أمام مسؤولي العدالة المتقدم ذكرهم

وكان المحلفون الذين جلسوا للبت في القضية، بموافقة الفرقاء هم: بطرس دي ثالي Thaly, ووليم ريفيل Revel, ووليم دي ثورليغ Thorleigh, وسيمون دي فورنل Fornell, وهنري دي هولول Holwell, ورالف فتزفولك Fitzfulk, ووليم دي سينت ليغر Leger, وبطرس دي ول Wells, ورتشارد موسكت Muschet, ووليم دي هولول، ولمعرفة فيها إذا غيوفري دي تشايلدويك، وأولاده غيوفري، ووليم، ورتشارد وتوماس دي ووز

مع ولديه: وولتر، وهنري، وآدم دي سومري، وأسلافهم، قد امتلكوا امتياز الصيد منذ أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، في بلدة القديس ألبان، وكنغبري، وساندردج، وتايدنهنغر Tidenhanger, وبارك، وكاشيوبري، ولانغلي، وركمانوورث، وكوديكوت، وولدن، وبارنت، ورد بورن، وهل ذلك بموجب امتيازهم، كما ذكر غيوفري المذكور مع البقية، أو هل هم يمتلكون حق الصيد هذا بالقوة، أو بموجب إذن من أسلاف راعي دير القديس ألبان، أو بموجب حق التوريث كما أفاد الراعي المذكور.

ولقد قالوا —بناء على يمينهم— بأنهم قد فهموا بأن رعاة دير القديس ألبان قد احتفظوا بمطردهم حراً في المدينة المتقدمة الذكر، في أيام الملك هنري، جد الملك الحالي، بسبب أنهم —كما قالوا— قد تولوا فحص أحد الصكوك، كان قد منحه الملك هنري المذكور، جد مولانا الملك الحالي إلى بيت رهبان القديس ألبان، والذي ذكر فيه الملك المذكور امتلاك المطردة المذكورة في البلدة المتقدمة الذكر، والتي استحوذ عليها رعاة البيت المذكور في أيام الملك هنري الأكبر، جد الملك الحالي.

وقالوا أيضاً بأن غيوفري المذكور، أو الآخرين، أو أسلافهم، قد قاموا بأعمال مطاردة في البلدات المتقدم ذكرها، وكان ذلك يجري أحياناً ولبعض الوقت بموجب اذن من الرعاة، وأحياناً على الرغم منهم، ولذلك كان الرعاة المذكورون يقومون أحياناً، وبشكل مؤقت باعتقال كلابهم وخدمهم، ولقد ضربوا وأساءوا معاملة أتباعهم، مما تسبب في بعض الأحيان بنشوب معارك ووقوعها في تلك الكونتية، ثم كان يجري استرداد الكلاب المحجوزة، ويعاد السلام فيما بينهم بعد ذلك.

ولقد قالوا بشكل واضح بأنهم —الفرقاء المتقدم ذكرهم— لم يقوموا قط بأعمال مطاردة في المطردة المتقدم ذكرها، بموجب أي حق امتلكوه، أو يمكن أن يمتلكوه، ولذلك تقرر بأن راعي الدير وخلفائه سوف

يتملكون من الآن فصاعداً المطردة في القرى المتقدمة الذكر، بلا نزاع وإلى الأبد، وهي متحررة من أي ادعاء من غيوفري المذكور مع الآخرين، أو ورثتهم، إلى الأبد.

وسوف يقوم غيوفري وجميع الآخرين بالتعويض بشكل خلقي على الراعي المذكور مقابل خسائره وذلك بدفع مبلغ أربعين ماركاً، ويتوجب على عمدة هارتفورد، بموجب مذكرة مولانا الملك أن يتدبر جباية المال المذكور من أراضيهم وقطعانهم، ومن ثم أن يجري دفعه من دون تأخير إلى الراعي المتقدم الذكر.

انتخاب فرسان محلفين

جرى انتخاب اثني عشر فارساً بحزام، لدى اجتماع الهيئة القضائية، وبموافقة الفرقاء، ووافق الفرقاء على الالتزام بقرار عشرة منهم، لأن اثنين لم يظهرا، وهما رتشارد بوكس Box, ورتشارد بوتيل Butell صاحب مالدون Maldon في اسكس.

مذكرة المطردة

«من جون أوف وادنغتون Waddington عمدة هارتفورد واسكس إلى المحبوب منه جون دي بيفوري Beyforey, نائبه، تحيات: لقد تلقيت الترخيص التالي من مولانا الملك، ومحتواه، ومقاصده هي كما يلي:

من هنري، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، إلى عمدة هارتفورد واسكس، تحيات: نحن نأمركم أن تتدبروا تحصيل مبلغ أربعين مارك من أراضي وقطعان غيوفري دي تشايلدويك، وأولاده: وليم، وغيوفري، ورتشارد، وتوماس دي ووز، وولديه: وولتر، وهنري، وآدم دي سومري، وداوود دي كاربنفيل، في نيابتك، ومن ثم دفع ذلك —من دون تأخير— إلى راعي دير القديس ألبان، مقابل الخسائر التي

عـــاني منهـــا الراعي المذكـــور بسبب الخلاف الـذي نشب بينه، أي بين الراعي المذكور، وبين غيوفري المتقـدم الذكر، ومعـه: وليم، ورتشارد، وتومـاس، وهنري، وآدم، وداوود، فيما يتعلق بمطردة الراعي المذكـور. شهـدت بنفسي، إلخ. وإنني بناء عليـه آمـرك بتنفيـذ أوامـر مـولانا الملك»إلخ، وجرى التفـوه بالحكم في يوم عيد القـديس ديونيسيوس، في حوالي الساعة التاسعة.

وضع امبراطور القسطنطينية

أرسل في هـذا العـام امبراطور القسطنطينيـة رسـالـة إلى الملك الانكليزي، بحكم أنه صديقه الخاص، وقـريبه، بأنه وصل بنجاح وبقوة كبيرة إلى المناطق الاغـريقيـة، يحيط به جيش قـوي من الفـرنسيين، وان اسمه، أي اسم بلـدوين، أصبح مرعبـاً إلى جميع أعدائه، وذكـر أنه ألقى الحصار على مدينة كبيرة جداً، ليست بعيدة عن القسطنطينية، وأنه إذا ما تمكن من اخضـاعهـا لحكمه، فإن جميع المنطقـة المحيطة لسفـر ثلاثة أيام سـوف تسقط بين يـديه، وأن طريق الوصـول إلى القسطنطينيـة سـوف يصبح مفتوحاً وخالياً من الخطر، وأن الحرب تتقدم بين يديه.

استدعاء النائب البابوي إلى البلاط الروماني

وفي هذه الآونة، جرى استدعاء النائب البـابوي، بوساطة مذكرة من البـابا، بأن يأخذ الطريق إلى بلاط رومـا، حالما يتمكن من انجـاز العمل الذي هو بين يديه، لأن ذلك البـلاط كـان ينتظر عقـد مجمع عـام، وأن عليه الاسراع بقـدومه بقـدر ما يستطيع، لعقد مبـاحثات حـول القضايا الصعبـة، مع إخـوانه، الذي يحتـاجـون كثيراً لرأيه الحكيم، ولأن يكون بينهم، مظهـراً نفسـه في وسطهم قبل وصـول الآخـرين، وقـام النائب البـابوي، بناء على ذلك، وفي إطاعـة منه لهذا الاستـدعـاء، بدون توقف فجمع كميـات كبيرة مـن القش، وأكـوام من الحطب، وأشيـاء أخرى

ضرورية من أجل تمضيــة الشتـاء، ولم يتــوقف عن استخــراج أمـوال الوكالات من كثيرين، الذين كـانت مقتنياتهم قد أنهكت تقـريباً، مما زاد أحزانهم ودهشتهم.

وصول بطرس لى روج من سكوتلندا

في حــوالي يوم عيــد جميع القــديسين، قـدم مـن سكوتلندا لي روج Rouge, وروفينوس Ruffinus, جالبين معها ثلاثة آلاف باوند من أجل استخـــدام البـابا، وقــدم من جهــة أخـــرى مــوميلينوس Mumelinus, جالباً معه أربعـة وعشرين رومانياً ليتسلموا منافع في انكلترا، وبهذه الحوادث صــار الانكليــز في أســوأ وضع، وتـورطوا وسحقـوا، وباتـوا كأنهم بين حجـري طاحــون من الجهـة الأولى، وبين حجرين آخرين من الجهة الأخرى، لأن من الجهة الأولى كان بطرس لى روج، وكان مـن الجهة الآخرى مـوميلينوس، ومن جهة أخـرى الملك، ومن جهـة آخرى النائب البـابوي الذي استمر في مضـايقة القسـاوسة، ورجال الدين، والرهبان، وقد سمح ملك سكوتلندا لهذه المضار بالجواز بصمت، مع أن ما من واحد من أسلافه قد تحملها قط.

الإيرل غ. G يتصالح مع الملك

في صيف هذا العــام، عندمـا كـان الأيرل رتشــارد في لندن، وكـان يتبـاحث مع أخيه الملك، حــول هل عليـه أن يسـافـر عبر ايطاليـا، أو مرد بليا، وتمّ أخيراً بناء على ترتيبـات الراهب ثيودوريك، رئيس رهبان اسبتـارية القـديس يوحنا، وتقـرر القيـام بالعبـور، مع الراهب المذكـور كدليل له، وأن يقلع على ظهـر سفينة، لعبور البحر المتـوسط، وبينما كان هذا يدور بذهنه، قدم غ. G مارشـال إلى الايرل المذكــور، وعرض أن يقوم بحضـور الايرل بتبرئة نفسه من جميـع التهم التي عملت ضده، من قبل أي كان، وأن يقدم ترضية للملك قانونية أمام البلاط كله، وفقاً

لقراره، حـول القضية التي اشتكى منهـا، وبناء على ذلك، توسط الايرل رتشارد من أجلـه لدى الملك، الذي وضع جانباً حقده وغضبـه ضده، وإنه على كل حال من المعتقـد أن الايرل مارشـال، قد نال هذه الحظوة، بوســاطة الهدايا، إلى كل من الملـك، والايرل رتشـارد، وفقــاً لما قــاله الشاعر:

«إن أفضل الطرق، عليك أن تؤمن

لنيل الحظوة، هي أن تدفع»

موريس مسؤول العدالة يتدبر مصالحة مع الإيرل غ مارشال

وعلم مـوريس، مسـؤول العـدالـة في ايرلندا، بشكل صـادق بجميع هذا، فقدم بكـل سرعة إلى الملك، الذي كان مقيماً آنـذاك في لندن، وكان راغبـاً في تهدئة مشـاعر الايرل غ مـارشـال، الذي كان يعلم بأنها مثـارة ضده، بسبب مـوت أخية الايرل ر. R, الذي قتل في ايرلندا، وقبل كل شيء جـاء مستعداً لتبرئة نفسـه بكل طريقة بـالمحاكمة أمـام الملك، وأمـام بلاطه، من قتل الايرل المذكـور، وذلك وفقـاً لقرار النبـلاء، وأن يقـوم بشكل قانوني بنفي ذلك العـار عن نفسـه، لأنه يعرف نفسـه غير ملطخ بها، وإلى جانـب هذا، ومع أنه يعلم بأن ضميره كان نقيـاً، وعد، أنه في سبيل السلام، ومن أجل إعادة تأسيس صـداقتهم الماضية، سوف يؤسس ديراً فخماً، لصـالح روح الايرل المذكـور، من دون أية اضـاعـة للوقت، وأنه بكرم سوف يضفي عليه ممتلكات ثمينة، ويجهزه بجمع من الرهبان.

وعندمـا وجـد الملك الثبات في كـلامـه، وعلم بنواياه التقيـة، أرسل خلف الايرل غ. مــارشـــال، وتعهـــد أن يتـــولى بنفســـه أعمال الشفيع والوسيط مـن أجل إقــامــة الســلام، وادعى بـأن النص الذي ورد في الانجيل، حيث أعطي قرار مولانا في قضيـة الخادم وأتباعه الخدام، كان

صحيحاً تماماً، وينطبق على هذه الحالة، وأعلن بإصرار —وفقاً للقرار اللاهوتي— بأنه هو —أي المارشال— كان غير جدير بعفوه، مالم يقم بمنح الشيء نفسه، بمشاعر طيبة، إلى جاره، عندما يطلب ذلك منه كتوسل، وهو الذي كان راغباً في تبرئة نفسه من الجريمة التي ألصقت به، لأنه أكد أمام الرب، بأنه لم يكن ملطخاً بذلك القتل الذي اتهم بأنه اقترفه، فبتلك الفرية قد أسيء إلى سمعته بدرجة كبيرة، وهكذا أمكن بوساطة الملك والنبلاء، بأن مال الايرل غ إلى الاصغاء إلى التوسلات وإلى صوت العقل، وبحكم أن موريس، تواضع بحكمة بنفسه، تمت إعادة تأسيس السلام والوئام بين الاثنين.

أمير كونوت يشتكي إلى الملك

وفي هذه الآونة نفسها، قدم أمير صغير من منطقة ايرلندا التي اسمها كونوت Connaught, إلى الملك في لندن، وتقدم بشكوى ثقيلة أمام الملك وأمام بلاطه، حول الأضرار الذي أنزلت به من قبل جون دي بورغ Bourg, الذي عاث بدون توقف فساداً بأراضيه بالنار والسيف، ومن أجل جميع هذه الأضرار، طالب الآن بتقديم العدل، وذلك بضبط العدوان الجريء لذلك النبيل، بواسطة السلطات الامبراطورية، والتمس من الملك أن لايسمح لرجل من رعيته المخلصين، الذي تولى دفع جزية سنوية مقدارها خمسة آلاف مارك إلى مملكته، وذلك منذ أن سمح له بالاستحواذ على أراضيه بسلام، وتثبيت ذلك من قبل الملك جون، الذي أخضعه بالقوة هو ومملكته، وجعله من رعاياه، أن يسمح بشكل غير عادل بأن يحرم من ميراثه بوساطة (حسبما دعاه) مغامر وضيع.

وأصغى الملك باهتمام إلى مطالبه العادلة، وأمر موريس المذكور، الذي كان آنذاك بحضرته، باقتلاع نباتات شجر الجميز غير المثمرة، التي زرعها هيوبرت، ايرل كنت —في الاستخدام المفرط لقوته— في تلك

المناطق، وأن لايسمح لهم بمتابعة النمو، كما أنه كتب أوامر إلى نبلاء ايرلندا، بطرد جون دي بورغ من أراضيهم، وأن يعينوا ملكاً، ويقيموه في مملكتهم على أسس من السلام، وبهذه الطريقة، وبوساطة آراء الملك، ارتفعت آمال الأمير المتقدم الذكر، وقد عاد إلى ممتلكاته.

البابا يسعى للانسحاب من هدنته مع الامبراطور

علم في نهاية هذا الصيف النائب البابوي، بأن البابا قد وافق على هدنة مع الامبراطور تستمر حتى المجمع العام، الذي كان سينعقد في الفصح المقبل، فغضب غضباً كبيراً، وأرسل رسالة إلى قداسته، بأنه قد بات مشوشاً في تفكيره، وجباناً، حتى أن معنوياته قد تحطمت، وأنه غرق في حالة من اليأس، ولم يكن هذا من دون سبب، لأنه قد جمع الآن من فرنسا وحدها من المال مايكفيه ويمكنه من دون خوف أن يتابع الحرب ضد الامبراطور لمدة سنة كاملة، ولدى سماع البابا هذا ندم، وبات آسفاً لأنه وافق على الهدنة، واستدعى المعلم جون دي كولونا Colonna, والمعلم ريموند، رئيس كرادلته، الذي كان الوسيط في ترتيب الهدنة، وهو الذي تدخل مع الامبراطور، وخاطب الأول بينهما، وهو جون وقال:

«إنني خجل من نفسي لأنني منحت هدنة إلى عدو الكنيسة هذا، فردريك، وبناء عليه، بما أنك كنت المترجم بيننا في هذه القضية، عليك الذهاب بكل سرعة إليه، وأخبره، بأنني لم أختر الموافقة على الهدنة، وتحداه بجرأة، وأعلن بأنني سوف أكون عدوه من الآن فصاعداً، كما أنا الآن، وكما كنت من قبل»، وعلى هذا ردّ جون قائلاً:

«بعيداً عن التصديق سماع مثل هذا الكلام المتقلب من فم رجل عظيم مثلك، وأن يرسل هذا إلى مثل ذلك الأمير العظيم، خاصة من قبلنا نحن الذين لانعد أشخاصاً عاديين، وعلى هذا التقلب، وهذه

الخطة الخيانية أنا لن أقدم موافقتي بأية طريقة من الطرق، بل إنني أعارضها بثبات»، وعند ذلك قال له البابا: «إنني لاأعدك بعد الآن بمثابة كردينال لدي»، وعلى هذا رد جون قائلاً: «وأنا لن أستمر بالنظر إليك على أنك بابا»، وبهذه الصورة غادر وذهب بعيداً، وتحول من صديق إلى عدو، وعلى هذه الصورة نفسها حدث عندما قال أحد الأباطرة غير العادلين إلى واحد من شيوخه: «اخرج، إنك لم تعد شيخاً لدي» وعلى هذا رد الشيخ بجرأة: «وأنت أيضاً لم تعد امبراطوري»، لأنه كما أن عضو الرعية مرتبط بمولاه، كذلك المولى مرتبط بالرعية.

كيف جمع النائب البابوي مبلغاً كبيراً من المال في فرنسا

وعندما بات هذا معروفاً من قبل الملك الفرنسي، أمر بجميع المال الذي كان النائب البابوي قد جمعه من أراضيه، بناء على إذن منه، واستخرجه من جماعة رجال الدين، بكلمات معسولة، وبتهديدات قاسية، أمر بالاحتفاظ به، حتى يرى نتيجة الأحداث، ولكي يقوم البابا، الذي كان يدعى بنائب المسيح على الأرض، على الأقل بالبرهنة بالصدق في كلامه بهذه القضية، ولذلك استمرت الهدنة غير مخروقة بينهم، باستثناء ماتعلق بأعداء الامبراطور، أي الميلانيين، وبعض الناس من الايطاليين الآخرين، الذين حولهم لم يكن من شأن البابا أن يقلق، لأن شؤونهم كانت قد سويت في البداية، لدى كتابة المعاهدة.

براعة البابا ومكره في جباية المال في انكلترا

وكان البابا يرقب بدقة كل فرصة من أجل جمع المال، ولأنه كان يتوقع غنيمة كبيرة من انكلترا، وكان ينتظر ذلك، أرسل رسالة إلى النائب البابوي، بأن لايحاول حشد جميع كل رجال الدين مع بعضهم، كما فعل من قبل، فبذلك لن يتمكنوا من تشجيع أحدهم الآخر، أو

الاعتماد على أسبابهم المتقدمة واعتراضاتهم، ومحاولة ذلك ثانية لمعارضة خططه، بل الذي عليه جمع كل منهم واحداً واحداً والسعي هكذا لتطويعهم للقبول بإرادته، والقيام أولاً بإضعاف ثبات الملك، ذلك لأنه هو الذي وقف من قبل إلى جانب رجال الدين وأعطاهم الدعم، وبذلك يصبح ضعيفاً إلى درجة الدمار.

يقظة النائب البابوي في جمع المال

ولدى تسلم النائب البابوي لهذه الرسالة، تحول من بارع بالأذى إلى أكثر براعة، وقام بموجب سلطات البابا، فجمع كتلة رجال الدين كلهم، الذين بانكلترا، وأمرهم بالظهور أمامه في لندن، في يوم عيد جميع القديسين، وبناء عليه، اجتمع في اليوم المحدد جميع رجال الدين والرهبان، ووقتها وجدوا الملك مضاداً لهم، وظهر بمظهر عدو مكشوف بالنسبة إليهم، ذلك أنه أصبح بالنسبة لهم —وهذا كان حاله— ساق قصبة، من يتكيء عليها وهو واثق، يتعرض للجراحة من شظاياها، وبناء عليه، فإن الرهبان، وكذلك رؤساء الشمامسة، ورجال الدين الذين لديهم منافع، الذين جاءوا إلى هناك للوقوف في وجه النائب البابوي ومعارضته، والذين كانوا معادين له بروح عالية على أساس الترافع إلى المجمع القريب الانعقاد، عندما رأوا أنهم أصبحوا بمثابة شياه سوف يلقى بها بين الأنياب الدموية للذئاب، تنازلوا وقدموا موافقاتهم للكلام المعسول والمغوي للنائب البابوي، الذي حوله فيما بعد إلى رماح عدوانية.

موت رهبان درم في روما

وحدث في تلك الآونة، أن رهبان درم، الذين كانوا مقيمين في روما، للحصول على تثبيت لانتخابهم، قد عانوا كثيراً من الأذى، وذلك بسبب المعيقات التي ألقيت في سبيل اكمال أعمالهم من قبل الملك،

وبذلك باتوا مرهقين من التأخير، حيث كانوا ينصرفون وقد تملكهم الأسى، لذلك سقطوا مرضى، والتزموا بمضاجعهم، حيث انطبق عليهم كلام سليمان في قوله: «الروح المحطمة تجفف العظام»، ولذلك مات أربعة من الذين كانوا مقيمين هناك، وهم كان قد جرى اختيارهم من قبل اخوانهم، لأنهم كانوا يعدون أكثر حكمة من البقية، ولحق الموت أيضاً بعض رجال الدين والمرافقين الذين كانوا بارعين في القانون، والذين أنيبوا لمساعدتهم وخدمتهم ومواساتهم، وهكذا هلك الفريق الأكثر نفوذاً في الدير، وكان ذلك لاصابتهم بمرض عادي أو لحزنهم وأساهم الروحي، أو لاصابتهم بوباء، أو أنهم سمموا، فهذا كله غير معروف.

وعندما سمع رئيس رهبان درم بهذه الحالة وكذلك الأسقف المنتخب، قهرهما الحزن، وأصيبا بالرعب، بسبب أن الملك المسبب الرئيسي لها، لأنه لم يسمح للكنائس الشاغرة بالتكريس ومع أنه فعل ذلك، يبدو أنه كان وراء هذه المأساة الكبيرة ومدبرها، لذلك تخلى الأسقف المنتخب على الفور، واستقال عن طواعية من منصبه، وأعلن أنه لن يعرف السرور ثانية ولا البهجة، وهكذا عندما وجد الرهبان أنفسهم يمتلكون الحرية لانتخاب أسقف آخر، ذهبوا إلى الملك بالطريقة المعتادة، ورجوه أن يزودهم بالوسائل المناسبة، لانتخاب أسقف، ومنحهم الملك هذا المطلب، لكن في الوقت نفسه كما قال الشاعر:

بأوامر مزيجة، ووعود، وصلوات،

على الفور سوف يظهر المولى وتظهر الابتهالات.

ذلك أنه رجاهم بحرارة كبيرة وتوسل إليهم بتسمية، وانتخاب المعلم بطرس دي أيغيوبلانشي الذي هو الأسقف المنتخب لهارتفورد، والذي كان من مقاطعة بروفنسال من حيث المولد، أو انتخاب بونيفيشس

Bonifacius خال (عم) الملكة، وهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن أخلاق ومعارف الرجلين، حيث كانا مجهولين بالنسبة لهم تماماً، والذين عرفوه أنهما كانا من طينة أجنبية، وليس لديهما كفاءة لتبوأ مثل هذا المنصب، ولم تكن هناك حاجة لهما في انكلترا، لأن انكلترا غالباً ما قدمت رجالاً أكفاء ومناسبين لإدارة الكنائس حتى في البلدان الأخرى، ولم تكن بحاجة لاستجداء مثل هؤلاء الناس من خارج حدودها، ومن بلدان نائية.

المسلمون يستطلعون الغيب عن طريق القرعة

وفي العام نفسه، وفي وقت مناسب لممارسة العقائد المدنسة لعلم تحضير الأرواح، أو فن الحساب، كان المسلمون في الشرق يرغبون بالحصول على معلومات تتعلق بالأحداث المستقبلية المرتبطة بالجيش الصليبي، الذي كان يزحف ضدهم في ذلك الحين، وقد اقترب وصوله، فعملوا تضحية، ووجهوا دعوة مرعبة إلى الشياطين، وألقوا قرعة، وبعد اكمال هذا العمل الواهم، قام كاهنهم الأعلى، بنظرة كئيبة، وبصوت حزين متهدج، فخاطب مقدميهم هكذا: «ليكن معلوماً من قبلكم أيها السادة الأقوياء، أن الأقدار معاكسة لنا»، ثم إنه بعدما قام بحركة رمزية وطلب الالهام من الروح القذرة، تابع الحديث الذي كان قد بدأه قائلاً: «لاتدعو النصر الذي نلتموه مؤخراً، وأعطي إليكم من الرب، يغركم كثيراً، ويفرحكم، لأن هناك هؤلاء القادمون، سوف يطلبون بجرأة دماء الذين قهروا على أيديكم مؤخراً، مع كثير من ردات الفعل الانتقامية»، ولدى سماع الحاضرين لهذا اعترتهم الدهشة، وسأل واحد من كبار مقدميهم، محضر الأرواح المتقدم ذكره، من كان مقدم الجيش الصليبي، وعلى سؤاله تلقى الجواب التالي: «إنه واحد من الشباب، قد اقترب وصوله وبات وشيكاً»، ثم قال المقدم للساحر: «هل هو من أسرة ذلك الملك الشهير الذي ألقى بالرعب بالشرق كله، في وقت مضى»؟ وأجابه

الســاحــر: «إنه حفيـد ذلك الملك، ويحمل اسمــه» «وكيف هي سماته؟ وماهي قدرته»؟ «إن حكمته أكبر، لكن قوته أقل، ومع ذلك تزداد قوته يوماً إثـر يوم»، وبهذا استولى الخوف واليأس على الجميع، لكن السـاحر عندمـا رآهـم يبكون بشكل وافـر، وآسفين من دون ضـوابـط تابع يتنبأ قائلاً: «لاتبكوا، فـالذي علينا هو بالحري أن نصلي وأن نأمل، بأن يعاق بشباك ذنوبهم، ومن الممكن للصليبيين، مثمـلا فعلوا مؤخـراً في دمياط، أن يفقدوا حظوة المسيح، ربهم، الذي يحب نقاء الشرف»، وبهذه الطريقة ضعف خوفهم إلى درجة ما.

الميلانيون يحرقون المراطقة بينهم

وقام الميلانيـون في هذه الآونة، من خلال الخوف من العقوبة، وليس من خـلال حب الفضيلة، ولكي ينقذوا اسمهم الصـالح، ومن أجل أن يكونوا متحررين أكثر في الاجابة على التهم التي عملت ضدهم من قبل الامبراطور، فأحـرقـوا الهراطقـة الذيـن سكنوا مـدينتهم بأعـداد كبيرة، وبهذه العمليـة نقص عدد سكان المدينة كثيراً، وذلك بسبب أنهم كـانوا خـــائفين على أنفسهم، لأنهم كـــانوا مثـل بقيـــة الايطاليين من أعـــداء الامبراطور، من الحرمان مـن التمتع بالهدنة، وكانوا واثقين تمامـاً بالبابا، الذي وعـدهم أنه لن يبرم أي صلـح —ولا بأي شكل من الأشكال— مـع الامبراطور، مـن دون أن يخبرهم، ومـع ذلك وجـــــدوا أنفسهـم مرعوبين من صدور قـرار قضائي ضدهم، وتدمير شامل لهم في المجمع العام ا لمزمع عقده.

حرمان سيمون النورماني من جميع منافعه إلاّ واحدة

في هذه الآونة، وبسبب الغضب الانتقـامي للملك، جـرى حـرمـان سيمـــون النورمـاني، الذي كـــان لبعض السنين التي خلت، المستشـــار الرئيسي للملك، والحافـظ للختم الملكي، وجـــاء حـــرمـــانه بمـــوجب

سلطات البابا، من جميع منافعه باستثناء منفعة واحدة، وطرد بالقوة من رئاسة شمامسة نورويك، وبما أنه كان مستحوذاً على حصة مؤلفة من عدة منافع، ولكي لايبدو البابا أنه قد وضع يده عليه ثقيلة جداً، ومع أنه لم يظهر هناك أي واحد قد تدخل من أجل سيمون المذكور، فإن البابا حدّد كمية دخل سيمون المذكور بمبلغ مائة ألف مارك، وبذلك صار علامة للنقد لدى معارفه، وهكذا جمع ثمار طرقه، كما قال الشاعر:

إنه إذا ما نهض الرجال الأشرار، إنني لن أشكو الآن،

فهم يمكنهم الصعود فقط حتى السماء، لكنهم سوف يسقطون من جديد.

ولقد كان هذا هو الرجل الذي قدم المشورة الشريرة، والمؤذية للمملكة، وهو الذي تسبب ببقاء النائب البابوي في انكلترا، عندما كان مستعداً للسفر للشطر الآخر من الألب، وهو الذي بحضورالبابا، عندما سئل من قبله، لماذا لم يحب ملك انكلترا رعاياه الطبيعيين، بل جلب الأجانب ليكونوا مستشاريه، أجاب: «لايوجد في هذه الآونة ولا واحد انكليزي برهن على الاخلاص في انكلترا، يمكن للملك أن يثق به وباخلاصه»، وهوالكلام الذي أغضب المعلم روبرت سمركوت، الكاردينال، والذي كان انكليزياً من حيث المولد، حيث قاطعه، ووجه اللوم بحدة إليه.

أخبار سارة من الأرض المقدسة

أثناء هذا العام، وبعد جميع الآلام والمعيقات التي عانى منها عباد خطوات المسيح، من الفرسان الصليبيين جداً في الأرض المقدسة، أعطى الرب مواساة عظيمة إلى شعبه، حسبما ورد خبر ذلك في الرسالة التالية:

«من الراهب هيرمان أوف بيريغورد Hermann of Perigord، الذي هو بنعمة الرب المعلم

المتواضع لفرسان الداوية المساكين، إلى أخيه المحبوب بالمسيح، المعلم روبرت ساندفور رئيس بيت الفرسان المذكورين في انكلترا، تحيات في الرب:

إننا نرغب في أن نعلم جماعتكم، انه بعدما أقام الجيش الصليبي لوقت طويل فوق الرمال، وهو منهك لايعمل شيئاً، ولايستطيع اتخاذ قرار حول الطريق الذي سوف يتبناه، أو ما الذي سوف يعمله، حتى قام الرب أخيراً فزاره وهو الرب القائم في عليين، وذلك ليس بفضل محاسنه، بل بفضل رحمته المعتادة، لأن سلطان دمشق، قد قام ليس لخوفه من الصليبيين، بل لتدخل اعجازي من الرب، فأعاد إلى السلطة الصليبية المنطقة كلها، الممتدة بأكملها من نهر الأردن، ومع هذا ميثاق واتفاقية بين الفريقين، قضت بأن الفريق الأول سوف يساعد الفريق الآخر إلى أقصى طاقته، في الدفاع عن بلاده ضد سلطان مصر، وأن لايعمل أي واحد من الفريقين مصالحة مع السلطان المذكور، من دون موافقة الفريق الآخر، وجرى استقبال هذه الاتفاقية بموافقة عامة، مبارك الرب من أجل كل شيء، الذي أمن هذا»، وقد قيل بأن هذا كله قد عمل نتيجة للنبوءة التي لم تكن لصالحهم، وهي النبوءة التي أتينا على ذكرها في الصفحة المتقدمة.

وكان الرسول الذي حمل هذه الأخبار من الأرض المقدسة، قد التقى باسطول الايرل رتشارد وهو مسافر بشكل موفق، كما أنه أعلن، أن سلطان دمشق، قد اقترح بشكل مؤكد تماماً بأنه سوف يتلقى طقوس التعميد».

رسالة الامبراطور إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الآونة، كتب الامبراطور، الرسالة التالية إلى ملك انكلترا:

«من الامبراطور إلى الملك، تحيات:

إنظر إلى أي مدى عمل ضدنا في حالة الضغوط الحالية، اللومبارد،

والكاهن الأعلى للرومان، وذلك بمشورته المريضة الغاضبة، فهذا ما أفادتكم به التقارير العامة، بما فيه الكفاية، وتبصر كيف أنه قبل أن يحمل السلاح، قد ألقى جانباً جميع الاحترام للديانة، ولكرامة منصبه الحبري، وعيّن نفسه قائداً، ومقدماً لرعايانا العصاة، ولذلك نطالب بعقد مجمع عام، وبشكل خاص حضور رسل من عندكم، ولاأعتقد أن هذا سر لجلالتكم المخلصة، وثانية، إنكم فيما أعتقد قد علمتم كيف أنه بمبادرة من قبل بعض إخوانه، الذين كانوا يصممون خطة للتخلص من مثل هذا الخطر، وكيف أن جلالتنا تلطفت بالموافقة أكثر مما توقعوه وسألونا إياه، واستبعدنا اللومبارد فقط، فلم نسمح، باسترداد أنفاسهم، بوساطة الهدنة، وبعيداً عن الغضب، وهو أمر غير معتاد بالنسبة للكهنة، وقد ابتغينا تجنب فضيحة عامة، وأن نعثر على وسائل لإعادة تأسيس السلام، كي لانؤخر تحرير الأرض المقدسة.

وهو على كل حال، لم يسمح للومبارد، الذين كان متعاهداً معهم، باستبعادهم من هدنتنا، عاداً معاناة الميلانيين والمرتبطين بهم أكثر أهمية من الانشطار، الذي انقسم به العالم كله، وعندما لم نوافق على هذا بأية وسيلة من الوسائل، ولم نسمح للذين هم مجرمون بالخيانة ضدنا، بأن يكونوا مشمولين بهدنتنا، أو أن نسمح لهم بأن يزدادوا قوة بوساطة الحماية البابوية، بأي شكل من الأشكال، وأخيراً عندما رأى بأن المتمردين المذكورين ضدنا، كانوا ضعفاء بالشجاعة بأنفسهم، وأنه لايمكنه أن يمنحهم الخلاص بوساطة السلام ولو لبعض الوقت، قام بعد ذلك بتحويل عقله لإبداع خطط أخرى، وسعى بوسائط الأسقف المحترم لبريشيا، الذي كان قادماً إلينا، ليتولى اقناعنا، بحكم أنه كان شاغلاً نفسه (كما ذكر) في استدعاء الرسل من لدن عدة ملوك وبعض الأمراء، والأساقفة من البلدان الغربية إلى المجمع، في سبيل إعادة تأسيس السلام بيننا وبين الكنيسة، بأن ندخل العصاة اللومبارد المتقدم

ذكرهم بالهدنة معه، وهي الهدنة التي سوف تستمر حتى العيد المقبل لقيامة ربنا، معطياً سبباً لذلك، أنه من خلال هدنة عامة، سوف يجري تقديم الأمن للذين جرى استدعاءهم إلى المجمع.

أصغ إلى طريقته العجيبة هذه بالتلاعب علينا، وتصاميمه الماكرة جداً في سبيل القضاء على قضيتنا العادلة، حيث تراه أحياناً يتظاهر بأنه يرغب بأن يحتفظ بالسلام معنا، فيقدم مظهراً للوئام معنا، في سبيل أن يتمكن هؤلاء اللومبارد في تأسيس عصيانهم، بأن يكسبوا بوساطة الهدنة فرصة لاسترداد أنفاسهم، ومن ثم التمكن في الوقت نفسه بالحصول بحرية أكبر على مساعدة الأساقفة، القادمين للالتحاق بالخصام ضدنا.

وهكذا يمكنك أن ترى بوضوح بأنه يريد من عقد هذا المجمع، زيادة الخلاف وليس صنع السلام، وانتبه إلى شكل الدعوات، التي لم يرد فيها ذكر قيامه بإعدادات من أجل السلام المقبل، باستثناء تأكيده بأن الدعوات الحالية هي ضرورية لتسوية القضايا الكبيرة والصعبة للكنيسة الرومانية، وانظر إلى الوقت، عندما سعى إلى فرض النائب البابوي علينا، قبل المجمع، وبعدما قاتلنا بطريقة عدوانية، وقدّر الأشخاص الذين دعاهم، ورفضه رسل جلالتك، الذين غالباً ماعرضت من خلالهم العمل على ترتيب هذا السلام معه، وهو على سبيل المثال وجّه الدعوة بإلحاح لحضور هذا المجمع إلى كونت بروفانس، الذي هو متمرد مكشوف ضد جلالتكم، وإلى دوج البندقية، وإلى مركيز أوستيا، وإلى كونت القديس بونيفاشيو Bonifacio, وإلى ألماريك دي رومانديولا Almeric de Romandiola, وبياكوين Biaquin, وغوستينو دي كامينو Giustino de Camino, وبولص ترافيرساري Traversari, فهؤلاء بعدما قدم لهم هدايا مالية، حثهم —كما هو واضح من التقارير العامة— على إلحاق الضرر بنا.

وعلى الرغم من هذا كله، واحتراماً منا للملك الذي هو في عليين، رأينا من المناسب الاجابة على هذا المدعو أسقفاً، لأنه ليس لدينا أية خلافات مع الكنيسة الرومانية المقدسة، التي هي أمنا، بل إننا ندافع عن القضية العادلة ضد عدوان هذا الحبر الروماني، ونبعد المضار التي عملت من قبله..

ومع هذا، لقد رغبنا دوماً، ومازلنا نرغب، في أن نكون بسلام، في سبيل أن نتجنب شقاق عام في العالم، ولكي لاتكون الترتيبات من أجل السلام آتية من أطراف نائية، قمنا من خلال هذا الأسقف المذكور، ومن خلال أشخاص صالحين آخرين، كانوا على دراية بعدالة قضيتنا، وكانوا راغبين ومتطلعين لترتيب السلام وإعداده فوراً، في سبيل التمكن من إزالة هذه الشرور على الفور من بيننا، كما أننا وافقنا على الدخول بهدنة مع الحبر المذكور، مع أن ذلك ليس لصالحنا، ومع الذين كانوا مستعدين لجميع فرص الحرب ضدنا، آملين بالهدنة، مثل الأمل بمرقاة حفظ الحياة، بأن نصعد إلى الأماكن العالية للسلام بسهولة أكثر.

أما بالنسبة إلى اللومبارد المتمردين ضد مقامنا الملكي، سوف نظل على الدوام، وكما فعلنا دوماً، متمسكين بإقصائهم عن جميع العلاقات والارتباطات بهذه الهدنة، كما أننا، في الحالة الحالية الحرجة للأمور بيننا وبينه، لن نسمح بعقد المجمع من قبله، الذي هو مكشوف للامبراطورية، لأنه يتوجب أن نعده غير موائم البتة لنا وللامبراطورية، كما لن نسمح لجميع نبلاء البلاد بعرض قضيتنا على محكمة مشكوك بها، أو لأن يتخذ قرار بشأنها من قبل المجمع الكنسي، ونرفض منح أي أمان بالمرور للأشخاص أو المقتنيات، للعبور خلال الأراضي الخاضعة لحكمنا، وذلك يشمل جميع المدعوين إلى المجمع.

وبناء عليه، إننا بهذه العروض نحث جلالتكم على نشر إعلاننا الملكي هذا، بوساطة كل واحد من أساقفة مملكتكم، وأن تنشروا ذلك في الخارج، حتى لايأتي أحد إلى هذا المجمع، ولديه أية ثقة بتسلم أمان عبور منا، لأننا مهما كنا راغبين في اظهار الاحترام لرعايا مملكتكم، على أساس العواطف الخاصة التي نحملها نحوكم، مع ذلك لايجوز لنا أن نكون متسامحين تجاه الوقاحة الموجهة ضدنا من قبل الذين سوف يأتون بناء على دعوة من عدونا. صدر من معسكرنا، لدى محاصرة فيانزا Faenza, في هذا اليوم الثالث عشر من أيلول، في العلامة الثالثة عشرة».

البواعث التي أقنعت الامبراطور بالسعي للوقوف في وجه المجمع

كان الامبراطور مثاراً لأسباب باطنية، ولأسباب أخرى، وخشية منه، أن الخيانة قد خططت ضده في عقد هذا المجمع، لذلك اتخذ اجراءات للوقوف ضده، كما أنه كان منذراً جزئياً بالأسباب التي ورد ذكرها أعلاه.

وبناء عليه، اشتكى الامبراطور في المقام الأول من الموعد غير الموائم والمفاجىء للتسوية، الأمر الذي لم يكن موافقاً عليه البتة.

ومجدداً لأنه كان قد ترتب من قبل، وتقرر بموجب موافقة متبادلة من البابا وكذلك من الامبراطور، بأن لايقوم البابا بدعوة المدعوين لحضور المجمع، عندما سيجري عرض قضية الفريقين بشكل خاص للمناقشة.

ومن جديد، صحيح أن المجمع كان سيدعى إليه من أجل إعادة السلام وتثبيته بقوة، بينهما، وليس من أجل سبب آخر، لم يذكر البابا هذا السبب في مذكرة الدعوات، بل الذي ذكره كان فقط: «تسوية

المشاكل الصعبة للكنيسة»، وبذلك طمس كلياً القضية التي من أجلها بشكل رئيسي توجب الاستدعاء، وبذلك خرق وعوده التي عملها، وكانت قد تأكدت من على الطرفين.

ومجدداً، قال الامبراطور بأن البابا قد دعا إلى المجمع أعداء الامبراطورية المعلنين والمكشوفين (الذين ذكر الامبراطور أسماءهم في رسالته)، وقد رشاهم بهدايا فخمة، حتى يستجيبوا للنية الفاسدة، ولكي يوصموا باسم خونة إلى الأبد، هم وذريتهم، فإلى مثل هؤلاء الناس كان سيعهد بمهمة ترتيب الأمور الصعبة للامبراطورية.

ومن جديد قال الامبراطور:

«إنه سعياً من أوتو، النائب البابوي في انكلترا، ومن ملك انكلترا للحطّ من شأني، قد سحبا تقريباً جميع أموال تلك البلاد، وتسببا بالتفوه بتكفيري، وبإعلان ذلك ضدي في تلك المملكة، مما ألحق إهانة كبيرة بالامبراطورية، ولوث كرامتنا كثيراً، ولذلك يتوجب علينا لسبب جيد أن نعدهما مع جميع أساقفة انكلترا، بمثابة أعداء لنا، وكذلك بقدر ما صبا أموالهما من أجل ايذائنا، وتلويث شرفنا ومحقه، إلى أقصى درجات قوتهما، ولم يتأثرا بحال أنني حليف للملك الانكليزي، ومرتبط به بروابط القرابة، وأنني لم أؤذيهما قط، ولذلك سوف يكون أمراً غير طبيعي، ومتناقضاً تماماً مع العقل بالنسبة لي، بأن أحاكم من قبلهما».

وقال الامبراطور مجدداً بأنه «بوساطة التأخير الذي نجم عن الهدنة التي تمّ الاتفاق عليها، والتي هي مشكوك بها من قبلنا، لابل مؤذية لنا، ففي أثناء البحث بشؤون المجمع (التي ربما لن يجري على الفور تقرير تسويتها) سوف يكون بإمكان أعدائنا استرداد أنفاسهم، وبموافقة البابا وتشجيعه، وهو الذي عيّن نفسه مقدمهم، والمدافع عنهم، وبطلهم، سوف ينهضون بقوة جديدة لمهاجمتنا».

ومجدداً قال الامبراطور بأن «البابا كان ينتظر مبلغاً كبيراً من المال، يجري استخراجه من أساقفة فرنسا وانكلترا بشكل خاص، وهو المبلغ الذي وعد بإعطائه إلى أعداء الامبراطورية، ومن هذا المبلغ يستمد البابا وهم معه ثقتهم، وفخارهم، وأن الامبراطور، بناء على ذلك، لديه سبب مسوغ بأن يخاف من النتيجة على نفسه»، وتستمد هذه العادة المقيتة أصلها من سلفه أنوسنت، الذي قام أثناء المجمع الأخير، لابل بالحري بعد انهاء المجمع، بعدم السماح للأساقفة بالمغادرة، حتى استخرج البابا المال منهم، واحداً واحداً، دون إعطاء تقدير إلى متاعب ونفقات، واضطرابات الأساقفة أثناء سفرهم.

ومجدداً قال الامبراطور بأن جميع الأساقفة، وبشكل خاص أساقفة انكلترا، يعدّون أنفسهم مرتبطين باختصاصهم ويمينهم بالبابا الذي هو مولاهم الاقطاعي، وليسوا مرتبطين بالامبراطور أو بالامبراطورية، ولذلك عدّ الامبراطور، بأن قرارهم، سوف يكون لسبب جيد، مسألة مشكوك بها، ومخشي منها من قبله، خاصة وأن البابا معروف بأنه عدوه الخاص والمميت، ويمكنه بسهولة أن يحطّ من شأن قرار كهنته، وهو أيضاً يسعى، و يستغل كل معارفه وفنونه لتدمير الامبراطور وكذلك الامبراطورية، ولكن وفقاً لما قاله أوفيد:

«المسافر الحكيم مثله مثل اللص

بالسيف يسلح نفسه،

ليس مثله، لقتال الآخرين

بل ليحفظ نفسه من الأذى».

وبناء عليه، بعدما وزن الامبراطور هذه النقاط، مع نقاط أخرى غير معروفة من قبل الناس، في ميزان البراعة العقلية، ولمعرفته بأن كثيرين كانوا يتآمرون من أجل إلحاق الأذى به، بدأ بشكل حضاري بالرسالة

المتقدم ذكـرها، بإنذار جميع الذين استـدعيوا وكانـوا قادمين إلى المجمع، وتحذيرهم من المخـاطر المحيقــة بهم، و أنه سـوف لن يقـدم الحماية إلى الذين شقوا طريقهم خلال ممتلكاته.

وصول الإيرل رتشارد إلى الأرض المقدسة بعد رحلة موفقة

في هذه الآونة، كان الايرل رتشـارد، الذي كان مسافـراً في رحلته إلى الأرض المقـدسـة قـد وصل أخيراً سـالماً إلى الأرض المقـدسـة، وكـان وصـوله بعـد عشرين يومـاً من عيـد القـديـس ميكائيل، إلى ميناء عكا، ووصل معـه أيضاً الاسطـول الأجنبي الذي التحق به، ولدى نزوله إلى اليابسة استقبل بسرور عارم من قبل الأساقفة، ورجال الدين في مسيرة، وهم يرتدون ملابسهم المقدسة، وأيضاً من قبل مقدمي الفرسان، الذين قـدمـوا لمقـابلتـه باحترام وافـر، وذلـك وسط هتـافـات الناس، وقـرع الأجراس، وغناء رجال الدين، ومـوسيقى الصنوج والزمامير، بحضور مجموعـة من الراقصين، وهكذا بدا وصوله أنه متحـد مع سكان السماء، حيث تجددوا مع سرور لايمكن وصفـه وفـــرح، ولذلك رفعـوا أيديهم نحـو السماء، وصرخوا قـائلين: «مبـارك القادم باسم الرب»، وفي اليـوم الثالث بعـد وصوله، أمر بالإعلان بوسـاطة صوت المنادي في عكا، بأنه مـا من واحـد من الحجـاج الصليبيين عليه المغـادرة، بسبب الحاجـة إلى المال، بل عليهم جميعـاً البقـاء، والقتـال بجـرأة مـن أجل المسيح، وهم سوف يعيشون بوساطة الدفع من قبله.

موت إدموند رئيس أساقفة كانتربري

وبينما كان دولاب الحظ يتغير هكذا، مبدلاً مجرى الأحداث العالمية، تهاوى بالعقل وبالجسد، ادمـوند رئيس أساقفة كانتربري، الذي كـان قد ذهب متطوعـاً إلى المنفى في القـارة، وكـان يقـول متعجباً مع تنهـدات متـواصلة: «آه، كم هو أفضل للإنسـان أن يمـوت، على أن يرى معـاناة

الناس والقـديسين على الأرض»، وبالنسبـة للذين ربطهم بالحرمـان، والنائب البابـوي، قام بدون اهتمام بكرامته، ولابعـدم حظوته، فحللهم، والعكس صحيح، وبناء عليـه، كان في رغبتـه بالتفـاني، ولأن يكون مع المسيح، كـان يصلي كما يلي: «الويل لي، لقـد طـال أمـد نفيي، لقـد بات كـافياً، لابل أكثـر مما هو كـاف، ذلك أنني رأيت جميع الأشيـاء المرتبطة بالتدمير والخراب، خـذ حياتي، يامـولاي وربي»، وكان رئيس الأسـاقفة المذكـور مقيماً منذ أيـام في بونتني، حيث سكن سلفـه الشهيـد المبـارك تومـاس، في وقت مضى، أثناء نفيـه، وفي هذا المكان، مع الـدمـوع والصـوم، كـان يقـدم الصلوات إلى الـرب ليـلاً ونهاراً، وإلى المبـارك تومـاس، حـول وضع الكنيسـة الانكليـزية، التي كـانـت في حـالة من الرعب هائلـة، وأخيراً أصـابه الإعيـاء بسبب التقشف، وتهاوى بسبب الحزن، ولأن جسـده بات فارغـاً، فقـد تقلص وضعف، فسقط مريضـاً مرضـاً شديداً، وبنـاء على نصيحة أطبائـه سمح بنقل نفسـه إلى سويسي Soissy في سبيل الاستشفـاء بهواء أفضل، وبعـدمـا عـاني لبعض الوقت من الذرب الشديد، تحرر من روابط الجسد، وقال وداعاً إلى هذا العالم الشرير، وغادر طريق الجسد، وهكـذا فإن روحه استبدلت بسعادة النفي في هذه الحيـاة بالعيش في الديـار السماوية، وبالفعل كـان هو في منفى، وجسده فقط عمل حجـاً في هذه الحياة، وقد أنهك تحت كثير من أسبـاب الغضب، فقد حلل العصـاة ضـد الكنيسـة من عقوبة الحرمـان الكنسي المحقة، وكذلك النائب البابوي المتمرد والذي هو بدون احترام، فقـد قـام هذا بناء على مـوافقـة الملك، فـاستأنف بطيش القيـام بأعمال أخرى، ليس لها علاقة بمنصبـه، من أجل إلحاق الضرر برئيس الأساقفة المذكـور، الذي هو الأول في جميع انكلترا، وقـام مصـدر الازعـاج هذا، بإثارة أساقفة انكلترا بالقوة، وكان هنـاك واحد من الهجائين عندما كان الملك والنائب البـابوي، يتمازحـان بالحديث مع بعضهما، ويعد أحـدهما الآخـر بالتعـاون معـاً ضد كل واحـد في كل شيء، وقتهـا تولى الهجـاء

لومهما بما فيه الكفاية بقوله الكلمات التالية:

«امض، امض، الآن سوف أعرف أنه عندما يدخل الراعي والذئب في معاهدة سلام، سوف تقع مذبحة دموية بين الأغنام».

دفن إدموند رئيس أساقفة كانتربري

وبهذه الطريقة، غادر بناء عليه، في السادس عشر من تشرين الثاني، في ثمانية القديس مارتن، إدموند، رئيس أساقفة كانتربري، من هذا العالم، وهو معترف، ومشابه بكثير من النقاط ذلك القديس والمعترف، وحدثت وفاته في بيت للكهنة النظاميين في سويسي، وأثناء إقامته هناك، خلال حياته، اعتقد الكهنة مرة بأنه مغادرهم وذاهب من عندهم، وبناء على ذلك قال له رئيس ذلك المكان: «لماذا أنت مغادرنا، ومبتعد عنها، يامولاي؟ لماذا سوف تهجرنا، إنك سوف تتضايق أثناء السفر، استرح بسلام معنا»، وعلى هذا ردّ رئيس الأساقفة قائلاً: «إن قلبي سوف يبقى معكم»، غير أنهم لم يفهموا كلامه، فهو على كل حال وقع مريضاً، ومات هناك، وبعد موته جرى فتح جسده، وتم دفن أحشائه وقلبه هناك، وكان ذلك المكان على بعد عشرين فرسخاً، أي أن تقول سفر يومين عن بونتني، وهكذا انفتحت أعينهم أخيراً، وفهموا معاني الكلمات التي تفوه بها رئيس الأساقفة.

وعند ذلك قام كهنته وخدمه، بلف جسده المقدس (كما كانت العادة) في ثيابه الحبرية، وحملوه إلى بونتني، على محفة خشبية، ليدفن هناك، لأنه في أثناء حياته، عندما رأى أنه لابد مغادر لهذا العالم بالحال، عهد بقضيته إلى الرب وإلى القديس توماس (الذي عندما نفي من انكلترا للسبب نفسه، مثله هو، وجد ملجأ هناك) ومنح جسده إلى كنيسة بونتني.

وعندما كانوا مسافرين، حاملين لجسده المقدس، من أجل دفنه، تدفق

المرضى عليه بسبب شهرة قداسته، وبثقة سألوه راجين أن يعودوا إلى الصحة بوساطة المسيح، ومن خلال صلواته، وفي أحد الأيام، وبسبب فضائله الكبرى، تنازل الرب ثلاث مرات فأشار بوضوح إلى هذا الرجل المقدس، وبسبب فضائله الكبرى، ومع معجزات كبيرة، وعنوان القداسة، من أجل ذلك جرى غناء ترنيمة الملائكة: «نحن نثني عليك، يارب» ثلاث مرات بشكل مهيب وتقوي.

وبناء عليه، فإن بونتني، التي كانت في وقت مضى مكان التجاء ومأوى لتوماس المبارك، تسلمت باستحقاق جسد المعترف، الذي عندما جرى دفنه، اكتشف أن الدود قد أكله، وتلاشى بوساطة المسوح، وأن ركبتيه، بسبب الانحناء المتواصل في الصلاة، قد ظهرت عليهما علامة وتجملتا بصلابة مقدسة، وهذا كله قد تحدث عنه بشكل مكشوف القديس توماس المذكور.

انطلاق أساقفة إنكلترا نحو روما

أثناء هذه التبدلات المتنوعة للأحداث، تراجع الامبراطور عن مراعاة الهدنة المتفق عليها من قبل، وذلك مثلما كان البابا قد فعل من قبل، ثم إنه قام بوحشية بالتضييق على المدينة التي كان يحاصرها، وقام الأساقفة الانكليز —على كل حال— والنائب البابوي، في طاعة منهم لأوامر البابا، بالاستعداد بجرأة، مع أن ذلك شكّل مخاطرة كبيرة لأنفسهم، لعبور الألب أثناء عيد الميلاد المقبل.

تكريس بطرس دي ايغيوبلانشي أسقفاً على هارتفورد

في هذه الآونة، وفي يوم الأحد التالي قبل عيد الميلاد جرى تكريس المعلم بطرس دي ايغيوبلانشي Aigueblanche أسقفاً على هارتفورد، وكان ذلك في كنيسة القديس بولص في لندن، وذلك بحضور الملك، والنبلاء، ووسط هتافات الجماهير، وفي الوقت نفسه

حـرك رهبـان كـانتربري بنشـاط دعـواهم ومطلبهم بممارسـة امتيـاز كنيستهم، وعرضوا ذلك على النائب البابوي وعلى رئيس أساقفة يورك، وكذلك على الأساقفة الآخرين، والنبلاء الذين كانوا حاضرين.

جلب تاج الشوك العائد للرب إلى فرنسا

ازدهرت فرنسا في هذا العام، وفـرحت، بنيلها المنح من مولانا يسوع المسيح، لأنها إلى جـانب المكافأة التي نالتهـا مع جسد ادمـوند المعترف، الذي نقل نفسه من انكلترا، لقد فرحت بالحصول على تاج ربنا المصنوع من شـوك، وجاء الحصول عليـه من القسطنطينية، لأنه في أيـام الحاجة، وعندمـا كـانت الأمـوال غير كافيـة (وهو الحال المعتـاد بشكل عـام مع الذين يتابعون الحرب)، بعث بلـدوين، امبراطور القسطنطينية رسالة إلى الملك الفرنسي يقول فيها، بما أنه لامال لديه، إذا ماأعطاه الملك الفرنسي مسـاعـدة مـاليـة فعـالة، سـوف هو يعطيـه —أي الامبراطور— التـاج الحقيقي لربنا، الذي نسجه اليهود ووضعوه على رأسه عندما كان سيتألم على الصليب من أجل تخليص الجنـس البشري، وأنه سـوف يفعل ذلك تقديراً منه لروابط الصداقة القديمة بينهما، ولقرابتهما.

وقام الملك الفرنسي بناء على نصيحة مستشاريه الطبيعيين، فوافق عن طواعية على هذا، وبالوفـاق مع أمه، بعث بكرم بمبلغ كبير من المال إلى الامبراطور بلدوين، الذي لحق الإنهاك أمـواله بسبب الحروب المستمرة، وهكذا أعاد تجهيـز خزينته، فشجع ذلك أعوانه، وجيشـه وشعر بلدوين بالثقـة والأمل بالحصـول على نصر على الإغـريـق، ومقـابـل هذا تمّ الحصـول على منفعة كبيرة من الملك، وقـام الامبراطور، تنفيذاً لوعـوده ولاتفـاقـاته، فـأرسل بوفـاء إليـه تاج المسيح، الـذي هو أعلى قيمـة من الذهب ومن الأحجـار الكريمـة، وبناء عليـه جـرى استقبـاله بمهـابة وتقـوى، وذلك لصـالح المملكة الفـرنسيـة، وفي الحقيقـة لصـالح جميع اللاتين، واحتفي به بمسيرة وسط قـرع الأجراس، والصلوات المخلصـة

للمؤمنين أتباع المسيح، ووضع باحترام لائق في بيعة الملك في باريس.

الاجتياح التتاري

في هذا العـام، حتى لايستمـر السرور البشري طويلاً، وكي لايطول أمد شعـور العالم بالبهجة، من دون أن تمتزج بالنحيب، قام قطيع هائل من عـرق أبناء الشيطان المقيت، أي التتـار، فتـدفق أفـراده من مناطقهم ذات الحدود الجبليـة، وشقـوا طريقهـم بين الصخـور التي بدت وكأنها لايمكن خـرقهـا، واندفعـوا وكـأنهم شيـاطين قـد تحرروا من ترتاروس Tartarus (ولهذا السبب يعـرفـون باسم تتـار، لأنهم كـانوا سكان ترتاروس) واجتـاحـوا المنطقـة، حيث غطوا وجـه الأرض مثل الجراد، وعاثوا في البلدان الشرقية ودمّـروها تدميراً مريعاً، ونشروا النار والقتل حيثما ذهبوا، وجـالوا خلال البلـدان الاسلامية، حيـث اجتثوا المدن إلى الأرض، وأحـرقوا الغـابات، وهدموا القـلاع، وقطعوا أشجـار العنب، ودمروا الحدائق، وذبحوا السكان والفلاحين، وكـانوا إذا ما أبقوا بعض الناس أحيـاء، ممن رجوهـم الحفـاظ على حياتهم، أرغموهـم، كعبيـد من أدنى الدرجات، على القتال أمامهم ضد أقربائهم، وإذا ما تظاهروا فقط بالقتال تظاهراً، أو قاموا ربما بإنـذار أبناء وطنهـم حتى يفروا، كان التتار الذين يسيرون خلفهم في الساقة يتولون قتلهم، وإذا مـا قاتلوا بشجاعة، فإنهم مـا كـانوا يحصلون على شكر عن طريق التعـويض، وهكذا أسـاء هؤلاء المتوحشون معـاملة أسراهم، وكأنهم كانوا من الدواب، والرجال لديهم ليسـوا مـن البشر، ولهم طبـائع الحيـوانات، أو بـالحري تتـوجب تسميتهم بالتنينات وليس البشر، متعطشين وراء شرب الـدمـاء، وتمزيق أجسـاد الكلاب وبنـي البشر والتهـامهـا، وهم يلبســون أنفسهم جلود الثيران، ويتسلحـون برماح حـديدية، وهم قصـار القـامة، وأجسـادهـم شديدة الكثافة، وقوية جـداً، لايشاهدون في المعركة، ولايمكن هزيمتهم في العمل، وهم لايرتدون دروعاً على الأجزاء الخلفية من أجسادهم، بل

يدافعون عنها ويحمونها من الأمام، وهم يشربون الدماء التي تتدفق من القطعان، ويرونها شهية ولذيذة، ولديهم خيول عريضة وقوية جداً، تأكل أوراق الأشجار، لابل الأشجار نفسها، وبسبب قصر قوائمهم، من الممكن الاعتلاء على ظهورهم ثلاث خطوات، بدلاً من الركابات، وليس لديهم شرائع بشرية، ولايعرفون الرحمة، وأكثر وحشية وشراسة من الأسود أو الدببة، ولديهم قوارب مصنوعة من جلود الثيران، ولكل عشرة أو اثني عشر رجلاً منهم واحد يتشاركونه فيما بينهم، وهم بارعون بالتجذيف وبالسباحة، ولذلك تراهم قادرين على عبور أسرع الأنهار، من دون أي تأخير أو اضطراب، وعندما لاتكون لديهم دماء، هم يشربون بنهم المياه العكرة لابل حتى المياه الموحلة.

ولديهم سيوف وخناجر بحد واحد، وهم رماة ماهرون، لايوفرون جنساً، ولاعمراً، ولارتبة، ولايعرفون لغة أية بلد من البلدان، باستثناء لغتهم، التي يجهلها جميع الناس والشعوب، لأنه حتى الآن لم يجرب أحد الوصول إليهم، أو هم أنفسهم قاموا بالاتصال بسواهم، بحيث يمكن الحصول على أية معرفة بعاداتهم أو أشخاصهم، من خلال التواصل العام مع الناس الآخرين، وهم يأخذون قطعانهم معهم، وكذلك يفعلون بالنسبة لزوجاتهم المدربات على القتال، مثل تدريب الرجال، وهم يدخلون إلى أراضي المسيحيين بقوة سريعة كالبرق، فيعيثون فساداً في البلاد، ويقترفون مذابح كبيرة، ويحدثون رعباً لانظير له، وخوفاً في كل انسان.

ولهذا رغب المسلمون، والتمسوا السماح لهم بالدخول بتحالف مع المسيحيين، في سبيل زيادة قوتهم، حتى يتمكنوا من مقاومة هذه الوحوش البشرية، ويعتقد المسلمون هؤلاء ذوي الذكرى المقيتة، أنهم من الأسباط العشرة التي تخلت عن شريعة موسى، واتبعوا عبادة العجول الذهبية، وأن الاسكندر حاول أن يحبسهم خلف شعاب جبال

قزوين، بوساطة أسوار بنيت بملاط من القار، ولكن بما أن هذا العمل فوق طاقة البشر، ومن غير الممكن انجازه، طلب العون من رب بني اسرائيل، وبناء على ذلك اتحدت شعاب الجبال أحدها مع الآخر، وصار المكان لايمكن الوصول إليه، كما لايمكن عبوره، وحول هذا المكان يقول يوسفيوس: «كم من الممكن أن يفعل الرب لعبيده المخلصين، عندما فعل هذا كله للكفار، ومن هذا واضح بأن الرب لم يكن راغباً بخروجهم، ولكن كما هو مكتوب في التاريخ اللاهوتي، هم سوف يخرجون في نهاية الدنيا، وسوف يقترفون مذبحة كبيرة بين البشر»، وانه لأمر مشكوك فيه، فيما إذا كان هؤلاء التتار، الذين ظهروا في هذه الآونة، هم الناس المقصودين بالذكر، لأنهم لايتكلمون اللغة العبرية، كما أنهم لايعرفون شريعة موسى، كما أنهم لايتمتعون، ولايدارون أو يحكمون، من قبل مؤسسات قانونية، ويردون على هذا، إنهم مع ذلك، من الممكن أنهم هم أنفسهم بعضاً من الذين حبسوا في الجبال، والذين تقدمت الاشارة إليهم من قبل، وبما أنه كان هناك في أيام حكومة موسى عصاة في قلوبهم، ضلوا فاتبعوا طريق الشيطان في التفكير، وبذلك اتبعوا الأرباب الأجانب، والعادات غير المعروفة، ومثل هذا هم اليوم، وبطريقة أكثر إدهاشاً، وبسبب انتقام الرب، كانوا غير معروفين لدى جميع الأمم الأخرى، وكانت قلوبهم ولغاتهم قد تمازجت، وعاداتهم قد تغيرت إلى الطبائع الوحشية والتصرفات الحيوانية غير العقلانية، وهم الآن يعرفون باسم التتار، ونالوا هذا الاسم من نهر اسمة تتار، يجري خلال جبالهم، فمن خلاله اتخذوا طريقهم، وذلك مثلما يطلق على نهر دمشق اسم فرفر.

آلام الأسرى الصليبيين في الأرض المقدسة

وطوال هذه المدة كلها، كان النبلاء الفرنسيون الذين أسرهم سلطاني: دمشق ومصر، محبوسين في سجن ضيق، وفي أحد الأيام أمر سلطان

مصر ببعض الأسرى من النبلاء الفرنسيين بجلبهم إلى أمامه، وكان من بينهم الكونت ألميرك Almeric دي مونت فورت، حيث أمر به للمثول بحضرته، لأن السلطان قد عرف بأنه كان من أكثر النبلاء مكانة بين أسراه، وكان جاهلاً بمراتب جميع الآخرين، ووقتها خاطب السلطان الكونت قائلاً:

«هل هناك أي نبيل آخر من الجنس الفرنسي، أسيراً غيرك»؟ وعلى هذا ردّ الايرل بأنه لايوجد، فهو كان يؤثر بقاء السلطان جاهلاً بدلاً من أن يعرف هذا، لأن اطلاق سراحه سوف يكون وقتها الحصول عليه أيسر بكثير، وبناء عليه عمل السلطان بحثاً أكثر يقظة، فاكتشف رتشارد عمدة بومونت، وبعض النبلاء الفرنسيين الآخرين من ذوي المراتب، وعلم بوجودهم بين أسراه، ولذلك بات غاضباً جداً من الكونت لأنه كذب عليه، مع أنها كانت كذبة تقية، تلك التي أخبره بها، وأمر به فوضع في سجن مضيق عليه في قلعة إسمها المرقب، ومقت الأمراء المسلمون خداع وزيف الفرنسي، وسلطان دمشق الذي كان في حالةحرب ضد أمير مسلم آخر، كان من أقربائه، واسمه أيوب، والذي ضده طلب مساعدتنا، ودخل في معاهدة معنا، بات الآن على الرغم من شروط المعاهدة التي دخل بها مع الصليبيين —كما ذكرنا من قبل— مرتبط بصنع سلام بشكل سري مع الأمير المذكور، وذلك بسبب أنه لم تكن لديه ثقة بكلام أو بمواثيق الصليبيين، ولهذا لحق الخزي بالصليبيين، وتلاشت آمالهم.

ملك أراغون وكونت بريتاني يعقدان سلاماً مع حاكم الناصرة

وعندما غدت هذه الأشياء معلومة، وفي حوالي نهاية السنة، انحدر الشعور الفطري بالنبالة في عقول الفرنسيين وتدهور، لأن ملك أراغون، وكونت بريتاني، وبعض الآخرين من النبلاء الفرنسيين في الأرض المقدسة، كانوا غاضبين من ازدياد شهرة الايرل رتشارد، في

حين كـانوا هم أنفسهم، بالفعل، جيشاً محطماً، وبقـايا حشـد قد أصـابه التمـزق، وقد أثيروا بلدغـات الحسـد، وقد كـرهوا شبـاب الإيرل مثلما كرهوا أصله الانكليزي، وانعدام خبرته، وكفاءته، ولذلك مضوا بشكل سري إلى الزعماء المسلمين، من دون معـرفـة الجيش بشكل عـام، ولدى تسلمهم مبلغـاً كبيراً من المال منهم، منحـوهم هدنة لمدة عشر سنوات، ثم إنهم حزموا سراً أمتعتهم، وقاموا وأثقالهم مليئة بالذهب، فمضوا إلى ميناء يافا، وهكذا غادروا الأرض المقدسة بشكل غير مشرف.

موت جون فتز روبرت

ومـات في هذا العام جـون فتـزروبرت، وكان رجـلاً من أصل نبيل، وواحــداً من البــارونـات الرئيســيــين في المقـاطعــات الشــمـاليــة لانكلــترا.

سقوط بناء جديد

وحـدث في العـام نفسه، في ليلة عيـد القـديس جـورج أن انهار بناء عمل من الحجــر، مع بوابـة رشيقــة، وسقط إلى الأرض، وذلـك مع الأعمال الخارجية والناتئة، وكأنه تعرض لهزة أرضية، وكان هذا البناء قد شيده الملك مقـابل نفقات وجهـد كبير، ولدى سماع الملك بهذه الواقعة، أمر بإعادة البناء المنهار، وأن تكون عمارته أكثر أماناً.

الوقائع المتنوعة للعام كله

وكـانت مجريـات أحـداث هذا العـام، غير مــوائمـة لمملكة انكلترا، ومعـاكسة للكنيسـة المقـدسة، وكـانت مـؤذية للبـلاد الشرقية وكـذلك للبلدان الغربية، وكان الفصل لمدة ثلاثة أشهر متوالية، هي شهر آذار مع الشهرين اللذين تليـاه، جاف ممطر، وكذلك في بقيـة الأشهر، ومع ذلك أنتج كميـات وافرة مـن القمح والفواكـه، لكن الخريف الممطر إلى حـد كبير خنق المحاصيل الوافرة، وكان هناك فيـاضانات في المناطق الايطالية

تسببت من الأمطار، التي انصبت مياهها وتدفقت من الجبال إلى السهول، وكان ذلك في نهاية هذا العام، ونادراً ما تركت جسراً واحداً سليماً.

معركة مدهشة بين الأسماك في البحر

ومع أنه وقعت حوادث مدهشة لم يسمع بمثلها في هذا العام، رأينا من المفيد والمناسب أن نذكر في هذا الكتاب حادثة أكثر عجباً من البقية، وبما أنه من طبيعة البحر أن يلفظ على اليابسة الأجساد الميتة الملقاة به، فقد جرى قذف حوالي أحد عشر حوتاً إلى جانب مخلوقات بحرية مخيفة على شاطىء البحر في انكلترا، وهم أموات، وكأنهم قد جرحوا في بعض أنواع الصراع، لكن ليس —على كل حال— بهجمات من الانسان أو ببراعة منه، وأعلن البحارة، والناس الشيوخ، الذين كانوا يسكنون قرب الساحل، والذين كانوا قد شاهدوا عجائب الأعماق عندما كانوا يتابعون أعمالهم في المياه الواسعة، ويرتحلون إلى البلدان النائية، أعلنوا أنه كانت هناك معركة غير اعتيادية بين الأسماك، والوحوش والتنينات في الأعماق، وقد تسببت جراحات بعضها بعضاً، وعض بعضها بعضاً بموت العديد منها، والذين قتلوا منها قد رميوا على الشاطىء، وقامت إحدى الأسماك، وكان لها حجم كبير مرعب، فشقت طريقها إلى نهر التيمز، وتمكنت بصعوبة، ودون أن تصاب بجراح من المرور بين أعمدة النهر، وقد تابعت سيرها حتى عزبة للملك اسمها مورتليك Mortlake, حيث لحق بها عدد من البحارة، وأخيراً تمكنوا من قتلها بعد كثير من المتاعب، وذلك بوساطة ضربات لاتحصى من الرماح، وعلى هذه الواقعة عقب واحد من الشعراء مازحاً:

إلى جنازتها قدمت سمكة عملاقة

قد أرسلت من نبتون لعمل صحن فاخر

النائب البابوي يسعى إلى استخراج المال من الرهبان السسترشيان

وفي هذا العـام أيضاً، قـام النائب البابوي، في سبيل استخـراج المزيد من المال، ولاشبـاع نهمه، فطالب بـوقاحـة بوكـالات من رهبان طائفـة السسترشيـان، وقاومه هؤلاء بتصميم ورفضوا هذا الطلب، معتمـدين على امتيازاتهم، وذهبـوا إلى بلاط روما للحصول على مرسـوم ضد هذا الاستخـراج الشرير، وجلبـوا معهم رسـائـل إلى النائب البـابوي، كـان محتواها هو التالي:

رسالة البابا

«من غريغوري، أسقف، إلخ، إلى النائب البابوي أوتو، إلخ:

لو أنك تذكرت بشكل صحيح، لقد أرسلنا مـؤخراً رسائل بتكليفك باستخـراج وكـالات من رهبـان طائفـة السسترشيان إذا كـان الغفـران الممنوح إلى تلـك الطائفـــة، لايعترض على ذلـك، ثم إنه ليـس في نيتنا —وكما نعتقد ليس في نيتك أيضاً— استخراج وكالات مالية منهم، غير متـوافقـة أو متعـارضـة مع غفـرانهم، وإننا بناء عليـه نأمـرك بالاكتفـاء بالطعـام العـادي، من دون أكل سمك، عنـدمـا تذهب إليهم —وذلك حسبما تحتـويه الغفـرانات المتقـدمـة الذكـر— وأن لاتسمح باستخـراج وكالات مالية منهم، اعتماداً على سلطات هذه الرسائل».

القديسة اليزابث والقديسة هيلدغاري تصبحان مشهورتين في ألمانيا

وفي هذه الآونة أصبحت القديسـة اليزابث Elizabeth مشهورة ومتميزة في ألمانيا بوساطة عـدد كبير من المعجزات، وتدفقت حشود من

الحجاج المسيحيين، من أمم بعيدة وأجنبية، على قبرها، لنيل الاحسان، وكانت هذه القديسة أثناء حياتها، زوجة لواحد من النبلاء، يدعى لاندغريف، ولدى موته كانت ثرية جداً، ذلك أنها كانت منحدرة من أسرة نبيلة، حيث أنها كانت ابنة ملك وملكة هنغاريا، لذلك تخلت عن أبهة، وترف، ومباهج العالم، ولهذا أصيب الأساقفة ورجال الدين بالدهشة والاعجاب، تجاه القداسة الكاملة في امرأة.

أما بالنسبة للقديسة هيلدغاري Hildegaris, فقد كانت أولاً ناسكة، ثم بعد ذلك راعية دير، وكانت سيدة ذات قداسة مدهشة، فيها، في أثناء حياتها، وخلال نوم استمر لمدة أربعة أيام متواصلة، غرس الرب روح التنبؤ، ومعرفة كاملة بالحروف، أثناء حبرية البابا الاسكندر، وقد أصبحت الآن مشهورة جداً، وحيث أنها تنبأت بشكل مكشوف، وأخبرت بشكل مسبق بظهور بعض الرهبان الجدد، وبأحوالهم، ومواعظهم وبتقدمهم المفاجيء وغير المتوقع وبسبب صدق نبوءاتها، حيث يشهد على ذلك الوقت الحالي، غدت أقوالها مشهورة جداً في جميع أرجاء مختلف بلدان العالم، وقد تبرهن أنها كلمات نبيلة جداً.

حمل الامبراطورة

وفي هذه الآونة بدأ الامبراطور يشعر بتقدير خاص تجاه الانكليز، رفعهم به فوق الشعوب الأخرى، وذلك من أجل الامبرطورة ايزابيلا، أخت ملك انكلترا، التي لجمالها المتفوق ولأخلاقها نالت الحظوة لدى الجميع، علاوة على ذلك كانت الآن حاملاً، ومجدداً أعطت آمالاً جيدة إلى قرينها الأغسطس، بزيادة أخرى في أسرته، لكن في ظل طالع غير سعيد، سارت الأحداث متحولة باتجاه معاكس لم يكن متوقعاً، حسبما سنحكي ذلك بالتفاصيل.

عام واحد وأربعين ومائتين وألف

كيف وضع الملك النائب البابوي في المقعد الملكي

عام واحـد وأربعين ومائتين وألف لتجسيـد الرب، الذي كـان العام الخامس والعشرين لحكم الملك هنري الثـالث، وفيه عقـد الملك المذكور بلاطه في عيد الميـلاد، في ويستمنستر، في لندن،، حيث احتفل عدد كبير من النبـلاء بعيد ميـلاد الرب معه، وقـام الملك في يوم عيد الميـلاد، بناء على مبـادرة من النائب البـابـوي، الذي اعتـاد الملك على بذل قصـارى جهـده لإرضائـه، فأضفى مرتبـة الفروسيـة، على حفيد النائب البـابوي المذكور، الذي كان اسمه أدفوكيت Advocate, وأعطاه على الفور دخلاً مقـداره ثلاثين باونداً، حيث تولى هذا الفارس المعين حديثـاً بيعه، لأنه كان يعلم أن عليـه مغادرة المملكة فـوراً مع سيده،وفي اليـوم نفسه شرّف الملك واحـداً من أهالي بروفـانس بحـزام فـارس، وأغناه بمـورد كبير.

وبعد الفـراغ من القداس في الكنيسة، وعندمـا كان الملك على وشك تناول طعـــام الافطار في قصر ويستمنستر الكبير، قـام دون المبـــالاة بنظرات الشجب لكثير من الحضـور، بإجـلاس النائب البـابوي، الذي دعـاه لتناول طعـام الافطار معـه، في أعلى المقاعـد وراء المائـدة أي على مقعـــده الملكي، الخاص به، الذي كـــان في الوسط وراء المائـــدة، واتخذ لنفســه مقعداً على يمين النـائب البابوي، في حين جلس رئيـس أساقفـة يورك على يسـاره، وأخـذ كل واحـد من الأسـاقفـة والنبـلاء الآخـرين مقـاعـــدهم بانتظام، وفقـاً لمراتبتهم وحسـب سلطاتهم، وذلك بناء على رغبة الملك الذي تولى هكذا ترتيب نظام العيد.

وفي اليوم الرابع بعـد عيد الميلاد، قام النائب البـابوي، المستدعى من قبل البابـا للتوجه إلى البـلاط الروماني، من دون تقـاعس، فأرسل وراء

جميع الأساقفة الانكليز، وقال لهم وداعاً، وبعد ذلك شرع برحلته لعبور الألب، وجرى تشييعه حتى ساحل البحر من قبل الملك، وسط أبهة عظيمة، وذلك مع أصوات الأبواق، وقد رافقه حشد كبير من النبلاء، وعندما كانوا مرغمين على الافتراق، افترق الملك والنائب البابوي بتعابير عن الحزن المتبادل، لانفصالهما هكذا، مع أن النائب البابوي المذكور كان الآن قد مدّد إقامته في انكلترا لمدة ثلاثة أعوام، ليلحق ضرراً بالكنيسة لايمكن ترميمه.

سفر النائب البابوي أوتو من إنكلترا

في اليوم الذي جاء عقب عيد الغطاس، بعدما تلقى النائب البابوي العناق والقبلة من الملك، أخذ سفينة من دوفر، وبعدما خلع شارات نيابته البابوية أدار ظهره لانكلترا، ولم يترك أحداً حزيناً عليه سوى الملك، والذين كان قد أمنهم على ممتلكات المملكة، ولم يكن قد بقي في انكلترا في ذلك الحين —حسبما أفيد بشكل صحيح— كثيراً من المال، وذلك باستثناء أواني وتزيينات الكنيسة المقدسة، لأن النائب البابوي المذكور، كان قد استصفى أموال المملكة كلها، وهو فضلاً عن ذلك كان قد منح بناء على إرادته الشخصية، أو بناء على إرادة البابا، أوقافاً، وكنائس، وأكثر من ثلاثمائة مورد غني، ونتيجة لذلك صارت المملكة مثل كرم عنب، عرضة لكل عابر، وهو الذي شعثته الخنازير البرية للغابات، وتركته في حالة مزرية من الدمار.

وقد ترك كنيسة كانتربري، التي كانت أكثر الكنائس الانكليزية فخامة في حالة من الاضطراب، وآلام الترمل، ومثلها في ذلك كان مثل الكاتدرائيات الأخرى، والكنائس الديرية مجردة من كل راحة ومواساة، وهو لم يمتن أي جزء من الأجزاء الضعيفة للبلاد، كما هو مبرهن على ذلك بشواهد واضحة، لأنه كان قد أرسل ليس لحماية الشياه التي تشردت، بل لجمع محاصيل المال التي وجدها، وبناء عليه، بما أنه كان

مجرداً من الفضـــائـل، وبوســـاطـة الخطط الحسنة الإعـــداد مـن قبل الامبراطور، استحق التجـريد من جميع منهـوبـاته، وبعـدمـا كـان هو الناهب، صار هو المنهوب، وذلـك وفقاً لكلمات النبي الذي قال: «ويل لك أيها السالب، أتظن أنك لن تكون المسلوب؟»، وتحتاج هذه الوقائع لأن تروى أخبارها بشكل أوفى، فيما بعد، في الأماكن المناسبة.

قدوم بطرس أوف سافوي إلى إنكلترا

وفي هذه الآونة، قدم إلى انكلترا بطرس أوف سافوي، الذي كان عم الملكة، والذي كان الملك قد منحه ايرلية رتشموند، لأنه تصور أنها بلاد أكثر نفعاً له، وخرج الملك إلى استقبـاله لدى وصـوله، وتلقـاه بسرور لايمكن وصفه، وعهد بنفسه وبممتلكاتـه لآرائه، وكذلك وسع أراضيه عدة مرات بوساطة العطايا.

عواصف ريح متواصلة

وفي هذه الآونة نفسهـــا، ولاسيما في يوم ختـــان الرب، ولعـــدة أيام متواصلة، سبب ريح من الشمال، عنيف إلى أبعد الحدود، تهديماً لايمكن ترميمه، في كل من البر والبحـر، جالبـاً دماراً للأبنية وللقـلاع، ومهدداً بمخاطر كبيرة جداً، للذين كانـوا مبحرين فوق البحر، وعلى هذا بدت الأحوال المضطربة للأنواء متوائمة تماماً مع أحوال الجنس البشري.

تنصيب بطرس سافوي فارساً

في يوم عيـد القـديس ادوارد، الذي تولى فيـه الملك ممارسة مـراعـاته بتبجيل غير اعتيـادي وبتشريـف، وفي سبيل أن يعطي لليـــوم المزيد من السمات الدينيـة، أضفى مـرتبة الفـروسيـة على بطرس سـافوي المتقـدم ذكره، وعلى خمسة عشر شـاباً لامعاً آخر، وكان ذلك في كنيسـة القديس بطرس في ويستمنستر، وفي اليـوم التالي، الذي كـان يوم عيـد الغطاس، وتشريفاً لبطرس المذكـور، احتفل مع عدد كبير من الضيـوف، بتنصيبه،

بوليمة غنية ومكلفة، وجرى أيضاً استدعاء بعض سكان لندن، بموجب مـذكرة ملكيـة قضت بحضـورهم، وكـان من بين الذين وجهت إليهم الدعـوة، عمـداء المدينة، فهؤلاء قـد أرغمـوا على الحضـور، تحت طائلة التغـريم بمائـة شلنغ، وأن يأتوا إلى هناك وهـم يرتدون ثيـاب العيـد، أو كأنهم سيحتفلون بعرس.

انتخاب نيقولا أوف فارنهام إلى كرسي درم

وقام في هذه الآونـة، رهبان درم، بعد كثير من الاضطـراب، وانفاق كبير للمال، وبعد استقـالة رئيس رهبان درم، الذي سلف أن انتخب من قبلهم، والذي بموجب ذلك ألغي انتخابه، قاموا بدعوة الروح القدس، وانتخبـوا بالاجماع المعلم المعلم نيقـولا دي فـارنهام Farnham,وكـــان رجـلاً صـاحب أخـلاق رفيعة ومعـارف، واتخذوه أسقفاً لهم، وراعياً لأرواحهم، وكـان معلماً للآداب في باريس لعـدة سنوات، ومارس بعـد ذلك فن الطبـابة في بولونا Bologna, حيث غـدا مشهـوراً جـداً، وحصل على مكانة كبيرة لبراعته، وبعدمـا أصبح معلماً كاملاً في المنطق، وطبيبـاً، وعـالماً طبيعيـاً، حـوّل اهتمامـه إلى الطبـابـة الروحيـة، أي إلى اللاهوت، وبذلك أسس نفسـه في ذلـك العلم بالتعلم وبقـراءة الكتب، وبهذا تأهل للجلوس في كرسي الأستاذية الرهبانية.

وعندما صـار هكذا خبيراً، وبعدمـا ميّـز نفسه بشكل كبير بمعـارفه، وبطريقته المحمـودة في الحياة، قام الملـك والملكة، بناء على نصيحة بعض الناس المتعلمين، وبشكل خـاص بناء على مبـادرة من النائـب البـابوي أوتو، وأسقف كارآيل، وبعض الآخـرين من مستشاري الملك السريين، بتوجيه الدعوة إليه، ليتولى المسؤولية عن أرواحهم وأجسادهم، وليكون مستشـاراً مقـربـاً، حيث تصرف بذاته في ذلك المنصـب بشكل جيـد وبحكمة، حتى جرى انتخابه إلى ذلك المنصب الكهنوتي، غير أنه —على كل حال— لم يوافق على ذلك الانتخاب، لأن الأمر بدا له غير مشرف،

في أن يوافق على الانتخـاب، بما أنه كان قبل وقت قصير مضى، عندمـا جرى انتخابه لأسقفية كوفنتري، قد احتج ضد ذلك الانتخاب، ورفض الموافقـة عليـه، ولابأي حـال من الأحـوال، وفي سبيل اسكات الأفـواه المتكلمـة بالشرور، التي كـان من الممكن أن تقـول: «انظروا، أي نفـاق هذا، لقـد رفض الأسقفيـة الفقيرة، لأنه توقع أسقفيـة أغنى»، في سبيل ذلك قـاوم العرض بأقصى جهـوده، حتى أخيراً تولى ر. R أسقف لنكولن توجيـه الملامـة إليه بقسـوة، لتصرفـه على هذه الشـاكلة، وتمكن بفاعلية من اقناعـه بالموافقة بوساطة الحجج التاليـة: «اعرف، بأن رهبان درم وكنيستهم قد حـرموا من الراعي، وقاموا بدمـوع منهمرة، بالتماس المواسـاة، فلماذا —بناء عليـه— لاتوافق طالما جـرى انتخـابك بشكل قانوني؟ وإنني أستحلفك بسفك دم يسـوع المسيح، بأن تقوم بحمل هذا العبء، وأن تتقبل شرف هذا المنصب، لأن الملك سـوف لن يوافق على انتخـابك ولا بـأي شكل من الأشكال، مـالم يكن مجنـوناً تمامـاً، وإذا لم توافق على الانتخاب سوف يتـولى الملك بدسائسه تنصيب رجل أجنبي، وغير جــدير، وجــاهل أيضــاً، في هذا الكرسي في سبيل القضـــاء على الكرامـة اللاهوتيـة، وتعـريض المملكة كلهـا للخطر، لأن أسقفيـة درم قـائمة على التخـوم بين مملكتي انكلترا وسكوتلندا، والقـلاع القائمـة في أسقفيـة درم، أي قلعتي نورهام Norham ودرم، مـوجـــودتان في ذلك الجزء من انكلترا، وهما الأسـاس المعتمـد عليه ضـد هجمات جميع أعـدائنا»، وبعـدمـا سمع المعلم نيقـولا هذا، قـال متنهـداً: «إنني أحب فضيلة الطاعـة، وفي أسقفيتك أنا مستحـوذ على منافعي، التي حصلت عليهـا من خـلال إحسـانك، ولذلك إنني أطيع أوامـرك الأبوية»، وإثر ذلك قام رهبـان درم وهم مسرورين بتقديمـه إلى الملك على أنه أسقفهم المنتخب، وقـد قبل بانتخابهم بسرور، لأنه لم يجد أية غلطة منطقيـة لافي الشخص المنتخب، ولافي الانتخـــاب، واستقبل الأسقف المنتخـب من دون تأخير، وعلى الفور، تثبت فيما بعد كرسيه.

تغريم اليهود بمبلغ من المال

وفي العام نفسـه، أرغم اليهود على دفع مبلغ ثقيل، بمثابة مـال فداء، وكان المبلغ حـوالي عشرين ألف مارك، يجري دفعه على مـرحلتين خلال العام، تحت طائلة النفي، أو السجن المؤبد.

استعدادات من أجل مبارزات

عقـد في هذا العـام بطرس أوف سافـوي، ايرل رتشمـوند مبـاريات مبـارزات aloutrance ضـد ايرل بيغـــود، في سبيل أن يتمكن الأجـانب مـن تجريب قـوتهم مع الانكليـز، لرؤيـة أيهم هو المتفـوق في مبـاريات المبـارزات، وعندمـا سمع الملك بهذا، بدأ بوسـاطة الرشـاوى والتهـديدات في افساد قلوب كثير من الأكثـر نبـالة وقوة بين الانكليـز، والتأثير عليهم، وذلك من الفئة التـي تؤيد ايرل بيغـود، وذلك من أجل أن يتمكن فريق الأجانب من الانتصـار، وكان بين هؤلاء المقدمين جون بيست Bisett المسؤول الأعلى عن الغـابات في انكلترا، وعدد كبير من مشـاركيه، وغيلبرت باسيت، وكـان فارساً هـو الأكثر شجاعـة، مع أتباعه، وعدد كبير آخر، تعدادهم كبير جداً حتى يمكن ذكرهم، وكانت النتيجة، أنه بسبب دسـائس الملك، عندما اقترب موعد عقـد المبارزات، وعلى الرغم من ذلك قام غ. G ايرل مارشال وفئة قوية من النبلاء بتوحيد أنفسهم مع بعضهم بعضاً، ومـع ذلك ظهر حزب الأجانب هو الأقوى والأكثر عدداً، وتجاه ذلك شعـر الانكليز بغضب شديد، وحملوا حقداً عظيماً ضـد الذين اقترفوا هذه الـدناءات، ومقتوا وسائـل دسائس أبناء وطنهم، ثم إن الملك أصغى إلى مشـورة حكيمـة، وندم لأنه رغب في أن ينتصر الأجـانب في مبـاراة مادية بدلاً من انتصـار رعيتـه، فبعث رسـولاً، هو الراهب جون، وكـان داوياً، ووكيل الصـدقات، وأمـره أن يمضي بكل سرعة إلى الفـريقين، مع مذكرة ملكيـة بمنع المبارزات ذات الطالع السيء، والتي كانت على وشك الابتداء.

وفاة غيلبرت باسيت وابنه

وفي خريف العام نفسه، عندما كان غيلبرت باسيت، يصطاد في الغابة سقط فوق جذع شجرة كانت ملقاة في طريقه، فتكسرت عظامه، وأصيبت أعصابه بصدمة، فتسبب ذلك بموته بعد عدة أيام، وإثر ذلك على الفور فارق أيضاً الابن الوحيد والوريث لغيلبرت المذكور، هذه الحياة، في ثمانية عيد صعود القديسة مريم، مما سبب الحزن والأسى لأسرته كلها، وانتقل الميراث إثر ذلك إلى فولك باسيت، عميد يورك، وأخي غيلبرت المذكور.

وفاة جون بيست

وفي تلك الآونة أيضاً، أي في ثمانية صعود العذراء المباركة، فارق هذه الحياة جون بيست Bisett الذي كان المسؤول الأعلى عن الغابات في انكلترا.

انطلاق بعض نبلاء إنكلترا نحو القدس

ولما كان الموسم وقتاً مواتياً، قام وليم دي فورتيبص Fortibus, وكان ايرل ألبيمارل Albemarle وفارساً جريئاً، وبطرس دي مولاك Maulac, وكان بواتياً من حيث المولد، ولقد تعلم لمدة طويلة واستغنى تحت حماية الملك جون، وايفيلين دي روتشفورت Rochfort, وكان بواتياً أيضاً، وجون أنسارد Ansard, و الاسكندر هلتون Hilton, وغيوفري تشانديلر Chandelers, وعدد كبير آخر من نبلاء انكلترا، كلهم قاموا بتوديع أصدقائهم، وعهدوا بأنفسهم إلى صلوات رجال الدين، وانطلقوا بأبهة كبيرة نحو القدس، وركبوا ظهر البحر المتوسط في الخريف، وأقلعوا في رحلتهم عبر البحر.

ملك فرنسا يعرض صليب ربنا وتاجه على الناس

في هذا العـام حدث أن صليب ربنا، الـذي بقي في دمياط، بعـد أيام صـلاح الدين، حتى المعـركـة غير السعيـدة، التي جرى في بدايتهـا الاستيلاء على تلك المدينة، ثم جـرت خسارتها فيها بعـد، عندما سقطت في أيدي المسلمين، حـدث أن جلب إلى مملكة فرنسـا بتـدخل من الملك الفـرنسي وأمه بـلانشي، وبنعمة المسيح الذي دعـم رغبتيهما التقية، فقـد دفعا مبلغاً كبيراً من المال ليتمكنا من الاستحواذ عليه، ففي البداية ابتيع هذا الصليب —بعد جلبه— من قبل البنادقة مقابل عشرين ألف باوند، وكـانوا قد حصلوا عليـه من ابني ج. ل ملك القدس، الـــذي كان بحـاجـة إلى المال لشنّ الحرب ضـد الاغـريق، وفيها بعـد ارتهنه بلدوين مقابل مبلغ كان أيضاً أكبر، وباعه أخيراً إلى الملك الفرنسي لويس.

وفي يوم الجمعـة التاليـة قبل يوم عيد الفصح، وهو اليـوم الذي علق فيه المولى يسـوع المسيح بالمسامير، على الصليب المانح للحيـاة، من أجل انقـاذ العالم، حمل هذا الصليـب المذكور إلى باريس من كنيسـة القـديس أنطوني Antoine, حيث كان قد وضع على عـربة من نوع خاص، عليها ركب الملك مع الملكتين، أي الملكة بلانشي أمـه، والملكة مرغريت زوجته، وبحضـور رؤساء الأساقفـة، والأساقفة ورعـاة الديرة، ورجال الدين الآخـرين، وكذلك النبـلاء الفرنسيين، وأحيطوا بحشـد لايحصى تعـداده من الفرنسيين، الذين كـانوا ينتظرون هذا المشهد المجيـد بسرور عظيم في القلب، ورفع الملك الصليب فـوق رأسـه وهو يبكي، ووقتهـا صرخ الأسـاقفة الذين كـانوا حضـوراً بصوت مـرتفع: «انظروا صليب ربنا».

وبعـدما تعبـده الجميع بتبجيل لائق وتقوى، قـام الملك نفسه، وكـان حـافياً، ومن دون حـزام، وعاري الـرأس، وذلك بعد صـوم ثلاثة أيام، مقلداً مثل المنتصر النبيل، الأغسطـس هرقل، فحمله داخل صـــوف إلى الكنيسة الكاتدرائية للعذراء المباركة في باريس، وبالنسبة لأخوي الملك،

فإنهما أيضاً بعدما طهرا نفسيهما، بأعمال تقوية مماثلة، بوساطة الاعتراف، والصوم، والصلاة، فقد سارا خلفه مع الملكتين، وقد حملوا أيضاً تاج الشوك (الذي منحته الرحمة الربانيــة، كما ذكرنا من قبل، إلى مملكة فرنسا،، في العام الفائت) ورفعوه أيضاً عالياً، فوق عربة مماثلة للأخرى، وعرضوه حتى يراه الناس.

وسند بعض النبلاء ذراعي الملك، وأذرعة أخويه، أثناء حملهم لهذا الحمل الثمين، خشية أن يصبحوا متعبين بالاستمرار برفع أذرعتهم، وأن يقعوا تحت هذا الكنز، الذي لايمكن تقدير قيمته، وتم فعل هذا بكل حذر، بناء على رغبات الأساقفة، من أجل أن يتم تناول هذا الشيء المقـــدس، باحترام من قبل ذوي السلوك الحكيم، والذين نالوا مجداً عظيماً، محتذين لمثل هرقل، الذي ذكرناه من قبل.

وعندما وصلوا إلى الكنيسة الكاتدرائية كانت جميع أجراس المدينة تقرع، وبعد تلاوة صلوات خاصة بشكل مهيب، عاد الملك إلى قصره الكبير، الذي هو في وسط المدينة، حاملاً صليبه، وأخويه يحملان التاج، والكهنة يتبعونهم بمسيرة نظامية (وهو مشهد كان الأكثر مهابة وسروراً بين جميع ماشاهدته مملكة فرنسا قط) وكان كل واحد منهم، لابل جميعاً، يصفقون آنذاك بأيديهم، ويمجدون الرب، الذي أظهر هكذا محبته الخاصة للمملكة الفرنسية، مؤثراً إياها ومفضلها على الآخرين، ومن أجل منحها مواساته الخاصة وحمايته.

وهكذا بناء عليه، فإن ربنا يسوع المسيح، ملك الملوك، ومولى الموالي، الذي أحكامه ذات عمق عظيم، والذي بين يديه قلوب الملوك، حيث يعطي الصحة لكل من أراد، أعطى في وقت قصير مملكة فرنسا، وأغناها، بهذه الهدايا الثلاثة الثمينة، وهي التاج المتقدم ذكره، وصليب ربنا الذي عنه قد تحدثنا الآن، وجسد إدموند المبارك رئيس أساقفة كانتربري، والمعترف، الذي يشع الآن بمعجزات غير عادية، ولذلك أمر

الملك ببناء بيعة جميلة، تكون لائقة لاستقبال كنزه المذكور، وأن يكون البناء قرب قصره، وبها وضع بعد ذلك الآثار المقدسة المذكورة بكل احترام، وإلى جانب ذلك امتلك الملك الفرنسي، في بيعته الجميلة في باريس الثوب العائد للمسيح، والرمح، أو بالحري سنان الرمح، والاسفنجة، وإلى جانبها آثار أخرى مقدسة، وبناء على ذلك منح البابا غفراناً مقداره أربعين يوماً إلى جميع الذين ذهبوا إليهم في البيعة في باريس، من أجل الصلاة والتعبد هناك.

موت ملك الدانمارك وابنه

وفي هذا العام أيضاً، حمل من بين الناس وأخذ بعيداً وولدمار Waldemar, ملك داشيا، الذي تظاهر بالتجرؤ على التهديد بغزو انكلترا، وتورط بكلام متعجرف حول ذلك، وجاء موته بعدما حكم لمدة أربعين سنة، ولكي يشعر بتأثيرات صلوات القديس إدوارد، ذلك القديس الذي توجه بأدعيته إلى الرب ليحمي الرب الانكليز ضد طغيان الدانيين، فإن ابنه الوحيد، ووريثه في كل ممتلكاته، قد غادر طريق الجسد، وبذلك صارت مملكة داشيا كلها بائسة، وكان هذا الملك الداني وولدمار، في سن المائة عندما مات، وقد حكم على الدانيين لمدة أربعين سنة، وطوال حياته كلها، منذ أن كان قادراً على حمل السلاح، استمر في ملاحقة الكفار في سكيزيا، وفريزلاند، وروسيا، وكسب خلال حياته ست أسقفيات كبار، وتدبر العدد نفسه من الأساقفة حتى يجري تكريسهم لهذه الأسقفيات، وبعد وفاته، ووفاة ابنه الأسن، أثار اثنان من أولاده الأصغر سناً ثورة، وهما هنري، والدوق آبل [1] Abel, وشرعا بحرب دموية أحدهما ضد الآخر، وبذلك أصبحت المملكة مقسمة وفي حالة بائسة.

موت وولتر دي لاسي

وفي هذا العام أيضاً، غادر هذه الحياة وولتر دي لاسي Lacy,

وكان رجلاً هو الأكثر تميزاً بين نبلاء ايرلندا، وجاءت وفاته بعدما فقد بصره، وبعدما عانى من كثير من الأمراض الجسدية.

رؤيا ليلية رائعة

وفي هذه الآونة، ظهرت رؤيا ليلية، إلى أحد الكهنة، وكان حكيماً، ورجلاً مقدساً، وقد شاهد فيها رئيساً للأساقفة، مرتدياً أثواباً حبرية، وحاملاً صليباً بيده، فوصل إلى الأسوار التي كان الملك قد بناها في تلك الأيام قرب برج لندن، وبعد فحصه لهم بنظرة غاضبة، ضربهم بالصليب بقوة وبعنف، وهو يقول: «لماذا أعدت عمارتهم»؟، وبناء على ذلك تهاوت الأسوار التي بنيت حديثاً بشكل مفاجىء، إلى الأرض، وكأنها دمرت بوساطة هزة أرضية، وخاف الكاهن من رؤية هذا المشهد، فقال لرجل دين ظهر وهو يتبع رئيس الأساقفة: «من رئيس الأساقفة هذا»؟، وأجابه رجل الدين قائلاً: «إنه القديس توماس الشهيد، الذي هو لندني من حيث المولد، والذي قدّر أن هذه الأسوار قد بنيت لإهانة اللندنيين ولإلحاق الأذى بهم، ولهذا دمرهم، بشكل لايمكن فيه إعادة ترميمهم»، وعند ذلك قال الكاهن: «أية نفقات وجهود بناء قد كلفوا»، ورد عليه رجل الدين قائلاً: «لو أن فقراء الصناع، الذين يسعون وراء الدفع لأنهم يحتاجون إلى ذلك، قد حصلوا على الطعام لأنفسهم بوساطة العمل، لصار من الممكن بقاء ذلك العمل لكن بما أنهم لم يعمروا من أجل الدفاع عن المملكة، بل فقط لظلم السكان الذين لايؤذون، ولو أن القديس توماس لم يقم بتدميرهم لقام القديس ادموند المعترف، خلفه، باصرار أكبر فدمرهم واجتثهم من أساساتهم»..

وبعدما شاهد الكاهن هذه الأشياء، أفاق من نومه، ونهض من فراشه، وفي ظلام الليل وسكونه، أخبر برؤياه، جميع الذين كانوا في البيت، وفي الصباح الباكر، انتشر تقرير في جميع أرجاء مدينة لندن، أفاد

بأن الأسوار التي بنيت حول البرج، والتي على عمارتها، أنفق الملك أكثر من اثني عشر ألف مارك، قد تهاوت الى قطع، مما سبب الدهشة الى كثيرين، قد عدّوها نذير شؤم، لأنه حدث في السنة المتقدمة وفي الليلة نفسها، التي كانت ليلة يوم عيد القديس جورج، وفي الساعة نفسها من الليل، أن سقطت الأسوار مع الأجزاء الناتئة منها، ومع ان سكان لندن دهشوا تجاه هذه الواقعة، لم يحزنوا لوقوعها لأن تلك الأسوار كانت بالنسبة لهم مثل أشواك في عيونهم، وقد سمعوا استهزاء الناس وسخريتهم، الذين قالوا بأن هذه الأسوار قد بنيت لإهانتهم وأنه اذا ماحاول واحد وتجرأ، واحتج من أجل حرية المدينة، كان سيسجن في داخلهم ويلقى به السجن، وفي سبيل أنه إذا كان عدد منهم سوف يسجنون، ولكي يسجنوا في عدة سجون مختلفة، جرى بناء عدد كبير من الزنزانات فيهم، كل واحدة منفصلة عن الأخرى.

وفي هذه الآونة أيضاً، أخذ الملك بالقوة من عمدة لندن مورداً سنوياً مقداره أربعين باونداً، وهو المبلغ الذي اعتاد كل عمدة، على استلامه سنوياً، أثناء أيامه، من أجل دعم مكانته، وذلك من المصالح العامة للمدينة، وكأنه كان يأخذه من جمهورية، لأنه ألح إليه، أي إلى الملك، بأن عمدة المدينة، كان يقوم بالتظاهر بالقيام بجباية ذلك المبلغ، الذي كان محدوداً ببعض الشروط، فيلقي بيديه بقسوة على المواطنين الفقراء، وذلك أكثر مما هو مسموح له أن يعمل، وبذلك جمع لنفسه المال وأودعه في حافظة نقوده،ولهذا أرغم جيرالد بات Bat, الذي كان العمدة وقتذاك، على أداء يمين انه نفسه لن يجمع ثانية، ولن يتسلم تلك الضريبة، كما انه لن يسمح لأي شخص آخر بقدر مايستطيع أن يمنع، أن يجبيها له، وقد وقع هذا في بيعة القديس اسطفان في ويستمنستر.

وليس بعد أمد طويل من هذا، تمّ ارغام سكان لندن على دفع مبلغ من المال إلى الملك، وذلك مراغمة لعرف وامتياز المدينة، وعوملوا

وكأنهم عبيد مـن أدنى الدرجات، ودفعوا من دون رضـاهم ومكرهين، ولم يكن ذلك تحت عنوان مسـاعدة طوعيـة، بل بمثـابة مكس، وأثقلهم هذا كثيراً جداً.

الإمبراطور يمنع الأساقفة من الاجتماع في المجمع

وقـدر الامبراطور في هذه الآونة، بما فيـه الكفـاية مـن الدهاء، أن المجمع العام إذا مـاجرى عقـده، وعلى رأسه عدوه المميـت البابا، الذي سـوف يترأس جميع الأسـاقفة الذين كـانوا ملزمين بطاعتـه، مثل طاعـة الأطراف لرأسهـا، سيكون في خطر عظيم، ولذلك أخـذ يتأمل ويفكر بابداع إجراءات وقائية لنفسه، ولهذا قـال لنبلائه: «إنني قلق ومهدد من كل جـانب، ومطوق بمختلف المشـاكل، وذلك بسبب المخـاطر التي ستحيق الآن بالامبراطورية، لأنه إذا ماجـرى عقد المجمع العام، حسبما يجري الإعداد له، وترأسـه عدوي المميت، الذي رؤساء الأساقفـة رعية له، وما من واحـد منهم يتجرأ على الاعتراض على رئاستـه، فإنه سوف يدمـرني دماراً لايمكن ترميمـه، ومثل ذلك سوف يدمـر الامبراطورية، لأن البـابا عـدو نهم وشره، ومعلن ضدي، وقـادر على خلع أي واحـد يقف ضد إرادته، من مـرتبته، لابل بعد خلعـه له التفوه بحكم التكفير، والحرمان الكنسي ضده، وإهانته بعقـوبات أشد سوءاً، وعلاوة على هذا أيضاً وأشـد خطراً هو أن قضيتنا، وأوضاع الامبراطورية في حـالة خطر شـديد، وكـذلك جميع الأمـراء، الذين أنا وحـدي ملزم بالدفـاع عنهم، وملوك وأمـراء العـالم الذين أنـا المناصر لقضيتهم، لأنني صرت المتكلم بلسانهم، هؤلاء سـوف لن يقدموا إذا ما دعيتهم، أو سـوف يطيعونني، وهم غير خـاضعين لي، لـذلك لايمكنني ارغـامهم على القـدوم، ولامعاقبتهم إذا ماتمردوا، ومادمت يائسـاً —بناء عليه— من حضورهم ومسـاعـدتهم، هل سـوف أعهـد بامتيـازات الامبراطورية وقضيتهـا إلى بلاط مشكوك به، وأن يكون أعـداءها هم قضـاتها؟ لا لن يكون ذلك،

مـادمت حيـاً»، واتفق معـه نبـلاؤه في هذا العـرض المنطقي والحجج، وقرروا وجـوب تغيير الخطة الأجنبية، مع أن ذلك قد يبـدو سوف يرتد بالضرر على سمعتهم، وبسبب الخطر الذي سوف يحدق بالامبراطورية، وهو الذي جرى الحديث عنه، ينبغي منع المجمع الذي كـان موافقاً على عقـده من قبل، ولذلك قـام الامبراطـور على الفـور بوسـاطة رسـائله، بتحـذير الأساقفـة بعـدم القـدوم، ولابأي شكل من الأشكال، ومن ثم الحضور إلى المجمع العام، بناء على استدعاءات البابا، ومنذ ذلك الحين، إذا كان هناك أية أسـاقفة ذاهبين إلى البلاط الروماني، وكانـوا قد رفضوا إطاعة أوامره، ومروا بأراضيه هم شخصياً، أو كانوا قد بعثوا مندوبيهم، فقد تابع اعاقة تقدمهم، وهاجمهم، واعتقلهم، وعذبهم، وعاقب بعضهم بعقوبات مميتة مخيفة، وقد وصلت أخبار هذه الأحوال إلى مسامع البابا، فضاعف مـن لعناته له، وشتائمـه ضد الامبراطور، وكـدس الحرمانات الكنسَية ضده، كما جدد تكفيره له.

وبناء عليـه فإن النواب البـابويين، الذين كـان البـابا والدهم في جميع المسائل الروحية، والذين كـان قد أمرهـم بناء على طاعتهم له، بالاجتماع في الفصح المقبل، الذي هو عيـد قيامـة ربنا، لحضور المجمع الذي كـان قد أعـدّ له، وهيأ، بناء عليه قد منع هؤلاء من الحضـور بشكل أو آخر، وقـد خـافـوا من معيقـات الامبراطـور، ومن أوامـر المنع الصـادرة عن المراسيم الامبراطورية، هذا من جـانب، وكـان هناك من الجانب الآخـر سيلا Scylla (صخـرة خطيرة من الجانب الإيطالي لمضيق مسينا) ومخاوف التيـارات البحـرية للكاريبي، التي كـانت تهددهم، وقـد طمأن البابا القلوب المرتجفـة للأساقفـة، ومنحهم قليلاً من المواساة والتهـدئة، وردت في كلمات الرسالة التالية:

رسالة البابا

«من غريغوري، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى الأسقف كذا وكذا،

صحة ومباركات رسولية:

إن قارب بطرس، هو الآن مقهور بثقل أمواج الأشياء الدنيوية، ويتأرجح بعواصف المسائل الملحة للشك والمصاعب، التي تحتاج إلى اليد اليمنى لمخلصنا يسوع، لأنه في الوقت الذي هو مدفوع فيه نحو الأمام بهبات الريح الشمالية العاصفة، يبدو أن الرب نائم، وتلاميذه هم في حال شك، ويخاف البحارة من الريح، ومما سيتمخض عنها، الذي هو غرق القارب، الواقع الآن، والناس خائفون، وبطرس يصرخ منادياً: هل من الممكن لأولادي —مع أن الآخرين صاروا باردين— تقديم العون على الأقل، ومنفعة نصيحتهم السليمة، حتى لاتتمكن الزوابع من قهره، ولا أن يستولي القراصنة المتوحشون عليه، وعلاوة على ذلك، إنه بوساطة تمزق الميثاق الطبيعي، اهتزت الثقة، وازداد الاحسان برودة، وتجمدت أسباب التقوى، وتضاعف الظلم، وكسب قوة ضد الرب، وضد جيران المرء، ومن هذه الأسباب واضح إلقاء معيق في طريق رفع شأن الإيمان المسيحي، وتبع ذلك الخسارة، وتمّ حرمان حشد تقي من المسيحيين الحقيقيين وإبعادهم عن منافع السلام، وأرهقوا بمختلف أنواع الاضطرابات.

ولذلك فإن المقام الرسولي، في إطار سلطته ومكانته، وبعدما وزن جميع هذه الأمور بميزان الرأي العام، وبعدما بحثهم وتفحصهم، وفي سبيل أن تتمكن الكنيسة التي هي الأم العامة والوحيدة، أن تسهم في سعادة الجميع، قد تقرر، مع سبب صالح، التوجه بالدعوة لطلب العون من أيدي جميع المسيحيين الأقوياء، مثل الملوك، والأساقفة، والمقدمين، وآخرين من ذوي الإيمان الصحيح، من أجل أنها بتكرار الصراخ، يمكنها إيقاظ الرب النائم، ولكي يمكنها بمعونة نصيحة أعداد كبيرة، جعل أعباء الظلم أخف، وأن تتمكن بسعادة من الوصول إلى المرسى المرغوب به.

وبين أشياء كثيرة نود أن نعيدها إلى ذاكرتكم أيها الأخ الأسقف، أننا قمنا بوساطة رسائل رسولية، بتوجيه الدعوة إليكم، بحكم كونكم ابن تقي، وعضو نبيل من أعضاء الكنيسة، بالقدوم إلى صدر أمك، الكنيسة المذكورة، في العيد المقبل لقيامة ربنا، لكن كما علمنا، أن الذي كان مرة الابن الخاص للكنيسة، وذلك منذ أن كان طفلاً، عندما كان في حالة ضعف مطلق، فحمته، ورفعته بوساطة عون الكرسي الرسولي، ونهضت به على كتفي أمه، إلى المقام الامبراطوري، والذي لم يقنع بالمضار التي ألحقها بنا، تعويضاً على إحساننا، والتي بها قاتل عرش أبيه، وسعى لإلحاق العار بأمه، ومن دون أي شعور بالتقوى أراد أن ينتحل لنفسه الامتيازات الأسقفية، وهو الآن يسلح نفسه بدهاء، ليمنع بالرعب الأساقفة الذين دعيوا مؤخراً من قبلنا، من الاجتماع بنا، وبذلك لن تكون هناك حاجة لمطلب اتهام ضدنا، كما أنه لن يسمح للكنيسة بالحصول على المواساة من أبنائها، لتتخلص من الأمراض التي تعاني منها.

وبما أنه بناء عليه، هذه النية هي من أجل المنفعة العامة، التي تولينا حملها بثقة، متوكلين على العناية الربانية، يتوجب عدم اعاقتها من قبل رجل ماكر، نحن نتمنى عليكم بحرارة، وبوساطة هذه الرسائل الرسولية، نأمركم بكل دقة، أن تفضلوا الرب على الانسان، وأن تنظروا إليه أكثر من نظرتكم إلى جميع المصاعب المتوجب مواجهتها، وأن لاتتقاعسوا عن القدوم في الموعد الذي سلف تحديده، إلى الكرسي الرسولي، من أجل أن تستمد الأم القوة بحضور أولادها، بحيث يمكن أن يرمى جانباً بكل معارضة قدمها العدو، وذلك بوساطة الحكمة الربانية، وأن تكون هناك بداية لنواياها التقوية للوصول إلى نهاية سعيدة، ونحن برضا الرب، سوف يكون شاغلنا تقديم التسهيلات إلى جميع الأشياء المفيدة لمثل هذه المسائل الكبيرة، حسبما سوف يجري شرح

ذلك لكم من قبلنا. صدر في اللاتيران، في هذا الخامس عشر من تشرين أول، في السنة الرابعة عشرة من حبريتنا».

وبناء عليه أصبح الأساقفة أكثر هدوءاً في عقولهم، واستعداداً من دون خوف من أجل رحلتهم، وهم متوقعون واثقين، بأن البابا، سوف يؤمن لهم بعون الرب، عبوراً آمناً بوساطة البحر، وأما الانكليز، وهم أسقف نورويك وبعض الآخرين، فقد قبلوا بخطط الفرنسيين ورضخوا لها، فذهبوا إلى أماكن آمنة على طريق رحلتهم، وتطلعوا بصمت وحذر نحو نتائج الحوادث.

آلام مدينة فيانزا

وفي هذه الآونة، تمكن الامبراطور، الذي كان يحاصر مدينة فيانزا Faenza منذ وقت، من انزالها إلى حالة من الضيق، أصبح فيها الذين كانوا من قبل هم الأقوى والأغنى من البقية، فقراء وضعفاء، وأرغم الآن عامة الناس من قبلهم على مغادرة المدينة من الأبواب والأبواب الفرعية، حتى لايتمكن هؤلاء العامة من أكل قمحهم، الذي تناقص كثيراً لديهم، ثم إنهم كانوا يتسللون ويهربون من قبل أنفسهم بسبب الجوع، والحاجة المضاعفة لأشياء كثيرة أخرى، وفيما بعد وجدوا أنفسهم يعانون أكثر من الجوع، لذلك قاموا وهم يتألمون في أفكارهم، فأرغموا زوجاتهم وأولادهم وامائهم بالقوة على مغادرة المدينة، وخيّل للنساء أنهن سوف يحصلن على الرحمة من الامبراطور، فذهبن إليه، ومثلن أمامه وشعورهن منشورة، وسجدن أمام معسكره، وهن يبكين، ويولولن، ورجوه بموجب رحمته الامبراطورية، أن يظهر الرحمة نحو نسائهن، لكن مع أن الامبراطور قد سمعهن، لم يوافق على التماسهن، بل أجابهن بغضب شديد: «دعوهن يذهبن إلى أزواجهن، وإلى أسيادهن الذين تولوا الحكم علي، بأنني خائن أمام الرب وأمام الانسان، وبما أنهم قبل بعض الوقت لم يظهروا نحوي رحمة، إنه من غير العدل بالنسبة لي

تلقيهم رحمة مني، لأنه منذ بعض الوقت، عندما كنت محاصراً في مدينتهم، والأبواب مغلقة من أمامي ومن خلفي، دخلوا فجأة في مؤامرة ضدي، وعزموا على قتلي، وبانحطاط قتلوا رجلاً آخر مثلي، كان مرتدياً دروعاً امبراطورية، كما أنهم قدموا عدم تشريف لأمي، وإهانات مضاعفة لها، وذلك عندما كانت عابرة خلال مدينتهم، وبعدم احترام شوهوا المطية التي كانت راكبة عليها، وبذلك أنزلوا انتقامهم بحيوان، ولم يظهروا التقدير لمرتبتها الامبراطورية، ولا حتى لكونها امرأة، وإنه بناء عليه من العدل مواجهتهم بالانتقام».

وبعدما صرخ مزمجراً بقراره هذا ضدهم، أمر بتلك النسوة الضعفاء، واللائي كن يتهاوين من الجوع والحاجة، بأن يسقن عائدات إلى المدينة التي غادرنها، وعندما علم المواطنون بهذه النتيجة، باتوا متأكدين من دمارهم، ولذلك بعثوا بعض الرجال المحترمين بمثابة رسل خاصين، وقد عرض هؤلاء وهم يبكون طاعتهم للامبراطور، ورجوه أن يسمح لهم فقط بمغادرة المدينة، التي تخلوا عنها إلى صاحب الجلالة الامبرطورية مولاهم، وهم فقط أحياء يرتدون من الثياب مايغطي عوراتهم، ليتجولوا مثل المتشردين والمنفيين، في فقر دائم، وأن يذهبوا إلى أي مكان من العالم يختار أن يرسلهم إليه، ورد الامبراطور على هذا العرض قائلاً: «بما أنهم في أحوالهم المزدهرة رفضوا العودة إلى ولائهم، وإلى الاعتراف بي سيداً لهم، إنني لن أصغي إليهم وهم يصرخون في أيام اضطرابهم، لأن كل من كان بإمكانه الاعتداء وفعل ذلك بقدر مااستطاع، يتوجب بشكل عادل أن يعاقب بأقسى عقوبة ممكنة»، وعندما سمع المواطنون بهذا غرقوا في أعماق اليأس، وصاروا الآن تحت وطأة أسف أكثر شدة، ومن دون أي أمل في الحالة البائسة آنذاك لمدينتهم.

البلاط الروماني يرتبط بعاهرة

وفي هذه الآونة، ازداد النهم غير المستقر للبلاط الروماني، إلى درجة أنه مزج فيها بين الصواب والخطأ، وجاء ذلك إما بناء على إذن من البابا غريغوري، أو بتدبير منه، وألقى هذا البلاط كل حياء جانباً، وصار مثل الوجه البرونزي للبوق، معروضاً للاستئجار من قبل أي انسان، وقد عدّ الربا ذنباً تافهاً، والسيمونية ليست ذنباً على الاطلاق، وبهذا عدت الدول الأخرى المجاورة، حتى طهارة انكلترا أصيبت بهذه العدوى، ومع أن الأمثلة التي تعرض نفسها على صحة هذا وافرة، لقد رأيت من المناسب، أن أحكي باختصار خبر مثل واحد، لأظهر بعدل، مع أن ذلك جاء متأخراً، أن غضب الرب قد اشتعل ضد البلاط المذكور.

البابا يطالب بمورد مقداره مائة مارك من رهبان بيتربورا

ورغب البابا غريغوري في تقديم العون إلى واحد من المتحزبين له، فبعث برسائل إلى انكلترا، كانت وطأتها شديدة على بعض الكنائس، وجرى في هذه الآونة، بعث رسول بابوي مرافق بعدة توسلات وتهديدات، وجاء بعثه إلى راعي دير بيتربورا Peterborough وإلى رهبان الدير، آمراً إياهم بإعطاء البابا مورداً سنوياً يصل إلى قيمة لاتقل عن مائة مارك عن كل كنيسة ورعوية تابعة لهم، وإذا كان المبلغ مضاعفاً، فذلك سوف يزيد سروره، والبابا وقتها سوف يمنح الكنيسة إليهم، للاحتفاظ بها مقابل ضمانة لها، وهي شريطة أن يدفعوا له كل سنة مائة مارك مقابلها، وكل ماتبقى من الممكن تحويله لاستخداماتهم، وفي سبيل أن يجعل الراعي المذكور والرهبان ميالين بسهولة أكثر إلى الموافقة على هذه الاتفاقية، (أو بالحري على هذا الميثاق السيموني الخبيث، والغش السري)، وكأنها ضرورية لمنفعتهم، كتب قداسته إلى بعض الكهنة، الذين كانوا من جانبه من الألب، والذين كان بين أيديهم منافع جيدة في انكلترا، يأمرهم، بموجب السلطة الممنوحة إليهم، بتقديم النصيحة بشكل فعال إلى الراعي المذكور وإلى الرهبان للموافقة

على هذا، وإذا مااستدعى الأمر إرغامهم على ذلك.

وبناء عليه، قاموا في طاعة منهم لأوامر البابا، فذهبوا إلى بيتربورا، واستدعوا الرهبان وقالوا لهم: «انتبهوا أيها الأصدقاء والإخوان، أن هناك منفعة سوف تضفى عليكم، من قبل اليدين القادرتين للبابا، لأنه قد سألكم الآن، الذي كان ينبغي أن تسألوه إياه، وترجونه من أجله بركب جاثية، وبأيد مصفقة، وبتواضع كبير».

وبعدما أوضحوا للرهبان جميع الذي طلبه البابا، قدموا وعداً، وكأنهم ضامنين ووكلاء مخلصين للبابا، وباسمه، بأنهم سوف يفون بجميع وعوده، شريطة أن يوافقوا —الرهبان— على الذي سأله بشكل سري، وإبقاء الأمر كما هو، من دون فضيحة، ذلك أنهم قدموا فضيلة الحاجة الضرورية، وأجابهم الرهبان، أنه ليس بإمكانهم فعل هذا، من دون إذن الملك، الذي كان راعيهم، والمؤسس لكنيستهم، وكذلك لكنائس أخرى في هذه المنطقة، ومع ذلك رجاهم الكهنة بحرارة في سبيل فعل هذا بسرية، آملين بفعل الشيء نفسه في كنائس أخرى، وأن يجعلوا هذا سابقة، ولكن الرهبان لم يرغبوا في أن ينصاعوا لحججهم المخادعة، وطلبوا منحهم وقتاً حتى يعود راعيهم إلى الوطن، لأنه كان غائباً، لكي يعطي موافقته على رضاهم بهذا الطلب، إذا ما رآه موائماً، ولذلك بعثوا رسالة إلى راعيهم، يوضحون له بها اشكاليات هذا العمل.

وعند ذلك أرسل الراعي، بوساطة كاهن مخلص وحكيم تابع له، اسمه وليم دي بورغ Bourg, رسالة إلى الملك، وطلب نصيحته حول المسألة، وأخبره بالمخاطر التي من الممكن أن تنجم عن هذه القضية، ورأى الملك أن عملاً من هذا النوع من الممكن أن يكون مصيرياً بالنسبة إلى تلك الكنيسة، ومثل ذلك إلى الكنائس الأخرى، وذلك بحكم أنه كان راعيهم، وحاميهم، وحاكمهم ولأنه أبعد الدسائس الخفية، وشره البلاط الروماني، منع بحزم ودقة الاقدام على

مثل هذه السابقة غير النظامية، حتى لايجري تلويث الهواء أكثر مما هو ملوث.

القديس إدموند يصبح متميزاً بالمعجزات

وملأت في هذه الآونة أخبار الاسم المقدس، والذكرى المشهورة لإدموند المبارك، رئيس أساقفة كانتربري، ومعجزات قداسته، بلدان هذا الجانب من الألب، وذلك مع سمعته المجيدة، وبلغ الأمر حداً، أنه بوساطة المعجزات غير الاعتيادية، التي تلطف الرب فعملها من أجله، أن أيام الرسل بدا أنها قد تجددت، وانجذب رؤساء أساقفة، وأساقفة، ونبلاء مع حشود لاتحصى من الناس، من كلا الجنسين، برائحة العطر الطيبة، التي صدرت بالفعل من مناطق نائية عن ضريحه في بونتني، لذلك أخذ هؤلاء يسألون مساعدة ادموند المذكور.

وفي انكلترا أيضاً، في دير للنساء في كيتباي Catesby, حيث كان رئيس الأساقفة المذكور قد ترك اثنتين من أخواته بمثابة راهبات، وكان قد أعطى إلى إحداهن هبة تعبّر عن العاطفة، تمثلت بطيلسانه، وقد تلطف فعمل بشكل مدهش عدداً من المعجزات هناك، الحديث عنها ووصفها سوف يتطلب رسائل طويلة خاصة.

رهبان كانتربري يحصلون على تحليل من البابا وينتخبون بونيفيس رئيساً لأساقفتهم

في هذه الآونة، في شهر نيسان، تمكن رهبان كانتربري، الذين أرسلوا إلى روما، لصالح التجمع الديري، للحصول على تحليل من القرار الذي تفوه به رئيس الأساقفة ضدهم، من الرجوع من البلاط الروماني، بعدما حصلوا على وجوب تسلمهم تحليلاً بوساطة طريق التحذير، حيث جرى ندب راعي دير القديس ألبان مع رئيس الشمامسة هناك، مع رئيس رهبان دنستيبل Dunstable, من أجل تسوية القضية، لكن

لايرفض البابا الأسقف المنتخب لعدم الكفاءة، أو بالحري حتى يبدو جديراً بمثل هذا المقام الرفيع، سعى الملك، مستخدماً جميع الوسائل التي تحت سلطانه، لرفع شأن بونيفيس المذكور، وزيادة شهرته، وهو الذي انتخب الآن، أو أنه سوف ينتخب، فأمر بكتابة ورقة، أثنى فيها على بونيفيس المذكور إلى أبعد الحدود، وكشاهد على صدقها، وضع خاتمه على تلك الكتابة المذكورة، ثم إنه أرسلها إلى الأساقفة، وإلى رعاة الديرة، آمراً إياهم، أو بالحري رجاهم بشكل ملكي بأن يضعوا أيضاً أختامهم عليها، وأن يكونوا شهوداً على ما أكده، وقد رفض عدد منهم —على كل حال— خرق تماسك ضميرهم، وخافوا من مخالفة أمر الرب في قوله: «أنت لن تكون شاهد زور»، ولذلك رفضوا بإصرار طاعته، وكان هناك على كل حال، بعضاً من رجال الدين من ذوي المراتب العالية، أي بعض الأساقفة ورعاة الديرة، قد خافوا، وضعفوا أمام تهديدات الملك، فوضعوا جانباً خوفهم من الرب، وأظهروا احتراماً نحو الإنسان، أكثر من الاحترام نحو الرب، فوضعوا أختامهم عليها كضمانة، وشهادة على إيمانهم، ورضاهم بقبول بونيفيس ليكون رئيسهم.

ومع أنه كان من أصل نبيل، وصديقاً مقرباً من أمراء المملكتين، وهو شخصياً مكون بشكل جيد، ومؤهل بما فيه الكفاية، فقد كان رهبان كانتربري آسفين إلى أقصى الحدود، لأنهم غلبوا من قبل توسلات الملك، فوافقوا على طلبه في هذه القضية، وبعدما تفكر بعضهم في أنفسهم، وعرفوا الشقاء المخبأ لهم، انسحبوا من كنيستهم، ولكي يقوموا بتوبة دائمة، حملوا أنفسهم وانتقلوا إلى طائفة الرهبان الكارثوشيان Carthusian.

اضطهاد كونت بروفانس

أرسل في هذه الآونة، ريموند كونت بروفانس، والد ملكتي

الفـرنسيين والانكليز، عـدة رسل خاصين، إلى صهـره ملك فرنسـا، مع توسـلات مستعجلة، حتى يمنحـه مسـاعـدة فعـالة بحكم كـونه ختنه وحليفـه، لأن كـونت طولوز، قـد شنّ الحرب ضـده، بناء على أمـر من الامبراطور، وضيق عليـه حتى أوصله إلى الدمـار الشـامل، وهو الآن مجرد تمامـاً من امكانات المقاومـة، حيث أنفق المال الذي أرسل إليـه من ملك انكلترا، وبناء على هـذا، كتب الملك الفـرنسي بلطـف ظاهري إلى الامبراطور، وكذلك، إلى كونت طولوز، رجاهما، صدوراً عن احترامهما له وعـاطفتهما نحـوه، اظهـار الرحمة نحـو ختنه، وكتب ملك انكلترا، وأخوه رتشارد، ايرل كورنوول رسائل إلى الاثنين نفسيهما من أجل هذه الغاية نفسهـا، وبهذه الوسائط نال كـونت بروفانس، بعـد وقت طويل، الهدوء، وسمح له بالتمتع به.

كيف ضايق البنادقة الإمبراطور

أصر البنادقـة خلال هـذا الوقت كله بعناد على إلحاق كل أذى ممكن لهم، وبكل وسيلة، يمكنهم ابداعهـا بـالبر وبالبحـر، للانتقـام لرئيسهم عمدة ميـلان، الذي كما ذكرنا من قبل، قـد أسره الامبراطور، أثناء قتاله ضد ميـلان، والذي بعدمـا أودع السجن، أدين، وأعدم بنـاء على أوامر الامبراطور.

يقظة الإمبراطور في الدفاع عن نفسه ضد أعدائه المتنوعين

واستولى في هذه الآونة الامبراطور فردريك بالقـوة على مدينةٍ فيانزا، وهي التي وقعت تحت الحصار لمدة طويلـة، والتي باتت الآن غير قادرة على متـابعـة الصمـود، واستمـر الحصـار لحوالي السنة، وقـد أنفق الامبراطور مبلغـاً كبيراً من المال عليـه، آه، أي قلق، وأيـة اضطرابات مضـاعفة أثرت على دمـاء قلب الامبراطور، في الدفاع عن امبراطوريتـه لأنه امتلك ستة جيوش كبيرة وكثيرة التعداد ومرعبة، وقد قاد هو أولها،

وكان الثاني جيشاً مزدوجاً، موجوداً في الأراضي الجنوية، أي كان قوة بحرية، لتعترض بالقوة في البحر طريق عبور النواب البابويين والأساقفة، الذي استخفوا بنصائحه، وقوة أخرى عملت بالبر، قرب ساحل البحر، تحت قيادة ابنه هنري ملك غالوري Gallury, وتوري Torres, التي تابعت باستمرار نهب الحقول والكروم التابعة للجنويين، وكان هناك جيش ثالث تحت قيادة ابنه كونراد، ولي عهد مملكة القدس، الذي كان قد حشد تحت قيادته جيشاً لايمكن تعداده، من ألمانيا ومن المناطق المجاورة لها والخاضعة للحكم الامبراطوري، وقد أرسله ضد التتار، على أساس أن ابنه كونراد هو القائد الأعلى، غير أنه كان مرافقاً بدوقات النمسا، وسكسوني، وبافاريا، مع نبلاء آخرين، وأساقفة، وآخرين عددهم كبير جداً لايمكن تعدادهم، وقد تبعهم حشد كبير من الناس تطوعوا لهدف واحد، وبتشوق حملوا الصليب، وكانوا مستعدين للقتال حتى الموت ضد التتار المذكورين، لصالح الكنيسة العالمية، وجرى استخدام الجيش الرابع في تخوم تريفيسو Treviso, وكان تحت قيادة ثيوبولد، الذي قيل بأنه من أصل فرنسي، وكان حليفاً خاصاً للامبراطور، وكان عمل الجيش الخامس في تخوم أنكونا ووادي سبوليتو، وكان الجيش السادس في الأرض المقدسة، تحت إمرة مارشاله رالف، الذي إليه أسند الايرل رتشارد المسؤولية عن الأرض المقدسة، التي استحوذ عليها، أو تهدنت من قبله، وبشكل خاص قلعة عسقلان، التي تولى الايرل رتشارد المذكور تقويتها بشكل فخم على حسابه، وذلك في سبيل تقوية المسيحية ورفع مكانتها بشكل عام.

ثبات رهبان وينكستر والظلم الذي مورس ضدهم

وفي هذه الآونة كان هناك بعض الذين يدورون بفلك البلاط، والواثقين بأوامر الملك، والذين اعتادوا على أن يعملوا من الأشياء

التافهة أشياء عظيمة، وقد ذهب هؤلاء إلى وينكستر، وبرعونة طلبوا الرهبان الذين رفضوا اطاعة أوامر الملك في قضية الانتخاب أو طالبوا بانتخاب أسقف وينكستر، والذين كانوا بشكل وقح غير مطيعين للملك، وعملوا ذلك الطلب إلى وليم دي ريلي Rele, أسقف نورويك، ولم يتنازلوا بالتخلي عن مقصدهم لابالتهديدات ولابالالتماسات، فهكذا كان فخارهم الرهباني، وهكذا كانت وضاعة هؤلاء الناس الجبناء، وبناء عليه جرى بحث بالقضية من قبل رئيس الرهبان، الذي أرغم من قبلهم، والذي كان أصل هذا الاضطراب كله، والرهبان الذين وجدوهم قد تصرفوا على هذه الصورة، جرى طردهم من الدير، من قبل هؤلاء الرسل، من دون اعطاء تقدير إلى العمر، أو الجنس، أو الطائفة، أو للاحترام المتوجب للكنيسة أو للدير، وسجنوا فيما بعد، وأجيعوا، وتعرضوا لكل نوع من أنواع الملامة، والإهانة، والإذلال، مما سبب إلحاق الإهانة بالنظام الرهباني كله.

استيلاء الإمبراطور على مدينة فيانزا وإظهاره الرحمة نحو السكان

وفي هذه الآونة خضعت أخيراً مدينة فيانزا الملكية، التي كما ذكرنا كانت مطوقة ومحاصرة من قبل الامبراطور فردريك، واستسلمت إليه بتحفظ، فقد أنهكت المجاعة السكان، ورافقها كثير من الاضطرابات المضاعفة، فجاءوا محتشدين، وسقطوا عند قدمي الامبراطور، وهم يتنهدون ويبكون، ورجوه من أجل الرحمة، وليس من أجل الحساب، وبينما كان هؤلاء الناس الذين أثاروا لمدة طويلة غضب الامبراطور إلى أعلى الدرجات، يتوقعون الموت بأقسى أنواع العذاب، وذلك بسبب مااقترفوه من ذنوب، تمت الاشارة إليها من قبل، وبسبب نفقات طول حصار مدينتهم من قبل الامبراطور، الذي تكبد إنفاق مبلغ كبير من المال، ومع ذلك قام المنتصر، برحمته الكريمة، بالحفاظ عليهم، وبفعله ذلك كسب عواطف الكثيرين، لأنه عندما رأى أنه حقق أخيراً الانتصار

على رعاياه العصاة، مال بدمه الكريم إلى الرحمة، وذلك تبعاً لكلمات الشاعر:

العدو جرى تدميره، والأسد النبيل استراح راضياً،

والمعركة انتهت، وغضبه الناري قد تلاشى.

والذئاب، والدببة، والوحوش الأصغر، اقتادتهم مشاعرهم المتدنية.

بالانتقام فظلوا غير مشبعين لنهمهم من ضحاياهم الميتة.

الانتقام المخيف الذي اقترف من قبل التتار

أثناء هذه الآونة نزل أولئك الناس الذين هم من غير البشر، والمتوحشين، والخارجين على القانون،وغير المدجنين، من التتار، في اندفاعهم وعنفهم الرهيب، على المقاطعات الشمالية للمسيحية، واجتاحوها بشكل مرعب ومدمّر، وأوقعوا الخوف والرعب بين جميع المسيحيين، وكانوا قد تمكنوا بطغيان لم يسمع بمثله، من تحويل بلدان كثيرة إلى صحراء مثل فريزلاند، وغوثلاند، وبولاندا، وبوهيميا، وشطري هنغاريا معاً حيث قتلوا الأمراء والأساقفة، وسكان المدن والفلاحين، أو أرغموهم على الفرار، وقد أكدت وقوع هذه الوقائع وشهدت عليها الرسالة التالية، التي أرسلت إلى هذه المناطق.

رسالة كتبت إلى دوق برابانت حول القوم أنفسهم

«**من هنري، الذي هو بفضل الرب كونت اللورين، والأمير الملكي لسكسوني إلى مولاه المحبوب جداً، والذي سيظل دوماً محبوباً، وختنه، الدوق المشهور لبرابانت، الذي نحن على استعداد لخدمته متى طلب ذلك**: إن المخاطر التي تقدم الحديث عنها في الكتابات المقدسة في العصور القديمة، آخذة الآن بالتفجر والتدفق بسبب ذنوبنا، لأن قطيعاً من الناس المتوحشين، الذين لاعدّ لهم ولاحصر، ومن المتمردين،

والهمج، يقومون الآن بغزو المناطق المجاورة لمناطقنا، والاستيلاء عليها، وقاموا الآن بعدما عاثوا فساداً في كثير من البلدان الأخرى، وبعدما أهلكوا سكانها، فمدوا غزواتهم حتى الأراضي البولندية.

وحصلنا حول هذه القضايا على أخبار كاملة من رسلنا، ومن رسائل من ابن عمنا المحبوب ملك بوهيميا، وقد طلب منا إعداد أنفسنا بكل سرعة للسير إلى مساعدته، وللدفاع عن المسيحية، ذلك أننا أخبرنا بصدق وبوضوح من قبله، بأن هذا الجنس من الناس، أي التتار، سوف يتولى في حوالي ثمانية الفصح بوحشية وهمجية، غزو الأراضي البوهيمية، وإذا لم تقدم مساعدة في وقتها إلى البوهيميين، سوف تقع مذبحة لم يسمع بمثلها، وبما أن البيت المجاور لبيتنا يحترق الآن، وبحكم أن المنطقة المجاورة عرضة للاجتياح، وفي الوقت الذي فيه بعض المناطق هي الآن تحت الاجتياح، إننا نيابة عن الكنيسة المسكونية، نطلب بقلق، ونرجو المساعدة، والتسديد من الرب، ومن جيراننا الأخوة الأمراء، وبما أن التأخير يولد الخطر نرجوكم القيام بكل يقظة ممكنة، أن تحملوا السلاح، وأن تسرعوا إلى نجدتنا، وكذلك في سبيل حريتنا ومثل ذلك في سبيل حريتكم، وأن تستخدموا مسعى قوياً لإعداد قوة قوية، وأن تثيروا النبلاء الأقوياء والشجعان مع الناس الخاضعين لهم، وأن تحتفظوا بهم مستعدين وجاهزين حتى نرسل إليكم رسلنا ثانية.

ونحن الآن نثير بوساطة جهود أساقفتنا، والمبشرين لدينا، والرهبان الفرنسيسكان الدعوة إلى حملة صليبية عامة (لأن القضية مرتبطة بالمسيح)، ونبشر، ونصلي، ونصوم من أجل فرضها، وبلادنا بشكل عام قد نهضت وثارت للحرب في سبيل يسوع المسيح.

وإلى هذا يمكن أن نضيف بأن قطيعاً كبيراً من هذا الجنس المقيت من الناس، يقوم الآن بالتعاون مع جيش آخر متحالف معه، باجتياح هنغاريا بوحشية لم يسمع بمثلها، إلى حد قيل فيه بأن الملك قد احتفظ

فقط بقطعة صغيرة من البلاد لنفسه، ولنجمل القضية في كلمات قليلة فقط:

إن الكنيسة والناس في البلدان الشمالية، قد قمعوا وقهروا بكثير من أمثال هذه الاضطرابات الكبيرة والمصاعب إلى حد أنهم لم يعانوا قط بشدة من مثل هذا العذاب منذ بداية الدنيا. صدر في سنة النعمة ١٢٤١، في اليوم الذي يرتل فيه بـ «دعوا القدس تبتهج».

وأرسلت رسائل أخرى، لها المحتوى نفسه، من قبل دوق برابانت إلى أسقف باريس، وكتب أيضاً رئيس أساقفة كولون إلى ملك انكلترا حول المقصد نفسه.

وبناء عليه، ومن أجل معالجة هذا المرض الخطير، ولتسوية الخلافات التي قامت بين البابا والامبراطور، جرى فرض الصيام، والصلاة، ومنح الصدقات، على الناس في مختلف البلدان، حتى يصبح الرب القدير المخضع لأعدائه، والذي يقاتل مع قلة أو كثرة، راضياً نحو عباده، وأن يسحق شموخ هؤلاء التتار وجبروتهم.

وعندما أخبرت بلانشي المحترمة، وأمة الرب المحبوبة، وأم الملك الفرنسي بهذا العذاب الرباني، الذي نزل على الشعوب وأحاق بها، دعت ابنها قائلة: «الملك لويس، أين أنت ياولدي»؟ وبناء على ذلك اقترب منها ابنها وقال: «ماالذي تريدينه ياأماه؟»، ثم إنها تنهدت بعمق، وانفجرت باكية، ومع أنها كانت امرأة، فقد انكبت على هذه المخاطر العظيمة، ليس كإمرأة، وقالت له:

«ماالذي ينبغي صنعه ياولدي الحزين تجاه هذه الأحداث المؤلمة، والتي تطايرت عنها تقارير مرعبة وتدفقت على أراضينا؟، وإن دماراً عاماً لنا كلنا وللكنيسة المقدسة، بات الآن وشيكاً في أيامنا بسبب الغزوات الرهيبة للتتار بيننا»، ولدى سماع الملك لهذا، أجاب بصوت

حـزين، لكنه تكلم وكأنـه تلقى إلهامـاً ربانيـاً: «لعل المواسـاة من السماء تنهض بنا ياأماه، وإذا ماقدم هؤلاء الناس الذين نسميهم التتار، وجاءوا مغيرين علينا، إمـا سنردهم إلى بلاد التتـار التي صـدروا منهـا، أو أنهم سوف يرسلون بنا جميعـاً إلى السماء»، وهكذا فإنه كان يريد القـول: «إما أننا سـوف نصـدهم، أو أننا إذا مـا غلبنا، فإننا سـوف نغـادر إلى الرب كمعترفين للمسيح، أو شهـــداء»، وألهم هذا الكلام المدهـش والجدير بالثناء، الناس وأثار شجـاعتهم، ولم يقتصر هذا على النبلاء الفرنسيين، بل تعداهم أيضاً إلى سكان البلـدان المجاورة، ثم إن الامبراطور، عندما سمع بهذه الأشياء، كتب إلى الأمراء المسيحيين، وبشكل خاص إلى ملك انكلترا كما يلي:

رسالة الإمبراطور فيما يتعلق باقتراب المغول

«من فردريك، إمبراطور، إلخ، إلى ملك انكلترا، تحيات:

نحن لايمكننـا الالتـــزام بالصمـت حيـــال قضيـــة لاتخصّ فقط الامبراطورية الرومـانية لوحدها، التي وظيفتهـا نشر الانجيل، بل تخصّ أيضـاً ممالك العالم كله، التي تمارس العبـادة المسيحية، لأنها تهدد بدمـار كـامل لجميـع المسيحيـة، ولذلك بادرنا مسرعين بنقل أخبـارها إليكم، وإعلامكم بها، علماً بأن الحقائق الصادقة حول الموضوع قد وصلت إلينا مؤخراً.

منذ وقت قصير مضى ظهـر عرق شعب متـوحش بطبائعه وبطـريقة حياته (من أي مكان أو أصل أنا لاأدري) اسمه التتـار، ظهر مؤخراً من مناطق الجنوب، حيث كـان مختبئاً منذ وقت طويل، قـد أحرقتـه شمس الإقليم الحار، وزحف من هناك نحـو المناطق الشماليـة، واستولى بالقـوة على المنطقـة هناك، وبقي لبعض الوقت، وتكاثر مثل الجراد، وقـد جـاء الآن متقدماً، ليس من دون قضاء مضى من الرب —لكن ليس كما آمل

مؤجلاً حتى أيام هذه الرسالة— لتدمير المسيحية كلها، وقد تبع وصول هؤلاء الناس، مذبحة عامة، ودمار شامل وبأساء لجميع الممالك، مع تخريب كامل للمناطق الخصبة، التي عاث فيها هذا القطيع من الناس فساداً، دون إبقاء لجنس، أو عمر، أو مرتبة، وهم مايزالون يأملون وهم واثقين، من تدمير بقية الجنس البشري، وهم يسعون إلى حكم البشرية والسيادة عليها لوحدهم، واثقين بقوتهم الهائلة، وبأعدادهم غير المحدودة، فبعدما قتلوا كل من وقع نظرهم عليه، ونهبوا كل مكان وخلفوا وراءهم انعدام كامل للسكان، وصل هؤلاء التتار (أو بالحري سكان تارتاروس) إلى مستعمرة الكومان الكثيفة السكان، ولأنهم لم يهتموا بالحياة، ولأن القوس هو السلاح المعتادين عليه كثيراً، أكثر من غيرهم من الشعوب، وبسهامهم، وبأسلحتهم المقذوفة الأخرى، التي يستخدمونها باستمرار، والتي أذرعتهم مدربة عليها وممارسة أكثر من سواهم، والتي باتت أقوى من الشعوب الأخرى مزقوا ذلك الشعب وأخضعوه، والذين لم يستطيعوا النجاة قد ذبحوا بسيوفهم الدموية.

وجعل اقتراب هؤلاء الهمج، مع شيء من الصعوبة الروثينيين Ruthenians, الذين يسكنون على مقربة منهم، يأخذون حذرهم ويستنفرون، ولأنهم كانوا غير معتادين على قتال هذا الشعب غير المعروف، فإنهم تشاوروا حول سلامتهم، وخافوا من غضبهم مثل خوفهم من النار، واتخذوا لأنفسهم احتياطات ضد هجماتهم، وبالهجمات المفاجئة، وحملات ذلك العرق الهمجي، الذي ينقض مثل غضب الرب، أو مثل البرق، فإن كييف المدينة الرئيسية لتلك المملكة قد هوجمت وتم الاستيلاء عليها، وجميع تلك المملكة الفخمة، التي كان من المتوجب توحيد نفسها مع مملكة هنغاريا، من أجل الدفاع عن نفسها، وحمايتها، والتي أهملت ذلك ولم تفعله، تحولت بعدما جرى قتل سكانها، إلى وضع من الدمار الكامل والبأساء.

وكـان ملكهم رجـلاً كسـولاً ومهمـلاً، وقـد أمـــر بوسـاطة الرسل والرسـائل من هؤلاء التتار، أنه إذا أراد الحفـاظ على حياته، وعلى حيـاة رعيته، فما عليه سوى الاستسلام على الفور حتى ينال حظوتهم، غير أنه لم يخف من هـذا، ولم يأخـــذ حـــذره، وبـذلك أعطى بـرهاناً لشعبـــه وللآخرين، أنه يتـوجب عليه وعلى شعبه، القيام عل الفـور بالاستعداد من أجل حماية أنفسهم، والدفـاع ضـد غـاراتهم، ولكن في الوقت الذي كـان فيـــه هؤلاء الناس المغـرورين، أو الجاهلين مستخفين بـأعـدائهم، وبكسل نائمين والعـــدو في جـوارهم المبـــاشر، ومعتمـديـن على القـوة الطبيعية للمكان وعلى منعته، شق التتـار طريقهم إلى المملكة مثل زوبعة ريح، وفجأة طوقوهم من كل جانب.

وعندما وجد الهنغار أنفسهم تحت الحصـار، قبل أن يتوقعوا الهجوم، وقد فـوجئوا عندما لم يكونوا مستعدين، حـاولوا الدفاع عن معسكرهم ضـدهم، وعندما بات الجيشـان المتصـارعان، أي جيش التتـار، وجيش الهنغار، على مسـافة خمسة أميال عن بعضهما بعضـاً، اندفع الجزء المتقدم من التتار فجأة نحو الأمام عند فجر النهار، وطوّق رجاله فجأة معسكر الهنغـار، فقتلوا الأسـاقفـة ونبـلاء المملكـة الذين تصـدوا لهم، وذبحـوا حشـداً من الهنغار في مـذبحة مـا من أحـد يتذكـر أن مثلها قـد وقع في معركة واحدة، منذ زمن طويل جداً.

أمـا الملك نفســه، فقد نجـا بصعـوبة، حيث ركب على فـرس سريع، وهرب تحيط به حـاشيـة صغيرة، ليشارك في حصـة أخيـه ملك ايلليريا Illyria، ولكي يحصل هناك على الحماية على الأقل، وفـرح المنتصرون بأســلابهم وغنائمهم، ثم إنهم استقـروا في معسكر الهنغــار المغلوبين، وكـانوا في تلك السـاعة ينهبـون الجزء الأكبر والأجمل من هنغـاريا، فيما وراء نهر الدانوب، ويلحقـون الأذى بالنـاس بالنار وبالسيف، ويهددون بإشراك البقيـــة في الدمـــار نفســه، وذلك كما أخبرنا مـن قبل الأسقف

المحترم لفاتزن Vatzen, الذي كان سفير ملك هنغاريا المذكور، إلى بلاطنا، والذي أرسل بعد ذلك الى بلاط روما، وبما أنه كان مجتازاً خلال أراضينا أولاً، فقد قدم شهادة على مارآه، وبيناته صحيحة جداً.

وحصلنا أيضاً على معلومات وافية حول هذه الحوادث، بوساطة رسائل من ولدنا المحبوب كونراد، الملك المنتخب للرومان، وولي عهد مملكة القدس، وملك بوهيميا، ومن دوقي النمسا وبوهيميا، ومن كلام أفواه رسل، أكدوا فعلياً اقتراب وصول العدو، وقد سمعنا بهذا كله، ونحن نشعر بتشوش كبير في عقلنا، ولقد سمعنا —وبحكم أن الإشاعة، عن سيرهم، تسير أمامهم— بأن جيشهم الذي لايمكن تعداده، مقسم إلى ثلاثة أقسام سيئة الطالع، وبسبب تساهل الرب تجاه خططهم الملعونة، قد زحفوا هكذا مقسمين، فواحد من هذه الأقسام قد أرسل خلال أراضي البروكتينيين Pructenian, ودخل إلى بولاندا، حيث سقط أمير تلك البلاد ودوقها ضحيتين لأعمال المطاردة المبيدة، وبعد ذلك استبيحت تلك المنطقة ودمرت من قبلهم، ودخل الشطر الثاني إلى الأراضي البوهيمية، حيث أوقف هناك، لأنه حورب من قبل ملك تلك البلاد، الذي تصدى له بشجاعة بوساطة جميع القوات التي كانت تحت إمرته، وأما الشطر الثالث فهو الذي يعيث فساداً في هنغاريا المجاورة للمناطق النمساوية.

وبما أن الخوف والرعب قد قام بيننا، بسبب شدة هؤلاء الغزاة الجريئين، الأمر الذي نبهنا ودعانا إلى السلاح، والضرورة هي أكثر إلحاحاً، كلما عظم الخطر وازداد، وهي تحثنا على التصدي لهم، وإن التأكد من الدمار الشامل للعالم كله، خاصة للعالم المسيحي، تدعو إلى تقديم مساعدة سريعة ونجدة، لأن هذا العرق من الناس متوحش، وخارج على القانون، وجاهل بالشرائع البشرية، وهم يتبعون سيداً واحداً، ويعدونه مولاهم، وهم يعبدونه ويبجلونه مع طاعة كاملة، وهم

يطلقـون عليـه اسم رب الأرض، ورجـالهم أنفسهم صغـار، وقصـار القامة، هذا بالنسبـة للطول، لكنهم مندمجون، وأقوياء، وكتلهم ضخمة، ومصممون، وأقوياء، وشجعـان، وجاهزون بإشارة واحدة مـن قائدهم للاندفـاع للقيـام بأي واجـب صعب، أو مهمـة قـاسيـة، ولهم وجـوه واسعـة، ونظرات قـاسيـة، ويتفـوهون بصرخـات مـرعبـة، تتـواءم مع قلوبهم، وهـم يلبسـون جلوداً غير مدبوغـة، من جلود الثيران، والحمير، والخيـول، وبالنسبـة للدروع هم يحمـون أنفسهم وأجسـادهم بقطع من الحديد مخاطة إليهم، وقد استمروا باستخدامها حتى الآن.

لكن لايمكننا أن نقـول من دون أسف، إنهم الآن، جهـزوا أنفسهم، من أسـلاب المسيحيين المغلوبين، بأسلحـة أكثـر مـواءمـة، حتى يمكن —من خـلال غضب الرب— أن نتعـرض للقتل بدناءة أكبر، بوسـاطة أسلحتنا، وبالاضـافـة إلى ذلك لقــد تزودوا بخيـول أفضل، وهـم الآن يعيشون على أطعمة أغنى، ويزينون أنفسهم بملابس أكثر جمالاً مما كانوا يرتدونه من قبل، وهـم رماة نبالة لايجارون، ويحملون جلوداً مصنعة، بها يعبرون البحيرات والأنهار الأكثر سرعـة من دون خطر، وعندمـا تنعدم الأعلاف لديهم، لقـد قيل بأن خيولهم تكتفي بلحـاء الشجر وبالأوراق وبجـذور الأعشاب، التي يجلبهـا الناس إليهم، ومع ذلك يجدونهم دائماً سريعين جداً، وأقوياء في حال الحاجة.

وكنا على كل حال بوسيلة أو أخرى قـد حذرنا سلفاً، ورأينا من قبل متـوقعين جميع هذه الأحداث، وطلبنا دومـاً بوسـاطة رسائل ومبعـوثين من جـلالتكم، وكـذلك مـن الأمـراء المسيحيين الآخـرين، ونصحناكم باخــلاص، والتمسنا منكـم، بالسماح لعــدم العــدوان، والعــواطف، والسـلام بالازدهار بين هؤلاء الـذين بين أيديهم السلطات العليـا، وأن يقومـوا بتسوية جميع خلافـاتهم، التي غالباً مـا تجلب الأذى إلى المصالح العـامة للمسيح، وأن ننهـض برشاقـة وبإجماع للتصـدي لأولئك الهمج

الذين ظهروا مؤخراً، فلقد تبين أن الأسلحة الماضية غير كافية لشفاء الجرح، أي أن لانسمح لعدونا العام بسبب للابتهاج، ولابمزيد من التقدم، بسبب الخلافات المنبعثة بين رؤساء المسيحيين.

يارب كم مرة، وكم غالباً ما كنا على استعداد للتواضع بأنفسنا، واعطاء منفذ لكل نوع من المشاعر الطيبة، في سبيل التمكن من الحبر الروماني، حتى يقلع عن إعطاء سبب للفضائح في جميع أرجاء الدنيا، وذلك بوساطة عداوته لنا، وأن يضع روابط التسامح فوق النصائح العدوانية المريضة ضدنا، وذلك في سبيل التمكن من تهدئة رعايانا الشرعيين، وأن نحكمهم في حالة من السلم، وأن لايحمي هؤلاء الذين يتحركون ضد سلطتنا، حيث أن شطراً كبيراً منهم يلقى الرعاية والمعونة منه.

وهكذا بالتمكن من تسوية المسائل بشكل سلمي، وبإعادة إصلاح رعايانا العصاة، الذين ضدهم أنفقنا مبلغاً كبيراً من المال، وأنهكنا قوانا، إن قدرتنا سوف تتضاعف، وسوف ترتفع بقوة أعظم ضد عدونا العام، لكن بما أن الإرادة هي الشريعة بالنسبة له، وهو لم يستطع التحكم بمسار لسانه المخادع، وقد رفض التمنع عن كثير من النزاعات التي حركها ضدنا، وقد أمر بنشر حملة صليبية ضدنا، ضدي أنا الذي أنا سلاح ومدافع عن الكنيسة، ولقد كان من واجبه، والأفضل له أن يمارس العمل ضد طغيان التتار، أو ضد المسلمين الذي يغزون الأرض المقدسة ويحتلونها، وهو يشجع العصاة من رعايانا، الذين يتآمرون ضد شرفنا وشهرتنا، ولما كان واجبنا الأكثر إلحاحاً العمل على تحرير أنفسنا من الأعداء في الداخل، كيف سنتمكن من صدّ هؤلاء الهمج أيضاً؟، لأنهم اكتشفوا بوساطة جواسيسهم، الذين أرسلوهم في جميع الاتجاهات هذا الخلاف العام، ذلك أن هؤلاء القوم، وإن كانوا يحكمون من دون إعطاء أي تقدير للشريعة اللاهوتية، هم بارعون جداً، في بدع الحرب،

ولقد اكتشفوا الأماكن غير المحمية والضعيفة في البلاد، ولسماعهم بأخبار العداوات بين الملوك، وبصراعات الممالك، لقد تشجعوا، ونهضوا ضدنا بنشاط أعظم، فكم تضيف الشجاعة العالية إلى القوة وتزيدها، وبناء عليه لقد صرفنا اهتمامنا نحو القضيتين معاً، وبعون الحكمة الربانية، سوف نستخدم قوتنا وقدرتنا لتجنيب الكنيسة الفضائح، الناجمة من الجانب الأول عن أعدائنا في الداخل، وأن نحميها من الجهة الأخرى من هؤلاء الهمج، ولهذا قمنا بشكل فعال بإرسال ابننا المحبوب كونراد ومقدمين آخرين من إمبراطوريتنا، مع قوة كبيرة للتصدي لحملات ولعنف هؤلاء الهمج ولصدهم، ونحن نناشد باخلاص عظيم جلالتكم باسم الرب يسوع المسيح، الصانع لعقيدتنا المسيحية، مع التوسل الأعظم دقة، وبوساطة التدبر الحكيم، بأن تتخذوا الاحتياطات من أجل وقاية أنفسكم ومملكتكم، التي أدعو الرب أن يبقيها مزدهرة، وأن تعدوا بأسرع وقت ممكن قوة كاملة من الفرسان الشجعان والجنود، مع تجهيزات جيدة من السلاح، وهذا ما نرجوكم من أجله، بحق دم المسيح الذي سفك من أجلنا، وبحق روابط القرابة التي تربطنا.

وعليهم أن يعدوا أنفسهم للقتال بشجاعة وبحكمة، بالاتحاد معنا، في سبيل حرية المسيحية، وهكذا إنه باتحاد قواتنا ضد هؤلاء الأعداء، الذين ينوون الآن دخول حدود ألمانيا، التي هي الباب إلى العالم المسيحي، من الممكن الحصول على النصر من أجل كرامة وشهرة رب الحشود، ولعله يرضي جلالتكم، أن لاتمروا بهذه القضايا، من دون تقدير، أو تأخير منحها اهتمامكم، لأنهم —لاسمح الرب— إذا ماغزوا الأراضي الألمانية، ولم يواجهوا اعتراض، فإن بقية العالم سوف يشعر بصوت العاصفة، التي هي مقبلة على الهبوب، والتي نعتقد أنها قامت بقضاء من الرب، لأن العالم ملوث بعدوى مختلف الذنوب، بحكم أن الإحسان قد بدأ يصبح أكثر برودة في كثير ممن ينبغي أن يبشروا بالإيمان وأن يرفعوا

شأنه، وسيرتهم الفاسدة قد لوثت العالم بالربا، وبمختلف أنواع السيمونية والطموح.

ولعله يرضي —بناء عليه— جلالتكم، أن تتجهزوا لهذه الطوارىء، وفي الوقت الذي يقوم فيه هؤلاء الأعداء لنا جميعاً في صبّ جام غضبهم في البلدان المجاورة، قم بموجب نصائحكم الحكيمة، فاعملوا الاستعدادات لمقاومتهم، لأنهم غادروا بلادهم، دون الاهتمام بأية مخاطر على حياتهم، مع النية (لاسمح الرب بتنفيذها) باخضاع جميع الغرب، وتدمير الإيمان بالمسيح واجتثاث اسمه، وبسبب الانتصارات غير المتوقعة، التي حصلوا عليها حتى الآن —بإذن من الرب— وصلوا إلى حالة من الخيلاء والجنون، أنهم باتوا يعدون أنفسهم قد حصلوا على ملكية جميع ممالك العالم، ويمكنهم اخضاع، وربط الملوك والأمراء الساجدين لهم كما يريدون، وحسبما يشاءون في خدمتهم الشريرة.

هذا ونحن نأمل بمولانا يسوع المسيح، الذي تحت قيادته وتوجيهه، حررنا حتى الآن أنفسنا من أعدائنا، وانتصرنا عليهم، بأن هؤلاء الذين تدفقوا من مناطق تارتاروس، سوف يجدون فخارهم قد أذل، بعد تجريب قوة الغرب، ومن ثم أن يجري صدّهم عائدين إلى بلادهم في تارتاروس، وأن لايعودوا قادرين على التبجح بأنهم جالوا بكل وقاحة خلال عدد كبير من البلدان، وأخضعوا كثيراً من الأمم، واقترفوا كثيراً جداً من الشرور، وذلك عندما اقتادهم قدرهم الذين لم يحتاطوا له، أو بالحري عندما استدرجهم الشيطان نفسه للموت، أمام النسور المنتصرة لإمبراطوريتنا الأوروبية القوية.

وعندما تنهض ألمانيا بغضب وحماسة إلى القتال، وكذلك فرنسا، التي هي أم الفروسية وحاضنتها، وكذلك اسبانيا المقاتلة والشجاعة، مع انكلترا الخصبة ورجالها البواسل، وهي محمية بأسطولها، وألمانيا المليئة بالمحاربين الشجعان، وداشيا البحرية، وإيطاليا الشرسة غير المدجنة،

وبيرغندي التي لم تعرف السلام قط، وأبوليا التي لاتعرف الراحة والاستقرار، مع جزر القرصان والتي لم تقهر، مثل جزر الإغريق،والبحر الأدرياتيكي، وبحر تيرين Tyrrhene, وكريت، وقبرص، وصقلية، مع الجزر والمناطق المجاورة للمحيط، وكذلك عندما تنهض ايرلندا الدموية، مع ويلز النشيطة، وسكوتلندا المحاطة بالبحيرات، والنروج الثلجية، وكل منطقة فخمة ومشهورة، قائمة تحت النجم الملكي للغرب، فعندما يرسل هؤلاء نخبهم مزينين بشعار الصليب المانح للحياة، الذي يسير أمامهم، وقتها لن يصاب بالرعب والقنوط فقط الرعايا المتمردين، بل أيضاً الشياطين المعارضين. صدر أثناء تراجعنا، بعد استسلام فيانزا وإخلائها من السكان، في اليوم الثالث من تموز.

نشر الرسالة المتقدمة

وجرت كتابة رسائل لها المحتوى نفسه، مع تغيير بالعناوين الرئيسية فقط، وقليل من الكلمات في داخلها، من قبل الامبراطور المدافع المواظب عن الصالح العام، لأنه أضاف الكلمات التالية في رسالته إلى الملك الفرنسي، حيث أثار عواطفه بشكل مؤثر حيث قال: «نحن علاوة على ذلك مندهشون —عارفون بحكمة الفرنسيين— كيف أنكم لم تتنبهوا بدقة أكبر لملاحظة الدهاء البابوي، ونهمه أكثر من الآخرين، ذلك أنه بمطامحه التي لاتعرف الحدود، هو عازم الآن على اخضاع جميع الممالك المسيحية إليه، منطلقاً من بادرة وضعه تحت قدميه تاج انكلترا، وقد تجرأ الآن بطيش كبير، وبوقاحة يفكر باخضاع جلالة الامبراطور وجعله رهن شارته».

انتشار الشكوك ورعايتها

مـلأت الطبيعة المدهشة لهذه الظروف أوروبا كلها، بالعجب

والتساؤل، وانتشر ذلك إلى البلدان الاسلامية وانبعثت مواقف مختلفة بين كثيرين، ورعت مختلف الشعوب آراء متباينة حول هذه القضايا، فقد كان هناك بعض من قال بأن الامبراطور، اخترع على عهدته، وتآمر ضاغطاً بحكاية التتار هذه، وأنه بهذه الرسالة البارعة أراد أن يغلف جرائمه الشائنة ويغطيها، وأنه كان بمطامحه الجشعة مثله مثل الشيطان، أو المسيح الدجال، يقوم بالتآمر ضد ملكيات العالم كله، في سبيل تدمير الإيمان المسيحي تدميراً كاملاً.

وقد تبرهن أيضاً أن الرسالة تحتوي على أكاذيب، لأنه قد ورد فيها بأن هذا العرق التتاري غير المعروف، قد تدفق من المناطق الجنوبية للعالم، الواقعة في الإقليم الحار، وهذا زيف واضح لأننا لم نسمع بأنهم عبروا خلال البلدان الجنوبية، لابل ولاحتى من خلال البلدان الشرقية، إضافة إلى هذا لقد تشككوا بأن الخطط السرية، والإجراءات التي لاأساس لها، وكثير من مؤامرات هؤلاء التتار كانت تماماً من الاقتراحات الامبراطورية، لأنهم يخفون طريقته بالكلام، وتفاوت تجهيزاتهم، وأنه إذا ما اتخذ أحدهم أسيراً، لايمكن ولابطريقة من الطرق استخراج معلومات عن خططهم من الأسير، ولا حتى بأي نوع من أنواع العذاب تعرض لها، وبما أنه هناك سبعة أقاليم في الدنيا كلها، وهي: إقليم الهنود، وإقليم الأثيوبيين أو المغاربة، وإقليم المصريين، وإقليم المقادسة، وإقليم اليونانيين، وإقليم الرومان، وإقليم الفرنسيين، وليس هناك من مكان بعيد في جميع أرجاء المسكونة من العالم،لم يجد التجّار طريقاً إليه، كما قال الشاعر:

إلى الهند النائية يجد التاجر طريقه

فأين مثل هؤلاء الناس، الذين أعدادهم كبيرة إلى هذا الحد، ومابرحوا حتى الآن جالسين مخفيين؟ ولماذا هناك الآن مثل هذا المكر، والتآمر السري فيما بينهم؟ وهناك —كما قالوا— الهيركانيين -Hyr

والسكيزيين، المتعطشين دوماً إلى الدماء البشرية، والذين canians يسكنون المناطق الجبلية والوعرة في الشمال، والذين يمارسون حياة حيوانات متوحشة، ويعبدون آلهة الجبال في أيام معينة، وهؤلاء الناس قاموا بوساطة دسائس الامبراطور، مع جيرانهم الكومان، الذين دخلوا معهم بتحالف، فشنوا الحرب على ملك هنغاريا، وعلى بعض النبلاء الآخرين، في سبيل أنهم بإزعاج ذلك الملك ومضايقته، يمكن أن يفر ليضع نفسه تحت جناحي الامبراطور من أجل الحماية، ويقدم له الولاء، لأنه قدم إليه المساعدة، وبما أن هذه الأشياء قد نفذت، فإنها ما أن عملت حتى تراجعت قوى الأعداء، لكن لاسمح الرب أن تكون مثل هذه الشرور الكثيرة قد تآمر على صنعها إنسان واحد. و

البابا يحض الأساقفة على ازدراء نصيحة الإمبراطور ومن ثم القدوم إلى المجمع

أعيق في هذه الآونة، بسبب حوادث غير موائمة، السيد جيمس أوف برانستي Praeneste, الذي كان لبعض الوقت نائباً بابوياً في فرنسا والسيد أوتو كاردينال وشماس في Carcere Tulliano, وبعد ذلك نائباً بابوياً في الدانمارك ومن بعد هذا في انكلترا، وغريغوري أوف رومانا Romagna, الذي كان قد أرسل لتوه بمشابة نائب بابوي إلى الجنويين ليحللهم من ذنوبهم إذا ما أطاعوه، وتأخروا في جنوى، وكانوا يتطلعون إلى أسطول لأنفسهم، وكان هناك أيضاً معهم عدد كبير من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، الذين كانوا يخافون من الإبحار، بسبب تهديدات الامبراطور، وقد تلقوا بشكل متواصل رسائل مواساة ورسلاً من البابا، وجرى في الوقت نفسه تحريضهم على الابحار، وأن يسيروا من دون إعاقة من أجل حضور المجمع، لابل جرى حثهم بإصرار على ازدراء تهديدات السلطات العلمانية، وأن يكون استعدادهم أكبر لإطاعة والدهم الروحي.

ثم إنه تقـديراً لمبلغ كبير من المال دفعه هؤلاء الأسـاقفـة، بناء على اتفاقيـة عقدت بينهم وبين الجنويين، يتوجب على أساسها على الجنويين اقتيـادهم جميعـاً، أي النواب البابويين والأساقفـة، وحـواشيهم، وهم متحـررين من الخسارة ومن الأذى إلى البلاط الروماني، حتى ولو كـان ذلك ضد مـوافقة الامبراطور، وعندما كانوا عـاقدين لمناقشـات طويلة ودقيقة، حـول هذه القضايا، وعندمـا كان بعضهم في وضع غير المتـأكد حول ماهو الأسلم والأعقل لفعله، أرسل البابا رسالة إليهم، أنه سوف —من دون تلكؤ— يرسـل إليهم مسـاعـدة قـوية وفعـالة على شكل أسطول ليلتقي بهم في البحـر، لدى مغـادرتهم الميناء، وذلـك ليتـولى قيادتهم وحمايتهم، بشكل لاتكون فيه قوى الأعداء قادرة على اعتراضهم بأي شكـل من الأشكال، ولاحتى الامبراطـور نفسـه، الذي أوكـل به صـاحب القـداسة وعهـد إلى جهنم وإلى الشيطان، بحكم أنه مـوضـوع تحت حـرمـانات وتكفيرات مضـاعفـة، وبرسـالة البـابا المقـدسـة هذه وبمـواساته، تحمسـوا وصاروا على استعـداد لتحمل أي خطر، حتى لو كان الموت نفسه.

الامبراطور يسأل الأساقفة الارتحال إلى المجمع من خلال أراضيه

وعندما علم الامبراطور بهذه الرسالة، تفهم بشكل واضح وأدرك أن البـابا مصرّ تمام الإصرار على السعي لإذلالـه، وأنه كـان يعمل على جمع الأسـاقفـة الذين لن يقفـوا بأي حـال من الأحـوال ضـد إرادته، ولهذا السبب، ولأنه أخـذ يشعـر بمخـاوف كبيرة على نفسـه أخبرهم بأنهم يستطيعـون السفـر مـن خـلال أراضيـه، من أجـل أن يعلمـوا تمامـاً بالامتيازات التي وضع فيها ثقته، ولكي لايجري فرضهم، أو أن تفرض عليهم تقارير زائفـة، رجاهم بعدم الابحار بشكل مفـاجىء نحو البلاط الرومـاني من دون التأكـد من وجهـات نظره، وبناء عليـه أرسل إليهم سفـراء خاصين، عندمـا كانوا قـد استعدوا للابحـار، وبلطف وتواضع

أخبرهم أن بإمكانهم الجواز خلال جميع الأراضي التي هي تحت حكمه، بسلام كامل، وأمان تام، شريطة أن لايسافروا بالبحر، أو على طول شاطىء، وطلب منهم التيقن بأن ما من واحد من رعيته سوف يزعجهم أثناء رحلتهم، وقال لهم، بأنهم إذا كانوا غير واثقين بوعوده الامبراطورية، ماعليهم سوى إعداد شكل من أشكال الضمانة، ووعدهم بالالتزام بشروطها بكل تأكيد، والالتزام بجميع الشروط، من جميع الجوانب، وذلك وفقاً لما سوف يكتبونه، كما أنه أعلن أيضاً، أنه بعد قيامه بشرح قضيته شرحاً وافياً إليهم بكلمات الفم، وبعد اخبارهم بجميع خصوصياتها بالتفصيل، سوف يعهد بكل ثقة واخلاص بأن يحكم عليها بعد فحصها، ومن ثم تسويتها من قبل المجمع، ووعد بالخضوع إلى القرار المستقيم لمثل هذا العدد الكبير من الآباء المقدسين، وهكذا قام بوسائل الاقناع، وبالتوسلات، وبالأوامر، ورجاهم بوساطة جميع الالتماسات الممكنة لأن يكونوا نوابه، والمحامين عنه، والقضاة في هذه القضية، وجاء ذلك متوافقاً مع قول الشاعر:

بمزيج من الأوامر، والوعود، والأدعية

ظهر المولى على الفور وظهرت التضرعات

وعلاوة على ذلك اشتكى بمرارة حول العنف غير المحدود لاضطهاد البابا له، إلى حد أنه أثار الذين استمعوا إليه إلى درجة البكاء، ذاكراً بأن البابا قد عمل منه بوسائطه أكثر الهراطقة شروراً وأنه عدو حاد ومكشوف للإيمان المسيحي، مع أنه لم يدن بأنه كذلك، كما أنه لم يعترف بنفسه بذلك، كما أنه تسبب بحرمانه كنسياً في بلدان متنوعة، وشوّه سمعته بمختلف الوسائل التي كان بإمكانه ابداعها، وقد شوّه اسمه وسمعته بشكل لايمكن إصلاحه، وهذا أمر ما من شيء يمكن أن يكون أكثر ضرراً منه، وكان يبذل قصارى جهده ليتولى إذلاله، وقال: «فلقد قام مؤخراً بعدما جرت تسوية، واتفاق بشكل عام من طرفه ومن

جـانبـه، بوجوب عقـد مجمع، فيـه كنا مستعـدين لشرح قضيتنا من على الجانبين، ومن ثم الالتـزام بالقرار العـام للمجمع، غير أنه غيّـر بطيش صيغة الاتفاق المتقدم الذكـر والاجتماع، ووجّه الدعوة إلى جميع الأعداء المكشـوفين لـلامبراطورية، الذين كـانـوا مستعـدين للحـرب أكثـر من استعـدادهم للسلم، وجرى إرسـال رجال دين ورجـال علمانيين —كما هو واضـح من فحـــوى رســـائلي— إلى ملك انكلترا، وإلى الأمـــراء الآخرين، التي فيهـا كشفت بكل تأكيد الشرور الخفية، والمصائـد الخبيثة للبـابـا، وفي تلك الرسـائل حــذرتهم أنهم إذا كـانوا يقــدرون أنفسهم وممتلكاتهم، أن لايسمحوا لأساقفتهم بـالجواز خلال ممتلكاتي»، وأضاف الامبراطور أيضـاً، كما قال في أمـاكن أخـرى، وكما ذكر في رسـائله، أنه سوف يكون خطراً، ومضاداً للمنطق العهـدة بمثل هذه القضايا الصعبة للبـابا الذي هو عدوه المكشـوف، وكان الذين اتفقـوا بآرائهم معه، قـد بدوا أنهم بالحري متآمـرين يستهدفون اخضاع الامبرطورية المقـدسة، لا أن يكونوا حكامـاً بالعـدل، وهكذا عهـد بالقضية إلى محكمـة منحـازة، القضاة فيها جاهلون بالسبب الأساسي للخلاف، وبظروف القضية.

الأسباب التي قدّمها الإمبراطور إلى الأساقفة حول عدم حضوره

وبناء عليه التمس الامبراطور بحـرارة من الأساقفة للقـدوم والعبور بسلام خـلال أراضيه حتى يكونوا متعرفين تمامـاً بقضيته، ولكي يتمكن من إخبـارهم بجميع الظروف الخفية للقضيـة، لأنه أعلن أنه لايستطيع —بأي حال من الأحـوال— القدوم إليهم منه شخصياً، بسبب حـاجته إلى المال، الذي أنفق مبـالغ كبيرة/أثناء الحصـار الطويل لفيـانزا، وأيضـاً بسبب قضايا أخرى، القضية الأساسية بينها مرتبطة بالجيش الذي يقوده ابنه، والذي كان مشغولاً آنذاك ضد التتـار، وقضايا أخرى، لابدّ له من إبقـائها سراً، وكـذلك بسبب العصـاة الجنويين، الذين لم يختر الوصـول إليهم إلا بقوة كبيرة.

النواب البابويون يرفضون الذهاب إلى المجمع من خلال أراضيه

وتشجع الأساقفة —على كل حال— بوعود النواب البابويين، وبرسائل المواساة البابوية المتوالية، التي وعد فيها بإرسال مساعدة سريعة ومؤثرة تلقاهم في البحر، ولذلك رفضوا أن يتخلوا، ولابأي شكل من الأشكال، عن نيتهم المقترحة، ذلك أنهم قالوا: «لايمكن الاعتماد ولا الوثوق بالكلام التافه لرجل محروم كنسياً»، وبناء عليه رفض الأساقفة نصيحة الامبراطور، ومطالبه، ووضعوا ثقتهم بتعداد الجنويين، الذين كانوا مجربين في فن القتال البحري، واستخفوا بتهديدات الامبراطور وبقدراته، وأقلعوا على ظهور سفنهم وسار الجنويون أمامهم، وانخرطوا بتفاخرات كبيرة، وتبجحوا قائلين بأن قوى الذين من الممكن أن يتصدوا لهم، لم تكن مرعبة لهم، ولا بأي حال من الأحوال، وقالوا عن الأساقفة وعن الناس المتعلمين، بأنهم جبناء، ورعاديد، لأن تفاخرهم كان أكبر من قوتهم، وعندما كانت غلايينهم وسفنهم مصفوفة بشكل نظامي، شقوا طريقهم خلال البحر التيراني Tyrrhene, وذلك في رحلتهم نحو الشرق، وسط صراخ وضجيج البحارة، وأصوات الأبواق.

الإمبراطور يأمر باعتقال الأساقفة

وعندما علم الامبراطور بهذه القضية، غضب لأنه وجد أنه قد استخف به، وأن انذاراته والتماساته قد رفضت سواء،وبناء عليه بعث إلى ابنه هنري، الذي اعتاد على أن يدعوه بابنه الطبيعي، والذي إليه عهد بمهمة حراسة البحر، و السواحل البحرية، مع قوة بحرية، وأمره باعتراض جواز الأساقفة، وأن يعتقلهم من دون خوف وهم مسافرون، أو أن يغرقهم، أو أن يقتلهم.

اعتقال النواب البابويين والأساقفة

ثم إن هنري المذكور، أرسل في طاعة لأوامر أبيه، عشرين غليوناً جدداً، وقد بنيوا بقوة، وكانوا مجهزين بشكل جيد برجال مسلحين، تحت إمرة ستولليوس Stollius, وكان ملاحاً بارعاً جداً، وكلفه باعتراض الجنويين، الذين كانوا يقودون الأساقفة بثقة واطمئنان، ثم أعقب ذلك نشوب قتال عنيف ودموي في البحر، بين البيازنه الذين كان يقودهم هنري شخصياً مع ستولليوس المتقدم الذكر، الذي انقض كشهاب عاصف وانخرط بالقتال، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر الجنويين، وقد لحقت الهزيمة بالجنويين، ووقع الأساقفة والنواب البابويون بالأسر، باستثناء بعضهم الذين قتلوا أو غرقوا، وكان من بين الجميع رئيس أساقفة فايسنزا Vicenza وكثيرين، عددهم كبير حتى نذكرهم، وكان من بين رعاة الديرة راعي دير سافيني Savigny, فقد نجا مع شيء من الصعوبة حراً، ودون أن يصاب بأذى، بوساطة مساعدة جون أوف لكسنغتون Lexington, وهو أخوه، وكان فارساً شجاعاً جداً، وكان أيضاً رسولاً من ملك انكلترا، وقد حصلنا على معلومات واضحة عن هذه الحادثة التعينسة من خلال الرسالة التالية، ومن خلال تقرير عام يحمل بينة على صدقها.

رسالة الإمبراطور حول الاستيلاء على مدينة فيانزا وحول أسر الأساقفة في البحر

وإثر وقوع الأساقفة، والنواب البابويين بالأسر ومعهم أدلائهم الجنويين، حملوا وأحضروا أمام الامبراطور الذي قام على الفور فكتب إلى ملك انكلترا، وإلى الأمراء الآخرين كما يلي:

من فردريك، الامبراطور، إلى ملك انكلترا، صحة وعواطف مخلصة:

بمشاعر سارة وعواطف مبتهجة تسلمنا رسائلكم ورسلكم الذين بعثت بهم إلينا، وبعناية سمعناهم وفهمنا منهم، وكذلك بالنسبة

للرسائل، والشي نفسه بالنسبة لما أوصله الرسل إلينا بشكل شفوي، من قبلكم، والآن إنه بالنسبة لكل واحد من الرسل، ولهم جميعاً، وللرسائل كلها التي بعثت بها بوساطتهم، سوف نقدم إليكم أجوبة كاملة عبر موثقنا الأمين والمحبوب كثيراً لدينا المعلم وولتر دي أوكرا Ocra, الذي إليه يمكنكم أن تعطوا ثقة كاملة، مثل الذي تعطونا إياه شخصياً، في كل شيء هو سوف يخبركم به شفوياً بإسمنا، وإليه قد أعطينا سلطات كاملة للتباحث في القضية، التي من أجلها جاء الرسل الذين تقدم ذكرهم، إلينا، وأن يعمل على إنهائها، وفقاً للصيغة التي أعطيت إليه من قبلنا.

بالاضافة إلى هذا، إنك في الوقت الذي تبتهج فيه معنا بسبب نجاحاتنا، وفي إذلالنا لرعايانا المتمردين، عسى أن يكون ذلك مرعباً ومنذراً للآخرين، نحن نبيح إليكم أخباراً مرضية، بأن لمدينة فيانزا، التي لم تضع ثقتها باستحقاقاتها، بل في أسوارها، وبمواءمة فصل الشتاء لها، فتجرأت على الثورة علينا، وأظهرت معارضة لقواتنا، إنما مع عودة الربيع، كانت تلك المدينة قد تعرضت إلى كثير من الأذى بوساطة حملات وقذائف مجانيقنا، وقد تساقطت الأسوار، ودخل لاغومونا بوساطة أنفاق وممرات إلى داخل المدينة، وأعقب ذلك قتالاً يداً بيد بين سكان المدينة وجنودنا، وعندما وجدوا الآن أنفسهم مضطرين —بسبب ماتعرضوا له من تهديدات— لتعريض أجسادهم لسيوفنا، تشاوروا بعقلانية حول سلامتهم لأن هزيمتهم هددتهم بدمار محيق، لذلك شرعوا بحكم الضرورة يطلبون رحمتنا، وفي يوم الأحد الخامس عشر من نيسان استسلموا بأنفسهم لإرادتنا، وألقوا بأنفسهم وبمدينتهم تحت رحمتنا، وأقسموا يمين الولاء إلينا، وتخلوا عن جميع الأيمان غير القانونية التي كانوا قد أقسموها.

ولدى خضوعهم لرحمتنا، التي هي رفيق دائم للامبراطورية، وحكم،

صـاحب حكم عـادل، قهرنا مشـاعـر المنتصر، وأقنعنا أنفسنا بالتعـامل برحمة مع المغلـوبين، كما أننا فكرنا أن نصرنا سـوف يكون نصراً أكثـر مجداً، بالعطف على هؤلاء الذي عادوا إلينا ثانية، بدلاً من الانتقام منهم في وضعهم الكئيب، وعـددنا أنه نـوع من أنواع الانتقـام، أن نعفـو عن المضـار، وذلك في الوقت الذي كـان في مقـدورنا الانتقـام لهم بقسـوة، وهكذا قمنا بكرم بالعفـو عن جـرائمهم، مع أنهم كـانوا لايستحقـون ذلك، وحللنا جميع الذين كانوا مـدانين بالخيانة ضدنا، وبعـدما أصلحنا أوضاع المواطنين وأوضـاع مدينتهم، تحت سلطتنا، وسلطة الامبراطورية (أكثر من ذلـك مـا من شيء أعظم سروراً، أو يستحق أكثـر) وفقـاً لما تسمح به أوضـاع الأمـور وتتطلبـه، صرفنا انتباهنـا نحو إفـراغ منطقـة بولونا Bologna من السكان، ووقتهـا حـدث لسـوء حظهم، أن حشـداً من الأسـاقفـة مع أسقـف برانستي، وأوتو أوف ثورونجيـا، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا في سجـن توليان، والذين احتشدوا من مختلف البلدان، وقد قدموا إلى جنوى لمعارضة إجراءاتنا، وقد التحق بهم في هذا المكان غريغوري أوف رومانا، الذي أرسل لمرافقتهم، ولكي يكونوا مـرتبطين ببعضهم بعضاً بقـوة أكبر، وعقدوا اتفاقـاً مع الجنويين العصاة علينا، ومع بعض الناس من المملكة الفرنسية، و قد حشدوا قوة بحرية كبيرة، وجعلوا رجال عصاباتهم يسلحون أنفسهم، واتفقوا معهم على الذهاب إلى البابا، من أجل زيادة الخلاف.

وفي سبيل أن نعيق تقـدمهم، وأن نمنع وصـولهم، تدبرنا احتشـاد أسطولنا في بيزا، ذلـك أنه كان قد استعـد قبل بعض الوقت في الماضي، ووضعناه تحت إمـرة ستـولليوس المنتصر، وكـان اسطولنا هذا مشحـوناً من قبل رعـايانا المخلصين، وقد علـم مسبقاً بأخبـار تحركاتهم، فجـرى إرسـاله إلى الأماكن والموانىء التي كـان لابد لهم من المرور بها، حتى في أعماق البحـار، لأنها قـائمة على طريقهـم وكانوا مـرغمين على الابحـار

والمرور بها في طريقهم، وكانت الأوامر الصادرة لأسطولنا هي اعتراضهم بالقوة، وعند ذلك هاجم قائدنا المذكور غلايينهم بغلايينا، وبالرب ذي القدرات الكلية، الذي رأى وقاتل من عليين، والذي يقضي بين الصح والخطأ، فهو قد رأى طرائقهم الشريرة، وفساد قلوبهم وبفضله الرباني سلمنا هؤلاء النواب البابويين والأساقفة، وأوقعهم مكتوفين في قبضتنا، فبعدما جرى اغراق ثلاثة من غلايينهم، مع كل شيء كان على ظهورهم، وبعدما خسروا حوالي الألفين من الرجال من دون أمل بالعودة، جرى قهر اثنين وعشرين غليوناً —بعون الرب وحكمته— بوساطة غلايينا، وبعد ايقاع مذبحة كبيرة بين بحارتهم، جرى أسر الجميع، مع ممتلكات كل واحد على ظهور السفن، وكان في هذه الغلايين النواب البابويين الثلاثة المتقدم ذكرهم، مع رؤساء الأساقفة والأساقفة ورعاة الديرة، وعدد كبير آخر من القساوسة، وذلك إلى جانب رسل، ونواب أساقفة، حيث وصل عددهم إلى حوالي المائة، مع سفارات من المدن اللومباردية العاصية، وتألف الذين كانوا ذاهبين إلى المجمع المذكور من أربعة آلاف جنوي، إلى جانب الأشخاص الخاصين والمنتخبين من جنوى، والذين تولوا قيادة الغلايين، ومرافقة الأساقفة، بقصد أخذهم من جنوى وإعادتهم إليها، كما جرى لسوء الحظ الاتفاق بينهم، ووقع هؤلاء جميعاً أسرى بين أيدينا، مع أسقف برانستي، الذي غالباً ما أثار كراهية الرئيس ضدنا.

ويتوجب على هذا الرجل، الذي يحمل شكل ذئب، تحت المظهر الخارجي لشاة، التوقف عن الاعتقاد بأنه يحمل الرب في قلبه، لأننا نعتقد أن قضاء الرب الخاص هو الذي وقع عليه، وعليه أن يعرف بأن الرب معنا، وهو جالس على عرشه ليحكم بين الخير والشر، فهو قد قضى بأن لاتحكم آلية العالم من قبل رجال الدين فقط، بل من قبل الحكام ورجال الدين معاً، وعلينا —بناء عليه— بما أن الرب قد كشف

خططه لنا من السماء، وحوّل كثيراً من الأماكن الوعرة إلى أماكن سهلة، أن نحاول تجنب عرق الحرب، وغبار الصيف، وأن نوجه خطانا، وتفكيرنا، واهتماماتنا نحوه، وهو الذي منحنا المزيد من زيادة السرور والمجد، لنا وللحكام الآخرين، ونحن نهنىء الأمراء الآخرين، وأنت بشكل خاص، لأنك كنت مسهماً في نجاحاتنا هذه المتقدمة الذكر، والتي نرغب بوحدة المشاعر التي تجمعنا، في أن تشارك في واقعة أية حادثة حسن حظ في المستقبل. صدر في فيانزا» إلخ، إلخ.

كيف جرى حمل الأساقفة إلى نابل للسجن فيها

وأرسلت رسائل بهذا المحتوى إلى الأمراء الآخرين، بغية منحهم السرور، لكنهم لم يكونوا جميعاً مسرورين بالذي حوته، كما قال الشاعر الحكيم:

مامن أحد سوف يمتلك

الفخار الذي نما من الجريمة

وبناء عليه، جرى —بناء على أوامر الامبراطور— حمل الأساقفة وإبعادهم بالبحر، وبعد رحلة لمدة ثلاثة أسابيع تقريباً، جلبوا إلى نابل Naples في أبوليا، حيث أودعوا في سجن أمين، في قلعة كانت محاطة بالمياه، قرب تلك البلدة، هذا ولم يشعروا جميعاً بمصائب السجن في الدرجة نفسها،وكانت أحوال أسقف برانستي تعيسة جداً، مع أن المرض، أو الضعف الشديد قد استبد بهم جميعاً، لأنهم أثناء الرحلة جلسوا مصفدين، ومضغوطين مع بعضهم في أكوام، وترافق هذا مع حر شديد لايحتمل نزل بهم، وكان الذباب يتطاير من حولهم، ويلدغهم مثل لدغات العقارب، فلقد سحلوا على طريق للشهادة طويل، وجرى تعذيبهم بالجوع والعطش، وكانوا عرضة للإهانات والازعاج حسب رغبات ملاحي القرصان المعادين، وقد تحملوا هذا كله بحكم طاعتهم،

ولذلك بدا السجن بالنسبة لهم مكاناً للراحة، مع أنه لم يقدم لهم أي نوع منها، ونتيجة لـذلك أخذوا يتلاشون، ولاسيما الأكثر ضعفـاً بينهم، فقد هلكوا تحت مختلف الأمـراض، ولفظ بعـض رجـال الدين، وعـدد كبير آخر أرواحهم التعيسـة، وغادروا تعاسـات هذه الحياة إلى الرب بعـدما حصلوا على رمـز الشهـادة، وبعـد وقت قصير أيضـاً، عبر أسقف برانستي،في طاعـة منه إلى البـابـا حتى الموت، من هذا العـالم الشرير إلى مكان للراحة.

إرسال هنري لمساعدة أخيه كونراد ضدّ التتار

وبعدما توصل الامبراطور —بعون الرب وإذنه— إلى تحقيق غرضه، أرسل ابنه هنري، الذي كما ذكـرنا قد تغلب على الأسـاقفة ومـرافقيهم، للالتحـاق بأخيـه كـونراد، الذي كـان قـد استعـد مع جيش لايحصى تعـداده، قـد حشـد من مختلف مقـاطعـات الامبراطورية، ليضبط عنف التتار والكومـان، وفي سبيل أن يواسي الأخوان كل واحـد منهما الآخر، ويسـاعـده، ولكي يحاطا بقوة أكبر، فقـد أخـذ هنري المذكـور، بناء على أوامـر والده، معـه أربعـة آلاف من الفـرسـان، وكتلة كبيرة من الجنود الرجـالة، الذين عندمـا اتحدوا مع الآخـرين الذين أرسلوا لمسـاعـدتهم، شكلوا جيشـاً عملاقـاً، ولدى اكتشـاف الأعداء لهذا هدأت رعـونتهم، وأمكن ضبط شططهم، وأصبحـوا أكثر بـرودة، ذلك أنه وقعت معركـة دمـوية قـرب ضفاف نهر دلفيـوس Delpheos, ليس بعيـداً عن الدانوب، وبعـدما سقط عـدد كبير من على الجانبين، أمكن صـدّ جيش العـدو، مع أن تعـداده كـان كبيراً جـداً، لكـن قبل أن يتراجع، وقعت حـادثة، نجمت عن خـداع اليهـود، الذين اعتقـدوا أن أعـداءنا هؤلاء، كـانوا شطراً من الجنس اليهودي، ممن كـان محبـوساً في جبـال القوقـاز، وأنهم على هذا قـدمـوا لمساعـدتهم، في سبيل اخضـاع المسيحيين، ولقـد رأينا أن هذه الشرور العظيمة جديرة بأن نقحم أخبارها في هذا الكتاب.

الشرور الهائلة لليهود

في هذه الآونة، اعتقدت أعداد من اليهود، في القارة، خاصة في المناطق العائدة للامبراطورية بأن هؤلاء التتار والكومان، كانوا شطراً من جنسهم، وهم الذين حبسهم الرب في جبال القوقاز، بناء على أدعية الاسكندر الكبير، وقداجتمعوا بناء على دعوة عامة، في مكان سري، حيث قام واحد منهم، بدا أنه الأكثر حكمة والأعظم نفوذاً بينهم، فخاطبهم كما يلي:

«إخواني، نسل إبراهيم الشهير، وكرم رب السبت، الذين سمح ربنا أدوناي، لأن يعيشوا طويلاً مظلومين تحت حكم المسيحيين، لقد حان الآن الوقت كي نحرر أنفسنا، وأن نقوم بقضاء من الرب بظلمهم بدورنا، في سبيل أن يجري انقاذ بقية بني اسرائيل، لأن إخواننا من أسباط بني اسرائيل، الذين كانوا من قبل محبوسين، قد انطلقوا الآن وتدفقوا لإخضاع العالم كله، ووضعه تحت حكمهم وحكمنا، وبقدر ما كانت معاناتنا الماضية حادة وطويلة، سوف يكون مجدنا أعظم، وهو المجد الذي سوف يصير إلينا، ولذلك دعونا نذهب إلى استقبالهم مع هدايا ثمينة، وأن نتلقاهم بتكريم هو الأعظم، فهم يحتاجون إلى القمح، والخمر، والسلاح».

وسمع الحشد كله كلامه بسرور، وجلبوا على الفور جميع السيوف، والخناجر، والدروع، التي وجدوها معروضة للبيع في أي مكان، وفي سبيل إخفاء خيانتهم، وضعوهم في براميل، ثم إنهم أخبروا المقدمين المسيحيين، الذين كانوا تحت حكمهم، بأن هؤلاء القوم الذين يدعون بشكل عام باسم تتار، كانوا يهوداً، وأنهم لن يشربوا خمرة، ما لم تكن معمولة من قبل يهود، فهذا ما أخبرونا به، ورجونا بحرارة أن نزودهم ببعض الخمرة المعمولة من قبلنا، نحن إخوانهم.

ونحن رغبة منا، في إزالة هـؤلاء الأعـداء غير البشريين العـامين من بيننا، وأن نحرر المسيحيين من طغيـان الدماء المحيق بهم، أعـددنا حوالي الثلاثين برميلاً مليئين بخمور مسمـومة مميتة، حتى تحمل إليهم في أسرع وقت ممكن، ولذلك سمح المسيحيون إلى هؤلاء اليهود الأشرار، بتقديم هذه الهدية الشريرة إلى أعدائهم الأشرار، وحـدث أنه بعدما قطع هؤلاء اليهود مسافة طويلة من ألمانيا، وكانوا على وشك عبور أحد الجسور مع براميلهم، طالبهم صاحب الجسر —تبعاً للعـادة— بدفع الضريبة مقابل جوازهم، ورد عليـه اليهود بصلف، ورفضوا تلبية مطالبـه، وقالوا بأنهم كانوا مستخـدمين في هذا العمل لصالح الامبراطوريـة، لابل في الحقيقة لصالح المسيحية كلها، حيث أنهم كـانوا مرسلين إلى التتار، بشكل سري لتسميمهم بخمرتهم،وتشكك الحافظ للجسر بتأكيدات اليهود، فأحدث فتحة في أحد البراميل، لكن مـا من سائل تدفق منه، وهنا أصبح متأكداً من خيـانتهم، فخلع غطاء البرميل، وفتحـه بالقـوة، فـاكتشف أنه كـان مملوءاً بالسلاح.

ولدى رؤيته لهذا المشهد، صرخ بصوت مـرتفع «عجباً، ماهذه الخيانة التي لم يسمع بمثلهـا لماذا نسمح لمثل هؤلاء الناس بالعيش بيننا؟»،وعلى الفـــور قـــام مع آخـــرين، جمعتهم دهشتهم من حـــوله، فكسروا بقيـــة البراميل، وما ان أنجزوا ذلك، حتى وجدوهـم مملوئين بسيوف كولونية Cologne, وبخناجـر من دون أغمدة، قـد صفت وجمعت بشكل مندمج، وهكذا قـامـوا على الفـور بإظهار الخيـانة الخفيـة، والخداع غير الاعتيـادي لليهـود، الذين اختـاروا مسـاعـدة هؤلاء الذين هم أعـداء مكشوفين للعالم، والذين كيا قيل، كـانوا بحاجة ماسـة إلى السلاح، أكثر من مسـاعدة المسيحيين الذين سمحـوا لهم بالعيش بينهم، واتصلوا بهم بكل وسيلة من وسائل الاتصـال، ولذلك جرى تسليمهم على الفور إلى منفذي العقـوبات، من أجل إما أن يوضعـوا بسجن أبدي، أو أن يجري

إعدامهم بسيوفهم.

كيف جرى تحليل الناس من عهودهم بحمل الصليب مقابل دفع مبلغ من المال

وجرى في هذه الآونة، في سبيل سلب بلاد انكلترا التعيسة، ونهب ثرواتها، ابداع ألف طريقة، وذلك من قبل الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، الذين كانوا مدعومين بترخيص من قبل البابا، حيث تولوا أثناء وعظهم منح تحليل كامل من جميع الذنوب إلى جميع الذين سوف يحملون الصليب، في سبيل تحرير الأرض المقدسة، وإثر ذلك، وبعد يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر، وبعدما أقنعوا كثيرين بحمل الصليب، قاموا بتحليل هؤلاء من تعهدهم، على شرط الاسهام بدفع مبلغ كبير من المال من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وأن يدفع كل واحد، بقدر ماتسمح له إمكاناته، ولكي يجعلوا الانكليز أكثر جاهزية، وأكثر قبولاً بمطالبهم أعلنوا بأن المال سوف يجري إرساله إلى الإيرل رتشارد، وعلاوة على ذلك أروهم رسالة منه، وذلك لكي يقدموا ضمانة أفضل، كما أنهم منحوا بعض الغفرانات إلى رجال مسنين، ومرضى، ونساء، ومعتوهين، وأطفال، ممن حملوا الصليب، أو اقترحوا حمله، وتسلموا المال منهم مسبقاً من أجل هذا الغفران، وعرضوا رسائل توثيقية من الايرل رتشارد تتعلق بهذه القضية، وقد جرى الحصول على هذه الرسائل من البلاط الروماني، وبهذه الطريقة أفرغوا محافظ نقود الانكليز، وجرى الحصول على مبلغ كبير من المال، نظراً للحظوة التي تمتع بها الايرل رتشارد، إنما علينا هنا أن نسأل: من الذي سيكون الحافظ الأمين والموزع لهذا المال؟ ذلك أننا لانعرف.

تثبيت المعلم نيقولا أوف فارنهام في أسقفية درم

وفي التاسع من حزيران، في هذا العام، جرى تثبيت المعلم نيقولا

أوف فـارنهام Farnham الأسقف المنتخب لدرم، وتكريسـه أسقفاً لذلـك الكرسي، في كنيسة القديـس أوسوولد Oswald في غلوستر، وقـد تولى تكريسه وولتر رئيس أسـاقفة يورك بحضـور الملك والملكة، مع عـدد كبير من الأسـاقفـة ورعـاة الـديرة، لكن فيما يتعلق بالقضية التـي نظر إليها والمتعلقة بتكـريسه للرهبانيـة، والتي أثيرت بين بعض الذين رغبوا في إثارة الخلاف، رفض نيقـولا المذكور المطالبة بأي امتيـاز ليس له حق فيـه، كما أنـه لم يظهـر نفسـه متعجـرفـاً أو متمـرداً، ولذلك جرى أثناء تكريسـه، بمشهد عـام أمام جميع الأساقفـة والنبلاء، وبحضـور مطرانيتـه، أن قـام وولتر رئيس الأسـاقفـة المذكـور، بمهـابة ووضوح بتكريسـه رهبانياً بصـوت مرتفع، وفقاً للعـادة، وكان ذلك كما يلي:

«أنا نيقولا، الأسقف المنتخب لكنيسة درم أعترف بالطاعـة القانونية، والاحترام، والخضـوع لكنيسـة يـورك، وإليك أيها الأب وولتر رئيس أساقفتهـا، وأنا أدون هذا بيدي»، ثـم إنه قام على الفور، بحضـور جميع المحتشدين، فوضع عـلامة الصليب بالحبر على رأس الوثيقة، وناولها إلى رئيس الأساقفة كي يجري حفظها لديه في خزانته.

الموت التعيس للإيرل غيلبرت مارشال

في الوقت الذي كانت فيـه الأيام تتضاعف، وتتـلاعب، وتخدع العالم بوقائع متنوعة، أعدّ الايرل غيلبرت مارشال مع بعض النبلاء الآخرين، نوعـاً من أنواع مبـاريات المبـارزات، مما كـان بعضهم يدعـوه باسم «مغامـرة»، لابل بالحري ينبغي دعوته «سـوء مغامرة»، فقـد جربوا أولاً قـوتهم على رمـايـات قـوس زيار من هارتفـورد، حيث تمكـن بوسـاطة براعتـه في تكتيكات الفروسيـة، من الحصول لنفسـه على الثناء في العلم العسكري، وأعلن الجميع، أنه على الرغم مـن صغر حجم جسـده، قـد نال باستحقاق التميز لنفسه نظراً لشجاعته، وهذا ما كان الايرل المذكور

يهدف نحوه بشكل رئيسي، لأنه كان في المقـام الأول، قد أعدّ للالتحاق بطوائف الكهنـة، حيث قيل بأنه كـــان ضعيفــاً، وغير بارع في التمارين الحربيـــة، وامتطى أثناء هــذه المبــارزة على فــرس أصيل، من الخيــول الإيطاليـة لم يكن معتــاداً عليـه، وكـان مجهـزاً بدرع جميل، ومحاطاً بكتلة كثيفـة من الجنود، الذين مالبثـوا أن تركوه بعـد ذلك، وتفرقـوا، ينوون الحصول على الربح.

وعندمـا كـان الايرل يسلي نفسه بتفقـد فـرسـه أثناء عـدوه بسرعـة قصوى، ومن دون التـوقف عن لكز طرفيه بركابيـه الحادين، ليحثه على سرعـة أكبر، ولأن الوضع اقتضى شـد المقود، انقطع المقـود من طرفيـه بشكل مفاجيء من عند عقدة الاتصال، وأخـذ الفرس يهز رأسـه نحو الأعلى، فأصابه بضربة قاسية على صـدره، وأكد بعض الذين كانوا هناك من دون تردد، بأن اللجام قـد جرى قطعـه بشكل خياني من قبل بعض الأشخـــاص الحسـودين، من أجـل أن يترك هكذا تحت رحمة فـرســـه، فيمـزق إلى قطع ويقتل، أو على الأقل يمكن أسره من قبل خصومـه كما يرغبون، وعلاوة على ذلك كان قد أصابه الصمم بسبب الضجة، وصار أعمى تقريبـاً، بسبب الحرّ، والغبار، والتعرق، وبات رأسـه مثقلاً بسبب وزن خوذته الثقيلة، ولم يعد من الممكن له السيطرة على حصانه وكبحه، لامن قبله ولا من قبل أي واحد آخر، وبعـد بعض الوقت أغمي عليه، وبدأ يتأرجح في سرجـه، ثم مالبث أن سقط شبه ميت، وجاء سقـوطه من على ظهـر فرسـه، وإحـدى قدميـه معلقـة بالركاب، وبهذه الطريقـة جرى جره لمسافة ما فوق الحقل، حيث أصيب ببعض الجروح الداخلية، التي سببت موته.

ولقـد هلك في مسـاء السـابع والعشريـن من حـزيران، وسط حـزن عميق وصراخ مرتفع من قبل الذين رأوه في بيت الرهبان في هارتفورد، وقبل أن يلفظ نفســه الأخير، حيث كـان قـد تلقى قـربان الموت، عمل

طلباً إلى الكنيسة، كنيسة العذراء المباركةفي هارتفورد في سبيل إنقاذ روحه، وجرى بعد ذلك فتح جسده، فوجدوا أن كبده كان أسود وممزقاً من قوة الضربات التي تلقاها، وقد جرى دفن أحشائه في الكنيسة المذكورة، أمام مذبح القديسة مريم، التي إليها عهد بروحه أثناء موته.

وجرى في اليوم التالي حمل جسده —حيث تقدم عليه أخوه، وروفق من قبل أسرته كلها— إلى لندن ليدفن قرب أبيه، وقتل أثناء المبارزة نفسها أيضاً، واحد من حاشية الايرل اسمه روبرت دي سي Saye, وأيضاً دفنت أحشاؤه مع أحشاء الايرل، وأصيب أيضاً كثير من الفرسان والرجال المسلحين بجراحات قاسية بالرماح أثناء المبارزة نفسها، لأن حسد وغيرة العديد من الأطراف المسؤولة قد حولت الرياضة إلى معركة.

وعانت شؤون الصليب، ومصالح الأرض المقدسة من خسارة كبيرة، بموت الايرل المذكور، لأنه كان قد نوى الانطلاق نحو القدس في الشهر المقبل من دون تقاعس، حيث كان قد جمع مالاً من جميع الذين حملوا الصليب في البلاد، فقد دفع مائتي مارك إلى البابا للحصول على إذنه، وبهذا قلّد التصرف الحكيم للايرل رتشارد.

كيف جبا إثنان من كهنة البابا مالاً من جميع أرجاء انكلترا من أجل استخدامات قداسته

أثناء هذا الوقت كله عندما كان الحظ يلعب بشؤون حشود البشر، استمر شره الرومان ونهمهم ولم يشبع، لأنه بعد مغادرة النائب البابوي، بقي اثنان من كهنة البابا في انكلترا، من أجل القيام بواجبات النائب البابوي، وكان هذان الاثنان هما بطرس الذي كنيته لى روج، وبطرس دي سوبينو Supino, وكانا اثنان لايعرفان التعب في الجباية، وكانا يحملان ترخيصاً بابوياً من أجل استخراج وكالات، وفرض حرمانات

من شراكة المؤمنين، وحرمانات كنسية، ولقد جبيا الأموال بمختلف الطرائق من الكنيسة الانكليزية التعيسة، من أجل —كما قالا— أن تتمكن الكنيسة الرومانية، التي أصيبت إصابات مضاعفة بمختلف الطرق، من استرداد أنفاسها، وأن تتنفس مجدداً بشكل حر، وتصرف بطرس لى روج، المتقدم الذكر، الذي وضع نفسه في مقام فوق الرجل الآخر، وفق طرائق النائب البابوي، وكتب رسائل إلى راعي الدير هذا، وإلى رئيس الرهبان ذاك، وتوجه بالخطاب برسائله دوماً هكذا: «من المعلم بطرس لى روج، الصديق المقرب، والقريب لقداسة البابا، تحيات، إلخ، إلخ»، واستمر استناداً على هذه الصلاحيات في فرض الوكالات واستخراج الأموال بمختلف طرائق الجباية، وذهب زميله بطرس دي سوبينو إلى ايرلندا، بموجب إذن من الملك، وذلك لصالح البابا، حيث كان يحمل ترخيصاً منه، وبما أنه حصل على المساعدة من السلطة المدنية، قام بطغيان عظيم باستخراج المال من أساقفة تلك الكنيسة، وقدم بعض الذين كانوا معلقين وممنوعين من ممارسة وظائفهم، إلى بطرس المذكور في لندن، لإرضائه بكل ما اختار أن يطلبه، وعاد بطرس سوبينو من ايرلندا في الخريف التالي، وأخذ طريقه إلى روما حاملاً معه ألفاً وخمسمائة مارك، وحقائب سرجه كانت مليئة تماماً.

الملك الفرنسي يعطي مقاطعة بواتو إلى أخيه أمفولسوس

في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، في هذا العام، أعطى الملك الفرنسي، بناء على نصيحة الذين يكرهون مملكة انكلترا، مقاطعة بواتو إلى أخيه أمفولسوس Amphulsus وأضفى في الوقت نفسه، وسط أبهة عظيمة، نطاق الفروسية على أمفولسوس المذكور، كما منحه مرتبة كونتية بواتو، التي كانت كما هو معلوم بموجب الحق هدية الملك الفرنسي الخاصة إلى ملك انكلترا، أو إلى أخيه، كما أنه أوجد في الوقت نفسه عدداً من الفرسان النبلاء لتكريم تنصيب أمفولسوس

المذكـور، وبـذلك هو قـدم قليـلاً من التقـدير، أو بالحري لاشيء من التقدير إلى إدعاء أو لقب الايرل رتشارد، الذي قاتل باخلاص في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وحـرر الأسرى الفـرنسيين، ودهش كثيرون إلى حد كبير تجاه أفراد النبالة الفرنسية، التي سمحت بهذا، وبذلك كانوا غير أوفياء، وأعادوا من دون حياء الشر مقابل الخير.

رسالة الإيرل رتشارد الحاوية لرواية عن حجه

وكان في هذه الآونة أصدقاء الايرل رتشارد قلقين حول شؤونه، وقد حصلوا على معلومـات وافية عن ذلك في الرسـالة التاليـة التي أرسلت من قبله:

من رتشـارد ايرل كورنوول وكـونت بواتو إلى النبـلاء، وإلى المبجلين والسادة المحبوبين في المسيح ب. B دي ريفر Rivers, وايرل أوف ديفـون Devon, وراعي دير بيـوليـو Beaulieu وروبرت الكاهن، صحة وكل الرغبات الطيبة، مع عواطف مخلصة:

إنه بالنسبـة للشدة العظيمـة والأسى الذي تعيشـه الأرض المقدسـة، وبشأن المشكلة الصعبـة المتعلقـة بإعـادتها وتخليصها منذ الفـاجعـة عند غزة، لقـد وصل رجال عقلاء ومجربين وعارفين بالصـدق إلى قرب هذه المواضع، ووصلت أخبـار من بعيـد، إنها يمكن لرسـالتنا الحاليـة أن تكشف سرنا، وبها أن الطريق مفتـوح إليكـم، فإنها قـد تعطي الفـرصة لتفاسير خبيثة، لذلك فإن كثيراً من الأشياء سوف يجري إيضاحها فيها، هي الآن نائمة، والكذب يغطي قعر قلبنا.

فمنذ الوقت الـذي ابتعـد فيـه الملوك والممالك عن القـدس، ولأنها كـانت مقسمة وهـي بأيدي متملكين ظالمين وغير عادلين، لقـد شعـرنا بحزن كبير، ولايمكننا أن نلتزم بالصمت، ولابد لنا من أن نطلق ألسنتنا بشكاوي مـريرة، حيث ليس هناك قضيـة طيبـة نشغلهم بها، لأن سيف

الرحمة قـد خـرق روحنا، إلى درجـة أن روحنا لم تعـد قـادرة على أن تستـوعـب ذاتها، لأنه بالفعل منذ بعض الـوقت تحكم الخلاف بالأرض المقدسـة بدلاً من السلام، وحلّ الشقاق مكان الوحـدة، والكراهية محل المحبـة، والعـدل قـد أقصي نهائيـاً، ومن هذه البـذور هناك الكثير من النبـاتات في تلك الأرض، وصـار كثيرون جـامعـون للثمار التي نتجت عنها، وأنا آمـل بأنهم الآن قد اجتثوا، هذا وليس هنـاك بين جميع محبيها واحد يتولى مواساتها، لأن الأخوين التوأمين غير متفقين وهما على صدر أمهما، والذين كان عملهم الدفاع عنها، أصبحوا متشامخين بوفرتهم، وقد أكلوا وتقيأوا هذه المكونات حتى الجذور، وتسببوا بجعل أغصانهم تمتد بالطول وبالعرض، لأن كميات وافـرة من الأشياء الجيدة تنتج مثل هذه الأشيـاء المزعجـة بعد خـلاف متبـادل، ذلك أن تأنيبـات الأب المترأس لكرسي بطرس، نظر إليهـا بعـدم تقدير مطلق، مـع أن الفئة الأقوى قـد بهرت العـالم بشهـرتها، وفي سبيل تهدئـة هذه الفئات المتنازعـة قـد بذلنا جهداً كبيراً، لكن مـازالت خطوات السلام لم تترك أي أثر، بقـدر ما أن أتبـاع الخلاف لم يصبحـوا معتـاديـن على كلمات السـلام، وتمكن الذين لديهم أمـوال بسهـولة من جـذب الآخـرين إليهـم مـادامت الأمـوال مـوجودة، لكن عندمـا حلّ وقت صـون اعتـدال أمهم، تركوا صـانعي السلام، واختلقوا مشاغل سرية، ولم يظهروا الاهتمام بجلب المواساة إلى أمهم، ولهذا السبب فإن العـدد الأكبر من الفـرسـان الغـاليين، الذين تعـدادهم تقـريبـاً ضعـف تعـداد المسلمين، قـد انغمسـوا كليـاً وهلكوا بالعادات الشريرة، وتشجع أعـداء الصليب بشكل غير متوقع، حتى أن كتلة صغـيرة منهـم لم تعبأ سوى قليـلاً، أو لاتعبأ بالمرة بالعـدد الكبير منا.

وبسبب هذا الوضع، وجـدنا عندمـا وصلنا أولاً إلى هنا، أن النبـلاء الذين يمكن أن يقـدموا العـون لنا، قد شرعـوا بالمغادرة، وبدا أن انقـاذ

تجعل الجراحات من دون وسائل علاجهم، والأسف من دون وسائل المواساة، لأننا عندما كنا متوقعين لدى وصولنا إلى هنا، القيام بالتعاون مع بقية الصليبيين، ببذل قصارى جهدنا، حسبما هو مفروض علينا، بموجب عهدنا، بالانتقام للاهانات التي لحقت بالصليب من قبل أعداء ذلك الصليب، وبمهاجمة أراضيهم، واحتلالها بعد ذلك، وإعادتها بعد ذلك إلى وضع صالح، رأينا ملك نافار، الذي كان آنذاك مقدم الجيش ورئيسه، وكونت بريتاني، ووجدناهما على الرغم من أنهما كانا على علم مسبق بموعد وصولنا قبل خمسة عشر يوماً من وصولنا إلى عكا، قد غادرا مع حشد كبير جداً، وقبل أن يغادرا، وفي سبيل أن يبدوا أنهما قد عملا شيئاً ما، عقدا نوعاً من أنواع الهدنة مع الناصر، صاحب الكرك، وتم الاتفاق بموجب ذلك بوجوب تخليه عن جميع الأسرى الذين أسروا عند غزة، الذين كانوا مسجونين لديه، أو تحت سلطانه، وذلك مع بعض الأراضي المشمولة بشروط الهدنة، وكضمانة على ذلك أعطى ابنه وإخوانه رهائن، وأثبت شرطاً هو مهلة أربعين يوماً من أجل تنفيذ شروط الهدنة، والذي حدث أنه قبل انقضاء تلك المدة غادر الملك المذكور والكونت، دون الاهتمام بالموعد المتفق عليه، أو بشروط الهدنة، وخلال تلك المدة، وبالتحديد عشية عيد القديس ديونيسيوس Dionysius, وصلنا إلى عكا، كما كنا قد أخبرناكم من قبل، وقمنا على الفور، بناء على نصيحة عامة من الجميع، فبعثنا إلى الناصر المذكور، نسأله عما إذا كان سيستطيع مراعاة الهدنة معنا، وهي الهدنة التي عملها مع الملك المذكور، وتلقينا جواباً منه، بأنه على استعداد لفعل ذلك إذا كان ممكناً، وذلك بسبب احترامه للملك نافار المذكور، مع أنه سوف يربح قليلاً منها، وعلى هذا قمنا بناء على نصيحة النبلاء بانتظار استكمال الموعد المتفق عليه، لنرى النتيجة، وعند انتهاء الموعد، تلقينا رسالة أخرى منه، بأنه لايستطيع بأي شكل من الأشكال الالتزام بالاتفاقية المتقدمة الذكر، وعند سماعنا بهذا، قمنا بموافقة من الجميع، بحمل

المتقدمة الذكر، وعند سماعنا بهذا، قمنا بموافقة من الجميع، بحمل أنفسنا إلى يافا، لنتولى، مع جميع الحيطة الممكنة، تحسين أوضاع الأرض المقدسة، التي تدهورت كثيراً للأسباب المتقدمة الذكر.

وقدم إلينا إلى هذا المكان رجل صاحب رتبة وسلطة، من قبل سلطان مصر، وأخبرنا بأن مولاه كان راغباً بالدخول في هدنة معنا، إذا أردنا ذلك، وبعد سماع ماتولى عرضه علينا وفهمنا تماماً لذلك، وإثر طلبنا بكل اخلاص نعمة الرب، قمنا بناء على نصيحة دوق بيرغندي، والكونت وولتر دي بريين، ومقدم الاسبتارية، والنبلاء الآخرين، لابل في الحقيقة الجزء الرئيسي من الجيش، بالموافقة على شروط الهدنة المتقدم ذكرها، مع أنها بدت عند وصولنا قضية صعبة الانجاز، علماً بأنها هدنة تستحق الثناء، وتقدم منافع إلى الأرض المقدسة، لأنها مصدر للبهجة والأمان للناس الفقراء، وللمسافرين، ومفيدة ومقبولة من قبل الطبقة الوسطى من السكان، وصالحة ومشرفة للأغنياء ولرجال الدين.

كما أنه لم يظهر لنا لدى نظرنا إلى الأوضاع المتدهورة للأحداث المحيطة، أننا لايمكننا آنذاك أن نستخدم أنفسنا بشكل نافع أكثر من العمل على تخليص الأسرى التعساء من الأسر، لأنه كان هناك نقص بالرجال والأشياء (مع أننا وحدنا بقينا ومعنا مال من حولنا) وكان من الممكن الإفادة من أيام الهدنة، بتقوية وتحصين المدن والقلاع التي أصبحت مدمرة، في وجه المسلمين وضدهم، ولقد رأينا من الموائم أن نذكر أسماء الأماكن والمناطق التي أعطيت إلينا، بموجب شروط الهدنة، مع أن ذلك قد يكون متعباً لكم، ونحن نفعل ذلك خشية أن يقوم بعضهم بموجب تفسير شرير، فيعزو أعمالنا المجيدة إلى غيرنا، أو أن يقوم بفساد وتآمر بتشويه سماتهم، لأن هناك بعضاً —مع أنهم قلة— قد رفضوا الموافقة على شروط الهدنة، وهذه الشروط هي كما يلي:

إن الأراضي التي أعطيت بناء على شروط الهدنة مع الايرل رتشارد

هي هذه: المنطقة الجبلية لبيروت، مع الأراضي والأجزاء المفصولة العائدة لها، وجميع منطقة السعيد Said مع متعلقاتها، وقلاع: الشقيف، والقرين، والقلعة الجديدة مع متعلقاتهن، واللقية Lekayt واسكندرون، ولبوة Lebet, وبشيت Becheet(?) واللدّ مع متعلقاتهن، وأراضي كل من الجبال والسهول، وقد تخلوا أيضاً عن أراضي بلدة تورون مع متعلقاتها، وطابار Tabar(?)متعلقاتها، وقلعة Benaer, وقلاع Amabel, وراما Rama, و Amost, وكذلك قلعة Hybile, الواقعة فيها وراء النهر باتجاه الشرق، مع جميع متعلقاتهم، كما استسلمت قلعتا صفد والناصرة وكذلك جبل الطور، واللجون و Aschalis, وقلعة بيت جبرين مع متعلقاتهم، ومع جميع القرى العائدة إلى بيت اسبتارية القديس يوحنا، وكذلك ماهو معروف أنه عائد إليهم، أي المتعلقات بالقدس وببيت لحم، وكذلك جميع الأرض القائمة على الطريق التي تقود من القدس إلى بيت لحم، ومن القدس إلى لدّ راما، ومن اللد إلى يافا، مع جميع القرى التي توجب أن تكون في أيدي الصليبيين، وجرى أيضاً تسليم مدينة القدس إلى الصليبيين، ومثل ذلك بيت لحم أيضاً، وجميع الأرض التي من حول القدس وجميع القرى، التي جرت تسميتها في شروط الهدنة، وهي القديس لعازر، بيت عنيا، بيت صيدا، و Wissewurch, و Derphat, وبيت عاموس Bethamus, و Bechele, وبيتك Bethic, وعنون Anon,وكوكبي Kokabi, وبيرسامول Bersamul, و Bebrit, و Kikai, وبيت أمي Bethuame, و Bebe, و Kipsa, و Bethit, وحوريب Horeb, و Athacana, و Clepsta, و Tolma, و Argahoga, و Bertapsa, و Bethsaphau, و Tabli, و Sorobooz,(1)

١- لقد تعذر ضبط أسماء هذه المواقع، ولم تذكر المصادر العربية المتوفرة هذه الهدنة بالتفصيل.

وجميع متعلقاتهم، والأرض المسماة في تقسيمات القدس، وما هو معتمد على الطريق الذي هو هناك، حسبما هو موجود ومشروح في الهدنة الكبرى.

وجميع هذه المناطق،والقلاع الموجودة فيها، التي تقدم ذكرها، مسموح للصليبيين القيام بتحصينها أثناء الهدنة، إذا ما رغبوا، ولسوف تجري إعادة النبلاء الأسرى أيضاً مع جميع الأسرى والفرنسيين فهؤلاء سوف يجري إطلاق سراحهم من على الجانبين، وفور الفراغ من إعداد الهدنة المتقدمة الذكر، أخذنا طريقنا إلى عسقلان، ولكي لاتمر الأيام من دون عمل، قمنا بناء على نصيحة جميع مقدمي الصليبيين بالشروع بتحصين قلعة كبيرة هناك، وأرسلنا من ذلك المكان، رسلاً إلى سلطان مصر، لإقناعه باقسام يمين بالتعهد بمراعاة الهدنة المذكورة، إذا مارغب بفعل ذلك، ولكي يرسل في الوقت ذاته الأسرى الذين تقدم ذكرهم، ولقد قام لسبب لانعرفه بحبس رسلنا لديه، دون إعطاء أي جواب، من عيد القديس أندرو حتى يوم الخميس بعد عيد تطهير مريم العذراء (٢-شباط)، غير أنه خلال هذا الوقت، حسبما وجدنا في رسائله قام بناء على نصيحة أعيانه، فأقسم بالمحافظة على الهدنة المذكورة، ولقد بقينا خلال هذا الوقت كله في عسقلان مواظبين على نيتنا في بناء القلعة المتقدمة الذكر، حيث تقدم العمل فيها كثيراً، وذلك بفضل الرب، إلى حد أنه في الوقت الذي نرسل فيه هذه العروض، قد جرى تزيينها، وقد أحيطت كلياً بسور مزدوج، وبأسوار عالية وشرافات، مع أربع أحجار مربعة وأعمدة منحوتة من الرخام، وكل شيء عائد إلى قلعة، ما عدا خندق من حولها، سوف ينتهي بمشيئة الرب، من دون احباط، خلال شهر من عيد الفصح، وهذا لم يعمل لسبب جيد، هو بما أننا لم نكن متأكدين بأن الهدنة سوف تتثبت، رأينا أنه من الأفضل شغل وقتنا في البناء وفي تحصين هذه القلعة، حتى إذا ما خرقت الهدنة بموجب أي

حادث، يمكننا أن نمتلك في التخوم وعند المدخل نفسه لأراضيهم، هذا المكان، الذي كـان من قبل تحت حكمهم، ويكـون لنا مكاناً حصيناً للالتجـاء إليه، إذا مـا دعتنا الضرورة إلى التراجع هناك، وكـذلك الذين سوف يبقون هناك، لن يكون لديهم مسـوغ للخوف من نتيجة الحصار، لأنه صحيح أن المحاصرين يمكنهم أن يقطعـوا جميع المساعدات والمؤن ويحولوا دون وصولها إليهم، مع ذلـك يمكن لجميع الحاجات الضرورية أن تصل إليهم بالبحر، وفي أيام السلم أيضاً، نحن نعتقد أن هذه القلعة لن تكون من دون فوائدها، بما أنها المفتاح والملجأ في البر والبحر لمملكة القـدس، وهي ستكون في الوقت نفسـه تخريب وتدمير لمصر وللمناطق الجنوبية من البلاد.

وقمنا بعـد هذا في يوم عيد القـديس جرجس، بعـدما جـرى الحلف على مراعـاة السلام من الجهتين، وبعـدما جرى تثبيـت الهدنة، فاستقبلنا —وفقـاً لشروط الهدنة— جميع الأسرى الصليبيين، الذيـن كنا نتـوقع وصـولهم وننتظرهم منذ وقت طـويل، وبعـد إكمال جميع هذه المسـائل، قمنا بتوديع الأرض المقـدسة بسلام، وفي يوم عيـد العثور على الصليب المقـدس، أقلعنا من عكا للعودة إلى الوطن، لكن لعـدم توفر ريح طيبـة أثناء الرحلة، ولأننا كنـا متعبين كثيراً نزلنا في تربيني Trapani في صقليـة، وكـان ذلك في ثمانيـة عيـد القـديس يوحنا المعمـدان، وسمعنا ونحن في ذلك المكان نبـأ اعتقـال وسجن بعـض الأسـاقفـة، وبالآلام المحـزنة الأخـرى التي عـانت منهـا الكنيسـة، وبناء عليـه، وفي سبيل استرداد السـلام، ببذل كل مـا نملكه من قوة، بين هؤلاء المتخـاصمين، ولكي نبذل قصارى جهودنا من أجل اطلاق سراح الأسرى، وفي سبيل تقديم المواساة إلى أمنا، صرفنا وجهـة سفرنا، وتحولنا للذهاب إلى بلاط رومـا، وحـالما يسمح لنا الرب، المقـدر لكل شيء ولكل حـدث، نتوي العودة إلى انكلترا، بكل سرعة ممكنة».

كان مشتاقاً كثيراً لرؤيته، وذلك بوساطة القيادة والتوجيه المريح لمثل هذا الرجل، الذي كانت تعلوه بحكمة ابتسامة مرضية، وبذلك اكتشف التأثير القوي، للأدعية المتواصلة، للرجال المستقيمين، الذين عهد بنفسه بتقوى إليهم، عندما كان على وشك الشروع بحجه، لأنه عندما كان على وشك القيام برحلته، جاء إلى كنيسة القديس ألبان، الشهيد الرائد لانكلترا، ودخل إلى بيت هيئة الكهنة، وتوسل إلى رهبان الدير، بأن يسمح له بمشاركة خاصة في منافع صلواتهم، والشيء نفسه قد فعله أيضاً في بعض البيوت الأخرى العائدة لرجال الدين، حيث كان من المعتقد أن القداسة مع نظام الطائفة لها مكانة عليّة وتقدير كبير، وللعار ولأسف أولئك من طلاب الكنيسة الرومانية، أن الأساقفة والنواب البابويين، الذين أرسلتهم الكنيسة إلى مسابيننا، لجمع المال، والذين انطلقوا بمثابة مرآة ومثل للرجال العلمانيين، أنهم لم يعملوا وفق الطريقة نفسها، عندما كانوا يقلعون للقيام برحلاتهم، في سبيل أن يكونوا مؤيدين في مخاطرهم بصلوات القديسين، لأننا هكذا أمرنا أن نعمل في الكتابات المقدسة، فعندما وضع القديس بطرس الرسول في السجن، عملت له صلوات بلا انقطاع من قبل الناس، وقد أطلق سراحه من قبل الملاك الذي أرسل إليه من قبل الرب.

الإمبراطور يستقبل الإيرل رتشارد ببهجة

وفي الوقت نفسه، عندما كان الايرل رتشارد على طريقه للالتحاق بالامبراطور، استقبل في مختلف المدن التي اجتاز بها بسرور كبير، وبتشريف، فقد خرج المواطنون مع زوجاتهم لاستقباله مع الموسيقى والغناء، وهم يحملون أغصان الأشجار والورود، وهم أيضاً يرتدون ثياب العيد وزينته، وكان بعض الفرسان يمتطون على خيول ثمينة، وكان ذلك من صنع دليله، الذي كان قد تلقى أوامر من الامبراطور ليتصرف هكذا، وعندما وصل أخيراً إلى عند الامبراطور، استقبل من

قبله مع التكريم كله، وبعدما تعـانقاً، وسط صرخات الترحيب من قبل جميع أتباع الامبراطـور، انخرطا في حديث طـويل، كان مرغـوباً به منذ زمن طويل، وذلك مع مختلف أنـواع التهاني، ومتعـا نفسيهما كأصـدقـاء لعـدة أيام، وأمـر الامبراطور بمعـاملتــه بلطف ونعـومـة، مع الفصـد، والحمامات، ومختلف أنواع الكمادات الطبية حتـى يسترد قوته بعد مخاطر البحر، وامتلك بعد عدة أيام، بمـوجب إذن من الامبراطور، حديثاً حراً وطويلاً مع أخته الامبراطورة، وبموجب أوامر الامبراطور أيضاً، جرى عــرض مختلف أنواع الألعــاب وآلات الموسيقى، التي شريت لتسليــة الامبراطورة، عـرضهـا عليـه لرؤيتهـا ولتفحصهـا، ومنحـه هذا سروراً عظيماً وفرحاً.

وكان بين الأشياء المبدعة التي أدهشته، كان هناك لعبة خاصة أثارت اعجابه وثناءه، فقد كانت هناك فتاتان مسلمتان رشيقتان، قد ركبتا فوق أربع كـرات مستـديرة، قـد وضعت فـوق الأرض، حيث وقفت الأولى فوق كرتين، والأخـرى فوق الاثنتين الأخريتين وقد سـارتا نحو الخلف ونحـو الأمـام، وهما تصفقـان بأيـديهن، وتتحـركـان بسرور فـوق هذه الكرات المتحـركة، وتحركان أذرعتهـن بحركات معبرة، وتغنيـان مختلف الألحان، وتتمايلان بجســـديهما وفقـــاً للحن، وتضربان بـالصنوج أو بالكوسات بأيديهن معاً، ويضعن جسديهما في مختلف الأوضـاع المسلية، وقد قدمن مع البهلوانات الآخرين، مشهداً ممتعاً أن تنظر إليه.

وبعد مـرور عدة أيام استراحا فيهـا من متاعبهما، أرسل الامبراطور، الايرل رتشـارد الذي وثق باخلاصـه وحكمته، إلى بلاط رومـا (حسبما وردت الاشـارة الموجـزة إلى ذلك في الرســالة التي بعث بها الايرل إلى انكلترا) في سبيل إعــادة الســلام بينه وبين البـابـا، وأعطى الامبراطور أيضاً، بالإضـافة إلى التشريفات التي أضفاها على الايرل المذكـور، ورقة مختومـة بالختم الامبراطوري، تعهـد فيهـا بالالتـزام بقـراره، حـول أية

انكلترا، وقدم إليه شكوى جديدة حول هذه الجريمة المنحطة، والتمس من الملك بحرارة العمل على اطلاق سراح غريفين، الذي حبس هكذا سجيناً بشكل غير عادل من قبل حفيده داوود، ليمنع خبر وصمة هذا العدوان الظالم من الوصول إلى البلدان النائية، وإلى بلاط روما، مما سيسبب الأذى إلى كرامته الملكية، وبناء عليه لام الملك بحدة حفيده داوود بسبب خيانته، وقام بنصيحته وبأمره بتحرير أخيه، وبذلك يسترد السمعة الجيدة لاسمه، والتحليل من قرار الحرمان الكنسي، وهذا —على كل حال— مارفض داوود بإصرار أن يفعله، وأخبر الملك مؤكداً، أنه إذا ما أطلق سراح غريفين، فإن ويلز لن تتمتع بعد هذا بالأمان والسلام.

وكان غريفين قد علم بهذا، فأرسل بشكل سري رسالة إلى الملك، أنه إذا ما أطلق سراحه وأخرجه من السجن، سوف يستحوذ في المستقبل على أرضه منه، أي من الملك، وسوف يدفع له بإخلاص مائتي مارك سنوياً مقابلها، مع كثير من الشكر لخدماته اللطيفة، وربط نفسه بيمين بتنفيذ هذا، وأن يعطيه في الوقت نفسه رهينة خاصة، وبالاضافة إلى هذا، هو سوف يساعده بنشاط على اخضاع ويلز والويلزيين حتى الأخير، وهم الذين متمردون ضده، ومازالوا غير خاضعين، وقام مقدم ويلزي آخر قوي جداً، اسمه غريفين بن مادوك Madoch, فوعد الملك أيضاً بتقديم مساعدة موثوقة ومتينة إذا ما قام بغزو ويلز، وشن الحرب ضد داوود، الذي كان رجلاً زائفاً، ويتصرف بشكل غير عادل نحو كثير منهم.

ملك إنكلترا يزحف إلى ويلز مع جيشه

وأثارت هذه الوعود الملك وشجعته، فعمل ترتيباته للدخول إلى ويلز، وبناء عليه أصدر رسائل ملكية، أمر بها الجميع في جميع أرجاء

انكلترا، المتوجب عليهم أداء الخدمة العسكرية له، بالاجتماع في غلوستر في بداية الخريف، مجهزين بالخيول والسلاح، للانطلاق في حملة، قرر القيام بها، ثم إنه عقد اجتماعاً في شروبري Chrewbury في اليوم التالي لعيد القديس بطرس في الأغلال، وخلال أربعة عشر يوماً رفع رايته، ووجّه سلاحه ضد حفيده داوود، حيث اكتشف أنه خائن وعاصي في كل مجال، ولأنه رفض الحضور في أي وقت من الأوقات، إلى مؤتمره السلمي الذي دعاه الملك إليه، حتى مع وعد أمان بالمرور، ولأنه بعناد وبإصرار أجاب بأنه لن يطلق سراح أخيه غريفين ولابأي شكل من الأشكال.

ثم قاد الملك جيشه، الذي كان كبيراً، وقوياً جداً، بنظام حسن نحو شيستر، وكأنه يريد أن يشن الحرب مباشرة، وخاف داوود على كل حال من مواجهة عنفه، بسبب الحرارة التي استمرت عالية لمدة أربعة أشهر، والتي جففت جميع البحيرات، وأماكن المستنقعات في ويلز، وبسبب تأييد الملك من قبل كثير من النبلاء الويلزيين، ولاسيما غريفين القوي والعاقل، ابن مادوك، الذي صار حليفاً كبيراً للملك، وأحب غريفين أكثر منه، أي داوود، ولأنه كان تحت عقوبة الحرمان الكنسي، قد بات خائفاً من أن تتدهور أحواله أكثر، ولذلك بعث رسالة إلى الملك، أخبره فيها، بكثير من المنطق، أنه إذا ما أطلق سراحه، فإنه سوف يثير الحرب ويجددها ضده، وفرض داوود على الملك أيضاً شرطاً، أنه إذا ما استقبله بسلام، فسوف يربط نفسه بيمين، وسوف يقدم له رهائن، على أن لايحرمه من ميراثه، وعلى هذا وافق الملك بلطف، وبناء عليه أطلق داوود سراح أخيه غريفين، وبعث به إلى الملك، الذي اعتمد على المشورة الحكيمة، فأرسله لدى وصوله إلى لندن، تحت حماية وكفالة جون أوف لكسنغتون Lexington, ليحفظ هناك في البرج، مع بعض النبلاء الويلزيين الآخرين، ورهائن داوود، وأمراء ويلزيين

آخريـن، ووقعت هذه الحوادث كلها فيما بين يومي عيـد ميلاد القـديسة مريم، وعيد القديس ميكائيل.

اخضاع ويلز وطاعتها للملك هنري الثالث من دون حرب

وأقسم داوود —كما ذكرنا من قبل— على المثول شخصياً أمام الملك، وبذلك حفظ شخصـه وشرفه، وأشخـاص وكـرامة رعـاياه، وأن يكون مثوله في لندن، أو في أي مكان آخـر، حسبما سيقرره الملك، وعلاوة على ذلك أعطى رهائن من أجل الوفـاء بوعده، وبناء عليـه، قدم على الملك، إلى لندن، في اليوم الثـامن بعد عيد القديس ميكائيل، وبعـدما أدى يمين الولاء والتـابعيـة، وقـدم جميع الضمانات والمواثيق، سمح لـه بالمغـادرة بسلام، لأنه كـان صاحب قـرابة وشيجة بالملك، وسمح لـه بالعودة إلى وطنه، وهكذا بفضل الرب انتصر هنري على أعـدائه، وأخضع ويلز من دون سفك للـدمـــاء، ومن دون محاولة تجريـب الحظ المشكوك فيـــه للحـرب، واكتشفت ويلز في هذه الحالة كلمات ربنا التي ورد ذكـرها في الانجيل، ذلك أنها لم تكن خالية من الصدق، وهي قوله:

«كل مملكة منقسمة على نفسها تنتهي إلى دمار».

اكتشاف القصدير في ألمانيا

وتمّ العثور في هذا العـام، على نوع نقي جداً من القصـدير، في ألمانيا للمـرة الأولى، وبكميات أكبر مما هو مـوجود في انكلترا، ولقـد قيل بأن هذا المعدن لم يتم العثور عليه من قبل منذ خلق الدنيا، في أي مكان، إلاّ في كـــورنوول، وقـــد تدهورت الآن أسعـــاره كثيراً وتنـاقصت بسبب الكميات التي أرسلت من ألمانيا إلى انكلترا.

خلاف بين أسقف لنكولن وراعي دير ويستمنستر

وتفجــر في هذه الآونة خــلاف بين روبرت، أسقـف لنكولن، وبين

راعي دير ويستمنستر، وقــد نجم عنـه نفقــات كبيرة، وتسبب بأضرار عظيمة لكل من الفريقين، وازداد يوميـاً، ذلك أن الأسقف المذكور كان يسعى، مستخدمـاً كل الوسائـط والإمكانات التي قدر على استخـدامها لإضعـاف الامتيازات الصحيحـة لراعي الدير، بتحـويله كنيسة هسـول Heswell لاستخـدامـاته الخاصـة، واستحـوذ على تلك الكنيسـة بالقوة، وعندمـا تهيأت له أول فرصـة أخذها من الرهبـان، ومنحها إلى شخص آخـر، اسمـه المعلم نيقـولا، الذي كـان بإذلال قـد حـرمـه من منافعه، وكان راعي الدير، واثقاً من حقه ومن امتيازاته، فقاوم بشجاعة ووقف في وجهه.

الخلاف بين الملك وبين أسقف لنكولن

ونشب في هذه الآونة خلاف شـديد بين الملك وبين أسقف لنكولن، وكـان ذلـك بسبب واحـد من الكهنة التـابعين للملك،واسمــه جـون مانسيل Mansel, كان قد جُـعل متملكاً لكنيسة التيم Thame, من خلال فضل الملك ومسـاعدته، وكذلك بفضل مرسـوم تمّ الحصول عليـه من البـابا، وكـانت هذه الكنيسـة عندما غـدت شـاغـرة، أعطاها الأسقف المذكور، من قبل، إلى كاهن اسمه المعلم سيمون اللندني، وكان كـاهناً مكلفـاً بالخطايا تـابعـاً لأسقـف درم، ولقـد غضـب الملك من الأسقف كثيراً جـداً بسبب هذا التصرف، ولـذلك أرسل هذا الأسقف إلى الملك رسـالـة بوسـاطة رئيس شمامسـة هنتغــدون Huntingdon وليستر عندمـا كان مـايزال في ويلز، وعاتبـه ووجّـه اللوم إليـه، لأنه لم يكن حـامــداً للرب، وغير مقـدر للنصر الذي أعطي إليــه، وأن عليـه التكفير على الفـور عن هذا الذنب العظيم، خشيـة أن يقـوم الرب أثناء غضبه بتحـويل ابتساماته إلى دمـوع، وعلى هذه الرسالة ردّ الملك: «إنني أرد بأمـان، لأن دعـوى استئناف قـد عملت، ومـا من شيء ينبغي أن يتعـرض للتغيير، أثناء إجراءات الاستئناف، وأنـا لم أحاول شيئاً سـوى

أنني تصرفت وفقاً لنصيحة العلماء بالشريعة، مع تأييد من السلطات الرسولية»، وعند ذلك قال واحد من رؤساء الأساقفة: «مولاي الملك، لدى سيدنا، أسقف لنكولن امتياز منح له من قبل البابا، فيه إعفاء له من الاستجابة لأي واحد، وذلك بناء على أمر المقام الرسولي، مالم تتوفر هناك إشارة خاصة إلى ذلك الامتياز، وبالنسبة لهذا الأمر، الذي قيل بأن جون المذكور قد حصل عليه من البابا، والذي بفضله فرض نفسه على هذه الكنيسة، معتمداً على مساعدتكم، لم يرد فيه ذكر لذلك الامتياز، وبناء عليه فإن أسقف لنكولن ليس مجبراً على الإجابة عليه في هذه القضية، ولاسيما فيما يتعلق بالتنازل عن كنيسة التيم، التي كانت من قبل، وبشكل عادل، قد أعطيت إلى آخر، ولنفترض أنه لم يكن مثل هذا الامتياز، إنه أمر غير منطقي بالنسبة إلى أي واحد لأن يدفع بنفسه لتملك أية كنيسة من دون استشارة —إن لم نقل ضد إرادة— أسقف المنطقة، حتى وإن كان معتمداً على تفويض بابوي، ذلك أن البابا يرغب أن تعمل جميع الأشياء، وفق نظام صحيح، وماهو السبب الداعي الآن للتسبب بالخلاف، أو بإيذاء أي من الفريقين؟ لأننا إذا قدرنا فضائل جون المذكور، الذي هو رجل حذر، ومتعلم بما فيه الكفاية، ومن الممكن لصاحب الغبطة أسقف لنكولن أن يستجيب بسهولة لطلبك، أو لطلبه شخصياً، فيجهزه بمنفعة مماثلة بالجودة إن لم تكن أغنى، والمنحة سوف تكون قانونية ومشرفة لكلا الطرفين، ويرجو الأسقف بكل تواضع واخلاص، أن لاتكون الأمور غير ذلك، لأنه على استعداد لإعلان الحرمان الكنسي ضد جميع الذين يسببون الأذى للكنيسة أو يضغطون عليها، ويعتدون على كرامتها».

وعندما سمع جون المذكور، وكذلك الملك ومستشاريه —هذه الرسالة— قال جون:

«ليكن بعيداً عني يامولاي الملك، أن أكون سبباً لأي خلاف، أو

نشـــوب أي نزاع بين مثل هذه الشخصيـــات المشهـــورة، وإنني أتنازل بصبر، والرب سوف يزودني عندما يكون راغباً، مادمت حياً».

وعند ذلك وافـق الملك على إنهاء القضيـــة، وبعـــدمـــا أكمـل جميع الترتيبـات الضرورية في ويلز، ترك هنـاك وولتر الألماني، مع بعض آخـر من الرجال ذوي الحكمة والنفوذ لبناء القلاع، ولتقوية الأماكن الضعيفة من المنطقـة، وأن يشحنها بالسـلاح والرجـال للدفاع عنهـا، وذهب هو نفســه مسروراً إلى لندن، وإلى ذلك المكان ذهب الأسقف المذكـور، وهو مستعـد تماماً للتفـوه بقرار الحرمـان الكنسي ضـد جون المذكـور بشكل خـاص وضـد جميع المؤذين لكنيستـه ولكرامتهـا، وعندمـا باتت هذه الظروف معلومـة لدى جـون المذكـــور، ذهب متـذللاً إلى الملك وقـال: «مولاي الملك إن أسقف لنكـولن منزعج جداً، ولكي لاأكـون أنا سبباً لقيام المزيد من الخلافات، أو فضائح تنتشر في الخارج، إنني أستقيل من هذه الكنيســة، ولدى سماع الملك لهذا، كـان منزعجاً، خشيـة أن يقـوم الأسقف، الذي كان عنيفاً جداً، بشكل غير اعتيادي، فيذهب إلى المنفى، حيث رآه مستعداً تماماً لفعل ذلك، ومن ثم يضع أسقفيته تحت الحرمان من شراكـة المؤمنين، ولذلك لطف الإجـراءات القاسيـة التي خطط لها، وتوقف عن مساندة جـون في معارضته، لأنه رآه قـد رفض العمل ضد الأسقف.

ثم إنه بناء على ذلك، استحق جون المذكـور نيل جائزة، حيث أضفي عليـــه بمنفعـة أغنى، كـــانت هي كنيســـة ميـدستـــون Maidstone, وذلك كهـذية من الملك، وأغني في العام نفســه بالاستحواذ على كنيســة هوفدن Hoveden, الغنية، وهكذا هدأ الأسقف، وبناء على طلب الملك وعظ بشكل علني، وكأنه واحد صدره مشحـون بمفاتيح المعرفة، وعهد بهذا التواضع إلى الفئتين، وبين أشياء كثيرة عمل مقارنة بين أشعة الشمس التي هـي مستقيمـة، وبين عـدالة الملك، التـي ينبغي أن تكون

مستقيمة ودائمة، والآن وقد رأى أن خاطر الأسقف بات هادئاً، بات راغباً في تسوية الخلاف المدمر والمهين بينه وبين راعي دير ويستمنستر، حول مايتعلق بكنيسة هسول Heswell, وبناء عليه لم يترك الأسقف ولم يسمح له بالمغادرة، حتى كان كل شيء قد تمت تسويته بسلام وسعادة، وقام راعي الدير نفسه بتقديم جميع التسهيلات حتى تتم التسوية، وبناء عليه وقعت كنيسة هسول في نصيب راعي دير ويستمنستر، حيث استحوذ عليها، مع الاحتفاظ بالتقدمة طوال الحياة، إلى أسقف لنكولن، وحصلت كنيسة ويستمنستر بموجب هذه الترتيبات على زيادة كبيرة في منافعها وكرامتها، لأن الراعي رتشارد، كان، بالاضافة إلى هذه المنفعة التي لم تكن صغيرة، قد زاد من ثروة رعويته بمورد قدره ثلاثمائة مارك، سنوياً وبشكل دائم، بوساطة خدماته.

خلاف بين أسقف لنكولن وهيئة كهنته

ولقد استمر على كل حال هناك خلاف كان مؤذياً جداً، ونزاعاً لم يكن اعتيادياً بين أسقف لنكولن وهيئة كهنة لنكولن، ولقد تعرض بعض الكهنة الذين كانوا موجودين في لندن إلى سوء المعاملة والأذى من قبل الأسقف إلى حد أنهم كانوا مرغمين على اظهار ورقة، وأن يجعلوا محتوياتها معروفة بشكل علني، وذلك خشية أن تخضع كنيستهم إلى بعض الظلم الجديد، وذريعة ذلك أنا سأحكيها الآن.

استرداد كنيسة لنكولن وكرسيها

بما أنه، قبل الاستيلاء على انكلترا، كان الكرسي الأسقفي الموجود الآن في لنكولن، موجوداً في دورشستر Dorchester, وبسبب أخطاء الذي كان وقتذاك مترأساً على الأسقفية وضع ذلك المكان تحت التكفير من قبل البابا، وجرى خلع الأسقف، ولم يبق من آثار هذه القضية الكبيرة أي شيء بعد مرور سنين كثيرة، وكذلك الكرسي وأيضاً

عناية أسقف وولايته بعد نهاية وقت طويل، وحدث بعد ذلك في أيام وليم روفوس Rufus ابن وليم الأول، أن جرى تدمير كنائس كثيرة في الغابة الجديدة، بناء على أوامر الملك، لكنه ندم بعد ذلك كثيراً على مااقترفه من ذنب، وتلقى نصيحة صحيحة، وقام تكفيراً عن ذنبه، فأعاد تلك الأسقفية الفخمة وأغناها، وحسّن المكان نفسه، حيث أنه اشترى، أو أخذ بالتبادل أرضاً من م. M دي غونت Gaunt وهو نبيل كان قد قدم إلى انكلترا أثناء الاستيلاء عليها، وكان قد تسلم تلك الأرض كنوع من المكافأة بعد الانتصار، وقام الملك وليم الثاني المذكور بتأسيس كنيسة، هي الآن كنيسة لنكولن، وعند اكتمال هذا استدعى كاردينالين نائبين للبابا، كانا قد تسلما سلطة كاملة، للقيام بتكريس أسقف، وقد قدما إلى كنيسته من لدن قداسة البابا، ثم إنه دعا ثمانية رؤساء أساقفة، وستة عشر أسقفاً، وتدبر تكريس تلك الكنيسة بشكل مهيب، وأمر بتعيين رهبان علمانيين فيها، كما أمر بتعيين موردهم المنفرد، وحصصهم الخاصة بهم، وذلك في سبيل أن يتمكنوا تحت سلطة أسقف وعميد، من القيام بواجباتهم بشكل نظامي وشريف، وذلك وفقاً لبعض الأحكام والصيغ، ولكي يبقى هذا التكريس الهام، الذي تمتن بوساطة سلطة مثل ذلك العدد من الآباء المقدسين، وكذلك بوساطة رسائل من الكرسي الرسولي، ولكي يستمر دون أن يخرق إلى الأبد، كان التكريس قد عمل وفق صيغة أنه عندما يجري تكريس أسقف، وبعدما يجري وضع الكهنة في ممتلكاتهم، يمكنهم من ذلك الوقت فصاعداً، القيام بأداء الصلوات إلى الرب، وإلى أمه المقدسة ليلاً ونهاراً، وفق نظام صحيح ووقار، وعندما يحيد واحد من هؤلاء الكهنة عن طريق نظامهم، وبعدما يتلقى اللوم لذلك، ولايقلع ويقوّم طرائقه، يتوجب أن يتلقى زيارة تفقدية وعقوبة من العميد، لكن من دون الخوف بحمل أي شيء مسبق ضد هيئة الكهنة، ويتوجب عمل الشكوى ضده وحده بسبب مااقترفه، لكنه إذا لم يقوّم نفسه بطريقة أو أخرى، يتوجب

حرمانه من منفعته لمدة سنة واحـدة أو سنتين، تبعاً لدرجة خطيئته، وإذا ما ثابر على عصيانه، ينبغي طلب مساعدة الأسقف لاستخدام إجراءات تقـويميـة، لكن مع ذلك إذا مـا استمـر غير مقـوم وفي حـالة المعـاندة، وتحدى سلطتـه، يتـوجب تجريده من جميع منافعـه، وانزال عقـوبة أكثـر قسوة به من قبل الملك، وأعطت هـذه الأحكام الرضا إلى جميع الفئات، ولذلك جرى تدوينهـا كتابة، ومن ثم تثبيتهـا من قبل الكرسي الرسولي، وكتـابتهـا وعند ذلك جـرى تكريس الكنيسـة، وقـام جميع الذين كـانوا حـاضريـن بإصـدار عقــوبة الحرمـان الكنسي بحـق كل من يخرق هذه الأحكام.

وبناء عليـه قال الكهنة بها أن العميـد ليس مهملاً أو جـاهلاً، وليس ضعيفاً للقيام بزيارة تفقـدية للمقصرين، وحيث أن الأسقف قد تصرف بذاته بشكل غير عـادل و شـائـن في استخـراج الزيارات، ولم يظهـر أنه بريء تماماً من وصمـة العقوبة التي صـدرت بشكل مهيب من قبل مثل ذلك العدد من الآباء المقدسين، ولدى سماع الملك بهذا، ادعى أنه طرف في هذه القضيـة، وبالمحصلة فإن فئة الأسقف وهيئة الكهنة قـد ضعفت كثيراً، وبسبب مثل هذه المعيقـات والاحبـاطات، كـان من غير الممكن جلب القضية إلى النهـاية السلمية المرغوبة، لكنها تأخـرت، مسببة كثيراً من النفقات وضياع الوقت.

ملك إنكلترا يتدبر عمل مزار ذهبي لعظام القديس إدوارد

تدبر في هذا العام الملك هنري الثالث، على نفقته الخاصة، صنع مزار من الذهب الخالص والجواهر الثمينة، وأن يجري تشييده بشكل محكم في لندن من قبل عمال منتخبين، من أجل الآثار المقـدسة للقـديس ادوارد، حتى توضع فيـه، وفي تشييد هذا المزار، مع أن المواد كانت بـاهظة جداً، لكن ذلك كان وفقاً لقول الشاعر:

فعل العمال في الحقيقة بتفوق كبير

من المادة الخام شيئاً استثنائياً.

كيف رفض الملك إعطاء ميراث إلى و. W مارشال

أظهر الملك في هذه الآونة نفسه بموقف عدائي نحو وولتر مارشال، أخي غيلبرت الذي مات دون أن يخلّف أولاداً، يتناولون منه الميراث العائد إليه بموجب حق التوريث، وقال الملك له وهومغضب:

«لأن والدك وليم، قد وصم بالخيانة، لأنه قد قيل بأنه أنقذ لويس من أن يقع بالأسر عندما كان في انكلترا، وجرى اعتقال أخاك رتشارد، وقتله وهو حامل للسلاح ضدي، وكعدو مكشوف ومميت لي، وأما أخوك غيلبرت، الذي توفي مؤخراً، والذي منحته ميراثه بناء على مبادرة وساطة من إدمووند، رئيس أساقفة كانتربري، وذلك كعطاء وليس كحق، قد قام مؤخراً لسوء الحظ، فعقد مبارزات في هارتفورد، على الرغم من حظري، وفي هذه المبارزات واجه موتاً مأساوياً، وأنت ياوولتر أيضاً قد كنت موجوداً في تلك المبارزات، ضد إرادتي، ودون أن تعبأ بحظري، وتحدياً لي، وأنت الذي بشكل سفسطائي سميتها مغامرة، فعلى أي أساس أنت تطالب بميراثك، فكيف امتلكت الوقاحة بفعل ذلك؟»، وفي ردّ على هذه التهم خاطب وولتر الملك كما يلي:

«مع أنني يامولاي الملك، أستطيع أن أقدم جواباً مرضياً على كل تهمة من هذه التهم، وعليها جميعاً، إنني أنحني خضوعاً لجلالتك، وأنت قد قمت حتى الآن برعايتي في صدر رحمتك، وعددتني واحداً من أصدقائك المقربين، وليس على الاطلاق واحداً من ضيوف مائدتك، وأنا لم أستحق قط أن أفقد حظوتك إلاّ في قضية واحدة، أنا لايمكنني التنصل منها، وهي أنني كنت موجوداً في تلك المبارزات مع أخي، الذي لم يكن بإمكاني تركه، لكن إذ ما قررت حـ ان جميع الذين كانوا

حضـوراً هناك، فإنك بذلـك لن تثير اضطراباً قليـلاً في المملكة، وبعيـد جـداً عنك، بحكـم كـونك أمير عـادل، أن تجعلني وحـدي أكفـر عن أخطاء الجميع، وبعيـد عنك يامـولاي أن تجعلني الأول في نيل العقـوبة بين مثل ذلك العـدد الكبير»، ولم يعبأ الملك بهذا، واستمـر غضبـه، ولذلك حـافظ وولترعلى الصمت، لأنه رأى بأنه قد فقـد حظوة الملك، وذلك وفقاً لنصيحة الشاعر:

عندما تكون الزوابع الثائرة سائرة بسرعة

أذعن لقوة الزوابع الغاضبة

وهكذا غادر على هذه الصورة، و هو يائس.

الملك يعمل من وولتر مارشالاً

وقدم إلى لندن في هذه الآونة نفسها أسقف درم، الذي كان منذ زمن بعيـد صـديقـاً مقـرباً من الملـك، لأنه كـان الوصي على الجسـد الملكي، وطبيباً ووصياً على الملكـة، ومشرفاً مراقباً لخرق الأخلاق، وقـد قام بناء على طلب وولتر المتقـدم الذكر، بالتعـاون مع نبلاء آخـرين، ومع الملكة نفسهـا، ومع جميع الذين عـرف بـأنهم مقـربين من الملك ولهم مكانتهم لديه، فـاستخدم محاججـة لطيفة، والتماسـات عرضت بصـورة حكيمة، فتمكن من تلطيف غضب الملـك، وجعله يتصـالح مع وولتر، وبعـدمـا هدأ الملك، ورضي على هذه الصـورة،، أضفى في يوم الأحـد، قبل عيـد جميع القـديسين على وولتر المذكور مـرتبـة الإيرليـة، ووظيفة المارشـال، وجعله يحتفظ بين يديه بقلعتين هما: كارديف، وكـارديغان Cardigan في ويلز، وهما اللتين كـان الملك قـد عهـد بهما من قبل، ووضعهما تحت إدارة وليم مـارشـال، ثم أعطاهما بعـد ذلك إلى هيـوبـرت، مسـؤول العـدالة، لأنـه قـدر أنه من الضروري الاحتفـاظ بهما، من أجـل تقـوية المناطق الضعيفـة في ويلز،التي استحوذ عليهـا مؤخـراً، في سبيل تمتينهم بالقلاع والحصون.

الملك يثور غضبه ضدّ أسقف نورويك

إزداد في هذه الآونة غضب الملك ضد أسقف نورويك، بسبب أن ذلك الأسقف وافق على تسميته لكرسي وينكستر، ولأنه رفض، وأصرّ على الرفض، بالتخلي عن حقه، ومع أن الملك طلب منه اتفاقية مكتوبة بالتخلي عن إدعائه، لكن الأسقف رفض بثبات فعل ذلك، ونتيجة لذلك حدث شقاق كبير في أسقفيته، ترافق أحياناً بالكتابة إلى البلاط، الذي أصيب أخيراً، نتيجة لاغتصابه الطائش بالجراحة، وعانى كثير آخر من الأذى، وفي محصلة ذلك جرى ضرب كثير من رجال الدين ومن العلمانيين بشكل فاجر، وجرحوا، وعانوا من كثير من الضرر على أيدي السلطات المدنية، وأعلن الملك، مرفقاً إعلانه باليمين، أنه لن يتوقف قط عن ممارسة مثل هذا الظلم، حتى يقوم الأسقف المذكور بتوقيع ورقة، يذكر فيها أنه لن يسمح قط لنفسه بالنقل إلى كرسي وينكستر، لكن هذا كان سبباً متنافراً مع المنطق، ومعاكساً للتكريس الأسقفي، لأنه إذا ما أمره صاحب القداسة البابا، بحكم فضيلة طاعته، بأن يفعل ذلك، لايمكنه، بأية طريقة من الطرق، لأن ذلك يتناقض مع كونه ابناً للطاعة.

تعذيب رهبان وينكستر

وفي هذه الآونة نفسها، شرع البريتاني، الذي وضعه الملك بالقوة على رأس دير وينكستر، وجعله رئيساً للرهبان، في إغضاب المجمع الديري بمختلف الطرق، لأنه بدسائس هذا المغتصب الزائف، أثيرت الخلافات، حتى توفرت أسباب جيدة لإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بالرهبان الذين عارضوه، وبعد مرور مدة أربعين يوماً، جمع بعض وكلاء الملك وقال لهم: «اذهبوا وانتقموا للاهانات التي وجهت إلى الملك وإلينا من قبل هؤلاء العصاة علينا، ذلك أنهم مجروسين كنسياً، و إنه لن يكون ذنباً إذا ما ألقيتم بأيدي العنف عليهم»، واندفع أتباع الملك وخدمه وزحفوا نحو الأمام على شكل عساكر، وبعنف ألقوا بأيديهم

الآثمة على الرهبان الذين هربوا إلى المذبح الكبير يطلبون الحماية هناك، وقد دفعوا بهم وسحلوهم بعنف شديد، حتى أنهم لطخوا الأرض بالدم، ثم أخرجوهم مطرودين من الكنيسة، وكان ذلك على مشهد من المواطنين، الذين أبدوا دهشتهم، وعجبهم، وحزنهم، وقد دفعوا بهم وسط الشتائم والضربات إلى قلعة الملك في هسفيتري Husvetrey, حيث صفدوهم بالأغلال كل اثنين معاً، وألقوا بهم في سجن مضيقاً عليهم، وهكذا فعل هؤلاء الحراس التابعين للملك،الذين ألقوا جانباً كل خوف من الرب، واحترام للزي الديني، وأنزلوا الظلم بالرهبان وعسفوا بهم، واحتفظوا بهم مسجونين في الظلام، وعذبوهم بالجوع وبالبرد، وعرضوهم لإهاناتهم، مع أنهم حصلوا هكذا على سعفة الشهادة، لمعرفتهم بأن جميع هذه الآلام التي أنزلت بهم، كانت لوفائهم بالعدل، وتحملوها كلها بصبر، لابل حتى بسرور، وذلك بقدرما كانوا مستحقين تحمل التمرد، في سبيل المسيح.

إثنان من وكلاء البابا يستخرجان مالاً من إنكلترا وسكوتلندا وإيرلندا

أمضى بطرس دي سوبينو Supino, الذي كان كاهناً تابعاً للبابا وقته كله بمواظبة كبيرة في جمع المال، باستخراج عشرين جزئاً من الممتلكات من جميع ايرلندا، مدعوماً بترخيص من البابا، وقد أخرج من تلك المنطقة مبلغ ألف وخمسمائة مارك، إلى جانب مختلف الهدايا، وكان بطرس لى روج، الذي جعل من نفسه قريباً للبابا، وصديقاً مقرباً منه، أيضاً محمياً بإجازة من البابا، وشغل نفسه بيقظة في جمع الأموال وتكديسها من المناطق الشمالية من انكلترا، وبوساطة ارسال الرسل إلى مناطق سكوتلندا، وأخيراً سارا وحقائب سروج خيولهما مليئة تماماً، تحت كفالة رهبان كانتربري إلى دوفر، ثم أبحرا فجأة وبشكل سري، لأنهما سمعا من رسل أرسلوا بكل سرعة، بأن البابا مايزال من دون

أمل بالشفاء، أو بالحقيقة هو إما قد مات أو على وشك الموت بالحال، ولذلك قاما بفرار سري ومفاجىء بالبر وبالبحر مع غنيمتيهما، لأنهما كانا يخشيان أنه إذا ما علم الملك بوفاة البابا، سوف يقوم بحكمة باستبقاء جميع الأموال التي جمعاها، ومن ثم يقدر كيف سيتصرف بها لدى استخلاف بابا آخر.

وماكادا يدخلان إلى فرنسا، حتى —عجباً— وصل المعلم وولتر دي أوكرا، وهو رسول من الامبراطور، وصل بكل سرعة، مع أن ذلك جاء متأخراً، حاملاً رسائل اعتماد من الامبراطور وكذلك رسولاً إلى الملك، لإخباره بأحوال الأوضاع في البلاط الروماني، وينصحه إذا ما تم العثور على مثل هؤلاء الناس في انكلترا، بأن يتم الاحتفاظ بالأسلاب، وحبس اللصوص أيضاً، ولكن عندما علم الرسول بأن الاثنين قد نجوا، وجّه اللوم إلى تقاعس الملك و اهماله، وغادر على الفور وهو غاضب وآسف، لأنه قام برحلته من دون فائدة، وتبع خطواتهما بيقظة، وراقب بدقة تسكع هذين الثعلبين حتى يخبر الامبراطور بنتيجة رحلته.

كيف جرى تحويل المال الذي جمع من قبل وكيلي البابا إلى الخزانة الإمبراطورية

وعلم المندوبان البابويان الآن بوفاة البابا، مع أن الخبر ظلّ مكتوماً عن الناس لعدة أيام، وقد علما أيضاً بأن وولتر المذكور كان يسير خلفهما، فأسرعا بسفريهما، ولم يوفرا فرسيهما، وبعد عبورهما للألب، أخذا نفسيهما إلى مدن وبيوت أقربائهما، وأودعا المال الذي قدماه وهما محملان به في أماكن سرية، ولم يجعلا حضورهما معروفاً لدى الجميع، وبما أن وولتر المذكور لم يستطع العثور على أي منهما، أو على المال، سوى سماعه بعض الاشاعات الهامسة، بعث برسالة إلى الامبراطور حول كل شيء، وحول تفتيشه غير المثمر، وعند ذلك أمر صاحب

الجلالة الامبراطورية القيام ببحث دقيق في جميع المدن الايطالية الخاضعة لحكمه، لاكتشاف من هما هذين الرسولين البابويين، وأي تاجرين كانا هما، اللذان كانا يسعيان إلى اخضاع الامبراطورية، وإلحاق الأذى بالمصالح العامة، وإثارة الحرب، وقد جمعا المال بخداع من مختلف البلدان، ولا سيما من انكلترا، لمنحه إلى البابا، وكانا بذلك يرفعان من جبروته، ويدفعان به لدمار سلام الامبراطورية، ثم أمر بسجنهما بعد اعتقالهما، على أساس أنهما من الأعداء الألداء، ودعوتهما للظهور، ومصادرة أملاكهما وبيوتهما، ومثل ذلك ممتلكات وبيوت أقربائهما.

وهكذا بعدما جرى سجن الرجال الرئيسيين من هؤلاء القوم مع زوجاتهم وأولادهم، أمر باجراء بحث دقيق حول المبلغ المالي الذي جرى جمعه من أجل استخدامات البابا، وأمر بتعداده وكتابة ذلك، ووضعه في أيدي تجار المدن، والذين يفهمون بالأعمال، ومن ثم يجري إيداعه كله، وهكذا فإن هذين اللاهوتيين، اللذين كان من المتوجب حمايتهما تحت جناح البابا، قد جرى تجريديهما تماماً، وتولى أعداء الكنيسة بجرأة تعذيبهما.

موت البابا غريغوري

وفي الوقت الذي كان فيه دولاب الحظ يدور هكذا بشؤون العالم، تأكد التقرير الذي طار في جميع أنحاء العالم المسيحي، والذي ادعى بأن البابا غريغوري، لم يعد بإمكانه تحمل الأحزان التي شعر بها —والتي هو نفسه قد تسبب بها— وقد غادر طريق الجسد في الثاني والعشرين من آب، ليتلقى المكافأة من القاضي في عليين، وفقاً لاستحقاقه، وكان في وقت موته قد بلغ من العمر حوالي المائة سنة، في حين اعتقد عدوه الامبراطور، أنه كان في ذلك الحين ليس أكبر من خمسين سنة، فقد روي بأنه ولد في السنة التي كان فيها رتشارد ملك انكلترا سجيناً في ألمانيا.

السبب الذي عجل بموته

وكان الأسى الرئيسي الذي خرق قلب البابا، والذي أوصله إلى حافة الموت، هو أن الامبراطور، كـان قد استـولى إثر عيـد الصعود على قلعـة قـرب مو نت فـورت في كامبـانا Campagna كـانت عائـــدة إلى أحفـاد البابـا وإلى أقرباء آخـرين له، وكـانت قـد بنيت حديثـاً بأمـوال الصليبيين من أجل حماية أقـربائه، لأن البابا غـريغوري كـان يعرف تمام المعـرفـة بأن الامبراطور يكره جميـع أقـربائـــه، ورغب أنه إذا مـــا قـام الامبراطور بغـزو كـــامبـانا، أن يحال دون الحاجـة لأن يكون معـــرضـاً لحملاتـه، وكان الامبراطور قد علـم بهذه الأوضاع، فقام فجـأة بحصار هذه القلعـة وبتـدميرها وبشنق جميع الذين وجـدهم فيهـا، وكرمـز على تدميره لها ترك نوعـاً من أنواع الأبراج نصف مدمـر، بمثابة ذكـرى على اعتدائـه، وعلى انتقامه أيضـاً، ذكرى لن تموت أبداً، وبالاضـافة إلى هذا كان البابا مصـاباً بالحمى، كما كان قد تقدم بالسـن كثيراً،، وقد حرم من استخدام الحمام الذي اعتاد أن يقوي فيه نفسه في فيتربو.

موت إليانور ابنة غيوفري كونت بريتاني

وماتت في هذه الآونة إليانور ابنة غيوفري كونت بريتاني، التي كانت موضوعة منذ زمن طويل في سجن ضيق.

كيف التحق بعض الرهبان بطوائف أخرى

وفي هذه الآونة كان هنـاك بعض الرهبان، الذين عـانوا من التقلبات في عقولهم ومن عـدم الاستقرار، فقلدوا مثل أسقـف هيرفورد، دون أن يعرفوا السبب (لأنه كان مرتبطاً بنـذر)، فتحولوا إلى طائفة غير معروفة، و التحقوا بالدومينيكان وبالفـرنسيسكان، ناسين قول النبي: «لقـد حدد له الطريق الذي اختاره»، فقد قام راعي دير أوسني Osney بعقله الجبـــان، فتخلى عن طائفـــة أوغسطين المعلم الكبير، وانتقل إلى طائفـــة

الفرنسيسكان، راغباً بتجريب الجديد، وقـام راعي دير وولدن Wal-den أيضـاً، الذي حمل صليب ربنا بألم تحت حكم نظام طائفـة القـديس بندكت، عندمـا رأى ديره مثقلاً بالـدين، وقد غـرق في أعماق اليأس، قـام مـن دون أن يعـرف ديره أو رهبـانه، فجـأة وبلا حيـاء بالالتحاق بطائفة الدومينيكان، غير أنه ندم على هذا فيما بعد.

الإعاقة التي عملت ضدّ انتخاب البابا

في الوقت الذي مات فيه البابا غريغوري، الذي ذكرناه أعلاه، كان هناك عشرة كـرادلة مـوجودين في البـلاط الرومـاني، وكـان هناك اثنان مـايزالان في سجن الامبراطور، وبعـدمـا قـام هؤلاء العشرة ببعض المداولات —كما هي العادة— حول انتخـاب بابا جديد، لم يتمكنوا من الوصـول إلى قرار مقنع، لأن عـددهم قـد انقسم على نفسه، وبناء عليـه بعثوا إلى الامبراطور، يرجونه بتواضع أن يرسل أخويهم، الكاردينالين، إلى البـلاط، حسب مايختـاره من شروط ويفرضـه، وذلك في سبيل رفع شأن الكنيسة ولصـالحها، التي تعتمـد اعتماداً أساسيـاً على انتخابهم بابا، وأن لايعـاق هذا الانتخـاب من قبلـه، وبلطف منحهم الامبراطور هذا المطلب، لأنه كان قد لان أمام التماسات الايرل رتشارد، على شرط أنهم إذا انتخبوا أوتو بابا، عليهم العـودة إلى وضعهم المتقدم، وإلى حالهم في السجن.

وبناء عليـه، عندمـا اجتمعـوا كلهم في قصر كـان اسمـه «قصر الشمس»، وقد انتخب خمسة من الكرادلة سادسهم، الذي كان غيوفري الميلاني، أرضى هـذا الانتخاب الامبراطور، الذي قـام بتهنئته على ذلك، وانتخب الثـلاثة المتبقين رابعهم، الذي اسمـه رومانـوس، وقد عـارض الامبراطور هذا الانتخـاب، عـاداً إياه رجلاً بلا أخـلاق حميـدة، وذلك بسبب اضطهاده لجامعة باريس، ولأنه قد قيل بأنه في وقت من الأوقات قـد فسق ببلانشي، ملكـة فرنسـا، وأيضـاً بسبب اتهامه بـابقائـه الخلاف

مشتعلاً بين غريغوري البابا المتوفى مؤخراً، وبينه، أي الامبراطور، وكانت أسماء الذين انتخبوا الأول: جايل أسبان Giles Aspan, وستيفن فتزكونت Fitzkonte أسقف بورتوا Portua, وربنرر أوف فيتربو، وجون دي كولونا Colonna, وروبرت سمركوت وكان انكليزياً، والذين انتخبوا الآخر كانوا: رتشارد هانيبال Hannibal, أسقف أوستيا، الذي كان له تبعاً للعادات، الصوت الأول في انتخاب البابا، وسينبولد Sinibald, أسقف أوف سابينا Sabina, ونشب خلاف حاد بين الكرادلة، بسبب هذا الانتخاب، لأن الذي يتوجب انتخابه بابا، هو الذي يجري انتخابه من مجموعتي المنتخبين، ويوافقان عليه، وذلك وفقاً لمرسوم الاسكندر، الذي يبدأ بالكلمات التالية: «على كل حال، لتجنب الخلاف، إلخ»، وهكذا فإن القضية التي تهم الكنيسة بعمق تركت من دون انهاء، وكانوا منقسمين، أو بالحري متفرقين بالتفكير والجسد.

ومات في هذه الآونة جيمس أسقف برانستي، الذي كان واحداً من طائفة السسترشيان وكان عدواً عنيداً جداً للامبراطور.

عودة الفرنسيين الذين أطلق سراحهم من أسر المسلمين إلى الوطن

وكان الايرل رتشارد قد بقي حتى الآن حوالي أربعة أشهر مع الامبراطور، ولذلك استأذنه وانطلق عائداً نحو الوطن، وكان الفرنسيون، الذين أطلق سراحهم بموجب الهدنة التي عقدها الايرل، قد عبروا البحر الآن، بعدما تأخروا كثيراً بوساطته، ليعيدوا إليه الشكر، وليتسلموا المزيد من الاحسان منه، لأنه كان صديقاً جداً للامبراطور، وكان كأنه امبراطور آخر تقريباً، وكان وافر الثروات، وكان أولئك الفرنسيون في حالة فقر مدقع ويحتاجون إلى المساعدة، وزودهم الايرل رتشارد بكرم بالملابس، وبنفقات السفر وبوسائل مناسبة، كما أنه حصل

من الامبراطور على وعد منه، قبل أن يتركه، بوجوب منح السلام إلى الكنيسة، تحت طائلة عقوبة الموت القاسية جداً، لأي واحد سوف يخرقه، ووجوب الاعلان بصوت المنادي في جميع أنحاء المهالك الامبراطورية، بوجوب عدم اعتداء أي انسان على شخص لاهوتي أو ازعاجه، أو على حاج، ولاسيا على الفرنسيين العائدين إلى بلادهم، وذلك نتيجة لحالة ترمل الكنيسة الرومانية، بسبب موت عدوه البابا غريغوري، وأمر الامبراطور بوكيل حكيم وصاحب نفوذ بمرافقة الايرل رتشارد، ليزوده بجميع الحاجات الضرورية، وليخدمه بشكل لطيف حتى حدود الامبراطورية، ونتيجة لذلك عندما اجتاز خلال مدن ودول ايطاليا والمناطق الأخرى الخاضعة للحكم الامبراطوري، استقبل بسرور عظيم وبتكريم، وبناء على أوامر الامبراطور استقبل وهو على الطريق من قبل سكان المدن، وهم على ظهور خيول أصيلة، وهم مجهزين بشكل غني، وهم يرتدون الحرير والملابس الثمينة الأخرى، ترافقهم موسيقى آلية وصوتية، وذلك وفق طرائق رفيعة، ولسوف أحذف ذكر جميع الأحداث، وسأتولى ذكر حادثة سارة خاصة في مكان واحد.

فلدى اقترابه من كريمونا، خرج أهل المدينة مسرورين لاستقباله، مع فيل الامبراطور وهو يسير أمامهم، وهو مزين بشكل جميل، وكان يحمل برجاً من الأبراج الخشبية، فيه جلس ساسة الحيوان، وهم يلعبون بالبوق، ويصفقون بأيديهم وهم مسرورين، وكان مع الايرل عدد كبير من النبلاء الفرنسيين، وقد شاركوا في سرور تكريمه، وعند الوصول إلى حدود الامبراطورية، عاد وكيل الامبراطور، وترك بعض الفرنسيون الايرل، بعدما كرروا تحيات الوداع، ورجعوا مسرورين إلى بلادهم، حيث استقبلوا بالمعانقة من قبل زوجاتهم وأولادهم، وآخرين أعزاء عليهم، ونقهوا أنفسهم باستخدام مختلف وسائل النقاهة، والراحة المتعة، ثم إن كل واحد منهم حكى وهو مسرور ذكريات المخاطر

العظيمة التي تحملها في خدمة المسيح، وكيف أنهم هجروا بشكل خياني من الذين كانوا ملزمين بتقديم المساعدة إليهم، وكيف جرى بعد ذلك تحريرهم وتزويدهم بحكمة وبكرم الايرل رتشارد وحده:

وأصغت أذن كل ربة بيت

باهتمام، لسماع حكاية زوجها.

نشوب خلاف بين الداوية والاسبتارية

وبعد مغادرة الايرل رتشارد، غادر عدد كبير من الحجاج الأرض المقدسة في هذه الآونة، وكان الداوية هم الوحيدين الذين لم يوافقوا على تصرفات الايرل رتشارد، وقد أثارتهم لدغات الحسد، فتورطوا في ذمه، وبالنميمة ضده، وبالسخرية منه، وبلاحياء خرقوا الهدنة التي أبرمها، وضايقوا الاسبتارية بشدة وآذوهم، لأنهم قبلوا الهدنة، وتولوا مراعاتها تماماً وقد حبسوهم في عكا وكأنهم محاصرين، ولم يسمحوا لهم بالحصول على المؤن، ولا حتى بجلب موتاهم واخراجهم من بيوتهم، التي كانوا فيها محاصرين، وذلك من أجل القيام بدفنهم، وقام الداوية أيضاً نكاية بالامبراطور، فطردوا جميع رهبان كنيسة القديسة مريم الألمانية، وأخرجوهم من المدينة، وتركوا عدداً قليلاً منهم، هم الذين كانوا أصدقاءهم، وخدم الكنيسة، وهرب الرهبان الذين بقيوا إلى الامبراطور وإلى الأعيان المسيحيين الآخرين، وتقدموا بشكوى ثقيلة حول هذه القضية، ولذلك ثارت فضيحة كبيرة، قامت على أساس فكرة أن هؤلاء الذين سمنوا بوساطة عدد كبير من الموارد من أجل محاربة المسلمين بكل قواهم، قد حولوا الآن قوتهم بشكل فاجر، ووجهوا حقدهم ضد المسيحيين، لابل ضد اخوانهم، وبذلك أثاروا غضب الرب بشكل ثقيل أكثر، ولهذا السبب، فإن الايرل عند مغادرته الأرض المقدسة، وكأنه كان متوقعاً مثل هذه الأشياء، لم يعهد بمدينة عسقلان، أو بالمال الذي تركه هناك، من أجل إكمال بعض أجزاء القلعة، إلى الداوية المتعجرفين،

وفي الحقيقة اختار هو أن يعهد بذلك إلى وكيل الامبراطور، لأن الداوية حملوا مشاعر محقد كبيرة ضد الايرل.

وفاة الكاردينال روبرت سمركوت

وفي تلك الآونة نفسها، غادر طريق الجسد المعلم روبرت سمركوت، الذي كان كاردينالاً من أصل انكليزي، وكان رجلاً مستقيماً وحكيماً، محبوباً من قبل الجميع، ومحسناً إليهم، وكان في تلك الأثناء محبوساً في قصر اسمه «قصر الشمس»، يتداول مع الكرادلة الآخرين حول انتخاب بابا، وهناك —كما قيل— جرى دس السم له، من قبل منافسيه الذين كانوا من أصل روماني، والذين كرهوه، لأنه بدا رجلاً مناسباً، وأهلاً لشغل الكرسي البابوي، ومات كاردينال آخر بطريقة مماثلة، وكان ضحية لتآمر أشخاص حسودين له، وأما جون أوف كولونا، وكان واحداً آخر، فهو بعدما جرى هدم قلاعه وقصره من قبل الرومان، اعتقل وألقي به في السجن، بسبب أنه بدا محبذاً وميالاً نحو الامبراطور.

موت ستيفن سيغريف

في التاسع من تشرين أول من العام نفسه، مات ستيفن سيغريف Segrave في رعوية دير ليستر، حيث كان قد تمدد متخفياً، لبعض الوقت أثناء اضطهاده، وكان ستيفن هذا أثناء شبابه قد تحوّل من كاهن إلى جندي، ومع أنه كان من أصل متواضع، فقد تمكن بوساطة شجاعته، في أيامه الأخيرة، من الحصول على الثروة، ومن الترقية إلى منصب، حيث عدّ بين أوائل الرجال في المملكة، وجرى تعيينه مسؤولاً عن العدالة، وقد أدار جميع شؤون المملكة حسب رغبته، وقد نظر دوماً نحو منفعته وتطلع نحو تقدمه، أكثر من تطلعه نحو المنفعة العامة، ونظراً لبعض أعمال العدل التي عملها في حياته، والتي أرضى بها

الرب، استحق السماح له بعمل وصيته وبتقوى تلقى القربان، ليواجه نهاية محمودة ومرضية.

كسوف الشمس

في السادس من تشرين أول من هذا العام، الذي كان يوم عيد القديس إيمان Faith, تعرضت الشمس للكسوف، من الساعة الثالثة حتى السادسة، وبدت السماء وكأن لها شكل الأرض نفسها وكان هذا هو الكسوف الثاني للشمس، الذي حدث خلال ثلاثة أعوام، وهو حادث لم يسمع بمثله حتى الآن.

موت روجر أسقف لندن

وفي تلك الآونة نفسها، وبالتحديد في التاسع والعشرين من تشرين الثاني، مات المعلم روجر، أسقف لندن، وكان رجلاً صاحب حياة تستحق الثناء، وقداسة مدهشة، ومعارف متميزة، وكان فهيماً في وعظه، وصاحب حديث مشرق، مرح عند المائدة، وصاحب ملامح هادئة، وقد وقع مريضاً في ستوبنهام Stupenham, وهي عزبة كانت له قرب لندن، وهناك قال وداعاً لهذا العالم، وغادر إلى الرب، وجلب جسده إلى لندن، ودفن في كنيسته الكاتدرائية.

وفاة غيوفري دي لوسي

ومات في الشهر نفسه المعلم غيوفري دي لوسي Lucy, صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان عميد الكنيسة نفسها، وبوفاته رميت كنيسة لندن في لجّة فوضى عظيمة لأن الملك لم يسمح بملء أي كنيسة، قبل أن تصبح مدمرة، ولأن الكرسي البابوي كان شاغراً، وكان الكرادلة في حالة اضطراب جسدي وعقلي، ولأنه لم يكن لديهم رئيس أساقفة، الذي من المعروف أن عميده هو أسقف لندن، ولأنها كانت الآن من دون عميد.

عودة أوتو إلى الإمبراطور حتى يسجن

وكـان الكرادلة في هذه الآونة في حالـة عدم اتحاد تقـريباً، وفي حـالة خلاف، وجرى تأجيل انتخاب البابا، وكأنهم كانوا يائسين، ولذلك عاد أوتو إلى الامبراطور، إلى سجنـه، من أجل اطلاق سراح الرهائـن الذين قـدمهم، وليحفظ سمعتـه مـن التلطيخ، بأنه خـرق وعـده، وكـان الامبراطور مسروراً جداً بهذا التصرف الذي تصرفه، ومع ذلك أبقاه في السجن، لأنه كـان غـاضباً عليـه، بسبب أنه عندمـا كـان نائبـاً بابوياً في انكلترا، قـد تولى حـرمـانه كنسيـاً، وسمح بإعـلان حـرمـانه كنسيـاً، وبالتشهير به إلى درجـة عـالية، لكنه عـامله بلطف أكبر، لأنه كـان قـد فعل ذلك من دون إرادته، بل بالاكراه، بحكم طاعته للبابا.

انتخاب فولك باسيت إلى كرسي لندن

ومع اقتراب عيـد الميـلاد، انتخب كهنة لندن، اسقفـاً لهم وراعيـاً لأرواحهم هو المعلم فولك، عميـد يورك، وكان رجلاً مستقيماً وحكيماً، وصاحب أخـلاق حميدة، ومن أسرة مشهورة، وجـاء هذا على كل حال ضـد رغبـة الملك، الذي آثـر المعلم بطرس دي أوغـويبـلانشي Aigueblanche أسقف هارتفـورد، ودخل بسرعـة إلى بيت هيئة كهنة القديس بولص حتى تجري تسميته أسقفاً لهم، وقد عيّنوا أيضاً في الوقت نفسـه واحـداً اسمـه وليم، ليكون عميـداً لهم، وكـان كـاهناً ومستشاراً لكنيسـة القديسـة مريم، وكـان رجلاً صـاحب حياة جـديرة بالثناء.

وفاة هوغ دي بيتهل

ومع مرور الأيام، وفي حوالي السابع من كانون الأول مات هوغ دي بيتهل Pateshull أسقف سيشتر، وكـان رجلاً مـايزال في نشـاط الحياة وقـوتها، وهو بعدما كـان قد أمضى حيـاته بطريقة تستحق الثناء،

انحرف بوساطة مشورة شريرة، وتحوّل إلى الطرق الشريرة، وصار مطرقة للرهبان، ولاسيما إلى أولئك الذين أوجدوه، وقد مات مع حزن قليل عليه، مع أنه جلس في كرسي الأسقفية لمدة تزيد قليلاً عن سنة واحدة.

وعندما سمع رئيس رهبان كوفنتري والرهبان بهذه الحادثة، جمعوا كهنة ليشفيلد Lichfield وانتخبوا راهباً من كنيسة كوفنتري، كان مدرسهم، أسقفاً لهم وراعياً لأرواحهم، مع أن بعض الكهنة قد عارضوا انتخابه، واختاروا رتشارد راعي دير ايفهسام Evesham, الذي كان آنذاك حامل أختام الملك، وكان يمارس واجبات المستشار، ولصالحه كان الملك قد توسط لديهم، ونتيجة لهذا الانتخاب، صار الملك عدواً لكنيسة كوفنتري، وألحق برئيس الرهبان وبالرهبان كل ضرر كان يمكنه فعله في كثير من المناسبات، ولأن الرهبان كانوا هكذا معارضين للملك ولرجاله، وكذلك بعض كهنة ليشفيلد، ولذلك ارتمى دير كوفنتري في حالة من الفوضى، ونال كثيراً من الأذى، بلغ حداً، أن التجمع الديري تفرق ينشد المساعدة من الديرة الأخرى، وقام دير القديس ألبان انطلاقاً من عواطف خيرة، وتكريمية، ففتح صدره الرحيم، واستقبل رئيس الرهبان وبعض رهبانه، وخدمهم وخيولهم، بأعظم احترام، وعاملهم بمنتهى الكرم لمدة سنة انضاف إليها عدة أشهر.

انتخاب غيوفري أوف ميلان بابا وموته إثر ذلك

وفي هذا العام انتخب الكرادلة بابا المعلم غيوفري أوف ميلان، وجاء ذلك بعد نقاشات كثيرة، وبعد التعرض لمختلف أنواع الأذى، ولخطر الانقسام بين الكرادلة، وهو انقسام زرعت بذوره من قبل الشيطان، وأيضاً بعدما تناقص عدد الكرادلة إلى عدد صغير بوساطة البلايا والأسى، وكان الذي انتخبوه متميزاً بأخلاقه، ومتعلماً، ولكنه كان مسناً

وقد مـال نحو الضعف، وما كاد يشغل الكرسي البـابوي لمدة ستة عشر يومـاً، عندما قطـع بموت قبل أوانه، ودفع ديـن الطبيعة، وقـد قيل بأن السم قـد دسّ له، وهكذا ترك الكرسي البـابوي، لابل بالفعل الكنيسـة كلها في حالة بائسة، وفي تلك الآونـة نفسها، مات واحد من الكرادلة، واسمه رتشارد هانيبال.

مؤتمر أساقفة انكلترا

التقى في هذه الآونـة رئيس أسـاقفـة يورك، وأسـاقفـة لنكولن، ونوررويك، وكـارآيل، واجتمعـوا مـع عـدد كبير آخـر من رجـال الدين واللاهوتيين المتنفـذين والمستقيمين، للتـداول حـول كثير من مصـائب الكنيسـة المضـاعفة، وليلتمسـوا المواسـاة الربانيـة، ثم انهم أمـروا بعمل صلوات خـاصة وبصـوم، وأن يراعى ذلك بشكل عـام في جميع أرجـاء انكلترا، حتى يقتنع الرب بتحرير الكنيسة الرومـانية وبردها إلى العافية، حيث كانت الآن محرومة من راع لها وبابا ليحكمها، وبهذا أخذوا مثلهم من أعمال الرسل، حيث ورد فيهـا، أنه عنـدمـا جـرى سجن بطرس، صلّت الكنيسة من أجله من دون انقطاع.

وتوصلوا أيضـاً إلى قرار جماعي، بإرسال رسـل إلى الامبراطور، لحثه بالتماسـات باكيـة، بما أنه يهتم بخـلاص روحـه، أن يتخلى بقلب مخلص عن جميع مشاعـر الغضب والحقد، وأن يهجـر جميع أنواع الطغيان، وأن لايعيق تقـدم مصالح الكنيسـة ومنافعهـا، لابل أن يكون بالحري رحيماً بالسماح لها بالتنفس بحـرية، مع أنه أثير لدراسـة رفع شأنها وتقـدمهـا، لأنهم قالوا بأن الذين أثاروا غضبـه، هم الآن أموات، ومن الواضح أنه تصرف طغيـاني وعمل معارض للمنطق، أن يجعل الأبرياء يدفعـون من أجل أخطاء الأموات.

وعندما —على كل حال— شرعوا بالتبـاحث حول انتخاب الرسل،

الذين كان عليهم السفر من خلال فرنسا والبلدان المجاورة، وأن يسعوا إلى استنهاض أساقفة تلك البلاد، لقد انتقلوا إلى العمل بطريقة متشابهة، وبدأ كل واحد يحتج بمسوغات تافهة، ورفض أن يأخذ على عاتقه أعباء مثل هذا العمل الكبير والمقلق، ومثل هذه المتاعب الخطرة، حتى وإن كان ذلك لصالح المسيح وكنيسته، وأخيراً كما قال الشاعر:

بحضور اللص يبتهج

المسافر الذي لايحمل ذهباً.

وبما أنهم لم يجدوا أحداً جاهزاً من بينهم، ليقوم بأعباء الرحلة، اختاروا الدومينيكان والفرنسيسكان لهذا الغرض، لأنهم كانوا جوالين، وكانوا عارفين معرفة جيدة بجميع البلدان، وعندما —بناء عليه— حصل هؤلاء الرسل على مقابلة مع الامبراطور، وقدموا إليه رسالتهم، أجابهم كما يلي قائلاً:

«ومن الذي يعيق تقدم أحوال الكنيسة؟ لست أنا، إنه بالحري التعالي المجنون، والنهم غير المستقر للكنيسة الرومانية.. ومن الذي يمكنه أن يندهش إذا ما كنتُ أنا المعيق لتقدم الكنيسة الانكليزية والرومانية؟ لأنها تسعى باذلة كل جهودها لخلعي من عرشي الامبراطوري، ولقد حرمتني كنسياً، وأساءت إلى سمعتي بدرجة عالية جداً، وبالضرورة صبت الأموال لتلحق الضرر بي»، وهكذا أخفقت خطة الأساقفة الانكليز في إحداث أي تأثير في هذه القضية، وبرهنت أحداث هذا العام أنها كانت غير مواتية تماماً للبلاط الروماني، وذلك جزاء —كما هو واضح— على ذنوبه، وأيضاً غير نافعة للأرض المقدسة، بسبب تصرفات الداوية، ومؤسفة وغير سعيدة للنبلاء الانكليز، لأنه بالاضافة إلى الذين هلكوا في البحر، مات في هذه السنة بعض الأساقفة المتميزين، وهما الحبران الرومانيان، مع بعض الكرادلة، وآخرين، قد تقدم ذكرهم أعلاه.

ذكر مختصر للذين ماتوا في هذا العام

وكان بين النبلاء الانكليز الذين ماتوا في هذا العام: وليم دي فوربس Forbes, ايرل أوف ألبمارل، الذي وهو مسافر لحجه، وقع مريضاً في البحر المتوسط، وبات غير قادر على الأكل، وقد تحمل آلاماً طويلة لمدة ثمانية أيام، وفي يوم الجمعة التالية قبل عيد الفصح، وهو اليوم الذي أسلم فيه المسيح الروح وهو على الصليب إلى أبيه، هو وفق الطريقة نفسها أسلم روحه إلى المسيح، ومات أيضاً النبيل والقوي وولتر دي لاسي Lacy, الذي قد ذكرناه من قبل، وحدثت وفاته أيضاً في حوالي عيد الفصح، تاركاً ميراثه المبدد إلى بناته، وستيفن سيغريف، الذي ورد ذكره في مكانه من قبل، وهو الذي كان مستشاراً خاصاً للملك، وكانت مستشاريته صالحة وعادلة لانكلترا، وغيلبرت باسيت، قد غادر هذه الحياة، وقد أتينا على ذكر سوء حظه أعلاه، ومات كذلك جون بيسيت المسؤول الرئيس عن إدارة عدالة الغابات، وغادر هناك إلى الرب بطرس مولاك Maulac,وهوغ ويك Wake, وروبرت مارميون Marmion, وبطرس دي بروس Brus, وغويسكارد Gusicard, وليديت Laidet, ويوستاس دي ستوتفيل Stutevill, (الذي خلفه في ميراثه زوجة هوغ ويك)، ويودو Eudo, وهامو Hamo, الذي كنيته سن Sin, وبلدوين دي بثيون Bethune, وجون فتز—جون (قهرمان الايرل رتشارد) وغ. G, أخو الايرل المذكور، وجون دي بيوليو Beaulieu, وجيرالد دي فورنيفال Furnival, وعدد كبير آخر من النبلاء الانكليز من كونتية الايرل رتشارد، الذين تسابقوا بشكل مجيد فراراً من هذه الحياة إلى السماء، وذلك تحت حماية المسيح، عندما كانوا يقاتلون في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وماتت في هذا العام، كما ذكرنا من قبل إليانور ابنة غ. G, كونت بريتاني،وكانت

وفاتها في بريستول Bristol, وكذلك الأسقفـان المشهوران: روجر أسقف لندن، وهوغ أسقف شيستر، فهما أيضاً ماتا في هذه السنة، وعدد كبير آخر من اللاهوتيين المشهورين، ومن الرجـال العلمانيين، الذين أسماؤهم كثيرة جداً حتى نأتي على ذكرهم.

موت الإمبراطورة إيزابيلا

وفي هذا العـام مـاتت أيضـاً الامبراطـورة ايزابيـلا، التي كـانت مجد انكلترا وأملهـا، وجـاء مـوتها أثناء الولادة، وقـد علمنا بمـوتها المحـزن كثيراً، بشكل كـامل في الـرسـالة الكئيبـة التـاليـة لزوجهـا الامبراطور فردريك.

رسالة الإمبراطور حول موتها:

من فردريك الامبراطور، إلخ، إلى ملك انكلترا، تحيات:

لقد اعتـدنا مؤخـراً في رسائلنا، وبوساطـة رسلنا على أن نقدم إليكم أخبـاراً طيبــة، غير أننا بسبب ســوء الحظ، ولأننا أصبحنا محســودين بنجــاحــاتنا، قــد أرغمنا بـالحزن على أن نبــوح إليكم مكرهين خبراً مكروهاً، وذلك بقـدر مـا نحن نعـاني من خسارة لاتعـوض، هي وفـاة قرينتنا الأوغسطـة المحبوبة، وهكذا، أرغمنا بوسـاطة الموت القاسي على تحمل الانفصام المحـزن للروابط الاجتماعية، ووقعت هـذه الواقعة ذات الذكـرى المرعبـة لدينا، في اليـوم الأول من الشهـر المنصرم، وهو شهـر كـانون الأول، وذلك عندمـا استجــابت قـرينتنا المذكـورة الامبراطورة وأختك، إلى الطبيعة، أثناء نداء الرب، الـذي يأخذ بعيداً حيـاة الأمراء، والذي لديه لايوجـد استثناء، أو قبـول لأشخاص، لأنه في سبيل شفـاء الذين، لو أن المنيــة رضيت وراعتنا، وأوقفت الطبيعــة دفع دين الموت الذي لابد منه، لما سمح لنا حبنا الثمين وعنايتنا وقرينتنا، بعدم بذل كل نفقـة بالمال، والجهـد، أو الممتلكات، لكن عنـدمـا أخـذها ملك الملوك،

ومولى الموالي، الذي يحكم بقدره من فوق قبة السماء، والذي لايمكن لأحد أن يقاوم إرادته، وأبعدها عن الوحدة مع جسدنا، وعن روابط الأخوة التي كنت بها متحداً معها، لقد قرر بآرائه في عليين، بوساطة ترتيب، أو بالحري بتدبيره، أن تعيش لنا ولكم في ذكرى ولديها، لأنه بمنحة الرب القدير، يعيش أولاد ملكيون، منهما نهض ملك وملكة معاً تحت عيني والدهما، ليحلا محل أمهما ويقفا في مكانها، فبعطائها الخصب تلقينا عهوداً نبيلة، هي التي تمتن روابطنا العامة بالمصاهرة، وتربط برباط وشيج كرسي قيصر وكرسي جلالتكم، بامتياز خاص، بدماء البنوة والحفادة، وعلى هذا إن حبي لكم قائم على ذريتها، التي بها بدأت، وارتفعت إلى الوجوب، وسمات حلف سوف يدوم طويلاً، ومع أنه بناء عليه إن خسارة قرينتنا الأوغسطة، التي هي أختك، لايمكن أن تذكر من قبلي، أو تسمع من قبلك، من دون حزن كبير في القلب، وأسى لموتها لايمكن فصله عن عميق مشاعرنا، ومع ذلك إن ذكرى الأبوين المحبوبين مزدهرة في الولدين، وقد تثبتت علائقنا بشكل لايمكن فصمه بهذين الحفيدين، الذين حملت بهما أختك الأوغسطة وولدتهما طفلين لنا. صدر في هذا اليوم الثلاثين من كانون الثاني، إلخ».

حول أوضاع الأنواء خلال هذا العام كله

وكان هذا العام على العموم وافراً بمحاصيل القمح، لكن من عيد البشارة للعذراء المباركة حتى عيد الرسولين سمعان وجود، استمر جفاف وحرارة لاتحتمل جففت البحيرات العميقة والسباخ الواسعة، وجففت كثيراً من الأنهار، كما جففت المطارد، وأوقفت أعمال الطواحين، وبما أن المراعي قد جفت، فقد ماتت الأعشاب، وبالتالي أخذت الأسراب والقطعان بالهلاك بسبب الجوع والعطش، وفي الشتاء أيضاً، ومنذ ميلاد ربنا، كان هناك جليد وثلج، ترافق مع برد حاد لايحتمل، وقد غطى وجه الأرض، وجعله قاسياً إلى درجة عالية، وجمّد

في الوقت نفسه الأنهار، حتى ماتت أعداد كبيرة من الطيور، ومثل هذا لم يتذكر الناس أنه وقع من قبل.

بطرس أوف سافوي يعمل استعداداته للعودة إلى الوطن

عام ١٢٤٢، الذي كان العام السادس والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، وفيه عقد بلاطه كما جرت العادة، في عيد الميلاد في لندن، في حال من السلام، وأطال الاحتفالات في الدير لقرابة خمسة عشر يوماً، وخلال ذلك، وبالتحديد في يوم ختان ربنا انتشرت تقارير حول وصول الايرل رتشارد، وعمت جميع أرجاء انكلترا، وفي هذا الموعد أيضاً، قام بطرس أوف سافوي، إيرل أوف رتشموند، الذي كان رجلاً مستقيماً ومحترماً، بتسليم الملك ووضع بين يديه القلاع المتميزة والفخمة للمملكة، التي كان قد تسلم المسؤولية عنهن، لأنه كان يخشى من أن ترقيته المفاجئة، سوف تغضب كثيراً نبلاء انكلترا، وأنه أخذ على عاتقه عبئاً فوق طاقته، في قيامه بوضعه هذه القلاع تحت عهدته، بينما الانكليز مهملين ومعطلين، ولكي لايحدث اضطراب في انكلترا، من خلاله لدى وصول الايرل رتشارد، الذي ربما سوف يستمع إلى شكاوى ثقيلة حول هذه القضية، وبعدما قدر الأمور بعقله بحكمة، ورأى الخطر الكبير والقريب عليه شخصياً، تخلى عنهن جميعاً، وعمل ترتيباته —بعد الحصول على إذن الملك— للعودة إلى الوطن، وبهذا العمل الحكيم الذي يدّل على حكمة وحسن سلوك، به سكّن مشاعر كثيرين، ولكن بالوسائل نفسها التي حصل بها على إذن بالمغادرة، استدعي على سرعة من قبل الملك، قبل أن يركب السفينة، وبناء على طلبه الملح، حصل —مع أنه لم يرغب— على قلعة دوفر، وتسلم المسؤولية عنها.

رعونة كونت دي لى مارشي

في هذا العام، قام كونت دي لى مارشي، وهو أكثر الكونتات البواتيين

قـوة، بتقـديم الطاعـة وتأدية الولاء إلى أمفـولسي [أمفولسـوس]، أخـو الملك الفرنسي، الذي بموجب تقدمـة أخيه غير العادلة، اغتصب ملكية كـونتية بواتو، وبـدأ ينشط ضد سلطة النبـلاء، وبدأ يتمـدد بمقاصـده، وبعـد مضي بعض الوقت؛ جرت دعـوة كـونت دي لي مارشي المذكـور للقـدوم مسـالماً لتناول طعـام الإفطار مع أمفـولسي كـونـت بواتو المذكور،وذلك أثناء الاحتفالات بعيد الميلاد، لكن في إحدى الليالي، بعد مضي أربعـة أيام تقريبـاً على عيـد الميلاد، وكـان على وشك الاستجـابة للدعـوة، وفقـاً للوعـد، لكنـه في الصبـاح تشـاور مع زوجتـه إيزابيـلا، فتوصل إلى قرار بتغيير نيته، وبمعارضة أمفولسي المذكور بالقوة، ولذلك ذهب إلى ذلك النبيل، وقـال له برعـونـة: «لقـد نويت، عندمـا غششت وفرض علي، أن أقدم الولاء لك، لكن الآن غيرت نيتي، حيث أنني لن أرتبط قط بكم بأية روابط طاعـة ولن أعترف بأي ولاء لكم، ذلك أنك رجل عـدواني، لأنـك استـوليت من دون خجل على كـونتيـة صهـري الايرل رتشارد، عندمـا كان يقاتل بإخلاص من أجل الأرض المقـدسة، وبرحمة يقـوم بتحـرير الأسرى من أبناء بـلادنا، وهكذا رددنا بالشر على الخير»، وهكذا قام وهو محقون بالغضب، وبالتهـديد بصوت مرتفع، مع زوجتـه، وهو محاط بكتلة من الجنـود، في حين أعـدّ رمـاة القسي الزيارة من البـواتيين قسيهم للرمي، فـاندفـع إلى وسطهم، فألقى النار في البيت الذي كـان ساكناً فيـه، ثم امتطى فجأة فـرساً، وأخـذ بالفرار، الإجـراء الذي أدهش أمفـولسي وأغضبـه، مع جميع الـذين رأوا ذلك، وجعلهم يشـ ملون بالرغبة للانتقام.

تقديم شكوى إلى الملك الفرنسي حول هذا الإجراء

ثم تقـدم أمفولسي المذكور بشكوى ثقيلـة، ووضعها أمام الملـك ضد هذا العدوان، حـول كل من هذا الفرار غير المتـوقع، وإحراق البيت من قبل الكونت المذكـور، الذي كـان مثل فأر في كيس طحين، أو أفعى في

صدر انسان، وهكذا ردّ بشكل فاسد على استضافته له، وأثار هذه الشكوى بسبب مسوغ جيد، الملك وكذلك نبلاء فرنسا، لأخذ انتقام عادل.

كونت دي لى مارشي يطلب المساعدة من ملك إنكلترا

وبات كونت دي لى مارشي خائفاً كثيراً من غضب الملك الفرنسي، فحصن قلاعه وشحنها بالسلاح وبالرجال المسلحين، وكذلك بكميات وافرة من المؤن، وأمر بتحويل سكك المحاريث إلى رماح، والمناجل إلى سهام، وقدر الشرور التي يمكن أن تقع، ولشعوره أنه لايستطيع طويلاً مقاومة مثل ذلك الأمير الكبير، ألح بالرجاء إلى ملك انكلترا، للقدوم إلى بواتو، مع مبلغ كبير من المال، ذلك أنه يستطيع بمساعدة البواتيين والغسكونيين في قوة كبيرة، من استرداد جميع الأراضي التي استولى عليها الملك الفرنسي من دون حق، ووعده بالمشورة الفعالة، ومساعدته الشخصية، مع مساعدة الأعيان الآخرين، وخاصة ملك أراغون، وكونت طولوز، مع آخرين عددهم كبير حتى نذكرهم هنا، ووقتها قدّر الملك الانكليزي هذه الأمور كلها وتفحصها بعقله، ووثق بالكلام المخادع لكونت دي لى مارشي والبواتيين الآخرين، الذين ينبغي أن لايثق بهم.

عقد بارلمان كبير في لندن

وبناء عليه، كتب الملك هنري، إلى جميع نبلائه الانكليز، وإلى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والإيرلات، والبارونات، وأعطاهم أوامر دقيقة للاجتماع في لندن يوم الثلاثاء التالي، قبل عيد طهارة العذراء المباركة، للتداول بعناية كبرى حول بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالمملكة، والتي لاتحتمل التأخير.

كيف ذهب الملك إلى استقبال الإيرل رتشارد لدى عودته من الأرض المقدسة

وفي هذه الآونة نفسها، كان الملك متوقعاً وصول أخيه الايرل رتشارد من القارة، وكذلك النبلاء الذين كانوا قادمين من مسافات نائية لحضور المؤتمر، فأطال إقامته في لندن حتى الأول من شباط، أي يوم عيد القديسة هيلاري، لكنه سمع آنذاك بأن الايرل قد نزل في دوفر، في اليوم التالي لعيد الغطاس، وبناء عليه قام ومعه ملكته، يحيط به كتلة كبيرة من النبلاء، فذهب مسروراً لاستقباله، ولدى رؤيته له، اندفع إلى مابين ذراعيه، واستقبله بكل علامة من علامات البهجة، فقد أثار الدم الأخوي العواطف من على الجهتين، وقد أثقله الملك، وجميع النبلاء تقريباً بمختلف الهدايا، وفي اليوم الثاني لعيد القديسة اغنس، وصل الايرل إلى لندن، وعند وصوله تزينت المدينة بالأعلام وبالمعلقات، وكأن ذلك كان من أجل العيد، وأقام الأخوان وليمة مع عدد من الضيوف الخاصين الذين دعاهم الملك.

البواتيون يحثون الملك مع أخيه لعبور البحر لمساعدتهم

وعلم البواتيون بوصول الايرل رتشارد إلى انكلترا، فتابعوا من دون توقف العمل على حث الملك، وكذلك الايرل المذكور، ليقدما من دون تأخير، وليحصلا على امتيازاتها، وبشكل خاص كونتيه بواتو، وحول ذلك تصوّر الملك خطة ثابتة بالعبور إلى فرنسا، حتى أنه لم يمكن اقناعه بالتخلي عن نيته بوساطة منطق أصدقائه، ولابوساطة أصحاب الرغبات الطيبة.

تفرق البارلمان الإنكليزي في حالة غضب

ومع اقتراب حلول موعد عيد طهارة العذارء المباركة، اجتمعت النبالة الانكليزية في لندن وكانت هذه النبالة مكونة من الأساقفة،

والإيرلات، والبـارونات، وجـاء الاجتماع بناء على طلب الملك وأمـره، ولأنهم كـانوا يعـرفـون بأن الملك، قـد قـام غـالبـاً وفق هذه الطريقـة، بإزعاجهـم وفق هذه الحجة الزائفـة، وباستدعائهم بكـل سرعة، فعملوا يميناً مع بعضهم، وتوصلوا إلى قـرار ثابت، تحت طائلة عقـوبة التكفير، أن لايوافق أحـد منهم في هـذا المؤتمر، ولابشكل من الأشكال، على أية جباية للأمـوال سوف يحاولها الملك، وكان الآن قد بات معـروفاً بشكل جيد لدى الجميع بأن كونت دي لى مـارشي، قد دعا بإلحاح الملك وحثه على العبـور إلى القـارة، آخـذاً معـه من المال كـل مـايمكنه استخـراجـه وجمعـه، دون الاهتمام بأي شيء حـول قـوة الجيش الانكليـزي، وبذلك أعطوا قيمة صغيرة للجندية، أو للقوة الاقطاعية للمملكة، عادين الملك بمثابة بائع متجول، الذي همّه هو الحصول على المال، يضاف إلى هذا أن الانكليز كانوا مثارين —بشكل محق— ضـد الكونت وضد جميع أتباعه من البواتيين، ولم ينظروا نظرة رضا نحو الملك الذي وافق على مثل هذه الأشيـاء، من دون مشـاورة نبـلائـه، وبناء عليـه، عندمـا جعلهم الملك يعرفون قراره في قلبه الذي لاعـودة عنه، أي العبور إلى القارة، استجابة لدعـوة كونت دي لى مـارشي، ومع مناقشات متنوعـة طالب بمساعـدة ماليـة منهم، أجابه النبلاء بحدة كبيرة في نفـوسهم، بأنه عمل خطته من دون استشـارتهم، وأنه كان خـالياً من الحيـاء بتقدمـه بمثل هذا الطلب، ذلك أنه ضيق مـراراً على رعايـاه المخلصين وأفقرهم، بطلبـه المال منهم وكأن المسألة صارت عـادة، وكأنهم كانوا أحط أنواع العبيد، وأنه غـالباً ما استخرج منهم مبالغ ضخمة من المال، جـرى انفاقها من دون فائدة، ولذلك قـاموا الآن بمعارضتـه في وجهه، ورفضـوا أن يتم تجريدهـم من أموالهم بعد الآن، من دون غاية ولا لهدف.

وبناء على ذلك لجأ الملـك إلى طرائق الرومـان ومكـرهم، وأمـرهم بالانتظار حتى اليـوم التـالي لسماع رغبـاته حـول مـايتعلق بهذه القضيـة

وبقضايا أخرى، وجمعهم في اليوم التالي واحداً، واحداً، وفي أوقات مختلفة، في غرفته الخاصة، مثل دعوة الكاهن المرضى للاعتراف، ولأنه لم يستطع اضعاف تصميمهم عندما كانوا مجتمعين، سعى بدهاء إلى اضعافهم واحداً تلو الآخر، بحججه، ورجاهم القيام بتقديم مساعدة مالية، قائلاً لكل منهم: «إنظر إلى الذي قدمه راعي الدير فلان، ودفعه لمساعدتي، وإلى الذي قدمه فلان الآخر إليّ» حاملاً بيده في الوقت نفسه قائمة، أظهر عليها اتفاقية مكتوبة، بأن راعي الدير فلان، أو رئيس الرهبان قد دفع كذا وكذا، أو أنه على الأقل قد وعد بدفع كذا، وكل هذا مع أن ما من واحد منهم قد أعطى موافقته على شيء من هذا القبيل، أو أنه عرف أي شيء عن ذلك.

فبمثل هذه التصرفات الزائفة، والكلمات المعسولة، تمكن الملك بدهاء من ايقاع عدد كبير منهم بشباكه، ووقف آخرون —على كل حال— صامدين، ورفضوا بتاتاً التزحزح عن الجواب الذي اتفقوا عليه بشكل عام، وأقسموا على الالتزام به، وإلى هؤلاء قال الملك وهو مغضب:

«هل سأكون أنا على هذا رجلاً حانثاً بيميني؟ لقد أقسمت يميناً لاعودة عنه، بأنني سوف أعبر البحر، وأطالب باسترداد حقوقي من الملك الفرنسي بذراع ممدودة، وهذا مالا يمكنني القيام به من دون مبلغ كبير من المال، عليكم تزويدي به بكرم منكم»، وعلى الرغم من لجوئه إلى وسائل الاقناع هذه وسواها، لم يتمكن من ايقاع بعضهم في شباكه، مع أنه —كما ذكرنا من قبل— دعا كل واحد منهم إليه بشكل خاص.

ثم إنه بعث —على كل حال— في المرة الثانية، إلى أصدقائه المقربين وخاطبهم كما يلي:

«أي مثل مهلك ضربتموه إلى الآخرين، أنتم الذين ايرلات شجعان، وبارونات، وفرسان، عليكم أن لاتكونوا خائفين، مع أن آخرين، أي

أساقفة الكنائس، قد أظهروا خوفاً، عليكم أن تكونوا، متشوقين أكثر من الآخرين، لاسترداد حقوق المملكة، ولتجريب حظ الحرب ضد أولئك الذين ألحقوا الضرر بنا، وأن نقوم بتقوية قدرتنا ودعم سلطتنا، هو واجب واضح، بموجب الحقوق التي نمتلكها، وأيضاً بموجب الدعوة والوعود التي تلقيناها من النبلاء، وكذلك بموجب مثل ما حدث في ويلز، حيث تمكننا مؤخراً من الانتصار بسعادة، وميول النجاحات الماضية، سوف تقود الطريق إلى نجاحات أخرى، فكيف لديكم قدرة على تركي، وأنا مولاكم، فقيراً، ومهجوراً، في الوقت الذي أنا فيه على استعداد للقيام بهذه المهمة الصعبة، في سبيل الصالح العام، وبما أنني مترابط بكل دقة بيمين لأداء وعدي والوفاء به، بالعبور إلى القارة؟»، وعندما سمع النبلاء بهذا أجابوه قائلين:

«إن الكلمات لايمكنها التعبير عن حيرتنا حول المتاهات التي أغرقت فيها مبالغ لاتحصى من المال، التي جبتها جلالتك من الوصايات المتنوعة على النبلاء، ومن مختلف المواريث، واستخراجات متوالية، من كل من الكنائس الشاغرة، ومن أراضي النبلاء، ومن الأعطيات التي قدمت سلفاً، إنها مبالغ كافية لإحداث الدهشة لدى كل من يسمعهم، ومع ذلك فإن هذه المبالغ المالية، لم تجلب قط أية زيادة، أو منفعة للمملكة، يضاف إلى هذا لقد دعوت مؤخراً إلى المملكة بعض النواب البابويين، أو أشخاص مارسوا واجبات النواب البابويين، وهؤلاء عندما كانوا يجمعون عناقيد العنب التي بقيت، جمعوا لأنفسهم المال الذي كان قد بقي، ومجدداً إن جميع نبلاء انكلترا مندهشين كثيراً تجاه توليكم القيام بمثل هذا العمل الصعب والمرعب، من دون أخذ رأيهم وموافقتهم، حيث أنك وضعت ثقتك في أولئك الذين هم بلا ثقة، وأنك على الرغم من الارادة الطيبة لرعاياك الطبيعيين، معرض نفسك إلى نصيب مشكوك فيه، ثم إنك أيضاً قمت تعريضاً لنفسك للخطر،

السمعـة فخـرقت من دون كـرامـة الهدنة المعمـولة بين الملك الفـرنسي وبينك شخصياً، وهي التي أقسمت عليها بحق روحك، بمراعاتها دونما احباط، وذلك حتى التاريخ الذي كـان قد أعده من قبل الايرل رتشارد المشهور، الذي هو أخوك، والايرل ر. R بيغود».

وأضاف الذين هم أكبر سناً، والذين أكثر نفوذاً بينهم قائلين:

«وأنت أيضاً، لخطرك، قد وضعت كثيراً من الثقة، ووعدت بالحضور شخصيـاً، هؤلاء النبـلاء القـاريين المشـاهير بسـوء السمعـة، الذين هم قائمين بالتمـرد، ورفع أعقابهم، ضـد مولاهم، الملك الفـرنسي، والذين بناء على هـذا بالذات، ينبغي عـدم الـوثوق بهم، لشهـرتهم باقتراف خيـانات مضاعفـة، وأنت تعـرف أيضاً بأن ملـك نافار، الذي وعـدوك بمساعدته، قد اقترف مؤخراً جريمة في الأرض المقدسة، ندبة جرحها لم تزل بعـد، ولتكن مثل أجـدادك المشهـورين، وليكن واعظاً لك، وناهيـاً لك ومعيـداً عن الذي نويتـه، أنهم يمتلكون في تلك الأرجـاء قـلاعـاً لاترام، وكثيراً مـن الأراضي، وجيشـاً كبيراً، ومبـالغ لاتحصى من الأموال، ومع ذلك كانوا غير قـادرين على صد القوات الفرنسيـة الثابتة والتي لايمكن قهـرها، ولا حتـى القـدرة على الاحتفـاظ بممتلكاتهم»، ولدى سماع الملك لهذا الكلام انفجر غـاضباً بعنف، ودعـا القديسين أن يكونوا شهـوداً، وأقسـم أنه لن يتراجع عـن مقصـده، بالخوف، أو أنه سيتـوقف عند أية خطابات غامضـة، ولن يتـوقف عما عزم عليـه، وأنه سـوف يقلع في ثمانية عيـد الفصح، وسوف يجرب من دون خـوف حظ الحرب في القارة ضـد الفرنسيين، وبهذا ارفض المؤتمر بغضـب مغروس بثبات، ولكن بشكل سري في عقول الطائفتين.

ردّ بارونات إنكلترا

وبعـد مضي بعض الوقت، ولكي لايضيع مغـزى جواب البـارونات

ويصبح منسياً، تمّ وضع هذه الأشياء كلها كتابة، وتدوينها كما يلي:

«بما أن السيد رئيس أساقفة يورك، وجميع أساقفة انكلترا، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وكذلك الايرلات، وتقريباً جميع بارونات انكلترا، إما قد حضروا شخصياً، أو جرى تمثيلهم بنوابهم، واجتمعوا بناء على دعوة من السيد الملك، في ويستمنستر، في يوم الثلاثاء التالي قبل طهارة العذارء المباركة، في عام ألف ومائتين واثنين وأربعين لتجسيد ربنا، أي في العام السادس والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، وذلك بغية سماع رغبة الملك وارادته، والأعمال التي من أجلها دعاهم.

وبما أن مولانا الملك قد أرسل إليهم السيد رئيس أساقفة يورك، والنبيل الايرل رتشارد، ووولتر أوف يورك، وعمدة بيفرلي Beverley, بمثابة رسل خاصين، ليتولوا تبيان رغبته وإرادته وعمله، وقد سأل جميع نبلاء المملكة أن يقدموا مشورتهم ومساعدتهم ليحصل على ملكية ميراثه وحقوقه في القارة، التي هي عائدة إلى مملكته، مملكة انكلترا، وأخيراً بعدما عقد الأساقفة المذكورون، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات، مناقشات طويلة، نصحوا الملك في المقام الأول —من خلال النبلاء المتقدم ذكرهم— أن ينتظر حتى انتهاء الهدنة المعقودة بينه وبين ملك فرنسا، لكن إذا صدف وقام الملك الفرنسي بأية مغامرة، متعارضة مع بنود الهدنة، وقتها على ملك انكلترا المذكور ارسال رسل خاصين له لإقناعه بالإعذار وبالانذار، بمراعاة الهدنة، وأن يعيد التفكير في مغامرته، إذا ما كان هو شخصياً أو أحد من نبلائه قد فعل ذلك، وإذا ما رفض الملك الفرنسي أن يفعل ذلك، وقتها سيقومون رغبة منهم بإلحاق أنفسهم برأيه، في سبيل تقديم العون إليه، بقدر ما يملكوه من قوة».

ووافقوا جميعاً على هذا الجواب، وبطريقة مشابهة لهذه، ومنذ أن صار حاكمهم لقد قاموا مراراً، بناء على مطالبه الضاغطة، فأعطوه

مساعـدات، منها الجزء الثالث عشر من ممتلكاتهم المتحركـة،-وبعد ذلك الجزء الخامس عشر، ثم الجزء السـادس عشر، وبعد ذلك الجزء أربعين، وأعطوه ضرائب الأرض، وضرائب التخوم، وعـدة بدائل عن الخدمـة العسكرية، كـان آخـرها بدل عظيم من أجل زواج أختـه الامبراطورة، ومـا كـادت تمر أربعـة أعـوام بعـد ذلـك التـاريخ، عندمـا طلب مجدداً المساعـدة منهم، وحصل أخيراً بعد التماسات مكثفـة وشديدة على الجزء الثـالث عشر، وقـد منحـوه ذلك على شرط،أنـه لاهذه الجبـاية، ولا أية جبـاية متقدمـة ينبغي أن تعـدّ في المستقبل عـادة منتظمة، وقـد أعطاهم صكاً حـول هذا الموضـوع، يضاف إلى هذا، أنه قـام بوعـدهم بأن جميع الامتيـازات الواردة في الصك، ينبغـي من ذلك الحين، كما كـان فيما مضى، أن تراعى تماماً في جميع أرجاء مملكتـه، وحول هذا أعطاهم صكاً صغيراً، احتوى الأشياء نفسها، وهذا الصك هو الآن بين أيديهم.

وبالاضافة إلى هذا، قام الملك عن طواعية من ذاته، وبوساطة نصيحة باروناته، فـوعـدهم بأن المال كلـه الذي سـوف يجبى من الجزء الثـالث عشر المذكور، يتـوجب أن يوضع في حـرز أمين في قلاعـه الملكية، تحت رعـاية أربعة من نبـلاء انكلترا، هم: ايرل وارني مع آخرين، وبمـوجب اختيـاره، ووفقـاً لمشـورته، الشيء نفسـه ينبغي انفـاقـه عندمـا تتـوفـر الضرورة، في سبيل منفعة الملك المذكور والمملكة، وبالنسبـة للبارونات هم لم يعرفوا، ولم يسمعوا، بأن أياً مـن المال المتقدم الذكر،قد صرف بناء على اختيار أو مشورة أي واحد من النبلاء الأربعة المتقدمي الذكر، وهم يعتقدون بشكل ثابت —وفي الحقيقة، إنه لمن المعروف تماماً— بأن الملك مازال لديه ذلك المبلغ كله دون أن يلمس، ومن ذلك المبلغ، يمكنه الآن أن يزود نفسه بمعـونة كبيرة، وإلى جانب هذا، هم يعرفـون بشكل جيد أنه منذ ذلك الحين جمع كثيراً مـن أمـوال المواريث، بشكل خـاص من رئـاسة أسقفيـة كانتربـري، ومن عدد من أغنى الأسقفيـات في انكلترا،

ومن أراضي الايرلات، والبـارونات، والفـرسـان الموتى، الذيـن كـانوا متملكين من قبله، فمـن هذه المواريث لوحـدهـا، لو أنهم اهتمـوا بها واعتنوا، لتـوجب جمع مبلغ كبير مـن المال، عـلاوة على ذلـك، إنه من وقت إعطائهم الجزء الثالث عشر المذكـور، كان رجـال العدالة يرتحلون بشكل متـواصل ويدورون خـلال جميع أجـزاء انكلترا، وهم يجمعـون ضرائب الغـابات، وجميع الضرائـب الأخـرى، وعلى ذلك فـإن جميع الكونتيات، والمئويات من أجـزاء الكونتيات، والمدن، والمناطق، وتقـريباً جميع القـرى، حتى قرى انكلترا قـد غرمت بشكل ثقيل، وبناء عليـه إنه من هذه الجولات من المتـوجب أن يكون صـار لدى الملك مبلغـاً كبيراً من المال، إذا مـا دفع، وجمع بشكل صحيح، وبناء عليـه يمكنهم القـول بشكل صحيح بأن جميع انكلترا قـد سيمت ظلماً شديداً، وتعـرضت إلى فقر شديد بوساطة هذه الغرامات، وبوساطة المعونات التي أعطوه إياها من قبل، إلى حـد أنهم الآن قـد بقي لـديهم القليل من الممتلكات أو لا شيء البته.

ولأن الملك بعـد منح هذا الجزء الثـالث عشر، لم يلتـزم قط بصكه المتعلق بالامتيـازت، لابل ظلمهـم أكثـر منـذ ذلك الحين، مع أنه قـد منحهم بصك آخر، ووعـدهم بأن استخراجـات من هذا النوع يتوجب أن لاتصبح عـادة، لهذا كله أخبروا الملك الآن بشكل واضح ومـؤكـد أنهم لن يمنحـوه الآن أية مساعـدة في المناسبة الحاليـة، ولكن بحكم أنه مـولاهم، عليـه أن يتصرف نحـوهم وفق مـايلي، بأن يصبر حتى تنتهي الهدنة المتقـدمة الذكـر، وإثر ذلك سوف يقـدمون له النصيحة بقدر مـا يستطيعون.

وعندمـا أخبر النبـلاء المذكـورون، الذين عملوا بمثـابة رسل، هذا الجواب إلى الملك، عادوا إلى البـارونات، وقالوا بأنهم جـزئياً قد قـدموا الرد المناسب إلى الملك، لكنه أراد أن يعـرف ماالذي سـوف يفعلونه إذا

ما خرق ملك فرنسا الهدنة، قبل انتهاء الموعد، ولقد وعدوا أيضاً باسم الملك بأنه إذا مااقترف أي أذى ضد أي من نبلاء انكلترا، فالذي عليه هو أن يعمل تكفيراً عن ذلك، وفقاً لتحكيم بطرس أوف سافوي مع آخرين من مجلسه.

وعلى هذه الأسئلة أجاب النبلاء، إنه إذا ما خرق ملك فرنسا الهدنة، فإنهم سوف يشغلون أنفسهم، لايجاد خطط، حسبما قالوا من قبل إنهم سيفعلون، عند انتهاء الهدنة، شريطة —على كل حال— أن يكونوا متأكدين من أن ملك فرنسا قد فعل كذلك، وبالنسبة للتهمة أنهم من جهة الملك قد وعدوا بالتكفير عن الأذى الذي نزل بهم، وقال الرسل بأنهم في الوقت الحالي لن يتجادلوا مع الملك، وكان في أيام منح الجزء الثالث عشر، و. W دي ريلي قد وعدهم باسم الملك، وعداً مؤكداً وصادقاً، كما يفعلون هم الآن، لكن كيف حفظ الملك وعوده، هو نفسه أحسن من يعرف، وأخيراً كان الملك —على كل حال— قد تباحث معهم جميعاً واحداً، واحداً، بشكل أن كل واحد من الجماعة كان جاهلاً بالذي أعطاه إياه الآخر.

عودة إيرل أوف سالسبري من الأرض المقدسة

وفي الوقت الذي كان الزمان يدور فيه هكذا، ويسير على سياقه، عاد ايرل أوف سالسبري، من الأرض المقدسة، ونزل في انكلترا، سالماً وصحيحاً، وكان ذلك في بداية شهر آذار.

اعتقال رئيس أساقفة كولون وسجنه

اعتقل في هذه الآونة رعايا الامبراطور رئيس أساقفة كولون، الذي كان عائداً من روما إلى ألمانيا متنكراً، وكان رئيس الأساقفة هذا قد تآمر مع أساقفة آخرين، من الذين قدموا إلى المجمع العام، من أجل اسقاط الامبراطور، وكان قد سمع بمصير الذين سافروا خلال المناطق

الامبراطورية، ولذلك غيّر طريقه، وعاد عبر طريق جانبي، ذلك أن الكمائن قد نصبت في جميع الاتجاهات، ولذلك وقع بالأسر، ووضع بالسجن، والشخص الذي اعتقله، كان —على كل حال— ألمانياً، ومعروفاً بشكل جيد من قبل رئيس الأساقفة، ولذلك سمح لأسيره بالنجاة، بعدما وعده وعداً صادقاً، وأقسم أنه لن يتآمر ثانية ضد الامبراطور، ولن يؤذيه، وحفظ رئيس الأساقفة —على كل حال— وعده بشكل سيء، كما سنحكي في التاريخ المقبل.

الملك الفرنسي يجهز أسطولاً ضدّ الإنكليز

وما لبثت أخبار هذه الأحداث قد انتشرت في مختلف أجزاء العالم، وفي فرنسا، وعلم الملك الفرنسي باقتراب وصول ملك انكلترا بطريقة عدوانية ضده، وعلم بتآمر الذين استدعوه لمساعدتهم، فمركز ثمانين غليوناً مسلحين بشكل جيد، أمام روشيل Rochelle لحراسة تلك الأجزاء من بواتو ضد كل من يسعى للدخول إليهم، كما تدبر أيضاً حشد قوة عسكرية، بقدر ما يستطيع الفرنسيون أن يحشدوا، وأن تجتمع مع بعضها بموجب مذكرة ملكية، جرى توزيعها في مختلف المقاطعات الخاضعة له، وأمر عصابات الجماعات المدنية بأن تستنفر أنفسها، استعداداً لدعوته الملكية.

كيف جمع ملك إنكلترا كميات كبيرة من المال

وتسلم الملك الانكليزي في الوقت نفسه، بشكل متواصل، أكثر الرسائل إلحاحاً من كونت دي لي مارشي، ومن النبلاء الآخرين لبواتو، فصار بذلك ثابتاً على قراره من دون تعديل، معتقداً أنه سوف يتسلم، بدون أدنى شك، جميع الذي وعده الكونت به، وحسبما كانوا قد نصحوه أن يفعل، جمع مبلغاً كبيراً من المال، أما بالنسبة للذين رفضوا تقديم المساعدة المالية إليه، فقد عدّهم إما أعداء مكشوفين له، أو

ضايقهم بكل وسيلة من الوسـائل بوسـاطة أذنابه، وقـام أثناء الصـوم الكبير بصرف انتبـاهه من دون كلل إلى هذا العمل، لأننا كما ذكـرنا من قبل، أرسل كـونت دي لى مـارشي رسـالة إليـه، بأن يجمع فقط المال، ويجلبه معه، لأنه هو سـوف يزوده بقـوة عسكرية كـافية، وبهذا القـول الذي قـاله الكونـت من دون حيـاء، قـد تجاوز حـدود الصـدق، حسبما ستبرهن نتائج الأحداث فيما يلي.

ملك إنكلترا يحث كثيرين على الالتحاق بالحملة معه

وحـاول الملـك بدهاء، أن يستميل قلوب الـذين كـانوا محتـارين برغبـاتهم، بوسـاطة هدايا ثمينة أضعفت ثبـات كثير من النبـلاء، ولقـد تمكن بوساطة الوعـود المغرية، أن يربح إلى جانبه أخيـه الايرل رتشارد، حتى يرافقه في حملتـه، تحت أمل مكافأة وافرة، وتوصل إلى غـرضه هذا بسبب أن الملك الفـرنسي، قـام بعمل طائش، قبل وقت قصير، وحسبما ذكـرنا من قبل، فمنح كـونتية بـواتو إلى أمفولسي، أخيـه، وبذلك حـرم بشكل غير عادل الايرل رتشارد من ممتلكاته، وقد وعد البواتيون بشكل أكيد بعودتهم جميعاً إليه، لدى وصوله إلى هناك.

إرسال سفراء بشكل مسبق للإعلام بوصول الملك

وجرى الآن ارسـال بطرس أوف سافـوي، ايرل ريشموند، وبطرس أوغويبـلانشي، أسقف أوف هيرفورد، اللذان كـانا المستشارين الخاصين للملك، إلى القـارة لطمأنة أصدقـاء الملك في بواتو بأخبار، بأن وصـول الملك بات وشيكاً، وبهذا ارتفعت آمـالهم، وشرعوا على الفـور بالحرب، وطالبـوا بإعـادة الحقـوق لصـالح ملك انكلترا، وألحقـوا أضراراً كبيرة بالملك الفـرنسي، وبعـد ايصـال الـرسـائل، نجـا بطرس أوف سـافـوي بصعـوبة من كمين نصب له، وعـاد إلى الملك في لندن، قبل وقت قصير من عيد الفصح، وهـو صحيح الجسم، لكن ليس من دون خسائـر، أما

بطرس، أسقف هيرفورد، فقد أخذ طريقاً جانبياً غير الطريق المعتاد إلى الوطن، حتى يصل سالماً، وبذلك نجا من كمائن الذين استهدفوا حياته، وذهب وهو على طريقه إلى بروفانس، وطلب من كونت بروفانس، والد الملكتين: الفرنسية والانكليزية، ابنته الثالثة سينشيا Cincia للزواج من الايرل رتشارد، وتجاه هذا استثيرت الجماعة الانكليزية كثيراً، وبدأ أفرادها يخشون من أن تصبح جميع شؤون المملكة تحت إرادة الملكة واختها سينشيا المذكورة، عندما ستصبح زوجة الايرل رتشارد، التي سوف تكون بالفعل ملكة ثانية.

ملك إنكلترا يعمل استعداداته من أجل عبوره

في هذه الآونة كان الملك قد أكمل جولة على بعض كنائس القديسين، وعهد بنفسه إلى صلوات رجال الدين، وودع المواطنين، وفي اليوم التالي لعيد الفصح أخذ الطريق إلى بوررتماوث، ليركب السفينة من هناك،وقد أسرع إلى اتخاذ هذا الإجراء بوساطة الرسائل الملحة والمتواصلة التي أرسلت إليه من القارة، وأثارت محتويات هذه الرسائل غضب وخجل بعض الانكليز، الذين يتعلقون بالكرامة، ذلك أنها هدفت إلى القول بأنهم قد بدأوا الحرب بشكل موائم، وأن عليه القدوم مسرعاً، ودونما خوف، إلى مساعدتهم، مع مبلغ كبير من المال، وأن لايهتم بجلب حشد كبير من الجنود، وكأن ملك انكلترا قد كان مصرفياً، أو صرافاً، أو بائعاً بالمفرق، وليس ملكاً، وقائداً نبيلاً، وآمراً للفرسان، حيث أنهم وضعوا ثقتهم بالمال أكثر من وضعها في القتال، وليس من المعتاد إثارة ملك ودعوته إلى الحرب بهذه الطريقة، وأظهر البواتيون بهذه الطريقة خيانتهم المعتادة، لأنهم آثروا إنهاك أموال الملك وفضلوا ذلك على وجوب تشجيعه بالتكريم المناسب، وأن يكون محاطاً بنبلائه، وفقاً لكلمات الفيلسوف سينكا Seneca, عندما تحدث عن زيف النساء بقوله:

عندما يتبدد غضب المرأة المكشوف

وقتها تكون ممتازة جداً

وفي هذا برهنوا —على كل حـال— عن أنفسهم أنهم خـونة غير بارعين، لأنه عندما:

شبكة الطائر تواجه العين

الطائر الحذر يحتاط لأن يطير

تعيين رئيس أساقفة يورك نائباً للملك

عندما بات الأسطو ل الحربي جاهزاً ومستعداً، عهـد بشؤون المملكة إلى رئيس أسـاقفـة يورك، وأعاد رتشـارد راعي دير ايفهـام، والأسقف المنتخب لشيستر، الختم الملكـي، الذي حمله لمدة ثلاثة أعــوام بطريقـة مرضيـة، وعاد الملك إلى صداقـة أسقف شيستر، الذي لم يستحق مطلقاً فقـدانها، وكـذلك أصغى ر. R مستشـاره، ورالف فتـز— نيقـــولا، وغودفـري كروكـومب Crowcombe وبعض الآخريـــن المعزولين إلى إطراءات المداهنة.

إقلاع الملك ووصوله إلى روان

ثم إنه في الخامس عشر مـن أيار، أقلعت العســاكـر، ومعهــا ثلاثين صندوقاً مليئة بالمال المتشوق إليـه كثيراً، وركب الملك في سفينة تصاحبه زوجته الملكة ويصـاحبه أيضاً أخوه الايرل رتشـارد، مع سبعة ايرلات آخرين، وحوالي ثلاثمائة فـارس، وأبحر مع ريح طيبة نحو بوردو، لكن قبل أن يبتعد كثيراً عن الساحل، توقفت الريح، فعاد إلى بورتماوث، وفي اليـوم التالي، بما أن الريـح هبّـت بشكل مـوائم، أقلع ثانيـة، ووصل إلى القديس متى دي فينيستير Finisterre في بريتاني، ومكث هناك يوم الأحد لسماع الصلوات المقـدسة، وأقلع في يوم الاثنين ثانيـة، وأبحر في

المياه العميقة فوصل في يوم الثلاثاء إلى رويان Royan, عند مصب غيرونـد Gironde, وذلك حيث يصب في البحـر مقـابل القـديسـة ماري دي سولاك Soulac في غساكوني، ونزل هناك، ومكث لعدة أيام، ومن هناك مضى إلى مدينة بونز Pons الفخمة، حيث تقـابل مع رينالد دي بـونز، صـاحب ذلك المكـان، وبعض نبـلاء آخـرين من سانتاغيو.

الترتيبات الأولية للزواج فيما بين ملك سكوتلندا وابنة ملك إنكلترا

أثناء وقـوع الحوادث التي تقدم ذكـرها أعـلاه، تمّ عقد القـران بين الاسكندر الابن الأكبر لملك اسكوتلندا، ومـرغـريت ابنة ملك انكلترا، من خـلال وسـاطة أسقف درم، وذلـك في سبيل أن تكون المملكة أثناء غياب الملك أكثر سلاماً بشكل مؤكد، وكان هذا قد جرت الموافقة عليه من قبل، بناء على رغبـة كل مـن ملكي انكلترا واسكوتلندا، وقـد عهـد بالجزء الانكليـزي المحـازي لسكوتلندا إلى عنـاية ملك الاسكوتلنديين، أثناء بقاء الملك الانكليزي في القارة.

كيف نهب وليم مارش جزيرة لوندي

وفي أثناء وقـوع هذه الأحـداث، عسكر وليم مارش، ابـن غيوفـري مـارش، فـوق جـزيرة قـريبـة مـن بريستـول اسمهـا لوندي Lundy, وكان مكاناً حصيناً لايرام بسبب وضعـه الطبيعي، وقد عاش هناك مثل قـرصـان مع عـدد من الرجـال المنفيين والأشرار، وقـد تورط في أعمال النهب والسلب، وقـام بمـرافقـة أصحـابه بالعيث فسـاداً بـالشـاطىء المجـاور، وسلبـوا من السكان ممتلكاتهم، لاسيما الخمـرة والامـدادات الأخرى، وبوسـاطة غارات مفاجئة حملوا كميات كبيرة من الأسلاب، من المنطقـة الواقعة قرب الجزيـرة، وألحقوا أضراراً بالغة بطـرق مختلفة،

بمملكة انكلترا في كل من البر والبحر، وسببوا خسائر كبيرة إلى كل من التجّار الوطنيين والأجانب.

وذهب بعض نبلاء انكلترا وايرلندا، الذين لم يكن بإمكانهم البقاء بشكل مشرف في بلادهم، أثناء غياب الملك، وتعرضه لمخاطر الحرب في القارة، ذهبوا في جولة إلى قرب الجزيرة المتقدمة الذكر، فاكتشفوا بأن وليم المذكور وأتباعه لايمكن اعتقالهم من دون خيانة، فأخبروا الملك، بأنهم ينبغي أن لا يعملوا بالقوة، بل بشكل حكيم، في سبيل اعتقال هذا اللص، وعند ذلك أمر الملك رعاياه —مع وعود بجوائز كبيرة— بأن يسعوا بكل يقظة لاعتقاله، وتحرير البلاد منه، لأن وليم هذا كان مكروهاً جداً من قبل الملك، حيث قيل بأنه قام، بتحريض من أبيه غيوفري، بالتآمر على حياته، ولذلك بعث بذلك المجرم، الذي قدم ليلاً، ليقوم بقطع عنقه، عندما كان في وودستوك، وبذلك استحق الإدانة بالخيانة، وبعد ذلك قتل واحداً من الكهنة، وكان رسولاً من نبيل ايرلندي، كان في حضرة الملك في لندن، وبجرأة أنكر وليم المذكور جميع هذه التهم، ومع ذلك لم يحصل على أي تصديق، كما أنه لم يلق أذناً صاغية، ولذلك قام —على كل حال— بحمل نفسه إلى أماكن بعيدة عن الطريق، وصار هارباً وخارجاً على القانون.

وفاة بعض النبلاء

وفي حوالي هذا الوقت نفسه من العام، مات النبلاء: غيلبرت دي غونت، وبلدوين واك Wac, وفيليب دي كايم Kime, وكان ذلك في المناطق الشمالية، وروجر بيرترام Bertram, وبعض النبلاء الآخرين، الذين غادروا هذه الحياة، ومات أيضاً ايرل أوف ووريك Warwick, وفي هذا العام أيضاً، مات هنري، الذي كان واحداً من أبناء الامبراطور، والذي لذنوبه قد أودع لوقت طويل في السجن بناء على أوامر أبيه، وهناك أنهى حياته البائسة، ولقد قيل بأنه مات بيديه نفسه.

الأوضاع البائسة للكنيسة الرومانية

وكـان البلاط الـروماني في هذه الآونة في وضـع فوضـوي كبير، وفي حالة بائسـة ومتهاوية، حيث كان قد بقي هناك ستـة أو سبعة كرادلة في روما، وقد بقي الكرسي البابوي شاغراً، وكان بعض الكرادلة قد انتقلوا من هذا العالم، وبعضهم مـازال مريضـاً، وكان آخرون قـابعون متخفين مع أصدقـائهم وأقربائهم في مناطق نائية حيث كـانوا قد ولدوا، وبذلك كانوا متفرقين في أماكن مختلفة، وكانوا يعانون من اضطراب في عقولهم، وقـد انطفأ شعـاع العـاطفـة فيما بينهـم، وأصبحـوا كأنهم رمل من دون كلس، وعلى هذا فإن بيت الرب الذي احتاج إلى الوحدة ليضمن القوة، لم يعد قادراً على تلقي الدعم بشكل صحيح منهم.

استعدادات الملك الفرنسي للتصدي إلى ملك إنكلترا

وعلم الملك الفـرنسي في الوقت نفسـه، بأن ملك انكلترا قـد نزل إلى اليابسة لشـن الحرب عليه، معتمداً على مساعـدة البواتيين، وعلى وعود من الغسكونيين، ولمعـرفتـه بأن كونت دي لى مـارشي قـد شرع بالحرب ضده، استـدعى بوساطة إعـلان ملكي جميع القوة العسكرية الفـرنسية، وأمر بتزويد قطار العصابات بالسـلاح والإمدادات، من أجل أنه عندما تستـدعي المناسبـة لدعـوتهم، يمكن أن يجدهم جـاهـزين، وتوفـر لديه حـوالي ألف عـربة، فأمـر بأن تكـون جـاهزة لحمل الخيـام، والمجـانيق، والإمدادات، والسلاح، والأشياء الضرورية الأخرى، ثم إنه أعدّ قواته، التي كانت أفضل مـا يمكن لفرنسا أن تنتجـه، ووضعها في نظام حسن، وانطلق زاحفـاً نحو بواتو، ليصـد بالقوة هجمات ملك انكلترا وأعـدائه الآخرين، وكـان هناك حوالي أربعـة آلاف فارس مسلحين تمام التسليح وبشكل فخم، وذلك إلى جـانب أعـداد من الآخرين الـذين قدمـوا من جميع الاتجاهات، وتدفقـوا نحـو الجيش، مثل تدفق الأنهار، حين تصبّ في البحار، وقيل بأن عـدد الأتباع ورماة القسي الزيارة قـد بلغ نحواً من عشرين ألفاً.

اعتقال وليم مارش ومعاقبته في لندن

وفي هذه الآونة، حدث للفارس وليم مارش، الذي أتينا على ذكره، أنه بعدما أمضى بعض الوقت، في الجزيرة المتقدمة الذكر، متورطاً بأعمال السلب والنهب، أنه فوجىء من قبل بعض عملاء الملك، وجرى اعتقاله، وحمله إلى لندن، حيث سجن مضيقاً عليه في البرج، وفي يوم عيد القديس جيمس، وبناء على أمر من الملك، جرت محاكمة وليم المذكور مع ستة عشر من أصحابه كانوا قد اعتقلوا معه، وقد أدين وأدينوا، وقضي عليه بموجب أوامر الملك بموت مهين، وبناء عليه جرى سحله أولاً من ويستمنستر إلى برج لندن، ومن هناك حمل إلى آلة العقوبة التي اسمها المشنقة، وبعدما جرى تعليقه عليها لفظ أنفاس حياته الشقية، وبعدما صار جسده متيبساً قاسياً بعد الموت، أنزل هذا الجسد وجرى تجويفه، وجرى على الفور احراق أحشائه في البقعة نفسها، ثم جرى تقسيم جسده الشقي إلى أربعة أقسام، أرسلت إلى المدن الأربعة الرئيسية في المملكة، حتى يمكن أن يدخل رؤيتهم الرعب إلى الذين سيشاهدونهم، أما بالنسبة لأصحابه الستة عشر، فقد سحلوا في أرجاء لندن، بعد ربطهم إلى ذيول الخيول، وبعد ذلك جرى تعليقهم على المشانق.

وبعدما أدين وليم المذكور، وعندما كان على وشك سماع قرار الإدانة، دعا العدالة الربانية لتكون شاهدة عليه، وأعلن بجرأة بأنه كان بريئاً تماماً وليس مجرماً ولامقترفاً لجريمة الخيانة التي ألصقت به، وكذلك بالنسبة لمقتل الكاهن كليمنت المتقدم ذكره، وأكد أيضاً بأنه حمل نفسه إلى الجزيرة المتقدمة الذكر، ليس إلاّ لسبب واحد هو أن يتجنب غضب الملك، وهو الغضب الذي حاول دوماً، وفوق كل شيء، أن يهدئه بالخضوع إلى أي نوع من المحاكمة، أو إلى أي نوع آخر من التذلل، لكنه بعدما التجأ إلى الجزيرة المذكورة، وعاش هناك لاجئاً، كان

مرغماً على إطالة أمد حياته التعيسة بالاستيلاء على الامدادات، حيثما استطاع أن يجدهم، ثم إنه لفظ روحه بالاعتراف أمام الرب، إلى ج. ل دي سينت جايلز، الذي كان واحداً من رهبان طائفة الدومينيكان، واعترف بذنوبه وهو شديد الندم، دون أن يسوّغ نفسه، أو التفوه بكلمات شريرة، بل بالحري اتهم نفسه، ثم قام عندها هذا الدومينيكاني المستقيم والمتلقي للاعتراف، فأعطاه شيئاً من الترضية اللطيفة، وصرفه بسلام، وأقنعه بأنه ذاهب إلى الموت الذي قضي به عليه بمثابة تكفير، وهكذا عانى كما ذكرنا من قبل، وهو أمر فظيع أن تحكيه، ليس من موت واحد، بل من عدة ميتات مخيفة.

نصر الداوية في الأرض المقدسة

وحصل الداوية في هذا العام في الأرض المقدسة —بوساطة معجزة أكثر منه بوساطة القوة الإنسانية— على نصر مجيد، وغير متوقع، على آلاف كثيرة من المسلمين، كانوا قد قدموا من مناطق قريبة من مصر.

البواتيون والغسكونيون يحصنون أنفسهم ضدّ الفرنسيين

في ذروة الصيف، عندما جففت حرارة الشمس كل شيء، وكل شيء ذبل وتلاشى، قام البواتيون، وهم في حالة خوف عظيم من هجوم الفرنسيين، الذين كانوا الآن يزحفون مسرعين ضدهم، قاموا بتحصين قلاعهم، ومدنهم، وأغلقوا ممرات الجبال، التي كان من الممكن للعدو أن يمر من خلالها إلى بلادهم لإلحاق الأذى بهم، واستخدموا كتلاً ضخمة من الحجارة مع جذوع الأشجار الساقطة، وحولوا الطرقات والممرات إلى أماكن يتعذر عبورها، وسدّوها بكل نوع من المعيقات، وقطعوا أشجار التفاح والعنب التي اعتقدوا أنها سوف تفيد الأعداء، وطمّوا الآبار، وأفسدوا الينابيع والأنهار التي تسيل منهم، لا بل إنهم سمموا بعضها، واجتثوا النباتات التي كانت مفتوحة أمام أعدائهم،

ودمروا تدميراً كاملاً كل نوع من الإمدادات، وكذلك خربوا الأماكن التي كان من الممكن أن يحصلوا فيها على الراحة، آملين بذلك أن يكونوا قادرين على الحيلولة دون وصول الفرنسيين إلى أراضيهم، لأنهم سوف يعانون من الحاجة إلى كل شيء ضروري، وبالفعل لم يكونوا كلياً مغشوشين في توقعاتهم، لأنه في أيام الشعرى [مابين أوائل تموز وأوائل أيلول] هوجم الفرنسيون بموت خطير، إلى حد أن الملك فقد ثمانين نبيلاً، كانوا يحملون أعلامه، حيث أنهم هلكوا في أوضاع بائسة هناك، أو أنهم نقلوا وهم يتلاشون، على محفات إلى بيوتهم، وعلى العموم، سقط الجنود الرجالة، وكانت أعدادهم كبيرة، ضحايا للأمراض، حتى أن الأحياء باتوا في خطر عظيم على أنفسهم، وبصعوبة بالغة كان بإمكانهم دفن الموتى، كما سوف نرى في سياق الرواية.

كيف جرى اعتقال التجّار وتجريدهم من مقتنياتهم في كلّ من فرنسا وإنكلترا

وفي تلك الآونة نفسها، ومع اقتراب حلول فصل الخريف المجهد، أقدم الملك الفرنسي على إجراء غير معتاد، فأمر باعتقال أشخاص التجّار الانكليز، الذين كانوا يتنقلون مع بضائعهم في جميع أرجاء مملكته، وبذلك أنزل أذى عظيماً على الكرامة القديمة لغاليا، التي وفرت من قبل ملجأ أميناً وحماية إلى جميع المنفيين والمحكومين، ولاسيما المسالمين منهم، فمن هذه الظروف كسبت بالأصل اسم فرنسا بلغتها خاصة، ووصلت بالحال أخبار هذا الإجراء غير الشريف والوحشي إلى مسامع ملك انكلترا، وإلى مشاعره، وبناء عليه أعطى هو أيضاً أوامر قضت بأن أي تجار فرنسيين وجدوا في أي جزء من أجزاء انكلترا، يتوجب تعريضهم إلى انتقام عادل مماثل، وأرسل في الوقت نفسه إلى الأوصياء على مملكته، أي إلى رئيس أساقفة يورك وزملائه، يطلب إمدادات من المال ونجدات من العساكر، وبناء عليه وفي طاعة منهم إلى

أوامــر الملك، أرسلوا من دون تـأخير خمسين من رمــاة القسي الزيارة، ومبلغاً كبيراً من المال، مع كميات جيـدة من الإمدادات، وبعض الجنود مع أسلحة تحت توجيـه الموانىء الخمسة ولدى رؤية هذا من قبل بعض النبـلاء الانكليز، رأوا أنه عمـلاً غير مشرّف الانخراط في الراحـة، بينما كـان ملكهم منشغـلاً بـالحرب فـوق القـارة، ولذلك أعـدوا أنفسهم للالتحاق بالحملة وبرجالها، وقد تجهـزوا بشكل جيد بالخيول والسلاح، وقـام بعض النبلاء الايرلنديـون، وبالتحديد رتشـارد دي بيرغ، وبعض الآخرين، بناء على اقناعهم من قبل المستقيم موريس، مسؤول العدالة في ايرلندا، فجهـزوا أنفسهم بالسـلاح، وشحنوا كميـات من الإمـدادات، وأسرعوا متشوقين إلى مساعدة الملك، وتكوّن من هؤلاء أسطولاً كبيراً، وشكلوا قوة بحرية مرعبة، وعندمـا علم بهذا البحارة والقرصان، الذين أقـاموا حـراسـة يقظة على الشـاطىء الفرنسي المقـابل، أعـدوا، بناء على أوامر الملك الفـرنسي، قوة بحـرية، وسلحوا أنفسهـم. وأقلعـوا في البحر على ظهـور سفنهم، وكـانت غـلايينهم مشحـونة بأعـداد كبيرة من المجـذفين، وكـانوا يريدون مهـاجمة القوة البحـرية المقبلة، في البحـر، أو إخافـة رجالها حتى يتراجعوا إلى شـواطئهم، وعندما اقترب الأسطولان من بعضهما، هبت فجأة عـاصفة قـوية، ولذلك تفرقـوا، بعضهم باتجاه، وبعضهم الآخر بـاتجاه آخر، ونشد قـادة السفن سلامتهم فقط، وكـانوا محمولين تحت رحمة الرياح، وعـرفوا أخيراً بصعوبة أصحـابهم، أو ميزوا سفن أسطولهم على حده، والفـرنسيون الذين كانوا أقـرب إلى ساحلهم، أكثـر من الانكليـز أو الايرلنديين إلى سـواحلهم، أخـذوا طريقهم بكل سرعـة إلى الجزء الأقـرب من السـاحل، ولأن الريح لم تكن قـوية جـداً ضـدهـم، وصلـوا إلى مكان سليم وملجأ، لابـل إن بعضهم وصلوا إلى مـوانئهم الخاصـة بهم، بينما شعبنا الذي خاف خـوفـاً عظيماً من غضب الرياح ومـن غضب الفـرنسيين، فقـد شتتـوا أنفسهـم وهـم هاربون، وملاحقـون بالخوف، والعار، والحزن في القلب، ودفعـوا إلى الشاطىء،

إلى أجزاء بعيـدة، وغير معروفـة من الساحل، وبسبب هذه الانتكـاسة، فإن راعي دير ايفهام، ورتشارد دي بيرغ، وكثيراً آخرين، الذين كانوا في مـوقـع القيادة للحملة، لم يتعـافـوا بعـد هذا، ولم يعـودوا إلى الوضع الصحي السليم، لابل إنهم تلاشـوا رويـداً رويداً، حتى باتوا أخيراً غير قـادرين على استرادد قـوتهم، بعـد كثير من العناء والانهاك في أرض أجنبيـة، وفي ظل مناخ غريب، ولذلك لفظوا أنفـاس حيواتهم المرهقـة، وبهذه الانتكاسـة نـال الملك خسـارة كبيرة لايمكن تعـويضهـا، تمثلت بفقدان رجـال حكماء وأقوياء، وأسلحـة وعتاد، وبشكل خـاص القمح الذي كـان قـد جمعـه من رئاسـة أسقفيـة كـانتربري، ومن الأسقفيـات الأخرى، والمال الذي كان قد جمعه من جميع الجهات.

موت مرغريت بيسيت

ماتت في هذا العام، في هذه المناطق، واحدة اسمها مرغريت بيسيت، وكانت امـرأة من أسرة مشهورة، ومتميزة بأخـلاقها، حيث أنها رفضت تماماً معـانقة الرجال، وأسسـت على حسابها، الذي لم يكن صغيراً، ديراً جيـداً للراهبـات، وذلـك على الرغم من رغبـات جميع أصـدقـائهـا الدنيويين، وأصبحـت المنفقة عليه والراعيـة، ونالت هذه السيـدة شهرة عظيمة، لأنها في إحـدى الليالي، في وودستوك، عندمـا كانت تمضي الليل في غناء الترانيم الدينية، وفي السهر وفي الصلاة، أنقذت الملك، من أيدي القاتل، بصراخها، وقد جرى من قبل شرح ظروف هذه الحادثة.

الجريمة المرعبة لوولتر بيسيت

وفي تلك الآونة، عقدت مبارزات سيئة الحظ في المقـاطعات الشمالية، وفي إحـداها التي عقـدت على حـدود انكلترا وسكوتلندا، أبدع واحـد اسمـه وولتر بيسيت، وكان شجـاعاً وفـارسـاً بارعاً، وقـد هزم من قبل خصمـه، وهو واحـد اسمـه باتريـك فتـز- تومـاس أوف غـالوي

ولذلك أبدع جـريمة لم يسمع بمثلهـا، من أجل أن ينتقم Calway, انتقاماً غير عادل من المتغلب عليـه، فبينما كان باتريك المذكور، مقيماً مع بعض النبلاء الآخـرين الذين كانوا برفقته في ادمـونتون Edmonton, اتخذ مكاناً لنفسـه لإمضـاء الليل في نوع من أنواع الهري، وعندمـا كـان غارقاً في نوم عميق، قام وولتر بيسيت المذكور، فأغلق الباب من الخارج ببعض جـذوع الأشجـار، وإثر ذلك دس النـار من عـدة أمـاكن في الجدران، بوسـاطة بعض العصي المحترقـة، وأحـرق بذلك تقـريبـاً جميع الذين كـانوا في الداخل، وهكذا مـات لذلك باتريك المذكـور مع بعض رفاقـه الشجعان والمشهورين، ولكن عندمـا وصل خبر هذا العدوان إلى مسـامع الايرل باتريك والنبلاء الآخـرين لسكوتلندا، استعدوا للانتقـام لهذه الجريمة الكبيرة، وهاجموا وولتر المذكـور، وهم راغبين في تمزيقه إلى قطع، وقـد هرب —على كل حـال— إلى ملك اسكوتلنـدا، وطلب العدالة والرحمة منه، ذلك أنه أنكر الشر الذي اقترفه، وعرض أنْ يبرهن على براءته أمـام الملك وأمام بلاطه كله، بعـرض جسده ضـد أي واحد مهما كان قـديراً في السلاح وقوياً، ورفض خصومـه —على كل حال— هذا، حيث أعلنوا أن الجريمة الكبرى لاتحتـاج إلى برهان إيجابي، ولذلك طلبـوا من الملك، بحدة وبسرعـة كبيرة، وبمشـاعـر الكراهية، عـدوهم المعلن، الذي كان مـايزال ملطخاً بجريمة القتل الحالية، وملـوثاً بجريمة غير اعتيـادية تمامـاً، واستطاع الملك بشيء من الصعـوبة تهدئـة غضبهم، ولطف انتقـامهم، بأن وعـد بوجـوب حـرمـان وولتر المذكـور، وأيضـاً بوجـوب مغادرته سكوتلندا، وأن يرسل إلى منفى دائم، وبعـد شيء من الصعوبة وافقوا على اقتراح الملك، وكانوا واثقين بأنهم سوف يصطادونه عندما ينتقل من حماية الملك، وأن يعاقبوه بموت عادل، ووصلت أخبار هذه الخطة إلى علم الملك —الذي كـان رجلاً رحيماً وعـادلاً— فأخفى بعناية وولتر المذكـور لمدة ثلاثة أشهـر، في أمـاكن لايستطيع أعـداؤه الوصـول إليـه فيهـا، وعند انتهـاء هـذه المدة، هرب من البـلاط بشكل

سري، في إحدى الليالي المظلمة، وهو محكوم بالنفي ورجل محروم من ميراثه، ولم يعد ثانية، وكان النبلاء السكوتلنديون، الذين كان كثير جداً منهم يطلبون حياته، كانوا جاهلين تماماً بنجاته، أما بالنسبة لوولتر، فإنه مع أنه أقسم بالمضي إلى الأرض المقدسة، وأن لايعود ثانية، وذلك في سبيل خلاص روحه وأرواح الذين هلكوا بالحريق، مع أنه قال بأن ذلك لم يكن من خلال وسائله، إنه مع ذلك غيّر اتجاهه، وبادر مسرعاً ليتقدم بشكوى أمام ملك انكلترا، حول الأذى الكبير الذي لحق به، وبناء عليه أعلن بأن ملك سكوتلندا، قد حرمه بشكل غير عادل من ميراثه، لأنه لم يستطع بأي طريقة أخرى تهدئة غضب الذين كانوا ثائرين ضده وغاضبين، مع أنه، أي وولتر، كان جاهزاً لتبرئة نفسه، والبرهنة على أنه كان بريئاً من الجريمة التي ألصقت به، بوساطة محنة مبارزة واحدة، وقد أضاف علاوة على ذلك، أنه بما أن ملك سكوتلندا كان تابعاً إقطاعياً لملك انكلترا، لايمكنه من دون موافقة ملك انكلترا، حرمان رجل نبيل من ميراثه، ونفيه من بلاده بشكل أبدي، خاصة إذا لم يكن قد أدين بجريمة، وبالإضافة إلى هذا، قال بأن ملك سكوتلندا، قام إيذاء منه لولائه ولتابعيته التي هو مرتبط بها إلى ملك انكلترا، فاستقبل في أراضيه وقدم الحماية، فهو في هذا الوقت بالذات يقدم الحماية إلى غيوفري مارش، الملتجيء من ايرلندا، والمتورط بالجرائم الخيانية لابنه وليم، الذي حكم عليه مؤخراً بالموت، وشنق في لندن، وبهذا ثار غضب ملك انكلترا إلى درجة عالية ضد ملك اسكوتلندا، لكنه احتفظ بغضبه حتى حلول وقت مناسب للانتقام، كما ستظهر ذلك الرواية المقبلة.

ملك انكلترا يلغي الهدنة ويعلن الحرب ضدّ ملك فرنسا

خلال هذه الآونة، أرسل ملك انكلترا رالف فتز— نيقولا، ونيقولا دي مولي Molis كرسولين خاصين إلى الملك الفرنسي، ليعلنا قراره

—إذا لم يوافق الملك الفرنسي على طلبه— بإلغاء الهدنة، والشروع بالحرب ضده، وعند وصول الرسولين، وجدا الملك الفرنسي يحاصر قلعة فرونتني Frontenaye, التي كانت عائدة إلى كونت دي لى مارشي، والتي قاتلها من دون كلل نهاراً وليلاً، وذلك بحملات عساكره، وبقصف الأسوار بالقذائف من أدوات رمي الحجارة، وبوساطة رمايات متواصلة بالنشاب، كما أنه أخاف المحاصرين وضيق عليهم، حتى أنهكوا تقريباً، ولم يعد بإمكانهم تحمل شدته وحملاته غير المنقطعة، وكان في هذه القلعة واحداً من أبناء كونت دي لى مارشي من زوجته الماضية، وكان فارساً شجاعاً، ومعه أكثر الأصدقاء قرباً من الكونت المذكور، الذين وضعهم هناك للدفاع عن هذه القلعة القوية والجيدة التحصين، وكان الملك متشوقاً كثيراً لاعتقالهم، حتى يلقي الرعب في قلوب الآخرين.

ولدى وصول رسولي ملك انكلترا، استقبلها الملك الفرنسي بالتشريف والاحترام، وبأدب دعاها لتناول طعام الافطار على مائدته، وبناء عليه، قدما في الصباح التالي نفسيها ومثلا أمامه، وببراعة وبنظام، كشفا عن الرسالة التي فرضت عليهما بالكلمات التالية:

«لقد بعث ملك انكلترا، الذي هو قريبك، رسالة إليك، بأنه مندهش إلى أبعد الحدود لأنك من دون حياء خرقت الهدنة المبرمة بينك وبينه، والمثبتة بيمين من على الجانبين، والتي من المتوجب أن تظل سارية لمدة ثلاثة أعوام أخرى، وبهذا العمل ظهر غير ماهو متوقع منك، فقد هززت أركان استقرار الثقة الملكية»، وعلى هذا ردّ الملك بنظرة هادئة:

«الهدنة أنا لم أخرقها قط، كما أنني لاأرغب بأن أفعل ذلك، وفي الحقيقة إنني محافظ عليها دون أن تخرق، وإذا مارغب ملك انكلترا فإنني سوف أطيل مدتها، من دون أي تعويض، وهو أمر أنا لاأفعله، لأنه بعيد عني، كملك لفرنسا، أن أخرق بأي طريقة من الطرق هدنة،

أو أي معاهدة دخلت فيها بيني وبينه، لأني بذلك ألقي جانباً كل تبجيل للرب، واحترام للانسـان، ولاأظهـر احترامـاً لروابـط القـرابة، وأخبرا مولاكما بأنني سـوف ألتزم بالهدنة خلال هذه الأعوام الثـلاثة، ولسوف أمـددها، إذا ما رضي، لمدة ثلاثة أعـوام أخـرى، أي أن تقول لمدة ستـة أعوام من الآن من دون أي تعويـض يقدم إليّ، علاوة على ذلك أنا على استعداد للتخلي عن مقاطعـة بواتو، والجزء الأكبر من نورماندي، الذي هو ليس مصـدراً للشـك أو الخوف من قبلي، ففي هذين البلـدين، هو يقـول بأنه يمتلك حقـاً وتوقعـات، تماشياً مع اليمين الذي أداه والدي لويس، عندمـا كـان في انكلترا، وبمـوجب منحـة قـديمـة وإذن من أجـدادي، على شرط، أن يكون مسموحـاً لي، من دون أية معارضـة من جـانبـه، وذلك كمطالب عـادلـة، بأن أعـاقب أي ضرر ألحق بي أو بمملكتي، من قبل أعـدائي، والخونة لي، مهما كـانـت ثقتهم به من أجل مسـاعـدتهم، إلى جـانب هذا، عليّ أن أخبر ملك انكلترا، بـأنها مسألة مـدهشـة بالنسبـة لي، وأسأله: بأي روح اقتنـع، أو على أي أسـاس أنا لاأعرف، قد قال بأنني خـرقت الهدنة بيني وبينه، إذا ما هاجمت أنا قوماً يسكنون قربي أو بجـوار مملكتي، وهـم ليسوا عـائدين إليـه بحق الولاء، وذلك إذا مـا آذوني، أو تمردوا علي، دون أن أقول: الذين هم خـونة لي، مـاهو شأنه بالنسبـة لشؤون كـونت دي لى مـارشي؟ لابل بأي حق قـد تدخل في مسألة كونت طولوز؟ إنني لم أعمل هدنة معهما، كما أنه لم يرد ذكـرهما في الهدنة، وعـلاوة على ذلك إنـه بالحقيقـة ذاتها وهي حمايتـه، ودفـاعـه عن أعـدائي، قـد برهـن بالحري بأنه قـد خـرق شروط الهدنة المذكورة، وكذلك لما يتعلق بالعواطف التي ينبغي أن تتوفر بين الأقرباء، وإنني قـد اقترحت —على كل حـال— بـأن أتصرف بشكل أحسن، وبلطف أكبر مع الاحترام نحوه، ومازلت معطياً له العرض الذي تقدم ذكره أعلاه، حول شروط الهدنة».

وقـال الملك الفرنسي هذا كله بـأعظم اعتدال، ومن دون أي خـداع، لأنه كان خائفاً كثيراً من خيانة ملك أراغون، وملك قشتالة، اللذان كانا من أقرباء ملك انكلترا، كما أنه كان يخاف من كونت طولوز، الذي كان منذ زمن طويل يكره الفـرنسيين، الذين نكلوا به، وكان يخاف أيضـاً من كونت دي لى مارشي، الذي كان محمياً بقلاعه التي لاترام، والذي سمن بأمـوال ملك انكلترا، ويخاف أيضـاً من تقلبـات النورمـان الذين كـانوا جيراناً لانكلترا، ومـرتبطين بها بنوع من النسب، وخاف فـوق كل شيء من خرق يمين أبيـه لويس، الذي أداه قبل مغادرته انكلترا، والذي ربط به نفسه بأن يعيد إلى ملك انكلترا حقوقه، إذا ما عاش بعد والده، وكان أبوه، عندما كان على وشك الموت في أفينون قد أوجب عليه، بحكم أنه أبيه، أن يفي بذلك اليمين، وهو لذلك عدّ الأمر مسألة عادلة وتقوية أن يقوم بتحرير روح والده من مثل هذا الرباط.

تسليم رسالة الملك الفرنسي إلى ملك إنكلترا

ومـــا أن تســـلم الرســـولان جـــوابها، حتى عـــادا على الفـــور، وباخــلاص رويا لمـلك انكـلترا كل الذي رأياه وسمعـــاه، لكنهٗ —على كل حـــــال— لم يكن على استعـــداد، ولابشكل مـن الأشكـال، أن يصـغي بإيجابية إلى الرغبـات المسالمة لملـك فرنسـا، أو أن يقبل عرضـه النبيل، الذي عـرض عليـه بكل ميـول مسـالمة، لأنه كـان قـد تشجع، وتغيرت مشاعره، بمهارة الخونة البـواتيين، الذين أغلقوا عينيه عن رؤية عظمة المنـافع المعروضـة عليه،وقد وعـدوه، أنه بمساعـدتهم، فإن جميع تلك المناطق، وأكثـر بالاضـافـة إليها، يمكـن الاستيلاء عليهـا بالقـوة، وانتـزاعهـا من يدي الملك الفـرنسي، وبناء عليـه قـام من خـلال بعض الاسبتـارية بتهور بتحـدي الملك الفرنسي، لأنه شن الحرب على كـونت دي لى مـارشي، الذي بحكم العـادة كان يدعـوه بأبي، مع أنه كـان زوج أمه فقط.

بداية الحرب بين الفرنسيين والإنكليز

وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا، ندم لأنه عرض مثل تلك الشروط المذلة للسلام على ملك انكلترا، وقال لنبلائه:

«أنا آسف أن ملك انكلترا، الذي هو قريبي، والذي رغبت في أن يكون أعظم صديق لي، هو مفتون، ذلك أنه يصغي أكثر إلى الإثارة الخادعة لكونت دي لى مارشي، ولكونت طولوز، ولأعوانهما، فالأول بينهما مشهور بخيانته، والثاني مشهور بهرطقته، فقد أصغى إليهما أكثر من اصغائه إلى رسائلي الصديقة، وأنا آسف لأنني أهملت، لكنني غير خائف منه، ولست خائفاً من قواته، بل خوفي على اليمين المؤكد لأبي الذي عمله في انكلترا»، ثم إنه تابع نحيبه من دون مواساة حول هذا، وقام واحد من نبلائه بتهدئته قائلاً ببراعة: «مولاي الملك، إنك لاتحتاج أن تكون خائفاً حول هذا الأمر، لأنه عند مغادرة أبيك من انكلترا، عمل يميناً غير قابل للخرق من على الجانبين، بأن لايقوم أي منكما في حالة نشوب حرب، بتسبيب أي أذى إلى مغامراتكما على الجانب الأول أو الجانب الثاني، وهذا يمين قد خرقه ملك انكلترا من دون حياء، عندما شنق ظلماً، وبوحشية قسطنطين فتز— ألوف Aluph, الذي كان مواطناً لندياً، وذلك لمجرد أنه تحدث عن شرف والدك، وهكذا اقترف الملك الانكليزي اثم الحنث باليمين، في حين انك بريء من ذلك».

الاستيلاء على قلعة فرونتني

شعر الملك الفرنسي بوساطة هذه المناقشات على ثقة أكبر، وبناء عليه ضغط بشدة على قلعة فرونتني وضيق الحصار عليها، وجمع بالوقت نفسه جيشاً أكبر عدداً، ووزع المدفوعات على جنوده، وبناء عليه هاجموا القلعة بشدة أعظم من المعتاد، ورموها من دون توقف بالقذائف من

مجانيقهم ومن الآلات الأخرى، وفي الوقت ذاته أصيب عـدد كبير من المحاصرين بالجراحة من نشابهم، حتى أن هذه القلعة التي كانت واحدة من أقـوى القلاع قـد جرى الاستيلاء عليهـا خـلال خمسة عشر يوماً، وذلك على عكس توقعـات البواتيين، ووقـع ولد كونت دي لى مـارشي مع حلفائـه بالأسر، وجرى احضار ابن الكونت وأتبـاعه الأسرى، على الفـور، حيث مثلوا في حضرة الملك، والتمس عـدد من الفـرنسيين، بإلحاح، وجوب شنقهم، في سبيل رمي الـرعب في قلوب الآخرين، غير أن الملك صار بالفعل محامياً مخلصاً عن أسراه حيث قال:

«إنه لايستحق الموت، إذا كـان قـد أطاع أوامـر والده حتى الموت، وكـذلك المشـاركين له، الذين أطـاعـوا سيـدهم وخـدمـوه باخـلاص، ولنرسلهم على كل حال إلى باريس ليسجنوا هناك»، وهذا ماحدث.

استيلاء الملك الفرنسي على عدة قلاع أخرى

ونزل الآن خـــوف عظيـم من الملك الفـــرنسي على سكان المنـاطق المجـاورة، وصاروا مـرعوبين من أنهم إذا مـا ثاروا ضده، فإنهم سـوف يتورطون بمصيبـة مماثلة، لابل حتى أسوأ منهـا، لأن القلعة التي رست عليها آمـال الجميع، قد جرى الاستيـلاء الآن عليها بالقـوة، وكان ذلك في وقت قصير، وذهب الذين كـانوا مسؤولين عن القـلاع العائـدة إلى كونـت دي لى مارشي من حولـه، إلى الملك وسلموا مفاتيحهـم إليه، في سبيل التوصل إلى شروط للمصالحة أفضل، وقـام الملك في الوقت نفسه باستباحة المناطق المجاورة، واستولى على عدد كبير من القلاع والبلدات، وأخضعهم لسلطانـه من دون أية صعـوبة، وهـدم القـلاع الضعيفـة وسواها بالأرض، والقلاع التي كانت قوية في وضعها وفي بنائها، زادها تحصيناً، ووضع بعضـاً من أتباعـه الفـرنسيين المخلصين بها، ثم تابع من هناك زحفـه نحو الأمام، فـاستولى بطريقـة مماثلة على قلعة فخمـة، هي قلعة فونتني.

استسلام قلعة فوفانت إلى الملك الفرنسي

ووصل الملك الفرنسي الآن إلى قلعة فوفانت Vouvant الفخمة، والتي كانت عائدة إلى كونت دي لى مارشي، وعندما كان يقوم بعمل الاستعدادات لحصارها، عقد القسطلان الذي كان مسؤولاً عنها مؤتمراً مع أصحابه، وبعد ذلك أرسل بعضاً منهم مع رسالة سلام إلى الملك، لأنه كان خائفاً أنه إذا ما أسر بالقوة، لن تظهر العدالة الفرنسية نحوه أية رحمة، وقام بناء عليه بسرعة وبشكل سري، فتشاور مع الكونت مولاه حول هذه المسألة، وأرسل في الوقت نفسه رسالة إلى الملك الفرنسي، أنه إذا ما منحه سلاماً غير مبطن، نال هو —القسطلان— بموجبه والذين معه الحفاظ على حياتهم وعلى سلاحهم، هو سوف يسلم القلعة إليه، على شرط، أنه —على كل حال— إذا ما أعيد السلام بين ملك فرنسا، وكونت دي لى مارشي، في خلال ثلاثة أعوام يتوجب على الملك الفرنسي أن يعيد القلعة إلى مولاهم، كونت دي لى مارشي، من دون خلاف، وبناء عليه فضّل الملك الاستحواذ على القلعة سالمة من دون أي تأخير، على أن يتسلمها في حالة تخريب من رمايات قذائف المنجنيقات، أثناء حصار طويل، ولذلك منحه مطالبه، وهكذا خضعت القلعة على الفور، ومن دون أية مشاكل، إلى سلطانه.

كونت دي لى مارشي يندم على إقدامه على هذه العملية

ومع انتشار هذه الأخبار، استولى الخوف واليأس على كونت دي لى مارشي، وعلى جميع البواتيين، وكذلك على جميع سكان غاسكوني، وعلى الذين انشغل ملك انكلترا في الدفاع عنهم، وندم الكونت بمرارة لأنه اندفع بطيش، فثار ضد مولاه، الملك الفرنسي.

لكن عندما على الرأس وضع الخوذة البراقة

بات وقتها متأخراً جداً حتى ينسحب من القتال.

سادة الموانيء الخمسة يتحولون إلى القرصنة

عندما سمع ملك انكلترا بنجاحات الملك الفرنسي، أرسل أوامر إلى سادة الموانيء الخمسة للقيام بإلحاق الأذى، بكل طريقة من الطرق، بالتجار وبالآخرين العائدين إلى المملكة الفرنسية الذين يتولون السفر بالبحر، وقام هؤلاء الرجال على الفور بتنفيذ أوامر الملك، وانخرطوا مثل قراصنة، بأعمال السلب والنهب، بوحشية تجاوزوا فيها الحدود التي وضعها الملك، وذلك شرهاً منهم للكسب، ذلك أنهم سلبوا حتى مقتنيات الانكليز، وجيرانهم، والذين كانوا معروفين من قبلهم، عندما كانوا عائدين من حجهم، دون إعطاء أي اهتمام إلى الصداقة أو القرابة، وقتلوا بعض الفرنسيين بشكل وحشي، وعندما سمع الملك الفرنسي بهذه الإجراءات، كتب إلى كونت بريتاني، وإلى سكان ساحل البحر من تلك المقاطعة، وإلى والي روشيل وتلك المناطق، وأيضاً إلى البحارة في ويسانت Wissant, وكالي، وإلى الذين كانوا يتولون حراسة سواحل نورماندي، يأمرهم بصد هجمات الانكليز، وبذلك أعطاهم منفذاً للتنفيس عن غضبهم في البحر، وأمرهم أن لايوفروا أشخاصهم أو بضائعهم، ونتيجة لهذا الأمر، وبسبب القوات التي أرسلت بدون توقف، ضد الانكليز، عانى سادة الموانيء الخمسة من خسائر كبيرة، وغالباً ما هزموا بشكل مشين، ونتيجة لذلك أرغموا على طلب المساعدة من رئيس أساقفة يورك.

وصول الملك الإنكليزي إلى مدينة تيلبيرغ

وكان الملك الانكليزي في هذه الآونة مع جيشه قرب قلعة توني Tonnaye, في السهول القريبة من نهر تشارنتي Charente, وفي ذلك المكان منح مرتبة الفروسية إلى أخويه، أولاد كونت دي لى

مـارشي، وعيّـن لهم مبلغـاً من المال، يتسلمـونه سنوياً من الخزينة، وقـد أعطى إلى الأول منهما خمسمائة مارك، وإلى الثاني ستمائة مارك، وذلك إلى أن يتمكن من تـزويدهما بمبلغ ثابت ومتسـاوي بالقيمـة، في الأراضي والموارد، ثم إنه غادر ذلك المكان مع جيشه، وسار إلى حقول قائمة أمام مدينـة تيليبورغ Tailleburg, على نهر تشارنتي نفسـه، وبقي هناك لمدة ستة أيام.

فرار الملك الإنكليزي

وكان الملك الفرنسي قد تلقى في الوقت نفسه خضوع عدة اقطاعيات مع قلاعهم، فأصبح أكثر وثوقاً في رفع رايتـه، ووجّـه زحفه نحو مدينة تيليـورغ، وكانت هذه مـدينة جميلة، غنيـة بكرومهـا الخصبة العظيمـة، وكان لديها نهر جميـل على مقربة منها، وهو نهر تشـارنتي العميق والذي بلامخاضات، وكـان محاطاً بمروج غنيـة، وكان يعبر عليـه بوساطة جسر قـوي، وعند اقتراب الملك الفـرنسي مـن هذه المدينة، كـان السكان غير راغبين بمعارضته، كما أنهم كانوا أيضاً غير قادرين على مواجهته بالقوة، فتبنوا خطة حكيمة، حيث خرجـوا إلى استقباله بسلام، وسلموا أنفسهـم ووضعوا مـدينتهم تحت سلطانه، وذلك مع جميع مقتنيـاتهم وامتيازاتهم، وعند ذلك استقبلهم الملك بـالترحـاب، ووضعهم تحت حمايتـه، ودخل إلى المدينة على الفور، واتخذ مقـامه فيها مع بعض نبلائـه، ونصب البقية خيامهـم في الحقل قرب المدينة، وفي اليـوم التالي، الذي كان يـوم الأحد التـالي قبل عيد القـديسة مـريم المجـدلية، عبر الجسر، وعمل الترتيبـات للزحف مع جيشـه إلى أقصى مناطق بواتو، ووصلت أخبار عن زحفـه المنوي وحملت إلى ملك انكلترا، وإلى نبـلائه، الـذين كان كـونت دي لى مـارشي هو الرئيس بينهم، وقام ذلك الملك، بناء على نصيحـة الكونت، فسحب قـواته أثناء الليل، ووصل فجأة مـع جيشـه إلى حقل مـرتبط بالجسر، ونصب خيـامـه هناك، وعمل مقـراً لنفسـه في مقـابل المدينة،

وبذلك صار من الممكن لكل واحد من الجيشين أن يراقب الآخر، وتألف جيش الملك الانكليزي من ألف وستمائة فارس، وعشرين ألف جندي من الرجالة، وسبعمائة من رماة القسي الزيارة، وكان هناك ملك على هذا الطرف من النهر، وملك آخر على الطرف الثاني مثله قريباً من النهر، وشاهد الملك الانكليزي في الصباح الباكر العلم الحريري الأحمر للملك الفرنسي، وخيام ورايات جيشه، وكان الطرف الآخر من النهر مغطى بحشود من الخيم، بدت وكأنها مدينة واسعة ومكتظة بالسكان، ولدى رؤية ملك انكلترا لهذا المشهد، ولأنه كان يتوقع لاشيء سوى القتال، وأنه سوف يفاجيء الفرنسيين بحد السيف، حتى أنه مركز بعض الانكليز ليتولوا حراسة عبور الجسر، عند هذا قال لكونت دي لي مارشي: «أين هي الآن وعودك، يا مولاي وأبي؟ فعندما كنا في انكلترا، أنت وعدتنا، مراراً عدة، بوساطة عدد من الرسل، وأكدت لنا برسائلك الموثقة، أنك وقت الضرورة سوف تعدّ قوة من أجلنا تكون كافية من دون خوف، للتصدي للملك الفرنسي، وأخبرتنا بأن نهتم فقط من ناحيتنا حول المال»، وعلى هذا أجابه الكونت: «إنني لم أفعل ذلك مطلقاً»، فتدخل الايرل رتشارد مقاطعاً إياه قائلاً: «لابل فعلت، وأنا معي الآن رسائل معتمدة حول هذه القضية»، ثم أجابه الكونت: «إنها لم تكتب من قبلي، أو وقعت مني»، وعند ذلك قال له الملك وهو مندهش: «وما هذا الذي أنا أسمعه منك، يا أبي؟ أولم ترسل مراراً إليّ، لابل رجوتني بإلحاح لأن أقدم إلى هنا، بوساطة رسلك، ورسائلك المعتمدة، وكنت تشكو في الوقت نفسه من التأخير؟ أين هي الآن وعودك؟» وعند ذلك قال الكونت، مع يمين مخيف: «إن هذا لم يفعل قط من قبلي، وجّه اللوم لا لأحد، إلا لأمك، زوجتي»، ثم إنه أضاف بعد أداء يمين آخر: «بحق عنق الرب، هي التي دبرت هذا كله دون معرفتي»، وعند سماع الايرل رتشارد لهذا الكلام، جرد نفسه من السلاح، وحمل عصا في يده، وعبر الجسر، للترتيب لهدنة، لأن ملك

انكلترا كان في خطر عظيم، وقد بات أسيراً، وقد حدث هذا في يوم أحد، ولدى وصول الايرل إلى الجيش الفرنسي، استقبل من قبل الفرنسيين بتشريف عظيم، وعدد كبير منهم دعونه باسم منقذهم، لأنه بوساطة السلم الذي عمله في الأرض المقدسة، كان قد حررهم من الأسر، ثم إنه استدعي باحترام إلى حضرة الملك، وعندما أعلمه برغبته في الحصول على هدنة، منحت إليه، بعد شيء من الصعوبة حتى الغد، وقد حصل على هذا لعدة أسباب، لأنه كان انساناً لديه حظوة كبيرة لدى الفرنسيين، لقيامه بتحرير نبلائهم في الأرض المقدسة، الأمر الذي ذكرناه من قبل، وثانية لأنه كان قريباً للملك الفرنسي، وكذلك لأن اليوم كان يوم الأحد، ولدى قيام الملك الفرنسي بوداعه، عندما كان مغادراً قال له: «مولاي الايرل، مولاي الايرل، لقد منحتك هذه الهدنة طوال هذا اليوم والليلة، في سبيل التداول حول الذي هو أفضل لصنعه في المستقبل، لأن الليل يجلب المشورة معه»، وعلى هذا أجاب الايرل: «لهذا السبب طلبت الهدنة التي حصلت عليها»، ثم إنه عاد على الفور إلى ملك انكلترا، وهمس في أذنه بهدوء: «أسرع، أسرع، دعنا ننقل أنفسنا من هذا المكان، لأننا في خطر عظيم، حيث أننا وقعنا بالأسر»، ثم إنهما تناولا وجبة سريعة(لأن الوقت كان ظهراً) وعند غروب الشمس، شغل كل انسان نفسه في جمع أثقاله مع بعضها، وعند حلول الظلام، قام الملك الذي جرب الآن اخلاص، أو بالحري، انعدام اخلاص البواتيين، فانسحب بشكل مهين، ولم يتهاون بالسرعة، وقد تبعه جيشه كله، لكن ليس من دون خطر على الخيول وعلى الرجال، لأن كثيراً منهم كانوا لم يتناولوا الطعام، كما كانت خيولهم مرهقة، وكان الملك ممتطياً فرساً سريعاً، لذلك لم يرخ عنانه حتى وصل إلى سانتاغيو.

المعركة التي نشبت بين الفرنسيين والإنكليز عند سانتاغيو

وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا الخبر، كاد أن لايصدقه، ومع ذلك

قام في الليلة نفسها بعبور الجسر بكل هدوء، وقام الفرنسيون في الصباح الباكر من اليوم التالي بنصب خيامهم فوق البقعة نفسها التي كانت القوات الانكليزية مقيمة فيها، وقد ازداد الآن جيشهم بوصول قوات جديدة، وعربات وشاحنات تحمل آلات الحرب والامدادات، وكان عددهم حوالي ألف وستمائة، وقد امتد قطارهم حوالي ثلاثة أميال على الطريق، وفي يوم الثلاثاء التالي انطلق الملك الفرنسي مع قواته ليتولى مطاردة ملك انكلترا، وعند الوصول إلى سانتاغيو، كان بعض الفرنسيون يتجولون، عازمين على جمع المؤن (وهو مايسمى عادة الاحتشاش) فتواجهوا مع كونت دي لى مارشي وهوجموا من قبله، من دون استشاره ملك انكلترا، أو جيشه، وهاجمت كل فئة الفئة الأخرى، وارتفعت صرخات عالية «رجال الملك، رجال الملك» من الجهة الأولى، ومن الجهة الثانية «جبل البهجة، جبل البهجة»، وكانت هذه صرخة جميع الجنود لدى الملكين، ووصلت أصوات الصراخ وقعقعة القتال إلى الملك الانكليزي في سانتاغيو، وقد أخبر بأن كونت دي لى مارشي، بشروعه بالقتال، هو قد رغب إما أن يفقد حياته، أو أن ينقذ سمعته، ونهض الجيشان من على الجانبين، وأعقب ذلك قتال عنيف، وقع خارج بلدة سانتاغيو، في الطرقات الضيقة بين كروم العنب، وقاتل الانكليز وهم على حنق، وحاربوا الفرنسيين بحد السيف، وقاتلوا وهم يائسين جداً، حتى أنهم لو عادلوا أعداءهم بالعدد، لنالوا بنجاح نصراً مبيناً على الفرنسيين، الذين هم أنفسهم كانوا شهوداً على ذلك بعد المعركة، وفي هذه المعركة نال: سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر، مع ايرلي: سالسبري، ونورفولك، وروجر بيغود، ووارن دي مونتشسنيل Montchesnil, وهيوبرت فتز — ماثيو، ورالف فتز — نيقولا، وعدد كبير آخر من الشجعان الانكليز، وحصلوا على شهرة سرمدية، وذلك حسبما تحدث خصومهم، ومن الجانب الفرنسي، وقع جون دي باري Barres, مع ستة فرسان أسرى، بيد وليم دي سي، لكن

جرى فيما بعد مبادلتهم بعدد مساوي من الأسرى الانكليز، وكان هناك عدد كبير آخر من الفرنسيين قد أخذوا أسرى، وكان من بينهم بيتر أورغي Orige, قهرمان كونت بولون، وكان آسرهم جون مانسيل Mansell, وكان محاسباً ومستشاراً خاصاً لملك انكلترا، وقد عدّ هذا بين الرجال الشجعان، ومن جيش ملك انكلترا وقع هنري هيستنغ Hastings بالأسر، مع حوالي عشرين فارساً، ومجموعة كبيرة من الرجالة، وقد قدموا هؤلاء جميعاً بدلاً عن جون دي باري، والذين أخذوا أسرى معه.

كونت دي لى مارشي يسعى للتصالح بشكل سري مع الملك الفرنسي

وبما أن جيش الملك الفرنسي قد ازداد يومياً مثل بحيرة تضخمت بمياه سيول الأمطار، بدأ كونت دي لى مارشي يشعر بالخوف بشكل جدي أكثر من ذي قبل، لأن التقارير الشريرة المتأخرة جرحت قلبه يومياً، وكان أولها الاستيلاء على قلعة فرونتني، التي فيها وقع ابنه مع أربعين فارساً وذلك إلى جانب عدد كبير آخر من الأتباع قد وقعوا بالأسر، وجرى أيضاً الاستيلاء على كميات كبيرة من السلاح، ففي تلك القلعة كان قد مركز جميع آماله وثقته، ثم إنه فقد بعد ذلك قلعة فوفانت، التي كانت مشحونة بمائة وأربعين فارساً مع حوالي ستمائة من رماة القسي الزيارة المسلحين، ثم أعقب ذلك سقوط قلعة فيلير Vilers مع عدد آخر من القلاع والبلدات مع اقطاعياتهم وحصونهم، وأخيراً جرى الاستيلاء على فونتني مع المناطق المجاورة لها، ولذلك قام وهو محرض من الألم الداخلي في قلبه، ومدفوع بالخوف واليأس، مع أنه أخفى اضطراب تفكيره، تحت ملامح هادئة، قام الكونت المذكور فشرع بالتقلب، وبتقدير من الذي يمكنه بوساطته أن يقبل ثانية في حظوة الملك الفرنسي الذي هو مولاه، والذي نال باستحقاق غضبه، وبعد

بعض التقدير للأمور، بعث بشكل سري إلى كونت بريتاني، وكان صديقاً قديماً له —وكان هو نفسه خائناً يراسل خائناً— ورجاه أن يعمل بالتعاون مع أسقف سانتاغيو، بكل يقظة ممكنة، بشكل سري وحذر، وأن يسعى إلى إعادته إلى حظوة الملك الفرنسي، وبناء عليه ذهب كونت بريتاني مع أسقف سانتاغيو إلى الملك، وقالا له وهما يبتسمان: «لقد توقفت الحرب لأنها انقطعت بوساطة واحد متقلب»، وبعد التفوه بخطاب أكثر نعومة وفيه المزيد من الإطراء والإثارة، تابع الكونت حديثه، وذلك على مسمع من الأسقف المتقدم ذكره، وعدد قليل آخر من النبلاء الفرنسيين، الذي كان قد بعث خلفهم للاجتماع به والتشاور معه، وقال: «مولاي الملك، إن رعيتك، كونت دي لى مارشي، الذي اعترف بأنه أذنب بشكل خطير نحوك ونحو تاجك، لايسأل الآن العدالة بل الرحمة، كما يقول المثل العام: «إلى الشقي الرحمة ضرورية، وإلى المذنب علينا منح الشفقة»، وهو قد أرسل بي إليكم، بحكم أن روحه يمكن أن تثق بي، ولهذا أتوجه بالالتماس إليكم بكل اخلاص، وإلى لطفكم الأصيل، وإلى جلالتكم، وأرجوكم تقبله بصدركم الرحيم المفتوح، فهو رعيتكم، وقد أصبح الآن مخلصاً إلينا من دون أي من تعليلاته المعتادة»، ثم إنه غمز بعينه نحو الملك، وقال بصوت خافت: «إنني أنصحك بعدم رفض طلبه، لأنك تستطيع أن تضعه وسيلة ضغط لصالحك حسبما تشاء في المستقبل».

كونت دي لى مارشي يصبح متصالحاً مع الملك الفرنسي

وجرى بناء عليه استقبال كونت دي لى مارشي بالحظوة من قبل الملك الفرنسي، على شرط أن يتنازل —أي الكونت— له عن ملكية جميع القلاع التي استولى عليهن الملك مؤخراً بالقوة، وأن يكون ذلك حق دائم، وفي سبيل منفعة المملكة، جرى تجريد الكونت مع ورثته منها بموجب قرار قضائي، وأضاف الاشتراط أيضاً بأن جميع قلاع الكونت

المذكـــور، وهي كـــوغناك Cognac, ولوزغنان Lusignan, وميربن Merpins, والقـلاع التي يظن أنها عائـدة إليه، ســواء التي هي ملكه، أو التي هي ملـك لأصـدقـائـه الذين يستطيع أن يسـوغهـم، ينبغي أن توضع تحت سلطـات الملك، وبناء عليـــه ينبغي أن تبقى تحت سلطانه، في سبيل إبقـاء الملـك تحت المراقبـة، وأن يرغم، وإن كـان بغير رضـاه، بأن يكون مخلصـاً إلى الملك، والمسألة سوف تتـوقف بعـد مضي ثلاثة أعوام على إنعام الملك، وذلك إذا ما خدمه باخلاص، فمن الممكن إعادة القـلاع المذكورة إلى الكونت، وعلاوة على ذلك، يتـوجب، خلال الأعوام الثلاثة، أن يخدم الملك الفـرنسي، إذا ما دعاه بمائتي رجل مسلح على حســابه، وأن يقاتل باخـلاص لصالح الملك المذكـور، ضد كـونت طولوز، أو أي ثائـر آخـر ضـده، أو ضـد الكنيسـة، وعـلاوة على ذلك أضاف الملك الفرنسي: «إن الصك الذي ناله آباءه من أجدادي منذ زمن طويل مضـى، والذي مـازال حتى الآن يمتلكه، وينال عنه ألـف باوند سنوياً من خـزينتي، في سبيـل حـراسـة هذا الجانب من حـدود مملكتي، والذي غـالباً مـا أسيء القيام به، لاسيما الآن، إن هذا الصك، أنا أقـول عليه التخلي عنه لي مـن دون أية معارضة، والتخلي في الوقـت نفسه عن الدخل السنوي المتقـدم الذكـر»، ولهذا ابتسم كـونت بـريتـاني، وكشر مقطبـاً، وهمس في أذن الملك قـائـلاً: «أنا أنصحك بالاحتفـاظ بالقـلاع والمورد، وأن تستحـوذ من الآن فصـاعـداً شخصيـاً المسـؤوليـة عن التخوم»، ثم إنه غـادر آخذاً بيد الأسقف حيث قـال: «لقد استكملت»، وعندها سأله الأسقف: «ماالذي استكمل؟» فأجابه: «العمل الذي جئنا من أجله وعند ذلـك قـال الأسقف: «أنت تتـولى رعـايـة ذلك، فأنا لم أسمع همساتك السرية».

كونت دي لى مارشي يوافق على الشروط مع أنها شروط قاسية

وعندمـا بـاتت هذه الشروط والمفـروضـات مـن أجل الحصـول على

حظوة الملك معـــروفــة من قبل الكونت المذكـــور، أي كـــونت دي لى مارشي، حيث حملها إليه كونت بريتـاني، حزن حزناً عميقاً، وظل لوقت طويل رافضـاً الموافقة عليهم، لكنه وافق أخيراً عليهم، بناء على نصيحـة كـونت بريتاني المذكـور، وأصدقـائـه السريين الآخرين، الذين كـان يثق بهم، لكن مـــوافقتـــه لم تكن من دون ألم بالقلب، وفعل ذلـك للحيلولة دون وقوع أي شيء أسـوأ إليه، وبناء عليـه ترك ابنه ملك انكلترا، الذي كـانت أمـواله قـــد استهلكت الآن إلى أبعـد الحدود، وهرب إلى الجيش الفرنسي، حيث رمى بنفسه على ركبتيه أمام الملك، فحصل على حظوته، التي لم يستحقها، ثم جرى ارساله على الفـور مع كونت بريتـاني نفسه، لشن الحرب على كـــونت طولـوز، لأنه كـــان متحـــداً مع ملك انكلترا بروابط القـرابة، كما أنه كان حليفـاً، بناء على قسم، وكان متـابعاً الحرب ضـــد الملك الفـــرنسي، ولهذا السبب، شغل كـــونت طولـوز، منذ ذلك الحين، نفسه بالنظر إلى أمـور دفاعه، وبات غير قادر على مساعدة ملك انكلترا، الذي إليـه وعـــد بتقـــديم مســـاعدة فعـالة، لدى تسلمـه المال سلفاً.

وبالطريقة نفسها، لم يعد بـإمكان ملك انكلترا الحصول على المساعدة من ملك أراغـون، لأن الطرق كـانت مغلقة ضـده، ولا كـذلك من أي واحد آخر، كان قد وضع فيه ثقته، وقدم في الوقت نفسه كونت طولوز سراً إلى ملك انكلترا، وبعـــدمـا ســـوغ نفســـه واعتـذر قـــال: «لاتيأس يامـــولاي الملـك، وابن عمي، لاتيأس أيها الأمير الأعظـم قـــوة من أن لاتكون قادراً على صدّ الملك الفرنسي، بما أنـك تتذكر أنني وحدي، مع مساعـدة البابا، قد صددتـه، وحالما أتمكن من طرد هذين الخائنين لي من أراضي التي هي الآن تحت احتـلالهم، ســوف أقـدم إليك بكل سرعـة، لتقـديم المســاعـدة»، وبعـد قليل من المحـادثات الأخـرى، غـادر ذلك الكونت، وهو محمل بالهدايا.

سبب فقدان الملك لسانتاغيو

وبينما كان كـونت دي لى مارشي يتابع تنفيـذ خططه الخيانية المتقـدمة الذكـر، مـن دون معـرفـة ملك انكلترا، كـان آنذاك ملك انكلترا مقيماً لبضعة أيام في سانتـاغيو (التي كانت معروفة بموجب الحقـوق القديمة ملكاً خاصـاً، ومسكناً لملك انكلترا) وقد قام فيها بعـد من دون مشاورة المواطنين، لابل ضد رغبـاتهم، فأعطى تلك المدينة، وثبت منحتـه بوثيقة إلى هوغ برن Brun, ابن كـونت دي لى مـارشي، وأخـاً أصغـر له شخصيـاً، وقـد كره المواطنـون هوغ هذا المذكور، لأنـه كان متعجـرفـاً، ورجـلاً شريراً، وغالبـاً مـاقام بتهـديدهم بالضغط عليهم، ونتيجـة لهذه المنحـة، لم يعـد المواطنون ينظـرون بعين الحظوة نحـو ملك انكلترا، كما أنهم لم يعودوا يوافقون على سلوكه وأعماله.

فرار الملك الإنكليزي إلى بلي

ومع اقتراب حلول شهر آب المجهد، وفي الوقت الذي كان فيه ملك انكلترا يظن أنه آمن، ولديه مكان التجـاء مضمون في سـانتاغيـو، وكان يفكر بالبقـاء هناك لعـدة أيام قليلة، حتى يحصـل على وقت يسترد فيـه أنفاسه، أرسل فارس فـرنسي، كان واحداً من الذين حررهم في الأرض المقـدسـة الإيرل رتشـارد، وكـان مطلعـاً بشكل سري على خطط الملك الفـرنسي، أرسل رسـالة سرية مستعجلـة إلى الايرل المذكـور، بأن ملك فـرنسـا قـد أبدع خطة سرية واستقـر رأيه عليهـا، حيث سيقـوم فجأة بتطويق ملك انكلترا في مـدينة سـانتـاغيـو، مع حفـر خنادق من جميع الجهات، ومن ثم حصـاره هناك، فهو ما أن يكمل حشد قـواته بقدر ما تستطيع فرنسـا تقديمه كما هو معلوم، سوف يتـابع الحصار، ولن يتخلى عنه حتى يأسر جميع الانكليـز الذين هم هناك، مع ملكهم، وأن يحملهم أسرى مغلولين إلى باريس، وأضـاف الرسول نفسـه على سرعة، أو وهو مقطوع الأنفاس تقـريباً، بأن كونت دي لى مـارشي قد تحول، أو بالحري

تبدل وانقلب من كـونه صديقـاً الى أنه بات العدو الأعظم لملك إنكلترا —ومن كونه أبا زائفـاً الى صيرورته زوج الأم— وأنه لايمكنه أن يتأمل أي شيء آخـر من نبـلاء بواتـو الآخـريـن، ومـا كـاد يتـوقف عن الحديث،حتى وصل رسـول آخـر الى الملك،من أخيـه الأصغـر هـ . H المتقدم ذكره، ومن غي دي لوزغنان —أخيه الأكبر— يعلن أن الانكليز إذا مـابقيـوا في البلدة تلك الليلة، هم سوف يقعـون جميعـاً بالأسر مع ملكهم ومـع السكان، أو أنهم سـوف يحاصرون حتى يمكـن أسرهـم، وحـدث هذا في اليـوم التـالي لعيـد القـديس بانتـاليـون Pantaleon, عندما جاء الملك من بونز Pons خلال آركياك Archiac, ثم إلى هيربيزي، ثم وصل إلى سـانتاغيو، داره كما كانت، لكن عندمـا كانوا على وشك اتخاذ مقرات لهم هناك، وكـان وكلاؤهـم قد تقـدموا عليهم، وكان المراقبون والمارشالات قد أعدوا جميعاً طعام افطارهم، وكان الملك نفسه على وشك تناول طعام افطاره، وصل رسول ثان أكد بينة الرسول الأول، وبذلك لم يترك أي مجال للشك في هذه القضية، وبناء على ذلك غادر الملك المدينة على الفور، معطياً أوامر بـاحراقها، لأنه كان قد سمع من الرسـول المتقدم الذكر، بـأن المواطنين قد أعدوا شروطاً للسـلام مع الملك الفـرنسي، وأباحـوا بشكل خيـاني أسرار خططه إلى ذلك الملك، وعند ذلك لم يوفر هنري مهمازه، أو لكز جانبي فرسه، بل إنه هرب من دون توقف حتى مدينة بلي Blaye, وكان صـائماً وجائعـاً، ولم يهتم سوى قليـلاً بقواته التي تبعته، وعندمـا علـم نبلاؤه بفـراره، تركوا فجأة طعامهم نصف المطبوخ، وركبوا خيـولهم السريعة، ولحقوا ملكهم، وهـم يرجون ايجاد ملجأ لأنفسهم معه في مدينة بلي.

وسار خلفهم حشد كبير من الانكليز، على أقـدامهم، وهم في حاجة شديدة، وكـانوا يتساقطون من الجوع والضعف، وقد فقـدوا عدداً كبيراً من الرجال المرضى، والخيول المحملـة، والعربات والشاحنات، حتى أن

الدموع عطفاً عليهم تدفقت من أعين جميع الذين شاهدوا أوضاعهم، لأنها كانت رحلة عشرين ميلاً، وفقاً لتقديرات تلك المنطقة، لكنها كانت حوالي الأربعين أو قريباً من الخمسين وفقاً للحسابات الانكليزية، ولولا أنهم قووا أنفسهم، وهم على الطريق، بأكل التفاح البري والتوت، لتخلت قواهم عنهم نهائياً، ووصل الملك الفرنسي في الوقت نفسه إلى سانتاغيو، حيث جرى استقباله باحترام من قبل رجال الدين والمواطنين، واسترد سلطاته من دون صعوبة على تلك المدينة النبيلة، وبعد فرار مهين ومدمر، وصل الانكليز المنهكون وغير القادرين على التنفس إلاّ بصعوبة، إلى مدينة بلي، وبعدما مكث الملك هناك لبضعة أيام للراحة ولاسترداد قواه (لأنه كان لم يأكل أية وجبة ولم ينم منذ يومين وليلتين)، قرر أن يغادر ذلك المكان أيضاً، بحثاً عن مكان أكثر أمناً للالتجاء إليه، ولذلك عقد مؤتمراً مع نبلائه، ثم إنه قرر الانطلاق نحو الأمام إلى بوردو، وفي هذا الفرار فقد ملك انكلترا بيعته مع جميع تزييناته المقدسة بالاضافة إلى الآثار وأشياء أخرى كثيرة، عددها كبير جداً حتى نتولى ذكره، وأثناء فرار الملك الانكليزي إلى بلي طارده الملك الفرنسي بحرارة حتى وصل إلى مكان اسمه كارتليو Cartelegue, حيث أرغم على التوقف بسبب المرض.

استسلام مدينة بونز إلى الملك الفرنسي

وعند سماع رينالد دي بونز بهذه الأخبار، طار على الفور نحو جناحي الملك الفرنسي، ونشد السلام من خلال وساطة بعض الأصدقاء، وقد حصل عليه مع بعض الصعوبة، و سلم نفسه والمدينة إلى سلطات الملك الفرنسي.

الملك الفرنسي يشحن بالجند مدينة بونز وبعض القلاع

وبعدما أعيدت مدينة بونز على هذه الصورة إلى الطاعة، وكذلك

بعض القلاع من حولها، قام الملك الفرنسي على الفور بطرد البواتيين، ووضع بعضاً من الفرنسيين المخلصين هناك.

رئيس الأساقفة وليم يلتحق بالملك الفرنسي

وعندما وصلت أخبار هذه الحوادث إلى الذي يدعى برئيس الأساقفة وليم، قرر هو العمل بطريقة مماثلة، لكنه عزم أولاً أن يسمن نفسه على مقتنيات ملك انكلترا، ولذلك قام بشكل مخادع فأرسل رسالة سلام ومواساة إلى الملك المذكور، معلناً وداعياً القضاء الرباني أن يكون شاهداً، —مع أن جميع البواتيين ينبغي عليهم الانحناء، وإبعادهم من دون كرامة عنه، هو، أي رئيس الأساقفة— أنه طالما نفس الحياة موجود في صدره، لن يتخلى عن ملك انكلترا، الذي أضفى عليه ثروات عظيمة، ولن يفر إلى الملك الفرنسي، الذي داس بعجرفته التي لاتحتمل —والتي جاءت بعدما ربحوا القدرة— على جميع رعيته، وكأنهم كانوا وحلاً في الشوارع، وبناء عليه التمس من ملك انكلترا، أن يرسل إليه من دون تأخير، بحكم كونه مولاه الطبيعي، الذي عنه لايمكن أن ينفصل بنفسه، بعض الفرسان الشجعان، المجهزين بجميع الحاجيات الضرورية إلى مدينة بارثني Parthenaye التي كانت مدينته، وذلك مع المال لتحصينها، وإلى هذه الكلمات الناعمة والمعسولة أصغى الملك برغبة كبيرة، وتصرف وفقاً لطلبه، لكن لدى وصول الفرسان الذين أرسلوا من قبل ملك انكلترا إلى مساعدته، طردهم بالقوة من المدينة، واحتفظ لنفسه بالمال الذي أرسل إليه للدفع إلى عساكره، ثم إنه طار مع جميع أعوانه والمواطنين للجوء تحت جناحي الملك الفرنسي، لعمل سلام معه، لكن الملك الفرنسي ضايقه ووجّه الملامة إليه، وقطع لسانه، وأشار إليه باصبعه، موجهاً الملامة إليه بسبب سلوكه، ووبخه ووسمه بأنه خائن، وانسان موسوم بعلامة قابيل.

عمدة طولوز يتحول عن جانب الملك الإنكليزي

وبات في هذه الأثناء، عمدة طولوز أيضاً على بينة بأوضاع القضايا، وكان رجلاً كدس عليه ملك انكلترا أكواماً هائلة من المنافع، وقد رفع من شأنه في كثير من الطرق، لكنه عندما وجد جيوب سرج خيوله مليئة بأموال استيرلينية جيدة، جاء رده على ذلك خيانته، وبوساطة أصدقائه عمل سلمه مع الملك الفرنسي، وأعيدت مدينته إليه مع البلدات المجاورة، والتحق هو بالجيش الفرنسي، مظهراً بذلك أي نوع من الثقة ينبغي أن توضع في البواتيين.

البواتيون جميعاً يتحولون إلى الملك الفرنسي

ثم إن المواطنين وحراس البلدات، رأوا هؤلاء الأعلى مرتبة منهم أنفسهم قد تحولوا، وأن ملك انكلترا، الذي كان من المتوجب أن يقدم الحماية إليهم، قد هرب، مثل ملاح يهجر سفينة غارقة، تبارى أحدهم مع الآخر في الفرار إلى الحكم الفرنسي المعروف جيداً، وقام أتباعهم في المقاطعات أيضاً، بالتخلي فوراً عن أنفسهم وعن ممتلكاتهم إليه.

إخلاص هارتأولد قسطلان قلعة ميربو

وعندما كانت أخبار هذه الأحداث ومايماثلها تنتشر لتعم مناطق بواتو، كان هناك واحد اسمه هارتأولد Hertold, كان القسطلان المخلص لقلعة ميربو التي لاترام، وقد شعر بحزن عميق، وكان يشعر بشكل مؤكد أنه عندما يحرم من مساعدة ملك انكلترا، هو لم يرغب —على كل حال— بذلك، بل رغب بالتصدي للهجمات الصادرة عن الملك الفرنسي، وقد قال لرفاقه في السلاح: «أصدقائي، ورفاقي الحقيقيين، إن جميع منطقتنا هذه، وياللأسف، عرضة للخراب والدمار، فما الذي ينبغي فعله؟ إن بني قومنا مختلفون فيما بينهم أنفسهم، وهم منقسمون، وهم بالتالي في حالة اضطراب، وإننا سوف نتحول إلى درجة

العبـودية من قبل أعدائنا»، وقـرر أخيراً، بعد كثير من البكاء، في قـرارة نفسـه، أن يذهب إلى ملك انكلترا، الـذي هو مـولاه الطبيعي، ليتشـاور معه حول هذه القضية، وعندما وصل إليه، كانت الدموع مبللة وجنتيه، والتنهدات قطعت كلامه، حيث قال: «مولاي الملك، إن جلالتكم ترى بأن الحظ مضـاد لنا في كل شيء، وأنا رجل تعيس إلى حـد أنني لاأدري ماالذي عليّ أن أفعله؟ هل يمكنك مساعدتي في هذا الخطر العظيم، وإذا ما كان عليّ صد المحاصرين بـالقوة إذا حدث وحوصرت؟ وهل سوف أنا أتورط مثل جيراني، في المأسـاة العامـة، وأن أرغم بالأخير على تحمل النير الفرنسي، الذي رفضه آبائي دوماً حتى الآن، وصدوه، وقذفوا به»، وعلى هذا رد عليـه الملك وهـو مكتئب قـائـلاً: «أنت ترى يـاهارتأولد، مقدار قـوتي، التي هي بالكاد كـافية لتأمين نجاتي، وإن مـولانا ومخلصنا يسـوع المسيح، قد جـرت خيانتـه من قبل تلميذه يهوذا، وبناء عليـه من الذي يمكنه أن يتوقع أن يكون آمناً؟ لقـد تركني كونت دي لي مارشي، الذي عـددته وأحببته بمثـابة أب، وقد ضرب مثـلاً مدمراً لكـم جميعاً، فلقد اعتمـدت على قصبة وجعلتها بمثابة عصـاي، فجرحتني شظاياها، وأنت وحـدك عملت بطريقـة محمودة، بقيـامك بمشـاورتي في هذه القضـايا، وبناء عليـه إن جميع مـاتمتلكه باسمي، أنا أمنحك إياه بحـرية، بمثابة هدية مني، وبناء عليه، افعل الذي تراه أكثر مواءمة لك ولحقك»، ثم إن هـارتأولد غـــادر حضرة ملك انكلترا وهو آسـف، وذهب على الفـور بشعـر مشعث، وعينان حمراوتان من البكاء إلى الملـك، الفـرنسي الذي إليه توجه بالخطاب قائلاً كما يلي: «مولاي الملك، لقد كدس الرب الغاضب أكوامـاً هائلة من الشرور عليّ، حتى بت مرغماً —مع أنني غير راغب— بأن أطير إلى رحمتك حتى أنـال الحماية والملجأ، لقـد تركت إلى نفسي، ولذلك طرت إلى جـلالتك، وبناء عليه تسلم قـلاعي، وتقبل في الوقت نفســه خــدمتي»، وعلى هذا رد الملك الفـرنسي بنظرة هادئـة: «ياصديقي لقـد عرفت معـرفة جيدة بأنـك قد ذهبت إلى ملك انكلترا،

وأنا أعلم الذي قلته له، فأنت وحدك قد عملت باخلاص، وأنا على هذا عن رضا أتقبل القيام بحمايتك أنت والذين أتباع لك، وكما أنت، أنا أتقبلك، ولذلك فإن صدر الرحمة هو مفتوح لك دوماً»، ولذلك تخلى هارتأولد عن قلعة ميربو الفخمة، ووضعها بين يدي الملك الفرنسي مع جميع متعلقاتها، لكن ذلك الملك قام على الفور، إثر تلقيه يمينه بالتابعية، بإعطائه المسؤولية عنها ثانية، وكذلك معها جميع جزء تلك البلاد، باستثناء مونتوبان Montouban, وعدد قليل من الأماكن، فهذه جرى تسليمها إلى سلطات الملك الفرنسي.

ولادة ملكة إنكلترا لطفلة في بوردو

وبقي ملك انكلترا في بلي حتى عيد صعود العذراء المباركة، عندما جاء المخاض ملكته التي كانت مقيمة في بوردو —وكانت خيامه منصوبة في حقول جميلة قرب تلك المدينة— وكان مستعداً لأن يطير على الفور، إذا ماسمع من جواسيسه بأن الملك الفرنسي قد اقترب من بلي، وفي يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ولدت زوجته، الملكة إليانور —كما ذكرنا من قبل— بنتاً في بوردو، وقد منحت اسم بيترايس Beatrice, الذي كان اسم أم الملكة.

قدوم كونتسة بيرني إلى ملك إنكلترا في بلي

وفي الوقت نفسه، قدمت كونتسة بيرني Biarne, التي كانت بمفردها ذات حجم كبير إلى الملك مع ابنها غاستون Gaston, وكان برفقتها ستين فارساً، وقد اقتنعت بفعل ذلك برغبتها بالحصول على بعض المال، حيث كانت تعرف بأن ملك انكلترا كانت لديه كميات وافرة منه، وبعدما دخلت معه في اتفاقية من أجل الدفع، بقيت مع الملك، وهي تتسلم منه يومياً مبلغ ثلاثين باونداً استيرلينياً، ولكنها كانت ذات موقف معادي منه، وقد تخلت بالنهاية عنه كلية، أو بالحري خانته وأفقرته.

انتشار وباء بين الفرنسيين

ورأى الملك الفرنسي في الوقت ذاته أن الحرب متطورة لصالحه بين يديه، فعقد مؤتمراً مع نبلائه، وقرر أن يلاحق الملك الانكليزي بعدوانية إلى بلي، لأنه كان يعرف بأن هذا الملك كان قد حرم من مساعدة البواتيين، وكان الآن غارقاً في وضع ميؤوس منه، وقرر أيضاً أن يطارده من بلي إلى بوردو إذا ما تراجع إلى هناك، وهكذا تصور أنه يمكنه بيقظة غير متوانية، أن يجلب الحرب إلى نهاية، غير أن الرب «الذي يمنح الخلاص إلى الملك كما يريد» امتلك رحمة نحو الملك ونحو مملكة الانكليز، ففرق بين قلوب الفرنسيين المتعجرفين الذين لايعرفون التهاون، بإثارة الشقاق والخلاف فيما بينهم، وعلاوة على ذلك، فإن جيشهم الذي كان كبيراً جداً، كان مرهقاً يعيش تحت نقص الامدادات، ولذلك فإن الجوع والعطش قد استبد بهم، وأخذ الناس يتلاشون بوساطة الأمراض، ولإصابتهم بمختلف الآلام، لفظوا حيواتهم الضعيفة، لأن السكان المحليين كانوا قد أغلقوا أفواه الآبار، وسمموا وأفسدوا الأنهار والينابيع، وفلحوا المروج، ونقلوا القمح، ونتيجة لذلك هلكت الخيول لحاجتها إلى الماء، وفي أيام الشعرى (مابين أوائل تموز وأوائل أيلول) التي كانت آنذاك في ذروتها، التزم الناس بمضاجعهم وهم مرضى، ولأنهم كانوا غير قادرين على الحصول على الراحة وعلى الدواء ماتوا، ومات من الجيش الفرنسي، ثمانون نبيلاً ممن كانوا يحملون الرايات، ومن الجنود الرجالة وقع حوالي العشرين ألفاً ضحايا، وفي هذه الآونة، وقع الملك نفسه مريضاً مرضاً خطيراً، ووقع على الفرنسيين خوف عظيم وقنوط كبير، ذلك أنهم خافوا أن يفقدوا ملكهم بين يدي الموت، الموت الذي لم يوفر أحداً، وذلك وفق الطريقة نفسها التي فقدوا فيها والده الملك لويس فجأة، ومات بسبب المرض نفسه كثير من الفرسان الشجعان الذين لامثيل لهم، وكان من بينهم روبرت مالت

وكـان نورمانـدياً، ورجلاً استحق التميـز بالثناء، ورتشـارد Malet, بيومـونت Beaumont, وكـان رجلاً من أصل نبيل، ومتميـزاً بين الفـرنسيين لأعماله النبيلة، وكـان واحـداً ممن حـرره الايرل رتشـارد في الأرض المقـدسـة، ولذلك أرغم الملـك الفـرنسي، بسبب الظروف المعـاكسـة، على الموافقـة على هدنة لمدة خمسـة أعـوام، وهي التي طلبهـا الملك الانكليزي، ثم إنـه عاد إلى فرنسـا إلى مناخه المعتـاد عليه، ولذلك منحت الهدنة إلى الملك الانكليزي عن رضا، لابل مع سرور عظيم.

الملك الفرنسي الذي وقع مريضاً يبرم هدنة مع ملك إنكلترا ويعود إلى فرنسا

وبناء عليه، قام الملك الفرنسي، فجـأة بتغيير خططه، وعاد إلى فرنسا، من أجل أن يمتلـك وقتـاً للتنفس، ولأن ملك انكلترا كـان مستعـداً للانتقـال إلى أقصى منطقـة من البـلاد، وكـان من الصعب مطاردته في أراضيه، ولأن فصل الشتـاء الممطر بات قريباً جداً، وهكذا أخـذ طريقه مروراً بمدينة سانتاغيو، التي كان قد استرد ملكيتها، فأمر بتحصينها، في سبيل تقـدم المملكة الفرنسيـة، بأسوار جـديدة، وبتحصينات خارجيـة، وبترميم الأسـوار القـديمـة، وأعطـى الأوامـر نفسهـا فيما يتعلق بالمدن الأخرى، وتلقى يمين الاخلاص، والرهائن، من الذين تركهم مسؤولين عنهم، وقام بشحن القـلاع بشحن فرنسيين، وبالذين كـانوا مخلصين له، وتراجـع ملك انكلترا في الـوقت نفسـه، مـن دون خطة بـذهنه، إلى غسكوني، حيث أمضى أيـامـه من دون نشـاط مع ملكتـه، وأثناء ذلك أظهـر الغسكونيون مـع (الكونتسة، دي بيـارد) Biard قليلاً من الرحمة نحـو أمـواله، وفي ثمانيـة القـديس متى الرسـول، وصل الملك الفرنسي إلى فرنسـا، والذين زرعوا بذور الفوضى في المقاطعـات البواتية قد اعتقلوا مع الاهانة، بعدما عادوا إلى فرنسا، وبعد آلام طويلة غادروا جميعاً طريق الجسد.

الملك الفرنسي يطلب الحصول على مساعدة مالية من اللاهوتيين

وبعد مضي وقت قصير دعا الملك الفرنسي وأمر أساقفة المملكة الفرنسية بالاجتماع بباريس، وهم:

رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان السود من طوائف السسترشيان والبرامونستريت، ورؤساء هيئات الكهنة الكاتدرائية، وطلب مساعدة مالية منهم، ولكي لايعطي فرصة يمكن أن تتخذ ذريعة لرفض طلبه، أعطى سبباً بأنه يرغب في مهاجمة الهراطقة الألبينيين، لأنه اتهم كونت طولوز بجريمة الهرطقة القديمة، وكبرهان على ذلك قال بأن ذلك الكونت قد قتل مؤخراً، بشكل دنيء، بعض الرهبان الدومينيكان، ونظراً لإدراك الأساقفة أنهم كانوا محرومين من حكومة البابا، ومع أنهم لم يكونوا ملزمين بحق الاسهام بأي شيء، بناء على أمر أي علماني، حتى لاتظلم الكنيسة، ومع ذلك مقدرين أن الزمان كان زماناً سيئاً، وبما أنه كان هناك عدداً داخلين في اطار الخطر، كان لابد من إعطاء بعض المرونة للأحكام القاسية، ووافقوا بالاجماع على عمل تسوية للقضية، بمنح جزء من عشرين من مواردهم لذلك العام، وأن يجري دفع ذلك في وقت قصير.

تكريس الكنيسة في وولتهام

وفي اليوم التالي لعيد القديس ميكائيل في هذا العام، جرى تكريس كنيسة ديرية تابعة إلى كهنة وولتهام Waltham, بشكل مهيب من قبل وليم أسقف أوف نورويك، وقد ساعده في ذلك عدد كبير آخر من الأساقفة المحترمين والنبلاء، وقد حدث هذا فوراً، إثر تكريس كنيسة القديس بولص في لندن في سبيل أن يعبر الحجاج ثم يعاودوا العبور من الأولى إلى الثانية من دون زيادة تأخير.

استخراج ضريبة بدل الخدمة العسكرية من قبل الملك

في هذا الوقت نفســه أمــر الملك باستخــراج ضريبــة بدل الخدمــة العسكرية من جميع أرجاء انكلترا. وفي هذا العام جرى تثبيت آدم راعي دير ويردون Waredon, أسقفاً على كــونور Connor, وهو كرسي موجود في انكلترا، خاضع إلى المطرانية الأسقفية العـائدة لرئيس أساقفة أرماغ Armagh.

بعض نبلاء إنكلترا يطلبون الإذن بالعودة إلى الوطن

وفي الوقت نفســه، جـاء إلى الملك ايرل بيغــود، وايرل روجـر أوف وينشستر، وعـدد آخر من النبـلاء، واشتكوا إليـه بمـرارة، بأنه جـرهم بشكل غير معقول من بيوتهم إلى المقاطعات النائية لهؤلاء الخونة له، من دون أن يقـدموا إليهم أية مـواسـاة أو مساعـدة، ولذلك عندمـا تراجع الملك الفرنسي مـع جيشه إلى داخل فرنسـا، من أجل تجنيد قـواهم، هم سألوه أيضاً الإذن بالمغادرة والعـودة إلى انكلترا من أجل الغرض نفسه، فسألهم الملك: «هـل الطريق آمن؟» وعلى ذلـك أجـابوا: «إننـا ســوف نسأل»، ثم إنهم طلبــوا ممراً حـراً خــلال فـرنسـا من الملـك الفـرنسي، فمنحهم إياه قـائـلاً: «دعـوهم يغـادرون بحـرية، ويسـافـرون من دون اعتراض خـلال أراضيّ، وأنا آمل أنهم لن يعـودوا مطلقاً، وعندمـا ليم على هذا من قبل نبلائه، قـال: «بودي لو أن جميع أعدائي يرتحلون بعيداً عني، وأن لايعـودوا مطلقاً»، وبناء عليه أخـذ الانكليز طريقهـم بسلام خلال فـرنسا —ليس على كل حـال من دون نيل الأذى من السكان— وعادوا إلى انكلترا، وقـد حدث في حـوالي الوقت نفسه، أن واحـداً من النبلاء الانكليـز، واسمه وليم دي روز Roos, وكان قــد جاء من المناطق الشمالية لانكلترا، لم تتـوفـر لديـه الامكانات للمكوث أية مـدة أطول مع الملك في القارة، ولذلك أمر الملك بتهـور أن تنتزع منه أراضيه من دون حكم صادر عن نظرائـه، وقد بدا هذا إلى الجميع أنه عمل غير

عـادل، وتصرف طغيـاني، لأنه بسبب أن وليم دي روز المذكـور كـان رجـلاً فقيراً، قـال للملك: «تقبل أراضي تحت اسم تعهـد، وامنحني الوسائل لكي أخدم بشكل موائم كفارس، ومن ثم سوف أقيم»، ولدى سماع الايرل رتشارد بهذا الإجراء وبإجـراءات أخرى مماثلة، وجّه اللوم إلى أخيه بحـدة، ونشب خلاف بينهما نتيجة لذلك، وقـد ترك أخاه وهو متألم بروحـه كثيراً، وقـرر العـودة إلى الوطن، ولذلك استـدعى بعض النبلاء، وعمل الاستعدادات من أجل الابحار.

ثم إن الملك، تصرف فجأة بشكل غير حكيم، فـانفجر غاضباً مهدداً ضـد الايرل، ولكي يخفي الايرل عنف أخيـه وغضبه، كظـم مشاعـره، وبقي معـه، ولكن عندما رآه قـد تصرف بشكل مضاد مبـاشرة لنصيحة شعبه، قام مع وليم، الايرل مارشـال، وايرل هارتفورد، وعدد كبير آخر من النبلاء، وتـرك الملك، الذي كان قـد أسلم نفسه تماماً لـرغبات أهل بوردو، مع الغسكونيين، وازدرى نصيحة رعيته الطبيعيين، ولذلك أخذ سفينة وعاد على الفور إلى الوطن، وشغل الملـك نفسه وتمتع بالراحة مع ملكتـه إليـانور، التي جلبت له بنتـاً، فأطال إقـامتـه في بوردو من دون عمل، وبدد أمواله في مختلف الطرق غير النافعة.

المخاطر التي واجهها الايرل رتشارد ورفاقه في البحر

أقلع النبلاء الذين تقـدم ذكرهم في البحر في يوم عيد القـديس لوقا، وبعـدمـا عـانوا من كثير من المخـاطر والعـديـد من الاضطرابات أثناء رحلتهم، وصلوا مع كثير من الصعوبة إلى كورنوول، وبعدما عمل ايرل رتشـارد نذراً بزيارة أحد الديرة من أجل الحفـاظ على حياته، تمّ انقـاذه بعـد صعوبات جمّة من فكي الموت، ونزل على جـزيرة قرب كـورنوول، أما السفن الأخرى، التي كانت قد غادرت الساحل الفرنسي، في الوقت نفسـه الذي غـادرت فيـه سفينة الايرل رتشـارد، فقـد تفـرقت بعنف العاصفة، وحملت إلى شواطىء أخرى.

عاصفة وأمطار غزيرة

في يوم عيد القديس إدموند، من العام نفسه، كان هناك رعد متميز مترافق ببرق، مع نذير شؤم عن وصول عاصفة طويلة، مخيفة للقلوب والآذان للأحياء، ولم يكن الانذار زائفاً، لأنه تبعه أنواء متواصلة في غير وقتها، وبأوضاع للرياح مزعجة ومضطربة، استمرت لعدة أيام، وتساقطت آنذاك أمطار غزيرة جداً، حتى أن نهر التيمز فاض عن حدوده المعتادة، وعن شواطئه القديمة، وأظهر نفسه فوق المنطقة الممتدة نحو لامبث امتداداً حتى ستة أميال، وغمر المنطقة بالطول وبالعرض، واستحوذ على البيوت وعلى الحقول في تلك المنطقة، ونظراً لفيضان المياه، ركب الناس في القاعة الكبرى في ويستمنستر على ظهور الخيول.

إرسال مؤن من إنكلترا إلى الملك

وأرسل الملك في تلك الآونة رسالة إلى رئيس أساقفة يورك، الذي كان وصياً على المملكة، آمراً إياه بارسال القمح الذي نما في أسقفية كانتربري، وفي العزب الأخرى التابعة للأسقفية نفسها، وكانت آنذاك فارغة، إليه إلى بوردو من دون تأخير، ومع القمح لحم خنزير وملح والأشياء الأخرى اللازمة والامدادات من أجل الشتاء، وكذلك أقمشة من أجل صنع ملابس، ونتيجة لذلك جرى ارسال عشرة آلاف عبوة من القمح وكثيراً من لحم الخنزير، إنما وهي مرافقة بمبلغ كبير من المال، وكأن انكلترا كانت بئراً لاينضب.

أوامر غير صحيحة لملك إنكلترا

وأرسل الملك أوامر دقيقة إلى رئيس الأساقفة المذكور، كي يصادر أراضي وممتلكات الذين هجروه على القارة، وتركوه بلادفاع وعرضة لتقلبات الأحداث، وعدهم خونة، وبشكل خاص ممتلكات وليم دي روز، وبعض النبلاء الآخرين، العائدين إلى المناطق الشمالية من انكلترا،

وقد عانى هؤلاء، نتيجة لهذا الأمر من خسارة كبيرة، وكان رئيس الأساقفة على كل حال، رجلاً حكيماً، ومقدراً للأمور، وكان يعرف أنهم ينبغي عدم لومهم، إذا كانوا قد تركوا الملك لبعض الوقت، بعد ابرامه لهدنة، وقد تركوه بسبب الفقر الذي استبد بهم، أو تركوه لكي يستردوا صحتهم، ولذلك لم يرغب، لدى صدور هذه الأوامر الطغيانية، أن يلطخ أخلاقه وسمعته، من أجل رسالة ليست ذات قيمة، بل فضّل أن يتركها تمر بصمت، لاسيما وأن الملك كان مرغماً على الموافقة على المشورة الحكيمة لكل من أخيه الايرل رتشارد، ولرعاياه الآخرين الموثوقين، بأن عليه والأفضل له العودة إلى مملكته، لكنه اختار الكلام الناعم للغسكونيين، وبقي في بوردو مع ملكته وسط سخرية ومزاح الفرنسيين، الأمر الذي لم يكن لمصلحته تماماً، هذا وبقي مع الملك سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر، وايرل وليم أوف سالسبري، وعدد كبير آخر من النبلاء الانكليز، لكن ليس من دون المعاناة من خسائر كبيرة، مع تعريض أنفسهم للأذى، حيث أثقلوا بالديون، وعانوا من جميع أنواع الشدائد، وكانوا يقضون أوقاتهم من دون عمل ونائمين بشكل مهين.

تزايد خزي ملك انكلترا وعاره

وفي الوقت نفسه وصم الملك نفسه بوصمة من غير الممكن إزالتها، بسبب أنه رفض نصيحة مستشاريه الطبيعيين، حيث أذعن مراراً، وبطريقة صديقة تماماً واستجاب لرغبات كونت طولوز، وكذلك لرغبات ملك أراغون، وكانا صديقين هشين من القصب، حيث لم يقدما له في وقت الحاجة أي عمل جيد، لابل بالحري عارضاه ووقفا ضده، فقد كان أولهما هرطقي، وكان الثاني ملطخاً بعار عدم المحافظة على معاهداته وخرقها، لابل إنهما حاولا زرع بذور الخلاف بينه وبين رعاياه الاقطاعيين، لاسيما الايرل سيمون دي مونتفورت، على أساس

الكراهية السالفة لأبيه، الذي كان من قبل قد ألحق هزيمة شديدة، بملك أراغون والألبينيين، ولم يقم الغسكونيون لا الآن، ولا من قبل،لابتدليل ملك انكلترا، ولا بإطرائه، الأمر الذي عندما أخبروا به ملك فرنسا، من أجل أن يفرح لدى سماعه له، قال: «كونوا هادئين، كونوا هادئين، ولاتسخروا منه، أو أن تحاولوا جعلي أكرهه، لأنكم تكرهونه، إن صدقاته وقداساته، سوف تنقذه من جميع المصائب والمخاطر»، ولقد سمعت أيضاً أن رأياً مماثلاً صدر بشأنه عن للويلين، أمير شمالي ويلز، الذي كان عدواً له.

وفاة رتشارد دي بورغ

وفي هذه الآونة نفسها، مات رجل نبيل، هو رتشارد دي بورغ، وكانت لديه أراضي كثيرة وممتلكات في ايرلندا، كان قد ورثها من أعمال التوسع لأبيه المشهور.

موت هيوج دي لاسي

وفي هذا العام نفسه، غادر هيوج دي لاسي هذه الحياة، وكان مقاتلاً صاحب شهرة كبيرة، وحاكماً مشهوراً لشطر كبير من ايرلندا.

روبرت أسقف لنكولن يترجم أناجيل البطاركة الاثني عشر

وفي هذه الآونة أيضاً، ترجم روبرت، أسقف لنكولن، وكان رجلاً بارعاً جداً، إلى اللاتينية، من الاغريقية، ترجمة صحيحة جداً أناجيل البطاركة الاثني عشر، وكانت هذه الأناجيل غير معروفة منذ سنين طويلة، ومخفية من خلال حسد اليهود، لأن النبوءة المتعلقة بمخلصنا موجودة فيهم، لكن الاغريق الذين هم أكثر المتقصين بحثاً من دون ملل عن جميع الكتابات، كانوا أول من علم حول هذا الموضوع، فترجموهم عن العبرية إلى الاغريقية، ولم يكونوا معروفين في أيام القديس جيروم، أو من قبل أي مترجم آخر للكتابات المقدسة، ولم

يصلوا إلى معـرفـة المسيحيين، بأي شكل مـن الأشكال، بسبب الخطط التـآمرية لليهـود، وبناء عليـه، قـام الأسقف المذكور بـالترجمة، يساعـده نيقولا، وكان اغـريقياً، وكاهناً في دير القديـس ألبان، وجاءت الترجمةإلى اللاتينية، واضحة، وكلمة مقابل كلمة، لتلك الرسائل المجيدة، في سبيل تمتين الإيمان المسيحي، ولتسبيب الإرباك الكبير لليهود.

وفاة راعي دير إيفهام

وفي هذه الآونة، أنهى أيامه، راعي دير ايفهـام، وأسقف كوفنتري، في غسكوني، بعـدمـا شغل دوراً كبيراً أسـاسياً في انكلترا، وبعـدمـا أمضى كثيراً من الأيام المجهدة في خدمة الملك، وحدثت وفاته في منطقة اسمها ريغيـولا Regula أو لى ريولي Reole, في اليـوم الثـامن من كانون أول، وتولى أسقف تلك المنطقة دفنه بكل احترام.

وفي هذا العـام نفسـه، في التاسع والعشرين من تشريـن الثاني، مـات جـوسلين، أسقف باث، عن عمـر مديـد، وكان متميـزاً لحيـاته الجديرة بالثناء وأخلاقه.

إنهاك خزينة ملك انكلترا وطلبه المال

وفي هذه الآونة أيضـاً ضلل ملك انكلترا من كل جـانب، أو بالحري خدع من قبل البـواتيين والغسكونيين، وبات فقيراً، وسيء السمعة، لأن بدلات الخدمة، والاستخراجات، وجميع الخزائن والهدايا التي جمعت من أجله، جـرى تبديدها مـن دون فائـدة، فضـلاً عن هذا عاد إلى ممارسـة الاستخـراجـات، وفرض الضرائـب، والطرائق الأخـرى، فبعدمـا فقـد أراضيه وكـرامته في بواتو، وجـد الآن نفسه في غسكوني مثقـلاً بالدين، مع أنه ببدل الخدمة استخرج —لكن ليس من دون مصاعب جمة سببها للانكليـز— ثلاثة ماركـات عن كل بدل، وقال بعضهم لابل استخـرج عشرين شلناً.

الملك يطلب العون من السسترشيان

وفي ذلك الوقت، طلب ملك انكلترا بشكل رسمي، وتقدم بالرجاء بشكل حبي إلى رئيس أساقفة يورك، بأن يقوم رئيس الأساقفة بتوجيه الدعوة إلى جميع رعاة دير طائفة السسترشيان إلى الاجتماع وأن يلقاهم بكلمات لطيفة، وأن يحرضهم وأن يثيرهم للاهتمام بمولاهم وملكهم، الذي كان يحارب في مناطق أجنبية، في سبيل رفع شأن المملكة ومن أجل مصالحها، إلى حد تعريض شخصه إلى حظوظ الحرب المشكوك فيها، ولذلك يتوجب عليهم أن يقدموا إليه خدمة فعالة، بتقديم المال إليه، وبذلك يقدمون إليه معروفاً، ومساعدة قيّمة، وبناء عليه اجتمعوا، وردوا عليه في الاجتماع الأول قائلين: «كم تريد يامولاي»؟ فأجابهم رئيس الأساقفة قائلاً: «قليلاً»، وعندما سأله السسترشيان: «وكم هذا القليل»؟ قال لهم رئيس الأساقفة: «بقدر مايمكن أن تحصلوا عليه من أصوافكم لعام واحد»، مما كان مساوياً إلى قول:

حياتك كلها هي كل ما أطلبه،

والبقية أتركها بين يديك.

لأنه من الذي يمكنه أن يعاني من الحاجة إلى ضروريات الحياة لأيام قليلة، وقد حرم من الضروريات التي تتطلبها الحياة، من الذي يمكنه أن يفعل ذلك دون أن يلفظ أنفاسه؟ لكنها كانت كلمة الملك في فم رئيس الأساقفة.

جواب السسترشيان

وشعر هؤلاء السسترشيان بأن مصيدة قد نصبت إليهم، وأن خسارة وشيكة الوقوع، لذلك أجابوا بحكمة كما يلي:

«مولانا رئيس الأساقفة، نعمتك وحسن تقديرك على دراية بأننا جميعاً

جسد واحد، وأننا لايمكننا الموافقة على الذي طلبته لصالح مولانا الملك من دون إذن الهيئة الرهبانية العامة، علاوة على ذلك، لنفترض أنه جرى الآن عقــد اجتماع للهيئة الكهنوتيـة العــامـة، نحـن نعلم،وأنتم بحكم تقـديركم تعلمون، أنه غير مسمـوح لنا تقديم المسـاعدة إلى أي انسـان، يبـاشر أعمال الحرب، التي فيهـا سفك للدماء، لاسيما الـدماء المسيحيـة، خشيـة أننا بتقـديم مثل هذه المســاعـدة، سـوف ننأى عن أحكام نظام طائفتنا، التي تخاف خـوفاً عظيماً من الدمـاء، لكننا على استعداد لتقـديم العـون إلى مولانا وولي نعمتنا بصلوات مفيـدة ومستمـرة، وبالصدقـات وبأعمال أخـرى مـن التقـوى، وإنه بدون شك علينـا الاعتقـاد، أنه بهذا سـوف يفـوز، وذلك مما لاشك فيـه، كما أنه سـوف ينتصر بشكل مجيـد أكثر، ولسوف يشعر بأن العون اللاهـوتي سوف يمد قضيته بالتقدم، إذا مـا تـابع —كما هو الآن— وظل ثـابتـاً بإيمانـه»، وعلى هذا رد رئيس الأسـاقفـة، وهو منزعج، ومـلامحه مضطربة متبـدلة قائـلاً: «بأي وجـه سـوف تطلبـون أي شيء من الملك وقت الحاجـة، وهو الذي أجبتمـوه بهذه الطريقة الجافيـة، ورددتم على رجائه في هذه الأزمة الهامـة»؟، فقال واحـد من الرعـاة السسترشيان: «مـولانا نحن نتـذكـر، أنه عندمـا توج ملكاً، أقسم أنه سـوف يظهر العدل نحـو كل انسان، ونحن سـوف لن نسأله أي شيء خــارج الطريق العــام، كما أنه لايمكنه، ولايجوز له، أن يحرمنا الذي أقسم على منحه لنا، وعليـه أن يحكمنا بعدل، دون أن ينزل بنا أي ضرر غير قانوني، لكنه إذا أراد، في سبيل صالح روحه، أو أرواح أجداده، ولفائـدة مملكته، أن يضفي أية منفعة خاصـة علينا، سوف نفتح له صدورنا شاكرين لاستلامها».

الرعاة السسترشيان لايعبرون البحر إلى الهيئة الرهبانية العامة

وكـذلك في ذلك العـام، لم يسمح لرعاة الديـرة السسترشيان، بعبـور البحـر، كما أنهم أنفسهم لم يرغبوا أن يفعلوا ذلك، لأنهم خـافـوا خوفـاً

عظيماً من أن تكون هناك مكيدة منصوبة لهم من رجال الملك في البحر، وكأن ذلك بدون معرفة الملك، وذلك بسبب أنهم رفضوا منحه صوف سنتهم، ولذلك اعتذروا عن أنفسهم بأدب، بوساطة أساقفتهم، حتى لايظهروا أنهم كانوا هم السبب.

أوضاع الهواء خلال السنة كلها

وانقضى هذا العام، بعدما وفر كميات كبيرة من الفواكه والخضراوات، وذلك على الرغم من أنه كان جافاً وحاراً، وكان هناك قرب نهايته وباء عام، وحميات ربعية.

ملك انكلترا يبدد وقته في بوردو

في سنة النعمة هذه التي هي السنة ١٢٤٣، والتي هي السنة السابعة والعشرين لحكم الملك هنري، كان الملك نفسه يمضي الشتاء في بوردو، ومكث هناك في حالة بهجة، واستخرجت كونتسة بيارد منه مع ابنها غاستون الغسكونيين المال يومياً، وذلك إلى جانب راتب مفروض، لم يكن تافهاً بالمرة، ولقد استخرجا هذا كله من الملك، الذي كان تحت سلطانهم.

حصار دير فيرني

بينما كانت الأمور تسير على هذا المنوال، ولكي لايكون رجال الملك من دون عمل، جرى اخضاع بلدة لبعض العصاة الغسكونيين في أراضي بوردو، وجاء اخضاعها بالقوة وجعلها تحت سلطان الذين ظلوا مخلصين للملك، وكان هناك دير اسمه دير فيرني Verine, فيه اعتصم العصاة على الملك، حيث حولوا الكنيسة إلى قلعة، أو بالحري إلى كهف لصوص، وجرى حصار هذا الحصن بشدة، وهوجم من قبل خدم الملك المخلصين، لكن من دون نجاح، ووقتها قام واحد من كتّاب الملك، وكان مستشاراً خاصاً لديه، واسمه جون مانسيل، وكان رجلاً

شجاعاً بالحرب، وصاحب روح عالية، قام بتوجيه اللوم إلى المهاجمين، واتهمهم بالتقاعس وإضاعة الوقت، وفي الوقت الذي كان يريد أن يضرب فيه مثلاً للآخرين بالنهوض بشكل أكثر فعالية ضد الأعداء، وكان يرغب في إعداد طريق، قام واحد من المحاصرين، وكان متمركزاً في الجزء الأعلى من الكنيسة، باطلاق حجرة ذات وزن ثقيل نحو الكاتب المذكور، فسحق ساقه مع المفاصل والنخاع في عظامه، وعندما كان الرجل نفسه يعدّ العدة لتحطيم بقية جسده بالحجارة، قام رفاقه والمرتبطين به بإخلاص، فغطوه بأجسادهم، وبترسة كبيرة، اسمها الدرابيء، وهكذا حرروه بصعوبة من خطر الموت، وظل جون هذا نفسه الذي أصيب بجراحة حادة في جسده، لمدة طويلة فاتر الهمة وضعيفاً، غير أنه تعافى بوساطة براعة الجراحين، وبدأ يتنفس، وعندما رأى الملك هذه الشجاعة الكبيرة، وشاهد إخلاصه حوّله من كونه مستشاراً خاصاً له، وعمل من جون المذكور مستشاراً أكثر خصوصية، ذلك أنه استحق بفضائله المبرهن عليها أن يكون صاحب مرتبة بين الأعلين في انكلترا.

رهبان كوفنتري ينتخبون قائد جوقة المرتلين لديهم أسقفاً

وحوالي هذا الوقت نفسه، سمع رهبان كوفنتري رواية مؤكدة عن وفاة راعي دير ايفهام، الذي كان قد عمل بوسائط الملك أسقفاً لشيستر، فانتخبوا وأعلنوا بموافقة عامة، وبوساطة موافقة بعض كهنة لشفيلد، أسقفاً لهم، رئيس جوقة المرتلين لديهم، الذي هو وليم أوف مونتبلر Montpellier, غير أن الملك، الذي كان ناوياً وضع إنسان آخر في ذلك الكرسي، لم يقبل لابالانتخاب ولابالأسقف، ووقف بعض كهنة لشفيلد إلى جانب الملك، وقد أثار هؤلاء على الجانبين خلافاً مرهقاً ونكداً.

ملك انكلترا يشكو من فقره

وفي حوالي الوقت نفسه، ومع اقتراب شهر آذار، قدمت رسائل من ملك انكلترا من المناطق الأجنبية، إلى رئيس أساقفة يورك (الذي مارس في مملكة انكلترا أعمال الحاكم الرئيسي) تحتوي على شكاوى تعيسة، لأن ما من سفينة قدمت إليه، تحمل مساعدات عسكرية أو مساعدات مالية، منذ تاريخ وصول راعي دير ايفهام، الذي تأرجح بوساطة الأمواج العاتية، وبعدما أرهق لعدة أيام فارق هذا العالم، لكن رئيس الأساقفة كان مندهشاً كثيراً تجاه هذا، لأنه كان قد أرسل إليه مالاً، مع كميات كبيرة من الإمدادات والمؤن، ولذلك بات يعتقد بثبات، ويخشى من أن الغضب المنتقم للرب الخالق قد دمرهم وأغرقهم في أعماق البحر، ولذلك أعدّ مؤناً حتى ترسل إلى الملك، مع مال، كان الآن مبلغاً صغيراً جداً.

ولاة الموانىء الخمسة يطلبون المساعدة من رئيس أساقفة يورك

وقدم أيضاً ولاة الموانىء الخمسة إلى رئيس أساقفة يورك، يشكون إليه بشدة، بأنهم قد صدوا الآن ثلاث مرات، ليس من دون خسائر لاتعوض بالرجال، وبالسفن والأشياء الأخرى، وذلك من قبل الناس الذين يواجهون شواطئهم، وبشكل خاص سكان كالي Calais الذين هاجموهم في سبيل النهب، وعلاوة على ذلك أكدوا بشكل يقيني، أنه لا هم أنفسهم، لابل ولا حتى الأسطول الانكليزي كله، يستطيع أن يصمد في وجه الأسطول الذي جرى إعداده من قبل هذا العدو، وأضافوا قائلين: «يتوجب على مجلس الملك الاستعداد والتجهز ضد الخونة الخفيين، وضد الغارات المكشوفة، التي أعدت، وسوف تعدّ ضد أنفسهم، وضدنا نحن، والتي تهدد بأن تصبح كل وقت أكثر إخافة، وأكثر شدة، لأن كونت بريتاني، مع جميع سفن بريتاني وبواتو، قاموا وهم مجهزون بشكل جيد بالرجال والسلاح، بمهاجمة جميع الذاهبين من

جهتنا، ومن عندنا إلى الملك، وكـذلـك جميع المسـافـرين من عند الملك، إلينا، بطريقة عدوانيـة، وحيث أننا بتنا محرومين من جميع المساعدات من الملك، وكذلك من المساعدات الماليـة والعسكرية، فررنا إلى طلب العون من نصيحتكم، لأننا بتنا أنفسنا عاجـزين عن تشكيل رأي، وعلاوة على هذا، وتتـويجاً لاضطراباتنا، نادراً مـايسمـح لنا سكان تخوم نورمـاندي، والذين يحرسون السواحل الأكثر بعـداً، مع قرصان ويزانت Wissant وكـالي، ولو حتى إلى مسـافـة صغيرة، بـالقيـام بأعمال صيـدنا للسمك، والقراصنـة أيضاً الذين يحرسـون أعماق البحار في غـلايين، لايسمحون حتى للمسافـرين بالعودة إلى بلادهـم، كما أن ملك انكلترا محصور الآن في بوردو، وكأنه في سجن، مالم تزودنا حكمتكم بحملة عسكرية بحرية وبكثير من المال».

وعندمـا وصلت هذه الأشيـاء إلى مسـامع رئيس الأسـاقفـة، لم يعـد يتجـــرأ الآن على أن يرسل إلى الملـك السفن المحملة، التـي أصبحت جاهزة، وذكـر للملك بشكل رسمي أنه إذا كان يقـدر نفسه، وممتلكاته، عليـه أن يبـادر بسرعـة إلى تصحيح أخطائـه التي وقع فيهـا، وأن يخرج ناجيـاً من المصائـد التي وقع فيهـا بشكل خياني، وأن يعجل عـودته إلى انكلترا، وقال ممازحاً الملك، عن طريق الاشارة:

السلاح على الأرض، والسفن عند البحر، ونحن نخاف

فبين الاثنين، عليك أن تدير الدفة بحذر

إعاقة انتخاب بابا بسبب الخلافات بين الكرادلة وبقاء الكرسي البابوي شاغراً

وفي الوقت نفســه أبلغ الامبراطور فردريك الكرادلة، الذين كـانوا في مناطق مختلفة، ولكل منهم موقفه، برغبته بضرورة وجوب اجتماعهم مع بعضهم، والقيــام بشكل اجماعي بـانتخـاب بـابا، وأكــد لهم أنه بسبب

غلطتهم قد عـانى شخصياً من ضرر كبير لحق سمعتـه، لأن كثيرين يعتقدون ويؤكدون، من خلال جهلهم بحقيقة الوقائع، بأنه هو كان المعيق الرئيسي لتقدم كنيسة روما، ولمنافعها، وأنه كان السبب في بقاء الكرسي الرسولي شاغراً، لكن الكرادلة الذين لم يروا أدنى بارقة أمل، ولا حتى بصيص نار تحت الرماد، وذلك من خلال مكائد الشيطان، العدو القديم للجنس البشري، لم يكونوا مجمعين في رغباتهم، كما أنهم لم يكونوا راغبين بالاجتماع من أجل انتخاب حبر روماني، وقاموا على كل حال بتقديم الرجاء على الفور إلى مولاهم الامبراطور فردريك، أنه إذا ما رغب في أن يعدّ المحامي عن سلام الكنيسة وحريتها، أن يسمح لأساقفة الكنيسة، الذين مايزال يحتجزهم، بأن يغادروا محررين، تحت أمل أكيد جداً بسلام سعيد.

إطلاق الإمبراطور فردريك سراح النواب البابويين والأساقفة

وبناء عليه، وضع الامبراطور ثقة مطلقة بكلام الكرادلة، ولاعتقاده بثبات بأن بابا سوف يجري اختياره، وأن الكرادلة سوف يكونوا متأكدين بأنه سيكون موائماً لصنع سلام مشرف بين الامبراطورية والبابوية، ولذلك سمح من دون مقابل، للنواب البابويين والأساقفة الذين كانوا مسجونين لديه بالمغادرة أحراراً من دون أية معيقات أو فدية.

بقاء الكرادلة غير قادرين على الإتفاق لانتخاب بابا

لكن الكرادلة بقيوا متصلبين، ومكثوا مختلفين مع وجود كراهية متبادلة، وكأنهم كانوا يتملقون للامبراطور، أو كأن الشيطان قد زرع الخلاف فيما بينهم، لذلك ما برحوا غير راغبين بالاجتماع مع بعضهم، ولهذا توجهوا جميعاً بالدعاء والصلاة إلى نعمة الروح القدس، وأن يزودهم بسعادة وبشكل موائم في سبيل صالح الكنيسة العالمية، وكذلك

الكرسي البابوي، علماً بأنهم عندما أطلق مؤخراً سراحهم من السجن الامبراطوري، قد وعدوا الامبراطور، الذي أطلق سراحهم، أنهم بوساطة البحث الدقيق عن الحق، وبكلمة الصدق، التي هي كلمة الرب، سوف يبذلون غاية جهدهم، للحصول على السلام للكنيسة، وأن يكون ذلك موائماً للامبراطورية، ولمكانة ورفعة الكرسي البابوي.

الإمبراطور يمنح جنوده ممتلكات الكرادلة

وعندما وجد الامبراطور فردريك وعودهم فارغة من التنفيذ، وأنه قد خدع بآماله، شعر بغضب عظيم، ولأنه كان قد حشد جيشاً كبيراً تألف من تسع وحدات، تحتوي كل واحدة على خمسة آلاف من الفرسان، قام بحصار الشطر الأكبر من روما، لمعاقبة المواطنين والكرادلة الذين وضح أنهم فعلة هذا الشقاق وموسعيه إلى حد مدمر للكنيسة وللامبراطورية.

ولكن سكان المدينة الذين بسببهم قرر الامبراطور مهاجمة المدينة، سوغوا أنفسهم بشكل قانوني، وبرهنوا بما فيه الكفاية على براءتهم، وأكدوا بأن الكرادلة كانوا منقسمين في أرواحهم أكثر منه بالجسد، وكانوا موزعين ومتخفين في بلدات مختلفة، وبناء عليه أمر الامبراطور برفع الحصار، وأن يجري نشر المرسوم والأمر التالي في جميع أرجاء الجيش: «تتوجب استباحة جميع ممتلكات وكنائس الكرادلة، وكذلك الممتلكات العائدة للكنيسة، من قبل الجيش».

اجتماع الكرادلة لخوفهم لانتخاب بابا

ثم قام بعض من المسلمين، ولصوص آخرين، مع مقترفين للشرور، كانوا يقاتلون مأجورين لدى الامبراطور بهجوم مفاجىء على مدينة ألبانو المشهورة، واستباحوها بشكل وحشي، وهكذا حدث أنه مابين مائة وخمسين كنيسة، ما من واحدة وفرت، أو تركت من دون استباحة،

وقد سلبوا الأثواب، وكؤوس القربان، والكتب، وفي الحقيقة استولوا على كل شيء ظهر أنه كان ثميناً، أو أن له أية فائدة ومربح، وكان ذلك بعدما نهبوا الناس ومحقوهم بشكل رهيب، وعندما بات الجيش مستعداً للقيام بسلب مشابه للممتلكات الأخرى للكنائس، راسل الكرادلة مولاهم الامبراطور، وتوسلوا إليه بتواضع كي يوقف غضبه، وأن يأمر بايقاف أعمال الاستباحة، حتى يتمكنوا على الفور، تماشياً مع تصوره ورغبته، فيمضون وهم واضعين الرب نصب أعينهم، فيختارون حبراً رومانياً، موائماً للكنيسة وللامبراطورية، وبناء عليه هدأ غضب الامبراطور، وأوقف بموجب مرسوم امبراطوري أعمال السلب والنهب.

استخراج المال من مواطني لندن

وتعرض سكان لندن في هذا الوقت نفسه إلى ضيق شديد، بسبب فرض ضريبة ثقيلة عليهم، أطلق عليها اسم المكس الاقطاعي، وجرت جبايتها على الشكل التالي: قدم الجباة الملكيون والموظفون إلى كذا وكذا من المواطنين، قائلين: «ينبغي أن تقرضوننا كذا وكذا مبلغاً من المال إلى مولانا الملك، الذي يحارب في مناطق أجنبية في سبيل مصالح المملكة، وذلك إلى أن يعود إلى الوطن»، ووفقاً لإرادة هؤلاء الجباة وتقديراتهم، جرد السكان من أموالهم، علماً بأن جميع هذه الأشياء، وأكثر، كان السكان مستعدين عن طواعية لتحمل دفعها لو أنهم رأوا أنها سوف تفيء الملك أو المملكة، ولكن:

عندما يتوقف الجهد والعمل،

تزداد بالفعل مطالبنا.

عقد هدنة بين ملكي إنكلترا وفرنسا

في يوم عيد القديس جورج، جرى تثبيت الهدنة التي كانت قد

أعـدت، وجرت الموافقـة عليهـا بين ملك فـرنسا وملك انكلترا، وجـاء التثبيت من على الجانبين، لمدة خمسـة أعوام، وكان ذلك بوسـاطة تدخل رجال حكماء ومخلصين، كانوا أصدقاء لكلا الطائفتين، وتم الاتفاق على إبقاء كل ما استولى عليه الملك الفرنسي في تلك الحملة، بين يديه، علاوة على ذلك أعيـدت بعض البلدات إلى حكـم الملك الفـرنسي، وهي التي بعـدما عـاد ملك فـرنسا من كـونتيـة بواتو، كـان الملك الانكليزي قـد استـولى عليهن بمسـاعــدة الغسكونيين، ولكي يتم ضمان تنفيـذ هذه المعـاهدة الصعبة في البر وفي البحـر، خـلال ذلك الوقت المحدد، تعهـد ملك انكلترا بأن يدفع باخلاص إلى ملك فـرنسا مبلغ خمسة آلاف باوند استرليني، أي ألف باوند عن كل سنة، غير أن كونت بريتاني، الذي كان رجلاً ماكراً وداهية، تظاهر بأنه كان جاهلاً بجميع هذه الأشياء، وشغل نفسـه بيقظة وفق طرائق القـرصان بالسلب والنهـب فوق سطح البحـر بغـلايينه وسفنه الأخـرى، ولم يرغب بالقدوم إلى الشـاطىء، خشيـة أن تكبح الارادة الملكيـة حملاته الشريرة والمفسـدة، وكـان من الأعمال التي اقترفها بشر كـونت بريتاني المذكـور، الاستيلاء على، ونهب سفينة تجارية كبيرة جـداً تابعة لبيـوني Bayonne, وكانت محملة بالتين واللوز، ومختلف أنواع التوابل، وكـانت متوجهة ومبحرة نحـو انكلترا، وحدث هذا قرب أيام الصوم الكبير، ثم إن ملك فرنسا، كبح —بناء على طلب ملك انكلترا— وأوقف الهجمات الشريرة للكونت المذكور، وذلك تحت تهديد الحرمان من الميراث.

وفاة هوغ دي ألبينت إيرل أرونديل

وفي السابع من أيار، من العام نفسه مات هوغ دي ألبينت Albinet ايرل أرونديل Arundel, وهو في زهرة شبـابـه، حيث أنه كـان بالكـاد قـد اجتـاز حـدود الشبـاب، وقـد دفن في ويمـونـدهام Wymonham, في كنيسة القديسة مريم، وهي رئاسة رهبان عائدة

إلى دير القديس ألبان، وجاء دفنه إلى جانب أبيه، الذي كان راعي تلك الكنيسة ومؤسسها، وإثر موته جرى تقسيم ميراثه النبيل بين أخواته الأربعة.

وفاة هيوبرت دي بيرغ إيرل كنت

وفي الوقت نفسه، في الثاني عشر من أيار، أنهى أيامه ايرل كنت، يعني هيوبرت دي بيرغ، وجاءت وفاته عن عمر طويل، ووفق طريقة تستحق أعظم الثناء، وكان ذلك في عزبته في بانستد Banstead, وذلك بعدما تحمل عدداً من الحملات غير المسوغة والاضطهادات من الملك مع كثير من تقلبات الحظ، وجرى حمل جسده المحترم بكل تقدير إلى لندن لإدخاله إلى بيت الرهبان الدومينيكان، الذين منحهم أثناء حياته كثيراً من الأعطيات، وأشياء أخرى كان من بينها قصره الفخم، الذي لم يكن بعيداً جداً عن قصر الايرل رتشارد في ويستمنستر، والذي اشتراه فيما بعد رئيس أساقفة يورك.

رغبة ملك إنكلترا بالعودة إلى الوطن لكنه منع بسبب ظروف متنوعة

وفي هذه الآونة، رأى مولانا الملك أن الحظ معارض له في كل شيء، واكتشف بأن أتباعه الانكليز المخلصين قد أخبروه الصدق، فعاد إلى نفسه ثانية، مع أن ذلك جاء متأخراً، وندم أنه لم يذعن إلى آرائهم الصحيحة، ولذلك أشار إلى رئيس أساقفة يورك أن يحضر له اسطولاً، عندما يستطيع، وأن يرسله حتى يقابله، لكي يتمكن أثناء سفره من تجنب مصائد أعدائه بشكل فعال، إذا ما صدف وكان أي شيء من هذا القبيل قد أعدّ له، كما أنه أعطى أوامر بوجوب استقباله بسرور من قبل جميع نبلاء انكلترا، على الشاطىء، عندما ينزل إلى اليابسة، وجرى ارسال اسطول كبير لمقابلته، وكانت نتيجة هذا الأمر إفقار نبلاء انكلترا

بشكل تعيس جداً، الذين كانوا ينتظرونه يومياً على شاطىء بورتماوث، ليس من دون تحمل نفقات عالية، والمعاناة من الارهاق والانهاك، لأنه أخر عودته حتى عيد القديس ميكائيل، لأن الملكة كانت مرهقة بالحمل أو بمتاعب أخرى، وعلاوة على ذلك، وجد شعب بوردو، لابل بالحري جميع الغسكونيين، بأن تأخر الملك كان عظيم المنافع لهم، ولذلك كانوا يسعون بكل وسيلة ممكنة، لاقناع الملك لإمضاء الشتاء معهم، وأن يبدد ماله من دون فائدة له شخصياً، سواء المال الذي استخرجه أو سوف يستخرجه من مملكته، المهم أن ذلك مفيد لهم، ولقد حدث على الفور، بعدما كان الملك على وشك مغادرة بوردو، وبعدما كان قد عيّن نيقولا دي مولي Molis, كشخص مناسب ليعمل بمثابة حاكم، وهو الذي يدعونه القهرمان، وبعدما اتخذ جميع الإجراءات الاحترازية من أجل سلامة الأرض، وبعدما أقلع بسفينته، وكان مبحراً في أعماق البحار، متوجهاً نحو انكلترا، نشب خلاف حاد بين الغسكونيين، فجرى استدعاء الملك على وجه السرعة، بوساطة غليون أرسل خلفه، وقد أرغم على العودة، من أجل أن يخمد النزاع الكبير الذي نشب، وهكذا أعيقت رحلته إلى انكلترا بكثير من المعيقات.

نشوب خلاف بين دير كانتربري وأسقف لنكولن

وأثناء مرور هذه الأيام، وبينما كان الملك، كما تقدم وقلنا، كان مايزال في الخارج، نشب خلاف ساخن بين دير كانتربري، وأسقف لنكولن، وقد نشب بسبب مايلي: طالب أحد الكهنة بشكل غير لائق راعي دير بارديني Bardeney بسداد دين، وكان واحد من هؤلاء قد تعاقد عليه مع سلف الراعي نفسه، وعندما نشب خلاف حول هذا، كان هناك رئيس شمامسة لنكولن، وكان يرغب في الحط من مكانة الراعي المذكور الذي كان مرشحاً لمرتبة أسقفية، وكذلك أن ينال من مكانة ديره، المكانة التي تمتع بها رهبان الدير دون أن يؤذيهم

أحداً، ولذلك قال للكاهن المذكور، عندما كان يطالب بسداد الدين المذكور: «تقدم بشكوى إليّ بطريقة جادة وموائمة فيما يتعلق بهذا الضرر الذي عانيت منه، وأنا سوف أتولى اخضاع وتطويع هؤلاء الذين لم يعرفوا الخضوع حتى الآن، أعني خصومك الرهبان، وسوف أسترد جميع الدين إليك، وأستخرجه منهم بالقوة، إذا كان ذلك ضرورياً».

وبناء عليه تبع نصيحة هذا الأرعن المختال، فتقدم بشكوى قاسية ضد راعي الدير ورهبانه بشكل معلن، أمام رئيس الشمامسة، الذي استدعى راعي الدير للظهور أمامه، حتى ضمن امتيازاته، للاستجابة للقانون حول هذا العنوان، وعندما أدرك راعي الدير أن ذلك كان ضد قانون الكنيسة، وضد العرف، تقدم بشكوى استئناف مضادة، ثم إن رئيس الشمامسة عندما وجد نفسه معارض بشكل غير قانوني، استدعى راعي الدير للظهور في مكان آخر، لكن راعي الدير قال: «لا»، مستنداً على شكواه الاستئنافية المتقدمة، لأنه كان عارفاً بأنه كان يتآمر ضده، وكان لايطلب شيئاً سوى حجة من أجل مسخ امتيازه، وتحويله إلى لاشيء، وكانت عدة محاولات قد جرت من قبل، أكدتها هذه المحاولة الأخيرة، جعلته يتأكد أن ذلك كان مقصد عدوه، وقد عرف علاوة على ذلك، أنه إذا ما جرى تقديم هذه الشكوى أمام الأسقف، (وهو ماكان رئيس الشمامسة يسعى بدهاء أن يفعله) فإن الأسقف سوف يكون مؤثراً اخضاع الرهبان، لأنه كان يعدّ مضطهداً عاماً لطوائف النساك، ومعادياً بشكل خاص للامتيازات الممنوحة للرهبان، ولهذا استهدف رئيس الشمامسة الحصول على سبب لتفجير خلاف وصراع، وصنع مصاعب لايمكن لأحد التخلص منها، لذلك تقدم بشكوى حول هذه المعارضة إلى الأسقف، وبناء عليه استدعى الأسقف راعي الدير للاجابة على هذه الشكاوى المضاعفة، لكن راعي الدير ظل ثابتاً باعتماده

على استئنافه المتقدم، فرفض الاستجابة إلى هذا الاستدعاء، ولأنه كان يعرف أن الأسقف سهل الإثارة إلى حد الغضب، وأنه في هذه الحالة سوف يظهر المحاباة لرئيس الشمامسة، وبناء عليه غضب الأسقف غضباً شديداً، وامتلأ حقداً أكثر مما ينبغي، فقام بانزال عقوبة الحرمان الكنسي ضد راعي الدير، في تلك البقعة، وعدّه متمرداً، الأمر الذي تحمله راعي الدير بصبر، حتى لايتعرض في النهاية للعقوبة من أجل العصيان، وبعد مضي عدة أيام أرسل الأسقف مفتشين إلى بارديني، وكانوا مدنيين، وكان الهدف توجيه الاهانة إلى الرهبان، وليس تقويم الذنوب، إذا كان أياً منها موجوداً، ولذلك رفضوا منحهم القبول، لأنهم جاءوا باسم الأسقف، الذي كان عدوهم المكشوف، ولأنهم كانوا مرسلين بشكل شرير، يضاف إلى هذا، لأنهم كانوا مدنيين، وجاهلين تماماً بالأنظمة الديرية، ثم بسبب أن راعيهم، الذي كان رئيسهم وقائدهم، والذي من دونه لايمكنهم اتخاذ أية إجراءات، كان مغلولاً بسلاسل الحرمان الكنسي، بموجب قرار صادر عن الأسقف المذكور، وبناء عليه أصبح المفتشون عرضة للإهانة، لابل حتى عرضة للتهديد، وصاروا معرضين أنفسهم للعنف من قبل الذين أثاروهم، وصدهم البوابون، وبعدما أغلقوا الأبواب قالوا لهم: «نحن نرجوكم بتواضع بالمغادرة بسرعة، قبل أن تتعرضوا للهجوم عليكم من قبل عدد كبير من الساخطين من الناس في هذه المنطقة، فنحن لايمكننا ضبط عنفهم»، ثم إنهم غادروا بعدما عملوا تهديدات وتقدموا بشكاوى حول هذه الأشياء إلى الأسقف، لكن مع مبالغات كبيرة جداً، وقالوا بأنه كان لدى الرهبان رجال مسلحين لمهاجمتهم، وأن خدم الرهبان قد ضربوهم بالهراوات، وبذلك أسرفوا بشكل وقح بتجاوز حدود الصدق، ولذلك أثير غضب الأسقف إلى أبعد الحدود، فهدد بانزال الدمار والفوضى على راعي الدير، وعلى الرهبان، وذلك بقدر ما يمتلك من قدرة، ولذلك أصيب راعي الدير بالحزن، وأخذ يفكر بالذي يمكنه أن يعمل، وبعد التقصي علم بأن دير

كـانتربري يمتلك امتيـاز تلقي وسماع شكاوى الاستئناف أثناء فـراغ الكرسي البابوي، لذلك لجأ إلى هذا العلاج، وتقدم بشكوى حادة حول الأذى الذي تحمله.

وبناء عليـه، قام الأسقف وهو حـانق جداً، فجمع في هارتفـورد آدم أسقف كونور Connor وبعض رعاة الديرة من الطائفـة السوداء، الذين كـانوا في أسقفيتـه، مثل رعـاة رمـزي Ramsey وبيتربورا، وخلع بشكل شائن راعي دير باردني المذكـور، أثناء غيابه، ولأنه لم يكن هناك انسـان آخـر يجيب عنه، وعـدّه مـداناً ومتمـرداً، وادعى بأن راعي الدير لم يسر بشكل نظامي باستئنـافه، ولم يبـدأ بالتقـدم بالشكوى إليـه، فهـو كان أسقفـه، كما أنه أعلم رهبـان باردني بأنهم غير ملزمين بطاعتـه بأي شيء، بل يمكن عدّه وكأنه وضع جانباً وخلع، وذلك بالاضافة إلى كونه محروم كنسياً.

وعندمـا علم دير كـانتربري بأن أسقف لنكولن قـد خـرق امتيـازاته واعتدى عليها بهذه الطـريقة الفاجرة، جمعوا خمسين كـاهناً من الأسقفية المذكورة، وقاموا مع جمع كامل فيـه خمسين راهباً— كاهناً، أو حتى أكثر من ذلك، والشمـوع مشتعلة، والأجراس تقـرع، فحرموا كنسيـاً بشكل مهيب، الأسقف المذكـور، أسقف لنكولن، على أسـاس أنه عـاق، لابل هو متمرد نحو الكنيسة، التي من الواضح هو أسقف فيها، ولكن عندما تسلم الأسقف رسائل هذا الحكم، ألقى بها وهو غـاضب أرضاً، وداس عليها، مما أدهش كثيراً الذين رأوه، لأن صـورة القديس تومـاس كانت مطبوعة على الشمع، وقد وصل غضبه إلى حد الجنون، حتى أنه قال إلى جميع الذين سمعـوه: «أنا لاأريد ولاأطلب بأن يقـوم الرهبـان بالصـلاة بشكل معـاكس مـن أجل نفسي، إلى السرمـدية كلهـا»، وبعــدمـا أثقل الرسـول بكثير من الشتـائم والاهانـات، أمـر باعتقـاله، وكـان خـدمـه مكرهين، وخائفين من فعل هذا، بسبب احترامهم للكهانة (لأن المرسل

كـان كـاهناً) فأمـر بالكاهن نفسه بأن يطرد من البيت، مثل عبـد شرير، أو بالحري لـص من اللصـوص، الأمـر الـذي زاد من دهشـة واستغراب جميع الرجال المستقيمين، والأشخاص المتعلمين، الذين كانوا في الديـر، وبات الحال، إنه لو لم يكـن هناك من سبب، سـوى قيـام الكاهن المذكـور بشكل منطقي باتهام الأسـقف بوضـع أيدي العنف عليـه، لكفى، لكن الأسقف المذكـور أعطى قليلاً من الاهتمام إلى قـرار الرهبـان، لابل استخف به، فلـم يتـوقف عن ممارسـة أعماله الأسقفيـة، وبالقيـام بتكريـس الكنائس، وبالاستمـرار بالقيـام بوظـائفـه وواجبـاته الأسقفيـة، ومن الممكـن أن يكـون القـرار غـير عـادل، لكن رفضـه للبـلاط واستخفافـه بالمحكمـة، كان من الممكن أن يصبح ضـده خطيراً جداً.

الفرنسيون يطالبون بوجوب انتخاب بابا

وأرسل الفرنسيون في الوقت نفسـه رسائل رسمية إلى مجلس الشيوخ الرومان، يـرجونهم بطريقة مقنعـة ولطيفة ويخبرونهم برغبتهم بكـل دقة وفعالية بأن يقوم الكرادلة بشكل نظامي بانتخاب بابا، وأن يتم تجهيزهم بامكانية المداولات من أجل الكنيسـة الكاثوليكية، في سبيل أن يكون لها راعياً يقـدم لها العزاء، وإذا ما ثابروا على إهمالهم، فإنهم سوف يقـومون من دون تأخير بـانتخـاب، وبتأمين حبر حـاكم من هـذا الجانب من الجبـال، وهم سيقومـون بأداء اليمين على طاعتـه، وقـد أعلنوا عن هذا بحـرية، معتمـدين على امتيـاز قـديم، تمثـل بإذعـان القـديس كليمنت، وتسليمه إلى دنس Denis المقـدس رسـولية الشعب الغـربي إليـه، وبناء عليـه نهض الكرادلة، وكأن الإثارة والتشجيع جـاءت من الجانب الأول من قبل السيد الامبراطور، ومن الجهة الثـانية من قبل الفرنسيين، فاجتمعوا مع بعضهم، وقدموا إلى روما، وهناك عقدوا مؤتمراً، وانتخبوا بابا.

رؤية نجوم تساقطت من السماء

وفي العام نفسه، في ٢٦- تموز، كانت السماء صافية تماماً، وكان المناخ نقياً جداً، ولذلك ظهر درب التبانة واضحاً، حسبما اعتاد أن يفعل في أكثر ليالي الشتاء الهادئة، وكان القمر في اليوم الثامن، وفجأة رؤيت نجوم تتساقط من السماء مسرعة، وتنقذف نحو الأمام ونحو الخلف، ولكن على عكس ما يحدث عادة، لم يكن هناك أي شرر اندفع بعدها، حسب عادات النجوم (الأمر الذي ذكر على أنه ظاهرة طبيعية في كتاب أرسطو «الظواهر الجوية»)، أي مثل البرق الذي ينتج بوساطة الرعود، وشوهد في حالة واحدة ثلاثين أو أربعين قد انقذفت أو تساقطت، كما ظهرت نجمتان أو ثلاثة نجوم وهي تطير فوراً في قطار واحد، وعلى هذا إنهم إذا كانوا نجوماً حقيقية (الأمر الذي لايعتقده انسان عاقل) ما من نجم قد بقي في السماء، ما لم يعلن الفلكيون عن ماهية هذا النوع من الأشياء، وعما تنذر به، الأمر الذي يبدو غريباً وإعجازياً لكل من رأوه.

صيرورة السلطة البابوية وانتقالها إلى جماعة الكرادلة أثناء شغور الكرسي البابوي

وفي الوقت الذي كان الزمان يدور فيه، ولأن كثيرين اعتراهم الشك ولم يكونوا متيقنين إلى من صارت السلطات البابوية، أثناء شغور الكرسي البابوي، وهل آلت إلى جماعة الكرادلة، أم لا، نحن نمتلك رواية مؤكدة حول هذه القضية، من الرسالة التالية، التي رأينا أنه من المناسب ادراجها في هذا العمل:

«بوساطة الرحمة الربانية، من كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة: رومانوس أسقف أوستيا، وفيليتري Velleti الأول، الذي له لقب القديس براكسس Praxes, وسينبولد Sinibald الذي له

لقب القديس لورانس في لوسينو Lucino, وستيفن، الذي له لقب القديسة مريم فيما وراء التيبر، والكهنة: رينير Reynier, الذي له لقب القديسة مريم في كوسمدين Cosmedin, وجايلز الذي له لقب القديس كوسماس والقديس دوميان Domian, وأوتو، الذي له لقب القديس نيقولا في سجن توليان، والشمامسة، إلى الرجل المقدس راعي دير ويردون Waredon, صحة بالرب:

بالنيابة عن المعلم بطرس، كاهن كنيسة رئيس الرسل، وقسيس كنيسة موردون Mordon, ابن جيمس جون كابوت Capot, المواطن الروماني، لقد أعلن أمامنا، أنه منذ وقت طويل، منذ أيام مولانا البابا غريغوري، صاحب الذكرى المباركة، قد أثير بوساطة اقتراحات باطلة، فوجّه رسائله إلى أسقف إيلاي، ذاكراً إلى ذلك السيد أو إلى شخص آخر باسمه، بأن عليه عدم تقديم أي حساب عن موارد الكنيسة المتقدمة الذكر، وأن لايسمح بتقديم أي حساب، بل أن يحتفظ بتلك الكنيسة بين يديه، وأن يجمع مواردها ويتمتع بها، وأن يصرفها لصالحه ولسروره، وأن يضبط جميع المعترضين بانزال العقوبات اللاهوتية بحقهم، من دون استئناف.

ولقد قرر البابا المتقدم الذكر، بأنه ينبغي عدّ جميع الرسائل ملغية وفارغة، سواء أتمّ الحصول عليها من الكرسي المقدس، باسم السيد المتقدم الذكر، أو سوف يتم الحصول عليها من الآن فصاعداً، وبذلك ما من واحد ينبغي دعوته لتقديم حساب بموجب قوتهم، وما من واحد أيضاً يمكن أن يعاني من أية إجراءات قضائية بموجب سلطانهم، وإذا كانت أية إجراءات قد بدأت من خلالهم، ينبغي عدها لاغية وفارغة، مالم يعملوا ذكراً كاملاً للمتقدم الذكر، وجرت إنابة عمدة يورك، ورئيس شمامسة ريتشموند للقيام بأداء هذه الأشياء كلها، ولقد قيل بأن الأسقف نفسه، السائر في تنفيذ هذه الوصاية، قد فرض عليك

بوساطة رسـالة، بأنه إذا كان ضمان الكنيسة المتقدمـة الذكر، أو أي جزء منها، صدف ووقع بين يديك، عليك أن تؤمن التخلي عنها وايداعها في بارنول Barnwell, ووضعها تحت وصاية رئيس الرهبان، والحافظ للذخائر للمكـان نفسه، ومنذ ذلك الحين فلاحقاً، عـدم تقديم حساب، ولابشكل من الأشكال إلى السيـد المذكـور، أو إلى أي شخص باسمـه، وذلك فيما يتعلق بمـوارد الكنيسة المتقدمـة الذكر، بل يتـوجب أن تودع هناك، وأن أي حساب يقـدم حول الأمر نفسه، يتـوجب أن يكون وفقاً لرغبات الحبر الأعظم.

وبناء عليـه لقد طلـب منا السيد بطرس المتقـدم الأكبر بتـواضع، أنه يرى أنه غير جـدير، وضـد المنطق، إنزال عقوبة بـواحد بريء كلياً من التهم التي قدمت ضده،إننا سنتلطف برحمة منا بتقديم حل موائم حول هذه القضيـة، ونحن الآن، الذين بين أيدينا راسية السلطة، أثناء شغـور الكرسي الرسـولي، نرغب في تقـديم رعـاية وإحسان خـاص إلى السيـد المتقـدم الذكر من أجل استقـامته، ونأمـركم بدقة، بمـوجب سلطة هذه التقدمـات بأن تقدمـوا ترضية كـاملة إلى السيد المذكـور أو إلى نائبه، أو رسـوله، فيما يتعلق بضمان الكنيسـة المتقـدمـة الذكـر، وأن تأخـذوا منه سلطات الوصاية المتقـدم ذكرها، وأن تقدموا الآن حسـاباً كاملاً، حسبما أنتم ملزمـون، دون الاهتمام بالرسـائل المتقـدم ذكـرها، أو بالاجـراءات القضائيـة التي بدأت حول الموضوع، ولكي لاتعود إلينا وصـايتنا ملغاة وفارغة، ليكن معلومـاً من قبلكم، بأننا أعطينا رسائل إلى رئيس الرهبان الدومينيكان في نـورويك، وإلى بطرس دي آرشي Arche, كـــاهن كنيســة القـــديس أنجليــوس Angelus أوف فيرينتينيـــــــوم Ferentinum, لضبطكم بوسـاطة العقـوبـات اللاهوتيـة، من أجل الغاية أعلاه، فيما إذا كـان ضرورياً، انه سيفعل ذلك. صدر إلخ، في سنة ألف ومـائتين وثلاث وأربعين لتجسيـد الرب، حيث الكرسي الرسـولي شاغراً».

تحدي إيرل التخوم للمبارزة

وفي هذه الآونة، وجـد إيرل التخوم، أن الحظ معاكس له من كل جانب، حيث تم هجرانه كلياً من قبل ملك انكلترا، الذي كان قد تخلى عنه بشكل شرير، كما كـان قد استحق أن يكون مهجوراً من قبل ملك فـرنسـا، ولـذلك تعرض للاتهام بشكل علني، وجـرى تحديه من قبل فارس فرنسي جريء، وكان ذلك بحضور ملـك فرنسا وأخيه ألفونسو، كونت بواتو، ولهذا السبب جرى حجز الايرل المذكور، وكأنه قد وضع في سجن، ومع أن الايـرل المذكـور أنكر بثبـات التهمـة، فإن الجندي المتقدم الذكـر، أقدم على الفـور، وفي الطريقة الفـرنسية المعتـادة، فسلمه قفازه، عـارضاً عليه البرهنة على ذلك بجسده أمـام البلاط، وذلك وفق رغبة البلاط الملكي، طـالباً تقديم العدالة إليه عن طـريق المبارزة، تماشياً مع شريعـة الفـرنسيين، الموافق عليهـا منذ القـديم، والتي أقسم الآن قضائياً عليها من قبل الملك الفرنسي.

وأخذ الايرل القفـاز، بمثابة تعهد بالقتـال، واعداً بالدفـاع عن نفسه بالقتـال ضـد الرجل الذي ألصق تلك التهمـة به، وعندمـا أطلق سراح الابن الأكبر، لايـرل التخـوم، من سجـن الملك، وسمع بهذا، ثارت عاطفته، وقال على الفور متعجبـاً: «إذا كان يرضيك، فإنني سوف أقاتل من أجل أبي، وأبين براءته، ضـد أي انسان في العالم، لأنـه سوف يكون عملاً وحشياً، أن يقوم انسان صاحب سلطة كبيرة، وسن متقدم بالقتال مبارزة»، لكن الفـونسو، كونت بواتو أجاب: «ليس كـذلك، هو سوف يقـاتل من أجل نفسـه، ويظهـر نفسـه بشكل واضح أنه عجـوز مسن، ملطخ بعدد مضاعف من الجرائم».

ثـم جـرى تحديد يوم، ومكـان للقتـال، وبعـد ذلك غـادروا، وبناء عليـه، عـندمـا سمعـت الكونتـسة بهذه الأخبـار المحـزنة، وهي التي كـانـت من قـبل ملـكة انكـلترا، واسـمها ايـزابلا، وكـانت مـدركـة

لكثير من الأعمال السيئة التجأت إلى دير للراهبات في فونتيفرولت Fontevrault, ولكن حتى هناك، في قلايتها السرية، تحت الرداء الديني، لم تكن بالفعل سالمة، لأن عدداً كبيراً من الفرنسيين والبواتيين طاردوها بكراهية لاهوادة فيها، قائلين بأنها يتوجب تسميتها بـ «يزبل» Jezebel الشريرة، وليس بـ «ايزابلا»،لأنها زرعت بذور كثير من الجرائم.

انقاذ الإيرل نفسه من خطر الموت من قبل أصدقائه

وانتشرت الآن الأخبار بسرعة، بأن ايرل التخوم، سوف يقاتل في مبارزة مفردة ضد مبارز جريء، وهو إما سوف ينظف سمعته، أو سوف يعاقب قضائياً، وعندما بدأ الخبر ينتشر بين الأوساط العليا الفرنسية، بأنه سوف يهلك في المبارزة، وسوف يجري اعدامه بموجب القانون الفرنسي، وأنه بالتالي سوف يقوم أولاده، وأقرباؤه بالثورة، ولسوف ينتقمون من مثل هذه الوحشية، ويشكلون مؤامرة لقتل الملك الفرنسي، إما بالسم أو بالتآمر، أو باغتيال مكشوف، أو في جميع الأحوال، الذين سوف يتولون بواتو ويستحوذون عليها سوف يثورون بموجب مثل هذا السبب، من أجل تجديد الحرب، وستتم خسارة الحرب، من دون حذر، مثلما ربحوها تحت حكم ملك ضعيف ولين، ورأوا أن البواتيين متقلبون مثل ديك الأنواء، لذلك حزن أصدقاء الفريقين، وكذلك فعل الرجال المخلصون، ولهذا بذلوا غاية جهودهم للتدخل، وهكذا تمكنوا من تهدئة غضب الملك مع أخيه، بحيث أعطيا التشريف المستحق، وجرى انقاذ القانون، وأظهرت الرحمة، وقاموا بإرضاء المتحدي، وتمكنوا بحسن تصرفهم من تحرير ايرل التخوم من امكانية الوفاة بشكل مهين، وبناء عليه غادر البلاط، وهو مغلول بروابط أقوى مما ارتبط به قط بالسلطات الفرنسية السامية.

الملك الإنكليزي يوقف نفقاته التي بلافائدة

وصار الآن ملك انكلترا، وإن جاء ذلك متأخراً، متأكداً بوساطة كثير من المؤشرات الواضحة، كما أنه تعلم بالتجربة، بأن عليه تجنب دهاء ومكر البواتيين، ولذلك استهدف منذ ذلك الحين فصاعداً، أن يضع في خزانته الخاصة الأموال التي أنفقها بشكل مجنون عليهم في كل عام، لأنه كان قد أعطى سنوياً إلى هؤلاء الذين ضحكوا عليه، لابل ضحكوا عليه واستخفوا به، سبعة آلاف استيرلينية من خزائنه المنهكة، التي زودته بها انكلترا، وتفصيل ذلك: خمسمائة إلى رينالد دي بونز، والمبلغ نفسه إلى وليم رئيس الأساقفة، وأيضاً المبلغ نفسه إلى فيزكونت دي ثوارث Thouars, وإلى عدد كبير آخر من نبلاء بواتو، الذين لاتستحق أسماؤهم الذكر، لابل ولاحتى الكتابة، حتى وصل المبلغ إلى العدد الذي ذكرناه من قبل، وذلك إلى جانب الأعطيات التي منحها إلى كونت دي لى مارشي (الذي دعاه الملك بأبي الأكثر محبة)، والذي نال بالحصص أكثر من جميع البواتيين الآخرين، وبالحصة نفسها تلقى النسبة الأعلى، أما بالنسبة لزوجة الكونت، فقد اعتاد الملك، بسبب الأمومة، أن يقدم إليها أعطيات استثنائية مسرفة بقدر الإمكان، وكانت كل هذه الفوائد التي حصل عليها الملك.

عودة الملك إلى إنكلترا

وفي هذا الوقت أيضاً، وبالتحديد في حوالي عيد القديس رمي Remy, كان ملك انكلترا قد قام بتسوية الذي توجب عليه تسويته في غسكوني، وعهد بحكومة البلاد إلى نيقولا دي مولي، الذي كان جندياً شجاعاً جداً وحكيماً، وذلك بعدما عمل منه قهرمان غسكوني، وبعد هذا أخذ سفينة، وتمتع برحلة جميلة عبر القنال، وعاد إلى انكلترا، فنزل في بورتماوث في الخامس والعشرين من أيلول، وبناء عليه أعلن على الفور إلى رعاة الديرة، وإلى رؤساء الرهبان، بأن عليهم شراء

خيـول، وعـربـات تجر بوسـاطة فـرسين، وخيـالة يسيرون في الأمـام، للإعلان عنه بموجب حقهم الضروري بالمرور، لأنه كان تماماً مجرداً من مثل هذه الأشيـاء، و ذلك من أجل أن يتمكن الانكليـز من أن يعلمـوا مبـاشرة، بوصـول ملكهم، وعندمـا وصل إلى وينكستر، جـاء إلى هناك تقريباً جميع نبلاء انكلترا لاستقبـاله وتحيته، فأعطى أوامر بوجوب تزيين المدينة أثناء دخوله، بالمعلقات، والستائر، والأكاليل، والشموع المشتعلة، وأن على المواطنين استقباله في ثياب العيد، ويتوجب كذلك قرع أجراس المكان بسرور، وعلاوة على ذلك، تدبر الإعلان بوساطة صوت المنادي، وبوساطة أسرع الرسل، بوجوب خـروج أربعة من أكثر المواطنين أهمية، أو البـورجـوازيين من كل مدينة أو منطقـة، لاستقبـاله، وكل منهـم قـد ارتدى ملابس ثمينة، وامتطى على مطية غـالية، وهكذا بناء على أوامره، ومـرسومـه، الذي فرض طاعتـه، أرغم كثيرون على الاسراع من أقصى المناطق الانكليـزيـة لاستقبـاله، ولم يكن ذلك من دون نفقـات عـاليـة ومتـاعب جمة، ولدى وصوله إلى لنـدن، خرج الناس إلى استقبـاله وهـم يرتدون ثيـاب العيـد، ويمتطون خيـولاً هي الأغلى ثمنـاً، وهي مجهـزة حديثاً، ومشوا لاستقباله في مسيرة، وكل واحد منهم يتبارى مع الآخر، ليكون الأول في استقبال الملك آنذاك، الـذي حيوه باحترام، وربح كثيراً بوساطة هداياهم المتنوعة والثمينة، ولدى حلول الاحتفال بعيد القديس إدوارد، أي في الثـالـث عشر من تشرين الأول، أمـر الملـك، بأن يرتدي الرهبـان ثيـابهم اللاهوتيـة، وأن يمشـوا أمـام المسيرة لاستقبـاله، وهـم يحملون كميـات كبيرة جـداً من الشمعـدانـات، وهكذا استقبل بشكل اسطوري وبفخار، وبأبهة كانت مترفة.

انتخاب انوسنت الرابع بابا

وجـرى في هذا العـام أيضـاً، في يوم عيد ميـلاد القـديس يوحنا المعمدان، انتخاب اللورد كـاردينال سينيبولد Sinibald بابا، بعدما

ظل كرسي البابوية شاغراً لمدة سنة وتسعة أشهر، وجرى تكريسه في يوم عيد الرسولين بطرس، وبولص، ومنح اسم انوسنت الرابع، وبعد التكريس قام مباشرة بتثبيت القرار الذي كان قد صدر ضد الامبراطور فردريك، من قبل سلفه غريغوري، وقد عمل بابا في أناغني Anagni، ولذلك انزعج الرومان وامبراطورهم، وكأنهم أصيبوا بجراحة مضاعفة، فاستعدوا لاضطهاد البابا الجديد، والتآمر لنصب المصائد ضده، وصاروا أكثر استعداداً لأن الامبراطور قد اعتمد على انتخاب بابا يكون مواتياً له، ولذلك وضع الامبراطور حراسات يقظة على الطرقات والموانىء، ووزع كذلك الغلايين في البحر، حتى لايتمكن الحاملين للمراسيم الابحار والذهاب مسرورين بالسفر من دون إعاقة، وليس بعد مضي وقت طويل من هذا اعتقل الامبراطور اثنين من رهبان طائفة الفرنسيسكان، وكانا يحملان بشكل سري خبيث —بناء على أوامر من سادتهم— رسائل موجهة لإثارة الحرب بين بعض النبلاء، وبشكل رئيسي ضد الامبراطور، فأمر بشنقهما على الفور.

أعمال عدوانية من الداوية ضدّ الاسبتارية

وفي هذه الأثناء، اضطهد الداوية بحدة الاسبتارية في الأرض المقدسة، إلى حد عدم السماح لهم بحمل موتاهم إلى خارج بيتهم (الذي كان في عكا) من أجل دفنهم، وعلاوة على ذلك، قام الداوية أنفسهم، كراهية منهم للامبراطور، بطرد الرهبان التيوتون التابعين لكنيسة القديسة مريم، ونفيهم من مناطقهم، وبذلك أنزلوا على رؤوسهم غضب الرب، ورفعوا من شأن آراء أعداء الصليب.

ارفضاض اجتماع الهيئة الكهنوتية العامة للسسترشيان

وفي هذه الآونة، وفي التحديد بعد ارفضاض اجتماع الهيئة الكهنوتية للسسترشيان، قدم إلينا رعاة الديرة من اجتماع الهيئة الكهنوتية،

وأخبرونا بشكل صادق بالأخبار التالية، التي أفادت بقدوم ملك فرنسا إليهم، وأنه على عكس عادات الرومان، كتب إليهم —أي إلى الهيئة الكهنوتية— مولاهم البابا، يلتمس منهم بعبارات لطيفة، بأن يقوموا من ذلك الوقت فصاعداً، بتقديم صلواتهم لصالح الكنيسة المتداعية، ومثل هذا أيضاً طلب منهم بعض الكرادلة وبعض الشخصيات الأخرى، الأعطية الثمينة نفسها، أنهم في قتالهم من أجل الرب، يمكنهم خدمة الكنيسة، وبشكل مؤكد أكثر يمتنون وضعهم، ولأنهم يعلمون أن رعاة ديرة تلك الطائفة، قد أعيقوا في العام المنصرم، بسبب الحرب، من القدوم إلى اجتماع الهيئة الكهنوتية، يمكنهم الآن القدوم بأعداد أكبر إلى الاجتماع العام للهيئة الكهنوتية، وقد طلب ملك فرنسا مساعدتهم، وصلواتهم بشكل أكثر اخلاصاً من الآخرين، لأنه تصور، أنه منذ ذهابه إلى الحرب في بواتو، قد ضعفت صحته كثيراً، وأنه فقد كثيراً من نشاطه الجسدي، هذا وأرسل ملك انكلترا لوحده، رسلاً خاصين إلى هناك، طالباً على الفور مساعدات مالية منهم، وكان الرهبان الذي وجدوا هناك من كل طائفة سسترشيان شعب من الشعوب تحت الشمس، فمن هؤلاء جميعاً الذين كانوا حضوراً، استحق الملك الانكليزي لوحده الرفض دون نيل فائدة، لكن مع اضطراب كبير ومضايقة للانكليز الذين كانوا حضوراً، لأنه طلب صوفهم من جميع رعاة الديرة المقيمين في انكلترا.

أسقف لنكولن ورهبان دير كانتربري يرفعون شكواهم إلى البابا

رسالة البابا

أثناء هيجان تلك الأيام، قام أسقف لنكولن من الجانب الأول، ورهبان دير كانتربري من الجانب الآخر، بإرسال رسل خاصين، كانوا كهنة مخلصين، إلى البلاط الروماني، من أجل تسوية النزاع الذي نشب بينهم، وكان القرار الذي جلبوه معهم حول هذا الموضوع هوالتالي:

«من أنوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أبنائه المحبوبين رهبان ورئيس كنيسة كانتربري المسيحية، تحيات ومباركات رسولية:

ذكرت الشكوى التي تقدم بها إلينا أخونا المحترم أسقف لنكولن، بأنكم ادعيتم ممارسة السلطة عليه وعلى الذين تحته، بالدفاع عن قضاياهم وعن استئنافاتهم، وأنكم أيدتم هذا الإدعاء بالمحاججة بأن الادارة القضائية للمطرانية هو عائد إليكم، أثناء شغور كرسي كانتربري، في منطقة كانتربري، وذلك بمشابة امتياز من الكرسي الرسولي، وكذلك من الامتياز العام، وهو الامتياز الذي لم تمارسونه حتى الآن، ونظراً لتصوره لحاق ضرر به، وقيام مصاعب ضده شخصياً، أحال القضية إلى الكرسي الرسولي، حيث من الصعب تقرير إلى من تعود المقاطعة، أثناء شغور الكرسي المطراني، ولقد أمسكتم بهذه الفرصة، واستخدمتموها حسب رغباتكم، فأنزلتم به وبالذين تحته قرارات التعليق والحرمان الكنسي، وبناء عليه التمس منا بتواضع، أن نزوده في هذه القضية بمواساة أبوية، واستجابة، ورغبة منا في منصبنا بتقديم النجدة إلى الأسقف المذكور، وإلى الذين تحته، ولكي لانخرق امتياز انسان آخر، نحن نأمر جماعتكم بموجب الكتابات الرسولية، أن تقوموا خلال ثمانية أيام بعد استلام هذه الرسائل، من دون تسبيب الأذى إلى أي من الطرفين، بسحب القرارات المتقدمة الذكر، في ظل ضمانة مناسبة، وعلاوة على ذلك أعطينا أوامر برسائلنا إلى أخوينا: رئيس أساقفة يورك، وأسقف درم، بأن يقوما على الفور، ومن دون تسبيب الأذى إلى أي من الطائفتين، بحل القرارات المذكورة، وكذلك فيما يتعلق بقضايا الإدعاء، وأيضاً قضايا التملك، وضبط جميع الاستنكارات بوساطة العقوبات اللاهوتية، من دون استئناف. صدر في أناغني في اليوم الثالث والعشرين من آب، في السنة الأولى من بابويتنا».

تثبيت أسقف نورويك أسقفاً لوينكستر

وفي الوقت نفسه جرت تسمية أسقف نورويك لتسلم أسقفية وينكستر، وقام دون المبالاة بمعارضة الملك ومقاومته بالانتقال إلى ذلك الكرسي، وكان ذلك بوساطة البابا، الذي آثره ووجد الحظوة نحوه لديه.

تثبيت بونيفيس في رئاسة أساقفة كانتربري

وفي هذا الوقت بالذات جرى تثبيت بونيفيس، خال الملكة، الذي كان منتخباً لبلي Bellay, ومن شعب بروفانس، تثبيته من قبل البابا، في رئاسة أساقفة كانتربري، وذلك من خلال الضغوط الشديدة للملك، مما أدهش الكثيرين، وفي الحقيقة قام الملك في سبيل أن يجعل رفع بونيفيس إلى رئاسة أساقفة كانتربري أكثر سهولة، بكتابة كتاب، بناء على تحريض من الملكة، حيث أسرف كثيراً في إطرائه ومدح أخلاقه، وعلمه، وكرم بونيفيس المذكور، مع أنه كان غريباً بالنسبة له، ووضع خاتمه عليه، وجعل تقريباً جميع الأساقفة الانكليز يفعلون الشيء نفسه، وكان راعي دير القديس ألبان الوحيد الذي مال الى تجنب تقديم مثل هذه الشهادة الزائفة، ذلك أنه عندما شاهد ختم راعي دير ويستمنستر مثبتاً، قال بأنه لم يكن من المتصرفين بشكل جيد نحوه،لأنه من المؤكد أن راعي دير القديس ألبان هو الأجدر،وذكر امتيازه«على أساس أن القديس ألبان كان أول شهيد في انكلترا، ولذلك فإن راعي ديره هو الأول في الطوائف وفي المرتبة بين جميع رعاة الديرة في انكلترا»ولذلك يتوجب أن يظهر خاتمه أولاً،ولذلك ترك المسألة تمر حتى جرى بحث حولها،وأرسلت هذه الكتابة الى البابا،من أجل أن يكون كامل المعرفة حول فضائل بونيفيس.

استخراج ذهب وفضة من اليهود

وفي حوالي الوقت نفسه استخرج الملك من اليهود التعساء كثيراً،

فـديةكبيرة من الذهب والفضـة، ودون أن نتحـدث عن الآخـرين، استخـرج من يهودي واحـد، هو هرون اليـوركي أربعـة ماركـات من الذهب، وأربعـة آلاف مـارك من الفضـة،وتسلم الملك من كل يهودي سـواء أكان رجـلاً أو امـرأة، الذهب الذي كـان بين يديه، وأصبح هذا من الملك بمثابـة نوع من جمع الضرائب، لكن الفضة جـرى تسلمها من قبل آخـرين لصـالـح الملك،وقـد تسلم هـدايا ثمينة مـن رعـاة الديرة،ورؤساء الرهبـان وفق هذه الطريقة، وكـان إذا لم يعجبه شيئاً ولم يرضـه، يرفضهم، ويستخرج أعطيـات أكثر ثمناً، وأكثـر إرضاء للمقـام الملكي، وكل من رفض، كان لايجده ملكاً، بل طاغية.

انتخاب وولتر أوف سفيلد أسقفاً لنورويك

هذا وعلم رهبان نورويك بتثبيت اللورد دي ريل Raele, الذي كان مرشحاً لأسقفية وينكستر، والذي كان أسقفهم، فاستمطروا النعمة من الروح القـدس، وانتخبـوا بـالاجماع ليكون أسقفـاً لهم، وراعيـاً لأرواحهم المعلـم وولتر أوف سفيلد Suffield, وكـان رجـلاً صـاحب علـم كبير، ومتميـزاً في أخـلاقـه، وبسمعتـه، وبأصله وجـرى تقديمه أصـولياً إلى الملك، وكما جرت العادة أعطى الملك مـوافقته لكل من المنتخب والانتخـاب، لأنه لم يكن هنـاك من سبب للاعتراض، ومع ذلك أجـل لبعض الـوقت منـح خطواتـه الكاملـة، وذلك حتـى يصبح متأكداً بمعلوماته حول تثبيت أسقف وينكستر.

وصول رائع لبيترايس كونتسة بروفانس

وفي حـوالي الوقت نفسـه، أي في الأول من كـانون الثـاني، نزلت في دوفر بيترايس كـونتسة بروفـانس، وأم ملكتي انكلترا، وفرنسـا، وكانت امرأة ذات طلعة بهية، وحكيمة ومتحضرة، وجاء قدومها بناء على دعوة من الملك، الذي دفع نفقـات رحلتهـا، وقدمت في أبهة عظيمـة مع كثير

من الاحتفالات الفاخرة، ومضى كثير من النبلاء الانكليز لاستقبالها وذلك بموجب أوامر الملك، وجاء ذلك على شاطيء البحر، من أجل تجنب كل تأخر مختلف عليه، وفي ثمانية عيد القديس-مارتن، وهو التاريخ الذي كان من المتوقع وقتها لوصول الكونتسة المذكورة إلى لندن، أمر الملك بوجوب تزيين مدينة لندن بالمعلقات، والستائر، وبمختلف أنواع التزيينات الأخرى، وذلك شروعاً من الجسر إلى ويستمنستر، وأن يزال من أمام ناظري العابرين خلال المدينة المعيقات من الأخشاب، والطين، والأوساخ، وجميع أنواع المعيقات، وقد جلبت معها ابنتها سينشيا، حتى تتحد بالزواج بالايرل رتشارد، وجرى ارغام كثير من النبلاء من قبل الملك، على القدوم من المناطق النائية للمملكة، لابل حتى من الأجزاء القائمة على حدود سكوتلندا، لاستقبالها وهي على طريقها.

موت رالف تشينديوت

ولفظ في اليوم نفسه روحه رادولف تشينديوت Cheinduit الذي كان المضطهد القاسي والذي لايعرف الملل، لكنيسة القديس ألبان، والمغتصب الوقح لامتيازاتها لمدة ثلاثة أعوام، وأنا أقول هذا لأن جميع الأتباع المؤمنين بالمسيح تمكنوا أن يروا بينة المعجزة، والانتقام العادل، الذي أنزل به ألبان الشهيد الرائد لانكلترا، وفي الحقيقة، بعد بقائه لمدة ثلاثة أعوام تحت العقوبة، ولأنه بوقاحة استخف بمفاتيح الكنيسة، وقام وهو في قصر ويستمنستر، وهو يهز رأسه بطراً، فقال لكثيرين كانوا قد اجتمعوا هناك: «ها، ماالذي تقولونه حول رهبان القديس ألبان؟ إيه، ماالذي تقولونه حولهم؟ لقد حرموني كنسياً منذ وقت طويل، مراراً وبشكل فعال، إلى حد أنني الآن أفضل حالاً بسبب ذلك، ووضعي جيد،وقوي وثابت، حتى أنه يصعب عليّ القعود في سرج فرسي، عندما أركب على ظهره»،وما أن كاد ينهي كلامه حتى

أصيب فجأة بالضعف وبفقدان القوة، وصار في وضع ميئوس منه، ولايكاد يستطيع التنفس، وقد حمل إلى البيت، وهو على وشك لفظ أنفاسه وأظهرت الحشرجة التي تقدم على الموت نفسها، وقتها أظهر اللطف العظيم للشهيد القديس ألبان نفسه، ففرض بمشيئة الرب، الذي لايرغب بهلاك أي انسان، قبل أن يهتدي، أن تمكن رالف من التنهد بعمق، وأمر بأن يدعى بسرعة كبيرة بعض الرهبان، الذين كان يعرفهم أكثر من الآخرين، حتى يخضع لإرادتهم، وليقدم لهم ترضية كاملة عن الاعتداءات التي هو مجرم بها نحوهم، الأمر الذي تقبلوه بكل صلاح، من أجل أنه إذا مات، لايسقط في متاهة اليأس ولكي لايهلك بذلك وهو مدان وملعون، بسبب جرائمه، وقد منحوه منفعة التحليل، عندما وعد بعمل تكفير عن الأذى وعن الشرور التي اقترفت من قبله، ومثل هذا أيضاً عانى قليلاً أيضاً عدد من الآخرين، كان من بينهم فرسان أقوياء، ومغتصبين، ومزعجين، معتدين على امتيازات كنيسة الشهيد المذكور، كما عانى آخرون من عقوبات أكثر شدة بوساطة حكم الانتقام الاعجازي،ويمكنني أن أضرب مثلاً بألان دي بيكل Alan de Beccles رئيس شهامسة نورويك، وآدم بن وليم المسؤول عن مقعد العدالة الذي أصيب بموت مفاجيء.

وفي العام نفسه، في يوم عيد القديس كليمنت، اقترن الايرل رتشارد بزوجته سينشيا، ابنه ريموند كونت بروفانس، وأخت الملكة، وكان ذلك في ويستمنستر، وكان هناك احتفال عرس بهيج، واحتفال عظيم بين الضيوف من النبلاء، حيث مامن شيء كان من الممكن مقارنته بفخامة العناية بالضيوف، وسوف يحتاج ذلك إلى رسالة طويلة وشاقة لوصف ذلك، ومن الممكن لي تلخيص الكثير من الأقوال ببضع كلمات، فقد كان في مكان الطبخ ثلاثين ألف صحن كانوا جاهزين لتقديمهم إلى الذين جلسوا وراء الموائد للطعام، وجرى عرض أكثر العروض روعة

بحضـور الملك، والايـرل العـريس الجديد، والملكـة واختهـا سينثيـا Cynthia, التي كـانت عروسـة شابة، وقـد جرى تغيير اسمهـا إلى سينشيـا، وبيترايس كونتسـة بروفانس، وشخصيـات نبيلة أخرى،كـانت أكثـر من أن تعـدّ، وكـانت في الوقت نفسـه أعين المشـاهدين وعقـولهم مفتـونة بسرور أمـام أبهة دنيـوية لم يسمع بمثلهـا من قبل، فقـد جـرى عـرض كل نوع من أنـواع المبـاهج والمجـد، في أشكال الناس المغنين المرحين، وأنواع ملابسهم المتنوعة، وعدد الصحون، وحشود المحتفلين، ولكن هذه كلها جاءت برهاناً كيف أن مثل هذه المسرات زائلة وعبثية، وكم هو غير مشرق ومخادع في هذا العـالم، وذلك عندمـا ينقشـع فجـر اليوم التالي، وتكون هذه الأعمال المتنوعة مثل سحابة عابرة.

منع أسقف وينكستر من الدخول إلى مدينته

وفي هذه الأيام كانت عـلاقات الملك سيئة مع وليم دي ريل، أسقف وينكستر، لأنه تصرف بذاته، وكأنه كان أسقفـاً حقيقياً، ونظر إليه وكأنه كـان كـذلك، وهكـذا دعي، إلاّ من قبل بعض الرهبـان في وينكستر، ولذلك رفض الملك قبوله لنيل القبلة، أو لاستقباله بأية تحيـات صديقة، ومع ذلك فإن هذا الـرجل بعـد وصـوله من المناطـق الأجنبيـة، جـرى الاحتفاء به بالتهـاني المدنية، وبالتحيات، وسلم عليـه جميع نبلاء انكلترا تقريبـاً، وخاصة الأسـاقفة بقبلة، وأقـاموا محادثات مقبولة معـه، وشعر الأسقف بنذير سوء من هذا العمل، ورأى الأسقف بوضوح مثل ضوء النهـار، بأن غضب الملك المتجذر، قـد ازداد قسـوة، وتحول إلى كراهيـة دائمة، فأخفى نفسه بين أصدقـائه، الذين اعتقد بأنهم يميلون لأن ينالوا حظوة البـلاط، وذلك حتى يـزوره اليـوم الذي سـوف ينبع من عليين، وغضب الملك قـد تلاشى، لكن الملك ثابـر على غضبه، وأقـام مـراقبـة دقيقـة على عزب الأسقف، وبذلك بوسـاطة مـوظفيه، الذين كما كـانت عادتهم، تجاوزوا كثيراً أوامر الملك في إلحاق الأضرار وسوء معاملة أهل

الأسقفية، بكل نوع من أنواع الإذلال، وكانوا فقط متشوقين لنيل الربح لأنفسهم، وعندما قدم الأسقف المتقدم الذكر لزيارة الكنيسة الكاتدرائية في وينكستر، ورغب بدخول تلك المدينة، أمر الملك بحراسة الأبواب بدقة، وقام رئيس رهبان وينكستر —لو أنه استحق أن ينظر إليه على أنه رئيس رهبان، أو أن يدعى بمثل هذا الاسم— بصحبة شطر كبير من الرهبان بعمل تآمري، ورفعوا كعبهم ضد أسقفهم، حيث أكدوا بشكل معلن، أن كل من يقدم له عوناً أو نصيحة، سوف يعدّ عدواً مكشوفاً لمولانا الملك، ولسوف ينال عقوبة حادة لقيامه بذلك، ولذلك كان هناك انشقاق بين كل من الرهبان، ورجال الدين العلمانيين، ونشب صراع شديد، وصل إلى حد سفك الدماء،

موت رئيس رهبان وينكستر

لفظ هذا الرجل التعيس، الذي حمل المظهر الخارجي لرجل دين، وصار يدعى رئيس رهبان بناء على أوامر الملك، وذلك بهدف الاشراف على عدد كبير جداً من الرهبان، الآن أنفاسه، في وسط هذه الاضطرابات التي أثارها.

زيادة الملك يومياً من اضطهاد أسقف وينكستر

ولم يكن من الممكن ضبط الملك بأي تقدير مهما كان نوعه، بل تابع مساقاً بإرادته، واستمر في إلقاء يده أثقل فأثقل على الأسقف، وعلى ممتلكات كرسيه، وأعلن علانية بأنه لايجوز لانسان تقديم الرعاية لبيت وليم دي ريل، الذي ادعى بشكل زائف (هكذا قال) فجعل الناس تحييه بمثابة أسقف لوينكستر، كما منع الناس من التعامل معه، أو تزويده حتى بالضرورات الحياتية من أطعمة، وأعلن أن أي انسان سوف يساعده بمثل هذه الطريقة، سوف يعدّ بمثابة عدو للملك وللبلاد، كما أرسل الملك رسائل إلى أكسفورد، لتشويه سمعة الأسقف

نفسه في أعين الجامعة، وأكد أنه حصل على موافقة بوساطة تصريحات زائفة من مولانا البابا، بوجوب تسميته لأسقفية وينكستر ونقله إليها، وأن الملك سوف يكشف، وسوف يبرهن بوضوح، ويعرض جميع أعمال الخداع التي مارسها أمام البلاط الروماني، وأمام مملكة انكلترا، وكي يثبت هذا، أحضر بعض المستدربين الرومان ليكونوا مراسلين له لحمل رسالته هذه، كما أمر بمصادرة أسقفية نورويك، حتى يحرم الأسقف المتقدم الذكر من جميع سبل المواساة، ويصبح محاصراً من كل جانب، وعلاوة على ذلك، أرسل مولانا الملك إلى البلاط الروماني ضد الأسقف المتقدم الذكر: ثيوبولد، وكان راهباً من ويستمنستر، ورئيس رهبان هيرلي Hurley، وأيضاً المعلم الاسكندر، وكان محامياً كنيته المدني، بقصد أن يقوم هذان الاثنان، بوساطة التوسل، أو بوساطة الرشوة، أو بأي طريقة أخرى بقدرتهما، حتى يتمكنا من خلع الأسقف من وظائفه ومناصبه.

وضع مدينة وينكستر تحت الحرمان من شراكة المؤمنين

ووصل في الوقت نفسه الأسقف وهو حافي القدمين، وبلباس متواضع إلى واحد من أبواب المدينة، ثم انتقل بعد ذلك إلى الأبواب الأخرى في خارج المدينة، وطلب السماح له بالدخول إلى كنيسته، لأنه وجد لدى وصوله أن جميع الأبواب قد أغلقت ضده، وواجهه عمدة المدينة وتصدى له مع ضباط الملك، وبوقاحة رفضوا السماح له بالدخول، وعلاوة على ذلك أضافوا إهانة إلى إهانة، وعند ذلك تفوه الأسقف بقرار الحرمان من شراكة المؤمنين على المدينة، وعلى الكنيسة الكاتدرائية، وعلى الكنائس الأخرى، وغلّ بالوقت نفسه بأغلال عقوبة التكفير المرعبة جميع الرهبان الذين يتبعون رئيس الرهبان المذكور أو يؤيدونه، وطعنهم بذلك ومعهم الملك.

خسارة الامبراطور مدينة فيتربو وأماكن أخرى في الأحواز

جعلت أعمال الظلم، التي مورست في ذلك الحين، من قبل رجال الملك، على سكان فيتربو، تلك المدينة مع المنطقة المحيطة بها، تقرر التحول إلى الرومان الذين أيدوا البابا، وتحت ثقل الظلم، ونير عبودية غير معتادة،وشدة المعاناة تحولوا بأنفسهم وبمدينتهم، وانتقلوا إلى الحزب الآخر، ولجأوا إلى الكاردينال رينير دي فيتربو، حتى يقدم إليهم العون والمشورة من أجل أن يتمكنوا من الدخول بتحالف مع الرومان، ونسوا جميع الخلافات القديمة، وصاروا شعباً واحداً، حتى يكونوا أقوى للثورة ضد أعدائهم، وحولوا أنفسهم بشكل أكثر ضماناً وانتقلوا من الأسى الامبراطوري، بوساطة تجنبه على هذه الصورة، وحدث بناء عليه من خلال عمل متواصل وجهد كبير قام به رينير المذكور، فحاك مؤامرة يجري تنفيذها فوراً وبشكل سري، وبموجبها وصل الرومان بأعداد كبيرة، واعتقلوا بحسن تدبر جميع الحرس الامبراطوري، واقتادوهم، بعدما اتخذوهم أسرى، عائدين إلى روما، حتى يسجنوا هناك، وأبرمت معاهدة بين الرومان، وبين شعب فيتربو، وأحلوا محل الاداريين القضائيين الامبراطوريين أناساً من قومهم، أي من الرومان ومن أهل فيتربو، وكذلك فعلوا بالنسبة للأبراج والقلاع والأماكن الحصينة، وهكذا بات الرومان في عدائهم للامبراطور فيتربويين، والفيتربويين روماناً.

وعندما سمع الامبراطور بهذا اغتاظ كثيراً، ومضى مسرعاً مع قوة مسلحة كبيرة، وحاول طم الخنادق بالبراميل، والأعشاب، وقطع الأخشاب، وأكوام التراب، وأراد شق طريقه بالقوة، حتى يتمكن على الفور من قتل جميع السكان، وشاهد السكان من الأعلى ما كان يقوم به، وماهو عازم عليه، فصدوه بفعالية، ومنعوا من الداخل أعداءهم وأحبطوا محاولاتهم، هذا من الداخل، أما من الخارج، فقد وصل الرومان بأعداد كبيرة، وتمكنوا بقوة من إحباط محاولات الامبراطور،

وكانت هناك معركة، سقط فيها كثيرون من جانب الامبراطور، وكان هناك عسكري مشهور من جانب الامبراطور، كان مزيناً بدروع خاصة، فهلك بشكل تعيس، مما سبب حزناً كبيراً للامبراطور، ذلك أنه أصيب برمية قوس زيار، وارتفع تهليل وصراخ أعدائه لسقوطه، وصرخوا بسرور، ظانين أنهم قتلوا الامبراطور نفســه، لكن الامبراطور زحف تتقدمه أبواقه، وتمكن بصعوبة من تخليص جيشه من أيدي أعدائه الغاضبين، الذين كانوا قد زحفوا ضده، بشكل غير متوقع، ثم إنه انكفأ، وتراجع نحو بيزا، ليجند قواته، علّه يصبح أقوى، من أجل مهاجمة العصاة، لكن الذين سكنوا في تلك الأحواز والمناطق، عندما شاهدوا التراجع المهين للامبراطور، مع الخسائر الكبيرة، بالرجال وبالأملاك، ومع العار، تخلى كثير منهم عن ولائهم له، وتحالفوا مع الروماني والفيتربويين، وذلك وفقاً لقول الشاعر:

الرعاع المتقلّبون يتبدلون دوماً مع الأمير

اظلام شهرة الامبراطور

ولهذا تناقصت شهــرة الامبراطور بسبب هذه الحادثة كثيراً، لأن كونت سيمون أوف توسكانيا، الذي إليه كان قد أسند المسؤولية عن فيتربو مع ثقة كاملة، قد حمل مع رفاقه، كما ذكرنا من قبل، واقتيد أسيراً إلى روما، وتمّ فقدان مدينة فيتربو نفسها بالاضافة إلى بعض البلدات والقلاع في الجوار، والامبراطور نفسه أرغم تقريباً على الفرار، فكان أن تلطخت سمعته، وقد أشيع من حوله أنه لم يتنازل بعد ذلك لحضور القداسات، وأنه لم يعد يصلي، أو يعامل اللاهوتين باحترام، ولم يعد يراعي الإيمان الكاثوليكي بشكل صحيح سواء في الممارسة، أو بكلماته، وأن له علاقات حميمة وجنسية مع امرأة مسلمة، وأنه قد دعا مسلمين، وكذلك كفاراً آخرين إلى امبراطوريته، وسمح لهم ببناء مدن محصنة.

كثير من النبلاء يتخلون عن الامبراطور

ولذلك تخلى عن الامبراطور عدد كبير من النبلاء الحكماء والأقوياء، مثل: مركيز دي مونتفرات، ومركيز مالاسبينا Malaspina, وفيرسيلي Vercelli, وألسندريا Alessandria, وعدد كبير من نبلاء المدن، وعلى هذا تضاعف أعداؤه، لأن الناس اعتادوا فقط على اتباع أصحاب الحظ، وفي ألمانيا أيضاً، تخلى كثيرون عن قضيته، ولم يرغبوا بالاستمرار بأن يكونوا من رعاياه المخلصين، فاختاروا لأنفسهم ملكاً آخر، أو امبراطوراً، هو اللاندغريف، وكان رجلاً شجاعاً وصاحب مكانة عالية، وإليه وعدت ألمانيا والشطر الأكبر والأعظم الأقوى من إيطاليا، بتقديم العون والرأي، من دون كلل أو ملل، إلى حد عرض حياتهم وتقديمها في خدمته.

تصرف الامبراطور في أزمته

وتصرف الامبراطور نحو هذه المخاطر بعقل عميق التفكير، وعهد بقيادة جيشه إلى واحد من أقرب أصدقائه إليه، ولم يخبر أحداً بالضرورات التي دعت لاتخاذ مثل هذه الخطوة المفاجئة، وبسرعة أدار توجهه إلى هناك، وكان على ثقة كبيرة، لأن اللاندغريف المذكور لم يكن قد وافق تماماً على الانتخاب المتقدم الذكر، لابل إنه لم يعطهم حتى موافقته، وأكثر من هذا هو لم يعطهم حتى جوابه، لأنه كان مرتبطاً بالامبراطور، ويمقت مغالطات البلاط الروماني، ولذلك وصل الامبراطور إليه، واستدعاه بشكل حبي وسري إلى مكان آمن، ودخلا في نقاش متبادل، وبحوار صديق، وتصافحا قبل أن يفترقا، ودخلا في تحالف، وبذلك صار اللاندغريف وتحول من كونه مشكوكاً به إلى الصديق الأعظم ثقة، وأعلن بشكل مكشوف إلى جميع الذين انتخبوه، أنه لايمكنه ولابأي شكل من الأشكال الموافقة على مثل هذا العمل السريع والطائش، وبعدما أنهى الامبراطور هذه القضية وسواها بها

يرضيه تماماً عاد إلى جيشه، بالحكمة نفسها، التي غادره بها.

إذلال الامبراطور

وارتفع شأن الذين كرهوا الامبراطور، وفرحوا، واعتلاهم السرور كثيراً تجاه الخسائر التي عانى منها، وهي الخسائر التي أتينا أعلاه على ذكر تفاصيلها وتعدادها، ولذلك تعرض الامبراطور في تلك الأثناء إلى قليل من الإذلال، وذلك وفقاً لقول النبي: «املأ وجوههم بالعار حتى يمكن أن يلتمسوا اسمك يارب»، ولذلك تدخل رجال نبلاء على درجة عالية من الحكمة، وعملوا بيقظة وبشكل متواصل، وشغلوا أنفسهم في سبيل إعادة تأسيس السلام بين الكنيسة وبين الامبراطور، لكن الامبراطور رفض ولم يقبل بأي شكل من الأشكال أن يقسم على اخضاع نفسه تماماً للعقوبات اللاهوتية، مالم يجري الاصغاء إلى مناقشاته، ويتم ايضاح الطريق أمامه، مع شرح جميع الشروط، أو التخلي عن الذي استحوذ عليه، كيفما كانت طريقة الاستحواذ، وذلك فيما يتعلق بالامتيازات القديمة للامبراطورية، وهكذا تجدد الخلاف ثانية بوساطة بدع عدو الجنس البشري، وفي تلك الآونة، عمل أوتو، الذي كان كاردينالاً بلقب القديس نيقولا في سجن توليان، والذي كان نائباً بابوياً في انكلترا، عمل أسقفاً لبورتو Porto.

رسالة مرعبة حول وحشية التتار

وفي الوقت نفسه، جرى ارسال الرسالة التالية، إلى رئيس أساقفة بوردو، وهي مرعبة كثيراً حتى إلى أكثر الناس شجاعة، وتتوافق الرسالة في كثير من الأمور مع الرسالة الامبراطورية التي جرى إرسالها إلى كثير من الملوك المسيحيين، فيما يتعلق بالدمار المريع الذي أحدثه القوم غير الانسانيين، الذين يدعون باسم التتار، وقد ورد اسمهم في هذه الرسالة باسم التاتار أو التتر.

«إلى جيرالد، الذي هو بنعمة الرب رئيس أساقفة بوردو، لقد جرت تسميتك من قبل نربوني Narbonnes كان من قبل أدنى كهنتك، صحة وقوة تتحول إلى مواهب الذين عهد بهم إليه:

إن أرواح غير العابئين المشغولين بالشؤون الأرضية، غير مهتمة بتهديدات العدالة الربانية، ولم يدخل الرعب إلى قلوبها العنيدة، حتى تطعن بوساطة قرار بالإدانة المرعبة، لأنني أعجب عندما يجري تهديد المسيحيين بمثل هذا الافناء والمحق، والعناد مسيطر بشكل عام على الملوك وعلى بقية رجال السلطة على الأرض، وكيف أنت الذي قيل بأن لديك غيرة من أجل الرب، لم تحاول تحريك القلوب المتصلبة بموجب ثقل نفوذك، وأنت ترى كثيراً من الناس العقلاء سوف يلتزمون بسلطتك ويؤمنون بكلامك، والخبرة وحدها تظهر مدى عظم المخاطر التي تهدد المسيحيين من خلال غزو التتار، لأن وصف وحشية ودهاء ذلك الشعب هي حقيقة غير مشوهة بذاتها ولايمكن أن تكون كذباً، ولسوف نخبركم باختصار عن عاداتهم الشريرة، ولسوف لن أذكر شيئاً هو مشكوك به، أو مجرد رأي، بل الذي سأذكره هو المبرهن عليه بكل تأكيد، وهو الذي أنا أعرفه.

وسلف من قبل أن اتهمتُ —كما تعلم— من قبل منافسي، بتهمة هرطقة الفسوق، بحضور روبرت كورزون Curzun, النائب البابوي للبلاط الروماني، من دون تمحيص بالضمير، ولقد انزعجت كثيراً بسبب دناءة التهمة، ورفضتُ هذا الحكم، وغدوتُ لهذا السبب هدفاً للمزيد من الريبة، ولذلك عندما سمعتُ بتهديدات ذلك الرجل صاحب السلطة، هربت من وجه المضطهد، وأرغمتُ على الارتحال والسفر إلى كثير من البلدان، وتفوهت بشكايتي إلى البيترنيين Peterinians, الذين سكنوا في مدينة كوما، وكيف أنني بسبب عقيدتهم التي —يشهد الرب— أنني لم أتعلمها قط، أو اتبعتها، إنني

الآن في المنفى، بسبب قرار حكم صدر ضدي، ولقد فرحوا لسماعهم هذا، وقالوا بأنني أستحق الحسد، لأنني عانيتُ من الاضطهاد في سبيل الاستقامة، وجرت استضافتي بينهم هناك لمدة ثلاثة أشهر في شهوانية وفخامة، وأصغيتُ في كل يوم بصمت إلى كثير من الأخطاء، أو بالحري الآثام المرعبة، التي تفوهوا بها ضد الايمان الرسولي، وقد ربطوني إليهم بإحسانهم ولطفهم حتى أنني وعدت من ذلك الحين، بأنني سوف أسعى لاقناع المسيحيين، الذين سوف تكون لي أحاديث جدية معهم، بأن ما من أحد يمكن انقاذه بإيمان بطرس، وبأنني سوف أثابر بجرأة بالتبشير بهذه العقيدة، وعندما وعدتهم بكلمتي متعهداً بشرفي، بأن أفعل هذا، بدأوا يكشفون لي أسرارهم وأخبروني بأنهم أرسلوا من جميع مدن لومبارديا تقريباً مع بعض من توسكانيا، طلاباً باحثين أكفاء إلى باريس، بعضهم لدراسة المسائل المعقدة للمنطق، وآخرين لدراسة المقالات اللاهوتية، من أجل الحفاظ على أخطائهم، ونقض قواعد الإيمان الرسولي، وللغاية نفسها أرسلوا كثيراً من التجار إلى الأسواق، لحرف الأغنياء من العلمانيين، وكذلك رفاقهم على الموائد، ومضيفيهم الذين امتلكوا فرصة للحديث معهم بود، وبذلك قاموا بمقايضات مضاعفة، فحصلوا من هذا على أموال الآخرين، ووضعوها بين أيديهم، وجمعوا في الوقت نفسه أنفساً لصالح المسيح الدجال، وحصلت أخيراً على إذن بالمغادرة من عند هؤلاء الرهبان المرتدين، وأرسلت من قبلهم إلى ميلان، حتى تجري استضافتي من قبل أتباعهم الدينيين، وبهذه الطريقة اجتزت خلال جميع مدن لومبارديا على شواطىء نهر البو Po, وكنتُ أقيم دوماً بين البيترنيين، وكنت دوماً عند مغادرتي أتسلم تقديماً إلى آخرين من الطائفة نفسها، ووصلت أخيراً إلى كريمونا Cremona, وإلى بلدة مشهورة في فريولي Frioli, حيث شربتُ أفضل خمرة للبيترنيين، وأكلت من زبيبهم المحفوظ، وتوتهم، ومن لحوم أخرى مثيرة، وخدعت المخادعين، وأعلنت عن نفسي أنني من

البيترنيين، مع أنني مازلت مستمراً، بعون الرب، مـؤمناً بالمسيحية، على الرغم من أنني لستُ تماماً كـذلك من حيث الأعمال، ووقفتُ لمدة ثلاثة أيام في كريمـونا، وتسلمت أماناً من الرهبـان، لكن اللعنة من واحد من أساقفتهم اسمه بطرس غلّو Gallo, الذي نظر إليّ نظرة ريبة، وقد سمعتُ —على كل حال— فيما بعـد، أن هذا الرجل قد خلع من قبلهم بسبب الفســوق، ثم إنني انطلقـتُ مع راهب علماني، ووصلـتُ أثناء سفري إلى أقنية أكويليا Aquileia, وتابعنا من هناك سفرنا، واتخذنا لأنفسنا مقـراً مع بعض الرهبـان في بلدة صغيرة في فـريسـاك Frisac, وفي اليـوم التـالي تركني الراهـب العلماني، وبقيتُ لوحـدي، وعبرتُ لوحدي خـلال كارينثيا Carinthia, وتابعت السير على طريقي في النمسا، وتوقفتُ في بلدة اسمها باللغـة الألمانية نوستادت Neustadt, أي المدينة الجديدة، حيث أكـرمت وفـادتي من قبل رهبـان في طـائفـة جـديدة اسمهم البيغـونيين Beguins, ثم أخفيتُ نفسي لبضع سنوات في جـوار مدينـة فينا وفي المناطق المجاورة، مـازجـاً —يؤسفني القـول— الخير مع الشر، لأنني عشت عـاجـزاً ملطخـاً بإثم الشيطان، وكنت عدواً قاتلاً لنفسي، مع أنني تمكنت من تخليص عدد كبير من إثم البيترنيين، الذين كنتُ قد تحدثتُ عنهم.

ونتيجـة لهرطقتهم، ولأشياء من الذنوب كثيرة قـامت بين المسيحيين، استثير غضب الرب، وأصبح غـاضباً مـدمراً، ومنتقماً مـرعباً جـداً، وأنا أقول هذا، بسبب عرق حاد من المخلوقات غير البشرية، والذي شريعته هي اللاشريعة، والذي غضبه حنق، وهو عصا غضب الرب، وهو الآن يقوم بعبـور منطقة واسعة من البـلاد، ويقوم بالعيث فيهـا فساداً بشكل مميت، ويتـــولى محق كل شيء بشكل مخيـف بالنـار والسيف، يعترض سبيلهم، ففي خـلال هذا الصيف بـالذات، غـادر هؤلاء القـوم، الذين اسمهم التـاتار بانونيـا، التي استحـوذوا عليهـا بالاستسـلام، وقـامـوا

بوساطة آلاف لاتحصى، بحصار البلدة المذكورة أعلاه بشدة، والتي صدف أنني كنتُ آنذاك مقيماً فيها، ولم يكن في البلدة عساكر من جانبنا للتصدي لهم، سوى خمسين فارساً، وعشرين من رماة القسي الزيارة، كان الدوق قد تركهم في الحصن، ولدى صعود هؤلاء فوق مكان مرتفع في الجوار، شاهدوا الجيش العملاق معسكراً من حولهم، وارتعدوا بسبب شدة هؤلاء الذين هم من أتباع المسيح الدجال، وسمعت الآن آهات صاعدة نحو رب المسيحيين، من الذين دهشوا في المنطقة المجاورة، وقد هلكوا جميعاً سواء من دون تمييز بالمرتبة، أو المكانة، أو الجنس، أو العمر، وجاء هلاكهم بمختلف أنواع الموت، وتغذى أتباع المقدمين الذين كانوا مثل كلاب آكلة للحوم البشر، من لحوم أجساد الموتى، وكأنها كانت خبزاً، ولم يتركوا شيئاً سوى العظام للوحوش، لكن مدهش أن نقول بأن الوحوش والطيور الجارحة، مع أنها كانت جائعة، لم تقبل بأكل بقايا اللحوم، إذا صدف وكان قد بقي شيء منها، وأعطيت النساء العجائز والقبيحات إلى المسؤولين عن الكلاب الآكلة للحوم البشر —كما كانوا يسمون— ليكونوا طعامهم اليومي، لكن اللائي كن جميلات احتفظ بهن أحياء، ليخنقن وليقهرن من قبل عدد من مغتصبيهن، على الرغم من صراخهن وبكائهن، فقد جرى اغتصاب العذراوات حتى متن من الإنهاك، ووقتها كانوا يقطعون أثدائهن ليجري الاحتفاظ بهن بمثابة طعام لذيذ لمقدميهم، أما أجسادهن فاتخذن لوجبة طعام سارة للمتوحشين.

وشاهد في الوقت نفسه، الذين كانوا ينظرون من أعلى مكان مرتفع، وصول دوق النمسا، وملك بوهيميا، وبطريرك أكويليا Aquileia, ودوق كارينثيا Carinthia, ومركيز بيد Bade, كما قيل، مع عدد كبير من أمراء الدول المجاورة، وكانوا على تعبئة جاهزين للقتال، وفي لحظة واحدة اختفى ذلك العرق اللعين، وعاد الخيالة إلى هنغاريا

التعيسة، ومثلما وصلوا فجأة، كذلك اختفوا بشكل مفاجيء، وهذه واقعة خلقت رعباً عظيماً في عقول الذين شاهدوها، وأسر أمير دلماشيا ثمانية من الفارين، وكان واحداً منهم معروفاً من قبل دوق النمسا، على أنه رجل انكليزي، كان قد نفي بشكل أبدي من مملكة انكلترا، بسبب إحدى الجرائم التي كان قد اقترفها، وكان هذا الرجل قد قدم مرتين كرسول وترجمان من ملك التاتار إلى ملك هنغاريا، وبشكل مكشوف هدد الهنغار وأنذرهم بالشرور التي وقعت فيها بعد، إذا لم يذعن ملكهم ويتنازل هو ومملكته ليكونوا خاضعين للتاتار.

وأقنعه الأمراء ليقول الحقيقة حول التاتار، وقام هو من دون تردد، بعد أن أدى كل نوع من أنواع الأيمان، وقدم إفادات قاسية جداً، حتى أنه من الصعب على الشيطان نفسه أن يصدقها، وتحدث أولاً عن نفسه، أنه بعد نفيه، وقبل أن يكون في الثلاثين من عمره، خسر كل شيء كان لديه بالميسر في مدينة عكا، وأنه لم يمتلك في أيام الشتاء سوى قميص من المسوح، وحذاء من جلد الثور، وقبعة مصنوعة من شعر الحصان، وتمكن بهذه الحالة من العوز، وإظهار حالة من الضعف بالجسد، وبشعر مشعث كأنه شعر مهرج، وباطلاق صرخات جمجمة كأنه رجل أخرس، فعبر كثيراً من البلدان، ولاقى لطفاً كبيراً من الذين قدموا له الضيافة والإحسان، متصرفاً بحياته بشكل أو آخر، مع أنه رغب يوماً في طيش لسانه والجنون في قلبه، ورغب في قرارة نفسه أن يكون لدى الشيطان، وأخيراً بعد طويل أمد أصيب بمرض شديد، بسبب الإنهاك الشديد الذي عانى منه، وبسبب تغير الأنواء والأطعمة، بين الكلدانيين، وصار مالاً من حياته، ولم يعد قادراً على متابعة السفر نحو الأمام، أو العودة، فوقف حيث كان، وكان يتنفس بصعوبة، ولأنه كان معتاداً بعض الشيء على الكتابة، بدأ يدون كتابة الكلمات التي جرى الكلام بها هناك، ثم شرع يتفوه بهن بشكل صحيح، إلى حد أنه عدّ من السكان المحليين،

وقد تعلم عدة لغات ببراعة، وسمع التاتار عنه من خلال جواسيسهم، وتمكنوا من جره إلى جانبهم، وعندما شرعوا يسعون بتطبيق دعواهم باخضاع العالم كله، ربطوه بهم، ولكي يكون مخلصاً في خدمتهم، منحوه كثيراً من الأعطيات، لأنهم كانوا بحاجة ماسة لأشخاص، يكونوا تراجمة لهم.

وفيما يتعلق بأخلاقهم وسماتهم، وأوهامهم التي يؤمنون بها، وأمزجة وآفاق ذواتهم، وبلادهم وطرائق قتالهم، أقسم أنهم كانوا جشعين، وانفعاليين، ومخادعين، وبدون رحمة بشكل فاقوا به الناس الآخرين، وشدة وقسوة العقوبات التي تنزل بهم من قبل مقدميهم، تمنعهم من النزاعات، أو بالحري من خداع بعضهم بعضاً، أو إلحاق الضرر ببعضهم بعضاً، ويدعون الذين أسسوا قبائلهم الأرباب، ويقيمون تعبدات في بعض المواسم، ولديهم احتفالات خاصة كثيرة، وأربعة أعياد نظامية فقط، ويعتقدون بأن كل شيء قد عمل من أجلهم، ويؤمنون أنه لاتوجد وحشية في ممارسة كل نوع من أنواع القسوة، ضد الذين يثورون ضدهم، ولهم صدور ثابتة وقوية، ووجوه مائلة وشاحبة، وكتفين قاسيين وعاليين، وآناف قصيرة ومشوهة، وذقونهم حادة وعالية، وفكهم العلوي منخفض وعميق، وأسنانهم طويلة وقليلة، وتمتد حواجبهم من الشعر إلى الأنف، وعيونهم سوداء وغير مستقرة، وملامحهم طويلة وقاسية، ومظهرهم الخارجي عظمي وانفعالي، وأ ·جلهم غليظة لكنها قصيرة تحت الركبة، والبناء الجسدي مساو لنا، لأن الذي خسروه تحت الركبة جرى تعويضه بطول أكبر لأجزائهم العلوية.

وبلادهم الأصيلة هي مساحات واسعة، وكانت من قبل صحراء، واقعة خلف الكلدانيين، قد طردوا منها الأسود والدببة، والوحوش الأخرى، وكان ذلك بوساطة قسيهم وأسلحة الحرب الأخرى، وقد

صنعوا من الجلود المدبوغـة لهذه الحيوانات لأنفسهـم دروعـاً هي خفيفة المظهر، لكن لايمكن خرقها، ولديهم خيـول ليست ضخمة، لكنها قوية جـداً، وتتطلب قليـلاً من الطعـام، وهـم يربطون أنفسهـم بثبـات على ظهورها، ويستخدمون النشـاب، والهراوات، وبلطات القتال، والسيوف في الحرب، ويقـاتلون بشجـاعـة وثبـات، وميـزتهم الأسـاسيـة هي في استخـدامهم القـوس، وفي براعتهم في القتـال، ودروعهـم الواقيـة لظهـورهم رقيقة، حتى لايحاولوا الفـرار، وهم لايتراجعون عن القتـال حتى يرون العلم الرئيس لمقـدمهم يتراجع، وعندما يسقطون لايطلبـون الرحمة أبداً، وهم أنفسهم لايوفرون واحداً قـد سقط، وفي غايتهم الثابتة في اخضـاع العالم كله ووضعـه تحت سيطرتهم، يصرون على ذلك كأنهم رجل واحـد، كما أنه مـن غير الممكن عـدّ الألف منهم مثـل ألف من الآخرين، وعـدد أتباعهم، الذين يدورون في فلكهم ستمائـة ألف، وهم يرسلون هؤلاء أمامهم لإعداد أماكن من أجل الجيش، ويستطيعون على ظهـور خيـولهم السريعـة قطع مسـافـة سفـر ثلاثة أيام في ليلة واحـدة، ويقومون فجأة بنشر أنفسهم فوق منطقة واحدة، وينقضون على السكان غير المسلحين، والذين بلا دفاعـات، والمتفرقين، محدثين فـوضى ودماراً عظيماً، إلى حد أنه لو حـاول أمير أو ملك البلاد المحـاصرة حشد جيش ليحضره إلى سـاحــة القتـال ضـدهم يعجـز عـن ذلك، وفي أيام السلم يخدعـون الناس وأمراء البلـدان بأسباب هي غير منطقيـة، فهم يقـولون أحياناً بـأنهم تركوا بلادهم لاسترداد الأجسـاد المقدسة للمـوك المجوس، الذين يزينون مدينة كولون Cologne، ويقولون في أحيان أخرى، إنها في سبيل ضبط شره وتفـاخـر الرومان، الذين ظلمـوهم في القـديم، وهناك سبب آخـر، هو أن يخضعـوا تحت سلطانهم شعـوب وقبـائل الهيبربوريان Hyberborean البربرية، ثم إنهم قـالوا بأن غـايتهم هي إطفاء غضب التيوتون بوساطة تسامحهم ولطفهم، وأحياناً لتعلم فن الحرب من الفرنسيين، وأحياناً أخرى للحصـول على أرض خصبة كافية

للقيام بأود حشودهم، وقالوا أخيراً بأن الغاية هي القيام بالحج إلى القديس جيمس في غاليشيا Gallicia, وتمكنوا بهذه الحكايات من السيطرة على بعض الملوك البسطاء،لأن يبرموا معاهدات معهم، ولكي يمنحوهم مجازات حرة خلال أراضيهم، ولايحافظ التاتار على المعاهدة، ويتعرض هؤلاء الأمراء للهلاك سواء.

ولدى رؤيتنا مثل هذه المخاطر العظيمة، وهي قائمة مهددة جميع العالم المسيحي، ماالذي يعمله هؤلاء الرهبان المقدسين، مع طقوسهم الدينية الجديدة، وصدوراً عن نار الفرن الجديد التي صيغوا منها، من الذي يرغب أن يعتقد بأنهم وحدهم قد عثروا على طريق الكمال دون الآخرين؟ وبوساطة الاعتراف ووسائل الإلفة الأخرى سوف يتمكنون من الحصول على الحظوة لدى الملوك والأمراء، وهم يصرخون بحرارة وإلحاح في آذانهم ضد التاتار، وهم يسيئون، إذا لم يصرخوا، ويفعلون الأسوأ إذا اكتفوا بالتظاهر بذلك، والأسوأ من هذا كله إذا ماقاموا بمساعدة العدو، فما الذي يفعله الرهبان السود والبيض؟ وماالذي يفعله الكهنة النربونيين الذين يرغبون بالتفكير لو أن العالم ميت؟ لماذا لايبشرون بصليبية ضد التتار لدى رؤيتهم اقتراب جميع هذه المخاطر؟ وعجباً للاستشارات الحمقى للملوك! وللصمت الفاتر للأساقفة ورعاة الديرة! ولشدة التاتار ولوحشيتهم التي لم يسمع بمثلها! فلقد جرى حتى الآن تدمير ست ممالك مسيحية، والمصير نفسه معلق فوق الآخرين، في حين إن مثل الذين هلكوا لايفيد كوسيلة انذار للأحياء، فنحن قد أهملنا أسوأ أعدائنا في داخل البلاد، وقاتلنا الذين بدون أذى فيما وراء البحر.

وهذه هي الأسباب التي اقتادتني، أنا الذي أدين بالفضل لعنايتكم الأبوية، فأنا كما أنا، أتقدم بالنصيحة إليكم في الرب، بأن تقوموا بإقناع ملوك: فرنسا، وانكلترا، واسبانيا، الذين بينهم تحتلون مكاناً وسطاً، وأن

تستخدموا كل الوسائل التي باستطاعتكم استخدامها، لكي يضعوا جانباً خصوماتهم الخاصة، إلى الأبد، أو على الأقل لبعض الوقت، وأن يعقدوا بسرعة وعقلانية مؤتمراً فيما بينهم، حول كيف يمكنهم بأمان التغلب على مثل هؤلاء الآلاف من هذه النوعية من المتوحشين، وأدعو أنا الإيمان بالمسيح، الذي به آمل بالانقاذ أن يكون شاهداً، أنهم لو توحدوا جميعاً، فلسوف يسحقون هؤلاء التنينات، أو سوف يسحقون إفرادياً من قبلهم. وداعاً».

الصراع بين الامبراطور وبين البابا يثير اضطراب كل شيء

كان مقدراً لهذه الرسالة المرعبة أن تثير كثيراً قلوب الملوك والنبلاء، الذين وصلت إليهم، ولكانت أثارتهم بشكل فعال للانتقام للأذى الذي ألحق بالمسيح، وبالكنيسة الكاثوليكية، وبالمسيحية كلها، لولا قيام النزاعات المتبادلة بين البابا وبين الامبراطور، ومن ثم نشرها الاضطراب فوق العالم كله، ولذلك فإن هذا الصراع قد تفجر في الخارج خلال جميع المناطق، في الطول وفي العرض، لأنه لم يكن في كل المسيحية أحداً أعلى مرتبة، لابل ما من أحد في مثل تلك المرتبة العالية، مما أنعش قلوب التاتار، وأبهجها، لابل جميع الكفار، وعلاوة على ذلك جميع أعداء المسيح، وجعلهم يضاعفون آمالهم، ولذلك قالوا وهم يتفاخرون ويتقيئون أنفسهم، بأن الرب منزعج وضد المسيحيين، الذين قاتلوا ومزقوا بعضهم بعضاً، وأنه بات أكثر راضياً عنهم ولصالحهم. وزاد من تعدادهم، وضاعف قوتهم.

تشديد الحراسة على الطرق في روما

ورأى الامبراطور في الوقت نفسه، أن البابا المنتخب حديثاً، قد قام بتأكيد قرار سلفه، وأنه لايرغب بتقديره بأية طريقة من الطرق، ولذلك رفض من جانبه الخضوع تمام الخضوع إلى وصايات الكنيسة، وأعطى

أوامر بتشديد الحراسة على جميع الطرقات، والموانيء، والجسور، وأن لايكون هناك انسان يقوم بالعبور وهو يحمل مالاً، لأنه كان يعرف بأن في البلاط الروماني عطش بشكل غير متناهي، وصرف ابنه كونراد نفسه بيقظة لهذا العمل، ووقف بتيقظ في الطرقات وسدها، في كل من البحر والبر، ولم يوفر أحداً من المسافرين، حتى الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان، أو أي واحد متخفي، وكل من اعتقله عذبه حتى الموت.

تزايد أعداد البيغونيين

وفي الوقت نفسه، وبشكل خاص في ألمانيا، أعلن كثير من بعض الأشخاص من كلا الجنسين، لكن بشكل رئيسي من النساء، أنهم صاروا رهباناً، وارتدوا اللباس الديني، ولم يكن هذا اللباس ثقيلاً جداً، وعملوا تعهداً بعفة الحياة وبساطتها، بوساطة تعهد خاص، وذلك من دون الالتزام بأحكام أي قديس، كما أنهم لم يحبسوا أنفسهم داخل إطار أي دير، وباختصار تزايدت أعدادهم إلى درجة أنه وجد في مدينة كولون وجوارها، ألفين منهم.

خلاف بين الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان

ولكي لايظهر العالم أنه شاغر من تزايد الاضطرابات من كل جانب، نشب صراع بين الرهبان الفرنسيسكان والرهبان الدومينيكان، مما سبب الدهشة لكثيرين، لأنهم بدوا بأنهم اختاروا الطريق السليم، أي طريق الفقر والصبر، فمن الجانب الأول ادعى الدومينيكان وأعلنوا أنهم هم الذين تأسسوا أولاً، ولذلك السبب هم أعلى مقاماً، وأنهم أكثر عقلانية في مظهرهم الخارجي، وعن جدارة استحقوا نيل اسمهم ومقامهم من أعمالهم التبشيرية، وأنهم كانوا بالفعل والحقيقة حصلوا على تميز بوساطة المقام الرسولي، وقدم الفرنسيسكان من الجانب الآخر جواباً، بأنهم اختاروا في سبيل الرب طريقاً للحياة أكثر قسوة وتواضعاً، ولذلك فهم

أكثر جدارة، لأنهم أكثر قداسة، وأن الرهبان يمكنهم، وينبغي بشكل مؤكد أن ينتقلوا من طائفة الدومينيكان إلى طائفتهم، على أساس الانتقال من جماعة أدنى إلى جماعة أكثر تفوقاً وتشدداً، ونقض الدومينيكان مقالتهم مواجهة، قائلين صحيح أن الفرنسيسكان يسيرون وهم حفاة، ويلبسون ألبسة خشنة، وهم متحزمون بحبل، وهم يتمتعون بامتياز أكل اللحوم، أو أطعمة أكثر لطفاً ولذة، وأن هذا ليس محظوراً عليهم حتى أمام الناس، وهو أمر محظور بالنسبة لجماعة الدومينيكان. ولذلك لايمكن القول بأن الدومينيكان يمكنهم الدخول إلى طائفة الفرنسيسكان لأنها طائفة أكثر تشدداً وأكثر جدارة، بل إن العكس هو الصحيح، ولذلك نشب نزاع بين هؤلاء، مثلما نشب أيضاً بين الداوية والاسبتارية، في الأرض المقدسة، من خلال بذور الخلاف التي زرعها عدو الجنس البشري، صراع تآمري عنيف، وكان مثله مثل الصراع بين الرجال المتعلمين والجامعيين، لابل أشد خطورة بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية، وكان علامة على غضب عظيم سوف يحل بساحتها، والذي هو مزعج، ونذير سوء هو أنه لمدة ثلاثمائة سنة أو أربعمائة أو أكثر، لم تسرع الطوائف الرهبانية نحو الدمار مثل اسراعها الآن، كما تفعل طائفتيهما، ذلك أن رهبانهما لم يمض الآن على وجودهم في انكلترا بالكاد عشرين عاماً، حتى بنوا لأنفسهم مساكن نافسوا فيها القصور الملكية، وهؤلاء هم الذين يعرضون للمشاهدة كنوزهم التي لاتقدر ولاتحصى، ويوسعون مبانيهم الفخمة، ويشيدون الأسوار العالية، ولذلك خرقوا بحماقة حدود فقرهم الأصيل، واعتدوا على قواعد دينهم، وذلك وفقاً لنبوءة الألماني هايلد غريد Hildegrade, فعندما يكون الرجال النبلاء والأغنياء على حافة الموت، يقومون بحثّ الذين الذين يعرفون أنهم مستحوذين على ثروات كبيرة، وفي حبهم للربح يحثونهم بإلحاح لإلحاق الأذى والخسارة بالأساقفة العاديين، وأن يستخرجوا اعترافات ووصايا خفية، رافعين أنفسهم، وطائفتهم فقط،

وواضعين أنفسهم أمام جميع الآخرين، و هكذا فإن الرجل المؤمن الآن يعتقد أنه يمكن أن يحفظ، فقط إذا ما جرى توجيهه بمشورات الدومينيكان والفرنسيسكان، ورغبة من هؤلاء في الحصول على الامتيازات في بلاطات الملوك والأعيان، أخذوا يشغلون أدوار المستشارين، والحجاب، والساسة رجال الأعراس، والمتوسطين من أجل الزيجات، وهم الذين يتولون تنفيذ الاستخراجات البابوية، وهم في قداساتهم إما يتولون الإطراء أو النقد الحاد، ويكشفون الاعترافات، أو يقومون بأعمال الاتهام بوقاحة، ويزدرون أيضاً الطوائف التي تولى وضعها الآباء المقدسون، أي التي أسسها القديس بندكت، والقديس أوغسطين، ويستخفون أيضاً بأتباعهم (وظهر هذا الشيء بوضوح في قضية كنيسة سكاربورا Scarborough, عندما انسحب الفرنسيسكان بشكل مهين) وهم يضعون جماعتهم أمام الآخرين، وهم ينظرون إلى الرهبان السسترشيان على أنهم أجلاف، لايؤذون، شبه أصلاء، أو بالحري ذوي أصل رديء، ويعدون كهنة ورهبان الطائفة السوداء متكبرين ومنغمسين بالملذات الحسية.

جامعة باريس تتراجع عن أخطائها وتستنكرها

وكذلك في ذلك الوقت، وبالتحديد بعد عيد القديس ميكائيل، تمت عملية إعادة اجتماع المدارس والدارسين، وبدأ معلمو اللاهوت، خاصة كبار المحاضرين من الدومينيكان والفرنسيسكان المناظرة والمناقشة بدقة تفصيلية أكبر، وبعمق أعظم مما ينبغي، أو مما هو مفيد، ولم يترددوا في وزن الجبال، حيث يمكن لمجد الرب أن يخزيهم، وغامروا بطيش في تفحص أسرار الرب القدير التي لايجوز البحث بها، وأقدموا على البحث في أحكامه التي هي عميقة جداً، وكانوا بالنتيجة غير أكفاء بالنسبة للمهمة، وتفحصوا هكذا بعمق، وتجولوا حيث ليس هناك ممر، بسبب انتقام الرب، الذي يكون أكثر رضا بالبساطة الصحيحة للإيمان

الثـابت، أكثر من رضـاه بالبراعـة الأكثر ظهـوراً في اللاهوت، ومع أنه أسلم وأكثـر فضيلة أن نتقبل ببساطة وأن نعتقـد في الآثار التي تلقيناها من الآباء، من أن نحـاول البرهنة عليهـم، بهذه الوسـائل التي يقـدمهـا العقل البشري، لقـد اختـاروا أن يغـرروا بـأنفسهم وأن يرتفعـوا فـوق المستوى الصحيح.

هذا وعندما علم أسـاقفة الكنائس بهذه الأشيـاء، وكانوا متيقظين من أجل مصلحـــــة الكنيســـــة والإيمان المسيحي، واستنـدوا على سلطة الانجيليين والأنبياء في لجم وقاحتهم الطـائشة، ودعوا إلى اجتماع للناس ذوي الإيمان المستقيم، وأعلنوا بحكمـــة عـن حقيقـــة الإيمان، وكـــانت غلطتهم الأولى: هي أن الجوهر الـلاهوتي لم يشـاهد، ولن يشـــاهد، من قبل إنســـان في حـــال الطهـــارة أو من قبل مـــلاك، وعلى هذا أجـــاب الأســـاقفـــة: نحن ندين هذه الخطيئـة، ونحـرم كنسيـاً الذيـن أعلنوها ويتمسكون بها، لأننا نـؤمن بثبـات، ونؤكـد، بأن الـرب في جـوهره، وتكوينه، أو طبيعتـه، سـوف يشاهد من قبل الملائكـة المقدسين، عندمـا يكون في حـــال التجلي، وكـانت الخطيئة الأخـرى هي: مع أن الجوهر اللاهوتي هو نفسه في الأب والابن، والروح القـدس، ومع ذلك بالنسبة للشكل، إنـه ليس نفســـه في الروح القـــدس كما هـو في الأب والابن مأخـوذين مع بعضهما، ومع ذلك إن الشكل هو الشيء نفسـه، كجـوهر لاهوتي، وعلى هذا قـــدم الأســـاقفـــة الجواب التـــالي: نحن نـدين هذه الخطيئة، إلـخ، لأننا نـؤكـــــد بشكل ثـابت بـأن هناك اتحاد بـالجوهر، والتكوين، أو الطبيعـة، في الأب والابن، والروح القـدس، وأن الجوهر هو نفسه بالنسبة للشكل، وهو نفسه في الأب، والابن، والروح القدس، وخطيئة أخرى هي: أن الروح القدس، لكونه نوعاً من الحب، أو رباطاً من التعـاطف، لم يصدر عن الابـن، بل عن الأب فقط، نحن ندين هذه الخطيئة، إلخ، لأننا نعتقـد بثبات ونعلن بأن الروح القدس، لكـونه نوعاً

من الحب، أو رباطاً من التعاطف، قد صدر عن الاثنين، وخطيئة أخرى هي: أنه لا الأرواح الطاهرة، ولا الأجساد الطاهرة سوف تكون مع الملائكة في السماء العليا، بل في السماء المائية، أو الشفافة، الموجودة فوق قبة السماء، حيث أنهم افترضوا، ووضعوا العذراء المقدسة، نحن ندين، إلخ، لأننا نعتقد بثبات ونعلن، بأن المكان الجسدي نفسه، أي السماء العليا، سوف تكون مشاعاً للملائكة، ولأرواح القديسين، وللرجال الممجدين، ومثل هذا المكان الروحي نفسه مشاعاً للرجال وللملائكة، وخطيئة أخرى: هي أن الملاك كان شريراً من اللحظة الأولى لخلقه، ولم يكن قط غير ذلك، أي غير شرير، إننا ندين هذه الخطيئة ونمنعها، وأولئك الذين يعلنونها ويتمسكون بها، إلخ، لأننا نعتقد بثبات ونؤكد بأنه كان فيما مضى صالحاً وليس شريراً، وقد صار فيما بعد سيئاً باقتراف الذنب، وخطيئة أخرى: هي أنه كان هناك من الأزلية حقائق كثيرة، وهي لم تكن رباً، نحن ندين، إلخ، لأننا نعتقد بثبات، ونعلن، بأنه كانت هناك حقيقة واحدة من الأزلية كلها، التي هي الرب، وأنه كان هناك باطل، هو لم يكن رباً، وخطيئة أخرى، هي أنه يمكن لملاك أن يكون في أماكن مختلفة في الوقت نفسه، لابل حتى في كل مكان إذا ما اختار، نحن ندين، إلخ، لأننا نؤمن بثبات ونؤكد هو أن ملاكاً موجوداً في مكان واحد مؤكد، وبناء على ذلك إنه إذا كان هنا، لايمكنه في الوقت نفسه واللحظة ذاتها أن يكون في مكان آخر، لأنه من الممكن لواحد أن يكون كلي الوجود، لأن ذلك معزو إلى الرب وحده،وخطيئة أخرى: هي أن البداية، والوقت الحالي، والخليقة، والآلام هي كلها ليست خالقاً ولامخلوقاً، نحن ندين، إلخ، لأننا نعتقد بثبات، ونعلن بأنهم جميعاً قد جرى خلقهم، وخطيئة أخرى: هي أن الملاك الشرير، لم يمتلك قط أرضاً يمكنه الوقوف عليها، ولا حتى آدم عندما كان مايزال في مرحلة البراءة، نحن ندين إلخ، لأننا نؤمن بثبات، ونعلن أنهما امتلكا مكاناً ليقفا عليه، لكن —على كل حال— لم يربحا من ذلك، وخطيئة أخرى:

هي أن الذي لديه ونال المنحة الأحسن بشكل طبيعي، سوف يكون بالضرورة لديه المزيد من النعمة والمجد، ونحن نستنكر هذه الخطيئة، إلخ، لأننا نعتقد بثبات، ونعلن بأن النعمة والمجد سوف تمنحان حسبما يراه الرب مناسباً. وهذا مقدر من ذي قبل.

خلاصة أحداث هذا العام

وعلى هذا عبر هذا العام، مع وجود مخاطر مهددة واضطرابات للكنيسة، وكان عاماً وافراً بما فيه الكفاية في الخضار والفواكه، وقد جلب الموت والازعاج لعدد كبير من النبلاء في العالم المسيحي، وجلب الملامة والأذى إلى مملكة انكلترا وإلى ملكها، وأحضر معارك وعداوات إلى الايطاليين، وانعدام ثقة بالنسبة إلى الأرض المقدسة، وحدوث انشقاق ومؤامرات بين الداوية والاسبتارية.

الوليمة السخية للإيرل رتشارد في وولنغفورد

في سنة النعمة ١٢٤٤، التي هي السنة الثامنة والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، كان الملك نفسه في عيد الميلاد، ضيف أخيه، الايرل رتشارد، في وولنغفورد Wallingford, حيث أقيمت وليمة سخية، قد دعي إليها جميع النبالة الانكليزية تقريباً، وكانت هذه الوليمة آخر الحفلات التي شرع بها في لندن، وكل مايمكن أن يفكر به قد أحضر لجعل احتفالات الزواج فخمة، وكان بين الحضور بيترايس، كونتسة أوف بروفانس، وابنتها سينشيا، المتزوجة حديثاً، وكانت جميلة المظهر، وقد بذل الملك جهوده كلها حتى يظهر لطيفاً وكريماً.

مغادرة كونتسة بروفانس لإنكلترا

وبعد الفراغ من هذه الاحتفالات، بادر الملك، ترافقه بيترايس، الكونتسة المذكورة، مع عدد كبير من النبلاء من الجنسين، ومن العائدين إلى كل من انكلترا، وبروفانس، بادروا مسرعين إلى لندن، في أيام عيد

الختانة، للاحتفال هناك، بأعظم أبهة، بعيد القديس ادوارد، بحضور الضيوف من بروفانس، وأمام أعينهم، وتوجهت بعد ذلك الكونتسة المذكورة نحو البحر، وعادت إلى موطنها وجرت مرافقتها بشكل رسمي حتى البحر من قبل الملك مع حشد كبير، لكن حتى لايمر سرور في هذا العالم من دون انتكاسات، حدث أنه قبل أن تغادر الكونتسة وتركب السفينة في دوفر، وصلها حملة لأخبار محزنة، حيث أعلنوا لها بأن زوجها ريموند كونت بروفانس قد أصيب بمرض عضال، وهو على حافة قبره، وهو الرجل الذي قدم مساعدات فعالة إلى الكنيسة الرومانية، في جميع أزماتها، بإلحاقه الأذى بالامبراطور، وعندما جرى إعلام الملك بهذا، أصيب بحزن عميق، وطلب رحمة الرب للكونت، بالصلوات، وبتقديم الصدقات، إلى غاية ما كان بإمكانه.

إرسال البابا الجديد رجلاً جديداً إلى انكلترا لاستخراج المال

وأرسل في تلك الآونة نفسها البابا المنتخب حديثاً، مستخرجاً جديداً للمال إلى انكلترا، اسمه المعلم مارتن، وهو يحمل رسالة اعتماد من البابا، ومفوضاً بسلطة فرض عقوبة الحرمان الكنسي، والتعليق وبانزال العقوبات بطرق كثيرة، بالذين يعارضون رغباته، وقام وهو متسلح بمثل هذه السلطات، فعلق الأساقفة الانكليز، حتى لايعود بامكانهم جباية أية منفعة من منافعهم حتى يكونوا قد أرضوا نهم البابا، الذي جبا جميع مواردهم لصالح كهنته أو أقربائه، وقد ارتأى أنه ليس بذي قيمة أن يتسلم أي مبلغ ما لم يصل إلى ثلاثين ماركاً، أو أكثر، خشية أن يبدو ذلك الرجل العظيم حريصاً على التوافه، ولذلك شرع المعلم مارتن المذكور بغطرسة بمطالبتهم والاستخراج من الأساقفة وخاصة من الرهبان، الهدايا، وخاصة الخيول الفخمة، فقد فرض في رسائله مثل هذا على رعاة الديرة، أو رؤساء الرهبان، أن يرسلوا إليه خيولاً تكون موائمة لكاهن خاص للبابا، ليمتطيها، والذين عارضوا، وتقدموا

بتسـويغات، وعـرضـوا أسبـاباً لعدم الطـاعة، حتى وإن كـانت أسبـاباً منطقيـــة (مـن ذلـك على سبيل المثـــال راعـي دير مـــالمسبري Malmesbury, ورئيس رهبـــان ميرتون Merton) جـــرى تعليقهم، ومعـاقبتهـم بقسـوة إلى أقصى حـد يرضيــه، لأن هذا المنقب الحريص تجول بعينيــه وتطلع نحــو جميع الكنائس الشــاغـرة، وجميع الأوقـاف، حتى يتمكن بوسـاطتهم من سداد جميع المطالب المكشوفـة للبابا مع حـاجاته، وكان من بين أوقاف الكنائس الغنيـة، أوقاف كنيسة سالسبري، التي كانت مـرتبطة بقائد جوقة المرتلين، التي غـدت شاغرة، فوضـع يديه على هذا الوقف، على الرغم من معارضـة الأسقف، وجميع أعضاء الهيئة الكهنوتيـة، وقام بناء على أوامر البـابا، بإعطاء هذا الوقف إلى واحـد من أحفاده، وكـان مجرد طفل، مما أدهش كثيرين وآلمهم، لأن كثيرين اعتقدوا وأملوا بأن نهم البـلاط الروماني، سوف يعتـدل بوساطة شيء من العقلانية، وذلك بعـد العقوبات التي نزلت به حتى الآن مراراً بوساطة غضب الرب.

تصرف غير عادل من الملك نحو أسقف وينكستر

وحـدث كـذلك في الوقت نفسـه، أن قـام الملك بشكل غير صحيح بظلم أسقف وينكستر، بوضع يد ثقيلة عليه، ولم يتنازل مطلقاً بقبوله في مـؤتمر مصـالحة، أو لنيل قبلة سـلام وصـداقـة، وذلك أثناء عـودته من مناطق عبر البحـر، حيث قدم الأسقف نفسـه بكل تقـوى، وقد لاحقـه بكراهية شـديدة، ولم يسمح لأي رجل علماني بأن يعيش معـه، أو يتولى خـدمتـه، ولم يأذن له بتلقي الضيـافـة في أي من الـديرة، بل إنه نظر إلى الذين استقبلوه وواسوه، على أنهم أعداء معلنون، وأعـاق أيضاً بوحشية ومنع أن يصل إلى الأسقف سفينـة وعـربات محملة بـالمؤن والإمـدادات القـادمـة من نورويك، ولـدى سفـر الأسقف إلى لندن، لم يتجـرأ على الدخـول إلى قصره في سـاوثوورك Southwark بسبب خجله من

الظلم الذي تلقـاه من أتبـاع الملك، واستضيف وهـو متخفي في بيت رهبـان سـاوثوورك، الذي هو قـرب قصره، وواقع في أسقفيتـه، وانتظر هناك بتواضع تبـدل الأوقات المعارضة، وإلى أن يزوره التـوفيق والرضا من عليين، لكن الملك الذي كـان يتصرف بناء على نصيحة قـوم ظالمين، منع كل واحـد في مـدينة لندن من بيعه حتـى ضروريات الحياة، الأمـر الذي لانتـذكر أن مثله قـد أوقع حتى بالقديس تومـاس رئيس أساقفـة كـانتربري، ثم إن الأسقف قـام وهـو حـزين يعـاني من كثير من الأذى والاضطـراب، فـاشتكى —مع سبب صحيح— إلى زمـلائـه الأساقفـة، وعندمـا علمـوا بذلك قـام أساقفـة لنكولن، وووركستر، وهيرفـورد، تحركهم العاطفة، وغاضبين غيرة على العدل، فبادروا مسرعين إلى ردنغ، حتى يتمكنوا من توبيخ الملك، ونصيحته حتى يقوّم أخطائه، لكن الملك أعلم بقـدومهم، فهـرب رافضاً نصيحتهـم المسالمة، إنما عندمـا وجـدوه أخيراً، انفجر غاضباً وتفوه بكلمات تسويغ لنفسه وكراهية، ولم يكن من الممكن تسكينه بتحريضاتهم، بل إنه تصرف على العكس بشكل واضح، فبعث لإلحاق الأذى بالأسقف، بثيبولد دي هيرلي Hurley, والمعلم هنري دي سـوسـا Susa إلى البـلاط الرومـاني، مع مبلغ كبير، استخـرجه لهما حتى ينفقـاه، ولكي يعدا بمبلغ أكبر بكثير إلى البـابا وإلى البـلاط الرومـاني، على شرط أن يقـومـا بخلع الأسقف المذكـور بشكل مهين، لكن بما أن ذلك سوف يكون غير مستقيم بشكل مكشوف، وغير عادل، وسـوف يسبب فضيحة عامة ضـد الكنيسة، لم يتمكنا بأية وسيلة من الوسـائل من إكماله، ولأن رئيس الرهبان المتقـدم ذكره أعـلاه، كان يعرف هذا بشكـل مؤكد، عـاد بشكل عقلاني، لكن رفيقـه هنري هرب بشكل شرير ودنيء، وأخـذ مـال الملك وهرب به، وسـافـر إلى مناطق مـوطنه، حـاذياً حـذو الغـراب الذي لم يعـد إلى سفينة نوح، ولم يعـاود الظهور في انكلترا.

موت الكاردينال جون أوف كولونا

وفي ذلك الوقت نفسه من السنة، أي في ثمانية عيد طهارة العذراء المباركة، مات جون أوف كولونا Colona, وكان كـــاردينالاً رومانياً، ووعاءً لكل أنواع العجرفة والوقاحة، وكان الأكثر شهرة، والأعظم قوة في الممتلكات المدنية بين جميع الكرادلة، وكان الفاعل الأكبر والراعي المغذي للخلاف بين الامبراطور والبابا.

تثبيت المعلم روجر أسقفاً لباث

وجرى في الوقت نفسه تثبيت المعلم روجر، رئيس جوقة سالسبري في أسقفية باث، حيث شاهد بسرعة أن وقفه في سالسبري، سوف يعطى إلى حفيد البابا، وفي الوقت نفسه كان هناك راهب اسمه توماس أوف غلوستر، جرى انتخابه بشكل نظامي من صدر الكنيسة، ومن ثم تمّ تنصيبه بصورة شرعية راعياً لدير ايفهام.

موت رالف نيفيل أسقف شيستر

وأيضاً مات في العام نفسه الأب المبجل رالف نيفيل، أسقف شيستر، ومستشار انكلترا، وكان رجلاً يستحق الثناء بكليته، وكان عموداً لايمكن زحزحته بالاخلاص لشؤون الدولة، وقد أنهى مهمته الحياتية ليدخل في الحياة السرمدية، في الأول من شباط، وكان ذلك في لندن، في قصره الفخم، الذي بناه من الأساسات على مسافة عظيمة عن الهيكل الجديد.

حرمان النورمان من ممتلكاتهم الانكليزية

وفي مجريات هذه الأيام، قام ملك فرنسا، فجمع في باريس، جميع الناس من عبر البحر الذين لديهم ممتلكات في انكلترا، وخاطبهم على هذه الصورة:

«بما أنه من غير الممكن لأي رجل، يعيش في مملكتي، ولديه ممتلكات في انكلترا، أن يخدم بشكل كامل سيدين، لذلك عليه إما أن يربط نفسه بي بشكل لايمكن فصمه، أو بملك انكلترا»، وبناء عليه توجب على الذين لديهم ممتلكات وموارد في انكلترا، أن يتخلوا عنها، وأن يحتفظوا فقط بالممتلكات التي لديهم في فرنسا، والعكس صحيح، وعندما وصل هذا إلى علم ملك انكلترا، أمر بوجوب انتزاع ممتلكات جميع الناس الذين هم من الشعب الفرنسي وخاصة النورمان، ومن ذلك بدا الأمر بالنسبة لملك فرنسا أن ملك انكلترا قد خرق المعاهدات التي أبرمت بينهما، بسبب أنه لم يفعل كما فعل ملك فرنسا، بإعطاء خيار للذين سيخسرون أملاكهم، بأن يكون ذلك في المملكة الأولى، أو في المملكة الثانية، وبذلك يمكنهم أن يختاروا لأنفسهم أي المملكتين يمكنهم أن يبقوا فيها، لكن بما أنه كان ضعيفاً جداً بجسده منذ عودته من بواتو، لم يرغب في تجديد الحرب، وفضل أن يلتزم بالصمت، لابل إنه استهدف اسكات الشكاوي الملحة للنورمان، وكذلك الرغبات النهمة والغاضبة التي أظهروها، للثورة ضد ملك انكلترا.

رسالة حول أحوال الأرض المقدسة

وانتشرت في الوقت نفسه في الأجواء المسيحية أخباراً مرضية، تأكدت بوساطة الرسالة التالية:

«من الراهب هيرمان أوف بيريغورد Perigord, القسيس المتواضع لفقراء جنود الهيكل، إلى أخيه العزيز في المسيح، روبرت أوف ساندفورد، المدرس في انكلترا، تحيات في الرب:

بما أننا ملتزمون بإخبار اخوتكم برسائل أو برسل حول ما يتعلق بأحوال الأرض المقدسة، كلما تهيأت الفرصة وقدمت نفسها، والذي ينبغي أن تعرفه أن سلطان مصر، بعد الأضرار التي تلقاها منا، وأن

الناصر، الذي كـان آنـذاك يتـوسع بمشـاريعـه، والذي هـو مسـاعـده، والمضطهد للصليبيين، والـذي لم يتوقف، قد أرغـم مؤخراً وذلـك وفقاً لقواتنا، على التفـاوض معنا، وإن كان مكرهاً، وعلى إعـادة عقد الهدنة، وقد وعد بأن يعيد إلى الصليبيين جميع الأراضي الواقعة على هذا الجانب من الأردن، وبناء عليـه رأينا أنه من المناسب أن نرسل في هذه المناسبـة، إلى حضرة السلطان المذكور في مصر، مندوبين، رجـالاً نبلاء ومستقيمين من إخواننا الرهبـان، وقد تحفظ عليهم وأبقـاهم لمدة نصف سنة وأكثر، وقد اقتطع مما كـان وعدنا به من قبل: غـزة، والقديس ابراهيم (الخليل) ونابلس، وبيسان، وأماكن أخرى، وكان هذا الإجراء مؤذياً لنا، ثم إنه لم يعطنا شيئاً سـوى كلام مخادع وفـارغ، لكننا نحن أدركنا بفضل النعمـة الربانيـــة مكره وغـــدره، لأنه أراد الحصـول على الهدنـة منا فقط، حتى يتمكن بسهـولة أكبر أن يضع تحت سيطرتـه سلطاني: دمشق، وحمص، والناصر صـاحب الكرك مع أراضيهم، حتى عندمـا يتمكن أخيراً من وضع الأراضي الاسلامية بين يديه، التي هي مجاورة لأراضي الصليبيين، هو لن يحافظ ولابشكـل من الأشكال على أي من عهـوده معنا، وذلك مثلما خرق وعوده مع قومه، ووقتها سوف لن يتمكن الصليبيون، الذين هم على هذا الجانب من البحـر، والذين هم ضعفـاء جـداً، وعـددهم صغير من الصمود، ووقتهـا لن يكونوا قـادرين على المقاومة، وقـد قمنا بحكمة بالتـداول حول هذه المسألة، وكنا بحـاجة إلى نصيحة الأسـاقفة وبعض بـارونات البـــلاد، وبعـــد ذلك رفضنـا بشكل صحيح هـدنة السلطان المذكـور، ورأينا من الأفضل التعـامل مع سلطان دمشق، ومع الناصر صـاحب الكرك، وبنـاء عليـه تخليـا للصليبيين عن جميع الأرض الواقعـة على هذا الجانب من الأردن، وذلك بـاستثناء القـديس ابراهيم، ونابلس، وبيسان.

ولهذا يتوجب على الملائكة والرجـال أن يبتهجوا، لأن مـدينة القدس

المقـدسـة مسكونة الآن من قبل الصليبيين فقط، لأن جميع المسلمين قـد جرى طردهم منها، وجميع الأماكن التي منذ ست وخمسين سنة لم تشهد دعاء لاسم الرب، يقـوم أساقفة الكنيسة باصـلاحها وتطهيرها، ويحتفل بالقـداسات الآن فيهـا يومياً، ولذلك الحمـد للرب وله الشكر، ولزيارة هذه الأماكن الطـريق هو مفتوح وحر، وآمن للجميـع، وهذا ليس أمراً مشكوكـاً به، بل من الممكن بقـاء ذلك بسعـادة، وبوضع مـزدهر لوقت طويل من الزمن، إذا مـا كـان المسيحيين وحـدهم على هذا الجانب من البحـر، شروعـاً من هذه اللحظة بعقل واحـد، وبقلـب واحـد، ولكن يالللأسف، كـم عـددهم كبير الـذين مـوجـودين، والذين من خـلال الكراهيـة والحسد هم مضـادين لنا، ويسببـون الاضطرابات لنا، في هذه القضايا وسواها، التي توسع الأرض المقدسة.

وبناء عليه إننا وحدنا، مع رهباننـا، وأساقفة الكنائس، مع عدد قليل من بارونات الأرض، الـذين قـدمـوا إلينا كل مسـاعـدة ممكنة لديهم، نحمل على أكتافنا عبء الدفاع عن الأرض، وقـد رغبنا بامتلاك مدخل إلى المنطقـة، التي تلامس أرض مصر، وممراً أيضاً في أرض القـدس، أي أن تقـول نحو غـزة، وبهذا نلنا العـون من سلطان دمشق، وكـذلك من الناصر، صـاحب الكرك، لكن ليس من دون خطر عظيم، ومتـاعب وانهاك لأشخاصنا، ونفقـات كبيرة في المال، مع تفكير حكيم وطويل قد أعطي إلى هذه الأعمال، ومع ذلك نحـن نخشى بأن يقـوم الرب بأخـذ انتقـام ثقيل، بمعـاقبـة العـاقين الذين كـانوا متراخين وعصـاة في هذه القضية، علاوة على ذلك، إننا نقترح، في سبيل حـراسة وسلامة أرضنا، أن نبني قرب القـدس، فوق جبل الطور، قلعة قوية جـداً (إذا ما نجحنا بالحصـول على عون رجال شجعـان) بها نأمل بأن تكون عمليـة الحفاظ على الأرض أكثر سهولة، ومدافع عنها إلى الأبد، ضد الأعداء، ذلك أن الأشيـاء التي نمتلكها، إننا ولابحـال من الأحوال في وضع يمكننا فيـه

تملكها والدفاع عنها بقوة لوقت طويل ضد السلطان، الذي هو قوي جداً، ورجل بارع، وذلك إلاّ إذا قام المسيح وأتباعه المخلصين بتقديم مساندة فعالة لنا.

مصداقية الرسالة المتقدمة مدعاة للتساؤل

عندما وصلت هذه الأشياء إلى مسامع كثير من المسيحيين، لم يتمكنوا من منح الثقة لا إلى الكلام ولا إلى الكتابة، ومرد ذلك وسببه سوء سمعة الداوية، ومثلهم أيضاً سمعة الاسبتارية، لأنهم قالوا بأنهم دوماً يثيرون الصراع بين الصليبيين والمسلمين، حيث يمكنهم أثناء الحرب الحصول على المال من الحجاج القادمين من جميع البلدان، وكذلك بسبب خلافاتها المتبادلة، وكذلك بسبب أن لديهم نية باعتقال شخص الامبراطور، علاوة على ذلك، يمتلك الداوية في العالم المسيحي تسعة آلاف عزبة، ويمتلك الاسبتارية تسعة عشر ألفاً إلى جانب التعويضات ومختلف الموارد التي تأتي من رهبانهم، ومن المقتنيات، التي كلها تزداد بامتيازاتهم، ويمكن لكل عزبة من هذه العزب، أن تجهز من دون صعوبة جندياً واحداً، مسلحاً بشكل جيد وأن يكون شاكي السلاح، من أجل نجدة الأرض المقدسة، وأن يكون أيضاً مزوداً بجميع الأشياء التي لها علاقة بالتسليح الكامل للجندي، وعندما يتأمل المسيحيون بهذه الأشياء، ويتفكرون حولها، يفترضون دوماً أنهم يخفون بعض الغش، وأن لديهم بعض الخيانات الذئبية تحت رداء الشياه، لأنه لو لم يكن هناك بعض الخيانة والغش، لأمكن لأعداد كبيرة جداً من الفرسان الغربيين الشجعان، أن يخرقوا جميع صفوف المشارقة وأن يلحقوا بهم هزيمة ماحقة.

إصلاح طائفتي الدومينيكان والفرنسيسكان وفق نظام البندكتيين

وفي الوقت نفسه، كان الرهبان، وبشكل رئيسي رهبان الدومينيكان،

جـاهلين بأحكام طائفتهـم، وقـد أدينوا بشكل غير حكيم تمامـاً، على أسـاس تجاوزهم لأنظمة القـديس بندكت، الأمر الذي أظهـرناه في هذا الكتاب، قبل عدة فصول، وقد عـوقبوا بممارسة القسوة البابوية عليهم، وجرى توجيههم نحو طريق أفضل بموجب سلطات الرسالة التالية:

«مـن أوتـو الـذي هـو بـالاذن الـرباني، أسقـف بـورتـو Porto, للقديس روفين Rufin وغودفـرد Godfred, وبالرحمة الربانية كـاردينال شماس للقـديس أدريان Adrian, إلى جميع الذين سـوف يحترمون هذه الرسائل، تحيات الرب:

اعلموا بأننا رأينا، وبيقظة تفحصنا الرسائل الرسولية، التي لم تمح، أو تمسح، أو تتشـوه، في أي جـزء، بل هـي في شكلهـا الأصيل، فـوجـدنا مرسوماً صحيحاً، لم تتعرض خياطته أو كتابته، ولاورقه للتلف، والذي محتواه هو التالي:

من انوسنـت، إلخ، إلى معلم ورهبـان طائفـة الدومينيكان، صحـة ومباركـات رسوليـة: إنه ليس فقط لصـالح الرهبان، بل أيضـاً لصالح الدير، أنه جرى منح وقت للامتحان وسمح به من قبل الآباء المقدسين، في أن يتمكن أحدهم في الحصـول على نموذج عن صرامـة طريق الحياة ذاك، وأن يتمكن الآخـر من الحصـول على الـوقت لكي يتعلم مبـادىء مثل الدير والرهبـان، وفي أحكام القديس بندكت جـاء الأمر أيضـاً، أن الذين هم على نقطة التحول، سـوف لن يجدوا دخولهم إليـه سهل جداً، بل حسب تعاليم الرسول، ينبغي فحصه لتبيان فيها إذا كانت الروح من الرب، وأن المصاعب والمخـاطر القائمـة على الطريق إلى السماء، يتوجب إيضاحهـا تماماً، وأضيف فيها بعد في الأحكام نفسهـا، ينبغي إخباره، أن هناك شريعـة، في ظلها عليك أن تتابـع الأعمال الروحية المفيدة، فـإذا ما كنت قادراً على الالتزام بها، ادخل إلى الرهبنة، لكن إذا لم يكن بإمكانك ارجع حـراً كما أتيت، وعـلاوة على ذلك، فإن سلفنا البابـا غريغـوري،

صاحب الـذكرى السعيدة، قـد وضع شريعة قضت بإعطـاء المستجدين الذين هم تحت الامتحـان، قبل ارتداء الـزي الديني، إلى الذين يعملون النذور الرهبـانيـة، أو قبل أن يعملوا نذورهم، يمكنهم —إذا أرادوا— خلال عام، العودة إلى طريقتهم الماضية في الحياة، ومرة ثانية، حتى نزيل كل شـك حـــول هذا الموضـــوع، بما أنـه هناك في بعض الـديرة، زي المستجدين فيهـا ليس متميزاً عن زي المحترفين، لأن الثيـاب التي تعطى إلى الذين عملوا نـذورهم تجري مبـاركتهـا أثناء الاحتراف، من الممكن عمل تمييـز بين أزياء المستجـدين وأزياء المحترفين، ومع أنك بحماسك، لديك رغبـة عظيمـة لكسب الأرواح إلى الرب، مـع ذلك إنه بسبب أنه من المطلوب ومـن الموائم، أن لايكون حكم العقل بحـاجـة إلى نقـاء الضمير، خشيـــة أن يحصل أذى إلى الخلاص من ذلـك المصـــدر، الذي صمم فقط لمنح المنفعـة الروحيـة، قمنا نحن بناء على نصيحـة إخـواننا، وبمـوجب سلطات هذه العروض، بمنعكـم بكل دقة، بمـوجب فضيلة طاعتكم، وتحت طائلة آلام عقـــوبة الحرمـان الكنسي، من الإقـدام على قبول أي واحد سوف يعمل النذر في طائفتكم، أو أن يتخلى عن الدنيا، قبل انقضـاء سنة امتحـان، تؤسس بشكل نظامي بمثـابة عـون للضعف البشري، ولمنع أي إنســان، بكل طريقـة من الطرق، إذا كــان في وضع المستجـد أو الامتحـان، من العبور، أثناء سنة الامتحـان نفسهـا، إلى أي طائفـة رهبانية أخـرى، سوف يظن أنها أفضل، أو يعتقـد أنه أحسن إلى حـريتـه الانتقال حســب إرادته، دون أن يعبأ بأي نظام يمكن أن يكون معـاكساً، وإذا كنا قـد أمـرنا قط بشيء من هذا، نحن نعلم هنا أن ذلك ملغى وفارغ، أو أية رسائل تمّ الحصـول عليها، أو سيتم الحصول عليها من الآن فصـــاعـداً، من الكرسي الرســولي، لاتقــدم ذكـراً واضحـاً للمقـدمـات، وإذا صدف بشكـل ما وأقـدمتم على استقبـال أي واحـد بشكل معاكس لهذه المحظورات، نحن نرسم، بأن الذي جـرى استقباله على هذه الصـــورة، هو ليس مـــرتبط بطائفتك، وأنك منـذ وقت تقبله

للاحتراف في الطائفة نفسها، سوف تكون بالفعل معلقاً، وأكثر من هذا عرضة للعقوبة التي يجري انزالها برهبان الطائفة، بسبب جرائم أعظم، لاتدع أحداً، بناء عليه إلخ. صدر في مدينة كاستيلانا Castellana, في السابع عشر من حزيران، وفي السنة الأولى من حبريتنا».

«وقمنا بناء على شكوى الرهبان الفرنسيسكان، بنسخ محتويات هذه الرسائل كلمة كلمة، وأن يجري تثبيتها بأختامنا. صدر في سوتري Su-tri في اليوم الثالث من حزيران».

وجرى نشر هذه الرسائل، التي تمّ الحصول عليها، في هذه الآونة من السنة وتعميمها، مع الأمر بالالتزام بها كما تقدم.

ملك إنكلترا يتولى تعيين بعض المستشارين الجدد

وفي هذه الآونة عيّن السيد الملك اللورد بوينتز بيبر Poyntz, Piper فارساً، يقوم بأعمال القهرمان لقصره، وكذلك بوينتز نفسه، وجون مانسيل Mansel, مستشار كنيسة القديس بولص في لندن، وكانا معاً شخصين حكيمين ومجربين، ليكونا مستشاريه الرئيسيين وكذلك المعلم لورانس من كنيسة القديس مارتن، الذي كان فيما مضى مقيماً كمرافق مقرب لوليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، ولييج، والذي هو مدير لجميع مجالس الملك، ولجميع القضايا المتعلقة بالكنيسة، فقد جرت ترقيته الآن ليكون قسيسه وكاهنه الخاص، لأنه كان رجلاً صاحب حكمة كبيرة وخبرة.

فرار أسقف وينكستر إلى فرنسا

وفي تلك الآونة، لاحق أساقفة: لنكولن، ووركستر، وهيرفورد، الملك، الذي وضح أنه كان يتجنبهم، ووجدوه، أخيراً في ويستمنستر، فوجهوا الملامة إليه بحدة، من أجل اضطهاده وطغيانه، الذي لم يتوقف عن ممارسته يومياً نحو أخيهم وزميلهم، أسقف وينكستر، وفي الوقت

الذي قـدموا فيه الالتماس بعـد الالتماس، أضافـوا التهديد إلى التهـديد، وكـانوا جاهـزين لوضع بيعته تحت الحرمـان من شراكـة المؤمنين، طلب الملك بعض التأخير، حتى يمكنه إجـابتهم حـول الموضوع بدقـة أكبر، وذلك حتى يعود رسـوليه، اللذان كانا قـد عبرا الألب، لأنه كان يأمل، من دون أدنى شك، بأنهما سوف يرشوان البلاط البابوي، وأن ينفذا كل شيء وضعـاه بذهنيهما، وتولى الأسـاقفـة الذين تقـدم ذكـرهم أعـلاه الاستجابة لطلب الملك، ولكن عندمـا شاهد أسقف وينكستر انخفاض حرارة اندفاعهم، هرب بشكل سري، في العشرين من آذار، حيث ركب ظهـر سفينة في لندن، في سبيل أن يعبر إلى فـرنسـا، وقـد أبحـر عبر نهر التيمز، وقطع مسافة قصيرة إلى البحر، ووصل إلى ميناء القديس فاليري Valerie, قبل حمل أخبـاره إلى الملك، أو إلى أي واحـد من أعـوانه، ثم أنـه انتقل مـن هناك إلى أبيفيـل Abbeville, وهناك استقبـل بشكل رسمي من قبـل مبعـوث من ملـك فـرنسـا، فقـد استقبله هذا المبعوث نيابة عن سيده، بسرور وبهجة، وبأسارير فرحة، ووعده بجميع الأشيـاء التي نصح بها الملـك، وبالمسـاعـدة، مع كل مـواسـاة وحماية، وأعطى أيضاً أوامـر، صادرة عن سيـده، بأن يقوم عمـدة أبيفيل بإعداد جميع سكان أبيفيل، وأن يجعلهم جاهزين للدفـاع عن الأسقف المذكور، إذا صدف وأمـر ملك انكلترا بملاحقتـه وإلحاق الأذى به، وأن يطيروا وقت تطلب الحاجـة إلى السـلاح، وأن يقـاتلوا برجـولة ضـد جميع المهاجرين دفاعاً عنه.

مقتل غريفن بن للويلين أثناء محاولته الفرار من برج لندن

أثناء موت الحظ، وتأثيره هكذا على شؤون العـالم، كان غريفين الابن الأكبر لـ «للويلين» أمير شمالي ويلز، مـايزال محبـوسـاً سجيناً في برج لندن، وكـان يتسلم كـل يوم من خـزينة الملك، نصف مـارك لتـزويده بالطعـام وإلخ، وبسبب مكانتـه، ومع أن زوجتـه تسلمـت إذناً بزيارته،

كـان متأثراً بعمق بمشـاق السجن الطويل التي كـان غير معتاد عليهـا، وفكر كثيراً حـول كيف يمكنه الفـرار مـن مـوضع سجنه، وفي إحـدى الليالي، قـام بعدما خـدع سجانيه، فعمـل حبلاً من أغطية فـراشة، ومن ستائره وأغطية مـائدته، قام بتدلية نفسه عامـودياً، بوساطة الحبل نفسه، وذلك من أعلى البرج، وبعـدما نزل بعض المسافـة، انقطع الحبل، بسبب وزن جسده، وسقط مـن علو كبير، لأنه كان رجلاً كبيراً، وبـدين جداً، وبهذه الطريقـة دق رقبتـه ومـات، وتـم العثـور على جسـده المحـزن في الصباح قرب سور البرج، وقـدم مشهداً مؤسفاً لجميع الذين رأوه، لأن رأسه مع رقبته كـانا مدفونين تقريباً في صـدره، بين كتفيه، وعندما سمع الملك بهذا، وبخ الحراس وعـاقبهم بسبـب إهمالهم، وأمـر بابن غـريفين المذكـور، الذي كـان مسجـوناً مع أبيـه، فشـدد الحراسـة عليـه، ومـات غـريفين المذكـور، الذي سقط من البرج كما ذكـرنا، في اليـوم الأول من آذار.

تناقص شعبية ملك إنكلترا بسبب نفي أسقف وينكستر

عندمـا نفي أسقف وينكستر، تناقصت سمعـة ملك انكلترا كثيراً، في جميع أرجـــاء البلـدان الواقعـــة على هـذا الجانب مـن الألـب، واتخذ الفـرنسيون، الذين كـانوا دوماً خصـوم الانكليز، ذلك حجـة من أجل فضحهم، قائلين:

«انظروا إلى هناك، نحـو ملك انكلترا، الكسـول والمهمل بالنسبـة إلى جميع أعداء المملكة، لكـن المضطهد والمعذب لأسـاقفته المقـدسين، ولقد كان هناك مـن قبل القديس أنسلم رئيس أسـاقفة كانتربـري، ومن بعده القـديس تومـــاس الشهيـد، والآن في السنوات الأخيرة المعترف المجيـد ادمـــوند، ومثـل ذلك هناك الآن الرجل التقـي أسقف وينكستر، الذي خـدمـه لوقت طويل بإخـلاص، وكـان صـديقـاً مقـرباً منه، لكنه الآن يرفض أن يسمح له أن يكون في أمان السـلام، والذي طرده، بلا حياء،

إلى خارج حـدود مملكته، ثم هو يطارده بطريقـة عدوانيـة»، الأمر الذي عندما بات معروفـاً من قبل بونيفيس الأسقف المنتخب لكانتربري، قام صدوراً عن عـاطفته ولطفه الفطري، ولحزنـه على تناقص شعبية الملك، فكتب بطريقة حبية كثيراً إلى أسقف وينكستر كلمات مواساة، وإلى ملك انكلترا كلام تقريع، وفق الصيغة التالية:

رسالة بونيفيس المنتخب لكانتربري إلى أسقف وينكستر

«من بونيفيس، الذي هو بنعمـة الرب، المنتخب الحقير لكانتربري، إلى الأب المبجل في المسيح وليـم، الذي هو بنعمـــة الرب أسقف وينكستر، تحيات في الرب:

بما أنك قـدمت في رسـائلك طاعتـك إلينا، وللمنصب الذي نشغله، نشكرك في المسيح من أجل تقواك، وحسبما قضيت أنه مناسبـاً أن تتقدم بطلب إلينا بوسـاطة المعلم وليم، الذي هو كـاهنك، إعلم بأننا تعـاطفنا مع شكواك، بقدر أن لانغضب الرب، أو نخرق القانون، وسوف تسمع المزيد حـول هذا من وليم المذكـور، واعلم واسترح متأكـداً، أنه قبل قـدومنا إلى انكلترا، إذا لم يكن السـلام بينك وبين الملك لم يسترد، بإننا سوف نصرف أنفسنا بكل فعالية لذلك، ولسوف نستخدم وسائل أقوى للحصول على محصلة عادلة لهذه القضية، وبما أنه ليس لدينا ختم خاص بنا، استخدمنا هذا الختم العائد لهيئة كهنة بيلي Bellay, وداعاً».

رسالته إلى ملك إنكلترا

«من بونيفيس، إلخ، إلى الملك، إلخ:

لقـد تلقينا رسـائل من بعـض الأسـاقفـة المسـاعـدين في كـانتربري، يلتمسـون فيهـا بكل اخـلاص إقـامـة سـلام بينكم وبين الأب المبجل المسمى لكنيســة وينكستر، والذي تسميتـه قـد جـرى قبـولها من قبل الكرسي المقـدس، ولذلـك يتـوجب تثبيتـه، وإننا بناء عليـه، رغبـة منا

بالهدوء للمملكة، وبالحفاظ على سلام الكنيسة، التي هي عرضة للخطر في هذه المناسبة، ولأن الذي يصغي، كما يليق إلى شكوى الأب المذكور، يجد من المعروف أنه مفيد ونافع لكل من الكنيسة وللمملكة، نرجو سموكم بتقوى بأن تتلطفوا بأن تعيدوا الأب المذكور إلى حظوتكم، بحكم أنكم ملك صالح، وأمير يخاف الرب، وهكذا ينبغي أن يفعل، وبما أنه ليس لدينا ختم خاص بنا» إلخ (كما من قبل).

كما أنه كتب أيضاً إلى أسقف هيرفورد، ليشغل نفسه بيقظة وبفعالية، بما يتعلق بهذه القضية، أي قضية أسقف وينكستر بالإقناع بالالتماسات وبالتهديد.

ملك هنغاريا يطلب المساعدة من الامبراطور فردريك

وكان ملك هنغاريا في هذه الآونة قد طرد من مملكته من قبل التتار، لذلك تقدم بطلب إلى بلاط الامبراطور، وطلب نصيحة فعالة ومساعدة ضد العدو المشترك، وجرت مداولات سرية وطويلة، إثر ذلك، وقد تقرر بأن يقوم الامبراطور بيد قوية بالعمل على تحرير مملكة هنغاريا من نير الاحتلال البربري على شرط قضى أنه عندما سيسترد الملك مملكته، وعندما تعود إلى الحرية والسلام بوساطة الامبراطور سوف يعدّ الامبراطور سيداً سامياً له.

وبناء عليه جرى إرسال جيش كبير، وتمكن الامبراطور من تحرير المملكة المتقدم ذكرها أعلاه من التتار المتوحشين، لكن ذلك لم يكن من دون بذل كثير من المال، والتعرض لمخاطر عظيمة ولقد طردهم بقوة وبقدرة إلى ماوراء حدود المملكة، وكان هناك بعض الذين قالوا بأن هؤلاء التتار الممقوتين، قد جاءوا أولاً بموجب دسائس الامبراطور ومؤامراته، وكانوا بانتظار مطالبه، ومرتبطين بتنفيذ أوامره، وقد تصرفوا بطريقة تمكن الامبراطور من اخضاع ذلك الملك ووضعه مع مملكته

تحت سلطانه، لكن هذا ما كـان قد تهامس به الذين كـانوا غيورين منه، ومثل هذا الافتراء ينبغي عدم تصـديقه، وعندمـا على هذا صارت مملكة هنغـاريا محررة، وعـاد ملكهـا بسـلام، صـارت هنغـاريا خـاضعـة إلى الامبراطورية، وصارت ملزمة بتقديم ثلاثمائة فارس مع أتباعهم، للقتال على الحدود لصالح الامبراطور، باخلاص واستقامة.

هزيمة امبراطور القسطنطينية والتجائه إلى الامبراطور فردريك

وفي ذلك الوقت نفســه هرب امبراطور القسطنطينيـة مـن اضطهـاد الاغريق، وبما أنه لم يكن لديه شيئاً في خزينتـه يمكنه من متابعة الحرب، أو الوقـوف ضد الهجمات المتتـابعة لـلاغريق، هرب إلى بلاط فـردريك الامبراطور الرومـاني من أجل النصيحـة والمساعـدة، وقـام الامبراطور أولاً بتقديم تهديد مـرعب ضد الاغريق، ثم إنه قام بشكل أكثـر حكمة بالمنـاقشـــات معهـم، وحصل له أخيراً على هـدنة لمدة عـــام، ووافق الامبراطور فــردريك نفســه على زواج بين ابنتــه وبين المقــدم الكبير للاغـريق واسمـه بتّاكيـوس Battacius, وسبب هذا غضباً عظيماً وازعـاجاً لمولانا البـابا وإلى البـلاط الروماني كله، بسبب الشقـاق الذي أثير بوسـاطة بتّـاكيوس، وقـامت منذ ذلك الحين كـراهيـة قـاسية جـداً ومستمرة بين مولانا البابا، وبين الامبراطور فردريك.

التتار يتفرقون باتجاه الشرق

وفي الوقت نفســه، كـان التتــار يتربصـون هناك، غير قـــادرين على الصمود أية مـدة أطول ضد هجمات الامبراطور، لذلك غـادروا المناطق الشمالية، وارتحلوا مسرعين نحـو الشرق، وعندما كانوا يجتـاحون بشكل وحشي بعض مناطق ايران، كـــان هناك بعض الناس المتـوحشين جـداً، والذين سكنوا على تخوم البحـر الأحمر، وكـانوا إلى حـد بعيد خـاضعين لسلطان مصر، وكانـوا يعرفون باسم الخورازميـة، وكانوا قـد هربوا من

أمام تهديدات العاصفة الهوجاء، محاولين تجنب الاجتياح التتري، وقد ذهبوا إلى سلطان مصر، وطلبوا بسرعة وبوقاحة وصلف مكاناً يسكنون به، وعندما وجد السلطان أنه إذا مارفض برعونة مطالبهم سوف يستولون بالقوة على ماطلبوه وسيحصلون عليه بحد السيف، قال لهم:

«هناك على مسافة ليست بعيدة عن هذا المكان، يوجد بعض الناس، الذين يدعون باسم الصليبيين، وهم يسكنون في الأماكن الساحلية، وهم يزدرون شريعتنا، وهم مثيرين للمتاعب لنا، ويسببون الأضرار لنا، ويهددون بالبقاء هكذا والاستمرار، ومركزهم المهم ومقرهم الرئيسي هو مدينة القدس، اذهبوا بناء عليه، واطردوهم وعيشوا حيث يعيشون الآن، وهذا عندما تحصلون عليه، سوف تصبحون أثرياء بالأسلاب الثمينة، وسوف تمتلكون أراضي خصبة، وستبتهجون بالقلاع والمدن التي تتمناها قلوبكم، وسوف تكونون من ذلك الوقت سعداء في ظل حمايتي، وظل حماية جميع شعبي»، وبناء عليه فرحوا كثيراً بهذا الكلام، وهاجموا أولاً القدس وقتلوا عدداً كبيراً من الصليبيين، حسبما حصلنا على معلومات وافية عن ذلك في رسالة من نبلاء تلك البلاد.

رسالة الامبراطور حول إفراغ الأرض المقدسة من السكان

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى ابن ختنه المحبوب، رتشارد، ايرل أوف كورنوول، تحيات، وعواطف خالصة أكيدة:

في راما سمع صوت بكاء ونحيب، وعويل، وحزن عظيم، وهو صوت، انتشر، كما أفادت الأخبار، مثل انتشار أخبار حزننا، وهو صوت، كما يبدو يدفعه تيار الحظ المعاكس إلى آذاننا، ليوضح أن الشرور لاتأتي لوحدها، فهناك أخبار تجلجل مثل أصوات الرعد ويتردد صداها حول القدس، وتعلن عن العاصفة المقبلة، التي فيها إفناء دموي لأتباع

المسيح، وعن الخسارة المؤلمة لضريح الرب، ثم عن التدمير المريع للمدينة المقدسة، وهذا في أيامنا! وفتحت هذه البروق سحب السماء، ليس من أجل تساقط الندى، أو زخات مطر خفيفة، بل لتهطل علينا بفيض من المصائب، ولبعض الوقت أنعش الحب، والإيمان الصحيح، المسيحيين الذين نجوا من المذبحة التي عملها الخوارزمية، ليقوموا بالانتقام لذلك الدمار، ولتلك الفاجعة الكبرى، ففي اللحظة نفسها لمؤتمرات القادة، ومع رغبة كل عسكري خاص ألهم لأن يفعل شيئاً ما رداً على تلك الانتكاسة، كان بطريرك القدس، يأمل بأن يحصل لنفسه على مجد النصر كله، وكان يبحث عن كل أمير آخر، وشريك هناك غير جدير ليكون شريكاً معه، وهنا بدأ يبشر بصليبية الرب، ورفع من معنويات الذين سمعوه، وألهبهم بشجاعة وصلت إلى حد الطيش، وبناء عليه قام الجيش الصليبي، من دون انتظار للساعة الموائمة، وهي القاعدة الأكثر أهمية في الحرب، في يوم الاثنين قبل عيد القديس لوقا الإنجيلي، وهو مكوّن من جميع أنواع الفرسان الأجانب، قام أفراده بإلقاء أنفسهم على الخوارزمية المتقدم ذكرهم، الذين كانوا متوقعين للهجوم، وكانوا مستعدين للمقاومة، وهكذا حدث في هذه المعركة السيئة الطالع، أنه لم ينج أحد من جميع الصليبيين، من القتل، أو من الوقوع بالأسر، ونجا آخرون —وكانوا قلة قليلة— بفضل وسائل التفريج التي واجهوها أثناء فرارهم، وكان معظم هؤلاء من الذين لم يندفعوا بطيش إلى وسط حومة القتال، حيث كان هناك قرع للسلاح، وزمجرة ضربات المتنازلين، وكان الذين نجوا من بين جميع بارونات الأرض المقدسة، ومن عساكر مملكة القدس، ومن بين جميع عسكريي رهبان الداوية، الذين بعثوا بثلاثمائة، ومن اسبتارية القديس يوحنا، الذين كانوا قد أرسلوا مائتين، ومن بين جميع الذين حشدهم فرسان رهبان القديسة مريم للتيوتون، كان الذين نجوا من هؤلاء ليس أحداً، إلاّ البطريرك المتقدم الذكر، واللورد سيمون دي مونتفورت (الذي كان

حامل علم المملكة، وقائد المقدمة) وأربعة فرسان، وعدد ضئيل جداً من خدم الداوية، وتسعة عشر من الاسبتارية، وثلاثة خدم فقط من خدم الفرسان التيوتون، فهؤلاء فقط الذين عادوا، ولقد عادوا إما لحسن حظهم، أو بوساطة الفرار، وكان هناك رجال من ذوي الشهرة مثل أسقف اللد، وصاحب حيفا، قد سقطا على أرض المعركة، وقد أصيبا بجراحة مميتة، وقد أصيب وولتر أسقف يافا بجراحة قاتلة، أما رئيس أساقفة صور الذي لم يمت من جراحاته، فقد ألقي به في السجن، وقد علم سمونا بهذه الأشياء كلها، من الرسائل التي أرسلت إلينا من بيت رهبان القديسة مريم للتيوتون.

وتسبب هذه المحصلة المحزنة للأشياء، وتقدم في ذاتها سبباً للأسى، وتسحب المرارة من قلوبنا، ومن قلوب جميع أمراء الإيمان المسيحي، وهي تستحق انهمار فيض من الدموع من أعيننا، بسبب طبيعة الفاجعة، لأنه تقدم عليها خطأ كبير، وتبعها كثير من الإهمال، لأنه بالاضافة إلى إثارة هياج الفخار الديني للداوية، الذين عاشوا على موارد بارونات الأرض، لقد أرغموا بحرب غير عادلة وغير حكيمة سلطان مصر على طلب مساعدة الخوارزمية، وذلك في ازدراء كامل لمعاهدتنا الملكية التي عقدناها مع ذلك السلطان، ومعنا بيتي رهبان القديس يوحنا، والفرسان التيوتون للقديسة مريم، وقد أظهر هؤلاء الذين تقدم ذكرهم سذاجة طفولية، ودليل على الحماقة وذلك عندما وضعوا ثقتهم في البرابرة المتذبذبين، متوقعين أن يجدوا الوفاء لدى الخونة، فباستخدامهم لوسائل غير أمينة، اتحدوا مع سلطاني دمشق، والكرك، اللذان لم يختلفا عنهم بالعقيدة فقط، لابل تفاوتا معهم بالمصالح، وكان الهدف من ذلك تقديم العون ضد الخوارزمية والسلطان، وكانوا بهذا كمن أرسل بكميات من الزيت لصبها فوق النار الملتهبة.

وبناء عليه، حسبما سمعنا بشكل واضح، وروي لنا، من بعض

الرهبـان الذين قدمـوا من المناطق الأجنبيـة، استقبل الداوية السلطانيين المتقـدمي الذكـر، مع أتباعهما في أرباض بيـوتهم، أي بيـوت الداوية مع الفرح و الاحتفالات، وسمحوا لهم بممارسة شعائرهـم الوهمية، وأبهتهم المدنيـة، مع الدعـاء باسم محمـد (صلى الله عليـه وسلم)، ولم يعـد من الممكن إبعـــاد هؤلاء الذين وجهت إليهـم الدعـوة، ولابـأي شكل من الأشكال، ولاباللطف من طبيعتهم، كما أنهم لم يثنوا عن البقاء بوساطة وعد التحالف، الذي أقسموا عليه، وذلك عن متـابعة ميولهم العدوانية، لابل أظهروا بشكل واضح جداً أن الحنث باليمين وليس بالحري الوفاء به، هو الذي قائمين به، أمـا سلطان حمص، الذي أرسله سلطان دمشق، لمسـاعدة الذيـن عملوا تحالفاً للقتـال ضـد سلطان مصر، والذي لم تكن لديه آمـــال بنيل الخير على يدي سلطان مصر، فقــد هرب، ونجـــا من المعركـة مع خمسة فقط من رجالـه، أما بالنسبة للبقيـة، فإنهم بعد صراع قصير، تظاهروا فيه بالقتـال، ذهبوا سـالمين مع رجالهم كلهم إلى سلطان الكرك، من دون قتـال، ولاحتى مايشبـه القتال، وهكذا صفـوا أنفسهم على جـانب الذين اقترنوا بهم في قلوبهم، وعـلاوة على ذلك إن الإهمال الشـديد الذي هو الخطوة الأخيرة نحـو الدمـار، عندمـا تكون سـلامـة واحـــد معلقـــة على عصـــا، ويلفظ كل خطر، ويهددنـا بدمـــار سريع، وبالنسبـــة لـزعماء الشريعـــة الأرثوذكسيـــة —وهو أمــــر نحن جميعـــاً أرثوذكس— لايمكننا أن نكتب عنهم من دون ألم كبير، هم بعيدين عن التفكير حـول ترميم مثل هذه المأساة المحـزنة، باستثناء التنهـدات، وفق طريقـة أجـــدادنا، من أجل مثل هذه الأحـداث المؤسفـــة، ولكن وكأن الشـــــؤون لم تكن شـــــؤون المسيحيين، أو الإيمان المسيحـي، لم نهتم بجراحاتنا، ولم نهتم حول أوجـه المعالجات، فالرب قد طاردنا، ونحن لم نتشكى، فنحن محاطون مـن كل جـانب بأسقفنا المحترقـة، ومع ذلك لم نركض من أجل احضـار الماء، لابل كل واحد متمجـد مسرور في سوء حظ الآخر، ففـي المكان الأول الوحشية الجديدة للتتـار قد أذهلتنا، وفي

المكان الآخر هناك النكد القديم للشعوب البربرية يحرقنا ويعذبنا.

ثم هناك في الأماكن الأخرى الخيانة المخجلة للبيترنيين التي قد أغضبتنا، وفوق كل شيء، خيانة الذين يضعفون الامبراطورية المقدسة في إيطاليا بوساطة أعمال عصيانهم، حيث أنهم بذلك يعيقوننا عن اخضاع الشعوب البربرية إلى الامبراطورية المسيحية، وفقاً لما تطلبه الكنيسة الكاثوليكية في طقوسها المقدسة، وهكذا دفعنا في كل اتجاه من قبل الأعداء المعلنين، أو من قبل عذاب الأعداء المتخفين، والشيطان يعمل بشكل متواصل، وهو متيقظ، بينما سمعان نائم، ونحن غير مُتسامح معنا هناك، حيث يمكن للنوم أن ينعش أعيننا، وللرقاد أن ينعش قلوبنا، وانهضوا بناء عليه، أيها الرجال الشجعان، واحملوا سلاحكم وترستكم للانتقام لأذى أيامنا، فهي مدونة بشكل أننا لايمكن أن نتجنبها، والرب هو الشاهد علينا، بأننا قدمنا دوماً بكرم زائد العون لمساعدة الأرض المقدسة، أكثر مما طلبته من عون من الآخرين، لأننا نعتقد أنك لست جاهلاً بالعسكريين من وراء الألب، الذين هم قوم يحبون القتال، وكيف أنهم حملوا شارة الصليب الرائع، وعهدوا بأنفسهم لخدمة الأرض المقدسة، ثم كيف دعوا بوجوب أن يعهد بها إلى مقدم مشهور، وأن يجري توجيهها من قبل الذين كانوا يعبرون البحر، فلم يرفض سمونا منحها التأييد بموافقتنا.

علاوة على ذلك، لقد عرضنا شخصنا، أو شخص ابننا، أو أي قائد آخر، يراه هؤلاء القوم أنه شخص مناسب، واعدين بوجوب أن يصاحب الجيش ألف فارس مأجورين، نحن سوف نتولى الدفع إليهم باستمرار، للمساعدة في مثل هذا الشيء الجيد، وبناء على هذا أرسلنا بيرارد Berard, رئيس أساقفة بلرم، وأسقفي ريغيو Reggio, وفلورانسا، وكذلك غ. G أسقف سوسة، المحببين منا والمقربين إلينا، إلى غريغوري، الذي كان آنذاك الحبر الأعظم الحاكم، وذلك

ليكونوا بمثابة نواب خاصين من سمونا، ليسألوه لاشيء أكثر من الحماية —بوساطة حارس أمين ومناسب— لنا، ولأولادنا، ولامبراطوريتنا، ولممالكنا، ولكي يمكن أخيراً إرجاع اللومبارد المعاندين الوقحين والعصاة علينا، إلى معاودة الاعتراف —حسبما متوجب عليهم أن يفعلوا— بالحقوق وبالسيادة العائدة إلى الامبراطورية الرومانية، ومن أجل أنه عندما يشاهد العصاة المتقدم ذكرهم أعلاه، أن إتحادهم، أو بالحري، تآمرهم قد جرى تدميره، وقتها يمكن أن يدفعوا من أجل أن يسددوا لنا مواردنا، مثلما يفعل رعايانا الآخرون، وكما تدفع الدول الأخرى إلى ملوكها وسادتها الشرعيين.

ثم إننا بعدما قدرنا الظروف، وأحوال الزمان، رأينا مسبقاً ماوقع حالياً، وارتعبنا منه، (مع أن معرفة الذي سيكون هو أمر مرفوض ولايمكن معرفته من قبل إنسان فاني) لأن شرور الأيام قد اتسعت بشكل كبير، وأنه في سبيل دمار ايطاليا سمح البابا الحاكم للكنيسة، بموافقة مع البابوية وتنسيق بزيادة عدد أعدائنا، وغريغوري البابا الحاكم قد مات، وقد ضعفت السلطة البابوية بخلافات هذا الوقت وتمزقاته، والذي يحكم الكنيسة الآن، والموضوع على رأس البابوية، قد قدمنا له، بوساطة مندوبينا مقترحات أكبر بكثير، مما كان من قبل، وهي مقترحات ما من أحد فكر مصيباً قط، أن من الحق جواز رفضها، وعدم قبولها، وهذه المقترحات، هي أننا بعد اعتمادنا على مولانا الجبار يسوع المسيح، الملك المنتصر، صرفنا أنفسنا لأن نحمل على أكتافنا حملاً ثقيلاً، وأن نثقل أنفسنا بجميع شؤون ماوراء البحر، وعلاوةعلى ذلك فيما يتعلق بالعاصفة المهددة للتتار، وبالمخاوف من جهة امبراطورية القسطنطينية، فذلك سيكون وفقاً لما قدمه الرسول المتقدم لسمونا من تعليمات إليكم وإلى الملوك الآخرين والأمراء.

آه، كم كانت الفوائد كبيرة، التي كانت ستكون بعد حين، لفائدة

الصالح العام، من الترياق الذي تم عرضه من قبل اخلاصنا، في الوقت الذي كـان من الممكن فيـه معـالجة الضعف، وذلك قبل وقـوع الضربة الثانيـة من الحظ المعاكس، وتوجيهها ضد الجرح، ومضـاعفة آلام الندبة الأولى، ونحن لانعتقـــد أن الأمـــور ينبغي أن تترك هكـذا لليأس أو للمـوت من دون التفكير بعـلاجـات هـي ممكنة وينبغي العـودة إليهـا، وبالنسبـة إلينا، إن جبروتنا لايمانـع في المسـاهمة في خطة مفيـدة من هذا النوع، لابل إننا نعـد بتقديم مكاتبنا الجيـدة برغبة أعظم، ولأننا نشـاهد بأن الفأس قـد وضع عند جـذر الشجرة، نقـدر أنه بات من الضروري بالنسبـة لنا ولجميع أمـراء الإيمان الصحيح، أن يقـدمـوا بناء عليـه المسـاعدة، حيث مـادامت إيطاليـا على كل حال بسـلام معنا، وممتلكاتنا وحقـوقنا التي تمتع بها أبوينـا الأقـربين بسـلام في كل من الامبراطورية والمملكة، حيث عـادت إلينا ومعنا بسـلام، فإنـه بذلك استرد جناحـانا نشـاطهما، وتماسك ريشهما، فبهما يمكن أن نحلّق عـاليـاً بأمـان أعظم. صـدر في فـوجيـا Foggia, في السـابع والعشرين من شبـــاط، في العلامة الثالثة».

رواية موجزة حول الفاجعة المذكورة أعلاه

وكـان سبب هذه الفـاجعة المحـزنة، التي ورد ذكـرها أعـلاه، والتي وقعت أولاً في مدينة القدس هو مايلي: عندمـا قام الخوارزمية بهجومهم المفـاجىء على البطريرك، وعلى سكان المدينة، هرب البطريرك المذكـور، مع أسر أهل المدينة بكل سرعة إلى يافا، للالتجاء هناك، وقام الخوارزمية المكرة، في سبيل إعـــادة الفـــارين، واصطيـــادهم لقتلهم، برفع أعـــلام الصليبيين —الذين كانوا قد هربوا فجأة— فوق شرافات أسوار المدينة، ونتيجـة لهذا، فإن بعض الصليبيين الذيـن كـانوا متخفين خـارج المدينة، تركـوا أمـاكن تخفيهـم، وامتطـوا خيـولاً سريعـة، ولحقـوا ببني جلدتهم الصليبيين، بموجب عـواطف روح الأخوة، ودعـوهم للعودة، وأعلنوا

بأن رفـاقهم الذين بقيـوا في المدينة، قد انتصروا بسعـادة على أعـدائهم، ورفعوا أعـلامهم بسرور فوق الأسـوار، وبناء عليه عـادوا، لكن عندما حملوا أنفسهم مع شعـور بالأمـان، ودخلوا إلى المدينة، أو إلى أحـوازها، كان القـوم المتقدم ذكرهم مسلحين حتى أسنانهم، وكـانوا مستعدين من قبل، ولذلك انقضــوا على الصليبيين الفـارين، وقتلوهم جميعـاً بحــد السيف، ثم قـام قومنا الذي بقيـوا سـالمين ولم يتعرضـوا للأذى في المدن والقلاع الأخرى، فحشدوا جيشـاً كبيراً، وقرروا بالاجماع طلب الانتقام لدمـاء إخوانهم، وأن يكون انتقـامهم من أعدائهم دمـوياً وبأيدي ثقيلة، وأنشبــوا معهم القتـال، لكنهم سحقــوا، كما هو واضـح من رســالة الامبراطور المكتـوبة أعلاه، وهكذا كـان نصيب الأكثرية القتل، وكـانوا قلة الذين جــرحـوا والذين نجـوا بالفــرار، بعـدمـا تركـوا أعـداءهم يتفـاخــرون بالنصر الدمـوي الذي نـالوه عليهم، وذلك حسبما اعترف الأعـداء أنفسهم بأفـواههم، بعـد المعركـة، التي استمـرت من الصبـاح البـاكر حتى وضع حلول ظـلام الليل نهاية لها، لأنه لم يعد بمقـدور أي من الفئتين تمييز الأخرى.

رسالة أخرى أكثر تفصيلاً من مقدم الاسبتارية في القدس

«إلى اللورد م. M دي ميرلي Merlaye الأعظم قـوة، يرسل تحياته غ. G من القلعة الجديـدة (نيوكاسل) الذي هــو بنعمة الرب المقدم المتـواضع للدير المقـدس في القدس، والوصي على الأتبـاع الفقراء للمسيح:

من المعلومـات الواردة في رسـائلنا التـي أرسلناها لكم في كل عبـور يمكنكم أن تروا بها فيـه الكفـاية مـن الوضـوح، كيف سـارت شـؤون الأرض المقدسـة بشكل سيء، وذلك بسبب النزاعات التي كانت قـائمة منذ زمن طـويل، وذلك في وقت عمـل الهدنة، وفيما يتعلق بالارتبـــاط بمـوقف الدمشقيين ضد سلطان مصر، ونحن نرغب أن يعلم معـاليكم

بالأحداث الأخرى بعد انقضاء الهدنة، حيث اعتقدنا أنه من المفيد أن نخبركم أنه في حوالي بداية الصيف الذي انصرم أخيراً، تصالح سلطان دمشق مع السلطان الناصر، صاحب الكرك، بعدما كانا من قبل متعادلين، فقد أقاما سلاماً فيما بينهما، ودخلا بمعاهدة مع الصليبيين، على شرط أن يعيدا إلى الصليبيين جميع مملكة القدس، والأراضي التي كانت بحوزة الصليبيين قرب نهر الأردن، إلى جانب بعض القرى، التي احتفظوا بملكيتها في الجبال، ومقابل ذلك توجب على الصليبيين أن يعطوهم كل المساعدات التي بإمكانهم في قتال سلطان مصر، وتمت الموافقة على شروط هذه المعاهدة من قبل الفريقين، وشرع الصليبيون يتخذون أماكن استقرارهم في المدينة المقدسة، بينما بقي جيشهم في غزة، برفقة جيش السلطانين المتقدمي الذكر، لمناوشة سلطان مصر ومضايقته، وبعدما انخرطوا في هذا العمل لبعض الوقت، وصل بطريرك القدس من بلاد ماوراء البحر، وبعد استراحته جسدياً لبعض الوقت، حرّكه الشوق لزيارة ضريح ربنا، وانطلق ليقوم بذلك الحج، حيث كنا أيضاً برفقته، وبعدما وفينا بنذر حجنا، سمعنا في المدينة المقدسة، بأن حشداً لاعدد له، من الجنس المتوحش والعنيد، والذين يعرفون باسم الخوارزمية، قد قام بناء على استدعاء سلطان مصر وأوامره، باحتلال جميع المنطقة الموجودة في الجزء الأقصى من أراضينا المجاورة للقدس، وتغطية وجهها، وقد جعلوا كل نفس حية طعماً للموت، بالنار وبالسيف.

وجرى عقد مؤتمر حول هذه المسألة، من قبل الصليبيين، الذين كانوا يعيشون في القدس، وبما أنه لم يكن بمقدورهم مقاومة هؤلاء الناس، ترتب بشكل عقلاني، بأن يقوم جميع سكان القدس من كلا الجنسين، ومن كل عمر، بالزحف تحت حراسة كوكبة من الفرسان إلى يافا، بحكم أنها كانت مكاناً أميناً للالتجاء إليه، وفي تلك الليلة نفسها،

وبعـدما أنهينا مـداولاتنا، اقتـدنا قومنـا بحذر إلى خـارج المدينة، وسرنا ونحن مطمئنين، نصف المسـافـة، حيث أظهــر المعيق الأكثر تدميراً لنا نفسه، وذلك بسبب تدخل الشيطان الذي هو عدونا الماكـر القديم، وقد رفع القوم المتقـدم ذكرهم على أسوار المدينة بعض الأعلام التي تـركها الفارون خلفهم، حتـى يمكنهم بهذه الوساطة إعـادة الغافلين، بمنحهم الاعتقـاد بأن الصليبيين الذين بقيوا، قـد هزموا أعـداءهم، وبادر بعض أتبـاعنا من الصليبيين بالإسراع خلفنـا، لإرجـاعنا، وبعثـوا الطمأنينة بنفـوسنا بملامح مشرقـة، وأعلنوا بأن أعـلام الصليبيين، التي يعرفـونها معرفـة جيدة، قد رفعت فوق أسـوار القدس، وذلك بمثابة عـلامة على أنهم هزموا الأعداء، وهم بهذا قد خدعـوا، وخدعونا معهم أيضاً، وبناء عليه عدنا ونحن مسرورين واثقين إلى المدينة المقـدسة، ظانين أننا سوف نسكن هناك بأمان، وقام كثيرون انطلاقاً من مشـاعر التقوى، وآخرون بأمل الاستحواذ على مواريثهم والاحتفاظ بها، بالاندفاع من دون حذر، فعــادوا إلى المدينـة نفسهــا أو إلى أرباضهــا، وسعينـا نحن —على كل حــال— لثنيهم عن هذا كلـه، خـائفين مـن خيــانة من هؤلاء القــوم الغادرين، ولذلك تخلينا عنهم وغـادرناهم، وحدث بعد أمـد وجيز من مغـادرتنا، أن قــدم هؤلاء الخوارزميـة الخونة بقــوات كبيرة، وطوقـوا الصليبيين في المدينة المقـدسـة، وحملوا عليهـم حملات عنيفـة يومياً، مع الحيلولة بينهم وبين الدخول إلى المدينـة أو الخروج منها بكل وسيلة من الوسـائل، وأنزلوا بهم البــلاء بمختلف الطرق، وبسبب هذه الهجمات، والجوع، والأسى، وصلوا إلى حـالة اليأس، واتفقـوا جميعاً على تعـريض أنفسهم لحظوظ مخاطر الموت على أيدي العدو، وبناء عليه غادروا المدينة أثناء الليل، وارتحلوا وسـاروا فـوق الطـرقـات في المناطق المهجـورة من الجبال، حتى وصلوا أخيراً إلى ممر ضيق، وهناك وقعـوا في كمين للعدو، الذي طوقهـم من جميع الجهــات، وهاجمهم بالسيـــوف، والنشــاب، والحجارة، وغير ذلك من الأسلحة، وقتلهم، ومزقهم، وقطع إلى أشلاء

حـوالي سبعـة آلاف من الـرجـال والنســاء، وذلك وفقـاً لأصح الاحصائيات، حتى أن دم هؤلاء المؤمنين، قد جرى على جوانب الجبال مثل الماء، وذلك كما رأيتـه وأنا حـزين، وأخـذوا الشباب والعـذراوات معهم إلى الأسر، وعـادوا إلى المدينة المقـدسـة، حيث قطعـوا أعناق الراهبات والرجال المسنين الضعفـاء، الذين كانوا غير قادرين على تحمل متاعب الرحلة والفرار، وذبحوهم وكأنهم أغنام كان من المقرر ذبحهم، وجـاء ذلك بعـدما هربـوا إلى كنيسة الضريح المقـدس، وإلى الجمجمـة، وهوالمكان الذي تكرس بدم ربنا، وهكذا اقترفوا في هذا المعبـد المقدس، جريمة، لم تشهد أعين الناس مثيلاً لها منذ بداية الدنيا.

وبعد مرور بعض الوقت، وبما أن وحشية هذه الجريمة الكبرى، التي لايمكن التهـاون نحوها، أثارت المشـاعر الدينيـة لدى جميع الصليبيين، ودفعتهم إلى الانتقام من الإهانات التي ألحقت بخـالقهم، ولذلك جرى الاتفـاق الاجماعي بأنه يتوجب علينا جميعـاً —بعـد طلب المساعـدة من السماء— إعـداد أنفسنا وتنظيمها، للاشتبـاك بمعـركة مع هؤلاء القـوم الخونة، وبناء عليه هـاجمناهم، وقاتلناهم من دون استراحـة من الصباح الباكر حتى انتهاء النهار، عندما حال الظلام بيننا وبين التمييز بين قومنا وبين أعدائنا، وقد سقطت أعداد كبيرة من جانبنا، كانت أربعة أضعاف ماقتل من أعدائنا، فهذا ما أمكن معرفته بعد القتال.

وفي اليـوم التالي (عيـد القديس لوقـا الانجيلي) كـان فرسـان الداوية والاسبتارية قد وجدوا أنفسهم، قـد استردوا شيئاً من قوتهم، فاستمدوا العون من عليين، مع جميع الرهبان الآخـرين الذين كرسوا أنفسهم لهذه الحرب، وأوقفـوا طاقـاتهم عليهـا، واحتشـد جميع الصليبيين في الأرض المقدسة، بناء على دعـوة وإعلان من البطريرك، وتحت قيادته، واشتبكوا بمعركـة هي الأكثر دموية مـع الخوارزمية المتقدم ذكـرهم، وخمسة آلاف فارس مسلم آخرين كانوا الآن يقاتلون تحت قيادة سلطان مصر، وذلك

بعد انضمامهم مؤخراً إلى هؤلاء الخوارزمية، وجرى قتال حاد من على الطرفين، ولم يكن بإمكاننا تجنبهم، لأنه كان هناك جيشاً قوياً وكبيراً على جانبينا، وكنا أخيراً غير قادرين على الصمود في وجه مثل تلك الحشود، لأن قواتاً جديدة غير متعبة من الأعداء، تابعت التدفق علينا، ذلك أنهم كانوا عشرة أضعاف تعدادنا، وكنا منهكين وجرحى، ومابرحنا نشعر بتأثير المعركة التي وقعت مؤخراً، ولذلك كنا مرغمين على الفرار، تاركين لهم ساحة المعركة، مع نصر دموي وغالي جداً، لأن أعداداً كبيرة سقطت من على جانبهم كانت أكثر مما سقط من على جانبنا، وقد سوعدنا كثيراً من قبله، الذي هو حافظ للأرواح، حتى أنه لم ينج مائة بالفرار، لكن طوال ما كنا قادرين على الصمود، شجعنا بعضنا وواسينا بعضنا بعضاً في المسيح، وقاتلنا بدون تعب وبشجاعة، مما أدهش أعداءنا، حتى وقعنا أخيراً بالأسر، وهو ما حاولنا أن نتجنبه، بأن نقتل، ولذلك قال العدو، فيما بعد، وهو مندهش، إلى أسراه: «أنتم عن طواعية ألقيتم بأنفسكم في طريق الموت، فلماذا كان ذلك»؟ وعلى هذا أجاب الأسرى قائلين: «كنا نفضل بالحري أن نموت في المعركة، ذلك أننا بموت أجسادنا، نحصل على التمجيد لأرواحنا، وذلك بدلاً من أن نفر بدناءة، فمثل هؤلاء الناس، هم بالحقيقة، يُخاف منهم كثيراً»، وسحقت في المعركة المذكورة، قدرة الصليبيين، وكانت أعداد الذين قتلوا من على الجانبين لاتحصى، وجرى قتل مقدمي الداوية والاسبتارية، وكذلك مقدمي الطوائف الأخرى، مع فرسانهم وأتباعهم، أما ولتر كونت بريين Brienne, واللورد فيليب دي مونت فورت، والذين قاتلوا تحت لواء البطريرك، فقد جرى تمزيقهم إلى أشلاء، ونجا من الداوية ثمانية عشر فقط، وستة عشر من الاسبتارية، وكانوا فيما بعد آسفين، لأنهم أنقذوا أنفسهم. وداعاً».

كيف استهدف الانكليز رمي نير العبودية البابوية

بينما كان الجنس البشري هكذا مضطرباً كثيراً، بوساطة عدد كبير من العواصف، في سورية، وفي انكلترا أيضاً، والبلدان المجاورة لها:

لعبت القدرة اللاهوتية بالأشياء الإنسانية

لأن البلاط الروماني، الآن في أيام بابانا الجديد، انوسنت الرابع، قد ألقى جانباً جميع مشاعر الحياء، وتابع دون توقف —على عكس جميع آمالنا— استخراج مواردنا بوساطة مراسيم يومية وقحة، وتفجر الآن عدم الرضا الذي شعر به الانكليز طويلاً، واعتمل في قلوبهم، نتيجة لذلك، على شكل شكايات مكشوفة، وذلك بعدما تمخض طويلاً، وتكلموا بشكل مكشوف، لأنه لم يعد بإمكانهم حبس أنفسهم، ولأن صبرهم صار إهمالاً وتراخياً، وصار تواضعهم غير مفيد أبداً، لابل بالحري مؤذياً، وفي مؤتمر جرى عقده، جرى التصريح بالاعتبارات التالية لصالح الملك والمملكة:

إذا ماقام البابا بالنظر بعين عقله إلى أوضاع الكنيسة الأولى في انكلترا، وكيف كانت في عمرها الوسيط، وكيف هي الآن، هو لن يهز أساسات الكنائس، واللاهوتيين، ولن يقوم بظلمهم والضغط عليهم على هذه الصورة، أو أن يدعي، أو أن يستخرج من الكنائس، التي ليست كنائسه، لأنه بموجب تبشير القديس أوغسطين، الذي هو رسول الانكليز، جرى تحويل الملك ايثلبيرت Ethelbert إلى الإيمان بالمسيح، وأسس كنائس: لندن، وروكستر، وكانتربري، ووضع رجال دين وكهنة في مكان أول، ورهبان في مكان آخر، وعيّن إليهم مايكفي من الأراضي والممتلكات من أجل عيشهم، وأوكل إليهم وظيفة واحدة هي أداء القداسات في الأماكن المعينة إليهم، وصب الحمد والشكر إلى الرب في الليل والنهار، ومنح الصدقات، وممارسة أعمال التقوى الأخرى، وتقديم الضيافة إلى الفقراء، وفقاً لطاقة إمكاناتهم، ووفق الطريقة نفسها أيضاً، قدم الملوك الآخرون الهبات إلى الكاتدرائيات

الأخـرى، وإلى الكنائس الكهنوتيـة والرهبانيـة، وهو مـايمكن رؤيتـه لـدى تفحص تعليماتهم وقوائم أعطيـاتهم، وهم على كل حال، لم يعطوا هـذه المقتنيـات بكرم مطلق، بل كـانت مقـرونة بثلاثة شروط دائمـة، فـالأشيـاء الممنوحـة إليهم هي من أجل الفـائـدة العامـة للمملكـة، أي مـن أجل الحمـلات العسكرية، ومن أجل تـرميم وإصلاح الجسـور والقـلاع، لأنـه بهذه الوسائط يمكن صـد هجمات الأعداء، وإذا كـانت هذه الأشيـاء —بنـاء عليه— قد أعطيت مـن الأوقاف، ومن الايجارات المدنيـة للمـلك والأمـراء، إلى الأمـاكن الروحيـة فأي حق —نحن نسأل— يمكـن لأسـاقفـة هذه الأمـاكن، كأنـاس مثبتين في الكنائس الكاتدرائية، وكذلك رعاة الديرة والراعيات، يمكنهم —من دون إلحاق الأذى بحق الآخريـن— تحويلهم إلى استخـدامـات واحـد آخـر، أو استخـدامـات أخـرى؟ خـاصة إلى الاستخـدامـات التي منهـا صـدر الذبـح، والنـار، وسفك الدمـاء، لأنه عندمـا سـأل بطرس قـائـلاً: «مـولانـا، إذا ضربنـا بالسيف»؟ أجابه الرب: «ضع سيفك في الغمـد»، ومجـدداً إذا ما جـرى إرسـال الموارد الأسـاسية لرجال الدين في انكلترا إلى إيطاليـا، من أين يمكنهم تأمين الوسـائل لترميم الجسـور والقـلاع، ومن أجل الحمـلات العسـكرية إذا كـان ضرورياً؟ ومن أين يمكنهم الحصـول على الوسائل لإبداء الضيـافة؟ وكيف سيكونـون قـادرين على البقاء في الأمـاكن المعينـة إليهـم؟ ومجـدداً، هناك شرور أخـرى، فالذين سيـذهبـون من انكلترا إلى البـلاط الرومـاني، يمكن أن يتعـرضـوا إلى الأذى على أيدي عمال الامبراطور، فـالذي هو واضح وملموس بما فيـه الكفاية، أن أراضي الامبراطـور مفصولة فقط عن انكلترا ببحـر ضيـق، من الممكن عبـوره بتيـار مدّ أو جـزر واحـد، وبما أن الامبراطور ذاهب الآن إلى تلك الجهـات، يخشى أنه إذا مـااسـتثير الامبراطور على هذه الصـورة، أن يقـوم بغـزو المملكـة كعـدو، وذلك حسبما قـال المعلم وولتر دي أوكرا Ocra بحضرة الملك أثناء مؤتمر عـام للبارونات

في لندن، عندما رجا الملك بحرارة عظيمة، باسم الامبراطور، بأن لايسمح بجمع المكوس من المملكة، سواء من الكهنة أو من العلمانيين، في سبيل مساعدة البابا ضد الامبراطور، وأعطاهم بالوقت نفسه أن يفهموا بشكل مكرر، أنهم إذا فعلوا كذلك، سوف تثور حروب لاتحصى في المملكة، وأن الملك ونبلاء المملكة سوف يكشطون أنفسهم إلى العظام.

ومجدداً قام الملك بناء على نصيحة الكنيسة ورغبتها وطلبها، فأعطى اخته بالزواج إلى الامبراطور، وهي التي إليه أعطت أولاداً، هم بشكل واضح من جنسنا، ومن الدم الانكليزي، فما الذي يكونه، إذا ما أسهمنا بالمال ضد الامبراطور، غير تدمير هؤلاء الأولاد الذين نبعوا من أمتنا؟ لاسمح الرب بذلك، وماذا أيضاً سوف تكون النتيجة سوى منع الامبراطور من مساعدة ملكنا في استرداد أراضيه؟ ومجدداً لو أن البابا قام بتقدير النوازل والخسائر، التي لحقت بانكلترا، على يدي الملك الفرنسي لويس، الذي غزاها، و الذي لم يوفر لاكنائس ولا لاهوتيين، بل إنه نهب كل شيء إلى درجة أن أساقفة انكلترا بات من الصعب عليهم التنفس بحرية منذ ذلك الحين فصاعداً، إن البابا لو قدّر ذلك لما أقدم على تكديس النوازل فوق النوازل ثم فوق النوازل، بل لاتخذ خطة أفضل، بالقيام بتقدير للخسائر التي لحقت بالكنيسة، ومن ثم إرسال جيوشه وبعثها ضد العدو، وهو أمر كان قادراً على أن يفعله —على الرغم من أن ملك انكلترا عارض ذلك— دون أن يطلب من الامبراطور المساعدة، ضد الملك والمملكة.

ومجدداً لدى الكنيسة ذهباً، ولديها ميراثها، وعندها مدن، وحصون وقلاع، ومع أنهم قد يكونوا غير كافين للتصدي لمثل هذا الأمير القوي، يمكنها أن تستدعي إلى بين يديها منافع الايطاليين والرومان التي منحتهم إياها، وهم ليس عددهم صغيراً، وكذلك في انكلترا، وفي

بلدان أخـــرى، ومن منتجـــات أولئـك الذين أفـــادتهم كثيراً، حيث يمكنهـا بذلك صنع ترتيبات عـدوانية، ولكن ليس بمواردنا، التي هي لم تمنحنا إياها، والتي ندين نحن بها إلى أولياء نعمتنا فقط، الذين أعطونا كل ما يستطيعون، وهم الذين علينا دعمهم في كل حـاجة، إذا ماحدث وطلبـوهـا، وعلى البابا أيضـاً أن يتذكـر أنه أثناء عـذاب الاسـرائيليين وضـائقتهم، أطلق فرعـون سـراح الكهنة واللاويين وحـررهم من دفع أي مكس مهما كان نوعه.

ملك إنكلترا يكتب إلى البابا يشكو من مكوسه

وبنـاء عليـه، ثار المـلك، بسـبب هـذه المضـار، وغضب من الشـره المضاعف للرومان، فكتب إلى البابا كما يلي:

«إلى الأب الأعظم قـداسـة في المسـيح مـولانا إنـوسنت، الذي هو بنعمـة الرب الحبر الأعظم، إليكم من هنـري الذي هو بالنعمـة نفسهـا ملك انكلترا، إلخ، صحة وقبلات إلى قدميه المباركتين:

كلما أخضع الابن نفسـه أكثـر إلى رغبـات أبيه، وأظهـر نفسـه أكثـر استعداداً واخلاصاً لإطاعة أوامره، كلما استحق الحصول على حماية أبيه، وقطف منافع إخلاصه وخدمتـه، وفي هذا المقام، أظهرنا —بناء عليه— أنفسنا، خـلال حكمنا كله مع مملكتنا، طائعين لرغباتكم ولأوامـركم في كل شيء وخلال كل شيء، ومع أننا وجدنا في بعض القضايا المتعلقة بنا أنفسنا وبمملكتنـا، بشكل عـــام الاهتمام واللطـف الأبوي، مـع ذلك وجـدنـا في بعض مـراسيمكم، التي منحـت من قبلكم إلى كهنة انكلترا وبلدان أخـرى، أنـه جـرى إثقـالنا نحن أنفسنـا ومملكتنا، وظلمنا ليس بدرجـة خفيفـة، وفي الحقيقـة أثقلت الكنائس الانكليـزية بكثير من مثل هذه الاثقـالات، ومن هذه النوعيـة، إلى حد أنه ليـس فقط أولياء نعمـة الكنائس وحماتها، والذين واجبهم هو هبـة المنافع اللاهوتيـة، قد سلبـوا

من حقـوقهم، بل إلى جـانب هذا قـد جـرى التخلي عن كثير من أعمال الإحســان، لأن المنافــع التي منحـــت بالعـــادة من أجل أعمـــال الإحسـان، إلى البيـوت الدينيـة من أجـل عيشهـا، هي وجميع الآخرين تقريباً، قـد أنهكت بوســاطة مراسيمكم، وبما أن الكرسي الرسولي عليه أن يظهـر الحظوة نحو المشتكين إليه، وأن يزود الآخرين بحقوقهم لا أن يتـولى إضرارهـا، رأينـا من واجبنا أن نتضرع إلى قداستكم أن تتـوقفوا عن منح مــوارد من هذا النـوع، على الأقل لبعض الوقت، وأيضــاً في الوقت نفســه نلتمس من قداستكـم، أن تقـومـوا بمواساتكم الأبويـة بحمايـة حقـوقنا وامتيـازاتنـا، التي يمكنكـم عـدها عـائـدة لنا بشكل صحيـح، وليسـت مرتبطـة بالآخـرين، وأن تحفظـوهم غير مخروقـين وسـالمين، وأن لا تسمحوا لهم بالتعـرض للأذى في بلاطكم بأية طريقـة من الطـرق، أو بناء على اقتراحـــات أية أشخـــاص، وأنا واثـق بأن قداستكم سوف لن تثارون فتغضبـون ضـدنا، إذا ما كنا قد قمنا في أية نقطة بمعـارضـة فحـوى أوامـركم، بما أن صراخ الفئات الشـاكيـة قـد حـرضتنـا على هذا، على أسـاس اعتقــادنا أنه لايجوز لنا أن نخفــق في الدفاع عن حقــوق أي انسـان، بل يتوجب، بمـوجب فضيـلة المنصب الملكي الـذي منح إلينـا من قبل الــرب، علينـــا أن نـؤمّن العـــــدالة الكاملة، في القضايا المدنية».

وبطريقــة المحاججــة البارعـة نفسـها، قـام الملك الضعيـف جـداً، والمهمـل، مـن قبل بالتوجـه بالرجاء إلى سلفـه البابا غريغـــوري، حتى يتـوقف عن ظلـم مملكـة انكلـترا، بمثل هذه الاستخـراجـات، لكن لا الأول ولا الثــاني تنازل ليـوقـف ميـوله في هـذه القضيــة، ونتيجـــة لــذلك، نحن نعتقـــد بأن الـــرب، ورســوله بطرس (الذي لم يتبعـا خطواته) قـد أثير مع سبب صحيـــح، لأن يغضـب ضـد الكنيســـة الرومانيـــة، فأعدّ، ولوى ذراعيها.

كيف سعى البابا إلى جلب ويلز إلى طاعته

أعتقد أنه لـن يكون غريباً عـن موضوعنا، أو غير مـرتبط به، أو غير مفيـد لتـاريخ انكلترا، أن نوضح إلى أجيـالنـا المقبلة، كيف سعى البـابا انوسنت الرابع المذكـور، إلى إعفاء داوود أمير شمالي ويلز من ولائـه إلى ملك انكلترا، الذي كـان به مـرتبطاً بطرق مضـاعفـة، وأن يحوله ليكون من رعايـا دولته، بتسلم خمسمائة مـارك منه سنوياً مقـابل استئجار شمالي ويلز ومتعلقـاتها، وكانت الـروابط والأدوات التي كان داوود المذكـور، ونبلاء ويلز مرتبطين بالملك هنري الثالث، هي كما يلي:

الشروط التي ربطت بها سينينا زوجة غريفين نفسها باسم زوجها بملك انكلترا

«جـرى الاتفـاق بين مـولانا الملك هنري الثـالث، الملـك اللامع لانكلترا، من جهـة، وبين سينينا Senena زوجـة غـــريفين بن للويلين، الأمير الأخير لشمالي ويلز (وغـريفين المذكـور هو الآن معتقل بالسجن من قبل أخيه داود مع ابنه أوين Owen)، وباسم غريفين المذكـور ونيابة عنه: لقـد تعهدت سينينا المتقـدمـة الذكر، باسم زوجهـا غريفين المتقدم الذكر، بدفع ستمائة مارك إلى مولانا الملك، على شرط أن يتدبر اطلاق سراح غـريفين المتقدم الذكر، وابنه أوين المتقـدم ذكره، من السجن المذكور، وأنه سـوف يلتزم بقرار محكمـة بلاطه، فيما إذا توجب حبسـه بالسجن، وأن مـولانا الملك سـوف يسمح له ولورثتـه فيما بعـد بالمحاكمة في محكمة بلاطه، وفقاً للقانون الويلزي، وذلك حول مايتعلق بحصـة الوراثة لأبيه للويلين الأخير، وهي الحصـة العـائدة إليـه، والتي داود قـائم الآن باستحجـازها بـالقـوة ومغتصب، لها من غـريفين المتقـدم الذكر، وإذا ماحصل غريفين المذكور، أو وررثته، بموجب حكم محكمة بلاط مولانا الملك، على الحصـة التي قالوا بأنها عـائدة إليهم من الميراث المذكور، وقتهـا تتعهد سينينا عن غريفين المذكور وورثتـه، بأن يقوم هو

وورثته المذكورين من قبل بالدفع إلى الملك ثلاثمائة مارك سنوياً، وذلك بشكل دائم، وبالنسبة لدفع هذا المبلغ، فإن ثلثه يجري دفعه نقداً، والثلث الثاني على شكل ثيران وعجول، وأما الثلث الثالث فعلى شكل خيول، وذلك بناء على تقدير محكمين اقطاعيين، ويتم دفع المبلغ المذكور إلى عمدة شروبري، ويجري حمله بيدي العمدة المذكور إلى خزينة الملك، حيث يجري إيداعه هناك، ويكون دفع القسط الأول في يوم عيد القديس ميكائيل، والقسط الثاني في الفصح، وتعهدت سينينا المذكورة أيضاً باسم زوجها غريفين المذكور وورثته، بأنهم سوف يحافظون على السلام مع أخيهم داود المتقدم ذكره، وذلك فيما يتعلق بحصة الميراث المتقدم ذكره، التي سوف تبقى لداود المذكور، وتعهدت سينينا المذكورة، نيابة عن زوجها، غريفين المتقدم ذكره، الذي هو زوجها، وباسم ورثته، أنه إذا ماقام أي نبيل ويلزي في أي وقت من الأوقات بالثورة ضد مولانا الملك وورثته، فإن غريفين المذكور وورثته، سوف يقوم على حسابه بإرغامه على تقديم الترضية للملك وورثته، وفي سبيل مراعاة جميع الشروط المتقدم ذكرها بإخلاص، سوف تعطى سينينا المذكورة ولديها: داود، وروثر Rother إلى الملك بمثابة رهائن، مع تفاهم أنه في حال اطلاق سراح زوجها غريفين المتقدم ذكره، وابنه أوين المسجون معه، لأسباب انسانية، فإن واحداً من الولدين المذكورين سوف يجرى رده إلى سينينا المذكورة، ويكون ذلك قبل اطلاق سراح غريفين المذكور وابنه، واخراجهما من السجن، ولسوف يبقى الابن الآخر كرهينة، علاوة على ذلك أقسمت سينينا المذكورة على الانجيل المقدس، نيابة عن نفسها، وعن زوجها غريفين وورثته، بأنها سوف تراعي باخلاص جميع هذه الشروط، وتعهدت بأن زوجها غريفين المذكور سوف يؤدي القسم نفسه عندما يطلق سراحه من السجن، وتنفيذاً لكل ماتقدم ذكره، قامت باخضاع نفسها باسم زوجها غريفين المذكور لحكم الأبوين المبجلين: أسقفي هيرفورد وليشفيلد، وبذلك

يمكن للأسقفين المذكورين، أو لواحد منهما، يختاره الملك، أن يقوم بناء على طلب من الملك، بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي ضد أشخاصهم، وعقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين على أراضيهم، لإرغامهم على مراعاة جميع الشروط المتقدمة الذكر شرطاً شرطاً، وتعهدت سينينا المذكورة عن طيب خاطر وبإخلاص بتنفيذ جميع هذه الشروط التي تقدم ذكرها، وبمتابعة تنفيذهم جميعاً، وأن زوجها غريفين المتقدم ذكره عندما سيطلق سراحه من السجن سوف يقوم مع ورثته بحمل هذه التعهدات وإكمالها، وسوف يعطي إلى الملك تعهداً مكتوباً باسمهم بأنهم سوف يفعلون ذلك، وفق الطريقة والشكل حسبما تقدم ذكره.

ومن أجل ضمانة أكبر حول هذه القضية كُتبت ودُونت بين مولانا الملك وبين سينينا المذكورة، باسم زوجها غريفين،وبالنسبة لنسخة الوثيقة التي تركت عند الملك، أثبت عليها ختم غريفين المذكور بيدي سينينا زوجته المذكورة، وذلك بالإضافة إلى ختم سينينا المذكورة، أما بالنسبة لنسخة الوثيقة التي تركت بحوزة سينينا المتقدمة الذكر، باسم زوجها غريفين المتقدم ذكره، فقد أثبت عليها ختم مولانا الملك، وفي سبيل التنفيذ، والمراعاة المخلصة لجميع الشروط المذكورة أعلاه، أعطت سينينا المتقدمة الذكر باسم زوجها، غريفين المتقدم الذكر، الأشخاص المذكورة أسماؤهم أدناه، بمثابة كفلاء لصالح مولانا الملك، وهم: رالف دي مورتيمير Mortimer, وولتر دي كلف فورد Clifford, وروجر دي مونتهوت Monthaut, قهرمان أوف شيستر، وميلغون فتز— ميلغون Mailgun, وموردوك Murdoch فتز— روبرت، وغريفين بن مدّوك Maddoc دي برونفيلد Brunfield, وهويل Howal وموردوك أخيه، وغيريفين بن غوين أنوين Gwenunwin, وذلك باسم سينينا المتقدم ذكرها ومن طرفها، وقد تعهدوا بمراقبة تنفيذ الشروط المتقدم ذكرها، وقدموا أيضاً صكوكهم

إلى الملك مـن أجل الشيء نفســـه. أبـرم في شروبري Shrewbury يوم الاثنين التالي لما قبل صعود القديسة مريم العذراء، في السنة الخامسة والعشرين من سني حكم مولانا الملك المذكور».

صك تعهد روجر دي مونتهونت

«إلى كل من تصله هذه الكتـابة، تحيـات من روجـر دي مونتهـونت، قهرمان أوف شيستر:

ليعلم جميع الناس بأنني أعطيت نفسي كفيـلاً لسينينا، زوجة غـريفين ابن للويلين، أمير شمالي ويلز المتـوفى، وارتبطـت لصـالحهـا مع مـولاي هنري، الملك المشهـور لانكلترا، بأنها سوف تنفـذ باخلاص نحـوه جميع الذي وعدت به الملك المذكور، نيابة عن زوجها المذكور، للحصول على اطلاق سراحه مع ابنه أوين، من السجن الذي وضعه فيه أخوه، وأيضاً للحصول على الحصـة العائدة لغريفين المذكـور من ميراث أبيه، للويلين المتقدم ذكره، وهي الحصة التي اغتصبهـا داود المتقدم ذكره منه، وبمثابة شهـــادة، وضعت على هذه المدونـة ختمي. صنع في شروبـري في يوم الاثنين قبل صعـود العـذراء المباركـة، في السنة الخامسـة والعشرين من حكم الملك المذكور».

ووفق الشكل نفسـه لصك التعهـد المتقـدم ذكـره، أعطى البـارونات الانكليــز والويلزيون صكوكهم إلى الملـك، وربطوا أنفسهم بالطريقـة نفسها.

صيغة صكوك تعهد لوردات كيفي في ويلز

«ليعلم جميع الحضور والذين سيأتون، بأنني أنا مردوك فتز— هويل، قد أقسمت على الانجيل المقدس، أنني من هذا التـاريخ فصاعداً، أثناء حيـاتي، بأنني سـوف أكـون خـاضعـاً باخـلاص لمولاي ملك انكلترا، ولسوف أخـدمه باخـلاص ـأمانة مع جميع قـواتي، وسوف أبذل أقصى

طاقتي، في أي مكان يمكن أن يحتاج فيه إلى خدماتي، وسوف أراعي باخلاص من جانبي الهدنة التي أبرمت بين اللورد رالف دي مورتيمير وبيني، حتى عيد القديس ميكائيل، في السنة الخامسة والعشرين من حكم الملك هنري الثالث، وبمراعاة ولائي إلى مولانا الملك بشكل دائم، وكذلك من أجل المحافظة على الهدنة المتقدمة الذكر، حتى الموعد المذكور أعلاه، وقد وضعت نفسي تحت حكم السيد أسقف هيرفورد، وأسقف كوفنتري، وأسقف للانداف Llandaff, أو واحداً منهم، سوف يتولى الملك اختياره للغرض، وذلك من أجل أنه إذا كان أياً من أعمالي مخالفاً بأي شكل من الأشكال لولائي للملك المذكور، أو سوف يحول دون مراعاة الهدنة المتقدمة الذكر، فوقتها يكون مشروعاً لهم حرماني كنسياً وجميع قومي، وأن يضعوا أرضي تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، حتى أقدم جميع التكفيرات عن الذي اقترفته من ذنب، وإذا حدث عدم إعادة إقامة السلام بيني وبين رالف مورتيمير، المتقدم ذكره، قبل موعد عيد القديس ميكائيل، ومع أنني قد أشن الحرب بعد ذلك العيد ضد رالف مورتيمير المذكور، فإن يميني المتقدم ذكره سوف لن يعيقني عن فعل ذلك، مادمت ملتزماً بشكل مستمر بولائي نحو الملك حسبما تقدم الذكر، وإذا مانشبت الحرب بيننا بعد المدة المتقدم ذكرها، فإن الملك مع ذلك سوف يسمح لي ولأتباعي بأن نستقبل في أراضيه بمثابة رعية مخلصة له، وبالنسبة لمراعاة الشروط المتقدم ذكرها نحو مولاي الملك ونحو ورثته، أربط نفسي باليمين المتقدم ذكره، وبتثبيت ختمي على هذه المدونة من أجل ضمان أبعد للقضية المتقدم ذكرها. أبرم في اليوم التالي لعيد صعود مريم المباركة، في السنة الخامسة والعشرين من حكم الملك هنري الثالث».

وأعطى الكلمات نفسها أيضاً أوين فتز— هويل، وميلغون فتز— ميلغون، ومردوك فتز— مردوك، وهويل ابن كادوول لون Cadwal,

lon وكادوول لون فتز— هويل، في صكوك تعهدهم إلى الملك.

صك تعهد داود بن للويلين أمير شمالي ويلز

«إلى جميع الأتباع المخلصين للمسيح، وإلى جميع الـذين سوف يصلهم هذا العرض، تحيات من داود بن للويلين:

اعلمـوا بأنني قد أعطيت مـوافقتي إلى مولاي هنري المشهـور، ملك انكلترا، ابن الملك جون، بأنني سـوف أطلق سراح أخي غريفين، الذي أنا محتجزه بـالسجن مع ابنه الأكبر وآخرين، وبسبب أن غـريفين المتقدم ذكـره محتجـز بالسجن من قبلي، فـأنا سـوف أسلمـه إلى مـولاي الملك، ولسوف ألتزم بعد ذلك بقـرار محكمة بلاطه، وذلك فيما يتعلق بوجوب إبقـاء غـريفين المذكور محتجـزاً بالسجن، وفيما يتعلق أيضـاً بالحصـة من أراضي والدي المتوفى، للويلين المتقدم ذكره، وتبيان فيما إذا كان أي منها عائد إلى غريفين المذكور، وذلك وفقاً للعادات الويلزية، وذلك في سبيل امكانيـة تأسيس السلام وحفظه بينـي وبين غريفين المتقـدم الذكر، وقـد أعطيت ضمانـات من أجـل تمسكي بـذلك وفقـــاً لحكم بـلاط الملك المذكور، وأنني أنا، وكـذلك غريفين المتقدم الذكر، سـوف نستحوذ على الحصص العائدة لنا، من الأرض المتقدم ذكرها، من مولانا الملك بشكل رئيس، وكذلك سـوف أعيد إلى روجـر دي مونتهوت، قهـرمان شيستر أراضيه في مـونتهوت مـع متعلقاتها، وسوف أعيـد إليه وإلى البـارونات الآخـــرين والرعـــايا المخلصين الملكيـة المطلقـة للأراضي التي جـــرى احتـلالها، منذ ابتداء قيـام الحرب بين صاحب الجلالة الملك جـون وبين والدي، للويلين المتقـــدم الذكـر، بـاستثناء حق الملكيـة، لأي عقـــد من العقود، والمواثيق، وفيما يتعلق بهذا سوف نلتزم على الجانبين بقرار بلاط الملك المذكـور، وســوف أسـدد إلى مـولاي الملك جميـع النفقـات التي تحملها هو شخصيـاً أو أتباعـه بسبب تلك الحرب، وسوف أقـوم، وفقاً لقـرار البـلاط المذكـور بعمل ترضيـة له ولأتبـاعـه عن الخسـائـر وعن

الأضرار التي عانوا منها، أو أنني سوف أتخلى عن جميع الجناة نحو الملك، ولسوف أقدم إلى مولاي الملك جميع أنواع الولاء، التي كان والده الملك جون قد تلقاها، والتي ينبغي أن يتلقاها الملك المذكور، ولاسيما ولاء جميع النبلاء الانكليز، وكذلك سوف لن يطلق الملك المذكور سراح أي من مساجينه من دون أن يتركوا ممتلكاتهم في حوزة الملك ووكلائه، وكذلك إن أراضي انغلمير Englesmere مع متعلقاتها سوف تبقى إلى الأبد ملكاً للملك المذكور ولورثته، وكذلك سوف لن أستقبل منذ الآن فصاعداً خارجين على القانون أو قراصنة ضد مولاي الملك وباروناته من الحدود في أراضي، ولن أسمح لهم بالاستقبال هناك، ومن أجل المراعاة المخلصة الأبدية للشروط كلها المذكورة أعلاه، للملك ولورثته، سوف أقدم ضمانة عن نفسي وعن ورثتي بوساطة الرهائن، أو بوساطة الأيمان، أو بوساطة أية طريقة أخرى يمكن للملك أن يختارها ليمليها، وفي هذه الحالة والحالات الأخرى سوف ألتزم بإرادة الملك وبأوامر مولاي الملك، ولسوف أطيع قرار بلاطه في كل شيء، وكشهادة على هذا العرض، وعلى العمل الحالي المدون كتابة وضعت ختمي. صنع في ألنت Alnet قرب نهر ايلفي Elvey في أسقفية القديس آساف Asaph, في عيد قطع رأس القديس يوحنا المعمدان، في السنة الخامسة والعشرين من حكم مولانا الملك المذكور».

«وكذلك ليكن معلوماً أيضاً أن الذين محبوسين في السجن مع غريفين المتقدم الذكر، سوف يجري تسليمهم إلى مولانا الملك، بالطريقة نفسها، حتى يصدر قرار عن بلاطه حول فيما إذا كان ينبغي اطلاق سراحهم، وكيفية ذلك، وأنا داود المذكور، قد أقسمت على الصليب المقدس، الذي أمرت بجلبه إلى أمامي، أن أقوم باخلاص بمراعاة جميع هذه الشروط، وقد وعد الأب المبجل هويل أيضاً، أسقف القديس

آساف، بناء على طلبي، باسم طائفته المقدسة أن يفي بجميع الشروط المتقدمة الذكر، وسوف يبذل كل طاقاته في سبيل الوفاء بهم، وعمل ايدنفت وانغان Edenevet Wangan أيضاً، وأدى بناء على طلبي اليمين نفسه، على الصليب المتقدم ذكره. عمل، إلخ، كما ورد أعلاه».

«بالاضافة إلى هذا، لقد التزمت أنا عن نفسي وعن ورثتي، أنني إذا ما حاولت أنا أو هم أي شيء مضاد لسلام مولانا الملك، أو ورثته، بشكل معارض للشروط المتقدم ذكرها، سوف تتم مصادرة ميراثنا لصالح الملك وورثته، وفي سبيل تنفيذ جميع الشروط المتقدم ذكرها شرطاً شرطاً، وضعت نفسي وورثتي تحت حكم رئيس أساقفة كانتربري، وأساقفة: لندن، وهيرفورد، وكوفنتري، للوقت الحالي، وبناء عليه يمكنهم جميعاً أو واحداً منهم، يمكن أن يختاره الملك للغاية والغرض، امتلاك اصدار حكم الحرمان الكنسي لنا، ووضع أراضينا تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، إذا ما حاولنا صنع أي شيء مضاد للشروط المتقدم ذكرها، ولقد أقنعت كل من أسقفي بانغور Bangor والقديس آساف، بإعطاء صكوك تعهد إلى الملك، تعهدا بها القيام بتنفيذ إصدار قرارات الحرمان الكنسي والحرمان من شراكة المؤمنين، والتفوه بها من قبل رئيس الأساقفة المتقدم ذكره، والأساقفة، أو أي واحد منهم، بناء على تلقي الأوامر من أجل هذه الغاية».

كيف سعى داود إلى رمي النير الانكليزي

ولقد قلت ماتقدم من التفاصيل، في سبيل أن أظهر إلى العالم طبيعة الالتزامات العظيمة والكثيرة التي التزم بها داود المذكور، الذي كان حفيداً للملك، حيث كان خائناً، وقاتلاً لأخيه، وكذلك بالنسبة للنبلاء الآخرين (مع أنهم وضيعي العادات) لويلز، و تعهد وتعهدوا بها بأنفسهم إلى مولاهم الملك، لكن الآن مزقوا جميع روابط القرابة،

وحنثوا بعهـودهم وخرقوا جميع شروط الاتفـاقية، فبـدون حياء ركلوها ضـد سلطة مـولاهم الملك، وشنوا عليـه الحرب وألحقـوا به كثيراً من الأضرار على الحدود.

عـلاوة على ذلـك وفي سبيل أن يحرر داود المتقـدم ذكـره عنقـه من الولاء إلى الملك، انضـوى تحت جناحي البابوية من أجل الحماية، واعـداً بأن يستحوذ على ذلك الجزء من ويلز العائد إليه من البابا نفسه، ونتيجة لذلك آثر البابا قضيته، والذي أعدّه حالة يتوجب أن يندهش المرء كثيراً نحوها، هـو أنه فتح له صدره، وأعطاه الملجأ إليـه، مع أنه كان عـاصياً ضد الملك، مـالم يكن —ربما— قد حـدث وحصل على مساعـدة البابا، بوساطة قمع الحقيقة، وبإفادات زائفة، لأنه مَـن من المسيحيين يمكنه أن ينكر بأن أمير ويلز كان من الاقطاعيين الصغار لملك انكلترا؟.

الملك يمنع بيع صوف السسترشيان

وفي السنة نفسها، منع ملك انكلترا نقل صـوف الرهبان السسترشيان إلى القارة لبيعه من أجل منفعتهم، وقد سعى بهذه الوسائط للعسف بهم وإلحاق الأذى بهم، لأنهم لم يرغبـوا —في الحقيقة كـانوا غير قـادرين— بإعطائه مساعدة مالية، عندما كان في غسكوني.

عمل ميرون مقدس في دير القديس ألبان

وعمل في هذا العام أيضاً ميرون مقـدس في الكنيسة الديرية للقديس ألبان، من قبل المبجل جون أسقف هارتفورد.

شهادة عن معجزات القديس إدموند المعترف

وعمل في هذا العام أيضـاً معجزات من قبل القـديس ادموند، رئيس أساقفـة كانتربري والمعترف، وغدت متـوالية الحدوث في بونتغني، حتى بدا وكأن أيام الرسل قـد تجددت، ولم تحدث هذه المعجـزات في فـرنسـا

فقط، بل في انكلترا أيضاً، خاصة في كيتباي Cateby, وهو المكان الذي كان فيه طيلسان القديس وبعض الصور المرسومة، التي اعتاد أن يحملها، فهناك كانت محفوظة، وأصبحت عدة أماكن أخرى مشهورة، وجرت زيارتها بمباركات معجزات واضحة، وبناء عليه، حتى لايتهم راعي دير بونتغني مع الجماعة الديرية بالجمود، شرع في الثناء عليه، ورغب لسبب جيد، في أن يجري تطويبه، وأن يدرج اسمه ويوضع في لائحة قديسي الكنيسة، ولذلك كتب إلى البابا كما يلي:

«إلى الأب الأعظم قداسة، والمولى انوسنت الرابع، الذي هو بنعمة الرب الحبر الأعظم، يقوم خدمه المخلصون ج ل, المسمى راعياً لدير بونتغني، وجماعة الدير في ذلك المكان، الذين هم من طائفة السسترشيان، بكل اخلاص، وخضوع، وتبجيل، بتقبيل قدميه المباركتين:

إن أعمال الخالق، التي تحمل برهاناً للمجد، وتشريفاً لكهنته، ينبغي أن لاتبقى سراً، وإذا كان من غير الممكن، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل القيام بإحصاء الوقائع التي حدثت عند ضريح ادموند، مع هذا يتوجب أن لا —كما لايمكننا— أن نبقى صامتين تماماً، تجاه مايحدث ليس فقط عند ضريح ادموند، صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان من قبل رئيساً لأساقفة كانتربري، والذي جسده، تلك الكومة المشهورة من الأرض، والذي هو راقد في كنيستنا، التي اختارها بتقوى عالية جداً لتكون مكان دفنه، أن لانبقى صامتين، لأن ذلك قد انتشر الآن في جميع أرجاء العالم، بوساطة معجزات متميزة وواضحة، لأنه حدث في أماكن متنوعة ونائية، لدى التوجه بالدعاء إلى اسمه، أن عملت معجزات، ليست معجزات من نوع واحد، بل سلاسل من المعجزات واحدة بعد الأخرى، ولسوف نستعرض أخبار هذه المعجزات باختصار وبسرعة، وذلك حسبما شاهدناها بأعيننا وسمعناها بآذاننا، فقد جرى رد البصر إلى أطفال عميان، والذين كانوا عرجاناً منذ ولادتهم، استردوا القدرة

على المشي، وعاد المصابون بالاستسقاء إلى الحجم الطبيعي، والذين كانوا طرشاناً منذ الولادة، قد استردوا السمع، والخرسان منذ الولادة تكلموا بوضوح، واسترد الأشخاص المشلولين قوتهم، والذين كانوا مسكونين من قبل الشياطين تحرروا منهم، وفتحت السجون، وحلّت الأغلال، ونجا من الموت المصابون بالحمى الربعية وبحميات أخرى، وكان هناك بعض الذين يعانون من الصرع، ومن أوجاع أخرى متنوعة، ومصابين بأمراض خفية حادة، كما كان بعضهم محرومين من استخدام أطرافهم، والتي أصبحت من دون حركة، وكأنها قطعة من الخشب، وآخرون كانوا قد أصبحوا فجأة من دون عقل، وكان بعضهم قد أصيب بمرض الناسور، وآخرون أصيبوا بعلل التورم، هؤلاء جميعاً عادوا بفضائله إلى أوضاعهم الصحية السالفة، وتمّ إيقاف نزيف الدم في النساء وشفي أحدهم من اليرقان، وانتهت أوجاع الأسنان عند آخر، وزالت البقع الخبيثة من أحدهم، دون أن تترك أثراً أبداً، وجرى شفاء المصابون بالفتق، والمحدودبة ظهورهم، والمصابون بالحصا، وبالبواسير، أو بأمراض أخرى حادة، وآخرون قد سقطوا في حفر، أو في أنهار وفي مياه عميقة، وآخرون قد قذف بهم من أماكن مرتفعة، ما أن قام هؤلاء بالدعاء إلى اسمه، لم يصابوا بأي أذى جسدي، أو بشيء بسيط جداً وخفيف، وكان بعضهم قد وقع في مصائد الردة المنهكة، وجرح آخرون من قبل الأفاعي، وكاد آخرون أن يصابوا بالاختناق، وكسب آخرون القنوط، وقد حصل هؤلاء جميعاً على النعمة الرائعة لهذا الأسقف، وانتزعوا من موت كان محيقاً بهم، وتحرر آخرون —مجدداً— من ورم الفكين بفضائله وصلواته، وآخرون من ربط الحلقوم، وآخرون من نزيف الدماء، والذين تحطمت نفوسهم في أوقات الأزمات، والذين غرقوا تقريباً في أعماق اليأس، تمت مواجهتهم —لسرورهم— بالمواساة والشفاء، لدى إعادتهم لاسم هذا الأب إلى ذاكرتهم، وكان هناك بعضهم الذين تغلبت عليهم معيقات كثيرة متنوعة، وكانوا في حالات

الخطر، لكن عندما دعوا اسم هذا العابد للرب، والمحبوب من الملائكة، مع أن ذلك مـزعج ومكروه من قبـل الشيـاطين، قـد تحرروا من جميع شيـاطينهم، وشعـروا بحضـور فضـائل مـولانـا يسـوع المسيح، وهذه ومعجـزات أخـرى عملت من قبل الرب فقط، الذي هو مبـارك فـوق الأشياء كلها دائماً أبداً.

ومن الوقـائع المثيرة للدهشـة أيضاً، هو أن الحيـوانات المتـوحشة قـد شعرت بالمنافع مـن خلاله،وبناء عليه، إنه بالتقـدير الرائع للرب، الذي أوجـد كل شيء بشكل حكيـم وصحيـح تمامـاً، حـدثت في المكان الذي يرقـد فيه جسـده، معجزات مجيـدة كثيرة، وكـانت سمعة أعمال الشفـاء عظيمـة جـداً، وحشود الناس المجتمعين كثيفـة جـداً، وهم على درجـة عالية من التقوى، ولذلك فإن الكنيسة تغني للرب وفق الطريقة نفسها، ومثل ذلك يمكن أن يغنـوا عن عبـده ويقـولون: «الذيـن ضلوا عنك، سـوف يعـودون إليك، وسـوف يعبـدون آثـار قـدميك»، ذلك أن جميع أعـداء هذا الأب المذكـور، قد اجتمعـوا مع بعضهم وتعبـدوا في المكان الذي وقفت فيـه قـدمـاه،لابل حتـى بعض أتبـاع الكفـر، وأهل العناد، الذين أقـدمـوا على الاستخفـاف بفضـائل الـرحمة اللاهوتيـة، وكـذلك فضائل الأب المذكور قد أصيبوا فجأة بالقناعة، وأرغموا،حتى وهم غير راضين على نشر أخبـار هـذه الأشيـاء، وهناك واقعـة يعجـب الإنسـان نحـوها أكثر من الوقـائع الأخـرى، وهي واقعة لم يسمع بمثلهـا في أي وقت من الأوقـات، وقعت في قضية أحـد الأطفال، وكان قـد ولد من دون قـدمين، واستمر هكذا لمدة ثمانيـة أعـوام، عندما فجأة بدأ ينمـو له قدمـان جديدان، وكـان أمراً غير اعتيـادي البته إحلال أطـراف جديدة حيث لايوجد أطراف، وهذا أصعب من شفاء أطراف مـريضة وإعادتها صحيحـة وقـوية! آه أيها الكاهن صـاحب الفضـائل العظيمـة، آه أيتهـا الفضـائل لمثل هذا الكاهن! مـن الذي فكر قط بمثل هذه الجوائـز، أو

بمثل هذا الامتياز لفضائله، أو مثل هذه الجدارة العظيمة لكاهن، فمثلما أضفى المسيح الحيـاة السرمدية على الروح التي استعيـدت من الموت الأبدي، مثل هذا فعل الأسقف التقي المحب للمسيح، فبوساطة عملية الرحمة اللاهوتية، استرد الحياة الآنية إلى الأطفال الضعفاء، وإلى الذين غرقوا، وإلى عدد كبير آخر كانوا بالفعل أمواتاً في الجسد، لأن أية معجزة يمكن أن تكون أعظم روعة من إحلال فائدة الصحة محل شر الموت؟ وعلى هذا يبدو أن الأمر لم يكن بلا فائدة عندما تعرضت بشكل مختصر لأخبار مثل هذه المعجزات الرائعة.

«لأن المعجزات الحالية سوف تؤكد المعجزات الماضية، والمعجزات المتوقعة في المستقبل، حيث أن هذه ستكون ثابتة ولايمكن قلقلتها، وفي الحقيقة يبدو أن احتشاد الناس في المكان المذكور، جدير بالاعجاب أكثر من المعجزات نفسها، وهذه الحالة نفسها هي معجزة، لأنه ماالذي يمكن أن يكون أكثر اعجازاً، وأكثر إدهاشاً، من قيام الناس في عالم اليوم بعبادة إنسان، كانوا في البارحة يكرهونه؟ أي قيام الذين هربوا منه بالأمس بالفرار إليه اليوم، وأن يقوم بالصلاة اليوم إلى الرب من أجل الوقاية الكاملة لنا، رجل تجنبنا بالأمس كل علاقات معه، إما خوفاً من سلطة أرضية، أو من خلال سلطاتنا الشخصية الشريرة، وهذا في الحقيقة بدا لكثير من الرجال العقلاء هو الأعظم بين هذه المعجزات، وبالقدر نفسه حتى لاتندرس ذكرى هذا الرجل العظيم، وتهمل في قبره، وأن لايعهد بها إلى النسيان مع ضريحه، ألقينا بأنفسنا عند قدمي قداستكم، ونرجوكم بتواضع وباخلاص، أن تقوموا بعد فحص مناسب وصحيح لهذه المعجزات، بادراج اسم الأب المذكور في قائمة القديسين، ونحن نعمل في هذه القضية بأعظم ثقة، بسبب أن توماس المبارك من المعروف أنه قد أعطى شهادة، وأنه كان متنبئاً مخبراً بهذه الأحداث وواعداً بها، لأن توماس المذكور، بعدما أقام مدة طويلة أثناء

نفيه في ديرنا، بناء على أمر من البابا الاسكندر، صاحب الذكرى الطيبة، أظهرت له العلامات من السماء، بأنه سوف يعود إلى كنيسته، ومن هناك سوف يغادر إلى الرب، مع سعفة الشهادة، وبما أنه لم يمتلك الوسائل ليكافئنا، بوساطة هدايا كريمة، ومنافع، من أجل المعروف الذي أبدي نحوه من قبل سلفنا، وخوفاً منه أن يكون قد أثقلنا، مع أنه لم يفعل ذلك ولابشكل من الأشكال، وعد بأن خليفة له، سوف يأتي من بعده، وسوف يرضينا عوضاً عنه ولصالحه، ونحن نعلم بأن هذا جرى الوفاء به من دون إحباط، ولكي تبقى ذكرى القديس توماس الشهيد محفوظة بالفكر، كان الرجل الأول الذي شفي بفضله في كنيستنا اسمه توماس، وعلمنا من هذه الحقيقة أن علينا أن نؤمن بجميع الأعمال الجيدة المتعلقة به، في سبيل تشريف وتمجيد مولانا يسوع المسيح، الذي، إلخ».

براهين حول قداسة القديس إدموند المعترف

وبشأن مايشبه العباءة التي اعتاد الرجل الأكثر قداسة على ارتدائها، لايصح ولابشكل من الأشكال أن نقف صامتين، لأننا نعتقد بأنها كانت نوعاً لم يجرب من قبل الرجال المقدسين في العصور الماضية، ولم يسمع بمثلها في هذه العصور الحالية، فعباءته لم تكن مصنوعة آنذاك بوساطة فن الحياكة، من خيوط رفيعة، بل كانت معمولة من قبل حبال صغيرة شبكت مع بعضها مثل شبكة كثيفة جداً، فالوصلات الحاوية للعقد، عديدة مثل القصاص، في نظام كثيف، ولكي تكون العقد أكثر ضغطاً على جسد المرتدي، لم تكن العباءة سليمة في الجزء الخلفي منها، بل كانت مفتوحة من الأعلى نحو الأسفل، بفتحات صغيرة هنا وهناك، فبهذه العقد المنسوجة بشدة وإحكام، حارب نفسه،في سبيل أنه بالتعذيب الداخلي، سيتمكن من قهر الجسد، وذلك حتى يصبح شهيداً، ويحصل على النصر على نفسه، ولم يكن هو قانعاً مكتفياً بصلب الجسد بالتعذيب بوساطة العباءة، بل أراد أكثر من ذلك، وكان الذي أوقعه

زيادة على نفسـه، قد ضـاعف من دهشتنا أكثـر من أي شيء آخـر، ففي سبيل أن يربط هذه العباءة ويشدها أكثر قرباً على جسده، ولكي يمكن تمزيقـه بحـدة أكبر، بوسـاطة الحك والكشط، ربطهـا على نفسـه، بحبل أغلظ، ومرره مـرتين حول نفسه من عند الجزء الأعلى من جسـده، ومرّ هذا الحبل نازلاً من صدره حتى حقويه بوساطة عدة لفات متداخلة، قد جرى ربطهـا، والتقت النهايتـان مع بعضهما في الأسفل، وبذلك التصق الحبل بالعباءة باستخدامه، وبذلك صار من المادة نفسها.

وبناء عليه حزم نفسه بحبـل من شعر، ولم يحزم حقوي جسده حسبما تطلبت الشريعة، بحبلٍ من كتان مجدول، بل عمل مثل ابن الرب، فحزم نفسه بحزام كان عالياً حتى صدره.

وباختصار، نجد أن أجزاء جسده، التي لم يتمكن من تعذيبها بالنهار، أي بيـديه، وكـذلك الأجـزاء العـارية من رقبتـه، قـد غطاها بقماش من الشعر أثناء الليل، حتى يتمكن بذلك من جعل جسـده كله قربان حرق ذي نكهة طيبـة، إلى الرب، فلماذا أنا بحاجـة لقول أي شيء عن صـومه الذي لم يتعب منـه وعن صلواته؟ ومـع أنه سمح لطعـام قليـل جـداً بالدخول إلى فمه، كان دوماً يتفوه بالحمد والشكر إلى الرب، وكان دوماً يتلفظ بكلمات مهذبـة، وكانت هذه الكلمات كأنها صادرة مـن نبع صدر مولانا، وكـانت خطاباته عميقة ومهـذبة حول اللاهوت، الـذي كان به متميزاً كثيراً، حيث كان مثل أوغسطين آخر، وكان يلقي خطاباته وسط التنهـدات والأنين، مع يديه وعينيـه مـرفوعتـان دومـاً —مثل القـديس مارتن— نحو السماء، وبذلك أثار تقوى الجميع وجذبهم أثناء كلامه.

الشفاء الرائع لأسقف درم

ووصلت هذه البراهين وبـراهين أخــرى عن قــداســة هـذا الرجل المقدس إلى علم نيقولا أسقف درم، الذي كان مصاباً باستسقاء لايمكن

شفائـه، حتى أن لونه تغيّـر بـوساطة يرقـان أصفر، وقد تلاشـي جسده حتى أصبح هيكلاً، وفقد جميع الـرطوبة العائدة لجسـده، وجف جسده بالسعـال والربو، وصـار لونه حالك السـواد، حتى ظهـر بأنه بات على حـافـة الموت، ولم يترك له، كما ظهـر سـوى القبر، وفي هذه الحالة من اليأس والقنوط من أي علاج إنسـاني، وضع ثقة كـاملة بالرجل المقدس المذكور، وبنـاء عليه نذر، أنه إذا مـاعادت إليـه صحته الجسديـة، وصار بإمكانه، سـوف يزور بتقـوى واخلاص ضريح ادمـوند المبـارك، رئيس أساقفـة كانتربري، وعلى هذا جـرى نقله بعربة إلى الأجـزاء الجنوبية من انكلترا، لكي يستفيـد من استنشـاق هواء مـوطنه المحلي، وليكون أيضـاً أقـرب إلى بونتغني، ليفي بنذر حجه، وبعـد إقامتـه هناك لبعض الوقت صـار ضعيفاً إلى حـد بدا فيـه أنه بات صورة أكثر منه إنسـاناً، ولذلك عمل وصيته، وقال وداعاً إلى جميع أصدقائه، وتلقى قربان الموت كاملاً، والمسح الأقصى، لكن عندما كان متمـدداً وهو في نفسه الأخير، جاء و.

W وكان واحـداً من خدمـه، كان من قبل حـلاق، وبواب القديس ادموند، عنـدما كان رئيسـاً لأساقفـة كانتربري، وكـان متصوراً في ذهنه —لسبب صحيح— أن الرب سـوف يجعل ذلك الأسقف بين قديسيـه، لذلك احتفظ ببعض شعر لحيته، التي كان من واجبه حلاقتها، آملاً بأن هذا الشعـر سـوف يكون مفيـداً للمـرضى، في مستقبل الأيام، وعندمـا اقترب هذا من الأسقف نيقـولا، الذي كـان نصـف ميت، لكن محتفظاً بنشـاط ذاكـرته، أمـر الخادم المذكـور، أن يضع الشعـر في بعض الماء المقـدس، وإعطائـه إياه للشرب، وجـرى عمل ذلك، وبعـدمـا شرب الأسقف ذلك، أعقب ذلك غثيان، ثم خمود تورمـه وآلامه، وانتعش هو كلياً، وعاد في وقت قصير إلى الصحة تماماً.

الإمبراطور يتعهد شخصياً بالحفاظ على السلام مع الكنيسة

وفي الوقت الذي كان فيـه خادع العالم يزعج النفـوس بهذه المقلقات

المزعجة، وقع الامبراطور فردريك تحت تأثير نصيحة حكيمة، ومع أنه تظاهر بالتواضع، وعد بتقديم ترضية إلى الكنيسة وإلى الكنائس الأسقفية، وفقاً للشروط التالية: فيما يتعلق بالضمانات التي يتوجب تقديمها، نقول كما يلي: سيقدم الامبراطور ضمانة قائمة على يمين، ومكتوبة، وبكفالة من قبل الملوك، والأمراء، والنبلاء والايرلات، والكونتات، من مختلف البلدان، وعلاوة على ذلك، إنه فيما يتعلق بالضمانات المتقدمة الذكر، هو سيضع نفسه تحت إملاء صاحب القداسة البابا والوسطاء:

«فردريك الأغسطس الدائم، الذي هو بنعمة الرب امبراطور الرومان، وملك القدس وصقلية:

إننا نعلن بوساطة هذه الأداة الحالية إلى الجميع، بأننا منحنا إلى ر. R, الذي هو الكونت المشهور لطولوز، وقريبنا المحبوب، والذي هو من رعايانا المخلصين، وإلى المعلم بيتر دي فينيا Vinea, وثاديوس Thaddeus دي سيسا Sessa, القاضيين في محكمتنا العليا، واللذين من رعايانا المخلصين، منحناهم سلطة كاملة وخاصة بأن يقسموا بأرواحهم، نيابة عنا ولصالحنا، بأننا سوف نلتزم بأوامر البابا والكنيسة، فيما يتعلق بمسائل الأذى، والخسارة، والاعتداءات، التي تعرضت لها الكنيسة والأشخاص اللاهوتيين، قبل صدور قرار الحرمان الكنسي وبعده، والأسباب التي من أجلها جرى التفوه بقرار الحرمان الكنسي المذكور ضدنا بشكل رسمي من قبل غريغوري، الحبر الأعظم، والتصديق على، وتأكيد وتثبيت كل الذي سيقرر رعايانا المخلصين المتقدم ذكرهم، أنه ينبغي أن يفعل في هذه القضية، وللتذكير بها وتأكيدها، أمرنا بتنفيذ هذه الكتابة الحالية، وختمناها بختمنا الامبراطوري الذهبي والتوبازيTopaz ».

رسالة الإمبراطور فردريك إلى ملك إنكلترا

«من فردريك، إلخ، إلخ:

فيما يتعلق بمحادثات شروط السلام بيننا وبين الكنيسة، تم وضع الترتيبات الأولية، كما نعتقد من قبل قريبنا المحبوب، وحليفنا المخلص، كونت طولوز، لذلك يتوجب أن يكون رسلك حضوراً، فهذه هي رغبتنا، ونحن نرجو جلالتكم باخلاص، أن ترسل رسلاً خاصين، من أجل توجيه هذه القضية، وأن يكونوا ممن تثق بهم، وأن يكونوا أكفاء في كل من البراعة، والاخلاص الجيد، لترتيب هذه القضية. صدر، إلخ، إلخ».

بنود الإتفاقية التي وعد الإمبراطور بموجبها بتقديم ترضية إلى الحبر الروماني

فيما يخص قضية الأراضي، جرى إعداد شروط أعطت الرضا إلى الطائفتين معاً، وهي، إن جميع الأراضي التي امتلكتها الكنيسة في أيام الحرمان الكنسي، سوف يجري التخلي عنها، وأيضاً فيما يتعلق بالذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، أما فيما يتعلق بازدراء المفاتيح، يتوجب على الامبراطور أن يكتب في جميع أرجاء العالم بشكل عام، أنه باستخفافه بالكنيسة، وبسلطة الكنيسة، هو لم يعامل بازدراء الحكم الذي تفوه به سلف البابا، وبما أن القرار المتقدم الذكر لم يجر التفوه به إليه، هو تابع السير بموجب نصيحة الأساقفة وبقية النبلاء في ألمانيا وإيطاليا، لأنه لم يكن ملزماً بمراعاته، قبل أن يجري التفوه به إليه، ومع ذلك هو يعترف ويقرّ، بأنه أخفق، وتصرف بشكل سيء بالنسبة لهذه القضية، بعدم مراعاته له، لأنه كما هو معروف بشكل جيد، وحسبما يعتقد بشكل ثابت، بأن للحبر الأعظم سلطة كاملة في القضايا الروحية، وكذلك عليه وعلى جميع المسيحيين من ملوك، أو أمراء، أو رجال دين، أو علمانيين، حتى لو كان هو نفسه مذنباً، لاسمح الرب بذلك، وعلى

الرغم من كل ذلك، سـوف يقـدم الامبراطور المذكور، بسبب خطيئتـه، كـذا وكذا مسـاعـدة، عسكرية ومـالية، إلى أي أمير في العـالم المسيحي، حسبما يبدو موائماً إلى صاحب القداسة البـابا، ولسوف يقدم الصدقات، ويحافظ على الصـوم، وفق مـايرسم به البـابا، ولسوف يلتـزم باخـلاص وتواضع بقـرار الحرمان الكنسي المذكـور حتى وقت تحليله، وفيما يتعلق بالأسـاقفـة المعتقلين، في المقـام الأول: إن جميع المقتنيـات التي جـرى الاستيـلاء عليهـا في غـلايينهـم، والتي وقعت بين يدي الامبراطور، أو التي يمكن العثور عليهـا بحوزته هو سيعيدها وسيتدبر إعـادتها كاملة، وفيما يتعلق بالبقيـــة، إذا كــان الذين عــانـوا من الأذى، يودون وعلى استعداد، هو سوف يقدم ترضيـة لهم، وذلك وفق مايأمر به البابا، الذي يثق بلطفـه، وهـو أيضـاً تكفيراً عن الذنب المذكــور، وفي سبيل تمجيـد الرب، سـوف يبني مشـافي وكنائـس،حسبما سـوف يقـرر البـابا، وذلك بالنسبـة للعـدد والمكان، ووفق الطـريقـة التي يراها مـوائمـة، ولسـوف يمنحهم حسبما سيأمر البـابا، وبالنسبة لما تقدم ذكـره، وبالنسبة إلى جميع الأضرار والخســائـر والاعتـداءات التي تسبـب بها إلى الكنائس وإلى اللاهوتيين منذ بداية الخصومة، ومنذ صدور القرار، ومن أجل الأضرار التي حـرم بسببهـا كنسياً، هو —الامبراطور— سـوف يقسم بدقـة على الالتزام بأوامر البابا، شريطة الحفـاظ على امتيازاته ومراتبه كما هي تماماً، ومن دون أي انتقاص لامبراطوريته ولممالكه، ومع أننا نعتقد بأن ترضية كـافية قـد قدمت مقـابل الأضرار المتقدم ذكـرها، مع ذلك إنه في سبيل تقديم ترضيـة، وفي سبيل ضمان تنفيذ القضايا المتقدم ذكـرها، وأيضاً في سبيل هذه المنافع المذكـورة، سـوف يلتزم الامبراطور بخطط وبقـرارات الوسطاء، الـذين هم: ستيفن أسقف أوستيـا، والكـاردنالين: جـايلز، وأوتو، الذين سـوف —باستثناء شخص البـابا— يقـدمون مـايرون أنه ضروري أن يقـدم، على شرط، أن لايعمل الوسطاء المتقدم ذكـرهم أي شيء، من دون نصيحة البـابا وأمره، باستثناء أنه بالنسبة للنقـاط المتقدم

ذكرها، في قضية الترضية والضمانة، سوف يفعلون كل الذي يقرره البابا المتقدم الذكر، بوساطة نصيحة إخوانه، وكذلك فيما يتعلق بالذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، نحن نقول إنه من هذا التاريخ، جميع الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، بعد بداية الخصام، مهما كانت الجهة التي جاءوا منها، سوف يعفى عنهم فيما يتعلق بجميع الأضرار التي عملت من قبلهم، قبل النزاع وبعده، سواء أكان ذلك لحساب الكنيسة أو لحساب أي جهة أخرى، وسوف يجري إلغاء جميع الحرمانات والقرارات التي صدرت ضدهم، وهو سوف يحررهم من الأعطيات، ومن الاتفاقيات، ومن الروابط، التي عملوها له، بعد صدور القرار، أو بعد وقوفهم إلى جانب الكنيسة، وسيعيد إليهم جميع ممتلكاتهم، وحقوقهم، ومراتبهم كاملة، مع أنها قد تكون قد أعطيت إلى آخرين، وفيما يتعلق بالآخرين، الذين كانوا قبل نشوب الخلاف ثائرين ضد الامبراطور، وكانوا آنذاك في حرب معه، نحن نقول بأن جميع ذنوبهم سوف يجري غفرانها كلها، والتي اقترفوها فيما بعد ضده، وضد الامبراطورية، وبالنسبة للاعتداءات والذنوب التي اقترفت قبل نشوب النزاع، سوف يلتزم الامبراطور بشروط البابا وبمراسيمه مع اخوانه، التي سوف يجري إقرارها، قبل التاريخ الذي سلف وأعده البابا، وهو سوف يمنح سلاماً كاملاً إليهم، منذ ذلك التاريخ، وبالنسبة للضمانات إلى الرومان، الذين ارتبطوا بالكنيسة بعد نشوب الخلاف، وكذلك بالنسبة لنبلاء منطقة تريفيسو Treviso, وإلى مركيز مونتسرات Montserrat, وللنبلاء الآخرين في جميع المناطق، وافق الامبراطور على أنه ينبغي عدم ربط النبلاء المتقدم ذكرهم —مالم يكن بناء على أوامر البابا— بتقديم الخدمة شخصياً إلى الامبراطور،بل بوساطة بدلاء، وأنهم سوف يدعون إلى الالتزام بقرار أتباعهم النبلاء ونظرائهم في المقاطعة نفسها، والذين ارتبطوا بالكنيسة ليسوا مستثنين، أما فيما يتعلق بالذين هم بالاعتقال، بسبب أعمال حقيقية أو شخصية، أو حتى إن كانوا متهمين بإعتداءات

جرمية، خاصة بالنسبة لحالة الرومان، سوف يقوم الامبراطور، من أجل تقديم الضمانة الأعظم إلى الذين ارتبطوا بالكنيسة، بتعيين واحد من مقدمي الأساقفة في إيطاليا، أمامه فقط يمكنهم الترافع بقضاياهم، وذلك في سبيل تقديم الترضية لصاحب القداسة البابا، وكذلك فيما يتعلق بالقضايا المدنية والجرمية، وسيجري اختيار هذا الأسقف بموافقة من البابا، ويبقى للمدة الزمنية التي يمكن أن يختارها، وأماكنهم الخاصة للدفاع، سوف يضعها الامبراطور في عهدة الذين يعتقد أنهم موائمين،، وهو لن يلمس أماكن الدفاع للمتقدم ذكره، أو يؤذيها من دون موافقة الأسقف الذي انتدب لهذه القضايا، وبالنسبة إلى الذين هم عائدين إلى منطقة تريفيسو، سوف يتعاون الامبراطور مع واحد من الرهبان يعتقد أنه موائماً للاختيار لهذا العرض، وتقديم مقدم إليه وحده سوف يرتبط الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، لتقديم تقدير حول أراضي تريفيسو المذكورة، وهو أيضاً سوف يطلق سراح جميع الأسرى الذي اعتقلوا في الغلايين، والذين اطلاق سراحهم الآن هو مطلوب، وكذلك التوسكانيين، والرومان والأسرى الآخرين، الذين اعتقلوا منذ صدور قرار الحرمان الكنسي، وسوف يحررهم من جميع الأيمان، ومن جميع المتوجبات التي ربطوا أنفسهم بها، منذ وقوعهم بالأسر، وكذلك جميع الذين أطلق سراحهم، ومثلهم الذين سوف يطلق سراحهم بعد الآن، ومن أجل هذا سوف يعطي رسائل معتمدة إلى رعاياه المخلصين، بأن جميع الذين هم سجناء، سوف يطلق سراحهم في كل مكان من قبل سجانيهم، وسوف يسمح للذين طردوا من البلاد بسبب الخلاف الأول أو الخلاف الثاني، من رجال دين أو علمانيين، بالعودة إلى مواطنهم، ليمكثوا هناك بأمان، وأن يعيد إليهم ممتلكاتهم وبضائعهم كلها.

وبالنسبة لخلافه مع الرومان، سوف يلتزم الامبراطور بالترتيبات التي سوف يعدها البابا واخوانه، وكذلك فيما يتعلق بعمل تعويضات عن

الخسائر التي عانوا منها على كلا الجانبين في تلك الحرب، وكذلك فيما يتعلق بالمسائل الأخرى، على شرط أن ذلك —على كل حال— سوف يجري ترتيبه حول مايتعلق بالخلاف حول ممتلكاته وتحديدها، باستثناء قلعة أنتكولي Anticoli التي حولها لايقبل التسوية، وفيما يتعلق بالمضار التي عملت من قبل الامبراطور، أو موظفيه ونوابه، بناء على أمره، إلى كنائس رجال الدين، وكذلك بالنسبة للعلمانيين والكنائس الأخرى، وذلك منذ صدور القرار ضده، سوف يقدم الامبراطور ترضية، حسبما يمكن أن ترى حكمة الكرسي الرسولي ولطفه أنه من المناسب تقريره، وكذلك حيث لايعلم الامبراطور بأن الأذى قد عمل من قبله، أو من قبل جيوشه.

وقد منح إلى غريغوري دي مونت لونغو وإلى أقربائه، سلاماً كاملاً وأماناً، وأرض الكونت وليم التي استحوذ عليها من قبل الكنيسة سوف تعاد، وبالنسبة للأراضي الأخرى، سوف يجري تحكيم حولها بين الامبراطور، وبين الكاردينال أوتو، رئيس أساقفة روان، وهكذا فإنهما هما نفسيهما يمكن أن يقررا الشريعة التي ينبغي أن يقرراها.

وتفوه رسل الامبراطور وأعطوا وعدهم، بأنهم سوف يعملون تسوية حول مايتعلق بالممتلكات والمقتنيات، وفي الوقت نفسه سوف يعترفون، ويحددون، ويقسمون، أنهم سوف يسعون مخلصين تماماً ومن دون خداع، إلى اقناع مولاهم الامبراطور، بأن يسمح للأساقفة المتقدم ذكرهم، بالترافع قضائياً بشكل جماعي أو بشكل فردي حول قضية الممتلكات وحقوق الملكية، ولسوف يطلب الأساقفة الثلاثة من الامبراطور أن يفعلوا ذلك، وتعهدوا بالنسبة لأنفسهم، بأنهم سوف يتصرفون في هذه القضية باخلاص وصلاح نحو الامبراطور، شريطة أن يسمح لهم بالترافع قضائياً، حسبما يعتقدون أنه عمل موائم، في الاستماع لهذه القضية وفي تقريرها، وذلك حول المقتنيات، وحقوق الملكية، جماعياً

أو فـــردياً، وأنه إذا لم يستطيعــوا جميعـــاً أن يكونوا حــاضرين، وأعيق أحدهم بأي معيق معقول، يمكن لاثنين منهم الترافع بالقضية.

حول معيق تطويب القديس إدموند المعترف

وما ان جرت تسوية هذه القضيـة الصعبة، حتى اعتقد البابا بأنه حلّ جميع القضـايا بسعـادة، فـردد الشكر إلى الرب، وإلى القـديس ادمـوند، الذي طلب عونه في وقت متاعبه، وبناء عليه وعد وقرر، أن يقوم تماشياً مع طلب راعي ديـر ورهبـان بونتغني، بشكل مهيب بتطويـب ادمـوند المبارك، رئيس أساقفة كانتربري، الذي عـرفه من التقرير العام بأنه أشع بكثير من المعجـزات التي تمت الاشـارة إليهـــا أعــلاه، وأرسل أندلم Andelm, رئيس أساقفـة أرماغ مع رجـال آخرين مستقيمين وذوي نفـوذ، للقيـام بفحص مناسب وتقصي حـول هذه المعجـزات، وعندمـا سمع المضطهـدون القـدامى والمتجـذرون للقـــديس المذكـور قـالوا بين بعضهم: «إنه إذا مـاجرى تطويب هذا الرجل، وتمت ترقيتـه إلى مرتبـة القـدسية المتميـزة سوف نكون في وضع مـربك مهين»، ولذلك قامـــوا مـن أجل خـراب أرواحهم، فعملوا مؤامرة مـع النائب البابـوي أوتـو، لمنـع هذا الـقديس من التطـويب مع أن الـرب قـد أظهـر للنـاس كثيراً مـن معجزاته.

تراجع الإمبراطور عن شروط السلام التي رتبها

وأبعـد الامبراطور وتغـرب بوسـاطة بعض المزعجـات، والإثارة له، حيث أظهر أولاً شمـوخاً، ثم أسف لوعـوده، وتراجع بشكل محزن عن الشروط التي أقسم بمـراعـاتها، وعن التـواضع، وعن تقـديم الترضيـة المـوعودة، وفي الـوقت نفسـه، حتى تزداد أحزاننا، كتب الأساقفة الذين يسكنـــون في الأرض المقـدسـة، إلى الأسـاقفـة الـذين يسكنـون على هـذا الجانب من البحر، مايلي:

رسالة مبكية

«إلى الآباء المبجلين في المسيح، وإلى جميع أصدقائنا: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، والأساقفة الآخرين في انكلترا وفرنسا، وإلى الذين سوف تصلهم هذه الرسائل، يتمنى لكم روبرت، الذي هو بنعمة الرب بطريرك الكنيسة المقدسة في القدس، والنائب للكرسي الرسولي، وهنري رئيس أساقفة الناصرة، وج. J, الأسقف المنتخب لقيسارية، ور. R أسقف عكا، وأسقف صيدا، والراهب وليم أوف روكفورت Rochefort, نائب مقدم بيت فرسان الداوية، ورهبان البيت نفسه، وهـ. H رئيس رهبان ضريح ربنا، وراعي دير القديس صموئيل لطائفة رهبان البريمونستريت Premonstrate, ورعاة الديرة: ب. B راعي دير جبل الزيتون، وج. J راعي دير هيكل ربنا، وب. P راعي دير جبل الطور،و ر. R راعي دير جبل صهيون، الصحة والنجاح وفقاً لرغباتكم:

قدمت حدة الحيوانات الشرسة من مناطق الشرق، ووجهت مسارها نحو منطقة القدس، التي مع أنها اعتادت في أوقات كثيرة أن تتعرض للمضايقات بطرق متنوعة من قبل المسلمين المحيطين بها قد تمتعت بالآونة الأخيرة بشيء من التنفس بحرية، لأن أعداءها القريبين قد أخلدوا إلى الراحة، ومع ذلك فإن ذنوب المسيحيين قد أثارت شعباً غير معروف، حتى يقدم على تدميرهم، وقد جلب السيف المنتقم وسلّطه عليهم، من بعيد، نعم لقد هزّ غضب التتار ورعبهم جميع منطقة الشرق، بوساطة المصائب المضاعفة والمرعبة، فقد اضطهدوا الناس سواء، ولم يميزوا بين مسيحي وغير مسيحي، بل أخذوا أسلابهم من أقصى البقاع، حتى من الذين هم أنفسهم، قد عاشوا على افتراس الشعب المسيحي، فبعدما نهب ودمّر هؤلاء التتار المذكورين جميع بلاد فارس، وشنّوا حرباً بروح فاسدة، واصطادوا أولئك الخوارزمية

المتوحشين، وسحبوهم من جحورهم، طردوهم من مقاطعاتهم، ولم يمتلك هؤلاء الخوارزمية مكاناً يسكنون به، ولم يتمكنوا من الحصول على ملاذ آمن بين أي من المسلمين، بسبب شرورهم، وقد تلقوا العون فقط من سلطان مصر، ذلك المتعقب للإيمان المسيحي، وهو وإن رفض منحهم مكاناً يلتجئون إليه في أراضيه، عرض عليهم، وقدم إليهم، ماهو ملك للآخرين، واستدعاهم ووجّه الدعوة إليهم ذلك المسلم، للسكنى في أرض الميعاد، التي وعد بها الذي هو في عليين، وأعطاها إلى الذين آمنوا به، وبناء عليه، قدموا، وهم معتمدين على عون السلطان المذكور، مع زوجاتهم وأسرهم، وعدة آلاف من الفرسان المسلحين، ودخلوا إلى ميراث الرب، الذي قالوا بأن سلطان مصر قد منحهم إياه، وكان وصولهم مفاجئاً، ولم يكن متوقعاً لا من قبلنا، أو من قبل الناس المجاورين لنا، لذلك لم يتمكنوا من انذارنا للاحتراز ضدهم، وقد دخلوا إلى منطقة القدس من خلال مقاطعتي صفد وطبرية، ومع أننا استخدمنا كل حيطة، ويقظة لابداع وسائل من أجل ارجاع الأرض المقدسة، إلى سالف عهدها من السلام والهدوء، الذي اضطرب بقدوم هؤلاء الأعداء الجدد، مع ذلك لم تكن إمكانات الصليبيين كافية للقيام بواجب طردهم، وإثر هذا استحوذ الخوارزمية الذين تقدم ذكرهم، على المنطقة كلها الممتدة من طور الفرسان على مقربة من القدس، حتى غزة، وقمنا بناء عليه، واعتماداً على نصيحة الجميع ورغبتهم، بالتعاون مع مقدمي بيتي الرهبان، أي فرسان الداوية، وفرسان اسبتارية القديس يوحنا، ومدير فرسان التيوتون للقديسة مريم، ومدير المملكة، فتوجهنا بالدعاء إلى مساعدة جميع الصليبيين، وسلطاني دمشق، وحمص، اللذان كانا آنذاك يربطهما معنا معاهدة سلام، واللذان كانا معاديين ومبغضين للخوارزمية، واللذان كانا ملتزمين، وفقاً لشروط المعاهدة، بالدفاع عن الأراضي التي هي بين أيدي الصليبيين، ضد المسلمين الآخرين، لأننا اعتقدنا أنهم أنذروا بوصول أولئك الخوارزمية المذكورين، وهم وإن

وعـدونا باخلاص وأقسمـوا على أن يقدمـوا العون إلينا، تأخـروا كثيراً بتقـديم أية نجـدة إلينا، وفي الوقت الذي كـان فيه الصليبيـون مترددون حول القتـال ضد هؤلاء الخوارزميـة، لأن أعدادهم كـانت قليلة، جداً، مقارنة بأعدائهـم، غالباً ما هاجم هؤلاء الخوارزمية مـدينة القدس، التي لم تكن محميـة بحواجـز دفـاعيةعلى الاطلاق، وبناء عليـه فإن الصليبيين الذين كـانوا في المدينة، وكــانوا يخافـون من وحشيـة هؤلاء «الكفـار»، احتشـدوا حتى بلغ عـددهم أكثـر من ستـة آلاف رجل، ووثوقـاً منهم بالهدنة التي كانت معمـولة بينهم وبين سلطان الكرك، ومسلمي المناطق الجبلية، تركـوا عدداً قليلاً في المدينة وانطلقوا خـلال هذه المناطق الجبلية مع أسرهـم، وجميـع مقتنيــاتهم، للدخــول إلى أراضي الصليبيين، لكن المسلمين في تلك المناطق انقضـوا عليهم، وهاجموهم، ووضعـوا بعضهم طعمة للسيف من دون رحمة، واعتقلوا آخـرين، وعهدوا بهم إلى أسر لا أمل فيـه، وعــرضـوا الصليبيين من الجنسين حتى الـراهبـات للبيع إلى المسلمين الآخــرين، وتمكن بعضهــم —على كل حــال— من النجـاة بالنزول إلى سهل الـرملة، ووقتهـا انقض الخوارزميــة عليهم، واقترفـوا مـذبحة هائلة بينهم، إلى حـد أن الذين نجوا من ذلك الحشـد الكبير، لم يتجاوز عددهم الثلاثمائة، وكـان هؤلاء بلا حياة تقريباً، ثم دخل أولئك المتوحشون التعسـاء المتقدم ذكرهم إلى مدينة القـدس، وكانت الآن شبه خـالية من الناس، وقتلوا جميع الصليبيين الـذين بقيوا هناك، حتى أمـام ضريح ربنا نفســه، وفي الكنيســة التي هربوا إليهـا للالتجـاء، لابل حتى أنهم قطعـوا رؤوس الكهنة الذين كانـوا يؤدون القداسـات عند المذبح، وكــانوا يرددون بين أنفسهم: «دعــونا هنـا نصب دمــاء هؤلاء الناس الصليبيين، وذلك حيث شربوا الخمرة تشريفـاً لربهم، الذي يقولون بأنه علق هنا على الصليب»، وبالاضـافـة إلى هذا نحن نخبركم بما هو أكثـر إيلاماً وحزناً، حيث أنهم وضعـوا أيديهم الملوثة، على ضريح قيامة ربنا، ولوثوه بطرق كثيرة، ولقـد انتـزعـوا تقـريبـاً ألواح الرخـام التي كـانت

موضوعة من حوله، ولطخوا بكل وسيلة من الإهانات كانت بإمكانهم، جبل [أكـرا] الجمجمـة، حيث جـرى صلب المسيح، والذي فعلوه بالمدينة، هو ما لستُ بقادر على التعبير عنه، وانتزعوا أعمدة الضريح المقدس، التي وضعت أمام ضريح ربنا بمثابة زينة، وتحدياً للمسيحيين أرسلوهم إلى ضريح محمد (صلى الله عليه وسلم) بمثابة علامة على النصر، ولكي يزيدوا من إهانة الصليبيين خرقوا حرمة قبور الملوك السعداء [للصليبيين] التي كانت موضوعة في الكنيسة نفسها، وفرقوا عظامهم وبعثروها في كل اتجاه، وبالنسبة لجبل صهيون المبجل، فقد خرقوا حرمته، ولطخوا بأشياء غير معقولة، وغير مناسبة لذكرها، هيكل الرب، وكنيسة وادي شعفاط، حيث يوجد ضريح العذراء المباركة، وفعلوا مثل ذلك بكنيسة بيت لحم، وموضع ولادة ربنا، وبذلك فاقوا بشرورهم جميع المسلمين الآخرين، الذين مع أنهم غالباً ما هاجموا الأراضي الصليبية، دوماً أبدوا بعض الاحترام إلى هذه الأماكن المقدسة، هذا ولم يكن هؤلاء الخوارزمية المذكورين قانعين بكل هذا، وكانوا يستهدفون الاستيلاء على جميع المنطقة التابعة للصليبيين وتدميرها كلياً، وقد استثير الصليبيون بسبب هذه التجاوزات والأضرار، وباتوا غير قادرين على تحمل مثل هذه الشرور مدة أطول، التي هي شرور كافية، لإثارة كل حزن وأسى في قلب كل تابع غيور للإيمان الكاثوليكي، لذلك قرروا بموافقة عامة، العمل على توحيد قوى السلطانين المتقدمي الذكر مع قوات الصليبيين، وبناء عليه، بدأ الجيش الصليبي في اليوم الرابع من تشرين أول بالزحف ضدهم من ميناء عكا، وسار خلال قيسارية والمناطق الساحلية الأخرى.

وعلم الخوارزمية وقتها باقترابنا، ولذلك تراجعوا خلال مناطق متعددة، ونصبوا معسكرهم أخيراً أمام عكا، وانتظروا هناك النجدات، التي كان سلطان مصر —الذي هو رأس ومقدم الدنس— على وشك

إرسالها إليهم، وعندما التحق بهم حشد كبير أرسله السلطان المذكور، وصل إليهم الجيش الصليبي مع السلطانين المتقدمي الذكر، وكان ذلك عشية عيد القديس لوقا، فيومها وجدناهم أمام غزة مع حشد لايحصى، وكانت فرقهم معبأة للقتال، وبناء عليه جرى ترتيب جيشنا من قبل المقدمين وفق النظام الموائم لمهاجمة الأعداء وقتالهم، ثم قام البطاركة والأساقفة الآخرين بتحليلهم من ذنوبهم بموجب سلطان الرب القدير، والكرسي الرسولي، وأعطى الجميع شارات، وأظهروا علامات على ندم مخلص بوساطة تدفق الدموع، فهم عدّوا موت الجسد أمراً لاقيمة له، وكانوا يأملون بنيل الجزاء الأبدي، واعتقدوا جميعاً أن تموت من أجل المسيح هو أن تعيش، لأنه لابد من حدوث مصيبة جسدية لنا بسبب ذنوبنا، يتسوجب أن نعتقد أن الذي هو في عليين، الذي يبحث في القلوب، ويعرف جميع الأسرار، سوف يكون مسروراً بالحصول على الأرواح بدلاً من نيل الأجساد.

ثم إننا اشتبكنا بعد ذلك مع العدو، ووقتها لحقت الغلبة بالمسلمين الذين كانوا معنا من قبل العدو، وهربوا جميعاً، وكانت أعداد منهم قد قتلت أو وقعت بالأسر، وهكذا تُرك الصليبيون لوحدهم في ميدان المعركة، ومع أن الخوارزمية والمصريين انقضوا عليهم مع بعضهم، صمد الصليبيون بحكم كونهم أبطال الرب، والمدافعين عن الإيمان الكاثوليكي، والذين جعل منهم الإيمان نفسه والآلام، إخواناً، وأظهروا مقاومة شجاعة لهم، ولكن أخيراً، بما أنهم كانوا قليلاً جداً، بالمقارنة مع أعدائهم، تحول تيار المعركة ضدهم، وانصاعوا —وأنا أكتبُ ذلك بأسف— أمام النصر الذي ناله أعداؤهم، والذين نجوا من بين جميع فرسان الداوية، ومن فرسان اسبتارية القديس يوحنا، ومن فرسان التيوتون للقديسة مريم: فقط ثلاثة وثلاثين من الداوية، وستة وعشرين من الاسبتارية، وثلاثة فقط من رهبان فرسان التيوتون، هؤلاء فقط

الذين نجوا، أما البقية فهم إما قد قتلوا، أو جعلوا أسرى، وذلك بالاضافة إلى مذبحة هائلة ألمت برماة القسي العقارة، وكذلك بالنسبة للجنود الرجالة.

وفيها يتعلق برئيس أساقفة صور، وأسقف اللد، وراعي دير القديسة مريم في شعفاط، ومقدم الداوية، ومدير التيوتون للقديسة مريم، وعدد آخر من الرهبان والكهنة، بما أنهم لم يظهروا بيننا، نحن في شكوك عظيمة حولهم، لاندري أسقطوا في المعركة، أم أنهم مازالوا قيد الأسر، فنحن غير قادرين على تأكيد الحقيقة حولهم، أما مقدم الاسبتارية، والكونت وولتر دي بريين، فقد حملا مع عدد كبير آخر أسرى إلى القاهرة، وأما بالنسبة لي أنا البطريرك، الذي بسبب ذنوبي، وقعت جميع هذه المصائب، فقد عُددت من قبل الرب، أنني غير جدير بالشهادة، ولذلك نجوتُ، وأنا نصف ميت، وتمكنتُ من اللجوء إلى عسقلان، مع النبلاء، وقسطلان عكا فيليب دي مونتفورت، والفرسان، والعساكر الرجالة، الذين نجوا من المعركة، ومع أنه ليس هناك راحة بين مثل هذا العدد الكبير من المصائب، والخسائر التي ألمت بنا، ذلك أننا خسرنا كل شيء في المعركة المتقدمة الذكر، مع ذلك إن الذي كان بإمكاننا فعله في حالة الطوارىء الحالية فعلناه، فقد قمنا بارسال رسائل ورسلاً إلى الملك المشهور لقبرص، وإلى أمير أنطاكية، ورجوناهما بحرارة وحثثناهما في حالة الضرورة الملحة هذه، أن يرسلا فرساناً وعساكر من أجل حماية الأرض المقدسة، لكننا لانعرف بعد ماالذي عازمان على فعله في هذه القضية.

ثم إننا عدنا إلى عكا، واتخذنا مقامنا في تلك المدينة، التي وجدناها، وكذلك وجدنا جميع المنطقة على طول الساحل، مليئة بالحزن، والنحيب، وبمختلف أنواع التعاسات التي لانهاية لها، ولم يكن هناك بيت أو روح حية لم تكن تبكي واحداً من الموتى قريب لها، ومع أن

الحزن من أجل الماضي كان كبيراً وقاسياً، إن الخوف من المستقبل قد استولى على الجميع، لأن جميع المنطقة التي تم نيلها بسيوف الصليبيين، هي الآن خالية من جميع بني البشر، ومن جميع المساعدات الأرضية، والحماية، وقوة المدافعين قد نزلت إلى لاشيء، ودمرت، لأن هناك فقط عدد قليل من الأحياء، ومع أن هؤلاء قد انحدروا إلى حافة الموت، ما من شيء كما يبدو قد بقي، بل يتوجب أن يسقط كل المتبقي في أيدي أعداء الصليب، وفق رغباتهم، ذلك أنهم تقدموا إلى درجة عالية من الصلف والوقاحة، حتى أنهم زحفوا فنصبوا مخيمهم، الذي امتد فوق مساحة ميلين في السهل القريب من مدينة عكا، ثم إنهم الآن يركضون بشكل وحشي، وهم أحرار، حيث ليس هناك من يعترضهم أو يتصدى لهم، في جميع المنطقة بالطول والعرض، وذلك حتى منطقتي الناصرة وصفد، وهم قد استحوذوا على المنطقة، وشرعوا يتقاسمونها فيما بينهم، وكأنها كانت منطقتهم، وقد عيّنوا رسلاً ووكلاء في جميع قرى وبلدات الصليبيين، ويتسلمون الموارد والجزية من رجال المقاطعات ومن بقية السكان، وهو ما كانوا من قبل يدفعونه إلى الصليبيين، وقد أصبح رجال المقاطعات هؤلاء الآن أعداء للصليبيين وعصاة ضدهم، ومرتبطين متحالفين مع الخوارزمية.

وهكذا فإن جميع كنائس القدس، وكذلك جميع الأراضي الصليبية، ليس لديها الآن أراضي تتجاوز بعض الأماكن الحصينة القليلة، التي يجدون مصاعب جمة ومتاعب كبيرة في الدفاع عنها، ولقد قيل أيضاً بأن المصريين الذين هم الآن عند غزة سوف يقدمون قريباً بأعداد كبيرة جداً إلى عكا، للاتحاد مع الخوارزمية في حصار المدينة، وتلقينا أيضاً في الثاني والعشرين من تشرين الثاني رسائل مع رسل من القسطلان مع الاسبتارية الذين يشكلون الحامية في قلعة عسقلان، يعلنون لنا بأن الجيش الاسلامي القادم من مصر قد ألقى الحصار على تلك القلعة،

وأن المسلمين قد طوقوها، ولقد التمسوا منا أن نرسل إليهم مساعدات سريعة ومؤناً، وأن يكون ذلك منا ومن الجماعة الصليبية.

وفي سبيل أن تثيرك تقواك للاشفاق على دمار الأرض المقدسة، لأن هذا العبء يقع على أكتاف الجميع بشكل عام، رأينا من الصواب إخباركم عن أوضاع قضية المسيح، وبتواضع نرجوكم وبالصلوات والتقوى الخالصة نلتمس منكم، أن تطلبوا الرحمة من العلي الأعلى لصالح تلك الأرض، في سبيل أن الذي كرّس تلك الأرض بدمه، في سبيل خلاص جميع الناس، أن يتطلع إلى تلك الأرض برحمته، وأن يمدّ يده لمساعدتها وحمايتها، وقدم أيضاً أيها الأب الأعظم محبة، ما تمتلك من نصيحة ومساعدة في هذه القضية، حتى تحصل من ذلك لنفسك على المكافأة في السماء، وبالنسبة إليكم يمكنكم أن تكونوا متأكدين تماماً، أنه ما لم تقدم مساعدة إلى الأرض المقدسة في العبور المقبل لشهر آذار، من يد العلي الأعلى، وبوساطة نجدات من القوات الصليبية، إن الدمار والتخريب المحيق بها الآن، لايمكن النجاة منه، وبما أننا نحتاج إلى وقت طويل حتى نبين الضروريات الأخرى التي نحتاجها، وأوضاع الأرض المقدسة بشكل عام في رسالة، أرسلنا إليكم الأب المبجل أسقف بيروت، وآرنولف Arnulph, وهو راهب من طائفة رهبان الدومينيكان، وهما سوف يحكيا إلى جماعتكم الحقيقة كلها كاملة وبصدق، ونحن بتواضع نرجوكم جميعاً الإصغاء إلى الرسولين المتقدم ذكرهما، وأن تعاملاهما بكرم، لأنهما عرضا نفسيهما لمخاطر عظيمة، لصالح كنيسة الرب، بقيامهما برحلتهما في الشتاء. صدر في عكا في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني، من عام ألف ومائتين وأربع وأربعين لتجسيد ربنا».

ووضع على النسخة الأصلية من هذه الرسالة البليغة اثني عشر ختماً.

تأثير الرسالة المتقدمة

وعُـهد بحمل هـذه الرسـالة الحزينة والمبكيـة، التي بعث بها آنذاك أساقفة الأرض المقدسـة ونبلائها، الذين لم يكن بإمكانهم تحمل توقعات الشتـاء المقبل، وتهديدات البحر المضطرب والهائج، عهـد بها إلى وولران Waleran, أسقف بيروت، والراهب آرنولـف الذي هو من طائفـة الدومينيكان، ليحمـلاها بكل سرعـة ممكنة إلى الذين هم على طرفنا من الماء، وليرياها بشكل خـاص إلى ملكي فـرنسا وانكلترا، وقـام الأسقف المتقـدم الذكر مع الـراهب، نظراً لتوفـر الحاجـة القصوى، فتحمـلا، في سبيل غفـران ذنوبهما، القيام بنقل هذه الـرسالة، لصـالح المسيح، وذلك بناء على طلب الأسـاقفة، ولم يهتما بجميع المخـاطر الشخصية، فقـاما في اليوم الأول من ميلاد ربنا بجـرأة بالاقلاع، لكن مع التواضع المطلوب، وكانا يستهدفان استنهاض قلوب المسيحيين، وإعداد طرق الولد الوحيد للرب، الذين تحت وقـايتـه سـوف يستحقـون الخلاص مـن المخـاطرة المحيقـة بهم، ونتيجـة لذنوبهم، لقـد مكثـوا في البحـر لمدة ستـة أشهـر، تعرضوا خلالها لخطر الموت من كل نوع وفي كل سبيل، وكما سمعنا من الأسقف المحترم نفسه، لقد عانى من عـدد كبير جداً من المخاطر، حتى أنه أمر مبكي الإصغاء إلى رواية حولهم، كما أنه متعب روايتهم، وأخيراً —على كل حال— وصـلا بتوجيه من الرب، وبمسـاعدة صلوات جميع الأسـاقفة الـذين تقدم ذكـرهم، الذين كـانوا قـد أوكلوا أنفسهم إليهما، وصلا إلى ميناء البندقية، وكان ذلك في حوالي عيد صعود ربنا.

بعض الإنذارات المسبقة حول الحساب المستقبلي

إنه لمن المعلوم بشكل جيد أن تهديد الرب، لم يكن نافذاً من قبل مثله الآن حول مدينة القـدس المقدسة، وذلك حين قال: «مـا من حجرة من أحجارك سـوف تبقى فوق أخرى» إلخ، إلخ، ومن المتـوجب أن نعرف أنه قبل عدة سنوات مضت سقط تمثال محمد (صلى الله عليه وسلم) في مكة (كـذا)، وفي سبيل إنزال أعظم انتقـام لهذا الحدث، ومن أجل إيذاء

المسيح، والمسيحيين الذين فـرحـوا لسقـوط هذا التمثـال، إزداد الآن غضب هؤلاء الخوارزمية المذكـوريـن، وتعـاظم ضـد المسيحيين وضـد أماكنهم المقـدسة، وقـالوا بأنهم حصلوا على هذا النصر من خـلال رضا الله، وبوساطة شفاعة محمد (صلى الله عليه وسلم).

ومضى صـوتهم بعيـداً (ومن الممكن القول «سـوف يمضي بعـد هذا أبعـد» واضعاً الماضي من أجل المستقبـل) «في جميع أنحاء العـالم»، وبناء عليـه انتشر تبشير الدومينيكان والفـرنسيسكان، وعـمّ ليصل إلى جميع أنحـاء العـالم، وذلك وفقـاً لكلمات المخلص: «أنتم سـوف تكونون شهـودي في اليهودية كلهـا والسامرة حتى إلى » إلخ، إلخ، وكأنه كـان يريد أن يقول: «عندما ترون هذه الأشياء، حكم عام محيق»، ولم تجاوب لا الأرض ولاالبحر، وفقاً لعادتيهما عموماً، على توقعات الناس، بل إن الماء وكـذلك الأرض أصيبتـا بضرب مـن ضروب الصمت والتعطيل، وكسفت الشمس مـرتان في السنوات الثـلاث المنصرمة، وهو حـدث لم يتذكـر مثيله بأنه وقع قط من قبل، وشوهدت النجـوم تتساقط مـؤخراً، ونبعت الطوائف نظراً لتقلبات العقيدة، ونشبت خلافات لم يعرف مثيل لها من قبل بين الكنيسـة وبين الامبراطور، وسيطرت المجـاعـة وانتشر الطاعون في جيش الملك الفرنسي، وقبل عدة سنوات مضت لحق الدمار الكلي بمـدينة بافـوس Paphos وبعـدة مـدن أخـرى تابعـة للامبراطورية، وبجزر البحر المتوسط، بوساطة زلازل.

مواظبة البابا العمل على مصالحة أسقف وينكستر مع الملك

وأثناء تقلب العـالم هكـذا مع أمـواج الهمـوم، وبينما كـانـت سـورية مهـزوره بعـواصف الحوادث الأخيرة، كـانت انكلترا مـستثـارة من دون توقف بالهمـوم والقلق، لأن الملك كـان قـد تلقى دونما مبـالاة طلبـات متـوالية وملحـة، ومـذكرات من البـابا لصـالح أسقف وينكستر، الذي مازال منفياً في فرنسا، معتمداً على نصائح كهنة بلاطه، الذين كان همّهم

الوحيد الحصول على المرابح، ولذلك أثاروا اتهامات جادة ضد الأسقف المذكور، وقام البابا —على كل حال— الذي قيل بأن الأسقف قد دفع له ثمانية آلاف مارك، صدوراً عن عاطفته تجاه الأسقف المذكور، وكذلك بسبب مبلغ المال الذي دفع له، بالاستمرار بالاهتمام بالموضوع بنفسه، وكتب إلى ملك انكلترا لصالحه كما يلي:

رسالة البابا إلى ملك إنكلترا لصالح أسقف وينكستر

«من انوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى ولده المحبوب في المسيح، ملك انكلترا، صحة ومباركات رسولية:

بعدما رفع فضل الرب، شخصنا المتواضع إلى المنصب الرفيع للكرسي الرسولي، شعرنا بكثير من الثقة بسموكم، حتى تصورنا أنكم سوف تظهرون أنفسكم مندفعين ويقظين نحو القضايا التي هي مرتبطة بكرامة الكنيسة ورفعتها، وبما أننا كنا قد وافقنا، بناء على نصيحة إخواننا، على انتخاب أخينا المحترم، الذي كان من قبل أسقف نورويك، ليكون أسقفاً لكنيسة وينكستر، أرسلنا التماساً خاصاً إليكم، أن تظهروا أنفسكم بمشاعر طيبة، ولطف في تصرفاتكم نحوه، وذلك صدوراً عن احترامكم للذات اللاهوتية، والاحترام لنا شخصياً، وأن تقوموا بسرعة وبلطف فتعينوا له القلاع والعزب العائدة إلى تلك الكنيسة، ولقد سمعنا، ماأدهشنا وأحزننا، هو أنكم ليس فقط لم تسمحوا بتنفيذ طلبنا، لابل ماهو إثم أعظم، أنكم انفجرتم وتفوهتم بكلام فارغ من كل لطف، ومن الاحترام الأبوي، معلناً أنه لايمكن السماح لأي انتخاب في مملكة انكلترا، أو يمكن أن يكون من قبل الكرسي الرسولي، ضد رغبتكم، أي مثلما نحن نمتلك سلطة في القضايا الروحية، تمتلكون أنتم سلطة في المسائل المدنية، وأنه لايمكن لأي واحد جرى انتخابه الاستحواذ على الممتلكات الدنيوية من دون موافقتكم، وعلاوة على ذلك أضفت بأنك تعد نقل الأسقف المذكور غير فعال،

لأنه تمّ الحصول عليه مننا بالزيف، وبوسائل خفية غير مستقيمة، وهذه الإجراءات ياولدنا المحبوب لاتعزز كرامة الرب، ولا كرامة الكنيسة، أو كرامتكم أنفسكم، وليس لهم طعم العدل، ومذاقهم ليس مذاق الانصاف، لاسيما وأن الاعتقاد التقوي لجميع المسيحيين، أنه بموجب الحكمة الربانية، يتمتع الكرسي الرسولي بسلطة كاملة، وسلطاته نافذة في جميع قضايا الكنيسة، وأن هذه السلطات ليست ملزمة بالخضوع إلى قرار الأمراء، أو طلب الحصول على موافقتهم في مسائل الانتخابات والاعتراضات، ففي هذه المسائل يقوم الكرسي الرسولي بإجراءاته بشكل مدروس وحكيم، حتى لاتتعرض الكرامة إلى المعاناة من أي انحراف، وما من شيء يمكن أن يحدث وفيه إيذاء للعدل، وهكذا أيضاً كانت إجراءات الكرسي الرسولي في نقل الأسقف المذكور، وبالتقدم به، رفعت رجلاً متميزاً تماماً في علمه، وفي أخلاقه، وفي استقامته، وفي حكمته، في الشؤون الروحية والدنيوية سواء، وهو رجل كان من قبل محبوباً من قبلكم، ومحبوباً جداً لديكم، وهو رجل قد سعى بكل قواه لتلبية رغباتكم، وذلك بقدر مايسمح له واجبه نحو الرب، وهو رجل حاول أن يجعلكم تكسبون المزيد من الكرامة والمنافع.

وبناء عليه لاتسمحوا لأنفسكم أن تفرض عليها النصائح الماكرة للمستشارين الخادعين، الذين يسعون لإلحاق الأذى بالناس ذوي الفضائل، في سبيل أشخاص لامبالين، همّهم فقط الحصول على منافع خاصة لأنفسهم، ولتلبية رغباتهم الذاتية، وبناء عليه نحث جلالتكم بكل العواطف الممكنة، ونلتمس منكم باسم مولانا يسوع المسيح، ابعاد آذانكم عن الاصغاء إلى الاقتراحات غير التقية لمثل هؤلاء الناس، وأن تتابعوا باستمرار استهداف رفعة كرامة كنيسة الرب، وامتيازات الحرية الممنوحة لها من عليين، مع السعي للحفاظ على هذه الامتيازات غير مخروقة.

والآن اسمح للأساقفة في مملكتك، ودعهم من الآن فصاعداً، يأخذون بحرية وبسلام الممتلكات مهما كان نوعها، التي هي عائدة إلى كنائسهم، في كل من المسائل الروحية والدنيوية، وبالاضافة إلى هذا تمعن بعمق وتفكر حول حقائق أننا بممارستنا لواجبات منصبنا الرسولي، نحن خاضعين لشرف الاسم اللاهوتي، ولذلك ينبغي أن لايرد بخاطرك، ولا تنزعج من تطبيق أي من الإجراءات التي قمنا باتخاذها، بعد بحث وتداول خاص، بشأن قضية الأسقف المتقدم الذكر، وبما أننا قررنا في قرارة أنفسنا، أن ننظر إليك بنظرة خاصة، فوق جميع أمراء الأرض الآخرين، إنك بالضرورة سوف تتصرف نحوه بشكل مشرف، وعليك أن تضع جانباً جميع المصاعب، وأن تتخلى له بإرادة طيبة وتمنحه جميع القلاع والعزب والانتاج الذي جاء منهم منذ تاريخ نقله، في سبيل أن يتمكن، تحت حظوتك الخاصة، من القيام بواجب العناية بالمنصب الذي أسند إليه، وأن تكون المحصلة من ذلك نتائج طيبة، وغير هذا، بما أننا لانختار انقاص امتيازات الكنيسة في أيامنا، بل نرغب بوجوب زيادتها، إننا لن نستطيع هكذا ظلماً تحمل أية أذية تمارس بحق الأسقف المذكور. صدر في اللاتيران، في هذا اليوم السابع والعشرين من شباط، في السنة الأولى من بابويتنا».

كيف كتب البابا أيضاً إلى ملكة انكلترا وإلى بعض الأساقفة لصالح أسقف وينكستر

وكتب البابا رسالة بليغة، وفق اللهجة نفسها لصالح أسقف وينكستر، إلى ملكة انكلترا، وقد أعلن في بدايتها، بأنها —أي الملكة— كانت من أقربائه، أما كيف كان ذلك، فنحن لاندري على أي أساس، ما لم يكن قد أراد أن يجعلها متماشية أكثر مع أعماله، وأكثر تعاطفاً مع طلباته، ثم إنه طلب منها، وحثها (عالماً بأن المرأة حملت هذا الاسم لأنها تخفض غضب الرجل وتقلل من شروره) على السعي في سبيل تلطيف

حدة غضب الملك زوجها، الذي يشعر به ضد أسقف وينكستر.

كما أنه كتب إلى رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، وإلى أسقفي ووركستر، وهيرفسورد، وحثهم على الاهتمام شخصياً بكل يقظة بهذه القضية المذكورة، آمراً إياهم في نهاية رسالته أن يرسلوا إليه في رسائلهم الجوابية أسماء المستشارين السيئين الذين تولوا حرف عقل الملك.

رسالة أسقف وينكستر إلى الملك

«**إلى الأعظم سمواً، إلخ، إلخ:** بما أن رغبتنا —بقدر ماهي متوافقة مع احترامنا للرب— بذل جهودنا القصوى لتثمير رغباتكم الصالحة، استقبلنا بكل احترام لائق الراهب هوغ التابع لدير القديس تودور Tudor، الذي أرسل إلينا من قبل جلالتكم، وبعدما عرض علينا بعض الأسئلة باسمكم، أجبنا عليهم واحداً واحداً، متبعين —كما نعتقد— طريق العدل والانصاف، وذلك حسبما سيخبر الراهب هوغ المتقدم الذكر (كما سمعنا منه) جلالتكم بشكل كامل في رسائله، وبما أننا نود من صميم قلبنا أن ننفذ —بقدر مانستطيع مع الاحترام اللائق للرب— رغباتكم بشأن القضايا المذكورة، نرجوكم بكل تواضع، في تقديركم واحترامكم للكرسي الرسولي، أن ترحموا آلام كنيسة وينكستر، وأن تتقبلوني بحظوتكم ونعمتكم، وباحترام للاسم اللاهوتي، أن تستخدموا الرحمة لإلغاء الغضب الذي ربما شعرت به ضدنا، بناء على إثارة بعض النمامين،

اعتراضات الملك على أسقف وينكستر

وطالما تمت الاشارة إلى النقاط التي من أجلها أراد الملك مقاضاة أسقف وينكستر، ينبغي أن يكون معلوماً كيف وبأية حجج أجاب عليهم، ففي المقام الأول: بما أنه تم الحصول قديماً على مرسوم من أجل مايتعلق بامتيازات الملك، وكذلك مايتعلق بحق المملكة وعادتها، أي أن

الذين جرت تسميتهم وانتخابهم، عليهم بعد تسميتهم وانتخابهم من قبل الذين سموهم وانتخبوهم، أن يجري تقديمهم إلى الملك، وعليهم بعد تثبيتهم، وقبل قبولهم للإدارة في الشؤون الروحية أو الدنيوية، تأدية قسم بالولاء إليه، وهذه قضايا قد حذفت من قبل شخصية الأسقف المذكور، وقد حاول الملك وسعى للحصول على مرسوم من البابا، الذي لم يعبأ بأن ماتقدم، أي من أجل المستقبل وفي حالة قضايا مشابهة، يتوجب بقاء هذه الامتيازات، والحقوق، والعادات، نافذة، ويتوجب أيضاً تأكيدها من قبله، أي من قبل البابا.

ثانياً: يتوجب على الأسقف المذكور تحليل مدينة و ينكستر من قرار الحرمان من شراكة المؤمنين الذي أعلن ضدها.

ثالثاً: إنه لدى تسلمه ضمانة، أن يقوم بتحليل رجال الدين والعلمانيين، والآخرين، وبشكل خاص شعب وينكستر، من قرار الحرمان الكنسي، الذي أعلنه ضدهم، بسبب الخلاف الذي نشب بين الملك وبينه شخصياً.

رابعاً: إن عليه عدم خلع رئيس رهبان وينكستر، الذي وضعه الملك هناك، بل عليه إبقاءه في حظوته.

خامساً: عليه التصديق على جميع المنافع اللاهوتية في التماس عرضه، التي هي موجودة في أسقفية وينكستر، أو في أي مكان آخر، التي جرى منحها من قبل الملك منذ بداية الخلاف، وأن يسمح للمستحوذين عليهم التمتع بتملكهم بسلام.

سادساً: عليه عدم القيام بأية إجراءات قضائية ضد المعلم هنري دي سوسا، أو أي رجل دين آخر أو راهب جرت تسميته، بسبب هذا الخلاف، بل عليه العفو عن جميع الذنوب والأضرار، وأن يتخلى عن جميع مشاعر الغضب والحقد.

سابعاً: إذا توفر أي إدعاء أو سبب للعمل لديه، فيما يتعلق بنتاج وينكستر، في الزمن المنصرم، عليه التخلي عنهم له، أي للملك، صدوراً عن احترامه له، وأخذاً بمشاعر الكرم.

ثامناً: على الأسقف المذكور التخلي عن جميع مشاعر الغضب ضد الذين جرى نقلهم من قبل الملك، أو بناء على أوامره، أو نقلوا إليه من قبل أسقفي ووركستر وهيرفورد، ورئيس شمامسة كانتربري، وأن يتقبلهم برضاه الكامل، وبذلك يبقون محفوظين دون التعرض إلى أي أذى، وذلك فيما يتعلق بصلاح أسمائهم، ومنافعهم، وأحوالهم.

جواب أسقف وينكستر

ورد أسقف وينكستر على بند المطلب الأول الذي عمله الملك، بأن الذين تولوا تسميته، بعدما طلبوا الإذن من الملك، قدموه إلى الملك، وفقاً لعادة المملكة، وأنه عندما تمّ السماح بالتسمية، وجرى تثبيتها من قبل البابا، تدبر الأسقف المذكور، أمر رسائل البابا الموجهة إلى الملك حول هذه المسألة، بأن يجري تسليمها إليه، بوساطة كل من الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، وكذلك بوساطة بعض رجال الدين، والفرسان، الذين قاموا بناء على أوامره، بالتقدم بالرجاء الحار إلى الملك، حتى يسمح له —أي الأسقف المذكور— بأن يقدم نفسه إليه، ليقوم بعمل الذي تتطلبه عادات المملكة وتأمر به، ولكن بما أنهم لم يتمكنوا من الحصول على هذا باستخدام جميع وسائل التوسل الملحة، ما من شيء يمكن أن يعدّ قد أهمل من قبله، أي من جانب الأسقف، وليس عائداً إليه عدم تنفيذ كل شيء، ورد وتمّ طلبه في بند طلب الملك.

وعلى البندين الثاني والثالث، أجاب الأسقف، بأنه إذا ما حصل على حظوة الملك (وهو مايرغب به من كل قلبه)، وأمكنه بسلام الحصول على ممتلكات أسقفيته، هو سيقوم صدوراً عن اللطف بسحب قرارات

الحرمـان الكنسي، والحرمان من شراكـة المؤمنين بشكلٍ قـانوني، غير أنه لايمكنه، بحكم تبجيله للرب كما هـو لائق، واحتراماً منه للعـدالة، أن يربط نفسـه بهذا بأي رباط اتفـاقيـة، ولكن بتجـاوب لطيف مع طلب الملك، لقـد نوى أن يمنح جميـع التحليـلات من الحرمـان الكنسي، التي يمكنه منحها من دون تعارض مع واجبه نحو الرب.

وبالنسبة للبنود الأربعـة التاليـة، أجاب، بما أنهم قـد أشاروا فقط إلى القضايا الروحيـة، أو إلى الأشياء المتعلقة بهم، والتـي بالتالي لاتسمح له بعمل عهد واتفاق، هو لايمكنه تنفيذ هذه البنود، وفق الطريقة المطلوبة من الملك، ومع ذلـك فإنه عندمـا سيجـري استقبـاله بـالحظوة من قبل الملك، ويحصل على تملك سلمي لممتلكات أسقفيتـه، هو سـوف يعمل، مع مسـاعـدة نصيحة الملك، ومستشـاريه المخلصين، ويتصرف بتسـامح كبير، ولسـوف يكون نفسه راغبـاً بتنفيـذ طلب الملك بقدر مـا يستطيع، وذلك بما يتوافق مع واجبه نحو الرب.

وبالنسبة للانتـاج المتقدم للأسقفية، أجـاب بأنه عندما سيحصل على حظوة الملك، وعلى تملك سلمي لأسقفيتـه، وعندما سيكون راضيـاً تجاه هذه الإجراءات، سوف يطيع رغبـة الملك، حتى ينال فضيلة التوصية به من قبله.

خديعة المعلم هنري دي سوسا

وعمل الملـك منذ ذلك الحين بلطـف أكبر نحــــو أسقف وينكستر، بسبب كل من التـوسـلات الملحـة للبـابا، ونظراً للتـذلل، وللجـواب اللطيف للأسقف، ولكن عندما ظهر السلام أنه على وشك الدخول إلى عتبـة البـــاب، بدأ المعلم هنري دي سـوسـا، الـذي كـان السبب والمثير للخلاف نفسـه، والذي إليه منح الملك منفعـة غنية، هي المسـؤولية عن مشفى الصليب المقدس، خارج مـدينة وينكستر، بدأ وقد انزعج بضمير

مـذنب، يتفكر، ويقدر في قـرارة نفسه، أنه إذا مـا أعيد تأسيس السـلام بشكل كامل ومعلن، بين الأطراف المعنيـة، سوف يعدّ الأسقف صـديقاً خاصاً للملك، هو الأول، وليس الثاني لأحد، ولسوف يجري إطراءه في مجالس الملك، على أنه رجل مستقيم، وحـذر، ولسوف يسبب لسبب مـا الإزعـاج، ويضعـه —أي هنري المذكـور— في أحـوال مضطربة، وأن الملك سـوف يرفض نصـائحه، بالسهـولة نفسهـا، كما كـان قد اتبعهـا، ولدى تقديرة لجميـع هذه المسائل، اتخذ بوساطـة المال الذي حصل عليه من الملـك، ولم يكن مبلغـاً صغيراً، بعـض الأصـدقـاء الجشعين غير المستقيمين، واشترى لنفسـه (وليتـه لم يفعل ذلك) أسقفيـة في منطقتـه الذاتية، وأصبح كـرسول لذاته، مثل الغـراب الذي خدع صـاحبه نوح، وبانحطاط ترك نائبـاً غير بارع، ليحمل العبء، الذي كـان قـد تعهـد بحمله على كتفيه، واختفى من المملكة، وهو مليء بالأشيـاء الجيدة منها، ولم يظهر نفسه ثانية فيها.

كيف هرب البابا بشكل سري

بينما كان مـدار السنة يسير هكذا متقلباً وسط التغييرات العـالمية، بدأ الامبراطور فردريك وقد أثاره محرض الكرامـة، يندم لقيامه —كما تقدم الذكر أعلاه— بإذلال نفسه وربطها بالخضوع إلى الكنيسة، ونصب الآن شركـاً لقـدمي البـابا، وخطط لخيـانة سرية، غـدت فيها بعـد مكشـوفـة واضحة بما فيـه الكفاية، وتم من جهة أخـرى انذار البابا بشكل مسبق، فحاول أن يتجنب بقدر الإمكان التعـرجات الثعلبية للامبراطور، وبقي متيقظاً ضـدهم، كما أنـه لم يضع أية ثقـة به، أو بأصـدقـائـه، لأنه كـان يعرفهم بشكل جيد، وفكر بالمستقبل مقارنة بالماضي.

ورغب البابا، في يوم الثالوث المقدس، أن يقوي حزبه، لأنه كان لديه في جهـوده عـدد قليل من الأصحاب، والمشـاركين له في قلقـه، فعيّـن عشرة كرادلة هـم: المعلم جون الطليطلي، وكان رجلاً انكليزياً من حيث

المولد، وبعض الآخـرين من أسر متميـزة وأصحـاب أخلاق معـروفـة، وذهب في اليوم الثامن قبل عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، مع جميع الكرادلة إلى مدينة كـاستيلانا Castellana, ومنها إلى مكان يبعد ثمانية عشر ميـلاً عنها، من أجل أن يكون قريبـاً من الامبراطور، لتسوية قضيـة السـلام، التي غـدت الآن قضيـة مشكوكـاً بها، لابل في الحقيقـة قضية لاأمل فيها، ووصل عشية يوم الرسولين بطرس وبولص إلى مدينة سوتري Sutri, وتحرك الامبراطور ضده، وأرسل رسـالة إليه، بأنه لن يفعل شيئاً بشأن القضايا المتفق عليها، مالم يتسلم أولاً رسائل تحليل، وبما أن البـابا قد رفض فعـل هذا، وردّ بأن هذا مناقض للمنطق، نشب خـلاف بينهما، وبناء عليـه، تصـور البـابـا مسبقـاً ورأى نتـائج غضبـه، ولذلك قـرر القيـام بقـرار مفـاجىء وخفي، ومن دون أن يعـرف أحـد بخططه السرية، خشيـة أن يكتشفهـم الامبراطور، ويلقي معيقـات في طريق تراجعـه، وهناك —على كل حـال— بعض من يؤكـد بأنه فعل هذا، صـدوراً عن حبـه للهـدايا، التي كـان الناس، من هذا الجانب من الألب، على وشك إحضـارها له، لكنهم كـانوا لايتجـرأون على العبـور خـلال أراضي الامبراطور، وأنه هرب لاخـوفـاً، وإنما بقصـد مقـابلتهم واستقبـالهم في صـدره المفتوح دائماً، وليس خشيـة من أي واحـد يقـوم بمطاردته، وهو لهذا عمل حجـة أو أخـرى، ووجّـه خطاه بيقظة نحـو جنوى، التي كـانت منطقة متحالفـة معه، وذلك كما سـوف تبين الرواية التالية:

وبناء عليه، في ذلك اليوم، أي عشيـة يوم عيد الرسولين، وصل خبر سري إلى البـابا (وهذا مـا أكده هو فيما بعـد) بأن هناك ثلاثمائـة فـارس توسكاني قادمين في تلك الليلة لاعتقاله، ولدى وصول هذه الأخبار إليه دهش، وظهرت عليـه آثار الخوف العظيم، ومع الهزيع الأول من الليل، تخلى عن مظـاهر الزينة البـابـوية، وعـاد ثانيـة ليكـون سينبـولد

ولبس درعاً خفيفاً، وامتطى فرساً سريعاً، وحمل Senebald, حافظة نقود مليئة، وقام تقريباً دون معرفة خدمه، بشكل مفاجىء، بعملية مغادرته، ولم يوفر جوانب حصانه، قبل الساعة الأولى من النهار، وقد سافر لمسافة أربعة وثلاثين ميلاً، دون أن يرافقه أحد، لأنه ما من أحد كان قادراً على اللحاق به، وارتفع في منتصف الليل صوت نادى لقد غادر البابا، ذلك أنه ما من أحد كان على معرفة بمغادرته، إلاّ بعضهم، وكان عدد هؤلاء قليلاً، من الكرادلة، وقد تبعه في سفره هذا فقط بطرس أوف كابوا Capua, وكان معه خادم واحد، وقد لحقه بمغامرة كبيرة، ووجده في اليوم نفسه في قلعة عند الساحل اسمها سيفيتا فكشيا Civita Vecchia, وتقابل البابا في ذلك المكان مع ثلاثة وعشرين غليوناً وست عشرة بارجة، وكان في كل واحد من المراكب المذكورة ستين رجلاً مسلحين بشكل جيد، ومائة وأربعة مجذفين، وذلك إلى جانب البحارة، ولهذا ذهب بعض المتشككين من الناس إلى القول بأن البابا كان قبل وقت متوقعاً وصولهم وراغباً به، وكانت جميع المراكب مشحونة برجال مسلحين، وكانوا تحت إمرة حاكم جنوى، الذي يدعونه الأدميرال، ومعه أعيان أهل المدينة، الذين تفاخروا جميعاً بأنهم ارتبطوا بقرابة ما، أو بالدم، مع البابا، وكذلك في سبيل الحصول على مكافأة، وصعد البابا الآن في وقت متأخر من النهار، على ظهر واحد من تلك الغلايين، وكان برفقة سبعة كرادلة، وعدد قليل من الخدم، وأقلعوا نحو وسط البحر، وما كادوا يصبحون في البحر المكشوف، حتى هوجموا من قبل عاصفة ثقيلة من الريح، ومع ذلك لم تكن ضدهم، وقاموا بأشرعة مفتوحة —إنما ليس من دون خوف، ومن دون خطر عظيم— بالابحار وقد حملتهم قوى العاصفة مسافة مائة ميل، على المسار نفسه الذي كان الأساقفة قد أبحروا عليه، حيث جرى اعتقالهم من قبل الامبراطور، ووصلوا يوم الجمعة التالي إلى مرسى في جزيرة عائدة إلى البيازنة، حيث أمضوا الليل، وفي اليوم التالي،

تم تحليلهم من ذنوبهم، واستمعوا إلى قـداس مريم العـذراء، ذلك أنهم كانوا خائفين خوفاً عظيماً من البيازنة، ثم إنهم أقلعوا فوصلوا إلى جزيرة للجنويين، بعدمـا قطعوا مسافـة مائـة وأربعة أميال في ذلك اليـوم، وقد نجوا من مخاطر البحـر، مع كثير من المصاعب، وذلك نتيجة للعـاصفة، وأخـذوا طريقهم إلى ميناء فينوس Venus, وأقـامــوا هناك يومي الأحد والاثنين، وفي يوم الأربعـاء، وصلوا وهم مسرورين، إلى جنوى، وصار البابا على مسافة سفر خمسة عشر يوماً عن المدينة، وفي هذه المدينة التي كـان قـد ولـد فيهـا، استقبل من قبل أبناء بلدته، وآلـه وأقـربائـه، والأجـراس تقـرع، مع الأغــاني وعـزف الآلات الموسيقيــة، وهي جميـعاً تصرخ بصـوت مـرتفع «مبـارك الذي جـاء بـاسـم الـرب»، وعليـه ردوا ثانية: «روحنا مثل عصفـور نجا من المتـاعب» إلخ، إلخ، إلخ.

غضب الإمبراطورمن فرار البابا

وعندما أصبحـت حقيقة فرار البـابا معروفـة لدى الامبراطور، عضّ على أسنانه مثل ساطير (إله اسطوري) وقـال: «لقد كتب: يهرب الشرير عندما لايطارده أحـداً»، واستولت عليه الدهشـة والحزن، واتهم حراس الموانيء والسكان بالإهمال والكسل، لأنهم سمحوا لعدوه بالنجاة هكذا بسهولـة من بينهم، ثم إنه أمر بإقـامة حـراسة دقيقة ومشـددة على جميع الطرق من حـول جنوى، خـاصة نحـو فـرنسا، في سبيل عـدم حمل أية أموال إلى البابا، وأعلن الامبراطور الآن عن نفسه عـدواً مكشوفاً للبابا، وقـام البـابا أيضاً بدوره الآن بعـدم عـدّ جنوى ملجأ أميناً لنفسـه، لأنه كـان عارفاً تماماً بقوة الامبراطور، ومتذكراً كلمات الشاعر:

ألا تعلم بأن أيدي الملوك

قادرة على الوصول إلى كل شيء؟

الإمبراطور يربح صداقة عدد من الأمراء والنبلاء

وفي حوالي الوقت نفسـه، بينما كان البابا مقيماً في جنوى، تآمر الميـلانيون والليغوريون وكـذلك بعض الايطاليين والرومان، وكثير من نبـلاء ألمانيا، مع بعضهم، بناء على تحريض من البـابا، وواحد من أعظم المقـدمين قوة في بلاد ألمانيا، الذين يطلقـون عليه اسم «اللاندغـريف»، الذي تشجع ليدعي لنفسه المقام الامبراطوري، حتى يجري انتخابه بشكل نظامي، وقد اعتمدوا على المساعـدات الكثيرة من الأساقفـة والنبلاء، لشن الحرب ضـد الطاغية فردريك، بحكم أنه المضطهـد العام والمعلن للكنيسة، وقـد أظلم اسمه إلى درجة عالية وتمّ التأكيـد بأنه لايسير بخطا ثابتة في شريعة الرب، ولأنه كان متحـالفاً مـع المسلمين، فهو يحتفظ بعـاهرات وخليـلات مسلمات، ويفعل أشياء أخرى غير لائقة، وكثيرة جداً حتى يمكن ذكرها.

غير أنه عندمـا كان اللاندغـريف المذكور على وشك القيـام بمحاولتـه، وكان يتداول مع أتبـاعه من النبلاء وأصحابه، الذيـن اجتمعوا لهذه الغاية، ويتذاكـرون حول الذي ينبغي أن يعملوه، أخبره أصـدقاؤه أنه من الطيش محاولة فعل ذلك، وأن يعهد بنفسـه إلى تقلبات الحظ، في الوقت الذي ينعم فيه بالهدوء والسـلام، مع عدم الاعتماد على أي شيء وعده به حـزب البابا، وبينما كانت آراؤهـم معلقة هكذا في ميزان الشكوك، قام الامبراطور برحلة سريعة،وظهر فجأة فيما بينهم، مع عدد قليـل من الأتباع، الذين عرفوا بهذه الوقـائع، وتمكن بمناقشاته من تحويـل عقل اللاندغريف المخنث المذكـور، عن نواياه، وقبل أن يفترقـا، أصبح هو واللاندغـريـف أصـدقـاء حميمين ومتحـالفين، وقـامـا بتبـادل الهدايا، وبعـد الفـراغ من هذه القضيـة غـادر الامبراطور سراً وبشكل مفاجىء مثلما جاء.

وأثناء وقوع هذه الأشيـاء، قام الامبراطور في سبيل تقـوية حزبه، الذي اعتقد أعـداؤه أنه قد ضعف كثيراً في هذه الآونة، فأعطى ابنتـه بالزواج إلى واحـد من أعظم مقـدمي الاغـريق قـوة، وكـان اسمــه بتّــاكيوس

Battacius, وكان انساناً مكروهاً من الكنيسة وغير مطيع لها، ومنشقاً عنها، ولدى سماع أعداء الامبراطور بهذا حاروا واضطربوا ولم يعودوا يعرفون مايقولون.

عصيان الويلزيين وخيانتهم الدنيئة

وفي حوالي هذا الوقت من السنة، قام الويلزيون الأجلاف، وهم لايعرفون كيف، لأنهم كانوا غير راغبين باخضاع رقابهم للشرائع غير المعروفة لمملكة انكلترا، قاموا فعينوا داود بن للويلين وبعض الأمراء الآخرين لويلز، قادة لهم، وشنوا حرباً هي الأكثر دموية ضد ملك انكلترا وأعوانه، ناسين صكوك تعهداتهم، وأيمانهم، وجرت مقاومتهم —على كل حال— بشجاعة، بناء على أوامر الملك، من قبل ايرل كلير، وايرل هيرفورد، وتوماس أوف مونماوث Monmouth، وروجر دي ميكوت Michaut مع بعض القادة الأقوياء الآخرين والمشهورين، وذلك في سبيل الحفاظ على أراضيهم، مع أنهم نالوا أثناء بداية الصراع الحظ الأسوأ من القتال، لكن أخيراً، كما هي الحالة المعتادة للحرب، حصلوا على نصر على أعدائهم، وسقط في هذه المعركة مائة رجل أو أكثر، من على الجانبين.

وصول شائعات متنوعة إلى الملك وهو في سينت ألبان

كان الملك أيام عيد القديس برنابا في سينت ألبان، حيث مكث مدة ثلاثة أيام، وأثناء وجوده هناك، وصلت شائعات عن صلف الويلزيين، وصارت متوالية إلى بعض المعايير، وقد وصل إليه بعض الرسل مع بعض الأخبار التي أزعجته كثيراً وأحزنته، وقالت هذه الأخبار بأن انتخاب كاهنه روبرت باسلو Passlow، الذي جرى انتخابه إلى أسقفية شيستر، قد ألغي، وأن شخصاً آخر، اسمه رتشارد دي ويك Wiche، قد جرى بشكل مفاجىء تعيينه في محله، لأن المعلم مارتن، الذي كان كاهناً

بارزاً لدى البابا، قد كـان هناك ليلقي بأصابعه الناشلة على الموارد من أجل استخدامات البـابا ومنافعه، وبالإضافة إلى التقارير المتقـدمة، سمع تقارير أخرى، ذكرت بـأن ملك سكوتلندا قد أرسل إليه بوقاحـة رسالة بأنه ليس متملكـاً لأي شيء من مملكـة سكـوتلندا منـه، أي مـن ملك انكلترا، وأنـه ينبغي ألا يفعل ذلك، ولن يفعله، وقد تناقصت صداقة هذين الملكين كثيراً جداً، منذ أن أقام ملك سكوتلندا تحالفـاً زواجياً مع ابنة انغلرام دي كوسي Engelram De Coucy, الذي كـان مثل جميع الفرنسيين، مشهـوراً بأنه واحداً مـن مقدمي —إن لم يكن مقدم— أعـداء ملك انكلترا، ولذلك قرر ملك انكلترا وعزم على الانتقام للأضرار التي ألحقت به، فقام بتشجيع الذين كانوا يتـولون الحرب ضد الويلزيين، ومساعدتهم، ووعـدهم بمزيد من المسـاعـدة الفعـالة، بالعسـاكر والمال، وبعـدمـا رتب الأعمال المتعلقـة بشـؤون الأحوال في سكوتلندا، استـولى على أسقفية شيستر ووضعهـا بين يديه، ولم يسمح للأسقف المنتخب حـديثاً بممارسة أيـة سلطة، كما أنه شعر بغضب شـديد ضد الذين تسببـوا بحدوث هذه القضيـة، ووافقوا عليهـا، وكـان غضبه هو الأشـد ضد رئيـس الأساقفـة المنتخب لكانتربري، الذي اتهمه بكل مرارة بالعقـوق، وأنه كان متآمراً بشكل خيـاني منذ بداية ترقيته، ولكي لايبدو متراخياً في جوابه على رسـالة ملك سكوتلندا، وعلى وقاحته، بعث برسـالة مكتومة إلى كـونت فلاندرز (بحكـم كونه حليفاً مخلصـاً له، ومرتبطاً به بكثير من الواجبات) ليقدم إليه مع قوة من الجند، لمساعدته ضد ملك سكوتلندا، وهو طلب استجاب له الكونت على الفور.

استدعاء أسقف وينكستر وتصالحه مع ملك إنكلترا

وعقد الملك في الوقت نفسـه مجلساً استشارياً حكيماً، فـاستدعى أسقف وينكستر بطريقة تصالحيـة، وجاء الاستدعاء له من القـارة، بناء على مبادرة من البابا ومن بعض نبـلائه الخاصين، الذين التمسوا باخـلاص رضاه عن الأسقف، وقـد وعده برضـاه، وأن يعيـد إليه الممتلكات التي أخـذت منه،

وعندها قام الأسقف وفق تصرف لائـق متوقع منه، فحصل على إذن الملك الفـرنسي، وقدم الشكر إليـه على المنافع التي أضفيت عليـه من قبل الملك، لإستقباله له، وتقديم الحماية له عندما كـان منفياً في مملكته، وعاد من ثم إلى انكلترا، حيث نزل في دوفـر بعد رحلة مـريحة، وكـان ذلك في الخامس من نيسـان، ولدى وصـوله، قـدم له جميـع الانكليـز —باستثناء أولئك الكهنة ورجـال بلاط الملـك الذين بـذروا بذور الخلاف، والذيـن جـرحـوا بضمائرهم— تهانيهم، قائلين: «مبـارك الذي قدم باسم الرب»، لأن الآمال كانت راسخة بأنه سوف يقوي بحكمتـه الوافرة، وبمشاعره الطيبة، الملك، ويمتن المملكة، ويجلب أسقفيتـه إلى أفضـل الأحـوال، ومثل بنفسـه، وهو مسرور تمام السرور، أمام الملك، وقـد استقبله وهو يبتسم، وبنظرة راضية، وكأنه قـد كـان دوماً متحـرراً من جميع الذنوب ضـد الملك، وقـد ازدادت عـواطفهما وسرورهما بطريقـة غير اعتيـادية، وذلك من يوم إلى يوم، وفقـاً لكلمات الشاعر:

عندما تختفي غيوم الخلاف

تصبح شمس العواطف أكثر وضوحاً

وبدأ في هذه الآونة ب. B, الأسقف المنتخب لكانتربري، على عكس توقعـات جميع الذين أوجـدوه، بالعسف برهبـان كانتربري، بحـدة كبيرة، وبطريقة كانت غير متوقعة منه، متصرفاً بكل شيء بالدرجة الأولى لبهجته، دون أن يقيم أي تقدير لأي منطق.

الموت التعيس لإنغلرام دي كوسي

وفي الوقت نفسه، ومع اقتراب شهر آب، واجه إنغلرام دي كوسي، والد ملكة سكوتلندا منيته بطريقة مدهشة، وبناء عليه أرسل ولده جون قوة من الجند بوساطـة البحر، لمساعـدة ملك سكوتلندا، غير أن ملك انكلترا طرد بالقوة، وأبعد جميع الذين أرسلهم، ولقد قلت بأن انغلرام المذكور الذي هو

مضطهـد قديم للكنيسـة، وخاصـة كنيسة كليرفـو، التي أوجدها أجـداده بشكل فخم، وبنوها فوق اقطاعيته، قد مات بطريقة مدهشة، ذلك أنه مات —كما حـدث فعـلاً— بطريقة مـزدوجـة، وعندما كان حيـاً كـان معمارياً متحمسـاً بالمواد المادية، لكنه كـان بـالمواد الروحيـة مبـدداً سيئاً، وفي أحـد الأيام، عندما كان مسـافراً، توجب عليه عبور إحدى المخـاضات، وعندما وضع حصـانه حـافريه ليعبر، انزلق بسبب إحدى المعيقـات، وسقط على ظهره في الماء العميق، حيث جرى —لسوء الحظ— جرّه بوساطة ركاباته، ولدى سقوطه على رأسـه، خرج سيفـه من غمده، وخـرق جسده، وهكذا غرق وطعن بسيفه، ففارق هذه الحياة، ليجني ثمار طرقه.

وكما ذكرنا من قبل، أعطى ابنه جون، ووريثه لكل ممتلكاته، صدوراً عن عواطفـه لأخته، ملكة سكوتلندا، نصيحتـه ومساعـدته، إلى زوجها الملك، وقام هذا الملك بتحصين القلاع على حدود انكلترا، وتوسل طالباً المساعدة من النبـلاء من أقربائـه، ومن جيرانه، ضد ملك انكلترا، الذي كـان يتآمـر ضده، ومنحت المسـاعدة، التي طلبهـا هكذا في وقت الحاجة، برغبـة قلبية من قبل بعض النبلاء، أما القوات الموعودة فقد أرسلت إليه بأعداد كبيرة.

الملك يطلب مساعدة مالية

وجـرى في العام نفسـه عقد اجتماع، بنـاء على استدعـاء من الملك، ضم نبلاء المملكة كلهـا، وحوى رؤساء الأسـاقفة، والأساقفـة، ورعاة الديرة، ورؤسـاء الرهبـان، والايرلات، والبـارونات، فقـد اجتمع هؤلاء كلهم في لندن، في حجـرة الطعـام في ويستمنستر، وطلب الملك، بحضـور النبـلاء، بفمه مسـاعدات ماليـة، وقد عبر بصمت ولم يذكـر خطته بشن الحرب على ملك سكوتلنـدا، وكـان السبب المكشـوف الذي أعطاه إليهـم من أجل مطلبـه، هو أنه قد ذهب في السنة الماضيـة إلى غسكوني، بناء على نصيحتهم —كما قـال— حيث صار مـديوناً بمبلغ كبير من المال، وأنه لن يتمكن من تحرير نفسه من ذلك الدين، مالم يتم بشكل فعـال جداً مساعدته من قبلهم،

وعلى هذا أجابه النبلاء، بأنهم سوف يتشاورون حول هذه القضية، وعندما غادر النبلاء حجرة الطعام، اجتمع رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان مع بعضهم في مكان خاص منفردين بأنفسهم، للتداول حول القضية، وبعد طويل وقت سألوا الايرلات والبارونات، عما إذا كانوا سيوافقون على نصيحتهم، في تقديم الجواب، وفي إعطاء حل لهذه القضية، وعلى هذا أجاب هؤلاء النبلاء بأنهم لن يفعلوا شيئاً، من دون موافقة عامة للجماعة كلها، وبناء عليه جرى باتفاق من الجميع اختيار ممثلين لفئة رجال الدين هم: رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، وأساقفة: وينكستر، ولنكولن، ووووركستر، وجرى اختيار ممثلين لفئة العلمانيين هم: الايرل رتشارد —أخو الملك— وايرل بيغود، سيمون دي مونتفورت، وايرل ليستر، وايرل و W مارشال، وعن فئة البارونات: رتشارد دي مونتفكيت Montficet, وجون بالأويل Balliol مع راعيي ديري القديس ادموند، ورامسي Ramsey,وتقرر أن جميع الذي سيقرره هؤلاء الاثنا عشر، سوف يجري نشره إلى الجميع بشكل عام، وبناء عليه ما من بند سوف يجري تقديمه إلى الملك إلاّ بموافقة الجميع، وبما أن صك وثيقة الامتيازات التي كان الملك قد منحها من قبل، والتي من أجل تنفيذها، قدم ادموند، رئيس أساقفة كانتربري يمينه، فغدت مضمونة، ووعد صادقاً بأن الملك سوف ينفذها ويرعاها، هي لم توضع بعد قيد التنفيذ، وبما أن المساعدات التي غالباً ما أعطوها إلى الملك، لم تكن منتجة أية منافع له أو إلى المملكة، وبسبب أنه من خلال الحاجة إلى مستشار، فإن المذكرات غالباً ما أعطيت مضادة للعدالة، وعندما سألوا بأن يأتي تعيين المسؤول عن العدالة والمستشار، بناء على انتخابهم، حيث به يمكن للمملكة أن تتدعم، حسبما كانت هي العادة، قام الملك، حتى لايظهر أنه مقبل على تبني أية خطة جديدة للإجراءات القضائية بالقوة، فرفض الموافقة على التماسهم، غير أنه وعد بأنه سوف يصلح الأشياء التي جرت الشكاية منها من جهتهم، ولذلك أمروا بالاجتماع ثانية عند نهاية ثلاثة

أسابيع بعد عيد طهارة العـذراء المباركة، وقد أعلنوا —النبلاء— الآن، أنه إذا مـا سيقـوم الملك بإرادته وحـريتـه، بانتخـاب مثل هؤلاء المستشـارين، وسوف هكذا يدير قوانين المملكة، سـوف يكونوا راضين، وسوف يعطونه بالوقت المذكور جواباً، وسوف يزودونه بالمساعدة، على شرط هو أنه، مهما كـانت الأموال التي سـوف تمنح له، فإنها سـوف تنفق من قبل الاثني عشر نبيلاً المذكورين أعـلاه لصالح الملك، وبعدما وضعهم الملك جـانباً لبضعة أيام، سعى إلى إنهاكهم حتى يعطوه مسـاعـدتهم من دون تأجيل ذلك حتى وقت مستقبلي، واستـدعـاهم للاجتماع به مـراراً، غير أنه لم يستطع غلبتهم واقناعهم، لأن النبـلاء وزنوا المسألة بعقـولهم بشكل حكيم، فبقيـوا ثابتين على قـرارهم لايمكن تحريكهم، وبـات الملك أخيراً ميـالاً لاستمالة رجـال الدين على الأقل للمـوافقة على رغباته، لذلك وجّـه الدعوة إلى الأسـاقفة، وعرض عليهم جهاراً رسائل من البابا، استهدفت مايلي:

رسالة البابا إلى أساقفة إنكلترا

«من انوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، و إلى أبنائـه المحبـوبين رعـاة الديرة، ورؤسـاء الرهبـان، ورؤسـاء الشمامسـة، والأسـاقفـة الآخـرين للكنائس، والكهنة في انكلترا، صحـة، ومبـاركـات رسولية:

على أمنا الكنيسـة أن تسمـح بإعطاء امتيـازات إلى الذين رفعـوا فـوق أتبـاعهم بالمراتب الملكيـة، وعليهـا التـوجـه لربط الأهميـة بهم، بقـدر مـا سلطتهم متحمسة دوماً في إخلاصها لها، أي الكنيسة، وبقدر ما هي ساهرة على خـدمتهـا، وبناء عليـه، وقيـاسـاً على ذلـك، إنه بالنسبـة لجميع أمـراء الأرض، نضم بين ذراعينا، ولدنا المحبـوب جداً في المسيح، الملك المشهـور لانكلترا، ونمنحـه عـاطفـة خـاصـة، لأنه واحـداً —بحكم كـونه أمير كاثوليكي مخلص— قد أظهر دوماً احتراماً إلى الكنيسة الرومانية، التي هي أمـه، وذلك بوسـاطة خضـوعـه الابنـوي، وأدائـه لواجبـه، بطريقـة أنه لم

ينحرف قط جانباً عن عمل مايرضيها، لابل، أكثر من هذا، قام دوماً بعناية فائقـة، ففعل الأشياء التي عرف بأنها ترضينا، وموافقـة لنا، وبناء عليه إنها ليست قضيـة عجيبـة، لابل إنها أصبحت مسألة عـادية بالنسبـة لنا، لذلك سوف نستجيب بسهولة أكبر لإلتماساته، وسوف ننشد مجده، وزيادة كرامته وأحواله، وذلك عندمـا ستوافقون بكرمكم مـع الذين يرغب به شخصياً، وبما أن الملك المذكـور قـد شرح لنـا من جـانبـه، بأنه تحمـل عبء بعض النفقـات الثقيلة، بسبب بعض مصـاعب القضـايا الكبيرة والصعبـة، التي ضغطت عليه، وهو مـايزال تحت حاجة تحمـل المزيد من النفقات، ولذلك هو بحاجـة إلى مساعـدتكم، ولذلك نحن نرجوكم، ونحـذركم، ونلتمس باخلاص من جماعتكم، ونأمركم بوسـاطة هذه الكتابات الرسولية، وذلك بقدر مـاتستطيعون وبقدر مـا هو موائم لكم، أن تدعمـوا الملك المذكور في جهـوده، وأن تخففـوا حمله، وأن تمنحـوه مسـاعـدة مشرفـة وكـريمـة، من مواردكم، وذلك حتى يتمكن مـن دون أي ضرر لكرامتكم، وأوضاعكم، ومن دون أية خسـارة، أو إرباك إلى أي منكم، مـن تجنب العسف به بحمل عبء ثقيل جداً، وأنه بتقـديم المساعدة له بـأيديكم اليمنى، يمكنه بسهولة أكبر تحمل عبء نفقـاته، وأنكم بفعلكم ذلك، يمكنكم أن تكونوا قـادرين في مستقبل الأيام المطالبـة بحظوة وشكـر الملك المذكـور (وهو الذي، أنتم بلاشك بحاجـة إليه) في أموره الصـالحة، التي أنتم شركاء بها، وفي كـرامته ومجده أيضاً، سوف تكونون كـذلك، لستم من دون حصة ونصيب، ولكي نمتلك نحن الذين نرغب مـن هذا الوقت في أن نظهر أنفسنـا ميالين أكثـر لزيـادة منافعكم ومنافـع كنائسكم، سببـاً صـالحاً للاعتماد على ثبـات اخلاصكم. صدر في جنوى في التـاسع والعشرين من تموز، في السنة الثانية من بابويتنا».

وكتب أيضـاً بالأسلوب نفسه إلى كل واحـد من الأسـاقفة على انفـراد، وكـان ذلك —على كل حـال— ليس من دون انفـاق مبلغ كبير من المال،

كان قد أُرسل إليه من أجل متاعب الكتابة.

وتقرر —على كل حال— بشكل جماعي، قراراً لن ينزاح عنه النبلاء، بأن الإجابة على رسالة التماس البابا، لصالح الملك، تؤجل حتى قبيل المدة المحددة من قبل، وبناء عليه عندما كانوا مغادرين في اليوم الأخير من المؤتمر، الذي استمر ستة أيام، وكل يوم حتى الليل منه، توجه الملك بالرجاء إلى جميع الأساقفة، بالاجتماع ثانية في اليوم التالي، واجتمعوا بناء على طلبه في حجرة مصبح بيعة القديس يوحنا الإنجيلي، ووقتها أرسل الملك سيمون، ايرل ليستر، وب .P ايرل أوف سافوي، ورالف فتز— نيقولا، ووليم كانتيلوب Cantelupe, وجون فتز— غ .G, وقام هؤلاء نيابة عن الملك، فشرحوا رغباته إليهم، ورجوهم بإلحاح بإطاعة إرادته، على أساس طلب قداسة البابا، حتى وإن لم يأخذوا طلب الملك بالتقدير، كما أنهم شرحوا لهم مدى الحاجة الكبرى للملك، والمخاطر المحيقة به وبالمملكة، وهي أن الحرب تفجرت في غسكوني، وأنه لابدّ من قمع وقاحة الويلزيين، وعند ذلك طلب الأساقفة نسخة عن رسالة البابا، حتى يتمكنوا من التداول حولها، وأثناء قيام هذه المناقشات، وصل الملك مسرعاً، وظهر بينهم، واحتج بيمينه المعتاد، بأن كرامتهم سوف تكون عزيزة عليه مثل كرامته، وبالمقابل ينبغي أن يكون هو عزيزاً عليهم بالدرجة نفسها، وكدس الالتماس فوق الالتماس في مجال القضية المذكورة أعلاه، ولكن بما أنهم أصروا على جوابهم، من أنهم سوف يقدرون القضية، غادر وهو في حالة اضطراب.

وبعد مداولات طويلة، رغبت بعض الفئات بأن يعطي الأساقفة والعلمانيين جواباً لطيفاً إلى الملك، وردّ عليهم أسقف وينكستر بهذه الكلمات القائمة على أساس لاهوتي بقوله: «دعونا أن لانبعد أنفسنا عن الرغبة العامة، لأنه قد كتب: إننا إذا ما انقسمنا، فسوف نموت على الفور»، وبناء عليه جرى تأجيل كافة الترتيبات، حتى الموعد الذي تقدمت تسميته،

وذلك فيما يتعلق بطلب البابا لصالح الملك، وكذلك بالنسبة للملك نفسه،

وبناء عليه عندما وجد أنه لن يستطيع اضعاف تصميمهم عندما يكونوا متحدين مع بعضهم، لجأ إلى خطة دهاء الرومان، وقرر —مثلما فعل في حالة أخرى— أن يحاول معهم واحداً واحداً بشكل إفرادي، وأن يفرض عليهم حججاً زائفة، من أجل إخضاعهم لإرادته، ولذلك عاد وسألهم الانتظار يوماً آخر، غير أن بعض الأساقفة رأوا خديعة هذا الانتظار، فرغبوا أن لايقعوا بالشراك، فغادروا في الصباح الباكر، وهكذا نجوا بشكل حكيم من المصائد التي وقعوا بها من قبل، وعلى هذا ارفض المؤتمر، مع كثير من عدم الرضا للملك.

الشروط التي عملها النبلاءمع موافقة الملك

«إنه فيما يتعلق بالامتيازات التي تمّ الحصول عليها، والتي منحت، وتثبتت بصك من الملك في وقت متقدم، إنهم من الآن فصاعداً، سوف تجري مراعاتهم، ومن أجل ضمانة لهم، سوف يجري عمل صك جديد، فيه سيكون هناك ذكر خاص لهذه المسائل، ولسوف يجري حرمان جميع الأشخاص كنسياً من قبل جميع الأساقفة، الذين يعرفون، ومع ذلك يقدمون عن عمد على خرق الامتيازات التي جرى منحها من قبل جلالة الملك، أو يعملون على منع مراعاتهم، ولسوف يجري اصلاح وضع الذين، عانوا منذ الإعطاء الأخير، من أي أذى لحق امتيازاتهم، وبما أن الوعد الذي قطع في ذلك الحين، ولم يتم تنفيذه من قبل الملك، الذي بذلك لم يعط أي اهتمام أو تقدير إلى فضيلة اليمين الذي أقسمه، ولم يظهر أي خوف من القرار الذي تفوه به الرجل المقدس ادموند، ولكي لايقع خطر من هذا النوع في المستقبل، وبذلك تقوم مخاطر جديدة أسوأ من المخاطر القديمة، تمّ الاتفاق، على وجوب اختيار أربعة أشخاص من أعلى الناس استقامة، ومرتبة، ومقدرة، بموافقة عامة، ليكونوا مستشاري الملك، وسوف يقسمون مخلصين بالعمل على تقرير جميع القضايا المتعلقة بالملك وبالمملكة،

وأن يظهروا العدالة إلى الجميع، دون تقدير للأشخاص، وسوف يبقى هؤلاء مع الملك، وإذا لم يكونوا جميعاً، على الأقل سوف يبقى اثنان دائماً حاضرين لسماع شكاوى كل واحد من الناس لابل جميع الناس، وأن يقدموا، بأقصى سرعة ممكنة التفريج إلى الذين يعانون من الأذى، وبأعمال تفتيشهم وبناء على بيناتهم، سوف تتم إدارة خزينة الملك، والأموال التي منحت إليه من قبل المجتمع بشكل عام، وسوف يجري صرفها لصالح الملك والمملكة، وفقاً لما سيرونه أكثر مواءمة ونفعاً، وهم سوف يكونوا الحافظين للامتيازات المذكورة، وبحكم أنه جرى انتخابهم بموافقة عامة من الجميع، لذلك ما من واحد منهم سوف يجري نقله أو حرمانه من وظيفته من دون موافقة عامة، وإذا ما انتزع واحد من بينهم بوساطة الموت، وقتها سوف يحل رجل آخر محله بوساطة انتخاب وموافقة الثلاثة الآخرين، خلال مدة شهرين، وسوف لن تجتمع الجماعة كلها ثانية من دون هؤلاء الأربعة المذكورين، مالم تستدعي الضرورة، أو بناء على طلبهم، والمذكرات التي جرى الحصول عليها معارضة للملك، وضد عادة المملكة، سوف تزال وتلغى، ويتوجب أيضاً عمل إشارة إلى الحكم الذي سوف يصدر ضد المخالفين، وكذلك وجوب أداء يمين بين الفئات، وكذلك فيما يتعلق بحلقة العدالة، سوف يجرى انتخاب مسؤول عن العدالة ومستشار من قبل الجميع،وبما أنهم سوف يكونون دوماً مع الملك، سوف يكونون أيضاً بين عدد المحافظين على الامتيازات، وإذا ما حدث في أية مناسبة، سوف ينتزع الملك فيها ختمه من المستشار، إن كل ماسوف يجري ختمه خلال المدة الفاصلة، سوف يعدّ لاغياً وفارغاً، وبعد ذلك سوف يعاد الختم إلى المستشار، وما من مستشار أو مسؤول عدالة سوف يجري تعيينه في مكان آخر، مالم يكن من خلال مؤتمر خاص وعام، وبالموافقة الحرة للجميع، ولسوف يجري انتخاب اثنين من مسؤولي العدالة لمنصة الحكم، وسوف يجري تعيين بارونين في الخزينة، وسوف يجري تعيين واحد على الأقل ليكون مسؤولاً عن العدالة لليهود، وفي هذه المناسبة

ســـوف يجري إعـداد جميع الموظفين الرسميين المقـــدم ذكـــرهم وتعيينهم بمـوجب انتخاب الجميع الحر والعـام، وبناء عليـه بها أنهم سوف يتـولون تسـوية قضــايا الجميع، لذلك مـوافقة كل واحـد سـوف تكون مطلوبة في انتخابهم، وفيما بعـد، وعندما يكون ضروريـاً لأي واحد آخـر استبداله، أو تعيينه في محل أي واحد مـن الموظفين الرسميين المتقدم ذكرهـم، إن التبديل أو التعيين ســـوف يجرى من قبل، أو بمــوجب سلطة هؤلاء المستشـــارين الأربعـة الذين تقـدم ذكـرهم، والذيـن توفـرت حـولهم شكوك، أو الذين ليست إليهم حاجة، سوف يجري عزلهم من جانب الملك.

البابا يرسل المعلم مارتن إلى إنكلترا مزوداً بسلطات جديدة غير اعتيادية

وفي الوقت الذي كـان فيـه النبلاء مشغـولين بشكل متـواصل لمدة ثلاثة أسـابيع في ترتيب هذه المسائل في سبيل تقـدم الصالح العـام، أعاق العـدو القـديم، ذاك العدو المسبب الاضطراب للسـلام، والمؤصل للانشقاقـات، أي الشيطان، أعـاق جميع القضـايا التي تقـدم ذكـرها، بوسـاطة نهم البـابا وشرهه، لأن الحبر الأعظم اعتقــد بأن الانكليـز المرنين، ســوف —وفقـاً لعادتهم الجارية— يخضعـون رقابهم، ويستجيبـون للاسهام بناء على إلحاح الملك، وكذلك على أساس طلبـه المستعجل، فأرسل رجل دين من المقربين إليـه، اسمـه المعلـم مـارتن، الذي جـرى تزويـده بسلطات جـديدة وغير اعتيادية، أعظم مما منح إلى أي نائـب بابوي نتذكره قـد وجد من قبل، لأنه مدّ يـديه لفرض المكوس، ولفـرض الأتاوات لأسباب غير معروفـة، فقط تبعـاً لما يهواه عقله، من دون أي تقدير للمنطـق، ولأنه كان مسلحـاً بسلطة متـوحشـة من قبل البابـا، الذي منه أظهر كل يـوم صكوكاً جـديدة، وفقـاً لرغبـاته، أو لتبني أية قضيـة مفاجئة، من القضـايا الاضطرارية، استخـرج بالقـوة الموارد، حتى يجري منحهـا إلى أقرباء البـابا، ولهذا قـال كثيرون بأنه كـان لديه كثيراً من أوراق الرق غير المكتـوبة، والمختومـة بالختم البـابوي،

بحيث كـــان بإمكانه أن يكتـب في هذه الأوراق الذي رغب بـه، لاسمح الرب بذلك.

وجـرى ارسال هذا النائب البـابوي المخادع، في المقـام الأول إلى الملك، فقد ابتـدأ به ليرد المعروف إلى البابا، وليستخـدم جهوده القـو ية بمثابرة في سبيل اقناع أساقفة انكلترا، ليقدموا موافقـة عامة بأن يمنحوا هذا الإسهام إلى البـابا، أو الوعد على الأقل بدفعـة سريعـة مقدارها عشرة آلاف مـارك، وعلى هذا الطلب رد الملك بأن نبلاءه، والأساقفـة، ورجال الدين، وكذلك الايرلات، والبـارونات والفـرسـان، غـالبـاً مـاانتـزعت منهم مقتنيـاتهم، بمختلـف الطرق المخترعـــــة، حتـى أنهم بـاتوا الآن ولم يترك لهم شيئـاً لأنفسهم، وقال أيضاً:

«إنهم الآن ســوف لـن يدفعــوا شيئاً، ولايمكنهـم دفع أي شيء لي أنا ملكهم، ولا كذلك إلى البابا، وقد قمت على كل حال بالتذلل إليهم بنفسي، وتماشيت مع رغبـاتهم، فأجابوني بلطف أكبر، ووعـدوني بمساعـدة، وفقاً لإمكاناتهم»، وعنـدمـا سمع المعلـم مـارتـن هذا، غـادر وذهـب مع نظرة سلبيـة، ليس في ذهنه توقع أية مسـاعـدة مـن الملك، ومع ذلك قـام بجمع الأساقفة، وأراهم الرسائل الرسولية، وفق الشكل الوارد في الفصل المقبل، وهي موجهـة أولاً إلى رؤساء الأسـاقفة، والأسـاقفة، وبعـد ذلك إلى رعاة الديرة، سواء المعفيين منهم وغير المعفيين.

رسالة البابا إلى أساقفة إنكلترا مطالباً بالإسهام

«من أنوسنت، الأسقف، وعبـد عبيد الرب، إلخ، إلخ، إلى رعـاة الديرة المعفيين منهم وغير المعفيين وإلى إخـوانهم الرهبـان في أسقفيـة كـانتربري، صحة ومباركات رسولية:

لنا آمال كبيرة في عواطفكم الصادقـة، ونشعر بثقة كبيرة، أنه عندما تحيق أحوال الحاجـة بالكرسي الرسولي، أي بأمكم الكنيسـة، يمكننا بكل ثقة أن

نلجأ إليكم، بحكم أنكم أولادها المحبوبين والمخلصين، الذين هم دوماً متلهفين ومستعدين لتخليصها من أحمالها، وبما أن الكرسي الرسولي المتقدم ذكره غير قادر حتى الآن على تخليص نفسه من وطئة تلك الديون التي تعاقد عليها من أجل الدفاع عن الإيمان الكاثوليكي، وعن حرية الكنيسة، وعن ميراثها الذاتي، باستخدامه للمبالغ التي جمعت ومنحت لمساعدتها في انكلترا وفي الممالك المسيحية الأخرى، بموجب سلطات سلفنا البابا غريغوري صاحب الذكرى الطيبة، لذلك نحن الآن مضطرين بسبب الحاجة إلى اللجوء بثقة إلى عواطفكم الخالصة، ونقوم بموجب نصيحة إخواننا بسؤالكم وانذاركم، وبموجب هذه الرسائل الرسولية نأمر جماعتكم، أن تقوموا بموجب مشاعركم البنوية بالتقدير، كما هو مؤمل منكم، والنظر إلى الحاجة الملحة، وإلى ثقل العبء الذي عسف بشدة بالكنيسة الرومانية، التي هي أمكم الروحية، فهي مقهورة، وتقريباً مغلوبة، لذلك قدموا إليها الرحمة المستحقة في هذه القضية، وفي سبيل دفع الديون التي تقدم ذكرها، ولتقديم العون لنا وللكرسي المذكور بمبلغ من المال فيه كفاية، ووفقاً للطريقة التي يراها صحيحة ابننا المحبوب المعلم مارتن، كاهن حجرتنا، الحامل لهذه المطالب، وكل الذي يعبّر عنه ويعلنه هو باسمنا ولصالحنا.

ونحن نأمركم أيضاً بإعطاء المال الذي أسهمتم به إلى المعلم مارتن المذكور، أو إلى رسله، خلال المدة التي سوف يحددها لكم لفعل ذلك، وعليكم هكذا تنفيذ أوامرنا، حتى لانمتلك سبباً صالحاً لنأمر تقواكم، ولكي لانكون مرغمين على اللجوء إلى وسائل أخرى في هذه القضية. صدر في اللاتيران، في اليوم السابع من كانون الثاني، في السنة الأولى من حبريتنا».

وعندما جرى نشر هذا في لندن، وبات مفهوماً بشكل جيد من قبل جميع الأساقفة ورعاة الديرة بشكل خاص، رفض رعاة الديرة إعطاء جواب من

قبل أنفسهم وحـدهم، وآثروا أن يفعلوا ذلك مع آخـرين، لأن رسـالة قـد كتبت إليهم وفق الأسلوب نفسـه، ولذلك عقدوا مـداولات دقيقة حـول القضية، وأعطوا منفذاً لشكاياتهم بين أنفسهم وقالوا:

«لقد وضعنا في موقف صعب، فملكنا وحامينا الذي أسس وجدّد كثيراً من كنائسنا، غير قـادر على فعل شيء، وقـد طلـب المسـاعـدة منا من أجل الدفاع عن مملكته وفي سبيل حمايتها، أي في سبيل الصالح العام، وقد طلب البابا الشيء نفسه لصالح الملك، فهذه شكـاية مزدوجة، وهي قائمة بشكل متـوازن وفعـال من على الجهتين، وجـاءنا الآن طلب آخـر غير متـوقع من جـانب البابا، والطلب الأول، بما أنه مـؤيد بشكل مضـاعف، فهو مـرجح أكثر، وهو جدير أكثر بالموافقة عليه، فمن كرم الملك يمكن أن نتوقع بعض المكافأة، أمـا من البـابا فـلا شيء، فلقـد هوجمنا وتضررنا من على الجانبين، فمن الجانب الأول عسف بنا، ومن الجانب الثـاني غللنا وتأذينا، وكأننا بين المطرقة والسندان، ولقد سحقنا بين حجري الرحا».

رسل من الإمبراطور يمنعون الإنكليز إعطاء أية مساهمات إلى البابا

عندما كانت مثل هذه الأحداث قيد الوقوع، ليس من دون تسبيب قلق حاد في قلوب كثيريـن الملطخة بالدم، وصلت أخبار إلى علـم جميع النبلاء، وقد انتشرت بين الناس، ووقتهـا لم يعرفـوا الذي سيفعلونه، ولذلك لجأوا إلى الأسـاقفـة، في سبيل أن يتبنوا الخطة نفسهـا في جميـع الأشيـاء، وذلك بالنسبـة لهذه المسألة المتعلقة بالصـالح العام للمملكة، وحـدث —على كل حال— فجأة أن وصل إلى لندن المعلم وولتر دي أوكرا Ocra, وبعض الآخـرين، كـرسل خـاصين من الامبراطور، وذهبـوا فـور وصـولهم إلى المستشـارين، وقـدمـوا رسـالة من مـولاهـم، جـرت قـراءتها بشكل علني بحضرة الملك وجميع المستشـارين، على الرغم من اعتراض المعلم مـارتن وانزعاجـه، وفي هذه الرسالة برأ الامبراطور نفسه من تهمـة العصيان، التي

شـوه بها البـابا سمعتـه وأخـلاقـه، وأعلن بـأنه سـوف يطيع العـدالة بكل تواضع، وسـوف يلتزم بأوامـر الكنيسة، ويقـدم الترضيات إليها، ولتـأكيد مصـداقيـة هذا، قـدم كل مـن امبراطور القسطنطينيـة، وكـونت طولوز شهـادتيهما بوسـاطة رسـالتين ممهـورتين بختميهما، وقـد نشرتا هناك على الناس، وفي تسـويغ لنفسـه أيضـاً، أعلن الامبراطور فـردريك، في كل من هاتين الرسـالتين، وبفهم رسله الذين رددوا الشيء نفسـه، من أن البابا قـد طلب بشكل مهيـب أن يكون متملكاً لبعض المدن، والقـلاع والأراضي، وفيما يتعلق بهم ليس واضحـاً بعـد، فيما إذا كـانـوا عـائـدين بملكيتهم إلى الامبراطوريـة، أو إلى الكنيسـة، كما طالب أيضـاً بإطـلاق سراح بعض الأشخـاص، الموضـوعين في سجن الامبراطور، بحكم أنهم خـونة له شخصيـاً، وطالب بهذا أيضـاً حتى قبل أن يكون هو شخصيـاً، قـد جـرى تحليله من الحرمان الكنسي، وبناء عليه، إنـه خشية منه —كما قال— من أن يقع في أحابيل البـابا، أخضع نفسه إلى رأي وقرار، ملكي فـرنسا وانكلترا، وبارونات المملكتين، لأنه أفـاد بأن تواضعـه الأصيل لم تتم رعـايتـه كما ينبغي، أو تقديره بشكل لائق من قبل البـابا، ومن أجل هذا اشتكى بمرارة إلى الجميع، وأضاف الامبراطـور في نهاية المكتوب رسالة مـع شيء مما يشبه التهـديد، من أن جميع المال المرسل إلى البـابا لمسـاعدته، سـوف يضـاف إلى الخزينة الامبراطورية، ولذلك ترجى بكل وسيلة توفـرت لديه بأن لايسهم الانكليـز بأي شيء إلى خصمه البـابا، للإضرار به، وأضاف أيضـاً، بأنه إذا مـارغب ملك انكلترا الالتزام بنصـائحـه، يتوجب بـالقوة والعـدالة تحرير انكلترا من الضرائب التي فرضهـا البابا انوسنت الثالث، وكـذلك عليه أن ينقـذها من الأعباء الأخـرى، التي كانـت تعسف بها يومياً من قبل البـابا، وبهذا استرد الامبراطور عـواطف الكثيرين، لأنـه أقحم في الرسـالة المذكـورة، بأن الملك إذا لم يقم بإطاعـة أوامـره —أي الامبراطور— هو سوف ينزل انتقـاماً ثقيلاً، بأي واحـد من رعاياه سوف يتم العثـور عليه في ممتلكاته الامبراطورية.

كيف وافق نبلاء إنكلترا على إعطاء مساعدة مالية

عقد نبلاء انكلترا وأساقفتها مؤتمراً في لندن، في اليوم المحدد، أي بعد ثلاثة أسابيع من يوم عيد طهارة القديسة مريم، وعقدوا مداولات دقيقة، حول القضايا التي تقدم ذكرها أعلاه، وكان موجوداً هناك نواب الأساقفة الغياب، وهم عن رئيسي أساقفة كانتربري ويورك وثلاثة أسقفيات شاغرة، وممثلين عن هيئة كهنة كوفنتري، وشيستر، ونورويك، وجرى آنذاك تجديد طلب الملك لمساعدة مالية، وفيما يتعلق بهذه المسألة، استدعاهم الملك من يوم إلى آخر، وذلك بوساطة دعوات منه شخصياً، وكذلك بوساطة رسل خاصين، تقدم من خلالهم بالوعد بأنه سوف يحافظ، تحت سلطانهم الكامل، على الامتيازات، التي كان قد أقسم على منحها عند تتويجه، ومن أجلها منح صكاً، وفي سبيل الحفاظ على هذه الامتيازات، طالب بأن يقوم كل واحد من الأساقفة في أسقفيته، بإصدار قرار بالحرمان الكنسي ضده، وضد جميع الأشخاص الذين سوف يقفون ضد أية نقطة من نقاط الامتيازات المذكورة، وأخيراً لما أنه لم يعد ممكناً انحناءهم إلى أي شرط آخر، وافقوا على منح الملك، من أجل تزويج كبيرة بناته، منحة مقدارها عشرين شلناً من إقطاعية كل واحد من الفرسان، الذي بحوذته ممتلكات من الملك بشكل رئيسي، وكانت الحصة الأولى سوف يجري دفعها في عيد الفصح، والأخرى في عيد القديس ميكائيل.

وعندما طلب من الملك أن يتذكر هذه الأشياء، وكذلك الوقائع الماضية، تذكّر كَمْ هي كثيرة التي عمل بها بقسوة استخراجات مماثلة من رعاياه المخلصين، الذين كان واجبه نحوهم هو أن يرعاهم، وليس افقارهم، وجاء ذلك من دون الوفاء بأي وعد من الوعود قطعه لهم، فبعد الاستيلاء على بدفورد، جرى منحه على الفور ضريبة عن أرض كل محراث من انكلترا كلها، وكان ذلك شلنين لكل محراث، وفي السنة التالية جرى منحه جزءاً من خمسة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة، ومجدداً عندما كان على

وشك الذهاب إلى بريتاني تلقى مبلغاً كبيراً من الأساقفة، ومن الرهبان، ومن البورجوازية واليهود، ولدى عودته من بريتاني، أخذ منحة مقدارها ثلاثة ماركات عن كل فدان، وأعطي بعد هذا جزءاً من أربعين جزئاً من جميع الممتلكات المتحركة، ثم من جديد بعد ذلك جزئاً من ثلاثين جزئاً، وثانية عندما أعطى أخته لتكون زوجة للامبراطور، تسلم بمثابة حصة زواج لها، منحة مقدارها ماركين عن كل محراث، وعند ولادة ابنه، قام، مع عار كبير لحق به، ومن دون خجل، فاستخرج بالقوة كثيراً من الهدايا، التي عملت مع بعضها مبلغاً كبيراً من المال، ومجدداً عندما كان ذاهباً إلى غسكوني، استلم مبلغاً كبيراً من المال، لا بالحقيقة مبالغ لا نهاية لها تقريباً، من الأساقفة، ومن رجال الدين، والبورجوازية، واليهود، ومن كل واحد كان بامكانه أن يكشط منه، وعندما عاد من غسكوني بشكل باهت، وكان رجلاً مخدوعاً، أمر الأساقفة والنبلاء باستقباله عند شاطىء البحر، وبعد انتظاره هناك عبثاً لوقت طويل، استقبلوه عندما وصل، بهدايا كبيرة لا تقدر بثمن، وعمل الشيء نفسه من قبل سكان لندن، وآخرين، وكل من تم العثور عليه وعرف بأنه لم يقدم هدية لها قيمتها، اتهم بحجة أو بأخرى، وعوقب، فكيف يمكن للملك أن يقوم بالوفاء بجميع وعوده وباتفاقاته، مقابل الإسهامات الحالية، ومن أجل الإسهامات الأخرى، وحده يعرف الذي هو ليس بجاهل بأي شيء.

جواب الأساقفة على مطالب المعلم مارتن

عندما علم المعلم مارتن، الذي كان رسول البابا، بأن نبلاء انكلترا قد أعطوا موافقة عامة بمنح الملك، أصبح متلهفاً أكثر لإنجاز المهمة التي من أجلها قد أرسل، والتي كانت ماتزال في حالة من عدم التأكد، أي الحصول على المساعدة للبابا، وبناء عليه دعا إلى الاجتماع جميعهم مع بعضهم وعندما تحقق له ذلك قال لهم:

«أيها الناس، أيها الرهبان، ويا أيها السادة، المحبوبين تماماً من الكنيسة

الرومانية، التي في صدرها ترقد جميع الآمال البابوية، ما هو الجواب الذي أعطيتموه إلى أبيكم الروحي بالنسبة لقضايا الكنيسة الرومانية، التي هي أمكم،والمعسوف بها حسبها جاءكم العلم بوساطة الرسالة البابوية؟ لقد أقدمتم طائعين على الاستجابة لأبيكم الدنيوي، أي مولاكم الملك، فلاسمح الرب أن لاتقدموا على مدّ يد المساعدة إلى أبيكم الروحي، أي البابا، الذي يضع ثقته بكم، ذلك أنه يقاتل لصالح الكنيسة المسكونية ضد أولاده العصاة»، وقدّر الأساقفة بحكمة بأن كلامه، وإن كان حلواً وناعماً فهو بسبب المناسبة، ولذلك هو أحلى من قرص العسل وأنعم من الزيت، ولكنه كان في النهاية أمرّ من الصبر،وأحدّ من السهم الخارق، ولهذا لم يتزحزحوا عن مواقفهم، وبعد مداولات كافية، عيّنوا عميد كنيسة القديس بولص في لندن، وكان رجلاً مستقيماً وفصيحاً، لإعطاء الجواب الذي وافقوا عليه بالإجماع، ومن خلاله أعادوا الجواب التالي إلى المعلم مارتن المتقدم ذكره قائلين:

«ياصاحب النعمة، إن جماعة الأساقفة الانكليز يرجون التقدم إليكم بالجواب حول كل من قضية تقديم المساعدة المالية إلى البابا، وأيضاً حول الموارد التي يطلبها صاحب القداسة من خلالكم، من كل كنيسة من الكنائس، وإن القضايا التي عرضتها علينا، فيما يتعلق بمولانا ملك انكلترا بشكل خاص، والمتعلقة بجميع أولياء نعمة الكنائس بشكل عام، وهم أيضاً يتعلقون برؤساء الأساقفة ونوابهم من الأساقفة، وكذلك جميع أساقفة انكلترا، وبناء عليه، بما أن الملك قد اضطر إلى الغياب بسبب المرض، وكذلك بما أن رؤساء الأساقفة والأساقفة، والأساقفة الآخرين للكنائس، هم أيضاً غياب، يتوجب علينا عدم إعطاء جواب، حيث لايمكننا فعل ذلك، لأننا إذا ما أقدمنا على فعل ذلك، فيكون هذا مضراً بالنسبة للأساقفة الذين هم غياب»، وبعدما قالوا هذا، ذهب جون مارشال وبقية رسل الملك، إلى الأساقفة الذين بأيديهم بارونيات من الملك

بشكل رئيسي، ومنعوهم بكل دقة من رهن إقطاعياتهم المدنية عند الكنيسة الرومانية، لأنه —أي الملك— سوف يكون محروماً بذلك من الخدمات المتوجبة إليه، وعندما سمع المعلم مارتن هذا، عيّن يوماً في وسط الصوم الكبير للذين كانوا آنذاك حضوراً، للاجتماع به، وهو في الوقت نفسه سوف يحصل على حضور الملك وعلى حضور الأساقفة الغياب، وذلك في سبيل إنهاء هذه القضية والوصول بها إلى نهاية، غير أنهم رفضوا الموافقة على الموعد المقرر، وذلك دون الحصول على موافقة الملك، والأساقفة الآخرين الذين كانوا غياباً، وعادوا جميعاً إلى مواطنهم» ومجدداً قام المعلم مارتن، اعتماداً على سلطات رسائل جديدة، التي كان لديه كميات وافرة منها يستخدمها حسب رغباته، فدعا إلى الاجتماع بعض الأساقفة، لكنهم رفضوا الموافقة على الإسهام وزادوا بأنهم عارضوا بشدة أكثر من ذي قبل، وقدموا الجواب نفسه، كما تقدم من قبل قائلين:

«إنه في المقام الأول، بسبب فقر ملك انكلترا، المحدقة به مخاطر الحرب، لا يسمح ذلك لنا بالموافقة على هذا الاستخراج لأن المخاطر تهدد المملكة كلها، وبسبب هذا الفقر، أثقلت عدة كنائس، وبشكل خاص الديرة، بديون كبيرة مرهقة، ومجدداً عندما تم الاسهام مؤخراً بناء على طلب الكاردينال الذي كان النائب البابوي، بسبب أعباء الكنيسة الرومانية كما قيل آنذاك، لقد فرض وقتها علينا عبئاً ثقيلاً، ومع ذلك فإن تلك الاسهامات لم تكن لمنفعة الكنيسة،والآن عندما عمل رسول بسيط المطلب، هناك سبب أكثر قوة للخوف من أن نتيجة مماثلة، إن لم تكن أسوأ، سوف تحصل بهذه المناسبة أيضاً، إذا ماتم الاسهام الآن من جديد، كما أن هناك أسساً قوية للخوف من أن يصبح ذلك عادة، وذلك بناء على أساس أن الشيء إذا ما تكرر، يغدو قاعدة، ومجدداً، إنه حسبما نعتقد، أو في جميع الأحوال حسبما روي، بأن البابا مقبل خلال وقت قصير، على عقد مجمع، فيه سوف —بدون شكل— يجري إثقال الأساقفة، جميعاً وبدون استثناء،

بأعبـاء النفقات، ومثل ذلك بالرحلـة الطويلة وكذلك بنفقـاتها ومتاعبهـا، وأيضاً بالقيام بزيارات فيهـا تقدمات إلى البابا، سواء أكـانت موافقة أم غير موافقـة، أو بزيارات إلى بعض الآخرين، الذين لم نجـدهم قط يرفضون أية هدايا، ويمكـن أن يحدث، أنه نتيجـة للاضطرابات التـي تكدست فـوق الاضطرابـات، ســـوف يكون هناك قلة فقـط، يمكن لهم تحمل ثقـل هذه الأعبـاء التي لايمكن تحملها، ومجدداً، بما أن أمنا الكنيسـة المقـدسة لرومـا مثقلة بالديون، سيكـون عـدلاً ومشرفـاً، بما أنها غير قـادرة على تحمل هذا العبء، أن تقـدم المسـاعدة إليهـا من قبل أولادها المخلصين بشكل عـام، الذين سـوف —كما نعتقد— يلتقـون في مجمع خـلال وقت قصير، والذي يهم الجميع بشكل رئيسي، ينبغي أن تتم الموافقـــة عليـه من قبل الجميـع، في سبيل أنه بذلك يمكن تحرير الكنيسة بشكـل أحسن، وبذلك كل واحد منا يكون أقل إثقـالاً»، وعندمـا سمع المعلم مـارتن هذه الحجج المؤثرة، ضـد استخـراج أية معـونات مـاليـة من الكنائس ومـن رجـال الدين بمثل هذا الإصرار المعلن، يقـــال بأنه انفجـر بتهـديدات عنيفـة ضـــدهم، وتحمل الأســاقفـة —على كل حـــال— هذا بصبر، وارفض الاجتماع، فتفـرقــوا مبتعـدين، وقد أضـافوا في عـروضهم، أنهم إذا مـا أسهموا، فإنهم سـوف يخشون تهديدات الامبراطور أكثر.

وعند ذلك ألقى مـارتن الخائن بيديه الجشعتين بشكل سري على مـوارد الكنائس الفـــارغـة، وقـام بين أشيـــاء كثيرة فتـدبر إعطاء خـزينة كنيسـة سالسبري إلى حفيـد البابا، واستولى أيضاً على عـدد من الكنائس الأخرى، غير أن أعمال الأخذ والرد هذه، من الأفضل أن نظل صامتين حولها، وعدم حكايتهـا، وذلك صدوراً عن الاحترام للكنيسـة الرومانيـة، وبقصد عـدم إثارة فضيحة.

العثور على جثة ولد ميت في لندن

في الأول من شهـــر آب من هذا العـــام، تمّ العثور في مقبرة القـــديس

بندكت، في مدينة لندن، على جسد طفل غير مدفون، قد كتب على ساقيه، وعلى ذراعيه، وتحت صدره بخط عبري منظم واجتمع كثيرون، وهم يتساءلون حول هذا المشهد، غير قادرين على قراءة الكتابة، لكنهم عرفوا بأن الكتابة والأحرف عبرية، فبعثوا خلف بعض المتحولين اليهود، الذين كانوا يسكنون في البيت الذي أقامه الملك في لندن، وأمروهم، صدوراً عن تقديرهم لحياتهم ولأطرافهم، وتقديراً لشرفهم، وعواطفهم، وخوفهم من الملك، أن يبيحوا معنى الكتابات، من دون أي تحوير، لأنه كان موجوداً هناك بعض وكلاء الملك، الذين كانوا يتولون الحفاظ على السلام، وقد اعتقدوا —لسبب صحيح— أن اليهود الذين تولوا تعذيب يسوع المسيح وأهانوه، إما قد قاموا بصلب هذا الطفل (وهذه واقعة تكرر ذكر وقوعها)، أو أنهم عذبوه بطرق مختلفة قبل قيامهم بصلبه، ولأنه مات تحت التعذيب، اعتقدوا أنه غير جدير بالصلب، ومن ثم ألقوا بجسده حيث تمّ العثور عليه، وبالاضافة إلى هذا ظهرت هناك علامات باقية على جسد الطفل، وأن التعذيب تمّ بوساطة العصي، وقد ظهرت هنا وهناك علامات وآثار بعض أنواع أعمال التعذيب الأخرى، وبعدما جرى جلب المتحولين، من أجل قراءة الكتابات، قاموا بفحصها، وسعوا إلى قراءتها وبذلوا جهودهم لبعض الوقت من دون محصلة، لأنه بسبب تمدد الجلد، وتغير الجسد، انتشرت الأحرف فوق الجسد هنا وهناك، وتغير شكلها كثيراً وتشوهت، وبات بعضها غير مفهوم، وتمكنوا أخيراً، بعد طول معاناة من اكتشاف اسم والد الطفل وأمه مكتوبين، لكن من دون الكنية، وكانت هناك كلمة قد أفادت بأنه قد بيع إلى اليهود، لكن من قبل من، ولأي غاية؟ هذا ما لم يستطيعوا كشفه، وجرى اكتشاف أن بعض اليهود من لندن، الذين كانوا موضع ريبة، ومشكوك بهم في هذه القضية، قد هربوا آنذاك بشكل سري ولم يعودوا، وأكد بعضهم أيضاً، بأن الرب قد عمل معجزات لصالح الصبي، وجرى اكتشاف بأن اليهود قد اقترفوا في بعض الأحيان مثل هذه الجرائم، وأن الأجساد المقدسة، عندما صلبت قد استقبلت في كنائسها،

وأصبحت أيضاً مشهورة بالمعجزات، وبناء عليه، وعلى الرغم من أن العلامات كانت خمسة جروح، على الطرف، واليدين، والقدمين، وهي لم تكن مرئية على جسد الطفل المذكور، قام كهنة القديس بولص مسرعين بأخذ الجسد والفرار به، ودفنه، وسط طقوس مناسبة، وكان دفنه قرب المذبح الكبير في كنيستهم.

ظهور قديسين جدد في انكلترا

في تلك الآونة نفسها، قيل بأن معجزات أظهرت أنفسها، وأن منفعة الصحة قد أعيدت إلى المرضى، في سبيل مدح المسيح، وكان ذلك عند ضريح روجر، أسقف لندن، صاحب الذكرى التقية، وضريح المعلم جون فوكستون Foxtone, الوصي على كنيسة تلك المدينة، وكذلك عند قبري: المعلم روبرت، الذي كان أخاً لإدموند رئيس أساقفة كانتربري، والقديس روبرت أوف كاريبراغ Karrebrag (ربما: Carisbrake).

وصول كونت فلاندرز لمساعدة ملك إنكلترا

ونزل في حوالي الوقت نفسه، كونت فلاندرز في دوفر، حيث قدم لمساعدة ملك انكلترا في نيته شن الحرب على سكوتلندا، وقد أثار وصوله غضباً عظيماً وأنفة في قلوب النبلاء الانكليز، لأنهم قالوا بأن انكلترا قادرة على اجتثاث سكوتلندا، اجتثاثاً كاملاً من دونه، وجلب الكونت المذكور معه ستيناً من الفرسان، ومائة من الأتباع، جميعهم مسلحين بشكل جيد، وكل واحد منهم متشوق إلى السعي وراء نيل أموال الملك.

وسار الكونت مع أخيه رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري إلى القديس ألبان حيث التقوا بالمعلم وولتر دي سفيلد Suffield, الأسقف المنتخب لنورويك، وقد جرى تثبيته على الفور في ذلك الكرسي، من قبل رئيس الأساقفة المنتخب المذكور.

وفي هذا العام نفسه تدبرت السيدة بلانشي، تكريس الكنيسة التي

أسستها في بونتوي Pontoise.

وفي تلك الآونة نفسها، جرى انتخاب المعلم وليم دي بيرغ Burg, أسقفاً لـ: للانداف Llandaff, وكان رجلاً محباً للخير، وغير عدواني، وسمعته غير ملطخة.

حول الاستخراجات غير العادية للمعلم مارتن

مورست في هذه الآونة استخراجات غير عادية للمال والموارد من قبل المعلم مارتن، الذي كان مقيماً في الهيكل الجديد في لندن، عاداً نفسه بمثابة نائب بابوي (مع أنه لم تخلع عليه ألبسة النائب البابوي، وكانت هذه بدعة ماكرة للحفاظ على امتيازات الملك)، وقد أرسل رسالة في جميع الاتجاهات إلى كذا وكذا راعي دير، وإلى كذا وكذا رئيس رهبان، يأمرهم بأن يرسلوا إليه هدايا ثمينة، من بعض الخيول الرشيقة، واللحوم، والأشربة، والثياب المطرزة، وعندما فعلوا ذلك، أعاد المعلم مارتن إليهم الذي بعثوه إليه، معلناً بأنهم كانوا غير كافين، وأمرهم بإرسال هدايا أعظم قيمة، تحت طائلة عقوبة التعليق والتكفير، كما أنه علق الجميع وأوقفهم عن منح منافع تساوي ثلاثين ماركاً، فما فوق، حتى يشبعون نهمه، وبناء عليه عانى الانكليز التعساء أسوأ مما عاناه بنو اسرائيل القدماء، وحزنوا لأنهم أرغموا على تحمل العبودية المصرية في بريطانيا.

الخلاف بين ملكي إنكلترا وسكوتلندا

وأثناء العام نفسه، أصدر الملك إعلاناً عاماً، وبوساطة استدعاء عام تدبر أن يعرف الجميع في جميع أرجاء انكلترا، بأن على كل بارون اقطاعي مقطع بشكل رئيسي من الملك، أن يجعل قواته العسكرية جاهزة لإرسالها للخدمة تحت لواء الملك، وأن هذا متوجب على الأساقفة، ورعاة الديرة، وعلى البارونات العلمانيين أيضاً، ثم إنه انطلق على رأس جيش كبير تعداده نحو نيوكاسل على التين، معلناً بأن محرضه الرئيسي مااقترفه وولتر كمنغ

Cumming, وكان باروناً مشهوراً وقوياً جداً في سكوتلندا، وبعض الآخرين من تلك المملكة، الذين تولوا تحصين قلعتين مريبتين في غالوي Galway, ولوثيان Lothian, في سبيل إيذاء ملك انكلترا، وعلى عكس تصرفات أجدادهم، بالإضافة إلى ذلك، دخل النبلاء المذكورين أعلاه في تحالف مع الفرنسيين، واستقبلوا بعض الرجال المنفيين واللاجئين من أعدائه —ملك انكلترا— من ذلك على سبيل المثال غيوفري مارش في هذه الأيام، وبعض الآخرين من قبل، وكانوا بذلك —كما هو معروف— يسعون لسحب ولائهم من هذا الملك، مع أن ذلك حق له وحده، وبعدما حشد الملك جميع جماعة النبلاء في انكلترا قرب القلعة المتقدمة الذكر، جرى عقد اجتماع في حوالي أيام عيد صعود مريم المباركة، وكانت هناك مداولات متقنة قد دخلوا فيها حول القضية، وفي هذا المؤتمر، تم التوصل إلى بنود مصالحة بين الملكين، وكان ذلك بتدبير من الايرل رتشارد وبوساطة حكيمة قام بها بعض النبلاء الآخرين من الجانبين، لأن ملك سكوتلندا، كان رجلاً مستقيماً، وتقياً، وصاحب عقل متحرر، ولذلك حظي بحب جميع الانكليز، وبحب شعبه أيضاً، وكان لديه أيضاً جيشاً كبيراً جداً، وقوياً، مؤلفاً من ألف فارس مسلحين مع أن مطاياهم لم تكن اسبانية، أو ايطالية، أو من خيول أخرى ثمينة وثمنها مرتفع، وكانت محمية بشكل جيد بدروع من الفولاذ أو من الكتان، ومع هؤلاء حوالي المائة ألف من الجنود الرجّالة، كلهم كانوا على رأي واحد، وكانوا جميعاً قد عملوا الاعتراف وجرى تشجيعهم، وتثبيتهم بكلمات من وعاظهم، من أنهم كانوا سيقاتلون في سبيل قضية عادلة لصالح بلادهم، ولذلك كان لديهم القليل من الخوف، وفي سبيل منع سفك دماء مثل هذا العدد الكبير من المسيحيين، والدعاء إلى الرب بالانتقام، ومن ثم الاساءة إليه، الذي بين يديه من المرعب وقوع الانتقام، أعيد تأسيس السلام بسعادة، وجرى تدوين ذلك في الصك التالي الشاهد على ذلك.

وفي هذه الآونة، أي في اليوم الذي جاء عقب عيد القديس لورانس، مات البارون المشهور رتشارد دي ستوتفيل Stuteville.

صك ملك سكوتلندا

«من الاسكندر، الذي هو بنعمة الرب، ملك سكوتلندا، إلى جميع الأتباع المخلصين للمسيح الذين سوف يرون أو يسمعون محتويات هذه الأداة، تحيات:

بودنا أن تعلموا، أننا من جانبنا، وباسمنا، وباسم ورثتنا، قد وافقنا، وأعطينا وعدنا، إلى مولانا الاقطاعي المحبوب منا كثيراً، هنري الثالث، الذي هو بنعمة الرب، الملك المشهور لانكلترا، وسيد ايرلندا، ودوق نورماندي وأكوتين، وكونت أنجو، وإلى ورثته، بأننا سوف نحافظ بشكل أبدي على الاخلاص الصالح معه، وسوف نتملك مشاعر طيبة نحوه، وإننا أيضاً سوف لن ندخل مطلقاً، بأنفسنا، أو بوساطة أشخاص آخرين من طرفنا، في أي تحالف مع أعداء مولانا المذكور، ملك انكلترا، أو ورثته، سواء بتسبيب نشوب حرب، أو شنّها، بحيث يمكن أن تحدث مضار بوساطة ذلك، أو يمكن أن تحدث لهم أو لمملكتهم، مملكة انكلترا وايرلندا، أو أية مناطق تابعة لهم، وذلك مالم يقوموا بإيذائنا، ولسوف تظل الاتفاقيات السالفة قائمة تماماً بيننا وبين مولانا المذكور، ملك انكلترا، وهي الاتفاقيات التي دخلنا بها مؤخراً في يورك، بحضور أوتو، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا، في سجن توليان، والذي كان آنذاك نائب الكرسي الرسولي، مع الحفاظ أيضاً على ميثاق الزواج الذي عقد بين ابننا وبين ابنة مولانا المذكور، ملك انكلترا، وفي سبيل تمتين موافقتنا هذه، ووعودنا باسمنا وباسم ورثتنا، وتثبيتها، أمرنا حاجبنا ألان Alan, وهنري بيلأويل Baliol, وديفد لندسي Lindsay, ووليم غيفارد Giffard, أن يقسموا بروحنا، بأننا سوف نلتزم باخلاص بالشروط المتقدم ذكرها، ونطبقها تماماً، وتدبرنا أيضاً اداء يمين مشابه، من قبل الآباء المـ[illegible]ـاين:

ديفـد، ووليم، وغيوفـري، وكليمنت، الذين هم أسـاقفـة سينت أندروز، وغـلاسكو، ودنكالد Dunkald, ودمبلين Dumblane, كما تدبرنا أداء يمين من قبل النبلاء التـالين، وهم من رعايانا المخلصين: باتريك ايرل أوف دنبر Dunbar ومالكولم ايرل أوف فيف Fife, وماليس Mal-ise ايرل أوف ستراثيرن Strathearn, ووولتر كـــومن Comyn أوف مونتإيث Monteith, ووليم ايرل مار Mar, والاسكندر ايرل أوف بوشان Buchan, وديفد هيستنغ Hastings إيرل أوف أثول Athol, وروبرت بروس Bruce, والان حـاجبنا، وهنري بيـلأويل، وروجر دي مـاوبري Mowbray, ولورانس دي أبرنثيـا Abrinthia, ورتشـارد كـومين Comyn, وديفـد لندسي Lindsay, ورتشـــارد سيـوورد Seward,ووليم لندسي، ووولتر أوف مـــوري Moray, ووليم غيفـــارد Giffard,ونيقـــولا دي سلّـي، ووليم أولـــــد بردج Oldbridge, ووليم بيفير Bevire, وأليـــــوم Aleome دي ميسوك Mesuc, وديفد غـراهام Graham, ورتشارد سمنغهـــام Smingham, فهؤلاء جميعاً أدوا اليمين للغاية التـالية وهي: إذا ما قمنا نحن أو ورثتنا بالعمل بشكـل مضـاد للاتفـاقيـة المتقـدم ذكـرها وللوعـد —لاسمح الرب بـذلك— سـوف لـن يقـدمـــوا لا هم ولا ورثتهم لا النصيحـة أو المساعـدة إلينا ولا إلى ورثتنا بشكل مضـاد للمـوافقة المتقـدم ذكرهـا وللوعد، وبقـدر مايمكنهم منعها، وعـدم السماح بتقديمهـا لنا من قبل الآخــريـن، بل الذي ســوف يفعلـونه هم وورثتهم —بـالنسبـة لنا ولورثتنا— ويجعلـونه شغلهم الشـاغل، هو رؤية أن الشروط التي تقـدم ذكرها قد جرى تطبيقها بكل دقـة واخلاص، ومراعاتها من قبلنا ومن قبل ورثتنا، وأيضاً من قبلهم ومن قبل ورثتهم، وشهـادة على ماتقدم قمنا نحن وكـذلك الايرلات، والأسـاقفـة، والبارونـات، بتثبيت هذه المدونة بوضع أختـامنا عليها. وشهـد: الأسـاقفة، والايرلات، والبـارونات الذين تقـدم ذكرهم أعلاه، في سنة حكمنا، إلخ، إلخ».

وعلى هذه الوثيقة جرى على الفور وضع أختام: الاسكندر ملك اسكوتلندا، ووليم دي بيفري Bevire, ووليم أولد بردج Oldbridge, ووليم لندسي، وستيفن سمنغهام، وبعد ذلك ختمت بأختام الآخرين، وقد جرى إرسال هذه الوثيقة إلى ملك انكلترا في عيد الميلاد التالي، وحملها إليه بيديه رئيس رهبان التينماوث Tynemouth, الذي حرص على بذل أفضل مساعيه، للوصول إلى هذه الاتفاقية لصالح كرامة الفئتين.

وأرسلت هذه المدونة، مع الآخرين المذكورين أدناه إلى البابا، في سبيل أن تكون ثابتة بشكل دائم بشكل أفضل إلى الأبد، في الرسالة التالية:

التثبيت البابوي لما تقدم أعلاه

«إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح، انوسنت، الذي هو بنعمة الرب الحبر الأعظم، إننا الاسكندر الذي هو بالنعمة نفسها، ملك سكوتلندا، وايرل باتريك، وإيرل أوف ستراثيرن Strathearn وإيرل ليفناث Levenath, وإيرل أوف أنيغريا Anegria, وإيرل أوف ميرا Mera, وإيرل أثول Athol, وإيرل أوف روس Ross وإيرل أوف كيثنس Cathness, وإيرل أوف بوت Bute, وروجر دي ماوبري Mowbray ولورانس أوف ألبيرينث Alberinth, وبطرس دي ماوفير Mouvere, ورتشارد كومين Comyn, ووليم أولد بردج، وروبرت بروس Bruce, وروجر أفنل Avenel, ونيقولا سللنغ Sulling, ووليم مورري Murray, و.... أوف دنفلد Dunfeld, ووليم موريف Muref, و.... أوف بيتين Petene, وجون بيست Bissett الأصغر، ووليم لندسي، وجون دي فوكس Vaux, وديفد لندسي، ووليم غيفارد Giffard, ودنكان دي ايرغاتيلا Ergatila, وجون دي ماترفيل Matervalle, وإيلنر Aylnne وابنه روجر إيرل أوف وينكستر، وهـ .H ايرل أوف أكسفورد، و و

وودليم دي W. دي فسي Vescy, ورتشـارد سيـوورد Seward, وودليم دي روس Roos, وروجـر دي كلير Clare, وهنري ابن كـــونت دي بريتر Britter, ويوستاس دي ستوتفيل Stuteville, ومالكولم ايرل أوف فيف Fife, وإيرل أوف مينيثشـاير Menethshire, ووولتر فتـز— ألان، ووولتر أوليفـارد Oliphard, وبرنارد فـريسر Fraser, وهنري بالأويل، وديفد كومين Comyn, وديفد مارشال، وديفد فتز— رالف، ووليم دي فـورثير Forthere, وجـون بالأويل، وروبرت دي روس Roos, الصحة، ونقدم جميع الاحترام المستحق والتشريف:

إننا نـرجـو أن نخبر قـداستكم، بأننا أدينـا يميناً، أقسمناه بـأرواحنا وأجسادنا، أمام الأب المحترم أوتو، الذي هو الكاردينال الشماس للقديس نيقـولا في سجن توليان، والنائب في الوقت الحاضر، للكرسي الرسـولي في انكلترا، وسكوتلندا، وايرلندا، وعملنا أيضاً صكاً، بدايته كانت كما يلي:

ليعلم كل من يصل إليـه، أنه جـرى الاتفـاق بحضور صـاحب النعمـة أوتو، إلخ، إلخ، وقـد شهـدنا على هذا الصك ووثقناه بـأيدينا، وتركناه في حوزة صاحب الجلالة ملك انكلترا، وهناك صك آخر، بدايته:

نحن بودنا أن تعلموا جميعاً، إلخ، إلخ، وبناء على الشروط المتوجبة علينا المتقـدمـة الذكـر، والتي نحن مـرتبطون بها، قـد أخضعنا أنفسنا لسلطان إدارتكم، بسبب أنكم تمتلكون السلطة على ضبطنـا وضبط ورثتنا بوسـاطة الروادع الكنسيـة، إذا مـا حـاولنا في أي وقت من الأوقـات العمل ضـد شروط السلام المتقـدم ذكرها، وإذا ما حـدث في أي وقت من الأوقات أن حاول بعض رعايانا، أو أي واحد منهم، ونوى باستخفاف العمل ضدهم، أو أية محاولة من هذا النوع، أو فكر أن يفعل مثل ذلك، الأمر الذي سينجم عنه قيـام مخاطر ضد أنفسنا وأنفس ورثتنـا، وسوف يكون من جـراء ذلك حصولنا على أضرار جسيمة لنا شخصياً ولممتلكاتنا، ولذلك نرجوكم، أيها الأب المقـدس، اصدار أوامـر إلى واحد من الأسـاقفـة المساعـدين لرئيس

أساقفة كانتربري، أن يتولى ارغامنا على مراعاة شروط السلام المتقدم ذكرها، بشكل كامل حسبما جاء في أدوات التنفيذ المتعلقة بهذه القضية، وأيضاً القيام بضبط المتقولين والمتذمرين ضد شروط السلام المذكورة، وفقاً للأحكام الشرعية، إلخ، وفي سبيل الوفاء بالتماسنا وضعنا أختامنا على المدونة الحالية».

وبعد الفراغ من هذه الترتيبات، أصبح ملك انكلترا صديقاً لملك سكوتلندا،وكان الأمل أن تكون هذه الصداقة صداقة لايمكن فصمها، وذلك من دون أي تظاهر، أو خطابات مراوغة ومشاكسة، وعند ذلك ترك الملك هنري ملك سكوتلندا، وذهب إلى المناطق الجنوبية من انكلترا، وهناك على الفور جرى التفكير بأن يزحف هذا الجيش ضد الويلزيين، وكان ملك سكوتلندا قد حمل نفسه إلى المناطق الداخلية من بلاده، ولدى مغادرة ملك انكلترا لنيو— كاسل على التين، جرى تقدير تعداد جيشه، بأنه تألف من حوالي خمسة آلاف فارس مسلحين بشكل جيد، وذلك بالاضافة إلى كتلة كبيرة العدد كثيراً والقوة، من الجنود الرجالة.

غارات الويلزيين

وخلال هذا الوقت كله، كان الويلزيون يخرجون من مخابئهم، وينتشرون مثل النحل، وكانوا ينشرون النار والقتل، ولم يتوقفوا عن نهب المناطق المجاورة لبلدانهم، وكان الملك مسرعاً على طريق عودته إلى لندن، ولم يرغب بمتابعة سيره نحوهم، مع أنه سمع بتجاوزاتهم، وكان عليه أن يقود جيشه نحوهم، حيث كان جاهزاً ومستعداً تماماً، وآثر أن يتبع الخطة النسائية، فبادر مسرعاً إلى ويستمنستر، أي إلى ملاذ متعته المعتادة، وأرسل ثلاثمائة فارس، تحت قيادة هيوبرت فتز— متى، مع الأموال المحتاجة، والمؤن من أجل الطريق، ليتولى ضبط الاعتداءات الويلزية، وحدث على كل حال، أنه قبل أن يصل إلى لندن، تجرأ الويلزيون، لأن الملك سرّح جيشه، ولأنه انخرط في الاستراحة، ولن يقدم —حسبما كانوا خائفين—

على الاتحاد مع الجيش السكوتلندي، ولن يقوم الجيشان بالهجوم عليهم، وقاموا بجرأة بالهجوم على جيش النبلاء الانكليز، على الحدود، أي على حدود الأراضي التي كانت عائدة إلى ايرل هيرفورد، الذي كان سبب الكراهية ومصدر الخلاف، لأنه رفض أن يعطي إلى أخته الثالثة، التي تزوجت من داود، حصتها الثالثة، وهاجموا أيضاً الجيش العائد إلى رالف ومورتيمير Mortimer, وبعدما مزقوا فارسين اثنين شجاعين، وفارس نبيل إلى قطع، قطعوا رأس الثالث، وقتلوا حوالي المائة من الجنود الرجالة، ووضعوا الجيش الانكليزي كله في حالة من الاضطراب العظيمة، تراجعوا ثانية إلى مواضع اختبائهم، وهم مسرورين بانتصارهم، ولدى سماع روبرت المذكور بهذا زحف في اليوم التالي ضدهم، وكان برفقته ثلاثمائة فارس، كان يدفع لهم، وكان متخيلاً أنه سوف يطوق الويلزيين، ويحاربهم وهم في هذا الوضع، لكنه فوجيء من قبل العدو، ولذلك هزم، وتراجع نحو بلداته، لكن ليس من دون المعاناة من خسارة كبيرة بالرجالة والخيول، وحتى في بلداته لم يكن سالماً تماماً من أعدائه.

كيف لحقت الهزيمة ببطرس رئيس أساقفة روسيا من قبل التتار

وفي الوقت الذي كان الموت فيه يحيط بمشاكل الدنيا، حدث لواحد اسمه بطرس، كان رئيس أساقفة روسيا، وكان رجلاً مستقيماً، وتقياً، وموثوقاً، وذلك بقدر مايمكن الحكم عليه، أن هزم من أراضيه، ومن رئاسة أسقفيته، من قبل التتار، وقدم إلى مقاطعات شيسالباين Ci-salpine للحصول على النصيحة والمساعدة، والمواساة في وضعه المضطرب، وذلك إذا أمكن بعون الرب الحصول على ذلك من الكنيسة الرومانية، وأن ينال معروف أمراء تلك المناطق الذين يمكنهم مساعدته.

ولدى سؤاله عن سلوك التتار وتصرفاتهم حسبما خبرها، أعطى الرد التالي:

«إنني أعتقد أنهم بقايا المدينيين، الذين هربوا من أمام جدعون، إلى أقصى مناطق الشرق والشمال، والتجأوا إلى ذلك المكان المرعب وتلك الفيافي الشاسعة، التي اسمها ايترين Etren, ولديهم اثني عشر قائداً، يدعى رئيسهم باسم خان التتار، ومنه صدر اسم التتار، مع أن بعضهم يقول بأنهم عرفوا هكذا من تارّاكونتا Tarrachonta, الذي منه انحدر كيارثان Chiarthan, الذي كان لديه ثلاثة أولاد، كان اسم الأسن منهم جنكيز Thesir خان، والثاني غوري Churi خان، والثالث باثاتار Bathatar خان، ولدوا، ونشأوا بين أعلى الجبال، التي لايمكن خرقها، فكانوا متوحشين، وبلا قانون، وغير انسانيين، وقد تربوا في الكهوف والمغائر، وذلك بعد أن طردوا الأسود والثعابين منها، هؤلاء على الرغم من هذا كله ارتقوا إلى أكثر أماكن العالم إغراءً، وبناء عليه قدم الأب والأبناء، وانطلقوا من أماكنهم المنعزلة، وهم مسلحين وفق طرائقهم، وكان برفقتهم حشود لاتحصى عدداً من المقاتلين، وألقوا الحصار على مدينة اسمها إرناك Ernac, واستولوا عليها، واعتقلوا حاكم المدينة، الذي قتلوه على الفور، وطاردوا حفيده قطز Cutzeusa الذي هرب، خلال عدة مناطق، وقد نهبوا جميع الأراضي التي آوته، وكان من بين البلدان التي عاثوا فيها ونهبوها قبل ستة وعشرين عاماً شطراً كبيراً من روسيا، حيث صاروا لوقت طويل رعاة للقطعان التي سلبوها، وبعدما قهروا الرعاة المجاورين لهم، تولوا قتلهم، أو جعلوهم رعاة خاضعين لهم أنفسهم، وبذلك زاد عددهم، وأصبحوا أكثر قوة، وعينوا قادة فيما بينهم، وتطلعوا نحو الأشياء الأكثر علواً واستولوا على مدن وأخضعوها لأنفسهم، وذلك بعدما تغلبوا على السكان، وزحف جنكيز خان ضد البابليين، وغوري خان ضد الأتراك، وبقي باثاتار خان في إرناك، وأرسل قادته ضد روسيا، وبولندا، وهنغاريا، وضد عدة ممالك أخرى، ويقوم الآن ثلاثة مع جيوشهم الكبيرة بتهديد البلدان المجاورة لسورية، وقد مضت الآن خمسة وعشرين عاماً على انطلاقهم أولاً من صحراء ايترين».

ولدى سؤال رئيس الأساقفة عن شكل عقيدتهم، أجاب بأنهم يعتقدون بأن هناك حاكم واحد للعالم، وعندما بعثوا رسولاً إلى سكان موسكو، بدأوا رسالتهم بهذه الكلمات: «الرب وابنه في السماء وجنكيز خان في الأرض»، وبالنسبة لطرائق حياتهم قال:

«إنهم يأكلون لحوم الخيول، والكلاب، وأية لحوم دنسة أخرى، ويأكلون في أوقات الحاجة لحوم البشر، ليست من دون طبخ، بل مطبوخة، ويشربون الدم، والماء، والحليب،ويعاقبون الجرائم بقسوة ويعاقبون كذلك الزنا، والسرقة، والكذب، والقتل، بالإعدام، وهم لايمقتون تعدد الزوجات، وكل واحد منهم لديه زوجة، أو أكثر من واحدة من الزوجات، وهم لايقبلون أناساً من شعوب أخرى للزواج من بينهم، أو لإقامة علاقات وطيدة معهم، أو للبحث في قضايا الأعمال، أو الاطلاع على اجتماعاتهم السرية، وهم ينصبون معسكرهم منعزلين بأنفسهم، وإذا ما تجرأ أجنبي على القدوم، هم يقتلونه على الفور».

وفيما يتعلق بطقوسهم، وغيبياتهم قال:

«إنهم يرفعون في كل صباح أيديهم نحو السماء يتعبدون خالقهم، وعندما يتناولون أطعمتهم يلقون بأول لقمة في الهواء، وعندما يكونون على وشك الشرب، يصبون بعضاً من السائل على الأرض، في تعبد للخالق، وهم يقولون أيضاً بأنهم يتخذون من يوحنا المعمدان قائداً لهم، وهم يفرحون، ويقومون بطقوس مهيبة في أيام القمر الجديد، وهم أقوى وأكثر رشاقة مما نحن عليه، وهم أفضل قدرة في تحمل المصاعب، ومثل ذلك خيولهم، وقطعانهم ومواشيهم، والنساء مقاتلات، وفوق كل شيء بارعات جداً في استخدام القوس والنشاب، وهم يرتدون دروعاً مصنوعة من الجلود، من أجل حمايتهم، وهي دروع من النادر خرقها، وهم يستخدمون أسلحة مسممة في هجماتهم، ولديهم أنواع كثيرة جداً من الآلات الحربية، التي تقذف الرمايات بقوة شديدة، وبشكل

مباشـــر نحـو الهدف، وهم يأخـذون راحتهم في الهواء الطلق، ولايعبأون مطلقـاً بالأنواء العـاصفـة، وقـد أغـروا عـدداً مـن الشعـوب والفـرق للالتحـاق بهم، وهم عازمون على اخضـاع العالم كلـه، ولقد قـالوا بأنهم أوحي إليهم من السماء بأنهم سـوف ينهبـون العـالم كله لمدة تسعـة وثلاثين عـامـاً، مـؤكدين بـأن الانتقام الربـاني قد طهّـر العـالم بوسـاطة الطوفـان، ولسوف يتطهر الآن بوساطة اخلاء عـام له من السكان، وبدمار كلي، هم أنفسهم سـوف يتولـون تنفيذه، وهم يعتقـدون، لابل إنهم يقـولون، بأنهم سيكون لهم صراع حـاد مع الرومـــان، وهم يدعـون جميع اللاتين باسم رومـــان، وهم يخافـون من صنع معجـــزات من قبل الكنيســـة، وأن من الممكن أن يصـدر ضدهم قـرار بالإدانة في المستقبل، وهم يعلنون، أنهم إذا ما تمكنوا من غلبتهم، فلسوف يصبحـون على الفور سادة العالم كله، وهم يقدمون احترامـاً صحيحاً للمعاهـدات، في حالة الـذين قـدموا أنفسـهم عن طواعيـة لهـم، وتولـوا خدمتهــم، باختيـارهم أفضـل الجنـود من بينهم، الذين عندمـا يقـاتلـون، يضعوهم دومـاً أمامهم، وبالطريقـة نفسها يبقـون فيما بينهم مختلف أنواع الحرفيين، وهم لايظهـرون رحمة نحـو الذين يثـورون ضـدهم، ويرفضـون نير حكمهم، أو يقفـون ضـــدهم في أرض المعـــركـــة، وهم يستقبلـون الرســـل بلـطف، ويسهلون أعمالهم، ويرسلونهم عائدين».

وأخيراً سئل رئيس الأسـاقفـة المذكـور عن طرائقهـــم في عبـــور البحـــار والأنهار، وعلى ذلك أجـــاب بأنهم يعبرون الأنهار على ظهــور الخيـــول، أو على جلود صنعت لهذه الغـــاية، وأنهـم بنوا سفنـاً في ثلاثة أمـاكن على شـــاطىء البحـر، وقـــال أيضـاً بأن واحـداً مـن أولئك التتـار المذكـورين، وكـان اسمـه جـلال الدين Kalaladin, وكـان صهـــــراً لجنكيـــز خـان، قـــد اكتشف بأنه تحدث كـذباً، وقـــد نفوه إلى روسيــا، ووفـــرت حيـاته من قبل مقدمي التتار، مراعاة ولطفاً نحو زوجته.

رسالة مرعبة من التتار

وفي العام نفسه، ومع نهاية الصيف، أرسل الملك الرئيسي للتتار، مرتين رسائل إلى أمير أنطاكية، بوساطة رسل متنوعين، حيث أمره بإطاعة رغباته، في ثلاثة أشياء، وإلاّ فإن سيفاً دموياً سوف ينزل به انتقامه منه، وكان الأمر الأول، هو وجوب قيامه بتدمير أسوار جميع مدنه وقلاعه، وكان الثاني أن يرسل إليه جميع الموارد الناتجة من إمارته بالذهب والفضة، وكان الثالث هو أن يرسل إليه ثلاثة آلاف عذراء، وعندما سمع الأمير بهذه الرسالة استولى عليه الأسى وقال:

«مادام الرب موجوداً، ومادام قديسيه موجودين، أنا لن أستجيب لأي من هذه المطالب الثلاثة، وأفضل بالحري أن نتحارب من أجل حياتنا، وأن يتقرر هذا الخصام فيما بيننا أمام الرب»، وبعد هذا، عندما وجد الرسل منفذاً للتهديد عادوا إلى ملكهم، وجرى حمل رسالة مشابهة، من قبل الرسل التتار المتقدم ذكرهم، إلى ملك أرمينيا، وإلى بعض السلاطين المسلمين الأقوياء، غير أننا لانعرف أية رسائل أرسلت جواباً على مطالبهم.

المصالحة بين كنيسة وينكستر وبين أسقفها

وفي هذه الآونة، استأذن أسقف وينكستر الملك الفرنسي، والذين فتحوا له صدر الرحمة أثناء عيشه في المنفى، وبعد تقديمه الشكر لهم، ولكونه كان متأكداً من حظوة ملك انكلترا، بادر مسرعاً إلى وينكستر، ليكرس نفسه إلى الأعمال الأسقفية العائدة لكنيسته البائسة، وليصلح أوضاعها الفوضوية، ولدى سماع رئيس الرهبان في ذلك المكان باقترابه، عمل الضروريات اللائقة المحتاجة، مع أن ذلك جاء متأخراً، وتواضع بنفسه أمامه لدى وصوله، وبالطريقة نفسها تصرف الآخرون، سواء من العلمانيين والرهبان، والذين كانوا واثقين كثيراً جداً بحماية الملك، أي الذين كانوا

المثيريـن للفتن، والمتسببين بـالخلاف، عملوا الآن تكفيرات، وحـــولـوا عـواطفهـم نحـو أسقفهم، ومـا لبث بعـد ذلك، في يوم عيـد قطع رأس القديس يوحنا المعمـدان، أن جرى سحب القـرار الذي تفوه به الأسقف، والذي قضى بحرمان مدينـة وينكستر وكنيستها، والذي كانوا واقعين تحته منذ وقت طويل، وجـرى بذلك تحليل السكان بشكل حـر بوساطة صيغـة الشريعة.

ومع أن رئيس الرهبـان المتقـدم الذكـر جـون دي كـوز Cauz, قد جرى تحليله مع رفاقه بالطريقة نفسها، قد جرى خلعه مع آخرين معه، كان رئيس الرهبـان المذكـور قـد تجرأ على تعيينهم مـوظفين لديه، ووكـلاء علمانيين، وخضع عمـدة المدينة، الذي اقترف الذنـب الأعظم، إلى تكفير أثقل، وعقوبات أشد.

وفي السـابع من تشرين الثـاني، مـات آدم أسقف كـونور Connor, وحدثت وفاته في ويردون Waredon, حيث كان لبعض الوقت راعياً للدير، وفي ثمانيـة عيد القديس مـارتن أبحر أسقف لنكولن مـن أجل عقد محادثات سرية دقيقة مع البابا، من أجل تقرير مسألة العلاقة الضرورية بينه وبين رهبانه، ومالبث بعد ذلك أن قـام عميد تلك الكنيسة، وبرفقته بعض الرهبان، بالابحار، في سبيل الدفاع عن قضيته ضد الأسقف.

تكريس روجر إلى كرسي باث

في الحادي عشر من أيلول، في هذا العـام، جرى تكريس المعلم روجـر، رئيس جوقة المغنين في كنيسة سالسبري، والذي كان رجلاً صاحب أخلاق أدبية، ومتمتعاً بمعرفـة كبيرة في مواضيع اللاهوت، جرى تكريسه في ردنغ لكرسي باث، وعندمـا كان هذا الكرسي شـاغراً، اعتمد على مـوارده المعلم مـارتن، فبـاعتماده على سلطات قـداسـة البابـا، ألقى هذا باسم البـابا يديه الجشعتين، من أجل منحهم لواحد من أقرباء البابا المذكور.

وصول ملك فرنسا إلى الهيئة الكهنوتية للسسترشيان

ومع اقتراب عيد القديس ميكائيل، اجتمع رعاة طائفة ديرة السسترشيان، من مختلف البلدان والمناطق، لعقد اجتماع الهيئة الكهنوتية العامة لديهم، حسب عادتهم، وذهب الملك الفرنسي بشكل تقوي إلى هناك، ليسأل مساعدة صلوات جميع الرهبان، الذين اجتمعوا هناك، وكان برفقته النبيلة السيدة بلانشي أمه، التي كانت قد حصلت من البابا على امتياز السماح لها بالدخول إلى البيوت الدينية لطائفة الرهبان السسترشيان، وكان برفقتها اثنتي عشرة امرأة، لتقدم صلواتها، وكان هناك أيضاً مع الملك المذكور، وأمه، ومن أجل الغاية نفسها، أخوي الملك، كونتي أرتو وبواتو، ودوق بيرغندي، وذلك بالاضافة إلى ستة كونتات فرنسيين آخرين، ولدى وصولهم إلى شيستر، ترجلوا عن خيولهم، احتراماً للكنيسة، وساروا بشكل منتظم، وكانوا يصلون بتقى، وذلك من تلك البقعة إلى الكنيسة، وهي مسافة تعادل رمية قوس زيار، ولدى وصولهم إلى الكنيسة، خرج جميع رعاة الديرة، مع أعضاء ديرتهم، الذين بلغ تعدادهم حوالي الخمسمائة، وجاءوا بمسيرة لاستقبالهم، صدوراً عن الاحترام للملك الفرنسي، لأنها كانت المرة الأولى والوحيدة التي قدم فيها إلى ديرهم، وكان البابا على معرفة مسبقة بقدومه، فأرسل رسالة إلى الهيئة الرهبانية، التمس فيها بكل حرارة من الرعاة ومن الرهبان، أنه عندما سيكون الملك بينهم، لطلب صلواتهم، أن يتقدموا بالرجاء له، وهم جاثين على ركبهم مع أيد متشابكة، حتى يقدم مساعدته القوية وحمايته، حسب القاعدة الفرنسية القديمة، إلى أبيه، أي الراعي الأعظم، والحاكم الرئيسي للكنيسة، يعني الحبر الأعظم، ضد الإهانات التي كان يسعى لتجنبها، والمقدمة له من الامبراطور فردريك، الذي سماه برسالته بابن الشيطان، وإذا ما تطلبت الحاجة، أن يفتح صدر رعايته، وأن يستقبله بلطف في مملكته، مثلما كان قد فعل من قبل إلى البابا الاسكندر، صاحب الذكرى الطيبة، عندما كان في المنفى، هارباً من اضطهاد الامبراطور فردريك المذكور، ومثلما فعل، كما هو

معروف، أيضاً إلى توماس المبارك، رئيس أساقفة كانتربري، الذي هو الآن شهيد مجيد، حين قدم له المواساة، ومكانا للالتجاء، عندما نجا من غضب هنري، ملك انكلترا.

وعندما، بناء عليه، وصل الملك المذكور، تتقدمه أمه، وأخذ مقعده في قاعة هيئة الرهبان، في وسط النبلاء والرعاة، قام الرعاة مع رهبان الديرة، وهم جاثين على ركبهم مع أيد متشابكة، ودموع متدفقة، فتقدموا بتواضع بالطلب المذكور أعلاه إليه، ثم إن الملك، لدى رؤيته لهم على هذه الحالة، ولدى سماعه بطلبهم، جثا هو على ركبته نحوهم، ومنحهم المعروف المطلوب، وأعلن أنه بقدر مايسمح الشرف، سوف يصد عن الكنيسة الإيذاء المقدم إليها من الامبراطور فردريك، وإذا ما كان رأي نبلائه موافقاً، الأمر الذي لايمكن لملك فرنسا أن يرفضه، هو على استعداد لاستقبال البابا شخصياً، إذا ما أرغم على نفي نفسه.

وعند ذلك رد الرعاة بالشكر على معروفه هذا، ومنحوا الملك حصة خاصة في جهود أعمالهم الصالحة، هذا وكان للامبراطور أيضاً رسلاً خاصين هناك للحيلولة دون حصول مطالب البابا على أية نتيجة جيدة.

تكريس فولك باسيت أسقفاً للندن

وفي يوم عيد القديس دايونيسيوس Dionysius جرى تكريس فولك باسيت Bassett, عمدة يورك، أسقفاً للندن، وكان مشهور الأصل، ومشهوراً أيضاً بنقاوة أخلاقه، وتم التكريس في كنيسة الثالوث المقدس، في تلك المدينة.

ذهاب أوتو وبعض الكرادلة الآخرين بشكل سري إلى البابا في جنوى

وفي حوالي الوقت نفسه، تلقى أوتو أسقف بورتو، وبعض الكرادلة

الآخرين، على الرغم الشديد من حراس الامبراطور فردريك، ومع التسبيب لهم باضطراب عظيم، وهم الحراس الذين مركزهم الامبراطور لحراسة الطرقات، تلقوا أماناً من الميلانيين، ومن دول أخرى كانت مساندة للبابا، ومن مركيز مونتسرّات Montserrat وشخصيات تساند الكنيسة، وذهبوا دون أن يصابوا بالأذى، أو التعرض للخسائر إلى البابا في جنوى، وذلك على الرغم من الحرس الذين وضعهم الامبراطور لمراقبة الطرقات، ولدى وصولهم فرح البابا كثيراً وابتهج، وشعر بآمال بالتحسن في أوضاعه التي كانت مضطربة آنذاك، ومنذ ذلك الحين تدفق عليه، من جميع منطقة جنوى، أعداد كبيرة من أقربائه، وآله، وأصدقائه، وكل الذين كانت لهم أية علاقة به، ومع أنه كان بالمنفى، فقد تطلب الأمر، إما بسبب القرابة أو الصداقة منحهم موارد، لإستخدامات أولادهم وأحفادهم، وبشكل خاص أن تكون هذه الموارد، من مملكة انكلترا.

وصول حملة الصليب إلى إنكلترا

في يوم الاثنين، قبل عيد جميع القديسين، وصل إلى مجمع الأساقفة لروكستر، بعض الأشخاص، مظهرين نوعاً جديداً من الرهبانية، وقد عرفوا باسم رهبان حملة الصليب، من حملهم صلباناً على عصي، وطلب هؤلاء الرجال من النبلاء مكاناً للإقامة، مظهرين امتيازاً لم يسمع به من قبل، منح إليهم من البابا، من أنه لايجوز أن يسمح لأحد بنقد طائفتهم، أو إهانتها، أو توجيه الأوامر إليهم، وقد منحوا سلطة التفوه بأحكام الحرمان الكنسي ضد الأشخاص الذين يفعلون مثل هذا الشيء، وعجب الرجال الحكماء والمستقيمون كثيراً، وأصيبوا بالدهشة من ظهور مثل هذه الطوائف الجديدة يومياً، وتكاثرها ونموها من دون نهاية، وبناء عليه حدث أن كثيراً من الرجال المتعلمين، قد تخلوا عن نظام بندكت الأعظم مباركة، والذي تمثلت فيه روح جميع القديسين، وعن نظام أوغسطين النبيل، وعملوا ضد مبادىء ومقررات المجمع العام الذي عقد في أيام البابا إنوسنت الثالث،

صاحب الذكرى المجيدة، وهربوا فجأة إلى هذه الطوائف التي لم يسمع بها من قبل، والمخترعة حديثاً، ففي ذلك المجمع كان قد تأكد بشكل ثابت، وتقرر أنه بعد القبول، ومنح الشرعية لكل من الدومينيكان والفرنسيسكان، وجوب عدم قبول أية طوائف جديدة من ذلك الوقت فصاعداً، أو إذا جرى قبولها، عدم منحها الشرعية، حتى لاتتضرر الطوائف المقبولة والشرعية، وتصبح أقل تقديراً، ويتم التخلي عنها، وعلى هذا المرسوم أعطى جميع الكرادلة، وكل جماعة المؤتمر موافقتهم.

كيف حمل البابا نفسه إلى مدينة أستي

وفي حوالي الوقت نفسه، ذهب البابا إلى مدينة أستي Asti, بناء على مبادرة أقربائه في جنوى، الذين كانوا عطاشى يسعون متشوقين وراء المال، والذين أقنعوه بالذهاب على الفور، واستقبال الانكليز والفرنسيين، وجيرانهم، الذين كانوا جالبين الهدايا إليه، وأن لايغلق يده ويرفض الهدية المقدمة إليه من قبل أي انسان، وأن يدعو أيضاً في الوقت نفسه إلى مجمع عام، لإعلان قرار ضد الامبراطور فردريك، الذي كرهوه، ولكي يشبعوا رغباتهم بالانتقام، وكذلك في سبيل نيل الثروة، وبناء عليه انطلق البابا، يحيط به حشد من الجنويين المسلحين، وركب الطريق بشكل مفاجيء وسري إلى المناطق الأكثر قرباً من الأراضي الفرنسية، وحيث قامت الآن مدينتا أستي، وأليساندريا Alessandria,وعدة مدن أخرى. فانسحبوا من كل ولاء وطاعة إلى الامبراطور فردريك، وتحولوا إلى البابا، وبذلك نفذوا قول الشاعر:

يتقلب العامة دوماً مع أميرهم

البابا يسير إلى ليون

وبعد إقامة قصيرة في أستي، قام البابا الذي شعر بالاستراحة وجدّد نشاط نفسه، فغرر بحرس الامبراطور الذين كانوا متمركزين باتجاهات

مختلفـة، لإعـاقـة رحلتـه، ومع بـداية نهاية الصيف، حمل نفسـه إلى ليـون، ليمضي هناك الشتـاء، حيث ارتحل مسرعـاً، مع محطات مفـاجئة في كل من الليل والنهار، لكن ليس من دون مخاطرة كبيرة.

رفض منح ملك إنكلترا مساعدات مالية

في اليوم التـالي لعيد جميع الأرواح، اجتمع نبـلاء انكلترا، ووقتها طالب الملك بإلحاح شديد، إن لم نقل من دون حياء، مجدداً بالمسـاعدة المالية منهم، ولكن بما أن الضرر قد لحق بهم مراراً وخدعوا قاموا بالاجماع، وأعلنوا بفم واحد، رفض طلبـه في وجهه، وكـان الملك مصمماً آنذاك على إرسال جيش كبير العدد ضد الويلزيين، وبالإضافـة إلى ذلك كان مداناً ديناً كبيراً إلى تجّار القـارة، وإلى تجّار الخمـور وسـواهم، من أجل الجعـة وحـاجيـات أخـرى للحيـاة، حتـى أنه كـان نادراً مـايري نفسـه بين الناس، بسبـب الطلبـات الصاخبة للأشخاص الذين كانوا يطالبون بما هو حق لهم، ومن ذلك الحين بات واضحاً أنه هوجم بشكل مهين ووقع في المصائـد المخادعة للأجانب: الذين كانوا ينشدون فقط مرابحهم.

كيف جرى استخراج المال من سكان لندن

وبناء عليـه بات الملك يسعى لاهثـاً وراء المال، ولذلك قـام من دون استشارة جماعـة المملكة بشكل عام، أو على الأقل من دون مشورة نبـلائه، من دون حيـاء، فاستخـرج بالقـوة ألفـاً وخمسمائة مـاركـاً من سكان لندن، مقدمـاً تعليلاً منطقياً، أو جعلهم يفهمون ذلك من قبله ومن قبل وكـلائه، ذلك أن فـريق الملك قـد أكـد، بأن اللندنيين قـد استقبلوا منذ عشرين سنة خلت واحـداً من أبناء مدينتهـم واسمه وولتر دي بوكـريل Buckerell, الذي نفي بشكـل عـادل من المدينة، ومكث وقتـاً طويـلاً في المنفى، لكن سكان لندن نقضـوا هذا، وأعلنوا بأنه قـد عمل من الرعيـة بشكل شرعي، بوسـاطة الالتماسات، والهدايا التي قـدمت من قبل أخيـه أندرو إلى الملك،

وبناء عليـه عفي عنه بموافقـة الملك وأمره، وصار بذلك واحـداً من أهل المدينة، ويشهد على ذلك ملفات الملك، وعلى هذا رد المعترضون على الفور بتفاهـة باسم الملك، بأن الملك كان في ذلك الوقت صغيراً، وضعيفـاً، ومن السهل قيادته والتغرير به، ولذلك فإن الذي وافق عليه بات فارغاً ولا قيمة قانونية له، ولاشك أن هذا جاء لصـالح إهانة الأوصياء عليه، لأن القرار لم يكن مـؤيداً بـالمنطق، بل بالإرادة فقـط، والذي حـدث أخيراً أن السكان أرغموا على دفع المبلغ المالي المذكور، ليرمى به للأجانب.

حول النصر الذي ناله نيقولا دي مولي قهرمان غسكوني

وحـوالي هذا الـوقت من العـام، حـدث أن نيقـولادي مـولي Molis, قهرمـان غسكوني، الذي كان الملك قـد تركه في تلك البلاد، وعيّـنه حاكماً على تلك المقـاطعة، والذي كـان مشغولاً بحرب ضـارية ضد ملك نـافار، حدث أن واتاه الحظ في إحدى المعارك، ونال نصراً عليه.

موت مرغريت أخت ملك سكوتلندا

وفي يوم عيـد القـديس هوغ، مـاتت مـرغـريت أخت ملك سكوتلندا، وأرملة غيلبرت ايرل مـارشال في لندن، ودفنت بطقـوس موائمـة واحترام بين رهبان الدومينيكان.

موت وليم أسقف وينكستر

وبعد ذلك بوقت قصير، دفـع دين الطبيعة وليم دي بروير Bruyere, أسقف وينكستر، وكـان رجـلاً مـايزال في أول حيـاته، ومن أسرة جيـدة، ومتميزاً بأخلاقه وعلومه.

كيف استرد ملك فرنسا صحته بطريقة رائعة وحمل شارة الصليب

في هذا العام، ومع ميـلاد مولانا، وقع الملك لويس، ملك فـرنسا،الذي

كان مـايزال يعاني من بقـايا المرض الذي أصيب به، عندما كـان منشغلاً في بواتو، وقع في حـالة سبات تشبه الموت، وتمدد لعـدة أيام وكأنه كان ميتـاً، ووفقـاً لما ذكره عـدد من الذين جلسوا من حـوله، كان قـد حرم تمامـاً من التنفس، وأعتقـدت أمه مع أخيـه وبعض الآخرين من أصـدقائـه المقربين، الذين وقفوا هناك، بأن الملك صار متيبساً بسبب الموت، وتفوهت أمه التي كانت متـأثرة بالحزن أكثر من الآخـرين، تفوهت والآهات تقطع كـلامها، بالكلمات التالية:

«ليس لنا يارب، يارب ليس لنا، بل أعط لإسمك المجد، واحفظ في هذا اليـوم مملكة فـرنسـا، كما فعلت دومـاً حتى الآن بشكل مشرف»، ثم إنها وضعت على جسد ولدها الصليب المقـدس، وتاج المسيح، والرمح، وهي الأشياء التي جرى تملكها في أيامه، وعملت تعهداً باسمه، أنه إذا ما تلطف المسيح بزيارته، وقام بحفظه، ورده إلى الصحة سوف يحمل —أي الملك— الصليب، وسوف يزور ضريحه المقدس، الذي كان قد كرّسه بدمه، وبعدما قامت أمـه، وجميع الآخرين الذين كـانوا حضوراً، بمتابعـة الصلاة لبعض الوقت من أجله، بكل اخـلاص للقلب، قام الملك، الذي اعتقـدوا أنه كان ميتـاً بالتنهد فجأة، ومـدّ ذراعيه وسـاقيـه، مع صوت عميق، كأنه صـوت واحد قد قام من القبر، وقال:

«لقد قام الذي نبع من عليين —بنعمـة الرب— بزيارتي، واستعادني من الموت»، ومـا لبث بعـد ذلك أن استرد صحتـه، وحمل بشكل مهيب شـارة الصليب على كتفيـه، مقـدمـاً نفسـه، بشكل تطوعي قـربان محرقـة للرب، وعمل نذراً، أنه إذا مـا سمح له مجلس المملكة، الذي كـان قد تولى شـؤون الحكومة، وسمح له، سوف يزور بشخصه الأرض المقدسة.

مساعي داود أمير شمالي ويلز لتحرير نفسه من النير الإنكليزي

وفي هذه الآونة، أرسل داود أمير شمالي ويلـز، وابن أخت ملك انكلترا،

وكان خائفاً كثيراً من غضب الملك المذكور، الذي أثير ضده بشكل عادل، أرسل رسلاً خاصين إلى البابا، مخبراً إياه بوساطتهم، بأنه قد عهد بنفسه وبجميع أراضيه إلى كنيسة روما، لكي يحمى من قبلها ضد إدعاء ملك انكلترا، وليعد نفسه، أي داود وورثته، اقطاعياً مستأجراً منها مقابل خمسمائة مارك سنوياً، وبعدما ترافع بطلب العدالة، حصل على رسائل حول هذه القضية، لكن ليس من دون انفاق كبير للمال، و كانت صيغة ما حصل عليه كما يلي:

الكتابات التي حصل عليها الأمير المذكور ضد ملك إنكلترا

«إلى هنري اللامع، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، وإلى راعيي ديري أبركونوي Aberconway وكمير Kemereمن طائفة السسترشيان، المفتشان المعينان من قبل قداسة البابا، صحة في الرب: لقد تسلمنا وصاية من البابا، فيما يلي نصها»:

«من أنوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى ولديه المحبوبين كثيراً، راعيي ديري أبيركونوي وكمير من طائفة السسترشيان، المقيمين في أسقفية بانغور Bangor, صحة ومباركات رسولية:

'لقد عرض علينا، باسم النبيل داود، أمير شمالي ويلز ولصالحه، أنه بما أن الحروب، قد دامت قائمة بينه —أي داود المذكور— الذي كان والداه قد قدماه ولد رعاية إلى كنيسة روما، وبين ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك المشهور لانكلترا، وأن ذلك قد استمر حتى بعد الوصول إلى تسوية، بوساطة رجال صالحين، حيث عملت من قبل أخينا المبجل أسقف القديس أساف مع رفاقه، من أن كلا الفريقين سوف يلتزم بقرارهم في جميع قضايا الشكايات، لابل إن يميناً جرت تأديته من قبل الفريقين لهذا الغرض، لكن الملك المذكور لم يقم تقديراً لذلك، وقد خرق قرارهم، حيث لم يكن قانونياً بالنسبة له فعل أي شيء في القضية، وقام بشكل غير متوقع

فعمل حرباً ضد الأمير المتقدم الذكر، وبوساطة القوة وبوساطة الرعب، الذي يستولي في بعض الأحيان، على أشجع الرجال، تمّ إرغامه على التخلي عما كان قد أقسم عليه، ومثل فعل الملك مع آخرين من رعيته بشأن القضايا المذكورة أعلاه، التي من أجلها عملت التسوية، وبناء عليه، بما أن الأشياء التي عملت من خلال الخوف، أو بوساطة القوة، ينبغي أن تعد فارغة من التأثير، إننا بوساطة هذه الوثائق الرسولية، نأمركما، بناء على إخلاصكما، أن تقوما بالتقصي في هذه القضية بكل يقظة، بحثاً عن الحق في هذه المشكلة، وإذا ما وجدتما القضية، حسبما تقدم الذكر أعلاه، حررا بموجب سلطاتنا الأمير المتقدم ذكره، من أية مراعاة أو تقيد باليمين، الذي استخرج هكذا منه، وكذلك قوما من دون أية صعوبات بتحليله، لأن ذلك عدل، بموجب صيغ الكنيسة، أي تحليله من أي حكم صدف وصدر ضده، من قبل أي واحد، فيما يتعلق بهذه المسألة، سواء ضد شخصه أو ضد أراضيه. شهد، إلخ، صبدر في جنوى في اليوم السادس والعشرين من تموز، في السنة الثانية من بابويتنا». «وإننا بناء على قوة هذه السلطة، نأمركم بالظهور أمامنا في كيروس Keyrus في كنيسة غستفند Gustefend, في عشية عيد القديسة العذراء أغنس Agnes, للإجابة هناك عن الأمير المذكور، حول القضايا الواردة في الوثيقة المذكورة، حسبما ترياه مناسباً».

وعندما وصلت هذه الوثيقة إلى علم الملك وعلم نبلائه، وبعدما طارت بعد ذلك على أجنحة الشهرة إلى بقية المقدمين، غضبوا غضباً شديداً، وأقنعوا الملك بعدم الانصياع إلى أية أوامر من هذا النوع، وحثوه على الحرب، ومهاجمة داود المذكور من دون أي تأخير، وعندما سمع البابا بهذا، تغاضى عما حدث، وأخفاه كلياً، لكنه على كل حال لم يُعد إلى داود الهدايا التي كان قد تسلمها منه.

حول رعد سمع في الشتاء

في شهر تشرين الثاني من هذا العام، والحوادث الحزينة تقوم بالعبور،

جري سماع رعـود بشكل واضح، ورؤية بروق، استمـرت لمدة خمسة عشر يوماً متوالية، وتبع ذلك حالة من الأنواء مزعجة.

حول التفتيش الذي جرى بشأن احتلال الغابة الملكية

وفي هذه الآونة، نصح روبرت باسلو Passlow, وكان كـاهناً لدى الملك، بأن يتبنى سلوكاً قـاسياً، يكون في الوقت نفسه مفيـداً له، وكان هذا بأن يقـوم بتفتيش دقيق حـول احتـلال الغـابات الملكيـة، أو الأراضي التي ليست بغـابات، التي هي بين النـاس القـاطنين على مقـربة منهـا، في سبيل تحميل الذين أقدموا على مثل هذه الاحتلالات، عقوبات قاسية، وقام هو، بناء على أمر الملك، بجمـع كل رفاقه من أجل هذه الغـاية، وهـم: لورانس، الكاهن في كنيسة القديس ألبان، وغيوفري دي لانغلي Langley, وكان فارسـاً، وذهب روبرت المذكور إلى دوائر مختلف الكونتيـات، وفرض على كثيرين، بوساطة حجج مضاعفة، وقام في سبيل إغناء الملك، بإفقار الجميع بشكل لايمكن الخلاص منـه، وكـان الذيـن أفقـرهـم: رهبـان، ورجـال علمانيين، ونبلاء، وعاديين، وجـاء افقارهم إلى درجة أن كثيرين منهم باتوا من دون بيـوت، ومتجولين، وقد أرغمـوا على التسول، وألقى بآخـرين في السجن، أو جـردهم من ممتلكاتهم كلهـا، فعاشـوا حـالة مـزرية طويلة من الحاجـة والشقاء، وكـان من بين هؤلاء: جـون دي نيفيل Nevill, الذي كان مسـؤولاً أعلى عن الغابات، وكـان أبوه هوغ قد شغل الوظيفـة نفسها قبله، والذي لم يكن الأقل بين نبلاء انكلترا، وقـد جرم وأهين بشكل عميق إلى حـد أنه ألقي به في السجن، وكـان مـن المتـوقع حـرمـانه من ميراثه، أو إرغامـه على دفع فدية مـذلة، أو المعاناة من عقوبة أخـرى قاسيـة، ما لم تقم الرحمة الملكيـة بالتخفيـف من قسـوة العقـوبة، بناء على وسـاطة قـوية، أو وسـاطة بعض النبـلاء الآخـرين، وهـوعلى كل حـال لم يستحق الرحمة من أناس رحماء، لأنه عندمـا كـان مزدهراً، لم يعـرف كيف يرحـم الذين كـانوا خاضعين له، في مثل هذه المصيبة.

انتخاب روبرت باسلو إلى كرسي شيستر وهو الانتخاب الذي ألغي بعد ذلك على الفور

وبإضافة هذا المذكور روبرت باسلو، بضعة آلاف من الماركات إلى الخزينة الملكية، حصل على حظوة الملك إلى درجة مدهشة، ولدى رؤية كهنة شيستر هذا، اعتقدوا أنه شخص مناسب، ومفيد كثيراً، ليتولى حكم كنيستهم، بحكم كونه عاقلاً، ورجلاً بارعاً، وقد أملوا بذلك إرضاء الرب وإرضاء الملك والحصول بالوقت نفسه على حظوة الملك وحمايته، وتقدم كنيستهم بذلك، ولذلك انتخبوا روبرت باسلو المذكور أسقفاً لهم، لكن غضب من ذلك غضباً شديداً الرئيس المنتخب لأساقفة كانتربري مع عدد كبير من الأساقفة، وجاء ذلك عندما عرفوا به، واكتشفوا ذلك، وألقى جانباً كل خوف من الملك ومن تعاطفه، وتولى فحص روبرت المذكور، ببعض الأسئلة الصعبة جداً، وجاء ذلك من خلال أسقف لنكولن، ورفض أخيراً انتخاب الأسقف، وألغى انتخابه على الفور، ومن دون أن يطلب موافقة الملك، وعيّن المعلم رتشارد دي ويتز Witz, واشتعل غضب الملك لهذا، وكان ذلك ضد الأسقف المنتخب، وضد الأساقفة الآخرين، وأعطيت موارد المعلم رتشارد المذكور، حتى بعد انتخابه، إلى أشخاص موائمين ويستحقون، لأن المعلم مارتن، كاهن البابا، والذي كان حاضراً وجاهزاً، وكان قد عيّن من قبل البابا لهذه الغاية، غاية السعي بلهفة وراء الموارد الشاغرة، وعندما سمع الملك بهذه الإجراءات، غضب غضباً شديداً، ومنع الأسقف المنتخب حديثاً، والذي جرى اختياره من دون أخذ رأيه، مما سبب إساءة كبيرة له شخصياً وللمملكة، منعه ولم يسمح له بالقبول في أية بارونية تابعة لكنيسته، أو إلى أية ملكية علمانية، وهذا قد جرى ذكره من قبل.

منح الملك لبعض الهدايا الثمينة في كنيسة القديس ألبان

في يوم عيد القديس توما الرسول، ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان، ليقيم هناك، وعندما ذهب صاعداً —حسبما جرت العادة— إلى المذبح الكبير، ليقدم هناك صلواته، قدم رداء ثميناً، وثلاثة أطواق ذهبية، ليجري تعليقها في المعبد، بمثابة ذكرى له، وتشريفاً للشهيد، مع أنه كان قد قدم سبعة من قبل.

وأقام الملك لمدة ثلاثة أيام في ذلك المكان، وعندما كان هناك، وصله تقرير بأن كونتسة فلاندرز، قد دفعت دين الطبيعة، وبناء على هذه الأخبار، أمر —حسبما جرت العادة مع الملوك المسيحيين— بتقديم صدقات كبيرة إلى الفقراء، لصالح روحها، وبإقامة جناز مهيب، يعمل بشكل تقي في سدة جوقة القديس ألبان.

عرض مختصر لأحداث هذا العام

وهكذا انتهى هذا العام، الذي كان خلاله كله وافراً بانتاج الفواكه والقمح، وكان ذلك بالفعل كثيراً جداً، إلى حد أن سعر مقياس القمح نزل إلى شلنين، وكانت حوادثه ضارية جداً بالنسبة إلى الأرض المقدسة، وقد تميز بالاضطراب في انكلترا، وكان مشحوناً بالرعب بالنسبة للمملكة الفرنسية، وقد أثار الشكوك في الكنيسة، والشغب بين الايطاليين.

احتفال الملك بعيد الميلاد في لندن ومنحه شرف الفروسية لجون دي غيتدن

سنة ١٢٤٥، التي هي السنة التاسعة والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، فيها أمضى عيد الميلاد في لندن، واحتفل بمهابة بذلك العيد، برفقة كثير من نبلائه، وفي ذلك المكان، منح في يوم الميلاد شرف الفروسية لجون دي غيتدن Gatesden, الذي كان كاهناً قد تمتع بكثير من المنافع

الغنية، لكنه قام الآن، كما ينبغي، بالتخلي عنها كلها، وكان جون هذا رجلاً حكيماً، ومواظباً، قد قام بوساطة صناعته بإغناء نفسه بكثير من الممتلكات العلمانية، ولدى زواجه من ابنة سيدة نبيلة، اسمها روشيا Roisia دي بروس، تخلى عن المعالجة الخطيرة للأرواح، وتقدم ليصل إلى مكانة أعلى النبالة، ونتيجة لذلك، فإن كثيراً من الذين كانوا نبلاء من حيث المولد، مع أنهم كانوا وضعاء من حيث العقل، أصبحوا حاسدين له، وأقاموا المصائد لإيذائه، لكن جون المذكور، الذي كان حكيماً نجا من محاولاتهم، لكن ذلك لم يكن من دون مصاعب.

كيف قام رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري مع أسقفي ووركستر وهيرفورد بالعبور إلى القارة

بينما كانت هذه الحوادث في سياق الوقوع، قام بونيفيس رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري مع أسقفي هيرفورد وووركستر، الذين كانوا من بين جميع أساقفة انكلترا الأصدقاء المقربين جداً من البابا، وكانوا المشكوكين بهم الأكثر من قبل الانكليز، قاموا فجأة بالإبحار للذهاب إلى البابا، في سبيل القيام ببعض الأعمال السرية (التي لم تكن معروفة لدى الجماعة بشكل عام)، وكانت جميع القضايا قد جرى توزيعها في دير كانتربري، أو كل ماتعلق بالتجمع الديري، وحسبما هو معتاد في بلاطه، كانت الوظائف مع الموظفين تحت تصرفه، أكثر من أي واحد من سلفه قد سمح له أن يفعل، وكان بونيفيس، بعدما قام أيضاً بفحص دقيق، قد أعلن بأن كنيسة كانتربري، كانت مكبلة بديون لايمكن جبرها، وذلك لصالح رئاسة الأسقفية، وقد بلغت الديون إلى مبلغ خمسة عشر ألف مارك، وبناء عليه عندما كان على وشك المغادرة والاقلاع من دوفر، أمر بجميع الأشجار الحراجية العائدة إلى رئاسة الأساقفة، بأن تقطع وتباع، وأن تجري جباية ثقيلة وفرض ضرائب أيضاً بين رجال الدين، وكذلك بين الناس، وقال بعض الناس، بأن هذه الجبايات قد عملت بقصد القيام بحرب ضد واحد

من فرسـان بروفانس، الذي كان عنـدما سمع بمحتويات وصيـة ريموند، كـونت بروفـانس، أبدع خطة للتـآمـر، يخطف بمـوجبهـا الابنة الصغـرى للكونت، لأن الكونت عندمـا وجـد نفسه على حـافـة الموت، وعلى وشك توزيع ممتلكاته، وعمل وصيتـه، دعـا إليه ابنتـه الصغـرى، وخاطبهـا بهذه الكلمات:

«ابنتي العزيزة، المحبوبة لدي أكثر من جميع أخواتك، أنا مدرك أنه بقدر من الرب، تمتعت بناتي كلهن، باستثنائـك وحدك، بزواج مغبـوط إلى أعلى الدرجـات، وكان ذلك مـوضع اعجاب جميع المسيحيين، وإليك بناء عليـه سـوف أعطيك وأهبك عنـد زواجك —بإرادتي ووصيتي— جميع أراضي، مع أموالي، وقـلاعي، وجميع ممتلكاتي الأخرى، لأن أخواتك لسن بحـاجة إلى تقسيم الميراث، في سبيل إعطـاء حصـة لكل واحـدة منهن»، ونتيجـة لذلك، وكما ذكـرنا من قبل، فإن أحد الفـرسان الذي كـان صاحب ملكيـة صغيرة، لكن كـان جـريئاً وشجـاعـاً في الحرب، انجـذب بجمال السيـدة، وكـذلك بـالميراث الغني العـائـد إليهـا، فقـام باختطافهـا بشكل سري، ووضعها في مكان آمن، في قلعة قريبة، كانت عـائدة إليه، عاداً ما عمله ذنباً مغفوراً تماماً، تبعاً لقول الشاعر:

المرأة جائزة مفرحة

وغضب جميع أقـرباء الكونـت وأصـدقـاؤه من هذا العمل المتهـور لهذا الفارس، وشنوا الحرب ضده، وكان الفـارس —على كل حال— واثقاً من كـونه كـان متملكاً للجـائـزة، ومعتمـداً على حقـه، زاد يوميـاً من تعـداد أصـدقـائه، ودافع عن نفسـه بشجـاعـة، وعن هذا، صـدر لذلك، في تلك المناطق صراع كبير، وكـانت هناك اضطرابات مـؤذية بين الفئتين، بسبب هذه السيدة، ثـم إن الملك الفرنسي، بحكم وجود الابنـة الكبرى، التي كان متزوجاً منهـا، ادعى بجرأة وطالب بالحق العائـد إليه بشكل خاص، وبهذا ازداد الصراع عنفاً يومياً، لأن البروفانسيين كـانوا يشعرون بكراهية عظيمة

ضد الفرنسيين، وأعار بونيفيس، الرئيس المنتخب لأساقفة كانتربري مع أخيه فيليب بال Bal اهتمامهما لهذه الحرب، لأنهما كانا خالا الفتاة، مما سبب نفقات كبيرة وأذى عظيماً للكنيسة الانكليزية، ففي سبيل تقوية الحرب، اخترعا كثيراً من الأعذار من أجل جمع المال، وكدسا معاً الكنز فوق الكنز، ووزعا هذه الأموال بين الفرسان المدفوع إليهم مع رجال آخرين من أقربائهما، وأكدا —في سبيل إعطاء لون ما لشرورهما— أنهما بحاجة كبيرة لهذا المال في سبيل تحرير كنيسة كانتربري، التي قالا: (كثيراً في سبيل إيذاء أسلافهما، الذين كانوا على رأس تلك الكنيسة، وحكموها دوماً من دون ملامة) بأن رؤساء الأساقفة المتقدمين، قد أثقلا الكنيسة بأعباء من الديون قد يكون من غير الممكن الوفاء بها وسدادها، وحصل بونيفيس من البابا على امتياز غير اعتيادي، لم نسمع قط، ولانذكر بأنه قد منح مثله من قبل إلى أي إنسان، وحصل أخوه فيليب أيضاً —الذي كرس نفسه إلى السلاح في هذه القضية— على امتياز من البلاط الروماني، مقابل نفقات عالية، حيث أعطي إذناً بالاحتفاظ بالموارد، التي قد حصل عليها في انكلترا، وكذلك انتاج أسقفية بلنسية، وكذلك بعض الموارد الأخرى الكبيرة، التي كانت مستفيدة آنذاك، وحول هذا سوف تحكي الرواية التالية التفاصيل وتوضحها.

ولادة ملكة إنكلترا لصبي

في يوم عيد القديس مرسيلوس Marcellus, ولدت الملكة إليانور صبياً، منح —بناء على أمر الملك— اسم إدموند.

موت كونتسة أكسفورد

في يوم عيد طهارة القديسة مريم، غادرت كونتسة أكسفورد، التي عرفت رسمياً باسم ايزابيلا دي بيلبك Belbec, هذه الحياة، وقد دفنت في كنيسة الرهبان الدومينيكان، في اكسفورد، التي كانت هي المؤسسة لها.

موت بلدوين إيرل أوف ديفون

في اليوم التـالي لعيد القـديس فالنتـاين، مات بلدوين ايـرل أوف ديفون Devon, وكان في مطلع شبابه، وكان يعرف بشكل عام بـ «دي لى آيل» L'Isle وكان مـوته مناسبة للبكاء، حتى مـن قبل أعدائه، إن كـان له أياً منهم.

حرمان الإمبراطور كنسياً ثانية في فرنسا

ومع بداية الصـوم الكبير، أمر البابا بأن يحرم الامبراطـور كنسياً في جميع أرجاء فرنسا، وذلك بسبب بعض الأذى الجديد الذي اقترف من قبله، ضد أقربائه —أي البابا— وضد بعض اللاهوتيين، ولدى ارسال هذا الأمر من قبل واحد من موظفيه إلى واحد من الكهنة كان يعيش في باريس، شعر هذا الكاهن بحزن عظيم، لأنه غدا من نصيبه القيام بحرمان الامبراطور كنسياً، ونحن لانعرف لماذا كـان لديه تقديراً له، ولقد لعن البـلاط الروماني، الذي كانت له تجربتـه معه، وبناء عليـه قال في يوم العيـد، بشكل علني إلى أعيان الباريسيين الذين كانوا حضوراً بأعداد كبيرة:

«أصغوا إليّ أنتم جميعـاً، لقد تسلمت أوامر، بأن أقـوم والشموع مشتعلة والأجراس تقـرع، بإصدار قرار مهيب بالحرمـان الكنسي ضد الامبراطور فـردريك، وأنا جـاهـل بسبب هذا، لكنني لست جـاهلاً بالصراع الجاد، والكراهيــة التي لايمكن اخمادها، والتي نشأت بينه وبين البــابا، وأنا على دراية بأن أحـدهما اقترف أذى ضد الآخـر، لكن من الذي هو المذنب ضـد الآخـر، أنا لاأعـرفـه، وإنه بالنسبــة لسلطاتي، على كل حـال، التي تشمل الحرمــان الكنسي، فـإنني أعلن أنه محروم كنسيــاً الذي اقترف أذى بحق الآخـر، وليكن أي واحد من الاثنين، وإنني أحلل الذي عـانى من الأذى، الأمر الذي هو مضر بالنسبة لقضية المسيحية».

وقـد تفـــوه بهذه الكلمات الخفيفــة، على شكل مــزاح، وفـق طرائق

الفرنسيين، وقد صارت على الفور في أفواه الكثيرين، وقد انتشرت بالطول وبالعرض، حتى وصلوا مؤخراً إلى علم الامبراطور، الذي قام بعدما قدر معانيهم ومراميهم، فأبدى سروره من الكاهن المذكور، وأرسل إليه بعض الهدايا اللطيفة، لكن البابا اتهمه بالاستخفاف، وبالكلام الطائش، وعاقبه.

الاستيلاء على ثلاثمائة ويلزي

وأثناء الصوم الكبير نفسه، جرى مقتل ثلاثمائة ويلزي، وأكثر في مونتغومري Montgomery، وجاء مقتلهم على أيدي الانكليز تحت قيادة قسطلان قلعة ذلك المكان، الذي وضع ببراعة كميناً خلفهم، ثم إنه أظهر مايشبه الذعر، فتراجع أمام الويلزيين، وعندها هاجمهم الانكليز الذين كانوا متخفين من الخلف، وجعلوهم جميعاً طعمة للسيف.

اعتقال مونتونت من قبل الويلزيين

ورغب في الأسبوع نفسه داود بأن يعوض خسائره، فناوش الانكليز وضايقهم بوساطة غارات ليلية مستمرة، وشغل نفسه من دون توقف بالقتل والنهب والاغتصاب، لكن عندما قدم بعض الفرسان الانكليز الشجعان من الحدود للتصدي للويلزيين مع الحدوديين الخاضعين لهم، وقام الويلزيون، حسب عادتهم بالفرار إلى الأماكن الوعرة، والتي لايمكن الوصول إليها في الجبال لنصب الكمائن لأعدائهم العابرين، قذفوا من رؤوس الجبال بالحجارة والأسلحة، حيث جرحوا عدداً كبيراً من الانكليز، كان من بينهم نبيل انكليزي اسمه هيربرت فتز— متى، الذي قهر بوساطة كتلة من الصخر، حطمت رقبته، وسحقته حتى الموت، وإلى هيربرت هذا نفسه، حدث له حادث مدهش، يستحق الرواية، وتدوينه كتابه، فبعدما كان قد تمّ الاتفاق، وتقرر من قبل الانكليز في اليوم المتقدم، بأنهم ينبغي الزحف في اليوم التالي على تعبئة ضد داود وعساكره الويلزية، انزعج هيربرت المذكور في منامه بوساطة حلم، أو بالحري بوساطة رؤيا،

حتى أنه أفاق وهو في حالة خـوف عظيم وهو يرتجف، وبقي غير قادر على الاستراحـة وعلى النوم طوال بقية الليلة، وأرسل في الصبـاح الباكـر خلف كاهن، وعمل له اعترافاً كاملاً، وحصن نفسـه بأخذه أيضاً قرباناً صحيحاً، وعندمـا سئل عن السبب لفعله هـذا، خـاطب رفـاقـه وهو يتنهـد، وكأنه يتحدث بوسـاطة روح منذرة سلفاً، وحـدثهم عن غرائـب حلمه المرعب، وقال بالوقت نفسه:

«مـراراً كثيرة انشغلتُ أنا كثيراً في استخـدام السـلاح، وعـرضتُ نفسي لمخـاطر الحرب، لكن اليـوم أنا أعتقـد باخـلاص أن براعتي المتواليـة باستخـدام السـلاح، سـوف تصل إلى خـاتمة نهائيـة»، ولدى سماع رفـاقـه بالسـلاح لهذه الكلمات، والذين كـانوا يقدمـون تأويلاً صـالحاً لكل شيء، أعلنوا أنه يتـوجب وضع ثقـة قليلة بالأحـلام، وأخـذوه بعيـداً معهم، في سبيل أنه، وهو الذي غـالبـاً مـا هزم أعداءه، ينبغي عـدم اتهامـه بالخوف، ولكن في اليوم نفسه، عندما كانوا يعبرون خلال مكان ضيق، يدعى بشكل عام باسم الممر، حدثت المأسـاة التي تقدم ذكرها، وسقط مقهوراً بكتلة من الصخر، وحـزن الانكليز كثيراً لوقـوع هذا الحادث، وتوقف جميع الجنود، ودفنوا جسده، بمراسيم مهيبـة، وحدثت وفاته في اليوم التـالي لعيد طهارة القديسة مريم.

الموت المأساوي لهيربرت فتز— متى

وذكر أشخاص آخرون بأن هيربرت فتز— متى، سقط من على حصانه، وعندمـا كـان ما يـزال حياً، جـاء ويلزي، وتصـارع الرجـلان مع بعضهما بعضـاً، حـول من سيكون الآسر للآخـر، من أجل الحصـول على الفـدية، وأراد أحـدهما أن يضـع نهاية للصراع، فطعن هيربرت بطعنة مـرت من الخلف خـلال جسـده قـائلاً: «الآن يمكن أن يختـار أن يأخـذه»، وجـرى العثـور عليه في اليـوم التالي، ويـده موضـوعة على جـرحـه، وكان عـارياً، وأمكن فقط التعـرف عليـه بين الموتى من خـلال خـاتـم زمـرد، وتشجع

الويلزيون كثيراً بهذه الحادثة، وانشغلوا بجرأة أعظم مما هو معتاد في تدمير أعدائهم، وكثيراً ما حققوا النصر في غاراتهم، وحدث على كل حال، بوساطة حادثة غير متوقعة، أن جرى مقتل ثلاثمائة من الويلزيين في مونتغومري، نتيجة لكمين وضع في ساقتهم، لكن داود، وبعض مرافقيه نجوا، وألقى الحصار على قلعة مونتهوت، التي استولى عليها في وقت قصير، وكان ذلك بعدما قتل جميع الذين وجدهم هناك، أو جلبهم إلى جانبه، وقد تمتع بنصره حسبما رغب، لكن صاحب القلعة،وهو روجر دي مونتهوت، لم يعثروا عليه هناك، لأنه كان قد حمل نفسه إلى مكان آمن، وغدت الحرب منذ ذلك الحين حرباً هي الأكثر دموية، ولم تظهر أية فئة أي احترام للجنس، أو العمر، أو المرتبة، بل تورطوا مثل بعضهم في دمار عام.

عقد مؤتمر خيالي من قبل بعض الكرادلة

وفي تلك الآونة، وبمبادرة من البابا، إنما بشكل سري، قام بعض الكرادلة، الذين أحبوا المال فقط، مع مايشبه صداقة كبيرة، فأرسلوا رسالة إلى الملك، كان محتواها ومقصدها هو مايلي:

«نحن نرجوك، بطريقة صديقة، بأن نوصي لك بخطة، سوف تكون مفيدة ومشرفة لك شخصياً، ومجيدة وذات منافع كبيرة للمملكة، وذلك بأن تقوم بوساطة رسل خاصين، أنت تتولى ارسالهم بطلب إلى البابا بأن يتطلف، ويشرف بحضوره مملكة انكلترا، التي كما هو معروف له فيها حق خاص، ونحن من جانبنا سوف نبذل كل ما لدينا من قدرة لدعم التماساتك. بجعله متعاطفاً مع طلبك، لأننا راغبين في زيادة فوائد مملكتك، لأنه سوف يكون تشريف عظيم جداً وتمييز لك، ولمجدك الأزلي، أن يظهر البابا، الذي هو أبو الآباء، شخصياً، في أيامك، في الأراضي الانكليزية وهي واقعة، ليس من المتذكر أنها وقعت في أي وقت مضى، ونحن نتذكر بأننا سمعناه يقول بأنه سوف يكون مسروراً، بأن يرى بهجة ويستمنستر، وثراء لندن»، وعندما علم الملك بهذا، بات مسروراً جداً، وكان على

استعداد للاستجابة لهذه الخطة الخيانية، لو لم يكن تلقى التشجيع لمعارضتها ولعدم الموافقة عليها، بوساطة نصيحة مستشارين عقلاء، الذين قالوا بأن طهارة انكلترا كانت كافية، وأنها تلوثت كثيراً بربا القرصان، وبالسرقات وبالسيمونية الممارسة من قبل الرومان والايطاليين، مع أنه شخصياً لم يبدد ممتلكات الكنيسة، ولم يسع لالتهام الأشياء الجيدة العائدة للمملكة، وهو في الوقت نفسه لم يسمح له بالدخول إلى مملكتي فرنسا وأرغون، وهو ما بعث يطلبه بوساطة رسل خاصين، لأن الاسم الشرير للبلاط البابوي، والرائحة النتنة له التي وصلت بدخانها الملوث القذر حتى السحب، تستحق الوصول إلى مثل هذه المحصلة.

البابا يدعو إلى عقد مجمع عام في ليون

وفي حوالي منتصف الصوم الكبير من العام نفسه، وصل رسل البابا إلى انكلترا، بقصد الدعوة إلى عقد مجمع عام، وكانوا يحملون الرسالة التالية من البابا:

«من انوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أولاده المحبوبين كثيراً رعاة الديرة ورؤساء الرهبان في جميع أرجاء انكلترا، صحة ومباركات رسولية:

إن فضيلة الرب وحكمته التي هي خاضعة لجلالتها —التي لايمكن وصفها— جميع الأشياء، وهي من بداية الدنيا قد ميزت كنيسته بالعظيم من أعماله الصالحة، وهذا الامتياز المنفرد من السلطة، قد جعلها هكذا متميزة، حيث من خلالها يمكن تحقيق العدالة، ومن الممكن إطفاء لهيب الحرب، وتحقيق الهدوء في جميع أرجاء العالم، وفي الوقت الذي جرى فيه تعييننا —مع أننا لانستحق— بوساطة الحكمة الربانية لنتولى الرئاسة على حكومة الكنيسة بشكل عام، ولذلك سوف ندفع كل الاحترام المستحق إلى عظمة ومجد ذلك المنصب، ومع ذلك صرنا قلقين في قلوبنا من أن شدة العاصفة التي اضطربت منها الكنيسة، واهتزت الديانة المسيحية إلى

أسسها، ولكي يمكن برضا السماء وعطفها تجنب ذلك بمساعدة ترتيباتنا، وبناء عليه قررنا دعوة ملوك الأرض، وأساقفة الكنيسة، والأعيان الآخرين للعالم بشكل عام، في سبيل أن تتلقى الكنيسة نفسها المشورة الصحيحة، والعون المفيد لجميع المسيحيين الحقيقيين، ولكي تتلقى جميع التشريف الذي تستحقه، ومن أجل توفير المساعدة المستعجلة للأرض المقدسة، في وضعها المأساوي المفزع، ولمعالجة بلوى الامبراطورية الرومانية، ولكي نحصل على وسيلة للتخلص من التتار وضدهم، ومن خصوم الإيمان الآخرين والمضطهدين للشعب المسيحي، وكذلك كي يجري تقدير قضايا الخلاف بين الكنيسة وبين الامبراطور، ونحن أيضاً نرجوكم، ونحثكم في تقواكم، وبوساطة هذه الرسائل الرسولية نأمركم، بأن تضعوا جانباً كل الحجج والمعاذير، حتى تظهروا شخصياً في حضرتنا في العيد المقبل للقديس يوحنا المعمدان، في سبيل أن تشعر الكنيسة ببهجة روحية، بتشريفها بزيارتكم، وبمشوركم النافعة في أعمالنا، وعلينا أن نخبركم أيضاً، أننا في موعظتنا قد دعونا الامبراطور المتقدم الذكر، للظهور شخصياً، أو بوساطة رسالة، في المجمع الذي سوف يجري عقده، وليكون هناك حتى يجيبنا ويجيب الآخرين، الذين من الممكن أن يتقدموا بأية شكوى ضده، وليقدم ترضية مناسبة حول المسائل المعروضة، وبالنسبة للعدد المتواضع من المرافقين، ومن أجل التسهيل عليك عندما تأتي إلى هاهنا، مارس ماينبغي من حكمة، في سبيل الحيلولة دون تحمل كنائسكم الكثير من الأعباء مع النفقات. صدر في ليون، في هذا اليوم الثالث عشر من كانون الثاني، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف أرسل ملك إنكلترا وكيلاً إلى البلاط الروماني

وعاني الملك في هذه الآونة مما بدا له ولأصدقائه، أذى عظيماً، بما أن عدداً كبيراً من الأساقفة جرى تعيينهم من دون موافقته، وقام بناء عليه، في سبيل الشكاية من هذا، و لكي ينجح دعواه ومطلبه الذي حصل عليه،

والذي تقرر في الأيام الخالية، أرسل المعلم لورانس من كنيسة القديس مارتن، وكان كاهنه، ورجلاً قديراً، وبارعاً في القانون، أرسله ليكون وكيلاً له في بلاط روما، من أجل تلك الغاية، وفي الوقت نفسه لمعالجة بعض القضايا الأخرى الصعبة، المتعلقة بالملك وبالمملكة، وكان عمله الرئيسي مرتبطاً على كل حال بأعمال رويرت باسلو، الأسقف المنتخب لشيستر، الذي كان انتخابه من دون استشارة الملك حول المسألة، والذي ألغي فجأة في بيت كهنة شيستر، في وسط المملكة بالذات، وخلع رويرت المذكور من قبل بونيفيس، رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، الذي كان الملك قد استدعاه مؤخراً إلى مملكته، ورقاه إلى تلك المرتبة العالية، ليس من دون شكايات وعدم رضا توفر بين عدد كبير من الناس.

وكان الملك جديراً بأن لاينال، ولاأدنى حظوة حول هذا الجانب من القضية، ولكن لأنه غالباً ما استخدم محاججات بارعة، ومعاذير متنوعة متقلبة، قد تمكن من رفض عدد من الرجال المواثمين، خاصة من الرهبان، الذين كان مرتبطاً نحوهم بترقيتهم وبحمايتهم، مثلما فعل الملوك المقدسين للعصور الخالية، وتم الحصول على علاج للخلاص من مثل هذا الشر العظيم، تسبب من دون أن يعرف هو الذي صممه بشرور عظيمة، أو أنه حتى لو عارضه، كان يتوجب تقديم ما تحتاجه الكنائس المترملة، التي كانت بحاجة لأن يعيّن فيها بالسرعة الممكنة أشخاصاً مناسبين وموائمين، وذلك في سبيل أن لاتستمر رعية الرب عرضة للأذى، وهو أمر يبدو أنه منسجم مع المنطق، وحزن النبلاء تجاه هذه الاضطرابات، وتجاه دمار المملكة، أكثر من انزعاجهم تجاه اضطرابات الملك.

أعذار عملت من قبل الملك من أجل بعض الأساقفة الذين كانوا غير ذاهبين إلى المجمع

وعندما وصلت الدعوة العامة للحضور والمشاركة في المجمع إلى مسامع الأساقفة، عمل عدد منهم الاستعدادات للسفر، وآخرون كانوا

مرتبطين بأعمال الملك، أو كانوا مرضى أو مسنين، تقدموا باعتذاراتهم عن المشاركة والحضور، إما من خلال الملك، أو بإرسال نواب أساقفة أكفاء، وبالنسبة للملك، الذي التمس بكل تواضع الحصول على إذن لغياب بعضهم من البابا، ردّ عليه قداسته بالايجاب كما يلي:

رسالة البابا

من انوسنت، الأسقف، إلخ، إلخ، إلى ابنه المحبوب في المسيح، الملك اللامع لانكلترا، صحة، ومباركات رسولية:

نحن نشعر تجاه شخصكم، بحكم كونكم ولداً مخلصاً للكرسي الرسولي، بتقدير أبوي خاص، وبالنسبة إلى التماساتكم، نحن نمنحها أذناً صاغية، بقدر ما يتماشى ذلك مع احترامنا للرب، ولذلك نحن نمنحكم موافقة راضية، وبما أنكم رجوتمونا بتواضع بوساطة رسولكم المعين، المعلم لورانس، المحبوب لدينا كثيراً، وكذلك بوساطة رسائلكم، بأن نيتكم في الصيف المقبل الزحف مع جيش لمعاقبة وقاحة بعض المتمردين من رعيتكم، فإننا سوف نعدّ ذلك اعتذاراً عن حضور المجمع، الذي سوف نعقده —بإذن الرب— في العيد المقبل لميلاد القديس يوحنا المعمدان، وفيما يتعلق بأخينا المبجل أسقف أوف كارآيل، وابننا المحبوب راعي دير ويستمنستر، اللذين بحكمة عينتهما، ليتوليا المسؤولية عن مملكتك أثناء غيابك في تلك الحملة، وكذلك بالنسبة لأخينا المبجل أسقف للانداف، الذي حرم من جميع ثروة أسقفيته بوساطة أعداء جلالتك، وكذلك بالنسبة لولدينا المحبوبين: راعي دير القديس ادموند، الذي يعاني من النقرس، وراعي دير والتهام الذي عجز وأقعد بسبب السن، إننا في رغبتنا المخلصة في زيادة تقدم مملكتكم، وفي سبيل ترسيخ السلام فيها، على استعداد لإظهار جميع الحظوة والنعمة لكم ولصالحكم، لرفاقكم، وذلك بقدر ما نستطيع فعل ذلك تماشياً مع واجبنا إلى الرب، وبناء عليه إننا بوساطة هذه المعروض، نمنح طلبك، ونلتمس بحرارة، في الوقت نفسه، من جلالتكم

عدم الغضب تجاه رؤيتنا أنه من غير المناسب، الاستجابة لكم بقبول العذر لصالح أخينا المبجل، رئيس أساقفة يورك، وذلك حسبما أشير إليه في رسائلكم المتقدم ذكرها، وكذلك حسبما حثنا على ذلك المعلم المتقدم ذكره باسمكم، لأنه، بحكم كونه عضو شريف في كنيسة الرب، نحن نعدّ حضوره ضرورياً بالنسبة للمجمع المتقدم ذكره. صدر في ليون، في هذا اليوم العشرين من أيار، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف بقي بعض الأساقفة الإنكليز معذورين وكيف جرى اتهام راعي دير بيتربورا الذي أرغم على الذهاب إلى البلاط الروماني وأسيئت معاملته

وفي الطريقة نفسها جرى أيضاً منع بعض رجال الكنيسة الانكليز، والأساقفة وكذلك رعاة الديرة (وكان من بين هؤلاء أسقف إيلاي وراعي دير القديس ألبان) من حضور المجمع بوساطة أسباب كثيرة جرى التعبير عنها، وأرسلوا اعتذارات معقولة، إما أنهم كانوا غير أصحاء، أو مسنين، أو ضعفاء، وكان ذلك من خلال وكلائهم، الذين أرسلوا بوساطتهم تحياتهم إلى البابا والكرادلة، وكذلك بعض الهدايا الجميلة، وبحصولهم منهم على قبول الشكاوى بهذه الوسائط، سمح لهم بالبقاء في الوطن، وكان راعي دير بيتربورا —على كل حال— رجلاً غير مؤذ، وكان قد تلقى من البابا أمراً خاصاً، أكثر من سواه حول هذه القضية، فذهب إلى البلاط الروماني، ولدى وصوله إلى هناك تلقى اتهاماً ثقيلاً، وقد وجّه هذا الاتهام ضده من قبل المعلم مارتن، كاهن البابا، الذي كان مقيماً في انكلترا، بأنه قد رفض أن يتخلى عنه (وهذا بالفعل ماتوجب عليه أن يفعله) —أي إلى المعلم مارتن— من أجل استخدامات واحد من أقرباء البابا، عن احدى الكنائس، التي كان راعي الدير قد أعطاها إلى شخص صاحب كفاءة وكان موائماً، وعلى هذا عندما ظهر راعي الدير في البلاط الروماني، قام البابا، أو أصدقاء البابا، من خلاله، بإهانته وتوبيخه، وأمروه في سبيل الحط من شأنه

وعـدم احترامه، بالتخلي عن قصره، ونتيجـة لذلك هو لم يعرف بعـد ذلك الهناء، بل وقع، من خـلال الحزن، بمـرض لايمكن الشفاء منه، وغـادر في العام نفسـه طريق الجسد، مما شكل خسـارة عظيمة لكنيسته، التي سـاسها بحكمة عظيمة وبعقلانية.

موت غيلبرت دي هنفرنفيل

وفي الوقت نفسـه، أي في أسبوع آلام ربنا، مات غيلبرت دي هنفـرنفيل Hunfrunville وكـان بارونـاً مشهـوراً، وحـاكماً وزهرة للمقـاطعـات الشمالية من انكلترا، تاركـاً ولداً طفـلاً بمثـابـة وريث لممتلكاته، ومنحت حكومتـه على الفـور إلى سيمـون، إيرل أوف ليستر، مما أغضب كثيراً ايرل رتشارد، الذي كان متطلعاً إلى الوظيفة نفسها.

موت كاردينال دي تيرن

ومـات في العـام نفسـه أيضـاً الكاردينال غيـوفـري دي تيرن Turne, وكان خصيصـاً بالبابا وصديقـاً نافعاً له، ولم يكن هناك من هو أكثـر شهرة منه لعلمه وأخلاقه.

كيف أرسل الإيرل رتشارد والملك الفرنسي وبعض آخر نجدات إلى الأرض المقدسة

وفي الوقت نفسه وردت تقارير متواليـة من الأرض المقدسة، كانت غير مـواتية كثيراً، إلى حـد أنه خيف من أن البـلاد كلها بـاتت عرضـة للخطر، وبناء عليـه أرسل الايرل رتشارد مع بعـض الأصدقـاء المقربين إليـه، ألف باوند إلى هناك، على سبيل المساعدة للبـلاد، من خلال الاسبتارية، وكذلك في سبيل تجفيف الدموع من على وجنتي أمنا الكنيسة، التي كانت تبكي على أولادها الذين قتلوا مؤخراً، أرسـل الملك الفرنسي، والداوية والاسبتارية، إلى هناك بكل سرعة، عشرين فارساً جديداً، وكتلة من الجنود مع مبلغ كبير من المال من أجل عون ومساعدة الذين كانوا يسكنون هناك، والذين كانوا

يتحملون هجمات يومية من الخوارزمية ومن المسلمين الآخرين، وحصل الملك الفرنسي أيضاً، واستفاد من حضور نائب بابوي لسن، وواعظ مستقيم، في فرنسا، ليتولى التبشير بحملة صليبية هناك.

مثابرة المعلم مارتن على جمع الموارد

وكان في الوقت نفسه المعلم مارتن، الذي وردت الإشارة إليه مراراً، والذي هو كاهن البابا، مثابراً جداً، وشاغلاً من دون توقف، نفسه، في جمع الموارد، بأية طريقة رغب بها، من أجل استخدام البابا، وفي منحهم إلى أقرباء البابا، وبشأن جرأته، وشرهه المؤذي، أنا أعتقد أنه أشرف وآمن —صدوراً عن الاحترام لكنيسة روما المقدسة— أن أكون صامتاً، فذلك أفضل من أن أؤذي مسامع جمهوري، ومن ازعاج عقول المسيحيين بالقيام بحكاية مثل هذه الأشياء، فلقد جرى الاستيلاء على خزينة سالسبري مع خزائن كثيرة أخرى، وحسبما ذكرنا من قبل أعلاه، جرى الاستيلاء عليهم بالقوة، وأخذوا بشكل خاص من الرهبان، وجرى طلب ارسال الأموال والهدايا إليه على الفور، والذين رفضوا الاستجابة جرت معاقبتهم بشدة، وآثر الملك قضيته أيضاً، وحماها ضد جميع الفئات ربما صدوراً عن أمل التعويض، وهكذا صارت أحوال المملكة الأكثر تعاسة.

كيف جرى وضع الحرس على المرافئ لمنع رسل البابا من دخول المملكة

في هذه الحالة الحرجة جداً التي عاشتها مملكة انكلترا، صدرت أوامر من بعض النبلاء، الذين بكوا، وتأثروا كثيراً من المظالم الكثيرة والتي لم تتوقف، ومن نهب المملكة، بوجوب مراقبة جميع الموانىء البحرية للمملكة بيقظة وعن قرب، في سبيل أن رسائل البابا، التي كانت تجلب يومياً إلى انكلترا، لاستخراج المال، يتم القبض عليها، وحدث في هذا الوقت، وصول واحد من رسل البابا، وقد نزل في دوفر، وهو يحمل

بالرسائل من أجل هذه الغاية، وكلها مختومة بالخاتم البابوي، وقام حاكم ذلك الميناء ووالي البلدة، باعتقاله على الفور، حسبما كانوا قد أمروا، وبعدما أخذوا منه جميع الرسائل المختومة، والرسائل الأخرى، التي كانت تحتوي على كثير من الأمور البغيضة، على شكل حجج متنوعة من أجل استخراج المال، سجنوا الرسول نفسه، في قلعة دوفر، وعندما سمع المعلم مارتن بهذا، ذهب إلى عند الملك، ليتقدم بشكوى إليه حول هذا الإجراء، وأنكر الملك على الفور بأنه كان المحرض على ذلك، وقام في سبيل إيذاء المملكة، والحط من كرامته، فأمر باطلاق سراح الرسول، وبانتزاع الرسائل بالقوة من عمدة دوفر، وبتقديمها إلى المعلم مارتن، الذي فرح كثيراً من خلال تأثير تقديم بعضهم.

حريق حجرة البابا

في أسبوع الابتهالات (الأيام الثلاثة قبل عيد الصعود) حدث حادث محزن، فقد تعرضت حجرة البابا في بيته في ليون للحريق، وكانت حجرته الخاصة، أي خزانة ملابسه، فقد احترق كل شيء كان فيها، وأعلن بعض من المسؤولين الأشرار للأشياء، بأنها أحرقت عن عمد، في سبيل أن يمتلك البابا الحجة من أجل طلب المال واستخراجه من الأساقفة، الذين كانوا قادمين إلى المجمع، وقد استعرت النار —على كل حال— بشدة أكبر مما هو متوقع، وأحرقت بعض الأشياء التي نظر إليها نظرة تقدير خاصة، وانتشرت أخبار بين كثير من الناس، بأن الصك الممقوت، فيما يتعلق بالضريبة الانكليزية، وهو الذي عمل في أيام الملك جون —صاحب الذكرى الحزينة— قد تحول إلى رماد، بوساطة النار نفسها.

كيف جرت معارضة البابا من قبل كهنة ليون في مسعاه لغزو بعض الأوقاف الشاغرة

وفي حوالي الوقت نفسه، رغب البابا، من دون التشاور مع الهيئة

الكهنوتية، في تعيين بعض الأجانب، أو الأقرباء، أو بعض أصدقائه في بعض الأوقاف الكنسية الشاغرة في ليون، وقد عارضه كهنة تلك الكنيسة مجابهة، وهددوا معلنين ومقسمين، أنه إذا ماظهر أي من مثل هؤلاء الأشخاص في ليون، فإنه لارئيس الأساقفة، ولا الكهنة سوف يكونوا قادرين على حمايتهم، من إلقائهم في نهر الرون، ولذلك فإن الذين كانوا على وشك قبول المنافع، لم يظهروا هناك مطلقاً.

وفي حوالي الوقت نفسه، تصرف واحد من بوابي البابا بشكل أشد خشونة ووقاحة مما ينبغي، فرفض السماح بالدخول لواحد من سكان ليون، الذي طلب السماح له بتواضع وأدب، ونتيجة لذلك صار الليوني غاضباً، وحانقاً، فبتر يد البواب بشكل كامل، وتقدم الرجل الجريح بشكوى جادة أمام البابا، وأراه في الوقت نفسه ذراعه المبتور، وبناء عليه طالب صاحب القداسة بالانتقام، وفقاً لقانون المدينة، الأمر الذي تدبره بطرس الوصي على سلام الكنيسة، بطريقة أو أخرى، أمكن بوساطتها الحفاظ على شرفه، وعلى الأقل ظاهرياً رممت كرامته.

وفي حوالي هذا الوقت، أيضاً، مات المعلم إيليا أوف درم، وكان كاهن سالسبري، وقام المعلم مارتن بوضع يديه الجشعتين على الفور على موارده الشاغرة، من أجل استخدام البابا.

كيف منح الملك مرتبة الفروسية إلى رتشارد دي كلير في لندن

في أحد الشعانين، أقام الملك احتفال هذا العيد بأبهة كبيرة في لندن، حيث منح مرتبة الفروسية إلى رتشارد دي كلير Clare, الذي كان الآن يحمل مرتبة ايرل، وحدث ذلك بحضور حوالي الأربعين نبيلاً شاباً، وبناء عليه احتفل الفارس الجديد، وأكمل تنصيبه بسرور عظيم وسط أتباعه الفرسان، وأقام الملك في الوقت نفسه بحثاً دقيقاً في جميع الكونتيات، لمعرفة كمية الموارد التي تسلمها الرومان، وكذلك لمعرفة

عـدد الايطاليين الذين أغناهم البلاط الروماني بالخداع وبالقوة في انكلترا، وقـد تبين أن هذه الموارد تصل سنوياً إلى مبلغ ستين ألف مارك، وهو مبـلغ أكـــبر من المورد السنـوي لانكلترا كلهـــا، ولذلـك ثارت دهشـــة الملك —وإن جاء ذلك متأخراً— وأثير —ليس من دون سبب جيد— غضبه.

وفي حـوالي الـوقت نفسـه، منح راعي ديـر كلوني البـابا، ثـلاثين مهـراً جيـديـــن ورشيقـــين، حسبـــوا بشكل مناســـب مع العـــدد نفســـه من حيـوانات التحميـــل الذين ندعوهـم باسـم «خيـول التحميـــل»، وجرى تجهيـز هـؤلاء ليكونوا منهم.

كيف جرى إرسال رسل من قبل جماعة إنكلترا إلى المجمع

ثم إن الملك شرع —وإن كان ذلك قد جاء متأخراً— يتأمل وهو يشعـر بالتقزز تجاه الجشع اللامحدود للبلاط الروماني، وحول الاستيـلاء المـؤذي، والسرقـات اللاقـانونيـــة، التي عـانت منهـا الكنيســة، لابل في الحقيقـــة المملكة كلهـــا، وبنـاء عليـه جـــرى إعـداد رسـالة مـؤثرة من قبل جمـاعة المملكة بشكل عـام، في محتـوياتها جـرى تقـديم عـرض —حسبما ســـوف تظهـر الرواية التـالية— حول الاستخـراجات اللامحـدودة للبـابا وحـول المكوس المتنـــوعة والمضاعفـة التي فرضهـا نوابـه، وبعض الكهنـة الذيـن جرى تزويدهم بسلطات لم يسمع بمثلهـا، ومع هذه الرسـالة، جرى آنذاك ارســـال بعض النبـلاء والرجال الأكـفاء، إلى المجمع، ليتقدمـوا بشـكوى ثقيـلة حول هـذه القضايا، وخاصـة حول فرض المكـوس، التي لم تـوافـق الجمـاعة الانكليزيـة عليها مطلقـاً، وليلتمســوا انقـاذاً لمملكة انكـلترا من مثـــل هذه الأعبـاء التي لايمكن تحملهـا، ومـن أجـــل هذه الغـاية جـرى الاختيـار باســـم الجماعـة في مملكـة انكلـترا كلهـا، وإرســـال التـالين إلى مجمـــع ليـــون: الايـرل روجـر بيغـــود، وجـون فتز— غيوفـري، ووليـم دي كينتلـوب Cantelupe, وفيليب باسيــــت، ورالـــف فتـــز— نيقولا، والمعـلم وليـم دي باوريـك Poweric, وكان كاهناً.

مغادرة المعلم مارتن لإنكلترا خائفاً

وفي هذه الآونة كان الملك قد منع عقد بعض المبارزات من قبل بعض الأشخاص كانوا قد اجتمعوا في ليوتون Luton, وفي دنستيبل Dunstable, لأنه نية هؤلاء كانت شريرة، بسبب —كما قال— خطرهم، وقد جرى ارسال فولك فتز— وارن، باسم جماعة المملكة بشكل عام، في اليوم التالي لعيد الرسولين بطرس وبولص، إلى المعلم مارتن، كاهن البابا، الذي تردد ذكره مراراً، ولدى مثوله في حضرته، نظر فولك المذكور إلى الكاهن بحاجبين مقطبين، وخاطبه كما يلي: «غادر، واترك انكلترا على الفور»، فسأله المعلم مارتن: «من الذي أمرك لتفعل هذا؟ هل تفعل هذا بناء على سلطتك الخاصة؟» وعلى هذا رد فولك: «لقد أُمرت أن تفعل ذلك، بوساطتي، باسم جماعة الفرسان المسلحة، التي اجتمعت مؤخراً في ليوتون ودنستيبل، وإذا ما أصغيت إلى مشورة حكيمة، عليك عدم البقاء هنا حتى اليوم الثالث من هذا الموعد، خشية أن يجري تمزيقك وجميع رفاقك الذين معك إلى قطع»، ولدى مغادرة فولك المذكور مغضباً، وبعدما كدس التهديد فوق التهديد، مع أيمان مرعبة، ذهب المعلم مارتن على الفور إلى الملك، وهو منقطع الأنفاس رعباً، وقال للملك: «مولاي لقد سمعت كذا وكذا من أشياء، هل تم فعل ذلك بناء على تفويضك، أو أن ذلك بناء على وقاحة رعيتك»؟، وعلى هذا أجاب الملك: «إنني أعلن أنني لستُ الفاعل لهذا الإجراء، لكن من الصعوبة بمكان، أن يتمكن باروناتي من ضبط أنفسهم ومنعها من الثورة ضدي، لأنني قمت حتى الآن بالتساهل تجاه الانتهاكات والأذى، الذي اقترف من قبلك في هذه المملكة، وممارسته ضدهم، والذي تجاوز جميع حدود العدالة، وبصعوبة تمكنتُ حتى الآن من منعهم وهم في حالة غضبهم، من مهاجمتك، وتمزيق أطرافك طرفاً عن طرف»، وعند ذلك قال المعلم مارتن، وهو يرتجف وبصوت منخفض: «إنني بناء على هذا، أسأل جلالتك، صدوراً عن

حبـك للرب، واحترامك للبـابا، أن تمنحني خـروجـاً حـراً، وأن تأذن لي بالمغـادرة سـالماً تحت ضمانتـك»، وعلى هذا أجـابه الملك، وهـو شـديد الانفعال، ومستشـار إلى حد الغضب قائـلاً: «ليأخذك الشيطان، وليحملك إلى جهنم، وخلالها»، وعندما قام النبلاء الذين كانوا جالسين هناك، بتهدئة غضب الملك، أمر روبرت نورس Norris, قهرمـان القصر الملكي بأن يرافق المعلم مـارتن بـأمـان إلى شـاطىء البحـر، وبناء عليـه، انطلق المعلم مارتن برحلتـه، وأدام الالتصاق بجانـب دليله روبرت، وكان كلما رأى أية أشخاص راكبين،. أو مارين بهما، كان يستولي عليه خوف شديد، ويرتجف، حتى أنه كـان يتمنى لـو أن الأرض انفتحت لأخفى نفسـه، تحت غطائهـا، ولدى متـابعتهما سفـرهما على طريقهما، وصـلا إلى حـدود أحـراش، كـان رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، قـد عرضها للبيع، وحيث كان بعض رجـال الريف قد تجمعـوا لاختيار الأشجـار، التي رغبوا بشرائهـا، ولدى رؤيتهم، قـال المعلم مـارتن وهو مـرعـوب لروبرت دليلـه: «واأسفـاه، واأسفـاه، إن الذي قد خفت منه، هو على وشك الوقـوع، إنظر إليهم، إنهم مقبلون على مهـاجمتنا، يامولاي وصـديقي روبرت، هل لديك أي ولد، أو حفيد، أو قريب، أو صـديق، أنت ترغب بأن ينتفع بمورد لاهوتي؟ أنا على استعـداد لمنحك أي طلب، يمكن أن تعملـه، إنظر إنهم جـالسين ينتظرون أخـذ حيـاتي، احميني في ظل جناحيك»، فـأجـابه روبرت: «الرب يمنع أي واحد من أقـربائي، أن يتم قبوله هكذا من خلال وسـائطي، لنيل أية منفعة لاهوتيـة: أنا لاأعـرف من هؤلاء، أنت تريث هنا وانتظـرني، وأنا سـوف أذهب سريعاً إليهم، حتى إذا عـرفت أنهم أشخاص يريدون اقتراف الشر، أنـا سـوف أضبط تهورهـم، وأوقفهـم، بجعلهـم يرون التفـويـض الملكي»،وعندما —بناء عليه— وصل إلى عندهم، وعلم الحقيقة، عاد على الفور إلى المعلم مارتن، لكن حتى يضغط عليه ويؤثر به قال:

«لقد تمكنت بصعـوبة من ضبط غضبهم، ومنعتهم من تمزيقك إلى قطع،

ودعنا الآن نسير خلسة وبحذر، خشية أن يحدث أي شيء مكروه لك، وعندما تقلع مسافراً، عليك —إذا ما كنت عاقلاً— ألا تعود قط، خشية أن تقع في أيدي الذين يطلبون حياتك»، ومن ذلك الوقت لم يوفر المعلم مارتن جنبي فرسه، بل عمل كل سرعة ممكنة حتى يصل إلى ساحل البحر، موجهاً النقد لدليله لتأخره، ولدى وصوله إلى دوفر، أقلع على الفور، وبمغادرته أبهج قلوب الكثيرين، غير أن تأثير قوة ذلك الوباء المعدي، لم يتوقف تماماً، ذلك أنه أعطى السلطة إلى واحد، اسمه المعلم فيليب، ليبقى كي يمارس جميع السلطات التي منحت إليه شخصياً في أعمال استخراج الموارد، وبذلك ترك آثاره الملوثة خلفه، وهكذا قلت كثيراً، حتى يعرف كل واحد كم هؤلاء الساعين وراء المال هم جبناء، عندما تتعرض ضمائرهم للأذى.

ومالبثت هذه الأشياء أن وصلت إلى مسامع عدد من الايطاليين، الذين كانوا يسمنون على ثروات الموارد في انكلترا، وبناء على ذلك اختفوا على الفور، وبحثوا عن مخابىء بعيداً عن الأماكن المطروقة، وقام كثير من القراصنة أيضاً، الذين كانوا حتى الآن ينشرون سمومهم القاتلة، بوساطة الربا الذي كانوا يمارسونه بين المقاطعات الغربية، والذين كانوا جاهلين بهذه الإجراءات، قاموا الآن بالمغادرة بشكل سري.

كيف مات غيوفري مارش في المنفى والفقر كرجل منفي

وحدث في هذه الآونة، أن غيوفري مارش، الذي كان من قبل نبيلاً، هو ليس الأدنى بين أعيان ايرلاندا، والذي نال وصمة لايمكن زوالها بالقتل الخياني للايرل رتشارد مارشال، والذي كان الآن منفياً، ورجلاً تعيساً، ومحروماً، حيث قد جرى نفيه من سكوتلندا، وطرده من انكلترا، وقد حرم من ميراثه في ايرلاندا، بعد الموت الشائن لابنه، وبعد فقدانه لجميع أصدقائه، حدث أنه هو نفسه أخذ من بيننا، وبذلك أنهى أخيراً كثيراً من الميتات، بموته هو.

شكوى المعلم مارتن إلى البابا

وقدم في الوقت نفسه المعلم مارتن إلى البـابا، وقدّم إليه رواية كاملة عن الأحداث التي جـرى وصفها أعلاه، ولدى سماع البـابا ذلك صرّ بأسنانه، وانفجر بغضب شـديد، وأعاد إلى الذاكـرة بأن ملكي فرنسا وأراغـون، قد رفضـا منحه مـدخلاً إلى أراضيهما، وأن ملك انكلترا، سـوف لن يسمح له بالذهاب إلى انكلترا، وما هو أسوأ إنه لعن رسوله، وطرده بشكل مهين من انكلترا، ثم قال بصوت متهدج فيه علامات الغضب، وكان مقطباً، وشامخاً بأنفه:

«إنه من الموائم بـالنسبـة لنا أن نعقــد شروط صلح مع أميرك، في سبيل سحق هؤلاء الأمراء الصغار الذين يتحركون ضدنا، لأنه عندما يتم سحق التنين أو تهدئتـه، من السهل وضع الأفـاعي الصغيرة تحت الأقـدام»، ومـا لبث هذا القول أن انتشر في الخارج، وسبب غضباً في قلوب كثيرين.

استعدادات ملك إنكلترا لحملة إلى ويلز

قبل بداية شهـر تموز، استـدعى الملك في رسـائله الملكيـة، وحشـد جميع الايرلات، والبـارونات، والفرسـان، والنبـلاء الآخـرين لانكلترا، الذين يدينون له بـالخدمـة العسكرية، للحـاق به إلى ويلز، إلى حيث كـان ناوياً الانطلاق، حيث أنه لم يعد قـادراً، ولم يعد راغبـاً أن يصبر أية مدة أطول في تحمل الهجمات المفاجئـة والغارات التي كان يقـوم بها الويلزيون، وعمل في الوقت نفسـه استعداداته الشخصيـة للالتحاق بالحملة، ولغـزو أراضيهم، تحيط به كتلة كبيرة من الفرسان، وبناء عليـه قدم إلى كنيسة القديس بولص في لندن، ليقـوم بوداع أهل لندن، الذين كان من الممكن أن يجتمعـوا كلهم هناك.

كيف تخلى وليم الأسقف المنتخب لكوفنتري عن إدعائه

في هذه الأيام، عندما كـانت ثورة الوقت تجر معها ثورة الأحـداث، قام

وليم دي مونتبلر Montpellier, وكان راهباً ورئيســاً لجوقة المنشدين في كـوفنتري، وكـان رجـلاً بلا خطيئة أو مطمح، الذي انتخب إلى كـرسي كـوفنتري، وكـان المعلـم وليم أوف دروهيـدالي Drouhedale الذي كان محاميـه الغيور في انكلترا، الآن يمـوت، وكان الملـك على غير استعداد لقبول تعيينه، والمعلم لورانس الذي كنا قـد تحدثنا عنه من قبل، معارضاً له باستمـرار، ومـداوماً على اتهامـه، وكـان كهنة ليشفيلد Lichfield قد اتخذوا أيضاً موقفاً مضاداً له، وقـد شعر هو شخصياً بأن دير كوفنتري كان يعاني بسبب انتخابه، وكان يشعر بانزعاج شديد بسبب انتخابه، وقد ذهب وهو في هذه الضائقة، إلى البابا، ومزج كلماته بالآهات وقال:

«إنني أيها الأب المقـدس، قـد هوجمت من جميع الجهات، وأنـا مزعـوج تماماً، فقـد قام ملك انكلترا مع مستشـاريه بتلطيخ براءتي إلى درجة عـالية، والرب يعــرف أنني لم أستحـق مطلقـاً هـذا الاضطهــاد، وإنني إذا كنت سأحتفظ بالمنصب الرفيع الذي انتخبتُ إليه بشكل صحيح، فإنني لن أتمتع بالسلام قط في انكلترا، ولذلك إننـي أتخلى عن كل شيء وأضعه بين يديك، وليمنع الرب أن أبقى أيـة مـدة أطول مصـدراً للخســارة، أو للاضطراب لكنيستي، ولابد لعنايتك الأبوية أن ترعى شؤون تلك الكنيسة، في الوقت الذي هي فيـه محرومة من أسقفهـا»، ووافق البابا على هذا، وقـام الأسقف المنتخب بالمغــادرة، وكأنه قـد تحرر مـن حمل ثقيل، وحـزن الذيـن رغبـوا باخـلاص في انقـاذ روح ملك انكلترا، لرؤية هذا، وخـافـوا كثيراً، من أن رعبـاً عظيماً سوف يحيق بهم قـريباً، بهم أنفسهم، وكـذلك بالمملكة، بسبب هذه القضية، وقضايا أخرى مماثلة، ولأنه اتخذ موقفاً متحزباً شديداً في هذه القضية.

انتخاب روبرت دي ويزهام عميد لنكولن لكرسي شيستر

وعندمـا أصبــح هذا معـروفـاً جـرى انتخــاب المعــلم روبرت دي ويزهـام، عمـدة لنكولن، والذي كـان رجـلاً متميـزاً لأخلاقـه ولعلمــه،

وذلك بشكل رئيسي بناء على مبادرة أسقف أوف لنكولن، انتخابه وتعيينه أسقفاً لشيستر أوكوفنتري، عوضاً عن وليم مونتبلر المذكور، (الذي —كما تقدم الذكر— تخلى متطوعاً عن إدعائه)، وتمّ فعل هذا من دون طلب موافقة الملك، من أجل أن لايقوم بوساطة حجج سخيفة أو تعليلات —حسبما كانت عادته— بالطعن بهذا الانتخاب أو بإعاقته، في سبيل إيذاء روحه والإساءة إلى اسمه الصالح.

ثم إن أسقف لنكولن رغب في الحصول على انجاز لرغباته فيما يلي، وهو الفصل الكلي والإبعاد التام لكنيسة آيلسبري Aylesbury —الأمر الذي رغب أن يفعله منذ زمن طويل— عن عمادة لنكولن (لأنه اعتقد بأن العميد سوف يقوم، بسبب الحالة الغنية لتلك الكنيسة، بتملك الجرأة، ويعمل ضده، أي ضد الأسقف)، وأعطاها على الفور إلى المعلم روبرت مارش —ليس من دون ضرر عظيم وأذى لكنيسته— حسبما هو واضح لكثيرين، لأن من المعروف اتحادها بعمادة لنكولن منذ زمن أزلي.

التكريس في ليون لبونيفيس البروفانسي لرئاسة أساقفة كانتربري

ور. R دي ويتز إلى أسقفية شيكستر ور. R دي ويزهام إلى أسقفية شيستر

وأثناء هذا العام جرى تكريس بونيفيس الذي كان من أصل بروفانسي، رئيساً لأساقفة كانتربري، وكان ذلك من قبل البابا، في ليون، وكان بونيفيس هذا رجلاً متميزاً بأسرته أكثر من تميزه بعمله، وكان انساناً يخشى منه في الأمور الدنيوية أكثر من الأمور الروحية، وقد جرت ترقيته إلى هذه المرتبة (لو أنها كانت ترقية سعيدة) بوساطة نفوذ ملك انكلترا، وبنفوذ ابنة أخيه الملكة، وفي الوقت نفسه جرت ترقية أخيه فيليب بال، الأسقف المنتخب لبلنسية، لأن يتملك رئاسة أساقفة ليون، وقد أذعن رئيس الرهبان إلى هذا لأسباب سوف نذكرها، ولقد حصل على هذه الحصة من

البابا حسب الشروط التالية: التي هي:

إنه سوف يحتفظ بسلطات رئاسة الأساقفة هذه مع كل فوائدها، وسوف يتسلم البابا موارد أسقفية بلنسية، وكذلك أيضاً بعض الأسقفيات الأخرى الغنية، التي كانت بحوزته في انكلترا، وفلاندرز (وكان هذا واضحاً، بأنه قد عمل في سبيل أسباب دنيوية أكثر منها أسباباً روحية) وأنه يتوجب أن يحولهم بحرية إلى استخداماته الخاصة، وأنه ينبغي أيضاً أن يستحوذ على الأسقفية في بروغس Bruges, وكان هذا الرجل، ذي المظهر الرشيق، كان بارعاً جداً في استخدام السلاح، وقد سمن على موارد وافرة، وقد كان موجوداً في المجمع الذي عقد في ليون، وقد عمل منه بالفعل، مقدماً للفرسان البابويين، وحارساً قوياً للسلام، وكان السبب الرئيسي لهذا، أنه كان متميزاً بأصله النبيل.

وكان هناك أسقفين آخرين جرى تكريسهما من قبل البابا في ليون، وهما: المعلم رتشارد دي ويتز لكرسي شيكستر، والمعلم روبرت دي ويزهام، عميد لنكولن إلى كرسي شيستر، وكانا كلاهما رجلان متعلمان، وأصحاب أخلاق جيدة، وما من شيء حذف من طريق الترافع بوساطة وكيل الملك، الذي أبدى دهشته واعتراضه ضد هذا الإجراء، لأن موافقة الملك لم تطلب في قضية ترقياتهم، ولقد أخبر —على كل حال في وجهه— أنه بما أن الملك أساء استخدام المنصب الرفيع الذي منح له وكذلك الامتياز، جعل نفسه غير جدير بالتمتع بهذا الشرف، وهكذا فإنه بسبب ذنوب الملك، فإن كرامته وكذلك كرامة المملكة كانت تتداعى، لكن عندما وصلت هذه الأشياء إلى علمه، أمر بمصادرة الممتلكات العائدة إلى كل من أسقفيتي شيكستر وشيستر.

حول الإضافات إلى خزانة الملك بوساطة التفتيش في الغابات

وفي الوقت نفسه، كان كاهن الملك روبرت باسلو مع رفاقه شاغلاً نفسه من دون توقف من أجل تعويض الملك، منتزعاً الأرزاق القليلة للفقير، وزائداً أموال الملك، ساحباً الموارد القليلة لدى المحتاجين بوساطة آلة سحبه الشرهة، من أجل أنه بوساطة نقاط الذين هم محتاجين، يمكن أن يزيد بحار الذين يعيشون بوفرة، ومن دون توقف ذهب إلى دوائر مختلف مقاطعات انكلترا، منفذاً واجباته بإقامة العدالة، خاصة حيث الغابات كثيرة جداً، وحيث سكن الناس على حدودهم، وبتيقظ ودقة قام بفحص أعمال الإسكان الجديدة التي عملت في الغابات، وأي واحد وجده مقترفاً لذلك، أثقله بغرامة مالية كبيرة، وبذلك طرد كثيرين من بيوتهم، وحولهم إلى قوم بلا سكن ومتسولين، وكان من بين هؤلاء —كما ذكرنا من قبل— جون دي نيفيل، الذي كان خاضعاً لكثير من المخالفات، وقد أدين بشكل مهين، فتحول من الغنى إلى الفقر، وهو على كل حال لم يتلق لا العطف ولا الرحمة من أي واحد، لأنه عندما عاد من الأرض المقدسة قبل عدة سنوات مضت، قام بوساطة طرائق بارعة وحجج واهية، فحرم جميع الذين كانوا خاضعين له من أرزاقهم وممتلكاتهم، وهكذا وقع الآن مستحقاً في المصائد نفسها، وبنود المصادرات سوف تكون مكتوبة على شكل ملحق يضاف إلى هذا الكتاب.

كيف أمر الملك بتوسعة كنيسة ويستمنستر على حسابه

وفي العام نفسه، قام الملك، وقد شعر بالتقوى نحو القديس ادوارد، فأمر بتوسعة كنيسة القديس بطرس في ويستمنستر، وبناء على ذلك تدبر هدم الأسوار القديمة مع البرج على الجهة الشرقية، وجرت إشادة أسوار وبرج أكثر رشاقة، وتمت أعمال البناء الجديدة من قبل مهندسين بارعين على حسابه، وأمر بتغيير باقي البناء على الجانب الغربي بما يتناسب مع البناء الآخر.

البابا يتلقى هدايا ثمينة من عدد من الأساقفة

وتابع البابا الآن التشكي بمرارة إلى أصدقائه، بأن الكنيسة الرومانية معسوف بها إلى حد يكاد يصعب فيه نجاتها، ومرهقة بالدين، وعلى الفور انتشرت هذه الشكاوى بالخارج بوسائطهم، وجعل في هذه المناسبة من المفهوم، أنه في أقصى حالات الحاجة إلى مساعدة مالية، وكانت هناك أعداد من الأساقفة الذين لديهم وفرة من الأشياء الجيدة لهذا العالم، وكانوا متلهفين ساعين وراء المزيد من المقتنيات، وهؤلاء قد جاءوا إليه طالبين حظوته، بمثابة أب، وقد أبدوا أسفهم لما عاناه ولمخاوفه، وبما أنه الآن قد نجا من متاعب الامبراطور، قد وصل إلى بين أولاده المخلصين، فإنهم قد قدموا مسرعين لتهنئته، وقدموا إليه أكثر الهدايا قيمة على شكل: خيول، وآنية، وملابس، وذهب وفضة، وجميع أنواع الأثاث المفيد، وكان من بين هؤلاء، راعي دير كلوني، الذي لم يرغب بأن يعدّ متخلفاً، حتى لا ينظر إليه أنه كان خاملاً، فقام بافقار كنيسته، وتجريد رؤساء الرهبان لديه، فقدم إلى البابا مبلغاً كبيراً من المال، مما أثار بحجمه الدهشة، والاستغراب المستحق، بين جميع الذين سمعوا به، ولهذا كوفىء بترقيته إلى مرتبة أسقف لـ: لانغري Langres, وفي الحقيقة علمت من رواية رئيس رهبان ويستأكري Westacre, الذي كان من قبل واحداً من رهبان كلوني، بأن راعي الدير المذكور، قد أعطى إلى البابا ثمانين مهراً رشيقاً، كانوا الأجمل والأبدع تجهيزاً، وأعطى إلى كل واحد من الكرادلة، الذين كان موجوداً منهم هناك حوالي الاثني عشر كاردينالاً، مهراً، وفرس حمولة من النخبة، وآثر البابا أن يكون راعي الدير هذا المتولي لاسطبله، بدلاً من أي انسان آخر، فأمره أن يتولى العناية —من أجل استخدامه— بالخيول التي كان قد أعطاها له، وأعطى راعي الدير المذكور إلى البابا كميات كبيرة من الثروات، على شكل أموال جاهزة وآنية ثمينة، ولقد قيل أيضاً بأن راعي دير سيتو Citeaux, قلد مثاله واتبعه، وكان محرضاً باخلاص الابن، وبالرغبة أن لا يعدّ ثانياً إلى

أي واحـد، فقـدم هذه الهدايا حتى تكون ليست أقل قيمـة إلى أبيـه المتضرر والمحتاج، أي البـابا، ورغب رئيس أساقفـة روان أيضاً في إرضاء قـداسته، ولكي لايتهم بأنه الأكثر تخلفاً، ورط نفسه وكـذلك كنيستـه في بعض من الديون الثقيلة، لهذه الغـاية، وزاد الخزانة البـابوية بمبلـغ من المال لم يكن صغيراً، ولدى سماع راعي دير القديس دينس بهذه الإجراءات، وهو الذي كان متشوقاً، بالعمل بشكل مفيد، ليصل إلى منصب رئيس أساقفة، وذلك من خـلال الاستخراجـات، وبوساطة خـداع كنيسته، جمع آلافـاً كثيرة من البـاوندات منحهـا على شكل صـدقـات إلى البـابا، فكـان أن نال مكافأته برتقيته إلى كـرسي رئاسة الأساقفـة في روان، وكان ذلك من خلال الفـائدة المؤثرة لسلفـه، الـذي هو الآن كـاردينالاً، ولـدى سماع الملك الفـرنسي —الذي كان المدير الخاص والحامي لكنيسة القديس دنس— بالإجراءات التي قـام بها راعـي الدير المذكـور، أرغمـه على أن يستجـدي هذا المال في منطقـة أخـرى، وهكـذا فإن هذيـن الشخصين: راعي الديـر، ورئيس الأساقفـة، قد تركا أثراً قـذراً خلفهما، ليطير إلى محطات أعلى، وذلك بإفقار الكنائس التي توليا الحكم فيها، مما أصل فضائح في أرجاء كثير من الممالك، وبعد وقت قصير من هذا، قام رئيس أساقفة ليون، وكان رجلاً بلا عيوب، لكنه الآن بات متقدماً بالسن، وضعيفاً، فتخلى عن جميع مناصبه، ووضعها بين يدي البابا.

وتدفق الآن يومـاً إثر يوم، أساقفـة آخرون على البلاط الـروماني، حيث تنافس أحدهم مع الآخر في تقديم الهدايـا الأكثر قيمة إلى البابا، وهي هدايا أثارت بحق دهشـة جميـع الذين رأوهم، وهكـذا بات واضحـاً لكثيرين، وأمراً مؤكـداً لديهم، بأن البابا جاء إلى ليون عن رغبـة، وليس بقصد الفرار من أي واحـد، وإلى جميع هذه الهدايا فتح البـابا صـدره المتسلم، حتى أنه لم يُظهر أية عـلامـة على الرفض، أو الإباء لديه، وقـد أعلن بأنه بحـاجـة إلى كميـة كبيرة أخرى من المال، واستمـر في تقديم أسبـاباً جيدة لحاجتـه، لأنه

وفقاً لتأكيداته (التي لاندري فيها إذا كانت صحيحة) كانت الكنيسة الرومانية المقدسة مدانة بمبلغ يزيد على مائة وخمسين ألفاً من الباوندات الاسترلينية، وذلك إلى جانب الفائدة التي تصل إلى قرابة مبلغ الدين الأساسي.

وفي سنة النعمة ألف ومائتين وخمس عشرة، في أيام البابا انوسنت الثالث، جرى عقد مجمع عام، فيه رسم، وأودع كتابة، بأن المجمع العام، يتوجب حقاً أن يعقد مرة كل خمسين سنة، التي هي حقبة يوبيل، ففي سنة اليوبيل، أو خلال إطارها، يتوجب عقد مجمع عام، فيه يتم إصلاح جميع المخالفات، وأن يجري إعادة كل شيء وتثبيته في نظام جيد.

بداية إجراءات المؤتمر في ليون

عندما سارت الشمس في مدارها، ووصلت إلى أقصى ارتفاعها، أي في حوالي منتصف الصيف اجتمع في ليون —من أجل عقد هذا المجمع— جميع الأساقفة المحترمين تقريباً من جميع أرجاء العالم المسيحي، أو جميع نوابهم الكفاة، وكذلك نواب الامبراطور، وعدد كبير آخر من الأمراء، لآخرين، وقد اجتمعوا بناء على ولاية خاصة من البابا، وأعطى كثير من لأساقفة الذين لم يحضروا، أسباباً شرعية لتسويغ أنفسهم، من خلال وكلائهم الذين أرسلوهم محلهم، وكان بعضهم —على سبيل المثال— من مملكة انكلترا، كما ذكرنا بشكل مفصل أعلاه، وكان من بينهم راعي دير القديس ألبان، الذي كان رجلاً بديناً، وقد تقدمت به السن، ولذلك أرسل عذراً معقولاً عن غيابه بوساطة راهب من ديره اسمه جون دي بولوم Bulum, والمعلم روجر هولدن Holden, وكان كاهناً، وفي الحقيقة بالنسبة لهذه القضية، أعطى المعلم مارتن، الذي كان لبعض الوقت ساكناً في انكلترا، هذه الشهادة، وبناء عليه بقي غير عرضة للنقد وبسلام، مرسلاً رسالة لطيفة إلى البابا، بوساطة رسوليه المذكورين، أما من مملكة هنغاريا، التي تعرضت لدمار كبير من قبل التتار، لم يقدم أحداً، ومن ألمانيا التي

كـانت مضطربة بالحرب مع الامبراطور، جاء عـدد قليل من الأساقفـة إلى الاجتماع، ومن الأرض المقدسة، التي كـانت عرضة لخطر عظيم، لم يستطع أحداً القدوم إلى المجمع، كما أنه لم توجه إليهم الدعوة.

وبالصدفة، قدم إلى هاهنا، من الأرض المقدسة، واحد فقط، هو أسقف بيروت، وكان الرسـول العام لكل سـورية، وللتجمع المسيحي في الأرض المقـدسة، وقـد جلب معـه تقريراً مبكيـاً، حـول الدمار الذي أحـاق بتلك البلاد، بإذن من الرب.

كيف أعطى البابا في اليوم الأول تعليمات إلى المجمع

عندما رأى البابا أن عدداً كبيراً من الأسـاقفة —مع أنهم ليسوا جميعاً— قد اجتمعوا، قام في يوم الاثنين، بعد عيـد ميلاد يوحنا المعمدان، بالدخول إلى غرفـة طعام رهبـان القديس جست Just في ليون، يحيط بـــه إخوانه الكرادلة، والبطارقة، ورؤساء الأساقفة، والأسـاقفة، والقساوسة الآخرين الذين وجهت إليهم الدعـوة إلى المؤتمر، وكـذلك نواب الأسـاقفة الغيـاب والأمراء، وكان هناك حـاضراً إلى جانب الكرادلة، اثنان من البطاركة، هما: بطريرك القسطنطينيـة، الذي هو بالوقت نفسه بطريرك أنطاكيـة، وبطريرك أقـويليـا Aqaileia, الذي كـان أيضـاً بطـريرك البندقيـــة، وامبراطور القسطنطينية وكـونت طولوز، والنواب من انكلترا، وايرل بيغود مع بعض من أتباعه النبلاء، ومائة وأربعين رئيس أساقفة، وأسقف.

ثم عـــرض بطريرك القسطنطينيـــة الشروط والحاجيـــات الضرورية لكنيسته، وأعلن بأنه كـان لديه من قبل أكثر من ثلاثين أسقفـاً تحت إمرته، وقد بقي منهم الآن ثـلاثة فقط، وعلاوة على ذلك أضاف بـأن الإغريق مع أعداء آخرين للكنيسة الرومانية، قد استولوا بالقوة على جميع الامبراطورية البيـزنطية (رومـانيـا) حتى أبواب القسطنطينيـة تقـريباً، وأنهم لايطيعـون الكنيسة الرومـانية في شيء، لكن بتخليهم عنها، يعارضـونها بكل الوسائل

العـدوانيـة التي بقـدرتهم، وأنه بسبـب الأسى والفـوضى المحيقـة بجميع المسيحيـة، فإن كنيستـه المذكـورة كـانت الكنيسـة ذات الامتيـاز الأول، وتستحق التكريم أكثر من الكنائس الأخرى، لأنه في المقـام الأول، حسبما هو معروف حقيقة، بأن القديس بطرس، قد قام في الأيام الخالية، بالسكنى في أنطاكيـة (وهـي المدينة التي كـانـت خـاضعـة للإغـريق) وسبب الاضطـراب، والفرار من هناك لسمعان مـاغوس ولآخرين من الهراطقـة، وعند سماع هذا حافظ البابا على الصمت.

وفيما بعـد تمّ الوعظ بقـداس، جـدير بالقبـول كله، فيما يتعلق بتطويب القديس ادمـوند، الذي كان من قبل رئيس أساقفـة كانتربري، الذي جعله الرب مشهـوراً بإظهـار أعظـم المعجـزات، وفي الحقيقـة المؤكـدة أن ثمانيـة رؤسـاء أسـاقفـة، وحـوالي العشريـن أسقفـاً، قـدمـوا براهين، وتوسلوا باخـلاص بوجوب أن يجري تطويبـه بوقار عظيم في هذا المجمـع، وعلى هذا كـان البابـا معارضـاً، ليس بميـوله الشخصيـة، بـل جـرى تحريضـه هنـاك بوساطة روح الحسد لدى الآخرين، وأجاب:

«هناك بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالكنيسة تضغط علينا الآن، وهي لاتسمح بالتأخير، لذلك ينبغي أن تبقى هذه المسألة معلقـة لبعض الوقت، وعلى كل حال، إننا ما دمنا أحياء لن ندع قضيته تعاني من الإهمال، ونـحن مسرورين بالـرب، ونقـدم شكراً وافـراً له، مـن أن الرب، والعـالم أجمع يقدمون الشهادة على قداسته وفضائله».

وكان هناك أيضاً موجـوداً في المؤتمر، نائباً عن الامبراطور فردريـك، هو ثاديوس دي سيسا Thaddeus de Sessa, وكان رجلاً صـاحب حكمة، ووحيداً بفصاحته، وفارساً، ودكتوراً في القانون، وقاضيـاً للقصـر الامبراطوري، وقد قدم ليجيب بجرأة وكذلك بحذر، ودقة، عن مـولاه، وليقيم سـلاماً مع البـابا، وليعيد تأسيس صـداقتها الماضية، وبثقـة عرض اسـترداد جميع رومانيـا —أي امبراطورية الإغـريق— وإرجاعهـا للاتحاد

مـع الكنيسـة الرومانية، وأن يتصدى بشخصـه، كجندي مخلص للمسيـح إلى التتـار، والخوارزميـة، والمسلميـن والأعـداء الآخـرين وخصـوم الكنيسـة، وسـوف يقـوم كـذلك بقـدر مـاباستطاعتـه، بـإعـادة تأسيس الأوضاع في الأرض المقـدسة، التي هـي الآن عرضـة لمخاطر عظيمـة جداً وقريبة، وأن يعيـد بالوقت نفسه إلى الكنيسة الرومانيـة الممتلكات التي كان قـد أخـذها منهـا،وأن يعطيهـا ترضيـة كـاملة، وفي جـواب على جميع هذه العروض قال البـابا متسائلاً: «آه، كم هي وعود عظيمـة وكثيرة، ما من أي واحد منها جرى تنفيذه بأي شكل من الأشكال، أو سوف يجري الوفاء به، ومن الواضح الآن أن هذه الوعـود قـد قطعـت بغـاية أنه بالخداع وبالخرق يمكن إلغاء المؤتمر وتشتيته، ذلك أن الفأس قد وضع الآن على الجذر، ومن الممكن وضعـه جـانباً بـوساطة التـأخير، المتوجب عليـه هو مـراعـاة بنود السلام، التي أقسم عليهـا مؤخراً بروحه، وذلك وفقـاً للمقصد الذي أدى من أجله اليمين، ووقتها أنا سوف أوافق على عرضه، لكن إذا ما أقدمت أنا الآن على الموافقـة على طلبـه، ومن ثم اختـار هـو التراجع عن اتفـاقـه، من الذي سيكون ضامناً له لإرغامه، إذا ما نأى عن تنفيذ عقده؟»، ولدى وعد ثاديوس بأن يكون كل من ملكي فرنسا وانكلترا، الكفيلين في هذه القضية، أجاب البابا: «نحن لانختار قبولها، لأنه إذا ما أراد في أي وقت في المستقبل أن يعدل الصفقة، أو أراد أن يلغيها كلية، (ونحن لانتوقع أية نتيجة أخرى، مما فعله مـراراً)، إننا سوف نرغـم على الدخول في مـواجهة معها، ووقتهـا سـوف يكون للكنيسـة ثلاثة أعـداء، مـا من أحـد أقـوى منهم، لابل في الحقيقة، ليس هناك من يوازيهم في القـوة العلمانية»، وبما أن حجج ثاديوس لم تكن كـافيـة لـلاجـابة على هـذا، وبما أنه لم يكن هناك وقت كـاف، لزم الصمت وهو كئيب.

حول الأخبار السيئة من الأرض المقدسة التي نشرت في المؤتمر

وقـام وولران Walleran، أسقف بيروت، الذي تحمل مصـاعب

الرحلة لمدة ستة أشهر وسط مخاطر البحار، وشهراً على البر، في سبيل —كما ذكرنا أعلاه— أن يجلب رسالة حول مصائب الأرض المقدسة، وليطلب المشورة والمساعدة، قام بتوجيه الأمر إلى الراهب الدومينيكاني آرنولف Arnulph, أن يقرأ بشكل علني الرسائل التي كان النبلاء الذين بقيوا في الأرض المقدسة قد أرسلوها إلى جميع مسيحي الغرب، وقد أقحمت هذه الرسائل في جزء متقدم من هذا العمل، وأثارت الآن محتوياتهم المبكية جميع الذين سمعوهم، وجعلتهم يبكون، ولم يكن ذلك من دون سبب حسن.

إجراءات اليوم الرابع من الأسبوع

وفي يوم الأربعاء التالي، دخل البابا، وكان مرتدياً لثيابه الحبرية، إلى كنيسة القديس يوحنا، وهو محاط بجميع الأساقفة الآخرين الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وهم يرتدون أيضاً ثياباً إحتفالية، كل حسب ماهو عائد إليه، وبعد التوجه بالدعوة إلى الروح القدس، حيث أعقب ذلك ابتهال، وصلوات أخرى قرئت بشكل موائم، وعظ البابا بقداس مهّد له بالنص التالي: «آه، أنتم الذين تمرون بالطريق، قفوا وتمعنوا هل ترون حزناً مثل حزني»، ثم إنه تابع بتلاوة قداس فصيح، فيه عقد مقارنة بين أحزانه الخمسة الرئيسية وبين الجروح الخمسة للمصلوب، وكان أول هذه الأحزان وحشية التتار اللاانسانية، الذين كانوا يعيثون فساداً في البلدان المسيحية، وكان الآخر هو انشقاق كنيسة رومانيا، أي الكنيسة الإغريقية، التي انفصلت قبل عدة سنين خلت —في أيامنا هذه— عن صدر أمها، التي غدت وكأنها زوجة أبيها، والأمر المحزن الآخر كان تسلل هرطقات جديدة، التي هي هرطقات البيترينيين، والبوغارينيين، والجوفينيين، ومنشقين آخرين، وعدد لايحصى من الفرق، التي لوثت إلى درجات عالية كثيراً من مدن المسيحية، ولاسيما مدن لومبارديا، وكان الأمر المحزن الآخر متأصلاً مع الأرض المقدسة، حيث قام الخوارزمية الممقوتين بتسوية بيوت

الداوية والاسبتارية بالأرض، بعد تدميرها كلياً، وتدمير مدينة القدس، ومدناً مسيحية أخرى، وسببت سفكاً عظيماً للدماء المسيحية، لابل اقترفت مذبحة عامة، وأمر محزن آخر تسبب به أمير، يعني الامبراطور، الذي كان من المفترض ارتباطه في أن يكون المدير الرئيسي للشؤون الدنيوية، والحامي للكنيسة، قد أصبح الآن العدو الفعّال والقوي لكنيسة المسيح، لابل في الحقيقة العدو الرئيسي، والظالم المعلن لرجال الدين فيها.

ثم إن البابا تابع التعامل مع هذه المواضيع، بقدر ما بدا موائماً، وتمكن تماماً من ملامسة جميع سامعيه والتأثير عليهم بالحزن، لأن عيونهم سالت بدموع وافرة، وتقاطعت تنهداتهم مع خطابه، وفي نهاية قداسه، عرض عدوانيات الامبراطور فردريك، بالهرطقة، والدنس، وذكر من بين ذنوبه، أنه عمّر مدينة واسعة وقوية، في الديار المسيحية، وأسكنها بالمسلمين، مستخدماً، أو بالحري مسيئاً استخدام عاداتهم، وأوهامهم، مع الرفض لجميع الآراء المسيحية والديانة المسيحية، وأنه قد عقد —كما أكد قداسته— صداقة حميمة مع سلطان مصر، ومع بعض الأمراء المسلمين الآخرين، وأنه انحرف بعيداً، وضل بصلات زنا وفحش، وبلا حياء لطخ بالعلاقة مع نساء مسلمات، أو بالحري مع عاهرات، من دون تمييز، وعزا إليه كثيراً من أعمال الحنث باليمين، وكان ذلك من دون أي اهتمام بالصدق، مع أنه لم يحافظ قط على اتفاقاته، كما أنه لم ينفذ وعوده ولم يحافظ بأي شكل من الأشكال على عهوده، وفيما يتعلق بهذه التهم، ولكي يكون أكثر اقناعاً لسامعيه، أراهم كثيراً من الرسائل كلها تحت ختمه الذهبي الامبراطوري، وبرهن بذلك بوضوح أنه مجرم بالحنث باليمين، ثم ان ثاديوس نهض غير هياب أمام المجمع كله، واعترض على كلام البابا هذا، وعرض رسائل كثيرة جوابية مختومة بختم البابا، ظهر فيها ما يناقض بوضوح ما عرضه البابا قبل قليل، وعلى كل حال إنه لدى الفحص الدقيق لمحتويات هذه الرسائل من على الجانبين، الذي سوف يكون متعباً القيام

بشرحهم وعـرضهم كـاملين في هذا الفصل، سـوف لايظهـر بشكل ايجابي وجود تعـارض أو تناقض بين أحدهـم والآخر، فقد كـانت رسائل البـابا رسائل شرطية، وكانت رسائـل الامبراطور رسائل ايجابية، وظهر أن خرق الصدق هو من جانب الامبراطور، الذي مع أنه قـد وعد ايجابياً بكل شيء، هو مع ذلك لم يف بأي شيء وفقـاً لوعـوده، وعلى هذا سعى ثاديوس بكل قـوة إلى الرد بحجج متنوعـة، بدت على الأقل قـائمـة على أسس قـوية، في سبيل أن يبرىء مـولاه الامبراطور من التهم، وعـرض رسائل أخـرى من البابـا، كانت جوابيـة، معلناً أنه ورد في محتـوياتهن، ما لم تجر رعايتـه، وبناء عليه لم يكن الامبراطور ملزمـاً بـالارتبـاط بوعـوده، أمـا بالنسبـة لتهمـة الهرطقة، الصادرة ضد الامبراطور، أجاب كما يلي، بعدما نظر من حوله إلى جميع الحضور، وكأنه كان سيخاطبهم جميعاً:

«سادتي، إنه بالنسبة لقضية التهمة هذه، التي هي التهمة الأكثر جدية، ما من أحد يمكن أن يكون مقنعاً تماماً، مـا لم يكن الامبراطور حاضراً، حتى يمكن للذي هو مغلق عليه في قرارة نفسـه بشكل سري، يمكن استخراجه وسماعـه من فمـه، ولكـن كـونه غير هـرطقي، من الممكن البرهنة عليـه وضرب أمثلة عليـه، فهو لم يسمح لأي مـرابي بالسكنى في امبراطوريتـه أو ممالكه»، وبذلك ألقى بالتهمـة بين أسنان البـلاط الروماني، الذي كـان من الواضح معســوفـاً به بهذا الشر، وجــواباً على التهمـة التي عملـت ضـد الامبراطور، من أنه كـانت له علاقـة مريبة وحميمـة مع سلطان مصر، ومع بعض المسلمين الآخـرين، الذيـن سمح لهم بالسكنى في أراضيــه، فقــد أوضح بأن «هذا قــد عمل بشكل تطوعي، وبدوافع مـن الحكمـة، لضبط بعض أعمال العصيان والتمرد لبعض الخاضعين بموجب الحق إليه، ولقمع أعمال الشقاق، وفي استخدامه لهم في حملاته، هو يعتقد أن أية مصيبة سوف تقع لهم، لن يكون محزوناً عليهـا مـن قبل أي مسيحي، وبعمله هكذا وفـرّ سفك الدم المسيحي من دون فـائدة، وهو لم يتـورط بعـلاقة مع عـاهرات،

ومن يمكنه أن يبرهن ذلك، لكنه كان يسلي نفسه ببعض الحركات، وببعض الأداءات لبعض النساء، اللائي قد صرفهن الآن، وهن لن يرجعن، لأنهن غدون مصدراً للشكوك»،وعندما أنهى ثاديوس كلامه، ترجى بأن يمنح مهلة قصيرة من الوقت، حتى يكون قادراً على بعث رسالة إلى الامبراطور، وأن يستخدم وسائل مؤثرة لإقناعه بالقدوم شخصياً إلى المجمع، الأمر المتوقع منه، أو أن يمنحه المزيد من الصلاحيات، وعلى هذا أجاب البابا:

«لاسمح الرب بهذا، إنني أخشى من المصائد التي وجدت بعض الصعوبات حتى نجوت منها، وإنه إذا ما جاء، أنا سأغادر، لأنني لاأرغب بالدم، ولاأشعر أنني شخصياً موائماً للشهادة، أو مستعداً لها، أو للسجن».

وحدث في اليوم التالي، أنه بناءعلى مبادرة نواب الملكين الفرنسي والانكليزي، الذين تضايقوا كثيراً من خطر توجيه الاهانة إلى مثل ذلك الأمير العظيم، وتضايق بشكل خاص نواب الملك الانكليزي بسبب العلاقة والتحالف المعقود بين مولاهم وبين الامبراطور، جرى منح مهلة أربعة عشر يوماً إلى ثاديوس، وكان ذلك مؤذ لكثيرين ممن كانوا مقيمين في ليون، وعندما جرى إخبار هذه الأشياء إلى الامبراطور، قيل بأنه قد قال وهو مضطرب نفسياً كثيراً:

«إنني أرى بوضوح مثل الضوء، بأن البابا قاصداً بجميع جهوده للحط من شأني، وهو مثار برغبة وبشعور بالانتقام لنفسه، لأنني تدبرت اعتقال أقربائه في البحر، وهم القرصان الجنويين، الأعداء القدماء المعلنين للامبراطورية، وسجنهم مع الأساقفة، الذين كانوا قادتهم وحماتهم، لأنه من الواضح أنه دعا إلى عقد هذا المجمع، لغاية واحدة لاغير، ومن غير الممكن للامبراطورية المقدسة أن تلتزم بقرار مجمع، هو مجمع معاد لها بشكل خاص»، وعندما وصل إلى علم البابا، والجماعة المجتمعة بأن الامبراطور قد قال هكذا، وأنه رفض الحضور، أو الالتزام بقرارهم،

سحب كثيرون تعاطفهم معه، وهم الذين كانوا حتى الآن متفقين فيما بينهم على تأييده، ووجّه اللوم بشكل كبير إلى الانكليز، لانحيازهم له، وبناء عليه جرى اتهام الامبراطور فردريك بقسوة متناهية وبحدة شديدة، في مجمع عام، وصدرت ملامته عن سكان أربعة أطراف الدنيا، على أنه متمرد وعاص ضد الكنيسة كلها، وقام واحد من رؤساء الأساقفة، ووجّه اللوم إليه بحرارة أكثر من البقية، واتهمه بجريمة الخيانة العظمى، في قضية اعتقال الأساقفة الذين تقدم ذكرهم، وبتهم أخرى ثقيلة.

وعلى هذا كله، وقف ثاديوس تقريباً لوحده، ورد لصالح الامبراطور، ونظر إلى متهمه وقال:

«ما من ثقة يمكن أن توضع بك، ومع ذلك لايجوز لكلامك أن يمر وأن يقابل بالصمت، لأنك ابن خائن، قد جرت ادانته بشكل قانوني في محكمة مولاي الامبراطور، وقد جرى شنقه، وأنت تتبع خطواته، وتسعى لأن تسير خلف أبيك في كل شيء»، وعند هذا كان المتهم صامتاً، ولم يتجرأ على التفوه بأية كلمة أخرى، كما أنه لم يسمح له بذلك، وبالطريقة نفسها أيضاً، قام المعلم ثاديوس بعقلانية، لكن بجرأة، بالرد على اتهامات بعض الآخرين ونقضها، وتجددت المناقشات مع روح جديدة بوساطة عدد كبير من أقرباء وأصدقاء الذين ألقيوا بالسجن أو غرقوا، وقد وجهوا الملامة إلى الامبراطور، من أجل عملية الاعتقال التي تقدم ذكرها، وجاء ذلك بحدة أكثر، وبجرأة أعظم، حيث أنهم رأوا نقصان التعاطف معه، وعليهم رد ثاديوس قائلاً:

«إن مولاي بالحقيقة آسف لتلك الواقعة التي حدثت صدفة، وعلى عكس رغباته، ولم يكن باستطاعته، كما هو معروف بشكل جيد، أثناء معركة مفاجئة وقتال عنيف في البحر، أن يفرق بين هؤلاء الأساقفة وبين أعدائه، حتى يحول دون عدم تمييزهم واشراكهم مع أعدائه، لكن لو كان مولاي الامبراطور هناك، لبذل أقصى جهوده في سبيل الحفاظ عليهم»،

وعلى هذا رد البابا قـائلاً: «بعد إلقـاء القبض عليهم، لماذا لم يسمح للأبرياء —مع أنهم عسف بهم وتعـرضـوا لجراحات مضـاعفـة— بالمغـادرة وهـم أحــرار، واحتفظ بالآخــرين فقط؟»، وعلى هذا رد ثاديـوس: «لابد من التذكر أن صيغة الدعوة إلى الاجتماع قـد تغيرت، وكذلك اجتماع الأساقفة الذين دعيوا إلى المؤتمر الذي عقد في أيام البابا غريغوري، وجاء هذا التغيير من أجل الأسوأ، وعـدم تغيير الامبراطور لمشاعره، كان أمـراً مسوغاً، لأن البـابا مع أنه توجب عليه أن يجمع فقـط الذين وجهت إليهم الدعوة، دعـا معهم الذين هم أعـداء معلنين لـلامبراطورية، من علمانيين، ومشعـوذين، مؤيدين بعصـابات مسلحة، وكان بينهـم كونت بروفـانس وآخرين، حسبما جاء واضحاً في الرسائل إلى ملك انكلترا، التي قدمت أعلاه، ومن الواضح أنهم دعيوا ليس بسبب حكمتهم، أو من أجـل الترتيب لسلام، بل بالحري لزيادة الشقاق، ولهذا السبب أرسل مولاي الامبراطور رسائل إلى انكلترا، وكذلك إلى مناطق أخرى، راجيـاً الأساقفة بطريقة صديقـه، بأن لايقدموا إلى مثل هذا المجمع الخياني، وأنذرهم مسبقـاً، أنهم إذا ما قدموا مع أعـدائه شخصيـاً، وأعــداء الامبراطورية، فـإنهم ســوف يهاجمون، كما أنه رفض منحهم جواز مرور آمن خلال ممالكه، وبشكل مهذب أنذرهم من المخاطر التي تحيق بهم، ولذلك فإن الرب أرسل بهم بشكل عـادل إلى بين يديه، بين يديه هو الذين استخفـوا به، ومع ذلك فإنه وإن كان مغضبـاً، تذكر الرحمة، ولان بوسـاطة نصائح مستشـاريه المخلصين، وقـد رغب في اطلاق سراح هؤلاء الأساقفة، والأناس غير المحاربين بشكل سلمي، عندما حدث فجأة أن أسقف برنستي وآخرين من الأساقفـة الوقحين، قاموا بتكديس التهديد فـوق التهديد، ومع أنهم كـانوا مسجـونين لم يترددوا بحرمـان الامبراطور كنسيـاً في وجهـه، دون رعايـة لذلك الرأي الصحيح الذي قـال: «تواضع بنفسك أمام يد القـوة، وهكذا بعدما كانوا عصـاة، أصبحوا بلا أذى، لابل معتـوهين، ومن كـونهم أصدقـاء أصبحـوا أعداء، وقـد استحقـوا الايداع بالسجن»، وقـد أجاب البـابا قـائلاً: «ينبغي أن يكون مـولاك الامبراطور

مقتنعاً، مالم يكن غير واثق بقضيته، ذلك أن مثل ذلك الجمع الواسع لمثل أولئك الرجال الصالحين، كان بالحري سوف يحرره بدلاً من أن يكبله، لو أنه استحق أن يتحرر، لكن من سلوكه كان من الواضح بأن ضميره كان يضايقه، وأن الإثم الذي اقترفه، وصار مجرماً به، قد جرحه»، وعلى هذا رد ثاديوس قائلاً: «كيف كان لمولاي أن يتوقع، في مؤتمر يرأسه البابا غريغوري، الذي هو عدوه الرئيسي، أن يجد الذين يؤثرونه، وهم الذين تحالفوا مع أعدائه، وذلك عندما رآهم يتحركون ضده، ويهددونه وهم سجناء؟»، وعلى هذا أجاب البابا: «صحيح أن واحداً بنقده له، قد فقد حظوته، لماذا جرى توريط الأبرياء الآخرين في المصيبة العامة؟، إنه من مخالفاته المضاعفة، لابد أن إهانته وطرده الكامل أن يكون قريباً»، وعندما سمع الانكليز هذا صرخوا لصالح أولاده، وأبدوا اعتراضهم على أن يتعرض الابن للمعاناة بسبب مخالفات الأب، وأن يتم ازدراء النهر كله بسبب نبعه.

وفي الجلسة الثالثة للمجمع ظهر ثاديوس أمامه للاجابة، وللتقدم بالتماس لصالح الامبراطور لأنه كان حزيناً وشاعراً بالخطر، خاصة بسبب أن ابنة دوق النمسا إما قد تزوجت، أو على وشك الزواج من الامبراطور، وكان خطر الخلع بالاضافة إلى الحرمان الكنسي محيقاً به، فهي سوف تبتعد عن عناق واحد ممقوت، هذا وعندما بدأ بتقديم الالتماس بوساطة أعذار كثيرة لصالح الامبراطور، ولكن لم يصغ إليه، تقدم بالتماس لعقد المجمع العام التالي، لأنه لاجميع الأساقفة ولا نوابهم، ولانواب الأمراء، قد ظهروا في هذا المؤتمر، وعلى هذا الالتماس، رد البابا قائلاً: «إن المجمع العام لكثير من البطارقة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، والنبلاء الآخرين من مختلف بقاع العالم، كانوا جميعاً ينتظرون مولاك الامبراطور أن يتواضع بنفسه، وبذلك كان سيكون راضياً تماماً، وبالنسبة للذين هم غياب، إن الذي منعهم من الحضور والمشاركة، هو أنهم بالشراك الـ نصبها مولاك، لذلك

إنه من غير الموائم لقـرار الخلع، الذي سيصـدر بحقـه، أن يجري تأجيله أية مدة أخرى، خشية أن يستفيد من مكره، لأن المخادع ينبغي أن لا يستفيد من أي واحد».

الشكوى التي عملها وكلاء جماعة إنكلترا في مؤتمر ليون

عندما أخذ وكلاء الجماعة الانكليـزية، الذين تقدم ذكرهم، مقاعدهم في المؤتمر، نهض المعلم وليم دي بـاوريك، المتحـدث باسمهم، وعمـل باسم الجماعـة الانكليزية كلهـا شكوى جـادة، حول الظلم الذي كـان يمارس في تلك المملكة، عــارضـاً ذلك بخطبـة فصيحـة، وبيّــن أنه في أيام الحرب استخـرجت ضريبـة مـؤذية من قبل البـلاط الرومـاني، عليهـا لم يوافق قط أسلاف نبـلاء المملكة، كما أنهم لا يوافقون عليها اليـوم، كما أنهم لن يوافقوا عليهــا بالنسبة للمستقبـل، ولهذا هم يطلبـون العـدالة وأن يقــدم إليهم الخلاص، وعلى هذا الطلب لم يجب البـابا ولا بكلمة واحـدة، كما أنه لم يرفع عينيـه، وبعد صمت قصير أعطى وليم المذكـور تفصيـلاً بالاستخراجـات المضــاعفـة للمـوارد التي مـورسـت في انكلترا من قبل البـلاط الرومـاني، وأراهم بالوقت نفسه الرسالة التالية:

رسالة من جماعة إنكلترا حول استخراجات البلاط الروماني

«إلى الأب المبجل في المسيـح، انوسنـت، الذي هو بنعمــــة الرب الحبر الأعظـم، يبعث إليـه نبلاء انكلترا والجماعة بشكل عـام، بإطرائهم، ويقبلون قدميه المباركتين:

إننا نحب أمنا الكنيسـة الرومانيـة ونقـدرها من كل قلوبنا، كما ينبغي أن نفعل، ونهدف بكل عواطفنا الممكنة لزيادة كرامتهـا وتقدمها، ومعها ينبغي أن نمتلك مـلاذاً في الأوقـات المناسبـة، في سبيـل إزالة أسف الابن المظلوم ورفعه بمـواساة الأم، وهذه المواساة على الأم تقديمهـا إلى الابن بمزيد من اللطف والسهولة، وفي مقابل تغـذيتها له بلطف الأم، إنها تطلب من الابن الامتنان والاخـلاص، والأم، بالفعل، لا يمكن أن تكون جـاهلة بالامتنان

الذي أظهرته لسنوات كثيرة، مملكة انكلترا نحوها، فقد منحتها ثماراً وافرة من التمجيد وفي سبيل أمنها الأعظم، في سبيل أنه بهذه الوسائط، من الممكن تأسيس تحالف من التعاطف يكون أكثر ثباتاً بين الكنيسة والمملكة المذكورة، وهذا المورد قد عرف مع مرور الأيام، باسم «بنس بطرس»، ولم تكن الكنيسة على كل حال مكتفية بمعونة من هذا النوع، وفي الأوقات المتأخرة طالبت بالمساعدات بوساطة النواب البابويين، وبرسل آخرين متكررين، وجاء ذلك بطرق مختلفة، اتبعت في المملكة المتقدم ذكرها، وهذه المساعدات جرى تقديمها من قبل أولادها المخلصين بكرم، وكأنهم كانوا يحتضنون أمهم بأذرعة عواطف مختلفة، ونحن نعتقد أيضاً، أن قداستكم غير جاهلين بأن أجدادنا بحكم أنهم كانوا كاثوليكاً حقيقيين، كانوا جميعاً يحبون الرب ويخافونه، ويرغبون بضمان خلاص أرواحهم وأرواح أجدادهم، وكذلك أرواح أولادهم، وأنهم قد أسسوا ديرة، وأغنوها من ممتلكاتهم بكل من الممتلكات الأرضية والرعاية من قبل الكنائس في سبيل أن يتمكن الرهبان من تأدية واجباتهم الدينية بشكل جدير بالثناء في تلك الديرة، وأن يخدموا العلي الأعلى بيقظة، ولكي يتمكنوا من التمتع بالسلام والأمان، ولمواجهة ما يحتاجونه في خدمة الدين، تسلموا الوسائل الضرورية للعيش، وذلك بما يتواءم مع واجباتهم الدينية، من أصحاب الممتلكات المذكورة، ولكي يتمكن كهنتهم من وضع كنائسهم تحت حمايتهم، ولكي يؤدوا الأعمال في الخارج، ويلتزموا بالفرع الثاني للدين، وليتمكنوا من حمايتهم من غارات الآخرين، وبناء عليه، لن يمر الأمر من دون اغضاب شديد لنا، وأنه سيكون أذى شديداً لنا لايمكن تحمله، عندما يحدث ويجري تضليل الرهبان المذكورين وابعادهم عن امتيازات حماتهم، وعن الارتباط بكنائسهم، لكن الآن، حدث من قبلكم، ومن قبل أسلافكم، الذين ليس لديهم تقدير، فبالاضافة إلى الموارد المتقدم ذكرها، استغنى الايطاليون الآن (الذين يوجد منهم أعداد بلا نهاية تقريباً) على حساب الكنائس العائدة إلى حماة هؤلاء الرهبان أنفسهم، وهم الذين

يدعون باسم قساوسة الكنائس، وهكذا تركوا هؤلاء الذين توجب عليهم الدفاع عنهم، وقد اجتثوا تماماً، ولم يعودوا يعطون الاهتمام لأرواح الناس، بل تركوا هؤلاء الذئاب الأكثر جشعاً ليتسولوا تمزيق القطيع، ولاختطاف الشياه، وعلى هذا يمكنهم القول صادقين، بأن هؤلاء الأشخاص ليسوا رعاة جيدين، لأنهم لايعرفون شياههم، كما أن الشياه لاتعرف شيئاً عن الرعاة، فهم لايمارسون أعمال الضيافة، أو تقديم الصدقات المتوجبة على الكنيسة، بل إنهم يتسلمون الثمار فقط لحملها إلى خارج المملكة، مفقرينها إلى درجة كبيرة، باستحواذهم أنفسهم على مواردها، وبذلك فإن إخواننا، وأحفادنا وأقربائنا الآخرين، الذين هم أشخاص جديرون بالعناية من قبل المملكة المذكورة، ينبغي أن ينتفعوا، لكنهم لايستطيعون، ولايمكنهم برحمة وتقوى أن يكونوا قادرين على ممارسة أعمال الاحسان المذكورة وأعمالاً أخرى، وهم يرغبون شخصياً أن يخدموا الكنائس المذكورة، وذلك وفقاً لكلمات بطرس، بأن الذين يخدمون المذبح، يمكنهم العيش مع المذبح، غير أنهم اضطروا الآن بحكم الضرورات لأن يصبحوا رجالاً علمانيين ومنفيين، وفي سبيل أن تكون الحقيقة معروفة لديكم، فإن هؤلاء الايطاليين يتسلمون ستين ألف مارك، لابل أكثر سنوياً من انكلترا، وذلك بالاضافة إلى جبايات أخرى متنوعة، وهم ينقلون منها ربحاً صافياً على شكل موارد من المملكة أكثر من الملك نفسه، الذي هو حامي الكنيسة، والممسك بمقاليد السلطة في تلك المملكة، علاوة على هذا لقد أملنا بعد تنصيبكم (ومازلنا نأمل بالشيء نفسه، لأننا واضعين ثقتنا بكم) أنه بتدخل من عاطفتكم الأبوية، سوف ننال البهجة، ونعيد في أيامكم تأسيس إعطاء الصدقات المتقدم ذكرها إلى وضعها السالف الصحيح.

ونحن —على كل حال— لايمكننا أن نمر صامتين بمظالمنا، لأننا نحن لم نتضرر فقط، بل عسف بنا إلى أبعد الحدود، ففي المقام الأول، قام المعلم مارتن، الذي دخل مؤخراً إلى المملكة، من دون إذن الملك، وهو مفوض

بسلطات أكبر من أي سلطات نذكـــر أنها منحت إلى أي نائب بـابوي، وطلبت من الملك من قبل (ومع أنه لم يمتلك شـارة النيابة البـابوية، مارس الواجبـات المتنوعـة لمنصبـه)، فقد كـان يمارس يومياً، ويعـرض سلطات جديدة، لم يسمع بها من قبل، وخـلال ممارسته للسلطة كان يقـوم باستمرار بتجاوزات وخروقات، فقد منح بعض المنافع الشاغرة بمبلغ ثلاثين ماركاً أو أكثر سنوياً، إلى بعض الايطاليين، وعندمـا يموتون سوف يتـولى آخرون ويتعينون مكانهم، من دون معـرفة الحماة، وهكذا نجـد أن هؤلاء الحماة قد تعـرضوا للغش في امتيـاز عطيتهم، لابل أكثـر من هذا، لقد حـاول المعلم مارتن المذكـور أن يعين منافع مشابهة، عندمـا صدف وكانوا شـاغرين، إلى أشخـاص متنوعين، واحتفظ للكرسي المقـدس بحق منح بعـض المنافع، وعلاوة على ذلك استخـرج جبايات قاسيـة جداً من الرهبان، وكـان يتفوه بأحكام الحرمان الكنسي، والتعليق مع الحرمان من شراكة المؤمنين، في جميع الإتجاهات ضـد المتقـولين، المتململين، وكـان المعـارضـون عـرضـة لخطر عظيم، وللرعب على أرواحهـم، وبناء عليـه، إنه بـالنسبـة للمعلم مـارتن المذكور، وبالنسبـة للاضطراب العظيم الذي عانت منه المملكة كلهـا، فقد مارس المذكـور أعمالاً قضائيـة، نحن لايمكننا أن نصدق أنها صـدرت عن علمكم، لأنه مارس واجبـات عالية، كانت بالحقيقة أعلى مما نتـذكر قط أنه قـد مـورس من قبل، من قبـل أي نائب بابوي، حيث انحـرف كثيراً عن الامتيـاز، الذي جـرى منحـه من قبل إلى صـاحـب الجلالة الملك، من قبل الكرسي الرسولي، الذي رسم من قبله، أن ما من واحد سوف يملأ منصب النائب البـابوي في انكلترا، مـا لم يكن جـرى طلبـه بشكل خـاص من قبل الملك، وبناء عليـه، إننا مع كل التـذلل الممكن والاخـلاص، نـرجـو قداستكم، وبالنـدر نفسه نلتمس العاطفـة الأبوية لأن تمدّ يد الرحمة لإنقاذ الأولاد المظلومين، بوساطة مساعدة مؤثرة ومعقولة، من المضار التي تقدم ذكرها أعـلاه، ومن المظالم، لأنه مع أن ملكنا، الذي هو كاثوليكي صحيح، وغيورعلى تأدية واجباته الدينية، دون الاهتمام بتبديد جسده، هو يرغب في

تأديته لواجبه نحو يسوع المسيح، وفي احترامه للكرسي الرسولي، ويود أن يرفع من شأن الكنيسة الرومانية، ويزيد من كرامتها ومنافعها، وذلك كما ينبغي على ولد محب كثيراً أن يفعل، بيد أنه في الوقت نفسه أن يكون ذلك مع الحفاظ على الامتيازات الملكية، وعلى الكرامات، ومع ذلك إننا نحن الذين نتحمل متاعب وحرارة اليوم في خدمته، والذي واجبه يقتضي ذلك، مع الملك المذكور، حتى نرى الحفاظ على المملكة، نحن لايمكننا أن نتحمل بصبر هذه المظالم المذكورة، والتي هي ممقوتة للرب وللانسان مع مثل هذه الأعباء التي لايمكن تحملها، وبحق نعمة الرب لن نتحملهم أية مدة أطول، من خلال تدخل مساعدتكم الفعالة التي نأمل ونثق بأن نتلقاها سريعاً، وأثناء المناسبة، ولعله بناء عليه، يرضي قداستكم إعطاء إذن مصغية متعاطفة إلى التماساتنا، حتى تنال باستحقاق شكراً خاصاً من نبلاء انكلترا، ومن الجمع العام للجماعة في انكلترا، وذلك بحكم كونهم أكثر الأبناء حباً في المسيح».

البابا يؤجل إعطاء جواب للرسل من إنكلترا

ومع أن الرسالة قرئت، ونشرت بشكل مكشوف، وسط صمت عام، لم يقدم البابا جواباً، لأنه أكد أن مثل هذه القضية الصعبة تتطلب مداولات طويلة، ولهذا أخّر إعطاء جوابه لبعض الوقت، ومع أن النبلاء المتقدم ذكرهم، والرسل الخاصين شددوا على حثه على إعطاء الجواب على الفور، هو لم يقبل، بل وعد أنه سيفعل ذلك بعد مدة ليست طويلة، وبالاضافة إلى الشكاوي التي تقدم ذكرها، أضاف الرسل المذكورون أيضاً شكوى أخرى ثقيلة، وكانت حول المظالم الخبيثة، والأذى الذي لايمكن تحمله، والمكوس اللاأخلاقية التي مورست، بسبب تلك الإضافة المقيتة للفقرة التي غالباً ما أقحمت في الرسائل البابوية، وهي «دون تقدير» إلخ، إلخ.

غير أن البابا كان منصرفاً نحو قضايا أعظم أهمية، ومع أن المعلم ثاديوس، وكيل الامبراطور ترافع ضدها بفصاحة، قام البابا الآن من دون

أي تردد، أو خداع، أوتأخير، فتفوه مزمجراً بقرار الحرمان الكنسي ضد الامبراطور فردريك، أمام المجمع كله، مما أدهش جميع الذين سمعوه وأرعبهم.

كيف حرم البابا كنسياً الإمبراطور فرديرك في مجمع ليون

«أنوسنْت، الأسقف، عبد عبيد الرب، إلخ:

بحضور المجمع المقدس، وفي تذكر دائم للحادثة، وفي تمجيد للكرسي الرسولي، قمنا نحن الذين —وإن كنا لانستحق— جرت ترقيتنا إلى المنصب البابوي بتقدير من الجلالة اللاهوتية، والذي علينا أن نعطي عنايتنا المتواصلة واليقظة إلى جميع المسيحيين، فمنحنا عين التقدير العميق، لنميز الأعمال والأقوال لكل واحد من الناس، ولكي نزنهم بميزان التقدير الحكيم، في سبيل أن نتمكن من مكافأة الذين يستحقون المكافأة، الذين بعد فحص دقيق تبرهن أنهم جديرين بذلك، ولنوقع العقوبة المستحقة على الذين نجدهم مجرمين أو ملومين بأي طريق من الطرق، وذلك وفقاً لطبيعة ذنوبهم، ولسوف نزن دوماً فضائلهم وجوائزهم في ميزان متعادل، معاودين الدفع إلى كل واحد كمية الجائزة أو العقوبة، وفقاً لطبيعة أعماله، سواء أكانت جيدة أم سيئة.

وبالنسبة للحروب المستعرة المديدة، التي أزعجت منذ وقت طويل بعض المقاطعات والمناطق التي تؤمن بالمسيحية، رغبنا من قلبنا كله بإعادة الهدوء والسلام إلى كنيسة الرب المقدسة، وإلى جميع المسيحيين بشكل عام، وقدرنا أنه مفيد لنا القيام بإرسال رسل خاصين إلى الأمير الرئيسي العلماني، الذي كان هو المقترف لهذه التمزقات والاضطرابات، والذي كان لتجاوزاته محروماً كنسياً من قبل سلفنا، البابا غريغوري، صاحب الذكرى السعيدة، لقد قمنا بناء عليه، بإرسال رجال رفيعين بالمسؤولية ممثلين لنا ولصالحنا، وهم: أخينا المبجل ب. P راعي دير ألبانو في ذلك الوقت،

ورئيس أساقفة روان الآن، وو. W أسقف سابينا الآن، ومن قبل أسقف مودينا Modena,وابننا المحبوب كثيراً وليم، الكاهن الكاردينال لكنيسة الاثني عشر رسولاً، والذي كان في ذلك الحين راعي دير القديس فاكندوس Facundus, وكلهم كان مشحوناً بالرغبة لخلاص ذلك الأمير المذكور.

وأوضحنا من خلالهم بأننا مع إخواننا، نسعى، بقدر ما نمتلك من قوة، لأن نكون في سلام معه في كل جانب، وذلك حسبما كنا جاهزين لأن نكون مع جميع الناس، ونحن نرغب في أن نمنح له السلام والهدوء وإلى جميع العالم، أما مايتعلق بإعادة الأساقفة، والكهنة وجميع الآخرين الذين في حبسه سجناء، وكذلك بالنسبة لجميع الكهنة، وكذلك العلمانيين، الذين أسرهم في الغلايين، إن ذلك سوف يكون مساعداً على صنع السلام والمصالحة، وسألناه بوساطة الرسل أنفسهم وطلبنا منه، أن يعيدهم إلى الحرية، (وذلك حسبما كان هو وكذلك رسله قد وعدوا سلفنا المذكور، وذلك قبل دعوتنا إلى المنصب الرسولي)، وأعلنا علاوة على ذلك، بأن الرسل المذكورين، كانوا مستعدين، باسمنا لإستماع مقترحاته من أجل، وفي سبيل ترتيب بنود للسلام، وللإصغاء إلى أية تقديمات واقتراحات للترضية، يمكنه —أي الأمير المذكور— أن يختار عرضها في المسألة المتعلقة بكل قضية حرمانه الكنسي، وبالاضافة إلى هذا، إذا كانت الكنيسة قد آذته بطريقة غير صحيحة (التي لاتعتقد بأنها فعلت ذلك) هي على استعداد للقيام بالإصلاحات، ولأن تعيده إلى وضعه الطبيعي، وإنه إذا ما قال بأن الكنيسة أو نحن شخصياً قد ألحقنا به الضرر في أية طريقة من الطرق مضادة للعدالة، إننا على استعداد لأن ندعو الملوك، والأساقفة، والمقدمين، ورجال اللاهوت، وكذلك العلمانيين، إلى الاجتماع إما شخصياً، أو من قبل رسلهم الخاصين، في مكان ما آمن، وإن الكنيسة مستعدة، وفقاً لقرار المؤتمر، لأن تقدم إليه الترضية، إذا ما كانت قد آذته بأية طريقة من الطرق، وأن تلغي أي قرار بالحرمان الكنسي، كانت قد أصدرته ضده بشكل غير

عادل، وأن تعاملـه بكل لطف ومرحمة، بقدر مـا يمكنهـا أن تمنح، مع احترامهـا للرب، ولكـرامتهـا الذاتيـة، وأن تتسلم ترضيـة منه عن الأذى والمضار التي اقترفت ضد الكنيسة المذكـورة من قبله، أو من قبل أتباعه من خلالـه، وإن الكنيسة ترغب أيضـاً في السماح إلى جميع أصدقـائه والمرتبطين به، أن يكونـوا في سـلام، وأن يتمتعـوا بأمن كـامل، وبـذلك لايمكن في المستقبل بشكل مطلق، تعرضهم للخطر أو للرعب حول هذا الشأن.

ولكن مع أننا سعينا بوساطة عتابنا الأبوي، وبوساطة الالتماسات العامة أن نحـرضه على السـلام، قلّد الأمير المذكور بعناده فـرعون، وأغلق أذنيـه مثل ثعبـان، في ذروة عنـاده، وتبنى حـالة العجـرفـة والتشـامخ، وازدرى ورفض التماساتنا وتحذيراتنا حـول هذه القضية، ومع أنه حـدث من خلال مرور الوقت، في السنة التـالية، في يوم عيد العشاء لربنا، والذي كـان العيد الأخير، بحضـور إخـواننـا الكرادلة، وكـذلك ولدنا المحبـوب كثيراً في المسيح، امبراطور القسطنطينية المشهور، وحشد كبير من الأساقفة وشيوخ وحكماء شعب رومـا ومجلس شيـوخهـا، وجمع كبير مـن الآخـرين، الذين كـانوا قـد اجتمعوا لـدى الكرسي الرسولي في ذلـك اليوم، بسبب مهـابتـه ومكانتـه، من جميع أرجاء الدنيـا، أن قـام الأمير المذكور من خـلال النبيل كونت طولوز، والمعلم بطرس دي فينيا، وثاديوس دي سيسا، القاضيان في بلاطه، ووكلائه، في ظل أوامر منه حـول هذه القضية، فأعطى يمينا مهيبا، بأنه سوف يلتـزم بأوامرنا وبأوامر الكنيسـة، ومع ذلك هو لم يف بعد ذلك بالذي أقسم عليه، وفي الحقيقة، إنه من المعتقد بشكل صحيح، ومن الممكن استخراج الأمـر واستنتاجـه من الإجراءات التي عملهـا فيما بعد، أنه أدى ذلك اليمين لغـاية الخداع وليس لغاية طـاعة الكنيسـة، لأنه على الرغم من مضي سنة حتى الآن، هو لم يقم بالعودة إلى صـدر الكنيسة، كما أنه لم يكلف نفسه ولم يزعجها بتقديم ترضية حول الأذى والخسائر التي عانت منها من قبله، مع أنـه طلب منه مـراراً أن يفعل ذلك، وبناء عليـه، بما أننا لم نعـد

راغبين، ولسنا قـادرين —دون أن نذنب ذنباً عظيماً بحق يسـوع المسيح— أن نتساهل تجاه عدوانيته وذنوبه، ولقد أرغمنا بضميرنا على اتخاذ إجراءات ضده.

وإذا مـا التـزمنا بالصمت الآن حـول جرائمـه الأخـرى ومظالمه، لقـد اقترف أربعة آثام ثقيلة جداً، لايمكن تسويغها بأية وسيلة تلطيف، ذلك أنه غالبـاً ما أقسم يميناً تعهـد به بمراعاة السـلام الذي أعيد تثبيتـه رسمياً بين الكنيسـة والامبرطوريـة، ثم قـام بطيش بخـرقـه، كما أنه اقترف إثماً كبيراً بتسببه باعتقـال كـرادلة الكنيسـة الرومـانيـة المقـدسـة، وكهنة الكنائس الأخرى، والرهبان، والعلمانيين، الذين كـانوا قادمين إلى المجمع الذي رأى سلفنا المذكور أنه من المناسب الـدعوة إليه، وهو أيضـاً متهم بالهرطقة ليس على أسس مشكوك بها أو أرضيـة ضعيفـة، بل على أسـاس بينات مبرهن عليها، وأنه اقترف كثيراً مـن أعمال الحنث باليمين واضحة بها فيـه الكفاية، لأنه عنـدمـا كـان فيما مضى مقيماً في صقليـة، قبـل انتخـابه للمقـام الامبراطوري، قام بحضور غ. G الكادرينال الشماس للقديس ثيودور، وصـاحب الذكـرى الطيبة نائب الكرسي الـرسولي، فقـدم يمين الولاء إلى سلفنا البـابا انوسنت، صـاحب الذكـرى الطيبـة، وإلى خلفائـه من بعـده، وكذلك إلى كنيسـة روما، مقابل تقـدير التنازل عن مملكة صقلية له من قبل الكنيسـة المذكـورة، وحسبما روي، إنه بعد انتخـابه لذلك المقـام المذكـور، وبعد وصـوله إلى المدينة جدد ذلك اليمين أمام انوسنت المذكـور، وإخوته الكرادلة، وبحضور عدد كبير آخر، وقدم ولاءً قـانونياً إلى البابا المذكور مع يدين مرفوعتين.

وبعـد هذا، عندمـا كـان بألمانيا، عمـل يميناً بحضور الأمـراء والنبـلاء العائـدين للامبراطورية، قضى بالحفاظ على البـابا انوسنت المذكور، ولدى وفـاته، على البـابـا هونوريوس سلفنا، وعلى خلفـائـه، وأن يحمي بإيمان صالح، وبقدر ماهو متوفـر في قدرته، شرف، وحقوق، وممتلكات الكنيسة

الرومانيـة، وأن كل ماسـوف يأتي إلى بين يديه، سوف يعيـده إليها من دون أية معـارضـة، وقد ورد ذكـر الممتلكات المذكـورة بوضـوح في بنود يمينه، الذي أكده فيها بعـد، فوْر حصوله على تـاج الامبراطورية، لكن بالنسبة إلى هذه الأيمان الثلاثة، لقد برهن عن نفسه، أنه غير ملتزم جريء، وخارق لها، وبهذا نال وصمـة الخيـانة وتهمـة الخيـانة، لأنه أرسل إلى الإخـوة الكرادلة رسـائل تهديد ضد سلفنـا غريغـوري، وضد إخـوانه المذكـورين، وكما هو ظاهر من الرسائل التي أرسلت من قبله، أقدم على تشويه سمعة غريغوري المذكور بين إخـوانه المذكوريـن، وحسبما ورد في رسائل لها المحتـوي نفسه للتشهير بطرائق مضـاعفة في جميع أرجـاء العالم، كما أنه أمـر أيضاً باعتقـال شخصي لأخـــــوينـا المحترمين: أوتو، أسقـف بـورتو، في ذلـك الحين، وكـاردينال شماس للقـديس نيقـولا، في سجن توليـان، وج. ل أسقف برينستي، صاحب الذكرى الطيبـة، والنائب البابوي للكرسي الرسولي، مع أعضاء بارزين من الكنيسة الرومانية، وانتزع من آخرين مقتنياتهم، وحملهم بشكل مهين عدة مـرات وطاف بهم حول وخلال أمـاكن متنوعة، ثم ألقى بهم في السجن، وعـلاوة على ذلك، سعى بكل مـا أوتيه مـن قوة لانقـاص امتيازات الكنيسـة، أوبالحري، لانتزاع هذه الامتيازات كلهـا، التي منحها مولانا يسوع المسيح إلى القديس بطرس وخلفائه، والتي تمثلت بقوله:

«إن كل الذي سـوف تربطـه على الأرض، سـوف يربط في السماء، وكل شيء سـوف تحله على الأرض، ســوف يجري أيضـاً حله في السماء»، (ففي هذا الامتياز ترسو قـوة وسلطة الكنيسة الرومانية)، ولقـد كتب رسالة بأنه لايقيم تقديراً لقرار الحرمان الكنسي الذي صـدر ضده من قبل سلفنا البابا غريغوري، وبذلك استخف بمفاتيح الكنيسـة، بعدم رعايتها بشخصه، ولم يكتف بهذا بنفسه، بل أيضـاً بوساطة وسـائل موظفيه، فـأرغم آخرين على عـدم مراعـاة قرار الحكم هذا، أو قـرارات الحرمان الكنسي الأخـرى، مع قرارات الحرمـان من شراكة المؤمنين، فهذا كله لم يعبأ به، أما بالنسبـة أيضاً

لممتلكات الكنيسة الرومانية، وهي تخوم ودوقية بينيفنتو، (التي أمر بتدمير أسوارها وأبراجها) وممتلكات أخرى كانت بحوذتها في أجزاء من توسكانيا ولومبارديا، وفي بعض الأماكن الأخرى، مع بعض من الاستثناءات القليلة، فقد تجرأ على الاستحواذ عليهم، وكأن هذا لم يكن فيه كفاية، وذلك حين أقدم على هذا العمل، لقد قام بشكل واضح ومكشوف بخرق الأيمان المتقدم ذكرها، وأقدم شخصياً أو بوساطة موظفيه على إرغام السكان في هذه الممتلكات، على إقسام يمين، حللهم فيه —مع أنه لايمتلك السلطة بموجب الامتيازات أن يفعل ذلك— من يمين الولاء الذي كانوا مرتبطين به بموجب الأمر الواقع، إلى الكنيسة، وبعدما أرغمهم على الحنث بيمين الولاء المذكور، أرغمهم على أداء أيمان ولاء له شخصياً.

وكونه قد برهن عن نفسه، أنه خارق للسلام، فهذا واضح تماماً، لأنه من قبل، أثناء السلام، الذي أعيد تأسيسه بين الكنيسة وبينه، أدى يميناً أمام جون دي أبيفيل، صاحب الذكرى الطيبة، أسقف سالسبري، والمعلم نوماسيوس، الذي كان آنذاك كاردينال —كاهن للقديس سابينا— وبحضور عدد كبير من الأساقفة، والأمراء، والبارونات، بأنه سوف يلتزم تماماً ومن دون شروط بأوامر الكنيسة، وسوف يكون مطيعاً لها في القضايا التي من أجلها جرى حرمانه كنسياً، ذلك أن أسباب ذلك الحرمان قد جرى شرحها له تماماً، كما أنه قام في الوقت نفسه، من خلال كونت أسيرا Acerra, فأدى يميناً بروحه، بأنه سوف يعفو عن جميع الجرائم ويلغي كل العقوبات، بالنسبة لسكان ألمانيا، ومملكة صقلية، وجميع الآخرين، مهما كانت أحوالهم أو مراتبهم، من الذين كانوا واقفين إلى جانب الكنيسة، وأنه سوف لن يؤذيهم في أي وقت من الأوقات، أو أن يتسبب لهم بأي أذى، بسبب وقوفهم إلى جانب الكنيسة، ومع ذلك فإنه فيما بعد لم يشعر بأي حياء بسبب تورطه بحنث كبير، وذلك أنه أخفق في رعاية هذا السلام

وأيهانه هذه، لأن هؤلاء الناس أنفسهم الذين تقدم ذكرهم من نبلاء ومن آخرين، أمر بهم، فيها بعد، فجرى اعتقالهم وسجنهم، وبعدما أفسد جميع مقتنياتهم، قام أيضاً بسجن زوجاتهم وأولادهم، وبالاضافة إلى هذا، وعلى عكس الوعود التي أعطاها إلى ج. ل أسقف سابينا، والكاردينال توماسيوس، قام بدون وقار فغزا أراضي الكنيسة، مع أن الأسقفين المتقدم ذكرهما، قد أعلنا بحضوره عن قرار الحرمان الكنسي ضده، إذا ما أقدم في مستقبل الأيام على نقض الشروط المتقدمة والبنود، وقام الأسقفان نفساهما بموجب السلطات التي كانت ممنوحة لهما من الكرسي الرسولي، فحرما عليه أن يقدم شخصياً، أو بوسائل أي واحد آخر، بمنع التسميات، والانتخابات، والتثبيتات في الكنائس والديرة، وأن يحول دون عملها حرة، في المملكة المتقدمة الذكر بالنسبة للمستقبل، تماشياً مع مرسوم صدر عن مجمع عام، كما أمرا أنه ما من واحد، يحق له من ذلك الحين فرض ضرائب أو اسهامات على اللاهوتيين في تلك المملكة، أو على بضائعهم ومقتنياتهم، وأنه ما من كاهن أو لاهوتي في تلك المملكة يجوز أن يستدعى من الآن فصاعداً، للمثول أمام قاض مدني، في أية قضية مدنية أو سبب جرمي، ما لم تكن قضية الخلاف قضية مدنية تتعلق بالايجارات، وقد فرض عليه أيضاً، أن يقدم ترضية مناسبة إلى الداوية والاسبتارية، وإلى اللاهوتيين الآخرين عن الأضرار، والخسائر التي لحقت بهم، ومع ذلك قد رفض تنفيذ جميع هذه الأوامر.

ومن الواضح أيضاً، أن هناك إحدى عشر رئاسة أساقفة، مع عدد كبير جداً من الكراسي الأسقفية، وكذلك من رعويات الديرة، وكنائس أخرى، هي في الوقت الحاضر شاغرة في المملكة المتقدمة الذكر، وأنهم من خلال وسائله —كما هو واضح تماماً— قد حرموا، منذ وقت طويل، من إدارة الأساقفة، مما يسبب ضرراً عظيماً للكنائس نفسها، ورعب لكثير من الأرواح، مع أنه، ربما قد جرت في بعض الكنائس، في تلك المملكة

انتخـابات بوساطة هيئات الكهنة، إنـه بسبب الكهنة الذين جرى انتخـاب أصـدقـائهـم، من الممكن أن نستخلص، أنهم لم يمتلكوا وسـائل القيـام بانتخابات حـرة، وهو لم يتسبب فقط بالاستيلاء على أساسيـات ومقتنيات كنائس المملكة المذكورة، ومن ثم الاستحواذ عليها لتكون تحت تصرفه، بل إنه نهب الصلبان، وكؤوس القربان، والشمعـدانات، وبقية الكنوز المقدسة الأخـرى، والأقمشـة الحريرية العـائـدة إليهن، وكأن ذلـك جـاء ازدراء للعبادات المقدسـة، وإنه على كل حال، قد ذكر بأن بعضهم قد أعيـد جزئياً إلى الكنائس المذكـورة، لكـن هناك كميـة قـد جـرت المطـالبـة لها من قبل، وعسف بالكهنة بطـرق مضـاعفـة كثيرة، بالجبـايـات وبالمكوس، وهـم لم يجرجروا فقط ليقفوا أمام محكمين مـدنيين، لا بل —كما روي— قد أرغموا على المعـاناة من محنة المبـارزة الفـردية، وقـد سجنوا، وقتلوا، وعـذبوا على المشانق، مما شكل ازعـاجاً وإهانة إلى النظام الكهنوتي كله، ولم تتوفر هناك أعمال تعويض إلى الداوية والاسبتارية، ولـلأشخاص اللاهوتيين الآخرين مقابل الخسائر والأضرار التي أنزلت بهم.

وأمـا أن يكون مجرماً بتـدنيس الأمور المقـدسـة، فهذا أمـر مؤكـد، لأنه عندمـا كـان أسقفـا بورتوا، وبرنيستـي مع آخـرين من الأسـاقفـة، وكهنة الكنائـس، وكـذلك الـرهبـان والعلمانيين قـادمين عبر الماء إلى الكرسي الرسولي، من أجل غاية حضور المجمع، (الذي طلب هو، أي الامبراطور، بأن يعقد) كـانت جميع الطرق في أراضيه مغلقـة بناء على أوامره، وكـان قد أرسل ابنه هنـري مع عـدد من الغـلايين، حيث كمن بـانتظارهم قـرب شاطىء البحر، مع بعض الآخرين الذين كـان قد استأجرهم في توسكانيا، من أجل القيـام بانقضـاض عليهم بكامل القوات، وبغضـب شديد، وقـد تجرأ أن يضع يديه المدنستين عليهم، وقد جـرى إغراق بعض الأسـاقفة مع أشخـاص آخرين، وقت الاستيـلاء، وبعضهـم جرى قتله، وأرغم آخـرون على الفـرار، وقد طوردوا من قبل أعـدائهم، وجرى تجريد البقيـة من جميع

مقتنياتهم، وحملوا بشكل مهين من مكان إلى آخـر في مملكة صقلية، ثم عهد بهم بعد ذلك إلى السجن هناك، حيث تلاشى بعضهم بالأمراض، وعسف بهم بالحاجة، وآل بهم المآل إلى أوضاع تعيسة.

وعلاوة على ذلك، هناك سبب جيد، لاتهامه بالهرطقة، وهو ناشىء عنه، فبعـدمـا نال حكم الحرمان الكنسي، الذي أصـدره ضـده ج. L المتقدم الذكـر، أسقف سابينا، والكاردينال تومـاسيوس، وقيـام البابا غـريغوري المتقدم ذكـره بإصدار حكم التكفير، ضده، وبعد اعتقـال الكرادلة الرومان والأساقفة، وكهنة الكنائس، عندما كـانوا مسافرين من مختلف الأرجاء إلى الكرسي الرسولي، ازدرى ومـازال يزدري مفاتيح الكنيسـة، وتسبب، بقدر ما هو قادر على التأثير عليها، بممارسة الطقوس الدينية، أو بالحري بتدنيس الطقوس الدينيـة أمامـه، مؤكـداً بجرأة، كما ذكرنا أعـلاه، بأنه لايخاف من قرار الحرمان الكنسي، الذي تفوه به ضده، البـابا غريغوري، وبالاضافة إلى ذلك، لقـد تحالف بحلف مقيت مع المسلمين، فهـو غالبـاً مـاأرسل الرسل والهدايا إليهم، وفي المقـابل تلقى بعض الهدايا منهم مع الاحترام والبهجـة، وقـد تبنى عـاداتهم، محتفظاً بهم بشكل معلن في خـدماته اليـوميـة، وبدون حياء، عيّـن حرساً على زوجاته، اللاتي تسلمهن من المنحدرات من أصول ملكية، بعض الخصيان، بشكل خـاص أولئك الذين تدبر مؤخراً خصيهم، والذي هو إثم أعظم، أنه عندمـا كان من قبل في بلاد مـاوراء البحر، عمل نوعـاً من الترتيبـات، أو بالحري من التحـالف مع السلطان، وسمح لاسم محمد (صلى الله عليـه وسلـم) أن يجري إعلانه بشكل عـام في هيكل الرب، نهاراً وليلاً، وقـام مؤخـراً، بالنسبة لقضية سلطان مصر، الـذي صنع بيديه ومن خـلال وكـلائـه أضراراً وأذى لايمكـن التخلص منه، إلى الأرض المقدسـة، وإلى سكانها المسيحيين، وجعل سفراء ذلك السلطـان، في تقدير منه لسيدهم، أن يجري —كما قيل— استقبالهم بشكل مشرف، وأن يعاملوا بشكل كريم، في مملكته في صقلية.

كما أنه في معارضة للمسيحيين أساء باستخدام الطقوس الخبيثة والمرعبة للكفار الآخرين، وذلك في تحالف صداقة مع الذين يدفعون بشكل شرير قليلاً من الاحترام إلى الكرسي الرسولي، لابل هم يزدرونه، وانفصم عن الوحدة مع الكنيسة، وألقى جانباً بكل احترام للديانة المسيحية، وتسبب —كما هو مؤكد تماماً— بمقتل دوق بافاريا، صاحب الذكرى اللامعة، على أيدي الحشيشية، كما أنه أيضاً أعطى ابنته بالزواج إلى بتاكيوس، الذي هو عدو للرب وللكنيسة، وهو الذي قد طرد مع معاونيه ومستشاريه، ومحرضيه، بشكل مطلق من الجماعة المسيحية، بوساطة قرار بالحرمان الكنسي، ولقد رفض إجراءات وعادات الأمراء الكاثوليك، وأهمل مسألة خلاصه الذاتي، وطهارة سمعته، ذلك أنه لايستخدم نفسه ولايشغلها في أعمال التقوى، والذي هو أكثر (إذا ما سكتنا عن ممارساته الشريرة والمقيتة) هو أنه وإن كان قد تعلم ممارسة الظلم إلى درجة عالية جداً، هو لم يتعب نفسه، ولم يكلفها بالتفريج عن المظلومين بالأذى، بمدّ يده —كما ينبغي أن يفعل كأمير مسيحي— لتقديم الصدقات، علماً بأنه قصد بتشوق أن يدمر الكنائس، وقد سحق الرهبان، والأشخاص اللاهوتيين الآخرين، بالأعباء، وباضطهاد نيره، ولم يكتشف بأنه قد بنى قط، أو أسس، لاكنائس، ولاديرة، ولامشافي، أو أية أماكن تقوية أخرى، وهؤلاء على هذا ليسوا أرضيات خفيفة، بل مقنعة، للتشكك والاقتناع برميه بالهرطقة، وبما أن القانون المدني يرى بأن هؤلاء موجودين في لائحة الهرطقات، وينبغي خضوعهم للأحكام الصادرة ضدهم، أي ضد الذين انحرفوا ولو بدرجات خفيفة، عن قضاء وحكم الديانة الكاثوليكية.

وبالاضافة إلى هذا، إن جزيرة صقلية، التي هي النصير الروحي للقديس بطرس، والتي هي بين يدي الأمير المذكور، بمثابة إيجار من الكرسي الرسولي، هذه الكنيسة، قد تدنت من قبله إلى حالة من الفراغ والعبودية، أما ما يتعلق بكل من الكهنة والعلمانيين، فإنهم قد طردوا من

بيـوتهم وأخرجـوا من البلاد مع الإهانات،وذلك بعـدما جـردوا من جميع ممتلكاتهم، والذين قد بقيـوا هناك، قد أرغموا على العيش في حـالة عبودية، حسبما هو الحال، وأن يهينوا، ويهاجموا الكنيسـة الرومانيـة بكثير من الطرق المضاعفة، وهـم الذين بالفعل رعاياها وأتباعها في الجزء الأكبر.

وهو ينبغي أيضـاً لسبب جيـد أن يلام، لأنه أوقف لمدة تسعـة أعـوام وأكثر، دفع الجعالة السنوية، التي مقدارهـا ألف قطعة، التي مرتبط بدفعها إلى الكنيسـة الرومـانيـة، مقـابل ايجار المملكة المذكـورة، ونحن بناء عليـه، بعدمـا تداولنا بنضج وبدقة مـع إخواننا الكرادلة، والمجمع المقـدس حول الأفاعيل التي تقدمت تسميتها أعلاه، وأفاعيل أخرى شائنة اقترفها، ورأينا ـــمع أننا لانستحـق— أننا على الأرض نمتلك سلطات مـولانا يسـوع المسيح، الذي قال إلينـا بشخص القديس بطرس: (إن كل مـا سوف تربطه على الأرض، سوف يكون مربوطاً في السماء، و، إلخ)، ولذلك نحن نعلن، أن الأمير الذي تقـدمت تسميته أعـلاه، والذي حول نفسـه لأن يكون غير جدير، بمراتب السلطة، وأنه بالنظر لجرائمه، قد جرى خلعه من عرشه من قبل الرب، وليكون مربوطاً بذنوبه، وملقى به منبوذاً من قبل الرب، ومجرداً من جميع مراتبه الشرفية، ونحن هنا نحكـم عليه ونجرده، ومعه جميع الذين هم مـرتبطون به بأية طريقـة من الطرق، بيمين الولاء، ونحن نحلل هؤلاء بشكل دائم، ونلغي التـزامهم بذلك اليمين، ونمنع بكل دقـة، بمـوجب السلطات الرسـوليـة، أي واحـد من إطاعتـه، أو أن يحاول بأية طريقـة من الطرق اطاعتـه كـامبراطور أو ملك، ونحن نرسم، بأن أي واحـد، سـوف يقدم إليـه، من الآن فصاعـداً، مساعـدة أو نصيحة، أو أن يظهـر نحوه أي تعـاطف، كامبراطـور أو ملك، سوف يكون بحكم الأمـر الواقع، محرومـاً كنسيـاً، ويمكن للذيـن في الامبراطورية، الذيـن إليهم آل شأن انتخـاب امبراطور، أن ينتخبوا بحرية خلفـاً يحل محله، أما فيما يتعلق بمملكة صقلية المتقدمة الذكـر، سوف نقوم، مع نصيحة إخـواننا الكرادلة، بتقديم حل لها

حسبما يكون مناسباً لنا. صدر في ليون، في السادس عشر من تموز، في السنة الثالثة من حبريتنا».

مغادرة وكلاء الإمبراطور في حالة اضطراب

وعندما جرى نشر هذه الرسالة في المؤتمر المعلن، أصابت بالرعب جميع الذين سمعوها، وكأنها كانت تنشر بريقاً، أما المعلم ثاديوس دي سوسا، ووولتر دي أوكرا Ocra, ومعه الوكلاء الآخرين للامبراطور، وخدمهم، فقد تلقوا ذلك بدهشة وأسف، حيث كانوا يضربون أطرافهم وصدورهم، ولم يتمكنوا من حبس أنفسهم عن البكاء وذرف الدموع، وقال المعلم ثاديوس صارخاً وقد علته الدهشة: «آه، إنه يوم مخيف، إنه يوم غضب، يوم مصيبة، وشقاء»، وفي تلك الأثناء، كان البابا وقد جلس من حوله الأساقفة في المجمع، قد تفوهوا مزمجرين، والشموع مشتعلة، بقرارات الحرمان الكنسي ضد الامبراطور فردريك، ووقتها قام وكلاؤه بالانسحاب وهم في حالة اضطراب.

مراسيم من أجل التفريج عن الأرض المقدسة وحول شؤون الصليب

وكان البابا مليئاً بالقلق من أجل التفريج عن الأرض المقدسة، وحول مايتعلق بشؤون الصليب، ولذلك عمل الخطابات التالية، حول هاتين القضيتين: «مطعونين في القلب، ذلك أننا نعاني من رعب محزن حول الأرض المقدسة، وبشكل خاص حول ماحدث مؤخراً إلى المسيحيين الذين يعيشون هناك، ونحن نمتلك الرغبة من قلبنا كله، لأن نفرج عنها، ولقد قررنا بالتداول مع المجمع المقدس، أن نقوم بوساطة الدومينيكان ورسلنا الخاصين، بدعوة جميع المسيحيين الحقيقيين، الذين عملوا ترتيبات لعبور البحر، في أن يستعدوا لحمل الصليب، وأن يجتمعوا في وقت موائم من أجل هذه الغاية، وأن يكون ذلك في مكان مناسب، منه يمكنهم السير

إلى مساعدة الأرض المقدسة، مخاطين بالمباركة اللاهوتية، وكذلك بمباركة الكرسي المقدس، ويتوجب على الكهنة، وعلى رجال الدين الآخرين، الذين من الممكن أن يكونوا مع الجيش الصليبي، سواء أكانوا من المراتب الدنيا، أم كانوا أساقفة، أن يشغلوا أنفسهم، بإثارة الناس وتحريضهم بشكل متواصل، وبالصلاة وبالتعليم لهم، بالكلمة وبالفعل، وأن يضعوا دوماً أمام أعينهم الخوف من الرب، وحبه، وأن لايقولوا أي شيء، أو يفعلوه، يمكن أن يغضب جلالة الملك السرمدي، وإذا ما حدث في أي وقت من الأوقات وسقطوا في الذنب، عليهم أن ينهضوا سريعاً من جديد، مع توبة صحيحة، وأن يقودوا أنفسهم بكل تواضع، في كل من القلب والجسد، وأن يتمسكوا بالاعتدال بطعامهم وكذلك بلباسهم، وأن يتجنبوا تماماً الخلافات والمنازعات، وأن يزيلوا من أنفسهم كل حقد وكل حسد، وبذلك فإنهم عندما سيكونون محميين بالأسلحة الروحية وكذلك الأسلحة الدنيوية، يمكنهم القتال بأمان أكثر ضد أعداء الإيمان، غير معتمدين —على كل حال— على قوتهم أنفسهم، بل يثقون بالفضيلة اللاهوتية، و يتوجب على نبلاء الجيش ومقدميه، وعلى كل الذين يمتلكون وفرة من الأموال والثروات، أن يجري تحريضهم بوساطة التحذيرات ومحرضات الأساقفة، أن يتمنعوا —احتراماً منهم للمسيح، الذي من أجله حملوا شارة الصليب— عن جميع النفقات الفارغة والتي هي بلا فائدة، وبشكل خاص عن الذين يقومون بكثير من الاحتفالات، ويكثرون من الانفاق على الطعام الباهظ الثمن، وأن يحولوا أموالهم لاستخدامات أولئك الأشخاص الذين يمكن لشؤون الرب، أن تتقدم بوساطتهم، وإلى هؤلاء، بناء على هذا، سوف يجري منحهم عفواً عن ذنوبهم، وفقاً لحسن تصرف الأساقفة المذكورين، وإلى الكهنة المتقدم ذكرهم قد منحنا مهلة الاحتفاظ بمنافعهم لمدة ثلاثة أعوام، وذلك بأن تكون كاملة، وكأنهم مقيمون في الكنائس، وإذا كان ضرورياً يمكنهم وضعهم تحت الوصاية خلال تلك الآونة، وفي سبيل —بناء عليه— أن لايتراجع هذا التصميم

المقـدس، أو أن يعـاق بأي شكل من الأشكال، نحـن نأمـر بكل دقـة جميع الأساقفة، كل جماعة منهم في أمـاكنهم، أن يقوموا بكل نشاط بانذار واقناع الذين وضعـوا الصليب جـانبـاً، بأن يعيـدوا حمله، وأن يرسمـوهـم هـم مع الآخـرين بتلك الاشـارة المقدسـة، وأن يقـوم الذين مـازالوا يرتدون تلك الشارة، بالوفاء بنذورهم إلى الرب، وإذا كان من الضروري، بإرغامهم على فعل ذلك، بوسـاطة قـرارات الحرمـان الكنسي، والحرمـان مـن شراكـة المؤمنين، واضعين جانباً كل الأعذار.

وبالنسبـة إلى هذا المقصد، مـن غير الممكن حذف أي احتمال في شـؤون مولانا يسـوع المسيح، وإنها ارادتنا وأوامرنـا، بأن يقوم البطاركـة، ورؤساء الأسـاقفة، والأسـاقفـة، ورعاة الـديرة، والآخرين الذيـن يتولون معـالجة الأرواح، بالتبشير بحماس بكلمـة الصليب، إلى الشعـب الذي عهـد به إلى عنايتهـم، وباسم الأب، والابن، والـروح القـدس، وهم الـرب الحقيقي الواحـد، والواحـد فقط، وأن يلتمسـوا بحـرارة من الملـوك، والأمـراء، والدوقات، والمركيزات، والايرلات، والبارونات، والنبلاء الآخرين، ومن الفئات التي تكونـت في المدن، والبلدات، والقـرى، ومن الذين لم يـذهبـوا بأشخـاصهم إلى الأرض المقـدسة، لتقـديم عـدد كاف مـن العساكـر، مع النفقـات الضرورية، لمدة ثلاثة أعـوام، ووفقـاً لإمكـاناتهم، من أجل محي ذنوبهم، حسبما جرى التعبير عنه في الرسائل العـامة، التي أرسلناها مؤخراً إلى جميع أنحـاء العـالم، والتي —من أجل ضمان أعظم— سـوف يجري التعبير عنها أدناه».

ملاحظة تتعلق بالرسالة

«وهذه الأشيـاء كلهـا قـد كتبت في سنـة النعمـة ألف واحـدة ومـائتين وثلاث وأربعين، قبل أي قداس بليغ»، انظر بعد موت رتشارد مارشال.

«وفي محي الذنوب هـذا، نحن نرغب بأن نكـون شركـاء ليس فقط مع

الذين يقدمون سفنهم، بل مع الذين يشغلون أنفسهم في بناء سفن من أجل المناسبة، إنما بالنسبة للذين يرفضون إنه إذا ما صدف وكان هناك عدم عرفان إلى مولانا الرب، عليهم أن يحتجوا لصالح الكرسي المقدس، حتى يمكن أن يعرفوا أنه في يوم الحساب الأخير الدقيق، عليهم أن يجيبونا عن هذا أمام قاض مرعب، وقبل ذلك —على كل حال— طلب منهم أن يقدروا بأي ضمير، أو بأي أمل بالسلامة سوف يكونوا قادرين على الظهور أمام الابن المنجب الوحيد للرب، الذي أودع الرب بين يديه جميع الأشياء، فإذا ما رفضوا في هذه القضية —بشكل شاذ جداً لذاتهم— أن يخدموه، وهو الذي كان قد صلب من أجل ذنوبهم، والذي بعطيته هم يعيشون، وأنهم بلطفه هم مدعومون، وأنهم بدمه قد جرى انقاذهم.

وبموافقة المجمع كله بشكل عام، نحن نرسم، أنه يتوجب على جميع الكهنة، سواء من المراتب الدنيا، وكذلك من الأساقفة، أن يسهموا بجزء من عشرين من جميع موارد الكنيسة، من أجل مساعدة الأرض المقدسة، لمدة ثلاثة أعوام كاملة، بأيدي أشخاص، سوف يكونوا متسمين بحكمة الكرسي المقدس من أجل هذه الغاية، متوقعين —على كل حال— أن يكون هناك بعض الرهبان، الذي يمكن أن يكونوا معفيين من مثل هذا الاسهام، على أرضية صحيحة، وكذلك أولئك الذين حملوا الصليب، أو أنهم على وشك حمل الصليب، وهم سوف يسيرون إلى الأرض المقدسة، شخصياً، أما نحن مع إخواننا كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، فلسوف ندفع عشراً كاملاً، ونحن نود أن يعلم جميع الناس، أن عليهم فعل هذا، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، وبناء عليه فإن الذين سيعرفون بممارسة الغش في هذه القضية، سوف ينالون عقوبة الحرمان الكنسي.

وإنه بموجب التقدير العادل، حقيق بالذين يعملون بخدمة الحكم الرباني، أن يتمتعوا بجزاء خاص، فالذين سوف يحملون الصليب سوف يعفون من الاسهام ومن الضرائب، ومن التكاليف الأخرى، وبعد حملهم

للصليب سوف نتسلم أشخـاصهم وممتلكاتهم تحت حماية القديس بطرس، وحمايتنا، وقد رسمنا أيضاً، بأن تظل ممتلكاتهم تحت حماية رؤساء الأساقفة، والأسـاقفة وقسـاوسـة كنيسة الرب، ومع هذا فلسـوف يجري تعيين حماة موائمين لهذا الغـرض الخاص من قبل أنفسنا، وبذلك يمكن لممتلكاتنا أن تبقى دون إزعـاج وكـاملة، حتى يمكن الحصـول على خبر مـؤكـد حـول عودتهم، أو مـوتهم، وإذا ما أقـدم إنسان على أن يعمل عكس هـذا، سوف يجري ضبطه بوساطة الروادع الكنسية.

وإذا مـا كان أي واحـد من هؤلاء الذين سـوف ينطلقـون بهذه الحملة، مـرتبطاً بيمين بأن يدفع فـائـدة، نحن نأمـر الذين هم مقـرضين لهم، تحت طائلة العقوبة المتقدمة ذكرها، أن يقوموا باعفائهم من اليمين الذي عملوه، وأن يتوقفوا عن مطالبتهم بالفائـدة، وإذا ما حاول أي واحد من مقرضيهم ارغامهم على دفع الفائدة، نحن نأمر بارغامهم على إعادة المبلغ نفسه، تحت طائلة عقـوبة الحكم نفسه، ونحن نـأمر، بأن يجري إرغـام اليهود بوسـاطة السلطات العلمانيـة على إلغـاء الفائـدة، وإلى أن يقـومـوا بإلغائهـا، سـوف يكونوا ممنـوعين من الاتصـال مع المسيحيين، بوســاطة استخـدام حكم الحرمـان الكنسي، أمـا فيما يتعلق بالذين لايمكنهـم في الوقت الحاضر أن يدفعـوا ديـونهم إلى اليهـود، على رجـال السلطات العلمانيـة، أن يقـومـوا بوسـاطة تأخير مفيـد، عمل ترتيبـات تقضي، أنـه من الوقت الذي سـوف ينطلقـون به بالحملة، حتى يمكن الحصول على خبر، إما عن عـودتهم، أو عن موتهم، وإلى ذلك الوقت لن يتعـرضوا لمضايقات دفع فـائدة، وبالنسبة لليهـود المرغمين —إنهم بعـد حذفهم جميع النفقـات الضرورية— سـوف يحسبون عـائدات المال المتعهد به، التي تسلمـوها في الوقت ذاته كجزء من الدين، لأن فـائدة من هذا النوع لايبـدو أنها تسبب خسارة كبيرة بالالتـزام بها، ثم إنه بتأخير الدفع، لايعني ذلك إلغاء الدين، وبالإضافة إلى هذا، فإن أساقفـة الكنائس الذين سـوف يظهرون أنفسهم مهملين في تقديـم العدالة

إلى الذين حملوا الصليب، أو إلى أسرهم، عليهـم أن يكونوا متأكـدين بأنهم سوف ينالون عقوبات قاسية.

ومجدداً إنه بالنسبة للقـراصنة ولصوص البحـر، الذين يعيقونا كثيراً عن إرسال المؤن والإمدادات إلى الأرض المقدسة، بالاستيلاء على الذاهبين إلى تلك البـلاد والآيبين منهـا، ونهبهم، إننـا نحـرمهم كنسيـاً، ونحـرم معهم مساعديهم الرئيسيين ومحرضيهم، ونمنع كل واحد إذا كان مدركاً لها، تحت طائلة عقـوبة التكفير، من القيـام بالاتصـال بهم، في أية قضيـة من البيع أو الشراء، ونحن نفرض على حكام المدن والأماكن الأخرى، بأن يوقفوا وأن يحبسـوا القراصنة المذكـورين، ومنعهم عن ممارسـة هذه الآثام، ومن جهـة أخـرى، بما أن رفض ازعـاج الأشرار، ليس أقل من رعـايتهم، فكل من يتمنع عن معارضة الجريمة الظاهرة، ليس معفياً من الشك فيه أن له تنسيق سري مع المقترفين للجريمـة، وبناء عليه، إن إرادتنا وأمـرنا، يقضيان باتخاذ إجراءات لاهوتية قاسية ضدهم، ووضع ذلك قيد الممارسة من قبل أساقفة الكنائس.

ونحن عـلاوة على مـاتقـدم نحـرم كنسيـاً ونكفـر المسيحيين الزائفين والأشرار، الذيـن في معـاداة منهم للمسيـح، ولشعب المسيـح، يحملون السـلاح إلى المسلمين، والحديد، والخشب من أجل غـلايينهـم، والذين يبيعـونهم غـلايين أو سفناً، وكـذلك الذين يشغلون مناصب قبـاطنة في السفن الاسلامية، وكذلك الذين يقـدمون إليهم أية نصيحة أو مساعدة في آلاتهم الحربيـة، أو في أية قضيـة أخـرى، تـؤدي إلى الاضرار بالأرض المقـدسة، ونحن نرسم بـأن مثل هؤلاء سـوف يغـرمـون بمصـادرة جميع ممتلكاتهم، وسـوف يكونون خـدمـاً للذين سـوف يلقـون القبض عليهم، ونحن نأمر أن يعاد نشر مثل هذا القرار ضدهم، في كل يوم أحد، وكل يوم عيد، خـلال جميع المدن على شاطىء البحـر، وأن صدر الكنيسـة سوف لن يكون مفتوحـاً لمثل هؤلاء الأشخاص، ما لم يقـوموا بتحويل كل مـا تلقوه

من هذه التجارة الملعونة، ومثل ذلك أرباح ممتلكاتهم، إلى مساعدة الأرض المقدسة، وبذلك يمكن أن يعاقبوا بقضاء غير منحاز، وفقاً لأخطائهم، ولكن إذا صدف أنهم لم يستطيعوا دفع هذا، إن كل من هو مجرم باقتراف مثل هذه الأعمال، سوف يعاقب بطريقة أخرى ما، في سبيل منع أي واحد آخر عن الإقدام على اقتراف مثل الإجراءات الآثمة.

وعلاوة على ذلك إننا نمنع جميع المسيحيين، ونوقفهم تحت طائلة التكفير، عن نقل سفنهم إلى أراضي المسلمين الذين يسكنون في الشرق، خلال مدة مقدارها أربع سنوات، لأنه بهذه الوسائط سوف تتوفر كميات عظيمة من السفن، من الممكن الحصول عليها لصالح الذين يرغبون بالذهاب إلى مساعدة الأرض المقدسة، وإنه بذلك يمكن حرمان المسلمين من المساعدة، والتي كانوا بهذه الوسائط يحصلون على فوائد كبيرة.

ومع أنه في كثير من المجامع العامة جرى تحريم المبارزات، تحت طائلة عقوبة محددة، وبما أن الحملة الصليبية الآن معاقة كثيراً بهذه المبارزات، نحن نحرم بكل دقة عقدها لمدة ثلاثة أعوام، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، وفي سبيل تنفيذ هذه القضايا، من الضرورة بمكان، وفوق كل شيء، أن يكون أمراء المسيحية وشعوبها بسلام فيما بينهم أنفسهم، ونحن على هذا نرسم بناء على نصيحة المجمع العام، أن تجرى مراعاة السلام بشكل عام في جميع أرجاء العالم المسيحي، لمدة لاتقل عن أربع سنوات، وأنه بوساطة تدخل أساقفة الكنائس، من الممكن إقناع الذين هم على خلاف بأن يقوموا من دون تقصير بمراعاة سلام كامل، أو على الأقل أن يرتبطوا بهدنة، وإذا ما رفض أي واحد التماشي مع هذا سوف يرغمون على مجاراة ذلك وتطبيقه، بإصدار عقوبة الحرمان الكنسي ضد أشخاصهم، والحرمان من شراكة المؤمنين ضد أراضيهم، ما لم تكن أضرار أذاهم، قد بلغت إلى درجة، تحول دون تمتعهم بمثل هذا السلام وإذا ما دفعوا قليلاً من التقدير، أو لاشيء إلى الروادع الكنسية، سوف يمتلكون سبباً جيداً،

لأن يخافوا، بأن نفوذ الكنيسة، سوف يجلب بالضغط عليهم من قبل السلطات العلمانية، بحكم أنهم مفسدون لشؤون المصلوب.

وإننا بناء عليه، نمنح بوساطة رحمة الرب القدير، واعتماداً على سلطة الرسولين المباركين: بطرس، وبولص، وعلى السلطة التي منحنا الرب إياها —مع أننا غير جديرين— وهي الحل والربط، إلى جميع الذين سوف يدخلون لأداء هذا الواجب بأشخاصهم، وعلى حسابهم ونفقتهم، عفواً كاملاً عن ذنوبهم، التي سوف يتوبون منها، ويعملون اعترافاً حقيقياً، مع قلوب نادمة، وكجائزة إلى المستقيمين، نحن نعد بزيادة هي خلاص سرمدي، إلى الذين لايذهبون إلى هناك بأشخاصهم، بل إنهم —مع ذلك— سوف يرسلون أشخاصاً موائمين إلى هناك على حسابهم الخاص، وذلك وفقاً لإمكاناتهم ومراتبهم، ونحن أيضاً نمنح إعفاءً تاماً من الذنوب، كذلك إلى الذين سوف يذهبون إلى هناك بأشخاصهم، مع أن ذلك على حساب واحد آخر، وبالنسبة إلى هذا الإعفاء نحن نرغب، ونسمح بالمشاركة (وفقاً لمقدار مساعدتهم ولطبيعة اخلاصهم) إلى جميع الذين سوف يقدمون مساعدة كافية إلى الأرض المقدسة، من ممتلكاتهم، أو أنهم سوف يقدمون عوناً مفيداً ونصيحة حول المسائل المتقدم ذكرها، وإلى جميع الذين يقدمون بتقوى العون في هذا العمل، سوف يخصه المجمع المسكوني المقدس بمساعدة أدعيته، ورغباته الطيبة، فذلك يمكن أن يكون له وزن مفيد نحو ضمان خلاصهم. آمين».

مايتعلق بقرار الحرمان الكنسي

«يتسبب القضاة بالأذى، عندما يسيئون استخدام الروادع الكنسية، وقت سعيهم باخلاص لفصل البريء عن صدر أمه الكنيسة، وذلك بسبب خطيئة فئة أخرى، التي نجد بسببها أن الشخص الذي وسم بشكل غير صحيح، هو لم يتضرر، لكنه أصبح جانبياً متهماً، وإنه بناء عليه، وفي سبيل تجنب هذه الرعونة، أو بالحري انعدام البراعة، لمثل هؤلاء

الأشخـاص، إننا بهذه العروض نرسي مرسوماً، يقضي أنه لايجوز لأي قاض، قبل اتصاله مع رجال القانون، الاقدام على الحرمان الكنسي بوساطة أي حرمان كنسي صغير، ضد الذين أصبحوا شركاء مع شخص محروم كنسياً من قبلهم، لعقده محادثات معه، أو أي شيء آخر بوساطته تحولا إلى شركاء، باستثناء —على كل حال— الأحكام القانونية التي أذيعت ضد الذين تجرأوا على المساهمة في جريمة أخرى، قد أدين بموجبها.

لكن إذا ماسقط شخص بوساطة المحادثة، أو الاستخفاف بالأشياء المقدسة، أو بأية وسائط التي بموجبها، المشاركة مع انسان محروم، تحت حكم صغير، إنه سوف ينال عقوبة الحرمان الكنسي الأعظم، من أجل أن يتمكن بسهولة أكبر أن يعود بوساطة تكفير سالف، للحصول على التحليل، ويمكن للقاضي بعد الاتصال القانوني، أن يزور المتشاركين مع ذلك الشخصي نفسه، مع عقوبة مشابهة، وإلاّ فإن عقوبة الحرمان لن تكون جيدة ضد المشاركين، والذين يتفوهون بالحكم، سوف يكون لديهم سبباً للخوف من عقوبة شرعية».

العقوبة من أجل تمرد عدواني على شخص غائب

«إذا ما تخاصم أي شخص مع متملك آخر، حول مايتعلق بأية منفعة مرتبطة بمرتبة، أو شخص، أو أية منفعة لاهوتية، على أساس اعتداء فئة مخاصمة في سبيل الحفاظ على تملك الشي نفسه، نحن نرسم بأن لايوضع بالتملك، خشية أن قبوله بهذه الوسائط يمكن أن يظهر أنه خطأ، ومن الممكن —على كل حال— أن يكون قانونياً في هذه القضية، حسبما يفعل الحضور اللاهوتي من أجل غياب الفئة المتمردة، مع أن القضية لم تجلب للمحاكمة، للقيام بفحص دقيق، ومن أجل القرار الصحيح حول الشيء نفسه».

وجوب عدم وضع أي معيق لمحاكمة أية قضية خلافية

«إن التدخل، قبل عرض القضية على المحاكمة، مثل الاستثناءات الوقفية، أو أي اعتداء رئيسي عائد للاعتراف بالقضية، أو وارد فيها، مالم يعمل المتقاضي استثناءً في قضية المسألة قيد المحاكمة، أو الصفقة أو اتخاذ قرار، لن يعيق أو يوقف محاكمة القضية، مع أن المعترض قد يقول بأن جواباً قد تم الحصول عليه، في القضية، حيث أسس الاعتراض للمدعي قد عملت معروفة للادعاء».

لايعهد بالقضايا إلى وكيل قضاة ما لم يكن ذلك في أماكن معروفة جيداً

«في الحلول والتسويات النهائية لأعمال القضايا، الغموض مكروه، وينبغي تجنبه، وإذا لم يوجد أي شيء حول الأشخاص والأماكن فهذا موائم كثيراً ويوصى به، وفي هذه القضية، فكرنا لذلك أنه من الموائم أن نرسم، وأن نأمر بكل دقة، بأن ما من قضايا سوف يعهد بها من قبل الكرسي الرسولي أو وكلائه، إلى أي فريق، ما لم يكن ذلك إلى أشخاص موهوبين بمؤهلات موائمة، أو معينين في كنائس كاتدرائية، أو في تجمعات أخرى محترمة، وأن مثل هذه القضايا لن تجري مناقشتها في أية أماكن، بل في المدن، أو في الأماكن الواسعة المتميزة، حيث يمكن توفر عدد من البارعين في القانون، وأية قضاة هم معارضون لهذا المرسوم، وسوف يستدعون واحداً من الفريقين، أو كلاهما، إلى أية أماكن أخرى، يمكن عدم طاعتهم مع افلات من العقاب، مالم يكن الاستدعاء قد صدر بموافقة الطرفين».

لن يسمح بالاستدعاء إلى مستدعي متمرد

«إذاً ما أهمل أي مستدعي الظهور في التاريخ المحدد الذي استدعى إليه خصمه، سوف يحكم عليه قانونياً، إلى الشخص المتهم— إذا ماظهر—

بالنفقات التي تحملها في القضية، ولن يسمح له القيام باستدعاءات أخرى، مالم يقدم ضمانات كافية بأنه سوف يظهر في الموعد الذي تقرر».

لايجوز إرغا م أي واحد على الظهور أمام قضاة مختلفين من أجل أعمال شخصية مختلفة

«نحن نرغب بكل الوسائط الممكنة بأن نزيل، وأن نبقي في حدود العدالة، نفقات القضايا التي هي موضع خلاف، ونحن نوسع مرسوم البابا انوسنت الثالث، صاحب الذكرى الطيبة، الذي أعلن حول هذه القضية، وهو مرسوم قضى وأمر، أنه إذا ما اختار أي واحد أن يحضر عدة أعمال شخصية ضد آخر، عليه أن يسعى للحصول على تراخيص تتعلق بجميع القضايا، ليس من عدة قضاة، بل من واحد فقط، وإذا ماسيقدم أي واحد على العمل بشكل معاكس لهذا المرسوم، فلسوف يحرم من جميع منافع التصاريح وفوائدها، والإجراءات القضائية التي تمّ الحصول عليها، بناء على قوتها، سوف تصبح لاغية، وعلاوة على هذا سوف يقضى عليه بأن يدفع جميع النفقات القانونية إلى المدعى عليه، إذا ما تعرض للأذى بوسائطهم، وكذلك إنه إذا ما أقدم المدعى عليه أثناء المحاكمة فبيّن بأن المستدعي مرتبط به بتعويض أو ميثاق، فإنه إذا مارغب بالحصول على ترخيص ضد المدعى عليه، فإن عليه أن يطالب بحقه أمام بعض القضاة، مالم يستطع أن يرفضهم على أساس أنهم موضع ريبة، وكل من سوف يقف ضد هذه الإجراءات سوف يعاقب مثل ذلك».

حول الأشخاص الذين سوف يرغمون على الظهور أمام القضاء

«لايبدو أنها نقطة في القانون، إذا ماقام قاض مناسب، لم يتسلم أمراً خاصاً من الكرسي الرسولي من أجل ذلك، أنه لايستطيع أن يأمر أياً من الفريقين على الظهور شخصياً أمامه للمحاكمة، مالم تكن القضية قضية إجرامية، أو أنه سوف يأمر الفريقين على الظهور شخصياً أمامه، بقصد ذكر

الحقيقة، أو أداء يمين حول مايدعيانه».

مايتعلق باقتراحات سلبية

«نحن نرسم ونأمر بوجوب عدم قبول القضاة بشهادات سلبية، لايمكن برهنتها، مالم يكن ذلك من الفئة المضادة، عندما يرون في العدالة الموائم».

حول الانتخاب

«إنه بالنسبة للأيام والظروف الأخرى من أجل الإجراءات القضائية، ليست هناك حاجة إلى إقرار قانوني، وبين الإجراءات القانونية، يعدّ إقامة الانتخاب من أجل حبر أعظم، هو الأعظم أهمية، وهو يماثل ببعض الروابط زواجاً روحياً، يجري عقده بين المنتخبين والمنتخب، ونحن نشجب ونحرم في الانتخابات، التسميات والتدقيقات، التي منها صدرت حقوق الانتخاب، وكل الأصوات التي هي شرطية، ومتغيرة، وغير مؤكدة، ونحن نرسم بأن جميع الأصوات التي هي من هذا النوع أن تعدّ وكأنها لم تعط مطلقاً، فكل الانتخابات ينبغي أن تصدر عن موافقة حرة للجميع».

استطراد يتعلق بأمراء ألمانيا

«إن نبلاء ألمانيا، الذين لاينتخبون الامبراطور هم:

— ملك بوهيميا.

— دوق اللورين.

— دوق برونزويك Brunswick.

— دوق سوابيا.

— اللاندغريف أوف ثورنجيا.

— دوق أوف ليمبورغ Lemburg.

— دوق أوف كارينثيا Carinthia.

— دوق سكسوني.

— كونت غويلدرس Gueldres.

والمنتخبون للامبراطور هم كما يلي:

العلمانيون

— دوق النمسا.

— دوق بافاريا.

— دوق سكسوني.

— دوق برابانت (الذي هو دوق لوفين Louvain).

الأساقفة

— رئيس أساقفة كولون.

— رئيسا أساقفة: مينس Mayence وسالزبورغ Salzburg.

وهم الرئيسيون.

ويجري نقل هؤلاء الذين يحق لهم الانتخاب، إلى جزيرة في نهر الراين، ويتركون هناك لأنفسهم، فجميع القوارب سوف يجري نقلها، وهناك يناقشون انتخاب الامبراطور، وما من أحد سوف يذهب إليهم، حتى يتفقوا في اختيارهم، وتكون الرئاسة في هذه القضية إلى رئيس أساقفة كولون، ورئيس أساقفة مينس هو الثاني بعده، ورئيس أساقفة سالزبورغ هو الثالث».

وإلى هؤلاء المنتخبين جرى ارسال انذارات عـاجلة جداً والتماسات من قبل البابا، بأن عليهم انتخـاب امبراطور آخر عليهم، وقد وعـد بالنصيحة والمساعدة منه شخصياً، ومن الكنيسة كلها، وقد وعدهم بالمقام الأول، مع أمل النجـاح بخمسة عشر ألف باوند مـن الفضة، وقـد مُـنع هؤلاء بقـوة حجج الامبراطور فـردريك، الذي كـان متحـداً معهم بروابط القـرابة، وخـاصـة مع دوق النمسا، ولـذلك أظهر المنتخبـون قليـلاً من الطاعـة إلى انذارات البابا والتماساته.

لايجوز جلب الناس من مسافة أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة لحضور محاكمة

«في العـديد من نقـاط القـانـون، كثيرها وقليلهـا، مـايستحق الشجب، ولذلك فكرنـا أن من الموائم بشكل حكيم أن نرسـم: إنه بالنسبـة للفقـرة العامة التي تبدأ بـ (بعض آخرين، إلـخ) التي غالباً ما أقحمت في رسائلنا، الناس سـوف لن يجلبون من مسـافة سفر ثـلاثة أيام أو أربعة للمحـاكمة، ورسمنا أيضـاً أن الحماة —الذين منحناهـم إلى عـدة فئات— يمكنهم أن يدافعوا عن الذين عهدنـا بهم إلى حمايتهم، ضد العنف والايذاء المكشوف، لكن ليس لديهم السلطة لمدّ حمايتهم إلى أشياء أخرى تتطلب حـرماناً كنسياً قضائياً».

لايجوز لأحد إعاقة الانتخابات أو التسميات

«نحن نرسم إنه إذا ما أقدم أي واحد على إعاقة انتخابات، أو تسميات، أو عمل تجهيـزات، بالقيـام بأي اعتراض على صيغ أو أفـراد، وتمّ عمل التماس إلينا نتيجـة لذلك، على الفئتين: الفئة المعـارضة والفئة المدافعـة عن الالتماس، مع جميع الذين لهم عـلاقـة بشكل عـام بالقضيـة، الانطلاق إلى الكرسي المقـدس، خـلال شهـر من وقـت عمل الاعتراض، إمـا بأنفسهـم شخصياً، أو بإرسالهم وكلاء، قد عهد إليهـم بالقضية، لكن أية فئة منتظرة لم

تظهر خلال عشرين يوماً بعد وصول الفئة الأخرى، إن مسألة الانتخاب سوف تجري وفقاً للقانون، دون الاهتمام بغياب أي واحد، وإن ارادتنا تقضي وكذلك أوامرنا بمراعاة هذه الأحكام، في الأسقفيات، ومن قبل الأشخاص، والكهنة».

العقوبة التي توقع على الذين يخفقون في براهينهم

«وعلينا أن نضيف أنه إذا ما أخفقت أية فئة في تقديم برهان كامل على الذي عرضته في الصيغة، هي سوف يحكم عليها بأداء النفقات، التي سوف تبرهن الفئة الثانية بأنها قد دفعتها وتكبدتها في هذه المسألة، وليتأكد كل واحد سوف يخفق في البرهنة على الاعتراض الذي عمله ضد أي شخص مهما كان، بأنه سوف يعلق من الإفادة من المنافع اللاهوتية لمدة ثلاثة أعوام، وإذا ما أقحم نفسه أثناء ذلك وورطها بطيشه سوف يحرم بشكل عادل من منافعه إلى الأبد، من دون أي أمل بالحصول على الرحمة في هذا المجال، مالم يظهر ببراهين واضحة تماماً ومنطقية، وبما يكفي من تعليل بأنه قد تبرأ من الخطيئة التي اقترفها».

واجبات النائب البابوي

«إن واجب منصبنا هو التجهيز والاسهام للتفريج عن رعيتنا، فلبعض الوقت رفعنا عنهم أعباءهم، وأزلنا أسبابهم للذنوب، وها نحن الآن نتمتع بالراحة في هدوئهم، ونرعى سلامهم، ولذلك إنه بناء على هذه المعطيات، نحن نرسم بأن النواب البابويين للكنيسة الرومانية، عندما يشغلون منصب النيابة البابوية تماماً، سواء أجرى إرسالهم من قبلنا، أو كانوا في أعمال لصالح كنائسهم، سوف يمارسون بأنفسهم الواجبات الكاملة للنيابة البابوية، ولن يكون لهم، بمزية منصب النيابة البابوية هذا، أية سلطة بمنح منافع، مالم نكن قد رأينا أنه من المواتم بشكل خاص منح هذه السلطة إليهم، وهذا —على كل حال— لانعني مراعاته في قضية إخواننا، أثناء

ممارستهم لواجبات النيابة البابوية، لأنهم يتمتعون بإمتياز شرف، لذلك نحن نخول إليهم بأن يمتلكوا سلطات كاملة».

حول إعادة البضائع المسروقة

«لقد سمعنا بآذاننا شكاوى متوالية ومستعجلة، لأن الالتماسات والمرافعات حول السلب قد جرى تقديمها بشكل زائف، في عملية ملاحقة إدعاء ما، الأمر الذي يعيق كثيراً، ويسبب الاضطراب للقضايا اللاهوتية، وتأتي الالتماسات في بعض الأحيان مستعجلة، ويحدث في بعض الأوقات أن الالتماسات يجري التدخل بشأنها، وبذلك يجري اعتراض سماع القضايا الأساسية، وفي بعض الأحيان يلقى بها جانباً، وعلاوة على ذلك بما أننا نستخدم جهودنا متطوعين للحصول على الهدوء للآخرين، ورغبة منا بوضع حد للتخاصم، وقطع مواد جميع مثل هذه الادعاءات، نحن نرسم أنه بالنسبة للقضايا المدنية، على القاضي أن لايقوم بتأجيل الإجراءات في القضايا الرئيسية، بسبب التماس دعوى سلب يتقدم بها أي انسان، باستثناء المستدعي، لكن في القضايا المدنية، إنه إذا ما تم تقدم الالتماس من قبل المستدعي في قضايا إجرامية، إنه إذا ما أعلن المتهم بأنه قد تعرض للسلب والضرر من قبل أي واحد، عليه أن يبرهن هذا الأمر خلال خمسة عشر يوماً شروعاً من اليوم الذي كان به الادعاء، وإلا فإنه سوف يحكم بدفع النفقات التي تحملها المستدعي، وفي الوقت نفسه، وبسبب ذلك، جرى من قبل فرض ضريبة قضائية، وهو سوف يعاقب أيضاً، بطريقة أخرى ما، إذا بدا ذلك عادلاً بالنسبة للقاضي، وفيما يتعلق بالشخص المتأذي في هذه القضية، إنه عندما يكون الاتهام إتهاماً جرمياً، نحن نرغب إليه أن يتولى تأكيد فيما إذا كان قد تعرض لسلب جميع ما لديه بالقوة، أو لبعض ذلك، ووفقاً لهذا، لابد من الاعتقاد بأن القانونين قالوا بشكل حكيم، بأنه إذا كان عارياً، علينا عدم منافسته، وإذا كان مجرداً من السلاح، ينبغي عدم عمل معارضة في قضية الخطيئة، لأن الطرف المجرد

ن كل شيء، لديه المزية التـالية، وهي بما أن عـار: لايمكن تجريده، وهناك لك عـام وعدم اتفاق بين العلماء، حـول فيما إذا كان الطرف الذي عـانى، انى من سلب من الدرجة الثالثة، وتقدم بالتماس سلب ضد المتهم، إنه في ض الأوقات ينبغـي أن يسمح من قبل القاضي، وفي خلال ذلـك بإدعاء تعـويض، خشيـة حـدوث أنه بذلك يرغـب بتملص كل متهم، وهذا مـا تقـد بأنه متـوافـق مع العـدل، وإذا لم يقم أثناء الوقـت الممنوح بطلب تعـويض، ولم يجلب القضية إلى نهاية في الوقت الذي كـان يستطيع به فعل لك، من الممكن منذ ذلك الحين فصـاعـداً أن يتهم بإعماله الاعتراض على لبه، وبالاضافة إلى هذا، نحن نرسم بأن سلب الممتلكات الخاصة، سوف ن يجري الترافع من أجله في القضايا اللاهوتية، أو العكس».

حول الاتهامات

«مع التعـاطف التقـديري، رسمـت الكنيسـة الأم، بأن الترافع من أجل لحرمان الكنسي الأعظم، في أي جزء من المحاكمـة قد وضع، سوف يؤخر قضيـة، ويحجز الفـرقـاء، وبأنه من هذا من الممكـن أن تكون الروادع كنسيـة أكثر إخـافـة، وأن مخاطرة الحرمـان الكنسي يمكن تجنبهـا، ومن مكن ضبط التمـرد، والأشخاص المحرومين كنسياً، أثناء حرمـانهم من إجـراءات العـامـة، يكونون مقهـورين بالعـار والاضطراب، ووقتهـا كونون ميـالين بسهولة نحـو التواضع والتصـالح، ولكن بما أن شرور بني لانسـان قـد ازدادت، والذي جـرى تجهيـزه بمثـابة عـلاج قـد تحول إلى ررهم، لأنه غـالبـاً عندمـا التقـدم بهذا الالتماس في قضـايا لاهوتيـة من ـلال الشرور، يجري تأخير العمـل، وتتعـرض الأطراف للأذى لاضطراب والنفقات، وبناء عليـه، بما أن هذا قد تسلل إلى مـا بيننا بمثابة رض عـام، رأينا من المناسب استخدام عـلاج عام، وإنه بناء عليـه، إذا ما مل أي واحـد اعتراض على أسـاس الحرمـان الكنسي، عليـه أن يبين نوع لحرمـان الكنسي واسمـه، وعليـه أن يعلم أن عليـه جلب الأوشـاع إلى

الملاحظة العامة، وأن عليـه أن يبرهن عليها بأكثر الوثائق وضـوحاً، خلال مدة مقدارها ثمانية أيام دون حسـاب اليوم الذي تقدم به بالاعتراض. وإذا لم يتمكن من البرهنة على صحـة اعتراضـه، على القـاضي الاستمـرار في القضيـة من دون تـردد، والحكم على المتهم بالنفقـات التـي سـوف يبرهن المستدعي بأنه قد تحملها أثناء تلـك الأيام، بسبب ذلك الأمر، بالاضافة إلى الضريبـة التـي جـرى أخـذهـا من قبل، ولكن إذا حـدث فيها بعــد، أثناء المقـاضاة، وحل مـوعد تقـديم البرهان، وتـم وضـع الاعتراض ثانية حـول مــايتعلق بالحرمـان الكنسي نفســه، أو واحــد مختلف، وتمت البرهنة على القضية، فإنـه سوف يجرى حجز المتهم في الاجـراءات المقبلة، حتى يحصل على تحليل، ومن المتوجب ابقاء الاجراءات السالفة قائمة بسلطة كاملة.

شرط: إن الاعتراض لايجوز تقـديمه أكثـر من مـرتين، إلاّ عندما يقـوم حرمـان كنسي جديد، أو استخلاص برهان واضح وجاهز حـول الحرمان الكنسي السالف، لكن بعـدما يكون قد قضي بالمسألة، وجـرى عرض مثل هذا الاعتراض وتقديمـه، إنه سوف يؤخـذ بمثابة عـذر، ولسوف لن ينال الحكم الذي صدر، قوة أقل، باستثناء حدوث تعـرض المستدعي للحرمان الكنسي، وقـد علم القــاضي بذلك أثناء أي وقت مـن الأوقـات، ومع أن المدافع ســوف لن يـدخل هذا الاعتراض، على القــاضي القيــام من دون تأخير، بطرد المستدعي من مكتبه».

حول الحكم والمسألة المتعلقة به

«بما أن قضاء القـاضي صاحب الحكـم السرمدي لم تجعل مجرمـاً القاضي الذي أدان بشكل غير عـادل، ويشهد على ذلك قـول النبي «ليس هو الذي أدانه، عندما صدر الحكم بالإدانة ضده»، ويتوجب على القضاة اللاهوتيين أن يكونوا واعين، وأن يتخذوا احتياطات حكيمة، بعدم السماح بوجود أي تقدير غير صحيح، سـواء من كراهيـة أو حظوة، وعليهم إزالة كل خوف، وعليهم أ لا يسمحوا بقلب العدالة لابوساطة جائزة أو الأمل بنيل جائزة،

بل ليحملوا بالميـزان بأيديهم، وأن يزنوا بالتسـاوي بين الفـرقـاء، وذلك في جميع المسـائل التي أمـامهم على شكـل قضـايا، ولاسيما في تقـرير الأحكام والتفــوه بها، فهنا عليهم أن يضعـوا الرب نصب أعينهم، مقلـدين الذي عندما دخل إلى خيمة العهد، أحال جميع شكايات الناس إلى الرب، له حتى يقـررها بحكمـه وقضـائه، ولكن إذا مـا أقـدم أي قـاض لاهوتي، أو حتى قاض مناب، لايعبأ باسمـه الطيب، وهو مدمـر لشرفه الخاص، فعمل على عكس مايمليـه عليه ضميره، والعدالة، فتـوصل إلى أي قرار لإيذاء أي من الفريقين، من خلال حظوة أو في سبيل ربح قـذر، فسوف يعلق عن ممارسة واجبات وظيفتـه لمدة سنة، وإذا لم يرتدع بهذا، سوف يحكم عليـه بأن يدفع إلى الفريق المتضرر، وفقاً لحجم الأضرار، ونحن نريد منه أن يعـرف أيضاً أنه إذا ما أقحـم نفسه في أيام تعليقه، في الخدمـات الدينية، هو سـوف ينال عقوبة عـدم الالتزام بالنظام، وفقاً لأحكام القـانون، وهي عقوبة يمكنه أن يتحلل منهـا فقط بوساطة الكـرسي الرسولي، باستثناء —على كل حـال— المراسيم التي توجه وتنزل العقوبات على القضاة الذين يعطون أحكاماً غير عادلة، لأنه موائم أن يتلقى أي واحـد يقوم باقتراف مثل هذه الآثام، بمثل هذه الطرق الكثيرة، عقوبات مضاعفة».

مايتعلق بالتماسات التمييز

«إن رغبـــة قلبنـا هي إزالة الخصـــومـــات، وأن نحــرر رعـايـانا من اضطرابـاتهم، وبناء عليـــه رسمنا، إنه إذا ارتأى أي واحـــد كـــان تحت المحـاكمة، أو خـارج المحكمة، أن من الموائم رفع التماس تمييـز إلينا، بشأن إجراءات متشابكة، أو أي أذى ألحق به، وأن يكتب في التماسه اسم القاضي وأن يعبّـر عن سبب التماسه، وعندما لايجري قبول الالتماس، أو حدث أي تأخير بالقضيـة، خـروجـاً عـن الاحترام للرئيس الأعلى، بعـد هذا سـوف يجري منح وقت إلى الملتمس لتقـديم التماس استئنافه، وذلك وفقـاً لمسافـة المكان، ولطبيعة العمل، إذا ما رغب الملتمس بذلك، وإذا مـا طلب الفرقاء

الرئيسيون أوامر موائمة للاجراءات، وجاء الطلب من قبلهم أنفسهم، أو بوساطة الوكلاء، وطالبوا بأسس ووثائق تتعلق بالقضية، على هذا ليذهبوا هكذا مستعدين إلى الكرسي الرسولي، وبذلك إذا بدا موائماً لنا، عندما يجري تقرير مسألة الالتماس، أو يجري اسقاطها بموافقة الفريقين، عليهم السير بالقضية الرئيسية بقدر ما يستطيعون، ويتوجب عليهم بموجب الحق، دون —على كل حال— أن يغيروا المراسيم، التي عملت في القديم حول مايتعلق بالالتماسات المعمولة من قرارات حكم محددة، لكن إذا لم يراع الملتمس المراسيم المتقدم ذكرها، سوف يُعدّ وكأنه غير ملتمس، وسوف يعود إلى قرار القاضي السالف، وأن يحكم عليه بالوقت نفسه بأداء جميع النفقات القانونية، لكن إذا ماقام الشخص المترافع ضده بإهمال هذا البند، فإن الإجراءات سوف تتخذ ضده وكأنه شخص متمرد —وذلك بقدر ما هو مسموح بالقانون— ويدان بسداد كل من النفقات، وماتعلق بالقضية نفسها، لأنه من العدالة بمكان أن تثور القوانين ضد الذي يغش الشريعة والقاضي والخصم».

قرار الحرمان الكنسي

«بما أن المقصود من الحرمان الكنسي هو الشفاء وليس القتل، والتقويم وليس التدمير، شريطة أن لايقوم الذي صدر القرار ضده بالاستخفاف به، ينبغي على القاضي اللاهوتي أن يأخذ حذراً كبيراً، بالتفوه بهذا القرار، ليظهر أنه يتبع طريق المصحح والمعالج، وبناء عليه عندما يريد واحد حرمان أي واحد كنسياً، عليه أن يدون ذلك كتابة، وينبغي أن يضيف بشكل واضح كتابة السبب الذي من أجله جرى التفوه بقرار الحرمان الكنسي، وعليه أن يربط نسخة من هذا المكتوب —إذا تطلب الأمر ذلك— ليرسلها إلى الشخص المحروم، خلال شهر، من يوم إصدار القرار، وحول مايتعلق بقرار الإدانة هذا، تقضي إرادتنا بوجوب تدوين أداة عامة، أو رسائل توثيق تتم كتابتها، وتختم بختم رسمي، وإذا ما أقدم

أي قاضي بطيش على خرق هذا المرسوم، هو سوف يعلق ويمنع من دخول الكنيسة، ومن سماع القداسات، لمدة شهر، وسوف يقوم الرئيس الذي تتم العودة إليه، من دون معارضة، بسحب القرار، وسيقوم بإدانة المذيع له، بأن يدفع جميع النفقات، وأن ينزل به بطرق أخرى عقوبة مناسبة، في سبيل، أننا من عقوبة القضاة، يمكن أن نعلم كم هو أمر جاد الزمجرة بقرار الحرمان الكنسي ضد أي واحد من دون مداولات ناضجة، وإن إرادتنا تقضي أيضاً بأن تتم مراعاة هذه الأحكام نفسها في قرارات التعليق والحرمان من شراكة المؤمنين،لأنهم إذا ما قاموا بأداء القداسات —كما من قبل— عندما يكونوا هكذا معلقين، سوف لن ينجون من عقوبة مخالفة النظام، وفقاً للأحكام القانونية، وفي هذه الحالة، سوف لن يكونوا قادرين على الحصول على التحليل، إلاّ من خلال الحبر الأعظم».

حول المسألة نفسها

«إنها مسألة مشكوك بها بشكل عام عند بعضهم، حول عندما يطلب أي واحد أن يتحلل بوساطة أي رئيس على أساس تقديم كفالة، وعلى أن يعلن في الوقت نفسه، بأن قرار الحرمان الكنسي ضده هو ساري المفعول، إن منفعة التحليل سوف تمنح له، من دون أي اعتراض، وإذا ماقام أي واحد قبل هذا التحليل، فعرض، على شرط المحاكمة، بأن يبرهن بأنه قد حرم كنسياً بعد استئناف قانوني، وأن خطيئة ملموسة قد اقترفت بشكل واضح في القرار، وينبغي تجنبها في قضايا أخرى، باستثناء ذلك البرهان المذكور، وإنه بالنسبة لمسألة الشك الأولى، نحن نرسم بأن التحليل لايجوز منع اعطائه إلى أي واحد يسأله، مع أن المصدر للحرمان الكنسي أو الخصم سوف يعارض ذلك، وفي مثل هذه الحالة سوف يجري السماح بثلاث تأخيرات لمدة ثمانية أيام، للذي يعمل هذه الإفادة، مالم يبرهن على صحة الذي التمس استئنافه في الاعتراض، كما أن القرار لن يجري سحبه، ما لم تكن ترضية كافية قد أعطيت من قبل، أو ضمانة للالتزام بالحق، إذا ما

جرى عرض شك حول الذنب، وبالنسبة للمسألة الثانية، نحن نرسم، بأن أي واحد جرى قبوله للبرهنة، عليه أن يتجنب، أثناء البرهنة المذكورة، في المسائل الأخرى، التي من الممكن أنه جرى قبولها كطرف في القضية، لكن بعد المحاكمة سوف يجري قبوله —على الرغم من ذلك— لأداء واجباته، إلى أعمال التسمية والانتخابات، والاجراءات القانونية الأخرى»(★).

مايتعلق بالحملة الصليبية

عندما غدت هذه المقررات معروفة لدى الجميع، أعطوا القناعة إلى جميع الجزء العاقل من الجماعة، وفي الحقيقة، استحق البابا ونال عن جدارة شكر وامتنان الجميع بشكل عام، هذا وكانت بعض المقررات قد عملت قبل عقد المجمع، وبعضها أثناء عقد المجمع، وبعضها الآخر بعد عقد المجمع، وكانت بعض المراسيم قد عملت بشكل حكيم وعقلاني أثناء المجمع، تتعلق بمسألة الحملة الصليبية، ولكن عندما تمت الإشارة إلى الاسهام بالمال، ووجه البابا بالرفض علانية، بشكل خاص بسبب الفقرة المكروهة بشكل عام، والتي نصها: «إنهم سوف يقدمون مساعداتهم على أيدي الذين جرى تعيينهم لتلك الغاية، بوساطة بصيرة الرسل»، لأنه في كثير من المرات، وبطرق مضاعفة كثيرة، اشتكى المؤمنون من أتباع الكنيسة، بأنهم قد خدعوا من قبل الكنيسة الرومانية، حول المال الذي كانوا قد أسهموا به من أجل مساعدة الأرض المقدسة، هذا وإنه بالنسبة للمراسيم الأخرى التي صدرت بشكل حكيم، فقد أعطت القبول إلى قول ومسامع المسيحيين، وكانت قد جرت كتابتهم كلمة كلمة، وفقاً للكلمات التي كان قد عملها البابا غريغوري في عام مولانا ألف واحد، ومائتين وثلاث وأربعين، وتحت هذا التاريخ تمّ العثور أيضاً على نص

(★)- وردت مقررات هذا المجمع بالأصل مشوهة، ولذلك بذلتُ غاية الجهد في ترجمتها لتأتي مفهومة ولاأعتقد أن مختصاً بالقانون أو باللاهوت يمكنه أن يفعل أحسن مما فعلته، والله الموفق إلى السداد.

قداس فصيح جداً، كان قد جرى نظمه من قبل البابا غريغوري، وجرى الآن ترديد هذا القداس نفسه، في هذا المجمع، من قبل البابا انوسنت الرابع، وكأنه قداس جديد، وقد أعلن قداسته أيضاً، بأنه سوف ينفذ بلا تردد، جميع هذه المراسيم، خاصة المراسيم المتعلقة بالامبراطور.

ولدى سماع المعلم ثاديوس، هذا قال وهو يتأوه: «لاأرى أن هناك علاجاً مكشوفاً لهذا الرعب»، ثم إنه أضاف مع البكاء والنحيب: «الحق أقول إن هذا اليوم، كان يوم غضب»، ومثل ذلك كان قد قاله من قبل، عندما قلب جميع الأساقفة حاملات شموعهم المشتعلة، وأطفأوهم عندما كانوا يخلعون الامبراطور فردريك المحروم كنسياً، وقال المعلم ثاديوس في نهاية خطابه:

«من هذا اليوم فصاعداً سوف يغني الهراطقة، وسوف يحكم الخوارزمية بشكل مطلق، وسينهض التتار بقواهم، وسوف يسيطرون»، ثم إنه عاد ليروي أخبار هذه الوقائع كلها إلى الامبراطور، ثم إن البابا قال بشكل معلن إلى الجميع: «لقد قمتُ بواجبي، والآن ليفعل الرب الذي يرضيه، وليقض بالذي يريده في هذه المسائل».

كيف قام فردريك بعد خلعه من قبل البابا بتتويج نفسه

عندما سمع فردريك، وبات عارفاً تماماً بهذه الاجراءات، لم يستطع ضبط نفسه، بل انفجر غاضباً بعنف، وبات يمتلك منظراً مرعباً، وقد انتفخ، فهكذا رآه الذين كانوا من حوله، ثم زمجر قائلاً: «لقد أهانني البابا في مجمعه، وانتزع مني تاجي، فمن أين جاءت كل هذه الوقاحة؟ ومن أين صدرت مثل هذه الإجراءات الطائشة؟ أين هي صناديقي الحاوية على ثرواتي الجاهزة»؟ ولدى جلبهم، وفتحهم أمامه، بناء على أوامره قال: «ابحثوا عن تيجاني، هل فقدت الآن»؟ ثم إنهم وجدوا واحداً منها، فتناوله ووضعه على رأسه، وبعدما تتوج هكذا، انتصب قائماً، وبعينين مهددتان،

وبصوت مرعب، وبهياج وانفعال غير منضبط، قال بصوت مرتفع: «أنا لم أفقد تاجي بعد، كما أنني لن أحرم منه بوساطة أي قتال للبابا، أو للمجمع المسكوني، من دون صراع دموي، فهل دفع به تشامخه المبتذل، وأوصله إلى هذه الدرجة، حتى يتمكن من قذفي من المنصب الامبراطوري، فأنا الأمير الأعظم في العالم، ولايوجد من هو أعظم مني، فها أنذا ليس هناك من يساويني، ففي هذه المسألة كان وضعي الإحسان، ففي بعض الأشياء كنت مرتبطاً بالطاعة، على الأقل صدوراً عن الاحترام له، لكنني الآن قد تحررت من جميع روابط العاطفة والاحترام، وكذلك من الالتزام بأي نوع من السلام معه»، وبناء عليه، أمر من ذلك الوقت فصاعداً بإيذاء البابا بشكل أكثر تأثيراً وفعالية، وفعل كل أنواع الضرر لقداسته، في أمواله، وكذلك أصدقائه وأقربائه.

وقام بناء عليه، حتى يزيد من قوة حزبه، فلجأ إلى خطة الزواج من ابنة دوق النمسا، ولكي يحقق هذا، أرسل رسلاً خاصين، بكل سرعة، إلى الدوق المذكور، لكن عندما وصل علم هذا إلى السيدة، رفضت بثبات كل ارتباط أو زواج مع الامبراطور فردريك، حتى يجري تحليله، وقد وافق والدها على ذلك، وقد بعث إلى الامبراطور يخبره بهذا الموقف، فشعر بعار كبير، لأن رفضه جاء منهما معاً، وقد أصبح —على كل حال— قاسياً، وسعى إلى تحويل قلوب الملوك والأمراء عن تقديم الاحترام إلى الكنيسة، وكذلك إلى الأساقفة، وبشكل خاص إلى البابا، ولكي يتوصل إلى مقصده، كتب رسالة بليغة جداً، فيها أخرج من جوفه النوايا السامة لقلبه التي أخفاها لمدة طويلة.

رسالة الإمبراطور فردريك

«من فردريك، إلخ، إلى ملك انكلترا، إلخ: هناك قول قديم يصف بالمحظوظين الذين تعلموا الحذر من مصائب الآخرين، لأن أوضاع الخليفة تتمتن بأسس السلف، ومثلما يتلقى الشمع الضغط من الختم، مثل

ذلك تشكلت نهاية الحيـاة البشرية بالشكل نفسـه، لقـد رغبت بأن تكون جلالتـك قـد تقـدمت علي، أو جئـت قبلي لنيل هذا الحظ الطيب. وخبرة الحذر التي ندعهـا الآن لك، أيها الملك المسيحـي، من الأذى الكبير الذي عمل لأنفسنا، أو بالحري ترك لنا من قبل الملوك والأمـراء، الذين تعرضـوا للأذى مثلنا، وعلاوة على ذلك، إن هؤلاء الذين يعدون الآن كهنة، والذين سمنوا على صدقات آبائنا، يتولون الآن ظلم أبناء الذين هم أولياء نعمتهم، وأبناء هؤلاء الـرعيـة لنـا، الناسين لأحـوال آبـائهم، لايتنازلون لإظهـار الاحترام المتوجب لا إلى الامبراطور، أو الملك، فور تكريسهم لحمل ألقاب الآباء الرسـوليين، وحقيقـة ما هو مـوجـود هنا، والتي أشير إليهـا بكلامنا باسهاب قد تبرهنت الآن تمامـا، بإقدام البابا انوسنت الرابع، التي تولى جمع مجمع عـام —حسبما سماه— وتجرأ على اصـدار قـرار بالخلع ضـدنا، نحن الذين لم توجـه إلينا الدعـوة لحضـور المجمع المذكـور، كما لم يتبرهن أننا مدانون باقتراف أي خداع، أو شرور، وهو قـرار لايمكن تأسيسه من دون ضرر عظيم لجميع الملوك، لأنه مـا الذي سـوف يبقى هناك إلى أي واحـد منكم أيها الملوك من كل مملكة، إلاّ أن تخافوا من وجه مثل أمير الكهنة هذا، إذا ما أقـدم على خلعنا، نحن الذين جرى تشريفنا حقيقـة من السماء بالتاج الامبراطوري، بوساطة انتخـاب مهيب من الأمراء مع استحسـان الكنيسة كلها، عندمـا كان رجال الدين مزدهـرين بإيمان وتدين، ونحن الذين نتولى حكم كثير من الممالك الفخمـة الأخـرى، لأنه ليس من شأنه أن يمارس أية سلطة ضـدنا، وذلـك بقـدر مـا يتعلق الأمـر بالضرر الـدنيـوي، لابل من الممكن استخلاص قضايا قـانونية من ذلك، لكن لست أنا الأول، كما أنني لن أكون الأخير، الذي يتعرض لأذى سـوء الاستخدام الكهنوتي للسلطة، هذه السلطة التـي تسعى لاسقـاطنا من الـذروة نحـو الأسفل، وإن هذا بالحقيقـة الذي تفعله، تفعله باظهـارك الطاعـة إلى الذين يدعـون القداسـة ويتظاهرون بها، والذيـن آمـالهم وطمـوحـاتهم (أن يصب الأردن كله في أفواههم)، آه، حبـذا لو أنك تقوم وفقـاً لكلمات مخلصنا بتحويل ثقتك عن

لطف الكتّـاب والفـريسيين، الذي هـو رياء، وأن تصغي إلى نفسك، وأن تتـذكر كم هي دنـاءات ذلك البلاط، التي كنت تتمنـى أنه كان بمقـدرتك شجبها، مع الاقتباسات التي هـي محرمة بالشرف والحياء، والموارد الوافرة، التي استغنوا بها، في سبيل إفقـار عدة ممالك، كما تعـرف أنت شخصياً، قـد منحتهم الفجـور والشمـوخ، والمسيحيـون والحجـاج يرجـونك بأن يأكل البـاتـرانيين بيننا، فأنت هناك تدمـر بيـوت شعبك، حتـى تتمكن من بناء بلدات إلى أعدائك، وهكذا إنه بوساطة عشـورك وصدقاتك، تمكن هؤلاء الفقراء من أتباع المسيح من العيش، لكن دون مقابل أي تعويض، لابل أي امتنان أظهروه أنفسهم، أنه صادر عن الضمير وعن اللطف؟ فكلما مددت يديك عن طواعيـة، كلما ازدادوا شوقـاً للامساك، ليس فقط اليـدين، لابل الذراعين، حـابسينـا في شبـاكهم مثل طيـور صغيرة، كلما زدنا من محاولة الفرار، كلما زادوا من ربطنا بشدة أكبر.

وللوقت الحاضر، جعلنا شغلنا أن نكتب بعيـداً —مع أن ذلك ليس فيه كفاية— نشرح رغبـاتنا ولسوف نعطيك معلـومات أكثر، هي أكثـر سرية، حـول الاستخـدامـات التي لجأ إليهـا هؤلاء الناس المبـدعين الشرهين الطامعين بأموال الفقراء، وحول التصاميم التي تصورناها أنفسنا، وأرغمنا على عملها، فيما يتعلق بالسلطة الامبراطورية، وكيف توفرت النية، بجهود الوسطاء، لإعـادة تأسيس السـلام —على الأقل ظاهـرياً— بيننا وبين الكنيسة، وكيف اقترحنا لنرتب حـول مايتعلق بشـؤون الملوك بشكل عام، وكل واحـد منهم بشكل خـاص، والترتيبات التي عملت حـول مـايتعلق بالجزر في المحيط، وكيف أن ذلك البـلاط كـان يتـآمـر ضـد جميع الأمـراء بشكل عـام، بمـوجب بعض الخطـط، ومع أن هذه الترتيبـات قـد عملت بشكل سري، مـا كـان لها أن تنجـو من مـلاحظتنا، أو مـلاحظة بعض الأشخاص الخاضعين إلينا، وأصـدقائنا، الموجـودون هناك، وكيف أننا مع عسـاكرنا كلهم مستعـدون للحـرب، وباستخدام جميع مسـاعينا، نحن مع حلول الربيع القـريب، أن نكون قـادرين على الضغط على الذين يضغطون

الآن علينا، وسوف نفعل ذلك حتى ولو وقف العالم كله ضـدنا، هذا وإن كــــل ماسوف يبلغك إياه أفراد رعيتنا المخلصين، الحاملين لهذه الرسالة، ويذكروه لك، يمكنك أن تصـدقه تماماً، وأن تضع فيه ثقة ثـابتة جداً، وفيهم، وكأن القديس بطرس قد أخذ العهد عليهم.

ونحن نرجوك —على كل حـال— أن لاتقدر، أن جلالة مقامنا العـالي قد انزعجت بالقرار الذي جرى التفوه به ضدنا من قبل البابا، لأن ضميرنا نقي، وبالتالي الرب معنا، الذي إليه ندعو، ليكون شـاهداً على صدق كلامنا، ولقد كان اهتمامنا دومـاً ورغبتنا إقناع رجال الدين من كل طائفـة، وبشكل خاص ذوي المراتب العليا، بـأن يسلكوا طريقاً يستهـدفوا من ورائه غـاية العيش في حالة الكنيسة الأولى، بممارسـة حياة رسولية، وبتقليـد تواضع مولانا، لأنهم اعتـادوا على رؤية الملائكة، وهي تشع بالمعجزات وهي أيضـاً تشفي المرضى، وتعيـد الموتى إلى الحياة، وأن تنزل الملـوك والأمراء إلى الخضـوع إليهم، ليس بوساطة السـلاح، بل بوساطة القـداسة، لكن هؤلاء القوم، كـرسوا أنفسهم للدنيـا، وأن يسكروا في متعهـا، واضعين الرب جـانبـاً، وبثرواتهم الوافـرة، ومقتنياتهم الغنية جرى طبخ الديانـة كلها، وأن يجري انتزاع الثروة المؤذية من مثل هؤلاء الأشخــاص، المثقلين الآن بها حتى حـــد لعنتهــم، هو من أعمال الإحسان، ولهذه الغاية، عليك على هذا، وعلى جميع الأمراء الاتحاد معنا، وأن نستخدم كل الجهود المتواصلة لجعلهم يضعون جـانباً جميع الثروات الفائضة، وأن يعبدوا الرب، وهم قانعين بممتلكات متواضعة».

كيف تناقصت سمعة فردريك يومياً

وعندمـــا وصلت هذه الأخبـار إلى مســامع الملكين المسيحيين لفـرنسـا وانكلترا، بات واضحـاً لهما مثـل وضـوح الضـوء، وكـذلـك لنبـلائهما، بأن فردريك كـان يسعى بوساطة جميع الامكانات المتوفـرة لديه، إلى تدمير حرية الكنيسة وكرامتها، وهي الكنيسة التي لم يزد قط لاحريتها ولاكرامتها، مع أن أسلافه النبلاء، قد بذلوا غاية جهدهم لتأسيسها، وبهذه الحقيقة بالذات حوّل

نفسه إلى متهم بالهرطقة، قد قام بوقاحته وقلة حيائه، فأطفأ ودمّر كل شعاع حسن رأي بحكمته، واحترام لحكمته، وهو ماكان موجوداً حتى الآن بين الناس، غير أن هذين الملكين، حتى لايظهرا وكأنها يتصرفان وفق أخلاق النساء، وبشكل غير مشرف، بالقيام على الفور بمهاجمة واحد، كانا قد حمياه من قبل، لذلك قاما لبعض الوقت بإخفاء غضبهما، وحافظا على الصمت، لكن ليس من دون تذمر، وبناء عليه، اتمد تحسنت بهذه الاجراءات أحوال البابا، وبدأ يسترد أنفاسه.

وكان هناك —على كل حال— جرحاً كبيراً، ضغط على الأمراء، وكذلك على الأساقفة، بدرجة أثقل من كل شيء، وكان هذا، هو أنه صحيح أن الامبراطور فردريك قد استحق، بسبب عدد كبير جداً من القضايا، أن يتعرض للإذلال، وأن يجرد من جميع مراتبه، وأنه بعون الرب، يحق للسلطات البابوية خلعه من دون تردد، إنما هنا تكون الكنيسة الرومانية قد أساءت استخدام حظوة الرب، وسوف تنتفخ في المستقبل إلى درجة من العجرفة والتكبر غير المحتمل، مما سيدفعها أمام سبب بسيط من الأسباب، إلى خلع المقدمين الكاثوليك —وبشكل خاص الأساقفة— مع أنهم عادلين وأبرياء، أو أن تقوم بتهديدهم بشكل مشين بالخلع، والرومان، وإن ولدوا من دم جلف، سوف يتحدثون بتشامخ، ويتبجحون قائلين: «نحن قد وطئنا بأقدامنا أعظم السادة وأقواهم، وهو الامبراطور فردريك، فمن أنتم حتى تفكرون بطيش بمقاومتنا؟»، وإذا ما حدث وأثير الأمراء على هذه الصورة، سوف يثورون عليهم، وبانتقام الرب، سوف تكون السلطات الرومانية عرضة للدمار.

كيف أن محاولات وكلاء الجماعة الإنكليزية قد حرمت من تأثيرها

بالنسبة لوكلاء الجماعة الانكليزية، أي الايرل بيغود، ورفاقه الذين تقدم

ذكرهم وتسميتهم، الذين كانوا ينتظرون جواباً مفيداً من البابا، حسبما كان قد وعد، لقد جعلوا أخيراً يفهمون أنهم لن يحصلوا على مطالبهم، ولذلك غادروا وهم مغضبين كثيراً، وأعطوا مجالاً للتهديد، وأقسموا بيمين رهيب، بأنهم سوف لن يشبعوا النهم المقيت للرومان مطلقاً، بدفع الضرائب، كما أنهم لن يسمحوا بدفعها، ولن يقبلوا بعد الآن بإعطاء موارد الكنائس (وبشكل خاص الموارد التي من المعروف أن نبلاء المملكة هم أولياء نعمتها) واستغلالها منذ الآن فصاعداً، ومع ذلك مرّ البابا بهذه الأشياء كلها متظاهراً بعقل صابر، وبعينين قانعتين، وانتظر بهدوء الوقت لاتخاذ اجراءات هي الأكثر قسوة، عندما يبتسم الحظ له.

ولذلك أرسل إلى جميع أساقفة انكلترا يأمرهم بكل دقة، بأن يقوم كل واحد منهم بوضع ختمه على صك الضريبة المقيت، الذي عمله الملك جون، صاحب الذكرى غير السعيدة، دون أن يعبأ بمعارضة ستيفن، رئيس أساقفة كانتربري، في سبيل أنهم عندما يفعلون ذلك، يمكنه تثبيت هذا الصك وجعله أبدياً، وهذا، باللأسف ماقد فعله الأساقفة من خلال الخوف، بعدما صاروا ضعفاء كثيراً، مما سبب ضرراً هائلاً للملك وللمملكة، ولدى سماع الملك بهذا، ثارت ثائرته، وغضب غضباً شديداً، وأقسم أنه، مع أن الأساقفة قد خضعوا بشكل مهين، إنه سوف يقف بشجاعة للدفاع عن امتيازات المملكة، وأنه مادام على قيد الحياة، لن يدفع أية ضريبة للبلاط الروماني، تحت اسم جزية، وكان فولك أسقف لندن، آخرواحد أعار نفسه لهذه الخطة الشريرة، فوضع ختمه على هذا الصك، ولذلك استحق ملامة أقل من الآخرين.

وبالطريقة نفسها، ومن أجل تثبيت أفضل لقرار الخلع، الذي صدر ضد الامبراطور فردريك، وفي سبيل إقامة ذكرى دائمة للواقعة، قام جميع الأساقفة بوضع أختامهم على صك كبير متعلقاً بالأمر نفسه، كان قد جرى نسخه كلمة كلمة من الصك المختوم بالختم البابوي.

ثم إن المجمع ارفض، وعـاد الذين كانوا قـد اجتمعوا هناك مع المبـاركة إلى أوطانهم، باستثناء الذين احتجـزوا بسبب عمل خـاص، كـان البابا قـد أخره حتى مابعد انتهاء المجمع.

الوصاية البابوية على هيئة رهبان السسترشيان

بينما كان جيشـان العالم يحدث هذه الوقائع معـه ويستدرجها، قـام رعاة دير السسترشيـان من مختلف البلـدان، كما هي عـادتهم، لدى اقتراب عيـد تمجيـد الصليب، بالقـدوم على شكـل حشـود لحضـور اجتماع هيئتهم الرهبانية، وعندما التقوا جميعاً، تلقوا رسالة من البابا، كان محتواها كما يلي:

«نحن نود أن نعلم أخـوتكم، بـأن الكنيسـة هي في وضع مـرعب كثيراً وهي بحـاجة إلى صلواتكم المستعجلة بشكل أكثـر ديمومـة، لوجود أزمـة حالية تهدد جميع المسيحية بطريقة مخيفة، ولذلك لن نزعج أنفسنا باستخدام السيف الفولاذي ضـد الامبراطور الروماني فردريك، ذلك العـدو القوي والعنيد لكنيسـة المسيح، بل سوف نستخدم السيـف الروحي فقط، وأفواه الذين يتكلمـون بالشر قـد أغلقت، ونحـن نرجـوكم، أن لاتدعـوا الجهلة النقـاد، والرجـال الذين بلاصـدق، يقنعـونكم بالظن أن هذا الحكم الذي صـدر من قبلنا ضـد فـردريك المذكـور كـردة فعل، ومن دون مـداولات ومشاورات طويلة مع إخواننا، ومع كثير آخر من الرجال المتعلمين، لأنني لاأتذكـر وجـود أية قضيـة أخـرى مثلهـا قـد نوقشت بمثل هذا الاتسـاع والمواظبة، أو وزنت بدقة في عقول النـاس البارعين والمقدسين، وبلغ الأمر حداً أننا أثناء مـؤتمراتنا السرية تولى واحد من اخواننا وظيفـة المحامي عنه، وقام آخرون من جهـة أخرى بالإدعاء ضده، في سبيل أنه بـوساطة الإدعاء والردود الصادرة عن الإدعاء وعن الدفاع —كما هي العادة في المدارس— يمكن لحقيقـة القضيـة أن تظهـر من على الجانبين من الأعماق، غير أننا لم نستطع، مـن دون إيذاء للرب، واغضـــاب له بشكل جـــاد، ومن دون الاضرار بالكنيسة، أو من دون جـرح ضمائرنا، أن نجـد أية وسيلة أخرى،

غير الإجـراءات التي اتخذناها، وإن كنا مكرهين، وقـد أسفنا كثيراً لشقـاء المذنب المذكـور، وإننا بناء عليـه، قد استعـدينا، من أجل هذه القضيـة، أن نقف ثابتين حتى الموت، وفيهـا ومن أجلها جميع إخواننا، ونحن كـذلك، على استعـداد للمـوت، وأن نقـاتل من دون وهن لصـالح الرب ولصـالح كنيسته».

وقـد جـرى نشر هذه الرسـالة كـاملة بين الهيئة الرهبـانيـة كلهـا، وبين الرهبـان بشكل عـام، حيث تخلوا عن الوقـوف إلى جـانب الامبراطور، ومالوا بشكل رائع إلى جـانب البابا، وصلّوا إلى الرب أن لايعـرض كنيسته للمعـاناة بأية طريقـة من الطرق، وهي الكنيسـة التي أسسهـا على صخـرة ثابتـــة، ولكي لاتسقط بشكل أبدي، مـع أنها كـانت تترنـح آنذاك بعض الشيء.

حول الإجراءات التي تمت في غانوك أثناء إقامة الملك هناك

وفي الوقت نفسه، كـان قد مضى الآن على إقامة الملك، قـرابة الشهرين، على الحدود الدنيا لويلز، قـرب نهر يجري بين جبال سنودون Snowdon, حيث انشغل في بناء قلعـة، كـانت لاترام بأسـوارها ومـوقعهـا، وفي ٢٤- ايلول، رغب واحـد من نبـلاء الجيش، أن يخبر رفـاقـه، الذين كـانوا قلقين حول هذه القضية، فكتب إليهم كما يلي:

«صحة: صاحب الجلالة الملك مقيم مع جيشـه في غانوك Gannock, من أجل تحصين القلعـة التي بناها الآن، في مـوقع قوي جـداً هناك، ونحن مقيمون هناك في الخيـام، منشغلون بالحراسة والسهر، والصـوم، والصلاة، ووسط برد، وعـري، وأثناء الحراسة نفعل ذلك خـلال الخوف من أن يقوم الويلزيون بمهـاجمتنا فجأة أثناء الليل، وأما الصوم فنقـوم به بسبب النقص بالمؤن، لأن ربع الرغيف يكلف الآن خمسة بنسات، وأما الصلوات فنؤديها من أجل أن نعـود إلى الوطـن فـوراً ومن دون أذى، ونحن مضغـوط علينا

بالبرد وبالعـري، لأن بيـوتنا من الخيش، ونحن من دون مـلابس للشتـاء، وهناك ذراع قصير للبحـر، فيه تيـار للمـد والجزر تحت القلعـة المذكـورة، حيث نحن مقيمون، ويشكل ذلك نوعاً من الموانىء، إليه تقدم أثناء إقامتنا سفن من ايرلاندا، وشيستر جالبـة الامدادات، وذراع البحـر هذا قائم بيننا وبين سنودون، حيث معسكر الويلـزيين أنفسهم، وهو لدى ارتفـاع التيـار حـوالي رميـة سهـم بالعـرض، وفي يوم الاثنين التـالي قبل عيـد القـديس ميكائيل، جـاءت سفينة من ايرلنـدا، تحمل مـؤناً للبيع لنا، وعندمـا كـانت قادمة نحو مدخل الميناء، جرى توجيهها من دون حذر، أثناء تراجع البحر، فبقيت على القـاع تحت قلعتنـا المذكـورة، لكن على الطرف المقـابل، نحـو الويلزيين، الذين اندفعوا على الفـور، وقاموا بالهجوم عليهـا بحكم وقوفها على أرض جافة، وبناء عليـه، لدى رؤيتنا لهذا الإجراء من الطرف على هذا الجانب، أرسلنا ثلاثمائـة ويلزي مـن رجـال حـدودنا من شيشـاير Che-shire ومن شرويشاير Shropshire, وذلك عبر الماء في قوارب، ومعهم بعض رمـاة القسي الزيارة، من أجل حماية السفينة المذكـورة، ولدى رؤية الويلزيين لذلك، تراجعوا مسرعين إلى مخابئهم المعتادة والمعروفة جيداً في الجبال والغـابات، وطاردهم فرساننـا ومعهم أتباعهم لمسافـة فرسخين، ومع أنهم كانوا على أقـدامهم (لأنهم لم يجلبوا خيـولهم عبر الماء معهم) فقد جرحـوا وقتلوا كثيراً من الويلزيين، ثم عاد شعبنا بعدما هزمـوا أعداءهـم، ومثلهم مثـل أناس جشعين ومحتـــاجين، انشغلـوا بالنهـب ونشروا النار والسلب، خلال المنطقة، على الجانب الآخر من الماء، وكان من بين الأعمال الدنســة التي اقترفـوهـا، قيـامهم مـن دون احترام بنهب دير لطائفـــة السسترشيـان اسمـه أبيركـونوي Aberconway, وسلبـــوه من كل مقتنياتـه حتى كؤوس القـربان والكتب، وأحرقـوا الأبنية العائـدة له، وفي الوقت نفسـه، حشـد الويلزيون حشـداً كبيراً من أبناء جلدتهم، واندفعـوا بشكل مفاجىء، وبأصوات مرتفعـة على رجالنا المحملين بالأسلاب، التي حصلوا عليهـا بأكثر الأسـاليب شراً، وكانوا محاقين بذنوبهم، وأرغمـوهـم

على الفـرار، وجـــرحـوا وقتلوا الكثيرين وهـم يتراجعـــون نحـو السفينة، واختار بعض رجالنا الوثوق بالأمـواج، ومن ثم الموت غرقاً، وآثر وا ذلك على أن يقتلوا وفقـاً لإرادة أعدائهم، فألقـوا بأنفسهم طوعـاً وبإرادتهم بين الأمـواج، وهناك هلكوا، وأسروابعض فرسـاننا وهـم أحيـاء، فسجنوهم، لكن عندما سمعوا بأننا قتلنا بعض نبلائهم، وفوق الجميع نافث Naveth ابن أودو، وكان شاباً وسيماً وشجاعـاً، ولذلك شنقوا هناك بعض فرساننا، وقطعـوا بعـد ذلك رؤوسهم، وشـوهـوهم بشكل مخيف، ومـزقـوا أخيراً أجسادهم التعيسة، وقطعـوا أطرافهم طرفاً طرفاً، ورمـوهم في الماء، انتقاماً من جشعهم الشرير، حيث أنهم لم يوفـروا الكنيسة، ولاسيما واحـدة كانت عائدة إلى الرهبان.

وسقط هناك في هذا الصراع من جـانبنا بعض الفـرسـان مـن حـاشيـة رتشارد ايرل أوف كـورنوول، وهـم: ألان بوسسل Buscel, وآدم دي مـويا Moia, واللورد غيـوفـري ستـورمي Sturmy ورابع هو ريمـوند، وكان غسكونيـاً من رمـاة القوس الزيار، وكـان الملك غـالباً مـا يستخـدمه في المبـاريات الرياضيـة، وجرى مقتل حـوالي المائة من الأتبـاع، وذلك إلى جـانب الذي غرقـوا، والعـدد نفسه من الويلزيين أو أكثـر، وفي الوقت نفسه تولى وولتر بيست Bissett, الذي كان على ظهـــر السفينة مع أتباعه، الدفاع عنها بشجاعة، وانخرط بقتال مستمر مع الويلزيين حتى منتصف الليل، الذيـن هاجموه بشـدة من جميع الجوانب، ولـولا أن رجـالنا اتخذوا من أطراف السفينة جـداراً، لسقطوا جميعـاً في أيدي العـدو، وأخيراً عندمـا بدأت ميـاه البحـر بالارتفـاع، شرعت السفينة بالتحـرك، وعندمـا صارت الآن بعيدة المنال، انسحب الويلزيون، وهـم آسفـون لأن رجالنا قد جرى انتزاعهم من بين أيديهم وكان على ظهر هذه السفنية ستين برميلاً من الخمر، بالاضـافة إلى مـؤن كثيرة متشوق إليها وكـان بعضها مـوسمياً، كنا منهـا محرومين منذ وقت، وعنـدمـا جـاء الصبـاح، وتراجـع التيـار، رجع

الويلزيون مع البهجة، ظانين أنهم سوف يعتقلون رجالنا في السفينة، لكن بعون من الرب وتدبير، كانوا قد تمكنوا أثناء الليل، عندما كان التيار عالياً، من النجاة إلينا بوساطة قواربنا، وكان ذلك قبل وصول الويلزيين، تاركين السفينة لوحدها، ووصل الويلزيون على كل حال، ونقلوا منها كل الخمور تقريباً، والأشياء الأخرى التي كانت على ظهرها، وتركوها لدى ارتفاع التيار، وقد ألقوا النار بالسفينة، التي أهلكت شطراً منها، وجرى على كل حال انقاذ الشطر الآخر، الذي كان فيه سبعة براميل، وقد تمكنوا من سحبها إلى الشاطيء القريب.

ومع استمرارنا بالبقاء هناك مع الجيش، كنا في حاجة كبيرة لكثير من الأشياء، ولذلك غالباً ما قمنا بغارات مسلحة، وعرضنا أنفسنا لكثير من المخاطر العظيمة، من أجل أن نحصل لأنفسنا على الضروريات، وكنا نواجه كثيراً من الكمائن المتنوعة، ونتصدى لحملات من الويلزيين، وغالباً ما عانينا من تقلبات حظ الحرب، وألحقنا أضراراً بهم، فبعد احدى المناوشات، أحضرنا معنا، ونحن منتصرون، إلى معسكرنا حوالي مائة رأس مقطوعة من الويلزيين، وفي ذلك الوقت كانت هناك ندرة في المؤن، وحاجة كبيرة إلى جميع الضروريات، ولذلك عانينا من خسائر لاتعوض في كل من الرجال والخيول، وجاء وقت في الحقيقة لم يوجد فيه خمرة في بيت الملك، لابل في الحقيقة في الجيش كله، باستثناء برميل واحد فقط، وصار المقياس الواحد من القمح يكلف عشرين شلناً، وثور مرعى ثلاثة ماركات أو أربعة، وبيعت الدجاجة بثمانية بنسات، ونتيجة لذلك تلاشى الرجال وتلاشت الخيول، وهلك كثيرون من الحاجة».

قدوم البابا للاجتماع مع الملك الفرنسي في كلوني

وفي تلك الآونة نفسها من العام، ذهب البابا إلى كلوني، بناء على دعوة من الملك الفرنسي، الذي رغب بالاجتماع والتحادث معه، ولم يسمح لقداسته بالتوغل أكثر في فرنسا، وفي حوالي عيد القديس أندرو، قدم الملك

الفرنسي إليه ليلتقيه هناك، وكان ذلك بعـدما انتظره، لمدة خمسة عشر يوماً، وعقدا هناك اجتماعاً سرياً لمدة سبعة أيام، ولم يطلع أحد على أسرار القضايا إلاّ هم: أي البابا، والملك الفرنسي، وأمه السيدة بلانشي، ومن المعتقد من دون شك أنهم تداولوا حول ترتيب سلام بين الكنيسة والامبراطورية، وحول الطريقة التي يمكن بوساطتها تحقيق مصالحة مشرفة، وكان الملك الفرنسي قد توصل إلى قرار ثابت، بالانطلاق إلى القدس مع كثير من النبلاء الفرنسيين والمقدمين، الذين حملوا الآن الصليب، لصالح كل من الرب والملك، وكان لايمكنهم الارتحال بالبحر —مالم تتم تهدئة الامبراطور، ومصالحته تماماً مع الكنيسة— أو خلال أراضيه، دون التعرض لمخاطر عظيمة، تلحق بالمسيحية كلها، لابل حتى إذا استطاعوا فعل ذلك، إنه لن يكون من الموائم القتال في سبيل المسيح في الأرض المقدسة، في حين تركوا خلفهم، في بلد مسيحي مثل ذلك الصراع المؤذي والمضر بين شخصين لهما مثل هاتين المرتبتين العاليتين، ومرة أخرى كان من المعتقد أنهم كانوا يعالجون مسألة إعادة تأسيس السلام بين ملكي فرنسا وانكلترا، أو على الأقل إطالة الهدنة، في سبيل أن يتمكن الملك الفرنسي من المضي في حجه في ظل أمان أعظم، وفي نهاية هذا الاجتماع، وعندما كان الملك الفرنسي على وشك المغادرة، عيّن يوماً هو في اسبوعي الفصح من أجل مؤتمر مع قداسته، ينبغي أن يضمن حضور الامبراطور فردريك فيه.

وذهب الملك الفرنسي من هذا المكان، إلى مدينة ماكون Macon, وهي مدينة سقطت هذا العام مع المقاطعة كلها تحت سلطته وحكمه وفق الطريقة التالية: عندما آل ذلك الميراث لأن تتملكه كونتسه ماكون، قامت على الفور بإرسال رسالة إلى الملك، بأن لديها الرغبة في بيعه جميع الحق الذي لها في المدينة المذكورة والمقاطعة، في سبيل ارتداء الزي الرهباني، ووافق الملك الفرنسي على هذا العرض، واشترى المنطقة مقابل مبلغ كبير من المال، أنفقته الكونتسه كله لصالح الفقراء، وعلى أعمال تقوية أخرى،

ومالبثت أن لبست الزي الرهباني، في دير للسيدات كانت السيدة بلانشي قد أسسته في بونتوي Pontoise, وبذلك خلفت وراءها ذكرى كانت مثلاً في التواضع إلى جميع الأجيال، ولكل النبلاء، وبشكل خاص إلى النساء.

موت ريموند كونت بروفانس

وسدّد في قرابة الوقت نفسه، ريموند كونت بروفانس دين الطبيعة، وكان رجلاً مشهوراً ومتميزاً، ذلك أنه تقلب على دولاب الحظ بشكل مدهش، وهو الذي كان مصدراً غير اعتيادي مدهشاً إلى جميع الأجيال في الجمال الفائق لبناته، التي إلى الصغرى منهن، ترك في كلماته الأخيرة، كونتيته، أي كونتية بروفانس بمثابة أعطية، لكن عندما سمع الملك الفرنسي بهذا أرسل خمسمائة من الفرسان النخبة، مزودين بالأسلحة وبالحاجات الضرورية الأخرى، ليتولوا الاستيلاء على كونتية بروفانس المتقدمة الذكر، بسبب أن الابنة الكبرى للكونت المتوفى أخيراً، كانت زوجته، كما تقدم ذكر ذلك، ذلك أنه عدّ الوصية المتقدم ذكرها للكونت ريموند باطلة وفارغة لأنها غير قانونية، ولدى سماع ملك انكلترا بوفاة الكونت، حركته مشاعر عواطفه لعمل مأتم جنائزي بأبهة عظيمة، وسط صدقات وافرة، وصلوات مخلصة، وشموع مضاءة، وأجراس تقرع، وبكل دقة منع في الوقت نفسه كل واحد من إعلان خبر هذا الحادث إلى زوجته الملكة، خشية أن يقهرها الأسى.

استيلاء المصريين على مدينة دمشق

في هذا العام، وفي الآونة التي تلت حلول عيد القديس ميكائيل، جرى الاستيلاء على مدينة دمشق، التي —كما قيل— كانت المدينة الرئيسية في سورية في العصور القديمة، وانتزاعها من الصليبيين، مما ألحق بهم أضراراً جسيمة واضطراباً عظيماً، وجاء الاستيلاء عليها من قبل المصريين الكفار

الخونة، وأعوانهم الخوارزمية، الذين كانوا الأعظم عداوة للاسم المسيحي، لأن هذه المدينة، وإن كانت مصبوغة بعقيدة محمد (صلى الله عليه وسلم)، كانت متحالفة مع الصليبيين، ولم تكن تؤذي أحداً منهم، وكانت نافعة جداً لهم وموائمة، من خلال التجارات المتبادلة والعلاقات القائمة فيما بينهم، لكن الآن، بعدما كانت مدينة صديقة، تحولت إلى مدينة غير صديقة تماماً، والأكثر عدوانية لهم، فقد جرى طرد سلطانها منها، وبصعوبة وجد مكاناً آمناً يتخبأ فيه في الأجزاء الشرقية من البلاد، وفي الوقت نفسه، أصبحت المدينة مع كل ما أحاط بها من جميع الأطراف خاضعة للمصريين وللخوارزمية.

عزم الملك الإنكليزي على العودة إلى إنكلترا بعد نهبه للمنطقة المعروفة بإسم أنغليزيا في ويلز

وفي اليوم التالي لعيد الرسولين: سمعان، وجود، كان الملك غير قادر، وغير راغب بالإقامة مدة أطول في غانوك، بسبب نقص المؤن، واقتراب حلول الشتاء، وجاء ذلك بعد إقامته هناك لمدة تقارب العشرة أسابيع، حيث قام بتحصين قلعته غانوك التي تقدم ذكرها، والتي كان قد بناها، وبعدما شحنها، أعدّ العدة للعودة إلى انكلترا، في سبيل أن يسترد هو صحته وكذلك جيشه، وكان الآن قانعاً تماماً بأن أعداءه الويلزيين قد لحقهم دمار لايمكن تعويضه، لأنه لدى وصوله قام الايرلنديون باجتياح أنغليزيا Anglezea كلها وهي المنطقة التي كانت المأوى ومكان الالتجاء للويلزيين، وقام قبل مغادرته بوضع السيف فيها بقي هناك بشكل وحشي، وحول إلى رماد كل انسان وكل شيء، إلى حد أن المنطقة كلها، بدت وكأنها منطقة واسعة مهجورة، وصحراء غير مزروعة، كما أنه أمر بملأ آبار الملح في ويتز Witz وتدميرها، وفي سبيل أن لايحصل الويلزيون على المؤن من المقاطعات المجاورة، كما اعتادوا أن يفعلوا، حتى في أيام الحرب، إما عن طريق الشراء، أو النهب، أو من خلال الصداقات،

أو القـرابات، أو العلاقـات، وتسبب بجعل سكان تلك المنطقـة مع الذين خـاضعين لهم يعانون من الفقـر، ومحرومين بشكل خاص من الطعـام، إلى حـد أن المجاعـة سيطرت على شيشـاير Cheshire والمناطق المجاورة لها، حتى وصلت إلى درجـة أن السكان لم يبق لديهم مايكفي لإطالة البقـاء التعيس، كما أنه منع تحت طائلة عقوبة الموت وفقدان الممتلكات، جلب أي مـؤن إليهم، أو السماح بجلبهـا من أجل البيع، من قبـل الانكليـز، أو من المناطق الايرلندية، وكـانت قلعـة غـانوك هذه، مشحونة أيضـاً بالرجـال، وبالمؤن، وبآلات الحرب والأسلحة، وصارت بالفعل بمثابة شوكة في أعين الأشقياء الويلزيين، لابل أكثـر الناس شقاء، حيث لم يعـد بامكانهم العبور إلى انكلترا، من دون اعتراض من قبل رجـال القلعة، الذي كـانوا، بناء على أوامــر الملك، مطاعين من قبل جميع المنطقــة، ولم يعـد بـإمكان الويلزيين الإقامة في منطقتهم بسبب الحاجة.

مغادرة الملك غانوك بعد تحصين القلعة هناك

وبعــدمــا تمكن الملك من حلّ جميع القضــايا بشكـل حكيم، رجع إلى انكلترا بأمـان، وهو متـوج بحسن الحظ، باستثناء أن سمعـة أخيه، الايرل رتشارد، قـد أظلمت إلى درجات عظيمة في هذه الحملة، وأخـذت التقارير السيئة تنتشر حـوله، فلقد ذكـر في كل مكان، وفي كل من الجيش، وفي جميع أرجاء المملكة، بأن الايرل المذكور، قام بسبب استجابته العاطفية، وبسبب القــرابة، لكن لإهانة الملك، وخســارته وضرره، فأعطى ابن اختــه داود النصيحة، وأبدى نحـوه كثيراً من الصداقة، أكثـر مما ينبغي، ومما هو لائق، وتولى في احـدى المرات بشكـل سري رعـاية داود المذكـور، عندمــا كـان مــرهقـاً، متأذياً، وفي وضـع صحي سيء، في قلعتـه تينتــايول Tintaiol, حتى يتمكن من استرداد صحته، وعندما شفي، قام بقوة أعظم ضد الملك، كما أنه رفع من شأن قضية المذكـور بمشورته ومسـاعدته، لأن الملك رفض بمبادرة من الملكة، أن يمنحه شيستر مع المراتب الشرفية المرتبطة بها، وكان

ذلك عندما طلبها منه، ولقد قيل أيضاً، أن ذلك كان عندما قوبل بالرفض من الملك، من خلال تدخل الملكة عندما سأل منحه غسكوني، وغادر من عند الملك وهو مغضب، مع تهديدات غير معتادة في بوردو.

وينبغي —على كل حال— عدم تصديق هذه التأكيدات، لأن الملك عندما كان في حاجة إلى المال من أجل بناء القلعة في غانوك، وفي سبيل دعم الجيش، تحرك الايرل المذكور بعاطفته الأخوية، وأقرضه بكل كرم ثلاثة آلاف مارك، بضمانة مجوهراته، وبذلك أغلق فم المتكلمين بالشر، ثم عاد الملك من ويلز مع اقتراب حلول الشتاء، وبدأ زحفه في اليوم التالي لعيد القديسين سمعان وجود، في سبيل أن يتمكن —كما ذكرنا من قبل— هو وكذلك جيشه المنهك كثيراً، من استرداد أنفاسه، لكن مع نية العودة إلى العمل نفسه، بعد عبور حدة الشتاء.

وعلى هذا فإن الويلزيين التعساء، كانوا عندما حلت مصائب الشتاء عليهم، قد عسفت الحاجة بهم في جميع الأشكال، فقد كانوا بلا بيوت، ومحرومين من جميع أنواع المؤن، ولم يكن لديهم أدنى أمل في تحسن أوضاعهم، لأن أراضيهم بقيت غير مزروعة، ومتعفنة بإرادتهم، وهكذا كانوا مقهورين بالجوع وبالبرد، وبيأس عقلي وجسدي، ولذلك أخذوا يتلاشون ويموتون.

خلع موريس من الاشراف على القضاء في إيرلندا

وقام الملك بخلع موريس —الذي كان مشرفاً على القضاء في ايرلندا— من منصبه، لأنه كان غاضباً عليه كثيراً، ومنزعجاً منه، لأنه كان بطيئاً جداً في القدوم إلى مساعدته، لدى توفر رياح طيبة لديه حسبما رغب، وعيّن في مكانه وفوّض جون فتز— غيوفري، وتحمل موريس بصبر هذا كله، بسبب أنه منذ أن مات ابنه، ازدرى جميع أمجاد ومراتب هذا العالم.

إرسال نائب بابوي إلى فرنسا لرفع شأن القضية الصليبية

وفي العام نفسه، وبناء على طلب ملك فرنسا، الذي أعاده الرب إلى الصحة، وكأنها كانت مع روح جديدة، وبعدما كان قد حمل شارة الصليب، جرى ارسال نائب بابوي إلى فرنسا من قبل البابا، من أجل العمل بشكل مؤثر أكثر، على رفع شأن القضية الصليبية بتبشيره.

وفي حوالي الوقت نفسه، قدم أسقف بيروت، الذي تقدم ذكره مع أ. A, الذي كان واحداً من الرهبان الدومينيكان، من الأرض المقدسة، إلى انكلترا، وبعد إخبار الملك بالأحوال ا لمأساوية في الأرض المقدسة ومعاناتها، رجاه إذا كان من الممكن أن يسمح له، برفع شأن القضية الصليبية في انكلترا عن طريق التبشير، ولدى تقدمهما بهذا الطلب إلى الملك، وتثبيتاً لمصداقيتهما، أرياه صكاً كانا قد جلباه معهما من الأرض المقدسة، وغفراناً كانا قد جلباه من بلاط روما، ولدى عرض هذا الغفران، قال الملك:

«مع أنكما قد تكونا صادقين، ورسولين قادرين، مع ذلك، لقد خدعنا مراراً من قبل البلاط الروماني، من خلال نوابه البابويين وقساوسته، الذين أرسلوا لمثل هذا العمل نفسه، والذين شغلوا أنفسهم فقط في استخراج المال، لذلك سوف من النادر أن تجدا من يضع ثقته بكما»، وفي سبيل أن ينالا حظوة الملك، ذهبا إلى القول، بأن جميع نبلاء فرنسا تقريباً قد حملوا الصليب، فقال الملك:

«لقد حمل ملك فرنسا الصليب، وإذا كانت رعيته قد تبعته، ما هو العجب في ذلك؟ إنني محاط بأعدائي، وملك فرنسا موضع ريبة لدي، وملك سكوتلندا أكثر منه، وأمير ويلز في وضع عدائي مكشوف ضدي، والبابا يحمي الذين يشورون ضدي، ولذلك إنني لا أرغب في إفراغ أراضي من جنودها، ومن أموالها، حتى لاتكون مجردة من

قوتها»، وعند ذلك فقـد الأسقف والراهب جميع آمالهما، وغادرا.

راعي دير كلوني يستخرج العشور من رئاسات رهبانه

وفي تلك الآونة، عندما كان البابا ضيفاً في دير كلوني، وقبل مغادرته من ذلك المكان، ليطلـب اللجـوء في ليـون، حصل منه راعـي دير كلوني على إجازة وتصريح، باستخـراج العشر لعام واحد، مـن جميع الرهبان، في ذلك المكان، وجرى منح هذا لسببين، هما: أن الراعي المذكور كـان قد قدم هدايا فخمة إلى البـابا عندما كان في المنفى وقادمـاً إلى مناطق ماوراء الألب (لأنه كان قـد أعطاه ثلاثين مهـراً مجهزين بشكل جيـد، والعدد نفسه مـن خيول التحميل)، ولأنه استقبله بشكل فخم وكـريم، واستضـافـه ورعاه لقـرابة العـام، وكـان هذا العشر سوف يتسلمـه من جميع الأعضـاء، دون الاهتمام باعتراض أي شخص عادل، ومن هذا المال كـان البابا سيتسلم ثلاثة آلاف مـارك، وسيعطي البقية لسـداد دين كنيسـة كلوني، المعروف أنها تحملتـه في سبيل تقدم قضية الكنيسـة الرومانية، وقد عمل البـابا هذه المنحة إلى راعي الدير، حتى يتمكن من أن يتخذ نفسه رباطاً عريضاً من جلده.

كيف حمل عدد من النبلاء شارة الصليب

ومباشرة شق الملك الفرنسي الطريق، وضرب المثل، وكأنه حامل الراية، ولذلك حمل عـدد من النبـلاء الفــرنسيين الصليب، وكـان من بين هؤلاء روبرت، وكــونت أرتوي Artois, ودوق بيرغندي، ودوق برابانت، وكـونتســة فـلاندرز مع ولـديها، وبطرس كـونت بريتـــاني، وابنه ج. J, كـونت بريتـاني، وكونت بار، وكـونتـات: سواسـون، والقـديس بولص، ودروكس، وريثيل، وفيليب دي كـورتني، وولتر دي جـويني Joigny, وجـايلز دي ميلي Mailly, ومحامي بيثيـون Bethune, وعدد كبير آخر من النبـلاء، الذين تزايد تعـدادهم يومياً، بحمل الملك شخصيـاً أعباء التبشير، ودعـوتهم إلى ذلك، ونهض بعض الأسـاقفـة بالحماس نفحتـه في

سبيل أن يضربوا مثــلاً تقـوياً للعلمانيين، فحملوا شــارة الصليب على أكتافهم، للانتقــام لقضيـة المسيح، وكـان من بين هؤلاء رئيس أساقفـة الريمـز، ورئيس أسـاقفـة السين، ورئيس أسـاقفــة بورجي Bourges, وأسقف لون Laon, وأسقف بوفوا Beauvais, وعدد كبير آخر، دعاهم المسيح يومياً، وأغراهم بالدخول في خدمته.

رواية بأن المسلمين قد سمموا الورق

ولدى سماع المسلمين بهذه الإجراءات قـامـوا بكثير من الترتيبـات من أجل الدفـاع، وأبدعـوا خططاً شريـرة، فقـد قـامـوا بتسميم الورق، الذي عرفوا أنه سوف يرسل إلى البلدان المسيحية، ونتيجة لذلك، فإن عدداً كبيراً من الناس في فـرنسـا —وكـانوا على غير دراية بهذا الفعـل الشرير— قـد قتلوا، لكن مالبث أن تمّ اكتشـاف ذلك، فجرى الإعـلان بوساطة المنادين في المدن الرئيسيـة في فـرنسـا وانكلترا، من أجل تجنب هـذا الخطر بحـذر وعناية، وقـال أشخـاص آخرون، بأن التجـار قـد فعلوا ذلك من أجل بيع الورق القديم، والمخزون منذ زمن طويل، بشكل أحسن، وسعر أعلى.

تكريس رتشارد مستشار كنيسة إكستير لكرسي ذلك المكان

في حـوالي هذا الوقت، أي في حوالي أول كـانون الأول، جـرى تكريس المعلم رتشارد، مستشار كنيسة إكستير Exeter, وكان رجلاً بلا ملامة، وصـاحب أخـلاق حميـدة، وكـان متعلماً، وجـاء تكريســه أسقفـاً لكنيسـة إكستير، وكان ذلك في ردنغ.

وفاة وولتر إيرل مارشال

في الرابع من كانون الأول، في هذا العـام، أوكما يقول آخرون، في الرابع والعشرين من تشرين الثـاني، ذهب وولتر إيرل مـارشال من طريق الجسـد كله في لندن، وكـــان قـد دفن في تينتيرن Tintern قـرب ستريغـــــويل Strigoil, حيث جرى دفن عدد من أجداده النبلاء.

- ٧٥٧٩ -

موت أنسلم أخو المذكور أعلاه

وبعد ذلك بـوقت قصير، وفي اليوم الثالـث، قبل يوم عيد الميـلاد، مات أنسلم، الأخ الأصغر التالي، المذكور أعـلاه، وبما أنهما معاً توفيا من دون أي أولاد، فإن ذلك الميراث الفخـم قد توزع بطـرق مختلفـة، وآل إلى ملكيـة كثيرين، بسبب أخواتهما، اللتان إليهن آلت بشكل حاد.

شعارات النبالة التي ويالأسف انخفضت في إنكلترا وهؤلاء هم

— المارشال

— ايرل شيستر

— ايرل آروندل

— ايرل مانديفيل

— ايرل هنتنغدون

— دوبني Daubney

— هوغ دي لاسي (في ايرلاندا)

— كونت ريموند (في بروفانس)

— وليم أوف لانكستر

— أوسبرت غيفارد

— وولتر بن غيلبرت دي بوهون مع أخيه

— الاسكندر آرسيك Arsic

— روبرت أوف روبسلي Ropesly

— روبرت دي بورغيت Burgate

— روبرت دي تيرنهام Turnham

— وليم
— نيقولا
— يوستاس
(دي ستوتفيل Stuteville)

— روجر دي مونتبيغنت Montbegunt

— فيليب دي أولكوت Ulecote

— فولكس دي بروت Breute

— رتشارد بيرسي Percy

— هنري دي تربلفيل Trubleville

— فيليب دوبني Daubeney

— رالف دي تربلفيل Trubleville

— رتشارد دي رفرز Rivers

— رتشارد بن روبرت تشيلشام وابنه رتشارد أوف دوفر

— ايرل أوف ووررويك Warwick

واقعة مدهشة تتعلق بـ و. W مارشال الكبير وأبنائه الخمسة

أصاب سـوء حظ محزن ومبكي، لم يسمع بمثله من قبل، الأبناء الخمسة لـو. W مـارشـال الكبير، الذين انتـزعـوا من بيننـا —وفقـاً لتسلسل تواريخ ميـلادهم— من دون أولاد، في حين كـان الازدهار مبتسماً لهم في وسط ممتلكاتهم، وفي بداية الحياة، وذلك تماشيـاً مع نبوءة أمهم، التي قالت

بأن: «كل واحد منهم سوف يكون ايرلاً لايرلية واحدة»، وصحيح أن أنسلم لم يكن ممنوحاً ايرلية، لكنها آلت إليه، وهكذا برهنت أمهم على أنها كاهنة متنبئة، وأنا لاأعتقد على كل حال، بأن ذلك قد وقع من دون إلهام لاهوتي، وبما أن هذه الواقعة جديرة بالذكر، رأينا أن من المناسب اقحام رواية عنها في هذا الكتاب، فعندما كان وليم المتقدم ذكره —والذي كان محارباً وشجاعاً، ولقبه الـ Moreschal (أي قهرمان المريخ)— مشغولاً بالقتل والنهب في ايرلندا، وكان يحصل على أراض واسعة، استولى بالاغتصاب والقوة، وانتزع من أسقف مقدس عزبتين، كانتا عائدتين إلى كنيسته، واستحوذ عليهما، وكأنهما ملك له بإدعاء عادل، لأنه حصل عليهما في الحرب، وقام الأسقف، بعد اصداره تحذيرات كثيرة له، التي ردّ عليها الايرل بعجرفة، واستمر في استحواذه على العزبتين المذكورتين، كما أنه تمسك بذنبه وأصر عليه بتمرد، قام منفجراً باصدار قرار الحرمان الكنسي ضده، وكان ذلك لسبب صحيح، لكن الايرل استخف بهذا، وادعى أن القرار صدر في أيام الحرب، ولذلك كدّس الأذى فوق الأذى، وبسبب هذه الإجراءات، قام واحد اسمه المعلم غيرفاس Gervase دي ميلكيلي Melkeley بنظم شعر حوله، وتحدث وكأنه شخص الايرل قائلاً:

أنا في ايرلندا زحل، وفي انكلترا أشعة الشمس تحيط بي

وفي نورماندي أنا عطارد، لكن في فرنسا، المريخ إلى الأبد قد وجدني

ثم إن الايرل المذكور، احتفظ بهاتين العزبتين تحت سلطته طوال حياته، وقد مات بعد عدة سنوات، ودفن في المعبد الجديد في لندن، ووصلت أخبار هذه الواقعة إلى علم الأسقف المذكور (الذي كان أسقف فيرني Fernes, وكان راهباً من طائفة السسترشيان، كما أنه كان ايرلندياً من حيث المولد، وكان رجلاً صاحب قداسة مدهشة) فقام بعد بذل جهد شخصي كبير، فذهب إلى الملك، الذي كان في ذلك الوقت مقيماً في لندن،

وتقــدم بشكوى ثقيلة حـول الأذى المتقــدم ذكـره، الذي اقترف بحقــه، وأوضح أنه قـام بحـرمـان الايرل المذكـور كنسياً لهذا السبب، وهو سبب صحيح، ثم إنه توجّـه بالرجاء إلى الملك، أن يستخـدم سلطاته الملكية، وفي سبيل تحرير روح الايرل وليم المذكور، فيعيـد العزبتين إليـه، فبذلك يمكن للميت أن يحصل على منفعة التحليل، وأسف الملك وتأثر كثيراً لدى سماعه هذا، وطلـب من الأسقف الذهـاب إلى قبر الايرل وتحليله، واعــداً بـأنه شخصيـاً سـوف ينظر في ترضيـة تقـدم لـه، وبناء عليـه ذهب الأسقف إلى القبر، وقـام بحضـور الملك مع أشخـاص آخـرين كثـر، وتوجّـه بالحديث وكأنه يخاطب واحداً حياً في القبر، حيث قال:

«وليم، أنت الذي مدفون هنا، ومغلول بأغلال الحرمان الكنسي، إنه إذا ماجرت إعادة الممتلكات التي انتزعتهـا ظلماً من كنيستي مع ترضية كافية، بوساطة وكـالة الملك، أو بوساطة وريثك، أو أي واحـد من ورثتك، فإنني أحللك، وإذا كان الأمر غير ذلك، إنني أقوم بتأكيد القـرار المذكور، حتى إذا ما ظللت متورطاً بذنوبك، فإنك سـوف تبقى في جهنم، رجلاً مداناً إلى الأبد»، ولدى سماع الملك هذا بات غـاضبـاً، وانتقد قسـوة وعدم اعتـدال الأسقف، وعلى هذا ردّ عليه الأسقف قـائلاً: «لاتندهش يامـولاي، إذا ما كنت منفعـلاً، لأنـه جـرد كنيستي من أعظم منافعهــا»، ثم إن الملك تكلم بشكل سري مع وليم الابـن الأكبر للايرل، ووريثـه في كـل ممتلكاته، وهو الذي تولى الآن الايرليــة، وكـذلك إلى بعض اخــوته، ورجـاهم بـإعـادة العـزبتين المتقدم ذكـرهما، اللتـان انتزعتـا منه بشكل غير عـادل، وذلك في سبيل تحرير روح والدهم، وعلى هذا رد وليم قائلاً:

«إنني غير مصـدق، كما ينبغي عليّ أن لاأصدق، بـأن والدي قد استـولى عليهن خطأً، لأن الذي أخــذ في وقت الحرب، أصبح ملكاً شرعيــاً، وإذا كان ذلك الأسقف العجوز والأحمق قد تفوه بالحكم بشكل غير عادل، من الممكن أن يقـذف عائـداً على رأسـه، وإنني لاأختار انقـاص الميراث الذي

عهد به إلي وتوليته، وقد مات والدي، وهو متملك لهاتين العزبتين، وقمت أنا، بموجب حق صحيح، بتملك الذي وجدته»، وعلى هذا القرار وافق جميع الإخوة، ولأن الملك كان في ذلك الوقت رجلاً صغير السن، ولأنه كان تحت الوصاية، ما كان له بأي حال من الأحوال أن يغضب مثل ذلك النبيل القوي، وعندما أصبح هذا معروفاً فيما بعد لدى الأسقف، ازداد حزنه بسبب تمرد الأولاد، وكان ذلك أكثر من الأذى الذي لحقه في المقام الأول من قبل الأب، ثم إنه ذهب إلى أمام الملك وقال له:

«إن الذي قد قلته، قد قلته، والذي قد كتبته كتبته بدون تراجع، وقرار العقوبة قد ثبت، والعقوبة نزلت من الرب على الفاعلين المجرمين، والجريمة التي جرى وصفها في المزمور قد فرضت بدرجة عالية على الايرل وليم الذي منه اشتكيت، ففي جيل واحد سوف يتم تدمير اسمه، وسوف يكون أولاده من دون نصيب في مباركة الرب، وسوف ذلك يزداد ويتضاعف، وسيموت بعضهم بوساطة ميتة محزنة، وسيجري توزيع ميراثهم، وكل هذا يامولاي الملك سوف تراه أثناء حياتك، لابل في مطلع حياتك»، وبعد فراغه من هذا الخطاب بشكل مؤلم صادر عن القلب، وكأنه ألهم بروح نبوءة، غادر الأسقف وانصرف في اليوم التالي، وهكذا كان ذلك النبيل وليم مارشال الذي وضع ثقته واعتمد على الذراع الجسدي، قد ترك مغلولاً بأغلال التكفير، وكبرهان شاهد على هذه الواقعة، حدث فيما بعد، بعد وفاة أولاده، عندما جرى تكريس كنيسة المعبد الجديد، في سنة ١٢٠٠، تمّ العثور على جسد الايرل المذكور على حاله، مخاط عليه بجلد ثور، وكان مهترئاً بشكل بشع أن تراه، ومقززاً للنفس، وتبع آخر الإخوة خطاه، وهو وولتر مارشال الذي بقي وحيداً، لأنه مع أنه كـ ـ قد وعد بشكل مؤكـ بقوة، بتقديم مورد مقداره ستة شلنات إلى دير القديسة مريم العائـ إلى رهبان هارتفورد Hertford, وأعطى وعداً مكتوباً حول الموضوع نفسه، بسبب أن أخاه الايرل غيلبرت

قد توفي هناك، وماتزال أمعاؤه مدفونة هناك، قد نسي عهده ووعده، الذي عمله من أجل انقاذ أخيه، وبعدما تسبب بكثير من الازعاجات لرئيس رهبان الدير المذكور، برهن على نفسه بأنه مخادع ظاهر ومكشوف وعدواني.

كيف زحف الإمبراطور فردريك ضد الميلانيين

وكان البابا في هذه الآونة قد أقنع نبلاء ألمانيا، الذين إليهم يعود حق الانتخاب، ليقوموا بانتخاب امبراطور جديد عليهم، ووافق المقدم بينهم، وهو كونراد، رئيس أساقفة ثورنجيا، في التركيز على اللاندغريف أوف ثورنجيا، الذي رفض على كل حال، الاستجابة، أو القبول بمثل هذا العمل من التهور، حيث أنه كان راضياً بدوقيته، وفضّل أن يتمتع بالسلام والأمان، على أن يثق بالمخاطرات والمغامرات، واحتمالات الحرب، خاصة ضد الامبراطور فردريك، الذي غالباً ماجرب قدراته، والذي وجده مثل ثعلب مليئاً بالمكر، وقام البابا، على كل حال بتشجيعه، وحثه، ووعده بالحماية، وبحماية الكنيسة العالمية، وأرسل الميلانيون أيضاً، والايطاليون المتحالفون معهم، رسلهم الخاصين، وتوجهوا بالدعاء إلى حكمته الرزينة، ووعدوه بمساعدتهم الفعالة والمشورة في كل شيء، إذا ما وافق على هذا الانتخاب ليكون في مكان فردريك المذكور، الذي هو رجل مرتد، ومحروم كنسياً، ومخلوع، وواحد ممقوت من الرب ومن الكنيسة.

وعندما سمع الامبراطور فردريك بهذه الاجراءات، صرّ بأسنانه غضباً، وحزن لأنه رأى أعداءه يرفعون رؤوسهم معاداة له، ويكدسون الإهانة فوق الإهانة، والتهديد فوق التهديد ضده، وأملاً منه بأن يقوم بالانتقام كلياً، قام بتعبئة قواته، ولأنه كان عارفاً بتحركات أعدائه من قبل، قام بمكر بوضع كمين خلف عدوه، تحت قيادة ابنه هنري، ملك سردينيا، واستدرج الميلانيين إلى القتال، عندما كانوا على شك الانقضاض بطريقتهم المعتادة، وحمل الميلانيون متقدمين على شكل حشود غير عارفين بوجود الكمين،

واندفعوا غير هيابين، وبجرأة نحو الامبراطور فردريك، وتمركز ملك سردينيا بين الميلانيين وبين مدينتهم، وقاتلهم بحد السيف، حيث اقترف بينهم مذبحة كبيرة ومؤلمة، وعندما نظر سكان ميلانو نحو الخلف، وشاهدوا طرق التراجع مقطوعة، والمنافذ إلى مدينتهم مغلقة، أصيبوا باليأس، وسقط عدد منهم قتلى، حيث أنهم تركوا —على كل حال— نصراً دموياً إلى الامبراطور، وسقط من على الطرفين عدد لايحصى، ولدى سماع الناس بما حدث، بكوا بحزن عميق مثل هذا العدد الكبير من المسيحيين.

مقتل رئيس شمامسة يورك في ردهة الكنيسة

وأثار في هذه الآونة واحد من كهنة يورك بالإهانة والملامة، غضب واحد من الفرسان فأقدم على قتله في ردهة الكنيسة، ولم يكن الفارس من أصل متواضع، وقد اعتقل وألقى به في السجن، حيث انتظر انزال العقوبة لجريمته.

سوء معاملة الفرنسيين للبواتيين

وأثناء هذا الوقت كله، أصبح البواتيون التعساء، الذي لايستحقون الرحمة، لأن الخيانة مغروسة فيهم، ممقوتين في أعين الفرنسيين، إلى حد أنهم لم يتجرأوا، لابل لم يسمح لهم بإعطاء بناتهم بالزواج من دون إذن الفرنسيين، وبما أن السيادة عليهم كانت الآن بأيدي قوم يكرهونهم، سقطوا في أدنى الأوضاع وأسوأها، وعن استحقاق قطفوا ثمار طرائقهم، تحت نير العبودية المضاعف للمصريين، وقد أسفوا الآن لتسلمهم خياناً تلك المبالغ الضخمة من الملكين، ولأنهم خدعوا وطردوا من أراضي سيدهم الطبيعي، الذي لأنه وجد اخلاصاً في أناس غير مخلصين، الذين في عطشهم للربح، سقطوا في المصيدة، أما قلاعهم التي كان من المفترض تدميرها بناء على إرادة أعدائهم، سمح لها مع صعوبات بالبقاء، بعد دفع مبلغ كبير، على شكل مال فدية، وجرى وضع حاميات فرنسية فيهن، لأنه:

سوف يبقى عبداً أبداً

الذي عقله للغنى يظل تواقاً

الإمتياز الذي حصل عليه أسقف لنكولن من البابا

وفي هذه الآونة، مع اقتراب الشتاء، كان روبرت أسقف لنكولن، مثل اسماعيل لايعرف الراحة، معارضاً لكثيرين، وهو نفسه معارضاً من قبل كثيرين جداً، فبعد كثير من النفقات والاضطراب، حصل على طلبه ضد الكهنة، حسبما ورد ذكر ذلك، في الرسالة التالية من البابا، الذي كافأه ببعض الهدايا الثمينة:

«**من أنوسنت، إلخ، إلى أخيه المحترم أسقف لنكولن، صحة ومباركات رسولية:** بين أشياء كثيرة غالباً ما تهاجم عقلنا —الذي هو غير جدير كما نحن، الذين بقدر من الرب نرأس على إدارة وتدبير الكنيسة العالمية— هذه الظروف التي تضغط علينا أثناء تأملاتنا المتوالية، وهي أن الكنائس التي هي مضطربة بالخلافات، ينبغي أن لاتنهار تحت النفقات التي جنتها منهن، وأن نهاية موائمة ينبغي أن توضع لذلك، وذلك وفقاً لجهود الفرقاء، تكون دائمة، ومن ذلك مسألة الخلاف الذي نشب بينك أنت شخصياً من جانب وبين عميد وهيئة الكهنوت في لنكولن من الجانب الآخر، وذلك فيما يتعلق بمراتبهم والامتياز العام العائد لهم ولأتباعهم ولبقية الكنائس، وكذلك فيما يتعلق بالزيارات التفتيشية، وتقويم واصلاح الأخلاق، وكذلك بالنسبة للعمداء، والكهنة ورجال الدين في جوقة المنشدين، وكذلك بالنسبة للقساوسة، والوكلاء والخوارنة وكهنوت الكنائس المذكورة، وأيضاً مايتعلق بالاحترام، والطاعة القانونية، التي ينبغي أن تقدم إليك من قبلهم، وأيضاً مايتعلق ببعض المراتب الأخرى، وقضايا عائدة إلى المكتب الأسقفي، وقمنا نحن بعد إرسال بعثات مختلفة إلى الجانب الأول ثم إلى الجانب الآخر، فحصلنا من الكرسي الرسولي أمام القضاة، ونتيجة لإجراءات تمت من قبلهم، على الرغبة بوضع نهاية لتلك القضية، ولقد

إرتأينا أن من المناسب وضعها تحت إشرافنا، وبما أنك قد ظهرت أمامنا مع قسيس الفئة الأخرى، وجرى العرض من قبلك، أنه بموجب منقبة منصبك الأسقفي، متوجب عليك القيام —بحكم الامتياز العام— بزيارات تفتيشية للهيئة الكهنوتية لكنيسة لنكولن، مع جميع الكنائس المرتبطة بها، مع التقدير لمراتبهم ولامتيازاتهم العامة، وعليك تأدية هذه الواجبات العائدة إلى مكتب الزيارات التفتيشية، وفقاً لصيغة القانون، وبما أن الهيئة الكهنوتية وكذلك الكنائس هم بموجب الامتياز العام خاضعين لك، فأنت ملزم بتقويم أخطاء العميد، وكذلك الكهنة جميعاً، ورجال الدين في جوقة المنشدين، وأيضاً القساوسة، والنواب والحجاب، وكهنة الكنائس المتقدمة الذكر، وأن تقوّم أخلاقهم، حتى لايجري طلب دمهم على يديك، وأن تقوم أيضاً بفحص جميع قضايا الأشخاص المتقدم ذكرهم وتقريرها، وذلك عندما ينشب خلاف فيما بينهم أنفسهم، أو ضد أي واحد يتولى معارضة عملك الأسقفي، أو آخرين ضدهم، سواء أكانت القضايا مدنية أو جرمية، عائدة إليك بشكل صحيح وعادي، وعائدة بالوقت نفسه إلى القضاء اللاهوتي، ولقد قام العميد والهيئة الكهنوتية —على عكس ماتقتضيه العدالة— بمعارضتك في هذه القضايا، وهكذا لم يعد بامكانك القيام بحرية، بتنفيذ الواجبات التي يتطلبها منصبك.

وعلاوة على ذلك، قد أضفت، أنه بحكم كونك رئيس كنيسة لنكولن، من المتوجب طلب موافقتك، قبل القيام بانتخاب العميد لكنيسة لنكولن، ومع ذلك فقد أكدوا من جانبهم أنهم يمتلكون الحرية، للقيام بإجراءات انتخاب العميد من دون طلب إذنك، وأنت طلبت اظهار العدالة بالنسبة لك حول هذه المسألة، ولقد قلت أيضاً أنه مع أن العميد لدى تثبيته، وكذلك الكهنة عندما تضفى الكهنوتية عليهم، عليهم بموجب الحق، تأدية قسم قانوني بالطاعة إليك، هم لم يقوموا بهذا الاحترام المتوجب، ولم يزعجوا أنفسهم حتى الآن للقيام بذلك، وعلاوة على ذلك لقد ادعيت، أنه

بموجب قانون الأسقفية، فإن عائـدية العمادة، ومراتب الأوقاف الشاغرة، راجعـة إليك بموجـب الحق، ومع ذلك فإن العميد المتقـدم ذكـره، والهيئة الكهنوتيـة، قامـوا معارضـة منهم للعـدالة، بمعارضتك في هذه القضـايا، وبناء عليه طـالبت بايضاح حقـوقك في المسائل المتقـدم ذكرها، وأن يجري تقـويـم ذلك بمـوجب قـرار محدد، وأن يجري قبـولـك لمنصب الزيارات التفتيشية في الهيئة الكهنوتية في لنكولن، وفي الكنائس المرتبطة بها، مع تقدير للمـراتب وللحقوق العـامة، وأن يسمـح لك باصلاح الأخطاء، وتقـويم أخـلاق جميـع الفئات المتقـدم ذكـرها، دون الاهتمام بمعـارضــة العميـد والكهنة، وأن يجري التفوه بقـرار حول هذه القضـايا، وأن يفرض الصمت عليهم إلى الأبد، مالم يكـن بإمكانهم بموجب امتياز مـن الكرسي الرسولي، أو بموجب حق خاص الدفاع عن أنفسهم ضد الاعتراض المتقدم ذكره.

وقـد سألت أيضـاً بأن يدفع لك قـدر كـاف من المال، يجري منحـه لك بموجب الزيارة التفتيشية للهيئة الكهنوتية، وكذلك النفقات التي تتحملها في هذه الزيارات ينبغي أن تسدد إليك، وأنه كلما قدمت إلى كنيسة لنكولن، عليهم قرع أجراس الكنائس لك، وأن يظهروا الاحترام لك، بحكم كونك أبيهم، وكذلك لاينبغي من الآن فصاعداً للعميد أن يرغم أي كاهن على أن يقسم يمين الطاعــة الكهنوتيـة له، مــالم تكن المكانة الأسقفيــة وسلطاتها متوقعـة، وأن لايرغم أي كاهن أن يقسم على مراعـاة أي من العادات التي هي مناقضــة للمـراسيم الكهنوتيـة، وأن لايجوز له من الآن فصـاعـداً، أن يصدر في تلك الهيئة، أيـة مراسيم يمكن أن تكون متعارضـة مع الأحكام، وضد السلطات الأسقفية ومرتبتها.

ولقد طالبت أيضـاً أنه بالنسبة للزيارات التفتيشيـة للأوقاف وللكنائس —مع التقدير لمراتبهم ولحقوقهم العامة— هي عائدة بموجب الحق إليك، وينبغي إرغـام العميـد بمـوجب قـرار، على الاقـلاع عن القيـام بزيارات تفتيشية لهم، ولقـد فند القسيس مع الآخرين من الفئـة —على كل حال—

المسألة، وأجابوا بأن الافادة التي عملت لم تكن صحيحة، حسبما جرى عرضها، وأن هذه المطالب لاينبغي الاستجابة لها، وبناء عليه جرت مناقشة القضية قانونياً، وبعد الإصغاء بعناية إلى مرافعات كل من الطرفين، وبعد مداولات، وبناء على نصيحة إخواننا، إننا في نهايتها نصدر مرسوماً، بأنك مقبول بكل حرية للقيام بالزيارات التفتيشية للعميد، وللهيئة الكهنوتية، وكذلك إلى الكهنة، وإلى رجال الدين في جوقة المنشدين، وإلى القساوسة، وحجاب الكنائس، والكهنة العائدين إلى الكنائس المتقدمة الذكر، وأن تقوّم أيضاً أغلاطهم، وأن تصلح عاداتهم، وعلى كل حال سوف لن تقدم نفقات مالية من قبل الهيئة الكهنوتية في الكنيسة الكاتدرائية، من أجل الزيارات التفتيشية، وأخطاء كهنة الكنيسة الكاتدرائية، التي جرت العادة بتقويمها من قبل الهيئة الكهنوتية، سوف يجري تقويمها من قبلها، وفقاً لعرف الكنيسة، الذي جرت مراعاته حتى الآن بسلام، وأن يجري تعيين ذلك لهم بناء على دعوتك وأوامرك، وأن يكون ذلك من قبلك ومن قبل خلفائك في مدد مناسبة، وإنه منذ ذلك الوقت سوف تقوم أنت أو خلفاؤك، وقد وضعتم الرب القدير أمام أعينكم، بتقويمهم بالروادع الكنسية، وذلك حسب ما تتطلبه معالجة النفوس.

ونحن نأمر أيضاً الكهنة المتقدم ذكرهم بمراعاة الطاعة الكهنوتية، وأن يقدموا الاحترام لك، وهم ليسوا على كل حال مرغمين على ربط أنفسهم لهذا بيمين، أو بإعطاء أيديهم، أو بالوعد، حيث لست مخولاً بهذا العرف، وبالنسبة لقضايا ما طلبته بإلتماسك، نحن نحلل العميد المتقدم الذكر والهيئة الكهنوتية، وبناء عليه، ما من أحد سوف يسمح له بالاعتداء على هذا،أو أن يقاومه بطيش، أي ما جاء في كتابتنا المحددة، وإذا ما حاول أي واحد الاقدام على فعل من هذا القبيل، هو سوف يجني غضب الرب القدير، والرسولين المباركين: بطرس، وبولص. صدر في ليون، في هذا اليوم الخامس والعشرين من آب، في السنة الثالثة من بابويتنا».

موت جون أسقف هارتفورد

في الرابع عشر من تشرين الأول من هذا العام، دفع جون أسقف هارتفورد دين الطبيعة ذلك أنه عاش ثلاثين سنة، منذ أن حرم من أسقفيته بناء على أمر من البابا، إنما احتفظ —على كل حال— بمرتبته الأسقفية، ولدى اغلاقه لحياته السعيدة الفانية، لم ينس إضفاء بعض المنافع على كنيسة القديس ألبان، فترك في وصيته إلى تلك الكنيسة كتبه، وبعض الزينة الكنسية، ولذلك كوفىء بنيل حصة في جميع الأعمال الجيدة التي عملت فيها، وكأنه كان راعي دير آخر، وقد دفن هناك فيها، أمام مذبح القديس أمفيبالوس Amphibalus مع كل المهابة المستحقة.

موت وولتر راعي دير بورغ

في الثاني والعشرين من كانون الأول من هذا العام، وبعد كثير من الارهاق غير المستحق والاضطراب ومرض ثقيل، حصل في بلاط روما بسبب تلك القضية، غادر وولتر، راعي دير بورغ Bourg طريق الجسد ، مما سبب خسارة كبيرة واضطراباً لكنيسته.

الخديعة اللطيفة والتقوية للملك الفرنسي

مع اقتراب حلول عيد ميلاد مولانا، وهو الوقت الذي اعتاد فيه النبلاء على توزيع ألبسة وغيارات جديدة من البقايا —وهو ما ندعوه بالعادة بشكل عام، الثياب الجديدة— على آل بيوتهم، كان الملك الفرنسي، هو الذي تولى حمل عمل الصليب، وجعل من نفسه المسؤول عن التبشير، والوكيل المسؤول عن قضية الصليبية في شكل جديد، لأنه أمر بصنع أردية مع ملحقاتها، بأعداد كبيرة، أكثر مما هو معتاد، بأن تصنع من أغلى الأقمشة، مع جلود مختلفة فيهم، وصلبان تعمل من أفضل أعمال الذهب، حتى تخاط على جزء الكتف من الأردية، وأمر بصنع هذا كله بسرية فاعلة، وفي الليل، والصباح الباكر، أمر الفرسان بارتداء أرديتهم الملكية، ليظهروا معه في الكنيسة لسماع القداس،

الأمـر الذي فعلوه في الصبـاح البـاكـر، حتى لايتعـرضـوا للنقـد بالكسل أو التراخي، وفيما هم على نية القداس:

وعبر العالم الشمس المرحة

بدأت ثانية تسير في مسارها

ووفقاً لمثل بيرسيوس Persius:

كل واحد يرى المخلاة على ظهر جاره.

فقد حمل كل فـارس شارة الصليب، وهي معمولة على كتفي جـاره، وبعـد لأي اكتشفوا بأن الملك مارس هذه الخديعـة التقوية عليهم، وقد دخلـوا الآن على طريقة جـديدة، لم يسمع بها من قبل حول التبشير بالصليبيـة، وأصبحوا مبشرين بالأفعـال أكثـر منهم بالأقـوال، وبما أنه بدا أنـه غير لائـق ومهين، وكذلك غير جـدير بهم، أن يضعوا جانباً هـذه الصلبان، قاموا مع ابتسـامة، لم تكن —على كل حـال— مـن دون رغبـة، ومع فيـض من دمـوع الفـرح، فأطلقـوا على الملك الفرنسي —بسبب هذه الواقعـة— اسم «صياد الحجـاج» و«صياد سمك جديد».

مختصر أخبار السنة كلها

كانت هذه السنة مـدهشـة ووافرة بالقمـح، وزادت بخصبهـا العـظيم عن السنة المتقدمة كثيراً حتى أن مقياس القمح هبط سعره إلى شلنين فقـط، ولكن بسبب اضطراب الفصـول وسـوء أحـوال المناخ في الصيف لم تنتـج أشجـار الفواكـه أية ثمار، وكانت أحـداث السنة منتجة للازدهار وللزيـادة خـاصة في فرنسـا، وكان هناك اضطراب وخسارة بالنسبة لانكلترا، وللأرض المقـدسة، عدوانية وخطر، وبالنسبة للايرلنديين متاعب وإنهـاك، وبالنسبة للويلزيين دم وسوء حظ، وللبواتيين سـوء معامـلة، وكأنهـم أولاد جاءوا من زوجة الأب، وجعلت هذه السنـة الامبراطوريـة كلها وبلاط روما يرتجفان.

عام ألف ومائتين وستة وأربعين
غضب البابا ضدّ الإنكليز بسبب أنهم تجرأوا على الشكوى في المجمع

عام١٢٤٦، الذي هو العام الثلاثين من حكم الملك هنري الثالث، وفي عيد الميلاد لهذا العام كان الملك المذكور في لندن، بصحبة عدد كبير من نبلاء المملكة، ومع أخيه الايرل رتشارد، والملكة، وأختها كونتسة كورنوول، الذين جميعاً، بعدما عانوا من إرهاق اليوم وحرارته مع الملك، في ويلز، احتفلوا بعيد الميلاد مع كثير من البهجة، وهكذا فإن هؤلاء الذين كانوا رفقاء في الاضطراب، كانوا الآن شركاء في السرور والبهجة، لكن حدث في هذه الآونة، في سبيل أن لايبتسم السرور على الفانين من دون أن يمتزج بالحزن، أن راجت شائعة مريبة، وصدر عن هذه كثيراً من الشكوك، حيث تحدثت عن أن البابا مايزال يحتفظ بمشاعر الحقد في قلبه، مع أنه لم يبق هناك سبب منطقي لفعله ذلك، وفي الحقيقة كان هو غاضباً كثيراً، وشرع بتهديد الملك والمملكة الانكليزية بكثير من الطرق المتنوعة، وأعلن أنه إذا استطاع اخضاع الامبراطور فردريك، فلسوف يطأ بعد ذلك الشموخ المتمرد للانكليز، الذين كانوا يتحركون ضده، لأنهم قاموا بالشكاية في المجمع ضد مظالم البلاط الروماني، وبشكل خاص حول الجزية، لأنه بدا بالنسبة له أن الانكليز التعساء، ينبغي عدم السماح لهم بالبكاء أو التنهد تحت تأثير المضار المضاعفة التي أنزلت بهم، فخلال المؤتمر السري والطويل، الذي عقده مع الملك الفرنسي في كلوني، سعى لاقناع ذلك الملك، ولتحريضه للقيام بانتقام كاف بسبب هذا الأذى، ويكون بالهجوم على الملك الانكليزي الضعيف، وبتجريده من ميراثه، أو على الأقل معاقبته بطريقة تجعله ينحني، شاء أم يشأ، أمام إرادة البلاط الروماني، وفي هذا المؤتمر قال قداسته بأن السلطات البابوية سوف تساعده بأقصى جهودها،

وهذا كما يقـال بأن الملك الفـرنسي قـد رفـض بكل إصرار فعله، لأن الملكين كـانا أقرباء، وملكاتهما أختين، ولأن الملك الفـرنسي لم يكن لديه إدعاء واضح في مملكة انكلترا، ومجدداً لأنه كانت هناك هدنة بينهما، وأن هذه الهدنة كـان المطلوب إطالتها بسبـب حجه، بدلاً من نقضهـا بشكل خياني، وبسبب أنه كـان هناك عدو أكثر قـوة، ينبغي تدجينه، وهو عدو أكثر إيذاء للكنيسة الرومانية، وكان ذلك العدو هو فردريك، كما أنه لن تكون الدمـاء المسيحيـة قليلـة هي التي سـوف تسفـك، قبل أن تذعن المملكة الانكليزية للفرنسيين، ولأن الصليبيين في الأرض المقـدسة كانوا عـرضـة للعسف وللتنكيل من قبل المسلمين، ويتـوقعون قـدومـه، مثل أناس سفينتهم عرضة للغرق، وينتظرون ريحاً أكثر لطفاً ومواءمة.

غضب ملك إنكلترا من الأذى الذي لحق به من كونتسه بروفانس

قبل عيـد الغطاس ومع الفـراغ من الاحتفـالات المهيبة لعيـد ميـلاد الرب، وصلت تقـارير من بروفـانس أزعجت الملك وأقلقتـه إلى درجـة عالية، ذلك أن بيترايس كونتسه بروفانس، وأم الملكة، التي كانت تتسلم منذ خمس سنوات مبلغـاً سنوياً مقـداره أربعـة آلاف مـارك، من أجل تحصين ست عشرة قلعـة في بروفـانس، كـانت عـائـدة إلى الملك بحكم زواجه، قـد قامت دون تذكر للعـدل، ولاخلاصها ولاتفاقيتهـا، وناسية للتشريفـات، وللكرم الذي أضفـي عليهـا عندمـا ذهبت إلى انكلترا، فتخلت عن بروفـانس وتنازلت عن قلاعهـا إلى الملك الفرنسي، دون أن تذكر حقـوق ملك انكلترا، أو اتفاقيـاتها معه، وأعطت ابنتهـا الصغرى، التي هي الآن حـرة وآمنة من المؤامـرات ضـدها، إلى الملك الفـرنسي لتتزوج من ابنه شـارل، وبهذا خرقت الكونتسه المذكورة عهـدها بدرجة سيئة، وذلك بقـدر ما كانت قـد وعدت الملك الانكليـزي بشكل ثابت ومخلص، بأنها سـوف لن تسلم القلاع المذكـورة إلى أي كان، ولا بشكل

من الأشكال، إلاّ له، ولم يقابل الملك —على كل حال— بالتعاطف أو بالمواساة من قبل أي واحد من أجل خسارته واهانته، لأن الكونتسه بيترايس عندما قدمت منذ بعض الوقت إلى انكلترا في أبهة عظيمة، قام الملك من دون تقدير لما ينبغي ولما هو موائم، وبطريقة غير اعتيادية وغير مستقيمة، باخضاع نفسه وأتباعه وممتلكاتهم إلى انفاق كبير جداً، حسبما ذكرنا من قبل في المكان المناسب، وبناء عليه، يقال أن الكونتسه المذكورة، بعدما وزنت بمكر أعمال الملك وكلامه، قالت: «أنا آسفة لأنني أعطيت ابنتي (اللتين دعتهما حسب التعابير العامية في بروفانس: ولديها) بالزواج لهذا الملك ولأخيه».

الملك الفرنسي يطلب تمديد الهدنة

ومع اقتراب حلول عيد القديسة هيلاري، كان الملك الفرنسي مشغولاً في التحضير لحجه، ولذلك كان قلقاً بأن جميع القضايا ينبغي تمتينها، وترتيبها سلمياً في مملكته، حتى أنه عندما سينطلق في حملته لن يترك أي مشكلة معلقة خلف ظهره، ولذلك سأل من أجل تمديد الهدنة التي كان قد عملها في بواتو بينه وبين ملك انكلترا، كما قيل بأنه عرض أيضاً بشكل سري، بعض العروض للسلام، وهي عروض، تردد ملك انكلترا، على كل حال، في قبولها، وكانت هذه العروض، تتضمن إعادة جميع الأراضي الموجودة في القارة، والتي كانت من قبل ملكاً للملك الانكليزي، وذلك باستثناء نورماندي، تعاد بشكل حر إلى ملك انكلترا المذكور، على أساس أن يتخلى عن نورماندي، التي اعتقد أن للمملكة الفرنسية حق كامل بتملكها بشكل أبدي، وردّ الملك الانكليزي على الجزء الأول من هذه الرسالة، لكنه ترك الجزء الآخر من أجل مداولات أكثر نضوجاً، فعلى الجزء الأول أعلن بأنه سوف يكون راغباً وعلى استعداد لمنح هدنة أطول إلى الملك الفرنسي، وذلك حسب رغبة هذا الملك، وذلك حتى لايظهر هو، أي الملك الانكليزي، معيقاً لمسألة

الحملة الصليبية، إنما على شرط أن لايقوم الملك الفرنسي بإيذائه، بل عليه أن يتخلى له بسلام عن ذلك الجزء من بروفانس، مع القلاع الست عشرة، التي تقدم ذكرها، والتي هي عائدة له بسبب الزواج المعقود بينه وبين إليانور ابنة ريموند، كونت بروفانس، المتوفى أخيراً.

إعفاء تمّ الحصول عليه من قبل رئيس أساقفة كانتربري

وفي حوالي الوقت نفسه، صدرت الرسالة التالية عن أسقف لنكولن، من أجل إخبار أفضل إلى الناس حول المسائل المتقدمة: «**إلى جميع أبناء الكنيسة الأم، الذين إليهم سوف تصل هذه العروض، من روبرت، الذي هو بفضل الرحمة الربانية، أسقف لنكولن، صحة دائمة بالرب:** ليكن معلوماً إليكم بشكل عام، أننا قمنا بفحص أمر وصاية من البابا، ليست عرضة للإزالة أو للإلغاء أو إبطال بأي حال من الأحوال، وصيغتها هي كما يلي»: «**من أنوسنت الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى إخوانه المبجلين: الأساقفة، وإلى أبنائه المحبوبين كثيراً، رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والشمامسة، والعمداء، والحجاب، والقساوسة الآخرين، ورجال دين الكنائس في جميع أرجاء المدينة، والأسقفية، ومنطقة كانتربري، صحة ومباركات:** إن عمق الخطط اللاهوتية، هي التي رتبت كل شيء بشكل دقيق ومحكم وحكيم، وهي ليست من دون أساسات مؤكدة وربانية، حيث تتولى تغيير مظاهر الأعمال، مثل أنها قد تقدم في وقت من الأوقات العون الضروري من الأدنى مرتبة إلى الأعلى مرتبة، وتقدم في وقت آخر العون الضروري من الأعلى مرتبة إلى الأدنى مرتبة، في سبيل أنه بهذه التغييرات يمكن لبني البشر أن يروا عدم الاستقرار في أوضاعهم، وأنهم بتعاطفهم، وبمساعدة أحدهم الآخر، من الممكن تنفيذ قانون المسيح وتطبيقه، الذي به قد أمر كل واحد بمحبة جاره، وأن يحمل أثقال أتباعه، وبما أنه بناء عليه، قد عرض علينا أخونا المحترم، رئيس أساقفة كانتربري بأن كنيسة كانتربري الآن،

وكذلك كانت فيما مضى في أيام أسلافه، الذين عانوا من اضطرابات لاتحصى، وأزعجوا بعدم تحسن عدد كبير من الضروريات، ومثل هذا أيضاً خلال الفراغ الطويل الذي عاشته تلك الكنيسة، والذي خلاله خرج كل من الأصدقاء والغرباء سواء عن طريقهم، لنهب ممتلكاتها وتجريدها منهم، ولذلك ضغط عليهاكثيراً بدين كبير وثقيل جداً لم تتمكن إلاّ بصعوبة بالغة من تحرير نفسها منه، وبعد الاستعانة بالحكمة المتوفرة في الكرسي الرسولي، و قد توجهت الآن بتواضع بالرجاء إلينا، بأن نتلطف بلطفنا المعتاد فنقدم المساعدة إلى الكنيسة المذكورة، خشية أنه من خلال تضاعف الفائدة، سوف تصبح خسائرها أكثر قسوة، وتصبح في وضع لايمكن انقاذها منه، هذا وإن كنيسة كانتربري المذكورة، هي فوق جميع الكنائس الأخرى في العالم، وهي بحكم احتلالها لمثل هذه المكانة، ينظر إليها بنظرة عاطفة مخلصة، بمشابة أنها الابنة المحبوبة والمتميزة بعلامات الحظوة المنفردة، من قبل الكنيسة الرومانية، برائحة طيبة منعشة، تعيدها إلى حالة الهدوء، والتقدم بازدهار، ودعونا أيضاً نعامل كنيسة كانتربري المذكورة، بذلك الامتياز الخاص من الحظوة والنعمة، وبناء عليه، إننا بتجاوب مع الطلب المستعجل للكنيسة المذكورة، وبشكل رئيسي بتقدير لرئيس الأساقفة المذكور، الذي هو ابن مخلص، وطرف نبيل للكنيسة متحمس في تقواه، وفي سلوكه بالحياة، ومتميز بنبالته، ويحتل لدينا التقدير الأعلى والتعاطف، وكذلك من قبل إخواننا، وإننا بناء على نصيحة إخواننا نعطي موافقة طيبة لالتماساته، ونعطي برسائلنا هذه، أوامر إلى أخينا المبجل، أسقف هيرفورد، بأن يقوم لمدةسبعة أعوام، وليس أكثر، فيجمع موارد السنة الأولى من جميع المنافع اللاهوتية، التي سوف تصبح من هذا الوقت شاغرة: في مدينة، وفي أسقفية، ومقاطعة كانتربري، إلى أن يصل المبلغ إلى عشرة آلاف مارك، لكن إذا جرى جمع المبلغ قبل انتهاء الأعوام السبعة، ما من شيء يجري طلبه بعد، وكذلك عليه أن يجمع ألفي مارك سنوياً من موارد

رئيس الأساقفة المذكور، وعليه أن يستخدم تلك المبالغ المتقدم ذكرها باخلاص، من أجل دفع ديون الكنيسة المذكورة، شريطة أن يخصص ذلك الأسقف المذكور حصة كافية من تلك الموارد، ليجري تعيينها إلى الأشخاص الذين يقومون بواجبات المنافع المذكورة، للانفاق عليهم، حتى لايجري حرمانهم من المنافع المستحقة لهم، إذا ما حدث وكانت موارد المنافع المذكورة للسنة الأولى عائدة —وفقاً لعادات البلاد— إلى أشخاص يموتون، سوف يقوم الأسقف المذكور بجمع محصلات هذه المنافع في السنة التالية، وأن يضبط جميع ألسنة السوء بسلطتنا، وبناء عليه، إننا نرجو، ونحذر، ونحث، وبهذه الرسائل الرسولية نأمر جماعتكم كلها، بإيلاء الانتباه إلى حقيقة أن من الموائم لحالة الضرورة للأم، أن تلقى التفريج بوساطة ثروات أولادها، حيث عليهم باخلاص، وبلطف دعمها في أعبائها، وأن يظهروا أنفسهم متحمسين وجاهزين بالكلمة وبالفعل لجمع الموارد المذكورة، ودفعها إلى الأسقف المذكور، حتى تتمكنوا هكذا في مستقبل الأيام، أن يكون لديكم ادعاء لنيل الحظوة والارادة الطيبة من رئيس الأساقفة المذكور، وأن تجدوه على أساس هذه المسألة أكثر استعداداً، لرفع شأن منافعكم، ومنافع كنائسكم. صدر في ليون، في اليوم السابع والعشرين من آب، في السنة الثالثة من حبريتنا، وكشاهد على هذا، جعلنا خاتمنا يجري وضعه وتثبيته على هذه العروض».

غضب الملك ثم هدوئه فوراً

عندماوصلت هذه الأشياء إلى علم الملك، أصيب بالدهشة أولاً، ولأنه أثير كثيراً وغضب، عبّر عن مشاعره بصوت مرتفع قائلاً: «أنا مستغرب أن بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، الذي أنا رقيته ورفعته إلى هذا المقام، قد تسبب بهذا القدر من النفقات إلى مملكتي، ولم يقنع بأنه قام بشكل وقح، فاقتلع من الأسقفية في شيكستر روبرت باسلو،

الذي أنا اخترته، والذي توليت تـرقيته، بل إنه منخـرط بالحرب يوميـاً، مثل قـاطع طريق، وهو يعمل الآن على ابداع خطط ضـدي، في سبيل إلحاق الخسارة بي، والحط من كرامتي في بـروفانس، وكذلك في انكلترا، فها هنا الآن استخراج للمال لم يسمع بمثله حتى الآن من قبل، ما أكثر المصـائد العـائدة للصيـادين، التي نصبت لخداع البسطاء من رعـاياهم، فبهذه الآلية، جرى خداع نبلائي الذين إلى رعايتهم تعود الكنائس، فقد جـردت الأرض مـن مـواردها، ويخشى من تكرار وقـوع مثل هذه الاستخـراجـات»، وعندمـا أخيراً، وبعـد لأي همس إلى الملك أن لديه سبب صغير للغضب من رئيس الأسـاقفة من أجل إلغـائـه انتخـاب روبرت المذكـور، بسبب حرمـانه الكنسي، حيث وجـد ضعيفاً، وأيضـاً بسبب أن إلغـاء انتخابه كان مفيـداً ومربحـاً له، أي الملك، لأن روبرت كان الآن مستخـدماً نفسـه بنشاط يومي من أجل تعـويض ملكي، مثل امـرأة، وأن قراره بمعـارضـة هذا الإجـراء قد دمـر، وكما قيل هو كـان ضعيفاً بكل مهانة بالاتصال الجنسي مع النساء، وهو لذلك يدعى امرأة، لأنه جلب الويل والضعف إلى الرجل.

كما أن الملك (وياللعـار أقول ذلك) لم يقف بشجاعـة، كما ينبغي من أجل حماية الكنيسـة لأنه كـان من الواضح أن كنيسـة كـانتربري كـانت مظلومة إلى درجة عـالية من قبل رئيس الأساقفة ادمـوند بشكل خاص فيما يتعلق بالفائدة، كما أنه لم يقف بشجاعة من أجل حماية مملكته، أو في سبيل صـون كرامـة الأحبـار المقـدسين لكانتربري، بل إنه أعطى الاذن لبونيفيس رئيس الأساقفة المذكـور لكي يتسلم الاسهام المذكور من قبل في جميع أرجاء انكلترا، وأصدر على كل حـال، في الوقت نفسه أمراً منع فيـه أي واحـد قـدم من البـلاط الرومـاني، بناء على أمر البـابا، ويحمل رسـائل عليهـا ختمـه، من اصدار مـراسيم بقصـد استخـراج مـال من الكنيسة الانكليـزية، ومن إفقـار مملكته، وبعدم السماح لهم بـالتجول في

البلاد على الأساقفة، وأن أي واحد سوف يمسك وهو يفعل ذلك، ينبغي أن يعتقل، ويحبس في سجنه الملكي، كما أنه أمر بحراسة الموانىء، وبفرض هذا الأمر على مدرائهم، وشجع هذا بعض الشيء قلوب الانكليز التعساء، الذين عرفوا عدم استقرار الملك، وعلموا بالتجارب المتوالية بأنه كان يقلع عن أي قرار، بالسهولة نفسها التي أقنع بها لعمل القرار.

كيف فرضت غرامة على اللندنيين

وحوالي هذا الوقت نفسه، مع أن المناخ الربيعي الهادىء قد ابتسم لبعض الناس، مع ذلك فإن العالم المعارض قد أزعج أوضاعهم، لأن سكان لندن، الذين كانت الرحمة الملكية ملزمة بحفظهم تحت جناحيها، في حمايتها السليمة، قد أرغموا، مع مرارة بالقلب، ومع تعرضهم لأذى كبيراً لأنفسهم ولانقاص لممتلكاتهم، أرغموا على انقاذ أنفسهم، بدفع ألف مارك، تحت عنوان «حساب»، ووافق كثير من الناس تماشياً مع نبوءة ميرلين Merlin, وكانوا شهوداً على صدقها، وأعلنوا بأن الملك هنري كان حقاً: «وشقا (حيوان) يخرق كل شيء بعينيه»، أي أن تقول يبصبص في حافظات نقود الجميع ويخرقها.

اجتماع جميع نبلاء إنكلترا

وفي الوقت الذي كان فيه نهر الزمان يقيس عمر الانسان، أصدر الملك رسائل، استدعى فيها جميع نبلاء المملكة إلى الاجتماع في لندن، في اليوم الذي يغنى به «لتبتهج القدس»، أي في منتصف الصوم الكبير، لترتيب شؤون المملكة بشكل عام.

طموح رهبان دومينيكان

وحوالي الوقت نفسه تجاوز الرهبان الدومينيكان حدود الفقر، الذي أقروه، وآمنوا به مؤخراً، وشرعوا بالصعود إلى مراتب أعلى، وشجعهم

على ذلك كونهم كانوا محترمين، ويخشى جانبهم من قبل القساوسة اللاهوتيين، وتطلعوا نحو أن لايكونوا واعظين فقط، بل معترفين كذلك، واغتصبوا لأنفسهم واجبات المعمدين، الذين جعلوهم ينظر إليهم نظرة ازدراء، وكأنهم كانوا ضعفاء وغير أكفاء بالعلم والقدرة على حكم شعب الرب، ومن ثم الامساك بأزمة الكنيسة، وبهذه الاجراءات، ظهروا لكثيرين على أنهم رجال مستقيمين، ليتولوا بشكل كبير احداث الاضطراب في ترتيبات الكنيسة العالمية، حسبما كانت قد تأسست من قبل القديسين الرسل والعلماء اللاهوتيين المقدسين، من أسلافنا، الذين كانت قداستهم ظاهرة إلى جميع العالم، ولقد وضح أنه لاطائفة القديس بندكت، ولا طائفة القديس أوغسطين قد تدمرتا بوساطة هذه التجاوزات خلال سياق سنوات كثيرة، لأن طائفة هؤلاء الدومينيكان، قد زرعت أغصانها في انكلترا خلال هذه السنوات الثلاثين، وبعد مضي سنوات قليلة، حصلوا على امتياز لم يسمع بمثله، من البابا غريغوري، الذي كان معتنياً بهم بشكل خاص، وحصلوا الآن، في الأيام الحاضرة على امتياز آخر من البابا، وجاء هذا الامتياز الجديد لتمتين الأول، مما ألحق خسارة كبيرة وأذى بالمعمدين.

إمتياز الدومينيكان الأول

«من غريغوري، الأسقف، وعبدعبيد الرب، إلى إخوانه المبجلين: **رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والأبناء الأحباء رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والقساوسة، والعمداء، ورؤساء الشمامسة، ورؤساء الكهنة، ورجال الدين الآخرين للكنيسة، الذين إليهم سوف تصل هذه الرسائل، صحة، ومباركات رسولية**: بما أن الظلم بات كثيراً، والاحسان الصادر عن كثير من الناس بات بارداً، إنظر إن الرب جلب إلى الحياة، طائفة رهبان الدومينيكان المحبوبين كثيراً من قبلنا، الذين لايطلبون ماليس لهم، بل الذي هو عائد إلى المسيح، في سبيل وضع نهاية للهرطقات،

ومحق الأوبئة الأخرى المميتة، وأن يكرسوا أنفسهم بالتبشير بكلمة الرب، في فقر تطوعي شديد، وإننا بناء عليه، في سبيل معاونة قصدهم المقدس، وإحاطة قداساتهم الضرورية برعايتنا، نعهد بهم باخلاص إلى جماعتكم، ونرجو ونصلي باسم الرب في سبيل احسانكم إليهم، وبموجب هذه الرسائل الرسولية نأمركم، بحكم تبجيلكم للرب، أن تقبلوا بلطف أولادنا المحبوبين، رهبان هذه الطائفة، لأداء واجبات الوعظ، التي من أجلها أنيبوا، وأن تسمحوا للناس المعهود بهم إلى تقواك، أن يتلقوا بذور كلمة الرب من أفواههم، وأن يعترفوا إليهم، بحكم أنه مسموح لهم بموجب سلطاتنا أن يسمعوا الاعترافات، وأن يفرضوا العقوبات، ونحن نحثكم أن تقوموا بشكل مواظب، بموجب احترامكم لنا، وللكرسي الرسولي، أن تساعدوهم بكرم في ضرورياتهم، وأن يكون الناس مستعدين، بموجب حثكم، على استقبال المتقدم ذكرهم، علهم يكونوا مثل أرض خصبة، بدأت لتقدم حصاد الفضائل عوضاً عن الأشواك وعليق الشرور، وأن يتمكن الرهبان المذكورين بالتعاون معكم من إكمال عمل الخدمات الدينية، الذي تعهدوا به، وأن يجنوا الثمار المرجوة والمنتظرة، لجهودهم، أي جهود انقاذ النفوس، هذا وبالنسبة للشرور التي غالباً ما تدخل بشكل سري تحت قناع يشبه الفضائل، فغالباً ما يبدل الملاك الشيطان شكله إلى شكل ملاك الضياء، ولذلك إننا بموجب سلطات هذه العروض نعطي أمراً، أي أن أي واحد يقول بأنه من طائفة المبشرين، سوف يتولى التبشير في مقاطعاتكم، مغيراً منهجهم إلى طلب الحصول على المال، الذي بموجبه سوف تتعرض عقيدة الذين آمنوا بالفقر إلى الإهانة، عليك على الفور إلقاء القبض على مثل هؤلاء، ومعاقبتهم بحكم كونهم مبشرين زائفين. صدر في أناني Anagni في الثامن والعشرين من أيلول، في العام الأول من حبريتنا.

الإمتياز الثاني تثبيتاً للأول

«من أنوسنت الرابع، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى الإخوة المبجلين أساقفة: وينكستر، وووركستر، ونورويك، صحة ومباركات رسولية: بما أن بعض الناس يتمتعـون بالشرور، أي بكسرهم لأغـلال التقشف، حيث أنهم يمنحون حـرية الحركة للأعمال اللاقـانونية، ويضعون جـانباً كل خـوف من الرب، ويقـدمـون على إهانة الرهبـان بطرق متنـوعـة ومضـاعفة، ولذلك عملـت الكنيسة الأم المتعـاطفـة ممارسة للاحسـان، لمسـاعـدة هؤلاء الأشخـاص ضـد مثـل هذه الشرور، بمنحهم وسـائل الدفـاع، بحيث يمكن بذلك ضبـط طيش هؤلاء المفسـدين، وينبغي أن يبقى هؤلاء الأشخاص بسـلام، كما ينبغي حرمان الآخـرين من وسائل اقتراف اعتداءات مماثلـة، وبناء عليه، بما أن رؤساء الـرهبان الاقليميين، ورهبان طائفـة الدومينيكان في انكلترا (حسبما ذكر لنا باسمهـم) يعانون من أضرار مضـاعفـة من بعض الذين لايخافـون مـن تناول اسم الرب عبثـاً، نحن نـرغب بحماية هؤلاء ضـد المحـاولات الوقحـة لهؤلاء الأشخـاص ذوي العقول الشريرة، فبـوساطة هذه الكتـابات الرسوليـة نأمـر إخـوتكم، بمـوجب حماية حظوظكم، أن تقـومـوا بشكـل فعـال بمساعـدة رئيس الرهبان المذكور والرهبان، ضـد جرأة الناس الأشرار، وبأن لاتسمحـوا لهم بتعذيبهم بشكل غير جـائز، بوسـاطة أية معارضـة للامتيـازات الممنوحة لهم من قبل الكـرسي الرسولي، وايقـاف جميع مثل هذه الاضطهـادات لهم، دون الاهتمام بمـرسـوم رحلة اليـومين، الذي صدر في المجمع العام، فهو لم يعد له فعالية بعد مدة عشرة أعـوام، وإذا لم تتمكنوا جميعـاً أن تكونوا حاضرين أثناء وضع هذه القضـايا موضـع التنفيـذ، يتـوجب على اثنين منكم مع هذا، أن يشرفـا على تنفيـذهم. صـدر في اللاتيران، في اليوم السـابع عشر من أيار، في السنة الأولى من حبريتنا».

جواب رئيس شمامسة كنيسة القديس ألبان

وفرح الدومينيكان وتشامخوا بوساطة هذا الامتياز، فقدموا بصلف أنفسهم إلى مختلف أساقفة الكنائس، ورؤساء الشمامسة، أثناء الترؤس لمؤتمراتهم، حيث توفر كثير من الرجال ذوي النفوذ، مثل العمداء، والكهنة، والنواب، وقساوسة الكنائس في الاجتماع، وأروهم بشكل معلن هذين الامتيازين اللذين منحا لهم، وطلبوا بوقاحة وعناد أنه تتوجب دعوتهم، وأن يستقبلوا باحترام، وأن يوصى بهم في كنائسهم، وأنه يتوجب قبول الرهبان الدومينيكان أنفسهم من دون أي اعتراض، ليقوموا بالوعظ بين الناس في المجامع المقدسة، وفي الكنائس الأسقفية، وكأنهم نواب بابويين، لابل كأنهم ملائكة للرب. وبتصرفات وقحة، كانوا يسألون باستمرار كل واحد، حتى شمل رجال الدين: «هل اعترفت؟»، وإذا جاء الجواب بالتأكيد، كان الدومينيكان يسألونهم: «من قبل من»؟ وإذا جاء الجواب: «من قبل كاهني»، كانوا يضيفون: «من هو ذلك الأحمق، هو لم يصغ قط إلى اللاهوت، وهو لم يدرس قط المراسيم، وهو لم يتعلم قط حل أي سؤال، إنه من قوم عميان، وقادة عميان، تعالوا إلينا، نحن الذين نستطيع أن نميز مجذوم عن آخر، والذين إلينا جرى منح التعب، والمصاعب وأبيحت الأسرار الخفية للرب، اعترفوا من دون خوف إلينا، نحن الذين كما سترى وتسمع، قد منحت إلينا سلطات كبيرة».

وبناء عليه، فإن كثيراً من الناس، ولاسيما النبلاء، وزوجاتهم، استخفوا بكهنتهم وقساوستهم وعملوا اعترافاتهم إلى الدومينيكان، وبذلك غدت مكانة وأحوال المعمدين، ذات تقدير صغير، وفي وضع سيء جداً ومضطرب، وقد انزعجوا كثيراً لأنهم باتوا في حالة الرفض هذه، ولم يكن ذلك من دون سبب واضح، لأنهم شاهدوا بأن التنظيم اللاهوتي قد اضطرب كثيراً، وهو النظام الذي كان يسير منذ زمن

طويل في الماضي، في طريق الرب ببساطة هادئة، قدمت كما هو واضح إلى الرب كثيراً من القديسين لدى مغادرتهم هذا العالم، والذين كما أعتقد، أنه من العيب الشك بقداستهم، ولقد نظروا أيضاً إلى ذنوبهم الكنسية بجرأة ووقاحة، لأنهم عرفوا أنهم سوف لن يتعرضوا للإهانة أمام كاهنهم، عندما يعترفون بذنوبهم، التي عدت ذات خطر كبير، ومهينة بالقدر نفسه، ومسببة قدراً من الاضطراب أثناء الاعتراف بشكل رئيسي، وفي الجزء الأكبر من التوبة، ولذلك عندما كانوا على وشك اقتراف أي ذنب، كان أحدهم يقول همساً إلى الآخر: «دعونا نفعل أي شيء يبدو إلينا ممتعاً وشهوانياً، وبعد فعلنا لما رغبنا به، سوف نعترف من دون أي ازعاج إلى بعض الدومينيكان أو الفرنسيسكان، عندما يعبرون من قربنا، وهم الذين لم نرهم قط بعد، وسوف لن نراهم ثانية»، وهكذا، بما أن المعمدين وتلاميذهم قد أهملوا، تراكمت الذنوب، وبينما كان العالم آنذاك، مثل البحر هائجاً ومضطرباً بمثل هذه الحركات، امتلك بعض الدومينيكان الجرأة، وهم مزودون بامتيازاتهم، فدخلوا إلى كنيسة القديس ألبان (حيث كان رئيس شمامسة تلك الكنيسة —كما كانت العادة— عاقداً اجتماعاً كما هو متوجب)، وعرضوا امتيازاتهم، التي زودوا بها بسلطات جديدة، لم يسمع بمثلها، وكذلك بمراتب، وطالب أحدهم، الذي بدا أنه صاحب سلطات أكبر من الآخرين، بالتزام الصمت، لأنه مقبل على الوعظ، وبناء عليه رد رئيس الشمامسة قائلاً: «تصرف بنفسك بلطف أيها الراهب، وانتظر قليلاً ريثما أشرح لك وجهة نظري: نحن أناس بسطاء، قد اعتدنا على العادات القديمة المصادق عليها، ونصاب بالدهشة أمام هذه البدع المفاجئة، وليس عجباً أن تنتج مثل هذه البدع الجديدة التي لم يسمع بها العجب والخوف، فلماذا أنت تعدّنا هكذا بعناد أننا غير جديرين، أو غير أكفاء للقيام بواجبات المنصب الذي جرى تعيينه لنا؟ وهل تعتقد أنك وحدك من بين هذه الأعداد، الذي سوف تنجو؟ لأن الرسول يقول: «ما من انسان

يعـــرف هل هو يستحق الكـراهيــة أم المحبــة»، وأنتم الآن مقحمين أنفسكم، ليس للتبشير فقط، وفقاً لاسمكم «المبشرين»، لكنكم تتلقـون الاعترافـات أيضاً، أو بالحري تستخـرجـونها، أي أنه بإمكانكم إضافـة لقب جديد لأنفسكم وهو «الرهبان المعترفين»، ياإخواني، أنا لاأعتقد أنه من الحكمة ترك مـاهو مؤكـد من أجل ماليس مـؤكداً، وأن تتراجع عما اعتدت أن تفعله، لتتبنى مالم تعتـد أن تفعله، من دون المزيد من التداول والمشاورات مع رئيسكم، وأنا سـوف لن أسمح لكم بالتبشير، أو بتلقي الاعترافات، من الذيـن أنا معين عليه بموجب أوامـر راعي الدير، لأنه واضح إلى جميع الكنيسة، بـأن المراسيم التالية، التي سـوف أريك إياها، وأريها إلى جميع الذين من حـولك، قد عملت وتأكـدت من قبل المجمع العام، الذي عقـد في أيام انوسنت الثالث، في سنة النعمـة ألف ومائتين وخمس عشرة، الذي كان حاضراً فيه أوائل الجماعة المسيحية كلها: واحد وستون رئيس أسـاقفة، وأربعمائة واثني عشر أسقفـاً، وثمانمائة راعي دير ورئيس رهبان، وكـانت هذه المراسيم أوامـر تتوجب مراعـاتها من دون تردد في جميع الأوقـات»، ثم إنه فتح الكتاب، وأشـار إلى مارسم حـول هذه القضية وقرأه.

المراسيم حول القضايا المتقدم ذكرها

«على جميع المسيحيين من الجنسين، عندما يصلون إلى سنوات الرشد، الاعتراف بشكل سري بذنوبهم، على الأقل مــرة و احـدة في السنة، إلى كـاهنهم الخاص، وعليهم، بقدر مـايمتلكون من قدرة السعي إلى تنفيـذ العقوبة التـي فرضت عليهم، ولسـوف يتلقون باحترام قداس القـربان، على الأقل في الفصح، مـالم —بناء على نصيحة كـاهنهم— ربما يرون أن من الموائم التمنع عن استلامه لبعض الوقت، لسبب ما معقول، وإذا ما رفضـوا فإنهم سـوف يمنعـون —طالما هم أحيـاء— مـن الدخـول إلى الكنيسة، وعندمـا يموتون لايسمح لهم بدفن مسيحي، ولقـد رسم هذا

بشكل صحيح، لذلك يتوجب نشره تكراراً في الكنائس، خشية أن يقوم أي واحد، صدوراً عن العمى، أو عن الجهل، فيتخذ لنفسه حجاباً بعض الأعذار، وإذا ما رغب أي واحد —لسبب ما صحيح— أن يعترف بذنوبه إلى كاهن غريب، لابد له من أن يسأل أولاً الحصول على إذن من كاهنه، لأنه إذا ما لم يفعل هذا، لايمكن للكاهن الغريب تحليل المغلول، ويتوجب أن يكون الكاهن مستقيماً وحذراً، أي أن يكون مثل طبيب بارع، يمكنه أن يصب الزيت والخمرة في جروح الرجل المصاب، ويبحث بعناية في ظروف المذنبين، والذنب، وبذلك يستطيع أن يفهم كيف يمكنه اعطاء الرأي المفيد إلى الشخص المعترف، وحسبما ينبغي أن يتسلم، وأن يستخدم نوعاً من العلاج، وأن يقوم بتجارب متنوعة لشفاء الرجل المريض، وعليه أن يتخذ كل الاحتياطات الممكنة والعناية الفائقة، بأن لايخون المذنب، لابالكلمة أو بالاشارة، أو بأي شكل من الأشكال مهما كان نوعها، وإذا ما احتاج الكاهن النصيحة من أي شخص أكثر حكمة، ليقم بالسؤال بحذر، من دون أن يذكر اسم الشخص، وكل شخص سوف يقدم على كشف أي ذنب أبيح إليه، عند منصة الاعتراف، هو لن يخلع فقط من وظيفته اللاهوتية، بل سوف يلقى به أيضاً في واحد من الديرة القاسية، ليعاني من عقوبة دائمة.

موت داود أمير شمالي ويلز

وفي حوالي بداية الربيع من هذا العام، عندما كان هؤلاء (الانكليز مع الويلزيين) على وشك الاشتباك بالحرب، التي كانت بالعادة أكثر عجلة، وفي أثناء العمل على صنع الترتيبات الضرورية، مات داود، أمير شمالي ويلز، وحفيد الملك، من جهة الأخت، وكان رجلاً حانثاً لليمين وقاتلاً لأخيه، وكان قد تلاشى تعباً بسبب مختلف الاضطرابات، فلقد غادر وادي الفانين إلى وادي الموت، بعد معاناة لما لايحصى من الأحزان بالعقل، وبعد رؤيته لدمار أراضيه، وشهوده لمختلف المذابح،

وآلام رعيته من الجوع، وهو الآن قد ترك ويلز في حالة اضطراب، وفي أوضاع مأساوية مزعجة، وفي محله انتخب الويلزيون ابن غريفين ليكون مقدماً لهم، الذي عندما سمع بهذا، ترك على الفور ملك انكلترا، وهرب بشكل مفاجىء مثل أرنب بري، إلى أوكار اختباء الويلزيين، مع أن الملك المذكور، كان قد تلقاه في صدر رحمته، ورباه بشكل مشرف لمدة طويلة من الوقت الذي مضى، وارتقى به إلى المراتب.

عقد بارلمان في لندن

في هذا العام، عملت بعض القوانين، مع زيادة بالقسوة ضد جميع الذين اقترفوا بشكل سري أعمالاً آذوا بها الحدائق أو المطارد التابعة للآخرين، وقد أعطي وصف كامل لهم في كتاب الرسائل، بعد عملية التفتيش المتعلقة بالتجاوزات المرتبطة بالغابات.

وفي حوالي منتصف الصوم الكبير، وفي التحديد في اليوم الذي يغنى به: «لتبتهج القدس»، اجتمع جميع النبلاء من كل أرجاء انكلترا، بما في ذلك الأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والقساوسة، وكذلك الايرلات، والبارونات، في بارلمان عام في لندن، بناء على دعوة ملكية، لعمل ترتيبات فعالة، حسبما تقتضي الحاجة، لشؤون المملكة، التي كانت الآن في أوضاع متأرجحة، لأن الشعب كان متأذياً من الظلم الذي لايحتمل، والذي مورس ضدهم بدون انقطاع من قبل البلاط الروماني، والذي لم يعد بإمكانه تحمله أية مدة أطول، من دون نيل تهمة الجبن، ومن دون جلب الدمار على أنفسهم، وقد أصيبوا بقسوة أكبر في نفوسهم، لأن البابا حنث بوعوده، وعسف بهم وظلمهم يومياً، بشدة أعظم مما كان من قبل عملهم شكواهم، وفيما يلي الوعود التي كان قطعها البابا في مجمع ليون:

إمتياز آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى جميع الأساقفة بشكل عام، وإلى كل من الكنائس الكاتدرائية والكنائس الأخرى، وإلى رعاة الكنائس من رجال الدين والعلمانيين في جميع أرجاء انكلترا، صحة ومباركات رسولية: إنه بالنسبة لبعض الأضرار التي لحقت بكم من قبلنا من دون إرادتنا، أي من قبلنا أنفسنا، أو من قبل الآخرين بموجب سلطاتنا، مع أن المتوجب علينا هو أن نسعى —حسبما هو واجبنا— لحمايتكم من ازعاجات بعض الناس، لذلك ليكن معلوماً لديكم بموجب فحوى هذه العروض، أنه إذا كان ولدنا المحبوب كثيراً، المعلم مارتن، كاهن حجرتنا، قد تولى بموجب أمرنا تعليق أي واحد منكم عن تناول المنافع أو امتلاكها، لقد قررنا سحب مثل هذه التعليقات، ما لم يكن قد جرى فرضها من أجل بعض الأشخاص، الذين قررنا —على كل حال— أن يقتصر عددهم على اثني عشر، شريطة أن لايعدّ بينهم أياً من المنافع المتقدمة الذكر التي منحت، أو الذين لديهم رسائل تتعلق باستحواذهم من أولياء نعمتهم، أو من الذين الممتلكات عائدة إليهم».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى الإخوة المبجلين، رؤساء الأساقفة، والأساقفة، في جميع مملكة انكلترا، صحة ومباركات رسولية: بما أن الكرسي الرسولي متأثر بعاطفة كبيرة نحو الانكليز، إلى حد أنه ينوي أن يرفعهم فوق إخوانهم بعطايا مضاعفة، وأن يشرفهم بعلامة خاصة ذات إرادة طيبة، وإن رغبتنا العظيمة والمخلصة، هي أن يستمر الانكليز المذكورين بشكل متواصل في الاستمرار بتقواهم، وأن يرفعوا عالياً ممارسة أعمال الرب الصالحة، حتى يحتلوا بذلك بين البقية الجدارة والقبول، وبناء عليه نحن نرجوكم، ونحثكم، وبهذه الكتابات الرسولية نأمر جماعتكم، بتحريض سريع ومستمر، بأن تقنعوا رجال الدين في

مدنكم، وأسقفيـاتكم، والذين يمكن أن يعدّوا بين الفـرسان الكهنوت، وبشكل خاص أبناء النبلاء، والرجـال ذوي المراتب، بأن يمارسوا بشكل ظاهر، الأمانة بالسلـوك، وأن يستثمروا معارف الكتـابة والفضائل، وأن يدرسوا بكل يقظة حتى يجعلوا من أنفسهم شاكرين، ومواثمين للمطالبة بنيل حظوة الكرسي المتقـدم ذكره، والرغبات الطيبـة للآخرين، وجـائزة لاستقـامتهم، لأننـا على استعـداد بكرم لفتح يد العناية الـلاهوتيـة، إلى رجـال الدين الانكليـز المستحقين لذلـك عن جـدارة، وأن نوزع منافع ذاتيـة، على الذين أكثـر نبـلاً وأفضل أخـلاقـاً، مـن الذين نعـرف أنهم يستحقون حصة أكبر من حظوتنا».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى جميع رؤسـاء الأسـاقفة، والأسـاقفـة في جميع أرجاء مملكة انكلترا، صحـة ومباركات رسـولية: إن اخلاصكم يستحق عن جدارة، أن يقوم الكرسي الرسـولي بتقويتكم بمعروف مناسب، وأن يرفع من شأنكم بامتيـاز نعمة خاصـة، ولذلك نحن نميل إلى تزويدكم، ونرغب بـالحفـاظ على حقـوقكم دون تعـرض للأذى، وننصحكم، ونحـذركم، ونحثكم، وبوسـاطة السلطـات الرسـوليـة نأمـر جماعتكم، وبوسـاطة السلطات نفسهـا، نمنحكـم الإذن —بقـدر مـا هو متعلق بكم— حـراً، ومن دون معـارضـة، بـأن تمنحـوا المنافع اللاهـوتيـة في عطاياكم، عندمـا يصبحـون شـاغـريـن، وأن تعطوهم إلى الأشخـاص المناسبين، الذين يمتلكون الرغبـة وكـذلك القـدرة على القيام بواجبـات تقدمهم. ولذلك لاتدعوا أحداً، إلخ».

آخر

«من أنوسنت، إلـخ، إلى أبنائـه رعـاة جميع الكنائـس في جميع أرجـاء مملكة انكلترا، صحة ومباركـات رسولية: إن الاخلاص الحار للانكليز،

يتوجب أن يقوم الكرسي الرسولي باحتضانهم بذراعي عاطفة الأمومة لديه على أنهم أولاده المحظيين، وأن يرفع من شأنهم بامتياز النعمة الخاصة، ولهذا نحن نميل نحو التماساتكم، ونرغب بالحفاظ على حقوقكم دونما خرق، وبناء عليه نمنحكم إذناً —بقدر ما هو متعلق بكم— حراً ومن دون اعتراض، بأن تقدموا إلى المنافع اللاهوتية التي لكم حق الرعاية عليها، أينما صارت شاغرة، الأشخاص المناسبين، الذين سوف يمتلكون الرغبة وكذلك الإرادة، والقدرة على أداء واجب ازدهارهم، ولاتدعوا أحداً، إلخ».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى ملك انكلترا اللامع، إلخ، إلخ، نحن نرجو أن نخبر معاليكم، بفحوى هذه العروض، وهي مع أن الذين تولوا حمل الصليب من أجل مساعدة الأرض المقدسة قد أعفيوا من أشياء كثيرة، نحن لانرغب في أن يكون الذين في مملكتكم، الذين حملوا شارة الصليب من أجل تلك الغاية، أن يكونوا معفيين من مراعاة العادات المرعية للمملكة المذكورة، بل أن يكونوا ملزمين مثل الآخرين بمراعاتها».

آخر

«من أنوسنت، إلخ، إلى الملك المشهور لانكلترا، إلخ، إلخ: نحن نرجو بفحوى هذه العروض أن نخبر معاليكم، بأننا رسمنا مؤخراً، تمايشاً مع المجمع المقدس، بوجوب تعيين الجزء العشرين من جميع الموارد اللاهوتية لمساعدة الأرض المقدسة، وأن شطراً مساوياً من وارد بعض الكنائس —حصة الثلث من بعض الأشخاص، وحصة العشر من بعضهم الآخر— ينبغي أن يعطى لانقاذ الامبراطورية الرومانية (حسبما جرى تبيان ذلك بشكل كامل في القرارات التي نشرت حول

هذه القضيـة)، ولقـد كـان رسلك، الذين بعثتهـم إلى المجمع المذكـور باسمك، وباسم المملكة كلها، قد عـارضوا بشدة جميع المراسيم من هذا النوع في ذلك المجمع».

وكان سبب هذه المعـارضة، هو أن البابـا قد رسم بأن يعطى منصب جبـاية هذه الضريبـة لأي واحـد سـوف يختـاره، وهذه حـالة أصبحت موضع شك.

آخر

وكتب مـرة أخرى إلى الملك، بادئـاً رسالته بقـوله: «بموجـب فحوى هذه العـروض نرغب بأن يكون معلـومـاً لديكم، بأنه مع أن الإذن قـد منح حتى الآن، من قبل الكرسي الرسـولي إلى بعض أسـاقفـة الكنائس، بحريـة الاحتفاظ لبعض الوقت بالمنافع اللاهوتيـة التي كانـت بحوزتهم قبل ترقيتهـم، إننا لاننوي من الآن فصـاعـداً القيـام بمنـح مثل هذه المنافع».

وإضـافـة إلى ذلك منح امتيـاز واحـد هـو: «ينبغي أن يخلف إيطاليـا ايطالي على الفـور»، وقـد جـرى منح هذا بسبب غش الذين قـامـوا إثر مـوت أشخـاص منتفعين، بشكل سري، بتعيين آخـرين مكانهم، لكن جميع هذه المراسيم ومـراسيم أخرى قد جـرى اضعافهـا بسبب العثرات المعيقـة، بعبـارة «دون الاهتمام»، إلخ. «فـأين هو الصـدق؟ وأين هي الحقوق التي جرت العادة بتأكيدها بالكتابات»؟ لقد نفيت.

كيف سعى الملك الفرنسي إلى مصالحة الإمبراطور مع البابا

في هذه الآونة عندمـا كان بحـر الدنيا هائجاً بهذه العواصف، أخـذ فـردريك، ربما بعـد قليل من ردات الفعل والتـأمل، وربما لشعـوره بالانذار، ولخوفـه من حملات من الألمان، وكـذلك من الايطاليين، ومن رعـاياه أيضـاً، ومن جيرانه، وربما لـرعـايتـه عقيـدة الخوف من غضب

الرب، تغيرت مشاعره نحو الأحسن، وقد منح روح التواضع من قبل الذي قال من خلال نبيه داود: «املأ وجوههم بالحياء، وهم سوف يطلبون اسمك، أيها المولى»، ولذلك عرض بعمل استغفار لذنوبه إلى البابا، وفي هذه المسألة عيّن الملك الفرنسي ليكون وكيله ووسيطاً، وقد بذل هذا الملك جهوده، وذهب إلى البابا الذي كان مقيماً في ليون، والذي قدم إلى كلوني لدى قدومه، للقائه، ولعمل ترتيبات في سبيل إقامة سلام، إذا ما جرى تقديم أية عروض له، وقد عرض الامبراطور فردريك بأن يغادر إلى الأرض المقدسة، وأن لا يعود أبداً، أي أنه سوف يمضي حياته هناك في سبيل القتال من أجل المسيح، و سوف يبذل جهوده كلها في سبيل إعادة المملكة كلها إلى العبادة المسيحية، على شرط أن يوضع ابنه مكانه في المنصب الامبراطوري، وأن يجري منحه غفراناً وتحليلاً، أي إلى فردريك المذكور، مع مسامحة كاملة عن ذنوبه التي اقترفها، وبذلك يتم استرداد اسمه للسمعة الطيبة تماماً، وبذلك أيضاً يمكنه التحول من كونه خائناً إلى ابن للمصالحة، وعلى هذا العرض ردّ البابا قائلاً: «كم من مرة عمل الشيء نفسه، لابل إنه تقدم بوعود أعظم، فكل ذلك عمل من قبله، وجرى تثبيته بالأيمان من قبله، وهي أيمان لم يكتف بخرقها فقط، ورفض أن ينفذها، لكنه أضاف إليها ذنوباً لاتعد ولاتحصى»، ثم إنه نظر بتواضع نحو الملك، وقال: «مولاي ملك الفرنسيين، والابن المحبوب كثيراً، إنها ليست قضيتي التي هي موضع البحث، بل إنها أيضاً قضية جميع المسيحيين أيضاً، وليقم جلالتك بتقدير كم من مرة جرت دعوته وكيف كان ذلك بتواضع، في سبيل تحقيق مقصد المصالحة، في حين كان المجمع كله منتظراً، لكنه لم يقدم، مع أنه دعي من أجل الالتزام بالقرار الصحيح للمجمع، وليس للمحاكمة من قبل حكام، وكيف أنه رفض الوفاء بما كان قد وعد به من قبل، وأقسم عليه بنفسه، مقابل المخاطرة بروحه، ومن خلال وسطائه، الذين أيضاً أقسموا بروحه، ولذلك تعرضوا جميعاً للعار، وهي وعود —علاوة على

ذلك— أودعها كتابة، وصدّق عليها بختمه الامبراطوري اللازوردي.

فكيف لي أن أتمكن من ربط بروتوس هذا المتقلب دوماً؟

لقد جعل نفسه غير جديرة بالثقة في كل شيء».

وعلى هذا رد الملك الفرنسي التقي قائلاً: «أوليس مكتوباً في الانجيل، ياصاحب القداسة: (سبعون مرة سبع مرات) ينبغي فتح صدر الرحمة إلى الذي يطلب المسامحة؟ قدّر كم هي هذه الأوقات شريرة، الأرض المقدسة في خطر، وليست هناك من سبل لتحريرها مفتوحة أمامنا، مالم يقم هو —بعد الرب— بمساعدتنا، فهو الذي يمتلك السلطات على الموانىء، والجزر، وعلى الأرض الواسعة قرب شواطىء البحر، وهو الذي يعرف جميع الأشياء، التي سوف تكون مفيدة لنا، نحن الذين على و شك الانطلاق في حجنا، وقد عمل وعوداً كبيرة، وإنني أطلب منك وأنصحك، باسمي، ونيابة عن الآلاف الكثيرة من الآخرين الذين على وشك القيام بالحج، والذين ينتظرون الفرصة المواتمة لعبور البحر، أو بالحري نيابة عن الكنيسة العالمية، وعن المسيحية كلها، في أن تقبل مثل هذا التواضع من جانب مثل هذا الأمير العظيم، متبعاً خطوات المسيح الذي أنت نائبه على الأرض، والذي —كما قيل— تواضع بنفسه حتى الخضوع للموت على الصليب»، لكن بما أن البابا كان عنيداً، فقد رفض، ولم يقبل الاستجابة لهذا الطلب، وغادر الملك الفرنسي غاضباً، ومنزعجاً، لأنه وجد فقط قليلاً من التواضع، عند الذي أمل بأن يكون «عبد عبيد الرب».

كيف سعى الداوية والاسبتارية لفداء إخوانهم الذين كانوا بالأسر

في الوقت الذي كان فيه دولاب الحظ يدور وسط مسيرة الشعب في هذا الجانب من الألب، وصل بدورانه أيضاً مسبباً تقلبات كثيرة إلى

الصليبيين في مقاطعات ماوراء البحر، وحيث أن الداوية والاسبتارية شعروا بتعاستهم، فتفكروا حول ذلك فيما بينهم، مع أن ذلك جاء متأخراً، فقرروا تنفيذ صلوات خاصة، والتزموا بصيام أكثر من المعتاد من أجل انقاذ الأرض المقدسة، مدركين —علاوة على ذلك— بأن مقدميهم مع بعض فرسان الداوية وآخرين كانوا محبوسين وهم أحياء بمثابة أسرى، في ظل سلطة سلطان مصر، ولهذا أرسلوا بعضاً من فرسانهم الرهبان الذين عرفوا أنهم أكثر حكمة من البقية إلى السلطان المذكور للتباحث معه بشكل فعال، من أجل اطلاق سراح الأسرى المذكورين مقابل فدية، مهما كان المبلغ المطلوب كبيراً، وأمروهم أن لايوفروا ذهباً أو فضة في الوصول إلى هدفهم، وكان هؤلاء الرهبان المبعوثين قد حصلوا على هدنة وأمان، وقد قدموا في المقام الأول هدايا ثمينة إلى أعيان رجال السلطان، ورجوهم بحرارة للتدخل بشكل فعال لصالحهم لدى السلطان، لإقناعه، لقبول مبلغ من المال، بقدر ما سيختار ويطلب، يكون بمثابة فدية مقابل اطلاق سراح مقدميهم مع بعض إخوانهم، وعندما سمع السلطان بهذا وجّه اللوم إلى هؤلاء المتوسطين، وانتقد الداوية والاسبتارية المذكورين قائلاً: «كم هم تعساء هؤلاء المسيحيين الذين ندعوهم داوية، واسبتارية، ذلك أنهم خارقين بالفعل لقانونهم ولنظامهم، ذلك أنهم رغبوا في المقام الأول، قبل عدة سنوات مضت، أن يقوموا بشكل خياني، بخيانة امبراطورهم فردريك، عندما كان في حجه في خدمة المسيح، لكن بفضل تقديرنا للعدل قمنا بحمايته، ولذلك لم ينجحوا في محاولاتهم، ومجدداً، إن هؤلاء الناس الملزمين بشكل متبادل بحب إخوانهم مثل حبهم لأنفسهم، وأن يساعدونهم في وقت الحاجة، قاموا الآن، ولمدة خمس سنوات، بشن الحرب فيما بينهم، ورعوا مشاعر للبغضاء الشديدة، أحدهم ضد الآخر، كما أن الايرل رتشارد أخو ملك انكلترا، الذي عدّ الأكثر تميزاً بين جميع المسيحيين، لم يستطع تهدئتهم، ولقد قام هؤلاء الداوية بشكل وقح

بخــرق الهدنة التي أبـرمت بحكمــة من قبله، نظراً لكـراهيتهم له، أي للايرل رتشـارد المذكور، الذين سمـوه صبياً، وجاء ذلك بمثـابة ازدراء لإخـوانهم الاسبتـارية، وكــذلك في الآونة الأخيرة، في المعـركـة التي حـوربت بيننـا وبينهم، كـان مقـدمهـم وحـامل الراية (الذي يـدعـونه Balcanifer) قـد تصرفا بشكل معـاكس لنظام طائفتهم، فقد كـانا أول من انسحبـا هاربين من المعـركـة، وأضـافـوا الآن شراً إلى شرور، وكـدســوا خـرقـاً على خـرق لأنظمـة طـائفتهم، بسعيهم لشراء تحرير مقدميهما، واخـوانهما الذين هـم أسرى، بدفع مبلغ كبير من المال، وذلك في الوقت الذي نعلـم فيـه، أنه وفقـاً لأنظمـة طـائفتهم، يمكنهم فقط اطلاق سراحهم بوساطة حزام محدد أو غطاء رأس، وبالنظر لانتهاكاتهم المضـاعفـة، هكذا ألقى الله بهم أسرى بين أيدي الـذين يكرهونهم»، ثم إنه مع نظرة حادة عابسة أمـر أولئك الوسطاء بالمغادرة معلناً أن أوضاع الأسرى سوف تكون أسوأ بالنسبة للمستقبل، وعندما أبلغت نتيجة هذا الطلب إلى الرسل، قالوا بأسف إلى الـذين توسطوا من أجلهم: «ماالذي علينا فعله في حالة الطوارىء هذه؟ هل أعطيناكم الهدايا من دون غاية، مشـاهدين كـم كـانت الثقـة التي وضعناها بكم؟ انصحـونا وبينوا لنا بشكل فعـال، الوسـائل التـي يمكن بها اطلاق سراح إخـواننا الأسرى، الذين نحـن نطلبهم»، وقــد أجــابهم المترجم قــائـلاً: «صحيح أنكم أعطيتمونا هدايا فاخرة، لسوف نعيدها إليكم، مع نصيحة صادقة، فكل الذي يمكنكم فعله هو التـالي: أقنعـوا الامبراطور فردريك، الذي يحبـه مولانا، ويحترمه فوق جميع الناس، بأن يـرسل رسالة شفوية مع رسول، أو رسـالة مكتــوبة بأكثـر عبـارات الالتماس لطفـاً، وكل هؤلاء الذين تطلبونهم سوف يطلق سراحهم بامتنان»، فرد الرسل قائلين: «لن نوافق مطلقـاً مادمنا أحيـاء على خطة من هذا النوع»، وهكذا بعدمـا تعرضـوا لنقد حـاد، غادروا وهـم مضطربين، من دون أي أمل في تحرير أسراهم، ومن هذه الواقعة يمكن استنتاج كم كانت الصداقة عظيمة، التي جمعت

بين الامبراطور فردريك والسلطان المذكور.

اجتماع جميع نبلاء إنكلترا

فيما يتعلق باجتماع النبلاء في بارلمان سلف ذكـره، في اليوم الذي ينشد فيـه «لتبتهج القـدس»، قام الملك في المقـام الأول بمخـاطبـة الأساقفـة، بفمـه، منفردين، ثـم خاطب بعـد ذلك الايرلات والبـارونات، وأخيراً رعاة الديرة ورؤساء الرهبان، حول القضايا التي من أجلها بعث برسله الخاصين إلى المجمع في ليـون، وأراهم بعض الغفـرانات، والرسـائل البـابوية التي تقـدم ذكرها في هـذا الكتاب، وهي الرسـائل التي جلبهـا الرسل معهم لدى عودتهم، وأخبرهم كيف أن البـابا قد عمل كثيراً من الوعـود الجيدة للرسل المذكـورين لصالحه ولصـالح المملكة، ولكن لأن الملك قد شعر، حسبما سمع فيها بعـد واكتشف، أنه حتى بعد الغفرانات المذكـورة والوعود، ألقى البـابا يده بثقل أكثر، وعمل، وكأنه متحـدياً، مـزيداً من المطالب، أكثر مما هـو معتاد، تقـدم بها نحو المملكة بوسـاطة ظلمـه للكنيسة، وأراهم بنوداً تتعلق بـالمظالم والأذى الذي مورس ضـد الكنيسة وضد مملكته، وكان فحواهم هو كما يلي:

الأذى الذي لحق بمملكة إنكلترا

«ظلمت المملكة بسبب أن البابا لم يقتنع بالمورد الذي أطلق عليه اسم «بنس القـديس بطرس»، بل استخرج اسهـامات ثقيلة من جميع رجـال الدين في انكلترا، ومازال يسعى لممارسة استخـراجات أعظم، وقد عمل هذا من دون رضى أو موافقة الملك، بشكل معـاكس للعادات القديمة، والامتيازات والحقوق الخاصة بالمملكة، وذلك على الرغم من المرافعات والالتماسات من قبل قساوسة الملك والمملكة في المجمع العام.

بند: إن الكنيسة وكـذلك المملكة قد تعرضتـا للظلم، بسبب أن رعاة الكنائس لم يمتلكوا السلطـة لتقـديم رجـال دين مـوائمين لهن، عندمـا

يشغرن، وهو ما منحه البابا لهم في رسائله، بل إن الكنائس قد أعطيت إلى الرومان، الذين هم جاهلين تماماً باللغة الصحيحة للمملكة، مما يعرض أرواح الناس إلى الخطر، وهؤلاء الرومان يحملون المال إلى خارج المملكة، وبذلك يفقرونها إلى أبعد الحدود.

بند: إنها مظلومة بموجب القرارات المعمولة من قبل البابا لاستخراج أموال بشكل معاكس لفحوى رسائله، التي أفاد فيها، أنه من دون الأخذ بجميع الإجراءات التي عملت في انكلترا، إنه ينوي منح اثنتي عشرة منفعة، ونعتقد أنه بعد كتابة تلك الرسائل المذكورة، قد جرى منح كثيراً جداً من المنافع، وكثيراً من العطاءات عملت بعد ذلك من قبله.

بند: إنها مظلومة، لأن إيطاليا خلف إيطاليا، وبسبب أن الانكليز، قد سحبوا إلى خارج المملكة، بموجب السلطات الرسولية، وانتزعوا من بين قضاياهم، على الرغم مما قضت به أعراف المملكة، وعلى عكس الشرائع المكتوبة، لأنه لايجوز أن يحشروا بين خصومهم، وعلى عكس الغفرانات التي منحت إلى ملك انكلترا، من قبل البابوات المتقدمين.

بند: إنها مظلومة بموجب إعادة تكرار، وظهور تلك العبارة غير الشهيرة في الرسائل وهي «دون المبالاة»، التي بموجبها أضعفت روابط الإيمان ودمرته، مع العادات القديمة، وقوة الكتابات المقدسة، والسلطة بمنح استثناءات وتأسيس قوانين وامتيازات، وبذلك فإن أعداد كبيرة من الناس في انكلترا، قد عسف بهم بحدة، وتضرروا، كما أن البابا نفسه، في إعادته النظر بسلطاته، قد ألزم نفسه بالتعامل مع مملكة انكلترا بشكل معتدل ولطيف، كما أنه قد وعد بشكل مؤكد بحماية مملكة انكلترا.

بند: إنها مظلومة بموجب الضرائب العامة التي جرت جبايتها

وأخذها، حيث أن ذلك جاء من دون موافقة الملك ورغبته، وعلى الرغم من مرافعة ومعارضة قساوسة الملك وجماعة انكلترا.

بند: إنها مظلومة، بسبب أنه في منافع الايطاليين، انعدمت مراعاة الشرائع، ورعاية الفقراء، وتقديم الضيافة، كما أن التبشير بكلمة غير حاضرة، ومثل ذلك انعدام استخدام زينة الكنائس، ومثل ذلك أيضاً لم تعد معالجة النفوس، والقداسات، تمارس بالكنائس، كما ينبغي ووفقاً لعادات البلاد، بل في أبنيتهم، انهارت الجدران مع السقف، وتدمرت نهائياً».

وبعد إيلاء هذه البنود العناية، وافق الجميع، أنه صدوراً عن الاحترام للكرسي الرسولي، عليهم أن يحاولوا ثانية بالرسائل وبالرسل الخاصين، التوجه بالرجاء إلى البابا، ليضع حداً لمثل هذه الأضرار التي لاتحتمل، وأن يرفع هذا النير الذي لايحتمل عنهم، وبناء عليه كتبوا إلى البابا كما يلي:

شكوى جميع الإنكليز من المظالم المذكورة

«**إلى أبينا المبجل في المسيح، انوسنت الذي هو بنعمة الرب، الحبر الأعظم، من نواب الأساقفة في منطقة كانتربري، مع التوصية بتقبيل قدميكما المباركتين:** إن لطف الكرسي الرسولي الذي وضعنا في صدر إكرامه، مع عاطفة خاصة، عندما كنا مؤخراً في مجمع ليون، وسمو هذا الكرسي الذي أظهر نحونا في كثير من الجوانب عطفاً كبيراً على تواضعنا، قد دفع عقولنا في حماسها الطفولي، في أن تتحمس من أجل كرامة وازدهار أمنا الكنيسة المقدسة، مظهرين بأننا راغبين بالعمل من أجلها، ومن أجل كرامتها، وللحفاظ عليها بسلام، كما هو متوجب علينا أن نفعل، وكلما ازددنا حماسة بالحصول على نتائج اخلاصنا، كلما وجدنا أن علينا أن نزيد بقوة من الاحسان إلى شعبنا، ولمملكتنا بالاتحاد

مع الكنيسة الأم، لكن هذا لايمكن أن تكون له فعالية من قبلنا، من دون مساعدة خاصة من الكرسي المذكور، وكنا في المؤتمر الذي عقد مؤخراً في منتصف الصوم الكبير من قبل رئيسنا وملكنا، والذي كنا فيه حضوراً، قد سمعنا بعض الأشياء، نحن نقوم بتكرارها لقداستكم مع الأسف: وكانت هذه الأشياء هي أن الملك والنبلاء، وبالفعل الشعب بشكل عام، كانوا غير راضين، ويكررون الشكاوى، أنه بالنسبة لتوزيع المنافع، التي عملت بالفعل من قبل أصحاب العقود في انكلترا، أنهم هم والمملكة، وكذلك الشعب بشكل عام قد عوملوا باستخفاف، وبظلم لايحتمل من قبل النبلاء ومن قبل آخرين، قد استدعيوا للمحاكمة خارج المملكة، بشكل مضاد لإمتيازاتهم ولإمتيازات المملكة، وأيضاً بوساطة أشياء أخرى مغضبة عديدة، نحن نعتقد أنهم ينوون إخبار قداستكم بتفصيل أكبر، ولدى إدانة هذه الأشياء بشكل مكشوف أعلنوا، وكأن ذلك كان صادراً عن قلوبهم، بأنهم بالحري يفضلون الموت على تحملهم أية مدة أطول، حيث يبدو أنهم يزدادون كل يوم أكثر فأكثر، وبشكل خاص لأن هذه المظالم المذكورة تعسف بهم، حسبما أكدوا، بثقل أعظم، وبشدة أكبر، غير عابئة بوعد تخفيفهم، الذي قيل بأنه قطع لقساوستهم من قبل قداستك، في المجمع المذكور أعلاه، وعلاوة على ذلك إن الشكاوى الصاخبة والهائجة لعدد كبير من الأشخاص الأقوياء جداً، هي خطيرة، وثقيلة لايمكن تحملها بالنسبة لنا، ولايمكن لنا تهدأتها بأية وسيلة من الوسائل، مع أننا نعمل بكل مثابرة ونستخدم كل الوسائل التي نعرفها للوصول إلى هذا المقصد، وإذا مااستمرت الأمور تسير هكذا، نحن نعتقد ونخشى، سوف يشكلوا بداية لمآسي، ومصدراً لكثير من الشرور في انكلترا، ولذلك نلقي بأنفسنا عند قدمي قداستكم، وبدموع نلتمس منكم ونرجوكم بمنح الانتباه إلى الإيمان المتوقد لدى الأنكليز، وأن تقدروا بأن مملكة انكلترا قد برهنت عن نفسها بأنها مخلصة بشكل خاص إلى الكنيسة

الرومانية المقـدسة، وأن تنظروا بحق تبجيلكم للرب إلى الشعب المذكور بروح مواساتكم الأبوية في هذه القضايا التي تفضي إلى سلامته وأمنه.

ونحن أيضاً، بما أننا نرغب بحـرارة بخلاصهم وأمنهم، سـوف نبذل مساعينـا للمحافظة عليهم معـاً، في وحدة إيمان واخـلاص للكنيسة، في سبيل —مع عون المسيح— أن تتحول لتشريف الرب، والكنيسة، وأنتم أيضـاً شخصيـاً، أيها الأب المقـدس، وبالاضـافـة إلى هذا، لعله يرضي قداستكم تهدئـة عقلي أميرنا المذكور مع أخيه رتشـارد، ايرل كورنوول، بموجب بنود مشرفة، ذلك أنهما قد أكدا قد أوذيا بشكل متبادل، وأعلنا أن الايذاء المذكور هو حظوة غير صحيحة أظهرتها الكنيسة الرومانية إلى الفئة المضادة».

رسائل رعاة ديرة إنكلترا إلى البابا

«إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح، والمولى المحبوب كثيراً، انوسنت، الذي هو بنعمـة الـرب الحبر الأعظم للكنيسـة العـالميـة، من أبنائـه المخلصين: رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان والرهبان في ديرهم في مقاطعتي كانتربري، ويورك، صحة وقبـلات لقدميه المقدستين: إن حكمة الجلالة اللاهوتية، قد وزعت كل الأشيـاء، بالعدد، والوزن، والمقياس، وأرست قواعد الكنيسـة، وقرينها على صخرة قـاسية، أي على بناء أساس ثابت، تقـوى كثيراً بمـلاط دم ابنه، حتى يتمكن من أن يرتفع البنـاء بسهـولة أعظم، وبازدهار أكبر، فالكنيسـة العالميـة قد نبعت من دم المسيح، الذي صرخ عاليـاً من أجل المسامحة وليس من أجل الانتقـام، وهي بتدبير من قرينها، قد حكمت من قبل أب واحد وراع واحد في الوقت نفسه، وفق طريقة سفينة نوح، التـي انتهت إلى ذراع، واقتيدت فوق ميـاه الفيضان، والمسيح —أنا أقول— الذي هو فضيلة الرب وحكمته، قـد وجد نفسه مع الكنيسة العالمية، على أنها قرينته الوحيدة، بسبب أنها حمامته الوحيدة، والمختـارة الوحيدة من قبله، والتي مـع أنها مقسمة إلى أجـزاء خاصـة،

يتوجب عدم فصلها عن العبادة اللاهوتية، وقد أظهرت كنيسة انكلترا نفسها بدون توقف مجيدة إلى قرينها، الذي دخل معها في اتفاق في الرحم العذراوي، من دون تلطيخ أو وصمة، وإلى الأوقات المتأخرة قد قيلت أشياء مجيدة كثيرة عن مدينة الرب، أي الكنيسة الانكليزية، التي بحكم كونها عضواً من الكنيسة الرومانية المقدسة، فإن جبال لبنان، والكرمل، وصهيون، يقومون دوماً برعاية واجباتها اللاهوتية، ومع نقاء الطهارة يتدفق قلبها مثل الماء، وهي ترفع يديها النقيتين إلى الرب، وتوجه بشكل مستمر أريج صلواتها إلى كرسي الحكم للثليث، ومع أنها لم تمل بأدنى الدرجات ولم تقصر في تأدية واجباتها، هي حزينة، وتبكي، ومضطربة بشأن الاستخراجات، والمظالم، والضرائب المضاعفة، التي وقعت ثقيلة عليها، لأننا كما علمنا من تأكيد النبلاء، وكذلك من صرخات الناس، فإن الريح المندفعة من الصحراء، قد هاجمت بعنف، وهزت الأركان الأربعة للكنيسة المذكورة، مثل بيت أيوب، ولذلك غيرت بهجتها إلى نحيب، وسرورها إلى بكاء، لأن روحها في وضع مرير، مالم يحصل بفضل من جلالتكم، بعث الرأس الواهن الآن، ورفعه ثانية، وإليكم —بناء عليه— أيها الأب المبجل، تلجأ الكنيسة الانكليزية، بحكم كونكم بمثابة عمود قد ثبته الرب، وليس الانسان، وهي آملة بثقة بالرب، الذي أعماله هي الخير، بأنك سوف تستخدم علاجاً صحيحاً ضد مظالمها، وأنك سوف تعطي بحق العدالة التي تتجلى من السماء، وتتطلع نحو الأسفل من خلال وحدة الرب مع الانسان، إلى كل واحد حقوقه، وأن تحفظ الجميع في عدالتهم، وبناء عليه، بما أننا أبناء مؤمنين ومخلصين للكنيسة الرومانية المقدسة، قد رأينا بشكل صحيح، أنه حتى يكون الأذى الصادر عن السهم الذي سلفت رؤيته أدنى درجة، إحالة القضايا المتقدم ذكرها إلى الكرسي الرسولي، مشاهدين أن مخاطر مضاعفة محيقة بها، وأنه في كثير من النقاط، مالم يتم تقديم العلاج الناجع من قبلكم، سوف يكون هناك سبب للخوف من

وقوع اضطراب بين الناس، سوف تنجم عنه فضائح، ولسوف ينتج كثيراً من الانشقاقات، لأن الناس مثارين ضد الملك، وعلى استعداد للتخلي عن ولائهم، مالم تتم مواجهة المرض المحيق بسرعة من قبل السلطة الملكية، لأن النبلاء والرجال ذوي المناصب قد أعلنوا بأن الكنائس المعطاة من قبلهم إلى ديرة، سوف تعطى إلى رجال دين ايطاليين، إنهم يمتلكون الحق لاسترداد هذه الكنائس والمنافع الأخرى، ووضعها بين أيديهم، لأن الموارد الناتجة عنهم، يتوجب حقاً استخدامها لصالح الأشخاص الفقراء والحجاج، لأن هذه كانت نية المانح، وسبب المنح، فهل —بناء عليه— يرضي قداستك عمل ترتيب يقضي بعدم الفصل بين المملكة والكهانة، ولابأي نوع من الأنواع، لأنه إذا ما حدث للكنيسة —التي عدّت فيما مضى، فخار جميع العصور، ووفقاً لقول النبي أرض عمالقة— وقام انفصال هكذا بين المملكة والكهانة، فإنها سوف تجر إلى الدمار، كما أن الشعب سوف يكون غير راض، ومثل ذلك الكهانة، ولسوف يتبع ذلك من دون شك مقتل كثير من الناس، وفيما يتعلق بالأضرار التي يتشكى منها النبلاء والرجال ذوي المناصب، فإن الرسل الحاملين لهذه العروض سوف عنها يخبرونكم، ذلك أنه بتقويم يأتي مباشرة إثر شعورهم بالأسى، من الممكن تحويل أساهم إلى سرور».

رسالة من الجماعة العامة لإنكلترا إلى البابا

«إلى الأعظم قداسة، إلخ، إلخ، من أبنائه المخلصين: رتشارد ايرل كورنوول، وسيمون دي مونت فورت ايرل ليستر، ودي بوهون ايرل هيرفورد وايسكس، ور. R لي بيغود ايرل أوف نورفولك، ور. R ايرل أوف غلوستر وهيرفورد، ور. R ايرل أوف وينكستر، و.و. W ايرل ألبميرل Abemarle, وهـ. H ايرل أوف اكسفورد، ومن آخرين في جميع أرجاء انكلترا كلها، من بارونات

ونبلاء، وكذلك نبلاء الموانيء الساكنين قرب شاطيء البحر، ومثل ذلك أيضاً من رجال الدين والناس بشكل عام، صحة، وتبجيل جدير بجميع احترامات مثل هذا الحبر العظيم: إن الكنيسة الأم ملزمة تمام الالزام برعاية أبنائها، وأن تجمعهم تحت جناحيها، حتى لايقصروا في واجباتهم نحو أمهم، بل أن يبذلوا جهوداً كبيرة وقوية لصالحها، إذا كان ذلك ضرورياً، وأن يشهروا السيف، ويحملوا الترس، فإنهم قد يعرضون أنفسهم إلى كل خطر في الدفاع عنها، وهي التي من حليبها استمدوا المواساة، أثناء تعلقهم على صدرها ذي العواطف المليئة بالأمومة، ثم إن على الأم أن تتذكر أولاد رحمها، خشية أن يتصرفوا بشكل معاكس، وينسحبوا من التغذي بحليبها، وبذلك تظهر وكأنها قد غدت زوجة الأب، والأب الذي يسحب عواطفه عن أبنائه، ليس بأب، بل ينبغي دعوته —لسبب صحيح— الأب زوج الأم، لأنه يعدّ أولاده الطبيعيين، أولاداً غير شرعيين، أو أولاد الزوجة، وعلى هذا الأساس أيها الأب المحترم، يامن أنت «عربة بني اسرائيل وقائدها»، نحن نلوذ بثقة إلى ملجأ عاطفتكم، ونحن نصرخ بصوت مرتفع خلفك، وندعو باخلاص لك، على أمل نيل تعويض رباني، فقم بالاصغاء برحمة إلى أصوات الذين يصرخون من خلفك، وقدم لهم علاجاً ناجعاً لأثقالهم وأضرارهم، ومظالمهم المتوالية التي فرضت على مملكة انكلترا، وموررست عليها، وإذا كان الأمر عكس ذلك فإن مولانا الملك، سوف تدفعه الفضيحة التي ستقوم، وسوف تحرضه، مثلما حرضتنا نحن أنفسنا، بوساطة صراخ الناس، وعلى هذا إنه لمن الضروري بالنسبة لنا —أنه مالم يتم تحرير الملك والمملكة على الفور من المظالم التي مورست عليه وعلى المملكة— أن نعرض أنفسنا بمثابة سور لبيت الرب، ومن أجل حرية المملكة، وهذا بالفعل قد أجّلنا عمله حتى الآن، وذلك صدوراً عن الاحترام للكرسي الرسولي، لكننا لن نتمكن من الإخفاء بعد عودة رسلنا الذين أرسلوا حول هذه القضية إلى الكرسي الرسولي،

ولا التمنع عن تقديم نجدة —بقدر ما نمتلك من قوة— إلى رجال الدين، وكذلك إلى شعب مملكة انكلترا، الذي لن يستطيع بأي حال من الأحوال تحمل مثل هذه الإجراءات، ويتوجب على قداستك أن تتأكد تماماً، أنه مالم يتم اصلاح القضايا المتقدم ذكرها، بكل سرعة من قبلك، سوف تكون هناك أساسات منطقية للخوف، بأن مخاطر كبيرة سوف تحيق بالكنيسة الرومانية، وكما بين مولانا الملك إنه لن يكون من السهل تقديم علاج لهذه القضايا، لاسمح الرب».

رسالة الملك إلى البابا من أجل تحرير إنكلترا من المظالم البابوية

«**إلى الأعظم قداسة، إلخ:** يعلم الذي ليس بجاهل بأي شيء، أننا دوماً نحتفظ بمشاعر صادقة نحو أمنا، الكنيسة الرومانية المقدسة، وذلك بقدر ما هو متوجب علينا أن نحبها، فهي التي نطير إليها ونحن واثقين في أوقات الحاجة الملحة، مثلما يفعل الولد حين يطير إلى أمه، التي أرضعته من صدرها، والتي عليها أن ترعاه عندما يقاتل تحت حمايتها الخاصة، غير أننا لايمكننا عدم سماع صرخات الشكوى غير الاعتيادية لنبلاء انكلترا، ولرجال الدين فيها، ومثل ذلك إلى الشعب، وذلك مهما كانت عظيمة المشاعر التي نحملها نحو أمنا المذكورة، وهو ما ننوي —بعون الرب ورعايته— بالاستمرار باظهاره نحوها، ذلك أن النبلاء قد أصبحوا، أكثر مما هو معتاد، رافعين لأصواتهم في شكاويهم، متوجهين بالدعاء إلينا من أجل استرداد حقوقهم وامتيازاتهم من المظالم، التي جرى حتى الآن لفت انتباهكم إليها بوساطة رسل خاصين، لكن هذه المظالم ما انفكت سيئة كما كانت تشكل الآن عبئاً أعظم ثقلاً عليهم، وبناء على ذلك أرسل النبلاء المذكورين —محقين— رسولهم الخاص إلينا، ولذلك نلتمس بحرارة من قداستكم، الاستجابة إلى التماساتهم بطريقة يمكن بها أن تحولنا نحن الأبناء، إلى راغبين كثيراً ومخلصين لأمنا ولك، ونخشى،

إذا فعلت غير ذلك، أن نوضع نحن، وكـذلك الكنيسـة الرومانيـة في أخطار كبيرة (نرجو الرب برحمته منعها) إلى حد أننا لن نكون قادرين أبداً على تحرير أنفسنا منها».

رسالة أخرى منه نفسه إلى الكرادلة حول القضية نفسها

إلى الآباء المحترمين أفـراداً وكلية في المسيح، الذين هم بنعمـة الرب كرادلة الكنيسة الرومانية المقـدسة، من هنري، الذي هو بالنعمة نفسها ملك انكلترا، إلخ، صحة، وعـواطف خالصة: مهما كانت درجة حبنا للكنيسـة الرومانيـة، ورغبتنا بازدهارها ورفعـة شأنها، نحن لانستطيع المرور متعـامين بصرخات الشكوى الصـادرة عن نبـلاء انكلترا، وعن رجال الديـن، وكذلك عن الشعب، فهـؤلاء أصبحوا أكثر إلحاحـاً مما هو معتاد في رفع أصواتهم عاليـاً ضد المظالم، التي جرى من قبل لفت انتبـاه البـابا إليها، ولفـت انتباهكم أيضـاً، في وقت متقـدم، بوسـاطة رسلهم الخاصين، ولذلك إنهم يلتمسـون بتـواضع وبإخـلاص بأن يتنازل بالإصغاء إلى التماساتهم المنطقية التي قـدمت إليه بوساطة رسل متـوالين، لأنه بذلك سـوف يحولهم إلى أكثر محبـذين ومخلصين إلى الكنيسة المذكورة، وإلينا، وسـوف نمنعهم من أن يصبحوا بعيدين عن ولائهم، ونحن نرجـوكم أيضـاً باخـلاص، بحكم عـاطفتكم الأبوية، ببـذل جهـودكم، في سبيل أن رسل النبـلاء المذكـورين الذين أرسلوا ثانية، يمكن أن يصغى إليهم بعناية من قبل البـابا، وكذلك من قبلكم أنفسكم، حتـى لايسقط الخطـر الهائل الـذي هو الآن معلـق فـوق الكنيسـة المذكـورة —التي نحن مـرتبطون بإظهـار الخضـوع لها إلى الأبد— علينا وعليها، مع أن هذا مخشي منه بدرجة كبيرة من قبل كل واحـد، لابـل من قبـل الجميع في مملكتنـا. شهـدت بنفسي في ويستمنستر، في اليوم الثـامن والعشرين من أيار، في السنة الثلاثين من حكمنا».

كيف تكدست الشكاوي فوق الشكاوي

تواصل الآن، قدوم كثير من الناس الذين تضرروا من قبل البلاط الروماني، بالقدوم إلى الملك، مع روايات عن الوقائع اليومية للمظالم التي تقدم ذكرها أعلاه، (ولذلك تضاعفت الشكاوي في جميع الاتجاهات) آملين أن يبقى الملك ووكلائه ثابتين في توجهاتهم، وبشكاويهم أعادوا إلى ذاكرته وقائع كثير من المضار التي لحقت بهم، وإلى ذاكرة مستشاريه، والأضرار التي لم تكن قد ذكرت من قبل، أضيفت الآن إلى قائمة شكاويهم المتقدمة، والتي لم يكن ضررها قليلاً بالنسبة إلى الملك والمملكة، مثل مايلي:

شكاوي ضدّ البلاط الروماني

«صدرت مؤخراً رسائل عن الكرسي الرسولي، تتضمن قضايا على درجة عالية من الأذى إلى الملك وإلى المملكة، وهي أن على بعض الأساقفة تزويد قداسة البابا، بعدد محدد من الفرسان، بعضهم بعشرة، وبعضهم الآخر بخمسة، وبعض الآخرين بخمسة عشر، وعلى هؤلاء الفرسان الاستمرار في خدمة الكنيسة الرومانية لمدة سنة كاملة، وأثناء قيامهم بالخدمة، من المتوجب أن يكونوا تحت الدفع من قبل هؤلاء الأساقفة، كما أنه من المتوجب تزويد هؤلاء الفرسان بشكل جيد، وبما فيه الكفاية من الخيول والسلاح، وأن يكونوا حيث يرى البابا أنه موائم، لكن مثل هذه الخدمات العسكرية لاتجوز تأديتها إلى أي انسان، باستثناء إلى الملك فقط، وإلى أمراء أصحاب مملكة، وليس من المتذكر قط، حتى وقتنا الحالي، أنها فرضت من قبل أي واحد، ولاحتى إنه إذا ما رغب البابا في فرض أي شيء من هذا النوع من دون موافقة الملك، أو إذا أراد تسلم مبلغ كبير من المال، مقابل الاعفاء من هذه الخدمة، فإن هذا لايحق له، ولا بأي شكل من الأشكال، يضاف إلى هذا، ولكي لايمتلك الملك وسائل احترازية ضد هذا العمل، جرى تدبر ذلك

بشكل مخادع من قبل بعض رسل الكنيسة، وصدر أمر من قبلهم إلى كل واحد من الأساقفة، أنه لايجوز لهم الإباحة بخبر هذا الإلزام، إلى أي واحد تحت طائلة التعرض إلى عقوبة الحرمان الكنسي، أو دفع فدية ثقيلة عوضاً عنها، وذلك في اطار مدة نصف سنة، ومجدداً، مما أحدث أضراراً كبيرة وأذى عظيماً إلى جميع رعاة الكنائس الانكليزية، جرى في هذه الآونة، عمل منحة إلى رئيس أساقفة كانتربري، بوجوب إعطائه جميع موارد ومنتجات المنافع التي من الممكن أن تصبح شاغرة في مقاطعة كانتربري، أي إلى رئيس أساقفة كانتربري المذكور، لمدة سنة».

كيف تعافت الأرض المقدسة قليلاً من مظالم المصريين

وفي هذه الآونة، كان الخوارزمية الممقوتين قد أكملوا أعمالهم الشريرة في الأرض المقدسة، ولذلك طالبوا بصلف وبإلحاح أن يقوم سلطان مصر بالوفاء بالوعود المحددة والاتفاقات التي عقدها معهم مقابل خدماتهم بالحرب، وذلك من دون تأخير أو معارضة، غير أن السلطان المذكور رفض بقسوة الاستجابة إلى مطالبهم والإذعان لهم، وأوضح أنهم استغنوا بما فيه الكفاية وصاروا أثرياء من أسلاب المهزومين، وقالت الخوارزمية، صحيح أنهم نالوا بعض الغنائم، لكن مع ذلك قد سلموا إلى السلطان أشخاص النبلاء الأسرى، الذين سوف يفادى بهم بأسعار عالية، ومن هنا نشبت خلافات تبادل للملامة، وتخلوا عن السلطان وتركوه وهم مغضبين، مع تهديدات غاضبة، وعملوا على الفور اتفاقاً مع سلطان دمشق، ودخلوا في حلف معه ودعموه، وقام هذا السلطان، في سبيل ايذاء المصريين وتدميرهم، فأعطى ابنته بالزواج إلى مقدم الخوارزمية، ومنذ ذلك الوقت استردت دمشق أنفاسها، واعتماداً منها على مساعدة الخوارزمية المذكورين، قامت بهجوم حاد على المصريين، الذين هم أعظم أعداء الصليبيين، ولدى سماع الصليبيين بهذه الظروف المستجدة، شعروا بنوع من الآمال والمواساة من الخلاف فيما

بين المسلمين، ولاسيما من الانقسام فيما بين أعدائهم.

كيف برأ الإمبراطور فردريك نفسه من تهمة الهرطقة

وفي حوالي الوقت نفسه، قام الامبراطور فردريك الذي لم تسمح الكنيسة له بأن يعدّ امبراطوراً، وفي سبيل استرداد سمعته، التي شعر بأنها تضررت كثيراً بتهمة الهرطقة، بإرسال الرسالة التالية إلى نبلاء انكلترا، الذين أمل بأن يقفوا جميعاً مع الملك، بجرأة ضد إلحاف البلاط الروماني.

رسالة الإمبراطور

«**من فردريك، إلخ، إلخ، إلى أساقفة الكنيسة، وإلى الايرلات، والبارونات، والنبلاء بشكل عام، في جميع أرجاء انكلترا، وإلى جميع الذين سوف تصل إليهم هذه العروض، بحكم أنهم أصدقاءه المخلصين، صحة مع كل التمنيات الطيبة**: مع أننا نعتقد أنه قبل التفوه بالاعلان عن السمعة العامة، وقبل حمل الشهادة الصادقة لرسل مختلف البلدان إلى علم جماعتكم، عن عدالة قضيتنا، بسبب —مع أن الأذى الذي يصل إلى الأذن أبطأ في إثارة العقل، من الذي يصل إلى أعين المسيحيين— أننا نحن نضع أمامكم الحقيقة النقية والمجردة، حول الاجراءات، التي قام بها حتى الآن، الحبر الأعظم، ضدنا، لأن بحثاً كاملاً ودقيقاً لها —مع أن أشخاصاً قد جرى تعيينهم في كثير من الأوقات، للبحث والتقصي في شؤوننا— نحن نثق بأن عواطفكم يمكن أن تعطي وقتاً ثابتاً وكافياً، يمكنكم خلاله أن تقدروا بآرائكم، فيما إذا كان لدى حبرنا تقدير صحيح للنزاهة الحبرية، وفيما إذا كان يجوز حرماننا من دفاع محق عن أنفسنا، نحن الذين أثرنا من قبل كثير من الأذى الكبير كثيراً، وفي الحقيقة فيما إذا كان نائب المسيح قد قام حقاً بواجبات المسيح، وفيما إذا كان هؤلاء الخلفاء لسلفهم بطرس، قد اتبعوا

المثل الذي ضربه، وعليكم أيضاً أن تقدروا تحت أي عنوان، ينبغي وضع هذا النوع من الاجراءات ضدنا، أو بأي اسم يمكن تسمية القرار —إذا كان من الممكن تسميته كذلك— الذي سوف يعلن من قبل قاض غير كفء، لأنه مع أننا —على الرغم من تقديرنا الصحيح للإيمان الكاثوليكي— نقترح ونعترف بشكل واضح تماماً ونعتقد بأن سلطة كاملة في القضايا الروحية قد منحت من قبل الرب للكاهن الأعلى للكرسي الروماني المقدس، فمهما كان هذا الكاهن مذنباً كبيراً (لاسمح الرب) يمكن لما سوف يربطه على الأرض أن يربط أيضاً في السماء، ولكل مايحله أيضاً سوف يحل، ومع هذا نحن لم نقرأ في أي مكان بأن السلطة قد منحت له، في القانون اللاهوتي أو البشري، لأن يقوم بتحويل الامبراطوريات كما يشاء، أو أن يقرر إلقاء عقوبات دنيوية على الملوك أو الأمراء، بتجريدهم من ممالكهم أو أراضيهم، ومع أن واجب تكريسنا عائد إليه بعرف وعادات أجدادنا، فإن واجب حرماننا من الشيء نفسه، أو خلعنا ليس عائد إليه، أكثر من عودته إلى بعض أساقفة الممالك، الذين وفقاً للعادات يكرسون ملوكهم ويمسحونهم، ولنفترض أنه من دون موقف عدواني مسبق، هو مستحوذ على مثل هذه السلطة، فهل انطلاقاً من تمام سلطته، يمكنه أن يعاقب كل الذين يعلن أنهم خاضعين لسلطته، من دون مراعاة أو تقدير مطلق للقانون والنظام؟، لأنه قام مؤخراً، كما ذكر، بإجراءات ضدنا، ليس بوساطة وسائل نظامية بتوجيه الاتهام، لأن ما من اتهام أو متهم صحيح قد ظهر، وما من إجراء كتابي تقدم على ذلك، كما لم تكن هناك إجراءات استدعاء وفقاً للقانون، ولابوساطة طريق الاستجواب، ولابوضع الإدعاءات وعرضها مسبقاً، وبما أنه لم تكن هناك نسخة عن إجراءات الاستجواب قد عملت لنا وقدمت، وبما أنه لم يكن هناك شيئاً من هذا القبيل قد عيّن للاستجواب من قبل قاض مثل هذا، فقد أعلن أن كل شيء كان واضحاً، وهو ماننكر بشكل معلن أنه كذلك، كما لم يتبرهن

أنه واضح من قبل أي عــدد قـانوني من الشهـود، لأنـه بمـوجب هذه الطريقـة أي قاض يمكنه —بـوضعه جـانبـاً كل المراعاة للقـانون— أن يدين بنفسه أي واحـد بموجب إعـلانه فقط أن الجريمة واضحـة، وقد قام هناك ضدنا (كما أخبرنا) في المجمـع بعض العدد القليل من الشهود غير المستقيمين، كان واحداً منهم أسقف كالفي Calvi, الذي كان لديه سبب مسـوغ لشعوره بالكراهيـة ضدنا، بسبب بعض قـراباته، أي بسبب أخيه وحفيـده، اللذان أدينا بشكل قانوني، وقضي عليهما من قبلنا بالشنق، بسبب جـريمة الخيانة، والذي شهـادته ينبغي أن ترفض بشكل صحيح، بناء على هذا الأساس، وآخرين قدما من أقصى مناطق اسبانيا، وهما أسقفي تاراغونا Taragona, وكومبــوستيلا Compostella, اللذان هما معــاديان لقضيتنا بسبب بعــد بلدهما المحلي، وهو ايطاليــا، وبسبب التأثير المسم الذي مــورس عليهما، وعلى أتباعهما، وعـلاوة على ذلك، إذا كان المدعي والقاضي قـد تصرفا بشكل قانوني بالنسبـة لما أدلى به الشهود، هناك فريق ثالث مـازال مطلوباً، كان من الممكن أن يدان لو أنه كـان موجـوداً، وأن يدان إذا كـان غائبـاً من خـلال التمـرد، لأنـه مع أننا قـد استـدعينا أثنـاء وعظه في ليـون —كما سمعنا— مع أن ذلك كـان بشكل غير رسمي، أي كان علينا أن نظهـر إما بشخصنا، أو من خـلال آخرين أكفاء للاجابة عنا، ولتقـديم العدالة للذي استدعانا، أو لآخرين لم تكن هناك عبارة واضحة حول الشخص أو القضية، وحـاضرين لم نكن هناك بشكل مؤكد، لكن غيـابنا قام على أسس جيدة، ولنبرهن أياً كان وكـلاء القانونيين، لم يسمح لنا بذلك، كما أننا لم نكن غـائبين صدوراً عـن التمرد، بقـدر مـا كان هناك إلى جـانب ذلك، أي استــدعــاء إلى أي واحــد، لأنه كما ذكـرنـا من قبل، لم يحدد الاستدعـاء أي وقت محدد، حسبما تتطلب الاجراءات القـانونية، كما أن صيغ الاستدعـاءات التي ترسل إلى الأمراء والأساقفة،، تظهـر بوضوح الذي يتكون منه تمردنا، بالاضافة إلى هذا كنا بريئين تماماً بوساطة رسالة

المعلم ثاديوس دي سوسا، الذي هو من رعيتنا المحبوبين، كما أنه القاضي المخلص في محكمتنا العليا، والذي لم تضعف سلطاته بأي حال من الأحوال بوساطة الاجراءات ضدنا، لأنها لم تكن مدنية، بل ذات صفة إجرامية، وفي هذا النوع الأخير لايمكن لوكيل أن يعمل، بما أن فحوى الاستدعاءات التي وجهت إلينا أو إلى وكيلنا سوف تبرهن العكس، أي كان من المتوجب القيام بالاجراءات ضدنا ليس بطريقة تجريمية، بل في قضية مدنية، محدودة بكل الخصوصيات المتقدمة الذكر، من دون مواقف عدوانية مسبقة لحقنا العادل، وعلى افتراض أننا كنا متمردين بشكل مكشوف، إنه لايجوز قانونياً إصدار عقوبة بالتمرد، على شخص أخبر أنه متمرد، أو اتهم بالتمرد، وادانته بحكم محدد، قبل محاكمته بشكل إجرائي صحيح، ومن دون البحث في قضيته في محاكمة خاصة أو عامة، لأن لمثل هذه القضايا هناك عقوبات أخرى، تصدر بحق الأشخاص المتمردين، حسبما جاء في الأحكام المدنية والقانونية، وأخيراً لنفترض أن جميع الاحتياطات العدلية المتقدم ذكرها قد اتخذت، فذلك بلا جدوى، مع أنهم قد يكونوا قد استخرجوا من قضيتنا، ذلك أن فحوى ذلك الاعلان، بأن الحكم لم يصدر ضد وكيلنا الذي كان حاضراً، بل صدرت الإدانة ضدنا مع أننا كنا غياباً، وهو حكم تعلن بعض القوانين والحقوق أنه باطل وفارغ، والدليل على الظلم في جميع مسار الإجراءات قد ظهر أيضاً، في الأسباب التي أدخلت في قرار الحكم، والتي ضدها قد جرى الدفاع عنا بموجب حقيقة نقية، وبموجب وثائق معلنة، مثل الرواية الصحيحة لحملة هذه العروض، ومثل ذلك ماتظهره بكل وضوح محتويات تلك الوثائق، علماً بأن جميع القضايا المتقدم ذكرها، غير كافية لإصدار قرار حكم ضدنا بمثل هذه العقوبة القاسية (وذلك إذا كان من الممكن تسميته قرار حكم) وهو القرار الذي قد قذف ضدنا، نحن الامبراطور الروماني، ومن الواضح تهوره، ومن عقله المليء بمشاعر الكراهية أظهر أنه عمل وفقاً لذلك في

القضايا المتقدمة الذكر، لأنه لم ينتظر حتى لمدة ثلاثة أيام لوصول أسقفنا المحبوب كثيراً، المبجل أسقف فريزنغيو Frisingue, وهـ . H رئيس دير اسبتارية التيوتون، والمعلم ب. P دي فينيا، قاضي المحكمة العليا، وهم من رعايانا المحبوبين كثيراً لدينا، كنا قد أرسلناهم مؤخراً إلى المجمع لإكمال بنود مفاوضات السلام، كما أنه لم ينتظر وصول المعلم وولتر دي أوكرا، الذي هو قسيسنا، والكاتب بالعدل لدينا، ومن رعايانا المخلصين، وكان قد أرسل من قبلنا، وذلك بمعرفة من الحبر الأعظم ومن بعض الكرادلة، وكان من المتوجب انتظار وصوله لمدة عشرين يومياً، أي إلى ماقبل يومين فقط، قبل أن تأخذ الإجراءات المتقدم ذكرها مكانها وتحدث في ليون، مع أن النبلاء والأساقفة كانوا يتطلعون إلى وصوله وينتظرونه، هذا وهناك عدوانية كبيرة واضحة في شدة القرار الذي أنزل على غلطتنا، والذي بموجبه تمت إدانة الامبراطور الروماني، الحاكم الامبراطوري، والسيد المعلن لها، بجريمة الخيانة، وبذلك جعل بشكل مضحك خاضعاً للقانون، وهو الذي بموجب مرتبته الامبراطورية متحرر من القانون كله، ذلك أن العقوبات الدنيوية لايجوز أن تنزل عليه من قبل الانسان، بل من قبل الرب، لأنه لايوجد رئيس له بين البشر، ثم إن العقوبات الروحية التي نحكم بها، ينبغي أن تكون بمثابة أعمال توبة يتم تحديدها لنا من قبل الكهنة، ونحن بالنسبة لرفض المفاتيح، ومثل ذلك التجاوزات البشرية الأخرى، سوف نستقبل باحترام، وسنطبق باخلاص العقوبات التي ليس فقط يجري فرضها من قبل الحبر الأعظم (الذي بالنسبة للقضايا الروحية نحن نعترف به على أنه أبانا ومولانا، وذلك مادام راعياً لرأي تجاهنا بمثابة ابنه)، لابل حتى من قبل كاهن من الكهنة، ومن هذه الأشياء كلها، إنه واضح تماماً، أنه قال بأننا ينبغي أن نكون موضع شك في ابتعادنا عن الإيمان الكاثوليكي، منطلقاً من رغبة في توجيه الإهانة، وليس انطلاقاً من أرضيات عادلة، وفي هذا الشأن، نحن نؤمن بأن

الذي هو في عليين هو قاضينا، ونحن بفكر واحد نطبق معتقدين كل قراراته، وفقاً للنظام العام، وللأعراف المقررة للكنيسة الرومانية، ونحن نترك إلى حكمتكم حتى تقرروا فيها إذا كان الحكم المتقدم الذكر —الذي هو ملغى في ذاته— وفيها إذا كانت الإجراءات —التي هي من وجهة نظر القانون لاغية— من المتوجب رعايتها، ليس فقط لزيادة إلحاق الضرر بنا، بل وبجميع الملوك، والأمراء، وبجميع الأعيان الدنيويين، والذي هو قرار حكم، ما من واحد من أمرائنا في ألمانيا، الذين عليهم يعتمد حملنا لمرتبتنا، ووظيفتنا نفسها، والذي عليهم يعتمد خلعنا، قد قام بتثبيته بحضوره أو برأيه، وقدروا أيضاً أمراً آخر، وهو ماهي النتيجة المتوقعة من مثل هذه البدايات، إنها بدأت بالفعل معنا، لكن البقية من المؤكد أنها سوف تنتهي مع بعض الملوك والأمراء الآخرين، حيث أنهم يتفاخرون أنهم لايخشون منهم أية مقاومة، وذلك إذا (لاسمح الرب) ماتمكنوا من وضع سلطتنا تحت أقدامهم ووطئوها في المقام الأول، وبناء عليه، أيها الملوك، دافعوا عن عدالة قضاياكم من خلال الدفاع عن قضيتنا، وتزودوا وأعدوا من أجل شعوبكم ومن أجل ورثتكم، ونحن لن نتردد، بكل ثقة، اعتماداً على رابط علاقتنا، في أن نطلب دعم تماسككم الملكي، بداية بعدم الإصغاء إلى أي شيء يمكن أن يكون مفيداً إلى خصمنا، من الممكن أن يذكره بوساطة رسله أو نوابه البابويين، سواء بشكل معلن، أو بشكل سري، بل الذي عليكم بالحري هو أن تقوموا، بكل جرأة وقوة، مستخدمين كل الوسائل المتوفرة لديكم، بتقديم المساعدة لنا، وبعدم قبول أي رسول أو نائب بابوي يمكن أن يحاول نشر أي شيء لإلحاق الضرر بنا بين الناس، الموضوعين تحت إدارته، وكونوا متأكدين، أنه بموجب الشروع بمثل هذا العمل الطائش ضدنا، تستهدف السلطات البابوية من ذلك حرماننا، لتمد آفاق عملها، ومع ذلك إذا كانت اليد اليمنى لملك الملوك، التي تعين دوماً العدالة، سوف تقدم العون لنا، إننا سوف نواجه

هذه البـدايات، شرط أن لايقـوم الملوك والأمـراء المهتمين بقضيتنا، بمعارضتنا، لأنكـم أنتم مع أشخاص كبار آخـرين على الأرض، يمكن أن يشعـروا محقين بالخوف من مثل هذه المحـاولات المتخـذة ضـدنا، ونحن نفعل هذا غير راغبين، والرب هو شاهدنا، غير أننا مكرهين على ذلك، عندما نرى بأن المسيحية مداس عليها في أيامنا هذه، ونحن نأمل، حسبما كتبنا مـؤخـراً إلى جـلالة الملك، بالتعـاون معكم في الحفـاظ على قضيتها، نـرجو أن يقوم الرب فيقضي بيـده على هذا الذي يقدم الـوقود إلى دمار المنفعـة المسيحية العامة، وعـلاوة على ذلك إن كل الذي سوف يقـوله لكم هوغ كـابوشي Cabuche فـارسنا المحبـوب كثيراً ورسـولنا المخلص، يقوله لكم باسمنا حـول مايتعلق بالقضـايا المتقدمـة الذكر، يمكنكم عدّه أصيلاً. صدر في تورين Turin في اليوم قبل... من آب، في الاشارة الثالثة.

كيف نأت عواطف مختلف الأمراء وابتعدت عن البابا

وعندمـا وصلت هذه الرسـالة إلى علم كثير من الأمـراء، نأت تماماً بعواطفهم عن البابا، فهم قـد خافوا من تشامخ البـلاط الروماني، إذا ما رضخ فردريك له.

البابا يتدبر انتخاب لاندغريف أوف ثورونجيا إلى المنصب الإمبراطوري

ثم إن البابـا في جهوده المتواصلة ومسـاعيه المستمـرة للرفع من شأن قضيتـه، سوغ مـوقفـه من القضيـة، ورغبته في سحق فـردريك المذكـور بشكل ماحق، فحصل على انتخاب لاندغريف أوف ثورونجيا إلى المرتبة الامبراطورية، والاعتراف بانتخابه من جميع الكنائس، ولهذه الغاية وعد اللاندغريـف المذكور بمساعـدة وافرة في كل من المال والعسـاكر، وبناء عليه كتـب رسالة إلى رئيس أسـاقفة كولـون، وإلى الأساقفة الآخـرين،

وإلى نبلاء ألمانيـا، لجلب هذا العمل إلى نهاية سريعـة، وإلى هذا استجاب كثيرون، وبشكل خـاص رئيس الأسـاقفـة، كما أنه أرسل إلى امبراطوره —اللاندغـريف— مبلغاً كبيراً من المال ليمكنه من شن الحرب بنشـاط وفعاليـة ضد فردريك، وقـام الأخير بنصب كمين إلى الأشخاص الذين كـانوا جالبين لذلك المال مع بعض الهدايا الملكيـة، في سبيل تحويل ذلك لصـالح استخدامـاته، وإلحاق الأذى باللاندغـريف، الذي هو منافسـه، وكذلك بالبابا.

كيف أرسل الإمبراطور كونراد ضدّ الإمبراطور المنتخب حديثاً

ثم وجـد الامبراطور، أن خصمه، اللاندغـريف المذكـور، قد جـرى الاعـلان عنه في ألمانيـا، بفضل امكانات البـابا، وذلـك للحط من شأنه ولتدميره، وأنـه قد سمن تمامـاً اعتماداً على أموال البابـا، وأيضاً أن كثيراً من نبـلاء ألمانيا قـد ارتبطوا به بقـوة، ولذلك أصيب بالدهشـة والحزن، وبناء عليه أرسل ابنه كونراد مع قـوة كبيرة للقتال ضده، لكن حدث في يوم القتـال، أن الذين كـانوا ملتـزمين بمسـاعـدة كـونراد المذكـور، قـد انتشرت الأخبار، بأنهم أفسـدوا بوساطة أموال البـابا، وبدناءة تخلوا عن سيـدهم في ميـدان القتـال، وانهزمـوا، أو بالحري انضمـوا إلى جـانب أعدائهم، ونتيجة لذلك عاد كونراد المذكور إلى أبيه مهزوماً يحمل العار.

زواج شارل الأخ الأصغر لملك فرنسا
من الابنة الصغرى لكونت بروفانس

وفي هذا العام، جرى تحرير الابنة الصغرى لريمـوند كونت بروفانس المتوفى، من وصاية الملك الفرنسي، بوساطة تدخل أمها بيترايس، وبإرادة من الملك المذكـور وترتيب، جـرى إعطاء كـونتيـه بروفـانس إلى أخيـه الأصغـر شـارل، واقترنت الابنة المذكـورة للكونت به بالزواج، لكن في هذا لم يكن هناك كثيراً من السرور قـد ظهـر بين النبـلاء، ولذلك بات

شارل المذكور غاضباً ويقـال بأنه قال لأمه وهو غاضب ومنزعج: «لماذا لم يكن في هذا الاحتفـال العام كثيراً من مظاهر الفـرح بين النبلاء، مثلما كـان أثناء زواج أخي الملك، وذلـك في حين انني ابن ملك وملكة، بينما هو لم يكن كذلك؟»، وقد قال هذا لأن شارل المذكور، قد ولد بعد وفاة فيليب الملك الفـرنسي الأخير، وتتـويج لـويس ملكاً، وغـدوه ملكاً على الفـرنسيين، في حين كـان فيليب حياً قبل زواج لويس، ويتـوافق هذا الكلام مع ماقاله هنري الأصغـر، ملك انكلترا، وذلك عندما قام والده هنري الثاني بخـدمته، أي بخـدمة هنري الأصغر، حيـث قال له: «إنك لست مهـانـاً بخـدمتك لي، لأنك أنت ابـن ايرل، بينما أنا ابـن ملك وملكة»، لكن دعـونا ننتقل من هـذا الاستطراد، ونكمل حكايتنا، فقـد قام الملك الفرنسي، في سبيل أن لايمتلك فردريك القدرة على إلحاق أي ضرر به، أثناء غيابه في حجه، وأن لايمنعه من الوصول الحر إلى مينائها، قام ببناء ميناء موافق جداً في بروفـانس، مقابل نفقات كبيرة، على البحر المتوسط، وبحكمة بنى من حوله قلاعاً قوية.

البابا يأمر بصنع شراريب ذهبية مثل الشراريب التي يرتديها الإنكليز حتى ترسل إليه

وحدث في هذه الآونة أن رأى البـابا الشراريب الذهبية الجميلة بين الزينة اللاهوتية التي ارتداها بعض الأشخـاص الانكليز فوق أرديتهم وفـوق ألبسـة الرأس، فسأل عن مكان صنعهـا، ولدى اجـابتـه: «في انكلترا» قال متعجباً: «حقاً إن انكلترا هي حـديقة بهجتنا، وصدقاً هي بئر لاينضب، فيهـا أشياء كثيرة وافـرة، ومن أشيائهـا الكثيرة، كثير هو الذي يمكن استخراجه»، وبناء عليه أرسل على الفـور رسائله المقدسة المختومـة بختمه إلى جميع ديرة طائفـة السسترشيان المقيمين في انكلترا، الذين إلى صلواتهم عهد بنفسه مؤخراً، في الهيئة الرهبانية للسسترشيان، آمـراً إياهم، أن يقـومـوا من دون تأخير —وكأنهم سـوف يحصلون

عليهم مقابل لاشيء— بارسال بعض الشراريب الذهبية المنتقاة ليزين بها ثيابه وأرديته للقداسات ولجوقة الانشاد، وهو أمر لم يرض المرتزقة اللندنيين، لأنهم قد أعدوهم للبيع، وقد باعوهم بالأسعار التي ارتضوها، غير أنها أصابت كثيرين بالقرف، بمشابة بينة على شره الكنيسة الرومانية.

الحملات التي قام بها التتار على المسيحيين

قام في هذا العام التتار، ذوي الذكرى المقيتة جداً بحملة مرعبة داخل المناطق المسيحية، فبعدما أخضعوا كثيراً من الأمراء المسلمين —لأن الرب كان معادياً لبني البشر— جعلوا ملك أرمينيا، وأمير انطاكية، وعدداً كبيراً آخر من النبلاء المسيحيين، يدفعون الجزية إليهم، وبعد ذلك باتوا يأملون بمزيد من حسن الحظ، فتجرأوا مجدداً على غزو مقاطعات هنغاريا، وقد بدت إليهم، وكأنهم لم يخضعوها من قبل، مع أنها كانت قد هجرت بشكل مشين من قبل سكانها، وارتعب ملك تلك البلاد لدى وصولهم، فانسحب مع السكان من الأماكن الضعيفة من أراضيه، وهرب إلى الأماكن الأكثر حصانة (وهذه الأماكن بدت حتى بالنسبة له غير آمنة تماماً)، وانتظر هناك نشوب معركة دموية، كما أنه أرسل رسالة إلى البابا كي يستخدم غاية مساعيه لحمايته وحماية جميع المسيحيين، من مثل هذا الوباء الجارف، لكن حتى بهذا لم ينصرف البابا عن إدمانه وتشوقه واستخدام كل جهوده لجمع المال، كما سنرى في الصفحات التالية.

تعيين روجر بيغود مارشالاً

في هذا العام، وبعد وساطات متوالية، جرى منح مرتبة المارشال، مع المنصب والتشريفات العائدة إليه، إلى الايرل روجر بيغود، بسبب أن الكونتسة زوجته، كانت الابنة الكبرى لوليم الكبير، ايرل مارشال.

كيف تفجرت حروب متنوعة في جميع أرجاء ألمانيا

وفي العام نفسه أيضاً تفجرت الحرب في كثير من الأماكن من ألمانيا، وفي كثير من المناطق المجاورة لها، لأن كثيراً من النبلاء، ولاسيما من العلمانيين، تبنوا قضية فردريك، في حين وقف إلى جانب البابا، رئيس أساقفة كولون مع كثير من الأساقفة، ومثل ذلك بعض العلمانيين، الذين نعموا، أو بالحري أتخموا بأعطيات الكنيسة، وبالاضافة إلى هذا، نشب خلاف بين أبناء كونتسة فلاندرز، قاد إلى حرب مدمرة، تفجرت فيما بينهم، وذلك بسبب الابن الأكبر لـ «بوكارد Buchard, الذي لم يكن شرعياً، ولكن منح الشرعية من قبل البابا، فطالب بتملك بعض الميراث، غير أن الابن الثاني، الذي كان شرعياً، أعلن عن نفسه بحق أنه الوريث، وأعلن أن كل شيء هو عائد له، بموجب حق الوراثة، لذلك تورط في أعمال سلب ونهب واغتصاب، واكتسب الآن عرفاً جديداً أرضيته لدى البلاط الروماني، قضى أنه عندما تنشب الحرب بين أي نبلاء، يتبنى البلاط الروماني قضية الطرف الذي التجأ إليه طالباً المساعدة، محللاً هذا الطرف، ومصدراً حكم الحرمان الكنسي على الطرف الآخر، وعلى هذا فإن الطرف الذي استعان بوسائله، عدّ في جميع مستقبل الأيام مرتبطاً به، وقد تبرهن هذا بوضوح في قضية داود أمير شمالي ويلز، كما أدخلت عادة أخرى مقيتة، وهي أن أي كاهن كانت لديه وفرة من الموارد الغنية، وانتخب أسقفاً، قد سمح له بحرية —بموجب غفران بابوي جاء الحصول عليه عن طريق الوساطات والهدايا— بممارسة نهمه للاحتفاظ بالموارد التي كانت من قبل بين يديه، وكذلك بالأسقفية، وهذا واضح وقد تمثل بقضية وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، كما أن هناك أعرافاً أخرى شقت طريقها إلى البلاط المذكور، بذكرها شعرت قلوب رجال مقدسين بالحزن العميق.

كونت سافوي يقدم الولاء إلى ملك إنكلترا

وفي حوالي الـوقت نفسه، قام أمـاديوس Amadeus, كونت سافوي، الذي شعر عن حـق بتقدير كبير نحو ملك انكلترا، بحضور بونيفيس رئيس أسـاقفة كـانتربري، وبطرس أسقف هيرفورد، ونبـلاء آخـرين، وأصدقـاء وأقرباء الكونت المذكـور، وكذلك الملك، بتقـديم الولاء إلى الملك المذكور، على يدي رئيس الأساقفة، الذي شغل مكان الملك أثناء غيابه، وقام الكونت عن طواعية من ذاته، وبارادة شخصية فتـولى تثبيت الـولاء الذي عمله فيها يتعلق بورثـة الطرفين، بتعهـده بإيمانه وباليمين الذي لارجعة فيه، بمـراعاة الشيء نفسه، ثم إنه تسلم اقطاعاً من الملك تعلق بسوزا Suza مع قصرها، وفيلانا Veil-lana والقديس مـوريس دي شابلي Chablis, وقلعة باردو Bardo, وكـان بالامكان عمل هذا الولاء بشكـل آمن من دون خـرق لمصداقيتـه، أو تسبيب الأذى إلى الامبراطور، أو الامبراطورية، لأنه لم يكن بين يديه شيئاً من الامبراطورية إلاّ الماء، وحق عبورها.

كيف أن الاستخراجات المعتادة قد خففت شدتها

وفي هذه الآونة، تمّ بوساطة وكلاء ملك انكلترا في البلاط الروماني عمل ترتيبـات قضت أنه مع أن البـابا يتـولى حسب رغبتـه ومن دون تمييز في كل مكـان إعطاء المنافع الكنسية لفائـدة الايطاليين، حتى وإن أدى ذلك إلى إلحاق الضرر الذي لايحتمل بمملكـة انكلترا، ومع ذلك هدأت —بنعمـة الرب— العـاصفـة في ذلك الطـرف، لأنه ترتب انه كلما رغب بإعطاء منفعـة هناك إلى أي إنسـان، أو إلى أي واحـد من أقربائـه، أو إلى أقرباء الكرادلة، يتوجب عليه —أي البـابا— وكذلك على الكرادلة، أن يطلبـوا إذن الملك، وبنـاء عليـه إن كـان مـا يرضيـه سوف يجري تنفيذه.

كيف أصبح الدومينيكان والفرنسيسكان رسل البابا

ووجد فردريك في هذه الآونة أن البابا لديه كميات وافرة من المال الانكليزي، ولذلك مركز حرساً وكمائن، على الطرقات، وعلى الجسور، وفي الموانىء، لمنع أي واحد من جلب المساعدة من البابا إلى خصمه اللاندغريف، وبناء عليه أرسل البابا رسائل مواساة ومساعدات أخرى إليه بوساطة الدومينيكان والفرنسسيكان وهم متخفين، ومن جانب آخر تدبر فردريك إرسال مؤن إلى الأرض المقدسة.

ملك مان يتسلم مرتبة الفروسية

احتفل الملك في هذا العام بعيد الفصح بأبهة عظيمة في لندن، وفي يوم الفصح منح شرف مرتبة الفروسية إلى هارولد Harold ملك مان Man.

وفي تلك الآونة أيضاً، رغب بعض مقدمي النبلاء الويلزيين، بإقامة سلام مع الملك، فأرسلوا سفارة إليه، ورجوه بأكثر الالتماسات تواضعاً، أن يمنحهم بنود سلام.

مغادرة رسل الجماعة في إنكلترا إلى روما

وفي اليوم التالي لعيد الفصح، انطلق النبيلان اللذان عهد إليهما بواجب حمل الرسالة المهمة المتقدم ذكرها إلى البابا، وهما: المعلم وليم دي بوويرك Poweric, وكان رجلاً بارعاً في القانون، وهنري دي لى مير Mare, وكان فارساً، انطلقا برحلتهما إلى روما، يحملان الرسائل التي تقدم ذكرها من قبل، وقد ألقي ثقل الأعمال —على كل حال— على كتفي رئيس رهبان وينلوك Wenlock, الذي كان قد ذهب إلى البلاط الروماني ضد أسقف روكستر، بسبب بعض الأذى الذي لحق به من قبل ذلك الأسقف.

حول الأضرار التي تسبب بها الصقيع والثلج

في نهار وخلال ليلة عيد القديس مرقص الانجيلي، غطى الصقيع والثلج الأرض وربطها ببرد ثقيل جداً، وبذلك أضعف نمو أغصان الأشجار مع أوراقها، ولهذا زوت الأوراق وكذلك النباتات بشكل لايمكن تعويضه.

إعادة بارونيته إلى أسقف شيستر

وفي تلك الآونة لان جانب الملك بوساطة توسلات الأصدقاء، وبلطف أعاد بسلام إلى روجر أسقف شيستر تملك بارونيته، لأنه كان رجلاً لطيفاً في مسلكه، وكان يحظى برعاية جميع الأطراف.

مرسوم جديد وغير اعتيادي للبابا

وسمع البابا في هذه الآونة بأن بعض الكهنة في انكلترا، قد ماتوا أغنياء ومن دون وصية، وكان من بينهم المعلم روبرت هيل Hales, رئيس شمامسة لنكولن، الذي مات قبل عدة سنوات مضت، من دون وصية، وخلّف عدة آلاف من الماركات، وبعض الكؤوس من الفضة، آلت إلى ملكية علمانيين، وكذلك ألماريك Almaric, رئيس شمامسة بدفورد، الذي مات مخلفاً مبلغاً كبيراً من المال، بطريقة غير معتادة، وأخيراً المعلم جون دي هوتوفب Hotofp رئيس شمامسة نورثأمبتون، الذي أصيب بمرض مفاجىء، وبشكل غير حكيم، وغير معتاد، مات من دون وصية، مخلفاً حوالي خمسة آلاف مارك، وثلاثين كأساً من الذهب والفضة، وكميات ضخمة جداً من الجواهر، ولذلك أصدر قداسته مرسوماً جديداً، لم يسمع بمثله في انكلترا، إنها ليس من دون نيل تهمة الشره، وقضى هذا المرسوم، أنه من ذلك الوقت فصاعداً، إذا مات أي كاهن من دون وصية، فإن ممتلكاته ينبغي تحويلها إلى استخدامات البابا، وأصدر أوامر إلى رهبان

الـدومينيكـان والفرنسيسكان بتنفيذ هذا المرسوم، لكن عندما سمع الملك بهذا، وفي مقتـه لمضاعفـة شره البلاط الرومـاني، منع من تطبيق المرسوم، مشاهداً أنه يزيد من أذى المملكة، وذلك إضافة إلى الاضرار به.

وفي هـذه الآونـة تحرر المعلـم روبـرت أوف آرونـدل Arundel, الذي كان رجـلاً بارعاً تماماً باللغة العبرية، والذي قـام بصدق بترجمة كثير من الكتـابات من اللغـة العبريـة إلى اللاتينيـة، تحرر من المشـاكل البشرية، وقام بوداع العالم.

إصابة معلم أبناء الملك بالسكتة الدماغية

في أسبوع الابتهالات أمر الملك باتخاذ المزيد من الإجراءات الأمنية بشأن شعب المقـاطعات القـائمـة على ساحل البحـر، وفي سبيل ذلك ذهب إلى دوفـر، ومـن هناك إلى كـانتربري، ولدى عـودته من هناك، أصيب نبيل من حاشيـة بيته اسمـه هوغ غيفارد Giffard, وكان معلماً لأبناء جلالته، فجأة بسكتـة دماغية، وسقط على الأرض، ولفظ أنفـاسـه، وفي حـالة ألم كبير، وقـد قـال بعضهـم بأن هذه الحادثة قـد وقعت انتقامـاً من القديس ادموند المعترف، الذي كان رئيس أسـاقفة كانتربري، ذلك أنـه بالموت المفاجىء لواحد من جـانب الملك، يمكن أن ينذره، ويدفـع به للقيـام بعمـل ترضيــة لكثير الأذى الـذي أنزل بكنيســة كـانتربـري، وبشكل رئيسي بسبب أنه أسرع بشكـل طائش بترقيـة بونيفيس إلى مـرتبـة رئيس الأسـاقفـة، دون أن يسمح لرهبـان كـانتربري —بموجـب حقهم— بامتلاك سلطة حـرة بانتخـاب الذي يختارونه، لأن بونيفيس المذكور، بتوريطه نفسه بطرق غير معتادة وغير مـوائمــة في الحروب في القـارة، دونما ضبط، بل القيـام فقـط بافقـار كنيسته، قد تولى بشكل مهين الانحراف عن طرق أسلافه.

كيف منع ملك إنكلترا دفع الضريبة إلى البابا

وفي هذه الآونة أيضاً، أصدر الملك رسائله الملكية، محظراً على الأساقفة دفع الضريبة إلى البابا.

وكتب إلى السيد راعي دير القديس ألبان، وإلى الآخرين كذلك، الرسائل التالية: «من هنري، الذي هو بفضل الرب ملك انكلترا، إلى المحبوب لديه كثيراً في المسيح راعي دير القديس ألبان، تحيات: لقد سمعنا بأن الأب المبجل فولك Fulk, أسقف لندن، يرغمكم على دفع ضرائب من أجل استخدام البابا، وقد دهشنا لذلك كثيراً وانزعجنا، لأنه كان قد تقرر بشكل جماعي أثناء الاجتماع المتقدم ذكره، من قبل الأساقفة المذكورين، والنبلاء، عدم فعل أي شيء يتعلق بتلك الضريبة، قبل عودة الرسل من البلاط الروماني، الذين إليه قد أرسلوا، كما تعلمون، بمهمة خاصة تتعلق بمملكتنا كلها، وبناء عليه نحن نأمركم، وبكل دقة نمنعكم من محاولة القيام بأي شيء معاكس لما تقدم الأمر به، أي بناء على أمر الأسقف المذكور، أو أي واحد آخر، مادمتم تؤثرون المحافظة بسلام على امتلاككم لبارونيتكم، التي هي بحوزتكم منا، لأننا لن ولايمكننا أن نتحمل أية محاولة من هذا النوع. شهدت بنفسي في ويستمنستر، في هذا اليوم الأول من نيسان، في السنة الثلاثين من حكمنا».

رسائل بابوية لاستخراج الأموال أرسلت إلى أساقفة إنكلترا

وحوالي الوقت نفسه، ولكي لاتتوقف جباية الضرائب المزعجة من الانكليز، عمل البابا أكثر الطلبات سرعة وإلحاحاً، من أجل مبلغ كبير جداً، واضعاً ثقته في الذهب والفضة، معاملاً بازدراء كل محاولات التذمر والشكوى الصادرة عن ملك انكلترا والجماعة كلها في تلك المملكة، والذين كانوا يكتبون ويتشكون، ولم يصغ إلى القول الصحيح

والسليم: «بورك الرجل الـذي لم يخرج عن طريقـه سعيـاً وراء الذهب، والذي لم يضع ثقته في مخازن المال»، وقد عيّـن بمثابة وكلاء لاستخراج هذه الضريبـة وجمعها، وولتر أسقف نورويـك، مع بعض الآخرين، قـد أنابهم ليكونـوا رسـلاً خـاصين لهذه الغـاية، وبناء عليـه كتب أسقف نورويك إلى راعي دير القـديـس ألبـان، ومثل ذلك فعل أيضـاً بالنسبـة لبعض الآخرين بالعبارات التالية الحاوية لما جاء في رسالة البابا:

«**من وولتر، الذي هـو بنعمـة الرب أسقف نورويك إلى راعـي الدير المبجل والمجمع الرهبـاني لدير القـديس ألبـان، صحة دائمـة:** لقد تلقينا وصاية من مولانا البابا محتواها هو كما يلي»:

«**من أنوسنـت، الأسقف، وعبـد عبيـد الرب، إلى أخـويه المبجلين أسقفي وينكستر ونورويك، صحة ومباركـات رسولية:** كنا من قبل، كما نذكر جيـداً، قد كتبنا إلى إخواننا المبجلين، أسـاقفة لنكولن، ووركستر، ولندن، وكـوفنتري، بما يلي: بما أنه تم مـؤخراً، قبل عـودتكم إلى انكلترا من عند حضرتنا، قـد رتبنا معكم، أنه بالنسبة لتقـديم مبلغ الستة آلاف مـارك، الذي هو مطلوب من الكنائس الانكليـزية، لصـالح الكرسي الرسـولي، يتـوجب جمعـه، تحت توجيهكم، من بين أسقفيـات انكلترا، ونحن في هذه الكتـابات الرسـوليـة نأمـر اخـوتكم، أن تخبروننا بأقصى سرعة ممكنة في رسـائلكم، حتى نعهد إلى حـاملي هذه العروض، بالذي من الممكن أن تفعلوه، أو ربما بالذي قـد فعلتمـوه، حول هذه القضيـة، وأن تذكروا لنا أيضـاً، وقت ومكان الدفع، وإذا كان من غير الممكن أن لاتكونوا جميعاً حاضرين أثناء تنفيـذ هذه القضايا، ليقم على الأقل ثلاثة أو اثنين منكم، بدون تقـاعس، بالاشراف على تنفيذ هذه القضـايا، وبما أنه لم يصـل إلينا منـذ ذلك الحين أي شيء حـــول هـذه المسألـة، نحن نحذركـم باخلاص، وبهذه الكتابـات الرسولية نـأمر اخوتكم، أنـه فور تسلم هذه الرسائل، بإعطاء انذار إلى الأساقفـة المذكورين، الذين سوف

يكونوا موجودين في انكلترا، وأن تأمروهم بموجب سلطاتنا، بالالتقاء بكم في اليوم العشرين بعد استلام هذه العروض، في أي مكان محدد، ترون من المناسب إقراره، من أجل ترتيب قضية ذلك الاسهام، وعليكم في ذلك اليوم، وقبل مغادرتكم من هناك، أن تعدوا خطة تقسيم مع الأساقفة الذين يحدث أن يكونوا موجودين هناك، وإذا حدث على كل حال أنه لم يكن أي واحد منهم حاضراً، وحول تلك القضية ما من إجراء تمّ اتخاذه، يتوجب عليكم خلال إطار شهر واحد من ذلك الوقت، أن تتدبروا أن يدفع إليكم شخصياً، أو إلى رسلكم، في أي مكان ترونه مناسباً لاختياره لتلك الغاية، دفع مبلغ المال الذي تقدم ذكره، من أجل استخدامات الكرسي الرسولي، وفقاً للترتيبات التي عملت من قبل في تلك البلاد، اعتماداً على سلطة ولدنا المحبوب كثيراً، المعلم مارتن، كاهن حجرتنا، وهو الأمر الذي أرسلناه الآن إليكم تحت ختمنا، واضبطوا جميع المعارضين بوساطة الروادع الكنسية، وضعوا جانباً كل التماس، وأي غفران، وأي امتياز، أو المرسوم المتعلق برحلة اليومين، الذي صدر في المجمع العام، فهذا لاتولوه الاهتمام، وعليكم أن ترسلوا إيصالاً إلينا من دون تأخير، وأن تخبرونا بالذي عمل، أو الذي من الممكن عمله حول هذه القضية، وليكن ذلك بوساطة ولدنا المحبوب كثيراً ليناسيوس Linasius، كاتبنا والحامل لهذه العروض، وأظهروا أنفسكم بالنسبة للقضايا المتقدم ذكرها، أنكم على درجة عالية من اليقظة، حتى لاتتهموا بالاهمال بالنسبة لها، لابل بالحري أن يثنى عليكم بالنسبة ليقظتكم، وإذا لم يكن من الممكن حضور اثنين أثناء هذا العمل، واحد منكم، مع هذا يمكنه القيام به».

«وعلى هذا إنه بموجب سلطة هذه الوصاية، نحن ننذركم ونحثكم، باسم المولى، ونفرض عليكم بكل دقة، وبموجب فضيلة الطاعة التي أنتم مرتبطون بها إلى الكرسي الرسولي، وأنه بالنسبة لما يتعلق بحصة

البـابا المحـددة لكم، فإن رسلنا سيجلبـون إليكم رسائل مـوثقـة تتعلق بدفع هذه الحصـة، ولسوف يتلقـون ترضيـة منكم خلال ثلاثة أسـابيع، تحسب من بعـد عيـد الفصح، وعليكم إظهـار كل يقظة حـول هذه القضيـة الحاليـة، حتى نمتلك سبباً بأن نثني على اخـلاصكم إلى الحبر الأعظم، وحصتكم هي ثمانية ماركات استيرلينية، وداعاً في الرب. صدر في لندن في الرابع والعشرين من آذار سنة ألف ومائتين وخمس وأربعين، ونحن قـد كتبنا إليكم وحـدكم، لأن أخينا المبجل وزميلنـا أسقف وينكستر، قد اعتذر لبعض الوقت».

الملك يمنع دفع الضريبة إلى البابا

ولدى وصـول خبر هذه الوصـاية إلى مسـامع الأسـاقفـة والنبـلاء، سببت إثارة كبيرة، وقلقاً في قلوب الذين سمعوا بها، وبشكل خاص أن رسل الجماعة الانكليزية قـد اشتكوا من مثل هذه المظالم في مجمع ليـون، وبعـد ذلك في البرلمان الذي عقده من قبل ملك انكلترا، الذي اجتمعت فيـه كل جماعـة رجـال الدين، ومثل ذلك كتلة الفـرسـان، حيث تقـرر آنذاك –بصرف النظر عـن احترام البـابا– وجـوب بعث رسـل آخـرين من الجماعـة إليـه، لإقناعـه بـاستخـدام يد التصحيح لمثل هذه المضار، وليس اليد المثقلة بالمظالم، ولذلك غلبتهم الدهشـة، ففي الوقت الذي كـانـوا فيـه متـوقعين إنهاءً لاضطراباتهم، أعيقت آمـالهم، ونالوا المزيد من الظلم، ولذلك عندمـا وصل خبر الرسـالة المتقـدم ذكـرها إلى علم الملك، انفجـر غاضبـاً بعنف، وكـان مندهشـاً، فكتب إلى أساقفـة انكلترا بما يلي: «**من هنـري الذي بنعمـة الرب، إلـخ، إلى الأب المبجل بالمسيح، الأسقف كـذا وكـذا، تحيـات:** مع أننا كنا قـد كتبنا إليكم في أوقات متقـدمة، مـرة أولى، ثم مرة ثانيـة، ومرة ثالثـة، بوساطة رسـائل خـاصة، وكـذلك بوساطة رسـائل مـوثقة، نأمـركم بعدم الاستخـراج، لاستخدام البابا، أو أي انسـان آخـر، أية ضرائب أو أموال مساعدة من

الرهبان، أو الكهنة أو الرجال العلمانيين، لأنه ما من ضريبة أو فريضة من هذا النوع، قد كانت عادة قط، كما أنها لايمكن فرضها من دون إلحاق أضرار كبيرة بكرامتنا الملكية، الأمر الذي لايمكن احتماله ولن نتحمله، ومع ذلك لقد استخفيت بأمرنا في هذه القضية، وعملت بشكل معاكس للمرسوم الذي عمل في مؤتمرنا في لندن، ومن قبل نبلائنا، وأساقفتنا، وكذلك من قبل ايرلاتنا، وباروناتنا، وتابعت مع ذلك تقوم بمثل هذه الجبايات، كما تقدم الذكر، وبشأن هذا التصرف نحن مندهشون كثيراً، وغاضبون، خاصة بما أنك لم تخجل من الاقدام على الوقوف ضد عملك، حيث أنك بالموافقة مع الأساقفة الآخرين، قد وافقت في المؤتمر الأخير، بأنك لن تعمل شيئاً في مسألة هذه الضرائب، حتى يتمكن رسلنا، الذين هم رسلك، وأيضاً رسل النبلاء الآخرين، وجماعة المملكة كلها، من العودة من البلاط الروماني، إلى حيث كانوا قد أرسلوا بشكل خاص، كما تعرف، لتخليصنا من مظالمنا، ولذلك نحن نفرض عليكم أوامرنا، ونمنعكم بكل دقة من السير في أية طريق من أجل استخراج الضريبة المذكورة، أو فرضها، طالما أنك ترغب بالتمتع بتملكك لبارونيتك، والممتلكات الأخرى التي هي بين يديك في مملكتنا، وإذا كنت قد تسلمت أي شيء هنا، إنه غير مسموح لك، ولابأي شكل من الأشكال بحمل ذلك إلى خارج المملكة، بل الذي عليك حفظ ذلك في مكان أمين حتى عودة الرسل المذكورين، ونودك أن تعرف بشكل مؤكد، أنك إذا تصرفت بشكل معاكس، لسوف نلقي بيدنا الثقيلة على ممتلكاتك، إلى مدى أبعد مما تتصوره، ونحن نفرض عليك أن تتولى نشر هذا الحظر على رؤساء شمامستك والموظفين الآخرين، وإن هذا الحظر، الرب يعلم، أننا عملناه لضمان حرية رجال الدين، ومثل ذلك الناس، إلخ».

المصاعب والاضطرابات التي نجمت عن الخلاف بين الملك والبابا

وبناء عليه وضعت الكنيسة الانكليزية في وضع حرج، وقد سحقت بشكل مخيف، لأنها وقعت بين حجري رحا، دار كل منهما بالاتجاه المعاكس للآخر، فقد كان على الجانب الأول صخرة سيلا Scylla المخافة، وعلى الجانب الآخر دوامات الماء المرعبة، فقد كان الملك في هذه القضية مدعوماً ومؤيداً من قبل الرأي العام، الذي ناضل في سبيل الحفاظ على المملكة وعلى اصلاحها، في حين استهدف البابا إفقارها، وكانت الفئتان متواجهة إحداهن مع الأخرى عن بعد، وخاف كثير من الأساقفة من عدم استقرار الملك في هذا الشأن، فيما يتعلق بنواياه المتصورة، ومن جبن المستشارين الملكيين، المرتبطين بقضية البابا، مع أنهم ربما قد رأوا بأن الكنيسة لن تتلقى المزيد من التقدم بوساطة انفاق مثل هذه الأموال، بل لربما سوف تجني الأذى والمعاداة.

الأخبار المحزنة التي جلبت من الأرض المقدسة

وانتشرت في الوقت نفسه أخبار محزنة من الأرض المقدسة، في البلدان المسيحية، وتحدثت عن أن الأرض المقدسة المذكورة باتت كلها تقريباً محتلة من قبل الخوارزمية والمصريين، وبات سكان عكا أيضاً، الآن إما خائفين، أو لاخيارات أمامهم، أو غير قادرين على مغادرة مدينتهم، وكانوا متوقعين إما بأن يحاصروا، أو أن يرغموا على تسليم مدينتهم، لأنهم عانوا من نقص كبير في المؤن، إلى حد أنهم أخذوا يتلاشون بين أنفسهم، كما أنه لم تبق لديهم أية آمال بالخلاص، وكان فردريك قد أصبح الآن مطرقة رعب للكنيسة، ولم يعد يسمح بأية مؤن أو مساعدات على شكل عساكر، بأن تنقل إلى أهل عكا، معلناً بأن الكنيسة الرومانية لم تمتلك قط مثل هذه الأرضيات الفعالة لاستخراج

المال من المسيحيين، التي عليها استغنت وغدت متشامخة، وفعلت ذلك اعتماداً على الاستجداء من أجل الأرض المقدسة، وعلى التبشير المجرب من أجل حملة صليبية، في سبيل تحريرها، وعسقلان التي أنفق في سبيل تحصينها الايرل شارل أموالاً كثيرة، وجهوداً عظيمة، خلال وقت طويل، وعمل متواصل ومخلص، وذلك بالتعاون مع كثير من النبلاء الآخرين، عسقلان هذه كانت الآن تعاني من أقسى الحملات ضدها وأشدها، من قبل الأعداء، وبصعوبة متناهية كان بإمكانها الدفاع ضدهم، وبدت قلاع أخرى، كانت قد ظهرت من قبل أنها لاترام، من ذلك على سبيل المثال الكرك وعثليت، وبعض المدن والحصون، بدت لخوف السكان بهم، وقد انعدمت لديهم آمال النجدات، أنها أصبحت سجوناً لهم، ولم تعد أماكن للحماية، وكان هذا مصدراً للخوف ولانعدام الثقة، وكان الصليبيون من كل جانب محاصرون من قبل أعدائهم، الذين تجولوا من حولهم حسبما رغبوا وشاءوا، وانخرطوا في النهب، وتمتعوا بالنصر بسرور، حتى أنهم اعتقدوا أنه سوف يكون من الأفضل لهم الموت بدلاً من الاستمرار في هذا الوجود التعيس أية مدة أطول، ولذلك تذبذبوا في إيمانهم، لابل بالحري باتوا محبطين كلياً فيه، وهجروا القداسات المسيحية، وأصبحوا مرتدين، وهكذا أصبح أصدقاؤنا أعداء لنا، مؤذين لنا أكثر من الآخرين.

حول البارلمان الذي عقد في وينكستر

في يوم موت القديس توماس الشهيد، عقد مؤتمر كبير بين الملك وبين نبلاء المملكة في وينكستر، حول الوضع التعيس للمملكة كلها، وخاصة الكنيسة، لأن الرسل الذي كانوا قد أرسلوا إلى البلاط الروماني قد عادوا، وهما المعلمان: وليم دي باوريك، وهنري دي لى مير، اللذان جلبا رسالة من البابا، تضمنت لاشيء حول الرفع، بل تضمنت بالحري كلمات غضب، وأعلنا أنهما لم يستطيعا أن يريا في سلوك (البابا) أو

كلامه أية علامة على التواضع أو الاعتدال، بالنسبة لقضية المظالم، التي أغرقت بها مملكة انكلترا وكذلك الكنيسة، والتي من أجلها عملت الشكوى، لأن البابا كان قد قال لهما، وهو يبحث عن جواب ما مرضياً لهما: «إن ملك انكلترا، الذي يتحرك الآن ضدي، وحاذياً حذو فردريك، لديه خططه، وأنا لدي خططي التي سوف أتبعها»، وبات من ذلك الوقت من الصعب جداً أن يستطيع الانكليزي ترتيب أي عمل في ذلك البلاط، بل طرد الانكليز جميعاً وعوملوا كمنشقين، وأثيروا بوساطة الاهانات، وأثارت هذه الأخبار، مع سبب جيد، غضب الملك، وغضب نبلائه، وأمر الملك على الفور الإعلان العام بوساطة المنادين، في جميع الكونتيات، وفي جميع أرجاء القرى، وكذلك خلال الأسواق، وأماكن تجمعات الناس، أنه لايجوز لأي واحد الموافقة على أية اسهامات مالية لصالح البابا، أو تحويل أية أموال لمساعدته، وقد وضع هذا موضع التنفيذ، ولدى سماع البابا بهذا، أثير بوساطة غضب عنيف، وكتب مجدداً بطريقة أكثر حدة إلى الأساقفة الانكليز، آمراً إياهم، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي والتعليق، بإرضاء رسوله، الذي كان مقيماً آنذاك في المعبد الجديد في لندن، حول قضية المساعدة المالية المتقدم ذكرها قبل عيد الصعود، ومع أن الملك كان قد استعد من قبل للصمود في سبيل حرية المملكة والكنيسة، غير أنه أذعن الآن، وخرق قراره، وأصبح خائفاً من التهديدات الصادرة عن أخيه رتشارد، وعن بعض الأساقفة، الذين كان المقدم بينهم أسقف ووركستر، الذي إليه —كما يقال— عهد البابا بسلطات إلقاء عقوبة التعليق من شراكة المؤمنين على البلاد جميعاً، وبذلك باتت مساعي جميع النبلاء، ومثل ذلك الأساقفة، بلا فائدة، وقد تلاشت جميع الآمال بتخليص المملكة الانكليزية والكنيسة، وماتت، مما سبب المرارة وشعور الأسى في القلب إلى كثيرين، وأرضى لهاث النهم الروماني، مع تهمة الشره حول مسألة الاسهامات المالية المذكورة.

كيف استخرج الملك الفرنسي والبابا العشر مع جزء من عشرين من جميع ممتلكات المملكة الفرنسية

وفي سبيل أن لاتظهر هذه الفريضة فريدة بين المسيحيين، ولكي لاتظهر يد الرب أنها توفر أحداً، أو بطيئة في معاقبة ذنوب شعبه، أفقرت المملكة الفرنسية الآن بشكل مدهش ومؤلم بوساطة استخراجات بارعة الاختراع من قبل البابا، لأن الملك الفرنسي، الذي كما تقدم ذكره، قد أعاده الرب إلى الحياة، أو على الأقل أعاده من بوابات الموت بشكل اعجازي، قام الآن بناء على إذن من البابا، ومبادرة منه، بظلم مملكته بعدة طرق مضاعفة باستخراج مبالغ كبيرة من المال، بحجة الوفاء بحجه بطريقة توائم مرتبته، فقد أخذ عشر موارد جميع كنائس مملكته، وبالإضافة إلى هذا، أخذ البابا جزئاً من عشرين، وكأن ذلك قام بناء على اتفاق بينهما، أخذه من أجل مساعدة الأرض المقدسة، ولكل واحد منهما لمدة ثلاث سنوات، وطلب البابا اسهاماً آخر من أجل الامبراطور الجديد، الذي عرف من قبل باسم اللاندغريف، وهو الذي أوجده البابا لاخضاع فردريك، وقد بدا هذا الأخير لكثيرين غير ممكن قهره، ولقد قيل بأنه كان عبثاً محاولات البابا خلع فردريك المذكور من منصبه الامبراطوري، ذلك أنه ربح طريقاً مدهشاً، ووعد بكل نوع من أنواع الترضيات، في حين لم يتنازل البابا بقبول التواضع، ونال مشاعر الكراهية ضده من كثيرين، ونصب فردريك المذكور في الوقت نفسه كمائن، للاستيلاء على الأموال، التي جمعها البابا بنشاط من جميع الجهات، ولإضافتها إلى خزائن أمواله.

تكريس الدير الذي اسمه بوليو

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، جرى تكريس كنيسة تابعة لطائفة رهبان السسترشيان، اسمها بوليو Beaulieu, وذلك في الدير الرعوي الذي كان الملك جون قد

أسسه، وجرت عملية التكريس بشكل مهيب مناسب، وفي أثناء الاحتفال، كان الملك حاضراً والملكة، والايرل رتشارد، أخو الملك، وأساقفة المملكة ونبلائها، وبعد اكتمال أعمال التكريس المهيبة، أخذ الايرل رتشارد من صدر تلك الكنيسة، حوالي الثلاثين راهباً، ليسكنوا في بيت ديني تابعاً لطائفة السسترشيان، كان هو —أي الايرل المذكور— قد أسسه وبناه على حسابه، في سبيل تخليص روحه، في مكان مناسب قرب دير وايشيكومب Wychecombe, والذي منحه منحاً وافرة وأغناه، تماشياً مع العهد الذي كان قد قطعه عندما كان في خطر في البحر.

موت إيزابيلا أم ملك إنكلترا

من المعتقد أن الحادثة التي تقدم ذكرها أعلاه، لم تقع من دون تدخل الحكمة الإلهية، لأن كونتسة التخوم، أم ملك انكلترا، والايرل الذي تقدم الآن ذكره، والتي اسمها ايزابيلا، أذعنت في هذه الآونة للموت، وهي في حاجة ماسة للمنفعة الروحية الصادرة عن أعمال إحسان الأتقياء.

موت كونتسة ألبيميرل

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، تحررت كونتسة ألبيميرل Albemarle, وابنة ألان أوف غالوي Galway, وأخت كونتسة وينكستر، تحررت من جميع الاضطرابات الدنيوية، وبهذا الموت فإن شطراً كبيراً من غالوي، الذي كان عائداً إليها، آل الآن، بسبب موتها من دون أطفال، إلى روجر دي قوينسي Quincy, الذي كان ايرل وينكستر، وكان متزوجاً من اختها الكبرى.

موت جون دي نيفيل

وفي السنة نفسها، وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، غادر جون دي نيفيل Neville طريق الجسد المطروق كله كثيراً، وكان هذا النبيل من قبل

له أهميـة كبيرة بين نبـلاء انكلترا، وباتباعـه لخط سير أبيـه خطوة خطوة، وصل إلى ذروة الكرامة الأرضيـة، وقد ترك الآن مثـلاً واضحاً إلى سكان هذا العالم، بعدم الثقة بحظوة الملوك، وأن يتجنب تقلبات البلاط، لأنه في مطلع رجولتـه، عندما كان المسـؤول الأعلى عن الغابات في جميع انكلترا، تم تقديم عـدد كبير من التهم الثقيلة ضده، تولى تقـديمها روبرت باسلو Passlow, باحتـلالات غير شرعيـة للغـابات، وتجاوزات أخـرى، ولأنه أخفق في أجوبته، وفي تبرئة نفسه، أدين بناء على شهادة أبناء منطقته وتقـدير المحكمين، وسقط إلى وضع مهين كثيراً، حيث غـدت حيـاته من ذلك الوقت قطعة من الموت، لأنه أدين قضـائياً بدفع ألفي مارك، وذلك بالاضافـة للدين الكبير لأبيه الذي سقط فـوق كتفه، وبالاضـافة إلى هذا جـرى تجريده بشكل مـذل ولاعـودة فيـه، مـن بارونيتـه، ولذلك أنهك، وتلاشى خـلال الحزن، وفي حـوالي منتصف الصيف لفظ أنفـاس روحـه التعيسـة، في عـزبتـه في ويلبيرفيلد Welperfield, وقـــد دفن بشكل محترم إلى جانب ضريح أبيه في الكنيسة الديرية لوولتهام Waltham.

كيف لبس أسقف كارآيل رداء رهبان الدومينيكان

في يوم عيـد القـديسين بطرس وبولص، قـام وولتر أسقـف كـارآيل، بالتخلي عن العـالم الذي تعلق به طويلاً، كما تخلى عن الشـؤون الدنيـوية، ولبس في اكسفـورد رداء طائفـة رهبـان الدومينيكان، لأنه خـاف من أن قبوله في تلـك الأسقفية لم يكن قانـونياً، وقد هرب تـاركاً رداءه بين يدي امرأة مصرية.

رسائل بابوية أرسلت إلى الرهبان الفرنسيسكان

وفي العام نفسـه، بعدمـا أصدر البـابا المرسوم الذي سلـف ذكره، أي المرسـوم حـول ممتلكات الذين مـاتوا من دون وصيـة، بأنها يتـوجب أن تؤول إلى استخـدامه، وكان قـد عيّـن رهبـاناً دومينيكان لوضعه مـوضع

التنفيذ، وقد صار قلقاً حول امبراطورية القسطنطينية، وانزعج بسبب صلف الاغريق في انشقاقاتهم، وبناء على ذلك أرسل رسائل تحتوي على وصاية بابوية مع بنود أخرى، إلى الرئيس الاقليمي للفرنسيسكان في انكلترا، جاعلاً بشكل قانوني الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان نوابه، وبذلك نأى بهم عن طريق التواضع والفقر التطوعي، وهو ماكانوا قد اتخذوه عقيدة لأنفسهم ولأتباعهم، وكان فحوى هذه الرسائل: «هو أنه هو أو رهبانه عليهم البحث فيما يتعلق بممارسي الربا، الذين كانوا يعيشون، وحول مرابحهم بوساطة ذنب الربا، وأن يجمعهم من أجل منفعة امبراطورية القسطنطينية، وأن يضبط جميع المتذمرين بوساطة الروادع الكنسية»، وحول مقصد آخر، كان أن كتب بأن «الذين سوف يحملون عن طواعية الصليب من أجل تحرير تلك الامبراطورية، أو سوف يرسلون كمية كافية من ممتلكاتهم، سوف يكون هناك تحليل من ذنوبهم»، وأمر آخر هو «أن عليهم أن يجمعوا وصايا الأشخاص الموتى، والتي حصلوا عليها بوساطة الربا، وأن يضبط جميع المتذمرين بوساطة الروادع الكنسية»، وكان فحوى واحد آخر هو «أن عليهم أن يجمعوا من أجل مساعدة الامبراطورية المتقدم ذكرها، الممتلكات التي تركت بموجب وصية من الأشخاص الموتى، أو الذين سوف يتركون لمدة ثلاثة أعوام من أجل استرداد ممتلكاتهم، وهي التي استحوذ عليها الأشخاص الموتى بوساطة الآثام أو سوء التصرف، وضبط جميع المتذمرين والمعارضين»، وكان آخر من أجل أن «الممتلكات التي تركت حتى يجري توزيعها في سبيل مقاصد خيرية، وفقاً لقرار أوصياء الميت، وهي لم يجر تحديدها من قبل الأوصياء أنفسهم لأشخاص محددين أو أماكن، أو أشياء مثل التي هي حق متوجب لآخرين، أو جرى تحويلها من قبل الأوصياء إلى مثل هذه الاستخدامات، يتوجب جمعها من أجل مساعدة الامبراطورية المتقدم ذكرها، ووجوب اعطاء ملاحظة حول كمية المبالغ، وضبط» إلخ، إلخ، وأمر آخر استهدف أن «عليهم القيام بالبحث في

ممتلكات الأحياء، التي تم الحصول عليها بشكل شرير، ومن ثم عليهم جمعها من أجل مساعدة الامبراطورية المذكورة، شرط عدم وجود أشخاص يمكن أن تقدم إليهم ترضيات من أجل مثل هذه الممتلكات التي تم الحصول عليها بشكل شرير، وعليهم ارسال إيصال إلى البابا، وضبط»، إلخ، إلخ، وأوردت محتويات آخر أن «الرئيس المذكور لديه سلطة تحليل أشخاص من الحرمان الكنسي، لأنه معروف ممارستهم الغش في مسألة الممتلكات، التي سوف تجمع لمساعدة الامبراطورية المتقدم ذكرها، شرط تقديمهم ترضية موائمة إلى الرئيس المذكور، أو إلى رهبانه، الذين يتوجب إنابتهم لهذا الغرض».

كيف سأل البابا إقامة سلام بين الصليبيين والمسلمين

وفي حوالي الوقت نفسه سأل البابا سلطان مصر أن يمنح سلماً (أو على الأقل هدنة) بين الصليبيين والمسلمين، حتى يتحقق أمل أن يبتسم الحظ ثانية ويحل على الصليبيين بوساطة عون المملكة الفرنسية، وعلى هذا الطلب كتب رداً بما يلي:

الرسالة التي أرسلت من سلطان مصر إلى البابا
وترجمت من قبل كاردينال من العربية إلى اللاتينية

«إلى حضرة البابا» —عنوان الرسالة— «النبيل، العظيم، الروحاني، الكريم، المقدس، الثلاثين بين الرسل، المتحدث العالمي باسم المسيحية، المحافظ على عبّاد الصليب، القاضي للمسيحيين، قائد أبناء العماد، الحبر الأعظم للمسيحيين، منحه ربي القوة وأعطاه السعادة.

من السلطان الأعظم، المتسلط على رقاب الشعوب، المتملك للفضيلتين: فضيلة السيف، وفضيلة القلم، ولميزتي العلم والقضاء، ملك البحرين، وسيد الشمال والجنوب، ملك بلدان مصر والشام، والجزيرة، وميديا، وأدوم، وأوفير، الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان

الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبو بكر ابن أيوب، حفظ الله مملكته.

بسم الله الرحمن الرحيم: لقد قدمت إلينا رسائل من البابا، النبيل، والعظيم، والروحاني،والكريم، الثلاثين بين الرسل، المتحدث العالمي باسم المسيحية، المحافظ على عبّاد الصليب، القاضي للشعوب المسيحية، قائد أبناء العماد، الحبر الأعظم للمسيحيين، جعله الرب واحداً من الذين يرغبون بالخير، ويعملون به، ومن الذين يريدون السلام، واتباع طريقه، أعانه الله، في هذه المسائل التي هي نافعة للذين يعبدونه ومن أهل دينه، وللآخرين.

ولقد رأينا الرسائل المذكورة، وفهمنا البنود التي أدخلت فيها، ومحتوياتها، ولقد فرحنا، وابتهجت آذاننا بسماعهم، ووصل إلينا رسول أرسل من قبل قداسة البابا، ولقد استقبلناه بالتشريف، والتقدير، والاحترام، واستدعيناه للمثول بحضرتنا، وأصغينا لسماع كلامه، ووثقنا بما قاله، عندما حدثنا عن المسيح، عليه السلام، وبالنسبة للمسيح المذكور، نحن نعرف عنه أكثر مما تعرفون، ونحن نمجده أكثر مما تفعلون، وفيما يتعلق بالذي قلته، من أنك ترغب بالسكون والسلام والهدوء، وأن تمتلك الوسائل لدعوة الناس إلى السلام، نحن مثل هذا نرغب بالشيء نفسه، كما أننا لانرغب في معارضة رغبتك، لأن تلك دوماً رغبتنا ومبتغانا، وليعلم البابا، حفظه الله ووقاه، بأن صداقة وتقديراً متبادلاً، وحسن نوايا، قد تأسس منذ زمن طويل، فيما بيننا وبين الامبراطور، وذلك منذ أيام أبينا السلطان، الذي يحيطه الله برحمته في كنفه، وبينك وبين الامبراطور، أنت تعلم كيف هي الأحوال قائمة، وبناء عليه نحن لانمتلك الحرية في عمل أية اتفاقيات مع الصليبيين من دون أن نعرف رأيه أولاً ونأخذ موافقته حول المسألة، وقد كتبنا إلى مبعوثنا، الموجود الآن في بلاط الامبراطور، من أجل الأسباب التي

ذكرت إلى رسل البابا، ومبعوثنا هذا سوف يأتي إليكم، وسوف يتكلم معكم، ويجلب الجواب إلينا، وعندما يفعل هذا، سوف نتصرف بناء على فحوى ذلك الجواب، ولسوف لن نتمنع عن الموافقة لما سوف يبدو أنه لمصلحة الجميع بشكل عام، حتى نتلقى الثواب من الله،ورسولنا هذا إليكم، بإذن الله، سوف يكون صالحاً للجانبين. وكتب هذا في اليوم السابع من شهر محرم، الموافق لليوم السابع من شهر آب، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وعسى أن يكون (صلى الله عليه وسلم) شفيعنا».

شكوك حامت حول وثائقية الرسالة المتقدم ذكرها

وعندما وصلت هذه الرسالة إلى البابا، أعلن أن كثيراً من أشكال الخداع، قد تدبرها فردريك بمكره في أن تفعل، في سبيل أن يجري اقناع البابا بسهولة أكبر، حتى يعيد تأسيس السلام معه، لكن كما يبدو هذا غير صحيح، لأن البابا كان قد أرسل رسوله، وكان رجلاً موثوقاً، ومعروفاً تماماً من قبله، ليحمل رسالته، ليجلب إليه الجواب، وقد عاد مخلصاً إليه سليماً ومعافى.

عواصف رعدية غير معتادة

وفي سبيل أن تكون العناصر متوائمة مع أحداث العالم، حدث في هذه الأيام، أي في اليوم الذي تقدم على عيد القديسة مرغريت، أن ثارت عاصفة هوجاء مخيفة، ترافقت مع رعد وبرق، وبسقوط برد، كانت حباته ذوات زوايا حادة، وكل منها أكبر من حبة اللوز، وقد دمرت الطيور، لابل حتى بعض الحيوانات، وأزعجت المنطقة كلها في جميع الأرجاء، وأتلفت أشجار السنديان، وأطاحت بالأبنية، وأحرقت الناس، ودمرت المواشي والسائمة، وحطمت الجسور بالمياه المتدفقة وقد استمر هذا كله لمدة ست عشرة ساعة، أي طوال الليل وبعض النهار.

ولادة صبي للإيرل رتشارد توفي بعد ذلك فوراً وأيضاً ادخال مجموعة من الرهبان إلى بيت طائفة السسترشيان في وايشيكومب

في الوقت الذي كانت أحداث العالم هكذا عاصفة متنوعة بالنسبة للفانين، قام فردريك الذي خلعه البلاط الروماني من منصبه الامبراطوري، فأرسل الرسالة التالية إلى ملك انكلترا، وإلى أخيه الايرل رتشارد اللذين عدّهما بين أصدقائه المقربين:

«**من فردريك، إلى ملك انكلترا، إلخ، تحيات**: خشية من أن تبتعد السمعة —التي هي متنوعة مختلفة باختلاف آراء الناس الكثيرين، والمتأثرة بميولهم المتنوعة— أحياناً بكثرة عن الحقيقة، وأن تؤذي أذنيك، وتزعج قلوب الأصدقاء، وتدغدغ مسامع ومشاعر أعدائنا، إننا سوف نخبركم باختصار في هذه العروض بالحقيقة النقية والمجردة، حول الأحداث التي وقعت مؤخراً، فلقد جرى التخطيط لمؤامرة ضد حياتنا من قبل بعض رعايا جلالتنا، أو بالحري من قبل بعض حاشيتنا، والمعتمدين لدينا، وهم: ثيوبولد فرانسيس، وجيمس دي مورا Morra, وباندولف Pan-dulph دي فاسانيلا Fasanella, ووليم دي سينت سيفيرينو Severino, وبعض أتباعهم، وقد كشفت المؤامرة الشريرة إلينا، من قبل بعض المتآمرين من ذلك الحزب، وهكذا أنقذنا الرب من بين أيديهم وحفظ حياتنا من دون أذى بشكل مدهش، لكن مع أننا عددنا مثل هذه الجريمة جريمة لاتصدق، كانت هي بالفعل غير جائزة قمنا بإجراءات فحص أبعد حول حقيقة القضية، وبناء عليه تبين أن باندولف دي فاسانيلا، وجيمس دي مورا، اللذان تقدم ذكرهما، كانا الرئيسين في جريمة هذه المؤامرة العميقة، وحرضا على ذلك من قبل ضمير مجرم، مع عدد آخر من المشاركين، والمشايعين في جريمتهم، الذين كانوا حاضرين في بلاطنا، ثم إنهم هربوا بشكل مفاجىء، وعلى كل حال، بقي ثيوبولد، ووليم دي سينت سيفيرينو في المملكة، وقد انتظرا هناك موتنا كواقعة

مؤكدة، لكنهما سمعا العكس بشكل غير متوقع، وقد استولى عليهما رعب مخيف، وكأنهما ضربا بصاعقة من السماء، فـارتديا ثياب خدامنا المخلصين، وكانا قـد حصلا عليها خلسة، وهربا بشكل خيـاني، إلى اثنتين من قلاعنا، هما قلعتـا: كاباكيـو Capaccio, وسكالا Scala, وكان ذلك قبل أن يتمكنا من الحصول على المؤن الضرورية، وقبل تحصينهما بالرجال، وقد هوجما من قبل السكان البارعين والمخلصين للمملكة، وطوقا من قبل القوات التي تجمعت من جميع الجهات، وكنا نحن أيضاً في ذلك الوقت في غروسيتو Grosseto, في مملكة صقلية التي هي ميراثنا، وقبل ذلك لم نكن قد اتخذنا أية احتياطات ضد المخاطر التي كان شخصنا عرضة لها، لكن بما أننا لانسمح لنفسنـا بأي حـال من الأحـوال أن تكون عـرضـة للعدوان، وحيث أن الأمور كـانت وكأنها أمام ناظرينا، اتخذنا الإجراءات للذهاب بكل سرعـة، ومع قوة زاحفـة، إلى مملكتنا، وبعد دخولنـا السعيد إليهـا، كـان عـــدد من رعـايانا المخلصين، قـد قـامـوا بناء على مبادرة، واقتراحات زائفة من هؤلاء الخونة ضدنا، قـد انضموا إلى المتآمرين، حيث كـان قـد انتشر تقرير زائـف عن موتنـا، لكن ما ان انتشر ضـوء الحقيقـة، وشاهدوا أن القضية، كانت على العكس لما كانوا قد توقعوه، حتى رفضوا أن يكون لهم أيـة شراكـة في خططهـم الماكـرة، وتخلـوا عنهم، وبما أنهم وجــدوا فقط ملجئاً في قلعتين، كما ذكـرنا من قبل، وهما قلعتـا سكالا، وكـاباكيـو، وفي سبيل تمتين اخلاص رعـايانا المخلصين، بوسـاطة هجـوم فعال ومباشر، استرجعنا واحدة من هاتين القلعتين، وهي قلعة سكالا، إلى سلطتنا، وأودع تومـاس دي سينت سيفيرينـو، وابنه، الخائنين والمتـآمـرين ضـــدنا، في السجن، وهكذا بقيت قلعـة واحـدة من القلعتين المتقـدمتي الذكـر، وهي قلعـة كاباكيـو، للقيـام بانتقـام ضـدها، وتدبرنا وضع تلك القلعة تحت الحصار من قبل رعـايانا المخلصين، وهكذا فإن الخونة المتقدم ذكرهم، الذيـن من الواضح أن لامورد لديهم، والذين كـانت الآن إحدى قلعتيهما قـد جـرى الاستيلاء عليهـا، ومن غير الممكن لهم تحصين واحـدة

أخـرى، كما لم يعـد بإمكانهم النجـاة منا في أي سبيل، وهكذا جـرى، بوساطة القضـاء، وبكل سرعة بقـدر ما كان الأمـر عادلاً، ايقـاع الانتقام ضـد الخونة المتقدم ذكرهم، وضـد مشاركيهـم، ونحن نشعر الآن بالثقـة بترتيب الأمور في وقت قصير، لضمان الأمن المستمـر لمملكتنا، وبذلك لن يبقى بالنسبـة للمستقبل أية شكوك في أذهاننا، أو في أذهان خلفـائنا، أو وكـلائنا خـارج المملكة، وعليك —على كل حـال— أن لاتظن أننا تخلينا عن مقصـدنا في متـابعـة الثـوار اللومبـارد، ولاحتى تـركنا ذلك لبعض الوقت، بل بـوسـاطة ولدينا المحبـوبين: هنري، الملك اللامـع لسردينيـا، والنائب العام للامبراطورية المقدسة لايطاليـا، وفردريك صاحب أنطاكية، الذي يرأس مقـاطعـة ايتروريا Etruria, وذلك إلى أن نتمكن من العـودة إلى إيطاليـا، بعـد صنع ترتيبـات مـوائمـة لقضـايا مملكتنا، أقـول بوساطتيهما سحقنا آثار الثوار المتقدم ذكرهـم، بمطرقة قدرتنا غير المتوقفة، إلى حـد أنهم لم يحصلوا على أدنى منفعـة من غيـابنا، الأمـر الذي اكتشفنا بشكل مـؤكـد أنهم حـاولوا الحصـول عليـه بوسـاطـة خطة طويلة سرية وخيـانيـة، وهم الآن حـزينون بسبب قوتنـا الحالية، أكثـر من تفـاخـرهم بغيابنا، لأن ما من واحدة من الحوادث التي وقعت مؤخراً، قد سببت أي نقص لعظمتنا، كما أن أمـوالنا لم تتنـاقص بها حـدث، بل ازدادت سلطتنا، وأصبحت أعظم، فسبب ضخـامـة هذه الجريمـة العميقـة التخطيط، التي هددت برعب الحرب بين الشعوب، بعـدما ذاقت حـلاوة السلام، أصبح وفـاء رعايانا المخلصين، لاسيما من الطبقـات الدنيا، أكثـر حرارة نحـونا، وثقتهم أكثر قوة، وأيضاً من اضـافة موارد تمرد هؤلاء الخونة، التي جردوا منها طواعية بسبب عدوانهم، وهي موارد قد نالوا الثـروة منها من خلال كرمنا بالطول وبالعرض، إنها الآن كونـت زيادة أساسية لثروتنا، مع أننا لم نرغب بذلك، ومن هذا يمكن الاستخلاص بوضوح، بأن الوعود الكبيرة التي عملت من قبل عدونا المعلن إلى الخونة المتقدم ذكرهم كان لها تأثيرها —مع أن ذلـك كـان من دون محصلـة— بإثارتهم لاقتراف هـذا الإثم،

وبالنسبة لاسم هذا العدو، وللقبه، كنا نرغب تماماً بالمرور به صامتين، لولا أن الصوت العام قد كشفه، مع أننا نرغب بإخفائه بصمتنا، أو تقديم العذر له بوساطة لغة غامضة، لأن المحرضين على الجريمة المتقدم ذكرها، من الذين هربوا، والذين تحت الحصار، كانوا مرافقين ببعض الرهبان الفرنسيسكان الذين منهم تسلموا الصليب، وقد تظاهروا بأن لديهم تفويضاً من الحبر الأعظم، على شكل رسائل رسولية، وذلك من أجل العمل ضدنا، وأعلنوا بشكل مكشوف بأنهم كانوا يعملون في القضية، لصالح الكنيسة الرومانية، التي هي أمهم، وهكذا أعلنوا أن الحبر الأعظم، كان هو المحرض على المحاولة المتقدم ذكرها ضد حياتنا، ومثل ذلك ضد ميراثنا، وبهذه الحقيقة اعترف الأسرى، الذين جرى أسرهم في قلعة سكالا، بفضل مبادرة رعايانا المخلصين، وجعلهم سجناء، فهذا مابينوه بشكل تلقائي، وباعتراف حر، عندما كانوا يموتون بحضرتنا، ذلك أنهم اعتقدوا أن عدم الاعتراف سوف يكون كذباً شريراً، وكذلك فإن أسقف بامبيرغ Bamberg, عندما صدف أنه بعد حصوله على التكريس والمباركة، أو بالحري على اللعنة، كان عائداً وقد لبس التاج الأسقفي من البلاط الروماني، وذلك قبل اعتقاله من قبل رعايانا في ألمانيا، إنه قد أعلن بشكل مكشوف أنه لابد من حدوث اعتقالنا خلال وقت قصير، وموتنا بشكل مهين جداً، على أيدي أصدقائنا المقربين وحاشيتنا، ونحن نتحدث عن هذه الأشياء بحياء، بحكم أن القاضي الأعلى هو شاهدنا، لأننا نعتقد بأننا لم نسمع قط أو رأينا مثل هذه الجريمة أثناء حياتنا، وذلك بأن يقوم قومنا وحبرنا الأعظم، بالرغبة بدناءة بالقضاء على أي انسان بمثل هذه الميتة الشنيعة، لأن العلي الأعلى يعلم بأن العقيدة القبيحة كانت دوماً نائية عن تفكيرنا، حتى بعد الإجراءات التلقائية الذاتية، وغير العادلة، التي قام بها البابا ضدنا في مجمع ليون، وما كنا لنوافق قط على أية محاولة على حياته، أو على حياة أي واحد من إخوانه، مع أنه غالباً ما طلب منا حول القضية من قبل بعض الأشخاص

المخلصين والغيـورين بشكل سري، لكننـا تابعنا دومـاً قـانعين بتحمل أضرارنا، وعـددنـا أنه يكفي أن ندافع عن أنفسنا بشكـل عـادل، من دون القيام بالانتقـام، لأنه من الواضح تماماً بأن الرب يقـاتل من أجلنا، لأنه لم يكتف بانقـاذ حيـاتنا من أيدي أعـدائنا، بل ناولنـا قـوتهم وأشخـاصهم ووضعهم بين أيدينا، لأنه عندما قام مؤخراً الكاردينال رينيير Regnier, العـدو لاسمنـا ولكرامتنا، بـالالتحـاق بـالـ Perusies, وبالـ Assisemates, من رعـايانا العصـاة، بنـاء على إثارة جيمس دي مـورا، الخائن المتقـدم ذكـره، من أجل ايذاء رعـايانا المخلصين، وذلك في اليوم الأخير من آذار الأخير، قرب قلعة أسكـولي، وقد قام مارينوس دي إيبولي Marinus de Eboli, الذي هو من رعـايا الامبراطورية المقـدسة، والقـائد الأعلى لدينا، بمسـاعدة قـوات مأجورة مع آخـرين من رعـايانا المخلصين، الـذين أمكن جمعهم في تلك السـاعـة، وكـان مـؤيداً بفضيلة اسمنا، وحظنا الجيـد المعتاد، قـام بنشاط بمهاجمة أعـداءها هؤلاء، وبالثقة أكثـر من الاعتماد على عدد عسـاكره، فهـزمهم جميعاً، مع خسـائر كبيرة أيضـاً، ذلك أنه بالإضافـة إلى الذين سقطوا بوسـاطة سيوف قـومنا المخلصين، جـرى أسر أكثـر من خمسـة آلاف من الثـوار من قبل رجـالنا، ومن ثم أودعـوا في سجننا، ونحن نخبرك بهذه الأشيـاء جميعـاً، لمنحك السرور، كما نعتقـد، لابل، نحـن نعلم أنـك متعـاطف معنـا أثناء الاضطرابات، وأنك تفـرح معنا أثناء تقـدم النجـاح، كما أن وافـر حظنا الجيد، والعـدل الذي نستحقه لم يسمح لسرورنا ولفـرحكم بالانغلاق مع هذه الأحداث، لأنه حدث في اليوم الثامن عشر من هذا الشهر، الذي هو شهر نيسان، أن مـدينة كاباكيو، التي على هذا الطرف نحـو اليابسة، والتي كانت محاصرة، قد خرقت بسرعة من قبل رعايانا المخلصين، الذين التهبوا بنوع من أنـواع الجنون لقتل الخونة، وللانتقـام لأنفسهم، وليس أقل من ذلك لما لحقنا من أذى، والذي حدث هو أن المحاصرين قد شعروا بقدرتنا في كل من القريب والبعيـد، وعندما أصبحوا غير قـادرين على النجاة من

انزال انتقامنا العـادل بهم، قاموا بقتل أنفسهـم بسيوفهم، أو برمي أنفسهم من أعالي الصخور على جانب البحـر في ذلك المكان. صدر في ساليرنو في اليوم الخامس عشر [اقرأ: ٢٥] من نيسان، في العلامة الرابعة».

وولتر دي أوكرا يكتب إلى ملك إنكلترا حول الموضوع نفسه

وكان وولتر دي أوكرا Ocra, الذي كان كاهن فردريك، يعتقد، مثلما فعل سيـده بأن ملك انكلترا سـوف يبقى ثابتـاً على مـوقفـه، يقـاوم بجـرأة وقاحـة البلاط الرومـاني، فبعث بالرسـالة التاليـة إليه، لمواسـاته، ولإزالة جميع أسباب الخوف:

«إلى الملك اللامع لانكلترا، تحيـات من المعلم وولتر: لأنني أعلم أنك تبتهج في ازدهار مـــولاي، يطيب لي أن أخبر جـلالتكم، بـأنَّ مـولانا المذكـور، قـد قـام قبل حـوالي ثمانيـة أيـام، قبل نهاية تموز الأخير، بإلقـاء الحصار على قلعـة كاباكيو، التي كـان فيها ثيـوبولد فرنسيس، ووليم دي مـــــان Mann, ووليم دي سينـــــــت سيفيرينو Severino, وغيـوفري دي مـورا Morra, وروبرت، ورتشـارد دي فـاسـانيـــلا Fasanella, الخونة له، والذيـن حـاولوا قتلـه، مع مـائـــة وخمسين آخرين، بما في ذلك فـرسان، ورمـاة قسي زيارة، مع أصدقـاء آخرين لهم، وكـان بينهم أربعين من الـرهائن اللومبـارد، قـد قـام باطلاق سراحهم، ثيـوبولد المذكـور، في أيام المؤامـرة، وقـام مـولانا المذكـور برمـاية هؤلاء بالقـذائف ليـلاً ونهاراً من دون انقطاع، من سبعـة مجانيق أعـدت بشكل جيد، وبوسـاطة حملات متتابعة أيضاً عملت ليـلاً ونهاراً، تحولوا إلى حالة ميئوس منهـا، وبلا قـدرة، إلى حد أنهم لم يعـودوا قـادرين على مساعـدة بعضهم بعضـــاً، سـواء في قضـــايا أشخـاصهـم أو أطرافهم، وتم أخيراً، بوساطة الحملات المذكورة، الاستيـلاء على القلعة، مع الأشخاص الذين تقـدم ذكرهم، فهـؤلاء قبل أخذهـم إلى ربنا —باستثناء وصاية البـابا— كـانوا قد حـرمـوا من عيونهم، وكل واحـد منهم أيضـاً، من يد، وأنف،

ورجل، ثم قرر مولانا إرسال ثيوبولد المتقدم ذكره، والخمسة الآخرين الذين حاولوا قتله إلى جميع الملوك والأمراء في أرجاء مختلف البلدان في العالم، مع طبعة ختم البابا —التي وجدت هناك— مختومة على جبين كل واحد منهم، لجعل الجمهور يدركون خيانتهم، وتمّ العثور في هذه القلعة على احدى وعشرين سيدة نبيلة —متزوجات، وأرامل، وفتيات— وقد وضعوا بناء على أمر من مولانا تحت وصاية آمنة، أما القلعة نفسها، فجرى تدميرها إلى حجر الأساس، وكل الذي وجد فيها —باستثناء الكائنات الحية— جرى تحويله إلى رماد في البقعة نفسها، ثم قام مولانا المذكور بترتيب جميع القضايا، وأقام سلاماً مع الرومان، والبنادقة، وبعد الفراغ من ذلك أقسم أنه سوف يسير من دون شك مع كتلة كبيرة من الفرسان إلى ألمانيا، وعمل الاستعدادات للقيام بمثل هذا العمل، ففي تلك البلاد كان الملك ابنه قد اشتبك من دون حذر بمعركة مع أعدائه، يوم عيد القديس جيمس الماضي، وقد أخفق بسبب خيانة اثنين من الكونتات السوابيين، واسمها: ويرتمبيرغ Wirtemberg, وغرونبنغهن Grninghen, اللذان تلقيا من الحبر الأعظم سبعة آلاف مارك من الفضة، بالاضافة إلى وعد —وعمل وتأكد ذلك بوساطة رسائل رسولية— بحصة من دوقية سافوي Savoy, على أن يقوما باستدراج الملك إلى ساحة المعركة والتخلي عنه هناك في ساعة المعركة، أي أن يتخليا عن الجيش من دون قتال، وبناء على ما توافقا عليه، قاما مع أول حملة بانزال علميهما، وخاضا نهراً هناك، وهربا وتخليا عن الجيش، مع حوالي ألفي فارس ورماة قسي زيارة، وصار الملك نفسه في خطر عظيم، وبقي في وسط الأعداء مع حوالي ألف فقط من الفرسان، غير أنه تابع مع الذين بقيوا معه القتال بشجاعة، لكنه أخيراً بعدما فقد مائتين من أتباعه، التجأ إلى مدينة فرانكفورت، وحدث على كل حال، بعد عدة أيام أن جرى اطلاق سراح الأسرى الذين تقدم ذكرهم، بضمانة، أو برهائن، أو بفدية، فاسترد شجاعته، وتابع بنشاط القتال ضد

أعـدائـه، وإلى هناك سـوف يذهب إليــه من مملكة فـرنسـا، ومن منطقـة بيرغندي، على هذا الجانب من السون Saone, خمسمائة فـارس من بين أقـربـاء وأصـدقـاء مـولانا الامبراطور، ومعهم أيضـاً زحـف دوقـا بيرغندي واللـورين، وكـونتـا: شـالون Chalon وباررميـا Barremia.

الملك يسمح مجدداً إلى الرومان بجمع المال من إنكلترا كما يريدون

وفي هذه الآونة، أصبح الموقف الصلب، الذي اتخذه الملك بشجـاعة، في ضبط توجهـات البلاط الرومـاني بالقوة، هذا الموقف الذي كـان من المأمول والمعتقـد أنه سيحافظ عليه، صـار أضعف، وحدث هذا، حسبما ذكر حقيقـة، قد جـاء نتيجة تأثره بآراء الذين كـانوا خائفين كثيراً، بأنهم سـوف يخسرون مـواردهم من خـلال غضب البـابا، لأن الأشيـاء التي أحبوها في قلوبهم، خافـوا من أنها ستضيع من بين أيديهم، وفقاً لكلمات الشاعر:

الحب مع الخوف دوماً مليء

ثم إن الملك مـع عينين مغمضتين، واذنين مغلقتين، وفي سبيل افقـار بلادنا كلها، سمح بأن تُسلـب الكنيسة الانكليزية، وأن يسرق منهـا ستة آلاف مـارك، وذلك حسب ارادة الرومـان ورغبتهم، وهم أعداء مملكتـه وأعـداء المصلحـة العامـة، وهو مبلغ حمله رسـل البابا وتجاره لمسـاعـدة اللاندغريف، لكنهم لم يتمكنوا تماماً من النجاة من مصائد فردريك، وقد انتقـد هذا الأخير بحدة الانكليـز الضعفـاء، من أجل سماحهم لكل نوع من الناس بالاثراء على حسـاب فقرهم، كما أنه تقدم بشكـوى ثقيلة أمام رفاقه بالسلاح، بشأن ضعف الايرل رتشارد، وتراخيه، في اعطائه الموافقة على هذا، لأنه ظهر وكـأنه مترابط مع حزب البابا مـن أجل دمار المملكة

الانكليزية، وانحدار الامبراطورية، لأنه من خلال الثروات الصغيرة للصليبيين، زاد ثرواته كثيراً، وجاء ذلك بوساطة إذن البابا، وعلى هذا ازدادت مطالب الرومان جرأة، ذلك أنهم لم يواجهوا أحداً اعترض سبيلهم في أعمال سلبهم، فاللاجئون أرغموا على الفرار، والذين أرغموهم على الفرار، هربوا بدورهم، وآمال الانكليز، الذين اتخذوا أعداءهم قضاتهم، قد ديس عليها تحت الأقدام.

كيف قطع ملك أراغون لسان أحد الأساقفة

في الوقت الذي كان الحظ فيه، يتلاعب هكذا مع العالم، قام ملك أراغون بشكل وحشي بقطع لسان واحد من الأساقفة، لأنه ربما نقده بشكل محق، لهذا السبب، أو لأنه كان هناك عدداً مسؤولين عن جريمة قتل، ويتوجب التساهل بعض الشيء في حدة معاقبتهم، ولقد استحق الملك المذكور أن يعاقب بشدة، وأن توضع مملكته تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، لكن بإرساله بعض رسله الخاصين الذين استحقوا الرعاية، حصل على مصالحة مع الكنيسة، لأنه قاتل بإخلاص في سبيل الرب ضد الاسبان والمسلمين، وانتصر بشكل مجيد عليهم.

توجيه اللوم إلى البابا من قبل جون الذي هو كاردينال من أصل إنكليزي

في الوقت الذي كانت فيه عواصف بحر هذا العالم هائجة على هذه الصورة،سمع البابا بأن ملك انكلترا قد استعد بجرأة لمعارضة استخراجاته (لأن الرسل لم يكونوا قد وصلوا بعد لإخباره عن خوف الملك وتراخيه ومرونته)، فعند ذلك انفجر بانفعال شديد، وعزم على الانتقام بوضع مملكة انكلترا تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، لكن عندما كان بانفعالاته المجنونة يعد هذا القرار، عارضه المعلم جون، وكان انكليزياً من حيث الأصل، كما كان راهباً من طائفة السسترشيان،

وكــاردينالاً، وقــال له: «مــولاي، من أجل خــاطر الرب، وفـر غضبك، الذي هو —إذا أمكنني القــول— غير مستقيم، واضبط هذه الضغــوط التطوعيــة، باللجــوء إلى الاعتـدال، مقــدراً كم هي سيئة هذه الأيام، فالأرض المقدســة عرضة للخطر، وقد انفصلت الكنيســة الاغريقية عَنا، وفردريــك معادي لنا، وهو الذي ليس هناك من هو أقــوى منه، لابل في الحقيقة ليس هناك من يوازيــه بين الأمراء المسيحيين، وأنت ونحن الذين نشكل رأس الكنيســة، قد طردنا مــن الكرسي الرسولي، لابل في الحقيقــة من المدينة، ونحن نعيش في المنفى، فهنغاريا مع أراضيها الحدودية، تتوقع شيئاً ليس أقل من الدمــار من قَبل التتــار، وألمانيا ترتجف بسبب حــروبها الداخلية، وأظهرت اسبانيا الجنون، إلى حد قطع ألسنة الأساقفة، وفرنسا التي هي أيضــاً قد تآمـرت ضدنا، قــد غدت فقيرة من خــلالنا، وانكلترا أيضاً التي أوذيت مراراً بالأضرار التي صدرت عنا، هي مثل أتان بلعام، قــد جــرحت بالنخس، وبضربات العصــا، وقــد تكلمت أخيراً، ولامتنا، واشتكت أنها أنهكــت بشكل لايمكن الخلاص منه، وجـــرحــت بشكل لايمكن الشفاء منه، وباتت على هذا مثل الاسماعيليين، مكروهة من قبل الجميع، ونحن قد أثرنا الجميع لكراهيتنا»، ولم يتحــرك عقل البابا —على كل حــال— نحو الرحمة، أو التــواضع، بوســاطة هذه الكلمات، بل ظل يتحرق للانتقــام وانزال العقوبات، وبينما هو في هذه الحالة، وصل رسل من انكلترا، قاموا بتليين عقل البابا المتيبس، بتوقعات الربح، وأكدوا أنه من خلال أصدقائه الخاصين في انكلترا (أنا المعد لهذا العمل غير مسموح لي بذكـر أسمائهم) قــد لوي قــرار الملك، وبناء عليــه فإن رغبــاته ســوف يجري بسرعة تنفيذها، ولدى سماعه هذا هدأ السرور عقله وملامحه.

الملك يمنع التفتيش الذي أقامه أسقف وينكستر

وفي هذه الآونة، كــان أسقف وينكستر، قــد مــارس، بناء على اقتراح الدومينيكان والفرنسيسكان —كما ذكرنــا— المظالم على الرعايا التابعين

له، وكـان ذلك أكثـر مما هو معتـاد أو موائـم، إلى حد أنه أقـام تفتيشـاً دقيقاً، يجري في أسقفيتـه من قبل رؤساء شمامسته وعمـدائه، وذلك فيما يتعلق بكبح النفس والأخـلاق لـدى النبـلاء، وكـذلك غير النبـلاء، مما سبب ضرراً عظيماً للسمعة الصـالحة، وفضائح لكثيرين، لأن مثل هذا لم تجر العـادة بـه من قبل، وبناء عليـه، لـدى سماع الملك الشكاوي الثقيلة للناس، وبناء على نصيحة بلاطه، كتب إلى عمدة هيرفورد كما يلي:

«من هنري، الذي هو بنعمـة الرب ملك انكلترا، إلخ: نحن نأمـرك، حيث أنـك تقـــدر نفسك وجميـع ممتلكاتك، أن لاتسمـح إلى أي رجل علماني من وكلائك، بناء على رغبة أسقـف لنكولن، ورؤساء الشمامسة، والرسميين الآخريـن، أو العمداء الريفيين، منذ الآن فصاعـداً، بالتجمع في أي مكان، للقيام بإعـادة تقدير في اليمين، أو في أية شهـادة، مالم يكن في شـؤون الـزواج أو شهـادات القضـــايا»، ولدى سماع الأسقف بهذا، أعلن بأن الملك مقبل على اتباع خطوات بعض المتآمـرين، الذين خرجوا بوقـاحة مشـابهة في فـرنسا (الذين أعطـي عنهم بيان مفصل في صفحـة مقبلة من هذا العمل).

طغيان البابا في استخراج المال

وازدادت جـرأة البـــابا، من النجـاح في اخضـاع الانكليـز التعسـاء وإفقـارهـم، فقـام الآن بشكل متغطرس، لا بـل أكثـر غطرســة مما هو معتـــاد، فطالب جميـع الأشخـاص المنتفعين في انكلترا، القـــاطنين في منافعهم، بوجوب اعطاء حصـة ثلث من ممتلكاتهم إلى البابا، وأن يعطي الذين غير قـاطنين، النصف، مع إضـافـة شروط أخـرى قـاسيـة جـداً، رابطـاً الوصـــاية المتقـدم ذكـرها، بتلك العبـارة المقيتـة: «دون الاهتمام والتقـدير»، وهي الاضـافـة التي أخمدت جميع العـدالة، التي مضت من قبل، ولكي يضع هذا المرسوم مـوضع التنفيذ، عيّـــن على الفور أسقف لندن.

الملك يمنع الاستخراج المتقدم ذكره

ثم إن الأسقف المذكور أعلاه، قام بعدما جعل هذه القضية معلنة ومعلومة في كنيسة القديس بولص في لندن، برفقة بعض الآخرين الذين كان قد جمعهم مع بعضهم لهذا الغرض، فقرر أن يبحث في مسألة هذا الاسهام المرعب، في يوم عيد القديس أندرو، وبينما كانوا متأملين من أنه أمر بها بدا —لابل بالحقية كان— غير ممكن، وصل إلى مابينهم جون أوف ليكسنغتون Lexington, وهو فارس، والمعلم لورانس دي سينت مارتن،وكان واحداً من كهنة الملك، وكانا قد أرسلا إليهم من قبل الملك، حيث منعاهم بكل دقة، بعدم الموافقة، ولابشكل من الأشكال من الاسهام المتقدم ذكره، الذي جرت المطالبة به، لاضراره بالمملكة كلها، ثم بعد عدد من الالتماسات من جميع الذين احتشدوا، أنهوا المؤتمر وهم مسرورين، ولكي لانمر صامتين بالكلمات المؤثرة للذين عارضوا هذا المرسوم، رأينا أنه من المناسب إقحامهم في هذا العمل، ومع أنهم لم يجيبوا بجرأة، لعله كان بإمكانهم أن يكونوا أكثر جرأة، وأكثر فعالية، لو توفرت لديهم أية ثقة في الكلام المتقلب للملك وبأفعاله.

رد رجال الدين بشأن استخراجات البابا غير المعقولة

«لو أن أحوال وأوضاع مملكة انكلترا، كانت معروفة من قبل البابا وإخوانه في أيام المجمع، لما أقدم بأي حال من الأحوال على إعلان ذلك القانون، ولو أن المخاطر والأضرار التي كان من الممكن أن تحيق بالكنيسة الانكليزية بسبب ذلك القانون، قد شرحت له، لما أمكن بأي حال من الأحوال، اقناعه بعمل ذلك المرسوم، لأنه كانت هناك عادة قائمة في الكنائس الكاتدرائية ومرعية، قضت بأن يدفع للكهنة المقيمين فيهن، والذين هناك عدد صغير منهم في بعض الكنائس وكهنة صغار، وقساوسة للكنيسة، من موارد المنافع اللاهوتية، التي هي بأيدي الكهنة

المذكورين في مناطق مختلفة، وإذا كانت حصتهم غير كافية، وصلت إلى نصف المبلغ، فإن خدمات الكنيسة سوف تهجر، بسبب أن الكهنة غير قادرين على الدفع لهم، ولأن الكهنة أنفسهم يعانون من نقص كبير، هم لن يكونوا قادرين على الإقامة في الكنائس، وإذا رأوا أن من الموائم الإقامة بهن، فإنهم لن يتمكنوا من الإنفاق على الآخرين، لابل حتى الانفاق على أنفسهم، من خلال الحصة المتبقية من منافعهم، وخاصة بما أن البابا يقصد أخذ نصيب من حصص المتوفين من دون وصية، حتى يجري استخدامها في أراضي رومانيا (بيزنطة)، وبما أن حصة غير المقيم، قد عدت وكأنه لم يقم شخصياً، ولا حتى اقتطاع التكاليف أو النفقات التي وقعت على جمع الأرباح، ومسائل أخرى كثيرة، وإذا لم تقتطع، من الصعب بقاء جزء من أربعة في حوزة الرهبان».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً بما أن الأماكن الدينية قد أسست في جميع أرجاء انكلترا، وتأسست بناء على إجراءات الكنائس الأبرشية، وفي هذه الحالة، فإن المنافع التي منحت هكذا مع الممتلكات الأخرى بالكاد تكون كافية لهم، وإذا ما جرى أخذ جزء من منافعهم، فإن القسم الأول سوف يكون مرغماً على العيش على الصدقات، أو أن الضيافة، ربما سيجري التخلي عنها، أو أن الأمرين سوف من الممكن حدوثها في بعض الأماكن، وهذا من غير الممكن حدوثه من دون فضيحة كبيرة، وخطر على الأرواح، قد يبلغ حداً أن بعضهم سوف يأخذ بالتجول في أنحاء العالم، وبسبب حالة التشرد هذه، سوف يسقطون في كثير من الذنوب المضاعفة، بعدم مراعاتهم لأحكام الآباء المقدسين، التي هم مرتبطون بها».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً، بما أن عادة كانت قد سيطرت، وقد جرت مراعاتها في

انكلترا، بأن قساوسة الكنائس الأبرشية، كانوا دوماً مشهورين بضيافتهم، وأقاموا ممارسة تقديم الطعام إلى المحتاجين من أهل أبرشياتهم، وبهذه الوسائل، سعوا ليس فقط لإرضاء الخالق الأعظم، بل الناس العلمانيين من كل نوع، والذين بوساطتهم اضطرب كهنة البلدة، وإذا ما جرى انتزاع حصة من منافعهم منهم، فإنهم سوف يكونون تحت ضرورة رفض ضيافتهم والتخلي عن وظائفهم المعتادة بالتقوى، وإذا ماانسحب هؤلاء، فإنهم سوف يحصلون على كراهية أولئك الرعايا التابعين لهم، وسوف يفقدون عرفان العابرين مع جيرانهم، ولسوف يجري حرمان قساوسة الكنائس من حقوقهم، بحيث يصبحون غير قادرين على الدفاع عنهم، وبسبب فقرهم سوف يظلمون من قبل هؤلاء العلمانيين أنفسهم، مما سوف يجلب العار والخسارة على الكنيسة العالمية، وبعضهم الذين منافعهم غير كافية لإقامة مدة ستة أشهر، والذين نادراً مايجدون طعاماً في الأماكن الأخرى، إن هؤلاء إذا ما جرى اقتطاع جزء من منافعهم منهم، سوف يرغمون على التسول، ولسوف تتوقف القداسات في كنائسهم، وإذا ماتوقفوا، فإن أهل أبرشياتهم سوف يعجزون عن دفع عشورهم، ومواردهم، ولن يكون هناك أحد يتولى متابعة مطالب تلك الكنيسة، بسبب الحاجة، وسوف تصبح كرامة الكنيسة منحطة، وستسقط جماعة الكهنة في حالة الإزدراء، وسوف يتوقف الوعظ، وسيترك علاج الأرواح من دون من يقوم به، وبذلك سوف يكون الإيمان في خطر، بمعاملة الناس للعقائد، وسيقابل إصلاح الأساقفة بالإزدراء».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً، بما أن الفقراء، الذين هناك أعداد منهم بلا نهاية، يعيشون أثناء السنة على ممتلكات الأشخاص اللاهوتيين، ويتسلم عدد كبير من السادة، وأقربائهم مع آخرين يقيمون في خدمتهم الطعام والدفع المالي

من ممتلكاتهم، فإذا ما جرى أخذ حصة من مرابحهم منهم، فإن الصدقات سوف تتوقف عن المنح، ولسوف تصبح أسر فاسقة، وإذا ما حدثت هذه الأمور، فلسوف يموت الفقير من الجوع، وبعضهم بما أنهم لايستطيعون الحفر، وأن يتسولوا عارعليهم، لسوف يجدون أنه من الضروري —بدلاً من الهلاك جوعاً— الانخراط في السرقة، والاغتصاب، والسلب، وعن ذلك سوف ينجم قتل الكثيرين، ولسوف تثور الفوضى بين الناس، ولاشك ان اضطراب مملكة انكلترا كلها سوف يتلو ذلك بالضرورة».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً، بما أن هناك كثيراً من الكهنة في انكلترا مثقلين بحمل الديون، إذا لم يجر اقتطاع الدين والنفقات، التي قدرها يفوق السدس من مواردهم، فإن ذلك الاقتطاع لن تجري بالنادر معارضته في أية قضية، ولكن إذا كان من دون اقتطاع، فإن الأثقال على الكنيسة، المؤلفة من المعاشات التقاعدية، ووكالات الأساقفة، واصلاح الكنائس وترميمها، وتزيينها، سوف تستهلك حصة أرباحهم وستنتزعها منهم، وبما أنهم لايمكنهم العيش على ما ترك لهم، سوف يتحولون إلى حالة العوز، ثم إنه في حال الاعتناء بمثل هؤلاء الأشخاص، وأن لايكونوا في عوز، خاصة حيث من المتوقع التقول على الكنيسة العالمية، والفضيحة من الممكن أن تنتج».

قضية أخرى وسبب

«ومجدداً، إنه بالإضافة لما جرى جمعه تحت اسم جزء من عشرين، جرى مؤخراً دفع ستة آلاف مارك إلى البابا، ولدى مقارنة كمية الجزء من عشرين مع المبلغ المطلوب، سوف يتجاوز المبلغ المطلوب ستين ألف مارك، بما في ذلك الجزء من ستة من الموارد، الذي يعاد دفعه لدى جمع

المرابح، وبما أنه لم ينقص ذلك الجزء، وبما أنه —بالإضافة إلى هؤلاء— يسعى للحصول من الأشخاص المتوقعين في الوصاية الأولى، ومن الذين يتسلمون موارد مائة مارك، والجزء من عشرين، ومن الذين لديهم موارد أكبر، جزء الثلث، سوف يكون محتماً أن يجمع من موارد الكهنة، مبلغ ثمانين ألف مارك، وهو مبلغ سوف يكون من الصعب كثيراً على مملكة انكلترا أن تقدر على دفعه، فكم على هذا، عندها ستكون خسائر الكهنة، الذين تتألف ممتلكاتهم في المرابح فقط، التي —مع أنها معروضة بشكل عام سنوياً للبيع— تقود إلى كثير من أعمال الشراء المعمولة من المبلغ المذكور، وبما أن المال ينتقل من يد إلى يد، ويبقى في المملكة؟ وإذا ما حذف المال من كل بيع، وحمل إلى خارج المملكة، سوف تكون عمليات الشراء عاجزة، ومن الممكن أن يحدث أن مثل ذلك المبلغ من المال، من الممكن عدم توفره في المملكة، الأمر الذي تبرهن في حالة طوراىء ضاغطة، في زمن مضى، أي عندما حدث أن كان رتشارد، ملك انكلترا، صاحب الذكرى اللامعة، أسيراً ومحبوساً في بلد أجنبي، فوقتها تم طلب ستين ألف مارك من أجل اطلاق سراحه، ومع أن المملكة كلها أسهمت، لم يكن بإمكانها أن تدفع المبلغ جميعه، لولا أنه عدّ صلبان وأواني الكنائس جزئاً من المبلغ المسدد، وهكذا إن إمكانية جمع مثل هذا المبلغ الكبير الآن ضئيلة، وإلى أن يجمع هذا من مقتنيات الكهنة فقط سوف يحتاج إلى ثلاثة أضعاف المدة، أي سوف يحتاج إلى مدة ثلاث سنوات، وبما أنه، على هذا، تعارض الكنيسة الانكليزية بوساطة حماتها هذا الاستخراج، سوف يكون من المفيد إعلام البابا بهذه المعارضة العامة باسم الكنيسة كلها، وهي تدعو إلى حضور يسوع المسيح، وأن يجري عقد مجمع عام، في أي وقت، بنعمة الرب».

كيف جرى إرسال اثنين من القتلة إلى روما

وفي هذه الآونة جرى ارسال اثنين من القتلة الجريئين، من قبل

الامبراطور فـردريك إلى البلاط الرومـاني، بقصد قتل البـابا في مؤامـرة سرية، حسب طريقة الحشيشية، وقد جرى اعتقالهما بحادثة غير متوقعة، وأودعا السجن، لانتظار صدور حكم على جـريمة تآمرهما، وكان هناك بعض من قـال، بأن هذا الخبر قد جـرى اختراعـه بدهاء، ورتب بشكل زائف، في سبيل أن فردريك الذي كان قد أعلن، أنه قد تعرض لمحاولة مشابهة بتـآمر من البـابا، منذ وقت ليس ببعيد، يمكـن أن يتعرض الآن للاساءة إلى سمعته، باتهامه بجريمة مماثلة.

موت أسقف سالسبري

وفي حـوالي الوقت نفسـه من العـام، أي في اليـوم التـالي لعيـد جميع الأرواح، مـات المعلم روبـرت رنغهـام Ringham صـاحب الذكرى التقيـة، وأسقف سالسبري، وكان رجـلاً أحيط بالفضائل، مليئاً بالسنوات، وكـان مليئاً بالانجـاز الأدبي، وقـد ترك —على كل حـال— بيته الرهباني مداناً بألف وسبعمائة مارك.

وفاة راعي دير ويستمنستر

وفي حـوالي الوقت نفسـه أيضـاً، أي أن تقـول في الأول من كـانون الأول، مات رتشارد دي بيركنغ Berking راعي دير ويستمنستر، وكان رجـلاً حكيماً، ومتعلماً، ومتديناً، وهو الذي زاد أثناء حيـاته موارد بيته الرهباني، بحوالي ثلاثمائة مارك.

تطويب إدموند رئيس أساقفة كانتربري

وفي حوالي الـوقت نفسه، أي في يوم الأحـد، التالي قبل عيـد الميلاد، عندمـا يغنى بمزمـور «ابتهج بالرب»، قـام البـابا بشكل مهيب بتطويب إدموند، رئيس أساقفة كـانتربري، وأدرج اسمه في لائحة القديسين لأنه خشي من أن يقـوم القـديس المذكور بمعـاقبتـه من أجل إهمال تطويبـه، ذلك أنه أجّل ذلك يومـاً بعد يوم، بسبب النمائم وأعمال التآمـر، وعندما

سمع الملك بهذا، سرّ سروراً كبيراً، ومـــا أن أعلم بذلـك، حتى أعطى أوامر بأن يقـوم جميع كهنة البيعة الملكية، بارتداء ثيابهم الاحتفـالية، وأن يتـولوا، مع عـدد من حـوامل الشمـوع المضـاءة، أداء قـداس، يبـدأونه بمـزمـور «دعــونا نبتهج» إلخ، إلخ، ولسـوف تكـون الوثيقـة الأصيلة لتطويبه في نهاية الكتاب.

كيف توقف البحر عن المدّ والتدفق لمدة ثلاثة أشهر (أيام؟)

لقد روي من قبل أشخاص موثوقين، أن البحر لم يتدفق على شاطىء البحر، كما هي العادة، وذلك لمدة أربعة أيام أو خمسة، وهي واقعة، شهد الذين يسكنون على الســاحل، والبحـارة الذين يسـافـرون فـوق الميـاه العظيمة، أنهم لم يروا مثلها من قبل بشكل مطلق.

انتخاب وليم أوف يورك أسقفاً لسالسبري

وفي حـوالي الـوقت نفسـه، أيضــاً، وجـد كهنة ســالسبري، أنه من الصعب جـداً إيجاد واحـد يكون مقبـولاً من الملك، مـالم يكن شخصـاً عائداً إلى بلاطه، وفي سبيل الاحتراز ضد تعريض كنيستهم إلى المخاطر، ولكي يربحـوا رضـا الملك، انتخبــوا بالاجماع وليم أوف يورك، وكـان كـاهناً مقـرباً كثيراً من الملك، وقسيس بيفيرلي Beverley, وكـــان رجــلاً بارعــاً تمامــاً في القــانون، انتخبــوه ليكون أسقفهـم والراعي لأرواحهم، وكما كان معتقداً، كان هذا الانتخاب مرضياً للرب، وموافقاً للملك، وقد جـرى تثبيته من دون تأخير، وجرى أيضـاً، انتخاب المعلم سيلفستر Sylvester لكرسي كـارآيل، لأنه مـع أنه قــد فكر من قبل، بنفســه، أنه غير أهل بهذا المنصب، ونتيجة لذلك لم يرض بالقبـول به، وبما أن الرب قـد دعـاه لتسلم رداء الأسقفيـة، استـولى عليـه رعب مقدس، وقبل بكل تواضع بالانتخاب المذكـور، خشية من التحرك ضد الرب، ولكي لايعد خارجياً.

موت بعض النبلاء الإنكليز

مـات في هذا العام بعض النبـلاء الانكليز، الذي عـدّ موتهم خسـارة كبيرة للمملكة، وكان من بين هؤلاء رتشارد دي أرغنتان Argentan, وكان فارساً شجاعاً، قاتل مخلصاً لمدة طويلة في سبيل الرب، في الأرض المقـــدســـة، وفي المنـاطق الشماليـــة، وهنري دي بـالأويل Baliol, ولامبرت دي ميـولتـون Lambert de Muleton, وكـذلك الاسكندر سويـرفورد Sewerford, وكان خـازن كنيسة القـــديس بولص في لندن، وقد دفن بشكل مشرف في كنيسة القديس بولص، وهو لم يترك مثيـلاً له في انكلترا، ذلك أنه كـان شخصـاً بهيـاً، جميل الوجـه، ومـوهوباً في المعـرفة في كثير من الفـروع، وكـان لامبرت دي ميولتـون المذكور أعلاه فارساً، وقد حـاز مؤخراً، بوساطة هدايا كبيرة، على امتياز مدهش من البابا، وهو أن ما من واحـد يحق له حرمانه كنسياً لأي ذنب من الذنوب، مـالم يكن ذلك بوصـاية خاصـة من البـابا، وكأن ذلك أنه كـان مسموحـاً له باقتراف الذنـوب مع حصانة، وبعـدمـا آذى كثيرين، وظلم أكثـر، استحق أخيراً ضربة تفقـدية مـن الرب، لأنه عندمـا كـان عائداً، بعد حضوره احدى الدعـاوى، وكان لابساً بشكل متشامخ، وقد ترجل، أو بالحري لدى ترجله من على ظهر حصانه، اشتكى بأنه أصيب بمرض خطير، وبادر مسرعاً إلى مضجعـه، وقبل أن يخلع مهمازيه، صار لونه شـاحباً بسبب الموت، وكـذلك رالف بريتـون Briton, الذي كان من قبل صديقاً مقرباً جداً من الملك والملكة، ومفضلاً على كثير من النبـلاء، كما كـان مستشـارالملـك، وقـد سقط على الأرض، وعـاش مع ضربة غير متـوقعة لسكتـة دمـاغية، وجـاء ذلك أثناء مشـاهدته لبعض اللاعبين بالنرد، أثناء لعبهم، وجـاء ذلك بعـد مشـاركته بـوجبة طعـام، وهكذا فإن الذي أفقـر كثيراً من الأشخـاص، وخـاصـة كهنة مسيـديا Messedia, في سبيل أن يجمع ثروة كبيرة، ويتملكهـا لنفسه، فقـد

فجأة حياته وما حصل عليه أيضاً، وكذلك نيقولا دين Danne, (عليه اللعنة)، وكان كاهناً، وخازناً، ومستشاراً خاصاً للايرل رتشارد، فهو كان مع صديقه وشريكه جون بريتاشي Bretasche, الذي كان فارساً، (والذي أصيب بانتقام مماثل) قد مارس أعمال الاستيلاء على المال من كل الاتجاهات، وتكديسه من أجل استخدام الايرل، ففي إحدى الليالي المظلمة، عندما كان مخموراً، ومتخماً من إحدى الحفلات، وكان ممتطياً من دون حذر لحصان حرون، سقط على الأرض سكراناً، فاصطدم بجذع شجرة على الطريق، فدق عنقه، وتمدد على ظهره، ولفظ أنفاسه، وتقيأ الخمرة التي كان قد شرب منها كثيراً، ولقد كتبت هذه الأشياء، من أجل أي واحد، قد يعهد الرب إليه بمقاليد أية سلطة مدنية، أن يقوم، بوساطة وضع قدميه في مكان واسع، وبتذكره قول النبي: «إنه أمر مرعب أن تقع بين يدي الرب»، يمكنه بذلك أن يخاف من العقاب في النهاية، إذا ما خان قضيته.

انتخاب رتشارد دي كروكسل راعياً لدير ويستمنستر

وفي حوالي الوقت نفسه، جرى بالاجماع انتخاب المعلم رتشارد دي كروكسل Crokesle, رئيس شمامسة ويستمنستر، والذي كان رجلاً فصيحاً، وعالماً بالقانون، وصديقاً قريباً جداً من الملك، انتخابه راعياً لدير تلك الكنيسة من قبل جميع الرهبان، لأن الرهبان خافوا أنهم إذا تصرفوا بشكل معاكس، من أن يقوم الملك، الذي كان حاميهم الخاص، بترك نصف الكنيسة التي شرع ببنائها بشكل جميل، غير مكتملة العمارة، وقد جرى على هذا انتخاب رتشارد المتقدم ذكره، وقد كان دوماً معجباً بالقديس ادموند المعترف، ورئيس الأساقفة، لأنه في يوم تطويب ذلك القديس، أي في يوم الأحد ماقبل عيد الميلاد، كما تقدم الذكر أعلاه، استدعي إلى الاحتفال التكريمي لهذا التجمع الأسقفي السامي، وأمر على الفور ببناء بيعة تشريفاً للقديس المذكور،

حيث تقام فيها صلوات فخمة، حسبما هو لائق، وتقدم في مستقبل الأيام إلى الرب، وإلى المعترف المذكور، وبمبادرة من الملك أيضاً، عملت إضافة لتكريم راعي الدير المذكور، سمح له بموجبها بأداء القداس في أثواب حبرية، وأن يقدم مباركات مهيبة إلى الناس أثناء انشاد «حمل الرب».

خاتمة أحداث السنة كلها

كانت هذه السنة خلالها كلها منتجة للشكوك إلى الأرض المقدسة، والأذى للكنيسة بشكل عام، والعدوانية للامبراطورية، والسلب لمملكتي فرنسا وانكلترا، والعار والاضطراب للبلاط الروماني.

احتفال الملك بعيد الميلاد في وينكستر

كان عام ١٢٤٧، هو العام الحادي والثلاثين لحكم الملك هنري الثالث، وفيه عقد بلاطه في وينكستر، بحضور عدد كبير من نخبة نبلاء المملكة، ولدى وصوله إلى هناك، استقبل بالسرور من قبل أسقف وينكستر، الذي رجاه بحرارة بأن يتناول طعام الافطار معه، في الصباح التالي الذي هو صباح يوم عيد الميلاد، فقد اعتقد الأسقف أنه بعمله هذا، يمكن أن يعطي برهاناً إلى الجميع بأن مولاه الملك، قد نسي تماماً، جميع ذنوبه السالفة، ولكي يتمكن من أن يظهر أمام جميع الضيوف بأنه —أي الملك— أعاده —أي الأسقف— إلى صداقته الماضية، ولسرور الأسقف، تمت الموافقة على طلبه، وتمت تلبية رغباته.

عقد مؤتمر في لندن

وفي هذه الآونة، وبناء على وصاية مستعجلة من البابا، تتعلق بالمساهمة التي تقدم ذكرها والتي لايمكن التساهل نحوها، وهي المساهمة التي قام الأساقفة بالمؤتمر العام، لسوء الحظ فربطوا رجال الدين بها، بناء على ذلك قام الملك بموجب أمره الملكي، باستدعاء

نبلائه، وكذلك رؤساء الشمامسة في انكلترا، للقدوم إلى لندن، ولدى وصولهم إلى هناك، قاموا جميعاً، أي الأساقفة، قبل اليوم المتفق عليه، فغيبوا أنفسهم عن عمد، في سبيل أن يظهروا أنهم كانوا معارضين لأعمالهم، لأنهم كانوا يعرفون بأن قلوب الجميع كانت مليئة بالألم، ولم يكن هذا من دون سبب مسوغ.

حول مؤامرة بعض نبلاء فرنسا ضد البابا

في الوقت الذي كان فيه نهر الوقت يتدفق هكذا نحو الأمام، ضعفت التقوى لدى المسيحيين، وكذلك عواطف البنوة، التي من المتوجب على كل مسيحي أن يرعاها نحوأبينا الروحي، البابا، ذلك أنها كانت قد أصيبت بجراحة وماتت، ولم يكن هذا بلاتعريض أرواحنا للخطر، لابل في الحقيقة، تحولت هذه العواطف إلى كراهية شديدة، ولعنات خفية، لأن الجميع قد شاهدوا، ومع المشاهدة شعروا بأن البابا المذكور، استمر عازماً، على إلحاق الضرر والفقر بكثيرين، وعلى نهب المال، واعتقد كثيرون الآن، أنه بإمساكه للسلطات التي منحت من السماء إلى القديس بطرس، أي سلطة الحل والربط، قد برهن عن نفسه، بأنه لايشبه القديس بطرس بشكل مطلق، وانفتح فم المتحدثين بالشر والذم في كل مكان، وبشكل خاص في فرنسا، البلاد التي تآمر فيها كثير من النبلاء ضد البابا والكنيسة، وهي حالة لانتذكر قط أنها وقعت من قبل، ومن الممكن مشاهدة خصائص هذه المؤامرة في العرض الكتابي التالي، وقد وصلني باللغة الفرنسية، وفيه جاء:

«إلى جميع الذين سوف يرون هذه الكتابات، نحن الذين أختامنا مثبتة على الرسالة الحالية نعلن أننا نقسم بحق أجسادنا، بأننا قد تعهدنا، وتعاهدنا مع بعضنا، وذلك بالنسبة لأنفسنا، ولورثتنا بشكل أبدي، بأننا سوف نساعد أحدنا الآخر، وجميع الذين في بلادنا، وفي البلدان الأخرى، الذين يودون أن يكونوا في هذه الجماعة، وذلك في أن نستحوذ

على حقوقنا، وأن نحصل عليها، وندافع عنها، وعن ماهو خاص بهم، بإخلاص صالح، ضد رجال الدين، وحيث أننا رأينا أنه سوف يكون عبئاً ثقيلاً علينا، أن نواجه هذا، اخترنا نيابة عنا ولصالحنا، بموافقة عامة، وبرضا منا جميعاً: دوق بيرغندي، وكونت بيريوم Perrum أوف بريتاني، وكونت أنغوليم، وكونت القديس بولص، وذلك من أجل أنه إذا ما أقدم أي واحد من جماعتهم على تقديم شيء إلى رجال الدين، مثل أية مساعدة، يقوم الرجال الأربعة المتقدم ذكرهم بتقدير الذي ينبغي أن ينزل به، ونحن علينا أن نفعل ذلك وننزل به، ونود أن يعلم الجميع، أننا في سبيل الدفاع والاستحواذ، والحصول على ماتقدم ذكره أعلاه، إن كل واحد من هذه الجماعة سوف يخصص مائة بالمائة، بموجب يمينه، مما يكسبه لمدة سنة، من الأراضي التي يمتلكها آنذاك، وسوف يقوم كل رجل غني من هذه الجماعة بجباية المفروض لكل سنة حسب أقصى قدرته، في عيد طهارة سيدتنا، وسوف يرسل هذا المال إلى أي مكان يحدد له بوساطة رسائل تحمل أختام الأربعة الذين تقدم ذكرهم، أو تواقيع اثنين منهم، وإذا مااقترف أي واحد خطيئة، ولم يكن من الممكن جعله يتخلى عن ذلك من قبل هؤلاء الأربعة الذين وردت أسماؤهم أعلاه، هو سوف لن ينال المساعدة من الجماعة، وإذا تعرض واحد من هذه الجماعة إلى الحرمان الكنسي، بوساطة ذنب معروف لدى هؤلاء الأربعة، وكان هذا الحرمان قد أنزل به من قبل رجال الدين، هو لن يتنازل عن حقه، وصراعه من أجل الحرمان الكنسي، ومن أجل أي شيء آخر من الممكن أن يعملوه له، ما لم يكن ذلك بموافقة هؤلاء الأربعة، أو اثنين منهم، وهو سوف يتابع العمل في سبيل حقوقه، وإذا ما مات اثنان من هؤلاء الأربعة، أو سافرا إلى خارج البلاد، على الاثنين اللذين بقيا، وضع اثنين آخرين، وتعيينهما مكان هذين الاثنين، ولسوف يكون لهذين السلطة نفسها، حسبما كان قد تقرر أعلاه، وإذا ما حدث أن ثلاثة، أو الأربعة غادروا البلاد، أو ماتوا، يتوجب على عشرة أو اثني

عشر من أغنياء هذه الجماعة، انتخاب أربعة آخرين، وسيكون لهؤلاء السلطات نفسها، مثلما كانت للأربعة الذين ذكرت أسماؤهم أعلاه، وإذا ماقام هؤلاء الأربعة، أو أي واحد من الجماعة، بأي عمل، بناء على أوامر هؤلاء الأربعة، وكان ذلك مما يخص هذه الجماعة، سوف تقوم الجماعة بتخليصهم منه».

كتابة أخرى ضد رجال الدين

«بما أن أوهام رجال الدين، غير متنبهة إلى أنه بوساطة الحروب وسفك دماء بعض الناس في أيام شارلمان وآخرين، جرى تحويل مملكة فرنسا من آثام الأمم إلى الإيمان الكاثوليكي، وأنه بوساطة نوع من التذلل ضللنا رجال الدين، ونأوا بنا، ورجال الدين هؤلاء يقفون ضدنا مثل ثعالب، فمن خارج بقايا هذه القلاع نفسها التي تعود بتأسيسها ووجودها إلينا، قاموا بخرق سلطات أحكام الأمراء العلمانيين، حتى صار أولاد الأرقاء، يقضون على الرجال الأحرار، وعلى أبناء الرجال الأحرار، تبعاً لشرائعهم، مع أنهم ينبغي بالحري، أن يحكموا من قبلنا وفقاً لشرائع المتغلبين الماضين عليهم، ولايجوز الانحراف عن ذلك، بوساطة مراسيم جديدة، ولا عن أعراف وعادات أجدادنا، ذلك أنهم يريدون أن يضعونا في حال أسوأ، مما أراده الرب، حتى بالنسبة للأمم، عندما قال: «أعط لقيصر ما لقيصر، وأعط للرب ما للرب»، ونرى نحن، أعيان الناس في هذه المملكة، ونقدر بتيقظ، بأن المملكة، لم يتم الحصول عليها بالشريعة المكتوبة، ولابرعونة رجال الدين، بل بجهود الحرب وعرقها، وبهذا المرسوم الحالي، الذي أصدرناه بناء على قسم من الجميع نقضي ونقرر، بأنه لن يقوم من الآن فصاعداً أي رجل دين أو أي علماني، بسحب شخص آخر إلى أمام قاض عادي أو قاض مناب، مالم يكن ذلك في قضية هرطقة، أو زواج، أو ربا، وفقدان جميع مناصبهم الشرفية، والحرمان من واحد من أعضائهم، ينتظر جميع

المعتدين، ولقد جرى تعيين بعض الناس ليكونوا وكلاء لنا، لمتابعة تنفيذ هذه القضية، وذلك في سبيل استرداد سلطاتنا القضائية، ولكي نتمكن من التنفس بحرية، ومن أجل أن هؤلاء الذين صاروا أغنياء على حساب افقارنا، والذين اختار الرب كشف نواياهم الخبيثة، بسبب عجرفتهم، من أجل أن يعادوا إلى أوضاعهم كما كانت في الكنيسة الأولى، ولكي يصبح ممكناً بعيشهم حياة تأمل، أن نشاهد نحن الذين نمارس الحياة الفعلية، من خلالهم، المعجزات التي غادرت هذا العالم، منذ زمن طويل».

وعندما سمع البابا بهذا، تنهد بروح قلقة، وبما أنه كان راغباً في ترضية نفوسهم، واضعاف ثبات مقاصدهم، قام أولاً بانذارهم، وسعى إلى تحذيرهم بالتهديدات، لكنه وجد أن هذا كان بلا فعالية، لذلك قام باضفاء عدد من المنافع اللاهوتية على عدد من أقربائهم، ومنحهم إذناً بالاستحواذ على عدد من المنافع، مع كثير من الأعمال الأخرى، كما قدم كثيراً من الهدايا إلى النبلاء أنفسهم وتمكن بهذه الوسائط من استرداد بعض الذين تقدم ذكرهم، ومن ثم اقلاعهم عن اجراءات مطالباتهم، وخاف —على كل حال— كثيرون من محتويات الرسالة، حيث ساد اعتقاد بأنها صدرت عن واحد ما، بموافقة فردريك، لاسيما وأن الفقرة الأخيرة من هذه الرسالة تتوافق مع الرسالة التي كان قد أرسلها إلى كثير من الأمراء، وهي الرسالة التي قال في نهايتها: «لقد كانت نوايانا دوماً ورغباتنا، في أن نقنع الكهنة من كل طائفة، وبشكل خاص أصحاب المراتب العليا منهم، في أن يستهدفوا الوصول إلى غاية، تتماثل مع الذي كانوا عليه في الكنيسة في أحوالها الأولى، وأن يمارسوا حياة رسولية، وأن يقلدوا الرب في تواضعه، لأنه كان من عادة أولئك الكهنة ممارسة النظر إلى الملائكة، وأن يشعوا بالمعجزات»، إلخ، إلخ، وعد إلى الرسالة التي كان الامبراطور قد أرسلها إلى ملك انكلترا، وإلى الأمراء الآخرين في عام١٢٤٥.

حول البارلمان الذي عقد في لندن وفيه تكدست الشكايات فوق الشكايات حول استخراجات البابا

وفي اليوم التالي لعيد طهارة القديسة مريم، عقد الملك محادثات دقيقة مع نبلائه، ومدد المؤتمر لعدة أيام، لأنه كانت هناك مسائل مستعجلة، حيث كان هناك خوف كبير، من أن يقوم الملك الفرنسي بجعل غسكوني خاضعة له، فهذا ما روي إلى الملك على أنه أمراً حقيقياً، وكان فقدان تلك المقاطعة كما هو ظاهر بشكل واضح، فيه إهانة كبيرة للملك الانكليزي، كما يشكل خسارة كبيرة له، لأنه يتلقى بالعادة سنوياً ألف مارك من بوردو وحدها، وكان قد اجتمع هناك أيضاً، كما ذكرنا من قبل رؤساء شمامسة انكلترا، وذلك إلى جانب شطر كبير من رجال الدين والنبلاء، وهؤلاء اشتكوا بشكل جماعي من الاستخراجات البابوية التي لايمكن تحملها، وقد تعاطف الملك معهم حول هذه الشكايات وشارك في أساهم، لأن الدولة كلها كانت في حالة خطر، وكانت القضية تهم المملكة كلها، وكان لهذا هناك يأس وأسى لم يسمع بمثله من قبل، واضحاً بين رجال الدين، ولذلك جرى عرض شكاية مبكية أمام الملك، الذي كان واجبه حماية الصالح العام، ومنع مثل هذا الأذى وهذه المخاطر، وأخيراً توفر رأي جماعي قضى بإعداد رسالة مستقيمة، حتى يجري ارسالها إلى البلاط الروماني، لتبيان المظالم الجادة إلى البابا، وتقرر إرسال الرسالة التالية باسم جماعة الناس كلها ورجال الدين إلى البابا والكرادلة.

الرسالة التي أرسلت إلى البابا باسم جماعة إنكلترا كلها

«إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح والرب، والذي هو بموجب الحكمة الربانية الحبر الأعظم ترسل جماعة رجال الدين والناس في مقاطعة كانتربري، قبلات تقوية إلى قدميه المقدستين:

بما أن الكنيسة الانكليزية، منذ التاريخ الذي جرى فيه منحها الإيمان الكاثوليكي للمرة الأولى، قد سعت لإرضاء الكنيسة الرومانية المقدسة، التي هي أمنا، والتزمت دوماً بعبادة الرب باخلاص، من دون محاولة التخلي عن الواجب الذي حملته، واستفادت دوماً من مزيد من الرعاية، وهي الآن تلقي بنفسها عند قدمي قداستك، وترجو باخلاص، أنه بالنسبة لمطلب المال، الذي طلب منها، بطرق مختلفة، وبضغط شديد من أجل مساعدة شعوب متنوعة، بأن تتفضل بعواطفك وتتنازل بابداء الرحمة نحوها، لأن العبء المطلوب لايمكن حمله، وبسبب عدم كفاية الممتلكات، غير ممكن، لأنه وإن كانت بلادنا تنتج أحياناً محاصيل، لكن هذه يجري تخصيصها وصرفها لمعيشة شعبها، ثم إنها لاتنتج وفرة من المال، كما أنها منذ وقت طويل لم تنتج ما يكفي لتلبية المطلوب منها في الوقت الحالي، يضاف الى هذا أنه قد ضغط عليها، وأثقلت فيما مضى بعبء مشابه، لكنه لم يكن ثقيلاً جداً بالنسبة لما مضى من أيام، ولم يعد الآن بامكانها تحمل هذه الاستخراجات، وبالاضافة الى هذا،إنه بناء على أوامر قداستك، المساعدة مطلوبة في اللحظة الحالية،من رجال الدين الى مولانا وملكنا الدنيوي(الذي لاينبغي لنا ولايمكننا لكرامته أن نتخلى عنه في ضيقه)، من أجل أن نمكنه من صد هجمات الأعداء(نجانا الرب منها) وللدفاع عن ميراثه،ولاسترداد الذي انتزع منه.

ونحن بناء عليه،نرسل حاملي هذه العروض، مع التماسات الى حضرة قداستك، بأن تقدر مدى المخاطر والأضرار التي سوف تنجم عن مثل هذه الاستخراجات، كما تقدم الذكر أعلاه، والتي لايمكننا تحملها بأي حال من الأحوال، مع أننا مرتبطون بكم بكل رباط عاطفي، ولأن جماعتنا ليس لديها ختمها، نرسل هذه العروض إلى قداستكم، موقعة بعلامة جماعة مدينة لندن».

الرسالة التي أرسلت بإسم الجماعة نفسها إلى الكرادلة

«إلى أكثر الآباء تبجيلاً في المسيح والرب، كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، من عبيدهم المخلصين، إلخ، صحة، واحترام صحيح لائق، وتشريف:

إلى أخوتكم، بحكم كونكم القواعد المستندة عليها كنيسة الرب، قد طرنا إليكم بالتماسات متذللة، ونحن نرجوكم بحرارة، أن تمنحوا الاهتمام، وأن تصغوا إلى المظالم التي نتألم في ظلها، وأن تعطونا العون، في سبيل أن تتمكن الكنيسة الانكليزية من أن تسترد أنفاسها، بعد اضطرابات متوالية واجهتها في الأيام الماضية، ونحن مقابل هذا ملزمون بأن نرد إليكم شكرنا المتوجب، فمنذ أيام مجمع اللاتيران الأخير، تعرضت الكنيسة الانكليزية إلى ضيق شديد، بسبب أوامر الكرسي الرسولي، التي قضت بدفع الأموال، بداية الجزء من عشرين من أجل عون الأرض المقدسة، وبعد ذلك الجزء من عشرة، من أجل مساعدة البابا، وفيما بعد أوامر متنوعة حول هدايا وأعطيات مختلفة، بطرائق متباينة، ولاستخدامات متنوعة، ومع ذلك صبت كل الذي تمكنت من جمعه بيدها، وبالاضافة إلى هذا، قدمت أيضاً بناء على أوامر الكرسي الرسولي، مراراً وتكراراً المساعدات إلى ملكنا وإلى الرعاة الدنيويين، وذلك بقدر ما توفر لديها من قدرات، والآن في هذه اللحظة الحالية، قد طلب منها، بناء على التماساتكم، تقديم مساعدة إلى الملك المذكور (الذي لايمكننا، ولايجوز لنا عدم تلبية مطالبه وقت الحاجة) في سبيل أن نمكنه من صد غارات أعدائه، ومن أجل حماية حقوق المملكة، ولاسترداد الذي حرمت منه، وأخيراً هناك مطلب جديد، قد عمل الآن، وفرض على الكنيسة نفسها، وهذا ما لايمكنها تحمله، لأن ممتلكاتها القليلة جداً لاتسمح لها بالاستجابة لهذا الطلب، وتلبيته، ولقد طلب من بعضهم نصف الممتلكات التي بحوذتهم، ومن آخرين الثلث،

ومن البقيــة جـزئــاً من عشرين، وســـوف يخصص شطر مـن هذا كله لاستخـدامات الفـرنسيين، الذين يقـومـون دوماً باضطهـادنا وتعـذيبنا وإلحاق الأذى بدولتنـا، وذلك مـن أجل الاستيـــلاء على امبراطـورية الاغـريـق، وشطر آخـر لمسـاعــدة الأرض المقـدســة، التي من الممكن ــحسبما أعلن العالم بصوت مـرتفع— استردادها من العدو، بمخاطرة أقل، وشطر ثالث إلى الاستخـدامات الأخـرى وفق ماقـد يراه الكرسي الرسولي ويأمر به، ويبدو في الحقيقة أنه صعب ومتناقض أن يكون هناك آخرون يمتلكون الكثير من مقتنياتنا وجهـودنا، وأن يتوجب على رجال بلادنا، وفقـراء مملكتنا —الذين الأعطيـة عـائـدة إليهم— الصـوم وأن يكونوا بلا مقتنيـات، كما أن ملكنا وجنوده أيضاً، لن يكون، وهـم معـه، قـادرين على صد الغـارات، والدفـاع ضد الأعمال العـدوانية لأعـدائنا، لاسمح الرب بذلك، كما أنه لن يكون من الممكن تقديم أية مساعدة إلى الذين يعـانون من العوز والحاجـة، وذلك إذا مـا جرى استهـلاك جميع أمـوال المملكة، وفي الحقيقة، إن كل شيء يمتلكـه رجال الدين، سـوف يكون عرضـة للبيع، ذلك أن مبلغ المال المطلوب حاليـاً، لايمكن توفره بيننا،ولسـوف ينجم العـديد من المصـائب عـن هذا الطريق، مثلما ينجم عن أعمال النهـب والسلب، وذلك إذا —لاسمح الـرب— تم الاصرار على ذلك، وفي سبيل ايضـاح هذه الأمـور إليكم، نرسل إليكـم الحاملين لهذه العـروض، بمشـابة رسلنا بشكل عــام، ليمثلوا بحضرتكم، ولكي يلتمسـوا منكم بحـرارة، ومن أجل خــاطر الرب، والكرسي الرسـولي، حتى تتـولوا تذكير البـابا، ولكي توقفـوا أيـديكم وآراءكم عن مثل هذا الظلم، وأن تتعطفـوا، إذا كـان يرضيكم، بأن تتذكـروا تلك المدهشـات والتمزقات الحاصلة في الخارج، بالابتعـاد عن صدر الكنيسة الأم، وعن طاعتهـا، بطريقة لاتتفـرقـوا أنتم فيهـا في الخارج، ولكي لاتبعدوا عنهـا الذين تجمعوا من قبل مـع بعضهم بموجب عاطفـة الحب والاخلاص، وبما أن جماعتنا ليس لـديها ختمهــا الخاص، أرسلنا هذه العـــروض إلى

اخوتكم المقدسة، ممهورة بختم جماعة مدينة لندن».

حصول الملك على إمتياز غامض من البابا

وفي حوالي الوقت نفسه، وقع الملك، دون أن يعرف بمصائد الرومان الخفية، بوساطة دهائهم وكلامهم المخادع، وحصل بوساطة بعض رجال بلاطه، الذين رغبوا في ارضائه، على امتياز ما، له شخصياً، من البلاط الروماني، جاءت صيغته كما يلي:

«مع أن البابا قد قام بناء على إرادته وبرغبة منه، في سبيل تخفيف مظالم الكنيسة الانكليزية، فأصدر مراسيم، في كل مكان، وقام من دون تمييز بتوزيع المنافع في انكلترا، لصالح الايطاليين، قد قام مع ذلك الآن، وقد هدأت العاصفة كثيراً، فأصدر أمراً قضى أنه إذا ما جرى إعطاء أي واحد من أقربائه، أو من أقرباء الكرادلة، عليه أن يحصل على اذن الملك وعلى رضاه على المنحة التي تمّ عملها»، وحصل أنه بموجب هذا الامتياز الغامض والمخادع، أن تمكن الأصدقاء الطفيليون للملك من تهدئة مشاعره، وربطوه بقوة أكثر بأدواتهم، لأن الموثقين والكتّاب العائدين للبلاط الروماني يستجيبون مثل الشمع للرشوى والاكتراء، وإذا ماقاموا بناء على أوامر البابا بكتابة رسائل مليئة بالعبارات الرنانة من أجل إرسالها إلى مولانا الملك، فعلوا ذلك لإغناء أنفسهم وللتلاعب به، فهل يمكن للمرء أن يتوقع إلاّ الأسوأ منهم؟ ولذلك نظرت أنا إلى الامتياز المتقدم ذكره، وعددته كلا شيء، غير أنه تعلق به وتأمل.

كيف جرى إحضار سيدات أجنبيات للزواج من نبلاء إنكلترا

قبل ارفضاض المؤتمر المذكور، وصل إلى بلاط الملك في لندن بطرس أوف سافوي، ايرل رتشموند محضراً معه من مناطق نائية بعض السيدات غير المعروفات، من أجل تقديمهن زوجات إلى نبلاء انكلترا، الذين رباهم الملك في حراسته، وهو عمل كان مغضباً بوضوح وغير

مرض لكثير من النبلاء المحليين في انكلترا، الذين أنفسهم قد أهملوا.

إرسال راهبين فرنسيسكان إنكليز من قبل البابا إلى إنكلترا لاستخراج المال

في الوقت الذي كانت فيه تقلبات الحظ تخدع العالم بمثل هذه المغالطات، جرى ارسال راهبين، من طائفة الفرنسيسكان إلى انكلترا، كان اسمهما: جون، والاسكندر، وكانا من أصل انكليزي، كما كانا قد حصلا من البابا على سلطة استخراج المال، من أجل الاستخدام من قبل قداسته، فلقد جرى بعثهما إلى انكلترا من قبل البابا نفسه، مسلحين بعدد من الرسائل، ممهورة بالختم البابوي، ومخفية نهم الذئب تحت صوف الشاة، وقد مثلا أمام الملك، بنظرات ساذجة، وبعينين تنظران نحو الأسفل، ورجواه بكلام لطيف، والتمسا اذنه ليتجولا في أرجاء المملكة، يطلبان الاحسان من أجل منفعة البابا، وقد أعلنا أنهما سوف لن يقوما بأي ضغط، وما أن حصلا على هذا الاذن من الملك، الذي لم ير أية نية شريرة في هذا الاجراء، حتى تحول الراهبان المذكوران فأصبحا نائبين بابويين خبيرين، وقد تشجعا بأعطيات كهنة الملك، لذلك انطلقا من البلاط الملكي، وقد امتطيا على مهرين أصيلين، مزينين بسرجين مطليين بالذهب، وهما شخصياً قد ارتديا ثوبين جميلين جداً، وكان في أقدامهما أحذية مما يلبسه الفرسان مع مهاميز، من النوع الذي يعرف عادة باسم heuses (hose?)، وذلك في سبيل إيذاء طائفتهما، وإلحاق العار بمهنتيهما، وقد توليا وظائف النواب البابويين، ومارسا طغيانهم، وطالبا بالأموال، واستخرجا الأتاوات، ونظرا باستخفاف إلى مبلغ عشرين شلناً طالبا به كل واحد ممن سنذكره، فقد ذهبا في المقام الأول إلى أساقفة أعلى الطوائف في انكلترا، وطالبا بشكل مهيب بالمال لاستخدامات البابا، تحت تهديد العقوبة، وسمحا بوقت قصير جداً للاجابة، أو من أجل الدفع، وعرضا عليهم رسائل تهديد البابا، التي

قدماها وكأنها قرون تخويف، ولدى قدومهما إلى أسقف لنكولن، الذي كان دوماً محباً خاصاً وتابعاً لطائفتهما، وذلك إلى حد أنه تصور مرة فكرة الدخول بطائفتهما، ولقد استولت عليه الدهشة لدى مشاهدته هذا التغيير الذي ألم بالرهبان الفرنسيسكان وذلك بالنسبة لكل من الملبس والسلوك، والوظيفة، لأنه بات الآن من الصعب اكتشاف إلى أي طائفة أو وضع كانا ينتميان، وعندما أقسما حول مايتعلق بمحتويات الولاية البابوية، بخاصة من أجل تصديقهما من قبل كثيرين، ثم طالبا بإلحاح وسرعة بمبلغ صغير، هو ستة آلاف مارك من أسقفيته، وقتها رد عليهما، وهو على درجة عالية من الدهشة والحزن، حيث قال: «حضرة الراهبين، إن هذه الأتاوة —مع احترامي للسلطة البابوية— مهينة وغير صحيحة، ولايمكن الاصغاء إليها، لأنه من غير الممكن تنفيذ مطلبكما، ثم إن المسألة لاتعنيني أنا وحدي فقط، بل تعني جميع جماعة رجال الدين، والشعب، والمملكة بشكل عام، وأنا أرى أنني سوف أكون طائشاً ومتهوراً ومتناقضاً، باعطائكما جواباً ايجابياً حول هذه المسألة، أو منحكما موافقة مؤكدة حول مثل هذا الإجراء الخطير، من دون التشاور مع جماعة المملكة بشكل عام»، وقاما بعد هذا الجواب بالمغادرة، وسارا وهما قد تحولا إلى رجلي بلاط وتغيرا (كما ذكرنا أعلاه) ومضيا إلى كنيسة القديس ألبان، ولم يباليا بالحط من كرامتهما إلى حد الذهاب إلى موضع الاقامة، مع الغرفة التي بنيت في داخل باب الساحة للاستخدام الخاص من قبل الدومينيكان والفرنسيسكان، ثم انحرفا وخرجا عن طريقهما وتوجها إلى المكان الأكثر سمواً المخصص لإقامة الأساقفة ولاستراحة الرجال أصحاب المراتب العليا، ولقد استقبلا باحترام هناك، ثم إنهما بالطريقة نفسها التي طالبا بها بمبلغ الستة آلاف مارك من الأسقف المتقدم ذكره، طالبا الآن بمبلغ أربعمائة مارك من راعي الدير، من أجل الاستعمال البابوي، وبكل غطرسة طالبا بوجوب الدفع في وقت قصير، تحت طائلة التهديد بأقسى العقوبات، لكن لدى

اجـابتهما والـرد عليهما من قبل الراعـي، وفق الطريقـة التـي قـام بها الأسقف المذكـور، إنما بشيء من التـواضع أكبر، ارتدى هذان الراهبـان ثيابـاً علمانية ومع حـركات علمانيـة، امتطيا فـرسيهما الأصيلين، وغادرا وهما يتمتمان ويزمجران، ويهددان.

البابا يسأل أساقفة فرنسا اقراضه مالاً

أرسـل البـــــابـا في هـذه الآونة رسلـه الخاصين مـن الدومينيكـان والفـرنسيسكـان، وهم يحملون رســائله الأصيلة إلى جميـع أســاقفة فرنســا، واحداً، واحـداً، يرجو كل واحـد منهم، أن يقرضـه مبلغاً من المال، وفقاً لإمكاناته، واعداً أنه عندمـا سيسترد أنفاسه، سوف يدفع من دون شك لكل واحـد استحقـاقاته، وعنـدما أصبح هذا معـروفـاً لدى الملك الفرنسي، الذي كانت لديه شكـوكه حـول شره البلاط الرومـاني، منع كل واحـد مـن الأسـاقفـة في مملكتـه، تحت طائلة عقـوبة فقـدان ممتلكاته، إذا ما قـام بافقـار أراضيـه وفق هذه الطريقـة، وهكذا حـدث أن غـادر النواب البابويون البـارعـون الذين ألقي على عواتقهـم عبء هذا الواجـب، المملكة وهم خـالين الوفــاض، وسط اشمئزاز وازدراء جميع الفرقاء.

حول ترقية ورفع شأن جون مانسيل

عندما كـان الوقت يشع هكذا وسط هذه الأحـداث غير المرئية، تولى جون مانسيل Mansel مستشار كنيســة القديس بولص في لنـدن، بناء على رغبــة الملك وطلبـه (الملك الـذي طلبـاته لاترد وهـي مهيبـة) واجبات المسؤولية عن ختم الملك، في سبيل أن يتـولى مسؤولية وظيفـة المستشار، وبالاضـافة إلى هذا أضفيت عليه مـرتبة رئاسة كنيسـة بيفـرلي Beverley من قبل رئيس أساقفة يـورك، ومع أن الملك كان آسفـاً لأن هذا المنصب لم يمنـح إلى أخيـه من أمــه، لكن لأنـه وجـد جــون

المذكـور مخلصاً، ومحتاجـاً إليه كثيراً في دعم عناياته واهتماماته، لم يرغب أن يتعرض للحزن أو أن يفقد أياً من المناصب التي أضفيت عليه.

إرسال قسيس اسمه مارتن إلى إنكلترا

في الوقت الذي كان فيه دولاب الحظ يقوم باستمرار برفع المتدني إلى الأعلى، اعتقد مـولانا البابا، أن جـامعي الأموال المتنوعين الذيـن جرى ارسـالهم، غير كافين لجمع المال، فأرسـل إلى انكلترا رجلاً اسمـه المعلم مـارين Marin (هو مـارتن آخـر)، وكـان قسيســـه، والذي توحي أهميـة اسمـه بأنـه قـد اختير ليكون صيـاداً، لكن ليس للرجـال، إنما لمقتنيـاتهم، في بحر العـالم هذا، وقد جـاء مع نيـة، أنـه في الوقت الذي كـان فيه الآخرون يصطادون، أن يقـوم باقتناص الانكليز من على بعد، أو أن يتمكن بخداعه لهم برميهم في شبكتـه بمهارة وحذر، وهو وإن لم يكن قـد منح رسميـاً شـــارات نائب بابوي، مـع ذلك تسلح بقــوة بسلـطات نائب بابوي، في سبيل التخلص من امتياز الملك.

إرسال غودفري الأسقف المنتخب لبيت لحم
بمثابة نائب بابوي إلى سكوتلندا

وجرى في هذه الآونة أيضـاً، ارسال غودفـري، ابن مفتش السوق في رومـا، والأسقف المنتخب لبيت لحم، نائبـاً بابـوياً إلى سكوتلندا، وذلك من قبل البـــابا، لكن مـن أجل أي غــرض، هـذا غير معــروف، لأن العقيــدة الكاثوليكية كـانت مزدهرة باستمـرار، وكان السـلام مؤسسـاً بشكل راسخ بين رجـال الدين والناس، ولذلك من المعتقــد، أنه بنـاء على ماهو معـروف عن العادات الرومـانية، أن مهمـة غودفـري المتقـدم الذكـر، الذي كـان قـاسيـاً ولـديه قـدرة حـديدية على الجـذب، سـوف يجـذب إلى نفســه الموارد الماليـة الوافـرة للاسكوتلنديين، والمرغـوب بها كثيراً.

إرسال المعلم جون إلى إيرلاندا

وجرى في الوقت نفسه ارسال المعلم جون الأحمر إلى ايرلاندا، لجمع المال، مع صلاحيات كاملة، وكأنه كان نائباً بابوياً، مع أنه لم يمنح شارات تلك الوظيفة، وذلك خشية من أن يظهر البابا وكأنه يقدم سبباً للإساءة إلى ملك انكلترا، الذي كان فرحاً بأنه كان محمياً —عبثاً كما خيّل إليه— بامتياز، أنه ما من نائب بابوي يجوز أن يقدم إلى أراضيه، ما لم يكن قد سئل من أجله، وعلى هذا قام جون المذكور بنشاط بتنفيذ أوامر البابا، وصرف نفسه نحو منافعه وكسبه، إلى حد أنه استخرج ستة آلاف مارك من ايرلاندا، وقد أرسل هذا المبلغ إلى لندن يوم عيد القديس ميكائيل، بعهدة بعض رجال الدين، وذلك لاضافته إلى خزانة البابا وأمواله، لكن جميع هذه الإجراءات لم تنجَ مَن المعرفة بها من قبل فردريك.

هزة أرضية في إنكلترا

في الثالث عشر من شباط لهذا العام، أي في يوم عيد القديس فالنتاين Valentine كانت هناك هزة أرضية في عدة أماكن من انكلترا، خاصة في لندن، وأكثر شيء على شواطىء نهر التيمز، وقد هزت الأبنية، وكانت مؤذية جداً ومرعبة بنتائجها وتأثيراتها، هذا ومن المعتقد أن مثل هذه الواقعة كانت خطيرة، لأنها غير عادية، وغير طبيعية في هذه البلدان الغربيـة، لأن الكتلة القوية المتماسكة لانكلترا متحررة من الكهوف الموجودة تحت الأرض، والمغائر العميقة (التي فيها، تبعاً للفلاسفة يجري بالعادة انتاج الهزات الأرضية)، كما أنه من غير الممكن كشف أي سبب آخر لقيامها، ولذلك كان من المتوقع، وفقاً لتهديدات الانجيل، بأن نهاية الدنيا وشيكة، وأن حركة الأرض هذه تشير إلى أنها جاءت تجاوباً مع التحركات في هذا العالم، وبذلك من الممكن تحريك العناصر وازعاجها بوساطة تحركات متوالية، لأنه قبل عدة أيام مضت، كان المدّ

والجزر قليلاً جداً، إن لم نقل انعدم كلياً، وكان هذا قد حدث على طول مسافة طويلة من الساحل، وقد وقع خلال ثلاثة أشهر، وهي واقعة ما من أحد يتذكر أنه شاهد مثلها من قبل، كما أنه لم يكن هناك زلزال في انكلترا منذ عام ١١٨٦، [بالأصل ١١٣٣] وهي السنة الثالثة، قبل وفاة الملك هنري الثاني، وكان قد أعقب وقوع هذا الزلزال عواصف مديدة من الأنواء، وبقسوة شتوية جاءت في غير وقتها، وببرد مزعج، وأمطار، إلى حد أن الفلاحين والبساتنة قد اشتكوا من أن الربيع قد تحرك عائداً نحو الخلف وتغير إلى شتاء، وشعروا بخوف عظيم بأن آمالهم بموسم جيد، وبوفرة لثمار الأشجار، وللحبوب، سوف تحبط، واستمرت هذه الحالة المزعجة للمناخ بدون انقطاع، لو لاستراحة هدوء يوم واحد، حتى عيد انتقال القديس بندكت Benedict.

موت الفارس فولك

حدث في اليوم التالي لعيد طهارة القديسة مريم، أن مات في لندن فولك أوف نيوكاسل، الذي كان فارساً متميزاً، وهو ابن عم للملك، وبسبب أصله النبيل، جرى دفن جسده بشكل مهيب ومشرّف في كنيسة ويستمنستر، وكان ذلك بناء على أوامر الملك، الذي صدف وجوده هناك في أعقاب عقد البرلمان الذي تقدم ذكره أعلاه.

إلغاء المرسوم المتعلق بالأشخاص الذين يموتون من دون وصية

وتواترت الأخبار في هذه الآونة، وتحدثت عن فضيحة لم يسمع بمثلها، انتشرت في الخارج خلال مختلف البلدان، حول قيام الكرادلة بفرض المرسوم الذي ألغي، وهو المرسوم الذي كان قبل وقت قصير قد عمل من قبل البابا، بموجب محرض من الشره كان واضحاً تماماً، والذي حتى يضعه موضع التنفيذ، قد كلف الرهبان الفرنسيسكان أن يكونوا وكلاءه، وذلك في سبيل خسارتهم وفضيحتهم وإلحاق الأذى

بطائفتهم، وهـذا المرسـوم هـو الذي ادعى البـابا بمـوجبـه المطالبـة بممتلكات الأشخـاص الذيـن كـانـوا يمـوتون من دون وصيـة، لاستخـدامـاته الخاصـة، ونجم عن هذا المرسـوم إلحاق الضرر وتسبيب الأذى لكثير من النبلاء، وفي سبيل زيادة ذلك الظلم، أضيفت إليه فقرة جديدة، مضـادة لجميع الشرائع، وللتقوى كلها، وجـاء نص هذه الفقرة الإضـافية كما يلي: «إنما إذا كـان هناك رجلاً مريضاً، وكـان على وشك عمل وصيته، وصدف أن منع من ذلك بوساطة ضعف مفاجىء، حيث صار بشكلٍ واضح غير قـادر على التعبير عـن وصيتـه، وتوجب عليـه تعيين واحداً من أصـدقائه ليقوم بالتعبير عنهـا له، وليعمل بمثابة وكيل له، فإن مثل هذه الوصيـة لاتعدّ قـائمـة، بل ينبغي عدّها لاغيـة، ومثل تلك الشهادة تعدّ شهادة انسان غير أهل»، وعلى زبانية البابا ابتلاع جميع ممتلكاته.

اكتشاف مؤامرة خيانية ضدّ حياة البابا

في الوقت الذي كـانت فيـه ثورات الأيام تتقـدم وتسير هكذا نحـو الأمام، قـام واحد من الفرسان الذيـن كانوا في خدمة فـردريك، واسمه رالف، وقد كـان في حالة غضب، لعدم تسلمـه أجره من الامبراطور في وقت الاستحقـاق، فتخلى عن خـدمـة سيـده مع تهديدات، وكـان هذا الرجل صاحب عقل صلـب، وقوة جسدية عظيمـة، وبارعاً في الحرب، وبما أنه امتلك الرغبة في إلحاق الأذى بسيـده الأخير فردريك، ذهب إلى ليون بحثـاً عن سيد آخـر، يمكنه أن يخدم تحته مأجـوراً في سبيل تحقيق فـائدة أعظم، وذلك بحكم أنـه لم يكن لديه مكاناً ثابتـاً للاقامـة، ولدى وصوله اتخذ مكـان اقامة له مع مضيـف اسمه رينالد، وصـدف أنه بعد عـدة أيام كان المعلم وولتر دي أوكـرا، الكاهن الخاص والمستشـار لدى فـردريك، عابراً لذلك الطريـق، وقد اتخذ مكان إقـامة لنفســه في البيت نفسه، ولدى رؤيته للفارس المذكور رالف هناك، سلم عليه بحكم كونه

واحداً من معـارفه المقربين، وناداه لقربه منه ولمعـرفته به بالاسم، وسأله عما كـان يفعل هناك، ولماذا تخلى هكذا عن سيـده، الذي خـدمـه لمدة طويلة، ولدى معرفته بكامـل تفاصيل القضية، سأله المعلم وولتر عما إذا كـان قد وجـد سيـداً آخر، وعلى سـؤاله أجـاب قائـلاً: «لا، لأنني غير معروف»، وعندها قال له المعلـم وولتر «عد ياصديقي إلى ولائك، وإلى خدمـة مولاي، الذي هو بحـاجة مـاسة لمثلك من الرجـال، وأنا سوف أعيـد لك جميع مستحقـاتك، لابل إنني سوف أضيف إلى ذلك المزيد»، وعلى هذا وافق رالف وهو مبتهـج، ووقتهـا قـال له وولتر:«إن مـولاي سـوف يعد نفسه سعيداً، لـولا أنه أزعج، لابل بالحري هوجم من قبل عـدوه المميت، ومضطهـده الذي لايعـرف الكلل، أي البـابا، وإذا كنت ترغب، وكان بإمكانك أن تنهي حيـاته المجرمة، أنا سـوف أهيل الجوائز عليك، والذي وعـدتك به سـوف أفي به من دون احبـاط، ولســوف أضيف ثلاثمائة طالن Talents [وحـدة نقـد قـديمــة] إلى الموارد الكثيرة التي وعـدت بإعـادتها إليك، كل ذلك مع حظوة مـولاي، التي سـوف تكون مصـدراً لكثير من المرابح لـك، لأنه بهذا سـوف تنتهي مشاكل مـولاي، لابل هيجان العـالم كله سوف يهدأ، ولاتظنن أن هناك أي ذنب في هذا العمل، بحكم أن البـابـا الذي ينبغي أن يكون أسـاس الدين كله، والمثل الأعلى له، أصبح ممارسـاً للربا بشكل مكشـوف، وهو أتون للسيمونيـة، ومتعطش بسعيه وراء المال وسلبـه، وبلاطه هو سوق للدعارة، أو بالحري وكـر للداعرات والبغـايا»، وعلى هذا أجابه رالف: «إذا مـابرهنت على كلامك بأفعـالك، وسـوف تعوض علي، أنا سـوف أعمل الذي طلبتـه مني»، وبناء على وعـود المعلم وولتر، وتقييـد نفسـه باليمين، وافق عى اقتراف الجريمـة، حيث تمّ الاستيلاء عليـه والتحكم به بوسـاطة الهدايا التي قـدمت الآن إليـه، والوعـد بـالزيادة، وتمكنا بوساطة مغـريات مماثلة، بعد لأي من جعل مضيفهما رينالد، يوافق على هذه الخطة السرية، وكـان رينالد هذا معـروفـاً من قبل الحبر الأعظم،

ومن قبل خدمه، ولكي يقدم موافقته ومساعدته، قيدوه بأن يكتشف، بوساطة الاختباء متخفياً في مكان ما، الوقت والمكان الذي من الممكن قتل البابا به، وأن يتولى تقديم القاتل، وبعد هذا غادر المعلم وولتر، وبعد مضي عدة أيام، أصيب رينالد المذكور بمرض شديد، ووصل إلى حافة الموت، ولدى ادراكه أنه بات على حافة الموت، قام أثناء اعترافه بإباحة هذه الأمور كلها إلى كاهنه، وبعد هذا تاب، وأعد نفسه لمواجهة منيته، وقام الكاهن عى الفور باخبار البابا بهذا الخطر العظيم، وبسرعة جرى بعث رسل، ومن ثم جرى اعتقال رالف المذكور، وقد قام في البداية بانكار كل شيء متعلق بهذا، بكل اصرار، لكن بعدما تعرض إلى أشد أنواع العذاب، تقيأ بسم الخيانة التي تقدم ذكرها أعلاه، وكشف الحقيقة عن القضية إلى البلاط البابوي كله، وأودعت هذه الأشياء كلها كتابة، وختمت بالختم البابوي، لإلحاق الضرر بفردريك، ولكي يفتضح أمره بشدة أكبر، ويدان.

كيف جرى اعتقال اثنين آخرين للجريمة نفسها

وجرى في حوالي الوقت نفسه أيضاً، اعتقال اثنين من الفرسان الايطاليين، في ليون للذنب نفسه، وقد اعترفا بعد اعتقالهما، بوجود حوالي الأربعين فارساً جريئاً، قد تآمروا فيما بينهم وأقسموا على إنهاء حياة البابا، وكان هؤلاء قد قرروا أنه حتى لو كان فردريك ميتاً، لن يقلعوا خوفاً من أية عقوبة، حتى وإن كانت الموت، ولن يتوقفوا عن تقطيع البابا إلى قطع، لأنه مثير الاضطراب للعالم، والملوث للكنيسة، وقد آمنوا من دون أي تردد، أنهم إذا ما نجحوا بقطع عنق مثل هذا الانسان، فإنهم يكونوا قد أنجزوا عملاً مرضياً إلى كل من الرب والانسان، ومنذ ذلك الوقت حافظ البابا على الالتزام بغرفته، وأبقاها محروسة بخمسين رجلاً مسلحاً نهاراً وليلاً، ولم يتجرأ على الخروج من غرفته أو قلعته، أو قصره، ولاحتى لمسافة قصيرة للقيام بقداس، لأنه

بات من الضروري أن يخشى من كثيرين، يخشاهم الكثيرون، وأن المثير المتاعب لكثيرين لابد من أن تثار له المتاعب بطرائق كثيرة مضاعفة.

حول البرلمان العظيم الذي عقد بفرنسا

وفي العام نفسه، في حوالي منتصف الصوم الكبير، دعا الملك الفرنسي، بوساطة صك ملكي نبلاء مملكته بشكل عام، ورجال الدين والعلمانيين للاجتماع في بارلمان، ليقوموا بكل دقة بالبحث ببعض القضايا الصعبة، التي تتعلق بحالة المملكة، لأنه كان قلقاً حول حمله الصليب بنفسه ومن قبل نبلائه، وواجب ذلك العهد المهم الذي لايمكن خرقه، وقد أعلن أيضاً أنه تلقى أمراً من ملك التتار، لأن يخضع له، وقد تجرأ ذلك الملك المذكور، على دعوة نفسه، بفم مدنس، في رسالته «بالخالد»، وأنه قد أعلن أنه هو وأتباعه كانوا هم الذين قد كتب عنهم بأن «الرب قد أعطى الأرض لأبناء الناس»، وترك الملك الفرنسي —على كل حال— هذه القضية كلها إلى القدر الرباني، وقام بعد ذلك. في المقام الأول، بشكل حكيم وعقلاني، بترتيب جميع القضايا المستحقة والتي تستاهل الاهتمام، وهي القضايا التي أبدعها الخصوم بمكر الشيطان، أو بمكر الانسان، فقد توجب احباطها، وتقرر بشكل قاطع وترتب أنه مع نهاية عام من عيد القديس يوحنا المعمدان، ثم في العيد المقبل، سوف —إذا بقي حياً— ينطلق إلى حجه، مع أتباعه الصليبيين، حيث سيقوم باخلاص بالوفاء بنذره، وليقوم في الأرض المقدسة بعبادة آثار أقدام المصلوب، الذي أعاد إليه الحياة، وقد أقسم بشكل علني أنه سوف يفعل هذا، وجعل نبلاءه يؤدون القسم نفسه، وذلك مالم يقع حادث غير مرئي، لايمكن للضعف البشري تجنبه، بإعاقته وتأخيره، وقد أعلن أن كل من يعارض هذا المرسوم الصحيح، ينبغي أن يعدّ محروماً كنسياً، وعدواً معلناً، وعندما وصل هذا إلى علم الخوارزمية والمسلمين الآخرين المعادين للصليبيين في الأرض المقدسة،

وفي حالة حرب معهم، وإلى الذين خضعوا مؤخراً لطاعة المسلمين، قاموا بتحصين قلاعهم ومدنهم بقوة.

وقام الملك أيضاً، بعدما وجد أن المال الانكليزي، كان مفيداً جداً إلى التجّار، بعدة طرق من العمل، وبسبب أن المعدن قد تناقص كثيراً في القيمة، وأنه أفسد كثيراً من قبل السماسرة المزيفين الذين اسمهم «قصاص— المال»، بسبب هذا كله أصدر أمراً، أن أي نقد سوف يتم العثور عليه، من الآن فصاعداً، في مملكته، ليس له وزن قانوني، تتوجب على الفور إذابته، وذلك في سبيل أن لاتعاني التجارة ولاالتجار أنفسهم أية مشاكل بعد الآن، بسبب مثل تلك النقود المغشوشة، وكانت هذه أيضاً مسألة مخشي منها في انكلترا، بسبب التناقص الحاد في قيمة الأموال، ولقد قيل أيضاً، وتبين أن هذا كان صحيحاً، أن النقود كانت قد تعرضت للقص من حولها من قبل المختونين، واليهود الكفار، الذين انحدروا الآن —بسبب الضرائب الثقيلة التي فرضت عليهم من قبل الملك— إلى حالة التسول، وقد قيل بأن جرائم أخرى أيضاً، قد صدرت عنهم.

قيام سلام بين كنيستي درم وسينت ألبان

وتمّ في هذا العام أيضاً إعداد سلام بين كنيستي درم Durham, والقديس ألبان، حول مايتعلق بالزيارات التفقدية للكنيسة الأبرشية في دير التانيماوث، التي حولها نشب خلاف، في أيام نيقولا، أسقف درم، وجون الثاني راعي دير القديس ألبان، وهي مسألة جرى عرضها بشكل أوفى، وشرحت في كتاب Additaments, وسوف يتم أيضاً تقديم مثل آخر عنها، سوف تجده بعد عدة صفحات.

وفي هذا الوقت نفسه من العام، وجد فردريك أن العالم يتشكى منه ويثور ضده، فقام بموجب مشورة حكيمة، فتلطف بمنح السلام إلى

الميلانيين، السلام الذي طلبوه منه مع خضوع حقيقي واحترام، فقد أرغم سكان المدينة بشكل ملح وعاجل على التماس ذلك بتذلل، بسبب المعركة الأخيرة، التي حوربت بينهم وبين كونراد بن فردريك، فقد نالوا الخسارة الجسيمة في هذه المعركة، وسقط عدد كبير منهم، وذلك إلى جانب الكثيرين الذين أخذوا أسرى، بوساطة الهجوم على ساقتهم من قبل كتلة من الرجال كانوا جالسين في كمين، وعندما وقعوا بالأسر، وكانوا على وشك وضعهم بالسجن، قام فردريك بحكم أصالته التي فطر عليها، فأظهر الصبر نحوهم، ودعاهم إلى الخضوع بالإحسان، بعدما أخفق في اخضاعهم بالقوة، وأصدر أوامر، عندما دخلوا إلى مدينتهم، بوجوب إغلاق جميع الطرق ضدهم، وبذلك أصبح سكان المدينة، بناء على ذلك، وهم الذين أسباب عيشهم تصدر عن التجارة، مطوقين، وكأنهم محاصرين، أو سجناء، لأنه لم يعد بإمكانهم المرور بحرية إلى الأسواق، أو الموانىء، أو إلى المدن المجاورة، دون التعرض إلى الخطر بأشخاصهم أو بمواشيهم، أو بمقتنياتهم، وبما أن كثيراً منهم قد عادوا الآن إلى ولائهم إلى مولاهم القديم والصحيح، فتح فردريك لهم صدر الرحمة، وهكذا بعد صراع طويل، وأضرار جسيمة، تمكن بالحكمة من استعادتهم، حتى وإن كان ذلك ضد إرادتهم، إلى وحدة الامبراطورية، وإلى سلام نافع لهم وكذلك له نفسه، ولم يعد الميلانيون منذ ذلك الوقت فصاعداً يزعجون أنفسهم، بالوقوف إلى جانب البابا، الذي خدعهم بوساطة وعود كاذبة.

موت اللاندغريف الذي انتخب ملكاً لروما

وخلال الصوم الكبير نفسه، ولكي لايخفق الزلزال الذي تقدم ذكره في تهديداته المهمة، فكر البابا، الذي عبثاً وثق بمبالغ الأموال الكبيرة جداً، التي سلبها من كل اتجاه، وكان قد اقترح ورغب في ترقية صديقه اللاندغريف إلى المرتبة الامبراطورية، وفكر الآن بترقيته إلى مرتبة ملك

ألمانيا، والقيام بشكل مهيب بتتويجه، من دون معارضة من أي واحد، غير أن كونراد بن فردريك، كان قد علم بهذا من قبل جواسيسه، وقد عرف بجميع التفاصيل والخصوصيات، فقدم فجأة مع جيش كبير، جمعه من جميع الأرجاء، ووصل إلى مكان ترتيبات البابا، حيث كان اللاندغريف على وشك التتويج، وحيث كانت جميع الإعدادات الضرورية قد عملت من أجل هذا الاحتفال العظيم، وخشية من كونراد المذكور من أن يدخل في صراع مشكوك به، وضع خمسة عشر ألفاً من جنوده في كمين، في مكان ليس بعيداً جداً، حيث يمكنهم وقت الضرورة، القدوم إلى مساعدته في الوقت المناسب، على صوت البوق، ومن دون توقع انقطع سرور الاحتفال، وأعقب ذلك معركة كانت الأكثر عنفاً ودموية، وفي بدايتها فقد كونراد كثيراً من أعظم النبلاء من أتباعه، لأن ثقل القتال تحول ضده، لكن عندما بات الخطر عظيماً بتعرضه إلى الاضطراب، أعطيت الاشارة على سرعة، وجاء الجنود المتشوقين الذين كانوا ينتظرونها في موضع الكمين، وقدموا «مسرعين مثل سرعة الريح»، وبرجولة دخلوا إلى المعترك، وقاتلوا العدو الذي كان على وشك الحصول على النصر، وقتلوا كل الذين تصدوا لهم بحد السيف، ولدى وصولهم تنفس كونراد الصعداء بحرية:

ويسرعة هدأت روح

الذي بحرية شرب الإناء

وتجدد صراع الحرب الآن، وبدا أن الهواء نفسه قد انزعج بقرع السلاح، وبطعنات الرماح، وبضربات السيوف، وبصهيل الخيول، وبصراخ المتصارعين يحثون بعضهم بعضاً، وببكاء الجرحى، وأنين الذين كانوا يموتون، وتصاعدت سحب من الرمال، وانصبغ النهر من الأجساد النازفة، ومن جداول الدماء، وكان القتال شديداً وقاسياً إلى حد أن الألمان الذين كانوا مع اللاندغريف، لم يعد بإمكانهم الصمود،

وتخلوا عن القتال، وهربوا بشكل مهين، أو أصيبوا بجراحات مميتة، ووقع كثير منهم بالأسر، حيث ألقي بهم بالسجن حسب رغبة أعدائهم، وأعقب ذلك مذبحة مريعة، وذلك بعد خسارة لاتعوض من الدماء المسيحية، وقام اللاندغريف بالفرار، وحمل نفسه إلى مكان آمن، حيث تلاشى هناك حزناً، وتحقق الآن إلى أبعد الحدود كلام ثاديوس نائب فردريك، الذي قاله في مجمع ليون، عندما زمجر البابا بقرار الحرمان الكنسي ضد مولاه حيث قال: «واأسفاه، واأسفاه، حقاً إن هذا اليوم هو يوم الغضب، يوم التعاسة، ويوم المأساة»، فاللاندغريف الذي كان حسب تقديراته سوف يتوج في الغد ملكاً على ألمانيا، قد شاهد الآن كيف تبدل مجده إلى اضطراب وعار، فقد انهزم أقرباؤه وأصدقاؤه مع أتباعهم وقتلوا، والمال الذي سلف وأرسل إليه من قبل البابا، قد أخذ منه من قبل أعدائه، وقد أصيب بالحزن حتى القلب، ففقد شجاعته، وأصيب ليس بضربة غريبة، بل فقط بوساطة أساه، ولفظ روحه، دون أن يبكيه أحد، وامتلك كونراد الآن الرغبة بعمل انتقام كامل للأذى والخسارة التي عانى منها في قتاله الأخير، بعدما هزم في ألمانيا، فقام إما بشنق جميع الأسرى بشكل شائن، الأسرى الذين نجوا من السيف، وبشكل خاص أقرباء وأصدقاء اللاندغريف، أو أمر بهم بالسجن بالأغلال، في سبيل فدائهم مقابل مبلغ كبير».

البابا يرسل أربعة كرادلة نواباً بابويين إلى جميع مناطق أوروبا

ولدى سماع البابا بهذه الحوادث استولى عليه الحزن، وقهره الأسى، فأرسل أربعة من الكرادلة، بمثابة نواب بابويين للتجول في جميع أرجاء العالم المسيحي، من أجل الإساءة إلى فردريك المذكور، والتشهير به، وبابنه كونراد، لأنه تجرأ فأقدم على تلك الإجراءات، ومن أجل تشجيع جميع المسيحيين، بوساطة التحليل من الذنوب، بمهاجمة فردريك المذكور، ومضايقته، وإذا أمكن سحقه، وأيضاً لكي يسعوا بوساطة جميع

الطرق التي كـان فيهـا البـلاط الرومـاني بارعـاً تماماً، وبدهاء الشره، وبشراهة الدهاء، لإستخراج المال، من أجل اخضـاع فردريك الممقوت، وبناء على هذا، أرسل واحـداً منهم إلى ألمانيا، وأرسل الثـاني إلى إيطاليا، وأرسل الثالث إلى اسبانيـا، وأرسل الرابع إلى النروج، كل هذا بالاضافة إلى الآخرين من النواب البابويين البـارعين، المزودين بصلاحيات كبيرة، الذين أرسلهم بشكل سري إلى انكلترا من دون شاراتهم الرسمية، حتى لايبـدو أنه كان يتجـاوز امتياز الملـك، وكان مع هؤلاء وبينهم الرهبـان الفـــرنسيسكان والـدومينيكان، الذيـن عملهم لم يكـن من دون إلحاق الأذى والفضيحـة بطائفتهما، جبـاة للضرائب، ورجـال مـراسم، وكـان النائب البـابوي الذي أرسـل إلى النروج، هو أسقف سـابينا Sabina, وقـد أرسل أيضـاً ليمسح وليتـوج هاكـو Haco ملك النروج، وليمارس أعمال النائب البـــابوي في تلك البـــلاد، وفي بـلاد الســـويد، ولإلحاق الأذى بفـردريك المتقـدم ذكـره، لكـن ليس من دون توقعـات كبيرة للربح.

كيف جعل فردريك الأبوليين والصقليين والكلبيريين يقدمون الولاء لابنه هنري من إيزابيلا

وفي الوقت نفسه، قام فردريك صاحب الذكرى المشكوك بها، والذي محظور علينا أن نـدعـوه امبراطوراً، بجعـل جميع الأبوليين، والصقليين، والكلبيريين، يقـدمـــون الولاء إلى ابنه هنري، من زوجتـــه المحبـــوبة، الامبراطورة إيزابيـلا، أخت ملك انكلترا، وعندمـا سمع بذلك الأخير، أي خال الصبي، كان مسروراً كثيراً، ولم يكن ذلك من دون سبب جيد.

وعندما سمع فـردريك، بأن النواب البابويين المذكـورين، قد أرسلوا إلى مختلف أرجاء العـالم، لإلحاق الأذى بسمعته وبمكانتـه، أرسل رسالة إلى ابنه هنسيـوس Hensius, ملك سردينيـا، بأن ينصب المصـائــد

للجنويين، لابل حتى أن يقـدم على قتلهم، ولاسيما آل البـابا، وأقربائـه، وأصدقائـه، وقام هذا بتنفيذ ذلك بشكل فعال، وذلـك حتى يظهر نفسه مطيعـاً لوالده، ونتيجة لذلك اعتقل وشنـق أقرباء البـابا المقربين، وكـان واحـداً منهم، قـد أحبه —مع أنه أحـب الجميع بلاحدود— قـداستـه، وقدّره بعـاطفة أعظم مـن البقية، وعندما سمـع البابا بهذا الإجـراء كان غضبـه بلا حـدود، فقـام في يوم الإعداد، فحـرم كنسيـاً فـردريك وابنه هنري، مع شجـب مـرعب، إلى حـد أنه ألقى الرعـب في قلوب جميع الذين رأوه وسمعوه، وعندمـا سمع فردريك بذلك تنهـد وقال: «هكذا فعل اليهــود الذين صلبـوا المسيح، فبعــدمـا تعـرض للصلب، طعنوه برمح».

قوانين جديدة عملها ملك إنكلترا

حـذا في هذا العـام الملك الانكليـزي حـذو البـارونات، الذين سنوا قـوانين في فرنسـا، وكـان ملك تلك البلاد، قـد أعطى مـوافقته عليهـا، ووضع عليها ختمـه، فعمل القوانين التـالية، التي توجبت مـراعاتها من دون إحبـاط، في جميع أرجـاء انكلترا، في سبيـل وضع بعض الضـوابط لشره البلاط الروماني المستمر.

فقد منع الملك النظـر في جميع قضايا نقض الوعـود والحنث بالعهود، عندمـا يجري دعــوة العلماني للمثـول بمثل هذه القضـايا أمــام قـاض لاهوتي، وتمّ منع القضـاة اللاهوتيين من إجراء أية محاكمـة ضد علماني، إلاّ في قضـايا الزواج أو الوصـايـا، وكـانت احـدى المواد التي وضعهـا الملك حديثـاً، للأساقفة، هي صيغـة تتعلق بالأبناء غير الشرعيين، سواء أولد الطفل قبل الزواج أو بعده، وجـرى منع الكهنة، بموجب مـذكرة ملكية، من عرض أعمالهم المتعلقة بالعشـور، أمام قاض لاهوتي، ووضع في تلك المذكرة تعريفـاً يتعلق بالأيمان التي تؤخذ من الكهنة، بألاّ تؤخذ أمـام رجـال العدالة الملكيين، لأن من المفهـوم أنهم يسيرون بإجـراءات

قضايا تهمّ بشكل معاكس لتحريم الملك، وكذلك لأن الكهنة غير ملزمين بحلف أيمان، إلاّ أمام قاض لاهوتي، ولاسيما في القضايا الروحية، وكان هناك بند يتعلق بقضية الكهنة، الذين تولى موظفو الملك وضعهم بالسجن، على أساس تقرير جلب ضدهم من قبل رجل علماني.

كيف أقيم السلام بين أسقف درم وراعي دير القديس ألبان

وأنهي في هذا العام الخلاف الذي كان قائماً بين أسقف درم وراعي دير القديس ألبان، وفق الشروط التالية:

«إلى أبناء الكنيسة الأم العالمية والمقدسة، إلى جميع من سوف تصلهم هذه العروض، من مايكل رئيس شامسة ستو Stow, وهو قاض مناب من قبل مولانا البابا، ومن نيقولا مستشار لنكولن، الذي هو نائب مفوض لرئيس شامسة نورثأمبتون، وقاضي وزميل لرئيس الشامسة المذكور، صحة في الرب: ليكن معلوماً من قبل الجماعة كلها، بأن قضية عرضت أمامنا من قبل السلطات الرسولية —خازن لنكولن، واحد منا القضاة الثلاثة، قد قبل عذره تماماً— بين الأب المبجل نيقولا، الذي هو بنعمة الرب أسقف درم، باسم كنيسته في درم، من الجهة الأولى، وبين جون، الذي هو بالنعمة نفسها راعي دير القديس ألبان، ورهبان المكان نفسه، ورئيس التجمع الرهباني في التاينماوث، باسم دير التاينماوث، من الجهة الثانية، وذلك فيما يتعلق بالزيارات التفقدية للكنيسة الأسقفية للتاينماوث، والطاعة المفروضة من قبل الأسقف نفسه، والمستخرجة من رئيس رهبان التاينماوث، والكنائس الأسقفية الأخرى في أبرشيته، والتي هي بأيدي رهبان التاينماوث، أخيراً بناء على موافقة الهيئة الكهنوتية لكنيسة درم، وجلب الصراع إلى صيغة مصالحة أبدية كما يلي: أن تقول بأن أسقف درم المتقدم ذكره، وخلفائه، إما بأنفسهم، أو بوساطة موظفيهم، سوف يمارس تلك الوظيفة، في ذلك الجزء من كنيسة

التاينهاوث، التي تقام بها القداسات، لصالح الأبرشيات، من دون فرض لأتاوات، وعلى شرط أن لايقحموا أنفسهم بأي شكل من الأشكال، بين الرهبان، أو في أي جزء آخر من الكنيسة، ولا حتى في الخلوة نفسها، باستثناء في جميع الحالات، الامتيازات الأخرى والغفرانات الممنوحة إلى الرهبان المتقدم ذكرهم، لكن تعيين رئيس خلوة التاينهاوث وعزله هو من قبل الراعي المتقدم ذكره، أو إذا كان كرسي راعي الدير شاغراً، يجري ذلك من قبل رئيس رهبان دير القديس ألبان، مع موافقة هيئته الرهبانية، وفقاً لفحوى امتيازاتهم، وعلى الذين سوف يجري تعيينهم الذهاب إلى الأسقف، وأن يقدموا له، وأن يتعهدوا بالوقت نفسه بطاعة قانونية له، مع الاحترام للكنائس الأبرشية، وبقدر ما تسمح الامتيازات الممنوحة إلى دير القديس ألبان، على شرط هو أن رؤساء رهبان التاينهاوث، سوف لن يجري —بحجة تلك الطاعة— استدعاءهم من قبل أي مجمع، أو هيئة كهنوتية، أو أي تجمع لاهوتي، بما يتعارض مع فحوى امتيازاتهم، ولسوف يجري تعيين القساوسة في كنيسة التاينهاوث بالتوالي من قبل رئيس الديرة، والتجمع الرهباني للتاينهاوث، مع موافقة راعي ديرهم، وسوف يقدمون إلى الأسقف المتقدم ذكره وإلى خلفائه، والذين جرى قبولهم سوف يجيبون الأسقف المتقدم ذكره في المسائل الروحية، ويجيبون الرهبان المذكورين في المسائل الدنيوية، وكشهادة على ماتقدم، وعلى هذه الوثيقة، التي كتبت بشكل قانوني صحيح، أي أن تقول، بالنسبة للحصة التي تركت مع راعي الدير المتقدم ذكره ورهبان دير القديس ألبان، ورئيس ورهبان التاينهاوث، وبالنسبة للحصة التي تركت بأيدي كنيسة درم، قام الأسقف المتقدم ذكره، والهيئة الكهنوتية لدرم، وراعي دير القديس ألبان، ورهبان هذا الدير نفسه، ورئيس رهبان، ورهبان التاينهاوث، قام كل واحد منهم بدوره فوضعوا أختامهم، مع أختامنا. أبرم في عام ألف ومائتين وسبعة وأربعين لتجسيد ربنا، بحضور الأسقف المتقدم ذكره

أعـلاه، وكـذلك راعي الدير، وكـان أيضـاً حاضراً: رعـاة النيـومنستر، ورؤسـاء شمامسة نونتغهـام، والقديس ألبـان،، وشروبري، والمعلم هوغ دي ستـانبردج Stanbridge, والمعلم وليم دي بورغ Bourg, والمعلم أودو أوف كيلكني Kilknny, والمعلم جـون الذي كـان فرنسياً، وعدد كبير آخر».

فرض الأتاوة البابوية من قبل إنكليزي فرنسيسكاني اسمه جون

في العام نفسه، عند بداية الصوم الكبير، أي أن تقـول بعد عيد إعدام القـديس يوحنا المعمـدان، وصـل إلى لندن، واحـد من طـائفـة الفـرنسيسكان، اسمـه جـون، وهو الذي تقـدم ذكـره في الصفحـات الماضية، وهو الذي استخـرج مائـة مارك من راعي دير القـديس ألبان، بموجب السلطة الرسولية، وبسبب أن الراعي المذكور تقدم بالتماس إلى الكرسي الرسـولي، وإلى الكرادلة، حـول ذلك الظلم الـذي لايمكن تحمله، صار الآن الحامل لـولايات جديدة، تم الحصول عليهـا من ذلك الكرسي الرسـولي، وذلك وفقـاً لرغبـاته، وبناء على سلطـات الولاية الجديدة هذه، استدعى الراعي المذكـور، وطلب منه القدوم إلى لندن، في اليوم الثالث مـن ذلك التاريخ، أي في اليوم التالي لعيد القـديس جايل، أو أن يرسل نائبـاً قـديـراً، لديه تعليمات كـاملة حـول القضيـة، ليتـولى ترضيته، أي ترضية جون المذكور، حول قضيـة إعانة مالية، جرى طلبها من قبل البابا، منذ زمن طويل مضى، وبناء عليه، أرسل راعي الدير، في اليـوم المحدد، رئيس شمامسته بمثابة نائب له، والذي طلب على الفـور نسخـة عن الولاية الجديدة، وقـد حصل عليهـا بعـد بعض المصـاعب، وتولى نسخها، حيث جاء نصها كما يلي:

«من أنوسنـت، أسقف، إلخ، إلى ابنه المحبـوب، جـون راعـي دير القـديس ألبـان، في أسقفيـة لنكولـن، صحـة ومبـاركـات رسـوليـة: إن حـوادث الاضطهـاد اليـومي ترغمنا بقسـوتها، وفي مقـاومتنا لها، على

اللجوء إلى عون الذين هم رعية لنا، لنجدة الكرسي الرسولي، وبناء عليه، إننا بموجب نصيحة إخواننا نسألكم، وننذركم، ونحثكم، وبوساطة هذه الكتابات الرسولية نأمركم، بأن تمنحوا ثقة كاملة إلى ولدنا المحبوب كثيراً جون، الذي هو انكليزي، وهو المسؤول الاقليمي للرهبان الفرنسيسكان في بروفانس، وهو الحامل لهذه العروض، ورسولنا، وهو الذي سيبين لكم باسمنا مايتعلق بالمساعدة المالية المطلوبة إلى الكرسي الرسولي، وانتبهوا إلى أن الكنيسة بهذه المقاومة، تدافع عن المصلحة العامة لجميع الكنائس، ولرجال الكنيسة، وعليكم أن تفعلوا كل الذي سوف يبينه لكم، فبذلك يمكن اعطاء الرضا لنا وإلى إخواننا، ويمكن أيضاً أن يظهر إخلاصكم بهذا العمل، الذي هو أفضل وسيلة للبرهنة على الصدق. صدر في ليون في هذا الثاني عشر من تشرين الأول، في السنة الرابعة من حبريتنا»، وبوساطة سلطات هذا الراهب جون، التي فرضها على أولئك الوكلاء بالظهور في اليوم الثامن من ذلك الموعد، طلب منهم في المكان الذي ظهروا فيه بشكل رسمي أن يدفعوا له مبلغ ثلاثمائة مارك، وإلاّ فهو سوف يتولى تنفيذ أمر البابا بحرمانهم كنسياً، وبتعليق كنائسهم من شراكة المؤمنين، فأجابه الوكلاء بأن راعي الدير كان على وشك ارسال رسله الخاصين إلى البابا، بغية أن يوضحوا له المظالم، ولكي يرضوه وفقاً لإمكانات كنيسته، والذين خاضعين له، دون التنازل —على كل حال— عن الالتماسات التي صنعت من قبل، ووقعت هذه الأحداث عندما كانت السنة قد تقدمت كثيراً، وبذلك فإن عرضنا المنظم للأحداث قد اضطرب بعض الشيء، لكن كنا مكرهين على ذلك، لأنه حيث يكن هناك ألم، من المؤكد أن تقوم الاصبع بالاشارة إليه.

ازدياد سلطة الراهب جون بسبب التفويض البابوي

مع ازدياد يأس الانكليز وأذاهم، ازدادت سلطات الراهب جون

المذكـور، وقد جـرى حثه من قبل البـابا على القيام بضغـوط أكبر لدفع الأتاوات، بوساطة الرسالة التالية:

«من أنوسنت، إلخ: تقديراً منا للمسائل التي أبلغتني عنها برسائلك، نحن نأمرك بوسـاطة سلطة هذه العروض، حـول مسألة تزويد الكنيسة الرومانيـة بالمساعـدة المالية، التي تم طلبها من قبلـك بموجب سلطاتنا، لوحظ من ردود أكثـرية الأسـاقفـة اللاهوتيين الانكليـز بأنهم معفين ومحررين منها، عليـك أن تجعلهم يدفعون لك الذي سـوف تختاره، وفي مدة مـوائمة، أي أن يدفعوا المبالغ الأكبر من المال من أجل المسـاعدات التي طلبتهـا منهم مـن قبل، واضبط جميع المتمـردين بوسـاطة الروادع الكنسيـة، مـع إلغـاء جميـع الالتماسـات، وبدون الاهتمام بـأي من الامتيازات، أو الاعفاءات، مع أن هذه العـروض لم تقم بذكرهم. صدر في ليون، في اليوم السابع من تموز، في السنة الرابعة من حبريتنا».

وكل من يـرغب أن يرى السلطات السـالفـة الـذكـر التي منحت للراهب جون، يمكنه أن يعثر عليهم في كتاب الرسائل [من تصنيفنا].

خوف رجال اللاهوت وخشيتهم من فقدان ممتلكاتهم

عندمـا بلـغ العلم إلى كثيرين، بأن هذه الاستخـراجـات الاجبـارية المتواليـة قد مورست من قبل البابا ومن قبل نوابه المجـربين والمنحرفين، وأن امتيـازات وغفرانات واعفـاءات الآباء المقـدسين كـانت بلا فائـدة للدفـاع عنهـم، باتوا في خـوف عظيم، لأنهم خشيـوا من أن يقـوم العلمانيـون والأمـراء المدنيـون والنبـلاء، الذيـن تولى أجـدادهم تقـديم عطاءات إلى الكنائس وأغنوها، حيث كـانوا قـد أنقصـوا ممتلكاتهم، وأعطوا صكوكهم حول ذلك، من أن يقومـوا الآن بسبب ما أقدم عليه البـابا، باسترداد امتـلاك مقتنيـات الكنائس، ذلك أن البـابا قـد قـام هو وأتبـاعـه الذين اختـارهـم، باللامبـالاة، بفحـوى الامتيـازات، ولاسيما

سلوكــه المخـالف لنـوايا المؤسسين، ولقـد استعـان البـابا بالايطاليين وبالأجـانب الآخـرين الذيـن سمنوا على منح المؤسسين، في حين بات أهل البلاد جائعين.

ظلم لم يسمع بمثله

وعندما رأى أعضـاء التجمع الكهنوتي للكنيسة المذكـورة، أي كنيسة القـديس ألبان، أنهم معـارضون من جميع الجهـات، تقدمـوا —بناء على نصيحة راعي الـدير— بالتماس إلى الكرسي الرسولي، الذي كـان واجبه تحرير المظلومين من أعبائهم، وأرسلوا واحداً من رهبانهم، واسمه جون بـولـوم Bulum والمعلـم آدم دي بيرن Bern, إلى الكـــرسي الرســولي، أي إلى ليــون، لكن قبل أن يعــودوا، سلم الراهب جــون المذكور، ولاية إلى راعي دير القديس ألبان، جاء محتواها كما يلي:

«إلى جـون المبجل، الذي هو بنعمة الـرب، راعي دير القديس ألبـان، يرسل جون، رسول مولانا البابا في انكلترا، تمنيات الصحة في الرب: مع أننا كتبنا الآن إليكم مـراراً، لقـد تلقينـا أمـراً حتميـاً بأن نفعل ذلك، ولذلك قـررنـا أن نكتب إليكم مرة أخـرى، وبناء عليــه، نحن نطلب منكم، وننصحكم، وبموجب سلطات مـولانا البابا نأمركم، أن تقـوموا بمـوجب فضيلة طاعتكم، بإزالة جميع الاعتـذارات وأن تقدمـوا في يوم الثلاثاء المقبل، قبل عيد القديـس توما الرسول، إلى بدفورد Bedford, إلى بيت الفرنسيسكـان هناك، لتقديم ترضيـة كاملة، من أجل المساعدة المالية إلى الكنيسة الرومـانية ويتوجب عليك العمل بطريقـة لانجد معها أنفسنا أنه من الضروري اتخاذ إجـراءات، نحن غير راغبين بها، متماشيـة مع محتـويات الولاية المتقـدم ذكرها، وعليـك عدم التفكير بأن لاتقـدم، على أساس الالتماس الذي عملتموه، لأننا تلقينا أمـراً خاصاً، فيما يتعلق بذلك. وداعاً. إن الـذي تنوي فعله بالنسبة لهذه القضية، أرسلـه برسالة ايصا لنا، لإخبارنا، بوساطة حامل هذه العروض».

الالتماس المرفوع إلى البابا

وبناء عليه تم عمل التماس لرفعه إلى البابا، لأن راعي الدير، وكذلك التجمع الرهباني، فضلوا سلوك طريق الاحتكام إلى أفضل رجال البابا، على الرضوخ والوقوع تحت قبضة التذلل والفقر المخفية لمثل هذه القسوة الحادة، لكن خلال الوقت الذي أرسل فيه الرسل إلى البلاط الروماني، في أسبوعي عيد القديس ميكائيل، تهددهم المعلم جون، وضغط عليهم بشدة أعظم، وبناء عليه أرسل إليه رئيس شمامسة القديس ألبان مع بعض الرهبان، لتلطيف قسوته، لكنه أجاب بأنه سوف يمارس أشد أنواع العدالة، وأقصى ماتسمح له سلطاته، لأنه عندما كان في دير القديس ألبان، لم يقدم له الرهبان الاحترام اللائق به كنائب بابوي، أو حتى رسول بابوي، لابل إنه بالحقيقة تعرض لملامة بعضهم، لأنه خرق أحكام طائفته، ولأنه غيّر زيه، مع أنه استقبل باحترام وأدب بما فيه الكفاية، فيما يتعلق بمأكله ومشربه، مع كلام ناعم ومستقيم، ثم إنه مع شيء من الصعوبة، وعلى ركب جاثية، وبكلام استعطاف، حصلوا أخيراً على فرصة، إلى أن يتم سماع ما هو مؤكد من الرسل الذين أرسلوا إلى روما، وفيما يتعلق، بمسألة نجاح عملهم هناك، أكد الراهب جون بأنهم لن يحصلوا على أي شيء مفيد أو نافع، لأنه قد كتب إلى البابا مثيراً غضبه، ومعلناً بأن راعي دير القديس ألبان، كان الوحيد بين جميع رعاة الديرة في انكلترا، الذي تحرك ضد الولاية البابوية وهو سوف لن يطيعها، وهذا أمر واضح وجلي بوساطة ارساله رسله إلى البابا، ولهذا السبب واجه الرسل الذين بعثوا إلى بلاط روما كثيراً من المثبطات، والمعيقات التي رميت على طريقهم، وتأخروا كثيراً في البلاط، ووجدوا المزيد من المصاعب في انجاز أعمالهم، وتمكنوا أخيراً عن طريق وساطة بعض الأصدقاء المرتزقة والمستأنفين في ذلك البلاط، من الوصول إلى تسوية للقضية، ودفعوا غرامة مائتي مارك إلى البابا،

وهكذا إذا حسبنا الهدايا والنفقات التي ابتلعها تهم ذلك البلاط الذي لايعرف الشبع، نجد أن الجميع صار ثلاثمائة مارك، لكن حدث أن كنيسة القديس ألبان التي كان من المتوجب أن تتنفس الآن بحرية أكبر وبسلامة أعظم، تحت الحماية الخاصة للجناحين البابويين، أكثر من الكنائس الأخرى، حدث أن تعرضت لمزيد من المضايقة، وبحدة أكبر، بوساطة مظالم مستمرة، صدرت عن الأساقفة، الذين كانت ديرتنا موجودة في أسقفياتهم، فهم لم يروا أن الرسائل البابوية لها فعالية، وقاموا بمضايقة رؤساء رهبان الديرة، حيث لم يقدروا، أو بالحري تعاموا وأظهروا أنهم لايعرفون محتويات الرسائل، التي عبرت بكل وضوح، أنهم كانوا معفين من دفع ضريبة الأحد عشر مارك، المتقدم ذكرها، واحتفظوا كذلك بثلاثة محاسبين، ليقوم البابا وحده بافقارهم، ولقد جرى تقديم محتويات هذه الرسائل في كتاب الـ Additaments, وأخيراً أمكن ضبطهم بمحتويات تلك الرسائل، وبرسائل من الراهب جون المذكور، فأقلع الأساقفة، وتوقفوا مكرهين، عن الاستمرار عن ظلم الديرة، لكنهم —على كل حال— لم يعيدوا الذي سلبوه منهم من قبل.

حول دعوة نبلاء إنكلترا إلى بارلمان

وفي هذه الآونة، عندما وجد الملك أن مملكته كانت عرضه إلى خطر عظيم، أمر باجتماع جميع نبلاء المملكة في اكسفورد، في اليوم الذي ينشد فيه Quasinodo geniti, لبحث أحوال القضايا في وضعها الخطير الحالي، ودعا إلى هذا البارلمان بشكل خاص وبدقة الأساقفة، بسبب أنه رأى أنهم تعرضوا للافقار بشكل مستمر بوساطة أتاوات البابا، ولأن أموال انكلترا غالباً مانقلت منها إلى الخارج، في حين لم تتحقق أية منافع للكنيسة من جراء ذلك، بل إنها كانت مصدر خسارة وإضرار، ولهذا السبب فإنهم عن حق اعتقدوا بأن تلك

الأتـاوات قـد سببت أعظم الازعـاج الممكن إلى الخالق الأعظم، وقـد أملوا مع أعظم الثقـة بأن يكون من الممكن في هذا البـارلمان التوصـل إلى بعض المقـررات، لكن الـذي حـدث هـو أنه مـع أن بعض الأساقفـة، كانـوا قد قرروا من قبـل معارضة الاسهام المتقـدم الذكر، قـاموا كلهم، باستثناء رعـاة الديرة المعفيين، والمحاسبين الثـلاثة، في هذا المؤتمر، فـوافقـوا على الاسهام بأحـد عشر ألف مـارك، وبهذا الامتيـاز جعل المحـاسبون أنفسـهم هنا عـرضة للشك والريبـة من قبل المملكة كلهـا، ثم جـرى دفع المال المذكـور، وقـد تسلمـه أسقفـا وينكستر ونورويـك، اللـذان كانا مسلحين بالسلطة البابوية، وأرغم رجال الدين على دفع الشيء نفسـه كاملاً، وبات رعـاة الديرة المعفيين عـرضة لإرادة البابا، الذي أظهر قليلاً من الرحمة نحـوهم، بل أنهكهم بخسائر متوالية، وبأضرار مستمرة، بوسـاطة نيابة الراهب جون، حسبما تقـدم الذكر، كما أنه لم يظهـر أي لطف زائـد نحـو راعـي دير القـديس ألبـان، نتيجـة لإرسـاله له ثمـانين مـاركـاً في العـام الأخير المنصرم، وروعيت أيضـاً مخاوف من أن يقوم الملك نتيجة الاذن المتبادل، والتوافق بينه وبين البابا، بارغام الكنيسة والمملكة بالاذعـان لهذه الأتاوة، حيث أن البابا قد كتب مـؤخراً إلى نبـلاء انكلترا لصـالح الملك، ليرفع من شأن قضيتـه في جمع المال.

إرسال رسل إلى برابانت

وجـرى في هذه الآونة إرسـال راعي دير ويستمنستر، والمعلم جـون مونسيل Maunsell بمثـابة رسولين من قبل الملك إلى ألمانيـا، ليقومـا بترتيبات أوليـة مع دوق بـرابـانت، لعقد زواج بين ادوارد ابـن الملك، و بين ابنة الـدوق المذكـور، وبسبـب بعض المعيقـات السرية عـادا آسفين، وخالبي الوفاض، وكان كل واحد منهما حزيناً، لأنه تعب من دون فائدة، وكذلك لما أنفقه.

البابا يتدبر انتخاب وليم كونت هولاندا ملكاً لألمانيا

اشترى البابا في هذه الآونة، بوساطة مبلغ المال الكبير الموعود، الذي استخرجه من جميع الأرجاء، وجمعه من أجل تدمير فردريك، انتخاب وليم كونت هولاندا، وكان رجلاً في مطلع حياته وقوته، ومن أصل مشهور، إلى منصب ملك ألمانيا، وكان الكونت المذكور وأسقف لييج أبناء عم (خال؟)، وكان دوق برابانت عمه (خاله؟)، وكان رئيس أساقفة كولون صديقه القريب كثيراً، ومتحالفاً معه بوساطة بعض المصاهرة، هذا وكان البابا قد قدّر، انه بانتخابه لاندغريف ثورينجيا،، الذي مات فجأة، كما ذكرنا من قبل، قد فقد مبلغاً كبيراً جداً من المال، وكان بالحقيقة مدهشاً إلى درجة أنه يسبب العجب إلى عقول الذين سمعوا به (لأنه لم يكن بالحقيقة أقل من خمسين ألف رطلاً من بنسات البندقية، التي كل واحد منها يساوي ثلاثة أرباع بنس استرليني، وجميع هذه الأموال وقعت تحت سلطة أعدائه)، ولذلك سعى الآن لتدبر القضايا بحذر أكبر، وبناء عليه أرسل المال الذي وعد به إلى الملك المنتخب حديثاً، أي الكونت وليم على أيدي رسل عقلاء، لم يشك بهم ولم يرتب، وقد عيّن الكاردينال أوكتافيانوس Octavianus لمتابعة تنفيذ هذه الأعمال، وأرسل أيضاً رسلاً استشاريين إلى الميلانيين، والبارميين Parmese, وإلى آخرين اعتقد أن قلوبهم متقلبة، وحرضهم على التخلي عن جميع مشاعر الثقة والأمل، ولكن بما أن بهجة هذه الدنيا لايمكن أن تأتي غير مزيجة بالأحزان، كان هناك كونت سافوي، الذي كان عدواً مكشوفاً للكنيسة، وكان منتظراً تحت خداع التظاهر بالسلم، حتى قضي على رسل البابا، الذين كانوا مرافقين بجنود، بالمرور خلال الوديان وأن يجتازوا الممرات الصعبة للجبال، وقد سمح لهم بفعل ذلك دونما أذى، ولكن عندما بات تراجعهم ووسائل نجاتهم قد قطعت، حدث هكذا بشكل خياني، أن تم فقدان المال

البابوي، والجنود الذين تسلموا إلى جانب متأخرات مدفوعاتهم، مبلغاً كبيراً من المال مقابل عطاء شهرين سلفاً، هؤلاء الجنود تفرقوا، وأرغموا على الفرار، وهكذا حدث ثانية، وبشكل مهين بما فيه الكفاية، أن جميع الموارد جرى تحويلها لصالح استخدامات العدو.

وفي العام نفسه حصل الرهبان الدومينيكان على امتياز من البابا، قضى بعدم السماح إلى أي واحد من رهبانهم بالانتقال من طائفتهم إلى أية طائفة أخرى، وأنه لايجوز لأي راعي دير أو رئيس رهبان استقبال أي من هؤلاء الرهبان، مع أنهم أنفسهم استقبلوا رهباناً متخلين عن طوائفهم، وهذا الإجراء —كما هو واضح— لايتماشى مع المنطق، ومخالف لنظام القديس بندكت، وكذلك إلى القاعدة الطبيعية التي تقول: «لاتعمل مالا تتمناه أن يعمل لك»، وحدث أيضاً أن كثيراً من الأشخاص، كانوا متميزين لأخلاقهم ولعلمهم، ولأصلهم الطيب، كانوا قد انسحبوا من هذه الدنيا، إلى طائفتهم، لكنهم وجدوا أن ذلك ليس شكل الدين الذي أملوه، بل وجدوا العالم بطوله وعرضه، عوضاً عن الدير (خاصة وأن القديس بندكت قد شجب في مطلع أحكام نظامه ذلك النوع من الرهبان الذين قاموا يتجولون حول البلاد) ولذلك بدأوا يأسفون ويحزنون لأنهم دخلوا إلى مثل هذه الطائفة، وبحثوا عن ذريعة تمكنهم من التحول إلى اتجاه معاكس، ولهذا السبب، فإن الأشخاص الذين يعدّون الأعظم في طائفتهم، هم الذين يرعون الطريق الوسط والمعتدل.

كيف جاء بعض النبلاء إلى إنكلترا لطلب هدايا من الملك

ووصل في هذه الآونة إلى انكلترا أيضاً بعض النبلاء الأجانب المفلسين والجياع، فاتحين أفواههم لالتهام أموال الملك، وكان من بينهم بلدوين، الذي يعرف باسم امبراطور القسطنطينية، ومعه بعض المؤيدين الذين طردوا بالقوة من الأراضي الاغريقية، وكان قبل عدة سنوات

مضت، بلدوين هذا المذكور، قد باع جميع الآثار المقدسة التي أمكنه أن يستولي عليها، واقترض من حيثما استطاع، ثم بعد ذلك هرب بشكل معيب من تلك البلاد، وهو رجل فقير، ومنفي، ومجرد من جميع ممتلكاته، مع أن البابا قد تبنّى قضيته، وقدم إليه مساعدة فعالة، عندما شن الحرب ضد بتاكيوس، زوج ابنة الامبراطور فردريك، وظهر الآن أنه محتاج فعلياً، وقد طلب مساعدة مالية من ملك انكلترا، الذي عرف عظمته من قبل، ولكي يحصل على حظوة أكبر منه، أعلن بأن الملك كان قريباً له.

وصول أسقف سابينا إلى إنكلترا بمثابة كاردينال— نائب بابوي

وصل أيضاً إلى انكلترا أسقف سابينا Sabina, الذي هو كاردينال للكنيسة الرومانية، وقد كان على طريقه إلى البلدان الشمالية: النروج، والدانمارك، والسويد، وقد قدم بمثابة نائب بابوي، ومن أجل مسح وتتويج هاكو Haco ملك النروج، وعندما كان على وشك القدوم إلى انكلترا، واجه في البداية بعض المصاعب في الحصول على اذن من الملك، بسبب أن جميع النواب البابويين مهما كانت مراتبهم، وجميع الرسل البابويين، مارسوا دوماً سياسة افقار المملكة التي مروا في طريقهم بها، أو اثاروا الاضطراب بها، بطريقة أو بأخرى، ولم يسمح له حتى حلف أخيراً بروحه أنه قادم إلى انكلترا، وليس في نيته تسبيب الأذى إلى الملك، أو المملكة، أو الكنيسة، بل ليمر بسلام فقط من خلال البلاد، من ميناء دوفر إلى لين Lynn, وأنه سوف يغادر إلى الممالك النائية، التي كان قاصداً إليها، عندما يواجه مناخاً موائماً، وريحاً مناسباً، وبعدما حصل على الاذن وفق هذه الطريقة، دخل إلى المملكة من دون خوف، وبعدما قدم احتراماته إلى الملك، وتلقى بعض الهدايا منه، أسرع برحلته إلى لين، حيث أقام لمدة ثلاثة أشهر، وفي أثناء اقامته لم يستطع التمنع عن ممارسة الشره الروماني، بل أرسل بشكل سري، رسلاً إلى

الأساقفة وإلى رعاة الديرة، وإلى رؤساء الرهبان، يطلب مبالغ مالية كبيرة، وهدايا ثمينة، وكان بين البيوت والعزب العائدة إلى أسقف النروج مكاناً اسمه غيوود Gaywood, وكان غنياً إلى درجة كانت مرابحه تصل —كما قيل— إلى أربعة آلاف مارك، ومع ذلك وفي سبيل أن يغطي جميع إجراءاته بمظهر من القداسة، غالباً ماتولى وعظ الناس، وعندما كان على وشك المغادرة في سفينة، كان قد شحنها بثراء بكمية كبيرة من القمح، وعدد كبير من الدنان كانت مملوءة بأفضل أنواع الخمرة، وبالمؤن الأخرى، أمر راهباً من طائفة الدومينيكان، بأن يقيم قداساً فيها، وهذا ماحدث، مما أثار دهشة كبيرة بين كثيرين، حيث أنهم لم يشاهدوا من قبل قداساً من هذا النوع، وكان على ظهر تلك السفينة —كما قرأنا في قضية سفينة نوح— ممرات، وسقف فوق آخر، وحجر، وغرف طعام، بنيت خصيصاً من أجله، وبناء عليه، ووفق هذه الحالة، وبعدما أصبح غنياً، عهد بنفسه إلى بحر الشمال مع هبوب ريح طيبة، وذلك بعدما ألقى المباركة على انكلترا، وعلى الانكليز الأسخياء.

وصول ثلاثة أخوة وأخت للملك من أمه إلى إنكلترا

ووصل بالوقت نفسه إلى انكلترا، وبصبحة النائب البابوي المذكور، ثلاثة أخوة لملك انكلترا من أمه، وذلك بناء على دعوته، وذلك في سبيل اغنائهم من مباهج انكلترا وثرواتها، وكان هؤلاء هم: غي دي لوزنغنان، وهو الأكبر سناً، وكان فارساً، ووليم دي بلنسية، وكان هو الأخ الأصغر، ولم يكن قد عمل فارساً بعد، وايثيلمار Ethelmar, وكان كاهناً، وبالاضافة إلى هؤلاء جاءت أخت لهم وللملك اسمها ايليزا Eliza, وكانت ابنة ايزابيلا، التي كانت ملكة انكلترا من قبل، وكونتسة بروفانس بوساطة هوغ برن Hugh Brun ايرل التخوم، لأنهم كانوا قد تعبوا وأهينوا في الإقامة في بواتو، التي شرع الفرنسيون يدوسون عليها بطريقة تعيسة، وبازدراء السكان، الذين كانوا

من قبل تحت حماية ملك انكلترا، ولقد أرادوا العيش بحرية، وأن يتمتعوا بجميع صنوف الازدهار، وقد دعاهم الفرنسيون باسم خونة، وأشاروا إليهم بالأصابع، وسط الضحك والاستخفاف، ولدى وصول إخوته وأخته، ذهب الملك إلى استقبالهم، مع كل مظاهر الفرح، وأسرع لمنحهم العناق والقبلة الأخوية، ووعدهم بهدايا رفيعة، وبممتلكات وافرة، وقد وفى بهذا الوعد باخلاص، لابل أعطاهم أكثر مما وعدهم به، حسبما توضح الرواية التالية بشكل كامل:

كيف تزوجت بعض السيدات البروفانسيات من نبلاء إنكليز

في بداية شهر أيار، كان الملك مقيماً في وودستوك Woodstock, واستمرت إقامته من عيد القديس فيتال Vitalis حتى اليوم التالي لعيد الرسولين: فيليب، وجيمس، وآنذاك جرى بتدبير وترتيب من بطرس أوف سافوي، زواج سيدتين من بروفانس من شابين نبيلين، كانا هما: ادموند ايرل أوف لنكولن، ورتشارد دي بورغ Bourg, الذي كان الملك قبل عدة سنوات قد رباه في قصره، وبسبب هذا الزواج سمعت أصوات بعدم الرضا والغضب وانتشرت في جميع أرجاء المملكة، لأنهم قالوا بأن هاتين المرأتين، قد تزوجتا —على الرغم من كونهما ليستا معروفتين— من نبيلين، ضد ارادتهما.

زواج جوهانا ابنة وارين من وليم أخي الملك لأمه

وفي العام نفسه، وفي الثالث عشر من آب، وبناء على رغبة الملك واقتراحه، تزوجت جوهانا Johanna ابنة وارين دي مونتشيزنيل Warin de Muntchenil, من وليم دي بلنسية، أخي الملك لأمه، ولأن الابن الأكبر والوريث لوارين المذكور كان متوفى، فإن ميراثاً غنياً جداً كان ينتظر جوهانا هذه، التي كانت ابنته الوحيدة الباقية، وبذلك شعر النبلاء الانكليز إلى درجة كبيرة بأنهم

أصبحـوا من حصـة الأجانب، مع أشخـاص غير معـروفين، وتزوجت ايليـــزا أخت الملك لأمـــه، أيضـــاً من الشـــاب جـــون ايرل وارني Warrenne.

وفاة أودو رئيس أساقفة روان

وفي الوقت نفسـه من العـام مـات أودو Odo رئيس أسـاقفـــة روان Rouen, الذي كـــان مـن قبل راعي دير القـــديس دينس Denies, وجـاءت وفـاتهُ فجأة، لأنه ضرب —كما قيل— بحكم رباني، لأنه بالكاد قد ترأس على كـرسي رئاسة أسـاقفته لمدة سنة، حيث اغتصب لنفسـه الاسم فقط والمنصـب وأحـال جميع إجـراءات رئـاسـة الأسقفية إلى سلفه بطرس، وقد كان انكليزياً من حيث الأصل، كما كان من قبل راعي دير القـديس دينـس، لكنه تخلى عن ذلك وابتعـد لرغبتـه بالحصول على منصب رئاسة الأساقفة، وقد ترك ديره تحت دين لايمكن سـداده، ولدمـار نفسـه حصل على المنصب المتقـدم ذكـره من خـلال السيمونية.

حمل الصليب من قبل وليم لونغييسبي وبعض النبلاء الآخرين

في حـوالي أسبـوع الابتهـلات مـن هذا العـام، حمل الصليب أسقف ووركستر مع وليم لونغييسبي Longuespee, وغـودفـــري دي لوسي من أسقفيـــة ووركستر، مـع كثير من نبـــلاء مملكة انكلترا، فقـــد تشجعـوا على هذا بوسـاطة المثل الذي ضربه ملك فـرنسـا مع نبـلائـه، وجمع وليم لونغييسبي المال من الذيـن حملوا الصليب، مثلما فعل الايرل رتشـارد، وبعقلانيـة ذهب إلى البـلاط الرومـاني، وخاطب البـابا حـول مسألة الحملة الصليبية، وقال له: «مولاي، إنك كما ترى، إنني قد حملت شـارة الصليب، وأنا على استعداد للسفـر، والالتحـاق بملك فرنسـا في حجـه، وأن أقـاتل في سبيل الرب، وأنا أحمل اسماً عظيماً، وهو معـروف

بشكل جيد، أي وليم لونغيبسبي، غير أن ممتلكاتي صغيرة، فقد أخذ ملك انكلترا، الذي هو قريبي، وهو مولاي، مني لقب ايرل، مع جميع ثروتي، وهو —على كل حال— فعل هذا بشكل عادل، وليس بوساطة غضبه، أو بوساطة أي عنف أملاه عليّ، ولذلك إنني لاألومه، وأنا مرغم على الالتجاء إلى الصدر الأبوي لعطفكم، لأطلب العون منكم في حالة الضرورة هذه، ونحن نفعل هذا اقتداء بقضية النبيل الايرل رتشارد، الذي، مع أنه لم يحمل الصليب، قد نال الحماية من فضلكم، وهو فضل كان وافراً، وخصباً في قضيته، حيث جمع مبلغاً كبيراً من المال في انكلترا، من الناس الذين حملوا الصليب، وأنا الذي حملتُ الصليب، وفي حاجة، استمد الأمل من قضيته، وأسأل أن يجري منح الفضل نفسه لي»، وبناء عليه، قدر البابا فصاحة المتكلم، وقوة المنطق لديه، ولباقة شخصه، فأظهر نفسه متعاطفاً مع الملتمس، ومنحه جزئياً الذي طلبه، يعني أن تقول شوكة من جلد رجل آخر.

تعيين وليم بويلي حاكماً على غسكوني

وعهد في هذا العام بالمسؤولية عن غسكوني إلى وليم دي بويلي Buales, وهو فارس كان من قبل مارشال البيت الملكي، وقد كان تبعاً لعادة بلاده —كونه من نوستريا Neustrian- عظيماً بالكلام، بطيئاً بالفعل، وجباناً، ولذلك فإن المقاطعة بدأت في ظل عنايته تتعرض إلى الخطر، وقد اضطربت كثيراً بالحروب، وكان أكثر أعداء ملك انكلترا نشاطاً هو غوستو Guasto ابن كونتسة بيارد Biard الذي كان أكثر الناس عقوقاً، بين الذين أعطاهم الملك الكثير وأغناهم.

حول نقل القديس إدموند المعترف

وجرى خلال هذا العام نقل القديس ادموند المعترف، الذي كان من

قبل رئيس أساقفة كانتربري، وقد جرى نقله في بونتغناك Pontignac, مع تشريف عظيم، في الكنيسة الديرية لرهبان طائفة السسترشيان، بحضور لويس الملك المسيحي العظيم الإيمان، لفرنسا، مع عدد كبير من النبلاء، والأساقفة، وكذلك بحضور آخرين، كان بينهم من الجنسين الحضور، السيدة بلانشي، أم ملك فرنسا، ولقد كانت الأكثر وضوحاً في اخلاصها للرب، ولذلك القديس، فقد داومت على السهر مع الصيام والصلاة، مع كميات وافرة من الشموع المضاءة، وغالباً مارددت في صلواتها الكلمات التالية: «أيها الأب المعترف والأعظم قداسة، عندما كنت حياً وفي المنفى، قمت بناء على رجائي بمباركتي ومباركة أولادي، وبناء على طلبي عبرت إلى فرنسا، وأكملت فينا، الذي كنت قد بدأت فيه، وأسست مملكة فرنسا على سلام ثابت، وعلى النصر»، وكان اليوم التالي، الذي كان السابع من حزيران، متوافقاً مع اليوم نفسه، الذي كان قد جرى فيه نقل جسد الأسقف الأعظم مباركة، والمعترف: وولستان Wulstan أوف ووركستر (وأنا أعتقد أن هذا قد حدث الآن بموجب ارادة ربانية)، والآن جرى نقل جسد ادموند الممجد في بونتغناك، وذلك على الرغم من عدد السنين التي مرت بين الحادثتين، وينبغي أيضاً أن يكون معلوماً، لابل بالحقيقة أن ينشر في جميع أنحاء العالم، بأن جسده قد وجد كاملاً، غير متفسخ، وله رائحة جميلة، والذي هو أكثر ادهاشاً بالنسبة لجسد ميت هو الليونة في كل أطرافه، مثلما هو الحال مع شخص نائم، وكان شعره وثيابه غير متغيرين باللون والتكوين، وقد تقرر أنه منذ ذلك الوقت فصاعداً —وذلك بناء على اقتراح أول من ملك فرنسا— وجوب اعطاء الانكليز، الحرية أكثر من الشعوب الأخرى، بالقدوم لزيارة جسده، ولتقديم صلواتهم هناك، وتقرر أيضاً تشريف المكان بحوامل شموع مضاءة، ومع صور معمولة بشكل محكم، وبشأن تفاصيل إجراءات هذه المسألة، قد جرى تقديمها في كتاب Additaments.

كيف نذر الإيرل رتشارد بناء
الجزء الرابع من مزار القديس إدموند

وعندما غدت هذه الوقائع معروفة من قبل الايرل رتشارد، من خلال تقرير موثوق، وعن طريق أشخاص صادقين، قال وهو يتنهد: «واأسفاه، أنه لم تجر مباركته بشكل عال من أجلنا، أي أن يكون الملك أخي وأنا شخصياً، حضوراً أثناء هذا النقل المجيد والمهيب، لأنه كان قديسنا بالمولد، والتعليم، والترقية، على الرغم من أنه —بسبب ذنوبنا— قد انسحب من انكلترا، وعلى كل حال إن الذي كنتُ سأفعله لو كنت حاضراً هناك، سوف أفعله وأنا غائب، إنني سوف أقدم له الاحترام المتوجب، والتشريف اللائق له»، وبدأ منذ ذلك الحين يحب القديس باخلاص أعظم، وبتشريف أكبر، وبتقوى أعمق، فقد حدث أنه أصيب بمرض سري وحاد، هدّد حياته، فطلب مساعدته مع الثقة، وبسعادة تحرر من مرضه، وامتناناً منه للرب وللقديس أخذ على نفسه عهداً بأن يبني المزار، أي واجهته.

كيف فسدت النقود الإنكليزية

وفي العام نفسه نقصت قيمة النقود الاسترلينية، فبسبب جودة المعدن الذي تألفت منه، قطعت أطرافها من حولها بوساطة عمل ممقوت، ولذلك لحقها الزيف، ومرد ذلك إلى مزيفي المال والنقود الذين ندعوهم «القصاصين»، وقد قصوا النقود كثيراً إلى حد أن الذي بقي منها الدائرة الداخلية فقط، ذلك أن الدائرة الخارجية قد قصت كلياً، وكان الذين تولوا عملية التزييف هذه هم تجار البلدان المجاورة لانكلترا، وبشكل خاص الفلمنكيين حيث جرى الاكتشاف بشكل واضح أنهم يمارسون هذا في القارة أكثر من فعلهم ذلك على هذا الجانب من القنال، ولذلك قام الملك الفرنسي بمعاقبة هؤلاء الناس

بقسوة أعظم في أراضيه مما فعله الملك الانكليزي في بلاده، ولكن بما أن النقود قد تشوهت الآن وتزيفت إلى أبعد الحدود بدأ الملك يبحث عن مخرج لهذا، وفيما إذا كان من الممكن والأنفع تغيير النقود بالشكل أم بالمعدن، وقد بدا لكثير من الناس العقلاء أنه سوف يكون مفيداً أكثر تغيير المعدن، من تغيير الشكل، لأنه من أجل المعدن، وليس من أجل الشكل، كانت تلك النقود قد خضعت لذلك الإفساد والأذى، ومصداقاً على هذا، فإن النقود الفرنسية، ونقود كثير من الأمراء الأجانب تقدم شهادة واضحة وبرهاناً.

مبارزة بين إيرل غلوستر وبين غي أخي الملك

وفي حوالي الوقت نفسه جرى الترتيب لمبارزة، مع أنها كانت رياضة دموية جداً، تجري في بقعة بين دنستيبل وليوتون، وذلك بين رتشارد ايرل غلوستر، وغي دي لوزنغنان ابن كونت التخوم، وكان الملك الذي أظهر المزيد من الحظوة نحو أخيه ونحو البواتيين الآخرين من الأتباع، وكان ذلك أكثر مما أظهره نحو رعاياه الانكليز الطبيعيين، قد بدأ —الملك— يشعر بخوف كبير خشية أنه إذا جرت هذه المبارزة، فإن أخاه وأتباعه سوف يقطعون إلى قطع، ولذلك منع المبارزة تحت طائلة عقوبة الحرمان من الميراث، وقد تحمل الانكليز هذا المنع بصبر، لأن كثيرين قد أحبوا غي المذكور باخلاص، فقد قيل بأنه كان هو الذي حذر ملك انكلترا عندما كان في سانتونغ Santonge, وطلب منه القيام بالفرار على الفور في ذلك الوقت، لأن والد غي، كونت التخوم كان قد باع الملك المذكور إلى ملك فرنسا، وهكذا فإن هذا الاضطراب، الذي كان في البداية خطيراً جداً، قد أنهي بإرادة الرب، واستقر.

تدمير الخوارزمية

في هذا العام نفسه أيضاً، تعرض شعب الخوارزمية الممقوت كله إلى

الضعف، وكـان ذلك بعـدمـا نشر النار والقتل، وجلب عـدة أنواع من الدمـار المضاعف للأرض المقـدسة، وبعدمـا أنزل عكا إلى حالـة الفقر، بعـد هذا تعرض الشعب كله —أقـول بفضل انتقـام الرب— إلى وهن شديد وضعف عظيم حتى أنهم أنهكـوا أنفسهم، وكان ذلك بسبب أنهم شرعوا بالعمل ضـد سلطان مصر، وبذلك حرموا من معونتـه، فأخفقوا في الحصول على الذي احتـاجوا إليه، فقهروا وهزمـوا من قبل أعدائهم، الذين تضاعفوا وتكاثروا من كل اتجاه، ولذلك حصل أخيراً أن اسمهم محق تمامـاً من على وجه الأرض، ولم يعـد هناك أثر منهم مـرئياً، سـوى أنهم لوثوا الأرض المقـدسـة بشكل لايمكن جبره، برائحتهم القـذرة وبآثار أقدامهم.

حول فرار كونراد من ألمانيا

وهرب في هذه الآونة أيضـاً كـونراد بـن فـردريك —الذي كـان ابناً شريراً لأب شرير— من ألمانيا إلى أبيه في ايطاليا، لأنه لم يستطع الصمود أمام هجمات أعدائـه، والزيادة اليومية في قوة الكنيسـة، لأن نائباً بابوياً، اعتمد على مسـاعدة رئيس أساقفة كـولون، قام بعدمـا جبى مبلغاً كبيراً جداً من المال من الكنيسة من ألمانيا، فجلب معـه جيشاً مؤلفاً من حوالي عشرة آلاف جندي، وواصل بـدون توقف مهـاجمة أعـوان فـردريك المذكـور، وانخــرط في أعمال النار والقتل، وتمكن هذا النائـب البـابوي بوساطة انزال عقـوبة الحرمان الكنسي الآن ضـد بعضهم، ثم الآن ضد آخرين، من جمع المال لتـزويد الجيش الكبير العائد إلى رئيس الأسـاقفة، وجـاء استخـراجـه للمال من حيثما استطاع: من الأسـاقفـة، ومن رعـاة الديرة، ومن رؤسـاء الرهبـان، ومن رجال الديـن الآخرين، إلى درجـة أنهم أرغمـوا فيهـا على دفع فـدية حتى عـن أجـراسهم، وعندمـا سمع فـردريـك بهذا انزعج كثيراً، إلى درجـة المرارة بالقلب، وشعــر بالخوف حتى الناس العقلاء الذين وزنوا مخاطر المستقبل بميزان العقل، وقدروا:

أن يرغم فردريك فيقوم بسبب الغضب والدفاع عن نفسه، باللجوء إلى الردة، أو أنه سيطلب عون التتار من روسيا، أو سيقوم بشكل خياني فيسمح لسلطان مصر، الذي كان معه على وفاق تام، بالقدوم إلى الامبراطورية، مع جيشه وأتباعه من المسلمين، مما سيسبب اضطراباً مخيفاً إلى المسيحية كلها، وكان من الممكن أن يرى بوضوح التعاسة المخبأة لهم، لأن الفضائح تكدست فوق الفضائح، وتوجت الشرور فوق الشرور، إلى حد أن بعضهم وقف إلى جانب فردريك، وكأن ذلك في سبيل صالح الامبراطورية وازدهارها، ووقف آخرون إلى جانب البابا، وكأن ذلك لصالح الكنيسة، وبما أنهم أثاروا الآن حروباً بغيضة ودموية، نشبت حتى في ألمانيا، وكذلك في صقلية وكالبيرا، وجميع ايطاليا، فإن الأساقفة والرجال المقدسين الآخرين، الذين سلف للكنيسة أن رعتهم بحنان أمومتها، قد أرغموا بشكل مهين على التسول وعلى طلب ضروريات الحياة بوساطة الوعظ في بلدان أجنبية ونائية، لكن حتى آنذاك أهانهم الناس، ورفضوا الاستجابة لمطالبهم قائلين:

«اذهبوا إلى باباكم، اذهبوا إليه فهو الذي يمتلك وفرة هائلة من مبالغ الأموال التي نهبها»، وفي الحقيقة لم يتوقف البابا عن جمع المال، سواء في بلاطه أو في البلدان النائية، جاعلاً من الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان —على الرغم من عدم رغبتهم— صيادين، ليس للرجال، بل للمال، لكن كيف راوغوا في أداء هذه الأعمال، إن هذا مايمكن الوقوف عليه في كتاب الـ Additaments.

كيف جمع الإيرل رتشارد المال من الذين حملوا الصليب

وجمع في هذه الآونة الايرل رتشارد، بموجب سلطات البابا —الذي كان قد لبى مطالبه وأرضاه بشكل سري وعقلاني— مبلغاً ضخماً من المال، من الذين حملوا الصليب، وفي الحقيقة حمل —كما قيل— من رئاسة شماسة واحدة، وجبى ستمائة باوند، معتمداً على سلطات رسائل

البابا، وفي ظـل الحماية نفسها، حسبما تقدم الذكـر، جمع وليم لونغيسبي ألف مارك، لا بل أكثر من الصليبيين.

حول استخراج المال من قبل بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري

وفي هذا الوقت نفســه، علق بونيفيس، رئيس أسـاقفـة كـانتربري، بمـوجب سلطات الكرسي الرسـولي، بعض أسـاقفة منطقـة كـانتربري، لأنهم رفضوا الخضوع لتقـديم اسهام جديد، لم يسمع به من قبل، حيث كان قـد حصل على امتياز جبايتـه من البابا، وتعلق ذلك بمـرابح موارد الكنائس الشـاغـرة، المتـوجبـة خـلال السنة الأولى من شغـورها، فقـد توجب الآن تقديم هذه المرابح إلى رئـاسة الأساقفة المذكـورة، لتحريرها من ديونها، وهي الديون التي كان أسلافـه قد حمّـلوها لكنيسة كانتربري مع فـوائـدها، وكـان هذا الكلام زائفـاً بشكل واضح مـوثق، وقـد قيل لالحاق الأذى بسلفـه المباشر ادمـوند، وبرجال مقـدسين آخرين، وقـام الأساقفـة، بناء عليه مرغمين، لأنهم كـانوا غير قادرين على التمـرد ضد ولاية البـابا وسلطته، قـاموا بعـد لأي فوافقـوا، وهـم غير راضين، ومع مـرارة بالقلب، وجـاء ذلك في سبيـل التمكن من التحـرر من تعليقهم، وتسلمــوا فيها بعــد، مــرة أخــرى، ولاية من خــلال عمــدة بوفيــا Beauvais, الذي كان الوكيل في هذه القضية، وقضت أوامر هذه الولاية بأن يتم الحرمان كنسياً من قبـل البابا لجميع الذين انتقدوا، وكل الذين ضلوا، ولأي واحد مـارس الغش في قضية الامتياز المتقـدم ذكره الذي منح بفضل من البـــابا، وأعلن الحرمـان الكنسي على جميع أرجـاء منطقة كانتربري،باستثنـاء الملك وزوجته وأولاده، والنبيل رتشارد أوف كورنوول.

حصار بارما من قبل الإمبراطور

عندمـا كانت الشمس تسير نحـو الاعتدال الخريفي، عبر فـردريك

جبال الألب، وبادر مسرعاً مع جيش كبير نحـو ليون حيث كان البابا مقيماً، ومن هذا التحـرك خيف كثيراً من قيـامـه بهجـوم عـدواني على أشخاص: البابا، والكرادلة، واللاهوتيين الآخرين، لكن حدث بفضل الادارة الحكيمـــة للبـــابا، الذي شجـع أهل بـارمـــا Parma, ووعـدهم بمبلـغ كبير من المال، وبمسـاعـدة فعـالة، أن دخلت هذه الدولة بمجملها فجأة بتحـالف مع الميلانيين والآخـرين الذين كرهوا الامبراطور، وبجـرأة عملت الترتيبات لمقـاومته، وذلك بعـدما كـانت من قبل واقفة بثبات إلى جانب فردريك.

ولدى سماع فــردريك بهذا، بات من الصعب عليـه ضبـط نفسـه، واستبد به الغضب لأنه صرف عن مقـاصده بوسـاطة هؤلاء العصاة، فعـاد مع جيشـــه من أجل حصـار البـــارميين، ولكي ينزل بهم أقسى انتقـام، وتحرر البـابـا بعض الشيء من الخوف العظيم الذي استــولى عليه، ووضعت مـدينة بارما تحت الحصـار، وقام الامبراطور بالشروع ببناء مدينة واسعـة ومكتظة بالسكان خارجهـا، حتى أنها بدت معادلة لمدينة بارمـــا نفسهـــا، وقـد منحهـــا اسـم «فيتــوريا» "Vittoria", [المنصـورة] كما أنه أقسم أنه سـوف لـن يغـادر من هناك حتى يتمكن من اخضــاع المحاصرين، ويستـولي على مدينتهم، وتمكن خـلال وقت قصير من منعهم من الافادة من النهـر، كما لم يتمكن الميلانيون أو أية جماعــة أخــرى، وضعــوا ثقتهم بها، من تقــديم أية مســاعـــدة إلى المحـاصرين، وفي ظل هذه الظروف، باتوا راغبين خـلال ثلاثة أشهـر بإعطاء يد المصـالحة إلى فردريـك، وطلبوا منه المصـالحة، ولكن بما أنه كان غير واثق من سكان المدينة، رفض القبول بتذللهم، ثم إنهم بدأوا يشعـرون بحـراجـة وضعهم، وقـالوا فيما بينهم، «هذه النوازل وقعت علينا بشكل عـادل، لهجومنا الخياني ضـد مولانا الذي وثـق بنا، ولقد عـوقبنا، ولكن ليس من دون سبب مسوغ صحيح، فمـدينتنا في خطر

عظيم، وهي المدينة التي سلب فيها بشكل وحشي روجر المقدس، أسقف لندن، الذي قيل بأن الرب قد شرفه الآن بعمل معجزات له، وجاء سلبه من حاجاته الضرورية لرحلته، ومن المقتنيات التي كانت ذات قيمة لديه، عندما كان متوجهاً في حجه إلى البلاط الروماني، ولم تردّ إليه مقتنياته، لذلك قام لدى مغادرته في اليوم التالي بانزال اللعنة على المدينة وعلى سكانها.

كيف أعطى ملك فرنسا ترضية إلى جميع الذين عانوا من الأذى

خلال الخريف نفسه، أرسل لويس التقي، ملك فرنسا، رهباناً من الدومينيكان والفرنسيسكان ليجولوا في جميع أرجاء مملكته، وليقوموا بأبحاث يقظة، كما أنه أمر بإجراء فحص يقوم به نوابه، من أجل أنه إذا كان هناك أي تاجر أو شخص آخر قد عانى من الضرر بوساطة سلف إجبارية، أو استخراج للمال، أو مصادرة للمقتنيات، الأمر الذي غالباً ما وضع قيد الممارسة من قبل الوكلاء الملكيين، وأمكنه تقديم تصريح مكتوب، أو لائحة بما تعرض له من أضرار، أو قدم بينة على ذلك، وإذا ما حلف على صدق ذلك، أو قدم أي برهان قانوني حول ذلك، فإن الملك كان جاهزاً لتقديم تعويض كامل حول كل شيء، وهذا ماجرى تنفيذه.

مرض إدوارد الابن الأسن للملك

في عشية عيد القديس متى، وقع الابن الأسن للملك، ووريثه ادوارد مريضاً، فكتب الملك إلى جميع رجال الدين المقيمين في لندن وبقربها، أن يصلوا من أجل حفظ ابنه، وكان من الذين كتب إليهم بشكل خاص راعي دير القديس ألبان والرهبان فيه، يرجوهم بأن يخصصوا صلوات لصالحه، وأن يقوم جميع الرهبان بانشاد مزمور «القدير والرب الدائم، هو الأمل الباقي للذين يؤمنون» إلخ، بشكل

مهيب، وأن يكون الشطر الأول من هذا لصالح القديس ألبان، وأن يكون الشطر الثاني لصالح الشاب المريض، وبفضل الرب، عاد الشاب إلى الصحة، وقد قلت كثيراً حول هذا، بسبب إشاعة راجت بين الناس، الذين أبدوا دهشتهم قائلين: «انظروا لقد صلى رجال علمانيون إلى الرب، وقد استجيب إلى صلواتهم، فلماذا على هذا لايقوم البابا بالصلاة، والعمل لصالحه، لابل لصالحنا، ولصالح الكنيسة العالمية؟ لكن بدلاً عن هذا هو متشوق من دون كلل بالسعي وراء المال»، ولقد قيل أيضاً، وتأكد الذي قيل، الأمر الذي كتبته ليس من دون دموع، بأنه وضع ثقته في مخازن المال أكثر من وضعها في الصلوات وتقديم الصدقات إلى المسيحيين.

كيف جرى انتخاب وليم كونت هولاندا ملكاً للرومان

في اليوم التالي لعيد القديس ميكائيل، انتخبت أكثرية نبلاء ألمانيا الذين لهم يعود حق الانتخاب، ملكاً لألمانيا، هو وليم كونت هولاندا، وكان شاباً في حوالي الثلاثين من عمره، كما كان وسيماً في مظهره، ومن أصل نبيل، وبعد انتخابه قدموا الولاء له، ولم يوافق دوق سكسوني وبعض النبلاء الآخرين على هذا الانتخاب، ونتيجة لذلك حدث انشقاق عظيم بين الناس، الذين وجدوا متنفساً للتعبير عن مشاعرهم بهذه الكلمات: «انظروا الفرسان واقفون ضد الكهنة بسبب التجبر، وللسبب نفسه الكهنة مخاصمون للفرسان».

جلب بعض دم المسيح إلى لندن

وفي تلك الآونة، كتب ملك انكلترا إلى جميع نبلاء المملكة، يأمرهم بالاجتماع [في لندن] في يوم عيد القديس ادوارد، أي في يوم عيد تحويله، الذي يحتفل به خلال الأربعة عشر يوماً لعيد القديس ميكائيل، لسماع أعظم الأخبار، حول منفعة مقدسة، أضفيت من قبل

السماء مؤخراً على الانكليز، وثانياً من أجل تقديم التشريف إلى تحويل ذلك الملك المجيد والشهيد، وثالثاً حتى يتمكنوا من أن يكونوا حاضرين احتفال أخيه لأمه، وليم دي بلنسية، الذي سوف يضفى عليه في ذلك اليوم شرف الفروسية، وكذلك على بعض الشباب النبلاء الآخرين، ولكي يكون هذا العيد المضاعف أكثر قبولاً، أفعم بحضور النبلاء والأساقفة مع آخرين كذلك، في سبيل تشريف الملك والمملكة.

وبناء عليه، اجتمع النبلاء في اليوم المتقدم على التاريخ المحدد، في ويستمنستر، وبعدما أخبروا بأن ذلك اليوم كان يوم عيد القديس ادوارد، والاحتفال بوليم المذكور، سألوا عن الأخبار المرضية، التي جاءوا إلى هناك من أجل سماعها، والتي قيل بأنها صحيحة وجديرة بالقبول كله: لأنه بشهادة مقدمي الداوية والاسبتارية، مع شهادة أختام كثيرة، وبشكل خاص أختام: بطريرك القدس، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورجال الدين الآخرين، ونبلاء الأرض المقدسة، جرى ارسال بعضاً من دم ربنا، الذي سفحه على الصليب من أجل خلاص العالم، وكان محفوظاً في وعاء جميل من الزجاج الصافي (الكريستال) وقد عهد به إلى عناية راهب معروف بشكل جيد، من رهبان الداوية، وأن الملك، بحكم كونه أعظم أمير مسيحي، قد حصل عليه من الأغسطس هرقل، أعظم الأباطرة انتصارات وقوة، وبذلك سار على منوال الملك الفرنسي الذي كان حياً آنذاك، والذي كان يبدي كل تشريف في باريس، نحو صليب الرب نفسه، كما ذكرنا من قبل، وقام بروح تقية وتائبة بالبقاء ساهراً ليلة عيد القديس ادموند [اقرأ: ادوارد]، وكان صائماً على الخبز والماء، وذلك مع شموع مضاءة، وصلوات خالصة، وقد أعد نفسه من أجل مهابة اليوم التالي.

كيف حمل الملك دم المسيح إلى كنيسة القديس بطرس في ويستمنستر

ثم أصدر الملك أوامر، قضت بوجوب اجتماع جميع الكهنة في لندن، في نظام لائق واحترام في كنيسة القديس بطرس، في الصباح الباكر لليوم التالي، الذي كان يوم عيد القديس ادوارد، وأن يرتدوا ثيابهم الاحتفالية مع أرديتهم الكهنوتية وأغطية الرؤوس، وأن يكونوا محاطين بأتباعهم من رجال الدين، الذين عليهم أن يكونوا مرتدين لملابسهم ولشاراتهم، وللصلبان، والشموع مضاءة، وإلى هناك ذهب الملك أيضاً، ولدى تسلمه للوعاء الحاوي للكنز المتقدم ذكره، قام بتشريف عظيم، واحترام، ومهابة، فحمله فوق رأسه، وسار على قدميه وهو لابس لثياب متواضعة، مؤلفة من رداء بسيط من دون غطاء رأس، وسار مع الكهنة اللابسين كما قلنا من قبل، وقد سار من دون توقف إلى كنيسة ويستمنستر، التي كانت على بعد حوالي الميل عن كنيسة القديس بولص، ويتوجب علينا عدم اسقاط ذكر، أنه حمل الوعاء بيديه معاً، وعندما كان يصل إلى أي مكان وعر، أو جزء غير مستو من الطريق، بقي دوماً مثبتاً عينيه نحو السماء، أو على الاناء نفسه، وجرى حمل الطيلسان على أربعة رماح، وتولى مساعدان دعم ذراعي الملك، خشية أن تتهاوى قوته، أثناء هذا الجهد الكبير، ولدى وصوله إلى باب ساحة أسقف درم، استقبل من قبل التجمع الديري لويستمنستر، مُرافقين من قبل جميع الأساقفة، ورعاة الديرة، والرهبان الذين احتشدوا (والذين أحصي عددهم فتبين أنهم كانوا أكثر من مائة)، وهم يغنون، بفرح وسرور في الروح القدس، وذلك مع الدموع، ثم إنهم عادوا بمسيرة كما قدموا، إلى كنيسة ويستمنستر، التي تمكنت بصعوبة من استيعابهم جميعاً، بسبب الجماهير التي احتشدت، ولم يتوقف، بل حمل الوعاء من دون تعب، كما فعل من قبل، وقام بطواف في الكنيسة، وفي القصر، وفي غرفه الخاصة، وأخيراً

قـدم الوعـاء، وأهداه، كهـدية لاتقـدر بثمن، وهي هدية جعلت انكلترا مشهــورة، وجـاء التقـديم إلى: الرب، ولكنيســة القــديس بطرس في ويستمنستر، وإلى حبيبـه ادوارد، وإلى الرهبـان المقـدسين في ذلك المكان المكرسين للرب ولقديسيه.

أسقف نورويك يعظ بقداس إلى الناس حول فضائل دم المسيح

وأقام أسقف نورويك قـداساً في ذلك اليـوم، وهو نفسه قدم قـداساً للناس، فيه ذكـر أنه بين الأشياء التي نظر الناس إليها أنها مقدسـة، يعد دم المسيح هو الأكثر قداسة، لأنه كان ثمن العالم، وسفكه كان الخلاص للعالم، ولكي يظهر عظمة الواقعة أكثر، أضاف قول الفيلسوف التالي:

كل نهاية أعلى من وسائطها

وفي الحقيقـة إن الصليب هو أكثر الأشيـاء قداسـة، بسبب دم المسيح الذي سفك عليـه، الذي هو الأكثر قـداسـة، وليس سفك الدم مقدسـاً بالنسبـة لعمليـة الصلب، وقـال: إن هذه الأشيـاء، كما نعتقـد يمكن أن تجعل انكلترا تشعر بكثير من السرور والفخار، وذلك نظراً لتملكها لهذا الكنز العظيم، مثلما شعرت فـرنسا في امتلاكهـا للصليب المقدس، الذي بجله ملك فرنسـا —وليس ذلك من دون سبب صالح— وأحبـه أكثر من الذهب والجواهـر، وأضـاف أنه نظراً للاحترام العظيم، ولقـداسـة ملك انكلترا، المعــــروف بأنـه أعظم المسيحيين، بين جميـع الأمـــراء المسيحيين، أرسل إليـه هذا الكنز الذي لايقـدر بثمـن، من قبل بطريرك القـدس (والذي تبرهن على حقيقتـه وتأكـد بما فيـه الكفـاية)، من أجل امكانية تقـديم الاحترام إليه في انكلترا أكثر منـه في سورية، التي تركت الآن مهجورة تقـريباً، لأنه في انكلترا، كما يعلم العالم، الإيمان والقـداسة مزدهران أكثـر من أي بلد آخر في جميع أرجاء العالم، وبالنسبـة لفحصه، لأن كثيرين كـانوا مـايزالون بطيئين بالتصديق، ولكـون ذلك قد جـرى

الدخـول به، قـام ثيـودورك، رئيـس الاسبتـارية في القـدس بمخـاطبـة الأساقفـة والآخرين الذين كانوا جالسين هناك، بالكلمات التـالية: «لماذا ماتزالون مترددين ياسـادتي؟ هل طالب أي واحد منا، نحن الداوية، أو الاسبتارية، أو حتى الراهب الذي جلبه، بأية منفعة من أجله؟ هل سأل أي مكافأة بالذهب أو الفضة من الملك، أو من أي واحد آخر، أو حتى لو بجائزة صغيرة جداً؟» وعلى هذا أجاب الملك: «لامطلقاً»، ثم أضاف الراهب: «لماذا يعـرض عـدد كبير من النـاس من ذوي المراتب العـاليـة أنفسهم إلى ادانة، أرواحهم، ويقـدمـون شهـادة على صحـة هذا الأمـر، ويثبتون أختـامهم على الشهادة، التي هي واضحـة، ويقسمون على ذلك بإيمان صـالح»؟، ومع أن هذه الكلمات قـد تفـوه بهن رجل علماني، قـد قبل بهن الأساقفة وكذلك قبلن من الآخرين.

لكن دعونا نعود الآن إلى سياق روايتنا، فبعـدما فرغ الأسقف المتقدم ذكـره من قـداسـه الفصيح، أعلن —لسرور النـاس— بأن كل من يأتي لتعبـد الدم الأعظم قداسـة، والمحفـوظ هناك، سوف يحصل، بمـوجب اذن مفضال من جميع الأسـاقفة، على اعفاء حر من العقوبـات المفروضة عليهم، لمدة ستـة أعوام، ومـائة وأربعين يـوماً، وبعـد مناقشات جـرت هناك، ثابر بعض الجالسين هناك على التمسـك باصرار بعناد بشكوكهم، وطرحوا السؤال التالي: «كيف أتيح للرب، عندما قـام ثانية تاماً وكاملاً في الجسم، وذلك في اليـوم الثالث بعـد آلامه، ترك دمـه على الأرض»؟ وهو سـؤال أحكم الإجـابة عليـه على الفـور أسقف لنكولن، وجـرى تدوين المناقشـات في كتاب الـ Additaments, وذلك كما سمعها كاتب هذا العمل، فقد دونها كلمة كلمة بكل دقة.

كيف عمل وليم دي بلنسية فارساً بحزام

أثناء القيام بهذه الإجـراءات المهيبة في كنيسـة ويستمنستر، كان الملك مرتدياً ثوباً مصنوعـاً من أغلى أقمشة القطيفة، وكان منسـوجاً بالذهب،

وكـان مرتـدياً تاجاً صغيراً، يعـرف عـادة باسم إكليل، وقـد جلس على عرشه الملكي، حيث أمر بمثول أخيـه لأمه أمامه، وقد حضر على الفور برفقة عدد كبير مـن معاونيه، الذين جاءوا معـه لتسلم أسلحته ودروعه بأبهة عظيمة، وبشكل مهيـب، ومنحه الملك وقتها مـرتبة الفـروسية، كما منحها لبعض رفاقه.

الملك يأمر بإيداع جميع هذه الإجراءات كتابة

عندما كان الملك جالساً على عـرشه الملكي، شاهد كاتب هذا العمل، فدعاه إليه، وجعله يجلس على الدرجة الـوسطى بين عرشه وقاعة البناء، وقال له: «لقد شاهدت جميع هذه الأشيـاء، فهل مارأيته قد انطبع بثبات في عقلك»؟، وعلى هذا أجبتـه: «نعم يامولاي، لأنهم جـديرين بالحفظ، فإجراءات هذا اليوم هي بالفعل رائعة»، وقـد أضاف قائلاً: «إنني أؤكد كحقيقة بأن الرب قـدم عربوناً على لطفه الوافـر، وعلى أعماله المستقبلية الجيـدة، تفضل بلطفـه فعمل معجـزة هـذا اليـوم، فقـد حـدث هذا في الصبـاح البـاكـر، وأتمنى أنك سررت في هـذه القضيـة، ولذلك ألتمس منك وآمـــرك أن تكتب رواية واضحـــة وكـــاملة حـــول جميـع هذه الإجـراءات، وأن تدخلهم بشكل لطيف السمات في كتـاب، حتى يمكن تذكرهم من قبل كثيرين، ولكي لاتضيع فائدتهم وليكونوا نافعين في كل عصر في المستقبل»، ثم دعـا الملك الشخص الذي تحدث إليـه إلى تناول طعام الافطار، مـع ثلاثة من رفاقه، وأمـر أيضاً في اليـوم نفسه بضيـافة جميع الرهبـان الذين جـاءوا إلى هناك بشكل غنـي في مطعم الدير، على حسابه، وذلك مع رهبان دير ويستمنستر، وبعض الآخرين.

تكريس سيلفستر أسقف كارآيل

وجـرى في هذا العـام تكريس سيلفستر Sylvester الأسقف المنتخب لكارآيل، كأسقف في يوم عيد القديسة أغاثا.

ووصل في يوم عيـد القديس ادوارد ايرل أوف ليستر من القـارة، إلى حيث كان قد ذهب للقيام بعمل سري من أعمال الملك.

إرسال سفراء من قبل الملك إلى برابانت

وفي هذه الآونة جـرى ارسال راعي دير ويستمنستر، وجـون مونسل Mauncell نائب أسقف بيفـرلي، إلى القـارة، حـول العمل السري نفسـه، الـذي كـان عـائـداً إلى الملك، وكـان هنـاك سبباً للتخمين، أن الارسـال كان من أجل القضـايا المرتبطة بحـديث الزواج بين ابنه وولي عهـده ادوارد، وابنـة دوق برابانت، وهو حـديث لم يتـوصـل بعـد إلى الترتيب النهائي.

عودة الإيرل رتشارد من القارة

وفي يوم عيـد القـديسين: سمعان، وجـود، عـاد الايرل رتشـارد من القارة، مـرافقاً بابنه هنري الذي كـان قد أخذه إلى هناك معـه، وقد قيل بأنه عقد مؤتمراً طويلاً وودي مع الملك الفرنسي، فقد عقد الأخير العزم بشكل أكيد على الانطلاق إلى حجه، في عيد الفصح المقبل، وقام بشكل عقلاني بصنع جميع الترتيبات بشأن كل من القضـايا الروحية والدنيوية، وأعاد الحقوق إلى كل واحد توفـر لديه إدعاء صحيح، وبناء عليه طلب الايرل إعادة جميع حقوق ملك انكلترا، بما أنه جاهز ولديه الرغبة بفعل الذي ينبغي أن يفعلـه، وكـان مـن الممكن أن يستجيب الملك الفـرنسي بسهـولة لهذه المطالب، لولا بعض العـوائق التي ألقيت على الطريق، من قبل بعض الحاسـدين والشرهين من النبـلاء الفـرنسيين، الذيـن كـانوا مستشـاريه وكـانوا مفطورين على التجبر، ولذلك جـرى اخبـار الرسل الانكليز مـواجهة، خاصـة حول قضية نورمـاندي، بأن ملك فرنسـا قد استمـر بتملكهـا بشكل متـواصل وسـلام لمدة طويلة مـن الزمن، هي حـوالي الأربعين عـاماً، لم تتـوفـر خـلالها مطالبة بإعـادتها بشكل فعـال

لصالح ملك انكلترا، كما لم يتوفر أي استدعاء حولها إلى البلاط الروماني، حيث يجري بالعادة اقرار القضايا الصعبة والشائكة، ولذلك وضح إلى الملك الفرنسي، أن الملك الانكليزي يتوجب تجريده من ادعائه، وعلى كل حال لم يكن الضمير الصافيَ للملك الفرنسي راضياً بهذه الأسباب، لذلك أحالها إلى أساقفة نورماندي، حتى يمكن التوصل إلى الحقيقة بوساطة البحث في هذه القضية المشكوك بها، وقد أعلنوا أن اعتقادهم المؤكد، هو أن الملك الفرنسي يمتلك الادعاء الأقوى بنورماندي، وليس ملك انكلترا، لاسيما وأن الأخير قد جرى خلعه من قبل نظرائه، وهذا —على كل حال— واضح التناقض ولايتوافق مع أية عدالة ومنطق، فكيف يمكن لملك انكلترا أن يحكم عليه ويدان من قبل أعدائه، خاصة وأن الرب يقول: «إذا لم يقلد الابن أباه، ينبغي أن لايعاني من أجل ذنوب أبيه»، وعندما وجد الايرل المذكور القضايا على هذه الصورة، ارتدى زي حاج، وذهب إلى بونتغناك ليصلي للقديس ادموند، وليكرم مزاره بأعطيات وهدايا، وليقدم له الشكر من أجل تحسين صحته الجسدية، ولدى وصوله إلى هناك، قدم بالاضافة إلى الهدايا التي عملها من قبل، وللذي وعد به، ونذر أنه سوف يفعله في وقت ما في المستقبل، أهدى ياقة جميلة جداً، عرضها أكثر من كف إنسان، ومرصعة بجواهر ثمينة، مثلها لايمكن العثور عليه في خزائن الملوك.

حول الأحوال البائسة التي ضغطت على الويلزيين

كانت ويلز في هذه الآونة في أحوال تعيسة جداً، بسبب توقف الأعمال الزراعية، والتجارة، وتربية المواشي، وبدأ السكان يتلاشون بسبب العوز، فقاموا —غير راغبين— بالانحناء لنير الشرائع الانكليزية، فقد بهت جبروت نبالتهم القديمة، وبلغت الأمور حداً أن قيثارة اللاهوتيين تحولت إلى حزن ونحيب، ومات أسقف ميناي

أو القـديس داود، ذلك أنه تلاشى حـزناً، وأصيب وليم Menai, أسقف لـلانداف Llandaff بالعمـى، ونظراً لتعـــرض أسقفتي أسقفي القديـس أساف Aasaf وبانغور Bangor للدمار بالنار والقتل، أرغما على التسول حتى يعيشا على ممتلكات الآخرين.

انتخاب توماس وهو ويلزي إلى أسقفية القديس داود

وهكذا بات كـرسي ميناي شـاغـراً، وبعـد عـدد لايحصى من الآلام عـانى منهـا الويلزيون، وذلك بسبب الحرب ومـوت زعمائهم، جـرى انتخـاب المعلم تومـاس، الذي يلقب بالـويلزي، والذي كـان رئيس شمامسة كنيسة لنكولن، جرى انتخابه لذلك الكرسي، لأنه كان من أبناء ويلز، وقـد وافق على هذا الانتخـاب لسبب أول هو أن أسقف لنكولن امتلك السلطة العليا على رهبانه، وكان السبب الثاني هو أنه دعي لشفاء الأرواح في موطنه الأصلي، بحكم أن كل واحـد منجذب إلى الذكريات الحلوة لمسقط رأسه، وأيضاً أنه بحضوره، ونصـائحه، ومساعدته، يمكنه أن يواسي أبناء بلده التعساء، وقـد قبل بهذا الانتخاب الأسقفي دون أن يثير كثيراً من المتاعب في القضية، لأنه رأى أنها أسقفية ضعيفة فقيرة.

آلام البارميين

خلال هذا الوقت كله حوصرت مدينة بارما من جميع الجهات، وكانت تعـاني بشكل مميت من المجـاعة والعـوز بشكل مضـاعف، لأن سكانها لم يكن بإمكانهم مغـادرة المدينة مـن الجانب، حيث بنى المحـاصرون مـدينة كبيرة وذلك بدلاً من نصـب معسكر، وهي المدينة التي أعطاها فـردريك اسم فيتـوريا [المنصـورة]، كما لم يمكنهم الخروج بوسـاطة النهـر، لأن فردريك قد حرسه بكل دقـة، كما لم يمكنهم الحصول على أية مساعدة، أو مشورة تصلهم من البابا، الذي شجعهم على العصيان لأن الطرقات كانت محروسـة بكل شـدة، ولأن فـردريـك قـد استعـد لتمضيـة الشتـاء هناك،

ولإطالة إقامته حتى ينتصر على أعدائه، فإن آمال المحاصرين قد ماتت، وقرروا في أحد الأيام، وقد أرغموا بالعوز، على القيام بهجوم مفاجىء على جيش الامبراطور، حتى لايظن أنهم كسالى، وبناء عليه قام مائة وأربعون من أعلى المراتب من السكان بتسليح أنفسهم، وحملوا بشكل مفاجىء، ولكنهم جعلوا هجومهم من دون حذر، ولذا تمّ استقبالهم بحد السيف من قبل الجيش، الذي كان محذراً من الهجوم من قبل، ولدى سعيهم إلى العودة إلى مدينتهم، تمّ قطع طريق تراجعهم من قبل الأعداء، ووقع بعضهم بالأسر، وجرى قتل البقية، وإثر ذلك تقرر بشكل اجماعي في بلاط فردريك —بناء على رغبة القاضي ثاديوس ونصيحته— أنه في المستقبل ينبغي عدم ابقاء أي أسير بالسجن من أجل فديته، بل ينبغي على الفور اعدامه، واشتعل غضب فردريك الآن أكثر، وبحدة أعظم، لأنه جرى انتخاب ملك جديد في ألمانيا، ورأى سكان المدينة المرهقين —بناء عليه— أنفسهم، قد تمّ التخلي عنهم من كل جانب، وأحبطت آمالهم كلياً، بعدم وصول النجدة التي وعدهم بها البابا، فأرسلوا سفارة إلى الامبراطور، يطلبون القبول بمنحهم السلام، ويسألون الرحمة وليس الحكم القضائي، وكان فردريك —على كل حال— قد اشتعل غضباً، وامتلأ عجرفة، فأغلق أوعية الرحمة ضد التماساتهم، ورفض منح إذن اللطف والاحسان إلى هؤلاء القوم التعساء، وبذلك أثار عدم رضا الرب، ذلك أنه تصرف بناء على نصيحة سرية وقاسية، فأرسل إليهم رسالة متعجرفة، بأن عليهم استخدام قمحهم باقتصاد وعقلانية، لأنهم سوف لن يحصلوا على أي مزيد ليأكلوه مادام هو —فردريك— حياً، ومن المعتقد أن هذه الرسالة القاسية قد صدرت عن ثاديوس.

الاستعدادات للمبارزة التي جرى منعها من قبل الملك

في حوالي عيد القديس مارتين من هذا العام، قام ر. R ايرل أوف غلوستر، اعتماداً منه على الموافقة التي كان قد حصل عليها من

الملك، وعلى ما أعلنه في اليوم الذي جعل فيه من أخيه وليم فارساً، أي السماح الكامل والحر في عقد مبارزة عامة، تحدى فيها وليم المذكور، في أن يقابله في الحلبات في نورثأمبتون، في الأسبوع الذي يأتي قبل الميلاد، من أجل أن يتمكن وليم المذكور وأتباعه الجدد من الحصول على الخبرة في الفروسية، لأن البواتيين، الذين استمدوا شجاعتهم من صلاتهم الوشيجة بالملك، واعتمدوا بالتالي على حمايته، بدأوا يضعون أنفسهم على قدم المساواة مع الانكليز، لابل قاموا حتى بالاستخفاف ببعضهم، وعلى كل حال بها أن مخاوف قد انتشرت المشاعر بها، من أن يقوم هؤلاء الرجال المتفاخرون المتجبرون مع بعض الآخرين من القارة باثارة صراع وقتال، وأنه بعد قصف الرماح، يمكن أن تشاهد بارقة السيوف الدموية، ولذلك قام الملك بناء على نصيحة المستشارين العقلاء، بتحريم المبارزة، مع الإعلان بأن ورثاء الخارقين لهذا المنع، يمكن أن يجردوا من التمتع بمواريث آبائهم، ولذلك عندما قدموا إلى المكان المحدد من أجل المبارزة، وجدوا أنفسهم أنهم قد خدعوا بتوقعاتهم، وأنهم أنفقوا الكثير من الأموال من دون محصلة، ولذا انصرفوا وهم غاضبين، وقد ازدروا ضعف الملك وتقلبه بكلامه، ثم إن هذا التحريم لم يكن ضرورياً، لأن تجبر وعجرفة هؤلاء الأجانب قد أثارت الكراهية الانكليزية، وسببت تأكيدها.

زواج توماس أوف سافوي من ابنة فردريك

وفي هذه الآونة، أعطى فردريك ابنته بالزواج إلى توماس أوف سافوي، أخو رئيس أساقفة كانتربري، وقد أعطاه أيضاً فيرسيلي Vercelli وتورين Turin مع المناطق المجاورة، وعهد إليه بالحواجز التي أعدت لمنع البابا وأعوانه، الذين يمكن أن يمروا في هذه المقاطعات.

كيف أغنى الملك إخوته جميعاً

عندما قام غي دي لوزنغنان، أخو الملك، بمغادرة انكلترا، ملأ الملك حقائب خيوله بكميات ثقيلة مـن المال، إلى حد أنه كان مرغماً على زيادة عدد خيـوله، وأعطى إلى أخيه الآخر، وليم دي بلنسية، قلعـة هارتفورد مع المناصب الشرفيـة المتعلقـة بها، ومبلغـاً كبيراً مـن المال، ولذلك بدا الملك نفسـه أنه بات بحاجـة، ولأن يقوم بسلب طعـامه أو استجـدائه، ولذلك فإن الـذين أحبـوا الملك عن صـدق، ومن دون تظاهر، كـانوا خائفين كثيراً، خشية أن تكون صدقاته من دون تأثير، لأن الفقير كدس اللعنات على رأسـه، وخشيـة من أن تكـون صلواته في الكنيسـة سـوف تحسب —لاسمح الرب— بمثـابة ذنوب، وبالنسبـة إلى ايثيلمار، الذي كان الأخ الثالث له، فقد زوده بموارد ثرية ووافرة مما امتلكه، وبوساطة التماسات ملكيـة مهيبة، استخرج له من كـل أسقف وراعي دير، واحداً بعد الآخر، حتى أنه بدا الآن قـد تفوق على الرومان في الجشع، وبذلك جعل من ايثيلمار المذكور متفوقاً على الأساقفة بثروته.

تتويج هاكو ملك النروج

في هذا العـــام، وفي التـاسع والعشريـن من تموز، الذي هو عيـد أولافـوس Olavus الشهيـد، وأعظم الملوك قـداسـة، وأعلى القديسين تميـزاً بين مناطق النروج وجزرهـا، في هذا اليوم جرى تتـويج ومسح هاكـو بشكل مهيب في بيرجن Bergen, من قبل أسقف سـابينا، الذي كـان آنذاك نائب الكرسي الرسـولي في تلك المناطق، ومن أجل هذا التكريم واللطف دفـع هذا الملك خمسـة عشر ألف مـارك من النقـود الاستيرلينية، أمـا بالنسبة إلى النائب البـابوي، فإنه بالاضافـة إلى حصوله على كثير من الهدايا الثمينة، استخـرج خمسمائة مارك من كنائس تلك المملكة، وحمل الملك المذكـور الصليـب، وحصل على تفـويض من البـابـا بأخـذ ثلث الموارد من اللاهـوتيين في مملكتـه، لتأمين حـاجـاته

الضرورية مـن أجل حجه، وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة —بواسطة تقـرير— إلى علم الملك الفـرنسي، كتـب رسـالة بصيغـة ودودة إلى الملك هاكـو، رجاه فيهـا بعطف، وتمنى عليـه من أجل تقـدم مصالح الكنيسـة، وتشريفـاً للصليب المقدس، الرمـز الذي حمله، أن يسير من دون تأخـر إلى الأرض المقدسـة، وأن يكون ذلك برفقته —أي الملـك الفرنسي— وذلك من أجل أن يسند إليه تدبير وإمـرة الاسطول الفرنسي كله، بحكم أنه أمير بارع في المسـائل الروحية، وأيضـاً أنه بذلك سوف يكون الجيش الفـرنسي من ذلك الحين ميـالاً إلى حد كبير لتقـديم الطاعة لإرادته، وعندمـا وصل المكتـوب الحاوي لهذه الرسـالة إلى ملك النروج، والذي كـان كـاتب هذا الكتاب هو الحامل له، قام الملك النروجي بعد قراءة المحتويات، بالرد على الشخص الذي سلمـه إياه، لأن روحــه وثقت به، وتفـوه بهذه الكلمات: «أرسل شكري الوافـر إلى الملك التقي، ملك فـرنسـا لرغبتـه في أن أكـون برفقته في هذا الحج، لكنني مـدرك إلى حد كبير طبيعة الفـرنسيين، كما قال الشاعر:

كل واحد في السلطة يغار من تابعه

لكنني قلت:

كل متكبر يغار من تابعه

ثم استطرد يقـول: قومي متهـورين، وطائشين، لايعرفـون الصبر تحت أي نوع من الأذى، وكذلك لايصبرون على الضوابط، ولذلك إذا ما نشب أي صراع بين مثل هؤلاء الناس وبين شعبه، فإننا معـاً سوف نجني ضرراً لايمكن رتقـه، لذلك دع كل واحد منا يذهب لوحـده، وليعمل ماقسمـه الرب له، وإنني على كلٍ حال قد كتبتُ إلى الملك المذكور، أرجوه بموجب لطفه أن يمنحني امتيازاً، برسـائله المعتمدة، هو أن يسمح لي أثناء ابحاري على طول شاطىء مملكتـه، أثناء حجي، أنه إذا مامـرضت أنا أو أي واحد

من قـومي، أو إذا ما كنتُ أنا بحـاجـة إلى امدادات أو أية أشيـاء ضرورية أخرى، أن أرسو بسـلام في أراضيه، لتزويد نفسي بالذي أنا بحـاجة إليه»، وبناء عليه، فإن الشخـص الذي كان عاقـداً للمقابلة معـه، أي كاتب هذا العمل الحالي، أعطاه الرسائل المعتمدة التالية:

رسالة الملك الفرنسي إلى ملك النروج

«من لويس الذي هو بنعمـة الرب ملك فـرنسا، إلى جميع أصـدقائـه، ورعاياه المخلصين، والنواب الملكيين، والعمد، والقساوسة، وإلى كل من تصل إليه هذه الرسائل الحالية، تحيات:

بما أن صديقنا المشهور هاكو، ملك النروج اقترح —حسبما بعث إلينا يلتمس منا برسالة— أن يبحر إلى مساعدة الأرض المقدسة، نأمركم، أنه إذا ماحـدث وقام الملك المذكور أو أسطوله، بأخذ طريقهم فـوق البحر على مقـربة مـن سـواحل أراضينا، أو حــدث ووصل إلى أي مكان من ممتلكاتنا، عليكم استقباله واستقبال قومه بلطف وتشريف، والسماح لهم بشراء الامـدادات في أراضينـا، وتزويد أنفسهم بالضروريات بمـوجب ابتياع مشروع.

صنع في سينت جيرمين Germains في سنة ربنا ألف ومائتين وثمان وأربعين».

وعندما قـرأ ملك النروج، الذي كان لبيباً، ومعتـدلاً، ورجلاً متعلماً، هذه الرسالة، كان مسروراً جداً، فكـرر الشكر لحاملها، وذلك بالاضافة إلى مكافأته بجوائز ملكية وغنية.

الخطر الذي تعرض إليه إيرل وينكستر

وفي هذه الآونة، عندما كان روجـر، ايرل وينكستر مترئساً في أراضيه في غالوي Galway التي عادت ملكيتها إليه بموجب حق زوجته

ابنة آلان Alan صاحب غالوي، وأثناء ممارسته طغياناً أكثر من المعتاد ضد نبلاء تلك البلاد، وقع فجأة تحت الحصار في إحدى قلاعه، عندما لم يكن مستعداً لذلك، ومن دون امدادات، أو وسائل للدفاع، وعندما رأى آنذاك أنه كان معرضاً لموت مهين، آثر أن يقتل في المعركة على أن يتلاشى من الجوع، فامتطى فرساً ثميناً، مسلحاً تمام التسليح، وفتح فجأة أبواب القلعة، واندفع مع عدد قليل من الأتباع الجريئين، وتابع انقضاضه على وسط الأعداء، حيث فتح طريقه بالسيف، وسقط عدد من حول يديه، ونجح أخيراً في شق طريقه، وفرق الأعداء، وبصعوبة نجا بحياته، وقد تابع سيره دون أن يرخي عنانه، حتى وصل إلى ملك سكوتلندا، الذي إليه قدم الشكاوي، وبناء عليه قام الأخير بمعاقبة العصاة، وبسلام أعاد الايرل إلى ممتلكاته.

كيف لم يسمح لوليم الملك المنتخب بالدخول إلى اكس لى شابيل

وجرى في هذه الآونة منع وليم كونت هولاندا، الذي انتخب مؤخراً ملكاً لألمانيا من الدخول إلى مدينة اكس لى شابيل (آخن)، حيث كان سيجري تتويجه، وحيث كان متوقعاً أن يستقبل، ويشرّف بالتاج الملكي، وفقاً لعادات الألمان، لأن كونراد ابن فردريك، ملك ألمانيا المخلوع، قد عارضه بفعالية، وكان —على كل حال— قد تلقى رسالة ودودة، أرسلت إليه من قبل أوكتافيان، النائب البابوي هناك، ومن رئيس أساقفة كولون، ومن بعض آخر من نبلاء ألمانيا، نصحوه فيها بأن لايسير مقلداً لأبيه، وأن لايتبع طريق رجل محروم كنسياً ومخلوع، حتى لايتورط بعقوبة مماثلة، وردّ كونراد على هذه الرسالة قائلاً: «إنني سوف لن أتخلى عن أبي من أجلكم، ذلك أنكم خونة»، ولذلك وضعت المدينة تحت الحصار، وبدأت معركة هي الأكثر دموية بين مؤيدي الحزبين، وقد ازدادت —على كل حال— قوة الكنيسة بفضل جهود الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، والمال الذي جمع، وأرسل من قبل البابا،

ومن المناطق الألمانية، والمناطق المجاورة لها، وتناقصت قوة جيش كونراد يومياً، لأن الملك المنتخب المتقدم ذكره كان متحالفاً بصلة النسب والقرابة مع كثير من أعلى النبلاء مرتبة في ألمانيا، فقد كان هو وأسقف ليبج أبناء عم (خال) وكان دوق برابانت خاله (عمه)، وكان نبلاء آخرون مرتبطون به بروابط متنوعة، وكذلك بوساطة الهدايا.

حول طاعون انتشر في هذه الآونة

في أيام برج الكلب، وعندما كانت الشمس مائلة في دائرة البروج، خاصة في شهر أيلول، بدأ طاعون واستعر مع موتان بين الناس، واستمر ذلك لمدة ثلاثة أشهر، وكان شديداً إلى حد أن تسعة جثث أو عشرة دفنت في يوم واحد في مقبرة كنيسة واحدة، هي كنيسة القديس بطرس في بلدة القديس ألبان.

موت إيرل فيرار مع بعض النبلاء الآخرين

مات في هذا العام بعض النبلاء في انكلترا، وكان من بينهم وليم ايرل فيرار Ferrers, وكان رجلاً مسالماً وصالحاً، وقد مات عن عمر متقدم، وكان ذلك في حوالي عيد القديسة كاترين، بعدما عانى طويلاً من آلام الأمعاء، وجرى زواجه من زوجته الكونتسة، بشكل مهيب على يدي القديس توماس رئيس أساقفة كانتربري، وماتت في الشهر نفسه زوجته م. M كونتسة فيرار، بالعمر نفسه وبشهرة مساوية وصلاح، وبناء عليه خلف الايرل المذكور في ايرليته من قبل ابنه وليم، الذي كان أسن أولاده ووريثه، وكان رجلاً صالحاً ولبيباً، لكنه كان مصاباً بشكل تعيس بالمرض نفسه الذي عانى منه والده، ومات أيضاً أسقف كنيسة القديس داود، وكان رجلاً مقدساً وتقياً، وكان من قبل راهباً في طائفة الفرنسيسكان، وكان كريماً جداً، لابل الأكثر كرماً بين جميع نبلاء ويلز، حيث ولد، كما كان شخصاً جميلاً، وقد هلك

بعـدما أنهك بوسـاطة الاضطراب، والحزن لدى مشـاهدته نهب مـوطنه الأصلي ودماره، وبالاضافة إلى هؤلاء مات نبلاء آخرون، كان من بينهم الفارسان: رتشارد دي بورغ، ووليم فتز— هام.

وصف مختصر للعام كله

هذا العام مع أنه كان وافراً جداً بالحبوب، كان جدباً بالفواكه، وكان عاماً أنتج الأذى لانكلترا، والطغيان لويلـز، والعدوان للأرض المقدسة، والاضطراب والفـوضى للكنيسـة، وكـان مصـدراً للدمـاء في ايطاليـا، والحروب والعـدوان إلى الامبراطورية وإلى البـلاط الرومـاني، وبشكل خـاص لمملكة ألمانيـا، والشعـور بالكراهيـة في القلوب لدى الأسـاقفـة ولدى عدد كبير آخر، ضد البابا، بسبب أنه أفقر بالقوة حماتهم، وعلقهم مـانعاً إياهم مـن جباية منافعهم، وهي واقعـة لم يسمع بمثلهـا من قبل، وضد الملك لأنه تساهل تجاه مثل هذه الإجراءات.

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ١٢٤٨، هو العام الثاني والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث، وكـان الملك المذكـور في وينكستر في أيام عيـد الميـلاد، وفي ذلك المكان تولى الاحتفـالات لذلـك الموسم، برفقـة عـدد كبير جـداً من النبـلاء، وتناول في اليوم التـالي لعيد الميلاد، طعـام الافطار مع وليم أسقف تلك المدينة.

كيف حمل إيرل ليستر مع كثير من النبلاء الآخرين الصليب

وحمل في هذه الآونة نفسهـا ايـرل ليستر شـارة الصليب المقـدس، في سبيل أن يتحـــرر من ذنوبه، وينال الـدخـول إلى الجنة، فنتيجـــة التفكر بنفسه، كان خـائفاً جداً، حول مايتعلق بـالزواج الذي عقده مع زوجته، التي كانت من قبل، قد نذرت نفسهـا، بحضور القديس ادموند، رئيس أسـاقفـة كـانتربري، للرهبنة، قـامت الكونتسـة التي وقعت، أيضـاً تحت

التأثير نفسه، فاعتقدت بالروح نفسها وآمنت، لذلك ما أن رأت زوجها يحمل شارة الصليب، حتى طارت بكل سرعة لحملها أيضاً، وتسلم كثير من الفرسان مع آخرين أيضاً من حواشيهم الشارة المقدسة نفسها، للحصول على مكافأة الخلاص الأبدي، وبالاضافة إلى هؤلاء فعل عدد من النبلاء الشيء نفسه، واقترحوا بأن ينطلقوا برحلتهم مع أعظم المسيحيين، الملك الفرنسي، الذي تنازل الرب من أجله بشكل اعجازي، وأعاده من أبواب الموت، أو بالحري من الموت نفسه، الأمر الذي عمل ليس من دون قصد، لأنه قد قيل من خلال الكهانة، لابل بالحري من خلال روح التنبؤ، وتأكد ذلك في كل مكان بمثابة حقيقة، بأن الرب قد أعاد الملك المذكور إلى الحياة، حتى يتمكن بالقوة من انتزاع ميراثه من أيدي أعداء الصليب.

فرار أسقف بانغور إلى راعي دير القديس ألبان

وفي حوالي الوقت نفسه، وصل رتشارد أسقف بانغور Bangor, إلى راعي دير القديس ألبان، يرجو ذلك الراعي أن يفتح صدر الرحمة إليه في فقره، وأن يتمكن من الإقامة معه حتى تتمكن أسقفيته، التي تدمرت في الحرب من استرداد عافيتها قليلاً، ومن أجل أن يتمكن هو وكهنته من استرداد أنفاسهم، بعد الاضطرابات والمظالم التي أحاطت بهم، وذلك وفق الطريقة نفسها مثلما فعل أسقف هيرفورد، الذي مكث هناك، وأنفق عليه بكرامة لحوالي العشرين عاماً.

مرض رتشارد سيوورد الخطير

وفي تلك الآونة نفسها أصيب رتشارد سيوورد Seward, الذي كان فارساً متميزاً، والذي تقدم ذكره كثيراً من قبل في هذا الكتاب، بشلل غير قابل للشفاء، وحمل إلى فراشه في حالة ميئوس منها، وكان يأمل أن يتمكن أثناء مرضه الطويل، من التحرر من ذنوبه

الماضية، ومن ثم أن يطير إلى الحياة السرمدية.

وصول بيترايس كونتسة بروفانس إلى إنكلترا

ووصلت في هذا العام أيضاً بيترايس، أرملة ريموند كونت بروفانس المتوفى، إلى انكلترا، مرافقة بتوماس أوف سافوي، الذي كان كونت فلاندرز من قبل، وتظاهرت أنها أرادت زيارة أصدقائها وأقربائها، أما السبب الحقيقي لقدومها، فمن الممكن تبيانه إلى الذين يرغبون في معرفته، فهي قدمت مع توماس، لأنهما كانا متعطشين، ويريدان اللجوء إلى النبع نفسه، على أمل الارتواء من ثروات الملك الوافرة، وأن يملأ من سخائه حقائب خيولها الفارغة والفاغرة، أثناء مغادرتها.

وفاة روبرت أسقف باث

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في حوالي عيد القديسة هيلاري، غادر روبرت أسقف باث طريق الجسد، وبناء عليه، وضع الملك —كما جرت العادة— يديه الجشعتين على ممتلكات تلك الأسقفية، حتى ينهب منها كل مايستطيع جرفه وجمعه.

قيام الملك الفرنسي بإعادة حمل الصليب

وتعرض الملك الفرنسي في هذه الآونة إلى ملامة حادة ونقد شديد من نبلائه، فهو كما معروف بشكل جيد قد حمل الصليب، وجاء توجيه النقد إليه، لأنه —بناء على نصائحهم— لم يحرر نفسه وينقذها من نذره بأية طريقة من الطرق، وكان بين الذين لاموه أمه السيدة بلانشي، وأسقف باريس الذي كان مدركاً لسذاجته، لذلك أصبح أكثر إلحاحاً، وقد ثابرا معاً على مناقشته، حيث قال الأسقف له: «تذكر أنك عندما حملت الصليب، عملت نذرك فجأة ومن دون مشورة، فلقد كنت مريضاً، وإذا أردت الحقيقة، كنت محروماً من مداركك، فقد انتقل دمك إلى عقلك، ولم تكن بذي عقل سليم، ولذلك فإن الكلمات التي تفوهت

بها، كانت فارغة من وزن الحقيقة والتأثير، وقداسته سوف يمنحنا بلطفه تحليلاً، عندما سيعرف أوضاع المملكة الضرورية، والوضع الضعيف صحياً لجسدك، ونحن في الجانب الأول نخشى من قوى فردريك المنشق، ومن الجانب الثاني دهاء ومكر ملك انكلترا الغني، ونخشى هنا من خداع الخونة البواتيين، علماً بأنهم قد قهروا مؤخراً فقط، وهناك اعتراضات الألبينيين، التي هي مسألة ذات ريبة، وألمانيا في حالة اضطراب، وايطاليا غير مستقرة، وسبل الوصول إلى الأرض المقدسة صعبة، ومن الصعب إيجاد مكان لاستقبالك فيه، وأنت أيضاً تترك وراءك الكراهية الشديدة، والعداء المميت بين البابا والامبراطور فردريك، فإلى من تتركنا معزولين؟ وضغطت عليه أمه أيضاً بفعالية أكبر، وتعاملت معه بعاطفتها، فقالت له: «ولدي العزيز، استمع، وأصغ إلى نصائح أصدقائك العقلاء، ولاتكافح ضد حكمتك، وتذكر فضيلة اطاعة أمك والاستجابة لرغباتها وكم هذا يرضي الرب، امكث في مملكتك، فالأرض المقدسة سوف لن تعاني ولن تتدهور من عدم ذهابك، ومن الممكن ارسال جيش كبير، يكون أكبر مما لو ذهبت إلى هناك شخصياً، فالرب ليس مفتري، أو مثير للاعتراضات التافهة، فأنت ولدي، وأنت معذور لفقدانك لعقلك، وعانيت من بلادة جميع مشاعرك أثناء مرضك، لابل أثناء ذلك حتى الموت أو ضلال العقل»، وانزعج الملك من هذه الحجج كثيراً، وأجابها قائلاً: «لقد احتججتما بأن فقداني لمداركي كان السبب في حملي الصليب، وبناء عليه، وأخذاً بنصيحتكما وتماشياً مع رغبتكما، سوف ألقي الصليب جانباً، وأتخلى عنه لكما»، ثم رفع يده نحو كتفه، ونزع الصليب من عليه قائلاً: «مولاي الأسقف، هاكم الصليب الذي حملته، إنني عن طواعية أتخلى عنه لك»، ولدى فعله ذلك استولى سرور لايمكن وصفه على جميع الذين كانوا جالسين هناك، إنما فجأة قال الملك وقد تغيرت ملامحه ولهجته: «أصدقائي.إنني الآن لست مفرغاً من العقل أو الادراك، وأنا لستُ

ضعيفاً وبلا قوى، وبناء عليه إنني أطلب الآن صليبي حتى يعاد إليّ، لأن الذي ليس بجاهل بأي شيء، يعرف أن ما من شيء يؤكل يمكن أن يدخل إلى فمي، حتى أقوم ثانية بحمل شارة الصليب»، وأعلن الذين كانوا جالسين هناك، لدى رؤيتهم هذا، أن اصبع الرب كانت في هذه الاجراءات، وأن القدرة اللاهوتية، قد تولت صنع هذا من السماء، ولذلك ما من واحد تجرأ على إثارة المزيد من النقاش حول القضايا التي تقدم ذكرها، ولقد قمنا بتدوين كل شيء، وذكرنا جميع الأشياء، حتى يكون كل واحد مدركاً لمثابرة أعظم المسيحيين، أي الملك الفرنسي في استمراره في خدمة المسيح.

حول البارلمان العام الذي عقد في لندن

في حوالي بداية العام، وفي ثمانية عيد الطهارة، جرت دعوة جميع نبلاء انكلترا للاجتماع في لندن، للتباحث مع الملك، حول شؤون المملكة، التي كانت الآن مضطربة كثيراً، وفقيرة، ومتضررة، وتماشياً مع هذه الدعوة، قدم إلى هناك تسعة أساقفة، وتسعة إيرلات، بالاضافة إلى عدد كبير من البارونات والفرسان، ونبلاء آخرين، وكذلك رعاة ديرة، ورؤساء رهبان، وكهنة، وكان من بينهم رئيس أساقفة يورك، وأساقفة: وينكستر، ولنكولن، ونورويك، وووركستر، وشيستر، وإيلاي، وروكستر، وكارآيل، والايرل رتشارد، وايرلات: غلوستر، وليستر، وووينكستر، وهيرفورد، وروجر بيغود، والايرل مارشال، وايرل اكسفورد، وبالإضافة إليهم: ايرل لنكولن، وايرل فيرار، وايرل وارني، وب. P أوف سافوي، وايرل رتشموند، أما الأساقفة الذين لم يكونوا حاضرين في هذا الاجتماع الكبير فهم: بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان يقاتل لصالح البابا في القارة، وأسقف درم الذي كان مريضاً في مكان بعيد، وأسقف باث، الذي مات مؤخراً.

ثم شرح لهم الملك مقصده، الذي لم يكن في الحقيقة سراً بالنسبة

للجماعة بشكل عام، فقد طلب مساعدة مالية منهم، وبناء عليه نقد بشكل حاد، ووجهت الملامة إليه، فهو لم يخجل من طلب مثل تلك المساعدة في ذلك الوقت، خاصة وأنه أثناء الاستخراج الأخير لمثل هذا النوع، والذي وافق عليه نبلاء انكلترا بصعوبة كبيرة، وقتها أعطى صكه، بأنه لن يقوم ثانية بمثل هذا الاستخراج، كما وجّه اللوم إليه بحدة بالغة (ولاعجب) للطريقة غير الحكيمة، التي دعا بها الأجانب إلى المملكة، ولتوزيعه ببذخ وبشكل غير معقول ممتلكات المملكة بينهم، وأيضاً لتزويجه نبلاء المملكة من أجنبيات وضيعات، وبذلك ازدرى أبناء بلده، ورعاياه الطبيعيين، وأقصاهم، وعمل الزواج من دون طلب موافقة الطرفين، الذي هو ضروري لإكمال الزواج، وقد ليم أيضاً —لكن ليس من دون سبب— لأنه استولى بالقوة على كل شيء استخدمه، مثل اللحوم والشراب، ولاسيما الخمرة، لابل حتى على الملابس، ضد إرادة الذين يتولون بيع هذه الأشياء، وكانوا الملاكين الحقيقيين لها، ولذلك انسحب الباعة، وأخفوا أنفسهم، ومثلهم فعل الأجانب، الذين لم يعودوا يجلبون بضائعهم للبيع في تلك البلاد، وهكذا جرى ايقاف التجارة، التي منها حصلت شعوب بشكل متبادل على الثروة والقوة، وبذلك ساءت سمعتنا، ولحقنا الفقر، لأن الباعة والتجار حصلوا على لاشيء من الملك سوى قضايا قانونية وغضب، وبفعله هذا حصل الملك على لعنات رهيبة، من أعداد لاتحصى من الناس، مما ألحق الخطر به والعار، وبكل المملكة، وعلاوة على ذلك، وفي سبيل أن يقوم بإعطاء الصدقات بشكل غير مستقيم، ولكي يحصل على شهرة واسعة، استولى بالقوة على الشمع، والحرير، والأقمشة، وعلى أشياء أخرى، من دون تقديم أية شروط للترضية، وبذلك جلب الفضيحة لنفسه، ولمملكته، وإلى جميع سكانها، و لم يكن ذلك من دون اغضاب للرب بشكل جدي، الذي يعدّ السلب مقرونا مع المقت، عندما يربط بأعطية، وفي ممارسته لهذه الإجراءات اعتمد على الطغيان والظلم إلى درجة بلغ

فيها أنه لم يسمح على شاطىء البحر، بتوزيع سمك الرنكة والأنواع الأخرى من السمك، بناء على رغبة صيادي السمك الفقراء، كما أنهم لم يتجرأوا على الظهور في أماكن مجاورة لشاطىء البحر، أو في المدن، خشية من أن يتعرضوا للسلب، وعلى هذا عدّوا أنه أسلم لهم أن يعهدوا بأنفسهم إلى الأمواج العاتية، وأن يذهبوا إلى الشواطىء النائية، وتعرض التجّار التعساء إلى الظلم الوحشي، واسيئت معاملتهم من قبل وكلاء الملك، وبهذا أضيفت العقوبات إلى الخسارة، وتكدست الأضرار فوق الأضرار، فيما يتعلق بكل من أشخاصهم، وكذلك بالنسبة لبضائعهم المحمولة، وانهاك خيولهم، وعلاوة على ذلك استحق الملك الشجب، لأنه تصرف على عكس يمينه الأول والرئيسي الذي أداه عند تتويجه، فقام بافقار الأسقفيات ورعايات الديرة إلى حد الدمار، وعمل الشيء نفسه بالنسبة للأوقاف الشاغرة، التي كانت قد تأسست من قبل النبلاء والآباء المقدسين، حيث احتفظ بها لوقت طويل بين يديه، مع أنه كان من المتوجب عليه أن يكون الحامي لها والمدافع عنها، ولهذا قد قيل إنهم بحكم كونهم بين يديه، هم تحت حمايته، وعملت شكوى أخرى ضده، من قبل كل واحد، ولم تكن شكوى خفيفة، وكانت هذه الشكوى، هو أنه كان على عكس أسلافه النبلاء، هو لم يعين لارجال عدالة، ولا مستشارين، ولاخزنة، لتسير المملكة بالتوافق العام مع نصائحهم، كما ينبغي وحسبما هو موائم، وعيّن فقط أناساً مطيعين لرغباته في كل شيء، شريطة أن يكون ذلك مفيداً له شخصياً، وأن لايستهدفوا فائدة المصلحة العامة، بل منفعتهم الخاصة بجمع المال، والحصول على الإدارات، والموارد لأنفسهم.

الملك يسعى لتهدئة جماعة إنكلترا بالوعود

وعندما سمع الملك جميع هذه الشكايات اضطرب واستحى بنفسه، لأنه عرف بأن جميع هذه التهم كانت صحيحة، ولذلك وعد باخلاص

شديـد، بأنه راغب باصلاح هذه المسـائل، وكان يأمل أنه بهذا التـواضع —مع أنه ظـاهري— سـوف يكون أسهل عليـه إلانـة قلوب الجميع ليـوافقوا على طلبـه، وعلى هذا، حـدث على كل حال، أن الجماعـة التي غالباً ما وقعت بمصيدة مثل هذه الوعود، أجابت قائلة: «إن هذا سوف يظهر بشكل واضح بما فيـه الكفاية، وخـلال وقت قصير، ونحن سوف ننتظر بصبر، وحسبما سيتصرف الملك، ويوجّـه نفسـه نحـونا، وعلى هذا نحن سـوف نطيعـه في جميع المسـائـل»، وهكذا وضع كل شيء جـانبـاً، وسوف يعاد النظر به وبتقديـره، وسوف يمتد الانتظار حتى أربعة عشر يوماً من ميلاد القـديس يوحنا المعمدان، وأصبح الملك في الوقت نفسه، إما بمبادرة منه شخصياً، أو بناء على تحريض من رجال بلاطه، الذين لم يرغبـوا باضعـاف سلطاتهم، أصبح أكثـر فظاظة، وأشـد سخطاً ضـد رعـاياه، واهتم قليـلاً بعمـل أي تعـويض أو اصـلاح لهم، مقـابل التجاوزات التي تقدم ذكرها أعلاه، وذلك حسبما وعد أن يفعل.

كيف ظلم أسقف درم كنيسة التاينماوث

قام في هذه الآونة، نيقولا، أسقف درم، بطريقة غير موائمة، وبسلوك غير صحيح، لايتماشى مع كرامته، ومع الأخوة التي تأسست بينه، وبين بيت دير القديس ألبان، بعد ترتيبـات السلام بينهما، حول مسألة الزيارة التفقـدية لكنيسة التـاينماوث، قـام بالشروع بمضـايقة تلك الكنيسـة في القضايا الدنيوية، إلى أقصى مـا امتلكه من طاقة، مما سبب الأذى، ودفع النفقـات من قبـل الفئتين، وليضيق امتيـازاتها، الممنوحـة لها، بمـوجب صكوك الملوك النبـلاء، والتي تمتعت بها لسنوات طوال، ولذلك جـرى ارسال واحـد من رهبان كنيسة القديس ألبـان، ليلتمس منه الاقلاع عن مثل هذه المنغصـات، لكنه استخف بكل من الانذار والالتماسـات التي تقدم بها الراهب المذكور، وأبدى الشيء نفسـه نحو الرسالة التي جلبت إليـه من راعي دير القـديس ألبـان ومن التجمع الديـري، وأعلن أنه

يمتلك سبباً صحيحاً في مناقشة مثل هذه القضية، التي كانت —على كل حال— مزيفة بشكل واضح، مع أنه أعلن أنها تقررت من قبل اثني عشر فارساً، جرى اختيارهم بالاجماع وبموافقة كلا الفريقين، وبما أن هذا يمكن مشاهدته بكل وضوح من قبل كل واحد يمكنه أن يتفحص بدقة امتيازات كنيسة القديس ألبان، وهي امتيازات أنقصها إلى حد كبير في المسائل الروحية، والتي يقوم الآن بانقاصها وخرقها في المسائل الدنيوية، ولذلك نحن نعتقد أنه من المفيد تقديم عرض مختصر عنهم في هذا الكتاب.

حرية وامتيازات كنيسة القديس ألبان

«سوف تكون كنيسة القديس ألبان، وديرتها، وكل شيء عائد إليهم، معفية من دفع جميع الضرائب إلى: الملك، والأسقف، والايرل، والدوق، والقاضي، أو الوكيل، ومن جميع الخدمات التي تفرض بالعادة، وتقضي ارادتنا، بأن لايكونوا ملزمين بتقديم الإجابة حول أية قضية، إلى أي واحد، باستثناء الحبر الروماني.

بند: نحن نمنع أي رئيس أساقفة، أو أسقف من الإقدام على عمل أي استخراج أو فرض أتاوة، أو أي ادعاء، أو ممارسة أية أعمال أسقفية في ديركم.

بند: إن الأماكن التي ليس لكم فيها حقوق حبرية، سواء أكانوا بيعاً أو مقابر، وسيكونون معفين من جميع الاستخراجات، وفي مثل هذا الكنائس أو البيع، لك ولرهبانك الحق في اختيار كهنة، على شرط أنهم سوف يتسلمون مهمة معالجة النفوس من الأساقفة أنفسهم، أو من نوابهم، من دون أي شراء، وبعد أن تقوم بتعيين مايكفي لهؤلاء الكهنة، بتجهيز أنفسهم بالضروريات من الطعام واللباس بشكل لائق، إنك سوف تمتلك الحرية في تحويل المتبقي لاستخداماتك الخاصة.

وكنا قد بعثنا إليكم، بوساطة رسائلنا الرسولية، أوامر إليكم، وإلى الأساقفة الآخرين، لتقديم المساعدة من أجل التفريج عن الأرض المقدسة، وقد تأثرت أنت —كما سمعنا— بما ذكرناكم به، فأوقفت جزئاً من عشرة من موارد كنيستكم وديرتكم، ومن موارد الخاضعين إليكم، من أجل ذلك الهدف التقوي، وبناء عليه نحن نقدر احسانكم بالرب، ونطريه ونثني عليه، وننظر إلى مقاصدكم الرفيعة نظرة رضا وموافقة، وبموجب سلطات هذه العروض، واعتماداً على هذا العمل الضروري والتقوي، نحن نمنع —تحت طائلة عقوبة التكفير— أي شخص لاهوتي أو مدني من الآن فصاعداً، من القيام بارغامكم أو ارغام كنيستكم، أن يتعرض إليكم بمثل هذا، أو بقضية مماثلة، أو مضايقتكم أو مضايقة كنيستكم أو ديرتكم، في أية طريقة مهما كانت، خشية (لاسمح الرب) أن تجبروا في يوم أو آخر، على الرغم من أنفسكم، أن تكرروا عملاً كنتم قد عملتموه خروجاً عن الحرية المخلصة، أو «الخير الخالص» . (وعلى كل حال أرغم الأسقف المذكور كنيسة التاينماوث على الاسهام في بناء كنيسة درم، وفق الطريقة نفسها، كما فعل جميع اللاهوتيون في جميع أرجاء أسقفيته).

«إلى جميع الأساقفة في جميع أرجاء إنكلترا، إلخ:

«بما أن كنيسة القديس ألبان هي عائدة إلى القديس بطرس، وملكاً له، إلخ، إلخ، إذا ما رفض أي من الناس أو الكهنة العائدين إلى الكنائس الاستجابة إلى راعي الدير المتقدم ذكره أو الرهبان حول مايتعلق بالمسائل الدنيوية، أو أن يدفع لهم المعاش المستحق، نحن نمنح راعي الدير المذكور والرهبان السلطة الكاملة لأن يأخذوا منهم من دون أية معارضة أو إجازة استدعاء، أي شيء عندهم في كنائسهم، أو بيعهم، والذي احتفظوا به وهو عائد لهم، وذلك حتى يتم ارغامهم، ولو كان ذلك دون إرادتهم، على الاستجابة لهم، فيما يتعلق بالقضايا الدنيوية،

وأن يدفعوا لهم معاشـاتهم». (منع الأسقف المذكور على كل حال بعض القساوسة من دفع المعاش المستحق إلى كنيسة التاينماوث).

«ونحن عن رغبة وطواعية قـابلون لمطالبكم العادلة، وذلك بموجب السلطات الرسـولية، وبحماية هذه الوثيقـة الحالية، ونؤكـد، ونوثق لكم ومن خلالكم لكنيستكم، بحكم أنها جـزء من الدير المذكور، الممتلكات التي أضفيت عليكـم بكرم تقـوي من قبل أهـل الإيمان، وأيضـاً المنح والامتيـازات والمنافع الأخـرى التي منحـت إلى كنيستكم من قبل الملك رتشـارد صاحب الذكـرى اللامعة، ومن قبل ولدنا المحبـوب في المسيح جـون الملك المشهـور لانكلترا، حسبما أنت متملك لهم بسـلام وعـدل، وبشكل كـامل تبعـاً لما ورد في صكوكهـم، وأيضـاً هـذا فيما يتعلق بالكنائس ومعـاشـاتها، المؤكـدة في رسـائل من قبـل المطران ومن قبل أسقف المنطقـة، وكـذلك امتيـازاتهم مع الإعفـاءات الممنـوحـة إلى دير القديس ألبان، ولصالح ديرته، إلخ، إلخ».

لكن بعـد إعـادة تأسيس السـلام وفق البنود التي تقـدم ذكـرها، بين الأسقف المتقدم ذكـره —الذي أقدم بطيش على خـرق الامتيازات التي تقـدم ذكـرها— وبين رئيس رهبـان التـاينماوث ورهبـان الدير، الذين تعـرضـوا إلى المضـايقـة والأذى من قبله بطرق مضـاعفـة كثيرة، قـام الأسقف المذكور بالاقدام شخصياً على اغضـاب رئيس الرهبان المذكور وايذائه، ومعه رهبانه، في مسائل دنيـوية، وفي خرقه للامتيازات الخاصة، التي منحت إليهم من قبـل هذين الملكين التقيين، وسـوف يظهـر مـدى ايذاء هذه الممارسات الطائشـة في رسالة الملك التاليـة، الذي وصلت إليه صرخة شكوى الكنيسة.

رسالة ملك إنكلترا إلى أسقف درم

«من هنري، الذي هو بنعمـة الرب، إلخ، إلخ، إلى أسقف درم: نحن

لايمكننا إلاّ أن نعجب، أننا على الرغم من قيامنا بعاطفة كاملة، برجائكم، مرة أولى، ثم مرة ثانية، بالاقلاع عن ايذاء رئيس رهبان التاينهاوث، المحبوب كثيراً لدينا في المسيح، والذي —كما أنت تعرف— يقاتل تحت حمايتنا ودفاعنا، وأنت لم تزعج نفسك بالاستجابة لالتماساتنا لصالحه، ونحن مرغمون على أن نعيد إلى ذاكرتكم، أننا صدوراً عن الاحترام لكم قد أحلنا هذه المسألة إليكم، بحكم أننا نعتقد بشكل ثابت، ونأمل بأن تقنعكم حكمتكم ولطفكم بأن تفعلوا طائعين متطوعين، الذي سوف تكونوا مرغمين على فعله بموجب شريعة المملكة، وبموجب السلطات الملكية، وفي سبيل أن تكون الأمور واضحة بيّنة إليك، بأننا قمنا للمرة الثالثة بتحويل هذه القضية إليكم، ولقد قررنا للمرة الثالثة أن نلتمس منكم باخلاص، وصدوراً عن التماساتنا، وللاحترام المتوجب عليك نحو أميرك، أن تتخلى بحرية، ومن دون تأخير، عن الممتلكات العائدة لرئيس الرهبان المذكور التي استوليت عليها، بشكل مضاد لشريعة البلاد، والتي أنت تحتفظ بها بشكل غير عادل، وهو مايمكن البرهنة عليه بوساطة امتيازاته، التي يمتلكها بموجب صكوك من ملوك انكلترا من أسلافنا، وبشكل خاص صك عمنا الملك رتشارد، وهي الامتيازات التي تمتعوا بحرية بها في أيام أسلافنا، وكن على يقين أنك إذا لم تنفذ مطلب التماساتنا تنفيذاً كاملاً قبل ثمانية عيد القديسة هيلاري المقبل، كل الذي أحلناه إليك، ورغبنا الآن باحالته إليك، سوف نقوم بعد ذلك (دون المبالاة بامتيازك، تحت حجة ماينبغي علينا أن نفعله لك، وفي أن لانسمح بإلحاق الأذى بك من قبل الآخرين، من دون التصحيح بموجب السلطات الملكية) بجعل الممتلكات المتقدم ذكرها تعطى إليك، وبالنسبة للخسائر، التي عانى منها رئيس الرهبان المذكور، بسبب الأذى الذي اقترف بحقه، أن تقوم بالتعويض عنها بشكل صالح، ولسوف نرغمك على تقديم عدالة كاملة له. شهدت بنفسي، إلخ، إلخ».

لقد اتضح تماماً بموجب الرسالة المتقدمة، الأذى الذي اقترف بحق رئيس الرهبان المذكور مع ديره، والذي تمتع بالامتيازات والمنح والحقوق نفسها، مثل كنيسة القديس ألبان، وقد جرى منح الكنيسة المذكورة القدر نفسه من الامتيازات، مثلما يمكن قانونياً منحه إلى أي راعي دير، وذلك من قبل الحبر الأعظم، في القضايا الروحية، وفي القضايا الدنيوية، كل الذي يمكن للسلطات الملكية أن تمنحه، وكل الذي جرى منحه لهذه الكنيسة وأضفي عليها من قبل مؤسسها أوفا Offa التقي، ومن قبل الملوك الآخرين لانكلترا.

الانقضاض الذي عمله البارميون والنصر الذي نالوه

بينما كان الحظ يتسابق هكذا مع الشؤون الدنيوية، قام البارميون بالدعوة إلى اجتماع حول قضيتهم العامة، وتذللوا بأنفسهم أمام الرب، وأمام روجر المبارك، أسقف لندن، الذي خصه الرب، وميّزه بشكل مجيد بالمعجزات، وكان هذا الأسقف، قد تعرض عندما كان من قبل مقيماً إقامة قصيرة في مدينتهم عندما كان في طريقه إلى البلاط الروماني، فسرق من قبل البارميين في الليل وسلب من ماله كله، ولذلك غادر المدينة، وفي طريق عودته من روما، لعنها بألم شيد في القلب، وعندما قام سكان المدينة بالتقصي حول المسألة، وجدوا أن مبلغ المال، الذي ذكر أنه قد سرق منه، قد وصل إلى عدد كبير جداً من الماركات، ولذلك تعهدوا بأنهم سوف يعطون بكل تذلل ترضية بذلك العدد نفسه إلى الرب، وإلى قديسه، أي بالقيام ببناء كنيسة بلندن، عن طريق الصدقات أو بأية طريقة أخرى سوف ترضي القديس المذكور.

ولقد قلت هذا بمثل هذا التفصيل، لأنهم سمعوا بأن فردريك، الذي ثابر على حصار المدينة، قد غادر منذ بعض الوقت، لقضاء بعض الأشغال، وترك —على كل حال— جيشه كله تقريباً هناك، وبناء عليه، بما أن الجيش قد نقص عدده، وبما أن قائده كان غائباً، بدا أنه مفيداً لهم

القيام بهجوم مفاجيء على أعدائهم، وقاموا بناء عليه، في أحد الأيام، بعدما طلبوا العون من عليين، وبعدما عملوا التعهد المذكور بكل اخلاص من القلب، استعدوا جميعاً للقتال، وبعدما جرت تعبئة القوات وصف العساكر بشكل منتظم، فتحوا الأبواب بشكل مفاجيء، واندفعوا بصورة غير متوقعة، وانقضوا مثل البرق على العدو، مفضلين الموت في القتال على الهلاك والتلاشي بوساطة جوع مديد، وعندما شاهد ثاديوس هذا، الذي كان المستشار المقرب من فردريك، والذي بثقة عهد إليه بالمسؤولية عن جيشه وأمواله، صرخ تعجباً لكن بعجرفة واستخفاف قائلاً: «تجرأ أخيراً هؤلاء الجرذان على الخروج من جحورهم»، وقام سكان المدينة بهجوم فعال شديد، فتمكنوا في وقت قصير من إلحاق الهزيمة بجيش فردريك كله، وحصلوا على نصر مجيد، وأنزلوا هزيمة مهينة بآلاف الأعداء، وبعد هذا هدموا القلاع التي بناها فردريك حول المدينة، من أجل متابعة الحصار وأحرقوها،وأسروا أيضاً ثاديوس، قاضي القصر الامبراطوري، الذي كان من أكثر الناس فصاحة في مرافعات القضايا الصعبة، وكان حكيماً في تقريرهم، كما استولوا أيضاً على مبلغ كبير من المال، كان قد ترك بعهدته، وقد رفضوا الاصغاء إلى أي من كلماته المعسولة واللينة، خشية الوقوع في أي زيف، فقطعوه إلى قطع، وأنزلوا الهزيمة أيضاً بالكريمونيين Cremonese, الذين وقفوا إلى جانب فردريك أثناء الحصار، ولإلحاق العار والخزي بمدينتهم استولوا على رايتهم، وبعدما تمكنوا هكذا من تمزيق جيش فردريك كله وإلحاق الفوضى به، عاد المنتصرون مسرورين إلى مدينتهم، جالبين معهم أسراهم، وكمية من السلاح، والمال، والامدادات، والخيم، وأشياء أخرى نافعة، وذلك دون أن نتحدث عن الكميات الكبيرة جداً، من الأسلاب الأخرى، واستولى المنتصرون من سكان المدينة على حوالي خمسة عشر ألف رأس من الماشية، بما في ذلك خيولاً ثمينة، ومهرة، وخيول تحميل، وبغال،

وثيران، وكان ذلك كـلـه على عكس ماتوقعـوه، فقد امتـلأت مدينتهم بجميع الأنواع من الثـروات، وعندمـا وصلت هذه الأخبار إلى البـلاط الروماني، استولى على البابا الفـرح واستبدت به البهجة، وتفوه بالكلمات التالية:

منصورتك، زالت باسم المسيح

لأن فردريك كـان قد منح ذلك الاسم لقلاعه حـول المدينة، وعندما غـدت هذه الواقعة معلومـة لدى فـردريك، تأوه بروحـه، وأخذ يتنهـد بشكل متـواصل وكأنه أصيب بجرح عميق، لأن مـوت ثاديوس وإهانة البابا له جـرحت قلب فردريك، وآلمته بحـدة أكثر من أي من الحوادث والخسائر الأخرى، لأننا نحن الذين نقرأ حوليات التاريخ ونتفحصها لم نجد مثل الكراهية القاتلة التي وجدت بين البابا وبين فردريك، ثم أعاد فردريك تجميع قواته، ومن ثم شرع بمـزيد من التهديدات بالضغط على سكان المدينة بمزيد من الحدة أكثـر من المعتادة، وقـد جرى وصف هذه الوقائع بتفاصيل وافية أكثر في كتاب الـ Additaments.

إصلاح الأموال الإنكليزية التي فسدت بالنقود المزيفة

وفي هذه الآونة كـانت النقود الانكليـزية قد فسـدت بشكل لايمكن احتماله، بوسـاطة قصاصي النقـود والمزيفين، حتى صـار لايمكن لأهالي البلاد والأجانب أن ينظروا إليها إلاّ بعينين غـاضبتين وبمشاعر انزعاج، لأنها قد تعرضت للقص من حولها حتى وصل القص إلى الجزء الداخلي من الدائـرة، والاطار الذي حمل الكتـابات، إما جـرى تدميره تمامـاً، أو تشـوه بشكل كبير، وبناء عليـه جـرى الاعـلان بوسـاطة المنادين، باسم الملك، في جميع المدن،والمناطق، والأسـواق، بعـدم أخـذ أي بنس إذا لم يكن قـانوني الوزن، والإطار، ولايجوز تسلمــه، لافي بيع، أو شراء، أو تبديـل، وأن جميع الخارقين لهذا الأمر سـوف يعاقبون، وصرفـت جهود

كبيرة لاكتشاف المتعاملين المزيفين الذين تقدم ذكرهم، حتى إذا وجدوا مذنبين باقتراف هذه الجريمة، سوف يواجهوا العقوبة المستحقة، وفقاً لقرار المحكمة، وجرى بحث دقيق حول هذه المسألة، وبناء عليه تبين أن المجرمين المقترفين لهذه الجريمة هم بعض اليهود، وبعض القراصنة الفاسدي السمعة، وبعض تجّار الصوف الفلمنكيين، وأمر الملك الفرنسي أيضاً بجميع الأشخاص المقترفين لهذه الجريمة، الذين وجدوا في مملكته، فعلقوا على المشانق وصاروا عرضة للرياح.

موت وولتر موكليرك واثنين آخرين من الرهبان الدومينيكان

وفي الوقت نفسه من العام، في حوالي عيد القدسين: سمعان وجود، أكمل وولتر موكليرك Mauclerc, الذي كان من قبل أسقف كارلآيل، حياته الدنيوية بشكل موائم ورمى عن عاتقيه أعباء العناية بالحياة الدنيا والثروات، وغادر طريق الجسد، وغادر هذا العالم أيضاً في العام نفسه، في الرب، الراهبان الاثنان اللذان كانا من الطائفة نفسها (الدومينيكان)، واللذان من المعتقد أنه لامثيل لهما، وفي الحقيقة لامعادل لهما، عندما كانا حيين، في اللاهوت، وفي العلوم الأخرى، وهذان الراهبان كانا: روبرت بيكون Bacon ورتشارد فيشكيلي Fishkele, واللذان كانا يحاضران في الكلية نفسها لسنوات طوال، وكانا متميزين بالتبشير بكلمة الرب إلى الناس.

حول زواج فردريك وابنه كونراد

قام فردريك في هذا العام، في سبيل تقوية قضيته في الصراع الذي كان منشغلاً به ضد البابا، فدخل في تحالف مع بعض الزعماء، وتزوج من سيدة ثرية الأموال، وذات مظهر جميل، وأصل مشهور، وتأثر ابنه أيضاً بنية مماثلة، فاقترن بابنة دوق بافاريا، ولدى معرفة هذا من قبل رئيس أساقفة كولون، والذين وقفوا إلى جانب حزب الملك المنتخب

حديثاً لألمانيا، ألحا أكثر من المعتاد وحرضا على ضرورة أن يتم تتويج وليم، الملك المنتخب المذكور، بشكل كامل ومهيب في اكس لى شابيل (آخن)، لكن بسبب معارضة فردريك المذكور، وابنه كونراد حيل بينه وبين إمكانية الوصول إلى تلك المدينة، ولذلك تولى رئيس أساقفة كولون، والنائب البابوي، بالتعاون مع عدد لايحصى من الأساقفة والنبلاء، الذين آثروا قضية الكنيسة (وكان الشطر الأكبر منهم قد تلقى شارة الصليب على أيدي الدومينيكان والفرنسيسكان) تولى بمزيد من النشاط والفعالية، حصار مدينة اكس لى شابيل المذكورة، حيث جرت معارك كثيرة مع نجاحات مختلفة، بين الفئتين، وسقط كثيرون من على الطرفين، واستمر الحصار وتمت متابعته مع كثير من سفك الدماء والخسائر على الجانبين، وتزايد عدد الذين يتولون الحصار يومياً، مثلما يزداد النهر بالفيضانات، ومع ذلك استمرت ثقة المحاصرين عالية، بوساطة رسائل أرسلت بشكل متواصل من قبل فردريك، وابنه كونراد، يحثونهم على عدم فقدان الشجاعة، لأن خلاصهم —كما أعلنا— بات وشيكاً.

حول مبارزة عقدت في نيوبري

عقدت مبارزة كبيرة جداً، يوم أربعاء الرماد، في نيوبري Newbury, وقد عقدت بين فرسان انكلترا لتجريب قدراتهم في ميدان الفروسية وقوتهم، وبما أن الملك كان مؤثراً لها، فقد بدأت بشكل جيد وانتهت كذلك، وتصرف في هذه المبارزة وليم دي بلنسية، أخو الملك لأمه، مبدئياً بشكل جريء جداً، فهكذا قاد نفسه من أجل الحصول على اسم مشهور بالفروسية، ولكن بما أنه كان في عمر غض، وغير قادر على تحمل قوى وشدة وحملات الفرسان، فقد رمي على الأرض، ومن ذلك عانى من خسائر كبيرة، وضرب بشكل جيد، من أجل أن يتمكن من تلقي احترافه بالفروسية.

حول اضطرابات الناس وآلامهم نتيجة لتبديل النقود

اضطرب الناس كثيراً في هذا العام، بسبب أوامر الملك المتنوعة، فيما يتعلق باستلام النقود، فقد جرى الإعلان بوساطة صوت المنادي، في جميع أرجاء مدن انكلترا بأن معياراً واحداً من القمح سوف يكلف أكثر من عشرين شلناً، لأن التبديل جرت متابعة تنفيذه في عدد قليل فقط من المدن، وعندما جاءوا إلى هناك تسلموا وزناً محدداً من النقود الجديدة، مقابل وزناً محدداً من القديمة، وأرغموا على دفع ثلاثة عشر بنساً لكل باوند، مقابل عمل الصائغ، أو عامل المال، الذي كان يدعى بشكل عام باسم المبيض، واختلف شكل هذه النقود عن القديمة، حيث كان هناك صليباً مضاعفاً مرّ عبر الاطار الخارجي، في المكان الذي كانت هناك فيه كتابات، إنما في المجالات الأخرى، أي بالنسبة للوزن، والطبع، ولشكل الحروف، فقد بقي ذلك، كما كان من قبل، ولذلك آل مآل الناس إلى ضيق شديد، وعانوا من أضرار كبيرة، حتى بات من الصعب الحصول على عشرين شلناً من على مائدة مبدل النقود، مقابل ثلاثين، وذلك ليس من دون اضطراب، ونفقات لعدة أيام مستمرة، ومتاعب وتوقعات مزعجة، وبما أن الملك حصل على مرابح كبيرة من هذه المسائل، جاء إليه أخوه رتشارد، وكان الملك مداناً إليه كثيراً، وكان قدومه مثل يعقوب آخر، وقال له بذكاء وبراعة: «مليكي وأخي ادفع لي الدين المستحق لي عليك»، وتابع باستمرار الضغط بطلبه، فأجابه الملك قائلاً: «أخي الوحيد من الأبوين نفسهما، أنت ترى حاجتي القصوى من جميع الجوانب، والحصة الصغيرة من الأراضي التي بقيت لي في القارة هي عرضة للمخاطر وللأذى، فغسكوني محمية بترس بوردو وحده، ولتحرير هذه المقاطعة، الأمر الذي وجدته ضرورياً، اقتضى انفاق مبلغ كبير من المال»، وقام الايرل على كل حال، بالمطالبة بصوت مرتفع ووقح بتقديم ترضية له مقابل ديونه، من الأرباح الناتجة

عن ضرب النقود، وكرر طلباته من دون توقف بوقاحة، ونظراً لذلك، حصل على وعد بأنه سوف يتسلم المرابح الناتجة عن ضرب النقود، والتي سوف تستمر —تبعاً لمبدلي النقود— لمدة سبعة أعوام، وسوف تصل الأرباح نفسها إلى عشرين ألف باوند، وحصة الثلث من هذا الإجراء سوف تحفظ للملك، وبذلك تحرر من ديونه إلى الايرل، وبعدما حصل الايرل على هذا، حصل أيضاً على رسائل توصية من الملك، بمنع تداول جميع النقود التي تعرضت للقص في انكلترا، وفي الحقيقة يتوجب ثقب جميع النقود المقصوصة، وإذا ما جرى اكتشاف أي مبدل للنقود في أي مكان، وقد أعطى بنسين مقابل بنس واحد، أو ثلاثة مقابل بنسين، ينبغي اعتقاله، ومعاقبته بحدة، وأن تطال المعاقبة ممتلكاته وشخصه، على أساس أنه آثم ضد الملك، وخارق للأوامر الملكية، ومن المذكرة التي أرسلت إلى عمد المناطق، يمكن أن نجد تفاصيل وافية حول ذلك، وكلها قد جرى تقديمها في كتاب Additaments.

خسوف للقمر

في عيد حزيران لهذا العام، بعد غياب الشمس مباشرة، تعرض القمر لخسوف كامل تقريباً.

حول إجراءات البارلمان الكبير الذي عقد في لندن

في شهر حزيران، ومع اقتراب الأربعة عشر يوماً لعيد القديس يوحنا المعمدان، اجتمع جميع النبلاء الانكليز في لندن، معتقدين بثبات، أنه من خلال الوعود الايجابية للملك، هو سوف يصلح أغلاطه، وأنه بفضل النعمة التي أضفيت عليه من عليين، سوف يميل بأذنيه إلى الاصغاء إلى الآراء الأكثر حكمة، وبناء عليه، بعد اجتماع جميع مقدمي الناس في انكلترا، سمعوا الرد التالي المليء بالنكران يتدفق من فم الملك، على شكاويهم المتقدمة: «أنتم جميعاً زعماء الناس، في انكلترا، تسعون لجعل

مـولاكم وملككم ينحني أمـام ارادتكم، وأن يكون ذلك أولاً مع شيء من الدمـاثة، ومن بعد ذلك تفـرضون شروط استعبـاد كاملة، وكل مـا سيختاره أي واحد، سـوف يستنكره عليه بوقاحة، وكـل واحد مسموح له أن يتبنى خططـه والخطط التي سـوف يختـارها، ومجدداً إن كل أب لأسرة مسموح له بـأن يعين أي واحد مهما كان لتلك الـوظيفة أو هذه، في بيتــه، أو ليــوقفهـم ويعلقهم أو حتى يخلعهم، غير أن هـذه الحرية —يمكن التنبؤ— أنكم بطيش سوف تقدمون على انكارها على ملككم، ولاسيما أنه لايجوز للعبيـد أن يقضـوا، وأن يلزمـوا سيـدهم بشروطهم، مثلما لايجوز للأتبـاع أن يفعلوا بأميرهم، بل المتوجب أن الذين يعـدون هم الأدنى، ينبغي بالحري أن يحكموا وأن يداروا بمـوجب إرادة ورغبة مـولاهم، لأن العبد ليس فـوق سيده، مثلما ليس التلميـذ فوق معلمـه، وبناء عليـه، إن ملككم سـوف لن يبقى ملكاً، بل سـوف يكون بطبيعـة الحال، عبداً إذا مـا مال هكذا للاصغاء لإرادتكـم، ولذلك هو لن يعزل لاالمستشــار، ولا المسـؤول عن العـدالة، ولا الخازن، كما تقترحـون، وترتبون، وأيضاً لن يعين آخرين محلهم وعوضاً عنهم».

وبالطريقة نفسها، جرى تقديم رد اعتراضي تافه حول المسائل المفيدة إلى الملك نفســه: «غير أنه طلب معونة مـالية منكم لاسترداد حقـوقه في القــارة، التـي هي تتعلق بكم»، و لـدى سماع النبــلاء لهذه الكلمات، اعتقدوا بشكل واضح وضوح الضـوء، بأن هذا مصدره هو المستشارين الحاليين، الذين كانت سلطتهم سوف تضعف، لابل سوف تخمد، لو أنه تمّ الإصغـاء إلى نصيحة جماعة البـارونات، وعلى كل حال، عنـدما رأوا كيف أجيبـوا، وأنهم قـد عورضـوا بمهـارة وبدهاء، تأثروا جميعـاً بروح واحـدة، وأجـابوا بشكل واضح، أنهم سـوف لن يفقـروا أنفسهم ثانيـة ولابحـال من الأحـوال من دون فـائـدة، وأن يقـوم الأجـانب بالولوغ بكرامتهم فــوق ممتلكاتهم، وأن يتقـوى أعــداء الملك وكـذلـك أعـداء

المملكة، كما حدث مؤخراً في القضية في بواتو، وكذلك في غسكوني، حيث تعجل بطيش ومن دون عقل، على عكس نصيحتهم ورغبتهم، وذلك عندما تمت مواجهته بشكل عدواني، ونحن بصدق نعتقد، أنه بناء على ما ظهر من جشع الملك، ومن حالة عوزه، أنه كان معتقلاً بشكل سري وأسيراً، لكن عندما قام بهدوء بدفع غرامة، وتولى التعهد صادقاً، وحلف يمينه، ومنح صكوكه، من الواضح أنه قد أطلق آنذاك سراحه وبات متحرراً، ثم كان أن تم التخلي عنه بعدما حرم من شرفه وكرامته وماله وأراضيه، و سمح له بالمغادرة بشكل مهين، وسط جميع أنواع الإهانات.

ولذلك ارفض المؤتمر بغضب، وجميعهم هكذا خدعوا بآمالهم، التي تصوروها لوقت طويل وتمنوها من هذا البارلمان، وجاءت متاعبهم ونفقاتهم بالنهاية إلى لاغاية، وربحوا لاشيء سوى إجابات ساخرة وعابثة على شكاويهم.

كيف باع ملك إنكلترا ثروته المخزونة

عندما شاهد الملك هذه النتيجة رداً على إجراءاته، انفجر بغضب عنيف وقال لمستشاريه: «إنه بسببكم نأت عني عواطف نبلائي، وهاأنذا الآن على وشك فقدان غسكوني، ولقد انتزعت مني بواتو، وأنا مجرد من المال، ماالذي عليّ فعله»؟، وبعدما عقد مؤتمراً جباناً، تقرر بناء عليه، من دون أية حكمة، وجوب بيعه ثروته بالوزن، دونما مبالاة بالذهب، والفضة، والأعمال الفنية، مع أن الأعمال فاقت على المادة بالقيمة، وذلك في سبيل الحصول على المال بهذه الطريقة وبهذه الوسائل، وعلاوة على ذلك أضاف المستشارون، الكلام الاستشاري التالي، وذلك في سبيل تهدئة الملك ومواساته: «وكما أن جميع الأنهار تصب عائدة في البحر، هكذا إن كل شيء قد بيع الآن، سوف يعود في وقت ما إليك على شكل هدايا تعويضية، لذلك ينبغي أن لاينزعج مولانا الملك»، وبعدما جرى

بيع الثروة التي تقدم ذكرها أعلاه، سأل الملك أين بيعت ولمن، وكان الجواب الذي أعطي إليه: «في لندن»، فقال: «أنا أعرف، أنه لو عرضت ثروة أوكتافيان Octavian للبيع، فإن مدينة لندن سوف تشتريها، وتبتلعها كلها، لأن هؤلاء الأخساء اللندنيين، الذين يسمون أنفسهم بارونات، يمتلكون وفرة وافرة حتى التخمة، فتلك المدينة بئر لاينضب»، ثم قام على الفور بابداع خطة، سوف يطبقها مع أول فرصة تقوم، بأن يقوم بتجريد اللندنيين من ممتلكاتهم، وهي خطة جاءت الحوادث التالية برهاناً وافياً على تطبيقه لها، والرواية المقبلة سوف تروي ماحدث بالتفصيل الكامل.

كيف انطلق الملك الفرنسي في حملته إلى القدس

عندما برهنت تحولات الأنواء أنها موائمة، والمناخ قد بات طيباً، وقدم الخريف كميات وافرة من الحبوب والخمرة، قام الملك الفرنسي بالحصول على إجازة خاصة في كنيسة القديس دينس وفي أماكن أخرى مقدسة في مملكته، وبعدما عمل تعهداً نذرياً، انطلق برحلته إلى القدس، وعبر من خلال ليون، حيث كان البابا مقيماً، فقدم إليه احتراماته بتواضع واخلاص، ورجاه بشكل جاد، أن يقوم ببذل جهوده في سبيل المحافظة على كرامة الكنيسة في جميع القضايا، وذلك بأن يتنازل بقبول تواضع فردريك، الذي طالب بمسامحته، وأن يمنحه إحسان المصالحة، وأن يفتح له صدر العاطفة الأبوية نادماً، وقال: «إن ذلك يجعل على الأقل عبوري أكثر أماناً وأنا مسافر إلى حجي»، وعندما شاهد البابا وقد بدت عليه ملامح الرفض، غادر آسفاً قائلاً: «أنا أخشى أنني بعد أن أسافر، سوف يجري التخطيط لمؤامرة عدوانية ضد المملكة الفرنسية، بسبب حدتك التي لاتعرف الهوادة، ولسوف تتحمل المسؤولية، إذا ما تعطلت مسيرة الأحداث في الأرض المقدسة، وإنني على كل حال سوف أحرس فرنسا مثل حراستي لبؤبؤ عيني، لأنه على أوضاع تلك المملكة

يتوقف ازدهارك، وكـذلك ازدهار المسيحية كلهـا»، وعلى هذا رد البابا: «إنني طوال ما أنا حيّ، سوف أقف إلى جانب فرنسا، وضد هذا المنشق فـردريك، الذي أدانتـه الكنيسـة، وخلعتـه من المنصب الامبراطوري بوسـاطة المجمع العام، وفي الحقيقـة إنني سوف أفعل الشيء نفسـه ضد ملك انكلترا، الذي هو من أتبـاعنا، إذا مـا أقـدم على التحرك العـدواني ضد مملكة فرنسا، أو ضد الحقوق العـائدة لها، وهذا ماسوف أفعله ضد جميع أعـداء المملكة المذكـورة»، وهدأ الملك بعض الشيء بهذه الكلمات، ثم أجابه: «بما أنك عملت هذه التعهـدات، إنني أعهد بمقاليـد حكومة مملكتي الفرنسية إليك»، وبناء عليه جرى ترتيب وجوب إرسال مبعوث خـاص إلى ملك انكلترا ليمنعـه من مهـاجمة أي واحـد من المتعلقين بالمملكة الفـرنسيـة، أو مضـايقتهم بأي شكـل من الأشكال، ومن أجل تحقيق هذه الغاية جرى إرسـال المعلمين ألبيرت وبولص بشكل خاص، وقـد وصلا إلى الملك في ويندسـور، يوم عيـد تمجيد الصليب المقـدس، ليقدما رسـالتها إليه، لكن هذه الواقعة أبقيت سرية، حتى يتمكن الملك بسهولة من استخـراج المال، في سبيل المطالبة بحقوقـه واستردادها بقوة السـلاح، ثم قـام الملك لـويس بعمل اعتراف طويل ودقيق إلى البـابا، وحصل منه على غفـران لذنوبه، واستأذن قداستـه، وغادر مع مبـاركته، وسافر من ليـون، متوجهاً مع جيشه نحو مرسيليـا، وعندما أخذ يقترب من مـدينـة أفينون Avignon لم يختر سكان تلك المدينـة تحمل اهانات الفـرنسيين المتعجـرفين، الذي أطلقـوا عليهم اسم: الألبينيين، والخونة، والمسممين، فقـامـوا بالهجوم عليهم في الممـرات الضيقـة، التي كـانت معـروفـة بشكل جيـد من قبلهم، وقـد أثير غضبهم الشـديد، وكراهيتهم الكبيرة، بوساطة عـداوتهم المستمرة منذ وقت طويل، فنهبوا بعض الجيش الفرنسي، وقتلوا الـذين تصدوا لهم، وبناء على ذلك اقترح بعض النبلاء الفـرنسيين على الملك وجوب أن يقوم بإلقـاء الحصار على مـدينتهم، على الأقل لسبب واحـد، هو أن ينتقم منهم انتقـامـاً فـاعـلاً

وعادلاً، لقتلهم أبيه، الذي جرى دس السم له هناك، أو أنه إذا ما أراد متابعة رحلته، أن يسمح لهم بفعل ذلك تحت موافقته، وتمكن الملك بصعوبة من تهدئة غضبهم، وقال لهم: «إنني مغادر لفرنسا ليس للانتقام لمصائبي، أو لمصائب أبي، أو أمي، بل لأنتقم لمصائب ربي يسوع المسيح»، ثم استأنف ذلك الملك المسيحي العظيم الإيمان، رحلته على الفور، وعانى من خسائر أكبر على أيدي المرسيليين، إلى حد أن النبلاء أثير غضبهم كثيراً، ولولا أنهم ضبطوا بجدية الملك واعتداله المقدس، لقاموا وهم غاضبين بمحاصرة مرسيليا بشكل فعال، فقد قال لهم الملك: «إن الوقت لعبورنا بات وشيكاً، والرب يمنع من سيطرة الشيطان، لأنه حزين لهذا السبب، وهو يسعى لوضع بعض العراقيل لمنع العبور»، وبعدما تمكن بصعوبة من تهدئة مشاعرهم المضطربة، قام في اليوم التالي لعيد القديس بارثلميو، فأخذ معه بعض العساكر النخبة، وترك وراءه أكثر من ألف من رماة القسي الزيارة، وعدداً كبيراً من الفرسان، والأتباع، وعادوا وهم يشعرون بغضب عظيم وبخجل مهين، وبصعوبة ضبطوا أنفسهم، وتمنعوا عن الالتحاق بملك انكلترا، وعن الاقدام متطوعين على إثارة حرب ضد ملك فرنسا، ولكن لدى وزنهم المخاطر المستقبلية بميزان العقل والحكمة، عادوا بسلام إلى البابا، وعرضوا الدخول بخدمته، وأن يقاتلوا من أجله، بناء على أوامره، ضد أي واحد مهما كان، وقد تمّ اقناعهم بحجج البابا، وبحجج رجال بلاطه، الذين عرفوا أن لديهم كميات وافرة من المال، فقاموا بخلع شارات الصليب، وتخلوا عن امدادات سفرهم إلى البابا، ليحصلوا على اعفاء من القيام بحجهم، وبجيوبهم فارغة، حتى يتمكنوا من العودة والسفر بخفة أكبر، عادوا إلى مواطنهم، مع حصة صغيرة جداً من ممتلكاتهم، فالذي بقي لهم قد اقتصر على مايكفيهم ويمكنهم من الانفاق على أنفسهم أثناء سفرهم، وكان الملك الفرنسي قد سافر في البحر في ذلك الوقت ذاته، وبأشرعة منشورة وجّه طريقه مع ريح طيبة

نحـو قبرص، التي كـانت مليئة بكل الأشيـاء الطيبـة للعيش برفـاهيـة، وذلك في سبيل امضاء الشتاء هناك بسلام، ولاسترداد أنفاسه.

وفي صيف هذا العام، وصلت الأخبار، بـأن مدينة اشبيلية، التي هي مـدينة فخمة في اسبـانيا، قـد تمّ الاستيلاء عليهـا من قبل الملك المنتصر لقشتالة، وكانت هذه المدينة تساوي بالنسبـة لصاحبها تسعة آلاف طالن Talents في كل يوم مـن أيام الأسبـوع، وفي اليـوم السـادس، أحدعشر ألفاً.

الاستيلاء على اكس لى شابيل وتتويج وليم كونت هولاندا ملكاً على روما

في الوقت الذي كـانت فيه قسـوة الشتاء معلقـة فوق العـالم المتجمد، كان المحـاصرون من سكان مدينة اكس لى شـابيل يعانون بحـدة بالغة، لأنهم حرمـوا من جميع سبل الدخول والخروج، ومن جميـع أنواع العون والمشورة، ومن جميع امدادات الطعام، حيث لم يعد لديهم طحين، وصار خبـزهم قـاسيـاً، ولحمهم نتن، وقـد تكسرت أسلحتهـم، وتآكلت من الصـدأ، وكـانت ثيـابهم قــد اهترأت، وتغيرت طبيعـة النسـاء، وطلب الأطفال الخبز، ولم يكن هناك خبـز لتقطيعه واعطائهم إياه، وكان الذين تولوا أعمال الحصـار، مؤلفين من نبـلاء ألمانيـا، مع النائب البـابوي، ورئيس أسـاقفة كـولون، وأسقف لييج، فقد جلب هؤلاء معهم حشـداً كبيراً جـداً، وتابعوا تنفيـذ هدفهم بكل نشاط وفعـالية، بينما قـام الذين حملوا الصليب، بناء على تبشير الـرهبـان الدومينيكان، بـالتـدفق يوميـاً عليهم من مختلـف المناطق في العـالم، وبناء عليـه غطى رجـال جيش الأسـاقفـة المنطقـة كلهـا مثل الجراد، ولذلك قـامـوا ليـلاً ونهاراً بشكل متـواصل، وعلى نـوب، بقصف الأسـوار وحصـون المدينة، بـالمجـانيق والعـرادات والآلات الأخـرى، التي نصبت على كل جـانب منهـا،

وسحقت الناس الذين كانوا معرضين وبلا دفاعات، وقد طعنوهم بنشابهم، وضايقوهم بكل الوسائل التي توفرت لهم، وهكذا فإن المدينة —بناء عليه— أرغمت بوساطة الحاجة على الاستسلام إلى الأعداء، الذين تعاملوا معها، حسبما رغبوا، وهكذا جرى الاستيلاء على المدينة عنوة، وبعد ذلك تم تتويج الكونت وليم كونت هولاندا، الملك المنتخب لألمانيا، بشكل مهيب هناك، في يوم عيد جميع القديسين، وكان التتويج على يدي كونراد، رئيس أساقفة كولون، وفقاً للعادة القديمة لملوك ألمانيا، وفي الوقت نفسه، هرب كثير من السكان المحليين، وكذلك المرتزقة الذين وضعهم فردريك هناك لحمايتها، هربوا من المدينة المستولى عليها، التي تحولت إلى الدمار والفقر، وكانوا هم أنفسهم منهكين، فقدوا توازنهم من العوز، وعدّ هذا التتويج —على كل حال— غير شرعي، بسبب أن جميع المنتخبين لم يكونوا حاضرين هناك، ولا حتى وافقوا على ذلك، وكان من بين هؤلاء دوق سكسوني، الذي دخل بتحالف مع فردريك، على أساس ابنة الدوق، التي كان سيتزوج منها، إذا ما تمكن من تأمين مصالحة مع الكنيسة، كما لم يوافق دوق بافاريا على التتويج، وهو الذي كانت ابنته قد تزوجت من كونراد بن فردريك، كما رفض كثيرون اعطاء موافقتهم.

كيف هرب كونراد بن فردريك إلى أبيه

عندما تمكن رؤساء الأساقفة، والأساقفة والقساوسة، والنبلاء الآخرون، هكذا من تنفيذ غايتهم، كان كونراد بن فردريك مسرعاً لانقاذ المدينة، فجرى اعتراضه لدى اقترابه، من قبل الجيش الألماني الآخر، الذي حشده النائب البابوي، وكان جيشاً قوياً، وقد اعترضه وهاجمه بحد السيف، وكان هذا الجيش، تحت قيادة رؤساء أساقفة: مينس Mayence, وميتز Metz,واللورين Lorrain, وستراسبورغ Strasburg, وتألف من عدد لايحصى من

الوحدات من مقـاطعاتهم ومن فريزلاند، وغوثلاند، وروسيـا، وداشيا، ومن مقـاطعات ألمانيـا، ومن أهل الحدود الذين حملوا الصليب، والذين تأثروا جميعـاً بروح واحـدة، وكانـوا كأنهم رجل واحد، وقـاتلوا بجـرأة كـونراد المذكور، وانتصروا عليـه، وأرغمـوه على الفرار مع جيشـه كله، وعند ذلك تراجع الابن مضطرباً، وهـرب بكل سرعة، ولم يوفـر جنبي فرسه حتى وصل إلى أبيه، من دون مواساة من الروح القدس.

كيف غزيت مطردة كنيسة القديس ألبان
لكن أخيراً جرى تحريرها

عـانت كنيسة القـديس ألبـان في هذا العام من كثير من الاضطهـاد، والخسارة، والضرر على أيدي فـرسان، اعتقدت بثقة أنهم كانـوا أصدقاء مخلصين، لأنه مع أن الصيد كـان ممنوعاً قضائيـاً بالنسبة لبعضهم بشكل خـــاص، تحت طائلة عقـــوبة عشرة باونـدات، بدا لآخـريـن، لم يتم تسميتهم، أنه كان مسموحاً لهم بإجازة كاملة القيام بصيد أرانب برية في المطردة المذكـورة، لأنهم قـالوا بأن مـا كان مقـرراً لمنفعـة الآخـرين، أو محبـوسـاً لصـالحهم، ينبغـي عـدم ردّه إلى ضررهم، ونتيجـة لهذا جـرى اختيار عشرين فارساً بنطاق، بناء على موافقة جميع الفرقاء، لإعطاء قرار صحيح حول هـذه القضية، ولوضع نهاية لهذا الخلاف، وكـان خمسة من هؤلاء —على كل حال— رجال حمقـى، جاهلين بالحقيقة، ومترددين في عقولهم، وبعـدما أقسمـوا، قالوا بأنهم لايعرفـون الحقيقة حـول القضية بشكل مـؤكد، وقـالوا —على كل حـال— بأن خصـوم راعي الدير لهم الحق في الذي ادعـوه وطالبـوا به، مـالم يكن راعي الدير قـد حصل على صك آخـر حول القضيـة، الأمر الذي لم يكونوا يعـرفون بعـد أي شيء حـوله، بشكل مطلق، وعندمـا أخبروا بالصـك الذي لدى راعي الدير، وكـان قد حصل عليـه من الملك الحالي، وذلك بالاضافـة إلى الصكوك القديمـة، اضطرب خصومه وصمتوا، ولولا قيـام هنري باث، المسؤول

عن العدالة، بحمايتهم عطفاً منه، لتمت ادانتهم ولصدر قرار بحرمانهم من مواريثهم، لكن المسؤول عن العدالة، تولى —بموافقة راعي الدير— إلغاء هذا القرار، ولقد كان هذا آخر أثر لاضطهاد قديم، كانت الكنيسة المذكورة قد عانت منه في عام ١٢٤٠، حيث جرى تقديم رواية كاملة حولهم في أحداث ذلك العام، إلى الذين يودون قراءتهم.

تأسيس سوق جديد في ويستمنستر

في الثالث عشر من تشرين الأول لهذا العام، وخلال الأربعة عشر يوماً لعيد القديس ميكائيل، توجه الملك إلى لندن، للاحتفال بعيد القديس ادوارد، أي بعيد نقل ذلك القديس، وأرسل رسالة إلى عدد كبير من الأساقفة والنبلاء، رجاهم صدوراً عن صداقتهم واخلاصهم له، بأن يكونوا حاضرين في ويستمنستر، وأن يلتحقوا به ويشاركوه بمهابة وتقوى بالاحتفال بعيد القديس ادوارد، وبناء على دعوته قدم إلى هناك: الايرل رتشارد، وروجر بيغود، والايرل مارشال، وايرل هيرفورد، وبعض النخبة من البارونات، وبعض الفرسان، وأساقفة: وينكستر، ولندن، وإيلاي، ووركستر، وكارآيل، وعدد كبير من رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، ثم أعلن الملك، أنه من دواعي سروره، وأنه أمر بأن يعلن بوساطة المنادي في جميع أرجاء مدينة لندن كلها، وفي كل مكان آخر، بأنه قد أسس سوقاً جديداً، ليعقد في ويستمنستر، وأن يستمر لمدة أربع عشرة ليلة كاملة، كما أنه أمر بكل دقة، وتحت طائلة غرامة ثقيلة وخسارة، أن تستمر جميع الأسواق التي تعقد في انكلترا لمثل هذه المدة من الزمن، من ذلك على سبيل المثال سوق ايلاي والأماكن الأخرى، كما أنه أمر بجميع السلع التي كانت بالعادة تحمل في لندن، بأن تحمل إلى داخل وخارج أبواب السوق، وذلك في سبيل أن يكون ممكناً بهذه الوسائط، الحضور في سوق ويستمنستر بشكل أكبر من قبل الناس، وأن يكون السوق أفضل تزويداً بالتجارات، ونتيجة لهذا تدفقت

أعـداد كبيرة من الناس إلى هناك من جميع الجهـات، مثلما كـان يجري في الأسواق الكبرى المشهـورة، وقد جرى الاحتفـال بنقل القديس ادوارد، وتعبد الناس الذين اجتمعـوا هناك دم المسيح بدرجة غير متـوقعة، لكن جميع التجـار، الذين عـرضـوا بضائعهم هنـاك للبيع، كانوا عـرضـة إلى ارباكـات كبيرة، لأنهم لم يمتلكوا غطاء بـاستثناء خيم من قماش القنب، وبسبب تبدل هبـات الرياح التي كانت تهاجمهم، كما هـي العادة في ذلك الوقت من السنة، كانت هذه الخيم باردة ومبللة، كما أن التجار قد عانوا من الجوع والعطش، وكـانت أقـدامهم ملوثـة بالوحل، وقـد تعفنت بضائعهم بـزخات المطر، وعندما كـانوا يجلسون لتناول طعـامهم هناك، كان الذين معتادين على الجلوس لتناول طعامهم مع أسرتهم، إلى جانب النار، لم يعـرفوا أبداً كيف يتحملون حـالة العوز وعـدم الراحة، وكـان أسقف ايلاي قد خسر سوقـه في ايلاي، نتيجة تأجيله بموجب ترخيص ملكي، لذلك تقـدم بشكوى ثقيلة إليـه حـول هذه المسألة، ولأنه أدخل كثيراً من التجـديدات، ولكنه حصل على لاشيء سـوى كلمات وعـود تلطيف حول تعويضات مستقبلية.

حول فيضان للبحر غير اعتيادي

في الرابع والعشرين من تشرين الثاني لهذا العام، فاض البحر، وتجاوز حدوده وتخطاها إلى مسـافة عظيمة، وسبب أضراراً لايمكن تعـويضها، إلى الذين كانوا سـاكنين على مقربة من الساحل، لأنه عندما كـان القمر، وفقاً لتعداد التقويم، في ربعه الأخير، فاض تيار المد بمياه كثيرة من دون رؤية تيار جـزر أو تناقص، ومن المعتقد أن هذا قد حدث نتيجـة هبوب رياح قوية من البحر، ولكن كان قد حدث كثيراً من قبل أن الريح هبت قـوية من البحر، ومع ذلك فإن البحـر نفسـه لم يرتفع بالدرجة نفسهـا، فقـد اعترت الدهشـة حتى الأشخـاص المسنين، لحدوث هذه الـواقعـة الجديدة وغير المعتادة.

حول هزة أرضية مرعبة في سافوي

وقعت في هذا العام هزة أرضية مخيفة في سافوي، في وديان موري Maurienne, فيها تم هدم خمس قرى مع حظائر أبقارهم وأغنامهم وطواحينهم، وانتزعت الجبال والصخور في المناطق المجاورة من أماكنها التي وقفت عليها منذ الخليقة، وابتلعت واختفت في بعض كهوفها، وليس معروفاً فيما إذا كان هذا الدمار للجبال قد وقع، وفجرت الهزة الأرضية وأخرجت غضبها على القرى المذكورة بوساطة معجزة، أو أن ذلك جاء طبيعياً، ولكن بحكم أنها دمرت حوالي التسعة آلاف إنسان، وما لايحصى عدده من الحيوانات، يبدو أنها تسببت بمعجزة وليس خلال المجرى العام للحوادث، ويقال بأن حدة العقوبة اللاهوتية، قد أعطت متنفساً لغضبها بشكل عادل، وأنزلته على سكان تلك المناطق، بهذا الشكل المهين، ودونما تمييز لممارستهم تجارة الربا المعيبة، وكانوا موصومين كثيراً بالجشع، إلى حد أنهم قاموا في سبيل تغطية شرورهم بمظهر من الفضيلة، فلم يترددوا في تسمية أنفسهم تجّار المال، وكانوا لايخافون من السيمونية، وكانوا يتورطون وينغمسون من دون خوف أو رحمة في السلب والنهب، ولم يترددوا في قطع رقاب أو تسميم التجّار أو العلماء الذين أرغموا على الذهاب إلى البلاط الروماني، وعبروا بطريقهم بهم، أو أقاموا معهم أثناء سفرهم، ولم يكونوا يدرون أن الانتقام الرباني كلما كان أكثر بطئاً، كلما كان أكثر حدة في ممارسة الغضب، ويشهد على هذا غريغوري المبارك الذي قال: «يسير الغضب الرباني الصارم نحو تنفيذ العقوبة بخطوات بطيئة، لكنه يعوض فيما بعد بطئه بقسوته».

كيف جرى طعن رئيس رهبان ثيتفورد من قبل واحد من رهبانه

في سبيل أن يجري تنفيذ ما كتب في الانجيل، بات من الضروري، أو أن نقول أمراً لابد من حدوثه هو «أن الفضيحة التي تسبب الويل

للدنيـا، لابد من أن تصـدر عن فضيحـة»، فقـد حدث في شهـر كـانون الأول من هذا العـــام، أن قــام رئيس رهبــان ثيتفـــورد Thetford, وكان أصله من سـافوي، ومن رهبان دير كلوني، كما كـان قد أعلن عن نفسه، أن له علاقة أو قرابة بالملكة، ولذلك تكبر وتجبر لهذا السبب، قام بتــوجيـه الدعـــوة إلى أخــويه بـرنارد، وكـان فــارسـاً، وغـــويسكارد Guiscard, وكان كاهناً متوحشاً، للقدوم إلى بيته في ثيتفورد، وقد بقي هنا، تبعـاً للعـادة الليل كله، حتـى صراخ الديك، منشغـلاً بالأكل معهما، والشرب بدون اعتدال، ناسياً تعهداتـه: فهو نادراً ما أزعج نفسه ليكون حاضراً أثناء القـداس، حتى القداسات الصغيرة، ونادراً مـا ظهر في الساعات القانونيـة، ولكن في الصباح، كان يتقيأ الذي التهمه وشربه في الليل، لأنه كـــان يصحـو متخماً بالطعـام إلى أبعـــد الحدود، وإذا مـا وصلت صرخات الفقير الجائع إلى أذنيه، كان يعير ذلك اهتماماً قليلاً في صـدره، وكـان كلما غـادر برنارد، الذي كـان واحـداً من أخـويه، كـان غويسكارد، الأخ الآخر، الذي كان كرشه مثل كيس في المناخ الجليدي، والذي كان جسده يشكل حمولة عربـة، كان يقيم معه مدة أطول، حيث كـان يبتلع جميع طعـام الرهبان في متـاهة بطنه، وفيما بعـد عندمـا يكون متخماً تمامــاً، يزدريهم ويحملهم الاهانـات، وعندمـــا كـان راعـي الدير المذكـور يعـامل رهبـانه على هذه الصـورة، وهـم الذين تحملوا متـاعب النهـار وحـرارته، وذلك وفق طريقـة غير لائقة به، وكـان يبـدد بشكل مهين موارد هذه الكنيسـة الصغيرة العائدة إليـه، متجاوزاً —كما قلنا— جميع حـدود الاعتدال في نهمـه، نشب آنذاك صراع بينه وبين واحـد من رهبـانه، وكـان ويلزي الأصل، وكان هـذا الراهب قد استـدعـاه رئيس الرهبــان، منـذ وقت قصير، من كلوني، غير أنـه أخـــذ يسعى الآن إلى إعـادته إلى هناك، على الرغم من ارادتـه، وليس من باب الإحسـان، بل صـــدوراً عن الكـراهيـــة، وذلك على الرغم من أن الـراهب المذكـــور، عـارض الإجـراء، واعتـذر عن نفسـه على أسس منطقيـة، ولكن أعلن

رئيس الرهبان مقسماً بصوت مرتفع وبشكل مخيف، بأن على الراهب المذكور الذهاب إلى الحج مع جعبة ومحفظة، والتهب هذا الراهب الشيطاني بغضب عنيف، أو بالحري أصيب بالجنون، فسحب سكيناً، وغرسها في أمعاء رئيس الرهبان، من دون أي تردد في تنفيذ مثل هذه الجريمة في داخل الكنيسة وحاول راعي الدير المجروح مع حشرجة الموت في حلقومه، أن يدعو الرهبان إلى مساعدته بصراخه، أو على الأقل بايقاظهم، لكنه كان غير قادر على فعل ذلك، نتيجة لتوقف شرايينه، وبناء عليه انقض الراهب المذكور عليه ثانية، وسدّد إليه ضربات ثقيلة أربع مرات أو ثلاث مرات متوالية، ودفن السكين حتى مقبضها في الجسد الهامد، وهكذا قام هذا الشقي، في سبيل زيادة ضرر الطائفة الرهبانية ضرراً كبيراً، وإلحاق العار بها فأرسل رئيس الرهبان التعيس إلى جهنم، في ظل الغضب لرب اقترفت بحقه الآثام، وقد رويت خبر هذه الواقعة بشكل كامل، حتى يحذر الذين سوف يقرأونها، من اقتراف مثل هذه الجريمة، حتى لايقذفوا بغضب من الرب إلى دمار مماثل، وجرى اعتقال منفذ هذه الجريمة من قبل الأشخاص الذين وصلوا إلى المكان، ولأنه كان جيد الحفاظ على نفسه، أودع في السجن، وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة إلى علم الملك، انزعج كثيراً، بوساطة الشكاوى المستمرة للملكة، فأمر بالقاتل، فغلّ بالسلاسل، وبعدما حرم من عينيه، ألقي به في أعمق زنزانة في قلعة نورويك، وجاء ذلك دون أن يعبأ بالمبادىء التي قاتل في سبيلها القديس توماس الشهيد، في دفاعه عن واحد من الكهنة كان اقترف جريمة قتل، حتى أنه سفك دمه وبعثر دماغه، فقال بأن رجل الدين، خاصة الكاهن لايمكن أن يدان أمام لجنة حكم مدنية، أو أن يشنق بعدما تنتزع طوائفه منه، وهذا مبدأ في سبيله عانى واستشهد، أي أن الرب لايعاقب مرتين من أجل الذنب نفسه، فهو قد وضع حداً لعقوبة الشرير، وقدم جائزة أكبر بكثير مما استحقه الانسان، وأن خطيئة واحدة كافية ومعقولة

للتكفير عنها بعقوبة واحدة، وأتى على ذكر هذه الوقائع واحد من أعداء الرهبان بمثابة وصمة بحق الرهبان، وقام أحد الأشخاص، وكان صديقاً لهم ومحباً ومدافعاً خاصاً عن الدين، فقال مجيباً: «بين الملائكة أوجد الرب متمرداً، وبين الشمامسة السبعة ضالاً عن الطريق القويم، وبين الرسل خائن، والرب يمنع استخدام ذنب واحد، أو قلة للنيل والتشهير بمثل هذه الجماعة الكبيرة التعداد، وجرى التبشير بهذا الاعتدال من قبل واحد من الشعراء الكفار، الذي قال:

ينبغي أن لاتؤدي جريمة بعضهم إلى الإضرار بالجميع

حول خصام وقتال بين رهبان سيلبي وجون فرانسيس

ونشب في العام نفسه خصام بين رهبان سيلبي Selby وجون فرانسيس Francis وهو محاسب لدى الملك حول جميع التبن والقمح، وجرى قتل واحد من الرهبان، وجرح عدد آخر وتعرضهم للضرب، ومن أجل أن لاتمر هذه الفضيحة لوحدها، حدث في العام نفسه في رئاسة الرهبانية في كانتربري أن تعرض واحد من الرهبان إلى جراحة قاتلة على يد آخر.

الوفاة التعيسة لرئيس رهبان بينيثلي

وفي الشهر غير السعيد نفسه، حدث أن كان رئيس رهبان كنيسة صغيرة قرب دير القديس ألبان، يتفقد كومة من القمح، مما ندعوه بشكل عام الحاصل، ويقدّر قيمته، وكانت أوعية هذا الحاصل غير مكدسة فوق بعضها بشكل صحيح، ولذلك اهتزت وتمايلت ووقعت عليه، ولفظ رئيس الرهبان هذا، الذي كان رجلاً بسيط التفكير وصغير الحجم أنفاسه ومات مخنوقاً، قبل أن يمكن رفع الأثقال التي تكدست عليه، ونجا الآخرون الذين كانوا إلى جانبه من خدم ورفاق رئيس الرهبان، لأن كميات صغيرة وقعت عليهم، ولكنها لم تقهرهم.

عقوبة حادة لزاني

أنا أعتقد أن الواقعة التالية، ينبغي عدم تجاوزها، مع أنها قد تبدو مضحكة، ففي هذا الشهر غير السعيد نفسه، ولكي لايقال بأن الفضيحة قد قامت ضد رجال الدين وحدهم فقد نزلت الاهانة والاهانة التي لاتعوض على واحد من طائفة الفروسية، فقد كان هناك فارس من نورفولك Norfolk اسمه غودفري دي ميللر Millers, وكان من أصل نبيل، كما كان متميزاً في أعمال الفروسية، لكنه ضلل بشكل مهين ومخجل، حيث دخل بشكل سري مساكن جون البريتاني الذي كان فارساً، من أجل الاضطجاع مع ابنته، لكنه اعتقل من قبل بعض الأشخاص المتخفين، بالتوافق مع العاهرة نفسها، التي كانت خائفة من أن يعتقد أنها عشيقة رجل متزوج، وقد رموه بعنف إلى الأرض، وأوسعوه ضرباً بشدة وجرحوه، وبعد هذا جرى تعليقه إلى جذع شجرة، مع ساقيه وقد مددا وأبعدا عن بعضهما، وبعدما أصبح تحت تصرف أعدائه، مثلوا به وشوهوه بشكل مخجل إلى درجة كان يفضل فيها أن يقطع بها رأسه، و هكذا بعدما جرح وشوّه، ألقي به خارج البيت نصف ميت، ووصلت شكوى حول هذا الإجراء إلى الملك، وألقي القبض على الذين اقترفوا هذا العمل الوحشي الكبير، وعلى جون البريتاني، حيث وجد مداناً في هذه الجريمة، وقد جرد من ممتلكاته وميراثه، وطرد بصورة أبدية، ولم يمكن العثور على العاهرة، ذلك أنها أخفت نفسها في أماكن سرية لايمكن الوصول إليها، وهكذا نجت مع شيء من المصاعب، من المؤامرت التي حيكت ضد حياتها، وجميع الذين كانوا حضوراً أثناء اقتراف هذه الفعلة الوحشية الكبيرة، جرى إخراجهم إلى المنفى مطاردين بلا مأوى، وهكذا فإن هذه الجريمة اللاانسانية والخالية من الرحمة، قد تورط بها عدد كبير من النبلاء بشكل مأساوي محزن، وحدث في حوالي الوقت نفسه أيضاً، أن كاهناً

وسيماً، أو بالحري قسيساً لكنيسة غنية، قد تفوق على جميع الفرسان الذين عاشوا من حوله في تقديم الضيافات المتوالية، وأعمال الكرم، فهذا أيضاً قد تورط في مأساة مماثلة، وثارت عاطفة الملك مع الشفقة، وقد حزن بشكل عميق، فأمر بأن يعلن بوساطة المنادي ما عدّ بمثابة قانون،أن ما من إنسان يجوز له الاقدام على تشويه آخر من أجل الزنا، إلاّ في حالة زوجته.

حول وقوع عدة حرائق بالصدفة

ووقعت في هذا العام أيضاً واقعة تستحق التسجيل، لأنها كانت مدهشة، وهي قد رأينا أنها تستحق الادخال في رواية هذا العمل، بحكم أننا لانتذكر مطلقاً أننا رأينا مثلها من قبل، فقد حدث في كثير من المناطق، بسبب غضب الرب، أن استعرت نيران مدمرة، حولت مدناً وبلداناً إلى رماد، مع أنها لم تتسبب بالحرارة ولابجفاف الأرض، لأنه في ألمانيا —بالإضافة إلى الخسائر الأخرى التي نجمت عن غضب لهيب النار المستعرة— تحولت الكنيسة الكاتدرائية للقديس بطرس في كولون (التي هي بالفعل أم الكنائس جميعاً في ألمانيا) إلى مجرد جدران، وكان ذلك بوساطة اللهب، وفي فرنسا أيضاً تعرضت مدن وبلدات للدمار بوساطة النيران، وحدثت في نورماندي خسائر لايمكن تعويضها بوساطة غضبها الذي تعذر ضبطه، وفي انكلترا —دون أن نذكر القضايا الأخرى— جرى احتراق الجزء الأكبر من منقطة نيوكاسل على التاين، مع جسرها، بوساطة النيران المستعرة، واستعرت في النروج إلى درجة هائلة في ثلاث مدن رئيسية، مما سبب العجب والدهشة إلى عقول الجميع، وكانت إحدى هذه المدن تدعى بيرجن Bergen, فقد احترقت كلياً وتحولت إلى رماد، باستثناء أربعة بيوت دينية، والقصر، وبيعة، ومساكن الملك، وقد احترقت إحدى عشرة أبرشية في المدينة المذكورة، بالاضافة إلى بعض البيوت التي كانت عائدة إلى الأسقف،

وانتشر لهيب نيران الانتقام للذنوب هذه، مثل نيران قذفها تنين، كان يجر ذيله وراءه، فوصلت إلى قلعة الملك، التي كانت تبعد مسافة خمس رميات قوس عن المدينة، وبذلك ما من شيء ظهر أكثر تأكيداً ووضوحاً إلى السكان من أن حدة الانتقام الرباني قد تسببت بهذه الكارثة، فالقلعة التي كانت قد بنيت من أفضل الحجارة وأقساها قد تحولت إلى رماد، وفي اليوم التالي جعل الرب الرعد يدوي فوق موقع المدينة، ومعه برق أصاب سفينة كبيرة كانت قد وصلت من انكلترا أثناء الليل، فقتلت رجلاً واحداً، وجرحت أو تسببت برضوض قاسية إلى جميع الآخرين، وشطرت السارية وحولتها إلى قطع صغيرة، قذفتها إلى البحر، وتعرضت جميع السفن التي كانت في الميناء أيضاً، وكان عددها حوالي المائتين أو أكثر إلى الأذى، ووصل صاحب هذا الكتاب إلى السفينة التي تحطمت ساريتها، لأنه كان وقت الحادث يقوم بتأدية قداس في كنيسة قرب شاطىء البحر، وينشد ترنيمة بحرية، لتقديم الشكر إلى الرب بعد النجاة من مخاطر البحر، وعندما نقلت أخبار هذه الوقائع إلى الملك، قام صدوراً عن تقديره للشخص الذي كان على ظهر تلك السفينة، فأمر له بسارية أكبر وأفضل ليتزود بها.

وبعد عيد القديس ميكائيل، عبر أسقف نورويك البحر، لأسباب سرية محددة.

حول الأوامر غير العادلة لرئيس أساقفة كانتربري

وفي تلك الآونة نفسها، أظهر بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان يقاتل في سبيل البابا في منطقة ليون، قليلاً من القلق نحو الكنيسة، مع أنه كان قد جرى تعيينه من أجل معالجة الأرواح، واعتماداً منه على السلطات الرسولية، استخرج كثيراً من الأموال من الكنائس الشاغرة، في أبرشيته، التي كان مخولاً بالاحتفاظ بها بين يديه لمدة سنة واحدة، وهكذا باتت انكلترا غير السعيدة، مثل كرم تم التخلي عنه

كمأكلة إلى الأرانب البرية، ولكل عابر ليقوم بجني عنبه، وفي سبيل أن يجرح قلوب الذين سلبهم، بعمق أكثر، أمر أن يجري الإعلان، بوساطة عميد بوفياس Beauvais, الذي كان نائبه في هذه القضية، بأن جميع الأشخاص —باستثناء الملك والملكة وأولادهما، والايرل رتشارد اللامع— سوف يحرمون كنسياً، إذا كانوا قد وجهوا اللوم سراً أو علناً، أو تكلموا من دون احترام، حول المعروف الذي منحه البابا إياه، وأعطاه إليه، أي إلى رئيس الأساقفة المذكور، أو أن يقوم بأي شكل من الأشكال بمعارضته، أو عمل أي تعويق له أو تملص منه، أو أن يمارس أي خداع في مسألة المرابح المتقدم ذكرها، وجرى نشر وصية الولاية في كل واحدة من الكنائس في جميع أرجاء انكلترا، فأنتجت غضباً في قلوب الكثيرين، بسبب كل من الأذى الذي لم يسمع بمثله والاستخراجات الجشعة للمال، وأيضاً الاضافات المفتوحة لها، وتفوهوا بلعنات من القلب ضد الملك الذي سمح بهذه الإجراءات ووافق عليها.

كيف قدم رسل إلى عند البابا من لدن التتار

قدم في صيف هذا العام رسولان تتاريان من عند أميرهم إلى البابا، لكن محتوى رسالتها بقيت سرية مغلقة عن الجميع في ذلك البلاط، ولم يكن ذلك معروفاً لدى الكهنة ولا الأعيان، ولا من قبل الآخرين مهما كانوا مقربين من قداسته، وكانت رسالتها التي جلباها إلى البابا قد جرت ترجمتها من لغة غير معروفة إلى لغة وافقت الناس أكثر، وكان ذلك لدى اقترابها من البلدان الغربية، وكان من المخمن من خلال بعض الاشارات، بأن الرسائل قد حوت اقتراحاً، وخطة من التتار المذكورين، في أن يقوموا بحرب فورية ضد بتاكيوس الاغريقي زوج ابنة فردريك، وهو منشق وغير مطيع للكنيسة الرومانية، ومن المعتقد أن هذا العرض كان مفرحاً كثيراً للبابا، بدليل أنه أعطاهما بعض الثياب

الثمينـة، التي ندعوها بشكل عـام ملابس، وكانت مصنوعـة من أقمشة أرجوانية مختارة، مع أردية، وفراء من جلود القاقم، وتحادث معهما مراراً بشكل مفتوح وبطريقة ودودة بـوساطة المترجمين، وقدم لهما بشكل سري هدايا من الذهب والفضة.

حول المظالم التي مورست يومياً ضدّ الإنكليز من قبل البلاط الروماني

في هذا العـام نفسـه ازدادت المظالم التي أبـدعت بطرق مضـاعفـة، وتدفقت من البـلاط الروماني وانصبت على التعسـاء الانكليز، يوميـاً، وتضاعفت، فبـالاضافة إلى المظالم والعبـودية غير العادية، بسبب تعليق الأسـاقفـة ومنعهم من استثمار منافعهـم حتى يكون نهم الرومـان قـد أشبع، والتي ضـدها لم يصرخ الملـك الصغير لجبنه وخـوره، جـرى في كل يوم ارسـال أسراب من المظالم المقيتـة وقذفهـا، ومع أننا لانستطيع ذكـر جميع الأضرار (لأن ذلك صعبـاً، لابل في الحقيقـة من المستحيل فعل ذلك) رأينا من الموائم أن نقحم ذكر بعضها في هذا الكتاب، حتى يحزن الذي سوف يقرأ عنهم، ولكي يقوم الحزين بالشكوى إلى الرب، فلعله في بعض مستقبل الأيـام أن نتحـرر منهم بفضلـه، ومن أجل أن يرى الجميع الحالة المحـزنة لانكلترا، التـي حـرمت من حكامهـا ومن المدافعين عنها، وتلقى راعـي دير أبنغدون Abingdon ولاية من البابا بأن يقوم على الفور بتجهيـز وظيفة لواحد من الرومان، لكن هذا الرومـاني رفض اختيار وقبـول أية كنيسة، إلاّ الكنيسـة الغنية، فـانتظر بهدوء، وأخفى نواياه، حتى تصبـح إحـدى الكنائس الفخمـة والغنيـة شـاغرة، وكـانت أولى الكنائس التي أصبحت كذلك كنيسـة القديسـة هيلين في بلدة أبنغدون، والتي عـدّت أنها تساوي مائة مـارك، وكانت مزودة بكل المنافع، لأنها كانت موجودة في منطقة كانت خاضعة للدير المذكـور، وطالب الرومـاني الذي كـان هـادئـاً منذ وقت طويل، بهذه

الكنيسة على الفور، وضغط بإلحاح بالطلب بوجوب أن تعطى إليه، بموجب سلطات الكرسي الرسولي، وفي اليوم الذي أصبحت فيه الكنيسة شاغرة، تلقى راعي الدير أمراً مستعجلاً كثيراً من الملك، ممزوجاً بالتهديدات والالتماسات والوعود، بأن عليه تسليم الكنيسة المذكورة إلى أخيه —الملك— من أمه ايثيلمار، مع أن هذا الأخير كان بين يديه الآن عدداً وافراً من الكنائس والموارد، علينا أن لانعجب إذا كان هو نفسه لم يعرف عددهم ولاقيمتهم، وبناء عليه، بات راعي الدير في حالة حيرة واضطراب، وكأنه قد سحق بين حجري طاحون دائرين، فاستشار الرهبان في ديره وبعض الأصدقاء الجديين والمخلصين، حول القضية فأجابوه: «من الواضح أنها قضية صعبة من على الجانبين، لكن إذا كان الملك راغب بحمايتك من عنف البابا، نحن نعتقد أنه سوف يكون أفضل إعطاء الكنيسة إلى أخيه هذا، بحكم أنه أميرنا وراعينا، وليس الرومان، الذين سوف يداومون بشكل سيء التآمر ضدك، وهم بالفعل مضطهدون لايعرفون التعب، وكأنهم شوكة في عينك»، وجرى ابلاغ الملك بهذا القرار في الوقت المناسب، فأقدم على الفور بوعد راعي الدير المذكور بحمايته الخاصة، ووقايته من الخسارة، وبناء عليه، قام راعي الدير، اعتماداً على هذه الكلمات المخادعة، فأعطى الكنيسة إلى ايثيلمار المذكور، بناء على التماس الملك، وبناء عليه ذهب الروماني المتقدم الذكر على الفور وهو شديد الغضب إلى البابا، مع شكوى ثقيلة، وحكى له اشكاليات الموضوع، مع اضافات من عنده حتى يثير غضب البابا، وبناء عليه استدعى قداسته راعي الدير المذكور للمثول أمامه للاجابة على تهمة عدم الطاعة، وبات راعي الدير محروماً من كل مواساة ومساعدة من الملك، مع أنه غالباً ماطلب ذلك، ومع أنه كان رجلاً عجوزاً وضعيفاً، فقد ذهب إلى البلاط الروماني، وبعدما تعرض هناك إلى كثير من الآلام، وإلى دفع نفقات كبيرة، أرغم على تقديم ترضية إلى الروماني المذكور، تبعاً لقرار

البـابا، بأن دفـع له خمسين مـاركـاً سنوياً مـن حجـرته، مما ألحق ضرراً عظيماً بكنيسته.

مظلمة أخرى كبيرة جداً للبابا

في هذا العـام نفسه أيضـاً أخذ راعـي دير القديس ادمـوند من بيننا، ووضع الملك جـانبـاً كل خـوف من الرب واحترام إلى الشهيـد، الذي كـان مـرتبطاً به بشكل خـاص، وذلك لأسباب كثيرة، في أن يقـدسـه، فأخذ مبلغـاً كبيراً من المال من ذلك الدير، وذلك عندما أصبح شـاغراً، وبأخذه لهذا المبلغ بدا وكأنه قـد فقد جميع مشاعر الرحمة، لأنه بالاضـافة إلى المدفوعـات التي سددت إلى النواب الملكيين، استخرج بوحشيـة ألفاً ومائتي مارك من الدير، وعندما قـام الرهبان بانتخاب راع جديد ليأخذ مكان الراعي الذي توفي مـؤخراً، أرسلوا بعضاً مـن جماعتهم إلى البلاط الرومـاني للحصـول على تثبيت للانتخـاب نفسـه، وتعـرض كل من المنتخبين والمنتخب إلى فحص شـديد، وفي النهـاية تم رفض الفـريقين، وتوجب وضعهما في وضع محزن، لكـن هذا الوضع بدا أكثـر من محزن من جميع الجوانب، وعندمـا كـان الراهبـان على وشك المغـادرة آسفين خجلين، استـدعـاهما البـابا وقـال: «بما أنكما تعسـاء فأنتما بحـاجـة إلى المرحمـة، وإننا صدوراً عن عمل الإحسـان، ولكي لاتنزعجا نسمح لكما في الوقـت الحالي بهذا الراعي المنتخب، وبحـريـة وبإرادة نعطيـه دير القديس ادمـوند، لكن عليه أن يدفع ثمانمائة مارك، وعليه تسديد ذلك إلى التـاجر الذي سـوف نرسله له لهذه الغـاية، والذي نحن مـدانون له كثيراً»، وهكذا غادر الراهبـان، بعدما وقعا في المصيدة، ولكنهما كـانا قد أنهكا بسبب كثير من الأذى الـذي لحقهما والمظالم، وقـد حـزنا من دون مـواسـاة، ولذلك مـات واحـد منهما في ليـون، قبل أن يغـادرا البـلاط الروماني، وتلاشى الآخر من الآلام والانزعاج في القلب، وغادر طريق الجسد كله في دوفر، أثناء عودته من ذلك البلاط القاسي.

وفاة راعي دير وولثام

ومـات أيضـاً في هـذه الآونة راعي ديـر وولثـام Waltham, صاحب الذكرى التقية كثيراً، وكان واحداً من رهبان طائفة القديس أوغسطين، وكان رجلاً متميزاً بقداسته.

موت سيمون لانغتون

ومات في هـذا العام المعلم سيمـون لانغتون Langton, وهو أخو ستيفن رئيس أساقفة كانتربري وصاحب الذكرى اللامعة، ورئيس شمامسة كنيسة تلك المدينة، وكـان هو مضطهـداً ومـزعجاً لكنيسته، كنيسة كـانتربري، ولكن لاعجب في ذلك، لأنه كـان المثير والمسبب للاضطراب للمملكة الفرنسية، وكـذلك بالنسبة لمملكة انكلترا، وكـان هذا عندمـا اضطربت كثيراً بـالحرب، وذلك حسبما ذكـرنـا من قبل في المكان المناسب.

موت جون بلند

ومات في العام نفسه أيضاً المعلم جون بلند Blund, المستشار لكنيسة يورك، وكـان لاهوتياً متميـزاً، وقد انتخب مـرة رئيساً لأسـاقفة كـانتربري، لكن الانتخاب ألغي من قبـل سيمون المتقـدم ذكره أعـلاه، وهكذا ذهب مثير الاضطراب والذي تعرض إلى الاضطراب، للالتحاق بحشود الموتى، ومـات الايرل باتريك أيضاً، الذي كان يعدّ الأكثـر قوة بين نبـلاء سكوتلندا، ومـات هذا النبيـل وهو حـامل لشعـار الصليب، عندما كان في الحج برفقـة الملك الفرنسي، ومن المعتقد أنه حمل الصليب حتى يتمكن من ارضاء الرب، والقديس أوسوين Oswin, لأنه ألحق الضرر والأذى بشكل غير عـادل بكنيسـة التـاينماوث، وبدير كـان مكرسـاً للقـديس ألبان، ومـرتبطاً بشكل رباني خـاص بالملك أوسـوين المبارك والشهيد، وحيث رقد جسد ذلك القديس مدفوناً.

كيف جرى إرسال الراهب متى إلى نورماندي

أحاق في هذا العام خطر عظيم بواحد من الديرة الفخمة في النروج، وهو الذي عرف باسم دير القديس بندكت أوف هولم Holm, وكان قد تأسس من قبل كنوت Cnut الذي كان من أعظم الملوك نبلاً، وهو الذي كان أيضاً قد أسس ديراً آخر بالاسم نفسه وتابع للطائفة نفسها، في انكلترا، ذلك أنه أفقر كثيراً، وكان الرهبان قد تبعثروا، والدير نفسه كان قد تدمر تقريباً، مع متعلقاته، وكان راعي الدير قد تخلى عن الطائفة، وغادر بشكل سري، آخذاً معه ختم الهيئة الرهبانية، تحت مظهر اقطاعي، وكان إما قد باع جميع محتويات الدير، أو رهنها بالضمان بشكل أساسي، وأخذ معه واحداً من الرهبان، كان الحافظ لغرفة المقدسات، وهو الذي كان مسؤولاً عن الختم، كما كان أيضاً مطلعاً على جريمته ومشاركاً بها، وكان الآن مع راعي الدير المذكور مرتداً، وطريداً، ونتيجة لهذا، قام رئيس أساقفة درونثيم Drontheim, الذي كان الدير المذكور في أسقفيته، بوضع الدير بين يديه، مع جميع متعلقاته، واتهم الرهبان بأنهم رهباناً بالمظهر فقط، وأنهم كانوا جاهلين بأحكام الطائفة الديرية، وبالقديس بندكت، وظهروا أنهم قد خرقوا النظم الديرية واعتدوا عليها، وأن بعضهم كانوا لصوصاً ومطاردين، لكن الرهبان، الذين مع أنهم بقيوا من دون راعي، ظلوا يقاتلون في سبيل الرب، في بعض السبل، تحت قيادة رئيسهم، ولجأوا إلى تقديم التماس، وطاروا إلى الحبر الأعظم لحماية أنفسهم، لأنه كان ظلماً وبعيداً عن المنطق، أن تطال خطيئة واحد، أو اثنين، أو حتى قلة، الطائفة كلها، واعتماداً على الالتماس، لم يتجرأ رئيس الأساقفة على التمادي في ازعاجهم أو القيام بأية اجراءات جديدة، وبناء عليه تمكن رئيس الرهبان، بشكل حكيم من استرداد بعض ممتلكاتهم، وجمع بعض المال، وذهب إلى البلاط الروماني، لكن راعي الدير المرتد وشريكه كانا

هناك من بعـض الوقت قبله، وبـاعطائهم صكوكـــاً مختـــومـــة بالختم المسروق، وضعا الدير المذكور تحت دين يساوي حوالي الخمسمائة مارك، وبناء عليه عاد رئيس الرهبـان إلى الوطن مضطرباً وحزيناً، لكن قبل أن يصل إلى هناك سمع بأن هذا الراعـي التعيس قد مـات في دير القـديس ألبان في ذل Zell في النروج، وبعـدما حصل على هذا الخبر، قـام هو والرهبان بانتخاب راعي دير جـديد، وعلى هذا أعيد رئيس الرهبان المذكـور مع واحـد من الرهبان رفيقـاً له، ومعهما مبلغ ثلاثمائـة مـارك، وكـان معهما رسائل مـوجهـة إلى الراهب متى باريس، فيهـا التماس بأن يبـذل غـايـة مسـاعيـه في سبيل تحريرهم من دينهـم، وفي النهـاية أمكن بسعـادة الترتيب بأن يتحـرر الدير المذكـور مـن دفع الدين فقط، وبعـد الحصول على جميع الكتابات والأدوات التي بموجبها عدّ دير هولم مداناً إلى السماسرة الذين كـانوا آنذاك في لنـدن، عـاد الدير خـلال سنة سليماً ومتحرراً تماماً، لكن مع أنه تنفس بحرية في ميدان المسائل الدنيوية، ظل الرهبـان غـارقين في حـالة اضطراب بالنسبـة للمسؤوليـات الروحيـة، ومكثـوا متخفين، ومـع بعض الصعـوبات، وبوسـاطة هدايا متـواليـة حصلوا على استراحة قصيرة خشيـة من أن يقوم رئيس الأسـاقفة فيضع بين يديه الجزيرة كلها، التي كانت ملكاً للدير المذكـور نفسه، الذي كان مقـامـاً في الجزيرة مع متعلقـاته، وأن يـرغم الرهبـان على الفـرار، وهم الذين قال عنهم بأنهم رهبـان بالاسم فقط، وفي تلك الآونة كان أسقف سـابينا وكاردينال الكرسي الرسـولي، قد وصل —كما ذكـرنا من قبل— إلى النروج بمثـابة نائب بـابوي، وإليـه طار على الفـور هؤلاء الرهبـان، الذين ظلموا بشكل حـاد من قبل رئيس أساقفتهم، ليتلقـوا منه المواساة في محنتهم، وجـوابـاً منه على شكاويهم قـال: «أبنائي أنا جـاهل تمامـاً بالأحكام المرعية وبنظام القـديس بندكت، غير أنني أنصحكم باخلاص جيـد بأن تذهبـوا إلى البلاط الرومـاني، وأن تلتمسـوا من قـداسة البـابا تزويدكم بشخص موائم ليقوم بإصـلاح طائفتكم، وليكون لكم موجهاً

مناسباً، وأنا سوف أكتب له ملتمساً لصالحكم، وسوف أرجوه أن يتلطف بالاصغاء إلى طلبكم في هذه القضية، ولاتتحمل هذه القضية التأخير، لأن رئيس أساقفتكم شديد الاصرار في مساعيه على طردكم بحجة جهلكم»، وبناء عليه ذهب راعي الدير إلى البلاط، مرافقاً برئيس الرهبان، وبعدما أبلغاه برغبتهما، حصلا على رسائل التماس من ملكهما ومن النائب البابوي، وجواباً على طلبهما قال البابا: «أبنائي إذا كنتما جاهلين بالأشياء التي ينبغي أن تعرفاها، استخدما البحث والتقصي، واختارا شخصاً ما لتعليمكما الأحكام والنظم، وأية بلد أو دير، أو من ستفضلانه وتطلبانه سوف يمنح لكما، وادرسا للحصول على المعلومات، حتى لايتمكن عدوكما من التغلب عليكما»، وبعدما قاما في اليوم التالي بالتشاور والتباحث مع رجال آخرين جادين ومستقيمين، أعطيا جوابهما إلى البابا كما يلي: «ياصاحب القداسة لقد تعلمنا بالتجربة أن الرهبان في طائفتك ليسوا منظمين تماماً في كل مكان من العالم كله، وذلك كما نعتقد أنه موجود في انكلترا، كما أنه لايوجد —كما سمعنا من التقارير— هناك أي دير حسن التنظيم في المملكة الانكليزية، مثل دير القديس ألبان، الذي هو الرائد الشهيد لانكلترا، ولذلك نطلب واحداً من رهبان ذلك الدير اسمه متى، الذي جربنا حكمته واخلاصه، ليتولى تعليمنا وتوجيهنا، بالاضافة إلى ذلك هو صديق مقرب من ملكنا، الذي يمكن أن يكون قادراً بوسائطه، إذا ما رأى الأمر ضرورياً، اخضاع أية عصاة ضده»، وبما أن هذا الجواب أرضى البابا، فقد حصل هذان الراهبان منه على الإجازة التالية، لتقديمها إلى راعي دير القديس ألبان.

إجازة البابا إلى راعي دير القديس ألبان

«من أنوسنت، إلخ، إلخ، إلى ولده المحبوب كثيراً، الراعي لدير القديس ألبان، من طائفة البندكتيين في انكلترا: إنه بناء على ماذكر لنا من جانب ولدنا المحبوب كثيراً، راعي دير هولم التابع لطائفة البندكتيين، في

أسقفيـة درونثيم، إن الـدير المذكـور، قـد سقط بسبب إهمال أســلافـه بالفوضى، فيما يتعلق بالقضايا العـائدة إلى النظام الرهباني، وبما أنه تعذر الحصــول في تلك الجهــات على واحـد عــالم بصـــورة جيــدة بالنظم وبمراعاتها، أي النظم العائـدة إلى تلك الطائفة، نحن نرجوكم، بناء على التماس الراعي المذكــور، ونحثكم، ونأمـركم بـوسـاطة هذه الرســائل الرسـوليـة أن ترسلوا إلى الدير المذكـور، ولدنا المحبـوب منا كثيراً، متى الذي هو راهب في جماعتكـم، والذي يتمتع بسيرة مـرضيــة في الحيـاة، والذي هو مجرب بالحيــاة الرهبـانيـة، وذلك من أجـل أن يقـوم بتعليم وتوجيـه الراعي المذكور في مجال الأنظمـة المرعية والأحكام العـائدة إلى تلك الطائفة، وهذا سوف لن تتأخر بعمله صدوراً عن احترامك للرب، وللكرسي المقدس».

وبناء عليه أطاع راعي دير القديس ألبان البابا، كما كان متوجباً عليه، وقـام الراهب المذكور بإطاعـة راعيـه، وسار العمل على مـايرام، وتمت الترتيبـات بشكل ناجح، واستمـر دير هولم في النروج بسـلام وازدهار، واسترد النظام الرهبــاني، الذي كــان عـرضـــة إلى مخاطر كبيرة في تلك البلاد، الآن أنفاسه بفضل الرب، وكذلك فعلت الديرة الأخرى هناك.

وجرى في هذا العام الاستيلاء على مدينـة اشبيلية الفخمة في اسبانيا، وكـان ذلك من قبل ملك قشتالة المسيحي العظيم، وتميـزت كرامـة ربنا يسوع المسيح بوساطة عنوان المسيحية.

هزة أرضية في إنكلترا

وفي العام نفســه، في يوم قدوم ربنا، الذي كان اليـوم الرابع قبل عيد الميلاد، وقعت هزة أرضية في انكلترا، بها (حسبما جرى اخبار كاتب هذا العمل من قبـل أسقف باث، الذي وقعت الهزة في أسقفيتـــه) تدمــرت جـدران الأبنية، وانتـزعت الحجارة مـن أماكنهـا، وظهرت فجـوات في

الجدران المدمـرة، وكـان السقف الجملوني المقنطر الذي وضع على رأس كنيسة ويل Wells بعد بذل جهود كبيرة من قبل البنائين —وكان كتلة كبيرة ذات حجم كبير ووزن عظيـم— قـد قـذف من مكـانه، مما سبب كثيراً من الدمـار، فقد سقط فـوق الكنيسة، محدثاً ضجـة مرعبـة، لدى سقـوطه من ذلك الارتفـاع، وبذلـك أصـابت الضجــة بالرعب الشـديد كل الذين سمعـوها، وأثناء تلك الهزة الأرضيـة، وقعت واقعـة مـدهشـة، فقـد سقطـت رؤوس المداخن، والشرافـات، والأعمـدة من أماكنها، لكن قواعدهم وأسسهم لم تتأثر مطلقاً، مع أن العكس كان من الطبيعي حدوثه، وكـانت هذه الهزة الأرضية هي الثالثة بالوقـوع خلال ثلاثة أعــوام، على هذا الجانب مـن الألب، حيث وقعت واحـــدة في سافوي، واثنتان في انكلترا، وهي واقعة لم يسمع بمثلها منذ بداية الدنيا، ولذلك كانت الأكثر رعباً وضرراً.

خاتمة العام

عبر هذا العام عادياً وهادئاً، وملأ السنابل بكميات كبيرة من القمح، وجعل المعـاصر تتدفق بالخمـرة، وكانت وفرة المواسـم كبيرة إلى حد أن معيـار القمح قـد سقط سعـره إلى شلنين، وقد بيع دن الخمـرة الممتـازة بشكل مطلق بماركين، وكـــانت فـواكـه الحدائق وافـرة كثيراً في بعض الأماكن وقليلة في أمـاكن أخرى، ولكن ديدان الأرض دمـرت كلياً كل شيء أخضر، وقـد تسرب المرض إلى الأغصـان، وبرهنت أحـداث هذا العـام، أنها كانـت عدوانيـة بالنسبـة إلى الأرض المقـدسة، غير مستقـرة بالنسبة إلى ايطاليـا، مميتة بالنسبة لألمانيا، وغير موافقـة بالنسبة لانكلترا، ومدمرة بالنسبة لفرنسا، ولكي نجمل كثيراً من التفاصيل بكلمات قليلة، كـان هذا العـام مستهلكاً للمال تقـريبـاً في كل بلد من بلدان المسيحيـة، وقدم في كثير من الجوانب شارات تدلل على أن نهاية الدنيا باتت قريبة، وذلك حسبما قـرأنا «ســوف تثـور أمم ضـد أمم وســوف تكون هناك

هزات أرضية في بعض الأماكن»، كما أن هناك نبوءات أخرى، وكان هذا العام بالنسبة للبلاط الروماني، مصدراً للعار، والشنار، ومن الواضح أن ذلك كان بموجب تهديد الغضب الرباني، وكان المناخ في الشتاء متغيراً كلياً إلى مناخ الربيع، ولذلك لم يغط لاالثلج ولاالجليد وجه الأرض ليومين معاً، وكان من الممكن رؤية الأشجار وقد أخذت تورق في شباط، والطيور تغرد وتلعب وكأنها كانت في نيسان.

كيف طلب الملك منحه هدايا من سكان لندن

عام ١٢٤٩، هو العام الثالث والثلاثين لحكم الملك هنري، وقد أمضى عيد الميلاد في لندن، وكان أخوه الايرل رتشارد يحتفل في وولنغفورد Wallingford أثناء هذا الموسم المهيب بأيام القدوم، برفقة عدد كبير من النبلاء، كانوا ضيوفه، وعقد في الوقت نفسه ايرل غلوستر بلاطه بأبهة دنيوية لم تكن أقل، قرب غلوستر، على حدود ويلز، لكن الملك خرق من دون حياء حدود الكرامة الملكية في يوم عيد الختانة، واستخرج من كل واحد من سكان لندن الهدية الأولى، التي اعتاد الناس على تسميتها خرافياً باسم هدايا السنة الجديدة.

الاحتفال الفخم بيوم عيد القديس إدوارد

ومع اقتراب عيد القديس ادوارد، الذي يحل عشية عيد الغطاس، دعا الملك بوساطة رسائله عدداً كبيراً من النبلاء للاحتفال بذلك العيد معه في كنيسة القديس بطرس في ويستمنستر، وقام هو نفسه في عشية ذلك العيد، الذي كان يوم اثنين، فصام على الخبز والماء، وفقاً للعادة المتبعة، وارتدى ملابس صوفية، وبناء عليه اجتمع عدد كبير منهم هناك، صدوراً عن الاخلاص والمحبة التي شعروا بها نحو القديس، وكذلك في سبيل تعبد دم المسيح الذي تمّ الحصول عليه مؤخراً، وأيضاً من أجل العفو عن الذنوب الذي يتم الحصول عليه هناك، مع الاحترام

المتـوجب إلى الملك أيضـاً، لأنه هو الذي دعـاهم، ولقـد اجتمعـوا الآن هناك مع الملك والملكـة، والايرل رتشـارد، وروجـر الايرل مـارشـال، وأربعة آخرين، والعدد نفسه من الأساقفة.

عودة إيرل ليستر

كان الملك مقيماً في ويستمنستر أثناء عيـد الميلاد، وعـاد آنذاك سيمون ايرل ليستر من غسكـوني مع بعض النبـلاء الآخـريـن، والفـرسـان والأعوان، الذين كـانوا يقاتلون هناك باخـلاص في سبيل الملك، وأبهج وصولهم الملك والبلاط كله إلى درجة عـالية جداً، لأن ذلك الايرل كان قد أرغم غاستون ابن كونتسة بيارد، الخائن بحق ملك انكلترا، أن يقبل بشروط للهدنة، حتى وإن كان ذلك ضد ارادته، وكـان غاستون هذا قد ألحق أضراراً كبيرة في تلك المقـاطعة بالتـآمر ضد الملك، حتى أنه دمّر وأفسـد البلاد كلهـا، وبالخداع والخيـانة أقنع الناس بالتخلي عن ولائهم إلى ملكهم، لأن غـاستـون المذكـور كـانت لديه أمـوالاً كثيرة، هي التي حصل عليها من الملك عندمـا كان في غسكوني بوساطة وعود خـادعة، وكـانت أمه مماشيـة له ومـوافقة على إجـراءات ولدها المخـادع، مع أنها كانت في الوقت نفسه، قد حصلت أيضاً بشكل دنيء على مبلغ كبير من المال من الملك المسحـور، وذلك من الأمـوال التي سحبهـا من انكلترا، من أجل اذلال المملكة وافقارها، ومعها كذلك النبلاء فيها والأساقفة.

وعلاوة على ذلك، قام الايرل المتقدم ذكـره، مدعوماً بعون المخلصين إلى الملك، فاعتقل لصاً كبيراً، وخائناً، وأكثـر أعداء الملك دموية، واسمه وليـم بيرترام أوف ايـرمـــــونـت Bertram of Aigremont, وكـان قد اقترف جـرائم كثيرة في غسكوني وفي المناطـق المجاورة، وقـد وضعـــه الايـرل الآن في سجن مضيق عليـــه في برج راؤل Reole, وذلك إلى أن يرغـب الملـك بأن يرجع هذا الايرل إلى غسكوني لسحقـه ولسحق الأعداء الآخرين للملك.

الظلم الكبير الذي أنزل بسكان لندن من قبل الملك

ولم يقدم الملك —على كل حال— التمجيد إلى الرب، رب الحشود، على النصر الذي منح له، بل بدأ الآن يفكر بشكل مثابر، كيف يمكنه أن يجفف بئر انكلترا الذي لاينضب، لأنه لدى مقابلة مع الذين جرى طردهم للتو من جماعة الأمراء، حسبما تقدم الذكر أعلاه، والذين قالوا بأنهم لن يستمروا في تبديد ثرواتهم من أجل تدمير المملكة، درس بوساطة ابداعات بارعة كيف يمكن أن يروي عطش نهمه، ففور الانتهاء من احتفالات أعياد الفصل المذكور، شرع في تنفيذ الخطة التالية، بالقيام بمضايقة سكان لندن، بتعليق حركة نقل البضائع في تلك المدينة كما جرى الذكر من قبل، وذلك لمدة أربعة عشر يوماً، بوساطة إقامة سوق جديد في ويستمنستر لالحاق الخسارة والأذى بكثيرين، وإثر ذلك على الفور أرسل رسائل إليهم بوساطة وكلائه تحتوي التماسات ذكية، ورجاوات ملكية مهيبة، يطلب منهم مساعدة مالية، ولدى تسلم سكان المدينة هذه الرسالة، حزنوا حتى الأعماق، وقالوا: «الويل لنا، الويل لنا، أين هي حرية لندن، التي غالباً مابيعت، وغالباً ما منحت، وغالباً ما ضمنت بوساطة كتابات، وغالباً ما أقسم على احترامها؟ لأننا في كل سنة تقريباً أفقرنا مثل عبيد من الحالة الدنيا،وذلك بوساطة ضرائب جديدة، وبالأذى والمضايقة بمحاججات ثعلبية ماكرة، كما لايمكننا أن نعرف إلى أي قعر عميق آل مآل الأملاك التي سرقت منها وجرى ابتلاعها»، وبعد لأي، ومع أن المبالغ المطلوبة كانت كبيرة، على كل حال، وافق سكان المدينة، وإن كان ذلك بالإكراه ومع آلام بالقلب، وأذعنوا بتقديم الموافقة، على الاسهام بألفي باوند، تدفع إلى الملك خلال وقت قصير، وعلاوة على ذلك فإن مظالمه المعتادة استعرت من دون هوادة، لأن جميع المواد المعروضة للبيع، إن لم تكن مخفية جرى الاستيلاء عليها كما هي، خاصة اللحوم والمشروبات، وقد سلبت لصالح

استخدامات الملك، مع أن بيته لم يتطلب أية زيادة في الضيافة من ذلك، لكنه وقد تخلى عن كل الحياء، دمغ نفسه بزيادة كل يوم بسمة البخل الشنيعة، والمضافة الملكية القديمة طردت من أمام بابه، ومعها المائدة الرومانية المعتادة، فهذه زالت أيضاً، مما أساء إلى سمعته إلى درجة كبيرة ولكرامته كملك.

كيف استجدى الملك المال من نبلائه واحداً واحداً

وفي هذه الآونة، عندما لم يستطع الملك تطويع نبلاء المملكة حتى يوافقوا على طلبه وهم متحدين، لجأ إلى الطرائق الرومانية المعتادة، فأرسل إلى كل من النبلاء، أو كتب إلى كل واحد منهم، وقد خاطبهم بالتماسات مهينة قائلاً: «أنا رجل فقير، أنا مجرد تماماً من المال، وأنا أجد من الضروري أن يقوم كل واحد منكم بإعطائي مساعدة فعالة، ذلك أنني مدان بموجب صكوكي بمبلغ ثلاثين ألف مارك، وأنا لاأفرض شيئاً، إلاّ المعروف، وكل من سيعطيني هذا المعروف أنا سوف أعيده له، عندما تتوفر الفرصة، وكل من سوف لن يعطيني المعروف، أنا سوف لن أعطيه شيئاً»، ولكنه استجدى بسبب مزيف، من أنه كان على وشك شن الحرب ضد ملك فرنسا، بحكم انتهاء الهدنة، وذلك لاسترداد حقوقه بالقوة، فهو قد أثار فقط سخرية وازدراء الحكماء، لأنه كان قد منع مؤخراً من قبل المعلم ألبيرت باسم البابا، من مهاجمة —بأية طريقة من الطرق— أية أراض موجودة تحت سلطة ملك فرنسا، تحت أي عنوان من العناوين، لأن ملك فرنسا كان قد حمل الصليب وكان يقاتل في الأرض المقدسة، في سبيل الرب والكنيسة العالمية، لابل إنه حتى لو لم يكن قد منع من فعل ذلك، كان من المعتقد، بأن براعته العسكرية، أو قوته، أو ماله، مهما كان الذي استخرجه، ما كان كافياً لتجريد الملك الفرنسي، حتى من أصغر ممتلكاته، لأنه توجب عدم الظن بأن فرنسا كانت مجردة من الجنود تماماً ومن المال، وفي سبيل بقاء رسالة المعلم

المذكور مخفية عن الجميع، لم يسمح الملك بنشرها بأية طريقة من الطرق، ولقد قيل أيضاً بأن المعلم ألبيرت المذكور قد تلقى التخويل السلطوي بوضع انكلترا تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، بموجب الولاية البابوية، لو تبرهن بأن الملك سوف يكون متمرداً، لكن هذه الأشياء كلها قد غطيت بغطاء السرية، حتى يتمكن من الفرض بمهارة على الجهلة.

كيف استجدى الملك المال من الأساقفة ورعاة الديرة

في الوقت الذي كان فيه الملك فاغراً هكذا فمه يسعى وراء الربح المالي، حدث أنه ذهب إلى هنتنغدون Huntingdon, وكان ذلك في حوالي عيد القديسة هيلاري، وعندما كان على طريقه إلى هناك بعث وراء راعي دير رامسي، وخاطبه بسرية كما يلي: «ياصديقي أنا بجد ألتمس منك، تقديم المساعدة لي، باعطائي —أو على الأقل باسلافي— مائة باوند، لأنني أنا بحاجة، وينبغي أن أحصل على هذا المبلغ من دون تأخير، ولم يكن بإمكان راعي الدير شرفياً الاجابة بالرفض، بل أجابه قائلاً: «لقد أعطيت في بعض الأحيان، لكنني لم أسلف، ولن أسلف الآن»، واقترض على الفور ذلك المبلغ من السماسرة، مقابل فائدة ثقيلة، وذلك في سبيل إرضاء مطالب هذا الملك المستجدي.

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، شدّد الملك وألحّ على راعي دير بيتربورا Peterborough بالتماسات مشابهة من أجل المال، معلناً بأنه سيكون احساناً أكبر لدى اعطائه مساعدة مالية وأفضل من التصدق على متسول على بابه، ولكن بما أن راعي الدير اعتذر عن نفسه، ولم يذعن بالاستجابة إلى التماساته، أثقله بالملامة والنقد، وبناء عليه غادر سراً بيت الملك، واستخرج في الوقت نفسه بالحجج نفسها ستيناً ماركاً من راعي دير القديس ألبان، مع أنه خدعه بوساطة هذه الحجج الماكرة، وانتزع منه مبلغاً كبيراً من المال، في كل من هذا العام

والعـام الأخير، وبناء عليه، عندما رأى الملك أن مـا من واحد سـوف يعـارضـه، تصور متـأملاً أن مـا من واحـد من رعـاة الديرة أو رؤسـاء الرهبان سوف يبدي نحوه أية مقـاومة، ومع أن النبلاء ألقوا العوائق في سبيله، كتب إلى الأسـاقفـة الذين كـانوا منصـاعين لإرادته —وإن كـان ذلك كرهاً لا طوعاً— كما يلي:

رسالة الملك إلى أساقفة إنكلترا

«**من هنري الذي هو بنعمـة الرب، إلخ، إلى جميع رهبـان الديرة وإلى رؤساء الرهبان في كونتيتي: اسكس وهارتفورد، تحيات**: إذا كنا بكياستنا الملكية نرغب بأن نمتحن صداقـة رعايانا المخلصين والأوفياء، فذلك في سبيل الدفاع عن حقوق المملكة، وإذا كانوا قـد أظهروا مراراً في أوقات مناسبـــة، احترامهم لأميرهـم، الذي يعيشـــون تحت حماية جناحيـــه، ويتنفســـون بحـريـة، أظهـروا ذلك بـالخدمـات الجسـدية، أو بتقـديم الأعطيـات، فتلك ليست واقعة مـدهشـة، ولهذا، بما أن الهدنة بين ملك فرنسا وبيننا قد انتهت، ونحن في سبيل استرداد وحماية حقوقنا على هذا الطرف من القتال، وكـذلك المقـاطعات على القـارة، التي إليهـا أرسلنا مـؤخـراً كتلة من الجنود، فنحن الآن تحت الحاجـة لدفع نفقـات كبيرة، وأن نفتح يد الكرم إلى كثيريـن لأسبـاب متنوعـة، لـذلك أرسلنا إليكم سيمون باسلو المخلص لنا، والذي هـو من رعيتنا، ومحبوب لدينا كثيراً، مع عمد عدة كونتيات، كل واحد بمفرده، ونحن نرجوكم بحرارة، بأن تمنحـــوهم أذناً صـــاغيـــة، وأن تحسنوا إليهم، ومن خـــلالهم إلينا، وأن تستمعـوا إلى الذي سوف يـذكرونه لكم حـول هذه القضيـة، وذلك في سبيل أن نرفع عبء النفقات المتقدم ذكـرها، عليكم أن تساعدونا بكرم من أموالكم، هـذا ومفروض علينا دين، من الواجب القيـام بسداده في وقت قريب».

وعندما وصل هذا إلى علم الأشخاص الحكماء، قدروا بوضوح، مثل

وضوح الضـوء، بأنه عندما كـان في بواتو، وفي ألمانيا، فـإن هؤلاء القوم الذين ألزم نفسه بالأخذ بتوجيهاتهم وبنصائحهم السيئة، قد أثقلوا بالمال فقط، ومن دون حماية رعـاياه الانكليـز، أوقعـوه بشراكهم، واعتقلوه، وأنزلوه إلى حـالـة الفقـر، وبدناءة استخـرجـوا منه كـل الذي كـان قـد امتلكه، والذي سـوف يمتلكه في مستقبل الأيام، أي أنـه ارتبط بشكل لايمكن الخلاص منه بأيمان وصكوك مـوقعة من قبله، حيث تعهـد بأن يرسل إليهم كل الذي جـرفـه من انكلترا، وهكذا ازداد حـزن الانكليـز وأسفهم يوماً فيوماً.

كيف استقال أسقف درم من منصبه

مع اقتراب عيد طهـارة القديسة مريم،وجد نيقـولا أسقف درم نفسه وقـد بات عجـوزاً، وضعيفاً، ومـريضـاً في صحته، فـاختـار بالحري أن يتخلى عن ثروته، بدلاً من أن تتخلى عنه، فاستقـال من أسقفيته في درم، وذلك بعـدمـا حصل على إجازة من البـابا، وبنـاء عليـه جـرى تعيين أوصيـاء على المسألة، وهـم: رئيس أسـاقفـة يورك، وأسقفـي لندن ووركستر، وجـرى تعيين ثلاثة عزب لـه، هي عزب: هوفيـدي Ho-vedey مع متعلقـاتها، وستوكتـون Stockton وايزنغتون Esington, فغـادر المدينـة وذهب ليعيش في إحـدى العـزب المذكورة، وذلك من أجل أن يتخلى عن جميع المسـؤوليات الدنيوية، وأن يعيش بسلام متحـرراً من مشاكل الشكايات والمحـاكمات والمخاصمات، وأن يمتلك المزيد من الوقت ليشغل نفسـه بالصلوات والتأمـلات حتى يأتي عليـه التغيير الذي كـان ينتظره، وعندمـا علـم الملك بذلك لم يكن بطيئاً في تولي المسؤولية عن الممتلكات المتبقيـة العائدة إلى ذلك الكرسي، حتى يتمكن من ابتـلاع المرابح الماليـة الكبيرة، ذلـك أنه كـان جـائعـاً وجشعـاً، وفي سبيل جمع هذه الممتلكات، أرسـل إلى هناك واحـداً من محاسبيه اسمه توماس أوف نيوآرك.

كيف جرى منع مبارزة بسقوط ثلج ثقيل

وفي حوالي الوقت نفسه، جرى تعيين موعد لمبارزة عامة تعقد في نورثأمبتون، يوم أربعاء الرماد، لكنها منعت بتحريم من الملك وبتهديد منه، وبوساطة جليد الفصل آنذاك، وحزن الفرسان كثيراً لهذا، وبشكل خاص الجدد منهم، لأنهم رغبوا بالدخول بالمباراة الأولى في مجال نظم انضباط الفروسية، وكان وليم دي بلنسية، أخو الملك لأمه، والذي كان جديداً، قد بعث برسالة إليهم، بأن لايعبأوا بحظر الملك وبشكوكه الكبيرة، وأنهم ينبغي ألاّ يتوقفوا، إذا ابتسم مناخ صالح لهم، وأن يعقدوا المبارزة، لأنه سوف يضع نفسه بمثابة ضمانة بين أخيه الملك وبينهم، ليمنع تفجر غضبه وصبّه عليهم، وأعطت هذه الرسالة إلى وليم المذكور كثيراً من الادعاء بالفروسية، وأضافت كثيراً إلى كرامته، وحدث على كل حال أنه في ذلك اليوم، وهو يوم أربعاء الرماد، أن حدث سقوط ثلج ثقيل، وقد استمر لمدة يومين، وكان كثيفاً إلى درجة أنه غطى وجه الأرض إلى عمق قدم، وحطم أغصان الأشجار الثقيلة الأوزان، ثم ذاب، مسبباً أخاديد في الحقول، أصبحت الآن كأنها كهوف امتلأت بالجداول التي صبت فيها، وهكذا جاء تدمير المبارزة المذكورة بوساطة معيق مزدوج.

كيف رغب الملك بانتخاب أخيه ايثيلمار أسقفاً لدرم

وفي الوقت نفسه قام الملك المتيقظ دوماً، والباحث الذي لايعرف التعب، والساعي وراء المال، فوضع جانباً كل خوف من الرب، بطريقة لاتليق به سوى قليلاً، فمع أن حق الانتخاب عائد إلى التجمع الرهباني في درم، أرسل التماسات تكدست فوق التماسات إلى تلك الجماعة، وكان ذلك بوساطة رسل حكماء ووعاة، وكذلك بارعين في فرض الأمور وترتيبها،حيث نصح، وطلب، وتهدد باعطاء أوامر بوجوب انتخاب أخيه لأمه ايثيلمار بالاجماع من قبل جماعتهم، ليكون أسقفاً لدرم وراعياً

لأرواحهم، وفي سبيل أن ينجح في مقـاصـده تصرف وفقـاً لكلمات الشاعر:

مزج الأوامر والوعود والالتماسات

وهكذا ظهر على التوالي سيداً ومستجدياً

وعلى هذا الطلب رد الرهبـان بتواضع قـائلين: «تذكـر ياصـاحب الجلالة، ياأعظم الملوك المسيحيين، تذكـر، إذا كان يرضيك اليمين الأول الذي أديته، عندما كنت على وشك التتويج، والذي كان فوق كل شيء بأن تسمح للكنيسة المقدسة بأن تتمتع بحريتها، على الأقل أحياناً، بانتخاب —مع فضل الرب— أباً مناسباً وموائماً، وراعياً لأرواحنا، وأنت تعلم، والعالم يعلم بأن أخاك المذكور غير كفء، في كل ممايتعلق بالمعرفة والسن، ليقوم بأعباء مثل هذه المهمة الروحية الصعبة»، وعلى هذا يقال بأن الملك قد أجاب قائلاً: «أنا قادر، وراغب تماماً بالاحتفاظ بهذه الأسقفية بين يدي لمدة ثمانية أعوام أو تسعة، أو أكثر، حيث سيكون وقتها في سن ناضج، مقبول لديكم».

شكوى حول السرقات المقترفة في إنكلترا

مع اقتراب الصوم الكبير، كان الملك قد وصل إلى وينكستر، وإليه وصل إلى هناك تاجران من برابانت لتقديم شكوى، وقـد خـاطبـاه بالكلمات التالية، الممزوجة بالأسى والدموع: «أيها الملك الأكثر سلاماً وعدلاً، نحن بحكم أننا تاجرين من برابانت، كنا عابرين من خلال أراضيك، التي اعتقدنا أنها آمنة، لمتابعة تجارتنا، وقتها هوجمنا ونحن مسافرين، غير محميين، فهكذا كان واقعنا، وجرى الهجوم من قبل بعض قطاع الطرق واللصوص، الذين نعرفهم من وجوههم، والذين وجدناهم في بلاطك، فهم قد قاموا بدناءة وبلصوصية، فانتزعوا منا بالقوة مايساوي مائتي مارك، وإذا ما أقدم هؤلاء الرجال على انكار

التهمة، نحن على استعـداد —بعون الرب الذي هو قـاضينا— لكشف الحقيقة بمحنة مبـارزة واحدة ضدهم»، وجرى اعتقـال الفئات المتهمة، و تقرر بعد ذلك اقرار قضيتهم بوساطة إفادة أهل المنطقة، وأطلق يمين حلفتـه المنطقـة سراحهم، ومـاهو وجـه العجب في ذلك؟ فقـد كـانت المنطقة موائمة لهم، لأنها كلها كانت مصابة بداء السرقة، لكن التاجران المتقـدم ذكرهما تـابعا الضغط بتهمتهما، وطالبـا بجـرأة بها لهما على يدي الملك، وبدأ الملك بالانزعاج، فاستدعى مستشاريه، وقال لهم: «ماالذي ينبغي صنعه؟ لقد ضاقت أحشائي من بلية هذين الرجلين»، وعلى هذا رد مستشـاروه: «ياصاحب الجلالـة، لقد سمعنا، ونحن نعـرف أن تهماً مماثلة قد راجـت في جميع مقاطعات انكلترا، ذلك أنه غـالباً مـا تعرض المسـافرون هنا إلى السرقـة، والجراحـة، وجعلوا أسرى، وقتلوا، ونحن نعجب كيف أن رجال عدالتكم المتجولين —الذين واجبهم هو هذا— لم يقوموا بتنظيف هذه البلاد من هذا العار، وبناء عليه، نحن نعتقد بأن لصـوص هذه البلاد، المنتشرون هنا بكثـرة من دون حدود، قـد دخلوا ببراعة وعملوا مـؤامرة فيها بينهم أنفسهم، بأن لايقـوم أي واحد منهم، مهما كانت المعطيـات، باتهام الآخر، وهكذا فإن مؤامـرتهم ومكرهـم قد نجوا من أن تعـرفهما، وكذلك نجـوا من رجال عـدالتكم ومن نوابكم الآخـريـن، وقـد كـان هنـري دي مـارا Mara,رجل عـــــدالتكم هنا،مع أصحابه، ولم يفعل شيئاً نافعاً، وهؤلاء الأشخاص أيضاً، الذين قمت بتعيينهم مفتشين متحالفين مـع اللصوص ومحرضين لهم، ولذلك علينا أن نتصرف بحذر ضـد مثل هؤلاء الخونة المتعددي الأشكال، أي أن تتـولى البراعة خـداع البراعـة، لأن عـدداً كبيراً من التجـار، خاصـة الذين هـم من القـارة، يجيئون ويروحون من هنا بسبب الميناء المجـاور، وبحكم أنها المدينة الملكيـة، ومن أجل السـوق، وأيضاً هذان الرجـلان اللذان سلبـا قـد أعلنا، أن المال —الـذي من أجل البرهنة على حقيقـة أمـره هما على استعداد لفعل ذلك بوسـاطة مبارزة فـردرية— إذا لم يرد

إليهما، فلسوف يستردانه بالقـوة، بالاستيلاء على جميع المقتنيات العـائدة إلى التجار من مملكتكم في بلادهم، مما سوف يسبب الخسارة إلى التجار المذكــورين ولسـوف يلحق العــار بك، ودوق برابانــت، الذي نرغب بصداقته، سوف يعاملك —ليس من دون مسوغ صحيح— بازدراء».

وبناء عليه استـدعى الملك النواب، والرجال الأحــرار لتلك المنطقة، أي أن تقول منطقـة ثاوثأمبتون، وبنظرة صارمة قـال لهم: «ماهذا الذي سمعتـه عنكم؟ لقـد وصلتني شكاوى أناس مسلوبين، ومن الضروري بالنسبة لي الإصغاء إليهم، حيث ليست هناك كـونتية أو منطقة في جميع أنحـاء انكلترا إلاّ وسيئة السمعـة بهذا، أو ملطخة بعـدد كبير جـداً من الجرائم، حتى عندما أكون أنا حاضراً في المدينة، أو في ضواحيها، أو في الأمـاكن المجاورة، تقترف السرقـات وأعمال القتل، كما أن هذه الجرائم ليست لوحـدها، حتـى أن خموري الخاصـة عـرضـة للسرقـة والنهب، وتحمل بعيـداً في عــربات من قبل أولئك المجــرمين، الذي يضحكون ويسكرون عليهم، كيف يمكن التسـاهـل مع مثل هذه الإجـراءات أية مــدة أطول؟، وفي سبيل استئصــال هذه الجرائم ومــايماثلهــا، عينت أشخــاصــاً حكماء للالتحــاق بي في حكم المملكة وحمايتهــا، أنا رجل واحــد، ولستُ أرغب، كما أنني لست بقــادر على تحمل أعبــاء إدارة المملكة كلها من دون مسـاعدة معاونين، وأنـا خجل ومنهك من النتانة القذرة لهذه المدينة، وللمناطق المجاورة، فلقد ولدت في هذه المدينة، ولم يلحقني القـدر نفسـه من العـار في أي مكان آخـر كما لحقني هنا، ومن المحتمل، ولابد أن أعتقـد، لابل إن الأمر واضح الآن تماماً، أنكم أنتم سكان المدينة، وسكـان المنطقـة شركــاء بالجريمــة ومتحــالفين سيىء السمعـة، وانني سـوف أدعـو جميـع كـونتيـات انكلترا، حتى يقـومـوا بمحاكمتكم بمثابة خونة لي، ولكـي يلاحقوا جرائمكم، حتى لاتستمر براعة محاججـاتهم في نيل الربح، أية مدة أطول»، وحدث هذا في قـاعة

قلعـة وينكستر، بحضـــور و. W., أسقف تلك المدينة، ثم صرخ الملك فجأة بصـــوت مـرتفع: «أغلقـوا أبواب القلعـــة، أغلقـوهم على الفـور»،وعندها انتصب الأسقف وقـال: «تمهل يامـولاي، تمهل قليـلاً واستمع إليّ بصبر، إذا كـان ذلك يرضيك، يوجد في هذه القلعـة بعض الغـرباء، مع رجـال صـالحين، لهم سمعـــة نقيـة، وهم أصـدقـاء لكم، ولايرضيكـم حبسهم، فأنت قـــد اتهمت سكـان وينكستر ومحرضيهم فقط»، ثم تابع كلامـه، وحول الأسقف وجهه نحو الحشـود وقال: «أنا راعيكم ووالدكـم الروحي، ولدي السلطة على أرواحكـم في القضـايا الروحية، وإلى حـد كبير في القضايا الدنيـوية، وإنني أحرم كنسياً جميع المتآمرين في هذه الجريمة البشعـة، وكذلك الذين يحبذونها، أو يتعاملون معها من خـلال الخوف، أو من أجل الحصول على جـائزة، وكل الذين يخفـون الحقيقـة بأية طريقـة من الطرق عندمـا يستجـوبون حـول هذه القضيـة»، وبناء عليـه جرى هناك انتخـاب اثني عشر شخصاً من بين سكان و ينكستر، ومن كـونتية ثاوثأمبتون، وقـد أقسم هؤلاء أن يعطوا أسماء أية لصـوص عندمـا يعـرفون، وبعـدمـا انتقل هؤلاء الرجـال إلى مكان خاص، عقدوا نقـاشاً طويلاً، وكانوا تحت حراسـة مشددة، وبعد مداولات طويلـة، جرى استدعـاءهم ثانية، لكنهم رفضـوا اعطاء اسم أي واحـد من اللصـــوص، الأمر الذي أزعج الملـك كثيراً، لأنه كـان مدركاً تماماً أنهم يعـرفون شيئاً ما عن خطط اللصوص، وبما أنه اشتعل غضبـاً قـال: «أمسكوا هؤلاء الخونة المخـادعين، وغلوهـم بالسـلاسل، وألقوهـم في الزنـزانة الأعمق، لأنهم رفضوا الكلام، وأخفوا مـاتوجب أن يكون معلـومـــاً، وهـم لاشك محرومين كنسيـــاً من قبـل أسقفهم، وانظروا كيف أعطوا هؤلاء الرجـال الحظوة والتأييـد، اختـاروا لي اثني عشر واحداً آخر من سكان وينكستر وكونتية ثاوثأمبتون، من الذين لن يعارضـوا الحقيقة، لكي يكشفـوا لي الحقيقة حـول القضايا التـي سوف أسألهم عنهـا»، وبناء عليـه جـرى اختيـار اثني عشر آخـرين، وجـرت

دعـوتهم، وعندمـا وجـد هؤلاء أن الاثني عشر المتقـدمين، قـد جـرى سجنهم، وحكم عليهم بالشنق، لأنهم أخفوا الحقيقـة، شرعوا يشعرون بخـوف عظيم، وقـال أحدهـم للآخر: «نحـن أيضاً سـوف نعـاني من عقوبة مماثلة إذا ما أخفينا أي شيء من الحقيقة عندما نستجوب»، وبعد مداولات سرية ومناقشات طويلة عقدوها فيها بينهم، قدموا عائدين إلى وسط الاجتماع، وأطلقوا عقال ألسنتهم، وكشفوا سرقات وجرائم كثير من الأشخـاص، الـذين كـان عـدد كبير منهم ينتمـون إلى المناطق المجـاورة، بشكل خـاص إلى ألتـون Alton وإلى الملكيـة الخاصـة بالأسقف في تانتـون Tanton, ومن بين هؤلاء كـان بعضهم من سكان المدينة والكثير منهم كـانوا من سكان المنطقـة، والذين كـانوا يعـدون من قبل صـالحين، ورجـالاً مخلصين، وكانت لديهم وفـرة كبيرة من الممتلكات الغنية، وكان بعضهم ممن أنابهم الملك، كأوصياء ونواب، لحماية ذلك الشطر من البـلاد، ولاعتقال اللصـوص وطردهم، وامتلك آخـرون خيولاً وثيـاباً غاليـة، وكـان لدى بعضهم الآخر بيـوتاً وأسراً، وتمتعـوا بامتـلاك خمسين أو ثمانين ملكيـة خـاصـة من الأرض، وكـان بعضهم من كبار موظفي الملك وحـاشيته، كما كان من بينهم رماة قسي عقارة يعملـون في خدمة الملـك، وجرى اعتقـال هؤلاء جميعاً، وبعـدما تبرهن أنهم مجرمين، شنقـوا، والتجأ بعضهـم إلى الكنائـس، وهرب آخـرون بشكل مفاجيء وبصـورة سرية، ولم يظهروا مـرة ثانية، وكـان بعض الأشخاص ينتمون إلى المدينة نفسها، وكانوا آنذاك يتولون خدمة الملك، بابعـاد الناس الذين كـانوا قـد احتشـدوا بسبب طرافـة هذه الإجراءات وحداثتها، فقـد كان عدد الناس الذين اجتمعوا مع بعضهم كبيراً جـداً، وامتزج هؤلاء ببراعـة مع الحشود، وقـاموا فجأة بمغـادرة القلعـة، حيث أبقـوا أنفسهم مخفيين، أو هربـوا إلى أقـرب الكنائس، وعندمـا جرى استجـواب الذين اعتقلوا بدقـة أكبر، اعترفوا بأنهم قـد اقترفـوا جرائم لم يسمع بمثلهـا، من نوعي السرقات والقتل، بالتـواطؤ

مع آخرين وبمساعدتهم، ومن بين هؤلاء تبرهن أن حوالي الثلاثين كانوا مدانين، لذلك أخذوا وشنقوا، وأودع العدد نفسه أو أكثر في السجن، لينتظروا عقوبات مماثلة، وقال بعض الذين عادوا إلى حاشية الملك، عندما كانوا على وشك التعليق على المشنقة، للضباط الذين كانوا مسؤولين عنهم: «قولوا لمولانا الملك بأنه هو سبب موتنا، لابل السبب الرئيسي لذلك، لأنه أوقف لمدة طويلة الدفع لنا مانستحقه، ولذلك أرغمنا على أن نتحول إلى لصوص وقطاع طرق، أو لأن نبيع خيولنا وأسلحتنا، أو ملابسنا التي لم يكن من الممكن لنا العيش من دونها»، وعندما تسلم الملك هذه الرسالة، تأثر وشعر بالخجل والحزن، وعبّر عن أسفه بتأوهات متوالية، وكان من بين اللصوص الأخساء الذين اعتقلوا واحداً تقدم بالتماس استئناف، وكان اسم هذا الرجل وليم، ولقبه بابا Papa, وكان هذا الرجل لديه ثروات هائلة على شكل بضائع مخزونة، وكانت من الكثرة بمكان، حتى أنه لدى فحص بيته، بعد اعتقاله، وجدوا هناك في مستودعه حوالي الخمسة عشر برميلاً مليئة بالخمرة، وكان هذا الرجل قد تقدم بالتماس استئناف، ولكن عندما وجد مجرماً، تم شنقه على الفور، وقام أحد الناس بعمل خدمة جيدة للملك في القتال، حيث حرر المنطقة من ستة من اللصوص، وهكذا جرى طرد هؤلاء المجرمين الذين لطخوا سمعة تلك البلاد، بقدر وتوفيق من رحمة الرب، إله الانتقام، وعلى كل حال تخلصت وينكستر، وثاوثأمبتون وجميع تلك المنطقة من الوصمة الشائنة للسمعة، ومن مخازي تلك الوقائع، ولقد توليت شرح هذه الأحداث بشكل كامل وباسهاب، حتى يكون واضحاً كم هو سهل أي تحالف، وكيف يمكن بسهولة تفكيك أية مؤامرة منسوجة بين مقترفي الشر، لأنهم يرتحلون في دائرة، وفي وقت الضرورة يسببون اضطراباً بينهم أنفسهم، لكي تكون العقوبة في النهاية أكثر حدة.

ازدياد سوء سمعة الإمبراطور بشكل جدي

وأصبح في الوقت نفسه اسم فردريك مشهور جداً في مختلف أنحاء العالم، بأنه أسوأ من هيرود، ويهوذا، ونيرون، بسبب النتانة المميتة الصادرة عن أعماله، حسبما ورد ذكر ذلك في الرسالة التالية، التي تثير سمع و قلوب المسيحيين، وتملأهم بالدهشة والحزن.

رسالة قدح صادرة عن الكاردينال ريمير ضد الإمبراطور فردريك

«جريمة كبيرة، ممارسات شائنة، وحشية حيوانية، شرور لم يسمع بمثلها، دناءة متجاوزة الحدود، قد مورست في هذه الأيام، مظهرة صورة مرعبة للرب، وللملائكته، وللناس، نحوها ينبغي أن تصبح الشمس شاحبة، وأن تختفي أشعتها بالغيوم، وأن تغلف النجوم بالظلام، وكأنها بالفعل مختومة بختم، والأرض ترتجف، والبحر يهتاج غاضباً، وآذان الذين يسمعون بهذه الأفاعيل ترن بها، واضطربت قلوب المؤمنين، واهتزت أحشاء المسيحيين، وثارت قلوب الملوك، والأمراء، والفرسان، وجميع المؤمنين الذين يعتقدون بالمسيحية للقيام بالانتقام، وانتبهوا كيف أن مبشر الشيطان، وناتب ابليس، ورائد المسيح الدجال، ومبدع الأعمال الوحشية ووكيلها كلها، قد هاجم بعنف وانقض على المكرسين للرب، وعلى الحبر الأعظم الممسوح بالميرون المقدس، وعندما أدرك مارسيللينوس Marcellinus المقدس، أسقف أريزو Arezzo, بأن مرجل الاضطهاد، قد حمي كثيراً بوساطة هبات رياح الشمال، وأنه كان يغلي بعنف ضده، في مدينته، انصاع أمام تيار غضبه، وعاش في المنفى والفقر لكثير من السنين في أنكونا Ancona, التي هي ابنة مخلصة جداً للكرسي الرسولي، وبعد لأي، قام إثر تلقيه توصية رسولية، فبذل جهوده بشكل مواظب لانقاذ شعب التخوم من بين فكي التنين

المسمم، ومن شراك الشياطين الذين كانوا يطاردونهم، ومن نير الطغيان، وفي هذا، كما يبدو، بفضل نعمة الرب، قد حقق بعض التقدم، وحدث على كل حال، أنه بإرادة من الرب وسماح، قد وقع بين أيدي أعدائه، وضغط عليه بشدة بالسجن والأغلال لمدة ثلاثة أعوام أو أكثر، بوساطة أتباع فرعون، وبعد مضي بعض الوقت فرح فرحاً عظيماً فردريك، رجل الدم ذاك، الذي كان يتجول ثائراً مثل تنين، ومثل أسد غاضب، يبحث عمن يفترسه، وهو ملوث بدم الأبرياء، ثمل من شرب دماء الرجال المقدسين، وبعدما فرح فردريك وشعر بالسرور العظيم، قام بمشاعر حيوان مفترس، وخطط بفكره لتدمير كاهن الرب هذا، ولاشك أن هذا الرئيس المدنس وغير التقي، كان يشعر مثل أبيه الشيطان، بغضب عظيم ضد كنيسة الرب، وبما أنه قد عرف أنه لايمتلك سوى وقت قصير، انفجر على الفور غاضباً، وزمجر وتفوه بقرار قضى بالشنق، وبقطع العنق ضد هذا الرجل المكرس للرب في مدينة المنصورة، التي تأسست من قبله، والتي لقبها ينبغي أن يدرج بين أولئك العائدين للمؤمنين، وقد حدث بوساطة معجزة مدهشة في اليوم الثالث قبل الانتصار المدمر له ولتلك المدينة، لأن المنصـــورة هذه، على عكس نوايا هذا الرئيس الغاضب، الذي منحها ذلك الاسم، قدمت اشارة مسبقة باسمها، بأنها سوف تذعن من نفسها إلى النصر المدوي لقضية الكنيسة، ومجدداً كان عمالقة الجحيم، وأتباع الشيطان، قدتلقوا أمراً من رئيسهم أن يفعلوا مايلي: أن يحرضوا الأسقف أن يعلن على الملأ الحرمان الكنسي للبابا، والكرادلة ولأساقفة الكنيسة الآخرين، وأن يكون ذلك أمام جميع الناس، وأن يقسم على تقديم الولاء إلى فردريك الغادر، الذي وعده بالعفو، وبكثير من الثروة إذا فعل ذلك، ولكنه وقد نال القوة بروح الرب، أكد بجرأة أنه غالباً ما تولى حرمان فردريك المذكور، ابن الشيطان وتلميذه مع أتباعه، كنسياً، ثم إنه قام بترديد حكم التكفير نفسه ضده، وعندما اقتيد هذا الكاهن إلى الشهادة، متّن نفسه للمرة الأولى بدموع

التوبة، وبجميع القداسات، عندما اعتقد أنه على وشك أن يلقى به في الهاوية، عرف من الذين كانوا واقفين هناك، بأنه سوف يسحل خلال البلدة ليموت على المشنقة، وقتها أخذ ينشد بصوت مرتفع قائلاً: «نحن نحمدك أيها الرب»، وكذلك ترنيمة الملائكة، ثم إنه رغب بأن يجر إلى المشنقة، مثلما جرّ المسيح إلى الصليب، ولكن لوجود النساء والأطفال الذين كانوا يبكون من حوله، لم يسمح بتعريته تماماً، وعلاوة على ذلك قام المسلمون بربط يديه وقدميه المقدسين، وبتغطية عينيه، ووضع رأسه إلى جانب ذيل دابة تولت جره، وذلك من أجل أنه إذا ما خرج أي روث من الدابة، يمكن أن يلوث رأسه المقدس، ولكن مجدداً فإن هذه الدابة البهيمة، على الرغم من نخسها بالمهاميز، تعذر تحريكها، حتى أنهى بطل الرب هذا المزمور والصلاة التي كان قد شرع بها، وقد سمح لها بالسير من قبل الأسقف نفسه، وهكذا جره أولئك المسلمون إلى المشانق، خلال قلعة القديس بلاميانو Plamiano, وكأنه كان عامياً من أصل وضيع، محروم من الغطاء، أو أنه كان غادراً قاتلاً لأبيه، أو مغتالاً له، أو لصاً، أو مداهماً للبيوت ليلاً وللحقول، وكان بين الأشياء التي عملها أنه قدم اعترافاً للمسيح، ولبعض الرهبان الفرنسيسكان الذين وقفوا هناك، بأن هشاشة الضعف الانساني قد حرضته —إذا كان ذلك ممكناً— بأن ينجو من الشهادة التي رغب بها عندما كان حراً، وتابع هو شخصياً بشكل مكشوف الاعتراف بهذا، وببعض التوافه التي جاءت إلى ذاكرته، وطرد من قلبه جميع مشاعر الكراهية ضد الذين آذوه، وقد تحمل بصبر كل الأذى الذي فعلوه له، وجرى تعليقه على المشنقة في أول أحد من هذا الصوم الحالي، وبالساعة نفسها التي صعد بها مخلصنا إلى الصليب، وتمت مركزة الحراس على مقربة منه، ومكث معلقاً على المشنقة لمدة ثلاثة أيام، أي حتى قام الفرنسيسكان بسرقة جسده، لكن الجلادين الذين تولوا عملية الإعدام، أخرجوه من القبر، وبعدما سحلوه خلال الوحل، علقوه مجدداً على المشنقة، على أن لايحركوه وينزلوه من دون اذن

خـاص، من بيــلاطيـوس الجديد، والمحتقــر الكبير للمسيحيـة، والمهين لرجـال الدين، والملحق العـار المستمـر بطائفة الكهنة، والمدمـر للكرامـة البابويـة،ومع أن جسد الشهيد كـان قد اهترأ من قبل، بسبـب العقوبات القـاسية التي تعـرض لها، ولأنه دفن من قبل، لقد تماسك الآن بوسـاطة معجزة، فهـذا ماشهد به الرهبـان الذين قدمـوا من ذلك المكان، وأكدوه بشكل يقيني، أنه على الرغـم من مـرور عشرة أعـوام، لم تصـدر عنه أية رائحـة قـذرة، وعملت الشهـادة نفسهـا من قبل رجـال حكماء بالنسبـة للمعلم هوغلين رَيموكشيو Hugelin Remoccio وكانَ رجلاً محترماً، الذي كبـا به فرسه، فوقع على الأرض، فأخـذ أسيراً أثناء القتال، فجـرى تجريـده من قبل أعـدائـه غير الأتقيـاء، ومن ثم جـرى ذبحـه بوحشية.

انظروا أيها القوم المسيحيين، وتبصروا فيما إذا كان هناك أي حزن مثل حـزن الكنيسة أمكم، أو بالحري كنيستكم، لأنه من الذي شـاهد قط أو سمع بمثل هذه الإجراءات، أو مايشابهها؟، فهل يمكن للعبيد المخلصين للمسيح، لدى تفكرهم بهذه الأشيـاء، أن يكفكفوا دموعهـم، أو يوقفوا تأوهاتهم وتنهـداتهم؟، هل هنـاك من قلب مهما يكن قـاسيـاً، لايحزن ولايأسف عندما يضرب بمطرقة مثل هذه الوحشية الكبيرة؟ أولم تسحق بعض القلوب الحجرية لبعض المسيحيين، وتتمزق صـدورهم القاسية؟، أين هي غيرة الإيمان المسيحي؟، أيـن نار حب المسيح المعلق الآن ممثـلاً بشخص رجل دينـه وكـاهنه الأعلى؟، وكما قـال لبطرس: «اذهب إلى رومـا، واربح أن تصلب» «وشـاول، شـاول لماذا تضطهـدني»؟، ومـرة أخـرى قال في الانجيل فيما يتعلق برسله: «كل من يرفضكم، يرفضني، وكل من يؤذيكم يؤذي بؤبؤ عيني»، وعلى هذا، قام هذا التعيس الشرير، حتى يضيف إلى ركـام شروره، ولكي يلوم قسـوة قلوبنا، التي نادراً مـا أثيرت تجاه مثل هذه الجرائم المرعبـة، فلم يتردد بـالغـالب في تكرار مثل

هذه الاعتداءات، مؤكداً بسبب أن مظالمه التي قد اقترفت مراراً من دون انتصاف، بأن الاحسان قد أصبح بين المسيحيين بارداً، وأن أوعية العواطف قد أصبحت جافة كلياً منهم، وأن الغيرة كلها من أجل الإيمان قد ماتت، لأنه تدبر منذ عامين اغراق أسقف غيراس Girace في كالبيرا، في حمام عمل حاراً جداً، وفي هذا العام أيضاً تسبب في مدينة اللاتيران بمقتل أسقف سيفاليدي Cephaledi في صقلية، صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان قد طرد من كرسيه لمدة خمسة عشر عاماً بوساطة هذا الرجل غير التقي المذكور نفسه، وجاء مقتله بالسيف على أيدي قاتل صقلي مستأجر، وكان هذا الأسقف المبجل والجليل محبوساً، وكان قد أقام مدة طويلة في حجرة الفقر، تحت هواء النفي البارد، وكان بالفعل قد شرع يغرق من قبل نفسه في القبر، ولم يرسل هذا القاتل المستأجر المتقدم ذكره من أجل هذه الغاية فقط، بل أيضاً ليلقي —إذا استطاع— بيديه الدمويتين على أي واحد من الأعمدة الكبار للكنيسة، وينبغي أن لانعجب لدى قتله الأقل شهرة من الأساقفة، لأنه كان قد جلب من قبل قتلة مستأجرين، ورجال اغتيال لقتل النائب الأول للمسيح، وبعض إخوانه، كما أنه عمل محاولات مماثلة، ضد بعض الأمراء، وياللأسف كيف أن الخوف من الرب قد نام لدى الأمراء المسيحيين، وكيف أن التراخي بحب المخلص صار مطلقاً، وكان يحدث فيما مضى في أيام الأمم إذا ماجرى انكار عبادة الشيطان في أي من البلاد الوثنية، كان الشخص المقدم على ذلك يمزق إلى قطع، ويقتل بوساطة عدة أنواع من العذاب، والآن وقد جرى الاستخفاف بالإيمان، وبدأ الهراطقة بالسيطرة، وهم الآن محميين محروسين من قبل هذا الرجل غير التقي، والتبشير بالهرطقة قائم في ممالك هذا الشرير التعيس، والارتداد بازدياد هناك، وجرى ازدراء القداسات مع مفاتيح الكنيسة، وديس على الحرية اللاهوتية، وانعدمت العناية بالأرواح.

ومنذ بعض الوقت، عندما كان الجيش الصليبي، الذي كان ناوياً الاستيلاء على القاهرة، قد منع من التراجع بفيضان المياه، أولم يحدث أنه بلطف السلطان، جرى تزويده بالمؤن، وحفظ سليماً، وأرسل عائداً إلى الوطن من دون أذى؟ وكان مع ذلك الجيش أسقفي ألبانو وعكا، صاحبي الذكرى اللامعة، وبعض الأساقفة الآخرين والقساوسة، وجون بريين، ملك القدس، صاحب الذكرى اللامعة، وأولم يكن جون دي كولونا Colonna, صاحب الذكرى اللامعة، و الراهب الكاردينال، الذي ذهب إلى بلاد الاغريق مع امبراطور القسطنطينية، لاسترداد تملك تلك البلاد، قد وقع أسيراً لدى ثيودور كومينوس، وأقول أولم يكن هو الذي عومل باحترام وأطلق سراحه؟، وانظروا إلى جنون هذا العدو الأكثر وحشية، هو لم يكتف بهذه الأفاعيل الشريرة، بل إنه تسبب بتدنيس الكنيسة بوساطة المسلمين، وأن يجري تدمير المذابح، وبعثرة الآثار المقدسة، وأن يجري الاعتداء على العذراوات، والأرامل، والنساء المتزوجات، في الأماكن المقدسة وعلاوة على ذلك جرى بناء على أمره قتل الرهبان الفرنسيسكان، والرهبان الآخرين، الذين كانوا مسافرين حول العساكر المسيحيين وبينهم، لتحديد الكفارات عن الذنوب، ولدفن أجساد القتلى، لقد جرى قتل هؤلاء بسيوف أتباع هذا المتمرد غير التقي، وبالاضافة إلى هذا، ولكي يشتعل غضب الرب بحدة أعظم ضد هذا الرجل الشرير، قام المسلمون مؤخراً في هارينا Harina, على مشهد من الجمهور بجر تمثال المصلوب بذيل أتان، مع تمثال مريم المباركة، وقديسين آخرين، ثم قطعوا رجلي وذراعي تمثال المسيح، وفعلوا الشيء نفسه بالتماثيل الأخرى، وثبتوا الجميع على ترستهم، حتى يرغم المسيحيون أثناء القتال على طعنهم برماحهم ونشابهم، ولماذا على هذا، لايكترث الصليبيون بهذه الأعمال الشائنة، فيحرثون الأنهار بسيوفهم، ويعبرون البحر لقتال المسلمين أو التتار، الذين أرسلوا غضبهم من مسافة، عندما عدّت وحشيتهم أقل بكثير من إجراءاته هذه؟.

إن المتوجب أولاً محق شرور المسلمين هذه، مع قادتهم ومحرضيهم، وعليهم بعد ذلك السيرضد آخرين، لأن القضية الموجودة الآن في الوطن، هي التي ينبغي أن تطلب في الخارج، والآن يجري الاضطهاد من قبل الكفار في قلب الكنيسة ذاتها، وفي ديرة المسيحيين، وداخل اطار العالم المسيحي، يبدو من الموائم أولاً طرد المقترفين لمثل هذه الجرائم من ايطاليا، خشية أن تجري رعاية الثعبان في الصدر، والفأر في القفيز، والنار في الرحم، وعليهم بعد هذا السير إلى أماكن نائية، لأن الرب لم يختر شعبه بالنسبة للمكان، بل بالحري العكس هو الصحيح، حسبما هو واضح من القديس بطرس والرسل الآخرين، الذين غادروا القدس وعبروا إلى الشعوب، وقدر بناء عليه، أنه إذا كان هناك أي واحد صاحب فهم، وإذا كان هناك أي واحد يحزن لموته، وإذا كان هناك أي واحد ينظر إلى الأذى الذي ألحق بكهنة الرب، وأن الرب يتطلع من السماء فيرى أبناء الناس، وعلى كل مسيحي أيضاً أن يقدر أنه في يوم الحساب عليه تقديم الاجابة إلى الرب، إذا ماعبر مع مثل هذه الجرائم، وبناء عليه، اتبع حتى النهاية قضية ابن الرب الأعلى، في سبيل أن تتمكن من إيصال قضيتك إلى نهاية جيدة، وحافظ على قرينه باليد اليمنى لقدرتك، من أجل أن يضعك القاضي العادل في يوم الحساب الأخير على يمينه، ويفضي بك إلى مجد سرمدي».

كيف أقنعت مفاسد البلاط الروماني كثيرين بالوقوف إلى جانب قضية الإمبراطور فردريك

لدى وصول هذه الرسالة المرعبة إلى علم الناس، خرقت قلوب الكثيرين، وكانت ستغضبهم كثيراً، وتشجعهم على الوقوف ضد فردريك، لولا أن أعداءه البابويين كانوا ملوثين بدنس آثام الجشع، والسيمونية، والربا، مع شرور أخرى، فقد كان بين أعمالهم الجنونية تضييقهم على الصليبيين، حيث حثوهم تحت طائلة عقوبة الحرمان

الكنسي، في بعض الأحيان لإرسال مساعدة إلى الأرض المقدسة، وفي وقت آخر، ارسال المساعدة إلى رومانيا (بيزنطة)، وألحوا لهم مرة أخرى أن عليهم الثورة ضد الامبراطور فردريك، والذي عدّ أكثر تقزيزاً للنفس هو جعلهم الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان جباتهم للضرائب، وقد استخرجوا بحجة أو أخرى الامدادات الضرورية للسفر من الذين حملوا الصليب، وبناء عليه صحيح أن الطاغية فردريك قد اقترف جرائم فظيعة، ومع ذلك إنه بالنسبة لفظائع الرومان قد وجد عدداً من المحرضين بشكل علني أو سري وأصحاب في الجريمة.

حول الخلاف بين سكان كمبردج والكهنة فيها

وأيضاً في حوالي الوقت نفسه، أي في الصوم الكبير، نشب لسبب صغير خلاف بين سكان كمبردج والباحثين فيها، عنه نجمت قضايا قضائية، ومعارك، ونهب، وتدمير للبيوت، وجراحات وقتل، ووصلت صرخات شكاوى ثقيلة إلى أذن الملك، وانتشرت أخبار الفضائح في الخارج، وسببت الخسائر التي وقعت من على الجانبين آلاماً كبيرة،وأعتقد أنه جدير بالذكر أيضاً، أنه بوساطة إثارة عدو الجنس البشري، حسبما جرت العادة في الصوم الكبير، أثير خلاف دموي بين الباحثين والعلمانيين، وكذلك في القارة، مثلما حدث على هذا الجانب من الماء، حسبما تقدم ذكر ذلك مراراً من قبل في هذا الكتاب، من أجل أن يصاب الانسان بالجراحة في هذا الوقت المقدس.

كيف نجا الإمبراطور من الموت بالسم

تعرض في هذا العام نفسه فردريك للمضايقة الشديدة من جميع الجهات بوساطة قضايا متنوعة فهو قد جاء إلى هذا الجانب من الجبال لمحاربة البابا، ولكنه عاد إلى أبوليا ثانية، لأنه حسبما ذكر أحد التقارير قد دس له السم، وكان شديد المرض، وبناء على نصيحة أطبائه توجب عليه

استخدام الأدويـة لتنقية نفسه مـن السم، وأخذ حمام يعـدّ خصيصاً لهذه الغاية، وكـان لدى المعلم بطرس دي فينيـا الذي كان أقرب المستشـارين من فردريـك المذكور، وكان مسـؤولاً بشكل خاص عن العنايـة بروحه، واحـداً من الأطبـاء مـرافقـاً له، وقـد ذهب هذا الطبيب بناء على أوامـر فـردريك، وكـذلك أوامـر بطـرس المذكـور، لعمل الترتيبـات الضرورية لمعالجته، لكن مع نوايا خيـانية، ذلك أنه قام بناء على تحريض من بطرس المذكـور، بمزج سم قـوي وقاتل مع شرابه الدوائي، وكـذلك في الحمام، لقتل سيدهما الواثق بهما بهذه الوسائل، وقال أعـداء الكنيسة بأن البابا قد أفسـد قلب بطـرس بالهدايا وبالوعـود الكبيرة، وأقنعـه باقتراف هذه الجريمـة، وحدث على كل حـال، أنه في الوقت ذاته الذي كـان الشراب سيجـري تناوله، أن جـرى تحذير فـردريك بشكل سري من الجريمـة المنوية، وتمّ اخبـاره بالتفصيل بجميع الخصوصيات، مـن قبل واحد من أصـدقائـه، وبناء عليه عنـدما عـرض بطرس والطبيب الدواء وأرياه إياه قـال لهما: «ياصـديقاي، إن روحي واثقـة بكما، ولذلك أرجـوكما احـذرا فلاتعطيـاني، الذي عهد به إليكما، أي السم، عوضـاً عن الدواء»، فأجابة بطرس قـائلاً: «مـولاي إن هذا هو طبيبي الذي غـالباً مـا أعطاكم دواءً صحيحـاً ونافعـاً، فلماذا أنت الآن خائـف»؟، وكان فـردريك قـد وضع حـرساً خلف الخائنين حتى لاينجـوا، ثم إنه قال بنظرة مقطبـة للطبيب، الذي كـان يقـدم له الكأس: «اشرب نصـف هذا الدواء معي»، وأصيب الطبيب بالدهشـة تجاه هذا، ولأنه كان مـدركاً لخبثه، تظاهر بـأن شيئاً ما جعل قدمـه تنزلق، فوقع متمـدداً على الأرض، فأهرق الشطر الأكبر من السم، وأمـر فـردريـك بالقليل المتبقي فأعطـي إلى بعض الأشخـاص المحكومين بالاعـدام، وكـانوا قد جلبـوا من السجن، فلفظوا على الفـور أرواحهم التعيسة، وبعدما اقتنع فردريك على هذه الصورة بالخيانة المميتة التي خططت ضـده، أمـر بشنق الطبيب، وبقلع عيني بطـرس، ثم أمر بقيـادته خلال عـدة مـدن في أبوليـا، وايطاليا، ليعترف بجـريمتـه بشكل

علني، وأخيراً أمر بإعطائه إلى البيازنة، الذين كانوا يشعرون بحقد عظيم ضد بطرس المذكور، كي يقوموا بقتله، وعندما سمع بطرس بهذا، أقدم متطوعاً فضرب برأسه ضد العمود الذي إليه كان مربوطاً،وأخرج دماغه، في سبيل أن لايجري قتله بناء على إرادة أعدائه، لأن سينكا يقول: «أن تموت بناء على ارادة عدو، يعني أن تموت مرتين».

حزن فردريك وأساه

ولدى تأمل فردريك لهذه الواقعة حزن من دون تعزية مع دموع كثيرة، وكان بالفعل مؤلماً مشاهدة ذلك يصدر عن شخص له مثل تلك السلطة، ومثل ذلك العمر، وصفق بيديه معاً وقال مندهشاً: «الويل لي، لأن أحشائي تقاتل ضدي، فهذا بطرس الذي اعتقدت أنه صخرة، والذي كان نصف حياتي، عمل مؤامرة لقتلي، والبابا، الذي امبراطورية هذا العصر العائدة إلى أسلافي النبلاء، قد أوجدته من لاشيء، وأغنته، يسعى الآن إلى تدميرها ويستهدف موتي، أنا حاكم الامبراطورية المترنحة، فيمن سوف أضع ثقتي؟ وكيف يمكن أن أكون من الآن فصاعداً سليماً، وكيف يمكن أن أكون سعيداً»؟ وشاركه أصدقاؤه الذين جلسوا من حوله في أساه بتأوهات ودموع، وتدهورت سمعة البابا نتيجة لهذه الواقعة كثيراً، لكن الرب الفاحص الذي لايخفق، للأسرار، وحده يعرف الحقيقة.

كيف جرى تبديد المؤن في قبرص بشكل سري عندما كان الملك الفرنسي يمضي الشتاء هناك

وفي حوالي الوقت نفسه، كان الملك الفرنسي الذي كان يمضي الشتاء في قبرص، يعاني كثيراً من نقص المؤن، فأرسل كونت بار، وهو رجل جدي وفصيح، وصاحب بيجو Beaujeu وكان فارساً جريئاً، إلى البنادقة، وإلى سكان الجزر الأخرى المجاورة والمدن يرجوهم بإلحاح الإحسان إليه

بمساعدته، ببيعه المؤن والامدادات، لأنه كان يقاتل في سبيل الكنيسة المسكونية، وأعطى البنادقة لهذا الطلب جواباً بالموافقة والإيجاب، وعن طواعية أرسلوا ست سفن كبيرة محملة بالقمح، والخمر، وأنواع المؤن الأخرى، وكذلك نجدة من الجنود، مع أعداد ممن حملوا الصليب، وأرسلت بعض المدن الأخرى والجزر، التي طلب منها المساعدة، مختلف أنواع الامدادات، ولم يسمح فردريك بهذا فقط، بل أقنعهم بلطف بفعل ذلك، وقام هو ذاته، حتى لايظهر نفسه أنه أدنى من الآخرين، فأرسل إليه كميات واسعة من امدادات مختلف أنواع الطعام، وبذلك امتلك الملك الفرنسي منها كميات وافرة، وبعدما كتب إليه يشكره، كتب إلى البابا يرجوه، أن يتلقى فردريك بحظوته، وايقاف الحرب ضده، والتوقف عن التشهير بمثل هذا الصديق العظيم والمفيد للكنيسة، الذي بوساطته تحرر الجيش الصليبي من مجاعة كبيرة ومخيفة، وعندما سمعت بلانشي الأم النبيلة للملك الفرنسي بهذا، بعثت شكرها إلى فردريك، وأثقلته بهدايا لاتقدر بثمن، وأعلنت بأنه حفظ حياة ابنها، وكرامة الجيش الصليبي كله، كما أنها كتبت إلى البابا أيضاً، تلتمس منه تخفيف الضغينة التي شعر بها ضد فردريك المذكور، ورفض قداسته —على كل حال— جميع هذه الالتماسات وضايق فردريك أكثر فأكثر كل يوم، لكن أينما ذهب صار وضعه أسوأ فأسوأ في القضية.

كيف صالح الملك الفرنسي كثيرين كانوا على خلاف فيما بينهم أنفسهم

وعمل الملك الفرنسي في الوقت نفسه مؤتمراً حكيماً ومقدساً، أصلح فيه بين كثير من النبلاء كانوا على خلاف، وكان ذلك في قبرص وفي مناطق أخرى تابعة للصليبيين، وكان بين الذين أصلح فيما بينهم الداوية والاسبتارية، في سبيل أن لايترك مجالاً للخلافات فيما بينهم، ولكي يتمكن من السير بأمان أعظم في رحلته.

هنري بن فردريك يكتب إلى الملك الفرنسي نيابة عن ملك إنكلترا

قـام في هذه الآونة (بناء على تحريـض من ملك انكلترا، كما هو معتقـد) هنري بن فردريك والامبراطورة ايزابيلا، وابن أخت الملك المذكور بالتقدم بالرجاء إلى الملك الفـرنسي، من أجل انقاذ روحه، وفي سبيل نجـاح حجه، بأن يتصرف بشكل تقـوي وعادل نحـو خـاله ملك انكلترا، وأن يتنازل له عن الممتلكات العائدة له، بموجب حق جده، خشية أن يتحول ذنب الملك الفرنسي لويس، بموجب غضب من الرب إلى ابنه البريء، ودعم طلبه هذا بكثير من الالتماسـات، وبوسـاطة رسـل خـاصين، كـانوا محملين بالهدايا، ويقـال بأن فردريك أرسل أيضـاً رسـائل التماس إلى الملك الفرنسي حـول القضية نفسها، لكنه لم يضغط، خشية أن يظهر بأنه قد باع هداياه وأعطياته، وعلى هذه الالتماسـات ردّ الملك الفـرنسي قائـلاً: «بحق الصليب المقـدس الذي أنا حـامله، أنا على استعـداد لفعل ذلـك، لو أن مجلسي الاستشـاري يسمح بذلك، لأنني باخـلاص أحب ملك انكلترا، بحكم أنـه قـريب لي، غير أن الأمـر سـوف يكون محرجـاً أثنـاء حجي، في ازعـاج جماعـة مملكتي كلهم بمخـالفـة آراء أمـي ونبـلائي، وذلك مهما كـانـت درجـة حبي للمتوسطين لدي».

وصول رئيس أساقفة روان إلى إنكلترا

في العام نفسـه، في حوالي عيـد الفصح، وصل إلى انكلترا رئيس أسـاقفة روان، الذي كـان راهباً من طائفـة الفرنسيسكان، وكـان فرنسيـاً من حيث المولد، وكـان قـد حصل على اذن الملك، لاسترداد ملكيـة بعض الموارد، العائدة لامتيازات كنيسته، وبعدما حقق غرضه، قدم الولاء، من أجلهم إلى الملك (لأنهم كـانوا في انكلترا)، ثم عاد إلى وطنـه، وفي حوالي الوقت نفسـه أيضـاً، قدم إلى انكلترا أسقف طـرطوس، الذي كانت أسقفيتـه في سـورية،

والذي كان من أصل انكليزي، وجاء قدومه من أجل زيارة وطنه الأصيل، ورؤيه والديه إذا ما كانا أحياء، وكان هذا الأسقف قد ولد قرب ردنغ من أبوين متواضعين، ولكن بما أنه لم يجد أي أثر لبيت والديه، أو والديه، اللذان أذعنا للعمر وللفقر، عاد إلى مقره آسفاً وخجلاً.

وذكر هذا الأسقف —بمثابة حقيقة مؤكدة— إلى التجمع الرهباني في ردنغ (حيث قام بمناسبة عيد العثور على الصليب المقدس بعمل قداس عالي) بأن بقايا الخوارزمية في الأرض المقدسة قد ذبح أحدهم الآخر، وذلك بوساطة انتقام رباني حاق بهم، وأن سلطان القاهرة يثير الحرب فيما بينهم، وأن أكثر الأمراء المسلمين تميزاً، هم الذين أنهكوا أنفسهم بالحروب فيما بينهم، وأن جبروت ذلك السلطان المذكور، عندما أخبر بقرب الوصول العدواني للملك الفرنسي ضدهم، قد عمل سلاماً فيما بينهم، ووحدهم في حلف، وبما أن هذا السلطان المذكور أيضاً، كان هو الرئيس، أو واحداً من رؤساء أمراء المسلمين المشارقة، قد بعث برسالة إلى الملك المذكور، بأنهم جميعاً ينتظرون قدومه بتشوق، حتى يتمكنوا من الاشتباك معه بمعركة تصادمية، وأنهم لايخشون على الاطلاق حملاته، وأردف ذلك برسائل قاسية ومتفاخرة.

حول اجتماع النبلاء في لندن

ومع انتهاء عيد الفصح اجتمع نبلاء انكلترا، مع بعضهم في لندن، حسبما كان مقرراً من قبل فيما بينهم، وذلك حتى يقوم الملك وقتها بالوفاء بما وعد به بالغالب، أي أن يقوم بتعيين مستشار، مع مسؤول عن العدالة، وخازن، بناء على توصياتهم، وكانوا يتصورون أنهم سوف يحصلون بكل تأكيد على جميع ماطلبوه، لكن غياب الايرل رتشارد، الذي بدا وكأنه مقدمهم، عطل تماماً كل تقدم في مجال هذا العمل، ذلك أنه كان قد ذهب من قبل إلى منطقة نائية في كورنويل، وكأن ذلك كان في سبيل قضاء عمل، وبذلك خدعوا ثانية، وعاد النبلاء إلى مواطنهم.

كيف أصبح رهبان الفرنسيسكان والدومينيكان جباة الضرائب للبابا

وفي حوالي الوقت نفسه، شغل الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان أنفسهم بالتبشير وذلك بناء على أمر من البابا، الذي يطيعونه إطاعة تامة، وفي سبيل أن يزيدوا من تقوى المسيحيين ذهبوا بوقار عظيم،إلى الأماكن التي كانوا قد بشروا بها من قبل، ومنحوا كثيراً من الأيام بالتفرغ إلى الذين قدموا لسماعهم، وجرى استقبالهم من قبل قساوسة وكهنة، وهم في ثياب بيضاء، يحملون الصلبان والرموز الأخرى، وجلبوا معهم حشوداً كبيرة من الناس، حسبما جرت العادة في اسبوع الابتهالات، ولدى تبشيرهم لصالح الصليب، منحوا ذلك الرمز إلى الناس من كل عمر، وجنس، ورتبة، ومهما كانت ممتلكاتهم أو كانت تساوي، ومنحوه للناس المرضى وإلى النساء، وإلى المحرومين من قواهم بسبب المرض، أو تقدم السن، وبعد ذلك استردوا منهم في اليوم التالي أو مباشرة، الذي منحوهم إياه، وذلك بأن حللوهم من تعهدهم بالحج، مقابل أي مبلغ يمكنهم الحصول عليه مقابل ذلك الاحسان، والذي بدا غير لائق ومتناقضاً، هو أنه بعد أيام قلائل، جمع الايرل رتشارد جميع ذلك المال ووضعه في خزانته، عن طريق وكالة المعلم برنارد، الذي كان كاهناً ايطالياً، وهو الذي جمع الثمار، وبذلك لم تكن الفضيحة التي قامت صغيرة في كنيسة الرب، وفيما بين الناس بشكل عام، وبالنهاية تراجعت التقوى لدى المؤمنين وبردت حرارتها.

وفاة رئيس أساقفة منتز

ومات في الوقت نفسه أيضاً رئيس أساقفة منتز Mentz, الذي كان عدواً كبيراً لفردريك، لكن حتى لايشعر فردريك بالسرور أو يمتلك سبباً لذلك بموته، قام البابا بتحويل رئاسة الأساقفة تلك، بأن أسندها، ووضعها تحت حكم وتصرف رئيس أساقفة كولون، لأنه كان قد قاتل

بشجاعة من أجل الكنيسة ضد فردريك وابنه كونراد، ثم إنه وضع بعد ذلك بين يدي رئيس الأساقفة نفسه أفخم الديرة، الذي اسمه وولسا Wolsa, وقد قيل إنه لم يكن هناك ديراً أفخم ولا أغنى في العالم منه، وكان هذا الدير مرغماً منذ قديم الزمان على تقديم ألف عسكري إلى كل امبراطور جديد بعد تتويجه في اكس لى شابيل، وأفقر الآن رئيس أساقفة كولون المذكور هذه الكنائس الفخمة، حيث استصفى جميع ممتلكاتهن، حتى يدفع إلى جنوده، وبلغ الأمر حداً أن الرهبان والكهنة قد تفرقوا، ولم يعد لدى القساوسة القلةالذين بقيوا مايكفيهم بالكاد للانفاق على أنفسهم، واستولى على كل ما كان ثميناً من ذهب، وفضة، وجواهر، وملابس غالية، وكذلك على الموارد الغنية، وأخذه، ولكن المحصلة التي نجمت عن هذه الطريقة بالسرقة، إن الحكاية التالية، سوف تظهرها، وعلاوة على ذلك فإن هذا الرئيس للأساقفة، العسكري والمثير للحرب، حصل من البابا على امتياز استخراج مبالغ ضخمة من المال من جميع أرجاء رئاسة أسقفيته، لمتابعة الحرب، وقام بالتحصيل حتى من فقرائها، الذين من المعتقد أن صرخات شكاويهم قد وصلت إلى السماء.

كيف نصب إنسيوس بن فردريك كميناً للبارميين

وفي تلك الآونة نفسها حدث أيضاً، أن البارميين، الذين من أجل مواساتهم ودعمهم في معاداة فردريك أرسل البابا إليهم مبلغاً كبيراً من المال، وقوة من الجند، وقد بعثوا مائتين من الفرسان للدفاع عن إحدى القلاع القريبة من مدينتهم، وهي قلعة كانوا قد بنوها من أجل حماية مدينتهم، لكن انسيوس Ensius ملك سردينيا وابن فردريك، قد جرى تحذيره سرياً من الواقعة قبل حدوثها، فنصب كميناً، وأسرهم وهم غير متيقظين، وعندما كان على وشك شنقهم على مشهد من المدينة، أرسل سكان المدينة رسالة إليه، بأنه إذا ماشنقهم، سوف يشنقون جميع أفراد جيش فردريك الذين كانوا لديهم أسرى، ولذلك لم يشنق انسيوس أسراه،

واحتفظ بهم لبعض الوقت من أجل الفدية أو المبادلة، وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة إلى مسامع البابا، حزن حزناً كبيراً، لأن المال الذي كان قد أرسله إلى سكان المدينة تبدد من دون فائدة.

هطول غير معتاد للمطر

مع بداية شهر حزيران هطل مطر غزير في المناطق القريبة من أبنغدون Abingdon، إلى حد أن أشجار الصفصاف والأشجار الأخرى، والبيوت المجاورة، وجلود الأغنام، والأغنام، وحفر الملح، والطواحين وبيعة بنيت على مقربة من تلك البلدة، جرفتها كل الأنهار الفائضة والمجاورة التي طافت بالماء، وصار القمح والسنابل النامية مع الأرض، ولذلك ظهر أن الخبز سوف يصنع من النخالة بدلاً من الطحين.

التحويل الثاني لجسد القديس ادموند رئيس الأساقفة المعترف

وحدث في هذا العام أيضاً، أن الجسد المبجل للقديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، المتوفى، قد جرى نقله ثانية، وكان غير متفسخ في بونتغناك، إلى تابوت جرى صنعه بشكل جميل من الذهب والفضة، مع جواهر مرصعة به، وكان مثبتاً بوصلات زجاجية، وفي اليوم نفسه الذي أخرج من الأرض، والذي كان اليوم التاسع من حزيران، وكان أيضاً يوم عيد القديسين بريموس Primus وفيلشانوس Felicianus وضع الجسد باحترام، وكان مايزال سليماً لم يتفسخ، وذلك بفضل الحفظ الرباني له، وأنزل في القبر نفسه بحضور حشد كبير من الأساقفة والنبلاء.

كيف حمل عدد كبير من النبلاء الإنكليز الصليب وانطلقوا نحو القدس

وفي حوالي الوقت نفسه استعد للانطلاق عدد كبير جداً من نبلاء انكلترا، كان من بينهم وليم لونغيوسبي Longuespee، وحامل

رايته روبرت دي فيري Vere, وعدد كبير آخر من النبلاء الآخـرين، الذين قـدّر عـددهم بأنه وصل إلى مـائتي فـارس، هؤلاء جميعـاً استعـدوا للانطلاق في رحلتهم نحـو القدس، وبناء عليـه قام وليم الذي كـان قائـد الصليبيين من مملكة انكلترا، بعـدمـا حصل على اذن ومباركـة أمـه النبيلة، والراعيـة المقـدسـة لدير لاكـوك Lacock, من دون أي مـــزيد من التأخير، فانطلق في شهر حـزيران، والتحق بالجيش الفرنسي سليماً ومعافى، واستقبله الملك المسيحي التقي لفـرنسـا، مع رفـاقـه باحترام، وأدرجـه بين أصـدقائـه الخاصين، وشكره لأنه قدم إلى مسـاعدته، والتمس بحـرارة من أتبـاعـه بعدم السماح للتجبر الفـرنسي والحسـد، بإثارة خـلاف بينهم وبين الانكليـز، كما حـدث في أيـام الملك الانكليـزي رتشـارد، ولكن نتيجـة لمؤامرات الشيطان، الذي اعتاد منذ أقـدم الأزمان على الغيرة من نجاحات الناس، فإن الفـرنسيين عندما شـاهدوا فيما بعـد أن الانكليز كـانوا عظماء، وقـد حصلوا على ممتلكات كبيرة، وشهـرة، أصبحـوا غيـورين، ووجهـوا الإهانة إليهم، وأظهـروا سـوء سلوكهم المعتاد، ومـزجـوا ذلك بالاهانات الشنيعة، وبذلك نفذوا كلمات النبي الذي قال:

ما من حاكم يدمر شريكاً بقوته

وأيضاً بالطريقة نفسها، من الممكن القول:

ما من رجل متشامخ يدمر شريكاً

والذي كان أكثـر أن تجبرهم أثار كراهية متبـادلة وحسداً بينهم أنفسهم، وبذلك فإن سيـدهم قـد أعيق كثيراً في تقـدمـه، الأمـر الذي سـوف يجري شرحه بالتفصيل فيما سيأتي.

كيف جرى اخضاع الغسكونيين من قبل ايرل ليستر

وفي حوالي الوقت نفسـه، قام سـيمون دي مونتفـورت، ايرل ليستر إما بتغيير رأيه أو بإلغاء نيتـه بالحـج (لأنه كان قـد حمل الصليب) ومن ثم أقلع

لإخضاع أعـداء الملك في غسكوني، وقد وصل إلى تلك المنطقـة مع قوة كبيرة من العسـاكـر، وكـان مـزوداً بمبلـغ جيـد من الأمـوال الملكيـة، وزحف على الفـور إلى قتـال أعـداء الملـك، الذين تمردوا بشكل خيـاني ضـده، وقـد أخضـع غـاستـون، وروستين Rustein, ووليم دي سولاري Solaires, وجميع النبـلاء الأكثر تميـزاً في بوردو، وقـد تصرف بشـجاعـة كبيرة وباخـلاص استحق عليهما عن جـدارة ثناء وحظوة جميع أصـدقـاء الملك، وقـد قيـل بأنه تصرف مثل أبيـه في جميع المجالات.

أسر إنسيوس المتقدم ذكره من قبل البولونيين

في شهـر أيار من هذا العـام، عنـدمـا كـان إنسيـوس، الابن الطبيعي لفردريك، وملك سردينيـا، في حملة خلال المناطق المجـاورة لبولونا، من أجل إلحاق الأذى بأعدائه، وذلك برفقة بعض الكريمونيين، وأناس من ريغيو Reggio, وكـان البـولونيـون قد أنذروا مسبقـاً بمقـدمـه وباقترابـه، فنصبـوا كميناً، وقـاموا بهجـوم مفـاجـىء عليـه، عندما كـان سائراً من دون حذر أثناء زحفه، وكـان ذلك عند جسر القديس أمبروز Ambrose, الذي كـان قـائماً على منتصـف الطريق بين بـولون وكـريمـونا، وأعقب ذلك صراع عنيـف، مع مقتلة كبيرة، وانهزمت فئة إنسيوس، ووقع هو نفسه بالأسر، مع الأشخاص الرئيسيين في حاشيته، حيث وصل عـددهم إلى حوالي المائتـي فارس، وذلك مع عـدد كبير من الكريمونيين، ومن سـكان ريغيو، وحشد من عامة الجنـد، وقد أخذوا جميعاً إلى بولونا للايـداع بالسجون، حيث أصبحوا تحت إرادة أعدائهم، وجـرت معـاملتهم بوحشيـة وبـلاانسـانيـة، وقـام الأسرى، في سبيل الحصـول على معـاملة ألطف، ولكي يحصلـوا على قليل من الراحـة من قسـوة السجن، فدفعـوا إلى البـولونيين مبلغ ثمانيـة عشر ألف باوند، من النقود الامبراطورية، التي تساوي المبلغ نفسه من النقود الاستيرلينية.

موت ولد آخر لفردريك وحمله هو مريضاً

وفي حوالي الوقت نفسه، مات ولد طبيعـي آخر لفردريك في أبوليا، وهو نفسه لحقه مرض جلدي اسمه «داء الذئبة»، أو النار المقدسة، وهكذا وجد نفسه وقد قهر من قبل كثير من المآسي، فحزن كثيراً من دون مواساة، وبات متذللاً، وفقـاً لكلمات داود: «املأ وجـوههم بالعار، وهم سـوف ينشدون اسمك يارب»، فعرض شروطاً مشرفة للسلام مـع البابا، وفرح البابا كثيراً لمرضـه وضعفه، ولذلك رفض قبـول عـروضه، ونتيجـة لذلك حصل على غضب وسـوء القبـول والنوايا لعـدد كبير من النبـلاء، الذين شرعـوا الآن بمـواساة فـردريك، والوقـوف إلى جانب قضيتـه، رافضين تجبر عبد عبيـد الرب.

كيف جرى إرسال بطرس كبوشي بمثابة نائب بابوي إلى أبوليا

وجـرى في الوقت نفسـه أيضـاً ارسـال بطرس كبـوشي Caboche, الذي كان كـاهناً وصديقـاً متنفذاً لدى البـابا، جرى ارساله مـن قبل البابا، نائباً بابـوياً في أبوليا، مسلحاً بسلطة عظيمـة في مسح الذنوب، حتى يتمكن من سحق فـردريك وأصـدقائـه، وبناء عليـه، تمكن هذا الرجل، مع سلطة متزايدة القـوة، كان قد حصل عليهـا في جميع المناطق، بوساطة إعطاء المال، ومنح غفـرانات كـاملـة من الذنوب، تمكـن من إلحاق الكثير من الأذى بفردريك، واستعاد كثيراً من النبلاء للتخلي عن ولائهم له.

كيف استحوذ الرهبان السسترشيان على مدارس في الجامعات

وفي تلك الآونة أيضاً حصل الرهبان السسترشيـان على امتياز جديد، في سبيل أن لايستمروا موضع استخفاف وازدراء لدى الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان، والرجـال المتعلمين العلمانيين، خـاصـة المحـامين، ورجـال القانون، وفي سبيل هذا الغرض شيـدوا أبنية فخمة لأنفسهم في باريس وفي أمـاكن أخـرى، حيث ازدهرت المدارس، وأرادوا من امتـلاك المدارس، دراسة اللاهوت، والقوانين والشرائع، لكـي لايظهروا أدنى من الآخرين،

لأن العـــالم قــد أصبح الآن أكثــر تيهــاً وتجبراً، وازدرى الديـن والديرة، واستهـدف تجريد الرهبـان ورجال الـدين من ممتلكاتهم، وهكذا إنه بسبب شرور العالم، تعـرض النظام الصارم للرهبنة إلى الوهـن الكبير، لأننا لم نقرأ بأن هذا قد نشأ عن نظام القديس بندكت، الذي —حسب شهادة القديس غريغوري— كان قد تأسس في روح القديسين، والذي هو زيادة على ذلك أننا نقـرأ ونغني عنـه، أنه قـد أهمل الدراسـات الأدبيــة، وقـرر أن يطلب الصحراء.

تتويج بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري

في يوم عيـد جميع القــديسين، جـرى تتـويج بونيفيس رئيـس أسـاقفـة كـانتربري، وسط تشريف عظيـم وأبهة كبيرة، وكـان ذلك بحضـور الملك والملكة، وجميع الأساقفة تقريباً، الذيـن اجتمعوا لهذه المناسبة المهيبة وكانوا كثيراً، وعندما كان الملـك مسرعاً إلى هناك مع حاشيته، أخـذ جون مانسيل Mansel, مستشاره الخاص، وهو مريض مرضاً شديداً، وكان ذلك في ميدستون Maidstone, ذلك أنه كان قد تأثر —كما قيل— بسم دس له، حيث عـانى منه لمدة يومين، وبصعوبـة بالغة جـرى انتزاعـه من أبواب الموت، بفضل العناية الكبيرة للأطباء.

حول انتشار تقارير غير مؤكدة

وترددت في هذه الآونة اشـاعـات، لانـدري مـدى صحتهـا، مع أنه تمّ ارسـال رسائل بليغـة حـول هذه المسألة إلى الملك، وقـد تحدثت عن تحول ملك التتار إلى المسيحية، وهذه الرسائـل التي تقدمت الإشارة إليها، يمكن للقارىء الحريص أن يجدها في كتاب Additaments.

عودة أسقف نورويك من البلاط الروماني

وحوالي هذا الوقـت، عاد وولتر أسقف نورويك من البـلاط الروماني، حيث كان قد حصـل —كما روي— على امتياز مهين، لاستخراج المال من

أسقفيته.

تقرير حول الاستيلاء على دمياط

في حوالي عيد القديس ميكائيل، وبعد ذلك، انتشرت التقارير المفرحة في جميع أرجاء بلدان الغرب وكان أول شخص جلبهم إلى انكلترا هو بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، الذي وصل يوم عيد القديس متى، وأفادت هذه التقارير أن الملك المسيحي التقي لفرنسا، قد نزل على الساحل في قوة كبيرة، وأنه صدّ المسلمين وقهرهم، واستولى على دمياط، ولكي نكون أكثر اقتناعاً بهذه الحقيقة، تلقى ملك انكلترا حولها رسالة، يمكن الوقوف عليها في كتاب Additaments.

اجتماع رهبان الطائفة السوداء

وفي حوالي الوقت نفسه، في يوم عيد القديس كاليكستوس Calixtus, اجتمع رعاة ديرة رهبان الطائفة السوداء —أو حماتهم— في بيرموندسي Bermondsey, حيث جرى ابرام اصلاح بفضل إلهام من الرب من الممكن الوقوف على محتوياته في كتاب Additaments, وقد تمت الموافقة على تلك الاصلاحات بالاجماع، وهناك أمر واحد، هو على كل حال جدير بالملاحظة، وقد ورد في بنود هذه الاصلاحات، أعتقد أنه لايجوز تجاوزه هو أن الملك —مع أنه لم يقدم لهم السماح بفعل ذلك— حصل منهم جميعاً، على وجوب أن يقرأوا يومياً لصالحه ولصالح الملكة، القداس الذي يجري الغناء به يومياً في كنائسهم تشريفاً للعذراء المباركة، وهو الذي بدايته: «أيها الرب، الذي بين يديه قلوب الملوك».

حول الحجرة التي حملت طبعة قدم رجل

وفي هذه الآونة أيضاً، جلب الرهبان الدومينيكان إلى انكلترا حجرة من الرخام الأبيض، كانت موجودة في الأرض المقدسة منذ أيام المسيح، والتي تحمل طبعة قدم مخلصنا عليها، وكأنها كانت قد عملت من شمع طري،

وهي تري بشكل واضح نصف قدم انسان، وبشأن هذه الطبعة أو الشكل، أعلن سكان الأرض المقدسة بأنها كانت طبعة قدم المسيح، عندما كان على وشك الصعود إلى السماء، وذلك بعدما قام بوداع تلاميذه، وكان الهدف من ذلك أن يخلّد لتلاميذه ذكراه، وهم الذين نظروا إليه للمرة الأخيرة على الأرض، ويقال أنه وفق الطريقة نفسها، عمل المسيح أيضاً طبعة عن وجهه، في سبيل أن تبقى ذكراه مرعية على الأرض، وقدم الملك هذه الهدية الفاخرة إلى كنيسة ويستمنستر، مثلما كان قد فعل مؤخراً بدم المسيح.

حول ولادتين غير طبيعيتين

وفي حوالي ذلك الوقت نفسه، وجد في جزيرة وايت Wight, طفل صغير اسمه جون، لم يكن قزماً، بقدر ما كانت أطرافه غير موزعة بشكل صحيح، ومع أنه كان في الثامنة من عمره، لم يزدد حجمه على الاطلاق، حيث لم يصل طوله إلى ثلاثة أقدام، ولكي تثير الملكة دهشة الذين يروه، أمرت بأن يحمل معها بمثابة أعجوبة طبيعية.

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، ولد طفل ذكر في أراضي ايرل هيرفورد، على حدود ويلز، وقد أنجب من قبل الشيطان —كما قيل— ففي اطار نصف سنة، جرى تزويده بأسنان، وقد نما حتى وصل إلى ارتفاع شاب في حوالي السابعة عشرة من عمره، وكانت أمه بعدما ولدته، استولى عليها المرض، وتلاشت حتى ماتت، وكان هذان الطفلان أعجوبتان طبيعيان، أولهما تجاوز الحجم الطبيعي للكائن البشري، ولم يصل الآخر إلى الحجم الطبيعي.

عقد مباراة مقارعة في بريكلي

وعقدت في هذه الآونة مباراة مقارعة في بريكلي Brackley, فيها تعرض عدد كبير من فرسان جماعة انكلترا، الذين اعتيد على تسميتهم الفرسان الأغرار Bachelors, للجراحة، وفي هذه المبارزة التحق

رتشارد ايرل غلوستر، الذي مارس دوماً الوقوف ضد الأجانب، ومساندة قضية الانكليز المحليين، هذه المرة بهؤلاء الأجانب، مما ألحق ضرراً كبيراً بقضيته وشرفه، لأنه بعمله هذا وبتصرفه على هذه الصورة، عانت الفئة الانكليزية من الهزيمة، وفي هذا الصراع تمكن وليم دي بلنسية أخو الملك، بمساعدة الايرل المذكور من إلحاق الهزيمة بوليم دي أودنغسلي Odin-gesseles وجراحته وكان فارساً جريئاً من جماعة الفرسان الأغرار.

تكريس وولتر أوف كيركهام أسقفاً للدرم

في الأحد الأول للميلاد، جرى تكريس وولتر دي كيركهام Kirkham, الأسقف المنتخب لدرم، في يورك من قبل وولتر رئيس أساقفة تلك المدينة، ذلك أنه كان نائبه الأسقفي.

حول الخلافات بين راعي دير ويستمنستر ورهبانه

ونشب في حوالي الوقت نفسه خلاف بين راعي دير ويستمنستر ورهبان ديره، مما سبب فضيحة ومهانة إلى جميع طائفة الرهبان السود، وقد جرت حكاية السبب والتفاصيل بشكل كامل في كتاب Additaments, وتمّ بوساطة تدخل ووساطة من الملك، الذي لديه —على كل حال— رعاية خاصة لذلك الدير، الوصول إلى سلام ووئام من هذا النوع أو ذاك، وأعيد تأسسيه بينهما.

حول خلاف آخر وقع بين راعي دير بيتربورا ورهبانه

ولزيادة سبب الفضائح المتقدم ذكرها، تفجر في الوقت نفسه خلاف بين وليم راعي دير بيتربورا Peterborough وبين رهبان ديره، لأنه على الرغم من توجيه دعوة له حول مايتعلق بانفاقه الأموال في سبيل اغناء أقربائه، وذلك بوساطة عدد كبير من الذين أحاطوا به، وذلك مما سبب خسارة كبيرة جداً إلى كنيسته، هو لم يقم بإصلاح خطيئته، واستاء الرهبان تجاه هذا، فتقدموا بالتماس شكاية إلى أسقف لنكولن، الذي كان دائماً

المرتبـه الكهنوتية، ونتيجـة لذلك،أعطاه أسقف إيـلاي كنيسة درم الغنيـة، التي كانت عائدة الى إرميا، الذي كان كـاهناً للملك قد توفي مؤخراً، وشعر الملك على كل حـال ببغضاء كبيرة نحـو كل من الأسقف المعطي، وروبرت المتسلم،لأن الأسقف لم يقم متطوعـاً، بمنح تلك الكنيسـة الى ايثيار، أخي الملك.

إيرل روجر بيغود يأمر باعتقال كونت غوزني

وفي هذا العام نفسه كـان كونت غوزني Gusne على طريقه خلال انكلترا ليـذهب الى الملك،وسمع الايرل روجـر بيغود بهذه الحقيقـة، فأمـر باعتقـاله،وعندمـا بات الكونت على دراية بهذا الأمـر تقدم بشكوى حـادة حولها الى الملك،ولذلك جرى استدعاء الايرل روجر،وفي اجابة على التهمة قـال بشكل علني للملك: «مـولاي ،عندمـا بعثت الى مـؤتمر ليـون بمثـابة مبعـوث من قبلكم ومن قبل المملكة كلهـا،وكنت مسـافـراً بسـلام خـلال أراضي كونت غوزني، وكنت قد تحملـت الكثير من النفقات، ولقد شعرت متأكـــداً بـأنني لابد مـن أستقبل من قبله مـع بعض التشريف والتكـريم، صدوراً عن احترامـه لكم، ومقابل كثير من الاحسان واللطف الذي غـالباً ما قدم إليـه من قبلنا، وخلافاً تماماً كـان عمله، لأنه لخسارتي ولاهانتي، أو بالحري لخسـارتك واهانتك، أوقـف خيـولي عن متـابعـة سيرها وكـذلك أتباعي، حتى استخـرج أتاوة (أنا لاأعرف لماذا،أو على أية قاعـدة)، وكانت الأتاوة بقـدر مـااختـاره نوابه أن يطلبـوا، كما أنه لم يستثنيني، صـدوراً عن الأدب والاحترام لكم، ولذلك عنـدما جـاء الكونـت الى هذا الطرف من القنال،وكـان مـاراً خـلال أراضي،أنا رددت عليـه،وكـان حقي أن أفعل ذلك،لأنني متملك لأراضي منكم،لأنك مـولاي الملك، وبشكل حر، مثلما هو متملك لأراضيـه من الملك الفرنسي، وأنا مـرتبتي ايرلاً كما هي مرتبتـه كـذلك، فمن أين استمـد حقـه في ممارسـة هـذا النمط من السلب، أي بيع الطرقات والهواء الى المسافرين؟» ولدى سماع كونت غوزني لهذا كان صامتاً

جاهزاً وراغباً في معاقبة الذين يضلون عـن الطريق القويم، ووضعوا أمامه شكوى ثقيلة حول تجاوزات راعي ديرهم.

ولقـد تبرهن بأن الراعي كـان مداناً بما اتهم بـه، وعندما رأى أن خلعـه بات وشيكاً، استقـال، وكأن ذلك جـاء بناء على رغبته، وتخلى عن وظيفتـه الرعـوية وعن مـرتبتها، ووضعهـا بين يدي الأسقف، وبناء عليـه، جـرى منحه شطراً من تلك الـرعوية، حوى عـزبة واحدة، فقـد تمّ تعيينها له، مع أنه لم يستحقها، وذلك من أجل أن يتمكن أن يعيش باستقامـة وكرامة مثل ناسك يمارس أعمال التوبة، وجرى على الفور ارسال وكلاء الملك إلى هناك من قبله، وانكبوا على العمل في سبيل الربح، وكانوا يسعـون لالتهام موارد تلك الرعوية، وشغلوا أنفسهم في سلـب ذلك الدير وتدميره، وعلاوة على ذلك كان الملك غـاضباً جداً، وتطلع نحـو فرصـة للعمل ضد ذلك الدير، لأنه أخبر بأن الرهبان قـد اضطهدوا راعيهم، ولاموه لأنه كان كـريماً نحوه ومؤثراً له، أي نحو الملك.

انتخاب جون أوف كاين راعياً لدير بيتربورا

ثم قـام الرهبـان، حتى يتجنبـوا غضب الملك، الذي كـان يصـادر جميع ممتلكاتهم، قـاموا بناء على رغبتـه وأمـره، فانتخبـوا راضين أو غير راضين، راعيـاً لهم ولديرهـم هو جون أوف كـاين Caen, الذي كـــان رئيس رهبان كنيسة القديس سويثن Swithin في وينكستر، وذلك على الرغم من أنه كـان ينتمي إلى طائفـة أخرى، وكـان أجنبيـاً من حيث الأصل،لأنه كان نورمانديا.

كيف تخلى روبرت باسلو عن البلاط

في يوم الخميس،قبل عيد القديسة لوسيا Lucia قام روبرت باسلو(الذي تقـدم ذكـره مـراراًمن قبل في هذا المجلد) بالتخلي عن البـلاط الكثير التقلبات والتغيرات، وطار ليقطف ثمار حياة أفضل، وقـد جرت ترقيته الى

لشعـــوره بـالخجل، ولم يكن بـإمكانه أن يـرد بأي منطق على هـذه التهم، وعندما وصل خبر اجراءات الكونت الى علم ملك فرنسـا التقي(وحدث هذا بعد أمـد قصير من المؤتمر)، أعطى علاوة سنوية الى الكـونت المذكور، حتى لايتحمل أية خسـائـر مـالية، وأمـر بإلغـاء تلك الأتاوة، لأنها كـانت مهينه، كما أنها كانت مؤذية، لذلك توجب التخلي عنها.

تكريس كنيسة بيوليو

قـام في هذا العام راعـي دير بيوليـو Beaulieu, بتكريس كنيسته بوقار عظيم، بحضور الملك هنري (الذي كـان والده الملك جون قد أسس وبنى هذه الكنيسـة)، مع الايرل رتشـارد —أخيه— وكثير مـن الأساقفـة والنبلاء الآخرين، وقد أنفق على هذا الاحتفال المهيب خمسمائة مارك، لابل أكثـر، لكن الملك، لهذا السبب، لم يوفـره، بل أرغم الراعي المذكـور على أن يدفع إليه غرامة ثقيلة جـداً، لأنه— كما قيل— اقترف ذنباً ضده، فيما يتعلق باحتـلاله لأرض غـابيـة، وعـلاوة على ذلـك، أرسل راعي الدير المذكـور عشرين راهبـاً منتخباً، وثلاثة عشر راهبـاً آخـر، مما سبب خسارة جسيمـة لكنيستـه، أرسلهم ليسكنـوا دير طائفـة السسترشيـان الجديـد، الذي كـان الايرل رتشارد قـد أسسه قـرب وايشيكومب، للوفاء بالنذر الذي كـان قد قطعه على نفسه عندما كان في البحر.

تقارير عن تحول ملك التتار الى المسيحية

وتواتر في هذا الوقت نفسـه وصول أكثـر التقارير سروراً، أي التقـارير التي تحدثت بأن أعظم ملوك التتـار قوة، قد خضع لتـأثير التبشير المتواصل واقناع بطرس الهندي، الذي كـان راهبـاً من طائفة الـرهبان السـود (الذي ورد ذكره مراراً من قبل فيما يتعلق بالرسائل حول التتار)، وأنه قد تحول الى المسيحية، وجـرى تعميده، على الطهارة، والأمـانة، والقداسة التـامة، التي جرى التبشير بها إليه وعلمت له.

وأرسل الملك المذكور أيضاً رسائل مواساة وتأييد، الى الملك الفرنسي، الذي كان مقيما في دمياط،وقد شجعه،وأقنعه بإلحاح على متابعة الحرب ضد المسلمين، وأن ينظف أراضي المشرق كله من دنسهم، ووعده أيضاً بمساعدة فعالة وسريعة، بحكم كونه كاثوليكيا، ومعمداً جديداً للمسيح، والرسالة المتعلقة بهذه القضايا كلها، والتي جرت ترجمتها من العربية الى اللاتينية، والفرنسية، وأرسلت الى الملك الفرنسي، قد قدمت كاملة في كتاب Additaments, وكان الملك الفرنسي مسروراً جداً بهذه الاضافة إلى الإيمان المسيحي، فأرسل إليه بيعته الثمينة، وبعض الآثار الغالية، وأرسل أيضاً بعض الدومينيكان والفرنسيسكان، للحصول على معلومات وافية حول هذه القضية.

وجرى في الوقت نفسه أيضاً، اختراع بعض التقارير الزائفة الأخرى لطمأنة المسيحيين، ولربما لتشجيع الصليبيين على الابحار، والالتحاق بالملك الفرنسي، وقد انتشرت هذه التقارير خلال ممالك هذا الجانب من البحر، وكان الناشر لهذه التقارير والمخترع لها هو أسقف مرسيليا، وبعض مشاهر الداوية، وبما أنهم تولوا الكتابة، وختموا ما كتبوه بأختامهم، كانوا موثوقين أكثر، لكن عندما باتت الحقيقة حول القضية معروفة، تألم الناس بعمق أكثر منهم، وقد ظهر على كل حال ما هو حقيقة بالنسبة إليهم، هو أن المسلمين، ومقدميهم، اشترطوا، بعد الاستيلاء على دمياط وعرضوا بأن يتخلوا إلى الصليبيين عن جميع الأراضي التي كانت من قبل عائدة إليهم، مع اضافات أعظم، شريطة أن يعيدوا إليهم مدينة دمياط، دون أن تتعرض للأذى، ومعها المناطق التي استولوا عليها، لكن تجبر كونت أرتو لم يسمح بهذا، كما لم يقبل بأية عروض تقدم بها المسلمون المتذللون، مالم يسمح للصليبيين بامتلاك دمياط بشكل سلمي، وأن يؤذن لهم بالاستيلاء على الاسكندرية، مضافة إليها، ولم يوافق المسلمون على هذه الشروط الثقيلة بأية حال من الأحوال، ولذلك نعتقد بأن الرب قد غضب، لأن الصليبيين

حين عبروا البحر، فعلوا ذلك لهدف واحد فقط لاغير، وهو تملك ميراث المسيح، ويقال بأن المسلمين تشاوروا فيها بينهم وتحادثوا وقالوا: «انتظروا قليلاً، انتظروا، إن هذا التجبر، وهذا الشره، الذي هو ممقوت من ربهم يسوع المسيح سوف يدمرهم جميعاً»، وهكذا تحولت الأمور، وحدثت الوقائع، حسبما سوف يوضح التأريخ المقبل بشكل كامل.

الموت المؤسف لملك سكوتلندا

في الثالث من تموز من هذا العام، مات الاسكندر، ملك سكوتلندا، وكان رجلاً حكيماً ومعتدلاً، وهو بعدما حكم بعدل، وسعادة، وسلام لسنين طويلة، قام في الجزء الأخير من عمره، وقد أثير بالشره، ولذلك قيل بأنه ابتعد عن سبيل العدل، ففي سبيل أن يجد فرصة تكون متنفساً للتعبير عن غضبه، أبدع وسيلة لغضب عنيف ضد واحد من أعلى نبلاء مملكته اسمه أوين أوف أرغايل Owen of Argyle, وكان فارساً جريئاً ومجرباً، وبما أنه خطط ليحرمه من ميراثه، اتهمه بالخيانة، على أساس أنه قدم في السنة الأخيرة التي مضت الولاء إلى ملك النروج، من أجل استثمار جزيرة عائدة إلى ذلك الملك، وهي جزيرة كان والد أوين المذكور، قد استحوذ عليها من الملك نفسه، وقد تمتع بتملكها بسلام لعدد كبير من السنين، شريطة تقديم مثل هذا الولاء، وكانت تلك الجزيرة قائمة فيما بين أوركني Orkneys, وسكوتلندا، وخوفاً من أوين من تهديدات ملك سكوتلندا، الذي كان مولاه، أخبره بأنه سوف يقدم الخدمة الكاملة المتوجبة عليه، إلى كل من ملك سكوتلندا وملك النروج، وعندما أجابه الملك السكوتلندي وهو مغضب بأن «مامن انسان يمكنه خدمة سيدين»، تلقى جواباً من أوين المذكور، بأن أي واحد يمكنه بشكل صحيح خدمة سيدين، عندما لايكون السيدان نفسيهما متعاديين، وبناء عليه، حشد ملك سكوتلندا جيشاً من أجل القيام بالهجوم عليه، وخشية من أوين من أن يغضبه، رجاه والتمس منه منحه وقتاً يقوم به بالتخلي عن ولائه، وعن

الجزيرة المذكورة إلى ملك النروج، وتم رفض منحه هذا، وظهرت وحشية وجشع ملك سكوتلندا بشكل واضح، ولذلك نال غضب الرب، وغضب القديس كولومكل Columkil, المدفون في تلك الأماكن، حيث هو محل تشريف كبير، كما نال غضب عدد كبير من النبلاء، ثم تحدى الملك أوين المذكور، وطارده بالبحر حتى أرغايل، وكان يحرضه —كما قيل— أسقف غير مستقيم، هو أسقف ستراثيون Strathune, لكي ينتهز فرصه، وكان هذا الأسقف ينتمي إلى طائفة الدومينيكان، لكن لدى مغادرة الملك لسفينته، وقبل أن يتمكن من امتطاء ظهر فرسه، حل به غضب الرب، فأصيب فجأة بمرض مميت، وهكذا فإنه في الوقت الذي أراد أن يجرد انساناً بريئاً من ميراثه، لفظ كل من نفس الحياة ومطمحه.

وفاة هوغ برون إيرل التخوم

وفي العام نفسه، وبعدما نزل الملك الفرنسي في دمياط، تحرر هوغ برون، ايرل التخوم من جميع مشاكله الدنيوية، واستحق هذا النبيل القليل من البكاء عليه، لأنه تآمر بشكل خياني في بواتو ضد ابن زوجته، ملك انكلترا الذي وثق به، إلى حد أنه بعدما بعث إليه للقدوم إلى هناك، باعه بشكل خياني إلى الملك الفرنسي، ومن المأمول أن يكون قد حظي بالفضل فتحلل من هذا الذنب، ومن ذنوب جرائمه الأخرى، في حجه هذا.

موت كونت صنجيل أو طولوز

في هذا العام، ومع اقتراب نهاية الصيف، تراجعت قضية البابا، وأصبحت ضعيفة إلى درجة كبيرة، وبدأ حسن الحظ الذي تمتعت به عند بداية الصراع مع فردريك، بالتغير، علاوة على ذلك، فإن وليم كونت هولاندا، الذي جرت ترقيته في أيام حياة البابا، إلى مرتبة ملك ألمانيا، قد تعرض للهزيمة على يدي كونراد بن فردريك، وقد هرب، وتولى اخفاء نفسه.

وأصيب ريموند كونت صنجيل أو طولوز، بمرض شديد، وكان فارساً شجاعاً ومتفوقاً، وصديقاً كبيراً للبابا، ولأنه كان في خطر عظيم أعاد إلى البابا الأموال التي كان قداسته قد عهد بها إليه، في سبيل شن الحرب على أعداء الكنيسة، وبشكل خاص ضد كونت سافوي، وحين أعادها أعلن بأنه يعاني من مرض شديد ومميت، وأنه كان يتوقع الموت، وأن الذي بقي له هو القبر فقط، ولذلك عمل وصيته بكل فخامة، وأمر بأن يدفن جسده في دير راهبات القديسة ايفرود Evroud, عند قدمي الملك رتشارد الذي كان قريباً له، ومع جسده تبرع بخمسة آلاف باوند من الفضة إلى ذلك الدير.

موت بطرس دي غينور

ومات في العام نفسه أيضاً بطرس دي غينور Geneure, وكان من بروفانس من حيث المولد، ومع أنه كان متواضعاً من حيث الأصل، لكنه كان صديقاً للملك، الذي برهن على مكانته لديه بأعماله، ذلك أنه زوج بطرس المذكور من السيدة النبيلة ماتيلدا Matilda, وكانت ابنة وسيمة لوليم دي لاسي، وحين أعطاه إياها زوجة، أعطاه معها جميع ميراثها والمناصب الشرفية العائدة إليها في ايرلندا، ومن خلال هذه السيدة أنجب صبياً وابنة.

موت المعلم سيمون النورماندي

وفي هذا العام أيضاً، مات المعلم سيمون النورماندي، الذي كان من قبل المستشار الرئيسي للملك والرئيس والحافظ للختم الملكي، وهو وإن كان متكبراً، نال أخيراً غضب الملك، بسبب المسلك الأمين الذي اتبعه، لأنه عندما رغب الملك باعطاء صك إلى توماس، كونت أوف فلاندرز، وكان ذلك الصك مضاداً لكرامة التاج، وكان سيسبب كثيراً من الضرر لمملكة انكلترا، رفض سيمون المذكور التوقيع عليه لهذا السبب، وبهذا التصرف

كـان أميناً ومخلصـاً، وقـد استحق الثناء، وبهذا العمل تحولت أعمال العنف الأخرى التي اقترفها إلى أعمال مسوغة.

وفاة وليم أوف درم

وفي هذا العـام نفسه، مـات في روان المعلم وليم أوف درم، أثناء عـودته من البـلاط الرومـاني، وكان رجـلاً عظيم التميـز بعلمه، وبـوفرة مـوارده الكثيرة، مع أنه تشوق لاستحواذ المزيد، وكـان قسيس الكنيسة الفخمة في ويرماوث Wearmouth, القائمة قـرب البحر، وإثر موته تدبر الملك الأمر بشكل فعال، بحيث آلت كنيسته إلى أخيه ايثيلمار، وذلك من دون أي بحث جرى حول القضية، وقام ايثيلمار هذا بسبب كثرة موارده، خاصة في المناطـق الشماليـة مـن انكلترا، بتعيين مـارتـن دي سينت— كـروكس Sainte -Croix, ليكون وكيله، وكان كاهناً، ورجلاً عاقلاً.

وفاة روجر فتز— جون

وفي العـام نفسه، في حـوالي عيد الشعـانين، مـات واحد من البـارونات النبـلاء لشمالي انكلترا، وكـان اسمه روجـر فتـز— جـون، الذي ترك ولداً صغيراً بمثـابة وريث له، وقـد عهـد الملـك بالمسـؤوليـة عنه إلى وليم أوف بلنسيه، الذي كـان أخوه، مع أن أمـه قد رغبت بشراء الوصـاية على الطفل مقابل مبلـغ ألف ومائتي مارك، وكـان اسم الأم آدا دي بالأويل - Ada, de Baliol وقد نال الطفل اسم ن .N.

وفاة عدد من النبلاء الفرنسيين

عندما كان الملك الفـرنسي يمضي الشتاء في قبرص، غادر إلى الرب عدداً من مشاهير الصليبيين الفـرنسيين، أن نقوم بتعدادهم سيكون الأمـر متعباً، ولاعلاقـة له بالتاريخ الانكليزي، ومات أيضـاً كثيرون أثناء السفر، في البر والبحـر، وكـان من بين الذين مـاتوا هناك على ظهـر سفينة قـرب قبرص، الأسقف النبيل لـ «نويون» Noyon, وكـونت بالاتاين Palatine,

وكان واحداً من الاثني عشر كونتاً (النظراء) لفرنسا، وقد مات أيضاً، أثناء السفر في أفينون Avignon, هوغ دي تشاتليون Chatelion, وكونت القديس بولص وبليو Blois, الذي قتل بوساطة حجر قذف من منجنيق، في أفينون، في الصراع الذي تورط الملك فيه مع سكان ذلك المكان، قبل أن يقلع، وكان ذلك نذير شؤم أنذر باخفاق الصليبيين، لأنه لم يكن في الجيش الفرنسي كله رجلاً أكثر نبالة منه، أو رجلاً أقوى منه في القتال، فقد كان في ركابه خمسين فارساً من النخبة، بمثابة حاملين لأعلامه في المعركة، لكن عندما مات، تفرقوا جميعاً، وتركوا مهملين، وكان الكونت هوغ هذا قد بنى سفينة أنيقة في انفرنس Inverness, في كونتيه موري Murray, وفي مملكة سكوتلندا ليكون قادراً بوساطتها على عبور البحر مع البولونيين Bolognese, والفلمنكيين، والذين يعرفون بشكل عام باسم «رجال أفالتيرا» Avalterre, لكن هذه الاستعدادات قطعت قبل أن تكتمل، مثلما يقطع الحائك النسيج، ومات هناك أيضاً في قبرص جون دي درو Dreux, وكان شاباً عظيم الجرأة في الحرب، وكان زهرة أسرته، ومن أسرة عالية النبالة، وجاء موته نذير شؤم للمستقبل، وإلى جانب هؤلاء، مات نبلاء آخرون من كلا الجنسين، وذلك بعدما تعرضوا للمرض، نتيجة لتغير الطعام والهواء، وهو الذي يخاف منه بسبب الطبيعة، وقد طاروا مثل شهداء إلى الممالك اللاهوتية، وقد رأينا أنه من المناسب أن نتولى ذكرهم في هذا الكتاب، لأنهم ختموا حياتهم بسعادة في سبيل تقدم قضية الكنيسة العالمية، وفي خدمة الصليب.

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ١٢٥٠، هو العام الثالث والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث، فهو قد أمضى عيد الميلاد في وينكستر، حيث احتفل تبعاً للعادة بأعياد ذلك الموسم بوقار عظيم، ففي اليوم التالي للعيد، تناول طعام الإفطار مع وليم، أسقف تلك المدينة، الذي أصبح الآن ضيفه، حيث رغب في منحه

السرور بحضوره، وقد أسرع بعد ذلك بالتوجه إلى لندن، حيث أقام عيد القديس ادوارد، بالوقار المستحق، وحيث دعا إلى هناك بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، الذي أقام قداساً هناك، كما دعا سبعة أساقفة، وعدداً كبيراً من نبلاء المملكة.

ولادة كونتسة كورنوول لصبي

وفي حوالي الوقت نفسه، في اسبوع عيد الميلاد، قدمت سينشيا، كونتسة كورنوول، زوجة الايرل رتشارد، إليه ولداً ذكراً في بيركها مبستد، لتعميده، وقد بعث به الايرل إلى بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، والذي كان عم الطفل، وتلقى المولود اسم ادموند، تشريفاً لادموند المعترف، الذي كان رئيس أساقفة كانتربري من قبل.

موت إرميا مستشار الملك

وخلال أسبوع الميلاد نفسه، مات أيضاً إرميا كاكستون Caxton, وكان كاهناً ومستشاراً خاصاً للملك، وأعطيت كنيسته الغنية على الفور من قبل أسقف ايلاي، إلى روبرت باسلو، على أمل، أن يصبح بعد حياة غير مثمرة طويلة، كاهناً مقدساً.

حول الغرامة الثقيلة التي فرضت على وولتر دي كلففورد

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، جرى اتهام وولتر دي كلففورد Clifford, الذي كان واحداً من الأعظم مكانة بين بارونات الحدود الويلزية، سواء في القوة، أو الثروة، أو الكرم، وجاء اتهامه أمام الملك، بأنه قام متحدياً للملك المذكور، فعامل رسوله بعنف وبشكل غير لائق، وهو الرسول الذي حمل إليه رسائل ملكية، وأرغمه على أن يأكل الرسائل مع الختم، وقد تبرهن أن وولتر هو مدان ومجرم أمام الملك، ولذلك لم يتجرأ على الوقوف أمام المحاكمة، بل ألقى بنفسه على رحمة الملك، وبوساطة ذلك، هو مع الصعوبة نجا من الموت، ومن التجريد من الميراث، غير أنه

فقد حريته وجميع الأموال التي استحوذها، أو كان بإمكانه الحصول عليها، وقد وصل ذلك إلى حوالي الألف مارك، ثم سمح له بالعودة إلى موطنه دون أن يسجن، وذلك بموجب كفالة بعض الضمانات.

إعادة تأسيس السلام بين راعي دير ويستمنستر ورهبانه

وأثناء العيد نفسه ثابر الملك على استخدام جميع الوسائل المتوفرة لسلطته، لإعادة تأسيس السلام بين راعي دير ويستمنستر، والتجمع الرهباني في ذلك المكان نفسه، لأن الفضيحة التي نجمت عن ذلك الخلاف، انتشرت في الخارج، ونشرت عدواها إلى جميع الرهبانيات، في جميع البلاد حقيقة، وجرى إخبار الملك، بأنه قد عرض نفسه إلى الاضطراب، وإلى تحمل النفقات من دون غاية، في إعادة بناء كنيسة ويستمنستر —أي الراعي والقطيع، يعني راعي الدير ورهبانه الديريين— الذي هم الحجارة الحية في مثل ذلك البناء الفخم، على مثل هذه الدرجة من الخلاف، وهكذا أمكن بوساطة تدخل الملك، الذي كان لديه تقدير خاص نحو تلك الكنيسة، أعيد تأسيس السلام، فيما بينهم.

كيف استدعى أسقف لنكولن جميع الرهبان في أسقفيته

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، قام المضطهد الذي لايعرف الكلل للرهبان، روبرت، أسقف لنكولن، بتوجيه الدعوة إلى جميع الرهبان في أسقفيته، للاجتماع في ليستر، في يوم عيد القديسة هيلاري، حتى يستمعوا هناك إلى ولاية من البابا، لأن هذا الأسقف، قد سعى بأقصى ما أمكنه نحو وضع الكنائس وموارد الرهبان في جميع أرجاء أسقفيته تحت سلطته، وهو أمر كان سيسبب الأذى إلى كثير من الناس، ذلك أن تلك الموارد لم يكن لدى الرهبان موافقة عليها من قبل الهيئة الكهنوتية، كما لم يكن لديهم أية وثائق تعطي برهاناً حول القضية، وكان الأسقف، حتى يصل إلى غايته، قد أنفق مبلغاً كبيراً من المال، حيث أرسل كاهنه ليونارد، بمثابة رسول متردد

على روما، إلى البلاط الروماني، وكان هذا البلاط —كما قلت من قبل— مثل خليج، وقد كانت لديه القدرة، وعمل عادة ابتلاع موارد جميع الناس، لابل في الحقيقة جميع ممتلكات الأساقفة، ورعاة الديرة، ومن الممكن الوقوف على الرسائل التي منحت هذا الامتياز إلى الأسقف في كتاب الـ Additaments.

كيف عبر كثير من النبلاء الإنكليز البحر

وفي حوالي الوقت نفسه، أقلع كثير من النبلاء الانكليز، وغادروا انكلترا، لكن سبب اقدامهم على هذا لم يكن معروفاً لدى أي من الناس، وكان من بينهم الايرل رتشارد، وايرل غلوستر، وهنري هيستنغ Hastings, وكان بارونا، وروجر دي ثيركباي Thurkby, وعدد كبير آخر، وكان معهم من الأساقفة: أساقفة لنكولن، ولندن، ووركستر، ومعهم رئيس شمامسة أكسفورد، وبدفورد، وعدد كبير آخر من الكهنة، من أسقفية لنكولن، وسافر الايرل رتشارد خلال المملكة الفرنسية، بصحبة الكونتسة زوجته، وابنه الأكبر هنري، وحاشية كبيرة، وكان محاطاً بمرافقة كبيرة، في أبهة عظيمة، وتألفت المرافقة من خمسين فارساً، مجهزين بجهاز جديد موحد، وكانوا ممتطين لخيول جميلة، تحمل مقاود جديدة، تلمع بالذهب، وكان معه خمس عربات، وخمسين دابة حمولة، وبذلك قدموا مشهداً رائعاً ومشرفاً للفرنسيين الذين شاهدوهم وهم مندهشين، وجرى استقباله لدى وصوله من قبل السيدة الشريفة بلانشي، وذلك بأعلى احترام، وقد عبرت عن بهجتها لدى رؤيتها له، وقدمت له هدايا رفيعة، مثلما يفعل قريب إلى قريبه، أو بالحري كما تفعل أم وتتصرف نحو ابنها المحبوب.

ذهاب أسقف لنكولن إلى البلاط الروماني

وكان سبب عبور أسقف لنكولن للبحر واضحاً إلى الجميع، لأنه، وإن كان رجلاً مسناً، كان يسعى جاهداً لاخضاع جميع الرهبان الذين

استدعاهم إلى طاعة دقيقة له، فهو كان قد دعاهم —كما ذكرنا من قبل— لسماع نص الولاية البابوية، وقد كانوا قد ترافعوا إلى الكرسي الرسولي ضد مظالمه التي لم يسمع بمثلها، وكان رعاة الديرة المعفيين، وكذلك الداوية والاسبتارية، قد ترافعوا جميعاً، ومعهم عدد كبير آخر، وقد تمكنوا من خلال المال، من شراء السلام بشكل عقلاني، وذلك لأنفسهم، من البابا، وذلك وفقاً لكلمات الشاعر الكافر الذي قال:

عون القاضي مطلوب عندما تكون القوانين قاسية

وعندما بات هذا معلوماً لدى الأسقف، وبعد انفاق كبير للمال، ومتاعب بلافائدة، ذهب إلى البابا، وهو آسف ومضطرب، وخاطبه كما يلي: «مولاي، الأب المقدس، إنني قد خجلت لدى هزيمتي في قصدي في تنفيذ ماعتمدت عليه واثقاً بما جاء برسائلك، وبوعودك، وانني الآن أشعر بالخيبة في توقعاتي، لأن أولئك الذين صدقتهم وأخضعتهم، قد مضوا أحراراً، مما سبب الإهانة إليّ والاضطراب»، ويقال بأن البابا قد رد على هذا قائلاً مع نظرة عابسة: «ماذا ألم بك؟ لقد حررنا روحك، وصنعنا لهم معروفاً، فهل عينك شريرة، بسبب أنني جيد؟»، ثم قال الأسقف لنفسه وهو يتنهد: «آه أيها المال، أيها المال كم سلطتك عظيمة، خاصة في البلاط الروماني»، لكن البابا كان قد سمعه، فغدا ساخطاً، فأجابه قائلاً:

«آه منكم أيها الانكليز، أنتم أكثر الناس تعاسة، كل واحد منكم يعض جاره، ويسعى إلى افقار تابعه، كم كان عدد الرهبان الخاضعين لك، مثل الشياه، ومن أبناء وطنك وبلدك، وأنت كنت تسعى بالالتماسات وباظهار الكرم، كما أنك قد بذلت غاية ماتستطيع، في سبيل اشباع طغيانك ونهمك من ممتلكاتهم، وكي تغني آخرين، ربما من الأجانب»، وهكذا غادر الأسقف المهان، وسط صرخات الشتائم من جميع الذين كانوا حضوراً، ولكي لايبدو أنه لم يحقق شيئاً، تولى متابعة القيام ببعض الأعمال الأخرى.

كيف باع كثير من نبلاء إنكلترا مزارعهم

وقام في هذا العام روجر دي مونتهوت Monthaut, وكان واحداً من أعلى النبلاء مرتبة في مملكة انكلترا، بحمل الصليب، وتولى ايجار حصته التي امتلكهـا في الغابـات وفي الموارد الأخـرى في كـوفنتري، إلى رئيس رهبان، ورهبان دير ذلك المكان، على شكل ضمان حر، مقابل مبلغ كبير من المال، في سبيل تزويد نفسـه بالضروريـات من أجل السفـر، كما قـام أيضـاً بتحـويل كثير من ممتلكاته الأخرى إلى آخـرين، وباع بعضها، وكـان كثيراً، بيعـاً كامـلاً، ومثله فعل كثير من النبـلاء الآخرين، في كل من القـارة وعلى هذا الجانب من القنال، وبالإضافة إلى روجـر هذا، تولى عدد كبير جـداً من النبـلاء الانكليـز، والأساقفة، وكـذلك الفـرسـان، حمل الصليب في هذا الوقت نفســه، من أجل رفع شـأن قضيـة الصليب، وكــذلك في سبيل اللـحاق بالملـك الفـرنسي ومسـاعـدته، وكـان مـن بين هؤلاء أسقفي وورسكتر، وهيرفـورد، وايـرلات: ليستر، وهيرفـورد، وغيـوفـري دي لوسي، وروبرت دي قوينسي، وعدد كبير آخر، كانوا كثيرين جداً، لايمكن ذكرهم، وقـام عدد كبير أيضاً برفـض تسلم شارة الصليب بشكل علني، وذلك خشيـة مـن مكر البـلاط الرومـاني، كما أنهم رفضـوا وضعهـا على أكتـافهم، لكنهم عـزموا سرياً بشكـل ثابت، وتعهدوا بمسـاعـدة الأرض المقدسة، بكل ما امتلكوه من تقوى واخلاص.

معاناة البارميين

وفي هذه الآونة نفسهـا ازدادت قوة فردريـك كثيراً جداً، فبعدمـا تمكن من طـرد وليم أوف هولاندا، وسفيره بطـرس كبـوشي، خضـع كثير من النبــلاء إليـه، وقـدمـوا الولاء له، ولذلك تـمّ الضغط كثيراً من قبله على البـارمييــن، وعلى الريجيـانيين Reggians, أيضـاً وكــــذلك على البولونيين، والعصاة الآخرين، وكـان التضييق عليهم قد بلغ حداً، أنهم لم يتجـرأوا على إظهـار أنفســهم بعيـداً عن مـدينتهم، خشيـة الوقـوع في

مصائده، ولذلك فإن تجّار هؤلاء الناس، الذين كانوا بالعادة مليئين بالثروة، باتوا الآن في حالة العوز، بسبب تعطيل أسواقهم، واغلاق الموانيء، وتسكير الطرق، ولذلك شرعوا يرغبون بالسلام مع فردريك، ويمقتون الحرب البابوية، وجرى تحريض الكثيرين على هذا توبة فردريك المستمرة وتواضعه، والترضيات التي قيل بأنه قدمها مصحوبة بإخلاص لائق إلى البابا، لأنه رغب، وبتواضع سأل منحه الاذن بشنّ الحرب ضد أعداء المسيح، وأن يقاتل في سبيل الكنيسة في الأرض المقدسة، لبقية حياته، أو على الأقل، حتى يتمكن بقوة السلاح، من استرداد ما كان متملكاً من قبل الصليبيين في أي وقت من الأوقات، شريطة السماح لابنه هنري —ابن أخت ملك انكلترا، الذي أحبه أكثر من أولاده الآخرين —بأن يحكم الامبراطورية من بعده، وعلاوة على هذا عرض بأن يعيد إلى الكنيسة كثيراً من ممتلكاتها التي كان قد جردها منها، وأن يعوض عليها خسائرها، وعلى هذه العروض أصر البابا بعناد وتمسك بجوابه، بأنه لن يكون من السهل أبداً إعادته إلى وضعه الطبيعي، وهو الذي جرى خلعه وادانته في المجمع المسكوني لليون، وقد أكد كثيرون بشكل حاسم بأن البابا رغب بشدة وتشوق فوق كل شيء، إلى الاطاحة بفردريك، الذي سماه التنين الكبير، وذلك حتى إذا ما تمكن من دوسه بقدميه، ومن سحقه، يمكنه بعد ذلك بسهولة أكبر، أن يدوس على ملكي فرنسا وانكلترا، مع الملوك المسيحيين الآخرين (الذين أطلق عليهم اسم «الأمراء الصغار»، أو «الأفاعي الصغيرة»)، حيث يمكنه أن يتولاهم الرعب من خلال قضية فردريك المذكور، ويمكن بالتالي للبابا أن يجردهم مع أقربائهم من مقتنياتهم ومن مباهجهم، وقد أثارت هذه الأقاويل، مع الأفاعيل الكثيرة، التي تحمل براهين قوية على معاني كلمات البابا، كثيراً من الناس، وأدخلت الخوف في قلوبهم، ومتنت عدالة قضية فردريك، لذلك بدأت قضيته بالتحسن يومياً.

إحصاء ثروة بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري

واجتمع في هذه الآونة أساقفة منطقة كانتربري في اكسفورد، لإحصاء الأموال التي جرى جمعها من جميع أرجاء أسقفياتهم من أجل استخدام رئيس أساقفة كانتربري، ولمعرفة فيما إذا كانت قد وصلت إلى المبلغ المسموح له به، وقد عرفوا هذا من الجباة الذين جرى تعيينهم في كل واحدة من الأسقفيات، لكن رئيس الأساقفة كان قد عيّن عدداً كبيراً أكثر، من أجل حساب جميع النفقات لصالحه، وبناء عليه منحه الأساقفة —مكرهين— الذي طلبه، لأنهم شاهدوا بأن البابا مؤثر له في كل شيء.

كيف طلب الملك المسامحة من سكان لندن من أجل إجراءاته الماضية

في يوم الأحد التالي قبل عيد القديس بيربيتوا Perpetua, والقديس فيليستياس Felicitas, اجتمع جميع سكان لندن، بناء على أمر من الملك، واحتشدوا جميعاً مع أسرهم، لابل حتى مع الأطفال من ذوي الاثني عشر عاماً، في ويستمنستر، في القصر الكبير، الذي يدعى باسم القاعة الكبيرة، وكان عددهم كبيراً إلى حد أن القاعة وكذلك القصر قد غصا بحشود الجماهير المجتمعة، وبعدما اجتمعوا جميعاً، قام الملك بتواضع، وكأن الدموع خارجة من عينيه، فالتمس من كل واحد منهم، لابل منهم جميعاً، في أن يقوم سكان المدينة بفم واحد، وبقلب واحد، بمسامحته من أجل غضبه، وحقده، وضغينته نحوهم، وقد اعترف بشكل مكشوف، بأنه غالباً ما قام هو وعملائه، بإلحاق الأذى مضاعفاً بهم، مع انتزاع ممتلكاتهم بشكل غير عادل والاحتفاظ بها، وخرقه المتوالي لامتيازاتهم، ولهذا طالبهم الآن ورجاهم أن يمنحوه عفوهم، ورأى سكان المدينة أنه من غير اللائق عدم الاستجابة، فوافقوا على طلبه، لكن جاء ذلك من دون إعادة أي من ممتلكاتهم المنتزعة إليهم.

الملك يحمل الصليب ومعه كثير من النبلاء

وتسلم الملك في اليوم نفسه الصليب من يدي بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، وقام رئيس الأساقفة نفسه فيما بعد بمنح ذلك الشعار المقدس إلى بعض النبلاء، وكان من بينهم فتز— نيقولا، قهرمان الملك، ووليم أوف بلنسيه، أخيه [الملك] لأمه، وبوينتز بيبر Pointz Pepper, الذي كان مستشاراً خاصاً به، مع عدد كبير آخر من النبلاء ورجال البلاط، وقام راعي دير القديس ادموند، الذي كان اسمه ادموند أيضاً، أمام سخرية الجميع، فضرب مثلاً سيئاً إلى جميع الرهبان، وسبب الضرر إلى طائفته المقدسة، فخرق كل تعهد، فحمل الصليب أيضاً، وكذلك فعل جون مونسل Maunsel, وفيليب لوفل Lovel, وكانا كاهنين للملك ومستشارين، وكذلك عدد كبير آخر، هم كثيرين جداً حتى نتمكن من ذكرهم، وأقدم بعض المفسرين الأشرار على التأكيد بأن الملك قد حمل الصليب لغرض واحد فقط، هو أن يتمكن لهذا السبب من استخراج المال بالقوة من النبلاء الذين رفضوا من قبل الاستجابة إلى طلبه، والدفع له، وبأن يدفعوا له الآن بحجة الحصول على امتلاك الأرض المقدسة ورفع شأن المسألة الصليبية، لكن الأناس الجديين والأكثر عقلانية تحفظوا بآرائهم حول هذه المسائل، حتى يمكن تفسيرها وبرهنتها من خلال اجراءاته الماضية، لأن المتوجب على العقل الجيد أن يؤثر الأشياء البناءة على القضايا المشكوك بها حتى يتبرهن العكس، وأيضاً من الذي —غير الرب— يعرف ما يفكر به الناس الفانين؟، وكانت أسس هذه الشكوك قد ازدادت من خلال المثل السيء الذي ضربه الملك الفرنسي الذي انتزع من مملكته مبلغاً كبيراً من المال، الذي كان مفيداً قليلاً له أمام أيدي الرب المنتقم، الذي أعاق حجه، والثمار التي جناها من تلك الإجراءات، الرواية التالية سوف تظهرها.

حول القرار الجماعي للصليبيين

في السابع والعشرين من نيسان لهذا العام، اجتمع القادة بين رجال الصليبيين الانكليز في بيرموندسي Bermondsey, في لندن، لعمل الترتيبات من أجل الانطلاق بحملتهم، ذلك أنهم أعلنوا أنهم لن يتراجعوا عن عمل ذلك بسبب الملك، ولقد قدروا في الحقيقة، أنه كان غير مجدياً بالنسبة إليهم إهمال اخلاص أرواحهم، والتخلي عن واجباتهم نحو الرب السماوي، في سبيل خدمة أي ملك أرضي، وبناء عليه حددوا يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ليكون موعد انطلاقهم، وقد أحصي أنه كان في الاجتماع خمسمائة من الفرسان مع أتباعهم، بالاضافة إلى حشد لايحصى من الأعوان، والناس المرتبطين بهم، لأن جميع نبلاء مملكة انكلترا مع عدد كبير من مملكة فرنسا، ممن عملوا استعداداتهم أمام ملك انكلترا، وحملوا الصليب، كانوا يتوقعون هذه الحركة المجيدة، وكان الملك مثله مثل جاسوس متيقظ، لذلك حصل على معلومات مسبقة حول هذه الاجراءات، فكان لذلك قد حصل بوساطة هدايا الأموال، والوعود بتقديم المزيد على الفور، على رسائل من البلاط الروماني، يمكنه بوساطة سلطاتها، تأجيل مغادرتهم حسب رغبته، حتى يتمكن، وهو القائد الرئيسي في بلاده، من المسير مع قوة كبيرة، إلى بلدان ماوراء البحار، فبذلك يمكنه التصرف بشكل أكثر جدوى وسلامة، وعلى هذا ردّ الصليبيون، بأنه سوف يكون من الموائم وأمراً سليماً، أن يقوم الذين حملوا الصليب قبل أن يقوم الملك بذلك، والذين قد زودوا أنفسهم بالخيول، والسلاح، وبالضروريات المحتاج إليها أثناء السفر، بوساطة رهن أراضيهم، وببيعهم الكثير من مقتنياتهم، وودعوا أصدقاءهم، أن يقوموا بالانطلاق، والشروع برحلتهم أولاً، وأن يسيروا قبله، وبذلك سوف يواجهون ويستقبلون بمزيد من إمدادات الطعام، وعندما سيشاهد الأجانب هذا، سوف يقولون: «إذا كان

مثل هذا العـدد الكبير من الناس من ذوي مثل هذه المراتب العليـا، قـد جـاءوا قبل الملك النبيل لانكلترا، علينا أن نتصور كم سيكون عـدد الذين سيرافقـونه ويتبعـونه عنـدمـا سيأتي هو نفسـه؟»، وبذلك سـوف يزداد الاحترام للملك بين جيرانه، وسيتضـاعف الخوف منـه بين أعـدائـه، لكن الرسـائل المهـددة للبـابا، والالتماسـات الملكيـة التي قـام بها الملك، غيرت مقاصـدهم، فبقيوا، ومع أن هذا الاجـراء لم يكن مشكوراً في ذلك الوقت، لقد تحول في هذه المناسبـة فكان فيما بعد لحسن حظهم، ولكن بسبب أنهم لم يذهبـوا إلى مسـاعـدة الملك الفـرنسي، في ذلك الوقت المناسب، كما رغبـوا وتشوقوا، فإن القضية الصليبية، قد وهنت كثيراً لسبب أو لآخر، وتدمرت بشكل غير سعيد.

كيف جرى اخضاع الغسكونيين الذين تمردوا على مولاهم من قبل إيرل ليستر

وأمكن في العـام نفسـه، تدجين غسكـوني إلى أبعـد الحدود، من قبل سيمـون دي مونتفـورت، ايرل أوف ليستر، فقد جـرى أسر غاستـون دي بيارد، الذي كان أقوى أعداء الملك، أو كان واحداً من أكثرهم قوة، وأهين بعد أسره، وبناء على أوامـر من الايرل، ذهب إلى انكلترا، إلى الملك المتأذي منه، الـذي كـان مقيماً آنـذاك في كليرندون Clarendon، ليترجـاه بتـذلل، وليطلب منه العفـو عنه وابقـائـه حيـاً، مع المحـافظة على أطرافـه واقطاعـه، ورمـى هناك بنفسـه كليـة على رحمة الملـك، وليس على حكمـه القضائي، وقـد قوبل بالرحمة منه، مع أنـه لم يستحقها، لأن الغضب الملكي قاهر، وقد ابتعد عن ممارسة انتقامه عندما شاهد بأنه قد قهر أعداءه، وذلك وفقاً لكلمات أوفيد التالية:

ضحيته قُتلت، الأسد بات راضياً

المعركة قد انتهت، وغضبه كله قد تبدد

وبناء عليــه، استحـوذ الملك، مـن خـلال الايرل المذكــور، على بعض القلاع، التي كانت عائدة إلى غاستون المذكور وإلى المتعاونين معه، وقد كان من بينها قلعتي فـرونساك Fronsac, وايغريمـــونت Aigremont, وعـدد كبير آخر، وبعـد تذلله، الذي كـان ظاهرياً فقط، وبوسـاطة تدخل الملكة، التي جعل نفسـه قـريباً لها، استقبل غـاستـون بحظوة كبيرة من قبل الملك، بلغت حداً أنه أعاد إليه تملك أراضيه، ولكن جاء ذلك مرتبطاً بكثير من الشروط الدقيقة، وقـام الايرل المذكور بدراسة سبل تقليـد أبيه في جميع المجـالات، وأن يسير على خطـاه، أو أن يتخطاها، ولذلك ضبط وقـاحـة الرعية التي كـانت عاصيـة على الملك في بوردو، وفي جميع أرجاء غسكوني، حتى أنه أرغم وليم دي سـولاري Solaires, وروستين Rusten, مع رجال آخـرين متجبرين كانوا عصاة ضـد الملك، وأجبرهم على الفرار، أو قام بتجـريدهم من مـواريثهم، أو حكم عليهم بالنفي، كما أنه تولى شنق الكثيرين.

كيف استخرج الغسكونيون بالقوة مبلغاً كبيراً من المال من ملك إنكلترا

ليكن معلومـاً، أنه عندمـا كان الملك في غسكوني، وظـن أنه غادر حـراً وبمشيئته، كان الغسكونيون، وبشكل خاص شعب بوردو، قد شاهدوا أنه كان في وضع حرج، لذلك قاموا قبل أن يسمحوا له بالمغادرة، فاستخرجوا منه مبلغاً كبيراً من المال، كـان مقداره أربعين ألف مـارك، ومن أجل الوفاء بذلك، استخـرجوا منه أيضاً بالقوة عهـده ويمينه، وكذلك صكاً مـدوناً، وبعـد ذلك، قـام الملك إثر وصـوله مبـاشرة إلى انكلترا فـاعتصر هذا المال واستخرجه من الأسـاقفة،وبذلك أفقر انكلترا، وذلك حتى بعدمـا كان قد خسر بواتو، ولذلك بما أنه كـره الغسكونيين، باع خـزانتـه حتى يتمكن من الخلاص.

حول الحملة التي قام بها الفرنسيون ضدّ المسلمين

في يوم الاثنين، قبل أربعاء الرماد، حمل الجيش الفرنسي فجأة، وتقدم بقوة عظيمة من قلعة دمياط، وانقض رجاله على المسلمين الذين كانوا يتولون حصارهم، فقتلوا عدداً كبيراً منهم، وبعدما حصلوا على النصر، عادوا ومعهم أسلابهم، سالمين ومسرورين، إلى المدينة، وأملوا في اليوم التالي بالحصول على حظ طيب مماثل في القتال، ولكن نظراً لتزايد أعداد الأعداء، نالوا السوء من المعركة، وخسروا عشرة أضعاف الأسلاب، التي فرحوا بها أثناء عودتهم إلى المدينة في اليوم السالف، فقد رجعوا وقد غطاهم الدم، وهم مجروحين، ومشوهين، وأعدادهم قد تناقصت كثيراً، وبدأ المسلمون من ذلك الوقت يشعرون بالعزيمة في قلوبهم، وبرفع رؤوسهم عالياً أمام الصليبيين، فأغلقوا جميع الطرقات في جميع أرجاء المنطقة، وفي كل الاتجاهات، بما أن آمال السلطان أصبحت الآن في حال أفضل، جمع غلايين من الاسكندرية، ومن الأماكن الأخرى القائمة على الساحل، ومن كل مكان أمكنه الحصول عليهم، وأمر باقامة مراقبة متيقظة على البحار، وعلى السواحل، وعلى جميع الأماكن التي كانت مفتوحة لجلب المساعدات إلى الفرنسيين، واستخدم المزيد من العناية، حتى يمنع من جلب الإمدادات إليهم.

حول شروط السلام التي قدمها السلطان

وأخيراً جرت بعض المشاورات، وتمّ عقد مؤتمر بين الجانبين، وقد أرسل السلطان رسالة إلى الملك الفرنسي، أنه في سبيل تسوية جميع الخلافات، سوف يكون من المعقول بالنسبة له، أن يتخلى عن مدينة دمياط مع امداداتها، التي تدعى عادة باسم «حواصل الحبوب»، ومقابل ذلك سوف يعاد إليه جميع منطقة القدس مع الأسرى الصليبيين بشكل سلمي، وقال أيضاً إن على الملك الفرنسي أن لايطمح أو يتطلع إلى أي شيء أكثر من إعادة الأرض المقدسة إلى الصليبيين، وعلى هذه الخطة، وافق وقتها

كثير من الصليبيين، خاصة ذوي المراتب المتوسطة والمراتب الدنيا، الذين كانوا في حالة عوز، لابل وافق عليها حتى النبلاء، وأعلنوا عن رضاهم، وقالوا صحيح بأن عروض السلام هذه كانت متواضعة، إنه إذا لم يتم الموافقة عليها، فإن تجبر النبلاء سوف يلحق الأذى بالجيش كله، ولدى معرفة الملك، كان ميالاً للأخذ بهذه النصيحة، لولا أنه عورض بعناد من تجبر وتشامخ كونت أرتوي، الذي أصر على المطالبة بالاسكندرية، بالاضافة إلى ماتقدم، غير أن السلطان ما كان بأي حال من الأحوال، يقبل بالتخلي عن تلك المدينة إلى الصليبيين (لأنها كانت أكثر المدن فخامة، ومقصد جميع التجارات الشرقية والجنوبية)، كما أعلن أنه لاأهل الاسكندرية ولا المصريين سوف يرضون بذلك.

كيف ماتت أعداد كبيرة من الفرنسيين بالجوع وبالسيف

بدأت أحوال الفرنسيين، الذين كانوا محاصرين من جميع الجهات، الآن بالتدهور بدرجات عالية جداً، لأن الذين كانوا بالعادة نظيفين ولطيفين في طعامهم وشرابهم، قد أرغموا الآن على أكل طعام غير نظيف ومكروه، كما أنه لم يكن بإمكان فردريك، أو أي أمير مسيحي من البلدان المجاورة، مساعدتهم، ولكي نجمل الأمور ونصفها باختصار، لقد كان الضغط عليهم بالنسبة للأطعمة قد وصل إلى حد، أنهم أرغموا أثناء الصوم الكبير حتى على أكل خيولهم الثمينة، التي كانت ضرورية جداً إليهم، ولقد كان هذا مشهداً محزناً، والذي كان أكثر سوءاً، هو أن خلافاً وكراهية قد تفجرا بين النبلاء وبين الصليبيين البلديين [البوليان]، لأن النبلاء رفضوا بعناد شروط السلام المنطقية التي جرى عرضها، وعلاوة على ذلك كره المسلمون رعونة الصليبيين وعنادهم، فزادوا من قوة تحالفهم، وضغطوا عليهم بشدة أكبر من ذي قبل، ولذلك قام عدد كبير من الصليبيين منذ ذلك الحين، بسبب المصاعب، فتركوا القلعة والمدينة سراً، والتحقوا بحشود المسلمين، وفق شروط معتدلة، ووقفوا بشكل مؤثر وفعال ضد

بني قومنا، ذلك أن المسلمين استقبلوهم بسرور، وزودوهم بالأطعمة، في الوقت الذي كانوا يسقطون به من الجوع، وعينوا لهم مايكفي من الطعام يومياً، ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من هؤلاء الصليبيين الفارين حافظوا على إيمانهم وشريعتهم، بسبب اعتدال المسلمين وتسامحهم، غير أن بعضهم قد ارتدوا، والتحقوا بدنسهم، وأكدوا ذلك بتقديم الولاء لهم، وجرى تزويد هؤلاء بثروات واسعة، مع زوجات وقلاع، وجرت ترقيتهم إلى كثير من مراتب الشرف، وسبب هؤلاء أضراراً قاتلة إلى الصليبيين، فضلاً عن أنهم كشفوا عن أسرارهم وعن خططهم إلى أعدائهم.

كيف أصبح عدد كبير من الفرنسيين مرتدين

بات العوز الشديد للصليبيين معروفاً تمام المعرفة لدى السلطان، بوساطة هؤلاء المرتدين، فأرسل رسالة سخرية قاسية إلى الملك الفرنسي يسأله لماذا جلب معه في مراكبه إلى الشرق: مساحي، ومذاري، وعربات، ومحاريث، وأنواع أخرى من أدوات الفلاحة، التي لم يعرف كيف يستخدمها، ذلك أنها سوف تتلف بالصدأ؟، وقد أوضح أنه إذا ماأصبح الملك الفرنسي صديقاً له، سوف يجد كثيراً من الزاد يصل إلى جيشه أثناء إقامته هناك، من نوع القمح، والخمرة والزيت، واللحم، وقاوم الملك —ليس من دون حزن شديد— جميع إغراءات أعدائه، وبحكمة أخفى جرح قلبه، تحت ملامح هادئة.

موت السلطان

وإثر ذلك مباشرة مات السلطان، حيث يقال بأنه سمم من قبل حجابه، لأنه بات مكروهاً لدى قومه، ولدى قادته جميعاً، ولدى جيرانه، لأنه كان متجبراً، وشرهاً، وغير عادل نحو الجميع، ولدى سماع الصليبيين بهذه الواقعة ابتهجوا كثيراً، مع أنه توجب عليهم الحزن، لأن كثيراً من المسلمين تظاهروا فقط بالوقوف إلى جانبه، في حين كانوا قد أغضبوه بكراهيتهم

المخفية، ومالبث بعد ذلك أن جرى تعيين سلطان جديد في مكانه، وامتلك هذا السلطان نوايا طيبة نحو جميع شعب الشرق تقريباً، وتابع هذا الرجل النشاط الحربي ضد الصليبيين، لابل بشدة أعظم من سلفه، ورفض تمام الرفض أن يمنحهم عروض السلام، التي سلف منحها، والتي تمناها جميع الصليبيين وطلبوها، وبدأت أحوال الصليبيين منذ ذلك الحين بالتدهور بدرجات عالية، وباتت سمعتهم متدنية وكذلك احترامهم، في أعين شعب الشرق.

كيف تلاشى إيمان الكثيرين

وبناء عليه، بدأ كثيرون ممن لم يكونوا أقوياء في إيمانهم، يذعنون أمام اليأس، ويعبرون عن ذلك بتجديفاتهم، وتبددوا من خلال الجوع، ومؤسف القول إن إيمان الكثيرين بدأ يتلاشى، لأن أحدهم قال للآخر: «لماذا تخلى المسيح عنا، نحن الذين نقاتل هنا من أجله ومعه؟ فغالباً في أيامنا هذه ماهزمنا، ووضعنا في حالة من الفوضى، وأعداؤنا —في الحقيقة أعداء المسيح— منتصرون علينا ومجدون في دمائنا، وفي الأسلاب التي أخذوها منا، وكان ذلك في المقام الأول عندما جرى تطويقنا بفيضان النيل، وفي دمياط، التي أرغمنا على التخلي عنها، وهي المدينة التي حصلنا عليها مقابل الكثير من الدماء، ومجدداً جرت هزيمة فرسان الداوية المشهورين قرب أنطاكية، وتمّ تفريقهم مع خسارة حامل رايتهم، الذي جرى اعدامه، ومجدداً كان قد حدث قبل عدة سنوات مضت، أن هزمنا من قبل المسلمين عند قيسارية، بعدما كان قد جرى انقاذها من قبل الايرل رتشارد الانكليزي، فبعد ذلك بأمد قصير، جرى تمزيق جميع الصليبيين تقريباً، إلى مزق من قبل الخوارزمية، الذين لوثوا، ودمروا جميع الأماكن التي تدعى مقدسة، والآن، إن ماهو أسوأ من كل شيء، هو أن ملكنا المسيحي التقي، والذي أقيم من الموت بشكل إعجازي، بات الآن معرضاً لمخاطر مهينة واضحة، ومعه جميع نبلاء فرنسا، وصار الرب وكأنه عدو لنا، والرب

الذي كـان بالعادة يدعى رب الحشـود، هو الآن، وياللأسف، مـزدرى من قبل أعدائه، وبحكم أنـه قد هزم مراراً، ماالذي أفادنا اخـلاصنا؟، وماهي الفائـدة التي نلناها من صلوات رجـال الدين، ومن اعطاء الصدقـات من قبل أصدقـائنا؟، فهل ياترى شريعة محمـد (صلى الله عليه وسلم) خير من شريعـة المسيح؟»، وهكذا ترددت كلمات التجـديف وسمعت من ضعفـاء الإيمان، وبدا أن الصوم الكبير، هو وقت للعقوبة، أكثر منه وقت للتوبة.

تدهور أحوال الإمتيازات الكنسية

وحدث في العام نفسه، أن قـام أسقف لنكولن بتجريد واحد من الكهنة في أسقفيتـه، اسمـه رالف، من منفعتـه، بسبب أنه اتهم بالفجـور، ومع أنه رفض —على الرغم من إدانته— التخلي عن المنفعة، جرى حرمانه كنسياً، وبعـدمـا مكـث الكاهن الآن لمدة تزيد على أربعين يـومـاً تحت الحرمـان الكنسي، أرسل الأسقف رسـالـة إلى عمـدة روتلاند Rutland, حيث سكن الكاهن، وعـاش في ظل سلطانه القضـائي، وطلب منه اعتقـاله، وادخـاله السجن، بحكم كونه متمـرداً، غير أن العمدة الذي كـان صديقـاً كبيراً لرالف المذكـور، إمـا قـام بتأخير ذلك، ورفض تنفيـذ الطلب، لأنه لم يكن صـديقـاً للأسقـف، لأن سينكا يقـول: «الـذي يجري تأخيره لوقت طويل، يرفض لوقت طويل»، وبناء عليه، عندمـا شاهد الأسقف الكراهية الخفية للعمـدة، قام بوقار فحرمـه كنسياً أيضاً، وبناء عليه قـام العمدة وهو مغضب ويشعـر بالإهانة، فتقـدم بشكوى ثقيلة أمـام الملك حـول هذه القضيـة، وعندمـا سمع الملك بهذا هو ورجـال بلاطه، أثيروا جميعـاً كثيراً، وأجـاب الملك وهو حانق، وأرفق أجـابته بقسم عظيم قـائلاً: «إذا قـام أي واحد من شعبي بجعل نفسه عـرضة للتغريم من قبل هذا الأسقف، أو من قبل أي واحـد آخر، يتـوجب عليه تقـديم الشكوى إلينا، لأنه يبـدو وكأنه ينظر إليّ نظرة ازدراء»، وبنـاء عليـه أرسل رسـلاً خـاصين إلى البـلاط الروماني، وتمكن بوساطة المال، من الحصـول بسرعة على الامتياز الوارد في

الرسالة التالية، مما ألحق الضرر بالحرية اللاهوتية.

رسالة البابا

«**من أنوسنت الـرابع، إلخ، إلى ابنه المحبـوب، راعي دير ويستمنستر في لندن، تحيات:** لقـد وافقنا عن طواعيـة على رغبـة ولدنا المحبـوب كثيراً في المسيح، صاحب السمو، ملك انكلترا المشهور، حتى نظهر أنفسنا محابين له ومؤثرين، في القضية التي طلبها منا بشكل عادل، حيث أنه قد وقع، حسبما روي لنا باسمه، بأن بعض رجال الدين والأسـاقفة، قاموا من أجل تسبيب الأذى للملك المذكور، بإرغام نواب مملكته على الترافع بقضاياهم أمامهم، وحسب هواهم، وذلك في القضايا، العائدة إلى القضاء الملكي، وقد تفوهوا بقرارات الحرمـان الكنسي ضدهم، إذا لم يفعلوا ماطلبـوه منهـم، واستجابة منا لالتماسـاته، وبموجب سلطات رسـالتنا هذه، رأينا من الموائم، أن نمنع أي رئيس أساقفة، أو أسقف، أو أي قسيس آخر في تلك المملكة، من القيام بارغام أي واحد من نوابه، على الترافع بقضاياهم أمامه، في القضايا العائدة إلى العـدالة الملكية، أو القيـام لهذا السبب بالتفوه بأي حكم ضـدهـم، وبناء عليـه نحن نأمــركم بهذه الرسـائل الرسـوليـة، أن لاتسمحـوا بمـوجب اخـلاصكم، أن يجري اغضاب الملك المتقـدم ذكره بشكل غير مـوائم، من قبل أي واحد من جماعتكم في هذه القضايا، وذلك معارضة لمقصد حظرنا، فـاعل الشر، إلخ، إلخ. صـدر في ليـون في التـاسع من آذار الحالي، في السنة السابعة لحبريتنا».

وفعل الملك هـذا، لكن ليس من دون الحصـول على مـلامـة الناس العقلاء، لأنه اشتكى إلى البابا حول هذه القضية.

عودة الإيرل رتشارد

في يوم الاثنين التالي قبل أسبوع الابتهالات، وصل الايرل رتشارد عائداً من البـلاط الرومـاني، ولدى وصـوله إلى لندن، استقبل بكل تشريف

واحترام، في سبيل أن لايكون الاحترام المبدى نحوه هنا ليس أقل مما أبدي نحوه في القارة، لأن السيدة بلانشي قدمت إليه كل الاحترام الذي كان بمقدورها، وفتحت صدر فرنسا كلها له، وبات معروفاً لدى الجميع، بناء على رواية الايرل وروايات أتباعه، درجة التشريف العظيم التي أضفاها البابا عليه، لدى وصوله إلى ليون، ذلك أنه لدى اقترابه من تلك المدينة، جرى استقباله من قبل جميع الكرادلة والكهنة التابعين للبلاط الروماني، حيث بقي مع البابا كاردينال واحد وعدد قليل من الكهنة، وبالنسبة إلى أتباعه، والناس الذين جاءوا لاستقباله، كان هناك ضغط شديد، وحشد كبير للرجال والخيول، ولقد كان عدد حاشيته، وفخامة عتادها، وخيول تحميله كبيراً جداً، إلى حد أن سكان المدينة، وكذلك الذين جاءوا إلى البلاط الروماني لتأدية الأعمال، كانوا مندهشين لوصول مثل هذا الأمير العظيم، ولدى دخوله إلى البيت نهض البابا من مقعده، وذهب إلى استقباله، حيث حياه، وباحترام مليء بالبهجة استقبله معانقاً، ثم قام وهو هادىء الملامح، فسأله تناول طعام الافطار معه في ذلك اليوم، ووافق على هذا الايرل راغباً، وجلس إلى المائدة إلى جانب البابا، وكان رتشارد ايرل غلوستر قد أجلس بعيداً بعض الشيء، ثم إنهم انشغلوا بالمشاركة بالمائدة، بشكل موافق وأديب، وقاموا بالأكل والشرب ومزجوا ذلك بأحاديث ودودة، وذلك وفقاً لعادات الفرنسيين والانكليز، وبعد ذلك عقدوا كثيراً من المحادثات السرية والطويلة فيما بينهم، خاصة وسط كرم عظيم وغير معتاد للبابا، وفي نهاية نيسان، بعدما قدم الايرل رتشارد احتراماته إلى القديس ادموند المعترف في بونتغناك، عاد مسروراً إلى انكلترا، كما تقدم الذكر أعلاه.

حول مختلف الآراء التي جرى تداولها حول مؤتمر البابا مع الإيرل رتشارد

انتشرت آراء مختلفة، وتخمينات متنوعة حول هذا المؤتمر الطويل والودود وحول غاياته، وأكد كثيرون بأن البابا قد رغب بأن يقوم الايرل

رتشارد بضبط وقاحة الاغريق، وإعلاء شأن قضية إعادتهم إلى الحكم الروماني، ذلك أنه قد عرف أنه كان نهماً وطموحاً، ووافر الثروة، ولذلك أراد هذا البابا استخدامه لهذا الغرض، ولم يتردد آخرون عن الاعلان بأن البابا قصد بشكل مدروس الحصول على مساعدة الايرل، لكي يستقبل بتكريم في انكلترا، متى أراد القدوم إليها.

كيف اشترى الإيرل رتشارد رئاسة رهبان أحد الديرة

وعندما كان الايرل عائداً عبر دير القديس دينس، دفع إلى راعي دير ذلك المكان مبلغاً من المال لشراء إحدى رئاسات الرهبان في انكلترا، كانت عائدة إلى كنيسة القديس دينس، وكانت هذه الرئاسة تعرف باسم [دير] هيرست Hurst [Deer], وكانت واقعة قرب غلوستر، وكان آنذاك يعيش فيها بعض الرهبان، وكان عائداً إلى هذه الرئاسة ثمان قرى غنية، ولذلك كانت كنيستها تساوي ثلاثمائة مارك سنوياً، مع حديقة وملاحق، وكان كل مارك يساوي ثلاثين شلناً في المصرف، وقد حصل على ابرام هذه الصفقة والمصادقة على الشراء في البلاط الروماني، وبعد وصوله إلى انكلترا قام على الفور بطرد الرهبان، ودمر المباني، وأدخل الرئاسة في ممتلكاته، وبعد هذا لم يعد يخاف من أي من جيرانه، خاصة الرهبان، واعتماداً منه على حماية البابا، بعثر كل شيء حسب رغبته، وبذلك بدأت أحوال الكنيسة تزداد سوءاً يومياً، كما أنه عزم على بناء قلعة هناك على نهر سيفيرن Severn.

حول معجزة عملت بذراع القديس إدموند المعترف

في هذا العام نفسه، كان رهبان بونتغناك، إما أنهم قد تعبوا من الوصول المستمر للحجاج، وبشكل خاص النساء الانكليزيات (لأنه لم يكن مسموحاً لأية امرأة أخرى أن تفعل ذلك) اللائي تدفقن على شكل حشود، على قبر القديس ادموند، أو أن هؤلاء الرهبان قد أثيروا بالجشع —وهو

أمر مرعب أن تذكره— فأقدموا على عمل طائش، بأن بتروا الذراع الأيمن للقديس، غير أنهم بقيامهم بهذا الإجراء، لم يتمكنوا من منع أعداد الحجاج، من كلا الجنسين، من التدفق على شكل حشود لرؤية الجسد ولتعبده، وهكذا كانوا قد هزموا بجدارة في مقاصدهم، وعلاوة على ذلك، إنه بسبب ما بدا أنه نقص في الإيمان، قاموا إما بسبب الحاجة إلى الثقة، أو صدوراً عن الجبن، وأيضاً (باستثناء الاحترام المستحق لطائفتهم) صدوراً عن العوز في الإيمان والفقر فيه، أقدموا على تحنيط جسد القديس بالزيت، وهو الجسد الذي حفظه الرب حتى الآن سليماً، وحدث أن أي جزء من الجسد قاموا بتحنيطه قد تحول إلى لون قبيح جداً، ولذلك تكدست الملامة المتوالية على رهبان بونتغناك، وفي الحقيقة على جميع الرهبان السسترشيان، وفي الواقع حزن كثيرون بسبب أن مثل ذلك الجسد المبجل قد وضع في كنيسة عائدة إلى السسترشيان، مقدرين كيف أن أجساد القديسين كانت محروسة بكل احترام في كنائس رهبان الطائفة السوداء، آه من العمل الطائش، فالذي حفظه الرب سليماً ودونما اهتراء، تجرأ الانسان على تشويهه، لامثلما فعل الملك الفرنسي التقي، عندما كان على وشك الانطلاق في حجه، حيث أجاب عندما جرى عرض جزء من الجسد ليمنح إليه قائلاً: «إنه لايسرني أن يجري تشويه ماحفظه الرب سليماً، من أجلي»، آه كم الحاجة ملحة لإعادة الإيمان! فالذي حفظه الرب سليماً دون اهتراء، وجميلاً، حنطه هؤلاء الرهبان بالزيت، واعتقدوا أنهم سوف يحفظونه بشكل أفضل بوساطة هذا الدهن، ولذلك تغير لون الجسد، وصار مثل لون الأرض، وغضب الرب محقاً، حيث بدأ يجعل وقوع المعجزات أكثر ندرة، مما كانت عليه من قبل، عندما كانت تحدث هناك باستمرار، ولذلك بات احترام الرهبان السسترشيان وأساقفتهم وكهنتهم أدنى في أعين النبلاء، ومن المعتقد بأن هذا قد وقع بمثابة نذير سوء إلى جميع المسيحية.

كيف وضع الملك قيوداً على ضيافة مائدته

وابتعد في هذا العام الملك بشكل مخجل عن سبيل أسلافه، فأمر بانقاص نفقات بلاطه ومعها التسلية المعتادة لضيافة مائدته، ومع أنه سوغ عمله هذا، إلاّ أنه جلب على نفسه تهمة الجشع، كما أمر بإلغاء كميات الصدقات المعتادة، ومعها أعداد الشموع في كنائسه، وعلى كل حال إن الذي يستحق عليه المديح هو أنه قام بعقلانية بتحرير نفسه من الديون، التي كان متورطاً بها نحو عدد كبير من التجّار.

حول الغرامة التي فرضت على اليهود

أصبح الملك في هذه الآونة ظمئاناً، ومتعطشاً بنهم، وقد ألقى جانباً كل رحمة، فأمر باستخراج المال من اليهود، إلى درجة ظهروا فيها أنهم باتوا فقراء بشكل دائم، لأنه استخرج منهم كل الذي كان في صناديقهم، وهؤلاء مهما كانوا تعساء، هم لايستحقون الشفقة، لأنه تبرهن مراراً أنهم قد أجرموا في تزييف النقود، وفي تزييف الأختام أيضاً، وعلى الرغم من سكوتنا على بقية جرائمهم، نعتقد أنه من الموائم ذكر حقيقة واقعة واحدة تتعلق بهم، حتى تظهر شرورهم وتكون أكثر وضوحاً للمزيد من الناس.

حول جريمة اقترفت من قبل بعض اليهود

كان هناك واحداً من اليهود العاديين غنياً، وكان اسمه ابراهيم، لكنه لم يكن مثل ابراهيم بالإيمان، وقد امتلك بيتاً ومنتجعاً في بيركهامبستد، وولنغفورد Wallingford, وكان لسبب غير مناسب أو لآخر —كما قيل— مقرباً من الايرل رتشارد، وكان لهذا الرجل زوجة جميلة، وكانت مخلصة له، وكان اسمها فلوريا Floria, وفي سبيل أن يكدس المزيد من الإهانات على يسوع المسيح، اشترى تمثالاً للعذراء المباركة، محفوراً بشكل جميل ومطلي، وكما هي العادة، كانت تحتضن ابنها وتضمه إلى صدرها، ووضع اليهودي هذا التمثال في خلائه، وأقدم على عمل مهين

وبشع أن تتولى ذكـره، حيث أقدم بشكل شنيع جداً بالنسبة للعـذراء مريم، بأن عـاملها بقـذارة، ولوثها بـالدنس والفضـلات ليـلاً ونهاراً بشكل متواصل، وهو عمل من الصعب ذكـره، وجعل زوجته تفعل الشيء نفسه، ولكن بعـد مضي عـدة أيام، عندما رأت زوجتـه هذا، تحركت عـواطفهـا بسبب طبيعتها الانثـوية، وشعرت بالأسف ومضت بشكل سري إلى ذلك المكان، وغسلت من القاذورات وجه التمثال، الذي كان ملوثاً بشكل كبير جـداً، ولكن عندمـا اكتشف زوجها اليهـودي هذا، خنق زوجتـه بشكل فـاجـر، ولدى الكشف عن هذه الجرائم، تبرهـن أنه مجرم بهم، ومع أنه لم تكن هناك حاجة لبراهين أخرى لإعدامه، ألقي به في أكثر الزنزانات قذارة في برج لندن، ووعـد في سبيل الحصـول على اطلاق سراحـه وتعهـد بأن يبرهن بأن جميع اليهود في انكلترا خـونة منحطين، وبناء عليه أثيرت دعوى تهمة ثقيلة ضده من قبل جميع يهود انكلترا الآخـرين تقريباً، وبما أنهم سعوا إلى إعـدامـه، تكلم الايرل رتشـارد لصـالحه، وعندها اتهمـه اليهـود بقص النقـود، وبجـرائم أخرى ثقيلة، وعـرضـوا على الايرل رتشـارد مبلغ ألف مـارك حتى لايحميـه، وقد رفض قبـول ذلك، لأن اليهـودي —كما قيل— كـان صديقـاً له، ثم أعطى هذا اليهـودي، الذي اسمـه ابراهيم، إلى الملك، سبعمائة مـارك، ليحرره من السجن المؤبد، الذي حكم به عليـه، وتمكن من الحصول على ذلك بمساعدة الايرل رتشارد.

كيف جرى إرسال رجال عدالة
لفحص كميات المال العائدة إلى اليهود

وفي حـوالي هذا الوقت نفسه، أرسل الملك رجـال عدالة لإجـراء بحث وتحقيق حـول جميع كمية المال العـائدة إلى اليهـود، على شكل ديون عائـدة إليهم، أو نقـود هي بالفعل بحـوزتهم، وأرسل معهم أيضـاً يهودياً منحطاً وبلا رحمة، من أجل أن يقوم باتهام جميع البقيـة، حتى ولو مقابل ثمن تجاوز الصـدق، ووجـه هذا اليهـودي النقـد إلى جميع المسيحيين، الـذين أسفـوا

وحزنوا لما عانى منه بني جلدة هذا اليهودي، وأطلق على وكلاء الملك صفة المتهاونين والضعفاء بلا فعالية، وكشر بأنيابه غاضباً تجاه كل واحد منهم، وأعلن —مصحباً إعلانه بأيمان مغلظة— بأنه كان بإمكانهم اعطاء الملك ضعف الذي أعطوه إياه، مع أنه كذب بذلك، ومع هذا عمد حتى يزيد من أضرارهم، فأباح أسرارهم يومياً إلى وكلاء الملك المسيحيين.

موت واحد من الأرمن في إنكلترا

في تلك الآونة، قدم إلى انكلترا بعض الرهبان الأرمن، الذين طردوا من ديارهم، نتيجة لما قام به التتار من دمار لها، وقد وصلوا إلى انكلترا من أجل الحج، ولدى وصولهم إلى سينت ايف Ives, أصيب واحد منهم بالمرض في تلك المدينة ومات، وقد دفن بشكل مشرف قرب نبع سينت ايفو Ivo, وهو نبع قيل بأن مياهه قد امتلكت فضائل كثيرة، وكان الرهبان المذكورين يتمتعون بحياة مستقيمة جداً، واعتدال مدهش، حيث كانوا يمضون وقتهم كله بالصلاة، وكانت ملامحهم بسيطة وهادئة، وكانت لهم لحى، وكان الراهب الذي مات هو رئيسهم، وكان معلماً، وكان كما هو معتقد، رجلاً مقدساً جداً، وأسقفاً، وبدأ الآن بالتميز بصنع المعجزات.

حول مبلغ المال الكبير الذي أرسل إلى الملك الفرنسي

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل مبلغ كبير من المال، لمساعدة الملك الفرنسي، الذي كان في ضائقة شديدة، وكان مقيماً في معسكره، المنصوب حول دمياط، وكان هذا المعسكر محاطاً بالخنادق، لكنه كان في حالة عوز، ويفتقر إلى المؤن، وكان معرضاً للحملات ليلاً ونهاراً، وكان عليه تحمل الهجمات التي عملت بوساطة كمائن كان فيها أعداد لاتحصى من المسلمين، كانوا يطوقون المناطق الجبلية المجاورة، مع أنه لم تكن هناك حاجة إلى حراسة متيقظة أثناء الليل، وفي سبيل حراسة المدينة، وضع فيها خمسمائة فارس، مع كتلة كبيرة من الجنود الرجالة، الذين بقيوا هناك مع النائب

البـابوي، والأسـاقفـة، والملكة، وبعض السيـدات النبيـلات الأخـريات، وأرسل كميـات كبيرة من الأمـوال على شكـل طالن، ونقـود استيرلينيـة، ونقـود كـولونيـة مجازة (وليس مـن الأمـوال المنحطة للبـاريسيين، أو أهل تور)، وحملت الأمـوال على احـدى عشرة عربة، وكـل عربة جـرها أربعـة خيـول قوية، وحملت أقصى مـايمكن أن تحمل، وبالاضـافة إلى العـربات، كـانت هناك بعض خيـول التحميل، على ظهورهـا جرى حمل الأمـوال إلى شـاطىء البحـر، فهناك جـرى تسلمهـا ووضعهـا على ظهـر بعض السفن الجنوية، وذلك من أجل نقلهـا إلى الملك المحتاج، وذلك مع كميات كبيرة من الامدادات، وحملت كل عربة سلتين واسعتين، صنعتا بشكل محكم من الحديد، وكان قد جرى اعدادها لهذه الغاية، وقد ملئت بالأموال التي تقدم ذكـرها، وكـان قد جـرى استخـراجهـا من ممتلكات الكنيسة خـلال مـدة مقدارها ثلاث سنـوات، والنتائج التي حصل الملك عليهـا وتوصل إليها، سوف تبينها الرواية المقبلة بشكل كامل.

عودة النبلاء الإنكليز

عـاد من القارة في أسبـوع الابتهالات، ايرل رتشـارد مع ايرلي غلوستر، وليستر، ونبـلاء آخرين، كـانوا قد عبروا البحـر، كما تقدم الذكـر من قبل، وقد عاد هؤلاء سـالمين إلى انكلترا، وبقي أسقفان في الخارج، وهما: أسقفا: وينكستر، ولنكولن، وبقي أسقف وينكستر في فـرنسا، وهو يعيش في بيت صغير، من أجل توفير النفقـات، واستمر أسقف لنكولن بالبقـاء في البلاط الروماني، في سبيل الحصول على ماتمناه وخطط له، من البابا.

أمـا بالنسبة لسبب رحلة الايرل رتشـارد، فقد كـان ذلك برأي بعضهم —ولم يكن هذا الرأي مـن دون منطق— بأن البـابـا بعث خلفـه، ليـدفع قضيته بالحصـول على امبراطورية رومانيا (بيـزنطة)، التي يعلم بأنها كانت مليئة بالأمـوال، ورأى بعضهم، ومـاراوه أصبح صحيحاً، من خـلال الحقـائق التـاليـة، بأنه قـد ذهب من أجل اعـاقـة الصليبيين، عن الاقـلاع

والسفر بحراً، وأعلن آخرون، أن المرجح —وهو ماتبرهن بعد ذلك على الفور أنه هو الحال— كان ذهابه بقصد شراء دير هيرست، من راعي دير القديس دينس، ولابتياع المؤن الضرورية للسفر للصليبيين، أما سبب اظهار البابا كثيراً من الرعاية له، هو أنه كما قيل، أن البابا أراد أن يعرف أنه إذا ماقدم إلى انكلترا، هل سيجري استقباله باحترام من قبله، وأن يتمكن الايرل من اقناع أخيه الملك، ونبلاء البلاد (خاصة الذين كانوا في المجلس الاستشاري للملك) بأن يرسلوا إليه للحضور إلى هناك، وقد جرت معالجة هذه القضايا، وتمّ التعرض إليها في الصفحات المتقدمة.

حول التقارير التي بلا أساس والتي انتشرت

وجرى في حوالي الوقت نفسه ارسال رسائل من الأرض المقدسة، إما بقصد تقديم مواساة زائفة إلى المسيحيين، أو من أجل تشجيع الصليبيين، الذين كانوا يعملون على إلغاء مغادرتهم للقيام بحجهم، وقد كتبت هذه الرسائل من قبل بعض الأشخاص ذوي النفوذ الموثوقين، وهم أسقف مرسيليا، وبعض الداوية، وحوت هذه الرسائل تقارير مفرحة كثيراً، وقد شجعت الذين استمعوا إليها بوساطة أخبار كانت بلا أساس، وأفادت هذه الأخبار، بأن القاهرة والفسطاط جرى الاستيلاء عليهما، وأن المسلمين قد أرغموا على الفرار، وأن الاسكندرية تركت في وضع ميئوس منه، وأقول بأن هذه التقارير جرحت الذين سمعوها وصدقوها، في النهاية بعمق، وذلك بقدر ما أفرحتهم في البداية، ونظرنا منذ ذلك الحين إلى الرسائل التي وصلت، وإن كانت صادقة، نظرة شك كبير، وازدراء.

تكريس كنيسة ونغريف

في أسبوع الابتهالات لهذا العام نفسه، نشب خلاف بين راعي دير القديس ألبان وبين جون دي ويدن Wedone, حول مايتعلق بتكريس كنيسة ونغريف Wengrave, التي كانت شاغرة آنذاك، ثم

انتهى وتمت تسـويتـه، وأعيـد السـلام إلى مـابين الطائفتين، وأعلن جـون المذكـور بحضـور رجلي العـدالـة الملكيين روجـر دي ثيركيسبـاي Thurkesby, وروبرت بروس Bruce, وآخـرين من زمـلائهما، أن حق الكنيسة المذكـورة عائد إلى منحة راعي الدير المتقـدم ذكره، غير أن جون المذكور حصل على المذكـرة التالية، التي خلاصتهـا ضد راعي الدير: «من الملك إلى عمـدة بكنغهام، تحيـات: أصـدر أمراً إلى راعي دير القـديس ألبـان، بأن يتولى دونها تأخير السماح إلى جـون دي ويدن بأن يقدم شخصـاً مناسبـاً وموائماً إلى كنيسـة ونغريـف، التي هي شاغـرة، والتي هي كما قيل عـائـدة إلى أعطيتــه، والتي عمل بشأنها شكوى بأن راعي الـدير المذكـور يعارضــه بشكل غير عادل، وما لم يعطك ضمانة بأنه سـوف يترافع بقضيته، عندها وجه الدعـوة، بشكل صالح وقانـوني إلى راعي الدير المذكور، حتى يمثل أمام رجال عدالتنا، في اليـوم التالي لعيد صعود ربنا»، إلخ، إلخ، لكن ما هي المنفعة أو الضرر الذي واجهته كنيسة القديس ألبان في هذه القضية، هو أن الرومان ووكـلاء الملك استولوا بالقوة على جميع الكنائس الشـاغرة، خاصة الكنائس العائدة إلى الرهبان، حيث تنافست كل فئة مع الأخرى.

كيف قرر بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري القيام بزيارات تفقدية

وأيضاً في حوالي الوقت نفسه، استثير بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري بالمثل الذي ضربه أسقف لنكولن، الذي حصل على سلطة القيـام بزيارات تفقديـة لكهنته، وبناء عليـه حاول أن يقوم بزيـارات تفقدية إلى الأسـاقفة، ورعاة الديرة، ورجال الدين، والناس في مقاطعته، وعلى هذا قام أولاً، وفي المقام الأول، بزيارة تفقـدية إلى الهيئة الرهبانية، لرهبانه في كـانتربري، وكان ذلك بكل دقـة، وبلا رحمة، ولذلك قـال الرهبان فيما بينهم: «إننا نعـاني من هذا بسبب ضـلالنا، لأننا قـد أذنبنـا بحق سلفـه، القـديس ادمـوند، الذي عـددناه قاسيـاً ومستقيماً، ونحن نتحمل مـانستحقه بشكل عـادل من أجل

انتخـاب أجنبي، وجـاهل، وغير معــروف، ومن دون خبرة، وهو واحـد متدرب على الأمور العسكرية ومختص بها، وليس بالمسائل الروحية، آه، كم كـانوا رجـالاً رائعين أسـلافـه، وشهـداء، ومعلمين معتمـدين، ومعترفين مقـدسين للرب، لماذا ويالاًسف، أطعنا في هذا الانتخـاب ملكنا الأرضي، بدلاً من ملكنا السماوي»؟، ومن هناك ذهب رئيس الأساقفة إلى رعوية دير فيفـرشـام Feversham, ولم يتجـرأ الرهبـــان الجبناء، لذلك المكان، لخوفهم من طغيـانه، على الوقوف ضـد زيارته التفقـدية، ومن هناك ذهب وهو غـاضب جداً إلى رئـاسة رهبـان روكستر، واستخرج أكثـر من ثلاثين مـاركـاً مـن ذلك الدير الفقير، ومن هذا وضح أنه مـارس وظيفـة الزيارة التفقدية رغبـة منه في الحصول على المال، أكثـر من رغبته باصـلاح الطائفة وعاداتها، لأنه كان جـاهلاً بأنظمة وعادات الطائفة، كما أنه كـان فارغاً من المعرفة.

الطغيان الذي مورس من قبل رئيس الأساقفة بونيفيس على رجال الدين في لندن

في الثاني عشر من أيار، الذي كان يوم عيـد القديس بنكراتيوس Pan-cratius وأتباعه من القديسين، قـدم رئيس الأساقفة المذكور إلى لندن، ليقوم بزيارة تفقـدية للأسقف ولهيئته الكهنوتيـة، ولرهبان تلك المدينة، ولم يترك أحداً من الناس، وأقام في البيت الفخم العـائد لأسقف شيستر، قرب بيوت الديرة والرهبان، ولم يذهب إلى بيته في لامبث، كما أنه أمر مارشالاته بأن يشتروا له مـؤناً بالقوة من سـوق الملك، الأمر الذي فعلوه، وكـدس في الوقت نفسـه، التهديدات، والملامات والاهانات على التجـار، وهو لم يقم —على كل حـال— بدعـوة أي ضيـف، وقـام في اليـوم التـالي بعمل زيارة تفقدية للأسقف فولك، وقـد مارس ضده بلاحياء استخراجـات، مارسها بنفسـه ذلك الرئيس للأسـاقفـة، وكـذلك بمطالبـاته بالطعـام، والشراب، والمقاود، والمقصود هنا مقـاود الخيول، ولو تمكن أي انسان أن يحكي الذي

عمله، لأذى الآذان والعقــول، ولجرح قلوب جميع الذيـن سمعــوا بهم، وعندمـا كـان على وشك عمل زيـارة تفقـدية للهيئة الكهنوتيـة في كنيسـة القـديس بولص، في لندن، عــارضــه الكهنة، وترافعـوا إلى الحبر الأعظم، وبناء عليه حرم كنسياً العميد وبعض الآخرين.

حول المعارضة التي عملت من قبل كنيسة القديس بارثلميو للزيارة التفقدية لرئيس الأساقفة

وفي اليـوم التالي، وكـان مايزال يتميـز غضبـاً، قام بارتداء دروعـه تحت ثيابه، وأكد الذيـن شاهدوا رئيس الأساقفة هذا أنه ذهب إلى رئـاسة رهبان كنيسة القديس بارثلميو Bartholomew ليقوم بزيارة تفقدية للكهنة هناك، لكن عند وصـوله، وعندمـا كان على وشـك الدخول إلى الكنيسـة، استقبل من قبل نائب رئيـس الرهبان (لأن الـرئيس لم يكن آنذاك في الدير) ومن حـوله رهبـان الدير، بمسيرة مهيبة، وهـم يحملـون عدداً من الشمـوع المضاءة، وذلك وسط الأجـراس التي كانت تقرع، وكـان الرهبان أنفسهم يرتدون أردية القـداسـات، وكـان الرداء الأكثـر جمالاً يلبسـه نائب رئيس الرهبـان، ولم يلتفت رئيس الأسـاقفة كثيراً، إلى التشريف الـذي قدم إليـه، ذلك أنه قـال بأنه قـدم إلى هناك للقيـام بزيارة تفقـدية للكهنة، وكـان جميع الكهنة قد اجتمعوا الآن في وسط الكنيسة، أي أن نقول في السدة، وكان قد اجتمع معهم رئيس الأسـاقفة المذكـور مع الجزء الأكبر من حـاشيته، وقـد ضغط عليهم وعصروا بشكل فوضوي، ثم قام واحد من الكهنة، فتحدث مجيبـاً باسم الجميع، وأعلن بأن لديهم أسقف مجرب وحـريص، وهو يقـوم بوظيفــة زيارتهم التفقــدية، عندمـا يكون ذلك ضـروريـاً، وهم على هذا لايرغبـون بأن يقـوم أي واحد بزيارة تفقـدية لهم، كما أنه ينبغي عـدم فعل ذلك، خشيـة أن يظهر أنه يقـوم بذلك تحدياً، ولدى سماع رئيس الأسـاقفـة بهذا، انفجر بغضب غير لائق ولامعتاد، وانقض على نائب رئيس الرهبان، ناسيـاً مركـزه، وقـداسة أسـلافـه، وأوقع بفجارة ضربه بمقبضـه على هذا

الكاهن المقدس والراهب، وهو واقف في وسط الكنيسة، وبوحشية كرر ضرباته على صدره المسن، وعلى وجهه المحترم، وعلى رأسه الشائب، وهو يصيح ويزمجر بصوت مرتفع قائلاً: «هكذا، بات عليّ التعامل معكم أيها الانكليز الخونة»، ثم إنه تفوه بشكل مرعب وتلفظ بأيمان لايمكن ذكرها، وطالب بجلب سيف له على الفور، ومع ازدياد الفوضى والهياج، ومحاولة الرهبان انقاذ نائب رئيس رهبانهم من أيدي المعتدي العنيف، مزق رئيس الأساقفة الرداء الثمين، الذي ارتداه نائب رئيس الرهبان، وانتزع الوصلة التي تعرف عادة باسم الابزيم، وكان ثميناً مصنوعاً من الذهب والفضة والمجوهرات، وقد ديس عليه وسط الحشد وضاع، والرداء الفخم ديس عليه أيضاً، وجرى تمزيقه واتلافه، ومع ذلك لم يهدأ غضب رئيس الأساقفة، ذلك أنه انقض مثل رجل مجنون على هذا الرجل المقدس، وبعنف شديد، وأرغمه وقهره ودفعه نحو الخلف، وضغط على جسده المسن بعنف شديد على الحاجز الذي فصل مابين مقعدين، وكان معمولاً من أجل منصة، فسحق عظامه حتى النقي، وجرح رئتيه والأجزاء التي من حول قلبه، وعندما شاهد بقية رجال الحشد، العنف اللامتناهي لرئيس الأساقفة، تولوا انقاذ نائب رئيس الرهبان، بصعوبة بالغة من بين فكي الموت، ودفعوا المعتدي عليه إلى الخلف، وعندما سقط هذا على الأرض، وقعت أرديته جانباً، وأصبحت دروعه مرئية بوضوح من قبل الحشود، الذين أصيبوا بالرعب، لدى رؤيتهم رئيس أساقفة لابساً للدروع، وبناء عليه، أعلن كثيرون بأنه قدم إلى هناك، ليس من أجل القيام بزيارة تفقدية، ولا لإصلاح أخطاء، بل لإثارة معركة، وقام بالوقت نفسه أتباعه المتهورون، أو بالحري رجال بلاطه، بوحشية بمقاتلة الكهنة الباقين، الذين كانوا غير مسلحين وغير مستعدين، وجاء ذلك بناء على أوامر رئيس الأساقفة واقتداء به، وقد عاملوا الكهنة بقسوة متناهية، حيث ضربوهم، وجرحوهم، وألقوهم أرضاً، وداسوا عليهم، ثم قام الكهنة بعد ذلك، وهم قد تورموا، وأقدامهم ملطخة بالدماء، وقد تعرضوا للتشويه

والإهانات، وغير ذلك، فذهبوا إلى أسقف المدينة، وكانوا يبكون، وتقدموا بشكوى ثقيلة إليه، حول الإجراء المرذول، وجواباً على ماقالوه، أجابهم هذا الأسقف بقوله: «الملك موجود في ويستمنستر، اذهبوا إليه، وانظروا فيما إذا كان هذا العدوان الظاهر، والخرق للسلام في مدينته الرئيسية، سوف يثير غضبه»؟.

الملك يرفض الاصغاء إلى الشكاوى حول طغيان رئيس الأساقفة

وبناء عليه، قام أربعة من الكهنة بالذهاب إلى الملك في ويستمنستر (فالبقية كانوا غير قادرين على الذهاب بسبب آلام جراحاتهم)، وأروه ثيابهم الممزقة، وآثار الضربات، الظاهرة من الدم، ومن شحوب أجسادهم وتورمها، وكان ذلك وسط كثير من الناس، الذين أشفقوا عليهم لما عانوه من آلام، ومقتوا مثل تلك الفعلة النكراء، وكان خامسهم، أي نائب رئيس الرهبان المذكور غير قادر على الذهاب إلى البلاط، لا مشياً على قدميه، ولا على ظهر حصان، بل حمل وهو يئن إلى المصحة، وتمدد في فراشه، حيث أمضى بقية حياته في حالة من الضعف، وعلى كل حال، رفض الملك مقابلة الرهبان المذكورين، مع أنهم انتظروا طويلاً أمام باب حجرته، كما رفض الاصغاء إلى شكاويهم، ولذلك عادوا وهم في حالة اضطراب عقلي إلى كنيستهم، التي كان رئيس الأساقفة قد لطخها، ولوثها بدم الكهنة والرهبان، واستثيرت المدينة في الوقت نفسه كثيراً، وكأن انشقاقاً قد وقع، ولذلك اقترح سكان المدينة قرع الناقوس العام، وتقطيع رئيس الأساقفة إلى أشلاء، مهما حدث بعد ذلك من أمر، وترددت أصوات الشتائم والإهانات، وأخذ الناس يتجمهرون بحثاً عنه، ويندفعون وهم يصرخون خلفه، عندما كان مسرعاً نحو بيته في لامبث، ويقولون: «أين هذا اللص؟ هذا الفاجر، والمعتدي الدموي، على كهنتنا، والذي هو ليس الكاسب للأرواح، بل المستخرج للمال، والذي ليس الرب ولا الانتخاب الحر قد ارتقى به إلى منصبه، لكنه أقحم به بشكل غير قانوني، وهو جاهل ومتزوج،

وجرى فرضه من قبل الملك، وسمعته الفاسدة، قد نشرت عدواها في جميع المدينة»؟، ومـا لبث بعد ذلك، أن نزل فـوراً في نهر التيمز، وتقـدم بشكوى ثقيلة حول المسألة أمـام الملك، وسوغ نفسـه، واتهم الآخرين، ثم إنه أسرع إلى الملكة، وتقـدم إليها بشكوى أكثر جـدية، وخشي الملك وقتهـا، وخاف كثيراً من قيام عصيـان وانشقاق في المدينة، فأمر بـأن يعلن بوساطة المنادي، بمنع أي واحـد، تحت طائلة فقـدانه حيـاته وأطرافـه، من التـدخل في هذا الخلاف، وجرى رفض هذا مـن قبل كهنة القديس بارثلميـو، وكذلك من قبل كهنة الثالوث المقـدس، الذين ترافعوا بجرأة ضـد إجراءات الملك، ثم استمـد رئيس الأسـاقفـة الجرأة من حظـوة الملك، وتابع سيره إلى لامبث، وجدد في البيعـة هناك بشكل مهيب قرار الحكم الذي كان قد تفـوه به ضد كهنة القديس بولص، وأدخل فيه أيضـاً أسقف لندن، بدعوى أنه المحرض للكهنة المذكـورين، وبما أنهم على هذا كانوا يعـانون من الأذى والضرر من جميع الجوانب، عهـدوا بقضيتهم بشكاوى حـزينة إلى القـديس بارثلميـو الذي خدموه ليـلاً ونهاراً، وصلوا إلى الرب، إله الانتقام، بما أن الإنسان، لم يقبل، ولم يتنازل، بالقيام بمعاقبة مثل هذه الآثام العظيمة.

استعداد رئيس الأساقفة للذهاب إلى البلاط الروماني

وكان رئيس الأسـاقفة مايزال حـانقاً وشديد الغضب، فـذهب في اليوم التالي إلى عـزبة تابعة له اسمهـا هارو Harrow, كانت على بعـــد سبعة أميال من دير القديس ألبـان، وذلك في سبيل القيام بزيارات تفقدية هناك، وقد جـدّد في ذلك المكان قرار الحكم المتقـدم الذكر، ومع أنه كـان قد أخبر من قبل أصـدقـائه، وكهنتـه، ومن قبل أناس متعلمين، وفصحـاء، وأحيط علماً بالامتيـازات الفخمـة الممنوحـة إلى تلك الكنيســة من قبل الكرسي الرسولي، أخفى هذه المعرفـة، وتجاهل هذه الامتيازات، ثم إنه عاد، وعمل الاستعـدادات لعبـور البحـر، حتى يتمكن من إلقـاء المصـائـد للأبرياء في البلاط الرومـاني، حيث كان له نفوذ عظيم، وحيث اعتاد على الإقـامة لمدة

أطول من الترؤس على رعيته، كما يتوجب عليه كراع صالح، وقام أيضاً عميد القديس بولص في لندن، وكان رجلاً مسناً وصاحب تجربة وصالحاً، والمعلم روبرت بارتون، والمعلم و. W من ليشفيلد Lichfield ورجال فصحاء ومتعلمين وكهنة من الكنيسة المذكورة، بصحبة نواب أسقفهم، والكهنة المتقدم ذكرهم، قاموا بالذهاب إلى البلاط الروماني، للتقدم بشكوى ثقيلة إلى الحبر الأعظم، حول جميع القضايا والإجراءات التي تقدم ذكرها، وكانوا قد تزودوا بشكل جيد بما يلزم من توجيهات وتعليمات حول القضية، وتمتنوا بشهادات الكثيرين، للبرهنة على صدق شكواهم.

رسالة أسقف لندن إلى راعي دير القديس ألبان

وكان أسقف لندن منزعجاً كثيراً تجاه هذه المشاكل، وقد ارتعب رعباً عظيماً، ولا غرابة بذلك، فقد كان هناك شره البابا ونهمه من الجهة الأولى، ومن الجهة الثانية صداقة الملك المريبة وسوء نواياه تجاه رعاياه الطبيعيين، ومن جهة أخرى كان يخاف من نبلاء سافوي، وكان لايتجرأ على معاداتهم، وقد رغب في حالة الطوارىء هذه بالحصول على نصيحة راعي دير القديس ألبان والرهبان هناك، وعلى مساعدتهم، لذلك كتب الرسالة التالية إلى راعي الدير، وفق الصيغة التالية:

«إلى أصدقائه المبجلين، والمحبوبين كثيراً بالمسيح: ج. J, الذي هو بنعمة الرب، راعي دير القديس ألبان، ورهبان ذلك الدير، وكذلك جميع الرعايا الآخرين التابعين إلى ذلك الدير نفسه، يرسل فولك Fulk الذي هو بموجب الاذن الرباني أسقف لندن، تمنيات الصحة، وعواطف مخلصة مستمرة متزايدة:

تلمع الشهرة مع خطوتها البعيدة الروعة في أنحاء الأرض، وتهددنا بصوت الرأي العام، في الوقت الذي تنتشر فيه، في مناطق لاتحصى، أخبار الخطر الحالي، وقد هوجم الهدوء الطويل لأسقفيتنا من أبينا المحترم، رئيس

الأساقفة، وبما أننا نعتقد بأننا نقوم فقط بالإجراءات الصحيحة للدفاع، مثل مقاتليك، الذين يتحملون ثقل الحملة الأولى للمعركة، لصالح الجميع الذين في المقاطعة، نحن نخبركم سلفاً، بأن الحرب التي فرضت علينا —مالم نل عون الرب، وأنتم— سوف تنزل بثقل أكثر عليكم أنفسكم، لأن رئيس الأساقفة المذكور قد قام —كما ربما قد علمتم— بزيارة تفقدية إلى جميع الكهنة والناس، في أسقفيتنا، ولأنه طالب بالمال، أولاً منهم، ومن الهيئة الكهنوتية لدينا، ومجدداً من رئيسي الرهبان لتلك المدينة، ووجه بالمعارضة، والرفض، إنما بشكل أديب، وبناء عليه قام بحرمانهم كنسياً، وجاء هذا بالمقام الأول، لعدم السماح له بالقيام بالزيارة التفقدية المذكورة، وفي المقام الثاني لأننا أمرنا بعض الأشخاص الذين هم تحت سلطاننا، بأن لايسمحوا له، القيام بهذا العمل، وقام في سبيل إلحاق الأذى بكنيستنا، فأصدر قرارات ضدنا شخصياً، مع أنه جرت معارضته بموجب إجراءات مرافعات قانونية، وضد قضايا عادلة، وصحيحة، ومنطقية، ولم يكتف بهذا وحده، بل إنه أغار على بقيتنا، لأنه تسبب بإعلان الأحكام التي هكذا تأسست، في أسقفيته، وفي كل مكان آخر، حسبما علمنا من التقارير، وبناء عليه، بعدما أرسلنا بعض نوابنا إلى البلاط، توجهنا بالخطاب بأنفسنا إلى بعض نظرائنا من الأساقفة حول القضايا المتقدم ذكرها، وقد تسلح هؤلاء بالجرأة، وأعدوا أنفسهم وقدموها للدفاع عن حقوقهم وامتيازاتهم، ولذلك رأينا أيضاً من الموائم أن نتوجه بالرجاء إليكم، وإلى عواطفكم حتى تقوموا بتقدير الأسس لهذا الطلب، آملين بأن لاتسمح لكم كرامتكم، وحمايتكم، وصلاحكم، بالتراخي، وأن لاتغدو شجاعتكم باردة، بل أن تضعوا ثقتكم بالذي يتولى حماية المظلومين من المؤذين والرجال غير العادلين، وأن تمدّ يد المواساة، والمساعدة، والمشورة إلينا، آملين بأن تبقى أخوتكم دوماً بخير ورعاية في الرب».

والمراسيم التي أراد رئيس الأساقفة، أن يتخذها ذريعة لنواياه وخططه،

قـد أعطيت كاملة في كتـاب Additaments, مع اعتراضات جميع الأطراف.

حول الاجتماع العام للهيئة الرهبانية للدومينيكان

وفي حـوالي الوقت نفســه، أي في حـوالي عيـد مـيلاد القــديس يوحنا المعمدان، اجتمع رهبان طائفة الدومينيكـان، بناء على دعوة عامة، من جميع بلدان العـالم المسيحي، لابل حتـى من منطقـة القـدس، والتقـوا في بيت في هولبورن Holborn لعقد مناقشة عامة حول أوضاعهم وإدارتهم، وبما أنهم لم يمتلكوا وسائل خاصـة بهم، قدم لهم النبلاء والأساقفـة، كرماً منهم المؤن وفعل ذلك بشكل خـاص سكان مدينة لندن والأمـاكن المجاورة لها، وكذلك قام راعيا وولتهام والقـديس ألبان، وأمثالهما من الناس، وعقد هذا المؤتمر في أسبـوع العنصرة، وتم التـوجه بالدعـاء إلى الروح القـدس، التي كانت قد أرسلت في مثل ذلك الوقت إلى الحواريين، وقـد كان هناك حوالي الأربعمائة راهب حاضراً، وقدم الملك في اليوم الأول إلى اجتماعهم، وطلب العون بصلواتهم، كما أنه زودهم بالطعـام، وصدوراً عن احترامه لهم تناول طعـامـه معهم في ذلـك اليـوم، وبعـد ذلك تم تزويدهم بـالطعـام من قبل الملكة، ثم من قبل أسقف لندن، وبعـد ذلك من قبل جـون مـونسيل، وفيما بعــد من قبل القســاوسـة الآخــرين، أي من قبـل راعي دير ويستمنستر وآخرين، الذين التمسوا منهم برسالة، سـداد عوزهـم وتلبية حاجاتهم، من ثرواتهم الوافرة.

حول الاضطراب بين سكان لندن

واستثيرت مدينة لنـدن، في الوقت نفسه، بدرجـة كبيرة جداً، لأن الملك استخرج بعض الضرائب من سكان المدينة، لصالح راعي دير ويستمنستر، مما سبب لهم خســارة كبيرة، وأضراراً لحقت بامتيـازاتهم، وعـارض عمـدة المدينة والجماعة كلها بشكل عام، وبقدر مـاامتلكوا من قدرة عارضوا رغبة

(أو بالحري عنف) الملك وسلبه، لكنه برهن أنه فظ وعنيد نحوهم، وبناء عليه، ذهب سكان المدينة، وهم في حالة هياج كبيرة، مع شكاوى آسفة، إلى الايرل رتشارد، وإلى ايرل ليستر، وإلى النبلاء الآخرين للمملكة، وأخبروهم كيف أن الملك، قد انحنى وتحوّل إلى قوس من الشرور، مقتدياً بالبابا، حيث قام بلاحياء بخرق صكوك حقوقهم، التي منحت إليهم من قبل أسلافه، وانزعج النبلاء المذكورين كثيراً، تجاه هذا، وخافوا من أن يحاول الملك اتخاذ إجراءات مماثلة معهم، ولذلك انتقدوه بحدة، وأضافوا التهديدات إلى نقدهم، ولاموا راعي الدير بقوة، الذي اعتقدوا أنه كان المسبب والدافع إلى هذا الخطأ، وكدسوا الاهانة فوق الاهانة عليه، وهو أمر لايجوز لنا روايته، صدوراً عن الاحترام للطائفة، وهكذا أمكن بوساطة حكمة النبلاء، رد الملك بسعادة وتراجعه عن خطته التي صممها.

كيف منح الملك صكوك إمتيازات جديدة إلى راعي دير ويستمنستر

وفي هذه الآونة أيضاً، كان الملك متأثراً بروح مشابهة، مضادة لصكوك امتيازات أسلافه، وأيضاً لصكوك الذين حكموا انكلترا قبل الاستيلاء (النورماندي)، ونقضاً لتعهداته وليمينه الأول، فقام بمنح صك جديد إلى راعي دير ويستمنستر، وذلك في سبيل إلحاق خسارة، وضرراً واضحاً بكنيسة القديس ألبان، عن طريق قرية ألدنهام Aldenham القديمة، وهي قرية اشتق اسمها من Ald, الذي تعني ترجمته «قديم»، ولهذا يبدو أمراً مسوغاً، إذا ما سكتت جميع الصكوك حول هذه المسألة، لكن القرية المذكورة كانت قد منحت في الزمن القديم إلى ألبان، رائد الشهداء الانكليز، وبالاضافة إلى هذا، منح الملك صكاً بامتياز مطردة في أراضي دير القديس ألبان، وعلى مقربة من تلك البلدة، إلى أحد الفرسان، واسمه غيوفري (مع أنه لم يكن منحدراً من آباء نبلاء أو فرسان) الذي كان يحتل مركزاً رئيسياً بالنسبة لكنيسة القديس ألبان، وجاء هذا مضاداً للامتيازات

القـديمـة لتلك الكنيسـة، وللصكوك التـي تم الحصـول عليهـا من الملوك الأتقياء للزمن القديم، ولصك الملك الحالي هنري، وجاء ذلك لمجرد سبب هو أن الفارس المذكور، كان قـد تزوج من أخت كاهنه، جون مونسيل، كما أن غيوفري روفوس المذكور، لم يتردد في التحرك ضد الكنيسة، سيدته التي ثقفته، ورفعتـه إلى مرتبـة الفروسيـة، ولذلك وسم بعلامة السمـة الأبوية، وليس بعلامة الخيانة للأم، لأنه بشكل ظالم وبلا حياء آذى الأم التي حملته، كما فعل نحو الكنيسة التي أغنته، وأغنت آباءه من قبله، وقد دفع مع الجرأة لأن يتصرف هكذا، من قبل الكاهن الخاص للملك المتقـدم ذكـره، والذي كـانت ثروته، تعـادل ثـروة أسقف، والذي أختـه كـان روفـوس Rufus قد تزوجها، كما ذكرنا أعلاه، وكـان اسم هذه السيدة كلاريسا Clarissa, وكـانت ابنة كـاهن ريفي، وكانت مـاتزال من دون أولاد، وقـد نظرت إلى نفسهـا وتفـاخرت فـوق منزلتهـا، مما كـان مـوضع ازدراء الجميع، وكـان زوجها كما يعتقـد مفتوناً باقتراحاتها، ولا أعتقـد أنه معذور بهذا، بل ينبغي بالحري أن يكون مـداناً بذلـك، وذلك وفقـاً لكلمات الرب عندمـا شجب بلعنتـه أبانا الأول، آدم بقوله: «بسبـب أنك أطعت صوت زوجتك، أكثـر من صـوتي، اللعنة ستكون على الأرض إلى الأبد» ، وعندمـا توجه مـؤلف هذا الكتـاب، أعني الراهب متـى باريس بالملامـة إلى الملك، حـول هذه الإجـراءات ، أجـابه قـائـلاً من دون خجل: « ألا يتصرف البـابا وفق هذه الطريقـة نفسهـا، لدى إلحاقـه رسائله بعبـارة: دون التقيـد بأي امتيـاز، أو غفران»؟، ثم إنه بعد وقت تكلم باعتدال أكبر، وقال: « انتظر قليلاً، سوف نفكر حول القضية» ، لكن ذكرياته لجميع كلماته ووعوده عبرت وزالت مع صوت نطقه بكلماته .

كيف عهد بختم الملك إلى وولتر أوف كيلكني

خـلال هذا العام، أخـذ الملك بمشورة حكيمـة، فعهـد بالمسؤوليـة عن ختمـه(الذي تبرهن أنه كان بالفعل مفتـاح المملكة) إلى المعلم وولتر أوف

كيلكني Kilkenny, وكـان رجـلاً معتـدلاً، وأميناً، ومتعلماً، وواحـداً بارعاً جداً، وحكيماً في القوانين الدينية وكذلك المدنية .

كيف مضى الملك الفرنسي بزحفه نحو الشرق

وقـام الملك الفـرنسي في هذه الآونة بحملـة من دميـاط، وذلك بعـدمـا وضع بعناية حاميـة في تلك المدينة، تكونت من دوق بيرغندي، وعدد كبير من النبـلاء الآخرين، والفـرسان، مع كتلة كبيرة من الجنود الرجـالة، ومع النائب البـابوي، وبعض الأسـاقفـة والكهنة والملكة، وسيـدات نبيـلات أخريات وأسرهن، لأن:

الذي حصلت عليه، أكثر من عمل ربح جديد

وزحف هو مع جيشه، نحو المزيد من عمق المناطق الشرقية، وقد لحق به وليم لونغـوسبي Longuespee مع أصحـابه الذين رافقـــوه، وهم روبرت دي فيري Vere, وآخرين، عددهم كبير جداً لايمكن ذكرهم، وبعض الفرسان والأتباع الذين احتفظ بهم بالأجر المدفوع.

كيف أصبح الفرنسيون غيورين من الإنكليز

وبسبب مـافطر عليـه الفـرنسيـــون من تجبر، استخفـوا بوليم المذكـور، وكـرهوه مع أتباعـه، وعاملوهـم بجفـاء، مع أن الملك الفرنسي التقي، قـد حظر عليهم بشكل خـاص هذا، ولذلك خاطبهم هكذا قـائلاً: «أي جنون أصابكم وأثاركم أيها الفرنسيـون؟ لماذا تضطهدون هذا الرجل، الذي قدم من بلاد بعيدة لمسـاعدتي شخصياً ولمساعدتكم، والذي هـو حاج، ويقاتل باخـــلاص في سبيل الـرب، كما تفعلون أنتم أنفسكم»؟ ولم يتمكـن الملك —على كل حال— من تهدئة عـواطف الفرنسيين بهذه الحجج، أو بوساطة الالتماسـات، حيث استمـروا في ازدراء الانكليـز واضطهـادهم كما قـال الشاعر:

كل تجبر الغيرة شريك له

وكـان أساس هذه الغيرة والكراهيـة هو مايلي: كـان وليم المذكور، قـد استـولى ليس بالقــوة، بل بالصـدفـة وحسن الحظ، على بـرج قـوي قـرب الاسكندرية، كـــان مليئاً بالسيــدات، زوجـات بعض النبـــلاء المسلمين، وحدث ذلـك تماماً دون معرفـة الفرنسيين، ولهذا السبب أصبحت شهـرته واسعة، وانتشر الخوف منه ووصل حتى إلى منـاطق بعيدة في الشرق، ولأنه امتلك كثيراً من المال هنا، كما فعل في كل مكان آخـر، بموافقـة حظ الحرب له، أغنى بذلك حاشيته وزاد من مكانته، (الأمر الذي لم يستطع الفرنسيون فعله مع أنهم كـانوا كثيرون وأقـوياء) ولذلك حسـده الفـرنسيـون، وآذوه بالتآمـر ضده، واضطهـدوه مع كراهيتهم، كما أنهم لم يتمكنوا من إقـامة أية علاقة صداقة معه.

حول الاستراتيجية التي مارسها وليم لونغوسبي

وأيضـاً حــدث ثانيـة، أن وليم المذكـور، علـم بشكل سري من بعض الجواسيس البارعين، الذين كان قـد نشرهم، بأن بعض التجّار الأغنياء من الشرق، كـــانوا قـادمين مـن دون حـذر، مع حـــراســة صغيرة، إلى بعض الأسواق التي كانت تعقـد قرب الاسكندرية، حيث أملوا بثقة كبيرة بزيادة ثرواتهم، وبناء عليه أخذ كتلة مـن جنوده معه، وبادر مسرعاً إلى هناك، سراً أثناء الليل، وانقض فجأة عليهم مثل البرق وهـم غير متنبهين، فقتل التجّار فوق تلك البقعة، وشتت المرافقة، وأسر جميع تلك الفئة، التي كانت تعرف بشكل عام باسم قافلـة، ووجد بينهم جمالاً وبغالاً وحميراً، محملين بالحرير، والصور، والتماثيل، والـذهب، والفضة، وذلك إلى جانب بعـض العربات مع ثيرانها وجواميسها، وأيضاً الأطعمة الضرورية لكل من الخيول والناس حيث كانوا محتاجين إلى ذلك كثيراً، ومـع أن وليم المذكور قتل أثناء القتال، وأسر عـدداً كبيراً من أعدائـه، خسر هو واحـداً من الفـرسان، وثمانيـة من الأتباع، فهؤلاء قد قتلوا، وكان بعضهم قد أصيب بجراحة، فأعادهم حتى

يستردوا صحتهم بوساطة المساعدة الطبية، وهكذا عاد إلى الجيش منتصراً، ومبتهجاً بثرواته، وكان الفرنسيون الذين مكثوا من دون نشاط، وفي حالة من العوز عظيمة، قد أثيروا بمشاعر الغيرة والشره، فاعترضوه لدى وصوله بطريقة عدوانية، وأقدموا مثل لصوص وقحين، فأخذوا منه بالقوة كل الذي ناله، عازين إليه أنه اقترف مايكفي من الخطأ، بإقدامه على ذلك العمل بتهور، على عكس أوامر الملك، وتعاليم قادة الجيش، وأنه قام خلافاً للنظام العسكري، بتهور وتجبر، فانفصل عن الجيش كله، وعندما سمع وليم هذا، وعد بتقديم الترضية إليهم بكل سبيل، وسمح بتوزيع جميع الأطعمة التي حصل عليها بين أفراد الجيش المحتاج، لكن الفرنسيون صرخوا ضد هذا، وادعوا أن كل شيء هو عائد إليهم أنفسهم، واستولوا على ذلك على الفور، وبذلك أضافوا الإهانة إلى الأذى، ولذلك حزن وليم، وشعر بالمرارة في نفسه، لدى معاناته من مثل هذه الأضرار، وهكذا تقدم بشكوى ثقيلة إلى الملك، حول القضية، وأضاف بأن أخاه كونت أرتوي كان رأس ومقدم هذا العمل العدواني والسلب، وعندها رد عليه الملك بصوت منخفض، وبروح تقوية كبيرة وبنظرة هادئة، وقال: «وليم، وليم، الرب الذي لايجهل شيئاً، على دراية بالضرر والأذى الذي ألحق بك، وأنا أخشى من أن يقوم تجبرنا مع ذنوبنا الأخرى، بإلحاق الخزي بنا، وأنت تعلم مدى خطورة الأمر وجديته، إذا ماأسأت إلى نبلائي أو أثرتهم، في هذا الوضع الخطير، الذي أنا موجود الآن فيه»، وعندما كان يتكلم هكذا، وصل كونت أرتوي، وهو هائج وغاضب مثل رجل مجنون، ومن دون تقديم التحية إلى الملك، أو إلى الذين كانوا جالسين هناك، رفع صوته،وهتف وهو غاضب جداً وقال: «مامعنى هذا، مولاي الملك؟ هل تريد الدفاع عن هذا الرجل الانكليزي، وأن تقف ضد رجالك الفرنسيين؟ لقد قام هذا الرجل متحدياً لك، وللجيش كله، وهو مدفوع بطيشه وتهوره، وبناء على مسؤوليته، وبمبادرة منه، فحصل بشكل سري على أسلاب، أثناء الليل، وذلك على عكس ماقضت به مراسيمنا، ولهذا السبب

انتشر صيته، وعمت شهرته وحده، وليس شهرة الملك الفرنسي وقومه، في جميع أنحاء مناطق الشرق، وبذلك حجب أسماءنا وألقابنا»، ولدى سماع الملك المسيحي التقي لهذه الكلمات، أشاح بوجهه، وألقى نظرة على وليم، وقال بلهجة معتدلة: «يمكنك الآن أن تسمع ياصديقي، هكذا يمكن للخلاف أن يتأصل، لاسمح الرب بوقوعه في هذا الجيش، إنه من الضروري في هذا الوقت الحرج، أن نتحمل مثل هذه الأشياء باتزان ورباطة جأش، لابل أن نتحمل أشياء أسوأ من هذه»، وعلى هذا ردّ وليم قائلاً: «بناء على هذا إنك لست ملكاً، حيث لايمكنك أن تضبط شعبك، وأن تعاقب المعتدين منهم، مع أنني قد وعدت، أنني إذا ما أذنبت، سوف أقدم كل ترضية من أجل ذنبي»، وأضاف وهو متألم مجروح في قلبه بسبب الأذى الذي لحق به: «إنني منذ الآن فصاعداً لن أخدم ملك مثل هذا، وبمثل هذا المولى لن أرتبط»، ولأسف الملك الشديد، غادر وهو غاضب، ثم إنه ذهب إلى عكا،وهناك أقام لعدة أيام، مع رفاقه بالسلاح، ونشر أخبار الأضرار التي عانى منها بين جميع الذين سكنوا هناك، وبذلك أثار شفقة الجميع نحوه، وخاصة شفقة الأساقفة، وحرك غضبهم ضد الفرنسيين، ولم يتردد أصحاب الخبرة والفهم، والذين كانوا مجربين في قضايا وشؤون الحرب، عن توقع بأن هذا كان نذير سوء بشأن الوقائع المقبلة، وأن الغضب الثقيل للعلي الأعلى سوف يثار بسبب مثل هذه الآثام، ويروى بأن كونت أرتوي وصل به الأمر إلى حد القول حول مايتعلق بهذه القضايا: «الآن أصبح جيش النبلاء الفرنسيين نقياً تماماً من هؤلاء الانكليز ذوي الذيول»، وهو كلام سبب الضيق إلى كثير ممن سمعوه، وقرر وليم آنذاك البقاء مع السكان والداوية والاسبتارية في عكا، وأن ينتظر وصول صليبية نبلاء انكلترا، من أجل أن يعلمهم بتجبر الفرنسيين، وبالأذى الذي عاناه على أيديهم، وليحثهم على قتال أعداء الصليب وفقاً لمشورة الناس الجديين، وذوي العقول المتواضعة، دون الوثوق بمساعدة الفرنسيين، وأن يحاولوا إلحاق الهزيمة بأعداء الصليب بقواتهم الخاصة.

حول سفر النبلاء الإنكليز نحو القدس

وفي حوالي الوقت نفسه، بات النبلاء الانكليز (الذين ذكرت أسماؤهم من قبل) الذين كانوا قد قرروا الانطلاق نحو القدس في يوم عيد القديس يوحنا، كما تقدم الذكر من قبل، والذين كانوا قد باعوا أراضيهم أو رهنوها، أو ألقوا بها في شباك اليهود والمرابين، والذين أيضاً قد ودعوا أصدقائهم، باتوا جاهزين، في الصباح المشهور لعيد القديس أوغسطين، للانطلاق والشروع بالسفر مع أتباعهم، لكن الملك تصرف مثل طفل مجروح أو مزعوج، الذي بالعادة يركض إلى أمه مع شكاويه، فبعث بكل سرعة إلى البابا يرجوه أن يمنع مغادرتهم، مبيناً له بأن بعض النبلاء المهمين من مملكته في انكلترا، والذين كانوا قد حملوا الصليب، قد قرروا على عكس رغباته وحظره الانطلاق نحو القدس، دون الموافقة على انتظاره، وهو مولاهم وملكهم، وهو الذي كان قد حمل الصليب أيضاً من قبل، واقترح المضي في الحملة نفسها، وأن هؤلاء النبلاء، قد اختاروا اتباع عدوه الرئيسي، أي الملك الفرنسي، الذي —كما قالوا— ذهب قبلهم، وأعدّ الطريق، والمدخل إلى أرض المشرق، وآثروا ذلك على مرافقته، وبناء عليه قام البابا، مثلما فعل الملك بوساطة أوامره الملكية، فمنع بكل دقة، أي واحد —تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي— من الاقلاع، دون الحصول على موافقة الملك، وذلك مهما كان الخطر أو المغامرة المحيقة بالملك الفرنسي.

كيف وضع الملك الإنكليزي حرساً على الموانىء الإنكليزية

علاوة على ذلك، بعث الملك على الفور، أوامر إلى قسطلان دوفر، وإلى حكام الموانىء الأخرى، بألا يسمحوا إلى أي نبيل، يحمل شارة الصليب، بالنزول إلى البحر للسفر، وقد عزي إلى الذين كانوا معارضين لهذا، بأن الملك قد تصرف بشكل غير حكيم، لأنه لو أن مثل تلك الأعداد من ذوي المراتب العليا (كان هناك حوالي خمسمائة مارشال فارس إلى جانب أتباعهم، الذين لايمكن تعدادهم تقريباً) كانت ستسير قبله، فإن كل الجماعة

المسيحية كانت ستقول وهي مندهشة: «كم هو عظيم، وكم هو مرعب، لابد أن يكون هذا الملك، الذي بعث مثل هؤلاء القوم أمامه، ومقدمة له، فكم من الأعداد، لنا أن نخمن ونعتقد سوف تصاحبه، ونتيجة لذلك، فإن جميع المسلمين سوف يرتجفون خوفاً»، لكن ماهي فائدة هذه المناقشة؟ لأنه بالاضافة للعوائق التي وضعها الذين منعوهم، كان هذا أيضاً، النتيجة الطيبة لما حدث إلى الحجاج، لأنهم حتى لو كانوا قد أقلعوا (آسف أن أقول) لما كانوا قد وصلوا في الوقت المناسب والموائم لتقديم النجدة إلى الملك الفرنسي، الأمر الذي رغبوا كثيراً في فعله، وذلك حسبما سوف نروي في الأخبار المقبلة، ذلك أننا لانستطيع أن نحكي جميع الذي وقع في الوقت نفسه، مرة واحدة.

الملك الإنكليزي يستخرج المال من جميع المناطق

وفي الوقت نفسه لم يتوقف الملك عن سلب الأموال وجرفها من جميع الجهات والمناطق، وبشكل رئيسي من اليهود، وفي الدرجة الثانية من رعاياه الطبيعيين المسيحيين، ومارس ذلك إلى درجة كبيرة، وتابع استخراجاته من اليهود، حتى أنه استخرج من واحد منهم، اسمه هرون، وكان قد ولد في يورك، وامتلك بيتاً في تلك المدينة، أربعة عشر ألف مارك [فضي]، وعشرة آلاف مارك من الذهب، من أجل استخدامات الملكة (لأنه كما قيل، قد تبرهن إن كان مجرماً بتزييف أحد الصكوك)، وأن يجري دفع ذلك خلال وقت قصير، حتى يحول دون وضعه في السجن، وبالاضافة إلى دفعه هذه المبالغ كلها، لقد تبين أن هرون هذا المذكور، كان قد دفع إلى الملك، لدى عودته من القارة، مبلغ ثلاثين ألف مارك من الفضة، ومائتين من الذهب، من أجل استخدامات الملكة، وذلك حسبما أعلن هرون اليهودي هذا، بوساطة شهادة قانونية، وبناء على عهدته، إلى الراهب متى، مؤلف هذا الكتاب، وعلى كل حال، إن هؤلاء اليهود، مهما كانوا أشقياء وتعساء، هم لايستحقون الشفقة، لأنه قد تبرهن بوضوح بأنهم كانوا المفسدين للنقود

الملكيـة، والمزيفين للأختـام، وللصكوك، ومن أجل ذلك تعـرضـوا مـراراً للملامة والإدانة.

طغيان غيوفري لانغلي

وفي حـوالي الوقت نفسه، قـام أحد الفـرسان، واسمـه غيوفـري لانغلي Langley, وكـان نائبـاً للملك، ومحققـاً بالتجـاوزات التي اقترفت في الغابات الملكية، بجولة في عـدد من المقاطعات في انكلترا، وببراعة، وشره، وارغام، استخـرج مبلغاً كبيراً من المال، وبشكل خـاص، من نبلاء المناطق الشمالية لانكلترا، وكـانت كمية المبلغ الذي جمعـه فوق تصـور جميع الذين سمعوا به، وسبب الدهشة إلى عقـولهم، وظهر أن هذا الظلم الشديد الذي مارسه ضـد النبلاء الشماليين، قد صدر عن كـراهية قديمة نحـوهـم، وكان غيوفـري المتقدم ذكره محاطاً بحـاشية كبيرة، وجيدة التسليح، وكـان إذا ما حاول أي واحـد من النبلاء المتقـدم ذكرهـم أن يعتذر، أو تجرأ على التعبير عن تذمره، بأن القضاة كانوا أعداءه، كان يأمر على الفور باعتقاله، وايداعه في سجن الملك، فلم يستطـع أحـد أن يرد على الطلب بمـوجب أية حجج منطقيـة، وذلك للخوف مـن أن يعد ذلك ذنبـاً، ذلك أنه من أجل حيـوان صغير، خشف أو أرنب، وإن كان ضائعاً خـارج الطريق، قام بإفقار بعض الناس من ذوي الأصل النبيل، وأوصلهم حتى الدمار، فهو لم يوفر لا الدم ولا الحظ، ومقارنة بهذا الرجل، كـان روبرت باسلو يعدّ الأكثـر لطفاً، وفي الحقيقـة عدّ جميع أسـلافـه عادلين، وجـاء الحديث عنهم جيداً، وخاصـة عندما كـانوا يقارنون به، وكان غيـوفري هذا، منذ الوقت الذي جـرت فيه ترقيتـه إلى وظيفـة مارشـال حـاشيـة الملك، ليقـوم بحمل العصا العـائـدة للمارشـال الكبير، وبقدر مـا أوتي من سلطة، قد أنقص الضيـافة والرعـاية العـائدة للمائـدة الملكيـة، فبهـذا وبأعمال تملقه قـد أبهج الملك، وبناء عليـه حصل على حظوته مع أنه لم يستحق ذلك، وفيما بعد عـدّه روبرت المذكور، انسـاناً مخلصـاً، وجديـراً بأن يتشارك معـه شخصيـاً، لذلك دعـاه، وجعله زميلاً وشريكاً في وظيفة المسؤول عن عدالة الغابات الملكية، لكن غيوفري

نصب شركاً لقدمي ولي نعمته روبرت، وفيما بعد أحل نفسه بدناءة محله، وبدناءة خلع النواب الذين كان روبرت قد عيّنهم في وظائفهم، مما جلب له كثيراً من العار والأذى، لكن من الذي سوف يشفق على الحاوي، إذا ما لدغ من قبل الأفعى؟، وبناء عليه تجنب روبرت المذكور مصائد البلاط، ورجال البلاط، وحصل على تكريس نفسه كاهناً، وطار ليقطف ثمار حياة أفضل، كما كنا قد ذكرنا من قبل.

كيف ذهب رئيس أساقفة كانتربري إلى البلاط الروماني

وفي الوقت نفسه علم بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، بأن عميد القديس بولص مرافقاً ببعض الكهنة التابعين لتلك الكنيسة، وببعض وكلاء الذين كان قد آذاهم، قد ذهبوا إلى البلاط الروماني، وبناء عليه، وقد تشجع بمشورة المحامين، أقلع بأبهة كبيرة وفخامة وتوجّه نحو البلاط نفسه، مسلحاً بحماية الملك وبرسائله، ومعتمداً على نفوذ أسرته، وذلك في سبيل أن يصبح بوساطة سلطات البابا، أكثر قوة وطغياناً.

موت روبرت أوف ليكسنغتون

وفي التاسع والعشرين من أيار لهذا العام، مات روبرت أوف ليكسنغتون Lexington الذي استمر مدة طويلة في وظيفة المسؤول عن العدالة، فحصل على اسم متميز، وعلى ممتلكات وافرة، وكان على كل حال، قبل سنوات قليلة من موته قد أصيب بالشلل الارتجافي، فتخلى عن الوظيفة المذكورة، وبذلك كان مثل القديس متى، استدعي من وظيفة تسلم العشور إلى حياة أفضل، وشغل نفسه في تقديم الصدقات بشكل وافر، وبالصلاة التقية، وبذلك أنهى حياته الواهنة بطريقة محمودة.

التقارير المتنوعة حول الاستيلاء على القاهرة

وأيضاً في حوالي الوقت نفسه، كثر تداول تقارير تبعث كثيراً على السرور، لكنها كانت بلا أساس، وقد تحدثت عن الاستيلاء على القاهرة

والفسطاط، وعن تدمير الاسكندرية، وقد سكّنت هذه الإشاعات، وأرضت قلوب جميع الناس في الغرب، بوسائل مواساتها الزائفة، وتبين أخيراً أنها صدرت عن السبب والمصدر التالي، وهو مايتطلب رواية طويلة، مهما كانت —على كل حال— غير مثمرة، لأن:

المحصلة الدنسة تدمغ الإجراء جميعه بالدنس

حول الاستيلاء على دمياط من قبل الصليبيين

عندما علم سلطان مصر بقرب وصول ملك فرنسا المشهور ومعه جيشه، في العام المنصرم، عهد بالمسؤولية عن دمياط إلى واحد من مقدميه، وكان له فيه ثقة كبيرة، وعهد بالقاهرة والفسطاط إلى عناية أخي المقدم نفسه، لكن بعد الاستيلاء غير المتوقع على دمياط، دعا السلطان المذكور إليه جميع أعيانه، وعلى مسمع منهم جميعاً وجه تهمة ثقيلة ضد المقدم الذي إليه عهد بمدينة دمياط، والذي ضاعت وهي تحت وصايته، واتهمه ليس فقط بالخسارة الخيانية لمدينته الرئيسية، من خلال الاهمال والجبن، لابل أيضاً بتسليمها ووضعها بين يدي العدو المعلن، وبذلك امتلك الصليبيون الذين هم أعداء جميع المسلمين، الآن منفذاً حراً إلى مصر، وإلى جميع بلاد الشرق، مع آمال بالاستيلاء بشكل أسهل ومؤكد أكثر على جميع المناطق الأخرى، والحصول على مكان جيد الدفاعات وملاذاً، مما ألحق الأذى والاضطراب بجميع المسلمين.

وعلى هذا ردّ المقدم المتهم قائلاً: «مولاي الأعظم قوة، إنني خادمك المخلص والوفي، قد أرسلت جواسيسي إلى جزيرة قبرص، عندما كان الملك الفرنسي يمضي الشتاء هناك، ومنهم قد علمت، أنه عندما غادر تلك الجزيرة، سوف يبحر إلى الاسكندرية، ليقوم بحصار ذلك المكان، وبناء عليه قمت بإرسال جميع العساكر من دمياط إلى ذلك المكان، لتقديم مساعدة فعالة إلى أصدقائنا الاسكندريين، الذي هم رعيتك، ولأسر الملك المذكور،

وللاستيلاء على أسطوله كله، وإرساله إليك، لكن الحظ لم يكن مواتياً لنا، فبتغير الريح لتكون موائمة لهم، جلبت أعداءنا، وأوصلتهم إلينا، عندما كنا غير مستعدين، وبذلك نالوا الاستيلاء على الساحل، مع أننا قاومنا إلى أقصى ماكان في قدرتنا، كما تعلم أنت شخصياً.

وفي اليوم التالي ابتسم سعد الحرب لعدونا، فألقى الحصار على دمياط، التي وجدها مجردة من جميع وسائل المقاومة، وقد وصل معه أسطول كبير جداً، إلى حد أن وجه البحر بدا وكأنه مغطى بالسفن، وبناء عليه، قدرنا ذلك، وبما أننا كنا بدون مقدمين، ومن دون أسلحة المدينة، وقدرنا سلامتنا وسلامتك، فقتلنا وقطعنا أعناق جميع الأسرى الصليبيين، الذين كانوا بين أيدينا، ثم عمدنا إلى الفرار سراً أثناء الليل، حتى نتمكن من استدعاء القوات التي كنا قد أرسلناها إلى الاسكندرية، ومحاربة الصليبيين بقوة أعظم.

غير أن بعض الأسرى الصليبيين، عندما شاهدوا وصول بني قومهم، ورأونا ونحن نعدم رفاقهم، تمردوا علينا، وثاروا علينا بطريقة عدوانية غاضبة، وقتلوا بعضاً من قومنا، وقام هؤلاء أيضاً بعد مغادرتنا، بجلب الفرنسيين المقتربين الزاحفين عبر ممرات غير معروفة، وأدخلوهم إلى الأماكن السرية والداخلية من المدينة، وقمنا قبل مغادرتنا بإلقاء النيران في المدينة، حتى لايتمتع أعداءنا بممتلكاتنا، لكن الأسرى أخمدوها في أسرع وقت استطاعوه، وعندما أرغمنا على التراجع، كنا في حال من الأسى لعنّا فيها شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم)، لابل لعنا فيها النبي نفسه، ووددنا بأننا لو كنا أمواتاً، ولم نكن أحياء»، وعندما سمع السلطان هذا انفجر غاضباً، واستولت عليه حالة من الهياج (لأنه كان متجبراً وبلا رحمة)، ومع أن المقدم المذكور، استطاع بشكل صحيح أن يبرىء نفسه من التهمة، حسب رأي بعض الحضور، وقف السلطان بمزيد من العنف ضده، وأمر به ليعلق على المشنقة كخائن ومجدف كافر.

وعندما وصل هذا إلى مسامع أخيه، حاكم القاهرة، (الذي كان قلبه منذ

زمن طويل مضى ميالاً إلى العقيدة المسيحية، إنما بشكل سري، لخوفه من المسلمين) استدعى بعض الذين كانوا أسرى لديه، وكان من بينهم بعض الداوية والاسبتارية، وبعض الفرنسيين، الذين كانوا قد أخذوا أسرى، مؤخراً في المعركة عند غزة، وخاطبهم كما يلي:

«لدي سر خفي في صدري، عليّ بثقة أن أبوح به إليكم، إذا ما وعدتموني بيمين دقيق تحلفونه بحق إيمانكم وشريعتكم، أن تخفوه، وأن تساعدونني، وقتها سوف أبوح به إليكم».

وجواباً على هذا الاقتراح، أعطاه الأسرى كلمتهم ويمينهم، ووعدوه بالحفاظ على الصدق والاخلاص غير المنقوض معه، في كل شيء، وبناء عليه شرع يقول لهم مايلي:

«إن سلطان مصر، لم يعد الآن مولاي، وهوالذي خدمته حتى الآن باخلاص في كثير من المخاطر، ذلك أنه قد سبب لي مؤخراً غضباً لايحتمل، وإهانة، وآذاني كثيراً، ذلك أنه شنق مؤخراً على المشنقة، أخي الذي أحببته أكثر من أخ —وفي الحقيقة أكثر من جميع أسرتي إلى جانبه— حيث اتهمه بأنه سلم عن طواعية دمياط إلى الفرنسيين، أو من خلال الخوف، مع أنه لم يمتلك سبباً أو بينة تؤيده في اتهامه له، وأنتم تعلمون تمام المعرفة، بأن هذه التهمة التجريمية زائفة تماماً، لأنكم تعلمون، كيف أنه قاتل بشجاعة واخلاص، وتصدى للفرنسيين عندما استولوا على الساحل، وكانوا كثرة كثيرة، وفي الحقيقة لقد قاتل كثيراً إلى جانب كثير من أصدقائنا وأقربائنا الذين هلكوا هناك، وقد خسرنا ركننا (ركن الدين) الذي كان أعظم رجل بيننا، والثاني بعد السلطان، وهو الذي كان قد قتل كثيراً من الصليبيين في الأوقات الماضية، ونال النصر على قومكم في غزة، ولذلك قد أوقفت نفسي على الانتقام بسبب مثل هذا الطغيان الكبير، وأن أعطي إلى الملك الفرنسي التقي هذه القلعة التي لاترام، التي عليها تعتمد ثقة جميع المسلمين، والتي فيها مخزون جميع أموال السلطان، وإنني أيضاً أسلم نفسي وجميع ممتلكاتي إلى

يسوع المسيح، وإلى الملك الفرنسي، وأطالب بقداس التعميد، ذلك أن مافعله السلطان بأخي، سوف يفعله، بدون شك بي، إذا حدث ووقعت بين يديه، وذلك مهما كنت بريئاً.

أنتم الآن قد أطلق سراحكم من سجنكم، وبناء عليه، اذهبوا بحذر، وبأعظم سرعة إلى الملك الفرنسي، وقدموا له تقريراً صادقاً حول جميع القضايا، ولكي يكون أكثر تأكداً من حسن اخلاصي، عليه أن يجلب جيشه كله الذي نعدّه جيشاً لايقهر، أن يجلبه وهو معبأ للقتال.

وعندما سيصل هذا إلى مسامع السلطان، سيدفع بقواته كلها للتصدي له لدى اقترابه، لكن عليكم عدم الخوف من هذا، وأن لايشكل ذلك مناسبة للخشية، لأنكم سوف تجدون القلعة المتقدمة الذكر مهيأة لكم، وكذلك مدينة الفسطاط، التي سوف تفتح لكم، وتكون بمثابة مكان للالتجاء والتحصن، ولكي نسبب اضطراباً مفاجئاً إلى جميع المسلمين، سوف يكون لديكم ارشادي، ومشورتي، ومساعدتي في جميع إجراءاتكم».

وكبرهان أول على صدق أقواله، جرى اطلاق سراح جميع الأسرى، مما منحهم سروراً وبهجة، وذهبوا على الفور بشكل سري إلى الملك، وبما أن الذين حملوا هذه الرسالة وجلبوها كانوا موثوقين، وأشخاصاً معروفين بشكل جيد، حصلوا على تصديق كامل، ولدى سماع الملك بهذه الرسالة، أمر بعدم إباحتها إلى أي انسان، حتى تكون خططه قد أعدت بشكل أكثر تحديداً.

وكان حزيناً لغياب وليم لونغوسبي وأتباعه، الذين كانوا قد عانوا من أضرار بالغة، ولأن جيشه كان قد نقص تعداده كثيراً، وكان يعاني من الفضيحة، قام على الفور بإرسال واحد إليه حتى يأتي، ويتلقى كل ترضية من أجل الأذى الذي ألحق به، وقال له في نهاية رسالته: «ولكي تسمع بعض التقارير المفرحة، التي سوف يتلوها بعض الأحداث المرغوب بها منذ زمن

طويل، و المتشـوق للابتهاج بها كثيراً، والتي رغبتنا وأمـانينا أن تكون شريكاً بها».

وانتشر خبر هذه الرسالة بين جميع سكان عكا، ومن خلالهم وصلت إلى سكان تلك المنطقة من البلاد، وبناء عليه، ذهب وليم وقتها مع جميع أتباعه إلى الملك، مطيعاً لأوامر مثل ذلك الأمير العظيم، لكن بشكل رئيسي بناء على الإضافة الأخيرة، وبعدما سمع من الملـك، رسالة المقدم المتقدم ذكره، قام بسبب السرور الذي شعر به، بالتخلي عن مشـاعر الغضب والحقد ضد الذين أساءوا إليه.

وبسبب هذه الأحـوال المستجـدة، قـام بعض المتطفلين، فكتبـوا بشكل سري، رسـائل مفرحـة فيها الأخبـار السـارة، وبعثوا بها، وكأنهم قـد نالوا الذي وعـدوا بـه، واستحـوذوا عليـه، ولذلـك بعثـوا برسـائـل زائفـة إلى أصدقـائهم، الذين أرادوا تنشيطهم وافراحهم، بأن القـاهرة والفسطاط قد جرى الاستيـلاء عليهما، وأن الاسكندرية تركـت عـرضة للاستيـلاء عليها من قبل الصليبيين، ومن هاهنا كـان منشأ تلك التقارير، والرسـائل المتقدم ذكرها.

كيف عرض السلطان كثيراً من الهدايا على الصليبيين حتى يحصل على السلام

وبناء عليه انتعش الملك، وارتفعت آماله، فوضع حامية موثوقة في مدينة دمياط، مكونة من دوق بيرغندي، وعدد كبير من أتباعه المخلصين، وأخذ اتجاه القـاهرة، مع جميع جيشـه معبئاً وفقـاً للنظام العسكري، وقتل على طريقه بعض المسلمين، الذين كانوا موضوعين على شكل كمين، لمنع جلب المؤن إلى دميـاط، وأخبر السلطان في الوقت نفسـه عنهم، أنهم قـد رفعـوا أعلامهم، وهـم مسرورين مبتهجين، وأقلعوا حـاملين من دمياط، وشعروا بكثير من الآمـال بالاستيـلاء على البـلاد كلهـا، ولذلك خـاف من قتـال

الفـرنسيين، فأرسل بعض الـرجـال الأعيـان من بـلاطه، بمثـابة رسل، يعـرضون التخلي عن جميع الأرض المقـدسة إلى الصليبيين، يعني أن تقـول جميع مملكة القدس وزيـادة، وكذلك مبلغاً من المال، من ذهـب وفضة، مع هدايا أخرى مـرغوبة، على شرط —على كل حال— وجـوب إعادة الملك لدميـاط، مع جميع الأسرى الذين كـانـوا تحت سلطانه، وأنه سـوف يتسلم جميع الأسرى أحراراً، وأن يكون مسموحـاً بقيام اتصالات حرة وتجارات، بشكل عام في بلدان كل منهما، من التمتع بمنافع السلام، واللطف المتبادل. ومـا قيل تأكدت صحتـه كحقيقة، أن السلطان قـد عزم مع عـدد كبير من الأعيـان المسلمين، على التخلي عن عقيـدة محمــد (صلى الله عليـه وسلم) (التي ظهـرت بوضـوح إليهم على أنها...)، وأن يلتحقـوا مخلصين بعقيـدة المسيح، التي كانت من الواضح نظيفة جداً، ومشرفة، شريطة أن يسمح لهم بسلام بالاحتفاظ بأراضيهم وممتلكاتهم، لكن عروض السلام هذه رفضت بعناد، من قبل النائب البـابوي، طاعـة منه للأوامر البابوية، الذي شجعـه على التصرف هكذا، إذا ما حدث، وتقدم المسلمون بمثل هذه العروض.

كيف جرى إعلام السلطان بخيانة المقدم

خلال هذا التعويق غير المفيد والطويل، حول هذه القضايا، تمكن بعض المسلمين، من المناطق الجبليـة، الذين وضعوا على شكل كمين، بين الرعـاة الذين كانوا يرعون قطعانهم في الوادي، لمنع وصول المؤن إلى المدينة، من أن يعرفوا عن طريق جواسيسهم، ويكشفوا خيـانة حاكم القاهرة، الذي تقدم ذكره، ولذلك امتطوا أسرع خيـولهم، وبذلوا كل سرعة ممكنة حتى وصلوا إلى السلطان، فأخبروه بكـل وضـوح بسبب اقتراب وصـول الصليبيين، ونشاطاتهم، ومشاعـرهم بالأمن، فأرسل على الفور بعض الجنود المجربين بكل سرعـة إلى القـاهرة، فـاعتقلوا الحاكم، واحتفظوا به في السجن، حتى يتمكنوا من الوقـوف على براهين على صـدق التقـرير، وكـان أول برهان وجـدوه، هو أنهم وجـدوا السجن فـارغـاً من الأسرى، وبذلك تبرهنت

خيانة الحاكم، ولذلك قام السلطان على الفور بتقوية القاهرة والفسطاط بحاميات من الجنود قائلاً: «الآن، آمل، أخيراً بأن رب الصليبيين المولى يسوع المسيح، الذي يحب الاعتدال والتواضع، سوف يخزيهم لتجبرهم».

وأصبح السلطان من ذلك الحين هادئاً، وواثقاً مطمئناً، ورفض منح الصليبيين عروض السلام التي كان قد تقدم بها من قبل إليهم، مع أنهم رجوه أن يفعل ذلك، ومع أنه جرى تشجيعه على أن يوافق، تطلع واثقاً للتصدي إليهم، أو بالحري للانتصار عليهم، وبناء عليه جمع أعداد كبيرة من العساكر من جميع بلدان الشرق، من بين الذين كانوا قلقين على الصالح العام، والمتشوقين للحصول على ثروة كبيرة، وأمر بأن يعلن على الناس جميعاً بصوت المنادي، أن كل من يقدم له رأس صليبي، فسوف يتسلم عشرة طالن، وذلك بالاضافة إلى عطائه المعتاد والموعود به، وأن أي واحد سوف يجلب اليد اليمنى لأي صليبي فلسوف يحصل على خمسة، ولسوف تكون جائزة الذي سوف يحضر قدماً طالنين.

كيف أخذت شؤون الإمبراطور فردريك بالتحسن

وكان في العام نفسه الامبراطور مزعوج تماماً بسبب زيادة عناد الايطاليين، وبشكل خاص عناد البارميين، والبولونيين: البارميون بسبب مقتل ثاديوس مع أتباعه المخلصين الآخرين، ولدمار قلعته، التي سماها المنصورة، والبولونيون لأسرهم ابنه وحبسه، وبدأ إنسيوس Ensius بشكل مواظب يعمل على ابداع خطط ضدهم، لينتقم للأذى الذي لحق به، وللأضرار التي لحقت بالكريمونيين، فقد أخذ البارميون، نتيجة للسلام الطويل الذي سمح به فردريك إليهم، يتمتعون بالتجول هنا وهناك سالمين من غير أذى، وتجولوا أولاً في المناطق المجاورة لمدينتهم، لكنهم بعد ذلك نقلوا بضائعهم إلى سوق كان على مسافة أكبر من ذي قبل، ومارسوا أعمالهم دونما انزعاج، وعادوا سالمين، وفي أحد الأيام، عندما عدّ بعض من الأعلى في طبقات أهل المدينة، أن هذا برهاناً على الأمن والسلام، فذهبوا

وهم يشعرون بالأمن، وهم غير مسلحين، لتفقد حدائقهم وقلاعهم التي بنيت في ضواحي المدينة من أجل حمايتهم، كانت هناك كتلة من أتباع فردريك جالسين في كمين، وقد سمحوا لهم بفعل ماأرادوه دون اعتراض سبيلهم، وفجأة انقضوا عليهم خارجين من المكان الذي تخفوا به، وكانوا مسلحين تسليحاً تاماً، وقطعوا جميع طرق الوصول إلى المدينة عن أهل المدينة غير المسلحين، وهكذا تمكنوا من أسر جميع هؤلاء من سكان المدينة، وهم غير متنبهين، وكانوا مثل طيور وقعت في الشبكة، وكان كثير منهم من أصل نبيل، ثم تمكن هؤلاء الجند من دخول المدينة، بعدما شقوا طريقهم بالقوة من خلال الحرس الأول عند الأبواب، واعتقدوا أنهم استولوا على المدينة، وأنها صارت تحت إرادتهم، غير أن الناس الذين كانوا باقين في المدينة، رفعوا أصوات الانذار، وتصدوا لهم على الفور، وأوقفوا تقدمهم، ووضعوا سلاسل، وجذوع أشجار، وعوارض خشبية عبر الطرق، كما أنهم دحرجوا براميل فارغة على الأرصفة، حيث صدرت عنها أصوات مرعبة، أخافت الخيول، وجعلتها تفر، لكن عندما علم أهل المدينة بأسر أبناء مدينتهم توسلوا بتذلل لمنحهم بعض العروض للسلام، وقام عدد كبير منهم، بالاندفاع خارجين من المدينة، وقد تمكنوا عن طريق بذل مبلغ كبير من المال من اقناع الامبراطور فردريك بقبول الولاء منهم، وأنهم سوف يخضعون له، وتمسك بعضهم الآخر بوجوب التصدي له، وكان اعتمادهم على حصانة أبراج المدينة، حيث التجأوا إليها، وشرعوا يرمون بالنشاب والحجارة الثقيلة على المهاجمين لهم، وآثروا تحمل أي خطر من المخاطر، على الخضوع لإرادة فردريك.

وعندما سمع البولونيون بهذه الوقائع، بعثوا رسلاً إلى فردريك، ورجوه بتوسلات وتذلل أن يمنحهم السلام، لكن فردريك رفض الاصغاء إلى طلبهم، وأرسل في حوالي الوقت نفسه بعضاً من رسله الموثوقين إلى مدينتي أفينون وآرل الفخمتين، الواقعتين على مقربة من ليون، فتلقى أيمان الولاء من سكانها، وعندما باتت أخبار هذه الوقائع معروفة لدى البابا،

حـــزن وتحسر متألماً لانفاقه من دون فائدة تلك المبالغ الكبيرة من المال، ولزيادة أسى البـلاط الرومـاني وحـزنه، فـارق الحيـاة رينير أوف فيتربو Reiner of viterbo, وكـان كاردينالاً وحـاجبـاً للبابا، وكـان رجلاً من أسرة مشهورة، عندها ممتلكات غنية، وكان مضطهداً لايعرف التعب ومشهراً بفـردريك، وإثر وفاته أرسل الرومان رسـالة، مصحوبة بالتهديدات إلى البـابا، يأمرونه بالعـودة من دون تأخير إلى روما، بحكم كونه راعيهم الروحي وأسقفهم.

برنارد دي نيمفا يجمع المال من الصليبيين

وقام في الوقت نفسه برنارد دي نيمفا Nympha, وهو كاهن، كـان مسلحـاً بوثائق بابوية، بجمع مبلـغ كبير من الصليبيين، من أجل استخدامات الايرل رتشارد، وكان ذلك بطريقة غير أمينة تماماً، حتى أن ذلك بدا هو سرقة أكثر منه عـدالة، والولاية الآمرة باقتراف هذه السرقة المهينة، قد جرى تقديمها كاملة في كتاب Additaments, وذلك حتى لاتؤذي آذان ومشاعر الكثيرين.

التقارير المحزنة التي جلبت من الأرض المقدسة

في يوم عيـد القـديس كينيلم Kenelm, الذي كـان في اليـــوم الأول من تموز، عندمـا كان الايرل رتشارد عنـد المسؤول المالي في لندن، قدم إليه إلى هناك بكل سرعة رسـول، كان الحامل الكئيب لأكثر التقارير المحـزنة، ورسـائل تحتوي على التقـرير الاخبـاري التـالي: «تشجع الملك الفرنسي المسيحي التقـي، من قبل رجل كان يلي القاهـرة —الذي جرت الإشارة إليـه من قبل— فقـام بعدما عقـد مجلساً استشـارياً عامـاً، فنقل معسكره من دمياط نحو القـاهرة، وقتل بعض المسلمين الذين تصدوا له على الطريق، وبما أن حظ الحرب قد ابتسم له من كل جانب، تمّ الاقلاع بهجوم حـاد على المسلمين، فيه عـانى الصليبيون بعـد قتال طويـل وحاد

جداً، من خسائر مرعبة، وفي الحقيقة كانت الخسائر من على الجانبين، وفي الأخير نال الصليبيون نصراً مجيداً عليهم، ثم قام الملك مع نهاية عيد الفصح، فعبر نهراً كبيراً اسمه تنيس، وكان يتدفق من مجرى نهر النيل، وجاء العبور بوساطة قوارب، كانت قد ربطت إلى بعضها بقوة، كما وعبر كثير من الناس النهر بوساطة مخاضة سرية، دلهم عليها بعض المسلمين المتحولين إلى المسيحية، وأخذ روبرت كونت أرتوي —أخو الملك— معه بعض النبلاء، كان واحداً منهم وليم لونغوسبي، وعبر إلى الشاطىء الثاني، ودون معرفة أخيه الملك، وكانت نيته الحصول على النصر لوحده، بدلاً من السماح للجميع بالمشاركة به، وأن يحصل على فضل النصر لوحده، بحيث يعزى إليه وحده فقط (لأنه كان متجبراً وأرعناً وشرهاً للحصول على مجد عابث)، وعندما وجد بعض المسلمين هناك، تمكن هو وأصحابه من قتلهم، ثم قرر بشكل غير حكيم أن يستولي بالقوة على قرية كانت أمامه اسمها المنصورة، وقد استهدف قتل السكان الذين كان سيجدهم فيها، ثم أن يدمرها، ولذلك شق طريقه إلى داخلها، لكن أمكن قهره بالحجارة التي ألقيت عليه، وأرغم على مغادرتها، إنما ليس من دون قتل بعض السكان، ثم عقد مع أصحابه مؤتمراً للتداول حول الذي ينبغي عمله، وكان الكونت روبرت يأمل بأن تكون النهاية سعيدة مثل البداية، لذلك أقنعهم وشجعهم جميعاً، بمتابعة الزحف، وقال لمقدم فرسان الداوية، الذي كان معه، وإلى وليم لونغوسبي الذي كان أيضاً موجوداً: «دعونا نلاحق العدو الهارب، الذي قيل بأنه قريب منا، بينما الأحوال الطيبة بين أيدينا، وفي الوقت الذي نرى فيه قومنا متحمسين، ومتعطشين إلى دماء أعدائهم، الذين هم يائسين من نجاتهم، وبذلك إذا ما سحقناهم جميعاً، يمكننا على الفور جلب حربنا إلى نهاية سعيدة، ودعونا نتابع زحفنا بثقة، لأن ثلث الجيش الفرنسي يتبعنا، وإذا صدف ووقع لنا أي شيء غير سعيد —لاسمح الرب به— إن الجيش الذي لايقهر لأخي الملك سوف يأتي إلى مساعدتنا

بناء على استدعـاء منا»، وعلى هذا الخطاب ردّ مقدم الداويـة، الذي كان رجلاً حكيماً، وحذراً، وبارعاً وجيداً في قضايا فن الحرب، ومجرباً، قائلاً: «مـولاي، ياأيها الكونت النبيل، نحـن نثمن بحق جـرأتكم ونثني على شجاعتك، وعلى عظمتك الفطرية، واقـدامك، وعلى اخلاصك التطوعي لصالح شرف الرب وكنيسته العالمية، وهو مانعـرفه، وغالباً مـا جربناه، ومع ذلك إننا —على كل حـال— نحـن نود أن ننصحك ونرجـوك، أن تتولى تقـدير هذا الاحسان، وأن تميل نحـو الاعتدال والحذر من أجل أن نتمكن من استرداد أنفاسنا قليلاً، بعد هذا النصر، والشرف الذي أضفاه الرب علينا، فبعـد حـرارة وتعب هـذه المعـارك، نشعـر بالإنهاك، ونحن مصابون بالجراحـة، وجائعون، وعطشانون وإذا كنا نحن نشعـر بالمواساة بشرف ومجد النصر الذي نلناه، مـا من تشريف أو سرور يريح خيـولنا المعقورة، التي بدأت الآن تخذلنا، وبناء عليه، دعـونا نأخذ بخطة أفضل، بأن نعـود، من أجل إذا مـا اتحدنا بجيش ملكنا، يمكننـا أن نتقـوى بمشورته، ومسـاعدته، وبذلك تتمكن خيولنـا، وكذلك نحن أنفسنا من الانتعاش بوسـاطة قليل من الهدوء والراحـة، وعندما سيشاهـد أعداؤنا هذا سـوف يحمدون اعتـدالنا وحكمتنا أكثر، ولسـوف يشعرون بخـوف أكبر منا، ثم إننا بعقـدنا المزيد من المشـاورات المحكمـة، مع أبناء وطننا، عندما نجتمع مع بعضنا، بعد ذلك يمكننا النهوض ثانية أقوى، ولسوف نمتلك ثقـة أعظم بقـواتنا الموحـدة، لأن الصرخـات قـد ارتفعت من الفارين، الـذين يمتطون خيولاً سريعـة، سوف تنبه السلطان مـع أعدائنا الآخرين، الواثقين بقوتهم، وبأعدادهم، وسوف تنذرهم وتعلمهم بعددنا الصغير، وعندمـا سيعلمـون بهذا كله وبهذه الأشيـاء جميعـا، سـوف يتشجعون لانفصـالنا عن جيشنا، وهذا أمر لطالمنا تشـوقوا إليـه، فبذلك سـوف يحملون علينا بجرأة أكبر وبثقـة أعظم، ولسـوف يصبون قـواهم علينا من أجل تدميرنا وخـرابنا، لأنهم يعلمون الآن، أنهم إذا مـاسحقوا في الوقت الحالي سوف يجردون كلياً من مـواريثهم، ولسوف يدفعون مع

أسرهم للغرق في نهر النيل».

التأنيبات التي جرى تكديسها على الداوية والاسبتارية من قبل كونت أرتوي

وعندما سمع كونت أرتوي هذا الكلام، بات غاضباً جداً، وأجاب وهو يتميز غضباً وتجبراً قائلاً: «انظروا إلى الخيانة القديمة للداوية، وللتمرد القديم المعروف للاسبتارية، وكيف ظهر الآن خداعهم المخفي منذ زمن طويل، وانفجر وتدفق الآن بيننا، فهذا الذي كنا قد أخبرنا به منذ زمن طويل جداً، وهذا ماتحقق بعدما كان متوقعاً، ولقد كان من الممكن منذ وقت طويل مضى الاستيلاء على كل بلاد الشرق، لولا أننا العلمانيين كنا مخدوعين بالاعتماد على الداوية والاسبتارية، مع آخرين يدعون أنفسهم الرهبان، انظروا إن فرصة أسر السلطان باتت مفتوحة أمامنا، وتدمير جميع المسلمين في متناول اليد، وكذلك التمجيد الدائم للإيمان المسيحي، وهذا كله مايحاول هذا الداوي الموجود هنا ويسعى إلى إعاقته بحججه الواهية والمخترعة، ذلك أن الداوية والاسبتارية والمشاركين لهم، يخشون من أنه إذا ما أمكنت السيطرة على البلاد واخضاعها إلى الصليبيين، فإن تحكمهم الذي عظم اعتماداً على مواردها الغنية، سوف يزول وينتهي، ولذلك فإنهم سمموا —بمختلف الطرق— الصليبيين الذين جاءوا إلى هنا، وهم جاهزين لمساعدة قضية الصليب، وهم بتحالفهم مع المسلمين قد قتلوا هؤلاء الصليبيين بطرق خيانية متعددة، أوليس فردريك الذي عانى من خيانتهم، هو الشاهد الأعظم توكيداً حول هذه القضية»؟.

جواب مقدم الداوية

وحزن مقدم الداوية المتقدم ذكره وتألم بقرارة نفسه مع اخوانه، وكذلك فعل مقدم الاسبتارية واخوانه، وانزعجوا كثيراً من هذه

الكلمات التوبيخية والقاسية، وردوا وكأنهم عقل واحد، كما يلي: «لماذا أيها الكونت النبيل، توجب علينا ارتداء الزي الرهباني؟ هل فعلنا ذلك من أجل الاطاحة بالكنيسة، وهل بممارسة الخيانة، نتولى فقدان أرواحنا؟ إن هذا بعيد عنا، وفي الحقيقة بعيد عن كل مسيحي»، وبما أن مقدم الداوية كان غاضباً كثيراً، قال أيضاً بصوت مرتفع إلى حامل علمه: «انشر علمنا وارفعه، دعونا نزحف نحو القتال، لكي نتمكن في هذا اليوم جميعاً من تجريب حظ الحرب، ونواجه فرص الموت، فنحن سنكون غير ممكن قهرنا إذا ما استمرينا غير منقسمين، لكننا لسوء الحظ قد انقسمنا وصرنا مثل رمل من دون كلس، وبذلك غير موائمين من أجل واجهة روحية، ومن دون ملاط التعاطف سوف نكون منذ الآن مدمرين، مثل مواد مرفوضة»؟.

حول المشاحنة بين وليم لونغوسبي وكونت أرتوي

ولدى سماع وليم لونغوسبي لهذا الكلام، وكان يخشى من حدوث انشقاق في الجيش، ولذلك رغب في تهدئة العنف الأرعن للكونت أوف أرتوي، وفي تلطيف واطفاء غضب مقدم الداوية، لهذا صاغ رداً تدخل به وقال: «إنه من مثل هذا الشقاق والخلاف —تبعاً لكلمة الرب— ينجم الخراب، لذلك دعونا بناء عليه أيها الكونت الأعظم نبالة، نصغي إلى هذا الرجل المتنفذ والمقدس، لأنه مقيم منذ وقت طويل في هذه البلاد، وقد تعلم من كثير من التجارب،وعرف قدراتهم وكذلك مكرهم وبراعتهم، وهل هو أمر غريب، إذا كنا نحن القادمين الجدد، ونحن شباب وغرباء، أن نكون جاهلين بمخاطر الشرق؟ ومثلما هي المسافة بين الشرق والغرب، مثل ذلك الخلافات القائمة بين شعب الغرب وبين هؤلاء الشرقيين»، ثم إنه التفت نحو مقدم الاسبتارية، وخاطبه بكلام فيه تهدئة وتلطيف، وقد سعى إلى إطفاء عنف مشاعره، ووقتها عارضه كونت أرتوي فجأة وقاطعه وهو يتكلم، وتفوه بصوت

مرتفع، وفقاً للعادة الفرنسية، وتلفظ بأيمان غير معتـادة، وصدرت عنه التوبيخات التالية والشتائم المهينة على مسمع من الحشود: «ماهذا الجبن الموجـود هنا، لدى هذا الانكليـزي الرعـديد، ذي الـذيل الطويل، فكم سيكون هذا الجيش سعيـداً، وإلى أي مـدى سيكون نقيـاً، لو أنه تنظف من هؤلاء الذيول ومن هؤلاء الأشخـاص ذوي الذيول»، وشعـر وليم لونغوسبي بالخجل، ولأنه أثير وأغضب بكلماته العدوانية، فأجابه قائلاً: «ياكـونت روبرت، من المؤكـد أنني سـأزحف غير عـابىء بأي خطر أو خوف من الموت الوشيك، ويخيل لي أننا سنكون في هذا اليوم، حيث لن تتجـرأ على لمس ذيل حصـاني»، ثم وضعـوا خـوذهم على رؤوسهم، ونشروا أعلامهم، وتابعوا زحفهم ضد العدو، الذي غطى سهلاً شاسعاً مع الجبال والوديان في جميع الاتجاهات.

وكان الكونـت روبرت يرغب في أن يعزو كل شيء إلى نفسـه، إذا ما حـدث ونال الصليبيـون نصراً، وتأبى عن إخبار أخيـه الملك الفـرنسي، بالخطر المفترض، وجـرى إعلام السلطان بجميع هـذه المسائل بوسـاطة جواسيسـه النشطين، فاستلهم الشجاعة لأن يقـاتل بجيشه الكبير، الذي احتشد في وقت قصير وغير اعتيـادي، وخاطب رجـال حشوده كما يلي: «إعلمـوا إن هذا مـاانتظـرته طويلاً، ورغبت به، وتشـوقت إليـه، إن الصليبيين منقسمين على أنفسهم، فـالأخ غير متعـاون الآن مع أخيـه، لابل حتى هؤلاء الرجـال الذين يشكلون ثلثهم فقط، على خـلاف، فيما بينهم لقـد أعطيوا إلينا بمثـابة غنيمـة نتالها ونسلبها، فهم في هذا اليـوم بالذات قد تشـاجروا، وتقاذفوا بالشتائم فيما بينهم، وإن الذي يفعلونه، ومـا هم مقبلـون على فعله، الملك الفـرنسي جـاهل بـه تمامـاً، وهو على مسـافة بعيـداً عنهم، ففي المقام الأول، علينا أن نسحق هؤلاء الرجـال، الذين هم قلـة، وهم بلاشك قـد هدهم الجوع، وأنهكهم القتـال، مع متاعب السفر، ويعانون من كدمات الحجارة وضرباتها وهي التي رميت

عليهم في المنصــورة، وسيكون ذلك في سبيل أن يكـون من السهل فيما بعــد محاربـة الآخــرين، الذيـن هم الآن مقطوعين عن جميع وســائل الحصول على المؤن»، وعندما سمع المسلمون الآخرون بهذه الخطة، تمت الموافقة عليهـا من قبل الجميع، ووقتها اندفع السلطان مـع حشوده التي لاتحصى، بشـدة ضـد الجيش الصليبي، وتـلا ذلك قتـال شـديد جـداً، وخـلال وقت قصير جـرى تطويق الصليبيين من قبل جمهـور المسلمين، وباتوا أشبه بجـزيرة في البحر، وأقحم المسلمون أيضـاً أنفسهم، ووقفوا بين الصليبيين وبين النهـر الذي عبروه، حتى لايتمكـن أي واحـد منهم من النجاة، ولدى رؤيته هذا، أسف كـونت أرتوي، أنه لم يأخذ بنصيحة الرجـال الأكبر سناً منـه، والأكثـر حكمـة، لكن الذي كـان قـد وضع خوذته على رأسـه ما كـان من الممكن له الانسحاب من القتـال، ولدى رؤية روبرت الكونت وليم لـونغـوسبي، وقـد جـرى تطويقـه من جميع الجهات، من قبل كتلة كثيفة من الأعـداء، وأنه كان يتحمل لوحده ثقل المعركة كلها، صرخ الكونت روبرت مستحياً، ومن دون حكمة: «وليم، الرب يقـاتل ضـدنا، لايمكننا الاستمـرار بالمقاومـة، تدبر أمـر نجـاتك بوساطة الفرار، وانج حياً، مادام حصانك قادراً على حملك والنجاة بك، وإلاّ فإنك سوف تطلـب فعل ذلك، عندما تنعدم من لدنـك الوسائل»، وعلى هذا ردّ باختصـار، وبقدر مـاسمح له الصراع: «لاسمح الرب بأن يقوم ابن أبي بالفرار من أمـام أي مسلم، وإنني أوثر الموت بسعادة على أن أعيش من دون سعادة»، لكن روبرت كونت أرتوي، رأى نفسه وقد بات مطوقـاً من قبل أعدائـه، وليس لديه أية فرصـة مفتوحـة أمامـه أو قـدرة على الفرار، أدار رأس حصـانه، وشرع بالفـرار، وحيث أنه كـان ممتطياً لحصان سريع، شـق طريقه بكل سرعة نحو النهـر، وقصد إما نهر النيل، أو نهر تنيس الذي يتـدفق فيه، وعلى الفـور دخل به، وهو مسلح لابساً لدروعه كما كان، واثقاً من إمكانيـة السباحة وعبور النهر، لأنه قد عرف بأن حصـانه كان حصـاناً قوياً جـداً، لكن الحصان كـان غير قادر

على السباحة، لأنه كان مثقلاً بدروع حديدية، وبمعدات أخرى، ولذلك فإنه غرق، وغـرق هذا الرجل المتجبر بشكل تعيس، وهو هارب، لهذا لم يشفق عليـه أحـد من الناس، كان متـواضعـاً، أو باختيـاره، بل إن فعل ذلك، فعله مكرهاً، فهـو لم يحظ بـدمـوع أي انسـان، لأنه وإن كـان قـد انحـدر من دم ملكي نبيـل، لقـد ضرب مثـلاً سيئاً للآخــرين، ووفقـاً لكلمات الشاعر:

حسبما يشغل الانسان مكانة عالية أو منخفضة

مثل هذا ينظر إلى جريمته فتعد صغيرة أو كبيرة

أمـا وقـد غـرق الكونت، ألمّ اليأس بالفـرنسيين الذين كـانوا في تلك المعـركة، فتراجعـوا على شكل كتل متفـرقة، ووجـد وليم، الذي انقض المسلمون كلهم عليـه، أن القضية باتت قضية مـوت أو حياة، ومع ذلك صمـد بشجـاعـة أمـام حملاتهم، وأرسل بأرواح الكثير من أعـدائـه إلى الجحيم، مع أنه بعد مضي وقت طويل، أصبح حصـانه ضعيفاً، وقطعت قدماه، ومـع ذلك، تمكن وليم نفسه حتى وهو في ذلك الوضع من قطع رؤوس، وأيدي وأقدام بعض مهاجميه.

موت وليم لونغوسبي

وأخيراً بعــدمـــا تلقى الكثير من الضربـات، والجراحــات، وأنهك بوسـاطة مــاتسـاقط عليـه من رمـايات الحجـارة المتــواصلة، بدأ وليم بالسقـوط، لنزيفه ولنقصـان دمـه، ولفظ أنفـاسه ليتسلم تاج الشهـادة، وهلك معـه روبرت دي فيري، الذي كان الحامل لـرايته، وكـان فارسـاً نبيـلاً، وهلك أيضـاً الكثير من الانكليـز الذيـن تبعـوا رايتـه، منذ بداية الحرب، وفي الليلة التي تقدمت على هـذه المعركة، ظهـرت رؤيا إلى أمه النبيلة، راعية دير لاكوك، وكـان اسمها هيلا Hela, فقد ظهر في هذه الرؤيا فـارس شـاكي السـلاح، لابسـاً لجميع دروعه، وقـد جـرى

استقبـالـه في السماوات التي انفتحت لتلقيـه، وبما أنها عـرفت ترس الفارس من خـلال الرنك المرسوم عليه، تقصت وهي مندهشـة لتعرف من كان الفـارس الذي صعد إلى السماء، وتم استقبـاله من قبل الملائكة، بمجـد عظيم، وبعـدمـا عـرفـت ترسـه، جـاء الجواب واضحـاً إليهـا، وبصـوت جلي: «إنه ابنك وليم»، وبناء عليـه، سجلت اسم الليلة التي ظهرت فيها الرؤيا، والتي أبيح لها معناها بشكل واضح فيما بعد.

ولكن دعونا نعـود إلى القضية الأساسية، حيث كـان روبرت، كونت أرتوي قد غرق، وقتل وليم لونغوسبي، وهنا صار المسلمون واثقين من النصر، فـالصليبيـون باتوا محاصرين ومن دون أمل، وقـد كـانوا طعمـة للسيف من دون شفقة، ونجا من جميع تلك الكتلة المجيدة من الفرسان المتميـزين، فقط اثنان من الداوية، وواحـد من الاسبتـارية، وشخص واحد من فئة أدنى، وكان قـد سبح عبر النهر وهو عريان، وجلب الخبر إلى الملك الفرنسي، وإلى بقيـة الجيش، وحدثهم حـول هذه الحادثة، التي مأسـوف من أجلها من قبل جميع الأجيـال، أمـا الآخرون الذين نجـوا، فكانوا منهكين إلى أبعد الحدود، ومصابين بالجراحة، وبالكاد يمكنهم أن يتنفسـوا، ولذلك كـانوا غير قـادرين على عبور النهـر، غير أنهم أخفـوا أنفسهم وسط نبـاتات الشعـراء التي كـانت قـائمة على ضفـاف النهـر، وانتظروا حتى حلـول ظلام الليل، لكن غضب الـرب، لابل بـالحقيقـة حنق الرب، لم يسمح لواحد من ذوي المراتب العالية بالنجاة.

كيف شجع الملك الفرنسي أتباعه

وعندمـا وصلت أخبـار هذه الوقـائع إلى علم الملك الفـرنسي التقي، انفعل وشعـر بـالحزن في قـرارة قلبه، ولم يتمكن من حبـس نفسـه عن التنهـد بألم وعن سفح الدمـوع بوفـرة، وهو يضرب يداً على يد، وعيناه شـاخصتان نحـو السماء، وقـال وشهقاتـه تعترض كلامـه: «بما أن ذلك يرضي الرب، هكذا وقعت الأمـور، تبارك اسم الرب»، ثم جمع النبـلاء

الفـرنسيين الذين كـانوا من حـوله وقـال لهم: «أصـدقـائي، وأتبـاعي المخلصين، وشركائي في مخاطري، ورفاقي الشجعان في السلاح، ماالذي ينبغي عمله في هـذه الأزمـة الحزينـة؟ إننا إذا مـا تحملنا هذه الأشيـاء وتراجعنا دون أن نعبأ بهم، سيعلو عـدونـا علينا، وكأنه قـد حصل على النصر علينا كلنا، وهـم سيتمجـدون ويفـرحـون بتراجعنا أكثـر من سرورهم بقتل رفـاقنا، ولسـوف يتشجعون بقـوة أعظم للهجـوم علينا، ولمطاردتنـا، بما أنهم أسرع منا، وهكذا سيتمكنـون فـورا من تـدميرنا، وإزالتنا من على وجه الأرض، مما سيلحق الأذى والعار بالمسيحية كلها، وباتخاذ مثل هذا الإجـراء سـوف تـزداد الكنيسـة دمـاراً كليـاً، وتوصم فـرنسا بعـار لايمكن إزالتـه، ولذلك دعـونا نتوجـه بالدعـاء إلى الرب، الذي من الواضح أنه غاضب علينا بسبب ذنوبنا، ودعونا نقوم بالاجماع وبثقـة نهاجم أعـداءنا الذين تلطخـوا بـدمـاء إخـواننا، ودعـونا نطالب بغضب مـوائم بدمـاء أصدقـائنا، التي سفكت على أيدي أعـدائنا، فمن الذي بالحقيقـة بات بإمكانـه أن يتحمل أية مـدة أطول ويصبر على هذا الأذى العظيم الذي لحق بالمسيح»؟.

الزحف غير السعيد للملك إلى المعركة

وهكذا تشجع الجميع، وقـامـوا بنـاء على أوامـر الملك، وكأنهم رجل واحـد بحمل أسلحتهم، ولكن بما أن كـل رجل قـد أعـاد إلى ذاكـرته، موت بعض الأصـدقاء أو الأقرباء تأوه وبكى بـألم، وبدموع تدفقت من عينيه بغزارة، وهكذا تلاشوا ضعفاً بالحزن أكثر منه بسبب الجوع، وكان الذين امتلكوا القوة قـد أخذوا بالزحف، وقد سار أمـامهم حامل الراية الفـرنسية الحريرية الحمـراء، وساروا على آثار إخـوانهم الذين قتلوا، كما ذكـرنا من قبـل، وأرسلوا العجـزة والضعفـاء، والذين كـانوا من دون أيدي، وأيضاً بـلا امدادات، بقوارب، بوسـاطة طريق النهـر إلى دمياط، حتى يتمكنوا هناك من استرداد قوتهم في المأوى الذي تقدمه لهم المدينة.

وأخبر السلطان بهذه الواقعة، فأمر على الفور بجلب قوارب تحمل إلى هناك على العربات التي تجرها الثيران، من أجل أن يكون بإمكانهم بالتعاون مع السفن التي كانت لديه هناك، الحيلولة دون وصول الامدادات، ولكي يتمكن من امتلاك اسطولاً أكبر لإكمال تدمير الصليبيين التعساء، وواجهت هذه المراكب، المليئة بالمسلمين، الصليبيين وهم يبحرون نزولاً بالنهر، وأعقب ذلك معركة بحرية هي الأكثر دموية، فقد تساقط نشاب المتقاتلين، وتطاير كأنه زخات برد، وأخيراً بعد قتال طويل، تحول إلى قتال مرعب بوساطة النفوط، التي قذفت عليهم من قبل المسلمين، وبدأ الصليبيون يعانون من الانهاك ومن الجوع والحزن، ولذلك انتصر المسلمون عليهم بسرور، ونتيجة لوجود الاسطول الاسلامي الذي جاء من دمياط، وكذلك الاسطول الذي تمركز بالنهر، لمنع حمل الامدادات إلى تلك المدينة، ولمعارضة هؤلاء للصليبيين والتصدي لهم، وكانت جميع الممرات مغلقة في وجههم عندما رغبوا بالفرار، لذلك مامن واحد من الصليبيين نجا ليحمل أخبار الكارثة، إلى أصحابهم في دمياط، بل هلكوا جميعاً حيث أنهم إما أنهم غرقوا، أو أحرقوا، أو طعنوا بالأسلحة، أو واجهوا نوعاً آخر من الميتات التعيسة، وكان هناك واحد ممن جاءوا في الساقة، وكان على مسافة بعيدة عن كتلة الطليعة منهم، تمكن مع بعض الصعوبة من النجاة، وعاد دون المتابعة بسيره نحو دمياط، وقد طارده المسلمون، وفي أثناء فراره أصابوه بخمس جراحات كبيرة، وكان اسم هذا الرجل الاسكندر غيفارد Giffard, وكان انكليزياً من حيث المولد، وكان من أصل نبيل، وكانت أمه سيدة نبيلة، أقامت مع الملكة.

حول المذبحة التعيسة للفرنسيين

وعندما علم الفرنسيون بهذه الوقائع، تلاشوا ضعفاً أكثر فأكثر، مع الأسى الداخلي، ولم يستطع الملك مواساتهم، واستبد بعقولهم جميعاً،

وطغى عليها شعور باليأس الكبير، وفي المقابل كان السلطان الذي سمع بالكارثة التي حلت بالصليبيين، قد فرح وشعر بالسعادة، واستمد المزيد من الجرأة، وعندما سمع بالزحف الهجومي للملك الفرنسي مع جيشه دهش تجاه تهورهم، بعد تلك النوازل، وعجب كيف أن قلة من الرجال الجائعين قد تجرأوا على إثارة مثل ذلك الجيش الكبير، وتحريضه على القتال، ذلك أنه كان جيشاً تألف من جميع قوى الشرق، ولذلك دعا أعيانه للاجتماع معاً، وشجعهم بالكلمات التالية: «أيها المقدمون الأعظم نبلاً في الشرق، الذين تمكنوا الآن بشكل مشرف من الانتصار، وهزيمة قرابة نصف الجيش الفرنسي، والذين يتمتعون بأسلاب، وأسلحة، وخيول الذين قتلوا، تصدوا بجرأة لهذه الحثالة المقبلة، الذين هدّ أفرادها الجوع، والحزن، ومن السهل سحقهم، وعليكم أن تقتلوا بلا رحمة الذين يتصدون إليكم، حتى لايتمكن أي واحد منهم من الفرار، أو يتملص من أيديكم المنتصرة، لأنه ما هذا التهور الأحمق الذي حرضهم على مهاجمتنا، والسعي لحرماننا من ميراثنا، نحن الذين سكنا في هذه الأرض الجليلة منذ الطوفان؟ فهل هم يريدون منا أن نؤمن بمسيحهم على الرغم من إرادتنا؟ فمن الذي يمكنه أن يتحول عن دينه، أو يؤمن بشيء ضد إرادته؟ هناك محرض ما —هو ضعيف— قد دفع الصليبيين إلى اشتهاء السيطرة على مايسمونه مقدساً، لكن ما شأنهم ومصر، ولماذا يفعلون فيها مايفعلون؟ فهم غير أهل لأن يكونوا سادة على البلاد التي تشرب من نهر أرسل من الجنة، وتنال الثروة منه، إنهم رجال بلالحى، وحليقين، وليسوا أهلاً للقتال، وبلهاء، ومخنثين، لابل أكثر شبهاً بالخصيان، أو بالحري بالنساء، منهم بالرجال فكيف تجرأوا أن يفعلوا الذي فعلوه»؟، ولدى سماع هذه الكلمات التهب جميع المسلمون حماسة ورغبة بالقتال، وصاروا مثل نار مستعرة، وواجهوا رجال الصليبيين في القتال مع كثير من الثقة.

أسر الملك الفرنسي

وعند ذلك زحف اخـوانا الصليبيـون، وعندمـا اقتربوا من مكان المعركـة، التي هلك فيها اخـوانهم من الفرنسيين بشكل تعيـس، وجدوا أجسـاد القتلى من دون رؤوس، وقد حـرمـوا من أيديهم وأرجلهم، كما كانوا كذلك مشوهين، لأن المسلمين تنافس واحدهم مع الآخر، في قطع أطراف ورؤوس أجسـاد القتلى، وذلك في سبيـل الحصـول على الجائـزة الموعـودة من السلطان، وتركـوا بقيـة الأجسـاد حتى تلتهـم من قبل الحيـوانات، والطيـور الجارحـة، وعندمـا رأى الفـرنسيـون هذا المشهـد شرعـوا بالندب والنحيب، ونتفـوا شعـورهم، ومـزقـوا ثيـابهم، وبللوا دروعهم وترستهم بدمـوعهم، وبذلك كان أسـاهم يمكن أن يثير شفقة حتى أعدائهم، وفي الوقت نفسـه، ظهرت حشود العدو أنها باتت قـريبة جداً، وأعقب ذلك على الفور نشوب صراع محزن، لكن ماالذي كان من الممكن أن يفعله مثل ذلـك العـدد الصغير من الرجـال، الذين أنهكهم الحزن، والآلام، والجوع، والعـوز، وكـانوا يمتطون خيـولاً جـائعـة، ويؤثرونه ضـد مثل تلك الآلاف المؤلفـة؟، وانهزم الفـرنسيـون، ونزلت بهم الضربات، وقتلوا، وتنافس واحـدهم مـع الآخـر في الخضـوع إلى أعدائهم، وباختصار جرت هزيمـة الجيش الفرنسي وتمزيقه، وعدد قليل فقط من أعـداء الفـرنسيين قتلوا، وفي هذا القتـال المشـؤوم، قتل واحـد فقط من ذوي المراتب بين المسلمين كان معروفـاً وكان اسم هذا الرجل Melkadin ابن Rocus(?) وعلى الـرغم مـن سقـوط الكثيرين من الجانب المعادي، مثلما خسرنا، فإنه لم يظهر على جيشهم أي نقص، ذلك أننا خسرنا ألفي فـارس وثلاثمائـة فـارس، كلهم من أصل نبيل، وخمسـة عشر ألفـاً من الجنود، فهـؤلاء جميعاً قـد قتلوا، أو وقعـوا أسرى وصـاروا تحت إرادة أعـدائهم، ولكي يضـاف إلى أحـزان الفـرنسيين، وخزيهم الـدائم، ولاضطراب الكنيسة والمسيحية بأجمعهـا،

وقع الملك الفرنسي بالأسر، مع عدد صغير جداً كانوا قد دافعوا عنه، وهم شارل كونت بروفانس، وألفونسو كونت بواتو، ونبلاء آخرين ثبتوا إلى جانبه، ولم يرد قط في أي كتاب بأن ملك فرنسا قد وقع أسيراً، خاصة لدى المسلمين، أو لحقت به الهزيمة، إلاّ هذا الملك، وطالما أنه هو وحده قد بقي سالماً ومشرفاً، وإنه وإن سقط البقية، فإن المسيحية يمكنها أن تمتلك بعض الوسائل، في استرداد أنفاسها، وفي تجنب العار، ولهذا قام داود في المزامير، بالدعاء بالروح، بأن يتم حفظ الملك، لأن على بقائه يعتمد بقاء الجيش كله، وجاء هذا في قوله: «يارب، احفظ الملك»، أما بالنسبة للقوات التي قادها روبرت كونت أرتوي، أخو الملك، في حملته الطائشة، فقد هلك حوالي الألفي فارس، وسبعة آلاف ومائتين من الرجال المحاربين، وقد نجا من الداوية ثلاثة فرسان فقط، ومن الاسبتارية أربعة فقط، فقد مات الخامس من جراحاته، ولنزيفه ونقصان دمه، وكانت وفاته قبل أن يصل إلى عكا، ونجا من رهبان طائفة التيوتون ثلاثة فقط، وكانوا نصف أموات، وسقط هناك في هذا الصراع المميت، إلى جانب الداوية والآخرين، الرجال المشهورين التالين: «رالف دي كوسي Coucy, وكان فارساً مشهوراً ومتميزاً، وهوغ، كونت فلاندرز، وكان رجلاً صاحب قوة كبيرة، ومتميزاً، وهوغ برون Brun, كونت التخوم، الذي كان والده قد توفي قبل وقت قصير في دمياط، وأيضاً كونت أوف بونثيو Ponthieu, وكان حاجاً، ولكي نجمل ما حدث ببضع كلمات فإن جميع النبالة الفرنسية قد سقطت هناك وقتلت، ووقع بالأسر غوشير دي شاتيلون Gaucher de chatillon, وكان جريئاً، وفارساً لايقهر، ونقل بعد المعركة، وأرسل ليقدم هدية إلى الخليفة بين هدايا غنائم المعركة، وكان من عادة الخليفة عدم اطلاق سراح أي صليبي، أودع في سجنه، وكان وليم لونغوسبي، قد سقط أيضاً، وهو مغطى بالدماء، بعدما لطخ سيفه بدماء عدد كبير من أعدائه، وسقط معه روبرت دي

فيري، وعدد آخر من الفرسان المشهورين وأتباعه، وهذا الفارس، مع أنه أقنع بأن ينجو، وكان بإمكانه أن يفعل ذلك، رفض خشية أن يظهر أنه غير جدير بالتعايش مع الشهداء الآخرين.

حول ولاة دمياط والأسطول الذي ترك هناك

وكان قد ترك في دمياط مسؤولاً عنها: دوق بيرغندي، الذي تولى إمرة القوات والناس الذين تركوا في تلك المدينة، وأوليفر أوف تيرمس Termes, وكان مقاتلاً متميزاً، وقد تولى إمرة رماة القسي الزيارة، وخيول المناوشة، وكان هناك أيضاً في المدينة أودو، النائب البابوي مع أسقفي أميان Amiens وسواسون، وقساوسة آخرين وكهنة، وكذلك ملكة فرنسا، وسيدات أخريات كثيرات كن في خدمتها، أما بالنسبة لقيادة الأسطول أيضاً، الذي كان تعداد سفنه كبيراً جداً، ومثله في الفخامة، أو أحسن منه تزويداً، لم يشاهد مثله قط، فقد عيّن لقيادته بعض مشاهير الفرسان، وقد تمركز في المدينة، مع بعض الجنويين، والفلمنكيين، والبواتيين، والبروفانسيين، وكانوا جميعاً مخلصين للملك الفرنسي، وخاضعين له.

وينبغي أن نشير هنا، إلى أنه في اليوم نفسه الذي جرى فيه أسر الملك الفرنسي، كان الايرل رتشارد يحتفل مع البابا، ومثلما أسر سلطان مصر الملك الفرنسي، كان البابا يسعى لأن يأسر الايرل، بوساطة الاحتفال به، وليقدم له معروفاً واستجابة لرغباته.

كيف رفض الملك الفرنسي إعادة دمياط إلى المسلمين مع أنه كان أسيراً

وبعدما جرى أسر الملك الفرنسي، ووضع في سجن مضمون، وقام المسلمون، كما كانوا قد فعلوا من قبل في قضية الذين أسروهم وكانوا مع أخي الملك روبرت، فقطعوا الآن رؤوس وأطراف وأيدي وأرجل

القتلى، وذلك بمثابة علامة على الانتقام الأقصى، وذلك حسبما أمر السلطان، وكانوا أيضاً يأملون بالجائزة التي تقدم ذكرها أعلاه، إنما كان كلما ازدادت آلام هؤلاء الشهداء المقدسين، كانت بلاشك الجائزة التي سوف ينالونها أعظم، وقرر السلطان أخذ الملك الأسير إلى الأجزاء القصوى من الشرق، وذلك كعلامة على النصر، وموضوع هزء إلى جميع المسلمين، ولكي يحصل على شهرة لنفسه، من أجل أن يتعرض أسيره إلى اهانات جميع المسلمين، وفي سبيل أن يجري تقديم أكثر الملوك المسيحيين شهرة إلى الخليفة، تشريفاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، على أساس أن أعظم المسيحيين نبلاً ومكانة قد سحق، فبذلك يمكن للمسلمين أن يشعروا بآمال سحق البقية.

لكن بما أنهم كانوا أشد رغبة بتملك دمياط، جرى تغيير الخطة، وذلك خشية أن يموت الملك حزناً وكمداً، لأنه رفض أكل أي شيء، أو الشرب لمدة يومين بعد أسره، وقد رغب بالموت، ولو أنه مات، لكان بإمكان المحاصرين، الوقوف والصمود دونما خطر، لمدة عام على الأقل، في وجه حملات جميع جيوش الشرق، بكل من البر والبحر، ولكان في الوقت نفسه من الممكن تحريرها بوساطة نجدة من الصليبيين، لأن دمياط كان مدافعاً عنها بشكل جيد بالأسوار والسواتر الدفاعية، والأبراج، وكان الأسطول في البحر أسطولاً لايقهر، ولذلك قدر الأناس الأكثر حكمة والأعلى مكانة بين المسلمين هذا الأمر، ورأوا دعوة الملك على الفور لتسليم دمياط،وأن يدفع بمثابة فدية لشخصه مبلغ مائة ألف باوند من الذهب، وعلى هذه المطالب رد الملك بملامح كئيبة، وبلهجة متوسلة: «الرب القدير يعلم بأنني قدمت إلى هنا من فرنسا ليس لنيل أراض أو مال لشخصي، بل لأربح للرب أرواحكم المحيق بها الخطر، وأنني لم أقم بهذه الرحلة الخطرة في سبيل منفعتي، بل من أجلكم، ووفاء لنذري، لأنني أمتلك كثيراً جداً من الأراضي،

المعتدلة والصحية، مع أنني مذنب ولست جديراً بها، غير أنني مشفق على أرواحكم، التي سوف تهلك بدون شك، كونوا راضين بالدمار الذي لحقني، لأن المسيح غاضب عليّ، ولذلك عانيت بطرق مختلفة، أنا من الممكن أن أقتل، ومن الممكن استخراج المال مني، إلى حد إفقاري تماماً، لكنني لن أسلم دمياط إليكم، التي حصلت عليها بوساطة معجزة لاهوتية».

كيف حاول المسلمون الاستيلاء على دمياط بالخداع

بينما كان المسلمون يتداولون حول هذه القضايا، قال واحد من الأكثر دهاء بينهم: «لماذا أنتم مترددون؟ إنه سواء أرضي هذا الأمير الأسير الضعيف، أم لم يرض، سوف نحصل على دمياط وعلى المال المطلوب»، وبموجب هذه النصيحة، قامت كتلة قوية من المسلمين مساوية في العدد لتعداد الجيش الصليبي، أو ربما كانت أكبر، وقام أفراد هذه الكتلة بلبس دروع الصليبيين بشكل خياني، وحملوا أيضاً ترسة وأعلام الصليبيين الذين قتلوا، وانطلقوا على الفور وهم مموهين على هذا الشكل نحو دمياط، من أجل أنهم، وقد حملوا مظهر الفرنسيين، يمكنهم الحصول على سماح بالدخول إلى المدينة، فما أن يسمح لهم بذلك، حتى سيقتلون كل الذين سيجدونهم هناك فيها، لكنهم عندما وصلوا إلى المدينة، نظر الحرس الصليبي من وراء شرافات المدينة والأبراج نحوهم، واعتقدوا في البداية أنهم صليبيين مسرورين يحملون الأسلاب والغنائم، لكن مع ازدياد اقترابهم، ظهروا أكثر أنهم لايشبهون الفرنسيين، لأنهم ساروا مسرعين وعلى شكل حشود غير منتظمة، وحملوا ترستهم بشكل فوضوي، وفق عادات المسلمين أكثر منه وفق عادات الفرنسيين، وعندما وصلوا إلى الحد الأقصى من التحصينات، واقتربوا من أبواب المدينة، تبرهن بشكل واضح أنهم مسلمين من خلال وجوههم السوداء الملتحية، وكانت مهمة جداً مسألة لحاهم، وطلبوا

على الفــور بشك جليل السماح لهم بالدخـول إلى المدينـة، لأن جميع الممرات إلى القلاع والمدينة، كانت محروسة بتيقظ وحذر.

حول حزن الصليبيين لدى معرفتهم بالمذبحة التي تقدم ذكرها أعلاه

عندمـا شاهد رجـال حاميـة المدينة المسلمين، وقـد تجهزوا بأسـلاب الصليبيين، ومن ثم أخبروا بتـدمير الجيش الصليبي، مـلأوا المدينة كلهـا بنحيبهم، ورفضوا —على كل حال— السماح إلى أعـدائهم بالدخول إلى القــلاع وإلى المدينة، وأعلنوا بجـرأة، أنـه وإن كـان الجيش الصليبي، وكـذلـك ملكه، قـد هلكوا، فإنهم سـوف يتحملون بثبـات الحصـار، وسيصمدون أمام حملات جميع المسلمين في الشرق، لوقت طويل، لأنهم يأملون بشكل أكيد باستلام المسـاعدة، إنما عندما رأى الأشخاص الذين كانوا يتولون المراقبة من أعلى الأبراج، بأنه كان هناك جيشاً كبيراً، واسع الانتشار، وقد تكون من هؤلاء القادمين الجدد، ولأنهم عرفوا أن قواتهم كـانت تماماً غير قـادرة على الوقـوف أمام قـوات الأعـداء، قرروا عـدم الاقلاع بحمـلات للهجوم عليهم، خـاصة وأن قـواهم أخذت تحبطهم بسبب الحزن والعـوز، هذا ومـن الذي كـان بإمكانـه أن يروي بشكل كـامل حـزنهم القلبي وأسـاهم، عندمـا شـاهـدوا أعـداء المسيح وهم مظهـرين لتفـاخـرهم واستخفـافهم، وهم مـرتدين لدروع، ويحملون أعلاماً، ورنوكاً يعرفون أشكالهم بوضوح؟.

كيف تنازل الملك الفرنسي عن دمياط إلى المسلمين ثمناً لحريته

وعندما أخفقت هكذا خطط المسلمين عادوا، وشرعوا منذ ذلك الحين بالتعـامل بلطف مع الملـك الفـرنسي، وبناء على ذلك سمحـوا بخـدمتـه بالطعـام وبالشراب، وأن يتولى ذلك رعـاياه الذين وقعوا في الأسر معـه، لأنه كان خائفاً من أن يجري تسميمه، وفقاً لعادات المسلمين، وقد احتفظ

به سجيناً بينهم لمدة شهر وأكثر، وطولب خلال تلك المدة، مع تهديدات مرعبة، بالتخلي عن دمياط، وبما أنه رفض أن يفعل ذلك، وفق أي شرط من الشروط، طالبوه بوجوب دفع مبلغ المال الذي تقدم ذكره من دون نقص، أو أنه سوف يتعرض لميتة شنيعة، بوساطة عذاب طويل، أو أنه سوف يرسل إلى الخليفة، مما سيسبب العار للإيمان المسيحي، حيث لن يسمح له بالعودة، ولن يكون هناك أمل بالفدية.

وبناء عليه، قدّر، وهو في هذه الضائقة، أنه لن يتمكن من النجاة من بين أيديهم، وأنه لن يستطيع بأية وسيلة من الوسائل الاحتفاظ بدمياط، أو الحيلولة دون سقوطها للعدو الذي سيحاصرها (فمن الذي كان يمكنه وقتها أن يحرره، أو ينقذ تلك البلاد بالقوة؟)، ورغبة منه في أن يحسن أوضاعه بطريقة ما، أجابهم الملك قائلاً: «نحن في الغرب ليس لدينا الوفرة الكبيرة من الذهب مثلما لدى شعبكم في الشرق، كما أننا لانستخدم الباوند في حساباتنا، ولذلك نبدل الذهب إلى فضة، والباوندات إلى ماركات، ودعوني أذهب تحت الضمان والارشاد من قبلكم إلى عكا، لأتدبر إعادة الأسرى من على الطرفين، وخلوا أيضاً الذين يسكنون في دمياط يذهبون تحت ضمانتكم، إلى مكان آمن، غير متعرضين للأذى بأشخاصهم، ومحتفظين بأسلحتهم، فوقتها سوف أقول بقلب جريح بعمق:

إنني سأتخلى لكم عن دمياط، إذا ما تمكنت من اقناع المحاصرين في المدينة بالموافقة على هذه الشروط»، وبما أن هذه العروض، مضاف إليها هدنة عشر سنوات، قد أرضت السلطان، أرسل الملك أربعة من فرسانه، مصحوبين ببعض الأعيان المسلمين، مع رسائل، واعتمادات سرية إلى النائب البابوي، والدوق، وإلى الآخرين الذين كانوا مسؤولين عن المدينة ومتولين لحكمها، وأعطاهم شارة، وأقنعهم بإعادة دمياط إلى المسلمين، وفق الشروط التي تقدم ذكرها أعلاه.

وعندما عبر رسل الملك المعسكر بصحبة المسلمين الذين تقدم ذكرهم، ووصلوا إلى أبواب المدينة، سلموا الرسالة التي كان معهوداً بها إليهم، ولدى تسلمها حزن النبلاء الصليبيون أكثر مما يمكن التعبير عنه، ومكثوا وقتاً طويلاً وهم في حيرة حول الذي عليهم فعله بالنسبة للقضية، لأنهم خافوا خوفاً عظيماً من مكر العدو، وخشيوا أنهم بعد تسليمهم دمياط، أن يجدوا الملك وقد تسمم، وكذلك جميع الذين كانوا معه، وأنهم سوف يعيشون لوقت قصير جداً فقط، لأنهم كانوا على دراية جيدة بهذا النوع من الخيانة الاسلامية، ولكنهم عندما علموا من رسل الملك، بأنه كان لايتسلم الطعام أو الشراب من أيدي أي من المسلمين، اقتنعوا بوساطة تدخلات النائب البابوي والملكة، وأصدقاء الملك الآخرين، الذين كانت تهمهم حياته، بأن يتجاوبوا مع الشروط، وبعدما تسلموا ضمانات حول سلامة الملك، وكذلك سلامتهم، وسلامة البحارة، وكذلك أماناً حتى الوصول إلى عكا، تخلى ولاة المدينة (وأنا آسف أن أكتب ذلك) عن مفاتيحها، ولم يكن ذلك على كل حال من دون تأوهات حزن عميقة، وعندما سمع الناس بهذا، قاموا بهياج حزنهم، وغضبهم، وعلى عكس الشروط التي تمت الموافقة عليها من الجانبين، فدمروا جميع المؤن، التي كانت متروكة هناك، وهي المؤن التي كانت عائدة إلى الملك أو إلى الآخرين، وكسروا براميل الزيت، والخمرة، ورموا بالقمح والشعير، واللحوم المملحة، أو أحرقوها، لأن الحزن كان قد استبد بهم وقهرهم لدى التفكير بأن أعداء الإيمان سوف يسمنون اعتماداً على مخزوناتهم، التي حفظوها خلال تلك المدة الطويلة من حالة الجوع، ورأوا أنه كان من الأفضل أن لاتؤخذ مطلقاً.

كيف جرى إعدام الصليبيين في دمياط

ثم أطلق السلطان سراح الملك، وأرسله بأمان إلى عكا، وتملك مدينة دمياط، لكن لدى دخوله إليها، وجدها مجردة تماماً من جميع أنواع المؤن،

وأن الأوعيـــة التي تحفظ هذه المؤن قـــد حطمت إلى قطع، لذلك أمـــر بأفراد الطبقات الدنيا من الصليبيين الذين وجدهم هناك [لأن أصحاب المراتب العليا كانوا قد نجوا] فأعدموا، وحزن لأنه سمح لأعيان الناس —الذين وافقـوا على الشروط— بالمغـادرة بسلام، كما أنه أمـر بإحـراق أسطول الصليبيين الذي وجده هنـاك، وعلاوة على ذلك، فإن الصليبيين الذين كـانوا قد غادروا المدينـة على شكل حشود، قد جـرى اعتراضهم من قبل كمائن المسلمين، الذين هاجموهم مـن الجبال ومن الوديان، وقـد جـرى تمزيقهم إلى أشـــلاء من قبلهم، ولحسن الحظ كـــان الأسرى قـد أعيدوا قبل هذه الواقعة.

كيف تحدى الملك الفرنسي السلطان

عندما وصلت أخبـار هذا الإجراء إلى مســامع الملك الفرنسي، الذي كـــان مقيماً في عكـا، تحت حماية الداويـة والاسبتـــاريـة مع الصليبيين الآخـرين، أرسل رسالة إلى السلطان، بأنه غـادر، وعدواني، لأنه خـرق من دون حيـاء الهدنة التي عقداها، وأنه حصل على المال، الذي تسلمـه منه —الملك الفرنسي— بالخداع، وعلى هذا رد عليه السلطان قائلاً، بأن الفـرنسيين هم الذين أسهمـوا في اعطـاء فـرصـة الانتقـام هذه، وأثاروا عدوانيـة المسلمين، وأن شطراً منهم قد تبرهن بأنهم قـد تورطوا في هذه الآثام العدوانية، لذلك عانوا بعدل من العقوبات التي تقدم ذكرها.

المسلمون يثورون ضد السلطان

عندمـــا سمع شعب الشرق مـع المصريين بأن السلطان قـــد رشي، وبذلك سمح لمثل ذلك الملك القـوي ولإخـوانه بالمغادرة وهـم أحـرار، غضبوا غضباً شديداً، وثاروا بالســلاح ضده، ولم يستطع أن يسوغ نفسه إليهم بـالسبب الذي أعطاهـم إياه، من أنـه رغب في استرداد دميـــاط لصـــالـح المسلمين كلهم، وفي سبيل أن لايكون الميناء الموجـــود هناك،

ووسائل الدخول إلى البلاد، مفتوحة لبقية الصليبيين، ولذلك إما أنهم أرغموه على الفرار، أو قتلوه، وقد ازدادت ثورة الشعب المسلم ضد السلطان، من أنه لم يعط أحداً شيئاً من المال الذي حصل عليه، قبل أسر الملك، وبعد أسره، ولم يدفع لهم الأعطيات المتفق عليها مع أنهم أوصلوا الحرب إلى نهايتها، وتولوا إعدام الفرنسيين المغلوبين، بناء على أوامره.

ونشب بين ذوي المراتب العليا من الناس الشرقيين، الذين كانوا هناك، صراع مميت وخلاف شديد، حول من الذي من بينهم سوف يتمتع بمجد الاستحواذ على مثل تلك الغنائم الكبيرة، هذا وعندما علموا باطلاق سراح الملك، صبوا جام غضبهم على السلطان.

وهلك في مدينة دمياط أوليفر دي تيرمي Termes مع جميع أتباعه، الذين ندعوهم الـ Ruptarii (المناوشين بالخيول)، وهلك أيضاً عدد كبير آخر، تعدادهم كبير جداً حتى نتمكن من ذكرهم، لكنهم —كما هو معروف بشكل جيد— قد دونت أسماءهم اسماً اسماً في كتاب الحياة، ومن الواضح أن السبب في هذه الكارثة الكبيرة كان تجبر كونت أوف أرتوي، الذي رفض مع الشتائم الإصغاء إلى تواضع المسلمين، عندما تقدموا —في سبيل السلام— بكثير من العروض، سلف ذكرها، وبعد ذلك، ومن أجل أن ينسب المجد إليه كله، أخذ معه ثلث الجيش، وترك بشكل سري بقية جيش الملك، ولكي نكون على اطلاع كامل حول خصوصيات المسائل المتقدم ذكرها، أقحمنا في هذا العمل، الرسالة التالية، التي أرسلت إلى الايرل رتشارد.

الرسالة التي أرسلت إلى الإيرل رتشارد

«إلى صاحب السمو رتشارد، ايرل أوف كورنويل، مستشاره جون، إلخ، إلخ:

بما أنه في بعض الأحيـان تقلق عقول الكبـار، وتتعذب نتيجـة لعرض مختلف الاشـاعات، حتى تبـات الحقيقـة معروفـة، رأيت من المناسب أن أوصل إليكم بعض الأخبـار المحزنة والمبكيـة المتعلقة بالجيش الفـرنسي، بشكل محدد وصـادق، وهـي تقـارير لم تنشر بعـد، وقـد علمت بخصوصيات ذلك برواية شفوية، وليس من خلال رسالة مكتوبة، وهي تقارير معتمدة وصـادقة سمعتها من كاهن سـالف لي، كان قد أرسل إلى ملكة فرنسـا، وذكرت هذه التقـارير، أنه بعد عيـد طهارة مـريم العذراء المبـاركة، أخـذ الملك الطريق نحـو القاهرة، وقـد بقي دوق بيرغندي في دميـاط، وكذلـك زوجات النبـلاء، وكثير من السيـدات يتـولين خدمـة الملكة، لكن عندمـا حـاول الملك عبـور النيل، جرى اعتراضـه بقـوة من الطرف الآخـر للنهـر من قبـل سلطان مصر ومعـه أعـداد كبيرة من المسلمين، ولذلـك نصب معسكره على هـذا الجانب من النهـر، وجمع قـوارب، من أجل أنه إذا مـاربطهم مع بعضهم، يمكنه عبـور النهـر مع جيشـه بهذه الواسطة، التي تكون بمثابة جسر، وفي اليـوم الأول للامتناع عن أكل اللحـوم، كـان السلطان غـائبـاً، مع أنه تـرك حشـداً كبيراً في معسكره قـرب النهر، وتطبيقاً لخطـة واحد من المتحـولين المسلمين، كان كونت أرتوي ومقـدم الداوية وجميع اخوانه الذين كانوا هناك، قـد تلقوا تعليمات خـالصـة بعبـور النهـر، وكـان هذا المتحـول بين جماعـة كـونت أرتوي، لابل كـان في الحقيقة خـادمه، وكـان برفقة هذين المقـدمين وليم لونغوسبي وأتبـاعه، مع عـدد كبير آخر، يصل تعـدادهم إلى حوالي ثلث الجيش كله، فهـؤلاء جميعـاً عبروا النيـل، وانقضـوا بشكل مفـاجىء على المسلمين، واشتبكوا بجـرأة معهم في القتـال، وتبع ذلك صراع عنيف، وبعد طويل وقت، وبعد مقتل عدد كبير، في الحقيقة مقتل جميع المسلمين الذين وجدوهم في السهل، وكـذلك في معسكرهـم، وبعدمـا كانت هناك مـذبحـة ألمت بكلا الجنسين، حصـل الصليبيـون على نصر مجيـد، لكن الكونت وأتبـاعـه لم يكونوا قـانعين بهذا، ذلك أن الكـونت رغب بعناد

بالمتابعة متوغلاً، ليهاجم قرية اسمها المنصورة، وكانت على مقربة منهم، مع أن الداوية عارضوا ذلك، وسعوا لإقناعه بالاقلاع عن فعل ذلك، عازين الأسباب إلى المصاعب التي عملوا في ظلها، والناجمة عن تعب أجسادهم وجراحاتها، ومثل ذلك خيولهم، مع أسباب أخرى، لكن الكونت المذكور وأتباعه ما كان ليعود بأي حال من الأحوال، وبعد تبادل اللوم بين أحدهم والآخر، تابعوا زحفهم إلى القرية المذكورة، وهاجموا الأعداء بجرأة، ولدى رؤية هذا، هرب جميع المسلمين الذين سكنوا في تلك القرية وفي الأماكن المجاورة، مع أصوات بكاء وانذار مرتفعة، وبذلك علم السلطان الذي لم يكن وقتها بعيداً كما هو معتقد، وسمع في اليوم نفسه الصراخ، وعلم بحقائق القضية، ودخل الصليبيون —على كل حال— دون حذر إلى القرية، فقطعوا عن طريق تراجعهم، وقهروا بوساطة الأحجار التي انهالت عليهم، والتي رماها بعض السكان، الذين بقيوا متخفين فوق الشرافات، وتمزق أفراد الجيش وتفرقوا، وبصعوبة بالغة نجوا من ذلك المكان، بعدما تناقص تعدادهم كثيراً، ولذلك بدأوا على الفور ييأسون، ثم قدم السلطان مع حشد كبير جداً، واشتبك بصراع دموي معهم، وأخيراً —بعدما سمح الرب— تمّ قتل جميع الصليبيين، باستثناء شخص واحد، من مرتبة متدنية، أخذ طريقه عائداً بصعوبة كبيرة، وحزن الملك كثيراً لدى سماعه بهذا (ولاعجب في ذلك)، واستعد بكل حماسة في عقله، وبكل سرعة في مقدوره، ليتمكن شخصياً من عبور النهر، بوساطة القوارب المتقدمة الذكر، وبوساطة مراكب أخرى، قائلاً لأتباعه: «إنه من الضروري الآن أن تعرض فرنسا كل شجاعتها، وأن تبذل قوتها كلها»، لكن في الوقت نفسه كان كثير من الصليبيين قد سقطوا من الجوع والعطش، وحيث أن خيولهم كانت مرهقة وجائعة، بدأت تزداد ضعفاً، والذي كان أسوأ من هذا كله، ومحزناً، هو استعادة ذكرى الذين قتلوا، فهذا أصاب قلوب الجميع وجعلهم يشعرون بالمرارة في أرواحهم.

وفي الوقت نفسه أيضاً، تبع العائق العائق، لأن السلطان المذكور، الذي كان كثير من المسلمين قد هجروه، صدوراً عن كراهيتهم له، بالعقل والجسد، بسبب تجبره وخداعه، قد مات في هذا الوقت، وقام المسلمون على الفور بتعيين واحد آخر، هو ابنه، وقد توحدوا جميعاً معه، وأدوا يمين الولاء له على أساس أنه مولاهم، وهكذا أصبحوا كلهم بالفعل جسداً واحداً، وأخذوا يشعرون بالثقة، وصاروا متوحدين بقوة أعظم مما كانوا عليه من قبل، في سبيل تدمير الصليبيين، لأنهم رأوا أن الدمار الشامل محيق بهم، وعرف السلطان المعيّن حديثاً عن طريق نصائح الشيوخ والشطر الحكيم من أتباعه، بعد عمل مشابر، بإجراءات الصليبيين وخططهم.

وأرسل الملك في الوقت نفسه، كثيراً من أفراد الجيش الفرنسي، الذين هدهم المرض والجوع، في أسطول، عن طريق النيل، عائدين إلى دمياط، في سبيل أن يستردوا قوتهم في مكان آمن، وكان السلطان قد أخبر سلفاً بهذا، فتدبر جلب عدد أكبر من المراكب، مشحونة برجال مسلحين، وجلبت هذه المراكب في عربات تجرها الثيران، وكانت مهمة هذه المراكب اعتراض أسطول الملك، ونشبت معركة بحرية حادة جداً فوق النهر، فيها تمّ تبادل الرمايات من على الجانبين، حيث تطايرت مثل زخات البرد، وقد تمكن المسلمون بقذفهم النفوط على الصليبيين، من إحراق كثير من مراكبهم، وقتلوا الناس الذين كانوا فيهم، وحصلوا على النصر، وغرق الصليبيون، أو قتلوا، أو أحرقوا، وهكذا تمكن الرب في غضبه من تدميرهم جميعاً بالسيف مثلما دمرهم بالجوع، ونجا واحد منهم فقط، وكان انكليزياً من حيث المولد، ليعلن خبر الكارثة المبكية إلى الملك، الذي غلبه الحزن والأسى، فكان مثل أيوب آخر.

وبعد هذا، في ثمانية الفصح التالي، قام الملك مع جيشه بعبور النهر الذي يتدفق من النيل، وهو يعرف باسم آخر، هو نهر تنيس، وقد قوبل

من قبل السلطان مع حشد لايحصى من المسلمين، وأعقب ذلك معركة، انتهت بنتيجة مأساوية محزنة، ذلك أن الجيش الصليبي الذي ضعف من الآلام ومن الحزن، انهزم، ونزل سوء حظ لايمكن جبره بشعب المسيح، ووقع الملك مع أخـويه الحيين بالأسر، ومثل ذلك كـان حـال البقيـة، الذين لم يقتلوا، وهكذا بحكـم خفي وبقضـاء من الرب، تحولت قيثارة المسيحيين من الغناء إلى الحزن، وعـوضـاً عن صـوتها الجميل السـالف، أخـذت تقـرع أصوات ندب مبكيـة، وبعـدمـا بات الملك مع الآخـرين أسرى، تحدث السلطان معـه ومعهم حـول السـلام، إنما أثناء البحث حول هذه القضيـة —لأنهم لم يستطيعوا الاتفاق، لأن الملك كـان حزيناً يائسـاً إلى حد الموت تقـريباً— أرسل السلطان بشكل خيـاني كتلة كبيرة من رجـاله، يحملون الراية الفـرنسيـة الحريـرية الحمـراء مع الأعـلام الفرنسية الأخـرى، من أجل مفاجئة الصليبيين الذين كانوا يجهلون هذه الحادثة، بغية التمكن من السيطرة على المدينة.

وكـان الصليبيون —على كل حـال— قـد أنذروا سلفاً وحـذروا من هذه الخديعة، وتنبهوا من خلال الزحف غير النظامي للقوات، فأغلقت الأبواب، وجـرى عقـد مـؤتمر، رفض خـلالـه الدوق مع الآخـرين مطالبهم، وأعلنوا أنهم ليسـوا خائفين، وأن بإمكانهم الدفـاع عن المدينة لمدة عـامين أو أكثـر، ففي خـلال تلك المدة، وقبل أن تنتهي، لابد وأن الرب سيزودهم بالمسـاعدة وبالرأي الصحيح، وأنهم لن يتزحـزحوا عن مـوقفهـم من أجل المحـافظة على حيـاة الملك، وبناء عليـه عـادوا إلى السلطان مخفقين فيما نووه.

وعلى كل حال، عمل الملك هدنة عن نفسه وعن ورثته، وربط نفسه، بوساطة رهائن، بأن يدفع مائة ألف مـارك من الفضة مع فقدان دمياط، ولان مـوقف ولاة تلك المدينة بوسـاطة الملكة وبعض أصـدقـاء الملك، الذين رغبوا في إنقاذ حياته، وأعيدت دمياط (أنا أكتب ذلك خجلاً) إلى

أعـداء المسيح، مما ألحق الإهانة بالكنيسـة المسكونيـة، وهلك في هذه المعركـة السيئة الحظ، جميع نبلاء فـرنسا تقـريباً، ومـات جون أوف درو Dreux في قبرص، وكان فخار فرنسـا، كنذير سوء حول مستقبل شرير».

سخط الفرنسيين لدى سماعهم بمقتل أبناء بلدهم

عندمـا جلبت أخبـار هذه الحوادث المفجعـة إلى علم السيـدة بلانشي ونبلاء فرنسا، بوساطة بعض الناس الذين عادوا من البلدان الشرقية، لم يكن بإمكانهم تصديقها، ولم يرغبوا بذلك، وأمروا بحملتها بأن يشنقوا، ولقد كان هؤلاء، كما نعتقد، شهداء ظاهرين، وبعد لأي، عندما سمعوا بالحقـائق نفسهـا من تقـارير متواليـة حملهـا أناس لايمكن التجـرؤ على تسميتهم رواة حكايات، وعندمـا شاهدوا رسائل تحتـوي على الروايات نفسها، مع وثائق موثوقة لايمكن أن تخطىء، سـاد فرنسا كلها النحيب، والشعور بالإهانة، وتـلاشى لاهوتيون وكذلك فـرسان حـزناً، ورفضوا تلقي المواساة، وكـان الآباء والأمهات في جميع الاتجاهات ينـدبون موت أولادهم، وبكي التـلاميـذ واليتـامـى مـوت الآباء، والأقـربـاء مـوت الأقرباء، والأصدقاء موت الأصدقاء.

وتغير جمال المرأة، ورمي جـانبـاً بأكـاليل الورود، وألغيت الأغـاني، ومنعت الأدوات الموسيقيـة، وجرى تغيير كل نوع من أنواع البهجـة إلى نحيب وبكاء، والذي كـان أسوأ هو أنهم اتهمـوا رب العـدل، وجدفـوا بمرارة قلوبهم، ولعنف حزنهم، وتفوهوا بكلمات الكفر، التي بدت ولها مـذاق الردة أو الهرطقـة، وبدأ إيمان الكثيريـن يترنح، وكـان من الممكن لمدينة البندقيـة الفخمة، وعـدد كبير آخر من المدن، التي كـانت مقطونة بأناس نصف مسيحيين، أن تقع بالردة، لولا أنها جـرى تثبيتها بمـواساة أسـاقفتها المقـدسين، ورهبانها، الذين أكـدوا بكل ثقة، بأن القتلى كـانوا الآن يحكمون بمثـابة شهداء في السماء، وهم لايرغبـون الآن بالعيش في

وادي ظلام العالم، من أجل جميع الذهب الموجود في الدنيا، وهكذا أمكن بعد بعض المصاعب، تهدئة غضب بعضهم، لكن ليس غضب الجميع.

كيف حمل ملك قشتالة الصليب

عندما سمع ملك قشتالة العظيم الانتصارات، والذي ربح حتى الآن أكثر من ثلاثة عشر نصراً على المسلمين، سمع بهذه الحوادث، أشفق على الفرنسيين لما عانوه، وحمل شخصياً الصليب، معتقداً أن من الأفضل اخضاع الأرض المقدسة للمسيح، وأجدر من اخضاع أي بلد آخر.

الشكاوى التي عملت بسبب استخراج المال

مثل هذه كانت الثمار التي أنتجت بوساطة السلب والنهب، الذي مارسه النبلاء، بناء على اذن من الكنيسة الرومانية، أو بالحقيقة بناء على تعليم منها، مارسوه على جميع الفقراء المتألمين، في سبيل أن يملأوا أكياسهم، عندما ينطلقون للحج وليقاتلوا في سبيل الرب، ومن الحوادث المتقدمة الوقوع، من الواضح وضوح الضوء، كيف أنه لايرضي الرب الربح الذي يأتي من ظلم الفقراء وافقارهم.

مثل واضح حول استخراج المال مورس في فرنسا

مع أن ممارسة استخراج المال، التي جرت في جميع أرجاء المملكة الفرنسية، لم يجر ذكرها، وينبغي أن تبقى في صمت أبدي، رأينا أنه من الموائم، إقحام مثل في هذا الكتاب، حيث من المعلوم أن الملك الفرنسي، قد استخرج —بناء على اذن من الكنيسة الرومانية— العشر من الكنائس في جميع أرجاء مملكة فرنسا، لمدة ثلاث سنوات، على شرط أن يقوم البابا باستخراج الكمية نفسها من الجهة نفسها، حتى يتمكن من متابعة الحرب بنشاط أكبر ضد فردريك، لكن بعد الجباية لمدة ثلاث

أعوام، عنـدما رغب البابـا في أن يجمع الثمار لنفسه، جرى اخبـار الملك الفرنسي بذلك فـرفض بشكل مكشوف السماح بذلك، ومارس خـداعاً خاصاً به، ليهزم هؤلاء الجباة الشرهين، معطياً سبباً لذلك، بأنه لايمكنه بأي حال من الأحوال، السماح بأن تتعـرض كنائس مملكته للإفقار، من أجل شن الحرب على مسيحيين، لكن في سبيل قتـال الكفـار، هو يمكنه أن يتحمل ذلك بمـــزيد من ربـاطة الجأش، لكن حتى آنـذاك، يؤثر أن يكون ذلك بوساطة العلمانيين وليس رجال الدين، وبالاضافة إلى ذلك، إذا تركت الكنائس فريسة لمدة ثلاث سنوات مقبلة سـوف تكون عرضة إلى دمار لايمكن جبره، وهذا أمـر لن يزعج البابا حـوله، وهو على هذا قام —حسبما ذكـرنا أعلاه— باستخـراج المال المذكور، بوسـاطة وكلاء البابا، حتى يكون التحصيل أكثر فاعلية، وأيضاً حتى يتمكن كذلك من معرفة كم ستكون حصة البـابا، عندما ستجمع، وبهذا الإجراء، شعرت قلوب الكثيرين بحـزن عميق، وفي وسط لعناتهم صلوا، بأن ينزل حكم النبي اشعيـا، أو بالحري حكم الرب، بالذي لم ينظر نظرة مقت إلى جميع السرقات المرتبطة بالتقديمات إليه.

فهل من الممكن أن يقــوم ملك انكلترا مع أخيــه الايرل رتشـــارد، والأمراء الصليبيين الآخرين الذين هم عازمين على نيل الربح القذر، أن يزنوا هذه الأشيـاء بميـزان العقل، لأنه مع أن عمل الحج المقـدس، هو عمل تقوي بحـد ذاته، مع ذلك إن التزود من أجل الرحلـة، عندما يتم الحصول عليه بوسائل قـذرة، يدنس ممارسة العمل التقوي، وهذا —كما هو معتقد— كـان سبب العار المتقدم ذكره أعـلاه والدمار، مع أنه لعل هناك أسبـابـاً أخـرى، ربما هي غير مطلوبة، وبشـأن الاستخـراج الذي مـورس في مملكة فرنسـا، رأينا أنه من المناسب ذكـر قضية واحـدة، على أساس أنها حـادثة مهينة جداً، فقد صـدف أن قابل وكيل البـابا المذكور كاهناً صغير المرتبـة لإحدى القرى، وهو يحمل مـاء في وعاء صغير، مع

مرشة وبعض قطع من الخبز أعطيت له مقابل رشه بعض الماء المقدس، وإليه توجه الروماني المخادع بمخاطبته هكذا: «كم هي المرابح التي تحصل عليها من هذه الكنيسة سنوياً»؟ وعلى هذا السؤال رد الكاهن الجاهل بالدهاء الروماني: «حوالي العشرين شلن، كما أظن»، ووقتها أعلن الروماني عن نفسه، وقال له: «من هذا المبلغ، يترتب على هذا من أجل منفعة المورد أربعة وعشرين بنساً، أي شلنين»، فدمر على الفور ذلك الرجل المسكين، الذي تسول من باب إلى باب قائلا: «ادفعوا إلى الملك مايستحقه منكم»، ولكي يدفع هذا المبلغ الصغير، أرغم هذا الرجل المسكين على اكتراء مدارس لأيام كثيرة، وأن يقوم ببيع كتبه في الساحات، وأن يسير وهو نصف جائع، لابل بحياة جائعة، لكن دعونا نترك الآن عملية الجباية هذه، وأن نعود إلى قضيتنا الأساسية.

شهامة راعية دير لاكوك

وعندما وصلت أخبار الكارثة المذكورة أعلاه إلى علم البابا، حزن بشكل مؤلم، ومثل ذلك فعلت كل جماعة البلاط الروماني، وجرى تعليق جميع المراسيم لبعض الأيام، وازدادت سمعة البابا سوءاً، وانتشر ذلك في الخارج بدرجات كبيرة، وكان من بين شكاوي الفرنسيين، كلمات سمعت، مثل مايلي: «واأسفاه، كم من الشرور جلبه علينا تجبر البابا، الذي رفض بعناد أن يقبل بتذلل فردريك، وأن لايتلقى منه ترضية صحيحة وموائمة، لابل بالحري أثاره حتى أوصله إلى مرارة الروح، فهو قد عرض بلا تردد، بلطفه، أن يسترد —من دون سفك للدماء— لنا جميع الممتلكات التي كانت في أيدي الصليبيين، في أي وقت من الأوقات، في الأرض المقدسة، والآن ويالـلأسف، كم من الدماء العامة والنبيلة، جرى سفكها —من دون فائدة— في الأرض المقدسة، وفي ألمانيا، وفي ايطاليا، وما هو أسوأ، إن الإيمان يتأرجح ويتراجع، والأرض المقدسة عرضة للخطر، والديانة المسيحية قد

تلاشت في تأثيرها، وأوهـام المسلمين قـد ارتفع شأنها، ففي ظل أي كوكب غير سعيد لابد أنه قد ولد، لأن سوء الحظ قد تفجر في أيامه، في كنيسة مولانا يسوع المسيح، الذي أعلن هو عن نفسه أنه نائبه».

وعندما وصلت أخبار هذه الكارثة إلى مسامع راعية الدير الكونتسة هيلا، التي أدارت بنشاط نسائي ديراً للسيدات الراهبات في لاكوك، وهي التي كانت أم النبيل وليم لونغوسبي ولدى تذكرها الرؤيا المجيدة التي رأتها حول ابنها، في الوقت الذي مات فيه، حيث كان واضحاً أنه كان شهيداً، كما ذكرنا أعلاه، قامت بروح مشرقة، فضربت يداً على يد، وجثت على ركبتيها، وانطلقت تحمد الرب وتثني عليه، وقدمت شكرها بشكل رفيع إلى المسيح بهذه الكلمات: «أيها الرب يسوع المسيح، أقدم لك شكري لأنك قضيت بذلك، قضيت بأن يخرج من جسدي —مع أنني مذنبة— مثل ذلك الابن، الذي تفضلت بتشريفه بتاج الشهادة، وإنني آمل بمساعدته، سوف أتقدم على الفور نحو أمجاد مملكتك السماوية»، وعندما شاهد الذين كانوا حاملين لهذه التقارير، والذين التزموا الصمت لوقت طويل، لخوفهم، شاهدوا أعمالها، وسمعوا كلماتها، أثنوا على هذا الثبات الأكثر مما هو نسائي، لهذه المرأة، وعجبوا كيف أنها بعاطفة الأم لديها، لم تنفجر بالنحيب والشكوى، بل بالحري تمجدت فرحاً ببهجة روحية.

وفيات بعض النبلاء

في سياق هذا العام الحزين، مات بعض النبلاء الذين كانوا رجالاً من الأعظم شهرة، أثناء ذلك الحج الذي تقدم ذكره، وكان بين هؤلاء: ايرلات، ومركيزات، وأساقفة، وفرسان، وقد مات بعضهم على ظهر سفنهم، وبعضهم في الجزر التي نزلوا بها، وغرق بعضهم، وكان واحداً من هؤلاء أسقف نويون Noyon, الذي كتب اسمه، وكذلك أسماء البقية، كما هو واضح، في كتاب الحياة السرمدية، وفي هذا العام

أيضاً، في حوالي يوم عيد القديسة مرغريت، مات روبرت موسشامب Muschamp, وكان رجلاً صاحب اسم رفيع في المناطق الشمالية من انكلترا، ومات في حوالي الوقت نفسه أيضاً هنري هيستنغ Hastings, وكان فارساً متميزاً، وباروناً غنياً.

كيف استعد المسلمون لإلقاء الحصار على عكا

وفي حوالي الوقت نفسه، عندما رأى المسلمون أن الحرب تقدمت بين أيديهم ونجحت، عملوا الاستعدادات لحصار عكا، لأنهم تمتعوا الآن وابتهجوا بالأسلاب الوافرة التي أخذوها من أعدائهم القتلى، وتألفت هذه الأسلاب من: الخيول، ومن الأسلحة والدروع، وآلات الحرب، والقسي الزيارة، والسفن، والمؤن، وأيضاً بسبب الجرأة التي شعروا بها إثر الهزيمة الأخيرة للصليبيين، وكذلك نتيجة للهدنة التي تمّ التخلي عنها وهجرها، وكانوا آسفين أيضاً إلى أقصى الحدود، لأنهم سمحوا للملك الفرنسي ولأخويه الحيين بدفع الفدية، أو بالمغادرة وهم أحرار بعدما دفعوا الفدية، ولهذا صبوا التهم ضد سلطان مصر، كراهية منهم لنهمه، وكانوا أيضاً واثقين تماماً بأنهم سوف يستردون مقتنياتهم المفقودة، وأن ينالوا النصر على الملك وعلى أخويه، وأسرهم أثناء تعبهم وهم مرهقين.

الملك الفرنسي يرسل أخويه عائدين إلى فرنسا

قام الملك الفرنسي التقي بتقدير الأمور، فبعدما دفع مبلغ مال الفدية المتقدم ذكره، وهو مبلغ كان قد استقرضه من الداوية والاسبتارية، ومن الجنويين والبيازنة، وبعدما استرد الرهائن التي كان قد أعطاها، أرسل فجأة وبشكل سري أخويه الحيين: ألفونسو، كونت بواتو، وشارل كونت بروفانس، في سفينة قوية، فبحكمة أعادهما إلى الغرب، وتحت ارشاد الرب وحمايته وصلا سالمين معافيين، أما الملك نفسه، فبقي

حزيناً، ودونها مجد في عكـا، وأقسم في قرارة قلبه المرير، أنـه لن يعود إلى فرنسـا الحلوة، في مثل تلك الحالة من العـار، لأنه من الذي يستطيع من دون تأوهات ودمـوع الحزن، أن يصف أسـاه ونحيبـه، عندمـا يرى أن أخـاه روبرت قـد بات ميتـاً، وهو نفسـه قـد هزم، وقـد عهـد بأخـويه الآخرين، في وضع مخز، إلى الأمواج الكبيرة في المحيط؟.

وذهب الأخوان المتقـدما الذكـر، مع دوق بيرغندي، الذي عاد معهما إلى الوطن، على الفـور إلى البـابا، لأنهم أمـروا بأن يفعلوا ذلك من قبل الملك، ليقومـوا بحثّه، لكن ليس بتوسـلات ناعمة، بأن يرسل مسـاعدة سريعة إلى الملك الفـرنسي، الذي كان موجـوداً في خطر ضائقـة شديدة، وكـان يقـاتل في سبيل كـرامة الكنيسـة المسكونيـة، وأن يعيـد فـردريك المتذلل إلى السلام مع الكنيسة، بحكم أنه هو وحده بين جميع المسيحيين يمكنه أن ينجد في حالة الخطر هذه، ومن ثم اقناعـه لإعطاء نجدة فعالة وسريعـة إلى الملك، الذي هو الآن في وضع ميئوس منه تقـريبـاً، وإذا لم يستجب وكـــان الأمـــر على عكس المطلوب، على الـدوق، والكونتين المذكـورين، نقله، أي البابا من مقـره في ليـون، على أساس أنه عنيـد في كراهيته، غير حريص على كـرامة الإيمان المسيحي، وإذا ما قام الأسقف المنتخب لليـون مع أخيـه رئيس أساقفـة كـانتربري، اللذين وضع فيهما ثقته، بالدفاع عنه، فإن على فـرنسا كلها، برئاسة النبـلاء المتقدم ذكرهم، الثورة ضده.

حول الفيضان غير الاعتيادي للبحر وهياجه

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في اليـوم الأول من شهر تشرين الأول، وكـان القمر في ربعـه الأول، ظهـر هناك قمر جـديد، منتفخ، وأحمر في شكله، وذلك كإشـــارة على قـدوم عـواصف، وذلك وفقـاً للكتـابات المجربة لفيلسوف وشاعر في قوله:

عندما مايزال القمر جديداً، وعليه مسحة من اللون الأحمر

منتشرة فوق وجهه، إنه يهدد بعواصف من الريح

مالم يمنع ذلك حرّ، أو برد شديد.

وعندما يكون وجهه متورماً، ينذر بالعواصف، لكن عندما يكون شاحباً

ومشعاً، فهو ينقي وجه السماء

وبناء عليه فإنه في الأسبوع الأول من زيادة القمر، تغطت السماء بضباب كثيف، وبدأت تضطرب كثيراً بعنف الرياح، التي بدأت تمزق وتطرح الأغصان والأوراق التي كانت وقتها تتلاشى وتموت على الأشجار، وحملتهم إلى مسافة بعيدة في الهواء، والذي كان أكثر تدميراً، هو هياج البحر الذي تجاوز حدوده الطبيعية، وتدفق تيار المدّ لمرتين من دون جزر، وقذف بأصوات زئير مرعبة، إلى حد أنها بعثت الدهشة لدى الذين سمعوها حتى في مناطق نائية عنها، واعترت الدهشة حتى الشيوخ من الناس، وفي الحقيقة ما من أحد في العصور الحديثة يتذكر قط وقوع مايشبه هذا الشيء من قبل، وفي ظلام الليل أيضاً، ظهر البحر وكأنه يحترق مثل النار، وبدت الأمواج الهائلة وقد احتشدت مع بعضها، وكأن إحداها تتحارب مع الأخرى، بحدة كبيرة إلى حد أن البحارة البارعين ما كان بإمكانهم انقاذ سفنهم من الغرق، ودون أن نذكر قضايانا الأخرى، ففي ميناء هارتبورن Hertbourne وحده، ابتلعت الأمواج الهائلة والهائجة ثلاث سفن فخمة، إلى جانب سفن أخرى صغيرة، مع سفن أخرى متوسطة الحال، وفي وينشلسي Winchelsea —وهو ميناء على الساحل الشرقي— جرى تدمير بيوت الملح، ومساكن صيادي السمك، والجسور، والطواحين، وبالاضافة إلى ذلك تمّ تدمير أكثر من ثلاثمائة بيت في تلك القرية،

وذلك بالاضافة إلى بعض الكنائس، فقد أطيح بها بوساطة البحر الهائج والمرتفعة مياهه، وعانت هولاندا في انكلترا، وهولاندا في القارة أيضاً، وكذلك فلاندرز، والمناطق الأخرى المنخفضة، المجاورة للبحر من دمار يصعب جبره، وأرغمت الأنهار التي تصب في البحر على التراجع وازدادت مياهها إلى درجة أنها فاضت على المروج، فدمرت الطواحين، والبيوت المجاورة لهم، وهاجمت الحقول، وحملت الحبوب التي لم تكن قد خزنت بعد في الهري، وبذلك ظهر غضب الرب واضحاً إلى الفانين في البحر، وكذلك على الأرض، وبدت عقوبات المذنبين أنها باتت وشيكة، وفقاً لنبوءة حبقوق في قوله: «هل أنت غاضب أيها الرب في الأنهار، أم أن سخطك هو في البحر»؟ وهل من عجب في ذلك؟ لأنه من البلاط الروماني، الذي يفترض أن يكون نبع العدالة كلها، صدرت آثام لم يذكر مثلها، وإن واحداً منها —مع أنه غير جدير بالوصف— رأينا أنه من الموائم إقحامه في هذا العمل.

حول الاستخراج المقيت من رئاسة رهبان بنهام

مع أن رئيس رهبان بنهام Binham كان له الحق الكامل في كنيسة ويستلي Westley, على أساس أن يستحوذها لاستخداماته الخاصة، وذلك على قاعدة منحة الراعي، وتأكيد أسقفين مع هيئتهما الكهنوتية، ومن ثلاثة بابوات من بابوات الكنيسة الرومانية، وهم: لوكيوس Lucius, ويوجينوس Eugenius وغريغوري Gregory التاسع، ومع هذا كله فإن جنويا كان زائفاً وجاهلاً، قد حصل على الرسالة التالية من البابا، وهي رسالة مناقضة لجميع الحقوق، والعدل: «من إنوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى ولده المحبوب كثيراً، المعلم برنارد دي نيمفا Nympha, كاتبنا في انكلترا، صحة ومباركات رسولية، بما أن ولدنا المحبوب كثيراً وحاجبنا ن. N, كان قد أعطى من قبل كنيسة ويستلي Westley, في أسقفية

إيـلاي، إلى رينير دي ســـــوليريـوم Reiner de Solerium قسيس يبري Ypres, الذي توفي مـؤخـراً، ومع أن هذه الكنيسـة عائـدة إلى تقدمـة أولادنا المحبوبين كثيراً، رئيس رهبـان ورهبان المجمع الرهباني في بنهـام، من طائفة القديس بندكت، وقد احتفظ بها القسيس المذكـور وبقي في انكلترا أثناء حيـاته، لقـد رأينا من الموائم أن نقـوم بموجب سلطاتنا، بالانعام بالكنيسة المذكورة ومنحها إلى ولدنا المحبوب كثيراً، كاهن هيريغيتوس Herrigettus ابن النبيل بيراشين Per-rachin دي مـالاشـانا Malachana أوف فـولتـا Volta وهو من أهل جنوى، معلنين أن كل شيء يعمل ضد استغلاله لها لاغياً وفـارغـاً، ونحن نصـادق على الذي عمله حـاجبنا في هذه القضيـة، وبوساطة هذه الكتابات الرسولية نـأمركم، إما أنتم شخصياً أو بوساطة شخص آخـر، بتعيين نـائب لـ هـ .H المذكـــور، أو أي شخص آخر، يمكنك أن تختـاره باسمه ليستحـوذ شخصياً على الكنيسـة نفسها، وليتولى حمايتها عندما يُنصّـب فيها، وأن يزال منها أي معيق مهما كان، وتأجيل جميع المرافعـات، وضبط المتـذمـرين بالـروادع الكنسيـة، دون الأخذ بالانعامات التي أعطيت إلى الانكليز، من أنه عندما يموت كاهن إيطالي، أو يتخلى عن منافعـه، لايجوز أن يتسلـم ايطالي آخـر على الفـور تلك المنافع، أو أية انعامـات أخرى، يتوجب ذكـرها في هذه العروض، أو التي من الممكـن بها تعـويق أو منـع هذا التنصيب أو التعيين، ودون الأخذ بأي مرسوم برحلة اليـومين، مما صدر في المجمع المسكوني. صدر في ليون في التاسع والعشرين من نيسان، في السنة السابعة لحبريتنا».

كيف قمع رئيس أساقفة كانتربري بالتهديدات شكاوي المتذمرين

وفي حوالي الوقت نفسه شعر رئيس أساقفة كانتربري، بأن ضميره قد جـرح حول مـايتعلق بالعدوان الكبير الذي اقترفـه في لندن، خاصـة في

كنيســة القــديس بــارثلميــو، كما روينا أعــلاه، فأرسل سراً بــرسل مع تهديدات وكذلك مع كــلام لين باسمه وباسم الملكة، وباسمــه شخصياً، وسعى إلى قمع شكاوى الكهنة.

وفاة وليم أسقف وينكستر

وفي حــوالي عيــد القــديس متى في هذا العــام، تــوفي وليم أسقف وينكستر في تور، بعدمــا أقام هناك لحوالي أحــد عشر شهراً، مع حــاشية صغيرة، من أجل أن يوفر على نفسه النفقــات، لأن أسقفيته كانت مثقلة بديون لانهاية لها إلى البــابا، وهي الديون التي ازدادت، عنــدما أخــرجــه الملك —بتنكيله به— من انكلترا، فــوقتهــا كــان البــابا يتمتع بالثــروة، لذلك فتح له صــدر المواساة، كما ذكــرنا من قبل، وبعدمــا حقق —على هذا— الســلام مع البابا، وجعل الملك يميل نحــوه بمشاعــر طيبة، قــام بانقاص النفقــات المعتادة لمائــدته، وأنقص كثيراً عدد حــاشيته، في سبيل أن يتمكن في أسرع وقت من جمع مبلغ المال المتفق عليه، من أجل تحرير كنيستــه من ديونها، وعندمــا كان على وشك الموت، ورأى قــربان الموت قــد جلب إليــه، قــال، والكاهن كــان داخــلاً من البــاب، وهو حــامل للقــربان: «تمهل قليــلاً ياصــديقي، إنه من الموائم لي، أنــا الخائن لربي والمستخف به، وجــوب حملي أمــامــه»، وبناء عليــه أطيع، وحمل من قبل خدمه إلى أمام جسد المسيح، فتلقى قربان التحية بدموع الندامة، وهكذا وهو في حالة خوف من الرب، لفظ روحه النادمة.

الملك يستخدم أقصى مساعيه اليقظة للحصول على انتخاب أخيه ايثيلمار لكرسي وينكستر

وسمع الملك بهذه الحادثــة، فتفــوه بكلمات أسف قصيرة مع دمــوع جافــة، كانت ممزوجة مع البهجة، وسعى باستخــدام جميع الوسائل التي كــانت بمقــدوره أن يؤمنهــا إلى تعيين أخيــه ايثيلمار في مكان الأسقف

المذكــور، مع أن هذا الأخ لم تكن فيــه الشروط المطلوبـة، فيما يختص بالطائفـة، والعمـر، والمعـرفـة، وبناء عليــه أرسل على الفـور اثنين من مقــدمـي كهنتــه (اللذين عــرف بأنهما بارعين كثيراً في جميـع أنواع المناقشات) إلى وينكستر، يحملان رسائل منه، من أجل أنه بمزج الكلام الناعم مع التهـديدات، والوعود، يجعل عقـول رجال دين الكاتدرائيـة، الذين إليهم يعـود حق الانتخاب، تميل إلى طلب ايثليمار المذكـور، حتى يكون أسقفهم والراعي لأرواحهم، وكان الشخصان اللذان أرسلا لهذه الغـاية هما: جــون مـونسيل Mauncell, وبطرس تشيسبـــــورك Chaceporkم, وكـانا كاهنيـة، ولقد استخـدما كل جهـد ممكن في تأمين الأخـذ برغبـة الملك، وبإلحاق الوهن بعقـول عـدد من الرهبـان، أقنعـاهم بطلب ايثليمار المذكور ليكـون أسقفهم، ولقد قلت: «طلبـوا»، بسبب أنه كـان عاجـزاً تماماً، وغير أهل لمنصب الأسقفيـة، وبعد مـرور حـوالي الخمسة عشر يومـاً، استخـدم خلالها الكاهنان المذكـوران أقصى مســاعيهما، للتأثير على الرهبــان، الذين ظهــروا أنهم ثابتين أكثــر من الآخرين حتى يرضخـوا لإرادة ملكهم الأرضي، وأن يضعوا جـانباً كل خوف من الملك السماوي، وقد ذهـب الملك نفسه إلى وينكستر، وتوجه على الفــور إلى الكنيسـة الكاتـدرائيـة للقــديس ســويزين Swithin, ودخل إلى مقـر الهيئة الرهبـانيـة، وكأنه كـان أسقفاً أو رئيسـاً للرهبـان، وأخذ كـرسي الأسقف الرئيس، وشرع بإلقاء القـداس التالي، مقـدماً له بنص مقدس.

كلمة الملك التي ألقاها وكأنه يعظ في الهيئة الرهبانية لوينكستر

«قبلت الاستقامـة والسلام بعضهما بعضاً» إلخ، ثم تابع إلقـاء كلمته فأضاف: «إنه بالنسبـة لي وللملوك الآخرين، وأيضاً للمقـدمين ولرجال العـدالة لدينا، الذين بوساطـة العدالة، لديهم سلطة حكم الناس، وفقـاً لصرامة الحكم والعدل، وإليكم أنتم، الذين هم رجال السلام، وطلاب

الدين، يعـود السـلام والهدوء، في هذا اليـوم، بسبب إظهـاركم، لحسن التـوافق بأنفسكم، مؤثريـن لطلبي، وموافقين عليـه، وذلك كما سمعت —وإنه جيـد بالنسبـة لكم أنكم تصرفتم كـذلك— قبّلت الاستقـامـة والسـلام بعضهما بعضـاً، كما قلت مـن قبل، ففي بعض الـوقت الذي مضى، قـد كنتم متمـرديـن ضـدي، في انتخـاب وليم دي ريلي Rele, أسقفكم المتـوفى أخيراً، الذي كان غير مقبـول لدي، ولقـد كنت قاسيـاً عليكم، لكنني أصبحـت الآن راضيـاً عنكم وصـديقـاً ودوداً إليكم، وبتذكري لمعروفكم، أنا ملتزم بتقديم عظيم الاحسان، بالمقابل إليكم.

علاوة على ذلك، من المعروف بشكل جيـد، أن الدمار أول ما جلب إلى العالم، جلب بوساطة امرأة، لكن بوسـاطة امرأة أيضاً جاء الخلاص، وفي الحالة الحاضرة، مثل هذا، إنه في محاولة مني لإرضـاء رغبات الملكة زوجتي، التي رغبت في الارتقـاء بهذا الكرسي بوسـاطة انتخـاب عمهـا وليم الأسقف المنتخب لبلنسية، وكنت قد ضـايقتكم من قبل بالتماساتي للقيـام بـذلك، وألحقت بكم الضرر، غير أني الآن أرغـب في رفع شأن قضية أخـي لأمي، الذي هو بسبب امرأة، هي الملكة ايزابيـلا، أمنا، هو بلا شك متحالف معي بحكـم القرابة، لذلك سوف أكـون أنا متصالحاً معكم، ولسوف أعمـل بشكل مؤثر، على إعلاء شأن منـافعكم شخصياً ومنافع كنيستكم، ولسوف أطوقكم بذراعي العواطف القلبية.

ومجدداً، عليكم أن تلقـوا في ميـزان العقل، قضيـة، ليست هي الأقل أهمية، هي حقيقة أنني ولدت في هـذه المدينة، وتعمدت في هذه الكنيسة ولذلك إنكم مـرتبطون بي بروابط أعظم عـاطفـة، وينبغي عليكـم عـدم معارضة إرادتي بأية طريقـة، لابالحري أن تدعموني في جميع المسائل، مع اخلاص رفيع، كما أنه لايخفى على عقولكم وجوب إعطاء الموافقة، لأنه إذا مـاجـرى انتخـاب أخي ايثيلمار سـوف يتمكن لـوقت طويل —كما نأمل— مـن إنارة هذه الكنيسـة، مثل الشمس، بـأشعـة أصله النبيل،

وعنصره الملكي، فهو متميز بهذا بسبب أمه، وبسبب دمه المتميز الصادر عن أبيه، وأيضاً بسبب لطفه الأصيل، وبسبب شبابه، وفي ذلك هو مرض لكل من الرب والانسان.

اذهبوا —على هذا— بسلام للتشاور، وعودوا مسرعين، ومن دون أية إعاقة أو اعتراض، ونفذوا غايتي التقوية، التي أعطيتموني الأمل حولها، وأن تعلنوا بالإجماع بحضوري عن أخي ايثيلمار مرشحكم للأسقفية»، هذا وقد أضاف في نهاية موعظته، أنه إذا ما وجد الرهبان معارضين لقناعاته، فإنه سوف يدمرهم جميعاً، وفقاً لكلمات الشاعر:

الرجل في السلطة يستجدي بسيف مجرد

كيف قام رهبان وينكستر، وهم تحت الاكراه بطلب ايثيلمار ليكون أسقفهم

أما وقد وضع الرهبان هكذا، في ضيق عسير، تناقشوا بدقة حول هذه القضايا، وكان ذلك عندما ابتعدوا عن مقر الهيئة الرهبانية، وأعادوا إلى عقولهم ذكرى الاضطرابات السالفة التي جنوها، والتي كانت ظالمة، في قضية وليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، لابل أكثر من ذلك لدى انتخابهم وليم، أسقفهم المتوفى أخيراً، وقال أحدهم للآخر: «ومرة ثانية ها نحن مهددون بوساطة التوسلات المسلحة للملك، وأن نقوم بمعارضته، إنها قضية صعبة ومرعبة، وهي مليئة بالمخاطر لكنيستنا، لأن البابا مطيع للملك في كل شيء، وبما أنه الآن في وضع حرج، سوف يتجنب من خلال الخوف تقديم أية إساءة إلى الأمراء، وبناء عليه إننا إذا ما طلبنا، أو انتخبنا أي شخص آخر، مهما كان انساناً أهلاً وموائماً، وقتها فإن أخاه الملك، سوف يستثار إلى حد الغضب، لابل في الحقيقة إلى حد الانفجار، ولسوف يقوم بإلغاء جميع إجراءاتنا، حتى لو أننا قمنا بتعيين القديس بطرس، لو أنه كان حياً، سوف يقوم باضطهادنا، وهكذا

فإننا سنجعل من الجانب الأول الملك عـدواً لنا، ومن الجانب الآخـر المعارضة الشديدة لدى البابا، الذي من السهل رشوته، وسوف نسحق، وكأننا بين حجـري رحـا، وسيكـون اضطرابنا ودمـارنا الذي لايمكن جبره، قريباً جداً.

بالاضـافـة إلى هذا، كنـا قـد رقينا وليم أسقـف نورويك، وانتخبناه ليكون أسقفنـا، ووضعنا أنفسنا تحت سلطـانه، على الرغـم من رغبـة الملك، ومع أنه عارض الانتخـاب، وظلمنا لهذا السبب نفسه، فإن وليم المذكـور، بعدمـا تسلم السلطة كـاملة، ومع أنه كـان انكليزياً، بارعـاً في قـوانين البـلاد، وواحـداً كنـا نأمل أنه سـوف يـرضي الرب في جميع المجـالات، وسيكون مفيـداً لأنفسنـا، قـام بالتنكيـل بنا من دون رحمة، وألحق الأضرار التي لاتجبر بنا، ناسياً جميع المنافع التي كـان قد تسلمها، ومن أجله عـانينا من آلام وأضرار لاتعـد ولاتحصى، فقـد سجنا، وسحلنا، وضربنا، وتألمنا من الجوع، وتلطخنـا بالدمـاء من جـراحـاتنا، وغللنا مثل اللصـوص، فبمن على هـذا يمكن أن نثق؟ وبمن يمكن أن نضع آمـالنا، فمن الجانـب الأول نخـاف من سيـلا (صخـرة خطيرة في الجانب الايطالي من مضيق مسينا) ومن الجانب الآخر من خطر الدوامة الوشيـك، [أي بتنا بين نارين]، وإذا فعلنـا هذا فـالموت نصيبنا وإذا لم نفعل سوف لن ننجو من أيدي الملك.

وإلى جانب هذه الأشياء، إنه أيضاً ممـا يعطينا سبباً عادلاً للخوف هو أننا إذا مـا رقينا ايثيلمار المذكـور إلى الأسقفيـة، هو سـوف يكون دومـاً أسقفاً منتخباً، وليس أسقفاً، وهذه حالة لم تعرفها هذه الكنيسة من قبل، ونأمل أن لايحدث هكذا مطلقاً، ولربما أيضاً، سوف يحصل على اذن من البـابا، بأن يحتفظ —إذا مـاانتخب— بالموارد التي لاحصر لها، التي هي الآن بين يديه، لأنـه مـاهو الذي لايستطيع الكـرمـاء بأعطيـاتهم، أن لايحصلوا عليـه في البـلاط الرومـاني في هذه الأيام؟، وإذا مـا انتخبناه،

سوف لن يكون الأقل في الثروة والسلطة من أي واحد في انكلترا، وبصعوبة يمكن حتى استثناء الملك، ووقتها يمكن أن يمتلك القدرة (لكن عله لن يسير على خطى أبيه أو البواتيين) على تحويل انكلترا كلها إلى بواتو، أو يكون مثل الحاجب للملك، الذي يمتلك السلطات كلها، فيجلب بواتو كلها إلى انكلترا، وبذلك سوف يدمر ذكرى الانكليز ويزيلها من على وجه الأرض»، وفي النهاية على كل حال، وبعد تحمل الكثير من الآلام، وبعدما رأوا أن الوقت كان شريراً، وأن ما من مكان للجوء مفتوح أمامهم في صدر أبينا البابا، الذي يقدم بشكل عام المساعدة إلى الذين يفرون إليه، الذين انحنوا أمام قسوة التجريد من الأملاك، والذين أرغموا على الرضوخ لرغبات الملك، وبناء عليه قام رهبان وينكستر، وقد أرغمهم تدخل الملك وانتهازيته، وكانوا أيضاً يائسين من مساعدة البابا، قاموا بصوت واحد —لكن ليس بقلب واحد— بالمطالبة أن يكون ايثيلمار أسقفهم، والراعي الروحي لأنفسهم، وهو الذي كان أخو الملك لأمه، وابن هوغ برون، كونت التخوم، وايزابيلا زوجته، التي كانت ملكة انكلترا من قبل، وكان من مواليد بواتو، وطالبوا به مع أنه كان غير كفء للمنصب، في العمر، والمعرفة، والطائفة، وكانت لديه موارد لاتحصى موائمة لرئيس أساقفة، وهكذا قاموا بناء عليه، بحضور الملك، بترشيح ايثيلمار المذكور بشكل علني ومهيب، وعلى هذا صار ايثيلمار مرشحهم، أو أسقفهم المنتخب، على شرط، أن مثل هذا الشخص يمكن ترقيته إلى المنصب الأسقفي، فقط بوساطة إعفاء من البابا وموافقة.

ملك إنكلترا يبعث رسلاً إلى البابا

ثم إن الملك عبّر عن سروره، بملامح وجهه، وبحركاته، وبنبرات صوته، وأمر كاهنه، روبرت سوثندن Sothenden, وكان بليغاً بارعاً، أمره بصياغة رسالة بليغة ومؤثرة، يمزج فيها تهديدات مرعبة،

مع وعود سخية وافرة، والتماسات حارة، حتى تنقل إلى البابا، ثم أرسل رسلاً خاصين، وفصحاء، يعرفون كيف يربحون البابا وكرادلته للقبول برغبتهم، وللتباحث مع البابا والتشاور، حول هذه القضية الصعبة بشكل مرض، لأنها قضية مرغوبة قلبياً من قبل الملك، وأن يقوموا بوساطة الالتماسات وكذلك الرشوة، حتى يرضى بإعطاء موافقته عليها.

حول رسالة الملك الشاكية إلى البابا

واأسفاه، لماذا ضعف العالم سوف يطول أكثر؟ ولماذا قام السلام والعدل، اللذان يأخذ منهما الملك نص قداسته، فنفيا نفسيهما؟، وأين هي حرية الانتخاب، وأين هو السلام الأولي للكنيسة، الذي أقسم الملك على رعايته من دون إحباط، أثناء انتخابه، واأسفاه، واأسفاه، هو الآن يزدري الرعايا الطبيعيين لمملكته، مع أنهم رجال مقدسين، ومتعلمين، ومتدينين، وجرى اقحام الأجانب، مع أنهم رجال غير لائقين بأي منصب، وجاهلين تماماً بالآداب، ولايعرفون اللغة الانكليزية، وهم غير نافعين كلياً في الاعتراف، وفي الوعظ، من دون نظام، أو مكونين بشكل جيد في أخلاقهم، مستخرجين للأموال، ومهملين للأنفس، والذين كانوا فيما مضى رجالاً مقدسين، ومتدينين، ومتعلمين، بالتعاون وبوساطة إلهام الروح القدس، جرى سحبهم، حتى من دون موافقتهم، ونزعهم من كراسيهم الكنسية، التي جرى الآن الاستيلاء عليها بالقوة، بعدل، أو من دون عدل، من قبل رجال البلاط والأجانب، وجميع الديرة التي إليها يعود حق انتخاب الأساقفة، قد تدمرت، بسبب هذه الظروف نفسها، وغدت الرعاية الآن عبئاً، ولم تعد مرتبة شرفية، ومصدر خسارة، وليس مصدر منفعة، وجميع الكنائس، سواء أكانت أسقفية أو ديرية، بحكم سقوطها بيدي الملك بعد شغورها —وهو الذي ينبغي أن تكون سلطته وقدرته مسخرة لحمايتها والدفاع عنها— هي الآن عرضة للسلب

والنهب، آه، أيها البابا، ياأبا الآباء، لماذا سمحت لبلدان المسيحية، بأن تتلوث بمثل هذه الإجراءات؟ وعلى هذا، كان بعدل طردك من مدينتك ومن كرسيك، وابعادك إلى المنفى مثل قابيل محروم آخر، وأعداؤك، الواقفين إلى جانب فردريك يتقدمون، وأنت هارب من الذين أرغموك على الفرار، والذين يطاردوك سريعين وأقوياء، وفي كل مكان أمرك يرعد مدوياً فوق الذين هم رعية لك، لكن ليس له قيمة بين الذين هم متمردين عليك، ففي كل بقعة يجري حرمان الأساقفة من منافعهم، وتصدر الأوامر بإعطاء المنافع إلى أناس غير جديرين بها، وإلى أجانب، وإلى أشخاص غير معروفين، وإلى الذين يطلبون الحليب من شياه قطيع الرب، ويجتزون الصوف، ويسلخون الجلد منها ويذهبون به، ويبقرونها ويفرغون ما في جوفها، و ما من أحد يمكنه الحصول على الحماية بوساطة الامتيازات الممنوحة إليه من قبل الآباء المقدسين، وبين الأمم والبلدان أيضاً، إن انكلترا —كما يعلم العالم— هي المكان الذي ازدهرت فيه المسيحية كثيراً، وهي أيضاً التي ديست بالأقدام وسحقت أكثر، وبظلم البابا سلبت أملاكها وحرمت من ثمار جهودها، ومع أن ما من واحد يتولى سلبه، هو يعمل بمثابة سالب نحو الآخرين، لأنه أين هو الانكليزي، الذي من المعروف أنه يمتلك موارد في أي جزء من روما، أو ايطاليا، أو جنوى، أو في أية مملكة أخرى، مع أن رجال هذه البلدان مستولين على كل شيء في انكلترا؟ آه يارب، ياإله الانتقام، متى ستتولى شحذ سيفك مثل البرق، لكي يغرق في دماء مثل هؤلاء الناس؟، وصدقاً إن ذنوبنا هي التي جلبت بعدل مثل هذه النوازل، وأوقعتها علينا.

حول وفاة أسقف روكستر وانتخاب المعلم لورانس دي سينت مارتين إلى ذلك الكرسي

وفي الوقت نفسه من العام، في حوالي عيد القديس ميكائيل، مات أسقف روكستر، وفي مكانه انتخب رهبان روكستر المعلم لورانس دي

سينت مارتين Martin, وكـان كاهناً ومستشـاراً خاصـاً بالملك، وفعلوا ذلك خشية منهم أنهم إذا ما اختاروا واحداً آخر، سوف يعارض الملك ذلك الاختيار.

عودة أسقف لنكولن من البلاط الروماني

وفي حـوالي عيـد القـديس ميكائيل نفسـه، عـاد إلى انكلترا روبرت أسقف لنكولن حـزيناً وغير راض، بعـدما بقي عـدة أيام في البـلاط الروماني، ومقابل انفاق كبير من دون فائدة، ودون أن يتمكن من تحقيق غـرضـه كما رغب، وكـان قـد قـام على كل حـال، بالتضييق إلى أبعـد الدرجـات على كثير من الـرهبـان، وآذاهم بإرغـامهم على الـدفـاع عن أنفسهم ضد هجماته.

ولدى وصـوله إلى أسقفيته، وقـد شـاهد الفـوضى المحيقة بالكنيسـة المسكونيـة، كما قـد تعلـم من مثل نيقـولا، أسقف درم، جـرد نفسـه وحررها من جميع مشاكل الـدنيا، التي غالباً ما مـزج نفسه بها، وشغلها من دون فائدة، وعهد بإدارة الواجبات والوظائف العائدة إليه إلى المعلم روبرت مارش Marsh, وكان من موظفيه، ناوياً أن يقول وداعاً إلى هذا العـالم الفاني، وأن يتخلى عن أسقفيتـه، ولكن بما أنه كـان يخشى من سلب الملك ونهبـه، الذي تولى بالعـادة إفقـار الكنائـس الشـاغـرة، وقيـامـه بعـد ذلك بإقحـام أشخـاص غير لائقين بها، لهذا جلس ينتظر بصمت، وعلق تنفيـذ نيتـه السرية، دون أن يعـرف الذي عليـه عمله في هذه الحالة من اضطراب الشؤون الدنيوية.

كيف عارض أساقفة إنكلترا رئيس أساقفة كانتربري

وفي الوقت نفسه، علم أساقفة انكلترا، من إفادات الأسقف المذكور، الذي عـاد مـؤخـراً من البـلاط الرومـاني، ومن إفـادات آخـرين، ومن جـواسيسهـم المنابين، الذين كـانوا قـد أرسلوهـم إلى هناك، بأن رئيس

أساقفة كانتربري كان يخطط للتآمر ضدهم، من أجل ايذائهم، ولذلك جمعوا مالاً للانفاق على أنفسهم في ذلك البلاط، الذي مال بالعادة إلى هذا الجانب وإلى ذلك الجانب بتدخل المال، وكان مثل قصبة تهتز وتتمايل مع الريح، وبناء عليه أخذوا من الأشخاص ذوي المنافع بنسين من كل مارك، لأن المسألة كانت مسألة صعبة، أي ما طلبه المستخرج المذكور، فهو أراد الحصول على المال، وتحصيل ضرائب للزيارات التفقدية من رجال الدين والناس في مقاطعته التي كانت مقاطعة واسعة، وكان هذا الإجراء سيضغط على الجميع بثقل شديد، لأنه كان من الواضح أن رئيس الأساقفة المذكور الذي كان معاباً في أخلاقه، وفي علمه، اشتهى أن ينال من زياراته التفقدية ليس زيادة الدين، أو اصلاح الأخلاق، بل هدف من وراء ذلك الربح الدنيء، الذي صار الآن عادة له.

حول الهزة الأرضية في تشيلتيرن في إنكلترا

في العام نفسه، في يوم عيد القديسة لوسيا Lucia, وفي حوالي الساعة الثالثة من النهار، وقعت هزة أرضية في سينت ألبان، وفي المناطق المجاورة، التي اسمها تشيلتيرن Chiltern, وذلك حيث أن مثل هذه الحادثة لم يسمع بمثلها من زمن سحيق، ولم يشاهد قط مثيلها، لأن الأرض هناك متماسكة وحوارية، ليست ذات حفر، أو مائية، أو قرب البحر، وعلى ذلك كانت هذه الواقعة غير اعتيادية وغير طبيعية، ولكن الأكثر عجباً منها، هو أنه لو كانت هذه الهزة الأرضية مدمرة في تأثيراتها، مثلما كانت غير اعتيادية ومدهشة، لتولت هزّ جميع الأبنية وحولتها إلى قطع، وقد جاءت مع حركة كبيرة، وترافقت، مع صوت كان مرعباً، وكأنه كان رعداً من تحت الأرض، وقد وقع حادث مدهش أثناء هذه الهزة الأرضية، هو الحادث التالي: استولى الرعب على الحمائم، وعلى الغربان، وعلى العصافير، وعلى الطيور الأخرى، التي كانت

معشعشة فوق البيوت، وعلى أغصان الأشجار، وكان رعبها وكأن صقراً كان يحوم من حولها، ثم مدت هذه الطيور أجنحتها ونشرتها فجأة وهربت، وكأنها كانت مجنونة، وطارت بشكل مضطرب نحو الأمام ونحو الخلف، وأثارت الخوف والرعب بين الذين شاهدوا هذه الواقعة، لكن بعد توقف اهتزاز الأرض، وتوقف الضجيج الذي رافق ذلك، عادت إلى أعشاشها المعتادة، التي اضطربت بوساطة الهزة الأرضية، وأوقعت هذه الهزة الأرضية —في الحقيقة— الرعب في قلوب الجميع، وكان ذلك أكثر من الدهشة، أو الخوف، وقد قيل بأنها كانت منذرة بالحوادث المستقبلية، وفي هذا العام، تأثرت الأرض، وكذلك البحر بالتحركات غير الاعتيادية والمرعبة، التي وقعت وفقاً للكلمات المهددة للرب في الانجيل، في قوله: «سوف تكون هناك هزات أرضية في أماكن مختلفة»، وهدّد هذا وأنذر بأن نهاية العالم باتت وشيكة.

كيف ردع رئيس أساقفة كانتربري
الشكاوى الصاخبة لكهنة القديس بارثلميو

وفي حوالي الوقت نفسه أرسل البابا رسلاً خاصين إلى ملك انكلترا، ورجا أن ينال اذنه ليتخذ مقر إقامته في بوردو في غسكوني، لأن أخوي الملك الفرنسي، استجوباه، بدقة، وسألاه باسم الملك المذكور، وطالباه باسمهما، فيما يتعلق بكرامة الكنيسة العالمية، بأن يقيم سلاماً مع فردريك، الذي تذلل الآن، وعرض تقديم الترضيات، وأن يبدي الاحترام للكنيسة، وقام أخوا الملك، أي كونتا: بواتو، وبروفانس، بالتلميح له، بأن سوء الحظ الذي تقدم ذكره، قد نشأ من خلال جشعه، لأنه —أي البابا— فاسد بالمال، منع الصليبيين من الزحف لتقديم النجدة إلى الملك وانقاذه، وحللهم من نذرهم بالحج، مع أنهم هم الناس الذين كانوا قبل وقت قصير مضى، قد حملوا علامة الصليب، نتيجة لجهود وكلائه، أي الدومينيكان والفرنسيسكان،وبالاضافة إلى

ذلك كان قد باع الصليبيين إلى الايرل رتشارد وإلى نبلاء آخرين، وفق الطريقة نفسها التي مارسها يهود الأزمان الخالية، لدى بيعهم الأغنام والحمام في الهيكل، وهؤلاء هم الذين عوقبوا ورميوا إلى الخارج من قبل الرب الغاضب، كما نقرأ في الانجيل، ولم يعبأ البابا بهذه الحجج وبوسائل الاقناع هذه، وأظهر نفسه عنيداً متشبثاً، وبناء عليه غادر الكونتان بقسوة ومع كلمات نابية، وبادرا مسرعين إلى انكلترا، لاقناع الملك الانكليزي، نظراً لرغبته بتكريم المسيح، بأن يقوم بكل سرعة بالتوجه لانقاذ الملك الفرنسي ونجدته، وفقاً لما تعهد به، ذلك أن هذا الملك متشوق لحضوره.

حيرة ملك إنكلترا

وبناء عليه، كان الملك الآن في وضع حرج صعب، بسبب أنه كان إذا ما أراد قطع الطريق على البابا، فإنه سوف يغضب، ولسوف لن يرقي أخيه ايثيلمار، وإذا ما أراد فتح صدر الحماية للبابا سوف يثير فردريك ويغضبه، فمن خلال أراضي فردريك كان سيرغم على المرور، عندما سيسير لأداء حجه، بالاضافة إلى ذلك هو لن يرضي الفرنسيين، وكان هناك أمراً آخر أقلق الرجال الأكثر حكمة بين الانكليز، وهو أنه إذا ماسمح للبابا بالإقامة في بوردو، سوف يكون بإمكانه الابحار في وقت قصير إلى انكلترا، وأن يؤذيها، لابل أن يدنسها بحضوره، لأن هؤلاء الأشخاص كانوا يعتقدون أن البلاد كانت تعاني من الفساد، فهي كانت بالفعل تعاني من ذلك بوساطة أعمال الربا للسماسرة، وكانوا يخافون من أنها سوف تكون ملوثة أكثر ببلاط البابا، إذا (لاسمح الرب) كان حاضراً، ولذلك عقد مناقشات دقيقة، وأكثر طولاً، حول هذه المسألة.

رسالة البابا إلى راعي دير القديس ألبان وإلى بعض الآخرين

وفي حوالي الوقت نفسه، أي مع ميلاد ربنا، أرسل البابا أوامر إلى

راعيي دير القـديس ألبان، ودير وولثـام Waltham, وإلى رئيس شمامسة المكان الأول، بأن قرار الحرمان الكنسي الذي أصدره بونيفيس، رئيس أسـاقفـة كـانتربـري ضـد: هنري عميـد لندن، وبطرس رئيس الشمامسـة وروبرت المرتل لذلـك المكان، وأيضـاً ضـد المعلم وليم أوف ليشفيلد Lichfield, ووليم ليفتي Leafete, وضد رهبان آخرين من لندن، بسبب العـدوان على هيئتهم الكهنوتية، ينبغي الإعلان أنه لاغياً وفـارغاً، وعلى الرغم من هذا، ضغط رئيس الأساقفـة المذكور بطلبه في البلاط الروماني من أجل الحصول على الأموال، وعلى ضرائب الزيارات التفقـدية من الذيـن سوف يـزورهم، وطالب بهذا بمـزيد من الإلحاح، وبثقـة أكبر، بسبب أن أسقف لنكولن، الذي من المعـروف أنه كان أدنى منه مـرتبة، وكان قد حصل قبل عـدة سنوات خلت من البابا على امتيـاز القيـام بزيارات تفقـديـة لكهنة كنيستـه في لنكولن، مع أنهم عارضوه بشدة، وأنفقـوا مبلغاً كبيراً من المال في الدفاع عن أنفسهم ضد محاولاته، إنما من دون فـائـدة، والـرسـائل حـول هذه القضيـة، أي فيما يتعلق بقاعدة الشجب، قد أعطيت كاملة في كتاب Additaments.

موت الإمبراطور فردريك

وفي حوالي الوقت نفسه، فارق هذه الحيـاة فردريك، الذي كان أعظم أمـراء الأرض، وأعجـوبة هذا العالم، والمنظـم لإجراءاته، فـارقهـا وهو منسحق الفؤاد بشكل مـدهش ومتذلل، وبعدمـا جرى تحليله من الحكم الذي صدر ضـده، وقد قيل بأنه ارتدى زي الرهبان السسترشيـان، وقد مات في يوم عيد القديسة لوسيا، ولذلك فإن الهزة الأرضية التي وقعت في ذلك اليوم لم تكن بوضـوح من دون أهمية وبوفاته، مـاتت جميع آمال الفرنسيين التي عاشوها بإنقاذ، أو انجاد ملكهم، وأبقي خبر وفاته سرياً لمدة عدة أيام، حتى لايفرح أعداءه على الفور، لهذه الواقعة، لكن في يوم عيد القـديس اسطفان، جـرى الإعلان عن ذلك،وجـرى إخبار الشعب

به، وسوف نكتب وصيته النبيلة في كتاب Additaments[1].

إكمال خمسة وعشرين نصف قرن من سنة النعمة

مع نهاية هذا العام يكون قد انقضى، منذ سنة النعمة خمسة وعشرين نصف قرن، أي ألف ومائتين وخمسين عاماً، ويتوجب أن نذكر أيضاً، وأن لانمر باستخفاف دون أن نوضح، أن ما من واحد من أنصاف القرن هذه حتى ثلث الثلاثين سنة الماضية، قد وقعت فيه حوادث مدهشة، وغير اعتيادية وجديدة، كالتي وقعت في هذا النصف الأخير، أي في الخمسة والعشرين عاماً، وهناك في الحقيقة كثير من الكتّاب والباحثين في التاريخ، الذين يقولون، إنه لم يشاهد في أنصاف القرون الأخرى، أعاجيب ومستجدات مدهشة كالتي وقعت في النصف الذي انتهى الآن، ولا حتى حوادث أسوأ من التي هي متوقعة الآن مع الخوف.

حول الأحداث المدهشة لهذا النصف الأخير من القرن

لأنه في نصف القرن هذا، غادر التتار ملاجئهم، وعاثوا فساداً، بوحشية الحيوانات المفترسة بلدان الشرق، والبلدان المسكونة من قبل المسيحيين، وكذلك البلدان المسكونة بالكفار.

وتمت هزيمة أمير المؤمنين الذي كان أقوى ملوك اسبانيا وأفريقيا، وانهزم، وتفرق جيشه كله.

وعندما كان المعلم أوليفر يعظ في المقاطعات الألمانية، ظهر تمثال المسيح في السماء، وكان مرئياً بوضوح إلى كل واحد، وانسحبت الكنيسة الاغريقية من الخضوع إلى كنيسة روما، بسبب التجاوزات لهذه الكنيسة، خاصة ممارستها للربا وللسيمونية (بيع المناصب)، وبيع العدالة، وآثام

---

١ - مالبث متى باريس أن غيّر نيته، بادخاله نص هذه الوصية بعد قليل في كتابه هذا.

أخرى كثيرة لايمكن التهاون بها.

وجـرى الاستيـلاء على دميـاط، المدينة المصرية المشهـورة مـرتين، واستردت مع فقدان عظيم للدماء، من الجانبين الاسلامي والصليبي.

ووضعت انكلترا تحت الحرمان من شراكـة المؤمنين لمدة سبعة أعوام، وعانت المملكة نفسها من حـروب داخلية للمدة نفسها تقـريباً، وغدت أيضـاً دافعـة للجزية، وتنفيـذاً لنبـوءات بعض الأشخـاص، لم يكن بين يدي الملك جـون، عندما مات أي استحـواذ كامل لأية منطقـة، ولذلك أطلق عليه اسم «بلاوطن».

وجرى تحريم ممارسة المحنة بالنار والماء للبرهنة على البراءة.

وأعطي الاذن لشخص واحـد بتسلم مـرابح عـدة أسقفيـات، وبأن يحتفظ بالموارد التي كانت لديه من قبل.

وجـرى تحويل الشهيـدين: القـديس تومـاس في انكلترا، وادمـوند المعترف في فرنسا، وانتشر صيت القديسة ايليزابث، ابنة ملك هنغاريا في ألمانيا خلال هذه الحقبة، وجـرى منع الأشخاص، وبعد ذلك سمح لهم عن طريق المال، بأن يتملكوا أكثر من كنيسة واحدة، وبـذلك صار غير الشرعي شرعياً.

وجرى انتخاب لويس الابن الأكبر لملـك فرنسا، والوريث الشرعي له سيداً، وكأنه صـار ملك انكلترا، لكن مالبث، بسبب خرقـه لوعوده، أن ترك البـلاد بشكل مهين، وواجه الامبراطور الـروماني أوتو سقـوطاً محزناً بسبب اضطهاد البـابا انوسنت الثالث له، ذلـك أنه هزم في القتال، وحرم كنسياً، وخلع من العرش.

وجـرى مـرتين أسر رهبـان الداوية، والاسبتـارية، ورهبـان طائفـة التيـوتون للقـديسـة مـريـم، والقـديس لعـازر (لازاروس)، وتمزيقهم،

وإعدامهم.

وتعرضت مدينة القدس المقدسة، مع كنائسها المقدسة، وأماكنها التي تقدست بحضور المسيح للدمار مرتين، وفي المرة الأخيرة سويت مع الأرض بشكل وحشي، من قبل الخوارزمية وسلطان مصر.

وحدث كسوف للشمس مرتين خلال ثلاث سنوات، وظهرت ثانية أعجوبة مدهشة في السماء، عنها جرى تقديم رواية كاملة في هذا الكتاب، وكان ذلك في سنة النعمة ألف ومائتين وثلاث وثلاثين، ووقعت هزات أرضية في انكلترا، وكان ذلك حتى في تشيلتيرن، لعدة مرات، وفي مقاطعات سافوي، جرى سحق خمس قرى، مع كنائسهم، وبيوتهم، وسكانهم بركام الجبال الذي سقط عليهم، وحدث فيضان للبحر غير اعتيادي ومدمر، مثله لم يشاهد من قبل، وشوهد في إحدى الليالي سقوط عدد لايحصى من النجوم من السماء، بحيث كان هناك في وقت واحد، وفي اللحظة نفسها عشر نجوم أو اثنتي عشرة نجمة تتطاير هنا وهناك في وسط السماء، وكان بعضها يتطاير في الشرق، وبعضها الآخر في الغرب، وبعض في الجنوب، وبعض في الشمال، ولئن كانت هذه النجوم نجوماً حقيقية، لما بقي نجم واحد في السماء، ولم يمكن العثور على سبب منطقي واضح لهذه الحادثة في الكتب حول الأنواء وعلم الهيئة، باستثناء أن تهديد المسيح كان وشيكاً ومحيقاً بالناس، وهو قوله: «ستكون هناك علامات بالشمس» إلخ، إلخ.

وجرى عقد مجمع مسكوني مرتين في روما، وفي ليون: وفي المجمع الثاني منهما (في ليون) جرى خلع الامبراطور الروماني فردريك، ووقع بالأسر الكاردينال أوتو، الذي كان من قبل النائب البابوي في انكلترا، وجاء وقوعه بالأسر قرب جنوى، مع عدد كبير من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، والقساوسة، وبعض الجنويين، الذين غرق منهم عدد كبير.

وفي ويلز حدث أنها بعدما فقدت أميرها للويلين، وولديه بالتوالي، اللذان واجها موتاً مبكراً، خضعت إلى القوانين الانكليزية، ولحكم الملك الانكليزي.

أما غسكوني التي تحركت ضد سلطة ملك انكلترا، فتم اخضاعها من قبل سيمون ايرل ليستر.

وعبر الملك هنري الثالث البحر مرتين مع جيشه، ليسترد حيازة ممتلكاته في القارة، بالقوة، وخاصة نورماندي، التي جرى انتزاعها من أبيه، بوساطة قرار من النبلاء النظراء الاثني عشر لفرنسا، لأنه تلطخ بقتل ابن أخيه آرثر، وعاد هذا الملك مرتين مهاناً، ومجللاً بالعار، ورجلاً فقيراً.

وجرى استرداد جزء كبير من اسبانيا وإعادته إلى المسيحية، وذلك مع عدة من مدنها الجليلة، التي كان من بينها: قرطبة، واشبيلية، وبنشكلة Peniscola مع مدن أخرى، وكذلك جزيرتي: ميورقة، ومنورقة، وأماكن أخرى كثيرة على الساحل، وجاء الاستيلاء عليها من قبل الملوك المنتصرين لقشتالة.

وفي المناطق الشمالية، تم الاستيلاء على جزء كبير من فريزلاند، وروسيا، وذلك إلى امتداد سفر اثني عشر يوماً، وذلك من قبل وولدمار Waldemar, ملك داشيا Dacia, حتى أنه جرى اكتساب سبع أسقفيات للمسيح بوساطة هذه الحادثة.

وهرب البابا، أو بالحري طرد من مدينة روما بوساطة تنكيل الامبراطور فردريك، ونفى نفسه، واتخذ مقراً لذاته متخفياً في أناني Anagni وبيروسيا Perusia,ذلك أنه اتهم من قبل الامبراطور المذكور، بأنه سعى إلى الاستيلاء على الامبراطورية، عندما كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وقام الداوية أيضاً،

بسبب الحقد المثار بهم من قبل البابا بانتهاز الفرصة، والسعي إلى تسليم الامبراطور، ووضعه بين يدي سلطان مصر.

وإثر وفاة البابا غريغوري، بات الكرسي البابوي شاغراً لمدة سنة وتسعة أشهر، وقد جلس ثلاثة على الكرسي الرسولي خلال عامين، وكان هناك واحداً من الكرادلة، متميزاً أكثر من البقية، هو المعلم روبرت سمركوت، وكان من أصل انكليزي، وقد جرى قتله خنقاً في القصر، الذي عرف باسم قصر الشمس، خشية من أن ينتخب بابا، وصدوراً عن الحسد كما قيل، وأخيراً جرى انتخاب سينيبولد Sinibald, وكان كاردينالاً، انتخابه بابا تحت اسم انوسنت الثالث، وقد سار على خطى سلفه، فحرم كنسياً الامبراطور فردريك وظل يهرب من قصر إلى قصر، ليتجنب اضطهاد الامبراطور، وذهب أخيراً إلى ليون، حيث تولى في مجمع مسكوني، خلع الامبراطور المذكور، وتولى من دون حياء استخرام مبلغ من المال من أساقفة الكنيسة، وسعى بوساطة هذا المبلغ إلى ترقية لاندغريف ثورنجيا، وبعد ذلك وليم كونت هولاند، إلى العرش الامبراطوري، وقد مات الأول من هذين، وألحقت الهزيمة بالثاني، فأخفق في مقصده.

ووجد الممارسون للربا، الذين اسمهم الـ Caursins, والذين عدّوا مسيحيين، مكان التجاء، وموضع استقرار وهدوء في انكلترا، أولاً بموجب تساهل من البابا فقط، لكن بعد ذلك تحت حمايته المكشوفة، ولذلك أطلقوا بلا حياء، على أنفسهم، اسم تجار البابا، وصرافيه.

وجرى تعليق الأساقفة وحرمانهم من استغلال منافعهم الكنسية، حتى تتم تلبية طلبات الجشع البابوي وارضائها، من أجل أتباعه الذين لايستحقون، والذين لم يظهروا قط في انكلترا، ولم يزعجوا أنفسهم للقيام بأعباء المسؤولية عن الأرواح والأنفس.

وظهرت طوائف رهبانية متعددة ونبعت بأعداد وافرة، ففي البداية ظهر الدومينيكان، وبعدهم الفرنسيسكان، وظهر الآن حملة الصليب، ثم ظهر الكرمليون، وفي ألمانيا نشأت هناك طائفة النساء العفيفات، اللائي حملن لقب الـ Beguins، وقد غدا تعدادهم كبيراً جداً، إلى حد أن ألفاً منهن أو أكثر أقمن في كولون وحدها، ومارس هؤلاء الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان في البداية حياة فقر، وقداسة عظيمة، وكرسوا أنفسهم لأعمال الوعظ والتبشير، والاعترافات، وللواجبات اللاهوتية في الكنيسة، وللقراءة والدراسة، وتخلوا عن كثير من الموارد، وتبنوا فقراً تطوعياً في خدمة الرب، ولم يحتفظوا بشيء لأنفسهم لليوم التالي، لاسيما من أنواع الطعام، غير أنهم حصلوا خلال أعوام قليلة لأنفسهم على ما جعلهم في أحوال رائعة، فبنوا بيوتاً ثمينة، وعلاوة على ذلك، جعلهم البابا —على الرغم من إرادتهم— المتسلمين للضرائب، والوكلاء الذين يستخرجون الكثير من الأتاوات لصالحه، ويبدو أن الزمان قد عاد بالحقيقة، إلى الوقت الذي كان فيه القديس بندكت، الذي بروح جميع القديسين، قد عمل اشارة إلى هذا، في بداية نظامه، وذلك حيث عالج قضية مختلف أنواع الرهبانيات، هذا ولم تنحدر طائفة القديس بندكت، ولا طائفة القديس أوغسطين طوال الوقت الطويل منذ تأسيسهما أولاً، مثلما انحطتا في هذه الأيام.

وأشع القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، الذي وجد جسده غير مهترىء في بونتغناك، والقديس روبرت الناسك الذي كان في نارسبورا Knaresborough، والقديس روجر، أسقف لندن، مع عدة قديسين آخرين، أشعوا وانتشر صيتهم بوساطة عدد من المعجزات المدهشة، التي عملت عند قبورهم، ومثلهم أيضاً القديسة ايليزابث، ابنة ملك هنغاريا، والقديسة هيلديغارد Hildegarde، التي كانت نبية في ألمانيا.

وأعيد بناء كنيسة ويستمنستر، وتمت إشادة معبد ذهبي بأعمال ذات نفقات عالية جداً، من قبل الملك هنري الثالث، من أجل استخدام القديس ادموند، وجلب إلى انكلترا بعض دم المسيح، وحجرة تحمل طبعة قدمه، ووضعت في ويستمنستر بمثابة هدية من الملك.

أما بالنسبة لهرطقات الألبينيين Albigenses والجوفينانيين Jovinians مع هرطقات كثير من الشعب الايطالي، التي نمت لها فروع كثيرة، فقد جرى تدميرها في هذه الحقبة.

وجرى مسح هاكو وتتويجه ملكاً على النروج.

وسار الرهبان السسترشيان على خطى رهبان الطائفة السوداء، فحصلوا على اعفاء من البابا، فعمروا أبنية موائمة في باريس وفي أماكن أخرى، حيث ازدهرت جماعات العلماء، وامتلكوا مدارس هناك، حتى لايكونوا موضع عدم احترام من قبل الدومينيكان والفرنسيسكان.

وتمت حيازة الكرسي الجليل لكانتربري مع الكنيسة، من قبل شخص غير كفء، أقحم من قبل الملك، مع أن هذا الكرسي كان متميزاً وقد تقدس من خلال كثير من رؤساء الأساقفة في الأزمنة الماضية، وقام هذا الدخيل، وقد حرضه المثل الذي ضربه أسقف لنكولن، الذي لم يعبأ بمعارضة كهنته، فحصل على سلطة زيارتهم زيارات تفقدية، فاستخرج في السنة الأولى منافع الكنائس الشاغرة، لمدة سبعة أعوام، وظلم بذلك الكثيرين ممن كانوا خاضعين له.

وفي السنة الأخيرة هذه من نصف القرن الأخير، حصل المسلمون على نصر فرضوه بإرادتهم، وجرى تمزيق الجيش الصليبي كله، الذي تألف من نبلاء جميع فرنسا، والداوية، والاسبتارية، وفرسان طائفة التيوتون للقديسة مريم، وفرسان طائفة لعازر، وتقطيعه إلى أشلاء، وجرى بالوقت نفسه أسر لويس، الملك التقي لفرنسا، مع أخويه:

كونت بواتو، وكونت بروفانس، وكان وليم لونغوسبي هناك، وقد قتل مع كثير من نبلاء انكلترا، وهرب كونت أرتوي، أخو الملك الفرنسي، من المعركة، وغرق.

وخسر البابا والبلاط الروماني كله الحظوة والمكانة لدى رجال الدين، وكذلك لدى الناس، لأن الصليبيين جرى بيعهم،وحللوا من عهودهم، مقابل دفع المال، وتأخروا وأعيقوا بطرق كثيرة مضاعفة.

وانزعجت المسيحية كلها واضطربت، وتعرضت الكنيسة العالمية للخطر، بسبب الحروب التي تفجرت عن الكراهية وصدرت عن عدم الاتفاق بين البابا وفردريك.

وحمل الملك هنري الثالث الصليب، ومثله فعل كثير من نبلاء انكلترا، وكذلك فعل كثير من ملوك، وأمراء، ونبلاء، وأساقفة العالم المسيحي، وكان راعي الدير الوحيد الذي فعل مثل هذا، هو راعي دير القديس إدموند، الذي نسي أنه مع القلنسوة الرهبانية، قد تعهد بأن يحمل بشكل دائم صليب المسيح، وسط سخرية الكثيرين، فهو حين تسلم الشارة المزيفة للصليب، بحضور الملك ومعه، عمل عملاً له بشكل واضح طعم التملق.

وفي هذا العام المميت، غادر خلاله إلى المسيح عدد كبير جداً من النبلاء، الذين كانوا قد تركوا أوطانهم، وزوجاتهم وأولادهم، وأقربائهم، وأصدقائهم، ليقاتلوا بإخلاص في سبيل المسيح، وكان هؤلاء جميعاً بشكل واضح شهداء، وأسماؤهم التي لايمكننا تقديمها في هذا الكتاب، بسبب عددها الكبير، هي قد دونت بأحرف لايمكن مسحها في كتاب الحياة، وهم أنفسهم قد تسلموا تاج الشهادة، وفقاً لما استحقوه.

وعلاوة على ذلك، توفي في يوم عيد القديسة لوسيا، فردريك أعجوبة

الدنيا، وكانت وفاته في أبوليا.

ووقعت هذه الحوادث المدهشة جميعها خلال نصف القرن الأخير، وهي حوادث غريبة مثلها لم يشاهد قط أو سمع به، كما لايمكن العثور عليه في أي من كتابات آبائنا في العصور الخالية.

**** **** **** ****

هنا نهاية تواريخ الراهب متى باريس، الذي هو من رهبان القديس ألبان، وقد تولى كتابة هذه التواريخ لصالح الأجيال المقبلة، صدوراً عن محبة الرب، ومن أجل تشريف القديس ألبان، رائد الشهداء الانكليز، وذلك من أجل أن لاتتعرض ذاكرة الحوادث الحديثة للدمار بوساطة تقادم الزمن أو النسيان:

منذ أن حملت العذراء أولاً بولدها، انقضى

ألف واحد ومائتين وخمسين مرة

جرى فيها سياق الأعوام حتى الآن، وخلال جميع ذلك الوقت

لم يقع الفصح قط في اليوم السادس

قبل غرة نيسان، في السنة

التي أنهت نصف قرن، باستثناء السنة

التي انتهت الآن.

لقد انقضى على هذا خمسة وعشرين نصف قرن، منذ تجسيد ربنا، ويبدو أن الفصح لم يحتفل به في سنة اليوبيل، التي هي السنة الخمسين، في وقته الصحيح، أي في السادس والعشرين في هذه السنة الأخيرة:

تاريخ متىٰ انتهى هنا

وأرسلت سنة اليوبيل

وأنزلت رقوداً من السماوات

وأعطى أيار رقوداً له

هنا على الأرض، وفي عليين في السماء

عندما فيها سيقوم هناك

ومن المعتقـد، ومـانعتقـده ليس من دون أهميـة، أن جميع العناصر الأساسيـة قـد عانـت في هذه السنة الأخيرة، من الضرر والنار، لأنه في ليلة عيد الميلاد الذي مرّ مؤخراً، أشعت السماء بطريقة مرعبة، معاكسة للمسيرة الطبيعية للطبيعة والهواء، وحـدث أيضاً أنه في أسقفية نورويك وفي المناطق المجـاورة لها طولاً وعـرضـاً، كـانت السماء قـد غطيت بالضبـاب، واضطـربت برعـد غير طبيعي، وليس في مـوسمـه، وذلك لوقت طويل، وقد حجبت بغيوم كثيفة، كما أنه لم يسمع منذ زمن طويل مثل هذا الـرعـد المخيف، كما أنـه لم يشـاهد مثـل ذلك البرق حتى في الشتـاء، وكـذلك حـدث أن البحـر قد تجاوز حـدوده الطبيعيـة، ودمـر الأمـاكن المجـاورة له، كما حدث أيضـاً أن الأرض اهتـزت في انكلترا، لابل حتى في تشيلتيرن، التي هي بالعادة أرض حوارية وصلبة:

متى تعبك هنا انتهى

أوقف قلمك ولاتتعب أكثر

ولاتطلب الذي سيجلبه المستقبل

فجيل آخر لديه أشياء أخرى*.

* يبـدو أن متى باريس توقف عنـد هذه النقطة من تاريخه، ولم يتـابع العمل فيـه لبعض الوقت، غير أنه استأنف العمل فيما بعد وكتب التكملة.

عام ألف ومائتين وواحد وخمسين

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ألف ومائتين وواحد وخمسين، العام الخامس والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث:

فيه أمضى الملك عيد الميلاد في وينكستر، وبسبب أن أخاه —كما تقدم الذكر— ايثيلمار قد جرى ترشيحه لشغل الكرسي الأسقفي لوينكستر، الذي كان شاغراً، كبح يديه الجشعتين عن نهب وسلب ممتلكات الأسقفية، حسبما كانت عادته الطبيعية، ولكن بما أن العادات القديمة لايمكن نسيانها بسهولة، أمر بالأشجار بأن تقطع وأن تباع، وأن يجري جمع المال الذي سيتم تحصيله من البيع وأن يضاف إلى خزينته، مع أنه أخبر بكل وضوح بأن مثل عملية السلب تلك هي بلا شك لن تفيد الذين كانوا ذاهبين إلى الحج، للقتال في سبيل الرب.

حول عاصفة رعدية جاءت في غير موسمها في الشتاء

وفي حوالي هذا الوقت، أي في ليلة عيد الميلاد، سمع رعد مخيف، وعدّ ذلك بمثابة دليل على غضب الرب، وظهر هذا بشكل خاص في أسقفية نورويك، وفي المناطق المجاورة لها، ولمع برق وقذف بشرره، وقد ترافق مع هياج غير معتاد للهواء، وفي غير موسمه، مما أوقع رعباً عظيماً وخشية شديدة في قلوب الجميع، الذي سمعوا ذلك ورأوه، وقال اللاهوتيون بأن هذا نذير بكاء كبير في المستقبل.

عدم توزيع الملك أية ملابس بمناسبة العيد

وفي هذا العيد الذي يحتفى به كثيراً لم يوزع الملك أية ملابس عيد على فرسانه، وعلى آل بيته وحاشيته (ولعله لم يفعل ذلك للتوفير لأنه كان قلقاً على حجه)، مع أن جميع أجداده قد مارسوا أعمال التوزيع منذ عصور قديمة، حيث كانوا يمنحون ملابس ملكية، وجواهر ثمينة.

كيف جرى إلغاء نفقات المائدة الملكية

وجرى أيضاً إلغاء المائدة الغنية والضيافة الملكية، وقام الملك من دون حياء، بالسعي لنيل الاقامة ووجبات طعامه مع رعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، و الكهنة، ورجال من درجات متدنية، حيث أقام معهم، وسألهم منحه الهبات والهدايا، و في الحقيقة هو لم يعدّ الأشخاص الذين اقتصر عملهم فقط على تقديم الضيافة والمعاملة الفخمة له، ولحاشيته، وللملكة والأمير ادوارد ورجال البلاط، بأنهم متأدبين وكرماء، إذا لم يرفقوا ذلك بتخصيصه بهدايا كبيرة وفخمة، وفي الحقيقة هو لم يخجل بسؤالهم، ولم يكن سؤاله لهم تقديم معروف له، بل توجب عليهم ذلك لأن هذا كان حقه.

وفي هذه الآونة أيضاً، بعدما تناول الملك مؤخراً وجبه طعام عند روبرت باسلو في بيعته في ويستمنستر، أثقله بتوبيخات مهينة، فما كان منه إلاّ أن أجازه الآن ببعض الهدايا الثمينة، كما أن رجال البلاط، والحاشية الملكية، لم يقبلوا أية هدية، مالم تكن ثمينة، وغالية الثمن، مثل أن يكون ذلك: جياد جميلة، وكؤوس من الذهب أو الفضة، وعقود بجواهر منتخبة، وأحزمة امبراطورية، وماشابه به ذلك من أشياء، وصار بلاط الملك مثل بلاط روما، حاضنة، أو بالحري، يمدد نفسه، مثل عاهرة، من أجل الربح.

وكان عدد الذين قتلوا من جيش الملك الفرنسي —بسبب رعونة كونت أرتوي— أكثر من ستين ألفاً، وعشرين ألف رجل كانوا تحت السلاح، وذلك بالاضافة إلى الذين غرقوا، مع آخرين اختفوا أثناء الفرار، والذين سلموا أنفسهم عن طواعية إلى العدو، وصاروا مرتدين عن المسيحية، وسبب هؤلاء للمسيحيين أذى أعظم مما فعله أعداؤهم الآخرين.

ولم يختلف رقم مبلغ المال من أجل فدية الملك، الذي وقع بالأسر، من خلال غضب الرب، كثيراً عن رقم تعداد الذين قتلوا، حيث كان ستين ألف باوند، من أفضل أنواع الذهب الخالص، أي من النقود الاستيرلينية، إلى جانب بعض الأموال العامة الأخرى، من نقود تور وباريس، وكان ذلك مبلغاً هائلاً، ووقعت هذه المذبحة في سنة النعمة: ألف ومائتين وخمسين، وجرى دفع الفدية، مع تقديم الرهائن من أجل ذلك، في السنة التالية، أي في سنة ألف ومائتين واحدى وخمسين.

كيف فرضت الحراسة بمزيد من الشدة على سجناء الإمبراطور

وفي هذه الآونة، كان هناك ثلاثة أو أربعة أشخاص من كل مدينة من مدن ايطاليا، مع بعض المواطنين من دول أبوليا، ممن حاربوا ضد فردريك وابنه، وكانوا مودعين في سجن فردريك (وكلهم كان قد اعتاد أن يسميهم خونة أو متمردين ضده) هؤلاء جرى إرسالهم بعد موت فردريك من قبل ابنه كونراد إلى مناطق نائية من أراضيه، أي إلى نابل Naples وبلرم في صقلية، حتى يمكن حراستهم بشدة أعظم، ويكونوا أكثر حفظاً، وقد فعل كونراد هذا بناء على نصيحة أبيه، وجرى تسليم بعض السجناء إلى هنري بن فردريك، والذي هو أيضاً ابن أخت ملك انكلترا، غير أن وضع هؤلاء السجناء في سجن فردريك، وكان من بين هؤلاء السجناء ابن مركيز مونتسرات Montserrat, وهو الذي جرى تقديمه بدلاً عن انسيوس، وكان ولداً آخر من أبناء فردريك، وكان مايزال سجيناً لدى البولونيين، ذلك أن المعاهدة من أجل هذا التبادل كانت على وشك الابرام، عندما تدخل موت فردريك، وحال دون الاتفاق النهائي عليها.

كيف ثار أبناء فردريك وأصدقائه ضدّ البابا

ثم شرع أبناء فـردريك مع أصـدقائـه، الآن بتقـوية أنفسهم، ومن ثم التحرك ضد البابا، وصحيح أن رأساً قد جرى قطعه —حسب ماحدث في قضية هيـدرا Hydra, التي قيل بأن هرقل قـد قتلهـا— نمت عدة رؤوس في مكانه، لأن كـونراد، كان فارسـاً شجاعاً جـداً هو نفسه، ومحبـوباً، ومخشيـاً جـانبه مـن قبل جميع الامبراطورية، لأنه كـان ابن ابنة جـون الذي كـان لايغلب، وكان ملكاً على القـدس، وأيضـاً لأن هنري —أخي كـونراد— كـان شـابـاً وسيماً، ومقبـولاً من الجميع، وقـد كـان مـوضع تقـديـر من قبل جميع أصـدقـاء الامبراطـور، لأنه كـان ابن الامبراطورة ايزابيلا، التي كانت محبوبة من قبل الجميع، وكان أيضاً ابن أخت الملك المسيحي التقي لانكلترا، هـذا وكـان البـابا، بسبب جشعـه، وكذلك جشع بني جلدته كلهم، هدفـاً للكراهية العالمية ولكراهيـة أتباع الامبراطورية، ولذلـك غـدت الكنيسـة، بسبب تزايـد تنكيلهـا في وضع خطير جـداً، وعـانت من أضرار مضـاعفـة، وكـانت استعـادة ذكـريات كـوارث الماضي، أيضـاً شـوكـة في أعين الذين وقفـوا إلى جـانب البـابا، وهكذا نجـد هنري راسبي Raspe, الذي كـان لانـدغـريف ثورنجيـا، والذي استهـدف البـابا أن يرقى به إلى العـرش الامبراطوري، والذي من أجل ترقيته أنفق مبلغاً كبيراً من المال، قد هلك في ميتة مهينة، وبعد موته جـرى اختيار هنري أوف غولديري Gueldres, لكنه لدى تفكره بالميتة المهينة للذي تقدم عليه، رفض هذه الترقية، وجرى من بعـده اختيـار دوق برابانت واللوريـن، لكنه رفض هذا العـرض رفضـاً تامـاً، وكـان الذي وقع الاختيـار عليـه بعـد ذلك لشغل المنصب ايرل رتشارد، لأنه كان رجلاً داهية، ولديـه أموالاً كثيرة، وأيضاً لأنه كان أخاً لملك انكلترا، لكنه رفض كلية المنصـب، بسبب أن حظوظ الحرب كانت موضع شك، ومن بعـده اختار البابا وليم كـونت هولاندا، الذي بطيش

وافق على ذلك، وهو الآن، بعدما فقد كل شيء، قد أرغم على العودة إلى أراضيه، وفي الحقيقة، هي الآن ليست أراضيه، لأنه كان قد أعطاها إلى أخيه، ولذلك قد أرغم الآن، على الاستجداء، وقد ازدرى مكر البابا ووعوده، وبعد هذا كله، سعى البابا إلى وضع هاكو، ملك النروج، على العرش الامبراطوري، مكان فردريك، وفي سبيل أن يحوله لأن يكون مناسباً، وأكثر حظوة وموائمة لمقصده، تدبر أمر تكريسه وتتويجه ملكاً، لكن إثر تتويجه مباشرة، أعلن الملك المذكور صراحة بأنه كان دوماً على استعداد لشن الحرب ضد أعداء الكنيسة، ولكن ليس ضد أعداء البابا، وهذا ما كان هذا الملك قد أعلنه لي، أنا متى كاتب هذه الصفحات، ولكن بوساطة يمين عظيم، وإنه بسبب معطيات الظروف المبينة أعلاه، أحاقت المخاطر وتفجرت يومياً من كل جانب لتصيب الكنيسة.

حول الخلافات بين اثنين من أعظم السلاطين قوة

وفي حوالي الوقت نفسه نشب خلاف بين اثنين من أعظم أمراء المسلمين قوة، هما سلطان حلب وسلطان مصر، وذلك بسبب قبول الفدية من الملك الفرنسي، واطلاق سراحه من بين أيدي المسلمين، من خلال جشع سلطان مصر، لأن الشرقيين قالوا بشكل عام، بأنه كان ينبغي عدم فقدان مثل هذه المنحة الثمينة، وأن هذا ما كان ينبغي أن يحدث لولا تقاعس المصريين وجشعهم، ولذلك تعرض السلطان المذكور للهجوم من كل جانب، من قبل المسلمين، وخاصة من قبل سلطان حلب، وأرغم على الاعتراف بهذا، وأيضاً على ارسال رسالة إلى الملك الفرنسي، يتوسل إليه بتواضع لعقد السلام معه، وعرض بنود إقامة صداقة على أساس شروط محددة وصالحة، ومن خلال ذلك، ومن معطيات الظرف توفرت الآمال، بأن الحفاظ على القدس سوف يكون ممكناً بفعالية.

وفيما يتعلق بهذه القضية، تلقينا رسائل موثقة ومختومة من مقدم

الاسبتارية في القـدس، وإذا ما رغب أي واحد برؤيتهم، عليـه العودة إلى كتاب Additaments, وقـد شعـر الشخص الذي قتل السلطان بالتجبر والتفـاخـر، إلى حـد أنه أثار غضـب جميع شعب الشرق، لأن السلطان الذي جـرى للتـو قتله بشكل خيـاني، كـان مستقيماً، ومعتـدلاً، وواحـداً غيـوراً من دون تعب على إيمانـه وعهـده، ولأنه تعـرض للنقـد الشـديد أثناء حياته، وللمـلامـة لأنه سمح بفـدية الملك الفرنسي وتركـه يغـادر حيـاً، قيـل بأنه قـد ردّ كما يلي: « ياأصـدقـائـي، أنتم تعلمـون أنه الأعظـم نبـلاً بين جميع المسيحيين، ولذلك لو أنـه قتل، لشعـر أقـرباؤه، الذين هم كثرة كثيرة، في قرارة قلوبهم، بوجـوب الانتقام له، وعلاوة على ذلك إنني كنت سأخسر مـال الفـدية، لأنه بدفع هذا المال سيلحق الفقـر بفـرنسا، وسينال المسلمـون الغنى والسرور، كما أنني لم أتجرأ على اقتراف ذنب دس السم لمثل هذا الشخـص، صـاحـب مثل هذه المرتبـة العـاليـة، خشيـة من أن تثير مثل هذه الخيـانة الكبيرة الـرب والمسيحيين، ولذلك دعـونا نكون راضين بفضل محمـد (صلى الله عليـه وسلم)، وبدمـار مثل هذا الملك العظيـم، الذي هزم، وأخـذ أسيراً، ودفع الفـديـة، وذلك مع العلم أنه لايوجد شخص له مرتبة عالية، أو حتى هو معروف، يمكنه أن ينجو من بين أيـدينا، ونحن فرحون في تملكنا لأشخـاصهم، وأسلحتهم، وخيولهم، وأمـوالهم، وعلينا أن نفتخر بالنصر الذي فـاق جميع الثروات»، ولم ترضهم هذه الإجـابة فقط، بل إنها ألهبت غضبهم وزادته، وقـالوا له: «أنت تكذب بدناءة، لأننا لو قتلناه، أو أودعناه في السجن الدائم، لقـذفنا بالرعـب وبالاحترام في قلوب جميع شعـب الغـرب، لكن الجشـع أعمى قلبك»، وقبل أن يحذر ذلك السلطان ويكون متنبهاً، طعن بخنجر، ومات بطريقـة مـؤلمة، والخائن الدمـوي الذي ــكما ذكـرنا ــ تولى قتله، مع أنه مـولاه، قـد حلّ محله، وخبر مقتل هذا السلطان وتعيين السلطان الآخـر، جـرى اعـلام الايرل رتشارد بـه، برسالـة يمكن العثور عليهـا في كتـاب Additaments.

حول صبر الملك الفرنسي

وفي الوقت نفسه تحمل الملك الفرنسي المسيحي التقي جميع الانتكاسات بصبر وصمت، وبقي في عكا ينتظر المساعدة، ويرجو صلوات الرهبان، وبشكل خاص الذين كانوا في الهيئة الرهبانية لطائفة السسترشيان، حتى يمنحهم الرب لطفاً ويمنّ عليهم بالهدوء، بعد تلك العواصف الثقيلة، وقام أيضاً، كما تقدم الذكر من قبل، بارسال أخويه، اللذين عقد عليهما آمالاً كبيرة، ووضع بهما ثقة عظيمة، وقد بعث بهما إلى المناطق القريبة من جبال الألب، ولكنهما —على كل حال— نسيا يوسفهما، وتوليا القيام بالواجب الذي فرض عليهما، بإهمال كبير، وأخرا القضايا إلى درجة أنهما بديا وكأنهما غير راغبين بمساعدته، وذلك وفقاً لكلمات الفيلسوف: «المماطلة الطويلة هي تردد كبير».

وصول غي أخي الملك من الأرض المقدسة

أثناء الاحتفالات المهيبة لعيد الميلاد، وصل غي، أخو الملك لأمه، وهو عظيم السرعة، من الأرض المقدسة، وليس معروفاً فيما إذا كان قد جاء فاراً من المعركة، وعلى كل حال من الممكن القول أنه بالنسبة لمقامه، بأنه هرب بحكمة ونجا من السجن في دمياط، بعد إعادة تأسيس السلام، وبما أنه وصل إلى انكلترا في حالة من الفقر، وكان مسافراً على قدميه تحول وهو على طريقه إلى دير فيفرهام Feversham, ليطلب الضيافة، وقد استقبل هناك بلطف وعومل بفخامة وكرم، ثم إنه سأل راعي الدير بأن يتفضل صدوراً عن رعايته له، وبسبب مكانته، ولاحترامه للملك، بإعارته وأصحابه، بعض الخيول، وأيضاً بعض الخدم، إلى أن يتمكن من الوصول إلى لندن، معلناً ومقسماً، أنه بمجرد وصوله إلى هناك، هو سوف يعيد الخيول ويرسلها مع الخدم مصحوبة بكثير من الشكر، وعلى هذا وافق راعي الدير، ولبى مطالبه، ولكن عندما وصل غي المذكور إلى

لندن، لم يخف من نيل تهمة نكران المعروف، مع الخزي البواتي القديم، ولـذلك لم يعـد الشكر إلى راعي الدير، كما لم يرجع الخيـول، بل أعـاد الخدم فقط، بعـدمـا أغضبهم بشتـائـم لايمكن ذكـرها، وعلى هذا من الممكن مقـارنة هذا الضيف، الذي هو بلا حيـاء بأفعى في الصـدر، أو بفـأر في الجبن.

كيف أغنى ملك إنكلترا إخوته

وعندما رآه الملك، اندفع مسروراً، واحتضنه بسرور أخوي، وبما أنه وجـده فارغ اليـدين، يتطلع لنيل المال الملكي، أعطاه على الفور مبلغـاً كبيراً من المال، كان قد أخـذه من اليهود، وعلى هذا فإن الحقائب التي كانت فارغة على ظهـور الخيل، امتلأت الآن بخمسمائة باوند، وعلاوة على ذلك أعطى إلى أخيـه غيـوفـري المسـؤوليـة عن بارونيـة هيستنغ Hastings الفخمـة، التي كـانت شـاغـرة آنذاك، وهكذا ضلل النبلاء المحليين لانكلترا، الذين هم رعاياه الطبيعيين، وحرمهم من كل شيء، وعيّـن الأجـانب كل يوم في مكـانهم، وبذلك يمكن للانكليـز الشكاية محقين، وأن يـرددوا مع النبي قـولـه: «أعطيت مـواريثنا إلى الآخرين، وبيوتنا إلى الغرباء»، كما أن الملـك لم يكن قانعاً بالتوزيع غير المعقـول بين العلمانيين والأجـانب، المال، الذي توجب عليـه حفظه، لتأمين شراء الضروريات من أجل حجه، بل سعى بمـواظبة للحصول على ترقية الأجانب غير الأكفاء، وغير الجديرين، إلى المراتب اللاهوتية العـاليـة، وتسليحهم وتشجيعهم ضـد الانكليـز، والدفـاع عنهم في القضايا القضائيـة المرفوعة ضدهم، لأنه كان قـد كتب إلى البابا يرجوه بحـرارة أن يبـدي بشخصـه الرعـاية نحـو بونيفيس، رئيس أسـاقفـة كانتربري، في القضية القائمـة بينه وبين أساقفة انكلترا، وبشكل خاص بينه وبين أسقف لندن وكهنتهـا، وذلك حتى لايحبط رئيس الأسـاقفـة المذكور في أي من رغباته وخططه.

كيف أقسم أسقف لندن على الالتزام بمراسيم رئيس الأساقفة

وعلى الرغم من أن أسقف لندن قد تعرض مؤخراً إلى الإيذاء الكبير من قبل رئيس الأساقفة، الذي حرمه كنسياً، وتسبب بنشر قرار الحرمان الكنسي في الطول والعرض، إنه عندما تأمل في هذه الأشياء كلها، ونظر إليها بعين الحكمة، وتفكر فيها قال لنفسه: «إن شرف انكلترا ينحدر بسرعة، ورئيس الأساقفة يقوم باضطهادي والتنكيل بي وبجميع الانكليز، ومع أنه أجنبي، يتولى مضايقتي مع أنني من أهل البلاد، وشخصية متميزة بدم نبيل انكليزي، ثم إنه عندما سيمتلك الملك الفرصة للتعبير عن غضبه نحوي ونحو أسرتي، سوف يسخر نفسه لفعل ذلك بكل سرعة وسرور، ولسوف يجرد أقربائي من جميع ممتلكاتهم، بكل وسيلة من الوسائل في قدرته، ومن ثم سوف يغني الأجانب بها، وبذلك فإن الشرور سوف تتكدس فوق الشرور في انكلترا»، ولدى تفكيره بعمق حول هذه الاحباطات، وجد نفسه في وضع صعب، وكأنه مسحوق بين حجري رحا، وقد سيق ودفع إلى هذا الجانب وإلى ذاك، فمن الجانب الأول كانت هناك قضية الكنيسة وكرامتها، ومن الجانب الآخر عنف الغضب الملكي.

واختار أخيراً —في سبيل أن يعاني من أدنى أذى ممكن، مع أنه انزعج وتألم تحت الأذى— أن يتواضع بنفسه لبعض الوقت، وأن يقسم على الالتزام بمراسيم رئيس الأساقفة، مع أنه عدو، بدلاً من أن يخاطر في نيل غضب الملك، و حصل بهذه الوسائل على التحليل من قرار الحرمان الكنسي الذي صدر ضده، وذلك في الوقت الذي عجب فيه كثيرون من عدم خوفه من تهديد النبي في قوله «ويل لك يامن تسوغ عمل الرجل غير التقي».

ذهاب البابا إلى بيروسيا

وفي حوالي الوقت نفسه، بعدما أمضى البابا شهراً وزيادة في ميلان، وسط كثير من القلق، تابع سفره إلى المدينة (روما)، وأثناء عبوره خلال المدن التي كانت على طريقه، أنفق مبالغ كبيرة من المال، ووصل أخيراً إلى بيروسيا Perusia, حيث رأى أنه سيكون من الحكمة والأفضل له البقاء، لأنه فهم أنه إذا ما ذهب إلى روما، سوف يستخرج منه شعب روما مبلغاً كبيراً من المال بالقوة، وأنه لن يمتلك القدرة على الوقوف بوجههم وفق شروط متساوية، لأنه سوف يكون داخل شباكهم، ولذلك، وعلى الرغم من أن الرومان رغبوا بحضوره، لم يذهب إلى هناك، خائفاً من المؤامرات، التي نجا منها منذ بعض الوقت، وقال وكأنه كان يخاطب روما:

إن آثار الأقدام تلك التي تشير إلى الوكر فقط

تخيفني كثيراً، لأنه لاتوجد آثار تشير إلى طريق العودة.

إجراءات شكاوى البنادقة مع آخرين ضدّ ملك فرنسا

وفي هذه الآونة أيضاً، شكل البنادقة، والبيازنة، والجنويون مؤامرة ضد ملك فرنسا، وضد أخويه، وضد رعيته، مع أنهم كانوا ليسوا بحاجة للمشاكل وللاضطراب والأذى، ذلك أنهم قالوا بأنهم تمكنوا بالقوة من الحصول على مدخل إلى دمياط قبله، غير أنهم طردوا بعد ذلك من المدينة بسبب جبروت وعنف الفرنسيين عندما وصلوا، كما أنهم اتهموا الملك الفرنسي بممارسة الفوضوية، وبالخيانة، والجبن، ذلك أنه عندما كان الملك جاهزاً للاقلاع برحلته، أبعد عشرة آلاف رجل من رماة القسي الزيارة، كان من بينهم بنادقة، وبيازنة، وجنويين، وكذلك بعض الفرنسيين، ولم يتعب نفسه بأخذهم معه، مع أنه قد استدعاهم، ووعدهم بأن يدفع لهم مبلغاً محدداً من المال عندما سينطلق، وبإجرائه

هذا الذي قضى بابعادهم، هو أرغمهم على العودة إلى حالة من التسول، فعندما عادوا إلى مناطقهم، لم يسمح لهم حتى بالاقامة في البيوت والحقول التي باعوها، ولذلك قاموا بإغلاق الموانىء بغلايينهم، وراقبوا البحر بحرص، من أجل سلب، أو إغراق أي فرنسي، يمكن أن يعبر البحر.

حول اتحاد بعض الرهبان

وفي هذا العام، رأى بعض القساوسة والرهبان الذين انتموا إلى الكنائس الديرية، بوضوح بأن الأساقفة في جميع الأماكن، الذين من المفترض أن يجدوا فيهم حماةً لهم، قد أصبحوا الآن منكلين بهم بشكل مكشوف، وآذوهم أكثر من أي رجل علماني أو مدني، وأيضاً أن الحبر الأعظم كان الأكثر حدة في ظلمهم، وأن هذا كان يزداد، كلما ازداد قوة، لذلك عقدوا اتحاداً فيما بينهم، من أجل أنه بالمساعدة في تحمل أعباء بعضهم بعضاً، يمكن لهذه الأعباء أن تكون أقل ثقلاً عليهم، وبناء عليه قام تحالف تجاري بين التجمع الرهباني للكنيسة الأسقفية لكانتربري، مع رعوية ودير وولتهام Waltham، وقاموا هم، وكذلك قام آخرون بالرجاء بتواضع بتقديم طلب المعونة نفسها والمساندة، من قبل دير القديس ألبان.

عودة سيمون إيرل ليستر من غسكوني

في يوم عيد الغطاس، عاد فجأة سيمون ايرل ليستر، وبشكل مهين، وبكل سرعة من غسكوني، يحيط به ثلاثة رجال مسلحين فقط، كانت خيولهم قد هدّها الجوع والتعب، وعند وصوله إلى لندن طالب بسرعة وإلحاح تقديم مساعدة فعالة من الملك، بالمال والعساكر، حتى يكبح وقاحة العصاة الغسكونيين، ذلك أنه أكد، أنه لن يستطيع الاستمرار في تلك الحرب العالية النفقات اعتماداً على امكانياته وحده فقط، من دون

مساعدة الملك، علماً بأنه سوف يستنزف موارد ايرليته في ليستر، وفي سبيل هذه الغاية، حث الملك وشجعه بالكلمات التالية، حيث قال:

«مولاي الملك، عليك أن تعيد إلى ذاكرتك، أنك عندما كنت مؤخراً في غسكوني، لجأت واثقاً، إلى مساعدة أولئك الذين عددتهم رعاياك المخلصين، ومع ذلك لم يفتحوا صدر العطف والمساعدة إليك، كما أنهم لم يمدوا يد العون إليك، حسبما هو متوجب عليهم، كما أنهم لم يشفقوا مطلقاً عليك، عندما كنت هارباً من خيانة وتنكيل الملك الفرنسي، وأيضاً لم يشفقوا على الملكة أثناء حملها، وعندما كانت متمددة مريضة في ريولي Reoli, ولا أثناء ولادتها في بوردو، بل انتزعوا أموالك منك، وسمحوا لك بفقدان أراضيك، وكرامتك»، وعندما سمع الملك هذا تأثر، وأشفق على الايرل لما عاناه من آلام وارهاق، فأجابه بطريقة فيها مواساة له قائلاً: «بحق رأس الرب، لقد أخبرتني بالصدق، أيها الايرل،وأنا سوف لن أرفض تقديم عون فعال لك، أنت الذي تقاتل بنشاط ومواظبة من أجلي، غير أن صرخات شكاية قد وصلت إليّ، من أنك توليت بشكل تعسفي سجن الذين جاءوا إليك بطريقة مسالمة، والذين أنت بعثت خلفهم، وأنت قد وعدتهم بالوفاء وتعهدت لهم بالحفاظ عليهم، غير أنك توليت قتلهم عندما أصبحوا تحت سلطانك»، وقد أنكر الايرل هذا بشكل كامل، وأضاف قائلاً: «مولاي، إن خيانتهم معروفة، فأنت قد جربت ذلك وعانيت منه، وقد جعلهم هذا غير جديرين بالتصديق».

إجراءات الإيرل سيمون قبل مغادرته غسكوني

قام الايرل سيمون المتقدم الذكر، الذي كان رجلاً صاحب قوة وخبرة في الحرب، قبل مغادرته غسكوني، بالاستيلاء على قلعة فرونساك Fronsac الحصينة، وأسر المحاصرين، وسوّى القلعة مع الأرض، وكانت هناك قلعة لايمكن الوصول إليها تقريباً، وواقعة

في منطقة جبلية، وكانت بالفعل قلعة لاترام، وكان اسمها ايغريمونت Aigremont, وهذه أيضاً أفرغها من سكانها، وبذلك صار بإمكان جميع المسافرين عبر ذلك الطريق، متابعة سفرهم، وتنفيذ ارتحالهم بسلام، وكان هذا المكان محاطاً بصخور لايمكن اجتيازها، وكانت هناك أبراج قد بنيت على قمم الصخور حيث أشرفت من علو فوق الوديان، كما أنه لم يكن بإمكان التجّار أو الحجاج، لابل حتى سكان تلك المنطقة، العبور من دون التعرض للسلب من قبل اللصوص، والتعرض حتى للقتل، وقد أخضع الايرل هؤلاء جميعاً، وجعلهم طائعين للملك بقوة السلاح، وهذا أيضاً مافعله بالنسبة لبعض سكان بوردو، والذين تمردوا ضد القوانين العادلة.

مغادرة الإيرل المذكور إلى غسكوني

واسترد الايرل المتقدم ذكره أعلاه أنفاسه من المواساة، التي قدمت إليه من قبل الملك، ومع أنه كان مقهوراً من قبل ثورة جماعة الخونة كلها في غسكوني ضده، أصبح الآن متشجعاً ولديه آمالاً عالية، وبعدما تسلم ثلاثة آلاف مارك من خزانة الملك، وبعدما جمع مبلغاً كبيراً من كونتية ليستر التابعة له، ومن الأراضي التي كانت عائدة مؤخراً إلى غيلبرت دي همفرونفيل Humfronville, التي كان له حق الوصاية عليها، عاد على الفور مسروراً، وأرسل رسالة إلى دوق برابانت، وإلى المقدمين الجيران له، حتى يرسلوا له بعض الفرسان والأتباع المزودين بالسلاح، لكي يستقبلوه لدى وصوله، لأنه كان مسرعاً تماماً في طريقه إلى غسكوني، وقال بأن أولئك الرجال سوف يقاتلون مخلصين لصالحه، فلسوف يغنيهم بعطاء وافر، وإطاعة من الكونت لأوامره، أرسل إليه ثلاثمائة فارس غير نظاميين، وبعض رماة القسي الزيارة، الذين هبوا لمساعدة الايرل، وكانوا متعطشين مثل علقات لامتصاص دماء الغسكونيين، وفي الوقت نفسه كان الغسكونيون غير مهملين لأمرهم، فحصنوا أنفسهم ضدهم.

كيف جرى ادخال عبارة «دون التقيد» بالاستخدام في المحاكم العلمانية

وفي حوالي الوقت نفسه، نشب خلاف قضائي بين سيلفستر Sylvester, أسقف كارلايل، وواحد من البارونات، حول عزبة، كان البارون المذكور قد باعها إلى وولتر، سلف الأسقف المذكور، والتي قد رغب البارون المذكور باسترداد تملكها، وبحكمة ظهر الأسقف المذكور بشخصه في المحكمة، لأن خصمه كان في القارة، مع أن حماته كانوا موجودين، ولذلك حصل على رسائل حماية من الملك، طوال غياب البارون، وإلى عودته مسروراً إلى مقاطعته، وبقيت الفئة المعارضة ساكنة، لكن عندما سافر الأسقف وابتعد إلى مسافة، حصلوا على رسائل من الملك فيها عبارة «عدم التقيد بالرسائل السالفة، وأن قضية البارون لايجوز تأخيرها»، ومن المعتقد أنه لم يتم الحصول على هذا الإجراء، من دون استخدام المال، وانتشرت الرسائل وتوزعت في كل اتجاه، وفيها قد أقحمت العبارة المقيتة «دون التقيد بالأمر المتقدم»، أو عبارة «عدم التقيد بأي امتياز قديم، وبموجب ذلك ينبغي أن تكون إجراءات القضية»، ولقد أدخلت هذه العبارة بالاستخدام، وبالاضافة إلى هذا تسللت تأويلات شريرة الآن إلى الصكوك، وباتت ممارسة، من ذلك على سبيل المثال، إذا ورد مكتوباً مايلي: «نحن نمنح امتياز كذا إلى الدير الفلاني»، وقد ورد ذكر الدير بوضوح، وتبع ذلك قوله: «وجميع عزبه»، وهنا إذا لم يرد ذكر العزب بكل دقة ووضوح، من الممكن للعبارة المضافة أن تكون بلا فعالية، وهذا كما هو واضح مضاد للعقل، ولجميع أشكال العدل، لابل في الحقيقة معاكس لأحكام المنطق، التي بوساطتها يمكن البحث عن الحقيقة من دون اخفاق، وتولى تأسيس طريقة الإجراءات هذه رجل غير مستقيم، كان وقتها مسؤولاً عن العدالة، وكان اسمه روجر دي ثيركباي Thurkeby, وقد قال

وهو يتنهد بعمق مشيراً إلى العبارة المتقدمة الذكر: «واأسفاه، واأسفاه، لماذا انتظرنا كل هذا الوقت؟ إن المحكمة المدنية ملطخة الآن بالأمثلة اللاهوتية، والنهر كله قد تسمم بالنبع الكبريتي».

إطلاق سراح بعض الصليبيين من الأسر بين المسلمين

وفي هذه الآونة، تبين أن بعض الأشخاص الذين كان من المعتقد أنهم قد قتلوا في المعركة ضد المصريين، هم أحياء في سجون المسلمين، وتمّ الآن دفع فديتهم من قبل أصدقائهم، فقد جرى دفع فدية كبيرة من أجل مقدم الاسبتارية، وأطلق سراحه، ونظراً لسجنه جرى تعليق استخدام ختم الاسبتارية، الذي كان من الرصاص، وذلك وفقاً لعادة الطائفة، وظل معلقاً حتى تمّ التأكد من اطلاق سراحه ثانية، وجرى تقديم شكل الختم المذكور في كتاب Additaments, كما أن الرسالة التي قيل بأن المقدم المذكور قد بعث بها إلى أصدقائه، قد جرى ادخالها هناك.

حول تحليل عمدة لندن وكهنتها من قرار الحرمان الكنسي

وفي حوالي الوقت نفسه، جرى تحليل عمدة وكهنة كنيسة القديس بولص في لندن، الذين تقدمت الاشارة إليهم في الصفحات الماضية، من العقوبة التي أصدرها ضدهم رئيس أساقفة كانتربري، وجاء ذلك بناء على سلطان البابا، وتولى ذلك راعي دير القديس ألبان، وراعي دير ولتهام Waltham, ورئيس شمامسة كنيسة القديس ألبان، غير أنهم وضعوا بعد ذلك تحت العقوبة نفسها، لسبب آخر.

حول النزاع المتعلق بحصة الأسقف الأخير لدرم

ورغب في حوالي الوقت نفسه، بعض ذوي العقول الشريرة، والأشخاص المرائين بإرضاء وولتر أسقف درم، فذهبوا إلى البابا، وأعلنوا بأن حصة من أسقفية درم، قد أعطيت من دون سبب إلى

نيقولا، الأسقف الأخير، الذي كـان قد استقال من منصبـه، وأن نيقولا المذكـور، قـد احتفظ بحـوالي ثلث الأسقفية، وبنـاء عليه تقـدمـوا الآن بالرجاء إلى البابا من أجل إعادة الأسقفية كاملة، أو على الأقل أن تكون أقل ضرراً، وعلى هذا ردّ البـابا قائـلاً: «نحن مندهشون لسماع كـلامكم هذا، أولم يكن قد جرى التوزيع والتقسيـم بعد مداولات طويلة، ووفقاً لرأي أناس متعلمين، وكـذلك بنـاء على مـوافقـة الفـرقـاء، وأولم يجري تثبيت ذلك من قبلنا ومن قبـل ملك انكلترا، ومن قبل نوابنا؟»، وكـان أسقف باث، الذي كـان واحداً من النواب، آنذاك مـوجوداً في البـلاط، ولذلك دعي ليقدم بينة حول الحقيقة، فشهد بأن كل شيء قد عمل، مع التقدير المتوجب للعدالة، ولـذلك جرى ابعاد المشتكين مع الملامة، وهم في حين فكروا باضعـاف قضية الأسقف نيقـولا، هم قامـوا فقط بزيادة قـوتها، ولم تمر هذه الإجـراءات من دون تسبيـب الاهانة لوولتر أسقف درم، وإلى رئيس رهبـان ورهبـان ذلك المكان، الـذين من الواضح أنهم كانوا شركاء سريين في المؤامرة وفي التحريض عليها.

حول التقارير الشريرة المتعلقة بهنري أوف باث

وجـرى في العـام نفسه، في يوم عيـد طهـارة القـديسة مـريم تقـديم شكوى ثقيلة ضد هنري أوف باث Bath, وكان فـــارساً متعلماً، وبارعاً تمامـاً في شريعة البلاد، ورجل عـدالة ومستشاراً خـاصاً للملك، وكانت فحوى التهمة، أن كونه صديقاً وحيداً للملك، قام بخداع مولاه أثناء شغله لمنصب المســؤول عن العــدالة الذي عهــد به إليــه، وتولى بوسـاطة حجج بارعة، إن لم نقل بوسـاطة الخيـانة، من افراغ حـافظات النقـود للآخرين، ليمـلأ حافظتـه، ولم يتردد، أو يخف، من تسلم الهدايا من جميع الجهـات بكلتـا يديه، وبذلك صـار ثـرياً، بالموارد، والعـزب، والذهب، والفضـة، حتى أنه صار الآن الأول الأكثـر ثروة بين زملائـه المتـولين لأعمال العدالة، وكـانت زوجته أيضـاً، امرأة جشعـة ومتجبرة،

وكـــانت من حيث الأصل من أسرة باسيت Bassets ومن ساندفوردز Sandfords, وعلى هذا كانت متفاخرة بنسبهـــا وأصلها، وقامت بتحريض هنري المذكور على هذا السلوك، وبما أنه حرض، ومال ليعمل هكذا بإرادته، صار متشوقاً للبحث وراء الربح الدنيء، بالعدل وأيضـاً من دون وسائل عادلة، فقد قيل إنه حصّل لنفسه ولاستخداماته في جولة واحدة أثناء ممارسته لأعمال العدالة، على أكثر من مائتي قطعة أرض، ولذلك انتشرت حوله فضائح كثيرة، ونشب خصـام أيضـاً بين هنري المذكور وايفـرارد دي ترمبنغتـون Everard de Trumpington, بشأن إحـدى العـزب، ووجهت التهمة إلى هنري بالحنث بالوعود وبالخيانة، من قبل أحد الفرسان واسمه فيليب دي أرسي Arcy, وكان ذلـك بحضور الملك والملكة، ولذلك احتجز، أو بالحري كما يقال بالعادة جرى اعتقاله، مع أن جون مونسيل Maunsell, الذي كان كـاهناً ومستشاراً خاصاً للملك رغب بضمانته، وأن يكون كفيله بأنه سوف يلتزم بالعدل، غير أنه أخفق بالحصول على الإصغاء، لأن غضب الملك اشتعل بشكل مرتفع، وأجاب بأنه لن يقبل بأي كاهن ليكون كفيلاً له في مثل هذه القضية، لأنه عدّ الجريمة إحدى جرائم الخيانة العظمى، وبما أن أسقف لندن جاء ليتحدث لصالحه، وبناء على وساطة وتدخل كثير من الوسطاء، جرى تسليمه وعهد به إلى أربعة وعشرين فارساً، سوف يحضرون المحاكمة ويسوغون هنري المذكور بالمحاكمة خلال مدة جرى الاتفاق عليها وتحديدها.

حول كفالة هنري أوف باث

وكان هنري رجلاً بارعاً وداهية، ففكر آنذاك وتصرف وفق قول الشاعر الكافر:

مساعدة القاضي مطلوبة من أجل الشرائع غير العادلة

وبناء عليه أرسل زوجتـه إلى جميع أقربائهـا من الباسيت Bassets, ورجتهم بحرارة، من أجل التـدخل بشكل فعال لدى الملك من أجله، وأن لايوفروا تقديم الهدايا الكثيرة، والوعود الأكثر، وإذا لم يتمكنوا من نيل أي شيء بهذه الوسائط، عليهم الظهور من أجله في يوم الفزع، وهم مجهزين بالسلاح والخيول إذا كان ذلك ضرورياً، وعلى هذا وافقوا جميعاً بصـوت واحـد، لأنـه كـان هناك واحـداً من بينهم اسمــه نيقـولا دي ساندفورد Sandford, وكان فارساً جـريئاً، وكان قادراً، وراغباً وعلى استعداد للقيام بدوره ضدهم جميعـاً، حتى لو كلفه ذلك المخاطرة بحيـاته، وأبلغت أخبار هذه الاجـراءات سراً إلى الملك، فازداد غضبـه، ورفض بإصرار قبـول جميع الهدايا، والكلام التلطيفـي، وأقسم على أنه سـوف يتابع القضيـة حتى تعرض وسط محاكمـة دقيقة، وعندها عـرف هنري أنه في وضع حرج، لذلك ذهب مع أسقف لندن، وفيليب باسيت وبعض أصـــدقـائــه الآخــرين إلى الايرل رتشـــارد، وأمكن بوســـاطة الالتماسات والرشاوى جعل قلب ذلك النبيل يميل إلى قضيته، وأضافوا متوعدين بوساطة أيمان مرعبة، أن الملك إذا ما تسبب بموته، لابل حتى بحرمانه من ميراثه، لسوف تثار المملكة كلها، وتثور ضد الملك، وأنه إذا ما حـدث هذا، فإن قضايا أخـرى سوف تستخدم، خـاصة التحكم غير العادل والصحيح للأجـانب، وبالتالي ظلم الانكليز، وأن الشقاق الذي ظهـر في الخارج، ســوف لن يهدأ ويخمـد، وعندمـا سمع الايرل هذا، استولى عليـه الرعب، ولكونـه تمت السيطرة عليـه بوسـاطة التماسـات وهدايا هنري المذكور، ذهب إلى الملك ليهدىء غضبه، وليطالب لصالح هنري، ولصـالح سـلام المملكة، ولكن غضب الملك وسخطه كـان من غير الممكن تهدئته هكذا، وعندما كان الايرل على وشك المغادرة وتركه، خـاطبة على الشكل التـالي: «نحن لايمكننا منع نبـلاء المملكة من تأييـد حقـوقهم وامتيـازاتهم، ولن نستطيع النجــاح في تأسيس سـلام الممكلة المترنحة».

إحصاء كمية نفقات الملك

وأمر الملك في تلك الآونة بإجراء احصاء وفحص لجميع السجلات والملفات، بغية اكتشاف مبلغ النفقات غير العادية التي عملها منذ تتويجه، وقد تبين أن ذلك كان مبلغاً ضخماً جداً، وقد جرى تقديمه في كتاب Additaments.

تأسيس دير للنساء من قبل كونتسة آرونديل

وفي حوالي الوقت نفسه، أسست السيدة النبيلة ايزابيل، كونتسة آرونديل Arundel أرملة هوغ ايرل آرونديل، ديراً للنساء في مكان اسمه مارهام Marham قرب ليني Lynne, وكان ذلك على نفقتها، أي من حصة زواجها.

جلب أخبار وفاة الإمبراطور فردريك إلى المالك الغربية

ومع نهاية عيد الميلاد، ومع اقتراب عيد طهارة القديسة مريم، انتشر تقرير في جميع بلدان الغرب، مالبث أن تأكد، وقد تحدث عن وفاة فردريك الامبراطور الروماني الأخير، ذلك أنه أصيب بمرض متعذر الشفاء، في يوم عيد القديسة لوسيا العذراء، ومات في يوم عيد القديس اسطفان، وأضاف التقرير أنه عندما شاهد أن حلول موته بات مؤكداً، بات نادماً، ومع دموع غزيرة عمل اعترافاً كاملاً تماماً بذنوبه، وعهد بنفسه إلى الرب، وإلى طائفة السسترشيان، التي كان قد لبس زيها، فهذا ماأخبرنا به رفاقه بشهادة مؤكدة، حيث قالوا أنه قام بتواضع وبتقوى قبل وفاته بلبس زيهم وارتدائه، وبحكم اقتراب وفاته، تمّ جلب أحد الأساقفة، بناء على طلب الامبراطور، من أجل التحليل من ذنوبه، وأيضاً لتحليله من حكم الحرمان الكنسي، وذلك باسم الرب، الذي لايرغب بهلاك أي واحد يؤمن به.

وصية الإمبراطور فردريك

ومع تنهـدات عميقـة، وإعـلان أنه ودّ لو أنـه لم يلد، ولم يتسلم حكومـة الامبراطورية، وفي سبيل استرداد وتأييـد الحقـوق التي من أجلها تورط في كثير جـداً من الأحزان العميقـة، وأسف كثيراً، يروى بأنه عمل الوصية التالية:

أنا فـردريك، أترك مـن أجل خـلاص روحي في المقـام الأول ألف أونصـة Ounces من الـذهب، حتـى تنفق، وتـوضع تحت تصرف ابني كـونراد، من أجـل استرداد الأرض المقـدسـة، ومن أجل الكنيسة الرومانية المقدسة.

بند: إن إرادتي تقضي برد كـل الممتلكات التي أخـذت بشكل غير عادل من أي واحد.

بند: إنني أمنح الحرية إلى جميع السجناء العـائـدين للامبراطورية أو المملكة، باستثناء الخونة فقط.

بند: إنني أدع جميع ممتلكات الكنيسـة حـرة، وتقضي رغبتي بإعـادة جميع حقوقها إليها.

بند: إنني أترك كـونراد بمثـابة وريثي للامبراطوريـة الرومـانيـة، ولمملكة صقلية.

بند: إنني أترك لابني هنـري مملكة القـدس، وعشرة آلاف أونصـة [من الذهب] لتدفع باملاء من ابني كونراد.

بند: وأترك لحفيـدي، أي ابن ابني هنري دوقيـة النمسا، وعشرة آلاف أونصة ذهب.

بند: وأترك ابني مـانفرد Manfred بمثابة نائب لكونراد في

الامبراطورية، من بافيا Pavia على هذا الجانب، ومملكة صقلية، لمدة سبعين سنة، إلاّ عندما يكون كونراد موجوداً.

بند: انني أختار هنغاريا لتكون مكان دفني، وذلك حيث جرى دفن الملك وليم».

وتحتوي الوصية على أعطيات أخرى كثيرة، لم أقم بتذكرها، لأنها أقل أهمية، وقد وزع بين أصدقائه، وأولاده الآخرين، وخدمه كميات كبيرة من الممتلكات، وبشكل رئيسي من الذهب والفضة، وهذا من الممكن تصديقه، لأنه في تلك السنة نفسها، جرى ارسال اثني عشر جملاً إليه من الشرق، كانوا محملين بالذهب والفضة، لأنه كان شريكاً في حركة نقل التجارات، وصديقاً كبيراً لجميع سلاطين الشرق، ولذلك فإن الذين كانوا يسافرون بالبر والبحر، وصولاً حتى إلى الهند، كانوا على حسابه.

كيف جرى إيقاع عقوبة الحرمان الكنسي بعميد وبكهنة لندن

وفي حوالي الوقت نفسه، قام رئيس أساقفة كانتربري بوساطة المعلم يوستاس أوف ليني Lynne, الذي كان موظفاً لديه، بانزال عقوبة الحرمان والملامة بعميد وبكهنة لندن، مما سبب الدهشة لكثيرين، وعلّل ذلك بسبب اعتداءاتهم، وزاد على ذلك، دعوتهم للظهور أمام البابا، وبذلك تفجرت فضيحة مهينة، لأنهم حرموا في الوقت الأول كنسياً من قبل فئة أولى لسبب ما، ومن جهة أخرى جرى تحليلهم من قبل آخرين لسبب ما آخر، وكان حال الكهنة أنهم شعروا بخوف كبير، وبمرارة في القلب، والتمسوا من جميع أساقفة انكلترا مساعدتهم في الوقوف ضد هذه المظالم، وأن يقاوموا العنف الذي أنزل بهم، بحكم أن جدار جيرانهم كان يحترق، وأما الملك، فلأنه كان هو الذي أوجد رئيس الأساقفة، والملكة لأنه كان عمها، لم

يستطيعا تركه معزولاً مهجوراً، مع أنهما شعرا بالخجل، وعلى الرغم من أن قضيته كانت قضية غير عادلة.

الموت الجريء للإيرل وولتر

وتعرض في هذا العام الايرل وولتر للانهاك والتلاشي، وهو الذي كان قد أظهر قوته في الأرض المقدسة بالقول والفعل، وهو الذي كان لبعض الوقت حاكم يافا، وبعض القلاع الأخرى على الساحل، وبعض الجزر القريبة منها، وكان مسجوناً ومضيقاً عليه في زنزانة قذرة لدى المسلمين، ذلك أن المسلمين قد كرهوه، لأنه عندما كان حراً، غالباً ماألحق بهم أذى كبيراً، ولأنه لم يكن هناك واحداً أكثر شهرة منه في جميع الأرض المقدسة، أو أعظم قوة منه، أو أخلاقه رضية أكثر منه، وبعدما كاد يتلاشى وبعدما تعرض للجوع والعطش، بناء على إرادة أعدائه، ونظراً لأنه كان قد تعرض للجلد مراراً، بات واضحاً أنه أخذ يقترب من الموت، وأن القبر هو كل مابقي له، واستخدم المسلمون جميع وسائل التعذيب حتى يرضخ ويرتد، أو يذعن لإرادتهم، لكن من دون فائدة، وبناء عليه جرى عقد مؤتمر فيما بينهم، وجرى جلب الايرل للوقوف وسطهم، وعلى هذا تولى السلطان مخاطبته بكلام ناعم وبتهديدات، ومزج ذلك بوعود وافرة، وحثه المسلمون بقدر ما كان لديهم من قوة، ووعدوه بالحصول على حريته، بحكم أنه كان بين أيديهم، على أن يقوم بتسليمهم يافا، التي كانت موضوعة تحت عهدته، والتي كان قد عهد بها إلى أتباعه الشجعان والمخلصين، وخاطبه السلطان قائلاً: «أيها الايرل الذي لايقهر، إنك غالباً ما ألحقت بي أذى لايمكن الخلاص منه، ولذلك إنك تستحق أن تعاقب بعدة ميتات، ومع ذلك، يمكنك الآن أن تنقذ حياتك، وأن تنال التكريم مع هدايا كثيرة، إذا أعدت يافا إلينا، التي كانت لبعض الوقت تحت حكمك، والتي وضعت فيها حامية موثوق بها من أتباعك، الذين لم نستطع اضعاف ثباتهم، ولسوف يجري

آخذك إلى باب تلك المدينة، لتتولى إعلام المحاصرين بهذه الشروط، أي حصولك على حريتك مع حرية جميع سكان المدينة»، وأعطى الايرل موافقته على هذا، وحمل إلى باب المدينة —التي كانت مطوقة بعساكر المسلمين— من أجل أن يخبر الحامية بذلك العرض، وعندما شاهد سكان المدينة الايرل، وجدوا صعوبة بالغة بالتعرف عليه، لأنه كان متلاشياً، وقام الايرل أولاً بمخاطبة حرسه قائلاً: «اسمحوا لي بإلقاء خطابي حتى النهاية، لأننا نقول بأن الكلمة الأخيرة تحتوي على المغزى»، وأعطي الاذن ليفعل ذلك، وسعى الايرل إلى ايصال الكلمات التالية بوضوح وبصوت مسموع، إلى جنوده الذين اجتمعوا فوق الباب، حيث قال: «أيها الصليبيون الشجعان والأتقياء،والجنود المخلصين، انظروا إلى جسدي حيث أنه قد تلاشى إلى حد أنكم تستطيعون التعرف لي فقط من خلال صوتي، وكلامي وحده، إن موتي بات وشيكاً، وجسدي هو تقريباً بلاحياة، وبصعوبة يحتفظ بالرمق الأخير، لاتتنازلوا عن شيء أبداً، ولاتمنحوهم أية عروض للسلام مطلقاً من أجلي، فلماذا يتوجب فداء جسد شبه ميت؟ وإنه إذا ماجرى فدائي، إنني لن أتمكن مطلقاً من استرداد صحتي، ولذلك إنني أرجوكم بحق دم المسيح المسفوك، الذي تدفق في هذه الأرض من أجل خلاص العالم كله، بأن لاتسلموا لاالقلعة ولاالمدينة إلى هؤلاء الكلاب الكفرة، الذين هم متشوقون بشدة للاستحواذ على هذه المدينة، وتدمير المسيحية كلها، لأنهم سوف لن يظهروا الرحمة نحوكم بعد تسليمها، كما أن الحجاج والسكان الذين قد استعدوا الآن للقدوم إلى مساعدتكم على الفور، لن يتمكنوا وقتها من مساعدتكم»، ولدى سماع المسلمين لهذا الخطاب ضربوا الايرل صاحب العقل النبيل على فمه بمقابض سيوفهم، التي أبقوها مجردة، فسببوا تدفق الدم الكثير، وخلعوا أسنانه، ثم سحبوه وجروه إلى الوراء ليتولوا قتله بوساطة جميع أنواع العذاب القاسية، وقد تحمل الايرل جميع هذه الاجراءات برجولة، وسار على الطريق الذي سلكه قريبه أمير أنطاكية،

وبما أن الاشـارة قد تمت إلى هذا الشخص الأخير، نعتقـد أن من الموائم ادخال رواية قصيرة حول موته وكتابتها على صفحات هذا الكتاب.

حول ثبات أمير أنطاكية أمام الموت

عندمـا كـان صـلاح الدين يقـاتل ضـد الملك رتشـارد في الأرض المقدسـة، وقع أمير أنطاكية بالأسر، وقد عـومل بشكل لاإنساني كبير في السجن الاسلامي، حيث احتفظ به مضيقاً عليـه بشدة، وكان يعاني من الجوع والعطش، ولذلك بدأ يتلاشى، وأمـر صلاح الدين في أحد الأيام بجلبـه إلى حضرته، الأمر الذي جـرى تنفيـذه، ونظر إليه صـلاح الدين وهو مقطب وقال له: «أخبرني الصدق، لو أن الله قد أعانك وكنت بين أيديك وتحت سلطانـك، كما أنت الآن بين يدي، مـالذي كنت ستفعله بي»؟ وعلى هذا ردّ عليه بازدراء ودونما خوف: «لو أن الرب قد أعانني، لقمت على الفـور بالأمـر بقطع رأسك، لكـن بما أنك ملك، وإن كنت كـافـراً، لما جعلت أحـداً يتولى قطع رأسـك، بل توليت ذلك بنفسي أنا شخصيـاً، لأنه لايجوز لأي انسان من مـرتبـة متدنيـة فعل ذلك»، وعلى هذا ردّ صـلاح الدين قـائـلاً: «إن فمك قـد أملى عقـوبتك» ودعـا على الفـور بجلب سيف إليـه، وقال: «وهكذا إنني سـوف أتولى على الفـور قطع رأسك»، وكـان أمير أنطاكية مغلولاً مـن يديه وقدميـه، ومع ذلك قفـز نحـو الأمام وهو مسرور، واقترب من صـلاح الدين، ومـدّ رأسـه نحـو الأمـام، وكذلك مـدّ رقبتـه، حتى يكون أكثـر جـاهزية لضربة يد صلاح الدين، وتفوه للمرة الأخيرة بـالكلمات التالية: «خذ أيها الكلب، هذا الرأس المهـان، والأشعث، وذي اللحيـة، وهذا الـوجـه الهزيل، والاذنين القـذرتين، وإن الذي ستكسبـه قليـلاً —لابل لاشيء له قيمـة زائدة— وإنني أعهد بروحي إلى الرب»، وعند ذلك تمكن صلاح الدين بضربة واحدة خفيفة من قطع رأس ذلك الشهيد الرائع في الرب، قائلاً:

«رجل عنيد، حتى في الموت لم يمكن قهرك (*)»، وكان هذا الشهيد الرائع قريباً للايرل وولتر الذي تقدم ذكره أعلاه، ونحن نعتقد أنهما يحكمان معاً بمثابة أتباع للشهداء، وحدثني بالرواية عن أمير أنطاكية هذا واحد كان حاضراً، وشاهد الواقعة بعينيه، واسمه المعلم رالف بيزاس Bezace, وكان وقتها طبيب الملك رتشارد، وصار بعد ذلك كاهناً في كنيسة القديس بولص، لأنه كان قد بعث إلى صلاح الدين من أجل اطلاق سراح ذلك الأمير، لكنه لم ينجح.

كيف جرى قطع أشجار رئيس أساقفة كانتربري

وفي حوالي الوقت نفسه، جرى قطع أشجار رئاسة الأسقفية، وبذلك نزل الناس الذين كانوا في تلك الأحراش إلى الفقر، وجرى توزيع موارد الكنائس الشاغرة، وفق رغبات الأجانب، الذين لم يكن الموزع يعرف شيئاً عن أخلاقهم وعلمهم، وهكذا بما أن الراعي كان غائباً كانت الشياه عرضة للذئاب.

حول الحرب بين أبناء وولدمار ملك الدانمارك

وتفجرت في هذا العام نفسه حرباً مقيتة بين أبناء وولدمار Waldemar, ملك الدانمارك، الذين كانوا يتصارعون من أجل تملك المملكة، وفي الوقت الذي كان فيه العالم كله يشجب مثل هذه الخلافات الأخوية، وكانت الممالك قد تمزقت بمثل هذه العداوات القذرة، قام آبل Abel الذي كان الابن الأكبر (والذي بالحري ينبغي دعوته باسم قابيل) بالتخطيط لعمل خياني ضد هنري، وعندما كان هنري ~~هذا على وشك الاستحمام، بعد لعبه بالنرد، انقض فجأة عليه، وذبح أخاه بشكل خياني، وبعد ذلك رمى بجسده في البحر، الذي

---

* — هذه حكاية مخترعة، فيها أصداء لقتل أرناط صاحب الكرك، وأمير أنطاكية من قبل، إثر أسره في معركة حطين، ولاعلاقة للملك رتشارد بالموضوع.

قام ثلاث مرات بقذف الجسـد الميت على الشاطىء، لكن آبل اللاانساني لم يرغب بدفن هذا الجسـد، فأمـر به فنقـل إلى مسافـة بعيـدة، وأغـرقـه بالأعماق، لكن الرب لم يكن راضياً بذلك، لهذا جرى قذف جسد الملك البريء على الشاطىء، فوق البقعة نفسهـا، كما كان الأمر من قبل، ولهذا قامت جماعـة من الرهبان الفـرنسيسكان بأخذ الجسـد، وأودعوه بشكل مشرف في قبر في كنيستهم، حيث استجـاب الرب لصلواتهم، فمنحهم منافع المعجـزات، وللبرهنة على أن الخيـانة لاتلقـى الحماية من قبل أي شخص، أدان نبـلاء داشيا آبل هذا القـاتل لأخيـه، الذي لم يسمح حتى بدفن أخيه المقتول، وحكموا عليه بالنفي الدائم، وبما أنه حاول التحرك ضـدهم وتحديهم، هو نفسـه قتل من قبلهم، وبمـوافقة عـامـة وضع في مكانه الأخ الثـالث الأصغر، ورفع إلى العـرش، وهو الآن يحكم بشكل مـزدهر، وينبغي أن يكون معلومـاً، أن ملوك داشيـا جـرى منذ القـدم مسحهم، وتكريسهـم، وتتـويجهـم، وتلقى هاكسو ملك النروج منفعـة التكريس، وكـذلك الشرعيـة، من البابا، وجـاء ذلك بناء على دفعـه إلى البـابا انوسنت الرابع مبلغ ثلاثين ألف مـارك من الفضة، وتم تكريسـه بوساطة لورانس، الذي كـان انكليزياً من حيث المولد، وكـان من طائفة السسترشيـان، وهو الـذي صـار فيها بعـد راعي ديـر كيركستـد Kirk-stead في لنكولنشاير Lincalashire, وهو الذي ذهب إلى روما، وجعل القضية كلها تصل إلى محصلة فاعلة.

عودة سيمون إيرل ليستر إلى غسكوني

في العـام نفسـه، ومع اقتراب الربيـع، عـاد الايرل سيمـون صـاحب ليستر إلى غسكوني، مع قـوة كبيرة، ومبلـغ كبير من المال، وهناك وجـد تقريباً جميع الـرجال ذوي المراتب من أهل المنطقة قد تحالفـوا في مؤامرة عامة ضده، وكـانوا جاهزين للعصيان، ولذلك تجددت الحرب مع شدة مضاعفة، وحصل الغسكونيون على السوء من القضية.

حول البارلمان الذي عقد في لندن

وفي السابع عشر من شباط في هذا العام، عقد بارلمان عظيم في لندن، وذلك حسبما جرى الإعداد له من قبل، وفيه ظهر هنري أوف باث، لأن الملك كان يضطهده، وكان مهاجماً ومتهماً من كل جانب من قبل خصومه، وكان الملك غاضباً منه إلى أعلى الدرجات، لأنه قدم إلى هناك وهو محاط بكتلة كبيرة من الفرسان، وبأسرة زوجته والأصدقاء، وبأصدقائه الخاصين، وقدم الملك ضده تهماً أعظم ثقلاً من الآخرين جميعاً، من أنه سبب الاضطراب إلى المملكة كلها، وأثار جميع جماعة البارونات ضده، ونتيجة لذلك بات حدوث تمرد عام قريب الوقوع، وبناء عليه أمر بإعلان نداء عام بوساطة المنادين في لندن، وفي البلاط من أن أي إنسان له قضية عمل، أو شكوى ضد هنري أوف باث، عليه القدوم إلى البلاط، حيث ستعرض قضيته بحضور الملك، وبناء عليه قام عدد كبير من المتهمين ضده، حتى أن واحداً من زملائه من مسؤولي العدالة، ذهب إلى القول أنه بناء على تلقيه رشوة مؤلفة من هدايا ثمينة، قام بالسماح لرجل كان قد أدين باقتراف جريمة، وسجن من أجلها، بالمغادرة دون التعرض للعقوبة، وهذا إجراء فيه إلحاق للأذى بالملك، وتعريض للخطر ومخاطرة بزملائه المسؤولين عن العدالة، ولذلك ازدادغضب الملك التهاباً، ونهض وهو يقول: «إذا ماقام أي واحد بقتل هنري أوف باث، سوف يكون محللاً من قتله، وأنا سأعلن عنه أنه محلل من ذلك»، ثم إنه غادر مسرعاً، ولقد كان هنالك بين الموجودين عدداً كبيراً ممن ودوا الانقضاض على هنري المذكور، ومهاجمته، لولا أن حكمة جون مونسيل Maunsell واعتداله قد ضبطت عنفهم، ذلك أنه قال: «سادتي وأصدقائي ليس من الضروري أن نتصرف بناء على ماقيل بتسرع وغضب، ومن المحتمل أنه عندما تزول لحظة الغضب، سوف يكون مولانا آسفاً لأنه تفوه بمثل ذلك الكلام الغاضب، وبالاضافة إلى هذا إنكم إذا ما أقدمتم على اقتراف أي

عنف ضد هنري هذا، هاهنا أسقف لندن، مع أصدقائه الآخرين، وهؤلاء الفرسان، فالفئة الأولى سوف تتولى الانتقام روحياً، والفئة الآخرة سوف تتولى الانتقام دنيوياً»، وهكذا، استطاع إلى حد بعيد ايقاف غضبهم، وجرى منذ ذلك الوقت فصاعداً التعامل معه بلطف أكبر، وجاء ذلك بفضل وساطة الايرل رتشارد، والأسقف المذكور، ولأنه أيضاً جرى اخبار الملك، إنه سوف يكون مدهشاً إذا ما اهتم أي إنسان بخدمته، لأنه يسعى إلى قتلهم بعد تقديمهم الخدمات إليه، وبناء على وعد بدفع مبلغ من المال، تحرر هنري المذكور من جميع المخاطر على حياته، وقام بالمغادرة.

تثبيت إيثيلمار في كرسي وينكستر

وجرى في حوالي الوقت نفسه تثبيت أخي الملك لأمه ايثيلمار في كرسي وينكستر من قبل البابا، دون التقيد بصغر سنه، وبجهله بالمعرفة، وعدم كفاءته بشكل مطلق لتسلم مثل هذا المنصب الرفيع، وأن يتولى شفاء الأعداد الكبيرة من الأرواح، وقد نال رعاية كبيرة من البابا، بأنه احتفظ بالموارد التي كانت بين يديه من قبل، وقد تحقق هذا بوساطة المتابعة اليقظة للملك، ولكي يبرهن البابا أنه لم يبذر البذور على ساحل قاحل، من دون أمل من نيل منفعة من الموسم، طلب على الفور، بتجهيز ابن كونت بيرغندي، وكان مايزال طفلاً، بمنحة تخصص له تشكل مورداً له مقداره خمسمائة مارك.

وفاة وليم دي كانتيلوب

ومات في حوالي الوقت نفسه وليم دي كانتيلوب Cantelupe, وكان رجلاً صاحب مرتبة واستقامة، وصديقاً مخلصاً للملك، وقد خلفه في ميراثه ابنه وليم، الذي أبدى الملك نحوه خشونة وقسوة، قبل أن يتمكن من استحواذ ميراثه بشكل كامل، مع أن والده كان صديقاً كبيراً له، أي إلى الملك، وكان القهرمان للبيت الملكي.

اجتماع أساقفة إنكلترا في دنستيبل

مع أن رئيس الأساقفة كان في هذه الآونة يبذل قصارى جهده بكل متابعة، وبقدر ما أوتي من قوة، لابل أكثر مما أوتي من قدرة، وذلك في البلاط الروماني، ليحقق مقاصده، أي الحصول على سلطة القيام بزيارات تفقدية لجميع رجال الدين، في جميع أرجاء منطقته، وكان أساقفة انكلترا، غاضبين تجاه هذا، (بسبب أنه كان من الواضح لهم بأنه لم يكن يستهدف من وراء هذا اصلاح السلوك والدين)، ولذلك اجتمعوا في دنستيبل Dunstable, في يوم عيد القديس متثياس Matthias, للتداول حول عمل الأذى والظلم، الأمر الذي يعنيهم جميعاً ويحزنهم، ووجوب أن يقوموا بالتجهز ضد ذلك من قبلهم جميعاً، وكان هناك بين الحضور أساقفة: لنكولن، ولندن، ونورويك، وسالسبري، وإيلاي، ووروكستر، ولأن أسقف شيستر لم يكن بوضع صحي جيد، لم يستطع الحضور، وبعد نقاش وتداول دقيق، أرسلوا مندوباً عنهم المعلم ج. ل إلى البلاط الروماني، ليتقدم بشكواهم حول هذه القضية ويضعها أمام البابا، ذلك أنهم عزموا على تحرير أنفسهم من عنف رئيس الأساقفة، لابل حتى إذا كان ضرورياً أن ينفقوا أربعة آلاف مارك (لأن البلاط الروماني كان جاهزاً بالعادة لمنح الحظوة إلى الذين يقدمون الهدايا)، وبناء عليه ذهب المندوب المذكور إلى ذلك البلاط، وانطلق يعمل بكل نشاط ومتابعة حول القضية التي أسندت إليه، وفي ذلك الوقت أمكن جعل البابا يفهم —ربما من قبل المندوب المذكور، أو من قبل واحد من الأعداء الآخرين لرئيس الأساقفة— لأن مظالمه قد تضاعفت يومياً، وأن رئيس الأساقفة المذكور قام في سبيل إلحاق الأذى العظيم بالكنيسة الانكليزية، فجمع سراً أكثر من أحد عشر ألف مارك، قيل كانت قد منحت إليه من قبل البابا، وبناء عليه كتب البابا جواباً لهم،

بأن عليهم أن يقدموا معلومات وافية حول التجاوز المذكور، وتمّ تجاوز اعتداءاته الهائلة في لندن،ولم يشر إليها، إما بسبب جبن المتشكين، الذين لم يتجرأوا على متابعة دعاويهم، أو أنهم كانوا غير قادرين على انفاق المال، ثم قام البابا بالاعتراف أخيراً، بأنه كان مسروراً لانتقاله من ليون، وأنه تجنب قيود الشافويين، ووعد الطرفين اللذان تشكيا، بكل لطف ممكن، بأنهما سوف يحصلان على ماهو عدل، ولكن بما أن البلاط كان يسمن يومياً على ألطافهم، ظل يؤخر إعطاء القرار المحدد، لأنه غالباً ماتشكى، بأنه عندما كان مقيماً في ليون، كان مرغماً على تنفيذ رغبات رئيس أساقفة كانتربري، مع الأسقف المنتخب للنكولن، إلى حد أنه عندما جرى تعيين أحد الأشخاص في أوقاف تلك الكنيسة بموجب سلطاته، وظهر هناك، جُعل طعاماً للأسماك، حيث أغرق أثناء الليل، ولم يتجرأ هو، أي البابا، على التذمر، ولذلك بات أساقفة انكلترا أكثر هدوءاً في قرارة أنفسهم، بسبب النوايا الصالحة للبابا، ولم يخبروه عن أي شيء من تجاوزات رئيس الأساقفة، خشية من أن تعطي حشود الشكاوي مظهر الكراهية، بل تابعوا بثبات العمل في سبيل القضية الرئيسية.

الزيارة التفقدية لأسقف لنكولن

وقام في حوالي الوقت نفسه، أسقف لنكولن بزيارة تفقدية للديرة المؤسسة في أسقفيته، وإذا ما أراد إنسان أن يروي أخبار جميع أعمال الطغيان التي اقترفت من قبله أثناء تلك الزيارة التفقدية، سوف يرى به ليس قاسياً فقط بل متزمتاً وغير إنساني، لأنه بين الإجراءات التي قام بها، عندما جاء إلى رامسي Ramsey, يرافقه أعوانه المدنيين، ذهب يتجول في كل مكان من الموقع، حيث تولى شخصياً فحص الأسرة في مهجع نوم الرهبان، ودقق في كل شيء، إذا ماوجد أي شيء مغلقاً، قام بتدميره، وتولى فتح صناديقهم مثل لص، وداس

محطماً الكؤوس المزينة بأطر، والتي لها في أسفلها أقدام من الفضة، ولو أنه تصرف بشكل حكيم لأعطاها إلى الفقراء وهي سليمة، والذي هو غير مناسب ذكره، أنه ذهب أيضاً إلى ديرة النساء، وأمر بعصر أثدائهن، ليحاول أن يرى مثل طبيب، إذا كانت هناك ممارسة للفسوق فيما بينهن، كما أنه كدس شتائم مرعبة عليهن، مثلما كتب موسى على رؤوس الذين خرقوا مراسيمه، وكتبت مباركة النبي نفسه على رؤوس الذين التزموا بها، وحدث على كل حال أنه جرى في الصوم الكبير التالي تعليقه من ممارسة وظيفته الأسقفية، لأنه لم يقبل أحد الايطاليين الذي كان جاهلاً باللغة الانكليزية، لأن يتسلم إحدى المنافع الغنية في أسقفيته، لكن من المعتقد أنه فعل كل شيء ليمنع الذين كانوا رعيته من اقتراف الذنوب، ذلك أنه كان مسؤولاً عن أرواحهم.

كيف جرى اخضاع ويلز للقوانين الإنكليزية

وجرى في تلك الآونة اخضاع ويلز، التي غالباً ما ثارت ضد مملكة انكلترا، وجعلها مذعنة للقوانين الانكليزية، وعهد بالجزء المجاور لشيستر إلى ألبان دي لى زوكي Zouche, وحلّ هذا الرجل محلّ جون دي غري Grey, الذي كان قد دفع خمسمائة مارك من أجل ذلك، وجاء ذلك بدفعه ألف ومائة مارك من أجلها، وهكذا عرضت ويلز البائسة للإيجار من قبل الذين هم على استعداد لدفع المورد الأكبر.

تثبيت الأسقفين المنتخبين لوينكستر ورِوكستر

وجرى في الوقت نفسه أيضاً تثبيت أسقفين منتخبين هما: إيثيلمار، أخو الملك لأمه، في كرسي وينكستر، والمعلم لورانس دي سينت مارتين إلى كرسي روكستر، وقد منحا الاذن بالمحافظة لبعض السنوات المقبلة على الموارد التي كانت بين أيديهم من قبل، وهكذا

صارت المخالفة أمراً مطبقاً وعادة، أي أن أي واحد يجري ترشيحه لتسلم أسقفية، يمكنه الاستمرار بمثابة أسقف منتخب، عوضاً عن أن يكون أسقفاً، وبناء على هذا لم يعد الراعي هو الذي يتولى الاطعام، بل هو الذي يطعم، ويضاف إلى ذلك أيضاً أنه يستطيع الاحتفاظ بموارده الماضية، عندما يجري تعيينه أسقفاً، وبناء عليه ظهر التنين المرعب بعدة أشكال، وأن أي أسقف جرى ترشيحه لتسلم كرسي غني، يتوجب انتقاله إليه، وبذلك صارت كنيسة ما متكئاً لكنيسة أخرى.

كيف عبر راعي دير ويستمنستر البحر

وفي هذه الآونة أيضاً، أي في الصوم الكبير، عبر راعي دير ويستمنستر البحر بشكل سري، بناء على رغبة الملك، وأوامره، وفي الحقيقة كان هناك بعض الذين قالوا بأن الملك توفرت لديه النية بالسفر بنفسه، في سبيل أن يقوم بالحج إلى بونتغناك، من أجل أن يتصالح هناك مع القديس ادموند، لأنه اقتنع بأنه أساء إليه في كثير من الجوانب، وذلك بالالتزام وقتها بمشورة النائب البابوي أوتو، وبناء عليه آذى رئيس الأساقفة المذكور وأثاره، مع أنه كان المتلقي لاعترافاته، وأوصله إلى حد المرارة في الروح، وساقه إلى المنفى، لكن الايرل رتشارد لم يقدم موافقته على مثل ذلك الحج المريب، ولم يستطع راعي الدير تأمين طريق آمن من أجل حج الملك، ولذلك شغل نفسه بقضايا تتعلق به، أي محاولة الحصول على الوسائل التي يمكنه بها ارغام رهبانه الديريين على الرضوخ له، ومن ثم الحصول على لقب قسيس البابا، وعندما سمع الملك بذلك سعى لتسبيب الاخفاق له في مسعاه، وفقد من ذلك الوقت حظوة الملك، التي عليها اعتمد وبها وثق، وذلك حسبما ستبرهن النتيجة بشكل كامل، وهو الذي سوف تظهره الرواية التالية في النهاية.

حول الأوضاع البائسة لأنطاكية

وفي تلك الأونة (يؤسفني أن أكتب ذلك) باتت مدينة أنطاكية الجليلة، التي تم الحصول عليها مقابل ثمن سفك الكثير من الدماء النبيلة، عرضة لمخاوف مخزية، ومرد ذلك إلى تزايد قوة الأتراك والتركمان، وتضاعف أعدادهم، ولذلك ارتاب كثير من سكان المدينة بسلامتهم، فأخذوا يهربون، وباتت أوضاع الحكومة كلها مع الإدارة البطركية في حالة من الفوضى، لأن ذكريات انتصار السلطان، واضطراب أوضاع الملك الفرنسي، شجعت المسلمين كثيراً، وأرعبت الصليبيين إلى أعلى الدرجات.

كيف ذهب عمدة لندن إلى البلاط الروماني

وحوالي هذا الوقت نفسه، قام عمدة لندن، الذي غالباً ما تعرض للمضايقة في الدفاع عن امتيازات كنيسته، بالذهاب إلى البلاط الروماني، مع أنه كان متقدماً بالسن، وذلك في سبيل الدفاع عن حقوق كنيسته المذكورة، نتيجة للفضائح المضاعفة التي نشأت من خلال رئيس الأساقفة، ولوجود الذين أمر البابا بتحليلهم، فقام أعداؤهم، فأمروا باسم البابا بحرمانهم كنسياً لأسباب أخرى، ولذلك كان كفاحهم مصدر سخرية لدى العلمانيين، ولاعجب في ذلك.

كيف أغنى الملك الأجانب وأمطر التقدير عليهم أكثر فأكثر في كل يوم

وفي هذا الوقت فقد الملك يوماً إثر يوم عاطفته نحو رعاياه الطبيعيين، حتى أنه لم يبق الآن لديه ولادرجة، ذلك أنه اتبع بشكل مكشوف سيرة أبيه، وأثار الأجانب وجذبهم بقدر مااستطاع إلى جانبه، وأغناهم، وحرم رعاياه الانكليز الطبيعيين، وأقحم الغرباء ووضعهم مكانهم، ففي البداية كان هناك الايرل رتشارد، وبعد ذلك رئيس

الأساقفة، والآن أسقف وينكستر وإخوانه الآخرين، ثم جاء أسقف هيرفورد، وجاء أيضاً بطرس أوف سافوي، مع آخرين هو استدعاهم من جميع الجهات، وصحيح أن كثيراً من الملوك قاموا في انكلترا بالاستيلاء على العربات وعلى الخيول، وعلى المؤن، وعلى الأقمشة، وعلى كل ماهو ضروري بالفعل، فإن البواتيين أيضاً، شغلوا أنفسهم في ظلم نبلاء البلاد، وخاصة الرهبان، بآلاف الطرق، وإذا ماأراد أي واحد أن يحصي فقط الأضرار التي أنزلها وليم دي بلنسية على راعي دير القديس ألبان، ورئيس رهبان التاينهاوث، سوف يبكي بدموع من قلبه، هذا وجرى تقديم رواية حول هذه القضايا في كتاب Additaments, في سبيل اختصار مادة هذا الكتاب.

وفاة الكاردينال وليم أسقف سابينا

وفي حوالي الوقت نفسه من العام، شاهد وليم، أسقف سابينا، وكان رجلاً مقدساً، كما كان كاردينالاً للكنيسة الرومانية، وهو الذي كان قبل سنوات قليلة مضت النائب البابوي في السويد والنروج، وقد تولى تتويج هاكو ملكاً على تلك البلاد، شاهد وهو نائم في إحدى الليالي سالماً ومعافى في فراشه، رؤيا ظهر فيها الكادرينال أوتو، الذي كان قد مات قبل وقت قصير مضى، وهو جالس في نوع من أنواع المؤتمرات الذي كان فيه حشد كثيف من الناس، وذهب وليم المذكور إلى هناك، لكن ما من أحد قام لدى دخوله، أو قدم إليه مقعداً، باستثناء أوتو المذكور فقط، الذي أنهضه من كرسيه، وقال له بصوت مرتفع «تعال ياصديقي إلى الأعلى، لقد احتفظت بمكان لك لتجلس عليه»، وعندما كان أوتو حياً، كان هذان الرجلان في الحقيقة أعظم الأصدقاء، وعندما استيقظ وليم انزعج كثيراً، وأوحي إليه من عليين، بأنه سوف يغادر هذه الحياة في غضون ثلاثة أيام، ولذلك ذهب مباشرة إلى البابا، وبعدما حصل على اذنه ومباركته قال له: «وداعاً يامولاي، لأن الرب قد

استدعـاني من هذه الحياة، وبعدما ودع إخـوانه وأصدقائـه وفق الطريقة نفسهـا، عـاد بشكل تقـوي إلى بيتـه، ودهش جميع الناس تجاه إجـراءاته هذه، وسخـر بعض الأشخـاص منه قـائلين بـأنه صـار متقـدمـاً بالسن ومجنوناً، لأنهم رأوه يتمتع بصحـة جيدة، ولم يصب بأي جـرح جسدي، لكن وليم عمل جميع الترتيبـات الضرورية في بيتـه، باتقـان وكما ينبغي، وبعدمـا أباح خبر الرؤيا المذكـورة أعلاه إلى كثيرين، عبر في اليـوم التالي من مناطق هذا العام بوساطة موت مضمون.

ومـات في حـوالي الوقت نفســه أيضـاً المعلم جـون أوف أوفنغتـون Uffington, وكان كاهن كنيسة سالسبري، وهو لم يكن هناك من هو أشهر منه بين الكهنة في انكلترا.

حول الخلافات بين راعي دير ويستمنستر وبين التجمع الرهباني هناك

وفي هذه الآونة تفجرت فضيحة في دير ويستمنستر الفـاخر، لنشوب خـلاف بين الفئتين فيـه، وهو خـلاف لم يكن هناك مـؤذياً مثله ومضراً وغير طبيعي، لأن راعي الدير كـان رجـلاً متعلماً وحكيماً، وكـان يسعى إلى إلغـاء إجـراء عملـه سلفـه، الذي كـان قـد قسـم ممتلكات الدير إلى قسمين، الحصـة الأولى لاستخدامـاته، والحصة الثـانيـة لاستخدامـات رهبـانه، وكـان ذلـك في سبيل العيش متمتعين في أعظم سـلام، غير أن راعي الدير هذا كـان يسعى باذلاً كل جهـد ممكن له لتوحيـد القسمين، وأن يرضخ كل شيء ويضعه تحت تصرفه، وبناء عليـه بادر مسرعاً نحو البابا، وتبعه خطوة خطوة، وأطال إقـامته كثيراً في بلاطه، ولم يكن ذلك من دون انفاق مبلغ كبير من المال، ونتيجة لحكمتـه، وفصاحته، وبراعته خصيصاً، عـدّ بين الأصدقـاء المقربين من البـابا، وشرفه بلقـب قسيسه، وحصل على أشياء كثيرة رغب بالحصول عليها وخطط لها، ولدى سماع

رهبان الدير بهذا كله، باتوا مرعوبين كثيراً، وصاروا يخشون من أن ما رسمه بتقوى راعي الدير المتقدم، أي راعي الدير رتشارد، سوف يصبح لاغياً، وبالتالي سوف تصبح أحوالهم أسوأ، وبناء عليه أرسلوا بعض الرهبان المتفوقين في ديرهم، إلى الملك، حيث تقدموا إليه بشكوى محزنة، وخاطبوه كما يلي: «ياصاحب الجلالة، إن راعي الدير الذي عينته علينا يسعى لاشاعة الفوضى في ديرنا، لابالحري في الدير الخاص بك شخصياً، وإلى إلغاء الذي تقرر تقوياً لسلامنا وراحتنا، وإن واجبك هو أن تحمي ديرك، لابل منزلك الملكي من الانحدار والسقوط، من خلال اعتداءات وتجاوزات أعدائه»، وعلى هذا رد الملك مرفقاً كلامه بيمين عظيم، قائلاً: «من المؤكد أنه لن يحقق غرضه»، وفي غضب وسخط، وكراهية، شعروا بأنه قد قال: «أنا آسف بأنني جعلته رجلاً».

رسالة من ألفونسو ملك قشتالة إلى ملك إنكلترا

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل ألفونسو [اقرأ: فرناند الثالث] الملك المنتصر لقشتالة، صدوراً عن عاطفة التقدير والاحترام لملك انكلترا، فارساً وسيماً وفصيحاً إليه، بمثابة رسول خاص، ومن خلاله نصح ملك انكلترا بحكم أنه كان قريبه، وبناء عليه محبوباً كثيراً لديه، بأن لايتبع خطى الملك الفرنسي، عندما سيذهب ويسافر إلى حجه، أو أن يقلد رعونة الفرنسيين، بل بالحري أن يرتحل بشكل مضمون من خلال أراضيه، أي أراضي الملك ألفونسو، وهو شخصياً سوف يرافقه، وسوف يكون صاحبه الذي لن يفترق عنه، ومعاونه الذي لن يتخلى عنه، ولسوف يزوده بالمؤن، والسلاح وبأسطول، وعلمنا مما ذكره هذا الرسول أنه بعد الاستيلاء على مدينة اشبيلية الغنية، خضعت جميع اسبانيا كلها تقريباً حتى شاطىء البحر إلى سلطة الملك نفسه أي ألفونسو، ولقد ذكر أيضاً أن مدينة اشبيلية مع المقاطعة المجاورة لها، اعتادت أن تدفع إلى ملك المغرب (الذي ندعوه أمير المؤمنين) مورداً

ثابتاً كل أسبوع، هو أن تقول أحد عشر ألف مارك، وكان هذا المبلغ يجرى دفعه في اليوم السادس من الأسبوع، ويكاد هذا مما لايمكن تصديقه بالنسبة لنا شعب الغرب، وكان ملك انكلترا مسروراً تجاه هذه الرسالة، وفرحنا نحن أيضاً بجوهر هذه الرسالة، وكنا سنحصل على التشريف بموجبها، لولا أن ألفونسو الملك النبيل قد انتزع من بيننا بموت مبكر، ذلك أنه أذعن للموت في العام نفسه، ومات مبكياً عليه من قبل جميع المسيحيين، وعلى كل حال، حدث بقدر من الرب، أنه عندما مات حتى لايظهر أنه فقد تماماً، ترك وراءه بعض الأولاد الشجعان ليتولوا حكم مملكته.

رسالة بدون قيمة من البابا

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل البابا رسالة إلى راعي دير القديس ألبان، جاء محتواها كما يلي:

«من أنوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى أبنائه المحبوبين، راعي دير القديس ألبان ورهبانه في أسقفية لنكولن، تمنيات الصحة، ومباركات رسولية:

بما أن ولدنا المحبوب كثيراً جون دي كيمكيف Camecave, الذي هو حفيدنا وقسيسنا مستحوذ على كنيسة وينغريف Wengrave بموجب حق التقديم الذي هو —كما نفهم— عائد إليكم، نحن نرجوكم بموجب العاطفة الأبوية، وبهذه الرسائل الرسولية نأمركم بتبديل الكنيسة المذكورة بأول كنيسة عائدة إليكم سوف تصبح شاغرة، والتي سوف يرى القسيس المذكور أو نائبه المنتدب بأنها موائمة للقبول، مع الاحتفاظ بوينغريف لتكون أعطيتنا، دون التقيد بأي منع، أو تحفظ مهما كان، ودون التقيد أيضاً حتى بالغفرانات التي يقال بأنها ممنوحة إلى الانكليز، والمتعلقة بمنافع الكهنة الايطاليين الذين يتخلون عنهم أو

يمـوتـون، وفي أن لاتعطى على الفـور إلى واحــد آخـر مـن الكهنة الايطاليين. صدر في ليون في الثاني عشر من كانون الأول».

ولقد أقحمنا هذه الرسـالة في كتابنا في سبيل أن تعرفـوا مدى الآلام والأذى الذي أنزله البـلاط الروماني على الانكليز التعسـاء، لأن كل من يتولى تقـدير مقاصـدها، يمكنه أن يجد فيها التحـدي، والأذى، والظلم، وأن كلمات شجب الرسـول تطبق عليها وهـو قوله: «مـا لم يتم الفصل أولاً، فإن ابن الظلم لن يظهر»، فها هنـا القضية، وهاهي الأسباب التي تبين لماذا ينسحب الناس من الكنيسـة بالقلب، وليس بالجسـد، وذلك بسبب أبينا البـابا، الذي أثير ليتصرف بعناد مثل زوج الأم، الذي ينفس عن غضبه بالتنكيل بزوجة الأب.

وصول الملك إلى سينت ألبان

ذهب الملك في هذا العـام، في أحـد أسبـوع الآلام إلى سينت ألبـان، وبقي هناك ثلاثة أيام، قـدم خـلالها ثلاثة طيلسـانات إلى القديس ألبـان عند المذبـح الكبير، وقـدم طيلســاناً إلى القــديس أمفيبــالوس Amphibalus, وأعطى بعض التقـديمات من الذهب إلى مـزار القـديس ألبـان، ولقد كـان على كل حـال معـاق كثيراً في تنفيذ العـدل بالنسبـة لقضيتنا، التي كانت مـؤذية كثيراً لنا، وهي القضية التي كـانت قائمـة بين كنيسة القـديس ألبان وغيـوفري دي تشـايلدويك Childe-wick الذي اقترف تجاوزات كثيرة جداً حتى نتمكـن من روايتها، وخرق بعنف سـلام المملكة، وكرامة التـاج الملكي، وفعل ذلك بالقوة، وتصرف مثل قاطع طريق، فـاستولى على حصان كـان محملاً بالهدايا من واحد من خدم كنيسة القديس ألبان، ونتيجة لذلك جرى اتهامه من قبل الخادم بخرق السـلام، وتم الحصول على مـذكرة من الملك، فيهـا جرى اتهام هذا الفارس بالجريمـة، وألصقت به، إذا ما كـان بإمكاننا استخدام هذه الكلمـة المأخوذة من مفـردات العـدالة، ولكن عندما شـاهد راعي

الدير الفتـور في العدالـة، واعفاء الملك وتراخيـه، ومعـه جون مـونسيل Maunsell, الذي كان مستشاره الخاص، والـذي كان أيضاً زوج أخت الفـارس المذكور، وصـدوراً عن حظوته لدى الملك، وأنه سيقف منحازاً إلى الفـارس، عندما شاهد هـذا كله أهمل الترافع بالقضية، ومع ذلك فإن هذا الفارس العـاق، لم يتقيد بهذا، وسعى بشكل دنيء وخياني إلى إيذاء الكنيسـة، وراعي الدير، ورهبـان القـديس ألبـان، مع أنه كـان تابعـاً لهذه الكنيسة، وتـولى جون المذكـور حضـه وتشجيعه، وحثـه على الاستمرار، وساعده.

حول اعتقال فارس إسمه روبرت وموته

وجرى في هذه الآونة اعتقال أحد الفـرسان واسمه روبرت كاندوس Chandos, وكـان رجلاً قـوياً وجريئاً، وكـان تابعاً لحاشيـة بيت جون أوف مونماوث Monmouth, وكان هذا الرجل لسبب ما قد تخلى عن خدمة مولاه جـون وهو غاضب، وانخرط بصحبة عدد من المتعـاونين معـه، وشغل نفســه سراً وعلناً، مثل حشيشي شرير في أعمال السرقة والقتل، وعندما كان الملـك مقيماً في كنيسة القديس ألبان، حسبما ذكـرنا أعـلاه، وصل إليه تقـرير بأن أعـوان ايرل غلوستر قـد اعتقلوه، وألقوا به في السجن، حيث بقي مغلولاً بشدة لأن سجانيه كانوا خائفين منه، وقد مات هناك ميتة تعيسة.

وفاة العقيلة التقية سيسيليا دي ساندفورد

وفي الثالث والعشرين من تموز في هذا العام، وعلى بعد حوالي التسعة أميال عن سينت ألبـان ماتت امـرأة مقدسة كثيراً اسمهـا سيسيليا أوف سـاندفـورد Cecilia of Sanford, وكـانت أرملة من أصل نبيل، وكـانت أكثـر نبـلاً بأخـلاقهـا، وكـانت أرملة وليم دي غـورهام Gorham, وكان فارسـاً، وأم وليم دي غورهام الأصغر، والذي

كـان أيضـاً فارسـاً، وبعـدمـا مكثت لسنين طويلة أرملة، ولأنها كـانت متعلمة وفصيحة، انتخبت لتكون معلمـة وموجهة لجوهانا Johanna أخت الملك، والتي كـانت أرملـة وليم مـارشـال الأصغـر، وفيها بعـد صـارت جوهانا زوجـة و. W دي بلنسيـة، وقامت هذه السيـــدة سيسيليـا مع جـوهانا، كـونتسـة بمبروك Pembroke, وكـــانت آنذاك أرملة، بحضـور القـديس ادمـوند، وكـان آنذاك رئيساً لأسـاقفـة كانتربري، فقطعت على نفسهـا عهداً مهيبـاً بالالتزام بعفة دائمـة والبقاء أرملة، ومع خـاتم الاقتران ارتدت الثـوب الخمـري اللون، الذي كـان يرتدى بمثابة علامة على العذوبية الدائمة، ومثلها فعلت، فعلت تلميذتها الكونتسـة جـوهانا، لكن جـوهانا هذه رغبت فيها بعـد بأن تصبح أمـاً، فحصلـت على تحليل مـن البـــابـا، وتزوجـت من ايـرل أوف ليستر، وحـافظت سيسيليا —على كل حـال— في كل من العقل والسلوك، من دون احباط على عهدها الذي قطعته للرب حتى وفاتها، وعندما شعرت بدنو منيتهـا، استـدعت بسرعـة المتلقي لاعترافـاتها، الراهب وولتر دي سينت مـارتين، الذي كـان من طائفـة الدومينيكان، والذي كـان رجـلاً متعلماً وفصيحاً، وبعدما عملت اعترافاً كاملاً، وتمتنت بقربان جسد ربنا للمـوت، وتلقت مسحـاً أقصى، تمددت تنتظـر الموت، وعندمـا شـاهد الراهب وولتر الخاتم الذهبـي على اصبعهـا، قـال لخدمهـا الذين كـانوا يرعـونها: «انزعـوا هذا الخاتـم على الفـور، حتى لاتموت وهي مـزينة»، لكن سيسيليا، مع أنها كانت شبه ميتة، سمعت هذه الكلمات، فاستردت أنفاسهـا وسعت لأن تتكلم، وقالت مـايلي: «بعيداً هذا عني، أيها الأب العزيز، أن يتركني هذا الخاتم مادمت حية، فأنا سوف أقدمه أمام محكمة الرب، الذي هو قريني، شهـادة على الطهارة الدائمـة التي أنا وعدته بها بوسـاطة هذا الخاتم، في سبيل أن أتمكن من تلقي الجائـزة الموائمـة، وأنا أعـرف الذي أثق به، لأنني لهذا السبب رفضت معانقـة النبلاء والمهـور الثمينة التي عـرضت علي»، ومـا أن أكملـت قـولها حتى سحبت يدها،

وحنت اصبعهـا، وحـافظت بثبـات على الخاتم، مـع أن الخدم حـاولوا انتزاعـه، ومع الانتهاء من كـلامها أنهت حيـاتها، وبما أن الراهب وولتر كـان رجـلاً مستقيماً أطرى على كـلامهـا التقوي، وعلى غـايتهـا التقيـة، وروى ذلك لي، أنا كـاتب هذه الصفحات، وأخبرني أيضاً بـأمثلة أخرى عن قداستها، وتمّ جلب جسدهـا والخاتم مايزال في اصبعها، إلى كنيسة القـديس ألبان، وبسبب الامتيـاز الذي منح لعـزوبيتها، ولنبـالة أسرتها، دفنت بشكل مشرف في قبو حجـري أمام مذبـح القديس أندرو في تلك الكنيسة، وأثناء القيـام بالمراسيم المهيبة للدفن، كـان حاضراً راعي الدير والرهبـان، وعدد كبير من الفـرسان والنبـلاء من أسرة السيدة المتـوفاة، وكـان من بين هؤلاء نيقولا أوف سـاندفورد، أخـوها، ونتيجة للحـزن الذي شعر به لوفاة أخته النبيلة، لم يتقدم صحيـاً بعد ذلك، فهو قد كان شاباً، ووسيماً في شخصه، وكـان الفارس الأول في انكلترا في الشجاعة، لكن بعـد مـرور بعض الوقـت، في الحزن، دفع في العشرين من كـانون الثاني من العام نفسه دين الطبيعة.

مغادرة البابا لمدينة ليون

وفي العـام نفسه، في مـوسم الاحتفـالات، غـادر البابا مـدينة ليـون، مـرافقاً بكرادلتـه، وبعـدد كبير من النبلاء، وكـان دليله فيليب الأسقف المنتخب لليون، وكـان محاطاً بحاشية كبيرة من الرجال المسلحين، خـوفاً من اعتـداء من أصـدقـاء فـردريك، وعنـدمـا بات كل شيء جـاهزاً للمغادرة، تولى الراهب هوغ، وكان كاردينالاً، باسم البابا، توديع سكان ليـون، ووعـظ بشكل علني بقـداس إلى النـاس، وبعـدمـا أعطاهم توجيهـات صـالحة، وودعهـم بشكل أديب، وأستأذنهم باسـم البـابا والبـلاط كله، أضـاف إلى ذلك خطاباً، نعتقـد أنه من الموائم ادخـاله في هذا الكتـاب بسبب التـوبيخ الشـديد الذي ورد فيـه، حيث قـال: «أيها الأصدقاء، عملنا منذ وصولنا إلى هذه المدينة كثيراً من الأعمال الصالحة،

ووزعنا الصدقات بشكل واسع، لأننا عندما قدمنا إلى هنا وجدنا ثلاثة أو أربعة بيوت دعارة، والآن عند مغادرتنا خلفنا وراءنا بيتاً واحداً فقط، لكن هذا البيت ممتد من الباب الشرقي للمدينة إلى الباب الغربي»، وأساء هذا الخطاب إلى جميع النساء وأزعجهن، ذلك أنه كان هناك منهن عدداً كبيراً جداً لسماع هذا القداس والخطاب، لأنه جرى جمع سكان المدينة بواسطة صوت المنادي، باسم البابا، لأنه كان على وشك مغادرتهم، وجرى تناقل هذا الكلام الحاد من فم إلى فم بين كثيرين، لأن سخريته أصابت الجميع سواء.

كيف وصل البابا دونما أذى إلى ميلانو

وبعد كثير من المخاطر والمصاعب، وصل البابا دونما أذى إلى ميلانو، في يوم عيد ميلاد القديسة مريم، وعند وصوله جرى استقباله من قبل السكان، الذين رحبوا به بتشريف عظيم، لكنه بعدما أمضى شهراً بينهم، طالبوه بدفع مبلغ كبير من المال، قالوا بأنهم أنفقوه في التصدي إلى الامبراطور فردريك، في سبيل كرامة الكنيسة، وهو شخصياً، وعلى هذا الطلب، يقال بأن البابا أجابهم بهدوء كما يلي:

«أصدقاء الرب والكنيسة، نحن نعرف معرفة جيدة بأنكم عرضتم أنفسكم إلى كثير من المخاطر والخسائر، في سبيل كرامة الرب، وكنيسته، ونحن أنفسنا، لكنكم تعرفون جيداً بأنني طردت من المدينة (روما) وكنت منفياً، وعانيت من كثير من الخسائر، بالاضافة إلى كرامتي، وإنه على كل حال عندما يتسم الحظ لنا وللناس كما آمل، وأثق أن يكون ذلك بفضل جهودكم، سوف أتفقدكم بكثير من الكرامات»، وبهذا الخطاب وخطابات مشابهة له، وبتقديم الهدايا، التي قدم منها البابا كثيراً بيدين مفتوحتين، ومع كثير من الوعود والأماني، تمكن بحكمة من تهدئة غضب سكان المدينة، لأنه كان يعلم بأن يده محبوسة بشدة في فم الأسد، وعلاوة على ذلك حصل على وعد منهم، بأن جميع سكان

المدينة، سوف يرافقونه وهم مسلحين بشكل جيد، ويوصلونه سالماً دون أذى وبدون خسارة إلى حدود ممتلكاته، وذلك بهدف حمايته من جميع مؤيدي فردريك، ثم إنه انطلق، إنما ليس من دون نفقات كبيرة نحو بيروجيا Perugia, ولم يرغب بدخول أية مدينة كبيرة، خشية الوقوع مثل سمكة في شبكة الصيد، وأن لايتمكن من الخروج ثانية، ولذلك لم يوفر جنبي فرسه وأسرع بقدر مااستطاع في سفره حتى وصل إلى بيروجيا، حيث استقبله السكان بكل اخلاص مستحق، وذلك صدوراً عن التقدير للربح الذي سوف يحصلون عليه من الناس الذين سوف يتدفقون على هناك.

وصول راعي دير ويستمنستر عائداً من البلاط الروماني

ووصل في حوالي الوقت نفسه، راعي دير ويستمنستر، وقسيس البابا، عائداً من البلاط الروماني، وهو متورط بعمق بالديون، وبالمسؤوليات القانونية، لأنه أقام طويلاً في ذلك البلاط، ونال لنفسه عواطف كثيرين كانوا هناك، إلى حد أنه اعتقد بأنه كان الرجل الذي كان بإمكانه تحمل القضايا الصعبة، وأنه سوف يبقى كلية مع البابا، وقد وصل الآن مسلحاً بكثير من السلطات المضاعفة ليرغم الرهبان في ديره على الخضوع لإرادته، وتوجه على الفور إلى عند الملك في ويندسور Windsor, حيث رتل قداساً أمامه وكأنه كان البابا، لأنه كان مدهشاً ومتميزاً بصوته وكذلك بوساطة شخصيته، ثم إنه اقترب واثقاً من الملك، وأراه رسائل من كثير من الأمراء، والتمس منه اذنه، أن يتولى الإدارة الكلية لدير وينكستر، الذي عهد الملك بولايته إليه، وأن يدمج الحصتين المفصولتين للممتلكات في كنيسته في حصة واحدة، وتجاه هذا الطلب، نظر الملك، الذي كانت عواطفه قد نأت عن راعي الدير، وحدق به شزراً، وتفوه بكثير من عبارات الملامة والتوبيخ التي لايمكن ذكرها، ووجّه الاهانات إليه، وكان من بين ماقاله توبيخاً أنه أعلن بأنه قد رقاه —أي راعي

الدير— دون أن يستحق ذلك، وأنه تصرف بشكل غير حكيم بدعوته إلى استشارة سرية، وقال له: «كيف يمكنني أن أضع أية ثقة بك وبإخلاصك، وأنت الذي سعيت إلى ظلم ومضايقة رهبانك مع الذين كانوا أصحابك والضيوف على المائدة لوقت طويل مضى»؟، وقام عدد كبير من أصدقاء راعي الدير، كان منهم جون مونسيل مع كثيرين آخرين عددهم كبير جداً حتى نقوم بذكرهم بالاسم، فتوسطوا من أجله، ومع ذلك قام الملك وهو غاضب بطرده من مجلسه الاستشاري، وأبعده عن حظوته، وبعد لأي وافق راعي الدير —الذي كان بإمكانه إثارة غضب الملك بسهولة— على الالتزام بقرار يصدر عن لجنة تحكيم مؤلفة من جون المتقدم ذكره أعلاه، ومن الايرل رتشارد، إذا كان ذلك يرضي الملك، ووعد بأنه سوف يصادق على الذي سوف يقررانه ويوافق عليه، وقد وافق على هذا بالرضا المجمع الديري، مع أن المحكمين كانا صديقين حميمين لراعي الدير، ومثل هذا أعطى الملك موافقته، وبعد كثير من المناقشات، وافق الحكمان على رغبات الرهبان ومطالبهم، ورفضا طلبات راعي الدير، لأنهما علما بأنهما سوف يرضيان الملك بهذا القرار، ومع ذلك فإن هذا الخلاف لم يصل إلى نهاية في هذا العام.

فقدان الملك الفرنسي للمال في البحر

وفي الوقت نفسه أرسلت أم الملك الفرنسي مع أخويه مبلغاً كبيراً من المال من أجل فديته، ولكن عندما كانت السفينة الحاملة للمال تسير في البحر، هبّت عاصفة، وغرقت السفينة مع كل شيء كان على ظهرها، وعندما سمع الملك الفرنسي التقي بهذه الحادثة قال: «لاهذه الكارثة ولاأية كارثة أخرى سوف تنأى بي وبعاطفتي عن المسيح»، وهكذا اطمأن هذا الملك النبيل وواسى ومتّن الذين رأى أن قلوبهم ضعيفة، وبذلك بدا وكأنه الثاني ليعقوب، حتى أن المسلمين أشفقوا عليه وأعجبوا بمثابرته وبثباته العقلي.

الفيضان غير الاعتيادي في فريزلاند

وتدفقت في العام نفسه بعض المياه، كما هو معتقد، من صدر البحر، وسببت فيضاناً غير عادي في فريزلاند، غطى وجه تلك البلاد لمسافة سفر حوالي السبعة أيام، وبهذه الزيارة التفقدية للانتقام الرباني، وفي تلك الأثناء، جرى دمار جميع القطعان، لكن بعد مضي أربعين يوماً عادت كتلة المياه المدمرة هذه إلى مكانها المعتاد، ثم قام الناس من أهل الجوار الذين بقيوا أحياء بالتفتيش في كهوف الصخور، والقلاع شبه المدمرة، حيث تمكنت الأمواج المدمرة من قهر السكان، ووجدوا هناك أعداداً كبيرة جداً من الأجساد المرتدية، حول أذرعتها، ورقابها، وأصابعها، والأجزاء المتبقية من أجسامها سلاسل زينة، وعقوداً، وخواتم، وأحزمة ثمينة، ومشابك ذهبية، مع أثواب ثمينة، تساوي جميعها مبلغاً هائلاً، فقد قام هؤلاء الناس، وهم على وشك الهلاك، بربطها حول أجسامهم، من أجل أنه لدى العثور عليهم فيما بعد، أن يجري دفنهم بجاهزية، وأن يمنحوا طقوس الدفن بكرم زائد، وهكذا حدث أن الذين بقيوا أحياء صاروا الآن أغنياء بوساطة أسلاب هذه الأجساد، ومضى كثير منهم إلى سوق القديس بوتولف Boutlph, وباعوا ذهبهم، وفضتهم، وجواهرهم، وفق شروط جيدة إلى التجار الذين كانوا على استعداد لشرائهم.

عودة هنري أوف باث إلى البلاط

وفي حوالي يوم عيد القديسة مريم المجدلية، عاد هنري أوف باث، الذي تقدم ذكره أعلاه، إلى البلاط، واسترد حظوة الملك بوعده إياه بألفي مارك، ونسي بذلك جميع المصائد التي نصبت له، ونجا منها من قبل.

وصول الأسقف المنتخب لوينكستر
إلى إنكلترا قادماً من البلاط الروماني

وقدم في هذه الآونة أيضاً ايثيلمار، أسقف وينكستر، من القارة، ونزل في انكلترا، تحيط به حاشية كبيرة وبأبهة عظيمة، ولدى وصوله، مضى الملك وهو مسرور لاستقباله، يرافقه عدد كبير من النبلاء، خاصة من البواتيين، وكان من بينهم أخويه: وليم دي بلنسية، وغيوفري دي لوزنغنان، الذي كان الأخ الثالث للملك، وبعد التعبير عن سرورهم فيما بينهم، ذهبوا إلى وينكستر، وفي اليوم التالي لعيد القديسة مريم المجدلية، الذي كان يوم أحد، اشتركوا مع بعضهم بالعيد هناك، وهكذا طارت جميع عظمة انكلترا ونبالتها، وذهبت إلى الأجانب، لأن الانكليز المحليين قد أبعدوا كلياً، وكان لدى الأسقف المنتخب المتقدم ذكره، سبباً إضافياً للسرور، لحصوله على حظوة البابا، وعلى حظوة الملك التي نالها بموجب علاقة الأخوة بينهما، وبموجب ذلك احتفظ بالممتلكات وبالموارد التي كانت بين يديه من قبل، والتي وصلت إلى أكثر من ألف مارك، وهي التي، مع أنه أسقف منتخب مسكين، قد حصل عليها من استخراجات أخيه الملك، لأن من المعتقد أنه لم يكن هناك كنيسة مفردة في انكلترا، هي مشهورة، لم يتم امتصاص الحليب من صدرها حتى جف، ولقد رأينا أنه من المناسب أن نقحم في هذا الكتاب رواية لابد من أن تسبب جريان الدموع من عيون قرائي، فقد أرغم راعي دير كنيسة القديس ألبان، من خلال الاستخراجات الهائلة والتي بلاحياء، للملك، على دفع مائة شلنغ من خزانته، لصالح سيمون الذي كان كاهناً من نورويك، مع أن سيمون هذا المذكور كان قد مات في العشرين من عمره، ولقد طالب الملك قبل دفنه تقريباً، بأن يجري تحويل المورد ليسمن به شخص آخر، كان أيضاً من الأجانب، وهذا ماجرى تنفيذه، مع أن ذلك كله كان ضد رغبة راعي الدير، وسبباً لحزنه،

وعلاوة على ذلك طلب الملك بوجوب منح عشرة ماركات سنوياً من خزانته، إلى أخيه ايثيلمار، الذي هو الآن الأسقف المنتخب لوينكستر، وبناء عليه، عندما جرى انتخاب ايثيلمار إلى ذلك الكرسي، طالب على الفور بتحويل هذه العشرة ماركات، التي كان ايثيلمار قد تسلمها لعدة سنوات، ودفعها إلى كاهن بواتي صغير، الأمر الذي سبب الخطر للكنيسة، وكذلك الخسارة، وبذلك توفرت الظروف لأن يلحق بالكنيسة ضرر لايمكن تعويضه، وأن تصبح عرضة للعبودية، وبالإضافة إلى هذا لم يتردد الملك بطغيانه عن إنزال أضرار كثيرة متكررة ومضاعفة، ووضع أعباء ثقيلة على كنيسة القديس ألبان، الذي كان رائد الشهداء الانكليز، وهذا كله مزعج لأن يقوم الكاتب بوصفه، ومرهق للسامع حتى يصغي إليه.

موت بوينتز بيبر

وفي الخامس من حزيران من هذا العام، غادر طريق الجسد، فارس متعلم، أو بالحري كاهن فارس اسمه بوينتز بيبر Poyntz Piper, وجاءت وفاته في لندن، ولقد كان ساقي الملك، وواحداً من مستشاريه الرئيسيين، وكان عندما بدأ يدور حول بلاط الملك ويتردد عليه بالكاد يمتلك فدانين من الأرض، وذلك كما هو معروف بشكل جيد، لكنه تمكن خلال مدة وجيزة، بوسائط قانونية وكذلك غير قانونية، من الحصول على كثير من الأراضي والموارد، حتى أنه امتلك أكثر من خمسين فداناً من الأراضي الجيدة، وباتت لديه ثروة ايرل، لابل حتى إنه ادعى لنفسه فخار حمل هذا اللقب، وكان شارياً للأرض لايعرف القناعة، ولامثيل له في بناء العزب، ومن دون أن نذكر أعماله الأخرى الكثيرة، تولى تزيين عزبة تيدنغتون Tedington, ببناء قصر فيها، وبيعة، وغرف نوم، وبيوتاً أخرى من الحجارة مغطاة بالرصاص، وشيد حدائق ومطارد هناك، كانت محطّ اعجاب كل الذين شاهدوها، وقد

ذكر العاملون في أبنيته أنهم بقيوا عدة سنوات، يتلقى أحدهم مائة شلن في كل أسبوع، وغالباً ما كان أجر كل واحد منهم عشرة ماركات، وبعدما جرى فتح جسده، جرى دفنه في لندن، لكن قلبه جرى حمله إلى تيدنغتون، وهو القلب الذي بقي في حالة عدم استقرار خلال حياته، وتزوج جون دي غري Gray, الذي كان فارساً شجاعاً ووسيماً من أرملة بوينتز المذكور، وصار خليفة غير متوقع له، وبذلك سكن الأبنية الفخمة، التي بالكاد كانت قد كملت، وهكذا فإن جسده قد قسّم، وممتلكاته أيضاً قسمت وتفرقت:

ليس لنفسك أيتها النحلات تصنعين العسل

***تأبين بولينوس* Paulinus بيبر**

أنت يابولين بيبر حماك الرب
وعندما تقوم من قبرك آمل
أن تمنح بفضل نعمة ادوارد
حياة أبدية مباركة في السماء

تأبين آخر للشخص نفسه

هنا يرقد تحت الأرض رماد بوينتز بيبر
تفكروا، أنتم ياأبناء الفناء:
أنا ماستكونون أنتم، وماأنتم عليه الآن
قد كنته.. وأن يرتفع إلى السماء النذر التقي
والدعاء إلى الرب الذي أحتاجه في وقت عوزي هذا
في أن لاتتغذى الديدان على جسدي

وصول راعي دير كلوني إلى إنكلترا

وفي حوالي الوقت نفسه، قدم راعي دير كلوني إلى انكلترا، ليزور رهبانه، وليصلح طائفتهم، وليتولى فحص كمية أموالهم، لكنه عندما كان مقيماً في انكلترا، ناوياً الحصول على بعض المرابح، قام بعض جيرانه في القارة بالاستيلاء بالقوة على بعض قلاعه مع متعلقاتهم، وبناء عليه أرغم على العودة على الفور.

كيف تم العثور على بعض الرهبان الموتى في كنيسة القديس ألبان

جرى في هذا العام، أثناء عمارة بعض الأبنية الحجرية قرب المذبح الكبير، في الجانب الجنوبي من كنيسة القديس ألبان، العثور على عظام بعض الرهبان الموتى، بلغ تعدادهم حوالي الثلاثين، وقد جرى جمعهم بكل عناية، ووضعوا في قبوين حجريين، تحت قنطرة عملت في الجدار، وقد عمل هذا لسبب جيد، لأنه كان من المعتقد وجود كنز ثمين مخفي هناك، وكانت عظام بعض الأجسام بيضاء مثل العاج، لابل أكثر بياضاً عندما جرى تفتيتها، وأعطت رائحة كأنها قد دهنت كلها بزيت معطر، وكانت أحذية هذه الأجساد —علاوة على ذلك— سليمة بنعالها، ومن الواضح أنها كانت مناسبة لاستخدامات الفقراء، وكانت النعال نفسها مستديرة، لذلك كانت مناسبة لأي قدم من القدمين، من دون تمييز، وكانت الأحذية مربوطة بخيوط، وكانت بعض هذه الخيوط ماتزال سليمة، وهذه واقعة سببت العجب والدهشة لجميع مشاهديها، خاصة وأن القبور عدّت بأن عمرها مائة سنة على الأقل، وبحكمة وتقوى اعتقد بأن هذه علامة على قداستهم، ولدى تفكر بعض الرهبان الأحياء الآن حول هذه المسائل، انفعلوا وحزنوا، وقالوا فيما بين أنفسهم، مع تنهدات عميقة: كم كان أسلافنا وآباءنا مبجلين، حتى أنهم استخدموا

مثل هذه الأشياء، التي فيها اشارات إلى قداستهم، آه أيها الرب، كم هي موثوقة البينات التي عملتهـا، وكم هي واضحة البراهين على صلاحهم وسعـادتهم، خـاصـة في بيـاض عظام وطيب رائحـة هؤلاء الـرجـال المتـواضعين، ثم إنه بـلاشك، كـانت كنائس هؤلاء الرهبـان قـد تلقت السعـادة مضـاعفـة في الأمـور الدنيـويـة، وفي القضـايا الروحيـة، وهي الكنائس نفسهـا، التي من خـلال انتقام الرب، لضـلالها وابتعـادها عن طرق آبائها، معاقة ومتضررة من قبل الأسـاقفة وكذلك من قبل النبلاء، اخجلوا أنتم يارهبان أيامنا، الذين ترتدون، لابالحري تتزينون بالأثواب الناعمـة، والرفيعـة والثمينة، ومـاالذي يمكن قـوله عن القمصـان التي ترتدونها، وعن القبعـات التي تلبسـونها أيها الناس؟ آه، لو أن القـديس بندكت يعـود إلى الحياة —وهو الذي كـان قد شاهد في بعـض الأحيان العـالم كله قـد تجمع تحت أشعـة الشمس— ويـرى هذه الأشيـاء (وفي الحقيقـة لابد بالفعـل أن يراهم) إلى أي حـد سـوف يشعـر بالانزعـاج والغضب، ولو أن القـديس برنارد، تمكـن من رؤية هذه الأشيـاء، كيف كان سيتـأوه آسفاً، لأنه كـان قد قال وكتب: «مـامن شيء أكثر اغضـاباً للرب، من راهب أكل طعـاماً لطيفـاً، وارتدى ثياباً ثمينة، ولبس حـذاءً ناعماً خفيفاً».

وفاة غيوفري قهرمان الملك

وفي العام نفسه، وفي الوقت نفسه، الذي غـادر فيه بوينتز هذه الحياة، كما تقـدم الذكر أعـلاه، مـات غيوفـري الفـارس النبيل، قهرمـان قصر الملك، والمستشار الخاص له.

كيف جرى استدعاء السماسرة إلى العدالة

أصبح في حوالي الوقت نفسه المرابون من وراء الألب الذين ندعوهم باسم السماسرة Caursins كثيري العدد، وصاروا أغنيـاء إلى حد

أنهم شيدوا قصوراً فخمة لأنفسهم في لندن، وقرروا أن يقيموا هناك بشكل أبدي، مثل السكان المحليين المولودين هناك، ولم يتجرأ الأساقفة على التذمر لأن السماسرة قد أكدوا أنهم كانوا وكلاء البابا، كما لم يتجرأ سكان المدينة على التعبير عن عدم رضاهم، لأن هؤلاء كانوا محميين من قبل بعض النبلاء، وينالون حظوتهم، الذين قيل بأن أموالهم قد وضعوها لديهم في سبيل جمع الفائدة، وفق طريقة البلاط الروماني، وحدث على كل حال أنه تم بناء على رغبة الملك وبتوجيه منه، أن وجهت إليهم تهماً ثقيلة عرضت ضدهم في المحاكم المدنية، وجلبوا إلى المحاكمة أمام القاضي، وجلس أحد القضاة في لندن، ممثلاً للملك، وقد اتهمهم، ووجه إليهم تهماً بأنهم كانوا منشقين، وهراطقة، ومجرمين بالخيانة ضد الملك، ذلك أنه مع أنهم أعلنوا عن أنفسهم بأنهم كانوا يؤمنون بالمسيحية، كان من الواضح تماماً أنهم لوثوا مملكة انكلترا بتجارتهم الدنيئة في ممارسة الربا، وتجاه ذلك تشكى الملك المسيحي، لأنه تأثر كثيراً وجرح في ضميره، بحكم أنه كان قد أقسم على الحفاظ على مؤسسات الكنيسة دونما أذى، وبما أن السماسرة لم يكن بإمكانهم إنكار التهمة، جرى اعتقال بعضهم، وعهد بهم إلى السجن، وأخفى آخرون أنفسهم في أماكن نائية، وفرح اليهود لاتخاذ هذه الإجراءات، لأنهم أصبحوا الآن شركاء لهم في حالة العبودية، وعلى كل حال أمكن أخيراً عن طريق دفع مبلغ كبير من المال، فسمح لهؤلاء السماسرة —المنافسين لليهود— بالعيش بسلام لبعض الوقت، وأخبرني واحد منهم، أنا كاتب هذا العمل حول هذه القضايا، وأعلن لي مؤيداً إعلانه بيمينه، أنهم لولا عمارتهم لهذه البيوت الثمينة في لندن، بالكاد لم يبق أحد منهم في انكلترا.

وفي هذا العام أيضاً، تولى البابا صياغة بعض الفتاوى، التي يمكن للقارىء الحريص أن يجدها في كتاب Additaments.

-٨٠٠٠-

حول اجتماع الرعاة في فرنسا
من أجل الاستيلاء على الأرض المقدسة

وفي حوالي هذا الوقت، تصور عدو الجنس البشري بعض الآمال المطمئنة، بأن نهر الأردن سوف يتدفق على فمه، مثلما هو يشرب الآن منه بوسائط سلطان مصر، ولدى مشاهدتهم أنه في فرنسا الحلوة الإيمان المسيحي كان يترنح، وبات جاهزاً للسقوط، فشغل نفسه في تأسيس نوع جديد من العقيدة الزائفة، وكان هناك أحد الأشخاص من أصل هنغاري، كان قد بلغ الآن الستين من عمره، ولقد كان منذ صباه مرتداً عن الديانة المسيحية، وقد تقمص بشكل جشع الزيف والمكر الصادر عن الجحيم، وأصبح خادماً وتلميذاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى هذا وعد مخلصاً سلطان مصر، الذي أصبح أيضاً عبداً له، بأنه سوف يقدم إليه عدداً كبيراً جداً من الأسرى المسيحيين، حتى تصبح فرنسا مهجورة من الناس، ومحرومة من ملكها، وبذلك تغدو إمكانية الدخول إلى تلك البلاد المسيحية أكثر سهولة بالنسبة للمسلمين، ثم إن هذا الدعي، الذي عرف اللغة الفرنسية، واللغة الألمانية، واللغة اللاتينية، قام من دون تفويض من البابا، أو ضمانة من أي أسقف، فتجول هنا وهناك، وأخذ يبشر، ويؤكد كاذباً بأنه تلقى أوامر من القديسة مريم، أم ربنا، بأن يجمع الرعاة والذين يتولون حفظ الحيوانات الأخرى، فهؤلاء، حسبما أعلن، قد منحوا من السماء السلطة، بحكم تواضعهم وبساطتهم، بأن يتولوا انقاذ الأرض المقدسة، مع جميع الأسرى من بين أيدي المسلمين، ذلك أنه قال بأن فخار فرنسا من الجند كانوا غير مرضين للرب، ودعمت فصاحة خطبه، مثلما فعل حين أمسك بيديه المضمومتين إلى بعضهما ورقة —ادعى كاذباً— بأنها تحتوي على أمر العذراء المباركة، واستدعى جميع الرعاة للالتحاق به، فتخلوا عن قطعانهم، ومواشيهم، وخيولهم، وقاموا من دون التشاور مع مواليهم أو أقربائهم، باللحاق به

على أقـدامهم، دون الاهتمام مطلقاً بالطعـام، لأن هذا الرجل قد مـارس البـدع الرئيسية التي كـان قد تبناهـا من ذلك الشاب الأمـرد في فرنسـا، والذي فتن الشعب الفرنسي، وجمع حشداً كبيراً جداً من الأطفال، الذين سـاروا وراء خطاه، وهم يغنون، والذي كـان مدهشـاً، أنه كـان من غير الممكن منعهم لابالمغـاليق ولابالحواجـز، كما لم يكن من الممكن اعـادتهم بوساطة الأوامر والالتماسات أو بوساطة هدايا آبائهم وأمهاتهم.

وبوسـاطـة البـدع نفسهـا، يحكى بأن روبـرت بوغـري Bugre, الذي كان راهباً مزيفاً من رهبان الدومينيكان، قد فتن عدداً لايحصى من الناس، وأودع هؤلاء الناس المخـدوعين الأبرياء وعهـد بهم إلى النيران، وتمت مساعدته بوساطة السلطة الـدنيوية للملك الفرنسي، الذي مال إلى توجهـاته، فقـام بتسبيب دمـار هائل، هـذا وجـرت حكاية هذه المسـائل بشكل كامل في مكان آخر.

وحمل هذا الدعـي الكذاب، وكـذلك جميع الذين تبعـوه، عـلامـة الصليب، وكـان هناك الكثير من الناس الـذين تعـاطفـوا معهم، وأبدوا نحوهـم الاحسان، وأعطوهـم المسـاعدة، قائلين بأن «الرب غالبـاً مايختار الأجزاء الضعيفـة في العالم ليخـزي بها الأجزاء الأقـوى، فالرب القـدير ليس راضيـاً أو مسروراً بأرجل الانسان، كما أنه ليس مقبـولاً لديه الذين يدعون البراعة والشجاعة في الحرب»، وقامت السيدة بلانشي أيضاً، التي كانت ملكة فـرنسا ونائبة الملك، وهي آملة بأنهم سـوف يستحوذون على الأرض المقـدسـة، وينتقمـون لأولادهـا، فمنحتهم احسـانها، وأظهـرت نحوهـم اللطف، ولذلك تضـاعفت أعدادهـم إلى درجة، أنه جـرى تقدير عـددهم بأنه قـد بلغ مـائة ألف وأكثر،وعملوا أعـلامـاً لأنفسهـم، حتى يقاتلوا تحتهـا، وفي ظل قائـدهـم، ورسموا عليهـا صورة حمل، واتخذ هذا الشعار رمـزاً على تواضعهم وبراءتهم، وعدّوا الراية التـي عليها الصليب رمزاً للنصر.

وصول رئيس أساقفة كانتربري إلى إنكلترا

وفي حوالي عيد القديس برنابا، وصل رئيس أساقفة كانتربري إلى انكلترا، فشهد على صدق القضايا المذكورة أعلاه، وذكر أن هذه المشكلة قد بدأت في المملكة المتقدمة الذكر، بعد عيد الفصح، وعلاوة على هذا، أضاف بأن البابا، بعدما قام بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بكونراد بن فردريك وبجميع أعوانه في يوم العشاء الأخير، انطلق في يوم الجمعة في أسبوع الفصح تحت حماية، وبتوجيه، وقيادة من فيليب الأسقف المنتخب لليون، الذي تحمل نفقات ثلاثة آلاف مارك، مقابل تزويده بالأمان، وشجعت مغادرة البابا وغيابه هؤلاء الرعاة الذين تضاعفت أعدادهم في فرنسا، وزودتهم بالثقة والجرأة، وقد ازدادوا في القوة والعدد.

كيف تزايدت أعداد هؤلاء الرعاة كثيراً في فرنسا

وتدفق الآن للالتحاق بعصابتهم: لصوص، ومنفيين، ولاجئين، وأشخاص محرومين كنسياً، (الذين هم جميعاً يدعون بشكل عام في فرنسا باسم السفهاء)، وبذلك فإنهم جمعوا جيشاً كبير العدد كثيراً، وكان لديهم خمسمائة راية، مشابهة لرايات سيدهم ومقدمهم، وحملوا سيوفاً، وفؤوساً، وحراباً، وخناجر، وسكاكين طويلة، وعلى ذلك ظهروا أنهم يرعون فكرة الحرب، أكثر من اهتمامهم بالمسيح، وتكلموا هائجين بشكل مجنون، وعقدوا زيجات غير قانونية، وتولى قادتهم والموجهون لهم الوعظ والتبشير، مع أنهم كانوا مدنيين، وضلوا كثيراً في وعظهم وابتعدوا عن أركان الايمان المسيحي، والأحكام الواضحة والصدق، وكان إذا ما حاول انسان مخالفتهم أو معارضتهم، هاجموه بالسلاح، وليس بالمنطق أو بقوة الحجة، وعندما كان قائدهم الرئيسي يتولى الوعظ، كان يحاط بالأتباع المسلحين، ويتولى إدانة جميع الطوائف باستثناء جماعاتهم، وركز لعناته بشكل خاص على الدومينيكان

والفـرنسيسكان، الذين سماهم الـزائغين والمنافقين، وأعلن بأن رهبـان السسترشيان كانوا الجشعين والأكثر حباً للقطعان وللأراضي، أما رهبان الطائفـة السـوداء فقـد أكـد بأنهم كـانوا شرهين ومتجبرين، وقـال عن الكهنة بأنهم كـانوا شبـه مـدنيين ومفترسين أكلة لحوم، وأن الأسـاقفـة ومـوظفيهم كـانوا فقط صيـادين للمال، يتمتعـون بفيض من جميع أنواع المباهـج، وذكر عن البلاط الـروماني أشياء كثيرة لايمكن ذكـرها، وعلى هذا ظهـروا جميعـاً من خلال مـاصرح به، هراطقـة ومنشقين مـرتدين، وصـدوراً عن الكراهية والمقـت لرجال الدين حيـا الناس هذه الشتـائم التي صدرت عنه، وأصغوا باهتمام ورعاية إلى عقائده الخطيرة.

وصول أولئك الرعاة إلى مدينة أورلين

ووصل هؤلاء الرعـاة في يوم عيـد القـديس برنابا إلى مـدينة أورلين Orleans في أبهة كبيرة، وقـوة عظيمــة، ودخلوا إلى المدينة على الرغم من عدم رضـا الأسقف وجميع رجال الدين، مع أن سكان المدينة كانوا مسرورين كثيراً بوصولهم، وبعـد دخولهم، أعلن مقدمهم مثل نبي بمعجـزاته، بصـوت المنادي، وأعطى مـلاحظة، لابل بالحري أصـدر مـرسـوماً مثلما يفعل الملك، وبين أنه سـوف يلقي مـوعظة، وبناء عليـه تدفق الناس عليه بأعداد لاتحصى.

وكـان أسقف المدينة في حـالة خـوف كبيرة، وشعور برعب مـدمـر، لذلك منـع كل رجل دين، تحت طائلـة عقـوبة التكفير، من الاصغـاء لخطاباتهم، ومن اتباع خطواتهم، وأعلن بأن جميع هذه الإجراءات كانت مصائد للشيطان، لأن الرجال المدنيين استخفـوا بتهديداته وبأوامره، أما بعض الباحثين اللاهوتيين، فقد خـرقوا حظر الأسقف، ولم يتمكنوا من حبس أنفسهم ومنعها من إعارة مسامعهم المتشوقة لهذه العقائد الجديدة غير الاعتيادية، وطبعاً لم تكن لديهم نية باتباع أخطائهم، بل أرادوا فقط رؤية وقـاحتهم، وغـريب حقـاً، وكـان أمراً متناقضـاً، أن يقـوم رجـلاً

علمانياً، لابل بالفعل رجلاً عامياً، مستخفاً بسلطات البابا، بامتلاك الجرأة على الوعظ علينا في مدينة فيها الجماعة العلمية في أوج نشاطها، وأن تميل آذان وقلوب مثل هذه الأعداد من الناس إلى سماع دجله! وقد حملوا معهم خمسمائة راية، وتجاه ذلك قام الكهنة ذوي الفهم السليم، فأغلقوا أبوابهم بقوة ووضعوا حواجز لها، وأخفوا أنفسهم بقلق وخوف في بيوتهم.

ثم قام المقدم المذكور ليعظ الناس، وبدأ دون أن يقدم لكلامه بنص مقدس، ثم اندفع متدفقاً يتحدث بصوت مرتفع بكلام وشتائم لايمكن ذكرها، وحدث وقتها فجأة أن قام واحد من الباحثين، وكان واقفاً على مسافة منه، فشق طريقه بالقوة، واقترب منه، وانفجر يقول الخطاب التالي:

«دنيء، وهرطقي، وعدو للحقيقة، وانك تكذب، وكذبك عيق برأسك، وإنك تخدع هؤلاء الناس الأبرياء بحججك الزائفة والمراوغة»، وما كاد يتفوه بهذه الكلمات، حتى قام —على كل حال— واحد من هؤلاء السفلة وانقض عليه، رافعاً فأساً له رأس مدبب، فشطر رأسه إلى قسمين، وبذلك لم يتفوه الرجل المصاب بأية كلمة أخرى، وتفجر هياج واضطراب، والناس الذين سميناهم رعاة، والذين يستحقون الآن أن نسميهم أفاقين، ورواد للمسيح الدجال، قاموا بحمل أسلحتهم ضد رجال الدين في أورلين بشكل عام، وانقضوا على سكان المدينة غير المسلحين، وهم حاملين لأولادهم المحبوبين، وحطموا جميع أبواب ونوافذ البيوت، وألقوا النيران بأنفسهم في البيوت في الثالث عشر من كانون الثاني.

ويرضا سكان المدينة، أو بالأصح بموافقتهم (الذين من خلال موافقتهم تم ادخال مجموعة هذه الكلاب استحقوا مانالوه) مزقوا كثيراً من مواطني المدينة، وأغرقوا عدداً كبيراً في نهر اللوار Loire.

والذين نجوا من الموت أصيبوا بالجراحات، وسلبوا من ممتلكاتهم، وأما الذين مكثوا متخفين في بيوتهم، فعندما شاهدوا هذه الأعمال، هربوا على شكل حشود من المدينة أثناء الليل، وعمت الفوضى بين جميع الناس وساد الاضطراب، واكتشف فيها بعد أن خمسة وعشرين كاهناً قد هلكوا، وذلك بالاضافة إلى أعداد الذين جرحوا، ونالهم الأذى بطرائق مختلفة، وأيضاً تعرض الأسقف وأتباعه الذين أخفوا أنفسهم ليتجنبوا التورط بمأساة مشابهة، إلى كثير من الاهانات، وعانى من كثير من الأضرار.

وبعد هذا قام الرعاة بالمغادرة، خوفاً منهم، أن يثور سكان المدينة ضدهم ويهاجمونهم، وقام الأسقف، حتى لايبدو مثل كلب غير قادر على العواء، فوضع المدينة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، لأن سكان المدينة جعلوا من أنفسهم ملومين ومتلبسين بالعار، بسماحهم بمثل هذه الإجراءات، لابل وصل بهم الأمر إلى حد الموافقة، والتعاون معهم، وأخيراً وصلت صرخات الشكوى إلى مسامع السيدة بلانشي، وإلى النبلاء والأساقفة، وإثر سماع الملكة بما حدث أجابت باعتدال: «إنه كما يعلم الرب، كنت قد اعتقدت أنهم بسذاجتهم، سوف ينالون ملكية جميع الأرض المقدسة، لكن بما أنهم مخادعين، يتوجب حرمانهم كنسياً، واعتقالهم، وتدميرهم»، وبناء عليه جرى حرمان جميع هؤلاء الأشرار كنسياً، والدعوة إلى التشهير بهم على هذا الأساس، ولكن قبل أن يجري نشر هذا القرار، ذهبوا مع نوايا إجرامية إلى مدينة بورجي Bourges, ففتحت أبواب المدينة لهم، بموافقة من سكان المدينة، الذين رفضوا الاصغاء إلى أوامر الحظر الصادرة عن رئيس أساقفتهم، ودخل الشطر الأكبر منهم إلى المدينة، وأما البقية فمكثوا في الكروم خارج المدينة، لأن أعدادهم كانت كبيرة جداً إلى درجة أن مامن مدينة كان بإمكانها استيعابهم جميعاً بسهولة، ولذلك توزعت حشودهم على عدة مدن،

حتى أن باريس عـانت من أذى محسوس منهم، وأعلـن مقـدم هؤلاء القوم الضـالين عن نيته إلقـاء موعظة قـداس عام، ووعـد بعمل بعض المعجزات المدهشة، ولـذلك تدفقت أحشاد هائلة من الناس مع بعضهم من جميع الجهات، لسماع أشياء لم يسمعـوا بمثلها من قبل، ولرؤية أشياء لم يروا مثيـلاً لها من قبل، وبعـدما تفـوه هذا المخـادع ببعض الخطابات التي كانت كلهـا هذيان، وبعدما تبين أن المعجزات التي وعـد بها كانت خداعاً، قـام واحد من الناس، وكان جذاراً، يحمل فأسـاً، بتوجيه ضربة له على الرأس، فأرسل به من دون دمـاغ إلى جهنم، وألقى بجسـده على مفترق طرق، وتـرك من دون دفـن حتى يهترىء، وعنـدمـا انتشرت التقـارير وعمت بـأن هؤلاء الرعـاة مع محرضيهم، وكـذلك كل الذين أصغوا إليهم، قد حرموا كنسياً، تفرقوا، وتشرذموا مثل كلاب مسعورة، وأيضاً حدث في بوردو عندما وصلت مجموعة من هؤلاء، واقتربت من المدينة، أغلقت الأبواب، بناء على أوامـر سيمون ايرل ليستر، ولم يسمح لهم بالدخـول، وبناء على طلبهم الـدخـول أجـابهم الايرل بسـؤالهم: «بسلطة من تفعلون هـذا؟؟»، وعلى هذا أجـابـوه: «نحن لانلتمس سلطة البابا أو الأسقف، بل سلطة الرب القدير، ومريم المباركة، أمه، التي هي سلطة أعظم من سلطتهم»، وعندمـا سمع الايرل هذا الجواب، عدّ مثل هذا الكلام كلامـاً عابثاً، فأرسل إليهم الرسـالة التالية: «غـادروا جميعاً، بأقصى سرعـة ممكنة، أو إنني سـوف أحشـد جميع عساكـري، وكـذلك الكتـائب المدربة، وسكان هـذه المدينة، وسـوف نهاجمكم ونمـزقكم إلى أشلاء».

حول نهاية الواعظ الثاني لهؤلاء الرعاة

واعترت الدهشـة هؤلاء التعسـاء الضـالين لدى سماع هذه الكلمات، وأصبحوا مثل رمل من دون كلس، وتفرقوا في جميع الاتجاهات، وبما أن كل واحد منهم فكر فقط بسلامته شخصياً بوساطة الفرار، فقد تعرضوا

إلى كثير من المخاطر بأشكال متعددة، وهرب مقدمهم ورئيسهم بشكل سري، وركب سفينة، وسعى لأن يأخذ طريقه بكل سرعة إلى بلاد المسلمين، التي كان قد جاء منها، ولكن تبين للملاحين أنه خائن، ورفيق للهنغار المتقدم ذكرهم، الذين كانوا قد قتلوا شعب مدينة بورجي، لذلك غلوه بيديه ورجليه، وألقوا بهذا المتشرد التعيس في الزنزانة، وهكذا حين حاول النجاة من خطر وقع في خطر أشد، ووجدوا في حقائبه، بالإضافة إلى مبلغ كبير من المال، عدة أوراق مكتوبة بالأحرف العربية والكلدانية، وكذلك ببعض الأحرف الأخرى غير المعروفة، ووجدوا أيضاً بعض المساحيق الضارة، من أجل صنع عدة أنواع من السموم، وقد جاء في بعض الرسائل التي كانت معه، كما تبين من بعد أن «السلطان شجعه كثيراً على الاستمرار بمهمته، مقابل نيل جوائز كبيرة»، وورد في الرسائل الأخرى بأن الواعظ المذكور «سوف يعطي إلى السلطان عدداً كبيراً من الناس»، وهكذا فإن ساحرين وقعا في مصائد الشيطان وهلكا.

نهاية الواعظ الثالث

وحاول الواعظ الثالث الدخول إلى انكلترا، ونزل في شورهام Shoreham, وأقنع أكثر من خمسمائة إنسان باتباعه، وقد تألفوا من: رعاة، وفلاحين، ورعاة خنازير، ورعاة قطعان، ومثل هؤلاء الناس، ولكن عندما انتشر بين الناس بأنهم محرومين كنسياً، وأن الهنغاري هو أستاذهم الرئيسي، وأن رفيقه قد قتل، وأن أصحابها قد تفرقوا، تغيرت أوضاعهم نحو الأسوأ كثيراً، وحاول مقدمهم لدى أوصوله إلى مونترويل Montreuil أن يعظ هناك، ولكنه ما أن شرع بإلقاء خطابه المجنون، لابل بالحري شرع يؤكد هذيانه، حتى قام مستمعوه ضده، ولدى حملهم للسلاح هرب إلى الغابة، لكن مالبث أن اعتقل وقتل، ولم يتعرض فقط إلى تقطيع أطرافه، بل جرى تمزيقه إلى

أشلاء وقطع صغيرة، وترك جسده طعاماً للطيور الجارحة.

كيف تابت الحشود الساذجة لأنها ضللت

ثم حدث في الحقيقة، أن وجد كثير من أتباعهم أنهم قد ضللوا، واكتشفوا أوضاعهم التعيسة، فقبلوا بالتوبة التي فرضت عليهم، وألقوا بالصلبان التي تسلموها من أيدي أولئك المخادعين، وأعادوا حمل شارة الصليب من أيدي الرجال الصالحين، في سبيل القيام بحجهم بشكل صحيح، وفي سبيل الانطلاق نحو الأرض المقدسة، دخلوا في خدمة الملك الفرنسي، بعد اطلاق سراحه من أيدي المسلمين، حسبما سنوضح في الرواية التالية، لأنهم قالوا بأنهم قد تعلموا من معلمهم، بأنهم سوف يحررون الملك الفرنسي، ولذلك تنافس أحدهم مع الآخر في حمل شارة الصليب، وكان معلم اسمه توماس، من أهالي نورماندي، كما كان راهباً من شيربورن Sherborne, وكان أيضاً رجلاً مستقيماً وفصيحاً، وقد أرسل في تلك الآونة إلى القارة في سبيل قضاء بعض الأعمال لصالح الملك، وقد اعتقل من قبل الرعاة الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وسجن لديهم لمدة ثمانية أيام، ولأنه رفض الإصغاء إلى حججهم، تعرض للضرب بحدة، وأخيراً تمكن بعد بعض المصاعب، من النجاة أثناء الليل، وأخذ طريقه إلى الملك في وينكستر، فقدم رواية كاملة عن إجراءاتهم، وعن أعمالهم المخادعة إلى الملك، وكان ذلك على مسمع من كاتب هذا العمل، الذي قام بصدق وبشكل كامل بكتابة كل الذي سمعه من فم الراوي، بحكم أنه كان رجلاً موثوقاً.

وقال رجال أصحاب نفوذ، ومتسمين بالاخلاص، وأساقفة ذوي تفكير عميق، أنه منذ أيام محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يتسلل مثل هذا الطاعون المخيف إلى كنيسة المسيح، خاصة بسبب الكارثة التي حدثت للملك الفرنسي، فبذلك بدأ الايمان بالترنح في مملكة فرنسا.

كيف جرى تدمير دمياط وتسويتها بالأرض

وأمر في الوقت نفسه، سلطان مصر، بهدم مدينة دمياط، وبتسويتها مع الأرض، لأنه وجد أنها كانت فريسة للصليبيين مرتين.

ظهور بعض الطيور الغريبة في إنكلترا

خلال هذا العام، وفي حوالي موسم الفواكه، ظهر في الحدائق بشكل رئيسي، بعض الطيور الغريبة، التي لم تشاهد قط من قبل في انكلترا، وكانت أكبر بعض الشيء من القنابر، التي تأكل لب الفواكه، ولاتأكل شيئاً آخر، ولذلك أصبحت الأشجار من دون فواكه، مما سبب الخسارة لكثيرين، وكانت مناقير هذه الطيور مصلبة، ولذلك تمكنت بهذه الواسطة من فتح الفاكهة، مثل فتحها بوساطة الكماشة أو السكين، وكان الجزء من الفاكهة الذي تركوه، كأنه قد تأثر بسم.

كيف حلل البابا كثيراً من النبلاء كان قد حرمهم كنسياً من قبل

في الثامن والعشرين من حزيران، عندما كان البابا على وشك مغادرة جنوى، بعث برسل خاصين مع رسائل سلم، وسعى إلى دعوة بعض النبلاء، الذين كان قد حرمهم كنسياً بشجب رهيب، يوم عيد العشاء الأخير، ورغب في أن يعودوا إلى وضع الوئام السالف مع الكنيسة، وكان واحداً من هؤلاء توماس أوف سافوي، الذي كان يسعى لتزويجه من حفيدته، وهو على كل حال لم يظهر أية رحمة تجاه كونراد، فيما يتعلق بذلك القرار، ولكي يمتن حزبه، أعطى واحدة من حفيداته بالزواج إلى صاحب تور دو بين Tour du Pin, وكان نبيلاً قوياً، وقد تقبلها هذا النبيل، ليس بسبب جمالها النسائي، بل من أجل المال الذي أعطي معها، لأن البابا أعطى مع السيدة عشرين ألف مارك من الفضة، وإلى توماس أوف سافوي، الذي كان من قبل كونت فلاندرز، أعطى

البابا واحدة أخرى من حفيداته لتكون زوجة له، وذلك بعدما حلله من قرار العقوبة الذي كان قد صدر ضده، وأنعم عليه بكثير جداً من الموارد، وذلك بالاضافة إلى المال الذي دفع لدى الزواج، كما أنه أصدر أوامر دقيقة، تتعلق بالمورد السنوي المتوجب تسلمه من فلاندرز، بأن يجري دفع ذلك من دون تقاعس ومصاعب من ذلك التاريخ فصاعداً، ولأنهم كانوا، بسبب تحريم البابا، قد قاموا بالاحتفاظ بالموارد لعدة سنوات منذ أن جرى حرمانه كنسياً، أمر مولانا البابا، بأن يدفع له منذ ذلك التاريخ فصاعداً، جميع المستحقات المتأخرة، طالما أنه قد تصالح الآن مع الكنيسة، وبفضل هذه النعمة، لابل بالحقيقة بفضل هذه الزيجات المقدسة، تحول من كونه ابناً للغضب إلى ابن للنعمة، وتابعاً للانتخاب، وكان قد بقي على كل حال، تحت حكم الحرمان الكنسي، الذي كان البابا قد أصدره: عظام فردريك، وابنه كونراد، الذي تمكن بفضل عطية والده، من الاستيلاء بالقوة على الشطر الأكبر من الامبراطورية، مع الذي انتزعه لنفسه بالقوة، من دون موافقة كنيسة روما: ممالك سردينيا، وصقلية، وأبوليا، وكالبيرا (قلورية)، وعلاوة على ذلك فإن جيرارد صاحب مرسيليا مع سكان مرسيليا، وكريمونا، وبافيا، وأحبائهم، وكثيرين أيضاً، من الذين كان قد حرمهم كنسياً بالاسم، وبعضهم باسم الأسرة، في يوم عيد العشاء الأخير، أبقاهم مشمولين بذلك الحرمان، وبناء على هذا تضاعفت أعداد أعداء الكنيسة، وأضيفت الشرور إلى الشرور، فازدادت.

الاستيلاء على كاستيلون في غسكوني

وفي حوالي هذا الوقت نفسه أيضاً، حقق سيمون ايرل ليستر انتصاراً على كثير من الغسكونيين، أعداء الملك في القارة، واستولى على كاستيلون Castillon, وهي قلعة كانت مكان اللجوء لهم جميعاً.

-٨٠١١-

كيف عاقب أسقف لنكولن أناساً انغمسوا بالشهوات الجسدية وجعل كثيرين كهنة

وفي هذه الآونة أيضـاً، عمل أسقف لنكـولن جـولة تفقـدية في جميع أسقفيتـه، وبعـد بحث دقيق، أرغم الذيـن كـانت بين أيديهم منافع على التخلي عنهـا على أسـاس انغماسهم بالشهـوات الجسـدية، وأمـر بابعـاد بعض النسـوة عنهم، ممـن كن مـوضع ريبـة، لأنهن كن مـرعيات من قبلهم، وعاقب المذنبين بحرمـانهم من منافعهم، ذلك أنه سعى إلى تنقية أسقفيتـه من الآثام والشرور، وتمكـن باستخـدام توسـلات لطيفـة، وبوسـائل تنكيل حـادة، من الارتقـاء بكثيريـن إلى مـراتب الكهـانة، والوظائف اللاهـوتيـة، وبالاضـافـة إلى هذا غـالبـاً مـاألقى محاضرات وخطب على الناس، وجمع الناس مـع الكهنة، الذين كـانوا يسكنون في الجوار، وأرغمهم على الإصغاء له، وكـان يكره الرومان الأشرار، الذين كـان بين أيديهم الرسـالة البـابويـة، التي أوجبت عليهم القيـام بوظيفـة الوعظ، ومقتهم وكأنهم كـانوا سم أفـاعي، وقـال بأنـه لو عهـد إليهم بعلاج الأرواح، لكان تصرف مثل الشيطان، ولذلك فإنه بما أصدره من أوامـر، عمل بشكـل مكشـوف ضـد الرسـائل البـابويـة الصـادرة عنه والمختومة بختمه.

حول تقارير من الأرض المقدسة

وفي هذه الآونة أيضـاً، عندمـا كـانت الهيئة الرهبـانيـة العـامـة للسسترشيـان عـاقـدة لاجتماع عـام، قـرأ رسـول مـن عند الملك الفـرنسي،وكـان راعي دير من الطائفـة نفسهـا، رسـالة من ذلك الملك، وتلاها أثناء الاجتماع، وكان فحوى هذه الـرسالة هو كما يلي: كان الملك الفـرنسي وزوجتـه، والكتلة الصغيرة من الأتبـاع الذين كـانوا معـه، في وضع صحي جسدي سيء، وكـانوا ينتظرون رحمة الرب بعد الذي نزل

بهم، وجرى تزويدهم بشعاع من الأمل، بوساطة العداوة، والشحناء، والحرب بين المسلمين، أي بين سلطان مصر، وسلطان حلب، وكان هو —الملك— مقيماً في قيسارية، وقد قام بتحصينها بناء على مشورة الداوية والاسبتارية.

وصول الملك إلى سينت ألبان وأعطياته هناك

وفي هذا العام نفسه، في ثمانية عيد ميلاد العذراء المباركة، وصل الملك إلى سينت ألبان، وذهب إلى الكنيسة كما كانت عادته، فقدم هناك ثلاث قطع من الحرير، وقد لوحظ أنه بتعداد القطع اللائي كان قد قدمهن من قبل، أصبح العدد ثلاثين قطعة، وبالاضافة إلى ذلك، قدم بهذه المناسبة عقدين ثمينين جداً، وأمر بهما، حفظاً لذكراه، بأن يجري حفظهما بقوة في المزار، بتثبيتهما بالمسامير، وبعدما أقام هناك لمدة ثلاثة أيام، قام بالمغادرة.

سقوط غزير جداً للمطر

وفي ليلة يوم عيد القديس لامبرت Lambert, الذي كان يوم أحد، كان الظلام مخيفاً، وكان هناك تساقط غزير من الأمطار، حتى بدا وكأن أبواب السماء قد فتحت، وتصببت الغيوم نفسها على الأرض، وكأنها تريد أن تدمرها.

حول الزيارة التفقدية التي عقدت في سينت ألبان

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل من العام نفسه، أرسل ثيوبولد رئيس رهبان هيرلي Hurley, وجيمس نائب رئيس رهبان القديس أوغسطين في كانتربري، وقسيس البابا، رسالة مكتوبة إلى رهبان القديس ألبان، بأنهما على وشك القدوم إلى سينت ألبان، للقيام بزيارة تفقدية هناك، وذلك حسبما كان قد تقرر في عيد القديس المخلص في لندن، وجرى طلب تأخير ذلك لصالح الدير في كنيسة القديسة مريم في

ساوثورك Southwark حتى يوم الأحد التـالي لما قبل عيد جميع القديسين، وتمت الموافقة من الزائرين المتقـدم ذكرهما، وقالا بأنهما سوف يقدمان في يوم عيد القديس دايونيسيوس Dionysius, ووعد في الوقت نفسـه راعي دير القديس ألبـان بأنه سوف يقـوم بقدر مـا يمكنه من اصـلاحـات، وأعلن قبل وصـولهما، بأنه لن يتـوانى عن القيـام بأي اصـلاح ينبغي عمله في سيـاق الأيام، ووعـد أيضـاً بأنه لن يكون هناك مـاسيثير شكوى مشكوك بها، وقـدمـا في اليـوم الذي تقـدم ذكـره، وفي اليوم التـالي ألقى نائب رئيس الرهبان محاضرة في مجمع الرهبـان، ثم أمر بقراءة نص اجازته، وبعـد ذلك البنود التي حصل عيها في مجمع رهباني اقليمي عقـد في لندن، فهناك جـرى تقــرير ذلك، بحكم أن ذلك كـان صحيحـاً وضرورياً جداً للنظام الرهبـاني، وهذا كله مـوجود في كتـاب Additaments, حيث جـرت كتـابة ذلـك بالكامل، وبما أنهما لم يجدا أي شيء غير صحيح، مع أنهما قـــامــا بعمليــة فحـص دقيقــة، واستجواب لكل راهب من الرهبـان على انفراد، خلال إقامـة استمرت أربعة أيام، غادرا بسلام.

وكـان قد جـرى ارسال بعض رهبـان القـديس ألبان، للقيـام بزيارة تفقـدية في دير القـديس ادمـوند، وفي أمـاكن أخـرى، وبالنسبـة لجون، الراعي الثاني لدير القديس ألبان، فقد أعطى ترضية إلى الدير، فيما يتعلق بجميع الاصـلاحات التي كـان قـد وعد بها قبل الزيارة التفقـدية، وأنه سوف يقوم بها فيما بعد، وفق الطريقـة نفسها، التي قام بها سلفه، راعي الدير وليم، عندمـا جـرت زيارتـه زيارة تفقـدية بمـوجب تفـويض من البـابـا، وذلك من قبل راعـي دير بوكسلي Boxley, وراعي دير بيغهـام Begeham, ويمكن القـــول أن أياً منهما لم يعمل بشكل جيد كما كان قد وعد، ذلك أنه كان قد وعد الدير، ضمن أشياء أخرى، بأنه سوف يسقط تماماً عمـومياته والحصص الصغيرة، التي كان هو أول

واحد بين رعاة الدير، قد أقدم على أخذها إلى غرفته الخاصة، وذلك مالم يتناول طعام الافطار مع أصحابه في مطعم الدير أو في مصلاه، وأنه سوف يسترد جميع الحصص الصغيرة، التي كان سلفه وليم قد انتزعها من الرهبان المرضى، والثمن الذي كان يحصل عليه ليزود نفسه بالخمرة لاستخداماته الشخصية، لكن بعد انتهاء الزيارة التفقدية، ومع أنه لم يُقل له أي شيء حول الإجراءات المتقدم ذكرها، هو لم يقم بتنفيذ أي من وعوده مطلقاً.

رسالة الملك الفرنسي

ومع مرور الأيام، ربح كونراد الحظوة، والمكانة الطيبة لدى كثير من شخصيات الامبراطورية، لأنه جاء من الدم النبيل لجون، ملك القدس، ذلك أنه كان ابن ابنته، وتمتع أخوه هنري، ابن أخت الملك بالمحبة والاحترام لدى جميع النبلاء المخلصين لأبيه، وأيضاً بسبب براءته، وسمو أخلاقه، ورفعة أسرته، ولم يكن البابا على كل حال مسروراً بهذا، وتسبب بإعلان بلاغ مهيب عام في مقاطعتي برابانت وفلاندرز، بأنه يتوجب على الأتباع المخلصين للمسيح القيام بحصار قلاع كونراد، واعداً إياهم بمكافأة مجزية، هي الغفران من جميع ذنوبهم، وكان هذا أعظم مما منح من أجل الحج إلى الأرض المقدسة، على أساس أن كل من سوف يحمل شارة الصليب ضد كونراد، ويفعل ذلك باسم أبيه وأمه، سوف يحصل على الغفران لذنوبهما.

وفي هذه الآونة أيضاً، قام الملك الفرنسي الذي عانى كثيراً من الاضطراب، وتألم بسبب الحاجة إلى الضروريات في قيسارية، بارسال رسالة كئيبة وحزينة إلى أمه، وإلى أخويه، وإلى رعاياه المخلصين، رجاهم فيها بحرارة بأن يرسلوا بكل سرعة إليه العساكر، وأن يزودوه بالمؤن والمال، ذلك أنه كان يعاني من كثير من النوازل في سبيل الكنيسة العالمية، ولدى سماع الملكة بلانشي بهذه الأخبار، وهي التي

أمسكت بين يديها مقاليد الحكم في المملكة الفرنسية، تصرفت ليس كما تتصرف النساء، فجمعت جميع نبلاء المملكة للتشاور حول القضية، وأثناء بحث المسألة بدأ النبلاء يتذمرون بغضب شديد قائلين: «بما أن البابا قد أثار حرباً داخلية جديدة، وبقيامه بإذاعة إعلان جديد للناس الخاضعين للرب، قد شحذ سيف المسيحيين ضد المسيحيين، للقتال في أراضي المسيحيين أنفسهم، تاركاً ملكنا الذي يعاني من كثير من الإهانات والانتكاسات للقتال في سبيل الإيمان المسيحي، عرضة للاهمال وللنسيان»، لأن الاعلان الذي تقدم ذكره، كان قد عمّ انتشاره في جميع أرجاء المناطق الفرنسية، وبناء عليه شعرت بلانشي بالسخط، لأن الشكوى التي انبعثت لم تكن من دون سبب مسوغ، فأمرت بمصادرة جميع أراضي وممتلكات الذين حملوا شارة الصليب، وأن توضع تحت تصرفها قائلة: «على هؤلاء الذين يقاتلون من أجل البابا أن ينالوا التمويل من ممتلكات البابا، وليذهبوا دون أن يعودوا مطلقاً، وعلاوة على هذا تصرف النبلاء المجاورين، وعملوا وفق الطريقة نفسها في أراضيهم، ضد الذين حملوا الصليب نتيجة لذلك الاعلان، وهكذا مات هذا الاعلان وتلاشى، وتراجع الذين حملوا الصليب، وتعرض رهبان الدومينيكان والفرنسيسكان أيضاً للملامة، لأنهم أثاروا هذه الفوضى والاضطراب، وجرى توبيخهم لما قاموا به من إجراء، من قبل النبلاء، الذين قالوا: «نحن بنينا الكنائس والديرة لكم، ونحن علمناكم، واستقبلناكم،وأطعمناكم، فأي منفعمة أضفاها البابا عليكم؟، فهو قد ضيّق عليكم وأثاركم، وفرض ضرائب جباها منكم، وجعلكم مكروهين من قبل الذين يقدمون المنافع إليكم»!، وأجابوا على هذا كله قائلين: «الطاعة ترغمنا»، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، خجل البابا، وسعى في سبيل الحصول على السلام.

حول الاتهام الجاد الذي أثير ضدّ فيليب لوفل

وخلال العام نفسه أيضاً، وفي حوالي عيد القديس ميكائيل، جرى اتهام فيليب لوفل Lovel بشكل جاد أمام الملك، وكان فيليب هذا محاسباً، جرى نقله من وكالة ايرل وينكستر إلى خدمة الملك، وعهد إليه بالوصاية على اليهود، وقد أكد أعداؤه، بأنه عندما جرى إرساله هو ونيقولا الكاهن من كنيسة القديس ألبان، إلى المقاطعات الشمالية لفرض ضرائب على اليهود، استلم بشكل سري بعض الكؤوس الثمينة جداً، من يهودي غني كثيراً، ليستثنيه من دفع الضريبة الملكية، ومثل هذا تلقى أعطيات خاصة من آخرين لاقناعه حتى يستثني بعضهم، ويلقي بالأعباء على آخرين، مما ألحق الأذى بالملك، وجعله يخرق أمانته، ولذلك غضب الملك غضباً شديداً، وأمر بتعريض فيليب المذكور إلى الاهانة، حتى يكفر عن هذا الاثم العظيم، وبما أن فيليب هذا كان رجلاً داهية وعاقلاً، نشد في حاله المضطرب كثيراً المشورة والعون من جون مونسيل، الذي كان المستشار الرئيسي للملك، وأشفق جون عليه، لأنه كان هو الذي استدعاه شخصياً إلى خدمة الملك حتى يرفعه إلى مرتبة أعلى، فقام بترتيب القضية بشكل فعّال، فاسترد حظوة الملك، وجاء ذلك بعدما دفع مبلغاً كبيراً من المال، مقداره كما قيل ألف مارك، وجرى على كل حال طرده من مكتب الوكالة، وتعرض للإهانة بدرجة عالية.

تكريس كنيسة هيل

وفي التاسع عشر من تشرين الثاني، من العام نفسه، وهو يوم عيد القديس ليونارد، قام الايرل رتشارد بشكل مهيب، ولقاء نفقات كبيرة، بتكريس كنيسة هيل Hales, وهي التي كان قد أسسها وأشادها مقابل نفقة كبيرة، وفعل ذلك وفاء للنذر التي عمله عندما كان في البحر، أثناء عودته من غسكوني، حيث كان في خطر، نتيجة لعاصفة

كـانت قـد ثارت، ولذلك وصل وقتهـا بصعـوبة إلى كـورنوول، وكـان الملك والملكة حـاضريـن أثناء التكريس المذكـور، وتقـريبــاً جميع نبـلاء وأسـاقفـة انكلترا، وقد كـان هناك ثلاثة عشر أسقفـاً، كل واحـد منهم عمل قـداساً في يوم التكريس، كل واحـد منهم على مذبحـه الخاص به، أما أسقف لنكولن فقد رتل قـداساً عند المذبح الكبير، وكان هذا في يوم أحد، واحتفل النبـلاء بشكل فخم وسخي برفقـة الأساقفة والآخـرين، فأكلوا اللحـوم، في حين جلس الرهبـان في أمـاكنهم، وأنعشـوا أنفسهـم بكميـات كبيرة من السمك من مختلـف الأنواع، وكـان مـوجـوداً هناك أيضاً أكثر من ثلاثمائـة جندي، وفي الحقيقة إنني إذا ما رغبت في وصف عظمة ذلك الاحتفـال وفخامته، وذلـك الاجتماع الاحتفالي، لقيل بأنني تجاوزت حدود الحقيقـة، وعندما رغبتُ أنا متى باريس، أن أحصل على المعلومات حول هذه القضيـة، في سبيل أن لاأدخل أخباراً زائفة في هذا الكتـاب، أخبرني الايرل بكل تأكيـد ومن دون تردد، أنه عندمـا جـرى احصـاء النفقـات تبين أنه أنفـق عشرة آلاف مـارك على تلك الكنيسـة، مضيفـاً الكـلام الرائع والمستحق للثناء وهو التــالي: «لو أن ذلك يرضي الرب لكنت أنفقـت هنا مثلما أنفقـــت على بنـاء قلعـة وولنغنفــورد Wallingford بطريقة معقولة ومرضية».

وصول إيرل ليستر مع الأخ الثالث للملك

وفي حـوالي ذلك الـوقت نفسـه صعـد إلى ظهــر سفينة في ويســاند Wissand سيمون إيرل ليستر مـع زوجته، وجلب معه كـونت غي أوف لوزنغنان الأخ الثـالث للملك من أمه، وقـد أرادوا العبور إلى انكلترا، وبعد رحلة موفقة، وعندما كانوا على وشك الوصول إلى الميناء، هبت فجـأة ريح، فغيرت الاتجاه، ودفعت بـالسفينة مع خطـر عظيم إلى ويساند، وعلى هذا كان هناك من علّق حول ابعادهم عن هناك، والعودة إلى مأواهم الســالف بقـوله: «امتــلأ إخـوة ملك انكلترا بوفـرة فـوق

الحدود، وقد قدموا إلى انكلترا خاليي الوفاض، واحتشدوا هناك من أجل ملء أنفسهم، ولقد أعاد البحر الممتلئين كثيراً»، وقد قيل هذا مزاحاً وفقاً لعادة الفرنسيين، ثم انتظر الايرلان حتى هبوب ريح أكثر مواءمة، ثم أقلعا فوصلا إلى ميناء دوفر، وكان سيمون ايرل ليستر قد ترك أتباعه يتابعون الحرب بشجاعة لصالحه، وبصمود صدوا هجمات الغسكونيين، وبعدما علم الملك بوصولهما، ذهب مسروراً لاستقبالهما، وجاء خروجه في الحقيقة لأن الكونت كان أخاه، ولم يخرج لاستقبال ايرل ليستر، كما أنه أصدر تعليماته إلى كثير من النبلاء وسكان لندن، لاستقبال أخيه، والترحيب به بهتافات فرح، وبعدما ملأ الكونت حافظة نقوده الفارغة، عاد إلى أراضيه رجلاً غنياً.

حول عاصفة مدمرة

وفي صيف العام نفسه، وفي يوم عيد القديس دنستان Dunstan, ارتفعت غيوم كثيفة في الصباح الباكر، وقد جعلت العالم كله مظلماً في كل من الشمال والجنوب، والشرق والغرب، وسمعت الرعود، وكأنها قادمة من مسافة بعيدة، وتقدم عليها البرق، وفي حوالي الساعة الأولى من النهار، أصبح الرعد والبرق أكثر قرباً، وزمجرت رعود إحدى الغيوم أكثر من سواها بشكل مرعب، وكأنها أرادت أن تحمل السموات وتلقي بها على الأرض، فأرعبت قلوب الذين سمعوها وأصمّت آذانهم بقرعها المفاجىء، وأثناء ذلك التصادم سقطت صاعقة على غرفة نوم الملكة، حيث كانت مقيمة وقتئذ مع أولادها وأسرتها، وألقت بالفراش إلى الأرض وحولته إلى رماد، وهزت البيت كله، وفي غابة ويندسور المجاورة، رمت بثلاثين شجرة من أشجار البلوط أو حولتها إلى شظايا، وعلاوة على ذلك، دمرت بعض الطواحين مع متعلقاتهن، وبعض حظائر المواشي مع رعاتهم، وسببت الرضوض لبعض الفلاحين والمسافرين، وألحقت كثيراً من الأضرار ببني البشر، مثل ذلك لم يسمع

به كـاتب هـذه الرواية، أو شـاهده من قبل، وعـلاوة على ذلك، سقط البرق في سينت ألبـان على الحمام، فأشعل النيران فيه، وسقط في أمـاكن أخرى على الدير نفسه، لكن لم يسبب كثيراً من الأذى، لكن آثاره ظلت ظاهرة على الجدران لسنين طويلة كثيرة فيما بعـد، لكن مـاهو مـدهش، وجـدير بالـرواية، هو أن بعض الرهبـان من طـائفـة الدومينيكان أو الفرنسيسكان، جرى استقبالهم في اليـوم نفسه، من أجل المأوى والطعام في دير القـديس ألبان، حسبما كـانت عليه العـادة في كل يوم، ولم يمكن منعهم من متـابعـة سفـرهم، على الرغـم من الالتماسـات الملحـة من الرهبـان، الـذين —كما هي العـادة— استقبلوهـم وزودوهم بما لزم، فغـادروا مع أن العاصفـة لم تكن قد توقفت بعـد، وبعدمـا خرجـوا من المدينة، شاهدوا على الطريق الذي هو الطريق العام، والذي هو مطروق كثيراً من قبل الناس ومن قبل العربات، مشعلاً متصـدياً لهم، مع ماظهر وكأنه سيف مصلت، غير أنه كـان يلوح به، فيتبعـه رعـد غير متـوقف، وأنين مـرعب، فتحولوا جـانباً، ورسمـوا على أنفسهم علامـة الصليب، وشرعـوا في خـوف واخـلاص بالتـوجـه بالدعـاء إلى الروح القـدس، وينشدون Veni Creator Spiritus والذي أعقب ذلك، هو أنه عند هذا توقفت الرعود وخمدت البروق، وعبرت، وانتهت، في حين بقيوا هم من دون أذى.

فيضان غير اعتيادي للبحر

وفي حوالي الوقت نفسه من السنة، وبالتحديد أيام الاعتدال الخريفي، فاض البحـر وتجاوز حدوده الطبيعية المعتـادة، فسبب أضراراً عظيمة في المقاطعات الانكليـزية القائمة قرب الشاطىء، وتغطى الشـاطىء لمسافة ستة أقدام، أكثر مما رؤي قط من قبل.

كيف عادت ملكة سكوتلندا إلى بلادها

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل، قامت ملكة سكوتلندا، أرملة الملك الاسكندر، وابنة انغلرام أوف كوسي Engelram of Coucy, بعدما جرى تعيين الحصة العائدة إليها من مملكة سكوتلندا مع مورد مقداره سبعة آلاف مارك، فتركت سكوتلندا للعودة إلى الوطن، من أجل زيارة بلادها، ووالديها، وتوقفت وسط رحلتها، وجاءت لتقدم احتراماتها إلى الملك، الذي كان من عادته معاملة جميع الأجانب بالهدايا والموارد، لذلك حملها بانعاماته وبهداياه، ورجاها أيضاً بإلحاح بالعودة من دون تأخير، عندما تجري دعوتها إلى زفاف ولدها الاسكندر الثاني، الذي رفعه النبلاء في سكوتلندا إلى العرش.

حول مبارزة عقدت في روكستر

وفي العام نفسه، في يوم عيد حمل العذراء المباركة، عقدت مبارزة حادة في روكستر فيما بين الانكليز، والأجانب، فيها جرت هزيمة الأجانب بشكل مهين، وقد هربوا مع الخزي إلى المدينة للالتجاء، لكن لأنهم جرى اعتراضهم من قبل فرسان جاءوا من الاتجاه المعاكس، هوجموا ثانية، وسلبوا، وضربوا بشدة بالعصي والهراوات، وهكذا استرد الانكليز مع كثير من الفائدة الضربات والأضرار التي كانوا قد تعرضوا لها في المبارزة التي عقدت في بريكلي، ونتيجة لهذا ازدادت الكراهية، وتعاظم الغضب بين الانكليز والأجانب، وأصبح يومياً أكثر إخافة.

خاتمة العام

كان هذا العام كله خصباً في انتاج الحبوب والفواكه بكميات كافية، لابل بكميات وافرة، مع أنه كان عاماً عاصفياً، ومضطرباً ومرعباً بالبرق، وكان عاماً متعباً وعالي النفقات بالنسبة للبابا، وللبلاط الروماني، وخطيراً بسبب العودة إلى ايطاليا، أما بالنسبة لفرنسا وانكلترا

فكان مليئاً بالشكوك في ظل السلام المتأرجح، أما بالنسبة للرومان، والايطاليين، والألمان، والصقليين، والأبوليين، والكلبيريين، الذين كانوا بلا رأس ولامقدم، فكان عاماً قلقاً، أما بالنسبة لداشيا، فكان عاماً دموياً، أما بالنسبة لسكوتلندا، التي كان ملكها طفلاً، فكان عام متقلقلاً ومهدداً، كما قال لوكان Lucan في قضية بومبي الكبير:

سني عمر شبابه يمكن أن تثير الشكوك

لأنه حتى يكون ثابتاً، يحتاج الإنسان إلى أيام طويلة.

وبين الصمت والتعرض للخطر كان ملك سكوتلندا، مع الحظ المتقلب.

كيف أقام الملك عيد الميلاد في يورك

في عام ألف ومائتين واثنين وخمسين لتجسيد ربنا، وهو العام الخامس والثلاثين لحكم الملك هنري، كان الملك المذكور في يورك في عيد الميلاد، من أجل ابنته مرغريت، التي وصلت الآن إلى سن الزواج، حتى يمكن أن تتزوج من الاسكندر، ملك سكوتلندا، ومن أجل أن يجري الاحتفال بالزفاف بشكل لائق بين مثل هاتين الشخصيتين الرفيعتين، وقد اجتمع هناك حشد كبير من رجال الدين، وكذلك من الفرسان، من أجل أن تشع عظمة الاحتفال بالزفاف الكبير بالطول وبالعرض، ولقد كان موجوداً هناك ملك وملكة انكلترا، مع نبلائهما، الذين سوف نحتاج إلى وقت طويل حتى نأتي على ذكر أسمائهم، وكان أيضاً موجوداً ملك سكوتلندا، والملكة أمه، التي استدعيت من القارة من أجل المناسبة، وكان بصحبتها كثير من النبلاء، ليس فقط من سكوتلندا، بل أيضاً من فرنسا، حيث كانت قد ولدت، وقد جلبتهم معها، لأنها كانت تمتلك حسبما كانت العادة مع الأرامل، ثلث موارد مملكة سكوتلندا، الذي وصل إلى خمسة آلاف مارك، وأكثر، بالاضافة إلى امتلاكها مقتنيات

أخرى، كانت قد تسلمتها بمثابة هدية من أبيها انغلرام، وقد ظهرت في الخارج وهي قادمة مع قطار فخم وكبير العدد من الأتباع والخدم، وعندما وصل الجميع إلى يورك، أقام الذين قدموا مع ملك السكوتلنديين في شارع واحد، دون الاختلاط بأي من الآخرين من باب الحيطة، لكن عندما كان بعض موظفي النبلاء، الذين ندعوهم المارشالية، يعدون أماكن إقامة إلى مواليهم، اشتبكوا بشجار فيما بينهم أنفسهم، أولاً بقبضات أيديهم، وبعد ذلك بالعصي، وأخيراً بسيوفهم، وقد أصيب بعضهم بجراحات بالغة، وقتل رجل واحد، والذين أصيبوا بالجراحات لم يتعافوا قط بعد ذلك، وتمكن الملك بالحكمة وبوساطة الحرس الذي كان موجوداً هناك، ببراعة من منع قيام صراع بين السادة، وكذلك من ايقاف القتال بين الخدم، وقام أيضاً أعوان رئاسة الأساقفة، حتى لاتسبب رداءة أماكن الاقامة سبباً للصراعات، بتزويد الناس بأماكن كافية للرعاية والضيافة، وذلك حسب الوقت، وتأمن ذلك للجميع، مع أنهم تجاوزوا أعدادهم.

كيف جرى منح مرتبة الفروسية إلى ملك سكوتلندا من قبل ملك انكلترا

وفي يوم عيد الميلاد، قلد ملك انكلترا ملك سكوتلندا نطاق الفروسية، ومنح ذلك إلى عشرين آخرين معه، الذين كانوا جميعاً مزينين بملابس جميلة وثمينة، وكانت مناسبة لحفلة الترقية تلك.

حول زواج ملك سكوتلندا من ابنة ملك إنكلترا

وفي اليوم التالي ليوم عيد الميلاد، الذي كان يوم عيد القديس اسطفان، اقترن ملك سكوتلندا بابنة ملك انكلترا، وبسبب أن حشد الناس اندفع وضغط مع بعضه بطريقة غير نظامية، حتى يكون حاضراً، ويشاهد عظمة مثل ذلك الزواج، تمّ إجراء الاحتفال في الصباح الباكر،

وبشكل سري، وقبل أن يكون ذلك متوقعاً، فلقد احتشد هناك كثير من الناس من مختلف الأنواع، ولقد شكلوا حشوداً عظيمة من النبلاء الانكليز، والفرنسيين، والسكوتلنديين، ولقد كان هناك حشوداً كبيرة من الفرسان، لبسوا بشكل أنيق بألبسة فاخرة، وتباهوا بزينتهم الحريرية وبالأنواع الأخرى، حتى أننا إذا ماأردنا وصف الترف الدنيوي والخيلاء وبهجة المشهد بالكامل، سوف نثير العجب، ونتعب الذين سوف يسمعون بذلك، لأن ألفاً من الفرسان، لابل أكثر، كانوا يرتدون الملابس الحريرية التي تعرف بشكل عام باسم Cointises, ظهروا أثناء الزفاف عن جانب ملك انكلترا، وخلعوا في اليوم التالي جميع هذه الملابس، وعرضوا أنفسهم ثانية في البلاط بأثواب جديدة، أما من جانب ملك سكوتلندا، فكان هناك ستين فارساً، وأكثر في ملابس لائقة، وكان هناك أعداداً كبيرة من المراتب نفسها المساوية لمراتب الفرسان، قد لبسوا وفق الطريقة نفسها، وقد عرضوا أنفسهم أمام جميع الناس الذين احتشدوا.

كيف قدم ملك سكوتلندا الولاء إلى ملك إنكلترا

ثم قدم ملك سكوتلندا الولاء إلى ملك انكلترا، عن الاقطاع الذي بين يديه من ملك انكلترا، ومن أجل حصة من مملكة انكلترا اسمها لوثيان Lothian, ومن أجل بقية أراضيه، لكن عندما استدعي سكوتلندا ليقدم الولاء عن مملكته السكوتلندية، وليقدم الطاعة والتابعية إلى مولاه ملك انكلترا، مثلما فعل أسلافه، وذلك حسبما جرى تدوينه في التواريخ، في كثير من الأجزاء، أجاب ملك سكوتلندا بأنه قدم إلى هناك بسلام وفي سبيل كرامة ملك انكلترا، وبناء على أوامره، وأنه بوساطة رابط الزواج يمكنه التحالف معه، وليس أن يقدم له جواباً على مثل ذلك السؤال الصعب، لأنه —كما قال— لم يتباحث بها فيه كفاية حول هذه القضية مع نبلائه، أو عمل مشاورة موائمة حول مثل تلك القضية

الصعبة، وحسبما تتطلبه، ولدى سماع الملك بهذا، لم يكـن راغباً بأن يقوم أي معيق بإلقاء أية ظلال على الاحتفـال السلمي، أو أن يثير أية متاعب لذلك الملك الذي مايزال شاباً، وزوجته التي ماتزال أيضاً شابة، خاصة وأنه جـاء بناء على استدعـائه، بسرور عـارم، لإعطائه ابنتـه في الزواج، ولذلك ضبط مشاعره، وعبر بجميع الأشياء بصمت.

حول إمتياز الإيرل مارشال في هذه المناسبة

وأثناء هذه الترقيـات، واحتفـالات الزواج، طـالب الايرل مـارشـال بوجوب منحـه امتيازه الذي هو امتياز وصل إليـه من أجداده، وهو أن المهر العائـد لملك سكوتلندا، والذي ادعى أنه امتياز له، ينبغي أن يعطى إليـه، مع غطاء سرجه المزركش، وذلـك ليس بسبب قيمته، ولاصـدوراً عن أي شره، ولكن تماشيـاً مع عـادة قديمـة تتعلق بمثل هذه القضـايا، وأنها ينبغي أن لاتموت، أو أن تتلاشـى من خلال أي اهمال من جـانبه، وفي جـواب على هذا المطلب تم اخبـاره بأن ملك سكوتلندا سـوف لن يخضع لمثل هذا المطلـب، بسبب أنه لو أراد الاختيـار، يمكنـه الحصـول على هذه التجهيـزات من أي أمير كاثوليكـي، أو من بعض من نبلائـه، وهو صدوراً عن احترامه وتقـديره للملك الذي هو أمير عظيم، وجاره وختنه، هو يفضل أن يصبح فـارسـاً على يدي ملك انكلترا، وليس على يدي أي واحـد آخر، وبناء عليـه قضت تعليمات الملك، بوجوب تهدئـة كل نوع من أنواع الخلاف أثناء يوم الاحتفال.

وصف لاحتفال الزواج

ثم بدأ المحتفلون بتمتيـع أنفسهم مع بعضهم، ومع الملكين ونبـلائهما، ومع أسرهـم، وهكذا أمضـوا عيد الميـلاد في أعظم بهجـة، ولو أنني أردت أن أصف بشكل كـامل وفـرة الموائـد وتنوعهـا، واختـلاف الملابس، والحركـات المرحـة والقصف والصيـاح، وعـدد الضيـوف في هذه

الاحتفالات، سوف تبدو الرواية فيها مبالغة غير معقولة لمسامع الذين لم يكونوا حاضرين، وسوف تكون سبباً لملاحظات قاسية، ولكن في سبيل تقديم مثل مستخلص من البقية، ولفهم ماحدث من خلال حقيقة واحدة، نجد أن أكثر من ستين رأساً من ماشية المراعي شكلت الوجبة الرئيسية على المائدة، وكانت هذه تقدمة مسن رئيس الأساقفة، واحتفل الضيوف على التوالي مرة مع الملك الأول، ثم مرة أخرى مع الملك الثاني، في إعداد وجبات ثمينة، حتى أن عبث الدنيا قد أظهر نفسه لبني البشر بقدر مايمكنه في لحظات عابرة من البهجة، ولقد تناولوا جميعاً أطعمتهم لعدة أيام مع رئيس الأساقفة، الذي ظهر وكأنه أمير الشمال تولى اضافة الجميع، وقدم المشورة إلى الجميع في كل قضية نقص أو حاجة مستعجلة، وزود بشكل فعال حاجات الجميع، أحياناً بتقديم أماكن الاقامة للمسافرين، وأحياناً أخرى بتقديم الأعلاف لخيولهم، ومرات كثيرة أخرى بتقديم الأدوات المنزلية، والوقود للنيران، وهدايا من المال، وهكذا فإنه بموجب هذه الزيارة لمولاه، وفي تقديمه الهدايا من الذهب ، والفضة، والملابس الحريرية، بذر على أرض قاحلة أربعة آلاف مارك، لم يحصد منها فيما بعد أية ثمار، إنما كان من الضروري بالنسبة له القيام بهذه الأشياء في ذلك الوقت، حتى يكون من الممكن الحفاظ على سمعته سليمة متماسكة، وأيضاً في سبيل اغلاق أفواه الذين يتكلمون بالشرور.

الاحتفال بعيد القديس إدوارد في لندن

في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الاحتفالات في المقاطعات الشمالية من انكلترا، بناء على مبادرة من الملك، الذي لم يكن ناسياً للقديس ادوارد، قام أسقف ايلاي، ورعاة ديرة ويستمنستر، وولتهام، عوضاً عن الملك، وبناء على أمره، بالاحتفال بعيد القديس ادوارد، في ويستمنستر بكل أبهة، وذلك بوساطة القداسات في الكنيسة، والاحتفال في القصر.

كيف استرد فيليب لوفل الحظوة لدى ملك إنكلترا

وبينما كانت احتفالات الزفاف ماتزال مستمرة، وكانت أفكار وآراء الجميع متركزة حول هذه الأيام الاحتفالية، أقدم ذلك الرجل الماهر والداهية، فيليب لوفل، المحاسب، بتقديم الرجاء بتواضع إلى ملك سكوتلندا وإلى زوجته الجديدة، بأن يستخدما التماساتهما لصالحه، لتهدئة غضب الملك ضده، وأن يستردا من أجله رضاه وطيب نواياه، وكان فيليب المذكور معروفاً من قبل لدى ملك سكوتلندا، كما كان صديقاً حميماً لأبيه ولأمه، لأنه أثناء عمله قهرماناً لايرل وينكستر في غالووي Galloway, العائدة الملكية ذلك الايرل، مكث لبعض الوقت في تلك المقاطعة، وغالباً ماقدم هدايا تشريفية إلى الملك المذكور، وإلى ملكة سكوتلندا، وأصدقائهما، ولذلك أصغى الملك الجديد باهتمام لشكوى فيليب، وعندما وجد وقتاً مناسباً، ذهب ليمثل أمام ملك انكلترا، وجثا على ركبته، وبيدين متشابكتين مهّد لطلبه بالخطاب التالي، الذي امتلك قدرة تحريك قلب ملك انكلترا، الذي رغب في انهاضه، مع أن ذلك جاء ضد الراجي الجاثي، وبدا أنه قادر على إسالة دموع التأثر والسرور من أعين كثيرين ممن جلسوا هناك، ثم إنه تكلم كما يلي: «مولاي الملك، يعلم جلالتكم أنه مع أنني ملك، وأنني بفضل احسانك صرت فارساً، إنني مجرد طفل، من دون سن أو معرفة، علاوة على ذلك إنني يتيم، بسبب موت أبي، وعودة أمي إلى بلادها، البعيدة، فيما وراء البحر، تاركة إياي في عمر غض، فهي ماكانت لتأتي إلى هنا، لولا أنها دعيت من قبلكم، وإنني منذ الآن فصاعداً قد تبنيتكم بمثابة أب لي، أنت الذي يمكنك أن تعوض عليّ الخسارة في قضية كل من أبي وأمي، ويمكنك أن تزودني بما أحتاجه من مشورة أبوية كافية وحماية»، ولم يستطع الملك حبس نفسه عن البكاء، فأجاب وهو يتنهد بعمق: «أنا على استعداد»، وبناء عليه أضاف الصبي، لكن ليس متحدثاً مثل صبي:

«بناء عليه سأحاول في هذه القضية، وبالتجربة سوف أعلم (بما أنك بمعروفك أصغيت إليّ) فيما إذا كنت سوف تلبي أول طلب لي، ورغبة، اعف عن جميع ذنوب فيليب لوفل كلها، الذي أضفى في أحد الأوقات كثيراً من التشريفات على أبي وأمي، وعليّ شخصياً، بأن تعيده إلى خدمته السالفة، لأنني علمت من أشخاص جديرين بالتصديق، بأنه قد اتهم بشكل غير عادل، وهو شخص قديم الاخلاص، وكان لايمكن الاستغناء عنه في معالجة المسائل الصعبة لايرل وينكستر، وعلاوة على ذلك كان موائماً في مشورته لك وتأدية واجبه نحوك»، وكان الذين كانوا آنذاك جلوساً هناك أثناء هذا الخطاب ميالين لصالح هذا الطلب، ولذلك تفضل الملك فاستجاب، وكانت هناك أيضاً مساعدة فعالة في هذه القضية من خلال دور جون مانسيل، الذي فاق الجميع قوة.

وعند انتهاء احتفالات الزواج، غادر ملك سكوتلندا وسافر إلى بلاده مع زوجته التي اقترن بها حديثاً، وجرى أيضاً تعيين حارس موثوق ليتولى العناية بالعروس، وليزودها بجميع أنواع المعلومات، وكان هذا هو روبرت أوف نورويك، الذي كان مارشال بيت الملك وحاشيته، وستيفن بوزان Bauzan, وكانا معاً فارسين، وبالاضافة لهما ماتيلدا أرملة وليم الثاني أوف كانتلوب Cantelupe, وكانت سيدة تتمتع بجميع مشاعر الشرف، مع بعض الرجال الآخرين المستقيمين والجيدين، ووعد ملك انكلترا ملك سكوتلندا بأن يرسل إليه بعض المستشارين الحكماء والمخلصين للتشاور مع نبلاء مملكته حول جميع القضايا المتعلقة به وبالملكة.

حول عاصفة ريح حادة جداً

وفي هذا العام نفسه، في ثمانية عيد الغطاس، هبت ريح شرقية حتى حركت الريح الجنوبية الغربية على الهبوب أيضاً، وقد عانى كثيرون من المؤثرات، وهبت الريح الجنوبية الغربية مع زمجرة مرعبة، وعنف شديد،

وردت الأمـواج عن الشـاطىء، وكشفت أسقف البيـوت أو دمـرتها، واقتلعت بعض أشجار البلوط مـن الجذور، أو فتتها إلى شظايا صغيرة، وجـردتها من أوراقهـا، واقتلعت رصـاص أسقـف الكنائس، وأغـرقت أقـوى السفن وأكبرها في الأعماق، وسببت أضراراً لايمكن تعـويضهـا لكثيرين، هذا وكـانت الأضرار أعظـم على اليـابسـة، ومن الواضح أنها كـانـت أكبر بعشرة أضعـاف من الأضرار على البحـر، ودون أن نـذكـر الأضرار الأخرى والخسائر، أعتقـد أنه من المفيد أن نأتي على ذكربعضها مما عـرفنـاه، وكنا شهـوداً عليـه، ففي وينكلسي Winchelsea, التي كـانت ميناء له فوائـد عظيمة للانكليـز، وخاصـة إلى سكان لندن، فقـد قامت أمـواج البحر، وكأنها كـانت غاضبـة وساخطة لإبعـادها في اليـوم الماضي، بتغطيـة أمـاكن مصـاقبـة للشـواطىء، واستحـوذت على طواحين وبيـوت، وأغـرقت وجـرفـت عـدداً كبيراً من السكان، ولكي نكون أكثر علماً وإحاطة بالوقائع الأخرى التي لم تكن متوقعة، وحدثت في كل مكان، اقتلعت الريح مـن الجذور ثلاثة بلوطات في مقبرة كنيسـة القـديس ألبـان، كل واحـدة منهن لايمكن لثـلاثة رجـال الإحـاطة بها بأذرعتهم، واقتلعت أثناء ثورتها أوراق أشجار أخرى.

وفي يوم عيد القديس فالنتاين، وصل الملك إلى لندن.

كيف جمع أسقف روكستر حصة الخمس
من موارد رعاياه من رجال الدين

وفي هذه السنة نفسهـا أيضـاً قـام أسقف روكستر، الذي كـان قـد تسلم منصبـه منذ وقت قصير، بالحصـول من بلاط رومـا، على سلطة استخـراج حصـة الخمس من منافع رجـال الديـن في أسقفيتـه، ومن مـواردهم لمدة خمس سنوات، مما أثار دهشـة الكثيرين، ولاعجب في ذلك فهـو كان معـروفـاً من قبل ذلك البلاط، نتيجـة إقـامته فيـه لمدة

طويلة نـائبـاً للملك هناك، وجــاء هذا على الرغـم من أن الأسقف المذكـور، كــان قـد احتفظ، بمــوجب ترخيص من البـابـا، بمـوارده السالفـة، التي كانت بحوذته، قبـل ترقيته إلى أسقفيته، وقـد عدّ ذلك ضروريـاً —كما أعلن— لتخليص أسقفيتـه القـاحلة من حـالة الفقـر، لأنه بدا إليه أنه أمـراً مخجلاً أن يقال بأن أسقفيتـه هي الأفقر بين جميع الأسقفيـات في انكلترا، وقد تفـوقت الآن على أسقفية كـارايل، وبناء عليــه طالب بوجــوب دفع ذلك المبلغ إليــه، ليس حسب التقــدير اللاهوتي للممتلكات الذي عمله رجاله، بل وفق جمعه من الممتلكات اللاهوتية بأية طريقة من الطرق.

موت نيقولا أوف ساندفورد

وفي تلك الآونة، في العشرين من كــانون الثـاني، مـات نيقـولا أوف ساندفـورد، الذي كان فارسـاً، ولقد أتينا على ذكـر موته في هذا المجلد، ليس بسبب ثروته، بل بسبب شجـاعته، وكان سبب مـوته الأسى الذي شعر به، نتيجة موت اخته سيسيليا، كما تقدم الذكر من قبل.

كيف حث البابا ملك إنكلترا على القيام بالحج

وفي هذه الأونة أيضــاً، أرسل البــابا رســالة لاقناع ملك انكلترا، وحثه على القيام باستعدادات فعـالة، من أجل انجاد الأرض المقدسة، وليقـدم مساعـدة مؤثرة إلى ملك فـرنسا، الذي كـان ينتظر المساعـدة، وإذا لم يكن راغباً بفعل ذلك، بأي حال من الأحوال، عليه عدم إلقاء أية عقبات في طريق الآخرين، الذين كـانوا جاهزين وراغبين في عبور البحـر، والقيام بـالحج، وقد أضيفت هذه الفقـرة الأخيرة، لأنه أخـر بعض النبلاء، الذين كانوا مستعـدين للذهاب إلى الأرض المقدسة، مما سبب لهم ضرراً كبيراً وخســارة، وبناء عليـــه، قــام الملك، في سبيل التجـاوب مع رغبة البـابا الملحـة، فـاستخرج من اليهـود، كل ملكيـة

ظاهرة امتلكها هؤلاء القوم التعساء، فهو لم يكتف بسلخ جلودهم، بل استخرج أيضاً ما كان في أجوافهم، وهكذا فإن هذا المتعطش الساعي وراء الذهب خدع المسيحيين، وكذلك اليهود، واستخرج منهم أموالهم، وأطعمتهم، وجواهرهم، بجشع كبير بلغ حداً، ظهر فيه وكأن السماسرة قد قاموا من الموت.

كيف متن البابا نفسه بزيادة عدد كرادلته

ومع اقتراب الربيع، وفي سبيل أن تتمكن الكنيسة من التنفس بحرية بالتوافق مع صفاء الفصل، أوجد البابا سبعة كرادلة في بيروجيا، المدينة التي استقبل من قبل سكانها بالتكريم، لأنهم عرفوا أنهم سوف يحصلون على المنافع من قدومه، وبعدما كان قد زوج حفيدته بأبهة عظيمة ونفقات عالية، زاد على ذلك، في سبيل زيادة قوة حزبه، بأن اقترح تزويج احدى حفيداته إلى هنري بن فردريك، وابن أخت ملك انكلترا، واستهدف من وراء ذلك أن يصبح هنري الابن المتبنى من قبل البابا، وأن يصير محمياً تحت جناحي الكنيسة، ومن ثم تحليلة من الحرمان الذي فرض عليه، ووقت ذلك يمكنه —البابا— أن يتمتع بسلام كامل، لكن عندما سمع نبلاء الامبراطورية بهذا، شعروا بسخط عظيم، من محاولة البابا بالاقدام على الحط من شأن مثل ذلك الشاب النبيل والرفيع الأصل.

وحدث في هذه الآونة أيضاً، أن وليم كونت هولاندا، الذي حزن للخسائر التي عانى منها، من خلال اقدامه على ادعاء المنصب الامبراطوري، وذلك بوساطة المساعدة المالية للبابا، تخلى عن جميع ماادعاه حتى الآن، مفضلاً —مع أن ذلك جاء متأخراً— أن يتمتع بأمن السلام، على الرغم من أنه نزل إلى منزلة منخفضة، مؤثراً ذلك على مواجهة مخاطر الحرب المتقلبة، والعيش في منصب رفيع.

الظهور الأول للجواميس في إنكلترا

وفي أيام الصوم الكبير من هذا العام نفسه، جرى ارسال بعض الجواميس إلى الايرل رتشارد من القارة، وكان بعضهم ذكوراً، وبعضهم الآخر من نوع الإناث، في سبيل أن تزداد هذه الحيوانات، التي لم تشاهد من قبل في هذه البلدان الغربية، وتتكاثر، والجاموس هو نوع مشابه للثور، ومتأقلم بشكل جيد لحمل الأثقال أو جرها، وهو عدو كبير للتمساح، ومغرم بالماء، ومزود بقرنين كبيرين للدفاع عن نفسه، وعن هذا الحيوان قال الفيلسوف برنارد:

للفيل أنياب، والسنام يزين ظهر الجمل

وينتفخ جبين الجاموس بشموخ بقرنيه

حول رفض الرهبان الفرنسيسكان قبول هدية من ملك إنكلترا من بضائع مسلوبة

وفي هذه الآونة نفسها، أرسل الملك صدقاته إلى الرهبان الفرنسيسكان، عبارة عن عربة محملة بالأقمشة الصوفية والأقمشة الرمادية، المناسبة لتكون ملابس للرهبان المذكورين، لكن لدى سماعهم بأن الملك استخرجهم من التجار، وفق الطريقة التي يأخذ بها، لابل يستولي بها، على الأشياء الأخرى، واحتفظ بثمنهم، ودفع فقط الضريبة الاقطاعية عنهم، رفضوا تسلم مثل هذه الهدية، وأعادوا العربة، مع جميع محتوياتها، قائلين إنه لايجوز قانونياً اعطاء الصدقات من أسلاب الفقراء، وهم لن يتسلموا مثل هذه الأعطية الملوثة، وجعل هذا العمل الرهبان جديرين بالمدح، واستحق الملك الملامة، لابل بالحري العار، فالملك ينبغي أن يعدّ مرآة للعدل وأساساً له، وأن يكون مثل الشمس، التي أشعتها مستقيمة، تخرق الظلمات، وأن تكون كلماته صادقة، وغير متقلبة، تمنح الضوء والمعرفة إلى الذين هم في الظلام، لكن الآن، بما أن

الذي يسمى ملكاً مليئاً بالظلمات في ذاته، فكيف يمكن له أن يضيء الذين حجبهم الظلام؟ وحول هذه المسألة قال ستاتيوس Statius: أنت يمكنك أن تضع كل شيء تحت سلطانك القضائي، عندما تكون ملكاً على نفسك، ولقد عانى الاغريق جميعاً من أجل هذه الأشياء».

حول الاتهامات الجادة التي وجهت ضد سيمون إيرل أوف ليستر

وفي العام نفسه، عندما كان سيمون، ايرل ليستر، مقيماً إقامة قصيرة في انكلترا، تحرك شعب غسكوني ضد السلطة الملكية، وتخلوا عن المواثيق التي دخلوا بها، و شنوا الحرب ضد الملك، وتجرأوا على مهاجمة الذين وضعهم الايرل، وأنابهم عنه لحماية قلاعه والممتلكات الأخرى، وأرسلوا رسالة إلى الملك، بأن الايرل المذكور، هو أكثر الخونة انحطاطاً، وأنه كان يتولى جمع مبلغ لاحدود له من المال، قام باستخراجه من النبلاء، ومن المواطنين، ومن العوام، فهو لم يوفر أحداً، وأنه أخبرهم بأن الملك هو الذي بحاجة لذلك لأنه على وشك الذهاب للحج، فهو على هذا سوف يتسلم جميع الأموال، غير أنه احتفظ بذلك كله لنفسه،وعلاوة على هذا تقدموا ضده بشكوى جادة، هي أن دعا إلى مجلسه الاستشاري بشكل سلمي بعض الرعايا المخلصين كثيراً إلى الملك، وبعدما دعاهم، تصرف مثل سينون Sinon وليس مثل سيمون، حيث سجنهم بشكل غادر، وأبقاهم في السجن، وأجاعهم حتى الموت، وبهذه الشكاوى وبأمثالها، وبالهمس بالشكاوى، حولوا الايرل إلى هدف للشك من قبل الملك، وتأرجح الملك وقتها في حالة من الشك، فأرسل فجأة وبشكل سري إلى غسكوني محاسبه هنري أوف وينغهام Wengham, وكان رجلاً بارعاً وحكيماً، ليقوم ببحث جاد، حول ماتعلق بالشكاوى المتقدم ذكرها، وذلك في سبيل أن يحصل الملك على معلومات موثوقة حول المسألة، وذلك وفق الطريقة التي

كـــان قــد أرسل بها مـن قبل غيــوفـــري أوف لانغلي Langley, للبحث في إجراءات روبرت باسليف Passeleve, عندما كان مـوضـع شك، وللتقصي حتى يكتشف الذي كـان هو السر في المسألة، وليتعـرف إلى العقدة في القصبـة الناعمـة، وإلى الزاوية في اطار الدائـرة، لكن كل واحد من المفتشين أخفق في فحصه، وعندما سمع الايرل بهذه الإجـراءات، غضـب غضبـاً عظيماً، لسبب مضـاعف، وأعلن عن براءته إلى الملك قـائلاً: «كيـف حدث يامـولاي أن ملت بأذنيك وقلبك نحـو رسـائل هـؤلاء الخونة لك، وصـدقت أولئـك الذين غـالبــاً مـا أدينوا بالخيـانة، بدلاً مني، أنا الذي خـاضع لك ومخلص، وهكذا أقمت بحثـاً حـول أعمالي»؟، وعلى هذا أجـابه الملك، الذي أصبح هادئـاً تمامـاً: «إذا كـان كل شيء واضحـاً، مـا هو الأذى الذي سيلحقـه بك التـدقيق؟ في الحقيقة سوف تصبح سمعتك أكثر وضوحاً واشراقاً بذلك»، ثم تواضع الايرل، واستعد للمغادرة إلى غسكوني، وبناء على التماساته، زوده الملك بمبلغ كبير من المال، لكن من دون استقـرار في الفكر، لأنه فكر بالقيـام بانتقـام موائم، بسبب الأذى الذي لحق به من خـلال هذه التهم الجادة، وحشـد جيشاً كبيراً من الفـرسـان الفرنسيين مع أتبـاعهم المستأجـرين، ودعـا ملك نافـار لتقـديم المسـاعـدة إليـه، وكـذلـك كـونت بيغـوري Bigorre, مع كثير آخرين، ومتن حـزبه إلى درجة عـالية، وهكذا أخمد تجبر الغسكونيين، الذيـن لولا أن انكلترا مفيـدة لهم مـن أجل بيع خمورهم، لقامـوا جميعاً بالتخلي عن ولائهم لملك انكلترا، ولأقـدموا على اختيـار سيـد آخر، وعلى كل حـال بما أن الغسكونيين صـار لديهم الآن مكاناً للجوء إليه في اسبانيا من أجل بيع خمورهم —التي من حاصلاتها هم يعيشـون— في قـرطبـة، واشبيليـة، وبلنسيـة الكبيرة، وهي أمـاكن خضعت الآن للادارة المسيحيـة، لكان من المخشي أنهم سـوف يتركـون الأراضي الانكليزية، التـي فيها تعرضـوا للاضطراب ولكثير من المظالم، والأذى، خاصة من خلال الأتاوات الملكية، ولأخذوا أنفسهم من أجل

المستقبل إلى مناطق أكثر بعداً، ولقد رأينا بأن هذه الملاحظات مناسبة لأن يجري ذكرها كاملة في هذه الصفحات، لأن جميع سمعة مملكة انكلترا، التي اعتادت على القيام بالتفاخر بالمقاطعات الموجودة في القارة والخاضعة لها، أخذت الآن بالتناقص والتشتت بسبب كسل ملك انكلترا وزيفه، لذلك لم يبق إلاّ النادر في مقاطعة غسكوني، من هو خاضع للانكليز، وهي المقاطعة المكروهة من الملك الفرنسي، والتي —علاوة على ذلك— كانت في حالة تأرجح، وإذا مافقد الانكليز تلك المقاطعة، حسبما هو معلن من قبل الغسكونيين، لن ترسو بعد الآن فصاعداً أية سفينة انكليزية في المقاطعات القارية، ولن تتوقف فيها.

الحالة المدهشة للهواء والمناخ

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، وبالتحديد في اليوم التالي لعيد القديس غريغوري، في اليوم الرابع من الأسبوع، عندما صار تغير القمر وشيكاً، ظهر قبل أربعة أيام من يوم ظهوره، كما كان متوقعاً من قبل، لأن اليوم التالي قبل السبت، كان في الترتيب الصحيح للأشياء، وكان اليوم الأول لظهوره، وبعد ذلك، خلال خمسة عشر يوماً متواليات، ظهرت الشمس، وظهر القمر، وكذلك النجوم بلون أحمر، وظهر أحد الأيام غائماً، أو كأنه مغطى بالدخان الذي ملأ محيط العالم كله، وكانت الريح آنذاك تهب من الشمال، أو من الشرق، وخلال الجزء الأكبر من شهر آذار، وأثناء نيسان كله وأيار، من هذا العام نفسه، جفت الأرض، وعطشت بوساطة حرارة الشمس المحرقة، واستمرت الريح بالهبوب من الشرق، والشمال، أو الشمال الشرقي، ونتيجة لتزايد الحرارة، وبسببها وبسبب الجفاف، ولانعدام الندى المنعش، تساقطت ثمار التفاح والفواكه الأخرى، فبعدما كانت قد ظهرت بكثرة مثل حبات الفستق، ذبلت وسقطت لافائدة منها، ولم يبق أي جزء من هذه الثمار حياً، مع أن الأغصان كانت قد وعدت بوفرة عظيمة من الفواكه، واستمر

تناقص الفواكه بازدياد، ولاسيما عندما وصلوا إلى حجم البلوط، فعندما وصلت الفواكـه إلى حجم البلوط، أصيبت بجليد مفـاجىء في الصباح، وترافق ذلك مع أشعـة ضـوئيـة غير اعتيـادية (مما يسميــه الفـلاسفـة الطبيعيين لفحات الضوء والحرارة)، أحـرقت التفاح الناضج، والبلوط، والدراق، وجميع أنـواع الفـواكـه، والكـلأ، إلى درجـة أن الذي بقي لم يتجاوز العشر، وعلى كل حال إنه بسبب الوفرة الأولية للمواسم، بقيت الحدائق مليئة بالتفاح، والحقول بالقمح، وفي الحقيقة لو أن جميع الأزهار بقيت، لما استطاعت الأشجار أن تحمل الفـواكه التي أنتجتها، وارتفعت الشمس إلى العلو الانقـلابي في السماء، وأحرقت حـرارتها العاليـة والتي لايمكن تحملها، وجـه الأرض، حتى أن جميع الأعشاب قـد ذبلت، ولم تعد المروج قـادرة على تقديم الطعام للمـواشي، واستمرت الحرارة أثناء الليل، وسببت كثـرة الذباب والبعوض، مع الحشرات الأخـرى المؤذية، وهكذا صار جميع الأحياء متعبين من الحياة.

حول رفض رجال الدين ذوي المنافع الترقية إلى المراتب الكهنوتية

وفي هذه الآونة جـرت محاولة لاقناع رجـال الدين من ذوي المنافع في أسقفيـة لنكولن بإلحاح، ومن ثم حثهـم من قبل أسقف تلك الأسقفيـة، بإرادتهم، أو بـدون إرادتهم، على السماح لأنفسهم بالترقيــة إلى المراتب الكهنوتيــة، وقـد رفـض كثير منهم، إخضـاع رقـابهم إلى نير المولى بهذه الطريقة، وتم بمـوافقة عامـة جمع مبلغ من بينهم أنفسهم، وبعدمـا جمعوا مبلغاً كبيراً، بعثـوا إلى البلاط الروماني، وتمكنـوا عن طريق الانفاق الكبير للمال، المال الذي له سلطة قوية في ذلك البلاط، من الحصول على السلطة من البــابا، وقـاومــوا هذا المرسـوم الأسقفي، وحصلـوا على اذن لعـدة سنوات، بامتـلاك مـدارس دون الدخول في الكهـانة، وهكذا استطاعـوا بمظهر الأمانة، وبمكر يشبه مكر الثعلب إزالة نير المولى من على رقابهم.

كيف رفض الفرنسيون إطاعة أوامر ملكهم

وفي العام نفسه، ومع اقتراب حلول موعد عيد الفصح، دعا الملك جميع نبلاء انكلترا الذين حملوا شارة الصليب، إلى الاجتماع في لندن خلال اسبوعي الفصح، لعقد مشاورات حول شؤون الأرض المقدسة، التي كرامتها كانت في حالة تأرجح وتردي كبيرة.

وفي هذه الآونة أيضاً، بدأ اسم الملك الفرنسي يقدر تقديراً متدنياً كثيراً في تلك المملكة،وأصبح مكروهاً، وغير محترم بين كل من النبلاء وعامة الناس، وذلك لسببين، كان أولهما، أنه قد تعرض لهزيمة مهينة على أيدي المسلمين في مصر، وعانت النبالة الفرنسية كلها معه من عار لايزول، ولأنه عزم، من دون موافقتهم، على منح نورماندي، والأراضي الأخرى في القارة، التي تملكها الملك الفرنسي واستحوذ عليها، إلى ملك انكلترا، على شرط أن يمده بمساعدة قوية وفعالة، خاصة وأنه كان ملزماً بأن يفعل ذلك، على أساس أنه قد حمل الصليب.

وعلاوة على ذلك ازداد تجبّر الفرنسيين، بوساطة الخزي والمرارة التي أخرجوها من أفواههم أثناء المحادثات، من ذلك أنه عندما كان النبيل روبرت، كونت أرتوي، وأخو الملك الفرنسي، فاراً خلفه، كان هناك شاب انكليزي، اسمه وليم صاحب السيف الطويل، وكان منحدراً بأصله من الأسرة الملكية لانكلترا، وقد وقف هذا بثقة وبشجاعة، وثبت في مكانه، يقاتل حتى الموت، وبما أن الفرنسيين أنفسهم، لم يكن بإمكانهم انكار، بأنه سوف يشع مطوقاً ومتوجاً بتاج الشهادة، وأنه جدير بأن يكون مفضلاً لدى القديس ادموند، وأن هذا يمكن تأكيده شرعياً، فادموند هو المعترف المجيد، وهو الذي اشتهر باستقامته، وبمعجزاته المتوالية، أما الآخر، فكان فارساً شجاعاً، ومن أصل نبيل، وقد تبرهن بشكل مكشوف بأنه شهيد، وكان هذا كله شوكة جارحة في أعين الفرنسيين، لأن كل رجل متجبر يحزن كثيراً عندما يشاركه أحد

بالثناء عليه، ويزداد حزنه وأساه إذا ماتفوق أي واحد عليه، وحول هذا قال الشاعر:

كل قدرة

أو

كل تجبر

يغار من الشريك

وبالنسبة لمحاولة الملك الفرنسي إعادة الممتلكات في القارة إلى ملك انكلترا، ردّ الفرنسيون برعونة على الشكل التالي: «لاسمح الرب أن تتعرض فرنسا في أيامنا إلى البتر، وأن تهان وتتدنى سمعتها —مع أن ذلك أصبح أكثر شراً وسوءاً مما هو ممكن من خلال تقاعس وغلبة الملك الصغير— بإعطاء ملك انكلترا الضعيف، وتلبية مطالبه، بالتخلي عن الأراضي، فلقد عانينا من الإهانة بما فيه الكفاية، وأسيء إلى سمعتنا كثيراً، وأفقرنا بما فيه الكفاية، وإذا كانت ملكتنا بلانشي، تريد ذلك، صدوراً عن عاطفة الأمومة، وعن الرغبة النسائية، وعلى استعداد لأن تفعل هذا، في سبيل تحرير ابنها وفائدته، فإن جماعة المملكة الفرنسية كلها لن تسمح مطلقاً بذلك، وإننا لن نسمح مطلقاً بخرق قرار النظراء الاثني عشر، الذي قضى بتجريد الملك الانكليزي من نورماندي، أو عدّه لاغياً أو طائشاً، ولن يتمكن ملك انكلترا، عدونا المميت، بأي حال من الأحوال ومهما كان، بالحصول على مطالبه الأخرى مادمنا أحياء».

وهكذا تفجر التذمر والرفض بين النبلاء الفرنسيين، تجاه عزم الملك على القيام بهذه الأعمال من دون موافقة البارونات جميعاً، وشرع أخواه أيضاً: كونت بواتو، وكونت بروفانس بإزدرائه وكراهيته، والنظر إليه بقلة احترام، ومع أنه كان متوقعاً مساعدتها الأخوية الموعودة،

وحمايتهما، لقد رفضا تزويده بذلك، وكان الوحيد الذي وقف إلى جانبه، وعمل لصالحه هو أمه بلانشي، التي لم تسمح لها رحمتها، وعاطفتها الطبيعية، ومشاعرها الدينية بالوقوف ضده.

وعندما سمع ملك انكلترا بهذا، ماتت جميع آماله في استرداد حقوقه في القارة، وتلاشت، ولقد جرى إخباره أيضاً، بأن النبلاء الفرنسيين، قد أقسموا قسماً عظيماً، بأنه، أي ملك انكلترا قبل أن يحصل على مايتطلع إليه، سوف يرغم على شق طريقه خلال أسنة ألف رمح، وبعد قصفهم وتكسيرهم، سوف يرغم أيضاً على شق طريقه خلال العدد نفسه من السيوف التي كانت جاهزة لتغطس في دمه، ولقد خاف ملك انكلترا من هذا كثيراً، ولاعجب تجاه ذلك.

كيف أقسم الملك بأنه سوف يقوم بالحج إلى الأرض المقدسة

وأثناء هذا العام، في يوم الاثنين التالي قبل اليوم الذي ندعوه بالعادة وبشكل عام باسم Hokeday, دعا الملك بوساطة صوت المنادي جميع سكان لندن، من أدناهم إلى أعلاهم، آمراً إياهم بوساطة مرسوم ملكي بالاجتماع جميعاً في ويستمنستر، لسماع مارغب به، وعندما اجتمعوا جميعاً مع بعضهم، أمر الملك أسقفي: ووركستر، وشيستر، وراعي دير ويستمنستر، بإلقاء خطابات مهيبة وعاجلة، على الناس، حول موضوع حمل الصليب، لكن بسبب الاستخراجات المالية المتنوعة، وأعمال الخداع، لبلاط روما، قليل من سكان لندن وأتباعهم من سكان الريف، كانوا هم الذين فعلوا ذلك، بناء على تبشيرهم، وقام على كل حال الذين كانوا حول البلاط، ورتشارد دي غري، وأخوه جون، وج. ل دي بليست Plessets, بحماس بحمل الصليب، وبادر الملك على الفور بالتوجه نحوهم، وعانقهم، وقبلهم في ذلك المكان، ودعاهم باسم إخوانه، ووجّه في الوقت نفسه اللوم إلى سكان لندن، ودعاهم مرتزقة منحطين، لأن قليلاً منهم كانوا هم الذين حملوا

الصليب، وكان هذا التمسك بالتهور بعناد، سببه روما، لأن الملك كان لتوه قد حصل على تفويض من البابا بأن يجبي العشر لمدة ثلاثة أعوام من رجال الدين، ومن شعب المملكة، ولو أن هذا كله جمع وأحصي لوصل إلى مبلغ يزيد على ستمائة ألف [مارك]، مما كان سيلحق الضرر الدائم بالمملكة، ولهذا قد قيل بشكل سري، بأن أصحاب العقول التقية، صعب عليهم تصديق بأن الملك قد حمل الصليب، إلاّ لغرض واحد، هو أن يتمكن بهذه الوسائط من تجريد المملكة من ثروتها، وهو على كل حال قد أقسم بأنه سوف يقوم بعبوره خلال السنوات الثلاث المقبلة، شروعاً من عيد القديس يوحنا المعمدان، مالم يمنعه عن ذلك الموت، أو مرض شديد، أو سبب آخر معقول، ولدى تأديته لهذا القسم، وضع يده اليمنى على صدره، مثلما يفعل الكهنة، ثم وضعها على الأناجيل، ثم قبلهم وفق طريقة العلمانيين، وهذا على كل حال لم يجعل الذين كانوا من حوله أكثر قناعة، لأنهم تذكروا الخروقات الماضية، لذلك شعروا بالريبة الآن.

كيف طلب سلطان مصر السلام من الملك الفرنسي

وفي هذه الآونة، عندما كان الملك الفرنسي، مايزال باقياً في قيسارية، شنّ أهل قونية ودمشق حرباً دموية متواصلة ضد السلطات المصرية، وأوقفوا أنفسهم، على السلب والنهب، والحرق والقتل، لأن سلطان مصر كان هدفاً للكراهية لدى جميع الشرقيين، وذلك لسببين: أولها لأن الملك الفرنسي جرى السماح له بالنجاة من دون أذى، من بين أيدي المصريين، وذلك من خلال إثارة الشره، وأيضاً بسبب أنه قد قيل بأنه قتل بشكل غادر، مولاه سلطان مصر، وسلفه، في سبيل إغناء نفسه بأمواله، وفي الحقيقة استهدف جميع المشارقة التشهير بالملك الفرنسي، وعرضه ليكون هدفاً للاستهزاء من قبل جميع المسلمين، وذلك في سبيل محق العقيدة المسيحية وشريعتها، وإلحاق عار أبدي بها، وكانوا يريدون بعد هذا كله تقديمه أخيراً إلى خليفتهم حتى يسجن طوال أيام حياته،

أو أن يجري التضحية به، وتقديمه أضحية محرقة إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) من أجل رفع شأن شريعتهم، ولم يكن الغضب الرباني مشتعلاً على كل حال إلى مثل هذه الدرجة ضد عبيده، مع أنهم استحقوا بوساطة ذنوبهم مثل ذلك العقاب من انتقام الرب، لكن مع أنه كان غاضباً، لقد تذكر رحمته.

ولقد أرسل سلطان مصر المتقدم ذكره، منذ ذلك الوقت فصاعداً الهدايا، والرسائل المسالمة إلى الملك الفرنسي، أخبره بها حول كم من الاضطرابات قد تحمل بسببه، لأنه أبقاه حياً، كما أنه بدأ يفكر بتقديم عروض للسلام معه، أو هدنة، يمكن منحها إلى الملك المذكور، ولذلك شعر هذا الملك بالطمأنينة، وتشجع على الشعور بآمال أفضل.

حول قسوة الملك نحو رعيته وسخائه تجاه الأجانب

قبل انتهاء اجتماع البارلمان المتقدم ذكره، صار الملك جافياً ليس لديه مرحمة نحو أي واحد، وهو لم يكتف بعدم منح أي تأخير، ولو كان قصيراً، إلى المديونين له، بل شدّد بقسوته على رعاياه الطبيعيين من دون شفقة، ومن دون أي تقدير للحكمة، وفي سبيل سحب المزيد من الدم من قلوب رعيته، أنعم بقطعة من الأرض تساوي قيمتها خمسمائة مارك على واحد من البواتيين اسمه الياس دي راباني Rabani، وكان رجلاً غير جدير تماماً بهذا التشريف العظيم، وهكذا كان الملك من الجانب الأول شرهاً ولايعرف الشبع، وبرهن من جهة أخرى عن نفسه أنه مبذر، ومبدد لثروات المملكة.

كيف نُظر إلى كونراد بن فردريك بعين التقدير من قبل جميع الفئات

وفي هذه الآونة، كان كونراد بن فردريك، الذي حظي بتأييد ورضا: تقريباً جميع الايطاليين، والكالبريين والصقليين، والرومان، والألمان، قد

جرى تسميمه بشكل غادر، بوساطة مشروب مميت (يارب لاتجعل هذه الجريمة تقع على عاتق بلاط روما)، وبصعوبة بالغة جرى انقاذه من بوابات الموت، بفضل العناية الكبيرة جداً به من قبل أطبائه، وقد كان هناك من قال بأن بعضاً من مؤيدي البابا وأعوانه —لكن من دون معرفة البابا— قد فعلوا ذلك، لأن حزب البابا كان خائفاً كثيراً، لخشيته من أن يقوم كونراد باتباع خطى والده، وأن يتذكر ماناله من اضطهاد، فينزل جزاءه الإنتقامي على أعدائه، ومن هذا، وبناء عليه، أخذ الجميع ينظرون إلى كونراد بعين التقدير، لأن الرب قد حفظه دون أذى، في مثل تلك الظروف الخطرة جداً، والتمس كثيرون من البابا، وحثوه بإلحاح على القيام بترقية كونراد إلى المرتبة الامبراطورية، باذلاً ما لديه من قوة، لكن البابا كان خائفاً، ويخشى من أن يتبع كونراد خطى فردريك خطوة، خطوة، ويسير على طريقه في اضطهاد الكنيسة.

حول مصاعب سيمون إيرل ليستر

وصل في هذا العام، سيمون دي مونتفرات، ايرل ليستر، الذي عانى من كثير من المشاكل، إلى بوردو، حيث وجد بأن مؤامرة سرية قد حيكت ضده، وأن كثيراً من سكان المدينة شرعوا بإبداء العداوة ضد سلطته، وبإحياء الخطط القديمة، وبحبك خطط أعمال خيانية جديدة، ولذلك وجد أنه من الضروري الدخول بمخاطر الحرب من جديد، ومواجهة حظوظ الموت، حسبما سوف يظهر في الصفحات المقبلة.

وفاة المعلم جون أوف بيزنغستوك

وفي هذا الوقت نفسه أيضاً، حتى لاتأتي الشرور منفردة، بل مصاحبة، غادر طريق الجسد كله المعلم جون أوف بيزنغستوك Basingstoke, رئيس شمامسة ليستر، وكان رجلاً له كفاءة عالية، وخبرة في ثلاثة مناهج اختصاصات، لابل في أربعة مناهج

اختصاصات، في مجالات الدراسة، وكان متعلماً تماماً وعارفاً بالاغريقية، وبالأدب اللاتيني، وبذلك ازدادت أحزان وأسى الايرل المتقدم ذكره، وكان المعلم جون هذا قد أخبر روبرت، أسقف لنكولن،بأنه عندما كان يتابع دراساته في أثينا قد شاهد، وأيضاً سمع من بعض العلماء الإغريق، عن بعض الأشياء غير المعروفة باللاتينية، وكان من بينها أنه اكتشف أسفار البطاركة الاثني عشر، أبناء يعقوب، الذين من الواضح أنهم كانوا جزءاً من الكتابات المقدسة، كان قد جرى اخفاءه من خلال مكر اليهود، وذلك بسبب وضوح النبوءات المتعلقة بالمسيح، والظاهرة فيهم، وبناء على ذلك، بعث الأسقف المذكور إلى بلاد الاغريق، وتمكن من الاستحواذ عليهم، وقد ترجمهم من الاغريقية إلى اللغة اللاتينية، ومعهم بعض الكتابات الأخرى، وعلاوة على ذلك أدخل المعلم جون الأرقام الاغريقية إلى انكلترا، وعلّم رفاقه الأقربين استخدامهم، وبيّن أهميتهم، وبهذه الأرقام جرى تقديم الأحرف أيضاً، وماهو مدهش بشكل رئيسي فيهم هو أنه بوساطة حرف واحد فقط، يمكن تقديم أي رقم، الأمر الذي ليس موجوداً في اللاتينية أو في النظام العددي، كما أن المعلم جون المتقدم ذكره، قد ترجم أيضاً عملاً من الاغريقية إلى اللاتينية فيه جميع قواعد النحو قد عرضت بشكل محكم، وهو مادعاه المعلم المذكور بـ Donatus of the Greeks.

كما أنه صنف عملاً آخر، فيه جرى شرح أدوات الجمل بوساطة التمييز الذي يبدأ هكذا «هيكل الرب»، والذي هو مفيد كثيراً.

وترجم هو أيضاً عملاً آخر، حصل عليه من أثينا، لأن الأناس المتعلمين من الاغريق كانوا يتابعون هناك دراساتهم، وأن الحكمة خالدة، وحسبما يقول الكتّاب المتعلمون عنها: «أنا خلقتُ من البداية، وقبل جميع العصور، وسأبقى حتى النهاية من دون اخفاق»، واسم أثينا هذا مشتق من حرف الألف، الذي يعني «من دون»، ومن كلمة

(Thanatos), التي معناهـا «مـوت»، وبالمحصلـة إن المعنى هو «خـالد»، وقد برهن في هـذا العمل ترتيب الأناجيل، كما أنني ينبغي ألا يفوتني ذكر أن ذلك المعلم المذكور، كان بالعادة هو صديق لي، أنا كاتب هذه الصفحـات، وقـد أخبرني بأنه: كـانـت هناك امـرأة شـابة، هي ابنة رئيس أسـاقفة أثينا، وكـان اسمها قسطنطينا، ولم يكن عمـرها يزيد على العشرين عاماً، وكانت تتمتع بكل الفضـائل، وقد تعلمت كل مصاعب المنهاج الثـلاثي والرباعي، ونظراً لما تمتعت به من علم ومعرفة مـدهشة، كان المعلم جون يدعوها بشكل مسـوغ باسم كاترين أخرى، أو ببساطة كاترين، وقـد كانت هي معلمـة المعلم جون، وكل الأشيـاء الجيدة التي حصل عليها عن طريق العلم، كـان قد التمسه منهـا، فهذا ما قـد أكده مـراراً، مع أنـه درس لمدة طويلة في باريس، وكـانت هـذه المرأة الشـابة تتنبأ، بالأوبئة، وبالعـواصف، وبالخسـوف والكسوف، ومـاهو مـدهش أكثر، بالهزات الأرضية، ولذلك كانت تقدم انذارات مبكرة لاتخطىء إلى جميع المستمعين إليهـا، ولكن دعونا نعـود من هذا الاستطراد إلى صلب موضوع روايتنا، ونتابع حكاية مشاكل وهموم سيمون، ايرل ليستر.

كيف أن الإتهام الأول ضدّ الإيرل سيمون قد تبعه إتهام آخر أكثر جدية

انتشر في هذا العام نفسه تقرير شريـر ضد سيمون ايرل ليستر، وجرى تقديم شكوى فيها تهمة جادة ضده، عرضت أمام نبلاء مقاطعات ماوراء البحـر، مـن أنه عمل بشكل غـادر ضـد الرعـايا المخلصين لمولاه ملك انكلترا، وأنه سجنهم، وقتلهم بصورة لاإنسانيـة بالسيف، أو أنه أجاعهم حتى الموت، وأنه استولى على ممتلكات قـلاعهم وأراضيهم، وبذلك أظهر نفسـه أنه كـان مغتصبـاً متـوحشـاً للبلدات والمدن، ومـدمـراً لاإنسـاني للإنسـان، وليس محافظاً على أتبـاع مـولاه، الذيـن سعى إلى تجريدهم من مواريثهم، وبناء عليه تقـرر بموافقة عامـة من قبل جماعة غسكوني كلها،

إرسال رسل خاصين إلى مولاهم ملك انكلترا، عليهم أن يأخذوا معهم، بمثابة برهان على هذا الاتهام، رسائل من جماعات مدن غسكوني، ومن النبلاء، ومن شحن القلاع، والنواب، وأن يقدموهم إلى الملك مع شكاويهم، وتقرر أيضاً باتفاق عام، بأنه يتوجب على جميع الشخصيات الرفيعة في تلك المقاطعة أي رئيس الأساقفة في بوردو مع بعض النبلاء الآخرين المشهورين، الذهاب إلى انكلترا، إلى الملك بكل سرعة، لأنه من الممكن تصديقهم أكثر من سواهم، وبذلك يسببون الاضطراب للايرل، وعندما جرى اخبار الإيرل بهذا، بذل قصارى جهده لكي يعود بكل سرعة إلى انكلترا، حتى يتمكن من إجابة الملك بشكل مقنع عن جميع قضايا الشكاوى التي رفعت ضده من قبل متهميه.

حول إخضاع ويلز إلى القوانين الإنكليزية

وفي هذا الوقت نفسه، عبر اللورد ألان دي زوك Alan de, Zouch المسؤول عن العدالة في مقاطعات ويلز المجاورة لشيستر، بدير القديس ألبان، في عشية يوم عيد أحد الشعانين، جالباً معه في عربات، إلى خزانة لندن، مبلغاً كبيراً من المال، جمعه من الموارد الملكية، وأعلن بشكل مكشوف أمام جميع مستمعيه بأن ويلز خاضعة ومستقرة بشكل سلمي في ظل القوانين الإنكليزية، وأعطى أسقف بانغور Bangor, الذي قدم أيضاً إلى دير القديس ألبان الرواية نفسها أيضاً، وجرى أيضاً في الوقت نفسه انتخاب المعلم رالف، الكاهن في كنيسة لنكولن أسقفاً لموري Murray, في سكوتلندا.

كيف قدم نبلاء غسكوني إلى إنكلترا للشكوى ضد طغيان الإيرل سيمون

قبل عدة أيام من أحد الشعانين من العام نفسه، قدم إلى انكلترا من غسكوني رئيس أساقفة بوردو، وبعض النبلاء من راؤل Reole,

ومن مدن غسكوني الأخرى، وقد جاءوا عبر الماء حتى لندن، حيث وجدوا الملك قد وصل قبلهم، وقدموا شكوى محزنة حول طغيان ايرل ليستر، بعدما أرسل ليكون المتولي عليهم، واتهموه بأعظم غدر يستحق التحقيق به، ولم يثق الملك —على كل حال— فوراً بكلامهم، لأنه وجدهم من قبل غدارين عندما كان في غسكوني، فأرسل إلى هناك نيقولا دي مولي Molis, وكان فارساً، ودرو دي فالنيس Dreux de Valence, ليتقصيا المعرفة فيما إذا كان الغسكونيين مجرمين أم أبرياء، وفيما إذا كان هنري دي وينغهام Wengham, على وفاق وعلاقة صداقة معهم أم لا، وعما إذا كانوا يرفقون صراخهم بأفعالهم أم لا، وأنه ينبغي ايضاح جميع هذه النقاط ببينات أحسن العارفين بهم، الأمر الذي أزعج الايرل سيمون كثيراً، ولاعجب في أنه فعل ذلك، وتصرف هكذا.

بنود الإتهامات ضدّ الإيرل سيمون

وبناء عليه، عندما عاد المفتشان، أخبرا الملك بأن الايرل سيمون، قد عامل بعض الغسكونيين بشكل غير إنساني كبير، لكن وفقاً لما اعتقداه، كانوا يستحقون ذلك، وهو ما لم —على كل حال— يستطيعا برهنته، بسبب غياب الايرل،ولدى سماع هذا قال رئيس أساقفة بوردو والغسكونيون الذين كانوا معه بحضور الملك، بغضب شديد: «إن برهان الحقيقة سوف يجري ذكره من دون اخفاق، وبعد البرهان نطالب بالحكم»، وأعلنوا مقسمين أنهم سوف لن يطيعوا مطلقاً، أو يخدموا ذلك الايرل المبيد، وأنهم بدلاً عن ذلك، سوف يختارون سيداً آخر لهم، غير ملك انكلترا، وبما أن الايرل جرى التشهير به إلى هذا الحد في بلاط الملك، وأخذت البراهين على سوء سلوكه تكسب التثبيت، بزيادة عدد الشهود، قدم مسرعاً تماماً إلى انكلترا، ولدى وصوله عرف اليوم الذي حدد له للرد على تهم خصومه، ولأنه شعر أنه بات في وضع صعب،

رتب هذا الايرل، أن يكون في ذلك اليوم موجوداً الايرل رتشارد، الذي كان مسروراً كثيراً للاضطراب الذي لحق بالغسكونيين، وايرل غلوستر، وكان صديقاً للايرل سيمون في هذه القضية، وايرل هيرفورد، وعدد كبير آخر من النبلاء، ورجال من المرتبة العليا، الذين كانوا لن يسمحوا بتعرض الايرل للخطر، بأي حال من الأحوال حول هذه القضية، لأنه كان يخشى كثيراً من الملك بتسرعه المفطور عليه، ولإيثاره المعروف للأجانب، من أن يأمر بالايرل، الذي كان من أصل نبيل، وكان من رعاياه الطبيعيين، فيعتقل، ويوضع بالسجن، إذا ما أدين بأنه خائن، وهذا أمر لن يسمح به بشكل مطلق، وعندما أعطى الايرل براهين كافية على براءته، وتمّ اسكات الفريق المخاصم ورفضه، تابع الملك الكلام ضده، لكنه عندما شعر بأن الايرل رتشارد والبقية كانوا مؤثرين للايرل سيمون، ولأنهم كانوا يدارون بالحكمة، لم يعد يتجرأ —مع أنه أثير لأن يفعل ذلك— على وضع القسوة الملكية موضع التنفيذ ضده، ومع ذلك استمرا يتراشقان الكلام، فأثارا غضب بعضهما بعضاً، وبسرعة استعادا ذكريات ماوقع منذ زمن طويل مضى، فقد ذكر الايرل —على سبيل المثال— كيف أنقذ الملك في سانتاغيو من مصائد الفرنسيين، وكيف أنه عندما كان على وشك الانطلاق إلى غسكوني للمرة الأولى، نصحه الملك بسحق الخونة، وكيف أنه أعطاه صكاً بتولي الوصاية على تلك البلاد لمدة ستة أعوام، وكيف أنه وعده بمساعدة فعالة وبالمشورة، الأمر الذي لم ينفذه، ثم أضاف قائلاً: «ولولا أنه كان مغطى باسمه الملكي وبمكانته، لكانت ساعة سيئة تلك الساعة التي تفوه بها بمثل ذلك الخطاب»، وهنا وجد الملك صعوبة في حبس نفسه ومنعها من الغضب، ومن ثم الأمر باعتقاله في مكانه، لولا أنه كان متأكداً تماماً بأن مثل هذا الإجراء سوف لن يسمح له به من قبل النبلاء، وعلاوة على ذلك أضاف الايرل قائلاً: «من الذي يمكنه أن يعتقد أنك مسيحي؟ أولم تعترف قط؟» فأجاب الملك: «لقد فعلت»، فاستأنف

الايرل يقـول: «لكن مـاهـي منفعـة الاعتراف من دون توبة وتكفير؟»، وكأنه قصد أن يقول: «إذا كنت قـد مارست قط الاعتراف، إنك لم تتب قط، ولم تقم مطلقـاً بالتكفير الصحيح، وعلى هذا الكلام ردّ الملك الذي ازداد غضبه أكثـر فأكثر اشتعـالاً قائـلاً: «إنني لم أندم قط على أي عمل مثل ندمـي الآن على السماح لك بدخـــول انكلترا، أو بتركك تضع بين يديك أية أرض أو مـراتـب شرفيـة في تلك البـلاد، التي سمنت بها إلى أحــد أنـك تمردت على سلطتي»، وهنا قطع أصـــدقــاء الطـرفين هذا الخلاف، وهكذا افترقا.

سبب الشر المتقدم ذكره أعلاه

ووقعت هذا الأشيـاء كلهـا بسبب عـدم استقـامـة الملك وعـدم استقـراره، إنما حتى نتمكن من متـابعـة هذا الموضـوع، علينا أن نعـود بروايتنا بعض الشيء إلى الوراء لـوقت قصير، في سبيل ايضـاح السبب، فمنذ سبعة وعشرين عـاماً انقضت، قام الملك، بناء على نصيحة نبـلائه، عن طواعية وبارادته بمفـرده، بالتنازل عن غسكوني إلى الايرل رتشارد، وأبحـر الايرل إلى هناك، وبعدمـا جعل الغسكونيين يرون الصك المثبت لدعواه، والذي تسلمـه من الملك، تلقى الولاء منهم، الأمر الذي قـاموا به عن طواعية، من قبل أنفسهم، وأدوا يمين التابعية له، في ذلك الوقت نفسـه، لأنه كـان آنذاك شـاباً، وصـاحب مظهـر جيـد، وجـديراً بكل التشريفات والاكـرام، وبعد مضي عدة سنوات، أنعم الملك ثانيـة بالبلاد نفسهـا على الايـرل نفسـه، وأعطاه صكاً بذلـك، لكي يكون التملك لها أكثر ثباتاً وضماناً بالنسبة له، وبعد مرور عدة سنوات، كـانت الملكة قد أنجبت للملك أول ولد كـان منتظراً منذ وقت طـويل، وبناء على إثارة الملكة وتحريضهـا، انتـزع الملك غسكوني من أخيـه الايرل رتشـارد، من أجل أن ينعم بها على ابنه البكر ادوارد، فألغى صكيـه الماضيين ومنحته، لكن الايرل رتشـارد رفض القيام بـالتنازل، معتمداً على امتيـازه، في أنه

لايجوز تجريده من ممتلكاته، وبناء عليه، عندما كان الملك أخيراً في غسكوني، وكان بعض الغسكونيين يتأرجحون، وفي حالة شك، لايدرون إلى أي من الاثنين يتوجب عليهم تقديم الطاعة، قام الملك وهو في حالة غضب شديد، فأمر الايرل بشكل قاطع بالتخلي عن صكية، وأن يعلن على الملأ تنازله عن دعواه في غسكوني، ولأن الايرل رفض بثبات أن يفعل ذلك، أمر الملك رجال شعب بوردو بأن يعتقلوه ليلاً، وأن يودعوه في السجن، وعلى هذا أجابه الغسكونيون من دون تردد، لكن بشكل سري، بأنهم لن يفعلوا ذلك مهما كان الأمر، أولاً بسبب شهرته، وأصله الملكي، وبسبب الولاء الذي كانوا قد أدوه إليه، وأيضاً بسبب ضعف الملك وتقلبه، أي خشية من أن يقوم فيما بعد بالندم لإقدامه على هذا العمل، ويعاقبهم جميعاً، ولم يعط الملك هذا الأمر إلى نبلاء انكلترا، لأنه كان متأكداً من أنهم لن يفعلوا ذلك من دون تداول كبير، وبما أنه أصبح ساخطاً مليئاً بالغضب، سعى إلى رشوة الغسكونيين بوساطة الهدايا، لأنه لم يستطع جعلهم يطيعون أوامره باعتقال الايرل بمثابة متمرد، وأن يضعوه في السجن، وكان الإيرل قد أنذر مقدماً في الليلة نفسها، فأخفى نفسه في دير الصليب المقدس، ومبكراً عند الفجر، قام بشكل سري ومفاجيء بالصعود على ظهر سفينة والعبور إلى انكلترا، وبما أنه لم يكن مجهزاً من قبل بالمؤن وبالأشياء الضرورية الأخرى، عانى من عوز كبير في البحر، ومن العواصف أيضاً، التي ثارت، وأبعدته عن طريقه الصحيح، وجعلت الرياح المتضادة تتقاذفه، وتعرض إلى مخاطر عظيمة، إلى حد أنه نجا بصعوبة من بين فكي الموت، ونتيجة لذلك عمل نذراً في وقت تعرضه للخطر، بأن يبني لعبادة الرب، ديراً لطائفة السسترشيان، وقد وفى بنذره هذا بالشكل الصحيح، حسبما تقدم ذكر ذلك في الصفحات الماضية، وألقى الايرل باللوم نتيجة لكل ماعاناه منه على الملك، وشعر بالفعل بأعظم الغضب ضده، كما أنه لم يتعامل بعد ذلك هو والملك بموجب

العلاقـات الأخوية والمشـاعر المتبـادلة، كما كانا من قبل، وعندمـا وجد الملك بأن الايرل قـد نجـا هكذا من سخطه، جمع وهو حـانق في قـرارة نفسـه نبلاء غسكوني، ولاسيما نبـلاء بوردو، وبعـدمـا ألقى خطاباً فيهم نأى بقلوبهم عن المحبـة وعن الـولاء والاخـلاص للايرل، وجـاء ذلك بوساطة عدد لايحصى من الخطابات الناعمـة، والوعود السخية، وأعلن بأنه —أي الايرل— كـان رجلاً شرهاً، وظـالماً للرعية التي كـانت تحت حكمه، وأنه كان الأكثر سخاء بوعوده، لكنه الأعظم شحاً في تنفيذهم، كما أنه أضـــاف أنه ألغى صكيـه، وأزال منحـــة غسكوني، وبذلك أزال ولاءهم له، وجـرد الايرل تماماً من دعـواه ومن حقه بالتملك، وفضـلاً عن هذا وعدهم بسيد أفضل، وبحـاكم أكثر رأفة، وأنهم إذا مافعلوا كما يرغب ويريد، فلسوف يتسلمون منه مبلغاً كبيراً من المال بمثابة مكافأة، وتقرر السعر أيضاً، وتحدد المبلغ بثلاثين ألف مارك، وهكذا أمكن إلزام الغسكونيين بالتنازل عن خضوعهم وعن ولائهم للايرل رتشارد.

وعندما أخيراً، كـان الملك على وشك مغادرة غسكوني، هكذا بشكل مهين، أعطاهم ضمانة بوساطة صك على الالتـزام بدفع المال والوفاء به، وتعهـــد بيمينه وبشرفـه بأن يفي بهذه الصفقـــة، لأنه اعتقـــد أنه يمكنه خداعهم بمثل هذه الوعـود الكبيرة، لكن المخادع وجد نفســه أخيراً قد وقع بالفخ، لأن الغسكونيين، احتفظوا بالورقـة المختومـة من قبل الملك في حـوذتهم، بمثـابة برهان على الصفقـة، وهكذا وياللأسف، إن العـار والخداع واضح على الجانبين، وكـان من المتـــوجب على مثل هذا الأمير العظيم عدم ممارسة الخداع، وكذلك لايجوز تعرضه للغش.

أما بالنسبة للايرل رتشارد، فإنه في الوقت نفسه، بعـدما جرى تقاذفه بين الأمواج الكبيرة، مما ألحق به ضرراً مستمـراً بصحته البـدنية، وصل أخيراً بكل صعـوبة كبيرة إلى ميناء في كـورنوول، وهو مجرد لامـال لديه ولاخيل، وطلب في ذلـك المكان، وهو حـــزين وكئيب، تـزويده بما هو

ضروري، من أتباعه في ذلك الجزء من أراضيه.

ولدى الفراغ من هذه القضايا، عاد الملك إلى انكلترا، بعدما عانى من جميع أنواع الخسائر، وعلى الفور استخرج المال من كل واحد من الأساقفة، في سبيل تلبية المطالب الوقحة للغسكونيين، وبما أنه ظل غاضباً على هؤلاء القوم، وكارهاً لهم، عيّن الايرل سيمون حاكماً عليهم، من أجل أن يقوم، وهو الرجل المشهور، والواسع التجربة في مسائل الحروب، بسحق عصيانهم المتجبر، كما أنه أعطاه صكاً، بأن يستحوذ على الولاية لمدة ستة أعوام، وأنعم عليه بعشرة آلاف مارك من خزانته الملكية، والتمس منه بالوقت نفسه، لابل فرض عليه أن يدوس عليهم، ويضعهم تحت قدميه، وأن يعاملهم بخشونة وقسوة، خصوصاً الذين هربوا من ظل سلطته، طلباً لحماية أنفسهم، والذين استخرجوا المال منه، ليس فقط بالطريقة التي تقدم ذكرها، بل بطرائق أخرى كثيرة، وبشكل خاص غاستون دي بيارد وأمه، التي كانت امرأة ضخمة، أو بالحري مثل التنين، مع عدد كبير آخر، وبناء عليه قام الايرل سيمون، الذي كان رجلاً مقاتلاً، وقوياً، وصاحب خبرة، بإطاعة أوامر الملك،وبفعله ذلك عرّض نفسه، وممتلكاته، وأتباعه إلى مخاطر البحر والحرب، وأنفق كل الذي استطاع أن يستخرجه من ممتلكاته بوساطة الضرائب، أو بيع الخشب الذي كان فيهم، أن ينفق على الضروريات لذلك المقصد، وفي نهاية جهوده هذه، كانت جائزته تلك التي تلقاها من الملك، ومن هذا الاستطراد المختصر لأخبار الوقائع، بات واضحاً لماذا لم يحزن الايرل رتشارد، أو لم يهتم، حول خسائر الملك، أو اضطراباته في هذه القضية، وعلى كل حال، إنه مهما تفاوتت وجهات النظر والتفاسير، يمكن القول فقط بأن الملك قد تغير، وأصبح مؤثراً للغسكونيين، الذين كان قد عانى من مكرهم، وأبعد عن حظوته الايرل سيمون، الذي خدمه باخلاص في كثير من قضايا الريبة والأزمات.

لكن دعونا نعود من هذا الاستطراد إلى موضوع روايتنا.

كيف جرى اتهام الإيرل سيمون بعنف شديد من قبل الغسكونيين

عندما جاء الايرل سيمون بكل سرعة من غسكوني، وجد الملك في لندن، لكنه لم يتلق التحية كما ينبغي، ولم يستقبل بالتشريف من قبله، بل على العكس وقف خصومه، رئيس أساقفة بوردو ورفاقه ثابتين ضده، وكأنهم كانوا متحالفين مع الملك، ونظروا إليه نظرات مسمومة، واتهموه بالكلمات التالية: «في المقام الأول، يامولانا الملك، والايرل رتشارد، سوف نريكما أنتما مع بقية النبلاء، الذين هم حاضرون هنا، لصالح الملك، التواكيل المعتمدة، التي جلبناها معنا من جميع نبلاء غسكوني، الذين هم رعايا مخلصين للملك، ومن الفرسان، ومن المواطنين، ومن العقائل العفيفات، ومن السكان الذين أنابونا بشكل عام بالتحدث وطرح شكاويهم، وإننا بناء عليه نحن جميعاً نتقدم بالشكوى بالإجماع ضد سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر، الذي تولى حكومة غسكوني، لكن الذي بحدة عدو، وشدته، يقوم باجتياحها، وايصالها إلى الدمار.

وعلاوة على ذلك، إنه بالنسبة إلى الذين منحهم الايرل رتشارد (الذي كان ومابرح متفوقاً كثيراً على الايرل سيمون) لمدة طويلة حياة سلام، والذين جرت معاملتهم في الأزمان المتأخرة بلطف وبسلام، لابل حتى بودّ وصداقة من قبل هنري دي تروبفيل Trubeville الذي كان بموجب تفويضك قهرمان غسكوني، والذي كان وصياً متعاطفاً وعادلاً علينا، والذين أيضاً عوملوا بطريقة لطيفة مماثلة من قبل ويلران Waleran الألماني، الذي كان رجلاً مستقيماً وحكيماً، هؤلاء أنفسهم هم الرجال الذين يتولى الايرل سيمون التضييق عليهم،

ودفعهم إلى الدمـــار مما ســـوف يسبب خســـارة كبيرة، وأذى عظيماً إلى صاحب الجلالة الملك.

فضلاً عن هذا، لقـد ألغى الأحكام والمراسيم المكتوبة، العـائدة لكثير من النبـلاء، وأرسـل رجـالاً من ذوي المراتب العـاليـة في بلادنا، ومن الرعايا المخلصين للملك، بمثابـة أسرى إلى فرنسا، حتى يسجنوا هناك، وذلك تحدياً لنا، ولإلحاق الأذى بالملك، وقـد هلك بعض هؤلاء النبلاء بالسجن، من الجوع ومن وزن سـلاسل قيـودهم، كما أنه استخـرج من النبلاء المذكـورين مبالغ كبيرة من المال، مما ألحق أضراراً لايمكن جبرها بالملك، وهو لم يخبره بها، أو يسمح له بالمشاركة بالمال، وقام أيضاً بشكل غـادر باستدعـاء كثير من الرعايا المخلصين للملك، وذلك تحت مظهـر عقد مقـابلات سلمية، فصاروا مثل بـائسين تعساء، لأنه اعتقلهم، ومن ثم أعـدمهم، وبالاضـافـة إلى هذا كله، طـالب بتسليم القـلاع من أجل استخدامـات الملك، لكنه قام بشكل غـادر ودنيء بالاحتفاظ بملكيتهم، وكأنهم كانوا قـلاعه، وألقى بالسجون ولاتهم، الـذين سلموه إياهم عن حسن نية، وبإرادة طيبة».

رد الإيرل سيمون على الإتهامات

ورد الايرل سيمـون على الاتهامـات المذكـورة أعـلاه من دون تردد، بأنهم، أي الذين اتهمـوه، ليسـوا مـوضع ثقـة، ولايجوز تصـديقهم، لأنه عندمـا كـان الملك، في حـالـة طوارىء كبيرة، فكر أن يجد فيهم رعـايا مخلصين وأصدقـاء، فاكتشف أنهم دجـالين، وأعداء دمويين، وقـال: «لقد برهنتم في الحقيقة، أنه لاشهادتكم ولاحكمتكم مما يتوجب الاعتماد عليه، ومن الممكن أن يكون قد حدث أنه وجد في مقاطعتكم، بعض الذين، قد منحهم الايرل رتشـارد، والنبـلاء الآخـرون الذيـن جـرى تعيينهم ولاة عليكم، قد جـرى منحهم السلام والحيـاة، لأنهم تظاهروا لبعض الوقت أنهم أبناء السلام، لكنهم عندما قامت الفـرصة، ثاروا، وأصبحوا فيما بعد

أبناء جهنم، واستحقوا فقدان حق الادعاء بالسلام والحياة، فلماذا كان علي أن أفعل غير الذي فعلته؟ وصدقاً، لقد كان ذلك واجبي، فالرب عمل هكذا، وهو الذي أكثر عدلاً من أي إنسان، فالذين حافظوا على السير في طريق العدل توجهم، وعاقب الذين عادوا إلى ذنوبهم، وهكذا إنني لم ألحق، بأي طريق من الطرق، الأذى بأسلافي، ولاتكم المعينين، ولابالملك نفسه، في هذه القضية، وفي سبيل البرهنة على صدق هذه التأكيدات، أنا جاهز، في الوقت المناسب، لتقديم شهود أكثر عدداً، وأعظم جدارة بالتصديق منكم، لكن هل تريدون شهوداً حول هذه المسائل؟ فالملك نفسه، إذا مااعترف بالصدق، سوف يكشف نواياكم الشريرة، فهو قد نظر خلال زيفكم، وفيما يتعلق بقضايا الاتهامات الأخرى، التي تقدمتم بها ضدي، إنه ليس بوساطتكم، بل بوساطة أشخاص أكثر ثقة، سوف يتم جلاء الحقيقة، لأنه لايمكن وضع الثقة في القوم الخونة»، ثم إن الايرل رتشارد والنبلاء الآخرين، الذين تعلموا بالخبرة في غسكوني، وتعرفوا إلى مكر الغسكونيين، صادقوا على كلام الايرل سيمون، ولم يضعوا أدنى ثقة بالغسكونيين، ولم يصدقوهم.

الأذى الذي أنزل براعي دير رامسي من قبل الملك

وفي هذه الأونة أيضاً، قام الملك الذي كان مهتماً بالحصول على المال بمختلف الطرق، أكثر من اهتمامه بأن يصبح إما موائماً، أو موافقاً، بالعمل، بناء على نصيحة روبرت باسليف Passeleve, بازعاج راعي دير رامسي Ramsey, في امتلاكه لسوق القديسة حواء Ives, مع أن راعي الدير المذكور كان متملكاً لهذا السوق، من دون أية اعتراضات على ادعائه وحقه، منذ عصور سحيقة، ومع أن راعي الدير المذكور قد عرض صكوكاً أصيلة، من القديس ادوارد، الذي يبدي الملك نحوه عاطفة خاصة، وأيضاً من قبل القديس أولستان Ulstan تأييداً لادعائه وحقه، إنه مع هذا كله لم يخف الملك من إلغائهم، وفي

الحقيقـة، كـان هذان القـديسان قـد تفـوها، بالاتفـاق مع عـدد كبير من الأساقفة المقـدسين الآخرين، بقرارات وأحكام مرعبـة بالحرمان الكنسي، ضـد جميع الذين يخرقـون حرمـة صكوك امتيـازات دير رامسي (وبشكل خاص مـايتعلق بالسوق المتقدم ذكـره أعلاه)، لكن الملك أعلن، بناء على مشورة شريرة، وبيّـن لصالح نفسـه، أنه تبعاً لصكوك راعي الـدير، كان من الممكن الحفاظ على السوق، وابقائـه بشكل قانوني، حتى أيام القديسة حـواء، وليس بعــد ذلك، كما ادعى ملكيـة الطريق القــائم بين الشــارع والنهر، مع أن راعي الدير، قد تملكها بسلام بموجب امتياز قديم، وكان أي تأخير لاجتماع التجار هناك بعد ذلك اليوم، لن يعزى إلى الملك، ذلك أنه رغب بالإبقاء على ذلك السوق وعلى أجـوره من أجل منفعته الخاصة من دون أية معارضة، مما كان سيتحول كله بشكل واضح لأذى وخسارة راعي الدير، وكان ذلك لايتوافق مع المنطق ومع النوايا الطيبة للمعطيين، الذين رغبـوا بوجـوب استقبـال الكنيسـة حشـوداً كبيرة، وأعطيـات غير مـادية، وهكـذا حـدث أن عـانى دير رامسي النبيـل من مثل ذلك الأذى الكبير، وكان أفضل بالنسبة له لو أنه فقد أياً من عزبه.

حول الخطر الذي أحاق بكنيسة القديس إدموند

ووفق الطريقـة نفسها، تهددت خسـائر كبيرة الكنيسة النبيلة للقـديس ادمـونـد الملك والشهيـد، حيث نشب خــلاف، تعلق بعـزبة مــايلدنهول Mildenhall, ولكي نعرض ماحدث باختصار، لقد بات العالم الآن يميل إلى السلب والاغتصــاب، حتى أن أي واحـد كـان يمارس أي عمل من الاستخراج، على الرهبان، ظهر وكأنه يستحق المكافأة وليس الملامة.

حول الخلاف الذي نشب حول كنيسة فليمستد

وفي حـوالي أيام عيـد الفصح من العـام نفسه، مـات رتشـارد، الذي كنيتـه دي ثوني Thony, وكـان خـازن أنجو، ورجـلاً مشهــوراً

بأصله وبفضائله، وكان قريباً للملك سكوتلندا، وأخاً من جانب الوالدين معاً للفارس النبيل رالف دي ثوني، ولأنـه كان بحوذته كثيراً من الموارد في مملكتي فرنسا وانكلترا، أصبحت كنائسه عند وفاته شاغرة، وكان من بين الكنائس التي شغرت كنيسـة فليمستد Flamstead, التي لم تكن بعيـدة عن كنيسة القـديسة ألبـان، وقامت الملكة بناء عليـه، بحكم الوصـــاية التي أعطـاها إياها الملك، على أراضي رالـف دي ثوني، الذي كان في أعطيتـه الكنيسة المذكورة، بالإنعـام بالكنيسة نفسهـا على قسيسه وليم، الذي كان كاهناً من كنيسة القديس ألبان، وذلك بسبب أن كنيسة كنّبل Kennebell قـد أنعم بها عليه من قبل راعي دير القــديس ألبـــان، وقـد فعلـت الملكة هذا، اعتماداً على حقهـــا، لأنها تولت لسنين طويلة تعليم —وهذا قـد حصلت عليه بمثـابة أعطية من الملك اعترافـاً بالفضل— وريث رالـف دي ثوني المذكـور، الـذي كـان آنذاك طفــلاً، والذي إليـــه يعـود حق ولاية النعمـــة، وهكذا فإن حق العطيـــة آل إلى الملكة، وعندما سمع الملك بهذا، انفجـر غاضباً غضباً عظيماً قـائلاً: «إلى أي مـــدى يمكـن لتجبر المرأة أن يصل بها، فقط إذا سمح لها بـأخــــذ سبيلهـا»، وبناء عليه قـام بشكل غير لائق، وكـذلك غير عـادل، فألغى عمل الملكة وأبطله، وأنعم بالكنيسة المذكورة، التي بلغت مـواردها مائة مـارك، على كـاهن خـاص به، ومستشـار، اسمـه هيرتولد Hurtold, وكـان من أصـل بيرغندي، وقـام هذا على الفـور بطـرد وليم المذكـور، واغتصب الكنيسة، واستولى عليهـا على الفور، وعلى كل حال لم تتحمل الملكة هذا بسهولة، بسبب الأذى والإهـانة التي لحقت بها، وعلاوة على ذلك، عندمـــا وصل خبر هذا الإجـراء إلى علم أسقـف لنكولن، الذي وقعت في أسقفيته الكنيســة المذكورة، قام بانزال عقـوبة الحرمان الكنسي بحق هيرتولد المذكـور، وتولى بعد ذلك تعليق الكنيســة، وحرمـانها من شراكة المؤمنين، وبذلك لم يعد من الممكن دفن الموتى هناك.

موت روبرت باسليف

وفي السادس من حزيران لهذا العام، مات في وولتهام روبرت باسليف، رئيس شمامسة ليوي Lewes, الذي عنه كتب كثيراً في الصفحات الماضية، ومع أن روبرت هذا كان كاهناً، ورجل لاهوت، لم يتردد في وقوفه إلى جانب الملك، في العمل على إفقار كثير من الناس بطرق كثيرة ومتنوعة، في سبيل إغناء سيده، لكن أفاعيله لحقت به.

وفاة رتشارد دي ويندوفر

وفي حوالي الوقت نفسه، مات المعلم رتشارد دي ويندوفر Wendover, وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، وطبيباً صاحب شهرة واسعة، وأخذ هذا الرجل احتياطات لنفسه، بشكل أكثر حكمة، وبطرق أكثر عقلانية من روبرت المتقدم الذكر، ذلك أنه جهز الوسائل الضرورية لتسعة من الكهنة لتقديم أعطيات مفيدة للمسيح إلى الأبد، من أجل الحفاظ على الأرواح، ولقد رأينا من المناسب أن نعمل ذكر خاص له في هذا الكتاب، فبسبب اخلاصه الواضح وتقواه أهدى إلى كنيسة القديس ألبان صليباً، احتوى في داخله على عدد كبير من الآثار المقدسة، كما تبرهن على ذلك كتاباتهم المقدسة، وكان التمثال على الصليب من العاج، وكان جذع الصليب والذراعين، الذين يدعون معاً باسم Furcae, مغطيين بغطاء من العاج، وكان هذا الصليب عائداً من قبل إلى البابا غريغوري، الذي قدره تقديراً عالياً جداً، وبما أن المعلم روبرت المتقدم الذكر كان طبيبه، فقد قام هذا البابا عندما كان على حافة الموت، فأعطاه الشيء الذي كان موضع تقدير كبير جداً لديه، أي الصليب نفسه، أعطاه إلى صديقه العزيز، المعلم رتشارد.

كيف حصل أسقف لنكولن من البابا على سلطة إقامة قساوسة

خلال هذا العام، قام روبرت أسقف لنكولن، في سبيل التجاوز والتدخل بموارد الرهبان، ولكي يزيد من فئة القساوسة، فحصل من الكرسي الرسولي على الولاية التالية والتفويض الذي كان متوقعاً منذ زمن طويل:

«من أنوسنت، أسقف الخ، إلى أسقف لنكولن المحترم: بما أنه يوجد في مدينتكم وأسقفيتكم، كما سمعنا، بعض الرهبان مع آخرين يشكلون جماعات وبين أيديهم ممتلكات الكنائس الأبرشية، من أجل منافعهم الخاصة، وهي ليس فيها قساوسة معينين، أو إذا كان هناك بعض القساوسة، فعددهم قليل جداً، إننا نأمركم بموجب هذه الإجازة الرسولية، يا أخانا، العامل عوضاً عنا، وفي مكاننا، أن تعين قساوسة في الكنائس نفسها، اعتماداً على مواردها، وبعدما تتولى تعيينهم، أن تتولى زيادة إمكانات الذين هم فقراء، حسبما تجد الأمر مواتياً، ومتوافقاً مع إرادة الرب، وأعراف البلاد، دون التقيد بأن تكون تلك الفئات معفية، أو أنها محمية بوساطة أي امتياز رسولي، أو غفران وإعفاء، يمكن أن يشكل إعاقة لهذه الولاية، أو يؤخرها، والتي يتوجب عمل ذكر خاص لها في هذه العروض، وأن تضع جانباً جميع الالتماسات والمرافعات، وأن تضبط جميع المعارضين بالروادع اللاهوتية. صدر في ليون في هذا اليوم الخامس والعشرين من أيلول، في العام الثامن لبابويتنا».

وبناء عليه، تسبب الأسقف المذكور (كما قيل وكما هو واضح، صدوراً عن كراهيته للرهبان، أكثر من عاطفته نحو القساوسة، والارتقاء بهم) بموجب هذه الولاية بكثير من الخسارة والأذى إلى تلك الفئة من الناس.

كيف جرت إعاقة مشروع السلام بين البابا وبين شيعة فردريك

وفي هذا العام نفسه أيضاً، في حوالي أيام عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، عندما كان البابا مقيماً في بيروجيا، جرى إخباره بشكل سري، وبمثابة نصيحة تحذيرية، من قبل جميع الكرادلة، مع أصدقائه، أنه إذا لم تتم بسرعة تسوية الخلاف بينه وبين شيعة فردريك، الذين يتمتعون الآن بالحظوة لدى الشطر الأكبر من الامبراطورية، وإنهائه كلياً، فإن الكنيسة كلها، لابل في الحقيقة العالم المسيحي كله، سوف يتعرض للخطر، وللدمار، لأن كونراد بن فردريك محبوب، ويحتل مكانة حظوة عظيمة لدى جميع النبلاء، وكذلك بسبب سمو مكانة أصله، وللطفه الكبير، ولشجاعته التي لاتقهر في الفروسية، ولجرأته وبراعته في الحرب، وكان هنري، الابن الآخر لفردريك، وابن أخت ملك انكلترا، أيضاً مثله استحق عن جدارة نيل الحظوة، وحسن المكانة والعاطفة لدى جميع الحزب الامبراطوري، وذلك بسبب براءته، ومظهره الوسيم، ولحبه [الحزب الامبراطوري] للامبراطورة ايزابيلا، التي برهنت عن لطفها نحو الجميع.

وبناء عليه أخذ البابا بفكرة محاولة نيل حظوتهم ورضاهم وأن يجعلهم يتحالفون معه بوسائل الزواج من احدى الاناث من قريباته، حسبما بدأ يفعل في قضية النبلاء الآخرين، الذين أعطاهم حفيداته بالزواج، ولكن هذه الخطة أعيقت بسبب مرض كونراد، الذي —كما سلف القول— نجا بصعوبة بالغة من آثار السم الذي قدم إليه، وأيضاً بسبب مشاعر الرفض والغضب والمعارضة، التي قدمها أصدقاء الامبراطور، لهذه القضية، وعندما نجا كونراد من عتبات الموت، واسترد صحته، اتهم شيعة البابا بأنهم هم الذين خططوا لهذه الفعلة، وجلبوا ذلك الخطر العظيم إليه، وأسقط هذا إلى أعلى الدرجات الثقة باسم البابا، على أساس التأكيد بأن ذلك السم المميت قد أعطي له ليشربه بناء

على تحريضه (البابا)، كما تقدم بالمحاولة الغادرة التي عملت لأبيه (لاسمح الرب أن يكون ذلك صحيحاً)، ولهذا وبما أن قوة أذى البابا قد غدت أشد، بات واضحاً بأنه قد فقد الحظوة لدى كثيرين جداً.

وسلف أن قام توماس أوف سافوي، وهو قريب للبابا وصديق له، أن مهّد بحكمة السبيل ووفر الوسائل لترتيب سلام، لكن هذا المسعى أعيق بسبب الواقعة غير السعيدة، ونتيجة لذلك حدث هياج مميت، في كثير من أجزاء الامبراطورية، إلى درجة أن الذين كانت لديهم قضايا أعمال تتوجب عليهم ملاحقتها في بلاط روما، لم يعد بإمكانهم الذهاب إلى هناك من دون التعرض للنهب، وتمزيق أوراقهم، وتحطيم أختامهم، في تحد للبابا، ولإلحاق الأذى به، لأن أصدقاء فردريك، وبشكل خاص أصدقاء كونراد، قالوا بأن كونراد قد حرم كنسياً بشكل غير عادل، وهو بالتالي يمتلك الحق المسوغ بالتنكيل بالبابا، الذي حرمه كنسياً، وأن يكون ذلك بالنار والسيف، وبناء عليه صرف عدد كبير من الناس أنفسهم للنهب، وللحرق، وللقتل، ولهذا السبب فإن الذين أرادوا الذهاب إلى بلاط روما، آثروا السفر بحراً، للنجاة من المصائد التي نصبت إليهم، مع أنهم باختيارهم لهذا الطريق عرضوا أنفسهم للخسارة، وهكذا فإن أبانا البابا الذي اتبع خطوات قسطنطين، وآثرها على خطوات بطرس، سبب كثيراً من المصائب في العالم.

كيف جرى منح حق القيام بزيارة تفقدية جزئية إلى رئيس أساقفة كانتربري

قام الآن توماس أوف سافوي الذي تقدم ذكره أعلاه، والذي كان البابا مطيعاً لجميع ترتيباته، وبسبب محبته —أي توماس— لابنة أخيه [ملكة انكلترا]، ببذل قصارى جهوده لعمل ترتيبات فعالة، ليحول دون احباط أخيه رئيس أساقفة كانتربري، وليحقق رغبته بالقيام بزيارات

تفقدية في انكلترا، وهكذا جرى منح رئيس الأساقفة المذكور الاذن بالقيام بزيارات تفقدية، لكن الفوائد المالية التي كان سيحصل عليها بوساطة هذه الزيارات التفقدية جاءت محدودة، حيث اشترط من قبل بلاط روما صاحب الدهاء الكبير، أن يكون البابا هو المنتفع بوساطة أموال رئيس الأساقفة، وأنه ينبغي أيضاً أن لايخسر شيئاً مطلقاً، من الذي سيتمكن من جرفه من الفئة المضادة، وجرت كتابة الرسائل الأصيلة حول هذه القضية في كتاب Additaments.

كيف شفى طفل عدداً كبيراً من الناس المرضى

في هذا العام، كان قد عاش في بلدة في كنت اسمها ستون Stone, على مقربة من دارتفورد Dartford, طفل وصل إلى سن عامين في عيد تمجيد الصليب المقدس، وقد تمكن من عمل معجزات، (مع أنه غير معروف بقوة أية فضيلة تمكن من فعل ذلك)، وكان اسم والد الطفل وليم كرول Crul, واسم أمه يوستاتيا Eustatia, وكان اسم الطفل نفسه وليم حسب اسم أبيه، وكان هذا الطفل قد تمكن من شفاء جميع الذين كانوا مرضى، وذلك بعد رسم علامة الصليب من قبل أي واحد كان واقفاً هناك لمساعدته، وشمل الشفاء كل مرض مهما كان جاداً، وكانوا يعانون منه، وبسبب السمعة التي نالها عن طريق الذين شفيوا، فقد تدفق عليه جميع الذين كانوا يعانون من عجز أو مرض، في سبيل استرداد صحتهم، ورائع أن نذكر أنهم لم يخدعوا في الحصول على تلبية كاملة لجميع الذي رغبوا به، ولدى سؤال أم الطفل: كيف جرى اضفاء هذه المنحة على مثل ذلك الطفل الصغير، أجابت بأنها أخبرت سلفاً من قبل الرب بهذه الحقيقة، عندما كانت حاملاً، وكذلك بعد ميلاد الطفل، وعلى كل حال بما أن هذه القوة الأعجازية لم تدم لمزيد من الوقت، بل تناقصت في فعاليتها يومياً، ولم تعد تلاحظ بعد وقت قصير، ونسيت.

كيف تمّ صنع سلام بين راعي دير ويستمنستر والرهبان هناك

وفي هذه الآونة من العام، أي أن تقول في حوالي عيد صعود العذراء المباركة، لتنتهي الخلاف الذي استمر لعدة سنوات بين راعي دير ويستمنستر وبين رهبانه، والذي مضى يزداد يوماً بعد يوم، وجرت تسويته بسعادة، وجاء ذلك بوساطة تدخل الملك، الذي كان لديه احترام خاص إلى ذلك الدير وإلى كنيسته، وأثناء هذا الخلاف نال راعي الدير غضب الملك، ولذلك نال راعي الدير الخسارة في هذه القضية، فقد كانت هناك ثلاث عزب، كان راعي الدير، قد إستحوذ عليها من قبل لمدة طويلة، على الرغم من معارضة الرهبان، وشكاويهم، وقد جرى أخيراً تعيينهم لصالح الرهبان، في سبيل أن تزداد موارد الضيافة والإحسان لدير ويستمنستر، وعلى هذه الصورة جرى ترتيب القضية، بعد مداولات مستفيضة بين الايرل رتشارد، وجون مانسيل، ذلك أن الفريقين المتنازعين كانا قد وعدا بالالتزام بقرارهما، ولأن راعي الدير امتلك النية بالانسحاب من وعده، وتقدم بالتماس دعوى إستئناف ضد القرار، أصبح الملك ساخطاً كثيراً، وكدس على راعي الدير بطريقة غير لائقة الملامات والاهانات، مما هو غير موائم لذكره، ولم يتنازل بعد ذلك لاستقباله وفق شروط الصداقة الماضية، مع أن راعي الدير المذكور كان من قبل مستشاراً مقرباً كثيراً لديه، كما كان صديقاً كبيراً لجون مانسيل المذكور، وجاء ذلك على الرغم من أنه (الملك) كان هو الذي عمله راعي دير، لأنه أعلن أنه قد أفقر إلى أبعد الحدود دير ويستمنستر، وآذى الرهبان وظلمهم.

حول الإمتياز الملكي الذي منح إلى دير ويستمنستر

ثم قام الملك الآن صدوراً عن عاطفته نحو دير ويستمنستر، الذي عانى لعدة سنوات من كثير من الأذى والخسائر، فمنح إلى رهبان هذا الدير نفسه بكرم منه حرية التصرف، عندما يصبح منصب راعي دير

ويستمنستر شاغراً، وتدبير الممتلكات العائدة إلى ذلك الدير، إلى أن يجري تعيين راعي دير إليه، وكانت تلك الممتلكات يجري بالعادة الاحتفاظ بها من قبل الملك، ضمن ممتلكاته الخاصة، مما كان قد سبب خسارة كبيرة وأذى للدير، وفي سبيل الوفاء بهذا أعطى الصك التالي نصه إلى الرهبان:

صك ملك إنكلترا

«**من هنري الذي هو بنعمة الرب، إلخ، إلى جميع الذين سوف تصلهم هذه العروض، تحيات:** بما أن ممتلكات راعي دير ويستمنستر، وممتلكات رئيس الرهبان، مع ممتلكات المجمع الرهباني للمكان نفسه، منفصلة عن بعضها بعضاً، ورغبة منا بتزويدهم بالوقاية والهدوء، وبتزويد رئيس الرهبان المذكور مع الرهبان، بإسمنا نحن أنفسنا وبإسم ورثتنا، ومنحهم، أنه كما يحدث في الغالب، أن تصبح رعاية الدير شاغرة بسبب تخلي الرعاة أو استقالتهم أو وفاتهم، منحهم حرية إدارة ممتلكاتهم المنفصلة، مبقين لنا ولورثتنا، خلال وقت شغور ذلك الدير، العناية بالممتلكات العائدة للرعاة المتقدم ذكرهم، وشهادة على ماتقدم، إلخ، شهدتُ أنا نفسي في ويستمنستر، في العام السادس والثلاثين من حكمي».

وعملتُ هذه الوثيقة في دير القديس ادموند، حيث بقي الملك في وضع صحي سيء لقرابة ثلاثة أسابيع، مما سبب احراجاً كبيراً إلى ذلك الدير.

غضب الملك ضد راعي دير ويستمنستر

ثم إن الملك، خوفاً منه أن يسبب راعي ويستمنستر له سخط بلاط روما، بحكم أنه كان قسيس البابا، صار الآن واقفاً تماماً ضده، خاصة وأن راعي الدير المذكور قد ترافع بدعوى استئناف إلى البلاط المذكور، وكان هذا يعني توريط دير ويستمنستر بديون لايمكن سدادها، ولذلك كدس عليه الاهانات وإنهال عليه بالشتائم والاتهامات، التي كانت

بشكل واضح غير مدعومة بأية أرضية صحيحة، وكانت فقط صادرة عن الغضب، كما أنه أصدر إعلاناً، تولى نشره المنادون في جميع أرجاء مدينة لندن، قضى أنه لايجوز لأحد، بأي حال من الأحوال، تقديم أي مال إلى راعي دير ويستمنستر، ولا أن يبدي أية طاعة لمراسيمه وختمه، مما كان واضحاً أنه إهانة كبيرة إلى راعي الدير.

واعترت الدهشة إلى أقصى الحدود، جميع الذين سمعوا هذا الاعلان، وعجبوا كيف تحول راعي الدير من كونه أعظم أصدقاء الملك، فأصبح الآن هدفاً للكراهية والمقت، وفق الطريقة نفسها عندما تحدث الشاعر بلسان سيدة اشتكت من حبيبها:

كل نظرة على الآخر، بدت تسأل

بصمت: هل سافر حبنا وغادر؟

حول أخبار تتعلق بأحوال الأرض المقدسة

وانتشرت في الوقت نفسه بعض التقارير المتعلقة بأحوال الأرض المقدسة، إثر وصول الرسالة التالية، إلى راهب من طائفة الدومينيكان، كان اسمه وولتر أوف سينت مارتين، وكان قد نال من قبل شهرة كبيرة في الأرض المقدسة:

«إلى أخيه المحترم والمحبوب في المسيح وولتر أوف سينت مارتين، يرسل الراهب يوسف دي كانسي **Cancy**, الخازن المتواضع للدير المقدس للاسبتارية في القدس وعكا، التحيات (انظره في كتاب Additaments)، وكان مجمل محتوى هذه الرسالة هو كما يلي: «إن الهدنة التي طلبت من الملك الفرنسي من قبل المصريين الذين ضغط عليهم بشدة من قبل سلطان حلب، لم يتم ابرامها بعد، كما لايبدو أنها معروضة وفق شروط مواتمة، لأن المصريين قد ألقوا بمعيقات على الطريق، ومجدداً إن كامل المنطقة المحيطة بأنطاكية قد تعرضت للسلب

والنهب من قبل التركمان، وسكان تلك المدينة يفرون بحشود من خلال الخوف، ولهذا يقوم كثير من المسلمين، الآن بالتجول في المنطقة كما يريدون وفي أرجاء المناطق الخاضعة للصليبيين، ويجتاحون البلاد كلها بالنار والسيف، وقد اتخذوا مكان لجوء في موضع يدعى قيصرية الكبرى، وإن جميع هذه الشرور، قد تسبب بها سلطان حلب»، ولقد انتشرت هذه الأخبار في الخارج في بلدان ماوراء جبال الألب في الخريف.

أخبار أكثر قبولاً من الأرض المقدسة نفسها

وفي هذا العام أيضاً، قام بعض الرهبان من طائفة السسترشيان الذين كانوا عائدين من اجتماع الهيئة الرهبانية العام لطائفتهم، بنشر بعض التقارير الأكثر سروراً، حيث حصلوا على معلوماتهم من الكاردينال جون، الذي كان رجلاً انكليزياً، وكان يعرف بشكل عام باسم الكاردينال الأبيض، لأنه كان راهباً من طائفة السسترشيان، وكان قد أرسل رسالة إلى هيئته الرهبانية العامة، بوساطة راهب من الطائفة نفسها، كان فحواها هو كما يلي: «بما أن الكراهية والعداوة القائمة بين سلطان مصر وسلطان حلب ازدادت يومياً، وبناء عليه تولى الذين ظهروا بأنهم المقدمين والرجال الرئيسين بين المصريين، فأرسلوا رسالة مستعجلة وضاغطة إلى الرجل الذي كان إما هو سلطان مصر، أو بين يديه سلطات ذلك السلطان، وأعلنوا أنه بات من الضروري تماماً بالنسبة لهم إقامة سلام، أو ترتيب هدنة مع الملك الفرنسي، لأن جيشه ازداد بشكل كبير جداً، ولقد تضخم مثل جدول في الوادي عندما ذابت ثلوج الجبال، وقالوا له: إننا إذا لم نفعل ذلك، سوف نهاجم ونقهر، إما من الجهة الأولى من قبل سلطان حلب، أو من الجهة الثانية من قبل الصليبيين».

وبناء عليه جرى ترتيب المسائل، بناء على موافقة عامة، بعقد هدنة مرضية إلى كلا الفئتين، وهكذا تمت الموافقة على هدنة لمدة خمسة عشر

عـامـاً، وجـرى الاتفـاق في هذه الهدنة على وجـوب أن يصبح الملك الفـرنسي صـديقـاً لسلطان مصر، وحليفـاً ومستشـاراً أثناء تعـرضـه للاضطرابات، خـاصة ضـد سلطان حلب الذي كان يستهـدف تدميره، مبقيـاً إلى الملك الفـرنسي وإلى الذين هم رعيـة له من الصليبيين التقـدير والاحترام كله، وعـلاوة على ذلك ينبغي عليهم اقتسام كل شيء سـوف يربحونه من سلطان حلب، إذا مـادخلوا بحرب ناجحة ضـده، وكذلك مـاسوف يربحـونه من حربهم ضـد أي أعداء آخـرين لهم، وجميع أنواع الغنائم والأسلاب التي سيحصلون عليهـا، وأيضاً اسقاط أي مبلغ بقي وتوجب دفعه من أجل فدية الملك الفرنسي، وأن يحررونه منه تماماً.

وكـانت كمية المبـالغ المطلوبة لفـدية الملك المذكـور، تقريبـاً لايمكن تعدادها، وكـانت في الحقيقة عشرة أضعاف الذي اعتقد أنها كـانته، وقد أبقيت سرية، خشية أن يكون هناك يأس من دفعهـا، كما تمّ الاتفاق على أن كل الذي يمتلكه سلطان مصر في الأرض المقـدسة، تتوجـب إعادته إلى الملك الفـرنسي مـع العبيـد الصليبيين (لأن الأسرى الصليبيين هكذا جرى عدّهم من قبل آسريهم).

عدم ثقة الكثيرين بخصوص شروط الهدنة

عندمـا جـرى اقتراح هذه الشروط من أجل الهدنة أو السـلام، كـان هناك بعض الذين ترددوا في قبـولهم والموافقـة عليهم، بناء على تحريض من الشيطان، وشعـروا بسخـط عظيم في قلوبهم، قـائلين: «العلي الأعلى يمنع ملك فـرنسـا، أعظم الملوك وأكثـرهم نبـلاً على الأرض، وخليفـة شـارلمان الـذي لايقهـر، والذي مسح بالميرون السماوي، يمنعـه من أن يصبح مـرتزقـاً، أو رجـلاً مثل كلـب، لابل كلبـاً لاإنسـاني»، لكن هذا التجـديف كـان مجرد غمغمـة وهيـاج التجبر والتفـاخـر الفطري لدى الفرنسيين.

كيف وافق الملك الفرنسي على شروط الهدنة المعروضة

وكان الملك الفرنسي، مدركاً على كل حال، بأن أخويه الباقيين قد تخليا عنه، ولم يكن خافياً عليه أن نبلاءه الفرنسيين قد استخفوا به، ولذلك تواضع في روحه، وأعطى موافقته على الهدنة التي طلبت منه، ووافق أيضاً على الشروط المقترحة، وبناء عليه أزيح كل الغضب وجميع العداء بين الفئتين، ووضع جانباً، وتمت إعادة جميع مناطق مملكة القدس من على هذا الجانب من الأردن، التي كانت موضوعة تحت سلطة المصريين إلى الملك الفرنسي، من دون إعاقة، وذلك مع جميع الأسرى الصليبيين، الذين يطلق عليهم بشكل عام اسم عبيد، وجرى أيضاً عقد حلف منيع بموجب الموافقة العامة للفئتين، بأن عليهما مضايقة سلطان حلب بالنار والسيف، ومن دون رحمة، على أساس أنه عدوهما المشترك، والمضي بالعمل حتى تدميره، وأن عليهما أن يقتسما بالتساوي بينهما أية غنائم سوف يحصلون عليها، وبناء عليه قام هذان الأميران: ملك فرنسا من هذا الجانب، وسلطان مصر من الجانب الآخر، بشنّ الحرب على سلطان حلب، ومحاربته، وبمقاتلته من اتجاهين، بمثل ذلك النشاط، كان سلطان حلب، غير قادر تماماً على مقاومتهما، وكان جيش الملك الفرنسي قد ازداد الآن زيادة كبيرة جداً وتقوى بوساطة ملك قبرص مع آخرين كثر قدموا في الوقت المناسب إلى مساعدته، وهكذا حدث أنه بفضل الرب «الذي يقاوم المتجبر، لكن يظهر الحظوة نحو المتواضع»، أن تقدمت الحرب بين يدي الملك، وكنا قد جمعنا بعضاً من هذه المعلومات، إن لم يكن كلها، من الرسالة المختصرة التالية.

الرسالة المتعلقة بالهدنة المذكورة أعلاه

«إلى الأب المبجل في الرب، رتشارد أسقف شيستر، يرسل وليم الذي هو بالنعمة الربانية نفسها، القسيس الحقير لأورلين، تحياته مع جميل التبجيل والتشريف، وهو على استعداد لأن يفعل كل مايرضيه بحكم أنه

مـولاه وأباه: نقـدم إليكم فيما يلي باختصـار، وبشكل مكتـوب الأخبـار القادمة من بلاد ماوراء البحر، والتي هي كما يلي: عمل صاحب الجلالة ملك فرنسا الأعظم نبلاً هـدنة لمدة خمسة عشر عاماً مع المسلمين، وتمت إعـادة جميع مناطق مملكة القدس الموجـودة على هذا الجانب من الأردن إلى الملك، مع جميع الأسرى الصليبيين، الذين يعرفـون بشكل عام باسم العبيـد، كما جـرى إلغـاء رصيـد المبلغ المتبقي للمسلمين من فـديتـه من أسره، وكان مبلغ الفدية خمسين ألف مارك من الفضة.

حول الاجتماع بين الملك الفرنسي والسلطان

وحدث في أحد الأيام بعد تثبيت الهدنة المذكورة أعلاه، أن تمتع الملك الفرنسي وسلطان مصر باجتماع كـان منتظراً منذ وقت طويل، وعبر كل واحـد منهما، بوسـاطة مترجمين موثقين عن رغبـاتهما المتبادلة، وجعـلاها معـروفـة فيما بينهما، وجـاء ذلك عندمـا بدأ السلطان بهدوء وبمـلامح مشرقـة القول: «كيف أنت يامـولاي الملك»؟ وعلى ذلك رد الملك وهو حـزين وبمـلامح كئيبـة: «أنا حسـن ومـريض أيضـاً»، فسأله السلطان: «لماذا، ألاتعرف الجواب؟ حسناً ماهو سبـب حزنك»؟ وعلى هذا أجاب الملك: «إنني لم أحصل على الذي كان رغبتي الرئيسية، والتي من أجلها تركت أمي الحبيبـة، التي تبكي الآن بصـوت مـرتفـع من أجلي، ولقـد عرضـت نفسي أيضاً إلى مخاطر البحار والحرب»، وتسـاءل السلطان عما يمكن أن يكون الهدف الذي تشوق إليـه كثيراً وإلى هذه الدرجة، ثم إنه قـال: «ومالذي كـانته، أيها الملـك، رغبتك التي تشوقت إليهـا إلى هذه الدرجة»؟ فأجـابه الملك: «إنها نفسك التي ادعى الشيطان أنها عـائدة له حتى يلقي بها في قعـر جهنم، لكن أبداً، بعـون يسـوع المسيح، الذي يرغب بانقـاذ جميع الأرواح، سوف لن يتفـاخر الشيطان بالحصـول على مثل تلك الغنيمـة الكبيرة» وأضـاف قـائـلاً: «إن العلي الأعلى، الذي لايجهل شيئاً، يعرف لو أن العالم المرئي هو كله ملكي، إنني سوف أتخلى

عنه جميعه من أجل انقاذ الأرواح»، ثم قال السلطان: «وهل كانت هذه نيتك ياملكي الصالح في اقدامك على القيام بحجك الكبير؟ إن جميع الشرقيين يعتقدون أن ذلك كان صدوراً عن رغبة الشره والطمع في الاستيلاء على بلادنا والاستحواذ عليها، وأن ذلك لم يكن من أجل انقاذ النفوس، فكل الذي طمع به جميع صليبيوك وتشوقوا للانتصار علينا، في سبيل الاستحواذ على تملك هذه البلاد والتحكم بها»، وعلى هذا أجاب الملك: «إنني أدعو الرب القدير، ليكون شاهداً بأنني لم أهتم مطلقاً بالعودة إلى مملكتي في فرنسا، إذا ماتمكنت من نيل روحك وأرواح جميع بقية الكفار لصالح الرب، حتى يمكن أن يتمجدوا فيه»، وعندما سمع السلطان هذا قال: «إن هذا مانأمل به باتباع شرائع محمد صلى الله عليه وسلم، وبالحصول على التمتع بالسرور الأعظم في الحياة المقبلة»، وعلى هذا الكلام رد الملك الأعظم تقوى قائلاً: «أنا لايمكنني أن أعجب بما فيه الكفاية، كيف يمكن لأناس حكماء ووعاة مثلكم أن يؤمنوا بالدعي محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي علم وسمح بكثير من الأعمال غير الطاهرة وغير الأمينة، لأنني قد رأيت قرآنكم وتفحصته، الذي هو غير طاهر مطلقاً وغير نقي، ذلك أنه بالنسبة لجميع الرجال الحكماء للأزمان الغابرة، لابل حتى بين الكفار، الاستقامة هي أعظم الأشياء الجيدة في هذه الحياة».

وعندما سمع السلطان بهذه الكلمات انهمرت الدموع من عينيه، فتبللت لحيته، ولم يقدم جواباً على هذه الاعتراضات، بل تأوه وتنهد بعمق، وتوقف عن الكلام، وبعد هذا الاجتماع الودي لم يعد يميل نحو أوهامه أو لم يعد مخلصاً لها كما كان من قبل.

وهكذا من الممكن أن نستخلص من الأقوال والأفعال المتقدمة الذكر، أنه توفرت هناك أرضيات جيدة لآمال قد انبعثت، بأن هذا السلطان نفسه سوف يتحول إلى الإيمان المسيحي، ويغدو مسيحي

الديانة، ولقد أعلن الملك الفرنسي بأنه سوف لن يعود إلى فرنسا، بل سيظل يقاتل في الأرض المقدسة بقية حياته لنيل أرواح المسلمين لصالح الرب، تاركاً مملكته لعناية أمه، وواثقاً بشجاعة الفرنسيين في حمايتها ضد هجمات جيرانها الأمراء، ونحن نترك هذا إلى المقادير الربانية(١).

موت ألفونسو ملك إسبانيا

حتى لايكون ازدهار هذا العالم صافياً بل ممزوجاً بالانتكاسات، فقد أصبح الملك الفرنسي الآن حزيناً جداً، لدى تلقيه أخباراً بأن ألفونسو، الملك المشهور لقشتالة، الذي لصفاته العالية أطلق عليه اسم ملك اسبانيا كلها، قد غادر طريق الجسد كله، وجاء ذلك بعدما جعل نفسه مشهوراً بأعماله، وبعدما نال انتصارات كبيرة على المسلمين في اسبانيا، الحديث عنها، ورواية أخبارها سوف يحتاج إلى رسالة خاصة، وكان ألفونسو المذكور قد وعد الملك لويس بأن يقدم إليه مساعدة سريعة وفعالة، وذلك بعدما أقنعته بذلك بلانشي، بوساطة الالتماسات الملحة والهدايا، وقد وعدها بذلك لأنه كان قريباً لها، وقد ترك وراءه أسرة نبيلة، وفرساناً مشهورين ووسيمين، وهم قد قاوموا المسلمين بشجاعة في تجبرهم وجرأتهم، وبمثابة تعويض من الرب وتسكين لأحزانه، منح الرب إلى الملك الفرنسي أولاداً نبلاء، ولدتهم له الملكة في الأرض المقدسة، وهم صبي وابنة، وكان قد تشوق كثيراً إلى الابنة ورغب بها كثيراً.

كيف أصيب ألفونسو أخو الملك الفرنسي بداء غير قابل للشفاء

وفي هذه الآونة أصيب ألفونسو، أخو الملك الفرنسي، بالشلل، مما سبب حزناً كبيراً لأخيه الملك، وكذلك لأمه، وأخذ يتلاشى ويسير نحو

---

(١)- واضح أن هذه حكاية دعائية مخترعة، لم يرد ذكرها في أي مصدر آخر، ولاسيما لدى جوانفيل الذي بقي بصحبة الملك لويس حتى عودته، وفائدتها في التدليل على العقلية الأوروبية، ولاسيما عقلية رجال اللاهوت، الذين كما يبدو اخترعوها وروجوا لها.

الموت، تحت هذا الداء غير القابل للشفاء، ولعله أصيب بانتقام رباني، لأنه عندما كان أخوه في وضع حرج جداً، لم يساعده حسبما كان قد وعده وأقسم أنه سيفعل ذلك.

حزن الملكة الفرنسية بلانشي

ولدى سماع الأعظم بين السيدات، الملكة الفرنسية بلانشي بهذه الأخبار، لم تستطع ضبط عواطف الأمومة لديها، بل نفست عن أحزانها بالآهات والتنهدات، وكأنها كانت قد أصيبت بجرح عميق، لأنها تذكرت أن أكبر أولادها وأعزهم لديها قد تعهد بالبقاء في الأرض المقدسة كل حياته، وتذكرت كيف أن روبرت كونت أرتوي، الذي كان ولداً آخر من أولادها قد مات ميتة شنيعة، وهاهو ولدها الثالث، ألفونسو، كونت أوف بواتو، ممدد الآن وهو مصاب بداء غير قابل للشفاء، وأخذت منذ ذلك الحين تتلاشى، مثل واحدة قد حرمت من أغلى الذين عطفت عليهم، وهكذا قهرها الأسى، وباتت تتوقع موتها في حال من التعاسة،ولم تستطع العودة إلى حال الشعور بالسعادة، ولم تعد قادرة على تقبل المواساة.

كيف عبر الراهب وليم من دير القديس إدموند الألب

وفي هذا العام أيضاً جرى إرسال وليم الراهب من دير القديس ادموند، ووليم الكاهن من كنيسة القديس ادوارد، إلى بلاط روما، الذي كان معقوداً آنذاك في بيروجيا، من أجل بعض الأعمال الضاغطة، المتعلقة بكنيسة القديس ميكائيل في كنغبيرن Kingsbern, وبعد إرسال الكاهن عائداً إلى الوطن، اختفى الراهب، وتعذر معرفة إلى أين قد ذهب، مع أن بحثاً دقيقاً جرى عنه في جميع البلدان من قبل ناظر دير القديس ألبان، وبعد مضي وقت طويل عاد أخيراً إلى الوطن مشوشاً وفي صحة سيئة، بعدما قام بترتيب أعماله بطريقة ما من الطرق،

وبعدما مضى على غيابه في حجه عـاماً وزيادة، وبعدما —أيضاً— ورط دير القـديس ألبـان بدين مقـداره ثلاثمائـة مارك، وبعـد وصـوله ذهب بشكل سري إلى المصحة، وبعـدما أقـام هناك لبضعة أيام، أبحـر، مخالفاً لأوامـر وأعـراف دير القـديس ألبـان، وذهب إلى دير القـديس جـايلز، وجرى ادخال رسائل مناظراته في كتاب Additaments.

كيف أرسل ملك إنكلترا الإيرل سيمون إلى غسكوني

وفي هذه الآونة، قـام ملك انكلترا، مقلداً لداود الذي بعث أوريا إلى وسط مخاطر الحرب، في سبيل أن يظهـر أن المعكـر للسـلام هو الواحـد القـادر على إعادة تـأسيس السلام، وعلى هذا قـال لسيمـون ايرل أوف ليستر: «ارجـع إلى غسكـوني، حتى تتمكـن، أنـت الخبير كثيراً بـالحرب والمغـرم بها، من أن تجد مـايكفي مـن الحروب هناك، واجلب معك من هناك جائزتك المستحقـة، كما فعل أبوك قديماً»، وربح الملك بهذا الكلام القصير قبـول الغسكونيين ورضـاهـم، وقـام الايرل وهو مسرور وغير هيـاب بالاجابة على الفـور حيث قال للملك: «سـوف أذهب إلى هناك برضـــاي، وأعتقـــد أنني لـن أعـود من هنـاك —وإن كنت غير ممتن وشاكـر— حتى أعيد هؤلاء العصـاة إلى طاعتك، وأجعل أعداءك تحت قـدميك»، وبناء عليه غـادر انكلترا على الفور، وحمل نفسـه إلى فرنسـا، التي كـان على عـلاقــة طيبـة معهـا، وتمكن هناك بمسـاعــدة أقـربائـه وأصدقـائه، على الفور من جمع جيش كبير وقـوي من المرتزقة، وبعـدما عبأهم وعــدهم، بأنهم ســوف يحصلون من الأســلاب والغنائم، على مكافـآت مــوائمـة وكـافيـة، وكـان أولئك الجنـود شرهين أكثـر منهم متعطشين إلى الدمـاء، وقـد تبعوه بحماس وجـرأة، وكـان الايرل نفسـه يتحرق رغبة للانتقام للنيل من سمعته.

وقـام الملك بالوقت نفسه إمـا بالتظاهر —أو أنه نسي— أنه قـد منح من قبل غسكوني مرتين إلى أخيه الايرل رتشارد، وأعطاه إياها بموجب

صكوك، فعزم على منحها إلى ولده ادوارد الأول ولادة، وجاء ذلك بشكل رئيسي بناء على تحريض من زوجته الملكة واقناعها، وعندما توصل الايرل رتشارد إلى معرفة هذه النية، غضب غضباً شديداً وسخط، وسحب نفسه على الفور عقلياً وجسدياً من بلاط الملك، وتخلى من صميم قلبه عن تقلبات هذا البلاط وعدم استقراره.

كيف أعطيت غسكوني إلى إدوارد الابن البكر للملك

ثم أمر الملك، بموجب مرسوم ملكي، جميع الغسكونيين الذين كانوا مقيمين في لندن: رئيس أساقفة بوردو والآخرين الذين قدموا معه، بوجوب الاجتماع على الفور، وعندما أعلن، وبيّن بشكل عام بأنه قد أعطى غسكوني إلى ادوارد، ولده البكر، وذكر بأن أخاه الايرل رتشارد لم يحرص على تملك غسكوني، لابل في الحقيقة هو لم يرغب قط في رؤيتها، لأن تلك العاصفة في البحر قد ضايقته بما فيه الكفاية، وأفرغت غسكوني، في كثير من الأحيان حافظة نقوده، وكانت هذه الخطة مقبولة كثيراً من قبل الغسكونيين، وقدم الذين كانوا هناك جميعاً الولاء وأقسموا على الاخلاص إلى ادوارد الأمير الشاب، الذي تولى، بناء على ذلك تقديم بعض الهدايا الجميلة والثمينة إليهم، من الذهب، والفضة، والأطواق، والأحزمة، والملابس الحريرية، ووعدهم بهدايا أعظم، واحتفظ الملك —على كل حال— لنفسه، بالسيادة الرئيسية، أي بولائهم، ثم إنهم شاركوا جميعاً باحتفال كبير، وعبروا عن مشاعر سرورهم وتفاخرهم، ولم يختف التهديد خلال أحاديثهم، من أن الايرل سيمون، الذي تصور آمالاً، بأن نهر الأردن كله سوف يصب في فمه، سوف يجري إما تقطيعه إلى قطع، أو أنه سوف يطرد إلى المنفى من بلاده، ثم ركب الغسكونيون سفينة، وتمكنوا بأشرعة منشورة من العودة ثانية إلى بلادهم، ولدى وصولهم إلى هناك، وقبل أن يتعافوا من متاعب رحلتهم، وقبل أن يجدوا الوقت للإعلان عما حدث في انكلترا، وجدوا

الايرل سيمون، الذي تردد ذكره كثيراً من قبل، قد تحصن ضدهم مع جيش كبير، كان جيد التسليح والتجهيز، وقاموا —على كل حال— بدعوة كثيرين من أعداء الايرل وحشدوهم، وبعثوا الحماسة في نفوسهم، بإخبارهم بأنه قد بات لديهم سيداً جديداً، كان الآن مستعداً لإبطال مفعول قرني الايرل رتشارد وكسرهما، فحشدوا جيشاً كبيراً وقوياً، اعتقدوا أنه سيكون قادراً على سحق الايرل المذكور، وبدأوا على الفور بالأعمال العدوانية ضده، ولأنهم كانوا محترسين، وصلوا إلى كمين كان الايرل سيمون قد نصبه في موضع حتى يتمكن منه من أخذ الغسكونيين على حين غرة، وبعد معركة دموية أسروا فارساً شجاعاً، كان الايرل سيمون قد عهد إليه بقيادة ذلك الكمين، وحملوه معهم أسيراً، وبعدما فرقوا بقية تلك الكتلة، عبّروا عن بهجتهم بصرخات النصر.

حول المعركة الدموية بين الغسكونيين والإيرل سيمون

ولم يكن الايرل معسكراً على بعد كبير عن المكان الذي وقعت فيه الحوادث الأخيرة، وكان متوقعاً مواجهة أعدائه على حد السيف، وكان يأمل كما كان قد خطط بشكل سري، بأن يتمكن الجنود الذين وضعهم في الكمين من الانقضاض عليهم من اتجاه آخر، وكان ينتظر وصول بعض الشارات التي تخبره ببداية القتال، ووقتها وصل إليه واحد من الفارين من القتال الأخير، وكان يمتطي على فرس سريع، وقد قدم إليه ليخبره بالذي حدث، وكان مجروحاً ملطخاً بالدم، ومشوهاً ويتنفس بصعوبة، فأخبره بالذي وقع، وأضاف بأن قائدهم الفارس الشجاع، قد حمل أسيراً، ولدى سماع الايرل بهذا، بدا مندهشاً، ومثل واحد أفاق من نوم عميق سأل: «نحن تأخرنا كثيراً، هل العدو بعيد عنا»؟ فأجابه الفار: «لا، إن الأعداء قريبين جداً، وهم يتقدمون مسرعين للاشتباك بالقتال معكم على الفور، وهم أيضاً مسرورين، ويتمتعون بروح عالية،

لأنهم واجهوا النجاح في المعركـة، وسببوا لنا الاضطراب وأرغمونا على الفرار»، وما كاد الرجل ينهي كلامـه حتى ساق الايرل مسرعاً، متشوقاً لانقاذ الفـارس، الذي تقدم الحديث عنه أعلاه، وبصعوبة انتظر أتبـاعه، وأخـذ الرسول معـه ليكون دليله، ولم يوفر جنبي فـرسه، وطار مسرعـاً مثل صاعقة نحو الأعداء، وعلى الفور جاء إلى مواجهتهم، وشرب سيفه اللامع من دمـاء عدد كبير منهم، وبقوة تمكن مـن انقاذ الأسرى، وقطع أغـلالهم وحطم قيودهم، وحيث أنهم كـانوا متشوقين للقتـال، وبعدمـا وجدوا أنفسهم قـد أنقذوا، انقضوا حـانقين على العدو، ثم أعقب ذلك صراع دمـــوي ومشكوك بنتــائجـــه، وكـــان الغسكونيـــون واثقين من أعدادهم، فـاندفعوا منقضين كتلة واحدة على الايرل، الذي تشـوقوا إلى أسره أو قتله قبل سواه، وهكذا صار ثقل المعركة كله واقعاً عليه، وتابع العـدو بإلقاء رجـاله عليـه بجدة وبشكل جماعي، وقـد ألقي به من على حصـانه، وبات في خطر عظيم بأن يفقـد حياتـه، ووقتها رآه واحـد من الفرسـان، كان قـد أنقذه قبل وقت قصير، ولدى مشـاهدة هذا الفارس ماأحاق به من خطر، صرخ بصوت مرتفع: «أيها الايرل الشجاع كثيراً، إن من العـدل والواجب عليّ إنقاذ الـذي حفظني»، وتمكن بقوة جبـارة من خرق صفـوف الأعداء الكثيفـة، وبعدما تمكـن من إعادة الايرل إلى ظهر حصـانه، أصاب بشكل قاتل بعـض الذين تصدوا له، أو ألقى بهم إلى الأرض حتى يواجهوا الموت، واستمرت المعركة حتى قرابة منتصف النهـار، عندمـا أخيراً انهزم الغسكونيين، وأرغموا على الفـرار، وجـرى أسر العـــديد منهم، وتمّ في هذه المعـــركـــة أسر خمسـة من أعلى نبـــلاء الغسكونيين مكـانة، كـــان مـن بينهم روستين Rustein, الذي جرى تقـديمه إلى الملك، وحصل الايرل في ذلـك اليوم على نصر رائع، ولم يواجه قـط النجاة بصعوبة مـن المخاطر كما حدث لـه الآن، ولم يعد أعداؤه الآن يتجرأون على الشكوى ضده.

حول الاجتياح المخيف الذي عمله الأجانب في إنكلترا

خلال تلك الآونة، وعن طريق عدة أشكال من خدع الشيطان، بات شعب انكلترا بشكل عام من بارونات، وفرسان، ومواطنين، وتجار، وعمال، وبشكل خاص الرهبان، يعملون في ظل وباء جارف بعدواه، لأن ذوي المراتب العليا من الأجانب، فرضوا على الطبقات الدنيا كثيراً من الخدمات الشاقة، وآذوهم بوساطة كثير من السرقات والأضرار، إلى حد أن جميع الشعوب المقيمة في انكلترا ظهرت في أدنى الأحوال، ففي المقام الأول جرى الاستيلاء على بيوت التجار، وفي مقام آخر تمّ الاستيلاء على عرباتهم، وعلى ممتلكاتهم الصغيرة، وتمت مصادرتها بالقوة، وما من شيء ترك لهم غير عرضة للخطر، وذلك باستثناء الريبة والسخرية، ولدى مشاهدة هذه الإجراءات، قال بعض الأكثر نبالة من الانكليز، الذين أستحي من ذكر أسمائهم، قالوا في حالة تجبر، وأصحبوا الذي قالوه بالأيمان: «هناك الآن كثير من الملوك والطغاة في انكلترا، ونحن علينا أن نكون ملوكاً وطغاة مثل الآخرين»، وهكذا صاروا أسوأ من البقية، وكان إذا ماتعرض إنسان إلى الأذى الشديد، وتقدم بشكوى أمام البواتيين الذين انقلبت رؤوسهم وتحولت بوساطة الثروات الواسعة والممتلكات، وطالب بتقديم العدالة إليه، وفقاً لقانون البلاد، كانوا يجيبونه: «نحن لانقيم وزناً لقانون البلاد، بل لما هو قانوني وعرفي بالنسبة لنا»، وهكذا بات السكان المحليين للبلاد، خاصة الرهبان مثل الوسخ في أعين الأجانب، الذين لم يخجل بعض الانكليز من اتباع خطواتهم، ففي إحدى المناسبات، كان الراهب متى باريس، كاتب هذا الكتاب، وروجر دي ثيركباي Thurkeby, الذي كان فارساً ورجل ثقافة، يتناولان الطعام معاً على مائدة واحدة، وقتها قام الراهب متى بذكر المظالم المتقدمة الذكر، فبادر الفارس المسمى أعلاه مجيباً له بشكل

جاد قائلاً: «سوف يأتي الوقت أيها الرهبان، لابل في الحقيقة قد جاء، عندما سيعتقد كل واحد يتولى ظلمكم بأنه يؤدي خدمة إلى الرب، وأنا أعتقد أن هذه الأضرار والمظالم لن تتأخر كثيراً عن تدميركم كلياً»، وعندما سمع متى المذكور هذا الكلام، أعاد إلى ذاكرته القول بأنه «في الأيام الأخيرة للدنيا، سوف يكون هناك أناس يحبون أنفسهم، وليس لديهم أدنى تقدير لمنافع جيرانهم».

حول الحر والجفاف خلال هذا الصيف

كان هناك خلال أشهر نيسان، وأيار، وحزيران، وتموز من هذا العام، حراوة لاتحتمل وجفاف عام، استمر طوال ذلك الوقت من دون سقوط للمطر، أو للندى، لإنعاش الأرض، ونتيجة لذلك فإن الأغصان المورقة على الأشجار، التي وعدت بكميات وافرة من الفواكه، ذبلت وتساقطت، وتجردت الحقول من أعشابها، وذبلت أوراق النباتات، ولم تقدم المراعي الطعام إلى القطعان الجائعة، وأصبحت الأرض قاسية، وتشققت وتفتت، وبسبب الحاجة إلى الرطوبة لم تعد قادرة على تغذية القمح، وتطايرت الحشرات مع أزيز أصواتها، أما الطيور فخفضت أجنحتها وفتحت أفواهها، وتوقفت عن التغريد الممتع، وبشر التعرق المحرق الصادر بسبب هذه الأنواء بني البشر وتوعدهم بأمراض شديدة، وبحميات قاسية خلال خريف هذا العام.

حول رسائل إصلاح صدرت عن البابا

وفي هذه الآونة قدّم البابا تنازلاً إلى الذين شغلوا مناصب لاهوتية رفيعة، والذين تعرضوا للظلم إلى أبعد الحدود، خاصة في مناطق ماوراء الألب: «بأن على الذين يعود إليهم أمر الانتخاب أن يضعوا الرب أمام أعينهم، وأن يتولوا بشكل صحيح توزيع هذه المناصب»، وجرى تقديم الرسائل حول هذه القضية في كتاب Additaments.

حول الاحتفال في دير وولندن بنوع من المبارزات دعيت باسم المائدة المستديرة

وفي هذا العام قرر فرسان انكلترا بالاجماع، من أجل البرهنة على براعتهم وعلى ممارستهم لأعمال الفروسية الشجاعة، ولكي يجربوا قواهم، التباري حول مايعرف بشكل عام باسم المبارزات، بل التباري بنوع الفروسية الذي أطلق عليه اسم «المائدة المستديرة»، ففي ثمانية عيد ميلاد العذراء المباركة، احتشدوا بناء عليه بأعداد كبيرة في دير وولندن Wallenden وتقاطروا مع بعضهم من الشمال ومن الجنوب، وكذلك من القارة، وتبعاً لأحكام هذه الرياضة التي تشبه الأعمال القتالية جرى في ذلك اليوم وفي اليوم الذي تلاه أن قام بعض الفرسان الانكليز بعرض أنفسهم مع براعة عظيمة وشجاعة مما بعث البهجة والاعجاب لدى جميع الأجانب الذين كانوا حاضرين هناك، وفي اليوم الرابع التالي، دخل فارسان مشهوران بالشجاعة العظيمة في قائمة المتبارين وهما أرنولد دي مونتني Montigny, وروجر دي ليمبيرن Lemburn, وجاءا إلى التباري وهما مسلحان تماماً وفق طرائق الفرسان، وكانا يمتطيان على فرسين مختارين ورشيقين، وقد اندفعا ليتصدى أحدهما للآخر برماحهما، وسدد روجر سلاحه الذي كان سنانه مشحوذاً، مع أنه توجب أن يكون غير ذلك، ولذلك خرق تحت خوذة أرنولد، ونفذ في حلقومه، وقطع قصبته وشرايينه، لأنه لم يتول تغطية ذلك الجزء من جسمه، وكان من دون ياقة، وبعدما أصيب هكذا بشكل قاتل، وقع أرضاً من على ظهر حصانه، ومات على الفور، مما سبب حزناً عظيماً، كما حكي عن روجر، وكان أرنولد هذا، واحداً من أبرع الفرسان في استخدام السلاح، ولم يترك بعده نظيراً له، ولاحتى أي واحد يعدّ ثانياً له في ذلك المجال، وانبعث حزن كبير ونواح وبكاء بين الفرسان الذين كانوا موجودين هناك، وهكذا فإن أولئك الذين

قـدمـوا إلى هناك فـرحين مسرورين تفـرقـوا فجأة وسط حـزن وبكاء، وجــرى دفن جســده في جــوار دير وولندن، وسـط كثير من الحزن والأسف، أمام النبلاء الذين كانوا هناك قبل أن يغادروا، وما من فارس بكى لموت المتوفى بقدر الذي تسبب بوفاته، أي روجر المتقدم ذكره، وقد نذر على الفـور أن يحمل الصليب وأن يقـوم بـالحج لتحـرير نفسـه من أرنولد، وحسبما ظهـر واضحاً أنه قتل أرنولد المذكـور دون قصد، لابل حتى دون أن يعـرف بأنه قتل أرنـولد دي مـونتي المتقـدم ذكـره، لهذا لم يتهم لذلك، ولم يوجـه إليـه اللوم، وكـان بين ذلك التجمع الفـرسـاني الكثير من نبـلاء انكلترا وسـواهم، وكـان من بين هؤلاء ايرل غلوستر، الذي حـاول لدى إصابة الفـارس المذكـور أرنولد وجرحـه أن يسحب بقيـة الرمح من رقبة الرجل المجـروح، وعندما نجح في سحب القطعـة الخشبيـة بقي السنان الحديدي في الجرح، وبعـد قطع العنق وانتـزاعـه، وفحصـه من قبل الفرسـان الذين كـانوا مـوجودين هناك، وجـدوا هذا السنان حـاداً في رأسـه مثل مـدية، مـع أنه توجب أن يكون كليـلاً غير مشحـوذ، وأن يكون عـريضـاً بقـدر سكين صغير، وقـد بدا شكل هذا السنان مثل سكة المحـراث لكن على مستـوى صغير، ولذلك كـان هذا النوع يعــرف باسم المحــراث الصغير، وفي الفــرنسيــة Soket, ولقـوة هذه البينات، بات روجــر دي ليمبيرن الذي تقـدم ذكـره هدفـاً للشك، مع أنه أعلن عن نفسه أنه كـان بريئاً، وجرت ملامتـه بحدة بأنه اقترف غدراً جـريمة قتل، خـاصة وأن أرنولد المذكـور، قد سلف له في مبـارزة مـاضيـة أن كسر رجل روجـر دي ليمبيرن هذا، لكن الرب هو وحده الذي يعلم حقيقة هذا الأمـر، فهو وحده يبحث في أسرار قلوب الناس:

متشوق للشهرة، بناء على صرخة الشرف الدنيوي

وهكذا جرت هزيمة أناس، وهكذا مات المهزوم.

كيف ذهب الملك إلى سينت ألبان وقدم كثيراً من الهدايا

وخلال هذا العام، وعشية عيد القديس بارثلميو، ذهب الملك إلى سينت ألبان، وتوجه على الفور إلى المذبح الكبير، حيث قام بعد صلاته، وحسبما كانت عادته، بتقديم منحة إلى الشهيد، وكان ذلك عبارة عن طيلسان أنيق وثمين، وعقدين، وخاتمين ذهبيين، واثني عشر طالن، أمر بأن يجري تكريسهم بشكل خاص لتزيين الأضرحة، وفي اليوم نفسه، قام ابنه البكر ادوارد بتقديم طيلسان عند المذبح نفسه، وقدم طيلساناً آخر، وعقدين عند مذبح القديس أمفيبالوس Amphibalus, وهؤلاء جميعاً كان الملك قد أمر بشرائهم، مع هدايا أخرى ثمينة، وأمر بتغطية الضريح بزينة شريت مع المشتريات المتقدمة، ولقد أقام لمدة خمسة أيام في سينت ألبان، كما كان قد فعل من قبل في عيد الفصح، في السنة التي تلت حصار بدفورد Bedford.

وفاة وليم أوف هافرهل

وفي اليوم نفسه، الذي وصل فيه الملك إلى سينت ألبان، حسبما ذكرنا أعلاه، أي عشية عيد القديس بارثلميو، مات وقتها في لندن وليم أوف هافرهل Haverhull, وكان لاهوتياً في كنيسة القديس بولص، وخازناً للملك، وكان قد أمضى كثيراً من سنوات حياته مخلصاً في خدمة الملك المذكور، وكان من المعتقد بأن الملك سوف يضع جون الفرنسي في موضع وليم وفي وظيفته، لكن انتشرت تقارير، أفادت بأن جون المذكور قد توفي في منطقة نائية من شمالي انكلترا، إلى حيث ذهب للشكوى ضد أحد الرهبان، وبناء عليه عيّن الملك، خازناً لنفسه، في مكان وليم المذكور، فيليب لوفل، وكان محاسباً، ورجلاً فصيحاً وحكيماً ومن أصل نبيل، وجرى هذا التعيين في سينت ألبان، بناء على ترشيح وتحبيذ من جون مانسيل، الذي كان صديقاً خاصاً لفيليب.

-٨٠٨٠-

النقش على ضريح وليم أوف هافرهل

هنا يرقد وليم الخازن الأعلى للملك
ولن يلد النحيب على هافرهل مطلقاً
واحداً مثله. فعندما كان على الأرض
هي التي زودته وهي أيضاً كانت قادرة
على تزويده بخمرة ثمينة وبأطعمة لمائدته
لكن الآن مملكة المسيح هي جائزته السماوية

حول مرض مميت بين الماشية

خلال هذا العام، وبعد صيف حار كثيراً، ومع اقتراب الخريف، انتشر طاعون مميت مثله لم يشاهد من قبل، ولايتذكره إنسان، وجاء انتشاره بين المواشي في كثير من أجزاء انكلترا، إنما بشكل خاص في نورفولك Norfolk، وفي السباخ، وكذلك في المناطق الجنوبية، وكان من الملامح المثيرة لهذا الطاعون، هو أن الكلاب والغربان التي تغذت من أجساد المواشي التي ماتت بسبب هذا الوباء كانت تصاب بالعدوى على الفور، وتتورم، وتموت حيث هي، ولذلك لم يتجرأ أي إنسان على الأكل من لحوم المواشي خشية أن تكون عائدة إلى الحيوانات التي ماتت بذلك المرض، وكان من بين الوقائع المدهشة التي لوحظت بين الماشية هو أن الأبقار والثيران البالغة رضعت من أثداء الأبقار الأكبر سناً مثل العجول الصغيرة، ولوحظت واقعة مدهشة أخرى، هي أنه في هذا الوقت من العام، الذي تنتج فيه الطبيعة كما اعتادت الأجاص والتفاح، أزهرت الأشجار، حسبما اعتادت أن تفعل في نيسان، وكان سبب هذا الموتان بين الماشية، وظهور الأزهار، مع الشهوانية غير الاعتيادية بين الماشية، قد تأصل وصدر عن الحر

والجفاف، الأمر الذي أتينا على ذكره من قبل، لأن ما كان مدهشاً ومثيراً للعجب، هو أن الأعشاب، حتى في المروج، قد اهترأت وجفت وباتت قاسية خلال أشهر: أيار، وحزيران، وتموز، ومع الاعتدال الفصلي، تساقطت كميات وافرة من الأمطار، وغطت الرطوبة وجه الأرض، التي شربت مياه الأمطار وابتلعتها في شقوقها ومسامها المفتوحة، وأصبحت غنية بالانتاج وتقديم المنافع، وقدمت الخضراوات الخصبة بشكل غير اعتيادي، وأقل من المواسم المعتادة، والتهمت القطعان الجائعة وشبه الميتة هذه الأعشاب التي كانت مشتاقة إليها، وأصبحت فجأة مليئة بالشحوم، وبذلك صارت أجسادها غير صالحة للأكل، وصدرت عنها أعمالاً مضحكة غير عادية تماماً، وأخيراً أصيبت بالجنون، وتصرفت وفق طرائق مدهشة غير اعتيادية، إلى أن أصيبت أخيراً بالمرض، فسقطت المواشي موتى، وانتقلت العدوى منهم، بسبب خبث المرض، وبذلك أثرت بالآخرين أيضاً، ومن الممكن استخلاص سبب مماثل من أجل إزهار الأشجار في غير موسمها.

حول تكريس كنيسة إيلاي

في السابع عشر من أيلول لهذا العام، الذي كان يوم عيد القديس لامبرت، جرى تكريس الكاتدرائية الفخمة لإيلاي وسط احتفال فخم وأبهة كبيرة، وجرى بناء الجزء المشيخي من هذه الكنيسة إلى جانب برج جميل، وروائع الأعمال وكبير النفقات، كله بالكامل وتماماً على النفقة الفردية لهوغ، أسقف ذلك المكان، والذي كان مشرفاً خاصاً على ذلك كله، وله مكانته وصلاحه، وبنى هذا الأسقف نفسه في ساحة إيلاي قصراً ملكياً جميلاً، مع غرف وأبنية أخرى موائمة، فيها شارك الذين حضروا التكريس بمتع الاحتفال وبموائده، وذلك حسبما سنحكي في الرواية التالية، وتولى القيام بطقوس التكريس أسقف إيلاي، وهي التي كانت هدفه ورغبته المخلصة منذ زمن طويل مضى، وساعده كل من

أسقفي نورويك وللانداف، وكـان مـوجوداً هناك أثناء الاحتفـال الملك نفســه، وعـدد كبير جداً مـن نبلاء المملكة، وذلك بـالاضافـة إلى عـدد لايحصى من الأساقفـة ورجال الدين، وجرى منح غفـران لعدة أيام إلى جميع الذين جاءوا للمشـاركة في الاحتفـال، وإلى الذين كان من الممكن أن يأتوا فيها بعد، وبعد مراعاة صحيحـة ومواثمة للاحتفالات الروحية، وجهـوا تفكيرهـم نحو احتفـال أجسادهم، وامتـلأت مساكن الرهبـان، وكـذلك مسـاكن الأساقفـة والذين يعيشـون في البلدة بالضيـوف، ومع ذلك أبدى الأسقف حـزنه للعـدد الصغير من الضيوف الذين تجمعـوا، وأعلن أن الضيـافات التي اقترحهـا لنفسه كـانت على معيار أكبر، وقـد نقصت عن حجمهـا الصحيح، ومع ذلك فـرح في قـرارة نفسه، وشعـر ببهجـة عظيمة، لأنه تمكن بنعمـة الرب من البقاء إلى ذلك اليـوم، الذي استطاع فيه بسرور تنفيذ جميع الذي نـواه ورتب له، وبناء عليه إن بهجة ذلك الأسقف العجـوز وسروره وسعادتـه يمكن أن تردد قول سمعـان المبجل: «الآن أخيراً أنا خادمك» إلخ، إلخ.

وفاة مرغريت الكونتسة الكبيرة لـ دي لآيل

وفي الثاني من تشرين الأول لهذا العام، مـاتت السيدة النبيلة والرفيعة النسب مـرغريـت كونتسـة دي لآيل Lisle, التي كانـــت ألقابها الأنهار، والتي كــانت من قبل زوجـة ذلـك الخائن الدمـوي فــولكس Faulkes, فهي كـانت قد تزوجـت منه ضد إرادتها، وكـان هذا الزواج واحــداً من أعمال الارغــام (كـانت قــد أعطيت إلى فــولكس بمـوجب طغيـان جون الذي لم يتـورع عن اقتراف أية جـريمـة شريرة) حيث أكـرهت النبـالة على الاتحاد بالدناءة، والتقـوى مع عدم التقـوى، والجمال مع انعدام الشرف، وحـول هذا الاتحاد كتب واحد مـن الكتّاب يقول محقاً:

القانون جعلهما واحداً، وكذلك الحب وطقوس القران

فأي قانون، وأي حب، وأي رابط ربط مابين مثل هذين الاثنين؟
وبدلاً عن قانون، اقرأ: لاقانون، وعن حب، اقرأ: كراهية
وعدم الوئام هو وئام مصير هذين المحبين.

وسوف تبقى الذكرى الطيبة لهذه السيدة النبيلة جديرة بالذكر من قبلي، بسبب الواقعة التالية: عندما كانت في إحدى الليالي متمددة نائمة مع زوجها فولكس، رأى الأخير رؤيا، فيها ظهر له بأن حجرة ذات حجم مدهش سقطت مثل صاعقة عليه من برج كنيسة القديس ألبان وسحقته وحولته إلى رماد، وأفاق من نومه، وقفز من فراشه وهو مصاب بالدهشة والرعب، وعندما رأته زوجته يرتجف، وكأنه قد تلبسه جنون قالت له: «ماالخطب ياMولاي؟ ماالذي أزعجك»؟، وعلى ذلك أجاب: «لقد تعرضت إلى كثير من المخاطر لكن لم أضطرب قط مثلما حدث معي في المنام الذي رأيته»، وقص عليها تفاصيل منامه، فقالت له زوجته:

«لقد أزعجت مؤخراً القديس ألبان وأغضبته بشكل جدي، بتلويث كنيسته بالدم، وبنهب بلدته وتجريدها من بضائعها، والحاق الأضرار بالدير والرهبان بكثير من الطرق المضاعفة، وبناء عليه انهض وأسرع، وبادر على الفور إلى هناك، حتى قبل بزوغ الفجر، وتواضع بنفسك وتصالح مع ذلك الشهيد، وليكن ذلك على الفور سريعاً بقدر الامكان، خشية أن يحل بك انتقام يسحقك»، وبناء عليه ذهب فولكس في الصباح الباكر إلى سينت ألبان (لأنه كان قد أمضى الليل في ليوتون , Luiton) واستدعى راعي الدير إلى حضرته، وقام وهو جاث على ركبتيه، ويديه مقبوضتين، ودموعه منهمرة بمخاطبته قائلاً: «كن رحيماً بي يامولاي، لقد أذنبت بشكل جدي إلى الرب، وإلى شهيده القديس ألبان، وإليك، لكن كن رحيماً بي أنا المذنب، وبإذن منك سوف

أتحدث الآن إلى أعضـــاء المجمع الـرهبـاني، وأطلـب المســامحة منهم بحضـورك، عن الذنوب التي اقترفتهـا»، ووافق راعي الدير على طلبـه، وأعجب بالذئب الذي جـاء متلطفـاً ومتـواضعـاً مثل شـاة، وبناء عليـه جـرى تجريد فـولكس من ثيـابه، وحمل بيـده عصـا تعـرف عـادة باسم Baleis، ودخل على مجمع الهيئة الرهبانيـة، يتبعه خدمـه، ورجال مسلحين، كانوا مثله مجردين من مـلابسهم، وبعدمـا اعترف بذنبه الذي اقترفه أثناء الحرب، وتلقى لصالحه عقـوبات على جسده العاري من كل واحـد من الرهبان، وبعـدمـا ارتدى ملابسـه مضى وجلس إلى جـانب راعي الدير، وقـال له بصـوت مـرتفع: « إنها زوجتي هي التي جعلتني أتصرف هكذا، بسبب منام قد شاهدته، ولكن إذا ماطالبت بإعادة الذي أخـذته منكم، إنني لن أستجيـب لطلبكم»، ولدى فـراغـه من هذا قـام بالمغـادرة، ورأى —على كل حـال— راعي الدير والرهبـان أنها منفعـة عظيمـة إذا مــاأقلع منذ ذلك الحين وتوقف عن إيـذائهم، لأنه في ذلك الوقت، عُـدّ كل من لم يكن سيئاً تماماً، جيـداً، وذلك حسبما قرأنا قـول استاروث Astaroth: «عندما يتوقف رجل ظالم عن الأذى يعدّ نافعـاً»، وكذلك وفقـاً لقـول الرسول: «الزوج الكافـر يجري حفظه من قبل الزوجة المخلصة».

حول البارلمان الكبير الذي عقد في لندن

ومع اقتراب حلول عيـد القـديس ادوارد (الذي اعتــاد الملك على الاحتفـال به مع رفقة كبيرة واكـرام كبير) اجتمع تقـريبـاً جميع أساقفـة انكلترا، حيث جرت دعوتهم للاجتماع بموجب مـذكرة ملكية، وكان في الحقيقة جميع الأسـاقفة موجـودين هناك، باستثناء: أسقف شيستر، الذي كان مريضاً صحياً، ورئيس أسـاقفة كانتربري وأسقف هيرفورد، اللذان كانا آنذاك في القـارة، ورئيس أساقفة يـورك، الذي كان غائبـاً لسبب ما غير معروف لنا، مالم يكن موجوداً آنذاك يعيش في منطقة نائية.

وعندما اجتمعوا كلهم، ذكرهم الملك ولفت انتباههم إلى الولاية البابوية، التي كانت هدفاً للكراهية والازدراء من قبل جميع الذين حرصوا على رفع شأن المملكة مع مصالحها، وكانت مقاصد الولاية البابوية، أن البابا بموجب فضيلة السلطة الممنوحة له من الرب، قد أعطى لمدة ثلاثة أعوام، جميع عشور المملكة، أي أن تقول موارد الكنيسة الانكليزية كلها، لتأمين الضروريات من أجل حج الملك، مضيفاً العبارات العظيمة العدوانية التالية: «ليس حسب الإحصاء الماضي للكنائس، بل حسب تقدير جديد، يتم عمله إثر تدقيق وبحث شامل، وذلك وفقاً لإرادة وقضاء الوكلاء الملكيين واستخراجاتهم، وكان هؤلاء بدهائهم الكبير في المقام الأول يعملون في سبيل منافعهم وبعد ذلك من أجل منافع الملك، ملحقين بذلك ضرراً لايقاس بالكنيسة، ومنزلين إياها إلى درجة العبودية الدائمة.

وتقدم وكلاء الملك ورسله، مع حجج ماكرة، باقتراح إلى الأساقفة المجتمعين، بأن عليهم الموافقة على هذه المساهمة الكبيرة، وبمكر يشبه مكر الثعلب سألوا بأن يجري دفع المال لمدة عامين وفقاً لولاية البابا، وأن المال من أجل السنة الثالثة —مع أنه لم يرد ذكره في الولاية البابوية— يتوجب تجهيزه قبل أن يبدأ الملك بحجه، وبناء عليه فإن جميع مبلغ المال الذي سوف يجري جمعه وفقاً للطريقة المذكورة أعلاه، أو نصفه على الأقل، ينبغي منحه حراً ودونما شرط إليه، عندما سيكون على وشك الشروع بحجه، لأنه —كما قالوا— سوف ينطلق على الفور برحلته، ولدى سماع هذا الاقتراح، اعترت الدهشة أسقف لنكولن الذي كان بين الآخرين، وعجب من مثل هذا الكلام المسموم، والذي قصد منه الإطاحة بالكنيسة، فأجاب بغضب شديد: «باسم مولاتنا، ماهذا؟، أنتم تتصرفون على أساس امتياز، هو لم يمنح إليكم، فهل تفترضون أننا سنوافق على هذا الاسهام الملعون؟ لاسمح الرب بأن

نقـوم بالجثي على ركبنـا أمـام بعل»، وإثر هذه الإجـابـة، قـال الأسقف المنتخب لوينكستر: «ياأبـانا كيف سنكون قـادرين على معـارضـة إرادة البابا والملك؟ فالأول يقوم بدفعنا، ويقوم الثاني بجذبنا، وفي حالة مماثلة وافق الفـرنسيون على مسـاهمة مماثلة، لمساعـدة ملكهم، عندما كـان على وشك القيام بحجه، وهـم أكثر قوة مما نحن عليه، وبالعـادة ميالين أكثر للمقاومة، أمـا بالنسبة لنا، ماهي وسائل المقـاومة التي نمتلكها»؟ وعلى هذا أجـاب أسقف لنكـولن قـائـلاً: «إنه للسبب نفسـه الذي من أجله أسهم الفـرنسيون، يتوجب علينـا معارضة هـذه الضريبة، لأن أي شيء عمل مـرتين صار عـرفاً، وبالاضـافة إلى هذا، نحن رأينا بوضـوح مثل وضوح النهـار، النتيجة التي وصلت إليها عملية طغيـان الملك الفرنسي في جبـاية المال واستخـراجـه، علينا أن نتعلم من الأمثلة الماضيـة، وبناء عليـه لاتدعـونا نحن أو الملك ننال غضب الـرب الحاد، وبالنسبـة إليّ، إنني أقـول دون تردد، إنني أعارض هذا الاسهـام المؤذي»، ووافق على هذا القـرار برغبـة وبـدون تردد أسـاقفـة: لندن، وشيستر، ووركستر، والأسقف المنتخب لوينكستر، وجميع الآخـرين تقـريبـاً، وكـان أسقف سالسبري متقلباً برأيه، وقـد أضاف أسقف لنكولن إلى مـاتقدم قـائلاً: «دعـونا نلتمس من الملك أن يكون لـديه تقـدير لخلاص روحـه، وأن يلجم الرغبات العنيفة والطائشة».

كيف جرت تهدئة غضب ملك إنكلترا من قبل رجال بلاطه

جـرت رواية جميع هذه الوقـائـع بصـدق إلى الملك، الأمـر الذي أثار غضبه الشـديد، ولأنه لم يستطع ضبط غضبه، طرد جميع الـذين كانوا في غـرفته، وأبعـدهم عنه مثل رجل مجنون، وبعد لأي تمكن رجـال بلاطه المقربون منه من تهدئـة غضبه، فأرسل رسالة إلى الأسـاقفة يلتمس منهم أن يزودوه من قبل أنفسهم، وبناء على إرادتهم بالمساعـدة المالية المناسبة، ليس على أسـاس النظر إليه على أنه مـولاهم وسيـدهم، بل عدّه بمثـابة

واحد يطالب بـالمساعدة بناء على فضيلة الأمـر البابوي، وتقـديره رجلاً متضرعاً، على وشك القيـام بالحج إلى الأرض المقدسة، في سبيل كـرامة الكنيسة المسكونية، ولكي يقاتل هناك من أجل يسوع المسيح.

كيف أجاب الأساقفة بالاستجابة لطلب الملك

وعندمـا حملت هذه الرسـالة إلى الأسـاقفـة، أصبحـوا أكثـر هدوءاً، وأجابوا قـائلين: «نحن بلا شك نعتقـد أن البابا لو كـان حقاً على دراية بالأضرار، وبـالمظالم، وبالاستخـــراجـــات، التي أثقلت بها الكنيســـة الانكليزيـة وبها ضغط عليها بشدة، فـإن الملك ما كان مطلقـاً سيحصل على هذا الترخيص من بـلاط رومـا، وإذا مـــا قمنا باعـلام البـــابا بهذه المســـائل بشكل كـامـل، مما لاشك فيـه هـو سـوف يلغي قـــراره هذا، ولاعجب إذا كـان قد غـرر به بخنق الصـدق واسكاته وبأقوال زائفـة، لأن الملك قد أفقر مملكته بكثير من الطرق، فهو حيناً قام بتوسيع غابته، وحيناً آخـر عن طريق جـولات رجـال عـدالتـه، ومـرة ثالثـة بإدخـال اجـــراءات قضـــائيـــة جـــديدة، وهكذا بمختلف الأســـاليب الأخـــرى والطرائق، وعندما تجف المملكة، سيتبع ذلك بالضرورة تعرض الكنيسة للفقـــر، وتحولها إلى حـالة العـــوز، ثم مـــاالذي يمكن أن نقـــوله بشأن الأساقفـة الذين أقحمهم الملك في الكنائس الفخمة؟ وكيـف قام بشكل مأساوي بونيفيس رئيس الأساقفة الأخير لكانتربري، فاستخرج ثروات منطقته وابتـزها، مدعيـاً بأنه متورط بكثير جداً من الـديون، إلى حد أنه لايستطيع التنفس بحرية، ومن دون مسـاعدة الكنيسة الانكليـزية كلها؟ كما أن الملك —لو سمح لنـا بذكـر مثل هذه الأشيـاء— لم يتمنع حتى الآن، عن تجريد مملكتـه، والكنيســة مـن المال، ومن الامتيـازات التي تمتعت بها منذ زمن طويل، وذلك يومياً بمختلف الحجج التي لاتحصى، ومخالفة ليمينه الرئيسي، وعـلاوة على ذلك من المعتقد، والمقـرر بموجب حقائق واضحة، بأنه قد حمل الآن شارة الصليب ليس إلاّ لسبب واحد،

هو أن يتمكن بهذه الطريقة الجديدة، وبهذا الإدعاء من الاستيلاء على البقية الصغيرة من الثروة التي بقيت الآن في انكلترا، وبذلك قام بتحويل انكلترا الحلوة، والمملكة الغنية إلى وضع الجفاف والقحط، أو أنه سيجرد السكان الذين ولدوا في هذه المملكة وفيها نشأوا مما لديهم ويفقرهم، ومن ثم يحل محلهم أجانب يعطيهم أماكنهم وممتلكاتهم، أولم يقم منذ زمن طويل مضى، في شبابه، عندما جرى تحت الطالع السعيد جعله ملكاً، بوضع صليب الملك جون على كتفيه، نعني بذلك والده الذي حمل شارة الصليب في الوقت نفسه؟، وبناء عليه، ينبغي الخوف من أن يكون هذا الملك متبعاً لخطوات والده، وقد حمل هذه الشارة وفق الطريقة نفسها، ومع النية نفسها، مثلما فعل والده، أي من أجل ظلم رعاياه الطبيعيين المخلصين والدوس عليهم بقدميه، لاسمح الرب بذلك، ومع ذلك، من دون التقيد بأفعاله حتى الآن، ودون التقيد بأمر أنه قد ظلم الكنيسة الانكليزية وآذاها وفعل الشيء نفسه بمملكة انكلترا، سوف نمنحه الذي طلبه منا، وسوف نتجاوب، بقدر مانمتلك من قوة، مع طلبه، إذا كان —حسبما ماوعد به غالباً— لن يقوم من الآن فصاعداً بخرق صك امتيازاتنا، التي غالباً ما منحت إلينا وغالباً ما أقسم على مراعاتها والتقيد بها، وأن يمنحنا أيضاً صكاً آخر، يتعهد به، أنه لن يقوم في وقت آخر، اعتماداً على هذه السابقة بمنحه الآن هذا المعروف، فيطالب بأن تكون الكنيسة الانكليزية خاضعة لمثل هذه الاسهامات اللعينة والاستخراجات، ونحن نطالب أيضاً، بأن يجري جمع المال الذي يطالب الملك أن نمنحه إياه، بعناية وبأمانة، وأن يوضع جانباً في سبيل المصلحة، بحذر وحيطة أكثر مما هو معتاد، وحسبما سيظهر موائماً لرعيته المخلصين، في سبيل منفعة الملك، عندما يشرع بالذهاب إلى الأرض المقدسة، فوفقاً لهذه الشروط سوف يجري منح المال إلى الملك وتزويده به».

وقــد أضيفت هـذه الشروط، بسبب أن جميع المبــالـغ الماليــة، التي استخرجها الملك مـن الانكليز، قد جرى توزيعها من قبلـه بطريقة فيها طغيــان وأذى، وجــاءت لمنفعــة أعــدائــه، ولإلحاق الأذى بالمملكة، والإضرار برعـاياه التـابعين له، وفعل ذلك مثل قيـام إنســان بإرادته، بتوزيع أسلحته بين أعدائـه، في سبيل إيذائه وتدميره، وجرى إعداد هذه الشروط المفيدة من قبل الأساقفـة، أبناء السلام، لتكون معلومة من قبل الملك ولصالحه.

كيف أصر الملك على نواياه ومقاصده

وعندمــا جــرى إعــلام الملك بهذه المقـررات التـي اتخذت من قبل الأسـاقفة، وحملت إليـه لإعـلامه بها، من قبل أسقف سـالسبري، ازداد غضبـه اشتعـالاً، وبأنف توسعت فتحتــاه، أقسم أيماناً مـرعبـة، أنه لن يخضع مطلقـاً مادام حيـاً، لمثل هذه الحالة من العبـودية، وبهذه الطريقـة سـار على خطى والده وعلى طريقـه نفســه، وبعث ثانيـة إلى الأسـاقفـة يسألهم عما إذا كانوا سيقـدمون إليه جواباً بطريقة أخـرى ما من الطرق، غير هذا الهراء والمراوغـة، ولكي لايظهـر الأسـاقفـة بأنهم وقحين عن طريق إرسال رفض صريح جواباً على طلب الملك، أعادوا إليه الجواب، بأنهم لن يتمكنوا مـن التـداول حـول الموضــوع كما ينبغي، ولايمكنهم إعطاء جـواب كــامل وقـرار نهائي، من دون حضـور رئيـس أسـاقفـة كانتربري وموافقتـه، بحكم أنه المعترف به الأول بينهم في بريطانيا، وهو الأعلى مقـامـاً بين جميع الأسـاقفة، أو مـن دون موافقـة رئيس أسـاقفـة يورك، ثم الحصـول على الرأي الحكيم الصـادر عنه،لأنه هو الذي إذا لم يكن الرئيـس الأول، إنه واحـد من رؤســاء الرجــال في المملكة، هذا ومعلوم أن الأول بينهما موجـود في القارة، وكان الثـاني يعيش في منطقة بعيدة، وقد منع من الحضور، لسبب غير معروف.

كيف وزع الملك الموارد الشاغرة بين أشخاص غير جديرين

واستمر الملك —على كل حال— في اسرافه المعتاد، وتصرف وكأنه يريد الانتقام لمعارضة الأساقفة له، ولذلك تابع منح الأبرشيات الشاغرة والموارد وتوزيعها بين أشخاص غير معروفين، وسفهاء، وأجانب لايستحقون، في سبيل إنزال جرح لايمكن شفاؤه على رؤوس رعاياه الطبيعيين، ودون أن نذكر كل قضية، إننا نعتقد أنه من الموائم والصحيح أن نذكر في هذا المجلد القضية التالية، وهي قضية بين كثير من القضايا: كان في خدمة غيوفري دي لوزنغنان، أخوالملك [لأمه] أحد الشمامسة، الذي عمل بمثابة أحمق ومهرج للملك، ولأخيه غيوفري مولاه المذكور، وإلى جميع البلاط، وكانت أقواله مثل أقوال أصحاب الحركات السخيفة، وحملة العصي، قد أسهمت في تسليتهم، وفي إثارة ضحكهم، وقد أنعم الملك على هذا الرجل بكنيسة بريستون Preston الغنية، وكانت هذه الكنيسة عائدة من قبل إلى وليم هافرهل Haverhull, الذي توفي مؤخراً، حيث كان خازن الملك، وكان دخل هذه الكنيسة السنوي، قد وصل فيما مضى إلى أكثر من مائة باوند، وكان هذا الشماس نفسه من أصل بواتي Poitevin, وكان جاهلاً تماماً، في علمه وفي أخلاقه، وقد رأيناه يرشق الملك، مع أخيه غيوفري ونبلاء آخرين، أثناء سيره في حديقة كنيسة القديس ألبان، بقطع الأعشاب، والحجارة، والتفاح الأخضر، ويعصر العنب غير الناضج في أعينهم، مثل واحد كان خالياً من العقل، وكان خسيساً جديراً بالازدراء في حركاته، وفي طريقة كلامه، وفي عاداته، وكذلك بحجمه وبمظهره الشخصي، وكان هذا الشخص جديراً بأن يكون ممثلاً على المسرح لا أن يكون كاهناً حسب احترافه، مما ألحق إهانة كبيرة بالطائفة الكهنوتية، فمثل هذا وعلى شاكلته كان الأشخاص الذين عهد إليهم ملك انكلترا بالعناية والوصاية على آلاف كثيرة من النفوس،

رافضـاً أعـداداً كبيرة جـداً من المتعلمين، والحكماء، والرجـال المواثمين، الرجـال الـذين ولدتهم انكلترا، والذين عـرفـوا لغـة السكان المحليين، وعـرفوا كيفيـة توجيه الجهلـة، وبطريقة مماثلة أيضـاً، ولكي يثير غضب الناس الصـالحين وكـراهيتهم، تصرف الملك بنـاء على نصـائح سيئة، فأعطى، أو بالحري بعثر المنافع الأخرى للكنيسـة والتي كانت عائدة إلى وليم المتقـدم ذكره، ووزعهـا بين أناس غير جديرين وأجـانب، وهؤلاء قـد وضحـت عـدم كفـاءتهم وانعـدام الفـائـدة منهـم بتصرفـاتهم غير الاعتيادية والشاذة، والذين تبرهن بشكلٍ واضح أنهم فاسدين بأقوالهم، التي لم تكن سخيفة فقط، بل حمقاء أيضاً وفاحشة، وجاء استطرادنا هذا وابتعادنا عن سياق روايتنا، لأن أسفنا قد أثير لتلك الأسباب.

سير الملك بالتسلسل في هذه القضية

وأصبح الملك مصـاباً بعـاهة الشره الكبير، وبالتعطش العظيم للمال، فقد عـاد الآن إلى مكره المعتاد وخداعـه، وأبدع في ذهنه خطة أن يخضع لإرادته، واحـداً إثر آخـر، من أولئك الذين لم يستطـع تحطيمهم وهم متحدين، وبناء عليه، عندمـا ارفض المؤتمر المتقدم ذكره أعلاه، وقبل أن يغـادر الأساقفـة لندن، استدعى إليـه أسقف إيلاي، إلى مقـابلة خاصـة معـه، ولدى وصـول ذلك الأسقف، نهض إلى استقبـاله بكل تقـدير واحترام، وبعدما طلب منه الجلوس إلى جانبـه شخصياً، خاطبه بتواضع وبملامح هادئة قائلاً مايلي: «عزيزي مولاي الأسقف، سوف يكون من الصعب عليّ أن أذكر جميع ألطافكم، وكرمكم، وخدماتكم التي غالباً ما جـربتهـا، وتلقيتهـا على أيديكم، فأنـت الذي قمت عن طواعيـة من نفسك، فتعذبـت وعانيت من شقـاء السفر إلى بروفانـس، على حسابك الخاص، لإحضـار زوجتي إلي، وعـلاوة على ذلك، عندمـا كنت على وشك الانطلاق إلى القـارة، قمت مـرة تلو أخـرى دون أن تمل من مطالبي، فزودتني بمساعدة فعالة، وماالذي يمكنني قوله أكثر من هذا؟

ثم مامن مرة احتجت فيها أنا إلى المساعدة، إلاّ وقمت بتقديمها أو على الأقل وقفت إلى جانب مطلبي بنوايا طيبة جاهزة، هذا وإنني الآن أحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى اختبار لطفك المعتاد، وجودك، لأنك كما تعلم أيها الأب المقدس، أنني قد وضعت صليب الرب على كتفيّ، لأحمله بنبل إلى الأرض المقدسة، في سبيل تشريف الكنيسة المسكونية، ومن أجل ازدهار هذه المملكة، وبالنسبة لهذا الحج، إن رغبتي الخاصة، ورجائي إليك، أن تكون وأنت من رعيتي المخلصين والنافعين لي، شريكاً مساهماً، وبناء عليه إنني ألتمس بكل إلحاح ممكن، أن تساعدني في هذه الحالة الضاغطة من العوز، والتي تتطلب نفقات ثقيلة، حتى تكون مثلاً صالحاً إلى الآخرين، وأن لاتولي أدنى اهتمام إلى تراخيهم في هذه القضية، وعندما تتهيأ الفرصة، سوف أرد هذا المعروف إليك بمنافع أكثر وفرة».

وأمام هذا الكلام المخادع، وقف الأسقف صامدا أمام الإغراء، وقد ردّ عليه كما يلي (بلطف، وبالأخذ بالصمت تجاه الأذى الذي لحقه من استبدال سوق القديس ايثلرد Ethelred واقامة بدلا عنه سوق القديس ادوارد في ويستمنستر): «مولاي، إنني إذا كنت في أي وقت من الأوقات قد أديت خدمة لك، فأنا مسرور لذلك كثيرا، لكن جلالتك يعلم أنني لن أقوم، كما أنه لايمكنني بأي حال من الأحوال، أن أبعد نفسي، أو التخلي عن البنود التي عملت والقرار الذي أجمع الكل عليه صادقين، أي من قبل الجماعة كلها، لأنني إذا مافعلت ذلك سوف يكون عملاً مخلاً بالكرامة من قبلي، وإذا ما قمنا نحن الأساقفة بالإذعان إلى قرارك غير المحدود، سوف تتعرض الكنيسة للفقر، كما سيتعرض للأذى تعهدك ويمينك، وسوف نخضع إلى ضريبة دائمة، وإلى عبودية مستمرة، ويمكنك إذا تفضلت، أن تعيد إلى ذاكرتك، كم كان عدد القديسين كبيراً، الذين خضعوا للعقوبة والنفي، والذين عدّوا

بشكل رائع وبجيد كشهداء في سبيل حرية الكنيسة المقدسة، فهل أنا بحاجة إلى ذكر ذلك الشهيد المجيد، توماس المبارك؟ أو لذكر خليفته القديس ادموند، المعاصر لنا؟ وهناك فيض من الأمثلة واضحة أمامك، كلها تميل بشكل واضح إلى نقدك ولومك، والذي عليك هو أن تكون حذرا ومتنبها إلى الذي حصل إلى الملك الفرنسي، وهو المثل الذي أشع واضحاً كالمرآة لك من قبل الرب، لأنه وزع المال الذي استخرجه من مملكته بين أعدائه، من أجل فديته، وبهذا المال أصبح أعداؤنا من المسلمين أغنياء، وبذلك فإن الذين يطاردوننا سوف يكونون أسرع، والذين يكرهون مجدنا، سوف بذلك المال يكونون القاهرين لنا، لابل إنهم الآن يعيشون في بهجة، لأنهم أصبحوا أغنياء بمالنا وبسلاحنا، ومهما حدث من الآن فصاعدا إلى هذا الملك المذكور، إنه قد نال عارا لايمحى في الماضي، ففي الحقيقة أصبح ذلك الأعظم نبالة بين المسيحيين، فريسة بيد المسلمين، ومن المؤسف القول انه بسبب ذلك تخلى كثيرون عن العقيدة وارتدوا، وهذا كله من الأمور يعزى إلى نظام السرقة المتقدم ذكره».

رفض الملك الإصغاء إلى المنطق

ولدى سماعه لهذا الكلام، كان الملك مثل واحد أصيب بجرح عميق، ولم يصغ إلى ما أملاه العقل، ودعا بصوت مرتفع خدمه قائلاً: «اطردوا هذا العجوز الهرم، وأغلقوا الباب دونه، ولاتدعوه يظهر أمامي ثانية، بما أنه رفض أيضاً أن يقدم لي المواساة والعون»، وهكذا فإن هذا الأسقف، الذي استقبل بليباقة لدى دعوته، غادر وهو مغطى بالملامات والاهانات، ووفق الطريقة نفسها سعى الملك إلى اضعاف ثبات بعض الاخرين، الذين بعث خلفهم بشكل سري، ومع أن اجاباتهم لم تكن من دون وزن، فإننا سوف نتجاوزها من أجل الاختصار، وقد بذل بهذه الطريقة البارعة قصارى جهده لتطويع عقول الأساقفة لإرادته، من

أجل أن يرغم النبلاء على الموافقة على هذا الاسهام، لأن اصرارهم اعتمد على اصرار الأساقفة.

ثبات كهنة وينكستر

وفي ذلك الوقت أيضاً، قدم الأسقف المنتخب لوينكستر إلى عند أخيه الملك، ليطلب منه الاذن بالعودة إلى وطنه، وليقول له وداعاً، لكن الملك لم يخاطبه بملامح هادئة كما ينبغي أن يفعل، كما أنه لم ينهض من كرسيه، كما كان يفعل نحو إخوته القادمين إليه، ثم إن هذا الأسقف خاطبه كما يلي قائلاً: «يبدو لي يامولاي، أن المؤتمر قد ارفض، وبت عارفاً بالقرار الثابت للأساقفة، حيث أعتقد أنك أخبرت به، وأنا الآن على استعداد —إذا سمحت— للعودة إلى الوطن، أسرع مما كنت متوقعاً لأن الإقامة الأطول في هذه المدينة لن تكون موافقة لي، وبناء عليه، أعهد بك إلى الرب»، فأجابه الملك: «وأنا أعهد بك إلى الشيطان، فقد كان يتوجب عليك الوقوف إلى جانبي، حتى لو كان العالم كله واقفاً ضدي، فأنت أخي لأمي، وأنا الذي رقيتك لتكون الذي أنت عليه، ولذلك نلت عدم رضا الرب، وقديسيه، وعدم موافقة الذين يعود إليهم حق الانتخاب، ورفعتك إلى أعلى المراتب وأسمى الأماكن، حتى أنك الآن الأول في انكلترا بالنسبة للثروة»، وأجابه الأسقف المنتخب على كلامه التوبيخي قائلاً: «مولاي إنني شاب بعدد سنوات العمر، لكن هل تريد، لأنك عملت مني الذي أنا عليه، أن أتصرف مثل طفل؟ لاسمح الرب بأن أنسحب من قرار تلك الجماعة التي تحب الرب، وتقدر كرامتك»، وبهذا غادر غاضباً.

كيف دفع سكان لندن عشرين ماركاً إلى الملك

وفي هذه الآونة، استخرج الملك بوساطة التماسات ملكية، عشرين ماركاً ذهبياً من سكان لندن (الذين توجب وفقاً لفحوى صكوك

حقـوقهم، وللأعراف القـديمـة، أن يتمتعوا بالقـدر الأكبر من الحرية) وكأنهم كانوا الطائفـة الأدنى من العبيد، لابل بالحقيقة ظهـر وكأنهم قد نظر إليهم بالمنطق نفسه، أو ربما أقل قدرا من مكانة عرق العبيد اليهود.

فرض ضريبة عبودية أخرى على اللنديين

وعـــــلاوة على ذلـك، أرغم الملك سكـان لندن، بـإرادتهم أو بدون رغبتهم، على إغــلاق نوافــذ حـوانيتهـم في مـدينة لنـدن، من أجل أن يحضروا السوق الذي أقامـه في ويستمنستر أيام عيد القديس ادوارد، مما ألحق الأذى بسـوق ايلاي، والذي استمر لمدة خمسـة عشر يومـاً، وذلك دون التقيد بالأحوال الشتوية للأنواء، وبـالوسخ، والمطر، وعدم مواءمة المكان، ولقـد أرغمـوا على الوقــوف في خيمهم، وذلك بناء على أوامـر الملك، الذي خشي من أن لايقـوموا جميعـاً بعرض بضـائعهم للبيع، مع أنهم لم يواجهوا مشترين.

حول معاناتهم من الأنواء القاسية

وبناء عليه، تغلب عليهم جميعـاً الوصب، وشمل ذلك الذين جاءوا إلى السوق، والذين سكنوا هناك، لأنه خـلال ذلك الوقت كله، كانت هنالك حشـود كبيرة من أنحـاء المملكة أتت مسـافـرة إلى هناك، وأقـامت بعض الوقت ثم عادت، وقـد أمطرت في تلك الأثناء إلى درجة كبيرة، حتى أنهم تبللوا جميعـــاً مـن المطر، وغطاهم الطين، كما أنهم أنهكوا أثنـاء سفـــرهـم، حيث وجدوا المخاضات لايمكن عبورهـا إلاّ بصعوبة بالغة، والجسور قد زالت، والطرقـات غير مـوائمة للسفـر عليهـا، وذلك مع أوسـاخ المدينة، وانعدام المؤن والحاجـات الضرورية الأخرى، وكان كل شيء قليـلاً وغالي الثمن، وعلى هذا تورطوا جميعـاً بمتـاعب لاحدود لها، وعـلاوة على ذلك كانت هنالك جماهير عديدة وكثيرة من الأشخـاص الذين قدموا إلى لندن، وأقاموا فيهـا، وبلغ ذلك حداً، أن سكان المدينة قد أعلنوا —حتى المسنين

بينهم— أنهم لم يشاهدوا من قبل قط مثل هذه الحشود الهائلة، وخلال ذلك الوقت كله تزايدت مشاعر الغضب وارتفعت ومعها الكراهية ضد البابا والملك، اللذان آثرا الطغيان وتعاونا مع بعضهما في سبيل ذلك، ولأنهم كانوا منزعجين كثيراً، فقد أطلقوا عليهما اسم «المزعجين لبني البشر»، وبذلك تحقق قول الرسول: «إنه مالم يحدث الانفصال سوف يظهر ابن الظلم»، ذلك أن الذي ظهر حتى الآن هو أن الشقاق بات قريباً، مع استيقاظ مشاعر عالمية للسخط وعدم الرضا المطلق، إن لم يكن بالأجساد، فعلى الأقل في القلوب (وكان هذا شراً أشد وأقسى) ضد كنيسة روما، والشعاع الضعيف الذي بقي من التقوى قد انطفأ.

مقالة حول شؤون غسكوني

وقام الملك في الوقت نفسه، حتى لايظهر بأن بعض النبلاء قد جرى جمعهم مع بعضهم من دون غرض، فعرض للمناقشة الخاصة، قضية الذي يتوجب عمله بالنسبة لشؤون مقاطعة غسكوني، التي ظهر بأن ايرل ليستر، قد بعث الفوضى فيها إلى درجة عالية، مما ألحق الضرر الكبير به، أما فيما يتعلق بالايرل نفسه، فقد انتشرت اشاعة في كل مكان في الخارج، تقول إنه بعدما حصل على النصر المجيد على الأعداء لنفسه وللملك، حسبما تقدم ذكر ذلك أعلاه، حمل نفسه وذهب من دون حذر إلى القلعة التي اسمها مونتوبان Montauban, التي وإن بدت أنها لاترام، كانت مهجورة وليس فيها عساكر للدفاع عنها، كما لم يكن فيها جميع أنواع المؤن، وهنا —كما قيل— جرى حصاره فجأة من قبل أعدائه الاقليميين، وبصعوبة بالغة جرى انقاذه بوساطة مساعدة بعض أتباعه المخلصين، الذين خاطروا بحياتهم لانقاذه، وعلاوة على ذلك أعاد إلى الذين تولوا حصاره، بعض الأسرى الذين وقعوا مؤخراً بين يديه في كمائنه، وفضلاً عن هذا كله، كان الملك غاضباً، لأنه رغب شخصياً بعبور البحر حتى يتولى تهدئة تلك المنطقة المضطربة التعيسة،

وقد بعث محاسبه بطرس تشيسبور Chacepore, ليطلب الاذن من الملكة بلانشي، حتى يرتحل بسلام ويسافر خلال فرنسا، وكان مثل هذا الطلب الأحمق يقابل دوماً برفض مطلق، وهو لم يتجرأ على الركوب بالسفينة ليسافر إلى هناك عبر الماء، بسبب مخاطر البحر، التي كان قد عانى منها، لاسيما وأن حلول الشتاء بات قريباً، ومعه التهديد بازدياد العواصف، وفي الوقت الذي كان فيه الجميع يتناقشون حول القرار الذي ينبغي اتخاذه حول هذه المسائل، جدد الملك في نهاية خطابه، بروح عالية، المطلب الملح بتقديم المساعدة المالية والعسكرية إليه شخصياً، لأنه كان على وشك الاقلاع للحج، وليقاتل في سبيل المسيح من أجل السلامة العامة، وعلى هذا المطلب أجابوه بالاجماع، بأن جوابهم يعتمد على جواب الأساقفة، وأنهم سوف لن يخالفوا القرار الذي سوف يتخذونه، أو يتخلون عنه، ونظر أحدهم نحو الآخر وتهامسوا فيما بينهم قائلين: «أي أمل يمكن تحقيقه من خلال هذا الملك الصغير، ومااالذي يمكن توقعه منه، وهو الذي لم يتعلم قط ممارسة الفروسية، والذي لم يركب قط على ظهر حصان، ولم يشهر سيفاً في حياته، ولم يهز رمحاً، ولم يرفع ترساً في معركة، فهل ياترى يمكنه أن ينتصر، حيث جرى أسر الملك الفرنسي، وحيث سقطت فروسية فرنسا وتدمرت؟ أو أية مشاعر طائشة التي يشعر بها بأنه سوف يتمكن من استرداد الاستحواذ على مناطقه في القارة بالقوة، وهي المناطق التي لم يستطع الاحتفاظ بها عندما كانت تحت حكمه»؟ ومع هذه الانتقادات، ومع إعلانهم أنه قد ولد فقط لغرض استخراج المال، عادوا ساخطين إلى مواطنهم، مع محافظ نقوذ فارغة، وديون متعاظمة.

ارفضاض المؤتمر وغضب الملك مع الآخرين

ثم إن المؤتمر ارفض، وسط غضب الملك، ورجال الدين، والنبلاء، وخزن الملك غضبه وكراهيته في قلبه، معتقداً أن جميع الذي عمل وقيل

مصدره الحقد والكراهية، وبناء عليه اعتقد أنهم أعطوه سبباً للعمل بشكل سيء ضدهم وشرير بدوره، وعلى هذا الأساس أصبح عنيداً وشديد الإصرار على تنفيذ خططه التي أبدعها بطريقة ملتوية عندما تتهيأ الفرصة.

كلام كونتسة آرونديل

وفي تلك الآونة أيضاً، عندما كان الملك مايزال مقيماً في لندن، أتت إليه إلى هناك، إلى غرفته الخاصة ايزابيلا كونتسة آرونديل Arundel, أرملة هـ . H, ايرل آرونديل، وكانت من أقرباء الملك لتطالب بحقوقها في قضية متعلقة بوصاية عائدة إليها، وبدا الملك أولاً هادىء المظهر، لكنه بعد ذلك قرعها بكلمات قاسية، ولم يرض بالاصغاء إلى أي من مطالب الكونتسة أو التجاوب معها، لأنه ادعى لنفسه المسؤولية عن الوصاية المذكورة، وبناء عليه قامت الكونتسة، مع أنها كانت امرأة بالرد عليه غير هيابة، وتخطت كونها امرأة فقالت: «لماذا يامولاي الملك تشيح بوجهك عن العدالة؟ حيث لايستطيع الإنسان الحصول على ماهو عدل وحق في بلاطك، فأنت قد جرى تعيينك بمثابة وسيط بين الرب وبيننا، وأنت لاتحكم بشكل صالح لانفسك ولالأنفسنا، كما أنك لاتخشى من إثارة الاضطراب والأذى للكنيسة في كثير من الطرق، وهذا ماقد تبرهن ليس الآن فقط، لكن غالباً ماتبرهن مراراً في الماضي أيضاً، وعلاوة على ذلك إنك تقوم من دون خوف أو حياء بظلم نبلاء المملكة بطرق متنوعة»، ولدى سماع الملك هذا الكلام ضحك باستهزاء، وبعدما لعب بفتحتي أنفه، قال بصوت مرتفع: «ماهذا ياسيدتي الكونتسة؟ هل اتفق معك نبلاء انكلترا وأعطوك تفويضاً لتكوني المرأة المتكلمة بلسانهم والمحامية لهم، بحكم أنك فصيحة؟»، وعلى هذا ردت الكونتسة —مع أنها كانت امرأة شابة— بطريقة ترفع من مقام الإنسان الأكثر نضوجاً بالعمر قائلة: «ولابشكل من الأشكال يامولاي أعطاني نبلاء مملكتك تفويضاً، لكن أنت الذي أعطيتني تلك الرخصة، فهي التي منحتني

والدك إياها، وأنت وافقت عليها، وأقسمت على رعايتها بإخلاص، والحفاظ عليها غير مخروقة، ولقد قمت مراراً كثيرة باستخراج المال من رعيتك، في حين قد وعدت بالحفاظ على حقوقهم وامتيازاتهم، غير أنك برهنت دوماً عن نفسك بأنك ناقض للميثاق بدون حياء، ومعتدي على هذه الامتيازات، وبذلك برهنت بوضوح على أنك حانث بيمينك وخافر لذمتك، فأين هي امتيازات انكلترا، التي غالباً مامنحت، وغالباً مادونت كتابة، وغالباً ماجرى انقاذها؟ وإنني وإن كنت امرأة، وكلنا نحن الذين رعايا طبيعيين ومخلصين، نترافع بالدعوى ضدك، ونتقدم بالشكوى عليك أمام قضاء الحكم العدل المخيف للجميع، والسماوات والأرضين سوف تكون شهودنا، بما أنك تعاملنا بالظلم، مع أننا أبرياء من اقتراف أية جريمة ضدك، وأرجو أن يقوم المولى إله الانتقام بالانتقام لنا»، وأمام هذا الكلام استحى الملك وصمت، لأنه علم بما أملاه عليه ضميره، بأن الكونتسة لم تبتعد عن طريق الحق والصدق، وبعد لأي قال: «هل إنك لاتطالبين بإسداء هذا المعروف إليك لأنك امرأة قريبة لي؟»، وعلى هذا ردت قائلة: «بما أنك تنكر علي ماهي مطالب عادلة، كيف يمكن أن آمل أنك ستسدي إليّ معروفاً بناء على طلبي؟ غير أنني أتضرع بالشكوى أيضاً أمام وجه المسيح ضد الذين هم مستشاريك، الذين أضلوك، وأزاغوك، وحادوا بك عن طرق الحق، لأنهم مهتمون بتشوق بمنافعهم فقط»، وبعدما أصغى الملك إلى هذا التقريع الأديب وهذا الكلام اللائق، لزم الملك الصمت، وعادت الكونتسة إلى منزلها من دون الحصول على الاذن، لابل بالحري دون أن تطلب ذلك، وذلك بعدما عانت من كثير من المتاعب ودفعت الكثير من النفقات من دون فائدة، واستمر الملك —على كل حال— لايمكن تقويمه، وليس على استعداد للاصغاء إلى هؤلاء ولا إلى الآراء والمشاورات السليمة.

حول البحث في شؤون غسكوني

ثم قام الملك مرة ثانية بدعوة النبلاء للاجتماع مع بعضهم، وهم الذين —كما ذكرنا أعلاه— كانوا قد رفضوا طلباته الملحة وقاوموها، وشاورهم حول الذي ينبغي عمله بالنسبة لقضية غسكوني، وعلى طلبه أجابه النبلاء، أنه «إذا كان الايرل سيمون ايرل ليستر يسعى إلى اخضاع أولئك العصاة المتمردين ضد ملكهم، ينبغي أن لانعجب تجاه ذلك وأن لانتحب، خاصة وأن هؤلاء الغسكونيين مجموعة من الناس المنحطين، لأن مولاهم الملك عندما اتخذ ملجئاً بينهم بكل اطمئنان، خانوه، وأفقروه بعدد من الطرق المضاعفة، وبناء عليه عدت إلى الوطن مهاناً وفقيراً، مما سبب الأذى وألحق العار بجميع الانكليز، وعلاوة على ذلك إن كثيراً من هؤلاء الغسكونيين هم لصوص وقطاع طرق، يسلبون الحجاج والتجّار أثناء سفرهم، ويلتجئون إلى كهوف قطاع الطرق القدماء بين سلسلة جبال ايغريمونت Aigremont الوعرة والتي لايمكن الوصول إليها، والتي حصنوها بقلاع قوية، يضاف إلى هذا، لقد بقيت فقط سنين قليلة، هي مجرد ثلاث سنوات ونصف السنة للايرل، وذلك وفقاً لصك ولايتك، للاحتفاظ بحكومة تلك البلاد، ومجدداً نحن لم نتلق معلومات تتعلق بأوضاعها مؤخراً، لوجود مسافة واسعة من الأرض والماء بيننا وبينها، وبالتالي لايمكننا إعطاء جواب محدد حول قضايا غير مؤكدة بالنسبة لنا».

هذا ولم يكن الملك مسروراً لتقديمهم له تسويغاً وعذراً لأعمال الايرل، لأنه كان ينوي التعامل معه بقسوة أكبر، وأن ينظر إليه على أنه خائن، وأن يحكم عليه هكذا، وبالتالي يجري تجريده من أملاكه، ولم تكن هذه الخطة —على كل حال— سرية بالنسبة للايرل، مع أنه كان بعيداً، وعندما رويت إليه أخبار الإجراءات المتقدمة الذكر قال: «أنا أعرف تماماً أنه يريد تجريدي، ليغني بعض البروفانسيين أو البواتيين بايرليتي».

انتهاء المؤتمر

ولذلك ارفض المؤتمر، وبقي الملك ملتهباً بغضب عنيف ضد النبلاء، وكـذلك ضد الأسـاقفة، وفكر بأن يستـدعي إلى مسـاعدته نائبـاً بابوياً، يمكنه بفضل السلطات الرسـولية أن يرغم رجـال الـدين على تقـديم الاسهام إلى مطالبه، مع أنها سـوف تكون ضريبة ثقيلة، ونوعاً من أنواع العبـودية الجديدة ومسألة لاتحتمل بـالنسبـة للكنيسـة، وهكذا هددت الشرور بمضـاعفة الشرور وتكديسهـا فـوق بعضها، وبذلك يكون قـد جرى إغناء السماسرة، واليهـود، وآخرين من مقرضي الأموال، وسوف يغادر الأساقفة والنبلاء، خاليي الوفاض، حزينين ومحتاجين.

حول المقابلة التي جرت بين مقدم الاسبتارية والملك

وفي هذه الآونة أيضاً، كـان مقدم اسبتـارية القدس، ينتظر في بيت الطائفة في كليركنول Clerkenwell ينتظر وقتاً مناسباً وهادئاً، وذلك منذ وصوله، من أجل الحصول على اجتماع مع الملك، وعندما جـاء إليـه تقدم إليـه بشكوى، حـول الأذى الذي لحق به، وعـرض رسائل حمايته موقعة من قبل الملك الحالي، وكذلك من قبل سلفه من الملوك، وبما أن الملك قد غضب، خاطبه بصوت مرتفع، وقدم لجوابه بيمين، ثم أجـابه قائـلاً معايلي: «أنتم القسـاوسة والرهبـان، وبشكل خاص الداوية والاسبتـارية، لديكم كثيراً من الامتيازات والصكوك، وقد جعلكم تملككم الزائف والمسرف متجبرين، ومن التجبر أنسقتم إلى الحماقة، وبناء عليه، يتوجب علينا، أن نلغي بشكل عقلاني، الذي منح إليكم بصـورة لاعقلانيـة، وأن نسترد من عهـدتكم، الذي وزع بموجب مشورة فـاسدة»، ثم أضاف قائـلاً: «أولم يقم البابا في بعض الأحيان، لابل مراراً كثيرة ومراراً كثيرة، بمراجعة أوامره وإلغائها؟، أولم يقم هو باقحامه فقرة «دون التقيـد» بإلغاء صكوك جرى منحها من قبل؟ وهكذا إنني سـوف أخرق هذا الصك وألغيـه، والصكوك

الأخرى أيضاً، التي منحها سلفي ومنحتها أنا بتسرع ومن دون روية»، وقام مقدم الاسبتارية، الذي حمل رتبة رئيس رهبان برفع رأسه، وخاطبه من دون خوف قائلاً: «ماهذا الذي تقوله يامولاي الملك؟ لاسمح الرب لمثل هذا الكلام المليء بالنكران والجحود، والمتناقض، أن يخرج من فمك، فطوال ما أنت تتولى مراعاة شرائع العدل، سوف تكون ملكاً، لكن عندما تخرقهم وتتجاوزهم سوف تتوقف عن كونك ملكاً»، وعلى هذا رد عليه مع حاجة كبيرة للتقدير قائلاً: «مامعنى هذا؟ هل ترغبون أنتم الانكليز بالإطاحة بي من على عرشي، كما فعل آباؤكم من قبل مع أبي، وبعد خلعي تتولون قتلي؟».

تعيين رينالد دي موهون حافظاً للغابات

وحدث في هذه الآونة، أن جرى صرف الفارس غيوفري لانغلي Langley, الذي كان ظالماً بلا حدود لجميع الذين وقعوا تحت سلطانه، وذلك بمختلف السبل ومهما كانت، صرفه من وظيفة حافظ الغابات، وأرسل إلى سكوتلندا، بمثابة مستشار لملكة سكوتلندا، التي كانت ابنة الملك، ومنح صرفه رضا كبيراً إلى كثير من الانكليز، وجرى تعيين رينالد دي موهون Mohun بدلاً عنه، وكان غيوفري هذا، قد جرى تعيينه، بناء على أوامر الملك، واحداً من الأوصياء على ملكة سكوتلندا، غير أن نبلاء تلك البلاد لم يستطيعوا الاستمرار بتحمل سلوكه الوقح، ولذلك صرفه من منصبه، ثم إنه حول نفسه ونقلها إلى خدمة ادوارد، وعمل في وضعه الجديد الكثير من الأعداء للملك، وكذلك لادوارد، وكان غيوفري هذا قد جرت تربيته من قبل روبرت باسليف، وتمت ترقيته إلى منصبه من قبله، لكن بعد بعض الوقت حل المتلقي للتوجيهات محل الموجه له، وهذا الذي جرت ترقيته تولى الإطاحة بالذي رقاه.

٨١٠٣

حول الأخبار التي جلبها بعض الأرمن

وجـاء في هذه الأونة بعض الأرمن إلى كنيسـة القـديس ألبـان، حتى يقدموا صلواتهم، وكان واحـدا منهم أخا للرجل المقدس الذي مات في سينت ايف، وهي واقعة جرى ذكرها من قبل، وحملت الوجوه الشاحبة لهؤلاء الرجـال، ولحاهم الطويلة، وطريقـة عيشهم القـاسية شهـادة على قداستهم، وعلى قسوة نظامهم، وأكـد هؤلاء الأرمن، الذين ظهروا أنهم رجال يستحقون التصديق، جوابا على سؤال طرح عليهم، مايمكن عدّه حقيقة، بأن التتـار، قد عـانوا من خلال انتقام الـرب، وليس من خلال انتقـام الإنسـان، من النقص الشديد في التعـداد، بوسـاطة مـرض مميت انتشر فيما بينهم، وكذلك بوسـاطة سيوف أعدائهم، وأنهم قهـروا تماما، وأرغمـوا على العـودة إلى مـواطنهم الماضيـة، وفي الحقيقـة بات بإمكان شعـوب الغرب أن تكون متـأكدة بأن هذا الوباء المدمر لن يزور العـالم ثانيـة، وذكروا أيضـا، أنهم يعلمـون —بدون أدنى شك— بأن يوسف، الذي رأى المسيح، عندمـا كـان على وشـك الصلب، والذي كـان ينتظر اليوم الذي سيحكمنا كلنا فيه، مايزال حيـا حسب عادته، وهذه الواقعة هي احـدى الحوادث المدهشـة في العـالم، وهي برهان عظيم على صحـة الإيمان المسيحي.

وكانت بلاد هؤلاء الأرمن، تبعا لما ذكروه، تبعـد سفر حوالي الثلاثين يومـا عن القدس، وتصل مناطقهـا القصـوى إلى بداية مقاطعـات الهند، التي تعـرضت للنهب إلى حـد كبير من قبل التتـار، وينبغي أن يكون معلوماً بأن سفينة نوح، قد رست في أرمينيـا هذه نفسها، وذلك تبعا لما ورد في الكتابات المقدسة، وما هو مدهش أكثر، هـو حقيقة أنها ماتزال راسية هناك، ولكن بما أنها واقفة على قمتي جبلين عاليين كثيرا، والمكان علاوة على ذلك مشحون بحشود الأفاعي السامة والخطيرة، ما من أحد يستطيع الوصـول إلى هناك، وفضلا عن هذا، إن إرادة الرب قـد قضت

أن لايصل مخلوق مـن بني البشر إليهـا، ويحطمهـا، في سبيل أن يحمل قطعـاً منهـا، أو بالحري، إنها بقيت بفضل رحمة الرب الدائمـة، هناك، حتى يبقى دمار العـالم كله، وتصالحه بعـد ذلك مع الرب، في ذاكرة بني البشر بشكل دائم.

وفاة كونتسة وينكستر

وماتت في الوقت نفسه في غروبي Groby, وهي عزبة عائدة إلى ايرل وينكستر، ليس بعيـداً عن ليستر، الكونتسـة زوجـة ذلك الايرل، وابنة ايرل هيرفـورد، وقـد ماتت وهي شـابة، ولذلك لم تترك ولداً منهـا للايرل، مثلما كـان الحال مـع زوجتـه الماضيـة ابنة ألان أوف غـالوي Galway, التي ماتت من قبل، مخلفة له بناتاً فقط، وكانت الكونتسة المذكورة أولاً، قد ماتت في العشرين من تشرين الأول، ودفنت في بريكلي Braukley, حيث كـانت قـد دفنت زوجـة الايرل السالفـة أيضـاً، وكان دير ذلك المكان قد تأسس من قبل أجـداده، ولهذه الأسباب اختاره ليكون مكاناً لدفن زوجتيه، ثم مالبث على الفـور أن اقترن بامرأة أخرى، حيث ظل آملاً أن ينال من الرب نعمة انجاب صبي.

حول إطلاق سراح أسرى صليبيين من قبل سلطان مصر

وجرى في هذه الآونـة أيضاً إرسال رسل من قبل الملـك الفرنسي، تم الحصول لهم على اذن بالتجـول في جميع مناطق سلطان مصر مع الأماكن الواقعة تحت حكمـه، للبحث عن الصليبيين الذين في أسر سلطان مصر، وتحت سلطتـه حتى يجري اطلاق سراحهـم من دون شروط، وفي ذلك الوقت كان قـد جرى اطلاق سراح الأسرى الآخـرين الذين كانوا تحت سلطة السلطان وفق شروط سهلة، وفي سبيـل اطلاق سراح هؤلاء، بذل الملك الفـرنسي، الذي كـان أكثـر الناس تقـوى، كميـة وافـرة من المال، بوساطة صدقاته.

كيف جرى جلب عظام وليم صاحب السيف الطويل إلى عكا

وفي أحد الأيام، قال سلطان مصر للرسل الذين بعثوا لأداء المهمة المذكورة أعلاه: «أنا أعجب منكم أيها الصليبيون الذين تحترمون عظام الموتى، لم تقوموا بالسؤال عن عظام وليم ذلك الرجل المشهور كثيراً، وذي الأصل النبيل، الذي منحتموه اسم «صاحب السيف الطويل»، ونحن قد سمعنا كثيراً من الافادات، لاندري إن كانت مجرد حكايات أم لا، تتعلق بهذه العظام نفسها، من ذلك على سبيل المثال، أنهم يظهرون فوق قبره في الليالي المظلمة، وأن كثيراً من المنافع تضفى من قبل السماء على الذين يدعون إلى الرب في ذلك المكان، ولهذا السبب، ولأنه قتل في المعركة، وبسبب سماته الرفيعة، ولأصله النبيل، قد دفنا جسده مع كل احترام لائق».

وتحدث الرسل فيما بينهم، و قالوا لبعضهم بعضاً: «كيف يمكننا أن نستخف بهذا الرجل، الذي هو رجل انكليزي، والذي حتى المسلمين لايمكنهم رفض ماهو جدير وحقيق بنبالة وليم هذا نفسه؟» وبناء عليه قرروا من تلك الساعة المطالبة بوجوب إعطاء عظامه إليهم، وقد زودهم السلطان بها برضاه، ثم إنهم جلبوا معهم عدداً من العبيد المحررين، وقاموا بجمع عظام وليم المتقدم ذكره، وأخذوهم ونقلوهم معهم، وساروا إلى عكا، حيث تولوا دفنهم بكل احترام في كنيسة الصليب المقدس.

حول الإجراءات العدوانية والعنيفة لوليم أوف بلنسية

وفي هذه الآونة نفسها، قدم وليم أوف بلنسية، أخو الملك لأمه من مقر سكنه في هارتفورد، ودخل بالقوة، ومراغمة للمرسوم الملكي الذي صدر مؤخراً، بناء على الموافقة العامة للانكليز، إلى مكان مغلق (مما يطلق عليه بشكل عام اسم حديقة) كان عائداً إلى أسقف ايلاي، قرب عزبة

هاتفيلد Hatfield, وقـام هناك بالصيـد، من دون الحصـــول على الاذن من أي إنسـان، مع أن ذلك شكّل خرقـاً لقـانون البلاد، ولمبـادىء الشرف، وأصـالة النسب، وبعـدمـا عمـل هذا تحوّل إلى عـزبة الأسقف، وكـان عطشـاناً، ولم يجد شيئاً يشربه مـاعـدا البيرة، فحطم بالقـوة أبواب المستـودعات التي كـانت محكمة الاغـلاق، وهو يصرخ بصوت مـرتفع، ويجدف بشكل مـرعب، ويلعن البيرة والذيـن صنعـوها أول مـرة، ثم إنه سحب سكور بعض البراميل، وبعدمـا شرب هو نفسه مافيـه الكفاية من الخمرة الموجودة هناك، والتي كانت من أفخر الأنواع، أمر بتوزيعها بوفرة بين أتباعـه، وعلى جميع الذين اختاروا أن يشربوا منها، وكأنها كـانت ماء، أو من أسـوأ أنواع البيرة، وسمع رجل كـان يتـولى الاشراف على العـزبة ضربات المطارق التي استخدمت لتكسير الأبواب وفتحها، وسمع صراخ الذين استخدموا في ذلك العمل، فجاء حتى يوقف عنفهم، وليوزع بينهم كميات كافية من الخمرة، لكنهم لكموه فقط وأهانوه، وبكل صعوبة نجا من عنفهم، وبعدما سكروا إلى حد التقيؤ، وبعدما بددوا كثيراً من الخمرة وصبـوها هناك، غـادروا وهم يصرخون سخـرية، دون أن يعبأوا أجـرى إعـادة السكور إلى البراميل أم لا، وبعدمـا ذهبـوا وابتعدوا، ذهب خـادم العــزبة إلى المكان، ووجــد البـاب محطماً، وكأن ذلـك فعل أثناء الحرب، والخمـرة تسيل بكميات كبيرة على أرض المستـودع، وقـد قام على الفـور وبكل سرعـة، بتسكير البراميل، واغلاق البـاب واحكامـه ثانية، وعندمـا جـرى اخبـار الأسقف بهذه الإجـراءات، لم يأسف للأذى الذي لحق به، وقال وهو هادىء المظهر: «عجباً هل كانت هناك ضرورة لسلب ولنهب ماكـان يمكن أن يعطى إليهم طواعيـة وبالرضا، بكميـات وافية، لو أنهم فقط طلبوا ذلك؟ ثم إنه لعن هذا العدد الكبير من الملوك، أو بالحري من الطغـاة في مملكة واحدة»، ولقـد كـان من الواضح تماماً أن المحـرض على مثل ذلك العنـف، وذلك الهجـوم الذي كـان بـلا حيـاء على ممتلكات الكنيسة، استحق عقوبة الحرمان الكنسي لهذا الذنب الذي اقترفه.

حول العمل غير الشريف الذي اقترفه غيوفري دي لوزنغنان

وفي اليوم الثالث، بعد وقوع الحوادث التي رويت أخبارها أعلاه، قام غيوفري دي لوزنغنان، أخو وليم الذي تقدم ذكره أعلاه، بالعزم على الإقامة في دير القديس ألبان، فأرسل قهرمانه قبله، ليعلن عن نيته بالقدوم إلى هناك، وليجعل رغباته معلومة، ووصل القهرمان إلى باب ساحة الدير، وقال للبواب دون أن يحييه: «معلمي وشيك الوصول، ويرغب بالإقامة هنا، أين سوف ينام؟»، فردّ عليه البواب قائلاً: «حيث سيختار»، فأجابه القهرمان قائلاً: «هو لن ينام في أي مكان غير القصر الملكي، لأنه هو من أصل ملكي»، فأجابه البواب قائلاً: «ليكن ذلك كما يريد، لكن العادة بالنسبة لنا، أن يسأل الذين يرغبون بالاستضافة هنا، أن يكون ذلك تلطفاً، وليس طلب ذلك بوقاحة، لأن هذا البيت بيت للإحسان».

ولدى سماعه هذا الكلام نظر إليه القهرمان نظرة غاضبة، وقطب جبينه، وقال للبواب: «أية حماقة هذه التي تقولها أنت؟ أين هو الاسطبل لنضع خيولنا»، وبناء عليه دلّه على اسطبل واسع، مكرّس لاستخدام الضيوف، فيه يمكن وضع ثلاثمائة رأس من الخيل من دون صعوبة، وصدف في ذلك اليوم أن بعض الناس ذوي المقتنيات، من رجال دين ومن علمانيين كانوا قد وصلوا إلى هناك للاستراحة، ولإنعاش أنفسهم، ولذلك وضعوا خيولهم في ذلك المبنى، مع علف لهم قد وضعوه أمامهم، ولدى دخول القهرمان المتقدم الذكر بعجرفة وتكبر شاهد الخيول، وخدم الضيوف، فغضب غضباً شديداً، واندفع نحو الحيوانات، وقطع أربطتهم، وبتهديد كبير وعجرفة طرد الخيول والخدم من الاسطبل، ولم يسمح لهم باتخاذ زاوية من المكان على اتساعه يحتمون بها، ولقد توجب على راعي الدير تحمل هذا كله بصبر، كما فعل أسقف ايلاي تجاه الاعتداء والأذى الذي لحق به، وذكرناه أعلاه، خاصة وأن

الانكليز الآن مستضعفين ومداسين تحت الأقـدام، في حين أن الأجانب سـادة على الجميع، ففي ظل الملك الطاغيـة، يتجمع كل شيء ويحشر مع بعضه في العراء ويتعرض للخطر وللمطر.

حو ل الاتهامات التي قدمت ضدّ الفارس روبرت دي لى هو

وخلال العـام نفسه، ولدى اقتراب حلول عيد القـديسين الرسولين: سمعـان ويـود (الذي هو العيـد الذي يجدد سنـوات حكم الملك هنري الثالث) جـرى اتهام واحد من الفـرسان المتعلمين، وكـان اسمه روبرت دي لىٰ هو Ho, الذي كـان الملـك قـد عهـد إليـه بالـوصـاية على اليهود، وأيضـاً على ختمه، العـائد إلى خـازن أولئك اليهود المذكـورين، اتهامه من قبل الملك بجريمة كبيرة، وهذه الجريمة أنه قام بوساطة صك زائف، حمل أيضـاً الختم الذي كـان روبرت المذكـور الحامل له والوصي عليه، بحكم كـونه المتولي لشـؤون العدالة على اليهود، قـام بايذاء وظلم ابن أحـد الفـرسـان، وكـان بريئاً مـن كل اثم وعـدوان، وبناء على هذه التهمـة جـرى اعتقـاله، وألقي به بشكل مهين في سجـن مضيق عليـه، وجـاء هذا الإجـراء تجديداً لفضيحـة التشهير، التـي عـانى منهـا فيليب لوفل، الذي كان وقتها المسؤول عن العـدالة على اليهود، وكان ذلك قد حـدث في العـــام المنصرم، عندمـا وقع في شراك اليهـــود الأشرار، وهو الذي تمكن الآن بمهارته من الارتقاء إلى وظيفة الحافظ للخزانة الملكية، وعلى هذا يمكن القـول بأن «القـدرة الربانيـة قـد تسـابقت مع شـؤون الناس وتبارت».

وحدث على كل حال أنه بتدخل من أصدقاء روبرت المذكور، جرى كشف خبث اليهـــود وشرورهـم، وتبرهنت براءته وتأسســت، ولذلك أطلق سراحـه، لكنه صرف من وظيفة الوكـالة، وجـرى تغريمـه بمبلغ أربعة ماركات من الذهب على الأقل.

حول الإجراءات القضائية لناظر أساقفة إنكلترا

وفي هذه الآونة نفسها، جرى استخدام المعلم ج. ل، الناظر العام لأساقفة انكلترا في بلاط روما، حيث ترافع بقضيتهم ضد رئيس أساقفة كانتربري، الذي ادعى لنفسه حق الزيارة التفقدية في انكلترا، مما كان سيسبب أضراراً لايمكن تحملها للكنيسة الانكليزية، وفي سبيل مقاومة هذا الظلم، دفع المعلم ج. ل المذكور ستة آلاف مارك إلى البابا، وبهذه الوسائل أمكن منع رئيس الأساقفة من الاستحواذ على حق الزيارة التفقدية الكاملة التي طلبها، واشترط أيضاً أنه ينبغي أن لايقوم بأية زيارة تفقدية إلى أية كنيسة أبرشية، مالم تتم دعوته للقيام بذلك من قبل قسيس المكان، ولكن الكنائس الديرية هي وحدها التي لم تعف، ووقتها عند ذلك، ينبغي أن يتلقى مساعدة مالية مقدارها أربعة ماركات فقط، ومن الممكن فهم خصوصيات هذا العمل بوضوح أكبر، بوساطة رسائل البابا، التي أقحمت في كتاب Additaments, وسوف يظهر الفحص الدقيق في مقاصدهم كيف احترم الأساقفة الرهبان في المملكة، خاصة المعفيين، وأنه عندما يجري اغضاب الرب، سيكون هناك انشقاق في الكنيسة، سوف ينتج اقفاراً، فيصبح وباء عاماً بين الأساقفة وكذلك بين العلمانيين.

وصول ألبيرت موثق البابا إلى إنكلترا

وفي هذه الآونة، في أيام عيد القديس مارتين، وصل إلى انكلترا المعلم ألبيرت، موثق البابا، وهو الذي كان قد جاء إلى هناك أيضاً قبل عامين، عندما كان الملك الفرنسي يستعد لعبور البحر، وذلك بقصد منع ملك انكلترا باسم البابا من ازعاج أراضي الملك المذكور، بأية طريقة من الطرق، أثناء وجود الملك الفرنسي المذكور في القتال في سبيل الرب، وكان هدف قدومه سرياً بالنسبة لكثيرين في البداية، ولكن بعد ذلك بات السبب معروفاً بوساطة نتائجه، ولقد كان البابا يعرف أن الايرل

رتشـارد، أخي الملك، مليئاً بالشروات، وأغنى من جميع رجـال الغـرب الآخرين، الذين كـانوا من مرتبته، (دون أن يتعب نفسه في معـرفة كيف حصل على ثرواته) فرتب بدهـاء لاختياره من أجل التعيين ليكون ملكاً حـاكماً لأبوليا، وصقليـة، وكـالبيرا (قلورية)، وذلك في سبيل أن يقـاتل الايرل لصـالح البـابا، وينفق أمـواله على حظوظ للحـرب مشكوك بها، وتعريض نفسه للمخاطر الشخصية، حتى يمكن نيل جميع هذه البلدان، من أجل منفعة البلاط الروماني، و أن يجمع الأموال لصالح هذا البلاط ولضرره الذاتي، وبتصرف البـابا وعملـه على هذه الصـورة، اعتمـد على كلام الشيطان الذي فيـه دهاء وخداع عندما قـال: «سوف أعطيك جميع هذه الأشياء، إذا ماسجدت لي وتعبدتني»، ذلك أن البابا كان يعرف بأن الايرل مستحـوذ عليـه بالنهم مثل المصـاب بـالاستسقـاء، وبعطش إلى الثروة وإلى المفـاخر الدنيوية، وبهذه الطريقـة وضع طعم شصه، ظاناً أنه سيمسكه به بكل سهـولة، وعلى هذا ليس عجباً سر لماذا قدم البـابا من قبل كثيراً من التشريف إلى الايرل رتشارد في ليون، وعامله وكأنه قريب له، وأبدى سروراً عظيماً بمصـاحبتـه ممـا أثار دهشـة الجميع، ولم تعتقـد أكثـرية الناس بأن الايرل سوف يصغي بأي حـال من الأحوال لوعـود البابا، لأنه لم يكـن قوياً بصحته الجسـدية، ولم يكن شجاعـاً ولابارعاً في الحرب، ومجدداً لأنه سـوف يبدو أنه بدون شرف في أن يسعى لإحـلال نفسه محل ابن اخته هنري، وأخيراً لايمكن لإنسـان عاقل أن يقدم ماهو مؤكد ويستبـدله بما ليس مؤكداً، لكن البابا اعتقـد أن جميع هذه العيوب يمكن تحملهـا، لابـل إنها ليست حتى مـزعجـة أو مـربكة، وينبغي أن يكون معلومـاً أنه في اليـوم الذي كـان فيـه الايرل يحتفل مع البـابا وقع الملك الفرنسي —بضربة غير موائمـة من ضربات الحظ— بالأسر، وقد حـدثني بأخبـار هذه الوقـائع —أنا كـاتب هذه الصفحـات— الايرل نفسه.

كيف شغل ألبيرت نفسه في سبيل الارتقاء بمصالحه

هناك قــول متـداول أن المصلي يصلي بشكل أحمق إذا نسي نفســه في الصلاة، وكـذلك المنصرف للعمل على منفعة واحـد آخر، وغير متـذكر لنفسـه، ولقــد قـام المعلم ألبيرت الذي كــان مقيماً في لندن ينتظر حتى يعطيه الايرل جواباً على رسالة البـابا، الأمر الذي أخره، في سبيل تقدير القضيـة، قـام بارسال رسـائل إلى كثير من أسـاقفـة انكلترا، التمس من أحـدهم أن يهديه مهـراً، ومن آخـر أن يعطيـه منفعـة كنيسـة، وجعلهـم يفهمـون أنه لن يرفض قبـول أية هدية أخـرى يمكن أن يقـدمـوها له، وبذلك فـإن المعطي لن يظهــر أنه مستخف به من قبلهـم، وحصل من كنيسة القديس ألبان —بمثابة عمل معروف وإحسان— على مهر وعلى منفعـة أيضـاً، على غـرار مـايحصل عليـه الرومـان عـادة من مكتب أي أسقف، والذي يعني تقريباً الشيء نفسه.

حول وصول رئيس الأساقفة إلى لندن

وفي ثمانيـة عيـد القــديس مـارتين، وصل بونيفيس رئيـس أسـاقفـة كــانتربري إلى انكلترا، ولدى وصـولـه مـا من أحــد شعـر بالبهجــة، لابالحقيقـة —ونقـول هذا مكرهين— شعــر الناس بالحري بالانزعـاج لوصـوله، لأن كل واحد، لابـل جميعاً تذكـروا كيف تصرف بشكل غير معتـاد ووحشي في لنـدن، وكيف أنه عندمـا كــان هناك قـد انتــزع من الرهبـان حـق زيارتهم زيارة تفقـدية، وفـرض ذلـك عليهم، وكيف أنه —عـلاوة على ذلك— قد أفقـر المملكة والكنيسة بطرق كثيرة متعـددة، باستخراجه أولاً أحد عشر ألفاً من الماركات، ومؤخراً ستة آلاف مارك، التي جرى فرضها لدى زيارته التفقدية الطغيـانية، وكيف أيضاً قد أفقر بشكل كبير كنيسـة كـانتربري الجليلة، التـي عـاشت في ظل حكم عـدد كبير من القديسين، وجـاء ذلك عن طريق قطع أشجار غـاباتها، ووضع الدير تحت قــدميـه والدوس عليـه، ومجدداً كيف أنـه أعطى وبعثـر بين

الأجانب الموارد الغنيـة كلها، التي أصبحت شاغـرة في أيامه، ولهذا من المعتقد أن البناء الذي يقام على أسـاسات أرض مستنقعية، سوف يكون بناء ضعيفاً، وهذا —على كل حال— ينبغي أن ندعه لقدر العلي الأعلى.

حول الخلاف الذي نشب بين رئيس الأساقفة والأسقف المنتخب لوينكستر

وقبل ثمانيـة القديس مـارتين مباشرة، في هذا العـام، كان هناك كـاهن يعمل لصـالح الأسقف المنتخب لوينكستر، قـد أدخل نفسه في الوصـاية على مشفى ساوثويرك Southwark, كان معـروفا بشكـل جيد في أسقفيـة وينكستر، وكـان الوصي على ذلك المشفى —الـذي يقـال بأنه تأسس من قبل القـديس توماس الشهيـد— قد نال حسبما جـرت العادة بين السكان لقب رئيس رهبـان، ورأى المعلم يوستـاس أوف لين Lynn أن الإجراء المذكـور أعلاه فيه تجاوز على حقـوقه، لأنه كـان من موظفي رئيس أسـاقفة كـانتربري، وبموجـب وصايتـه، كان ينبغي الحصـول على مـوافقته، وقـد تمّ تجاهل طلب مـوافقتـه تحدياً له، ولذلك حـذر الكاهن المذكور مرتين وثلاث مرات حتى يتخلى عن استحواذه على الوصاية، على أساس أن توليـه للوظيفة كان مؤذياً، ومجرد ادعـاء، لكن هذه التحذيرات جـرى رفض الاستجـابة لها من قبل الكاهن، أو رئيس الرهبـان كما كـان يعـرف، وجـاء رفضـه اعتماداً على استحـواذه للمنصب، وبناء عليـه قـام مـوظف رئيس الأساقفـة بحرمـانه كنسياً، لعصيـانه وتمرده، وبقي رئيس الرهبان المذكور تحت هذه العقـوبة لمدة أربعين يوماً، كـان خلالها يتفـوه بالتهـديدات وبالإهانات، ووقتها لم يعـد بإمكان هذا الموظف تحمل ذلك التجبر والوقـاحة، فأمـر باعتقـاله على أساس أنه شخص متمـرد، ولدى سماع رئيس الرهبـان بهذا، ارتدى مـلابـس مقـدسـة للحماية، والتجأ إلى الكنيسـة، ولكـن الموظفين الذين أرسلوا لاعتقـاله، لم يوفـروه لتلك الأسباب لأنه بحكم كـونه محروم كنسياً، قد أظهر تحديا لمفـاتيح الكنيسة،

ثم أمر موظف رئيس الأساقفة بأخذه إلى ميدستون Maidstone, وكانت عزبة تابعة لرئيس الأساقفة، ليسجن هناك، حتى يتقرر الذي سوف يعمل معه، لأنه أفيد بأن رئيس الأساقفة بات قريب الوصول.

حول الإجراءات الجريئة التي قام بها الأسقف المنتخب لوينكستر

ولدى سماع الأسقف المنتخب لوينكستر بهذا الإجراء، غضب غضباً تجاوز جميع الحدود اللائقة، وتقدم بشكوى ثقيلة لإخوانه، وكأنه قد عانى من ضرر عظيم وإهانة كبيرة، ولأنه تلقى منهم التشجيع والمشورة، جمع عصابة مسلحة من الفرسان، وأرسلهم مع كوكبة كبيرة من الخدم والأتباع للبحث عن المحرضين على هذا العمل العنيف واعتقالهم، وبناء عليه انطلقوا مع جلبة كبيرة وصراخ، وتوجهوا على الفور إلى ساوثويرك، ظانين أنهم سوف يجدون هناك في ذلك المكان الذين كانوا يبحثون عنهم، ولكن بعدما بحثوا في كل مكان في ساوثويرك، دون أن يعثروا على أحد أرادوه، تابعوا سيرهم بكل سرعة إلى ميدستون، لاطلاق سراح رئيس الرهبان المعتقل، وخرقوا هناك كل حاجز اعترض سبيلهم وفتحوه، وعزموا على تحويل المكان كله إلى رماد، ولما لم يجدوه هناك حيث بحثوا عنه، جرى إخبارهم من قبل واحد من تجار الحكايات بأن موظف رئيس الأساقفة موجود في لامبث Lambeth قرب لندن، فبادروا مسرعين مغادرين إلى هناك على شكل حشد، بعدما أحدثوا أضراراً كبيرة في ميدستون، ووصلوا إلى لامبث فخرقوا الأبواب وفتحوها، أوخلعوها واقتلعوها من أماكنها، ودخلوا إلى كل بيت بشكل فوضوي ومفاجيء، حتى تمكنوا قبل ساعة الغداء من اعتقال الموظف بشكل مهين، ذلك أنه لم يكن متوقعاً مثل ذلك الإجراء، ووضعوه على الفور على ظهر حصان، وأخذوه إلى المكان الذي اختاروه، مثل واحد كان من أكثر المجرمين شروراً، قد جرى

اعتقاله وهو يقترف عمل السرقة، ولم يسمحوا له حتى بإمساك المقود حتى يقود الحصان، ولكم كان إجراءاً وقحاً وطائشاً! ولكم افتقروا إلى الاحترام، وأية وقاحة قد تلبستهم حتى قاموا هكذا بمطاردة إنسان صاحب سلطة عالية ومكانة رفيعة، وعاملوه بشكل مهين، فقد كان رجلاً عظيم المعارف، ومشهوراً بشكل مدهش، وهو واحد كان يمثل شخص رئيس الأساقفة؟.

ولقد أهانوا أيضاً، وأساءوا معاملة شماس، كان يقوم بواجبه في البيعة، حتى بعدما فرّ إلى المذبح، وهاجموا مقتنيات الكنيسة بأيديهم المدنسة، وعندما سمع المعلم هنري أوف غنت Ghent الجلبة، استبد به الخوف، وهذا ما كان يحدث بالعادة مع الذين كانوا أشجع منه، وبحذر قام بالنجاة، حتى لايقع بأيدي الذين كانوا يطلبون حياته، وبعدما اقترفوا جميع الأعمال الوحشية التي دفعهم غضبهم، أو بالحري سخطهم، لاقترافها، جروا الموظف وسحبوه بمقود الحصان إلى فارنهام Farnham, عازمين على حبسه هناك بالقوة، حتى يتمكنوا من الحصول على معلومات حول سجن رئيس الرهبان، وبعد لأي سمح له بالمغادرة، وجرى طرده بشكل مؤسف ومهين، لكنه كان مسروراً جداً لتمكنه من النجاة من بين مخالبهم وأيديهم المدنسة، وهرب على قدميه، مع أنه كان رجلاً عجوزاً، ولم يتجرأ على النظر إلى خلفه، حتى لايعود إلى الاعتقال، وظل يركض حتى وصل إلى ويلرلي Walerle, وهو دير كان تابعاً للسسترشيان، ولدى رؤيته من قبل رهبان ذلك المكان، تساءلوا أي سوء حظ قد ساقه إلى عندهم طريداً ووحيداً، وتلقى هناك —على كل حال— المواساة، وبدأ يتنفس بحرية من جديد.

حول الشكوى التي رفعت إلى رئيس الأساقفة

ولأن الموظفين المعتمدين من قبل رئيس الأساقفة، عانوا من هذا الأذى العظيم، تقدموا مع الدموع والنحيب بشكوى حول قضية

الوقاحة والدناءة التي عوملوا بها، إلى رئيس الأساقفة، مع كمية كبيرة من المبالغة، ولدى سماع هذه الأخبار، كان غضب رئيس الأساقفة أكبر مما يمكن وصفه، وقال متعجباً: «هذه أخبار سيئة نتلقاها لدى أول وصولنا»، وقام على الفور بالانطلاق إلى لندن، آخذاً معه أسقفي شيستر وهيرفورد، ومن ثم قام في كنيسة سينت ماري —لي— بو - Mary Le- Bow ومعه الأسقفين المذكورين، وقد ارتدوا جميعاً الثياب الحبرية، بحضور عدد كبير جداً من الناس، كانوا قد دعوهم بوساطة المنادي، من أجل منح الذين سوف يحضرون غفراناً لمدة ثلاثين يوماً، ووقتها تفوهوا بشكل مهيب بقرار عقوبة الحرمان الكنسي الرهيبة، ضد جميع الذين شاركوا باقتراف ذلك العمل الطائش وحرضوا عليه (فقط باستثناء الملك والملكة وأولادهما، والايرل رتشارد، وزوجته الكونتسة وأولادهما) ثم كتب رئيس الأساقفة إلى جميع الأساقفة المساعدين التابعين له، يأمرهم بكل دقة، بحكم فضيلة الطاعة التي يدينون بها لكنيسة كانتربري، أن يفعلوا الشيء نفسه في كنائسهم في كل يوم أحد، وفي أيام الأعياد.

ومن الجهة المقابلة أمر الأسقف المنتخب لوينكستر، على الفور عميد ساوثويرك وبعض الآخرين الخاضعين له بمعارضة رئيس الأساقفة بوجهه صراحة، وأن يعلنوا على الناس أن قراره لاغياً وفارغاً وطائشاً، وأن التعليل الذي اتخذ كان خاطئاً وزائفاً، ووقتها ترافع حزب رئيس الأساقفة إلى الحبر الأعظم حول هذه الاهانة، وحول الفضيحة التي نشأت عنها، وقد كان هناك بالحقيقة بعض الناس الذين لم يقفوا إلى جانب أياً من الحزبين، وبعض الذين قالوا بأن من الواضح أن رئيس الأساقفة أضر بالأسقف المنتخب، وفي سبيل إنهاء هذا الخلاف تقرر وضع ترتيبات بين الحزبين، وتمّ الاتفاق أن الدير المتقدم الذكر يصبح معفياً من لقب الولاية، وأن يصبح خاضعاً لإدارة أسقف وينكستر، وأن

يدفع ثلاث شلنات سنوياً بمثابة اعتراف بالخضوع، وبذلك نالت كل طائفة من الطائفتين اسما سيئا، وجنت الملامة،والأذى، والتصرف العنيف، وفي الوقت نفسه تذكر سكان لندن الوقاحة التي أبداها رئيس الأساقفة، في إجراءاته العنيفة في تلك المدينة، واستعادوا إلى الذاكرة مبلغ الاستخراجات الضخمة التي كان سببها، وتذكروا أيضا طيش الملك في ايجاده، واسهامه غير الاعتيادي في منفعته، ومن جانب آخر حصلت شيعة الملك، أي الوافدين من البواتيين، على تهمة الغدر والخيانة، التي هي بالحقيقة، فطرية فيهم، وذلك مع الملامات الأخرى، حسبما هو معتاد مع الذين يتقدمون بالشكاوي، وكان هناك الكثير من المواطنين الذين رغب بعضهم أنهم لوتمكنوا من تحطيم رؤوس بعضهم واستخراج المخ منها، ورغب بعضهم الآخر أنهم لواستطاعوا تمزيق أحشاءهم من أجسادهم لفعلوا، وذلك حسبما كتب: «ويل له —أولهم— الذي من خلاله يأتي الذنب»، وبات الفريقان عرضة للخطر من الازدراء والفضيحة التي نشأت، وهكذا تحزب أصدقاء الملك وصفوا أنفسهم ضد جماعة الملكة، أي البواتيين ضد البروفانسيين الذين سكروا حتى الثمالة بسبب ممتلكاتهم الواسعة، والذين أنزلوا غضبهم على الانكليز النائمين، وكأنهم كانوا يتبارون فيما بينهم حول أيهم ينبغي أن يحصل على السيادة في المملكة، في سبيل رفع شأن أبناء جلدته، وجرى على كل حال تداول تقرير، أدان بالحري البواتيين، لأن الأسقف في تجبره قد تجاوز جميع الحدود في الوقوف في وجه رئيسه، معتمدا على أخيه الملك، الذي والله يعلم، قد أوجده ليكون حيث هو الآن، وبشكل خاص لأننا —كما ذكرنا من قبل— قد فقدنا بواتو من خلال خيانة أبيه.

كيف ذهب رئيس الأساقفة إلى اكسفورد

ثم إن رئيس الأساقفة بونيفيس أخفى الغضب الذي شعر به، مثل النار تحت الرماد، وقام بناء على تحريض من المعلم يوستاس، الذي كان

قد تأذى أكثر من سواه، وحزن كثيراً في هذه القضية، فأصر على القيام بانتقام موائم لهذا العدوان الكبير الذي لحق به، ومع هذه النية أسرع بخطاه نحو أكسفورد، في سبيل أن يجعل معلوماً لدى الناس أخبار هذا الإجراء الشائن، وبشكل خاص إلى جماعة الباحثين الذين احتشدوا هناك للدراسة من أنحاء العالم، ولكي يقوم هؤلاء أيضاً بحكاية روايات عن هذا الاثم العظيم ونشرها بين أقصى أمم الأرض، وعندما وصل إلى المدينة، استقبل من قبل حشد كبير من الكهنة وقد ارتدوا أجمل الثياب وأكثرها أناقة، وقد امتطوا على ظهور خيول مجهزة بشكل فخم، وقد رحبوا به بالهتافات مع كل مظاهر التبجيل والاحترام، لأنهم شعروا أنهم يستقبلون رئيساً للأساقفة هو الأول على الجميع في انكلترا، وهو أيضاً مشهور جداً بأصالة نسبه، ثم أكرموه بعد ذلك باحتفال كانت فيه وفرة عظيمة من اللحوم والمشروبات، وعندما تعرف رئيس الأساقفة بالتجربة ومعه كهنته البروفانسيين الكسولين إلى ذكاء وفصاحة تلك الجماعة، وإلى سلوك أفرادها المثالي، وإلى نظام ألبستهم، وإلى دقة تصرفاتهم، كانوا مرغمين على الاعتراف بأن جامعة أكسفورد تستحق أن تكون نظيرة لجامعة باريس.

الإعلان عن القرار ونشره في أكسفورد

وفي اليوم التالي الذي أعقب يوم عيد القديس نيقولا، قام رئيس الأساقفة بحضور كهنة الجامعة الذين اجتمعوا لتلك الغاية بوساطة قرع الناقوس العام، فحكى لهم بشكل مكشوف تفاصيل العمل الوقح الذي تجرأ الأسقف المنتخب لوينكستر على اقترافه، ومعه إخوته ومعاونيه، الذين استمدوا جرأتهم من ثقتهم بتأييد الملك، وكذلك أعلن بالتحديد عن أسماء المجرمين، وأعاد تلاوة قرار الحرمان الكنسي المتقدم ذكره، وهو القرار الذي ورد بالتفصيل في الرسائل التي بعث بها رئيس الأساقفة إلى جميع أساقفته المساعدين، وورد في هذه الرسائل أسماء

المجرمين بالكامل، وإذا مارغب أي إنسان برؤيتهم، عليه البحث في كتاب Additaments المحفوظ في كنيسة القديس ألبان، والذي فيه جميع التفاصيل المتعلقة بالموضوع، هذا وكان واضحاً إلى كل واحد، وإلى الجميع بأن الأسقف المنتخب مع إخوانه كانوا المقترفين لتلك الآثام.

موت بلانشي ملكة فرنسا

وفي هذه الآونة، أي بالتحديد في الأحد الأول لعيد ميلاد ربنا، الذي وقع في اليوم الأول من الشهر، توفيت سيدة السيدات في هذه الدنيا، بلانشي، أم الملك الفرنسي الوصية على مملكة فرنسا، والحامية لها ومملكتها، وقد غادرت هذه الحياة، بمثابة سيدة تقية مخلصة، حتى تتمكن باحترام من مقابلة مولانا يسوع المسيح لدى قدومه، وشكلت وفاتها خسارة كبيرة ومصدراً للحزن لفرنسا كلها، فهي كانت قد عانت من أحزان كثيرة مبكرة، كان من بينها موت زوجها الملك لويس، الذي سلب منها وهي في عزّ شبابها، تاركاً المملكة الفرنسية معتمدة عليها، وهي قضية لم تكن سهلة التناول، وكان مرض ابنها وضعفه، وحمله للصليب، وحجه، الذي قرر أن لايعود منه، ثم أسره من قبل المسلمين آثاره عليها، وهذه وقائع تستحق البكاء والنحيب من قبل جميع المسيحيين، وكذلك الفرار المهين لروبرت كونت أوف ارتوي وماتلاه من موته غرقاً، ومجدداً المرض غير القابل للشفاء لابنها ألفونسو، كونت بواتو، وأخيراً الأخبار التي حملت إليها وتحدثت بأن ابنها الأكبر، الملك الفرنسي، الذي كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، قد عزم على البقاء هناك طوال حياته، وأن يموت هناك، وأن يحصل بذلك على المملكة السماوية، عوضاً عن مملكته الأرضية، وبذلك تلاشت تلك السيدة بلانشي التي كانت الأكثر نبلاً، في عزلتها، وماتت قبل أوانها، وبذلك حرم أولادها الأمراء الذين تقدم ذكرهم من عاطفتها التي

أوقفتها عليهم، وعندما رأت أن موتها بات وشيكاً، تركت أوامر بأن يدفن جسدها في دير للراهبات في بونتوي Pontoise كانت هي التي قد أسسته وبنته بشكل فخم جداً، وفي الحقيقة كانت قد أصبحت قبل موتها راهبة محترفة، ولبست الحجاب، الذي وضعت فوقه التاج، كما أنها ارتدت أثواب الملكة، وبهذه الحالة وهذا الشكل من ارتداء الملابس دفنت بشكل لائق، وهكذا فعلت السيدة النبيلة بلانشي، التي كانت امرأة من حيث الجنس، لكنها كانت رجلاً بالآراء، وواحدة تستحق المقارنة بسميراميس، وقالت وداعاً للدنيا، تاركة المملكة الفرنسية بدون راحة، وفارغة من كل مواساة.

حول الموارد الهائلة لجون مانسيل

وخلال هذا العام، ابتسم الحظ كثيراً لجون مانسيل، الذي كان المستشار الرئيسي للملك، فأصبح غنياً جداً، حتى أن دخله السنوي قد جرى تقديره أنه قد وصل إلى أربعة آلاف مارك، بما في ذلك سبعمائة مارك جرى جمعها مؤخراً من قبله، وفي الحقيقة ليس معروفاً في أيامنا أن كاهناً غيره قد ارتقى إلى مثل تلك الحالة من الغنى، وكان ذلك مصدراً لدهشة عظيمة، ومحط تساؤل لدى الذين يعرفون الأشياء التي هي عائدة للرب، وأن رجلاً واعياً مثله لم يخف من تولي العناية بعدد هائل من الأرواح، في وقت كان الأمر فيه واضحاً أنه كان عليه أن يقدم حساباً عنهم جميعاً أمام القاضي الأعظم، وهذا في الحقيقة يؤكد ماكتب أو جاء تصديقاً لما قيل: «هناك كثير من الناس يعرفون أشياء كثيرة، لكنهم لايعرفون أنفسهم تماماً».

كيف قام أسقف لنكولن بإحصاء موارد الأجانب في إنكلترا

ووصل أثناء هذا الوقت كله شره الرومان إلى درجة عالية جداً من الضخامة، إلى حد أن روبرت أسقف لنكولن، الذي اعترته الدهشة تجاه

ذلك، أمر محاسبيه بالقيام بإحصاء لموارد الأجانب في انكلترا، ولقد تبين أن البابا الحالي، انوسنت الرابع قد أفقر الكنيسة المسكونية أكثر من جميع أسلافه، منذ التأسيس الأول للبابوية، فموارد الكهنة الأجانب الذين جرى تعيينهم في انكلترا من قبله، مع الذين صاروا أغنياء بوساطة كنيسة روما، بلغت أكثر من سبعين ألف مارك، وأحصي الدخل الصافي للملك، فوجد أنه لايتجاوز ثلث ذلك المبلغ.

حول معاناة رهبان طائفة السسترشيان في إنكلترا

ووجد الملك في هذا العام أن الخلافات التي تفجرت بين النبلاء حول مطاردهم، قد تسببت بالحصول على زيادة كبيرة لخزانته، مع أن ذلك جاء بطريقة مهينة ومخجلة، وقد حدث عن طريق المصادرة التي نالوها، ولهذا أمر بالاعلان بوساطة المنادي، في الأماكن العامة، مثل الأسواق، أن كل من يرغب بالحصول على مطردة، ينبغي أن يتحدث إليه مباشرة حول الموضوع، وأنه لدى دفع مبلغ من المال، تتوجب الاستجابة لطلبه، وبذلك جرى تدمير حقوق وامتيازات عدد كبير من الأشخاص، وهي التي كان قد منحها بصكوك قديمة، وتأكدت بالاستخدام، وبين كثيرين، اعتقد راعي دير ويردون Waredon مع رهبانه، أنه سوف يكون مفيداً لهم امتلاك مطرد، لأن خدم جيرانهم من النبلاء قد حطموا تخومهم وعاثوا فساداً في حقولهم المبذورة، وداسوا على محاصيلهم، وأهانوا الرهبان واعتدوا عليهم، وهم الرهبان الذين تولوا أعمال الزراعة، وكانوا مسؤولين عن الحقول، وبناء عليه دفعوا المبلغ المطلوب من المال، وحصلوا على حق مطردة من الملك، وقد بدا هذا —على كل حال— لوليم بيوشامب Beauchamp انتقاص لحقه وامتيازه، ولذلك استولى على مواشيهم، وقتل وجرح عدداً من رهبانهم، كما تولى بطرائق أخرى إلحاق الأذى بهم، لأنه كان قد تعلم بناء على تحريض زوجته (لأنه كان رجلاً مفتوناً بزوجته وخانع

لها) أن يشنّ حرباً ضـد الرهبان، وليس ضد الفـرسان، وهكذا فإنه منذ اثني عشر عـاماً، استمـر بمضـايقة الكهنة النظاميين في نيـوهام -New ham وظلمهم، حيث برهن عن نفسه أنه كان قـاسياً مثل الصخر نحـو أولئك الـذين توجب أن يكون ولي نعمتهم وحـاميهـم، وبطريقـة مماثلة أيضاً، تصرف بطـرس أوف سافوي، الذي أمـدته صداقتـه القوية مع الملك بالجرأة والوقاحة، حيث أقدم دون أن يخاف على تعطيل منافع النبـالة القديمـة، وخـرق النظام القائـم للأشياء، ولم يتـوقف لمدة عشرة أعـوام متتاليـة عن اضطهـاد الدير المقدس في جيرفـولكس Jervaulx وهو مـؤسسة تابعـة لطائفة السسترشيـان في شمالي انكلترا، تأسست من قبل وبنيت مع فخامة كبيرة من قبـل آبائنا الأتقياء الأوائل، وكان الملك متهماً تجاه جميع هذه الأعمال، وقـد عبر بهم وتجاوزهـم من دون عقـوبة، لأنه بالسماح لهم على هذه الصـورة، أصبح طرفـاً راضيـاً، وأمـا الذين اقترفـوا مثل هذه الجرائم، فقد احتفظ بهم مـن أجل زيارة تفقدية أكثر حدة يقوم بها الانتقام الرباني.

مختصر أخبار العام

وهكذا على هذه الصورة عبر هذا العام، منتجاً للقمح بشكل متوسط وكـذلك للفواكـه، قاسيـاً فيما يتعلق بالمرض المميت بين المواشي، ولكي نجمل باختصار أوضاع الشؤون البشرية، كـان عاماً مضطرباً بالنسبة إلى جميع بني البشر، وفي الأحوال المضطربة هذه، خاصة بين الشرقيين، كان الأسر غير السعيـد للملك الفـرنسي، وهكذا نحن نشـاهد عندمـا تلقي عظمـة بين مجمـوعـة من الكلاب المتلقفـة، يسعى كل واحـد منهـا إلى التقـاطهـا وامسـاكهـا، وأثناء صراعهم يقـاتل كل واحـد منهـم الآخـر، وهكذا يتصارعـون في سبيل عض عظمة، فيعض أحـدهم الآخر وتبقى العظمـة دون أن تلمس، وكـانت الامبراطورية في وضـع خطر، مثل مـركب من دون ربّـان، وجـردت المملكة الفـرنسيـة من حكامهـا،

وباروناتها، وأسلحتهـا وأمـوالها، ولم تندب قط مـن قبل مثل هذه الحالة من الاضطراب والهجران، وديست انكلترا تحت أقدام الأجانب، فحنت رقبتهـا إلى كثير من السـادة، وحـرمت من العـاطفـة الصـادقـة لملكهـا، وخضعت إلى أخس الأحوال، وأخذت تتلاشى في يأس وقنوط، والذي كان أعظم سخطا هو البغضاء المميتة التي كـانت قائمة فيها بين الكنيسة والناس، حيث ازدادت يوميا.

كيف احتفل ملك إنكلترا بعيد الميلاد في وينكستر

في عام ألف وواحد ومائتين وثلاثة وخمسين، الذي وافق العام السابع والثلاثين من حكم الملك هنري الثـالث، كان الملك المذكور في وينكستر أيام عيد الميلاد، حيث أقام الاحتفالات بميلاد ربنا وسط أبهة كبيرة.

حول تطويب بطرس الذي كان واحداً من طائفة الدومينيكان

وفي هذه الآونة أيضـا وصل إلى هنا بعض الرسل إلى عند الملك وإلى عند بعض النبـلاء، حيث جلبـوا معهم أخبـارا، بأن واحـداً من رهبـان الدومينيكان اسمه بطرس، عندمـا كان يعظ في ميـلان، وينتقد من دون خوف الميلانيين بسبب شرورهم وذنـوبهم، أو بالحري هرطقاتهم، جرى قتله سرا من قبلهم لتأكيـده الحقيقة، وبذلك حصل على الشهـادة بمثابة مكافأة، على تصرفـه على هذه الشاكلة، ولكي لايبقى نور الحقيقـة مخفياً لمدة طويلة تحت المكيـال، جعله الرب معـروفـا فـوق البقعـة بوسـاطة معجزات، وعندمـا تسلم البابا معلومات كـاملة حول ماحـدث وحـول المعجزات قام على الفور بتطويبه وسط أبهة عظيمة.

كيف انتخب الرومان برانكليون شيخاً لهم

وذكر الرسل الـذين تقدم ذكرهم أيضـا، بأن الرومان قـد انتخبوا في شهـر آب شيخـا جديدا اسمـه برانكليـون Brancaleon, وكان مـواطنا من بولون Boulogne, وكـان رجلاً صـادقـــا ومستقيماً،

وكـان جيد المعـرفة في القـانون، كما كان إنسـانا من المستحيل أن يوافق، بأي حـال مـن الأحـوال، على انتخـابه ذاتيــا، مـالم يكونوا قــد أعطوه ضمانات ببقـاء سلطة الشيخ مضفـاة عليـه لمدة ثلاثة أعـوام، وذلك على عكس قوانين المدينة، وعـلاوة على ذلك طلب من كل مواطـن صاحب نفـوذ ضمانـة معتـدلة، ومن عـامـة أهل المدينة أداء قسم بـأنهم سـوف يطيعـونه باخـلاص بمثـابة شيـخ لهم، لأنه كـان على دراية تامـة بتمـرد الشعب الروماني الـذي غالبا مـاخرج وثار لأقل الأسبـاب والمناسبات، وبعـدما تمّ الحصـول على مـوافقته، وجـرى استقبـاله من قبل المواطنين والناس، فرض عليـه شرط لايمكن خرقه، بأنه يتـوجب عليه أن يحكم المدينة وسكانها بعـدل، وإلاّ فإنه لن يسمح له بالعـودة إلى بولون بجسم صحيح، وعندما جرى أخيرا تنصيبه شيخا لمدة ثلاثة أعوام، أمر ببعض المواطنين الذين كـانوا مشهـورين بالقتـل، والذين أدينوا لإقترافهم هذه الجريمـة نفسها، بـأن يجري شنقهم على نوافذ قـلاعهم، كما أمـر ببعض الذين كانوا عصاة بتعليقهم على أعواد المشانق.

كيف أرسل شعب وينكستر هدية فخمة إلى الملك

وعندما كان الملك على وشك تناول وجبـة طعام أثناء الاحتفال بعيد الميلاد، كما تقدم الذكر، أرسل إليه سكان وينكستر هدية فخمة جدا من الأطعمـة والأشربة، قـد أثارت إعجـاب جميع الذين شـاهدوها، وقـام الملك، حتى يقـدم إليهم الشكر، ففرض عليهـم أن يدفعـوا مائتي مـارك خـلال مـدة وجيــزة من الزمن، مع أنه كـان قــد ولد في ذلك المكان، وهكذا انقلب الاحتفال بالميلاد إلى أسف ونحيب بالنسبة إليهم، ولم يقم الملك وزنا لهذا، وشغل نفسه بالاحتفالات، لكن بما أن سرور هذا العالم نادرا مـامضى من دون منغصات، فإنه مع الضيـوف قد غضبـوا بسبب القرار الذي أصـدره رئيس الأساقفـة ضد الأسقف المنتخب لوينكستر، الذي كـان مضيف الملك، وضد جميع أعـوانه، لأن الأسقف المنتخب لم

يكن قد جرى تحليله بعد، كما لم يتم قبوله لنيل قبلة السلام، مع أن مصالحة كانت قد أقيمت بين الطرفين، وتمّ في ثمانية عيد الغطاس بوساطة التدخل الفعال للملك والملكة —الملك لصالح أخيه الأسقف المنتخب، والملكة لصالح عمها رئيس الأساقفة، مع الذين كانوا مهتمين في تحقيق مصالحة أكثر من سواهم، لأنه أفيد بأن وليم أوف بلنسية، وجون دي وارني Warrenne, كانا متورطين في ذلك العمل من العنف— من التوصل إلى مصالحة كاملة بين الأسقف المنتخب وبين رئيس الأساقفة، وعادا إلى تمام المودة، وقبل الأسقف المنتخب لنيل قبلة السلام من رئيس الأساقفة، لأنه أقسم بشكل علني بأنه لم يعط قط موافقته، على تلك الإجراءات العنيفة، وأنه لم يكن أبدا راضيا بهم، لكن جرى تنفيذهم من دون معرفته، وضد رغبته، وبذلك جرى تحليل الأسقف المنتخب من قرار الحرمان، وفي سبيل عدم بقاء أي أثر للغضب بسبب ذلك الخلاف، تمتع جميع الذين شاركوا في تلك الإجراءات العدوانية، بمنفعة التحليل الكامل، وبات على هذا واضحا كل الوضوح من خلال خاتمة هذه القضية، وحيث تمّ تجاوز جميع المضار التي تقدم ذكرها، دونما عقوبة، وعفي عنها، مدى اهتمام الأساقفة والآخرين واخلاصهم لإعادة تأسيس السلام بين هاتين الفئتين، وأن القضية جرى ترتيبها، بدون شك لأن الملك قد وعد دوما في إظهار نفسه محبذا لجميع الذين كانوا الواسطة في تحقيق هذه المصالحة، وأنه ميال دوما لتلبية رغباتهم، ولذلك حملوا أنفسهم بثقة أكبر للقيام بمناقشة الشؤون الصعبة التي تقدم ذكرها، أي منح المساهمة التي تقدم ذكرها أعلاه، شريطة مراعاة شروط «الماغنا كارتا»، وتوصلوا أخيراً، وبعد كثير من المناقشات إلى قرار بالموافقة، لكن ليس على الاسهام الكبير حسبما جرى طلبه، بل على منح مبلغ محدد، وتقديمه تطوعا، مع مساعدة فعالة إلى الملك، إذا ماقام، حسبما وعد مراراً بالإقلاع عن إلحاق الأذى بالكنيسة وظلمها، وفق الطريقة التي اعتاد أن

يعملهـا، وأن يصغي إلى الآراء المفيدة لرعـاياه الطبيعيين، الذين ضغطوا بإلحاح عليه ليفعل ذلك، وتضرعـوا حتى يستجيب لهم، ورد الملك على هذه الاقتراحات بالترحيب، وأضاف أنهم إذا ماوجدوا من خلال تقصي صحيح واكتشفـوا، وكتبوا إليـه بشكل سري وخـاص حول قضـايا كل تجاوز، هو سيقـوم بعمل كل مـاهو ضروري من اصـلاحـات، وجـرى تحديد يوم لنشر جميـع الشكاوى، حتى يتمكن بمشـــورة الجميع بشكل عام، من اصـلاحهم وتقويمهم جميعـا، ولذلك شعروا بـآمال كبيرة بأن الملك سـوف يتجـاوب بكرم منه مـع جميع رغبـاتهم، لأنهم قـامـوا عند التقـدم بهذا الطلـب المستعجل بغفـران جميع ذنوب أخيـــه، الأسقف المنتخب لوينكستر، كما تقدم ذكـر ذلك، وأعادوا تأسيس السـلام تماماً، لأنه حمل الصليب، وقـد تطلب مثل هذا العمل التـواضع والاستقـامـة والعدل، وبسبب أنه بات في سن أكثر نضوجاً، ومجدداً لعله يتعلم وينال التـوجيه والدرس من مثل أبيـه، وأخيراً بسبب أن الكنيسـة قد وعـدته الأن عن طواعيـة بالمسـاعدة، وتـوفرت هناك عـدة أسبـاب كثيرة تعلل رضوخه ورضاه، واقدامه بسرعة على الاذعان لمطالبهم، وإن واحداً من الأسباب الأكثر إقناعاً هو الذي رأينا من الموائم اقحامه في هذا المجلد:

في الأيام التي كان فيها القديس ادموند يحكم كنيسة كانتربري، جرى منح الملك واحداً من الاسهامات، وجاء ذلك بناء على طلبه، وقد أقسم (واضعـاً يده اليمنى على الأناجيل المقدسـة، وممسكاً شمعـداناً شموعـه مشتعلة بيسراه، أثناء إملاء رئيس الأسـاقفة المذكور صيغـة القسم عليه) أنه سـوف يقوم من ذلك الوقت فصـاعداً، من دون تعليـلات بمراعـاة أحكام الصك الذي جرى منحـه مرارا إلى رعـاياه من دون خرق، وأنه لن يسمح لنفسـه بالتورط في شبـاك أية تصريحات زائفة تصـدر عن أي مستشار مـاكر مخادع، وفي ذلك الوقت أيضاً، التحق عـدد كبير جداً من الأساقفة الذين كـانوا موجودين وقتها، برئيس الأسـاقفة، وهم يحملون

شمعدانات شموعها مشتعلة، وشاركوه في إنزال عقوبة الحرمان الكنسي بكل واحد سوف يخرق الصك، أو يقوم بتفسير ماورد فيه بشكل خاطىء، وتأكيداً على الموافقة على القرار الذي جرى التفوه به، قام جميع الذين كانوا هناك، حتى الملك نفسه، فرددوا مؤمنين قائلين: «ليكن ذلك هكذا، ليكن ذلك هكذا»، ثم جرى إلقاء الشموع واطفائها، حيث صدرت عنها رائحة بشعة آذت آناف الذين شموها ممن كانوا واقفين هناك، وبناء عليه ردد رئيس الأساقفة قائلاً: «وهكذا ومثل هذا تهلك النفوس المدانة، وتصدر عنها مثل هذه الرائحة البشعة، أي نفوس الذين سوف يخرقون الصك المذكور، أو يفسرونه بشكل خاطىء»، وقام الملك بحماس أكبر من حماس الآخرين، وردد مراراً بصوت مرتفع قوله: «آمين، آمين»، وجرت هذه الأعمال في بيعة القديسة كاترين في ويستمنستر، ولم يقم الملك على كل حال، حسبما قرأنا في العهد القديم، في قضية بعض الملوك الحمقى، بتدمير الأماكن العالية، بل جمع المال، وبدده بتبذير، مع أنه جمعه ضد القرار العام، ووفق الطريقة نفسها تصرف مرة ثانية، والآن من جديد، في العام الحالي، ولكن بما أن هذا التصرف عمل أحمق وفيه اسراف، وقد جرى تكراره مراراً، لايمكن (مما نأسف له) عدّه إثماً عظيماً.

مغادرة المعلم ألبيرت

وكان المعلم ألبيرت ينتظر الآن الحصول على جواب للرسالة يحمله إلى البابا، وقد قام الآن بالاستعداد لعودة سريعة إلى الوطن، لأن البابا لن يعطي بأي شكل من الأشكال مساعدة إلى الايرل رتشارد من ماله، أو سيعطيه قلاعاً ليتخذ منها مقراً له، أو رهائن عليهم يمكن أن يعتمد وهو واثق، ولذلك استمع الايرل رتشارد إلى النصيحة الأكثر حكمة، وإلى اقتراحات صديقه كونراد، وبقي هادئاً، ثم إن البابا عندما وجد نفسه غير قادر على اضعاف حذر الايرل وكثرة شكوكه، التفت إلى

استخدام الحجج الأكثر مخادعة، مع نية أن يستغل بساطة أخي الايرل وسذاجته، أي الملك، ولسوف نوضح في الصفحات المقبلة، مدى النجاح الذي حققه في هذه المسألة.

حول طرد اليهود من المملكة الفرنسية

ووصلت في هذه الآونة أوامر من الملك الفرنسي الذي كان موجودا في الأرض المقدسة، قضت بوجوب إخراج جميع اليهود الموجودين في مملكة فرنسا وطردهم، وإدانتهم بحكم نفي دائم، مع —على كل حال— الاستثناء التالي: «لكن كل من كان منهم راغبا في الإقامة، إذا كان تاجرا أو حرفيا، عليه اشغال نفسه بالتجارة وبالحرف»، لأنه قد ألمح إلى ذلك الملك من قبل المسلمين، بأننا نمتلك قليلا من الحب أو الاحترام لمولانا يسوع المسيح، لأننا سمحنا لقتلته بالعيش بيننا، وبناء عليه بادر السماسرة بكل سرعة فاستولوا على أماكن ومكاتب ووظائف اليهود المنفيين.

موت راعي دير القديس أوغسطين في كانتربري

وفي هذه الآونة، كان أيضا راعي دير القديس أوغسطين، على وشك الموت، فقام الملك حتى يظهر كم كان قليلا مانواه من أجل احترام صك الحقوق الذي تقدم ذكره ورعايته، قام باستخدام زبانيته، بنهب مقتنيات تلك الكنيسة، إلى حد تدميرها النهائي، ومن دون حياء أو خجل خرق البنود الأخرى للصك نفسه، ونفّس عن غضبه وأظهره ضد الأساقفة، والنبلاء، والمواطنين في لندن، وقام رهبان ذلك الدير، فركزوا جهودهم بكل سرعة لانتخاب قائد جوقة المرتلين حتى يكون راعياً لديرهم، في سبيل وضع حد لعمل السلب ذاك، ووجد هذا بعد انتخابه صعوبة حتى استطاع تجهيز نفسه بالضروريات اللازمة مما هو موجود في تلك الكنيسة، وذلك بعدما دفع غرامة إلى الملك، وبما أن

ثروة الكنيسة جرى تبديدها على تلك الصورة، وجد الرهبان صعوبة في الانفاق على عيشهم لمدة خمسة أعوام تالية.

حول الخسارة والإهانة التي ألحقت بكنيسة القديسة مريم في يورك

وحوالي هذا الوقت نفسه، عانى راعي دير القديسة مريم في يورك، ورهبان كنيسة الدير نفسه من خسارة ثقيلة، ومن إهانة كبيرة، وذلك بموجب أحد الصكوك الذي حكم بأنه كان لاغياً من قبل خصومهم، الذين كان المقدم بينهم جون الفرنسي، وكان محاسباً لدى متسلم خزانة الملك، وفي الحقيقة كان من المعتقد، أن حقيقة الأمر هو هذا جون نفسه، الذي كان قد ولد في الشمال، كان متشوقاً وراغباً في أن يزيد موارده في هذه المناطق، اعتماداً على ممتلكات تلك الكنيسة ومن خلالها، وهو لذلك حقق الوصول إلى تلك النتيجة، مع تقدير قليل لصالح نفسه، وذلك حسبما كتب: «ويل للإنسان الذي من خلاله جرت أية فضيحة»، ثم إن الرهبان أرغموا على دفع مبلغ ضخم من المال إلى الملك، وعلاوة على ذلك لقد فقدوا إلى الأبد أراضيهم ومواردهم الغنية، وجنوا عاراً لايمكن غسله، وأخيراً تفرقوا، وفي الوقت نفسه آلت حال تلك الكنيسة إلى الاضطراب، وتركت عرضة للخوف والدمار، وبطريقة مماثلة أيضاً، وللسبب نفسه، تسبب جون، المضطهد المتقدم ذكره (الذي حرمه الرب المنتقم من إحدى عينيه، لآثامه المتقدم اقترافها) بخسارة لايمكن تعويضها، وبدمار لايمكن جبره للدير الموجود في سلباي Selby.

استباحة مدينة تيفولي من قبل الرومان

وفي هذه الآونة أيضاً، قام الرومان، بسبب وقاحة سكان مدينة تيفولي Tivoli وتجبرهم باستباحة تلك المدينة، حتى أوصلوها إلى حالة

الدمـــار، وأرغم السكان نتيجــة لذلك، ولكـي ينقـذوا حيــاتهم، على الذهاب إلى روما عراة حفاة، يرجون الرحمة.

حول زواج إيرل غلوستر من ابنة أخي الملك

وفي هذا العــام أيضـاً، وبنـاء على خطط البـواتيين الـذين حلوا محل الانكليــز المحليين، ورغبـة منهـم بانحطاط جميع نبــلاء المملكة، وبهذه الطريقـة تدمير جميع الأسر الشرعيـة الانكليـزيـة، حتى يمكن تدميرهم نهائيـاً، ولمزج دمهم النبيل مـع الدم الفـاسـد للأجـانـب، وقـد شعـروا بالأسى لأن من بين النبلاء لم يتلـوث رتشارد ايرل أوف غلوستر وولده بهذا المصدر السام، وكـان هذا الايرل شاباً، ووسيماً، وفصيحاً، وحكيماً، وبارعـاً في قـوانين البـلاد، ولذلك كـان من جميع الجوانب مـوضع أمل جميع نبـلاء انكلترا، وعليـه رست بثقـة جميع هذه الآمـال، وقـد امتلك الحظوة لدى الجميع، مع طيب الرغبات، لكنهم كانوا مخدوعين جميعاً في آمالهم هذه، لأن الشر، والنهم الذي كان مخفيـاً منذ مدة طويلة لديه، قد انكشف الآن وظهـر تمامـاً، مما أسـاء كثيراً إلى نبالتـه، وقـد شعـر الملك آنذاك بنهمـه (لأن الايـرل كـان تحت وصـايتــه لسنين طوال)، ولذلك خاطبه قائـلاً: «عزيزي الايرل، لن أخفي عليك بعد الآن الرغبة السرية لقلبي، وهي أن أرفعك وأغنيك، ولأن ارتقي بمصـالحك، بتزويج ابنك الشرعي الأكبر سناً من ابنة غي كـونت أنغـوليم، الذي هو أخي لأمي، وإليك سوف أبرهن عن سخائي باعطائك خمسة آلاف مارك، بها يمكن أن ترتقي زوجة ابنك إلى مستوى يتماشى مع المستوى الملكي، وذلك كما هو لائق بسيـدة من أصل ملكـي»، وبمـوجب هذه الإثارة، ثم لتـوفـر النهم (الذي هو وحده بين جميع الشرور يمثل العبودية للأصنام) أصبح الايرل منذ تلك اللحظة منحطـاً، وسقط من النبـالة لأجـداده، وأعطى مـوافقته على المال، وكأنه كـان تاجـراً أو مـرابياً، نعم لقـد وافق على أن يتزوج ابنه الشرعي ووريثـه من فتاة، أو بالحري من طفلة، كانت خـالية

من الإيمان والجمال (فهذا مايمكن استخلاصه فرضيا من الشكل المعهود للبواتيين)، وهي قد ادعت التحالف مع الفضائل الملكية، إنما في بعض المناسبات، وحسب المقتضيات، وبما أنه لم يكن ذلك المال المتقدم ذكره متوفرا بين يديه، أي الملك (لأنه عهد لنفسه بعادة تبديد الأموال التي كان ينهبها في جميع الاتجاهات) قام بالرجاء —لكن بطريقة ملكية— إلى رعاة ديرة: القديس ألبان، وردنغ، ووولثام، بأن يكونوا الكفلاء له عند ايرل غلوستر من أجل دفع المبلغ المتقدم ذكره، وكان هذا لايمكنهم قبوله ولاأيضاً رفضه، لأن من الذي يمكنه ارغام الملك على الدفع، إذا ماقاوم؟ كما أنه التمس بتوسل من الاسبتارية والداوية التعهد بالقيام بذلك الواجب، وقد رفضوا بشكل مكشوف أن يفعلوا ذلك، وأعلنوا أنه ليس بمقدورهم القيام بذلك، فأصبح الملك غاضبا، وتفوه بتهديدات مرعبة ضدهم، وأثناء غضبه صرف الراهب روجر الداوي وعزله من وظيفة جمع الصدقات، وطرده من بلاطه، وفي مناسبات أخرى نصب عندما تأتّى له ذلك شباكه الماكرة للداوية والاسبتارية، وبالاضافة إلى ماتقدم كان الملك مداناً بمبلغ كبير من المال إلى سيمون ايرل ليستر، لتخليه عن صك الولاية الذي كان بين يديه من الملك، والذي ولاه بموجبه حكومة غسكوني لمدة خمسة أعوام.

كيف ادعى ملك إسبانيا الحق في غسكوني

عندما علم ألفونسو، ملك اسبانيا، بأن سيمون ايرل أوف ليستر، قد ترك غسكوني، وتخلى عن صك ولايته وحكمه لها، ادعى على الفور، بأن تلك الولاية عائدة له شخصيا، وقد فعل ذلك بثقة كبيرة، لأنها تركت وحيدة لتحكم من قبل الطفل ادوارد، لأنه وفقاً لكلمات لوكان: «إن عمر طاغية النيل مصدر شك كبير، ذلك أن الثقة الدقيقة تستدعي عمراً ناضجا».

ولدى معرفة الملك المتقدم ذكره أعلاه بحقيقتي، بأن الايرل، الذي

كـان رجـلا محاربا، قـد ترك، وأن طفـلاً جـرى تعيينه حـاكماً لها، التمس حظـوة الحبر الأعظـم، حتـى يجري السماح لـه، دون إلحاق أي أذى بالكنيسة، حتى يطلب حكمهـا، ويسترد تملكها بالقـوة، لأنها كانت ملكاً له، بموجب منحة من الملك هنري الثاني ملك انكلترا، وهو يمتلك صكاً بتلك المنحة، جرى تأكيده من قبل كل من الملكين رتشارد، وجون، وبناء عليه دعا ملك قشتالة إلى مساعدته رجلاً مسكونيا من نسب رفيع، وكان قـوياً اسمـه غـاستـون Gaston, كما دعـا نبـلاء آخـــرين من تلك المقاطعة، ولقد كان هناك كثيراً من نبـلاء غسكوني وقفوا إلى جانب قضية ملك اسبـانيـا (وتخلوا عن ملـك انكلترا)، وكـان فـوق الجميع، الرجـال الأغنيـاء، الذين اعتادوا على ارسـال خمورهم للبيع في انكلترا، وهي خمور لم يخجل ملك انكلترا مـن الاستيــلاء عليهــا، والاحتفــاظ بها من أجل مسراته، ولدى مشاهدة شعب بـوردو، الذين بقيوا مخلصين للملك، هذه الإجـراءات، بعثـوا رسـالة إليـه بكل سرعـة، بأنه إذا لم يقم بكل سرعـة وبشكل فعـال، سوف بلا شك يفقـد غسكوني كلها، وأنها سـوف تعطى لغيره ويتم التخلي عنها، لصالح ملك قشتالة، الذي يدعي الحق بها كلها، ويأمل باستحـواذها، وحزن الملـك لدى سماعه بهذا، وتندم قلبيـاً —لكن ذلك جـاء متأخـراً كثيراً— لأنه استـدعى الايرل سيمـون وعـزله عن حكومة غسكوني، وكان ذلك الايرل حتى لايتعرض للاحراج عن طريق التماسـات الملك، ليعـود إلى غسكوني، غادر إلى فـرنسـا، حيث احتفظ به نبلاء تلك المملكة راغبين، واقترحوا عليه، بما أنـه كان جريئاً ومخلصاً، أن يتخـذوا منه قهـرمـاناً عليهم، يتـولى نصيحتهم في سبيل منفعتهم ومنافع المملكة، التي كـانت مهجـورة وفي وضع يائس، بسبب غيـاب الملك، وموت الملكة بلانشي، ورفض الايرل بثبات الموافقة على هذه الخطة، حتى لايظهـر كأنه خائـن، لأنه كما قال الرسـول: «احفظ نفسك وأبعـدها عن جميع مظاهر الشر»، ولأنه عزل عن غسكوني، التي امتلك صكاً بولايتها، راقب تلك الإجراءات بحذر وصمت مع نظرات متغاضية.

حول القيود في قضية الزيارات التفقدية

وفي هذه الآونة، أمر البابا أيضاً، بتقديم ترضية للطائفتين المتنازعتين حول مسألة الزيارات التفقدية، ورسم بشكل حكيم ومعتدل، ووجه بوجوب أن يقوم رئيس الأساقفة والأساقفة، الذين يمتلكون حق القيام بزيارات تفقدية، بالزيارات التفقدية المعتادة والمواتمة، لكن في ظل تفاهم أن لايتعرض المزارين للظلم، وأن لايتضايقوا أو ينكل بهم من قبل المتفقدين لهم، وحدد وبيّن مقدار نفقة كل زيارة تفقدية، حسبما جاء في الرسائل المودعة في كتاب Additaments.

كيف عبر بعض النبلاء البحر من أجل تنفيذ الزواج الذي تقدم ذكره أعلاه

ومع اقتراب حلول ربيع العام نفسه، انطلق رتشارد ايرل أوف غلوستر، ووليم أوف بلنسية أخو الملك، معاً بأبهة كبيرة، وبفخامة عظيمة، ليضعا موضع التنفيذ، ويقوما بترتيبات أمور الزواج الذي تقدم ذكره، بين أكبر أبناء رتشارد، وابنة كونت أنغوليم، أخو الملك، وقام هذان النبيلان بتوسعة ثوبيهما، واستهدفا الحصول على شهرة في البراعة بأعمال القتال وهما في زهرة شبابهما، فعرضا باندفاع طائش قوتهما وشجاعتهما، وسرعة فرسيهما أمام الامتحان في مباراة مبارزة عقدت هناك، وكان الفرنسيون المحليون بحكم تجبرهم الذي فطروا عليه ساخطين من إقدام شابين ضعيفين وناعمين على الدخول بتلك المباراة بكل وقاحة (لأننا نقرأ بأن هكتور قال لباريس: «المريخ يفرح بالعسكري الشديد»)، لذلك قاموا برغبة شديدة بالدخول في المباراة، وبعدما أنزلاهما أرضاً، وسلبوهما، ضربوهما إلى درجة أنهما طلبا بعد ذلك استخدام الكمادات والحمامات يومياً، وهما على كل حال استحقا القليل من الشفقة، لأنهما كانا مسرعين من أجل تنفيذ زواج كان

مكروهاً من الانكليز، وكانا مليئين بالتجبر، وبالتفاخر الفارغ، وظهر القمر في هذه الآونة قبل أربعة أيام من موعده الذي أعلن عنه.

كيف جرى ارغام اللنديين على دفع مبلغ من المال إلى الملك

وفي هذه الآونة أيضاً، أي أن تقول في الأسبوعين الأول من الصوم الكبير، أرغم الملك لحجة صغيرة مواطني لندن (الذين ندعوهم بالعادة باسم البارونات، بسبب سمو مدينتهم، وللامتياز القديم لمواطنيها) على الاسهام بمبلغ ألف مارك، وجرب شباب لندن في الوقت نفسه قوتهم، وسرعة خيولهم، في لعبة تدعى بشكل عام /Quintain/ حيث اتفقوا على ديك ليكون الجائزة في المباراة،وغضب بعض من أتباع الحاشية الملكية وغلمانها (لأنه كان موجوداً في ويستمنستر) من هذه المباراة، وأهانوا المواطنين، ودعوهم باسم: فلاحين، وضعفاء، وتعساء كالرغوة، ودخلوا على الفور في قائمة المتبارين ضدهم، وبحماس قبل اللندنيون التحدي، وبعدما ضربوهم على ظهورهم بعصي رماح مكسرة، ظلوا يتناولوهم، حتى أصبحت ظهورهم سوداء وزرقاء، ثم ألقوا بجميع أتباع الملك من على ظهور خيولهم، وأرغموهم على الفرار، ثم ذهب الفارون إلى الملك، وأيديهم متشابكة، ودموعهم منهمرة، والتمسوا منه أن لايدع هذا العدوان الكبير يعبر من دون عقوبة، ولجأ هو إلى طريقة انتقامه المعتادة، فاستخرج مبلغاً كبيراً من المال من المواطنين.

حول مراسيم من أجل تقوية المملكة

وفي تلك الآونة أيضاً، أي في أيام الصوم الكبير، انتشرت أخبار، تبينت صحتها، أفادت بأن الغسكونيين تحدثوا بوقاحة فيما بينهم أنفسهم قائلين عن ملك انكلترا: «إننا لن نقبل به حتى أن يحكمنا، لأنه رجل غير عادل، وهو رجل لايحافظ على وعده، ولاعلى يمينه، ولاحتى على

بنود صكوكـه»، ووصلت بعد أيام أخبـار بأن لى راؤل La- Raole,
في غسكوني والقـديس اميليـون Emilion وعـدة قـلاع أخـــرى،
جرى الاستيـلاء عليها، وضاعت لغير صالح الملك، وأن مـذبحة كبيرة
قد وقعت بين السكان، وارتعب الملك إلى درجة عالية، خشية أن يحدث
بمثل هذه الخسائر أن تصبح غسكوني كلهـا عرضة للخطر، مثلما حدث
مـؤخـراً في قضيــة بواتو، (لأن هـاتين المملكتين هما بالفعل الحارسين
والحاجزين للمملكة الانكليزية كلها) ولذلك أصدر مرسوماً، وأمر بأن
يعلن بوسـاطة صـوت المنـادي في جميع أرجـاء انكلترا بشكل عـام، كما
جـرى ارسال أوامـر مكتوبة إلى كل منطقـة من المناطق، أنه تبعاً للعـادة
القديمة، يتوجب تقـديم مايكفي من كميات الأسلحة إلى السكان، وأنه
ينبغي حشـدهم، واجـراء احصاء عـام، من أجل تأمين عـدد كـاف من
الرجال المقتـدرين، وتجهيزهم وفقاً لامكـانات كل واحد منهم، وأن كل
من يمتلك خمس عشرة حصــة أرض محررة، ينبغي أن يكون فـــارسـاً،
وعـــلاوة على ذلك، ينبغي أن يكون في كل مـــدينة، أي بقـــدر امتـــداد
حـدودها القضـائية، حـراسـة معينة، يشرف عليهـا رجال ذوي حكمـة
واستقامة وحذر، من أجل أن يتولوا حـراسة القرى والشوارع وطرقات
الدخـول والخروج، وفضـــلاً عن هذا أصـدر الملـك، بناء على نصيحـة
السافـويين مرسومـاً ووجه أنه إذا ما كـان أي إنسان مسافـراً، وتعرض
للنهـب، أو لـلأذى بأي شكـل مـن الأشكـال مـن قبل قطـاع الطـرق،
يتـوجـب على الذين قـد أوكلت إليهـم مهـام حـراســة ذلك الجزء من
المقـاطعة، والذين تعتمـد عليهم بشكل خـاص، أن يقدمـوا تعويضـات
كـافية للفئة التـي تعرضت للأذى، وعليهم أن يعيـدوا إليهم الذي فقـد
تبعـاً لأعـراف السافـويين، ويعني ذلك أن الأشيـاء إذا مـا حملت بعيـداً
وسلبت، عليهم ملاحقـة ومطاردة مقترفي الآثام، وتنظيف المنطقة منهم،
ولقـد بدا واضحاً إلى كثيرين، أن هذه الخطة من غير الممكن تنفيـذها في
هذه البلاد، مثلما هي مطبقـة في سافـوي، لأنه في بلاد سافـوي لايوجد

مثل هنـا الكثير من الجوانب الواقعـة قـرب الطـريق، والعـديـد من الأحـراج، أو مثل هـذه الكثـرة من الغـابات والأشجـار، كما أنه ليس موجـوداً هنا بسبب الجبال الوعـرة والتي لايمكن الوصول إليهـا، طرقاً مفتـوحـة، بل مجرد ممرات مطروقـة فقـط، حيث لايمكن لقطاع الطرق المحـافظة فيهـا على أنفسهم بشكل مـوائم بعيـدا عن الطرق، أو اخفـاء أنفسهـم، ونتيجـة لذلك كـان من السهل اعتقـالهم، وبالاضـافـة إلى هذا مـاالذي يمكـن قـوله، أو كيف يمكـن البرهنة على أي شيء من دون شهـود؟ وهكذا إنه نظرا لتوفـر بعض عـدم الرضا، أعيقت القضيـة، أو بالحري لم تحقق أية نتيجـة، والسبـب الأول لذلك، أن مثل ذلك التغيير الكبير في القـانون، لم يكن من الممكن إحـداثه بشكل فعـال من دون موافقة عامة للبارونات.

وفاة رتشارد دي ويتز أسقف شيستر

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في الثاني من نيسان، مات المعلم رتشارد دي ويتـز Witz أسقف شيستر، وكـان رجـلا متميـزاً في علمـه، وبقداسـة محمودة، وكان من قبل كـاهنا ومستشاراً خاصـا لدى القديس ادمـوند، رئيس أسـاقفـة كـانتربري، وهو قـد حـاول أن يسير على أثره ويقلده خطـوة خطـوة، وكـان ادمـونـد المبـارك قـد تنبأ لهذا الأسقف بالوصول إلى مرتبة الأسقفية، وقد ذهب إلى بونتني في الوقت الذي كان سيجري فيـه نقل القديس المتقدم ذكـره، من أجل أن لايكون مثل ذلك الصـديق الخاص للقديس غـائبـاً عن حضور مثـل تلك المناسبة المهيبـة والمقدسـة، وفي الحقيقة كـان هو على علاقـات طيبة مع القـديس، وكان على اطلاع على جميع أسراره، التي غـدت الآن كلهـا مكشوفـة في سبيل تنوير الجميع، واعتماداً على مـاذكـره هذا الرجل مع الذي أورده الراهب روبرت بكيون Bacon, الذي كان من طائفة الدومينيكان، تمكن الراهب متى باريس، الذي هو راهب في كنيسة القديس ألبان، من كتابة

سيرة حياة القديس ادموند المذكور، كما أنه صنف بعناية الذي عرفه عن طريق أناس كانوا بلا شك موضع ثقة، وكل من أراد الاطلاع على ذلك الكتاب يمكنه أن يجده في كنيسة القديس ألبان.

تجدد الاضطرابات بين الغسكونيين

وفي حوالي حلول يوم عيد القديس إلفيجي Elphege, وجد الرعايا الخونة للملك في غسكوني، أن غياب الايرل سيمون، وأي واحد يمكن أن يضبطهم ويؤدبهم، قد منحهم الفرصة للتحرك بحرية للتعبير عن غضبهم وحماقتهم، فشرعوا مثل حيوانات مفترسة، أو مهرة غير مدجنة، يتصرفون بطيش، ويضايق كل واحد منهم الآخر، فهاجموا القلاع، وأسروا الأتباع وسجنوهم، وحولوا إلى رماد مساكن بعضهم بعضاً، وتسببوا في موت السكان، وكان بينهم وأعظمهم دوراً هو غاستون حاكم بيرن Bearn وبيريغورد Perigord, وكان رجلاً ملطخاً باقتراف كثير من الجرائم، وكان من الرعايا المقسمين على الاخلاص للملك، لكنه جرد نفسه من ذلك وحنث بقسمه، ومع أن ملك انكلترا وفره ولم يقم بإدانته، فقد قام في سبيل مضايقة هذا الملك وإغضابه أكثر، بالتحول إلى جانب ملك اسبانيا، ثم قام هذا الرجل باجتياح شطر كبير من غسكوني، وأثار الأعداء وشجعهم على التمرد ضد مولاهم وسيدهم ملك انكلترا، ولذلك باتت بوردو التي كانت بالعادة تزود غسكوني كلها بالمؤن، هي نفسها تعاني من العوز.

كيف جرى نهب بضائع الفقراء

نال الملك في هذه الآونة كراهية لايمكن إزالتها، وجلب إلى نفسه اللعنات المرعبة لكل من السكان المحليين والأجانب، وقد تزايدت هذه اللعنات وأسبابها يومياً، لأن عمد المناطق والوكلاء الملكيين، عملوا شغلهم الدائم، اعتماداً على حجج مخترعة أو أسباب أخرى، القيام

بإفقـار كل من يمكنهـم افقـارهم، أو بالحري نهبهم، وصـار الآن في انكلترا كثيراً من الملوك المستبدين، كل واحـد منهم لديه الرغبة بالسلب والنهب، وأعتقـد أنه خطير ومزعج الإقـدام على تسميتهم، فقد سلبـوا من الفقـراء، وبشكل خـاص من البـاعة والتجّـار خيـولهم، وعـرباتهم، وخمورهم، ومـؤنهم، وأقمشتهم، وشمعهـم، والحاجيـات الأخـرى الضرورية، لابل إنهم أرغموا المنهوبة بضـائعهم بالاكراه وضد إرادتهم، على نقل البضائع المسلوبة إلى أماكن نائية، دون إعطائهم أجراً، ولاحتى شكراً فـارغـاً مقـابل أتعـابهم، وقـد عثـروا على أخطاء من دون سبب، ففرضـوا غرامـات ثقيلة على البلدات، واحتجوا بـوجود موازيـن زائفة وكذلك مقاييس، فاستخـرجوا المال من الأبرياء، وبما أن الخمور جلبت للبيع من قبل الغسكونيين، وقـد جـرى الاستيـلاء عليهـا، من دون أية مـدفـوعـات، فـإن الذين جلبـوها، عـادوا بأيدي فـارغـة إلى بلادهم، واشتكوا إلى جميع سكان مناطقهـم، ونتيجـة لذلك جنى الملك كـراهيـة عامة.

حول منح امتياز عظيم إلى كنيسة وولتهام

وفي أيام عيـد الفصح، من هذا العـام نفسـه، قـام الملك تقـديراً منه لقداسـة كنيسة وولتهـام Waltham وللكرم الفخم الذي أظهره راعي الدير مع رهبان دير وولتهـام، ولذلك منح وثبت ما كـان ممنوحاً من راعيه، من خلال وفاة الراعي أو استقالته، أن يقوم الرهبان بناء على إرادتهم ولصـالحهم، ولامتـلاكهم السلطة الكاملة: التصرف بالبـارونيـة وبالممتلكات الأخـرى للدير، ولهذه الغـاية منحهم صكاً نظاميـاً كامـلاً، وكان هذا الامتياز قـد حصلوا عليه منذ زمن قديم مضى، إنما من أجل ضمانة أعظم، منحهم الملك إياه مجدداً وأكده لهم، وقد منحهم أيضاً حق عقد سوقين، وأنعم عليهم بمنافع أكبر، هذا وجرى عرض هذه الأشياء كلها مع محتويات الصكوك كاملة في كتاب Additaments.

كيف طلب الفرنسيون المشورة والمساعدة من الإيرل سيمون

ومع اقتراب حلول عيد الفصح، تفحص النبلاء الفرنسيون وقدروا كيف أن مملكة فرنسا كانت محرومة من وجود حاكم لها، وأنها كانت عرضة لخطر عظيم، وذلك بسبب غياب الملك الذي كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وكذلك بسبب وفاة الملكة بلانشي، يضاف إلى ذلك أيضاً خسارة نبلاء فرنسا الذين قتلوا في الأرض المقدسة، فحولوا انتباههم نحو الايرل سيمون، لأنهم رأوا اخلاصه، ونبالة عقله، وأنه تعلم حتى يحذو مثل والده في جميع الأشياء، كما أنهم رأوا أنه قد تحرر من حكومة غسكوني، فالتمسوا منه ورجوه أن يقوم بالاقامة بينهم، حتى يصبح واحداً من الأوصياء على التاج وعلى مملكة فرنسا، وأنهم سوف يكدسون التشريفات عليه بمثابة تعويضات مجزية، ذلك أنهم أكدوا أنه كان مثل والده سيمون الذي قاتل لصالح الكنيسة ضد الألبينيين، ولأنه أحب مملكة فرنسا من قلبه، كما أنه لم يكن غريباً بالنسبة لفرنسا من حيث الأصل، وأرسل الفرنسيون مرتين رسائل من أجل هذه الغاية مع رسل خاصين، إلى الايرل، لكنه رفض بثبات الاستجابة لطلبهم، حتى لايبدو وكأنه مرتد.

كيف دعي البابا إلى العودة إلى وطنه من قبل الرومان

وفي هذه الآونة، أرسل الرومان رسلاً خاصين، ليتقدموا بالرجاء إلى البابا حتى يعود إلى روما، ليعين رعيته مثل راع صالح، ولكي تبتهج روما بوجود حبرها (لأنه حمل لقب الحبر الروماني) مثلما فعلت المدن الأخرى، حيث تمتعت كل منها بوجود أسقفها، وقد ظهر للرومان —وحق لهم أن يظهر— أنه من غير الطبيعي أن تكون روما لوحدها —التي كانت تدعى باسم «ملكة المدائن»— محرومة لمثل تلك المدة الطويلة من وجود كاهنها الأعظم وحضوره فيها، هذا وكان البابا فاغراً فمه لتلقي الهدايا من هؤلاء الذين جاءوا إليه، وفتح صدره لتسلم جميع

أنواع الأعطيات، لكنه وإن بدا مرتاحاً، كان غير مستقر عندما كان موجوداً بين الناس على هذا الجانب من الجبال، ولأنه تأخر عن القدوم، دعاه الرومان مرة ثانية، كما فعلوا من قبل، لكن بإلحاح أكثر ومع شرط أن عليه أن يأتي إليهم أو أنه لن يأتي أبداً، وعندما شاهد بأن الخطر محيق به، خاصة عندما أرسل الرومان رسالة إلى أهل بيروجيا، بأن لايحتفظوا بالبابا أية مدة أطول، مع التهديد أنهم إذا فعلوا ذلك سوف يحاصرون ويدمرون، وقتها غادر بيروجيا في شهر أيار، وبادر مسرعاً إلى روما خائفاً مرتعداً، ولقد همس إليه بأن الرومان والميلانيين يطالبونه بدفع مبلغ كبير من المال، مستحق لهم مقابل ماأنفقوه في شن الحرب ضد فردريك وفي حماية الحقوق البابوية واللاهوتية، وبناء عليه إنه وإن كان قد شد حذاءه تحت ملامح هادئة، لقد عاد إلى مدينته وهو يشعر بالخوف والقلق، وعلى كل حال استقبله الشيخ والشعب الروماني بالبهجة.

حول البارلمان العظيم الذي عقد خلال أسبوعي الفصح

في أسبوعي عيد الفصح، في شهر أيار، جرت دعوة نبلاء انكلترا للاجتماع مع بعضهم، بموجب قرار ملكي، وتوجب اجتماعهم في لندن، للتباحث مع الملك حول بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالمملكة، وحضر في هذا الاجتماع والتقى عدد كبير من الايرلات، والبارونات، وكذلك بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري، مع جميع أساقفة انكلترا تقريباً، أما بالنسبة لرئيس أساقفة يورك (الذي كان بالعادة يتجنب الالتحاق بالملك في المؤتمرات، بقدر ما كان يستطيع، لأنه وجد بالغالب أنها كانت مؤتمرات بلا فائدة عملية) فقد اعتذر عن الحضور، بحجة كبر السن، وعيشه على بعد كبير، وكان سوء صحة أسقف شيكستر مسوغاً لعدم حضوره، وكان كرسي شيستر في تلك الآونة شاغراً، وبعد مناقشات طويلة كانت بلافائدة، حيث جرت حول الحاجة الضاغطة

للملك، الذي طالب بمبلغ كبير من المال من أجل حجه، وبعد القيام فجأة بتوزيع رسائل بين الفئتين، تمّ الحصول على الموافقة، ثم جرى ارسال رئيس أساقفة كانتربري، وأسقفي سالسبري، وكارآيل، والأسقف المنتخب لوينكستر، إلى الملك، باسم جميع الأساقفة ورجال الدين، لحثه ولاقناعه، بحكم أنه وعد مراراً، وأقسم بالتنفيذ أيماناً مهيبة، أن يسمح للكنيسة المقدسة أن تتمتع بجميع امتيازاتها، خاصة فيما يتعلق بقضية الانتخابات، الموجودة بشكل أساسي داخل الامتياز اللاهوتي، لأنه في الوقت الحالي، من غير الممكن ترقية أي واحد في الكاتدرائيات، أو في الكنائس الديرية، مالم يكن قد فرض عليهم بوساطة الملك، ولهذا السبب فإن الأساقفة والمتعلقين بهم قد لحق بهم الدمار، وتأذت الكنائس بصورة مرعبة، وقد قالوا بأنه إذا ما أقدم على تقويم هذا مع بعض التجاوزات الأخرى، تماشياً مع بنود الصك العظيم لامتيازاتهم، فإنهم سوف يوافقون على مطالبه، مع أن ذلك سيلحق بهم أذى كثيراً، وعلى هذه الاقتراحات أجاب الملك قائلاً: «إن الذي ذكرتموه صحيح، وأنا حزين وآسف لأنني تصرفت على هذه الصورة، وبناء عليه ينبغي أن يتم الترتيب الآن أن يجري تصحيح الذي عمل، وأن لاتتخذ مثل هذه الإجراءات في المستقبل، وكونوا أنتم أيها الأساقفة معي، بحكم أنكم ترقيتم على هذه الصورة، حتى لاتتعرضوا للأذى، أنتم والذين هم رعية لكم، لأن عليكم أن تتذكروا، أنني أنا الذي دفعت إلى المقام العالي الذي هو فيه الآن بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، وأنت ياوليم أسقف سالسبري، أنا الذي ارتقيت بك من درجة منخفضة كثيراً، لأن تكون الكاتب لصكوكي، ولقد عملت كثيراً من الأحكام المرعبة عندما كنت تعمل بمثابة مسؤول عن العدل، وتابعاً مأجوراً، وأنت ياسيلفستر أسقف كارآيل، الذي كنت لمدة طويلة تلتقط فتات المستشارية، وكنت كاهناً صغيراً بين كهنتي، كم من اللاهوتيين والأشخاص المحترمين قد وضعتهم أنا جانباً، لأرتقي بك إلى الأسقفية؟ ومثل هذا بالنسبة لك

ياأخي ايثيلمار، من المعروف تماماً، كيف ارتقيت بك، ضد إرادة الرهبان، ومن دون الاهتمام بصلواتهم وانذاراتهم، ورفعتك إلى رئاسة كنيسة وينكستر الفخمة، وذلك على الرغم من صغر سنك وقلة علمك، لابل كونك مازلت تحتاج إلى أستاذ، وأولاً وفوق كل شيء، إنه من الموائم لي ولكم أنفسكم، أن تقوموا تحت تأثير التوبة، بالاستقالة مما حصلتم عليه بشكل غير عادل، حتى لاتعانوا من إدانة أبدية، وأنا سوف أمتلك بمثل هذا المثال المسوغ والدافع، بأن لاأقوم من الآن فصاعداً، بترقية أي إنسان إلى منصب ليس هو جديراً به»، وعلى هذا كان النقاش أدبياً وفيه نقد توبيخي وسخرية لاذعة، ثم إنهم أجابوه قائلين: «مولانا الملك نحن لانريد أن نذكر الذي مضى، إن مطلبنا يمتد إلى المستقبل»، ثم إنهم تخلوا عن جميع القضايا المثيرة، التي يمكنها فقط أن تثير الخلافات، ثم إنهم نقلوا أنفسهم بشكل جسدي إلى الأعمال الصعبة التي أمامهم، وبعد أمد طويل وبعد كثير من النقاشات التي استمرت لمدة خمسة عشر يوماً وأكثر، تقرر بموجب الموافقة العامة للجميع، عدم إعاقة الملك مطلقاً في نيته، التي كانت نية تقوية، وهي القيام بالحج، إنما ينبغي أن لاتعاني المملكة والكنيسة من أضرار كبيرة بموجب ذلك، وبناء عليه جرى منح الملك العشر من الموارد التي تتلقاها الكنيسة، وهذا العشر ينبغي انفاقه تحت اشراف النبلاء المستقيمين على ضروريات الرحلة، وأن يكون ذلك لمدة ثلاث سنوات، كما تقرر أيضاً أنه عندما سينطلق يريد القدس، في سبيل مساعدة الأرض المقدسة ضد أعداء الرب، يتوجب فرض ضريبة بدل الخدمة العسكرية على الفرسان لذلك العام، أي ثلاث علامات لكل رنك من الرنوك، ووعد الملك باخلاص وحسن نية كاملة، ومن دون أية مواربة، بأنه سوف يأخذ بصدق بالصك العظيم (الماغنا— كارتا) وبجميع شروطه، والذي حدث أن والده، الملك جون كان قد أقسم منذ سنوات خلت على تطبيق ماجاء في ذلك الصك، ومثل هذا فعل الملك الحالي

لدى تسلمه التاج، ثم فعل ذلك في كثير من المناسبات فيما بعد، حيث تمكن بهذه الوسائل من استخراج مبالغ ضخمة من المال، وكان موجوداً في هذا المؤتمر من رجال الدين والأساقفة: بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري، وأساقفة: لندن، وروكستر، وايلاي، ولنكولن،ووركستر، ونورويك، وهيرفورد، وسالسبري، وباث، واكستير، وكارلآيل، ودورهام، والقديس داود، والأسقف المنتخب لوينكستر، وكان أسقف شيكستر قد مات مؤخراً، واعتذر أسقف شيستر وسوغ غيابه بسبب سوء الصحة، وكذلك فعل رئيس أساقفة يورك بسبب تقدم السن، ولإقامته في مكان بعيد جداً.

وفي اليوم الثالث من أيار جرت قراءة الإعلان التالي في القاعة الكبرى في ويستمنستر: «بحضور وموافقة مولانا الحاكم هنري، الملك المشهور لانكلترا، مع أصحاب السمو: رتشارد ايرل كورنوول، أخي الملك، ور. R ايرل أوف نورفولك وسفولك Suffolk ومارشال انكلترا، وهـ . H ايرل أوف هيرفورد، وهـ . H ايرل أوف اكسفورد، وج. J ايرل أوف وورويك Warwick, والنبلاء الآخرين للمملكة، نعلن نحن: ب. B الذي هو بالنعمة اللاهوتية، رئيس أساقفة كانتربري، والأول في جميع انكلترا، وف. F أسقف لندن، وهـ . H أسقف ايلاي، ور. R أسقف ووركستر، وو. W أسقف نورويك، وب. P أسقف هيرفورد، وو. W أسقف سالسبري، وو. W أسقف درم، ور. R أسقف اكستير، وس. S أسقف كارلآيل، وو. W أسقف باث، ول. L أسقف روكستر، وت. T أسقف القديس داود، ونحن في ثيابنا الحبرية مع الشموع المشتعلة، بأننا تفوهنا بشكل مهيب بقرار عقوبة الحرمان الكنسي وفق الشروط التالية: ضد جميع الذين يخرقون امتيازات الكنيسة، وامتيازات الأعراف الحرة

لمملكة انكلترا، ولاسيما مــاجــاء متضمناً في صك الامتيــازات لمملكة انكلترا، وفي الصك المتعلق بالغـابات (وكانت هذه الصكوك قـد كتبت ووضعت في الكتاب، لدى الحديث عن أيام هنري الذي تولى منحهم)، وإننا نتـولى بمـوجب سلطات الرب القـدير، والابن، والروح القـدس، والأم المجيـدة للرب، مـريم العـذراء الـدائمـة، والرسـولين المبـاركين: بطرس، وبولص، وجميـع الرسل، والمبـارك رئيـس الأسـاقفــة الشهيـد توماس، وجميع الشهداء، والقديس ادوارد ملك انكلترا، وجميع المعترفين والعــذراوات وجميع قـديسي الرب، حــرمــان، وتكفير، مع الطرد من عتبـات الكنيسـة الأم المقـدسـة، جميع الذين سـوف يقـومـون من الآن فصاعداً عن معـرفة وبصورة شريرة، بتجريد الكنائس أو حرمانهن من حقـوقهن، وكل الذين سيقـومـون بخبث، أو يسعـون بطيش لخرق، أو انقاص، أو تغيير بصورة سرية أو علنيـة، بالقول أو بالفعل، أو بالمشورة والرأي، امتيازات الكنسية، أو الأعراف القديمة والمصادق عليها العائدة للمملكة، وبشكل خــاص الامتيـازات والأعــراف الحرة الموجـودة في الصكوك المتعلقــة بالامتيــازات العــامــة لانكلترا، وللغــابات، وهي الامتيـازات التي جـرى منحهـا من قبـل مـولانا ملك انكلترا، وتشمل العقـوبات رؤساء الأسـاقفـة، والأسـاقفة، ورجـال الدين الآخـرين في انكلترا، والايرلات، والبـارونات، والفـرسان، والمتملكين الأحـرار، إذا ماقـاموا بطيش بانتهـاكهم، أو أي واحد أقدم على ذلـك بأي فعل كان، والعقوبـات أيضاً ضد الـذين سيذيعون، أو إذا مـاأذيع سوف يـأخذون بأي بند، أدرج مجدداً أو سـوف يدرج، أو سيرعـون أي عـرف جـديد، ضد هذه الامتيازات، أو ضد بنودها، أو ضد كتّاب مثل هذه البنود، أو ضد المستشارين والمنفذين لهم، والذين يسعون للحكم بموجبهم.

وليكن بمعلوم جميع الذيـن تقـدم ذكـرهـم أعـلاه فـرداً فـرداً، الذين سوف يقترفون عن دراية أياً من التجاوزات التي تقدم ذكرها، وليكونوا

على يقين بأنهم سينالون هذه العقــوبــة، بسبب الاقتراف، والذيـن من خـلال الجهل ســوف يقترفـون مثل هذه الأفـاعيل، ولم يقــومـوا بعـد انذارهم، بالاصلاح وتقديم ترضية كـاملة عما اقترفوه خلال أربعة عشر يوماً، شروعاً من يوم التذكير، أمام قضاة متميزين أو عاديين، فهم إذا لم يفعلوا ذلك، سوف يشملون من ذلـك الحين بالعقوبة، وإننا نشمل بهذه العقوبة نفسها أيضاً، كل من يعكـر صفو سلام الملك والمملكة، وتخليداً للذكرى وضعنا أختامنا على هذه العروض».

ثم أحضروا إلى أمـام الاجتماع، صك والده الملـك جـون، الذي قـام الملك هنري بإرادته الحرة، فمنح أيضـاً بمـوجبه الامتيـازات التي تقـدم ذكرها، وعندما أصغى الملك إلى قرار العقوبات المتقدم ذكره، وضـع يده على صـدره، وحافظ على نظـرة هادئة، ومشرقـة وفـرحة، وعنـدما قـام رجال الدين أخيراً بعـد الفراغ، بإلقـاء الشموع أرضـاً، وعندما انطفئت هذه الشمـوع أرسلت رائحـة نتنة، وهنـا قـال كل واحـد منهم ورددوا جميعاً: «هكذا سوف يهلك وتصـدر عنه مثل هذه الرائحة في جهنم جميع الذين سينالون هذه العقـوبة»، وكانت الأجراس في الوقت نفسـه تقرع، وهنا قال الملك: «هكذا ساعدني يارب، إنني سوف التزم بصدق بجميع هذه البنـود، بحكم أنني رجل، ومسيحـي، وفـــارس، وملك متـــوج وممسوح».

وينبغي أن نشير إلى أنه لـدى الشروع بالتفــوه بهذا القــرار، أعطيت شمـوع مشتعلة إلى جميع الحضـور، وعنـدمـا أعطيت شمعـة إلى الملك، أخـذها لكنه لم يحتفظ بها، وناولها إلى واحـد من الأسـاقفة قـائـلاً: «إنه لايليق بي أن أمسك مثل هـذه الشمعـة، لأنني لسـت كـاهناً، فـالقلب يعطي أصدق برهان، واحتفظ لبقية الوقت بيده مفتوحة وهي موضوعة على صدره، وظل هكذا حتى تم الفراغ من قراءة قرار الحكم.

وصمم —على كل حال— روبرت أسقف لنكولن في قلبه على القيام

فور عودته إلى كرسيه بإعـلان قرار العقوبات الكنسية بكل مهابة في كل كنيسة موجودة في أسقفيته (التي من الصعب علينا القيام بتعدادها) ضد جميع الذين سـوف يخرقون الصكوك التي تقدم ذكـرها أعلاه، وخـاصة ضـد الكهنة، وفعل ذلك خشيـة منه من أن الملك سـوف ينقلب على الفـور ويتخلى عن تعهـداته، ولذلك علق هـذا القـرار في آذان الجميع، وأرعب قلوب الذين سمعوه إلى أقصى الدرجات.

حول عزل الإيرل سيمون من ولاية غسكوني

وهكذا كـان أن ارفض الاجتماع، ومـا أن جـرى ذلك حتى حصل الملك على الفـور على أسوأ مشـورة، استهـدفت إلغاء جميع الإجـراءات التي تقـدم ذكـرها، فلقـد قيـل له إنه إذا جـرت المحـافظة على الشروط المذكورة أعـلاه، هو لن يكون ملكاً، ولاحتى سيداً لانكلترا، وأن والده جـون قـد اكتشف ذلك، ولذلـك فضل الموت على أن يداس على هذه الصـورة تحت أقـدام رعيتـه، وقـال له وكـلاء الشيطـان هؤلاء همسـاً: «لاتشغل نفسك إذا مانلت هذه العقوبة، لأنه مقابل مائة أو مائتي باوند سـوف يحللك البابـا، فهو بمـوجب سلطاته الواسعـة يمكنه أن يحلّ أ و يربط كل الذي يختاره، وما من أحد مهما كان عظيماً، يمتلك سلطة أعلى من السلطة التي يمتلكها هو نفسه، فأنت سوف تحصل على جزء العشر كـامـلاً، الذي سـوف يصل إلى كثير من آلاف الماركـات، وإنك إذا مـا أعطيت جـزئـاً صغيراً مـن هذا المبلغ الكبير إلى البـابا، سـوف يتـولى تحليلك، حتى ولو كان قـرار الحكم مؤكداً من قبله، لأن إليـه يعود حق نقض وإلغاء أي شيء كان مقرراً، وفي الحقيقة إنه مقابل مكافأة صغيرة، يمكنه حتى أن يمدد مدة الاسهام بدفع العشر لمدة عام، أو لمدة عامين».

وهذا ما وقع إثر ذلك، حسبما توضح ذلك الرواية التالية: وفي حوالي الوقت نفسه أرسل سكان بـوردو رسالة إلى الملك بأنه مالم يقـدم بسرعة وبكل قوة إلى غسكوني، سيكون من المؤكـد فقدانه للبلاد كلهـا، وحول

هذا كانوا غالباً ما أخبروا الملك بذلك من قبل، لكن في هذه المرة فعلوا ذلك ببيانات واضحة، وأضافوا (ماكان زائفاً) بأنه قد خسر كثيراً من الرعية والأصدقاء، من خلال طغيان سيمون، ايرل أوف ليستر، لأنه دجن وأنزل إلى طاعة الملك، كثيراً، لابل وأكثر من كثير من المتمردين الأقوياء ضده، ثم إن الملك رغب بإرضاء الغسكونيين، فأخبرهم بأنه إذا ماعاش سوف يأتي إليهم من دون شك، وبقوة في سبيل تشريفهم وعلو شأنهم، كما أنه أمر بأن يعلن بوساطة المنادين في غسكوني، أنه ما من أحد ينبغي له من ذلك الوقت فصاعداً، الخضوع للايرل سيمون، أو اطاعته، وجعل أمراً معلوماً للجميع فرداً فرداً، أنه نتيجة للشكاوى التي عملت ضد مظالم الايرل، قد قام بعزله، وأن ذلك كان مقابل نفقة كبيرة، لأنه انتزع منه الصك الذي كان الايرل قد حصل عليه، من أجل الاستحواذ على غسكوني للأعوام الثلاثة المقبلة، وأعطت هذه الإجراءات كلها رضاً عظيماً إلى الغسكونيين، ثم كان أن الخيانة التي بقيت متخفية لمدة طويلة، قد أعلنت عن نفسها، لأنه منذ اللحظة التي عرف بها أصدقاءه الخلص، أن مدة حكم الايرل قد انتهت، قام هؤلاء المتظاهرون بالصداقة، والذين تبعوا سعادته، فأصبحوا أكثر أعداءه مرارة.

حول عودة هنري أوف باث إلى البلاط

وفي هذه الآونة أيضاً، نسي هنري أوف باث جميع أحزانه، وقام مجدداً بناء على إرادته المحضة فمزج نفسه وشغلها بمشاغل الاهتمام بالبلاط، لأن الذي تشغله الدنيا بمتاعبها، يجد بعض الصعوبة بالنجاة منها، وفي هذا العام أيضاً، جرى تعيين الفارس أرنولد دو بيوس Bois مسؤولاً رئيسياً عن الغابات، في محل روبرت باسليف، وذلك في الأجزاء الجنوبية من انكلترا، امتداداً حتى نهر ترنت Trent الكبير، وعيّن جون أوف ليكسنغتون Lexington, وكان

فارساً، للمناطق الممتدة من النهر نفسه إلى مملكة سكوتلندا، وجاء ذلك بدلاً عن غيوفري دي لانغلي Langley, الذي أفقر في السنوات الماضية من دون رحمة ومن دون سبب جميع سكان المنطقة المجاورة للغابات.

حول المعجزات التي عملت عند قبر رتشارد أسقف شيكستر

وعمل الرب في الوقت نفسه معجزات واضحة عند ضريح رتشارد، أسقف شيكستر، في كنيسة ذلك المكان، وقد جرى الآن الكشف عن تقواه السرية، لأنه عندما قضى، وتمت تعرية جسده، بغرض القيام بغسله، تبين أنه كان مغطى بثوب من الشعر، ومتمنطق بأطواق حديدية.

حول انتخاب جون كلبنغي لأسقفية شيكستر

وفي هذه الآونة وضع الكهنة النظاميون لشيكستر الرب أمام أعينهم، فانتخبوا أسقفاً لهم المعلم جون كلبنغي Clippinge, وكان كاهناً نظامياً في الكنيسة نفسها.

حول الزيارة التفقدية للطائفة السوداء

وعزم البابا، بناء على شكوكه ومقاصده، وأمر الآن الأساقفة، وفرض على كل واحد منهم القيام بزيارة تفقدية إلى التجمعات الرعوية الرهبانية وإلى الديرة المؤسسة في أسقفيته، وارغامهم تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي بتطبيق بعض الشروط التي لاعلاقة لها بأحكام القديس بندكت، والتي لاتشكل جزئاً من صلب الأحكام المذكورة، والتي عملها الرهبان ممارسة لن يطيعونها مطلقاً، وتعهدوا أنهم لن يمارسونها أبداً، وعندما وجد رهبان الطائفة السوداء (البندكتيون) في فرنسا، أنفسهم محرومين تماماً من حماية الملك، نشدوا شراء السلام لأنفسهم، حتى لايكونوا عرضة للخضوع لإرادة الأساقفة، الذين كانت

الامتيازات الممنوحة لهم هدفاً للكراهية، ولهذا دفعوا أربعة آلاف باوند من نقود تورين إلى البابا، وبذلك أوقفوا عنف هذا العمل الطغياني، وهذه الشؤون وجميع ماتعلق بها من خصوصيات، قد جرى شرحها بصورة كاملة في كتاب Additaments, وترافع راعي دير القديس ألبان ورهبانه إلى البابا، واشتكوا ضد الزيارة التفقدية لأسقف لنكولن، لأن بذلك سوف يجري خرق امتيازاتهم.

كيف عمل ملك إنكلترا الاستعدادات لحملة إلى غسكوني

فور عقد المؤتمر الذي تقدم ذكره أعلاه (يعني أن تقول في حوالي الأول من حزيران) جرى اخبار الملك بالحالة البائسة في غسكوني، فحشد بموجب الأوامر الملكية الفرسان الذين يدينون له بالخدمة العسكرية في جميع انكلترا، وأمرهم بأن يكونوا مستعدين مع الخيول والأسلحة والأشياء الضرورية الأخرى في بورتماوث، في ثمانية عيد التثليث، للاقلاع بحراً معه، بحكم أنه كان على نية الانطلاق بحملة كبيرة قوية إلى غسكوني، التي كانت الآن عرضة للخطر، واستهدف من وراء ذلك إعادتها للطاعة، ومن ثم استرداد السلام، وأمر بالوقت نفسه بالاستيلاء على جميع السفن العائدة للتجار، وسفن النقل العائدة للقارة أو لانكلترا، أو للآخرين، واستهدف من هذا الاستيلاء تأمين نقله شخصياً مع أتباعه، وكان تعداد هذه المراكب يزيد على الألف، وقام أصحاب هذه السفن، بتأخير إقامتهم وتمديدها لمدة ثلاثة أشهر، مقابل خسائر كبيرة ومتاعب عظيمة، وفعلوا ذلك انتظاراً لرياح موائمة، لكن ذلك كان بلا محصلة، وبذلك بدا واضحاً بأن هذه الحملة لاتحظى برضا الرب، ووجد الملك نفسه وقتها وقد أنفق، مبلغاً كبيراً من المال، وأنه استخرج جميع أساسيات العيش لدى الرهبان في المنطقة المجاورة واستهلكها، وقد بعث بخيوله وبأتباعه إلى هنا وهناك للعسكرة والإقامة، حتى تهب ريح أكثر مواءمة، وتبتسم لهم، كما أنه كتب إلى

الايرل رتشارد وإلى الملكة، بحكم كونهما الأوصياء على المملكة، يأمرهما أنه إذا ما أصبحت أية رعاية ديرية فخمة شاغرة، أن يحتفظا بالمسؤولية عنها لنفسيهما، والأمر نفسه فيما يتعلق بأية أسقفية إذا أصبحت شاغرة، وهنا لم يتردد ولم يساوره الشك أنه بعمله هذا قد خرق كثيراً من شروط الصكوك، التي كان يعني عدم الالتزام بها قرار الحرمان الكنسي، الذي جرى إعلانه منذ وقت قريب.

حول المذبحة التي اقترفت في أحواز فلاندرز

وفي هذا الوقت نفسه من العام، وقعت مذبحة كبيرة للرجال والخيول والمواشي في المقاطعات المجاورة لفلاندرز وألمانيا، حيث من المعتقد أن أكثر من أربعين ألفاً من الرجال المقاتلين قد ذبحوا، ومثلما حدث في طروادة، التي قيل بأنها قد تدمرت مع سكانها بسبب امرأة، مثل ذلك فإن هذه المذبحة كان سببها امرأة، هي كونتسة فلاندرز، وجرى ذكر سبب وتفاصيل هذه المأساة التي لاتعوض، بشكل كامل في كتاب Additaments, كما أن تفاصيل أخبارها كلها سوف يرد ذكرها في الصفحات المقبلة.

ومات في هذه الآونة وليم أسقف للانداف Llandaff, الذي أخبر مسبقاً بموته بوساطة العمى لمدة سبعة أعوام.

حول زيارة تفقدية عملت من قبل رئيس أساقفة كانتربري

وفي هذه الآونة نفسها أيضاً، قام رئيس الأساقفة بونيفيس بزيارة تفقدية لفيفرهام، ورروكستر، وزار متفقداً الكهنة النظاميين لكنيسة القديس بولص ولآخرين في المدينة، وبسبب التقييدات التي فرضت، استقبل بلطف، وفعل هذا بحذر حتى يمكنه الوصول، والحصول على حق القيام بالزيارة التفقدية.

كيف استقبل مارشال إنكلترا زوجته ثانية

وفي تلك الآونة نفسها، استقبل الايرل روجر بيغود مارشال انكلترا زوجته ثانية، التي هي ابنة ملك سكوتلندا، التي كان من قبل قد طلقها اعتماداً على مشورة شريرة، واقتنع بهذا بوساطة حكم صدر عن الكنيسة، وعندما بات متأكداً من الحقيقة قال: «بما أن هذا هو حكم الكنيسة، إنني بأمان وعلى استعداد للقيام بهذا الزواج، الذي كنت من قبل شاك به ولدي ريبة حوله»، لأنه سلف أن قيل له بأنهما أقرباء بالدم.

حول مغادرة ملك إنكلترا إلى غسكوني

وفي السادس من آب في هذا العام، بعدما قام الملك بتعيين الايرل رتشارد والملكة وصيين على المملكة، وعهد إليهما بالعناية بإدوارد الذي كان أسن أولاده، قال وداعاً لانكلترا، وأقلع من بورتسي Portsea, وركب متن البحر برفقة ثلاثمائة سفينة كبيرة، وأسطول كبير جداً من المراكب الأخرى، وبعدما قبل الطفل والده، وبكى لمغادرته، وقف يبكي ويتنهد على الشاطىء، طوال الوقت الذي استطاع أن يرى فيه أشرعة السفن وهي تغيب في عرض البحر.

وفاة توماس أوف هارتفورد رئيس شمامسة نورثأمبرلاند

في ثمانية عيد القديس لورانس في هذا العام، مات توماس أوف هارتفورد، رئيس شمامسة نورثأمبرلاند، والراهب من دير القديس ألبان، وجاءت وفاته، في رئاسة شمامسته، وكان في نهايته مقدساً وسعيداً، وعظيم الاستعداد في جميع الأشياء الضرورية للتحول المقدس لمسيحي ولانتقاله من الدنيا، وكان من قبل تلميذاً في مدرسة القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، وكان صديقاً مقرباً من ذلك الحبر، ومنذ أن أصبح مثله، سعى لأن يسير على دربه خطوة خطوة (مثلما فعل المعلم رتشارد، الذي صار فيما بعد أسقف شيكستر، وهو الذي تقدم

ذكره من قبل أعلاه)، وبما أنه كان رجلاً صاحب ثروة، وصديقاً للفقراء، خاصة من الفرنسيسكان والدومينيكان، فقد تبرع بجسده إلى دير فقير جداً تابع لرهبان جبل الكرمل، وكان لهذا التبرع أثره في زيادة مكانة الرهبان ومنفعتهم، وبعدما غادرت نسمة الحياة جسده، كان رفاقه الواقفين هناك يتناقشون بقلق من أجل الحصول على ضريح حجري، وكان الحصول على مثل هذا الشيء صعباً في ذلك الحين، كما كان توفره في تلك المناطق، وقد رغبوا بأن يحفروا عليه اسم توماس، وهنا تدخل واحد من الكهنة وكان اسمه أيضاً توماس، وكان رجلاً صالحاً، وتقياً، وأعلن قائلاً: «لاتزعجوا أنفسكم حول هذه القضية، لأنه موجود لدي الذي تريدونه، أي ضريحاً حجرياً، عليه قد نقش اسمي، وهو توماس، فقد كنت أنا المذنب توماس أنوي بأن أدفن فيه، لكن إنه بإرادة الرب، الذي يقضي بتوزيع كل شيء حسب إرادته، لقد قضي غير الذي أردته في السماء، ولهذا أنا أقدم هذا هدية إلى رئيس شمامستنا المقدس (كما أنه ليست هناك حاجة لتغيير الاسم)، وأنا واثق أنه تقرر أن يحل محلي، ويتلطف بأخذ مكاني الذي مقر اقامته في السماء، آه كيف حصلت هذه الصخرة بسعادة على نزيل آخر سواي»، وعند ضريح توماس رئيس الشمامسة هذا نفسه، حصل عبيد المسيح المخلصين بشكل اعجازي على الشفاء من الأمراض، كما شهد بذلك بمثابة حقيقة مطلقة لكاتب هذا الكتاب، جون أوف لكسنغتون Lexington, وكان فارساً ورجلاً صاحب علوم كبيرة، وسلطات عالية، وأظهر مولانا يسوع المسيح أيضاً قداسة هذا الرجل المقدس، بمعجزات خاصة، حول مصداقيتهم هناك شهادات، وبناء عليه حصل في وقت قصير، نتيجة للمنافع الكثيرة والمتكررة، روحياً وجسدياً، وقد أنعم بها على المتوسلين هناك، وهكذا فإن البيعة الصغيرة للرهبان المذكورين قد ازدادت سمعتها، فحصلت على لقب دير، ونحن نعتقد بثبات بأن رئيس الشمامسة المقدس هذا، وكذلك رتشارد أسقف شيكستر، وإن كانا لم

يطوبا في روما، كانا متحدين مع القديس ادموند، حيث كانا صديقيه الخاصين أثناء حياته، وبخصوص المعجزات التي تفضل الرب بعملها من خلال فضائل الأسقف المبارك، إنه قد جرى ذكرها في الكتب المتضمنة تاريخ كنيسة القديس ألبان، أي في كتاب سيرة حياة القديس ادموند، والمعجزات النافعة التي منحها الرب إلى المحتاجين إليها من خلال فضائل توماس، رئيس الشمامسة، المتقدم ذكره أعلاه، معروفين بشكل جيد من قبل رهبان جبل الكرمل المتقدم ذكرهم، ومن قبل الناس في تلك البلاد، ونحن نعتقد أن هؤلاء الأبناء الثلاثة المباركين لانكلترا: ادموند، ورتشارد، وتوماس، يتمتعون بمجد التثليث العظيم.

حول الكارثة التي نزلت بالجيش الفرنسي

ومع مرور الوقت على هذه الصورة، في الوقت الذي كان فيه الملك الفرنسي يعيش في محنته، وقد ضغط عليه بالجوع في الأرض المقدسة، آنذاك كان يمضي الوقت بشكل مهين في تحصين قيسارية، ووقتها جاء إليه فارس نبيل من أصل فرنسي، وقال له: «مولاي الملك، إننا مقيمون هنا في حالة عطالة مخجلة، اسمح لي إذا كان يرضيك، أن أذهب ضد هؤلاء الكفار، الذين لم تقم معهم لا هدنة ولاصداقة، لأنال بينهم بعض التشريف والمنفعة، وكذلك بعض المؤن، التي نحن بحاجة ماسة إليها، هذا عدا عن التدريب العسكري لجيشنا، لأنه كما تعلم، إن أية منفعة أو شهرة تعزى إلى فارس ما، ذلك كله يتجمع ليعزى بشكل أكمل إلى مولاه»، وعلى هذا الطلب رد الملك بأريحية قائلاً: «اذهب، وليعيدك ربي سالماً من مهمتك»، وبناء عليه جمع الفارس كتلة من الجنود، ووجههم وشجعهم بوساطة المثل الذي ضربه وليم صاحب السيف الطويل، الذي تولى القيام بحملة مماثلة، حسبما ذكرنا ذلك في المكان المناسب، وقد انطلق نحو بلاد المسلمين الذين كانوا قد ألحقوا أضراراً بالغة بالصليبيين، وقاتلهم بشدة متناهية، وهزمهم بشكل مفاجىء، وفرق

شملهم، ومن ثم عاد بنصر مجيد، وهو في غاية السرور، مع غنائم كبيرة، ولدى رؤية هذا من قبل واحد من المتملقين بين مستشاري الملك قال له: «ياصاحب الجلالة، لقد حصل هذا الفارس على مبلغ كبير من المال،، وحقك يخولك ويتطلب أن تقوم بالمطالبة بحصة كبيرة منه، لاسيما وأنت الآن بحاجة ماسة، لأنه بموجب لطفك ومعروفك، غادر الجيش بشكل سري، مخالفاً ماقضت به الأوامر العامة، وخارقاً لها بطيش»، وبناء عليه جرى استدعاء الفارس إلى أمام الملك، ووجهت إليه تهمة قاسية من قبل منافسيه، ونتيجة لذلك الإجراء، قام بالتخلي عن الجزء الأكثر مما حصل عليه إلى الملك، ثم خاطب ذلك الفارس الملك قائلاً: «مولاي، إن جميع ماأملكه، حتى نفسي هو ملك لك، لكن يبدو لي أن الأكثر عدلاً هو أن يتمتع بالثروة الذي حصل عليها، بعدما عرض جسده وحياته للخطر في الحصول عليها، والذي أعتقده هو أن هذه الإجراءات، قد أثيرت من قبل بعض السادة الكسالى، ورجال القاعات الجبناء، والمستشارين لديك، الذين يطرونك ويتملقون إليك لمنحك السرور»، وقام واحد ممن نالوا اللوم هكذا، لدى سماعه لهذا الكلام، فقفز نحو الأمام إلى وسط الذين كانوا مجتمعين، وكان يغلي غضباً، وقد تدفق بكلام كله قدح وذم ضد الفارس، قائلاً: « بتفوهك بهذا الكلام أنت تتشدق بالكذب من حلقومك القذر، وذلك عندما تتهم كتلة عبيد مولانا الملك بالكسل والغدر»، وأضاف يقول: «بأن الموجه للاتهام كان فارساً سيئاً، وجباناً، ورجلاً مهزوماً»، وباللغة الفرنسية هو mechant, مما كان يعني أكبر شتيمة بينهم، ولدى سماع هذا الكلام، كان هناك ابن الفارس المتهم، وكان شاباً جريئاً، وفارساً شجاعاً، فقفز واقفاً في وسطهم، ولم يستطع أن يضبط نفسه لغضبه، فصرخ بصوت مثل الرعد، قائلاً: «بحق دماغ الرب، إنك حقير، وتعيس منحط، كيف تتجرأ على التفوه بمثل هذا الكلام إلى أبي بحضوري وعلى مسمع مني»؟ وسحب فجأة سيفاً صغيراً، أو خنجراً كان يحمله، وطعنه على الفور في بطنه، ثم ركض وهو

مثل المجنون من غضبه، وهرب إلى الكنيسة للحماية، ولدى رؤية والده الذي صنعه، حزن حزناً عميقاً، وانكب على قدمي الملك قائلاً: «الآن يامولاي الأكثر احتراماً، هل ستظهر رحمتك الملكية وتبرهن عليها، إذا تفضلت بالعفو عن هذا العمل الغاضب، أما بالنسبة لي، فأنا سوف ألتزم بحكم محكمتك، وسوف أخضع للذي ستقضي به»، وبناء عليه أجابه الملك: «اجلب كفلاء موائمين للقضية»، وعندما كان ذاهباً لتحقيق هذا الغرض، كان ابنه قد سحب من الكنيسة من قبل وكلاء الملك، وجرى شنقه من دون أية محاكمة أو قضاء، وعندما كان والده عائداً مع كفلائه، مستعداً لإطاعة القانون في كل جانب، وجد ابنه مشنوقاً، وقد مات، العمل الذي قام به أعداؤه، في سبيل زيادة حزن والده، برؤية ابنه المتوفى، فارتجفت أطرافه من الغضب والألم، وبصعوبة بالغة تكلم، وأخيراً قال متعجباً مندهشاً: «ماهذا ياسيدي الملك؟ هل قمت بالشنق، أو اقتنعت، وسمحت بشنق ابني من دون محاكمة أو قضاء؟ إنني لاأستطيع ضبط مشاعري كأب، أين هو الاحترام المستحق للكنيسة؟ وأين هي عدالة المحاكم الفرنسية؟ إن ماهو عائد لي في فرنسا، بموجب حقوق آبائي، وكذلك ولائي لك، والذي حصلت عليه مؤخراً بسيفي، أتخلى عنه لك، وسوف أغادرك أنا شخصياً، وأتخلى عنك»، وما أن فرغ من كلامه هذا، حتى امتطى مسرعاً على حصان سريع، ولم يوفر مهمازه، حيث هرب إلى أحد السلاطين، وقصّ عليه جميع هذه الوقائع بالتفصيل، وهنا قال له السلطان: «لقد فررت إليّ وأنا سوف لن أتخلى عنك أبداً، وأنا أفتح لك صدر اللجوء والحماية»، ثم التحق على الفور بجيش ذلك المسلم، وصار مرتداً مرعباً، مبرهناً على صدق المثل القائل: «الغضب هو الرغبة بالانتقام»، ومنذ ذلك الحين أوقف نفسه على الانتقام، وتغيرت صداقته إلى كراهية خاصة، وألحق ضرراً بلاحدود بالملك وبجيشه، ولم يتوقف عن قصده حتى قتل الذين شنقوا ابنه، وهكذا أنجب الحسد غضباً، واقترف الغضب القتل.

ووقع حادث مأساوي مماثل تماماً قبل أربعين سنة خلت، عندما قام واحد من الداوية اسمه فيراند Ferrand, وكان رجلاً شجاعاً في القتال، وحكيماً بالرأي والمشورة، بالالتحاق بالمسلمين، نتيجة انتزاع فرس ثمين منه بالقوة، ومن خلاله فقد الصليبيون في المقام الأول دمياط بتعاسة، وأخيراً كل الشرف الذي كانوا قد حصلوا عليه، ولكن عندما كانوا أخيراً على وشك الغرق، تحركت عاطفة الشفقة لديه، وساعد الذين كانوا على وشك الهلاك، في سبيل أن لايشمل الانتقام لغلطة عدة آلاف كثيرة.

وفي هذه الآونة، ابتسمت الرياح الموائمة، بعد انتظار كبير، للملك، وأقلع الملك بعد تقبيله لابنه ادوارد وعناقه له، وعاد الولد إلى أمه، وغادر الملك بأشرعة منشورة.

وصول ملك إنكلترا إلى بوردو

وفي هذه الآونة، أيام الاحتفال بصعود العذراء المباركة، وصل الملك سالماً إلى بوردو، وخرج المواطنون لاستقباله، وقد استقبلوه بكل احترام لائق، وفي الوقت نفسه هرب أعداؤه، أو أغلقوا على أنفسهم قلاعهم للدفاع عن أنفسهم، ثم أمر بحصار لى راؤل، حيث كانت هناك أعداد كبيرة من المتحزبين لعدوه غاستون، وكانوا فيها مختبئين، ذلك أن غاستون نفسه كان قد هرب إلى ملك اسبانيا، الذي أصبح صديقاً له، وحليفاً، واعداً إياه أن تكون ملكية غسكوني وحكمها —حسبما قال— عائدة له، وقام الذين تركهم لحماية لى راؤل، بالاعتماد على هذا التحالف، فدافعوا عن أنفسهم بحماس وشجاعة.

حول مشاعر الشكوك التي شعر بها الفرنسيون تجاه البواتيين

وكان الذين أمسكوا بزمام أمور حكومة فرنسا، يشعرون بالشكوك نحو البواتيين، بسبب غدرهم الذي تبرهن مراراً، وقد باتوا الآن

خـائفين، عندما سمعـوا بوصـول ملك إنكلترا سـالماً إلى غسكوني، وصـاروا يخشـون من أن يقوم البـواتيـون بالالتحـاق به، ذلك أنه كـان مولاهم القديم، وسيدهم المحرر لهم الآن، خاصة وأن ملكهم كان على مسـافـة بعيـدة عنهم، ولذلـك بعثـوا إلى هناك بكتلـة من الجنود، ولم يسمحـوا للبواتيين بالاستحـواذ على ممتلكاتهم، أو أن يكونوا مسؤولين عن قـلاعهم ومدنهم، وبهذه الصـورة بقي البواتيـون، على الرغم منهم، مخلصين، ولم يلحقـوا أي أذى بالمملكة الفرنسيـة، كما أنهم لم يقدمـوا أية منفعة للملك انكلترا، وهم على كل حال، نصبوا الشباك والأفخاخ لأقدام الانكليز، حسبما سنشرح ذلك بالتفصيل في الصفحات التالية.

رسالة أسقف لنكولن إلى البابا

وفي هذه الآونة، كان البابا أنوسنت الرابع قد بعث برسائل رسولية، أمـر فيهـا أسقف لنكولن بالقيـام ببعـض الأعمال، التي بدت إلى ذلك الأسقف أنها غير عادلـة، ومضادة للعقل، وذلك حسبما اعتـاد البابا أن يعمل غـالبـاً معـه ومع الأساقفـة الآخـرين، وبناء عليـه قـام الأسقف المذكور بكتابة الرسالة التالية جواباً له:

«تحيـات: ليكن معلومـاً بالنسبة لقـداستكم أنني أطيـع بإخـلاص وتبجيل الأوامـر الرسوليـة، مع مشـاعر بنـوية، وبموجب غيرتي نحـو كـرامـة والدي، إنني أعترض على هذه الأشيـاء وأقـاومهـا، لأن هذه الأشياء مضادة للأوامر الرسوليـة، هذه الأوامر التي أنا مرتبط باتباعها وملتـزم بموجـب الأمر اللاهوتي، لأن الـولايات الرسوليـة وأوامـرها ليست، ولايمكن أن تكون غير عقـائد الرسـول ومولانا يسـوع المسيح نفسـه، الذي هو معلم الرسل ومـولاهم، وتبعـاً له، ووفقـاً لمراتب الكنيسـة يمثل البـابا النمـوذج والشخص الذي يحتل أعلى الدرجـات، وذلك بشكل لائق ومـوائم، لأن مولانا يسـوع المسيح قد قـال: «الذي ليس معـي هو ضـدي»، وضـده من غير الممكن أن يكـون الكرسي

الرسـولي الذي هو أعظم قـداسـة ومكانة لاهوتيـة، وبنـاء عليـه، إن الرسالة المتقـدمة ليست متـوافقة مع القداسـة الرسوليـة، بل مضادة لها تمامـاً ولاتتماشى معهـا مطلقـاً، لأنه في المدخل إلى تلك الرسـالة، والرسائل الأخـرى المشابهة لها، التي انتشرت بالطول وبالعـرض، نجد عبـارة «دون التقيـد»، التي أقحمت من دون الحاجـة لإطاعـة القـانون الطبيعي، وعنها قـد صدر وانتشر فيض من عدم الاستقرار، والوقـاحة والغش، وانعـدام الحياء، والكـذب، والخداع، والحاجة إلى وضع الثقـة والأمـانة في أي واحـد، ومن الشرور التي نجمـت عن هذا كله، والتي هي من دون إحصاء تكدرت نقـاوة الديانة المسيحية، واضطرب الهدوء الاجتماعي لبني البشر، وانقلب كليـة، وعـلاوة على ذلك، بما أن ذنب الشيطان، هـو الذنب نفسـه الذي سيكون في نهايـة الحيـاة ذنـب ابن الهلاك، أي المسيح الدجـال، المسيح الـدجـال الذي سـوف يقتله الرب بنفخـة من فمـه، لايمكن أنه كـان أو سيكـون هناك ذنب من أي نوع، معاكساً مثله أو مضاداً لعقيدة الرسل والانجيل، وفي الوقت نفسه مثله كـراهيـة، ومقتاً، وبغضـاً بالنسبـة لمولانا يسـوع المسيح، الذين يميتـون الأرواح ويدمـرونها ويقـودونها إلى الضـلال عن طريق وظائف وأعمال رعـاتهم الكنسيين، وبوسـاطة أكثـر البراهين وضـوحـاً في الكتـابات المقـدسـة، يجري اقتراف هذا الذنب من قبل الذين وضعـوا في وظائف الرعاة ومنحـوا سلطات الرعاية والعنـاية، لكنهم قامـوا بالحصول على رواتبهم من حليب وصوف شيـاه المسيح، التي ينبغي أن تنشط وتحفظ بوساطة واجبـات وأعمال الرعاة، وأن لاتستخدم لتلبية حـاجاتهم، لأن عدم القيـام بواجبات الرعـاية، هو بالنسبة للكتـابات المقدسـة، هو قتل الشيـاه وإهلاكها، وإن هذين النوعين من الذنوب، مع أنهما يختلفـان في نوعيهما، هما أسـوأ الذنوب قاطبـة، ويتفـوقان بلا حـدود على كل نوع آخـر مـن الذنوب، حسبما هو واضح منهما، ذلك أن الذنبين وإن كـانا موجودين كما قلنا من قبل، هما مختلفـان بالنوع ولايشبه أحدهما الآخر،

ومضادان لما هو الأفضل، وكـل ماهو مضاد للأفضل هـو الأسوأ، هذا وإنه بالنسبـة إلى الذين يذنبـون بهذه الطريقـة، إن أول الذنوب هو ذبح الرب، وهو الذنب القاضي على كل صـلاح ومضاد له ومن غير طبيعته تماماً، والذنب الثاني هو ذبح الاصـلاح والتعبد الصحيح، الذي بنعمة المشـاركة في الشعـاع اللاهوتي هو أسـاسي، وبشكل طبيعي جيد جـداً، ومن هذا المنطلـق، إنه في أحـوال الأشيـاء الصـالحة، نجـد أن سبب الصلاح قـد عدّ أفضل من النتيجـة والتأثير، ومثل هذا بالنسبـة لقضية السـوء، فسبب السوء أسـوأ من التأثير، وإنه على هذا واضح أن الذين يدخلون عمليات الذبح الشريرة للاصلاح والعبادة والتقوى، بين شياه المسيح في كنيسـة الرب، أسوأ من أسـوأ القتلة أنفسهم، لابل هم حتى أعظم قرباً مـن الشيطان ومن المسيح الدجال، وفي هذا أسـوأ في درجة الشرور تفوق الآخـرين، وبما أن السلطة الأعظم والقدرة اللاهوتيـة قد منحت إليهم من السماء من أجل العبـادة والتأله، وليس من أجل دمـار بني البشر، عليهم أن يشعروا بأنفسهم أن عليهم أن يبعـدوا عن كنيسة الرب، وأن يطردوا مثل هؤلاء القتلة الشريرين، وبناء عليه، إن الكرسي الرسـولي الذي هـو الأعظم قـداسـة، والذي إليـه بشهـادة الرسل قـد منحت جميع أنواع السلطات، من قبل قدس الأقداس، ومن قبل مولانا يســوع المسيح، مـن أجل العبـادة و التأله وليس مـن أجل التـدمير، لايمكنه أن يميل نحـو أي ذنب من هذا القبيل، مثل أن يـأمر، أو أن يفـرض، أو أن يحاول بأية طريقــة من الطرق، عمل أي شيء، هو على هذه الدرجة من الكراهية، والرفض والمقت، لدى مولانا يسوع المسيح، وهو مهلك مميت إلى أبعد الحدود بالنسبـة للجنس البشري، لأنه سوف يكون بوضـوح ضـلالاً أو فسـاداً، أو تجاوزاً، لسلطاته المطلقـة الأعظم قـداسة، أو ابتعـاداً عن عرش المجـد لمولانا يسوع المسيح، وهو سـوف يجلس في مقعـد الهلاك والعـذاب في جهنـم، إلى جـانب أميري الظلام، اللذين ذكرتهما أعلاه، ولن يكون هنـاك أي واحد من الرعايا المخلصين

للكرسي المذكور، مطيعاً له باخلاص وطهارة، إلاّ إذا فصل نفسه عن جسد المسيح وعن الكرسي المقدس المذكور بالخروج والانشقاق، ولايمكنه إطاعة مثل هذه الأوامر أو الوصايا، أو القبول بذلك صدوراً عن أي ملك، أو أي واحد مهما كان، حتى لو صدرت عن السلطة العليا في انكلترا، بل إنه من الضروري بالنسبة له وواجبه يقضي بأن يقف ضدهم، وأن يقاومهم بأقصى ما أوتيه من قوة، وبناء عليه، مولاي المبجل، إنه بموجب فضيلة الطاعة والولاء المتوجبة عليّ نحو كل من الآباء والكرسي الرسولي الأعظم قداسة، وصدوراً عن اتحادي معه في جسد المسيح، إنني مع رغبتي الكلية بالاتحاد، وعلى الرغم من مشاعري البنوية وطاعتي، أرفض الطاعة، وأقف ضدها، وأقاوم الأوامر التي وردت في الرسائل التي تقدم ذكرها، وهذا بشكل رئيسي، حسبما أوضحت من قبل، لأنهم كما هو واضح يميلون إلى ماهو ذنب بغيض، ضد مولانا يسوع المسيح، ولأنهم الأكثر شراً وضرراً للجنس البشري، وهم كلية ضد قداسة الكرسي الرسولي، وضد الإيمان الكاثوليكي، كما لايمكن لقداستك استخدام أية إجراءات قاسية ضدي، لأن جميع حججي في هذه القضية هي ليست معادية أو متمردة، بل دوافعها مشاعر البنوة لدي، ورغبتي بتشريف أبي وأنت بوساطة طاعة الأوامر اللاهوتية، ولكي أجمل كلامي، وأعرض ماأريده ببضع كلمات، إنني أقول إن قداسة الكرسي الرسولي تمتلك السلطة فقط للإعمار والتهذيب وليس للتدمير، حتى تكون القدرة الوافرة لديها الاستطاعة على بناء كل شيء والارتفاع به، وهذه الأشياء التي يدعونها الاسهامات وأعمال التزويد، ليست من أجل التنوير، لكن من الواضح تماماً انها من أجل التدمير، ولذلك فإن الكرسي الرسولي المبارك لايمكنه أن يقبلهم، لأن الجسد والدم، اللذان لن يتملكا مملكة الرب، قد أوحيا بهم، وليس الأب لمولانا يسوع المسيح الذي هو في السماء».

حول سخط البابا العظيم تجاه رسالة أسقف لنكولن

وعندما وصلت هذه الرسالة إلى البابا لم يستطع أن يضبط غضبه وسخطه، وبعدما أخذ مظهر المتجبر مع نظرة غاضبة قال: «من هو هذا العجوز المخرف، وهذا الأطرش والمجنون الذي يهذي، الذي بوقاحته وطيشه يحكم على أعمالي؟، بحق بطرس وبولص لولا أن كرمي الفطري يمنعني لألقيت به في متاهة لانظير لها من الفوضى والاضطراب، والعار، حتى يكون موضوعاً للكلام، وهدفاً للتعجب والرعب لجميع أنحاء العالم، أوليس ملك انكلترا من أتباعنا، أو بالحري عليّ القول: من عبيدنا؟ ويمكن بأمر منه أن يلقى بالسجن، ويلحق الإهانة بهذا الأسقف العجوز نفسه»، وعندما تليت الرسالة بين اخوانه الكرادلة، استطاعوا بصعوبة ضبط غضب البابا وكبحه بالقول له: «ليس لائقاً بنا ياصاحب القداسة، فرض أية عقوبة قاسية ضد هذا الأسقف، لأننا والحق يقال، إن الذي قاله صحيح، ونحن لانستطيع أن نحكم عليه بالادانة، فهو كاثوليكي، لابل هو مقدس جداً، وأعظم ديانة، وأعظم قداسة، ويمتلك حياة أكثر استقامة منا أنفسنا، وهو في الحقيقة ليس له نظير، ولايوجد من يتفوق عليه بين جميع الأساقفة، وهذا مايعرفه جميع رجال الدين من الانكليز، وكذلك من الفرنسيين، ومعاداتنا له ستكون بلافائدة، ومصداقية هذه الرسالة، التي ربما أصبحت الآن معروفة من قبل أعداد كبيرة، من الممكن أن تثير الكثيرين ضدنا، لأنه يعدّ فيلسوفاً عظيماً، وهو مجيد تماماً لمعرفة اللغتين اللاتينية والاغريقية، وهو غيور على تطبيق العدالة، وعالم في مدارس اللاهوت، وواعظ للناس، محب للاحسان، ومطارد منكل بالمذنبين»، فهكذا تحدث جايل الاسباني وكان كاردينالاً، ومثله فعل الآخرون، الذين تحركت ضمائرهم، ونصحوا البابا بالتغاضي، وأن يعبر بتلك المسائل صامتاً، خشية أن لاتحدث إثارة بسببها، ولاسيما أنهم كانوا يعرفون أن الخروج والتمزق سوف يحدث على الفور.

حول كرم روبرت أوف سوثندون وإحسانه

وقام في هذا العام أيضاً روبرت أوف سوثندون Sothindon, وكان كاهناً ومستشاراً خاصاً للملك، صدوراً عن مشاعر الإحسان، وتقديراً منه للمال الذي جرى صرفه من قبل دير القديس ألبان، فأعطى كنيسة هارتبورن Hertburne, التي كان يمتلكها كلية، ومستحوذ عليها تماماً، قام باعطائها إلى الدير المذكور، حتى يتملكها تماماً، ويتصرف بها بما يفيده، كما أنه أنعم أيضاً بمنفعة مماثلة على كنيسة القديس مارتين أوف باتل Battle, بإعطائها كنيسة جيليلهام Jelelham, ومثل هذا أنعم بكنيسة هوسبنغ Hospinge على فرسان الاسبتارية في دوفر، وبلغ مورد المنحة الأولى سنوياً مبلغاً مقداره ثلاثمائة مارك، أما المنحة الثانية فكانت مائة مارك، أما الثالثة فكانت ستين ماركاً، وعملت المنح الثلاث جميعاً صدوراً عن التقوى، ولزيادة الضيافة وتقديمها ظاهرة إلى كل من الناس والخيول.

موت رالف راعي دير رامسي

في أمسية عيد صعود العذراء المباركة، مات المبجل رالف، راعي دير رامسي، تاركاً ديره عرضة للنهب من قبل مخلوقات الملك في أيام الحصاد، ثم عهد بالعناية بالدير إلى يود Ude, وكان كاهناً من البلاط، وأنا سوف أعبر بأعماله بصمت خشية أن تصل إلى مسامع خصومه، وجرى الاستيلاء على أوعية من الفضة كان وزنها خمسة وثلاثين ماركاً، وخمرة منتخبة، وخيول، وحيوانات من الغابة، من أجل استخدامات أوصياء المملكة، وأبعدوا بدون احترام عن الكنيسة، والذي كان أكثر قسوة وحدة، هو استخراج مبلغ من المال من العاملين في أملاك الدير، وذلك من قبل الذين كانوا متوجب عليهم حراسة الذين لآباء لديهم وحمايتهم، وعلاوة على ذلك جرى ارسال المعلم نيقولا بلمبتون Plumpton والمعلم جون ايرلاندا، وكانا كاهنين

لدى الملك، إلى بلاط روما، في سبيل معارضة ثم إلغاء الوعود الملكية التي تقدم ذكرها أعلاه، وقد تلقيا أوامر بأن لايوفرا نفقة في سبيل تنفيذ غايات الملك، وفي الوقت نفسه، وخلال ذلك العام كله، قام أسقف لنكولن، الذي تنبأ بأن الملك سوف يضلل بوساطة مشورة شريرة حتى يخرق جميع وعوده، لذلك أمر بالتفوه بقرار الحرمان الكنسي ضد جميع الذين سيتولون خرق صكوك الامتيازات المتقدم ذكرها، في جميع أرجاء أسقفيته، وفي أي مكان توفر فيه اجتماع للناس، لكن مما يؤسف له كانت مفاتيح الكنيسة فيما بينهم محل استخفاف وتحدي.

الطوفان المدهش الذي تسببت به الأمطار

ووقعت في حوالي الوقت نفسه واقعة مدهشة، كان حولها هناك أحاديث طويلة، هي أنه على الرغم من أنه كان هناك في ربيع هذا العام وصيفه جفاف كبير وطويل، حدث في نهاية الصيف وفي الخريف فيضان للأنهار، فقد غمرت المياه الشواطىء، وارتفعت إلى مستوى قمم التلال، وغطت المناطق المجاورة، ومجدداً حدث في نهاية الخريف وبعد عيد القديس ميكائيل أن كان هناك فيضان نجم عن أمطار غزيرة، ثم اختفى وأعقبه جفاف كبير ونقص لا بل ندرة في مياه الأنهار والينابيع، إلى حد أن الذين أرادوا طحن القمح أرغموا على حمل حبوبهم إلى مسافة تقارب رحلة يوم من أجل طحنها، ووقعت واقعة مشابهة ومدهشة في ربيع هذا العام نفسه، جاءت معاكسة لطبيعة الفصل، لأنه في أيام الاعتدال الربيعي يكون المناخ كله معتدلاً ولطيفاً، ويكون هناك هدوء لجميع العناصر.

الاحتفال الفخم بعيد القديس إدوارد

اجتمع بناء على أوامر من الملك عدداً كبيراً من الأساقفة والنبلاء، في عيد القديس ادوارد، الذي يحل خلال أسبوعين من عيد القديس

ميكائيل، واحتفل بهذا العيد من خلال إدارة الايرل رتشارد والملكة بشكل رائع، ووفق طريقة لم يكن هناك قط ما هو أبهى منها.

كيف حصل ملك إنكلترا على ملكية قلاعه في غسكوني

وفي نهاية صيف هذا العام، حصل ملك انكلترا بعد بذل كثير من الجهود، وبعد انفاق كبير للمال من دون فائدة، على تملك قلاعه الخاصة في غسكوني، حيث منح عروضاً جيدة للذين كانوا محاصرين فيها، وفي الحقيقة هو لم يلحق بهم كبيراً من الأذى والأضرار، مع أنهم استحقوا ذلك كثيراً، واقتصرت الأضرار، كما شاهدوها بأنفسهم، وعرفوها، على تدمير كرومهم، وقد رمى المحاصرون يومياً أحجار طواحين كبيرة ومقذوفات ذات أحجام مدهشة، على جيش الملك، وقد جرى حمل هذه المقذوفات إلى انكلترا، حتى يجري عرضها بمثابة أشياء غريبة جداً، وعندما جرى التضييق عليهم وحوصروا عن قرب، أرسلوا مراراً وبشكل سري رسلاً إلى ملك اسبانيا، رجوه فيها أن يساعدهم، على أساس أنهم من رعاياه المخلصين، وفي أثناء حصارهم على هذه الصورة، زادوا من عدوانيتهم، ولجأوا إلى الغلو في إجراءاتهم، وعندما أرغموا على مغادرة قلاعهم بمثابة أسرى لدى الملك، ذهب إخوة الملك لأمه إليه، وطلبوا منه تسليمهم الأسرى، حتى يتولوا معاملتهم كما يريدون ويرغبون، وقد أثار هذا المطلب الوقح دهشة وحفيظة العديد من أصدقائه، وقام هو على كل حال بتوفير حياة الذين كانوا أعداءً مكشوفين له، وذلك بباعث من الرحمة لديه، وهو الذي واجه متاعب كبيرة في اخضاعهم، وفعل هذا من دون تقدير منه لأحكام الانجيل التي تقول: «أحضروا الذين رفضوا تقديم الطاعة لي حتى أكون حاكماً عليهم، واذبحوهم بحضوري»، وبذلك ماتت سمعته الجيدة، وتلاشت كل مظاهر الاحترام له، بحكم أنه تولى ظلم رعيته من أبناء بلده، وأظهر اللطف نحو الأجانب.

كيف أرسل ملك إنكلترا سفراء إلى ملك إسبانيا

ثم قام الملك، خشية منه من غدر الغسكونيين وخيانتهم، وأن يقدموا على التخلي عنه والالتحاق بملك اسبانيا، الذي كان له نفوذ كبير عليهم، فأرسل أسقف باث، وجون مانسيل، كاهنه المفضل، بسفارة خاصة إلى ذلك الملك، يرجوان بتواضع الحصول على صداقته والتحالف معه، ويطلبان منه اعطاء اخته لأمه لتكون زوجة لابنه الأكبر، والذي هو ولي عهده الشرعي، أي ادوارد، فهو —أي ملك انكلترا— كان قد تنازل عن غسكوني إلى ابنه ادوارد المتقدم ذكره، ولم يكن ذلك ليختلف كثيراً، أو بعيداً عن المنحة التي عملت، أو التي سوف يجري منحها إلى أخت ملك اسبانيا المتقدم ذكرها، إذا ما تزوجت من ابنه ادوارد، وأوصل السفيران المذكوران مهمتهما إلى التمام، وحصلا بعد متاعب جمة، وقلق عظيم على صداقة ملك اسبانيا وعلى نواياه الطيبة وتمكن أيضاً من الحصول على صك حقوقي فخم، كان وزن الختم الذهبي عليه يعدل وزن مارك من الفضة، وقد ورد في الصك فقرة خاصة، أقحمت فيه خصيصاً، تحدثت وأفادت بأن ملك اسبانيا قد تخلى عن كل ادعاء له مهما كان نوعه أو سيكون في غسكوني، وذلك بموجب فضيلة منحة الملك هنري الثاني، ثم تأكيد ذلك وتثبيته من قبل الملكين رتشارد وجون، وجاء ذلك بفضل الإجراءات البارعة لهذين السفيرين، أو بالحري أن تقول جهود جون مانسيل وحده، وتم الحصول أيضاً على بعض الامتيازات، لصالح الحجاج الذين يذهبون إلى القديس جيمس، ومنفعة حق الإقامة حسب رغبتهم في المدن التي هي تحت حكم ملك اسبانيا، وكذلك شراء الطعام لأنفسهم كما يريدون، دون أن يطلبوا الاذن من الذين يتولون رعايتهم.

ثم إن ملك اسبانيا المذكور طلب وجوب تقديم إدوارد إليه، حتى يتمكن من فحصه والتعرف على براعته ومعارفه، ولينعم عليه بمرتبة

الفـروسيـة، مـع جميع التشريفـات الجديرة بشـاب من مثـل هذه المرتبـة العاليـة، وأفرحت هذه النهاية الذكيـة والإدارة الكاملة لجميع الشؤون، ملك انكلترا، لكنه شعر بخوف عظيم، ولاعجـب من ذلك، فقد خاف من ارسال ابنه الأسن، والوريث لجميع أراضيه، إلى ملك اسبانيا، الذي كان يعيش على بعد كبير، وخشي من أن يجري تضليل ذلك الملك باثارة النهم لديه والشرور، فيحتفـظ به لديه بمثـابة رهينـة، أي أن يرتهن لديه ذلك الأمير الذي سلم إليـه من دون عناية وتقـدير، وأخيراً قـدم جـون مانسيـل —على كل حال— شهـادة على صلاح ملك اسبـانيا وصـدقه، وأعلـن أنه لـن يقترف، كما أنـه لن يسمـح بـاقتراف، مثـل هذا الاثـم، وارتفعت ثقـة الملك، وكـان راضيـاً بعـد ذلك بإصـدار الأوامـر بأن لايذهب ادوارد لوحـده، بل أن ترسل ملكتـه معـه، الأمر الذي جـرى تنفيـذه، وحـدث أثناء مـدة تلك الحرب كلهـا، أنه كـان كلما اقترف أي انكليزي ذنبـاً من الذنوب، كان يعـاقب بشكل يتجاوز مايستحقـه ذنبه، لكن في حال اقتراف أجنبي لإثم من الآثام، كـان يعاقب قليلاً، أو حتى كانت القضيـة تمر من دون عقوبة، وكانت هذه الحقيقة مـوضع تساؤل، ولم يكن ذلك من دون سبب مسوغ.

حول عدوان حاد قام به المسلمون ضد الصليبيين

وقـام في هـذه الآونة بعض النبـلاء من المسلمين الشرقيين، بحكم كـراهيتهم للصليبيين، بالدخول بتحـالف في سبيل تدميرهم، وعـاثوا في أراضيهم كما أرادوا، واجتاحوها من دون أية معارضة، حتى وصلوا إلى أبواب عكا نفسها، وقد تسببوا بجبروتهم بكثير من الأذى.

حول المجاعة الكبيرة في غسكوني

وفي هذه الآونة أيضاً، عانى جيش الملك من نقص كبير في المؤن، إلى درجة أن الدجاجـة الواحدة بيعت بستة بنسات استيرلينيـة، وبيع مكيال

القمح مقابل عشرين شلناً، والربع من الخمر مقابل شلنين وأكثر، والرغيف الواحد من الخبز الذي وزنه باوند واحد ببنسين أو بثلاثة، وهكذا صار بالكاد يمكن لفارس جائع أن يكتفي بانفاق شلنين من الفضة للانفاق يومياً على نفسه وعلى تابعه وعلى غلامه، وعلى فرسه.

كيف جرى إعفاء راعي دير القديس ألبان والدير معه من الدين المستحق لرتشارد أوكسهي

في الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول في هذا العام، جرى سحب قيد رباط الدين الذي كان راعي دير القديس ألبان والدير خاضعين له بموجب قرض رتشارد أوكسهي Oxhaye من يدي اليهودي الياس اللندني، والدين كله ألغي، وجرى الإعلان عن ذلك في مجمع اليهود في لندن، من أن راعي الدير المذكور والدير قد أعفيا من كل ادعاء ضدهما فيما يتعلق بذلك الجانب، منذ بداية الخليقة حتى ذلك الحين، وجرى الحصول على وثيقة من قبلهم ثم تمّ الإعلان عنها.

كيف انتشرت سمعة ملك إسبانيا في الخارج

وفي هذا الوقت انتشرت سمعة ملك اسبانيا وشهرته، لكن ليس بقدر سمعة ملك انكلترا وشهرته، وجاءت ألقاب الملك الاسباني في وثائقه كما يلي: «ألفونسو، بنعمة الرب ملك قشتالة وليون، وغاليشيا وطليطلة، وميورقة، وقرطبة، وجيان»، وكانت مملكة ملك انكلترا أكبر بكثير وأضعافاً مضاعفة لمملكته، حيث كان قد عهد بايرلاندا مع كثير من ممتلكاته الأخرى إلى ابنه، لكن هذه القضايا تحتاج إلى عرض خاص.

النصيحة الحكيمة التي قدمها ملك إسبانيا إلى ملك إنكلترا

أصبح الآن ملك اسبانيا صديقاً كبيراً لملك انكلترا، وبعدما سمع عن

ممارساته، حزن، وتأثر بروحه اللطيفة وبحكمته، فأرسل رسالة إليه، أي إلى ملك انكلترا، يحثه فيها على أن يحذو حـذو الملوك الصالحين والأمراء الجيدين، الذين كان شعـارهم منذ العصور الأزلية كما يلي: «هو سيكون حملاً لعبيده وجندياً تابعاً، وأسداً نحـو الغرباء والعصاة»، وتمت الإشارة إلى هذا القـول الذي ذكـره لإثارته وتشجيعـه على أن يعمل هكذا، وأن لايستمـر بعـد الآن في ظلم رعـاياه الطبيعيين، وأن يرعى الأجـانب والغرباء وأن يدعمهم، لكن:

ماهي الفائدة المتوخاة من بذل الجهد

في إلقاء البذار على أرض قاحلة؟

وكان لدى ملك اسبانيا ثماني ممالك هي: قشتالة، وغاليشيا، واشبيلية، وقرطبـة، وميورقـة، واشباليـا Hispalis, فهؤلاء جميعـاً بين يديه وهم يخضعـون إلى القـوانين المسيحيـة، ولديه أيضـاً ملكين مسلمين يدفعون الجزية إليه، كما ظهر في الصك الذي أرسله إلى ملك انكلترا.

حول المرض الشديد الذي أصيب به أسقف لنكولن

وحـوالي ذلك الوقت نفسه، وعندمـا كانت أيام الشعـرى (من أوائل تموز حتـى أوائل أيلـول) تمارس تأثيرهـا الشريـر، تمدد روبرت أسقـف أوف لنكولن مصاباً بمرض شديد، وكـان ذلك في عزبة اسمها بوكدون Buckdon, ولذلك استدعى إليه المعلـم جون أوف سينت جايل، وكان راهباً من طائفة الدومينيكـان، وكان بارعاً في فن الطبابة والمداواة، ومحاضراً متعلماً باللاهوت، مـن أجل أن يحصل منه على المواسـاة، لكل من جسده وعقله، لأنه عرف، وكأن ذلـك جاء بوساطة إلهام، أن المحن مقبلة لتحل بالكنسيـة خـلال وقت قصير، ونحن غير مجهـزين ضـدها، ولهذا السبب أمر الكهنة المؤسسين في جميع أرجـاء أسقفيته بإعـادة قراءة قـرار الحرمـان الكنسي، من دون توقف ضـد الذين يخرقـون صكوك

الحريات العظيمة التي فيها امتيـازات المملكة، وذلك حيثما وجدوا أناساً مجتمعين مع بعضهم، وقـاوم بعض أصـدقاء البـلاط، والكهنة وكـذلك بعض الرجال العلمانيين هذا الأمر بتمرد، وكدسوا الإهانات على رجال الدين، وبناء عليه نحن على يقين أنهم بقيـامهم بهذا الإجراء، قد سقطوا في شراك التكفير، وعندمـا كـان الأسقف يتحـادث في أحـد الأيام مع الراهب جـون الطيب المتقـدم ذكره، أخـذ الأسقف يتحـدث عن أعمال البـابا، فانتقـد بحدة اخـوانه الرهبان الدومينيكان والآخـرين، كما أنه لم يوفر الرهبان من طائفـة الفرنسيسكان، لأن طائفتهم تأسست على الفقر التطوعي، وهو الفقـر بالروح، في سبيـل أن يتمكنوا من ممارسة حـرية أعظم، وليس في تلطيف أخطاء الذين بالسلطـة، بل أن يقومـوا بلومهم ونقدهم بوساطة حدة الروادع، لأن:

المسافر، الذي حافظة نقوده خفيفة

سوف يغني مع أن قطاع الطرق على مشهد منه.

وقـال الأسقف: «إنه بالنسبـة لـك أيها الراهب جـون، وبقيتكم أنتم الدومينيكان، إنكم بقـدر مـاتحجمـون عن نقـد ذنوب النبـلاء بجـرأة، وبقـدر مـا تتمنعـون عن الكشف عن جـرائمهـم، أنا أعـدّكم هراطقـة منحطين» وأضـاف قـائـلاً: «مـاهـي الهرطقـة؟ أعطني تعـريف محدد للكلمـة»، ولأن الراهب تردد في الجواب، ولم يتـذكـر معنى أصيـلاً، أو تعريفاً محدداً للكلمة، استطرد الأسقف مضيفاً معطياً ترجمة صحيحة من الاغـريقية إلى اللاتينيـة قائـلاً: «الهرطقة مـوقف جرى اختيـاره من قبل المشاعر الإنسانية، هو مضاد للكتابات المقدسة، ويجري التبشير به بشكل مكشـوف، ويجري الدفـاع عنه بعناد وإلحاح»، والهرطقة في الاغـريقيـة، هي الانتخاب في اللاتينية، وعلى هذا الأساس انتقد الأسقف الأساقفة، خاصة الرومان منهم، من أجـل إيكالهم مهام شفاء النفوس والعناية بها إلى أقربائهم، الذين كـانوا غير مناسبين، وضعفاء غير أكفاء، بسبب أنهم

كـانوا شبـاباً وبسبب الحاجـة إلى المعـرفـة، واستطرد يقـول: «إن إعطاء وظيفـة العناية بشفـاء النفـوس إلى طفل، هو مـوقف أي أسقف جـرى اختيـاره بوسـاطة المشـاعر الإنسـانيـة، على أسـاس الجسد أو العـلاقـة الدنيوية، وهو مضاد للكتابات المقدسة، التي تمنع أن يتولى الرعاية الذين غير قـادرين على منع الذئاب، ولقـد جرى التبشير بهذا، لأن هذا مـؤيد بشكل مكشـوف بصكوك حـريات تحمل الأختام أو التـواقيع، وجـرى الدفـاع عنها بعناد، لأنه إذا مـا حـاول أي واحد أن يقف ضـدها يجري تعليقـه من شراكة المؤمنين، وحـرمـانه كنسيـاً، وإثارة الحرب ضده أمـر مقـدس ومشروع، وكل مـن ينطبق عليـه تعـريف الهرطقــة وهو متبني لذلك، هو هرطقي، هذا وعلى كل مسيحي مخلص واجب الوقوف ضد الهرطقـة بقدر مـا أوتي من قـوة، وبناء عليه، إن الذي بـإمكانه مقاومـة الهرطقة ولايفعل ذلك، هـو مذنب، وقد أظهـر نفسه أنه يحبـذ الهرطقة، وفقاً لقـول غريغوري: إن الذي يخفق في الـوقوف ضد جـريمة ظاهرة، ليس بريئاً من التهمـة في أنه شريك سري في اقترافها، هذا وإن الرهبـان الفرنسيسكان، وكذلك الرهبـان الدومينيكان، هم فوق غيرهم، يتوجب عليهم الوقوف ضـد مثل هذه العقيدة، وبحكم فضيلة وظيفتهم، لديهم القـدرة على التبشير، وبسبب فقـرهم هم أكثـر حـرية في ممارسـة ذلك العمل، وهم لايذنبون فقط إذا لم يقفوا ضـدها، بل إذا ما حبذوها، لأن الرسول يقول في الفقرة الأولى من رسالته إلى الرومان: «الذين إذ عرفوا حكم الله أن الذين يعملون مثل هذه يستـوجبون الموت لايعملون فقط بل أيضـاً يسرون بـالذين يعملون»، وبناء عليـه يمكننـا الوصـول إلى محصلة، أنه مالم يقـم البابا نفسه بالتـوقف عن اقتراف مثل هذه الخطيئة، وكذلك مـالم يظهر الرهبان المذكـورين أنفسهم أنهم مهتمين بالتخلي عن مثل هذه العقيدة، يستحقـون موتاً سرمـدياً، وهناك أيضاً مرسـوم يقول بأن مثل هذا الإثم يعني هرطقـة، وبناء عليـه من الممكن دعـوة البـابا هكذا، لابل ينبغي دعوته هكذا على هذا الأساس».

شكوى أسقف لنكولن من الحبر الروماني

وكانت الليالي آنذاك طويلة (لأنها كانت الليلة الثالثة قبل عيد القديس دينس)، وكان الأسقف قد أنهكه المرض، وكان قد هدّه التعب، لذلك أمر بإحضار بعض كهنته، علّه يستطيع الترويح عن نفسه بالحديث معهم، وقام الأسقف بابداء الحزن الشديد حول فقدان النفوس، بسبب شره البلاط البابوي، وقد خاطبهم بحزن وأسف كما يلي: «جاء المسيح إلى العالم ليربح النفوس، وبناء عليه إذا كان هناك أي واحد لايخاف من تدمير النفوس، ألا يستحق أن يحمل اسم المسيح الدجال؟ لقد عمل الله الدنيا كلها في ستة أيام، لكن من أجل إصلاح خطيئة إنسان، عمل لمدة تزيد على الثلاثين سنة، أفلا ينبغي —بناء عليه— عدّ المدمر للنفوس عدواً للرب، ومسيحاً دجالاً؟ فلقد قام البابا باعتماده على وسيلة استخدام عبارة «دون التقيد» إلخ، بإلغاء امتيازات الأحبار الرومان من أسلافه، من دون حياء، وهذا لم يقترف من دون إلحاق الأذى والضرر بهم، لأنه بعمله على هذه الشاكلة، ألغى تماماً، ودمّر الذي بذل كثير من القديسين جهوداً كبيرة لبنائه، لابل إنه استخف بجميع القديسين وازدراهم، وبناء عليه أوليس من العدل أن يستخف بالمستخف وأن يزدرى وفقاً لكلام اشعيا: «الويل لك أيها الرافض، أولا تستحق أنت أن ترفض؟» فمن الذي يحافظ على امتيازاته؟ وجواباً على هذا، إن البابا، بناء عليه يدافع عن خطيئته، وهو يستحق أن لايمتلك السلطة على الآخرين، وبناء على ذلك إن واحداً اسمه البابا لايمكنه أن يرغمني، فأنا الذي بالفعل أيضا بابا»، وقال الأسقف: «إن جوابي على هذا هو: يبدو لي أن الذين يبحرون وسط مخاطر العالم، والذين فرحين في أمان الميناء ليسوا متساوين، والتسليم بأن أي بابا يمكن أن يكون محفوظاً، بعيد عني قول غير ذلك، ذلك أن المخلص يقول: «إن الذي هو الأدنى في ملكوت السموات هو أعظم

من يوحنا المعمــدان، وأعلى من الذين لايوجـد أعلى منهم ممن ولدتهم امـرأة»، وعلى هذا، أوليس أي بابا، أعطي امتيازات أو ثبتهـا أعظم من البابا الحالي؟ من المؤكـد، كما يبدو لي هو أعظم، وبناء عليـه، لديه سلطة على واحـد أدنى منه، ونتيجـة لهذا، ينبغي أن لايقـوم هذا البـابا بإلغـاء قـرارات أسـلافـه، أوليس البـابا هو الذي يقـول في حـديثـه عن معظم أسلافه: كذا وكذا واحد صاحب ذكرى تقية، أو سلفنا، إلخ؟ وغالباً ما يقـول أيضـاً: إننا نسير على خطى سلفنا المقـدس، إلخ؟ فلماذا، على هذا الأساس، يقوم هؤلاء الذين يتبعـون الخطوات بتدمير الأسس التي تولى الذين من قبلهم ارساءها؟ فلقـد قام عدد من الأحبار الرسـوليين بتأكيد كل امتياز جـرى منحه من قبل بلا استثناء، أوليس العـديد الذين جرى انقـاذهم بالنعمـة اللاهوتيـة أكثر مـن واحد فـرد مـايزال تحت الخطر؟ ومجدداً إن آباءنا الأقـدمين، الأحبار الرسـوليين، كـانوا من قبله بالزمن، وقد نالوا الاحترام من قبل العصور القديمة، ورفع شأنهم، ونحن علينا أن ننظر إليهم باحترام، وقـد جـرى الحفـاظ على هـذا النظام من قبل بندكت المقدس، وصاحب الفضـائل، والمبجل، والذي امتلأ بروح جميع القديسين، لدى تأسيسه لنظامـه، لأنه فضل الذين جاءوا أولاً للالتحاق بالطائفة، مهما كانت مراتبهم، وآثرهم على الذين التحقوا فيما بعد، حتى وإن كانوا رجـالاً أصحاب مراتب، وسلطـة، وأمر بتقدير القـدماء وأن ينظر إليهم بالاحترام الأعظم، ولذلـك، من أين نبع هذا الأذى المتهـور الذي يستهدف إلغاء امتيازات مثل هذا العدد الكبير من القديسين.

شكواه المريرة من ظلم الكنيسة

وعـلاوة على ذلك، مع أن كثيراً من الـرجـال الرسـوليين، قـد آذوا الكنيسة، قـد أنزلها هذا الواحد إلى أسوأ درجة من درجـات العبودية، وجعلهــا أدنى من الآخــرين، وزاد كثيراً مـن ارباكــاتها، لأنه بسبب السماسرة، الذين يظهــرون التعــامل بالربا في أيامنـا هذه، حسبما رأينا

وعرفنا، فإن الآباء المقدسين والمعلمين، الذين من بينهم: واعظ فرنسا المشهور، راعي دير فلي Flaye الذي هو من طائفة السسترشيان، والمعلم جيمس دي فيتري Vitry, وستيفن المنفي، رئيس أساقفة كانتربري، والمعلم روبرت دي كوركون Courcon, جرى طردهم من فرنسا، لأنهم بوعظهم قد أيقظوا المشاعر، وقام هذا البابا بحماية هؤلاء السماسرة في انكلترا، التي لم تتعرض قط من قبل للمعاناة من مثل هذا الوباء، وإذا ماقام أي واحد بالشكوى منهم أو بنقدهم، ينال المتاعب والخسارة، كما شهد على ذلك روجر أسقف لندن، والعالم كله يعرف أن الربا قد عدّ ممقوتاً في العهدين القديم والجديد معاً، وهو محرم من قبل الرب، والآن يقوم تجار البابا أو وكلاؤه —في سبيل اغضاب اليهود— بممارسة أعمال الربا بشكل مكشوف في لندن، ويبدعون مختلف الخطط للظلم ضد عبيد الكنيسة، وبشكل خاص ضد الرهبان، حيث أنهم يرغمون الذين تعرضوا لضغط العوز، على ممارسة الكذب، وأن يضعوا تواقيعهم على كتابات مزيفة، ومثل هذه الإجراءات هي اعتراف عملي، وممارسة لعبادة الأوثان، ومن ثم التخلي عن الحق الذي هو الرب، وعلى سبيل المثال إنني أقبل بقرض مقداره مائة مارك مقابل مائة باوند: وإنني هنا أنا مرغم على إعطاء ورقة مكتوبة، والتوقيع بالاسم، وفيها أعترف بأنني تقبلت قرضاً مقداره مائة باوند ينبغي سداده عند نهاية العام، وإذا مارغبت أن تدفع إلى مرابي البابا المال الذي اقترضته خلال شهر، أو خلال بعض الوقت الأقل، هو لن يتسلم منك أقل من المائة باوند كاملة، وهذه شروط أكثر ظلماً من شروط اليهود، لأنك متى أردت أن تعيد إلى يهودي المال الذي أقرضك إياه، هو سوف يتسلمه منك بتقدير وشكر، ومع فائدة تتوافق فقط مع الوقت الذي أقرض به المال، وعلاوة على ذلك نحن نعلم بأن البابا قد فرض على كل من الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، أن يحضروا عند الذين يموتون ليطلبوا

منهم بكل عناية، وليحاولوا اقناعهم بإلحاح، ليعملوا وصاياهم لمنفعة الأرض المقدسة ولنجدتها، وليلزموهم بحمل الصليب، من أجل أنهم إذا ما تعافوا من مرضهم، يمكن لهؤلاء الرهبان خداعهم حول ممتلكاتهم الأساسية، أو أنهم إذا ماتوا، وقتها من الممكن استخراج الكثير من المنفذين لوصاياهم، كما أنه باع أيضاً الذين حملوا الصليب إلى رجال علمانيين، مثلما عمل اليهود عادتهم من قبل، بيع الأغنام والثيران في الهيكل، ولقد رأينا رسالة صدرت عن البابا، نجد أنه ورد فيها، أن الذين عملوا وصاياهم، أو حملوا الصليب لمساعدة الأرض المقدسة، سوف يتلقون غفراناً يتماشى مع نسبة المال الذي قدموه من أجل هذا الغرض، وعلاوة على ذلك قام البابا في كثير من رسائله، بتوجيه الأساقفة لتجهيز كذا وكذا شخص بمنافع لاهوتية، وهم أشخاص غرباء وغائبين، وبعضهم غير لائقين تماماً بالمنافع، لكون أحدهم كان لايعرف لغة المحليين حتى يكون بذلك قادراً على الوعظ، أو تلقي الاعترافات، ولايمكنه حتى أن يستقر ويسكن ليتولى تدبر حاجيات الفقراء، ولاستقبال المسافرين، وقد أمر بأن تكون المنفعة واحدة من نوع يجعل هذا الغريب نفسه يفكر ويتمعن فيها إذا كانت تستحق القبول، ومرة ثانية نحن نعلم بأن البابا قد كتب إلى راعي دير القديس ألبان يأمره بتزويد واحد اسمه جون أوف كيمزان Came-zan —هو لم يره قط— بمنفعة موائمة، وفي وقت قصير، وبناء ءعليه جرى تعيين ذلك الشخص في كنيسة تساوي أربعين ماركاً، وأكثر، سنوياً، وهو لم يكن حتى راضياً بهذا وقانع، لذلك تشكى إلى البابا، ومجدداً، كتب قداسته إلى راعي الدير المذكور، أن يتدبر منفعة أكثر ربحاً ليعطيها إلىُ الكاهن المذكور، ومع هذا أن يبقي لصالحه —أي البابا— أعطية الكنيسة المتقدم ذكرها.

وبعد مضي أيام قلائل بعد ذلك، ذهب شخصان وضيعان إلى دير

الراعي المذكور، وهما يحملان رسائل من البابا، كان من بين محتوياتها أمراً إلى راعي الدير أن يدفع على الفور باليد، ومن دون أية مشاكل مبلغ عشرة ماركات إلى هذين الشخصين النبيلين، حتى يتمكنا من تدبر شؤونها، ووضع راعي الدير حداً لتهديداتها ولكلامهما المتعجرف بدفع المال، وبشأن الرجال المقدسين والمتعلمين، الذين غادروا هذا العالم ولن يعودوا، قام البابا حتى يحاكي الرب، بتعيين جباة لاستخراج المال بحجج متنوعة، وقد تولوا القيام بهذا العمل، وإن كانوا مكرهين، حتى لايظهروا أنهم غير طائعين، وهكذا صاروا مع كونهم دنيويين أكثر دنيوية، ودللت خشونة ملابسهم، التي ارتدوها على كذبهم، وبالقدر نفسه تسترهم تحت غطاء الفقر على سكنى روح التجبر فيهم، وبناء عليه بات من غير الممكن ارسال نائب بابوي إلى انكلترا، مالم يجري طلب إذن الملك من أجله، ويرسل البابا نواباً مزيفين ومموهين، ومع أنهم لايرتدون ملابس حمراء، هم متسلحون بسلطات كبيرة، وليس من الصعب ايجاد مثل يستشهد به، لأن عدداً كبيراً من هذا النوع جاءوا مراراً، أن نتولى ذكرهم بالاسم سوف يكون مؤذياً للسامعين، ومن جديد إن الذي لم أره بالعادة، هو أن البابا قد قام، في سبيل مصلحة دنيوية، فسمح إلى أي واحد بشغل منصب الأسقفية، مع أنه لم يكن أسقفاً، بل منتخب بشكل أبدي، محافظاً أيضاً على الموارد القديمة، الأمر الذي يؤكد الأمر التالي، هو أنه قد سمح له بأخذ حليب الشاة وصوفها دون أن يتولى طرد الذئاب وابعادهم.

وبعد استحواذهم على هذه التجاوزات المقيتة وأشياء مزدراة أخرى، مثل كل نوع من الشره، والربا، والسيمونية، والسلب، وكل نوع من الترف، وممارسة الجنس، والنهم، وحب الزينة، المستبد بذلك البلاط والمتحكم به، وبذلك انطبق بعدل عليهم القول: «أن تشبع

نهمه العالم كله لايكفي، وأن تلبي رغبات مسراته، جميع عاهرات العالم غير كافيـات»، ثم قام ذلك البلاط ببذل كثير من الجهـود، وقام بكثير من الإجـراءات، على أمل أن يظهر بـأن الأردن سوف يصب في فمـه، ولذلك فغـر عن فكين مفتوحين وهو راغب في أن يدعي لنفسـه تملك حـاجيات أولئـك الذين ماتوا مـن دون وصية، وكـذلك أيضـاً الذين منحوا بوضـوح ممتلكاتهم بموجب وصية، وتصرفوا حتى يفعلوا هذا بحرية أكبر، بأن جعلوا الملك متـورطاً معهم وشريكاً في سرقاتهم»، ثم إنه أضـاف يقـول: «ولن تستطيع الكنيسـة أن تتحـرر من أغـلال عبـوديتها، إلاّ بحـد السيف الدموي، وهذه الشرور هي الآن خفيفـة، لكنهم خـلال وقت قصير —خلال ثلاث سنوات كما أخمن— سـوف يصبحـون أكثر جـدية»، وعند الفـراغ من هذا الكلام التنبـؤي، الذي تفوه به بكل صعـوبة، والذي قوطع بالآهات والدمـوع، انبسط لسانه، وعجز عن التنفس، وأصبح صامتاً، لأنه فقد القدرة على الكلام.

حول وفاة روبرت أسقف لنكولن

وهكذا بناء عليـه، غـادر من منفى هذه الدنيـا، التي لم يحبها مطلقـاً، روبرت المقدس، الأسقف الثـاني للنكولن، وقد مات في عزبتـه بوكدون Buckdon, في ليلة عيد القـديس دينس، وقام خلال حيـاته بنقد البابا والملك بشكل مكشوف، وأصلح القساوسـة، وقوّم الرهبان، وفيه فقد رجـال الدين، المدير، والكاهن، والموجه —العـالم والداعم— وفقد فيـه الناس الواعظ، وقـد أظهـر نفسه مضطهـداً للعـاجـزين عن ضبط شهواتهم الجنسيـة، وفاحص مـدقق لمختلف الكتابات المقـدسة، مكافح للرومان ومـاقت لهم، وكان كـريماً مضيافـاً، ومسرفاً، وأديبـاً، ومشرقاً، ودمثاً عند المائدة، ومعتدلاً في تناول الأغذية الجسدية، وتقياً مخلصاً عند المائـدة الروحيـة، وباكيـاً نادماً، وكـان في ممارستـه لواجبـاته الأسقفيـة، لطيفاً، لايعرف التعب، وجديراً بالاحترام.

حول الموسيقى التي سمعت في السموات

خــلال الليلة التي غــادر فيهــا الأسقف المذكــور إلى الرب، سمع فولكس Faulkes أسقف لندن في الهواء من فوق صــوتاً رائعاً، وعظيم القبول، وموسيقى أنعشت أذنيه وقلبه وركز انتباهه على الوقت، وعندمـا كـان يصغي إلى الموسيقى (ذلـك أنه كـان في ذلك الوقت مقيماً قـرب بوكدون) قـال لبعض الأشخـاص الذين كانوا واقفين إلى جنبـه: «هل سمعتم أنتم أيضـاً الذي أنا أسمعه»؟ وبناء عليه سـألوه: «ماالذي تسمعه يامـولانا؟» فأجابهم الأسقف: «إنني أسمع صـوتاً غير اعتيادي، مثل صـوت جـرس دير كبير يقـرع لحناً بهيجـاً في الهواء من أعلى، ومع أنهم أصغـوا بكل عناية، أعلنـوا أنهم لم يسمعـوا شيئاً، وبناء عليـه قـال الأسقف لهم: «بحق الإيمان الذي أدين به للقـديس بولص، إنني أعتقـد أن أبانا المحبوب، وأخانا، ومعلمنا، الأسقف المحترم للنكولن، يعبر من هذا العالم ليـأخذ مكانه في ملكوت السموات، وإن هـذا الصوت الذي سمعته قد قصد منه، تقـديم انذار مكشوف لي حول ذلك، لأنه لايوجد دير قريب من هنا، فيه جرس من ذلك النوع، ومرتفع إلى هذه الدرجة، دعونا نبحث في القضية على الفور، وبناء عليـه قاموا بالتقصي، فوجدوا، حسبما تبرهن بإفـادة جميع آل بيتـه، أنه في تلك السـاعـة بالذات، غـادر الأسقف هذا العالم، وبالنسبـة لهذه الواقعة الرائعـة، أو بالحري، المعجزة الأولى، جـرى الإخبـار بها بمثـابة حقيقـة، وحملت كبينة إلى كـاتب هذا الكتاب، من قبل المعلم جون كراتشيل Cratchale, وهو كاهن وثيق الصلة بالأسقف، وواحد كان مـوضع احترام كبير، وكان صاحب سلطة عالية بين أتباعه وأصدقائه.

حول أصوات الأبواق والأجراس التي سمعت في السماء

وفي تلك الليلة نفسهـــا، كــان هناك بعـض الرهبــان من طـائفــة الفــرنسيسكان، مسرعين نحـو بوكــدون، حيث كــان روبرت أسقف

لنكولن مقيماً (لأنه كـــان المواسي والأب للـرهبـــان الدومينيكـان والفرنسيسكان) وأثناء عبورهم للغـابة الملكية في فوبيرج Vauberge, بها أنهم كـانوا جـاهلين لمتعـرجـاتها أضـاعـوا طـريقهم، وعندمـا كـانوا يتجولون ويبحثـون، سمعوا في الهواء أصوات أجراس، ميـزوا بوضوح بينها صوت جرس كان لحنه جميـلاً جداً وحلواً لايشبه أي شيء سمعوه من قبل، وأثارت هذه الواقعـة دهشتهم كثيراً، لأنهم عـرفـوا أنه لم تكن هناك كنيسة قريبـة معروفة، وعندما بزغ نور الفجـر، وبعدما تجولوا هنا وهناك من دون فـائـدة، قـابلـوا بعضـاً من أهل الغـابة، فحصلوا على التـوجيـه لاسترداد طريقهم الصحيح، وبعـد ذلك سألـوهم عن معنى القـرع الكبير والمهيب للأجـراس، التـي سمعـوها قـادمـة من اتجاه بوكدون؟ وعلى هذا أجـابهم رجال الغابات أنهم لم يسمعوا شيئاً، ومع أن الصوت كان مستمراً يملأ الهواء بلطف، لم يكونوا يسمعون أي شيء على الاطلاق، ومع أن الرهبـان ظلوا مندهشين تابعوا سيرهم، فـوصلوا إلى بوكـدون في الوقت المناسب، وهناك جـرى اخبـارهم، أنه في الوقت الذي سمعـوا فيـه تلك الألحان الشجية في الليل والأصـوات اللطيفـة، لفظ روبرت أسقف لنكولن روحه السعيدة.

حول المجاعة الكبيرة في غسكوني

استمرت في هذه الآونة ندرة المؤن في غسكوني وتثبتت، وازدادت إلى درجـة بلغ فيها ثمن مكيـال الطحين عشرين شلناً، والكمية نفسهـا من الشوفـان بعشرة شلنات، وبيعت اللحوم والأسماك بأسعار عـالية، لابل حتى الخمـرة، بيعت كذلك، مع أن غسكوني كـانت فيهـا بالعادة وفـرة منهـــا، ولذلـك أرسل الملك رئيس رهبـــان نيــوبري Newbury, وكـان كاهناً نظاميـاً، وبعث أيضـاً روجر سنسـور Censor, مع بعض مستشاريه المخلصين إلى انكلترا للحصول، ومن ثم جلب ما كان ضرورياً لجيشـه، وذهب هؤلاء الرجال وقتهـا إلى لندن، وفرضـوا مبلغاً

كبيراً من المال واستخرجوه من سكان ذلك المكان، ولم يكونوا بطيئين أو غير نشيطين في جباياتهم، وجمعوا الأسلحة، والقمح، واللحوم المملحة، وحملوا جميع ذلك في عدد كبير من السفن، لكن رجال بلاط الملك والجيش كانوا مثل خليج كاريبديس Charybdis الذي لايعرف الشبع، التهموا هذه الأشياء كلها، وفي الحقيقة عدّ الملك انكلترا بئراً لاينضب، وكان عليها أن تدفع من أجل أخطاء وذنوب جميع الجيران وكذلك جميع البلدان المجاورة، وفقاً لقولهم:

عقوبات النزوات الملكية

تقع على أكتاف الاغريق

أما وأصبح الملك Lycurgus ثانياً، اقتلع كروم الأعداء ودمرها، وهي الكروم التي اعتمد عليها الغسكونيون بشكل رئيسي من أجل عيشهم، وأمر بتسوية بيوتهم وقلاعهم مع الأرض، وعندما تبين هذا للغسكونيين اشتكوا من هذا النوع من الانتقام، وعدوه أدنى بكثير من طريقة الفروسية في الحرب التي مارسها سيمون ايرل أوف ليستر، وعدّوا تدمير كرومهم واحراق بيوتهم حروب امرأة عجوز، وليست من حروب الرجال.

حول إطلاق سراح أسرى من قبل الملك

وبعد الاستيلاء على قلعتي لى راؤل وبازاس Bazas, اللتان كلفتا الانكليز الكثير من المتاعب والنفقات، أعطى الملك ملكيتهما بشكل حر إلى بطرس أوف سافوي، وإلى إخوته البواتيين، الذين ما ان أطلق سراحهم حتى التحقوا على الفور بأعدائه.

موت وليم دي فيزي

وهكذا سلبت انكلترا من كل جانب، وجردت من السلاح، والطعام

والمال، والذي كان محزناً أكثر هو تجريدها من فرسانها، لأنه بعدما ذهب الملك إلى القارة مات عدد كبير من أتباعه، كان من بين أعدادهم وليم دي فيزي Vesey, وكان واحداً من أعظم النبلاء وبارونات شمالي انكلترا، فقد غادر طريق الجسد، وقام الملك على الفور بإعطاء المسؤولية التي كانت بعهدته، وكانت ذات أهمية عظيمة، إلى أجنبي، محدثا بذلك أذى عظيماً ألحقه برعاياه الطبيعيين.

حول آلام فرسان شروبري

وفي هذه الآونة بالذات، رفض بعض فرسان شروبري Shrewbury, لابل هم جميعاً، الانصياع إلى مرسوم الملك الجديد، المتعلق بالممتلكات، التي كان المسافرون قد سلبوها، وذلك حسبما كانت العادة بين السافويين في بلادهم، ولذلك تعرضوا عن طريق العقوبات إلى أعظم استخراج، ولهذا مكثوا لعدة سنوات وهم يجدون صعوبة في تزويد أنفسهم مع آل بيوتهم بالضروريات من أجل الحياة، أو بوسائل زراعة أراضيهم.

حول التجاوزات التي اقترفت من قبل المسلمين

في يوم عيد جميع القديسين، وصلت أخبار مرعبة جداً إلى الايرل رتشارد، الذي كان قلقاً أكثر من الآخرين حول أوضاع الأحوال في الأرض المقدسة، وقد تحدثت —وذلك كإشارة على الغضب العظيم للرب— بأن سلطان المسلمين والقادة الرئيسين بينهم أقاموا سلاماً فيما بينهم أنفسهم، ودخلوا في تحالف اتحادي من أجل تدمير الصليبيين، حيث أخذوا يجتاحون الأرض المقدسة كيفما أرادوا، واستولوا على مقتنيات الصليبيين حسبما رغبوا من دون أية معارضة، أي أنهم دمروا جميع المنطقة عبر عكا، وأزالوا بعض الطواحين التي كانت عائدة إلى سكان ذلك المكان، لأن المسلمين عملوا مؤامرة لمحاصرة عكا، وأسر

ملك فرنسا، مما كان سيشكل عاراً لايمكن رحضه بالنسبة للصليبيين، وعزموا أن يقدموه بعد أسره إلى خليفتهم، الذي كان بالنسبة لهم مثل البابا، وعندما أصبحت هذه الحقيقة معروفة بشكل عام (بين الصليبيين) حزنوا بشكل عميق، وعزوا هذا كله إلى سوء الحظ، وإلى الشره العنيد للرومان، الذين رفضوا بصلف تواضع فردريك وعرضه المساعدات لاسترداد جميع مقتنيات الصليبيين بشكل مسالم، أي جميع الممتلكات التي امتلكها الصليبيون في أي وقت من الأوقات في الأرض المقدسة، ذلك أن الرومان لم يرغبوا بأن يعزى مثل هذا الانجاز العظيم إليه، وما كان مؤلماً أكثر هو أنهم باعوا إلى العلمانيين الصليبيين، فأنهكوا وتحولوا إلى متسولين، وجاء ذلك وفق الطريقة نفسها كما فعل اليهود، حسبما ذكرنا أعلاه، حيث باعوا الأغنام، والثيران، والحمام في الهيكل وهم الذين طردهم الرب، وحدث على كل حال، أنه بإرادة الرب، الذي وإن غضب، تذكر الرحمة، فكان أن ثار بعض المسلمين ضد الذين كانوا ينزلون بالصليبيين غضبهم، وبذلك أخفقت مقاصدهم، وأرغموا على التراجع.

حول حملة كونراد بن فردريك

خلال هذا الوقت كله كان كونراد يلاقي النجاح في حملته في أبوليا، منطلقاً من كراهيته للبابا، فاستولى على مدن كابوا Capwa, ونابل، ومدن أخرى، وأدخلها في طاعته وسحق قوى كثيرين وقفوا ضده، وكان قد سكن في تلك البلاد رجلاً شريراً، وملطخاً بالدماء، وكان واحداً من أهلها أيضاً، اسمه جون الموري Moor, وكان داهية متملقاً، تمكن تحت رداء التظاهر بالصداقة، من أن يسمم بشكل سري، كثيراً من الناس، وقد قيل بأن هذا الرجل قد تمكن بهذه الوسائل من قتل فردريك في الأزمان الماضية، ونصب الآن شباكه السرية المميتة لابنه كونراد.

حول الخلاف بين رئيس الأساقفة بونيفيس والهيئة الكهنوتية في لنكولن

بعدما عاد بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري من حضور دفن روبرت أسقف لنكولن، نشب خلاف بينه وبين الهيئة الكهنوتية في لنكولن، لأنه ادعى بموجب الحق العام أنه يمتلك السلطة في توزيع أوقاف أسقفية لنكولن ومواردها، بعدما حرمت الآن من راعيها، وفي المقابل وقف ضد ادعائه العميد والهيئة الكهنوتية، معتمدين على امتيازهم الخاص وعلى العرف القديم والمعترف به، وقد أيدهم المعلم وولتر بيلستدون Billesdton, وكان رجلاً بارعاً تماماً بالقانون وجديراً بالثقة، حيث قدم بينة إليهم، ذكر فيها ثلاث كنائس، قد جرى منحها من قبل العميد، عندما كان الكرسي الأسقفي شاغراً، ومثل هذا فعل عدد كبير من الأشخاص الآخرين، الذين عرفوا أن تلك كانت القضية الحقة، وقام رئيس الأساقفة، وهو واثق من سلطاته المتنوعة والمضاعفة، بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بجميع الذين وقفوا ضده، وكان وليم وولف Wolff, رئيس شمامسة لنكولن، الذي كان رجلاً كبير المعرفة بالقانون، وفي الأنواع الأخرى من الآداب، وكان صاحب نفوذ كبير، كان هو الرجل الوحيد، الذي وقف مواجهة ضد رئيس الأساقفة، وقد ترافع بدعوى استئناف إلى الحبر الأعظم، لصالح حقوق وامتيازات كنيسته، وأقام نفسه وحدها بمثابة حاجز للدفاع عن ممتلكاته الخاصة وعن امتيازات كنيسته، وقد أرغم على تحمل أشد الآلام تعاسة، حسبما سوف تظهر الرواية التالية:

وكان الكهنة النظاميون قد هدتهم الإجراءات التي جرى تنفيذها في الأزمان السالفة من دون فائدة، ولذلك لم يكونوا قادرين، ولا حتى راغبين في الدخول في قضية مشكوك فيها ضد خصم على درجة كبيرة من القوة، ولذلك أذعنوا لرئيس الأساقفة وخضعوا له، وبقيامهم بهذا

حصلوا على نعمة التحليل من الحرمان الكنسي، وبقي رئيس الشمامسة مصراً على موقفه، وبحث في الوقت نفسه عن مكان للاختفاء، واعتقد أخيراً أن عليه أن يجد لنفسه مكاناً للجوء في مدينة القديس ادموند، لأن العادة جرت بأن يجد المضطهدون الملجأ هناك مع الحماية، وكذلك في منطقة نفوذ كنيسة القديس ألبان، ولذلك حمل نفسه إلى مدينة القديس ادموند المتقدمة الذكر، وذلك بعدما بقي مدة أربعين يوماً بصورة مستمرة، تحت الحرمان الكنسي، بصورة عادلة أو غير عادلة، لايمكننا القول، لكن المطاردة والتنكيل من قبل رئيس الأساقفة لحقا به إلى هناك، ولذلك عوضاً عن أن يجد ملجئاً، وجد سجناً، كما لم يستطع راعي دير القديس ادموند أن يستقبله، أو أن يقدم الحماية له، وأنزل إلى حالة الفقر، وحكم عليه بالنفي، لذلك ذهب رئيس الشمامسة إلى روما، ليطلب المعونة والمواساة من البابا، الذي عندما علم بحقائق القضية أشفق عليه، وأعطاه انصافاً أبوياً، وانتقد بالوقت نفسه خنوع الكهنة النظاميين، وقسوة رئيس الأساقفة، وأثنى على ثبات رئيس الشمامسة، وعند ذلك ارتفعت آمال رئيس الشمامسة، وانطلق عائداً من بلاط روما، لكن لدى وصوله إلى المناطق الواقعة عبر جبال الألب، استبد به التعب والأسى، الذي تحمله في الدفاع عن امتيازات كنيسته، فغادر طريق الجسد كله، ليكون جديراً بالتعايش مع القديس توماس الشهيد، الذي مات في قضية مشابهة، وكان قبل موته قد عانى لمدة تقارب الثلاثة أعوام من المحنة في هذه القضية.

كيف ذهب رئيس الأساقفة بونيفيس إلى دير القديس ألبان

أثناء تلك الآونة التي تقدم ذكرها أعلاه من السنة، عندما كان بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري على طريق عودته من دفن الجسد المقدس لروبرت، أسقف لنكولن، عبر بدير القديس ألبان، وطلب السماح له بالإقامة هناك، وتقدم بطلبه بكثير من اللطف والتواضع،

خشية منه أن يقابل بالرفض، لأن ذلك الدير معفى من تقـديم الضيافة، وذلك حسبما كان قد حدث له من قبل في بلفوير Belvoir, وهي رئاسة رهبانية تابعـة لدير القديس ألبان، وقام —على كل حال— راعي دير القـديس ألبـان بإرسـال رئيس شماسته مع بعض من الـرهبـان لاستقبـاله، معتـذرين أنه لم يستطع القـدوم لاستقبـاله بسبب الضعف وتقـدم السن، وبناء عليه ذهبت هذه الفئة لاستقبـاله مع تشريف عظيم واحترام، وجـاء ذلك إثر تسلمهـم لرسـائله، التي ذكـر فيهـا أنه طلب الضيافة كعمل من أعمال اللطف، وتبعـاً لذلك جرى قبوله في يوم محدد بعد العصر، ومع أنه عومل بقلق، رفض قبـول أية هدية قدمت إليه من مقتنيـات الدير، باستثناء الطعـام والشراب، ثم إنه شكـر بأدب راعي الدير لأنه استقبله بلطف، ولضيـافته الكريمـة، وبعدها قـام بالمغادرة في الصباح الباكر من يوم عيـد القديس مارتين، من دون الدخول إلى قلب الدير أو الكنيسة.

وتصرف وفق الطريقة نفسهـا، النائب البابوي أوتو، الذي كـان حاله في انكلترا بمثابة بـابا ثاني، فكتب رسائل، أفـاد فيها بأنه طلب الضيـافة كعمل إحسان، لكن روبرت أسقف لنكولن أثناء ذهابه إلى هارتفورد، لم يقم بكتابة رسالة من أجل هـذا الهدف، ولذلك لم يتم استقباله، فقام في اليوم التالي بتعليق كنائس العلمانيين مـن شراكة المؤمنين، لكن لأنه انتقد لعمله هذا من قبل النائب البـابوي، قـام على الفـور بإلغاء القـرار الذي تفوه به بسرعة، لأنه عمل بناء على نصيحة شريرة.

حول امتياز دير القديس أوغسطين في كانتربري

وإثر مغادرة رئيس الأساقفة المذكور لدير القديس ألبان، تلقى رسالة بابوية، ناوله إياها راهب من دير القديس أوغسطين في كانتربري، وكان الذي جاء فيهـا أمره أن لايزعج راعي ذلك الدير، أو رهبـانه، بوساطة الزيارات التفقـدية، أو التعليق من شراكة المؤمنين، أو الحرمـان الكنسي،

وهو ما كـان قد اقترحه، وحـاول أن يقوم به من قبل، وبعدمـا قرأ هذه الرسـائل مـن دون اهتمام، أمـر باحـراقهم، ومن الممكـن الوقـوف على محتـوياتهم في كتـاب Additaments, ونتيجـة لهذا، كـــان رئيس الأسـاقفة، وكـذلك الذين قـدموا إليـه النصيحة، مسرورين تمامـاً، لأنه تصرف بنفسه مسالماً هكذا، وباعتدال في دير القديس ألبان.

كيف ولدت ملكة إنكلترا إبنة

وفي هذه الآونة نفسهـــا، ولدت ملكة انكلترا ابنـة للملك في لندن، وقد جـرى تعميدها من قبل رئيس الأساقفـة، وتسميتها بكاترين، لأنها تنفست للمرة الأولى في يوم عيد القديسة كاترين.

كيف ذهب سيمون إيرل ليستر إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الآونة نفسهـا، ذهـب سيمون ايرل ليستر، الذي كما ذكـرنا من قبل، كـان قد طلب منه قبـول منصب قهـرمان فـرنسـا، بسبب اخلاصـه وشجاعته، لكنه رفض على أساس أن «ما من رجل يمكنه أن يخدم بشكل صحيح سيدين»، كان أحدهما معادياً للآخر، ذهب إلى مولاه ملك انكلترا في غسكوني، مقـدمـاً نفسـه ومعلناً عن استعـداده ورغبته في خـدمتـه، في اخضاع أعـدائه العصـاة من الغسكونيين، الذين —يمكن القول— كـانوا يرتعبـون منه مثل الرعب من الرعـد، كما أنه أخذ معـه قطعة منتخبـة من العساكر، جمعهـا على نفقته، وقد عرض أن يبقيهـا تحت طلب الملك ووفقاً لرغبته، وشكـل الفرسان والجنود الـذين كانوا معـه حشداً كبيراً، لأنه أثير بروح الإحسـان والتواضع، الذي تجاوز حـدود المشاعـر الإنسانيـة، بالرد بالخير على الشر، وأن لايفكـر شيئاً حـــول كلمات الغضب الطائش التي صدرت عن الملك، الذي تفوه أثناء حدة غضبه، بكلمات إهانة ضده، لكنه عوضاً عن ذلك أعاد إلى الذاكـرة المنافع التي أنعم بها الملك عليه، باعطائه اخته لتكون زوجة لـه، وبمنحه ايرلية ليستر، وبالعهدة إليه بأمـر الوصاية

على وريث غيلبرت أوف همفــــريفيل Gilbert of Humfreville, وكان الايرل قد تلقى نصيحة حول هذا الموضوع من قبل روبرت أسقف لندن، الذي كان صديقاً خاصاً به، كما كان أيضاً الأب المتلقي لاعترافات الايرل، وقد مال الايرل عن طواعية لهذه النصيحة، واستجاب لهذه الرغبة، وأعجب الملك بأريحية الايرل، واستقبله بأعظم بهجة، ولدى معرفة الغسكونيين، الذين كانوا أصدقاء الحظ، بأن ملك اسبانيا قد تصالح مع ملك انكلترا، وأن الايرل سيمون قد وصل ومعه تلك القطعة المرعبة من العساكر، أصبحوا متواضعين، مع أن ذلك كان ضد إرادتهم، وعادوا بموجب درجات وتراجعوا إلى خضوعهم إلى الملك، الذي اقترح بعد هذا العودة إلى انكلترا.

حول الاضطرابات في جامعة باريس

وتفجر في هذه الآونة خلاف كبير بين الباحثين في جامعة باريس والرهبان الدومينيكان، الذين أصبحوا كثيرين جداً، وعلا شأنهم كثيراً، لأنهم صاروا المتقبلين لاعترافات الملك والمستشارين لديه، ولذلك رفضوا الخضوع للأعراف القديمة والمقررة، والاعتراف بامتيازات الباحثين، ولهذا اجتمع الباحثون، وجمعوا المال من بين بعضهم بعضاً، حيث أسهم كل واحد منهم حسب إمكاناته، وجرى إلغاء الدخل الاسبوعي العام لكل واحد منهم، في سبيل تلبية مطالب بلاط روما وارضائه من ذلك المال باسم رجال الدين، وتشجع الرهبان المتقدم ذكرهم من هذه الواقعة، لأنه كان لديهم أصدقاء أصحاب سلطة كبيرة في ذلك البلاط، كان من بينهم الراهب هوغ، الذي كان من طائفة الدومينيكان، لابل حتى البابا نفسه، وذلك بالاضافة إلى عدد كبير آخر، أصحاب نفوذ رفيع وسلطات كبيرة، ولذلك جرى صرف مبلغ كبير من المال، وكانت هناك متاعب كثيرة تبددت في هذه القضية، حتى أمكن أخيراً إعادة تأسيس السلام، بتغيير الأعراف الباريسية.

حول وصول البابا إلى روما

وأثناء هذا الوقت كله أهيج البابا بوساطة كثير من الاضطرابات اليومية، وكان وقتها قد مدد اقامته المؤقتة في أسيسيو Assissio, وإلى هاهنا أرسل إليه الآن طلباً بوساطة رسل خاصين من قبل برانكليون، شيخ الرومان وجميع سكان مدينة روما، بأن عليه العودة من دون تأخير إلى مدينته، لأنه كان راعيهم، والحبر الروماني، وعلاوة على ذلك ذكروا له أنهم يعجبون كثيراً من تجوله هنا وهناك دونما استقرار، وفي المنفى، تاركاً كرسيه الحبري لروما، وهاجراً لشياهه، الذين سوف يقدم عنهم حساباً دقيقاً للقاضي الأعظم، لأنه تركهم لأنياب الذئاب، في حين هو يسعى فقط وراء المال، فضلاً عما تقدم، أوضح شيخ روما مع الشعب الروماني، إلى مواطني أسيسيو، مع التهديد بتدمير لامنجاة منه، إذا مااحتفظوا بالبابا أية مدة أطول، ذلك أن العالم كله قد عرف أنه كان بابا روما، وليس حبرليون، ولابيروجيا، ولاآغنانو Agnano, لأن هذه كانت هي الأماكن التي غالباً ما أخفى نفسه بها، وبناء عليه ذهب سكان أسيسيو أنفسهم إلى قداسته، وعبروا عن هذه الرسالة وأوصلوها كاملة إليه، ولذلك بات واضحاً للبابا، ومفهوماً تماماً، أن عليه بحكم الضرورات الذهاب إلى روما، خشية من أن يجري تدمير شعب أسيسيو من قبل الرومان أثناء سخطهم، فالشيء نفسه كان قد حدث مع شعب أوستيا،وبورتو، وتوسكولوم، وألبانو، وسابينو، وحاليا مع مواطني تيفولي، وبناء عليه برضا منه أو بعدم رضا، حزم حقائبه، وذهب إلى روما، مع أنه كان في حالة من الرعب، لكن عند وصوله استقبل بكل تشريف، وكان الشيخ مسرورا كثيرا، وبوضع نظامي، وفي الوقت نفسه، ظل كونراد بالفعل شوكة في عين البابا، وكان يقترف أعمال تخريب مرعبة، في كل من البر وعلى شاطىء البحر، وضد أسوار نابل

ودفاعـاتها (وهي المدينة التي كـانت من قبل المفضلة للسكنى من قبل فرجيل)، لكن بسبب كراهية البـابا ولعناته، لم يستطع احراز التقدم بما أخذه على عاتقه.

أمثلة على جشع الرومان

وكان الـرومان غير راغبين، لابالحري غير قادريـن على الاستمرار في اخفـاء جشعهم، لذلك بدأوا بعمل شكاوى كبيرة ضـد البابا، وطالبـوا بسرعـة وإلحاح بأن عليه تعـويضهم عن الخسـائر والأضرار التي عـانوا منهـا، بسبب غيـابه، وذلك عن طريق ايجارهم لمسـاكنهم، ولتجـاراتهم، ولرباهم، ومـواردهم، وتجهيزاتهم، وطرق أخـرى لاحصر لها، مما أحزن البابا في قلبه، حيث وجد نفسـه قد وقع في الفخ، فالتجأ إلى الشيخ من أجل المواسـاة، وبناء عليـه قـام الشيخ بضبط غضب الشعب بخطابات لطيفـة، حيث أخبرهم، أنه كان عمـلاً غير إنسـاني، اغضاب البـابا بهذا القـدر وازعاجـه، وهو أبوهم وراعيهم الروحي، وقـد استـدعي بشكل مسـالم من قبلهم، ليتـولى العناية بأرواحهم، وبهذه الوسـائل خفت ثورة العاصفة وخمدت.

حول الأحوال المضطربة للأنواء وللبحر

وفي اليـوم الذي أعقب عيد القـديسة لوسيـا في هذا العام، انهمـرت السحب بكميـات وافرة مـن الثلج، وأعطت الرعود الشتـوية الانطبـاع وأشارت إلى انذارات مرعبة.

حول طرد شعب لى راؤل ونفيه

وأيضـاً في هـذا الوقت بالتمام أدين جميع الناس الذيـن سكنوا في لى راؤل، وفي القـلاع الأخـرى التي وقعـت تحت الحصـار، ثم جـرى اخـراجهم منها أثناء المجاعـة، وحكم عليهم بنفي دائم رجالاً ونسـاءً، ولذلك أخذوا يتجولون في البلدان المجاورة بمثابة متسولين.

حول فيضانات البحر والأنهار

وفي هذا العام أيضاً فاض البحر والأنهار عدة مرات، وتجاوزت المياه حدودها، محدثة أضراراً لايمكن تعويضها للمنطقة المجاورة.

حول المعجزات التي صنعت في كنيسة لنكولن

تكدست المعجزات فوق المعجزات وتضاعفت يومياً في كنيسة لنكولن، وقد عملت من قبل الرب من خلال فضائل الأسقف روبرت، ونهض القديسان الآخران اللذان كانا متمددان مرتاحان في الكنيسة نفسها، وهما القديس ريمي Remy, والقديس هوغ ليضفيا المنافع على المؤمنين، وكان الناس قد توجهوا بالدعاء إليهما، فاستجابا لهم بوساطة الصلوات والتضرعات، وينبغي أن لايندهش أي إنسان تجاه بعض أعمال العنف التي اقترفت من قبل هذا الأسقف نفسه خلال حياته، والتي رويت أخبارها في هذا المجلد، وقد كان واحداً من هذه الأعمال رغبته الملحة بالقيام بزيارة تفقدية للكهنة النظاميين في لنكولن، مما ألحق بهم أذى كبيراً وأغضبهم كثيراً، وعلاوة على ذلك كان روبرت هذا نفسه يوجه تهديدات مخيفة ضد العاملين في الرهبنة، خاصة الراهبات من النساء، ولاشك أن دافعه كان غيرة صحيحة، لكن ربما من دون تمييز صحيح، وأنا يمكنني أن أؤكد بأن فضائله قد أرضت الرب بدرجات أعلى بكثير من عدم رضاه تجاه أخطائه، كالشيء نفسه الذي حدث في قضية داود وبطرس، فأنا امتدح لطف داود، لكنني أشجب عمل الغدر الذي اقترفه نحو أوريا الذي كان من رعيته المخلصين، وأنا أيضا أطري ثبات بطرس، لكنني لاأرتضي بإنكاره ربنا ثلاث مرات، فالأول كان قريباً جداً إلى قلب الرب، وجرت تسمية الثاني رئيساً للرسل.

خلاصة أحداث العام

كان هذا العام بمجمله خصباً وافراً بالقمح والفواكه كثيراً إلى حد أن سعر مكيال القمح نزل إلى ثلاثين بنساً، لكن المنفعة التي تمّ الحصول عليها على الأرض ضاعت بالدمار الذي أحدثه البحر، عندما فاض، وتجاوز حدوده، فهو قد أهلك فجأة بفيضانه الناس والمواشي، وعندما حدث ذلك أثناء الليل، أغرق المزيد أكثر فأكثر، وكان هذا العام عام دمار بالنسبة للأرض المقدسة، وعام سفك للدماء بالنسبة لفلاندرز وللبلدان المجاورة لها، وعام خسارة واهانة وشقاء بالنسبة لفرنسا، وعام غضب واضطراب بالنسبة للبابا ولمؤيديه، وبالنسبة لانكلترا كان عاماً مشحوناً بالاضطراب، وقدم ميلاً نحو الضغط على شؤونها الروحية والدنيوية.

كيف أمضى الملك الشتاء في غسكوني

في عيد ميلاد عام ١٢٥٤ لتجسيد الرب، الذي و افق العام الثامن والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث، كان الملك المذكور في بازاس Bazas في غسكوني، ليس بعيداً عن لى راؤل، واحتفل هناك برفقة نبلائه بذكرى حلول الميلاد بأبهة عظيمة، وبمهابة كبيرة، وقدم أيضاً بعض الهدايا الثمينة من الملابس، والأشياء الأخرى التي لها قيمتها إلى الغسكونيين، الذين كانوا متشوقين لشم رائحة أمواله، وأقامت الملكة التي قامت معافاة من ولادة، حفلاً رائعاً جداً، وكان ذلك في يوم عيد القديس ادوارد، حيث توافق ذلك مع ذكرى طهارتها، وكان موعد ذلك عشية عيد الغطاس، وكان موجوداً في ذلك الاحتفال، عمها رئيس الأساقفة، وأسقف إيلاي، والايرل رتشارد، وايرل غلوستر، وعدد كبير آخر من نبلاء انكلترا، وفي هذا الوقت بالذات، أرسلت الملكة أيضاً إلى الملك هدية السنة الجديدة مبلغ خمسمائة مارك، من الموارد الملكية المتسلمة، حتى تساعده على متابعة الحرب، ولكي يتمكن من تحرير نفسه من تعهداته.

انتخاب هنري ليكسنغتون لأسقفية لنكولن

وفي اليوم التالي لعيد القديس توماس الشهيد، انتخب الكهنة النظاميون في لنكولن لأسقفيتهم المعلم هنري ليكسنغتون Lexington, الذي كان عميد الكنيسة نفسها، و قد قام هذا بعد انتخابه بالذهاب إلى القارة لرؤية الملك، ولكي يرى من قبله وينال الموافقة منه، لأنه امتلك سلطة المو افقة وعدم الموافقة على المنتخب، وكذلك على الانتخاب، وكان طوال الوقت خائفاً من الظهور أمام الملك، الذي كما جرت عادته، كان قد تقدم برجاء، بإلحاح، وتوسل إلى العميد المذكور، وإلى الهيئة الكهنوتية بمجملها، من أجل أن يختاروا أسقفاً لهم، وراعياً لأنفسهم هو أسقف هيرفورد، لكن هذا قد توجب رفضه من دون تردد، ليس فقط لأنه كان أجنبياً، ولايفهم اللغة الانكليزية، بل لأنه كان معروفاً بشكل مكشوف أنه أكثر الناس عدوانية وعدم اخلاص للمملكة، وعلى هذا المطلب الذي حثهم الملك عليه، وضغط عليهم، رفض الكهنة النظاميون والمنتخبون الإصغاء والقبول به، فهو بالحقيقة كان قد فرضه بالقوة فأدخل إلى أسقفية هيرفورد، وأيضاً بوساطة القوة العلمانية، وبعدما سمن نفسه على حليب وصوف، وثروات القطيع الذي عهد به إليه، تخلى عن ذلك القطيع وهجره، وعن الرهبان ورجال الدين والعلمانيين وذهب إلى القارة (حيث عاش، وأنا آسف أن أقول: من دون كرامة) ليكونوا جميعاً عرضة لأنياب الذئاب، وعلى كل حال، بما أن الملك لم يستطع العثور على أي سبب لرفض الانتخاب الذي تقدم ذكره، والذي قام به الكهنة النظاميون، قام بقبوله، لكن بمشاعر راضية من قلبه.

حول ظاهرة مدهشة في السماء

وفي حوالي منتصف الليل من يوم عيد ختانة ربنا، كان القمر في اليوم الثامن من عمره، وكانت قبة السماء مرصعة بالنجوم، وكان الهواء هادئاً

تماماً، ظهر آنذاك في السماء منظراً رائعاً أن تصفه، وكان على شكل سفينة كبيرة، تصميمها جيد، ولها نموذج مدهش ولون، وجرت مشاهدة هذه الظاهرة من قبل بعض رهبان دير القديس ألبان، الذين كانوا مقيمين في دير القديس أمفيبالوس Amphibalus للاحتفال بالعيد، وهم الذين كانوا ينظرون نحو السماء لمشاهدة النجوم، لمعرفة فيما إذا كان الوقت قد حلّ لترتيل الأناشيد الليلية، وقد قاموا على الفور بدعوة جميع رفاقهم وأتباعهم الذين كانوا في الدير لمشاهدة تلك الظاهرة الرائعة، لكنها بعد أمد بدأت بالتلاشي واختفت، ومن هنا جاء الاعتقاد، بأن الذي كان هو مجرد غيمة، لكن واحدة رائعة وغير اعتيادية.

ولاية مخادعة

وفي السابع والعشرين من كانون الثاني، في هذا العام، وهو يوم عيد القديس يوليان، اجتمع تقريباً جميع نبلاء انكلترا في بارلمان، حيث ظهر أمامهم روجر بيغود، وايرل ميرسكال Mareschal, وغيلبرت سيغريف Segrave, بمثابة رسل خاصين من الملك، للاعلان —ربما أن ذلك قد فرض على أنفسهم فرضاً— لجماعة انكلترا كلها، عن الرغبات التي شعر بها الملك داخلياً وعن مقاصده، وكان بين الحضور أيضاً في هذا الاجتماع: رتشارد ايرل أوف كورنوول، أخو الملك، وايرل وينكستر، مع الملكة، وجميع أساقفة انكلترا، باستثناء أسقفي: درم، وباث، فقد كان الأخير مع الملك في غسكوني، ولدى اكتمال اجتماعهم كلهم، نهض المتحدث باسم الملك، وخاطبهم كما يلي: «أصدقائي وسادتي، الذين بصدورهم يضع مولانا الملك ثقته،، الذي ليس لديه، في الحقيقة، من ملجأ غير رعيته المخلصين، وأنتم تعرفون كيف عرّض نفسه باخلاص وثبات إلى مخاطر البحر، التي لاتوفر إنساناً، وأيضاً لمخاطر الحرب، ليحافظ على قوة المملكة، فقد وجد أعداءه يتحركون ضده، ومعادين له بشجاعة، وقد قام بسحق بعضهم،

بينما بقي بعض آخر يحتاج إلى غلبة وقهر»، ثم أضاف المتحدث حتى يثير المستمعين إليه ويحركهم قائلاً (مع أنه بقوله جانب الصدق والحقيقة) بأن: «ملك قشتالة، الذي كان الملك يتوقعه، ويأمل بأن يجده أعظم أصدقائه، لكونه متحالفاً معه بالدم، وجده غير ذلك تماماً، حيث تبرهن أنه أكثر الأعداء دموية، حتى أنه تحدى ملك انكلترا واستخف به، وقد مال الغسكونيون إلى ملك قشتالة المذكور، وآثروه وفضلوه وهو اسباني لأن يكون سيدهم الطبيعي ومولاهم، وبناء عليه هو يطلب مساعدة فعالة منكم، لأنه هكذا موجود في وضع حرج»، وبرهاناً على أمانتهم،وتصديقاً لكلماتهم، جلب بعض رسل الملك، بعض النشاب، من حجم مرعب، وهو الذي رموه بوساطة القسي الزيارة، وهو النشاب الذي يدعى عادة باسم مربع اليأس (من الممكن تسمية القسي بالنسبة لحجمها الكبير باسم عوارض، وتسمية النشاب بنوع من دعامات الحائك)، وتجاوباً مع طلب الملك، ولكي يضرب مثلاً مشجعاً للآخرين، قال الايرل رتشارد (لأنه وثق بحكاية الرسل المذكورة أعلاه وصدقها): «بما أنني أكثر قدرة، وعليّ يتوجب تقديم المساعدة أكثر من بقيتكم، سوف أساعد بشكل فعال مولاي وأخي، بتزويده بثلاثمائة عسكري يقاتلون من أجله لمدة سنة على حسابي»، ووعد ايرل غلوستر بتقديم مساعدة، حسب أفضل مايستطيعه، وأضاف بأنه لن يساعد الملك من أجل الحصول على مناطق، لكن إذا ماقام ملك قشتالة بمهاجمته، هو سوف يقدم المساعدة لانقاذه، وقام الايرل رتشارد أيضاً، فوضع قيداً مشابهاً على وعده بالمساعدة، وأضاف قائلاً: «إذا كان الذي أخبرنا به صحيحاً»، ووجد جمهور المجتمعين بأن فخاً كان منصوباً لهم، ولذلك أجابوا على كلام أولئك المتحدثين قائلين: «واأسفاه، واأسفاه، لماذا يسعى سادتنا إلى خداعنا بمثل هذه الحجج البارعة؟ فنحن نجد واضحاً وضوح النهار، واقعتين متعارضتين، ذلك أن الملك قد بعث خلف ملكته، وابنه الكبير، وولي عهده، وهما شخصان ضعيفان، وغير

موائمين للتعرض لمخاطر الحرب، وطلب حضورهما إليه، بأقصى سرعة ممكنة، وهذا أمر ما كان لـه ليفعله ولابشكل من الأشكال، لو أنه على وشك شن الحرب ضد ملك قشتالة، لابل إنه بالحري أنهما لو كانا معه، لأرسل بهما عائدين إلى انكلترا من أجل السلامة الأكبر، أولم يتقدم الذكر عن زواج خاص سوف يجري عقده بينهما؟ وهذا كله يتناقض مع ما أفاد به الرسل و ذكروه من قبل»، وهكذا حوّل الملك نفسه إلى واحد لايمكن تصديقه، وغير جدير بالثقة، وارفض المؤتمر من دون أية نتيجة، وبناء عليه أرسل الايرل رسالة إلى الملك حول هذا الموضوع، انظرها في كتاب Additaments عند علامة القيثارة.

كيف ذهب بعض المسلمون إلى فرنسا حتى يجري تعميدهم

وفي هذا الوقت نفسه أيضاً، قدم بعض المسلمون الذين كانوا قد تحولوا إلى العقيدة المسيحية إلى فرنسا، وكان بعضهم قد جرى تعميدهم من قبل، والبقية على نية التعميد، وكان سبب تحولهم هو كما يلي: كانوا قد رأوا بأن الملك الفرنسي قد جرى بالفعل تحريره بشكل اعجازي من يدي سلطان مصر القوي، والسلطان نفسه قد جرى قتله على الفور، بعد أسر الملك، وشاهدوا —علاوة على ذلك— صبر الملك في الشدائد، وثباته الذي لايتزحزح عن مقاصده، فهو حتى بعدما وقع أسيراً، بقي في الأرض المقدسة، وتابع أعمال تحصين القلاع، وتمتين المدن ضد أعداء الرب، وشهدوا أيضاً قوة إيمانه، وأنه كان مثل أيوب، في عدد كبير من البلايا والشدائد، ومع ذلك هو لم يذنب حتى بشفتيه، وبالاضافة إلى هذا، قدروا حقيقة، أنه قام في سبيل حبه لربه يسوع المسيح، قد تخلى عن مملكته الجميلة، مملكة فرنسا، ليعرض نفسه لمخاوف البحر والرياح، ولمخاطر المعارك والحروب في الممالك الأجنبية والبعيدة، صارفاً كل جهوده وانتباهه إلى كسب أرواح الكفار، وهذا كله ماكان له أن ينجح بفعله من دون عون الرب، ومواساة الجلالة اللاهوتية، وقد تعلموا

أيضاً من تبشير الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان أن شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم).. كانت مسممة لأرواحهم، وجلب هؤلاء المتحولون رسائل معتمدة من الملك، فيها أوامر بأن يجري الإنفاق عليهم من الصدقات الملكية، حتى يعود هو نفسه إلى بلاده، فعندها سوف ينعم عليهم بالمزيد من الانفاق ويزيد من تجهيزهم.

حول وصول غرباء إلى إنكلترا كانوا لايعرفون لغة الإنكليز وعاداتهم

في أيام الصوم الكبير من هذا العام، وصلت بعض المراكب الأجنبية، وقد ساقتها إلى هنا قوة الرياح، وجاء ذلك على الرغم من جهود الذين كانوا مسؤولين عنهم، ولم يكن لدينا أياً من السفن مثلهم، فقد كانوا مراكب واسعة، وجميلة، وبنيت بقوة، وكانت مجهزة بجميع أنواع الأسلحة والمؤن، وكانت أشبه بمخازن حربية، وقد دفعت إلى السواحل الشمالية لانكلترا، قرب بيرويك Berwick, وقد شوهدوا على الفور من قبل خفر السواحل، كما تمت مشاهدة الملاحين الذين كانوا فيهم، وقد توجسوا أن يكونوا أجانب، أو جواسيس، أو أعداء من نوع من الأنواع، ولدى القيام بتفتيش دقيق في المراكب، وجد الذين اعتقلوهم أنهم كانوا مليئين بكميات كبيرة من الأسلحة، مع دروع، وخوذ، وترسة، ورماح، وقسي وسهام، وقسي عقارة ونشاب، وكذلك كميات من المؤن كانت كافية لجيش، ولدى سؤالهم، لم يخبروا النواب الملكيين من هم، أو من أين جاءوا ولماذا جاءوا، ولم يستطع أي من النواب الملكيين فهم لغتهم، وكانت هناك أيضاً مراكب أخرى مشاهدة في البحر، وعندما خيّل لجميع الذين كانوا في المراكب بأنهم سوف يعدمون، سمح لهم بالمغادرة بسلام، حتى لايبرهن الرجال عن أنفسهم أنهم أكثر قسوة ووحشية من العاصفة، وربما للخوف من الانتقام، إذا ماألحقوا بهم أية أضرار.

حول مؤامرة في بيون

وفي هذا العام نفسه، وفي حوالي أيام عيد طهارة مريم المباركة، كان غاستون أوف بيرن Bearn قد جمع حشداً من أعداء الملك، وحاول بوقاحة أن يشق طريقه حتى يستولي على مدينة بيون Bayonne, وكانت بيون هذه مدينة غنية، وكانت هي الثانية من حيث الأهمية في غسكوني، وكانت تمتلك ميناء مطروقاً بكثرة من قبل السفن، وكانت مقطونة بأعداد كبيرة من الأشخاص المحاربين، وكذلك من قبل تجار الخمرة، وكان معظم سكان المدينة يكرهون الملك، بسبب الأضرار الكبيرة التي ألحقها بهم في انكلترا، وقد جرى السماح لبعض الأعداء بالدخول إلى المدينة، عندما كانت عرضة للخطر، وقد تمّ اعتقالهم من قبل أتباع الملك المخلصين، وجاء ذلك بوساطة بعض الذين كانوا من الطبقات الدنيا، الذين أحبوه، وهكذا دخل كثير منهم بشكل خياني إلى مكان العقوبات وفقاً لاستحقاقاتهم.

حول دفن جون هانسارد

في يوم عيد القديس غريغوري، الذي يقع في مثل هذه الأيام، جرى حمل جسد الفارس جون هانسارد Hansard خلال بلدة القديس ألبان على طريقه إلى الجزء الذي ولد فيه من البلاد، وكان ذلك في الشمال، حتى يدفن هناك بالتشريف اللائق، لأنه كان لتقديرات كبيرة يعدّ بين نبلاء ذلك الجزء من البلاد، وكان قد فقد حياته في المصيبة العامة، أثناء حضوره الحملة.

حول الصقيع الذي لم ينقطع

وفي اليوم نفسه أيضاً، توقفت حدة الصقيع، الذي استمر من دون انقطاع طوال الشتاء كله تقريباً، ولقد تواصل تقريباً منذ ليلة عيد الختانة، وقت مشاهدة الظاهرة الرائعة للسفينة في السماء، أو الغيمة التي

كانت تشبـه السفينة تماماً، وساد الاعتقـاد في ذلك الوقت لدى مشاهدة الظاهرة، بأن ذلك علامـة على قدوم مناخ عـاصف، وعلاوة على ذلك، تبع هذا الصقيع مرض مميت بين الأغنام، والحيوانات البرية، إلى حد أن حظائـر الحيـوانات باتت فـارغـة من الأغنام، والغـابات بلا حيـوانات متوحشة، وفي الحقيقة كانت هناك قطعان كبيرة، نصفها بالكاد هو الذي بقي حياً.

حول إصلاحات البابا

وتبين في حوالي الوقـت نفسه للبابا، الـذي كان مايزال في رومـا، بأن العلوم العقليـة، قد تحولت كليـاً تقـريباً إلى علوم مكر وبراعـة في سبيل الربح، وصار مـن الممكن بحق القول عن الفلسفة «بـأنها بطحت نفسها مثل عاهرة تنتظر من يكتريها»، واكتشف أيضاً أن جميع العلماء قد أهملوا مبادىء النحـو، وتخلوا عن دراسة المؤلفين والفلاسفـة، وكانوا متعجلين لدراسة القوانين، التي كما كان واضحاً لم تكن مشمولة بين أعداد العلوم العقلية، لأن العلوم العقلية قد سعى الناس من أجلها، وطلبوا الحصول عليها من أجلها، لكن القوانين درست من أجل الحصول على الرواتب، وفي الحقيقـة بات واضحـاً للجميع، أن الشبـاب، الذين كـانوا فقـراء بالمعرفة، كـانوا ما ان يكتسبوا القدرة على معرفـة الثرثرة حول قليل من السفسطات في الاجتماعات الصـاخبة، والاعتـلاء على كراسي المعلمين، من أجل اغتصاب اسم معلم، حتى كانوا ينتفخون تيهاً، لأنهم أصبحوا في أوضـاع تجعلهم يطلبـون المزيـد من الاحترام، من أجل الارتقـاء إلى أوضاع أكثر ارتفاعـاً، من دون أية أسس لدعمهم، ثم يغادرون مدارس القـانون، أو الشهـادات، ليطيروا إلى المراتب الوظيفيـة الحبرية، حيث سيكون الـوضع أحسن، وأكثـر منفعـة، أي أن تنـال الخبرة أولاً من المدارس، وبذلك ترتقي إلى المناصب ذات الأوضـاع العاليـة، وأن يحكم عليهم من قبل الآخـرين وفقـاً لاستحقـاقـاتهم، ولذلك رغب البـابا في

تقـديم نصيحــة صحيحـة ونافعـة إلى الذيـن يسيرون على هذا الطريق، ونشر مـذكرة مـوائمة وجـديرة بالاحترام، وكتب حـول القضية رسـالة بليغة، بدأت كما يلي:

«من أنوسنت، الأسقـف، إلخ، إلى جميع الأسـاقفـة المعينين في ممالك فرنسـا، وانكلترا، وسكوتلندا، وويلز، واسبانيـا، وهنغاريا، حتى يتمعنوا في القضـايا، ويتفحصوها، تحيـات، مع مباركـات رسوليـة: لقد تذكـرنا بحزن» إلخ، إلخ، انظرها في كتاب Additaments.

ومجدداً عمل البـابا عمــلاً تقـوياً آخـر بتلطيف الـزيارات التفقـدية، والمظالم التي كـانت تنشأ عنها، وانظر أيضـاً الكتاب نفسـه، عند علامـة الحمامة الأولى، وجاءت بداية الرسالة على النحو التالي:

«من أجل التذكير، وفي سبيل المراعاة الدائمة، وضد المظالم» إلخ.

ومن جـديد عمل البـابا انوسنت عمـلاً تقـوياً آخـر، تعلق بالقضـايا الواردة في رسالة كتبت في الكتـاب المذكور، عند عـلامة الحمامة الثـانية، وهي الرسالة التي تبدأ كما يلي:

«إلى جميع إخـواننا المحترمين، والبطـارقـة، ورؤسـاء الأسـاقفـة، والأساقفة، وإلى أبنائنا المحبوبين رعاة الديرة» إلخ.

ووفق الطريقة نفسها، جرى تقديم هاتين الرسالتين، في هذا الكتاب، عند نهاية السنة الجارية، عند علامة الحمائم.

حول الحلم المرعب الذي رآه البابا انوسنت الثالث

وفي أحد الأيام من هذا العام نفسه، رغب البابا وهو في حالة غضب شديد، على الرغم مـن معارضة جميع إخـوانه الكرادلة، بأن يرمي بعظام روبرت، أسقف لنكـولن، خـارج الكنيســة، وأن يطوح بـه حتى يكون سيء السمعـة إلى أبعـد الحدود، ومنحطاً، من أجل أن يكون قـادراً على

إعلانه كافراً، وعاصياً متمرداً في جميع أنحاء العالم، وأمر بإعداد رسالة، ذكر فيها مقاصده هذه كلها، وأن تكتب وترسل إلى ملك انكلترا، عالماً أنه سوف يقبل وهو راغب بالتنفيس عن غضبه ضد الأسقف، وأن ينزل سخطه على الكنيسة التي كانت مفتوحة وجاهزة حتى تنهب لكن في الليلة التي أعقبت ذلك النهار، ظهر حلم للبابا عندما كان متمدداً من دون راحة في فراشه، فقد ظهر له أسقف لنكولن المذكور، وهو لابس لثيابه الكهنوتية، واقترب منه وهو مقطب ينظر إليه شذراً، وخاطبه بصوت مرعب، ووخزه بالوقت نفسه برأس عصا الأسقفية التي حملها، وصرخ قائلاً، وتكلم و َ نه شبح: «سينبولد Senebald: أيها البابا النذل، هل تنوي أن ترمي عظامي من الكنيسة، حتى تلحق الإهانة بي وبكنيستي في لنكولن؟ من أين نشأ هذا العمل الطائش من قبلك؟ إن الجدير بك، وأنت الذي رفع الرب شأنك وشرفك، أن تتولى رعاية عباد الرب الغيورين، حتى وإن كانوا أمواتاً، إن المولى لن يعطيك من الآن فصاعداً أية سلطة عليّ، فلقد كتبت إليك بروح التواضع مع العاطفة، راجياً منك أن تقوم بتصحيح ذنوبك المتوالية، لكنك عاملت نصائحي الصحيحة بتجبر، واستخفيت بهم في قرارة قلبك الساخط والحاقد المليء بالسموم، الويل لك أيها المستخف، ألن تكون أنت عرضة للاستخفاف»؟، ومع الفراغ من هذه الكلمات، غادر الأسقف روبرت تاركاً البابا نصف ميت، ذلك أنه كان يتأوه ويتنهد بألم وأنين وكأنه قد طعن برمح في كل مرة كان يوخز بها بالعصا كما ذكرنا أعلاه، واعترت الدهشة حجابه لدى سماعهم لتأوهاته وأنينه، وسألوه ماذا يريد، فأجابهم وهو مستمر بالتأوه والأنين: «إن رعب هذه الليلة قد أزعجني كثيراً، وأنا لن أعود مطلقاً إلى وضعي الصحي الماضي، آه، آه، انني أشعر بألم عظيم بجنبي، وكأنني قد طعنت برمح من قبل الشيطان»، وهو لم يأكل في ذلك اليوم ولم يشرب، متظاهرا بأنه كان يعاني من حما متوقدة، كما أن غضب الرب وانتقامه لم يتوقف عند هذا الحد.

حول هزيمة جيش البابا

وبعد هذا بأمد وجيز، واجه البابا انتكاسات في الحملات الحربية، ذلك أنه أعطى اهتمامه إلى الشؤون الدنيوية، وقليلاً من الاهتمام لانذارات الرب من خلال عبده، وكان قد اهتم بتلك الحرب اهتماماً عظيماً، وأولاها الكثير من الجهد والنفقات، ذلك أن سعد الحرب ذهب ضده، أو بالحري ضد قائد جيشه، الذي كان قد أرسله ضد الأبوليين، مقابل نفقات عالية، تحت قيادة حفيده وليم، فلقد هزم الجيش تماماً، وتفرق جمعه، وأصيب قائده بجرح مميت، ولقد قيل بأنه قتل هناك أربعة آلاف مسيحي شجاع من الفرسان والجنود، الذين كانوا مستأجرين من قبل البابا، وقد بكت منطقة روما كلها من أجل هذا السفك الكبير للدماء المسيحية، وكان البابا في تلك الأثناء راكباً الطريق إلى نابل، مع أنه كان يعاني من الآلام والضعف في جانبه، وكأنه مصاباً بذات الجنب، أو بجرح رمح، ولم تقدم له البراعة الطبية للكاردينال ألبو Albo أية مساعدة، لأن روبرت أسقف لنكولن لم يوفر سينبولد الجنوي، الذي لم يصغ إلى انتقاداته عندما كان حياً، ولقد شعر الآن بضرباته بعد موته، ولم يتمتع هذا البابا قط فيها بعد بأي يوم عبر كاملاً وهو في صحة جيدة، أو بازدهار، ولم يمر به يوم لم يكن فيه مضطرباً ومن دون راحة.

كيف جرى تثبيت انتخاب أسقف لنكولن

في الثامن والعشرين من نيسان، قام بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري بتثبيت انتخاب هنري أوف ليكسنغتون، عميد لنكولن، الذي خلف سلف نبيل جداً، وأعطى بذلك آمالاً إلى الذين كانوا من حوله شخصياً، لكن ما ان جرت ترقيته إلى السلطة والمكانة التي كان يحتلها سلفه حتى ظهر أنه أدنى منه في أعماله الإحسانية والخيرية.

موت أسقف كارلآيل

وفي الشهر نفسه، أي أن تقول في الخامس عشر من أيار، مات سيلفستر أسقف كارلآيل، وكان سبب موته حادث، ذلك أنه عندما كان ممتطياً ظهر حصان حرون، اصطدم الحصان بكتلة متجمعة من أعشاب الأرض، فسقط الراكب على ظهره فانخلعت أطرافه ومفاصله.

موت وليم إيرل فيرير

في الرابع والعشرين من آذار في هذا العام مات وليم فتز —وليم ايرل فيرير Ferrers, وكان رجلاً حكيماً، وجيد المعرفة بقوانين البلاد، وعاش هذا النبيل منذ سنين حياته المبكرة في ظل ضعف قدميه الذي يدعى داء المفاصل، مثلما كان حال والده قبله، فمنه ورث هذا المرض، ولوضعه هذا كان بالعادة ينقل من مكان إلى آخر على محفة أو على عربة، وعندما كان في أحد الأيام مسافراً، تسبب خدمه الذين كانوا يسوقون عربته، بسبب الاهمال، بانقلابها على جسر، ومع أنه نجا بحياته في ذلك الوقت، لم يعد قط صحيحاً بجسده بعد ذلك، ومالبث بعد هذا، أن غادر طريق الجسد كله.

وفي هذا العام أيضاً، جرى إعداد الميرون، في كنيسة القديس ألبان، من قبل رتشارد المبجل، أسقف بانغر.

وفي حوالي أيام عيد الفصح، انتخب الكهنة النظاميون، في كنيسة القديس بولص المعلم وولتر اللندني، ليكون عميدهم، عوضاً عن المعلم هنري أوف كورنهل Cornhill.

وانتخب الكهنة النظاميون في لنكولن، أسقفاً لهم المعلم هنري أوف ليكسنغتون، وهو عميد تلك الكنيسة نفسها.

حول كراهية الصقليين هنري بن فردريك

وفي هذه الآونة نفسها، كان هنري ابن فردريك وايزابيلا أخت ملك انكلترا، في مقتبل شبابه، وكان بسبب نبالته الفطرية وأصالته، يظهر عواطفه نحو الانكليز، وكان يدفع بمصالحهم ويرتقي بها، مستخدماً غاية قدرته، وقد أصبحت هذه الحقيقة معروفة لدى الصقليين والأبولويين، ولذلك قالوا فيما بينهم: «ماذا تظن أيها الشاب أنك سوف تكون؟ إنه منحدر من الدم الملكي لانكلترا، وإذا ماتابع الازدهار كما بدأ، سوف يقهرنا نحن جميعاً، وعندما سيقهرنا، سيدوس علينا بقدميه»، كما أنهم سمعوا بأن البابا قد أعطى مملكتهم، إلى الإيرل رتشارد، خال الشاب هنري، ولذلك باتوا ساخطين إلى أبعد الحدود، وامتلأوا غضباً ضد البابا، وضد هذا الشاب البريء، وحسبما كانت عادتهم أبدعوا خطة لدس السم له، كما ذكرنا أعلاه.

الحرب المؤلمة على تخوم فلاندرز

وفي هذه الآونة نفسها، وقعت معركة هي الأكثر دموية عرفتها أبوليا، وجرى القتال على تخوم فلاندرز وبرابانت، بين الفرنسيين والفلمنكيين وحلفائهم من جانب، وكونتسة فلاندرز وحلفائها: وليم صاحب هولاندا وملك ألمانيا، وعدد آخر من مقدمي برابانت وألمانيا من الجانب الآخر، وكانت بسبب ولدي الكونتسة المذكورة وزوجيها، وفي هذه المعركة المؤلمة، التي يظل المرء يبكي من أجلها لأجيال، سقط أشجع المقاتلين، حيث إما قد قتلوا في المعركة، أو غرقوا في البحر أو في الأنهار، وكانت المذبحة من على الجانبين بلا حدود، حتى أنه من سكان إحدى مدن فلاندرز قد قتل عشرة آلاف، وما من واحد نجا، ليتحدث عن الفاجعة، وأخيراً، بعد سفك الكثير من الدماء آل النصر إلى جانب الملك وليم المتقدم الذكر ومعه الألمان، في حين لحقت الهزيمة بالفرنسيين، وجرحوا، وقتل الشطر الأكبر منهم، ونالوا أسوأ نتائج

القتال، وعانوا من خسائر لايمكن تعويضها، وكذلك من العار، فغرقوا في متاهة اليأس، وعـدم الثقة والدمار، وأيضاً أضيف إلى ذلك مـا كان قـد لحق أبناء و طنهم من قتـل كبير في الأرض المقـدسـة، وحـول هذه الهزيمـة الأخيرة على أيدي جيرانهم، الذين بـاتوا الآن، يمتعـون بالنصر ويتصرفـون ضدهم كما يريدون، أرسلـوا بكل سرعة رسـالة إلى ملكهم الذي كـان في البلـدان الأجنبيـة، والذي قـام بناء على نصيحـة الداوية والاسبتارية، بجعل مـدن تلك البلدان تحت وطأة ديون كبيرة، من أجل فديته، وحثـوه على العودة إلى الوطن بأقصى سرعة ممكنة، لأنهم أخبروه بأن تاج فـرنسـا بات في مهب الـرياح، من خـلال جبروت امـرأة، هي كونتسة فلاندرز، التي اعتمدت على ولديها وعلى زوجيها، وباتت مملكة فرنسا كلهـا عرضة للخطر، وأن مملكتي ألمانيا وصقليـة تترنحان، وفوق كل شيء، هو أن ملك انكلترا قد أذعن لرغبة البـابا، وأنه قد قوي كثيراً بالتحالف مع ملك اسبانيا، وقـد ظهر على حدود نورماندي، حيث قدم نفسـه، وهو مدعـوم بقـوة من الاسبـان، وبناء عليه بات يهدد بمهـاجمة فرنسا، وعندما تسلم ملك فرنسا هذه الأخبار، قام على الرغم من أسى جميع سكان الأرض المقـدسـة، وضـد رغبـاتـه الشخصيـة، فعمل الاستعـدادات لعـودة سريعـة إلى الوطن، متخـذاً جميع الإجـراءات الاحترازية الموائمـة، لأنـه كـان يخاف من البيـازنة والجنـويين، الذين طردهم بطيش عند الاستيلاء على دمياط، والذين علاوة على ذلك، كان مـداناً لهم بمبلغ كبير من المال، ولذلـك تابع الفـرنسيـون إشغـالهم على اليابسة، في سبيل أن يتمكن ملكهم من العودة بأمان أعظم.

سبب الحرب في فلاندرز

حتى هذا الوقت، لم تتـوقف الكراهيـة، والغـدر، والنار، والقتل عن الاستشراء بين الألمان والفـرنسيين، والفلمنكيين، والبرابنتيين، والفـريزيين، الذي استمـروا يفترسـون بعضهم بعضاً ويلتهمـون، ليـلاً

ونهاراً، وبما أن هذه الحرب كـانت منتجـة لكثير من سفك الـدمـاء إلى جميع العـالم المسيحي، أعتقـد أنـه من الموائم، أن أتولى شرح سببهـا الأساسي إلى قرائي، والآن كانـت البذور الأولى للخلاف قد زرعت كما يلي: عندما كانت مرغريت كـونتسة فلاندرز ماتزال صبية صغيرة، ومن دون أي أمل بالوصول إلى حكم تلك المنطقة، عقدت عقد زواج بشكل سري مع بـوشـارد Bouchard أوف أفيسني Avesnes, وقـد أنجبت منه ثلاثة أولاد هـم جـون أوف أفيسني مع اثنين آخـرين، وتذكـر بوشارد الآن نفسـه أنه كـان شماسـاً، وأن زواجه بالتـالي لم يكن شرعيـاً وينبغي فكه، أو ربما تحرك ضميره في قـرارة نفسـه، فـذهب إلى رومـا ليحصل على تثبيت للزواج من البـابا، أو الضغط عليـه، حتى يتغاضى عن هذه المسألة، وتم الآن اكتشاف أن أخت مرغريت المذكورة التي كانت متسلمة للكـونتية كانت عاقراً، وبذلك تـوفرت آمال أنه مع مرور الوقت سـوف يؤول الميراث إليها بنفسها، وكان هناك رجـلاً آخر اسمـه وليم دامبير Dampier, نبيـلاً من أسرة فـرنسيـة (وهو كذلك كان نائب شماس) قد تطلع نحـو نيل حكم فلاندرز، لذلك عقد مقـابلة سرية مع مـرغـريت المذكورة، وتعـاقـد بعـد ذلك بشكل مهيب بالزواج منها، في حين كـان الرجل الآخر يتابع أعماله في رومـا، وعندما سمع بوشـارد المتقدم ذكـره للمرة الأولى بهذا الخبر، عـدّه بمثابة تقـرير زائف، لكن بعـد ذلك جعله تتـابع الأخبـار يقتنع بالحقيقـة، ويصـدق الخبر، فكتب إلى مرغـريت المذكورة يلومها، ويرجوها بحـرارة أن تعود إلى عقلها ومداركها، وقامت وهي متمتعة تماماً بزواجها الثاني، أكثر من زواجها الأول، فتعاملت مع مطالبه بالرفض، ولكي تتولى نقده وملامته كتبت مجيبـة له بلهجة سخـرية واستخفـاف وقالت: «على بوشـارد، أن يخدم من الآن فصـاعـداً الكنيسة في طائفـة اللاويين، وعليـه أن يمسك بالقـربان، في حين تتمتع مـرغـريت بعناق زوجهـا الجديد الذي انتظرته ورغبت به كثيراً»، وبعـدمـا ،سلم بـوشـارد رسـالتهـا، وادراكـاً منه أنه

لايستطيع فعل شيء، عاد إلى روما، يرجو ويعمل في سبيل عدّ أولاده من الكونتسة أولاداً شرعيين، وولدت مرغريت من زوجها الثاني ثلاثة أولاد هم: وليم دامبير وأخـويه، وعندما وصل الأولاد من الأبوين المختلفين إلى سن الرجولة، وكانت أمهم قد حصلت على كونتيتي فلاندرز وهينولت Hainault بعد وفاة أختها، بدأوا يختلفون فيما بين أنفسهم حول الميراث، وقد قالت الأم بأن أولادها من الزوج الأول كانوا أولاد زنا غير شرعيين، وأن أولادها من الزوج الثاني كانوا شرعيين، ذلك أن كراهيتها لزوجها الأول تعدته فوصلت إلى أولادها منه، وعند وفاة الأبوين، وصل الخلاف والتقاضي بين الشباب إلى أقصى الدرجات، وأعلنت الأم وكذلك الرجال الشباب دناءة وانحطاط كل طرف منهما وبعضهما بعضاً، وأخيراً حملت قضية الخلاف إلى محكمة بلاط فرنسا، وأخضع الطرفان أنفسهم إلى قرار ملك تلك البلاد، وقام هو، تقديراً لقرابة الجسد والدم (لأن وليم المذكور كان قريباً له) فأعطى قراره، بأن لايكون الميراث كله عائداً إلى أي من الطرفين: الأول أو الثاني، على انفراد، بل ينبغي قسمته، وقضى —على كل حال— بأن تكون فلاندرز إلى وليم، وهينولت إلى جون، ولم يستطع جون تحمل هذا القرار، ورد على الملك قائلاً: «لقد أعطيتني يا صاحب الجلالة الذي لايمكنك أخذه مني، وأخذت مني الذي يمكنك أن تعطيني إياه، لأن فلاندرز موجودة تحت سلطانك، وهينولت تحت سلطة الامبراطورية»، وبحكم أنه ما كان باستطاعته الحصول على أي شيء، لأنه كان مرتبطاً بتعهدات بالالتزام بالقرار الذي يتخذه الملك ويصادق عليه، غادر البلاط غاضباً، وقرر الحفاظ على انفعالات غضبه وكتمها إلى وقت مناسب، ومكان موائم، وفي سبيل الاحتراز، ومن أجل تقوية حزبه، اقترن بحفيدة الذي كان آنذاك دوق برابانت، التي كانت أخت وليم صاحب هولاندا، وقويت قضيته أكثر بوفاة وليم [دامبير] الذي كان قد قتل في احدى مباريات المبارزة، كما أن أخا وليم

الأخير هذا، هلك وسط جيش الفرنسيين وهو الذي كان من المفترض أن يخلفه في كونتية فلاندرز.

حول المذابح الكبيرة التي تسببت بها مرغريت كونتسة فلاندرز

ووقع الصراع الذي يتوجب أن يبكى لأجله لأجيال، على تخوم فلاندرز، في حوالي منتصف الخريف، وبذلك تمكن الشيطان من جني موسم وافر، وجمع الكثير من الأرواح لعظم أعداد الذين ماتوا، فقد هلك هناك بطرق مختلفة أكثر من عشرين ألفاً من الرجال المحاربين، الذين كانوا قد احتشدوا من مختلف مناطق المملكة الفرنسية ومقاطعاتها، وكذلك من الامبراطورية، أي أن تقول من ألمانيا التي تضم كثيراً من المقاطعات، وقد مات هؤلاء جميعاً على حساب امرأة واحدة غير خلوقة، ومثلما حدث لطروادة كلها، أو بيرغاموس Pergamus (التي مصدرها كلمتي: Per ومعناها خلال، و gamus, ومعناها زواج) حيث تحولت إلى رماد من خلال امرأة، وبلاد الاغريق التي أخليت من سكانها، بناء على إثارة فينوس، كانت هذه المأساة التي وقعت في يوم جمعة (الذي هو يوم فينوس)، وعمّ الاضطراب والفوضى والحزن جميع فرنسا، وألمانيا، وفلاندرز، وبالاضافة إلى هذا، عانت زوجات القتلى، وأولادهم، وأقربائهم، وأصدقائهم، وتألموا مثل التألم من نوع آخر من الموت، وفي هذه الآونة، جرى إرسال جون رئيس رهبان دير نيوبري، الذي كان مستشاراً خاصاً للملك انكلترا، وقريباً منه، ارساله إلى هذه المناطق، ليقوم بترتيب بعض الأعمال الصعبة العائدة إلى مليكه، وقد جرى إخباره بهذه الوقائع من قبل النبلاء، وقد أودع التفاصيل كتابة.

حول قسوة الكونتسة مرغريت ووحشيتها

وإنه لأمر حقيقي أن أخت مرغريت هذه الكونتسة المتوحشة، قد حصلت بوساطة ذنوبها العظيمة على اسم قاتل الآباء من قبل كثير من

الناس، وبالقدر نفسه وللأسباب ذاتها استحقت ذلك، التي أخضعت نفسها من دون حياء إلى المعانقة المحرمة لرجلين، وتسببت بموت مثل هذه الأعداد الكبيرة، وهي بالحقيقة تستحق اسم قاتلة أولادها، لأن ابنها الكبير قد قتل من قبلها، وقد كسرت رجلي ابن آخر.

حول الذين قتلوا وأخذوا أسرى في المعركة المتقدمة الذكر

وكان بين الذين وقعوا بالأسر في هذه المعركة الدموية كونت بار، الذي كان يقاتل بحدة راغباً بالانتقام لنفسه، بسبب جراحة لحقت به في معركة ماضية أثناء الحرب، حيث فقد وقتها احدى عينيه (لأن الحرب استمرت لقرابة ثلاثة أعوام)، وكونت غوسني Guisnes, وكونت غولدري Gueldres, وكونت جوغني Joigny في شامبين، وسيمون دي كليرمونت Claremont وجون دي غيني Giny, وروبرت دي بوسك Bosk, وهو نبيل من أعلى المراتب بين السويسريين، مع عدد كبير آخر من النبلاء، الذين لانتذكر أسماءهم، ومن المراتب الأدنى كان هناك حشد كبير جداً من الفرنسيين، وفي الحقيقة كان عدد الذين أسروا، والذين قتلوا، بما في ذلك: النبلاء، والفرسان، والخدم والأتباع، والجنود العاديين قد بلغ كما قيل مائة ألف رجل، أو أكثر من ذلك، وما كان لي أن أقحم تفاصيل هذه الأحداث في حوليات تواريخ انكلترا، لولا أنه فرض علي أن أفعل ذلك، بسبب هذا السفك المرعب للدماء المسيحية، وهي الدماء التي سفحت في منطقة مجاورة لانكلترا.

حول الأمراء الذين كانوا مسؤولين عن الحرب في فلاندرز

وفي هذه الأثناء، كان أعداء الرب من المسلمين مسرورين، فهذا مايشعرون به عادة لدى سماعهم بأية خسائر كابد منها المسيحيون، واهتزت دويلات جميع أمراء ألمانيا حتى الأعماق، وفي المقام الأول كانت

أعظم الخسائر وأقساها، هي التي عانى منها ملك فرنسا الذي كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وهو الملك الذي لم يكن هناك ملكاً آخر أقوى منه، كما تسببت هذه الخسائر بعودته من تلك البلاد، لأنه جرى استدعاءه نتيجة لوقوع هذه الكارثة، وكان هناك عدداً كبيراً من مقدمي فرنسا ممن عانى أيضاً من الخسائر، فدوق بافاريا، الذي كان يتسلم منذ زمن قديم مائة ألف مارك كولوني بمثابة دخل سنوي، بل إن هذا المبلغ قد ازداد مؤخراً، قد أنفق أمواله كلها في هذه الحرب، وكان من بين الذين عانوا، دوق غسكوني أيضاً، وقد كان صاحب مكانة عالية مثل الدوق الذي ورد اسمه أخيراً، وكان قريباً بالنسبة لملك انكلترا، وكذلك دوق برونزويك Brunswick, الذي كان قريباً للملك نفسه، ودوق برابانت ولوفين Louvain, والذي وضع نفسه دوقاً على اللورين، ودوق ليمبورغ Limbourg, ودوق سوابيا، ودوق النمسا، ودوق ليونبورغ Luneburg, ونبيلة عالية المكانة والقوة اسمها صوفيا، كانت الحاكمة لشطر كبير من ثورونجيا، ومركيزين، كان الأول بينهما مركيزاً لهذا الجانب من سكلافونيا Sclavonia, وكان الثاني مركيزاً للجانب الآخر أي بوهيميا، وهو كان أيضاً ملك بوهيميا، ودوق بولاندا، الذي قتل من قبل التتار، وأيضا اللاندغريف لثورنجيا وسينت اليزابث، ولاندغريف ثورنجيا، وابنة ملك هنغاريا، فقد كان كل واحد من هؤلاء المذكورين أعلاه قد بعث مساعدة إلى وليم صاحب هولاندا، وملك ألمانيا، ضد الجيش الفرنسي، وأسيئت معاملة الفريزيين الذين قدموا للالتحاق بالجيش من قبل وليم، الذي كان متكبرا، وغير مكترث بصداقتهم، وكان علاوة على ذلك قد صار غنياً بوساطة الأموال التي تسلمها من البابا، وغضب الفريزيون من هذا، وتآمروا ضده، حسبما ظهر فيما بعد، وكما سنوضح في الرواية المقبلة، وكانت أموال البابا على كل حال —هي أموال جنيت بطرائق غير صحيحة— بلا فائدة له، لابل على العكس ألحقت به ضرراً

كبيراً، وهكذا كانت أوربا كلها تقريباً في أوضاع مضطربة من أجل متعة امرأة، ومن خلال مكر الشيطان ودسائسه الذي يضحك —لسبب جيد لديه— للمآسي التي تلحق بالإنسان، وفي هذا العام أيضاً، عانى الرهبان من طائفة السسترشيان من خسائر كبيرة، بسبب دمار فلاندرز، حيث لم يستطيعوا الحصول على ماكانوا يحصلون عليه بالعادة من مادة الصوف، وأعتقد أنه يتوجب عليّ عدم حذف الخطاب الوحشي الذي ألقته هذه الكونتسة مرغريت، التي هي ميديا Medea ثانية ولم تخجل من التفوه به.

الخطاب الوحشي للكونتسة مرغريت

وحدث بعد ذلك على الفور، أن تمكن جون أوف أفسني، ابن الكونتسة المتقدم ذكرها أعلاه، من أسر اثنين من اخوته لأمه، أي أولادها، بوساطة كمين نصبه، وقد فرح لحسن حظه، وأمل بالوصول إلى اتفاق سلام مع أمه، وقد بعث رسالة إليها مع رسل اعتقد أنهم سوف يكونوا مقبولين لديها، وقد كتب إليها وفق الصيغة التالية: «أمي العزيزة، إنك إذا لم تختاري الاشفاق علي، أشفقي على الأقل على أخوي لأمي، اللذان هما أسيرين بين يدي، ووافقي على شروط عرض السلام التي سوف تكون مفيدة لك»، وأجابته على هذا الالتماس قائلة: «إن أخويك، ولدي بين يديك وإنني لن أتحول عن هدفي بسببهما أو من أجلهما، وهما تحت ارادتك، وطوع رغباتك، اقتلهما أيها الوغد المتوحش، وكلهما، واطبخ أولهما مع التوابل، واشو الثاني مع الثوم»، وجرى تناقل هذا الكلام من فم إلى فم بين الناس، مما ألحق العار بجميع النساء، خاصة بالأمهات، ولكن حتى لانلوث الهواء، دعونا نترك هذه القضية، وأن نستخدم قلمنا لتدوين القضايا المرتبطة بتاريخ انكلترا.

حول اجتماع نبلاء إنكلترا في لندن

ومجدداً اجتمع نبلاء انكلترا في لندن، ومن جديد أرسل الملك رسالة إليهم، بأنه بحاجة إلى المال، وإلى قوات كبيرة لصدّ هجمات عدو كبير، قادمة ضده، وختمت هذه الرسالة بالختم الملكي، وأجابوا فردياً وجماعياً، بأنه مضى عليهم وهم ينتظرون لمدة ثلاثة أسابيع من دون هدف أو محصلة، وهم ينتظرون وصول الايرل رتشارد، وبعض النبلاء الآخرين، الذين تأخر غيابهم كثيراً، وأنهم غالباً ماأرهقوا باستخراجات الملك، إلى حد أنه بات صعباً عليهم التنفس، وقالوا —على كل حال— بأنهم سوف لن يتوانوا عن الذهاب شخصياً لمساعدة الملك، إذا مااقتنعوا تماماً، حول الوصول العدواني لملك اسبانيا، الذي يهدد بالقيام بذلك، وتساءلوا قائلين، بأن ملك قشتالة نفسه لم يطالب قط بغسكوني، أيام سيمون ايرل ليستر، أي عندما كان حاكماً لغسكوني، وعندما أبقى كثيراً من العصاة تحت السيطرة، ومن هذه الحجج، وحجج أخرى كثيرة ورد ذكرها أثناء عقد البارلمان الأخير، وكذلك من معرفتهم حقيقة القضية من الايرل سيمون، الذي كان قد عاد آنذاك من القارة، لذلك احترزوا ضد دهاء الملك، وخططه الماكرة، الذي أغنى الأجانب على حساب ثروة انكلترا، في وقت حاجتها، ويقال بأن هذه المؤامرة الماكرة قد صدرت عن النبع السام لنصائح البواتيين، وعلى هذا ظل النبلاء منزعجين كثيراً، وغادروا وهم في حالة سخط عظيم.

حول شقاء اليهود وتعاستهم

وفي حوالي الوقت نفسه فيما بين عيد الفصح وأيام الابتهالات، قام الملك الذي كان لايعرف الاستقرار، فنفس عن غضبه ضد الرعاع اليهود التعساء إلى حد أنهم وصلوا إلى درجة كرهوا فيها حياتهم، فقد دعاهم الايرل رتشارد إلى اجتماع، وطلب منهم من أجل استخدامات الملك —الذي كان كما قال غاضباً كثيراً عليهم— مبلغاً كبيراً من المال، وذلك

تحت طائلة السجن، والموت المهين، ونتيجة لهذا عقد الياس اللندي، الذي كـان الكاهن الأعظم لليهـود، والذي غـالباً مـا دفع برضـاه أو من دون رضاه مبـالغ كبيرة، اجتماعاً تشاورياً مع أتباعـه اليهود، ورد على المطالب قـائلاً مـايلي: «مـوالي وسادتي، إننا نرى بوضـوح أن الملك يريد اقتـلاعنا واجتثـاثنا من تحت السماء، فبـاسم الرب، نحن نطلب اذنه وأمـاناً منه لنا لنغادر ونسافر من مملكته، حتى نبحث عن مكان للاقامة في موضع آخر، في ظل أمير لديه مشاعـر رحمة، وسيتولى بشكل صحيح الالتـزام بالصدق والأمانة، ودعـونا نغادر من هنـا ولانعود مطلقا، وأن نترك خلفنا بيـوتنا والحاجيات الموجـودة فيها، إذ كيف يمكن أن يجبنا نحن اليهـود التعساء، أو أن يوفرنا، وهـو الذي دمر رعاياه الطبيعيين؟ فهـو لديه تجارا بابويين، أو بالحري تجارا خـاصين به (أنا لن أسميهم مـرابين) الذين يتـولون جمع كميات هائلـة من المال، دعو الملك يعتمد عليهـم، ويسعى للحصول على منافعـه من خلالهم، فهـؤلاء هم الذين دمـرونا وأفقـرونا، وأخفى الملك معرفته بهذا، وطلب منا مالا نمتلك القـدرة على إعطائه إياه، حتى لو قام باقتـلاع أعيننا، أو سلخ جلودنا، وقطع أعناقنا بعد ذلك»، وبعـدما تفـوه بهذا الخطاب، الذي كـان قـد تخلله تنهـداته ونحيبـه، صمت، وسقط من دون حيـاة، وكأنه أصيب بانفجار، وعنـدما جـرى إعلام المسـؤولين عن العدالة بقرار اليهود هذا، لم يسمحوا لهم بمغادرة المملكة حيث قالوا لهم: «إلى أين ستفـرون أيها الأشقيـاء؟ فملك فـرنسـا يكرهكـم، وقـد حكم عليكم بالنفي الـدائم، فهل تودون النجـاة من خطر حتـى تقعـوا فيما هو آخطر؟ وهكذا جرت بالقوة مصادرة مـا كان قد بقي لديهم من قليل من وسائل العيش، والتي لو بقيت لهم لما كفتهم إلاّ للعيش بكفاف شديد.

حول المعركة بين الفرنسيين والألمان

وفي هذه الآونة نفسها، وقعت معـركة بين الفـرنسيين، وحلفائهم من الجانب الأول، والألمان وحلفائهم من الجانب الآخـر، وذلك تحت إمرة

وليم صاحب هولاندا، وملك ألمانيا، وبالنسبة للفريزيين، الذين بقيوا على الحياد، فقد تعرضوا للهجوم من قبل وليم صاحب هولاندا، الذي أخبر بأنهم يخططون لعمل خياني ضده، وبصعوبة بالغة أنقذوا أنفسهم بالفرار.

حول تكريس الأسقف المنتخب للنكولن

وفي السابع عشر من أيار، جرى تكريس هنري أوف ليكسنغتون، الأسقف المنتخب للنكولن، أسقفاً لتلك الأسقفية، من قبل بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، وتمّ ذلك في القارة.

حول الغارات التي قام بها بعض الويلزيين الذين كانوا في جيش الملك

وفي هذه الآونة نفسها قام بعض الجنود الويلزيون الذين كانوا في جيش الملك في غسكوني، تبعاً لما اعتادوا عليه، بغارات على أراضي أعداء الملك، وأطلقوا لأنفسهم العنان بالنهب، ولذلك جرى اعتقالهم من قبل إخوة الملك، وأسقف هيرفورد، وجرت معاقبتهم بشدة أكبر مما استحقوا، لأنهم كانوا في ذلك الوقت قد أحدثوا قليلاً من الأذى أولم يحدثوا شيئاً البتة، كما لم تفد الشكاوي حول هذه القضية، التي عرضت على ايرل هيرفورد، الذي كان، ومابرح يمتلك منذ القدم وظيفة قسطلان جيش الملك، وبما أن غير المتشكين كانوا سيتضررون من حكم الايرل المذكور، تحدوه، ووقفوا ضد قانون الجيش وأعرافه، ونتيجة لذلك تقدم الايرل بشكوى إلى الملك، لكنه لم يقابل بأي شيء غير الإهمال، وبات الانكليز غاضبين تجاه هذا التصرف، وبصعوبة بالغة حبسوا أنفسهم عن مهاجمة البواتيين، وتمزيقهم إرباً إرباً، ذلك لأن الملك قام وهو خائف يرتجف، وبيدين مقبوضتين، فالتمس بتواضع العفو عن خطيئته، ومع ذلك حتى ذلك الوقت ضبطوا أنفسهم وغضبهم

المتصاعد، الذي لو أنه انفجر لتسبب بسفك الكثير من الدماء، وانتشر التذمر في جميع أرجاء الجيش، بأن الملك يسعى من جميع الجوانب أن يسير على خطى أبيه، وأن أتباعه قد تخلوا عنه، لأنه تصرف بشكل غير مستقيم وأمين، وأنه عائد إلى الوطن، ذلك أنهم رأوا أن الوصول إلى أي سلام دائم بعيد المنال مطلقاً، وحصل بعض نبلاء انكلترا، وكان منهم الايرل روجر بيغود، ووليم دي سي Saye, وآخرين كثرة على إذن الملك، وساروا على خطى سيمون، ايرل أوف ليستر، الذي كان قد عاد قبلهم.

حول إلغاء حكم غير عادل ضدّ امتيازات دير القديس ألبان

وجرى في هذا الصيف سحب وإلغاء الحكم الجائر، الذي أصدره هنري دي مير Mer, رجل العدالة المتجول، وعاقب به دير القديس ألبان بمبلغ مائة باوند، وحدث هذا عندما كانت الملكة مع الايرل رتشارد نائبي المملكة، وذلك أثناء غياب الملك في غسكوني.

رسالة تتعلق بإلغاء هذا الحكم نفسه

«من هنري، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، وصاحب ايرلاندا، ودوق نورماندي وأكوتين، وكونت أنجو، إلى جميع من سيصل إليهم هذا البيان، تحيات:

بناء على ماتبين لنا، من خلال العودة الفاحصة لصكوك أسلافنا من ملوك انكلترا، التي هي بين يدي راعي دير القديس ألبان، والقاضية بعدم إلزام أي من أتباع الراعي المذكور بتجاوز الامتياز الممنوح لراعي الدير المذكور، بحيث لاتجوز دعوتهم في أية مناسبة من المناسبات للظهور أمام أي من الجهات القضائية، أو التحقيق معهم، وقد حررنا راعي الدير المذكور من دفع المائة باوند التي جرى بها تغريم بلدة القديس ألبان مع امتياز الدير، لأن الذين يسكنون في ذلك

الامتياز، لم يمثلوا أمـام رجلي العدالة المحبـوبين من قبلنا، وهما هنري دي مير، ووليـم أوف ويلتـــــــون Wilton, في تشيسترهنس Chesterhunce, الموجودة خارج الامتياز المتقدم ذكره، وذلك بهدف القيام ببحث يتعلـق بعنف متبادل، ولإنزال العقوبـة حول هذا العنف نفســه، وألغينا أيضـــاً بالنسبـة لراعي الدير المذكــور، مـاتعلق بالسوقين ونصف الســوق، الأمر الذي من أجله جرت معاقبـة نيقولا السمان، والاسكندر ستـــــولي Stoyle, ووليم ســـانـــــــدروغي Sandruge, ورينالد صائغ الذهب، وهم من أتباع راعي الدير المذكور، وقد جرت معـاقبتهم وتغريمهم أمام هنري ووليم، من أجل التجاوز الذي تقدم ذكره، وشهادة على هذا لقد منحنا بأنفسنا رسائلنا هذه المعتمدة إلى راعي الديـر المذكور، وشهد على ذلك أيضـاً رتشارد ايرل أوف كورنوول، أخونـا، وكان ذلك في ويستمنستر، في هذا اليوم الثالث عشر من تشرين الأول، في العام الثامن والثلاثين من حكمنا».

تثبيت امتيازات دير القديس ألبان

وختمت هذه الرسـائل التوثيقيـة، المتعلقـة بامتيازات دير القـديس ألبان بالختم الأصغر، لأن الملك كـان آنذاك في القارة، وكانت المملكة تحت وصاية الايرل رتشارد والملكة، وفيما إذا كان الايرل أو الملكة قد أخذا أية أمـوال مقابل منح هذه الرسـائل، يكونا قد اقترفنا اثماً عظيما ضـد الشهيد ألبـان، وضـد مولاهما الملك، لأن هذه الامتيـازات، مع امتيازات أخرى قد جرى منحها منذ العصور القديمة من قبل الملوك، وجـرى تثبيتهـا مـن قبل البـابا، ومن المعـروف أنهم بقيــوا حتى هذا الوقت من دون خــرق، وهذا ســوف يشـاهد مـن قبله الذي لايخفى عليه شيء.

حول التثبيت الأمتن لهذه الامتيازات نفسها

وفي سبيل أن تكون هذه الامتيازات مضمونة بشكل أمتن، تبع الرسالة المتقدمة أعلاه رسائل أخرى، وقد جرى ايداعها في كتاب Additaments، وهي قد بدأت وفق مايلي: «قام عمدة هيرفورد بتقديم حساب بمائة باوند وباوند واحد من بلدة القديس ألبان».

حول التقارير الزائفة التي وردت في رسائل جاءت من غسكوني

وجاء بعد الرسائل التي تقدم ذكرها أعلاه، والتي وضعت في الكتاب نفسه، رسالة قصيرة من غسكوني وهي التي حوت الأخبار المزيفة والمضللة التالية: «**من هنري الذي هو بنعمة الرب، إلخ:**

لقد وعدنا باخلاص وصدق ايرلات مملكة انكلترا، وباروناتها والنبلاء الآخرون، أن يكونوا في لندن بعد ثلاثة أسابيع من عيد الفصح المقبل، وهم مجهزين بالخيول والأسلحة، ومستعدين للانطلاق من دون تأخير إلى بورتماوث، من آجل الالتحاق بنا في غسكوني، والوقوف معنا ضد ملك قشتالة الذي هو على وشك القيام بغارة على أراضينا في غسكوني، في الصيف المقبل» إلخ، إلخ، وأضاف حامل هذه الرسالة أيضاً، بأن ملك قشتالة المذكور، قد وصل مع آلاف كثيرة من الجنود، بلغت حداً أنه لن يخاف من قوى انكلترا، أو فرنسا، غير أنه لم يستطع الوصول إلى هناك بأية وسيلة من الوسائل، لأنه كان إذا مافكر بالزحف نحو مقاطعات غسكوني مع مثل ذلك الجيش، إنه من الضروري بالنسبة له، أن يكون على علاقات طيبة واتفاقات صديقة مع الممالك التي سوف يمر بها، من ذلك مثلا مملكتي نافار وآرغون، ومقدمين آخرين كثر وزعماء وأعيان كبار، هم سوف يسمحون بمثل هذا الزحف، وعلاوة على ذلك، إن المسلمين الذين كانوا في حالة حرب معه، سوف يسيرون خلفه، حيث سيجدون الأراضي التي أخذت منهم، معروضة أمامهم بمثابة هدية مقدمة إليهم، ومجدداً، كما

ذكـرنا من قبل، هناك حقيقة ارسـال الملك وراء الملكة وابنه الأسن، فهـذا يظهر دهاء هذا الملك وخداعه، وكما يقـال: «إن الشباك المرئية بوضوح تام من قبل الطير، تجعله يتجنبهـا»، ثم إنهم حـزنوا في قلوبهم، من دون أمل بالمواسـاة، لأن مولاهم وحـاكمهـم سعى بذرائع كثيرة لتـدمير رعـاياه الطبيعيين، بوسائل سواء أكانت قانونية أم غير قانونية، ومن الذي يستطيع بسرعـة أكبر أو بسهـولة أعظم، تعـريض السفينـة إلى الخطر أكثـر من القبطان، الذي هو على العكس ملتزم بالتحكم بدفة المركب؟

حول الامتياز الذي منح إلى رعاة دير ويستمنستر

عملت في هذا العـام نفسه منحـة من قبل الملك هنري، باسمـه وباسم خلفاته، بأنه يتوجب أن يحصل رعاة دير ويستمنستر وخلفائهم، الذين من الممكن أن يظهروا أمـام أي رجل عدالة تابع للملك، سـواء من المتجولين أو الآخرين، يحصلوا على خلاصات عن أحكـام رجال العدالة المذكورين، فيما يتعلق بالعقوبات والغرامات من جميع الأنواع، التي توقع على التابعين لهم، وأيضاً على أثاث التابعين المذكـورين، الذين هم مطاردين أو مدانين، شريطة عـدم تسليم الخلاصـات المذكـورة إلى خـازننا، بل ينبغي أن تسلم باليد من رجال العدالة المذكورين إلى وكلاء رعاة الديرة المذكورين، أو إلى الدير، الذي يكـون فيـه الأشخـاص المتقـدم ذكـرهم، أي الذيـن سـوف يعـاقبون أو يغـرمـون، وجـرى تدوين صك من أجل هذه الغـاية، ومنح إليهم في سنة النعمة ١٢٥٢، وفي ذلك العـام نفسه، جـرى أيضـاً منحهم صك قضى بوجوب أن يستحوذ التجمع الرهباني على كل مـاهو عائد إليه أثناء وجود شاغر، ونسخ عن هذه الصكوك من الممكن الوقوف عليها في كتـاب Additaments, ومن الممكن أن يشـاهـد في المكان نفسـه أيضـا الصكوك التي سلف أن منحت إلى راعي دير وولتهام ورهبـانه، في تاريخ آخر من العـام نفسه، لكنه لم يصل إلى علم كـاتب هذا الكتـاب في الوقت الذي رغب فيه.

كيف عملت ملكة إنكلترا الاستعدادات من أجل الذهاب إلى القارة

بما أن الملكة تستعد الآن للابحار إلى القارة، أرسل سكان يارماوث Yarmouth سفينة واسعة وجميلة، مشحونة بثلاثين من البحارة البارعين، والمسلحين بشكل جيد، حتى تكون بخدمة الأمير ادوارد، لاصطحابه مع أعوانه وخدمه عبر القنال بأمان كبير، وأعدّ شعب وينشيلسي Winchelsea بعض السفن لنقل الملكة، وعندما وجدوا بأن السفينة التي أرسلت إلى الأمير كانت أكثر اتساعاً وأعظم جمالاً من سفنهم، شعروا بالغيرة والحسد، وقاموا بشكل غادر ومفاجيء بالهجوم عليها، ودمروا السفينة وقتلوا وجرحوا بعضاً من ملاحيها، وفي سبيل التنصل من جريمتهم وطمسها، أخذوا سارية المركب المدمر، وثبتوها إلى سفينة الملكة، وكأن الذي فعلوه كان لصالحها ومنفعتها، وبناء عليه تقدم سكان يارماوث بشكوى ثقيلة حول هذا الإجراء، ورفعوها ليس فقط إلى الملكة بل إلى الايرل رتشارد أيضاً، وكذلك إلى حكام الموانيء الخمسة، وهذا قد أثار المملكة كلها بشكل عادل للانتقام لهذه الجريمة.

كيف أبحرت الملكة إلى القارة دون أن تتقيد بأوامر الملك

أثناء وقوع هذه الاضطرابات غير المنتظرة، التي أزعجت الملكة وآقلقتها، وصلت رسالة ثانية كانت مستعجلة من الملك، أمر فيها الملكة بعدم عبور القنال، وهكذا تعرضت للعناء من جانبين، فقالت وهي تشعر بالسخط: «لقد ثارت المشاكل من كل جانب، فها هو كل شيء جاهز للاقلاع والابحار، وقد قلت وداعا للجميع، وهبت الريح بشكل موائم، فهل سأرجع؟ لا»، ثم أنها أخفت غضبها تجاه هذه الوقائع، وآقلعت من بورتماوث في التاسع والعشرين من أيار، وكان يوم جمعة،

وذلك قبل أحد الشعانين، وأخذت ولديها معها: ادوارد، وادموند، وكان برفقتها أربعين فارساً، وحاشية من النبلاء، وكانت تحت قيادة وتوجيه عمها رئيس أساقفة كانتربري، وكتبت في الوقت نفسه إلى الايرل رتشارد حاثة إيّاه على السعي بكل حكمة من أجل تسوية الخلاف وتهدئة الإثارة التي نشأت بين شعب الموانىء الخمسة، لأن ذلك مشحون بالخطر بالنسبة للمملكة، وقد جرى تنفيذ هذا فيما بعد بكل سعادة، ووصلت الملكة سالمة إلى بوردو في اليوم الأخير من أيار، وكان قد جرى تعيين وولتر دي غري، رئيس أساقفة يورك، نائباً للمملكة في مكان الملكة، لكنه لم يقم بممارسة هذه الوظيفة، لأنه شعر بنفسه بأنه كان منهكاً بسبب المرض وتقدم السن، وكان هناك بعض النبلاء قد فضلوا السفر براً على الرغم من التأخير، على السفر مباشرة بحراً، وكان من هؤلاء —على سبيل المثال— جون وارني، وادموند دي لاسي، فقد عبرا البحر عند دوفر، ومن ثم أخذا طريقهما مباشرة نحو بوردو، ووقعت في هذا العام واقعة غريبة بالنسبة للريح، وكانت، بأن الريح هبت بشكل متواصل من الشمال —الشرقي، أو من الشمال لمدة ثلاثة أشهر وبضعة أيام، وقد دمرت فواكه وورود الربيع، وفي حوالي الأول من تموز، وهو موعد الانقلاب الصيفي، سقطت أمطار عنيفة جداً، وكانت هناك عاصفة برد ثقيل، مثلها لم نشاهد من قبل، وقد استمرت هذه العاصفة لمدة ساعة أو أكثر، وقد اقتلعت القرميد والألواح الخشبية للأسقف، وأتلفت أغصان الأشجار.

حول وفاة هنري ابن الإمبراطور فردريك

وفي شهر أيار من هذا العام، مات هنري، أمل الانكليز ومجدهم، وكان شاباً وسيماً جداً في مظهره، وهو ابن الامبراطور فردريك والامبراطورة ايزابيلا، اخت ملك انكلترا، وقد فقد حياته —حسبما ذكر أعداء كونراد ملك صقلية— من خلال دسائس هذا الملك نفسه،

لكن هذا الخبر مستبعــد، ويبــدو أنه غير جــدير بالتصـــديق، لأن الملك المذكور قـد عامل هنري بعـاطفة آخويه، وقـد قدم براهين على عـاطفته نحوه، وذلك حسبها آفاد آيضا في إجاباته على تهم جادة أثيرت ضده من قبل البابا، حيث قـال بأنه قد شعر عند وفـاته بأنه قد فقد جزئـاً رئيسياً منه شخصياً، وكـان المقترف الحقيقي لهذه الجريمة الشقي الشريـر جداً، الذي عـرف باسم جـون الموري، فهو الذي دس السـم إليه، وفيما بعـد عندما كان مايزال يتنفس وفي آلام الموت، تولى خنقه، وبعد وفاة أخيه لم يظهر كونراد أنه هادىء مستقر كما كان من قبل.

حول الخلاف بين البابا وبين كونراد ملك صقلية

وفي شهـر آبار من هذا العـام تفجـر خـلاف شـديد بين البـابا، وبين كونراد ملك الصقليين، ذلك آنه كان هدفـا للكراهية من قبل البابا، الذي لم يتقيد بمرضه، وآنه قد تعرض للنقد الشديد من قبل الأسقف روبرت، آسقف لنكولن، واهتم قليـلا بالاصـلاح، أو بالحري لم يهتم مطلقا، وقـد اتهم كونراد بعدد كبير من الجرائم، ومنحته كـراهيته لفردريك الأرضيات لتـوجيـه الاتهامات، لآن رمـاد النيران لم يكن خلوا من بقـايا وقيـد النار بينهما، وقد رد الملك على كل واحدة من الاتهامـات باعتدال، وقد أنكرهم جميعا بشكل مكشـوف وثابت تماما، وقـد اتهمه البـابا بأنه كان مهـرطقاً، ومجرما قاتلا، وواحـدا جاحدا لمفاتيح الكنيسـة، ورجلا تسبب في ممارسة الخدمات اللاهوتية في آيام الحرمان من شراكة المؤمنين، كما آنه اتهمه بقتل واحد اسمـه فردريك، بالسم، وكـان حفيدا له، وآيضـا بقتل أخيه هنري وذلك بوساطة جـون الموري، الذي دس السم إليه أولا، ثم عندمـا وجد آن موته قد تأخر، تولى خنقه بوساطة منديل.

وآلح البـابا على هذه التهـم ورددها كثيرا، في سبيل إثارة ملك انكلترا ضـد كونراد، ومن الممكن الوقـوف على تهم البـابا، وعلى أجوبة كـونراد عليهم في كتاب Additaments, عند علامة المرساة الحمراء.

عدم إلتزام الملك بمراعاة الامتيازات التي غالباً ما أقسم يمينه واعداً بمراعاتها

لقد كـانت هناك آمال عظيمة شعر الناس بها، بأن يقـوم الملك مخلصاً بمراعاة صكوك الامتيازات التي تقـدم ذكرها، حيث اعتقد الجميع بأنها استقرت على أرضيـة ثابتة، لأن الملك الذي غـالباً ما كـان قد أقسم من قبل على الالتزام بها، لأنها منحت من قبل أسلافه، هذا الملك بات الآن في عمر أكثر نضوجـاً، وكان يخاف مـن التورط بقـرار الحرمان الكنسي الذي جـرى التفـوه به، لكن على الرغم من ذلـك، فإنه أذعن الآن إلى نصيحـة الرجـال الأشرار، فلم يتردد في خـرقهـا وتجاوزها، معتقـداً أنه يستطيع بوسـاطة مبلغ صغير مـن المال الحصـول على التحليل من ذنوبه وتجاوزاته.

حول زواج إدوارد ابن ملك إنكلترا من أخت ملك إسبانيا

وجرى في هذه الأونة ارسال ادوارد بأبهة عظيمة، وبفخامة كبيرة، إلى ألفونسـو ملك اسبانيا، الـذي تولى استقباله بتشريف واحترام، واتحد في بورغوس Burgos بالزواج من إليانور الأخت الصغرى للملك، وتسلم المرتبة الشرفية للفروسية من الملك نفسه، الذي كان مسروراً تجاه المظهر الوسيم، وحسن التصرف لدى الأمير الشـاب، ثم عاد ادوارد إلى أبيه مع زوجته التـي كان قد تزوج منها حديثـاً، واستقبل بسرور عارم، وكأنه ملاك قادم من عند الرب، وجلب جـون مانسيل أيضاً معه، صكاً من ملك إسبـانيـا مختـوم بالذهـب، فيـه تخلي باسمـه وباسم ورثتـه عن الادعـاء بغسكوني كلها، إلى ملك انكلترا وورثتـه، وبناء عليه قـام ملك انكلترا عند ذلك بمنـح ابنه وزوجتـه مقـاطعـة غسكـوني، وايرلاندا، وويلز، وبريستول Bristol, وغراهام Graham, وبذلك أظهر نفسـه ملكاً صغيراً بشكل مضـاعف، ثم إنه منذ ذلك الوقت، بدأ

الملك باستعداداته لعـودة سريعة إلى الوطن، بما أن المشـاكل الصغيرة قد جرت تسـويتها حسب رغبته، مع أنه ظهر للرجـال العقلاء بأنه لم يربح شيئاً لصـــالـح المملكة، بل بالحري جلـب أضراراً كبيرة للمملكة، لأن ماهي النجـدة أو ماهو العون، الـذي يستطيع ملك، كان على مثل تلك المسافـة البعيدة، عمله ضد ملك فـرنسا، الذي منه يشتكي ملك انكلترا كثيراً؟ وفي الحقيقة كـان محاطاً من جميع الجهات بأعـداء داخليين تآمروا ضده، ولم يكن بإمكانه مقاومتهم بشكل جيد، وكيف يمكنه ذلك وعدد كبير جــداً مـن البلدان والممالك تعترض سبيله وتفصلـه عن غسكوني، وعـلاوة على ذلك كـان الملك متــوائماً مع أخـلاق الاسبـان وعـاداتهم وديانتهم، وكـان يعرف بأنهم حثـالة بني البشر، فقـد كانوا قبيحـون في الوجـوه، وضيعين بالسلوك، وممقوتين في أخـلاقهم، وقد تبين فيما بعـد بوساطة براهين لايمكن دحضها، بأن الملك الانكليزي قد أنفق في حملته غير المثمرة في غسكوني، حيث لم يـربح شيئاً، ماعدا الذي كـان من قبل بين يديه، أنفق من دون فـائـدة مليـــونين وسبعمائـة آلف باوند وزيادة، وذلك باستثناء الأراضي والموارد التي كـان قـد أعطاها من دون تقـدير لأشخـاص لايستحقـون، أشخاص كـانوا على استعـداد لإلحاق الأذى والضرر به وبمملكتـه، وكـــانوا أيضـاً يرغبـون في التهـــام جميع ثروات البلاد، وعلاوة على ذلك، هو أعطى إلى إخوته لأمه، البواتيين الحقيقيين بالأصل وبالأخـــلاق ثلاثين آلف مـارك، وذلـك إلى جـانب الأراضي، والموارد، والوصـــايات، والبيـــوت، والجواهر الثمينة، وهكـذا، هكذا يالـلأسف انكشـف أنه أنفق في إطـار عـــدة سنوات خلـت كثيراً من الأمـــوال على حملتـــه إلى بواتو التي خسرهـا، والآن في غسكوني، التي استطاع بصعـوبة كبيرة الاحتفـاظ بها، وقـد بذر كثيراً من المال على تربة قاحلة، وكـان ذلك آكثر مما يمكن أن يـدفعه آي مشتري أو مثمن أمين، ثمنا لكلا البلديـن، لو أنهما عـرضـا للبيع، وهكذا حـدث أن حـــرمت انكلترا من الكرامة، وجردت من ثروتها من خـلال فسولة ملكها، الذي

عنه روي بأن ميرلين Merlin قد قال: «يمضي الوشق نحو الأمام خارقاً كل شيء، حتى لو كان ذلك قد قصد به دمار بني جنسه»، وفي الحقيقة خرق الوشق كل شيء، حيث ليس هناك ولاحافظة نقود في انكلترا، لم يتم خرقها، ونفضت حتى أفرغت من محتوياتها، وجرى إعلامه بهذا الانفاق الهائل للمال من قبل بعض أصدقائه المقربين، وعندما سمع بذلك أصيب بالدهشة وتملكه الغضب، وأجاب وهو يتنفس بصعوبة قائلاً: «بحق رأس الرب (حتى نستخدم عبارته المعتادة) ماهذا بالنسبة له؟ لاتنشروا خبر ذلك إلى أي واحد، حتى لايسبب العجب والدهشة لعقول الناس».

كيف تطلع الملك نحو الاستحواذ على العشور التي منحت إليه

وفي الوقت نفسه، لم يكن من الممكن ضبط الملك بوساطة النصائح والملامات التي وجهت إليه من قبل الناس الصالحين، بل تطلع بجشع شديد إلى جباية العشور، التي وعد بها مشروطة من قبل الجماعة لمدة ثلاثة أعوام، حتى تمكنه من القيام بالحج، من أجل نجدة الأرض المقدسة، وفي الوقت نفسه لم يقم تقديراً للوعود التي غالباً ماقطعها على نفسه بالالتزام بصكوك الامتيازات والحريات سليمة، وبعدم خرقها، وهذه أمور كثيراً ماورد ذكرها من قبل.

كيف ذهب أسقف نورويك إلى
كنيسة القديس ألبان لجباية العشور

في أيام عيد نقل القديس بندكت، قام أسقف نورويك، بناء على أمر البابا، وكذلك أمر الملك، بالذهاب إلى كنيسة القديس ألبان، ليجبي عشور جميع ممتلكات تلك الكنيسة، باستثناء البارونية، وذلك من أجل استخدام الملك، وبناء عليه جمع كل قساوسة الكنائس في منطقة القديس ألبان، وكذلك جميع الخوارنة والأوصياء على الكنائس نفسها، بما في ذلك

كنيسة غوبول Gopwell أيضاً، حيث تعيش الراهبات حياة عزلة أبدية مع القليل من وسائل العيش، وكذلك كنيستي القديس يوليان وكنيسة القديسة مريم في الحقول، وكان يعيش في الكنيسة الأولى عدد قليل من الرهبان التعساء، ويعيش في الكنيسة الثانية بقايا راهبات فقيرات، يعشن حياة تعيسة، حيث كن لايمتلكن بالكاد أي شيء يكفي لإقامة أودهن، ودعي هؤلاء الناس للاجتماع مع بعضهم ليجري فرض الضرائب عليهم بكل دقة، حيث جرى تحليفهم حول الاقرار بما يمتلكون من وسائل الحياة، كما أنه جمع كل الذين يشغلون مناصب، في ظل كنيسة القديس ألبان، حتى الذين يقدمون الصدقات، وفرض عليهم ضرائب دقيقة حول ممتلكاتهم، معلناً أنه سوف يجري فيها بعد بحث وتدقيق، ليتم معرفة فيما إذا كان الإحصاء غير عادل، وقد عرض الاجازات والتفاويض التي كان يمتلكها: المأخوذة من البابا وكذلك من الملك، وأضاف قائلاً ان القيام بهذه الوظيفة جاء كثيراً ضد إرادته، وأنه تحمل هذا العبء المزعج والثقيل رغماً عنه، وأنه كان مكرهاً على التصرف هكذا بحكم فضيلة طاعته، وقد قام بتنفيذ الواجب باعتدال كبير، وبلطف، آه، ماهذه البدعة التي لم يسمع بمثلها من قبل، فإلى هذا الوقت كان العلمانيون يدفعون العشور بالعادة إلى رجال الدين، والآن بانتكاس المفاهيم وانقلاب أنظمة الأشياء، جرى ارغام رجال الدين، بالاكراه، على دفع العشور إلى العلمانيين، وقد وجدوا على كل حال تعزية واحدة أثناء معاناتهم، هي الاعتقاد —حسبما تقدم الوعد إليهم— بأن المال الذي سوف تجري جبايته من هذه العشور، سوف يتم صرفه، في سبيل نجدة الأرض المقدسة وفي سبيل تشريف الرب ومن أجل كرامة الكنيسة، وكذلك أيضاً سوف يجري الالتزام ببنود صكوك الامتيازات، وفقاً للوعد، لكن: «الأمل يتجدد، وكذلك خداع الشخص الذي يتصوره».

وعلاوة على ذلك، قبل أن يجري إخبارنا بذلك، قام الرومان ووكلاء

الملك، في سبيل تتويج خداعهم، قاموا باتفاق عام، وبشكل سري، بإضافة عامين إلى الثلاثة أعوام، وعلى هذا فإن تلك العشور التي جرى منحها والوعد بها لمدة ثلاثة أعوام، باتت الآن معطاة لمدة خمسة أعوام، على أساس شرط لم يجر الالتزام به من جانبهم.

حول الفيضان غير المعتاد للبحار الشرقية

ووصل في هذه الآونة، بعض وكلاء الملك من سوق القديس بوتولف Botulf, وقد ذكروا بأن شعوب المناطق الشرقية من أوربا، الذين ندعوهم Estrichales و Gutlanenses, قد عانوا من الكارثة التي عانينا منها نحن أنفسنا، وجاءت معاناتهم من البحار الشرقية، التي تجاوزت حدودها المعهودة وغطت السواحل إلى مسافة بعيدة، وما كان مدهشاً أكثر، هو أنه على مسافة من الشاطىء، حيث البحر بالعادة عميق، تراجعت المياه، تاركة بقعة رملية جافة، مثل جزيرة، لم تشرق عليها أشعة الشمس قط من قبل، وبناء عليه يبدو أن الأمور غدت على عكس ما كان مشروعاً من قبل حيث نقرأ في المزمور مايخص البحر قوله: «أنت أعطيت إليهم حداً (يعني إلى المياه) لن يتجاوزه»، هذا وعلينا أن نقر أن كل شيء ممكن مع الرب، وليس للإنسان أن يعرف ذلك، وكأن مثل هذه الأمور الاستثنائية قدمها الرب بمثابة انذارات لنا، لأنه يقول: «سوف تكون هناك علامات في الشمس»، إلخ.

عودة الملك الفرنسي من وراء البحر

وفي حوالي الوقت نفسه، أي أن تقول في أيام عيد نقل القديس بندكت، عاد ملك فرنسا من الأرض المقدسة، مع أن ذلك كان ضد رغبته، لأن نبلاءه كانوا قد استدعوه بإلحاح شديد، من أجل غاية خاصة هي إنهاء الشقاق الذي أثير بوقاحة امرأة، تسببت بموت أكثر

من مـائـة ألف رجل، فجعلت الأطفـال أيتـامـاً، والعقيـلات أرامل، وحولت البلاد الجميلة، وجعلتها بدلاً عن ذلك أشبـه بصحراء، وبعدما نجا الملك الفرنسي، تحت حماية الرب، من غـدر بعض أعدائه في البحر، وصل سـالماً إلى أحـواز مـرسيليـا، إلى قـرب مـونتبللير Montpllier (حيث تنتعش العلوم الطبيـة)، وبقي هنـاك لبعض الوقت للاستراحـة، وليتعافى من متـاعب رحلته البحرية، لأنه قال بأنه لم يختم حجـه بعد ولم يكمله، بل إنه اكتفى بتعليقه لبعـض الوقت، ولهذا السبب ارتدى شعار الصليب بشكل علني، وأعلن قائلاً بأنه قدم مسرعاً إلى مملكته، بناء على إلحاح نبـلائـه، لأنه بصعـوبـة كبيرة جـداً، أمكن اقناع وليم صـاحب هولاندا، وملك ألمانيا، بالقبـول بهدنة قصيرة، والمحافظة عليها من دون مهـاجمة الفلمنكيين والفـرنسيين بألمانه المتهـورين، ولدى وصـول الملك الفـرنسي التقي إلى مملكته، بعـد الكثير من المخـاطر التي كـابدها في بلد أجنبي، وفي البحـر، والآن في بلاده، على الرغم من كل ماعـانى منه من متـاعب وخسائـر، جرى استقبـاله بتشريف لائق وباحترام، وشرع على الفور في اشغـال نفسه في تقـدير الطريقة التي سـوف يتبناها، أي إما أن يتولى اخضـاع أعدائـه القريبين في الوطن بـالقوة، أو أن يقوم بتهـدئتهم بوسيلة العـدل، لكن لم يكن بإمكـانه تهدئـة مثل ذلك العـدد الكبير من العواصف والزوابع من دون التشاور الدقيق والطويل مع مستشاريه.

وفاة هوغ أسقف إيلاي

وغادر هذه الحياة، في هذه الآونة أيضاً، هوغ الصالح، أسقف إيلاي، الذي كـان من قبل راعي دير كنيسة القـديس ادموند، وهو الذي قـاتل بجـدارة وفائـدة، في سبيل الرب، في الكنيستين لمدة أربعين عـاماً، وقـد مـات في عـزبته في التـاسع من آب، وقـد حمل جسـده بكثير من العناية والاحترام إلى إيلاي، حيث جرى دفنه في كنيستـه في بيت مشيخي فخم كـان قـد أسسـه وبناه بالـرخـام على حسـابه الخاص، ومن بين الأعمال

التقوية الأخرى التي كان قد أنجزها، بناء قصر كبير من الحجارة، غطاه بسقف رصاصي، وكان ذلك في إيلاي، كما أنه شيد بعض الأبنية الواسعة والفخمة في أماكن أخرى، وفي الوقت نفسه تجاوز هذا كله ولم يتقيد به، حيث أعد لنفسه قصراً سماوياً بإعطاء الصدقات، وبأعمال خيرية أخرى، وبالطريقة نفسها، مثلما أظهر تقواه عند المائدة الروحية، أي عند المذبح، وبينابيع من الدموع تدفقت من مقلتيه، كذلك فعل عند مائدة التغذية للبدن، حيث أظهر نفسه مضيافاً، وكريماً، ومشرقاً، وهادئاً، وبوفاته ماتت زهرة المعلمين والرهبان، فمثلما كان راعي الرعاة في انكلترا، مثل هذا أشرق وأشع فكان أسقف الأساقفة.

رعد وبرق غير اعتيادي

في عشية عيد صعود مريم المباركة، في هذا العام، وفي حوالي الساعة السادسة، وفي وسط سقوط ثقيل غير اعتيادي للمطر، سمع زئير رعد، وشوهد برق، ترافق معه، وقد وقع على برج كنيسة القديس بطرس في سينت ألبان، فخرق الجزء الأعلى منه بضربة ساحقة مرعبة فتل بها المواد السنديانية، وكأنها كانت مجرد شبكة، ومن المدهش القول، سحقها، وحوّلها إلى شظايا صغيرة، وخلفت النار وراءها رائحة نتنة من الدخان لاتحتمل في جميع أرجاء البرج.

انتخاب توماس أولدبردج لأسقفية كارلآيل

وفي حوالي الوقت نفسه، انتخب الكهنة النظاميون في كارلآيل المعلم توماس أولدبردج Oldbridge بمثابة أسقف لهم، وراعياً لأرواحهم، مع أن الملك استخدم أكثر الالتماسات إلحاحاً مع المطالب الملكية إلى الهيئة الكهنوتية العامة، لانتخاب واحد آخر، إذا كانوا يقدرون منفعة كنيستهم، وكان هذا الآخر هو رئيس رهبان نيوبري، وكان كاهناً نظامياً أيضاً، ومستشاراً خاصاً به، ورجلاً عاقلاً وحكيماً.

وصول نبلاء اغريق إلى بلاط روما

قـدم في صيف هذا العـام بعـض النبـلاء والأشخـاص ذوي المراتب العليا، من الامبراطوريـة الاغريقية، وهم يرتدون ثيـاباً ثمينة، ويمتطون خيـولاً جميلة، وقـد أحاط بهم حـاشيـة مجهزة بشكل جيـد، مع حـوالي الخمسين من خيــول التحميل، ومثل هؤلاء الأشخــاص أمـام البــابا، واتهموه بعبارات قاسية باقتراف ذنوب كثيرة في العقيدة، وبسلوكه جعل جميع الـلاتين يفعلون الشيء نفســه، لأن الـلاتين يقــولون بـأن الروح القـدس قـد جاء من الأب والابن وصـدر عنهما، في حين كـان الموقف المعتمـد من قبل الاغـريق، أنهم أثبتـوا أنه صـدر عن الأب فقط، وهذا الذنب القديم للاغريق، والذي رفضـه اللاتين وشجبوه، قد ثبت برأيهم بوساطـة بينات دينية وتقاليـد قوية ومنطقيـة، مملة حتى نذكرهـا، وكان الموضـــوع الآخـر للخـــلاف فيما بينهم يتعلق فيما إذا كـــان اصطلاحي «انبثاق» و«رسـالة» لهما المعنى نفسه، أم يختلفـان في معناهما، ونحن ندع هذا للمناقشة من قبل الجدليين.

وقالوا أيضـاً بأن «السيمونية» و«الربا» متأصلان في البـلاط الروماني، وهذا مايمكن أن يبرهنوا على صحتـه بأوضح البراهين والأمثلة، وحول هذا انتشر تقـرير في الخارج، من الصعب القـول أنه جانب الحقيقـة، أو على الأقل ابتعـد عن الإيمان الإنسـاني، وعلى كل إنه من دوافع التقـوى الاعتقـاد بأن مثل هذه الأعمال التـي اقترفت بناء على نصيحـة الأشرار، ينبغي التغاضي عنهـا وعدم إلغائها بقـرار بابوي، ولدى فحصهم حول قواعد إيمانهم وقـداساتهم، أعطوا أجوبة مقنعة ومرضيـة، وعندما كانوا في موضع الشك، تقبل بعضهم طواعيـة التوجيهات، وقـدم البابا إليهم هدايا مـلابس قرمـزية ثمينة، لها حواشي بفـراء ثمين، وأحزمة حـريرية مـرصعة بالذهب والفضـة، ولها أبازيم غـالية، وبذلك كـان يمكنهم أن يكونوا فخورين بذلك.

كيف منح البابا مملكة صقلية إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الآونة، عاد المعلم ألبيرت إلى بلاط روما، حاملاً رسالة إلى البابا، بأنه لم يستطع ولابطريقة من الطرق التأثير على الايرل رتشارد، حتى يقبل مملكة صقلية وأبوليا، التي منحت له، أو أن يعرض نفسه وجميع مقتنياته للمخاطرة، مالم يقدم البابا أولاً رهائن جيدين من أسرته بمثابة ضمانة على الاخلاص والصدق، وعلاوة على ذلك، أن يساعده بمبلغ محدد من المال، وذلك حتى ينطلق بالحملة، وأن يسلمه أيضاً بعض القلاع، التي بين يدي البابا، وهم على الحدود، حتى يمتلك أماكن آمنة للتراجع، ورأى البابا من الصعب عليه العمل في ظل تلك الشروط الصعبة، فلم يوافق عليها وقال: «إننا لن نخضع لمثل هذه الشروط الكثيرة»، ثم أضاف المعلم ألبيرت قائلاً: «لقد أخبرني الايرل، بأنك إذا لم تفعل وفق الشروط المعروضة أعلاه، سوف يكون كما لو أن واحداً قال له: إنني أعطيك —أو أبيعك— القمر، تسلق إليه وخذه»، فوجد البابا أن مبادرته مع الايرل لم يكن لها نتيجة، لذلك أضاف قائلاً: «نحن لسنا مهتمين بشأن الدخول بأية معاهدة معه، أو أن تكون لنا أية مصلحة عامة معه»، وكان قانعاً بما عمله حتى الآن، «حيث رمى بشبكته أمام الطيور من دون فائدة»، فأرسل رسلاً سريين إلى ملك انكلترا، سعياً منه لاستغلال بساطته (لأنه عرف بأنه كان سهل التصديق، نزاع نحو خسارته الذاتية»، وعرض عليه مملكة صقلية وأبوليا، وأن يعطيه مساعدة كبيرة للحصول عليها وتمكلها، بحيث يمكنه تنفيذ ذلك من دون إلحاق أي ضرر به نفسه، أي أنه لتحقيق تلك الغاية، هو سوف يحول جميع الصليبيين عن هدفهم الأساسي بالابحار إلى الأرض المقدسة، وسوف يقنعهم باتباعه —ملك انكلترا— ومساعدته في الحصول على امتلاك صقلية وأبوليا، وعندما سمع الداوية والاسبتارية، وبطريرك القدس، وجميع الأساقفة، وسكان الأرض

المقدسة، الذين كانوا واقفين في وجه أعداء المسيح، بهذه الإجراءات حزنوا في قلوبهم، لأنهم سئموا من زيف الحبر الروماني، وخافوا من وقوع الأسوأ، وابتهج الملك —على كل حال— كثيراً تجاه الوعد الفارغ للبابا، وانتفخ قلبه كثيراً بسرور فارغ، وأظهر فرحة نفسه في صوته، وفي حركته، وفي ضحكته، وبشكل مكشوف أطلق على ابنه ادموند لقب «ملك صقلية»، ودعاه كذلك، معتقداً أن الاستحواذ على تلك المملكة بات حقيقة ناجزة، وهمس رسول البابا باذنه، بأن لايبوح بهذا السر، خشية أن يصل إلى علم أصدقائه، الذين كانوا على دراية بمكر البلاط الروماني، فبذلك يجعلونه يحذر ويتخذ احتياطاته، وعند ذلك أرسل الملك إلى البابا جميع الأموال التي كان يمكنه سحبها من خزانته، أو من المسؤول عن أمواله، وكذلك كل ما كان بإمكانه أخذه من اليهود، أو استخراجه بوساطة رجال عدالته المتجولين، وذلك من أجل شن الحرب ضد كونراد، واخضاع الصقليين والأبوليين، وبالنسبة لكونراد، فقد حزن لأن ملك انكلترا وقع في شباك البلاط الروماني، وشكر الايرل رتشارد لعدم السماح لنفسه بالوقوع بالشباك، وأعطاه في الوقت نفسه الانطباع، بأنه تصرف بشكل حكيم، بعدم الوثوق بوعود البابا، وبعدم الاقبال على انفاق أمواله، لأن كونراد كان قد ألمح، أنه حيث كان للايرل القدرة على انفاق قطعة من الفضة، فإنه سوف ينفق قطعة من الذهب، وكان البابا معتمداً على ثرواته الكبيرة جداً، ولذلك ارتقى إلى درجة الوثوق بالذات، ولهذا حشد جيشاً كبيراً من المرتزقة، هو تولى الدفع له، وعهد بقيادته إلى الكاردينال أوكتافيان، ووزع بكرم المال بين الجنود، وأرسل رسالة إلى ملك انكلترا، عندما نقصت لديه الأموال، وأطاع هذا الملك محرضات الشيطان ونهمه، فكتب إلى البابا رسائل تعهد مختومة بالختم الملكي، مخولاً إياه أن يستدين مافيه الكفاية من الأموال، وبكميات وافرة، من التجار الايطاليين، وأوصاه أن لايكون خائفاً حول كمية المال المطلوبة، أو حول الفائدة العالية، لأنه سوف

يسـدد عنه جميع ديـونه، وتعهـد بنفسـه بفعل ذلك، تحت طـائلة عقـوبة فقـدانه لميراثه وحـرمـانه منه، ووافق البـابا على هذا كله، وقبل بأوامـره وقال: «إنه إذا عمل جيداً، فإنه يترك ذلك إلى الرب —الذي هو قاضي القضـاة جميعـاً، والذي يتـولى العناية بالجميع— ليقـرره، وإنه ليس لي الحكم على أعمال البـابا، وبناء عليـه أمر بعمل إعـلان عـام، وكأن ذلك بموجب مـذكرة امبراطورية أو ملكية، ووجـه بذلك الدعوة إلى كل من أراد الحصول على دفع جيـد، للالتحاق بالجيش البـابوي، لأن لديه الآن مبلغاً كبيراً جداً من المال، حيث كـان قد استدانه من المرابين الايطاليين، وبناء عليـه تدفق حشـد كبير من الناس وتجمعـوا مع بعضهم، من أجل الدفع البابوي، وتشكل من الايطاليين المنحطين والجهلة، والعاطلين عن العمل، ومن المخلوقـات غير المؤهلين للحـرب، والخالين من الصـدق والوفـاء، الذين لم يتطلعـوا نحو منفعـة ملك انكلترا أو البـابا، بل كـان همهم وشـاغلهم جمع المال، فهـذا مـا سوف تظهـره نتـائج شـؤون هذه القضية.

وفاة كونراد ملك صقلية

وأعد الملك المذكور، في الوقت نفسـه، ذاته للتصدي للفئات المذكورة أعلاه بنشاط، ودعا واستنفـر رعاياه الطبيعيين، وسكان صقلية وأبوليا، وأتبـاعـه من الجنود الذين معـه، وطلب منهم الوقـوف بشجـاعـة وأن يقـاتلوا في سبيل بلادهم، وأن لايطأطئوا رقـابهم لنير السادة الأجـانب، وقـام يوميـاً بانقـاص تعداد جيش البـابا واضعـافـه، غير أن حب المال الانكليزي زاد حشود أعـدائه، لأن البابا لم يوفر حـافظة نقود الملك، بل أنفق مبالغ هائلة، في رغبته لقهر ملك صقلية، ولإبداله بملك انكلترا في حكم تلك البـلاد واحـلاله محله، ومع ذلك رغـب في إزالة الجميع من التاج، وجعل ادمـوند ملكاً وحيداً، حتى يمكن أن يعمـل وفقاً لإرادته، وأن ينفذ رغبـاته، لأنه هو الذي أوجـده، وأوجد كل مـاهو عائـد إليه،

وأساء البابا في الوقت نفسه إلى سمعة الملك كونراد كثيراً، واتهمه باقتراف جرائم عظيمة —من ذلك على سبيل المثال قتله لأخيه هنري— من أجل أن يثير ملك انكلترا ضده، ومعه جميع الانكليز، واتهمه بالتعامل مع مفاتيح الكنيسة بالرفض والتحدي، كما اتهمه بجرائم أخرى كثيرة، ليس من الضروري أن نذكرها، حيث أنها جميعاً عرضت في كتاب Additaments, وقد سلف ذكرها من قبل في هذا الكتاب، وأثرت الأعمال العدوانية، والتهديدات واللوم على التصرفات، والتشهير بالسمعة، التي تكدست عليه من قبل البابا، كثيراً على الملك كونراد، لابل إنها تجاوزت الحدود، لذلك بدأ يتلاشى تحت ثقل الأسى، وأصيب بعلة شديدة فقد قيل تبعاً لبعض التقارير، بأن السم دس له، وأنه أخيراً التزم فراش موته، ونفس آنذاك عن أساه بالكلمات التالية: «واأسفاه، واأسفاه، كم أنا إنسان تعيس وشقي، لماذا ولدتني أمي؟ ولماذا أنجبني والدي، حتى أكون عرضة لمثل هذا العدد الهائل من الآلام؟ والكنيسة التي توجب أن تكون أماً لأبي ولي، هي بالفعل زوجة أب، والامبراطورية التي ازدهرت منذ ميلاد المسيح حتى الآن قد أخذت الآن بالتلاشي، وقد قضي عليها بالزوال»، ثم إنه لعن يوم ميلاده، ومن ثم لفظ روحه التعيسة والمتألمة.

سرور البابا العارم بوفاة الملك كونراد

وعندما تأكد البابا من موته، عقب على ذلك وهو يشعر بسرور عارم في قلبه، مع ابتسامة ظاهرة على محياه، وعلى نبرة صوته وهو يتحدث مسروراً، حيث قال: «أنا مسرور إلى أقصى الحدود، وعلينا نحن جميعاً، وأبناء الكنيسة الرومانية أن نبتهج، لأن اثنين من أكبر أعدائنا قد أخذا من بيننا، أولهما رجل كنيسة، وثانيهما علماني، فالأول هو روبرت أسقف لنكولن، والثاني هو كونراد ملك صقلية، وقد مات الملك كونراد المتقدم ذكره في شهر حزيران، وقام البابا على الفور بالزحف شخصياً إلى

المقـاطعـات الداخليـة لأبوليـا، وتمكن في مـدة قصيرة مـن الوقت من الاستيـلاء على تلك المملكة كلها تقـريبـاً، وأخضعها لنفسـه، واغتصب حكمها وسيـادتها، غير أن نبلاء المنطقة، التي كانت دوقيـة من قبل، قد شعـروا بالغضب الشـديد تجاه هذا الإجـراء، فـوجهـوا الدعـوة إلى ابن طبيعي لفردريك اسمه مانفرد Manfred, واتحدوا معه، وقدموا إليـه ولاءهم، وعـاهدوه وبايعـوه على أنه مـولاهـم، وبذلك أصبحت الغلطة الأخيرة أسوأ من الأولى، ونهض أعداء البابا وانبعثوا وانتعشوا.

كيف جرى إرسال اثنين من رهبان كنيسة القديس ألبان إلى روما

وفي هذه الآونة أيضـاً جرى ارسال اثنين مـن رهبان كنيسة القـديس ألبـان إلى روما، لمقـاومـة صلف ووقاحـة بعض الأسـاقفة الذين كـانوا يسعون للقيام بزيارات تفقدية في الكنيسة نفسها، على عكس ماقضت به بنود امتيـازاتهم، وكان هذان اللـذين أرسلا بهذه المهمـة هما: وليم أوف هنتنغـدون Huntingdon رئيس رهبـان هيثفيلد Heathfield, واللورد جـون دي بوليم Bulim, اللذان انطلقـا في رحلتهما في اليوم التالي للاحتفال بصعود القديسة مريم، وعادا سالمين.

قحط الأرض بسبب فيضان البحر

في هذا العام نفسه، وفي أيام فصل الخريف، عندمـا يقطف الفلاحون —كما جـرت العـادة— ثمار جهـودهم وأتعـابهم، قـد وجـدوا أن جميع الأراضي الواقعـة في أحواز البحـر، على الرغم من زراعتهـا بكل عناية، وجدوهـا خاوية من أي نوع من أنواع الثمار، وهي مبللة مشبعـة بالملح، لأنه حدث —كما ذكـرنا من قبل— أن استولى البحـر، أثناء الشتاء، على الشـواطىء، وعلى الأراضي المجـاورة لهم، لذلك لم يكن مـرئيـاً هناك لاقمح، لابل حتى الأشجـار والبسـاتين، لم يشـاهد عليهـا لاأوراق،

ولاأغصان، أو فـواكه، ويمكن لنا أن نتصـور مدى الخسـائر من ضرب مثل واحد من بين أمثلـة القضايا الكثيرة، هو أن رئيس رهبان سبـالدنغ Spalding, لم يستطع التفاخر بأنه جنى حزمة واحدة من القمح، من كل تلك الأرض المجاورة لشـاطىء البحر، أما بالنسبـة للأشجار في الغابة، وكذلك أشجار الفواكه، فقد جفوا تماماً، وأصبحوا فقط موائمين للقطع، وعـانت فـلاندرز أيضـاً، وجميـع المناطق البحـرية، من الخسـارة نفسها، وما من إنسـان عجوز كان بإمكانه أن يتذكـر أنه شاهد قط مثل هذا الشيء من قبل، وكانت هناك حقيقة مدهشة قد لوحظت أثناء ذلك الطوفـان الاستثنائي وغير الاعتيـادي، من قبل البحـارة وصـائـدي الأسماك، أثناء ممارستهم لكثير من أعمالهم في أجـزاء ومناطق كثيرة من البحر، وتمثل ذلك باكتشـافهم أثناء إلقاء المراسي، أو خـلال السفر، بأن البحر قد غـادر قيعان تجمعه المعتادة، أو الأقنية، وتـرك بقايا من الرمال فقط في وسط المحيط، وذلـك حيث كـان الماء بالمعتـاد له أعماق كبيرة، هذا وقد تقدم ذكر هذه الأمور من قبل.

أسر بعض النبلاء في بونز في بواتو

وقـــرر في ذلك الـوقت نفســه جـــون دي بليست Plessets, ايرل أوف وورويك Warwick وغيلبيرت سيغـريف مع نبـــلاء آخرين، أنه بما أن كل شيء هـادىء —حسبما بدا— في غسكوني، قرروا الحصـول على اذن بالعـودة إلى الوطن، وبناء عليـه، حصلوا على جـواز مرور للعبور بسلام خـلال المناطق الخاضعة للحكم الفرنسي، وإثر ذلك ركبـوا الطريق، وانطلقوا مسـافرين وهـم يشعـرون بالأمان خـلال تلك البـلاد، يريدون انكلترا، وقرر الايرل، الذي كـان من أصل نورمـاندي، أن يسافـر خلال نورمـاندي، ولدى وصولهم إلى مدينـة في بواتو اسمها بونز Pons, وهي التي كـانت قبل سنوات قليلة مضت مـــدينة أثيرة لدى الملك الانكليزي، فقد جرى استقبالهم بمظاهرة فرح من قبل

السكان، الذين اصطحبوهم إلى مساكنهم وقدموا إليهم هدايا جميلة تعبيراً عن الاحترام، وجرى إخبار الذين عسكروا عندهم بأن يستولوا في الغد على الدروع والأسلحة التي كانت مع الانكليز، وأن لايعطوهم إياها ثانية، لكن توجب عمل ذلك بالخفاء، وغدراً، وفقاً لعادات البواتيين، وبناء عليه، عندما كان الايرل وغيلبيرت سيغريف يحتفلان بكل أمان مع الذين كانوا بضيافتهم، قدم بعض سكان المدينة يركضون إليهما، وهم مرعوبين كثيراً، والكذب في أفواههم يقولون: «انظروا، انظروا، لقد أحدث أصحابكم وأتباعكم اضطراباً في المدينة، ونحن لم نستطع تهدئة الموقف والتعامل مع هذا الاضطراب، وبرفقة الايرل، وغيلبيرت سيغريف، كان آنذاك مقيماً في المدينة بعض الانكليز المشاهير، من جملتهم بارونات وفرسان وأتباعهم، وكان من بينهم فيليب مارميم Marmim, ووليم مانديم Mandim, وعدد كبير آخر، كان من جملتهم حوالي الأربعين فارساً إلى جانب عدد كبير من الأتباع، مساوين في المرتبة للفرسان، وكان بإمكان هؤلاء الدفاع عن أنفسهم بشكل جيد، لو أنهم تسلموا تحذيراً من قبل، واستشرى الاضطراب، وارتفعت صرخات «إلى السلاح»، وطلب الضيفان من مضيفيهم اعطاءهما دروعهما على الفور، لكن الأخيرين لم يفعلوا ذلك، بل احتفظوا بهم مخزونين بعيداً، وفجأة هجمت قوة كبيرة من السكان، كانت شاكية السلاح تماماً، وانقضت على الضيفين غير المتنبهين، وغير المسلحين، واعتقلوهما، ولم يفدهما شيئاً عرض جوازات السفر الممنوحة لهما من ملك فرنسا، من أجل السفر بسلام وأمان خلال تلك المنطقة، وكان بإمكان بعض أفراد تلك الفئة المغادرة، لكنهم لم يفعلوا ذلك، مالم يتم السماح للجماعة كلها التي قدمت برفقة الايرل بالذهاب بعد اطلاق سراحها، ولدى سماع ملك انكلترا بهذه الأحداث غضب كثيراً، لكنه لم يظهر الذي يتوجب عليه فعله، لو أنه امتلك قلب ملك حقيقي، وقام على كل حال بالكتابة لصالحهم إلى سكان بونز، الذين كانوا أصدقاءه

من قبل، وكانوا مواطنين مخلصين، لكنهم عاملوا رسالته بالرفض واحتفظوا بأسراهم في سجن مضيق عليهم، وعاني الأسرى أثناء سجنهم من المزيد من الآلام، لأن ملك انكلترا، الذي كان مولاهم الطبيعي، كان قد كدس عليهم من قبل الكثير من المنافع، وكان غيلبيرت رجلاً نبيلاً وغنياً، وصاحب سمات رفيعة، وعندما كان هناك معتقلاً أصيب بعلة لم يبرأ منها بعد ذلك مطلقاً، بل عاش حياة تعيسة أمضاها حتى موته، وبهذا العمل المكشوف صار البواتيون معروفين مفهومين من قبل الجميع، من الفرنسيين ومثل ذلك من الانكليز، ووضح كم من الغدر مقيم في قلوب البواتيين.

وفاة وليم كانتلوب

وفي حوالي أيام عيد القديس ميكائيل من هذا العام نفسه، مات وليم كانتلوب Cantelupe, وكان رجلاً غنياً، وشاباً وسيماً، مما سبب الحزن لكثيرين، وكان هذا هو الثالث من أسرة كانتلوب، الذي أخذ من بيننا في اطار سنوات قليلة.

حول ولاية غير اعتيادية من الملك

وفي حوالي الوقت نفسه، أي أن تقول في عيد القديس ادوارد، صدر عن محكمة قاضي القضاة الملكية، الاجازة غير الاعتيادية التالية، التي كان من غير الممكن تعليق أي أمل عليها أو توقعه منها:

«**من هنري، الذي هو بفضل الرب، إلخ:** ينبغي القيام بعملية فحص دقيقة في عزب الطوائف الرهبانية، لمعرفة كم هو عدد الفدادين الموجودة فيها، والموائمة لزراعة الأرض المتملكة، وكم عدد الفدادين العادية ينبغي أن يكون هناك، وفيما إذا كان من الممكن عن طريق انقاصهم، أن يجهزوا فداناً في العام، أو أكثر أو أقل، ويتوجب مثل هذا عمل بحث بشأن الفدادين المشكوك بها، وينبغي أيضاً عمل تفتيش لإحصاء الكمية التي

تنتجها كل ملكية بنفسها كل عام، محذوف منها النفقات الضرورية التي يتم دفعها، وينبغي أيضاً إجراء تفتيش لإحصاء كمية العمل والخدمات التي يقدمها الفلاحون سنوياً إلى سادتهم، على حساب أراضيهم، وأيضاً ماذا، وكم، وأي نوع هي الموارد لكل من عزبهم سنوياً، وينبغي أن يقوم بأعمال التقصي هذه أربعة رجال مستقيمين، والذي سيكون العمدة للمكان، ينبغي اختياره من كل عزبة من بين الطوائف الرهبانية.

حول وليم أوف كيلكني الذي شغل منصب قاضي القضاة

وشغل منصب قاضي القضاة في هذه الآونة، واللقب الذي حمله، من قبل وليم كيلكني Kilkenny, وذلك باعتدال ومن دون ملامة، وكان كاهناً ومستشاراً خاصاً للملك، ورجلاً ضليع المعرفة بالقانون ووسيماً في مظهره، وفصيحاً في خطاباته.

انتخاب وليم أوف كيلكني لأسقفية إيلاي

وبعد هذا بوقت قصير، أي إثر الاحتفال بعيد القديس ادوارد، انتخب رهبان إيلاي [أسقفاً لهم] المعلم وليم كيلكني، لأنه كان رجلاً مستقيماً وحكيماً، وواحداً بارعاً في القانون، وكان في ذلك الوقت قاضي قضاة الملك، أو أنه كان يمارس واجبات قاضي القضاة.

موت ثلاثة من رعاة الديرة

وفي حوالي الوقت نفسه، أي أن تقول في إطار شهر وعدة أيام، مات ثلاثة رعاة ديرة في أراضي السباخ Marshlands, وهذه حقيقة غريبة ومدهشة، وهؤلاء هم: راعي دير كرويلاند Croyland, وراعي دير ثورني Thorney, ووليم هاشولت Hacholt, راعي الدير الصالح لرامسي، الذي مات في السابع عشر من تشرين الأول، وهو لم يشغل وظيفة حكم كنيسة رامسي إلاّ لسنة واحدة.

حول رعد ومطر في الشتاء

في اليـوم التـالي للاحتفـال بعيـد القـديسين: كـريسبين Crispin وكـريسبين، انزعجت مسامع الناس جميعـاً وقلوبهم برعد مـرعب، ومع أن ذلك كان في الشتاء، فقد ترافق مع أمطار غزيرة جداً.

اضطرابات في الأنواء

وفي هذا العام أيضـاً، حدث أنه من يوم الصعـود حتى يوم عيد جميع القـديسين، أنه بالكـاد مـرّ يومـان أو ثلاثة أيـام من دون الإثارة ببعض اضطرابات الأنواء.

حالة الأسى والقنوط لدى الملك الفرنسي

شعر الملك الفرنسي بحـالة من الأسى والحزن العميق في قلبه، وظهر وكأنه يرفض كل أنواع العزاء والمواسـاة:وهكذا لم تعد الآلات الموسيقية تمنحـه السرور، ولم تتمكن الخطابات المسليـة أو كـلام المواسـاة تنتـزع الابتسـامـة منه، ولم يشعـر بالبهجـة لدى عـودتـه لزيارة بلاده الأصيلة ومملكتـه، ومثل ذلك تجاه تحيـات الاحترام التي تلقـاها، وكـذلك لدى تلقيه هـدايا الاعتراف التي قدمهـا له رعاياه بحكم أنه مـولاهـم، بل إنه بنظرات نفس مهانـة، مع حزن عميق، وآهات متواليـة، تفكر بأسره من قبل المسلمين، ومن خلال ذلك العار الذي لحق بالمسيحية بشكل عام.

وأخيراً خـاطبه أسقف مستقيم ومقـدس بكلمات مواسـاة قال فيهـا: «احـذر يامولاي المحبـوب ومليكي من إلقاء نفسك في مثل هذه الحيـاة الحزينة المرهقة، فهي مناقضة لبهجة الروح، وهي الأم العقوق للنفوس، وهذا ذنب كبير ولايغتفر، وأذى وانحطاط بالنسبـة للروح القدس، أعد إلى بصيرتك صبر أيوب، وتحمل يوستاس» "Eustace", ثم قص عليـه أخبـار كـامل تاريخ الرجلين، وكيف أن الـرب كـافأ كـلاً من الرجلين، وعلى هذا ردّ عليـه الملك، الـذي كـان أعظم ملوك الأرض

تقـوى قـائـلاً: «لو أنني كنت لـوحـدي الذي تـألمت من الاضطراب والمهـانة، ولو أن ذنوبي لم تقع على الكنيسـة المسكونيـة، لكان بإمكاني تحمل ذلـك بصبر واتزان، لكـن الويـل لي، حيث من خـلالي غلفت المسيحيـة كلها بالاضطـراب والعار»، ولذلك جـرى ترتيل قـداس على شرف الروح القـدس، حتى يتمكن الملك مـن تلقي المواساة منه، الذي هو فـوق جميع الأشيـاء، ومنذ ذلك الحين فصـاعـداً، تقبل بفضل نعمـة الرب الصحة، والمواساة والنصيحة.

كيف جرى تعيين رؤساء الرهبان من الطائفة السوداء رجال عدالة بناء على مبادرة من الملك

وفي هذا الوقت نفسـه، أرسل الملك رجال عدالة إلى عـدة مناطق من انكلترا، لسماع القضايا، ولإعطاء كل واحـد الحق العائد إليـه، ولتحرير البـلاد من اللصـوص وقطاع الطرق، وكـان واحداً من رجـال العـدالة هؤلاء رئيس الرهبـان لمنطقـة بيتربورا Peterborough, الذي التحق بهم بمـوجب فضيلة الطاعـة، التي دان بها ليـس للرب، وليس لطائفـة القـديس بندكت، بـل لملكه الأرضي، وقـد شـاركهم في مـرابح عزبه، ولعله لهذا السبب، جرى تعيينه بالأصل، ولم يحدث هذا في قضية رئيس الرهبـان المذكور فقط، لكن ذلك حـدث أيضاً مع عـدد آخر من رهبـان الطائفـة السـوداء، لإلحاق المزيد من الأذى الكبير بـأحكام اختصاصهم، وكذلك بالنسبة لكنائسهم.

كيف سدّد الملك ديونه من خلال ممتلكات رئاسات الرهبانيات الشاغرة

وفي الوقت نفسـه مـدّد الملك اقـامته غير المثمـرة في غسكوني، منفقـاً مبلغاً هائلاً من المال، ليس فقط الذي كان معه، لابل الذي كان بإمكانه الحصول عليـه، ولقد ورط نفسه، ومملكته، والكنيسـة الانكليزية بديون

ثقيلة، ونحن نعتقد لو أن غسكوني كانت معروضة للبيع، ما كانت لتجلب مبلغاً مساوياً لهم، وعندما أخبر بوفاة رؤساء الرهبان الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وببعض الأساقفة الذين كانوا قد توفوا قبل ذلك، منهم مثلاً أسقف إيلاي، ورئيس رهبان سيلباي Selby, مع عدد كبير آخر نحن لانتذكرهم في الوقت الحالي، أمر بتحويل ممتلكات كنائسهم إلى خزانته، وأن تكرس لدفع الفوائد التي هو مدان بها، غير خائف من القرار الرهيب، الذي جرى التفوه به في لندن، ولم يلتزم مطلقاً ببنود صكوك الامتيازات، حسبما كان قد وافق عليها.

كيف طلب الملك السماح له بالعودة إلى الوطن خلال فرنسا

واستعد الملك في هذه الآونة لعودة سريعة إلى الوطن، بعدما نجح في ترتيب شروط سلام فعالة مع ملك اسبانيا، ولأن الرحلة بالبحر كانت محاطة بمخاطرة كبيرة، قرر تفضيل السفر براً، إذا كان يمكنه ذلك من دون فرصة التعرض للخطر، لكن إذا تمكن من الحصول على الاذن من ملك فرنسا، وكانت لديه أيضاً رغبة برؤية المملكة الفرنسية، ومدنها، التي كان يعرف آنذاك أسماءها فقط، ولذلك قام بعد ذلك بإرسال رسل إلى ملك فرنسا، واختار لهذه الغاية، الذين عدّهم أهل لهذه المهمة، والذين نظر إليهم نظرة عالية، وقدرهم تقديراً سامياً، وبما أنه نجح بالحصول على الاذن بالسفر كما أراد، استعد للعودة إلى الوطن من خلال مملكة فرنسا.

كيف عبرت كونتسة كورنوول القنال لزيارة أختيها

وعندما سمعت كونتسة كورنوول بأن ملك انكلترا على وشك العبور خلال فرنسا، مصاحباً بالملكة أختها، وأن ملكة فرنسا، وهي أخت أخرى لها، سوف تلتقي بهما، حصلت على الاذن من زوجها الايرل رتشارد، حتى تقابل أختيها، وأقلعت محاطة بحاشية كبيرة جداً

ومشهـورة، من أجل أن لاتظهر أحـوالها أدنى من أختيهـا الملكتين، وفي الحقيقـة كان جميـع الذين رافقوها، فـرسـاناً مشهـورين، يمتطون أفضل الخيـول، مع أفضل التجهيـزات، وهم يرتدون مـلابس ثمينـة، وكـانوا محاطين بأتباع كثيريـن، حتى يظهروا أنهم يستحقون الاعجاب من قبل الفرنسيين.

كيف ظلم الأسقف المنتخب لوينكستر رهبانه

كـان في الوقت نفسه أخـو الملك ايثيلمار، الأسقف المنتخب لوينكستر يمارس أقسى أنواع الظلم ضد رعاياه الرهبان، وإذا ما أقدم الإنسان على ذكر ذلك بالتفصيل، سوف تنهمر دموعه رحمة بهم، فقد أبقاهم محبوسين في كنيستهم صـائمين لمدة ثلاثة أيام وزيادة، وكان ذلك قبل حلول عيـد القــديس ميكـائيل، ولذلك فـإن بعضهم هدهـم الجوع، وآلام الروح، ومرارة النفس، ولذلك لم يعودوا مطلقاً بعد ذلك إلى أوضاعهم الصحية الصحيحة، وبناء عليـه بحث رهبان الدير عن أماكن أكثر أمـاناً للالتجاء إليهـا، وذلك انتظاراً لأوقـات أفضل، وتفـرقوا في حـالة من التعـاسـة، وذهب بعضهم إلى ديـر القـديـس ألبـان، وبعضهـم إلى ردنغ، وبعضهـم الآخر إلى أبنغـدون Abingdon, وذهب آخرون إلى ديـــرة أخرى تابعة لطائفـة الرهبان السـود، ذلك أنهم أرغموا على الذهاب إلى المنفى، والتسول، وأرغمـوا على العيش على صدقـات الآخرين، ولدى افتراقهـم قـال أحدهم لـلآخر وهم يبكون: «إننا بعـدل نستحق الذي نعـاني الآن منه، لأننا أثناء قيامنا بالانتخـاب خفنا من الإنسان، ولم نخف من الرب، وذلك بترقيتنا إنسـاناً غير جدير بذلك تمامـاً، حيث رفعناه إلى مثل ذلك المنصب العــالي، ووضعنـاه في مكان شغله فيها مضـى عـــدد كبير من القـديسين، والأشخـاص ذوي النفوذ، فلقـد قبلنا إنسـاناً شـاباً، سنوات عمره قليلة، انساناً قيل بأنه لم يمـدّ يده قط إلى العصا في المدرسة، وهو لم يستمع قط إلى مبــادىء العلوم الفكرية، أو حتى للقـواعـــد، وهو رجل

نهب الأسقفية التي استولى عليها، حتى قبل أن يكون أسقفاً، وهو إنسان جاهل بلغتنا، وبالكتابات المقدسة وبالواجبات الكهنوتية، وهو إنسان لايعرف حتى كيف يتكلم، أو كيف يتلقى الاعترافات، أو أداء أي واجب روحي نحو الرب»، وجرى استقبالهم في دير القديس ألبان وفي أماكن أخرى بلطف، ووجدوا صدر اللجوء مفتوحاً لهم، بين الرهبان، وقام الملك الذي كان قد تولى بوساطة التماساته الملكية، وبضغوطه غير الأخلاقية والقانونية، فارتقى بالأسقف المنتخب إلى المنصب الأسقفي، قام بمخاطبته لصالح الدير، وانتقده واتهمه بالعقوق، وأنه جلب على نفسه العار، مقابل التكريم الذي أضفي عليه، وأنه دفع مقابل المنافع المضاعفة، جميع أنواع الشرور، وأن هذا التصرف والسلوك مضاد لوعود الملك المقررة، ولم يصغ الأسقف المنتخب إلى أوامر الملك أو التماساته، بل كدس التهديد فوق التهديد، ووضع مكان الذين غادروه وتخلوا عنه، وعمل رهباناً من الرعاع الجهلة، وأشخاصاً غير مناسبين بالمرة، وذلك في سبيل إهانة الدين مع جميع الطوائف الرهبانية، وجرى فرض أحد الأشخاص بالقوة ليكون رئيساً للرهبان، وذلك بسبب تملقه، فتولى احلال الفوضى وقلب مفاهيم الأشياء كلها، وحدث هذا في الوقت الذي كان فيه رئيس الرهبان الصحيح يبحث عن مكان للجوء، حيث ذهب إلى روما ليبقى حتى يهدأ غضب الأسقف المنتخب، وتمكن هناك بسبب وضوح عدالة قضيته من الحصول على كثير من الحظوة، مع أن ذلك لم يكن من دون دفع للمال، لكن كل جهوده تحولت لأن تكون من دون فعالية، بوساطة هدايا الأسقف المنتخب، (الذي منعت وكالته العدالة بشكل عام، وخاصة عدالة روما)، وجرى تبديد مقتنيات وممتلكات تلك الكنيسة الفخمة، وتلاشت الطائفة الرهبانية،ولخجلنا وعارنا يمكن القول بأن جميع الاحترام والتوقير للدين بات قليل القيمة، وكانت هذه هي الكنيسة الثالثة في انكلترا، التي أعطيت بسبب الزواج من قبل ملك انكلترا إلى أجانب (لأن ولاية الأمير نقضت الامتياز،

وإرادته خرقت المنطق)، وهذه الكنائس هي الكنيسة الكاتدرائية الفخمة في هيرفورد، وكنيسة وينكستر التي هي أكثر فخامة، والأكثر فخامة من الجميع هي رئاسة أساقفة كانتربري، وقد عدّت هذه الكنائس الثلاث هي الأكثر شهرة في انكلترا، ومن المتوجب أن يكن تحت حكم وحماية الذين ينبغي عدّهم الأكثر جدارة وصلاحاً من بين السكان المحليين، لكن خشية من أن يجلب ذكر الحقيقة العداوة (الأمر الذي غالباً مايحدث) فإن هذه الأشياء مع أنها حقيقية وواضحة، ينبغي المرور بها صامتين، لأن هذا أمر صعب في قضية كتّاب التاريخ، ذلك أنهم إذا ماكتبوا الحقيقة، أثاروا الناس، وإذا ماقاموا بتدوين ماهو زائف، يكونون غير مقبولين من قبل الرب، الذي يفصل مابين الذين يقولون الحقيقة والذين يتملقون، ويفرق بينهم.

كيف رهن الملك بطيش نفسه ومملكته للبابا

وفي هذه الآونة أيضاً، تصرف الملك وعمل بشكل غير لائق وغير نافع، فرهن نفسه ومملكته للبابا (وهو عمل أيضاً ما كان يجوز ولاينبغي عمله) تحت طائلة عقوبة الحرمان من الميراث والتجريد من الملك، وذلك بتعهده بدفع جميع الأموال التي سوف ينفقها في حملته الحربية لصالحه —الملك— وحثه الملك أن لاييأس من التزود بالمال، بل عليه متابعة تنفيذ ماتولى القيام به من دون تردد، وأن يردع جميع الذين يقفون ضده في تنفيذ خططه، وفي سبيل ذلك سوف يزوده بكميات وافرة من جميع الأشياء المحتاجة، من بئر انكلترا الذي لاينضب، وبناء عليه قام البابا الذي لايمتلك أية عاطفة نحو انكلترا، فاستدان بشكل واسع، لابل في الحقيقة بشكل تبديدي، من المرابين الايطاليين، الذين يتجولون باسم تجار، وأصبحت انكلترا الآن بوساطة استخراجات البابا، وخداع الملك وغشه، أمة مسترقة من أدنى المستويات، وقد أرغمت على دفع هذه الديون، لكن بقدر من الرب وحكمة منه، لم يجلب هذا المبلغ الهائل

من المال، الذي نهب واستخـــرج على هذه الصــورة، أيـة منفعــة على الإطلاق، لاإلى البـــابا، ولا إلى الملك، حسبما ستظهـــر الحكايـة المقبلة بتفصيل أكبر، في وقتهـا المناسب، آه كم هو رأي جـديـر بالثناء وكم هو أكثر صلاحـاً، ويستحق التصديق الرأي التالي، مع أنه صـدر عن شاعر كـافـر ومشرك، لكنه لم يكن من دون إيمان بـذاته عندمـا قـال: «مـا من نتيجة صالحة تنتج عن غنيمة قذرة تم اكتسابها بالحرام».

موت البابا أنوسنت الرابع

وفي هذه الآونة أيضاً، أي في اليـوم التالي لعيد القديس نيقـولا، مات البابا انوسنت الرابع في نابل، حيث أصيب بعلة مضاعفة مزدوجة، فهو منذ أن تلقـى الضربة على جنبـــه من عصـــا الراعي روبـرت، أسقف لنكولن، أثناء غضبـــه، كما ذكـرنا من قبل، أخـذ يعـــاني من ذات جنب متعذرة الشفـاء، كما أنه منذ أن هزم جيشه، وجـرى تفريقـه وتشتيته من قبل عدوه كـونراد، لم ينعم بالصحة، لاعقليـاً ولاجسدياً، ولذلك أذعن بشكل منطقـي لنفــوذ الموت وقبل بـه، وعندمـــا تمدد وهو بين الموت والحياة، ورأى أقرباءه واقفين من حوله يبكون وينوحون، وكانوا حسبما كـانت العادة هناك يولـولون، ويمزقـون شعـورهم وثيابهم، رفع عينيـه وعليها غشاوة الموت، وقال لهم: «لماذا تبكون أيتها المخلوقات التعيسة؟ ألم أترككم جيمعـــاً أغنيـاء؟ مـــاالذي تريدونه أكثـــر من ذلك»، وبهذه الكلمات لفظ روحه ليمضي إلى مواجهة القضاء القاسي للرب.

حول رؤيا مرعبة تتعلق بالبابا نفسه

وحـدث في الأسبوع نفسـه، الذي غـادر فيـه انوسنت الرابع هذه الحيـاة، أن شوهدت رؤيا رائعـة مـريعة من قبل واحـد من الكرادلة، الذي أخفي اسمـه لأغـراض احترازية، فقـد ظهـر له، بأنه كـان في السماء، أمام جلالة المولى، الذي كان جـالسا على كرسي القضاء، وقد

وقفت على يمينه أمه العـذراء المباركـة، في حين ظهر إلى يسـاره امرأة ذات شخصيـة نبيلة، ومظهر محترم، وكـان ذراع هذه الأخيرة ممدوداً، وقـد حملت بيدها اليسرى نوعـاً من أنواع المعابد، كتب على واجهتـه بأحـرف من ذهب «الكنيسـة»، وسجـد انوسنت الرابع أمـام الجلالة اللاهوتيـة، ثم إنه جثا على ركبتيـه، وسأل العفـو، ويديه متشابكتـان، ومـرفوعتـان، وأن لايحاكم، وعلى كل حـال، تكلمت السيـدة النبيلة ضده قـائلة: «آه، أيها الحكم العدل، أعط حكماً صحيحـاً، لأنني أتهم هذا الرجل بثـلاث نقـاط: وكـانت النقطة الأولى، هي أنـك عندمـا أسست الكنيسـة على الأرض، أوجدتها مع الامتيازات التـي صدرت عنك نفسك، فلقـد قـام هذا الرجل بتحويلهـا إلى أذل أنواع العبيـد، والنقطة الثـانيـة هي أن الكنيســة تأسست من أجل انقــاذ المذنبين، ولتكسب نفوس التعســاء، لكنه جعلها مـائدة صراف للمال، والنقطة الثـالثـة هي أن الكنيسة بُنيت على ثبـات الإيمان، وعلى العـدل، وعلى الصـدق، لكن هذا الرجل جعل الإيمان والأخـلاق يترنحـان، وأزال العـدالة كليـاً، وغطى الصدق ووضعـه في الظل، وبناء عليـه قـدّم لي حكماً عـــادلاً»، ثم قـــال الرب: «اذهـب وتسلم جـــزاءك وفقـــاً لاستحقـاقك»، وهكذا حمل وأبعـد، وخـاف الكاردينال وارتعب من صـدور هـذا القـرار الرهيب، ولذلـك أفـاق مـذعــوراً وهو يصرخ بصـوت مــرتفع مع الخوف، وأصبح مثل إنســان فقـد السيطرة على نفســه، لابل بالحقيقـة فكر الجميع بأنـه بات مجنوناً، وعلى كل حـال، عندما بدأ حزنه يخف، شرع يحكي تفـاصيل رؤياه بشكل كامل، حتى أصبحت منشــورة في ذلك الجزء من المنطقـة، وأزعجـت هذه الرؤيا (التي لاندري فيها كـانت من ابداع الخيال أم لا) وسببت رعبـاً عظيماً لكثير من الناس، ليجعلهـا الرب مـؤثـرة حتى يصلح الناس أنفسهم ويقوّموا سلوكهم.

كيف جرى جعل الاسكندر الرابع بابا

أما وقد جرى نقل البابا انوسنت من بيننا، جرى تعيين رجل آخر مكانه، الذي كان حسبما أفاد أحد التقارير لطيفاً ومتديناً، ومواظباً على الصلوات، ودقيقاً في تقشفه، ومن السهل التغرير به، وقيادته بعيداً بهمسات الاطراء، وكان ميالاً إلى الاصغاء إلى الاقتراحات الشريرة من الأشخاص الشرهين، وكان من قبل أسقفاً لأوستيا، وحفيداً للبابا غريغوري، الذي توفي مؤخراً، حيث كان هو الذي ارتقى به إلى أسقفيته، وقد اتخذ الآن لنفسه اسم الاسكندر الرابع، وقام فور تعيينه بالكتابة إلى جميع أساقفة الكنائس، يرجوهم بتواضع الصلاة من أجله، حتى يعطيه الرب القدرة، والنعمة والارادة، ليحكم الكنيسة بشكل موائم، من أجل منحه لقب نائب رحيم للرب، وخليفة لائق لبطرس، وأعطى بطريقة التصرف الجديدة هذه (لأن ما من واحد من خلفاء ذلك الرسول تصرف هكذا) آمالاً جديدة، وبعثها في قلوب الكثيرين، لكن هذه السذاجة سمحت على الفور للتعرض للخديعة من قبل اخوانه الكرادلة من حول شخصه، واعتماداً على احدى الروايات تمت ممارسة عملية تزييف غير اعتيادية بوساطة ختمه للمراسيم، وقد عزي ذلك ونسب إلى سذاجة البابا، ومع ذلك أنا لاأعفيه في هذه القضية، ولاأقدم له العذر، لأن البابا ينبغي أن يكون إنسانا لايخدع ولايمكن خداعه، لأن هاتين السمتين، غير مقبولتين في رجل يحتل مثل ذلك المنصب الرفيع، وعرضة للملامة، فبناء على نصيحة بعض الأشخاص الذين وثق بهم ثقة عمياء، وصدقهم من قلبه، وكذلك بناء على اقناع وضغوط سلفه البابا انوسنت الرابع، الذي عندما كان على وشك الموت حث الكرادلة على ذلك، قام بمتابعة الحرب بنشاط، الحرب التي سلف شنها ضد شيعة فردريك، وخاصة ضد مانفرد، الابن الطبيعي، لكن الشرعي لفردريك، ولقد كان —في الواقع— من الصعب بالنسبة للبابا

في بداية ولايته معارضة مثل هذه الوصايا، وعدّ النصائح التي قدمت إليه من قبل الرجال الدنيويين، صحيحة ومقبولة، ولاسيما وأنهم كانوا منصرفين نحو الأبهة الدنيوية، ولذلك أخبروه بشكل خاص، أنه سوف يكون أمراً متناقضاً، ومعاكساً لديانة الكنيسة، السماح ببقاء مدينة في الأراضي المسيحية مسكونة، لابل محشوة ومليئة من قبل المسلمين، وهي المدينة التي كان فردريك قد أسسها، وبناء على التعليل المخادع اتخذ البابا قراره، وكذلك بناء على تعليل آخر، قال إنه من غير المنطقي، ولايجوز إنسانياً احباط ملك انكلترا في آماله، حيث تصور بناء على وعود الكنيسة، بأنه سوف يحصل على مملكة صقلية، ففي سبيل ذلك كان قد أنفق مبالغ لاحدود لها من المال.

رغبة الرومان بتهديم نوسيرا

منذ بعض الوقت الذي مضى، كان الامبراطور فردريك قد بنى المدينة، التي أشير إليها أعلاه، والتي سميت نوسيرا Nucera [منصورة؟]، وقد أسكنها بالمسلمين، وباتت بيتاً، وملجئاً، وموضع ثقة بالنسبة له، وقد وجهت الملامة إليه بحدة على هذا العمل، وكان يرد على منتقديه، بتقديم حجة قوية دفاعاً عن خطيئته، من أنه يؤثر أن يعرض مثل هؤلاء الناس إلى مخاطر الحروب، التي قد تتفجر في المملكة أو في الامبراطورية، على تعريض المسيحيين، لأنه بالنسبة لسفك دماء المسيحيين، عليه أن يقدم حساباً دقيقاً أمام المحكمة الرهيبة للحاكم الأعظم، وبناء عليه سمحت الكنيسة بها، وتغاضت عنها، ولكن بما أنها أصبحت في الأيام الأخيرة، موضع لجوء، ومصدر اعتماد وثقة لكونراد المتوفى أخيراً، والآن وفق الطريقة نفسها مكان لجوء ونجدة لمانفرد، صارت مثل شوكة في جنب الكنيسة الرومانية، فالناس الذين قطنوا في نوسيرا كانوا مسلمين، ولقد كان بينهم نحواً من ستين ألف جندي، جاهزين للدخول في القتال، وكانوا مخشيين أكثر، لأنه كان من عادة

المسلمين في الحرب، استخدام رماح مسمومة، والنفوط، وأنواع أخرى من الأسلحة الشائنة وأدوات الحرب.

الحصار غير المثمر لنوسيرا

وبناء على موافقة الإخوة الكرادلة، وبناء على نصيحة مركيز منحط وخائن، جعل من نفسه صديقاً خاصاً للكنيسة، وذلك بقدر ما أمكن بالمظهر، جمع البابا جيشاً كبيراً، وأعاد حشد وتجميع الجيش الذي كان قد هزم بشكل مهين، وتمزق، وكان تحت قيادة الكاردينال وليم، حفيد البابا انوسنت الرابع، المتوفى أخيراً، الذي أنهى الرب حياته الضعيفة بموت سريع، وتمكن البابا من حشد قوة كبيرة، وجدها قد وصلت إلى ستين ألف رجل محارب، وقد أمطرهم بكميات كبيرة من المال، حيث لم يظهر الرحمة نحو خزانة ملك انكلترا، وعهد بقيادة هذا الجيش العملاق إلى الكاردينال أوكتافيان Octavian وإلى المركيز المتقدم ذكره، وأرسل هذا الجيش من أجل تدمير مدينة نوسيرا، وسحق قوة مانفرد وأعوانه وحلفائه من الصقليين والأبوليين، وعندما وصل جيش البابا إلى أمام المدينة المذكورة، لم يتجرأ —على كل حال— على مهاجمته، كما أن سكان المدينة لم يتجرأوا على الخروج منها، ومهاجمة هذا الجيش، ومع أن رجال البابا عزموا على الشروع بالعمل، لم يحرزوا أدنى تقدم، بل أضاعوا وقتهم في التأخيرات، مما سبب المزيد من النفقات والأضرار لملك انكلترا، ولقد قاموا على كل حال بتهدئته وتطمينه بوعود بأشياء عظيمة.

كيف قام ملك إنكلترا بنقل جسد أمه في داخل الكنيسة فونتفرولت

وفي هذه الآونة أيضا، وصل الملك إلى دير فونتفرولت Fon-tevrault النساتي الفخم، حيث قدم صلواته عند قبور أجداده

الذين كانوا مدفونين هناك، ولدى وصوله إلى قبر أمه ايزابيلا، الذي كان في المقبرة، تدبر نقل جسدها إلى داخل الكنيسة، وقد بنى فوقه ضريحاً، وقدم هناك، وكذلك في أماكن أخرى في الكنيسة نفسها، بعض الأقمشة الحريرية ذات الثمن المرتفع كثيراً، وبذلك نفذ وصية ربنا بقوله: «أكرم أباك، وأكرم أمك» إلخ.

كيف ذهب الملك إلى بونتغني لتقديم صلواته

وشعر الملك بنفسه أنه لم يكن على مايرام، ولذلك مثلما فعل من قبل، ذهب الآن إلى بونتغني، وبعدما صلى عند مزار القديس ادموند، استرد صحته، وهناك أيضاً قدم طيلسانات وبعض الهدايا الملكية الأخرى الثمينة.

كيف جرى السماح للملك بالسفر خلال فرنسا

رغب ملك انكلترا منذ زمن طويل رغبة شديدة بزيارة المملكة الفرنسية، ولزيارة عديله بالزواج ملك فرنسا، وكذلك ملكة فرنسا، التي كانت أختاً لملكة انكلترا، وأن يشاهد أيضاً مدن فرنسا وكنائسها، وأخلاق وطبائع وعادات الفرنسيين، وأن يرى أيضاً بيعة الملك المشهورة في باريس، مع الآثار المقدسة غير الاعتيادية التي تحتويها هناك فيها، وبناء عليه أرسل رسلاً خاصين إلى الملك الفرنسي، فحصل على إذن مفتوح وجواز سفر وأمان، وبناء عليه قام على الفور بحشد أهل بيته وحاشيته، ووجّه طريقه نحو مدينة أورلين.

استقباله التكريمي في جميع أرجاء فرنسا

وأعطى الملك الفرنسي، صاحب القلب اللطيف، في الوقت نفسه، أوامر دقيقة إلى نبلاء البلاد، وإلى سكان المدن، التي من خلالها سوف يمر ملك انكلترا، حتى يزيلو الأوساخ، وقطع الأخشاب الحاجزة، وكل شيء مزعج ولو إلى حد بسيط، وبتزيين الشوارع بالأعلام،

وواجهات الكنائس والبيوت بالأوراق، وبأغصان الأشجار، وبجميع أنواع التزيينات الأخرى الممكنة، وباستقباله لدى وصوله بقرع النواقيس، والموسيقى، وبمظاهر الفرح الأخرى، وأن يلبسوا ملابس الأعياد، وأن يقوموا بخدمته أثناء اقامته في أي مكان.

كيف ذهب الملك الفرنسي إلى استقباله

وعندما علم الملك الفرنسي بوصوله، ذهب لاستقباله في تشارترز Chartres, ولدى رؤية أحدهما الآخر، اندفعا نحو العناق، وضم أحدهما الآخر بين يديه، وبعد تبادل التحيات، دخلا في المحادثات، وأمر الملك الفرنسي أيضاً بكرم منه، بتقديم كميات وافرة من الامدادات الجيدة والثمينة إلى ملك انكلترا، على حسابه الخاص، وذلك طوال اقامته في مملكته، ومن جهته تقبل ملك انكلترا ذلك بلطف وشكر، وكان في حاشية الملك ألف فرس جميل، امتطاها رجال ذوي مكانة ومراتب، وذلك بالاضافة إلى العربات، وحيوانات التحميل، وكذلك عدد كبير من الخيول المنتخبة، وسبب جمال رتل موكب الملك وجدته دهشة عظيمة إلى جميع الفرنسيين، الذين تزايدت أعدادهم بشكل مدهش يومياً، مثلما تزداد مياه النهر بالروافد، لأن ملكة فرنسا قدمت مع أختيها كونتستي أنجو وبروفانس، لاستقبال اختيهم والترحيب بهما، وهما ملكتي انكلترا، وكونتسة كورنوول، اللتان كانتا مع ملك انكلترا، وكانت أمهم حاضرة لذلك اللقاء، أي الكونتسة بيترايس صاحبة بروفانس، التي كانت مثل نيوبي Niobe أخرى يمكنها أن تنظر بزهو نحو بناتها، حيث لم يكن هناك بين النساء في جميع أرجاء الدنيا، ولا أم يمكنها التفاخر بثمار رحمها، مثلما كان يمكنها أن تفعل بالنسبة لبناتها.

وصول ملك إنكلترا إلى باريس

عندما علم الباحثون في باريس، خاصة الذين كانوا من أصل انكليزي، بوصول هؤلاء الأشخاص المشهورين: الملكان، والملكتان، والنبلاء، علقوا دراساتهم ومناقشاتهم لبعض الوقت، لأن ذلك كان تماماً موسماً للاحتفال، فجهزوا شموعهم، وثياب الاحتفالات (التي تعرف بشكل عام باسم Cointinses) وجميع الأشياء المحتاجة لاظهار سرورهم، ثم حملوا أغصان أشجار وورود، ومضوا يغنون مصحوبين بأدوات موسيقية، وساروا لاستقبال الزوار القادمين، وكان تعداد الواصلين، والذين خرجوا إلى استقبالهم كبيراً جداً، ولم يشاهد قط من قبل في العصور الماضية، مثل هذا الفرح والمشاهد الاحتفالية، مثلما حدث في المناسبة الحالية، فخلال ذلك اليوم كله، والليل، واليوم التالي، كانت المدينة مزينة بشكل جميل جداً، وأمضى الباحثون وسكان المدينة الوقت، وسط تعاريش زاهية من أوراق الأشجار والورود، وانشغلوا بالغناء والفرح، مع كل أبهة هذا العالم وسروره.

كيف اتخذ ملك إنكلترا مقراً لإقامته في المعبد القديم

وعندما وصل الملكان وأتباعهما (الذين يمكن أن يعدا جيشاً كبيراً) إلى باريس، واستقبلوا بمثل هذا العدد الكبير من الشطر المتميز من المجتمع الباريسي، شعر الملك الفرنسي بسرور عارم، وشكر الكهنة لتقديم مثل ذلك التشريف العظيم، ثم إنه خاطب ملك انكلترا قائلاً: «ياصديقي إن مدينة باريس موضوعة تحت تصرفك، فأين تود وترغب اتخاذ مكان إقامتك؟ هناك قصري في وسط المدينة، فإذا أحببت اتخذ مكان اقامتك هناك، فإذا كانت هذه رغبتك فإن رغبتك سوف تنفذ، أو إذا كنت تفضل اتخاذ مكان اقامتك في المعبد القديم، خارج المدينة، الذي هو أكثر سعة، أو في أي مكان آخر، فذلك يمكن اعداده»، واختار ملك انكلترا، مكان اقامته في المعبد القديم، لأن

حاشيته كان عددها كبير جداً، وكان يوجد في ذلك البناء غرفاً كافية، لإقامة جيش، ففي بعض الأزمان الماضية والمناسبات كان جميع الداوية الدوليين يجتمعون هناك، في هيئة كهنوتية عامة، فكانوا يجدون وفرة من المرافق هناك، فلقد كان ضرورياً بالنسبة إليهم جميعاً الإقامة في بناء واحد، لأنهم كانوا أثناء اجتماعاتهم الكهنوتية العامة يتباحثون في قضاياهم وأعمالهم أثناء الليل، ومع أنه —على كل حال— توفر هناك أماكن كثيرة في ذلك البلاط، لقد كان عدد الذين اجتمعوا هناك كبيراً في هذه المناسبة إلى حد أن كثيرين أرغموا على النوم في الهواء الطلق، ولم تكن البيوت المجاورة، والممتدة إلى الشارع وتدعى الـ Greve, كافية لإقامتهم فيها، ووضعت الخيول في أبنية أفضل جرى تكييفها لتكون اسطبلات.

كيف أمر ملك إنكلترا بإعداد احتفال للفقراء

وبعدما اختار ملك انكلترا، المعبد القديم ليكون مكان إقامته، أعطى أوامر بأنه ينبغي في الصباح المقبل دعوة الفقراء للاحتفال هناك، بقدر ما يمكن للمكان أن يستوعب، ومع أن عدد الضيوف الذين قدموا كان كبيراً جداً، فإنهم جميعاً، لابل كل واحد منهم جرى تزويده بوفرة من اللحم، والسمك، والخبز، والنبيذ.

زيارة الملك للأماكن المقدسة في باريس

وفي الصباح التالي، عندما كان الفقراء يجري تزويدهم بالأطعمة، في الساعة السابعة والتاسعة، قام الملك الانكليزي بتوجيه وقيادة من الملك الفرنسي بزيارة البيعة الجميلة، في قصر الملك الفرنسي، وبعدما شاهد الآثار المقدسة المعروضة هناك وتفقدها، أدى صلواته، وقدم بعض الهدايا الملكية، ووفق الطريقة نفسها أيضاً، زار أماكن أخرى مشهورة في المدينة، حيث صلى بتقوى صحيحة، وقدم تقديمات.

كيف اشترك الملكان مع عدد كبير جداً من النبلاء في وليمة هناك

وجرى في اليوم نفسه، حسبما كان مرتباً من قبل، أن قام الملك الفرنسي والملك الانكليزي وعدد كبير آخر من المرافقين، تألفوا من حاشية الملكين، بعمل وليمة في القصر الكبير في المعبد القديم، وكانت جميع الأجنحة في البناء مليئة بالضيوف، ذلك أنه لم يكن هناك أية بوابين أو جباة للرسوم عند الباب الكبير، بل تركت المداخل مفتوحة للداخلين، وجرى تقديم وجبة غنية إلى جميع القادمين، وكانت هناك كميات كافية من جميع أنواع اللحوم، منحت الشبع لجميع الآكلين، وبعد تناول الطعام أرسل ملك انكلترا، إلى النبلاء الفرنسيين، في أماكن اقامتهم، كؤوساً ثمينة من الفضة، والأبازيم الذهبية، والأحزمة الحريرية، وهدايا أخرى، كانت لائقة بالتقديم من قبل مثل ذلك الملك القوي، وقد تسلمها النبلاء بالشكر.

حول فخامة الوليمة

لم يحدث قط فيما مضى من أيام، أن جرى إقامة مثل هذه الوليمة الفخمة، لافي أيام عيد الفصح، ولا في أيام آرثر، أو شارل، لأن هذه الوليمة كانت مجهزة بأنواع غنية من الأطعمة، وكميات وافرة من المشروبات اللذيذة، والخدمات الجاهزة للخدم، والتنظيم الذي شمل الضيوف، والهدايا الكبيرة والجميلة، وكان حاضراً فيها أيضاً شخصيات استحوذوا على التبجيل الأعلى والاحترام، ولم يكن أعظم منهم وأعلى ولايمكن أن يكون هناك، ولا من يساويهم، لابل كان من الصعب أن تجد مثلهم في أنحاء العالم.

النبلاء الذين حضروا الوليمة

وقدمت الوليمة في القاعة الكبرى في المعبد، وهي التي كان معلقاً فيها —وفقاً لعادة القارة— أكبر عدد من الترسة، كان يمكن للجدران

الأربعة أن تستوعب، وكان بين الترسة المشاهدة هناك ترس رتشارد، ملك انكلترا، وحوله قال أحد الأشخاص الأذكياء الذين كانوا حاضرين لملك انكلترا:

«لماذا دعوت يامولاي الفرنسيين لتناول الطعام معك في هذا البيت؟ انظرفهناك ترس صاحب القلب النبيل، الملك رتشارد، فضيوفك لن يستطيعوا الأكل دون خوف وارتجاف»، لكن لم يزد على هذا، وقد انتظم الضيوف وفق النظام التالي: فقد جلس الملك الفرنسي، الذي كان ملكاً على جميع ملوك الأرض، بسبب الميرون السماوي الممنوح له، والذي مسح به، وأيضاً بسبب قوته، وعظمته بالفروسية، جلس في الوسط، بينما جلس ملك انكلترا على جانبه الأيمن، وملك نافار على جانبه الأيسر، وعندما حاول الملك الفرنسي وسعى لعمل ترتيبات أخرى، وأن يضع ملك انكلترا في الوسط، وعلى مقعد أكثر تميزاً، قال الأخير له: «ليس هكذا ياسيدي إنه أكثر لياقة، ومواءمة أن تجلس في الوسط، لأنك مولاي، وهكذا سيكون الأمر، والسبب واضح»، وعلى هذا رد الملك الفرنسي بصوت منخفض قائلاً: «يمكن لكل واحد أن يحصل على حقه دونما ضرر، لكن التجبر الفرنسي لن يسمح بذلك»، وعلى كل حال، يكفي ماقيل حول هذا، فقد جلس بعدهم الدوقات، وفقاً لتسلسل مراتبهم، وكان هناك آخرون، كان تعدادهم خمسة وعشرين، وقد احتل هؤلاء وشغلوا أكثر الأماكن تميزاً، حيث أنهم مزجوا مع الدوقات، وإلى جانبهم كان هناك اثني عشر أسقفاً حاضرين المأدبة، وقد نال بعضهم الأفضلية على بعض الدوقات، غير أنهم ظلوا متمازجين مع البارونات، ولم يتم تعداد مشاهير الفرسان الذين كانوا حاضرين، وكان هناك ثماني عشرة كونتسة، ثلاث منهن كن أخوات للملكتين المتقدمتي الذكر، وكن: كونتسة كورنوول، وكونتسة أنجو، وكونتسة بروفانس، وكن جميعاً جديرات بالمقارنة بالملكتين، وكانت هناك أيضاً الكونتسة

بيترايس، أمهن جميعاً، وبعد احتفال فخم وغني، مع أن اليوم كان مخصصاً لأكل السمك فقط، اتخذ الملك مأواه لإمضاء الليلة التالية في قصر الملك الواسع، الذي هو موجود في وسط مدينة باريس، فهكذا قرر بشكل حاسم الملك الفرنسي، الذي قال مازحاً: «ليكن ذلك على هذه الصورة، لأنه من الموائم بالنسبة لي أن أقوم بتأدية جميع واجبات اللياقة والعدل»، وأضاف يقول مبتسماً: «أنا سيد، وملك في مملكتي، ولسوف أكون سيداً في بيتي»، وبذلك قبل ملك انكلترا وأذعن.

كيف عرض ملك انكلترا نفسه على شعب باريس

وبعدما سار ملك انكلترا في الشارع الذي اسمه Greve, انتقل إلى شارع باتجاه القديس جرمين لى أوكسروي Germain, L'Auxerrois وانتقل بعد ذلك إلى جسر كبير، حيث تفحص البيوت الجميلة، المعمولة في مدينة باريس من الجص أو الجبس، وتأمل البيوت التي كانت هناك التي تألفت من ثلاثة طوابق لابل حتى من أربعة طوابق، وأكثر، وعند نوافذ هذه البيوت ظهرت أعداد كبيرة من الناس من الجنسين واحتشدت أيضاً جماهير من الناس، واندفعت على شكل كتل بشرية كبيرة، وتنافس بعضهم مع بعض في مسعاهم لرؤية ملك انكلترا في باريس، فقد كانت شهرته قد وصلت إلى السماء لدى الفرنسيين، بسبب هداياه الكبيرة، وأعمال ضيافته في ذلك اليوم، وصدقاته الكريمة، ولأن ملك فرنسا كان متزوجاً لأخت، وكان هو، أي ملك انكلترا متزوجاً من الأخرى، وقد قال له ملك فرنسا التقي: «أولسنا متزوجين من أختين، وإخواننا من الأخوات الباقيات؟ إن جميع الذين سيلدون منهن، من كل من الصبيان والبنات، سوف يكونوا إخوة وأخوات، آه لو أمكن أن يكون هناك مثل هذه المصاهرات والقرابة بين الفقراء، لتوفر تعاطف عظيم بينهم، وبالروابط القلبية كانوا سيتحدون، وأنا آسف، والرب يعلم، أن مشاعر تعاطفنا لايمكن تمتينها حول جميع

النقاط، ذلك أن عناد البارونات لن يتزحزح، وهم لن يذعنوا لي، لأنهم قالوا بأن النورمان لم يعرفوا كيف يحافظون على حدودهم، وعلى تخومهم من دون خرق، وابقائها آمنة، والبقاء بسلام، لذلك لايمكنك أن تسترد حقوقك»، وعلى كل حال في هذا كفاية، ورافق الملك الفرنسي الملك الانكليزي وشيعه لمسافة يوم، وبعدما افترقا، تبين بعملية حساب صحيحة، بأنه بدد ألف باوند من الفضة على نفقاته في باريس، وذلك بالاضافة إلى هدايا لايمكن تقدير ثمنها تقريباً، وقد أخرجها من خزانته، وقد أضر ذلك بها كثيراً، لكن سمعة ملك انكلترا، لابل في الحقيقة سمعة جميع الانكليز، قد ارتفعت كثيراً وارتقت.

المحادثات بين الملكين

وفي أحد الأيام، عندما كان الملكان يتحادثان، قال ملك فرنسا للملك انكلترا: «ياصديقي كم هو جميل الاصغاء إلى حديثك، دعنا نمتع نفسينا بالحديث معاً، فلربما لن نمتلك الفرصة بعد الآن للقيام بذلك»، وأضاف قائلاً: «كم كانت الآلام لروحي التي تحملتها، عندما كنت في حجي، في سبيل حبي للمسيح، وإنه ليس عملاً سهلاً اخبارك بذلك، ومع أن كل شيء استدار ضدي، أنا أعيد الشكر إليك، أنت الذي في أعلى عليين، وفي تأمل مني لقلبي، وتكرار فحصي له، إنني مبتهج ومسرور من الصبر الذي تفضل الرب فمنحه لي، أكثر مما لو أن العالم كله وضع تحت طاعتي».

افتراق الملكان

وبعدما تماشى الملكان مع بعضهما لسفر يوم، افترقا، وكانا —على كل حال— قبل افتراقهما، قد خرجا قليلاً عن الطريق، وعقدا محادثات سرية خاصة، وفق ظروف ودية، وقال الملك الفرنسي وهو يتنهد: «لو أن النظراء الاثني عشر لفرنسا من البارونات، قد وافقوا على رغباتي،

لكنا آنذاك صـديقين لايمكن فصلهما عـن بعضهما، هذا وإن خـلافـاتنا تعطي سبباً للسرور وللتجبر للرومـان»، ثم إنهما بعـدمـا تبـادلا القبل، وتعانقا، افترقـا، حيث عاد ملك فرنسا إلى أراضيـه، ووجه ملك انكلترا مساره نحـو بلاده، ولدى وصول هذا الأخير إلى شـاطىء البحر، أرغم على الانتظار طويلاً ضد ارادته، من أجل ريح طيبة (لأن البحر والرياح لم يكونا مطيعين له)، وزار أثناء اقامته هناك كنيسـة القديسة أوف بولون Boulogne, لمشاهدة الآثار المقدسـة هناك، ومات في ذلك المكان بطرس تشيسبـور Chacepore وكـان من أصـل بواتي، وكـــان محاسبـاً ومستشـاراً أثيراً عند الملك، وخـازنـاً للملكة، وقـد أنهى حيـاته بموت سعيد.

اختصار لوقائع العام

كـان هذا العام، خـلاله كله خصباً بالفـواكه والحبـوب، ولذلك نزل سعر مكيـال القمح إلى شلنين، ومثل ذلك الكمية نفسها من الشـوفان، وبقيـة أنواع الحبــوب والقطاني، حيث نزلت أسعـارهـا لصـالح الفقير ومنفعته، وبالنسبة للايطاليين، والفرنسيين، والفلمنكيين، كان هذا العام عام حرب وعدوان، وعـام توجس في انكلترا، فقد اضطربت البلاد من منتصف الخريف حتى الربيع بالـزوابع إلى درجة أنه حـدث في بدفـورد Bedford أن هلك أكثر من أربعين رجلاً مـع عدد كبير جداً من المواشي.

كيف بقي الملك ينتظر ريحاً طيبة

عـام ١٢٥٥ لتجسيـد الرب، كـان الملك في بولون، بعـد عـودته من غسكوني، ينتظر هبـوب ريح طيبة لعبـور القنال إلى انكلترا، ووافق هذا العام، العـام التاسع والثـلاثين لحكمه، وقـد قام في الوقت نفسـه، وفقاً لعادته التطوعية بزيارة الآثار المقدسـة، التي كانت هناك كمية كبيرة منها

محفـوظة في كنيسـة القـديسـة مـريم في بـولون، ودفع الاحترام لها وتشريفهـا، وتولى هناك دفن جسـد محاسبه الأثير، بطرس تشيسبـور بشكل محترم، وأمر بإقامة قداس دفن مهيب له، وكان بطرس هذا نفسه قد عمل وصية نبيلة، أشهد عليهـا، قبل ثلاثة أيام من عيد الميلاد، وكان بين ما أوصى به (بين منح أخـرى، اعطاء ستمائة مارك، لشراء أرض في انكلترا، حيث من الأسهل الشراء، وبناء كنيسـة عليهـا، لصـالح طائفـة رهبـانيـة، تتألف من كهنة نظاميين يجري اختيـارهم مـن دير ميرتون Merton، وذلك في سبيل عبـادة الـرب بشكل لائق وصحيح إلى الأبد، وأن يجري يوميـاً تقـديم أضحيـات للرب من أجل روحـه، ومن أجل أرواح جميع المسيحيين، وقـد غـادر هذه الحيـاة عشيـة عيـد ميـلاد الرب، ووقع يوم الميـلاد في هذا العـام في اليوم السـادس من الأسبـوع، وقـد أكل بعض الأشخاص لحماً صـدوراً عن الاحترام للمسيح، وكـان ذلك بسبب أن كلمـة «أصبح جسداً»، جـرى التفوه بها في ذلك اليـوم، بمثابة ضياء للعـالم، وبناء على ذلك، قد يصرخ أحدهم باعجـاب قائلاً: «آه، لقد منحت الكرامة إلى الجسد».

عودة الملك إلى إنكلترا

وفي يوم الأحـد الذي جـاء بعـد ذلـك مبـاشرة، صـار البحـر والريح صالحين، فكان أن أقلع الملك، وبعد رحلة ناجحة وصل إلى دوفر، ولدى وصوله إلى ذلك المكان استقبل بسرور من قبل أخيـه الايرل رتشارد ومن قبل النبلاء الآخرين، الذين جاءوا من مسافة بعيدة، لأنهم استدعيوا لهذه الغاية قبل بعـض الوقت، وكانوا ينتظرون على السـاحل الانكليزي بقلق كبير، ولدى وصوله، قاموا على الفور بتقديم هدايا ثمينة له، ومثلهم فعل الأسـاقفـة أيضاً، ولاسيما رؤسـاء الرهبـان ورعـاة الديرة، لأنه كـان من الضروري بالنسبة إليهم أن يدفعـوا، وأن يفعلوا ذلك، لأنه عمل مطالب ملكية مستعجلـة، مثل رجل كان جـائعاً إلى الطعام، ولـذلك قدمـوا إليه

أفضل الاختيارات، وهدايا ثمينة من الذهب والفضة، وأشياء أخرى يمكن أن تأسر النظر، وتعجب المتطلع إليها، وكان بإمكان الملك بهذه الهدايا جمع مبلغ كبير من المال، لكن ذلك كله لم يكن كافياً لدفع جميع ديونه التي تعاقد عليها، ولاحتى لو جرت مضاعفتها مائة مرة، لأنه قد قيل بأن ديونه كانت أكثر من ثلاثمائة ألف مارك.

تعيين هنري وينغهام حافظاً للختم الملكي

وحوالي الوقت نفسه، كان الملك قد صادق على انتخاب المعلم وليم كيلكني، الذي كان يشغل وظيفة حافظ الختم الملكي مع الثقة، وعهد بالحفاظ عليه نفسه إلى المعلم هنري أوف وينغهام Węngham الذي كان محاسباً أثيراً لديه ومستشاراً، وكان يثق باخلاصه كثيراً.

رفض الملك هدية سكان لندن

وعندما تأكد سكان لندن من وصول الملك استقبلوه بسرور، وكانوا أثناء غيابه قد قدموا صدقات وافرة، وقدموا صلوات مستمرة من أجل سلامته وازدهاره أثناء وجوده في القارة، وكانوا يرغبون بحرارة بعودته إلى انكلترا، وبعدما استقبلوه، قدموا إليه هدية مقدارها مائة باوند، ولأن هذه التقدمة جرى من قبل تكرارها مراراً، فقد عدّها الملك بأنها أصبحت عادة، ولذلك نظر إليها على أساس أنها ليست هدية تهنئة، بل بالحري دفعة لما هو مستحق، ولذلك لم يمدح اخلاص السكان ولا هديتهم، ولم يرد عليهم حتى بشكر فارغ، ولأنه عرض للنقد من قبل واحد من الذين كانوا واقفين هناك لجحوده، أجاب قائلاً: «إنني لم أقدم الشكر لسكان لندن لأنهم أحضروا إليّ ماهو حق متوجب لي، وقد سدّدوا إليّ ديناً، لكن يتوجب عليهم أن يقدموا إليّ هدية فخمة بمثابة تهنئة، ولتكن هدية مشرفة ووقتها سوف أقدم إليهم الشكر بشكل منطقي».

سعي سكان لندن إلى إرضاء الملك بهدية أخرى

وعندما جرى اخبار سكان لندن بهذا، قاموا رغبة منهم بإرضاء الملك وتلبية رغبته، فاشتروا بمبلغ مائتي باوند كأساً ثميناً جداً بديع الصنعة والمادة، صدف أن كان معروضاً آنذاك للبيع في لندن، وقدموه مع احترام لائق إلى الملك بمثابة هدية امتنان وعاطفة، ووقتها قدم إليهم الشكر حقيقة، لكن ليس بقدر قيمة الهدية الجميلة، وقد تسلم الهدية، لكن —على كل حال— ليس مع نظرة راضية ومسرورة.

كيف طالب الملك لسبب سكان لندن بدفع ثلاثة آلاف مارك

وبعد مرور عدة أيام، حدث أن هرب من السجن واحداً من الكهنة، قيل وفقاً لأحد التقارير كان متهماً بجريمة قتل، وكان قد وضع في السجن في لندن، ونتيجة لذلك فرض الملك إجراءات حادة ضد سكان لندن، وطالبهم (مع أن السبب كان خفيفاً وتافهاً) بدفع مبلغ ثلاثة آلاف مارك تحت عنوان ضريبة وعقوبة، لأنهم لم يحرسوا سجنهم بعناية أكبر، وكان الهارب واحداً من رجال الأدب، قد اتهم بقتل رئيس رهبان من طائفة الرهبان السود في القارة، وقد سجن في لندن في نيوغيت Newgate, وكان رئيس الرهبان المقتول قد ادعى أنه من أقرباء الملكة، لذلك غضبت من فرار القاتل، وأصرت على الانتقام، واشتكت إلى الملك، وفرّ الهارب من السجن والتجأ إلى اخوانه من طائفة الفرنسيسكان الذين فتحوا صدر الرحمة إليه، واستقبلوه فيما بينهم، وحلقوا شعره، ومنحوه الرداء الرسمي لطائفتهم الرهبانية، وبناء عليه أصبح السكان غاضبين، وأنزلوا غضبهم بالرهبان، وألحقوا بهم أضراراً بالغة، لأنهم آووا الهارب، وعندما استدعيوا بعد ذلك من قبل الملك، حول هذه القضية، أجابوه مع خوف عظيم، بأنه هو نفسه قد سلم السجين إلى أسقف لندن، الذي طالب به، بحكم أنه كان كاهناً محترفاً ومكرساً، وبما أن الأسقف لم يكن لديه مكان مواتم للسجن، فقد

رجاهم بالسماح له باستخدام سجن نيوغيت، لأنه سجن قوي ومضمون، يمكن فيه إبقاء السجين آمناً حتى يمكن محاكمته، والتوصل إلى قرار حول ماينبغي أن يعمل معه، وقد قام السكان من باب اللياقة والأدب تجاه الأسقف فاستجابوا لطلبه، وأن السجين قام بالوقت نفسه بخداع الحراس الذين عهد إليهم الأسقف بحراسته، وبناء عليه إن الملامة والمسؤولية عن نجاته ينبغي عدم إلصاقها بالسكان، ولذلك التمسوا من الملك بتواضع أن يكون رحيماً فيخفف من غضبه، الذي أنزله بهم من دون تقدير صحيح ومن دون إثارة، وأن يتذكر اخلاص السكان ومشاعرهم الطيبة نحوه، وأن لاينسى أيضاً امتيازات المدينة، التي كان ملتزماً بالحفاظ عليها، وعدم خرقها، بوساطة أيمان مكررة، وبصكوك حريات، وقرارات قضت بعقوبة الحرمان الكنسي لغير الملتزم، وتجاه هذا ازداد غضب الملك، وأصبح أكثر حدة، وأقسم يميناً رهيباً بأنه سوف يستخرج ذلك القدر، أو أكثر من سكان لندن، الذين دعاهم باسم عبيد، لابل قام بأكثر من هذا، فأمر باعتقال بعضهم وسجنهم.

موت آرنولد دو بوي

وفي اليوم السادس من شباط لهذا العام، مات النبيل آرنولد دو بوي Bois, وكان من أعلى المسؤولين عن الغابات في انكلترا، وكان رجلاً شجاعاً في الحرب، وفصيحاً بالخطاب، ومتحلياً بأفضل الصفات، وقد دفن في دير لطائفة السسترشيان في بيكليسدن Becclesden أمام المذبح العالي.

كيف جرى تجريد اليهود من أموالهم

وعندما اقترب حلول موعد الصيام الكبير، طالب الملك بإلحاح كبير وبسرعة عظيمة بأن يدفع له اليهود الذين سلف له افقارهم، على الفور ثمانية آلاف مارك، تحت طائلة الشنق في حال عدم الدفع، ولدى

مشاهدة اليهـود أنه ليس أمامهم سـوى الهلاك والدمار، وأن ذلك محيق بهم، قام اليهـود بالاجماع بالرد عليه وعلى طلبه بالعبارات التـالية: «أنت ترى يـاصـاحـب الجلالة أنك لم تـوفـر لامسيحيين ولايهود، بـل إنك جعلت شغلك الشـاغل بمختلف الحجج القيام بافقـار الجميع، ولم يبق أمل لنا التنفس بصورة حـرة، فقد حلّ مرابو البـابا محلنا، ولذلك اسمح لنا بالمغادرة مـن مملكتك بموجب أمان منك، ونحـن سوف نبحث عن مكان اقامة آخـر، من نوع من الأنواع»، وعندما أخبر الملك بهذا الكلام صرخ بلهجة مخاصمـة قائلاً: «ليس عجبـاً أنني أتولى جمع المال، لأنه أمر مرعب التفكير بالديون التي أنا متورط فيها، فبحق رأس الرب، إن هذه الديون تصل إلى مبلغ مائتي ألف مارك، لابل إنني عندما أقول ثلاثمائة، لاأتجاوز حدود الصـدق، فلقد خدعت من كـل جانب، وأنا ملك أبتر وناقص متـلاشي، لابل أنا بالحقيقـة، الآن مسحـوق إلى قطع صغيرة، لأنني عند قيـامي بحساب دقيق للمـوارد والنفقات، وجـدت أن مورد ابني ادوارد يصل إلى أكثر من خمسة عشر ألف مارك، ولذلك أنا مضطر تحت ضغط الحاجـة، إلى العيش على المال الذي تـمّ الحصـول عليـه من جميع الجهـات، ومن أي واحد من الناس، وبأية طريقـة من الطرق مهما كـانت ويمكننـي بها الحصـول على المال»، وهكذا أصبح تيتـوس آخـر أوفسبسيـان، حيث باع اليهود لبضـع سنوات إلى أخيه الايرل رتشـارد، وذلك حتى يتمكن الايرل من تجويف أولئك الذين كان الملك قد سلخ جلودهم من قبل، وقـام الايـرل على كل حـال، بتـوفيرهم، تقـديراً منه لتناقص قدرتهم، ولفقرهم المدقع.

كيف أقرض الإيرل رتشارد الملك مبلغاً كبيراً من المال

وقام الايرل رتشـارد، بناء على طلب ملح من أخيه، وعلى تقـدير منه لحاجتـه القصوى للمال، فأقـرضه مبلغـاً كبيراً من المال، وتسلم على كل حال ضمانة له من الذهب.

حول التساقط المستمر للأمطار الغزيرة

وحدث في هذا العام منذ عيد القديس فالنتاين، ولمدة شهر تلاه، أن الريح هبت بعنف، وقد ترافقت بتساقط أمطار غزيرة في كل من النهار والليل، مسببة هياجاً وفيضاناً ليس فقط على الأرض، ولكن أيضاً على البحر.

حول تنين بحر مدهش

وقذف البحر في الوقت نفسه في المناطق العائدة لأسقفية نورويك تنيناً بحرياً هائل الحجم، حيث أنه أزعج بوساطة الهيجان العنيف للأمواج، وقد قتل —كما هو معتقد— من الضربات والجراحات التي تلقاها، وكان هذا التنين أكبر من حوت، ولم يعدّ من أنواع الحيتان، وقد أغنى جسده جميع المنطقة المجاورة.

حول فيل في إنكلترا

وجرى في هذا الوقت نفسه أيضاً، ارسال فيل إلى انكلترا، من قبل الملك الفرنسي، بمثابة هدية إلى ملك انكلترا، ونحن نعتقد بأن هذا كان الفيل الوحيد، الذي شوهد قط في انكلترا، لابل حتى في البلدان الواقعة على هذا الجانب من الألب، وبناء عليه تدفق الناس مع بعضهم، وتجمعوا لرؤية هذا المشهد الجديد، وأعطت مرغريت ملكة فرنسا إلى ملك انكلترا طاووساً، أو أن تقول حوض تغسيل عجيب، كان على شكل طاووس، وقد رصع بحجارة ثمينة، تعرف بشكل عام باسم اللؤلؤ، وبالاضافة إلى هذا وجدت تزيينات أخرى عملت بشكل فني على جسد الطائر، بالذهب والفضة والزفير أيضاً، في سبيل أن يشبه طاووساً حقيقياً عندما يمد ذنبه على شكل دائرة، وكانت الجواهر المستخدمة فيه ثمينة وكثيرة، وكانت جديدة، وكان العمل رائعاً، إلى حد أنه أوجد العجب في عيون الذين شاهدوه.

كيف ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان

وفي التاسع من آذار في هذا العام، وعندما كان ادوارد ابن الملك مايزال في غسكوني، ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان، ومكث هناك ستة أيام، وخلال ذلك الوقت صلى ليلاً ونهاراً بخشوع وتقوى، والشموع مضاءة، وجاءت صلواته إلى القديس ألبان، بحكم كونه مقدم شهداء المملكة، وجاءت صلواته عن نفسه، وعن ابنه ادوارد، وعن آخرين من أصدقائه، وعمل أيضاً تقديمات للرب، وللشهيد المبارك، كانت عبارة عن ردائين ثمينين، مما ندعوه نحن باسم Baudkins, وكأسي قربان جميلين مزينين بالذهب، ويتوجب التبيان، أن ما من واحد من ملوك انكلترا، حتى الملك أوفا نفسه Offa, مؤسس دير القديس ألبان، ولا أي واحد من أسلافه، لابل ليسوا معاً مجتمعين، قد قدموا مثل الذي قدمه هنري الثالث ملك انكلترا، وأعطاه لوحده من الطيلسانات لتزيين جدران تلك الكنيسة، فهذا مثبت في داخل كتاب صغير في الكنيسة نفسها، حيث فيه رواية وافية حول الطيلسانات المعطاة، والخواتم، والجواهر الثمينة.

مقتل أحد الفرسان من أجل ميراثه

خلال أسبوع الآلام من هذا العام، تسبب واحد اسمه وليم، وكان ابناً حقيراً وشريراً لفارس، بمقتل والده، حتى يحصل على ميراثه في الحال، وبعد ادانته بالجريمة، سحب إلى المشانق في لندن، وشنق، وبالنظر لبشاعة جريمته، ولأنه تجرأ على اقتراف جريمة قتل أبيه في أسبوع الآلام، لم يسمح لجسده بالدفن، ولم يشفق عليه من قبل أحد من الناس، فترك ليجري التهامه من قبل الكلاب والطيور الجارحة، كما أنه لم يحصل على طقوس الدفن المسيحية، وكان اسم الفارس المقتول جون، وكنيته دي سيلدفورد Seldeford, وكان عائداً إلى امتياز كنيسة القديس ألبان، وهذا يوضح القول المفرح للشاعر، عندما تكلم عن

الذين يعتنـون، ويهتمـون، ويغنون ورثتهم مثلهـم أنفسهم، أو بالحري أكثر من أنفسهم، وهو الذي قـال: «إن الذي من أجل وريثه يحرم نفسه ويضيق عليها هو شبيه بالأحمق وقـريب له»، وكـان قد جـرى مع قتل الفارس جون المتقدم ذكره، كاهن نظامي كان قسيسه.

حول المعجزات التي عملت عند قبر القديس روبرت في لنكولن

وحـدث في هذا الوقـت نفسـه أيضـاً، أن عـدداً كبيراً من مختلف المعجزات المؤكـدة يقينياً والواضحة قـد عملت في كنيسة لنكولن، وكأن المعترفين القـديمين المقـدسين، الأسقفين: ريميغـوس Remigius وهوغ، كانا مبتهجين مع القديس روبرت، الذي غادر مؤخراً إلى الرب، وقد تبـاروا بين بعضهم بعضاً في اضفاء إحسـانهم على المسيحيين، وكان من بين كثير من المعجـزات، التي هي كثيرة جـداً لايمكـن ذكـرها، وعـددها عظيم إلى حـد لايمكن فيه كتابتهـا، هناك عشرين معجـزة واضحـة، قـد جرى فحصهن بكل دقـة أمـام أشخـاص مـوثقين ولهم نفوذهم في الهيئة الكهنوتيـة لكنيسة لنكولن، (لأننا نعلم أن زيف هؤلاء في مناصبهم مكروه مـن قبل الرب)، وإن شهـاداتك وبراهينك، آه أيها الرب هي مـوثوقـة بالحقيقـة، وبات من المؤكـد أنه حـدث لواحـد من الناس، واحد جدير بالثقة مشاهدة رؤيا في الليل (ليست مجرد إبداع من الخيال) أثناء حيـاة أسقف لنكولن المذكور، وذلك قبل أربع سنوات من وفاته، فقد بـدا له أنه سمع صوتاً يقول بوضوح وتمييـز الكلمات التالية: «أحب الرب ادمـوند في طيـب رائحـة لطفـه، وأحب الرب روبرت في طيب رائحة إيمانه»، وقد سمح له بمعرفة هذا بالروح، حتى يتمكن من فهم أن هذه الكلمات قـد قيلت فيما يتعلق بالأسقفين المباركين: ادمـوند المعترف، وروبرت.

رؤيا البابا الاسكندر

أخبرنا في الصوم الكبير من هذا العام بأمر حقيقي، هو أن مناماً شوهد من قبل البابا الاسكندر، عندما كان مستلقياً في نوع عميق، وكان ذلك في إحدى الليالي بعد متاعب النهار، فقد ظهر له أنه أخذ إلى قصر كبير وواسع في الأسفل، قد جلس في مكان مرتفع رجل صاحب سلطة ومنظر مهيب، وكذلك امرأة ذات مظهر محترم وسيماء مبجلة، مع عدد كبير من الخدم والأتباع من حولهم من كل جانب، وفجأة جلب إلى أمامهما نوع من أنواع النعوش، محمولاً من قبل حملة ذوي منظر قبيح، حيث ألقوا نظرة ازدراء على الجثة، ثم قامت الجثة وسجدت بنفسها أمام الذي جلس على المقعد المرتفع، الذي كان يشبه مقعداً من مقاعد الحكم، وقال بصوت منتحب: «أيها الرب الأعظم قدرة والأعلى تقوى، كن رحيماً بي»، وفي رد على هذا الدعاء، بقي القاضي صامتاً، لكن المرأة قالت: «إن زمن التوبة والرحمة قد مضى، وقد حلّ الآن الوقت للحكم عليك، إن دعواتك جاءت في غير وقتها وغير مواتمة، الويل لك، لأنك سوف لن تجد رحمة، والحكم عليك هو ماتستحقه، فلقد قمت أثناء حياتك بازعاج كنيسة الرب، فما أن أصبحت رجلاً بجسد، حتى ازدريت المراسيم المقدسة، وألغيتها وجعلتها غير نافذة، وفعلت الشيء نفسه بالنسبة للمنافع التي جرى الانعام بها من قبل أسلافك المقدسين، الأمر الذي ألحق الأذى بهم، ولذلك جرى الحكم على أعمالك بالإلغاء والمحق»، ولدى الفراغ من هذا الكلام نظر الذي جلس قاضياً نظرة حادة، وبدا عليه الغضب، وتكلم بصوت مرعب، وقال للحاملين للنعش: «إنني بعد بعض الوقت، سوف أحكم عليه وفقاً لقوانين العدالة، لقد انتهى وقته، ووقت الحكم عليه قد حلّ بالنسبة له» وأضاف القاضي يقول: «اذهب وتسلم جزاء وفاقاً، تبعاً لأعمالك»، وما أن تفوه بهذا الحكم، حتى

جرى حمله بعيداً، وابعـاده من حضرة القاضي إلى مكان غير متفق عليه ومقرر بالنسبة لنا، إنما كما هو متوجب أن نعتقد تقوياً، ربما جرى حمله إلى المطهرة، وعندما قـام البابا الاسكندر، الذي إليه أبيحت هذه الرؤيا (سواء أكـانت حقيقية أم إبداع من الخيال) بالسـؤال بصوت منخفض ومرتجف، وتوجـه بالسؤال إلى دليله: من كـان ذلك المخلوق التعيس؟ أجيب: «إنه البابا انوسنت الذي مـات مؤخراً، والذي كـان يعرف من قبل باسم سينبـولد، الذي غـادر هذه الحياة متـلاشيـاً من الحزن، ليس على ذنوبه، بل بسبب هـزيمـة جيشـه وتدميره»، وبعـدمـا سمع البـابا الاسكندر هذا كله (وهو الذي كـان الخليفـة المباشر لأنوسنت المتقـدم الذكر) أفـاق من نومه (إذا كان من الممكن تسمية الذي كـان به نوماً) في رعب كبير وخـوف، وأصبح وكأنه قـد حـرم من عقله ومـداركـه، واحتاج إلى عـدة أيام حتى استرد صحته وعـاد إلى عافيتـه، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، أمـر هذا البابا التقي بتقديم صدقات، وإقامـة قداسات لصالح انـوسنت المتوفى، وألغى بعض قراراتـه، في سبيل الحصول على تلطيف لعقوبته، وكان إذا عرض عليه أي واحد هدايا ثمينة للحصول على أية كنيسة قد رغب بها، كان البـابا الاسكندر يجيبه: «لايا أخانا، إن بائع الكنائس ميت»، وأيضـاً من ذلك الوقت طلب مـن الأساقفـة أن يتفضلوا عليه بالـدعاء له، وقد كتب إلى كثير منهم كما ذكـرنا من قبل، وإنه —على كل حال— من المعتقد، أنه لو لم يجر انذاره، وتقويمه بهذه الرؤيا، لكان عـرضـة لمواجهـة حسـاب أشـد أمـام الرب، لكن الرب اختـار أن يعمل هذه الرؤيا له —كما هو معتقـد— لإنذاره ولتقويمـه، ولتكون مـؤشراً على عواطفـه الأبوية، وأصدر البـابا أيضاً، على الفـور مـرسومـاً قضى بأن أي كاهن يعتقل من أجل جـريمة تتطلب عقـوبة جسـدية ينبغي تجريده من الامتيـازات اللاهوتيـة، إذا لم يكن تحت أية روادع كهنوتية وقانونية.

حول الرغبة العامة لعقد تحالف مع ملك إنكلترا

ورغب في هذه الآونة نفسها وليم صاحب هولاندا بأن يملأ صناديق مـاله —مثلما فعل آخرون كثر— بالمال، الذي كـان الهدف الرئيسي لرغباته، فأرسل مبعـوثين خاصين إلى ملك انكلترا، يرجـوه عقد تحالف معـه، بسبب قـرابتهما، وجاء في الوقت نفسه أيضـاً جـون أوف أفسني Avesnes من فـلاندرز مسرعـاً، مع التماس ملح جـداً إلى الملك ليساعده في حربه، وأعلن الملك على كل حال بأنه كان مشغولاً بمشاغل صعبة تتعلق بمملكتي صقلية وأبوليا، ولايريد أن يبتعد بتفكيره بالتركيز على عدة قضايا في آن واحد، ولكن عندما يفرغ من القضية الأولى أولاً، وقتها سـوف ينصرف إلى قضية أخرى فأخـرى حسب الترتيب، وبذلك يصل بهم إلى نهاية مفيدة.

حول البارلمان العظيم الذي عقد في لندن

في أسبـوعي عيـد الفصح، اللـذان يعـرفـان بشكـل عـام باسم Hokeday, اجتمع جميـع نبـلاء انكلترا، ورجـال الـلاهوت وكـذلك العلمانيـون، في لندن، ولم يكن قط من قبل مثـل هذا الحشـد الكبير، ولم يشـاهد مثله يجتمع مـع بعضـه هنـاك، وفي هذا الاجتماع (حتى نختصر الكثير بعـدة كلمات) اشتكى الملك من أنه متـورط في كثير من الديون، ولايمكنه تخليص نفسـه من دون مسـاعدة فعـالة من نبلائـه، وبناء عليه طلـب بعنف وإلحاح، مساعدة مـالية، مقترحـاً بأنه يرغب باستـلام الجزء الكامل من العشور، الذي جـرى منحه من قبل من البارونات لمساعـدته، وأنه ملتزم بتقديم شكر كامـل وموائم مقابل ذلك، وكـان من الـواضح أن هذا الإجـراء سـوف يكون مـدمـراً للمملكة، لأنها عندما تجرد من أمـوالها سوف تكون مهجورة وعـرضة لكل من يـرغب بالاستيـلاء عليهـا وتملكهـا، وبما أن هذا التصرف لايمكن تحمله بأي شكل من الأشكال، قـام المجتمعـون بالتشـاور فيما

بينهم، وقرروا بين بعضهم، بأنهم سوف يأخذون على أنفسهم القيام بحمل عبء عظيم، وهو الالتزام من ذلك الوقت فصاعداً، ومن دون أية اعتراضات تافهة، بالصك العظيم، الذي غالباً ماوعد بالالتزام به وأقسم على ذلك، وربط نفسه بأن يفعل وينفذ، وأقسم بروحه بطريقة هي الأكثر قانونية، وعلاوة على ذلك، طلبوا الاذن، في أن يختاروا لأنفسهم، بموجب الرأي العام للمملكة: رجل عدالة، وقاضي قضاة، وخازن، حسبما هي العادة من العهود الخالية، ولأن ذلك امتيازهم بشكل محق، وأنه لايجوز عزلهم من وظائفهم ما لم يكن ذلك لجرائم واضحة، وأن يعلن عن ذلك، إثر مداولات كافية وصحيحة، وبموافقة عامة من المملكة بشكل مطلق في مؤتمر معقود: لأنه يوجد في انكلترا كثيراً من الملوك الصغار، حتى بدا الحال وكأن العصور القديمة قد جرى تجديدها هناك، ولقد كان منظراً عاماً أن ترى الأسى منتشراً بين الناس، وفي الحقيقة لم يعرف الأساقفة والنبلاء كيف يضمنون بروتوس Proteus الخاص بهم، أي الملك، حتى لو عملوا كل هذه التنازلات، لأنه في أعماله كلها قد تجاوز حدود الصدق، وحيث لايوجد صدق لايمكن وضع اعتماد ثابت أو مؤكد، وبالاضافة إلى هذا، لقد سمع المجتمعون من حجاب الملك الخاصين، بأن الملك سوف لن يمنحهم بأي شكل من الأشكال مطالبهم فيما يتعلق بقضية رجل العدالة، أو قاضي القضاة، أو الخازن، ومجدداً كان الأساقفة مقهورين بالأسى، لأنهم أرغموا، بسبب حالة العبودية المطلقة، التي هبطت إليها الكنيسة، على دفع العشر، الذي وعدوا به فقط على أساس شروط معينة، وتمزق النبلاء حتى قلوبهم بسبب الاستخراج الذي سيحيق بهم، وتوصلوا أخيراً إلى قرار جماعي، بأن يبعثوا برسالة إلى الملك، باسم الجماعة كلها، بأنه يتوجب توقيف القضية كلها وتعليقها حتى عيد القديس ميكائيل، من أجل أن يروا ويتملكوا براهين على لطفه، وعلى اخلاصه وصدقه في الوقت نفسه،

وعلى ذلك إنه إذا تمكن من نيل إرادتهم الطيبة، والقيام بمكافأة صبرهم بالالتزام بشروط الصك، الذي غالباً ما وعد بذلك، وكثيراً جداً ما حنث بوعوده، إنهم سوف يطيعون إرادته، بقدر ما يمتلكون من قدرة، وسوف يساعدونه في أوقات حاجته، ويقال بأن الملك لم يقبل بهذه الشروط، وأظهر بصمته أنه لم يوافق عليهم، وهكذا جرى بعد مناقشات طويلة وعقيمة، أن ارفض المؤتمر في حالة من الانزعاج واليأس، وأصبح النبلاء الآن أخساء، وعادوا إلى ديارهم.

الأنواء غير الرحيمة أثناء انعقاد البرلمان

كانت الأنواء في هذه الأيام ليست في موسمها تماماً، فقد هبت الريح الشمالية التي هي عدو كبير لبراعم الورود والأشجار، طوال الربيع كله تقريباً، ولم يتوفر قط، ولاندى مرطب، أو مانح على الأقل شيئاً من الانتعاش إلى الأرض العطشى، ولذلك صام النبلاء يوماً بعد يوم، وكانوا يحركون الهواء من دون فائدة، وأصيب كثير منهم بمختلف أنواع الأمراض والأسقام، وصار المناخ قاسياً وغدت الأجواء جافة بسبب هبات الريح الشمالية الساخنة، وأيضاً بسبب الرياح الاستوائية، فأخذت شكلاً يشبه لون الليمون، وسببت الكثير من الأمراض.

وفاة وولتر دي غري رئيس أساقفة يورك

وكان وولتر دي غري Gray رئيس أساقفة يورك، مثل البقية، قد ضغط عليه بمختلف أنواع المنغصات والاضطرابات أثناء عقد البارلمان المتقدم ذكره، وقد أصيب بمرض في مخه، من الصوم اليومي، وفي سبيل استرداد صحته، بعد المتاعب، والأعمال التي جاءت بلاانهار، ذهب إلى فولهام Fulham, وهي عزبة عائدة إلى أسقف لندن، وجاء ذلك بناء على طلب الأسقف المذكور، ولكن بحكم أنه قد أنهك بسبب تقدم السن، وكذلك بسبب الأحزان، ومتاعب الأعمال الأخيرة،

قد فقد قابليته للأكل تماماً، فأصبح ضعيفاً جداً، فمات في اليوم الثالث لوصوله إلى فولهام، وجاء ذلك بعد تلقيه جميع القوانين المقدسة، التي تشكل جزئاً من واجبات المسيحي، وقد أدار بشكل صحيح كنيسته في يورك لحوالي الأربعين سنة (يعني أن تقول أنه كان هناك فقط ثلاثة أشهر وثلاثة أسابيع حتى تكتمل تلك المدة)، وكان بإمكانه أيضاً أن يحكم المملكة بشكل لايمكن انتقاده فيه، وقد غادر طريق الجسد كله في الأول من أيار.

كيف جرى حمل جسد رئيس الأساقفة المتقدم الذكر إلى يورك ودفن هناك

بعدما جرى فحص جسده بدقة، جرى حمله بكل تشريف إلى يورك، تحت اشراف وولتر أسقف درم الذي كان نائبه، وهو الذي قام بكل واجب إنساني واحترام، وبقدر ما أمكنه، وسير أمام جسد ذلك الأسقف العالي المقام تقديم الصدقات، وتأدية مأتم يومي، وأخيراً جرى وضع الجسد في القبر بتشريف لائق، في كنيسة يورك.

حول الجفاف الكبير

عمّ في هذا الصيف نفسه جفاف، بسبب استمرار الرياح الاستوائية، التي أوقفت تماماً أنداء الصباح، وخنقت أنداء المساء، واستمرت من منتصف أيار حتى الأول من حزيران، وأصبح بإمكان الإنسان رؤية سنابل القمح مرمية في الرمل كلياً، وليست مائلة كما هو معتاد، لتزداد طولاً، ولإعطاء المزيد، وحدث أخيراً على كل حال، بفضل الذي بلطفه ينزل المطر على المستقيم وغير المستقيم، والأرض بجذورها شبه الميتة، فانتشعت البذور بأمطار موسمية وفيرة، وبالأنداء، وهكذا كان بنعمة من الرب أن تحول الجفاف إلى انتعاش إحياء، وعادت جميع الأماكن إلى الحياة، وقدمت وعداً بوفرة من الفواكه والحبوب.

المعجزات التي عملت في كنيستي لنكولن وشيكستر

وفي حوالي الوقت نفسه، أصبحت كنيستا: لنكولن وشيكستر مشهورتين بوساطة المعجزات التي عملت هناك لتمجيد الرب، ولتمجيد الحبرين: روبرت، ورتشارد، وقد أشعت في كنيسة لنكولن عشرون معجزة كبرهان، لأنها فحصت، وذلك دون الحديث عن المعجزات الأخرى التي لايمكن تعدادها، وحدث في شيكستر العدد نفسه، أو أكثر، وعملت واضحة، وقد أضيف كل يوم إلى عددهم، وكل واحد يرغب أن يرى رواية حول المعجزات التي جرى فحصها، يمكنه أن يعثر على كتابات تتعلق بهم في كنيسة القديس ألبان.

حول تعيين رئيس شمامسة لنكولن محل وليم وولف

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، أرسل المعلم هوغ موورتايمر Mortimer, الذي كان مسؤولاً عن دير كانتربري، أوامر إلى الهيئة الكهنوتية في لنكولن، لإلغاء انتخاب وليم وولف، الذي جرى تعيينه مؤخراً رئيساً لشمامسة لنكولن، وأن يقوموا بتعيين واحد آخر محله من دون تأخير، وإذا لم يحدث هذا، فإن المعلم هوغ سوف يقوم بموجب السلطات الرسولية، وبموجب سلطات سيده رئيس أساقفة كانتربري، وسلطاته شخصياً، بمعاقبة الكهنة النظاميين لعدم الطاعة، وقام الكهنة النظاميون، طاعة منهم لهذه الأوامر، فانتخبوا رئيس شمامسة جديد، ووقف المعلم وليم وصمد بشجاعة من أجل حرية الكنيسة وامتيازها، وتحمل هذا كله بصبر، وهرب للجوء إلى صدر الرحمة لدى البابا، الذي هو بالعادة مفتوح للمتضررين.

حول تحطيم جيش البابا

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، سار البابا الاسكندر على خطى سلفه انوسنت في متابعة الأعمال المتعلقة بمملكة صقلية وأبوليا، فكان أن

أرسل الكاردينال أوكتافيان مع جيش كبير، مؤلف من ستين ألف رجل مسلح، لتدمير مدينة نوسيرا تدميراً نهائياً، مع مانفرد الذي كان متخفياً هناك، وأيضاً لتدمير جميع سكانها، وكان يوجد في المدينة أكثر من ستين ألفاً من المسلمين، كان الامبراطور فردريك قد حشدهم من أجل تعريضهم لمخاطر تقلبات الحرب، ولهم أعطى تلك المدينة مكاناً للإقامة، وفتحت هذه المدينة صد راللجوء لمانفرد ولبعض الآخرين من شيعة فردريك.

وبناء عليه رتب أوكتافيان قواته ونظمها، بمساعدة مركيز بارع ومحب للحرب (على نصيحته ومساعدته اعتمد الجيش البابوي كلية) ورعى هو والبابا آمالاً كبيرة بأنهما سوف يحصلان على غايتهما،ولكن عندما صار هذا الجيش الذي لايقهر كما اعتقد على بعد أميال قليلة من المدينة، استولى رعب مفاجىء وخوف على الطرفين، وبناء عليه لم يتجرأ سكان المدينة على الخروج ومهاجمة الغزاة، كما لم يتجرأ الغزاة على مهاجمة السكان أو المدينة، وهكذا أضاعوا لعدة أيام كثيرة وقتهم من دون فائدة، وكان الجيش البابوي كبيراً جداً ومرعباً، وكان يتلقى يومياً المدفوعات من صندوق مال ملك انكلترا، وكان يعيش وسط توقعات كبيرة، نتيجة لوعود البابا، فعلى هذه الصورة كانت أوامر وترتيبات البابا انوسنت، المتوفى أخيراً، وكل هذه الإجراءات شهدت القيام معه، وجرى تنفيذها من قبل الكرادلة، وبعد انتظار طويل، مكث فيه الطرفان من دون عمل، ذهب هذا المركيز الخائن، الذي كانت لديه كتلة كبيرة من الأتباع في الجيش، إلى أوكتافيان وقال له: «لماذا نحن يامولاي واقفون هكذا من دون عمل لهذه المدة الطويلة؟ إننا نقوم بتبديد مبلغ كبير من المال، لندع ثلث الجيش ينصرف، لأنه لامانفرد ولاجيشه سوف يتجرأ على الخروج من المدينة والقيام بهجوم، فهم محاصرون ومضيق عليهم، وقوة صغيرة سوف تكون كافية لإبقائهم من دون

حـركة وخـائفين»، ومجدداً بها أن سكان المدينة لم يقـوموا بالانقضـاض، فعل المركيـز الشيء نفسه فـأنقص تعداد جيش البـابا، إلى حـد أن الذي بقي منه بالكاد كان تعداده عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً من الجنود، ثم إنه قام في إحدى الليـالي، فركب فرساً سريعـاً وذهب إلى مدينة نوسيرا، وتوجه بنفسه بالخطاب إلى مانفرد قائـلاً: «ياصديقي العزيز، لقد أخذت انطبـاعاً، وفهمت بأنني قـد آذيتك، ومازلت جـاهزاً لفعل ذلك، وإنني أعجب كيف أنك أصغيت لمثل هـذه الأقـاويل الدنيئة، ولماذا صـدقتهم بأي حال من الأحوال، وسموك يعرف كيف قدمت الخدمات باخلاص إلى والدك في أيام المخاطر، أعني الامبراطـور فردريك، فكيف يمكن أن أعـذب ابـن مـولاي الحبيب، ووالدك المحترم؟ ولســوف تكتشف على الفور الولاء والاخلاص وهو ماشعـرت به منذ زمن طويل نحوك، لقد نقص الجيش البـابوي وتبدد بوسـاطتي، وبالكاد بقي منه عشرة آلاف رجل مقاتل مع أوكتافيان، ومن هؤلاء جزء كبير عائد إليّ، لاتتأخر، دع جميع المخلصين لك في المدينة يسلحون أنفسهم على الفـور، واللحاق بي عن قـرب، فإنك سـوف تتخلص من أوكتـافيـان ومن أتبـاعـه كما تراه مناسبـاً»، وبناء عليـه خرج مـانفـرد من المدينة منقضاً يحيـط به أتباعـه، وحمل جميع سكان المدينـة السـلاح، وباتـوا شـاكين السـلاح تمامـاً، واحتشـدوا في أعـداد مسـاوية لجيش كبير، واقتربوا من عسـاكـر البـابا بسرعة تماثل سرعـة عاصفـة من الريح، ولكن عندما كـانوا يعيشون مع أمل أسر جميع أعدائهم، مثل طيـور أمسكت في الشبكة، في ذلك الوقت بالذات جرى انذار أوكتـافيان من قبل بعض الأصدقاء، وجـرى اخباره بالذي كـان على وشك الحدوث، فقام بـالنجاة، لكن بصعـوبة، في حين تعـرض جيشـه للقتل أو الأسر أو التمـزيق، باستثنـاء أتبـاع المركيــز وأصحـابه، فهـؤلاء جرى تـوفيرهـم، وبعد هـذا الانتصار، بدأ مـانفـرد يزدهر يوماً بعد يوم، مما ألحق الاضطراب والأذى بالكنيسة، وفي الوقت نفسه عاش البابا وعاشت الكنيسة الرومانية كلها بحالة من الحزن، وقد

قهرا من الأسى والكارثة التي شعرا بها من الأخبـار، وخاصة بسبب أن الكنيسة قد وعدت بإعطاء مملكة صقلية وأبوليا إلى ملك انكلترا،لصالح ابنه ادموند، الذي إليه حول البابا خاتم الولاية، بوساطة أسقف بولون، وبسبب أن مستشاريه قد ألقوا بأموال انكلترا في حفرة عميقة، مما سبب دماراً لايمكنه جبره لتلك البلاد، وعمل الأسقف المذكور الذي كان قد عبر الجبال كل سرعـة للوصول إلى انكلترا، عالماً بأن عليـه إرضاء الملك وافراحه، ومن ثم استلام هدايا ثمينة، وكان جاهلاً تماماً بأخبار الكارثة التي تقدم ذكـرها أعلاه، وكـان متحمساً، مرتفع الآمـال ويشعر بسرور مزيف، وبفرح فارغ.

وهكذا تتسابق القدرة اللاهوتية مع الأشياء الإنسانية

مناجاة نحيب على ظلم البلاط الروماني

كم هو عظيم نحيبك، وكم هـو أعمى طمـوحك، آه، يابلاط رومـا، فبقدر ما أنت مقدس، أنت غالباً ماخدعت بآراء الأشرار، لماذا لاتضبط عنقك بلجـــام التعقـل؟ لماذا أنت لم تتعلم بالماضي وتنصلـح بكثير من المصائب؟ عجباً ألا تعلم أننا بخسارتك، نحن جميعاً نعاقب، لأننا نتألم جميعـاً، ونشعر جميعاً بالفضيحة العـامة وبالنقـد، لقد حـاولت الآن أن توجد امبراطورين في ألمانيا، بترقيتك الذي أنت مرغم على الانفاق عليه مبلغـاً كبيراً جـداً من المال، جـرى نهبـه من جميـع الاتجاهات، مع أن الطرفين لم يكونا متـأكـدين مـن ذلك المنصب الرفيع، وجـرى الآن في أبوليـا، تدمير الجيش البـابوي مـرتين، بشكل مهين، الأولى تحت قيـادة الكاردينال وليم، والآن تحت قيـادة أو إمـرة الكاردينال أوكتـافيـان، ولذلك تعـرض جميع أبناء الكنيسة المسكونيـة للقهر بوسـاطة الخسائـر، وغطاهم العـار، وتقطعت قلوبهم بالأسى، ولكي نجمل الأمـور ببضع كلمات: إن الكنيسـة المسكونية التي من واجب البـلاط الروماني الدفـاع عنها، وحمايتها، تتشكى من أنها تأذت كثيراً في كثير من النقاط من قبله.

حول الإعلان المتعلق بمراعاة صك الامتيازات لإنكلترا

وجرى في هذه الآونة نفسها عمل إعلان في الكونتيات، وفي المجامع الكنسية، وفي الكنائس من أن الصك العظيم، الذي جرى منحه من قبل الملك جون، والذي قام الملك الحالي بتأكيده وتثبيت منحه مرات كثيرة، تتوجب مراعاته والالتزام به من دون خرق، وجرى التفوه بقرار الحرمان الكنسي، بشكل مهيب ضد جميع الذين يقدمون على خرقه من الآن فصاعداً، وإلى هذا بقي الملك لايبدي اهتماماً بل قام بشكل غير إنساني بتبديد ممتلكات كنيسة يورك، وأيضاً غالباً ماقال: «لماذا لايقوم هؤلاء الأساقفة والنبلاء في مملكتي، بالالتزام بهذا الصك نحو رعاياهم، الأمر الذي عملوا حوله صراخاً كثيراً وشكاوى»؟ وعلى هذا تلقى الرد المنطقي التالي: «عليك ياصاحب الجلالة أن تضرب المثل في مراعاة يمينك، وبناء عليه سوف يقلدك الجميع ويحذون حذوك، لأنه كما قال الشاعر:

حيثما يوجه الأمير خطواته

يقوم الرعاع الضعفاء باتباعها»

حول الاتهامات التي عملت ضد روبرت روس وجون بالأويل

وعملت في هذه الآونة أيضاً اتهامات جديدة ضد روبرت روس Ross, وجون بالأويل Baliol بأنهما عملا بلا اخلاص وبلا عدالة نحو مملكة سكوتلندا، وكذلك نحو كل من الملك والمملكة لتلك البلاد، حيث كانت الوصاية عليهما قد أسندت إليهما، وكان الملك في ذلك الوقت في نوتنغهام Nottingham في المقاطعات الشمالية لانكلترا.

كيف عمل رينالد باث الذي هو طبيب اتهاماً ضد السكوتلنديين

لقد كان هناك طبيب اسمه رينالد باث Reginald Bath, وكان بارعاً في فن الطبابة، وقد أرسل ليتولى رعاية الصحة الجسدية لملكة سكوتلندا، وذلك من قبل ملكة انكلترا، التي كانت قلقة إلى أبعد الحدود على سلامة ابنتها، وحسن أوضاعها، التي كانت ملكة سكوتلندا، وكذلك حول زوجها الملك الذي أحبته وكأنه ابن متبنى، وعندما وصل المعلم رينالد المذكور إلى قلعة دامسل Damsels, التي تعرف بشكل عام باسم أدنبره، أوضح سبب قدومه، وعرض رسائل من ملك وملكة انكلترا، فيها برهان حول الموضوع نفسه، وقد استقبل بلطف، ولدى تركه منفرداً مع الملكة، حسبما كانت العادة مع الطبيب، سأل عن سبب غيظها وشحوبها، لأنه وجدها حزينة، وقد ردت عليه قائلة: «إنه من الموائم كشف أسرار الجسد إلى الطبيب، مثلما يجري كشف أسرار القلب إلى الكاهن»، وعندما فهم المعلم رينالد أسباب اضطراباتها النفسية والجسدية، وجّه اللوم بشدة إلى خدمها والأوصياء عليها، وبعد كثير من الخصام والاتهامات المتبادلة واللوم، لابل حتى التهديدات، اتهم النبلاء والأوصياء على الملك، والملكة بالخيانة، وهدّدهم بالعقوبة بتهمة الخيانة، وبعد مضي عدة أيام أصيب هذا الطبيب رينالد بمرض مميت، وحمل إلى فراشه، وقد كان هناك بعض ذوي الظنون الشريرة، الذين قالوا بأنه تعرض للتسميم، وعندما رأى رينالد نفسه قد اقترب من عتبات الموت، كتب إلى الملك، وكذلك إلى الملكة، حيث ذكر بأنه قدم إلى سكوتلندا تحت طالع غير سعيد، لأنه شاهد بأن ابنتها تعامل بشكل غادر وغير إنساني، بين هؤلاء السكوتلنديين الذين لايستحقون، ولأنه أقدم على توجيه اللوم إليهم، أقدمت هذه المخلوقات الشمالية على دس السم له، وعندما تسلم الملك هذه المعلومات، غضب غضباً عظيماً، وفكر بعمق حول الانتقام لهذه

الجريمـة الكبيرة، وبعدمـا تقيأ هذا الطبيب سم عدم الوفـاق، الذي هو أصل شرور المستقبل، والأضرار التي لايمكن تعـويضهـا، لفظ روحـه التعيسة.

حول فقر بعض الكنائس في إنكلترا

وفي حوالي الوقت نفسه لحق كنيسة كانتربري اضطراب عظيم، وظلم شديد، وقـد لحقها ذلك عن استحقـاق بوساطة إجـراءات أولادها، أي رهبان الكنيسة المذكـورة، لأنها على الرغم من احتلالها للمكان الأول في انكلترا، تولت رفـض النبـلاء والرجـال المستحقين من أهالي البـلاد، وقبلت أجنبياً ليكـون بمثابة الوصي عليها، وبناء عليـه، لم يكن من دون استحقاق، أن الذين تصرفوا على هذه الصورة قـد وقعوا في حالة الفقر، الفقـر الشـديد في الحقيقـة، إلى حـد أنهم تـورطوا في ديون وصلت إلى مـايزيد على أربعة آلاف مـارك، وعندمـا رأى الرهبان بأن الدمـار محيق فـوق كنيستهم، قـاموا حتى لايقعـوا في مهـاوي الاضطراب والارباك، فأعطوا ستــة من أفضل عــزبهم إلى واحـد اسمــه جـون دي غيتــدن Gatesden, وكـان فـارسـاً، وتخلوا عنهم وعهـدوا إليـه بهن، بأن يتـولاهن وفق شروط مفيدة له، لكنهـا مؤذية جـداً وظالمة لهم أنفسهم، وذلك إلى أن يتمكنوا من الخلاص من الديون، وفي الوقت نفسـه كانت رئاسـة رهبانية روكستر متورطة في ديون لانهاية لها، وبناء عليـه عهد بها إلى جـون نفسـه وإلى ممولين آخـرين، وألغى الرهبـان عـلاوات الطعـام واللبـاس العائـدة إليهم، وبالكاد احتفظوا لأنفسهم بضروريات الحيـاة، ومجدداً كانت رئاسة رهبانية القديسة سويثن Swithin في وينكستر مثقلة بخسائر لايمكن تعويضها، وقد ازدادت جراحاتها لأنها استحقت ذلك، ذلك أنها آثرت فضل الملك على الخوف المتـوجب من الرب، وقد اختارت راعياً كان تماماً غير موائم لإدارة مثل تلك الكنيسة المهمة، لأن الأسقف المنتخب أقحم واحداً وجعله رئيسـاً للرهبان، وفـرق الرهبان،

وقبل في الطائفة الرهبانية، بعض الجهلة، ومنح اللباس الرهباني إلى أشخاص لايصلحون لشيء، وأحلّهم محلّ الذين تولى طردهم، وكانوا رجالاً جديرين بالرفض وليس بالاختيار، وهو إجراء جاء لإلحاق العار بالديانة وبالحياة الرهبانية الصحيحة، وفي الحقيقة كان هناك ثلاثة عشر راهباً، كانوا لاشيء البتة، سوى مجرد ارتداء القلنسوة، وهل يتوجب عليّ ذكر فوضى واضطراب الكنيسة الديرية للقديسة مريم في يورك، والكنائس الفخمة الأخرى، أم الاكتفاء بإظهار أن غضب الرب قد ظهر نحو الناس، بسبب تراكم ذنوبهم؟

حول الخسوف غير الاعتيادي للقمر

ومجدداً في سبيل أن لاتختلف أحوال الأجساد السماوية عن أوضاع هؤلاء الذين هم بالأسفل، تعرض القمر إلى خسوف غير اعتيادي وكامل، في شهر حزيران، وكان ذلك في الليلة التي أعقبت عيد القديسة مرغريت، وبدأ الخسوف قبل ساعتين من منتصف الليل، واستمر لمدة أربع ساعات تقريباً.

وفاة وارن دي مونتشينسل

ومات في حوالي الوقت نفسه البارون النبيل وارن دي مونتشينسل Montchensil الذي كان الأكثر نبلاً وحكمة، أو على الأقل كان واحداً من الأكثر حكمة والأعظم نبلاً بين جميع نبلاء انكلترا، وكان وارن هذا نفسه محامياً غيوراً على السلام وعلى امتيازات المملكة، وعند موته ترنح أقوى أعمدة المملكة، وكان علاوة على ذلك متملكاً لمبلغ كبير من المال، وجرى تقدير ممتلكاته بأنها وصلت إلى مائتي ألف مارك وزيادة، وعهد الملك على الفور بالوصاية على وريثه وليم إلى وليم صاحب بلنسية، الذي كان أخوه لأمه، والذي كان قد تزوج من ابنة وارن المتقدم ذكره، ليصبح صهره، وبهذا، باللأسف أخذت نبالة انكلترا تتلاشى يومياً.

حول مرض جون الفرنسي

أصيب الآن جــون الفــرنسي، الذي كــان واحــداً مـن كهنة الملك ومستشــاراً رئيسيــاً لديه، بشلل لايمكن الشفـاء منـه، لكن هذا لم يدفع أحـداً إلى البكاء شفقة وحـزناً عليـه، بين رهبـان دير القديسـة مـريم في يورك وسيلباي Selby.

حول مغادرة جون دي غري للبلاط

وحـدث في هذا الـوقت نفسـه أيضـاً أن جــون دي غــري Gray, الذي كان فارساً ورجلاً معتدلاً ومستقيماً، وربما مهذباً قد تعلم الحكمة، حدث أنه انسحب من بين مستشاري الملك، ومن متاهة البلاط.

كيف ذهب الملك إلى سكوتلندا

حيث أثير لأن يفعل ذلك بشكاوي ابنته

وفي هذه الآونة صار الملك أكثـر فأكثر انزعاجاً، واشتـد ضيقه نتيجة الشكاوى اليوميـة لملكة سكوتلندا وخدمهـا وأتباعها، وبناء عليـه حشد جيشـاً ووجـه زحفه نحـو سكوتلندا، مع نيـة المطالبـة بتقـرير دقيق من روبرت روس وجون بالأويل، اللذان كانا فارسين، ورجلين صاحبا قوة كبيرة ونفوذ، لأنهما حسبما جـرى اخباره —كما قـال— بوساطة رسـائل سرية من أصـدقـائـه، تصرفـا بشكل معـاكس لوعـودهما، وحكما مملكة سكوتلندا بشكل غير صحيح، وأسـاءا معــاملة الملك والملكة، وعندمـا اقترب من سكوتلندا، بعث رتشارد ايرل أوف غلوستر، وجون مانسيل الذي كان محاسباً أثيراً ومستشـاراً، وجعلهما يسيران قبله ليكتشفا فيما إذا كان روبرت روس قد سـوغ بأعماله الشكاوي التي صدرت ضده، وفيما إذا كان قـد تجرأ على التمرد للدفـاع عن أخطائه، والجرائم التي عـزيت إليه، وعما إذا كـان ينوي العمل ضده، وبنـاء عليه، سار الايـرل وجون مقدمـاً، بناء على أوامر الملك، ترافقهما حراسة كبيرة ومنتخبـة، وقد علما

بأن ملك وملكة سكـوتلندا كـانا آنذاك مقيمان في قلعــة دامسيل، لذلك توجها على الفـور إلى هناك، دون التسبب بأي إثارة، وتركـا أتباعهما مع أوامـر باتباعهما مـن على بعد، ولذلك تمكنا مـن العبور بنفسيهما بمثـابة فارسين متواضعين من حاشية روبرت دي روس، وبذلك خدعا البواب وبقيـة الحرس، وشقـا طريقهما إلى داخل القلعـة، ومـا لبث أن لحق بهما أتبـاعهما، وبذلك شكلوا قـوة كبيرة، حتـى إذا مـا أراد الذين تركـوا في القلعة لحراستها مقـاتلتهما، لن يشعر هذان المتسللان بالخوف، ثم ذهبت ملكة السكوتلنديين إليهما بكل ثقـة، وشكت إليهما بمـرارة، بأنها أبقيت بشكل غير لائق تحت الحراســة، أو بالحري مسجـونة في تلـك القلعـة، والمكان المعــزول، الذي ليس فيــه هـواء صحي، ومحروم من مشــاهد الحقـول الخضراء، لأن القلعة كـانت على مقربة من البحـر، وأنه لم يكن مسمـوحاً لها بالسفـر خـلال مملكتها، أو امتـلاك خدم خـاصين بها، أو الاحتفاظ بشـابات ليكن بمثابة وصيفات لقـاعتها ليتولين خـدمتها، كما أنه لم يسمح لـزوجهـا بـالاقتراب منهــا، أو التمتع بامتيــازات الزوج، ولانعـرف عما إذا كـانت هناك قضايـا أخرى مـزعجـة أضيفت إلى هذه الشكاوى، وحـاول الايرل جون، وكان رجلاً فصيحاً ومستقيماً مهذباً أن يهدئهـا، وأن يوقف دموعهـا ونحيبهـا، وواساها بـوعدها بأن عقـوبات محددة، ســوف يجري انزالها من أجـل هذه الجرائم، وقــام على الفــور بترتيب الأمـور لكي ينام ملك وملكة سكوتلندا معـاً في فراش واحـد، كزوج وزوجـة، واستدعي روبرت دي روس للمثـول بشكل خاص في محكمة بلاط انكلترا، لكي يجيب على الشكاوي التي عملت ضده، لكن لأنه كـان خائفـاً على نفسه، بقي بعض الوقت متـوارياً، لكنه أصبح فيما بعــد أكثـر تـواضعـاً، فأطـاع وذهب إلى هناك، وأصبح بعض النبـلاء السكوتلنديين غاضبين فعليـاً، لأن الايرل وجون، قد فعـلا الذي فعلاه فجأة من دون معارضة من أي واحد، وتمكنا من الاستيلاء على قلعتهم، التي هي المدخل إلى أراضيهم، وشكلت نوعـاً من أنواع الحواجـز لحماية

مملكتهم كلها، وعـزموا على الانتقـام، فاقتربوا من القلعـة مع عدد كبير جداً من الأتباع، وأحاطوا بها، لكن عندما علموا بأن الملك والملكة كانا بخير، وأنه من الحماقة محاصرتها انسحبوا، وهكذا جرى تسوية كل شيء بسـلام، ووعـد روبرت دي روس بناء على بعض الشروط بالقـدوم إلى محكمة بلاط الملك للاجابة على التهـم التي رفعت ضده، لكن الملك قام بناء على نصيحـة بعض الأصـدقاء الذين سـايروا حظه بالاستيـلاء على أراضيه، ووضعهم تحت وصاية دقيقة.

حول الخلاف بين جامعة باريس والرهبان الدومينيكان

وفي تلك اللآونة نفسها أيضاً نشب خلاف جاد بين جماعة الباحثين في باريس والرهبان الدومينيكان الذين كانوا يعيشون هناك، فقد أراد هؤلاء الرهبان، مراغمـة للعرف القديم المؤسس للمدينـة وللجامعة، ومن دون موافقة المدينة والجامعة، واستهـدفوا زيادة عدد المحاضرات في اللاهوت التي كانت حتى ذلك الحين محدودة، وتمكـن هؤلاء الرهبان الدومينيكان أخيراً من الحصـول على النتيجـة الأفضل من هذا النزاع، وذلك دون أن يعبأوا بالملـك الفـرنسي، وبسكان باريس الـذين سعــوا للحفــاظ على امتيـازات الجامعـة، وذلك لأن هؤلاء الرهبــان كـانوا مكرسين أنفسهم للبابا، ولأنهم قدموا كثيراً من أنواع الخدمـات لبلاط روما، لذلك تمتعوا بحظوة كاملة في أعين هذا البـلاط، وبناء عليه أعطى البابا قـراره لصالح الرهبــان الـدومينيكان والرهبــان الآخـــرين، في أن يتملكـوا الحرية للمحاضرة في اللاهوت، من دون التقيد بأعداد المحاضرات، التي كانت حتى الآن منذ زمن طويل مضى، محصورة بعدد مقيد.

كيف عمل جون بالأويل سلاماً مع الملك بدفع مبلغ من المال

وفي هذه الأونة نفسهـا أيضاً كـان جون بالأويل، الذي كـان فارسـاً ورجلاً غنيـاً، (والذي كان والده رجـلاً شجاعـاً في الحرب، وقدم كثيراً

من الخدمات للملك جون، وغالباً ماقـدم المساعدة إليه في أوقات الريبة والمصاعب) متهماً مثـل روبرت بجرائم ثقيلة، ولقد تمكـن ببراعة ودهاء من صنع سلام مـع الملك، بتزويده في وقت حاجتـه بالمال، الذي امتلك منه كثيراً.

عودة الملك من سكوتلندا

أمـا وقـد فـرغ الملك من ترتيب كل شيء بسـلام وذلك بما يرضيـه، وبعدما تمتع هو وملكته بأحاديث كافية مع ملك وملكة سكوتلندا، بادر ملك انكلترا بالعودة مسرعاً إلى الأجـزاء الجنوبية من انكلترا، وزار على الطريق الديرة ورئاسـات الرهبانيات، وعهد بنفسـه لصلوات الأساقفة، وأغنى في الوقت نفسه، ذاته بأموالهم.

كيف استولى الملك على بعض المال الذي كان مودعاً في درم

وعندما وصل الملك إلى درم، دخـل إلى الكنيسة، وصلى لوقت قصير عند ضريح الأسقف المبـارك، والمعترف المجيـد كـوثبيرت Cuthbert, وهناك علم مما ذكـره له أحد المخبريـن، بأنه كان هناك مبلغـاً كبيراً من المال مودعـاً في الكنيسة، وهو عائـد إلى الأسقف نيقولا، أسقف إيلاي، ولبعض الكهنـة، الذيـن صـــدوراً عن احترامهـم وثقتهم بـالأسقف كوثبيرت وبكنيسته، قد أودعوا ثروتهم هناك، تحت رعاية رئيس الرهبان والمجمع الرهباني، وبناء عليـه أمر الملك وكـلاءه اللصوص، على الرغم من معارضة الرهبان ومن عدم طلب الموافقة من أصحاب المال، أمرهم بشق طـريقهم بالقـــوة، وبكسر جميع الأغـــلاق والأختـــام، ومـن ثم الاستيلاء على أي مال سوف يجدونه في الخزائن، وفي الصناديق، عاداً أن المال لم يصادر ولم يتم الاستيلاء عليه بالقوة، بل أسلف إليه، وهكذا هو لم يخف من خـرق سـلام الكنيسـة، كنيسـة مثل ذلك القـديس العظيم، وأيضاً الكنيسة المسكونيـة للرب، التي غالباً ما أقســم على الحفاظ عليها

سليمـة، وحـدث على كـل حـال أنه بعـدمـا تفكـر، أعـاد دفع المال إلى أصحابه، وهو المال الذي استلفـه بهذه الطريقة، لكن من دون ترضيتهم بالنسبة للأذى الذي لحق بهم.

تكريس وليم كيلكني أسقفاً على إيلاي

وفي تلك الآونة نفسهـا، أي أن تقول في يوم صعـود مـريم المباركـة، جـرى تكريس وليم كيلكني الأسقف المنتخب لإيلاي، تكريسه أسقفـاً لإيلاي، وكان ذلك في بولنزا Polenza, من قبل رئيس أساقفة كـانتربري، الـذي كـان آنذاك مقيماً في القـارة، وعندمـا جـاء الأسقف المنتخب إليه في بلاده، أعطاه رئيس الأسـاقفة تشريفاً له امـدادات وافرة من جميع الحاجيـات الضرورية، كما أنـه تلقى المديح أيضـاً والمعـاملة بالتشريف من قبل بطرس سافوي، حتى لايظهرا أنهما كانا في حالة عوز في بلادهما، لكن أساقفة انكلترا وكذلك رهبان دير كانتربري، قد حزنوا من هذا الإجراء، لأنه كان مؤذياً لهم، لأن العـادة كانت قد قضت دوماً بتكريس الأساقفة في انكلترا، وعلاوة على ذلك كانوا خائفين كثيراً، من أن يتخـذ رئيس الأسـاقفـة نتيجة الإجـراء الجديد عـادة، وهو الإجـراء الذي كان رئيس الأساقفة هذا نفسه قد عمله في قضية كنيسة لنكولن.

وصول الأسقف المنتخب لطليطلة إلى لندن

في ثمانية عيـد ميلاد مريم المبـاركة، وصل إلى لندن الأسقف المنتخب لطليطلة، الذي كان اسمه سانشو، وكـان عمره عشرين سنة، وكان أخاً لملك قشتـالة، وجاء بصحبتـه أيضاً رجل صـاحب نفوذ كبير في اسبـانيا اسمـه غـارسيـا مـارتين Garcias Martin, ولم يكن سبب قدومهما معلومـاً، لكن قد قيل من أجل زيادة مـواردهما بوساطة الهدايا الثمينة التي من الممكن لهما الحصـول عليهـا مـن الملك، الذي جعل من ممارساته القيـام بالتوزيع من دون تمييـز بين مثل هؤلاء الناس كل الذي

كـان بإمكانه استخراجـه من رعاياه الطبيعيين، وكـانت أخلاق وطبـاع، وأتبـاع هذا الأسقف المنتخب تختلف تماماً عما كـان متـوفراً وقـائماً بيننا، لأنه كـان شـاباً يرتدي خـاتماً في اصبعـه الأول، ويقـدم المبـاركـات إلى الناس، وقد زين مكان إقامته الذي كان في المعبد الجديد، وشمل التزيين أرض الغرفة أيضـاً، بالسجاد، والطيلسانات، والستائـر، ومع ذلك كان لديه أتباع وخـدم متوحشين وغير عاديين، واحتفظ معـه بعدد قليل من الخيـول، مع أنه كـان لديه عدداً كبيراً من البغـال، وعندمـا سمع الملك بوصـولهما، أعطى أوامر دقيقـة، بوجوب استقبـالهما بأعلى تشريف، وأن مـامن شيء مزعج مهما كـان، ينبغي أن يشاهداه، ولكن عندمـا اكتشف سكان لندن عاداتهما وأخلاقهما ضايقوهما وأهانوهما، ووصموهما بالشره والترف، وكان الملك في الوقت نفسه يشعر بالمجد بوساطة الزواج الذي جـرى عقده بين أسن أولاده ادوارد، وأخت ملك قشتـالة، وكأنه كـان على وشك الحصـول على جميـع امتيـازاته وممتلكاته في القـارة بـوسـاطة الزوجـة الجديدة لابنه، مع أن ذلك الزواج لم يكن نافعـاً له، أو لمملكتـه بأية طريقة من الطرق.

زواج ابن ملك فرنسا من ابنة ملك قشتالة

عندمـا وصلت المعلومات عن حلـف الزواج الذي جرى ترتيبـه بين ملك قشتـالـة وملك انكلترا، إلى ملك فـرنسـا، بدأ هـذا الملك تسـاوره الشكوك حـوله، ولذلك بعث برسـول خاص إلى ملك قشتـالة، فطلب ابنة الملك لتتزوج مـن ابنه، وسعى الرسول لاقناعـه بفعل ذلك، ورجاه أن لايجاوب بالرفض، الرغبـة بالتحـالف عن طريـق الزواج من رجل عظيم كهذا، وقـد عرض عليـه شروطاً أفضل من شروط ملك انكلترا، الذي حصل على أخـت الملك لأنه لتكون زوجـــة لابنه الأسن ادوارد، وهكذا نجح في رغبـاته، وهنأ المعطي نفسـه على الشرف الذي ناله بهذا الطلب.

الخطط المتنوعة التي كانت بلافائدة حول تبديد الأموال والتي وضعت قيد الممارسة من قبل ملك إنكلترا

وفي الوقت نفسه كانت النفقات تتم يومياً، من أجل دعم الحرب في أبوليا، وحول هذه المعركة التي تقدم ذكرها أعلاه، والتي كانت بفائدة صغيرة، أو من دون فائدة، ومن أجلها أنفق الملك مبلغاً كبيراً من المال، كما أن أسقف طليطلة قد أنفق أيضاً من عشرة إلى اثني عشر ماركاً يومياً من أموال الملك، والآن جاءت إلى الوجود طريقة جديدة لتبديد الأموال، لأن توماس، الذي كان من قبل كونت فلاندرز، وهو عم الملكة، وأخو رئيس أساقفة كانتربري، قد أثار حرباً جديدة ضد مدينتي: تورين وأستي Asti,وفي سبيل دعم هذه الحرب واستمرارها، كان الملك وكنيسة كانتربري، لابل حتى الملكة نفسها، مرغمين على الاسهام بمبلغ كبير جداً من المال، وهكذا فإن الملك الذي أنقص مؤخراً كثيراً من موارده، لإعطاء شطر منها إلى ابنه، تعرض الآن للضيق وللضغوط والقلق من كل جانب.

المشورة الشريرة التي أعطيت من قبل أسقف هيرفورد

وفي هذه الآونة نفسها ذهب بطرس ايغبلانك Egeblank, أسقف هيرفورد (الذي تثير ذكراه أبشع الروائح وأكثرها قذارة) إلى الملك الذي عرف حاجته إلى المال، وأنه كان متعطشاً للحصول على المال بقدر ما أوتي من قوة، وهمس في أذنه المشورة المسممة التالية قائلاً: «وافق يامولاي على خطتي، فأنا لن أفرج عن عوزك فقط، بل سوف أعطيك الوسائل للحصول على المال بكميات وافرة جدا، لأنك إذا حصلت لي —وكأن القضية من أجل عمل صغير— على ثلاثة أو أربعة أختام عائدة للأساقفة ذوي النفوذ في انكلترا إنني —كما آمل— سوف أتمكن بوساطة تفسير جديد من اقناع البابا بالقيام بإرغام كل واحد

منهم، مع جميع أساقفة انكلترا، حتى بالقوة وضد إرادتهم، على دفع مبلغ كبير من المال، وذلك مايلبي حاجتك تماماً»، وأعطى الملك لهذه الخطة موافقة قلبية، وكان الاثنان مسرورين كثيراً، ولذلك شرع الأسقف على الفور بالعمل على عبور الألب، ليتولى تنفيذ وعوده، وقد تمت مرافقته من قبل واحد اسمه روبرت ويلران Walerann, من أجل تنفيذ سحره بشكل أكثر فعالية مع البابا، ولدى وصوله إلى روما وجد البابا في حالة يأس وحزن مفرط نتيجة الكارثة التي تعرضت الكنيسة إليها مؤخراً، وكان علاوة على ذلك متورطاً بديون بلغت حداً، أن كل من سمعوا بكمياتها أصيبوا بالدهشة، وهذه الديون كلها كان ملك انكلترا ملزماً بدفعها، تحت طائلة عقوبة الحرمان من الميراث، وعلاوة على ذلك أخذ تجار عبر الألب مع المرابين يضغطون بشدة وإلحاح واستمرار مطالبين بدفع الديون المستحقة لهم، وهي الديون التي كانت تزداد كميتها يومياً بالربا، وبالعقوبات، والفائدة، ولدى تعبير البابا عن أساه حول هذه القضايا، أجابه الأسقف قائلاً: «لاتدع قداستك تنزعج حول مبلغ ديونك الكبيرة، حتى وإن كانت عظيمة، لأننا قبل أن نغادر انكلترا، جهز الملك وأنا هذا الفارس البارع طريقة سليمة ومؤكدة من أجل دفع جميع الديون من دون صعوبة، شريطة السماح لي بفضل منك وإذن، القيام بتنفيذ الخطط المشبعة بها نفسي، لأن الملك مخلص جداً إليك وإلى الكنيسة الرومانية، وهو جاهز بكرمه نحو الكنيسة واللاهوتيين فعمل كثيراً من أنواع الوظائف، وأضفى عليهم كثيراً من المنافع، على شكل منح من الحرير، وكذلك ببناء الأبنية، وإهداء الشموع، وهدايا أخرى ثمينة، لأن لديه النية الصالحة والرغبة باسداء المعروف إلى جميع البشر، ومثل هذا أنعم هو بكثير من الأعطيات على نبلائه، من الأراضي، والمصنوعات، والموارد، ولذلك تمتع بحق بالعواطف العظيمة للجميع نحوه، فهو عندما اجتاز خلال فرنسا مؤخراً، أعطى إلى الكنائس كثيراً من الكؤوس الفضية،

والطيلسانات، والعقود، وأعطى إلى النبلاء والأساقفة كثيراً جداً من الهدايا، من كؤوس، وخواتم، وأحزمة، وأبازيم، ثمينة في موادها وكذلك في صنعتها، وبذلك نال ثناء واعجاب الفرنسيين، وعلى هذا ارتفع الاسم المشهور للانكليز حتى السماء، وبناء عليه فإن الانكليز لديهم رغبة عارمة، وسوف يكونون مسرورين كثيراً بأوامركم، بصرف أنفسهم وتحميلها، وأن يربطوا أنفسهم، وكأنهم قد أرغموا بالرغبات التقوية في سبيل تحرير ملكهم المحبوب من ديونه»، ثم أظهر الرسائل، التي كتبت بمكر الثعالب، واستخرجت من بعض الأساقفة، والتي ختمت بأختامهم، وبهذا أعطى مظهر الصدق للتصريحات والافادات التي تقدم ذكرها أعلاه، وجعلت البابا أكثر استعداداً للاصغاء إلى زيفه، وفي جواب على كلامه قال البابا: «صديقي المحبوب، وأخي، اعمل في هذه القضية كل الذي تراه مناسباً بالنسبة إليك، ونحن نثني كثيراً على جهودك وبراعتك».

حول خيانته غير الاعتيادية

وانضم الآن إلى أسقف هيرفورد، واحد من الكرادلة، الذي توفرت لديه حرية الوصول إلى الختم البابوي العظيم، والذي بموجب مشورته قام البابا بتنفيذ الأعمال الشريرة لسلفه، ففرض واجبات ثقيلة على أساقفة انكلترا الذين لم يكونوا على دراية تامة بخديعته، بحيث لو أن جميع المظالم الماضية جمعت مع بعضها، لعدت خفيفة بالمقارنة مع هذه النازلة، ويوجد في الرسائل التي أقحمها بعض الأدلة على التزييف، من ذلك أن كل واحد من الأساقفة، لابل هم جميعاً، كانوا ملزمين بالدفع إلى فلان وفلان من تجار سيينا Sienna أو فلورنسا مبلغاً كبيراً من المال، كانوا قد قبلوه بمثابة دين، من أجل تسوية نافعة لبعض الأعمال المتعلقة بكنائسهم، مع أن ما من واحد منهم عرف قط أي واحد منهم أو رآه، ولم يرد أي ذكر للمال، وإذا لم يدفعوا الذي فرض

عليهم خلال مدة وجيزة من الزمن، فإن هؤلاء المرابين (الذين يطلق عليهم الفرنسيون عادة اسم bougres) سوف يمتلكون السلطة الكاملة بمعاقبة العبيد الأبرياء للرب، وأساقفة الكنيسة، بكل أنواع العقوبات، وبادانتهم بدفع غرامات ثقيلة، وبظلمهم بمختلف الطرق، وذلك حسبما ستظهر الرواية المقبلة وترويه في الوقت المناسب والمكان الموائم.

وصول زوجة إدوارد إلى دوفر

وفي تلك الآونة من أيام عيد القديس دينس في هذا العام، عندما كان الملك عائداً من شمالي انكلترا إلى لندن، حتى يكون حاضراً الاحتفالات المهيبة المقامة تشريفاً للقديس ادوارد، وفي اسبوعي عيد القديس ميكائيل، وصلت اليانور، أخت ملك اسبانيا، وزوجة ادوارد إلى دوفر وسط أبهة عظيمة ومع حاشية كبيرة جداً، إلى حد أن وصولهم بعث الشكوك في انكلترا كلها، وشعر الجميع بالخوف من أن البلاد سوف يجري الاستيلاء عليها كلها بالقوة من قبلهم، وبناء عليه أصدر الملك أوامره بوجوب استقبالها بأعظم تشريف واحترام في لندن، وكذلك في الأماكن الأخرى، لكن بشكل خاص في لندن، حيث جرى الاحتفال بوصولها، بالمسيرات، والتزيينات، وقرع الأجراس، والأغاني، وجميع الوسائل الخاصة للتعبير عن الفرح والاحتفال، وبناء عليه، عندما اقتربت من المدينة، خرج السكان لاستقبالها، وقد ارتدوا ثياب الأفراح، وامتطوا على خيول مزينة بشكل ثمين، وعندما وصلت النبيلة زوجة ابن الملك إلى المكان المعين لها للإقامة، وجدته مثل مكان إقامة الأسقف المنتخب لطليطلة، معلق على جدرانه الطيلسانات الحريرية والسجاد وذلك مثل معبد، لابل حتى الأرض كانت مغطاة بالأقمشة المزركشة، وتولى عمل هذا الاسبانيون، لأن تلك كانت عادتهم في بلادهم، لكن هذا التجبر المسرف، قد أثار ضحك وازدراء الناس، ولدى قيام

أشخاص جادين وعقلاء بالتفكر حول حوادث المستقبل، حزنوا بعمق من التقــدير الكبير الذي يبديه الملك لدى حضور أية أجــانب، وفي الحقيقـة أثار التكريم الذي أبدي نحـو الاسبان دهشـة وعجب الجميع، ولاغـرابة في ذلك، ولذلـك بكى الانكليـز وانتحبـوا لأنهم وضعـوا في مكان أقل تقــديراً من شعب أية دولة أخـرى، وذلـك من قبل ملكهم، وبحزن تصوروا بأن دمارهم الذي لايمكن جبره بات وشيكاً.

حول الأوضاع التعيسة لمملكة إنكلترا

عـلاوة على ذلك تحققت صحـة بعض التقـارير التي انتشرت، والتي أفـادت بأن نائبـاً بابوياً، أو بالحري كـاهناً بـابوياً، مسلحـاً بسلطة نائب بابوي، قـد جـرى إرسـاله معتمـداً من قبل البـابـا، وأن وصـوله بات وشيكاً، حيث أنه كان فقط ينتظر ريحاً طيبة، وكان هذا المبعوث مستعداً وراغباً في المقام الأول بمسـاعدة الملك ودعمه في جميع مشـاريعه، وبعد ذلك أن يغل بأغلال التكفير جميع الذين يعارضون رغبة الملك، وطغيانه حسبما كان حاله، وعـلاوة على ذلك صار النبلاء مرعوبين، وقـد غرقوا في متـاهة اليأس، لدى رؤيتهم كيـف تمكن الملك بمكر لايمكن وصفـه من جـذب الأجانب ونشرهم من حـوله بموجب درجـات، وكيف أنه دفع إلى التحالف معه كثيراً من نبـلاء انكلترا، لابل في الحقيقة هم جميعاً تقـريباً، من ذلك على سبيل المثـال ايرلات: غلوستر، ووارني، ولنكولن، وديفون، وذلك بالاضافة إلى عدد كبير آخر من النبلاء الآخرين، وكيف قـد جـرد الآن رعـاياه المحليين، وأغنى إخـوتـه، وأقـرباءه، وأهله، ولو أرادت الجماعـة الانكليـزية كلهـا بشكل عـام، أو تجرأت على الوقـوف ضده، لن يكون لديها القدرة أو الوسـائل للردع، أو الوقوف ضد الملك وأجانبـه، وكان الايرل رتشارد، الذي عدّ على أنه المقـدم لجميع النبلاء، على الحيـاد، ومثله كـان العـديد من الآخـريـن، حيث لم يتجـرأوا على التذمر،وكـان رئيس أساقفة كانتربري، الذي كـان من المتوجب عليه أن

يكون ترساً ضد العنف العدواني للملك، على مسافة نائية في القارة، منشغلاً في كثير من المشاكل الدنيوية المتنوعة، ويقدم اهتماماً قليلاً لرعيته في انكلترا، وكان أصحاب العقول العالية والمدافعين الغيورين عن المملكة، وأعني بذلك رئيس أساقفة يورك، وروبرت أسقف لنكولن، ووارن دي مونتشينسيل وعدد آخر من أمثالهم، قد أخذوا من بيننا، وفي الوقت نفسه حصل إخوة الملك، والبواتيون، والبروفانسيليون، والآن الاسبان والرومان على الثروة بوساطة الموارد، وهذه الثروة تزداد يومياً، وجرى غمرهم بالتشريفات إلى حد الحرمان الكامل للانكليز.

كيف جرى منح إدموند ابن ملك إنكلترا مملكة صقلية

بعد عيد القديس لوقا، اجتمع عدد كبير من النبلاء مع بعضهم، وذلك بعدما جرت دعوتهم بوساطة رخصة ملكية، لأن أسقف رومانا Romagna قد جاء إلى الملك باسم البابا، وعوضاً عن قداسته، جالباً معه خاتماً، أعطاه إلى ادموند ابن الملك، وبهذا العمل المهيب، ولاه على مملكة صقلية وأبوليا، وامتلأ الآن قلب الملك بالفخر والسرور الكامل، وكأنه قد فرغ من تلقي ولاء الصقليين والأبوليين، وقد أصبح سيد مدنهم وقلاعهم، وابنه ادموند قد جرى تتويجه ملكاً، وفي الحقيقة أقدم علناً على دعوة ابنه ادموند باسم ملك صقلية، ولم يكن الأسقف المتقدم ذكره —كما هو معتقد— على دراية بأن جيش الحملة البابوية قد جرى تدميره، وأن أموال ملك انكلترا قد تمّ انفاقها كلها، وأكثر من هذا، أنه قد أثقل بشكل مرعب بالديون، ولو أنه كان يعرف كان قد أخفى بمكر معرفته بذلك، حتى لايخسر الهدايا التي أعدت له، والحقيقة لم يكن الملك بالفعل والنبلاء معه يعرفون، وعاد الأسقف إلى وطنه مثقلاً بالهدايا الثمينة، وحدث ذلك قبل أن تصبح الأوضاع الحقيقية للقضية معروفة في انكلترا، وكان الملك قد قام على كل حال، بسرعة كبيرة جداً بالاقتراب من المذبح بحضور نبلائه، وأقسم بحق القديس

ادموند، وهو معتمـد على مساعدة البابا وواثق منهـا، بأنه سوف يذهب إلى أبوليا، وشاغله فقط صعـوبة معرفة كيف يمكنه السفر خـلال فرنسا بأمـان مع جيشه وأمـواله، وشرع على الفور بالتفكير حـول الذي ينبغي أن يرسله إلى الملك الفرنسي للحصـول على اذن بالعبور خـلال أراضيه، ثم إنه فكـر وفق طريقـة سلطوية ملكيـة، أن يطلب من الملك نفسـه ممتلكاته في القـارة، والسعي إلى استردادهم بالقـوة إذا كـان الأمـر ضرورياً، لأن بين أبوليـا وانكلترا هناك فـرنسـا التي سـوف تسحق بين حجـري الطاحـون، وأخيراً أرسل جـون مـانسيل إلى هناك، وهذا أمـر سوف نذكره فيما بعد في وقته الموائم.

كيف أعاق الملك انتخاب رئيس أساقفة يورك

واستخـدم الملك في هـذه الآونة كل الوسـائل التي كـان بـإمكانه استخدامهـا لتأخير وإعاقـة انتخاب رئيس أسـاقفة ليـورك، في سبيل أنه كلما امتلـك المزيد مـن الوقـت، امتلـك الحرية الأعظـم لنهب ممتلكـات رئاسـة الأساقفة تلك، حيث قـال: «لأنني لم أفرغ بعد من وضع رئـاسة الأساقفة تلك في ممتلكاتي، لذلك ينبغـي أن أنتبه إليها حتى لاتضيع مني بسرعة»، وبعد لأي قام الكهنة النظاميون فانتخبوا، لابل بالحري رشحوا إلى تلك الوظيفـة المعلم سيـول Sewal, الذي كـان عميـد تلك الكنيسة وكان معتـدلاً، ورجلاً مقدساً، وجيد المعـرفة بالقانون وبالعلوم الأخـرى، ثم إنهم بعثـوا المعلم روجـر هـولدرنس Holderness, وكان رجلاً متعلماً، وواحداً له حظوة عـالية في روما، وقد جلب القضية إلى نهاية سعيدة، حسبما سنروي في الصفحات المقبلة.

المعاملة الوحشية لليهود لأنهم صلبوا صبياً

وفي هذا العام نفسـه، في حوالي أيام عيد الـرسولين: بطرس وبولص، سرق يهود لنكولن طفلاً عمره ثمانيـة أعـوام، كـان اسمـه هوغ، وقـد

حبسـوه في غـرفـة بعيـدة عن الطريق، حيث غـذوه بالحليب وبأطعمـة الأطفـال الأخـرى، وبعثـوا تقـريبـاً إلى جميع مـدن انكلترا حيث عـاش اليهـود، واستدعـوا بعضاً من طائفتهـم من كل مدينة ليكونوا حضـوراً لشهـود تقـديم القـربان الذي سيجـري في لنكولن، لأنهم حسبما قـالوا هناك طفل مخفي بهدف صلبـه، واستجـابـة للدعـوة قـدم كثير منهم إلى لنكولن، وبعـدمـا اجتمعوا عيّنوا على الفـور واحـداً يهودياً من لنكولن بمثابة قاض، ليأخذ مـوضع بيلايطس، الذي بناء على حكمه، وبناء على مـوافقـة الجميع، أصبح الطفل عـرضـة لمختلف أنواع التعـذيب، فقـد ضربوه حتى تدفق الدم منه، وهو مـايزال حياً تمامـاً، وتوّجوه بالشـوك، وسخـروا منه، وبصقوا عليـه، وعلاوة على ذلك لقـد طعن من قبل كل واحـد منهـم بسكين من خشب، وجعلوه يشرب شراباً مـراً، وقهـروه باللوم وأرهقوه بالشتائم ودعـوه مراراً باسم يسوع النبي الزائف، وفعل ذلك معـذبوه الذين أحـاطوا بـه، وهم يصرون بأسنانهم ويكشرون عن أنيـابهم، وبعـدمـا عـذبوه بمختلف الطرق صلبـوه، وطعنوه حتى قلبـه بوسـاطة رمح، وبعدمـا قضى الطفل أنزلوه من على الصليب وجوفـوه، لأي سبب لانعـرف، غير أنه تأكـد أنهم فعلوا ذلك بقصـد ممارسـة عمليات السحر والكهانة، وكانت أم الطفل تبحث عنه بحرص وحذر، واستمرت تفعل ذلك لمدة أيام بعـد غياب ابنها، وبعدما جـرى اخبارها من قبل بعض الجيران بـأنهم رأوه مـؤخـراً يلعب مع بعض الأطفـال اليهـود من عمـره، وأنه دخل إلى بيت واحـد من تلك الطائفـة، قـامت بشق طريقهـا فجأة إلى ذلك البيت، فرأت جسـد الطفل في بئر كان قـد ألقي فيـه، وجرى استـدعاء نواب الملك بحـذر، وتمّ العثور على جسـد الطفل، وجـرى سحبه واستخـراجـه من البئر،وعند ذلك شـاهد الناس منظراً غير اعتيـادي بالمرة، وذلك في الوقـت الذي كـانت فيـه أم الطفل تبكي بصـوت مـرتفع وتولـول، وبذلك أثارت حـزن وشفقـة المواطنين الذين تدفقوا مع بعضهم إلى ذلك المكان، وكان موجوداً في ذلك المشهد

واحداً اسمه جون أوف لكسنغتون Lexington, وكان رجلاً متعلماً، وحكيماً، ومستقيماً، وقد خاطب الناس قائلاً: «لقد علمنا بأن اليهود لم يترددوا في محاولة اقترافهم لهذا العمل بمثابة شتيمة وسخرية بربنا يسوع المسيح، الذي كان قد صلب»، ثم إنه خاطب اليهود الذين جرى اعتقالهم، والواحد الذي كان الطفل قد دخل إلى بيته عندما كان يلعب، والذي كان بذلك هدفاً لمزيد من الشكوك أكثر من الآخرين، وقال له: «أيها الرجل الشقي، ألم تعرف بأن موتاً سريعاً هو بانتظارك؟ فجميع ذهب انكلترا لن يكون كافياً لانقاذك، والحفاظ عليك، والحيلولة دون منيتك، وإنني على كل حال سوف أخبرك —مع أنك لاتستحق— كيف يمكنك الحفاظ على حياتك، والحيلولة دون تقطيع أوصالك، فهذان أنا سوف أكفلهما لك، إذا ما قمت من دون خوف أو تردد، فكشفت لي، من دون أي زيف، جميع الذي وقع في هذه المناسبة»، واعتقد اليهودي الذي كان اسمه كوبين Copin, أنه وجد وسائل للنجاة فقال: «يامولاي جون إذا كانت أعمالك سوف تسدد لإفاداتي، سوف أكشف لك أشياء رائعة»، ثم جرى حثه وتشجيعه بفصاحة جون لأن يفعل ذلك، ولذلك تابع يقول: «إن الذي يقوله المسيحيون هو صحيح، ففي كل عام تقريباً يقوم اليهود بصلب طفل بمثابة إهانة لاسم المسيح،ولكن ذلك لايجري اكتشافه في كل عام، لأنهم ينفذون هذه الإجراءات بشكل سري، وبعيداً عن الأماكن، أما بالنسبة لهذا الطفل هوغ، فقد قام يهودنا بصلبه من دون رحمة، وبعدما مات، وعندما رغبوا في اخفاء جثته، قدروا بأن جسد طفل هو بلافائدة لاستخراج العرافة من خلاله (لأنهم لهذه الغاية قد جوفوه)، وهم لم يستطيعوا اخفاءه تحت الأرض كما رغبوا أن يفعلوا، لأنهم وجدوا في الصباح، عندما اعتقدوا بأنه أخفي عن الأنظار، أن الأرض قد لفظته وأخرجته، وظهر الجسد غير مدفون فوق الأرض، الواقعة التي أصابت اليهود بالرعب، وأخيراً ألقي في بئر، لكن حتى هناك لم يكن من الممكن

حجبـه عن الأبصـار، لأن أم الطفل، بحثت في هذه الجرائم، فـاكتشفت جثـة الطفل وأخبرت النواب الملكيين»، وبعــدمــا سمع جــون هذه الأسرار، حبس اليهودي في سجن شديد الحراسة.

وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة إلى علم الكهنة النظاميين للكنيسة الكاتدرائية في لنكولن، طلبوا جسد الطفل، وقد أعطي إليهم، وبعـدما جرى عـرضه كمشهد أمام عـدد كبير من الناس، جرى دفنه بتكريم في كنيسة لنكولن، وكأنه جسد شهيد ثمين، ويتوجب أن يكون معلوماً بأن اليهـود قد احتفظوا بالطفل لمدة عشرة أيام، يغـذونه طوال ذلك الوقت على الحليب، حتـى يتمكن أثنـاء حيــــاته مـن تحمل الكثير مـن أنواع العذاب.

ولدى عـودة الملك من شمالي انكلترا، جـرى اخبـاره بهذه الواقعـة، فـوجّـه اللوم إلى جـون لأنه قـام بتقـديم الوعـد إلى مثل ذلك المخلوق الشرير بالحفـاظ على حيـاته وأطرافـه، حيث لم يمتلك الحق في أن يفعل ذلك، لأن كافراً وقاتلاً مثله يستحق الموت مرات ومرات، وعندما رأى الرجل المجرم أنه لامنـدوحة أمامـه من العقوبة، وأن العقـوبة محيقة به، عند ذلك قال: «موتي بات وشيكاً، ولايمكن لوعـد جون أن ينقذني من الهلاك، وسوف أخبركم الآن بالصدق كله، فلقـد وافق تقريباً جميع يهود انكلترا على ذبح هذا الطفل، الذي هم (اليهود) متهمـون به، فقد جرى اختيـار اليهـود تقـريبـاً من كل مـــدينة في انكلترا يسكن بها من طائفـة اليهود، واستدعيوا ليكونوا حاضرين أثناء التضحية به، وتقديمـه قرباناً في يوم عيـد الحصـاد»، وبعدمـا فـرغ من التفـوه بهذه الكلمات وكلمات تجديف أخـرى، تم ربطه إلى ذيـل حصـان، وسحب إلى المشـانق، حيث ترك جســده ونفسه إلى الأرواح الشريرة للهـواء، أمـا بقية اليهـود الذين كانوا شركاء في هذه الجريمة، وكان عددهم واحد وتسعين شخصاً، فقد حملوا إلى لندن في عربات، وألقي بهم في سجن محروس بدقة وشدة، ولم

ينالوا أبداً الشفقة من أي مسيحي، كما أنهم لم يثيروا دموع الرحمة بين المرابين، المنافسين لهم.

كيف جرى جرّ ثمانية عشر يهودياً إلى المشانق وشنقوا

وجرى بعد ذلك تحقيق من قبل رجال العدالة الملكيين، وبناء عليه تمّ الاكتشاف وتقرر أن يهود انكلترا، قد وافقوا جميعاً على صلب وقتل طفل بريء، بعدما جلدوه لعدة أيام، هذا وبالنسبة لهذا العدوان المجرم، وبناء على شكوى أم الطفل المتقدم الذكر، وتقديمها التماس إلى الملك حول جريمة القتل المذكورة، قام الرب، إله الانتقام فأنزل بهم عقوبات تتوافق مع الذي يستحقونه، لأنه في يوم عيد القديس كليمنت، تم جر ثمانية عشر من أغنى يهود مدينة لنكولن وأعلاهم مكانة، إلى المشانق الجديدة التي أقيمت خصيصاً لهذه الغاية، وجرى شنقهم، ومنحوا إلى الرياح، وأبقي أكثر من ثمانين آخرين أيضاً في سجن مضيق عليهم، وتحت حراسة شديدة في برج لندن، بانتظار مصير مشابه ومماثل.

وصول المعلم روستاند إلى إنكلترا بمهمة من البابا

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، أرسل البابا الاسكندر معاون شمامسة، المحامي المعلم روستاند Rustand, وكان غسكوني المولد، أرسله إلى انكلترا، معطياً إليه السلطات، وأرسل أيضاً رئيس أساقفة كانتربري، وأسقف هيرفورد، لجباية العشور من انكلترا، وسكوتلندا، وايرلندا، لصالحه (البابا) ولاستخداماته، أو لصالح الملك واستخداماته من دون تمييز، وقضى بأوامره **«بعدم التقيد بأية رسالة أو غفران أو إعفاء تقدم منه وإرساله، في أي شكل من الأشكال جرت صياغته وتوجيهه، ومهما كان السبب الذي من أجله تمّ الحصول عليه، أو أي عائق يمكن أن يفهم حول ذلك»**، ومنح البابا إلى الفئة نفسها سلطة تحليل ملك انكلترا من أي تعهد قطعه على نفسه من أجل الحملة الصليبية والذهاب إلى

القـدس، من أجل أن يتمكن من القيـام بحملة إلى أبوليـا، لشن الحرب ضـد مانفـرد، ابن الامبراطور الراحل فـردريك، الذي كـان عدواً قـوياً لكنيسة رومـا، وفي الحقيقة كان البـابا قد تسلم وعـداً مقروناً بيمين من ملك انكلترا، بأنه سـوف يفعل ذلك، وجـاء هذا من خـلال أسقف بولون، الذي كان قد أرسل من قبل قداسته خصيصاً لهذه الغاية، وأيضاً لتولية ادموند مملكة صقلية، حسبما تقدم الذكر أعلاه.

البارلمان الذي عقد إثر مهمة روستاند

في عيد القديس ادوارد في هذا العام، اجتمع تقريباً جميع نبلاء انكلترا في ويستمنستر، وظهر الملك بينهم، وخاطب أخـاه أولاً، ملتمساً بحرارة تقديم مساعدة مالية إليـه، وكان البابا قد أرسل أيضاً رسائل التماس إلى الايرل المذكـور رجاه فيهـا تقـديم المساعـدة إلى أخيـه بقرض مقـداره أربعين ألف [مـارك]، وقـد أبقى حقيقـة أنه قـرض سرية، من أجل أنه بقيـام المذكور بتقـديم أعطيتـه، سوف يضرب مثـلاً إلى الآخـرين، لكن الايرل لم يصغ لا إلى التماسات الملك أو البابا، وبشكل خاص بسبب أن الملك كان مسحـوراً بالإثارات الخفية من مستشـاريه الذين هم من عبر الألب، وأنه تولى القيـام بالحملة إلى أبوليـا من دون طلب نصيحتـه، أو مـوافقته (الايرل) أو مـوافقة ونصيحـة البارونات، ولدى عـرض طلب المساعدة أمام الآخـرين، أجابوا، أنهم لم يجمعوا كلهم في ذلك الوقت بما يتماشى مع بنود الصـك العظيم، وأنهم بذلك من دون نظرائهـم، الذين كـانوا غائبين، لايمكنهم اعطاء جـواب، أو منح مساعـدة»، ولذلك لجأ الملك إلى حججه الماكرة المعتادة، ليرغـم النبلاء على الموافقة على رغباته، وأخر الأعمال التي من أجلها انعقد البـارلمان لعدة أيام، وبذلك تأخرت القضايا التي كـانت قيد المناقشة بحجج مختلفة زائفـة لمدة شهر، وأخيراً بعدمـا أفرغـوا محافظ نقودهم في مدينة لنـدن، حرضهم، —وبالحري لم يستـدعهم— للاجتماع وعقـد مـؤتمر في مكـان آخـر، هذا وقـام الايرل

رتشارد، وكـان رجلاً حـذراً وحكيماً، فوجّـه الملامة بحـدة —وهو محق بذلك— إلى أسقف هيرفـورد وصـاحبـه روبـرت ويلران بفتنهم الملك وتسبيب الخبل إليـه على هذه الصـورة، ممـا سيـؤدي إلى الدمـار الكامل للمملكة، وبذلك عـاد جميع النبـلاء إلى مـواطنهم وهم في حـالة ضيق وارباك، ومن دون أن يفعلوا شيئاً، وينبغـي أيضـاً أن يكون معلومـاً أنه عندمـا عـاد الملك من غسكوني، كـان متـورطاً بديون وصلت إلى مبلغ ثلاثمائة ألف وخمسين ألف من الماركات، وهو على كل حال، على الرغم من هذا المبلغ لم يتـوقف عن الاصغـاء إلى النصائح السيئة، وعن تبـديد الأمـوال يومياً بين الأجـانب، وهي الأمـوال التي كانت لديه، وكـذلك كل الذي اعتقـد أنه يمكنه استخـراجـه من انكلترا، التي عـدها بئراً لاينضب، فهـو قـد أعطى إلى الأسقف المنتخب لطليطلة دخـلاً ومبلغـاً كبيراً من المال، وكـذلك فعل بالنسبـة لأسقف بولـون، وأيضـاً إلى روستاند، وذلك إلى جانب بعض الهدايا الثمينة جداً، وأعطاه أيضاً وقفاً غنياً في كنيسة يورك.

كيف أمر المعلم روستاند بالدعوة إلى حرب صليبية ضد مانفرد

وفي هذا الوقت أيضاً، أصدر المعلم روستـاند أوامر إلى جميع المؤيدين الغيورين للكنيسة المقدسة، للتبشير بصورة علنية من أجل حملة صليبية، أولاً في لندن، وبعد ذلك في أماكن أخرى، وتوجيه ذلك ضد مانفرد بن فـردريك، الامبراطور الأخير الراحل لـلامبراطورية الرومـانيـة، بحكم كـونه عـدو الرب، وعـدو كنيسة رومـا، وعـدو ملك انكلترا، وحليفـاً للمسلمين، ومحرضاً لهم على اقتراف الشرور، وحامياً، وأيضاً لأنه محتل غير شرعي لمملكة واحد آخر، أمـا الذين سوف يلتحقون بتلك الحملة، فقـد وعـدوا بالحصول على غفـران كـامل لذنوبهم، وكأنهم قـد ذهبـوا للحج إلى الأرض المقـدسـة، وعندمـا سمع المسيحيـون الحقيقيـون بهذا الإعلان، اعترتهم الدهشـة لأنهم سلف ووعدوا بالشيء نفسـه من أجل

سفك دمـاء المسلمين، والآن وعـدوا بالشيء ذاتـه من أجل سفك دمـاء المسيحيين، وقـد أثارت كلمات المبشرين الضحك والسخـرية، وفي أحـد الأماكن عندما كان المعلم روستاند يقوم بالوعظ، أضاف في نهاية قداسه يقول: «كونوا أبناء الطاعة، واعهدوا بأنفسكم إلى كذا وكذا من التجار، من أجل كذا من مبالغ المال»، وحـدث هذا بين رهبان كانوا مجتمعين في هيئتهم الرهبانية حيث لم يكونوا قـد سمعوا من قبل بمثل هذا الإجراء، ولاانزعجوا بمثله.

حول الهدنة التي عملت في الأرض المقدسة

ووجد سكان الأرض المقـدسة أن البابا مهتم قليـلاً، بتحرير الأرض المقـدسـة، التي كـرسهـا الرب نفسـه بحضـوره، وأخيراً بدمـه، ولذلك عقـدوا هدنة مع سلطان مصر، الذي كـان في حـالة حـرب مع سلطان دمشق، وأطالوا تلك الهدنة فجعلوها لمدة عشر سنوات.

كيف تعرض رئيس الأساقفة المنتخب ليورك للمضايقة من قبل الملك

بات الآن المعلم سيـول عميـد يورك، الذي جـرى مـؤخـراً انتخـابه بشكل صحيح رئيسـاً لأساقفـة تلك الكنيسـة، حزيناً إلى أبعـد الحدود، وبشكل لايقبل المواساة، وذلك لأنه رأى مقتنيـات تلك الكنيسة تنهب، وتدمر، ويجرى تبـديدها، وعلاوة على ذلك قـام الملك بسبب أن العميد المذكــور لم يلـد من خـــلال زواج شرعي، بـالسعي، اعتماداً على بعض الحجج التافهة، إلى إعاقة ترشيحه وانتخابه إلى رئاسة الأساقفة.

انسحاب جون دي غري من البلاط

وحدث في هذا الوقت أيضـاً، أن قام جـون دي غري، وكان فـارساً صاحب أخـلاق حميدة، وعظيم الشجاعـة، ومستشاراً أثيراً لدى الملك،

قام بالانسحاب من البلاط، ولعل ذلك كان بسبب أن مشاعره الداخلية وضميره قد انزعج تجاه مهام البلاط، والقلق الذي كان خاضعاً إليه، وأيضاً بسبب تقدمه بالسن، الذي جعل شعر رأسه أبيض اللون، ويبدو —كما هو معتقد— قد أخذ حذره ضد حوادث المستقبل، لأنه كان خائفاً من أن مستشاري الملك لابد من أن يكونوا في يوم من الأيام عرضة للوم الشديد بسبب أخطائهم المتوالية.

رسالة البابا التي حصل عليها أسقف هيرفورد

بدأ الآن أسقف هيرفورد، بالتعاون مع حليفه روستاند، بالتنفيس عن غضبه بإنزاله على أساقفة انكلترا، خاصة على الطوائف الرهبانية، وكان مدعوماً بقوة، واقعياً بالسلطات الرسولية، وبالرسالة التالية: «من الاسكندر، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أسقف هيرفورد، إلخ: بما أننا نعلم بأنك بحاجة كبيرة لتحمل نفقات كبيرة من أجل فائدة ومنفعة رئيس رهبان، ورهبان دير القديس ....ودير القديس.... الأمر الذي من أجله جئت إلى الكرسي الرسولي، وفي سبيل أن لاتكون شؤونهم عرضة للاهمال، بسبب الحاجة إلى الوسائل التي تكفل الانفاق عليهم، نقوم نحن بموجب فضيلة هذه العروض، بمنحك ياأخانا، سلطة كاملة، بابرام عقود دين من أجل هذه الغاية، تصل إلى مبلغ خمسمائة، أو ستمائة، أو سبعمائة، أو أكثر، من الماركات الاستيرلينية، باسم رئيس الرهبان المتقدم ذكره، والرهبان والدير، وأن ترهنهم: رئيس الرهبان، والرهبان،وخلفائهم، والمقتنيات العائدة للدير المذكور، للمقرضين، وبالتخلي عن مبدأ الإعلان لمدة يومين الذي تقرر في المجمع العام، وعن منفعة إعادة التأسيس كاملة، وعن الرسائل الرسولية، وعن الغفرانات التي تمّ الحصول عليها، أو سوف يتم، وكذلك عن استدعاء القضاة، وعن جميع الرسائل الرسولية مهما كانت محتوياتها ومقاصدها، التي قد يحدث ويتم الحصول عليها منذ الآن فصاعداً حول هذه القضية باسم

المقـرضين، وهكذا سوف يكونوا هم وخلفـائهم ملزمين بدفع هذا المال إلى المقـرضين، وإذا لم يلتـزمـوا بدفـع المبلغ نفسـه، في المدة المحـددة من قبلك، يتـوجب عليهم تعـويض جميع الخسـائـر والنفقـات، ودفع جميع الفـوائد، وفيما يتعلق بذلك تقضي ارادتنا بأن عليك تصـديق يمينهم، أو يمين أي واحــد منهم، من الـذين أقـرضــوا المال، من دون طلب أي برهان، وأيضاً بالنسبـة للمقرضين المذكورين بناء على حجة أي مـرسوم سواء أكـان لاهوتياً أو مدنياً، أو أي امتيـاز، أو اعفاء، ينبغي التعبير عنه تعبيراً كـاملاً في رسـائلنا، وفي سبيل أن لايكونوا هم ولاخلفـائهم بعـد الآن قـادرين على الدفـاع عن أنفسهم بأية طريقـة من الطرق، لن تكون هناك حاجة لتقديم برهان بـأن ذلك المال قد وضع قيد استخدام رئيس الرهبـان المذكـور، والرهبـان، والديـر. صـدر، إلخ»، وفي الوقت نفسـه طلب البابا منحـه قرضاً من الايرل رتشـارد، يصل إلى مبلغ خمسة آلاف مـارك، لدفع قضيـة ادمـوند ابن أخي الايـرل ورفع شأنها، وعلى هذا الطلب أجـاب الايرل قـائـلاً: «أنا لن أقـرض أي مـال إلى رئيس، أنا لايمكنني أن أرغمـه على الدفع لي»، وصـدرت هذه الإجـراءات المقيتـة وغيرها، والتي هـي مهينة لنا، والمؤسف أن نقــول إنها نبعـت من النبع الكبريتي السام للكنيسة الرومانية.

حول المجمع الذي عقد في لندن من قبل أساقفة إنكلترا

وقام في هذه الآونة روستاند، بموجب تخويـل البابا وسلطاته، بتوجيه الدعـوة إلى جميع أساقفة انكلترا لـلاجتماع في لندن، خلال أسبوعـي عيد القـديس ميكائيل، من أجـل سماع رسـالة من قـداستـه، ولمناقشـة بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالملك، وبالبـابا أيضاً، وأن يقوموا بحكم كونهم أبناء الطاعـة، باعطاء جـواب عقـلاني ومفيـد على المطالب التي عملت، وأيضـاً على المطالب التـي سـوف تعمل، وعندمـا اجتمعــوا في الزمـان والمكان المحـددين، جـرى أولاً قـراءة وشرح الذي تعلق بصـلاحيات

روستـاند وسلطاته، ثم قـام ذلك الشخـص بإلقـاء خطاب فيهم، حيث طلب مبـالغ كبيرة من المال منهم جميعـاً، أن نقـوم بكتـابة أذاهـا كلهـا وظلمهـا، سوف نجـرح بعمق قلب الإنسـان الأكثـر صبراً، ولو أن هذا المال قـد جرت جبـايتـه من كنيسة انكلترا، لتحـولت المملكة في الحقيقـة كلهـا، ولنزلت إلى أدنى درجات العبـودية، ولتسبب ذلك بفقـر لايمكن الخلاص منه، فلقد كان عبئاً لايمكن حملـه هو الذي فرض على الآخرين حمله، ومع ذلك كان على غير استعداد لتحـريك اصبع واحد لمساعدتهم، ومن دون القيام بذكـر جميع القضايا، لقـد فرض على دير القـديس ألبان لوحده، وجوب دفع ستمائة مارك إلى البابا، بالاضافة إلى فائدة وإلى بنود قـاسيـة وشروط، تولى فـرضهـا هؤلاء التجـار المرابون، الذين إليهم قـد جرى منح سلطات ظلـم الكنائس كما يرغبون، مع إمكانيـة ارغام الدير المذكور، وعلاوة على ذلك سعى روستاند، وأسقف هيرفورد والمتعاونين معهما، إلى اختصـار المدة الممنوحـة للدفع تحت طائلة عقـوبة التعليق من شراكة المؤمنين والحرمـان الكنسي، وكان الموعـد الذي جرى تحديده، من غير الممكن لأي من المفـروض عليهم الالتـزام به، وعمل هذا في سبيل إرغام هؤلاء الأساقفـة على استدانة المال من أولئك التجار، حتى يكونوا خاضعين لشروط فوائدهم الربوية، وهي شروط بدت لكل واحد منهم، لابل لهم جميعـاً، ليسـت فقط صعبـة، لابل مستحيلة، وبعـد مـداولات دقيقـة استمـرت لعـدة أيام، تحدث فـولك أسقـف لندن بقلب مليء بالأسى، وخـاطب المجتمعين قـائـلاً: «قبل أن أعطـي مـوافقتي على أن تكون الكنيسة خاضعة لمثل هذه الحالة من الأذى والعبودية، سوف أقطع رأسي، وأحـرر نفسي من هـذا الظلم الذي لايطاق»، ولـدى سماع هذا الكلام الشجـاع والحازم صرخ وولتر أسقف ووركستر بصـوت مـرتفع قائلاً: «أمـا بالنسبة لي، فقبل أن تخضع الكنيسة المقـدسة لهذا الاستخراج المدمـر، سـوف أحكم على نفسي بالشنـق»، وتشجع الأسـاقفـة بهذه الإعلانات السليمة، ووعـد الجميع بثبات بأن يسيروا خطوة خطوة، على

طريق القديس توماس الشهيد، الذي سمح بضرب رأسه في سبيل حرية الكنيسة، لكنهم كانوا مطوقين من كل جانب، وعرضة للضغوط، فالملك كان ضدهم، وكان البابا بشرهه إلى المال عدوهم، ولم يشعر النبلاء بالشفقة تجاه أمهم الكنيسة، وقام روستاند وكان متعلماً وقادراً على إلحاق الأذى بهم بإثارة أعدائهم ودفعهم نحو الالتزام بهذه الإجراءات، أما رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان من المفترض الداعم للكنيسة المترنحة، وربان مركب بطرس، الذي كان تحت رحمة الأمواج العاتية، فكان متورطاً بأعمال دنيوية في مناطق نائية فيما وراء البحر، وأدار رعيته بعناية أقل مما ينبغي، وكان رئيس أساقفة يورك رجلاً عميق التفكير، وحكيماً بآرائه، لكن كان قد أذعن لمنيته، أما الأسقف المنتخب لوينكستر فكان موضعاً للريبة، وبالتالي جرى تجنبه، لأنه كان بواتياً، وأخاً للملك، الذي يتولى قمعهم، وأيضاً لأنه لم يكن أسقفاً، وفي الوقت نفسه لم يكن أسقف هيرفورد موضع ريبة فقط، بل كان يعدّ بمثابة عدو معلن، وبناء عليه قاموا بالتوجه بالدعاء إلى الروح القدس لمنحهم المواساة والسلوى، وقرروا الترافع إلى البابا —الذي يتوجب أن يكون كهف اللاجئين والحامي لكل واحد مظلوم— حول قضية الاستخراج التي لاتحتمل وكانت غير اعتيادية، وأعدوا أنفسهم للوقوف ضد استبداد، واجحاف، وتهديدات المعلم روستاند، وبناء عليه عُمل إعلان على الفور، قام بتعميمه المنادي في لندن، وذلك بموجب سلطة أسقف تلك المدينة، أنه يتوجب أن لايقوم أي إنسان بتنفيذ إجراءات المعلم روستاند، أو إطاعة ماورد في رسائله وذلك لمدة عدة أيام، وعندما وصل هذا الإجراء إلى علم روستاند، عمل شكاوي كبيرة إلى الملك، وذكر له بأن أسقف لندن قد أثار الأساقفة الآخرين وشجعهم على الوقوف ضد إرادة البابا، وضده هو أي الملك.

وغضب الملك غضباً شديداً، فكدس الملامات فوق أسقف لندن،

وأعلن أنه لاهو ولاأي واحـد من أسرته قـد أحب الملك أبـدا مع أنه ملكهم، وأنه سـوف يسعى، بقدر مـايمتلك من قـوة، لجعل البابا يتـولى ردعه ومعاقبته، وعلى هذا رد الأسقف قائلا: «ليقم البابا والملك، اللذان أقوى مني، بانتزاع أسقفيتي، الأمر الذي لايمكنهما فعله بعدل، ودعوهما يأخـذان هذه القلنسـوة، فالخوذة سـوف تبقى»، وحـدث في هذا الوقت نفسه، أن جرى التهامس من أذن إلى أخرى لكثيرين، بتقرير غير معقول (سـوف يكون تناقضـاً وشراً تصديقـه)، وأفـاد هذا التقـرير وتحدث عن خداع معين، وأعمال تزييف مهينة جرت بسوء في استخدام الختم العظيم للبـابا، وأنه وضع على جداول بيضـاء، يمكن لكل من يرغب أن يكتب عليهم فيما بعد، هذا وقـال الناس أحدهم للآخـر: «لاسمح المسيح، من غير المعقـول أن يقوم البـابا، الذي هو بلاشك رجل هو الأكثـر قداسـة، بالموافقة على هذا الاثم العظيم، لأن من الواضح والجلي أنه جرت ترقيته إلى منصبه الرفيع بوساطة نفـوذ لاهوتي، وعلاوة على ذلك لقد فعل مالا نذكر أي بابا أقدم على فعله، لأنه طالب بأن تقدم صلوات الكنيسة إليه، ثم كيف يمكن التصـديق بعـد هذا أنه يمكن أن يفعل أشيـاء أسـوأ من أعمال سلفـه؟ لاسمح الرب بذلك»، وهكذا سعى الناس وراء الحصـول على مـايواسي جهلهم واضطراباتهم، فبوسـاطة عباءة هذا النقـد المنطقي عزوا هذه الأعمال الحمقاء ونسبوها إلى مزيفين».

كيف سعى أسقف هيرفورد والمتعاونين معه إلى إثارة شقاق ديني بين الأساقفة

وفي الوقت نفسه سعى أسقف هيرفورد، وروستـاند مع الآخرين من حلفـائهم من مـاوراء الألب، إلى إثارة شقـاق ديني وتمزق بين أسـاقفـة انكلترا، مستخدمين جميع الوسـائل التي كانت تحت تصرفهم، ذلك أنهم خـافوا من أنهم إذا مـا وقفـوا إلى جـانب بعضهم بعضاً بـاخلاص، قـد يتمكنوا من توجيـه البـابا، وجعله يسير في طريق الصـدق، وأنهم بذلك

سوف يعاقون في مشاريع نهمهم لجمع المال، وبذلك تصرفوا وعملوا وفقاً لقول الانجيل: «كل مملكة منقسمة على نفسها سوف تكون مهجورة».

عودة إدوارد من غسكوني

وفي تلك الآونة نفسها، أي عشية عيد القديس أندرو، عاد ادوارد من غسكوني، واستقبل في اليوم نفسه من قبل عدد كبير جداً من نبلاء انكلترا، ومن قبل سكان لندن، الذين تولوا تزيين مدينتهم بشكل ثري، من أجل المناسبة، وجرت مرافقته من قبلهم إلى قصر ويستمنستر، مع أبهة كبيرة، وكثير من الهتافات.

حول ترتيبات السلام فيما بين أسقف درم وجون بالأويل

وعمل في هذا العام أيضاً، سلام فيما بين وولتر أسقف درم، والفارس جون بالأويل Baliol, حول عدة قضايا خلافية قامت بينهما، ومثل هذا أعيد تأسيس السلام فيما بين رئيس رهبان دير التاينهاوث، وجون المذكور، وكان جون هذا نفسه شرهاً، وجشعاً، وعنيداً، أبعد مما كان يليق به، ومما هو نافع لروحه، وقد قام لمدة طويلة بمضايقة كنيسة التاينهاوث وإلحاق كثير من الأذى بها، ومثل ذلك بكنيسة درم، كما أنه قام بحجج مختلفة مشكوك بها بازعاج كنائس أخرى وإلحاق الأذى بهن، وفعل الشيء نفسه بفرسان آخرين ولاهوتيين، وبجيرانه، وبذلك انطبق عليه القول:

كل قوة

أو

كل جبروت

يغار من شريكه

وبطريقة مماثلة وبسلوك مشابه، قام هذا الرجل الشره، الذي لم تكن ممتلكاته كافية لاقناعه واشباعه بالاستيلاء على ممتلكات الآخرين، وعلم الملك بأن جون المذكور يمتلك كميات وافرة من المال، فاتخذ إجراءات قاسية ضده، وكما ذكرنا من قبل، لقد أمل في انقاص أكوام ماله عن طريق رغبته في إعادة تأسيس السلام فيما بينهم، وكان روبرت دي روس متورطاً أيضاً بإجراءات مماثلة، ولقد لحقه لذلك كثيراً من الأذى، وأصابه الفقر.

إصلاح جامعة باريس

وفي هذه الآونة أيضاً، جرى إعادة تأسيس جامعة الكهنة في باريس وإصلاحها، وكانت عرضة للخطر، بسبب تعليق المحاضرين فيها، وبسبب الخلافات، وتفرق كثير من الباحثين فيها، نتيجة الاضطراب الذي تسبب به الرهبان الدومينيكان، الذين رغبوا بتغيير العرف القديم المؤسس للجامعة، غير أن وضع هؤلاء الرهبان، الذين كانوا مؤيدين مدعومين بالصدقات وأعمال الإحسان، قد تغير نحو الأسوأ وفي الوقت نفسه إنه بسبب إهانات وملامات الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، توفر كثير من الفقر وازداد، وشُعر به من قبل رهبان دير السسترشيان الذين كانوا يدرسون في باريس، وهو الدير الذي سلف تأسيسه من قبل رئيس رهبان كليرفو، الذي كان انكليزياً من حيث المولد، واسمه ليكسنغتون Lexington, وكان سلوكهم المشرف والمستقيم قد أعطى السررو للرب، وإلى الأساقفة، وإلى الناس، فهم لم يتجولوا مثل عصابات الرعاع في المدن والبلدات، كما لم يكن المحيط حاجزهم وحدهم، بل إنهم مكثوا هادئين محبوسين داخل جدران بيتهم، يطيعون رئيسهم، وفقاً لأحكام القديس بندكت، التي لاشك ستنال ثناء كل واحد يختار أن يدرسها لأن القديس ميّز في مطلعها بين مختلف أنواع الرهبان، ووجه النقد إلى Sarabaitas و Gyrivagos,

وقام هؤلاء الرهبان أنفسهم —على كل حال— بالالتزام بمتابعة ممارسة أعمال التبشير، وبذلك أضعفوا سلطة المبشرين العاديين، ونالوا ثناء كثيرين وقبولهم، وذلك في الوقت الذي جعل كثير من الآخرين أنفسهم أهدافاً للنقد، لأن كثيراً منهم أخذوا بالوقاحة في جنحهم، لأنهم لم يكونوا مرغمين على الاعتراف بذنوبهم إلى كاهنهم، وهنا كان الأذى: حيث أن بعضهم رفض الاعتراف لكاهنهم الرسمي، لأنه ربما كان سكيراً، أو من أجل أسباب أخرى سرية، ولذلك لجأوا إلى القيام باعترافاتهم تحت مظلة أجنحة المواساة والتعزية، وانتشر هذا الرأي من عندهم إلى الدومينيكان والفرنسيسكان، فأي علاج وفائدة نتجت عن ذلك؟.

موت الكاردينال جايل الإسباني

ومات في هذه الآونة الكاردينال جايل الاسباني، وكان قد وصل إلى سن المائة، وبرهن هذا الرجل المدهش، الذي لم يكن له نظير، عن نفسه في بلاط روما أنه عمود الصدق والعدل، ورفض قبول الهدايا التي تحرف بالعادة الناس وتبعدهم عن الالتزام والعدل، والاستقامة.

حول غضب الإيرل مارشال ضد الملك

وأثناء المؤتمر الذي تقدم ذكره أعلاه، والذي مدّد من دون فائدة لمدة عدة أيام، تسبب روستاند، في سبيل أن يجعل الملك خاضعاً أكثر إلى إرادته، بنشر تقارير لاأساس لها، أفادت بأن جيش مانفرد قد تفرق، وأن مانفرد نفسه قد دس إليه السم، وأنه بات على عتبات الموت، وأنه نتيجة لذلك قد تواضع، ولأنه عرف أوضاعه التعيسة، بادر مسرعاً وبإلحاح إلى التماس السلام من البابا، وبناء عليه امتلأ بلاط روما كله ببهجة عظيمة وبسرور عارم، وبات أفراد هذا البلاط واثقين بأنهم سوف يحصلون على مارغبوا به بالنسبة لقضية أبوليا، وبسماع هذه

الأخبار فرح الملك فرحاً كثيراً، وامتلأ قلبه بسرور لاأساس له، إلى حد أنه أطلق على ابنه اسم ملك، وبادر مسرعاً إلى أقرب مذبح، فأقسم عنده بأنه سوف يذهب إلى أبوليا ليتولى الاستحواذ عليها لصالح ابنه ادموند.

وفي هذا البارلمان ألقى الايرل مارشال خطبة لتسويغ روبرت دي روس والدفاع عنه (وهو الذي كان متهماً بجريمة جادة، وهي جريمة كانت تهدد حياته بالخطر) وجاء ذلك عندما كدس الملك أقوال لوم وتوبيخ مهينة على روبرت وعلى الايرل، وأعلن أمام الناس بأن الايرل هو خائن، ولدى سماع هذا التوبيخ غضب الايرل غضباً شديداً، وتوجه بنظرة حادة نحو الملك وأجابه قائلاً: «أنت تكذب، أنا لم أكن، ولن أكون خائناً»، وأضاف قائلاً: «ماالذي يمكنك فعله بالنسبة لي؟ كيف يمكنك إلحاق الأذى بي إذا حكمت بالعدل»؟ وعلى هذا رد عليه الملك قائلاً: «أنا يمكنني الاستيلاء على حبوبك، وجمعها في البيادر ودرسها وبيعها، وبذلك سوف أخضعك وأذلك»، وعند ذلك قال له الايرل: «إنني سوف أقطع رؤوس الذين سيدرسون حبوبي وأرسلهم إليك»، وعند هذا بات مخشياً بأن المسائل سوف تتطور نحو الأسوأ بين الايرل والملك، لذلك تدخل أصدقاء الطرفين بينهما، وفصلوهما، ومع أن خطاباتهما التهديدية قد قوطعت، هما لم يسكنا، وكان الغضب والكراهية هما نتيجة هذا الشجار، وفي هذا المؤتمر الذي كان بلاثمار، والذي لم يعمل به شيء من أجل المسألة الرئيسية المعروضة، قام البارونات في اليوم الأخير لجلساته فأجابوا: «بأنهم لن يستمروا كما فعلوا حتى الآن في افقار أنفسهم من أجل منفعة الآخرين، ورفضوا مناقشة أية أمور صعبة أو سرية عائدة للمملكة، لأنهم قالوا بأنهم رأوا بأن كل شيء كان مليئاً بالريبة، وبالغدر الثعلبي، وكانت مدينة لندن مليئة حتى آخر الحدود، ليس فقط بالبواتيين،

والرومــان والبروفــانسيين، بل والاسبــان، الذين ألحقــوا أذى كبيراً بالانكليـز، وخـاصة بسكان مـدينة لندن، حيث كـانوا يقترفـون الزنا، والفسوق، ويهينون الناس، ويجرحـونهم، لابل حتى كانوا يقتلونهم، في حين لم يقم الملك بردعهـم، لابل بالحري قـام بالدفـاع عنهم، ولذلك فإن المؤتمر —إذا جـاز أن يطلق عليـه اسـم مـؤتمر— ارفض بحــزن وأسى.

وفي يوم عيـد القديسـة لوسيـا، غادر لوكـاس Lucas رئيس أسـاقفـة دبلن طريق الجسـد، وكان هذا الـرجل قد جـرت ترقيتـه إلى رئـاسة الأسـاقفة بوسـائل الإرغام من قبل هيـوبرت دي بورغ، الذي كان مسؤولاً عن العدالة من قبل، والذي كان قسيسه هو لوكاس هذا، ولكن الرب أراد أن يعــذبه، وحثـه على التـوبة، فتفقــده بأن أنزل به العمى، وظل يعاني من هذه المصيبة بتعاسة لمدة سنوات عدة.

كيف التحق بمانفرد كثير من الأعوان لأنه كان منتصراً

في الوقت الذي كـانت فيه هذه الأشيـاء تعبر في انكلترا، دار دولاب الحظ في مناطق ماوراء الألب، وأحدث تغييرات هائلة، لأن الذين كانوا قبل وقت قصير مضى مسرورين، جـرى قـذفهم في متاهـة الفـوضى والاضطراب، لأنه بعـد تفرق جيـوش البابا، كـان الأبوليون قـد علموا بأن البـابا كان قـد أعطى بلادهم من دون موافقتهم إلى رجل انكليـزي غير معـروف، وأجنبي بـالنسبة إليهم، ولذلك غضبــوا غضبـاً عظيماً، وظلوا يشعرون بمـزيد من الانزعاج لأن البابا كان قـد حول الصليبيين عن غرضهم الأساسي، ورغب بإرسـالهم ضدهم (أي الأبوليين)، وكأنه مــرســلاً بهم ضـد المسلمين، وذلـك بهدف إبادتهم، ولذلك خضعــوا لمانفـرد، ووقفوا إلى جـانبه، وفعل ذلك حتى الذين كـانوا قد وقفـوا إلى جانب البابا، وقد شكلوا الآن جيشاً كبيراً ضده.

الاجتماع الثاني للأساقفة أمام روستاند

وفي حوالي الوقت نفسه، اجتمعت كتلة أساقفة انكلترا كلها ثانية بحضور المعلم روستاند في لندن، وبعد مناقشات متنوعة يوماً بعد يوم، تقرر بالنظر لغياب رئيس أساقفة كانتربري الذي كان في القارة، ولشغور كنيسة يورك، التي كانت هي الثانية في المرتبة في المملكة، ولغياب بعض الأساقفة، تأجيل اعطاء جواب حاسم للمطالب التي عملها البابا من خلال المعلم روستاند، حتى عيد القديسة هيلاري، فوقتها يمكن أن يجتمعوا كلهم لإعطاء جواب حاسم ومحدد، وهكذا فإنه بعد كثير من الخسائر، والمتاعب، والنفقات، افترقوا جميعاً وعادوا إلى مواطنهم، دون أن يعرفوا المتوجب عليهم فعله، لأنه إذا جرى بصورة عادلة أو غير عادلة تعليق أي واحد منهم، أو حرمانه كنسياً من قبل المعلم روستاند، كان هناك الملك مثل أسد كامن رابض، يتطلع إلى من يمكنه افتراسه، فهو وقتها سيقوم بمصادرة كل ممتلكات جميع الفئة التي صدر قرار بحقها والاستيلاء عليها، وسوف يفعل ذلك بعد مهلة مقدارها أربعين يوماً، وكان البابا والملك مثل الراعي والذئب، وكانا متحالفين مع بعضهما في سبيل تدمير الشياه، من ذلك الوقت فصاعداً، ثم إنهم افترقوا وكانوا أشبه برجال عميان يلتمسون طريقهم بوساطة الجدار، وكل واحد منهم همّه سلامته، وذلك حسب عادة الانكليز، ولو أنهم (الأساقفة) قاموا باتفاق جماعي فأرسلوا إلى البلاط الروماني ممثلاً عنهم، أو نائباً لهم، يتحدث من أجلهم جميعاً، لكانوا تمتعوا بسلام سعيد.

مغادرة كل من الأسقف المنتخب لطليطلة وأسقف بولون لإنكلترا

ومع أن الأسقف المنتخب لطليطلة، وأسقف بولون، كانا متأكدين من أن قوة البابا قد ضعفت وتحطمت، وأن الملك سوف يسقط في حالة من

الفوضى الكاملة، والدمار بسبب خسائره، مع هذا كله لم يكشفا له حقائق القضية، بل ما أن أصبحا غنيين من خلال هداياه الثمينة، حتى قاما بالمغادرة واحداً بعد الآخر، وعادا إلى وطنيهما بصورة سرية، ومثل ذلك فعل جميع الذين أثاروه وأوهموه بوساطة وعود زائفة، وذلك باستثناء المعلم روستاند، الذي كان محتفظاً به من قبل الملك من خلال سذاجته، ولكن مع ذلك عندما أخيراً تمت البرهنة للملك على أن خداع البابا وعاره كانا أمراً حقيقياً، لم يشعر بالأسى إلى أبعد الحدود ولم يحزن، لأنه لم يعرف كيف يحزن، ولم يعرف كيف يخجل، ولو عرف ذلك لشعر بعمق المرارة في قلبه، ذلك أنه لو امتلك أي قلب، لقام بعدما أثير إلى حد عظيم بالأضرار والخسائر التي لحقت به، وأصر على الانتقام المناسب، لكن لفسولته وأوهامه، استمر بعد جميع الخسائر التي عانى منها والخداع، ملتزماً بالاستماع إلى نصائح الأجانب، وأعداء المملكة، ولم يتنازل بالاستماع إلى النصائح المقنعة والصحيحة لرعاياه الطبيعيين، ومن الممكن معرفة هذه الحقيقة من الكلام المتناقض والمهين التي ألقاه روستاند عند نهاية المؤتمر المتقدم الذكر، وكان ذلك بحضور الجميع، وجاء رداً على واحد من الذين اشتكوا من الغرامات غير العادلة للبابا، حيث قال: «لولا احترامي للأساقفة الموجودين هنا، لما بقيتم من دون عقوبة، طالما يوجد شعر على رؤوسكم»، ويستدل من هذا الكلام الطائش والوقح، ويمكن الفهم بأنه أظهر مظاهر الوقاحة لثقته بحماية الملك، وجواب مماثل جرى تقديمه من قبله إلى المعلم ليونارد Leonard الذي كان المتحدث باسم الأساقفة عندما سأله: «هل رقيت من قبل الآخرين لتتكلم كما فعلت؟ أم أنك تتكلم على مسؤوليتك الخاصة؟»، ثم أمر بتدوين خطابه كتابة، وكأنه أراد بذلك أن يذكره إلى الحبر الأعظم، وتجاه هذا أصبح ليونارد خائفاً كثيراً، مع أنه لم يتكلم شيئاً يتناقض مع المنطق والحق، وخشي من أن يفقد كل الذي امتلكه، خاصة وأن ما من واحد من الآخرين سوف يتكلم لصالحه، وقد قيل بأن المبلغ الذي كان الملك

مـدان به إلى البـابا قد وصل إلى مـائتي ألف باوند، وذلك بـالاضافـة إلى خمسين ألف باوند استيرليني كان أسقف هيرفورد قـد ألزم أساقفة انكلترا بدفعها، مع أن ذلك كان من دون علمهم.

الخصام بين أسقف باث ورئيس رهبان دير غلاستونبري

ونشب في هذا الوقت نفسه، خـلاف جاد مابين أسقف باث، ورئيس رهبـان غـلاستـونبري Glastonbury, ولذلك انطلق الأسقف ليقـوم بعبـور الألب في سبيل حسم المسـألة في رومـا، ووقف الملك إلى جـانب رئيس الرهبـان، دون أن يقيم تقـديراً للاضطرابات المضـاعفـة للأسقف والنفقـات الكثيرة التي سـوف يتحملهـا، ذلك أنه مسـايرة لبعض الالتماسات توجب عليه أن يرتحل إلى اسبانيا ثم يعود منها، لابل إلى المناطق النائية من تلك المملكة.

قائمة بأسماء الذين ماتوا في هذه الآونة

ومات في هذا العام، أو خلال مدة وجيزة منه وولتردي غري، رئيس أساقفـة يورك، وتوماس ويلشمان Welchman, أسقف القديس داود، وروبرت أسقف لنكـولن، والمعلم وليم وولـف، رئيس شمامسـة لنكولن، ووليم ملـك ألمانيـا وكـونت هولاندا، وعـدد كبير آخـر من المراتب العـاليـة والمنخفضـة، وهم الذين هلكوا بالسيف أو غـرقـاً على تخوم فـلانـدرز وبرابانت، وكـذلك مـات المعلم روبـرت أوف تورتونا Tortona, وكـان رئيس شمامسـة في بلاط رومـا، وهو الذي كـان مشغـولاً هناك بالمحـاضرة باللاهوت، وكـذلك مـات في البـلاط نفسـه جايل الاسبـاني، ووليم حفيد البابا انوسنت، وكـان الأخيران كردنالين، ووارن دي مونتشينسيل Montchensil, وآرنولد دي بوي، وكان واحداً من أعلى المسؤولين عن الغابات في انكلترا، وكان متميزاً لأخلاقه وشجـاعته في الحرب، وجـون الرومـاني، وكان كـاهناً نظاميـاً في يورك،

ورجلاً عجوزاً وغنياً، وشرهاً كثيراً ومخاصماً، ومات من بين الأصدقاء المقربين للملك وليم أسقف سالسبري، الذي كان من بين أعماله الدنيوية اقتراف عمل أنزل على رأسه لعنات لانهاية لها، ووليم أوف هافرهول Haverhulle وكان خازن الملك، وبطرس تشسبور Chacepore, الذي أنهى حياته بنهاية مجيدة، بعدما صنع وصية نبيلة، وروبرت باسليف Passeleve, ورتشارد رئيس طباخي الملك، وهو الذي جمع مبالغ كبيرة من المال، فقد قيل بأنه كان يمتلك عند موته خمسة آلاف مارك أو أكثر، ومات من حاشية الملكة الخاصة روبرت موسغروس Muscegros, وكان قهرمان الملكة، وولتر دي بروديل Brudel وكان خازنها والمعلم الاسكندر، وكان طبيبها، ولقد كانوا ثلاثة رجال يستحقون عظيم الثناء، وكان بين هؤلاء المقدم الرئيس والزعيم هو وولتر دي غري، رئيس أساقفة يورك، الذي كانت براعته وكان اخلاصه أمران غير مشكوك بهما من قبل أي إنسان، ويكفي للبرهنة على ذلك ادارته للمملكة عندما كان الملك في القارة، ومات في هذا العام أيضاً بعض النبلاء في غسكوني، الذين كانوا يقاتلون هناك من أجل الملك، وكان من بين هؤلاء جون الفرنسي الذي كان محاسباً ومستشاراً أثيراً لدى الملك، ومضطهداً لديري القديسة مريم في يورك وسيلبي Selby, وكان سبب وفاته اصابته بالشلل.

مختصر لأخبار العام

وكان هذا العام خلاله كله مميت جداً لكنيسة روما وللبلاط البابوي، وذلك إذا أخذت تقوى الناس بعين التقدير، لأن كل تلك التقوى قد زالت، وكذلك الاخلاص الذي شعر به بالعادة الأساقفة والناس نحو أمنا كنيسة روما مع أبينا وراعينا الروحي البابا، ومع أن هذا البلاط قد قام بالغالب بقهر المسيحيين وجعلهم يشعرون بمرارة الروح، لكنه لم يقم قط بإحداث مثل الذي أحدثه من جراح أصابت كل واحد من

عباد المسيح، لابل أصابتهم جميعاً، فهذا ما فعله هذا البلاط في هذا العام، وفي العام الذي يليه، لأن الأبرياء قد دفعوا إلى الوثنية، حيث قاموا مثل المرتدين، بالتخلي عن الحقيقة والصدق، الذي هو الرب، وبالاضافة إلى هذا (الذي هو غير محتمل ومع ذلك عدوه محتملاً) لقد أرغموا على التخلي عن مقتنياتهم الدنيوية، ثم إن الإرباكات والازعاجات التي جلبت هذا العام إلى انكلترا، نعتقد أنها تستحق الوقفة معها لنأتي على ذكرها في هذا الكتاب، فقد جرى خرق امتيازات القديسين وغفراناتهم مما ألحق الضرر بهم، حيث لم يقدم التقدير لهم، وتبعاً لروبرت أسقف لنكولن امتلك البابا السلطة في القضايا التي تقود إلى البناء، وليس في الذي يقود إل الدمار، وفيها يتعلق بوعد العشور، تبدلت الثلاث سنوات فجأة وبصورة سرية إلى خمس سنوات، مع أن الوعد الذي أعطي لثلاث سنوات، كان حدثاً جديداً على الأرض، فقد كان من المعتاد دوماً حتى الآن أن يدفع العلمانيون العشور إلى الأساقفة، لكن الآن جرى ارغام الأساقفة على أن يدفعوا العشور إلى العلمانيين، وكان العشر يجري منحه لنجدة الأرض المقدسة، ولقد أرغمنا على تحويله لمساعدة أبوليا ضد المسيحيين، وكان العشر قد جرى منحه للحصول على التزام بالصك، الذي كان هنري، الملك المتقدم ذكره، ملزم بالاعتراف به والالتزام، ومع ذلك فإن بنوده لم يتم الالتزام بها، وكان العشر قد جرى منحه، ليتم انفاقه حصة حصة، ووفق شروط محددة، في مساعدة الملك، أثناء الذهاب إلى الحج، وليس أن نرغم على الدفع، كما يجري ارغامنا الآن بوساطة أكثر وسائل الارغام ظلماً، ولنتحمل أسوأ الأعباء، والكذب في طرق متنوعة ومضاعفة، لابل وصل الأمر إلى حد تجريد أنفسنا، الذي هو محرم بموجب الأوامر اللاهوتية في كل من العهدين، فنحن قد أرغمنا على تحديد تواريخ للدفع، وهي مواعيد لايمكننا بأي شكل من الأشكال الالتزام بها، وذلك من أجل أن نقع في شباك المرابين، الذين نعرف أنهم متحالفين

معهم ومتعاونين، فهناك أشخاص لايستحقون مطلقاً قد زودوا بالسلطة على الكنائس الفخمة، وعلى أساقفتهم الأماجد، وقد جرى بيع الأساقفة مثل الثيران والحمير، وهي حالة أسوأ أنواع العبودية، فأولئك هم الباعة الذين ينبغي طردهم من الهيكل وجلدهم، ولكن بما أنه أكثر إهانة اقتراف الأذى بعنف بدلاً من الخضوع لواحد، يمكننا أن نعتقد ببراءة بأن الشكاوي في هذه القضية سوف ترفع إلى الرب، إله الانتقام، وكان هذا العام —أقول ليس وفقاً لما نستحقه— كله خصب الانتاج للقمح والفواكه، إلى حد أن مكيال القمح نزل بسعره إلى شلنين، ووصل سعر الكمية نفسها من الشوفان إلى اثني عشر بنساً، وفي هذا العام انبعثت الكراهية المتأصلة، بوساطة ميديا الثانية تلك، أي سيئة السمعة كونتسة فلاندرز، وقد تسبب ذلك بتراكم الشرور، وسبب ذلك حدوث مذابح بشرية هائلة، وفي الحقيقة كانت أعظم مذبحة لحقت بالمسيحيين، وهي تستحق الحزن الدائم، وقد وقعت قبل وقت قصير وألمت بالفرنسيين والألمان، وقد أثارت الذين عانوا من الجراحات إلى طلب الانتقام، وفي الواقع حكم زحل وسيطر على موقع إقامته، واسم هذا الكوكب عند أوفيد «حامل المنجل» لأنه يجتث كل ماهو مزدهر، ويسبب الموت إلى كل ماهو حي، وبالنسبة إلى الأرض المقدسة تبرهن هذا العام أنه لطيف إلى حد ما، بسبب الهدنة وشروط السلم، وهي هدنة وإن كانت مشكوك بها، فقد عملت لمدة عشرة أعوام، أما بالنسبة إلى اليهود فكان عاماً مشحوناً بسفك الدماء.

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ١٢٥٦ لتجسيد الرب، وهو العام الأربعين لحكم الملك هنري الثالث، وقد أمضى الملك المذكور عيد الميلاد في وينكستر، حيث زوده أخوه الأسقف المنتخب، بجميع الحاجيات الضرورية، وذلك بالاضافة إلى تقديم هدايا ثمينة له، واستضافته على مائدته، وفي أثناء المحادثات،

تكلم الملك مع أخيه لصالح الرهبان، الذين جرى طردهم من الدير، وتفرقوا، حاثاً إياه على أن لاينال وصمة نكران الجميل، بالنسبة إلى هؤلاء الذين ارتقوا به إلى منصبه الرفيع، وأن ذلك كان أيضا بنا ءعلى التماسه هو (الملك)، لكن الأسقف المنتخب أجابه قائلا: «ألم تعلم ببراءتك العطش المحترف الذي غالباً ماتبرهن عليه، بالنسبة للبلاط الروماني»؟ فأجابه الملك قائلاً: «أنا أعلم وأعرف أنه لن ينطفىء أبدا»، وعلى هذا عقب الأسقف المنتخب قائلاً: «كما لن يكون نبع مالي جاف أبداً، بل سوف يجري استخدامه حتى يملأ حتى التخمة أمعاء هؤلاء الرومان التي تشبه الاسفنج والأفواه الملتهمة، وسأتابع ذلك حتى يجري تحقيق رغباتي في مسألة هؤلاء الرهبان، الذين نصبوا أنفسهم للوقوف ضدي».

وفي هذا الوقت نفسه أيضاً نشب خلاف بين وكلاء الملك لجباية الجمارك وتجار الخمور من الغسكونيين، الذين عانوا بالعادة من كثير من الخسائر والأضرار، من خلال الشراة الذين يستخدمهم الملك، ورداً على متعهدي تموين الملك قال الغسكونيون: «نحن لدينا سيد جديد، منه نأمل أن ننال منافع كبيرة، ونحن نعتقد أنكم سوف تغيرون أعمالكم الشريرة بالسرقة التي تسمونها جمارك، إلى أعمال صالحة، أو على الأقل معتدلة، وقانونية، فمولانا شاب، وإنه مفيد له الاستماع إلى نصائح نافعة، وأن يعاملنا في منصبه الجديد بكل لطف وعدل، لأنه مثل غرسة صغيرة السن وغضة، يمكن أن تنمو وتطور نفسها، من أجل أن تحصل على القوة، لإعطاء ثمار جيدة»، وبما أن وكلاء الملك رفضوا الإصغاء لهم، بل قاموا كما جرت العادة بالاستيلاء على خمورهم بالقوة، من دون أن يدفعوا لهم، ذهب الغسكونيون إلى مولاهم، أي إلى ادوارد، وتقدموا بشكوى ثقيلة وعرضوها عليه حول الإجراءات التي تقدم ذكرها، وأضافوا بأنهم

امتلكوا حرية كتجار بالرسوبين المسلمين، وعرض بضاعتهم للبيع، التي من أجلها سوف يتسلمون أسعاراً مناسبة من دون معيقات، وبناء عليه ذهب وكلاء الملك غاضبين قائلين: «ياصاحب الجلالة هناك ملك واحد في انكلترا يمتلك السلطة ليحكم بعدل، ذلك أن تجار الخمرة الغسكونيين قد تقدموا بالشكوى إلى واحد سواك، وذلك حول أذى قد لحق بهم، وهم قد أكدوا ذلك بشكل زائف، وهذا الإجراء هو بلا شك يسبب إلحاق الأذى بك وبالمملكة»، وبينما كان الملك شاعراً بالسخط لسماعه هذا، جاء إليه ادوارد، عارضاً شكوى ثقيلة حول الأضرار التي لحقت برعيته، معلناً أنه لن يتساهل مع مثل هذه الإجراءات والتصرفات مهما كان الأمر، ولدى سماع الملك هذا الكلام، قال له وهو يتنهد بعمق: «إن الذي هو من جسدي ودمي يهاجمني، وهاهو أيضاً أخي الايرل رتشارد قد أثير ضدي، وكذلك أول أولادي ولادة، فالآن تجدد زمان جدي هنري الثاني، الذي ثار ضده أولاده الأعزاء بوقاحة»، وتوقع كثير من الناس أنه سوف ينتج عن هذه القضية سوء كبير، وباتوا يخشون من حوادث أسوأ سوف تأتي بعد ذلك، لكن الملك أصغى إلى نصيحة حكيمة، فمر بهذه المسائل وعبر بهدوء، وأمر بإصلاح الأضرار التي وقعت، ومع ذلك زاد ادوارد من اتخاذ احتياطاته، فضاعف أعداد أتباعه المحليين، وصار يركب علناً وحوله مائتي خيال.

كسوف الشمس

أثناء متابعة الاحتفالات بعيد الميلاد، وفي اليوم السادس بعد يوم الميلاد، والثالث قبل اليوم الأول من السنة الجديدة، الذي كان عشية عيد القديس سيلفستر، تعرضت الشمس إلى كسوف جزئي، وفي طليطلة كان الكسوف كاملاً، وفي اليوم الثالث التالي، الذي كان عيد الختانة، كان القمر تبعاً للتقويم عمره يوم واحد.

خوف أساقفة إنكلترا الذين تجرأوا على التذمر ضدّ روستاند

وفي عيد القديسة هيلاري، قام أساقفة ورؤساء شمامسة انكلترا، الذين استبد بهم الأسى من كل جانب، بالاجتماع في لندن لتقديم جواب إلى المعلم روستاند، كاهن البابا والملك معاً، حيث أنه كان سفير البابا، والمحمي من قبل الملك، ولدى مثول المعلم ليونارد أمامه، وهو الذي تقدم ذكره من قبل على أنه المحامي لرجال الدين والمتحدث باسم الجماعة، قام بإلقاء كلمة لصالح الأساقفة، وكان من بين الأشياء التي قالها رداً على المعلم روستاند (الذي وقف ليعارض المعلم ليونارد، وقال بأن «جميع الكنائس عائدة للبابا»)، وقد قال باعتدال كبير: «إن ذلك صحيح، لو أنه من أجل الدفاع عنهم وحمايتهم، وليس للتمتع بثمار الآخرين أو اغتصابها، وذلك مثلما نقول: كل شيء عائد إلى الأمير، فنحن نفهم من ذلك، من أجل حمايتهم وليس من أجل تدميرهم، فهذه كانت نية المؤسسين»، وعلى هذا الكلام رد المعلم بغضب قائلاً: «ليتكلم في المستقبل كل واحد عن نفسه ولأجلها، وذلك في سبيل أن يعلم البابا وكذلك الملك، الذي قاله كل واحد حول مسألة تتعلق بها»، وعند سماع هذا التصريح، أصيب الجميع بالدهشة، إما لأنهم لم يتجرأوا، أو لم يعرفوا كيف يعبرون عن عدم رضاهم، لأنه بات الآن واضحاً وضوح النهار، أن البابا والملك كانا متحالفين متحدين من أجل ظلم الكنيسة ورجال الدين، ولذلك استأنفوا ضد المطالب التي عملت، لأن المعلم روستاند رفض تغيير حرف واحد مما أودعه كتابة، وكانت فحوى ذلك بأن الأساقفة قد أقسموا بأنهم اقترضوا مبلغاً كبيراً من المال —كما ذكر من قبل— من تجار عبر الألب، وأن تلك الأموال جرى تحويلها من أجل استخدام كنائسهم، وكان هذا واضحاً إلى الجميع أنه كان زيفاً، وبناء عليه أكدوا —ولم يكن ذلك من دون سبب— أنه أن تموت في سبيل هذه القضية سوف يكون طريقاً أكثر استقامة إلى الشهادة، مما كان في قضية

القـديس تومـاس الشهيـد، وعندما رأى المعلـم روستاند أنهم جميعـاً قـد استبد بهم الأسف ومرارة الروح، عاد إلى طريق المداراة والنفاق، وأصبح أكثر لطفاً، وقـال بأنه يرغب بأن يعقـد اجتماعاً مع البـابا حول القضيـة، وجـرى على كل حال إرسـال عميد كنيسـة القـديس بولص في لندن مع بعض الآخرين، إلى روما، ممثلين لجماعة الكنيسـة الانكليزية، وساد شعور بالخوف فوق كل شيء بأن الأسـاقفة سوف يذعنون وينهارون أمـام نفاق وعنف مثل أولئك الخصوم الأقوياء، حسبما كـان عليه حال الملك والبابا، وأن هذه العبـودية المقيتة، وهذا الظلم لـرجال الدين وللكنيسـة سيصبح بالنتيجة عادة، مما سيسبب الأسف عبر العصور.

التدابير الاحتياطية من أجل الالتزام بصكوك الامتيازات الممنوحة، إلخ

وجرى بشكل مفيـد اتخاذ تدابير احتياطية من أجل وجـوب الحصول على الالتزام الدقيق بالصكوك العظيمـة للملك جون، وذلك تحت طائلة عقوبة التكفير الرهيبة، وهي الصكوك التي كـان برضاه وعن طواعية قد وعـد بها باروناته، وهي التي قـام الملك الحالي فيما بعـد، مـرة ثانيـة الآن مؤخراً، بحرية وعن طواعية بمنحها في القاعة الكبرى لويستمنستر، وأنه أيضـاً بسبب طغيـان الملك، الذي لم يتـوقف عن ممارستـه في الكنائس الشاغرة، توجب تقديم صك آخـر إلى البابا من أجل فحصه، وهو صك كان الملك جـون المتقدم ذكـره قد منحـه إلى المملكة، وبسبب المنافع التي يمكن تحصيلها من الالتزام به من دون خرق، رأينا من الموافق اقحامه في هذا المجلد.

تثبيت صك الملك جون من قبل البابا أنوسنت الثالث

«من أنـوسنت الثـالث، إلخ، إلى إخـوانـه المبجلين، وإلى أبنائـه المحبـوبيـن، وإلى جميع الأسـاقفـة المكرسين للكنائس في جميـع أنحـاء

إنكلترا، تحيات ومباركات رسولية:

بحمد مناسب نحن نثني على عظمة الخالق، الذي منه بآرائه الرائعة والمهيبة قد سمح لبعض الوقت للعواصف بالهبوب على أبناء البشر، وكأنه بهذا يتبارى مع العالم أراد أن يرينا ضعفنا وعدم كفايتنا، فهو الذي بإرادته يقول للريح الشمالية «هبي» وللريح الجنوبية «لاتمنعي هبوبها»، ويأمر الرياح والبحار، ويوقف العواصف في السموات، حتى يتمكن البحارة من الوصول إلى الميناء الذي يستهدفونه ويرغبون بالوصول إليه، وبالنظر لقيام خلاف مؤسف، مصحوب بخطر عظيم وخسائر كبيرة من زمن طويل هو قائم بين الملك ورجال الدين في انكلترا حول مايتعلق بانتخاب الأساقفة، هذا وبمعونة وإلهام منه الذي لاشيء غير ممكن بالنسبة له، والذي يجعل الرياح تهب حسبما يشاء، فقد قام ولدنا المحبوب في المسيح، جون، الملك المشهور لانكلترا، بمطلق حريته الشخصية، ومسؤوليته الذاتية، وبناء على الموافقة العامة لباروناته، وفي سبيل خلاص روحه وأرواح أسلافه وخلفائه، فمنح بكرم منه، وأكد المنحة وثبتها برسائله، حيث قضى أنه من الآن فصاعداً، تكون انتخابات ذوي المناصب من رجال الدين من جميع الأنواع العالية والمنخفضة، حرة وإلى الأبد، وذلك بالنسبة إلى جميع الكنائس والديرة، والكاتدرائيات، والرهبانيات في جميع أرجاء انكلترا، وبناء عليه قبلنا بهذه المنحة وصدقنا عليها بموجب فضيلة سلطاتنا الرسولية، وها نحن نثبت المنحة التي عملت لكم ونؤكدها، ومنكم إلى كنائسكم وإلى خلفائكم، وفقاً لمحتويات الرسائل المذكورة الصادرة عن الملك كما شوهدت من قبلنا، ونحن ندعمكم بحماية رسالتنا هذه»، وفي سبيل المزيد من تأكيد هذه المنحة، ولكي نجعل ذكراها داتمة من الآن فصاعداً، أدخلنا في هذا الكتاب الرسائل المتقدم ذكرها التي تتعلق بمنحة الملك في هذه المسألة، ونصها هو التالي:

صك المنحة التي عملها الملك جون

«من جون الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، وسيد ايرلاندا، ودوق نورمانـدي وأكوتين، وكونت أنجـو، إلى رؤساء الأسـاقفة، والأسـاقفة، والإيرلات، والبـارونات، والفرسـان، والنواب الملكيين، وإلى جميع الذين سوف تصلهم هذه الرسائل، تحيات:

بناء على مـاتم بيننـا وبين آبائنا المبجلين: اسطفـان رئيس أسـاقفـة كانتربري، الذي هو الأول في انكلترا كلهـا، وكازدينال الكنيسة المقـدسة لروما، والأساقفـة: وليم أسقف لندن، ويوستاس أسقف إيلاي، وجايل أسقف هيرفورد، وجوسلين، أسقف بـاث وغلاستونبري، وهوغ أسقف لنكولن، تم بنعمة الرب، وبالإرادة الحرة لكلا الفـريقين، تأسيس السلام كامـلاً حول مسألة الأضرار والخسائـر التي عانوا منهـا، في أيام الحرمان من شراكـة المؤمنين، ونحـن لانرغب فقط في ارضـائهم بقـدر مـايعيننا الرب، بل أن نعمل تدابير صحيحـة ونافعـة إلى كنيسـة انكلترا كلهـا إلى الأبد، وبناء عليه، إن كل عـرف مهما كان، كان حتى الآن ملتـزماً به، في أيامنا وفي أيام أسـلافنا في كنيسـة انكلترا، وكل امتيـاز ادعيناه حتى الآن لأنفسنا في مسألة انتخـابات أي رجل دين مهما كـان، إننا نقـوم بناء على التماسهم، وبناء على ارادتنا الحرة، ومن تلقـاء أنفسنا، وبناء على مـوافقـة باروناتنا، في سبيل خـلاص روحنـا وأرواح أسـلافنا وخلفـائنا في مملكة انكلترا، بناء على ذلك كلـه قمنا بمنح ورسم، وبوسـاطة الصك الحالي الصادر عنا الذي هو تأكيـد للمنحة، أنه من الآن فصاعـداً في كل كنيسة لابل في الكنائس جميعهـا، والديرة، والكاتدرائيات والرهبـانيات في جميع أرجـاء مملكة انكلترا، سـوف يكون انتخـاب أصحـاب المناصب الدينة العالية والمنخفضة حراً، مبقياً لنا ولورثتنا الوصاية على الكنائس الشاغرة والديرة، عندما يكونون عائدين لنا، ونحن علاوة على ذلك نعد بأننا لن نعيق، ولن نسمح لعمالنا باعـاقة الانتخابات المذكـورة، كما أننا لن نعمل

على منع الناخبين في أية كنيسة، وفي جميع الكنائس والديرة —كلما كان المنصب اللاهوتي شاغراً— من أن يعينوا بشكل حر راعياً لأنفسهم، مهما يكن الذي سوف ينتخبونه ويختارونه، على شرط، أن يطلبوا على كل حال سلفاً الاذن بعمل هذا منا ومن ورثتنا، وهذا سوف لن نرفض منحه، أو تأخير اعطائه، وإذا صدف (لاسمح الرب) أننا رفضنا أو أخرنا منح موافقتنا، يمكن للناخبين أن لايتقيدوا بذلك، ومن ثم متابعة أعمال الانتخاب بشكل قانوني، وبعد إجراء الانتخاب، ينبغي التوجه بطلب موافقتنا عليه، ونحن لن نرفض ذلك، مالم نقدم مستندات منطقية للرفض.

وبناء عليه تقضي إرادتنا، وأوامرنا الدقيقة، أنه بالنسبة لقضية الكنائس والديرة التي تصبح شاغرة، لايجوز لأي واحد انتهاك منحتنا هذه، ومرسومنا هذا بأية طريقة من الطرق، وإذا ما أقدم أي واحد، في أي وقت من الأوقات على مثل هذا الانتهاك سوف ينال لعنات الرب القدير ولعناتنا.

وشهد على ذلك: بطرس أسقف وينكستر، وو. W مارشال ايرل أوف بامبروك، وو. W ايرل وارني، ور. R ايرل شيستر، وس. S ايرل وينكستر، وغ. G دي ماندفيل ايرل غلوستر واسكس، وو. W ايرل فيرار، وو. W بروير Bruere, وو. W فتز—جيرالد، وو. W دي كانتلوب Canteloup, وهـ. H دي نيفيل، ور. R دي فيراند، وو. W دي هنتنغفيلد.

ونظم في المعبد الجديد في لندن، وكتب بيد ر. R دي مارش، مستشارنا، في هذا اليوم الذي هو الخامس عشر من كانون الثاني، في سنة ١٢١٦ لتجسيد الرب، وهي السنة السادسة عشرة لحكمنا، ولايجوز لأي واحد مطلقاً، بناء عليه الاقدام بنفسه على تجاوزهذا المرسوم، الذي جرى

تثبيته من قبلنا، أو القيام بطيش بانتهاكه بأية طريقة من الطرق، لأن كل من يتجرأ، مهما كان فيحاول هذا الشيء، ليكن متأكداً من أنه سينال غضب الرب، ورسوليه المباركين: بطرس وبولص. صدر في اللاتيران في هذا اليوم الثالث عشر من آذار، في السنة الثامنة عشرة لحبريتنا».

تذبذب كبير في قراراتهم التقوية

مثل هذه كانت الصكوك والوثائق التي جرى إعدادها، في سبيل إرسالها إلى انكلترا، ليتم تقديرها من قبل الحبر الأعظم، لكن أي شيء جيد يمكن أن تعمل؟ ذلك أن تلك الاضافة المقيتة «دون التقيد» قد أضعفت كل شيء، لقد منع المراوغون، ومستشارو الشر، والمتملقون للرجال الكبار، كل شيء، وكل الذين تقدموا بالشكاوي، غالباً ماتلقوا من البلاط الروماني، أي من البابا ومن إخوانه رداً مثل التالي: «إننا لانرغب في هذه الأوقات أن نزعج الأمراء»، وكانوا يضيفون: «علينا أن نخفي الشيء الكثير، وأن نمر بأمور كثيرة بعين التغاضي»، (مهما كانت كمية الأذى التي يمكن أن تعمل)، وهكذا، إنه لمما نأسف له، إن دقة التقيد بالعدل، عدّ بسبب خوف الناس الجبناء تذبذباً، خاصة في ذلك البلاط.

وفاة جون الروماني رئيس شمامسة ريتشموند

وفي هذا الوقت نفسه مات جون الروماني، رئيس شمامسة ريتشموند Richmond, وكان رجلاً شرهاً جداً، وقد امتلك مبلغاً كبيراً جداً من المال، فقد استخدم نفسه لحوالي الخمسين عاماً في جمع الثروة، ومع أنه كان واحداً من أعلى الكهنة النظاميين مرتبة في كنيسة يورك، لقد كان الأول، أو واحد مثل الأول، بمثابة جاسوس منحط، تولى كشف أسرار انكلترا، وأثار الرومان وحرضهم للاستحواذ بنهم أكبر من المعتاد، والاستيلاء بوسائل صحيحة أو

خـاطئة، على مـوارد تلك البـلاد، وبوفاتـه، ولشغور منصب رئـاسـة الشمامسـة، استـولى الملك على أوقـافـه، وعلى جميع ممتلكاته الأخـرى ومقتنيـاته التي كـان باستطاعتـه الاستيـلاء عليهـا، ووزع كل الذي استولى عليه حسبما أراد ورغب.

وفاة وليم اليوركي أسقف سالسبري

وفي تلك الآونة نفسهـا من السنة مـات وليم اليـوركي، أسقف سـالسبري، الذي كان منذ صباه من رجال البـلاط، وبوساطة البـلاط جـرت ترقيتـه إلى أسقفيتـه، وكـان من بين أعماله الدنيـوية التي عملهـا واقترفها أنه أدخل إلى المملكة بمثـابة قانون عرفاً كـان سيئاً جداً، قضى أن يقوم كل مستأجر أو مكتري، مهما كانت القطعة المستأجر لها صغيرة، بتقـديم خدمـة للبلاط أو لرئيسـه المتملك للأرض، مما سبب أذى كبيراً وإعـاقـة لهؤلاء المكترين، مع منفعـة صغيرة، أو من دون منفعـة إلى الرؤسـاء، وبناء عليـه فإن الذين لم يعملوا قط خـدمـات من هذا النوع، اعترتهم الدهشـة، لأنهم أرغمـوا الآن على القيـام بـذلك، وعبر هذا الأسقف من بين هذه المشاغل الدنيوية والاهتمامات في الحادي والثلاثين من كانون الثـاني، ليواجه المخاوف التي يواجههـا الأشخاص الدنيويين وأتباع البـلاط، والتي سوف يخضعـون لها، لأن أعمالهم الدنيويـة سوف تلحق بهم.

كيف أرهق رئيس أساقفة كانتربري كنيسة روكستر

وفي حـوالي الوقت نفسـه، ضغط بونيفيس رئيس أسـاقفة كـانتربري ضغطاً شـديداً على كنيسة روكستر، وهاجم ممتلكاتها، وحصل بمـوجب هذا الإجـراء على كثير من اللوم، وقـد قيل بأن الكنيسـة التي كـان من المتـوجب أن يكون المدافع عنهـا، قيل بأنها أرهقت من قبله، وتقـدم أسقف روكستر بشكوى إلى الملـك حـول هذا الأذى العظيـم، ذلك أن

الملك هو المنتقم لمثل هذه الأفاعيل، ومع ذلك نظر باستحياء وأجاب: «أنا لايمكنني إرغامه على العمل بالعدل والاعتدال، خشية أن أسبب انزعاجاً أو أذى إلى أسرته، خاصة الملكة، ولأنه من أصل رفيع ونبيل، وله مكانة سامية».

الفضيحة التي اقترفت من قبل الفرنسيسكان

وفي حوالي الوقت نفسه، كان بعض اليهود الفاسدي السمعة، الذين بلغ عددهم واحد وسبعون، قد أدينوا وحكم عليهم بالموت من قبل محلفين تألفوا من خمسة وعشرين فارساً، من أجل قتل الطفل السيء الحظ، الذي صلبوه في لنكولن، وكان هؤلاء اليهود في السجن في لندن، من أجل شنقهم، وبحكم أنهم كانوا أعداء الدولة، أرسلوا رسلاً سريين إلى الرهبان الفرنسيسكان، يرجونهم التدخل لصالحهم، حتى يمكن اطلاق سراحهم من السجن، وانقاذهم من الموت، مع أنهم كانوا يستحقون موتاً هو الأكثر مهانة، وبناء عليه قام الرهبان (بناء على تقارير عالمية، إذا أمكن في قضية كهذه من الممكن تصديق العالم) بالتدخل لصالح هؤلاء اليهود، لأنهم تأثروا برشاويهم، وأمكن بوساطة صلواتهم اطلاق سراحهم من السجن، وانقاذهم من الموت الذي استحقوه، هذا وأعتقد أن علينا أن نؤمن بأنهم تأثروا بالمقام الأول بدافع روح التقوى، لأن كل واحد يسير في طريق الحياة في هذا العالم له الحق في رعاية موقفه، ومن الممكن انقاذه، وينبغي أن يشعر بالآمال، ولكن بالنسبة للشيطان، أو الذين أدينوا وحكم عليهم بصورة واضحة، لايمكن أن يكون لدينا أمل من أجلهم، كما أنه لاتجوز الصلاة من أجلهم، لانعدام الأمل من أجلهم، فالموت والحكم المحدد قد غلّ هؤلاء اليهود من دون رجعة، وهذه المناقشة لايمكنها تسويغ عمل الفرنسيسكان، أو منع الفضيحة من تشويه سمعتهم، مع أنهم لم يكونوا مجرمين، وأوقفت الطبقات الدنيا من الناس أعمال صدقاتها، ولم يعودوا ينعمون

بالصدقات عليهم، كما كانوا يفعلون من قبل، وهكذا فترت عواطف الناس من أهل لندن نحو الفرنسيسكان، وذلك وفق الطريقة نفسها التي تناقصت فيها صدقات البارسيين نحو الرهبان الدومينيكان، لأنهم حاولوا انتهاك الأعراف القديمة والمقررة للمجتمع.

اعتقال الشيخ الروماني وسجنه

وقام الرومان في هذا العام أيضاً باعتقال شيخهم برانكليون وسجنه، لأنه برهن عن نفسه إلى أعيان المدينة وإلى الناس أيضاً، بأنه شديد جداً في تنفيذ العدالة، وغير متهاون في عقوبة الأخطاء، وإثر اعتقاله بادرت زوجته بالذهاب مسرعة إلى بولونا لإخبار شعب تلك المدينة، الذين كان لديهم ثلاثين من الرهائن مقابل سلامته، ولقد أخبرتهم بالذي حدث إلى الشيخ الرسولي، وبناء عليه ضيق أهالي بولونا على الرهائن الذين كانوا لديهم مقابل برانكليون، ووضعوهم في سجن شديد الحراسة، وتقدم أعيان الناس في روما بشكوى ثقيلة حول هذا الإجراء إلى البابا، وبوساطة تدخل بعض الكرادلة الذين كانوا من أصل روماني، حصلوا منه على وعد، بأن سكان بولونا إذا لم يسلموا الرهائن، الذين لديهم من أجل سلامة برانكليون، سوف توضع مدينتهم تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وقد وضع هذا موضع التنفيذ، وتحمل سكان بولونا —على كل حال— نتائج هذا الحرمان، ورفضوا التخلي عن الرهائن للرومان، لأنهم عرفوا أنهم إذا فعلوا ذلك، سوف يجري على الفور إعدام برانكليون.

البرلمان العام الذي جرى عقده من قبل الملك الفرنسي

في اليوم الذي جاء بعد يوم عيد طهارة مريم المباركة، عقد الملك الفرنسي بارلمانا عاما، إليه أرسل ملك انكلترا رسلا خاصين، للمطالبة —كما هو معتقد— بحقوقه في القارة، وفي الحقيقة لقد ظن نفسه أنه

مــوضع خــوف في فـرنســا، لكن هو لم يحصـل على شيء، إلاّ الرفض الصريح، كما أنه أخبر أيضاً بوساطة رسله بأن جيـوش البابا قد تحطمت بشكل لايمكن جبره وأنها تمزقـت وتدمــرت، وأنه لايحتـاج أن يزعج نفسه، أكثر مما مضى حول صقلية وأبوليا، وعلى هذا الأساس لم يطلب رسوله —الذي كان هو جون مانسيل— الاذن من ملك فرنسا، للسماح لملك انكلترا وإلى الذين جرى تعيينهم باسمـه، بالمرور بشكل حر خلال المملكة الفرنسيـة مع جيشه وأمـواله، وذلك على طريقه إلى أبـوليا، التي أعطاه إياها البابا بكرم منه، لصالح ابنه ادموند، وبناء عليه عاد الرسول دون أن ينجز شيئاً، سوى أنه جلب معه أخبار تدمير جيش البابا.

الحرب في تورين نتيجة لسجن توماس أوف سافوي

وفي هذه الآونة قام بونيفيس، رئيس أساقفـة كانتربري، يرافقه فيليب الأسقف المنتخب لليون، وبطرس أسقف سـافوي، ومعه كتلة كبيرة من العسـاكـر، قـام بالانطلاق إلى ايطاليـا، لمحـاربة مـدينة تورين Turin, التي كـان فيهـا أخـوهما تومـاس أوف سـافـوي —الكونت الأخير لفلاندرز— موضـوعاً في السجن، فقد برهن توماس عـن نفسه أنه كان حاداً وطاغيـة بالنسبة لشعبه، حيـث مزقهم بطريقة غير صحيحـة تماماً، وبشكل معـاكس لأعرافهم المعتـادة وعـاداتهم، ونتيجة لهذا قـرر سكان تورين، وأستي، وآخرون كانـوا متحالفين معهم، أن لايتحملوا أذاه بعد ذلك الوقت، فقـاوموه بشكل معلن في وجهـه، ولم يعبأوا بأصله النبيل، الذي اعتمـد عليـه ووثق به أكثـر مما هو صحيح، ومـارس طغيـانه على الناس الأبريـاء، ولهذا —كما ذكـرنا مـن قبل— ألقـوا بـه في السجن، ولذلك جـاء السـافـونيون مسرعين وعلى حنـق لانقاذه، وقـد واجهـوا مقاومة فعالة من السكان، ولكن حشـود السافونيين الكبيرة التي جاءت ضـدهم، أرغمتهم على التراجع إلى مـدينتهم، التي وقعت تحت حصـار فعـال على الفـور، وكـان بطـرس يمتلك كميـات كبيرة من المال، كـان

الايرل رتشارد قد أقرضــه إياها بناء على رهن، وكان أيضاً مع الأسقف المنتخب لليــون ومع رئيس أسـاقفــة كـانتربري مبلغــاً كبيراً من المال المقـدس، كان عـائداً إلى الكنائس النبيلـة التي كان لهم الرئـاسة عليهـا، ووزعوا من هذه المصادر مبالغ كبيرة أعطيت إلى جيشهم الكبير، ومجدداً فإن ملك انكلترا والملكة، اللذان كـانا ملزمين، قـامـا بتحـويل كميـات كبيرة من المال بصـورة سرية إليهم، في حين قـام البـابا، حتى يظهـر أنه معين فعـال لملك انكلترا وللملكة، ولكي لايظهـر أنه محرض بلافائـدة، لكنه لم يرسل إليهم لاذهب ولافضة، بل رسالة مواساة بليغة ومطمئنة، من الممكن رؤيتها في كتاب Additaments.

كيف جرى استدعاء الراهب جون أوف دارلنغتون إلى المجلس الاستشاري للملك

وفي هذه الآونة نفسها، استدعى الملك إلى مجلسه الاستشاري الخاص الراهب جـون أوف دارلنغتـون Darlington, وكـان واحــداً من الرهبـان الدومينيكان، وكـان متميــزاً لعلمــه، ولمقـدرته على المحـاكمـة وحسن مشـورته، لأن الملك قـد احتاج الآن إلى نصـائح حكيمـة، وإلى مواسـاة روحية، لأنه عندما بات متأكـداً من دمار البابا وجيشـه، عرف بأن المملكة غـدت عـرضـة للخطر، ولذلك كـان في حـالة ذهول عقلي كبيرة.

شرف الفروسية الذي أنعم به على ملك مان من قبل ملك إنكلترا

في عيــد الفصـح أنعم ملك انكلترا على ملك جــزيـرة مـــان Man بشرف الفـروسيـة، وأرفق ذلك بكثير مـن التشريفـات والمنافع بناء على مبادرته، وكان اسم ملك مان المذكور ماغنوس Magnus.

موت وليم الهولاندي ملك ألمانيا

وفي هذا العام نفسه، حدث أن وليم الهولاندي، الذي جعله البابا ملكاً، ورفعه إلى أعلى المناصب التي نالها قط بجعله ملكاً على ألمانيا، وهو الذي شعر بتوفر الوسائل والفرصة بالحصول على الامبراطورية الرومانية، حدث الآن بعد انفاق لانهاية له من مال البابا عليه، أن توفرت له فرصة صغيرة، فشرع بشن الحرب على الفريزلانديين، وهم شعب من الناس غير متحضرين وغير مـدجنين، وسكن هؤلاء الفريزلانديون في المنطقة الشمالية، وكانوا بارعين في الحروب البحرية، وكانوا يقاتلون بنشاط كبير وشجاعة فوق الجليد، وحول المناطق الباردة لهؤلاء الفريزلانديين وجيرانهم السارماتنيين Sarmatians, قال جوفنال Juvenal: «الأفضل للإنسان أن يهرب من هنا إلى ماوراء السارماتنيين والمحيط المتجمد»، إلخ، وبناء عليه نصب الفريزلانديون كمائن على شاطىء البحر، بين الشعراء والنباتات هناك، وكذلك في جميع أرجاء البلاد التي كانت مستنقعية (وكان فصل الشتاء وشيك الحلول حوالي عيد طهارة العذراء المباركة)، وقد خرجوا لمطاردة وليم المذكور وقد تسلحوا بالحراب والنشاب، وهو ماأطلقوا عليه اسم Gaveloches, وكانوا بارعين في استخدام هذا السلاح، وتسلحوا أيضاً بالبلطات الدانماركية والرماح، وكانوا يرتدون ملابس كتانية، غطوها بدروع خفيفة، وعند وصولهم إلى أحد المستنقعات تقابلوا مع وليم، وكان على رأسه خوذة، ويرتدي دروعاً كاملة، ويمتطي حصان حرب كبير، أيضاً مغطى بالدروع، وأثناء سيره تكسر الجليد تحته، مع أن سماكته كانت أكثر من نصف قدم، وغرق حصانه إلى كفليه، وبات غير قادر على التحرك في طين المستنقع، وقام الراكب الغاضب بغرس مهمازيه في طرفي الدابة حتى وصلا إلى جوفه، وحاول الحصان الأصيل الملتهب النهوض، وبذل جهوده للقيام وتحرير نفسه،

لكن من دون نجاح، وكان مسحوقاً ومعقوراً، ولذلك غرق أعمق، وتمكن أخيراً بجهوده من رمي راكبه، بين قطع الجليد القاسية، والتي تسبب الانزلاق، واندفع الفريزلانديون وقتها وانقضوا على وليم، الذي لم يكن هناك أحد يعينه في مأزقه ويخرجه مما هو فيه، لأن جميع أصحابه المسلحين كانوا قد هربوا ليتجنبوا حادثاً مماثلاً، ولقد قاتلوه من جميع الجهات بحرابهم ونشابهم، وذلك على الرغم من طلبه الرحمة، وطعنوا جسده ونفذوا فيه أعمق فأعمق، وكان هذا الجسد قد تيبس بالبلل والبرد، وعرض على قتلته مبلغاً كبيراً جداً من المال، بمثابة فدية، إذا ماوفروه، وسمحوا له بالنجاة حياً، لكن هؤلاء الأشخاص اللاإنسانيين لم يظهروا نحوه الرحمة، ومزقوه إرباً إرباً، وهكذا ما أن تذوق وليم طعم الامبراطورية، وهو الذي كان زهرة الفروسية، وكان ملك ألمانيا وكونت هولاندا، كما كان صنيعة البابا وتلميذه، هوى من ذروة سمو منصبه إلى أعماق الفوضى والدمار، ولكن كما قال الفلاسفة: «أن تموت وفق إرادة الأعداء، هو أن تموت مرتين»، وعندما وصلت أخبار الذي حدث إلى البابا، أصابه الأسى، لأنه أسقط في أعماق الهاوية تلك المبالغ الضخمة من المال، التي جمعت من كافة الأطراف، وبمختلف الوسائل.

موت إتيشيا كونتسة وارني

وفي هذا العام نفسه ماتت اتيشيا Etesia كونتسة وارني، أخت الملك لأمه، ماتت وهي في زهرة شبابها وازدهارها، مما سبب الحزن الكبير للملك ولزوجها جون الايرل الشاب لوارني.

مهمة وليم أوف هورتون ووليم راهب كنيسة القديس إدوارد وأحد رهبان القديس ألبان إلى روما

وفي حوالي الوقت نفسه، قام كاهن من وراء الألب اسمه جون أوف كيمزان Camezan بإلحاق الأذى وتسبب ببعض الخسائر لكنيسة

القديس ألبان، ولذلك جرى ارسال واحد من رهبان الكنيسة نفسها إلى البلاط الروماني للحصول على العدالة ضد الكاهن المذكور، ومن ثم تمت مرافقة الراهب المذكور، الذي كان اسمه وليم دي هورتون (؟)، وكان المسؤول عن المؤونة في الكنيسة المذكورة، مرافقته بالمعلم وليم أوف سينت ادوارد، وانطلقا في أحد السعف من أجل عبور الألب، وكان حاملاً لرسالة هي الأكثر بلاغة من الملك، خاطب بها البابا، وكتب كذلك إلى الكرادلة للتدخل من أجله، وبما أن الرسالة صيغت وكتبت بأفضل أسلوب وأبلغه، قام جون هذا —لأنه كان سخيفاً— بالتأكيد بأن الرسالة مزيفة، معلناً أن شخصاً له مثل هذا المنصب الرفيع، لم يتوسط قط برسالة لدى البابا، ولدى شخصيات أخرى من أصحاب النفوذ والسلطة، ولايمكن أن يعهد برسالة خاصة جداً وودودة إلى راهب بسيط، لكن هذه التهمة رفضت فيما بعد ونقضت بشهادة الملك، وإذا ما رغب أي إنسان برؤية تلك الرسالة، يمكنه أن يجدها في كتاب Additaments.

رسالة البابا إلى رئيس رهبان دير القديس ألبان

وجرى في اليوم نفسه إرسال رسالة من قبل البابا إلى رئيس رهبان ورهبان الدير المذكور، التابع لكنيسة القديس ألبان المذكور، آمراً إياهم، أن يدفعوا خلال شهر، إلى بعض التجار، مبلغ خمسمائة مارك، كانوا مدانين بها إلى التجار أنفسهم، وجعلهم يفهمون أنهم إذا تجاوزوا موعد الوقت المحدد لدفع المال، سوف يجري تعليقهم مباشرة، فهذا كان مقصد الرسالة وغايتها، مع أنهم لم يعرفوا أنهم كانوا مرتبطين بدين إلى أي واحد، وحدث الشيء نفسه لعدد من الديرة، التي كان عليها مثل ذلك أن تتحمل مرغمة نير هؤلاء التجار المرابين، وأعلن هؤلاء المحصلون، من أجل أن يجعلوا تحصيل المال أكثر يسراً وفعالية، أن جميع المال المطلوب هو من أجل استخدام الملك، الذي كان جاهزاً للانطلاق في حجه.

إطلاق سراح السجناء اليهود

في الخامس عشر من أيار في هذا العام، تم اطلاق سراح خمسة وثلاثين من اليهود الذين اتهموا بصلب القديس هوغ، الصبي من لنكولن، والذين حبسوا في سجون في برج لندن، فلقد أخرجوا من ذلك السجن، ونالوا حريتهم، علماً بأن هؤلاء اليهود، وجدوا مجرمين لدى محاكمتهم من قبل المحلفين، وكذلك من الإفادات التي عملت من قبل اليهود، الذين شنقوا في لنكولن، في المقام الأول.

اجتماع أساقفة إنكلترا في لندن

عندما وجد أساقفة انكلترا أنفسهم قد أنهكوا بسبب مختلف المشاكل، اجتمعوا في لندن، خلال أسبوعي الفصح، لتقديم جواب محدد إلى روستاند على الطلبات التي تقدم بها، وكانوا في البداية غير متحدين وغير متفقين فيما بينهم، وكانوا على وشك التفرق ثانية، لكن بعد ذلك جرى تشجيعهم من قبل البارونات، ولذلك رفضوا الاسهام بأي شيء من بارونياتهم إلى الملك.

كيف جرى استدعاء رؤساء رهبان طائفة السسترشيان للمثول أمام روستاند في ردنغ

وفي حوالي الوقت نفسه، قام المعلم روستاند، بناء على السلطات الرسولية باستدعاء جميع رؤساء رهبان طائفة السسترشيان في انكلترا، للمثول أمامه، في يوم الأحد الرابع بعد عيد الفصح، لسماع رسالة من البابا، وعندما اجتمعوا كلهم في الوقت والمكان الذي حدده لهم روستاند في دعوته، وبعد مقدمة طويلة، طلب منهم، من أجل استخدام البابا، والملك مبلغاً كبيراً من المال، كان مقداره في الحقيقة يعادل ماتبلغه نفقات صوفهم، والعالم كله يعرف، أن جميع وسائل ربحهم، لابل حتى الذي ينفقونه على حياتهم، يعتمد على صوفهم، ولدى سماعهم هذا

الطلب، اجتمعوا للتشاور فيما بينهم، وبعـدما توصلوا إلى الاجماع في قرارهـم، أجابوا بثبات بـأنهم لم يكن مسموحاً لهم إعطاء جواب ايجابي لمثل هذا الطلب الثقيل من دون أخذ موافقة ونصيحة الرئيس مع الهيئة الرهبانية العامة للسسترشيان، الذين كانوا بالنسبة إليهم هم الأطراف والأولاد، وهكذا عادوا إلى ديرتهم تاركين المعلم روستاند في حالة من الغضب العظيم، وتصرف ذلك الشخص مثل طفل جريح عندما يفرّ للالتجاء إلى صدر أمه، فأسرع إلى الملك يشكو إليه مما جرى، وأفاد بأن رؤساء رهبان طائفة السسترشيان كانوا متحمسين بروح مبتكرة واحدة، ولذلك أجابوا بأنهم سوف لن يساعدوه في وقت حاجته بأية طريقة من الطرق، وغضب الملك، وأقسم وهو غاضب بأنه سوف يؤذيهم ويضطهدهم افرادياً، بحكم أنه لم يستطع ارغامهم على الاذعان بالموافقة على رغباته عندما يكونوا متحدين، ولأنهم قالوا بأنه كان الأكثر لياقة بالملك سؤال صلواتهم، لاالمطالبة بأموالهم، وأقسم بأنه سوف يحصل على كل من صلواتهم، ولن يعاق عن نيل مالهم، وصدف في ذلك الوقت أن كان في البلاط رئيس رهبان بايلدواز Bildewas من طائفة السسترشيان، وأرسل الملك خلفه، ولدى وصوله قال له بلهجة ناقدة: «كيف حدث أنكم يارئيس الرهبان قد رفضتم تقديم المساعدة المالية لي، في الوقت الذي أنا بحاجة إلى ذلك، وسألتكم ذلك بتواضع؟ أولست أنا ولي نعمتكم»؟ وعلى هذا أجابه رئيس الرهبان قائلاً: «طالما أنت ولي نعمتنا، وأبانا والمدافع عنا، أوليس اللائق بك والجدير أن لاتؤذينا باستخراج مالنا منا، فلقد كان الحري بك أن تطلب العون بصلواتنا، وأن تحذو بذلك حذو ملك فرنسا التقي»، ووقتها أضاف الملك قائلاً: «إنني أطالب بكل من مالكم وصلواتكم»، وعلى هذا أجابه رئيس الرهبان قائلاً: «أعتقد أن هذا من غير الممكن، عليك أن تكون من دون المال أو الصلوات، لأنك إذا استخرجت مبالغ قوام عيشنا الصغيرة منا بالقوة، كيف يمكننا أن نصلي من أجلك بتقوى واخلاص

في القلب؟ لأن الصلاة من دون تقوى صحيحة، سوف تكون لها فائد قليلة لك، أو بلافائدة»، لكن الملك، وإن كان رئيس الرهبان قد أجابه بحكمة، وضع خطة سرية ضد جميع رؤساء رهبان السسترشيان.

كيف التمس رئيس رهبان ويردون الرحمة من الملك

وكان في ذلك الوقت هناك فارس غني اسمه وليم بيوشامب. كانت له زوجة اسمها ايدا Ida, وكانت سيدة من أسرةٍ نبيلة. لكنها انحطت وباتت شريرة في أخلاقها، وكانت هذه المرأة مضطهدة لاتعرف التعب للرهبان من كلا الجنسين، الذين كانوا يعيشون من حولها، وقد وجدت الآن فرصة مناسبة نتيجة لغضب الملك، لإلحاق الأذى برئيس رهبان ويردون Waredon, فقد وضعت خططها بدهاء المرأة، وعملت شكوى جادة ضد رئيس الرهبان المذكور، وقدمتها إلى بلاط الملك، عارفة بأن الملك وهو في حالة غضبه سوف يدينه بعدل أو من دون عدل، وبناء على أسس تافهة، أو بالحري من دون أسس مطلقاً، وهكذا ترك رئيس الرهبان عند رحمة الملك، وبما أن الملك كان قد أوقف جميع الطرق الأخرى للحصول على الرحمة، إلاّ بوساطة التقدم بالالتماس إليه شخصياً، كان رئيس الرهبان مرغماً على التقدم بكل تواضع بالتماس الرحمة من الملك، ولدى تقدمه بذلك، رد الملك بنظرة حادة أصحبها بقسم مرعب، وأجابه قائلاً: «كيف امتلكت يارئيس الرهبان الجرأة على طلب رحمتي؟ أولست أنت مع اخوانك من رؤساء الرهبان، قد رفضتم مؤخراً تقديم الرحمة لي في وقت حاجتي»؟ ولذلك قد غرمه مبلغاً كبيراً من المال بناء على تقدير مضطهديه وإرادتهم.

ووفق الطريقة نفسها، حدث أيضاً أن جرى ارغام رئيس رهبان روفور Rufore, وكان من طائفة السسترشيان، على دفع مبلغ كبير من المال، مع أن ذلك كان من دون عدل، وبحجة لاأساس لها،

اصلت وتطورت من قبل شخصين منحطين يدعيان «الغلامين»، مثل ذلك حدث ارغام رؤساء رهبان آخرين من طائفة السسترشيان على المعاناة من خسائر مضاعفة وأضرار كبيرة.

رسالة البابا لصالح طائفة السسترشيان

نتيجة لهذه الإجراءات، جرى ارسال بعض الرجال الحكماء من طائفة السسترشيان إلى بلاط روما، للحصول على فرج وخلاص من هذا النوع من الظلم، وفي الوقت نفسه أرسل الملك وليم بونكوك Boncopue, وكان فارساً بارعاً في القانون، إلى البلاط نفسه، ممثلاً له وليعمل لصالحه في الوقوف ضدهم، ولقضاء بعض الأعمال الأخرى، وفيما يلي الرسالة التي حصل عليها السسترشيان:

«من الاسكندر، الأسقف وعبد عبيد الرب، إلى جميع أبنائه المحبوبين من رؤساء طائفة رهبان السسترشيان ورهبان طائفة السسترشيان في مملكة انكلترا وفي الأماكن الخاضعة لحكم المملكة المذكورة، تحيات مع مباركات رسولية:

كلما ارتفعت مكانة الدين —الذي تحتل فيه طائفتكم بنعمة الرب، المقام الأعلى، الذي حصلت عليه بفضل سلوكها وقداستها— كلما تعاظمت نحوها عواطف أمها، أي الكرسي الرسولي، الذي يرفع دائماً من منافعها وفوائدها وازدهارها، ويقويها بالنعم الروحية، ونحن بناء عليه، الذين نرعى مشاعر عواطف عظيمة نحو الطائفة نفسها، قد أخذنا بعين التقدير بأن ديرة الطائفة المذكورة، كانت في مملكة فرنسا معفية من دفع العشور إلى الموارد اللاهوتية، وهي العشور التي منحت من قبل من قبل سلفنا البابا أنوسنت صاحب الذكرى السعيدة، إلى لدنا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك اللامع للفرنسيين، من أجل

نجدة الأرض المقدسة، لأن ذلك الملك عدّ بأن الصلوات الخالصة لتلك الطائفة سوف تكون أكثر منفعة من المساعدة الدنيوية، ونحن بناء عليه نرغب بتزويدكم بمواساة وتهدئة، وذلك بقدر مانستطيع في تأدية واجبنا باستمرار نحو الرب، وأن نصنع لكم معروفاً خاصاً، وبفضل هذه العروض، نحن نمنحكم إعفاءً بعدم الدفع إلى ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك اللامع لانكلترا، أو إلى أي شخص آخر، ونعفيكم من الارغام على أن تدفعوا له العشر من مواردكم ودخولكم، استناداً لحجة المنحة التي أعطيت إليه منذ ذلك الوقت من قبل الكرسي الرسولي، من عشور الموارد اللاهوتية في مملكته وفي الأماكن الخاضعة لسلطانه، من أجل نجدة الأرض المقدسة، ونحن على الرغم من ذلك نرسم بأنكم سوف تكونون أحراراً تماماً، ومعفين تماماً من دفع هذه العشور، ومن أي فروض أو مكوس على مقتنياتهم أو ممتلكاتهم، ونحن نلغي كلياً ونزيل جميع الاعفاءات، والرسائل، والإجراءات مهما كان نوعها، والمقررة لكم ولديرتكم، والتي جرى منحها من قبل الكرسي المذكور في هذه القضية، ونحن علاوة على ذلك نرسم بأن جميع الغفرانات والرسائل التي سوف تمنح من الآن فصاعداً، مهما كانت مقاصدها ومحتوياتها، سوف تكون بلاسلطة ضدكم، وضد ديرتكم، مالم يعملوا ذكراً خاصاً كاملاً، كلمة كلمة إلى هذا الغفران، وبناء عليه لايجوز لأي واحد، مهما كانت الأسباب، التجرؤ على التجاوز، أو العمل بشكل مضاد لهذه الوثيقة، الحاوية لما ألغيناه ولمرسومنا، وإذا ما تجرأ أي واحد على فعل ذلك، ليكن على يقين بأنه سينال غضب الرب القدير، والرسولين المباركين: بطرس، وبولص. صدر في نابلس، في الخامس والعشرين من أيار، في السنة الأولى لحبريتنا.

إغلاق الموانىء

وفي حوالي يـوم عيد القديس دنستان Dunstan, أغلق الملك الموانىء، ونحن لانعـرف سبب ذلـك، وذلك في سبيل منع أي أسقف، أو فارس، أو كاهن من عبور البحر، مع أن أسقفي باث ووركستر، كانا قد فعلا ذلك، وفرغا منه.

حول المبارزة التي عقدت في بلايث

وفي حـوالي أحد الشعـانين عقدت مبـارزة عامـة في بلايث Blithe, وذلك وفقـاً لقـوانين ومبـادىء الفـروسيـة، وقـد حضرها ادوارد الابن الأكبر للملك، وهو يرتدي ثياباً كتانية، وواضعاً دروعاً خفيفة، في سبيل التـدرب على قـوانين الفـروسية، وقـد حـاول كثير من النبـلاء وسعـوا للحصول على شهـرة الفروسية ونيلهـا هناك، لكنهم ضربوا، وألقي بهم من على خيولهم، وسحقـوا، وديس عليهم بالأقدام، وكـان واحداً منهم هو وليم صـاحب السيف الطويل، لم يتعـاف بعـد ذلـك أبداً من آثار جراحاته.

رسائل وساطة لصالح طائفة السسترشيان

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل البابا رسالة التماس إلى الملك، لصالح طائفـة السسترشيـان، وبالاضـافـة إلى هذا، كتب الكـاردينال وايت White رسالة مخلصة كثيراً إلى الملك لصالح طائفـة السسترشيان، ورجـاه من أجل خـاطر الرب، أن لاينهك تلك الطائفـة المقدسـة بمثل تلك الاستخـراجـات،وهكذا تمكن السسترشيـان لبعض الـوقت من التنفس بحريـة، وتمتعوا بنوع من الهدوء والسكينة، فـذلك ما كـان عليه الحال.

اعتدال البابا في مطالبه

حصل الأشخاص الذين جرى إرسالهم إلى البلاط الروماني لصالح طائفة الأساقفة على تعديل للمطالب التي عملت من قبل البابا، وعلى شيء من التفريج من شدتها التي لاتحتمل وكذلك من مظالمها الأخيرة، فهذا ماتظهره الرسالة التالية:

من الاسكندر، إلخ، إلى الأساقفة إلخ: يتوجب على المساعدة التي جرى تقديمها بوساطة بصيرتنا أنكم إذا لم تحصلوا على فائدة منها، أن لاتشعروا إلاّ بقليل من الضرر، وبما أن أخانا المحترم أسقف هيرفورد قد قام باذن منا، قد منح إليه برسائلنا، بالاقتراض من ابننا المحبوب بشكل خاص أوليفر روزا Rosa ومن رفاقه مواطني وتجار فلورنسا، مبلغ خمسمائة مارك استيرليني، من أجل تسوية أعمال ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك اللامع لانكلترا، ومع أنه جرى الايضاح في هذه الرسائل، وفي الوثائق العامة، التي أعدت من أجل هذا القرض، وأودع في المحتويات، وتم تبيان أن قرض المال هذا، لم يكن من أجل المسائل المتعلقة بكم وبديركم، وهو القرض الذي قام الأسقف المذكور برهنكم مع الدير المذكور وممتلكاته إلى التجار المذكورين، نحن نرغب في ترتيب هذه القضية بشكل لاتتعرضون أنتم فيه ولاالدير المذكور لأي أذى من هذا الإجراء، ولذلك نحن نمنحكم بموجب سلطات هذه العروض إذناً مفتوحاً، أنه إذا ماعجز الملك المذكور عن دفع المال المذكور، وكان من المتوجب عليكم ارضاء التجار المتقدم ذكرهم من أجل القرض، أن تحتفظوا بين أيديكم بممتلكاتكم بشكل مطلق، وأن تحذفوا من عشور مواردكم اللاهوتية القدر نفسه من المال الذي دفع إلى الملك من أجل نجدة الأرض المقدسة، وذلك حتى يصل إلى مثل المبلغ الذي سوف تدفعونه إلى التجار المذكورين، مع الخسائر والنفقات التي سوف تتحملونها بسبب هذه القضية، دون التقيد بأية رسائل إما جرى

الحصول عليهـا أو سوف يتم الحصـول عليها من الكرسي الـرسولي، فيما يتعلق بجمع العشور المتقدم ذكرها، مهما كانت الجهة التي وجهت إليها، أو مهما يكن القضـاة أو الوكـلاء الذين يمكن أن يكونوا وجهـوا إليهم، وعلاوة على ذلـك، إنه إذا ماحدث بسبـب الاحتفاظ بالعشـور المذكورة وصـدرت أية قـرارات بالتعليق، أو بالحرمـان الكنسي، أو بالحرمـان من شراكة المؤمنين،وجرى إعلانه ضـدكم، أو ضد أي واحد منكم، من قبل أية فئة مهما كـانت، إننا نرسم بمـوجب قوة هذه العـروض، ونقضي بأن يكونوا لاغين وفارغين، وأنكم غير ملزمين بالأخذ بهم وتطبيقهم».

الفتور العام في مشاعر الإخلاص نحو البابا

وفي حوالي الوقت نفسـه سيطر فتور على مشاعـر الاخلاص التي كنا نشعر بها نحـو والدنا البابا، وأمنا الكنيسـة الرومانيـة، لأنه منذ اللحظة الأولى لتعيينه، عندمـا طلب من المسيحيين تقـديم صلـواتهم له، نظر كثيرون إلى ذلك على أنه عمل نفـاق لتغطيـة إجـراءاته الدنيـوية، لكن شكوكهم أخذت تميـل إلى الهدوء لدى تذكرهم نصيحة القـديس، حيث قال: «عندمـا تبدأ بأي عمل صـالح، توجه بالدعـاء باخلاص إلى الرب ليكمله هو نفسه» إلخ، ولكن بما أن هذا الاخلاص قد تبعته أعمال ذات طبيعة مضـادة، بدأت تقاريـر غريبة تنتشر حـوله، والآمال التـي عقدت من قبل على قدسيـة البابا، قد خمدت وانطفأت، فقد جـرى التهامس في آذان الكثيرين، وتبين أن ذلك وقع حقيقة، بأن البابا قد خدع، وأن كثيراً من أعمال الزيـف والخداع المضـاعفة قـد اقترفت بوسـائل الختم العظيم، وهذه الأسبـاب، وإن كـانت منطقيـة، لاتشفـع للبـابا ولاتسـوغ عمله، ولاتعطيه العذر.

انتخاب جايل لأسقفية سالسبري

وحوالي الـوقت نفسه قام الكهنـة النظاميون في سالسبري، بـانتخاب

المعلم جايل أوف بريديلفورد Bredelford أسقفاً لهم وراعياً لنفوسهم، ولدى عرضه على الملك، جرى قبوله منه، لأنه لم يجد أية أرضية فيه لرفضه.

انتخاب رالف أوف نورويك لرئاسة أساقفة دبلن

وجرى انتخاب المعلم رالف أوف نورويك، وكان رجلاً مثقفاً وفصيحاً، وقد تعلم منذ سني حياته المبكرة في بلاط الملك، أكثر منه في مدارس العلوم العقلية، ليكون رئيساً لأساقفة دبلن، ولكن بسبب معارضة هذا الانتخاب من قبل بعض الفئات، جرى تأخير تثبيته، وفي الحقيقة جرى توجيه اللوم إلى الناخبين لقيامهم باختيار رجل دنيوي تماماً، وكان مايزال في خدمة الملك، وتحت حكمه، حيث كان المتسلم لجمارك ايرلاندا، وهكذا جرى إلغاء الانتخاب.

سفر رئيس رهبان ويستمنستر وروستاند

قام رئيس رهبان ويستمنستر، والمعلم روستاند، والأسقف المنتخب لسالسبري، بالسفر بحراً، بناء على طلب من الملك، لترتيب بعض الأعمال له، التي لانعرف طبيعتها، لكن القائمة على خطط سرية، وكان من المؤمل أن تكون خططاً جيدة، كما أن أسقفي باث ووركستر قد سافرا مسرعين بصورة سرية، للقيام برحلة عبر الألب، لإبادة الكثير من البذور المضاعفة لعدم الاتفاق التي انتعشت الآن، وقام رئيس الرهبان ورفاقه بالمغادرة في بداية شهر حزيران.

المرسوم الجديد للملك حول تقليد الفرسان

وصدر في هذا العام مرسوم ملكي، وجرى الإعلان في جميع أرجاء انكلترا، بأن كل واحد يمتلك خمسة عشر امتيازاً من الأرض أو أكثر، ينبغي عليهم الشروع بالتدرب على استخدام السلاح، وأن الذين لايرغبون بحمل شرف مرتبة الفروسية، ولايمكنهم تحمل ذلك، عليهم

شراء اعفاءهم، وعمل هذا في سبيل تقوية فروسية انكلترا، كما هو الحال بين الايطاليين.

إقامة السلام بين الفلمنكيين والألمان والفرنسيين

أعيد إقامة السلام بين الفرنسيين، والألمان والفلمنكيين، لكن ظل ينظر إلى ذلك بريبة، لأن كثيرين جداً من على الطرفين، لابل في الحقيقة من جميع الأطراف، قد عانوا من الأذى والخسارة، حيث أن أكوام الرماد المتكاثرة لايمكن أن تصبح باردة، بل لابد من بقاء بعض شرر الغضب، وعقد السلام بين الشعوب المتقدمة الذكر في يوم عيد القديس سيرياك Cyriac وأمه.

عاصفة ثقيلة

وفي اليوم الثالث بعد ذلك، هبت عاصفة غير اعتيادية، أو بالحري عواصف متوالية من الريح والمطر، ترافقت مع البرد، والرعد والبرق، فأرعبت قلوب الناس، وسببت تدميراً كبيراً، وكان بإمكان الإنسان أن يشاهد دواليب الطواحين وقد انتزعت من محاورها، ونقلت بوساطة عنف الريح إلى مسافات بعيدة، ودمرت في طريقها البيوت المجاورة، والذي فعلته المياه إلى الطواحين المائية، لم تعجز الريح عن فعله للطواحين الهوائية، وتغطت دعائم الجسور بالحشائش وحملت أكواخ الصيادين مع شباكهم وأعمدتهم، لابل حتى الأطفال وهم في مهودهم، وقذفوا بعيداً فجأة، وهكذا بدا بأن طوفان Deucalion قد تجدد، ودون أن نذكر جميع المناطق، نشير إلى أن بدفورد التي تسقى بنهر أوسي Ouse قد عانت منه من دمار لايمكن تقديره، مثلما كان قد فعل قبل سنوات قليلة مضت، وحدث في الحقيقة أنه في أحد الأماكن جمعت على الفور ستة بيوت مع بعضها بعضاً وحملت بعيداً بوساطة التيار السريع، وواجه سكانهم مصاعب جمة في انقاذ أنفسهم، وتعرضت أماكن أخرى مجاورة للنهر إلى مخاطر مماثلة.

حول المرسوم الذي عمل في كنيسة القديس ألبان في ذكرى الملك أوفا

في هذا العام، في ذكرى يوم اعدام القديس ألبان، مقدم الشهداء في انكلترا، وهو اليوم الذي اعتاد فيه جميع رؤساء رهبان الديرة المتعلقة بدير القديس ألبان، على ممارسة الاجتماع في ذلك المكان، ويومها رسم في الهيئة الرهبانية التي اجتمعت هناك، بحضور رؤساء الرهبان وحشد جميع الرهبان مع جميع رؤساء الرهبانيات، وتقرر بموافقة الجميع، أنه في نهاية كل ساعة نظامية في جوقة المرتلين، وبعد تقديم صلاة الشكر أثناء الغداء، وبعد الصلوات، وصلوات الأسرة ومزاميرها، وفي المصح، وكذلك في غرفة رئيس الرهبان، ينبغي تلاوة الكلمات التالية: «علّ روح الملك أوفا ترقد بسلام»، وينبغي أن يجري ترداد ذلك بصوت واحد مرتفع، وأن هذا ينبغي الالتزام به من دون توقف أو انتهاك إلى الأبد.

وما من أحد يتذكر بأن هذا قد عمل من قبل، وكان اهماله غير معذور مهما كان الأمر، وبذلك لم يعد بالامكان الاستمرار بتوجيه النقد إلى الدير بالعقوق، وصحيح أن هذا المرسوم جاء متأخراً، لكنه عمل الآن، لأن ذلك الملك النبيل، الذي كان ملك الميرشيان Mercians, هو المؤسس الكريم لذلك الدير، والمعبد التقي للدين، فهو وإن كان متواضعاً جداً، ومنصرفاً إلى التدين، كان قوياً جداً وشجاعاً في الحرب، وكان مثل شارلمان في فرنسا، الذي كان معاصراً لأوفا وصديقاً كبيراً له، وهو الذي أخضع جميع الذين ثاروا ضده، ولقد تمكن أوفا العظيم من قهر جميع الأمراء الصغار واخراجهم من انكلترا، وهم الذين كانوا فيما مضى يصبون جام غضبهم وازعاجهم هناك، لذلك كان هو وحده الذي استحوذ على جميع المملكة تقريباً، أي المملكة الانكليزية، لأنه تملك بالقوة وحافظ على تملك خمس وعشرين منطقة، دعيت من قبل الانكليز باسم Shires, وأعتقد أنه لن يكون بعيداً عن موضوعنا إذا ماقمت بايراد ذكرهم في هذا الكتاب، حتى يمكن البرهنة على قدرته

وعلى اتساع حكمه، وعلى قداسته ببنائه الدير الفخم للقديس ألبان.

المقاطعات التي كانت تحت حكم الملك أوفا

هيرفورد وووركستر ١-٢	هنتنغدون وكيمبردج ١٥-١٦
غلوستر وووريك ٣-٤	هارتفورد واسكس ١٧-١٨
تشيستر وستافورد ٥-٦	ميدلسكس ونورفولك ١٩-٢٠
شروبري وديربي ٧-٨	ساوثأمبتون وروتلاند ٢١-٢٢
	أونوتنغهام
ليستر ولنكولن ٩-١٠	
نورثأمبتون واكستير ١١-١٢	
بكنغهام وبدفورد ١٣-١٤	

ملحق الملك أوفا بدير القديس ألبان

وعلاوة على ذلك، أسس هذا الملك أوفا لدير القديس الحرية في المسائل الدنيوية، وبقدر مايستطيع أي ملك أن يفعل بالنسبة لهذا الدير كان هو المؤسس النبيل له، وفي سبيل أن يجعله أيضاً حراً في المسائل الروحية، ذهب شخصياً إلى روما، وأسس هناك مدرسة من أجل الانكليز، وذلك بالاضافة لإعطاء كثير من المنافع عندما كان مسافراً، وبعدل وعن جدارة، استحق على هذا، هذا الملك الذكرى السرمدية، وحصل على المنفعة الروحية للصلوات من أجل الغفران لروحه، التي جري التفوه بها إلى الأبد في الدير وفي كل مكان آخر، حسبما ذكرنا أعلاه، وذلك عند نهاية كل ساعة ترتيل نظامية، وبعد صلاة الشكر عند الغداء.

الاضطرابات التي وقعت في روما بسبب اعتقال الشيخ

وتفجرت في حوالي الوقت نفسه اضطرابات في مدينة روما بين النبلاء والشعب في أعقاب اعتقال وسجن شيخهم برانكليون بسبب الاستقامة والتشدد في إدارته للعدالة (لأنه تسبب بشنق جميع الذين أدينوا بالقتل، والسرقة، وجرائم أخرى، وبالتشويه وبعقوبات مضاعفة بطرق متنوعة)، وقامت زوجة الشيخ (التي يقال لها الشيخة) بالفرار بشكل سري، ومضت بكل سرعة إلى بولونا، حيث كان يوجد ثلاثين شاباً من أعلى الطبقات في المدينة محبوسين هناك بمثابة رهائن من أجل سلامة برانكليون، وأخبرت سكان تلك المدينة بالذي اقترف، وبناء عليه احتفظوا بالرهائن تحت حراسة مشددة، وأثار بعض الكرادلة الذين كانوا من أهل روما، ومنحدرين من أسر نبيلة، غضب البابا ضد سكان بولونا، وبذلك ازدادت الاضطرابات.

المعركة التي وقعت عند سوق بوتولف

ونشب في هذا العام أيضاً خلاف عند سوق بوتولف Botulph, وقد بدأ ذلك بخلاف وانتهى بمعركة بين الناس من أتباع بطرس أوف سافوي، وأتباع روبرت تيتشيل Tateshale الذين شاركوا في استلام بعض الأجور التي كانت تستخرج من ذلك السوق، وبما أن أعداد المتصارعين قد ازداد كثيراً، وهدّد بمزيد من سفك الدماء، تدخل أتباع الايرل رتشارد بحكمة وأوقفوا الهياج، وينبغي أن يكون معلوماً أن بطرس عندما كان على وشك مغادرة انكلترا، تمكن بقوة الالتماسات والهدايا، من اقناع الايرل رتشارد لأن يصبح الحامي لمقتنياته، وهكذا كان بطرس مستفيداً أكثر بكونه غائباً من لو أنه كان حاضراً، لأن الناس قالوا بأنه كان من العيب إلحاق الأذى برجل أثناء غيابه، خاصة عندما ألهموا بتأثير العاطفة، وبالروح الكريمة، في أنه كان يقاتل لإنقاذ أخيه، وهكذا توقف الخصام لبعض الوقت.

كيف كتب البابا إلى ملك إنكلترا وملكتها

وقام بالوقت نفسه بطرس أوف سافوي مع نبلاء أسرته: رئيس أساقفة كانتربري، والأسقف المنتخب لليون وسافونيين آخرين بحصار مدينة تورين بنشاط كبير، وهكذا أخذت المؤن تتناقص في المدينة، وبدا هناك أنه لاتوجد فرصة بوصول نجدة إليهم عن طريق نهر البو Po, وطرد السكان من المكان جميع الذين كانوا غير قادرين على حمل السلاح، وكانوا كلما ازداد عليهم الحصار شدة وضيقاً كلما زادوا من التضييق على الكونت توماس في سجنه، من أجل أنهم (سكان المدينة) إذا ماتعرضوا للأسر والعقوبة، تتوجب معاقبة ذلك الكونت في المقام الأول، لأنه كان السبب في مشاكلهم من الأول إلى الآخر، وقام البابا لكي يبدو أنه كان راغباً في فعل شيء جيد إلى ملك انكلترا وملكتها، في ظل تلك الظروف، فكتب رسالة لهما على شكل مواساة وتهدئة، وقد جاء نصها كما يلي:

«من الاسكندر، أسقف، إلخ، إلى ابنته المحبوبة كثيراً في المسيح، الملكة اللامعة لانكلترا، تحيات ومباركات رسولية:

مؤلمة حقاً ومحزنة الأضرار التي أنزلت على الأبناء المخلصين للكنيسة، وقلبنا منزعج كثيراً نحو الاعتداءات التي اقترفت ضد العبيد المخلصين للكرسي الرسولي، ونحن نحزن أكثر تجاه اضطرابات أولئك الذين أشع اخلاصهم وتقواهم نحو الكرسي الرسولي، بشكل واضح أكثر، لأنهم نالوا فوق الآخرين لقب الطهارة، فاستحقوا الحظوة الأعظم والتشريف الأكبر من الكرسي المذكور، لأننا نشعر بأن المظالم التي وقعت على هؤلاء الأشخاص قد وقعت علينا أنفسنا، وعندما يصابون نحن نتذوق مرارة جراحاتهم، ولقد علمنا بمرارة في القلب وانزعاج في الروح، أنه عندما ذهب سكان آستي Asti لتدمير قلعة مونتكاليير Montcallier, في وقت مضى، قام ولدنا

المحبوب كثيراً، النبيل الكونت توماس أوف سافوي، الذي هو عمك، وكان وقتها يعيش في تلك القلعة، بالفرار من هناك، وحمل نفسه إلى مدينة تورين، آملاً أنه بمساعدة سكان ذلك المكان، الذي هم أتباعه، أن يتمكن من استرداد تملكه للقلعة المتقدمة الذكر، التي من المعروف أنها عائدة له، لكن سكان تورين المتقدم ذكرهم، قاموا بعدما استخفوا بكل الغضب من الرب، ومن الاهتمام بسمعتهم، فاندفعوا بطيش، وخرقوا اليمين التي كانوا مربوطين بها نحو ذلك الكونت، وأقدموا بناء على إثارة سكان آستي ومساعدتهم باعتقاله وجعله سجيناً، وبذلك جلبوا على أنفسهم وصمة الخيانة، وجرحت هذه الأخبار المزعجة قلوبنا بحزن عميق، وهي أكثر إيلاماً إلى عيوننا لأن السجين نفسه عزيز جداً علينا، ولذلك حزنا —وليس ذلك لسبب غير صحيح— من أجل أن ولدنا، الذي نحبه بشكل خاص من بين جميع الآخرين، بات الآن سجيناً، ونحن نشعر بالأسى —ولاعجب في ذلك— لأن مثل ذلك الشخص النبيل الرفيع، الذي يمكن الاعتماد عليه في تأدية الواجبات المخلصة، قد سقط في أيدي خونة، وهو موجود في سجن مشدد عليه، لأنه غدا أكثر قوة، نتيجة اخلاصه المستمر، وعمله المتواصل من دون ملل في سبيل رفعة شأن الكرسي الرسولي، وبما أننا نرعي مشاعر طيبة خاصة نحو الايرل المتقدم ذكره، ونحو أسرته، ولأننا شعرنا دوماً بعواطف خاصة نحو بيته بسبب اخلاصه الخاص نحونا، لهذا إننا نشعر على هذا الأساس بالألم بحدة أكبر بسبب معاناته، ونتذوق مرارة مايعانيه بقوة أعظم، وعلاوة على ذلك إن آلامه تثيرنا وتؤلمنا عن قرب، لأننا نتعاطف مع آلامه التي يعاني منها، وبالطريقة نفسها نحن لايمكن أن نضرب بجلدات العدوان من دون أن نكون ذاتياً قد ضربنا على الفور مثلما ضرب هو، وفي الحقيقة، هو لديه مشاعر مماثلة نحونا، وحوّل أحزانه إلينا بنوع من أنواع التحويل المريرة، وعلى هذا رأينا أنه أمر صحيح، أن نلتمس برجاء وأن نحث جلالتكم المخلصة بالقيام بإلقاء القبض على

الأشخاص والممتلكات العائدة للمواطنين من تورين وآستي، الذين من الممكن وجودهم يعيشون في بلادكم وخاضعين لحكمكم، وأن تحتفظوا بهم سجناء، إلى حين تتم إعادة الكونت المتقدم ذكره إلى وضعه السالف من الحرية»، وقد جرى ارسال رسالة مماثلة إلى الملك.

كيف سأل رهبان دير أبنغدون الإذن من الملك القيام بانتخاب رئيس للرهبان عوضاً عن الحالي الذي كان يموت

أصيب في هذا العام رئيس رهبان أبنغدون Abingdon بالشلل، وأثناء تمدده بلا حراك، متوقعاً الموت، ذهب رهبان ذلك الدير إلى الملك وسألوه بتواضع، بما أن رئيسهم كان يحتضر، وبات غير نافع للآخرين، أن يستحوذوا سلمياً على ديرهم، وأن يضعوه بين أيديهم، في سبيل عمل ترتيبات نافعة لتلبية حاجاتهم والتزود بها، وفي سبيل الحصول على حظوة موافقته دفعوا خمسمائة مارك، من أموالهم الوافرة، إلى الملك، وبعد عودتهم إلى موطنهم بخمسة عشر يوماً مات رئيس الرهبان المشلول، وقام الرهبان على الفور بعمل الترتيبات اللازمة وجهزوا أنفسهم لانتخاب رئيس رهبان آخر، لأنه كان مسموحاً لهم بفعل ذلك، بموجب صك حصلوا عليه مؤخراً من الملك، وكان الملك قد اعتقد بأن حياة رئيس الرهبان سوف تطول لبعض الوقت، لأن الأشخاص المشلولين يعيشون بالعادة لوقت طويل، وعندما أخبر بوفاته، دهش كثيراً، وعقب على ذلك بحزن قائلاً: «بحق رأس الرب (لنستخدم كلماته المعتادة) كم أنا خدعت وغششت! فلقد تسلمت خمسمائة مارك فقط، من ذلك الدير الغني، الذي بات شاغراً بمثل هذه السرعة، في حين لو أنني احتفظت به بين يدي لأيام قليلة فقط، لكنت قد حصلت من غاباته فقط، من دون تعويضات أخرى، ما كان قد أضاف إلى خزانتي مبلغ ألف مارك أو أكثر»، وبناء عليه بات واضحاً وضوح النهار، لكل واحد بأن تعطش الملك ونهمه قد ازداد كل يوم

أكثر فأكثر، وكان هذا حتى بعدما أقسم على المحافظة على امتياز الكنيسة وراحتها وسكونها.

كيف قدم جون دي ديا إلى انكلترا بموجب أوامر البابا

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، قام الراهب جون دي ديفا Diva أو ديا Dia, وهو شخص جدير بالثناء، من طائفة الفرنسيسكان، بالقدوم إلى انكلترا، مع تفويض من البابا لتنفيذ جميع الاصلاحات المطلوبة.

تأكيد اقحام رئيس رهبان وينكستر

وجرى الآن بالنسبة لأندرو، رئيس رهبان وينكستر، الذي أقحم في ذلك المنصب من قبل الأسقف المنتخب، تثبيته في منصبه، على الرغم من معارضة الرأي العام للجميع (مما يبرهن على القوة العظيمة للرشوة في روما)، أما مايتعلق برئيس الرهبان القديم، الذي قد أنفق أموالاً كثيرة للحصول على حقوقه، فقد عاد الآن إلى انكلترا معاقاً غير محقق لهدفه، مع أنه كان يشعر بالأمل، من خلال بعض الوعود التي كان قد تلقاها، ليس من دون الوعد بتقديم مكافأة كبيرة مقابل ذلك، أي مقابل أن يعاد إلى وضعه رئيساً للرهبان في ديره، وذلك بمثابة طلب عادل، وجرى على كل حال تعيين بعض العزب العائدة للدير ومنحها له، حتى تتوفر له وسائط الانفاق والعيش طوال حياته، مع أن بقية حياته عبرت باضطراب وإهانة، وبرهنت هذه الواقعة عن مدى التأثير الكبير للرشوات في بلاط روما، وجرى الآن استدعاء الرهبان المتفرقين وإعادتهم، وهم قد تجللوا بالعار والشنار.

حول المكوس الجديدة التي فرضت على مواطني لندن

أرغم سكان لندن، الآن مرة جديدة على دفع مكس وصل إلى

خمسمائــــة مـــــارك، وفي سبيل اعطاء بعـض اللون لأسبـــاب هذه الاستخـــراجـات، ذكـــروا في بعض الأحيـــان أنها جـاءت من أجل استخـدامـات الملك، وذكـروا مـرة ثانيـة أنها لصـالح الملكة، وهـم الآن يتوقعـون أن تفرض عليهم ضرائب لصالح ادوارد، ولذلك كـانوا تماماً تحت رحمة الملك، من دون التقيـد بأي امتياز، وقـد تحولوا إلى حـالة هي أسوأ أنواع العبودية.

حول الاستيلاء على ممتلكات روبرت دي روس

وجرى الآن أيضاً الاستيـلاء بشكل غير إنساني على ممتلكات روبرت دي روس، التي تكونـت من الثيران، والأغنام، والقطعـــان من مختلف الأنواع، وعلى جميع مـاامتلكه في مملكة انكلترا، حيث جـرى بيع الجميع بشروط جيدة، وفقـاً لرغبات المشترين، وهو لم يحصل على أية فـائدة من اللهجة المتواضعـة، وعرضه تقديم التعـويض، كما أنه لم ينتفع من طاعته للأوامـر التي حصل عليهـا من الملك، بعــدم السماح لملك سكوتلندا وملكتهـا بالنوم معـاً، بسبب صغـر سنهما، حتى حلول وقت محدد، قـد تبرهن أنه لم يحل بعد، ثم ثابر روبرت على طلب العفو من الملك، وكان كله أمل بالحصـول عليه، ولكن بما أنه لم يحصل بعد على هـدفه، تهامس الناس، وتردد بين صفوفهم، بأن هذا الحرمـان من الحظوة الملكية، مرده إلى الكراهيـة الشـديدة التي شعـر بها الملك نحـو شعب الشمال، الذي حـاول من قبل خلع أبيـه من العـرش، وأنه اضطهـد أناسـاً آخـرين في الشمال، مثلما فعل مع روبرت نفسـه، بسبب تلك الكراهية نفسهـا، لأن الملك قـد قـام حتى الآن، باستثناء روبـرت هذا وجـون بالأويل (الذي كـان الآن يبـذل غاية جهـوده حتى لايسقط)، قـام الملك بتجـريد جميع نبلاء الشمال من ثـرواتهم الماضية، وحوّل ممتلكاتهم إلى أجـانب، آه منك أيها الملك المدهش، الذي لايتـذكـر الخدمات و الواجبـات التي قـدمت إليـه، بل تعبر من ذاكرته مثل عبـور غيوم الصبـاح، لكن صدره يختـزن

الإسـاءات طويلاً، فماالذي عمله روبرت حتى استحق الملامـة، آخـذين بعين التقدير جـوابه، عندما عرض الدفاع عن نفسـه بجسده، غير أنه لم يستطع تبرئـة نفسـه من التهم التي وضعـت ضـده، لذلك خضع لحكم أعـدائه، أو بالحري أصـدقـاء المناخ الطيب، الذين عندمـا يأخذ إنسـان بالسقوط يعجلون بسقوطه، لكن كانوا يساندونه في أوقات ازدهاره.

تأسيس السلام بين رئيس رهبان القديس ألبان وويستمنستر

في هذا العـام أيضاً، تـم بعد تقلبـات كثيرة، إقـامة سـلام بين رئيس رهبـان دير القـديس ألبــان، ورئيس رهبـان دير ويستمنستر، في قضيـة الخلاف المتعلقة بـ ألدينهام Aldenham, ومن الممكن الوقوف على شروط السلام في كتاب Additaments.

تكريس سيوول رئيساً لأساقفة يورك

جرى تكريـس المعلم سيوول Sewal رئيساً لأسـاقفة يورك، وذلك بعـدما أخـذ من وسط تلك الكنيسة حيث كـان عميدها، وكـان القـديس ادموند، رئيس أسـاقفـة كانتربري، الذي كـان سيوول تلميـذه ورفيقه قد توقع كثيراً من الخير منه.

السلام الذي أقيم بين و. أسقف
إيلاي وهـ . رئيس رهبان رامسي

وفي حـوالي الوقت نفسـه أقيم سـلام بين و. W أسقف إيلاي، وهوغ رئيس رهبـان رامسي حـول قضيـة السبـاخ، وقـد وقعت واقعـة مـدهشة، فـوق هذه السباخ في أيامنا، وكـان ذلك في أماكن كـانت منذ زمن سحيق من دن ممرات، ولايمكـن الوصـول إليهـا، حيث لم تتـوفـر وسـائل للسفـر للناس أو للمــواشي، كما لم يكن هناك سكان، بل مجرد نبـاتـات وأعشـاب، ووحل عميق، وأمــاكن مستنقعيــة، مسكونة فقط

بالطيور، دون أن نذكر الأرواح الشريرة (التي عنها قرأنا في سيرة حيا القديس غوثليس Guthlace الذي اتخذ مسكنه هناك، بناء على إرادته، لأنه مكان رعب وعزلة واسعة)، وأقول لقد تحولت هذه الأماكن الآن إلى مروج واسعة، لابل حتى إلى أرض صالحة للزراعة. وهذه الأماكن نفسها التي كانت لاتنتج قمحاً أو تبناً، تنتج كميات وافرة من الأعشاب السيفية، والحلفاء، مع مواد أخرى للحرق. لاستخدامات السكان ومنفعتهم، ولذلك نشب خلاف بين الذين سكنوا السباخ منذ البداية، تتعلق بحدود هذه الأماكن، وأقسام الأرض وحصصها، وقادت هذه الخلافات إلى نزاعات ومعارك.

الفضيحة التي تأصلت في دير الثالوث المقدس في لندن

في يوم عيد القديس بطرس في الأغلال، نشب نزاع في دير الثالوث المقدس في لندن، بين اثنين من الكهنة النظاميين في ذلك الدير، اختلفا دوماً حول لاشيء تجاوز صوف الماعز، وصدر عن هذا النزاع كراهية شديدة، وهي كراهية سعت إلى القيام بالانتقام عن طريق سفك الدماء، لابل والقتل أيضاً، حيث شجع الشيطان على ذلك، ذلك أنه يزيد من الغضب ومن الكراهية الموجودة، ويوقدها بنفسه غير التقي، وقام الأول من الاثنين فاغتنم فرصة مناسبة لمحاولة اقتراف جريمة كبرى، حيث أقدم على قتل الآخر، وفي سبيل أن يظهر نفسه —القاتل— بأنه أثير ودفع على اقتراف جريمته، أقدم على جرح نفسه بشكل مرعب كما أنه شوّه نفسه، وارتفع آنذاك صراخ وولاويل، وجرى اعتقال مقترف الجريمة، وعوقب وفقاً للأحكام الدقيقة للعدالة، وبوساطة الشيطان، الذي خطط لجميع هذه الإجراءات، وهكذا فإن الجماعة الرهبانية، التي اهتم بشكل رئيسي بتشويه سمعتها، والاساءة إليها، حصلت —لأسفنا— على الفضيحة، وعلى العار، والاضطراب، فماالذي يمكن لهذين الكاهنين

النظامين المتمردين، اللذان حصلا على خطر ورعب اللعنة والادانة، أن يقولا أمام محكمة القاضي الأعلى، وإلى المتهم للجنس البشري؟ الويل لهما، اللذان من خلال فضيحتهما قامت الاساءة إلى سمعة الرهبان بشكل عام، ويتوجب على الرهبان الذين ينصب لهم الشيطان بشكل خاص أحابيله وشباكه، أن يكونوا واعين وحذرين، وأن يلجموا غضبهم وكراهيتهم عندما تنشب النزاعات وأعمال اللوم، لأن «الغضب ينتج الصراع، ويسبب الصراع الحروب، وتسبب الحروب الموت»، ومثل هذا الموت، كما حصل للأول، جلب الموت للثاني، وكان موتاً أبدياً.

كيف جرى الاعتراف بمانفرد ابناً شرعياً للإمبراطور فردريك

وتبين في هذه الآونة، أن مانفرد الذي ساد الاعتقاد لوقت طويل أنه كان ابناً طبيعياً لفردريك، بعد البحث عن الحقيقة في القضية، أنه لم يكن مجرد ابناً طبيعياً (أي غير شرعي)، بل ابناً شرعياً لذلك الملك، وبناء عليه نال على الفور محبة وتشريف الصقليين والأبوليين، الذين شرعوا الآن بالوقوف إلى جانب قضيته، فلقد حدث قبل عشرين سنة مضت أن أم مانفرد هذا، وقعت مريضة بشكل شديد، فقامت بمراسلة الامبراطور راجية إياه من أجل خاطر الرب أن يزورها، ويشفق عليها، لأنها اعتقدت أنها كانت على حافة الموت، واستجاب لطلبها، وعند ذهابه إلى المرأة خاطبته، ويديها مطبقتين والدموع نافرةمن عينيها وقالت له: «أشفق عليّ يامولاي، وساعدني بما أنني على وشك الموت، ذلك أنني سوف أكون في خوف عظيم من المخاطر على جسدي، لابل إن خوفي هو أعظم حول مايتعلق بروحي الذي هو خطر قريب ووشيك، فأنت لك ولد طبيعي مني اسمه مانفرد، كنت قد حملت به منك، فهل يرضيك أن تقترن بي، في سبيل أن يكون شرعياً، ومن أجل أن تتحرر روحي من الخوف»، واستجاب إلى التماساتها، وتزوج الامبراطور منها، لكن الواقعة بقيت

سرية لسنوات كثيرة، وفي هذا العام تبرهنت —على كل حال— حقيقتها إلى الصقليين والأبوليين، ولذلك وقفوا منذ ذلك الحين بثبات إلى جانبه، وانحازوا إليه ضد البابا، وضد جميع الذين عارضوه، وشرع مانفرد أيضاً يزدهر في حياته، ويحقق الانتصارات على جميع أعدائه، وكان الرب تجاه ذلك راضياً ومسروراً، وبما أنه أخذ يحصل على النتائج الطيبة في الحرب ضد البابا، بدأ هذا الأخير يسعى من أجل السلام، لأن مانفرد كان قد استولى على نابلس وبارليتا Barletta, وعلى مدن ساحلية أخرى، وعلى كابوا Capua, وعلى كثير آخر من المدن والبلدات، والذي كان أكثر فائدة له هو أنه تصالح مع النبلاء والناس وكسب قلوبهم إليه، وياللأسف، ووأسفاه، لم يكن هناك أي أسقف من أساقفة الكنيسة، كان يمكنه أن يواسي البابا ويتعاون معه، وهذا أمر لايمكنني أن أتفوه به، أو أدونه كتابة من دون فيض من الدموع، فلقد تصرف البابا بطريقة نحو الأتباع المؤمنين للمسيح، الذين توجب عليه أن يرعاهم بعواطف أبوية، ويضمهم إلى صدر إحسانه، نعم تصرف بطريقة جعلت ما من واحد يتعاطف معه في أزماته، لابل أكثر من ذلك وعوضاً عنه، إنه إذا ماقام أي واحد باغضابه والاضرار به، مع أنه قد يكون رجلاً شريراً ومعتدياً، ومقترفاً آثماً، ترى كل واحد مسروراً تجاه نجاح المضطهد.

إطلاق سراح برانكليون من السجن

أما بالنسبة لبرانكليون، الشيخ الروماني، الذي انتشرت سمعته الطيبة في الخارج، والذي عانى من اضطهاد كبير من نبلاء روما لتمسكه بالتنفيذ الدقيق للعدل، فقد جرى اطلاق سراحه من السجن، بوساطة تدخل الناس، وهو السجن الذي كان قد رمي به فيه.

كيف قدم ملك سكوتلندا وملكتها إلى إنكلترا

في بداية شهر آب، وبناء على مايشبه رسالة من ملك انكلترا

وملكتهـا، قدم ملـك سكوتلندا وملكتها إلى انكلترا، يحيط بهما مرافقـة كبيرة ومشرفـة (من المعتقـد أن بين عـددهم كـان هناك حـوالي ثلاثمائـة فـارس) وقـد جـاءا لزيـارة ملك وملكة تلك البـلاد، وأرادت ملكة سكوتلندا أن تشـاهد أبيها وأمهـا، ملك انكلترا وملكتهـا، ورغب ملك سكوتلندا في رؤية ملك انكلترا الذي أحبـه، وكـان قـد تبناه، كـابن له، وأراد رؤية الملكة أيضـاً، لأنهما كـانـا متشـوقين كثيراً لرؤية ملك انكلترا وملكتهـا، وكـذلك المملكة نفسهـا، وكنـائسهـا، ومـدنها، وقـلاعهـا، وأنهارها، ومـروجهـا، وغـاباتها، وحقـولها، وفي الحقيقـة مشـاهدة جميع المشاهد الجميلة التي تبرهن وجودها في تلك المملكة فوق سواها.

كيف ذهب ملك إنكلترا لاستقبال ملك سكوتلندا وملكتها

عندمـا علم ملك انكلترا بوصـولهما، خرج بسرور عظيم لاستقبـالهما على الطريق، وبعـدما عانقهما دخـل معهما في أحاديث ودية، وصـديقة، وبناء على أمر الملك، اجتمع عدد كبير من النبلاء في القصر، لاستقبالهما، وعندمـا اكتمل اجتماع الجميع، كـان مـن الممكن تعـداد عـدة آلاف من الخيـول، وكتلة عـددها أكبر من الرجـال، ولم يكن بإمكـان أية مـدينة، ولاحتى العزبة الملكية لوودستوك Woodstock, حيث اجتمعوا مع بعضهم، كـان يمكنهـا أن تستـوعبهم جميعـاً، وأقـام الفـرسـان، وعسكروا في سرادقـات نصبت في الغـابـات والحقـول لهذه الغـاية، وامتلأت مـدينة اكسفورد أيضـاً مع جميع القرى المحيطة بها بـالضيوف، ومن اكسفورد انطلقوا نحو لندن عبر طرق متنوعة، حتى لايكون هناك نقص بالمؤن، بسبب وجود ذلك الحشـد العظيم، وكان الملك قـد أصدر أوامـر بتزيين مـدينة لندن، بالأعلام، والأكـاليل، وبوسائل زينة أخـرى مضاعفة، في سبيل أن تظهر المدينة وكذلك ويستمنستر، متميزة بالبهجة، وجرى تنفيـذ هذا تمامـاً، وبعد الاحتفـال بعيد صعـود العذراء المبـاركة بفخـامة كبيرة في وودستـوك Woodstock, في كل من الكنيســـة

والقصر الملكي، انطلق ملك سكوتلندا وملكتها، وملك انكلترا وملكتها نحو لندن، كما ذكرنا من قبل، عبر طرق مختلفة، وذلك بسبب الأعداد الكبيرة للذين كانوا مسافرين معهم.

كيف عمل ملك إنكلترا تقديات ثمينة في كنيسة القديس ألبان

وقام الملك، وهو على طريقه إلى لندن بالذهاب إلى كنيسة القديس ألبان، وكانت زيانه لذلك المكان غير معروفة في اليوم الذي تقدم على تاريخ وصوله، وحسبما كانت عادته، صلى هناك باخلاص وتقوى للقديس ألبان، الذي هو رئيس الشهداء الانكليز، وعمل منحة للكنيسة مؤلفة من أربعة طيلسانات، واحد منها أعطاه إلى مذبح القديس ألبان، ليجري تعليقه على الجدار كزينة، وأعطى آخر، للغاية نفسها، ليجري وضعه عند مذبح القديس أمفيبالوس، وثالث لمذبح القديس وولستان Wulstan, والرابع إلى مذبح القديسة مريم، حتى يجري تعليقه حيث يتم يومياً انشاد القداس.

كيف خرج إدوارد لاستقبال الملك لدى وصوله إلى لندن

وعند اقتراب الملك من لندن، خرج ابنه الأسن ادوارد مع كثير من النبلاء الآخرين لاستقباله، وكانت المدينة مزينة تكريماً للوصول المتوقع لتلك الشخصيات الكبيرة، لأنه كان هناك: ملك انكلترا وملكتها، وملك سكوتلندا وملكتها، وادوارد، وعدد كبير من النبلاء والأساقفة، وفي يوم عيد القديس أوغسطين «الأستاذ»، طلب جون مانسيل الاذن بالقيام بتضييف جميع النبلاء الضيوف في اليوم التالي، وجرت الاستجابة لهذا الطلب، وبناء عليه وجّه الدعوة لحضور وليمة غداء فخمة، إلى ملكي انكلترا وسكوتلندا، وجميع الايرلات، والبارونات، والفرسان الانكليز وكذلك السكوتلنديين، وكذلك أسقف لندن، مع عدد كبير من المواطنين، وكان عدد الضيوف في الحقيقة كبيراً جداً إلى حد أن بيته في

توثول Tothall لم يكن قادراً على استيعابهم جميعـاً، لذلك أمـر بنصب بعض السرادقـات الملكية لاستقبـال الضيـوف، وكـان الذين شاركـوا في هذا الاحتفال كبيراً جـداً، إلى حد أن سبعمائـة صحن كانت بالكاد كافية لتخديم الحلقة الأولى من الحفل، ولم يكن معلومـاً قط في أي وقت من الأوقـات أن أي صاحب منصب ديني كـان قـادراً على تجهيـز مثل ذلك الحفـل الثـري والوافـر، لأنهم جميعـاً جـرى تزويدهـم بكميات وافرة من كل نوع من أنواع المباهج.

وصول أخو ملك إسبانيا إلى إنكلترا الذي كان منفياً من بلاده

ووصل في الوقت نفسه بارون صاحب مرتبة عالية في اسبانيا، كان هو أخـو ملك تلك البـلاد، الذي قضي عليـه بالنفي مـن بلاده، لأنه نال عن استحقاق غضـب الملك، وقد أراد الآن الحصول على عـون ملك انكلترا، وجـاء يلهث وراء أمـوال الآخـرين، ذلك أنه كـان قـد أزعج كثيراً ملك اسبـانيـا، وقـد هرب الآن ليلتجيء إلى ملك انكلترا وإلى ادوارد، راجيـاً اياهما للتوسط من أجله، في سبيـل أن يستعيد شروط صداقتـه الماضية مع أخيه الملك، ذلك أنه —أي المذنب— كـان على استعداد، ولديه رغبة، في التكفير عن الأخطاء التي اقترفهـا، وبنـاء عليـه قـام ملك انكلترا، حسبما اعتـاد أن يتصرف نحـو الأجانـب جميعاً، بفتح صـدر المواسـاة له، وأمـر بتزويده بكميات وافرة من الحاجيات الضرورية، كما أنه عهد بالوصاية به وبالاسبان الذين وصلوا معـه وبصحبته إلى وليم بونكوك Boncoque, وكـان فارسـاً يعرف الاسبـان، وأخلاقهم وعـاداتهم، لأنه قام بنقل عـدة رسائل شفوية من ملك انكلترا إلى ملك اسبانيا.

منح هنتنغدون إلى ملك السكوتلنديين

وفي اليوم التالي لعيد القديس جايل، عمل ملك انكلترا منحة فأعطى هنتنغدون Huntingdon إلى ملك سكوتلندا، وأكـد هذه المنحـة

وثبتها بوساطة صك، معطياً السلطة للملك لتملك البلدة والاستحواذ عليها، مع التشريفات العائدة لها، والمتعلقة بها، حسبما كان بعض أسلافه قد فعلوا، وهكذا زاد الملك يومياً من ممتلكاته وافقار نفسه.

الهدايا التي عملها رئيس رهبان وينكستر المخلوع إلى مائدة البابا

قام هذا العام رئيس رهبان وينكستر المخلوع بكرم عظيم منه بزيادة نفقات مائدة البابا بمارك فضي واحد في كل يوم من أيام السنة إلى الأبد، وابتلع البابا هذه الأعطية بفكين مفتوحين، فلقد كان هناك ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً في السنة، ونتيجة لذلك اقتضى هذا استخراج مورد وصل بالماركات إلى العدد نفسه، ومع ذلك غادر هذا الرئيس للرهبان البلاط الروماني وسط الضحك والاستهزاء، دون إكمال عمله، وهو محبط تماماً في نواياه، لأن أعطيات خصمه، الأسقف المنتخب لوينكستر، قد قيل تفوقت على أعطياته بالكم وبالقيمة.

الجريمة الرهيبة التي اقترفت من قبل عمدة نورثأمبتون

كان هناك في هذا الوقت، واحد من الفرسان، كان غنياً، قد امتلك كثيراً من الممتلكات بالأراضي، قيل كانت تجلب إليه مورداً مقداره مائة وخمسين باونداً، ومع أن هذا الفارس كان غنياً، لقد رغب في أن يكون أغنى، وفي سبيل ذلك اشترى تعيين نفسه عمدة لنورثأمبتون، بعد الحلول محل العمدة المنصرف، وما أن حصل على منصبه، حتى استخرج المال من كل جهة من الجهات باللجوء إلى بعض الحجج التافهة حول أخطاء أو أمور أخرى، وكان هذا الرجل (الذي كان اسمه ولمي دي لآايل Lisle) مسافراً في أحد الأيام خلال الريف، وصدف أن وصل إلى مرج جميل كانت فيه بعض المواشي السمينة والجميلة ترعى، ولدى رؤيته لهم استبدت به مشاعر الحسد والشره، فاخترع سبباً للنزاع والخصام، حيث قال للراعي: «أنت خادم من؟»، وعلى هذا رد عليه

الرجل قائلاً: «أنا خادم صـديقك» وقدم اسم سيده، «وهذه المواشي له»، وكان العمدة قد كره هذا الرجل منذ وقت طويل، وفكر الآن بعمق أكبر ودرس كيف يمكـن أن يصطاده، حتـى يتمكن مـن الاستحـــواذ على مقتنيـاته، سـواء بوسـائل طيبة أو قـذرة، لأنه كـان رجـلاً له مكانتـه في المنطقة، محترمـاً، وحكيماً، وغنياً، ونظر العمـدة بحدة إلى الراعي ثـم قال له: «أنت لص، وخادم لص، وإلاّ كيف كان بإمكانه الاستحواذ على مثل هذا العدد الكبير من المواشي الجميلة؟ إنك لص مواشي تسرق في الليل، وهو بلاشك المتسلـم لهم بعـد سرقتهم»، وأنكر الراعـي هذا، وأعلن أنه هو وسيده كـانا رجلين شريفين، وهنا تابع العمدة كـلامه وأجابه قـائلاً: «أنت تكـذب، لأنك أنت لص صغير، وخـــادم لص، وإنني معتقلك، ومستولياً على المواشي، التي هي مسروقة قـد تسلمها سيدك، لأنه يتسلم الأشيـاء المسروقـة، وهو يسمنهـا ليبيعهـا»، وقـام عند ذلك العمـــدة الغـاضب، من دون أي سبب عـــادل، بالاستيـلاء على الثيران، أو عهـد بالمسؤولية عنها إلى أحـد الأشخاص، وسجن الراعي، وحمله معه إلى بيته مبعـداً إياه عن مكانه، وأكد بيمين رهيبـة بأنه سـوف (لنستخدم عبـارته العامية والدارجة) يجعله يغني، وأثناء غنائه عن نفسه وعن سيده، سوف يجعله يعترف بالحقيقـة، فيما يتعلق بالسرقـات التي اقترفت، ثم إنه سجن الراعي، وعـذبه بشدة وبكثير من الطرائق غير المعـروفة للتعـذيب، حتى أنه وصل إلى حـافـة الموت، وأخيراً وفي سبيل أن يوقف المعـذب أعمال تعـذيبـه غير الرحيمـة، التي ترافقـت مع انذارات بالاعتراف قـائـلاً له: «اعترف، اعترف بأنك لص، فـاعترف الرجل التعيس الذي كـــان شبـه ميت بأنه كان لصاً، مع أنه لم يكن كـذلك، ثم أمر العمدة بمثول الرجل أمامه، وخـاطبه على الوجه التالي: «والآن وقـد اعترفت بشكل مكشوف بأنك لص وخـادم لص، وجـاء ذلك مترافقـاً مع سماع بعض الذين هم قـادرين وراغبين بتقـديم الشهـادة ضـدك، ولـذلك سـوف تدان ويحكم عليك بالشنق، فـالمشنقة هي الشيء الوحيـد الذي بقي لك، وأنا على كل

حال لدي السلطة في أن أشنقك وفي أن أطلق سراحك وأمنحك الحرية، ولسوف تكون حراً، إذا مااتهمت سيدك باللصوصية وأكدت ذلك بدون تردد أمام رجال العدالة، وقلت بأنك لص وخادم لص، وأنك أنت كنت الوكيل، وكان هو المحرض والمتسلم، وقام الخادم المرتجف، وكله خشية من أنه سوف يلقى به ثانية في المكان، الذي عانى فيه من العذاب، بالموافقة على هذا كله، وبناء عليه أمر العمدة بالاحتفاظ به في السجن لكن مع مزيد من الحرية أكثر من ذي قبل، وذلك حتى وصول رجال العدالة، وكانوا سيصلون خلال وقت قصير، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى سيد الراعي، الذي كان آنذاك يعاني من حمى، أرسل بعض الرسل الجيدين، وبتواضع توجه بطلب الرحمة من العمدة، لأنه كان في وضع حرج جداً، لأنه كان معرضاً للضغط حتى مواجهة الموت بنوعين من الاضطرابات، وأخيراً، وبعد بعض المتاعب، واستخدام وسائل كثير من الرشوة، حصل الرجل المريض على فرصة تأجيل، حتى زوال أزمته الخطيرة وتكون اضطراباته قد عبرت، ويكون هو قد استرد صحته بعض الشيء وتخلص من مرضه، وعندما أصبح ناقهاً، تشاور بنشاط ومتابعة مع محامين قادرين، حول سبل النجاة من الكمين الذي نصب له، وقد تلقى تعليمات كاملة منهم، واستراح واسترد صحته، وفي الوقت نفسه تابع العمدة تعذيبه للرجل البريء، وأصر على الاستمرار في نواياه الشريرة التي أبدعها، مع أنه التمس منه بوسائل لطيفة وودودة، وجرى حثه بوساطة هدايا ثمينة، على الاقلاع عن نواياه ومقاصده، وذلك في سبيل تهدئة الفضيحة التي ثارت.

وبعدما وصل رجال العدالة، وضع العمدة الراعي أمامهم، معتقداً بأنه كان مستعداً لاتهام سيده باللصوصية، وعندما كان الجميع هناك ضائعين في لجة الدهشة تجاه تلك الاجراءات بين مثل تلك الشخصيات المشهورة، جرى الاعلان عن الالتزام بالصمت، من أجل الاستماع إلى

الراعي وهو يقدم بينتـه، وقد فعل ذلك وفق الطريقة التاليـة حيث قال: «سادتي رجال العـدالة، أنا في الحقيقة لست لصاً، كما أنني لست رفيق او خـادم لص، لكن هذا العمـدة في سبيل التمكن من إمـاتة سيـدي، قـام بتعريضي يومياً إلى عذاب لا يحتمل، حتى أن صراخي أزعج الجوار كله، وقـد أرغمت علىّ الاعتراف بالذي رغب مني أنَ أعترف به، لا بل حتى بعـدمـا اعترفت بأنني لص(مع أنني لست كـذلك) قـال لي:« أمـا وقـد اعترفت بأنك لص، إن المشنقـة هي كل الذي بقي لك، غير أنني سـوف أطلق سراحك، إذا ما أبدلت البينة الملكية، واتهمت سيـدك باللصوصية، وإن جميع الذي وعدت به بعـد ذلك، وعدت به وأنا فاقد لمشـاعري من خـلال أعمال تعـذيبـه، وإنني الآن أحتج، وأعلـن، وأؤكـد بأنني خـادم مخلص لسيـدي، وأن الأوضاع الحقيقيـة للقضية وتفـاصيلها مـوضوعـة أمـــامكم، وإذا مــا قــام أي انســان بمعـــارضتي، واتهمني أو اتهمــه باللصوصية، أو بأي جريمـة أخرى، فإننا سوف ندافع عن أنفسنا بشكل موائم، يتوافق مع قوانين وأعـراف المملكة»، وكان مولى الراعي حاضراً، وقـام بشكل مكشوف وصريـح بانكار الجريمة التي عـزيت إليـه، ودفع رجال العدالة انتباها دقيقاً وتقديراً وافياً لرواية الراعي، ذلك أنها حولت العمدة إلى مـوضع ريبة، وكـانت المنطقة كلها، لا بـل حتى بعض رجال العدالة عرفـوا بأن العمدة مشاكس، وشره، ومرتزق، وقـام مولى الراعي أيضـاً مـراراً في اجتماع عـام للمنطقـة بمعـارضـة الأحكام غير العـادلة، والقرارات القاسية التي أصـدرها العمدة، وفعل ذلك بحكم كونه رجلاً مستقيماً وحكيماً، وعلاوة على ذلك كان الراعي نفسـه وكذلك مولاه لهما سمعة جيدة غير ملوثة، ولم يتهما قط باللصوصيـة أو بأية جريمة أخرى، وكـان لجميع هذه الحقـائق وزنها لدى رجـال العـدالة، وكـانت أيضـاً منطقية، لكن بما أن العمدة كـان رجلاً في السلطة، وكان من أصل نبيل، وكان نائباً أعلى للملك، لم يختاروا اصدار قرار بعقوبة الاعدام ضده، مع أنه استحق ذلك، لأسباب كثيرة مضـاعفة، ووصلت صرخات الشكوى

من هذه القضية إلى مسامع الملك ومسامع بلاطه، وقد أصيبوا جميعاً بالدهشة تجاه ضخامة الجريمة، ووفقاً لما كان قد كتب:« أنا سوف أذهب نحو الأسفل وأرى فيما إذا كان الصراخ مسوغاً بالاجراءات»، فأرسل الملك بعض الرجال العقلاء والماهرين، كما كانوا من ذوي المراتب، ممن لا يمكن ان يفسدوا لا من خلال الخوف، أو الالتماسات، أو الرشاوي، وكلفهم بالقيام بعملية بحث في هذه القضية، في سبيل أنه عندما يتم اكتشاف الحق، ينبغي أن يواجه المجرم العقوبة المستحقة، وبذلك يمكن انذار الآخرين بذلك، فيخافون من العمل وفق الطريقة نفسها، وكان الفريق الذي أرسل لأداء هذه المهمة هم: ايرل غلوستر، وايرل ليستر، وهـ .H وروبرت ويلران Walerann, وفرسان، وكانوا جميعاً على معرفة جيدة بقوانين المملكة، وبعدما عمل هذا الفريق بحثاً دقيقاً وشاملاً تماماً، بوساطة فرسان المنطقة، وجدوا آثاماً أعظم جاهزة لتوجيه الاتهام بها إلى العمدة، وقد أخبروا الملك بها، وقد اعترته الدهشة تجاه الحقيقة، مثله في ذلك مثل الذين سمعوا بالاجراءات التعسفية، وبما أن موتاً مهيناً على المشنقة بات محيقاً بالعمدة، بادرت زوجته مسرعة كثيراً، وهي قلقة للغاية، إلى ملك السكوتلنديين وملكتهم، وبدموع ونحيب التمست منهما التوسط لدى ملك انكلترا، لمنع ذلك الشر الكبير من اللحاق بزوجها، وعلاوة على ذلك، أشفق جون مانسيل على تعاستها الكبيرة، فتكلم لصالح المرأة الشقية، وبما أن ملك سكوتلندا وملكتها قد توسطا من أجل العمدة، ومع أنه كان مجرماً بكل وضوح، اختار الملك عدم اغضاب المتوسطين، الذين كانوا من ذوي المناصب والمراتب العالية، فمنح المحافظة على حياة العمدة وعلى أطرافه، مع أن ذلك جاء ضد ارادته، وفعل ذلك وكأنه كان مرغماً، لأنه كان قد انزعج كثيراً، ورغب في تحقيق العدل، وهكذا حسبما قال الرسول:« بوساطة زوجة مخلصة تم انقاذ زوج غير مخلص»، ولقد رأينا أنه كان أمراً مفيداً اقحام رواية كاملة حول هذه القضية في هذا الكتاب، حتى يعلم

القـاريء، كم هو مغضب للرب ممارسة الطغيان الشرير، والقيام بالأفاعيل الشريرة المؤذية للآخرين، لأنه كما قال الشاعر:« إنه يكفي بفعلك الشر أن تكون قادراً على فعل ذلك»، و«ولا تفعل شيئا لا ترغب فيها بعد أن تكون لم تفعله، بل دع عقلك يفكر بحذر بالعمل قبل اقدامك على عمله».

أصل الفريضة المقيتة التي فرضت على الأساقفة

في سبيل أن يعلم كل واحد من قرائنا ويفهم بوضوح، عليه آن يعرف بأن هذه الفريضة المقيتة التي صدرت عن أسقف هيرفورد، تأصلت في المقام الأول لدى البابا، وأن الختم العظيم لم يكن زائفا، ولقد رأينا من المفيد، ادخال الرسالة التالية في هذا الكتاب، لنعيد إلى الذاكرة حالة العبودية التي خضعت إليها الكنيسة مع الأساقفة الحديثين.

الرسالة الشائنة للبابا

«من الاسكندر، إلخ، إلى ولده المحبوب كثيراً، المعلم روستاند، إلخ: بما أننا كنا قد أمرنا من قبل بوجوب دفع ألفي أونصة Ounces ذهب إلى بيرثولد Berthold, مركيز كمبردج، الذي هو وكيلنا من أجل إدارة شؤون مملكة صقلية، وذلك بوساطة أولادنا المحبوبين كثيرا: رينالد، وريمير Reimer, وبيرفيس Pervis, وسكوت Scott, وكرستوفر كولون Christopher Colon, ورفاقهم تجار ومواطني سيينا، وبما أنه بموجب أوامرنا أيضا، كانت بعض ديرة مملكة انكلترا ملزمة بأن تدفع إلى التجار أنفسهم مبلغ ألفي مارك استيرليني جديد، وبما أن المركيز المتقدم الذكر واخوانه، لم يتذكروا المنافع الكثيرة التي تلقوها منا ومن كنيسة روما، فاقترفوا خيانة مكشوفة ضدنا وضد الكنيسة نفسها، وضد ولدنا المحبوب كثيرا في المسيح،

الملك اللامع لانكلترا، وذلك في مملكة صقلية،، ولاقترافهم لهذه الخيانة يستحقون عدلا أن يجردوا من جميع المنافع والانعامات التي أضفيت عليهم من قبلنا، وبما أنه لم يدفع من هذا المال سوى ثلاثمائة أونصة من قبل التجار المذكورين إلى المركيز واخوانه المتقدم ذكرهم، نحن نأمركم بهذه الوسائل الرسولية، وبموجب فضيلة طاعتكم، أن تقوموا بجمع المال، أو أن تتدبروا الجمع بوساطة أي واحد آخر، من الديرة والكنائس، وليكن هذا بوساطة ابننا المحبوب كثيراً، المعلم برنارد أوف سيينا، الذي هو قسيسنا وسفيرنا، أو بوساطة شخص آخر، يكون زميلاً له، أي جمع الألفي مارك المتقدم ذكرهم الذين جرى تعيينهم إلى التجار المتقدم ذكرهم، وأن يحذف من التجار المتقدم ذكرهم ماقيمته تساوي الثلاثمائة مارك المتقدم ذكرهم، وأن تتدبر تأمين تزويدك بالبقية من قبل المحتجزين للمال، ونحن علاوة على ذلك نأمركم بردع جميع المعارضين والحاجزين لهذا المال بوساطة الروادع اللاهوتية، وأن تؤجلوا جميع الاستئنافات، وبعدم التقيد بأية رسائل رسولية، أو غفرانات جرى الحصول عليها، أو سوف يجري الحصول عليها من الآن فصاعداً، مهما كان محتواها، حيث من الممكن أن يعاق بها دفع هذا المال، أو يجري تأخيره، ولاتعبأ مطلقاً بأن يكون الكرسي الرسولي، قد قام بوساطة أية رسائل رسولية، بمنح اعفاء أو غفران إلى أي واحد، واستثناء من أن يجري تعليقه أو حرمانه كنسياً، أو أن يوضع تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وبعدما تكون قد جمعت أو تسلمت المال المتقدم ذكره من الحابسين، مهما كانوا، عليك القيام بموجب السلطات الرسولية بتحليل هذه الديرة والكنائس المتقدمة الذكر من الالتزامات التي كانوا مرتبطين بموجبها بدفع المال المتقدم ذكره إلى التجار المتقدم ذكرهم، ثم عليك عمل إعلان بأن الرسائل والوثائق العامة التي صدرت حول مايتعلق بهذا الالتزام سوف تكون غير نافذة بالنسبة للمستقبل، وعليك أيضاً، تقديرا منك لحظوتنا ودمورزننا، أن ترسل أية مبالغ من المال قد تسلمتها

من الديرة والكنائس، ومن المعلم برنارد، ومن التجار المتقدم ذكرهم، ومن المحتجزين الآخرين، مهما كانوا، إلى ولدينا المحبوبين كاربوكو Carbuco وجيمس دي لاست Last, أو أي واحد منهما، ومن ثم إلى ج. J ريمير Remeir, وغيلبيرت أوف كريمونا، وإلى التجار الفلورنسيين، الذين أقرضونا بكرم مبلغ ألفي مارك استيرليني في سبيل تحصين المدن والقلاع، والأماكن الأخرى في مملكة صقلية، ومن أجل سداد بعض المدفوعات التي نحن وكنيسة روما ملزمين أنفسنا بها، ولاتتقيد أيضاً، بالرسائل الأخرى التي كنا قد أرسلناها لكم والمتعلقة بدفع مبالغ محددة من المال، وكذلك هذه المبالغ المذكورة، واسهامات أخرى سوف تعمل بشكل عام، وعليك أن تخبرنا برسائلك الموثقة عن مبالغ المال التي رأيت من الموائم تعيينها إليهم، وعندما يكون هذا المبلغ من المال قد دفع باسمنا، وباسم كنيسة روما، إلى كاربوكو المذكور وجيمس، أو إلى واحد منهما، نحن وقتها سوف نعتقد بأن ترضية كاملة قد أعطيت إلينا، وإلى الكنيسة المتقدمة الذكر، وعليك علاوة على هذا أن تسعى إلى تنفيذ أمرنا، أي أن كاربوكو المذكور وجيمس، سوف لن يكونا مرغمين على اللجوء إلينا ثانية، وعليك أيضاً أن تخبر الملك بأن هذا كله قد صدر عن نوايانا الطيبة نحوه، أما بالنسبة لرؤساء الرهبان، ورؤساء الرهبانيات، ورهبان الديرة والكنائس التي وضعت تحت الالتزام في هذه القضية جعلنا معلوماً لديهم في هذه العروض كمية المال، المتوجب على كل واحد من هذه الديرة، وعلى كل واحدة من هذه الكنائس، دفعه بموجب هذا الالزام، والمفروض على رئيس رهبان درم والدير فيها دفع خمسمائة مارك، وذلك بموجب سلطات الكرسي الرسولي، أما المفروض على باث فهو أربعمائة مارك، وعلى رئيس رهبان ورهبان دير ثورني مبلغ أربعمائة مارك، وعلى رئيس رهبان ورهبان دير كرويلاند Croyland أربعمائة مارك، وعلى رئيس رهبان ورهبان دير غيسبورن Gisburne من طائفة

القديس أوغسطين ثلاثمائة مارك. صدر في أغنانو Agnano في الثاني والعشرين من حزيران، في السنة الثانية لحبريتنا».

حول رفض رئيسي رهبان ورهبان ديري درم وغيسبورن الخضوع إلى الإلزام المتقدم ذكره

وعندما سمع أساقفة انكلترا بأن البابا والملك، كانا متحالفين، حسبما ذكرنا أعلاه، من أجل اخضاع الكنيسة الانكليزية، الأمر الذي من الممكن فهمه من الرسالة المذكورة أعلاه، باتوا في حالة من الحيرة، وظهروا وكأنهم قد سحقوا بين حجري رحا، وأصبحوا مثل رجال عميان لايعرفون الذي عليهم عمله، وعلى كل حال رفض رئيس رهبان درم والتجمع الرهباني لدرم، ورئيس رهبان غيسبورن ورهبان الدير، اعطاء الموافقة، ولابأي شكل من الأشكال، ورفضوا اخضاع كنائسهم لمثل هذا النوع من العبودية، وجاء ذلك على الرغم من أن جميع الآخرين تقريباً قد انحنوا أمام بعل، وجثوا على ركبهم أمامه، وقد بقيوا على كل حال واقفين بثبات، يقاتلون في سبيل حرية كنيستهم، وعلى استعداد بشجاعة لتحمل تعليق طويل مع تنكيل البلاط الروماني، وكذلك الاهانات، والملامات، والتهديدات الصادرة عن التجار، أو بالحري المرابين، هذا ولم يكن لهم أي صديق في ذلك الصراع، وقد حزنوا لذلك، وخاف البابا وحزبه من أن يقوم آخرون بتقديم المساعدة إليهم في وضعهم المضطرب، وذلك صدوراً عن الشفقة، وأن يقوموا بروح عدوانية مماثلة بالتعاون مع إخوانهم، لكن هؤلاء خافوا وارتعبوا، وحنوا رقابهم إلى النير، وديس عليهم بأقدام أعدائهم، وهكذا لم يكن هناك من واساهم، أو قدم النجدة إليهم، بل انقسموا، وتأرجحوا إلى هنا وهناك وكأن الريح كانت تحركهم، وفقدوا الإحسان، فدافعت كل فئة عن الذي كان عائد إليها، وسقطوا في دفاعهم، وكان هذا سبب رفع جباه أعدائهم وشموخهم.

كيف هدّد ملك قشتالة بغزو غسكوني

وفي هذه الآونة، أخذ الملك الذي كان من دون مال، وبحاجة إلى المال، في جشعه إلى المال، بالاستيلاء على خمور الغسكونيين، دون أن يدفع إليهم أي مال، ولذلك عاد تجار الخمرة مع آخرين إلى ملك قشتالة، الذي كان وسيطاً وصانعاً للسلام بينهم وبين ملك انكلترا، وهو الذي أمر بتدوين بنود السلام وكتابتهم في صك، من الممكن الوقوف عليه في كتاب Additaments, عند علامة السيفين المتصالبين (؟)، وعندما سمع ملك قشتالة بهذه الإجراءات غضب غضباً شديدا، وأثير، لذلك انفجر في التوبيخ وقال: «أنا آسف لأنني دخلت بتحالف مع ملك انكلترا، الذي لايحافظ على عهده، ولاعلى صكوكه من دون خرق، والذي لايخجل من الحنث بيمينه، كما أنه لايخاف من الحصول على حكم قانوني بالحرمان الكنسي يجري إعلانه، وعلى كل حال، أنا مسموح لي، وموائم بالنسبة لي عدم الالتزام بالشروط (التي أبرمتها أنا مع واحد لايحافظ شخصياً على عهده)، ومع قسم رهيب هدّد بالقيام بغزو غسكوني، لوضعها تحت حكمه، وعلاوة على ذلك أعلن ملك فرنسا، لأن الهدنة قد انتهت، عن نية لم تكن أقل خطراً، وارتعب ملك انكلترا تجاه هذه الشرور التي أحاقت به، ولم يكن هذا أمراً ليس مسوغا، فأرسل جون غيتدين Gatesden الذي كان فارسا مع بعض الآخرين، رسلاً خاصين إلى ملك قشتالة، لإطفاء غضب ذلك الملك، وكان بين العبارات البليغة والمعتدلة، التي تفوه بها السفير الحكيم والمتعلم، حسبما روي هي الكلمات التالية: «مولاي الكريم، هل هناك كرم أعظم، أو لطف أكبر مما أظهره الرب القدير لبني البشر، من أنه قدم ابنه لتخليص وانقاذ كل واحد»؟، وعلى هذا أجابه الملك قائلا: «أنا لاأعرف، أنه يوجد، لأن ذلك هو الأعظم بين جميع المنافع»، ثم أضاف جون: «إن هذا مافعله ملك انكلترا نحوك، لأنه أعطاك ابنه الأكبر، وهو شاب وسيم في

شكله وشخصه، وهو الوريث لجميع الممتلكات، لذلك ينبغي أن لاتكون ياصاحب الجلالة غاضبا من مثل هذا الصديق، الذي يقدرك تقديره لأخ له»، وبذلك انطفأ غضب ذلك الملك، لكن غاستون وبعض الخونة الآخرين للملك انكلترا، قاموا معتمدين على حماية ملك قشتالة، برفع رؤوسهم، وحافظوا على مواقفهم الرافضة التي كانوا متورطين فيها.

احتلال مخادع لعمادة يورك

وفي حوالي الوقت نفسه، قدم أشخاص غير معروفين إلى كنيسة يورك، ودخلوا إليها بشكل سري، عندما كان الناس جالسين إلى المائدة منشغلين بتناول طعامهم، وسألوا واحداً كان يصلي هناك، عن المقعد الذي كان العميد يجلس عليه، وبعدما تلقوا الجواب، وأرشدوا إلى مقعد العميد، اقتاد اثنان منهم رجلاً ثالثاً إلى ذلك المقعد، وقالا له: «أيها الأخ، إننا بموجب سلطان البابا نتولى تنصيبك»، وعندما بلغ هذا إلى مسامع رئيس الأساقفة المعين حديثا، أي سيوول، الذي كان من قبل عميداً لتلك الكنيسة، قهره الحزن، تجاه اقتراف مثل هذا العمل المخادع، واستخدم كل الوسائل التي توفرت إليه وكانت بقدرته للحيلولة دون هذا التنصيب، لكن وكلاء هذا الإجراء ومقترفوه، ذهبوا إلى بلاط روما، حيث عادوا من هناك، وقد تمكنوا من تدبير المسائل، حتى أنهم تمكنوا من وضع هذا الرجل الصالح واللطيف تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وجعلوه يتحمل خسائر كبيرة ونفقات، وقد تحمل رجل الدين هذا كله بصبر، في سبيل أن يظهر وهو يعاني، وهي المعاناة التي كان معلمه وصديقه، ورفيقه القديم، القديس ادموند، قد أخبره مسبقاً بأنها سوف تقع له، وأدهشت عملية الوقاحة هذه باقتراف الخديعة جميع الكهنة النظاميين، إلى حد أنهم جميعاً لم يعرفوا الذي عليهم القيام به، لأنه بدا لهم أمراً متناقضاً، وبعيداً عن المنطق، لابل في الحقيقة، أمراً مقيتاً السماح لمثل ذلك المنصب الكنسي النبيل، الذي هو منصب له أهميته

القصـــوى، بأن ينعم به على شخص مخادع وغير معـــروف، الذي أقحم نفسه ونصبهـا بطريقة عـدوانية، ومن ثم السماح بأن يستحـوذ على ذلك المقام في تلك الكنيســة الفخمة، وهو المقـام الذي يعد الثـاني بعد رئـاسة الأساقفـة، غير أنهم كانوا في رعب عظيم وويل من طغيـان سلطة البابا، التي إليها أذعن الملك، أو بالحري إذا أردنا قول الحقيقة: جثا على ركبتيه.

كيف جرى ارغام الرهبان السسترشيان على دفع ضريبة

أصدر الملك أوامر بوجوب عـدم ابداء المراعاة نحو السسترشيان، بل يتوجب على عمد المناطق وبقيـة الوكلاء الملكيين إنهاكهم، وفقط العدالة ينبغي اظهارها نحوهـم، ولأنه كـان غاضباً تجاههم بسبب حصولهم على وسيط لصـالحهم، أعطى إذنه بوجـوب فـرض ضريبـة الجمارك عليهم، وهي الضريبة التي تعرف عـادة باسم ضريبة المرور، وأن تستخرج منهم لدى عودتهم من الاجتماع العام لهيئتهم الكهنوتية، وكان هذا إجراء جاء مضاداً بشكل مبـاشر لامتيازاتهم، ولأعرافهـم القديمة المصـادق عليها، ونتيجـة لهذا فإن كثيرين منهم الذين لم ينذروا من قبل أرغمـوا على بيع قلانسهم وثيابهم، ومعاطفهم.

موت بعض الأساقفة

في هذا المعـام نفســه، وقع رئيس أسـاقفة بوردو، الذي كـان عجـوزاً وضعيفاً، مريضـاً مرضاً مميتاً وعندما خيل للنـاس أنه مات، مع أنه كان مايـزال شبه حي، حصل أسقف هيرفـورد (الذي كان متشـوقاً كثيراً إلى رئاسة الأساقفة تلك) على رسـالة من الملك، الذي وافقه على مشاريعه، لأنه كان جابي ضرائبـه [وانطلق من أجل الحصول على رئاسـة الأساقفة تلك]، ولكن عندما تبرهنت حقيقة أن رئيس الأساقفة مايزال حياً، فقد جهـده وأمـواله، وخضع بالاضـافـة إلى ذلك للسخـرية، وقـد قيل بأن القضيـة نفسها قـد وقعت مع المعلم لامبين Lambin, الذي نظم

بحقه بيتان من الشعر، وهما وإن كانا بعيدين قليلاً عن موضوعي، سوف أدخلهما هنا: «بوساطة دفع مبلغ كبير من المال، تطلع لامبين نحو الأسقفية، مع أن الراعي لم يكن قد دفن بعد»، وفي حوالي الوقت نفسه مات أسقف للانداف Llandaff, وجرى تعيين آخر محله، وفي بداية شهر تشرين الأول من العام نفسه، أخذ المعلم توماس، أسقف كارلآيل، الذي كان مثل أسقف آيل قد شغل أسقفيته لعام واحد، من بيننا، وبموته ظهر واضحاً كيفية الانتقال من الأمجاد المتأرجحة للمناصب الدنيوية، وأذعن وليم أسقف إيلاي لمنيته في بلد أجنبي، حيث كان مسافراً في طريقه إلى اسبانيا، وفي الوقت الذي كان يقوم بتنفيذ إرادة ملكه الأرضي، وقد سحب للمثول أمام محكمة الملك الأعظم، وقد جلب قلبه إلى كنيسة إيلاي ليدفن هناك بكل مهابة، وفي يوم عيد جميع القديسين، حدث أيضاً أن تخلى المعلم روجر دي ويستهام Westham, أسقف شيستر عن أسقفيته، طواعية وبخياره الشخصي، ومات في الوقت نفسه أيضاً جون الكاهن النظامي، ورئيس رهبان دير نيوبري Newbury, الذي كان مثلما كان عليه وليم أسقف إيلاي، الذي تحدثنا عنه أعلاه، صديقاً مقرباً، ومستشاراً خاصاً للملك.

الطلب الذي عمله الملك عندما كان النبلاء جالسين في بيت المال

في اليوم الرابع الذي حلّ قبل عيد القديس ادوارد في هذا العام، ذهب الملك إلى بيت المال، عندما كان البارونات جالسين هناك، وأعلن بفمه بأن كل عمدة سوف لايظهر في ثمانية عيد القديس ميكائيل من كل عام وفي كل عام، ويقدم للملك المال المجبي من الضمانات، والغرامات، ومن المصادر الأخرى، ينبغي تغريمه لعدم ظهوره، في اليوم الأول خمسة ماركات، وفي اليوم الثاني عشرة، وفي اليوم الثالث خمسة عشر، وإذا ماغاب في اليوم الرابع، ينبغي أن يفدي

نفسه، وعُمل إعلان مماثل من قبل الملك ضد المدن التي تقدم حسابا إلى بيت المال بوساطة وكلائهن الملكيين، وقضى هذا الاعلان أنهن سوف يفقدن امتيازاتهن في اليوم الرابع، وفق الطريقة نفسها، التي يتوجب فيها على العمد الظهور، وينبغي أن يكون معلوما أيضا، أنه جرى في اليوم نفسه تغريم جميع عمد انكلترا، كل واحد منهم بمبلغ خمسة ماركات، لأنهم لم يقوموا بإرغام كل رجل في مناطقهم، بين يديه عشرة امتيازات من الأرض، لأن يصبح فارسا، أو يسأل التأجيل من الملك، بحكم أنه فرض عليهم ذلك برسائله الملكية التي وجهها إلى العمد.

انتخاب نائب رئيس رهبان إيلاي للأسقفية

ورغب الملك في رفع شأن هنري أوف وينغهام Wengham وتأييد قضيته، وهو الذي كان الحافظ لختمه، ولذلك أرسل رسلا خاصين، ورسائل التماس إلى رهبان دير إيلاي، يرجوهم بحرارة لانتخاب هنري المذكور ليكون أسقفا لهم، وراعيا لنفوسهم، لكن الرهبان أخذوا بعين التقدير معرفتهم بنائب رئيس الرهبان لديهم، وتوافقا مع المبدأ الكافر: «لاتفضل شخصا غير معروف لديك، على الذين معروفين لديك»، فانتخبوا نائب رئيس الرهبان المذكور هوغ دي بيليسيل Belesale, أسقفا لهم، رغضب الملك لرفض طلبه، ولذلك رفض قبول الأسقف المنتخب، وجاء رفضه اعتمادا على حجج تافهة، وقام إما بإصدار الأمر، أو رضي وتغاضى عن الذي عمله جون ويلران، الذي عهد إليه بالوصاية على تلك الأسقفية، فأسقط الأشجار، واستباح جميع المقتنيات، ونهب كل ماهو عائد لها، وجرى تنفيذ هذا بصورة فعالة أكثر مما أذن —أو سمح— وبلغ ذلك حدا أنه أبكى حتى أعداء تلك الأسقفية، وأثار القديس ايثيلرد Ethelred ودفعه إلى الانتقام.

كيف وضعت كنيسة القديس ألبان تحت الحرمان من شراكة المؤمنين

وفي حوالي يوم عيد القديسين سمعان وجود في هذا العام، وبسبب قسوة الاستخراجات البابوية، وضعت كنيسة القديس ألبان تحت الحرمان من شراكة المؤمنين لمدة خمسة عشر يوماً، ولم يكن ذلك لأنها جردت من امتيازاتها الشرفية، بل بسبب تلك العبارة المقيتة المضافة «دون التقييد»، فهي قد أضعفت المنح التقوية، وألغت سلطات الآباء المتدسين، واختارت الجماعة الرهبانية —بناء عليه— تنفيذ هذا الحكم غير العادل والعنيف، بكل احترام موائم، وآثرت ذلك على عدم الاقدام بطيش على رفضه، وذلك خشية من أن يجلب عمل التحدي، الاضطراب إليهم، ولذلك توقفوا عن قرع الأجراس، وعن إقامة القداسات اللاهوتية، وقاموا أثناء أيام الحرمان بتنفيذ قداسات الساعات النظامية والساعات المسائية، بصوت منخفض، وكانوا قد تلقوا التشجيع —على كل حال— من قبل جون دي ديا، الذي كان مكلفاً آنذاك بأعمال النائب البابوي في انكلترا، ثم إنهم أقاموا القداسات اللاهوتية بالطريقة المعتادة.

الفضيحة التي انبعثت في دير غلاستونبري

ونشبت في هذا العام بعض الخلافات بين أسقف باث وبين راهب من دير غلاستونبري، وهو شخص كان قد أقحم بالقوة بموجب سلطات الملك، وضد إرادة الأسقف، في ذلك الدير، وقد بدأ على الفور بطيش ووقاحة بترتيب كل شيء حسب رغباته، وعمل ختماً مزيفاً لنفسه، وفي الوقت الذي ذهب فيه الأسقف إلى روما، لملاحقة شؤونه وليحصل على امتيازاته، حدث نهب عام لممتلكات الدير، وقام هذا الشخص المقحم، في سبيل تقوية حزبه ضد الأسقف، فحشد جميع العاطلين والرعاع وجاء

بكل الذين تمكن من جمعهم، وقــام من أجل الأذى بـالشرف الديري، فـرسم ثمانية عشر واحـداً منهم، كـانوا بالفعل غير مناسبين، وفي اليـوم الثـالث بعـد ذلك، جعلهم يصبحـون رهبـانـاً محترفين، ولم يظهـر أدنى خـوف، أو بالحري أية خشيـة من اقتراف الاثـم، أمـام الرب إلهنا، الذي قــال: «الـويل للرجل الذي منـه تنبعث الفضـائح»، وأصيبـت كنيسـة وينكستر، وتعرضت للاهانة من انقسام ممـاثل، ومثل الأدعياء الذين كان الأسقف المنتخب لوينكستر قـد جمعهم وعملهـم رهبـاناً، على الرغم من عـدم موافقـة رئيس الرهبـان، واستخفافـاً به، كـان الآن أن قام الرهبـان المكرسين بالمغادرة، وما من شيء آخر كان يؤمل منهم.

تثبيت رئيسي أساقفة دبلن ويورك في رئاسة أساقفيتهما

وفي حوالي هذا الـوقت، وبعون الرب، وبعـد كثير من المضار الكبيرة التي ألمت بأبرشيتيهما، جرى تثبيت المعلم فـولك باسيت، رئيس أساقفة دبلن، والمعلم سيـوول رئيس أسـاقفة يورك، بقـوة، كل واحـد منهما في منصبه، وهكذا تناقصت سلطة الملك —بسبب أخطائه— يومياً، ومعها أيضاً كرامة المملكة.

جباية العشور من قبل أسقف هيرفورد

ولم يقم أسقف هيرفورد أية تقـدير لمنفعة المملكة وصالحهـا، بل ركز اهتمامه فقط على الذين يمكن أن يقـود إلى منفعته، ولذلك جبى العشور لنفســه في ايرلاندا، وفي المناطق المجـاورة، وكـان ذلك بوسـاطة اذن من البابا والملك، وقد تجمع ذلك في مبلغ كبير، وهو قـد أقام التقدير واهتم بالمكافأة على أعماله، وبالجائـزة على خيـانتـه، ولذلك جبى هذه العشـور بشـدة، الخجل يمنعنا مـن ذكـر طرائق الجبـاية التـي مـورست، وبما أن الغش نادراً مـاجرت ممارسته مـن دون خوف، فقد تجول وهو خـائف، وقد أحاط نفسه بمرافقة مسلحة.

كيف جرى تثبيت أندرو رئيس الرهبان المقحم في وينكستر في منصبه

جـرى في هذا العـام تثبيت أندرو المقحم في منصب رئيس رهبـان وينكستر، وذلك بفضل التـوزيع السخي للهدايا في بلاط رومـا من قبل الأسقف المنتخب لذلـك المكان، وكـذلك بفضل الجوائـز والأعطيـات السيمـونيـة والالتماسات التي قـام بها رئيس الرهبـان المقحم شخصيـاً، الذي دان بتنصيبـه إلى الأسقف المنتخب، أمـا بـالنسبـة لرئيس الرهبـان الماضي، فإنه بعدما تحمل كثيراً من المتاعب في رحلته عبر الألب، وبعدما أنفق كثيراً من المال، وشاهد الضرر الكبير الذي ألم برئاسة رهبانيته، بعد هذا كله جـرى تزويده ببعض العـزب لينفق على نفسـه ويعيـش، أمـا بالنسبة لرهبان الدير الذين كـانوا قد تفرقوا، فقد جـرت دعوتهم بأوامر سلطوية لـلاجتماع ثانيـة، وصـدرت الأوامـر عـن الأسقف المنتخب، وترافقت مع التهديد بعقوبـة التكفير، وهكذا فإن مثل هذه الانشقاقات المخـزية ألمت يومياً بالكنائس الـديرية الفخمة في انكلترا، وقـدمت هذه الانشقاقات التي نشبت بسبب الخلافات ومطامح المجموعات المتنافسة، الطعام إلى البلاط الـروماني، فبهذا الخلاف وحده، جاءت إضـافة دخل سنوي، وربح مقداره مارك فضي واحد يومياً لتزويد مائدة البابا.

عودة رئيس أساقفة كانتربري إلى إنكلترا من إيطاليا

في حوالي أيام عيد القديسة كاترين، وصل رئيس أساقفة كانتربري من إيطاليـا، بعـد كثير من الانفـاق للمال الانكليزي مـن دون فائـدة، وبعـد متـاعب بلاثمار، وبعـد كثير من الاضطرابات، وقـد حصل على قليل من المنفعة في الحرب ضـد مدينة تورين، كما أن أخاه تومـاس، الذي كان من قبل كـونت فـلاندرز، لم يطلق سراحـه، ولم يخرج من السجن في تلك المدينة، مع أن السافـونيين بذلوا كل جهودهم لإطـلاق سراحه، ولم يكن

مفيداً أيضاً أن البابا استخدم كل جهوده في سبيل اطلاق سراحه، وكتب إلى ملكة انكلترا ضد سكان تورين، وضد مصالحهم ولأذاهم، ولقد قيل بأن توماس المذكور، ألحق بظلمه، كثيراً من الأضرار بالسكان المذكورين.

كيف سعى الويلزيون وقد وجدوا أنفسهم مظلومين إلى استرداد حرية بلادهم

وفي حوالي يوم عيد جميع القديسين، قام الويلزيون، وقد ظلموا بطرق كثيرة مضاعفة، وغالباً ما جرى بيعهم إلى الذي كان يدفع أكثر، قاموا وقد ظلموا إلى أبعد الحدود بطغيان وكيل الملك الفارس غيوفري لانغلي Langley، وثاروا بأنفسهم من أجل الدفاع عن بلادهم، وفي سبيل الالتزام بقوانينهم، وبعدما أقاموا تحالفات، قاموا بغزو مقاطعات انكلترا المجاورة وهاجموا رعية مولاهم ادوارد، الذي لم يكونوا آنذاك قد اعترفوا به على أنه سيدهم، وحققوا نجاحاً كبيراً في حملتهم الحربية، إلى حد أنه قيل بأنهم استقبلوا برضا السكان المجاورين، وعندما سمع ادوارد بهذا، طار ملتجئاً إلى عمه رتشارد، وذلك بحكم أن الملك بات بلا مجد وفقير، فاقترض أربعة آلاف مارك منه، وقد عزم على ضبط طيش ووقاحة الويلزيين، وأن يعاقبهم على جرأتهم، وأراد شن الحرب ضدهم إلى حد افنائهم، لكن شتاء ذلك العام كله كان ممطرا وكثير العواصف، وبما أن بلاد ويلز كلها كانت من دون طرق، وذات طبيعة مستنقعية، كانت منيعة ويتعذر الوصول إليها من قبل الانكليز، وهكذا جاءت جهود ادوارد التي بذلها، والأموال التي أنفقها من دون ثمار وبلا محصلات، ثم إن غيوفري المتقدم ذكره ندم —ولكن جاء ذلك متأخرا كثيرا— لأنه أثار الحرب، ولوحشيته في نهب الويلزيين، مثلما كان قد فعل قبل عدة سنوات مضت للشعب في شمالي انكلترا، ولقد كان هناك بعض الذين قالوا بأن غيوفري، أقدم برضاه أو بغير رضاه، على التسبب بخسارة ادوارد بقدر ما كان بإمكانه أن يفعل.

أعمال العنف التي اقترفت من قبل أتباع ادوارد

أحدث خدم ادوارد وأتباعه اضطراباً وازعاجاً لسكان المنطقة التي مروا بها، وذلك بالقيام بنهب ممتلكاتهم، وبإهانة أشخاصهم، وإنه بسماحه بمثل هذه الدرجة من العنف وإلحاق الأذى جعل الناس يقارنون مافعله بالذي اقترف من قبل والده الملك، فوجدوها أقسى بكثير، لأن الوحوش وقطاع الطرق الذين احتفظ بهم في بلاطه، نشروا أنفسهم بالطول وبالعرض، واستولوا بالقوة وصادروا الخيول وعربات التجار، ومؤن السكان، ونظرا لبشاعة أفاعيل الظلم التي اقترفت من قبل وكلائه، رأيت من المناسب والمفيد ذكر تفاصيل واحد منها إلى القراء، فعندما ذهب ادوارد المذكور، كما روينا من قبل، إلى الايرل رنشارد، وجده في وولنغفورد Wallingtord, حيث استقبل هناك بلطف، وعومل بمثابة ضيف في القلعة، وشق أتباعه بالوقت نفسه طريقهم إلى داخل رئاسة الرهبانية، ولم يطلبوا الضيافة، حسبما جرت عليه العادة، بل دفعوا من دون احترام الرهبان جانباً، واستولوا على ما كان ضروريا لتزويد مائدتهم، وعلى الوقود، وعلى الأعلاف لخيولهم، وكسروا الأبواب، والنوافذ والمقاعد، وأهانوا خدم الرهبان، وشتموهم وضربوهم، وكأنهم كانوا عبيدا، أو اقترفوا أعمال سرقة، وطردوهم من أماكنهم، وبصعوبة بالغة سمحوا للرهبان أنفسهم باستخدام قاعة الطعام، لأن قاعة الاستقبال كانت مملوءة بالذين كانوا يأكلون، ومهجع النوم كان مشغولا من قبل الشاربين، وحين رغب أصدقاء ادوارد باقتراف هذه الآثام، عزوها ليس إلى سوء الأخلاق، بل إلى طيش الشباب، غير مقدرين ماتكهن به لوكان وقاله: «إن عمر طاغية النيل موضع شك كبير، لأنه حتى يكون الإيمان الجيد ثابتاً، يتطلب ذلك نضوجا بالسنين».

ولم يعبأ الويلزيون في الوقت نفسه، ولم يخافوا من طغيان ادوارد

وأتباعه، ولذلك شقوا طريقهم بعيداً حتى شيستر، وتغلبوا على جميع العوائق، ونهبوا كل شيء رأوه على طريقهم، ولم يكن قطاع الطرق هؤلاء مساوين أبداً، حتى للذين جلبهم لويس مرة وأدخلهم إلى انكلترا معه.

المرسوم الجديد للملك

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً أعطى الملك أمراً دقيقاً، أنه لايجوز مطلقاً ختم أية مذكرة بالختم الملكي، واصدارها من بلاط المستشار، يمكن أن تكون مسببة للأذى أو الخسارة إلى أخيه رتشارد، وإلى رتشارد ايرل غلوستر، وإلى بطرس أوف سافوي، أو إلى أي واحد من إخوته، وكان من الواضح أن هذا المرسوم معارض لجميع الحقوق، وإلى سلام المملكة.

البحث الدقيق حول المكاييل

أمر الملك رجالاته في هذه الآونة القيام ببحث دقيق وتفتيش حول مكاييل الخمرة والبيرة التي نسميها Flagons أو Gallons, وحول مكاييل القمح التي نسميها Bushels, وحول أوزان الميازين وهكذا وجه ضرباته إلى هنا وهناك، حتى يفرض الغرامات على البريء وعلى المذنب سواء، وبذلك يضيف مالاً إلى خزانته، حتى بوساطة معاقبة المذنبين أكثر مما يستحقون، وهكذا جرى اختراع أعذار مخادعة يومياً من أجل استخراج المال، وقد حدث في كل مكان الاستيلاء على المقتنيات الصغيرة للباعة، ولم تقدم أية تعويضات على الذي جرى الاستيلاء عليه، لابل كانت الفئة المسروقة حتى مسرورة إذا ماتدبرت النجاة من دون إهانات ولكمات، وهكذا مثلما حدث مؤخراً في قضية الفريضة الإلزامية التي تعرف بشكل عام باسم قضية السيرجاندية، نبعت الأسباب لاستخراج المال، الآن كثيراً من خدمات البلاط، من ذلك الارغام بأن يصبح بعضهم فرساناً، والتفتيش حول المكاييل وحول قضايا أخرى كثيرة مخترعة، كان دافعها شراهية ذئبية،

وتزايدت أعمال السلب والنهب والاغتصـــاب هذه، مـدمـرة للمملكة، ومستعبـدة للكنيســة، وقد توفـر الآن في انكلترا عـدد كبير من الطغـاة، وكأن العصور القـديمة قـد تجددت، فهذا ماظهـر عندما قـام عدد كبير جداً من الملوك الصغار بفرض إرادتهم هناك.

ازدياد المظالم اليومية ومضاعفتها ضد الكنيسة

وأصغى الملك في حوالي الوقت نفسه إلى أسـوأ النصائح، فقبل قرضاً بمبلغ كبير جـداً من وكلاء البـابا، من أجل ترقيـة ابنه ادمـوند إلى ملك مملكة صقلية، وبـذلك تقيد بقيود أعظـم حالات الفقر الكاملـة، والبابا الذي ينبغي أن لايغش وأن لايُغش، قد آمن بتأكيـدات الملك وصدقها، مع أنه كـان بـإمكانه أن يراها —لو أراد ذلك واختـاره— بأنها كـانت كلها خداع وزيف، لأن الملك، أعطى البابا في رسائله إليه الانطباع، بأن انكلترا منجماً للثروة، لايمكن لأحد أن يستخرج كل مـافيه، وأيضاً بأنه لم يكن هناك قط من قبل قـد وجد ملك في انكلترا كان محبـوباً مثله، أو غنيـاً مثلما هو، مع أنه كـان بإمكان البابا أن يعـرف العكس من خـلال عدد من أصدقائه المقربين الذين كانوا آنذاك موجودين في روما، وكانت الفـائدة المقـررة على هذا المال، والعقوبات التي جناها الملك من خـلال ذلك، قد وصلت إلى مبلغ مقداره أكثر من مـائة باوند يومياً، وعلى هذا أحاق الدمار ومعه العزلة عن قرب برجال الدين والناس في انكلترا.

خلع ستيفن رئيس رهبان أوف كليرفو

وجرى في هذا العام، أن تعرض ستيفن، الباني لدير تشاردني Char-denay الفـاخر في باريس للعـزل بعـدما سـار خطوة خطوة على طريق سلفه القـديس برنارد، وجاء خلعـه في المؤتمر الأخير العام للهيئة الرهبانية لطائفة السسترشيان، لكنه كان مثل يوسف، تحمل بصبر حسد أخوته وتعـذيبهم له، لأن الكراهية تهاجم بالعـادة الرجال ذوي المكانة،

وقد اتهم بأنه حصل من البابا على امتياز بعدم جواز حرمانه من مكانته ورتبته، بل ينبغي أن يستمر إلى الأبد رئيسا لرهبان كليرفو، وهو ما كان مضاداً لمبادىء السسترشيان، لكن هذا الاتهام كان زائفا، حسبما تبرهن ذلك بوضوح فيما بعد، وعندما جرى اخبار البابا بحقيقة القضية أمر بإعادته إلى منصبه، وعاقب في الوقت نفسه بشدة الذين اتهموه، هذا ورأى ملك فرنسا، وإن كان صديقا متحمسا وحاميا لطائفة السسترشيان، أنه ستكون هناك فضيحة كبيرة سوف تلحق بتلك الطائفة، إذا ماجرى إلغاء قرار مثل أولئك الأشخاص المتنفذين، ومن ثم إعادة أي واحد خلعوه في المؤتمر العام لهيئتهم الرهبانية، وكتب بهذا الرأي إلى البابا، وحصل على الذي طلبه، وقام ستيفن أيضا برفض إعادة التنصيب، في سبيل أن لايتعرض نفوذ طائفته للأذى، وأعلن أنه تحرر من العبء، ولم يتعرض للاهانة، وأنه الآن أكثر حرية مما كان عليه عندما كان رئيسا على جماعته، حسبما كان من قبل، وأن هذا كان أكثر لصالحه ومنفعته، وهكذا فإنه مع أنه كان عظيماً من قبل، صار الآن عن حق أكثر عظمة.

حول رفض الويلزيين الإقلاع عن الإجراءات الحربية

ومع أن الملك نفسه، وكذلك الايرل رتشارد، حاولا منع أية إعاقة لمحاولة تسوية قضايا المصاعب، ورجوا بتواضع الويلزيين للاقلاع —ولو على الأقل— لبعض الوقت، عن أعمالهم العدوانية والحربية، رفضوا البقاء بهدوء وسلام، لأنهم رأوا أن فصل الشتاء الممطر كان لصالحهم، وأن مواضع مكامنهم هي سهلة الوصول إليها من قبلهم، لكنها كانت صعبة كثيرا ولايمكن النفاذ إليها من قبل الانكليز، ولذلك تابعوا الأعمال العسكرية، وهاجموا غريفين دي برونيت Griffin de Brunet, لأنه طلب حماية الملك، وعندما هرب للالتحاق بالملك، طاردوه عن قرب، وبما أنهم لم يتمكنوا من اعتقاله، اجتاحوا أراضيه

بالنار والسيف، وكـذلك أيضـاً أراضي بعض البـارونات من جيرانه، وكان هناك من هؤلاء الويلزيين عشرة آلاف خيّال مسلح، وعـدد كبير جداً من العساكـر الرجـالة، الذين دخلوا في حلف، وأقسمـوا بجـرأة وإخلاص على الأناجيل بأن يقاتلوا حتى الموت في سبيل حـرية بلادهم وقوانين أجـدادهم، وأعلنوا أنهم يؤثرون الموت بشرف على العيش حياة غير سعيدة في ظل المهـانة، وهذا الموقف الرجـولي والشجاع، يحق له أن يلحق العـار بالانكليز بشكل محق، الانكليـز الذين بكسل وخنوع حنوا رقـابهم إلى الأجـانب، وإلى كل واحـد داس عليهم، وكأنهم رعـاع شريرون، وحثالة الجنس البشري.

وقاحة إدوارد وأتباعه

ولم يشعر ادوارد ولابقليل من الخجل أو الأذى، من ثورة الويلزيين، وكـذلك من شجـاعتهم، وذلك بسبب أنـه كـان يـدعى باسم مـولى الويلزيين، ومع هذا لم يستطع ضبط إجراءاتهم الثورية، وبناء عليه ذهب الابن مـرة ثانية إلى أبيه وأمـه، وكذلك إلى عمـه، وتقدم بالرجـاء إليهم ليمنحوه مساعدة فعالة، لكن الملك كـان مثقلاً بالديون، في مقـاطعات مـاوراء الألب، وقـد أقـرضـه الايرل كثيراً مـن المال، حيث عجل له فأسلفه مبلغ أربعة آلاف مارك، وكانت الملكة قد بددت أموالها بلافائدة وأنفقتها على الحرب ضد تورين، وعلى هذا كـانت موجوداتهم من المال قد تلاشـت إلى حد أنه لم يعد بإمكـانهم مساعدة ادوارد بأية طـريقة من الطرق، ولأن أبناء الملك —حسبما عمت الأخبـار بين النـاس في كل مكان— كـان يسعى لسحق الانكليـز، قـام سكان التخـوم سريّاً بإبداء العاطفـة نحو الويلزيين وتشـاوروا معهم، وكان من الأسبـاب الرئيسية وراء ذلك ان ادوارد احتفظ بخـدمتـه برجـال ألحقـوا الأذى بالكنيسـة والمملكة، وبات أكيـداً وحقيقيـاً أنه لم يكن بين أتبـاع لويس الذي غـزا انكلترا بجرأة ووقـاحـة قطاع الطرق، مثـل الذين احتفظ بهم ادوارد

المذكـور في خـدمتـه وأبقـاهم في بلاطه، ونظراً لأعمالهم الشريرة الكثيرة وأفاعيلهم، أعتقد أنه من المفيد أن نـذكر في هذا الكتاب خبراً من أخبار طغيان ادوارد (وذلك بالاضافة إلى الخبر الذي سلف أن ذكرته من قبل) من أجل أن يرى قـراؤنا في أية متاهة من اليأس غـرقت انكلترا، فعندما كان عـابراً في منطقة آمنة من البلاد، في أيام السلام، قابله شـاب، فأمر ادوارد، من دون امتلاك أية حجة للقتل أو التشويه أعطاه إياها الشاب، بقطع احدى أذنيه، وباقتلاع احدى عينيه، الأمر الذي جرى تنفيذه، مع أن ذلك كـان مضاداً لكل أحكام العـدالة، وعندما شـاهد كثيرون هذا، لابل عندمـا استعادوا إلى ذاكـرتهم الأذى الهائل والدموي الذي اقترفـه بحق أحد النبلاء، عندما كان أصغر سناً مما هو عليه الآن، وقتها شرعوا بمقته، وعلقوا على ذلك متسائلين: «إذا كان هذا قد وقع عندما الشجرة خضراء، مـاالذي يمكن أن نرجـوه عنـدمـا تصبح عجـوزاً وجـافـة»؟، وعلاوة على ذلك استولى أتباعـه على كل شيء كان معروضاً للبيع، دون أن يدفعـوا شيئاً، واستـولوا بالقـوة على الخيـول، وعلى العـربات، وعلى سـائقيهم، وظلمـوا السكان من دون رحمة، وهكـذا تكدست الشرور يومياً فوق الشرور، والخسائر فوق الخسائر.

كيف جرى إرسال وفد من جامعة باريس إلى روما

تزايدت الفضـائح والبغضاء يوميـاً بين المعلمين الباريسيين والرهبـان الدومينيكان، وبعـد كثير من المداولات الكبيرة، اختاروا بعضاً مـن أكثر الأسـاتذة المحاضرين شهـرة، وكان هؤلاء: المعلم وليم دي سينت أمـور Amour, والمعلم أودو أوف دويـا Douai, اللذان كـانـا عضوين في مجلس الجامعة في الآداب، وفي صيـاغة المراسيم البابوية، وفي اللاهوت أخيراً، والمعلم كـرستيـان، وكـان كـاهناً نظاميـاً من بيـوفيـا Beauvais, الذي عدّ عن جـدارة رئيساً للفـلاسفة، وذلك بعـدما كان عضـواً في مجلس الجامعة في الآداب، ومحاضراً في اللاهوت، والمعلم

نيقولا أوف بـار— سور— أوبي Bar- Sur- Aube, الذي كان عضواً في مجلس الجامعـة في الآداب، والقوانين، والمراسيم، وكـان يستعد ليكون محاضراً في اللاهوت، والمعلم جـون دي غيكتافيل Gectaville, وهو انكليزي، كان يدرس علم البـلاغة في الجامعة، والمعلم جون بيلين، وهو فرنسي، وكـان فيلسوفـاً، صاحب سمعـة عاليـة، وعضواً في مجلس الجامعة في الآداب، ولقد جرى اختيـار جميع هؤلاء الرجال، الذين كانوا من أسر مشهـورة، بعد مـداولات عميقة، ومشـاورات كبيرة (لأن الثقة كانت قـد زالت) اختيارهم للذهاب إلى روما، وللتشاور مع البـابا حول الوسائل التي يمكن بها الحفـاظ على سلام جامعـة باريس والهدوء فيها، وحـول كيفية استعـادة الثقة، ولاسيما وأن هذا الشر قـد هدّد بأن يتطور فيصبح أكبر، وقـد جرى جمع المال لتغطيـة نفقات رحلتهم من الجامعـة، وكان الرهبـان الدومينيكان —كما ذكرنا من قبل— يـدرسون، ويعظون، ويعلمون بعض العقائد الجديدة والمتناقضة، كـانوا قد أخذوها من كتاب رئيس الرهبـان واكيم Joachim, الذي كـانت كتاباته قـــد أدينت من قبل البابا غـريغوري، كما أنهم صنفوا أيضاً كتابـاً، قرروا أن يمنحوه العنوان التـالي: «هنا يبدأ الانجيل السرمـدي»، وكان يحتـوي على عقائـد أخرى ليس من اللائق القيام بذكرها، وأرسل الرهبان الدومينيكان أيضاً رسلاً إلى روما بسرعة كبيرة للمرافعة والدفاع عن قضيتهم ضد الجامعة، وللوقـوف في وجه وفـد المعلمين ومعـارضتهم وجـاهياً، وسخـر الناس منهم، وأوقفـــوا دفع صـدقـــاتهم المعتـادة إليهم، وأطلقـــوا عليهم اسم منافقين، وخلفاء المسيح الدجال، ومبشرين زائفين، ومرائين، ومستشاري سـوء للملوك والأمـراء، وخلفـاء مقيتين للمبشرين العـاديين، ومتطفلين مفضوحين على غـرف نوم الملوك، ومتلقين مراوغين للاعترافـات، وهم رجـال تراهـم متشردين في المناطق حيث كـانـوا غير معـروفين، وحيث كانوا يقدمون التشجيع والجرأة للمـذنبين، وبعدما سمع البابا الشكايات من على الجانبين، أمـر بالكتـاب الـذي سمـوه «الانجيل السرمـدي» بأن يحرق بشكل سري، وإذا أمكن من دون إثارة فضيحة وإلحاقها بالرهبان،

وأمر بالشيء نفسه بالنسبة للكتابات الأخرى، التي قيل بأنها صدرت عن نبع واكيم الفاسد، وتمّ تنفيذ هذا بحذر وهدوء وسرية، بفضل حرص ومتابعة الكاردينال هوغ، مع أسقف ميسينا، اللذان انتميا إلى طائفة الدومينيكان، وبذلك هدأ الاضطراب لبعض الوقت.

انفجار مفاجيء من تحت الأرض

وفي حوالي الوقت نفسه، بينما كان بعض العمال يحفرون في أسفل قناة لجر المياه لتنظيفها من الوحول (لأن الماء كان قد توقف عن الجريان) حدث انفجار مفاجيء صدر من تحت الأرض، وقد ترافق مع لهب مشابه لنار الجحيم، تمكن خلال طرفة عين من خنق عدد من العمال، وقتل واحدا منهم على الفور، وأحرق، وشوه، وعطل أعضاء آخرين، أصبحوا عاجزين تماما ومن دون فائدة لأنفسهم بعد ذلك أبدا، وقد كان هناك بعض الذين قالوا بأن هذا الانفجار قد حدث بوساطة معجزة، بسبب أن هؤلاء العمال انشغلوا في عمل ممنوع في ساعة غير موائمة من المساء.

مختصر أخبار العام

وعلى هذا انتهى هذا العام، الذي كان خصبا إلى حد ما في الفواكه والقمح، أما بالنسبة إلى الكنيسة والأساقفة فقد جلب أسوأ أنواع العبودية وأكثرها شرورا، وإلى الفرنسيين الحسد نتيجة لترقية الإيرل رتشارد، وكان عام نهب بالنسبة لانكلترا، وقحطا أو بالحري مؤذيا أكثر مما ينبغي للأرض المقدسة، وقد جلب الحرب إلى ويلز، والاضطراب وانعدام الهدوء إلى سكوتلندا، وكان العام ممطرا وعاصفا فوق الحدود، إلى حد بدا فيه وكأن أيام الطوفان قد تجددت، فمن يوم عيد صعود العذراء المباركة، إلى يوم عيد طهارتها، لم يتوقف المطر عن الهطول بشكل غزير يوميا، مما حوّل الطرقات وجعلها غير قابلة للعبور، وجعل الحقول قاحلة، ولذلك اهترأ القمح وهو في السنابل عند نهاية الخريف.

عام ألف ومائتين وسبع وخمسين

كيف جرى انتخاب الإيرل رتشارد ملكاً لألمانيا

عام ألف ومائتين وسبع وخمسين لتجسيد الرب، الذي هو العام الحادي والأربعين لحكم الملك هنري الثالث، وكان الملك في لندن أيام عيد الميلاد، وهناك كان قد احتشد الايرل رتشارد مع عدد كبير من النبلاء، حيث كان قدم إليه عدد من مقدمي الناس في ألمانيا، وقد أعلنوا بحضورجميع المحتشدين، بأنهم قاموا بموافقة عامة بانتخاب الايرل رتشارد، انتخاباً صحيحاً، ملكاً على ألمانيا، وهم الآن يطلبونه ليكون ملكهم ومولاهم، إذا ماوافق على رغباتهم، وكان رئيس أساقفة كولون، والمستشار الأعلى للامبراطورية المقدسة، وبعض النبلاء الآخرين من ألمانيا، قد بعثوا بوساطة هؤلاء الرسل الخاصين، رسائل موثقة، تحمل بينات حول الاجماع في الانتخاب، وتؤكد ذلك وتثبته، وتعلن أن ما من أحد جرى قط انتخابه إلى ذلك المنصب، بعفوية وبالاجماع مثله الآن، وذلك أمام القليل من العوائق، وعندما كان الجميع في حالة تردد وشك حول ماينبغي عمله بالنسبة لهذه القضية، لأن وجود الايرل كان ضرورياً بالنسبة لمملكة انكلترا، خاطب الملك الجميع وقال: «إنني أنصحكم وأرجوكم أن لاتدعوا الجبن يظهر، بالرفض وبعدم قبول هذا التشريف الذي منح إليكم وقدّم من قبل السماء، وبني البشر»، وفي الوقت الذي عبر فيه بعضهم عن خوفهم، على أساس أنه خلال مدة عدة سنوات قلائل، جرى انتخاب شخصين، ومن ثم جرت ترقيتهما إلى حكم ألمانيا، ثم وصلا إلى نهايتهما بوسائل بشعة، خاطب آخرون الايرل بكلمات مطمئنة، حيث قالوا: «أيها الايرل الأكثر عقلاً وحكمة، لماذا أنت متردد، وكأنك مرعوب من سوء حظ اللاندغريف هنري، أو من الموت البشع للكونت وليم الهولندي؟ إنه ليس البابا هو الذي يقحمك في هذا المنصب بالقوة، بوعدك بما هو ضروري من منهوبات

الكنيسة، ومن سلب الذين حملوا الصليب، الأمر الذي لن يكون مفيدا لك، لأن هذه الأموال التي حصل عليها البابا بشكل غير صحيح، قد أثارت مشاعر الناس، ليس لتقديم الرحمة، بل للغضب، فهناك مبلغ من المال، قد جمع من مملكة ألمانيا، هو محفوظ باخلاص لصالحك ولاستخدامك، كما أن لديك كميات وافرة من المال خاصة بك، وكأنك أوكتافيان آخر، كما أنك مدعوم بأصدقاء ألمان وكذلك انكليز، كما أنك محاط بأقرباء وكأنك محاط بسور، فلاتدع بلادة الرفض أو الجبن تتغلب عليك، وتجعلك كسولاً ومتراخياً، بل تشجع وتمتن لخدمة الرب، ولاتكن مثل روبرت كورتهوز Curthose دوق نورماندي الذي تهيأت له الظروف مرة، عندما كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، حيث عرض عليه بشكل عفوي وبإلهام من السماء لأن يكون ملكاً على مملكة القدس، حتى يتمكن من الحكم على ميراث المسيح، وقد رفض هذا العرض بعناد، فأحس بعد ذلك بغضب الرب الحاد، بسبب هذا الرفض، ولم يواجه قط بعد ذلك أي سعادة أو ازدهار، وقام الملك أيضاً ومعه اخوته، وبشكل خاص الأسقف المنتخب لوينكستر فأعطوه تشجيعاً حيويا لقبول هذا العرض، وأعلن بأن هذا التشريف سوف يرفع من شأن الدولة الانكليزية إلى الأبد، وعند الفراغ من هذا الإعلان، تشجع الايرل وصار رجلا، ولأنه حمل آمالاً عظيمة، قال بصوت متشوق: «وأنا واثق برحمة الرب، ومع أنني ضعيف وغير جدير، أنا على استعداد لأن أتولى بنفسي حمل هذا العبء»، وهذا التشريف الذي منح إليّ، وكذلك أنا آمل، بحق السماء، أن لايقال عني متخاذلا وجبانا»، وأضاف بعدما أدار وجهه نحو الأساقفة الذين كان واحد منهم رتشارد بانغور Bangor (الذي روى هذه الحقائق إلى كاتب هذا الكتاب): «وبالنسبة لي، انني قبل أن أغادر هذه البيعة، لعلني أتعرض للحرق بنار أبدية، وأن أموت ميتا مفاجئا، اذا كنت سأفعل هذا صدورا عن المطمح أو الشره، أو لأي سبب آخر غير تحسين

أوضـاع تلك المملكة، الأمـر الذي أرجـو أن يعطيني الرب القـدرة على فعله، وأن أحكم بكل عـدل، واعتـدال، وشرف، هـؤلاء الذين قـامـوا بشكل عفـوي باختيـاري لأكـون سيـدهم»، وأعطى هذا الخطاب الذي جعل كثيرين يبكون، أعطى السرور الأعظم للرسل الألمان، الذين كانوا حتى الآن شاكين حول قبوله، ولقـد تأكدوا الآن من قبوله، ومن نواياه الطيبة نحوهم، ولذلك انطلقوا عائدين مبتهجين، وأخذوا طريقهم نحو الوطن، لايصـال الخبر حـول ذلك إلى النبـلاء الذين أرسلـوهـم، وقـد تمكنوا من الوصول خلال عشرين يوماً بعد يوم عيد الميلاد.

السبب الذي دعا نبلاء ألمانيا إلى انتخاب الإيرل رتشارد

كـره النبلاء الألمان (الأعظم بينهم هم الـذين جرى ذكـرهم في المقطع التـالي) تجبر الفـرنسيين، وقـد أغضـب أحـدهم الآخـر، وهكذا لم يقع اختيـارهم على أي رجل فـرنسي، أو أي واحـد مـن ذلك الجنس، لأن يحكمهم، كما أنهم لم يرغبوا في اختيار أي واحد من بينهم أنفسهم، بسبب خـلافـاتهم الداخلية، لأن الألمان عنيفين وحـادين، و«كل رجل متفـاخـر سـوف يكون عـديم الصبر في القـاعـة»، كما أنهم لم يختـاروا ايطالي أو روماني، مبتعدين عن أصدقاء البابا بسبب نهمهم الذي لاحدود له، وبناء عليه قـاموا بعـد تداول دقيق وتشاور، فـانتخبوا الايرل رتشـارد، وأيضاً بحكم تكلمـه اللغـة الانكليـزية، التي مشـابهة بالصـوت للألمانيـة، لأنهم يمتلكون أصلا واحداً قـديماً وحديثاً، فالأصل القـديم يمكن اكتشافه من التـواريخ، أما الحديث فيمكن تتبع أثـره في أيامنا من أصل دوق برنويك Brunswick، ودوق سكسـوني، ومن نسب الامبراطور أوتو، الذي كـان ابن امـرأة انكليـزية، أي ابنة هنري، ملك انكلترا، وأنا أقـول: إنهم اختاروا الايرل رتشارد، على أساس اخلاصـه، وثباته، وحكمته، وكذلك أيضا على أساس ثروته، ولذلك قـال أحد الشعراء الهجائين «المال يصرخ ويقول من أجل خاطري، تزوج كورنوول Cornwall من روما».

قائمة بأسماء مقدمي ألمانيا

فيما يلي أسماء مقدمي ألمانيا الذين عليهم يعتمد انتخاب ملك تلك المملكة، التي هي كما هو معروف خاضعة للامبراطورية الرومانية: رئيس أساقفة كولون، الذي لقبه هو المستشار العالي للامبراطورية الرومانية المقدسة»، ولكن هذا اللقب هو أدنى مكانة من لقب رئيس الأساقفة، ورئيس أساقفة مينس Mayence ورئيس أساقفة تريفي Treves, وملك بوهيميا، والكونت الملكي للراين، ودوق النمسا، ودوق سوابيا، وكونت بافاريا، ودوق بولاندا، ومركيز مايخ Miche, ومركيز براندنبيرغ Brandenburg, ودوق سكسوني، ودوق برونويك، ودوق كارينثايا Carinthia, ودوق ميلاي Melaye ودوق برابانت ولوفين Louvaine, ولاندغريف ثورونجيا، ومركيز مايس Mise, وبين جميع هؤلاء النبلاء، الأكثر تميزاً والأعلى مكانة هو رئيس أساقفة كولون، الذي كان مكلفاً بموجب عرف قديم مقرر، أن يتولى تتويج ملك ألمانيا في اكس لى شابيل.

كيف أرسل الإيرل رتشارد بعض الأشخاص الموثوقين إلى ألمانيا ليتعرفوا على نزعات النبلاء

وكان ايرل غلوستر وجون مانسيل رجلين حكيمين ولهما نفوذهما، ذلك أرسلا مسبقاً باسم الايرل، إلى ألمانيا، ليكتشفا الرغبات الصافية وغير المشوبة للنبلاء حول القضية المذكورة أعلاه، وقد وجد هذان المندوبان أن كل شيء كان مناسباً، وأن قلوب مقدمي تلك البلاد، وكذلك نزعاتهم واخلاصهم هي للايرل، حتى أنهم أقسموا على الفور بتقديم الولاء والاخلاص له، وجرى تسليم مفاتيح بعض المدن والقلاع إلى هذين الرسولين.

كيف وضع الفرنسيون الذين كرهوا الألمان خططاً لاعتقال الرسل

وعندما علم الفرنسيون بهذه الحقائق بدأوا يشعرون بخوف كبير، من أنه إذا مانجح الايرل رتشارد في الحصول على عرش ألمانيا، حسبما كان الطريق آنذاك مفتوحاً له، سوف يلحق الأذى بمملكتهم، وذلك بالمطالبة ومن ثم استرداد حقوق ملك انكلترا، ولذلك وضعوا خططاً للايقاع بالايرل رتشارد وبرسله واعتقالهم، وسعوا إلى اضعاف عزيمة وقرار بعض نبلاء ألمانيا، بالخضوع إلى الايرل المذكور، وبذلك خيل إليهم أنهم سوف يعيقون جزئياً أو كلياً ترقيته إل ذلك المنصب السامي، ولكن بفضل الرب، وقف الألمان بثبات أعظم إلى جانب الايرل في تلك المسألة، وذلك بسبب الكراهية التي كانت قائمة بين الفرنسيين والألمان، ولأنها كانت متجذرة، كان الذي لايرضي الفئة الأولى، كان يعتقد أنه مفيد للفئة الثانية، وعندما اكتشف الفرنسيون نتيجة محاولتهم، أخذوا وهم حزينون يواسي أحدهم الآخر.

كيف واسى الفرنسيون أحدهم الآخر

كان الامبراطور أوتو رجلاً عظيم الشجاعة في الحرب، وغنياً بوساطة أموال ملك انكلترا، وهو قد جاء من أصل مختلط انكليزي— ألماني، وعندما ارتقى إلى تسلم الامبراطورية الألمانية هدّد نبلاء مملكة فرنسا، وبسبب ذلك أحيطت باريس بسور، ولذلك هو لم ينجح، ومجدداً قام فردريك الذي كان أغنى أباطرة الرومان وأكثرهم قوة، والذي كان أيضاً أكثر ملوك الأرض دهاء، بالدخول في تحالف مع ملك انكلترا، حيث أنه تزوج من أخته، وأنفق أمواله في سبيل تدمير المملكة الفرنسية، لكنه لم ينجح في محاولاته التي وعد فيها بتقديم العون لملك انكلترا، هذا ولقد كانت قدرة الايرل رتشارد أدنى كثيراً وأقل إخافة بالنسبة لنا، لأنه كان

جبانا وبليهاً، وعديم الخبرة في شؤون الحرب، وحتى الآن قدم الرب العون إلينا، وبفضل وساطة وعون القديسين العائدين لهذه المملكة نحن دوما منتعشين تحت حماية جناحيه، وإذا كنا في الأرض المقدسة، حيث قاتلنا مؤخراً في سبيل الرب وفي خدمة الكنيسة، قد عانينا من الكوارث المضاعفة بسبب ذنوبنا، فإنه مع ذلك وهو في غضبه سوف يتذكرنا برحمته.

كيف قام الملك الفرنسي بجولة في نورماندي وفي المقاطعات الحدودية

اتخذ الملك الفرنسي —على كل حال— احتياطات من أجل المستقبل، وقام بجولة في نورماندي في حدود مملكته، لتشجيع قلوب الذين كانوا يرتجفون ولتقوية دفاعات المدن والبلدات وترميمها، وقد طمأن نبلاءه وشجعهم، وخاصة الذين ندعوهم النظراء الاثني عشر لفرنسا، ومثلما قدمنا أعلاه قائمة بأسماء مقدمي الناس في ألمانيا، الذين عليهم يعتمد انتخاب الملك، أعتقد أنه لن يكون غريبا على موضوع هذا الكتاب تقديم قائمة بأسماء النبلاء الفرنسيين، خاصة أولئك الذين تتعلق بهم إدارة الأمور الصعبة، المتعلقة بالمملكة الفرنسية.

النظراء اللاهوتيون لفرنسا

رئيس أساقفة الرايم، وهو الذي يتولى مسح الملك الفرنسي بالميرون المقدس (ولهذا السبب يعد الملك الفرنسي هو الأكثر عظمة بين جميع الملوك)، ولذلك هو المقدم، والأكثر تميزا بين جميع نظراء فرنسا، وأسقف نويون Noyon, الذي هو كونت ملكي، وأسقف بوفيا Beauvais, الذي هو أيضا كونت ملكي، وأسقف تشالون Chalons, وأسقف لانغري Langres, الذي وإن كان فقيراً يحتل مرتبة عالية، وأسقف ليون، الذي هو دوق وكونت بفضل القديس ريمي، لأن إليه نزل الميراث الشهير.

النظراء العلمانيون

كان الأول بين النظراء العلمانيين والأعلى مرتبة هو دوق نورماندي الذي هو كذلك ملك انكلترا، فهو دوق لنورماندي بموجب حق النسب، وهو ملك بحكم الاستيلاء والغلبة، ولقد روي —على كل حال— بأن القديس ادوارد كان من دون وريث، فمنح مملكته إلى وليم النغل، دوق نورماندي، لكن هذه المنحة كانت باطلة لأنه عملها وهو على فراش موته، من دون موافقة باروناته: دوق أوف أكوتين، ودوق أوف بيرغندي، وكونت أوف فلاندرز، وكونت شامبين، وكونت طولوز، الذي يعرف أيضاً باسم صنجيل (سينت جايل).

سقوط أمطار غير اعتيادية والرعود أثناء الشتاء

في يوم عيد الأبرياء في هذا العام، سقطت كميات من المطر بلغت حداً أنها غطت وجه الأرض، وبدا الأمر وكأن أيام الطوفان قد تجددت، وبدت الأخاديد وكأنها تشبه كهوفاً أو أنهاراً، وغطت الأنهار المروج وجميع المنطقة المجاورة، ولذلك أعطت مظهر بحر من البحار، هذا ومن وصفنا لإحدى الحالات يمكننا فهم الحالات الأخرى، وهكذا يمكنني أن أذكر أن واحداً من الأنهار في المناطق الشمالية من انكلترا جرف سبعة جسور كبيرة من الخشب والحجارة، وتم أيضاً جرف الطواحين والبيوت المجاورة وكان ذلك بسبب طوفان مياه الجداول الصغيرة، وفي اليوم المتقدم الذكر أيضاً كانت هناك زوبعة حادة جداً، ترافقت مع عاصفة برد عنيفة، أحدثت اضطراباً في الأنواء، وحجبت السماء بالظلام، حتى صارت مثل ظلام الليل، وتجمعت الغيوم مع بعضها، ومنها اندفع البرق بلمعان مخيف، تبعه تصادم للصواعق، ومن الواضح أن هذه الصواعق كانت بشائر شر، لأنها حدثت في منتصف الشتاء وكان البرد معادلاً لما يأتي عادة ويشعر به في شباط، وتبع هذا المناخ مناخاً كثيفاً ليس في أوانه، وقد استمر لمدة ثلاثة أشهر.

إحصاء ثروة الإيرل رتشارد

وفي حوالي الوقت نفسه عمل تقـدير لثروة الايرل رتشارد، فتبين أنها وصلت إلى مبلغ كبير وصل حـداً أنه كان بإمكانه أن يدفع مـائة مـارك يوميـاً لمدة عشرة أعـوام، وذلك من دون أن ندخل الزيـادة اليـوميـة للأرباح التي كانت تأتيه من موارده في انكلترا وألمانيا.

اكتشاف ضريح القديس ألبان

ظهـرت في هذا العام بعض التصـدعات والشقـوق في الجزء الشرقي من كنيسـة القديس ألبـان، ونظراً للمخاوف التي شعـر بها بأن الجدران سوف تسقط، قرر رئيس الرهبان مع رهبان الدير ترميم الأجزاء المهدمة في أيام الاحتفـال بعيد ميـلاد ربنا، وعندمـا كان عمال الحجـارة يعملون بمعاولهم فوق البلاط، شعـروا من قرع أصوات أدواتهم، ومن أصوات خطواتهم، أن هناك شيئاً ليس عـادياً وليس معروفاً مخفيـاً تحتهم، ولدى تفحصهم على عمق أكبر، وجـدوا تحت الأرض، لكـن ليس على عمق كبير ضريحاً حجـرياً، مبنـي بشكل جميل، في بقعـة بين مـذبـح القـديس أوسـوين Oswin, حيث يجري بالعـادة ممارسـة القـداس الصبـاحي، ومـذبـح القـديس وولستـان Wulstan حيث كـان موجـوداً صورة نعش قديم، وضريح من الرخام مع أعمـدة من الرخام أيضـاً، وقـد قيل بأن هذا كـان الضريح القـديم ومكان الدفن للقـديس ألبان، ففي هذا الضريح الفخم كـان القديس ألبان قـد جرى دفنه بكل تشريف، وكـان ذلك في اليوم نفسـه الذي قطع به رأسـه، والذين تولوا دفنه هـم أصـدقاؤه، وأقـرباؤه، وتلاميـذه، مع أن مراسيم الدفن جـرت بصـورة سرية، وأثناء الليـل، خـوفـاً من الوثنيين، فإلى هنـا نزل الضـوء السماوي وظهـرت الملائكة وهي تنـزل وتصعـد، وهـي تغني كلمات الترنيمـة التاليـة: «ألبان الشهيـد اللامع هو الآن في مجد»، وعثـر في هذا الضريح على ورقـة من الرصـاص، كـان عليهـا محفوراً، وفقـاً لعـادات

القـدمـاء ومنقـوشاً الكلمات التـاليـة: «عشر في هذا الضريح على جسـد القديس ألبـان المقدم الرئيسي لانكلترا»، وحدثت هذه الواقعـة في ثمانية القـديـس اسطفـان، بحضــور السيـد أسقف بـانغــر Banger, ورئيس الرهبان جـون، وفيليب أوف شيستر، والمستشار الرئيسي للايرل رتشارد، وبعض النبلاء من حاشيـة وليم أوف بلنسية، أخو الملك لأمه، مع جميع رهبان الدير، وعدد كبير مـن المسيحيين الآخرين، الذين جرى الإعـلان لهم عن الاكتشـاف بشكل مهيب، ومنح الأسقف غفـراناً لمدة خمسة عشر يومـاً إلى جميع الذين شرفوا الاكتشاف بحضـورهم، ومالبث بعد ذلك أن قدم رئيس أساقفة يورك إلى هناك لتقديم صلواته.

عدد الأعوام التي انقضت منذ آلام القديس ألبان

ينبغي أن يكون معلوماً أنه عندما وقعت هذه الوقائع، كان قد مضى تسعمائة وسبعين عامـاً، يعني أن تقول أن الأمر احتاج إلى ثـلاثين عاماً، حتى يكون العدد ألفاً.

موت بعض النبلاء

ولكي لايمضي احتفـال العـالم من دون الامتـزاج بالأسف، مـات في هذه الآونة، أي أن تقول في أيام عيـد الميلاد رئيس رهبـان دير القديس ادموند، ومات آنذاك أيضــاً في مقتبل الحياة روبرت كوينسي Quincy, الذي أسف عليـه كثيراً، ومـات أيضـاً وليم صـاحب السيف الطويل، وألأن دي واتساند، كـاهن الملك ورجل العدالة، كما مات كـذلك جون أوف لكسنغتون، وروجر بيغـود، وأصيب ايرل ميرشال Mareschal بوجع مميت، فهؤلاء جميعاً كانوا قد ميزوا أنفسهم في المبارزات في بلاي Blie, وكانوا قـد أرهقوا أنفسهم إلى درجـة تجاوزت قواهم، حتى وصل بهم الأمـر أن أعصاب مفـاصلهم قـد ارتخت، ولذلك لم يستردوا صحتهم بعـد ذلك أبداً بشكل تام، ولذلك مات كثير منهم، وتمّ انقـاذ

الايرل روجر بصعوبة كبيرة من بين فكي الموت، وجرى اختيار سيمون أوف ليوتون Luiton، رئيس الرهبان الحسن التجربة في دير القديس ادموند، رئيساً لرهبانية ذلك الدير.

كيف جرى جمع رؤساء رهبان طائفة السسترشيان بناء على أمر ملكي

في أيام عيد غطاس مولانا، قام الملك مع قليل من الاهتمام بالأمطار الثقيلة، وبعنف الرياح، وبفيضانات الأنهار، وبالمتاعب والاضطرابات التي قد تقع، فدعا رؤساء رهبان طائفة السسترشيان للاجتماع في لندن، لسماع أوامره الملكية، ولذلك جاءوا، وكأنهم قد أرغموا على فعل ذلك، مع أنهم تعرضوا للارهاق بتعاسة، وكانوا بلا أمل بالرحمة، وبعدما مثلوا أمام الملك، طلب منهم على الفور وبإلحاح تقديم مساعدة مالية وصلت إلى مبلغ كبير، وعلى هذا الطلب، أجابوه بالاجماع وكأنهم قد صدروا عن روح واحدة، وقالوا بأنهم لن يفعلوا ولن يستطيعوا من دون الموافقة العامة لهيئتهم الرهبانية العامة، أو على الأقل من دون الموافقة العامة لجميع رؤساء رهبان طائفة السسترشيان في انكلترا، الذين لم يكونوا آنذاك موجودين.

ولأنهم غادروا من دون تثبيت يوم يمكن أن يجتمعوا فيه مع بعضهم، أعطى الملك وهو غاضب جداً أمراً بعدم ابداء الرضا وتقديم الخدمات لرؤساء الرهبان السسترشيان، فزاد منح أذناً ضمنياً، إلى عمد المناطق، وإلى المسؤولين عن الغابات، وإلى الوكلاء الملكيين الآخرين (الذين كانوا جاهزين بما فيه الكفاية للقيام بالاستخراجات من دون أوامر الملك)، وشجعهم على ايذاء رؤساء رهبان طائفة السسترشيان وارهاقهم في المناطق المجاورة لهم، وبموجب أية ذريعة يمكنهم اختراعها.

موت بعض النبلاء

وفي حوالي أيام عيد الغطاس، مات ألان دي وورسانت Warsant, وكان كاهناً خاصاً بالملك ومن رجال العدالة، وكان قد تخلى مؤخراً وهو سعيد عن هذا المنصب الأخير قبل موته، ومات كذلك جون أوف ليكسنغتون، وكان شاباً وسيماً، وفارساً فصيحاً ومتعلماً، وهو بسبب علمه كان من قبل الحافظ للختم الملكي ومستشاراً خاصاً للملك، وكذلك مات جون الكاهن النظامي ورئيس رهبان نيوبري، وهو الذي كان من قبل قسيساً لجون مانسيل، وقد ارتقى إلى مثل هذا المنصب العالي، حيث لم يكن فقط رئيس رهبان دير نيوبري، بل كان مستشاراً سرياً للملك، ورسولاً إلى الأمراء المجاورين، لكنه تطلع الآن نحو المناصب الأسقفية، وفي هذه الآونة أيضاً عاد رئيس رهبان دير ويستمنستر، والأسقف المنتخب لكنيسة سالسبري، من بلاط روما، ومثل ذلك فعل بعض الأشخاص الآخرين ذوي المراتب والنفوذ، وكان هؤلاء جميعاً —حسبما تبرهن من النتائج— قد ذهبوا إلى بلاط روما برسائل شفوية غير مجدية تعلقت بمملكة أبوليا وصقلية، وقد تعرضوا لمخاطر كبيرة على الطريق، وجاء ذلك من كمائن الفرنسيين.

كيف رفض الملك قبول الأسقف المنتخب لإيلاي

وفي حوالي الوقت نفسه انتخب رهبان إيلاي بشكل صحيح نائب رئيس رهبانهم، وكان رجلاً مستقيماً وغير مذموم، ليكون أسقفاً لإيلاي، وراعياً لأرواحهم، وبذلك رفضوا الاستجابة لرغبات الملك الذي حثهم بالتماساته بكل رسائله وبوساطة رسل خاصين، وحرضهم على انتخاب رجل آخر، وبناء عليه غضب الملك غضباً شديداً، فعهد بالمسؤولية عن الكنيسة إلى جون ويلران، فكان بذلك كمن عهد بالحمل إلى ذئب جائع، فقام على الفور بقطع أشجار غابتهم، وأفقر المعتمدين عليهم، وآذى الرهبان أنفسهم إلى درجة أن جميع الخوف من الرب

والاحترام للقديسين، قد اختفت بالداخل، وكل شيء بات عرضة للخطر وللدماء، ونزلت الكنيسة إلى أدنى أوضاع العبودية، وباتت مهيأة لهجمات الغزاة النهابين.

كيف جرى إرسال رسل خاصين إلى الملك الفرنسي

وفي عيد تحول القديس بولص إلى المسيحية، جرى ارسال الأسقف المنتخب لوينكستر، والفارس جون غيتسدن، Gatesden, وبطرس دي أوريفالي Orivalles, باسم ملك انكلترا إلى الملك الفرنسي من أجل تمديد الهدنة المعقودة، لكن ماالذي عمل في القضية لم يظهر بعد.

كيف حصل الأسقف المنتخب لسالسبري على إذن بالاحتفاظ بموارده الماضية

وبعدما عاد المعلم جايل أوف برايدلفورد Bridleford الأسقف المنتخب لسالسبري من بلاط روما جعل الجميع يعرفون بأنه حصل على اذن من روما بالاحتفاظ بموارده الماضية وبعمادته، التي منها كان قد تنشق الرائحة الطيبة، وقد عدّ هذا شيئاً جديداً، لكن غالباً ماسمح به، بالنظر للمكافآت التي عملت، ولذلك لم يسبب مفاجأة لأحد.

الوصاية التي منحت إلى الملكة

وحوالي الوقت نفسه منحت الوصاية على الأرض التي كانت عائدة من قبل إلى وليم كانتلوب Canteloup, والتي كانت ممنوحة من قبل إلى ادوارد، إلى الملكة، ومثل ذلك أيضاً الوصاية على الأرض التي كانت عائدة إلى وليم صاحب السيف الطويل، وبناء عليه فإن الوكلاء الذين كانوا معينين تحت أخو وليم امتلكوا الجرأة والوقاحة،

لأنهم أصبحوا تحت حماية مثل هذه السيدة ذات المنصب السامي، ومارسوا لذلك ظلماً هائلاً على جيرانهم، حيث وصل الأمر حداً أن آلامهم أسالت الدموع من أعين حتى أعدائهم.

طائفة رهبانية جديدة

ظهرت الآن في لندن طائفة رهبانية جديدة، لم تكن حتى الآن معروفة، وأظهرت على الملأ ترخيصاً بابوياً، مماسبب الاضطراب إلى عدد كبير من الطوائف القديمة.

كيف جرى تعيين مواطن من بريشيا في محل الشيخ برانكليون

بعدما جرت استقالة الشيخ برانكليون من منصبه، تم تعيين مواطن من بريشيا Breschia في مكانه، وقد سار بشكل موثوق على طريق سلفه في تنفيذ العدالة، ومارس واجبات منصبه بنشاط مماثل.

انتخاب روجر دي مولند لأسقفية شيستر

وفي هذا العام أيضاً، قام الأسقف روجر أوف ويستهام بالاستقالة من منصبه، نتيجة لتقدمه في السن ولضعفه الجسدي، فانتخب رهبان الدير أسقفاً لهم وراعياً لنفوسهم المعلم روجر دي مولند Molend, وكان حفيداً للملك، ولذلك قبله الملك، ووافق على انتخابه كما ينبغي، لأنه ما كان في حال الأمانة يمكنه رفضه، مثلما فعل بالعادة في حالات الآخرين، وعلاوة على ذلك التمس من الرهبان الديريين انتخاب خازنه فيليب لوفل Lovel, ولذلك قاموا بناء على تحريض من الايرل رتشارد بانتخاب المعلم روجر المتقدم ذكره، الذي إليه مال الملك وعطف عليه، لأنه كان علاوة على ذلك حفيده.

كيف ازداد الويلزيون يومياً بالعدد والقوة

وفي هذه الآونة نقل الويلزيون النار والقتل إلى داخل المقاطعات

الويلزية الـواقعـة على حـدود انكلترا، ووافقهم الحظ، حيث أرغمـوا الانكليز على التراجع، كما أنهم طردوا من بلادهم واحـداً اسمه غريفين دي برونيت، وكان رجلاً صـاحب نفوذ، ومن أصل نبيل، وكان ويلزي المولد والأسرة واللغـة، ونهبوا جميع أراضيـه، التي كـانت غنية وواسعـة وعاملوها بالنار والسيف، وكـان سبب جميع هذه الأضرار التي لايمكن تعويضها وحشية الطغيـان، والنهم الذي لايشبع لغيوفري لانغلي، الذي ظلـم الويلـزيين حتى قـــالـوا أخيراً أنهم يؤثـرون الموت بشرف على الاستمـرار بحيـاتهم المهـانـة في ظل مثل ذلك الظلم والعبـودية، هذا وعندما جرى انتخـاب الايرل ملكاً لألمانيا كتب بلغة ودودة إلى للويلين Llewellyn وإلى المقـدمين الآخرين للجيش الويلزي، يرجـوهم، الاقـلاع عن غـاراتهم العـدوانيـة في سبيل هـدوء المملكة، وخشيـة أن يتزعج ويعاق في إجراءاته، وبالتـالي ينمنع من مغادرة المملكة، وعلى كل حـال عنّدمـا رأى الويلـزيون أن الفصل المطر مـوافق لخططهم، وأن الطرق قد أصبحت غير ممكنة العبـور عبر المستنقعات، رفضـوا الاقلاع عن هجماتهم، ولذلك أرهقـوا أعـداءهم بنشاط أكبر، وقسمـوا جيشهم إلى قسمين، بسبب كثـرة العـدد، حتى يتمكنوا بـذلك بسهـولة أكبر من الحصول على المؤن، ووصل تعداد هذين القسمين إلى ثلاثين ألف رجل، مسلحين حسب عـادات بلادهم، وكـان بينهم خمسمائة فـارس مسلحين بشكل جيـد، ويمتطـون على خيـول مغطاة بالدروع، ولـذلك اشتكى ادوارد إلى أبيـه من أعمال الوقـاحـة من جـانب الويلزيين، ويقـال بأن الملك أعطاه الجواب التـالي: «مـاشـأني بهذا؟ إن الأرض هي أرضك بمـوجب أعطيـة مني، ابذل غـاية جهدك للمـرة الأولى، واعمل شهـرة لنفسك في شبـابك، حتى يمكن لأعـدائك أن يخافـوا منك بالنسبـة للمستقبل، أما بالنسبـة لي فأنا مشغول بأعمال أخـرى»، وهكذا تعرضت انكلترا للظلم بالاضطرابات المتنوعة الأشكال من جميع الجوانب.

حول وصوع رئيس أساقفة مسينا والسلطات التي كانت ممنوحة له

وجرى في هذا العام، عند حلول موعد الصوم الكبير، ارسال رئيس أساقفة مسينا من قبل البابا (لأي سبب لم يكن معروفاً)، ووصلت معه حاشية كبيرة من رهبان طائفة الدومينيكان، يمتطون على الخيول، وبحكم حمله لرسائل من البابا تخوله أن يفرض وأن يتسلم المساعدات المالية، كان بإمكانه انزال عقوبات ثقيلة على جميع المتذمرين والمعارضين، وبناء عليه بعث برسالة سلطوية إلى كل واحد من الأساقفة، يأمرهم بتزويدهم بالمساعدات المالية، وفق مبالغ جرى تحديدها من قبله، فقد استخرج من دير القديس ألبان ومن الديرة المعتمدة عليه مبلغ إحدى وعشرين ماركاً، كما أن رهبان دير القديس ألبان قد ذهبوا إلى زيارته في مقر اقامته بكل لطف وتواضع، غير أنه لم يسمح لهم بالمغادرة، بل احتفظ بهم مثل سجناء، حتى يرغمهم على اشباع مطالبه الشرهة، وعندما أجابه الرهبان بتواضع بأنهم لايملكون بنساً معهم، ردّ عليهم رئيس الأساقفة الغاضب بصلف: «لماذا أنتم متسولين هكذا؟ أرسلوا وراء بعض التجار الذين سوف يقرضونكم بعض المال»، وهذا مافعلوه، لأنهم كانوا مرغمين، لأنه لم يكن مسموحاً لأولئك الرهبان بمغادرة البيت، مع أنهم كانوا الرهبان المنتخبين للدير، فهم كانوا: رئيس شمامسة كنيسة القديس ألبان، وجون حامل ختم رئيس الرهبان وممثله، وكان رئيس أساقفة مسينا هذا راهباً في طائفة الدومينيكان، نحن أملنا أن نجد فيه تواضعاً أكثر مما أبداه، وكان حصل من البابا على الرسالة التالية التي تخوله استخراج المساعدات المالية:

«من الراهب جون الذي هو بفضل رحمة الرب رئيس أساقفة مسينا، إلى إخوانه المحبوبين كثيراً في المسيح رئيس الرهبان، والجماعة الرهبانية لدير القديس ألبان، في أبرشية لنكولن، تحيات في الرب. اعلموا.. إلخ

(لأن بقية الرسالة موجولة في كتاب Additaments).

وجرى في الوقت نفسه توجيه رسالة بليغة باسم البابا إلى ملك انكلترا، تحثه على اصلاح أخطائه المعتادة، وجاءت هذه الإشارة الأخيرة بسبب توسل لورانس أسقف روكستر، الذي عانى من كثير من الأذى على يدي بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، لأن رئيس الأساقفة هذا قام وهو مسلح بقوة علمانية، فهاجم بالقوة، وقاتل ممتلكات تلك الكنيسة، التي كان بالحري ملزماً بالدفاع عنها وحمايتها، وأظهر رئيس الأساقفة الجرأة وأبدا الوقاحة والصلف لأنه كان محمياً من قبل الملك والملكة، وكذلك من قبل جميع شيعة الملك وأعوانه، لأنه كان عم الملكة، وعلاوة على ذلك كان أسقف روكستر المتقدم الذكر قد عانى من دمار لايعوض حلّ برئاسة أساقفة يورك، وألحقه بها أسقفية إيلاي، ومن مثل ذلك من الأضرار غير الاعتيادية التي لحقت بالكنائس الشاغرة على يدي الملك، الذي وضع جانباً كل احترام للمسيح، وعامل مفاتيح الكنيسة بالاستخفاف والتحدي، ورأى الأسقف المذكور أن خطراً مماثلاً كان معلقاً فوق أسقفيته ومحيقاً بها، في حال التخلي عن منصبه والاستقالة منه أو موته، وكانت محتويات الرسالة التي حصل عليها الأسقف المذكور، الذي انتظر في روما طويلاً من أجل الحصول عليها هي كما يلي:

«من الاسكندر، أسقف، إلخ، إلى ملك انكلترا اللامع، إلخ، إنه فيما يتعلق بأعمالك أيها المحبوب كثيراً»، (من أجل البقية انظر كتاب Ad-ditaments عند علامة السهمين المتصالبين).

موت بعض الأساقفة والنبلاء

في التاسع من شباط في هذا العام مات روبرت أوف هارتفورد Hartford, عميد كنيسة سالسبري وكان صاحب ذكرى طيبة،

ومتقدماً كثيراً في السنين، وأكثر تقدماً بالأخلاق، ومتقدماً فوق كل شيء بالمعرفة، وهو كما نعتقد كان بسبب فضائله المتفوقة، صديقاً خاصاً للمخلص، كما مات أيضاً رالف فتز- نيقولا، قهرمان الملك، ووليم دي ماندفيل Mandeville, وكانا معاً من النبلاء المتميزين، ومات أيضاً رتشارد أسقف اكستير Exeter.

زواج بلدوين إيرل ديفون من سافوينية

بناء على تحريض من الملكة، تزوج بلدوين دي ريفر Rivers من سيدة أجنبية، كانت من سافوي، وقريبة للملكة، وكانت كونتية ديفون Devon عائدة إلى بلدوين، وهكذا فإن الممتلكات الفاخرة ومواريث الانكليز قد تحولت يومياً إلى الأجانب، وهذه حقيقة إما لم يعرفها الانكليز الجبناء أو تظاهروا بعدم معرفتها، وقد تعرضت فسولتهم وسذاجتهم التامة إلى النقد من قبل الويلزيين الشجعان والأبطال.

المنح الكثيرة التي قدمها الملك إلى كنيسة القديس ألبان

وفي الثالث من أيار في هذا العام ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان، وعمل تقديمات عند المذبح الكبير، تألفت من طوق جميل جداً مع مشبكين، وسلسلة صليب، وكذلك بعض الخواتم الثمينة، أما عند مذبح القديس أمفيبالوس Amphibalus, في المكان نفسه، فقدم أيضاً كأساً مذهباً من الفضة حتى يوضع فيه الرماد الذي تمّ العثور عليه مؤخراً في الضريح الذي ذكرناه أعلاه، وكذلك ست قطع من الأقمشة الحريرية، واحدة منها عينها لتغطية الضريح المتقدم ذكره، والثانية لتغطية ضريحي الناسكين روجر وسيغارد، كما أنه دفع بعض المال لترميم التابوت، ومدّد إقامته في ذلك المكان لمدة أسبوع، وبما أن كاتب هذا الكتاب كان مرافقه الدائم في الأماكن وعند المائدة، وفي قاعته، فقد أملى عليه بعناية ودماثة أشياء كثيرة، وفي أثناء المحادثات،

كانت هناك إشارات متوالية إلى أخيه الايرل رتشارد، كما أنه ذكر النبلاء بالاسم الذين عليهم يعتمد الانتخاب، الأمر الذي جرى ادخاله في الجزء المتقدم من الكتاب، كما أنه ذكر أسماء جميع الملوك المقدسين لانكلترا، الذين جرى تطويبهم، وفي سبيل أن لاتكون هذه الشخصية العظيمة قد تعبت من دون فائدة في املاء هذه المسائل قمنا بتدوين أسماء هؤلاء القديسين في هذا الكتاب.

أسماء الملوك القديسين لإنكلترا

ألبيرت، وادوارد الشهيد، وكينيلم Kenelm, وأوسوولد، وأوسوين، ونيثان Neithan, وويستان Wistan, وفروموند Fromund, وأدوولف Edwulf, وادموند، وادوارد، وذكر الملك وعدد بالاسم جميع بارونات انكلترا الذي حضروا في ذاكرته، واكتشف أن عددهم قد وصل إلى مائتين وخمسين، لكن دعونا الآن نعود إلى موضوعنا ونتابع تاريخنا.

اضطرابات في جامعة اكسفورد

في التاسع من آذار في هذا العام، ذهب تسعة معلمين للعلوم العقلية في اكسفورد إلى كنيسة القديس ألبان، وقدموا في بيعة القديس أوسوين شكوى إلى الملك ضد أسقف لنكولن الذي كان يسعى للاعتداء على امتيازات المدارس، متجاوزاً ومضاداً للمبادىء القديمة المقررة للجامعة، وبناء عليه جرى تعيين يوم لسماع الأسقف وهو يرد على هذه الشكاوي، وكان ذلك لدى اقتراب موعد عقد برلمان كبير، وذلك من أجل سماع حجج الفريقين، وتأسيس سلام بين الجماعتين، وفي ذلك اليوم نفسه، قال الراهب الذي كتب هذا الكتاب بشكل سري إلى الملك: «ياصاحب الجلالة، بحق اسم الرب، انتبه للكنيسة المتأرجحة المترنحة، لأن الجامعة، التي هي الحاضنة والسيدة لعدد كبير جداً من الأساقفة المقدسين قد

اضطربت إلى أبعد الحدود، وإذا ماتعرضت جامعة اكسفورد، التي هي المدرسة الثانية للكنيسة، لابل بالحري الأساس لها، للاضطراب، من المتوقع بالطريقة نفسها، وبالوقت نفسه، ومن المخشي منه أن الكنيسة كلها سوف تتدمر»، وعلى هذا الكلام أجاب قائلاً: «لاسمح الرب أن يكون الأمر كذلك، على الأقل في أيامي كلها».

عودة رئيس رهبان دير ويستمنستر مع أصحابه من بلاط روما

في يوم عيد القديس بريسكا Prisca, في هذا العام، عاد رئيس رهبان دير ويستمنستر والأسقف المنتخب لسالسبري من بلاط روما، بعدما عانيا من كثير من الأذى، وتعرضا لمخاطر كبيرة من مكائد خصومهما، لأنه لعبور الألب، الأمر الذي فعلاه في سبيل قضاء أعمال للملك، كان معناه أنه توجب عليهما المرور عبر فرنسا، حيث عانيا من أعظم الخسائر، وأثناء تلك الرحلة مات واحد من أصحاب رئيس الرهبان، وكان اسمه هنري دي مير Mer, وكان من رجال العدالة المتجولين التابعين للملك، مات ومضى ليقطف ثمار أعماله، وفقد رئيس الرهبان أيضاً آخرين من حاشيته أثناء الرحلة.

كيف جرى نهب ممتلكات أسقفية إيلاي

وتعرضت في الوقت نفسه، الأراضي والغابات، والبلدات في أسقفية إيلاي إلى مخاطر كبيرة جداً، فقد جرى قطع الغابات، وتجفيف البحيرات بفتح أقنية، ونهبت الأسماك، وتم الاستيلاء على الحيوانات وهي في الحدائق، وهكذا وضع كل الخوف من الرب، ومن القديس ايثلرد Ethelred, جانباً، وفرضت الضرائب على أفراد شعب الأسقفية، وتعرضوا للأذى بطرق متنوعة، وكان ذلك على أيدي الوكلاء الأخساء للملك وجباته، وفي الوقت الذي كان فيه الأسقف المنتخب ورهبان الدير كلهم أمل في أن يصغى إليهم من قبل الملك في اليوم المحدد، أصبح

الملك عدوهم المعلن، مفضلاً الوقوف ضد الأسقف المنتخب، وكان هذا كافياً لإثارة مشاعر الاستغراب والفضيحة في نفس كل واحد، وكان السبب الرئيسي وراء هذه التهم هو التالي: «كانت جزيرة إيلاي منذ العصور القديمة حصناً ومكاناً للالتجاء لعدد كبير جداً من الذين عانوا من الأضرار في أيام الحرب، ولم يكن موائماً ولا مأموناً العهدة بالوصاية على مثل هذا المكان، الذي كان مثل قلعة، إلى أجنبي من الدير، كان أبلهاً وغير خبير في إجراءات الحروب، ولم يتعلم قط مهارة وحكمة البلاط».

كيف ذهب الأسقف المنتخب لإيلاي إلى روما

مضى الأسقف المنتخب بكل سرعة وبشكل مفاجيء نحو البلاط البابوي بعد الخسائر العظيمة التي عانى منها، وحافظ رئيس الأساقفة في الوقت نفسه بعناد على الاستمرار بأعمال تنكيله، لإرضاء الملك، ومع أن رئيس الأساقفة هذا، عندما كان قد قام من قبل بفحص الأسقف المنتخب، ولم يجد سبباً للاعتراض ضده، كتب إلى أصدقائه في بلاط روما ضده، وذلك في سبيل أن يجري رفضه، وأن يجري تعيين الراهب آدم مارش Marsh عوضاً عنه، مع أن هذا الراهب آدم، الذي كان راهباً من طائفة الفرنسيسكان، كان متقدماً بالسن، وقد امتلك كثيراً من المعارف والعلم، وتخلى عن العظمة الدنيوية، وعن موارد واسعة، في سبيل ارتداء الزي الرهباني، وعلى الرغم من ذلك يروى بأنه أعطى موافقته وأبدى رضاه ليحلّ محل الأسقف المذكور، وذلك وفقاً لقول أوفيد: «نادراً مارأيت أي واحد كان من برج المريخ لم يكن الربح موافقا لعقله».

نادراً مارأيت واحداً من أهل برج المريخ

لم يكن قلبه يبتهج بالمكاسب

وقام المعلم هنري أوف وينغهام Wengham, الذي إليه أوكل الملك مهمة حث رهبان إيلاي وترغيبهم للاستجابة لطلبه، فتحمل بصبر

التفكير بعدم اختيار أي واحد آخر وترقيته إلى تلك الأسقفية المذكورة، وأعلن بتواضع أن أي واحد من الاثنين أجدر منه شخصياً بذلك المنصب.

المعجزات التي عملت عند قبر القديس ألبان

في هذا العام نفسه، وحوالي هذا الوقت نفسه، وقعت معجزات بشكل متواصل في كنيسة القديس ألبان، في البقعة التي عثر فيها على ضريح القديس ألبان، ففي يوم عيد القديس أغنس جرت إعادة طفل إلى الحياة بعد موته، وفيما بعد تمت إعادة واحد آخر مثله، وفي البقعة نفسها جرى شفاء عدد من المشلولين والعميان، وجميع المعجزات التي عملت، قد تبرهن أنها قوية الأساس وصحيحة، وذلك بموجب بينات أناس موثوقين، من أمثال الكهنة ورجال الأبرشيات والمحلفين العائدين للمناطق المجاورة، لأنه ليس الذنب المقترف بنشر تقارير زائفة حول تشريف الرب وحمده، أقل من البقاء صامتاً تجاه الأخبار التي هي صحيحة.

كيف جرى إرسال مبعوثين إلى ملك فرنسا

وجرى في يوم عيد تحول القديس بولص إلى المسيحية، ارسال الأسقف المنتخب لوينكستر وجون غيتسدن Gatesden, وبطرس دي أوريفالي D'Orivalles, إلى الملك الفرنسي، وذلك باسم ملك انكلترا، لقضاء بعض الأعمال السرية الخاصة بالأخير.

كيف حافظ الأسقف المنتخب لسالسبري على موارده السالفة

وفي هذه الآونة نفسها عاد المعلم برايدلفورد Bridleford, الأسقف المنتخب لسالسبري من البلاط الروماني، وأظهر ترخيصاً مكتوباً، صادراً عن البابا، به سمح له بالاحتفاظ بموارده السالفة لبضع سنوات، وكان بدعة عجيبة جديدة ولدتها روما.

زيادة عدد الوصايات الممنوحة إلى الملكة

وجرى في هذا الوقت نفسه أيضاً منح الوصاية على أرض وليم كانتلوب Cantelupe (التي كانت ممنوحة من قبل إلى ادوارد) إلى الملكة، ومثل ذلك أيضاً الوصاية على أرض وليم صاحب السيف الطويل وهي الأرض التي تخلت عنها على الفور إلى قهرمانها الراهب وليم أوف تارنتوم Tarentum, الذي فغر فاهه وراء المال مثل سعي علقة الخيول وراء الدم، ونتيجة لذلك قام الوكلاء الذين جرى تعيينهم تحت وليم الراهب المذكور بالتظاهر بالتجبر والوقاحة، بحكم أنهم تحت رعاية وحماية سيدة لها مثل ذلك المنصب الرفيع، فظلموا الناس من الجيران، وهكذا تعرضوا للافقار بسبب حجج تافهة، لابل حتى من دون حجة مهما كان نوعها، وهكذا صار الحال مثلما حدث في الماضي كثير من الملوك مارسوا الطغيان في انكلترا.

طائفة جديدة من الرهبان

وفي حوالي الوقت نفسه، قامت طائفة جديدة من الرهبان، لم تشاهد من قبل ولم تعرف باظهار نفسها في لندن، وعند ظهور رهبانها كانوا يرتدون أكياساً، ولذلك عرفوا بالرهبان المرتدين للأكياس.

موت مرغريت أخت القديس إدموند

وماتت في هذه الآونة أيضاً مرغريت رئيسة راهبات كيتباي Katesby, أخت القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، وكانت امرأة ذات قداسة عظيمة، قد أجيزت فضائلها المتميزة بصنع معجزات.

البرلمان العظيم الذي انعقد ليقول فيه الايرل رتشارد وداعاً لانكلترا

في منتصف الصوم الكبير من هذا العام نفسه، جرى عقد بارلمان عظيم، فيه ظهر أساتذة الفكر والآداب من اكسفورد، بناء على أوامر الملك، من أجل إعادة تأسيس السلام بين جامعة اكسفورد وأسقف لنكولن، الذين أنهكهم، ووصل إلى هذا البارلمان أيضاً رتشارد ايرل غلوستر، وجون مانسيل، اللذان كانا قد ذهبا إلى ألمانيا لرؤية كيف كانت الأمور قائمة، ولإعداد السبيل لرتشارد، ايرل أوف كورنوول، الذي انتخب مؤخراً ملكاً على ألمانيا، وكان هذين الشخصين جاهلين بالانتخاب الزائف لملك اسبانيا، الذي أكد فيها بعد بأنه هو الذي انتخب أولاً، حسبما ستبينه الرواية المقبلة، وكان الايرل رتشارد الملك المنتخب حديثاً لألمانيا، حاضراً أيضاً في هذا البرلمان، من أجل القول وداعاً إلى الجماعة العامة لانكلترا، وفي الحقيقة كان جميع نبلاء انكلترا موجودين تقريباً هناك، وعين الايرل المذكور فولك أسقف لندن وكيلاً رئيسياً على ممتلكاته التي بحوذته في انكلترا، وأثناء عقد جلسات هذا البارلمان، كانت هناك أعداد كبيرة جداً من أهل مدينة لندن، وكانوا من الكثرة بمكان أن مدينة تكاد بصعوبة أن تحتويهم.

كيف جرى استدعاء رئيس أساقفة كانتربري إلى روما للإجابة حول الأضرار التي اقترفها روكستر

وأصر في الوقت نفسه أسقف روكستر، الذي عانى من أضرار لا تحتمل على يدي رئيس أساقفة كانتربري على متابعة شكاويه التي عملها لجميع البلاط الروماني، ولأن قضيته استدعت انتقاما مناسباً (لأنها كانت اعتداءات ثقيلة) وذلك بعد تحذيرات كثيرة جرى توجيهها إلى الملك، الذي تولى تشجيع رئيس الأساقفة المذكور في وقاحته العدوانية،

جرى استدعاء رئيس الأساقفة هذا للمثول شخصياً أمام البابا، للإجابة على الشكاوي التي عملت ضده، ولتقديم ترضية على الخسائر التي تسبب في إلحاقها.

حول مرض أسقف هيرفورد

أصيب أسقف هيرفورد بتمعط الجلد أو بنوع من أنواع الجذام، وجاء ذلك عقوبة له على ذنوبه المضاعفة.

كيف طلب الملك المساعدة لابنه ادموند

قبل ان يرفض البارلمان المتقدم ذكره، أحضر الملك ابنه ادموند، مرتدياً لزي أبولي، وجعله يمثل أمام الاجتماع، وأشار إليه أمامهم جميعاً، وقال على مسمع من الجميع: «إنكم تشاهدون يا رعيتي المخلصة، ابني ادموند، الذي دعاه الرب بكرمه ومنته إلى المرتبة الملكية، وترون كيف هو بشكل واضح جديربحظوتكم جميعاً، وكيف سيكون عملاً لا إنسانياً وطغياناً من الذي سوف يرفض أن يقدم إليه مساعدة معقولة وفعالة، ونصيحة في هذه الأزمة»، وأضاف أنه قام بناء على نصيحة البابا وحسن نواياه، وكذلك الكنيسة الانكليزية معه، وفي سبيل الحصول على مملكة صقلية، فألزم نفسه —تحت طائلة عقوبة فقدانه مملكته— بدفع مائة وأربعين ألف مارك من دون الفائدة، التي تزداد يومياً، دون أن تكون ظاهرة، وأنه حصل أيضاً لمدة خمسة أعوام متوالية، على العشور، التي ينبغي فرضها على جميع رجال الدين بشكل عام، أي أن تقول من منافعهم، التي سوف يجري احصاؤها، وفقاً للطريقة الجديدة للضرائب، من دون انقاص لأي نفقات، باستثناء النفقات التي حصلت بفعل الضرورات، وكذلك جميع المنافع اللاهوتية التي شغرت خلال العام الأول، وذلك حتى اكمال الأعوام الخمسة، وجعل هذا الخطاب آذان الجميع ترتجف، وألقى الرعب في القلوب، خاصة وقد علموا بأن هذا

الطغيان، نشأ عن البابا وصهدر، ومع أنهم قدموا أعذاراً، وسألوا منحهم بعض الوقت، كانوايعرفون أنهم لن يستطيعوا الحصول حتى على هذا المعروف، وقد أرغموا أخيراً على اعطاء وعد بالتفريج عن الملك ومساعدته لمواجهة الضروريات الضاغطة عليه، على شرط - على كل حال - أن يقوم من ذلك الوقت فصاعداً بالالتزام بالصك العظيم دون خرق له، وهو ما كان قد وعد مراراً به وأن يفعله، والذي غالباً ما قدمه لهم ثم أعاد تقديمه إليهم، وأن يتوقف عن إلحاق الأذى بهم وافقارهم، على أساس حجج فارغة، وعلى أساس هذه الشروط وعدوا الملك بدفع اثنين وخمسين ألف مارك، مع أن ذلك سوف يلحق أضراراً لا يمكن جبرها بالكنيسة الانكليزية، وعلى الرغم من هذا لم يقبل الملك بهذه الأعطية الثمينة حتى وإن كانت بهذا الحجم.

كيف تسلم المتطفلون على عمادة يورك موارد هذه العمادة

قام الروماني الذي فرض نفسه بطريقة مراوغة على عمادة يورك، فاستولى بالقوة بشكل فاضح على مقعد العميد في السدة أثناء ساعة الطعام، لأنه كان مسلحاً بحظوة البابا وحمايته، محدثاً بذلك أضراراً كثيرة متنوعة وأذى عظيماً ألحقه برئيس الأساقفة ثم تسبب أخيراً بتعليقه مع أنه كان رجلاً بريئاً، وواحداً قد حبي بالقداسة كلها، وأخيراً، وبعد كثير من الخلافات، وفي سبيل السلام وافق الروماني على الجلوس قانعاً باستلام مائة مارك سنوياً من كنيسة يورك، إلى أن يكون قد تجهز بشكل أفضل.

وصول رئيس أساقفة كولون إلى إنكلترا

ما أن ارفض المؤتمر المتقدم ذكره أو البارلمان (الذي كان الحضور فيه كبير جداً) حتى وصل رئيس أساقفة كولون، يحيط به بعض الأساقفة، وكان بصحبته دوق أيضاً بقصد تشجيع الايرل رتشارد للقيام بتولي المملكة الألمانية من دون خوف (وهي التي دعيت باسم المملكة

الرومانيـة لأنها كانت بالواقع لديها العهد بتولي الامبراطورية الرومـانية) وهي التي منحت إليه من دون معارضـة أي واحد، وذلك بغية حكمها بســلام من قبله، والذي كـان مصـدراً للدهشـة للكثيرين فيها بعـد، هو الصمت الذي التزم به تجاه حقيقـة، أن بعض نبلاء ألمانيا، قـاموا —بناء على تحريض من الفـرنسيين— بالموافقــة على انتخـاب ألفـونسـو، ملك اسبانيا، لتولي المملكة المتقدمة الذكر.

وينبغي أن يكون معلومـاً، أنه كان موجـوداً في البارلمان العـام المتقدم ذكره ستة رؤساء أساقفة هم رؤساء أساقفة: كانتربري، ويورك، ودبلن، ورئيس أساقفة ميسينا، الذي كـان يتلقى أموالاً كثيرة من كل واحد من الناس، ورئيس أساقفة تارنتوم Tarentum في أبوليا، الذي قدم ليفرض على الملك مـايتعلق بمسألة أبوليا، وأسرع ايـرل غلوستر وجون مـانسيل قادمين من القـارة حتى يكونا حاضرين في البـارلمان، وهما وإن عملا تقصياً دقيقاً، كـانا جاهلين بالعـائق الذي ألقي على طريق الايرل رتشارد ايرل كورنوول، بانتخاب واحد آخر سواه.

الأمر البابوي إلى رئيس رهبان القديس ألبان بتزويد أحد الإيطاليين بمنفعة غنية

وفي نهاية آذار، أرسل البابا أمـراً سامياً إلى رئيس رهبـان دير القديس ألبان، قضى بتجهيز منفعـة موائمة واعطائها إلى أحـد الرومان، وكأنه لم يفعل مـافيه الكفايـة في قضية روماني آخـر، كان قبل عـدة أيام مضت، جلب رسالة ملحـة، إن لم تكن أكثر من هذه الرسـالة، كانت على الأقل مثلها، وهكذا تكدسـت التعاسات فـوق التعاسـات في انكلترا، وتشوق الأساقفـة إلى التحرر من اقـامتهم المؤقتة في هذا العـالم، لأننا لم نعد أبناء سـارة بل الأبناء غير الشرعيين لهاجـر العبـدة، وجـردنا من الحرية التي حررنا بها المسيح.

كيف قدم بعض نبلاء ألمانيا الولاء إلى الإيرل رتشارد

وقـام في هذا الوقت أيضـاً، كـونراد رئيس أسـاقفـة كـولون وبعض النبلاء الألمان الآخـرين الذين كانوا قـد جاءوا برفقتـه إلى لندن، بتقديم الولاء وأقسمـوا على الاخـلاص للايـرل رتشـارد، وبناء عليـه أعطى الايرل على الفور خمسمائة مارك إلى رئيس الأساقفة لتغطية النفقات التي تحملها في رحلته إلى هنا، وأعطاه أيضـاً تاجاً أسقفياً جميلاً جـداً، مرصعاً بالأحجار الكـريمة، وموصـولاً بقطع من الذهب، وعندمـا وضعه على رأســه، قـال وهو بادي السرور: «لقــد أغناني الايرل رتشـارد وأغنى كنيستي بهدية ثمينـة، ومثلما وضع التــاج الأسقفي على رأسي، ســوف أضع على رأسـه تاج المملكة الألمانية أو الرومـانية، هو قـد توجني، وأنا سوف أتوجه»، ولقد رأيت من المناسب ادخال كلام رئيس الأساقفة في هذا الكتـاب، حتى يمكن للخلف أن يعلمـوا كم كان الأجـانب دهاة، فوجدوا الوسائل حتى يتغلبوا على بساطة الانكليز.

كيف حصن ملك فرنسا قلاع نورماندي

عندما سمع الملك الفرنسي بهذه الإجـراءات، أضاف بحكمة إلى قوة وحصـانة القـلاع الموجـودة على حـدود مملكتـه، وحصّن مـدن وقـلاع نورمـاندي، وشحنهـا بشكل خـاص بفرنسيين محليين، وأصـدر أوامـره بوجـوب بأن يكون هناك زواج بين الفرنسيين والنورمـانديين، والعكس صحيح، في سبيل أن يتحدوا براوبط الصداقة المتبـادلة، وقد جرى تنفيذ هذه الخطة، لأنهم قالوا: «كان الانكليـز قد تشجعوا فيما مضى وامتلكوا الجرأة، بوسـاطة الامبراطور الرومـاني أوتو، الذي كان فـارسـاً شجاعـاً جـداً، ومجدداً بوساطة فـردريك، الذي قـامت له روابط قـرابة بملكهم (الانكليز) وبالأقرباء الآخرين، ولذلك كانوا عدوانيين كثيراً نحو مملكة فـرنسا، ومع ذلك، إن هذه المملكة مـاتزال بفضل حماية الرب مستمـرة بالقوة وبالرفعة والعظمة»، وبذلك حصلوا على بعض المواساة.

كيف قدم بعض النبلاء الألمان الولاء للإيرل رتشارد

وقام بعض النبلاء الألمان الآخرين، الذي قدموا مع رئيس أساقفة كولون، وتسلموا بعض الهدايا الثمينة من الايرل رتشارد، بتقديم الولاء إليه، وأدوا أيمان الطاعة بدقة له، عندما كانوا على وشك مغادرته، وفعلوا ذلك حتى لايكونوا موضع ريبة.

إحصاء الأموال التي أنفقت من دون فائدة من قبل الملك

وقام في هذه الآونة المحاسبون في قاعة الملك بفحص جميع السجلات المالية، وقاموا بإحصاء دقيق للمبالغ التي أنفقت، وقد تبرهن لهم، وكانوا جديرين بالثقة، أنه منذ أن شرع الملك في نهب وتبديد ثروات مملكته، قد أنفق تسعمائة ألف وخمسين ألف مارك، وهو مبلغ مخيف أن تفكر حوله، لأن مملكة انكلترا لم تشعر قط بالحصول على مثل ذلك المبلغ الكبير من المال، ولاأقل من ذلك بكثير، لأنه أوليس من الأفضل لك أن تفقد سيفك أو سهمك بتركهما يسقطان إلى قعر البحر، من أن تدعهما ينتزعان منك من قبل عدوك؟

مغادرة رئيس أساقفة كولون لإنكلترا

في عيد الفصح صعد رئيس أساقفة كولون ظهر غليون كبير، كان راسياً في نهر التيمز، وأقلع من لندن، وكان الغليون مشحوناً بالرجال، ومسلحاً، ومجهزاً بالمؤن من أجل الرحلة، وقد بادر مسرعاً نحو الوطن ليكون جاهزاً لاستقبال السيد الجديد المنتخب، الايرل رتشارد، ولإعداد السبيل من أجله للوصول إلى مملكته بأمان.

مغادرة الإيرل رتشارد لإنكلترا

وفي اليوم الثالث من أسبوع الفصح، قام ايرل كورنوول، المنتخب حديثاً ملكاً على ألمانيا بوداع أصدقائه، وعهد بنفسه إلى صلوات رهبان

الطوائف، وانطلق نحو ساحل البحر، تحيط به حاشية كبيرة من النبلاء، حيث كان ناوياً على الاقلاع من يارماوث، لكن الرياح لم تكن موائمة، وقد انتظر لوقت طويل على الساحل، مقابل نفقات كبيرة من دون فائدة، ومارس —على كل حال— عندما كان مقيماً على الساحل بعضاً من الطغيان على كنيسة القديس ألبان، وهو مارأينا أنه من الأفضل العبور به بصمت من أن نأتي على ذكره في هذا الكتاب.

نقص المؤن بين أتباع الإيرل رتشارد

وعندما كان الايرل مبدداً وقته عند الساحل تحيطه حراسة كبيرة، وذلك في توقع لريح موائمة، حدث نقص في المؤن، بحيث أصبحت عزيزة، حتى أن المكيال الواحد من الطحين قد بيع بمبلغ خمسة عشر شلناً، وصارت الطيور والبط قليلة جداً، وغالية إلى أبعد الحدود، وجرى بيع لحم البقر والغنم بأي سعر أراد البائع أن يفرضه، ولولا أن الايرل دفع عن رضا —حسبما فعل بالعادة— ثمن المشتريات، لصارت حالة العوز أسوأ، ولضغطت على جميع أتباعه، أو أبعدتهم كلياً عنه.

إلغاء حكم جائر أصدره هنري دي مارا
ضد رئيس رهبان دير القديس ألبان

وينبغي أن نتذكر أيضاً، أنه عندما كان الملك في القارة، وكان الايرل رتشارد نائب المملكة، جرى إلغاء الحكم الجائر، الذي أصدره رجل العدالة هنري دي مارا Mara, وجاء الالغاء بفضل الجهود المتواصلة لوليم هورتون Horton, وكيل المؤونة في الدير، فبموجب قرار هنري المذكور، كان قد جرى تغريم رئيس رهبان دير القديس ألبان بمبلغ مائة باوند، وذلك بشكل غير عادل، لأن رجاله لم يذهبوا (لأنه لم يكن مفروضاً عليهم الذهاب) إلى شيسترهانت Chesterhunt, لأن ذلك كان خارج اطار امتياز رئيس الرهبان،

ولاقى هنري المذكور عقـوبة عادلة، بوساطة انتقام الشهيـد ألبان، حيث أنه مات ميتة بشعة وفي ظروف سيئة، عندما كان مسافراً عبر الألب، ولم تتوقف الجهـود المشكورة لوكيل المؤونة المذكور، حتى حصل من الايرل على الرسـالة الموثقة التـالية، التي منهـا من الممكن عرض امتيـازات دير القديس ألبان بوضوح للأيام المقبلة، إلى الذين يرغبون بمعرفتهم.

الرسالة التي حصل عليها رئيس رهبان دير القديس ألبان من الإيرل رتشارد

«من هنري الذي هو بنعمة الرب، إلخ:

من خـلال تفحصنا لصكوك أسلافنا ملوك انكلترا، التي هي بحـوذة رئيس رهبان دير القديس ألبـان، تبين أن رجال رئيس الرهبان المذكور، لايجوز لهم الذهاب وراء امتيـازهم، الأمـر الذي يمكن لرئيس الرهبـان المذكـور أن يريه إلى أي مستـدعي، أو في أيـة مناسبـة، وأمـام أي رجل عـدالة، أو تفتيش، لذلك قمنا باعفـاء رئيس الرهبـان المذكور من المائـة باوند، التي جـرى بها تغريم بلدة وامتيـاز القديس ألبـان، وذلك بسبب أن الأشخاص العائدين لذلك الامتيـاز لم يمثلوا أمام رعايانا المخلصين: هنري دي مـــارا، ووليـم ويلتـــون [في شيستر هانت] التـي هي وراء الامتيـاز المتقـدم الذكـر، وذلـك لدى التفتيش والتقصي الذي عقـد فيها يتعلق بخـرق الصرافـة والتقـايـض، ومن أجل تغـريم الخارق للصرف وللتقـايض المذكـور»، ومن أجل البقيـة انظر كتـاب Additaments, وعلاوة على ذلك كانت هذه الرسالة موثقة.

الربح المخجل الذي ابتغي استخراجه من الصرافة

قبل عـدة أيام من هذا، جرى استخـدام طريقـة مخجلة وغير إنسانيـة للاستخـراج، وهي مـازالـت مستمـرة، وقـد وضعت قيـد التطبيق على البريء وعلى المجرم سواء، وذلك بالنسبـة لامتياز الصرافة الذي حصل

عليه الايرل رتشارد من الملك، لأن أي إنسان كان على وشك القيام برحلة، أو القيام بأي نوع من الأعمال مهما كان تافهاً، وتوجب عليه مقايضة وتبديل أية نقود مع الجيران أو الأصدقاء، ومهما كان المبلغ صغيراً، أو مهما كان الأمر ودفع الإنسان لفعله بحكم الضرورة، كان الفاعل لذلك يتهم بالاحتفاظ بالصرافة، لإلحاق الضرر بالملك، وهكذا كان يعاقب بحدة، وكأنه فتح حانوت صرافة للمال، وقام الايرل رتشارد بهذه الوسائل بافقار الكثيرين، وجمع آلافاً كثيرة من الماركات وكدسها في خزائنه.

مغادرة الإيرل رتشارد إنكلترا إلى ألمانيا

وبعدما عيّن الايرل أسقف لندن وصياً على قلاعه، وأراضيه، وممتلكاته في انكلترا، وجعله وكيلاً مطلقاً له، أقلع بحراً مع أسطول كبير، كان محتفظاً به في موانيء انكلترا، وكان يتألف من سفن تم الاستيلاء عليها في جميع مناطق انكلترا وبلدان أخرى، وهو على كل حال لم يقدم أية تعويضات لدير القديس ألبان على الأضرار التي اقترفت من قبله، سواء في قضية Miclefeld أو في قضايا أخرى، التي كان منها أن طفلاً يتيماً جرى تجريده من أراضيه، فتحول إلى حالة تعيسة من الفقر، وكان ذلك بوساطة جون غيتسدن Gatesden, وذلك على الرغم من عدم الخوف الكلي من الرب، وتأثر رئيس رهبان دير القديس ألبان، وتحركت شفقته، فتحمل المسؤولية عن ذلك الطفل المحروم، وتولى تربيته وتنشئته، وكان اسمه روجر، وقد حمل الايرل معه سبعمائة ألف باوند، ولم يعدها قط، وكانت كلها ملوثة بالدم، بوساطة جرائم كثيرة، وذلك بالاضافة إلى الزيادة اليومية في الموارد في انكلترا، التي كانت تجبى يومياً وتنهب، وبهذه الوسائل جردت انكلترا من هذه ومن أشياء أخرى كثيرة، وبشكل خاص المال، ونزلت إلى حالة من الفقر مؤسفة، بينما تفاخر الأجانب في نهبهم لها.

وينبغي أن يكـون معلومـــاً أنه من أول يوم مـن شبــاط حتـى هذا الوقت، الذي هـو بداية أيار، اضطرب الهواء بعـواصـف الرياح والمطر، الأمر الذي حول انكلترا إلى مـايشبه المستنقع الموحل، وحملت الأخاديد مظهر خنادق، وكـانت الخنادق تشبه المستنقعـات، وبدت الأنهار وكأنها أذرعة للبحر، وهكذا تولت ثـلاثة أشهر تحويل الأرض إلى أرض قاحلة ومن دون ثمار، ولذلك قـام كثير من المزارعين ببـذر بذور جـديدة في أراضيهم.

النار الرهيبة التي أحرقت معبد محمد (صلى الله عليه وسلم)

قـدم في هذه الآونة إلى دير القـديس ألبـان، رجل محترم هو معلم رهبان كنيسة القـديس توما في عكا، وقـد جلب معه أخبـاراً إلى رئيس الرهبان وإلى الرهبان، ذكر أنها كـانت صحيحة، فقد ذكر أولاً أن نائبهم كـان سليماً ومعـافى، وأنه كان شـاغـلاً نفسـه بنشاط وفـاعليـة بالأعمال الصعبة العـائدة لكنيسة القديس ألبـان في بلاط روما، وهو المكان الذي قدم منه شخصياً.

وذكـر أيضاً أن برقـاً جهنمياً محرقـاً قـد نزل من السموات، وأحـرق فجأة ودمـر معبد محمـد (صلى الله عليـه وسلم) مع تمثاله (كـذا)، وأنه حدث مـرة أخرى انفجار ثان، مشـابه للأول، حوّل المعبـد المذكور إلى قطع صغيرة وأن انفجاراً ثالثاً قام —كما هو معتقد— بدفع الخرائب إلى الهاوية في الأرض، وقال: بعد هذا قامت هذه النار التي أحرقت بحرارة مدمـرة تماماً، مع أنها لم تعط ضوءاً لامعـاً، بالزحف تحت الأرض، مثل نار الجحيم، فـأحـرقـت حتى الصخـور، ولم يكـن بالإمكان اطفــاءها، وهكذا فإن مدينة مكة كلها والمنطقة المحيطة بها، احترقت تماماً بنار غير قابلة للاطفاء.

النهر الملتهب

وقـدم أيضـاً رواية تحدثت عـن نهر ملتهم، كـان على عكس الطبيعـة المائية، حيث لم يكن راضياً بحدوده فـاتبع مجرى غريباً، وشق طريقه إلى الجبـال العـاليـــة، وأخـذ بالمفـاجأة الذين هربـوا إلى قممهم للالتجـاء، ودمرهـم بلهب مجرى تياره، وكأنهم قد أحرقوا بالنار، وهكذا فإن الذين نجـوا من النار الكبريتية الموجـودة في الأسفل جـرى ابتلاعهم بوسـاطة هذا النهر الملتهب.

كيف حصل رهبان بيت لحم على موضع للاستقرار في كمبردج

جرى منح مكان للإقـامة إلى رهبـان بيت لحم في كمبردج، في شارع يقـود إلى ترومبنغتـون Trumpington, ولبـاس هؤلاء الرهبـــان مشـــابه للبـاس الرهبـــان الدومينيكان، غير أن قبعـــة الرأس تحمل على صدرها شعـار نجمة حمراء، خماسية الشكل، في وسطهـا دائرة لونها لون السماء، وهذه عملت في ذكرى النجم الذي ظهر في بيت لحم عند ميلاد مـولانا، وقد ظهـرت الآن طوائف رهبـانية كثيرة في انكلترا، حتى كـان هناك خلط عجيب فيما بينهم.

كيف استدعى رئيس أساقفة كانتربري رجال الدين في أسقفيته

وفي تلك الآونة نفسهـا استـدعى بونيفيس رئيس أسـاقفة كـانتربري ورؤساء شمامسـة أسقفيته، للاجتماع، حتى يقومـوا بعد التوجـه بالدعاء المخلص وطلب العـــون مـن الروح القـــدس، بعمل بعض الترتيبـــات لتقديم العـون إلى كنيسة انكلترا المترنحة، والتي كان مضغـوطاً عليها في هذه الأيام المعـاصرة بمظالم ثقيلـة ولاتحتمل، وغير اعتيـادية، لأن الملك وقع تحت تأثير بعض النصـائح الخفية لبعض المتملقين وأعـداء المملكة، فسمح لبعض الأعـــراف الجديدة وغير النظاميـة، بأن تنشـأ مثل نبـات شوكي بين الفـواكه أو في حـديقة المسرات، وأن تخنق الأشجـار المثمرة،

ولذلك كانت هنالك آمالاً وثيقة بأنه في هذا الاجتماع سوف يكون رئيس الأساقفة قد حُبي بالقوة من عليين ليقيم نفسه مثل حاجز أمام بيت الرب، وأن يسير متبعاً خطوات القديس توماس الشهيد، لإنشاب القتال ضد أولئك المتمردين ضد الكنيسة.

وفاة كاترين ابنة الملك

وفي حوالي عيد العثور على الصليب المقدس، ماتت كاترين ابنة الملك، التي كانت خرساء، ومناسبة للاشيء، مع أنها امتلكت جمالاً كبيراً، وقد تغلب الحزن على الملكة حتى أنه سبب لها المرض، الذي اعتقد أنه غير قابل للشفاء، لأنها لم تستطع الحصول على الشفاء من البراعة الطبية، أو على المواساة البشرية.

الشكوى التي عملها أسقف روكستر في روما

وقام في الوقت نفسه لورانس أسقف روكستر، في دفاعه المشكور عن امتياز كنيسته، بالمتابعة بحرارة واصرار، يوماً بعد يوم، والتمسك بالشكوى التي تقدم بها أمام البابا والكرادلة ضد بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري، الذي غزا بشكل جائر ممتلكات كنيسته ومقتنياتها، ونتيجة لذلك استدعي رئيس الأساقفة للمثول شخصياً أمام البابا.

الحملات النشطة التي قام بها الويلزيون ضدّ الإنكليز

وفي الوقت نفسه، عبر الويلزيون عن غضبهم بشغل أنفسهم بلا هوادة وبشكل فعال في النهب، والقتل والاحراق، ولم يتمكن جميع البارونات الجيران، مع أنهم توحدوا مع ايرل غلوستر، من تقديم أية مساعدة إلى الانكليز أو إلى ادوارد، وضحك الويلزيون فقط وسخروا من جهودهم، وهكذا كسبت الكراهية الشديدة بين الويلزيين والانكليز المزيد من الأرضية، مثل الطاعون، وبما أن ادوارد قد تهددهم بمساعدة الايرلنديين له، الذين دعاهم لتقديم العون له، لسحقهم مثل إناء من

الفخـار، وبناء عليـه عمل الويلـزيون احتيـاطاتهم، وجهـزوا بعض الغلايين، الذين شحنوهم بالرجال بصورة جيدة، وبالسلاح، وزودوهم بكميـات جيـدة من المؤن، وذلك بهدف وضعهم في البحـر، مع نيـة انشاب القتال ضد الايرلنديين هناك.

العثور على جسد مالكولم ملك السكوتلنديين

وحـدث في هـذا العـام نفســه أثناء إرسـاء أسس بعـض الأبنيـة في التاينهاوث، في رئاسة رهبانية دير القديس ألبان، أن تمّ العثور على عظام مالكولم Malcolm ملك السكوتلدنيين ومعــه ابنه ادوارد (حول أعمال هذا الملـك ومـوته هناك روايـة في كتـاب Additaments), وخلاصة لتلك التفاصيل، هي أنه عندما كان مع جيشه كله يقوم بغارة هجومية في انكلترا، حورب من قبل روبرت دي ماوبري Mowbray, مـؤسس الكنيسة عند التـاينهاوث، وقـد قهره وقتله، وبعـد ذلك، بما أنه كان ملكاً، أمر به ليدفن عند التاينهاوث.

ترميم أسوار لندن

وفي هذا العام أيضـاً، أمر الملك بأسوار لندن، التي كـانت في أوضاع متداعية، ومن دون شرافـات، بأن ترمم بشكل صحيح، على نفقة المدينة كلها.

الخلاف بين سيمون إيرل ليستر ووليم دي بلنسية

وفي هذه الآونة نفسهـا، نشب خـلاف، بحضــور الملك وكثير من النبلاء في لندن بين سيمون ايرل ليستر ووليم دي بلنسية، لأن وليم هذا بحكم أنه كـان أخـاً للملك لأمـه، مارس وحشيتـه ضـد جميع جيرانه، وبشكل خـاص ضـد رهبـان الطوائـف، وقـد امتلك الجرأة في ممارسـة طغيانه، مثل إخـوته، صدوراً عن عـلاقته الأخوية بـالملك، وقام بشكل جـائـر بالاغارة على ممتلكـات الايرل المذكور، واستـولى على الأسـلاب

وحملها من هناك، وقام قهرمان الايرل بانقاذ أسلابه، فغضب وليم وتهدد وتوعد وكدس الأذى على الايرل، بكل من الكلام والفعل، وعرضت قضايا الشكاوي هذه أمام الملك، وتبادل الفريقان الانتقادات ضد بعضهما بعضاً، ووصل الأمر بينهما إلى حد التلاكم، وتبادل الضربات، لأن وليم قام بحضور الملك والنبلاء فاتهم الايرل بالكذب —إذا استخدمنا الاصطلاح العام— ثم اتهمه بعد ذلك بالخيانة، وكان هذا عدواناً كبيراً على فارس، ولذلك أثير الايرل عند هذا إثارة كبيرة، وسعى —كما قيل— إلى الانقضاض عليه (لأن الغضب جنون صغير) لكنه منع وأوقف من قبل الملك، وذلك بكل صعوبة، حيث أنه ألقى بنفسه بين زوج أخته وبين أخيه، وكان خائفاً من أن يقوم الايرل بقتل الذي وجّه الإهانة إليه، وأنتجت رواسب هذا الصراع بين الفئتين عداوة ما كان بالإمكان التخلص منها فيما بعد.

كيف جرى تحليل رهبان درم من الحرمان من شراكة المؤمنين

وبعد مضي عدة أيام، وبعدما كان رهبان درم، الذين كانوا مع الكهنة النظاميين لغيسبورن Gisburne, هم وحدهم الذين قاوموا الإجراءات غير الأمينة لوكلاء البابا، وتحملوا نتيجة لهذه المقاومة انزال عقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين لمدة طويلة، بعد هذا كله، وبعد لأي، وبعد كثير من المناقشات، نالوا وحصلوا بوساطة السلطة الكاملة للبابا، على رسالة تحليل، بوساطتها صاروا قادرين، وهم مسرورين كثيراً على تأدية قداساتهم وواجباتهم، آه، لو أنهم كان معهم رفاق في اضطراباتهم، ومؤيدين في صمودهم، كم كانت كنيسة انكلترا ستكون سعيدة في انتصارها على المضطهدين لها والظالمين، أما بالنسبة للرسالة التي حصل عليها الرهبان المتقدم ذكرهم، فمن الممكن العثور عليها في كتاب Additaments.

إلغاء الانتخاب الذي عمل في قضية أسقفية إيلاي

جرى في عيد القديس غورديان Gordian والقديس ايبياخوس Epimachus, إلغاء انتخاب الأسقف المنتخب لإيلاي، وجاء ذلك بناء على تدخل من الملك ومن رئيس أساقفة كانتربري، اللذان سعيا إلى تعيين المعلم آدم مارش —الذي كان واحداً من طائفة الفرنسيسكان— مكانه، وأثارت هذه الإجراءات دهشة الجميع، لأنه لاالانتخاب ولاالمُنتخب من الممكن رفضهما بصورة عادلة، كما أنه كان من غير الممكن العثور على أية خطيئة في الانتخاب، بل كل ما هنالك أن أحد المراوغين، الذي احتاج إلى الوقوف على أرض مكشوفة، قام بإقحام غلطة وإلصاقها فيه، بأنه كان فقط راهباً ساذجاً، وعديم الخبرة في القضايا الدنيوية، وغير قادر تماماً على إدارة وحماية الأسقفية الفخمة لإيلاي، والجزيرة التي كانت هناك، والتي كانت منذ قديم الزمان ومازالت مكاناً للجوء للذين تعرضوا للظلم في أيام الاضطراب.

لكن الرائج اعتقاده ويرجح على هذا، هو أن أبواب الحظوة الملكية كانت مغلقة ضد الرهبان، على أساس ثباتهم واخلاصهم، الذي به رفضوا الاستجابة لمطلب الملك الضاغط منهم، بانتخاب مستشاره هنري أوف وينغهام، ليكون أسقفاً لهم، وكان هذا الطلب قد عمل من دون معرفة هنري المذكور، وعندما علم بأن رهبان الدير قد انتخبوا شخصاً مناسباً وموائماً ليكون راعياً لنفوسهم، قال للملك: «توقف ياصاحب الجلالة عن الفرض على هؤلاء الرهبان الأتقياء، ولاتستمر في ازعاجهم بمطالبك الملكية والتماساتك المسلحة، لأن الرهبان قد توجهوا بالدعاء، وطلبوا عون الروح القدس، وبعد ذلك انتخبوا بشكل صحيح شخصاً موائماً ومناسباً، وهو واحد أفضل مني وأنا، لاسمح الرب في أن أتولى وأستحوذ على مثل هذه الأسقفية الفخمة، أو أنه اغتصب مثل

هذا المنصب الديني الفخم بضمير مـريض»، ولهذا الكلام نال المستشـار ثناء الإنسـان والرضا من الرب، لكن غضب الملك لم يتـوقف، كما أنه لم يتمنع عن إنهاك الأسقف المنتخب والأسقفيـة، وكـان الأسقف المنتخب قـوياً في حقه، ولذلك ذهب إلى رومـا للحصول على التثبيت والمواسـاة من البابا والمساندة في اضطرابه الكبير.

كيف متّـن ملك فرنسا دفاعات نورماندي

وأمر الملك الفرنسي بالوقت نفسه بتحصين قلاع نورماندي وتقويتها، وبالعناية بها، وبانتزاع مناصـب الولاة من الأشخاص المشكوك بهم، ثم إنه عهـد بهذه الوظـائف إلى فـرنسيين، أمـا بالنسبـة للنـورمـان الذين لم يرغب بعزلهم من وظائفهم، فقد ربطهم بنفسه بروابط لايمكن فصمها، إمــا بالقـرابة أو ببعـض روابط الاتحاد الأخـرى، ونقـل ديرة الطوائف الرهبـانيـة التي كـانت على مقـربـة من الحدود باتجاه ألمانيـا، ومثل ذلك باتجاه نورمـاندي، وأسكن الـرهبـان في أمـاكن أخـرى، وزاد في الوقت نفسه من ممتلكاتهم، ثم بنى بعـد ذلك قلاعـاً في تلك الأماكن، وزودها بكل الأعتــدة والمؤن الضرورية، واستهــدفت هذه الاحتيــاطات التي اتخذها، أن لايجد ملك ألمانيا الذي طالـب ببواتو، ولاملك انكلترا الذي طالب بنورماندي، مكاناً للاستراحة هناك، إذا مـارغبا بالاغارة عسكرياً والتوغل في تلك البلاد، ذلك أن الفـرنسيين كانوا خائفين كثيراً، من أن يجري سحقهم بين هاتين المملكتين، مثل السحـق بين حجـري الرحــا، وقـامـوا على كل حال، حسبما جـرت عـادتهم، بتطمين بعضهم بعضـاً، بمثل الكلمات التالية: «قـام الامبراطور السالف أوتو، الذي كان أشجع الفـرسان، والذي ترقى إلى المقـام الامبراطوري الروماني بتهـديد فرنسـا بشكل جـاد، لكنه تراجـع في معـركـة بوفل Bovel, وهو مهــــان، وقام الرجل نفســه، الذي كان قريبـاً لملك انكلترا، فدخل في تحالف مع الايرل وليم، الذي كان لقبـه صاحب السيف الطويل، وكـان أخاً لملك

انكلترا المذكور، ومع فيرراند Ferrand كونت فلاندرز، ورينالد، كـــونت بولون، وهـوغ دي بوفي Bove, ومع محاربين آخـــــرين متميزين، ونوى اجتيـاح فرنسا بجيش قـوي، وكان ذلك في أيامنا، لكنه سحق بفضل عناية الرب، وعلاوة على ذلك، قام في الوقت نفسه، الملك جون الانكليـزي بحصار قلعـة روشي —أو— مويني -Roche -au, Moines وبما أنه كـان مطارداً من قبل لويس، الذي لم يكن آنذاك ملكاً، قـام برفع الحصـار، وهرب من أمـام مطارده، وحـدث ذلك على الرغم من أن القـوات الفـرنسية كـانت مقسـومـة إلى قسمين، قسم هو الذي كـان يتبع أبيـه، الملك الفـرنسي، في حين بقي القسم الآخـر معـه، ومجدداً تفوه الامبراطور فردريك الذي كان أقوى جميع الملوك المسيحيين والذي كـان قـد تزوج من أخت ملك انكلترا، بتهـديدات مرعبـة ضـد فـرنســا، لكن الرب القــدير حفظنا تحت جناحي وقــايتـه الفــاعلة»، وبضربهم لهذه الأمثلة طمأن أحدهم الآخر.

كيف وعد أساقفة إنكلترا بدفع مبلغ كبير من المال إلى الملك تبعاً لبعض الشروط

وفي هذه الآونة نفسها، منح أسـاقفة انكلترا الذين أصبحـوا ضعفاء، وجبناء رعاديد (حيـث لم يقلدوا مثابرة السسترشيان وصمـودهم الذين قدموا رفضاً مكشوفاً وواضحاً إلى الملك في وجهه شخصياً عندما طلب ملبغـاً كبيراً من المال) مبلغ اثنين وأربعين ألـف مـارك إلى الملك، وذلك لزيادة الأضرار الجسيمـة التي لحقت بالكنيسـة وبالمملكة، وجـرى منح هذا المبلغ إلى الملك أو إلى ابنه ادمـوند، من أجل الاستحـواذ على مملكة أبوليا، مع أن الحصول على تلك المملكة بات ميئوساً منه أكثر فأكثر كل يوم، ووعد الملك الذي كان راضياً قليلاً بهذه المنحة، أنه سوف مع أول فـرصة ممكنة، يلطف من ظلم الكنيسـة، ويعيدها إلى وضعهـا الصحيح من الحرية، وحول هذه الشروط وضعت بنود وصل تعـدادها إلى حوالي

الخمسين، وقد أمر الأساقفة بتدوينهم كتابة، في سبيل تنفيذهم، أو وضعهم موضع التنفيذ في الوقت المناسب، وكان ذلك بحضور الملك، والنبلاء، والأساقفة، وكانت هذه البنود، أو المواد مشابهة لتلك التي قاتل في سبيلها القديس توماس الشهيد، رئيس أساقفة كانتربري الممجد كثيراً، ومن أجلها قهر، وهي كثيرة حتى يتولى الإنسان كتابتها، حيث أنها تحتاج إلى ليلتين أو ثلاث ليالي حتى يمكن تدوينها على الورق، انظرها في كتاب Additaments.

وفاة وولتر أسقف نورويك

في يوم عيد القديس وولستان Wulstan, الذي حلّ في العشرين من أيار، مات وولتر دي سففيلد Suffield, أسقف نورويك في كلوستر، وحمل جسده إلى الكنيسة الكاتدرائية في نورويك، ليدفن بتشريف هناك، وروي فيها بعد بأن معجزات قد عملت عند قبره، وكان هذا الأسقف قد أعطى في أيام المجاعة جميع كؤوسه وأوانيه الفضية، وكذلك جميع أمواله، لصالح إفادة الفقراء.

المرسوم الجديد الذي عمل في روما فيما يتعلق بالذين انتخبوا لرئاسات الرهبانيات المعفية

وفي هذا العام أيضاً، صدر مرسوم في روما، من قبل البابا واخوانه الكرادلة، الذين لاحقوا بنشاط منافعهم واهتموا بمرابحهم، دون الاهتمام بشؤون الآخرين، وقضى هذا المرسوم أن «كل واحد سوف يجري من الآن فصاعداً انتخابه إلى رئاسة رهبانية معفية، عليه الذهاب إلى روما من أجل تثبيته ولكي يتلقى التبريك»، وتعرضت الديانة بوساطة هذا المرسوم غير الاعتيادي للخطر، وجردت الكنيسة من ازدهارها الدنيوي، لأنه لم يعد من الضروري بالنسبة للرهبان أن ينتخبوا رعاة لنفوسهم شخصاً ناضجاً، وراهباً، بل رجلاً نصف علماني،

يفضل الفروسية على العدالة، ويـؤثر شريعة جستنيان على شريعة الرب، «التي تهدي النفـــوس»، وعــــلاوة على ذلك، لنفترض أن مثـل هذا الشخص جـرى انتخـابه (لأن أي نـوع آخـر من الرجـال سـوف يجري رفضه من قبل الملك ووكلائه) قد يحدث أنه بعد اضاعة كثير من الوقت في السفـر عبر الألب، قـد يجري عــدم الموافقـة على الشخص المنتخب، ومن ثم يحدث إلغـاء الانتخاب، أو قـد يمـوت الأسقف المنتخب أثناء سفـره، وفي كلتا الحالتين سـوف يكون الدير قـد وهن، لأن الملك الذي لصـالحه تكـون جميع الممتلكات قـد صــودرت، سـوف يقـوم بسلبهـا وابتلاعها كيفما شاء.

كيف عمل ملك إنكلترا الاستعدادات للقيام بحملة إلى ويلز

وحوالي الوقت نفسه أصدر الملك مذكراته، وعممها على جميع أرجاء انكلترا، دعا فيهـا كل من يتوجب عليهم تأدية خـدمة فـروسية لمولاهم وملكهم أن يكونوا مستعـدين، جاهزين، مزوديـن بالخيول والسـلاح، للحاق به إلى ويلـز في عيد مريم المجـدلية، حيث سـوف يزحف بحملة لضبط عنف الويلزيين وكبح جماحهم، لأنهم كانوا يجتاحون كما يريدون، وقد استولوا على قلاع نبـلاء الحدود، لابل حتى إنهم استولوا على قلاع الانكليز، بوقاحة، وقتلوا حـامياتهم، ونشروا النار والقتل، والاحراق في كل اتجاه، وبناء عليـه، علم الويلزيون بأن الملك سوف ينزل إلى الميـدان للقتال ضدهم بجيشه، فتصرفوا بحكمة بأن أبعدوا زوجاتهم وأولادهم وقطعانهم إلى المناطق الداخليـة من البلاد، حول سنودون Snowdon, والمناطق الجبلية الأخرى، التي لايمكن للانكليز الوصول إليها، وفلحوا حقولهم، ودمروا الطواحين الموجودةعلى الطرقـات التي سيزحف عليها الانكليز، ونقلوا جميع أنواع المؤن، ودمروا الجسـور، وجعلوا المخاضات لايمكن عبـورها بحفـر حفـر فيهـا، في سبيل أنه إذا مـاحـاول العـدو عبورها، سـوف يتعرض للغرق، وسـاعدهم الحظ في هذه الحرب، لأن

قضيتهم، ظهرت حتى بالنسبة إلى أعدائهم، بأنها قضية عادلة، والذي دعمهم بشكل رئيسي وشجعهم هو أنهم كتروجانيين Trojans (الذي منه انحدروا) كانوا يناضلون بثبات جدير بنسبهم في سبيل شرائع أجدادهم وامتيازاتهم.

الويل للانكليز التعساء، الذين ديس عليهم تحت الأقدام، من قبل كل أجنبي، حيث سمحوا للامتيازات القديمة لمملكتهم بأن تموت، ولم يشعروا بالحياء والخجل من المثل الذي ضربه الويلزيون، الذين فضلاً عن أنهم تمنعوا عن اظهار الطاعة لادوارد ابن الملك، قاموا بالاستهزاء به، وكدسوا الاهانات والشتائم عليه، ونتيجة لذلك راودته المشاعر، وتبنى فكرة التخلي عن ويلز، وعن الويلزيين غير المدجنين، آه ياانكلترا، لقد عددت عن حق وصيفة جميع الشعوب، وكأنك بلد في أدنى درجات العبودية وأحطها، فكل ماتولى السكان المحليون رعايته، قام الأجانب بنهبه.

وصول الإيرل رتشارد إلى ألمانيا

ووصل في حوالي الوقت نفسه الايرل رتشارد سالماً إلى ألمانيا، حيث وجد حشداً كبيراً من الناس ينتظرون لتحية وصوله بمظاهرات كبيرة جداً من السرور والتشريف، وبما أن هؤلاء الناس كانوا قد تحملوا نفقات كبيرة، أمر بتوزيع مبلغ كبير من المال بينهم، بوساطة إعادة ماأنفقوه والتعويض عليهم، ونتيجة لهذا حصل على ثناء الجميع ونواياهم الطيبة نحوه.

كيف جرى تتويج الإيرل رتشارد ملكاً على ألمانيا

في يوم صعود ربنا، الذي وقع في السابع والعشرين من أيار، جرى تتويج رتشارد ايرل كورنوول ملكاً على الألمان أو الرومان، وتولى إجراء احتفال التتويج كونراد رئيس أساقفة كولون، في اكس لى شابيل بمهابة

عظيمة، وبأبهة كبيرة، وفقاً للعـادات التي وصلت من الأيام الحالية، ولم يكن هناك متذمـراً أو مزعجاً للاحتفال، وهي واقعـة لم يحدث مثلها قط منذ العصور القـديمة، وجرى في الوقـت نفسه تتويج زوجتـه الكونتسة سينيثيـا Cynthia ملكة معـه، وفي اليوم التـالي، الذي كـــان يوم الجمعة، أنعم الملك رتشارد بمرتبة الفروسية على ابنه هنري، من زوجته الماضيـة ايزابيـلا، واحتفل بمنح الفـروسيـة لهنري المذكـور مثلما احتفل بتتويج نفسه، بوساطة وليمـة في كل يوم من هذه الأيام، وكان هذا سبباً جيداً لإثارة دهشة الألمان، هذا ومن الممكن الوقوف على وصـف كامل لهذه الإجراءات في رسالة كان قـد أرسلها إلى انكلترا، وهي موجودة في كتاب Additaments.

تعيين جون أوف أفني قهرماناً لألمانيا

شرع الملك رتشـارد يعمل بهدوء من أجـل ترتيب شـؤون المملكة، حيث تبنى آراء نبـلاء البلاد، وعمل بنـاء على نصائحهم، وأخـذ بشكل خـاص بنصيحـة رئيس أسـاقفـة كـولون، وعيّـن جـون أوف أفني Avennes قهرمـاناً له، وكان رجـلاً خبيراً بالحرب، وكان مـايزال هناك بعض الذين يتحـركون ضـد سلطته، وكـان من بين هؤلاء رئيس أساقفة تريفي Treves, وكان رجلاً قوياً، ومن أهل الحرب، وقد تشجع في طيشــه وتهوره بوسـاطـة الحظوة التي أبديت نحـــوه من قبل الفرنسيين.

الخصام بين رهبان وينكستر ورهبان غلاستونبري

في هذا العـام نفســه، وقبل أيام قليلة من وقـوع الحادثة المشـار إليهـا أعـلاه، تسبب رئيس رهبـان وينكستر ومعـه رهبـانه، ورئيس رهبـانيـة غلاسـتـونبري ورهبان الدير، بنشوب خـلاف، بسبب مطامحهم، مما نجم عنه فضيحـة غلفت جميع الطائفة الـرهبانيـة، وبددت ممتلكات كنائسهم

الفخمة والقديمة، وألحقت الأذى بهم والعار إلى الأبد، وأعتقد أنه ليس مفيداً التحدث عن تفاصيل أخطائهم في هذا الكتاب، ذلك أن ذكرهم يحتاج إلى عناية خاصة ووقت طويل، وفي الحقيقة إنني أفضل التزام الصمت تجاه مثل هذا الشقاق، الذي يقدم الوقود إلى بلاط روما، أكثر من جلبه المصالحة إليهم.

موت موريس فارس إيرلاندا

في هذا العام نفسه، وقبل عدة أيام مضت، مات موريس فتز- جيرالد، وكان فارساً شجاعاً ومقبولاً، وكان قد شغل من قبل وظيفة مسؤول العدالة في ايرلاندا، ولم يكن هناك أدنى من أحد، وعاش هذا الرجل طوال حياته بأخلاق موضع الثناء، لكنه نال سمعة سيئة، وربما كان ذلك عن طريق الخطأ، وذلك بتسببه بموت رتشارد الايرل مارشال.

موت روبرت أوف سوثندون

ومات في العلام نفسه أيضاً روبرت أوف سوثندون Sothindon, وكان كاهناً خاصاً بالملك، ومن قبل رجل عدالة متجول، وقد وقع مريضاً في هارتفورد، وفي ذلك المكان أنهى حياته ودفن.

استيلاء الويلزيين على قلعة عائدة لإيرل غلوستر

وفي ثمانية عيد القديس بندكت، قام للويلين، القائد العام للويلزيين بهجوم مفاجىء على ممتلكات ايرل غلوستر، واستولى بالقوة على قلعة عائدة لذلك الايرل، وهناك قتل جميع الذين وجدهم في القلعة.

موت أليس رئيسة راهبات كيتباي

وماتت في هذا العام أيضاً أخت القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، السيدة أليس، رئيسة راهبات كيتباي Katesby,

وكانت ناسكة ذات قداسة مدهشة، وبريئة، وقد روي حدوث معجزات عند قبرها.

وفاة الرئيس الصالح لرهبان نورويك

ومات في الوقت نفسه الرئيس الصالح لرهبان نورويك، وكان رجلاً صاحب قداسة عظيمة، وكان متميزاً بعلمه، وكان يقوم بالاضافة إلى القداسات، وساعات الصلوات النظامية، والصلوات الخاصة والسرية، بانشاد المزامير كلها يومياً، وقد انتخب هذا الرجل عن جدارة أسقفاً لنورويك منذ حوالي العشرة أعوام، لكن الملك آثر نصيحة المستشارين الأشرار، فتولى إلغاء الانتخاب، على أساس بعض الحجج الواهية.

كيف وقع الملك مريضاً من خلال الحزن

وحوالي الوقت نفسه، أي حوالي نهاية شهر أيار، تغلب الحزن على الملك وقهره، نتيجة النجاحات المتوالية للويلزيين، وبسبب مقتل أعداد كبيرة جداً من رعاياه الخاضعين له، على تخوم ويلز، وكذلك لتفكيره بأنه قد خدع فيما يتعلق بمملكة أبوليا، التي في سبيلها أنفق مبالغ هائلة من المال من دون فائدة، ومجدداً ازداد حزنه بسبب المرض الشديد للملكة، ووفاة ابنته كاترين، وسبب له تراكم هذه الأحزان حمى ثلثية، أبقته لمدة طويلة في لندن، وذلك في الوقت الذي كانت فيه الملكة حبيسة فراشها في ويندسور Windsor بسبب نوبات آلام ذات الجنب.

مقتل مرافق لوليم دي بلنسية من قبل شعب لندن

وفي حوالي الوقت نفسه، كان هناك مرافق يعمل في خدمة وليم دي بلنسية أخي الملك، وقد تصرف بوقاحة كبيرة في لندن، وقد أشهر سكينه وأقسم أنه سوف يغمسها في دماء المواطنين، وقد وضع تهديداته قيد التنفيذ، فجرح بعضهم من دون أي سبب، وبعد ايقاعه الجراحات، تلفظ بالاهانات والتهديدات، معتمداً كما هو معتاد على حماية سيدة،

وانقضت الفئات الدنيا من المواطنين عليه على شكل حشد كبير، لأنه كان غير قادر، وليس راغباً بوضع حد لرعونته، وهاجموه بالحجارة والعصي، وقتلوه، وقد جرى حمله إلى بيت عندما كان على وشك الموت، وقد قال وقتها: «من أجل خاطر الرب، أخبروا مولاي بأن موتي لم يكن نتيجة خطأ أي إنسان، بل ينبغي عزوه فقط إليّ أنا شخصياً، وإلى حماقتي ووقاحتي، لأننا بوثوقنا بحماية ساداتنا وموالينا، دسنا من دون رحمة على الأبرياء، وكذلك على المجرمين».

وعندما سمع وليم بهذه الواقعة، تقدم بشكوى أمام الملك ضد مواطني لندن، وفي سبيل إثارة غضبه أمر بجلب جسد الرجل الميت وعرضه أمامه، وعندها جرى استدعاء عمدة المدينة، وبعدما طلب منه بكل حدة تقديم تقرير عما حصل أجابه قائلاً: «مولاي الملك أنا لايمكنني ضبط عنف الشرائح الدنيا من المواطنين، لكن اسأل عن الذي قاله الرجل المتمدد ميتاً عندما كان على حافة الموت»، وعندما عرف الملك جميع تفاصيل حقائق القضية قال: «لقد تلقى المعتدي الذي استحقه فقط»، لكن بقايا المشاعر السيئة ضد المواطنين لم يتم التخلص منها تماماً، كما سوف تبين الحكاية التالية بالتفصيل.

وفاة روجر أوف ويستهام أسقف شيستر

وحوالي الوقت نفسه غادر المعلم روجر أوف ويستهام Westham، أسقف شيستر الذي كان رجلاً جديراً بالثناء كثيراً، طريق الجسد كله، وكان قد عانى منذ زمن طويل من آلام الشلل الارتجافي، وقد استقال من أسقفيته، وقد خلفه المعلم لونغسورد Longsword.

المعجزة الاعتيادية التي عملت في كنيسة القديس ألبان

وحوالي الوقت نفسه، أي أن تقول مع بداية الخريف، قدر رئيس رهبان ورهبان دير القديس ألبان أن الموسم المؤلف من القش والقمح

في خطر كبير من التعرض للتلف بسبب التساقط الكثيف للمطر، ولذلك توصلوا إلى قرار أثناء اجتماع هيئتهم الكهنوتية، حسبما جرت العادة في أحوال مثل هذا الخطر، وقضى قرارهم بوجوب إعلان الصيام في أرجاء رئاسة شماستهم، وأن يتم الالتزام به من قبل الناس وكذلك من قبل الرهبان، وأنه يتوجب حمل نعش القديس ألبان في مسيرة مهيبة إلى كنيسة القديسة مريم في الحقول، وسار الرهبان والناس وراء النعش حفاة وهم يتفوهون بصلوات مخلصة، وقد نفذ هذا كما ينبغي، وفي اليوم نفسه، ومن خلال فضائل الشهيد، توقفت الأمطار المدمرة.

مغادرة جامعة باريس لمكانها

وفي تلك الآونة نفسها، غادرت جامعة باريس لتلك المدينة، تاركة إياها شبه فارغة، وجاء هذا جزئياً بسبب أن موسم الحصاد بات وشيكاً، وجزئياً بسبب تنكيل الرهبان الدومينيكان، لأن الراهب هوغ، الذي كان من طائفة الدومينيكان، وكاردينالاً في كنيسة روما، قد استخدم كل مساعيه الجبارة، لإضعاف قضية الباحثين، ولتمتين موقف الدومينيكان، الذين كانوا واقفين ضدهم.

الغارات المدمرة للويلزيين

وجد الويلزيون أن القضية باتت الآن قضية حياة أو موت بالنسبة لهم، فدخلوا في تحالف ثابت، حيث اتحد الذين كانوا في الشمال مع الذين كانوا في جنوب ويلز، وهو أمر لم يكن معروفاً من قبل، لأنهم كانوا حتى الآن دائماً متعادين ضد بعضهم بعضاً، ثم إنهم قاموا بناء على موافقة عامة، بهجوم حاد ومفاجىء على جيش الملك، وقد حرضهم على القيام بذلك المعلومات التي تلقوها من الجواسيس والخونة، وكان جنود الملك في وضع صعب، في منطقة مستنقعية، قرب قلعة هناك، حيث توقعوا أن يعثروا على مكان للالتجاء، لكن عندما تراجعوا على

أمل الحصول على الحماية هناك، وجدوا أعداءهم عوضاً عن الأصدقاء، ولذلك جرى تمزيقهم، وسحقوا وكأنهم كانوا بين حجري رحا، فقد هوجموا من الأمام ومن الخلف، وقد هزموا وأرغموا على الفرار، أو التعرض للقتل حسب إرادة العدو، وسقط في ذلك الصراع الدموي بعضاً من مشاهير الفرسان الذين كانوا في خدمة ملك انكلترا، وكان من بين كثيرين ستيفن بانكان Bancan, وكان صديقاً عزيزاً على الملك، وروبرت أوف نورهام Norham, مع عدد كبير آخر، نحن لانتذكر أسماءهم.

وبعد هذا النصر قبل الويلزيون غريفين دي برون Griffin de Brun, الذي عملوا بموجب معلوماته، ونصيحته فنجحوا، قبلوه للتحالف معهم، وكان هو في الحقيقة ويلزياً من حيث المولد وشجاعاً، ومن أصل نبيل، لكنه كان قبل بضعة أيام مضت قد التحق بملك انكلترا، وبناء عليه قام الويلزيون بتدمير جميع أراضيه، وممتلكاته التي كانت كبيرة جداً، والتي لم يستطع الملك ولم يتمكن من ضمان سلامتها وأمنها.

الخطاب الحماسي الذي ألقاه للويلين مقدم الويلزيين

بات منذ ذلك الحين للويلين، مسروراً للنصر الذي حصل عليه بوساطة أتباعه الويلزيين وللأسلاب التي أغنته والتي حصل عليها من المهزومين، وقد قوي جانبه بالتحالف الذي عقده مع ويلزي الشمال، وكذلك بتجديد تحالفه مع غريفين المتقدم ذكره، لذلك شغل نفسه في تشجيع أتباعه وتطمينهم، وذلك بقوله: «حتى الآن قام رب الحشود بمساعدتنا، ومن الواضح إلى الجميع أن النصر الأخير لايمكن عزوه إلى شجاعتنا، بل لعاطفة الرب الذي يقاتل مع القليل مثلما يفعل مع الكثير، فكيف كان لنا نحن الضعفاء، وغير المعتادين على الحرب، والجبناء، عندما نقارن بالانكليز، أن نتجرأ، فنقف ضد ملكهم، لولا أن

الرب أعطانا وقايته؟ فلقد شاهد الرب ما نزل بنا، وكيف أننا ببساطتنا قد فرض علينا غيوفري لانغلي، والوكلاء الآخرين الذين لايرحمون للملك، وكذلك التابعين أيضاً لإدوارد، وعليكم أن تعلموا أننا الآن، ومنذ الآن فصاعداً نحن نقاتل في سبيل حياتنا، وإذا ما وقعنا بالأسر، فسوف لن نحصل على الرحمة مطلقاً، لذلك علينا أن نقف ثابتين مع بعضنا، فنحن إذا بقينا غير متفرقين، سوف نكون لايمكن غلبتنا قط، ونحن نرى بوضوح مثل وضوح النهار، كيف قام ملك انكلترا بإفقار رعاياه الانكليز الطبيعيين، وكيف جردهم من مواريثهم، وأهانهم، فكيف يمكن على هذا أن يوفرنا، الذي يطلب إلحاق الأذى بنا، والذي أثرناه للانتقام؟ فهو يستهدف اقتلاعنا من على وجه الأرض، لكن القضية العادلة هي التي تحمينا، وتخزي خصومنا، وإنه من الأفضل لنا أن نموت، وأن نغادر إلى الرب، من أن نعيش في الظلم، وأن نموت في النهاية بناء على إرادة أعدائنا»، وتشجع الويلزيون بهذا الخطاب، فتابعوا الحرب بشدة، وأوقفوا أنفسهم على القتل، والحرق، والسلب، ليلاً ونهاراً، فحولوا جميع المنطقة الحدودية بين انكلترا وويلز إلى صحراء.

مرض أسقف هيرفورد

وفي هذا العام نفسه، جرت عقوبة أسقف هيرفورد، الذي غرق من كثير من اللعنات التي نزلت على رأسه، عقوبته من قبل الرب بطرق مضاعفة كثيرة، ومن المؤمل أن ذلك كان من أجل اصلاحه، فقد أصبح مثل طريد مختبىء، ولم يترك له حظه السيء أحداً في أسقفيته قد اهتم بالعثور على أماكن تخفيه، فقد قال بعضهم بأنه ذهب مسرعاً إلى مونتبيلير Montpellier, حتى يشفى من مرضه الذي كان يعاني منه، لأنه كان يعاني من مرض التمعط، أو من الجذام في أنفه، والذي شوّه وجهه كله، لأنه تبعاً لما قاله الأطباء إن التمعط في الجلد، هو الجذام بالنسبة للجسد.

الاتهام الذي قدم أمام البابا ضدّ روستاند

وجرى في حوالي الوقت نفسه توجيه التهمة إلى كاهن البابا الخاص، المعلم روستاند، أمام البابا، بأنه اهتم بمصالحه دون مراعاة للعدل: بجمع المقتنيات، والموارد، والأموال في انكلترا، وإنه بإرغامه الملك والأساقفة على إطاعة رغباته، أصبحت له بعض الأهمية بين نبلاء المملكة، وذلك نتيجة لثروته الكبيرة.

وصول ملك إنكلترا مع جيشه إلى شيستر

وفي حوالي الوقت نفسه، الذي كان موسم الحصاد، وصل ملك انكلترا وبرفقته جيش كبير إلى شيستر، فمنع الويلزيين، وحال بينهم وبين العثور على الطعام في تلك المناطق، وبدد أتباعه الموسم الوافر من القمح ومن منتجات الأرض الأخرى، مما ألحق الأذى بهم أنفسهم وكذلك بالآخرين، ونتيجة لهذه التصرفات أصبحت المؤن خلال وقت قصير قليلة جداً في أوساط الجيش، ولذلك عانت الخيول والبشر كثيراً من العوز الشديد، وقام الملك في الوقت نفسه، حتى يدفع بالويلزيين —الذين دعاهم باسم الأعداء والخونة له— إلى متاهة اليأس، فبعث إلى سكوتلندا وايرلاندا وبلدان أخرى، يطلب أعداد كبيرة من العساكر، في سبيل التضييق على الويلزيين وحبسهم، وسحقهم مثل سحق آنية من الفخار.

وعند ذلك قام للويليين فأرسل —بناء على نصيحة نبلائه— رسلاً خاصين إلى الملك، وتقدم بالرجاء من أجل السلام، على كل حال، على شرط «أن يحتفظوا بشرائع أجدادهم وامتيازاتهم بسلام حسبما اعتادوا أن يفعلوا، وأنهم غير ملزمين بتقديم حساب عن أعمالهم إلى ادوارد، أو إلى أي واحد آخر، بل إلى الملك فقط»، ذلك أنهم أعلنوا بوضوح «أنهم سوف لن يخضعوا بأي حال من الأحوال، ويداوموا على قبول توزيعهم

أوبيعهم مثل ثيران أو حمير»، ورفض الملك —على كل حال— الاستماع إلى التماساتهم التي قدموها بتواضع وكذلك إلى رسالتهم، بل شجع جنوده على القتال، ونشر علمه، وتقدم نحو الأمام يوماً بعد يوم، يحيط به رجاله المسلحين، وكان مثل تنين لايعرف كيف يوفر أي واحد، وهدّد بإبادة كاملة للويلزيين.

تثبيت سيمون دي وانتون أسقفاً على نورويك

وفي حوالي يوم عيد القديس بطرس في الأغلال، جرى تثبيت المعلم سيمون دي وانتون أسقفاً على نورويك، وقد قام بعد انتخابه مباشرة من قبل الرهبان، بارسال رسل مسرعين إلى بلاط روما، حيث استطاعوا بوساطة الرشاوي الوافرة، الحصول على ترخيص يمنحه سلطة الاحتفاظ بموارده الماضية لمدة أربع سنوات، مع أن أسقفيته جيدة ومزودة بشكل جيد بسلع هذا العالم، وبات هذا النوع من التنازل عادة في بلاط روما.

ابتعاد عواطف ملك إسبانيا عن ملك إنكلترا

وفي هذا العام نفسه أيضاً، نأى ملك اسبانيا بعواطفه وابتعد بها عن ملك انكلترا، ذلك أنه قال بأن أخا الملك الأخير، ايرل كورنوول، قد حلّ محله في ألمانيا، أو المملكة الرومانية، ولذلك طلب المساعدة منه، أي من ملك انكلترا، ضد أعدائه، وفقاً لشروط الصك المعمول بينهما الذي جاء فيه: «كل واحد متوجب عليه وملتزم بمساعدة الآخر»، وعلى هذا رد ملك انكلترا وأجاب قائلاً: «بناء عليه إن ملك اسبانيا ملزم بتقديم المساعدة عندما يحتاجها أخي لأنه لايمكنني وسوف لن أتخلى عن تقديم المساعدة له، فهو قد انتخب بصورة شرعية ملكاً لألمانيا، وجرى تتويجه من دون معارضة أي واحد، ولو أن أي واحد تقدم بإدعاء لصالح ملك اسبانيا، وأنه له حق، وبرهن أنه جرى انتخابه بشكل صحيح من قبل،

فإن أخي رتشارد، ايرل كورنوول، ما كـان ليوافق على انتخابه شخصياً، ومـا كنت أنا لأقـدم له المسـاندة، بأي حـال من الأحـوال»، وبهذا هدأ الغضب الطائش لملك اسبانيا.

العودة المخزية للملك إلى إنكلترا

وفي تلك الآونة، وجـد الملك أن الحرب سـارت ضـده، وأن المؤن أصبحت قليلـة، وأنها ازدادت ندرة في كل يـوم، وأن الذين وعـدوه بالمسـاعـدة لم يقـدمـوا، وأن المناخ غير الـرحيم للشتـاء بات وشيك الحضـور، لـذلك عمل استعـداداته للعـودة إلى انكلترا، بحكم اقتراب حلول عيـد القـديس ميكائيل، ولذلك وجـه زحفه بصـورة مخزية نحـو لندن، وذلك من أجل أن يكون حـاضراً في عيد القـديس ادوارد، الذي وقع خلال أسبوعين من عيد القديس ميكائيل.

كيف جرى إرسال رسل خاصين إلى ملك فرنسا لاسترداد امتيازات ملك إنكلترا

وجـرى في حـوالي الوقـت نفسـه، ارسـال وولتر أسقف ووركستر Worcestor، وسيمون ايرل ليستر، وروجر بيغود الايرل مارشال، وبطرس أوف سـافـوي، وروبرت ويلران في بعثـة خـاصـة إلى الملك الفـرنسي، للتبـاحث معـه من أجل إعـادة ممتلكات ملك انكلترا، التي احتفظ بها بشكل غير عادل لمدة طويلـة، ورد الملك الفرنسي على طلبهم باعتـدال، غير أن أخويه والنبـلاء الفرنسيين، أجـابوا بوقاحـة وغضب، وقدموا رفضاً مكشوفـاً، وعلى هذا عاد الرسل دون أن يحققوا عرضهم، ووصلوا إلى الوطن في حوالي عيد طهارة العذراء المباركة.

موت نيقولا فارنهام الذي كان مرة أسقفاً لدرم

ومات في هذا الوقت نفسـه المعلم نيقولا أوف فارنهام Farnham,

الذي كان من قبل أسقف درم، وهو الذي كان قد استقال من أسقفيته، في سبيل أن يكون أكثر هدوءاً وراحة ليجني ثمار التأمل، وقد مات في ستوكتون Stockton, وكانت عزبة فخمة قائمة على نهر تي Tees, وهي قد صارت من نصيبه، عندما جرى تزويده بعزبتين أخريتين هما: عزبة هوفدون Hovedon وعزبة ايسنغتون Esington, وعندما وصلت أخبار موته إلى الملك، استخرج ثلاثمائة مارك من أسقفية درم، على أساس أنه لم يمتلك الوصاية على تلك الأسقفية تماماً عندما كانت شاغرة، وذلك خلال الحقبة التي مضت مابين استقالة نيقولا المذكور، حتى تعيين خليفته وولتر.

وكان وولتر رئيس أساقفة يورك، وفولك أسقف لندن، يعدان وصيين وحاميين للحصة العائدة لنيقولا المذكور، ولم يخجل مستشارو الملك من نصيحة مولاهم، كما عمل.

الخلاف بين ملكي الدانمارك والنيرويج

وتفجر في هذا العام خصام جاد بين ملكي الدانمارك والنيرويج، ووقعت عدة معارك في البحر بين سفن البلدين، أثناء رحلاتهم، وكان على كل حال قد تم التوصل بوساطة الأساقفة في المملكتين، إلى إعادة السلام بينهما، ومات في هذا العام أيضاً هاكو Haco, الابن الأسن، والوريث لملك النيرويج المتقدم ذكره، وكان شاباً، له مظهر جميل.

كيف عاد الملك من ويلز من دون تحقيق أي إنجاز متميز

ومع نهاية الخريف، اقترب حلول الشتاء الذي جعل الأيام قصيرة، وجلب البرد، وبما أن ندرة المؤن سيطرت على جيشه، قام الملك بناء على نصيحة مستشاريه الخاصين، الذين لم يكن بإمكانهم تحمل حالة العوز، بالمغادرة من شيستر، وعاد نحو لندن، حتى يكون موجوداً لدى

الاحتفال بعيد تحويل القديس ادوارد، ولذى سماع للويلين بهذا لحق به وطارده لوقت طويل، بقصد مهاجمة وقتل المتخلفين من جيش الملك، وهكذا بعدما أنفق مبلغاً كبيراً من المال، عاد الملك مخزياً، وقد لحقت به أصوات السخرية من عدوه، حتى وصل إلى بلاده، التي كانت مكاناً فيه أمان عظيم بالنسبة له، ومع ذلك زحف وهو مسلح بشكل وسيم في وسط جيشه، مع الراية الملكية وهي منشورة، وقد شجع أتباعه من المقاتلين ليقوموا بقتل الويلزيين، الذين هم حثالة الجنس البشري.

حول خلع ستيفن أوف ليكسنغتون رئيس رهبان دير كليرفو

أثناء مرور الوقت على هذه الصورة، جرى خلع ستيفن أوف ليكسنغتون، رئيس رهبان دير كليرفو، بشكل مهين، من منصبه، لأنه حصل على امتياز الاستحواذ على تلك الرئاسة إلى الأبد، وكان ذلك معاكساً لمبادىء وأحكام طائفة السسترشيان، لكن قد قيل بأن هذا جرى التخطيط به ضده بشكل شرير، ومن خلال الحسد، لأنه كان قد أسس، وبعد ذلك دعم على نفقته مدرسة في تشاردني Chardenay, وكذلك بسبب تميزه بفضائله، وعلو مكانته لعلمه، وعلاوة على ذلك لأنه كان من أصل انكليزي، وعندما سمع البابا بهذا رغب في تحليله، وإعادته إلى منصبه السالف، لكن أعداء ستيفن المذكور، حصلوا بوساطة توزيع سخي للرشاوى في بلاط روما، حصلوا على تثبيت قرار العزل الذي أعلن ضده.

المرسوم الجديد الذي عمل في روما الذي أرغم كل أسقف منتخب على الذهاب إلى روما

وفي هذه الأثناء فشت أخبار بأن الأسقفان المنتخبان لإيلاي ولكنيسة القديس ادموند، قد وعدا بتقديم مبلغ كبير من المال في بلاط روما في سبيل الحصول على امتيازاتهما، حتى أن جميع الناس الحكماء والعقلاء

أصيبـوا بالدهشة وشعـروا بالاستغراب، وبعـدما نجحـا في عملهما، مع أنهما تورطا في ديون ثقيلة، عادا إلى الوطن حـزينين لأنهما كانا السبب في تعـريض كنيستهما لخطر كبير، وكـان هذا نتيجـة لذلك المرسـوم الأكثـر مصـاً للدمـاء الذي صـدر في روما، والذي بمـوجبـه صـار كل أسقف منتخب مـرغماً على عبـور الألب، مما كـان يلحق الأذى به، أو بالحري يدمـره، في سبيل أن يحشو حـاويات نقـود الرومان، وعندمـا علـم الملك بأخبـار هذا المرسوم، الـذي استنزف كنيستي الأسقفين المتقدم ذكـرهما، خجل، أو بـالحري توجب عليـه أن يخجل، لـدى التفكير أنه لدمـار كرامته، هوجمت مملكة انكلترا بالفضـائح الكثيرة، وظلمت بوساطة كثير جداً من الأعـداء، وظهرت عـلامات هذه الاضطرابات على الأسـاقفة، وفي سلب الكنائس في الوقـت نفسـه تحت سلطة الملك، وسلطة وكـلاء الملك، وظهرت أيضاً في الحالة المحـزنة والمديدة التي عانت منها الأديرة المهجـورة، وإذا ماحـدث ومات الأسقـف المنتخب وهو مسافـر، أو أنه رفض وجرى إلغاء انتخابه، فإن جميع هذه المآسي سوف تتجدد، وإذا ما حـدث في المستقبل وجـرى انتخـاب أي شخص ضعيف لأحـد الديرة —وكـان واحـداً لم يتعـذب في ركب الخيـول، أو السفـر والترحـال إلى أماكن نائية بشأن قضايا دنيـوية— سوف يتعرض الدير إلى الدمار تحت هذا القـانون القـاسي، وبما أن المنتخب سـوف يكون مـرغماً على توريط نفسه، قبل التعيين، بديون لايمكنه دفعها، فإن الممتلكات الدنيوية للدير سوف تتلاشى.

عودة هنري بن رتشارد ملك ألمانيا إلى إنكلترا

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل، عـاد هنري بن رتشارد ملك ألمانيا، الذي نصب فـارساً من قبل أبيـه في اليـوم التالي لتتـويجه، وذلك حسبما روينا من قبل، عاد إلى انكلترا، ومثله فعل أيضـاً بعض النبلاء الانكليز، الذي وقفوا إلى جانب الملك المتقـدم ذكره، وكان من بينهم هوغ سبنسر

وجيمــس أودلي Audeley, وستيفــن تشينـــــدوت Cheinduit مع عـدد كبير آخر، ولم يكن سبب عـودتهم معـروفاً، لكن من المعتقـد، وهذا مـا تأكـد بمثابة حقيقـة من قبل أشخـاص مـوثوقين، أن الألمان لم يكونوا مثلما فعل الانكليــز، فلم يسمحـوا لقلب ملكهم بـالميـلان مثل القصب، إلى آراء ونصائح الأجانب.

الحرمان الكنسي لرئيس أساقفة يورك

وحـوالي هذا الوقت نفسه، ألقى البـابا يده بشـدة على رئيس أساقفـة يورك، وأمـر بـأن يعلن بشكل مهين في جميع أرجـاء انكلترا بحــرمـانه كنسياً، وأن يتـم ذلك مع شموع مشتعلة مترافقـة بقرع الأجـراس، وقد سعى بوساطة هذه المرعبات إلى اضعاف عزيمته واصراره، ولكن رئيس الأسـاقفـة تمتـن في اصراره، بوسـاطة مثل القـديس تـومـاس الشهيـد، وبوسـاطة مثل وتعليم القـديـس ادمـوند، الذي كـان معلمـه من قبل، وكـذلك بثبـات وإيمان القـديس روبرت أسقـف لنكولن، وهكذا تحمل جميع هذا الطغيـان الصادر عن البابا بصبر، ولم ييأس مـن تلقي المواساة من السماء، ورفض أن ينعم بالموارد الغنيـة لكنيستـه على أشخـاص غير معروفين وغير جـديرين من ماوراء الألب، كما أنه لم يخضـع مثل امرأة، ولم يركع أمام إرادة البابا، بالتخلي عـن الأحكام الدقيقة للعدل، ولذلك كـان كلما ازدادت لعناته بناء على أوامر البـابا، كلما ازدادت تبريكاته من قبل الناس، مع أن ذلك كان سرياً، بسبب الخوف من الرومان.

وصول الملكة إلى كنيسة القديس ألبان

في الثامن من تشرين الأول، ذهبت الملكة برفقة زوجة ادوارد، وعدة سيدات أخريات، إلى كنيسة القديس ألبان للوفاء بنذورها، ولترد الشكر إلى القديس، وأيضـاً لتقدم تقدمة جميلة عند ضريحه، لأنها عندمـا كانت تناضل تحت مـرض حاد جداً، وعـدت الشهيد، بأنها سـوف تذهب إلى

هناك، وسوف تأخذ معها هدية نذرية، وبناء عليه قدمت تقدمة عند المذبح، عبارة عن رداء ثمين جميل، وهو الذي ندعوه بشكل عام باسم Baudkin.

خصوبة بيتر ايس كونتسة بروفانس

إنني أعتقد أنه ينبغي عدم مروري صامتاً، دون أن أذكر حقائق، علمت بها عندما توفرت الفرصة، وذلك فيما يتعلق بخصوبة رحم بيترايس كونتسة بروفانس، فقد ولدت ثلاث ملكات لامعات، وهن ملكات: فرنسا، وانكلترا، وألمانيا، واثنتين من هؤلاء الملكات، أي ملكة فرنسا، وملكة انكلترا، قد جلبن إلى العالم ملكتين، وأعني بذلك ملكة سكوتلندا، وملكة نافار، وهكذا فإنه بهذا التوالد، الذي هو منحة ربانية، فإن الكونتسة بيترايس التي تقدم ذكرها، قد نشرت هالة من الضياء على جميع امتداد العالم المسيحي بتقديم خمس ملكات إلى الجماعة والمجتمع، وبالاضافة إلى هؤلاء أعطت الكونتسة بيترايس الخصبة نفسها بالولادة ابنتان نبيلتان أخريتان، كل واحدة منهن تزوجت من ابن ملك، حيث تزوجت الأولى من كونت أنجو، والثانية من كونت بروفانس.

طغيان التتار

في وسط هذه العاصفة العامة التي أزعجت العالم، ومثلما حدث في البلدان الغربية أنها أثارت بهياجها الحروب بين الويلزيين والانكليز، ومثل ذلك كان العداء والطغيان العائد للتتار وللمسلمين قد ثار في الشرق، وقد أرغمت شعوب كثيرة على أن تدفع الجزية للتتار، ومثل ذلك فعل السلاطين، والأمراء، والملوك، والخلفاء، ورغبة من التتار في اخضاع الصليبيين إلى الأوضاع نفسها، طلب التتار من الداوية والاسبتارية، ومن الآخرين من سكان الأرض المقدسة أن يخضعوا إلى

سلطانهم الذي لايحتمل، ولقد قاموا بعدما تشاوروا أثناء الليل، وبعد مداولات كافية وطويلة، أجابوا بالاجماع على رسائل التتار بأنهم «قد غيروا أزياء ملابسهم، وعهدوا بأنفسهم لخدمة الرب، ليس من أجل العيش برفاهية وسرور، بل بالحري حتى يموتوا من أجل المسيح، الذي لم يرفض في تلك البلاد المعاناة من الموت من أجل تخليص الجنس البشري»، ثم استطردوا يقولون إن هؤلاء التتار —أو هؤلاء الشياطين التتار— قد جاءوا، ولسوف يجدون عبيد المسيح معسكرين وجاهزين لانشاب القتال ضدهم في الدفاع عن الشريعة المسيحية».

دمار الحشيشة من قبل التتار

خلال هذا العام، دمر هؤلاء التتار المقوتين الحشيشة، وهم جنس أكثر مقتاً، فهم يحملون خناجر من حولهم، وإذا مارغب أي واحد في معرفة وقاحة هؤلاء التتار، وطرائق حياتهم وعاداتهم، أو إذا رغب في أن يقرأ عن أوهام الحشيشة وقسوتهم، يمكنه الحصول على المعلومات، بالقيام ببحث نشيط في كنيسة القديس ألبان.

كيف أنه بعد وفاة هورتولد جرى تعيين بطرس دي أوريفالي مكانه

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل مات هورتولد Hurtald الذي كان كاهناً خاصاً ومستشاراً للملك، وكان خازناً لقاعته، وجرى تعيين بطرس دي أوريفالي Orivalles محله، وهكذا خلف أجنبي أجنبياً.

كيف أخذ نبلاء سكوتلندا على أنفسهم العهد القيام بتوجيه إجراءات الملك والملكة

وفي هذه الآونة ورط الاسكندر ملك سكوتلندا نفسه باقتراف حماقات غير لائقة، مع أنه عندما يتولى الشباب القيادة، يتوقع الناس

منهم ثماراً عالية المنفعة بالنسبة للمملكة، فقد اتبع نصائح الأجانب، واهتم بمصالحهم، ورفعهم فوق رعاياه الطبيعيين، وقد غضب هؤلاء من هذا السلوك، وقاموا حتى يحولوا بينه وبين القيام بإجراءات أكثر سوءاً، فوضعوه والملكة تحت الحجر، وزيادة على ذلك، أبقوا الملكة معزولة عنه، خشية أن تلتحق بأبيها، وبذلك حذوا حذو الألمان، إلى أن يتمكنوا من الخلاص من الأجانب جميعاً ويبعدونهم عن المملكة، ومنذ ذلك الحين أمسك نبلاء سكوتلندا بأزمة حكومة مملكتهم بسهولة كبيرة وأمان، وعلاوة على ذلك اتهموا الملكة بأنها أثارت غضب أبيها، وأنها بعثت إليه للقدوم ضدهم مع جيشه ليجلب الدمار للبلاد، وقالوا بأنه من خلال شكاويها جرى تدمير روبرت دي روس، الذي كان أعظم نبلاء الشمال، فقد جرى تدميره من دون رحمة وبشكل كامل، وتمت مصادرة جميع ممتلكاته القابلة للبيع ثم بيعت.

المعارك بين جيمس أودلي والويلزيين

وفي هذا الوقت نفسه، قام نبيل قوي وغني اسمه جيمس أودلي Au-deley (وكان واحداً من الذين جاءوا مؤخراً من ألمانيا)، كان يمتلك أراضي، وقلاع وممتلكات أخرى في ويلز، كان الويلزيون قد هاجموها ودمروها أثناء غيابه، قام بالشروع بدوره بحملات هجومية، ضد مقترفي الشرور هؤلاء، وأرسل بالكثير منهم إلى الظلال في الأسفل، مطالباً أيديهم بتقديم حساب عن دماء إخوانه، لكن قام الويلزيون فجأة بالانقضاض من مخابئهم التي تشبه أوكار الثعالب، وشقوا طريقهم خلال المستنقعات، وصدوا حملات أعدائهم الغزاة بجميع الوسائل التي كانت بمقدورهم، وبذلك وقعت مذبحة كبيرة، وتحولت بيوت وقلاع إلى رماد من على الجانبين، وبهذا تناقصت قوة انكلترا يومياً، لأنه كان هناك بالعادة تجارة جلبت استيراداً من ويلز إلى انكلترا، من خيول وثيران، وسلع أخرى مختلفة الأنواع، كانت مربحة لسكان البلدين معاً.

كيف أكد ملك إسبانيا بأنه قد انتخب ملكاً لألمانيا قبل انتخاب الإيرل رتشارد

وتحقق في هذه الآونة خبر اشاعة، أزعجت الكثيرين، وقد أفادت بأن ملك اسبانيا قد أكد أنه جرى انتخابه بشكل صحيح ملكاً على الرومان، قبل انتخـاب الايرل رتشـارد، وكبرهان على هذا وقف رئيس رهبـان تريفي، وبعض النبلاء الألمان الآخرين ثابتين ومن دون تغيير في وقوفهم إلى جـانب ملك اسبـانيا المذكـور، وفي الوقت نفسه وعـد ملك فرنسـا بتقـديم نصـائحـه ومسـاعـدته إلى ذلك الفـريق، لأن الفـرنسيين كـانوا منزعجين كثيراً تجاه التشريف الذي دفع إلى الايرل رتشـارد، وغـاضبين من المنافع التي سـوف يحصل عليها الألمان من انتخابـه، لأنه كان هناك فيما بينهم أنفسهم منذ قـديم الزمـان عـداوة فطرية وكـراهيـة من غير الممكن اطفاءهـا، وهي قد ازدادت بالحرب الكبيرة التي وقعت مـؤخراً بين الألمان، وبينهم أنفسهم وبين الفـرنسيين الذين نالوا المسـاعـدة من حلفائهم الفلمنكيين.

وكـان على كـال انتخاب رتشـارد الملك الجديد لألمانيـا أمـراً مقـرراً، ونظاميـاً، ولايمكن تغييره، لأنه عندمـا جـرى في العام الماضي الإعـلان عن انتخابـه في لندن إلى الملك وإلى نبلاء انكلترا من قبل نبـلاء ألمانيا، لم يكن ظاهراً أي ظل من المعارضـة مهما كان صغيراً، كما أنه لم يكن هناك فيما بعـد عندما قـدم رئيس أساقفـة كولون إلى انكلترا، وهو الذي كـان المستشـار الأعلى للامبراطورية، وعندما جـاء كـان برفقته عـدد كبير من زعماء الناس في ألمانيـا، ولم يذكر هؤلاء ملك اسبـانيا أو انتخـابه، ومثل ذلك لم يفعل الأشخـاص الحكماء الذين جرى ارسالهم للقيـام بالتقصي حول القضايا في ألمانيا، وبناء عليه فإن ملك ألمانيا كان مستقراً، هادئاً في استحواذه لملكه وقـد تعامل مع تهديـدات ملك اسبانيا بـاستخفاف، مع أن الأخير هدّد بمحـاربتـه بالقـوات المتحـدة العـائـدة لملـوك فـرنسـا،

وأراغون، ونافار، وعلاوة على ذلك أقحم ملك اسبانيا فقرة في رسائله أطلق فيها على نفسه لقب «الملك المنتخب للرومان أو لألمانيا»، وعندما سمع رتشارد ملك ألمانيا بهذه التهديدات، رد غير هياب: «دعوه يأتي مع جميع قواته، وليفعل أسوأ مايمكنه، فأنا سوف ألاقيه خارج حدود مملكتي».

رسالة ملك إسبانيا إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الأثناء كتب ملك اسبانيا إلى ملك انكلترا يرجوه بحرارة «أن يقدم إليه مساعدة فعالة، حسبما هو متوجب عليه، ضد رتشارد ايرل كورنوول، الذي اغتصب بوقاحة تاج ألمانيا، وحلّ بشكل مخادع محله —أي محل ملك اسبانيا— عندما كان قليل من الناس متوقعين مثل هذا الإجراء»، وقد حث ملك انكلترا على مساعدته توافقاً مع شروط الصك المعمول بينهما، الذي بموجبه كان كل واحد منهما ملزماً بمساعدة الآخر ضد كل عدو أي عدو، وكانت هذه المعاهدة قد عملت، عندما أعيد تأسيس السلام بينهما في غسكوني، وبعدما تسلم الملك هذه الرسالة، رد عليه كما يلي: «إنه بالنسبة لي، إنني أطالب بسرعة وبإلحاح بالمساعدة منه إليّ شخصياً، ومن أخي ضد أعداءنا المتمردين، هذا وإن كل من يعادي أخي ويقف ضده، هو يعد لسبب جيد العدو الخاص بي، لأن الذي ليس معي هو ضدي»، وينبغي أن نذكر بأن غسكوني كان قد جرى منحها من قبل الملك الانكليزي هنري مع ابنته، إلى ألفونسو ملك اسبانيا، الذي تملكها بموجب صك كان مثبتاً من الملكين: رتشارد وجون.

ونتيجة لهذا تعاهد ملك اسبانيا مع هنري الثالث الملك الحالي، وبموجب ذلك كان على ابن هنري الاقتران بأخت ملك اسبانيا، وأن على كل واحد منهما تقديم المساعدة للآخر في وقت الحاجة، وأن ملك اسبانيا سوف يتخلى عن ادعائه بغسكوني لصالح ملك انكلترا ولصالح

ورثته، وقد عمل صك يتعلق بهذه الاتفاقات المتبادلة، وعمل ملك انكلترا أيضاً صكاً مهيناً، تقرر فيه عمل تعويض إلى جميع الغسكونيين على الخسائر التي تكبدوها من خلال قدومه، وخضع ملك انكلترا إلى جميع هذه الخسائر والاهانات، لأنه عندما كان سيمون ايرل ليستر قد أخضع تقريباً العصاة الغسكونيين، أرسل الملك أوامر إلى نبلاء تلك البلاد بمقاطعة الايرل، وهكذا بموجب ذلك ألغيت سلطاته تماماً، وبهذه الصفقة غير السعيدة حصل الملك على خسارة جسيمة، في كل من الأراضي والمال، ونال ضرراً لايمكن تعويضه بالنسبة لكرامته، وكان عمل الملك هذا مضاداً للصك الذي يحمله الايرل والذي حصل عليه منه، وفي سبيل أن لايظهر هذا التصرف وكأنه سرقة، خلص الملك ذلك الصك منه واسترده مقابل ستة آلاف مارك، ومجدداً قام —كما ذكرنا من قبل أعلاه— بعبور القنال شخصياً مع جيش كبير، وكانت جميع هذه الإجراءات مؤذية له، هذا وتقدم ذكر هذه الأحداث أعلاه.

كيف جرى إرسال رسل خاصين إلى فرنسا

وفي هذه الآونة، جرى ارسال أسقف ووركستر، والأسقف المنتخب لوينكستر، ورئيس رهبانية ويستمنستر، وايرل ليستر، وهوغ بيغود الايرل مارشال، وبطرس أوف سافوي، وروبرت أوف ويلران في رسالة خاصة من ملك انكلترا إلى ملك فرنسا، للقيام ببعض الترتيبات، إذا كان من الممكن عملها بأي سبيل مع الشرف، مع الملك الفرنسي، من أجل أن يتولى الإعادة إلى ملك انكلترا الممتلكات والامتيازات العائدة إليه منذ الزمن القديم، وبذلك يكون من الممكن منع إثارة العداء، الذي يمكن أن تنتج عنه الحروب وسفك الدماء، لأنه بدا أنه لايتماشى مع العقل والدين أن يدان الابن ويحكم عليه بحمل أوزار ظلم أبيه، وفي الحقيقة كانا قد تأذيا حتى الآن بما فيه الكفاية وعوقبا، فقد مضى حتى الآن حوالي الخمسين سنة، منذ أن حرم ملك انكلترا

بشكل مؤسف له، من أراضيه في القارة، وعاد المندوبون الذين أرسلهم إلى فرنسا إلى الوطن، وهم بحالة صمت وأسف، بعدما قوبلوا بكلمات قاسية وتهديدات، وبعدما تسلموا رفضاً كلياً واضحاً بعدم الاستجابة لطلباتهم، وقد انزعج جميع النبلاء الذين دعاهم الملك إلى بارلمان في لندن، ولذلك توصلوا إلى قناعة بأن الرسل عادوا من دون التمكن من انجاز مهمتهم، وحصلوا على لاشيء، باستثناء السخرية، والتمس رتشارد ملك ألمانيا أيضاً بتواضع من الملك الانكليزي إعادة الممتلكات العائدة إليه، ولاقى هذا المطلب مثلما لاقت القضية الأخرى، حيث جرى تأجيل النظر فيها، حتى يفرغ الملك الفرنسي من بارلمانه، الذي كان سوف يعقد في منتصف الصيام الكبير، ولذلك بقي رئيس رهبانية ويستمنستر في فرنسا للحصول على جواب حول هذه القضايا، في حين عاد الآخرون إلى الوطن.

كيف جرى تحويل منطقة الحدود مع ويلز إلى صحراء فعلية

ويؤسفنا القول بأن حدود ويلز جرى تحويلها إلى صحراء غير مسكونة، فقد سقط السكان ضحايا للسيف، وأحرقت البيوت والقلاع بالنار، وسقطت أشجار الغابات أمام البلطة والمسحاة وسقطت المواشي والقطعان ضحايا للجزارين، أو ماتت من الجوع، وهكذا جردت انكلترا من جزء كبير منها.

مختصر أخبار العام

كان هذا العام كله غير خصب وشحيح، لأن كل الذي جرى بذره في الشتاء، وأزهر في الربيع، وبات ناضجاً في الصيف تلف ودمر بوساطة الأمطار الخريفية، وجلبت أعمال السلب التي مارسها البابا والملك في انكلترا، قلة الأموال وندرتها، وكانت وراء فقر غير اعتيادي، وبقيت الأرض غير مزروعة، ومات كثير من الناس من المجاعة، وفي

حوالي عيد الميلاد ارتفع سعر مكيال القمح إلى عشرة شلنات، وبات التفاح نادراً ومثله الأجاص لابل أكثر، وكذلك التين، والدراق، والكرز، والخوخ، وقد تلفت جميع الفواكه التي حفظت بالجرار فساداً كاملاً، وهكذا كان العام عاماً قاحلاً، وعلاوة على ذلك أعطى الفرصة لحميات مميتة، استعرت إلى درجة، أننا إذا لم نذكر جميع الحالات، نجد أنه في كنيسة القديس ادموند، جرى دفن أكثر من ألفي جسد في المقبرة الواسعة، وكان ذلك خلال الصيف، ومات الشطر الأكبر منهم في أيام الشعرى أي مابين أوائل تموز وأوائل آب، وكان هناك رجال شيوخ كانوا قد شاهدوا من قبل بيع مكيال القمح بمارك لابل حتى بعشرين شلناً، لكن ذلك كان من دون جوع الناس حتى الموت، ولكي نضيف إلى التعاسات كان رتشارد ملك ألمانيا قد جرد مملكة انكلترا من آلاف كثيرة من الماركات، التي قد أمر بتحصيلها من أراضيه في انكلترا.

وعاشت الأرض المقدسة في آلام العزلة، والخوف من التتار، فقد امتلك ملك هؤلاء القوم أربعة ملايين من الرجال المقاتلين، وسار هؤلاء في ركابه، وذلك حسبما سمعنا من أشخاص متعلمين وموثوقين، وهم قد أخضعوا حتى الآن نصف العالم، وفعلوا ذلك بالقوة، وكل من رغب القيام ببحث دقيق حولهم، يمكنه أن يجد في كنيسة القديس ألبان، روايات حول طرائق حياتهم القذرة كثيراً.

وانتشرت في هذا العام آلام دائمة وموجعة، نادراً ما سمحت بقوة التنفس لأي واحد عاني منهم، ولم يكن هناك يوم جليدي واحد، كما لم يقع أي يوم جميل، كما أن وجه الأرض والبحيرات التي كانت بالعادة تصبح قاسية بالجليد لم تصبح قاسية على الاطلاق، ومثل ذلك لم تكن هناك قطع ثلجية متجلدة معلقة من أطراف البيوت، بل كانت هنالك أمطار ثقيلة غير منقطعة، وكان هناك ضباب حجب السماء. حتى عيد طهارة العذراء المباركة.

كيف احتفل ملك إنكلترا بعيد الميلاد في لندن

عام ١٢٥٨ لتجسيد المسيح، وهو العام الثاني والأربعين من حكم الملك هنري الثالث، وقد أمضى الملك المذكور عيد الميلاد في لندن، حيث كان ينتظر وصول الرسل الذين كان قد بعث بهم إلى لندن، وهناك احتفل بذلك العيد بمهابة كبيرة وبفخامة، برفقة كثير من النبلاء، وكان الملك أيضاً حاضراً في العيد الذي احتفل فيه على شرف القديس ادوارد.

وصول أسقف إيلاي ورئيس رهبانية دير القديس ادموند

وحوالي الوقت نفسه، وصل أسقف إيلاي ورئيس رهبانية دير القديس ادموند إلى انكلترا، وكانا عائدين من بلاط روما، حيث نجحا في الحصول من البابا على مرسوم تثبيت لهما كل على انفراد في منصبه، وذلك على الرغم من معارضة الملك وسوء نواياه، ومعه رئيس أساقفة كانتربري، وهكذا تصرف الملك وفعل بناء على النصائح الفاسدة، فدمر كرامته الملكية، وسعى إلى إلحاق الأذى بالكنيسة بطرائق مضاعفة.

اضطرابات في روما

في هذا الوقت، وقبل مضي بضعة أيام، وقعت اضطرابات جادة في مدينة روما، نتيجة لإجراءات الشيخ م. M, الذي كان مواطناً من بريشيا، نأى بنفسه عن مسالك العدالة فأفقر شعب روما وظلمه بمختلف الطرق، وفعل ذلك بناء على تحريض النبلاء له، وقد حصر هو اهتمامه وجعل شغله فقط هو العمل على ارضاء النبلاء المذكورين، خاصة الأنيبلدي Annibaldi, ثم إن الناس قاموا بناء على نصيحة واحد اسمه متى أوف بيلفيور Belvoir, وكان انكليزياً، ومواطناً من أتباعهم، يعمل معلماً في صناعة الخبز، قاموا بالاحتشاد مع بعضهم على شكل جمهور كبير، حيث قاموا بهجوم عنيف على السجن، حيث

كان برانكليون الشيخ السالف مسجوناً، وقد نجحوا في فتحه واطلاق سراحه، وما أن عملوا ذلك حتى عينوه شيخاً، وتماشياً مع العادة القديمة لتلك المدينة أقسموا على الولاء وتقديم الاخلاص له، ثم إنهم تمكنوا بمساعدة برانكليون، من طرد أعدائه من المدينة، وألقوا جانباً كل احترام للبابا، فعلقوا على المشانق اثنين من الآنيبلدي، وكانا قريبين لواحد من الكرادلة، وقام البابا بانزال عقوبة الحرمان الكنسي ببرانكليون وشيعته، ونتيجة لذلك أعلنوا أن لديهم امتيازاً يقضي بمنع أي بابا من إنزال عقوبة الحرمان الكنسي بهم، وبناء عليه هم لم يكتفوا بالسخرية منه، بل هدّدوا بإلحاق الأذى بالبابا والتنكيل به وبكرادلته حتى الموت، وأثار هذا خوف البابا على سلامته، فقال لإخوانه: «عندما يكون الغضب مندفعاً ابتعد عن مجراه»، وخوفاً من أن الشرور سوف تتبع، انسحب فجأة إلى فيتربو، وبنيته التحرك أبعد والانتقال إلى أسيسيو Assisio.

وفاة وليم هيرون عمدة نورثأمبرلاند

ومات في هذا الوقت نفسه وليم هيرون Heron عمدة نورثأمبرلاند Northumberland, وكان رجلاً شرهاً جداً، ومطرقة متوحشة بالنسبة للفقراء، ومنكلاً بالطوائف الرهبانية، ومن الشره الدنيوي والعطش لنيل الثروة، عبر —كما هو معتقد— إلى المناطق الجهنمية ليعاني من عطش Tantalus.

وفي حوالي عيد غطاس مولانا، مثل المندوبون النبلاء الذين بعثهم ملك انكلترا أمام الملك الفرنسي، الذي عاملهم بكياسة وتكريم، وأجابهم بلطف حول القضية التي حضروا من أجلها إلى هناك، وهي قضية الطلب بإعادة نورماندي والممتلكات الأخرى في القارة، لكن أخويه وبعض النبلاء الآخرين، رفضوا بكل وضوح الاستجابة لمطالبهم، ولذلك عاد الرسل إلى الوطن دون انجاز لمهمتهم.

حول الاتهامات التي عملت ضد بعض مواطني لندن

وفي الوقت نفسه أيضاً، عمل سكان لندن من الطوائف الوسطى والدنيا شكوى جادة تقدموا بها إلى الملك، بأن الذين جرى تعيينهم لجمع المال من أجل إعادة بناء أسوار المدينة، حسبما كان الملك قد أمر من أجل كرامتهم، قاموا بخداع بالاحتفاظ بالجزء الأكبر من هذا المال في حوافظ نقودهم، في سبيل إيذاء الطوائف الوسطى والدنيا من المواطنين، وفي الحقيقة إنهم قد فعلوا الشيء نفسه في جميع الجبايات والضرائب التي تولوها، وتبرهن حول هذا الموضوع أنهم كانوا مدانين، وحدث على كل حال أن وفرت حياتهم بعد صعوبة كبيرة، وذلك بناء على وساطة جون مانسيل، لكنهم أرغموا على دفع فدية عن أنفسهم.

وفاة جون أوف أفني

ومات في هذا الوقت نفسه جون أوف أفني قهرمان ملك ألمانيا، الذي رست عليه جميع آمال ذلك الملك.

وفي هذه الآونة أيضاً، قام الويلزيون، الذين يئسوا تماماً من عقد سلام مع الملك، ومن الحصول على رحمة منه، فاستولوا على بعض البلدات الاقليمية على حدود ويلز، وكانت عائدة إلى ادوارد وإلى بعض النبلاء الآخرين، واستولوا على جميع المؤن التي كانت مخزونة هناك، ودمروا وأحرقوا البقية، وقطعوا رؤوس جميع الرجال الذين وجدوهم في البلدات المذكورة من دون رحمة، ومن دون السماح لهم بفداء أنفسهم.

كيف تواضع البابا بنفسه إلى الشيخ برانكليون

وفي حوالي ذلك الوقت نفسه، حدث أنه مثلما كانت لندن مسرحاً لإثارة كبيرة واضطراب عظيم، كانت روما يتقاذفها انشقاق كبير بين المواطنين، لأنه عندما اشتكى النبلاء إلى البابا، وحرضوه على اصدار

الحرمان الكنسي ضد شعب روما، وضد شيخهم برانكليون، مع جميع المشايعين له، هزأ برانكليون من تهديداتهم وضحك منهم فقط، وعامل تهديداتهم باستخفاف، وهكذا فإنهم لم يكتفوا فقط بعدم الاهتمام سوى قليلاً والانشغال بالقوة التي ستفرض ضدهم، لابل قللوا من قيمتها وعاملوها باستخفاف، وكان الشيخ برانكليون الذي رقي إلى ذلك المنصب مؤخراً محبوباً من قبل جميع الناس، ومارس الآن بجرأة سلطاته لمعاقبة جميع مقترفي الآثام في المدينة، والانتقام بشكل خاص لنفسه ضد الذين كانوا وراء سجنه، فقد عهد بهؤلاء إلى المشانق، ولم يوفر لاأصدقاء ولاأقرباء البابا، وكان غير قابل للافساد لابالالتماسات، ولا بالتهديدات ولابالرشوات الصادرة عن أي أحد، وعلاوة على ذلك أصدر مرسوماً عاماً أمر فيه جميع شعب المدينة، تحت طائلة الحرمان من الأملاك والمواريث، وعقوبة النفي، بأن يجهزوا أنفسهم بالسلاح، وللاحتشاد مثل رجل واحد للقيام بحملة ضد أغنانو Agnano, مسقط رأس البابا، وما أن سمع سكان ذلك المكان بهذا الأمر، خاصة أقرباء البابا وأصدقائه حتى ذهبوا إليه —البابا— وعبروا عن أساهم قائلين: «ياصاحب القداسة كن رحيماً على الأقل نحو أصدقائك وأقربائك،ونحو مدينة أغنانو كلها التي هي مسقط رأسك، لأن مرسوماً قد صدر عن الشيخ برانكليون، وجّهه إلى الرومان، أمرهم فيه جميعاً بحمل السلاح، ومن ثم بإلقاء الحصار على مدينتنا وهم في حالة غضبهم، سوف يأتون مثل رجل واحد، وسوف يدمرون المدينة، ويزيلون القلاع، ويجتثون البيوت ويسوونها بالأرض، وسوف يستولون على ممتلكات المحاصرين ومن ثم سوف يقتلونهم جميعاً من دون رحمة»، وبعد سماع البابا لهذا الخطاب، قام، مع أنه غضب، وعلى الرغم من أنه كان يكره الشيخ برانكليون، بإرسال رسل خاصين —عن رضا أو من دون رضا— والتمسوا بأعظم تواضع، بأن يكبح غضبه، وأن يوفر أغنانو، التي كانت مدينة طفولته [البابا]، خشية أن يكون موضوع

الكراهية لجميع بني البشر، وبناء عليه تبنى الشيخ الرحمة، وتنازل أمام التماسات البابا المتواضع، مع أنه واجه صعوبة كبيرة في منع الناس وكبحهم عن تدمير جميع العوائق التي واجهتهم.

ومنحت هذه القضية أعظم البهجة والسرور إلى مانفرد الذي كره البابا، ومن ثم تعاطف قلبياً مع الشيخ، وكان مسروراً بشكل خاص لدى رؤيته وهو الذي قام قبل وقت قصير، برمي التهديدات، وزمجر متفوهاً بقرار عقوبة الحرمان الكنسي، قد تواضع الآن وتذلل كثيراً، إلى حد أرغم فيه على طلب السلام، ووعد الأمير مانفرد أيضاً الشيخ برانكليون، بأنه سوف يساعده في جميع أحوال الحاجة، وانحدر صديق الملك هنري وهوى إلى حالة متردية وعزلة، وهو الذي إليه دفع ذلك الملك مساعدة كبيرة جداً مع نجدة عظيمة، وجميع ذلك المبلغ الكبير من المال، الذي كان قد جباه، وأرسله إلى هناك من أجل الحصول على مملكة أبوليا، وكان كافياً لدفع الفوائد وابعادها عنه، وهي الفوائد التي تزحف بسرية حتى قامت بغل الملك غير المدرك وغير الحكيم، وعلاوة على ذلك اتهمه البابا بأنه تولى خداع الكنيسة واستغلها وتطفل عليها، ونتيجة لذلك ساءت سمعته كثيراً لدى جميع الشعوب.

غضب البابا ضدّ ملك إنكلترا

وحوالي الوقت نفسه انفجر غضب البابا ضد ملك انكلترا، لأنه لم يلتزم بوعوده الكثيرة، من أنه سوف يقوّم أخطائه المعتادة، وذلك تحت طائلة عقوبة فقدانه مملكته، وبناء عليه وتحت المطالب الملحة للورانس أسقف روكستر مع آخرين كثر، وبعد كثير من الانذارات غير المثمرة، تبنى فكرة الزمجرة ضد الملك بقرار عقوبة الحرمان الكنسي، ووضع المملكة تحت عقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين، وانزال عقوبات متوالية عليه، تزداد فيها حدة العقاب بالدرجات.

وكـان الملك في حـالة اضطراب عقلي، فدفـع خمسة آلاف مـارك إلى البابا لتهدئة غضبه، ولتأجيل إعلان العقوبة لبعض الوقت، ووافق البابا تحت ضغط التماسـاته ورشاويـه على طلبه هذا، وهكذا أفقـرت انكلترا وجـردت من ثروتها من كل جـانب، وفي الوقت نفسـه مـاتت الآمـال بالحصـول على امتـلاك مملكة أبوليـا، باستثناء أمل واحـد صغير جـداً اعتمـد على نفـوذ رتشـارد الملك الجديـد لألمانيـا، وكـان هذا الأمل في الحقيقـة خفيف جـداً، لأنه لم يكن قـد توصـل بعـد إلى المقـام الامبراطوري.

عودة روستاند إلى إنكلترا

وفي هذه الآونة أيضاً، قدم إلى انكلترا، المعلم روستـاند، كاهن البابا، لكن لأي سبب، لم يكن ذلك معـروفـاً، سـوى أنه جـاء للقيـام بزيارة، ولجمع موارده، لأنه امتلك ثورة•وافرة في انكلترا، كان قد حصل عليها، وأنعم بها عليه في وقت قصير، ولهذا السبب كـان عندما ذهب أخيراً إلى روما حصل على عدم رضا الكثيرين، لابل حتى على غضب البابا نفسه، لكن باستخـدامه العـلاج المعتـاد لتلك الشكوى، نجا من العقـوبة التي أحاقت به وكانت متوقعة.

تكريس ثلاثة أساقفة في كانتربري

في يوم أحد آلام مولانا يسوع المسيح، جرى تكريس ثلاثة أساقفة في كـانتربري، وهم: المعلم سيمون أوف وانتـون Wanton لأسقفية نورويك، والمعلم روجـر أوف ميولان Meulan لأسقفية شيستر، والمعلم وولتر أوف إكستير Exeter لأسقفيـة إكستير، وجـرى انتخاب هؤلاء جميعاً خلال أسبوعين، وجرى تثبيتهم وتكريسهم أساقفة بمهابة صحيحة من قبل بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري.

الترتيبات التي عملت حول التزود بالمؤن بين رئيس رهبان دير القديس ألبان وبين الرهبان

وفي هذا العام نفسه أيضاً، بما أن رهبان دير القديس ألبان قد تشكوا مراراً إلى رئيسهم جون (ولم يكن ذلك من دون سبب جيد) بأنهم لم يكونوا يزودون بشكل صحيح أو نافع بالخبز والجعة من أجل استخداماتهم الخاصة، ومن أجل التوزيع بين ضيوفهم من دينيين وعلمانيين، بحكم أن ذلك الدير قد تأسس لهذه الغاية، أي تقديم وسائل كافية لعيش الأشخاص المتقدم ذكرهم، قام رئيس الرهبان المتقدم ذكره بصرف انتباهه لتدبير علاج ناجع لهذه الحاجة، وبالمحصلة عملت الترتيبات التالية بين رئيس الرهبان والرهبان، وعلى هذا الأساس توجب أن يتسلم الرهبان منذ ذلك الوقت فصاعداً زيادة معلومة وثابتة من الخبز والجعة، وذلك بما يكون كافياً لتقديم منعش معقول وموائم لهم أنفسهم وللضيوف، وجرى تدوين ذلك في صك اتفاقية، ختمت من الطرفين، وتمّ تثبيتها من قبل الملك، ومقابل هذه الترتيبات، واللطف الذي عمل إليهم، قام الرهبان بالتعبير عن شكرهم، فسددوا من قبل أنفسهم وبوسائط رؤساء رهبان الديرة المعتمدة على دير القديس ألبان، ديوناً محددة وصلت إلى مبلغ..... ماركاً، كانت مستحقة على رئيس الرهبان المتقدم ذكره لبعض التجار في القارة، لكن بقي هناك بعض الديون الأخرى الثقيلة التي توجب سدادها من قبل رئيس الرهبان المذكور، وفي سبيل أن تكون تفاصيل هذا العمل الكريم والسخي والذي كان عملاً لطيفاً، أن تكون معلومة من قبل جميع الذين رغبوا في معرفتها، رأينا من الموائم أن ندخل في هذا الكتاب الصك الملكي الذي قضى بتثبيت الاتفاقية المذكورة أعلاه.

صك تثبيت الإتفاقية المتقدم ذكرها

«من هنري الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، وسيد ايرلندا، ودوق نورماندي وأكوتين، وكونت أنجو، إلى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورؤساء الرهبانيات، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات، ورجال العدالة، والعمد، والنواب، والقساوسة، والوكلاء، وإلى جميع المتبقين من رعاياه المخلصين:

قمنا بفحص التدبير والترتيب الذي عمل فيما بين جون أوف هارتفورد، رئيس رهبانيات دير القديس ألبان، ورهبان الدير نفسه الذي نصه كما يلي:

من جون أوف هارتفورد الذي هو بنعمة الرب رئيس رهبانيات دير القديس ألبان إلى جميع الأتباع المخلصين للمسيح، تحيات في الرب:

إنه حق وواجب علينا، أن نقدم موافقة راضية على الطلبات المحقة للمتشكين، وأن نضع رغباتهم موضع التنفيذ تماماً، ماداموا لم يضلوا عن طريق الصواب، ولذلك رأينا من الموائم أن نجعل معلوماً لدى جماعتكم، بأننا سوف نتصرف مثلما عمل أسلافنا رؤساء الرهبانيات في دير القديس ألبان وجعلوا العادة في العصور الخالية توفير امدادات من المؤن فيما يتعلق بالخبز والجعة، من أجل الاستخدامات العامة لرهبان ديرنا المذكور، وأيضاً للضيوف الذين يمكن أن يحدث قدومهم، وسوف تستخرج هذه المؤن من حاصلات بارونيتنا، وكذلك من كنائسنا، التي لنا فيها حقوقاً وقفية، ومن الكنائس الأخرى التي ليس لنا فيها حقوقاً وقفية، وكذلك من مزارعنا ومن الموارد العائدة إلى الدير المذكور.

وقد جرى تحريضنا بمحرضين خيريين مضاعفين، ولقد رغبنا في زيادة كرامة الدير المذكور، وفي تحسين أحوال الرهبان فيما يتعلق بالتزويد بالمؤن المذكورة، وذلك من أجل أن يبقى الرهبان من الآن

فصاعداً بسلام واستقرار إلى الأبد، ورغبنا أيضاً في تحرير رؤساء الرهبانيات الذين سيخلفوننا من تقديم المؤن المذكورة، من أجل عيش الرهبان المذكورين، ولذلك قررنا، مع الخوف من الرب أمام أعيننا، وبناء على الرغبة العامة، ونصيحة ومواءمة رهباننا، بتعيين الحصص المذكورة أدناه إلى الرهبان المذكورين: أي أن تقول كنيستي هارتبورن Hertburn وايلنغهام Eglingham في أسقفية درم، وكنيستي نورتون ووالدون Waldon, وبأربعين شلناً، سوف يدفعها الآن قسيس والدون سنوياً، وأيضاً العشور، مع القش الذي نتسلمه بالعادة في أسقفية واتفورد Watford, مع عشر ماركات من قسيس واتفورد للوقت الحالي، وكذلك كنيسة هونتون مع ستة ماركات سنوياً من قسيس بوتغريف Potsgrave, مع ماركين ونصف المارك من كنيسة هارتبورن، في أسقفية لنكولن، وأيضاً مع ستة ماركات من قسيس أبلتون Appleton في أسقفية يورك، وكذلك جميع التقديات التي تأتي من احتفالي القديس ألبان، وكذلك عزبة كنغبري Kingsbury, مع جميع متعلقاتها، وكذلك أيضاً مع خمسة رجال في بلدة وستويك Westwick, مع سماد ساحة كنيسة القديس ألبان لتحسين أوضاع العزبة المذكورة، عندما يرون ذلك مناسباً.

وينبغي أن يكون معلوماً أيضاً أن القمح والشعير المنقوع العائد للدير المذكور يتوجب أن يطحن في مطاحننا في داخل ساحة كنيسة القديس ألبان وفي خارجها أيضاً، من دون نفقات، بحكم أنه قمحنا، والاعفاء من المطالبة بأية نفقات من الدير المذكور من أجل إصلاح أحجار الطواحين، أو الطواحين، أو المياه، أو على أي أساس آخر، ولسوف نوفر للدير المذكور البيوت المواتمة، التي سوف تكون ضرورية من أجل التخمير والخبز، ومن أجل عمل الشعير المنقوع، وأيضاً من أجل خزن

القمح، ومن أجل إيواء خيولهم، مع جميع الأدوات الضرورية لجميع القضايا المذكورة أعلاه.

وفيما يتعلق بعزبنا، حيث سوف توضع العشور المذكورة، سوف نوفر بيوتاً مناسبة من أجل خزن القمح و القش، ومن أجل إقامة رجالهم وخيولهم، وكذلك جميع الآنية الضرورية لطبخ أطعمتهم، وكذلك الأخشاب من أجل وقودهم بكميات كافية في كل من داخل ساحة دير القديس ألبان وخارجها، والمواد أيضاً من أجل ترميم البيوت المتقدم ذكرها، الأمر الذي هو بالغالب ضروري، ولسوف نقوم نحن وخلفاؤنا بضمان، وبتسديد، وبالدفاع على نفقتنا، لصالح الدير المذكور وضد جميع الناس، عن الحصص المتقدم ذكرها، مع جميع متعلقاتها، وتسكين وتحرير المتقدم ذكرهم، ولسوف نتحمل إلى الأبد جميع التكاليف العادية وغير العادية في الكنائس المتقدم ذكرها، وكذلك أقساط التعويضات، حيثما يكون مثل ذلك.

وفي سبيل المزيد من الأمان لهذه الاتفاقية، قررنا التفوه بحكم الحرمان الكنسي ضد جميع الذين سوف يقومون بناء على تحريض من الملك أو من البابا، أو بدافع شخصي بخرق، أو التسبب بخرق الأحكام التي تقدم ذكرها، مالم يحدث أن تتم التغييرات بناء على الموافقة العامة وكذلك الغربة لكل من رئيس الرهبانية مع جميع رهبان الدير، في سبيل الصالح الأعظم والمنفعة الأكبر للدير ولكنيسته.

ونحن علاوة على ماتقدم سوف نقوم بمحض إرادتنا، وبناء على الموافقة العامة لإخواننا الرهبان المتقدم ذكرهم، برهن أنفسنا إلى كل من الملك (الذي هو ولي نعمتنا) ولورثته للمستقبل، وإلى البابا وخلفائه كما يلي، أي أن تقول إذا قمنا نحن أو خلفاؤنا، في أي وقت من الأوقات، بالتجرؤ على الاقدام بطيش على تغيير الأحكام المتقدم ذكرها، سواء كلياً أو جزئياً (لاسمح الرب بذلك) وكان ذلك من دون الموافقة العامة

لرهبـان الدير المتقـدم ذكره، كما أوضحنا أعـلاه، يمكن للملك وورثتـه الاستيلاء على بارونيتنا، وكما يمكن أيضاً للبابا ولخلفائه بوساطة الروادع اللاهوتية، أن يـرغمنا بشكل فعال على الالتزام الدقيـق بالأحكام المتقدم ذكرهـا، وكذلك بوسـاطة جميع الوسائل التي يرونها مـوائمة، وبوسـاطة الوسائل الشرعيـة المتوفرة لـديهم، وفي سبيل أن تمتلك جميع المواد المتقدم ذكرها قوة كـاملة إلى الأبد، وضعنا أختامنا، وكذلك ختم ديرنا على هذا النص المكتوب. صـدر في كنيسة القديس ألبـان، أثناء اجتماع كامل الهيئة الرهبانية، في يـوم الجمعة، الذي جاء بعد عيد القـديس متى الرسول، في سنة ألف ومائتين وسبع وخمسين لتجسيد ربنا».

تثبيت ماتقدم أعلاه من قبل الملك

«وبناء على الفحص الذي أمـرنـا بعمله، علمنا بأن الشروط والأحكام سوف تكون لصالح عتقنا وتقـدمنا وورثتنا، نحن نصدق، ونمنح، ونؤكد الشيء نفسه لأنفسنا ولورثتنا، حسبما تقـدمت كتابة الوثيقـة المعمولة بيننا، ونشهد.

ولتقديم برهان آخر حول ذلك، إن ارادتنا، ونحن نمنح باسمنا وباسم ورثتنا السلطة إلى رئيس الرهبانية وإلى الرهبان الديريين للمكان نفسه، أنه في حال استقالة أو مـوت رئيس الرهبانية المذكور، أو رؤسـاء الرهبان من خلفائه في كنيسة القـديس ألبان المتقدم ذكرها، بأن يمتلكوا وأن تكون بين أيديهم بصـورة حرة مع الاستحـواذ السلمي، إلى الأبد، في أوقات شغـور رئاسة الـرهبانية المذكورة، أو في الأوقات الأخـرى، استحواذ وتملك جميع الحصص المتقدم ذكـرها، للاستخدام كما تقدم الذكر أعـلاه، وأن يرتبوهم حسب رغباتهم، من دون أية إعاقـة من جانبنا، ومن جانب ورثتنا، أو أي واحـد من نوابنا أو مـوظفينا الآخـرين، كما أننـا لن نسمح للأحكام التي تقـدم ذكـرها، والمتعلقـة بالـدير المذكـور، بأن يجري تغييرها أو الاعتـداء عليها، بأية طريقة من الطرق من قبل أي من نوابنا أو موظفينا الآخرين».

أسماء الشهود الخاصين

وكان الشهود: غيوفري أوف لوزغنان، ووليم دي بلنسية، أخوينا، وسيمون دي مونتفورت— ايرل ليستر، ورتشارد كلير Clare- ايرل أوف غلوستر وهارتفورد، وروجر بيغود— ايرل أوف نورثأمبرلاند، ومارشال انكلترا، وبطرس أوف سافوي، وهوغ بيغود، وجون مانسيل، وخازن يورك، وفيليب لوفل، وهنري أوف باث، وروبرت ويلران، ووليم دي غري Gray, وولتر أوف ميريتون Mereton, وهيوبرت بوغي Pogeys, مع آخرين كلهم كانوا حضوراً. صدر تحت يدنا في ويستمنستر في هذا اليوم الثامن من آذار، في العام الثاني والأربعين من حكمنا».

من الذي كان وراء تحقيق الإتفاقية المتقدم ذكرها

وتحققت هذه الترتيبات لصالح الرغبات الفعالة لرئيس الرهبانية المتقدم ذكره من خلال متابعة ونشاط وبراعة وليم أوف هورتون Hor-ton الحاجب، وجون بولوم Bulum حامل الختم، اللذان امتلآ بالغيرة والحماسة في خدمة الرب، والعاطفة نحو إخوانهم، وجرى تعيين المعلم وليم أوف هنتنغدون Huntingdon باسم السدير معلماً من أجل الضيوف، ووصياً على الممتلكات المتقدم ذكرها، وعلى النظار الاقليميين.

عودة روستاند من بلاط روما

وفي حوالي منتصف الصوم الكبير، عاد المعلم روستاند من بلاط روما، وقد جرد من سلطاته الماضية، لأنه تعرض إلى الاتهام أمام البابا من قبل أعدائه، بالتعطش إلى المال والشره، والطريقة غير السوية، وبوضعه جانباً كل الغضب من الرب، حيث استولى على كثير جداً من الموارد الغنية، وبذلك رفع من شأن نفسه فوق نفسه، ولدى استحواذه

على هذه الأملاك والموارد، ولكي ينال الحظوة الكبيرة لدى الملك، أكد بأنه كان من أهل بوردو، ونتيجة لذلك هو من الرعايا الطبيعيين للملك، ولذلك سوف يقدم إليه مساعدة فعالة ومستمرة في بلاط روما، وفي كل مكان آخر، وفي الحصول على السلطة في أبوليا، وفي ترتيب الأمور الأخرى العائدة إلى الملك، وبوساطة مثل هذه الوعود والكلام الناعم اللطيف فرض نفسه على سذاجة الملك، وبذلك أثرى بوساطة كثير من أعطيات الموارد، ولكن بعد لأي، وبناء عل مبادرة من بعض أعدائه استدعي للعودة إلى روما، وهناك جرى تقريعه بحدة من قبل البابا بسبب سلوكه وتصرفاته، وقد وجد صعوبة كبيرة في استرداد حظوته مثلما كان من قبل، وجرى على كل حال تجريده من منصبه، وسلطته وتمت إهانته.

وصول المبعوث البابوي هيرلوت إلى إنكلترا

وبعد ذلك على الفور، أي أن تقول في الأسبوع التالي قبل الفصح، قدم إلى انكلترا المعلم هيرلوت Herlot، وكان كاهناً كاتباً للعدل، وخاصاً للبابا، وهو وإن لم يطلق عليه اسم نائب بابوي، أظهر جميع أبهة وفخامة واحد من هذا القبيل، وقد وصل إلى لندن يحيط به عشرون من الأتباع على الخيول، وكان الأشخاص المقربون إليه من الأتباع يرتدون ثياباً ثمينة، مع ثمانية (؟) أردية، أي أن خمسة منهم ارتدوا أردية ضيقة من دون أكمام، وخمسة مع أكمام، وكما جرت العادة، حياه الملك باحترام لدى وصوله، لأنه كان مزوداً بأعظم الصلاحيات والسلطات.

وصول بعض السفن إلى إنكلترا وهي محملة بالقمح

وفي الوقت نفسه أيضاً، وعندما كانت هناك مجاعة غير اعتيادية منتشرة ومستبدة إلى درجة أن أعداداً كبيرة تلاشوا في أنفسهم وماتوا، وقد بيع مكيال القمح في لندن مقابل تسعة شلنات أو أكثر، في هذا

الوقت وصلت حوالي الخمسين سفينة كبيرة إلى انكلترا قادمة من القارة، وقد جرى ارسالها من قبل رتشارد ملك ألمانيا، وهي محملة بالطحين والخبز، ووقتها جرى عمل إعلان من قبل السلطات الملكية، تحظر على أي مواطن من لندن بيع أي قمح من أجل الخزن، مع التفكير ببيعه بأسعار عالية إلى الذين بحاجة إليه، وذلك كما اعتادوا أن يمارسوا ذلك، وفي الحقيقة، كان المواطنون المذكورين، مشهورين بسوء السمعة، بقيامهم في وقت الحاجة، إما بشكل خياني بإرسال سفن محملة بالمؤن وابعادها، أو بالقيام بشراء حمولاتهم كلها، من أجل بيعهم حسب هواهم إلى الذين يريدون مثل هذه المواد للعيش والاستهلاك، وقد أفيد بما هو حقيقة مؤكدة أن ثلاثة مناطق من انكلترا متحدة مع بعضها لم تنتج مثل ذلك القدر من القمح، الذي جلب بوساطة هذه المراكب، لكن نظراً لندرة الأموال، ومع أنها لطفت إلى حد ما من آثار المجاعة، التي كانت عامة في جميع أرجاء انكلترا، إنها لم تُزل مؤثرات المجاعة تمام الإزالة، لأن الملك قام في سبيل الإضرار بمملكته، التي كانت قد جردت من ثروتها من قبله، فرفع من شأن جميع الأجانب وأغناهم، وهم الذين اختاروا القدوم إلى هناك.

الطبيعة المدهشة للفصل

في هذا العام نفسه، استمر المناخ الهادىء للخريف حتى نهاية كانون الثاني، وعلى هذا لم تتجمد مياه وجه الأرض في أي مكان خلال ذلك الوقت، لكن انطلاقاً من ذلك الوقت، أي أن تقول من عيد طهارة العذراء المباركة حتى نهاية آذار، هبّت الريح الشمالية من دون انقطاع، وانتشر الصقيع المستمر، مترافقاً مع ثلج، ومع برد لايحتمل، لف وجه الأرض، وتأثرالفقير بشدة، فجرى تعليق جميع أعمال الزراعة، وقتل صغار الضأن، إلى درجة بدا فيها الحال وكأن هناك طاعون منتشر بين الأغنام والخرفان.

الأوضاع المزدهرة لرتشارد ملك ألمانيا

أخضع رتشارد ملك ألمانيا أعـداءه، وجذبهم وربطهم بقضيته بحكمة كبيرة، بلغت حـداً أن المدن الايطاليـة الفخمة قـدمت إليـه اليـد اليمنى للصداقـة، أما بالنسبة لتهـديدات أعدائـه، وبصورة خاصـة: الفرنسيين، والاسبان، وشعب تريف، والمناطق المجاورة، فكانت أيضـاً صامتة، مع أنهم نووا إلحاق الضرر به.

وصول توماس أوف سافوي إلى إنكلترا

في أسبوعي عيـد الفصح، قدم إلى لندن، تومـاس الذي كان من قبل كونت فـلاندرز، وهو محمول على محفة، لأنه كان في حـالة صحية سيئة، وقـد أطلق سراحـه من سجن توريـن، ومنح الحرية مقـابل التبـادل مع بعض تجار أوستي، الذيـن جـرت فـديتهم مقـابل مبلغ كبير من المال، وكان الملك الفـرنسي، قد عمل كثيراً من هؤلاء التجـار سجناء بناء على طلب البـابـا، وأرغمهم على فـداء أنفسهم، حتى يطلـق سراح تومـاس المتقـدم ذكـره، وينال حـريتـه للعـودة إلى انكلترا، حيث سيتسلم هدايا وافرة.

الغرامة الثقيلة التي فرضت على مواطني لندن

وجـرى اتهام مواطني لندن ببعض المخـالفات نحـو الملك، فعوقبـوا بطرق مضـاعفة، وأرغمـوا على فـداء أنفسهم، وإنهم حتى بعدمـا فعلوا هذا وجـدوا صعوبة كبيرة في استرداد حظـوة الملك، وكان المقـدم بينهم هو رالف هيردل Hurdel, وكان عمدة المدينة، وقد مات حزناً.

انتهاء الهدنة بين الإنكليز والويلزيين

وانتهت في هذا الوقت الهدنة بين الانكليز والويلزيين، وضغط أعوان الملك عليهم من دون رحمة حتى أنهم باتوا غير قـادرين على شراء الملح،

والقمح، أو أية ضروريات أخرى، وقام الويلزيون على كل حال باستغلال انشغال الملك واهتمامه بنزاعه مع نبلاء سكوتلندا، الذين كانوا قد رفعوا رؤوسهم ضدهم، وذلك مع أسقف درم، الذي استدعي للظهور في بلاط الملك، فرفض بتمرد المثول هناك، وكدس الأذى فوق الأذى، فزاد الويلزيون من أعمال نهبهم، وخرقوا وتوغلوا خلال حدود ويلز واجتاحوها للتزود بما كانوا بحاجة إليه.

كيف جرى حشد فرسان إنكلترا ضدّ الويلزيين

وفي حوالي الوقت نفسه، دعا الملك جميع فرسان انكلترا بوساطة مذكرة ملكية، وأمرهم بأن يكونوا جاهزين مع الخيول والسلاح، من أجل القيام بحملة عامة على ويلز، وسحق الويلزيين واجتياح أراضيهم إلى حد تدميرها كلياً، وعندما جرى استدعاء الفرسان، عبروا عن أساهم، لأنهم غالباً ماخضعوا للخسارة، وظلموا بنفقات بلافائدة.

البارلمان الذي عقد في لندن

في اليوم الذي جاء بعد يوم الثلاثاء، الذي يعرف بشكل عام باسم Hokeday, تمّ عقد بارلمان في لندن، لأن الملك كان مضغوطاً عليه بالقلق حول قضايا كثيرة صعبة، كان من بينها قضية مملكة أبوليا، التي حولها وبشأنها، جرى بعث المعلم هيرلوت بمهمة خاصة، ليحصل على جواب حاسم حول القضية، وعلاوة على ذلك طولب الملك بمبلغ كبير من المال، لدفعه ربط البابا نفسه ببعض التجار، وذلك لصالح الملك، وبناء على طلب ملح منه، وكان الملك مغلولاً بعقوبات ثقيلة، ثقيلة إلى حد أنني أعتقد أنه عمل غير كريم الاتيان على ذكرها، وكان مبلغ المال المطلوب ضخماً جداً، سوف يسبب الدهشة والرعب لكل من يسمع برقمه، وحزن نبلاء المملكة حزناً كبيراً، لأنهم أنزلوا إلى حالة الدمار هذه، بسبب السذاجة المتناهية لرجل واحد.

وكـان الملك —علاوة على ذلك— شـديد الغضب بسبب الويلزيين، الذين تفاخروا بأنهم آذوه مراراً وتكـراراً، وصدوه مراراً مع جيشه كله، وأنهم غالباً ما حصلوا على النتيجة الأفضل في القتال عندما واجهو نبالة انكلترا كلها، وأضـاف إلى غضبه وحنقه، أنه سمـع، أنه مع انتهاء الهدنة في حـوالي أيام عيد القـديس ايلفيجي Elphege, بأنهم استأنفوا نظامهم في النهب، والقتل، والحرق، وأنهم عملوا غارات نفذوا فيها إلى كونتيه بمبروك Pembroke, حيث قتلوا عدداً كبيراً من السكان بشدة كبيرة، وأنهم كدسوا الاهانات، وسـوء المعاملة على الذين سمحوا لهم بالنجاة بأرواحهم، وحول هـذه الإجراءات اشتكى وليم دي بلنسية بصـورة ثقيلة إلى الملك، وعليـه ردّ الملك قـائـلاً: «أنفق ياأخي الحبيب بعضـاً من المال الذي تملك منـه كميـات كبيرة، لتنتقم لأضرارنا»، لكن وليم اكتفى فقط بتكديس التهديدات فـوق التهديدات، وأضاف الإهانة إلى الإهانة، وأعلن بأن هذه الأشيـاء كلهـا قـد وقعت بناء على مـوافقـة ورضا الانكليز الخونة، وبعد وقت قصير فصّل مـا كان تفوه به من قبل باضطراب، وقدمـه بمثابة ملاحظـة عامة، وشعـر تجاه هذه التهمة ايرل غلوستر وايرل ليستر بكثير مـن الخجل والغضب، ومع ذلك تـابع وليم التفـوه بالسباب ضـد ايرل ليستر، وتجرأ بحرارة أكبر بشكل مكشـوف، وبحضـور الملك والنبلاء، على التأكيـد على أن الايرل كـان خائناً قـديماً وكـذاباً، وأمام هذا إلتهب الايرل غضبـاً وسخطاً، وردّ قائـلاً: «لا، لا، ياوليم، أنا لسـت ابن خـائـن، كما أنني لست نفسي خـائناً، ووالدينا لم يكونا مثل بعضهما»، ثم إنـه رغب بأخـذ انتقـام مباشر تجاه هذا الأذى الكبير، وسعى لكي ينقـض على وليم، لكنه منع من قبـل الملك نفســه، الذي فصـل بينهما، ولكن بصعـــوبة كبيرة، وهكذا هدأ غضـب الايرل لبعض الوقت.

وسوف لن تكون مسألة سهلة إحصاء المضار التي اقترفت في جنوب

ويلز، أثناء الصراع الأخير ضد الويلزيين، ويكفي أن نقول، بأن الذين كانوا المنتصرين، وضعوا داخل الملح القمح والحاجيات الأخرى الضرورية، التي كانوا من قبل بحاجة إليها.

اجتماع الفرسان للزحف ضدّ الويلزيين

في اليوم التالي وخلال الأيام التي تلته عقد الملك والنبلاء مداولات دقيقة، حول كيف ينبغي عليهم القيام بسحق تمرد الويلزيين، وكيف يمكنهم ذلك، وايقاف غاراتهم المتوالية، وبناء عليه جرى حشد كل جماعة الفرسان، من أجل أن يقوم الذين عليهم التزام تقديم خدمة فروسية إلى الملك، بتجهيز أنفسهم بالخيول والسلاح، وأن يكونوا جاهزين في شيستر، ليسيروا وراء الملك في حملة إلى ويلز، في يوم الاثنين قبل عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ونتيجة لذلك تمّ سماع الكثير من الاشاعات والشكاوي بين الناس، لأن الملك قام مراراً وتكراراً بافقار نبلائه وانهاكهم من دون كرامة أو ربح، وذلك عن طريق طلب ضريبة الخدمة العسكرية مراراً كثيرة منهم، وازعاجهم لدى اقتراب موسم الحصاد، خاصة عندما كانت مجاعة غير اعتيادية قد دمرت كثيراً من الناس.

وأولى الملك قليلاً من الاهتمام لمخاطر المملكة، ومع أنه كان مجرداً تماماً من المال، وكان على وشك الانخراط فوراً في حرب، قام الآن وبكل سرعة بدفع ألف مارك إلى توماس أوف سافوي الذي كان من قبل كونت فلاندرز، والذي وصل مؤخراً محمولاً على محفة، حيث كان في وضع صحي متدهور، كما أنه أعطى مائتي مارك إلى أحد البواتيين، الذي كان يخدم بالعادة على المائدة الملكية، ويقوم بتقطيع اللحم له، ولم يهتم هذان بالمخاطر الكبيرة التي كانت المملكة عرضة إليها، فتسلما جميع أعطياته بأيدي مفتوحة.

وما أن شعر توماس بأن حافظة نقوده قد امتلأت، حتى قام بوداع الملكة (التي لم يرفض أعطياتها مثلما لم يرفض أعطيات الملك)، وعاد على الفور إلى القارة، بقصد تدمير مدينة تورين، من دون اهتمام بالرهائن الذين كانوا محبوسين هناك، وكان اسم البواتي المتقدم الذكر وليم دي سينت هرمس Hermes, الذي لم يقم بالمغادرة في الوقت الحالي، بل بقي متوقعاً هدايا أكثر.

تكريس روبرت دي تشوز أسقفاً لكارلآيل

في يوم عيد القديس تيبورتيوس Tiburtius وأصحابه، جرى تكريس المعلم روبرت دي تشوز Chause, الذي كان كاهناً للملكة، أسقفاً على كارلآيل من قبل أساقفة: باث، وسالسبري، وبيرموندسي Bermondsey, في لندن.

وفاة رئيس أساقفة أرماغ

ومات في الأسبوع نفسه في لندن رئيس أساقفة أرماغ Armagh, وهو الذي كان من قبل عميد كنيسة القديس بولص.

اضطرابات رئيس أساقفة يورك

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، ألقى البابا يده الثقيلة على رئيس أساقفة يورك، الذي كان وضعه بالنسبة إلى العالم قد تأذى كثيراً، لكنه تحسن كثيراً في نظر الرب، لأن صبره قد ازداد تناسباً مع أعمال التنكيل المضاعفة له، وهكذا بات مستعداً للاستشهاد في سبيل تحقيق نبوءة القديس ادموند رئيس أساقفة كانتربري، وفي الحقيقة لقد قرأنا بأن كثيرين قد تسلموا تاج الشهادة من دون سفك دمائهم، لأنه بالاضافة لكثير من الذنوب اقترفوها بحقه، حرموه الآن من امتياز حمل الصليب أمامه من قبل كاهنه الرئيسي، حسبما جرت العادة، ومع ذلك استمر يرفض الركوع أمام بعل، وأن يتخلى عن المنافع الرئيسية لكنيسته لأناس

غير جـــديرين، لابل أجـــانب غير نظيفين، مثل الذي يـرمي اللآلىء إلى خنزير.

كيف هوجم أسقف هيرفورد بمرض تمعط الجلد

تعـرض أسقف هيرفـورد لزيارة تفقـديـة من قبل الرب، فقـد تشوه بأكثر الأمـراض قذارة، الذي يدعى تمعط الجلـد، وذلك نتيجة لأضراره الخيانية لمملكة انكلترا كلها.

كيف أعطى إدوارد عزبه إلى وليم دي بلنسية

تخلى ادوارد الابن الأكبر للملك عن أراضيه وعن العزب الغنية، التي كـان قـد تلقـاها هدية من أبيـه، وهـم: عـزبتـا ستـانفـورد Stanford, وبراهام Braham وعــزب أخــرى كثيرة، وتركهم معـــروضين وكأنهم للضمان بعهدة وليـم دي بلنسية، الذي امتلك كميـات وافرة من الأموال، وفعل ادوارد ذلك حتى يتمكن بهذا من الحصول على المساعدة التي كان يحتاجها، ولارضـاء شره عمه وحبه للمال، وسبب هذا الإجراء نذير شـؤم محزن بالنسبـة لمستقبل الاثنين، لأنـه بالنسبـة لوضع الشـاب، أظهر أنه عندما سيصل إلى السلطة الكاملة للمملكة، سوف يضيع ويبدد ثرواتها، وبالنسبة لقضية وليم، أنه سوف يتم تجريده من ثرواته الخيالية.

وصول الراهب الفرنسيسكاني مانسيوتوس في مهمة من البابا

وحـوالي الوقت نفسـه وصل إلى انكلترا، بناء على مبـادرة من الملك، راهب من طائفـة الفـرنسيسكان اسمـه مـانسيـوتوس Mansuetus, وقـد أرسل مـن قبل البـابا، مـزوداً بسلطات كبيرة، وقــد تبع خطوات المعلم هيرلوت، وكانت سلطاته في الحقيقة، قد وصلت إلى درجة —كما قيل— أنه قام بتحليل شيعـة الملك، أياً كانوا، عندمـا كانوا يودون تغيير تعهداتهم [بأن يكونوا صليبيين]، أو عندما جـرى حرمانهم كنسياً، لابل حتى تســويغ المتكلمين زيفــاً والحانثين بأيمانهم، ونتيجـة لـذلك امتلك

كثيرون الجرأة والوقاحة في اقتراف الذنوب، لأن سهولة الحصول على الغفـــران أعطت سببـــاً لاقتراف الذنـوب، لكن فيها بين العقـــلاء والأشخاص الحكماء قد أعطى هذا وسبب نشـوء الاستهزاء والسخرية، كما سوف تظهر الرواية التالية بشكل كامل.

الجواب الذي أعطي من البارلمان إلى الملك

وانعقد البارلمان الذي تقدم ذكـره في هذا الوقت، وقام الملك بالمطالبة بسرعـة وإلحاح بمبلـغ كبير من المال من أجل الانفـاق على شـؤونه في أبوليا، وفي سبيل متـابعة مشاكل أخـرى صعبة، وقام النبـلاء على الفور بالاجابة بثبات وبالاجماع، بأنهم لايستطيعـون الاستجابة بأية طريقة من الطرق من دون تدمير أنفسهم بشكل لايمكن جبره، لأنه تولى بالغـالب استنزاف أنفسهم، وغالبـاً ما أنفق حتى القليل الذي يمتلكـونه للانفاق على عيشهم، وكان ذلك من دون فائدة، فهو إن حصل على مملكة أبوليا من البابا إلى ابنه ادموند بطريقة غير صحيحة وغير حكيمة، لابد من أن يعزو ذلك إلى سذاجته، ولابد من أن يوصل القضية إلى النهاية الأفضل التي يستطيعهـا، لأنه تصرف بصـورة غير حكيمـة ومن دون الحصـول على نصيحة نبلائه، ومثل ذلك رفض جميع المداولات والعقلانيات التي تنظر بشكل عام إلى نتـائج الأعمال مسبقاً، ولقـد توجب عليه أن يكون قد تعلم على الفور أن يكون حكيماً، وأن يحذو حـذو أخيه رتشارد ملك ألمانيا، الذي عندمـا عرضت عليـه المملكة المذكورة أي أبوليـا، وقدمت إليـه أعطيـة من البابا، وجـرى إرسـال المعلم ألبيرت لإعـلان ذلك له، رفضها على الفور باستخفاف، وخـاصة وأن انكلترا كانت مفصولة عن أبوليا بعدد كبير غير معروف من الممالك تستخـدم لغات متنوعة، وبعدد كبير جـداً من الامـارات، وكذلك بعـدد كبير من المدن المجهـزة بشكل جيد بالجنود والسـلاح، وببحار وجبال، وببلدان واسعة، متعبـة جداً أن تسافر عبرها.

والذي خافه الايرل رتشارد أكثر من أي شيء آخر، وكان ذلك لسبب منطقي، تعلق بالسلوك المراوغ للبلاط الروماني، والخيانات المضاعفة للأبوليين، الذين دمروا حلفاءهم وأقرباءهم بالسم، ولكن حتى لايظهر وقحاً تجاه البابا، الذي بسبب مقامه هو أعلى من جميع الأمراء والأساقفة، والذين صدوراً عن الصداقة قد انتخبوه، كتب الايرل بسبب ذلك المقام السامي، جواباً إلى البابا بأنه سوف عن طيب خاطر يوافق على خطته، إذا ما سمح البابا لجميع الصليبيين بمساعدته وهو أمر يستطيع ترتيبه بسهولة على أساس مدينة نوسيرا في أبوليا، التي كانت مسكونة من قبل المسلمين، وأن يعطيه نصف النفقات التي سيتحملها في تلك الحرب، وسوف يعطيه ملكية بعض المدن والقلاع التي كانت آنذاك ملكاً للبابا، وذلك مع رهائن جيدين، وذلك في سبيل أنه عندما سيأتي إلى هناك سوف يجد أمكنة آمنة للالتجاء، والحماية فيهم ضد المتمردين، أو ضد أي واحد سوف يثور ضده، وإذا —علاوة على ذلك— مامنحه الحماية بوثائق مدونة مختومة بالختم البابوي العظيم.

كيف فرض البابا الأمر خداعاً على ملك إنكلترا

وعندما جرى اخبار البابا بجميع هذه المطالب، رفض الموافقة عليهم بأية طريقة من الطرق، ولذلك أرسل بشكل سري رسلاً، كانوا قادرين تماماً على اخضاع عقول المستمعين إليهم، بوساطة دهاء حججهم، ويمكنهم أن يفرضوا أنفسهم خداعاً على فسولة الملك وعلى سذاجته المتناهية، بمنح مملكة أبوليا إلى ابنه الأصغر ادموند، ووعدوه بمساعدة فعالة في ايصال القضية إلى نهاية صالحة، وبهذه الوعود الفارغة فرح الملك إلى أبعد الحدود، وشعر بسرور عارم، إلى حد أنه منح البابا ورسله كل الذي كان بحوزته، وكل ما كان بإمكانه الحصول عليه، بأية وسيلة من الوسائل، وبثقة وسرية وعد بالمزيد.

ونتيجة لهذا تنافس رسل البابا أحدهم مع الآخر بالفعل، حول

القدوم إلى انكلترا إلى عند الملك، من أجل الحصول على الهدايا الثمينة للملك، لأنهم شموا عن بعد الرائحة الطيبة لأمواله، فقد جاء أولاً أسقف بولونا الذي قام باسم البابا بمنح ادموند المذكور مملكة أبوليا واسنادها إليه بوساطةخاتم، ثم جاء رئيس أساقفة ميسينا، الذي لم يعد فارغ اليدين، وجاء من بعده على التوالي جون أوف ديفا، ثم المعلم برنارد، ثم المعلم برنارد أوف سيينا، ثم روستاند، وبعده هيرلوت، ثم عدد كبير آخر، لكثرتهم يصعب ذكرهم، وكل واحد منهم استقبله الملك بأعظم الموارد والتشريف، مما ألحق الأذى وسبب الدمار لمملكته كلها، ولذلك أثير النبلاء تجاه صمت وفسولة الأساقفة، وسعوا لتنظيم إجراءات الملك، لو أنهم تمكنوا من فعل ذلك بأية وسيلة من الوسائل.

موت رئيس أساقفة تريف

وفي هذه الآونة نفسها، مات رئيس أساقفة تريف، الذي كان قد شكل حلفاً مع دوق برابانت وكان معارضاً لملك ألمانيا.

كيف جرى منح الملك مساعدة مالية

بما أن نبلاء المملكة قد قدموا جواباً قاطعاً بالاجماع لطلب الملك المستعجل للحصول على مساعدة مالية، وقد صرحوا أنهم لايستطيعون وكذلك لايرغبون بالخضوع أية مدة أطول لمثل هذه الاستخراجات، لذلك حمل الملك نفسه غاضباً، وتحول نحو أساليب ماهرة أخرى، لجرف مبلغ كبير من الكنيسة، ولذلك توجه بالخطاب في المقام الأول، إلى رئيس رهبانية دير ويستمنستر، وأداره بوساطة وعود خادعة ليحرك حماسه وحماس رهبانه إلى عمل مدون، وبناء عليه أصبح ضامناً للملك بمبلغ ألفين وخمسمائة مارك، في سبيل أن يقدم مثلاً شنيعاً، يمكن أن يعطيه الوسائل لاستخراج مثل ذلك المبلغ من الديرة الأخرى.

كيف جرى إرسال سيمون باسليف بمهمة إلى مختلف رئاسات الرهبانيات لاستخراج المال منهم

ثم إن الملك أرسل بكل سرعة سيمون باسليف، مع هذه الرسائل إلى الديرة الأخرى، من أجل أن يقوم رؤساء رهبانهم بالتعهد بحمل الحمل نفسه، وأساء الملك بهذا الإجراء وأضر بسمعته إلى درجة عالية، لأن العمل بحد ذاته أظهر إلى أي مدى كان متشوقاً لظلم الكنيسة من دون رحمة، وقام سيمون باسليف، البارع والكذاب، الذي كان محاسب الملك ومستشاره، في سبيل اشباع رغبته في تنفيذ أوامر الملك، حتى وإن كانت غير موائمة وغير صحيحة، فذهب بكل سرعة إلى وولتهام Waltham, وقدم رسالة الملك، والتمس من رئيس الرهبان والرهبان في وولتهام التعهد بالقيام بالواجب نفسه مثل الذي فرضه رئيس رهبان ويستمنستر على نفسه عن طواعية، أي بالكتابة بيده وبأيدي الرهبان بأن يكونوا ضامنين للملك لدفع مبلغ سبعمائة مارك لصالح الملك.

وأراهم أيضاً الرسائل المصدقة حول هذه القضية، والعائدة إلى رئيس رهبان دير ويستمنستر مع المجمع الرهباني للدير نفسه، وهي تحمل أختامهم، ولدى مشاهدة ذلك، ارتعب رئيس رهبان دير وولتران كثيراً، وسأله عما إذا كانت هناك رسائل مماثلة موجهة إلى الديرة الأخرى، فأجابه سيمون: «في الحقيقة أنا لدي رسائل إلى دير القديس ألبان، وإلى دير ردنغ، وإلى الأماكن الأخرى»، ثم إن رئيس الرهبان شرع بالتشاور مع رهبان الدير في مقر الهيئة الرهبانية، وأعطى أخيراً إلى سيمون الفهم، في جواب لطلبه، أنه مهما كان نوع التصرف الذي قام به حول هذه القضية رئيس رهبان دير ويستمنستر والرهبان (الذين أظهروا بحكم الضرورة المراعاة للملك، لأنهم كانوا ملزمين بإطاعته في المسائل الصعبة، بحكم كونه المجدد لكنيستهم) هو لن يكون بأي حال من

الأحوال كفيلاً، أو سيتعهد بنفسه بأية طريقة من الطرق بدفع مثل ذلك القدر من المال إلى الملك، «لأنه مـا من أسقف كان مسموحـاً له وفقاً لما هو مدون في المراسيم البابوية، في مادة الالزامات، أن يخضع كنيسته لمثل هذا الخطر والمخـاطرة»، وعلى هذا الكلام أجابه سيمـون: «الملك سوف يعطيك أية ضمانة ترغب بها، تكون مكتوبـة، من أجل تحديد دفع مالك وتأكيـد ذلك»، لكـن رئيس الرهبـان رد عليـه قـائـلاً: «نحن لانرغب بوجـود أية مناسبـة للخلاف مع الملك، أو أن نتـورط بدعـوى قضائيـة معـه، لأننا لانمتلك الامكانـات للتنازل معـه على أرضيـات متسـاوية، ونحن لايمكننا جلبـه إلى القضـاء أو أن نفـرض عليـه الدفع، إذا كـان ضعيفـاً بما فيه الكفـاية بالإصغاء إلى رأي ضـال»، وهنا أضاف سيمـون قائـلاً: «أشفقوا من أجل خاطر الرب، أشفقوا على مـولاكم، وحاميكم الخاص، لأن بيعتـه سـوف توضع على الفـور تحت عقـوبة الحرمـان من شراكـة المؤمنين، يعنـي أن تقـول إن ذلك سيكون خـلال ثلاثة أيام أو أربعة، ولسـوف يتبع ذلك إجراءات أقسـى، مالم توافقوا على التماسـاته، وكما تعلمـون بشكل جيـد، هـو أحسن المسيحيين، والأكثـر تقـوى بين الملوك، ولن يرغم على الاقلاع عن الالتزام بتنفيذ الواجبات الدينية، من أجل أي مبلغ مهما كان من الذهب الصافي.

كيف ذهب سيمون باسليف إلى رئيس رهبان ورهبان دير القديس ألبان

وبما أنه لم يستطع النجاح على هذه الصورة، أو بـوساطة أية مناقشات مراوغـة وكذب، غـادر غاضبـاً، وكدس التهـديدات فوق التهـديدات، وأخذ طريقـه إلى دير القديس ألبـان، مصحوباً بواحـد من كتّاب الملك، كان هو مـرافقه في مهمته، في سبيل ربط رئيس الرهبـان مع رهبان ذلك المكان، وإلزامهم بالموافقة على رغبات الملـك، بوساطة خطابات مخادعة، أو بوسيلة مـا أو أخرى، سواء أكـانت صحيحة أو خـاطئة، لكن رئيس

رهبان وولتهام كان قد أرسل رسالة سرية بكل سرعة إلى رئيس رهبان دير القديس ألبان وإلى الجميع هناك، حيث أخبرهم بجميع الذي حدث، وكيف أن سيمون باسليف قد حاول بوساطة حجج مخادعة وملتوية، وسعى بناء على الطلب الملح للملك أن يربط كنيسة وولتهام بدفع سبعمائة مارك إلى الملك، وكيف أنه رغب بجعل رئيس الرهبان والرهبان أن يصبحوا ضامنين له بوساطة وثيقة مدونة، ووصل سيمون المتقدم الذكر (أو بالأصح أن نقول سينون) إلى كنيسة القديس ألبان قبل صلوات ساعة الهيئة الرهبانية، وتظاهر بأنه قدم من لندن في ذلك اليوم، وأنه سار طوال الليل تقريباً (مع أنه جاء مباشرة من وولتهام) وألقى بنفسه على مقعد وأمال رأسه عليه، وغرق في النوم، ثم إنه ذهب بعد هذا بكل سرعة إلى رئيس الرهبان، وتحدث بلهجة حزينة وآسفة وقال: «لقد أرغمت يامولاي أنا ومرافقي بحكم الضرورات الكبرى، على السفر وقطع المسافة كلها بين لندن وهذا المكان في الليلة الماضية»، وقدم رسالة الملك، التي تولت الاشارة إلى مبلغ مختلف عن الذي كان قد ذكره شفوياً، وعرض أيضاً بشكل مكشوف رسالة رئيس رهبان ويستمنستر مع التجمع الرهباني للدير، مبرهناً بأنهم وافقوا بأريحية على طلب الملك، وبضربه لهذا المثل أمل أن يخضع رئيس الرهبان والرهبان في دير القديس ألبان إلى ارادة الملك، كما أنه وعد أيضاً، باسم الملك، أن أي صيغة مكتوبة يرغبون بها، ينبغي اعدادها، من أجل ضمان دفع المال، الذي سأله اقراضه لبعض الوقت، تحت ضمانة مكتوبة، وكان المبلغ الذي طلبه كما ذكر، قد وصل إلى سبعمائة مارك، وأضاف أنه إذا مارفض رئيس الأساقفة، سوف ينال غضب الملك الأبدي، لأنه بيعته كانت تحت خطر التعليق، الأمر الذي هو لن يقبل به ويرضى بأي حال من الأحوال.

وتملكت الدهشة رئيس الرهبان والرهبان، لابل في الحقيقة جميع

الذين سمعوا هذه الرسالة، وجاءت دهشتهم من طغيان الملك ودهائه، خاصة وأنه يرغب بوساطة التماساته الملحة بالحصول على وثيقة مكتوبة من رئيس الرهبان والرهبان تشبه تلك التي كان قد حصل عليها رئيس رهبان ورهبان دير ويستمنستر.

وبناء عليه جرى عقد مؤتمر للتشاور في مقر الهيئة الرهبانية، وأخيراً جاء الجواب حاسماً، بأنهم لايمكنهم بأي حال من الأحوال الرضوخ لمطلب الملك «لأن ذلك سوف يكون مضاداً للمحظورات البابوية، ومناهضاً للكرامة»، وعرض على سيمون أيضاً وأري توجيهات مكتوبة، إحداها موجهة بشكل خاص إلى وارن Warren الذي كان من قبل رئيساً للرهبان، وإلى خلفائه، وقد ورد في الوثيقة المذكورة فقرة تحرم عليهم وضع كنيستهم تحت الالزام بأية طريقة من الطرق، وذلك تحت طائلة عقوبة التعليق، والحرمان من شراكة المؤمنين، والحرمان الكنسي، وبناء عليه، اختار هكذا رئيس الرهبان والرهبان في دير القديس ألبان الحصول على غضب الملك الأرضي الذي عمل طلبات غير عادلة، وآثروا ذلك على اغضاب الملك السماوي، ثم إنهم بخرقهم لما حرمه البابا، سوف يغلون أنفسهم بأغلال التكفير.

وعندما سمع سيمون أسبابهم للرفض تظاهر بالهدوء واللطف، وأجابهم بحرارة قائلاً: «أصدقائي المحبوبين لاتزعجوا أنفسكم مطلقاً حول هذا، لأن ملكنا معه رجلاً مقدساً جداً، هو راهب من طائفة الفرنسيسكان، اسمه مانسيتوس، قد جرى إرساله من البابا بمثابة حماية، وهو لديه سلطات كاملة، وهو جاهز تماماً لتحليل جميع الذين حنثوا بأيمانهم في سبيل مساعدة الملك في حاجته الضاغطة كثيراً، إنما إذا كنتم لن تساعدوا الملك في هذه الآونة، سوف أعود على الفور إلى لندن، وسوف أخبر الأسقف بأنكم ألقيتم جانباً كل احترام للملك، وأنكم ازدريتم حمايته، وأنكم تعاملون لطف وسلطة الراهب المذكور

باستخفـاف»، وعلى هذا تلقى سيمـون جـواباً جـاء فيـه: «إنه لن يبـدو منطقياً أن نرغب بأن نتعرض لعقوبة الحرمان الكنسي، وأن يجري تحليلنا في الوقت نفسـه، ووفق الطريقة نفسهـا ينبغي علينا عـدم اطاعة أوامـر طبيب دجـال يمكن أن يقـول: لاتخافوا اكسروا أرجلكم، أو أي عضـو آخر، وأنا سوف أجد لكم جراح جيد، سوف يتولى شفاء وإعادة العضو المكسـور، يضـاف إلى هذا، إذا كنا سنفعل هـذا، فلسـوف نذنب بطرق مضاعفة، ففي المقام الأول سـوف نكون كذابين معروفين بالكذب، وفي المقام الثاني إذا مـاوضعنا أختامنا —الأمر الذي يعني رهن إيماننا— على مثل هذه الوثيقـة، فلسوف يصرخـون عـالياً ضـدنا، بأننا تصرفنا بشكل ظالم، وهذا أمـر لن نفعله بأي حـال من الأحوال»، فعقب سيمـون على هذا قائلاً: «مامعنى هذا؟ هل سأذهب مغـادراً فارغ اليدين؟ إن مولاي الملك سـوف يعتقـد بـأنني بعثت بعض الخلاف بينكم وبينـه، وبذلك سـوف ينزل اللوم كله على رأسي، مع أنني بريء، ولماذا واجـه مـولاي هذا الصـد على أيـديكم؟ أنتم لاتمتلكون شيئـاً إلا الذي أعطاكـم إياه الملك أو أجـداده، ولذلك إنكم ملزمـون بشكل عـادل أن تقـدمـوا المساعـدة إليه في هذه الضـائقة الطـارئة، لاسيما وأن كل شيء عـائد إلى الملك»، وعلى هذه الحجج رد رئيس الرهبان والرهبـان قائلين: «صحيح إن كل شيء عـائـد إلى الملـك، لكن من أجل الحماية، وليـس من أجل التدمير، فهذا ماأقسم الملك عليـه عند تتويجه، ثم مراراً كثيرة بعد ذلك، ولذلك نحن لانولي أدنى اهتمام للحجج الواهية العائدة لك».

وعندمـا سمع سيمـون هذا، لجأ إلى استخـدام نوع آخـر من الخداع، وعلى ذلك قـال: «إذا كنتـم لن تفعلوا شيئاً آخـر للملك، افعلوا على الأقل مايلي: دونوا كتابة الموافقة على طلب الملك، وذلك تماشياً مع طلبه ورغبتـه، واختمـوا مـاسـوف تكتبـونه، واحتفظـوا به بين أيديكم في خـزانتكـم، وهكذا عندمـا تلين قلوبكم في أي وقت مـن الأوقـات

وتتواضعون، يمكن للملك أو لمندوبه أن يجدها جاهزة، وسوف يأخذها عندمـــا يحل الوقت المناسب، افعلوا حتى لايكون استخفـــافكم ولامبالاتكم واضحين تمام الوضـوح»، وعلى هـذا أيضاً أجـابه رئيس الرهبـان والرهبـان قـائلين: «لاياسيمون لا، لأنـك وقتها سـوف تقـول —ويمكنك القـول بشكل منطقي— بأننا وافقنا، وكتبنا بذلـك وثيقـة اعتراف ذكـرنا فيهـا مـوافقتنا على رغبـاته، حسبما هو الـوضع بالنسبـة لرسالة رئيس رهبان دير ويستمنستر التي عرضتهـا علينا وأريتنا إياها، وبذلك سـوف نضرب مثـلاً خسيسـاً للآخـريـن، الذين أنت راغـب في الانقضـــاض عليهم، واخضـاعهـم لإرادتك، وهذا لن نفعله مطلقـاً»، وهكذا ذهب رجل الاغواء وغادر مضطرباً، دون تحقيق هدفه.

الخداع الذي وضع قيد التطبيق من قبل سيمون المتقدم ذكره ليفرض على بعض رؤساء الرهبان

لقد أدخلت جميع هذه التفاصيل بالكامل، من أجل أن يعلم القارىء لهذا الكتـاب، كم هم خطيرين الأعداء الداخلين، ومـدى الأذى الذي أراد هذا الانكليـزي المنحط سيمـون وسعـى لإنزاله على المملكة وعلى الكنيسة، وقام رئيس الرهبان المذكور والرهبان بالكتابة بصورة متواضعة وباعتدال وصـداقة، واعتذروا عن أنفسهم على أساس قـاعدة صحيحة، وبذلك نجوا من المخاطر التي تهددهم، وفي الوقت نفسـه، كان سيمون قد أعلن مـرفقاً إعلانه بيمين، بأنه سـوف يذهب على الفور إلى الملك في لندن، ومع ذلك لم يشعر بالخجل ولم يخش أن يتهم بكذبة أخرى، فغيّـر طريقـه، وذهب بسرعـة كـاملة إلى ردنغ، ليـوقع بـالفخ رئيس رهبـان ورهبان ذلك المكان بأحابيل خداعه المعتادة وزيفه، لكن كانوا قد أنذروا مسبقـاً بقدومـه، وأخبروا بإجراءاته، ولذلك واجهـوه في وجهه بجـرأة، وهكذا فإن الجور الذي هو زيـف لذاته، أخفق في مقـاصـده، وكنت في الذي كتبتــه أعـلاه،قــد ذكـرت المبلغ الاجمالي مـن المال بالكامل، لأن

الطلب الملكي المكتوب، استهدف كل واحد من الديرة الأربعة، التي هي: ويستمنستر، والقديس ألبان، وردنغ، ووولتهام، وأن تصبح هذه الديرة كفيلة، أي كل واحدة منها للآخر، من أجل المبلغ كاملاً، وعلى هذا الأساس سوف يكون كل دير مسؤول عن نفسه، وعن كل واحد من الآخرين من أجل خمسمائة مارك، أي من أجل ألفي مارك، وخمسمائة مارك من أجل الفائدة، وقد طلب الملك الحصول على هذا المال بكل سرعة، وعلى ذلك سوف يكون مرغماً على الاستدانة من تجار السماسرة.

كيف شق الرهبان الفرنسيسكان طريقهم بالقوة إلى داخل مدينة القديس ادموند

وحوالي هذا الوقت نفسه، قام الرهبان الفرنسيسكان بفضل السلطة الممنوحة إليهم من البابا، بفرض أنفسهم على مدينة القديس ادموند، ضد إرادته، وذلك على الرغم من معارضة رئيس رهبان ورهبان ذلك المكان، ولقد أدخلوا إلى هناك وأسسوا أنفسهم بوساطة رجلين علمانيين، هما: ايرل غلوستر، الذي كان عدواً معلناً لرئيس الرهبا ن المذكور وللرهبان، وغيلبيرت برستون، وقبل عدة أيام مضت كان رئيس الرهبان المذكور قد جاء من البلاط الروماني، حيث كان يقوم بأخذ احتياطات للمستقبل ضد عنف الرهبان المذكورين، وسلح نفسه مسبقاً برسالة من البابا، لكن على الفور، حصل بعد هذا هؤلاء الرهبان على رسالة أخرى، موجهة لهدف معاكس، بوساطة اضافة تلك الفقرة «دون التقيد»، ولدى سماع الناس بهذه الإجراءات، لم يستطيعوا بصعوبة التعبير عن دهشتهم، من قيام مثل هؤلاء الناس المقدسين —الذين اختاروا عن طواعية الفقر ليكون حصتهم— برميهم جانباً كل خوف من الرب، وحيث استخفوا بغضب الشهيد المبجل، وبالناس، ولم يهتموا بحماية الامتيازات، بل خرقوا، وأزعجوا حالة سلام تلك الكنيسة النبيلة، التي كانت معروفة تماماً بكرامتها العالية وبقدمها، ولم يكن

رئيس الرهبان قد شعر بالانهاك نتيجة الرحلة المتعبة عبر الألب، أو بالديون الضخمة التي كان قد تورط بها، بقدر ماتضايق من هذا الإجراء، وليضيف إلى أحزانه، كان خائفاً جداً من الإجراءات القانونية التي اتخذت من قبل ايرل غلوستر، ولإدراكه لضعف أوضاعه الصحية، وافق على تأجيل القضية.

إكمال البارلمان الذي بدأ مؤخراً

استمرت المشادات الكلامية بين الملك ونبلاء المملكة في البارلمان الذي تقدم ذكره أعلاه حتى يوم الأحد الذي جاء بعد يوم عيد الصعود، ويوماً بعد يوم ازدادت الشكاوي وتضاعفت ضد الملك، وتركزت حول أنه لم يحافظ على وعوده، وأنه عامل مفاتيح الكنيسة باستخفاف، وخرق شروط الصك العظيم مراراً ومراراً لانقاذ نفسه، وكان من أسباب الشكاية الأخرى، أنه رفع من شأن إخوته لأمه، وكأنهم من أهل هذه البلاد الطبيعيين، وفعل ذلك بطريقة لاتحتمل، معاكسة لحقوق وشريعة المملكة، ولم يسمح باتخاذ أية إجراءات ضدهم في المحكمة العليا، ومع أن صلف إخوة الملك المذكور، والبواتيين الآخرين كانت لاتحتمل، كانت تصرفات وليم دي بلنسية قد تفوقت عليهم جميعاً في الوقاحة والصلافة، واشتكى ايرل ليستر، فوق الآخرين، من هذا بمرارة ليس فقط إلى الملك، بل إلى الجماعة كلها على اتساعها، وطالب بإلحاح بأن تناله يد العدالة، وعلاوة على ذلك جرى توجيه النقد إلى الملك من أجل إغناء جميع الأجانب، والدفع بمصالحهم، وأنه أرفق هذا بازدراء رعاياه الطبيعيين ونهبهم، مما سيؤدي إلى دمار المملكة كلها، وقيل له وأفهم أنه كان محتاجاً معوزاً، في حين يمتلك الآخرون أموالاً وافرة، ولحاجته إلى الأموال لم يعد بإمكانه استرداد حقوق مملكته، لابل لم يعد بإمكانه ضبط الغارات المدمرة للويلزيين، الذين هم الحثالة الحقيقية لبني البشر.

وباختصار مجمل نجد أن تجاوزات الملك تتطلب أن تعالج بشكل خاص مفردة، وكانت ردات فعل الملك هي الاعتراف بصدق الاتهامات، مع أن ذلك جاء متأخراً، وقد تواضع بنفسه، وقد أعلن أنه غالباً ماألزم بقبول النصائح الشريرة، ووعد وأقسم عند مذبح ومزار القديس ادوارد، بأنه سوف يقوّم أغلاطه القديمة تماماً وبشكل صحيح، وسوف يظهر الحظوة واللطف نحو رعاياه الطبيعيين، لكن تبدلاته المتكررة جعلته من قبل غير جدير بالتصديق، وبما أن النبلاء لم يتعلموا بعد كيف يحافظون على بروتوسهم Proteus منضبطاً (لأنها كانت مسألة شاقة وصعبة)، جرى تعليق جلسات البارلمان، وتأجيله حتى عيد القديس برنابا، حيث سيجتمع في اكسفورد.

وفي هذا الوقت قام نبلاء انكلترا أمثال ايرلات: غلوستر، وليستر، وهيرفورد، والايرل مارشال، مع رجال آخرين لهم تميزهم بالتحالف فيما بينهم لاتخاذ إجراءات احترازية، لأنهم شعروا بمخاوف كبيرة من مؤامرات الأجانب ودهائهم، وكانت لديهم بعض الشكوك أيضاً حول إجراءات الملك الخفية، ولذلك ذهبوا تحت حماية مرافقة كبيرة من الفرسان والأتباع المسلحين.

الأنواء غير الموسمية

في هذا العام هبت الريح الشمالية بدون انقطاع لعدة أشهر، وعندما عبر نيسان وأيار والجزء الرئيسي من حزيران، ولم يكن مشاهداً أية أغراس صغيرة ونادرة، أو أية أشجار مبرعمة ومزهرة، نتيجة لذلك، بقيت هناك آمال ضئيلة حول موسم مثمر، ونظراً لندرة القمح مات عدد كبير من فقراء الناس، وتم العثور على جثث الموتى في جميع الاتجاهات، وقد انتفخت وكانت شاحبة، وكانت كل خمسة جثث وستة ممددة في مرابط الخنازير، أو على أكوام القمامة والمزابل، وفي الشوارع الموحلة، والذين كانت لديهم ديرة لم يتجرأوا في حالة عوزهم على تزويد

الذين كانوا يموتون بغرف في الديرة، خوفاً من العدوى، وعندما كان يتم العثور على عدد من الجثث، كان يتم عمل حفر واسعة وكبيرة في المقابر، حيث كانوا يمددون فيهم أعداداً كبيرة من الجثث مع بعضهم.

البعثة الخاصة إلى الملك الفرنسي

خلال الوقت الذي مضى قبل عقد البارلمان في اكسفورد، جرى اختيار رسل خاصين من ايرلات وبارونات انكلترا، وقد أرسلوا إلى الملك الفرنسي، للحصول على بعض المواساة منه، أو على الأقل لمنع أية عوائق من أن ترمى في الطريق، فتعيقهم في خططهم ونواياهم، لأنهم كانوا يسعون في سبيل منفعتهم، ومن أجل منفعة البلدان المجاورة لترتيب ولتهدئة الإثارة التي قامت في انكلترا نتيجة للفسولة المستمرة طويلاً والمتعلقة بسذاجة الملك.

تأسيس دير رهباني من قبل جون مانسيل

في هذا العام نفسه أيضاً، أسس جون مانسيل رئيس كنيسة بيفيرلي Beverley, والذي كان كاتباً ومستشاراً خاصاً لدى الملك، وكان رجلاً عاقلاً وحكيماً، أسس في رومني Romney, على بعد حوالي الميلين عن البحر، ديراً للكهنة النظاميين، وجهزه على نفقته، ووضع فيه كهنة نظاميين، ولقد أقنعه بالقيام بهذا العمل هو التقدير بأن الحظوة الملكية ليست وراثية، وأن ازدهار الدنيا لن يدوم إلى الأبد، كما أنه تأثر بالمثل الذي ضربه بطرس كاسبورت Chaceport, الذي قام قبل وقت قصير بتقوى وسعادة، فأسس ديراً للطائفة نفسها، ولذلك كان يأمل بأنه عندما سيعبر من عالم استحواذ الثروات المؤقتة، يمكن أن لايفقد الثروات التي كانت سرمدية.

وفاة سيوول رئيس أساقفة يورك

وفي حوالي أيام عيد الصعود، قام رئيس أساقفة يورك في سبيل

الصعود مع الرب بالخروج من سجن هذا العالم، وفرّ طائراً إلى السماء، ومن المعتقد من دون أي شك في أنه قايض حياته الأرضية بملكوت السماء، وحصل على تاج النصر، بعدما قاتل بشجاعة حتى أقصى ماامتلكه من قوة في سبيل كنيسته ضد طغيان بلاط روما، وكان ذلك من خلال فضائله، والمحن الكثيرة التي مرّ بها، وسار سيوول رئيس الأساقفة هذا على خطى القديس ادموند، واتبع منهجه (فهو الذي كان قد أصغى إلى محاضراته، وكان باحثاً لديه وتلميذاً) وقد سعى بأن يقلد بنفسه وبأعماله وأخلاقه ذلك القديس وأعتقد أنني ينبغي أن لاأتجاوز ذكر أن القديس ادموند، عندما كان يحاضر في اللاهوت في اكسفورد، اعتاد أن يقول إلى أعز الأصدقاء عليه، وإلى طلابه الخاصين: «آه ياسيوول، ياسيوول سوف تعبر من هذا العالم شهيداً، فلسوف تهاجم وتقتل بالسيف أو بوساطة محن هذا العالم الهائلة، وعلى كل حال ليكن المواسي لكم الذي أوحى بالمزمور الذي يقول: «كثير من الممتحنين محقين، ومن هذه المحن سوف يحررهم الرب في أحد الأيام»، وإنها لحقيقة واضحة ومقررة أن كثيراً من الشهداء، عبروا من هذا العالم من دون أن تسفك دماءهم، ومن هؤلاء على سبيل المثال القديس يوحنا الانجيلي، وعدد كبير آخر.

أقوال وأعمال رئيس الأساقفة المتقدم الذكر لدى اقترابه من الموت

عندما رأى رئيس الأساقفة المقدس هذا أن الموت بات بلاشك قريباً، وأنه على وشك العبور من هذا العالم، نهض بنفسه قائماً، وبيدين متشابكتين، وبسحنة باكية، توجه نحو السماء، وتفوه بالدعاء التالي: «آه أيها الرب يسوع المسيح، الذي أنت أعدل القضاة، إنك تعلم بعلمك الدقيق كم تعرضت في براءتي إلى الإرهاق بطرق مضاعفة من قبل البابا، الذي أنت سمحت لأن يصبح حاكماً على كنيستك، بسبب (كما يعلم

الرب ولأنه ليس سراً للدنيا) أنني رفضت قبول أشخاص غير معروفين وغير جديرين لإدارة الكنائس التي عهدت بها لعنايتي، أنا الذي لست جديراً، وقمت على كل حال خشية الاستخفاف بحكم البابا، مع أنه حكم غير عادل، ولكي يكون عادلاً، قمت بالتوسل متواضعاً، ورجوت بأن أحلل من أغلال الحرمان الكنسي، لكنني استأنفت مترافعاً ضد البابا إلى القاضي الأعلى الذي لايفسد، والسموات والأرض سوف تكون شهودي، كيف أنه هاجمني، وقرعني، وفضحني بطرائق مضاعفة كثيرة».

وفي مرارة نفسه، قام بناء عليه بالكتابة إلى البابا (متأثراً بمثل روبرت أسقف لنكولن) وعبر عن آلامه وأحزانه التي يمكن مواساتها، لأن البابا قد أرهقه، لأنه رفض —كما ذكرنا أعلاه— قبول أشخاص من دون خبرة، جاهلين باللغة الانكليزية، فما كان من البابا إلاّ أن قام أولاً بتعليقه، ثم قام مرة ثانية بمنعه من تخطي عتبات الكنيسة، ثم قام الآن بأخذ الصليب من أمامه، ثم مرة ثانية أعلن عن حرمانه كنسياً في جميع أرجاء المملكة (مع أن الوكلاء لمثل هذا الحرمان الكنسي قاموا بتنفيذ واجبهم من دون رضا)، وهكذا أساء إلى اسمه الجيد وآذاه بطرق مختلفة، مما آذاه دنيوياً كثيراً، ثم إنه قام على كل حال بالشكوى بمرارة، من أنه قد تحمل ذلك بصبر، لكنه كان لايستطيع أن يتحمل إلاّ بصعوبة بالغة الحملات العنيفة لبعض الكهنة، الذين تفاخروا بأنفسهم بأنهم يمتلكون سلطات البابا وتفويضه من أجل إجراءاتهم، خاصة المعلم جوردان الذي كان يسعى فاتحاً فاهه لالتهام منصب العمادة، وكرر أنه قد تحمل هذا كله بصبر، حتى لايقال بأنه ضحك ليسبب الاهانة لأبيه، مثل حام، بكشف عورته، بل كان قلقاً لإخفائها وتغطيتها مثلما فعل سام، وكان غالباً مايعيد إلى ذاكرته الوصية المختصرة التالية «في كشف لعورة أبيك، أنت مثل حام، ومثل سام في اخفائها».

وفي رسـالتـه، قام بناء عليـه، فتصرف مثلما تصرف روبرت المذكـور، أسقف لنكولن، فتوجه بالرجاء بتواضع واخلاص إلى البابا «ليلطف من طغيـانه المعتـاد، وليأخـذ بالمثل الذي ضرب بإنسـانيـة وتواضع من قبل أسـلافـه»، لأن الرب قـال لبطرس: «أطعم شيـاهي، ولاتجزهم، أو تسلخهم، ولاتجوفهـم ولاتفترسهم»، لكن البـابا ضحك من طلبـه، وعامله باستخفاف، وشعـر بغضب عظيم، لأنهما امتلكا الوقاحة الكبيرة بازعاجه على هذه الصورة، فهو البابا ولايجوز التصرف نحوه هكذا بأي حال من الأحوال، ولذلك رفض الاصغاء إلى التحذيرات السلمية لكل من رئيس الأسـاقفـة سيـوول، أو إلى روبرت المذكـور، رئيس أسـاقفـة لنكولن.

معجزة الماء الذي تحول إلى خمرة

وحـدث في أحد الأيام عندمـا كـان [رئيس الأسـاقفة] يتعـرض من المرض المميت الذي كـان يعاني منه، إلى ضغط شديد وصـل إلى حد أنه شعـر بالعطش، وطلب مـاء من أحـد الينابيع، وعندمـا قـدم الماء إليـه، باركه بتقـوى، وكما قال إنه لافـائدة من الشكاية، ولدى تذوقـه له وجد أن طعمـه كان طعم خمرة وليس مـاء، وقـد وبخ خادمـه لقيـامه بغشـه، حيث قـال له: «لماذا غششتنـي بهذا المشروب؟ وأين وجـدت هذا؟»، وأجابه الخادم قائلاً: «في النبع يامولاي، ولم أكن لوحدي هناك»، ثم إنه أحضر اثنين آخـريـن من الخدم، الذين كـانوا واقفين هناك، وعنـدها أضاف يقول: «هنا شهـود موثوقين حول صدق مـاقلته»، ووقتها تذوق الخادمان ماكان في الكأس، وأعلنا أنها خمرة جديدة، وعندما سمع رئيس الأساقفة ماقاله الرجال، وخوفاً من أن يقوم خدمه بنشر الخبر وتعميمه، شرب ماكـان في الكأس، وتوجه بالرجـاء إلى خدمه بلهجـة لطيفة (لأنه كان رجلاً لطيفاً في كلامه) بأن لايقـولوا شيئاً حول القضية، وقد حدث هذا قبل موته مباشرة.

حول المجاعة الكبيرة التي انتشرت في جميع أرجاء إنكلترا

وفي حوالي عيد الثالوث في هذا العام، هاجم طاعون مخيف لايمكن احتماله، الناس، وبشكل خاص الذين كانوا من الشرائح الدنيا، ونشر الموت فيما بينهم، إلى درجة محزنة جداً، ومن دون أن نأتي على ذكر جميع الحوادث، لعله يكفي ذكر الحادث التالي: «فقد هلك في مدينة لندن خمسون ألفاً من الفقراء، وتمّ الآن نشر الإعلان التالي: «اذهبوا جميعاً أنتم الذين بحاجة إلى الخبز، وتسلموا حصة من الخبز من فلان وفلان من النبلاء»، وحدد المنادي أسماء الأشخاص والأماكن التي كانوا سوف يتسلمون منها الصدقات، وفي الحقيقة انتشرت المجاعة في انكلترا إلى حد أن كثيراً من الآلاف من بني البشر ماتوا من الجوع، لأن الحبوب وصلت إلى حد النضوج متأخرة كثيراً في الخريف، بسبب الأمطار الثقيلة، ولذلك توفر المحصول فقط في عيد جميع القديسين، وذلك في عدة أجزاء من المملكة، وقد بيع مكيال القمح بستة عشر شلناً، وفي عشية عيد القديس يوحنا المعمدان هبت عاصفة من الأمطار مثلها لم يشاهد قط في أيامنا، حيث فاض مجرى السيفيرن Severn من سالسبري إلى بريستول إلى درجة أن الماء تدفق (كما قال بعضهم من خلجان مخفية في المناطق الداخلية) وغطى جميع المروج، وأتلف جميع الحاصلات في المناطق المجاورة للنهر، وبسبب عنف الفيضان مات عدة رجال، وكثير جداً من الأطفال، ومن الحيوانات أعداد لاتحصى من مختلف الأنواع.

رسالة ملك إسبانيا إلى ملك ألمانيا

وفي هذا العام أرسل ملك اسبانيا رسالة لم تكن مناسبة ووقحة إلى ملك ألمانيا، يحثه مع التهديد بأن «يتخلى عن مملكته في ألمانيا. وأن يغادر من هناك»، وعلى هذا الطلب أجابه ملك ألمانيا وهو غير هياب وبمعنويات عالية قائلاً: «إنه إذا مااختار أن يأتي لمحاربتي، فلسوف

يجدني جاهـزاً لمقابلته خـارج حدود مملكتي، وسأستقبله بحـد السيف»، وقام ملك اسبـانيا وقد استثير أكثر بهذا الجواب فدمج جيشـه مع قوات مملكتي أراغون ونافار،ووجّه زحفه نحو ايطاليا، ولكن عندما كان غائباً حاول المسلمون الاسبـان الاستيلاء على قرطبة، ولـدى سماعه بهذا عاد كما ذهب لإيقـاف غـزواتهم،وقـام على كل حـال بـإرسـال بعض الشخصيات المتميـزة في بعثة إلى البـابا، للمطالبة بحقـوقه، وليطلب من البـلاط الرومـاني أن لايقبل أي واحد سـواه لحكم الامبراطورية، فهـو أعظم ملوك اسبانيـا وأكثرهم قوة، وهو الذي مدّ حـدود المسيحية أكثر من أي ملك مسيحي آخر، وفي جواب على هذا، قال البابا لصالح ملك ألمانيـا: «أنتم تعلمون ياأبنائـي الأعزاء، وعليكم أن تكونوا عـارفين، أن النظام الاجـرائي الصحيح، والعـرف المعتـاد والموافق عليـه منذ الزمن القـديـم، وهو مـايزال قـائماً، هو أن تعـد مملكـة ألمانيـا تابعـة للمقـام الامبراطوري، وهو مقام ينبغي استحواذه مسبقاً، لأنه الاستحواذ الأول له، لذلك دعوا مولاكم، الملـك اللامع لاسبانيا، أن ينتخب أولاً بشكل صحيح ملكاً لألمانيا، في إكس لا شبيل، من قبل رجال دين ونبلاء تلك البلاد، الذين بين أيديهم مقاليـد الانتخاب راسية، وذلك بحكم العرف القديم، ودعـوه أولاً يجري تكريسه بشكل مهيب ومن ثـم تتويجه ملكاً، وبعـد ذلك، سـوف نريه الحظـوة بقـدر مـابين أيدينا من قـوة، واضعين الخوف من الرب أمـام أعيننا، ونريه أنفسنا أننا لصالحه، ومـوافقين على دفع انتخاب مولاكم، الملك اللامع لاسبانيا، لأنه جدير بكل تكريم».

وقـام الرسل بناء على التقـدير الدقيق لجواب البابـا، وكذلك تقـديراً منهم للجواب الذي أعطاه الملك إلى ملكهم، ونظراً لأحكام الإجراءات القضائيـة، فنصحوه بأنه سوف يكون مـن الحكمة وأكثر فـائدة له حماية مملكتـه، التي كـان المسلمون يتـآمـرون ضـدها، هذا وعندمـا بات هذا معلوماً لدى نبـلاء ايطاليا، قـدم كثيرون منهم اليد اليمنى للصـداقة إلى

ملك ألمانيا، وعلى الفور قدموا له ولاءهم، واستقبلهم الملك بلطف، ودفع مبلغاً كبيراً من المال لتحرير بعض المدن الألمانية من الديون، وبهذا الإجراء طوقهم، وبذلك كسب حظوة عظيمة لدى رجال ذوي سلطة بين الألمان، فقط لو أنه كان نشيطاً في الإجراءات الحربية مثلما هو حكيم ومتفوق في آرائه.

عودة رئيس رهبان دير القديس إدموند من البلاط الروماني

وحوالي هذا الوقت نفسه قام رئيس رهبان دير القديس ادموند الملك الشهيد، بعدما أطال اقامته وأنفق عليها كثيراً في بلاط روما، بالعودة إلى الوطن، وهو متورط بديون كبيرة، وعلاوة على ذلك كان الرهبان الفرنسيسكان، كما ذكرنا من قبل، قد بنوا لأنفسهم ديراً، على الرغم من معارضة رئيس الرهبان المذكور مع رهبانه، وكان أثناء زيارته الأخيرة لروما قد حصل على امتياز، بموجبه جرى منع الرهبان المذكورين من محاولة القيام بمثل هذا الإجراء مهما كانت الأحوال، لكنهم تمكنوا من إلغاء كل شيء حصل عليه، بوساطة إضافة العبارة المعروفة «دون التقيد».

البارلمان الذي عقد في أكسفورد

ومع اقتراب حلول عيد القديس برنابا، بادر كبار نبلاء البلاد مسرعين نحو البارلمان الذي كان سيعقد في اكسفورد، وأعطوا أوامر إلى جميع الذين عليهم واجب أداء خدمة الفروسية للملك بمرافقتهم، وهم مجهزين ومستعدين، وكأن عليهم الدفاع عن أشخاصهم من هجمات الأعداء، ووضع هؤلاء هذا الأمر موضع التنفيذ، وأخفوا أسبابهم الحقيقية لعملهم هذا، تحت التظاهر أن قدومهم على هذه الصورة، هو اظهار أنفسهم أنهم جاهزين للانطلاق بقواتهم الموحدة ضد أعداء الملك في ويلز، وفي الحقيقة توفرت لديهم مشاعر كبيرة، أنه نتيجة لعدم اتفاق

الفئات، أنه سوف يتفجر خلاف شديد ونزاع بينهم هم أنفسهم، وأن الملك وإخوانه من البواتيين سوف يدعون جميع الأجانب لمساعدته ضد رعاياه الطبيعيين، وعلاوة على ذلك قام النبلاء بعمل احتياطات اضافية، بحراستهم الموانىء البحرية حراسة دقيقة.

وفي بداية البارلمان، كانت الخطة المقترحة للنبلاء قد تقررت من دون تغيير، وجرى الاتفاق عليها، وطالبوا بشدة وإلحاح بوجوب أن يحافظ الملك باخلاص على شروط صك الحريات والامتيازات لانكلترا، وأن يلتزم به، وهو الصك الذي عمله والده، ومنحه لرعاياه الانكليز، وهو الذي أقسم جون المذكور على الالتزام به، وهو الصك الذي قام الملك الحالي هنري مراراً كثيرة بمنحه، وأقسم على الالتزام به، وهو الصك الذي جرى اعلان الحرمان الكنسي ضد المخترقين له، وأن يجري الإعلان عن هذا الحكم من قبل جميع أساقفة انكلترا، فهو الذي كان قد أمر بهذا، وأن يكون إعلان الحرمان بحضوره نفسه وحضور باروناته، وهو بناء عليه بات محروماً كنسياً.

وطالبوا علاوة على ذلك، بتعيين قضاة لتقديم العدالة إلى الذين عانوا من الأضرار، وأن يكونوا محايدين نحو الأغنياء ونحو الفقراء، كما أنهم تقدموا ببعض المطالب الأخرى، المتعلقة بشؤون المملكة، عازمين على رفع شأن مصالح الملك والمملكة، وسلامها، وكرامتها، وعلاوة على ذلك أصروا، على وجوب أن يقوم الملك بمشاورتهم، والاصغاء إلى نصائحهم في عمل الترتيبات الضرورية، وأقسموا جميعاً بتقديم كل واحد منهم يده اليمنى إلى الآخر، وذلك بمثابة عهد على الاخلاص، بأنهم سوف يتابعون نواياهم، مقابل مخاطرة فقدانهم لأموالهم، ولأراضيهم، لابل حتى لأراضيهم، وكذلك لما هو عائد لأتباعهم، واعترف الملك بمنطقية احتجاجهم، وأقسم بشكل مهيب بأنه سوف يصغي إلى آرائهم ونصائحهم، وارتبط ابنه ادوارد أيضاً بيمين مماثل،

وجـرى رفض هذا القسم من قبـل جـون ايرل وارني، ومن قبل إخـوة الملك لأمه، أي وليم دي بلنسية والآخـرين، وعلاوة على ذلك صدرت الأوامـر إلى مـوانيء انكلترا لأن تكون محروسـة بدقـة أكبر، وأن تكون أبواب لندن مغلقة بعناية أكبر وبأمـان أعظم أثناء الليل، وبناء عليه قال بعضهم: «أغلقت أبواب لندن أثناء الليل، خـوفاً من خـداع الفرنسيين، من أن يقتحموا المدينة».

وبعدما مددوا اقامتهم في اكسفورد لبضعة أيام، اجتمعوا مع بعضهم في دير رهبان الدومينيكان للتداول حول الذي ينبغي فعله بشأن المشكلة الصعبة، المتعلقة بتحسين الأوضـاع الصعبة، للمملكة المضطربة، وهناك جددوا تحالفهم، ومثل ذلك أعادوا تأدية أيمانهم، وثبتوا عزمهم على أنهم لن يسمحوا لأنفسهم، حتى أمام الحياة والموت، أو ضياع الممتلكات، أو الحب والكراهية، أو لأي سبب مهما كـان، بأن يتزحـزحوا عن نواياهـم، أو يضعفـوا، وهي النوايا التي قضت بالتطهر من الأجـانب المدنسين في المملكة، التي أعطيت بحكم الأصل إليهـم أنفسهم، ولأجـدادهم الذين كـانوا رجـالاً مـن أصل نبيل، وهم يطالبـون باسترداد حقـوقهم مع الشرائع الصحيحـة، وقـرروا أنه إذا وجـد أي واحد، مهما كـان، وقـام بمعارضة مـاقرروه، ينبغي ارغامه، حتى لو كـان ذلك ضد إرادته، على الالتحـاق بهم، ومع أن الملك، وابنه الأكبر ادوارد، قـد أديا اليمين، بدأ ادوارد يسعى بقـدر مـايستطيع إلى الانسحـاب من قسمـه، وذلك مثلما فعل جـون ايرل وارني، وهنري بـن رتشـارد، ملك ألمانيـا، حيث أخـذ يتعلل، ويقـول أنه لايمكنه ولابأي حـال من الأحـوال أداء مثل هذا القسم، من دون مشـورة أبيـه واذنه، وبناء عليـه جـرى اخبـاره بكل وضوح وبشكل علني، أنه حتى والـده إذا لم يوافق على خطة البارونات ويشـارك فيهـا، لن يتمكن من الاحتفـاظ حتى ولابشبر من الأرض في انكلترا.

وعـلاوة على ذلك، أقسم إخـوة الملك المتقـدم ذكـرهم بكل تأكيـد بمـوت المسيح وبجـراحـه، بأنهم لن يتخلوا مـادامـوا أحيـاء، أبداً، عن القـلاع، أو الموارد، أو الوصـايات، التي أعطاهم إياها أخـوهم الملك بمحض ارادته، مع أن سيمون ايرل ليستر، قد تنازل مجاناً إلى الملك عن قلعتيـــه كينيلـوايـت Kenilwithe وأوديهام Odiham, اللتان كان قد فرغ من ترميمهما وتحصينهما قبل عدة أيام مضت، وعندما عمل البـارونات هذا الاعـلان، مـؤكـدين إياه بأيمان لايمكن تعـدادها، توجه سيمون ايرل ليستر بالخطـاب شخصياً إلى وليم دي بلنسية، الذي كان متفجراً غـاضباً أكثر من الآخرين، وقـال في رد له عليه: «عليك أن تكون متأكـداً من أنك إما سـوف تتخلى عن القـلاع التي بين يديك من الملك، أو أنك سوف تخسر بلاشك رأسك»، وقـال الايرلات الآخرون والبـارونات الشيء نفسـه، وأقسمـوا على ذلك بـأكثـر الطرائق تأكيـداً، ونتيجة لذلك بات البـواتيون في حالة رعب شديد، ولم يعلمـوا ماالذي عليهم فعله، لأنهم إذا ماحملوا أنفسهم على الاختفـاء في أي من القلاع، وهم مجردين مـن المؤن المخـزنـة ومن وسـائل الدفـاع، سـوف يجري حصـارهم، وسـوف يهلكـون من الجوع، لأنه حتى إذا لم يقم النبـلاء بحصـارهم ولم يفعلوا ذلك، فإن جماعـة الشعب كلـه، سـوف تتـولى حصارهم، وتدمـر قلاعهم وتجتثها إلى الأساسات، ولذلـك قاموا فجأة وبصـورة سرية بالفـرار، وذلك أثناء الإعداد لتنـاول طعام الغـداء، وفي سبيل أن لاتكشف نواياهم، تظـاهروا بأنهم يودون الجلوس إلى المائـدة، وأثناء فرارهم، كانوا غالباً ماينظرون خلفهم، وجعلوا خدمهم يصعدون إلى أبراج عاليـة، لمعرفة فيها إذا كـان البارونات يقـومون بمطاردتهم، ولم يوفـروا أطراف خيـولهم، حتى وصلوا إلى وينكستر، حيث لخوفهم وضعـوا أنفسهم تحت حماية جناحـي الأسقف المنتخب لوينكستر، الذي عليـه رست جميع آمـالهم، وعـلاوة على ذلك لقـد أملوا في العثـور على مكان للجوء في القـلاع العائدة إليـه، أي إلى الأسقف المنتخب المذكور،

وأصبح النبلاء في الوقت نفسه أقوى تحالفاً مع بعضهم، وعينوا مسؤولاً عن عدالتهم هوغ بيغود، وكان أخاً لايرل مارشال، وفارساً مشهوراً ومن أصل رفيع، ومن دم انكليزي نقي، وكان بارعاً تماماً في شرائع البلاد، وقد قام بواجبات العدالة والقضاء بكل نشاط، ولم يسمح لامتيازات المملكة بالتداعي بأي شكل من الأشكال. وعندما عرف النبلاء وتأكدوا من فرار البواتيين —حسبما ذكرنا من قبل— خافوا من أن يقترب الفارون من شاطىء البحر، لاستدعاء الأجانب، من بواتيين وغيرهم من القارة لمساعدتهم، وقد رأوا أن التأجيل سوف يجلب الخطر، ولذلك أعطوا أوامر دقيقة إلى جميع أتباعهم وإلى كل شيعتهم، بأن يهبوا إلى السلاح، وأن يمتطوا خيولهم بكل سرعة، وبذلك أنهوا البارلمان في اكسفورد، من دون أية نتيجة ثابتة ومحددة.

الخلاف في روما بين البابا والشيخ برانكليون

وحرر في الوقت نفسه رتشارد، ملك ألمانيا، بحكمة بعض مدن ألمانيا، من ديونها الثقيلة، ومن تعهداتها التي كانت متورطة بها من قبل ملوك ألمانيا من أسلافه، وكان رئيس أساقفة تريف مريضاً منذ وقت طويل، إلى حد أنه ساد اعتقاد بأنه مات منذ أيام كثيرة مضت، وقام رئيس الأساقفة هذا بإرسال رسالة إلى الملك المذكور، أنه «مالم يقم ملك اسبانيا، حسبما وعد بشكل ايجابي، بالقدوم لمساعدته، أي مساعدة رئيس الأساقفة المذكور، ودوق برابانت، اللذان كانا متحالفين مع ملك اسبانيا، فإنهما سوف يقدمان من خلال تحالفهما الوثيق والمخلص، الطاعة له، بحكم كونه ملك ألمانيا».

وعلاوة على هذا قام سكان كثير من مدن ايطاليا، فقدموا اليد اليمنى للصداقة له، لأنهم كانوا قد تشوقوا كثيراً إلى وصوله، وإلى ترقيته إلى المقام الامبراطوري، وكان في الوقت نفسه برانكليون شيخ روما، يقوم بتدمير قلاع النبلاء الرومان، ويتولى سجن أصحابها، كما أنه شنق أو

شـوّه عدداً من أقـرباء الكرادلة ونسبـائهم، ولم يعمل بذلك مخالفـاً بأي شكل من الأشكال لرغبات الشعب الروماني وخططه، وكان هذا الشيخ له حظوة لدى الأمير مـــانفـرد، الذي كـان يتطلع نحـــو الامبراطورية، ونتيجـة لذلك كرهـا معاً ملك ألمانيـا، ووضعـا خططاً لمعارضتـه، ولهذا السبب بالذات، فإن البـــابا الذي كـره الشيخ والأمير مـــانفـرد، أظهـر الحظوة نحو ملك ألمانيا المتقدم الذكر.

كيف حصل رئيس رهبان دير رامسي على إمتياز إقامة السوق في القديسة إيف

وفي هذا العـام نفسه أيضـاً، استردت كنيسـة رامسي حقها وامتيـازها الكامل في سوق القديسة ايف، وجاء ذلك بوساطة براعة الادارة لرالف رئيس رهبان رامسي، وكـان هذا الامتياز قد حصلت عليه بمثـابة أعطية من الملك ادغار Edgar, جـرى تثبيتها من قبـل الملوك القدمـــاء الآخرين، كما أن هذا التملـك له قد تثبت وتمتن بموجـب كتابة أصيلة، صدرت عن القديـس توماس الشهيد —رئيس أساقفـة كانتربري، ولقد قيل بأن رئيس الرهبـان رالف المذكـور قد دفـع خمسمائة مـارك فضي في سبيل استرداد امتيـاز ذلك السوق المذكـور، وهو امتياز كـان قد ضـاع، ليس بسبب خطيئة الكنيسـة المذكـورة، بل بسبب الاعتراضـات التافهـة لبعض الآخـريـن، وهي اعتراضـات وضح لكثيرين أنها كـــانت زائفـة وبلاأسس.

وفاة رتشارد رئيس رهبان دير ويستمنستر

في الثامن عشر من تموز، في هذا العام، مات، قرب وينكستر، رتشارد رئيس رهبان دير ويستمنستر، وكـان رجلاً وسيماً في مظهـره، وفصيحاً، وعـالي المعرفـة بنوعي الشرائع اللاهوتيـة والمدنيـة، كما أنه كـان صديقـاً خاصـاً بالملك، ولذلك تحمل عن طواعية في خدمتـه كثيراً من المتاعب،

وأنفق الكثير من الأموال، في كل من القارة والوطن، وقد تمكن رتشارد المذكور، بوساطة حكمته العظيمة، التي تميز بها كثيراً، تمكن من زيادة أملاك الدير باثني هايد Hide من الأرض، كما حصل على كثير من الامتيازات لصالح الدير، ولكن بما أن الفضائل تمتزج بالعادة ببعض الشرور، وضع رتشارد هذا المذكور ختمه مع ختم ديره على وثيقة كتبت من قبل الملك، حتى يقوم رؤساءالرهبان الآخرون الذين وردت أسماءهم فيها بوضع أختامهم عليها أيضاً بسهولة أكثر وبجرأة أعظم، وكانت هذه الوثيقة قد كتبت في ذلك الوقت لاقناع بعض كبار رؤساء الرهبان في انكلترا ليرهنوا أنفسهم لصالح الملك، لدى بعض التجار في القارة، في سبيل دفع مبلغ كبير من المال، بناء على وعد بإعطاء ضمانة إلى رؤساء الرهبان المذكورين ولخلفائه، من أجل دفع المال المذكور وسداده من قبل الملك، والحفاظ على كنائسهم مؤمنة، ولكن بما أنه لم تتوفر الثقة بهذا الوعد، جاءت موافقته لوحده من دون مسوغ، لأن جميع رؤساء الرهبان الآخرين قاوموها بالاجماع وبنشاط، مضيفين —بوساطة إلهام لاهوتي— أن مثل هذا الالتزام إذا ما تمّ الأخذ به من قبلهم والشروع به، فإن البقية سوف يحذون حذوه، وحمل جسد رتشارد المتوفى إلى ويستمنستر ودفن بتشريف في كنيسته الديرية هناك.

كيف مات فيليب رئيس الرهبان المنتخب لدير ويستمنستر قبل تثبيت انتخابه

وجرى انتخاب فيليب مقدم الرهبان في الدير المذكور ليكون رئيساً للرهبان هناك، لكنه عندما سمع بانتخابه عبر عن معارضته الشديدة في إعطاء موافقته، وذلك من خلال الخوف من المرسوم البابوي الأعظم ظلماً، الذي أرغم كل صاحب منصب ديني على الذهاب شخصياً إلى روما، لأنه كان يفضل ويرى أنه من الأحسن له الرفض، للبقاء في الوطن يمارس طريقته السالفة في الحياة، وقد آثر ذلك على تعريض نفسه

لمثل تلك المخاطر في سبيل منصب دنيوي، ولكن بما أنه تم التغلب عليه من قبل اخوانه الرهبان بكثرة إلحاحاتهم، ثم بما أنه قد جرى انتخابه بشكل شرعي من قبل الجماعة كلها، وافق على رغباتهم، على شرط هو أن يرسلوا بعض الأشخاص الآخرين إلى البلاط للحصول على التثبيت لانتخابه، وبناء عليه سافر بعض من أعلى الرهبان مكانة في سبيل تحقيق هذا المقصد، وترافعوا بأكثر الأسباب قوة وعللوا عدم حضور رئيس الرهبان المنتخب، وبعد كثير من المصاعب، بسبب معارضة الكرادلة، حصلوا أخيراً على المعروف المطلوب، لكن ذلك جاء من خلال دفع مبلغ كبير من المال، وعندما كانوا على طريقهم عائدين، بعد تسويتهم لأعمالهم بصعوبة كبيرة، وصلتهم أخبار بأن رئيس رهبانهم المنتخب قد مات للتو، وأن آخر جرى تعيينه في مكانه بأقصى سرعة ممكنة، ولذلك استأنفوا وهم حزينين كثيراً مهمتهم الماضية بالسفر إلى بلاط روما.

انتخاب غودفري دي كاينتون رئيساً لأساقفة يورك

وفي الوقت نفسه، اجتمع الكهنة النظاميون في يورك وانتخبوا عميدهم المعلم غودفري أوف كاينتون Kineton رئيساً لأساقفة يورك، وقد ذهب بشخصه إلى بلاط روما، وبعد كثير من المصاعب والنفقات أنهى أعماله نهاية مرضية، وعاد إلى الوطن سالماً.

الموتان الذي تسببت به المجاعة بين الناس

وانتشرت في تلك الآونة نفسها مجاعة كبيرة ومميتة في البلاد، حتى أن مكيال القمح ارتفع ثمنه إلى خمسة عشر شلناً وأكثر، وكان ذلك في وقت كانت فيه البلاد قد انعدمت فيها الأموال، وهكذا كانت هناك أعداداً لاتحصى من الجثث ممددة في الشوارع، وما من أحد في الحقيقة كان بإمكانه أن يتذكر بأنه شاهد من قبل مثل هذا الشقاء وهذه المجاعة، مع أنه كان هناك كثيرون ممن شاهدوا الأسعار ترتفع أكثر مما كانت

عليه الآن، ومـالم يتم جلب القمح من القارة للبيع، فإن الأغنيـاء سوف يكون بإمكانهم بصعــوبة النجـاة من الموت، وعـلاوة على ذلـك كـانت جثث الموتى ملقـاة فـوق أكـوام القمامـة والأوسـاخ في الشـوارع، وهي منتفخـــة ومهترئــة، ولم يكن هناك أي واحـــد ليقــوم بدفنهم، كما أن المواطنين لم يتجـرأوا ولم يختـاروا استقبال الموتى في بيـوتهم، خـوفـاً من العدوى، وكانت أيضـاً ندرة الأموال كبيرة جداً، حتى لو أن القمح بيع بسعـر صغير للمكيال، بـات من النادر وجود أي واحـد يمكنه امتـلاك الإمكانات لشرائـه، لكن الرب لكونه رحيماً قدم العـلاج بشكل سريع، حسبما تقدم الذكر أعلاه.

مغادرة إخوة الملك لأمه وسفرهم من إنكلترا

في ثمانيـة تحويل القـديس بندكت، أي في الثـامن عشر من تموز، قـال إخـوة الملك الذين تقـدم ذكـرهم وداعـاً للانكليز، ثـم قامـوا بمغـادرة انكلترا مصحوبين ببعض البـواتيين الآخرين، وكـان من بينهم وليم دي سينت هيرمس (الذي اعتـاد على الوقـوف إلى جـانب الملك أثناء تناوله للطعام، مع منـديل اصبع وكان يقطع اللحم له)، وأعـداد كبيرة أخرى من الذين ظلموا المملكة كلهـا، ونهبوا ثرواتها، وخاصـة نقودها، وأراح هؤلاء البـواتيـون أنفسهم أولاً في وينكستر، وبعـد ذلك في بيت عـائـد للأسقـف المنتخب لوينكستر في ســـاوثوورك Southwark في لندن، ولقـد روي بـأن كثيراً من نبـلاء انكلترا قـد تأثـروا من السم هنا وهناك، وتبرهنت النتيجــة أن ذلك كـان حقيقـة، ولـدى وصـولهم إلى شاطىء البحـر، عهد بهم النبلاء الذي قـادوهم إلى هناك عهدوا بهم إلى عناية إلـه البحـر نبتــون Neptune, وعند وصــــولهم إلى بولون Boulogne كتبـوا إلى الملك الفــرنسي لكي يسمح لهم بالسفــر بأمـان خـلال بلاده، أو أن يقيمـوا هنـاك لبعض الوقت، وفقـاً لامتيـاز فرنسي قديم ولعرف موجود، كما طلبوا اذناً للأسقف المنتخب لوينكستر

بالبقـــاء بعض الوقت في بـاريس بمثـابـة باحث، لكن الملك الفــرنسي رفض، لأنه كـان غـاضبـاً، بسبب الشكاوى التي عملتهـا ملكة انكلترا، وأضـــــاف الملك بـأنهم قـــد طـردوا من انكلترا «بشكـل مهين بسبب جرائمهم».

وعندمـــا سمع بهذا هنري ابن ايرل ليستر، قــام فجأة بعبــور القنال لمهاجمتهم، وفعل ذلك إما من دون علم أبيه، أو ضد ارادته، أو ربما كان ذلك برضاه، ولدى وصـوله إلى هناك التقى بعدد من الأصـدقاء، الذين كـانوا صـدوراً عن احترامهم لأبيـه ولتعـاطفهم معـه، كـانوا جـاهزين للانتقام للأضرار التي لحقت بـه، لأنه تحدث كيف أن وليم دي بلنسية، قام معتمداً على حظوة ملك انكلترا، وتأييد اخوانه الآخرين الذين كانوا حضـوراً، فتجــاوز جميع الحدود بشتـائمـه في بـارلمان لندن، واتهم أبيـه بالكذب بشكل معلن، وفعل ذلك ضد الايرل وسماه خـائناً قديماً، الأمر الذي أدهش كثيراً من سكان القـارة حيث عجبوا كيف قـام أناس أدنى نبالة منه، وأكثر قرابة أيضاً من الملك، فرغبـوا أو تجرأوا على تقريع أو تشويه سمعة مثل ذلك النبيل في مكانته السامية، وذلك سواء بالقول أو بالفعل، ذلك أنه نبيل الأصل، وواحداً من أعظم النبلاء جميعاً وأعلاهم مكانة ســواء في داخل الوطن أم في القـارة، وعـــلاوة على ذلك، إنه لم يكن لائقــاً، كما أنه كـان من الصعب التصــديق بأن رجـــالاً مـرتبطين بالملكية يمكنهم التفوه بمثل تلك الكلمات المهينة.

وبناء عليـــه لدى سماع أصــدقـاء الايرل بـالحقيقـة ومعــرفتهم بها، استعـدوا لـلالتحـاق بجـون في حملتــه على البـواتيين، وعندمـــا عــرف البـواتيـون صـورة الأوضـاع، انسحبـوا بصـورة سرية إلى بولون، لكن مطارديهم أدامـوا مراقبـة المكان من جميع الجهات، من البحـر ومن البر، وهكذا قاموا بتطويقهم، وجردوهم من جميع وسائل النجاة، وكانوا الآن أحراراً في انهاكهم وازعاجهم حسبما يستحقون.

كيف اعترض قسطلان دوفر مبلغاً كبيراً من المال وصادره

قام رتشارد غري Gray, الذي كان رجلاً شجاعاً ومخلصاً، والذي كان أيضاً قد جرى تعيينه قسطلاناً لدوفر، لصالح البارونات، بفحص جميع الأشخاص الذين عبروا أو أرادوا العبور من خلال ذلك المكان بكل دقة، وأثناء فحصه الدقيق لكل ما كان ينقل إلى هناك، وقف في حوالي هذا الوقت على مبلغ كبير من المال، كان سينقل سراً من هناك من قبل البواتيين المذكورين، وقد استولى عليه كله واحتفظ به في القلعة، وفي الهيكل الجديد في لندن، جرى أيضاً الاستيلاء على مبلغ كبير، وصل إلى حجم أنه أثار الدهشة العظيمة للذين سمعوا به، وكان مخفياً هناك من قبل البواتيين المذكورين، مع أن فرسان الاسبتارية حاولوا أن ينكروا ذلك، وجرى الاستحواذ على المال، ليجري انفاقه بشكل نافع، تحت اشراف كل من الملك والبارونات، من أجل منفعة المملكة.

رغبة الويلزيين في تقديم اعتذار مذل إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الآونة نفسها تقدم الويلزيون، الذين تشاجروا مع ملك انكلترا وحصلوا على سمعة سيئة لديه، بعروض سلام مشرفة، وأعلنوا عن أنفسهم أنهم جاهزين لتبرئة أنفسهم في محكمة قضائية، من جميع التهم التي وجهت ضدهم، وكذلك من تهم القتل والنهب والسلب.

كيف قبل اللندنيون بالمشاركة بقرارات البارونات

وجرى في عيد القديسة مريم المجدلية إرسال رسل خاصين إلى لندن، وذلك من قبل جماعة انكلترا كلها، وهناك دعوا المواطنين الذين كانوا معينين بمثابة بارونات للاجتماع في الغيلدهول Guildhall, وكان السؤال الذي عرض عليهم، عما إذا كانوا باخلاص سوف يقبلون بالمشاركة بقرارات البارونات، وإذا ما كانوا سيلتحقون بثبات بقضيتهم، وتقديم مساعدة فعالة إليهم في الوقوف ضد خصومهم، وعلى هذا

قدمــوا جميعاً الموافقــة عن طيب خاطر، وكتبوا صكــاً بتأكيد هذا الشيء، وختمــوه بالختم العــام للمــدينــة، لكنهم لم يكن بنيتهم الإعــلان عن القــرارات التي اتخذت، بسبـب مــرض ايرل غلوستر، الــذي نشأ عن بعض السم، الذي دس إليه، وذلك حسبما قيل بشكل عـام، هذا وكانوا قد أملوا بأنه سوف يتعافى من مرضه لأن مايشبه الدماء خرج من البثور الكثيرة التي ظهــرت على جسـده، وعلى شعـره، وعلى أظـافـره، كما أن جلده قد تسـاقط، وتساقطت أيضاً أسنانه، وهكذا حلق وتطهـر، وعهد به للعناية وللمعالجة الطبية للمعلم جـون أوف سينت جايل، الذي كان راهباً من طائفة الدومينيكان، وهو الذي كـان قد عالج من قبل روبرت أسقف لنكولن، وشفاه من مرض مماثل.

كيف جرى تسميم عدد من النبلاء في إنكلترا

وبدأ الآن كثير من نبـلاء انكلترا الذين جرى سمهم في الوقت نفسـه —كما قيل— من قبل البـواتيين، يتــلاشـون في أنفسهم، وفـارقـوا هذه الحياة، في حين بقي آخرون يتأرجحون بين الحياة والموت، وكان بعضهم علمانيين ذوي مـراتب وسلطة، وكـان آخرون رجـالاً نبـلاء ومتعلمين، وليس واضحاً بعـد للانكليز فيها إذا كان البواتيون قـد دسوا لهم السم، لأنهم اعتقدوا بأن هذا المرض ربما قـد صدر عن مصيبة أخـرى، وأظهر نفســه بشكل واضح، وكــان هناك، عــلاوة على ذلك، بعض الأشرار الذين يدسون السم، الذين خلفهم البواتيون، وكانوا متورطين في بعض الخطط الشريرة، وأعمال التآمر ضد النبلاء، ونتيجة لذلك شعـر النبلاء بالريبة وتشككوا بمتعهدي الأطعمة، والطباخين، والسقاة، وخشيوا من أن يكونوا قد ارتشوا لاقتراف جرائم مماثلة ضد سادتهم.

عدم استقرار فولك أسقف لندن

أثناء وقـوع هذه الأمـور الصعبــة والمهمـة، وخـلال هذه الترتيبـات الجديدة والسعيـدة جـداً لمسـائل المملكة، كـان فـولك أسقف لندن غير

متوائم بالمرة، وكسول وفاتر الهمة، وبسلوكه على هذه الصورة آذى سمعته الجيدة وزاد من ذلك، بسبب أنه رفع شأنه بسبب أصله، أكثر من البقية، وبما أن آمال البارونات قد رست عليه، فإن سلوكه قد أغضبهم، لأنهم اعتمدوا عليه لتسويغ الملك مع الناس.

الكلام القاسي للملك الذي وجهه إلى إيرل ليستر

وتزايدت مخاوف البارونات وقلقهم بالقدوم إلى شهر تموز، مع وبائه المفترس، واشتداد انتشار أمراضه، الأمر الذي يثير الهواء الساكن، والذي أخافهم أكثر من أي شيء آخر هو تفاهة الملك وتقلباته غير المنضبطة، الأمر الذي اكتشفوه وتأكدوا من وجوده من الكلام التالي الذي تفوه به، ففي أحد الأيام كان قد غادر قصره في ويستمنستر، وصعد ظهر أحد المراكب ليتناول غداءه، وليتمتع برحلة فوق نهر التيمس، ووقتها أصبحت السماء غائمة، وجاءت عاصفة مترافقة بالبرق وبمطر ثقيل، والملك الذي ارتعب من العاصفة من هذا النوع أكثر من أي شيء آخر، أصدر أوامره بالرسو به على الفور، وكان المركب آنذاك مقابل القصر الفخم لأسقف درم، حيث كان ايرل ليستر مقيماً آنذاك، وعندما عرف الايرل بوصول الملك، ذهب مسروراً لاستقباله، وفي سبيل تهدئته قال له: «مم أنت خائف، لقد ذهبت العاصفة الآن وزالت»، وعلى هذا الكلام ردّ عليه الملك ليس مازحاً، بل جاداً كل الجد قائلاً: «إنني أخاف من الرعد ومن البرق بدون قياس، ولكن بحق رأس الرب، إنني أخاف منك أكثر من جميع الرعد والبرق في العالم»، وردّ عليه الايرل بلطف قائلاً: «هذا غير عدل وغير معتمد يامولاي، بأن تخافني، وأنا صديقك الثابت، فأنا دوماً مخلص لك ولذويك ولمملكة انكلترا، والذي عليك بالحري هو أن تخاف من أعدائك، ومن المدمرين لك، والذين يتملقون لك زيفاً ورياء»، وتوجس كل واحد بأن هذه الكلمات قد خرجت متفجرة من الملك، لأن ايرل ليستر قد أصر

على قرار ارغام الملك على القبول بالقرارات التي اتخذت، وكذلك ارغام جميع الذين وقفوا ضدها، ليحولوا دون الوقوف إلى جانب خططهم، ودون الطرد الكلي لإخوته، الذين تسببوا بإفساد المملكة كلها.

العثور إثر وفاة برنارد على صندوق مليء بالأوراق البيضاء مختومة بالختم البابوي العظيم

وفي حوالي هذا الوقت نفسه مات المعلم برنارد دي نيمفا Nym-pha فجأة، وكان من أهالي ضواحي روما، وكان رجلاً بارعاً وغنياً، وعمل كاتباً لدى رتشارد ايرل أوف كورنوول، واستخرج المال من الصليبيين بحجج مريبة، وعثر بين مقتنياته على صندوق مليء بأوراق مختومة بالختم البابوي العظيم، وهي أوراق كان من الممكن ملئها حسب الرغبة، واستخدامها في أي مجال سيء، مثل استخراج المال بطريقة فاسدة قائمة على الغش، من الفقراء، وكأن ذلك بوساطة سلطات البابا وتفويضه.

اجتماع أساقفة إنكلترا في أكسفورد

وحوالي الوقت نفسه، وجهت الدعوة إلى أساقفة انكلترا بشكل عام للاجتماع في اكسفورد، من أجل القيام بتطوير وإصلاح أحوال الكنيسة الانكليزية المترنحة، والتي دفعت بطرق مضاعفة كثيرة إلى هنا وهناك، وباتت مهددة بخطر السقوط كلها مع بعضها، وقدم إلى ذلك المكان أربعة أساقفة، قد جرت انابتهم هناك من أجل قصد معين، وهؤلاء هم أساقفة: نورويك، وشيكستر، واثنين آخرين، أنا لم أتذكر اسميهما، ودعا هؤلاء الأساقفة جميع رؤساء الرهبان المعفيين مع آخرين من الطوائف الأخرى، أو حماتهم الأقوياء، لأنهم رغبوا في أن يعرفوا فيما إذا كانوا سيقبلون بالمشاركة بمبادئهم وقراراتهم، وهل سيقف الأساقفة إلى جانبهم ويتحدوا معهم في تأييد الشيء نفسه والدفاع عنه، ولكن بما أن

بعض الأساقفة كانوا غياباً لسبب أو لآخر، ولأن بعضهم قد ترددوا في إعطاء موافقتهم، لم يتمكنوا من تقديم جواب ايجابي آنذاك، ولذلك غادروا جميعاً، تاركين الأعمال دونما انتهاء، وقد جرى تقديم المبادىء في كتاب Additaments.

العثور على السم

بعد مضي وقت قصير، انتشر تقرير، وعملت شكاوي، بأن سماً قاتلاً قد دسّ إلى أناسٍ متنوعين في انكلترا، وبشكل خاص إلى النبلاء، وأن مؤثراته كانت آخذه بالانتشار في مختلف الاتجاهات بصورة محزنة، وبرهنت نتيجة الأحداث التي ورد ذكرها أعلاه، على الفور بأن هذه كانت حقيقية، لأنه تمّ العثور في بعض الأماكن السرية كثيراً، على بعض الجرار التي يطلق عليها بشكل عام اسم Cortrells, وجرى فتح مغاليقهم بصعوبة كبيرة، وقد وجدوا فيهم، وفقاً لتقرير عام، سائل أزرق، وكان سماً مميتاً، وهو قد عرض على بعض الكلاب الجائعة، فرفضت تذوقه، ولكن عندما جرى مزجه مع أطعمتهم الأخرى، وقدم إليهم، تناولوه فماتوا على الفور، وقد قيل بأن هذه كانت مؤامرة من الأجانب لتسبيب الموت إلى الانكليز.

وحشية الأسقف المنتخب لوينكستر نحو واحد من الكهنة

ولقد حدث، قبل وقت قصير مضى، أن قام جون فتز— غيوفري، الذي كان المسؤول عن العدالة في ايرلندا، وكان مشهوراً بأصله النبيل، وغنياً، وقوياً، بإعطاء كنيسة إلى واحد من كهنته، ولدى سماع الأسقف المنتخب لوينكستر بهذا، ادعى أنه يمتلك حق الاشراف على الكنيسة نفسها، وأمر وهو في حالة غضب شديد بطرد الكاهن المذكور منها، وأنه إذا ماأبدى أية معارضة، بأن يجري سحبه منها بإهانة وقوة، وأن يرمى به في أي مكان قذر.

وبناء عليه قام وكلاء الأسقف المنتخب المذكور، بطرده من الكنيسة بوحشية كبيرة، ولأنه عبر عن دهشته ضد تصرفاتهم، أظهروا صفاقتهم ضده، إلى حد أنهم أرادوا قتله، وأهانوه، وضربوه، وجرحوا بعضاً من خدمه، وطردوهم من بيوتهم، ونهبوا الكنيسة، وتمت معاملة بعض خدم الكاهن المذكور بصورة لاإنسانية بشعة، إلى حد أنهم انهاروا وماتوا خلال أيام قصيرة، ونقلت أخبار هذه الفعلة الشنيعة إلى الحبر الروماني من قبل بعض البارونات، وعندما سمع رجل العدالة المتقدم ذكره بها، غضب بشكل محق، وتقدم بشكوى إلى الملك، الذي تصرف حسبما كانت عادته، فحاول أن يلطف خطيئة الأسقف المنتخب، وحث الفئة المتشكية على عدم فضح الأسقف المنتخب، باتهامه بمثل ذلك الذنب الكبير، وبعدم اتخاذ أي اجراء قضائي ضده، ولذلك عبر جون المتقدم ذكره بالقضية وتجاوزها صامتاً، وانتظر وقتاً أكثر مواءمة للانتقام، وعندما وجد في الوقت الحالي، أن جبروت البو اتيين قد انهار، جدد شكواه، واتهم واحداً من البواتيين، كان خادماً للأسقف المنتخب المذكور لوينكستر، باقتراف الجريمة الكبرى، والأسقف المنتخب نفسه، بأنه هو الذي أمره باقتراف الجريمة.

نقاهة إيرل غلوستر

ووجد ايرل غلوستر —الذي كان مقيماً في سننغ Sunning, وهومكان قرب ردنغ نفسه— وقد أخذ بالتحسن بعض الشيء في صحته، ومع ذلك لم يتجرأ، بسبب خبث مرضه، أن يزعج نفسه، خشية من أن يستعيد شدته ثانية، ذلك أنه كان يعاني من الآلام في الداخل والخارج، داخلياً بسبب موت أخيه و. W, الذي بسبب فقدانه حزنت انكلترا كلها، وخارجياً، مع أنه كان ناقهاً، كان قد تشوه بشكل مخيف، حيث فقد شعره، وكذلك بشرته، في حين باتت أسنانه وأظافره وضيعة وشاحبة، وتهدد بالسقوط منه.

كيف دمر الشيخ برانكليون حصون بعض قطاع الطرق

ووجد في هذا العام أيضاً الشيخ الروماني برانكليون أن وقاحة النبلاء الرومــان وتجبرهم أمر لايمكن قمعــه إلاّ بطريقة واحــدة هي تدمير قلاعهم، التي كانت بالواقع مكاناً للاختباء لرجال العصابات وقطاع الطرق، ولذلك تولى تدمير حوالي مائة وأربعين من قلاع النبلاء المذكورين، وأمر أن تجتث إلى الأرض، وهكذا أمكن استرداد السلام والهدوء بشكل كامل، وبذلك تفرق قطاع الطرق الذين يسمونهم Birri ومعهم جميع الآثمين والجناة، في كل من روما نفسها والمناطق المحيطة بها.

الشكاوي التي رفعت ضدّ البواتيين

وأرسلت التعليمات إلى كثيرين ممن تعرضــوا للأذى بشكل مهين وللأضرار والاعتداءات من قبل البواتيين الذين تقدم ذكرهم، للتقدم بشكاويهم حول القضايا المتعلقة بهم، مع إعطاء براهين حول الأضرار التي لحقت بهم على أيدي إخوة الملك المذكورين، وتم التأكيد لهم أنهم إذا ماعرضوا شكاويهم مؤيدة ببراهين جيدة، وتابعوها بإصرار، فإن كل تعويض سوف يقدم إليهم، وفقاً لما تمليه العدالة، ولكن بما أن موسم الحصـــاد بات وشيكاً، ورأوا أنه من غير الموائم متـــابعــة مثل هذه الإجراءات، ولربما ستكون متاعبهم واضطراباتهم، بعد كل شيء، من دون هدف ومحصلة، لذلك رفضوا متابعة شكاويهم، إلى أن يروا مناسبة أفضل.

كيف سمح للبواتيين بالعودة إلى الوطن من خلال فرنسا

وبما أن إخوة الملك المتقدم ذكرهم كانوا محاصرين ومضيق عليهم في بولون، حسبما تقدم الذكر أعلاه، بعثوا رسولاً موثوقاً إلى ملك فرنسا، ورجوه بتواضع، بأن لايتخلى عن الذين فروا للالتجاء إلى صدر حمايته

أثناء اضطراباتهم، بل بالحري التعامل معهم وفقاً لامتياز مملكته (الذي ألزمها باستقبال من فرّ إليها وحمايته بسلام) بإرسال رسل سلام، وأدلاء من أجل رحلتهم، والسماح لهم بالمرور خلال مملكته، وهم على طريقهم إلى بواتو، وجرى قبول هذا الطلب عن طواعية من قبل ذلك الملك العظيم التقوى، وما من أحد يشك أن اظهار الرحمة نحو التعساء —مع أنهم لم يستحقوا ذلك— هو تمام الإحسان.

زيادة المجاعة بسبب دمار الموسم بالأمطار الثقيلة

وفي هذه الآونة أيضاً، أي في نهاية تموز وبداية آب، وبسبب عجز المواسم في هذا العام وكذلك في العام المنصرم، ازداد الشقاء، والعوز، وانتشرت المجاعة، حتى أن الذين اعتادوا على مساعدة الآخرين باتوا الآن بين الأشقياء الذين هلكوا من العوز، والذي أرعب الفئات الدنيا من المجتمع أكثر من النبلاء هو استمرار تساقط الأمطار الغزيرة، التي هددت بتدمير مواسمهم، التي كان الرب قد أعطاهم آمالاً حولها من قبل، وباختصار نقول كانت انكلترا سوف تسقط عجزاً بنفسها لولا أنها أعيدت إلى الحياة، بوصول بعض المراكب العائدة إلى التجار من القارة، حيث كانت محملة بالقمح والخبز للبيع، وقد جاءت من هولاندا وألمانيا، لكن بقي هناك أن كثيرين كانوا قد أنفقوا أموالهم كلها، قد ماتوا من الجوع والعوز، وكان من الممكن رؤية أشخاص من المراتب العليا، امتلكوا من قبل وفرة من جميع الأشياء، لكن جميع ثرواتهم قد أنفقت تماماً، لذلك أرغموا الآن على العيش على صدقات الآخرين، والتسول من باب إلى باب، وقد غلبهم الحياء، وكانت وجوههم شاحبة من الجوع ومن الحاجة إلى الراحة، ولتمضيتهم لياليهم من دون نوم، في أسى وفي نحيب، وفي أيام عيد صعود العذراء المباركة، عندما تمتلىء الاهراءات بالعادة بالحبوب السنوية، نادراً ماكانت هناك سنبلة واحدة ناضجة، ونظراً لازدياد تساقط الأمطار يومياً، كان العمال الأجراء

وقطعانهم يتكلفون نفقات عالية جداً، دون أن يستطيعوا مغادرة بيوتهم، أو القيام بأي عمل مفيد في الحقول، ونتيجة للظروف التي لم تكن معروفة من قبل، كانت مواسم القمح جاهزة في يوم عيد جميع القديسين للحصاد، لكنها كانت بلافائدة، وشبه تالفة، وحدث في بعض الأماكن أن كانت هناك بعض المزروعات صالحة للاستخدام بعض الشيء، ولذلك حصدت ونقلت، لكن في كثير من المناطق الأخرى تركت كلياً في الحقول لاستخدامها بمثابة سماد لإغناء التربة، وينبغي أن يكون معلوماً أيضاً، أن الأرض لو أنتجت في ذلك العام موسماً وافراً، لكان من الممكن انقاذ كل شيء، ولكانت وفرة المواسم كافية لمدة تقارب العامين حتى يمكن استهلاكها.

الإعلان عن صوم والمسيرة التي أعقبت ذلك في سبيل الحفاظ على المواسم

وبما أن جميع وسائل المواساة الإنسانية قد أخفقت، تمت العودة الآن إلى المواساة اللاهوتية، ولذلك تقرر في اجتماع عقد في مقر الهيئة الكهنوتية في كنيسة القديس ألبان، أنه ينبغي القيام بصوم عام ومهيب، ويتوجب الإعلان عن ذلك بين الناس، من قبل رؤساء الشمامسة في جميع الكنائس في تلك البلدة، وأن السكان عليهم جميعاً الاجتماع بتقوى عميقة في يوم عيد القديس أوسوولد Oswald, الذي يقع في التاسع من آب، وأنه ينبغي أن يتبع ذلك مسيرة يقوم بها رهبان الدير وهم حفاة، إلى كنيسة القديسة مريم في الحقول، ثم أن يقوموا هناك بالتقدم بالرجاء إلى الرب وإلى أمه حتى يتوليا رحمة الناس، ولكي يشفق الرب ويستجيب للأدعية، وبفضل وجود أمه هناك، فيعيد الأنواء إلى شكلها الطبيعي.

ولدى سماع شعب لندن بهذا، لاموا أنفسهم لتباطئهم، وتأثروا بهذا المثل الذي ضرب، ولذلك قرروا القيام بصوم عام، تم فرضه على

الطوائف الرهبانية وعلى مـواطني وسكان المدينة، وأن على الناس من كلا الجنسين الالتـزام بالندم والتـوبة، والمشـاركـة بالمسيرات، وأن يتم تناوب ذلك بين بعضهم، وبين الكنائس، وأن يقـدمـوا صلوات تقية مخلصـة إلى الرب، بأن يحفظ ثمار الأرض، الأمر الذي أعطى أملاً به، بمنحهم موسماً هادئاً وموائماً، وذلك للسماح للناس بجمع حصـادهم وحبوبهم ووضعها في الاهراءات، وذلك بوســاطة ضبط تسـاقط الأمطار وايقــافهـا، لأنهم قـالوا: «نحـن يمكن أن نتحمل بصبر أكبر اخفـاق اللامـرئـي، أكثـر من سحب المنفعة بعـدما تقدم الوعـد بها»، وجرى تنفيـذ هذه القرارات عن طواعيـة وباخلاص وتقوى، ومـالبثت النتائج أن تبرهنـت على الفور أنها فعالة، ذلك أنه خـلال وقت قصير، حدث بوساطة تدخل تلك المحـامية الأكثـر قوة عنـا [العذراء مـريم]، والشهيـد المبارك ألبـان، مع القـديسين الآخرين، أن توقـف المناخ السيء الذي استمر طويلاً جـداً، أو صار يأتي لماماً، ونزلت أسعار القمح منذ ذلك التاريخ، حتى بيعت الحبوب بنصف السعر الذي كانت تكلفه من قبل، لأن الصلوات الخالصة للناس، وماتبع ذلك من تغير في الأنواء، والمناخ قد وعدوا بموسم وافر سريع في كل من القمح والفواكه.

وفاة هنري ليكسنغتون أسقف لنكولن

في الشـــامـن من آب مـــات هنـري ليكسنغتـــون، أسقف لنكـولن في نيتلنغتون Netlington وهي عزبة عـائدة له قـــرب لنكولن، وقد دفن جســـده، مـع كل الاحترام المستحق في الكنيســة الكـاتدرائيــة في لنكولن.

مغادرة هيرلوت مندوب البابا لإنكلترا

مع اقتراب حلول عيــد صعــود العــذراء المجيــدة، غــادر هيرلوت مندوب البابـا، انكلترا، وكان موثقـاً ومستشاراً خـاصاً للبـابا، وجاء إلى

انكلترا مسلحاً بأعظم السلطات من البابا، ولكن عندما شاهد الأوضاع المضطربة للمملكة، قام بتعقل بالمغادرة بهدوء، حتى تهب رياح السلام والوحدة، وتكون الأوضاع أكثر مواءمة له.

مصادرة بعض الأموال العائدة للأسقف المنتخب لوينكستر

وفي الوقت نفسه تابع حاكم دوفر مراقبة يقظة على الساحل، وقام بتفتيش دقيق لجميع المسافرين،الذين وجد عدداً كبيراً منهم محملين بالنقود المحبوبة كثيراً، وكانت منقولة لصالح الأجانب، وخفف عن هؤلاء الأشخاص أحمالهم، حتى يمكن أن يسافروا بسهولة أكبر، وجرى في هذا الوقت بالذات العثور على ألف مارك، عائدة إلى الأسقف المنتخب لوينكستر، وكان قد أودعها في دوفر، وأعطيت هذه الأموال إلى أربعة فرسان، وقدمت إليهم نقداً، لتجهيز ماهو ضروري لرحلة، كانوا ربما سيقومون بها إلى روما، وذلك باسم الملك وباسم نبلاء انكلترا، ليترافعوا لصالح قضية البارونات، من دون أي خلاف أو تأخير، وليعلموا البابا بخبر العثور على أوراق بيضاء مختومة بالختم البابوي الكبير، في صندوق عائد إلى المعلم بيرارد دي نيمفا، وكان ذلك بعد وفاته، وليبرهنوا له في الوقت نفسه بوساطة هذه الأوراق البيضاء المختومة، وليروه البدع الكثيرة، والكثيرة المضاعفة، التي سعى الرومان بوساطتها لتلويث البلاد، وأخذ المندوبون معهم هذه الأشكال من الأوراق البيضاء المختومة بالختم البابوي الكبير، وقت اكتشافهم.

قلق ملك فرنسا من أجل إقامة سلام دائم مع إنكلترا

كان ملك فرنسا الأكثر تقوى، يدرس بنشاط الوسائل التي تمكن من إقامة سلام دائم بين مملكتي فرنسا وانكلترا، لأنه قال: «ينبغي بذل أعظم الجهود في سبيل تأسيس سلام ثابت ودائم بين أبنائي وأبناء ملك انكلترا، الذين هم أبناء خالة، والذين سوف يكونون بفضل الرب

ملوكاً، حتى لاتستمر المملكتان بقضم بعضهما بعضاً، بناء على إثارة عدو الجنس البشري، ولكي لايقوم السكان بتبادل أعمال النهب، وقتل بعضهم بعضاً، وبذلك سوف يقذفون في جهنم»، ولذلك أمر بجمع مبلغ كبير من المال، حتى يساعده على تنفيذ خططه التي أبدعها في عقله، واعداً رعاياه الفرنسيين بأنهم سوف يجنون منافع كبيرة من اسهاماتهم، ورجاهم أن لايغضبوا من التكليف القصير العمر، الذي منه سيحصلون على منافع دائمة للمستقبل.

تعيين أربعة فرسان في كل كونتية للبحث في مآسي الفئات الدنيا

وصدرت في هذه الآونة مذكرة عن الملك إلى كل كونتية، موجهة إلى أربعة فرسان يجري تعيينهم في كل كونتية، للقيام ببحث دقيق ومخلص في طبيعة المظالم وسماتها والمآسي التي عانت منها الفئات الدنيا على أيدي جيرانهم الأكثر قوة، وليتولوا الفحص بكل دقة والتمحيص في سبب كل شكوى وأذى، تسبب به أي واحد كان، وأنزل بأي واحد من الناس، وذلك لوقت طويل مضى، ولكي يجلبوا نتائج فحوصاتهم، مغلقة تحت أختامهم، حتى يعرضوها أمام البارونات في موعد جرى تحديده في تلك الرسائل، التي من الممكن الوقوف عليها في كتاب Additaments.

غضب الملك ضد فيليب لوفل
بسبب الأضرار التي لحقت بالغابات

ومع بداية أيام الحصاد من هذا العام، قام الملك بفحص دقيق في أوضاع غاباته في أحواز ستوني ستراتفورد Stony Stratford, وقد نمي إليه بأن فيليب لوفل الذي كان كاتباً ومستشاراً خاصاً به مع خازنه، قد تسببا بأضرار لاتعوض للغابات الملكية، وكان الملك في الحقيقة قد منحه بشكل حر وبكرم ملكي عدداً من الحيوانات للاحتفاظ

بها في حدائقه، ولاستخـدامات مائدته، غير أنه أساء استخـدام معروفه، وبلا حيـاء تجاوز العـدد المسمـوح بـه إليـه، فـوصـل إلى درجـة عشرة أضعاف، كما أفاد التقرير.

وغضب الملك غضباً شديداً تجاه هـذا، وقام بفحص داخل الغابات، فـوجـدهم فـارغين من الحيـوانات، وأخبر —كما ذكـرنا أعـلاه— بأن فيليب لوفل كـان السبب في هذا، فأمسكه بقسـوة من ذراعـه قـائـلاً: «فيليب، بحق رأس الرب، إنني أعتقلك بحكم كـونك الأكثر انحطاطاً بين رعيتي»، وكان فيليـب راغباً في تهدئة غضب الملك، لـذلك رد عليه بلطف واعتـدال وتذلل قـائـلاً: «مـولاي الملك، الذي أنا خـدمتك باخـلاص لبعض الوقت في بيت مـالك، هناك عدد كبير من المسـؤولين عن الغـابات، وبشكـل خـاص في ويتلوود Whittelewood، الذين مارسوا الطغيان ضـد أتباعهم من سكان الريف، والذين حولتهم جـرائمهم إلى أنـاس لايمكن تصـديقهم، وذلك حسبما يمكـن لرئيس رهبـان ورهبـان دير بيكل Beccles أن يبرهنوا، ولذلك —إذا تفضلت— لاتصـغ بسرعـة لـلإفـادات السريـة والخفيـة لمثـل هؤلاء المتهمين، لأنهم يسعون إلى تشويه سمعة الملك، حتى يمتلك أعداءه سبباً للقول: ينتهي الملك، مثل الشيطان باعتقـال وتدمير الذين خدموه، حتى أن ذلك طال الذيـن خـدمـوه على أحسن مـايرام في وظائفهم»، وأثير الملك أكثـر بهذا الكـلام، وأمـر بإيداع فيليب في سجـن المارشـال، وهو يقـول بصوت مـرتفع: «بما أنني رفعت من شأنك مع آخـرين، وبفضـل مني عينتك في وظائف عـالية ومـربحة، ولذلك توجب عليك خـدمتي بدقـة أكثر وباخـلاص أعظم، ولهذا إنك تستحق أن تعاقب بشـدة أكبر لأخطائك وآثامك»، وهذه الكلمات نفسها قد اعتاد أن يستخدمها مراراً ويقـولها إلى روبرت باسليف، عندمـا أخـذ ذلك الشخص بالتمـرد على سلطتـه، قبل بضع سنوات خلت، لكن فيليـب، الذي كـان قـد عمل

أعمالاً صالحة لكثير من النـاس، لم يكن من دون أصدقـاء، ولدى عثوره على بعض الأشخـاص من ذوي المراتب العليـا كفـلاء له حتى يستطيع اثبات براءته، أطلق سراحه لبعض الوقت، وذلك إلى أن يتمكن كما أمل بأن يتم اطلاق سراحه تماماً.

إلقاء عمدة نورثأمبتون في السجن

اقتفى عمـدة نورثأمبتـون طريـق سلفـه، وليم دي لآيل، الذي كـان عمدة قبله، وقلده حيث أثير بالشره، فألحق الأذى بعدد من الأشخاص الأبرياء، وعملت شكـاوي حـول سلوكـه إلى هوغ بيغـود، المسـؤول الرئيسي عن العـدالة، فـوجـده مجرمـاً باقتراف عـدد من أفـاعيل الأذى والظلم، ومع اقتراب حلول ميـلاد مـريم المبـاركـة، اعتقل، وأودع في سجن مضيق عليه، وقد نجا بذلك بصعوبة بحياته.

وفاة روجر أوف ويكهام

وفي هذه الآونة مات روجـر أوف ويكهام Wickham, وكان كاتباً خاصاً ومستشـاراً للملك، وقد شغل منصب المسؤول عن العدالة، واستخدم غاية جهده لتقديم الترضية للملك بتنفيذ أوامره.

وفاة وليم أوف تارنتوم

ومـات في هـذه الآونة أيضـاً وليم أوف تـارنتـوم Tarentum, وكان راهباً من طائفة رهبان السسترشيان، وكان ناظراً ونوعاً ما قهرماناً للملكة، وقد ضل هذا الرجل وابتعد كثيراً عن أحكام القديس بندكت، وكان مثـاراً بشره لايعرف الاستقـرار ولاالشبع، فقام إمـا ببيع أو برهن جميع الممتلكات والعـزب لصـالح الملكة، حيث زاد بذلك بشكل واسع ممتلكاتها، لكنه بزيادة خسـائر الآخـرين وتعريضهم للمخـاطر، أساء إلى سمعته بشكل لايمكن تعـويضه، ومع أن الرهبـان، خاصة الـذين كانوا من طائفتـه، وجـه إليهم اللوم مـن أجل أخطاء وليم المذكـور، وجـرى

تقريعهم معه، وجلب هذا سوء السمعة للطائفة كلها، مع ذلك صنعت له الملكة الأعذار، ورخصت أغلاطه، وبذلك سمحت لذنوبه بالازدياد لسنين كثيرة.

كيف جرى إرسال رسل إلى البابا باسم جماعة إنكلترا

وجرى ارسال رسل خاصين إلى البابا باسم المملكة وجماعة انكلترا كلها، مع أوامر بتقديم رسائلهم على الفور، ومن ثم العودة بأقصى سرعة ممكنة، من دون انتظار أو اصغاء إلى أية مناقشات أو مباحثات، وكان واحداً من هؤلاء هو بطرس برانشي Branche, وكان رجلاً من أكثر الناس فصاحة وتقوى، وقد مات في باريس، مما نشر الذعر وسبب الحزن للبقية، غير أنهم تابعوا سفرهم، بتصميم على الاستمرار، وتحقيق غرض بعثتهم، وكل من يرغب في معرفة هدف رحلتهم، وأن يرى نسخة عن الوثيقة التي كتبت من قبل البارونات، يمكنه أن يجدها في كتاب Additaments.

الخيانة التي اقترفت ضد الويلزيين

وفي إحدى المناسبات، عندما كان الانكليز عاقدين لمراهنات سلمية مع الويلزيين، وجدوا أن فئتهم أكثر عدداً وأعظم قوة من الويلزيين، فقال واحد من الفرسان الانكليز لباتريك، الذي كان مقدمهم: «مولاي باتريك، إنك بارون عالي المقام لدى الملك، وأنت مقدمنا اللامع والمحامي عنا، انظر لقد قام الرب، إله الحشود، والمنتقم، بوضع أعدائنا بين أيدينا، لأننا أقوى وأكثر عدداً من الويلزيين، دعنا نهاجمهم وهم غارين، وأن نرسلهم أسرى إلى مولانا الملك، الذي إليه هذا النصر سوف يكون مقبولاً كثيراً، لكن إذا لم تستجب لطلبي، سوف أتهمك بأنك خائن للملك»، وعندما سمع الانكليز بهذه الخطة المقترحة، ولاسيما رجال الحدود، الذين نسميهم رجال التخوم، انقضوا فجأة على

الويلزيين، وهكذا قتلـوا بشكل خيـاني كثيرين منهم، ولكن بعـد وقت قصير وقع ثقل المعركـة على رجال التخـوم هؤلاء أنفسهم، وسقط عدد كبير من هؤلاء الخونة قتلى بدورهم، وكان بينهم البارون باتريك المتقدم الذكـر، أما الجبـان الذي اقترح اقتراف هذه العمليـة الخيانيـة، فقد نجـا خلسة من ميدان المعركة عندما كان الآخرون يقاتلون بحدة.

وكـان قـائـد الويلزيين في هذا الصراع الدمـوي، داود، الأصغـر بين ثلاثة إخوة، كـانوا أبناء للويلين الكبير، الذي كان قـد حاز على كثير من الانتصارات التي تستحق الذكر بشكـل خاص، وقد قيل عنه الكثير من قبل في هذا الكتـاب في الأماكن المناسبـة، وكان هناك ابن آخـر من أبناء للويلين، وكـان اسمه أيضـاً للويلين حـاضراً في هذه المعركـة، وتصرف بنفسـه بشجاعـة كبيرة ضد الانكليـز، محتذياً حـذو والده في كل سبيل، ومبرهناً عن نفسه أنه لم يكن ابناً متدنياً، وكان الابن الآخر، وهو الأكبر بين الثلاثة، محفوظاً في سجن مشدد عليه.

تكريس غودفري رئيساً لأساقفة يورك

وعند اقتراب حلول عيـد الميـلاد، جـرى تكريس المعلم غـودفـري المتقدم ذكره في روما رئيسـاً لأساقفة يورك، حيث تبين إلى كل من البابا ولجميع الذين فحصـوه أنه مناسـب وشخص مـوافـق لذلك المنصب، وبعـدمـا أنهى بشكل مـوائم الأمـور المتعلقـة بكنيستـه، عـاد في الوقت المناسب ليتولى ادارتها وتسييرها.

رغبة رئيس أساقفة كانتربري في أداء بعض القداسات في كنيسة القديس ألبان

وكـانت كنيسة لنكولن شـاغـرة في هذه الآونة، ولذلك أرسل رئيس أساقفـة كانتربري رسالة إلى رئيـس رهبان كنيسة القـديس ألبان، اقترح فيها القـدوم إلى هناك، وتقديم بعض القـداسات (إذا كان ذلك مـوافقاً

عليـه من قبل رئيس الرهبان) في الكنيسـة الديرية هناك، ولدى وصـول هذا الخبر، بات رئيس الرهبـان مـذعـوراً، خشيـة أن يجري تجريد هذه الكنيسة من امتيـازاتها بأية طريقة من الطرق، وبعد القيـام بالمشاورات، قرر معارضـة رغبته، وبناء عليه جرى اخبار رئيس الأسـاقفة جواباً، أنه لن يستقبل للقيام بهذا بأي شكل من الأشكال، لأنه من الواضح أن دير كنيسـة القـديس ألبـان كـان منذ القـديم معفيـاً، الأمـر الذي ينبغي أن لايكون سراً بالنسبـة له، ولأنه كان في ذلك الوقت مستحـوذاً على ادارة كنيسة لنكولن، التـي كانت شاغـرة، كان من المعـروف بشكل جيد أنها مستثناة كليـاً وخـارج امتياز كنيسـة القـديس ألبـان، ولدى سماع رئيس الأساقفـة بهذا تخلى بهدوء، لأنه وجد أن متـابعة العمل في هـذه القضية سـوف يكون بلافـائـدة، ولذلك تولى اعطاء قـداسـات في دنستيبل Dunstable, وقـد طلب على كل حـال بأن يستقبل ضيفـاً في كنيسـة القديس ألبـان من باب الكرم، وبناء عليـه، جرى استقبـاله أثناء الذهاب وأثناء الاياب، بلطف واحترام، وتم تزويـده بوفرة من الطعـام عندما كان هناك، وبذلك كان راضياً تماماً، وتقدم بالشكر إليهم، وبارك في الوقت نفسـه كل من المضيفين والضيـافـة، وترك كنيستهم مع جميع ممتلكاتها دونما ازعاج، ودونما أذى.

انتخاب بندكت أوف غريفسند أسقفاً للنكولن

في يوم الاثنين التالي قبل عيد القـديس ميكائيل، جرى انتخاب المعلم بندكت أوف غـريفسند Gravesend, عميـد كنيسـة لنكولن أسقفاً لكنيسة لنكولن، وذلك بموافقة جميع الفرقاء، لأنه بدا لهم شخصاً جديراً بالثناء، وواحداً يبدو أنه لن يكون مهملاً لمصالح أي واحد يكون تحت سلطته.

تكريس كنيسة سالسبري

في اليوم التالي لعيد القديس ميكائيل، جرى تكريس كنيسة سالسبري Salisbury من قبل بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، وكان ذلك بحضور الملك وكتلة عديدة من الأساقفة، وقام الأسقف بتأمين الضيافة لجميع الذين احتشدوا هناك أثناء القداس.

خلع فيليب لوفل من منصبه ومعه بعض الآخرين

في حوالي أيام عيد القديس لوقا الانجيلي في هذا العام، جرى طرد فيليب لوفل، خازن الملك من منصبه، بموجب قرار قضائي صدر عن البارونات، وبالنسبة للمنصب المتقدم الذكر تم تعيين جون دي كراشال Crachal, الذي كان رئيس شمامسة بدفورد Bedford, مكانه، ولم يحزن فيليب كثيراً لعزله شخصياً، وذلك بقدر ماحزن لسبب ذلك، ولسقوطه من منصبه العالي، فعرض على الملك مبلغاً كبيراً من المال في سبيل إعادة تأسيس اسمه الجيد، ولكي يكون صديقاً للملك، ولو من حيث المظهر على الأقل، ووفق الطريقة نفسها، وبموجب نصيحة من البارونات، وبشكل خاص من المسؤول الرئيسي عن العدالة، جرى صرف عدة آخرين من مناصبهم في بيت المال (الخزانة)، وتم تعيين آخرين محلهم، وجرى تعيين توماس وايموندهام Wy-mondham قائد جوقة المرتلين في كنيسة لشفيلد Lichfild خازناً لبيت المال، حيث يجري ختم المذكرات بالختم الأخضر.

كيف توبعت المراقبة والضبط لنهم العمد

وجرى ضبط نهم العمد بحكمة ولأسباب صالحة، لأن المرتزقة، قاموا متجاوزين كل الحدود، فمارسوا حتى الآن استخراج الهدايا من السكان، بأية وسيلة من الوسائل، سواء أكانت صحيحة أم خاطئة، وزودوا بعضهم بعضاً بزيادة مزارعهم، وركبوا وتجولوا مع حواشي

كبيرة، وظلموا سكان الأرياف باستخراجاتهم، وبحجج تافهة ومن دون أسس صحيحة، وبناء عليه تقرر أنه إذا ماأقدم أي واحد من ذلك الحين فصاعداً، على تقديم هدية إليهم بشكل سري أو علني، أي إلى العمد، أو إلى أي واحد منهم، من أجل الحصول على العدالة، أو من أجل تعطيل مسيرة العدالة الحقة —مالم تكن مثل هذه الهدايا مكونة من كمية لطيفة من الطعام والشراب— فإن كلاً من الراشي والمرتشي ينبغي عقوبته بقسوة.

المندوبون الذين أرسلوا من إنكلترا إلى البارلمان الذي عقد في كامبري

في حوالي عيد القديس ليونارد، توصلت جماعة الفرسان التي كانت مجتمعة في لندن، إلى قرار قضى بإرسال مبعوثين خاصين إلى البارلمان السري الكبير، الذي تقرر عقده في كامبري Cambray بين ممالك: فرنسا، وانكلترا، وألمانيا، وبقي الملك، بناء على نصيحة البارونات، في انكلترا، في حين وقع الاختيار على من سوف يتابع الإجراءات هناك ممثلاً لملك انكلترا وللمملكة فكانوا: أسقفي ووركستر ولنكولن، وروجر بيغود— الايرل مارشال، وايرل ليستر، وقد عبر هؤلاء القنال من أجل هذه الغاية، لكنهم لم يستطيعوا إيصال الأمور إلى أية نتيجة، لأن الملك الفرنسي تغيب شخصياً عن عمد، بسبب غياب الملك الآخر.

تكريس بندكت أوف غريفسند أسقفاً على لنكولن

في يوم الأحد الذي جاء بعد عيد جميع القديسين، جرى تكريس أسقف لنكولن في كمبردج، وقام بعد ذلك مباشرة بعبور القنال، حسبما ذكرنا أعلاه، وذلك لصالح الملك، وبذلك غادر كنيسة لنكولن وتخلى عنها، مع أنه عمل أسقفاً لها، ولم يزرها لوقت طويل من الزمن بعد ذلك.

كيف طالبت جوانا زوجة وليم دي بلنسية ببائنتها

في حوالي الوقت نفسه، عندما كان الملك مايزال في لندن، قدمت إليه جوانا زوجة وليم دي بلنسية، وطالبت بإلحاح وسرعة، بحضور هوغ بيغود، المسؤول الأعلى عن العدالة، والبارونات، بمنحها العدالة، وأنه ينبغي أن يسمح لها ببائنتها العائدة إليها، وبعد مداولات وافية حول القضية، جرى منحها جزء من الأراضي التي كانت عائدة إليها قبل زواجها من وليم المتقدم ذكره، أي أن ماجرى منحه لها كان يساوي بالقيمة خمسمائة مارك، وكان ذلك جزء من ميراثها، مع أن الأراضي التي تقدم ذكرها قدرت قيمتها بمبلغ يزيد على ألف مارك، وذلك أنهم خافوا من أنهم لو سمحوا بأكثر من ذلك، سوف ترسل الشطر الأكبر منه إلى زوجها، الذي كان عدواً معلناً للمملكة، ولم يرغبوا بأخذ كل شيء منها، خشية أن تتعرض امرأة بريئة للعقوبة بسبب ذنب إنسان آخر.

كيف جرى تتويج مانفرد ملكاً على أبوليا

وفي هذا الوقت نفسه أيضاً، بدأ البلاط الروماني يعاني من سوء السمعة، ووضح هذا في اقدام أساقفة أبوليا ونبلاؤها، على انتخاب مانفرد ابن الامبراطور فردريك، وتتويجه ملكاً عليهم، على الرغم من عدم موافقة البابا، وكان مانفرد مثله مثل أسرته كلها، نظر إليه نظرة تحدي من قبل البابا والبلاط الروماني كله، وفضلاً عن هذا تولى ملك أبوليا تعيين أساقفة ورؤساء أساقفة من دون أن يطلب موافقة البابا، وأحياناً جاء التعيين حتى ضد رغبته، وأظهر هؤلاء جميعاً بالاجماع، وعلى الرغم من تحريم البابا طاعة كبيرة للملك المذكور، وقدموا المزيد من التشريف والاحترام أكثر مما قدموه إلى البابا، ولم يقم النبلاء أيضاً بأي ذكر لادموند، ابن ملك انكلترا (الذي إليه أعطى البابا مملكة أبوليا وعينه عليها بوساطة خاتم سلمه إياه أسقف بولون) بل قدموا الولاء،

وأقسموا على الاخلاص لمانفرد هذا نفسه، وأعطوه تملكاً كاملاً واستحواذاً لمدنهم ولقلاعهم، ونتيجة لهذا اشتكى ملك انكلترا —وهو يمتلك سبباً منطقياً— إلى البابا، بأنه قام بالتعاون مع الكرادلة، بشكل غير صحيح، وبحجج كلها دهاء ومكر، فسحبوا كثيراً من المال من مملكته، في سبيل الحصول على مملكة أبوليا، لكن ذلك كله جاء بلامحصلة وذهب من دون فائدة، ومع هذا استقبل هو —أي ملك انكلترا— بكل تشريف رسل البابا، الذين أرسلوا إلى انكلترا، ومن هؤلاء على سبيل المثال: الراهب جون ديفا، والمعلم برنارد أوف سيينا، وأسقف بولون، ورئيس أساقفة ميسينا، وعدد كبير آخر، الذين قدموا نواباً من أجل تسهيل أعمال ابنه ادموند في قضية مملكة أبوليا، وهو الذي سمح لهم باستخراج مبالغ كبيرة من الطوائف الرهبانية، وعلاوة على ذلك، قام في الوقت نفسه مواطنو فلورنسا فدمروا حتى الأرض إحدى القلاع التي كان الكاردينال أوكتافيان قد بناها، والتي كانت هدفاً للريبة من قبلهم.

كيف جرى تعيين عم (خال) برانكليون شيخاً لروما

في يوم عيد القديسة سيشيليا Cecilia العذراء، الذي وقع يوم الجمعة، ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان، وبقي هناك الأيام الثلاثة المتوالية، وفي يوم عيد القديسة كاترين، أمر بحمل تمثال الشهيدة في مسيرة مهيبة حول الدير، حيث كان رهبان الدير قد ارتدوا أفخر الملابس، وسار هو ومعه حاشيته خلف المسيرة، بتقوى واحترام بتقديم هبات.

وعندما كان مقيماً هناك، وصل إليه رسل أعلنوا له بأن وولتر كومين Comyn, الذي كان أقوى ايرل في سكوتلندا قد أذعن للمنية، فقد مات نتيجة السقوط من على فرسه، الذي كبا به فوق بعض العوائق على الطريق، وألقى به، وكسر رجليه، وجلبت إليه رسالة أخرى أيضاً،

تعلن بأن جون فتز— غيوفري قد غادر طريق الجسد قرب غيلدفورد Guildford, وقبل أن يغادر الملك أمر بعمل قداس مهيب.

ووصلت إلى الملك أيضاً المزيد من المعلومات، أفادت بأن برانكليون المتقدم ذكره، الذي كان شيخ الرومان، قد أخذ من بيننا حسبما ذكرنا أعلاه، مما ألحق ضرراً كبيراً بمدينة روما، وأن عمه [خاله] جرى تعيينه عوضاً عنه.

عودة رئيس أساقفة يورك بعدما جرى تكريسه من قبل البابا

عندما غادر الملك كنيسة القديس ألبان، ذهب نحو إيلاي والقديس ادموند، وفي ذلك الوقت بالذات، وصل أيضاً رئيس أساقفة يورك إلى انكلترا من بلاد ماوراء الألب، وعند وصوله إلى لندن، أمر بحمل صليبه بشكل معلن أمامه خلال وسط المدينة، ثم إنه ذهب إلى الملك، حيث استقبل بالتشريف المناسب من قبله، وبعد ذلك انطلق نحو الشمال من انكلترا، وقد استقبل في رئاسة أسقفيته، بمثابة أب وراع للناس بفرح عظيم، وبعد ذلك بوقت قصير عيّن عميداً ليورك المعلم روجر أوف هولدرنس Holderness, الذي كان كاهناً في كنيسة القديس ألبان، وجاء ذلك بمثابة مكافأة على فضائله، ولأنه هو نفسه كان من أهالي منطقة القديس ألبان، وبمنحه لمنافعه درس بأن تكون المنح وفقاً للاستحقاق.

حرمان وإبعاد غي دي روشفورت

وفي هذه الآونة نفسها نال غي دي روشفورت Rochfort, الذي كان بواتياً من حيث الأصل، والذي كان الملك قد منحه منذ عامين مضيا قلعة كولشيستر Colchester بموجب صك مع المراتب الشرفية العائدة لها، نال غضب الملك والبارونات، وقد حكم عليه بالنفي مع المعاناة من مصادرة جميع ممتلكاته، وسبب ذلك هو أن

كثيراً من الشكاوي المكررة قد عملت ضده، وأنه قد ظلم كثيراً وآذى سكان المنطقة، خاصة الذين كانوا خاضعين له، ولكن حقيقة كونه بواتياً قد زادت من آثامه أكثر من أي من آثامه الأخرى.

الاتهام الذي عمل ضد وولتر أوف سكوتني الذي اختفى سراً

انسحب وولتر أوف سكوتني Scotenny, قهرمان ايرل غلوستر، وتغيب عن الايرل المذكور، وأخفى نفسه مع بعض أصدقائه في بعض المناطق البعيدة عن الأنظار، لأنه اتهم أنه قام بدناءة وبشكل خياني فدس السم إلى مولاه الايرل، وإلى أخيه وليم، ومن تأثير هذا السم مات وليم المذكور، وتعرضت حياة الايرل للخطر، وكسب الاتهام الذي أعلن ضده المزيد من الوزن من حقيقة أن وليم المتقدم ذكره، عندما كان على وشك الموت، أعلن بأن وولتر سكوتني المذكور كان مجرماً مداناً بذلك العمل الخياني، وكان هناك شيئاً واحداً مؤكداً، هو أنه ما أن عمل تلك الافادة حتى مات فجأة، وحدث على كل حال بعد مضي بعض الوقت أن عرض وولتر المذكور القيام بتبرئة نفسه من الجريمة التي عزيت إليه، علنياً وبشكل صحيح.

سجن وليم دي بوسي

وتمّ في هذا الوقت نفسه اعتقال وليم دي بوسي، قهرمان وليم دي بلنسية، وأكثر الناس شروراً، وألقى به في سجن مضيق عليه في قلعة لندن، بسبب دناءته وجرائمه الظالمة وآثامه.

سفر جوانا زوجة وليم دي بلنسية

في أيام عيد ميلاد مولانا، عبرت زوجة وليم دي بلنسية القنال، لتشارك زوجها في منفاه، وقد حرضت على التصرف هكذا، إما لحبها له، ورغبة في أن تكون برفقته، أو غضباً منها لتوزيع أراضيها، حيث بدا

أنها تحولت إلى الفقر مع أنها تسلمت أربعمائة مارك(★).

الخلاف بين الباحثين في اكسفورد

وتفجر في هذه الآونة أيضاً خلاف جاد بين الباحثين في اكسفورد، الذين كانوا من مختلف البلدان، فقد كان بينهم أناس من سكوتلندا، ومن ويلز، وكذلك من جنوب انكلترا ومن شمالها، ووصل الخلاف إلى درجة (كان فيها مرعباً وحزيناً) أنهم عرضوا فيها أعلاماً متعادية، وقاتلت الفئات المختلفة بعضها بعضاً، وقتل أحدهم الآخر وجرحه بطرق متنوعة.

كيف رغب الويلزيون في إقامة سلام مع الملك

وفي العام نفسه أيضاً، لم يتقيد الويلزيون بانتصاراتهم المتوالية على خصومهم، وشرعوا بشكل حكيم يقدرون مستقبل الأحداث في عقولهم، وقاموا بالتشاور فيما بينهم وقالوا: «نحن نعلم بأن مملكة انكلترا في حالة اضطراب كبيرة، ولكن عندما يتأسس السلام، وهو عمل يحاول نبلاء البلاد تحقيقه، نحن لن نستطيع مقاومتهم، عندما ينقضون علينا وهم متحدين، ودعونا نقدر، فوق كل شيء، أن أخا للويلين، الابن الأكبر لمولانا غريفين، الذي مات في السجن في لندن، هو الآن موجود في السجن، وأنه إذا ماأطلق سراحه، سوف يثار للقيام بالانتقام، ولسوف يميل أخويه الآخرين: داود، وايدريك Edric نحو الشيء نفسه، ولسوف ننقسم، ونتعرض للدمار، وفي تلك الحالة اليائسة، إنه إذا ما هاجمنا الانكليز، سوف يطلبون من أيدينا حساباً عن دماء إخوانهم، ولسوف يقتلعوننا من على وجه الأرض، ولسوف يسحقوننا من دون عودة، مثل قطعة من الفخار»، وعلى هذا قاموا

(★) ذكر قبل قليل أن المبلغ كان خمسمائة.

بموافقة عامة فعرضوا على الملك أربعة آلاف مارك، وثلاثمائة إلى ادوارد، ومائتين إلى الملكة، على شرط أن يتم العفو عن جميع أسباب الخلاف، وأعمال العدوان، والصراع، من على الجانبين بصورة كاملة، وأنه ينبغي أن يسمح لهم بالتمتع بسلامهم المعتاد، وهدوئهم، وحريتهم، ولدى سماع الملك بهذه المقترحات اعتمد على النصائح الشريرة، فرد غاضباً حيث قال: «ماالذي يعنيه هذا إن رجلاً صالحاً واحداً هو أكثر قيمة من المبالغ التي عرضوها من أجل السلام المطلوب»، وهكذا بقي الطلب الذي عمله الويلزيون من أجل السلام من دون جواب، وقاموا هم —على كل حال— بالانتظار بهدوء وسلام، وهم يعلنون دوماً أنهم، حسبما كانت عادتهم دوماً —سوف يدافعون عن أنفسهم، وسوف يقاومون هجمات أعدائهم، ويدعمون قضيتهم، كرجال، إلى أقصى ماامتلكوه من قدرة.

عرض عام للأحداث خلال العام كلّه

كان هذا العام، خلاله كّله، لايشبه جميع الأعوام الماضية، فقد جلب المرض والموت، وعواصف ثقيلة من الريح والمطر، ومع أن لطف المناخ في الصيف وعد بموسم وافر من القمح، مع اعطاء وفرة بالفواكه، مع ذلك إن استمرار سقوط الأمطار الغزيرة أتلف القمح، والفواكه، وجميع الأنواع الاضافية، وفي بعض أجزاء انكلترا، حدث أنه مع قدوم عيد ميلاد ربنا، وحسبما ذكرنا أعلاه، أن الاهراءات بقيت فارغة، والقمح كان جاهزاً للحصاد، لكنه قد أتلف كلياً، وصحيح أن الحبوب المزروعة نمت وكسبت طولاً، فإن السنابل والسوق قد اهترأت مع بعضها، ولذلك مات الناس من الحاجة إلى القمح، وبناء عليه ماتت القطعان بسبب الحاجة إلى الأعلاف، ومع أن انكلترا كانت قد نزفت وصارت فارغة من المال بسبب حجج متنوعة، أجبر الناس بسبب ضغط الجوع على دفع ستة عشر شلناً، ثمناً لمكيال القمح، والقمح مايزال غضاً ونامياً

لم ينضج، ونتيجة لهذا تلاشى الفقير وهلك من الجوع، ومات، وابتعد الناس الذين كانوا يموتون وتخفوا في مناطق مختلفة، ليتخلوا عن آخر أنفاسهم التعيسة، ومن هؤلاء كانت هناك أعداداً كبيرة جداً، إلى حد أن الذين كانوا يحفرون القبور قد صرعهم الانهاك، وكانوا يلقون بعدة جثث في قبر واحد، أما بالنسبة للناس من الطبقة الوسطى، فإنهم عندما شاهدوا أنه لم يعد لديهم أطعمة، باعوا مواشيهم، وأنقصوا تعداد العاملين لديهم، وتركوا أراضيهم من دون زراعة، حيث أن جميع الآمال بالنهوض من هذه الهاوية، وهي الآمال التي كانت بالعادة تواسيهم، قد خمدت وزالت تماماً، ولولا أن القمح جلب من القارة، لهلكت انكلترا، من دن شك، بذاتها.

رؤيا إحدى النساء المقدسات

ظهرت في هذه الآونة رؤيا واضحة تماماً ومرعبة إلى ناسكة مقدسة في دير القديس ألبان، وقد تبرهنت هذه الرؤيا، حسبما تحدث رئيس شمامسة المكان، وذكر حقيقة، أن هذه لم تكن مناماً، بل نوعاً من أنواع الهواتف، و تهديداً مخيفاً من السماء، فقد رأت الناسكة المذكورة، رجلاً متقدماً بالسن، ومحترماً بمظهره، حيث أعطته لحيته مظهراً صارماً، وكان واقفاً في قاعته، حيث بدا وهو ينسحب من ذلك المكان مغضباً، ليصعد إلى برج،ومن هناك التفت فألقى نظرة صارمة نحو البلدة، وأخذ يزمجر بصوت مهدد قائلاً: «الويل، الويل، للسكان فوق الأرض»، وقد ردد ذلك عدة مرات ثم عدة مرات.

كيف رغب رتشارد ملك ألمانيا بزيارة إنكلترا

عام ألف ومائتين وتسعة وخمسين لتجسيد الرب، وهو العام الثاني والأربعين من حكم الملك هنري الثالث ، وكان الملك المذكور في لندن أيام عيد الميلاد، حيث كان النبلاء مشغولين بالتداول بعمق، حول

كيف، وهم ملتزمين بقرارهم السليم، يمكنهم التعامل مع الرغبة التي عبر عنها رتشارد ملك ألمانيا، الذي تشوق بشدة —حسبما أخبروا— للقدوم إلى انكلترا، ليزور أقربائه وأصدقائه وبلاد موطنه، وليتفقد ممتلكاته، لأنهم ارتابوا بأنه بقدومه سوف ينفس عن غضبه، وعن سخطه على البارونات، وسوف يتهمهم بأنهم الآن ينكلون بأخيه الملك هنري، ويظهرون كراهيتهم له، مثلما فعلوا من قبل إلى أبيه الملك جون، وكما فعلوا مؤخراً بالحكم الذي أصدروه على إخوته لأمه بالنفي، وكأنهم كانوا مجرمين قد اقترفوا أعظم الجرائم، في حين أنهم كانوا في الوقت نفسه أبرياء، وعلاوة على ذلك خافوا بأنه سوف يعمل من إخوته هؤلاء أنفسهم أعداء عامين للمملكة، وهو إما سوف يعيدهم معه خلسة، أو أنه سوف يتدبر في مستقبل الأيام قيام مصالحة، وسوف يحرضهم بصورة خيانية على العودة إلى انكلترا، حتى يدوسون عليها تحت أقدامهم، مما سيؤدي إلى دمار أعظم للسكان، وسوف يسبب نشوء غلطة جديدة أسوأ من الغلطة الأولى، ومثل هذا خافوا من أنه سوف يعيق قراراتهم السليمة ويقف ضدها، وهي القرارات التي استهدفت إحداث ترتيبات جديدة لشؤون المملكة، وأنه بعدما يعيقهم في خططهم، سوف يعيد تأسيس النظام القديم للأشياء، وسوف ينفيهم، أي البارونات واحداً بعد الآخر، وسيقوم أخيراً بتجريدهم من ممتلكاتهم.

كيف تمت إدانة اليهود بالخيانة وكيف نجوا من العقاب بالتعميد

ومع اقتراب الوقت من عيد ميلاد ربنا بالجسد، تمت إعادة ولادة واحد من مخلوقاته بالروح، فقد قام الياس اليهودي اللندي، الذي كان لقبه الأسقف، وقد كان خائفاً من أنه في خطر الادانة لاقترافه بعض الجرائم، قام بالفرار إلى جرن المعمودية من أجل السلامة والحفظ، وهكذا جرى تطهيره بوساطة الإجراءات الصحيحة للتعميد، وكان

ذلك بصحبة اثنين آخرين، وبذلك تم انتزاعه من بين صفوف الشيطان، وحفظ من العقوبة المستحقة لاقترافه من قبل جريمة دنيئة جداً، لأن تقريراً قد أفاد بأن ذلك السم السائل، الذي جلب الخطر والموت لكثير من نبلاء انكلترا، قد عمل في بيته، وقيل بأنه قام عن طواعية فسمح بالتنفيذ والممارسة، لكنه كان في ذلك الوقت شيطاناً، وهو الآن قد تبدل إلى مسيحي، وقد تغيرت أعماله وفقاً لأحواله.

كيف جرى بدهاء إرسال مبلغ كبير من المال إلى الخارج من خلال مكر زوجة وليم دي بلنسية

وانتشرت الآن أيضاً شائعة في جميع أرجاء المملكة، بأن إخوة الملك، الذين ساءت سمعتهم، كما ذكرنا من قبل، تمكنوا في سبيل إلحاق خسارة كبيرة وضرراً عظيماً بالمملكة، من نيل ثروة عظيمة بوساطة مبلغ كبير من المال، وجاء ذلك بفضل براعة امرأة، وربما بوساطة تعليمات مكتوبة من البواتيين إلى جوانا زوجة وليم دي بلنسية، التي غادرت انكلترا مع مبلغ كبير من المال، وقد حرضها على ذلك حبها لزوجها ورغبتها باللحاق به، ووفقاً لما جاء بالتقرير، قامت جوانا المتقدمة الذكر، ببراعة نسائية فاشترت كمية كبيرة من الصوف، أمرت بوضعها بشكل أمين ومحكم في أكياس، وخبأت وقتها بين الصوف مبلغاً كبيراً من المال، ثم إنها وضعت الأكياس داخل بعض العربات المتينة، وكأن الذي فيها صوف خالص فقط، وأرسلت بهم إلى بواتو في أول فرصة مناسبة، وبناء عليه، إنه مع أن الكثيرين قد ذكروا من قبل أن الأموال العائدة إلى وليم المتقدم ذكره، قد تمت مصادرتها في كل مكان كانت مودعة به ومخزونة، لقد تبين من هذا الإجراء أنه لايمكن الوثوق بمثل هذه التقارير، ولاالاعتماد على مصداقيتها.

وفاة فيليب لوفل

أثناء القيام باحتفالات عيد الميلاد، ومن أجل أن لاتعبر مباهج هذا العالم غير ممزوجة بالموت، مات فيليب لوفل الذي كان المستشار الخاص بالملك، وخازنه قبل ذلك، وحدثت وفاته في يوم عيد القديس توماس في كنيسة هامستيبل Hamestable, وكان سبب موته الأسى، كما ذكرنا من قبل، ومرارة الروح، لأنه لم يتمكن من المصالحة شخصياً مع الملك، الذي كان قد خدمه من قبل، فقد طلب الملك منه مبلغاً كبيراً جداً من المال، من أجل الجرائم التي اقترفت من قبله، وفقاً لتقرير رجال غاباته، وعندما أخبر بوفاة فيليب، أمر بمصادرة جميع الممتلكات والمقتنيات العائدة له، وذلك حتى تمّ ارضاء طلباته.

زواج فيليب ابن الملك الفرنسي

وفي حوالي الوقت نفسه، من العام التالي، تزوج فيليب ابن الملك الفرنسي، من ابنة ملك أراغون.

تطويب رتشارد أسقف شيكستر

وفي هذه الآونة، على الفور مع بداية العام المقبل، أدخل البابا أوربان اسم رتشارد، أسقف أوف شيكستر، في قائمة أسماء القديسين.

انتخاب هنري أوف وينغهام أسقفاً لوينكستر

وفي الوقت نفسه أيضاً، وجد رهبان وينكستر، أن الملك لن يقبل أي واحد انتخبوه أسقفاً، مالم يكن صديقاً خاصاً به، خاصة بعد طرد أخيه ايثليمار، ولذلك انتخبوا هنري أوف وينغهام Wengham, مستشار الملك، ليكون أسقفهم وراعياً لنفوسهم، وقام هو على كل حال، بالنظر إلى انتخابه على أنه مسألة غير مؤكدة، ومن الممكن أن تثير مشكلة الشرعية، ولذلك لم يوافق على الانتخاب له شخصياً، ومع أنه كان

لايشك بالحصـول على حظوة الملك، فقـد أعلن أنه غير كفء لشغل مثل هذا المنصب الرفيع، ولأن يتحمل المسؤولية عن النفوس، يضاف إلى هذا أنه لم يكن متميـزاً بشكل صحيح في دراسـة اللاهوت، وفي الكتـابات اللاهوتيـة الأخرى، وبعد لأي أعطى نـوعاً من الموافقـة، وقـد قبل عن طواعيـة من قبل الملك، ولكن وفقـاً للشرط التـالي، وهو أنه إذا مـا تمكن إيثليمار —أخـو الملك— الذي كـان الأسقف المنتخب من قبل، تمكن من الحصـول على نعمـة التكريس من البـابا، لـه حق الأسبقيـة قبل جميع الآخـرين بأن يجري تنصيبـه في كنيسـة وينكستر المذكـورة، وأن لايجري تعيين هنري المذكـور مكـانه، فقـد استبقى الملك لأخيـه حق الاحتفـاظ بالمنصب.

كيف جرى إرسال مندوبين للقاء رتشارد ملك ألمانيا

بعدما عقـد البارونات مؤتمراً عاماً، فيـه جرت مناقشات كثيرة تعلقت بقـدوم رتشـارد ملك ألمانيـا إلى انكلترا، لذلك أرسلوا مندوبين خـاصين لاستقباله، وتشكل هذا الوفـد من: أسقف ووركستر، ورئيس رهبان دير القديس ادمـوند، وبطرس أوف سافـوي، وجون مانسيل، وكـانوا كافين بأنفسهم لمعـالجة قضية زيارته المفـاجئة وغير المتـوقعة لانكلترا، وكـذلك مـاتعلق باقتراح طول الإقامـة هناك، وأمـام تساؤل كثيرين، كـان الايرل سيمون مايزال مقيماً في القارة، ولذلك كان اجتماع البارونات غير مكتمل إلى حـد كبير، وكـانوا يخافـون من بعض المؤامـرات الخفيـة، وكـان بين الأشياء الأخـرى التي خافوا منهـا، هي أن الملك وإن تظاهر بنظرة هادئة مع رباطة جأش، سـوف يتعاطف مع إخوتـه المنفيين، وسوف يتشكى إلى أخيه المتقـدم ذكره، ملك ألمانيا، بأن الانكليـز بعدمـا لاحقوا والده الملك جون حتى الموت بكـراهيتهم القاتلة، إنهم الآن بالطريقـة نفسها يطاردون أبناءه وأحفاده، كأن مشاعر الغضب والكراهية قد انتقلت إليهم بالوراثة، والأذى الذي اقترف بحق ملك انكلترا، ينبغي رفضه بالدرجة نفسها من

قبل ملك ألمانيـا، ولذلك اقترح نبـلاء انكلترا، أن يطلبـوا من ملك ألمانيـا أداء يمين، قبل أن ينزل في انكلترا، بأنه سـوف لن يلحق الأذى بمملكة انكلترا، بأي شكل من الأشكال، كما أنه لن يعيق الترتيب العام للأعمال، لكن ماهي الفائـدة التي ستحصل من ذلك؟ لأنه ربما سيقول فيما بعد أنه أرغم على أداء اليمين ضد إرادته، غير أنه لم يكن معروفاً بالنسبة إلى عامة الناس فيما إذا كـان هذا سيعبر هكذا، فأنا لايمكنني أن أغـامـر في تأكيـد هذه القضية في هذا الكتـاب، ولقد أفيد بشكل عـام بأنه قد أقسم، حسبما جرى الترتيب أعلاه، وأعطى رسالة معتمدة توافقت مع الذي طلب منه.

كيف انطلق الملك وسافر لاستقبال أخيه رتشارد

وبادر الملك في الوقت نفسـه مسرعـاً نحـو شـاطىء البحـر، وكـان بصحبتـه كتلة كبيرة جـداً من النبـلاء، الذين كـانوا —من باب الحذر والاحتيـاط— مسلحين بشكل جيـد، ويمتطون الخيـول، لأنه أفيـد بأن رتشـارد المذكور قـد اقترح وعـزم على جلب واحد أو أكثـر من إخـوته معه، وهم الذين طردوهم بموافقة عامة، وأن هدفه من وراء ذلك إلغاء القرار حول تلك القضية، وذلك حتى يتمكن من إعادتهم إلى أوضاعهم الماضية، الأمـر الذي سوف يتحمله البارونات بكراهيـة، وأمر الملك بأن يعلن في لندن بـوسـاطة المنادي، بـوجـوب تنظيف المدينة مـن الوحل والقاذورات، ومن جميـع الأخشاب المعيقة، ومن كـل شيء يؤذي عيون المشـاهدين له. فهـذا ينبغي ازالتـه،وأن تزين المدينة بالأعـلام المعلقـة، وبالأقمشة المعلقة، وبجميع أنواع الزينة الجديدة ومظاهر الاحتفال.

جواب رتشارد ملك ألمانيا للمندوبين الذين قدموا من عند جماعة إنكلترا

وعلى الرسل الخاصين، الذيـن أرسلوا هكذا من قبل جماعـة انكلترا، قـام ملك ألمانيا الذي كـان ينتظر على الطرف الآخر من القنال، ويتـولى

جمع جيش قوي وكبير العدد، بالرد بنظرة حادة، وبلهجة مهددة، مقسماً ببلعوم الرب: «إنني لن أؤدي اليمين الذي طلبتموه، ولن أثبت موعداً لإقامتي في انكلترا، بناء على طلبكم»، ثم إنه أضاف قائلاً: «لايوجد من يعادلني في انكلترا، لأنني ابن الملك الأخير، وأخاً للملك الحالي، وكذلك أنا ايرل كورنوول، ولذلك لو أن نبلاء انكلترا قد رغبوا في إصلاح أوضاع المملكة، كان المتوجب عليهم في المقام الأول أن يرسلوا خلفي، وأن لايقوموا بطيش ووقاحة بمحاولة معالجة هذه القضية الصعبة من دون حضوري وموافقتي»، وقد رغب واحد من المندوبين أن يقوم برد ما على هذا الكلام، لكنه منع من قبل رفاقه، وكان رده الذي نوى التفوه به كما يلي: «نحن غالباً ماتولينا تعيينك لأن تكون قائداً، في سبيل تحقيق إصلاح أحوال المملكة، ولكنك أثرت وحرضت بالشره، ولذلك سعيت دوماً للايقاع بنا بوساطة بدعك الماهرة، وكان ذلك يحدث في الوقت الذي كنا لانتوقع فيه أية إجراءات من هذا النوع، ولقد كنا نقوم بدراسة شاملة لتحسين أوضاع الملك وكذلك أحوال المملكة، ونتيجة لذلك تراجع الملك عن القرارات الصحيحة، وآذى كل واحد تمكن من إيذائه بعد ذلك».

ولتجنب إثارة أي خلاف من هذا التقريع، عاد المندوبون بأقصى سرعة تمكنوا منها، وهم راضين تماماً عن الأوضاع الحالية، لمشاعر ملك ألمانيا، لأن عدداً كبيراً من الناس، كانوا مجهزين بطرق متنوعة، كانوا بانتظاره، وعندما جرى الإعلان عن نتيجة المهمة إلى النبلاء الانكليز على هذا الجانب من القنال، أمروا بجمع السفن والغلايين من الموانىء الخمسة، وكذلك من الموانىء الأخرى، وأن يكونوا قد أخذوا الاحتياطات قبل قدومهم إلى الساحل، بتجهيز أنفسهم بالسلاح والعتاد، وبذلك باتوا مستعدين لمواجهة العدو، وكانوا يشعرون برغبةعارمة بمقاتلته، وقد تشجعوا أيضاً على القيام بهذا بحقيقة أنه

عندما جاء لويس ابن ملك فرنسا، قبل بعض الوقت الذي مضى، لغزو انكلترا، قام عدد صغير من السفن التي كانت عائدة إلى الانكليز، على عكس جميع التوقعات، بمهاجمة وتدمير أسطول فرنسي قوي وكبير العدد، كما أنهم جمعوا جيشاً كبيراً من الخيالة والرجالة على الساحل الانكليزي، من أجل أنه إذا ما أحرز العدو تقدماً في الصراع البحري (الذي حول نتيجته كانوا غير خائفين) يمكنهم أن يمنحوهم استقبالاً جريئاً وثابتاً على حد السيف، عند الساحل، ووصل علم هذه الإجراءات إلى رتشارد، ملك ألمانيا، بوساطة الجواسيس، ولذلك استجاب إلى نصيحة الأصدقاء العامين، فهدأ مشاعر غضبه، وأعلن بوساطة عمل مكتوب موافقته على اعطاء اليمين الذي طلب منه إلى البارونات، وذلك استجابة لغيرتهم على مصالح المملكة وتقدمها.

عودة رتشارد ملك ألمانيا إلى انكلترا

ثم أقلع رتشارد ملك ألمانيا، وبرفقته ملكته، نحو انكلترا، ونزل في دوفر، في يوم عيد القديس يوليان، ودخل إلى انكلترا مع حاشية صغيرة وخاصة، مؤلفة من كونتين ألمان، كان معهما ثلاثة فرسان فقط، وكان مع الملك في ركابه ثمانية فرسان، وكان مرافقاً لملكته وابنه ادموند، ومع أنهم نزلوا في دوفر، فإنه لم يسمح لهم بدخول حصن دوفر، ومثل ذلك لم يسمح لملك انكلترا بدخول الحصن، لأن نبلاء انكلترا كانوا خائفين من السماح إلى أي واحد لم يؤد اليمين، بالدخول إلى القلعة التي كانت الحاجز الرئيسي لانكلترا، وذهب الملك على كل حال إلى استقباله، وقت رسوه، واستقبله بأعظم سرور، ثم أنهما أقاما وليمة مع رئيس أساقفة كانتربري، واحتفلا بلقائهما بسرور وفرح.

كيف أقسم رتشارد ملك إنكلترا على مساعدة نبلاء إنكلترا

وفي اليوم التالي ذهب نبلاء انكلترا إلى داخل بيت مقر الهيئة

الكهنوتية في كانتربري، ورافقوا باحترام ملكي انكلترا وألمانيا، ثم أمروا بنص الانجيل فوضع على منبر هناك، ثم وقف رتشارد ايرل غلوستر في وسطهم، ونادى بصوت مرتفع، ولكن باحترام ايرل كورنوول بالقدوم إليه، ولم يخاطبه كملك لألمانيا، بل باسم «رتشارد ايرل كورنوول»، فقام تلبية منه، فاقترب منه باحترام، وتفوه بصوت مرتفع ومتميز بأداء القسم الذي فرض عليه، وهوالذي كان نصه كما يلي:

قسم رتشارد ملك ألمانيا

«اسمعوا أنتم جميعاً، بأنني هنا أقسم على الانجيل المقدس، وبأنني أنا رتشارد، ايرل كورنوول سوف انضم إليكم باخلاص ويقظة في إصلاح مملكة انكلترا، التي اضطربت أمورها حتى الآن كثيراً جداً بالنصائح الشريرة، ولسوف أساعدكم بشكل فعال في طرد أعداء المملكة ومثيري الاضطراب فيها، وهذا اليمين سوف ألتزم به من دون احباط، وذلك تحت طائلة فقداني لجميع الأراضي التي أمتلكها في انكلترا»، وعند ذلك قال جميع الحضور: «في هذا كفاية، لقد ربط نفسه بهافيه الكفاية وبإخلاص معنا»، لكن ايرل غلوستر المتقدم ذكره، أجاب قائلاً: «لقد تأذينا مراراً في حالات مماثلة، ذلك أن الذي جرى مرة حرمانه كنسياً، يخاف دوماً من الماء الذي يغلي، أنا لست متأكداً بأي حال من الأحوال، سوى بأن الذي عملناه كان قليلاً، لكن لعل الرب القدير يمنع أن يكون الحال هكذا».

كيف قام نبلاء ألمانيا بالمغادرة لدى وصول ملكهم إلى لندن

في يوم عيد طهارة القديسة مريم، وصل الملكان، والملكتان، وبصحبتهما عدد كبير جداً من نبلاء انكلترا إلى مدينة لندن، التي كانت تماشياً مع الأوامر التي تقدم ذكرها أعلاه قد جرى تنظيفها بشكل موائم من القاذورات، وتزينت بشكل ثري من أجل وصول مثل هذين

الأميرين العظيمين، ولقد استقبلا لدى وصولهما بعدد كبير من المواطنين، يهتفون بعبارات الترحيب، وكانت المدينة بالفعل مليئة بالناس إلى حد أن أرصفة الشوارع كانت مغطاة تماماً بالحشود التي تجمعت، وبما أن إخوة رتشارد لأمه لم يكونوا برفقته، حسبما كان متوقعاً ومهدداً (كانوا قد بقيوا في القارة) لقد عبروا عن سرورهم بحرارة أعظم، غير أنهم دهشوا كثيراً، وتساءلوا لماذا أعطاه الألمان مثل هذه الحرية العظيمة،وسمحوا له بالذهاب إلى انكلترا برفقة زوجته وابنه، مع أنهم كانوا أعزاء كثيراً عليهم، وكيف أنهم لم يحتفظوا حتى بواحد منهم على الأقل كنوع من أنواع الرهائن، وكيف أيضاً وهو أمير الألمان وسيدهم، قد ترك الشعب الألماني وراءه، ليأتي عن طواعيه، ليكون وسط الانكليز، ولكن خلال وقت قصير بدأت سمعته تتلاشى، والخشية من سلطته بين الانكليز، كانت موجودة قليلاً أو غير موجودة، ونتيجة لهذا فإن النبلاء الألمان، الذين بقيوا حتى الآن في خدمة ملكهم في انكلترا، قدروا أنه لم يحتل مكانة عالية في انكلترا، ولم يعامل بالاحترام المستحق للمرتبة الملكية، ولذلك غادروا وهم غاضبين، وبادروا مسرعين بالعودة إلى الوطن قائلين بأنفسهم: «إذا كان أبناء وطنه لايحترمونه، كيف يتوقع أنه يمكننا أن نعامله بتشريف؟ إن الذي قمنا بانتخابه هو بالحري المال، أكثر من الرجل الذي يعمل المال، فهو مال مجموع، وليس بالرجل الذي يجمع المال، إنما إنه إذا ماأعطانا جميع المال الذي تركه، فإننا لن نزعج أنفسنا أكثر بوجوده الشخصي»، فقد كان هدفهم، حسبما فعلوا إلى حد بعيد هو أن يسحبوا منه كل الذي بقي من ماله.

البارلمان الذي عقد في لندن

في ثمانية عيد الطهارة، اجتمع نبلاء انكلترا في لندن، حسبما كانوا قد رتبوا من قبل، أما بالنسبة لايرل ليستر، الذي كان طول غيابه وامتداده مصدراً للأسف لجميع أفراد شعب انكلترا، الذين لم يعرفوا الذي حدث

له في القارة، فقد جاء إلى المؤتمر الحالي، وكان المستشار السري لملك فرنسا، عميد بورجي Bourges أيضاً حاضراً في البارلمان، وجرت في هذا البارلمان مناقشات كثيرة تعلقت بالقضايا الخلافية بين ملكي فرنسا وانكلترا، والجهود التي بذلت لتحسين القضية نفسها في القارة، وكانت نتيجة المناقشات، أنه خلال مدة قصيرة، يعني أن تقول في يوم عيد القديس فالنتاين أن سلاماً قد عقد وتثبت بينهما في لندن، على أساس الشروط التالية: وهي إن على كل فئة منهما، الالتزام من دون خلاف بجميع ماجرى ترتيبه من قبل وتقرر بين رسلهم الخاصين المهيبين، وذلك حسبما سنذكره فيما بعد بالتفصيل، في مكانه المناسب.

اعتقال وسجن وولتر سكوتني ووليم بوسي

وفي بداية آذار من هذا العام جرى اعتقال وولتر سكوتني المستشار الرئيسي الخاص لايرل غلوستر وقهرمانه، وحدث اعتقاله في لندن، بتهمة دس السم للايرل المذكور، وإلى أخيه وليم، والذي من تأثيره نجا الايرل بصعوبة بحياته، في حين مات وليم من الشيء نفسه وقد وضع قيد الاعتقال لدى كفلاء، لكنه حمل الآن إلى برج لندن، ووضع في سجن مضيق عليه هناك، وجرى أيضاً اعتقال وليم بوسي Bussey قهرمان وليم دي بلنسية، أخو الملك لأمه، ومستشاره الخاص، ونحن نحتاج إلى تقديم رواية خاصة، وشرح كامل لجرائمه، وبعدما أبقي لبعض الوقت في سجن كفلائه، جلب الآن للمحاكمة ومثل أمام القضاة، وبما أنه لم يستطع أن يقدم بشكل مقنع أجوبة على التهم التي عملت ضده (لأنه كان متورطاً في كثير من الجرائم) أراد أن يفك أربطة قلنسوته الضيقة، ليظهر بشكل عام أنه كان يمتلك بقعة محلوقة من شعر رأسه تدلل على أنه كان رجل دين، فلم يسمح له بفعل ذلك، ولكن بأمر من القضاة حمل بوحشية وبعنف وأبعد ليوضع في أسوأ مكان من السجن، وكان الموظفون الذين تولوا ابعاده وأمسكوه ليس من قلنسوته

الضيقة المربوطة، بل من بلعومه، وعندما كانوا يجرونه إلى السجن قال ساخراً: «إذا أنا لم أقدم لكم العدل، فمن الذي يقدم لكم العدل»؟، وكانت هذه هي الكلمات التي اعتاد وليم المذكور على استخدامها وقولها إلى الفرقاء الذين غالباً ماظهروا أمامه، للتشكي من الأضرار التي عانوا منها، وطلبوا تقديم العدالة من قبله، وكان في كثير من المناسبات يقول أيضاً: «إن إرادة مولاي الملك هي متوافقة تماماً مع إرادة معلمي وليم دي بلنسية، وليست على عكسها»، وهكذا لم يتنازل بإبداء الاحترام للملك أو إلى أي واحد من النبلاء، كما لم يقدم العدل إلى أي واحد من الناس، مؤكداً أن معلمه قد حصل على امتياز من الملك، بعدم صدور أية مذكرة قضائية ضده، ولذلك هو غير مجبر على تقديم أية إجابة إلى أية فئة متأذية، مهما تكن الجريمة ومهما كان نوعها، باستثناء مايرغب بالإجابة عليه، وعندما كان وليم المذكور هذا، محمولاً إلى السجن، شتمه جميع الناس وأهانوه، لتجبره الذي لايحتمل، ولطغيانه الذي لم يعرف الهوادة، ولأعمال سلبه ونهبه وظلمه، ومع أن الذي اقترفه كان كثيراً جداً حتى نأتي على ذكره كله، أعتقد أنه من المفيد أن نذكر نموذجاً واحداً في هذا الكتاب، حتى يمكن تخيل الباقي.

الأفاعيل المقيتة لوليم بوسي

كان في أحد الأيام شاباً يعبر الطريق في ترمبنغتون Trumpington, عندما أخذ كلب يعوي عليه، وعندما رغب في إيقاف هذا العواء، رمى الشاب من دون انتباه حجراً على الكلب، وانحرفت الحجر إلى إحدى الجهات، وقتلت دجاجة عائدة إلى إحدى النساء الفقيرات، التي صدف أن خرجت من بيتها فشاهدت الواقعة، فرفعت صوتها بالشكاية، فجمعت حولها عدداً من الجيران، وأعلن الشاب بتواضع، وأرفق إعلانه باليمين، بأن الواقعة كانت مجرد حادثة عرضية، وعرض أن يدفع ثمن الدجاجة، لابل ضعف الثمن كتعويض للذنب الذي وقع، لكن المرأة

الشريرة رفضت كل العروض، وأصرت على الحصول على انتقام أكثر ربحاً، وكان هناك خادم سليط من خدم وليم دي بلنسية، فتظاهربالشجاعة صدوراً عن علو رتبة معلمه، فاعتقل الشاب البريء، ووضعه في سجن مضيق عليه، فمات خلال عدة أيام من العذاب الذي لايحتمل، وجمع كاهن المنطقة الجيران مع بعضهم وأصبح متأكداً من براءة الشاب، فدفن جثته في المقبرة، وعمل له طقوس الدفن، بقدر ماتمكن من جودة، وذلك بعدما ألقيت الجثة لمدة يومين أو ثلاثة على كومة للقاذورات، فهناك كانت قد رميت، حتى أصبحت متفسخة، وبعد ثلاثة أيام صدف أن كان وليم بوسي عابراً، فسمع بالذي عمل، فأمر بالجثة التي كانت قد اهترأت خلال أربعة أيام، بأن تسحب من القبر، وأن تعلق على المشنقة، وجميع هذه الأعمال الوحشية، وأعمال أخرى مماثلة، اقترفت من دون أية محاكمة، لكن ليس من دون تسجيل الانتقام من الرب، وتقدمت زوجة الميت بشكوى حول هذا العمل الوحشي، وهي الآن تتابع شكواها، ويقوم الآن أعظم القضاة عدلاً بمجازاة هذا الأعظم ظلماً من أجل أعماله، بالحكم عليه بالبقاء أبدياً في جهنم.

عودة وليم هورتون الذي أرسل إلى سكوتلندا من قبل ملك انكلترا

وفي حوالي الأول من آذار في هذا العام، عاد وليم هورتون Horton, الذي كان راهباً وحاجباً لكنيسة القديس ألبان، من الأجزاء النائية من سكوتلندا، حيث كان قد بقي مدة طويلة، أي منذ أيام عيد القديسة كاترين في هذا العام نفسه، فلقد قام برحلة متعبة بناء على أمر من الملك، وذلك صدوراً عن اقتراح لمستشاريه، وذلك بعد الحصول على اذن رئيس الرهبان، لأنه قد عهد إليه من قبل الملك، والملكة، ونبلاء انكلترا، ببعض القضايا الصعبة والمسائل الخاصة، التي أمر بالإعلان عنها إلى ملك، وملكة، ونبلاء سكوتلندا، ولدى وصوله إلى هناك وجد الملك والملكة مع

نبـلاء تلك البـلاد مجتمعين في بـارلمان، بناء على رغبتـه، وعند ذلك شرح سبب رحلته، وقـدم رسائل اعتماده، وبعد ذلك تقـدم بالتماس حار باسم الملك والملكة وبـارونات انكلترا، إلى ملك وملكة سكوتلنـدا للذهاب إلى انكلترا من دون تلكؤ، مـن أجل سماع ومناقشــة بعض القضــايـا التي تتطلب الاستماع إليهـا بعناية، والتـداول حـولها بشكل سري، ومع أن المجتمعين قدمـوا كثيراً من الاعتراضات، وألقـوا بكثير من المعيقات على الطريق، وبعــد كثير من المناقشـات، مـارس وليم الضغـط الملح لطلبـه، فأقنعهم بالموافقة على الذي طلبه ورغب به، ولذلك أعطوا وليم رسائلهم المعتمـدة والمختـومـة بختم الملك، وبأختـام جميع نبـلاء سكوتلندا، وقـد وجهوا هذه الرسـائل إلى الملك وإلى جماعة انكلترا كلهـا، وذكروا في هذه الرسائل بأنهم وافقوا عن طواعية بالعمل وفقاً لرغبتهم شرط أن يعطيهم ملك ونبـلاء انكلترا ضمانـة حـول المسألة المتعلقـة بالـوثيقـة، وأن تكون مكتـوبة باخـلاص حسبما كـانوا مـوعـودين من قبل، وعـلاوة على ذلك أرسلوا رسـائل إلى ملك وملكة ونبـلاء انكلترا، أثنوا فيهـا على اخـلاص وليم المذكور ونشاطه الذي لايعرف التعب في العمل في سبيل المهمة التي عهـدت إليه، وإثـر مغادرته على الفـور أرسلوا وفـداً مهيبـاً وخاصـاً إلى انكلترا، مؤلفـاً من ايرل بوخان Buchan, والمعلم وليم المستشار، ولورد آلان حـاجب القصر، للإعداد للمسألة المتقـدمة الذكـر بكمال أكبر مع ملك انكلترا ومجلسـه الاستشاري، ولدى وصول هـؤلاء الأشخاص، والاجتماع والتحـادث مع وليم المتقـدم ذكـره، الذي كـان قـد سبقهم إلى انكلترا، لكنهم عندما غـادروا عائدين إلى الوطن لم يتركـوا أية معلومات معلنة تتعلق بترتيبات القضية مع الاهتمام بين الملك وجماعة المملكة.

وفاة توماس الذي كان من قبل كونت فلاندرز

وبات في هذه الآونة أيضـاً تومـاس الذي كـان كـونت فـلاندرز من قبل، والذي كان قد استخـرج من الملك والملكة صاحبي العقل الساذج

آلاف مؤلفة من الماركات، وكل هذه الأموال قد تبددت مثل حبوب زرعت على شاطىء البحر، وذلك مثلما حدث لكثير من الأموال الأخرى، التي وزعت بين الأجانب وجرى الاستيلاء عليها من قبلهم من أجل ايذاء المملكة وخسارتها، وكان قد قام من دون أي سبب بإلحاق أذى كبيراً بكنيسة القديس ألبان، وزاد من الخلاف بينها وبين الملك، ويقال بأن السم قد دس له في القارة، فهذا ماورد في أحد التقارير، وغادر هذه الحياة لينال الجزاء على أفاعيله،

كيف جرى إرسال وفد إلى بارلمان ملك فرنسا

وفي حوالي الأول من نيسان، وبناء على أمر من ملك انكلترا، ونصيحة باروناته، أقلع ايرلا: كلير وليستر، وجون مانسيل، وبطرس أوف سافوي، وروبرت ويلران، إلى القارة، من أجل أن يكونوا حاضرين في البارلمان الذي كان سيعقد في فرنسا، من قبل ملك تلك البلاد، وللترتيب لعدد من القضايا الصعبة المتعلقة بمملكتي فرنسا، وانكلترا، وأخذوا معهم صكاً من ملك انكلترا، تعلق بالتنازل عن نورماندي، وكذلك رسائل اعتماد، تخولهم التوصل إلى اتفاقات مع ملك فرنسا ومجلسه، حول المسائل الخلافية بين الملكين ومملكتيهما، وفي سبيل أن تكون الاتفاقيات التي عقدت من قبل، كما ذكرنا أعلاه بين الرسل البارعين والمعينين خصيصاً، ثابتة، وغير مخروقة، ولكن نظراً لتشتت الوفد المذكور، لم ينشر أي شيء حول الذي أنجز في هذه القضية، ولذلك لايمكن ذكر أية إفادة معتمدة حولها في هذا الكتاب.

كيف استولى الرهبان الدومينيكان على دير دنستيبل

وفي ذلك الوقت نفسه أيضاً، كان هناك بيت واقع في المنطقة التابعة والمجاورة لدير دنستيبل Dunstable, قد أعطي إلى الرهبان الدومينيكان، فقامت مجموعة من تلك الطائفة بتشوق، ولكن بصورة

سرية، فشقت طريقها بالقوة إلى داخل الدير، مما ألحق ضرراً كبيراً برئيس رهبان ورهبان دنستيبل، وقد تشجعوا على القيام بهذا بالمثل الذي ضربه الرهبان الفرنسيسكان، الذين حصلوا على مكان للإقامة في دير القديس ادموند، ضد ارادة ذلك الدير، مع إلحاق ضرر كبير به وبرهبانه، وقد عمروا هناك مباني كبيرة النفقات، حتى أن كل من نظر إليهم أصيب بالدهشة تجاه الانفاق المفاجيء والكبير لمثل تلك المبالغ الكبيرة من المال، من قبل هؤلاء الرهبان الفقراء، والأشخاص الذين احترفوا الفقر التطوعي، وكان بعدما تمكن الرهبان الذين تقدم ذكرهم من الحصول على مدخل إلى المكان المذكور فجأة وبالقوة، شيدوا مذبحاً، ومن دون انتظار الحصول على اذن من أي واحد، أقاموا القداسات هناك، وكانوا في الحقيقة قد تشجعوا بالتجهيزات التي كانوا قد تسلموها، وبالامتيازات التي رغبوا بها، وبالحماية التي قدمت إليهم من قبل الكاردينال هوغ، الذي كان راهباً من طائفتهم، له وزن كبير وأشادوا يوماً بعد آخر أبنية، وسعوا إلى زيادة ممتلكاتهم، مما ألحق الضرر الكبير بدير دنستيبل، وذلك عن طريق جمع التبرعات من الأماكن المجاورة، وهي الأماكن التي توجب أن يتسلم منها رئيس الرهبان والرهبان مواردهم، وزاد الرهبان الدومينيكان من أبنيتهم كما وسعوا ممتلكاتهم، إلى حد أن امتيازات رئيس الرهبان والرهبان قد زالت، لأن النفقات التي كانوا يتلقونها من المباني قد أعطيت الآن إلى الرهبان الدومينيكان، الذين فقدوهم، وهؤلاء الرهبان الذين قدموا حديثاً، تمكنوا بأعمال تبشيرهم المستعجلة، من الاغتصاب الكامل للمنح التي كانت بالعادة تقدم إليهم.

موت كونتسة بولون

في الأسبوع الأول من الصوم الكبير لهذا العام، ماتت كونتسة بولون، التي من خلال طغيانها أزهقت أرواح أعداد كبيرةمن بني البشر، وهم الذين قتلوا قبل عدة سنوات مضت، وقد مضت الآن لتجني ثمار أعمالها.

كيف جرى تعيين شيخين في روما حيث شرعا بالأعمال العدوانية ضد الشيخ الذي جرى تعيينه مؤخراً

في هذا العام، وفي أعقاب تدمير دفاعات مدينة روما، اجتمع المواطنون وهم في حالة هياج وغضب، وعينوا شيخين جديدين، تمكنا من جمع قوة كبيرة، تشكلت من الطبقات الوسطى لروما، ومن ثم شرعا بالأعمال العدوانية ضد الشيخ الذي جرى تعيينه مؤخراً، أي عم (خال) برانكليون، وحاصروه في قلعة المدينة، حيث قرروا اعتقاله، وتمزيقه إلى أشلاء، وقد وثق هو واستند على يمين الولاء الذي أعطي له، واعتمد على الرهائن، الذين احتفظ بهم في بولونا مدينته الأصيلة، ودافع عن نفسه بنشاط، ليبرهن أنه لم يبتعد عن الروح النبيلة لابن أخيه (أخته) وسلفه، ولذلك أنهكت روما إلى حد كبير، والتهمت نفسها داخلياً.

الخلافات التي تفجرت في ثلاث جامعات

وأثناء هذا الصوم الكبير نفسه، تفجر خلاف جاد في اكسفورد وكمبردج، نتيجة لاطلاق سراح شخص كان قد أدين بالقتل، وجاء اطلاق سراحه بالقوة من قبل الكهنة، الذين حطموا أبواب سجنه، وأخرجوه منه، ووضعوه في الكنيسة من أجل الحماية، كما أن جامعة باريس قد اضطربت كثيراً من قبل الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان، وفي الحقيقة نشأت طوائف كثيرة جداً، حيث حلت طائفة محل الأخرى، ولم يمتلك الناس الإمكانيات لدعمهم بصدقاتهم.

الخلاف بين إيرلي غلوستر وليستر

وفي هذه الآونة، وعندما كان الناس مشغولين كثيراً، أثناء انهماك البارلمان في عمل قوانين نافعة وأوامر ومراسيم، جرى تبادل بعض الكلمات الغاضبة بين ايرلي غلوستر وليستر، ولأن الايرل الأخير غضب من الأول، ومن تقلباته في مواقفه وتأييده لخططهم المقترحة، ولذلك

تفـوه بالخطاب: «أنا لا يهمنـي أن أعيش، أو أن تكون لي عـلاقـات مع أناس تافهين إلى هذه الدرجـة ومخادعين، لأننا جميعـاً اتحدنا في الوعـد، وأقسمنا على تنفيذ الخطة التي كنا نناقشهـا، وبالنسبة لك يا مولاي ايرل غلوستر، إنه بقدر علو مرتبتك فـوقنا جميعاً، مثل ذلك أنت ملزم بوضع هذه القوانين الصحيحـة موضع التنفيذ»، ومـا أن أنهى خطابه هذا حتى غـادر انكلترا، وقـام ايرل هيرفـورد ونبـلاء آخـرون من نظرائهما، لدى سماعهم لهذا الخطـاب، بالإيماء إلى ايرل غلوستر، بـأن ايرل ليستر قـــد سافر بسببه، وأنه يتـوجب استدعاءه وتهدءته بأسرع وقت ممكن، وذلك بدلاً مـن إثارتـه إلى هذه الـدرجـــة مـن الأذى، وليكن هـذا في سبيل الوقـوف إلى جـانب زملائـه، وأيضـاً إنه يتـوجب على ايرل غلوستر أن يقـوم مخلصاً بتنفيـذ أيمانه بالموافقـة على قـوانينهم وقدراتهم، وأن يتـولى عمل اصلاح في ممتلكاته بالتوافـق معهم ومع الذي صنعوه، وإلا سوف يعـاقبـونه لتقلباتـه، وقد أخـاف هذا الايرل المذكـور، فأرسل قهـرمـانه هيروين Horion, ليجول في جميع ممتلكاته مع أوامر بأن يتأكد من أن العدل يجري تطبيقـه وفقاً للقوانين، وأن كـل شيء ينبغي ترتيبه من دون تأخير، وفقاً لشروط وعـده الأخير، وبذلك هدأت عـاصفة الغضب إلى حـد كبير، ومع أن إيرل ليستر كـان مـا يزال في القـارة، إنه نتيجـة لهذه الاصلاحات، توفرت آمال أكبر، ومشاعر أكثر وثوقاً بعودته.

العوائق في طريق إقامة سلام بين ملكي فرنسا وانكلترا

تلقت ترتيبـات السلام بين ملكي فـرنسا وانكلترا، التي تقدم ذكـرها أعـلاه، والتي عهـد بإدارتها إلى عـدد من الرسل الخاصين، ذوي النفـوذ الكبير، انتكاسة غير متوقعة، وذلك في الوقت الذي ساد اعتقاد أنهم قد وصلوا إلى نقطة القناعـة والرضى في الاتفاقـات، لأن كونتيسـة ليستر لم تكن لترضى بأي حال من الأحوال بـالتنازل عن حصتها في نورماندي، التي كـان ملك انكلترا سيتنازل عنهـا إلى ملك فـرنسـا، وفقـاً لشروط

الاتفاق، ونتيجة لهذا كان ايرل غلوستر قد قذف بكلام مهين نحو ايرل ليستر، الذي سدد له عدوانه الكلامي، بكلام مثله كان حاداً وقاسياً، ووصلت القضية إلى قرابة سفك الدماء، لكنهما ضبطا من قبل أصدقائهما المشتركين، في سبيل أن لا يجد الفرنسيون سبباً للسرور من تلك الواقعة، وهكذا عاد المندوبون من دون إنجاز هدفهم، وذلك وسط سخرية الفرنسيين.

معركة بين الداوية والاسبتارية

وحدث في حوالي الوقت نفسه في عكا أيضاً، أن تخاصم الداوية ورهبان القديس لعازر، والقديس توماس، من جانب، والاسبتارية وشيعتهم في ذلك الجوار، بالاضافة إلى بعض الآخرين، الذين تألفوا من الجنويين والبيازنة من الجانب الآخر، وحدث الخصام فيما بينهم في الأرض المقدسة، وبرهن الذين عدوا بالعادة أنفسهم المدافعين الشرعيين عن الكنيسة، أنهم الآن أكثر المدمرين للسلام تعطشاً لسفك الدماء، وتدميراً لبعضهم بعضاً، وللكنيسة المذكورة، وثار الاسبتارية كلهم من دون استثناء ضد الداوية، وجاء ذلك نتيجة لبعض الأحقاد المميتة فيما بينهم، وبعدما فقدوا عدداً كبيراً من كتلتهم، دمروهم تماماً، وفي الحقيقة بالكاد لم ينج ولا رجل واحد من الداوية، في حين بقي عدد كبير جداً من الاسبتارية على قيد الحياة، وفي الواقع، لم يذكر قط أن مثل هذه المذبحة وقعت بين المسيحيين، خاصة بين الرهبان، ونتيجة لهذه الكارثة، عقد جميع الذين بقيوا من الداوية في الأرض المقدسة اجتماعاً في حالة الطوارىء هذه، ووفقاً لأحد التقارير، أرسلوا رسالة مستعجلة كثيراً إلى جميع رهبان طائفتهم، الذين كانوا ساكنين في ديرة تابعة للطائفة نفسها في جميع البلدان، بأن يضعوا من هو لازم للعناية بكل دير من الديرة، وأن يضعوا جانباً جميع الأعذار للتأخير، وليقدموا بكل سرعة إلى الأرض المقدسة، ليسدوا إلى حد ما الفراغ في ديرتهم في عكا، بسبب

دمـار وهلاك عدد كبير جـداً من اخـوانهم هناك، وأيضاً من أجل أخـذ انتقام مخيف من الاستبـارية بقوة السـلاح، ولذلك انتشر، نتيجة لذلك، شعـور عظيم بالخوف في جميع أنحاء العـالم، وأنه مالم يقم الرب القـدير بتهدئـة غضبهم، فإن استقرار العالم المسيحي سوف يتعـرض إلى الدمار، إلى حد كبير، من خلال حقدهم الذي هو بلاحدود.

كيف حصل البابا بصورة سرية على المنصب الامبراطوري للإيرل رتشارد عندما كان مقيماً في إنكلترا

وفي الوقت نفسه، عندما كان ملك ألمانيا مقيماً بسلام في انكلترا، أعدّ له طريق سهل للحصـول على المرتبـة الامبراطورية، وصنع هذا من قبل البـابا نفسه، بشكل تآمـري خفي، وببراعة عميقـة، حتى لايظهر نفسـه عـدواً معلناً للملك اسبـانيـا، وبقي على كل حـال، ملك ألمانيـا هادئـاً في انكلترا، في سبيل أن يجمع المزيد من الأمـوال، وذلك حتى يحتـاط ضـد أوقات الحاجة في المستقبل.

وفي الوقت نفسه أوقف نبـلاء انكلترا بحكمة أنفسهم على أن يضعوا موضع التنفيذ القرارات التي كانـوا قد توصلوا إليها، واهتموا قليلاً، أو بالحري لم يهتمـوا مطلقـاً أبقي الملـك المذكـور مقيماً أم غـادر، وبالاجماع صرفوا كل اهتمامهم لتدمير الأعراف الشريرة، وأفاعيل الظلم والفساد.

وباء حاد ووفاة فولك أسقف لندن

وفي العام نفسه، عندمـا كانت الشمس تدخل إلى برج السرطان، وقع وباء مميت وغير متوقع على بني البشر، ودون أن نذكر شيئاً عن الأعداد الكبيرة من الناس الذيـن مـاتوا في مختلـف المناطق، نجـد أنه في باريس وحـدها، أكثـر من ألـف من بني البشر أودعـوا في القبر، ولحق الفسـاد أيضـاً: الزيـت، والخمـرة، والقمح، وبات الحال وكأن مـائتي سيف للموت جـردت ولم توفر أحداً، فضربت أحيـاناً واحداً، وأحيـاناً أخرى

آخـر، وطردت من الدنيا الغني والفقير، ومثل هذا وعلى هذه الصـورة، مات فولك أسقف لندن، أثناء ذلك الوباء المميت، وكان ذلك الأسقف من أصل نبيل، ومن أسرة سامية، ولو أنه قبل قليل من الوقت مضى لم يتقلب في إعطاء تأييده للترتيبات العـامـة للمملكة، لبات يعـدّ مرسـاة الاستقـرار، وترس الدفـاع عن المملكـة كلهـا، ودفن أخيراً بمهـابة مستحقـة، في يوم عيـد القـديس أوربان، في كنيسـة القـديس بولص في لندن، بحكم أنه كان الأب والراعي لتلك الكنيسة.

إدانة وولتر سكوتني

وعـرض في الأسبـوع نفسـه وولتر سكـوتني، الذي كـان من قبل قهرمان ايرل غلوستر، والذي كان قد اتهم بدس السم، واعتقل، ووضع في سجن مضيق عليـه في ثلاث كونتيـات، خاصـة في كونتيـة وينكستر، عـرض تبرئـة نفسـه من التهمـة، ولكن الـذي كـان محزناً أن ترويه وأن تسمعـه، هـو أن الواقعـة نفسهـا التي منحتـه الثقـة الكبيرة في اطلاق سراحه، كانت السبب في اصـدار الحكم عليه بالإدانة، لأن الذين طلب منهم تقديم بينـة صحيحة في المحكمة عن الذي عـرفوه حـول القضية، أجـابوا: «بما أننا لم نعـرف قط أو سمعنـا، بأن وليم دي بلنسيـة المتقـدم ذكـره، أو أي واحـد مـن إخـوته، كـان مـدانـاً بأي شكل من الأشكال لوولتر المذكـور، وإن الذي نعرفـه بشكل صحيح ومتأكـدين منه هو أن وولتر المذكـور قـد تسلم مـؤخـراً كميـة كبيرة جـداً من المال، من وليم المتقدم ذكره، وبناء عليه، نحن أكثر ميلاً نحو الاعتقاد بأن هذه الأموال قـد دفعت إليـه من أجل تـدبير دس السم إلى مـولاه الايرل، وإلى وليم دي كلير أخيه، وإلى كثيرين آخرين، كما ورد الذكر أعلاه، لإرضاء رغبة الانتقام لدى الفئات المنفيـة، وليس سداداً لأي دين جرى التعاقـد عليه من قبل فيما بينهم، ونحن متأكـدين أكثر من صحة هذا الـرأي، بوساطة حقيقة أن وليم دي كلير، عندمـا وجد أنه قـد سمم، وأنه قد اقترب من

الموت، قـال بصورة علنيـة: «ليعلم جميعكم أن وولتر سكوتني هو الذي عهـد بي إلى فكي الموت»، وبناء على هذا، تبين للقضــاة أنه كـان مجرمـاً بعمل الخيانة هذا، وبذلك تمّ جره إلى وينكستر ليعلق على المشنقة.

★★★ ★★★ ★★★ ★★★

ملاحظة

ينبغي أن يكون معلومـاً، أن هذا العمـل قـد كتب إلى هذا المكان من قبل الراهـب المبجل متى باريـس، ومع أن خط اليـد قــد يتنوع، فإن الأسلوب نفسه بالتصنيف أمر ملاحظ، ولـذلك فإن جميع ماتقدم معزو إليه، إنما الذي كتب هاهنا فيما بعد وأضيف هو معزو لراهب آخر، أقدم على محاولة —مع أنه غير جـدير— متـابعـة عمل سلفـه العظيم، وذلك على الرغم من أنه لم يكن أهلاً لفـك أربطة حذائـه، ولم يقم حتى بذكـر اسمه في هذا الكتاب.

ذيل تاريخ متى باريس

[ذكر مؤلف «شهـود الحقيقة» هذا الذيل، ونسبة إلى راهب من الدير نفسـه، وعـزاه باليـوس Balaeus (ص ٣٢٦، ٣٧٦، ٣٧٧) إلى وليم ريشنغـر Rishanger, الذي كـان راهبـاً في دير القــديس ألبان].

★★★ ★★★ ★★★ ★★★

الترتيبات بين ملكي إنكلترا وفرنسا من أجل إعادة ممتلكات ملك إنكلترا وأراضيه في القارة مقابل دفع مبلغ من المال

كـان هذا العام نفسـه، الذي هو العام الثـالث والأربعين لحكم الملك هنري (الذي كان هو الثـالث منذ الاستيلاء) فيـه قد عبر هذا الملك إلى فرنسـا، وطلب من الملك الفرنسي إعـادة الأراضي التي أخذت ظلماً من أبيه جون، وذلك حين استولى عليها فيليب جـد ملك فرنسا المذكور مع أبيه لويس، والتي ماتزال بشكل غير عـادل محتفظ بها، وقدم الفرنسيون كثيراً من الحجج ضـد ملك انكلترا، وكان من بينهـا حجة خاصـة، هي أن هبـة نورمـاندي لم تكن في الزمن القـديم عن طواعيـة، بل اغتصبت بالقـوة من الملك الفــرنسي بوسـاطة دوق رولو Rollo وبما أن الملك لم يمتلك لاالشجـاعة لاسترداد أراضيـه المفقودة، ولامـايكفي من مال لجمع جيـش، وفوق ذلك كله أنه رأى أن رعيتـه على وشك الثورة ضـده، قبل الشروط التـاليـة للسـلام، حيـث أنه أرغم إلى حـد مـا على القبـول بذلك، وقضت هذه الشروط ببقـاء دوقيـة نورماندي وكـونتيـة أنجو بحوذة الملك الفرنسي بسـلام، ومقابل ذلك كان عليه أن يدفع إلى ملك انكلترا ثلاثمائـة ألف باونـد صغير من نقـود تور، وبالاضـافـة إلى ذلك وعد بإعادة بعض الأراضي في غسكوني، وكانت تنتج سنوياً مورداً مقـداره عشرين ألف باوند، وبمـوجب هذه الاتفـاقية أيضـاً تخلى ملك

انكلترا كلياً وبدون تحفظ عن ادعاءاته ومطالبـاته بجميع الأراضي التي كـانت آنـذاك بين يدي الملك الفـرنسي، وأن يقـوم منذ ذلـك الوقت فصاعـداً باختصار ألقابه في رسـائله، وأن لايشير إلى نفسه لاباسم دوق نورماندي، ولاكونت أنجو.

حرمان مانفرد كنسياً

وقام في هذا الوقت نفسه مانفرد بن فردريك، بتتويج نفسه ملكاً على صقليـة، وفعل ذلك بناء على تسلم تقـرير زائف أفـاد بموت ابن أخيـه كـونرادين Conradin, وبناء على هذا حـرمـه البـابا الاسكندر كنسيـاً على أنه محتل للمملكة لصالح المسلمين، وحـرمـه بموجب قـرار قضائي من جميع ألقابه ومناصبه.

التحكم الظالم للأجانب بإنكلترا

في هذه الآونة ظلمت انكلترا بطرق متعددة من خـلال خبل وفسولة الملك، وجـاء ذلك بوسـاطة تحكم البواتيين والـرومان، وبشكل خـاص ايثيلمار، الأسقف المنتخب لوينكستر، ووليم دي بلنسيـة، أخـوي الملك لأمـه، وبطرس أوف سـافـوي عم الملكة، التي عـامـل رهبـان المملكة وكذلك العلمانيين بعـدم احترام ووحشية، وكان أي واحد قـد عانى من أذى، وذهب إلى قهرمان وليم المذكـور، ليطلب العدالة، كان يتلقى مثل الجواب التالي: «إذا مـاألحقت بك أنا الأذى من سيقدم لـك العدالة؟ إن رغبات الملك متماشية مع رغبات معلمي، وليست معارضة لها»، وهكذا لم يظهـر هو الاحترام لاللملك أو إلى أي واحـد من النبـلاء، وفي هذه الأيام أيضاً ساد الرومـان مع نائبهم البابوي في انكلترا، وألحقوا أضراراً جسيمة بالعلمانيين وكذلك باللاهوتيين بالمسـائل المتعلقة بنذور الكنيسة، حيث جهـزوا أصـدقـائهم بالمنافع الشـاغـرة حسب رغبـاتهم، ونصبـوا أنفسهم في مـواجهـة الأسـاقفة، ورؤسـاء الرهبـانيـات، ورجـال الدين

الآخـرين، وطوقـوهـم بقـرارات الحرمـان الكنسي، ونتيجـة لهذا سخط النبـلاء من أعمال التجبر هـذه، فحـركـوا أنفسهم —مـع أن ذلك جـاء متأخـراً— لتقديم العلاج، وأرغمـوا الأجانب على الفـرار من المملكة، حسبما سيظهر في الصفحات التاليـة، وهم في الحقيقة لم يطردوهم جميعاً، بل اهتموا بشكل خاص بطرد البواتيين.

وفاة البابا الاسكندر وخلافته من قبل البابا أوربان الرابع

في عام النعمة ١٢٦٠، الذي كـان العام الرابع والأربعين لحكم الملك هنري الثـالث منذ الاستيـلاء، كـان الملك في لندن أيام عيـد الميـلاد مع حشـد من الأجانب، ومـات البابا الاسكندر في هذا العـام، وقد خلفـه أوربان الرابع، الذي كـان من قبل بطريرك القدس، وبعـد تتويجه، تمكن بمساعـدة الصليبيين من هزيمة جيش للرومـان، كان مانفـرد قد أدخله بالقوة إلى ميراث القديس بطرس، وأعطـى مملكة صقلية إلى شارل أخي ملك فـرنسا، على شرط أن يقـوم بطرد مـانفـرد من المملكة، ومنذ ذلك الحين بدأ ملوك صقلية يحملون رنوك ملك فرنسا.

موت يهودي في كنيف من خلال أوهامه

وفي هذا الوقت نفسـه حـدث في توكبري Tewkesbury أن سقط يهودي في كنيف، وصـدوراً عن احترامه للسبت، وهواليـوم الذي وقع فيـه الحادث، لم يسمح لنفسـه بالاخراج، حتى اليـوم التـالي، الذي كان يوم أحد، ونتيجة لذلك مات، لأنه اختنق من الروائح القذرة.

ونشب في هذا العام خلاف بين الملك وبين نبلاء المملكة، نتيجة لعدم مراعـاة الملك للشروط التي عملت في البارلمان الذي عقـد في اكسفورد، وفوق هذا كله قيام الملك بصورة غير حكيمة بالرفع من شأن الأجانب، واسرافـه في إغنائهم، وهم الذين لم يكونوا نافعين ولامخلصين للمملكة، ونتيجـة لهذا تحالف النبلاء مع بعضهم بعضـاً، وأمروا وليم دي بلنسيـة

وأتبـاعه بمغـادرة انكلترا، وبعدم العـودة مطلقاً، وذلك حسبما سنذكـر بالتفصيل الكامل فيما بعد.

كيف جرى تحليل الملك من يمينه بوساطة البابا

ندم الملك، الذي كـان مع ابنه الأكبر ادوارد والبـارونات، قد أقسمـوا بعـزم وبدون تردد ونكـوص على مـراعـاة القـرارات التي اتخذت في اكسفـورد، لإقسـامهم ذلك اليمين، وخشي الملك من نيله تهمـة الحنث باليمين، إذا لم يقم بالالتزام بهم ومراعاتهم، ولذلك بعث بشكل سري إلى البابا يرجوه أن يحلله من يمينه، وقد حصل على هذا المعروف بسهولة.

كيف قوبل رجال العدالة بالصد في هيرفورد

في هذا الوقت جرى إرسال رجال العدالة الجوالين العاملين في خدمة ملك انكلترا إلى هيرفورد Hereford للقيام بواجبات وظيفتهم، لكن لم يسمح لهم بـدخـول المدينة، حيـث ادعى أعيـان الناس في تلك المنطقة من البـلاد، أن قدومهم معاكس للقوانين التي عملت مـؤخراً في اكسفورد، وهكذا عادوا دون انجاز لمهمتهم.

مقتل الفلورنسيين

وحوالي الوقت نفسه تعرض الفلورنسيون، الذين تحالفوا مع بعضهم لتدمير مدينة سيينـا، للهزيمة على أيدي جنود مانفـرد، وكونت جوردان Jordan, الذي آثر قضيـة مـانفـرد، وجـرى الاستيـلاء على مـدينتهم، ودمـرت جـزئيـاً، وهـم أنفسهم أرغمـوا على الخضـوع لحكم مانفرد والسيينيين.

الحرب في هنغاريا

ووقعت حوالي الوقت نفسه معركة جادة جرى القتال فيها بين ملكي هنغـاريا وبوهيميا بسبب بعض الأراضي، وتعـرض الهنغار إلى الهزيمـة،

فهربوا، فسقطت أعداد منهم للسيف، لكن أعداداً أكبر بكثير غرقت في نهر كانوا مرغمين على عبوره أثناء فرارهم، ثم دخل ملك بوهيميا إلى مملكة هنغاريا، وبناء عليه أعاد ملك تلك البلاد المناطق التي كان قد اغتصبها، وبوساطة حلف زواجي تأسست الصداقة وتثبتت بين الملكين من أجل المستقبل.

طرد البواتيين من إنكلترا

ودخل في الوقت نفسه سيمون دي مونتفورت —ايرل ليستر، ورتشارد كلير— ايرل غلوستر، ونيقولا فتز— جون، وجون فتز— غيوفري، وعدد كبير من النبلاء، في حلف مع بعضهم، واجتمعوا في اكسفورد، وهم مجهزين كما ينبغي بالخيول والأسلحة، وقرروا تماماً، وعزموا في نفوسهم إما أن يموتوا من أجل سلام البلاد، أو أن يتمكنوا من نفي المفسدين للسلام، ومثيري الاضطراب من البلاد، وجاء إلى هناك أيضاً مع بعضهم إلى المكان الذي تقدم ذكره أعلاه ايثيلمار، الأسقف المنتخب لوينكستر، ووليم دي بلنسية، وبواتيون وأجانب آخرون، وكان يحيط بهم حشد من الأتباع والأشياع، ورغب النبلاء في دعوة هؤلاء الأخيرين لمواجهة العدالة من أجل أعمالهم الشريرة، وأن يلتحقوا بهم وينضموا إليهم في أداء اليمين على تطبيق القرارات والمبادىء، التي عملت من أجل منفعة المملكة، ولكن بما أن الأجانب وجدوا أنفسهم غير أكفاء بالشجاعة، وكانوا خائفين من الخضوع للعدالة والقضاء، هربوا أثناء الليل إلى قلعة وينشلسي Winchelsea، وهناك على كل حال تم اقناعهم من قبل البارونات —الذين أرغموهم على التخلي عن القلعة— على مغادرة المملكة فوراً.

دعوى الاتهام التي عملت ضد البواتيين أمام البابا

وخاف النبلاء —على كل حال— من أن يقوم الأسقف المنتخب لوينكستر، بالذهاب إلى روما، وأن يتمكن بوساطة المال من دفع قضيته

هناك، حيث سيكون أكثر قدرة على إلحاق الأذى، ولذلك أرسلوا أربعة فرسان متمكنين من الفصاحة وأقوياء، إلى البلاط الروماني، وأمروا هؤلاء الفرسان بتقديم رسالة إلى البابا والكرادلة، مختومة بأختامهم، وهي حاوية على عرض للجرائم التي اقترفت من قبل الأسقف المنتخب المتقدم ذكره مع إخوته، وإفادة عن أعمال القتل، والسلب والنهب وعن مختلف أنواع الآثام الأخرى والمظالم، التي سحقوا بها شعب البلاد وآذوه.

كيف جرى تحرير إنكلترا لبعض الوقت من الاستخراجات الرومانية

وعلاوة على ذلك أمر النبلاء الرهبان الضامنين لكنائس الرومان، بعدم عدّ أنفسهم مسؤولين عن الضمان أمام الرومان، بل أن يقدموا حساباً عن أعمال الضمان المذكورة وعن مواردهم إلى حماتهم، أي إلى البارونات، في يوم ومكان جرى تحديدهما مسبقاً من قبلهم، وأخبروهم أيضاً أنهم إذا تصرفوا بشكل معاكس، فإن مقتنياتهم سوف يعهد بها إلى النار، وهم أنفسهم سوف يحصلون على المخاطر التي كانت تهدد الرومان، وأعطوا الأوامر نفسها إلى الأساقفة، وحظروا عليهم أن يقوم أياً منهم بالتدخل في قضية الرومان أو مواردهم، تحت طائلة العقوبة، حسبما تقدم الذكر أعلاه، وبترتيبات البارونات هذه، بقيت انكلترا غير مضطربة بالاستخراجات لمدة ثلاثة أعوام تقريباً، أي حتى أذعن سيمون دي مونت فورت، الذي تقدم ذكره أعلاه للموت، وحين مات تتوج بالشهادة، كما هو معتقد بشكل عام.

كيف حبس الملك نفسه في برج لندن

في عام النعمة ١٢٦١، الذي كان العام الخامس والأربعين لحكم الملك هنري، الثالث منذ الاستيلاء، كان الملك أثناء عيد الميلاد في برج

في لندن مع الملكة، وقد اقتيد إلى هناك بوساطة بعض النصائح الشريرة، لبعض الأشخاص، للتهرب من تنفيذ الاتفاق الذي كان قد عقده مع النبلاء، وفكر الآن باظهار مشاعره الغاضبة بشكل علني، ولهذا السبب حبس نفسه في برج لندن، وكسر مغاليق الأماكن الحاوية للمال، الذي جرى خزنه منذ زمن طويل، ووزع الأموال وبددها، واستأجر أيضاً عدداً من العمال لترميم وتحصين البرج المذكور، في الأماكن الأكثر صلاحية للدفاع، وعلاوة على ذلك، أمر بالأبواب التي حول مدينة لندن، بأن يجري تحصينها بعوارض وحواجز، ثم إنه جمع سكان المدينة ممن كان في الثانية عشرة من عمره فصاعداً، وجعلهم يقسمون على الاخلاص له، و كان هناك منادي ينادي في الوقت نفسه أن كل من يريد أن يقاتل من أجل الملك، عليه القدوم على الفور، وهو الذي سيتكفل بنفقاته، وعند سماع البارونات بهذا، تدفقوا كلهم من جميع الجهات مع وحدات كبيرة من الجنود، وعسكروا خارج المدينة، لأنه لم يسمح لهم بشكل مطلق بدخول المدينة للإقامة بها.

إرسال مندوبين من عند البارونات إلى الملك

وتم في هذه الآونة الحصول على رسالة تحليل، فيها جرى تحليل الملك وابنه ادوارد من الأيمان التي كانا قد أدياها، حسبما تقدم الذكر أعلاه، لكن ادوارد رفض ذلك، أو الإفادة من هذا التحليل، في حين أصر الملك على عناده، وعندما سمع النبلاء بأن الملك جرى تحليله على هذه الصورة، أر سلوا رسلاً إليه، ورجوه بتواضع أن يحافظ على اليمين الذي أخذه بشكل عام معهم، وأن لايخرقه، وبينوا أنه إذا كان هناك أي شيء ليس مرضياً بالنسبة له ومكروهاً، عليه أن يبينه لهم حتى يقوموا بإصلاحه، ولم يقبل الملك بأي شكل من الأشكال بطلبهم ولم يستجب له، بل رد عليهم بخشونة وتهديد، بأنهم نأوا عن اتفاقهم، وأنه لن يذعن لرغباتهم، بل المتوجب من الآن فصاعداً، على كل واحد منهم أن

يتجهز من أجل الدفاع عن ذاته، وبعد لأي تم أخيراً الوصول إلى تسوية بوساطة بعض الأشخاص، وتم الاتفاق على انتخاب فريقين، الفريق الأول لصالح الملك، والفريق الثاني لصالح البارونات، وأن يقوم هذان الفريقان بانتخاب فريق ثالث، ومن ثم يقوم الفرقاء الثلاثة بسماع الشكاوى من على الجانبين، وأن يقوموا بترتيب سلام ثابت القواعد بينهما، لكن تمّ الاتفاق على تأجيل القضية حتى وصول ادوارد، الذي كان آنذاك في القارة.

التحالف ضد المستشارين الأشرار

وكان ادوارد، الذي سمع بهذه الوقائع في منطقة نائية، وعندما سمع بها، عاد على الفور إلى الوطن، في سبيل أن لايجري تأخير إقامة السلام بسبب غيابه، وقد جلب معه وليم دي بلنسية الذي كان قد طرد مؤخراً من المملكة، وفي الحقيقة لم يكن الآن بإمكانه الحصول على اذن بالدخول إلى المملكة حتى يقوم بتأدية يمين بإطاعة القرارات والشروط العائدة للبارونات في جميع النقاط، وعليه إذا كان ضرورياً الاجابة على جميع الشكاوي التي قد تثار ضده، وعندما أخبر ادوارد، بعد وصوله، بالخطط الطائشة للملك، غضب كثيراً، ولم يقدم نفسه لأبيه، بل انضم إلى فريق البارونات تماشياً مع قسمه، وعقدت بعد ذلك اتفاقية فيما بينهم مشفوعة باليمين، بأن يبحثوا عن المستشارين الأشرار العائدين للملك مع محرضيهم، وأن يبقوهم بعيدين عن الملك، وذلك بقدر ما يمتلكون من قوة، وعندما أصبح الملك على دراية بهذا،حمل نفسه فوراً مع مستشاريه إلى برج لندن، وبقي ابنه ادوارد في الخارج مع البارونات.

طرد الإمبراطور بلدوين من القسطنطينية

وجرى في هذا العام طرد بلدوين امبراطور الاغريق مع الفرنسيين واللاتين، وذلك من قبل الاغريق بمساعدة الجنويين والبنادقة، وبعدما

استرد الاغريق امبراطوريتهم على هـذه الصورة، عينوا امبراطوراً عليهم واحـــداً من بينهم أنفسهم اسمـــه باليـــولوغـــوس Palaeologus, وهرب بلدوين، وبقي منفياً في فرنسا.

مختصر أخبار العام

كـان هـذا العـام كله عـــام خـــوف لانكلترا، واضطـراب للملك وللبـارونات، ومعطياً للسرور إلى الاغـريق، وبغيضاً إلى اللاتين، وكـان خصباً إلى حد ما في إنتاج الفواكه، ولطيف المناخ.

كيف غادر ملك إنكلترا برج لندن

في عـام النعمـة ١٢٦٢، الذي كان العـام السـادس والأربعين لحكم الملك هنـري، كـــان الملـك المذكـــور في برج لندن بصحبـــة ملكتـــه ومستشـــاريه، الذيـن لم يكونوا لانافعين له ولامخلصين، والـذين كـــانوا يخافـــون من أن تجري محاولات للعنف ضـــدهـم، لذلك أخـــذوا الاحتيـــاطات بالبقــــاء وراء الأســـوار في داخل البرج، وأمكن أخيراً، بوساطة الملكة، التوصل إلى عمل سلام مع بعض النبلاء، وإن كان ذلك مع بعض الصعوبة، وجـرى تبـادل قبل السـلام، وبناء على هذا أظهـر الملك نفسه بثقـة أعظم خارج البرج، وترك جون مـانسيل مسؤولاً عنه، ثم بادر مسرعـاً إلى دوفر، ودخل إلى القلعة هنـاك، من دون اذن وأيضاً من دون اعتراض، ثم اكتشف الملك للمرة الأولى بأنه كان مفروضاً على الزيف والخديعـة، وذلك عندما شاهـد بأن القلعة كانت محروسـة بعناية من قبل البـارونات، وهي جـاهزة تماماً ومهيأة لدخـوله، وعهـد الملك بالمسؤولية عن تلك القلعة إلى إ. E(?) ويلران، ثم بادر بالذهاب مسرعاً إلى قلعة روكستر، ومن هناك إلى بعض الحصون الأخرى، حيث وجد فيهم جميعاً مدخلاً حراً ومخرجاً حسب رغبته.

كيف انحسب الملك علناً من يمينه اعتماداً منه على التحليل البابوي

تصور الملك الآن نفسه في أمان، لذلك قرر أن ينسحب بشكل علني من يمينه الذي أداه، بحكم أنه حصل على التحليل منه من البابا، ولهذا قام بجرأة بجولة على المدن والقلاع، لأنه رغب في امتلاك سلطة كاملة عليهم وعلى المملكة كلها، وقد تشجع كثيراً على القيام بها بحقيقة أن نبلاءه قد وعدوه مؤخراً بمساعدته بقوة قوية، ولدى وصوله إلى وينكستر عزل من وظيفتيهما كل من المسؤول عن العدالة وقاضي القضاة اللذين جرى تعيينهما مؤخراً من قبل البارونات، وعين بدلاً عنهما اثنين وافقا هواه ورغبته، وعندما سمع البارونات بهذا، بادروا مسرعين، وهم مسلحين ومعهم قوة كبيرة إلى وينكستر، لكن جون مانسيل الذي توقع هذا، ذهب سراً إلى الملك وحذره من الخطر، وأرغمه على العودة بكل سرعة إلى برج لندن.

وكان هذا العام كله خصباً في انتاج القمح والفواكه، وكان مشحوناً بالغش والخداع بالنسبة للانكليز.

كيف خضع ملك إنكلترا والنبلاء إلى تحكيم ملك فرنسا

في عام النعمة ١٢٦٣، الذي كان العام السابع والأربعين لحكم الملك هنري الثالث، الحامل لهذا الاسم منذ الاستيلاء، أمضى الملك عيد الميلاد في برج لندن مع ملكته ومستشاريه، وفي هذه الآونة بذلت مساعي من قبل أساقفة انكلترا وكذلك أساقفة فرنسا لإعادة تأسيس السلام بين ملك انكلترا والبارونات، وكانت النتيجة أن أخضع الملك والنبلاء أنفسهم إلى تحكيم ملك فرنسا، وذلك بالنسبة للمقررات المتقدم ذكرها واتخذت في اكسفورد، وكذلك بالنسبة إلى أعمال الأذى والسلب التي اقترفت فيما بينهم.

كيف أصدر ملك فرنسا قراره ضد بارونات إنكلترا

في اليوم التالي ليوم عيد القديس فينسنت Vincent, اجتمع عدد كبير جداً من الناس في اميان Amiens, وذلك عندما قام لويس ملك فرنسا، بحضور الأساقفة، والكونتات مع آخرين من نبلاء فرنسا، بإصدار قراره بشكل مهيب لصالح ملك انكلترا ضد البارونات، حيث قضى «بالإلغاء إلغاءً نهائياً: المقررات، والقوانين، والالزامات التي تقررت في اكسفورد، باستثناء القرار المتعلق بالصك القديم العائد إلى الملك جون ملك انكلترا، الذي جرى منحه إلى المجتمع على اتساعه»، ولم يقصد بمثل هذا القرار إلغائه بأي شكل من الأشكال، وتولى هذا الاستثناء تثبيت ايرل أوف ليستر وآخرين، الذين امتلكوا سرعة خاطر بالادراك، فوقفوا ثابتين إلى جانب مقاصدهم بدعم المقررات التي عملت في اكسفورد، والتي شكل ذلك الصك الأساس لها.

وفي هذا الوقت أيضاً، قام للويلين عدو الملك، وأمير ويلز، بإحداث مذبحة مع أعمال سلب في أراضي ادوارد ابن الملك هنري.

عودة الملك مع مرافقيه من البارلمان الفرنسي

في هذا الوقت عاد إلى الوطن الذين كانوا حاضرين بارلمان الملك الفرنسي، وكان بين هؤلاء هنري ملك انكلترا، وملكته إليانور، وبونيفيس رئيس أساقفة كانتربري، وبطرس أسقف هيرفورد، وجون مانسيل، الذين تابعوا من دون توقف التآمر لإحداث كل مايمكنهم من أذى ضد البارونات، وحدثت منذ ذلك الحين بالفعل غلطة جديدة أسوأ من الغلطة الماضية، ذلك أن عدداً من النبلاء حنثوا بأيمانهم، وانسحبوا من ولائهم الممنوح إلى ايرل ليستر، الذي كان يناضل من أجل العدالة، وقام هنري ابن ملك ألمانيا، بعدما تسلم لقب Tikhel الذي منح إليه من قبل ادوارد ابن الملك، بالذهاب إلى مقدم تحالف

البارونات وقال له: «مولاي الايرل أنا لايمكنني الاستمرار بعد الآن بالقتال ضد أبي، ملك ألمانيا، وضد عمي ملك انكلترا، وضد أقربائي الآخرين، وبناء عليه بموافقتك واذنك، أنا أتركك، لكنني لن أحمل السلاح ضدكم، وعلى هذا رد عليه المقدم قائلاً وهو غير مكتئب: «مولاي هنري، أنا لست حزيناً على سلاحك، بل حزين من عدم الاستقرار الذي أراه فيك، وعلى هذا اذهب، مع أسلحتك، لأنني لاأخاف منهم بأي شكل من الأشكال»، وفي الوقت نفسه،انسحب أيضاً روجر دي كلففورد Clifford, وروجر ليبيرن Leyburne, وجون دي فوكس Vaux, وايمون لي استرانج Aimon L'Stranges, وكثير آخرون، أعمتهم الهدايا، لذلك تخلوا عن التحالف الذي أقسموا عليه بشكل عام للبارونات.

كيف شرع روجر مورتيمير بالأعمال العدوانية ضد البارونات

ثار في هذه الآونة روجر مورتيمير Mortimer, —وكان من شيعة الملك— ضد ايرل ليستر، ونهب أراضيه ومزارعه، وكان مقدم حزب البارونات قد شكل تحالفاً وصداقة مع للويلين أمير ويلز، فأرسل جيشاً قوياً إلى تلك المنطقة قام بغزو أراضي روجر المذكور، ودمر ممتلكاته وأحرقها، وحاصر في الوقت نفسه ادوارد، واستولى على قلعتي هي Haye وهنتنغدون Huntingdon, اللتان كانتا بحوذة همفري دي بوهن Bohun, كما أنه استولى على قلعة بريكنوك Brecknock, وسلمهم جميعاً إلى روجر المذكور ليكونوا تحت وصايته، وقام في حوالي الوقت نفسه روبرت فيرار Ferrers, ايرل دربي Derby, الذي لم يقف لاإلى جانب الملك ولا إلى جانب البارونات، والذي يمكنك القول أنه لم يدخل في عداد البارونات، قام بإلحاق كثير من الأذى، لأنه قاد قوة عسكرية

كبيرة، فأستولى بها على ووركستر، ودخل المدينة، ودمر مقراً يهودياً هناك،ونهب رجال الدين والعلمانيين سواء، وذلك حيثما التقى بهم، ودمر الحدائق الملكية، واقترف كثيراً من الآثام الأخرى، التي من أجلها اعتقل فيما بعد، وجلب إلى المحاكمة، وأودع في السجن في لندن، وفي حوالي الوقت نفسه استولى ادوارد ابن الملك على قلعة غلوستر ومدينتها بالخدعة، وصدوراً عن كراهيته للبارونات أرغمهم على تقديم فدية للمكان بدفع ألف باوند.

إجراءات البارونات

في عام النعمة ١٢٦٤، الذي كان العام الثامن والأربعين لحكم الملك هنري، الذي هو الثالث بهذا الاسم منذ الاستيلاء، كان الملك المذكور في لندن أيام عيد الميلاد بصحبته ملكته، ورتشارد ملك ألمانيا وعدد كبير من الآخرين، وفي حوالي الوقت نفسه، نهب سيمون دي مونتفورت قائد البارونات، ممتلكات المتحيزين للملك، وخاصة الأجانب منهم، الذين كانوا متحالفين بالدم مع الملكة، وأدخلوا إلى انكلترا بوساطتها، واعتقل بعض شيعة البارونات، بطرس أسقف أوف هيرفورد، الذي كان بيرغندي الأصل، وحدث اعتقاله في كنيسته الكاتدرائية، وحملوه إلى قلعة أوردلي (؟) Ordely, وذلك بعدما عملوا اقتسام متساوي للمال فيما بينهم أنفسهم، وبعد هذا زحف جيش تحت إمرة سيمون دي مونتفورت إلى غلوستر، وحاصر القلعة لمدة أربعة أيام، واعتقل —لكن من دون متاعب كبيرة— حاكمها، متى دي بيسيلي Besille, وكان أجنبياً، ولكن جريئاً وفارساً شجاعاً، وقد حمل إلى مكان اعتقال الأسقف نفسه، ثم زحف مع قواته إلى ووركستر وبورغ Burgh أوشرويري، التي دخلوها واستولوا عليها مع مصاعب قليلة، ثم زحف الايرل مع جيش البارونات إلى الأجزاء الشرقية من انكلترا، ودخل إلى جزيرة إيلاي بقوات ضخمة، وجعل المنطقة كلها

خاضعة له، وكان الملك والملكة أثناء هذا الوقت كله مقيمان في لندن، وحوالي هذا الوقت هرب كاتبهما الخاص ومستشارهما، جون مانسيل، الذي كان أغنى رجل في العالم، هرب تبعاً لأحد التقارير بشكل سري من برج لندن، خوفاً منه من انتقام البارونات، وفي هذه الآونة أيضاً، جرى اعتقال هنري ابن ملك ألمانيا من قبل وكلاء الملك، لأنه وقف إلى جانب الايرل والبارونات وآثر قضيتهم، ووصل في الوقت نفسه ادوارد ابن الملك من القارة، وعسكر في قلعة ويندسور Windsor مع بعض الجنود الأجانب، الذين جلبهم معه قبل وقت قصير مضى.

توقف الانهيار المفاجيء للسلام

وخاف الملك من أن يشدد الضغط عليه في برج لندن من قبل جيش البارونات، لذلك أقام سلاماً مؤقتاً معهم، بوساطة بعض الأشخاص الجبناء، ووعد بالالتزام بالمقررات التي اتخذت في اكسفورد، لكن الملكة وقد أثيرت بمكرها النسائي، بذلت كل الذي كان بإمكانها لمنعه من فعل ذلك، ونتيجة لهذا السلوك، عندما رغبت في إحدى المناسبات بالذهاب إلى ويندسور عن طريق التيمز، وركبت في مركب من أجل هذه الغاية، تجمع حشد من الرعاع من الفئات الدنيا للمدينة على جسر توجب عليها المرور من تحته، واستقبلوها لدى اقترابها بإهانات مزيجةوباللعنات، وبرمي الوحل والحجارة في المركب، وأرغموها على العودة إلى البرج.

وجرى ابرام شكل من أشكال السلام بين الملك وبين الايرل والبارونات، وفق الشروط التالية، وهي: إنه «ينبغي في المقام الأول، اطلاق سراح هنري ابن ملك ألمانيا من الاعتقال، وأن جميع قلاع الملك في جميع أرجاء انكلترا ينبغي تسليمها إلى البارونات والعهدة بها إليهم، وأن القرارات التي اتخذت في اكسفورد ينبغي الالتزام بها من دون احباط، وأن جميع الأجانب، ينبغي عليهم خلال وقت محدد الخروج من

انكلترا، باستثناء الـذين سـوف يسمح لهم بالبقـاء في المملكة بناءعلى موافقـة عامة من البـارونات، على شرط اعطاء وعد بالسلوك المخلص، وأنه من ذلك الوقت فصـاعداً، على السكان المحليين، المخلصين وذوي الأخلاق الحميدة، والذين يرعون مصـالح المملكة ويتطلعون إلى ذلك، تسلم المناصب، وترتيب، أعمال المملكة تحت توجيه الملك.

تحصين قلعة ويندسور

بعـــد وقت قصير من ابـرام هذه المعـــاهدة، ومن دون التقيـــد بالاتفاقيات، والوعود، والأيمان التي عملت، وضع بعض فرسان حزب الملك كميـات كبيرة مـن السـلاح والمؤن في قلعـة ويندسـور، وفي هذا الوقت نفسـه، ذهب ادوارد ابن الملـك إلى قلعـة بريستـول، حيث نشب خصـام بين فـرسـانه وبين شعب المدينة، الذين قـامـوا بعمل تحضيرات لحصـار القلعـة، وقـام ادوارد وهو مـذعـور، فبعث إلى وولتر أسقف ووركستر، الذي كان منحـازاً إلى البارونات، وذلك من أجل أن يذهب تحت حماية ذلك الأسقف إلى بلاط أبيه، ووعد بأن يقنع أبيه ومستشاريه بتبني إجـراءات السـلام، وبنـاء عليـه انطلق مـع الأسقف، لكن لدى وصوله إلى قلعـة ويندسور، دخل إليهـا، مما أزعج الأسقف كثيراً، الذي ارتاب به.

كيف أعطيت قلعة ويندسور إلى الإيرل سيمون

كان الايرل سيمـون قد وصل لتـوه لإلقاء الحصـار على تلك القلعة، وقـد تلاقى قـرب بلدة كنغستـون Kingston مع ادوارد، الذي عرض عليـه الدخول في مفاوضات لإقـامة ترتيبات للسـلام معه، لكن الايرل —بناء على نصيحـة وولتر الأسقـف المتقـدم الذكـر— رفض الإصغاء إلى اقتراح ادوارد، ولدى رغبتـه بالعودة إلى القلعـة، احتفظ به سجيناً، ونتيجة لهذا، جرى تسليم قلعة ويندسور إلى الايرل، مع السماح

بإعطاء الحرية إلى الحامية بالمغادرة مع جميع مقتنياتها إلى المكان الذي سوف يختاره أفرادها، وأعطي الأمان إلى الأجانب، وإلى الذين رغبوا بالعودة إلى القارة، وفي هذه الآونة تحالف للويلين، أمير ويلز بذاته مع ايرل سيمون، وقام خلال هذا الوقت بنهب كونتية شيستر والتخوم، وهدم قلعتي دايسارت Dysart وغنّوك Gannock, وكانتا عائدتين إلى ادوارد، وسواهما بالأرض.

وجرى بعد ذلك بوقت قصير عقد بارلمان في لندن، وفي هذا الاجتماع تحول كثيرون ممن كانوا واقفين إلى جانب قضية الايرل، إلى جانب الملك، وكان المقدم بينهم هنري الألماني ابن ملك ألمانيا من زوجته الماضية، وبدأت قوة الملك تسترد الثبات إلى بعض الحدود، ثم ذهب الملك إلى دوفر، وحاول الاستيلاء على تلك القلعة وانتزاعها من بين يدي الايرل، لكنه أخفق في مقاصده، فقام بالمغادرة ثانية.

كيف أعطى البابا أوربان مملكة صقلية إلى الكونت شارل

جرى انتخاب الكونت شارل شيخاً دائماً لمدينة روما، وأعطاه البابا أوربان مملكة صقلية، وأن تبقى بين أيدي ذريته حتى الوريث الرابع، على أساس التفاهم بأن ينتزعها من مانفرد.

وفي هذه الآونة ذهب الملك هنري إلى اكسفورد ليقدم صلواته وليزور ضريح القديس فريدوز Fredeswith, الأمر الذي لم يتجرأ على عمله ملك لانكلترا قط قبله، وبذلك أظهر أنه لايخاف من الآراء الواهمة للذين رأوا أنه غير شرعي للملوك الانكليز دخول تلك المدينة، لأن العذراء سوف تزورهم بانتقامها، والتحق به ابنه ادوارد في ذلك المكان، واقترح أن يقوما بقواتها المتحدة بطرد البارونات وابعادهم بقوة السلاح، وشرع بطرد رجال اللاهوت من اكسفورد، لكن حدث في الوقت نفسه، أن قام مواطنو لندن باعتقال رجال

العدالة التابعين للملك، وبارونات بيت المال، وألقوا بهم في السجن، وكان مع الملك في هذا الوقت الأمراء المشهورين التالين مع الشخصيات المهمة التالية: رتشارد ملك ألمانيا وعديله، وابنه ادوارد، ووليم دي بلنسية أخيه لأمه، والفارس المتميز جون كومين Comyn السكوتلندي مع حشد من السكوتلنديين، وجون بالأويل —لورد غالووي Galloway, وروبرت بروس Bruce —لورد أنانديل Annandale, وروجر كلففورد Clifford, وفيليب مارميون Marmion, وجون دي فوكس Vaux, وروجر ليبرن Leyburne, وهنري بيرسي Percy, وفيليب باسيت، وروجر مورتيمر Mortimer, وانطلق مصحوباً بهؤلاء ومتبوعاً بجيشه يريد نورثأمبتون، وألقى الحصار على ذلك المكان، وتمكن في يوم الأحد في أسبوع الآلام من احداث ثلمة، ودخل إلى البلدة، وهنا أسر خمسة عشر فارساً من ذوي الأعلام هم: سيمون الأصغر، ووليم فيرير Ferrers, وبطرس دي مونتفورت، وبلدوين ويك Wake, وآدم نيوماركت Newmarket, وروجر بيرتراند Bertrand, وسيمون فتز— سيمون، الذي كان أول من رفع الراية ضد الملك، وبيرنير Berengere دي ووترفيل Waterville, وهوغ غبيون Gebion, وتوماس مونسيل Mauncel, وروجر بوتيفيلين Boteveleyn, ونيقولا ويك Wake, وروبرت نيونغتون Newington, وفيليب درايبي Drieby, وغريمبولد بونيمونت Grimbald Paunsemont وقد أرسل بهم جميعاً إلى مختلف الحصون، حتى يجري حفظهم في سجون مضيقة، وبالاضافة إلى هؤلاء وقع بالأسر أيضاً حوالي الأربعين فارساً من مرتبة أدنى مع عدد من حملة الترسة.

زحوف الملك والبارونات

وزحف الملك من ذلك المكان نحو نوتنغهام، حيث نهب عزب البارونات، واجتاحها من جميع الجهات، وعاملها بالنار والسيف، وازداد عدد أتباعه بشكل كبير، وعند سماع الايرل سيمون بهذه الإجراءات، ذهب إلى لندن، وأعد آلاتاً للحرب، في سبيل استخدامهم، لأنه عزم على حصار مدينة روكستر، التي كانت آنذاك بحوذة جون وارني، ومدافع عليها من قبله، وعندما كان سيمون وجيشه قد استوليا على الباب الأول للمدينة وعلى الجسر، سمع أخباراً جلبت إليه ولمن معه بأن الملك كان زاحفاً على لندن، وبناء عليه رفعوا الحصار، وزحفوا مسرعين للقائه، وقام الملك على كل حال بالابتعاد عن لندن، واستولى على قلعة كنغستون Kingston التي كانت عائدة إلى ايرل غلوستر، وزحف على روكستر، وهزم الذين تركوا فيها لحفظ البلدة والدفاع عنها، وذلك بعدما قتل عدداً كبيراً منهم، ثم استولى بعد ذلك على قلعة تونبردج Tunbridge, وقد وجد فيها كونتسة غلوستر، فسمح لها بالمغادرة وهي حرة، وبعدما ترك كتلة كافية من الجنود لحماية القلعة المسماة أخيراً، زحف إلى وينشيلسي Winchelsea, حيث سمح لشعب الموانىء بعمل سلامهم معه، ومن ثم تابع تقدمه حتى وصل إلى لويس Lewes, وجرت ضيافته في ذلك المكان في رئاسة الرهبانية، في حين عسكر ابنه ادوارد في القلعة، وعندما كان هناك كتب إليه البارونات الرسالة التالية:

رسالة البارونات إلى ملك إنكلترا

«إلى عظمة جلالة مولاهم هنري، الذي بفضل نعمة الرب الملك اللامع لانكلترا، وسيد ايرلاندا، ودوق أكوتين، من باروناته والآخرين من رعاياه المخلصين الذين يرغبون بالالتزام بيمين الاخلاص للرب وله، تحيات، مع جميع الخضوع الصحيح، والتشريف والاحترام.

إنه واضح تمام الوضـــوح، من عـــدة براهين، أن هناك بعض الأشخاص الذين حول ذاتك، قد كدسوا الكذب فوق الكذب، فيما يتعلق بنا وبجلالتك، ويحاولون إلحاق كل أذى هو بإمكانهم، ليس بنا فقط، ولكن بك أيضاً وبالمملكة كلها، ويمكن لجلالتك أن تكون متأكداً أن رغبتنا هي حفظ صحتك وسلامة شخصك بكل ماأوتينا من قوة، وذلك مع الاخلاص المستحق لك، وأن غايتنا هي أن نطرد —بقدر ماالدينا من قدرة— ليس فقط أعداءنا، بل أيضاً أعداءك، وأعداء مملكتك كلها فهل يرضي جلالتك أن لاتصدق إفاداتهم، وبالنسبة لنا فإنك سوف تجدنا رعايا مخلصين لك، وقد قام ايرل أوف ليستر، وغيلبرت دي كلير بوضع أختامنا على هذه الرسالة، بنا ءعلى طلب من البقية، وذلك من أجلهم ومن أجلنا. صدر، إلخ، إلخ»، وعامل الملك هذه الرسالة باستخفاف، وتشوق من قلبه كله من أجل معركة، ولذلك رد عليهم برسالة التحدي التالية:

جواب الملك على الرسالة المذكورة أعلاه

«من هنري، الذي هو بنعمة الرب، ملك انكلترا، سيد ايرلاندا، ودوق أكوتين إلى سيمون دي مونتفورت وغيلبرت دي كلير ومشايعيهما:

إنه لمن الواضح تماماً، من خلال إجراءات الحرب، وإثارة الاضطراب في مملكتنا من قبلكم، وكذلك أعمال الاحراق والجرائم الكبيرة الأخرى التي اقترفت من قبلكم، أنكم لاتراعون نحونا الاخلاص الحقيق بنا، وأنكم غير مهتمين بسلامة شخصنا، لأنكم آذيتم النبلاء كثيراً، والرعايا المخلصين لنا، والذين وقفوا بثبات إلى جانب اخلاصهم لنا، وحسبما أخبرتمونا في رسالتكم، أن هدفكم العمل بقدر ماهو متوفر بقدرتكم، إننا نعد الآن أن الإضرار بهم إضراراً لحق بنا، وأن أعداءهم هم أعداء لنا، وكما قلنا من قبل هم رعايا مخلصين لنا، في الالتزام باخلاصهم

نحونـا، وقد ساعـدونا باخلاص ضـدكم في انعدام الاخـلاص لديكم، ونحن لسنا مهتمين لاباخـلاصكم ولابحبكم، ونحن نرفض أعـداءهم، شهـدت بنفسي في لويس، في هذا اليـوم الثـاني عشر من أيار، في السنة الثامنة والأربعين لحكمنا».

وكتب ملـك ألمانيـا، وادوارد ابن الملك إلى الايـرل المذكـور وإلى المتعـاونين معـه باسمهما، وبأسماء الآخـرين المؤيدين لقضيـة الملك وفق الصيغة التالية:

رسالة رتشارد ملك ألمانيا إلى البارونات

«من رتشارد الذي هو بنعمـة الرب، الملك الأغسطس للرومان، ومن ادوارد الابن الأكبر لملك انكلترا اللامع، ومن جميع البـارونات الآخـرين والفـرسـان المتمسكين بثبات بولائهـم نحو ملك انكلترا المتقـدم ذكـره، باخـلاص صـافي، ومع جميع ممتلكاتهم، إلى سيمـون دي مـونتفـورت، وغيلبرت دي كلير، وإلى جميع المتعاونين معهما في غدرهما:

علمنا من رسـائلكم التي قـدمناها إلى مـولانا الملك اللامع لانكلترا، أننا مـرفـوضين من قبلكم، مع أن عمل هذا الـرفض لم يكن ضرورياً، ولكن هذا بات واضحـاً إلينا بوسـاطة أعمالكم العـدوانيـة، وقد جـرى تنفيذه باحراق ممتلكاتنا، ونهب أراضينا واجتياحها، وبناء عليه نحن نود أن تعلموا جميعاً أننا نرفضكم جميعـاً وواحداً واحداً، وننظر إليكم أعداء معلنين، ونخبركم أننا سـوف نستخدم من الآن فصـاعداً جميع جهـودنا لإلحاق الأذى بكم، في كل ممتلكاتكم وأشخاصكم، وذلك حيثما وجدنا سبيـلاً لفعل ذلك، وفيما يتعلق بالذي أكـدتموه بشكـل زائف، وهو أننا غير مخلصين للملك، وأننا لانقدم له النصيحة الصالحة، إن الذي قلتموه ليس صحيحاً بأي شكـل من الأشكال، وإذا مارغبت يامـولانا سيمون دي مـونتفـورت، أو أنت ياغيلبرت دي كلير، بتقـديم هذه الإفـادة في

محكمة مولانا الملك، نحن على استعداد لأن نمنحكم أماناً حتى تقدموا إلى المحكمة المذكورة، وذلك حيث سنكون نحن جاهزين أيضاً للبرهنة على براءتنا، وعلى زيف كل منكما، وأنكما خائنين جبانين، وذلك بوساطة واحد سيكون مساوياً لكما في الأصل والمكانة، ونحن جميعاً داخلين ومشمولين تحت ختمي: صاحب الجلالة ملك الرومان، ومولانا ادوارد. صدر كما ورد أعلاه».

الرفض الثاني لطلب البارونات من أجل السلام

وأرسل البارونات ثانية، هنري أسقف لندن، ووليم كانتيلوب Cantelupe أسقف ووركستر، إلى الملك بمثابة وسطاء، لإقامة السلام، وعرضوا دفع ثلاثين ألف باوند مقابل الأضرار التي عملت في جميع أرجاء المملكة من قبلهم، شريطة الحفاظ على كل الاحترام للقرارات التي عملت في اكسفورد، لكن ملك ألمانيا رفض الاصغاء للسلام بأي شكل من الأشكال، لأنه كان في حالة سخط كبير لأن البارونات قد ثاروا ضده، ونهبوا ممتلكاته، وقد صرح ضد السلام، ومنع في الوقت الحاضر الترتيبات، ولذلك عاد الرسولان ليعلنا بأن الفئة المضادة باتت مستعدة تماماً للحرب، وأن هذا كان قراراً نهائياً، ولذلك أمضى الايرل سيمون تلك الليلة كلها من دون نوم، وأمضى الوقت كله في الصلاة، وتأدية الواجبات المقدسة، وحث أصحابه وأتباعه على القيام بالاعتراف، وأعطى وليم كانتيلوب —أسقف ووركستر تحليلاً إليهم جميعاً، وأوجب عليهم، في سبيل الخلاص من ذنوبهم ونيل ذلك، القتال بنشاط ورجولة في ذلك اليوم من أجل العدالة، ووعد بالدخول إلى ملكوت السموات إلى جميع الذين سوف يموتون في سبيل مثل تلك القضية، وعندما بات جيش البارونات متأكداً بأن المعركة باتت وشيكة، غادر قبل الفجر قرية فلشنغ Fleching, حيث أمضى جزءاً كبيراً منهم الليل هناك، والتي

كـانت على بعد حـوالي ستة أميـال عن لويس، وقبل أن يبـدأوا بالحملة منح الايرل سيمون شرف الفروسية لغيلبرت كلير.

استراتيجية سيمون دي مونتفورت

وعندمـا وصلوا إلى مكان بالكاد كـان على مسـافـة ميلين من بلدة لويس، صعد سيمون مع رفاقه على مكان مرتفع، ووضع عربته فوقه في وسط الأثقـال وخيـول التحميل، وعـرض هناك رايتـه وربطهـا بشكل محكم إلى العربة، وأحاطها بعـدد كبير من جنوده، واستحوذ هو وجيشه على الأرض من على جهتـي هذا المكان، وانتظـر نتيجـة الأحـداث، وسجن في عربة أخرى أربعـة مواطنين من لندن كانوا قد تآمـروا لخيانته قبل وقت قصير، عندما كـان يمضي الليل في ساوثورك Southwark, وفعل هذا من باب الاحتياط، ثم قام بشكل حكيم بترتيب قواته، وأمر جنوده بربط صلبـان بيضـاء على صـدورهم وعلى ظهـورهم، وذلك ليظهـروا أنهم يقـاتلون من أجل العـدل، وفي الصباح البـاكـر من ذلك اليـوم فاجـىء جيش البارونات أتبـاع الملك الذين ذهبـوا يبحثـون عن الطعام، وقتل عدداً كبيراً منهم.

المعركة بين بارونات إنكلترا والملك

وتم اخبار الملك باقتراب البـارونات، فقام بالتحرك فـوراً مع جيشه، وذهب نحـو الأمام لمواجهتهم مع أعـلامه وهي منشـورة، وسار أمـامه الشعـار الملكي، المحمـول على تنين،وذلك بمثابـة إعلان بنفسـه رسـالة الموت، وكـان جيشـه مقسماً إلى ثلاث كتـل، وكـانت الكتلة الأولى تحت قيـادة ابنه الأكبر ادوارد، مصحـوباً بـوليم دي بلنسيـة، وايرل بامبروك، وجـون دي وارني —ايرل سري Surrey وسسكس Sussex, وكـانت الكتلة الثانيـة تحت قيـادة ملك ألمانيا وابنه هنري، في حين قـاد الملك هنري نفسه الكتلة الثـالثة، وكـان جيش البارونات مقسماً إلى أربع

فرق، حيث كانت الفرقة الأولى تحت قيادة هنري دي مونتفورت وايرل أوف هارتفورد، وكانت الفرقة الثانية تحت قيادة غيلبرت كلير، وجون فتز— جون، ووليم دي مونشينيل Monchesnil, وتألفت الفرقة الثالثة من اللندنيين، الذين كانوا تحت قيادة نيقولا سيغريف، وقاد الايرل سيمون وتوماس بيلفيدون Pelvedon الفرقة الرابعة، وانقض ادوارد وفرقته على العدو بشدة كبيرة أرغمته على التراجع، حتى قيل بأن عدد الفرسان الذين غرقوا قد بلغ الستين، وفي الحال أرغم اللنديون على الفرار، وقام ادوارد الذي كان متعطشاً لدمائهم، بسبب الاهانة التي وجهوها مؤخراً إلى أمه، بمطاردتهم لمسافة أربعة أميال، وأحدث مذبحة مرعبة بينهم، ولكن بغيابه أضعف كثيراً قوات الملك، وفي الوقت نفسه شاهد بعض قادة جيش الملك علم الايرل على الرابية، فظنوا أن الايرل نفسه كان هناك، فبادروا فجأة مسرعين إلى هناك وقتلوا المواطنين اللندنيين الذين كانوا محبوسين في العربة، وذلك دون أن يعرفوا أنهم كانوا من أصدقاء قضيتهم، ولم يكن خلال هذا الوقت كله الايرل وغيلبرت كلير من دون نشاط، بل صرعوا وقتلوا كل من تصدى لهم، ووجهوا جهودهم كلها بكثافة لأسر الملك وهو حي، وقد سقط عدد كبير من أعوان الملك أمامهم، وأما جون ايرل وارني، ووليم دي بلنسية، وغي لوزغنان وجميع إخوة الملك لأمه، وهوغ بيغود، وحوالي الثلاثمائة فارس مسلحين، فأداروا ظهورهم، وهربوا أمام الحملات الحادة للبارونات، ووقع بالأسر رتشارد ملك ألمانيا، وروبرت بروس، وجون كومين، الذين كانوا قد جلبوا عدداً من السكوتلنديين معهم، أما الملك هنري فبعدما قتل فرسه تحته فقد سلم نفسه إلى سيمون دي مونتفورت، وإثر ذلك بوقت قصير وضع في الدير تحت الحراسة، وقتل عدد كبير من البارونات السكوتلنديين على أرض المعركة في ذلك اليوم، والجنود الرجالة الذين قدموا معهم، فقد تعرضوا للقتل بأعداد كبيرة، وعلاوة على ذلك وقع

بالأسر همفري دي بوهون Bohun, —ايرل هيرفورد، وجـون فتـــز— ألان —ايرل آرونـديـل، ووليم بـاردولـف Bardolf, وروبرت تيتشل Tatesull, وروجـر سومـري Somerey, وهنري بيرسي، وفيليب باسيت، ومن جـانب الملك قتل رجلا العـدالة: وليم ويلتون Wilton, وفولك فتـز— وارن، حيث سقط الأول في المعـركة، وغـرق الثاني في النهـر، ومن جانب البـارونات سقط هناك رالف هورنغـاند Horinganade, وكـان بارونـاً، ووليم بلند Blund, وكان حامل راية الايرل، ولقـد قيل بأن الخسائر من على الجانبين وضعت مع بعضها، فوصلت إلى خمسة آلاف رجل.

كيف رغب البارونات بالتوصل إلى شروط سلام مع الملك

ولدى عـودة ادوارد مع رفـاقـه بالسـلاح من قتل اللندنيين، دون أن يعـرف الذي حـدث لأبيه، تجول حـول البلدة ووصل إلى قلعـة لويس، غير أنه لم يجد والـده هناك، فـدخل إلى الديـر، حيث التقى بـه، وعلم بالذي حـدث، وقام البارونات بـالوقت نفسه بهجـوم على القلعة، لكن الحامية قامت بدفـاع فعال، فـانسحبوا، وعندمـا سمع ادوارد بشجاعـة الحامية ورجولتها تشجع كثيراً، وأعـاد حشد قواته، ورغب في أن يجرب حظه في معركة ثانية، وعندمـا سمع البارونات بالذي عزم عليه، أرسلوا أشخـاصـاً للتـوسط للسـلام، ووعـدوا بالتـوصل إلى بعض الترتيبـات المحددة حول هـذا الموضوع في اليوم التالي، وتم التوصـل في اليوم التالي بوساطة الرهبـان الدومينيكان والفرنسيسكان، أن يتم في اليـوم السادس المقبل تسليـم ادوارد وهنري نفسيهما إلى الايـرل سيمـــون، بـدلاً عن والديهما، ملكـي انكلترا وألمانيـــا، على أمل الحصـــول على الســلام والاستقرار، على شرط أن يجري حـوار صحيح حول أي مـن القرارات والمبـادىء ينبغي الالتـزام بها لصـالح المملكة، وأيها ينبغي إلغـاءه، وأن جميع الخسائر من على الجانبين ينبغـي التخلي عنها من دون أي تعويض،

وفي يوم السبت التالي أعطى الملك الاذن إلى جميع الذين وقفوا إلى جانب قضيته بالعودة إلى أوطانهم، وكتب بناء على رغبة الايرل سيمون إلى الذين كانوا في حصن تونبردج Tunbridge يأمرهم بالعودة إلى أوطانهم، وأن لايؤذوا البارونات، وقد سمعوا على كل حال بأن اللندنيين الذين هربوا من المعركة قد التجأوا إلى كرويدون Croydon, ولذلك لم يتقيدوا بهذا الأمر، فسلحوا أنفسهم، وانقضوا على ذلك المكان، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وحملوا كميات من الأسلاب، وذهبوا من ذلك المكان إلى بريستول حيث بقيوا في حالة دفاع حتى اطلاق سراح ادوارد، أما بالنسبة لادوارد، فقد جرى إرساله إلى قلعة وولنغفورد من أجل السلامة.

مآسي وفواجع إنكلترا

كان هذا العام كله مع خمسة أشهر وأسبوعين من العام المتقدم، قد عبروا وسط رعب الحرب، ومحاولة كل واحد وسعيه للدفاع عن قلعته، ونهب كل واحد المنطقة المجاورة، ودمر الحقول، وسلب المواشي لتزويد قلعته بالمؤن من أجل المدافعين عنها، ولم يوفروا لاالكنائس ولاالمقابر، وعلاوة على ذلك تعرضت بيوت أفقر العمال الزراعيين للتفتيش وللنهب، ولحق النهب حتى القش الذي استخدم لحشايا النوم، ومع أن الايرل أعطى أوامر، أنه تحت طائلة الاعدام، أن مامن أحد ينبغي أن يتجرأ على الدخول إلى كنيسة مقدسة أو مقبرة، من أجل النهب، أو التعامل بعنف مع الرهبان أو مع خدمهم، مع ذلك لم يحصل على شيء من هذا الإجراء الحكيم، لأنه لم يتمكن لاالأساقفة، ولارؤساء الديرة، أو أي من رجال الدين بالعبور من بلدة إلى بلدة دون التعرض للسلب على أيدي قطاع الطرق بالليل.

وصف للسمات العامة للعام

وكان هذا العام، خلاله كله منتجاً بصورة لابأس بها للفواكه، ولطيفاً في المناخ، وصحياً، ولكنه في جميع الأحوال عبر مع الخسارة لانكلترا، بسبب الحرب العامة، واعتقال الملكين، والسلب المؤسف للمقتنيات بشكل علني وسري.

إجراءات سيمون دي مونتفورت

في عام النعمة ١٢٦٥، الذي كان العام التاسع والأربعين لحكم الملك هنري، الثالث بهذا الاسم منذ الاستيلاء، كان الملك مسجوناً في حبس الايرل سيمون، مع رتشارد ملك ألمانيا، وادوارد الابن الأكبر للملك، وبعض النبلاء الآخرين، وخلال كل من العام الماضي والعام الحالي أخذ الايرل سيمون ملك انكلترا وابنه ادوارد —الذي نقله من قلعة وولنغفورد— إلى حيثما ذهب حتى تمكن من الاستيلاء على جميع القلاع الأكثر حصانة في المملكة، ولكنه من ذلك الحين أبدى نفسه وهو أقل ميلاً للتعامل مع قضية السلام، وفقاً للشروط التي تقدم إعدادها، لأن الملك والمملكة كلها باتت تحت سلطته، وأخيراً وضع ملك الرومان في برج لندن، ووضع ادوارد وهنري، ابني الملكين، قيد الاعتقال في قلعة دوفر، وأخذ ملك انكلترا معه دوماً حيثما ذهب، هذا وكانا حيثما ذهبا وإلى أي مكان وصل، كان يستقبل دوماً بالتشريف، وذلك كملك، وأبدى الايرل نحوه كل نوع من أنواع الاحترام.

إجراءات أهل التخوم مع ويلز

قام في الوقت نفسه، عدد كبير من الفرسان الشجعان والمتميزين كان من بينهم روجر مورتيمير Mortimer, وجيمس أندلي Andeley, وروجر ليبورن Leybourne, وروجر دي كليففورد Clifford, وإيمون لى استرانج، وهوغ دي توربيفيل

Turbeville, وعدد آخـر، فأعلنوا عن سخطهم على هذه المعاملة للملك ولأولاده، وثاروا ضد ايرل ليستر بموافقة عامة، ولكي يضبط وقاحتهم اتخذ الايرل سيمون للويلين —أمير ويلز حليفاً له، ودخل إلى قلعة هيرفـورد، وأخـذ معـه سجينه ادوارد من دوفـر، ثم إنه استرد الاستيلاء على قلعة هي Haye, التي كـانت عـائـدة إلى ايرل هيرفورد، واستولى على قلعة لودلو Ludlow, وبعـدما اجتـاح أراضي روجر مـورتيمير، زحف نحـو مـونتغمـري Montgomery, وفي ذلك المكان عقـد سـلام بين الايرل سيمون، والنبـلاء الذين تقـدم ذكـرهم، حيث قـدم النبـلاء رهائنهـم، وبعـد هذا، زحف الايرل نحو المناطق الجنوبية من انكلترا، بقصـد مواجهة فـرقة من الجنود، روي بأنها كانت قادمة لمساعدة الملك.

كيف جرى إرسال نائب بابوي تولى حرمان البارونات كنسياً

في هذا الوقت نفسه تأثر البابا أوربان من الحالة المضطربة في انكلترا، فأرسل كاردينـال أسقف سابينو Sabino, بمثابة مندوب بابوي إلى تلك البلاد، لكن أسطول الموانيء الخمسة كان محتلاً وحارساً لجميع المنافـذ إلى انكلترا بوسـاطة البحـر، ولذلك بعث وراء بعض الأسـاقفـة للقـدوم إليـه، فقـد أرسل إليهم أولاً للقـدوم إلى اميـان Amiens, وبعد ذلك إلى بولون، وعهد إليهم بالاعلان ومن ثم تنفيذ قرار الحرمان الكنسي، والحرمـان مـن شراكـة المؤمنين، الصـادر بمـوجب السلطات البـابوية ضد مـدينة لندن، والموانيء الخمسـة، وأيضاً ضـد جميع مثيري الاضطراب وتعكير سـلام ملك انكلترا، ومع هـذا استخف الأسـاقفـة بالقضيـة وراوغـوا حـولها، ومـا من شيء مؤكـد كـان معـروفـاً، مع أن مواقف عدة وآراء متنوعة جرى التعبير عنها، بطرق مختلفة، حول سبب سلوكهم وتصرفهم.

الخلاف بين الإيرل سيمون وغيلبرت دي كلير

وفي هذا العام، عندما كان ادوارد ابن الملك مايزال في السجن في قلعة هيرفورد، نشب خلاف بين سيمون ايرل ليستر وغيلبرت دي كلير، وكان سبب ذلك هو كما يلي: لم يكن ايرل أوف ليستر قانعاً بالاحتفاظ بملك انكلترا في سجنه، بل استولى على قلاع الملك ووضعها تحت سلطته، ورتب شؤون المملكة كلها حسب ارادته، والذي كان السبب الرئيسي للخلاف، هو أنه ادعى لنفسه وحصر بها وحدها إجراءات المملكة ومنافعها، ومبالغ فداء الأسرى وجميع الموارد المتوجبة الأخرى، وهذا كله كان من المفترض اقتسامه بالتساوي بينهما، وبدا أيضاً أنه نظر نظرة استخفاف إلى أولاده، الذين أصبحوا متجبرين، وكانوا الآن وراء الإعلان عن مبارزة سوف تعقد في دنستيبل ضد ايرل غلوستر، وقد جاء إليها اللندنيون وعدد كبير من الفرسان، والرجال المقاتلين، وعندما سمع والدهم بهذا، وبخهم على وقاحتهم، وفرض عليهم الاقلاع عن إجراءاتهم، وهددهم أنهم إذا لم يطيعوا أوامره، فسوف يضعهم في مكان لن ينتفعوا فيه من رؤية الشمس أو القمر.

وعندما سمع ايرل غلوستر بهذا المنع، غضب فوق حدود المعقول، ووجد الذين عملوا الاستعدادات من أجل المبارزة المذكورة صعوبة في تحمل أن يروا أنفسهم وقد حيل بينهم وبين مقاصدهم، وكان المصدر الأعظم للغضب هو النفقات الكبيرة التي تحملوها في هذا المجال، وقد نفسوا عن حنقهم ضد الايرل، وقالوا إنه أمر مضحك ومزعج أن يقوم أجنبي بامتلاك الوقاحةعلى امساك سيادة المملكةكلها بين يديه، وكان مما زاد غضب غيلبرت أنه عندما سأل سيمون المذكور ورجاه أن يسلمه ملك ألمانيا وبعض الأسرى الآخرين الذي جرى اعتقالهم من قبله (غيلبرت) ومن قبل أتباعه، رد سيمون رداً موجزاً بالرفض أن يفعل ذلك، ولهذا السبب تحولت الصداقة السالفة بينهما إلى كراهية، وتفجر

الخلاف وتصاعد إلى درجة أن غيلبرت لم يعد يقيم تقديراً لاالقسمه، ولالإخلاصه للقضية، ولم يعد هناك شيء يمكن أن يهدئه، وعلاوة على ذلك دافع غيلبرت عن جميع النبلاء الفرسان للتخوم (الذين تقدم ذكرهم أعلاه) الذين أمر الايرل سيمون بموجب مرسوم أعلنه، بوجوب طردهم من المملكة، وقام غيلبرت بمراسلتهم، واستمالهم إلى جانبه بالتحالف معهم، وازداد تحالفهم بانضمام جون دي وارني—ايرل سري وسسكس، ووليم دي بلنسية —ايرل بمبروك Pembroke, الذي وهو على طريقه إلى المقاطعات الغربية من ويلز، نزل في بمبروك.

وعند ذلك أخذ الايرل سيمون الملك معه، وانطلق نحو هيرفورد، فجمع فرقة كبيرة من الجنود، مع نية اخضاع الفرسان الذين تقدم ذكرهم بقوة السلاح، وجرت في الوقت نفسه مساعي من قبل بعض الأساقفة، لإعادة ايرلي ليستر وغلوستر إلى سالف حالة الصداقة والوحدة بينهما، لكن ذلك كان بلا محصلة.

وفي هذا الوقت عندما كانت الأمور على هذا الوضع، حصل ادوارد ابن الملك الذي كان موضوعاً في السجن في قلعة هيرفورد، على اذن من حراسه، ليقوم بتمارين في الحقل خارج المدينة، وليفرج عن نفسه ويسليها بتجريب سرعة خيولهم، وفي إحدى المناسبات، بعدما قام بتجربة عدد من الخيول، وبعد اتعابه لهم، اختار أخيراً واحداً جيداً، حيث امتطاه، وحثه على الاسراع بمهمازيه، وقال وداعاً لحراسه، وعبر نهر وير Wear, وكان مرافقاً باثنين من الفرسان، وبأربعة من الأتباع، الذين كانوا على دراية بنواياه، ووجه طريقه إلى قلعة ويغمور Wigmore, وطارده حراسه، لكنهم حين شاهدوا رايتي روجر مورتيمر، وروجر دي كليففورد، اللذان كانا قادمين لمساعدة ادوارد في فراره، لم يعد بإمكانهم المطاردة وعادوا إلى هيرفورد، ووقعت هذه الوقائع عشية عيد التثليث، وجرى الاعداد لها بالتشاور مع، وبمساعدة الفرسان الذين تقدم ذكرهم.

إجراءات سيمون وإدوارد

وهكذا وقد تخلص ادوارد من سجنه، قام بحشد جيش كبير، لأن أعداداً كبيرة تدفقت على الالتحاق به، ودخلت كونتيات: هيرفورد، وووركستر، وسالوب Salop وشيستر بتحالف معه، وتدفق سكان البلدات، والقرى، والمدن، والقلاع للانضواء تحت رايته والانضمام إليه، فقام على الفور بحصار مدينة غلوستر، التي كان الايرل قد استولى عليها مؤخراً، وترك حامية فيها، فرت الآن إلى القلعة، ولكن بعد حصار لمدة خمسة عشر يوماً سلموا القلعة إليه أيضاً، ولتقديمهم يمينهم أنهم لن يحملوا السلاح ضد ادوارد في المستقبل، سمح لهم بالمغادرة وهم أحرار، وهاجم ايرل ليستر في الوقت نفسه قلعة مونماوث Monmouth, التي كان ايرل غلوستر قد استولى مؤخراً عليها وحصنها، وبعدما أرغم الحامية على الاستسلام، هدم القلعة وسواها بالأرض، ثم إنه دخل إلى غلامورغانشاير Glamorganshire, في أراضي ايرل غلوستر المذكور، وبما أنه التقى بأمير ويلز مع مساعدة، تمكن المقدمان من اجتياح المنطقة كلها بالنار وبالسيف، وسمع ادوارد في الوقت نفسه أن كثيراً من شيعةالايرل سيمون، قد تدفقوا مع بعضهم إلى قلعة كنيلوورث Kenilworth ولذلك ضم قواته إلى قوات ايرل غلوستر، وانطلق زاحفاً من ووركستر في المساء، فوصل إلى ذلك المكان بزحف قوي، وانقض على المكان فجأة، فأسر ايرل اكسفورد، وحوالي الثلاثة عشر فارساً من ذوي الرايات، قبل أن يتمكنوا من الدخول إلى القلعة، التي كان سيمون ابن الايرل سيمون قد أغلقها على نفسه وتحصن بها، أما سيمون ايرل أوف ليستر، الذي احتفظ دوماً بالملك برفقته، فقد عاد من جنوب ويلز، ووصل يوم عيد القديس بطرس في الأغلال إلى كمبسي Kempsey, وهي مزرعة كانت عائدة إلى أسقف ووركستر، وأقام هناك في اليوم التالي، وعاد ادوارد

وقتهـا من كنيلوورث إلى ووركستر، التي كانـت تبعد ثلاثة أميـال فقط عن العزبة المتقدم ذكرها، ولـدى سماع سيمون بوصوله إلى هناك، ابتعد مع الملك عند بـداية الليل، وعسكر في بلدة ايفهـام، حيـث انتظر قـدره غير السعيد، لأنه في اليـوم التالي، وهو اليوم الذي عثر فيـه على القديس اسطفـان، تحرك ادوارد من ووركستر، وعبر النهـــر قــرب بلدة كلين Claines, وقطع إمكانيـة اتصال الايرل بابنه الذي كـان في قلعة كنيلوورث، ومنع أية فـرصة، أوإمكانية اللقـاء بين الأب وابنه، وزحف في اليـوم التالي حتى بات قـريباً من بلدة ايفهـام، هو من الجانب الأول، وايرل غلوستر وروجـر مـورتيمير قد قـدمـا كل لوحـده من الاتجاهين الآخرين، وهكذا بات ايرل ليستر مطوقـاً من جميع الجهات، وبات تحت ضرورة التسليم عن طواعية، أو انشاب القتال معهم.

وفي الخامس من آب، الذي وقع في اليوم الثـالث من الأسبوع، التقى الجيشـان في سهل واسع خـارج البلدة، حيث أعقب ذلك صراع جـاد، واستمـر ذلك حتى بدأ أتباع الايرل بـالتراجع، ووقع ثقل القتال عليـه، وقـد قتل على أرض المعـركـة، وعند مقتله هبت عـاصفـة من الرعـد والبرق، وانتشر الظلام على مســاحــة واسعــة، وقـــد أصيب الجميع بالدهشـة، وسقـط هناك إلى جـانب الايرل في تلك المعـركـة اثني عشر فـارساً من حملـة الأعلام، وهم: هنري ابنه، وبطـرس دي مونتفـورت، وهوغ ديسبنسر Despenser رجل العدالة لانكلترا، ووليم دي مـــانـديفيل، ورالف بـاسيت، وولتر دي كــــرسبغني Crespigny, ووليم يـورك، وروبرت تريغـــور Tregor, وتومـــــاس هوستلي Hostelee, وجــون بيـــوشـــامب Beauchamp, وغي بالأويل، وروجـر دي رولي Roulee, وعـدد كبير آخـــر من ذوي المراتب الأدنى، وكذلك من الأتباع، والرجالة، وكانت الخسارة الكبرى بين الويلزيين، وهكذا انتهت جهـود ذلـك الرجل النبيل ايرل سيمـون،

الذي لم يقدم ممتلكاته فقط، ولكن شخصه أيضاً للدفاع عن الفقير ضد الظلم، وللحفاظ على العدل وعلى امتيازات، المملكة، وكان متميزاً بعلمه، وبمواطنته وصرفه انتباهه لتأدية الواجبات الدينية، فذلك كان يشكل سروراً له، وكان معتدلاً ومقتصداً، وكان من عاداته ممارسة السهر في الليل، مفضلاً ذلك على النوم، وكان جريئاً في الكلام، وله مظهر حاد، وقد وضع ثقة كبيرة في صلوات الرهبان، وقدم دوماً احتراماً عظيماً للاهوتيين، وسعى للالتزام بنصائح القديس روبرت الذي كنيته غروستيت Grosstete —أسقف لنكولن، وعهد إليه لتربيتهم، عندما كانوا صغاراً جداً، وعلى نصيحة ذلك الأسقف اعتمد أثناء ترتيبه للمسائل الصعبة، ولدى محاولته القيام بمخاطرات مشكوك بها وصعبة، وفي انهاء ماكان قد بدأ به، ولاسيما القضايا التي أمل أن يزيد بها من فضائله، ويروى بأن ذلك الأسقف نفسه قد فرض عليه أن يتبنى هذه القضية من أجل الحصول على عفو من ذنوبه، وفعلاً التزم بها وقاتل حتى الموت، معلناً أن سلام كنيسة انكلترا، لايمكن تأسيسه بثبات إلاّ بوساطة السيف، ومؤكداً له بصورة ايجابية، أن كل من سيموت من أجله سوف يتوج بالشهادة، وذكر بعض الأشخاص، علاوة على ذلك، أن الأسقف وضع في إحدى المناسبات يده على رأس الابن الأكبر للايرل وقال له: «ياولدي العزيز، أنت مع أبيك ستموتان في يوم واحد، وبنوع واحد من الموت، لكن ذلك سوف يكون في سبيل العدل والصدق»، ومضت التقارير إلى القول أن سيمون، تميز بعد وفاته، بعمل عدد من المعجزات، وهي معجزات لم يتم الاعلان عنها واشهارها، خوفاً من الملك.

كيف أعطى إدوارد الأوامر بدفن الموتى

وبعدما حصل ادوارد على هذا النصر المبكي، أعطى أوامره إلى رهبان ذلك المكان بدفن أجساد الموتى، ولاسيما الذين كانوا من المراتب العليا،

وأن يكـون ذلك بشكـل لائق، وحضر شخصيـــــاً جنازة هنـري دي مونتفورت، الذي كان والده الملك قد أمسكه عند جرن المعمودية عندما جرى تعميـده، والذي نشأ معه وتربى، وقد أحبه، لأنه رافقـه منذ أيام الطفولة.

وقال بعضهم أنه قبل المعركة المذكـورة، خرج سيمون إلى خارج بلدة ايفشام، وشـاهد بأية حكمة وبراعة جـرت تعبئة صفوف أعدائـه، فقال لمرافقيـه: «بحق ذراع القـديس جيمس (هكذا كـان قسمه المعتـاد) إنهم يقتربون بحكمـة، ولقد تعلمـوا هذه الطريقـة مني، وليس من أنفسهم، لذلك دعونا نوصي بنفوسنـا إلى الرب، لأن أجسادنا سوف تكون لهم»، كما أنه حث هوغ دسبنسر و رالف باسيت مع آخرين على الفـرار وانقاذ أنفسهم من أجل أوقـات أفضل، لكنهم قـالوا بأنهم لايودون العيش إذا مامـات هو، وبعد مقتله قطـع أعداؤه رأسه، وقـدميه، ويديه، مضـادين ومخالفين بذلك جميع قـوانين نظام الفـروسيـة، وقـدم رأسـه إلى زوجـة روجر مورتيمير التي كانت مقيمة في قلعة ووركستر.

وأصيب الملك في هذه المعـركة بجراحـة من ضربة رمح قـذف نحوه من دون قصـد، فصـار في خطر فقدانه حيـاته، وبهذا النصر أعـاد الملك تأسيس سلطتـــه الملكيـة، وبناء على نصيحـة ابنه المنتصر دعـا إلى عقـد بارلمان في وينكستر، في عيـد ميــلاد العـذراء المجيــدة، وقـام في هذا البـارلمان— بعـد التشـاور، بتجـريـد لندن، بسبب أعمال عصيـانها، من حـرياتها القـديمة وامتيـازاتها، وأمـر بمقدمي العـاملين ضـد السلطات الملكيـة بالالقاء بالسجن، انتظاراً لرضـاه، وفي يوم عيد القـديس ادوارد جرد جميع الـذين وقفوا إلى جانـب الايرل سيمون ضد مـولاهم الملك، من أمـلاكهم ومـواريثهم، ومـــالبث بعـد ذلك أن أعطى أراضيهم، إلى الذين وقفـوا مخلصين إلى جانب الملك، معـوضـاً كل واحد منهم وفقـاً لاستحقـاقـاته، ولذلك قـامت الفئـات المحـرومـة بالتجمع مع بعضهـا

بعضاً، وانخرطت في أعمال النهب والسلب في جميع الاتجاهات، وكان على رأس الذين حرموا: سيمون، وغي، ولدي الايرل سيمون دي مونتفورت، وسمح لزوجة الايرل بالمغادرة وهي تمتلك حريتها، مع جميع مقتنياتها، وتبسلمت أماناً من ادوارد، وبناء عليه عادت إلى بلادها الأصيلة، ولم تعد.

الوقائع في بلدة القديس ألبان

وفي هذا الوقت كانت بلدة القديس ألبان، مدافع عنها بقوة، والأبواب أمينة ومحكمة الاغلاق بالحواجز والأقفال، من كل من الداخل والخارج، بسبب الخوف الذي أوحت به الحرب، وجرى منع الدخول إليها إلى جميع المسافرين، خاصة إلى الفرسان، ثم إن غريغوري ستوك Stock عمدة هارتفورد، استاء من شجاعة شعب بلدة القديس ألبان، وتبجح متفاخراً بأنه سوف يدخل إلى البلدة مع ثلاثة شبان فقط، دون المبالاة بالأقفال والحواجز، وأنه سوف يعتقل ويحمل معه إلى هارتفورد أربعة من أعلى فئات المواطنين، وفي سبيل تنفيذ هدفه دخل إلى البلدة، وأخذ يسعى في جميع الاتجاهات مثل إنسان فقد عقله، وكان يلقي بنظره هنا وهناك، وكأنه كان على وشك تنفيذ خطة عظيمة، وأخيراً قال لواحد من الشباب الذين كانوا بصحبته: «كيف حركة الريح؟»، وبناء عليه سمع جزار كلماته، فظن أنه يريد إحراق البلدة، فقال: «سوف أعلمك كيف تتحرك الريح»، وقام على الفور بتوجيه ضربة له على وجهه بقوة جعلته يسقط على الأرض، ثم إنه جرى اعتقاله مع الشباب الذين كانوا معه، ووضعوا بالأغلال، وفي الصباح تم قطع رؤوسهم من قبل الجزارين، ووضعت رؤوسهم على أربعة أعمدة عالية، نصبت في الزوايا الأربعة للبلدة، وعندما سمع الملك بهذه الإجراءات، وضع غرامة على المدينة مقدارها مائة مارك، حيث جرى دفعها على الفور.

مذنب غير اعتيادي

وظهرفي هذا العام مذنب مـدهش، لم يشاهد مثله من قبل، وقد ظهر في الشرق مع اشعاع كبير، واتخذ طريقه نحـو الغرب نحو وسط السماء، مضيئاً جميع أجزاء السماء التي عبر بها في طريقـه، ومع أنه مما لاشك فيه أنه بشر بوقوع كثير من الوقائع في مختلف أنحاء العالم، هناك شيء واحد مؤكـد، هو أنه عندما ظهر للمـرة الأولى، وقع البابا أوربان مـريضاً وفي الليلة نفسها التي مات فيها، اختفى فيهـا هذا المذنب، وذلك بعدما بقي لمدة ثلاثة أشهر، ومات ذلك الحبر في باريس، وقد دفن هناك.

البابا كليمنت السادس

وقد خلفه البـابا كليمنت السادس، الذي كان من مواليـد بروفانس، وكـان متـزوجـاً من قبل، له زوجـة وأولاد، وكـان محاميـاً مشهـوراً ومستشـاراً لملك فرنسـا، وقام بعـد وفاة زوجتـه، بسبب حياته الجيـدة، وتميـزه العلمي في المقـام الأول، فصـار أسقفـاً لمنطقـة بوي Puy, وبعـد ذلك رئيساً لأسـاقفة نربون، وجـرت ترقيته بعـد وقت قصير إلى مرتبـة كاردينال، وصار أسقف أوف سابينو، وجـرى إرساله إلى انكلترا نائباً عن البابا أوربان، لإعادة تأسيـس السلام هناك، وجرى انتخابه بابا أثناء غيابه.

وازدهر في هـذه الآونة في باريس: تـومـاس أكـوينا Aquinas وبونافينتشرا Bonaventura وباتا عـالمين مشهـورين، وكـان الأول بينهما من طائفـة الدومينيكان، أمـا الثـاني فكان من طـائفـة الفرنسيسكان.

مقتل خمسين من قطاع الطرق على أيدي الفلاحين

وفي هذه الآونة شـق خمسـون رجـلاً جـريئاً، مسلحين بالسيـوف والقسي، طريقهم إلى داخل دير الـراهبـات في القـديس جـايل دي بوي

Bois, قـرب بلدة القديس ألبـان، وبعـدما نهبـوا مقتنيات النسـاء الفقيرات المقيمات هناك، واقتراف جـرائم كبيرة أخـرى، غـادروا وهم محملين بالأسلاب، وعندما كانوا متحركين باتجاه دنستيبل، لحقهم رجل وهو يصرخ وينفخ بالبـوق، ولدى سماع الصـوت اجتمع جميع سكان الجوار واحتشـدوا، وأخبروا بأن «هؤلاء الأشخـاص قد سلبـوا دير راهبات دي بوي، واقترفوا كثيراً من الجرائم هناك»، ومدهش أن تروي بأن جميع اللصوص قد أصيبوا على الفور، وأصبحوا وكأنهم غير قادرين على الكلام، كما أنهم أصبحـوا عـاجـزين عـن الدفـاع عن أنفسهم، ولم يتوفـر واحد منهم كان باستطاعتـه رفع يده لتجريد سيفـه، أو أن يفوّق قـوسه، فإلى هذا الحد كـان الانتقـام اللاهوتي قـد أثير ضدهم، ونتيجـة لذلك صرعـوا، وجميعهم تم قتلهم على أيدي الفـلاحين، ومـات بعض الذين هربوا باخفاء أنفسهم في التخوم من الجوع.

كيف جرى تتويج شارل أخو ملك فرنسا ملكاً على صقلية

وفي هذا العـام نفسـه، جـرى ارسـال أوتـوبون Ottobon الكاردينال الشماس الحامـل للقب القـديس أدريان Adrian إلى انكلترا، من قبل البـابا كليمنت بمثابة نائب بابوي، وسـافر شـارل أخو ملك فرنسا إلى روما، حيث جرى تتويجه ملكاً على صقلية من قبل البابا كليمنت، ووصل عـدد كبير من الفـرنسيين الـذين حملوا الصليب ضـد مـانفـرد إلى رومـا، تحت قيـادة غي أسقف أوكسيري Auxerre, وروبرت ابن كونت فلاندرز، وبوكارد Boucard كونت فيندوم Vendome, لتقديم المساعدة إلى شارل.

مقتل الويلزيين

في هذا العـام، وفي يوم الأحـد قبل معـركـة ايفهـام نزل حشـد من الويلزيين تحت قيادة وليم بيركلي Berkeley وكان فارسـاً نبيلاً،

مع أنه كان مشهوراً بأفاعيله الشريرة، وقد نزل على اليابسة في ماينهد Minehead, قرب قلعة دنستير، وذلك بهدف نهب سمرستشاير Somersetshire وتمت مواجهتهم من قبل آدم غوردون Gordon, الذي قتل عدداً كبيراً منهم، وأرغم البقية منهم على الفرار معاً مع مقدمهم، وقد غرق عدد كبير منهم أثناء فرارهم.

كيف عمل الملك استعداداته لمهاجمة سيمون الأصغر

وفي حوالي يوم عيد القديسة لوسيا، حشد الملك جيشاً في نورثأمبتون، بهدف مهاجمة سيمون دي مونتفورت الأصغر، والنبلاء الآخرين الذين انضموا إليه، الذين كانوا متخفين في جزيرة أوكسهولمي Axholme, ووقتها اضطرب الرهبان الذين عليهم تأدية خدمة عسكرية كثيراً، وظلموا، ولسوف نحتاج إلى وقت طويل حتى نودع في هذا الكتاب رواية عن اضطرابات كل منهم، لذلك سوف نقول كلمات قليلة حول المصاعب التي عانت منها كنيستنا، كنيسة القديس ألبان، فقد أرسل رئيس رهبان دير القديس ألبان فرسانه إلى المكان المتقدم ذكره أعلاه، تحت إمرة كل من رئيس الشمامسة والحاجب للمكان نفسه، حيث توجب عليهم تقديم نفسيهما ومن معهما إلى الملك، وبعدما مكثوا هناك، مع عشرين فرساً لمدة ستة أسابيع مقابل نفقات كبيرة، فرض الملك أربعين ماركاً، واستخرجها مقابل كل فارس، ولم يستخرج هذا من كنيستنا لوحدها، بل من الجماعات الديرية الأخرى، التي توجب عليها تقديم خدمات فروسية إليه، والذين كانوا على استعداد لرهن أنفسهم من أجل فرسانهم.

مختصر أحداث العام

كان هذا العام، خلاله كله مثمراً وخصباً، ولكنه تميز بأعمال السلب والنهب والاغتصاب التي اقترفها قطاع الطرق، وقد اتسم بالدمار

بالنسبة لانكلترا، بسبب مقتل نبلائها والرعايا المخلصين الآخرين، وغير نافع للسكوتلنديين، بسبب خسارة ومقتل أبناء بلادهم في انكلترا، وكان عام أسى للويلزيين الذين شاهدوا أبناء بلدهم يذبحون مثل الماشية.

اخضاع سيمون الأصغر للتحكيم

في العام ١٢٦٦، الذي كان العام الخمسين لحكم الملك هنري الثالث منذ الاستيلاء، أمضى الملك المذكور عيد الميلاد في لندن، بصحبة زوجته، وملك ألمانيا وأوتوبون— النائب البابوي، وكان برفقته جيش مخيف، وجرى من خلال وساطة عدد من الشخصيات المرموقة، الذين سعوا إلى إعادة السلام بين سيمون الأصغر وبين الملك، إلى أن خضع سيمون للتحكيم من قبل النائب البابوي، وملك ألمانيا —خاله، وفيليب باسيت، على شرط استثناء زوجته، وعدم حرمانه من عضو من أعضائه، والسجن المؤبد، وبناء على هذا، قام، بعد تسلمه رهائن، بتقديم نفسه إلى الملك في نورثأمبتون، ولدى وصوله رافقه ملك ألمانيا إلى حضرة الملك، وهنا أعاد الشكر إلى سيمون لانقاذه حياته، حيث أفاد أنه كان سيقتل في كينلوورث، عندما قتل والده، لولا أنه جرى انقاذه من قبل سيمون الأصغر، وكان ساخطاً كثيراً على حامية القلعة من أجل وفاة سيدهم، وبناء على هذا تم قبول سيمون لدى الملك والرضا عنه ومنحه قبلة السلام، وكان من الممكن له الحصول على الحظوة الكاملة للملك، لولا حقد وحسد ايرل غلوستر وبعض الآخرين الذين ألقوا المعيقات في الطريق.

وجرى على كل حال الترتيب بأن يسلم سيمون قلعة كنيلوورث إلى الملك، وأن عليه أن يغادر المملكة حتى يبتسم السلام ثانية على انكلترا، وأنه سوف يتسلم خمسمائة مارك سنوياً من خزانة الملك، ورفض —على كل حال— الناس الذين كانوا في القلعة هذه الشروط، وأعلنوا أنهم لن

يسلمـوا القلعة لاإلى الملك، أو إلى سيمـون نفسـه، الذي ذهب إلى هناك تحت الأمـان، لأنهم قـالوا بأنهم لم يتسلمـوا المسؤولية عن القلعـة من سيمـون، بل من الكـونتسـة، التي جـرى طردها مـؤخـراً من المملكة، وقـرروا عـدم التباحث حـول تسليم القلعـة إلى أي كـائن حي باستثناء الكونتسة نفسهـا، أو بحضورها، ولذلك ذهب الملك مع جيشـه لحصار القلعة، لكن الحامية دافعت عنها ضـد حملاته لمدة نصف عام، أي حتى الوقت الذي نقصت فيـه المؤن لديهم، فـوقتهـا استسلمت إلى الملك على شرط أن يحتفظ المدافعـون بحيـاتهم وأعضـائهم سـالمين معـافيين، وأنه يمكنهم أن يحملوا معهم مـن حـاجيـاتهم ماهو ضروري لهم، وكـان مـدهشاً أن منحهم الملك هـذا كله، مع أنهم نهبوا المنطقـة، وتجرأوا على الاحتفـاظ بقلعة قـائمة في وسـط المملكة، وضد المملكة، وضـد الملك، وكانوا أيضاً قبل وقت قصير قد اعتقلوا رسـولاً للملك، وبعدما قطعوا يده، أعـادوه إلى الملك مع السخـرية، لاظهار التحـدي الذي عـومل به الملك من قبل الأشخاص الذين جرى تجريدهم من أملاكهم.

كيف استولت الفئات المحرومة من أملاكها على جزيرة إيلاي

وفي الوقت نفسه، عندما كان الملـك مع جيشه كله مثابراً على حصار قلعة كنيلوورث، عـرف الساخطون المحرومـون من أملاكهم أن المناطق الأخـرى من انكلترا، كـانت مجردة مـن الحماية العسكرية لذلك نهبـوا المنطقـة واستـولوا على الأسـلاب، ودخلوا أخيراً عشيـة عيـد القـديس لورانس إلى جـزيرة إيلاي، حيـث أقـامـوا معسكراتهم، ونهبـوا المنطقـة المجـاورة يومـاً تلو الآخر، ووضعـوا مخزوناً من المؤن جلبـوه معهم، في تلك الجزيرة، وذهب أسقـف إيلاي ليعلن عن مأسـاته إلى الملك، لكنه استقبل بالتقريع، وعزا كثيرون الكارثة إلى ضعفه وعدم قدرته، وتداعى عوام المناطق إلى وضع حواجـز، لمنع غاراتهم من الجزيرة، لكن هؤلاء لم يظهروا الخوف من هذه الاستعدادات، وأرغموا هذا القطيع من الرعاع

على الفـرار، وطردوهم بعيـداً حتى بلـدة نورويك، وأرسلوا بعضـاً من رجالهم للاستيلاء على الأسلاب والمؤن، وتمكن هؤلاء من شق طريقهم بالقـوة إلى البلدة، وحملوا معهم كميـات كبيرة جـداً من الأسـلاب، ودخلوا إلى كمبردج وفق الطريقة نفسهـا، فاعتقلوا اليهـود والأشخاص الأغنيـاء الآخـرين، والذين وقع اختيـارهـم عليهم، وحملوهم معهم إلى الجزيرة، من أجل أن يفرضوا عليهم سعراً لفديتهم.

أسر وقتل أفراد شعب لين الذين قاموا بهجوم على الغزاة المتمردين

وفي هذه الآونة، ذهب شعب لين Lynn إلى الملك، ووعـدوه أنه إذا مـاسيقـوم ثانيـة بمنحهـم امتيـازاتهم، فإنهم سـوف يجلبـون إليـه المستولين على الجزيرة، إمـا أحياء أو أمـواتاً (لأن الملك كان قـد حرمهم من امتيـازاتهم مثلما فعل ببلدات أخرى ومـدن شاركت بالعمل ضـده)، وبعـدمـا حصلوا على الذي طلبـوه، جمعـوا عـدداً كبيراً من الناس من الفئات الدنيا، وزحفوا مع بعض المراكب المشحونة برماة النشاب، وحملة القسي مع رجـال مسلحين بمختلف الطرق، لاعتقـال المستـولين على الجزيرة، وعلم المتمردون مسبقاً بوصـولهم، ونصبوا أعلامهم فوق أرض جـافة، حتى يتمكن القـادمون عبر النهـر من مشاهدة مكان وجـودهم، وعندمـا شاهد شعب لين عسـاكرهم وأعـلامهم هناك، شجعوا رجـالهم على النزول إلى اليابسةبكل سرعة، وعند ذلك اقتلع المتمردون أعلامهم، وتظاهروا بالفـرار، وكأنهم لم يتجـرأوا على مقـاومـة مثل تلـك القـوة الكبيرة، ولم يكن مواطنو لين مدركين لخطتهم، فنزلوا على اليابسة في كل اتجاه، وفي فوضى، وبناء عليـه عاد المتمردون وطوقـوا المواطنين وقواتهم من العـوام، وقتلوهم كيفما شاءوا، وأسروا بعـض الذين حاولوا العـودة إلى مـراكبهم، وقتلوا الآخـرين، وهلكت أعـداد كبيرة في النهـر، وعـدد صغير منهم هو الذي عاد إلى لين، حيث جرى استقبالهم بسخرية.

الخلاف بين إيرل غلوستر وبين روجر مورتيمير

وجرى في هذه الآونة اختيار النائب البابوي، وايرل غلوستر واثني عشر آخرين، لوضع شروط للسلام، وقد بذلوا غاية جهودهم لترتيب القضايا، بأن بإمكان المتمردين المحرومين من أملاكهم استرداد أراضيهم وممتلكاتهم، بدفع تعويض عن الجرائم التي اقترفوها، وعارض بشدة روجر مورتيمير مع الكونتات الآخرين الذين تسلموا أراضي المحرومين بمثابة هبة من الملك، ووقفوا ضد هذه الترتيبات، وقالوا بأنه سيكون ظلماً بأن يتسلم هؤلاء الآن بمثل هذه السهولة الأراضي التي تسلموها من الملك، وأن يفقدوا هذه الأراضي، التي نالوها بمثابة جائزة مقابل جهودهم واخلاصهم، والتي فقدها المتمردون بصورة عادلة، ولهذا قيل من قبل بعضهم، بأن روجر المذكور، قد تآمر مع بعض الآخرين، الذين كانوا مثله، أثيروا بالشره، من أجل تدبر موت ايرل غلوستر، وبناء عليه سحب ايرل غلوستر نفسه من جميع الاتصالات معهم، بقدر ما أمكنه من سرعة.

وكان هذا العام جميعه عام خصب الانتاج بالفواكه والحبوب، لكن المحاصيل غدت غير مفيدة للسكان بسبب النهابين الذين نهبوا وسلبوا القمح المخزون، واجتاحوا البلاد حسبما أرادوا.

رفض إيرل غلوستر حضور احتفال الملك بعيد القديس إدوارد

في عام النعمة ١٢٦٧، الذي كان العام الحادي والخمسين لحكم الملك هنري الثالث منذ الاستيلاء، أمضى الملك عيد الميلاد في اكسفورد برفقة الملكة والنائب البابوي مع نبلائه، وقد بذلت جهود كبيرة في سبيل المصالحة بين ايرل غلوستر وروجر مورتيمير، لكن من دون أية نتيجة مفيدة، ومن اكسفورد ذهب الملك إلى لندن للاحتفال بعيد الملك القديس ادوارد، وذلك كما كانت عادته سنوياً، ولإضفاء المهابة على الاحتفال وأن يترافق مع البهجة الجديرة به، وجه الدعوة إلى عدد كبير

من أساقفة المملكة ونبلائها، للمشاركة بوليمة قدمت بالمناسبة، وأجلس النائب البابوي في المقعد الملكي، ووضع أمامه كل طبق فيه لون جديد أولاً، وإلى هذا الاحتفال وجهت الدعوة إلى ايرل غلوستر، لكنه رفض الحضور، لأنه توجس من وجود بعض النوايا الشريرة ضده في البلاط، وأرسل أخيراً —كما قيل— رسلاً إلى الملك، ينذره فيها، ليقوم بطرد الأجانب من مجلسه الاستشاري وأن يأمر بالالتزام بجميع المقررات التي عملت في اكسفورد، في جميع أرجاء المملكة، وأن ينفذ التي عملها له —أي ايرل غلوستر— في ايفهام، مضيفاً أنه إذا لم يفعل ذلك، لايحتاج للتعجب من أي عمل سوف يقدم عليه —ايرل غلوستر— ويعتقد أنه مفيداً له، وفي هذا الوقت كانت قلعة دوفر قد أعطيت إلى ادوارد وسلمت إليه، فقام على الفور بنقل غي دي مونتفورت إلى ذلك المكان، ليحبس هناك.

الحرمان الكنسي للأساقفة وللآخرين الذين عاضدوا الإيرل سيمون

دعا النائب البابوي إلى مجمع في نورثأمبتون، وهناك أصدر عقوبة الحرمان الكنسي ضد جميع الأساقفة ورجال الدين الذين قدموا المساعدة، وأظهروا التأييد للايرل سيمون ضد الملك، وذكر بين هؤلاء بالاسم جون أسقف وينكستر، وولتر أسقف ووركستر، وهنري أسقف لندن، وأسطفان أسقف شيكستر، ومن هؤلاء مات إثر ذلك بشكل تعيس أسقف ووركستر، وكان ذلك في الخامس من شباط، وقد خلفه نيقولا أوف إيلاي، مستشار الملك، في حين ذهب الأساقفة الثلاثة الذين تقدم ذكرهم إلى روما، وانتظروا الحصول على التحليل من البابا، وأدخل بشكل علني بقرار الحرمان نفسه جميع الآخرين الذين وقفوا ضد الملك، وأعلن عن السلطات التي منحت إلى الملك بفرض العشور على كنيسة انكلترا لمدة السبعة أعوام المقبلة.

إجراءات أولاد سيمون دي مونتفورت بعد حرمانهم من مواريثهم

وفي هذه الآونة تخلى المتولي لسجن غي دي مونتفورت في قلعة دوفر عن واجبه بالرشوة، وسمح لسجينه بالنجاة، وعبر القنال برفقته، وذهب غي على الفور إلى توسكانيا، والتحق بالكونت رالف، ونظراً لحصوله على الشهرة في خدمته، تزوج من ابنته ووريثته، وكان أخوه الأكبر سيمون قد نجا من السجن بطريقة مماثلة، قبل ذلك بوقت قصير، وهرب إلى غاليا، وعيّن الملك في تلك الآونة رجلاً رئيساً، في كل مدينة، ليلتحق بالعمدة في ضبط للعنف الذي جرى اقترافه من قبل قطاع الطرق، الذين باتوا كثيرين جداً، ووضع أيضاً روبرت فيرّار Ferrers ايرل أوف ديربي في السجن في قلعة تشيسترفيلد، من قبل فرسان الملك، أما رفاقه الذين احتشدوا مع بعضهم من أجل النهب والسلب، فقد كانوا قد هربوا وتفرقوا.

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً، كان هناك فارس اسمه آدم غوردون Gordon يعيش قرب وينكستر، وقد جرد من أملاكه مع الآخرين الذين أيدوا الايرل سيمون، وقد رفض القبول بشروط السلام التي عرضت من قبل الملك، وانسحب مع أتباعه إلى جزء من الطريق الذي يقود من ويلتون Wilton إلى قلعة فارنهام Farnham, التي كانت واقعة في وادي متعرج بمرتفعات ضخمة مغطاة بالأشجار، وبذلك كان مكاناً جيداً للانسحاب لقطاع الطرق، وقد شغل نفسه في سلب ونهب المنطقة المجاورة، خاصة أراضي الذين وقفوا إلى جانب قضية الملك، ورغب ادوارد في تجريب قوة وشجاعة هذا الرجل الذي وصلت شهرته إلى مسامعه، فزحف مع كتلة قوية من العساكر، وعندما كان يستعد للمعركة، أعطى ادوارد أوامر إلى أتباعه بعدم التدخل لمنع مبارزة فردية بينهما، وبناء عليه التقى الرجلان، وتابعا تبادل الضربات

المتوالية أحدهما ضد الآخر بجهود متساوية، وتحاربا لبعض الوقت، من دون أن يتزحزح أياً منهما أمام الآخـر، وشعر ادوارد بالسرور تجاه اقدام الفارس وشجاعته في القتال، فنصحـه بالاستسلام إليه شخصياً، ووعده بالمحـافظـة على حيـاته، وبمبلغ كبير، وعلى هذا وافـق الفـارس، وألقى أسلحته، واستسلم لادوارد، فبعث به لإمضاء تلك الليلة في غيلدفورد، مع توصيـة جيدة به، من أجل تقـديمه إلى أمـه الملكة، وبعد ذلك أعيـد إليـه ميراثه من قبل ادوارد، الذي أصبح صـديقه، ووجـده دائماً خادمـاً مخلصاً.

التشريع لصالح الفئات التي جردت من مواريثها

والتقى في هذا العـام نفسـه، بعض الأشخاص المختـارين، في مـدينة كـوفنتري، وأصدروا مـرسومـاً وافقوا عليـه بالاجماع، قضى أن بإمكان الفئات المحرومة استرداد مـواريثها بدفع غرامات مـالية، أي استعادتهم لها من الذين استحـوذوا عليهـا بمثـابة أعطيـة من الملك، على شرط أن المبلغ الذي سيدفع لفديتهم ينبغي أن لايتجاوز دخل مواريثهم المصادرة لمدة سبعـة أعـوام، وينبغي أن لايكون أقـل من دخلهم لعـام واحـد، وينبغي أن تكون الضريبـة المفروضـة بين هذين التقديرين، وذلك وفقـاً لدرجـة ذنـب الفئة، ولم يشمل هذا أولاد الايرل سيمـون، وكـذلك روبرت ايرل أوف دربي، ولم ينتفعـوا من هذا الفداء (لأن حـرمانهم قـد عـدّ أبدياً)، وأمـا الذين كـانوا غير قـادرين على دفع المبلغ الذي فـرض عليهم، وفقـاً للطريقـة التي ورد ذكرها أعـلاه، فإنهم يتركـون أراضيهم بحـوذة متملكيهم الحاليين، إلى أن يمكـن جمع المطلوب مـن دخلهم وانتاجهم.

ووصل في هذا العـام حشد من المسلمين إلى اسبـانيا بوساطـة البحر، وألحقوا كثيراً من الأضرار بالمسيحيين، ولقد قهـروا فيها بعد، لكن ذلك لم يكن من دون سفك كثير من الدماء.

وفي هذا العام نفسه أيضاً، خاض شارل ملك صقلية معركة ضد مانفرد أمام بينيفنتو Benevento, ونال هناك نصراً مجيداً، حيث هزم عدوه وقتله.

وفاة غودفري رئيس أساقفة يورك ووصول وولتر إلى رئاسة الأساقفة

أنهى في هذا العام غودفري رئيس أساقفة يورك حياته، وانتقل وولتر أسقف أوف باث إلى كرسيه، وقد خلفه في أسقفيته وليم بوتون رئيس شمامسة ويلز.

البارلمان الذي عقد في بري

وفي هذه الآونة أصدر الملك دعوة إلى الايرلات، والبارونات، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورؤساء الرهبانيات، وإلى كل جماعة تدين بخدمة عسكرية، للاجتماع في بلدة القديس ادموند، مجهزين بشكل جيد بالخيول والأسلحة، من أجل الشروع بالأعمال الهجومية، ضد الذين استولوا على قلعة إيلاي، خرقاً منهم لسلام الملك، وأطاع الجميع هذا الأمر، باستثناء ايرل غلوستر، الذي كان قد جمع جيشاً كبيراً على حدود ويلز لمهاجمة أعدائه، وأهمل الحضور، ولذلك جرى إرسال جون دي وارني ووليم دي بلنسية لاستدعائه لحضور هذا البارلمان، لكنهما لم يحصلا على شيء منه، باستثناء رسائله المعتمدة والمختومة بختمه، معلناً أنه سوف لن يحمل السلاح قط ضد الملك، أو ضد ابنه ادوارد، إلاّ في حالة الدفاع عن النفس، وأعلن أنه سوف يستخدم غاية جهوده لاخضاع روجر موتيمير وأعدائه الآخرين، والدوس عليهم بقدميه، وقد قيل إنه اخترع بدهاء هذه الحجة، لأنه خاف من أن يتهم بالخيانة، وعلى هذا كان الذين دعيوا إلى هذا البارلمان قد اجتمعوا باستثناء المتمردين، وأوضح الملك والنائب البابوي مطالبهما بالبنود التالية:

أولاً: إن على جميع الأساقفة ونوابهم في الكنائس منحهما العشور لمدة ثلاث سنوات بعد السنة التالية، وكذلك بالنسبة للسنة الأخيرة التي مضت، حتى يصبح المبلغ مساوياً لما دفعه البارونات من أجل حراسة شاطىء البحر ضد الأجانب.

جواب: وعلى هذا أجابوا بأن الحرب قد تفجرت ضد شره ظالم، وأنها مازالت مستمرة، وأن من الضروري المرور بصمت بمثل هذه النصائح الشريرة والمطالبة بمثل هذا المطلب، وأنه ينبغي عمل الترتيبات من أجل تأسيس السلام في المملكة، وتوجيه انتباه بارلمانه نحو تأمين مصالح الكنيسة والمملكة، وليس من أجل استخراج المال، خاصة وأن الأرض تضررت بالحرب، وأنها سوف تحتاج إلى بعض الوقت إلى استرداد عافيتها، إذا ماسمح لها بذلك.

ثانياً: وطالبا أيضاً بوجوب أن تفرض الضرائب على الكنائس من قبل رجال علمانيين بضرائب عادلة وصحيحة، وفق نسبة ثمن جميع الممتلكات العائدة إليهم.

جواب: وعلى هذا كان الجواب، أنه أمر غير منطقي، بل عمل معاكس للعدل تماماً، أن يقوم علمانيون بالتدخل في جمع العشور، وأنهم سوف لن يوافقوا على هذا مطلقاً، أو على أية ضرائب، بل أن تكون الأمور حسبما كانت قديماً.

ثالثاً: بند، على الأساقفة، ورؤساء الرهبان، إلخ، أن يدفعوا عشوراً كاملة عن بارونياتهم وعن اقطاعياتهم المدنية، وفقاً للضرائب الصحيحة والعادلة.

جواب: وعلى هذا كان الجواب، بأنهم قد أفقروا بأعمال السلب والنهب، وأنهم تبعوا الملك في حملاته، وأنهم أنفقوا مبالغ كبيرة جداً، إلى حد أنهم أصبحوا مملقين، وأن أراضيهم متروكة حتى من دون زراعة بسبب الحرب.

رابعاً: لقد طالبا بأن يدفع رجال الدين بشكل عام إلى الملك، من أجل إعادة تأسيس سمعته وكرامته مبلغ ثلاثين ألف مارك، وذلك بسبب أن العشور التي تقدم ذكرها، قد طالب بها النائب البابوي من أجل استخدامات البلاط الروماني، لمواجهة الديون التي جرى التعاقد عليها، في صقلية، وأبوليا وكالبيريا (قلورية)، باسم ادوارد ابن الملك الموجود حالياً.

جواب: وكان الجواب على هذا، بأنهم لن يعطوا شيئاً، لأن جميع الضرائب والاستخراجات من هذا النوع، التي جرى فرضها من قبل بالقوة، من قبل الملك، لم يتم تحويلها لمنفعة الملك أو المملكة.

خامساً: ولقد طالبا أيضاً بأن على جميع رجال الدين الذي في أيديهم بارونيات أو اقطاعيات مدنية، أن يحملوا وأن يزحفوا بأشخاصهم ضد أعداء الملك، أو أن يجهزوا خدمة إلى الملك في حملاته تتناسب مع الأراضي أو مع الاقطاعيات.

جواب: وعلى هذا جاء الجواب، بأنه ليس من واجبهم القتال بسيف الفولاذ، بل بالسيف الروحي، يعني أن تقول بالدموع، وبالصلوات المخلصة، وأنه بحكم منافعهم، عليهم الحفاظ على السلام، وليس على الحرب، وأن بارونياتهم قد تأسست عن طريق الصدقات الخالصة، وبناء عليه هم مدانون بتأدية خدمة عسكرية ثابتة، وهم لن يبدأوا مع نظام جديد.

سادساً: لقد طالبا ثانية بأن على رجال الدين بشكل عام سداد دين مقداره تسعة آلاف مارك، وهو المبلغ الذي كان قد استدانه لورانس أسقف روكستر، ووليم أسقف باث، ورتشارد رئيس رهبان ويستمنستر من تجار البابا، في بلاط روما، عندما كانوا مشغولين هناك، في ترتيب بعض أعمال الملك.

جواب: وكان الجواب على هذا، بأنهم لم يوافقوا قط على استدانة مثل هذا المبلغ الكبير، وأنهم لم يعـرفـوا أي شيء عنه، وأنهم على ذلك غير ملزمين بأي حال من الأحوال بدفع هذا الدين.

سابعـاً: وجرى تقديم طلب لصالح البابا، بأنه ينبغي على الفـور التبشير بحملة صليبيـة في جميع أرجاء المملكة، من أجل اخضـاع الناس الذين سـوف يجددهم البلاط، أو من أجل تخليص الناس إلى الأبد من واجباتهم بالالتحاق بتلك الحملة الصليبية.

جواب: وعلى هذا كان الجواب، بأن شعب البلاد قد تدمّـر إلى حد كبير بوسـاطـة الحرب، وإذا كـان هناك من سيحمـل الآن الصليب، فسـوف يكونون قلـة، أو لاأحـد، وسـوف لن يترك أحـد للـدفـاع عن البـلاد، ولذلك إنه لمن الواضح بأن النائب البـابوي يرغب في نفي أبناء البـلاد الطبيعيين، من أجل أن يتمكن الأجـانب بسهـولة من الاستيـلاء عليها.

ثامناً: لقـد قيل أيضـاً، بأن الأسـاقفـة كـانوا ملزمين شـاءوا أم أبوا، بالاستجـابة والموافقة على جميع المطالب التي عملت إليهم، على أسـاس قسمهم في كوفنتري Coventry، حيث كـانوا قد أقسمـوا بأنهم سوف يساعدون الملك بكل الوسائل التي بقدرتهم.

جواب: وعلى هذا أجابوا بأنهم عندما أدوا ذلك القسم قد فهموا بأنه أشار فقط إلى المساعدات الروحية، وتقديم النصائح الصحيحة.

حول الرسالة التي أرسلت من قبل النائب البابوي إلى المتمردين المحرومين الذين احتشدوا في جزيرة إيلاي

وفي هذه الآونة عندما كـان المتمردون المحرومـون متخفين في جزيرة إيلاي، جـرت مخاطبتهم من من قبل رسـل تم إرسـالهم من قبل النائب

البابوي، بأن يعودوا إلى إيمانهم، وإلى الوحـدة مع الكنيسة الأم المقدسة، وإلى طاعتهم إلى البـلاط الرومـاني، وأن يعملـوا سـلامـاً مع الملك على أســاس الشروط المكتـوبة، وبـذلك يمكنهم تسلم التحليل من القــرار الذي صــدر ضـدهم، وذلك وفقـاً لأنظمة الكنيسـة، وأن يتـوقفـوا عن اقتراف السلب والنهـب، والجرائم الأخــــرى، وأن عليهـم التخلي عن الذي فعلوه والتكفير عما اقترفوه بحق رجال الدين والكنيسة.

جـواب: وفي المقـام الأول أجـاب رجـال الفئـات المحـرومـة، بأنهم يتمسكون بثبـات بالإيمان نفسه، الذي تعلمـوه من الأساقفـة المقدسين: القديس روبرت، والقديس ادموند، والقديس رتشارد، ورجال كاثوليك آخرين، وأنهم يؤمنون بمبـادىء الإيمان ويحافظون عليها، وهي المبادىء الموجودة في العقيـدة، يعني أن تقول إنهم يؤمنون بالانجيل وبقـداسات الكنيسة، مثلما الكنيسة المسكونيـة تلتزم وتؤمن، وأنهم على استعداد لأن يعيشوا وأن يموتوا في سبيل هذا الإيمان.

ثانيا: قـالوا بأنهم يدينون بالطاعـة إلى الكنيسة الـرومانيـة بحكم أنها الرأس لجميع المسيحيـــة، لكن ليس للشره وللطلبـات الالزاميـــة للذين يتوجب أن يحكمـوها، وأضافـوا بأن أجدادهم، الذين هـم ورثتهم، قد حصلوا على تلك الأرض بالسيف، ولذلك بدا لهم أنهم حرمـوا بصورة غير عـادلة، وبما أن هذا عمل من قبل النائب البـابوي حثـوه على عمل إصلاح لهذا العمل الظالم.

جواب— ثـالثاً: لقد قـالوا بأن النائب البابـوي قد أرسل إلى انكلترا ليعمل سلماً، لكن عوضاً عن ذلك، هو بالحري حافظ على الحرب، لأنه علناً وقف إلى جانب الملك، وآثر قضيتـه، وطالما أنه فعل هذا هو حافظ على استمرار الحرب.

وثانية: لقد قالوا بأن شكل المعـاهدة التي تم الوصول إليها من قبل،

هو ملغى، بما أن البـابا أعطى أوامـر إلى الملـك وإلى النائب البـابوي، بوجوب عـدم حرمان أي واحـد من ميراثه، وهما قد أصرا على نوع من الفدية، هو مسـاو لحرمانهم من مواريثهم، ولذلك حثـوا النائب البابوي على تولي إصلاح هذه الخطيئة.

جواب— رابعاً: لقد قـالوا بأن يمينهم الأول، والكنيسـة كلها، وأن جميع أسـاقفـة المملكة، أصـدروا قـراراً بالحرمـان الكنسي ضـد كل من يخرقه، وأنه بالنسبة لهم هم مايـزالون مصرين على المقاصد نفسها، وأنهم على استعداد للمـوت في سبيل ذلك اليمين نفسه، ولذلك حثـوا النائب البابوي على إلغـاء الحكم الذي أصدره، وإلاّ فإنهم سـوف يترافعون إلى الكرسي الرسـولي، وأيضـاً إلى المجمع العـام، أو إذا كـان ضرورياً إلى القاضي الأعلى للجميع.

جواب —خـامساً: لقد قـالوا بما أنهم كانوا يقـاتلون في سبيل منفعة المملكة والكنيسة، إنهم ينبغي أن يعيشوا على تعويضات أعدائهم، الذين يحتفظون بأراضيهم ومتملكين لها، ولذلك طلبوا من النائب البابوي، أن يتدبر إعادة أراضيهم لهم، حتى لايكونوا تحت ضرورة الحاجة مضطرين إلى النهب.

جـواب —سـادسـاً: لقـد قـالوا بأن كثيراً من المشـايعين للملك ولادوارد، نشروا أنفسهم في كل مكان، وهم يقترفـون كثيراً من الجرائم ومن مختلف أنواع أعمال السطـو والنهب، ويفعلون ذلك وهم يقـولون بأنهم ينتمـون إلى الفئة التي حـرمت، من أجل الاسـاءة إليهم، وإلى قضيتهم هم أنفسهـم، وبناء عليـه إنهم يحذرون النـائب البـابـوي بأن لايصدق إفادات مثل هؤلاء الناس، لأنهم إذا ماوجدوا أي واحد بينهم مقترفاً لمثل هذه الجريمـة، فإنهم سوف ينزلون به حكـم العدالة من دون تأخير.

الاعتراضات الشديدة للمحرومين

واحتجت الفئات المحرومة بالوقت نفسه إلى النائب البابوي، بأنه طرد من المملكة من دون احترام، وبالفعل، المستشارين للمملكة كلها، وهم أساقفة: وينكستر، ولندن، وشيكستر، الذين هم رجال متفوقين بنصائحهم وبحكمتهم العظيمة، ونتيجة لذلك ضعف المجلس الاستشاري للمملكة إلى درجة كبيرة، وترنحت المملكة، لأن النائب البابوي ادعى لنفسه ممتلكات الأساقفة، وبسبب غيابهم، أحل الدمار بالمملكة، ولذلك أنذروا النائب البابوي بوجوب تصحيح خطيئته.

ومن جديد أخبروا النائب البابوي أن يتولى تحذير الملك لكي يتولى ابعاد مستشاريه من الأجانب الذين بوساطتهم استعبدت المملكة، كما أنهم طلبوا من النائب البابوي بوجوب إعادة أراضيهم إليهم من دون فدية، وأن المقررات التي عملت في اكسفورد، ينبغي مراعاتها والالتزام بها، وأن الرهائن يتوجب إرسالهم إليهم إلى الجزيرة، من أجل أن يضمنوا لهم بقاء السلام، منذ ذلك الوقت ولمدة خمسة أعوام، وذلك إلى أن يتمكنوا من رؤية كيف قام الملك بالالتزام بجميع وعوده.

ومرة أخرى بينوا للنائب البابوي وذكروه بأن رئاسات الرهبانيات وبقية ديرة الطوائف الرهبانية، قد بنيت من أموال أجدادهم، وهم الآن قد لحقهم الدمار، بوساطة استخراجات الملك وضرائبه، ومعه النائب البابوي، ولذلك لم يعد بإمكانهم تقديم الصدقات، ولاظهار الضيافات، وذلك وفقاً لأعرافهم المعتادة، ولذلك حذروا النائب البابوي، وطالبوه بوجوب إصلاح هذه الأخطاء.

ومجدداً أخبروا النائب البابوي، بأن كنائس مملكة انكلترا قد أعطيت إلى أجانب، هم أعداء للبلاد، وهم ينقلون إلى القارة ممتلكات الكنيسة، التي عليها يتوجب أن يعيش رجال الدين المحليين ويجري الانفاق

عليهم، ونتيجة لذلك باتوا عرضة للمخاطر ليس في الجسد فقط، بل وفي الروح أيضاً، لأنه لم يبق لديهم رعاة للأرواح، إلاّ بعض الكهنة المستأجرين، الذين من الممكن اكترائهم مقابل مبلغ صغير، ولذلك أنذروا النائب البابوي بوجوب إصلاح هذا الأمر.

ومن جديد أخبروا النائب البابوي، بأن العشور المطلوبة من رجال الدين، ينبغي عدم دفعها، لأن المملكة جرى تدميرها من قبل أتباع الملك، بوساطة الحرب العامة، ولأن الأرض تركت بوضع غير مزروعة فيه، وما من ثمار انتجت منها، ونتيجة لهذا الناس يموتون من الجوع.

وغضب الملك والنائب البابوي من هذه الردود وسخطوا، ولذلك قاموا في السنة التالية بحصار الجزيرة. وكان هذا العام على العموم عام قحط، من دون ثمار، وغير مفيد لانكلترا من جوانب كثيرة.

كيف حاصر الملك جزيرة إيلاي

في عام النعمة ١٢٦٨، الذي كان العام الثاني والخمسين لحكم الملك هنري، الثالث منذ الاستيلاء، حشد الملك المذكور جيشه وبادر مسرعاً ليتولى حصار جزيرة إيلاي، وليمنع الدخول والخروج على المتمردين، وتولى ادوارد ابن الملك عمل جسور من حواجز وعوارض خشبية، ووضعهم في أماكن مناسبة (حسبما جرى توجيهه من قبل سكان المنطقة)، ودخل إلى الجزيرة مع جنوده، وعلى الفور استسلم له بعض المتمردين، في حين تشتت الباقون في القتال.

وأثناء وقوع هذه الأحداث، كان ايرل غلوستر يتآمر ضد الملك، وكان قد أعدّ جيشاً في ويلز، لصالح الأشخاص المحرومين، وزحف نحو لندن، والتقى به جون ايملي Eymley مع قوة كبيرة من أتباعه، لذلك دخل إلى المدينة بناء على موافقة سكانها، وأرسل الايرل على الفور رسلاً إلى النائب البابوي، الذي كان مقيماً آنذاك في برج لندن،

آمراً إياه بتسليم البرج إليه من دون تأخير، وفي سبيل أن يؤمن سرعة الاذعان إلى هذا الاستدعاء، أمر كل إنسان بعدم بيع المؤن إليه مادام باقياً في البرج، ثم تظاهر النائب البابوي أنه لم يهتم بالمسألة، وترك البرج، وذهب إلى كنيسة القديس بولص للتبشير بالحملة الصليبية، وبعد عدة أيام تمّ وضع نهاية لهذا الاضطراب، وتصالح الايرل مع الملك، من خلال وساطة رتشارد ملك الرومان، والفارس المشهور فيليب باسيت، وتعهد الايرل بعدم إثارة أي اضطراب في المستقبل، تحت طائلة تغريمه بعشرة آلاف مارك.

كيف توصل للويلين للمصالحة مع ملك إنكلترا

وفي حوالي أيام عيد القديس ميكائيل— رئيس الملائكة، وصل الملك هنري إلى شروبري مع جيش كبير، عازماً على الزحف داخل ويلز، لشن الحرب ضد للويلين، أمير تلك البلاد، الذي ساند قضية الايرل سيمون، في اقدامه على العصيان ضد الملك، وأرسل للويلين على كل حال رسلاً إلى الملك، وعرض عليه مبلغ اثنين وثلاثين ألف باوند استيرليني من أجل الحصول على السلام، ومن ثم أمكن بوساطة النائب البابوي، إعادة الأراضي الأربعمائة التي كان الملك قد أخذها من الأمير، إليه.

وفاة جون غيرفاس أسقف وينكستر

مات في هذا العام جون غيرفاس Gervase, أسقف وينكستر، ودفن في فيتربو Viterbo.

اجتياح أرمينيا والاستيلاء على أنطاكية

اجتاح سلطان مصر في هذا العام أرمينيا، واستولى على أنطاكية، وهي واحدة من أشهر مدن الدنيا، وانتزعها من الصليبيين، بعدما قتل الرجال والنساء، وحوّل المكان إلى صحراء.

كيف حمل ولدا ملك انكلترا الصليب

في عـام النعمـة ١٢٦٩، الذي كـان العـام الثـالث والخمسين لحكم الملك هنري، الثـالث منذ الاستيـلاء، كـان الملك في لنـدن مع ملكتـه، والنائب البـابـوي أوتوبون، وعقـد النائب البـابـوي أوتوبون مجمعـاً في لندن، فيـه نشر كثيراً من المبادىء والمقـررات، لاصلاح كنيسـة انكلترا، وقـام بعـد هذا مبـاشرة، بمنح الصليب، إلى ولـدي الملك: ادوارد، وادموند في نورثأمبتون، ومنحه كذلك لايرل غلوستر، ومثل ذلك لعدد كبير من نبلاء انكلترا، وبعد ما فرغ من تنظيم الأمور على هذه الصورة، عاد إلى روما مع كميات كبيرة من الأموال.

الإعلان عن السلام في جميع أرجاء إنكلترا

وفي هذه الآونة، قـام الملك هنري، في سبيل تدمير أعـداء السـلام في جميع أرجاء المملكة، بتـدبر الاعلان في كل كونتية ضد الـذين يعارضون تأسيس السـلام، ورسم أنه إذا مـاقـام أي واحـد، بشكـل غير عـادل باغتصـاب مقتنيات إنسـان آخر، سـواء أكانت أغنامـاً، أم ثيراناً، أو أي شيء آخر مهما كان، ينبغي أن ينال عقوبة الاعدام.

اعتقال وإعدام واحد من لصوص الأغنام

وفي هذه الآونة، تجرأ واحـد من سكان دنستيبل، كـان قد اعتـاد على أعمال قطع الطرق، تجرأ في سـاعـة غير سعيـدة بالنسبة له، وذلك على الرغم من مرسوم الملك، فاستـولى على اثني عشر ثوراً، كانت عائدة إلى سكان بلدة كالني Calne, وكان يأمل بأن يواجه الافلات من العقوبة على جـريمته ووقـاحته، وقـام أصحاب المواشي بمطاردة اللص بعيـداً حتى ردبورن Redbourne, حيث اعتقلوه، وأعـادوه معهم إلى مـدينة سينت ألبان، ورفعـوا دعـوى ضده أمـام نائب الملك في تلك الاقطاعية، وقام هذا النائب بقراءة رسالة الملك بحضور الرجل المجرم،

مع حشـد من الناس كانوا قـد تجمهروا، ثم إنه أعلن، بمـوجب أحكام المرسوم الملكي، حكم الاعدام عليه، وجرى اعدامه في المكان نفسه.

كيف بعث ملك فرنسا إلى إدوار ابن ملك إنكلترا للالتحاق به في حجه

أرسل في هذا العام، القديس لويس، ملك فـرنسا، رسلاً خاصين إلى ادوارد، ابن ملك انكلترا، يرجوه أن يجتمع به على الفور، وقد استجاب ادوارد على الفور، وبادر مسرعـاً إلى عبور القنال لمقـابلة الملك الفرنسي، واستقبله الملك الفرنسي بمـلامح مشرقة، وبعـدما عانقـه بقوة، شرح له السبب لدعـوته كما يلي: فقد قـال إن الحقيقة هي أنه يرغب بالعـودة إلى الأرض المقـدسـة، وأن يكون ادوارد بصحبتـه في خضـد عنف البرابرة الكفار، وعلى هـذا الاقتراح أجاب ادوارد قائـلاً: «إنك تعلم أن الموارد الأساسيـة لانكلترا قد استهلكت كلهـا تقريبـاً، بسبب الحرب بين الملك وبين النبلاء، وإن امكاناتي المتوفرة قليلة جـداً للقيام بمثل هذا الأمر مع شخصيـة مهمة مثلكم»، وعلى هذا رد عليـه ملك فـرنسـا قائـلاً: «إنني سـوف أقرضك ثلاثين ألف مـارك من الأموال الجيـدة والقانونيـة، وفي الحقيقة إنني سوف أعطيك هذا المبلـغ، إذا ما وافقت فقط على رغباتي»، وفي الحقيقـة كـان ادوارد رجـلاً عـالي المكانة، يمتلك شجـاعـة عظيمـة وجرأة، وكان قوياً إلى أبعد الحدود، وكان ملـك فرنسا يعد نفسه سعيداً إذا مـا تمكـن من الحصـول على مثل هذا الـرفيق، وهكذا لم يكن اداورد أدنى رغبـة مـن ملك فـرنسـا في القيـام بهذا العمـل، ولذلك وافق على رغباته، ورهن لديه غسكـوني، بناء على تسلمه المال الضروري من أجل رحلتـه إلى الأرض المقـدسة، ثم إنه عـاد إلى انكلترا للحصـول على اذن والده الملك، الذي لشفقتـه أخـذ يبكي، لكنه وافق على رغبـاته، وعن طواعيـة تولى مبـاركتـه، وأعطاه اذناً بأن يختـار القـدر الذي يريده من الاتباع لاتباعه في حجه، وأن يقوموا بالاستعداد لرحلتهم، ولقد كان في

هذه المناسبة، أنه تسلم الصليب من النائب البابوي، حسبما تقدم الذكر أعلاه.

نقل القديس ادوارد

وجرى في هذا العام، بناء على مبادرة من الملك هنري الثالث، ملك انكلترا، نقل جسد القديس ادوارد، الملك والمعترف، بشكل مهيب، إلى مزار من الذهب، كان الملك هنري قد أعده له، وفي حوالي الوقت نفسه قتل جون دي وارني— ايرل سري، بيديه،في قاعة ويستمنستر ألان دي لى زوخ Zouck رجل العدالة لدى الملك، نتيجة لتبادل بعض الكلام الذي عبر بينهما.

كيف تطلع كونرادين إلى تملك صقلية

وفي هذه الآونة، تطلع كونرادين حفيد الامبراطور فردريك السالف الذكر، من جهة ابنه كونراد، إلى تملك صقلية، بحكم أن عمه مانفرد كان قد مات، وأخذ طريقه إلى روما، بمساعدة الألمان، وحشد من اللومبارديين والتوسكانيين، الذين التحقوا به، واستقبل في تلك المدينة بجميع المهابة التي يستحقها الامبراطور، وعندما كان هناك التحق به شيخ المدينة، وهنري أخو ملك قشتالة، وعدد كبير من الرومان، ودخل إلى أبوليا مع قوة كبيرة ضد الملك شارل، وبعد معركة التحامية حادة، انهزم جيش كونرادين، وهو نفسه أخذ أسيراً، فجرى إعدامه بناء على أمر الملك شارل، مع عدد من النبلاء من أسرته، وهرب هنري أخو ملك قشتالة من المعركة إلى قلعة كازينو Cassino, لكنه استسلم فيها بعد إلى شارل، وألقي به في السجن.

وفاة البابا كليمنت

ومات في هذا الوقت نفسه البابا كليمنت في فيتربو، ودفن هناك في كنيسة عائدة إلى الرهبان الدومينيكان وكان هذا البابا، مكرساً للسهر،

والصيام، والصلاة، وللأعمال الصالحة الأخرى، ولذلك بات من المعتقد أن الرب قام مكافأة له على فضائله، فوضع نهاية لكثير من الاضطرابات التي كانت تعاني منها الكنيسة، وعلاوة على ذلك، مع أن الكثيرين عدّوا قضية الملك شارل، عملاً يائساً، وكذلك بسبب الأعداد الكبيرة لجيوش كونرادين،وكذلك بسبب أن مملكة صقلية عدت في حالة عصيان تقريباً، مع هذا تنبأ البابا المذكور بنتيجة الأخبار، وأخبر بها سلفاً في قداس، وقام هذا البابا نفسه أيضاً بتطويب القديسة ادويغا Edwiga دوقة بولاندا، التي كانت أرملة تتمتع بقداسة مدهشة، وجرى التطويب في كنيسة الرهبان الدومينيكان في فيتربو.

وبعد وفاة البابا كليمنت بقي الكرسي البابوي شاغراً لمدة ثلاثة أعوام، وشهرين، وعشرة أيام.

البارلمان الذي عقد في مارلبورغ

في ثمانية عيد القديس مارتين، في هذا العام، عقد الملك بارلماناً في مارلبورغ Marlborough, فيه جرى بناء على موافقة الايرلات والبارونات، نشر بعض القوانين، التي عرفت باسم قوانين مارلبورغ، وجرى ترشيح نيقولا أوف ايلاي— أسقف أوف ووركستر، ونقله إلى أسقفية وينكستر.

ملخص أحداث العام

كان هذا العام كله خصباً، في كل من القمح والفواكه، وإلى حد بعيد لصالح الانكليز، ومقبولاً لديهم، على أساس إعادة تأسيس السلام، وظل هناك —على كل حال— شاغل واحد، أقلق الفرنسيين والانكليز، تعلق بالاستعدادات من أجل الحملة إلى الأرض المقدسة، وكان العام بالنسبة للصقليين، والألمان، واللومبارد، والرومان، عام أسى، بسبب الحرب التي بدأت بشكل غير عادل، وجرى تنفيذها بآراء فاسدة.

مغادرة لويس— ملك فرنسا إلى الأرض المقدسة

في عام النعمة ١٢٧٠، الذي كان العام الرابع والخمسين لحكم الملك هنري، الثالث منذ الاستيلاء، أمضى الملك المذكور عيد الميلاد في ايلتهام Eltham مع ملكته، وأعيان رجال المملكة.

وفي هذا العام قام القديس لويس، دون أن يعبأ بالمتاعب، وبروح صامدة لم تتأثر بالخسائر والنفقات التي تحملها فيما وراء البحر، في الأيام الماضية، بالانطلاق ثانية في حملة من أجل استرداد الأرض المقدسة، بصحبة ولديه، وملك نافار، وعدد كبير من أساقفة الكنائس، والبارونات، ومن أجل أن يكون استرداد الأرض المقدسة أكثر سهولة بالنسبة إليهم، رأوا أن يقوموا أولاً باخضاع مملكة تونس إلى الحكم الصليبي، لأنها واقعة على حوالي منتصف الطريق لرحلتهم، ولأنها كانت تشكل معيقاً كبيراً على طريق المسافرين، ولذلك نزلوا في مملكة تونس، واستولوا بسهولة على ميناء وبلدة قرطاج، التي كانت قد تحولت الآن إلى بلدة صغيرة، وكانت تونس جزيرة صغيرة، لكن كانت مصدراً للازعاج للمسافرين، وهي أيضاً تعرف بالاسم نفسه أي تونس.

زواج إدموند من ابنة وليم ألبيارلي

وفي الثامن من نيسان في هذا العام، تزوج ادموند ابن الملك من ايفيلينا Evelina ابنة وليم ألبيارلي Albemarle ايرل أوف هولدرنس Holderness, التي كانت الوريثة لممتلكات كل من أبيها وأمها، واستحق بهذا الزواج أن ينال لقب كونت ديفون Devon, والسيادة على جزيرة وايت Wight, لكن هذه السيدة مع كل ما كان لديها، ماتت قبل وفاة والديها.

ومات في هذا العام وولتر دي لي ويلي Wyle -أسقف سالسبري، وخلفه روبرت ويكها مبتون Wickhampton, الذي كان آنذاك شماس الكنيسة نفسها.

وخلال العـام الحالي، كان ادوارد وادموند، ابنـا الملك هنري مع عدد كبير من الفـرسان المجـربين في المملكة، مشغـولين في إعداد الأسلحـة، والأعتـدة، والسفن، والأشياء الأخـرى الضرورية، من أجل حملتهم إلى الأرض المقـدسـة، واستولى السـلام على المملكة، من خـلال الخوف من الملك، وليس من خلال المحبة له.

مختصر أخبار العام

كـان هذا العـام على العموم خصبـاً في انتـاج كل من القمح والثمار، وكـان مما جعـل المسيحيين يشعـرون بالسرور، والبهجـة جهـود الملك والنبلاء في تكريس أنفسهم من أجل تحرير الأرض المقدسة.

مغادرة إدوارد نحو الأرض المقدسة

في عـام النعمـة ١٢٧١، الذي كـان العـام الخامس والخمسين لحكم الملك هنري، الثـالث منذ الاستيلاء، احتفل الملك بعيـد الميلاد في لندن، مع الملكة، وابنيه، وكثير من النبلاء.

وفي شهـر أيار من هذا العام، أقلـع ادوارد ابن الملك، للقيام بحجـه، مصطحباً معه زوجته اليانور، وكذلك ادموند ابن ختنه وأربعة ايرلات، والعدد نفسـه من البارونات، مع كثير من النبـلاء الآخرين، وفي عكون (أو التي تعـرف بشكـل عـام باسم عكا) في الأرض المقـدسـة، ولدت اليـانـور هذه نفسهـا ابنة، أطلق عليهـا فيما بعـد اسم جـون العكاوية Joan Of Acre, والتي تزوجت مع مـرور الأيام من غيلبرت ايرل غلوستر، وكان ادوارد قـد وصل إلى فرنسـا مع أسطوله، وقد علم هناك بأن الملك الفرنسي قد توجه نحو الأرض المقدسة، ولذلك لحق به بحراً، وبعد رحلة لمدة عشرة أيام وصل سالماً إلى تونس، وهناك نزل مع جميع أصحـابه وأتبـاعـه، والتقى بملك فرنسـا وبنبـلائـه حيث استقبله بسرور، وسمح له بقبلة السلام.

وفاة لويس-الملك الفرنسي

وفي شهر آب، كان المرض الذي انتشر في منطقة الساحل، قد أحدث اضطراباً عظيماً في أوساط الجيش الصليبي في تونس، وكان أول من مات بين قادة الجيش هناك جون كونت نيفار Nevers —ابن ملك فرنسا، وكاردينال ألبانو— نائب الكرسي الرسولي، وقد حدث موته بعد ذلك بوقت قصير، وفي اليوم الذي جاء بعد عيد القديس بارثيلميو الرسول، عبر القديس لويس، الملك المسيحي التقي لفرنسا، من المملكة الفانية إلى مملكة سرمدية، وقد أخبر ملك نافار أسقف توسكوليوم Tusculum في رسالة، كيف ختم ذلك الملك حياته وهو يشعر بالسعادة، لأنه أثناء مرضه لم يتوقف عن الثناء على اسم الرب، وكان غالباً ما يردد الصلاة التالية: «اجعلنا أيها الرب، وأنا أرجوك أن نزدري رفاه هذا العالم، وأن نخاف من أي من معيقاته»، كما أنه صلى من أجل الناس الذين جلبهم معه كما يلي: «أيها الرب كن المقدس والحامي لشعبك والوصي عليه»، وعندما اقترب من نهايته، قال وهو ينظر نحو السماء: «إنني سوف أدخل بيتك أيها الرب، ولسوف أعبدك في هيكلك المقدس، وسوف أمجد اسمك، أيها الرب»، ومع الانتهاء من هذه الكلمات نام في الرب.

وقد خلفه في مملكته ابنه فيليب، وعندما كان الجيش في حالة من اليأس، نتيجة لوفاة الملك، وصل شارل ملك صقيلة، وذلك بعدما كان قد أرسل خلفه من قبل الملك قبل وفاته، ومع أن المسلمين كانوا بشكل واضح أكثر عدداً من الصليبيين، لم يتجرأوا على مهاجمة الصليبيين والاشتباك معهم في معركة مكشوفة، لكنهم سببوا لهم الكثير من المضايقات، وأزعجوهم بأعمالهم وتصرفاتهم، وقد كان من بين خططهم الخطة التالية: بما أن المنطقة كانت منطقة رملية، وكثيرة الغبار في موسم

الجفاف، مركز المسلمون عدة آلاف من شعبهم فوق أماكن مرتفعة في جوار الصليبيين، وعندما كانت الريح تهب باتجاه الصليبيين، حركوا الرمال والغبار،مما سبب ضيقاً شديداً للصليبيين، ولكن أخيراً تساقطت الأمطار، وتوقف الغبار، واستعد الصليبيون لحركات حربية جديدة، واستعدوا لمهاجمة تونس بالبر والبحر، ولدى مشاهدة المسلمين هذا عقدوا معاهدة معهم، ووافقوا على اطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين الذي كانوا في بلادهم، وسمحوا كذلك بالتبشير بعقيدة المسيح من دون اعتراض من قبل الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، ومن قبل جميع الرهبان الآخرين، في الديرة التي تأسست على شرف المسيح في مدن تلك المملكة، وكذلك إن كل من يرغب بالتعميد، يجب أن يسمح له بفعل ذلك بكل حرية، وجرى دفع نفقات الملكين، واعترف ملك تونس بأنه تابع يدفع الجزية لملك صقلية، وجرى الإعداد لهدنة تدوم عدة سنوات، واستعد ملك صقلية للمغادرة مع جيشه، لكن الانتقام الرباني لحق به، فعندما كان يسعى للعودة، غمر البحر جيشه كله تقريباً، وكذلك أغرق الأموال التي أخذها من تونس، وجميع مقتنياته المتحركة.

مقتل هنري ابن ملك الرومان في الهيكل في فيتربو

وطلب في الوقت نفسه هنري الألماني، ابن رتشارد ملك الرومان الاذن من ابن عمه ادوارد حتى يعود إلى الوطن، لأنه قال بأنه تعب من رحلة حجه الطويلة، وقد رغب في مشاهدة انكلترا، بلاد السلام، وأبيه، قبل أن يموت، لكنه أحبط في آماله، لأنه بعدما حصل على الاذن بالعودة، عبر بتوسكانيا على طريقه، وعندما كان حاضراً لقداس في كنيسة القديس لورانس في فيتربو، جرى قتله هناك من قبل غي ابن سيمون دي مونتفورت، انتقاماً لموت والده.

مغادرة ادوارد وتوجهه إلى عكا

وعندما سمع ادوارد بالانتقام الرهيب، الذي أوقعه الرب على شارل —ملك صقلية، وأخي الملك لويس، ملك فرنسا المتوفى أخيراً، وبعدما قدر بأن هذه الكارثة لم تحدث من دون سبب، ضرب على صدره وأقسم بدم الرب، الذي كان قسمه المعتاد، وقال: «ومع أن جميع رفاقي بالسلاح وأبناء بلدي قد يتخلون عني، فإنني مع فوين Fowin, سائس مهري (لأن ذلك كان اسمه) سوف ندخل إلى عكا، وسوف أحافظ على عهدي ويميني، حتى وإن كانت روحي ستفارق جسدي لإقدامي على هذا العمل»، وسمعه جميع الانكليز الذين كانوا معه، وسمعوا هذا الإعلان، ولذلك وعدوه بأنهم سوف يذهبون معه، وعند ذلك أقلع على الفور باتجاه عكا، وعند وصوله إلى هناك، وجد تلك المدينة مطوقة من قبل المسلمين، منذ أربعة أيام مضت، وبوصوله خابت آمال سلطان مصر وتوقعاته، ومع أنه كان قد بدأ بحصار المدينة، عاد إلى بلاده مع جيشه.

وفاة رتشارد ملك الرومان

في اليوم الثاني من نيسان في هذا العام، غادر رتشارد، ملك الرومان، وأخو ملك انكلترا طريق الجسد كله في قلعة بيركهامبستد، وقد دفن قلبه في كنيسة الرهبان الفرنسيسكان في اكسفورد، ودفن جسده في كنيسة طائفة الرهبان السسترشيان في هيل Hailes التي كانت قد بنيت على حسابه الشخصي.

مختصر أحداث العام

وكان هذا العام عام خصب في الفواكه والقمح، وعام سلام، وكان أيضاً عام سرور وبهجة للمسلمين، بسبب وفاة ملك فرنسا، وعام حزن أيضاً للصقليين بسبب موت ملكهم، لكنه كان عام لامبالاة بالنسبة

للانكليز، الذين لم يعانوا من أي من هذه الحوادث.

ومات بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري، وجرى انتخاب رئيس الرهبان ليكون خليفته.

كيف تعرضت حياة إدوارد ابن ملك إنكلترا للخطر في عكا

في عام النعمة ١٢٧٢، الذي هو العام السادس والخمسين لحكم الملك هنري، الثالث منذ الاستيلاء، كان الملك المذكور في لندن، أيام عيد الميلاد بصحبة ملكته، وفي هذا العام عندما كان ادوارد الابن الأكبر للملك مقيماً في عكا، كان هناك أمير ليافا (أي أن مرتبته تساوي مرتبة إيرل بيننا)، وكان مسلماً من حيث الأصل، وقد أحبه وتوجهت عواطفه نحوه، بسبب شهرته بالشجاعة، ولذلك بعث إليه مراراً برسائل وبرسل الإطراء له بوساطة واحد من الحشيشية اسمه عبد العظيم Anzazin، وكان هذا الرجل قد تعلم في أماكن تحت الأرض منذ طفولته، وهناك تعلم كيف يقوم بهجوم مفاجىء على أي أمير من خصوم طائفته، وزرع في نفسه وأفهم أنه وإن تعرض للقتل أثناء محاولته، فإنه لعمله هذا، سوف يتلقى حياة جديدة، وسط المباهج في الجنة، وفي إحدى مناسبات قدومه إلى ادوارد، كما اعتاد بالغالب أن يفعل، مع رسائل، تظاهر بأنه يود أن يبوح ببعض الأسرار له، وعند ذلك جرى اخراج كل واحد من الغرفة، وعندما كان ادوارد مائلاً أمام النافذة، وموجها انتباهه نحو الخارج، سحب الحشيشي فجأة مدية مسممة، وجرحه مرتين في ذراعه، ومرة ثالثة تحت ابطه، وتمكن ادوارد على الفور من إلقاء الحشيشي على الأرض بقدمه، وانتزع السكين من يديه، وقتل الجاني بها، وفي انتزاعه للسكين، جرح نفسه جرحاً بليغاً في اليد، وبما أن السم انتشر في الجراح، لقد عالجوه بصعوبة بالغة، وباستخدام عدة أنواع من وسائل العلاج.

وقال بعضهم أنه عندما وجد ادوارد نفسه قد جرح فجأة، ولم يكن بيده شيء يدافع عن نفسه به، أمسك المنصب الثلاثي الحامل لمنضدته، وضرب به المجرم على رأسه، ثم إنه دعا خدمه، وبعدما شرح لهم

تفاصيل ماأصابه، أمر بجسد المجرم بأن يعلق على أسوار المدينة، وذلك إلى جانب كلب حي، من أجل أن مشاهدة ذلك المنظر قد تبعث الخوف في قلوب الآخرين، وعندما سمع الأمير بأن ادوارد قد جرح من قبل رسوله حزن كثيراً، وأعلن بأن الجريمة قد اقترفت من دون رضاه أو معرفته، وفي الحقيقة، هو فكر —كما قال بعضهم— ونوى أن يتخلى عن طائفته الاسلامية، وأن يتلقى نعمة العماد المسيحي من خلال ادوارد، وعندما سمع الصليبيون بأن ادوارد قد جرح بهذه الطريقة، خططوا لمهاجمة المسلمين انتقاماً لهذه الجريمة، لكن ادوارد منع ذلك وحظر فعله تماماً قائلاً: «باسم الرب، إنني أمنعكم من إلحاق الأذى بجيش المسلمين بأية طريقة من الطرق، كما أمنعكم من اقتراف أي عمل عنف ضدهم، لأن الكثيرين من شعبنا يذهبون إلى الحج إلى ضريح ربنا، وإذا ماتعرض المسلمون إلى أدنى أذى على أيدينا، فإن أبناء بلادنا سوف يهلكون على أيدي المسلمين»، وأعطى هذا الرأي القناعة إلى الجميع، ولم يكتف الصليبيون بالثناء على حكمة ادوارد، بل فعل المسلمون ذلك أيضاً، لابل حتى السلطان نفسه أثنى كثيراً على حكمته.

مختصر أخبار العام

كان هذا العام كله خصباً في انتاج كل من القمح والفواكه، وساده السلام، وكان لطيفاً بالأنواء وبالنسبة للانكليز، وهم في ظل ملكهم القديم، لم يكن العام لامحزناً ولامفرحاً، أما بالنسبة للفرنسيين في ظل ملكهم الجديد، فقد كان عام متعة وسرور، أما بالنسبة للرومان فكان عام اضطراب، بسبب أن كرسي القديس بطرس بقي شاغراً.

انتخاب ثيوبولد أوف بلاسنزا للكرسي البابوي باسم غريغوري العاشر

في عام النعمة ١٢٧٣، الذي كان العام السابع والخمسين لحكم الملك هنري، الثالث منذ الاستيلاء، جرى انتخاب ثيوبولد أوف بلاسنزا

Placenza, رئيس شمامسة ليج Liege. الذي كان قد ذهب إلى عكا مع ادوارد، مدفوعاً بروح التقوى، جرى انتخابه بابا مع لقب غريغوري العاشر، وقد تسلم مرسوم انتخابه وهو في عكا، من أيدي بعض الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، الذي جرى إرسالهم خصيصاً لهذا الغرض، فبادر على الفور مسرعاً إلى فيتربو، حيث كان الكرادلة بانتظاره، فتولى رسم خمسة كرادلة أساقفة، الأمر الذي أطري كثيراً، لأنه اختار أشخاصاً قادرين ومستقيمين، كما أنه ألغى انتخاب رئيس أساقفة كانتربري، وأعاد المنصب الحبري في تلك الكنيسة إلى روبرت كيلووردباي Kilwardby, الذي كان في هذا العام نفسه قد استقال من منصب الرئيس الاقليمي لرهبانه، وهو المنصب الذي شغله لمدة أحد عشر عاماً، والذي إليه أعيد انتخابه، وكان رجل الدين هذا منتمياً إلى طائفة الدومينيكان، وكان الأكثر تميزاً، ليس فقط بقداسة حياته الدينية، بل أيضاً بعلومه ومعارفه، وقبل أن يدخل إلى طائفته الحالية، كان نائباً في كلية الآداب في باريس، وبراعته في الآداب وخاصة فيما يتعلق بالنحو والمنطق شهدت له به الكتابات العملاقة، وبعدما دخل إلى الطائفة، كرس نفسه لدراسة الكتابات المقدسة، والكتابات الأصيلة للآباء المقدسين، ولقد قسم كل كتب أوغسطين تقريباً، مع أعمال كثيرة جداً لآخرين من العلماء اللاهوتيين، إلى فصول صغيرة، وعلق على آراء كل منها بتعليقات مختصرة، وهناك انتشار واسع لرسائله: **حول الوقت، وحول العالم، وحول أصل العلوم**، وهذه الرسالة الأخيرة كتاب غريب ونافع، وأعطاه البابا إذناً بأن يتلقى منفعة التكريس من أي أسقف كاثوليكي يراه موائماً، للاختيار لهذا الغرض، وقد ركز على وليم، أسقف باث، الذي كان متميزاً بين بقية الأساقفة بشهرة قداسته، ومن قبله جرى تكريسه في كانتربري في الأحد الأول من الصيام الكبير، بحضور أحد عشر نائب أسقف.

إحراق كنيسة نورويك من قبل المواطنين

واستمرت في هذا العام دسائس الشيطـان، فقد نشب خلاف وتفجر بين عـامة النـاس في ذلك المكان، وقد تطور إلى غضب عارم، إلى حـد أنهم ألقوا النار وأحرقوا جميع الكنيسة الفخمة لتلك المدينة مع مكاتبها، باستثناء بيعـة القديس وولتر، قرب المصح، وهم لم يكـونوا قانعين بهذه الجريمة بل نهبوا بأيديهم المدنسة الأوعية، والكتب، والمجوهرات التي لم تلمسها النيران، مع الكأس الذهبي الذي كـان معلقاً عند المذبح الكبير، وهو الذي كان موضوعـاً فيه جسد ربنا، وغضب الملك هنري كثيراً من اقتراف هذه الجريمـة، وعلق مندهشـاً قائـلاً: «بحق العـاطفة المستحقـة لربنـا، أنا ســوف أذهب وأنظـر في هذه الفعلة الشريـرة وأتفحصهـا شخصياً، وسـوف أجعلهم يسددون، كل حسـب جريمته»، وبنـاء عليه أرسل قبله فارساً اسمه ترايفت Tryvet, كان قد جعله مسؤول العدالة للتاج.

وبناء عليـه وتنفيـذاً للأوامـر المستعجلة للملك، وتقـديـراً لفظاعـة الجريمـة، صـدر الحكم بإدانة عـدد كبير من الناس من نورويك، وقضي عليهم بالسحل وهم مربوطين إلى ذيول الخيول إلى المشانق، فهناك جرى شنقهم، وما أن تمكن الملك، حتى انطلق إلى نورويك، آخذاً معه أسقف روكستر، وغيلبيرت ايرل أوف غلوستر، وقد أحاطـت به حاشية كبيرة، وعندمـا وصل إلى هناك، وشاهـد الكنيسة وقـد تدمـرت كلياً بوسـاطة النيران، لم يتمكن حتى بصعوبة من منع نفسـه من البكاء، وحرم أسقف روكستر كنسيـاً جميع الأطراف والمحـرضين على اقتراف هذه الجريمـة الرهيبـة، وقضـى الملك على الفـور على جماعـة المدينة بـدفع ثلاثة آلاف مارك من الفضة، وقرر دفع هذا المبلغ خلال مدة محددة، من أجل إعادة بناء الكنيسة المذكـورة، وقضي على سكان المدينة أيضاً بتعـويض الكأس الذهبـي الذي سرق، بكأس آخـــر أيضـــاً من الذهـب، وزنه عشرة

باوندات، وقيمته مائة باوند من الفضة، وكان وليم برونهام Brun-ham في ذلك الوقت هو رئيس الكنيسة، وبعدما فرغ الملك من انزال العقوبات على الناس الآثمين من أهل نورويك، قرر العودة إلى لندن، ولكن عندما كان على طريقه إلى هناك، حدث أن توقف عند دير القديس ادموند، وهناك أصيب بمرض خطير، لم يتركه حتى نهاية حياته.

وفاة الملك هنري الثالث

وعندما كان متمدداً هناك أثناء مرضه، قدم عدد من الايرلات والبارونات العائدين للمملكة، وكذلك بعض الأساقفة، قدموا إلى هناك حتى يكونوا حاضرين لحظاته الأخيرة، واعترف الملك بذنوبه بتواضع، وهو يضرب على صدره بأسى، وقد تخلى عن النوايا السيئة تجاه الجميع، ووعد بتقويم طريقة حياتهم ثم جرى تحليله من قبل أحد الأساقفة، ثم تلقى بعد ذلك بتقوى جسد المسيح، وبعدما جرى مسحه بالدهن المقدس للكنيسة إلى الحد الأقصى، قدم صلوات إلى الرب، بمثابة شكر على نعمه، ثم أمر بدفع ديونه، وأن يجري توزيع بقية مقتنياته من دون تمييز بين الفقراء، وبعدما أدى واجباته هذه كلها بشكل صحيح، سلم روحه إلى الرب، وجرى دفن جسده بتشريف في ويستمنستر، وقد حكم لمدة ستة وخمسين عاماً وذلك بالاضافة إلى المدة التي انقضت مابين عيد القديسين سمعان وجود، وعيد القديس ادموند الحبر، وكانت هذه المدة عشرين يوماً، وكان قد تزوج من سيدة نبيلة اسمها اليانور، كانت ابنة كونت سافوي، ورزق منها بولدين هما: ادوارد الذي أصبح ملكاً من بعده، وادموند الذي كان ايرل ليستر ولانكستر، وابنتين هما: بيترايس، التي تزوجت من كونت بريتاني، ومرغريت التي صارت زوجة لملك سكوتلندا، وكان الملك هنري هذا قد بدأ بإعادة بناء كنيسة ويستمنستر، غير أنه لم يكملها، وبالحكم عليه كملك، هو قد عدّ رجلاً تعوزه

الحكمة في الأعمال الدنيوية، وعلى هذا كان أكثر تميزاً بتقواه واخلاصه نحو الرب، لأنه كان من عادته الاصغاء يومياً إلى ثلاثة قداسات مع الموسيقى، وكان يرغب بالاستماع إلى المزيد، ولقد ساعد بصورة مواظبة على إقامة القداسات الخاصة، وعندما كان الكاهن يرفع جسد ربنا، كان بالعادة يمسك بيد الكاهن ويقبلها.

كلام ذكي لملك إنكلترا

وفي إحدى المناسبات عندما القديس لويس، ملك فرنسا يتحادث معه حول القضية التالية، حيث قال بأن «الانتباه ينبغي أن يصرف دوماً ويكرس للإصغاء للقداسات، وأن علينا الاستماع إلى القداسات غالباً وبقدر ما هو ممكن»، وعلى هذا الكلام أجاب ملك انكلترا بذكاء وتهذيب: «إنه بالحري غالباً مايرغب برؤية الصديق أكثر من الاصغاء للحديث عنه، مع أن عليه الاستماع إلى الحديث الحسن حوله».

حول المظهر الخارجي للملك المذكور

كان الملك هنري متوسط القامة، كثيف البنية، وكان جفن إحدى عينيه معلقاً نحوالأسفل، إلى حد أنه غطى الجانب الداكن من بؤبؤ العين، وقد امتلك قوة كبيرة، وكان منعدم التقدير في أعماله، ولكن بما أن أعماله وصلت إلى نتائج سعيدة وكانت محظوظة، اعتقد كثيرون أنه كان هو المقصود من قبل المتنبىء ميرلين Merlin, عندما تحدث عن الوشق، عندما يخرق كل شيء بعينه.

★★★ ★★★ ★★★

كتاب Additaments

[تم العثور تحت هذا العنوان على عدد من الوثائق الأصيلة جرى تصنيفها من قبل متى باريس، ونشرت منفردة بمثابة ذيل أضيف إلى تاريخه، وتمت هنا ترجمة أهم المواد التي هي موائمة لاكمال الكتاب بقضايا ذات أهمية من الدرجة الثانية، وجرى ادراج كل منها حسب السنة التي انتمت إلى وقائعها].

أجوبة المعلم لورانس من دير القديس ألبان لصالح إيرل كنت— هيوبرت دي بورغ، الذي أثار ضده مولانا الملك قضايا صعبة

[انظر أحداث عام ١٢٣٩]

وبناء عليه جرى تعيين يوم لهيوبرت دي بورغ— ايرل كنت، وكان ذلك في ثمانية عيد القديس يوحنا المعمدان، في العام الثالث والعشرين لحكم الملك، حتى يقدم إلى مولانا الملك التعويضات التي يتوجب عليه عملها له، لأنه لم يقدم له صداق زواج رتشارد دي كلير، في اليوم الذي جرى تحديده له من قبل مولانا الملك نفسه، وذلك وفقاً لاتفاق كان قد عقد بينهما، أو وفقاً لرأي نظرائه، وقد طلب منه مولانا الاصلاح وتقديم التعويضات، وهو لم يفعل أي شيء، وكانت هذه التهم التي أثيرت ضده من قبل مولانا الملك ولصالحه، وذلك حتى يتمكن المتقدم ذكره من الإجابة عليها.

وعلى هذا أجاب الايرل المذكور، أنه لم يحدد له يوم ليفعل هذا، كما أنه قال أيضاً، بأنه سوف يقنع مولانا الملك في يوم محدد ومعقول، أو أنه سوف يلتزم برأي نظرائه،وطلب أن يريه مولانا الملك كتابة المسائل التي يتوجب عليه الإجابة عنها.

وعلى هذا أجاب الايرل، أنه مامن يوم من الأيام جرى تعيينه من قبل مولانا الملك، إلا وكان هو —أي الايرل— حاضراً، ولم يطلب

التسبب بأي تأخير، بل كان دوماً مـوافقاً على اليوم، وذلك حسب رغبة مولانا الملك، وبناء عليه، لقد بدا بـالنسبة إليه أن جميع الأيام التي جرى تعيينها له بعـدما كـان في كنتون [Kingston or Kennington?] Kenintone ينبغي أن تعدّ يوماً واحـداً فقط، وأنه كان دوماً على استعداد للالتـزام برأي نظرائه، في كونه قـد تدخل في قضية الزواج، أو جـرى تحويله من قبل أي واحـد ليفعل ذلك له، وذلـك منذ أن أقسم يميناً في غلوستر بأنـه لن يتـدخل قط في الـزواج، كما أنه لم يعلم آنذاك، وهو لم يعلم الآن أي شيء حـول الزواج، سـوى من خـلال بعض الافادات البسيطة لزوجتـه الكونتسة، التي قالت بأن الزواج قـد عقد في كنيسـة سينت ادمـوند، عنـدمـا كـان الايرل في ميرتون Merton, وإذا لم يكن في هذا كفايـة هو سوف يقول المزيد،وهو جـاهز لأن يفعل في هذه المسألة ماسيقرره نظراؤه.

وكانت المادة الأولى بين المواد المتقدمة الذكـر هي أن مولانا الملك قد طلب منه جميع نفقـات الأربعة عشر عـاماً التي جـاءت بعد وفـاة أبيه، مولانا الملـك جون، والتي تسلم خـلالها الوصاية والمسؤولية، من دون تكليف أبيـه مـولانا الملك جـون، ومن دون مـوافقـة مـولانـا غـولو Gualo, الذي كـان آنذاك النائب البـابوي، وهو الذي كـان بناء على الموافقة العـامة وقبول المملكة كلها، كـان الأول والمستشار الرئيسي لجميع مملكة انكلترا، وذلك بعد وفاة المارشال.

وعلى هذا أجـاب بأن هنـاك بعض الأشخـاص قـد أوكلت إليهم الإجابة حـول نفقات المملكة، وهـم الخازن والحجـاب، حيث أنه جرى بعـد وفـاة يوستـاس دي فـالكونبردج Eustace de Fal-conbridge أسقف لندن، أن طلب من الخازن تقـديم حسـاب حـول ذلك، وهذا مـا كـان قـد فعله وفقـاً لما هو مطلوب، وبعـد ذلك طلب تقـديم حسـاب من أسقف كـارلآيل حـول جميع نفقـات المملكة

حسبما يطلب عـادة من المتسلم الرئيسي، وقـد عقد الأسقف جلسـة من أجل تقديـم الحساب المطلوب، وطلب فيما بعد حسـاب من بطرس دي أوريفـال Orival, وعلى هذا إن مثل ذلك الحسـاب ينبغي عـــدم طلبه من رجل العدالة، لأنه لم يكن المتسلم لنفقات المملكة، وبناء عليه، يبدو أن الذي لم يتسلم شيئاً، ليس ملزماً بالاجابة على أي شيء، وعلاوة على ذلك قـال بأن مولانا الملك قـد سلم إليه المسـؤولية عن العـدالة في رنيميد Runnymede, بحضور مـولانا اسطفان رئيس أسـاقفة كـانتربري، وايرل وارني، وايرل فيرار، ونبـلاء آخـرين، وأنه بقي رجل عـدالة طوال أيام الملك جـون، لكن حـدث أن قلعـة دوفـر تركت أيام قدوم الملك جون مهجورة، وهو نفسه دخل إليها، وذلك في وقت كان فيه قلة على استعـداد للدخول، مـالم يدخل هو إليها، وأنـه خلال وقت الحرب كله لم يتمكن من مغادرة القلعة، أو ممارسة وظيفة العدالة.

لكن عندما مـات مولانا الملك جـون، في أيام الحرب، عمل المارشال حـاكماً على الملك والمملكة، بناء على نصيحـة غـولو، الذي كـان آنذاك النائب البابوي، وموافقة النبـلاء أيضاً، الذين كانوا مع مولانا الملك، ثم إنه بعد عمل السـلام مرة ثانيـة، بقي المارشال المذكـور حاكماً على الملك والمملكة، وبقي هيـوبرت المذكـور المسـؤول عن العـدالة، من دون أي تذمـر، وبعد وفـاة المارشـال، بقي هو بالعـدالة بناء على نصيحة مـولانا غـولـو الذي كـان النائـب البـابوي آنذاك، واسطفـان رئيس أسـاقفـة كانتربري، وأسـاقفة ونبلاء المملكة، وجـاء بقاؤه من دون أية معـارضة، وقد كتب إليه مولانا البابا دوماً كرجل عدالة، وهكذا نظر إليه دوماً من قبل كنيسة المملكة، وعدّ رجل عدالة حسبما جرى تعيينه من قبل مولانا الملك جون، وعلى هذا بات من الواضح أنه لم يتسلم وظيفة العدالة من دون تكليف من مولانا الملك جون، ومـوافقة اللورد غولو، وإذا لم يكن هذا كافياً، هو سوف يقول أكثر، وهو على استعداد لأن يفعل كل مايراه

النظراء صحيحاً، وأيضــاً إنه إذا كان ملزماً بالإجـابة، هو لديه صك من مـولانا الملك، يحلله فيـه من هذه التهم، وهو صك قـام بتقـديمه، وقـد عمل في العام الخامس عشر من حكم الملك هنري.

وطلب الملك أيضاً منه جواباً حول جبـاية الجزء من خمسة عشر جزئاً كله، الذي توجب أن يحرس وأن يودع بناء على الـرأي العام لمستشـاري المملكة، وذلك وفق طريقة أن لايؤخذ منه شيئاً حتى يصل مولانا الملك إلى السن القـانوني، باستثناء أن يكون ذلك تحت اشراف ستـة أسـاقفـة، وستـــة ايرلات، جـرى تعيينهــم خصيصــاً لهذا الغـــرض، وأن لايكون لغـرض آخر سـوى غرض الدفـاع عن المملكة، ووصل المبلغ آنذاك إلى تسعة وثمانين ألف مارك من الفضة.

وعلى هذا أجاب بأن السيدين أسقفي سالسبري وباث قد تسلما ذلك المبلغ بناء على موافقة عامة من مجلس مستشاري المملكة، وقدما حسابهما حوله، وقد تسلم اقرارهما بموجب رسـالة عائدة إلى مولانا الملك، وبناء عليـه يبـدو أنه ليس من الحق أن تتم دعـوته للإجـابة على تلك المسألة، بعدما تسلم آخرون إقراراً به، وذلك كما هو ظاهر من سجلات الخازن، وبوسـاطـة الرسـالة المعتمــدة الصـادرة عن مـولانـا الملك، والتي هي موجودة في الخزانة، وبالنسبة إليه هو لم يتسلم شيئاً منه، ولذلك هو غير ملزم بتقديم حسـاب حول ذلك، وإذا لم يكن في هذا كفـاية، هو سوف يقول أكثـر، وجاهز لأن، إلخ، إلخ، وكـان لديه أيضاً صك مـن مولانا الملك، إلخ، إلخ.

وطلب الملك منه أيضـــاً أن يجيب حـول أرض بـويكتـو Poictou, التي مـات الملك جـون وهو متملك لها، والتي مـولانا، الذي هو الآن الملك، متملك لها، وذلك عنـدمـا تسلم الايـرل المذكـور الوصـــاية على المملكة، والمقصـــود بذلك لى راؤل La Rachelle, ونيروت Niort, وسينت جـون دي أنجلي Angely, وأن يجيب على

التهمة في أنه عندما كان عليه أن يرسل خزانة ومالاً من أجل انقاذ هذه الأراضي، أرسل براميل مملوءة بالحجارة والرمال، وأنه نتيجة لذلك عندما شاهد نبلاء وبارونات مولانا الملك والبرجاسية هذا العجز، وهذه الاساءة تحولوا بولائهم وبخدمتهم لمولانا الملك، وانصرفوا نحو أعداء مولانا الملك، ونتيجة لذلك فقد مولانا الملك بواتو.

وعلى هذا أجاب أنه لم يرسل قط مثل هذه البراميل من هذا النوع، وأنه مصر على هذا وسيبقى كذلك وفقاً للطريقة التي يراها نظراؤه مناسبة، وأنه بناء على رأي نبلاء انكلترا، جرى ارسال مائة فارس للدفاع عن لى راؤل، لابل أكثر من ذلك، مع عدد كبير من الأتباع والمرافقين، الذين كانوا هناك مع الملك حتى تخلى برجاسية ورجال تلك البلاد عن ولائهم لمولانا الملك، وبناء عليه إنه ليس من خلال إهماله ضاعت لى راؤل، وليس بسبب إهمال الفرسان الذين كانوا هناك، بل كان ذلك ضد موافقتهم، لأن شعب البلدة هم الذين تخلوا عن تلك الأرض وأعطوها إلى ملك الفرنسيين، وهذا واضح كثيراً، من أنه عندما كان مولانا الملك في البلدة، أبعدهم سكان البلدة عن التشاور معهم، وأقاموا سلماً من دون الفرسان، على شرط أن يقوم الفرسان بالمغادرة سالمين بأجسادهم ومعهم خيولهم.

وضاعت لى راؤل نتيجة سوء إدارة فولك Faulkes الذي ثار مع رجاله ضد مولانا الملك في الوقت الذي كانت فيه لى راؤل محاصرة، وكان فولك هذا نفسه أيضاً، قد تمكن بوساطة أخيه وليم من اعتقال هنري أوف بريبروك Braybrook, قاضي الملك، عندما كان في إيرى eyre, ونظراً لهذا الاعتقال والأضرار الأخرى التي اقترفها فولك المذكور، كان من الضروري بالنسبة للملك ولنبلاء البلاد القيام بحصار قلعة بدفورد، وذلك بناء على نصيحة رؤساء أساقفة، وأساقفة، ونبلاء البلاد، وقام الأساقفة هناك بانزال عقوبة الحرمان

الكنسي بحق فولك، وعلى هذا بات واضحاً أن ذلك نتيجة لسوء سلوكه، وإلاّ لما قام الأساقفة بحرمانه كنسياً، ولو أن فولك نجا من دون عقاب، وكذلك لو أن القلعة لم يتم الاستيلاء عليها، لاضطربت أحوال المملكة أكثر مما كانت عليه، وإذا لم يكن هذا كافياً، إلخ، إلخ، فهو جاهز بناء عليه، إلخ، إلخ.

وكذلك كان عليه الاجابة على التهمة التالية، وهي بينما كان الملك مايزال دون السن القانوني، وقد توجب انجاد بلاد بواتو، وكان على الجيش الانطلاق إلى بواتو، جعله الايرل المذكور يقوم بحصار قلعة بدفورد، حيث أنفق مولانا الملك مع نبلاء انكلترا كثيراً من المال قبل أن يتم الاستيلاء عليها، وبعدما تم الاستيلاء عليها، أمر بتهديمها، ثم تنازل عنها إلى وليم بوشامب، الذي منه كان مولانا الملك جون قد انتزع تلك القلعة في الحرب، وهي القلعة التي استولى عليها الملك جون، عندما مات.

وعلى هذا أجاب بأن حصار القلعة لم يتم القيام به من خلاله وحده، لكن بناء على اجماع آراء المملكة، وبسبب سوء سلوك فولك ورجاله، الذي تسبب باعتقال هنري بريبروك قاضي مولانا الملك من قبل أخيه وليم دي بريتني Breante, وبناء عليه كان مولانا الملك قد أرسل رسائله لفولك المذكور ليس مرة واحدة بل للمرة الثانية، ليسلمه قاضيه، وقد رفض أخوه عمل أي شيء في القضية، ولم يستجب، كما أن الملك أرسل رسائله إلى وليم دي بريتني، الذي أجاب بأنه لم يسلم هنري المذكور، من دون موافقة أخيه فولك، وأن أخاه كان من قبل قد ثبت الذي عمله، وبناء عليه عقد مولانا الملك اجتماعاً مع نبلائه، وقدم حتى بدفورد، وأرسل إلى الذين كانوا في القلعة: بطرس ابن هيريبين Herebin, وآلان باسيت، ليطلبا منهم اطلاق سراح هنري أوف بريبروك— قاضيه، الذي كان معتقلاً لديهم، وأن يقدموا ويدفعوا

تعويضـاً عن سوء تصرفهم بـاعتقالهم قاضي مـولانا الملك، وقد أجـابوا بأنهم لن يفعلـوا شيئاً استجـابة لمولانا الملـك، وأنهم ســوف يحتفظون بهنري المذكور، وإذا استطاعوا سـوف يعتقلون المزيد، ولذلك جرى بناء على رأي نبلاء انكلترا حصار القلعة، والاستيلاء عليها وتدميرها، وبعد ذلك أعطي مــوقع القلعـة إلى وليم دى بوشـامـب بناء على رأي نبـلاء انكلترا، ولهذا السبب ورد ذكرها في صيغة السلام الذي أبرم بين مولانا الملك، ومولاه لويس والبـارونات، حيث جاء أنه تقـرر أن يبقى بيد كل واحد مـا كان بين يديه في بداية الحرب، وبنـاء عليه قام النائـب البابوي السيد غولو، ورئيس الأساقفة والأسـاقفة بايقاع عقوبة الحرمان الكنسي بكل من سـوف يخرق صيغة السـلام تلك، وبسبب أن وليم نفسه كـان دومـاً يطالب بالقلعـة المذكـورة ويدعي أنها حقـه، وذلك في معـارضـة لفولك المذكور، ولم يستطع أخذها حتى جرى الاستيلاء عليها من قبل مولانا الملك، فلقد قام مولانا الملك نفسه، بناء على نصيحة نبلائه، وبناء على صيغـة السلام الذي أقيم، وبسبب الخوف من القرار الذي صـدر، فتخلى إليه عن مـوقع القلعة المتقـدم ذكرها، وأن يتملكهـا وفق الصيغة نفسهـا التي تملكهـا أجـداده، وهذا واضـح في مـدونات مـولانا الملك، وأيضاً أن وليم المذكور أعطى من نفسه إلى مولانا الملك، بأن بإمكانه أن يتملك تلك الاقطاعيـة، مثلما هـو واضح ومـدون في سجـلات مـولانا الملك، وإذا لم يكن في هذا كفـاية، هو ســوف يقـول المزيد، وبناء عليـه، إلخ، إلخ.

وأيضاً كـان عليه الاجابة على التهمـة التاليـة، في أنه أرسل رسلاً إلى رومـا، وحصل على وجـوب أن يكون مولانا الملك قـد صـار في السن القـانونية، مع أنه لم يكن قـد وصل إلى السن القـانونية، وكأن ذلك فيـه منفعة لمولانا الملك، ثم إنه بفضـل الإعلان أنه صار في السن القـانونية، تسبب في أن يمنحه بموجب صك الأراضي التي كانت عائدة إلى هنري

أوف اسكس، وأراضي أخرى، ومناصب، وامتيازات، استولى عليها وتملكها حسب مشيئته، بعد وفاة الملك جون، وهي كانت متملكة من قبل الملك جون المتوفى نفسه، وتسبب أيضاً في أن يعطى، وأن تتثبت أعطيات إلى رهبان، وأشخاص لاهوتيين، وآخرين، أراضي كثيرة، وامتيازات، وأشياء أخرى، مما أنقص كثيراً وآذى مقام مولانا الملك وتاجه.

وعلى هذا أجاب، بأنه لم يرسل رسلاً إلى روما، بل أسقف وينكستر أرسل إلى روما وليم من كنيسة القديس ألبان حول القضية نفسها، وكان ذلك لإلحاق الأذى بهيوبرت المذكور، وليس لصالحه، وذلك من دون أن يتخلى هو مع الآخرين عن وصاياتهم، كما فعل أيضاً في نورثأمبتون، ولقد تقرر فيها بعد بناء على الرأي العام، لرئيس الأساقفة والأساقفة، بأنه ينبغي أن يمتلك مولانا الملك ختماً، وأن رسائله ينبغي أن تصدر، حتى يتمكن من تأسيس خوف أعظم لنفسه في المملكة، وأن يمتلك سلطة أعظم، وتمّ بعد ذلك الحصول على تحلة من أجل عمره من البابا هونوريوس، بناء على اقتراح رئيس الأساقفة، والأساقفة، والايرلات والبارونات، لأنهم اقترحوا إلى البابا بأن حكمته، وحسن تدبيره، قدمت تعويضاً لسنه، وذلك كما هو موجود في امتياز البابا الموجه إلى الايرلات والبارونات، والذي يبدأ هكذا: Ad boec etinfra —مع أن ولدنا المشهور والعزيز في المسيح مايزال يعدّ في سنوات صغره، مع ذلك إنه كما سمعنا، وسررنا لما سمعناه، بأنه أظهر عقلاً رجولياً، وعمل تقدماً بالعمر والحكمة، ولذلك فإن ماكان محتاجاً إليه في عقد من الزمان، يبدو أنه قد عمل من قبله بفضل حسن تدبيره، ولذلك ينبغي أن لايمنع من مباشرة الحكم، وأن يدير بشكل نافع شؤون المملكة، وبناء عليه إننا نأمر بموجب كتاباتنا الرسولية، أن يتم بالتوافق مع أخينا المحترم أسقف وينكستر، والسادة النبلاء التالين:

قـاضي انكلترا ووليم بريوير [القيـام برعـاية القضـايا المتقـدم ذكـرها]، ونحن نأمرهم بموجب كتـاباتنا هذه في أن يتخلوا له بشكل حر ومسالم عن إدارة مملكته».

كما أنه كتب أيضـاً إلى إيـرل شيستر كما يلي: «نحن نأمـر ونفـرض عليكم بمـوجب هذه الكتابات الـرسوليـة، بأن تتخلى له الآن عن ادارة مملكته، وأن تسلم إليه من دون أيـة مصاعب الأراضي والقلاع التي بين يديك تحت عنوان الوصاية، وأن تجعل الآخرين يفعلون الشي نفسه».

وكتب بصيغـة الكلمات نفسهـا إلى أسقف وينكستر، كما أنه كتب إلى المستشار وفق الصيغة التـالية: «نحن نأمركم بموجب كتـاباتنا الرسولية، إنه بحكم أن بين يديك ختم الملك المذكور،وأنت تمتلك الوصـاية عليه، يتوجب عليك من الآن فصـاعداً، أن تستخـدمه وفقاً لرغبـاته الصالحة، وأن تقـوم، بناء عليـه، بإطاعتـه واتبـاعـه فقط، وأن لاتتسبب بختم أية رسالة من الآن فصاعداً بالختم الملكي ضد ارادته».

وفيما يتعلق بأرض هنري أوف اسكس، لقـد قـال إنه عندمـا صـار مولانا الملك في السن القانونية وبعـدما أطاعه المستشار، بناء على تدخل مولانا البـابا، قد أعطاه تلك الأرض عـن طواعية منه ورغبـة، بموجب براءة لصالحه، وأعاد إليه أيضـاً الأرض بمثابة حق له، وعمل بعد ذلك سلماً معه، وإذا لم يكن في هذا كفاية، إلخ، إلخ، هو جاهز، إلخ، إلخ.

وطلب منه أيضاً الاجابة على مايلي، هو أنه عندما أرسل مولانا وليم ملك سكوتلندا إلى مـولانا الملك جـون ابنتيـه، اللتين كـانت كبراهن ستتـزوج من مـولانا الملك، أو من الايرل رتشـارد، إذا مـاحـدث شيء لمولانا الملك، وهذا الزواج هو الـذي من أجله تخلى وليم الملك المذكـور إلى الملك جـون عن ادعـائه وجميع حقـوقـه حـول أراضي كمبرلاند Cumberland, ووستمـورلانـد Westmoreland,

وأعطاه بالاضافة إلى ذلك Northumberland, ونورثأمبرلاند خمسة عشر ألف مارك فضة، وقد تزوج من تلك السيدة، وذلك قبل أن يصبح مولانا الملك في سن يمكنه أن يقرر فيه، عما إذا كان يرغب أن تكون زوجته أم لا، وهكذا عندما صار مولانا في السن القانوني، بات من الضروري بالنسبة إليه، أن يعطي ملك سكوتلندا الموجود الآن مائتي هايد Hides من الأرض حتى يتخلى عن دعواه بالأراضي المتقدمة الذكر، وذلك بسبب أن الاتفاق الأول لم تتم مراعاته، وحدث هذا على الرغم من أنه لم يتقيد أنه كان من قبل مقترناً من كونتسة غلوستر التي كانت قد اقترنت لبعض الوقت مضى بمولانا الملك جون، عندما كان مايزال بمرتبة ايرل، وهي التي أعطاه إياها الملك جون للوصاية عليها، وهي التي باع زواجها لبعض الوقت إلى غيوفري دي ماندفيل Mandeville, بعشرين ألف مارك، وهاتين السيدتين كلتاهما مرتبطة بالأخرى ببعض القرابة إلى درجة ما.

وعلى هذا أجاب بأنه لم يعلم مطلقاً بالاتفاق بين الملكين، أي لم يعلم شيئاً حول الزواج الذي سوف يعقد مع إما مولانا الملك، أو مع الايرل رتشارد، بل كان عليها الزواج من مولانا الملك بناء على نصيحة نبلائه، وإنها تزوجت بناء على مشورتهم، وهذا واضح من رسائل السيد باندولف Pandulf, الذي كان آنذاك هو النائب البابوي، وأيضاً رسائل رئيس أساقفة كانتربري، والأساقفة، والايرلات، والبارونات، ثم إنه لم يكن من الممكن إعاقة ذلك الاتفاق لو أنه عمل قط، لأنها عندما تزوجت، كان الملك في سن، يمكنه فيه أن يعقد الزواج معها أو مع واحدة أخرى، إذا ما اختار، وفيما يتعلق بوجود قرابة عصب بين كونتسة غلوستر وابنة ملك سكوتلندا هو لم يعلم عنه شيئاً، وحول مايتعلق بالمائتي هايد من الأرض التي منحت إلى ملك سكوتلندا، مامن شيء قد عمل من خلال ايرل كنت، وبشأن كونتسة غلوستر، قال بأنها

لم تكن تحت وصاية هيوبرت، بل كانت سيدة نفسها، وكانت حرة في أن تزوج نفسها من أي واحد ترغب به وذلك بعد وفاة غيوفري دي مانديفيل، وذلك منذ أن باع مولانا الملك جون من قبل زواج الكونتسة إلى غيوفري المتقدم ذكره، وإذا لم يكن في هذا كفاية، سوف يقول أكثر، وهو أيضاً جاهز، إلخ.

وطلب منه أيضاً الإجابة على مايلي، وهو أنه عندما أمر مولانا البابا، بوجوب أن يكون هناك طلاق بينه وبين زوجته الكونتسة التي كانت آنذاك لديه، بسبب القرابة المتقدم ذكرها، جعل رجلاً اسمه لويثيل Le-wytheil يقوم بجز واتلاف جميع قمح الرومان، ونتيجة لهذه الفعلة صدر قرار بالحرمان الكنسي بشكل عام ضد الذين اقترفوا الاثم والذين حرضوهم، وقد فعل هذا عندما كان قاضياً، ولقد اقترف ذلك من قبل واحد توجب عليه الحفاظ على السلام، وبهذه الطريقة إن السلام، المتعلق بهذه الأشياء قد اضطرب ومازال مضطرباً حتى الوقت الحالي.

وعلى هذا أجاب بأنه لم يعلم شيئاً حول ذلك، لأن ذلك لم يعمل من خلاله، وهذا واضح تماماً، لأن مولانا البابا أمر بعمل تفتيش حول هذا، من قبل أسقف وينكستر، ورئيس رهبان دير القديس ادموند، وقد جرى تحويل نتيجة التفتيش إلى البابا، وكان واضحاً من ذلك التفتيش تمام الوضوح أنه لم يكن مخطئاً، ولو أنه كان كذلك لتولى البابا معاقبته، الأمر الذي لم يفعله، وإذا لم يكن في هذا كفاية، إلخ، وهو أيضاً جاهز للاستجابة لما يراه نظراؤه أنه أمر صحيح.

وطلب منه الإجابة على مايلي، هو أنه عمل نفسه سجيناً لمولانا الملك، وتم الاتفاق بينهما بأنه سوف يعد خارجاً على القانون، إذا مانجا من ذلك الحبس من دون اذن من مولانا الملك، ومع ذلك نجا من ذلك الحبس، وعندما أصبح خارجاً على القانون من خلال ذلك الاتفاق،

وبناء على مبادرة الذين نجا بوساطتهم من الحبس، وفيما بعد استقبله مولانا الملك برضاه، ومع ذلك لم يحصل على مذكرة من مولانا الملك تعفيه من الخروج المذكور على القانون، وفيما بعد عندما جرى استقباله في حظوة مولانا الملك بطريقة لايمكن فيها اضعاف المنح التي كان مولانا الملك قد أعطاه إياها من قبل، في الأراضي التي كانت بين يديه من خلال تلك الإتفاقية، وعلى الرغم من ذلك قام معاكساً لتلك الاتفاقية، فقاضى جون دي غري، وماستي Masty, وبيزلي Besily, وأنكويتيل مالور Malure Anquetil, وروبرت باسلوي Passelewe, وآلان أوري Urry, مع عدد من الآخرين، وربح الدعوى ضدهم، وبناء عليه عمل مولانا الملك مبادلة مع بعضهم ببعض اقطاعياته، مما ألحق به خسارة كبيرة،وبناء عليه، بدا لمولانا الملك أنه غير ملزم بالتمسك بأية اتفاقية مع الايرل المتقدم الذكر، لأنه رأى أن الايرل لم يلتزم بأي اتفاق معه.

وعلى هذا أجاب، بأنه لم يعقد مثل هذه الاتفاقية، وقال بأنه عندما كان تحت مسؤولية الايرلات الأربعة لانكلترا، الذين استلم منهم تعهدات أنه لن يكون في خطر التعرض لأذى جسدي، مع ذلك، حدث بعد هذا أن الحراس الذين توجب عليهم حمايته من الأذى قد سحبوا، وهو لم يعرف من قبل من، ولذلك شعر بالخوف على سلامته، وخاصة بعدما قام أسقف وينكستر، الذي كان مستشار مولانا الملك، بتهديده، كما تعلم انكلترا كلها، وكانت قلعة ديفي Deviezes بعهدة بطرس دي أوريفال d'orival. وبناء عليه، إنه عندما شاهد أن حرسه، الذين يتوجب عليهم الدفاع عنه، وفقاً للاتفاقية، عندما كان قيد الاعتقال، قد تخلوا عنه وذهبوا، ليس عجباً أنه هرب إلى الكنيسة، وهو لم يكن ليفعل ذلك، وما كان له ليقدم على هذا، لو أن الاتفاقيات حفظت بشكل سليم نحوه.

وفيما يتعلق باصطلاح الخروج على القانون الذي أطلق عليه، قال بأنه لم يعمل مثل هذه الاتفاقيات لأنه لايمكن لرجل صالح ومخلص أن يصبح خارجاً على القانون بموجب اتفاقية، لأن الخروج على القانون عقوبة لمقترفي الآثام، وليست لواحد تصرف بشكل جيد، وهي تتبع الأعمال الشريرة المقترفة من قبل واحد لم يلتزم بالصلاح، وهو لم يكن قط واحداً من هذا النوع، لأنه طلب دوماً وعرض الالتزام بقرار نظرائه، وهو عندما عاد فيما بعد إلى سلام مولانا الملك، جرى العفو عن جميع الذي تقدم، وأنه قضي عليه وتم الإعلان أنه ليس خارجاً على القانون، في جميع كونتيات انكلترا، وذلك بوساطة رسائل مولانا الملك، وأن ذلك القرار قد اتخذ في غلوستر، وتفوه اللورد وليم رادلغي Rad-leghe [?Raleigh] بالحكم بحضور رئيس الأساقفة، والأساقفة، والايرلات، والبارونات.

وجواباً منه للتهمة من أنه لم يحصل على مذكرة، تلغي الخروج على القانون، أجاب بأنه فعل ذلك، حتى لايعتقد أنه اعترف بعدالة تهمة الخروج على القانون، وقال بأنه لم يترافع للتقاضي إلى أي واحد على عكس ماجاء بالاتفاقية، لأنه لم يعمل اتفاقية مع مولانا الملك، باستثناء ماتعلق بتولي العدالة في انكلترا، وكانت قلعة دوفر بحوذته بموجب صك لمدى الحياة، وهذا واضح بعدما استرد من الذين قاضاهم، وذلك بإرادة مولانا الملك، وفي بلاطه، بموجب الحكم الصادر عن محكمته، وبناء عليه ينبغي أن لايلام بهذا الشأن، وإذا لم يكن هذا، إلخ، إلخ، وهو أيضاً جاهز، إلخ، إلخ.

وطلب منه أيضاً الاجابة على مايلي: من أنه استخدم كلمات دنيئة وملامة ضد مولانا الملك، بحضور اللورد رالف فتز— نيقولا، وغيوفري دي غرانكوم Grancombe, والراهب غ. G وآخرين، ومازال لدى مولانا الملك أشياء كثيرة لتقديمها ضده،

ولقـولها، وهي مـايزال يحتفظ بها في عقله، وهو سـوف يقـدمهـا ضـده عندما يرغب، وعندما يأتي الوقت المناسب.

وعلى هذا أجاب، إنه سوف يتمسك بإصرار بالذي قـاله ضد مولاه، وضـد جميع الآخرين الذين سـوف يقولون هذا،وبأي شيء سـوف يراه نظراؤه صحيحاً، وكـذلك بأن جميع التهم المتقـدمة قد تـم التخلي عنها، وأنها ألغيت بالنسبـة له قانونيـاً، عندما عمل ثانيـة سلماً مع الملك، وبناء عليـه لقد رأى أنـه لايمكن محاكمته على أي من التهـم المتقدمـة، وإذا لم يكن في أي من أجـوبته ماليس كـافياً أومقنعـاً، فالايرل جـاهز إلى قول المزيد، وبدا أيضـاً بـالنسبـة إليـه أنه لايجوز توقيفــه، كما أنه ليس عليـه الاجابة مـالم تتم إعادته إلى تملك جميع مقتنياته التي جرد منهـا، مشاهداً أن مامن واحـد أوقف للاجابة أمـام أية محكمة سواء أكـانت علمانية أو لاهوتية، وهو في حال التجريد من ممتلكاته.

وجـرى تعيين يوم لهيوبرت نفســه للمثـول أمام مـولانا الملك لسماع حكمه، وكان ذلك في اليوم التالي لعيد إعدام يوحنا المعمدان.

- ٢ -

الذين أدينوا باقتراف جرائم في الحدائق والمطارد وإنزال العقوبة بهم

[انظر أحداث عام ١٢٤٦]

إذا ما هرب المجرم وقتل، هو لن ينال العدالة ولاالمقاضاة، ولكن إذا ما قـام ايرل، أو بارون، أو فـارس بالشكوى إلى مـولانا الملك، حـول دواب أمسكت في حـديقته، بناء عليـه ينبغي إجـراء تحقيق حول ذلك بمـوجب مذكـرة صادرة عن مولانا الملك، وبناء عليه إن الرجل الذي سـوف يشار إليه من خلال التحقيق، ومن ثم جـرت ادانته، فلسوف يلقى به في سجن مولانا الملك لمدة عام واحد ويوم واحـد، وبعد ذلك سوف يجري تخليصه مقابـل سعر يساوي قيمـة أرضه لمدة ثلاثة أعـوام، وفق طريقة أنـه سوف

يبقى في عمله، وعنـد ذلك سـوف يحصل مـولانا الملك على ثلثي مـال الخلاص، وسيحصل الرجل الذي اقترفت الجريمة ضده على الثلث، وبعد ذلك الخلاص عليـه أن يؤمن اثني عشر كفيـلاً، يتـولون كفـالتـه، بأنه لن يحدث أضراراً في المستقبل في الحدائق، أو المطارد، أو الغـابات، أو في أي شيء مضـاد لسـلام مـولانـا الملك، وإذا حـدث وألحق أضراراً في أي من الأماكن التي تقدم ذكرها، فإن الكفلاء سـوف يقدمون جواباً عن جسده، وعن ذنبـه، هذا وإذا ماجـرى فجأة اعتقـال أي واحـد في أية حديقـة، أو مطردة، وذلك من دون أيـة مـذكـرة تحقيق صـادرة عن مـولانا الملك، فلسوف يبقى في سجن مـولانا الملك، حسبما قيل من قبل، وسوف يحصل بعـد ذلك على الخلاص وفق الطريقـة التي تقدم ذكـرها، ولسـوف يحصل مـولانا الملك على نصف مبلغ ذلك الخلاص، والفئة المتضررة على النصف الآخر، وعليه بعد ذلك أن يؤمن اثنـي عشر كفيلاً وفق الطريقة التي تقدم ذكـرهـا... [هناك وثائق كثيرة أخـرى آثرتُ عـدم ترجمتهـا لبعـدها عن موضوع الحروب الصليبية، واكتفيتُ بالنموذجين المتقدمين].

- ٨ -

رسالة من كونت أراس تتعلق بالاستيلاء على دمياط

[انظر أحداث عام ١٢٤٩]

إلى الأم الأكثـر عظمـة ومحبـة، بلانشي، التي هي بنعمـة الرب، الملكة اللامعـة لفرنسـا، يبعث إليهـا ابنها العـزيز، تمنيـات الصحة، مع المحبـة الولدية، مع الاستعداد لإرضائها:

بما أننا نعلم أنك سوف تفـرحين كثيراً بأخبار تقدمنا وتقـدم أصحابنا، وستسعدين للنجاحات الكبيرة التي حصل عليها الشعب الصليبي، وذلك عندمـا تحصلين على أخبـار صحيحـة حـول هذا الموضـوع، لذلك نحن نرغب بأن تعلم سيادتكم بأن مولانا العزيز وأخانا الملك، والملكة، وأخته،

ونحن نتمتع بالصحة في الجسد، وذلك بفضل نعمة الرب، كما أننا متشوقين وآملين بأن يكون الحال نفسه بالنسبة لك شخصياً، ومايزال أخانا العزيز كونت أوف أنجو يشعر بقشعريرة حماه الربعية، لكن ألطف مما هو معتاد، ونود أن تعلم محبتك بأن مولانا العزيز وأخانا والبارونات والحجاج، الذين أمضوا الشتاء في قبرص، قد أقلعوا بمراكبهم في يوم عيد الصعود، في المساء إلى ميناء لينوك Linoc, من أجل أن يتمكنوا من الزحف ضد أعداء الإيمان المسيحي، وأقلعوا من ذلك الميناء، وجاء ذلك بعد متاعب جمة في البحر، وفي مواجهة رياح معاكسة، وصلوا أخيراً بتوجيه من الرب في يوم الجمعة بعد عيد التثليث، وكان ذلك في حوالي منتصف النهار، وألقوا المراسي، وعقدوا اجتماعاً في ذلك اليوم نفسه في سفينة مولانا الملك، للتشاور حول الذي عليهم عمله بعد ذلك، وقد شاهدوا أمامهم دمياط، والميناء محصن بعدد كبير من الترك من كل من الخيالة والرجالة، ومصب النهر، الواقع بالقرب محمي بحشد من الغلايين المسلحة.

ولقد تقرر في هذا الاجتماع ورسم بأنه ينبغي في الصباح المقبل أن يقوم الجميع بالنزول إلى اليابسة مع مولانا الملك، وفق أفضل الطرق الممكنة، ونحن نود أن تعلم سيادتكم، أنه في صباح السبت، وحسبما كان قد تقرر، غادر الجيش الصليبي سفنه الكبيرة، ونزل برجولة وتجهز في الغلايين والقوارب الصغيرة، واعتمد على رحمة الرب، وعلى عون الصليب المنتصر، الذي حمله مولانا النائب البابوي فوق راية قرب مولانا الملك، مستمداً السرور والطمأنينة من الرب، وبذلك اقترب من اليابسة، على الرغم من العدو، الذي قام بحملات عديدة علينا، بكل من اطلاق النشاب، وباستخدام الوسائل الأخرى، لكن عندما لم يعد بإمكان القوارب الوصول إلى اليابسة، بسبب أن البحر كان منخفضاً جداً، غادر الجيش الصليبي قواربه، وباسم الرب قفز إلى الماء، ووصل أفراده إلى اليابسة مع

أسلحتهم على الأقدام، مع أن حشداً كبيراً من الترك دافع عن الشاطىء ضد الصليبيين، ولكن بفضل ربنا يسوع المسيح، وصل الشعب الصليبي إلى الشاطىء سالماً مسروراً بعد مقتل عدد كبير من الخيالة والرجالة الترك، كان من بينهم —كما قيل— أصحاب مراتب عالية.

وبعدما انسحب المسلمون إلى داخل المدينة، التي كانت قوية جداً، وكذلك حصينة لوجود النهر المعترض الذي أحاط بأسوارها القوية وبأبراجها، قام ربنا القدير الذي منح إلى الجميع الوفرة من دون ملامة، فأعطى إلى شعبه المدينة من دون تعب، وكان ذلك في حوالي الساعة التاسعة من اليوم التالي، الذي كان ثمانية الثالوث المقدس، لقد أعطى المدينة إلى الشعب الصليبي، ذلك أن المسلمين غير المؤمنين فروا وتركوها، وقد عمل هذا بموجب أعطية من ربنا وحده، وبموجب رحمته الجبارة.

وليكن معلوماً من قبلك أيضاً بأن هؤلاء المسلمين أنفسهم قد تركوا تلك المدينة مجهزة بكميات وافرة من المؤن واللحوم، وآلات الحرب، وأشياء أخرى نافعة، حيث بقي جزء كبير منها في المخازن من أجل المدينة المذكورة، ومن ذلك الجزء تزود الجيش وباع كثيراً، لكن مولانا الملك مع جيشه عمل إقامة طويلة هناك، وتدبر جلب أشيائه من مراكبه، ونحن نعتقد بأن الجيش لن يغادر من هناك حتى تتناقص مياه النهر، لأنه كما أخبرونا كان آنذاك على وشك غمر الأرض، لأن الصليبيين في تلك المناطق كانوا يعانون من كثير من الخسائر.

وعندما كانت كونتسة أنجو في قبرص، ولدت طفلاً جميلاً جداً، وجيد التكوين، وقد تركته هناك بعهدة ممرضة. صدر في معسكر جاماس Jamas, [دمياط؟] في عام ١٢٤٩م، في شهر حزيران عشية عيد القديس يوحنا المعمدان».

وكانت هذه أهم رسالة أرسلت إلى ملكة فرنسا، كلمة، كلمة.

المزيد من المعلومات حول الاستيلاء على دمياط

«إلى أخيه العزيز لأمه، وإلى صديقه العزيز المعلم بينت Bennet أوف تشارترز— تلميذ في باريس، من غي— الفارس في حاشية فيزكونت أوف ميلون Melun, صحة، وتمنيات أن يكون مسروراً:

بما أننا نعلم أنك قلق حول أوضاع الأرض المقدسة، وأوضاع مولانا ملك فرنسا، ليس فقط من أجل الازدهار العالمي للكنيسة، بل من أجل قرابتنا وصداقتنا في خدمة المسيح تحت قيادة مولانا ملك فرنسا، رأينا أن علينا أن نعطيك معلومات تتعلق ببعض الأخبار التي جرى تداولها بين عوام الناس.

عندما غادرنا قبرص، بعدما عقدنا مجلساً حربياً، وأبحرنا باتجاه الشرق، ناوين أن نهاجم الاسكندرية، حدث خلال الأيام التالية أننا حملنا من قبل عاصفة غير متوقعة، كلفتنا كثيراً في البحر، فقد تفرق الكثير من سفننا، وابتعدت احداهن عن الأخرى، وفي ذلك الوقت كان سلطان مصر، مع أمراء المسلمين الآخرين، قد علموا من خلال كشافتهم بأننا قد نوينا مهاجمة الاسكندرية، وبناء عليه، كانوا قد حشدوا حشداً كبيراً من الرجال المسلحين من سكان القاهرة، والفسطاط، ودمياط، والاسكندرية، وأقاموا ينتظرون وصولنا، حتى يهاجموننا بالسيف بعد متاعب زحفنا، وعلى هذا حدث في إحدى الليالي، أننا بعدما حملنا من قبل ريح قاسية فوق شريط طويل من البحر، هدأت الريح في الصباح، وظهر الهدوء الذي انتظرناه طويلاً، فتجمعت سفننا المتفرقة ثانية، وأرسلنا إلى الأعلى متسلق ماهر، عرف جميع السواحل على هذا الجانب من البحر، وكانت هناك تساؤلات وألغاز كثيرة، فطلبنا من دليلنا المخلص أن يتسلق إلى رأس السارية، وأن يخبرنا عما إذا كان قد شاهد أرضاً، وأن يبين لنا في أي مكان من العالم نحن كنا آنذاك،

وبعدما تفحص هذا الرجل بعناية قصوى جميع الأماكن المجاورة وأعاد التمعن والفحص صرخ مندهشاً بصوت مرتفع: «ساعدنا يارب، ساعدنا يارب، الرب وحده يمكنه أن يفعل ذلك،ويتصرف هكذا، نحن هنا الآن أمام دمياط»، واقتربنا الآن بما فيه الكفاية لنرى الأرض، وتحدث المراقبون من على ظهر السفن الأخرى بأنهم شاهدوا الشيء نفسه،وشرعت السفن تقترب إحداهن من الأخرى، وعندما استوعب مولانا الملك صورة هذا الأمر، بدأ بروح عالية في حثهم وتشجيعهم جميعاً، حيث انتصب قائماً في وسطهم وهو يقول لهم: «أصدقائي، وجنودي المخلصين، سوف يكون من غير الممكن قهرنا، فقط إذا لم نفترق بحبنا أحدنا عن الآخر، إنه ليس من دون إرادة ربانية أننا حملنا إلى هنا عبر البحر بمثل هذه السرعة، دعونا ننزل على هذه الأرض، مهما تكن، وأن نحتلها بقوة، أنا لست ملك فرنسا، وأنا لست الكنيسة المقدسة، أنتم الملك، وأنتم الكنيسة المقدسة، أنا فقط رجل واحد، حياته سوف تنقضي عندما يريد الرب، مثل حياة أي رجل آخر، وبالنسبة لنا كل محصلة هي سليمة، فإذا ماهزمنا، فلسوف نطير بمثابة شهداء، وإذا ماحصلنا على النصر، فمجد الرب هو الذي سيجري التبشير به، ومجد جميع فرنسا، لابل إن مجد المسيحية كلها سوف يتضاعف، وإنه من الحماقة الاعتقاد بأن الرب الذي يجهز كل شيء ويوجده، قد نهض بي عبثاً، فهو سوف يرعى قضيتنا، فنحن سوف نكون منتصرون في سبيل اسم المسيح، وهو سوف ينتصر فينا، معطياً، ليس لنا، بل لاسمه، المجد، والتشريف، والمباركة».

وفي الوقت نفسه كانت سفننا قد تجمعت مع بعضها، واقتربت من الساحل، وبذلك أصبح بإمكان سكان دمياط، والذين عاشوا قرب الساحل، تأمل أسطولنا وتقديره، فهو تألف من ألف وخمسمائة سفينة، إلى جانب السفن التي كانت قد تفرقت، وكان عددها مائة وخمسين،

وفي الحقيقة، إنه كما نعتقد، لم يكن هناك في أيامنا أسطول من السفن قد جمعت مع بعضها، بضخامته، ولذلك دهش شعب دمياط، وأصيبوا بالهلع، وخافوا خوفاً شديداً، فأرسلوا أربعة من أفضل غلايينهم، مع أمهر قراصنتهم للتقصي ولمعرفة من نحن، وماهي نوايانا.

وعندما رأيناهم قد اقتربوا بما فيه الكفاية لتمييز مراكبنا، ترددوا، وتوقفوا عن التحرك بسرعة كما كانوا من قبل، وكأنهم حصلوا على المعلومات المرغوبة، ورغبوا بالابتعاد سالمين، لكن غلايينا قامت بالوقت نفسه، مع المراكب السريعة بمطاردتهم، وأحاطت بهم، وبذلك أرغموا، وهم غير راضين على الاقتراب من مراكبنا، هذا وشاهد رجالنا ثبات وعزم مولانا الملك وعدم تقلب قراره وتصميمه، لذلك أعدوا أنفسهم، بناء على أوامره من أجل معركة بحرية، وكانت أوامره القيام باعتقال هؤلاء، والبعض الآخر إذا ماقدموا، وبعد ذلك احتلال الشاطىء بجرأة، وذلك في المنطقة التي سيجري النزول عليها، ولذلك أطلقنا ضدهم مقذوفات نارية، وحجارة من مجانيقنا البحرية، التي كانت معدة لرمي خمسة حجارة أو ستة مع بعضهم من مسافة عظيمة، وقذفنا قوارير صغيرة مليئة بالكلس، صنعت ليرمى بها من القوس، أو رمينا بعصي صغيرة مثل النشاب، ضد الأعداء، وبناء عليه خرقت قذائفنا أجساد قراصنتهم وعتادهم، في حين تولت الحجارة سحقهم، وأعماهم الكلس الخارج من القوارير المكسرة، وبناء عليه جرى على الفور تدمير ثلاثة من غلايينهم، وجرى انقاذ بعض القراصنة من الغرق، واتخذوا أسرى، وتمكن الغليون الرابع من النجاة، لكن ليس من دون تلقي بعض الأضرار، ووضعنا الرجال الذين اعتقلناهم تحت عذاب مميت، فاعترفوا بالحقيقة، وهي إن دمياط كانت قد تركت فارغة من سكانها، وأننا كنا متوقعين في الاسكندرية،

أما القراصنة الذين هربوا (بعضهم قد أصيب بجراحة حادة) والذين أرغم غليونهم على الفرار، فقد نقلوا معهم رسالة مع البكاء والعويل، إلى شعب دمياط، الذين كانوا بانتظارهم على الشاطىء، على شكل حشد كبير، وقالوا بأن البحر مغطى بأسطولنا الذي وصل للتو، ذلك أن ملك الفرنسين كان يقترب بالسلاح، مع عدد هائل من النبلاء، الذين منهم —كما قالوا— عشرة آلاف شرعوا بشكل مكشوف بالقتال ضد المسلمين، وأمطروهم بالنيران، والحجارة، مثل الغيوم، وقالوا: «لكن بما أنهم ضعفاء من الارهاق ومن متاعب رحلتهم، فإذا كنتم تحبون حياتكم وبيوتكم، هاجموهم متكاتفين مع بعضكم واقتلوهم، أو على الأقل صدوهم بالقوة، حتى يمكن استدعاء رجالنا، ونحن لوحدنا نجونا بصعوبة لاخباركم بهذه الأشياء، ولانذاركم بأن عليكم الدفاع عن أنفسكم، ونحن نعرف أعلام نبلائهم، انظروا إنهم ينقضون بغضب علينا، مستعدين، ويحث أحدهم الآخر، للقتال سواء على الأرض أو على البحر»، ونتيجة لهذا الكلام نزل الخوف وعدم الثقة بالمسلمين، وكان رجالنا قد أخبروا بالحقيقة، ولذلك ارتفعت آمالهم الجيدة، وقفزوا على شكل حشود من سفنهم إلى القوارب، وكان أحدهم يتنافس مع الآخر، لأن البحر كان ضحلاً جداً قرب الشاطىء، ولهذا لم تستطع القوارب ولاالزوارق الوصول إلى اليابسة، ولذلك غطس كثير منهم في الماء، حتى الحقوين، وذلك في طاعة منهم للأوامر الدقيقة والحثيثة لمولانا الملك، وعلى الفور كانت هناك معركة هي الأكثر دموية، وتواصل تلاحق رجالنا ببعضهم دون ترك فراغ، فتحطمت شجاعة المسلمين، وقتل واحد من الرجال من جانبنا فقط، لكن غرق اثنان أو ثلاثة، الذين لشدة حماستهم وتشوقهم للقتال ألقوا بأنفسهم بسرعة في المياه، وبذلك تسببوا بالموت لأنفسهم، وليس عن طريق الآخرين.

وبناء عليه تخاذل المسلمون، وأخذوا يتراجعون، وهربوا بشكل مهين، وارتدوا إلى مدينتهم، وكان عدد كبير منهم قد قتلوا، وأعداد أكبر منهم قد جرحوا وتشوهوا، وكان رجالنا يريدون مطاردتهم، وكان بإمكانهم فعل ذلك عن قرب، لكنهم منعوا من قبل قادتهم، خشية من خديعة قذرة، وأثناء القتال تمكن بعض العبيد والأسرى من تحطيم أغلالهم، وخرجوا من السجن ونجوا، لأنه حتى السجانين كانوا قد خرجوا للقتال ضدنا، ولم يبق أحد في المدينة إلاّ النساء، والأطفال والمرضى، وقابلنا هؤلاء العبيد بتشوق وسرور، وحيوا ملكنا وجيشه، وهتفوا يقولون: «مبارك هو الذي جاء باسم الرب»، وعملت هذه الأشياء بطالع سعيد، وبداية خيرة، في يوم الجمعة أي يوم آلام الرب (الجمعة السعيدة)، وبعد ذلك وصل مولانا الملك إلى اليابسة بأمان وانتصار، وذلك مع بقية الجيش الصليبي، وهكذا استرحنا حتى اليوم التالي، واستولينا في يوم السبت التالي بقوة وبراعة على ماكان قد بقي من الأرض والساحل دون استيلاء، وفعلنا ذلك بناء على توجيه ومعلومات العبيد، الذين عرفوا أيضاً الممرات السرية، واكتشف المسلمون في تلك الليلة نفسها بأن بعض العبيد والأسرى قد نجوا، لذلك حطموا رؤوس الذين بقيوا وبذلك جعلوا منهم شهداء ممجدين للمسيح، وألحقوا بأنفسهم بذلك الدمار كمسلمين، وقام المسلمون في ظلام الليلة التالية، وفي صباح يوم الأحد، بتقدير عدد مهاجميهم، وشجاعتهم، ومثابرتهم، فقرروا الافراغ غير المتوقع للمدينة، لأنهم كانوا بحاجة إلى قادة، وإلى رجال متفوقين، وإلى أشخاص يتولون تشجيعهم ويقومون أيضاً بتقويتهم، كما كانوا بحاجة إلى من يدعمهم ويسلحهم ويقاتل معهم، ولذلك أخذوا زوجاتهم وأولادهم، وكل مااستطاعوا حمله معهم، وهربوا بأسلحة خفيفة من خلال بوابات صغيرة، كانوا قد أعدوها ببراعة منذ زمن طويل مضى، وذلك على الطرف الآخر من المدينة، ونجوا فجأة، بعضهم عبر

اليـابســة، وبعضهم الآخـر عبر النهـر، وتركــوا المدينة مليئة بجميع الأشيـاء، وفي يوم الأحد، في السـاعـة التاسعـة صبـاحاً، قـدم أسيران خارجان من المدينة، وكانا قد نجيا صدفة من أيدي الأعداء، وأخبرانا بالذي حـدث، وألقى الملك جانبـاً بناء عليـه، كل خوف من الخيـانة، ودخل إلى المدينة قبل الساعة الثالثة بعد الظهر، من دون إراقة للدماء، أو قعقعـة للســلاح، ومن دون أن يعترضه أحـد، وعـلاوة على ذلك، مـامن واحد من الـذين دخلوا معه قـد جـرح، باستثناء هوغ لى برون Brun, ايرل التخـوم، الذي مانظـن أنه سوف ينجـو من الموت، بسبب كميـــة الدم التي تدفقت مـن جـروحــه، لأنه كـان غير مهتم بحياته، نتيجة للوم الذي تحمله، وكان قد ألقى بطيش بنفسه في وسط الأعداء، ذلك أنه كان موضـوعاً في الصف الأول للمقاتلين، بناء على طلبه، بمثابة كونه شخصاً مشكوكاً به، وهذا الأمر كان قد أخبر به.

ويتوجـب أن لانغفل ذكر، أن المسلمين عندمـا قرروا الفـرار، رموا ضـدنا النفـوط بكميات كبيرة، وبقـوة، الأمـر الذي كـان خطراً كثيراً علينا ومدمراً بالنسبة لنا، لأنه كـانت هناك رياحاً قوية تهب من المدينة نحــونا، ولكـن فجأة توقفت الريـح وتغير اتجاههـــا، وحملت النيران معيدة إياها إلى المدينة، فأحرقت عدداً من رجـالهم ودفاعاتهم، وكانت ستحرق أكثر، لولا أن العبيد، مع أن عـدد الذين كانوا قد بقيوا منهم كـان قليلاً، قـد تمكنوا على الفور من مـواجهتها، وأخمدوها بوسـائل، كـانوا هم على دراية بها، وبوســاطة صلواتهم للرب، الذي استجـاب لطلبهم، حتى لانقوم بامتـلاك المدينة وهي قد أحـرقت تماماً، وفي يوم الرب، وحسبما سلف بنا القــول، دخل مــولانا الملك المدينة في نصر عظيم، وذهـب إلى الصـلاة في معبد المسلمين أنفسهم، وعـزا إلى الرب جميع نجاحاته، بشكل لائق،وكان ذلك قبل تناول الطعام، وكان جميع المؤمنين يقطرون عرقاً، وتتدفق منهم الدموع لشدة فرحهم، وكان على

رأسهم النائب البابوي، حيث غنوا ترتيلة الملائكة، أي:" Te Laudamus Deum وأقيم بعد ذلك مباشرة قداس العذراء المباركة، واحتفل به فوق البقعة نفسها، التي اعتاد الصليبيون منذ وقت طويل مضى أن يقيموا القداسات فوقها، و أن يقرعوا الأجراس، الأمر الذي عملوه الآن تكفيراً عما مضى، ورشوا الماء المقدس، وعلى هذه البقعة، ومنذ أربعة أيام مضت، حسبما أكد الأسرى بصوت مرتفع، جرى تمجيد محمد (صلى الله عليه وسلم) بوساطة أضاحي غير طاهرة، وبصرخات عالية من الأعلى، وبزعق الأبواق، وقد وجدنا في المدينة كميات وافرة لاحدود لها من الطعام، والسلاح، والآلات، والملابس الثمينة، والأواني والأوعية والأدوات المنزلية، والذهب، والفضة، وأشياء أخرى جيدة.

وعملنا بالاضافة إلى هذا على جلب الأطعمة التي كنا نمتلك كميات كبيرة منها، من السفن، وفعلنا هذا على الفور، وجلبنا أيضاً جميع الأشياء العزيزة، والضرورية لنا، وبناء عليه، مع مباركة الصلاح اللاهوتي، ازداد الجيش الصليبي يومياً، مثل بحيرة كانت تتلقى الروافد من الأنهار الفائضة، وجاءت الزيادة من الجانب الأول، من ممتلكات اللورد فيلهاردين، ومن الجانب الثاني على شكل قوة رديفة من عساكر الداوية والاسبتارية، وذلك بالاضافة إلى حجاج جدد قد وصلوا، وبذلك تقوينا بفضل نعمة الرب إلى حد كبير، هذا وبقي رجال الداوية والاسبتارية لوقت طويل غير قادرين على تصديق مثل هذا النصر المجيد والعظيم، وفي الحقيقة إن الذي وقع كان مدهشاً جداً حتى يمكن تصديقه.

وفيما يتعلق —بناء عليه— بالأشياء التي وقعت بشكل اعجازي، خاصة انقلاب الرياح، وإلقائها عائدة النار الحامية على رؤوسهم، إن هذه معجزة قديمة من معجزات المسيح، لأنها حدثت من قبل مراراً

في أنطاكيـــة، وقـد تحول بعضهـم إلى الإيمان بمـــولانا يســوع المسيح، وانضمـوا من ذلك الوقت باخـلاص إلينـا وتمسكوا بذلك، ولكن في ظل دروس الوقــائع الماضيـة، سـوف نسير بحـذر، وتنبه في أعمالنا بالنسبة للمستقبل، لأنه كـان معنا أشخاصـاً مؤمنين من الشرق، نحن ليس لدينا شك في اخلاصهم، وهؤلاء قد عرفوا بالتجربة جميع بلدان الشرق، مع مخاطرها، وهـم بحكم اخـلاص تقــواهم، قـد تسلمـــوا طقوس التعميد.

وأثناء كتـابة هذه الأشياء، عقـد نبـلاؤنا اجتماعاً، وتناقشـوا بيقظة، وتداولوا حـول هل سيهاجمون الاسكندرية أم الفسطاط والقـاهرة، في اليـوم التـالي، ولكن بقينا جـاهلين للنتيجــة التي سيتـوصلون إليهـا، وسوف نجعلكم تعلمـون، إذا بقينا أحياء، بالذي سيحـدث، وعندما سمع سلطان مصر بأعمالنا، اقترح علينا الاشتباك في معركة عامة، وأن يكون ذلك غداة عيد القديس يوحنا المعمدان، في مكان يجري الاتفاق عليه فيما بينهم، وقد اقترح المسلمون أن نجرب ذلك بشكل عام، مرة واحـد ة وإلى الأبد، لمعرفـة سعـد الحرب، بين شعب الشرق، وشعب الغـــرب، يعني أن تقـول بين ذوي الإيمان الصحيـح وبينهم أنفسهـم، والطرف الـذي سينال حـظ النصر، ســــوف يكـون الطرف المنتصر، وسوف يخضع الطرف الآخر بكل تذلل ويقبل بهزيمته.

وعلى هذا أجـاب مـولانا الملك: «إنني لن أتحدى أعـداء المسيح في ذلك اليــوم، كما أنني لن أحـدد شروطـي للسـلام، لكن منذ الغـــد، وطوال أيام حيـاتي، من هذا اليـوم إلى الأبد، إنني سأظل أتحداه، حتى يمتلك الشفقـة على روحـه، ويتحـول إلى الرب، الـذي يرغب بإنقـاذ جميع الناس، والذي فتح صدر رحمته إلى جميع الذين يتحولون إليه».

وجميع هذه الأشيـاء التي ذكرتها لكم في رسالتي هـذه، قد حصلت عليها مـن خلال قريبي غـويسكارد الذي لايستهدف شيئاً، سوى أن

يتمكن على حسابنا، من ارتقاء كرسي الاحتراف، وأن يمتلك مكان إقامة مناسب، على الأقل لمدة عامين.

ونحن لم نسمع شيئاً مؤكداً، أو يستحق أن نخبركم به حول التتار، كما أننا لانأمل أن نجد الاخلاص و الصدق عند الخؤون، ولاالإنسانية عند اللاإنساني، ولاالاحسان عند الشحيح، مالم يعمل الرب، الذي ليس لديه شيئاً مستحيلاً، بعض الأشياء الجديدة، فلقد نظف الرب الأرض المقدسة من الخوارزمية الأشرار، واقتلعهم وأزالهم من تحت السماء، ودمرهم دماراً كاملاً، وعندما سنسمع أي شيء مؤكد، أو جدير بالتدوين حول التتار المتقدم ذكرهم أو حول آخرين سوف نخبركم به، برسالة شفوية، أو برسالة مكتوبة، بوساطة روجر دي مونتيفاجي Montefagi, الذي سوف يذهب بالربيع إلى فرنسا، إلى ممتلكات مولانا الفيزكونت، ليحصل لنا المال.

رسالة من مقدم الداوية حول الموضوع نفسه

«من الراهب وليم دي سوناك Sonnac الذي هو بفضل نعمة الرب مقدم جند الداوية الفقراء، إلى أخيه المحبوب في المسيح روبرت سانفورد Sanford, ناظر الطائفة في انكلترا، صحة في الرب:

نحن نرغب في أن نعلن إليكم في الرسالة الحالية هذه، عن أخبار سعيدة ومفرحة، وليكن بناء عليه معلوماً لديكم، أنه في يوم الجمعة بعد التثليث، وصل لويس، الملك اللامع للفرنسيين، بفضل الرب إلى اليابسة مع جيشه عند ميناء دمياط، وفي يوم السبت التالي، تمكن لويس هذا نفسه، مع جنوده من احتلال أرض وسواحل البحر، وقد قتل كثير من المسلمين، وشخص واحد فقط من الصليبيين، وفي الساعة التاسعة من يوم الأحد، استولى جيش الملك على مدينة دمياط، وهزم هزيمة ساحقة

جيش المسلمين، وبناء عليه تمّ الاستيلاء على دمياط، ليس بفضلنا، وليس بالقوة والسلاح وذراع اليد، بل من خلال القدرة اللاهوتية، والنعمة الربانية.

وليكن أيضاً معلوماً من قبلكم —علاوة على ذلك— أن مولانا الملك، عازم بفضل الرب على توجيه خطاه نحو الاسكندرية، أو نحو الفسطاط، لينقذ إخواننا ويحررهم مع آخرين محبوسين في الأسر، وليعيد البلاد كلها إلى الوصاية المسيحية، بعون الرب».

إلى غي دي بورسي (من قريب للمعلم جون الراهب في بونتني)

«إن مولانا ملك فرنسا ليس قلقاً على شيء، وقد استولى الآن على دمياط، إلاّ حول أنه ليس لديه قوات كافية لحماية وسكنى المناطق التي نالها، والتي سوف ينالها، فقد جلب الملك نفسه معه محاريث، ومساحي، وعربات، وأدوات الزراعة الأخرى، وعندما سمع سلطان مصر بهذا أرسل رسالة إلى الملك قال فيها: لماذا جلبت إلى هنا أدوات الفلاحة هذه، ألفلاحة الأرض بها؟ إنني سأوفر لك مايكفي من القمح، طوال ماأنت مقيم هنا، وقد قال هذا سخرية، وكأنه قصد أن يقول: إنك شاب غض وناعم، ولن تستطيع الإقامة طويلاً في الشرق، من دون أن تموت من الانهاك، وعلى هذا رد مولانا الملك: لقد أقسمت وتعهدت على القدوم إلى هنا، وحددت من قبل موعداً لتنفيذ ذلك وعمله، وفق أفضل مالدي من قدرة، هذا وإنني لم أتعهد ولم أقسم على المغادرة من هنا ثانية، كما أنني لم أحدد أي موعد لمغادرتي، ولذلك جلبت معي أدوات الفلاحة هذه، وقد حافظ قادة السفن على البقاء قرب سفينة مولانا الملك، وكان هناك في أسطوله مائة وعشرين سفينة كبيرة، مما يعرف باسم درومون Dromons, إلى جانب الغلايين والمراكب الأصغر، وقد قفز الملك برشاقة من سفينته، ووقع على وجهه، يصلي إلى الرب باخلاص عظيم، ليوجه طريقه وجميع أعماله.

- ٩ -

رسالة من ملك التتار ترجمت حرفياً عن الكلدانية (السريانية) إلى الرومانية (الفرنسية)

[انظر أحداث عام ١٢٥٠]

«بقوة الرب الأعلى، من أقطاي Achatay, الرسول من ملك بلاد حـام، إلى ملك عدة مقـاطعـات، النبيل المقاتل، سيف العـالم، ناصر المسيحية، وحامي اللاهوتية، وابن الشريعة الانجيلية، وملك فرنسا:

زاد الرب عظمتـه، وحفظ مملكتـه سنين كثيرة، ونفـذ رغبـاته في الشريعة، ووجهه في العالم الآني، والعـالم الآتي، بصدق التوجيه اللاهوتي لجميع الناس، ولجميع الأنبياء والرسل، وليكن ذلك.

مائـة ألف سلام ومباركة، وأنا أدعـو له بأن يتسلم هذه الأشياء وأن يكونوا مـوافقين له، وعلى هذا الأسـاس، لعل الرب يعطي في أن أرى هذا الملـك النبيل، الذي وصـل، ولعل الخالـق العظيم يسمح بـاجتماعنا بإحسان، وأن يمنح بكرمـه في أن يحدث ونتمكن من الاتحاد في شخص واحد.

والآن، بعـد هذا السلام، ليكن معلومـاً من قبله، أن قصـدنا في هذه الرسالة ليس أكثر من منفعة المسيحيـة، وتقوية يد الملك المسيحي، بتأييد الرب، وأنا أطلب من ربنـا، بأن يعطي النصر إلى هؤلاء المسيحيين، وأن يجعلهم المنتصرين على خصومهم، الذين يرفضـون الصليب، وبعد ذلك من جهـة الملك السـامي وباسمـه، رفع الرب من شأنـه، ليعلم ذلك بوجود كيوك Kyocay [خان]، لعل الرب يزيد من عظمته.

لقد قدمنا مع قوة وأوامر قضت بإعفاء جميع المسيحيين من العبودية، ومن الجزية، ومن الازعاج والمضـايقة، ومن الأشيـاء المشابهة، وأن ينظر

إليهم بتشريف وتبجيل، وأن لايأخذ أحد منهم ممتلكاتهم، وأن يعاد بناء الكنائس المدمرة مرة ثانية، وأن تعاد الألواح، وأن لايتجرأ إنسان على منع هذه الأشياء، وأن يؤدوا صلواتهم بسلام، وبقلب مطمئن في جميع أرجاء مملكتنا.

وعلى هذا لقد قدمنا في هذه اللحظة للعمل الصالح ولحفظ المسيحية، بناء على أوامر من الرب العلي الأعلى، وعلى هذا الأساس أرسلنا هذه الأشياء بوساطة رسولنا المخلص الشريف صفي الدين Saphadin, داود، ومرقص، حتى يعلنا إليكم هذه الأخبار الطيبة، وليخبراكم مشافهة بالأشياء التي بيننا، أرجو أن يكون ملك الأرض مشرفاً، وأن يزداد بالعظمة، وبعد ذلك إنه ورد الأمر في شريعة المسيح، أن لايكون هناك فرق بين اللاتين، وبين الاغريق، و الأرمن والنساطرة، واليعاقبة، وجميع الآخرين، ومثل هذا نحن نطلب من الملك الفاخر أن لايقوم بالتمييز بينهم، بل أن تكون تقواه وشفقته شاملة لجميع المسيحيين، وأن تكون تقواه وشفقته دائمة. صدر في نهاية شهر محرم Thercharram, وأن يكون ذلك صالحاً في ظل توجيه ربنا».

- ١١ -

تقرير حول أوضاع الأرض المقدسة وصل إلى إنكلترا يوم عيد القديس يوحنا لعام١٢٥٢

[انظر أحداث عام ١٢٥٢]

«إلى أخينا المحترم والمحبوب كثيراً بالمسيح، من وولتر أوف سينت مارتين، والراهب يوسف أوف كانسي Cancy, الخازن المتواضع للدير المقدس للاسبتارية في القدس، وعكا، صحة، وأن يواجه نجاحاً مضطرداً في رغباته:

ليكن معلوماً من قبل عـاطفتكم، إنه فيما يتعلق بالتقارير من الأرض المقدسـة، إن الملك اللامع لفرنسـا، المستقر خلال هذا العـام في قيسارية فلسطين، قد تدبر إحاطتهـا بخط من الأسوار والخنادق، وأن العمل قد اكتمل الآن.

وفي وقت كتـابة هذه الرسـالـة، تم للمـرة الثـانيـة ارسـال رسل من سلطان حلـب ومن الذين يتحكمـــون الآن بمصر، إلى مــولانـا الملك المتقـدم ذكـــره، مع تخويل للتفـاوض حـول الهدنة، ولتثبيـت، وكـذلك للتصـديق على الاتفاقيـات بين الأطراف، وأخيراً لم يقبل الملك المذكـور قبـول التهـادن مع سلطان حلب، لكن في أسبـوع الفصح الأخير الذي مضى، عقد هدنة لمدة خمسـة عشر عاماً مع المصريين، فـارضاً أداء يمين جسدي على الطرفين، وجاء الاتفاق على الشكل التالي:

لقـد وعـد المصريون بالنسبـة لبقيـة الأسرى الصليبيين —الذين ورد ذكـرهم في صيغـة أخرى للهـدنة، عندمـا كـان الملك أسيراً لديهم— بإعادتهم، ووافقـوا على التخلي لمولانا الملك عن جميع الأراضي فيما وراء نهر الأردن، بصرف النظر عمن كـان شاغـلاً لها من المسلمين، باستثناء: غـزة، وجباليـا Gibelet, وجينين الكبيرة Grand- gerin, والداروم (دير البلح)، وهي الأمـاكن التي بقيت بأيدي المصريين، وفقـاً لبنود المعاهـدة، وعلاوة على ذلك تقرر، أنـه مالم يقم المصريون بمـركزة جيشهم في غـزة، قبل منتصف أيار، بعـد تـاريخ الرسـائل الحاليـة، وأن يكون خلال المدة نفسها، قد قاد الملك جيشه من قيسارية إلى جوار يافا، فإن المعاهدة المذكورة سوف تكون بلافعالية.

هذا وعندمـا كـان سلطان حلب —العـدو المكشـوف للمصريين المذكـورين— مقيماً في دمشق، أثناء عمل هذه العـروض، محتفظاً بجميع المنطقة التي احتلها، حتى مكان يعرف باسم كاسي Casey بين غـزة والداروم، زحف ضـد المصريين المذكـورين مـع اثني عشر ألف

مقـاتل، وهو متـوقع أن يكون هناك ثلاثة آلاف آخـرين، سـوف يأتون باليـوم التـالي للالتحـاق بـه، مع أن جميع قـوات المصريين المذكـورين لم تتجـاوز بالعـدد ستة آلاف أو سبعـة آلاف رجل مسلح، قسم منهم قـد نجحـوا بسحبهم إلى أجـزاء من مصر، للـدفـاع عن تلك الأرض ضـد البـدو، والقبائل الأخـرى المحلية، كما أن جيش الملك المذكـور ليس من القـوة بمكان يمكنه أن يمتلـك الفـرصـة لمسـاعـدة المصريين في حـالة الطوارىء، فـالذي متـوفر لـديه مابين دينيين وعلمانيين سبعمائـة فـارس فقط، وأربعمائة من فرسان الحرب التوركبلية، وقد حسبنا بين العدد هنا المائـة فـارس الذين يأمل الملك أن يضيفهم إلى رجـاله، وبناء عليـه، كنا نحن مع آخــرين كثر، شــاكين في أن المصريين المذكـورين ســوف لن يمتلكوا الامكانيــات للقــدوم، وبذلـك فإن الهدنة المذكــورة ليس لها فاعلية.

وعـــلاوة على ذلك، نحـن نرغب أن لاتكونوا جـــاهلين، بأن جميع المنطقة على هذا الجانب من البحر مسكونة من قبل الصليبيين، باستثناء أرمينيـا، التـي هي في وضع صعب، بسبب الهدنة التي كـــان ملك تلك المملكة قد عقدها مع سلطان قونية، وهي الآن في حالة أسوأ، لم تشاهد مثلها من قبل.

وبالنسبـة لبـــلاد أنطاكيـة، قـد أصبحت الآن بسبـب عـدوان بعض المدنسين، الذين اسمهـم التركمان، والذين يقـــومـون منذ مـــدة طويلة باجتياحهـا، كلها مهـدمة مهجورة، ولذلك هنالـك خوف عظيم من أن مدينة أنطاكيـة نفسها، سوف يلحقها الدمار سريعـاً، من خلال الخوف، ونتيجـة لهروب سكانها، فلقـد زحـف حـوالي العشرة آلاف من الشعب الشرير المتقـدم ذكـــره إلى مكان اسمـه قيصرية الكبرى، وهنـاك نصبـوا خيـامهم للاقامـة، ومايزال هنـاك المزيد قد تشجعـوا، وبذلك اجتاحـوا بلادنا وبلاد الآخـــرين بعيـداً حتى طرابلس، وقـد أحـــرقـوا كثيراً من

البيوت الريفية، وأخذوا معهم أربعة آلاف من مواشينا الكبيرة، وبعدما أحدثوا مذبحة كبيرة بين أعدائهم، حملوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى، ذلك أنهم مضوا راجعين إلى قيصرية المتقدم ذكرها، وهنا سوف يبقون إلى أن يكملوا تدمير المنطقة كلها، مالم يعيننا الرب، ومن المعتقد أيضاً أنهم سوف يزحفون ضدنا لمساعدة سلطان حلب، لأنه بناء على تحريضه، وقعت كل الأفاعيل التي تقدم ذكرها وعملت.

صدر في الثاني من أيار، وقد نشرت هذه التقارير في يوم صعود مريم العذراء المباركة».

- ٢٣ -

رسالة من الأسقف الهنغاري إلى أسقف باريس حول التتار

[حوادث عام ١٢٥٧]

«إنني أكتب مجدداً إليكم حول التتار، وكيف أنهم وصلوا إلى قرب حدود هنغاريا، خلال زحف استغرق خمسة أيام، وذلك إلى قرب بعض المياه اسمها دينفير Deinphir [Theiss?]، التي لم يكونوا يستطيعون عبورها في الصيف، وبما أنهم كانوا راضين بالانتظار حتى الشتاء، أرسلوا أمامهم، بعض الجواسيس إلى روسيا، وجرى اعتقال اثنين منهم، وأرسلا إلى مولانا ملك هنغاريا، وهذين لدي في سجني، وقد تعلمت منهما بعض الأشياء الجديدة، ها أناذا مرسلها إليكم، وقد سألتهما عن موقع بلادهما، فأخبراني أنها موجودة خلف الجبال، وهي واقعة قرب نهر يدعونه ايغوغ Egog، وأنا أعتقد أنهم شعب يأجوج ومأجوج، وسألتهما عن عقيدتهما، وبكلمات بسيطة هم لايؤمنون بشيء، ثم شرعا يخبراني بأنهم خرجوا من بلادهم للاستيلاء على العالم، وهم يستخدمون الأحرف اليهودية، لأنهم لم يمتلكوا شيئاً من هذا خاصاً بهم من قبل، وسألتهما من الذي علمهم تلك الأحرف، فقالا: تولى ذلك

بعض الرجال الشاحبين، الذين يصومون كثيراً، ويرتدون ملابس طويلة، ولايؤذون أحداً، وبما أنهما أخبراني بوقائع كثيرة حول هؤلاء الرجال، وجدته يتوافق مع أوهام الفريسيين والصدوقيين، فاعتقدت أنهم صدوقيين وفريسيين، وسألتهما عما إذا كانوا يعملون أي تمييز بين اللحوم، فقالا: لا، لأنهم يأكلون الضفادع، والكلاب، والأفاعي، وكل شيء مشابه، وسألتهما كيف خرجوا إلى خارج الجبال التي سكنوا خلفها، فقالا بأنها رحلة عشرين يوماً لعبور هذه الجبال، في كل من الطول والعرض، ولديهم دوماً اثني عشر ألف رجل على ظهور الخيول لحراسة جيشهم، وأن خيولهم جيدة، لكنها حمقاء، وأن كثيراً من الخيول تتبعهم دون أن تقاد، وعلى هذا إذا ماركب رجل على ظهر حصان، يتبعه بالعادة عشرين أو ثلاثين حصاناً، ولديهم دروع من الجلد أقوى من دروع الحديد، ووفق الطريقة نفسها لديهم أغطية لستر خيولهم، وهم لايستطيعون القتال على الأقدام، لأنهم يمتلكون أرجلاً قصيرة وأجساداً طويلة، وهم نبالة أفضل من الهنغار ومن الكومان، ولديهم أطراف أقوى، والطريقة التي يغزون بها البلاد، هي أنهم يقتلون السكان، باستثناء الأطفال، الذين يتولى مولاهم جنكيزخان —ومعنى اسمه هذا ملك الملوك— دمغهم بختمه، بكيهم على الوجه، ولدى جنكيزخان اثنين وأربعين مستشاراً، إليهم عهد بختمه، ومامن واحد من الجيش كله يتجرأ على الصراخ بصوت مرتفع، ومامن واحد من الجيش كله يتجرأ على التساؤل: «إلى أين ذاهب مولانا»؟ أو «ماالذي ينوي أن يفعل»، وهم يشربون ألبان خيولهم، وهي في الغالب مسكرة، ونحن غير قادرين على سماع أي شيء جديد حولهم، يمكن الاعتماد عليه بشكل مؤكد، لأنهم يسيرون أمامهم بعض الناس الذين يدعون باسم مورداني Mordani, وهم يقتلون الجميع من دون تمييز، ومامن أحد منهم يتجرأ على لبس نعليه حتى يكون قد قتل صاحبها، وأعتقد أنهم هم الذين قتلوا الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، والرسل الآخرين، الذين كان ملك هنغاريا قد أرسلهم

للاستطلاع، وبلاشك هم قد أفسدوا ودمروا جيمع الأراضي التي وصلوا إليها، وذلك حتى النهر الذي تقدم ذكره».

رسالة أخرى

«إلى اللامع والممجد جسون، الذي هو بنعمة الرب دوق برابانت وبولون، والذي هو رجل موهوب بصلاح مدهش، ومتوج بحكمة الخلاص، وإلى ن. N, الذي هو بفضل الرب لاندغريف أوف ثورنجيا وسكسوني، وكونت بالاتاين Palatine, صحة وسلامة من المخاطر لكما وللعقيدة المسيحية:

اسمعوا يوجد هنا جزر، جميع سكانها نصارى، ممن يؤمنون بصليب ربنا، يولولون في الرماد، وفي الثياب البالية، وهم في حالة صيام ودموع، وعويل، فلتسل دموعكم أنهاراً، لأن يوم الرب قد وصل، إنه الآن قد حل، وهو ذلك اليوم العظيم والحاد المرير، ولقد وقع تنكيل لم يسمع بمثله بصليب المسيح، وجاء من الشمال ومن البحر، وإنه بعقل مضطرب وبقلب مفجوع، وبمظهر دامع، وبأنين بالروح، والتنهد بين آونة وأخرى، إنني سعيت لإخباركم بالحكاية بقدر مااستطعت، عن كيف قامت شعوب لايمكن تعدادها، هي ممقوتة بالنسبة للناس الآخرين، وهي شريرة بلاحدود، باجتياح الأرض والدوس عليها بلامبالاة وازدراء، جاءوا من الشرق، ووصلوا حتى حدود مملكتنا، وذلك بعدما دمروا الأرض كلها، فلقد دمروا مدناً وقلاعاً، لابل دمروا حتى المدن الحواضر، ولم يوفروا لامسيحيين، ولامسلمين ولايهود، فقد قتلوا الجميع سواء من دون رحمة، باستثناء الأطفال فقط، الذين يختم جنكيزخان على جباههم بختمه، وهم لايأكلون الناس، بل يفترسونهم، ويأكلون الضفادع، والأفاعي، ويتكلمون بإيجاز، ولايميزون في أطعمتهم، ومثلما تهرب جميع الحيوانات من وجه الأسد، مثل هذا يفعل الناس المسيحيون، ويديرون ظهورهم للهروب من وجه هؤلاء الناس،

لأن الكومان، وهم شعب شجاع، لم يستطيعوا الصمود ضدهم في بلادهم، بل إن عشرين ألفاً من الكومان قد هربوا إلى عند المسيحيين، وعملوا حلفاً معهم، وهم على استعداد للقتال ضد كل شعب، إلاّ ضد الشعب المتقدم ذكره، ومالعجب من هذا؟ وهم أشخاص مرعبون، لهم منظر مخيف، الغضب ظاهر من أعينهم، وأيديهم قوية متينة، وأسنانهم دموية، وأفواههم جاهزة دائماً لأكل لحوم الناس، ولشرب الدماء البشرية، وأعدادهم كبيرة جداً إلى حد أن جيشهم يزحف بطول عشرين يوماً، وبعرض خمسة عشر يوماً، ولكي نجمل كل شي بكلمات قليلة، فإن التتار المتقدم ذكرهم قد دمروا تماماً روسيا كلها، وبولاندا حتى حدود مملكة بوهيميا، والشطر المتوسط من هنغاريا، ودخلوا فجأة إلى المدن، وشنقوا رؤساءهم في وسطهم، ولذلك نحن نعتقد أنهم سيف غضب الرب، بسبب ذنوب الشعب المسيحي، كما شهد على ذلك القديس ميثودياس Methodias, الذي دعا هؤلاء التتار باسم «الاسماعيلية والحمر الوحشية» إلخ.

لكننا نثق بفضل ورحمة القاضي الأعلى، ونتوجه بالرجاء بتواضع إلى الرجال المقدسين من الدومينيكان والفرنسيسكان للدعوة إلى حملة صليبية، وإلى الصلاة، وكبح الغرائز، والصوم، من قبل جميع شعوب المسيحية، ذلك أننا نقترح الإقامة في المملكة السماوية، وأن نرفع السلاح، ونمسك الترسة، لأنه من الأفضل لنا أن نموت في الحرب، على أن نشهد الشرور محيقة بشعبنا، وبقديسينا، وإذا ماتحطمت ترستنا تحت وطأة الحملة الأولى وضربات السيوف، وعندما تصبح بيوتنا عرضة للنيران وأراضينا قد نهبت واجتيحت، لابد للبيوت المجاورة، والمقاطعات المجاورة، أن تأخذ حذرها. وداعاً.

لقد سمعت من الراهب روبرت دي ثيل Theles بأن هؤلاء التتار قد دمروا بالفعل سبعة أديرة للرهبان».

رسالة ثالثة

«إلى جميع الأبناء الأعزاء والمخلصين في المسيح الذين من الممكن أن تصل إليهم هذه الرسالة، من الراهب جوردان، من طائفة الفرنسيسكان، نائب منطقة بولاندا، ودير برنغ Pring(1-)، مع بقية الرهبان صحة:

إنه من خلال ذنوب الناس، ازداد تلقي التعاسات في هذا العام، والمآسي، التي عرفت من قبل، وجرى الاخبار عنها، والتنبؤ بها، قد نزلت بنا، وكأنها قادمة تطير بأجنحة من عند الرب، فلقد جرى طرد الرهبان الدومينيكان، ورهباننا، وجميع الآخرين من المؤمنين، من شعب التتار، الذي من بلاد التتر Tartarus، بعنف جرى وصفه في بينات الكتابات المقدسة، لأن دولاً كثيرة غير معروفة قد جرى تدميرها، وروسيا التي هي ليست دولة غير معروفة، قد هلكت مع دوقاتها السبعة، وقاموا أكثر من هذا، وياللعار، بغزو أراضي الكنيسة، وبسرعة عبروا أعظم الأنهار وأكبرها، وأكثف الغابات، وقدموا بصورة مدهشة جداً، فاحتلوا الشطر الأكبر والأقوى من هنغاريا، وهذا الأمر، وإن كنا —بسبب المسافة— لانستطيع أن نقدم إليكم عنه معلومات كاملة وصحيحة، مع ذلك سوف نقدم إليكم رواية صادقة عن الأشياء التي وقعت في مقاطعتنا.

إن بولاندا كلها تقريباً، قد دمرت من قبل أفراد هذه الشعوب المتوحشة، الذين لايقيمون وزناً، لالعمر، أو جنس، بل يذبحون الجميع بحد السيف، ويدنسون الأماكن التي تقدست من قبل الرب، وهم الآن على حدود ألمانيا وبوهيميا، جاهزين لاقتراف جميع الأفاعيل الوحشية نفسها، مالم يمنعهم الرب عنا وعن بقية العالم المسيحي، ولأن العالم

١- غير مؤكد المقصود هنا أهو براغ، أم بنسك Pinsk في ليتوانيا؟.

المسيحي مثقل بالحروب الكثيفة والانشقاقات، يبدو أنه يقدم قليلا من الانتباه، أدنى مما ينبغي، ومما هو ضروري للصالح العام والسلام ومنفعته العامة، ونحن مضغوط علينا من قبل هذه المخاطر، إننا نسأل فقط تضرع صلواتكم، وحث جميع المؤمنين لفعل ذلك، باخلاص صحيح، وليكن معلوماً من قبلكم أن خمسة ديرة تابعة للرهبان الدومينيكان مع ديرين عائدين لرهباننا، قد جرى تدميرهم كلياً، ويغطي أعداؤنا بمعربديهم مساحة واسعة من الأرض في الشمال، هي أكبر من توسكانيا ولومبارديا، وفقط ثلاثة مواقع نجت، فموقع واحد أو بالحري اثنان قد نجوا، ومن الموقع الثالث، الذي قبل كان في بوهيميا، خرج الملك لمواجهتهم مع جيش كبير جداً، لكن النصر مع الرب.

صدر في بنسك في العام ١٢٤٢ لمولانا، وفي اليوم الرابع قبل حلول شهر نيسان».

رسالة رابعة

«إلى جميع أعضاء الجماعة الدينية والمخلصة للكنيسة المسكونية المقدسة، الذين سوف يشهدون أو يسمعون الرسالة الحالية، من ف. F, الذي هو بفضل نعمة الرب رئيس رهبان دير القديسة مريم، ومن جميع الرهبان في المكان نفسه، الذين هم من طائفة القديس بندكت، القاطنين في هنغاريا، مواساة الفارقليط، والصحة المستحقة بفضل القديس بندكت، والمجد إلى الأبد:

نحن نوصيكم بالإحسان إلى حملة هذه الرسائل، وهم من الرهبان البندكتيين، وجون، وكهنة ورهبان من ديرنا، أرسلنا بهم من دير القديسة مريم في روسيا للإقامة في ايرلاندا، لأننا أرغمنا على فعل ذلك، بالوصول غير المتوقع للتتار، الذين إليهم نقول مع الشعور بالعار قد

منح اسم اسماعيلين، وياللأسف، إن كنيستنا الأم تئن وتنتحب من أجل أولادها، عبيد الرب، الذين تفرقوا في مختلف دول العالم، بسبب التتار، الذين وصلوا بأعداد كبيرة، ولقد غزونا عبر الحدود الشرقية، وقتلوا الشطر الأكبر من السكان في تلك الأماكن، ونهبوا أيضاً نهباً شاملاً ممتلكات كنيستنا، والموارد التي كان رهباننا يعيشون منها، ولقد قيل بأنه انقضى حتى الآن اثنان وأربعين عاماً منذ أن غادروا الجبال المحيطة ببلادهم، وقد جاءوا متقدمين —كما نعتقد— من هذه البلدان الملعونة، ونهبوا ودمروا مثل حيوانات متوحشة بلدان آسيا، وبوحشية قتلوا أربعة ملوك من ملوك تلك البلدان مع أمرائهم، وقتلوا في يوم واحد، أو بالحري بلحظة واحدة الملك الفارسي مع المتعلقين به، وخمسة وعشرين من دوقات روسيا الأقوياء، وهنري دوق بولاندا، صاحب الذكرى الطيبة، مع أربعين ألف رجل، كما أنهم أرغموا بيلا Bela الملك القوي لهنغاريا، وثلاثة رؤساء أساقفة، وأربعة نواب أساقفة، وخمسة وستين ألف رجل على الفرار، وفي الحرب نفسها، أيضاً جرحوا بجراحة مميتة كولومان Colomans أخي الملك المتقدم ذكره، ولذلك مات بعد وقت قصير، ثم إنهم انطلقوا نحو مناطق دوق النمسا النبيل، وستيريا Styria, وتخوم تريفسيا Trevisa, ومورافيا وبوهيميا، وعبروا في يوم عيد الميلاد بقوة كبيرة، فوق نهر الدانوب، الذي كان متجمداً، وجاء عبورهم إلى الجانب الآخر من النهر، حيث نهبوا ودمروا أراضي الأمراء الذين تقدم ذكرهم، ومحقوا بشكل وحشي كل شيء كان هناك، دون أن يوفروا جنساً، واقترفوا بصورة بشعة كل أنواع الجرائم، فقد ناموا مع نسائهم في الكنائس، ومن المحزن القول أنهم عملوا مرابط لخيولهم في الأماكن المقدسة الأخرى، وتعاظمت وقاحتهم من خلال غضب الرب، وبلغت من الشدة أن رجال الدين، أي رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورؤساء الرهبانيات، والأمراء، وحشود هائلة لم نعرف أسماءها، قد هربت من أمام قادة

هؤلاء المتوحشين غير المدجنين، وهم لايتوقعون شيئاً على أيديهم، غير الموت، وجرى قتل الرهبان، والراهبات، والواعظين، وقد ماتوا شهداء في سبيل اسم المسيح، ونحن نعتقد بأنهم قبلوا للعيش في سعادة سرمدية، وبناء عليه نحن نتوسل إلى محبتكم متواضعين من أجل أن تفتحوا صدر الرحمة إلى الذين يفرون الآن إليكم للالتجاء.

صدر في فينا في عام النعمة ١٢٤٢، في اليوم السابع من كانون الثاني.

★★★ ★★★ ★★★

وانتشرت في هذه الأيام بسبب هذه الأخبار من هذا النوع، الأبيات التالية، المعلنة عن قدوم المسيح الدجال:

«عندما يكون ضعفي ستمائة عام وخمسين زيادة

قد مضوا منذ ولادة ابن المباركة مريم

وقتها سوف يأتي المسيح الدجال مليئاً بالشرور».

رسالة خامسة

«إلى جميع اخوانها، من الراهب رتشارد من طائفة الدومينيكان، وجون من طائفة الرهبان الفرنسيسكان، صحة:

لقد سمعتم أخباراً متفرقة، من أشخاص متنوعين حول التتار الملعونين، لكن ليكن معلوماً لديكم، بأن الأشياء التي نكتبها الآن إليكم، هي الأكثر صحة، ولايمكن أن تكون زائفة:

إنهم أقوياء، ورجال حرب، وعددهم كبير، ومسلحين بما فيه الكفاية وبشكل جيد، وهم قد دمروا بلداناً كثيرة، ومن هذه البلدان، ليكن معلوماً لديكم، بأن الشطر الأكبر من روسيا قد جرى نهبه واجتياحه، وتعرضت مدينة كييف والقلعة التي كانت هناك إلى الدمار، وجرى قتل

عدد كبير، ولقد علمنا من الذين نجوا من تلك البلاد، وبشكل رئيسي في سكسونيا، بأنهم هاجموا تلك المدينة وأبراجها بإثنين وثلاثين منجنيقاً، ولقد خاضوا الحرب لمدة عشرين عاماً ضد الروس، غير أنهم قدموا في هذا العام قبل عيد الفصح إلى بولاندا، حيث ذبحوا أعداداً من الناس، وتملكوا بعض المدن الجيدة، وقد واجههم هنري دوق بولاندا مع جيشه، لكنه قتل، مع حوالي عشرة آلاف رجل من أتباعه، زحفوا من بولاندا، فوصلوا إلى حدود ألمانيا، حيث من هناك انعطفوا جانبياً إلى مورافيا، ودمروا ونهبوا جميع تلك البلاد الجيدة، وواجه بعض هؤلاء جيشاً كان قادماً ضدهم من خلال هنغاريا، فأوقعوا به ونالوا منه، وقاموا بعد ذلك باحتلال الشطر الأكبر من هنغاريا، حيث طردوا منها ملكها، إلخ».

الملاحق

الملحق الأول

أشعار حب وتمجيد للصليب والقدس والفرسان

من أشعـار وأغـاني الحروب الصليبية ذات التـواريخ المتنوعـة، والتي من الممكن أن ندعوها خـواطر ذاتية، حيث تقدم لنا حقيقـة تاريخية عن الحروب الصليبية، وعن واجب الفـرسان في تلك الآونة لإنقـاذ القدس بيت الرب:

أيها الفرسان أحاطكم الرب بحمايته.

عندما اشتكي إليكم من الأتراك والمرابطين.

الذين تصرفوا باستهانة واستخفاف إزاء مساسهم بمقدسات الرب،

كم هو كبيرٌ ألمنا لمساسهم بأول أماكن الرب وأقدسها.

★★★ ★★★ ★★★

من يذهب الآن ليلحق بالملك لويس

عليه أن لايخاف الجحيم، لأن روحه

ستسكن الجنة مع ملائكة الرب.

★★★ ★★★ ★★★

القدسُ أخذت كما تعلمون

والمسيحيون في حزن شديد

الكنائس سلبت ونهبت

والمقدسات انتهكت

أيها الفـرسان تحركـوا وتشجعوا، وضحـوا بأنفسكم من أجل الرب، الذي صُلب من أجلكم.

★★★ ★★★ ★★★

اقتدوا بالملك لويس

الذي يملك الجاه والمال والسلطة، ومع كل هذا ترك قصوره وأملاكه ومدنه وأطيانه ليذهب إلى القدس، حيث صلب

المسيح الرب من أجلنا، ليخلصها.

★★★ ★★★ ★★★

من يذهب الآن ليلحق بالملك لويس

عليه أن لايخاف الجحيم، لأن روحه

ستسكن الجنة مع ملائكة الرب.

★★★ ★★★ ★★★

سُلّم الربُ لليهود

ليحررنا من أسر الجحيم

أولئك الذين جرحوه خمسة جروح

ليتعذب ويتألم من أجلنا حتى الموت

يناديكم المسيح الآن ويتـوجـه إليكم للقضـاء على الكنعـانيين، وعلى الجماعات المتعطشة للدماء

ليأخذوا جزاء مااقترفته أيديهم.

★★★ ★★★ ★★★

من يذهب الآن ليلحق بالملك لويس

عليه أن لايخاف الجحيم، لأن روحه

ستسكن الجنة مع ملائكة الرب.

★★★ ★★★ ★★★

حدد المسيح الموعد واليوم في القدس

للآثمين، مع هؤلاء الذين يعرفون تماماً كيف سيقاتلون،

هؤلاء الذين أحبوا المسيح، وذهبوا من أجله

★★★ ★★★ ★★★

من يذهب الآن ليلحق بالملك لويس

عليه أن لايخاف الجحيم، لأن روحه

ستسكن الجنة مع ملائكة الرب.

★★★ ★★★ ★★★

هيا اذهبوا واغزوا مهد موسى وقبره

في سيناء، انتزعوه من أيدي المسلمين

وهكذا فلق موسى البحر الأحمر بضربة واحدة إلى قسمين

عندما كان شعبه يتبعه، وفرعون يلحق به،. فقضى البحر على فرعون وأتباعه.

★★★ ★★★ ★★★

آه وحدكم أيها العشاق تفهمون قصدي

سأجعلكم شاهداً لألمي ومعاناتي

بانتزاعي من بين ذراعي حبيبتي

عندما تضيع حبيبتي مني، ماذا يبقى لي إذاً

★★★ ★★★ ★★★

الحب، نعم، أستطيع أن أقول هذا

لو استطاع المرء أن يموت حقاً من الألم.

فلن أنظم بعد اليوم لاأشعاراً ولاأغنيات

★★★ ★★★ ★★★

عذب أنت أيها الرب المولى، ماذا جرى لي؟

هل يجب علي فعلاً أن أقول لها وداعاً؟

آه، نعم، لم يبق لي سوى أن أذهب بدونها إلى أرض بعيدة

فإذا رحلتُ فسيكون عذابي الذي ينتظرني أخفُ قليـلاً من عذابي هنا من غير عزاء.

★★★ ★★★ ★★★

أيها الرب المولى، كيف ستكون حياتنا بعد فراقنا

كيف ستكون أفراحنا وأحاديثنا،

والعبارات التي كانت ترددها لي حبيبتي

تلك التي كانت لي سيدة ورفيقة وحبيبة

عندما تذكرني بحضورها العذب، وطيبتها وحنانها نحوي

كيف لقلبي أن يتحمل فراقها (القدس)

بالتأكيد، أنه لأمرٌ سيء صعب

ماأراد الرب أن يمنحني كل هذه المسرات دون مقابل،

كم كنت أخشى الموت تحت وطأة ديوني نحو الرب

الشفقة! الحب! هذا إذا أراد الرب أن يتفضل وأن يهبني إياها.

★★★ ★★★ ★★★

وهكذا سينكسر في قلبي حباً حقيقياً

لاأستطيع انتزاعه من نفسي أو التخلي عنه

حينذاك قد يجب علي أن أهجر سيدتي (القدس)

★★★ ★★★ ★★★

هؤلاء الوشاة الوضيعون سيسعدون ويبتهجون بتعذيبي، وبالألم الذي سيصيبني

لن أشفق عليهم أبداً ولن أتسامح معهم ولن يكون قلبي رحيماً معهم

لأنهم قد أضاعوا ثمرة حياتي وجهادي

هؤلاء الخونة قد سببوا لي الكثير من الألم.

فلن يكون الرب قد فرض علي إلاّ عبأً ليس بأثقل علي منه.

★★★ ★★★ ★★★

آه، ياسيدتي، سأذهب إليهم لأقاتلهم

أوصيك بالله خالقنا، حيثما أذهب

ولاأعرف إن كنت ستشهدين رجوعي يوماً ما

أو أنه من الممكن لي يوماً أن أراك ثانية،

ولكنني أرجو منك حيثما أذهب، أو حيث أبقى، أو أعود، أن تكوني مخلصة لعهدنا.

★★★ ★★★ ★★★

هل للرب أن يمنحني رأفته

تلك هي صلاة قلب أحبك بإخلاص

★★★ ★★★ ★★★

إنه ربيع أيار، أزهار البنفسج والبلابل تدفعني لأغني

وقلبي يجعل حبي لها (القدس) عذباً رقيقاً لاأجرؤ على مقاومته

آه! إن الرب منحني السعادة الفائقة

بأن يجعلني أضمها عارية بين ذراعي

تلك التي وهبتها قلبي وعقلي

ثم سأذهب إلى ماوراء البحار لأحارب مشاركاً بالحملة الصليبية

★★★ ★★★ ★★★

ظهرت لي منذ البداية غاية في العذوبة والرقة

حتى أنني لم أكن أفكر بعذابي ومعاناتي من أجلها

فلقد كان وجهها الرقيق وشفتاها غاية في الجمال

وكانت عيناها الزرقاوتان (المائلتان للاخضرار) الجميلتان والمليئتان بالضحك

والصفاء قد جعلتني أسيرها قبل حتى أن أجرؤ على الارتباط والتعلق بها.

- ٨٦٦١ -

فإذا مـــــاأرادت أن تأسرني أو تحررني، وإذا مـــاأخفقـت أنا، أو إذا ماأعطتني وعوداً

سأفضلها على أية واحدة غيرها.

★★★ ★★★ ★★★

آه! لماذا تتأملها عيناي

هذه المرأة الرقيقة التي تستحق لقب الحبيبة

★★★ ★★★ ★★★

هي التي تضحك مني عندما أحبها بهذا القدر

لايوجد أي إنسان خانته تلك العذوبة، بهذا القدر

عندما أتعلق بها، فلاتمنحني إلاّ السعادة

★★★ ★★★ ★★★

الآن إنها لي وهي تقتلني دون مسوغ

لقد أحببتها حباً صادقاً من دون شك

ولاأرى في هذا باعثاً آخر

تنهدت آلاف التنهدات وتأوهت

ولم ترق لحالي ولو مرة واحدة

منعتني أن لاأحبها إلاّ بإخلاص

وتركتني بلا نوم أو راحة

فستكون هي انتصاري وثأري

فلن نلوم إلاّ الموت من أجل الحب

★★★ ★★★ ★★★

أفراح الحب ستتوج الآخرين

أراد الرب أن يضيء شعلتي أنا فقط

لا، ذلك هو مصيري، هذا مافعله أعداء الحب

مع ذلك هم يعرفون بأن هذا لن يفيدهم شيئاً

هؤلاء الذين يستولون على شيء لايمكن أن يُعطى

★★★ ★★★ ★★★

الذين ينشرون الحقد والكراهية

وتستمر الحروب دون أن يربحوا شيئاً (الأعداء)

وقد لاأستطيع التنهد بعد الآن من كثرة نطقي باللعنات لهؤلاء

★★★ ★★★ ★★★

سآخذ نصيبي في سبيل حبك ونصيبي هو الموت

ولكن في اللحظة التي قد أموت فيها

سينكشف كل شيء وسيظهر واضحاً

أن الرب لن يعفو عنهم مطلقاً (الأعداء)

★★★ ★★★ ★★★

آه! أيها الرب كم هو صعبٌ علي أن أترك

السيدة الأفضل التي كانت دائماً معينة وحبيبة

ولطالما كان ألمي كبير لفراقها،

فإن الرب الطيب سيمنحني رؤياها ثانية

★★★ ★★★ ★★★

مسكين أنا! ماذا أقول؟

لن أتركها أبداً

فإذا ذهب جسدي لخدمة الرب

فإن قلبي سيبقى صامداً بكامل قوته

من أجلها سأذهب متنهداً إلى سورية

لأنه لايجوز لأحد أن يتخلف

عن أداء واجبه نحو الخالق

ومن يتخلف عن هذا سيكون مصيره الخطر الشديد

فالذين يتخلفون عن هذا يعرفون جيداً أنهم أذلاء

★★★ ★★★ ★★★

فهذا هو برهان الشجاعة والبطولة

وهاهو عندما نغزو الفردوس، ونحقق الشرف والمجد والشهرة وحب حبيبته (القدس حبيبة الرب)

حوصر المسيح في أرضه المقدسة (القدس) لكننا سنرى كيف سينقذه هؤلاء

من سجنه المعتم وسيرفعون الصليب عالياً

وسيعرف الذين تقاعسوا عن إنقاذ القدس بأن العار سيغطي

وجوههم كلها

إلاّ الشيوخ، أو القاصرين، أو المعلولين الذين لايستطيعون الذهاب ليحاربوا

أما الأقوياء والشباب والأغنياء فليس لهم عذراً بالبقاء هنا دون الدفاع عن القدس

★★★ ★★★ ★★★

أما رجال الدين والفكر والكهنة الذين لايتوقفون عن فعل الخير والعمل النبيل

فسيشاركون بهذا الحج المقدس لتحرير القدس بنبلهم وأعمالهم الطيبة.

وأيضاً النساء الطاهرات اللواتي بقين مخلصات للغائبين (أزواجهم)،

ماعدا اللواتي انغمسن في الفسق والخبث والفساد.

كل الناس الطيبين سيشاركون بهذه الحملة لتحرير القدس

أما الإنسان الذي لا يرضى أن يعيش بالحزن والأسى،

الذي قد يذهب سعيداً فرحاً لملاقاة الموت من أجل الرب،

فسيكون الموت بالنسبة إليه عذبٌ

فبالموت وحده نستطيع أن نسترد أغلى الممالك

لا بقاء لإنسان لم يمت في سبيلها، حيث الجميع سيتحولون إلى حياة ملؤها المجد.

★★★ ★★★ ★★★

أيها الرب استبسلنا في سبيلك لمدة طويلة دون جدوى.

لكن في هذا الموقف وفي هذه الحرب

سنرى من سيعرف كيف يبرهن عن شجاعته.

★★★ ★★★ ★★★

سنحاول إصلاح خطئنا وفعلنا المشين

الذي جعلنا نمتلىء خجلاً ونتطير غضباً

وذلك لأن الأماكن المقدسة ضاعت في عهدنا

حيث تعذب الرب من أجلنا وعانى من مرارة الموت

فإذا تسامحنا الآن مع أعدائنا الطاغين

ستمتلىء حياتنا خذيٌ وعار

★★★ ★★★ ★★★

القدس تتكلم:

سأغني من أجل أن تهدأ روحي

لأنني بحاجة للراحة في هذه المحنة

لأتفادى الموت أو الجنون

الآن أرى جيداً بأن أحداً لن يعود من هذه المنطقة المقفرة

لكن حيث يبقى حبيبي (المسيح)

يرتاح صدري، ويخف عذابي عندما أسمع كلاماً عنه

ربي! عندما يهتف الحجاج المحاربون: «إلى الأمام»

انقذوا ذاك الذي يرتعش قلبي من أجله:

إنهم لقساة هؤلاء المسلمون!

★★★ ★★★ ★★★

سأتحمل مصيبتي وتعاستي

حتى يمضي العام

إنه الحج الذي سيحرر القدس ويعيدها إلينا

★★★ ★★★ ★★★

وعلى الرغم من أن الأمر سيكون ضد رغباتي، لكنني لاأستطيع

أن أقبل بزوج غيره(المسيح)

وسيكون مجنوناً من يجرؤ على مناقشتي بالأمر

★★★ ★★★ ★★★ -

ربي! عندما يهتف الحجاج المحاربون:« إلى الأمام»

انقذوا ذلك الذي يرتعش قلبي من أجله:

إنهم لقساة هؤلاء المسلمون!

★★★ ★★★ ★★★

لماذا أنا حزينة إلى هذا الحد

فمن كان سبب عذابي، أصبح بعيداً عني

فكم أنا جميلة، وكم هو جميلٌ

أن يكون هناك الكثير من الضحك والسرور

ولكن لماذا افترقنا عن بعضنا أيها الرب؟

★★★ ★★★ ★★★

ربي! عندما يهتف الحجاج المحاربون:« إلى الأمام»

انقذوا ذلك الذي يرتعش قلبي من أجله:

إنهم لقساة، هؤلاء المسلمون!

ولكني بقيت مخلصة له

فعندما تهب على المنطقة نسماتٌ عذبة قادمة من بلادٍ عذبةٍ

ذهب إليها حبيبي— المسيح الرب.

أحس وكأن الرب يلامسني

من خلال معطفي الرمادي هذا.

★★★ ★★★ ★★★

ربي! عندما يهتف الحجاج المحاربون:« إلى الأمام»

انقذوا ذاك الذي يرتعش قلبي من أجله:

إنهم لقساة، هؤلاء المسلمون!

★★★ ★★★ ★★★

وكم أنا آسفة بأنني لم أرافقه عندما رحل(الرب)

فقميصه الذي كان يرتديه، قد أرسله لي لأضمه إلى جسدي ليلاً،

وعندما تتأجج نار الحب فيّ وتحرقني، أضعه إلى جانبي أثناء نومي

وأجعله قريباً من جسدي العاري، حتى أخفف من ألمي

★★★ ★★★ ★★★

ربي! عندما يهتف الحجاج المحاربون:« إلى الأمام»

انقذوا ذاك الذي يرتعش قلبي من أجله:

إنهم لقساة، هؤلاء المسلمون!

★★★ ★★★ ★★★

أيها السادة اعلموا، أن الذي لم ينو الـذهاب إلى هذه الأرض المقدسة حيث ابن الرب عرف الحياة والموت.

والذي لم يأخذ الصليب معه ليذهب إلى ماوراء البحار ليحارب،

سيصعب عليه دخول الفردوس

أما الذي يذكر الرب ويرأف لعذابه من أجلنا

يجب عليه أن يترك أرضه ومملكتـه ليثأر لموت مولانا، ويخلص أرضه ومملكته،

وجميع السيئين الذين لا يحبون الرب ولا الشرف ولا المجد

كل واحد منهم سيقول: ماذا سيجري لزوجتي إن ذهبت؟

ومهما كان الثمن لن أهجر أحبائي.

هؤلاء قد مسهم الجنون لأنهم تقاعسوا عن واجبهم

ففي الحقيقــة ليس لي حبيب غيره—الرب الذي قبل أن تسمــر يداه على الصليب من أجلنا.

انظروا الى الشجعان من الفرسان، فهؤلاء الذين أحبوا الرب وشرف العالم

هؤلاء هم العقلاء الذين أرادوا أن يذهبوا إليه(المسيح)

أما الجبناء وذوي النفوس الوضيعة فسيقبعون هنا كالعميان،

فبالتأكيد لم يرغبوا أن ينقذوا الرب ولو مرة واحدة في حياتهم

إنهم الذين أضاعوا مجد العالم بما فعلوه.

★★★ ★★★ ★★★

ترك المسيح نفسه يتعذب على الصليب وقال:

إن أنتم ساعدتموني على حمل الصليب

فستذهبون الى حيث الملائكة

هناك ستروني وترون أمي مريم

أما أنتم الذين لم تنقذوني، فستهبطون إلى أعماق الجحيم

★★★ ★★★ ★★★

ليتخيل كل واحد نفسه وكأنه يستطيع أن يعيش بسعادةٍ إلى الأبد

★★★ ★★★ ★★★

فـــالشيطان والخطيئة يسيطـران إلى هذا الحد دون تميـــز أو جـــرأة أو جبروت

أيها الرب العذب لا تتركهم يفكرون بهذه الطريقة

واجعلنا نفعل ما نستطيع

- ٨٦٧٠ -

وأن ندخل مملكته ونتأملك

★★★ ★★★ ★★★

أيتها السيدة العذبة والملكة المتوجة(مريم العذراء)

صلي من أجلنا أيتها العذراء السعيدة

فسنكون في مأمن من كل الشرور والآثام

★★★ ★★★ ★★★

الملحق الثاني
مختارات من تاريخ السلاف
تأليف الألماني
هيلمولد كاهن بوساو Helmold, Priest of Bosau
[١١١٨-١١٧٧م؟]

رسالة بطرس الراهب

هناك حادثة تستحق الحكاية، وهي حادثة ينبغي ذكرها من قبل الأجيال المقبلة، وقد وقعت في الأيام الأخيرة لهنري الأكبر، فقد كان هناك واحد اسمه بطرس، هو من أصل اسباني، ومن حيث الاختصاص راهباً، فقد دخل إلى داخل حدود الامبراطورية الرومانية، و أطلق صوته عالياً، وقام بالتبشير في المملكة كلها، حيث حث الناس وحرضهم على الذهاب إلى القدس، لتحرير المدينة المقدسة، التي كانت بأيدي البرابرة، وأخرج رسالة وقدمها إلى الناس مؤكداً بأنها نزلت من السماء، جاء فيها بأن الوقت قد حان بالنسبة للشعوب، وأن تلك المدينة ينبغي تحريرها، وهي المدينة التي ديس عليها من قبل الكفار.

وبعد ذلك قام الناس الأكثر قدرة في جميع البلدان، من أساقفة، ودوقات، وكونتات، ورجال فرسان، وكذلك رجال من العامة، ورؤساء للرهبان، ورهبان، فركبوا الطريق إلى القدس تحت قيادة غودفري، الأكثر شجاعة، ومع الاعتماد على النعمة الربانية استعادوا تملك نيقية، وأنطاكية، وكثيراً من المدن، كانت بأيدي البرابرة، ومن هناك تابعوا، فحرروا المدينة المقدسة، من البرابرة، ومن ذلك الوقت أخذت أماديح الرب يزداد انشادها هناك، وقد عبد الرب من قبل شعوب الأرض، في المكان الذي وقفت عليه قدماه.

برنارد المبارك راعي دير كليرفو

وقعت في هذه الأيام وقائع كانت غريبة، وقد أدهشت العالم كله، ففي الوقت الذي كان فيه يوجينوس البابا الأكثر قداسة في السلطة، وكان كونراد الثالث على رأس الدولة، ازدهر هناك برنارد، راعي دير كليرفو، الذي صار اسمه مشهوراً جداً بوساطة التقارير التي تحدثت عن معجزاته، حتى أن حشوداً من الناس تدفقت عليه من كل مكان، وهي راغبة بمشاهدة العجائب التي كانت تعمل من خلاله، وجاء برنارد أيضاً إلى ألمانيا، وظهر في قداس لاهوتي في فرانكفورت، حيث صدف أن قدم كونراد الذي كان الملك آنذاك، في وضع احتفالي، مع حاشية كلها من الأمراء، وبما أن الرجل المقدس، كان قد عزم باخلاص شديد على شفاء المرضى باسم الرب، فقد وقف في الكنيسة بحضور الملك والأمراء الكبار، ونظراً لحشد الناس الكبير، لم يمكن لأي واحد أن يكون متأكداً من الذي كان يعانيه كل واحد، أو من الذي كان يتوقع أن يحصل على الفرج، وكان كونتنا أدولف هناك، راغباً بالحصول من المولى على العلم الصحيح بفضائل الإنسان، وجرى في الوقت نفسه تقديم طفل إلى برنارد أعمى وأعرج، وحول عجزه لم يكن هناك من شك، ووقتها شرع الكونت العالي الحكمة، يراقب بعناية ليرى عما إذا كان ربما لن يحصل من خلال هذا الطفل على برهان على قداسة الرجل، وكأن المولى أخبره بتقديم شفاء لأمراضه، أمر رجل الرب بجلب الطفل واحضاره أمامه، وكان هذا على عكس طريقته، لأنه بالنسبة للآخرين تولى فقط مباركتهم، وعندما بات الطفل حاضراً، أخذ برنارد الطفل بيديه، وجعل يحك بنعومة العينين، فأعاد لهما الرؤية، ثم أقام برنارد ركبتيه الملتويتين، وأمره أن يركض إلى الدرج، ليقدم برهاناً مرئياً أنه قد شفي في نظره وفي خطاه، وبدأ الرجل المقدس —بموجب أي أمر إلهي أنا لاعرف— يحرض الأمراء وحشود المؤمنين الآخرين على الانطلاق

نحـو القدس لقهـر الشعـوب البربرية للشرق، ولاخضـاعهم إلى الحكم الصليبي، قائـلاً بأن الوقت قد جـاء، وهو الوقت الذي ستأتي به الأمم مع بني اسرائيل لتنقذ.

وبعد الفراغ من كلمة الواعظ وبناء عليها، كرس حشد كبير جداً من الناس أنفسهم منذ تلك اللحظة لاتبـاع هذا الطريق، كـان بينهم وأولهم وأعظمهم حماسـة الملك كـونراد، والدوق فردريك أوف سـوابيـا، الذي صـار فيما بعـد ملكـاً، ودوق غيـولف Guelph, مع الأسـاقفـــة والأمراء، وهكذا تشكل جيش من النبلاء، والعـامة، والرعاع، كان أكبر من أن يمكن تعداده، ومـاالذي ينبغي لي قوله عن جيـش الألمان، عندما انضم إليه لويس ملك البـارسيين، وجميع القوة المقـاتلة للفرنسيين، التي دعمت قضيته؟ فمثل هذا الجيش لم يعرف اجتماعه في أيامنا، أو سمع به منذ بداية الخليقة، فهو كـان بالفعل جيشاً عظيماً إلى أقصى الحدود، وقد حمل أفـراده علامـة الصليب على مـلابسهم وعلى أسلحتهم، ورأى على كل حــال الذين خططـوا للحملة أن من المفيــد تعيين الجزء الأول من الجيش للذهاب إلى بلدان الشرق، والجزء الثـاني للذهاب إلى اسبـانيـا، وأن يذهب جزء ثالث إلى السلاف الذين يعيشون بجوارنا.

الملكان كونراد ولويس

انطلق الجيش الأول، الـذي كــان هو الأكبر، عبر الطـريق البري مع كونراد ملك ألمانيـا، ولويس ملك فرنسا، وأعظم أمـراء المملكتين، وقد مضوا عبر مملكة هنغاريا حتى وصلوا إلى حـدود بيزنظة، فأرسلوا رسلاً إلى ملك الاغـريق، حتى يمنحهم عبـوراً وحقـوق سـوق، لأنهم كـانوا يرغبـون بالذهاب عبر أراضيـه، ومع أن هذا الملك كـان سيئاً، لايرغب بالتعاون، فقـد أصدر مرسـوماً لصالحهم إذا مـاقدموا مسـالمين، فأعادوا إليـه رســالة بأنهم لاينوون إحـداث اضطراب، لأنهم تطوعــوا للقيـام بحملة صليبيـــة لمدّ حـــدود السـلام، وبناء على رغبتهـم —على هذا

الأســاس— منحهم ملك الاغـريـق حق عبـور أراضيــه، وأن يشتروا بشكل حـر مـاتعـرضـه الأسـواق للبيع، وأن يقيمـوا معسكراتهم حيثما رغبـوا، وشـوهد في هذه الأيام في الجيش العـديد من نـذر السـوء والمصائب، وكان أعظم هذه الشـارات وأغربها، هو أنه حدث في إحدى الأمسيات أن غلف ضباب كثيف المعسكر، وعندما ارتفع هذا الضباب، كـانت الخيام كلهـا مغطاة مع كل شيء كـان موضـوعـاً بالعراء، وظهـر وكأنه يقطر دمـاً، وكأن الغيوم أمطـرت دماً، ولدى مشـاهدة الملك لهذا استخلص مع بقية الأمـراء بأنهم مدعوين لمواجهة محنة هي الأكثـر تعباً، وكذلك مخاطر الموت، ولم يخطئوا في الذي توصلوا إليه، فليس بعد ذلك بوقت طويل وصلوا إلى منطقة جبلية، فيها وجدوا وادياً جميلاً جداً، مع أرض مـرجيه ونهر جـاري، وهناك أقامـوا معسكرهم،وذلك على سفح الجبل، لكن حيــوانات الجر، مع ست عـربـات حملت مـؤن وعتـاد الفرسـان، وأيضاً عدداً كبيراً من المواشي المعـدة للذبح، أبقيت في وسط الوادي حتى تكون على مقربة من مجرى الماء والمرعى الموائم.

وعند حلول الظلام سمع قصـف الرعـد، مع أصـوات عـاصفـة من فـوق قمـة الجبل، ثم ياللهـول حـدث في منتصف الليل، لاأدري من خـلال مطر الغيوم أو بعض الوقـائع الأخرى، أن تضخم مجرى النهـر، وفاض وفي لحظة واحدة غسل كل شيء وجرفه إلى البحر، وشمل ذلك الرجال والدواب، وكل من كان في الأجزاء السفلى من الوادي، فكانت هذه أول كارثة عـانى منها فرسان هذه الحملة الصليبيـة، وقام الآخرون الذين بقيـوا أحياء بـاستئناف زحفهم الذي كانـوا قد شرعـوا به، وعند إكمال عبورهم لبـلاد الاغريق، وصلوا إلى مـدينة القسطنطينية، وبعـدما استراح الجيش هناك لبضعة أيام،وصلوا إلى شـاطىء البحر الذي يعرف باسم ذراع القديس جـورج (البوسفـور)، وكان ملك الاغريق قـد أعد سفناً من أجلهم للعبـور بالجيش ونقله، ووضع كتّـاباً توجب عليهم أن

يخبروه بعدد المقـاتلين، وعندما نظر إلى تقريرهم تنهـد بعمق وقال: «إلى أين أيها الرب تقـود هؤلاء الناس العـديدين بعيـداً عن أوطانهم؟ حقـاً إنهم يحتـاجون إلى ذراعك القـوي حتى يتمكنوا ثانيـة من رؤية أوطانهم الجميلة، أي بلادهم التي ولدوا فيها».

وعبر لويس ملك فرنسـا البحر، ووجه زحفـه باتجاه القدس، غير أنه فقد جيشـه كله في القتال مع البرابرة، ومـاالذي سوف أقـوله عن ملك ألمانيا والذين كانوا معه؟ فقـد اقتيدوا إلى داخل صحراء كبيرة جداً، من خلال خيانة نائب ملك الاغـريق، الذي توجب عليه قيادتهم إلى أراضي الفـرس، وقـد هلكـوا من الجوع والعطش، وهكذا تبـددوا من الجوع والعطش، إلى حـد أنهم قـدمـوا عن طـواعية رقـابهم إلى البرابرة الذين هاجموهم، أما الملك والرجال الأقـوى معه، الذين نجوا من الموت، فقد هربوا عـائدين إلى بيـزنطة، آه أيتها الأحكام الصـادرة عن العلي الأعلى، لقـد كانت الكارثة التي حلت بالجيش كبيرة جـداً، ولقد كـانت فاجعـة فاقت حدود التصور، ولهذا فإن الذين شـاركوا فيها يبكون بدموع حتى هذا اليوم نفسه.

اجتياح لشبونه

أمـا الجيـش الثـاني، وكـان قـوة بحـرية جمعت من كـولن Koln, ومن المدن الأخـرى القائمـة على طول الراين، إلى جـانب المدن القائمـة على ضفتي نهر ويزر Weser, فقد أبحر لمسافة بعيدة في المحيط، حتى وصل إلى بريطانيا، وبعد الإقـامة هناك لبضعة أيام (ليس من دون أن يزداد بوسـاطة مـلائكة بريطانيـا) انطلق نحـو اسبانيـا، ونزل أفـراد الجيش في البرتغال، عند مدينة قشتالة الفخمـة للتعبد عند مزار القديس جيمس (شنت ياقوب= القديس يعقوب)، وكان ملك قشتالة [ألفونسو الأول ١١٢٩-١١٨٥م] سعيداً لقـدوم الصليبيين، وسألهم إن كانـوا قد خرجـوا في سبيل القتال من أجل الرب أن يساعدوه ضـد لشبونة، التي

يقـوم سكانها بمضايقـة حـدود الأراضي المسيحيـة، ووافقوا على طلبـه، وذهبـوا إلى لشبـــونة مع أسطول كبير، وجـاء الملـك معهم عبر الطريق البري مع جيش قـوي، وتمت محاصرة المدينـة من البحـــر والبر، وقضي وقت طويل في حصـارها، وعندمـا استـولوا أخيراً على المدينة، وهزمـوا البرابرة، طلب ملك قشتالة من الصليبيين اعطاءه المدينة الفـارغة، وكان ذلك بعد اقتسـام الأسلاب فيها بينهم، وهكذا تأسســت هناك مستعمرة للمسيحيين ماتزال موجودة حتى هذا اليوم، ومن بين جميع الأعمال التي قام بها الجيش الصليبي، تبرهن أن هذا العمل وحده فقط كان ناجحاً.

الملحق الثالث
وصف القدس والأراضي المقدسة من
قبل بعض الحجاج الغربيين
(١٠٩٩-١١٨٥م)

- ١ -

دليل وصفي

[ترتيبات مدينة القدس— وصف الأماكن المقدسة]

(١٠٩٩-١١٠٣)

باسم ربنا يسوع المسيح.

على أي إنسان قد يرغب بالذهاب إلى القدس، المدينة المقدسة، أن يتابع السفر باتجاه الشرق، وهكذا سوف يصل— بمشيئة الرب— إلى مدينة القدس المقدسة وإلى الغرب منها يمكن أن يرى جبل البهجة (صموئيل)، وهو مشهد رائع، والمسافة هي ميل واحد من هذا الجبل إلى المدينة، وعندما يدخل الإنسان إلى المدينة، يجد حصناً، هو برج داود.

علاوة على ذلك إن هيكل الضريح المقدس مستدير الشكل، وهو فوق الضريح المقدس، الموجود في أعلى نقطة من الهيكل، وهو مستدير ومفتوح من الأعلى، وضريح ربنا يسوع المسيح موجود في وسط الهيكل، وفي الوقت الذي نجد فيه الشكل الخارجي مستديراً نشاهد أن الشكل الداخلي مستطيلاً، ولدى الدخول إليه، يدخل الناس من باب موجود في الشرق، والطريق إلى الجزء الداخلي هو عبر باب ثاني خاص به، ويخرج الناس من باب موجود في الجهة اليمنى، وإلى الشرق على بعد قليل مركز العالم، وليس بعيداً عن هناك، أي أن تقول في الشرق، يقع جبل أكرا (الجمجمة)، الذي عليه جرى صلب الرب، وتحت هذا الجبل موضع الجلجلة، والمسافة من هذا الجبل إلى الضريح المقدس، هي المسافة التي يستطيع إنسان أن يرمي إليها حجراً بحجم كف يده، وعلى يسار جبل أكرا يوجد السجن، وبعد السجن على اليسار، عمود إليه قد ربط، وجنوب الضريح المقدس كنيسة القديسة مريم للاتين، وإلى الشرق من جبل أكرا، يوجد المكان الذي اكتشفت فيه القديسة هيلانة صليب الرب.

وإلى الشرق من هناك يوجد الباب الجميل، الذي يقود إلى هيكل الرب، وهو هيكل مستدير، وله أبواب ثلاثة، ومحاط بساحة هي الأكثر جمالاً أن تراها، وفي وسط هذا الهيكل، «الهيكل الذي صنع من دون أيدي» يعني خيمة العهد، الموجود فيها ومحفوظ —كما هو معتقد— عصا هرون، ورأس زكريا بن براخيا، والمذبح الذي بناه يعقوب للرب، ولوحي العقيدة، وتابوت العهد، والمن الذي تغذى منه بنو اسرائيل في الصحراء، وعلاوة على ذلك، في الجزء العلوي من الهيكل معلق مصباح من الذهب.

وباتجاه الجنوب من هيكل الرب، يوجد هيكل سليمان، وذلك إلى الشرق من هيكل الرب، حيث خارج باب الساحة، هناك بركة الضأن، التي لها خمس قناطر، وبعد المغادرة من هناك من خلال باب المدينة من على الشرق، يصل الإنسان إلى وادي شعفاط، الحاوي للكنيسة وللقبر العائد لمريم الأكثر قداسة وإجلالاً، مع حديقة جثسيماني، وذلك حيث صلى الرب مع حوارييه، وكذلك جرت خيانته من قبل يهوذا الخائن، الذي كان واحداً من تلاميذه.

وإلى الشرق من هذا المكان يوجد جبل الزيتون، الذي من عليه صعد الرب إلى السموات، وحيث كتب أيضاً «أبانا» للحواريين، وعلى مسافة ميل واحد من جبل الزيتون، يوجد الضريح الذي أقام الرب منه لعازر، في اليوم الرابع بعد وفاته.

وأيضاً، على مسافة تزيد على ست مراحل من هناك، يوجد المكان الذي صام الرب فيه لمدة أربعين يوماً، وحيث أغوي من قبل الشيطان، لكن دون أن يستجيب له، ومن هذا الجبل هناك ستة أميال إلى نهر الأردن.

وإلى الجنوب من القدس، وعلى بعد أكثر من أربعة أميال، هناك بيت

لحم، مدينة داود، التي ولد فيها المسيح، وحيث يوجد البئر الذي نزل إليه النجم الذي قاد الحكماء لعبادة الطفل، وبجانب باب القدس الموجود في الجنوب، يوجد جبل صهيون، وذلك حيث غادرت القديسة مريم هذا العالم، وليس بعيداً عن هناك [حقل] حق الدم، أي حقل الدم، وعلى بعد قليل إلى الجنوب من هناك توجد بركة سلوان، وفي أسفل الجبل، قرب أسوار المدينة التي تعبر هذه المنطقة، هناك المكان الذي بكى فيه بطرس بعدما أنكر المسيح، وفي الشمال، خارج باب المدينة، هناك المكان الذي رجم فيه القديس أسطفان.

هذه هي صورة بناء الأماكن المقدسة في القدس، التي أنا شاهد عليها، لأنني رأيت هذه الأماكن، وقد كتبت هذه الرواية، مع أنها متواضعة.

- ٢ -

دليل أوتوبونيان Ottobonian

[إن وصف القدس الآن هو كما يلي]

[١٠٩٩-١١٠٣م]

مدخل القدس موجود على الجهة الغربية بعد برج داود، وفي الأسفل في المدينة، يوجد ضريح الرب، وخارجه هناك مركز العالم، ومن هناك نحو الشمال يوجد سجن الرب، وبعد السجن المكان الذي ربط فيه، وجلد، وتوج، وجرد من ثيابه، وحيث جرى تقسيم ثيابه، وجبل أكرا هو الذي تحته الجلجلة، حيث سقط دم الرب وتقاطر من خلال الصدع في الصخرة، وفيما وراء هذا الجبل يوجد المكان الذي عثرت فيه القديسة هيلانة على صليب الرب.

ودون ذلك إلى الجنوب، يوجد هيكل الرب، الذي له أربعة مداخل هي: من الشرق، ومن الغرب، ومن الشمال، ومن الجنوب، وهناك —كما قالوا— كان تابوت الرب، وهناك ألواح العهد، وسبعة مصابيح ذهبية، وعصا هرون، وغرفة، حيث ظهر رئيس الملائكة جبرائيل إلى النبي زكريا، وعلى مقربة من هناك، يوجد الباب الجميل الذي يقود إلى وادي شعفاط، وعلى الجانب الآخر من الهيكل نحو الجنوب، يوجد هيكل سليمان، حيث في الطرف الأول منه هناك مهد المسيح، وفراش أمه، وعلى الطرف الآخر من هيكل الرب هناك كنيسة حنة المباركة، أم مريم أم الرب، وبعد الكنيسة هناك بركة الضأن.

وخارج المدينة يوجد وادي شعفاط، وهناك توجد كنيسة، فيها دفنت القديسة مريم من قبل الرسل، وفي المكان نفسه، هناك موضع جثسيماني، حيث خان يهوذا يسوعا إلى اليهود، وهناك في الجوار المكان الذي صلى فيه ربنا، وبعد هذا هناك جبل الزيتون، من حيث صعد الرب إلى

السموات، وحيث أيضاً كتب «أبانا» وإذا ماتابعنا السير من هناك شرقاً، نجد بيت عنيا، حيث منح الرب الحياة إلى لعازر.

وجبل صهيون موجود على الجهة الجنوبية من المدينة، فهناك ماتت القديسة مريم، وهناك تعشى الرب مع حوارييه،وهناك حيث أعطى الرسل الروح القدس، في يوم عيد الحصاد، ومقابل هذا الجبل هناك [حقل] حق الدم، وعلى الجانب الآخر إلى الشرق هناك بحيرة سلوان.

وبيت لحم واقعة على مسافة مرحلتين نحو الجنوب من المدينة، فهناك ولد الرب، وهناك المزود، حيث جرى تمديد الرب بعدما ولد، وهناك أيضاً المائدة التي أكلت عليها مريم المباركة مع الملوك الثلاثة، الذين كانوا ينشدون الرب ويطلبونه، وهناك أيضاً حمامه وفراشه، وهناك أيضاً —كما قالوا— تمّ قتل مائة ألف وأربعة وأربعين ألفاً من الناس من قبل هيرود.

وعلى الطرف الشرقي من المدينة يوجد نهر الأردن، وهو على بعد عشر مراحل، وعلى ذلك الطريق مدينة أريحا، التي على مقربة منها الأربعين، حيث صام الرب لمدة أربعين يوماً.

- ٣ -

دليل

ربما من إعداد كاتب ألماني

(١١٠٢-١١٠٦)

وادي شعفاط:

يحتوي الجزء الأعلى من وادي شعفاط على المكان الذي كان فيه مزرعة جثيساني، وذلك حيث ترك يسوع أثناء آلامه حوارييه، وصلى لأبيه.

وقرب هذا المكان، في أسفل وادي شعفاط، هناك ضريح مريم العذراء المباركة.

وعلى بعد رمية حجر من هذا المكان، الموضع في هذا الوادي نفسه، حيث رجم اليهود اسطفان.

وبعد مكان الاستشهاد هذا، سقط [جيمس] أخو الرب على أم رأسه، من فوق الجدار إلى الوادي، ومن ثم قتل بعصا القصار.

وهناك بعد هذا بركة سلوان، التي قربها عمل المسيح معجزات رائعة.

وهذه الأماكن، وأماكن أخرى أيضاً، موجودة في وادي شعفاط، ودعونا الآن نذهب صاعدين إلى جبل الزيتون، الذي في أسفله يوجد وادي شعفاط، وفي ذلك الجبل، ليس عند الذروة، بل على الجانب الأيمن، توجد قرية بيت فاجي، وهي التي كانت فيها مضى قرية كهنة، وهناك عندما كان الرب يسوع، وقد باتت آلامه قريبة، أرسل حوارييه إلى القرية لإحضار أتان وابنها.

وعلى قمة الجبل، يوجد مكان الحجرة المبجلة، والتي عليها علامات الرصف، فهناك كان للرب يسوع حديث جميل مع حوارييه، ومن ثم صعد إلى السماء، ويقول رجال حكماء من بين الأرثوذكس الذين يعيشون في القدس، بأن الأرض التي من حول هذه الحجرة جديرة بالتبجيل، وتستحق التقبيل من قبل الناس الذين هم مسيحيين، والسبب في هذا، أنها تبللت بدموع الحواريين، بسبب غياب جسد المسيح، ولأنهم وقفوا هناك، وهم ينظرون إلى السماء، وذلك عندما سمعوا صوتاً يقول «يارجال الجليل، لماذا أنتم واقفون»؟ وهكذا إلى آخره (أعمال: ١/ ١١).

وهذه الأماكن المقدسة وأكثر، موجودة على جبل الزيتون.

ومن هناك إن المسافة ليست أكثر من ميل واحد إلى بيت عنيا، وهي إلى الشرق، وهي قرية مريم ومرثا، و هناك مازال من الممكن رؤية قبر لعازر، الذي أقامه الرب من الموت، وهذا مطروق كثيراً من قبل جميع المؤمنين، ومن قبل اليهود أيضاً.

وأريدك أن تعرف أيضاً، أن لعازر هذا نفسه، قد نشأ نشأة رائعة، لذلك أمكن أن يكون أسقف جزيرة قبرص.

ودعونا نذهب عائدين إلى الجانب الغربي من وادي شعفاط، فعلى الجانب الغربي من الوادي هناك جبل صهيون، ومدينة القدس.

ولدى الذهاب صعوداً فوق الجبل، هناك المعبد، الذي يعرف باسم كنيسة بطرس في الدموع، لأن النساء المقدسات وهن قادمات من الضريح، حيث قيل بأنهن وجدنه يبكي بمرارة، وذلك في الوقت الذي أخبرن به، أن عليهن الذهاب، وأن يخبرن الحواريين، وبطرس بأن الرب قد قام.

واسم قمة الجبل، صهيون، وقد بنيت هناك كنيسة، تشريفاً للرب

ولأمه المقدسة، وهي التي قيل بأنها أول كنيسة مسيحية.

وهنا تعشى الرب مع حوارييه.

وهنا غسل أقدامهم.

وهنا كان المكان الذي التجأ إليه الحواريون خوفاً من اليهود.

وهنا نزلت الروح القدس على الحواريين على شكل نار.

وهنا صنفوا العقيدة.

وهنا ماتت مريم المباركةفي هذا العالم.

وكان هذا المكان الـذي أحبه الرب كثيراً، حتى قبل ميلاده، بـوساطة القدرة ومعجزات لاهـوتية، وبعد ميلاده بقدرة جسـده المقدس، ولدينا على هذا شهـادة حوارييـه، إذا ماأردنا أن نفهم ذلك حـرفياً، لأنه قـال: «أحب الرب أبواب صهيـون أكثـر من جميع خيم يعقـوب» [المزمـور ٨٧/ ٠٢]

ودعـونا الآن نـذهب إلى المدينة نفسهـا، فهناك يوجـد ضريح للذي صلب من أجلنا، حيث بني فوقه معبد، وهو على شـاكلة معبد القديسة مريم، الذي بني أيام الامبراطور شارلمان، وذلك مع فارق هو حقيقة أن معبـد القدس لـه برج واحد، وهذا البرج، هو الموجـود فـوق الضريح، وهو مفتوح من الأعلى.

ودعـونا الآن نتقـدم فنذهب من المعبـد إلى الشمال، فإلى الشرق هناك السجن الذي وضع فيـه الرب، وبعد باب السجن، نحـو الجنوب هناك المكان الذي أطلق فيـه سراح الرب وأخـرج من السجن، وجلس ينتظر مع رجال السجن حتى قدم بيلاطيوس مع اليهود،وجلس للمحاكمة.

وبعد هذا هناك الدرجـات، التي يصعد عليها الناس إلى المعبـد، وقد

كـــان هناك فيها مضى بناء جميـل، وذلك حيث تم العثـــور على خشبـــة الصليب، وبعد هذه الدرجات هناك حجـرة حاملة صليب، لها المقاييس نفسهـــا للصليب الـذي حمل من قبل الرب، وهو الـذي جعل اليهـــود سمعان القيرواني يحمله.

وبعـد هذا الصليب، هناك بيعـة صغيرة، حيث جرى اقتسـام ثيـابه، وحيث ضربوا قرعة على معطفه.

وبعـد هذا المكان الذي عـاش فيه آدم حتى وفـاته، وإلى جـانب هذا المكان موقع أكرا (الجمجمـة) حيث جرى صلب الرب، وحيث ضحى فيها مضى ابراهيـم باسحق، وعند سفح تلة أكـــرا يوجـد مـذبح، هو موجود في المكان نفسه الذي دفن فيه آدم.

وفي هذه المدينة باتجاه جبل الزيتـون توجـد كنيسة بركـة الضأن، على مقربة من هيكل سليمان، وإلى الشمال هناك هيكل الرب.

- ٤ -

دليل في كتاب أعمال الفرنجة في الحملة على القدس
(بعد عام ١١٠٩م)

الفصل ٣١:

إن الموقع الحالي للمدينة، ووضع الأسوار التي تحيط بها، يختلف كثيراً عما كانت عليه بالأصل في خطتها وأوضاعها في أيام يسوع المسيح، ومع ذلك هي ماتزال تحتوي على مذكرات بذلك العصر، مما يعطي مسوغاً لشهرتها، ومكانتها، وعظمتها، وسموها فوق المدن الأخرى في العالم.

وعلاوة على ذلك، إنها مثل كثير من المدن الأخرى، لها أربعة مداخل: على الشرق، والغرب، والشمال، والجنوب، ويعرف المدخل الموجود في جهة الشرق من قبل السكان باسم باب وادي شعفاط، لأنه المخرج إلى ذلك الوادي، الواقع بالقرب، واسم المدخل الواقع في جهة الغرب باب داود، وقد عرف بهذا الاسم لأنه يقوم تالياً لبرج داود، أما المدخل الشمالي، فهو باب القديس اسطفان، لأنه قد قيل بأن ذلك الشهيد، قد رجم خارج ذلك الباب، وقد تأسست هناك كنيسة في ذكراه، والمدخل الجنوبي، هو باب صهيون، لأن جبل صهيون واقع في ذلك الجانب، وهو شديد الانحدار، قد جعل الوصول من ذلك الجانب صعباً ومنهكاً.

وإلى هذا اليوم هناك باب خامس أيضاً، اسمه الباب الذهبي، وهوقائم بين البابين الشرقي والجنوبي، تحت هيكل الرب، ومنه دخل ملك السموات إلى هذه المدينة قبل آلامه، وهو جالس على ظهر أتان، وقد استقبل ببهجة من قبل أبناء العبرانيين، ولايفتح هذا الباب أبداً، إلاّ يوم أحد السعف، وإذا مادخل إنسان إلى المدينة من هذا الباب، فضريح الرب، موجود إلى اليسار.

وقرأنا أنه في أيام آلام المسيح، كان الضريح موجوداً خارج المدينة، وكان منحوتاً في الصخر، وعلى مقربة منه، وإلى الجانب قليلاً، هناك صخرة ناتئة، كانت قد تصدعت، لأننا نقرأ بأنها انشقت بسبب وفاة المسيح، وتحت ذلك الجلجلة، وهو مكان يستحق الاحترام بشكل عظيم، وهو جدير بالتعبد والتبجيل، فمنذ الأيام الخالية وصلنا أثر مكتوب تحدث أنه في ذلك المكان كان ابراهيم على وشك تقديم ابنه بمثابة أضحية، لكنه قدم عوضاً عنه كبشاً، جاء بديلاً لحمل الرب وابنه، الذي تقرر أن يضحى به فيما بعد، في ذلك المكان بالذات، وعلى بعد قليل هناك البقعة التي عرفت باسم أكرا (الجمجمة) لدى الكاتب نفسه، وهناك جرى الكشف عن خشبة الرب —بعدما بيّن اليهود أين هي موجودة— من قبل هيلانة (حنة) المباركة، وكان ذلك في عام ثلاثمائة وستة وثمانين بعد آلام المسيح (كذا)، وفي المكان نفسه أسست الامبراطورة كنيسة، تميزت بحجمها وبجمالها المعماري وزخرفتها، وقد دمرت فيما بعد من قبل الأمم الغادرة، هذا وإن بقاياها الموجودة تظهر أية أبدة مدهشة كانت فيما مضى، وتم حفظ قطعة من الخشبة الثمينة من قبل المسيحيين في هذه الأماكن، وهي تبجل وتعظم باحترام وحب.

الفصل ٣٢:

وبعد هذا المكان حيث جرى اكتشاف الصليب، وإلى الجنوب هناك كنيسة أم الرب، وتعرف باسم «اللاتينية»، لأنها كانت دوماً في عهدة اللاتين، فقد قيل بأن العذراء، قد بكت هناك، ومزقت شعرها، عندما رأت ابنها الوحيد، قد علق بالمسامير على خشبة الصليب، وبجوار ذلك، يوجد المكان الذي بكت فيه مريم المجدلية والنساء الأخريات موت المخلص.

وإلى الشرق من هذا مباشرة،وداخل أسوار المدينة، هناك هيكل الرب المشهور(الحرم القدسي)، الذي بني ببراعة مدهشة، ومع أن هذا ليس

البناء الأصيل الفخم لسليمان، وليس أيضاً البناء الذي أعيدت عمارته للمرة الثانية بعد عزرا، إنه متفوق على كل بناء آخر في العالم، ومع هذا له أربعة مداخل وفق الطريقة نفسها مثل الهيكل الأول.

وفي هذا المكان كف الملاك يده، وهو الملاك الذي كان يقتل الناس، عندما كان داود يصلي ويقول:

«هاأنا أخطأت وأنا أذنبت» [صموئيل الثاني: ١٦-١٧]، والصخرة التي فوقها وقف وكف يده وردها ماتزال قائمة في وسط الهيكل، وهي حتى كما هي لم تجر تسويتها وتنعيمها فنياً.

وهذا المكان كان يستخدم في أيام سليمان بمثابة الغطاء الذهبي لتابوت العهد، الذي كانت فيه ألواح موسى، وعصا هرون التي أورقت، والمن، والأشياء الأخرى التي عرفت بالأشياء المقدسة لقدس الأقداس، وقد كانوا موجودين هناك وبقيوا كذلك حتى أيام صدقيا ملك يهوذا، حسبما يمكن للمرء أن يقرأ في سفر المكابيين، لكن قيل إنه فيما بعد قام ارميا بإخفاء التابوت في العربية على مقربة من جبل سيناء، وهو موجود هناك حتى هذا اليوم، حيث أن الجبل يتصاعد منه الدخان وهو مغطى بالغيوم، والذين يرغبون بالذهاب إلى هناك، يجرى ردهم ومن ثم إعادتهم بالظلام، وبشدة لن يتم العثور عليه، حتى تجتمع عدة أمم مع بعضها بعضاً، وهذا أيضاً هناك من يؤمن بأنه سيحدث هكذا.

ويعد ذلك المكان (أي الهيكل) مقدساً لعدة أسباب، فالطفل يسوع جرى تقديمه هناك، وقد تم تسلمه من قبل الشيخ سمعان، وفيما بعد تم العثور عليه هناك عندما كان في الثانية عشرة من عمره، جالساً بين الأحبار، ومن هناك طرد صرافي النقود، وقال: «إنه سيكون بيتاً للصلاة»، وهذا المكان ينبغي أن يكون مبجلاً، ويعد مكاناً مقدساً، بسبب عدد من المعجزات، والآيات والمدهشات قد عملها الرب هناك.

وتقع كنيسة القديسة حنة إلى الشمال من الهيكل، وعلى الطريق إلى البركة، فهي قد كانت أم مريم المباركة، وهذا هو المكان الذي قيل بأنها ولدت فيه أم الرب، وتم اكتشاف خزان ماء من قبل الفرنجة، أمام هذه الكنيسة، ومن الممكن رؤية بقايا البركة القديمة هناك مع قناطرها الخمس محفوظة حتى هذا اليوم، ونحن نقرأ أنه في أيام المسيح كان ينزل ملاك إلى هناك، وعندما كان يلمس الماء، كان الماء يشفي المرضى، وهنا شفى المسيح رجلاً مريضاً، كان منذ ثمانية وثلاثين عاماً يعيش مع عجزه، وينزل الإنسان إلى البركة من خلال إحدى القناطر، وطعم الماء هناك مراً، وهو يشفي عدداً كبيراً من الناس المرضى.

وفي داخل المدينة يبجل المسيحيون أيضاً أماكن جلد يسوع المسيح، وتتويجه، والسخرية منه، والأشياء الأخرى التي عانى منها من أجلنا، لكن في هذه الأيام ليس أمراً هيناً اكتشاف أين وقعت هذه الأمور، خاصة بسبب أن المدينة نفسها تعرضت منذ ذلك الحين مراراً للخراب والدمار.

الفصل ٣٣:

والآن في خارج المدينة يغادر الإنسان ماراً بالقسم الأعلى من المدينة، من باب داود إلى الطريق الذي يقود إلى بيت لحم، التي كانت تعرف بالقديم باسم إفراتا، وهي واقعة على مسافة مرحلتين في الجنوب الغربي من القدس، على الطريق إلى الخليل، وبيت لحم —حسبما قلنا من قبل— مكان ولادة المسيح، والمعلف موجود هناك، علاوة على ذلك إن الكنيسة الموجودة هناك، جميلة جداً، وواسعة، وصنعت بشكل رائع، وتتمتع بمرتبة أسقفية، وقد قتل الأبرياء من قبل هيرود واستشهدوا في بيت لحم وجوارها.

ولدى العودة من هناك نحو المدينة، يرى الإنسان على الطريق قبر

راحيل، زوجة يعقوب، ثم يتسلق الإنسان جبل صهيون، الذي كان في أيام المسيح، أعلى نقطة في المدينة، وفي وسطها، لكنه الآن في الخارج، وفي ذلك المكان هناك الغرفة التي غسلت فيها أقدام الحواريين من قبل ربهم ومعلمهم، وهو قد أقام عشاء معهم، وترك قداس جسد الرب ودمه، وأخبرهم أيضاً مسبقاً بجميع الذي كان سيحدث له حتى موته، وهو علاوة على ذلك، المكان، الذي أرسل إليهم وهم فيه، بعد القيامة الروح القدس، وهناك —كما قيل— غادرت أم الرب الحياة، و لذلك السبب بنيت هناك كنيسة على اسمها، وهي كنيسة عندما ينظر الإنسان من الداخل، يشاهد كم كانت رائعة البناء في العصور القديمة، لكنها هدمت من قبل الغدارين المسلمين.

وينبغ عند سفح جبل صهيون نبع يبدو صافياً تماماً، لكن طعمه مرّ، ويطلق الناس عليه اسم نبع سلوان، وهو يرسل ماؤه داخل مجرى يسيل به نحو الأسفل وهو المجرى نفسه لجدول قدرون الذي يتدفق في الشتاء، وفي هذا المكان كان هناك رجل ولد أعمى، وقد استرد بصره، وذلك حسبما قرأنا في الانجيل، وأبعد نحو الجنوب هناك [حقل] حق الدم، الذي شري ليكون مكاناً لدفن الغرباء.

ويبدأ جدول قدرون في الشمال، ويجري نحو الجنوب، من خلال وادي شعفاط، ولايكون ماء فيه إذا لم يكن هناك مطر قد تساقط، وفي هذا الوادي، بين المدينة وجبل الزيتون، توجد كنيسة مريم أم الرب، وذلك حيث دفنت من قبل الرسل، ومايزال قبرها محترماً ومشرفاً هناك، هذا ومن التاريخ القديم للمسيحية، كما ذكر جيروم المبارك في كتاباته، قد جرى تشييد بناء رائع في ذلك المكان، وقد كان هذا البناء فيما مضى واسعاً بشكل غير اعتيادي، وكنيسة جميلة وحسنة التخطيط في ذلك المكان، لكنها دمرت فيما بعد من قبل الأمم الخائنة، وخرائبها ماتزال مشاهدة حتى الآن بشكل واضح، وهذا هو المكان أيضاً، الذي كان فيه

في أيام المسيح قـرية صغيرة اسمهـا جثيسماني، وذلـك حيث وضع ابن الرب للمحنة، وجـرى اعتقـاله، وهنا خلف وراءه رسله عندمـا كـانوا نائمين بعمق، وابتعـد عنهم مقـدار رميـة حجـر، وذلـك باتجاهه جبل الزيتـون، ليصلي هناك، ويوجـد الآن في تلك البقعـة بيعـة مكرسـة للمخلص.

ومن هناك يتسلق الإنسان إلى جبل الزيتون، الذي هو مرتفع إلى حد أنه متحكم بالمنطقـة كلهـا، وذلك هو المكان الذي اعتـاد الرب أن يعلم فيه حوارييه، والذين كانوا من أهل المدينة يتجمعون لسماعه، ويقال بأنه علم هناك الصلاة الربانيـة إلى حوارييـه، وتفوه بصلواته إلى الأب، وفيما بعد حمل من قمـة الجبل إلى السماء، والرسل ينظرون إليه، ويـوجد هناك كنيسـة تأسست في العصـور القديمـة، وهي تحتـوي على قبـور كثير من القـديسين، ومن هذا الجبل من الممكن رؤيـة العـربيـة ووادي الأردن بوضـوح، والبحـر الملحي النتن، الذي يغطي سـدوم وعمـوره، وهما المدينتان اللتان جرى تدميرهما فيما مضى بشكل تام بغضب من الرب.

وليس بعيـداً عن منحـدرات هذا الجبل، وإلى الجنوب الشرقي، يصل الإنسان إلى بيت عنيـا، حيث أقام الرب لعـازر، وحيث عفا عن ذنوب مـريم المجـدلية، وحيث أيضـاً تمت ضيـافتـه وإكرامـه في بيت سمعـان المجـذوم، وإلى هذا اليوم مـازال ضريح لعـازر يبجل هناك، وبسبب أن المخلص غـالبـاً مـاأمضى الوقـت هناك، فإن المكان مقـدس، ومـوضع تبجيل.

وهذه الأماكن واقعة خارج المدينة.

هذا وإن نهر الأردن، حيث تعمـد المسيح، يبعـد عشر مـراحل إلى الشرق من المدينة، ويفصل هـذا النهـر اليهـودية عن العـربيـة، ويصل الإنسان إليه من خلال أريحا، التي كانت فيما مضى مدينة عظيمة، وعلى

يسارها تقع الصحراء، التي صام فيها الرب لمدة أربعين يوماً، وهناك يرى الإنسان جبلاً عالياً، فهناك أغوي الرب من قبل الشيطان.

هذا وإن الناصرة هي المكان الذي حمل به فيه، والجليل هو المكان الذي ظهر فيه لحوارييه بعد قيامته، وجبل الطور، والصحراء، فالمكان الأول هو الموضع المرتفع الذي أطعم فيه بخمسة أرغفة مع سمكتين وأشبع خمسة آلاف إنسان، والمكان الثاني هو حيث أطعم بسبعة أرغفة أربعة آلاف إنسان، وجميع الأماكن هي التي غالباً ماطرقها ملك المجد، عندما كان طفلاً، وجميع هذه الأماكن بعيدة عن القدس.

....

وعلاوة على ذلك عمل الامبرطور هدريان المدينة جميلة بشكل رائع، وزينها بصورة فخمة، وبلط شوارعها وساحاتها، وهو الرجل الذي من اسمه أخذت القدس اسمها، فصارت من بعده تعرف باسم إيلياء، وجهز جميع الشوارع بمصارف، وبذلك عندما كانت الأمطار تتساقط، كانت جميع قاذورات المدينة تغسل، وتنجرف خلال تلك المصارف، وكانت هذه المدينة فيها كفايتها من صهاريج الماء، التي حوت دوماً كميات وافرة من المياه، واحتلت المدينة مساحة مسورة لابأس بحجمها، ولذلك لم تظهر صغيرة متعبة، أو واسعة مرهقة.

- ٥ -

حول موقع القدس والأماكن المقدسة في داخل المدينة أو من حولها (١١٢٨-١١٣٧م)

مدينة القدس قائمة في الجزء الجبلي من اليهودية، في مقاطعة فلسطين، ولها أربعة أبواب:

على الشرق، وعلى الغرب، وعلى الجنوب، وعلى الشمال، ففي الشرق هناك الباب الذي يمضي الإنسان منه نزولاً إلى وادي شعفاط، ومن خلاله يذهب الإنسان إلى خارج المدينة إلى جبل الزيتون، وإلى نهر الأردن، وإلى الغرب هناك باب داود، وذلك باتجاه البحر وعسقلان، وإلى الجنوب هناك الباب الذي حمل اسمه من جبل صهيون، ومنه يذهب الإنسان إلى كنيسة القديسة مريم على جبل صهيون، وإلى الشمال هناك الباب الذي يعرف باسم باب القديس اسطفان، لأنه خارج هذا الباب جرى رجمه، وهذا الباب نادراً مايفتح.

ومن خلال باب داود، نحن دخلنا إلى المدينة المقدسة، وكان على يميننا برج داود، وقريباً جداً منا عندما دخلنا، فبرج داود قائم في غربي المدينة، وهو أعلى من كل مكان فيها.

وهيكل الرب موجود في الجهة الشرقية في الجزء المنخفض من المدينة، فوق وادي شعفاط، وله أربعة أبواب، باب في الشرق، وآخر في الغرب، وثالث في الجنوب، ورابع في الشمال، وهناك صخرة كبيرة في الوسط، حيث يوجد مذبح، فهناك جرى تقديم الرب من قبل والديه، واستقبل من قبل القديس سمعان، وإلى هنالك دخل، عندما وعظ الناس.

وضريح الرب موجود داخل المدينة، على بعد قليل إلى اليسار منا، ونحن ذاهبون إلى الهيكل، وكنيسة الضريح مستديرة، وبنيت بشكل

جميل جداً، وضريح الرب موجود في وسط هذه الكنيسة، وهو مزين بصورة جيدة، ومرتب بشكل جميل، وفي الخارج هناك في الشرق موضع أكرا (الجمجمة) حيث كان الرب قد صلب، ويصعد إليها الإنسان بست عشرة درجة، فهناك صخرة كبيرة، حيث صليب المسيح كان قد نصب، وتحت هناك الجلجلة، المكان الذي إليه تساقط دم المسيح من خلال وسط الصخرة، وهناك أيضاً مذبح مكرس على شرف الأم المقدسة للرب، وفي الخارج إلى الشرق يوجد المكان الذي عثرت فيه القديسة هيلانة على الصليب، وقد بنيت كنيسة كبيرة هناك، وفي الاتجاه الآخر، نحو الساعة السادسة (أي الجنوب) هناك مشفى من أجل الفقراء، والناس المرضى، ومشفى القديس يوحنا المعمدان، وعلى مقربة من هناك كنيسة القديسة مريم للاتين، وفي كنيسة القديس يوحنا المعمدان هذه، هناك ابريق من الحجر، فيه حول الرب الماء إلى خمرة.

وهيكل الرب، الذي تقدم ذكره أعلاه، متفوق في جماله على جميع الكنائس، وهناك ابريق ماء حجري آخر، حول فيه الماء إلى خمرة، مثلما عمل في قانا الجليل، وتحت الصخرة، القائمة في وسط الهيكل، ينزل الإنسان بدرجات إلى المكان الذي كان فيه فيما مضى قدس الأقداس، وهنا صلى زكريا عندما أعلن له الملاك جبريل عن ميلاد يوحنا المعمدان المبارك، وهناك يوجد المكان الذي جلس فيه الرب، عندما جلب الفريسيون امرأة اعتقلت وهي تزني.

وإلى الجنوب من هنا قصر سليمان، وإلى الشرق من القصر كنيسة القديسة مريم، التي إليها ينزل الإنسان بدرجات كثيرة، ويوجد هنا مهد المخلص، وفراشه، وفراش أمه، وإلى الجانب اليساري من الهيكل، وخارج أسواره، هناك كنيسة القديسة حنة، التي كانت أم أم المسيح، وخارجها قيل كانت هناك بركة الضأن.

ليس بعيداً، خارج أسوار المدينة، إلى الجنوب، هناك الكنيسة التي

تعرف باسم كنيسة القديسة مريم لجبل صهيون، حيث ماتت السيدة الأكثر مباركة جسدياً، وفي هذه الكنيسة المكان الذي يعرف باسم الجليلي، حيث ظهر المسيح بعد قيامته هناك إلى حوارييه، وفي تلك المرحلة لم يكن توما موجوداً معهم، وفي هذه الكنيسة، باتجاه الشرق، المكان الذي ظهر فيه بعد ثمانية أيام، وذلك عندما كانت الأبواب مغلقة، وجاء ظهوره الآن مجدداً لحوارييه، وكان توما موجوداً، وقال لهم «سلام معكم»، وأراهم يديه وطرفه، ومنحهم أن يتعلموا، وأن يبشروا وفقاً لكلام الانجيل، وإلى الأعلى يصعد الإنسان الدرجات إلى المكان الذي أقام فيه العشاء مع حوارييه، وهناك موجودة المنضدة نفسها التي تعشى عليها، وهناك قدم جسده للأكل، ودمه من أجل محي الذنوب، وهناك أعطى الروح القدس الضوء إلى الحواريين في يوم عيد الحصاد.

وإلى اليسار هناك توجد كنيسة القديس اسطفان، وذلك عندما جرى جلبه من كفرجمالا، وهناك دفن من قبل البطريرك جون، وتحت الجبل يوجد [حقل] حق الدم، وهو مكان الدفن للمسافرين، وعلى الطرف الآخر من الجبل هناك كنيسة القديس بطرس، حيث بكى بمرارة لدى سماع صوت الديك، وذلك بسبب ذنب الانكار، وفي الأسفل دون هذا هناك النبع، الذي يعرف باسم بركة سلوان، فهناك استرد رجل ولد أعمى بصره بناء على أوامر الرب.

وبيت لحم، مدينة داود، قائمة على مسافة مرحلتين باتجاه الساعة التاسعة [نحو الجنوب الغربي]، وهناك كنيسة القديسة مريم، وهي معمولة بشكل جميل جداً، ففي داخل كهف هناك، ولدت العذراء المباركة جداً بمخلص العالم، وهناك يوجد المعلف الذي جرى تمديد المسيح فيه، وأمام الكهف هناك مائدة من الرخام، عليها أكلت أم الرب مع الملوك الثلاثة، وأمام الكهف هناك بئر مياهه صافية وباردة، فيه —كما قيل— سقط النجم، وهو النجم الذي قاد الحكماء الثلاثة إلى

مدخل هذا الكهف، ولدى الخروج من الكنيسة، هناك كهفين إلى جانب الباب، كهف علوي وكهف سفلي، ففي الكهف العلوي راقدة باولا المقدسة كثيراً، وعند قدميها العذراء المقدسة كثيراً يوستوخيوم، ويمضي الإنسان نزولاً إلى الكهف الأسفل بوساطة سلم درجاته طويلة، وهناك ضريح، فيه يرقد الجسد المقدس كثيراً لجيروم المبارك كثيراً، الذي هو المعلم الممتاز، وهذه هي بيت لحم، التي فيها، وفي جميع المنطقة من حولها، أمر هيرود بوحشية بوجوب قتل جميع الأطفال.

وكنيسة القديسة مريم، فيما يعرف باسم وادي شعفاط، بين القدس، وجبل الزيتون، في وسط الوادي، هناك ضريح أم الرب، حيث دفن الرسول جون المبارك جسدها الأعظم قداسة، وخارج تلك الكنيسة يوجد المكان الذي يعرف باسم جثسيماني، والكهف الذي خان فيه يهوذا الرب لصالح اليهود، وعلى رمية حجر إلى اليمين هناك مكان الصلاة، وذلك حيث صلى إلى الأب في ساعة آلامه، وتساقط عرقه مثل نقاط من دم، وسال إلى الأرض، وظهر أمامه ملاك لتشجيعه، وفي قمة هذا الجبل مكان للصلاة، وذلك حيث صعد إلى السماء، وعلى مقربة من هناك كنيسة أخرى، حيث نظم الرب صلاة «أبانا».

وعلى مقربة من هناك بيت فاجي، التي كانت فيما مضى قرية كهنة، وعلى بعد حوالي الميل باتجاه الساعة الثالثة [أي الجنوب الشرقي] توجد بيت عنيا، حيث أقام الرب لعازر، وقبره موجود هناك، وهناك أيضاً كنيسة القديسة مريم المجدلية، وذلك حيث كان فيما مضى بيت سمعان المجذوم، وحيث غفر لها الرب ذنوبها.

وعلاوة على ذلك، إن نهر الأردن على مسافة جيدة عن القدس، أي حوالي العشرين ميلاً، والطريق وعر، وتبعد أريحا ميلين عن الأردن، ويجري نهر الأردن من الشمال إلى الجنوب، وقرب الأردن هناك كنيسة القديس يوحنا المعمدان، فهناك يتولى الرهبان الأرثوذكس خدمة الرب

وعبادته، وخلف الأردن توجد العربية.

وليس بعيداً عن هذا المكان الذي تعمد فيه الرب، يوجد البحر الميت، وذلك حيث ينتهي نهر الأردن، فهناك جرى تدمير سدوم، وعاموره، ودومه، وساعور، منذ زمن طويل، بناء على حكم عدل من الرب، وعرف البحر الميت بهذا الاسم لأن مامن شيء حي يمكن أن يعيش فيه، ولاحتى السمك يمكن أن تسبح أو أن تعيش هناك، ومامن مخلوق يمكنه أن يشرب منه، وإذا ماحاول أي طائر أن يطير فوق هذا البحر، فإنه يسقط على الفور ويموت، وأطلق على هذا البحر اسم نهر الشيطان، ويبعد الجبل حيث صام الرب لمدة أربعين يوماً وليلة، حوالي ثلاثة أميال عن أريحا.

- ٦ -

عرض حول توضع الأماكن
(بعد عام ١١٥٧م)

كـانت الخليل منذ مابعـد الطوفان حتى قـدوم بني اسرائيل عاصمـة فلسطين، ومكان عاش فيـه العمالقة، وهي مـوجودة في ديار سبط يهوذا، وهي مدينة كهنة، ومدينة للالتجاء.

وهي على بعـد ستة أميـال عن القـدس، وهي قائمـة على الحدود بين الصحراء واليهودية.

وهي في المنطقة التي صاغ فيها الخالق العلي الأعلى أبانا الأول آدم.

وهي جزئياً مزروعة وجزئياً براري.

وتأسست الخليل مـن قبل العمالقـة، قبل سبع سنـوات من تأسيسهم تنيس التي هي مـدينة في مصر، وكـان اسم الخليل ممرا، صـدوراً عن أصدقاء إبراهيم. [سفر التكوين: ١٤/ ١٣].

واسم المدينة هذا عـرف به جبل عـالي، بقي عند سفحـه ابراهيم لمدة طويلة، والمكان معلـم بشجـرة بلوط، تحتها ظهـر ثلاثة ملائكة له، وقـد عبد بينهم واحداً.

والثـالوث المقدس هو الذي يخبرنا أنه عندمـا يعبد الثـالوث من قبلنا ينبغي أن يعبد متحداً.

وقد أطلق عليهم اسم ضيوفه.

وعندمـا كـانوا جـالسين إلى المائـدة أحضر لهم شـاة، وحليب أيضـاً، وزبدة، وفي الخليل تحرك بوساطة رؤيـا من الرب، فأقام مذبحـاً، وعليه ضحى إليه بتواضع.

وعلى مقــربة من هذه البلـوطة يجري الاحتفــال بشكل فخم بعيــد الثالوث المقدس، في كل عام، مما يمنح البهجة للجماعات المسيحية.

وبقيت هذه البلـوطة منـذ ذلـك الحين حتى أيـام حكم الامبراطـور ثيـودوسيـوس حيـة، وذلك حسبما ذكـره جيروم، ولقـد قيل بأن الجذع والجذر بقيا هناك، مـع أنهما كانا جافين، فقـد تبرهن أنهما دواء، لأن أي راكب يحمل قطعة منها معه، فإن دابته لاتتقيأ.

وعرفت الخليل باسم «أربعة»، وقبل ذلك الوقت حملت اسم «قرية»، وقد أضيف هذا إلى اسمهـا، ومعنى كلمة قرية، باللغة العـربية «مدينة»، وعلى هذا عندما نقول: «قرية أربعـة» نعني «مدينة أربعة»، ومرد هذا إلى وجود أربعة راقدين في قبر عـام، وهـم: آدم، أول المخلوقات، والبطاركة العظماء الثلاثة: ابراهيم، واسحق، ويعقوب، في كهف مزدوج، في حقل عفرون، وهناك أربعة زوجات معهم، وهن: حواء أمنا، وسارة، ورفقة، وليا.

والخليل واقعـة بعـد وادي الدموع، وقـد عـرف بهذا الاسم، لأنه في هذا الوادي بقي آدم لمدة مائة سنة يبكي على ابنه هابيل، وفي الخليل ولد له شيـث، الذي منـه ولد المسيـح، وكـــذلك ولـد له الأبنـاء والبنات الآخرين.

ومن هنـا، حمل باتجاه الجنوب، مـن قبل الرب، ليتملـك السلطة على جنة عـدن، ومعنى هذا الاسم بالاغـريقيـة والعبرية «حديقـة البهجـة»، ولكن تبعاً للتاريخ القـديم، فإنه بعد سقوطه، جرى نفيـه مهاناً من قبل الرب، إلى هنا إلى الخليل، لكيون فلاحاً فقيراً على ترابه الأصيل.

وهذا هو الحقـل الذي منه يستخـرج بالحفـر السكان الأصليـون التراب، وينقلونه بعيداً، حيث يبيعـونه في مختلف أرجاء مصر والعـربية، لأنه ضروري لأغـراض دوائيـة، وهو يستخـدم بمثابة مـادة تجميليـة في

بعض الأماكن، وهذا الحقل، مهما جرى حفره بالعرض وبالعمق، يجدونه أنه غير ناقص التراب في نهاية العام، وذلك بنعمة ربانية، لأن تربة هذا الحقل حمراء.

وتماشياً مع التقاليد العبرانية، كان آدم أحمر اللون.

وفي الخليل، عمل جاسوسا الأرض المقدسة شالب ويشوع أول استطلاعهما.

وفي الخليل اختير داود لأن يكون ملكاً، وذلك من قبل الرب، ومسح من قبل صموئيل، وقد حكم لمدة سبعة أعوام، وحول ذلك قال الرب: «وجدت داود يتماشى مع قلبي» [المزامير: ٨٩/ ٢٠].

وفي الخليل ولد الأبناء الستة لدواد، وهم: أمنون من أخينوعم، وكيلاب من أبيجايل، وأبشالوم من معكة، وأدونيا من حجيت، وشفطيا من أبيطال، ويثرعام من عجلة [صموئيل ٢/ ٣/ ٣].

وعبر كالب بن يفونه من الخليل، وهزم ثلاثة من أبناء عناق، وهم: شيشاي Sheshai، وأخيمان Achiman، وتولماي Tolmai.

وفي المنطقة التالية للخليل في مواجهة الفلسطينيين كانت هناك دبير، التي كانت تعرف من قبل باسم قرية— سفر، يعني «مدينة الكتابة»، التي استولى عليها أوثونئيل.

وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من الخليل، هناك مكان دفن لوط، ابن أخي ابراهيم.

وعلى مسافة عشرة أميال وراء الخليل، نحو الفلسطينيين هناك بئر السبع، وهي مدينة جميلة وفخمة كانت لبني اسرائيل منذ زمن طويل مضى، ومعنى اسمها «بئر القسم»، لأن ابراهيم واسحق دخلا هناك

بمعــاهدة مع أبيمالك، وفي بير السبع زرع ابراهيم كـرمـا، حيث توجـه بالدعــاء هناك لاسم الاله السرمدي، وقـد سكن هناك لمدة طويلة، ومن بعده اسحق، الذي إليه ظهر الرب هناك، وباركه وبارك ذريته.

وعلى بعــد ستــة أميــال من الخليل، بـاتجاه الجنوب بيت— فـاروئيل، الذي يشكل الحدود مابين اليهودية ومصر، والفلسطينيين والعربية، وقد كـــانت فيما مضى مـــدينة غنيـــة ومليئة بالسكان، وهنـا استقبلت أم المخلص، بعدما أنذرها الرب لتهرب مع ابنها يسوع، وقد قادها زوجها المقترنة به يوسف، وجاء استقبالها للمرة الأولى ضيفة خارج اليهودية.

وعلى مسافـة عشرة أميال من الخليل إلى الشرق هناك بحيرة اسفلت، وعرفت هذه البحيرة أيضاً باسم البحر الميت، ولسبب مماثل باسم بحيرة الشيطان، لأنه نتيجــة لوحشيتـه وللغضب جــرى دمـار المدن الأربع: سدوم، وعمـوره، وساعور، ودومه، وحـدث التدمير بشكل مخيف بنار الكبريت، في تلك البحيرة لاسرافهـن، ولأنهن حــافظن على شرورهن، ومعنى اسم ســدوم هو «الجمهــور الصـامت»، أو الأعمى، وعمـوره: «خـوف الناس» أو الخيـانة، أمـا معنى ساعـور فهـو «البحـر» أو «ميناء البحر»، ومعنى دومه: «النشوة».

وعلى الطريق نزولاً مـن اليهـودية، وعلى بعــد ميل عن البحيرة تقع سيجور، ومعنى سيجور هو صغير أو قليل، وعرفت أيضاً باسم «بلع»، ومعنى ذلك «اختفي»، كما تعرف أيضاً باسم «زرع» وهو اسم سرياني، وهي تعـرف أيضـاً باسم «بعلزرع»، ويكـون هذا عندمـا يجري توحيـد الاسمين ودمجهما.

وإلى سيجـــور هـذه هرب لوط، تحت قيــادة الملائكة، مـن ســـدوم، وبوســــاطة صلواته أنقـــذ من النار والـدمـــار، ولدى الـذهـاب إلى

سيـجور، هناك مـاتزال علامات من بقـايا زوجة لوط، التي تحولت إلى عمود من ملح.

وفـوق سيجور في الجبـال أمام اليهـودية، سكر لوط ونام مع ابنتيـه، فولدتا منه: مُـآب، وعمون.

وتدعى سيجور من قبل معاصرينا باسم «بلدة النخيل».

وتعـرف منطقـة هذه المدن الخمسـة باسم «البنتـابولس» Pen- , tapolis لأن الموجود هناك هو خمسة مدن، وقبل المدن وقبل دمار منطقتهم، كان البنتابولس وادياً كثيف الأشجار، وقد مضى ملوك المدن الخمسة إلى الحرب ضد خدر لامور (أو خدر لغومير) ملك العيلاميين، وقاتل عمرافيل ملك شنعـار، وعروج ملك بنطش، وتينال ملك الأمم، وقاتلـوا بيرا ملك سدوم، وبيرشا ملـك عموره، وشنعاب ملـك دومه، وشمبر ملك سـاعور، وملك بلع، وهزم الخمسـة، واستولى العـدو على مقتنياتهم وعلى طعام سـدوم وعموره، وأخذوا لوطاً، ابن أخي ابراهيم، معهم أسيراً.

وبين سيجـور وأريحا منطقة عـرفت باسم عين الجدي، وهي مصـدر خمور عين الجدي، والمكان الذي كـان من المعتاد نمـو شجر البلسم فيـه بوفـرة كبيرة، وفـوق بحيرة اسفلت يجمـع الإنسـان كثيراً من الشب، وأيضاً كثيراً من القطران.

والشب هـو من مـاء ملـح الأرض، ويتكون في الشتـاء من تمازج الكلس مع الماء، ويبلغ النضـوج بوسـاطـة شمس الصيف، ونال الشب Alumen, [المقابل اللاتيني لـ Alum] اسمه مـن الضوء Lumen [معنى ضـوء باللاتينـي]، وذلك بسبب أن الألوان التي تمزج به تصبح أقل دكانة.

والقطران سائل شديد الرائحة، أقرب إلى السواد، وهو مفيد لطلاء الجمال، لإزالة الحكة، ولدهن أشجار الكرمة لإزالة الحشرات التي تأكلهم.

وبعد بحيرة اسفلت هناك جبل مصنوع كلياً تقريباً من الملح الشفاف، ويستخرج من البحيرة نفسها كتل (أحجار الطواحين) لأنها شيء ضروري في تلك المناطق.

ويستخرج الحمر (القار) من البحيرة، الذي هو مفيد لاستخدامات الأطباء.

والبحيرة نقية إلى درجة أنه يمكن أن يشاهد خلالها الأبنية القيمة، والخرائب، ولكنها مرة كثيراً إلى حد أنه لايمكن أن يتحملها أي كائن حي، ولذلك مامن طائر يطير فوقها، ويوجد جزر في البحيرة عليهن ينمو تفاح أخضر، تراه جيداً وصالحاً للأكل، ولكن إذا ماالتقطت واحدة منهن وفتحتها فإنها تتفتت إلى رماد، ويخرج منهن دخان، كما لو أنهن كن يحترقن، وتبدو الأشجار على الجزر وهي مغطاة بالجمرات والرماد، وكأنها تمثل النهاية المحترقة للمدن، وتؤخذ الأخشاب من الجزر بوساطة القوارب، وهي تستخدم للأغراض المحلية.

وإذا صدف وأمضى أي واحد من الناس ليلة قرب البحيرة، وترك حقيبته مليئة بالخمرة أو بالماء على الأرض، فإنه سوف يجد في اليوم التالي مافيها وقد صار مراً، وغير قابل للشرب، مهما كان حلواً من قبل.

وهناك على الطرف الآخر من البحيرة زردم، وهي جزيرة، إليها ذهب سابا المبارك للقيام بالصيام الكبير منفرداً، لكن بغضب الشيطان التهبت نار فجأة، فتركته محروقاً تماماً، ولمدة سبعة أيام كان أشبه بالميت، ولكن برحمة من الرب شفي، واسترد صحته، ومع ذلك بقي

من دون لحية بعد ذلك، وعندما عاد إلى الوطن إلى اخوانه، وجدوا صعوبة في التعرف عليه أنه سابا.

وعبر منطقة بحيرة اسفلت، وعلى سفوح العربية، هناك شيوه (صفا) Shaveh , وهي مدينة قديمة، كان خدرلغومير قد هزمها.

والبنتابولس، التي تقدم ذكرها أعلاه ، موجودة على الحدود بين اليهودية والعربية.

[يحتوي النص الآن، على ماأورده جيروم في الرسالة ٧٨، حول المحطات في الصحراء التي عسكر فيها موسى مع بني اسرائيل، أثناء الخروج من مصر إلى جبل سيناء وكنعان، وهذا ليس له علاقة بالحج، وبعيد عن النصوص التالية، واعتمد المؤلف هنا، مثلما فعل من قبل على رسالة فيتيلوس، انظرها في الموسوعة الشامية في الجزء٣١، ومن أجل المحطات انظر ص٣٥٣-٣٦١].

وسيناء هو جبل بالعربية عظيم الارتفاع، وصعب أن تتسلقه، فالطريق إلى أعلاه يحتاج إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة خطوة، ويقول النساك والرهبان الذين يعيشون هناك، بأن المكان منذ أيام موسى، موقعاً تسير فيه ملائكة السماء، وجبل سيناء مغطى غالباً بالدخان، والبروق المضيئة، وقد قيل عن سيناء (وماقيل هو صحيح) أنه تحيط به كل يوم سبت نار سماوية، لكنها نار لاتحرقه، وكل من يلمسها لاتؤذيه، وقد ظهرت مراراً مثل لحف [أغطية— بطانيات] بيضاء، تسير حول الجبل، بسهولة وانسياب، وتهبط أحياناً مصحوبة بأصوات مرعبة، من الصعب تحملها. ويخفي عبيد الرب الأكثر قداسة أنفسهم هناك في كهوف، وفي قلايات الدير.

ويوجد على قمة جبل سيناء كنيسة جميلة ومبجلة، وموقعها هو حيث أعطى الرب موسى الشريعة، وقد كتبت بيديه على ألواح من حجارة،

وهذه الكنيسة محترمة إلى درجة أن مامن واحد يتجرأ على الدخول إليها، ولا أن يتسلق الجبل ما لم يكن مقبولاً من الرب في الاعتراف، ومالم يكن قد قام أولاً بالصوم والصلاة، والرهبان والنساك منصرفون كثيراً إلى الدين، إلى حد أنهم تحرروا من آلام الجسد، أو الروح، وهم فقط يقاتلون للرب، وهم على درجة كبيرة من الشهرة إلى حد أن الناس يتحدثون عنهم باحترام من حدود أثيوبيا إلى أقصى حدود فارس، ويفعلون ذلك بكل لغة من لغات الشرق موجودة بينهم، وهم متملكون بصورة حرة وتامة الديرة في مصر وفارس، وحول البحر الأحمر وفي العربية، ولذلك حياتهم فيها و فرة كبيرة.

وهم محترمون إلى درجة أن ما من واحد يتجرأ على الاساءة إليهم في أي شيء، وإذا ماأساء إليهم أي واحد، يحدث أنه يتعرض للعقوبة من قبل الرب بقسوة، ويعيش كل واحد في قلاية منفردة حول الجبل، وهم لايعيشون حياة جماعية، بل بعيداً عن التكتلات الجماعية، وفي سيناء بقايا العليقة التي ظهر فيها الرب إلى موسى في وسط لهيب من النار.

وفي منطقة حور (أور) جبل عدن، وهو يعرف باسم «جبل الرمال»، لأنه واقع في منطقة رملية، وهو صعب التسلق، ومرتفع بشكل مدهش، وقد تشكل بشكل طبيعي وكأنه برج مرتفع، مع أجزاء شديدة الانحدار، وكأنها قد قطعت باليد، ويستغرق الطريق من حوله أكثر من يوم واحد والأشجار حول أطراف الجبل نادرة، وكثير من الطيور من مختلف الأنواع تطير حول الجبل على شكل أسراب، ويبدو الجبل نفسه من دون مزروعات أو رطوبة، وبعيد عن أية منطقة فيها مزروعات في الصحراء.

وسمعت من الناس الذين يعيشون على مقربة منه يذكرون، أنه بتصميم من الرب، تمّ الكشف عن طريق صعود إلى الجبل إلى رجلين، كان الأول بينهما رشيقاً ونشيطاً، وقد تسلق بسهولة الأجزاء الخفية من

الجبل، لكن الآخـر تمكن بصعـوبة بالغـة من الوصـول إلى منتصف الطريق، وحين صـار هناك كـان متعبـاً، منقطع الأنفـاس، فجلس على الأرض، وقطع الرجل الأول الطريـق وتسلق بقيـة الجبل، وتعجب من طبيعة الجبل، ومن الهدوء الذي كـان سائداً هناك، فقد كـان الهواء نقياً، وكـانت هناك رائحة الورود، وطيب رائحـة المزروعات والأشجـار، كما توفـرت أنواع من الحجـارة، شـوهدت خـلال الجدول، حيث توفـرت ينابيع رائعـة، ووفـرة من أشجـار الفـواكـه، مع جمال لثمارهم، وكـانت الطيـور تغرد وتغني، كما توفـرت مسـاحات من الأمـاكن الظليلة، ومن المواضع المكسوة بالعشب الأخضر، وهناك قـرر، ووعد نفسه، إذا سمح الرب، أن يتمتع بالحياة وأن يموت.

ونظر من حوله، فـاعترته الدهشة لغياب صاحبـه، وبادر على الفور، مسرعاً خفيفـاً مندفعاً وسعيداً، ومبتسماً لنفسه، وهو يصفق بيـديه، نحو حافة الجبل، ودعا صديقه ورفيقه، راغباً بأنه سوف يرغب أيضاً بالعيش على ذلك الجبل، الذي قال بأنه يـوجد فيه نبع دائم، ووعـده بأنه سيجد المكان مثل الجنة، لكنه رفض الصعـود إلى الأعلى، والدخول إلى المكان، ولاندري لم فعل ذلك، هل كـان خـائفـاً من صعـوبة الجبل، أم أنه منع بمانع رباني، وهكذا بقي في مكانه، واكتفى بالأشياء التي رآها وسمعها، وقـال وداعـاً لصـديقـه وبذل جهـوده بالنزول إلى الأسفل، ثم عـاد إلى المكان الذي جاء منه، وأعلن عن الذي رآه وسمعه.

ويوجـد حول جبل عـدن جبال أخـرى كثيرة، وهضاب، وصخـور، وأخـاديد، وهي من الذروة حتـى الأسفل منحـوتة على شكل أقـواس، وكهوف، وأقبيـة، وقلايات من مختلف الأنواع، وفيها قـالوا بأن النساك المقدسين والرهبان اعتادوا على العيش في الأيام الخالية.

وعند سفح جبل عـدن ينبع نبع، لايجري جـدول منه، وإذا مـارأيتـه خيّل إليك أنه قـد يسقي حصـانين أو ثلاثة، لكنه في الحقيقـة قـد يسقي

أكثر، وقد تبرهن أنه لم تظهر عليه الزيادة أو النقصان.

[هناك اقتباسات من جيروم، الرسالة ٧٨ متواصلة، ثم يبدأ النص الجغرافي ثانية، انظر فيتيلوس ص٣٥٩-٣٦١].

وبين الأردن وأريحا هناك بيت حجلة، ومعنى هذا الاسم «مكان الخاتم»، والسبب —كما قيل— في أخذ شكل الخاتم هو أن أبناء يعقوب ساروا على شكل دائرة، عندما كانوا يندبونه، وذلك عندما أعادوه من مصر إلى الخليل.

وبين أريحا والجلجال هناك عمق— عخور، الذي معناه وادي عخور، أي جيشان الناس أو الحشود، فهناك جرى رجم عخور [عخان] لأنه سرق بعض الأشياء المكرسة.

وجرى الاستيلاء على أريحا، ومن ثم تسميتها اليبوسية.

وفي الجلجال ختن يوشع الناس للمرة الثانية، وأقام الحجارة التي جلبوها من الأردن، لأن تابوت العهد بقي هناك لمدة طويلة.

وتتصل العربية بأدوم بأراضي بوصترا [بُصرى]، التي هي بُصره، التي منها جاء باراخ (برخئيل) البصري، لكن هناك بصره أخرى في جبال أدوم، التي حولها قال إشعيا «من ذا الآتي بثياب مصبوغة من بصره»؟ [اشعيا: ٦٣/١] والطرخونية وعيطوره هي أجزاء من أدوم المتجهة نحو دمشق، وفي هاتين المنطقتين —تبعاً لانجيل لوقا— استحوذ فيليب على الطرخونية، وكان عوص، الابن الأول لآرام، وحفيد سام هو الذي أسس الطرخونية، ومنه حملت البلاد اسم عوص، الذي جاء منه يعقوب المبارك.

وكانت بوصترا فيما مضى عاصمة أدوم، وأدوم أسفل سورية، وسورية هي دمشق.

وكـان أليعـازر ابـن وكيل ابراهيم هو الذي أسـس دمشق، في تلك المنطقـة التي قتل فيها قـابيل أخـاه، ولهذا السبب، إن معنى اسم دمشق هو «شرب الدم» أو «قبلة الدم».

وكانت دمشق فيما مضى عاصمة سورية، لكن تلك المكانة نقلت من قبل أنطوخيوس إلى أنطاكية، وقد عـرفت باسم سورية من اسم سوري حفيد ابراهيم وابن قطوره.

وعـرفت دمشق باسم آخـر هو «آرام» وبـاسم ثالث هو «أرفـاد»، وكانت دمشق فيما مضى المطرانية اللاهوتية في سورية.

وعـرفت منطقة دمشـق، وفقاً لزكـريا، باسم سـدرات Sedrath , وقد سكـن أجزاء منها عيسـو، الذي عرف أيضـاً باسم سعير، وأدوم، ومن أدوم جزء في سورية اسمه أدمه.

وفي سعير توجد مدينة أدمه.

وفي أدمه ليس بعيـداً عن دمشق، في جبل سعير، قـد عاش الحوريون في سعير، وهم الذين قتلهم خدرلغومر.

وفي منطقـة أدمه، على بعـد ثلاثة أميال عن الأردن، هناك نهر يبـوق، وهو الذي عبره يعقوب عنـدما كان عـائداً من بلاد الرافـدين، وتصارع مع الملاك.

وعلى بعد أربعة أميال عن دمشق، يوجد المكان الذي ظهر فيه المسيح لشاول [كـوكب] وقال: «شاول، شاول، لماذا أنت تعـذبني؟»، وتشريفاً لهذه الحادثة، هناك كنيسـة مبجلة جـداً في دمشق، تحت اشراف رئيس أساقفة أرثوذكسي.

وعلى مسافة أربعـة وعشرين ميلاً من دمشق إلى الجنوب، وعند سفح جبل لبنان، توجـد بانياس وهي مـدينة فخمة، وهي تعرف أيضـاً باسم

بلنياس أبيلينا، من «جمال» الأماكن الصالحة هناك للسكنى، واسمها أيضاً قيسارية فيليب، وهذا الاسم اشتق من اسم قيصر.

وتقع بعلبك على بعد ميل إلى الشرق من مدخل وادي البقاع، وهي مدينة في موقع مناسب تماماً، وقد تأسست من قبل سليمان، بسبب وفرة الأشياء الجيدة، ولترف امتلاكها غابة، وقد سماها «غابة لبنان» وذلك عندما بنى بيتاً من عاج، وأطلق على هذا أيضاً اسم «غابة لبنان».

وعند سفح لبنان ينبغ فرفر وأبانا، نهرا دمشق، ويجري أبانا عابراً جبال لبنان، وعبر سهل عرقة، ثم إنه يتصل بالبحر الكبير، في المنطقة التي انسحب إليها يوستاخيوس المبارك، بعدما حرم من زوجته وأولاده.

وعرقة هذه، مدينة في الحقيقة لايمكن حصارها، وقد تأسست من قبل عرقايت، الابن السابع لكنعان، وهي موجودة عند سفح لبنان، على ثمانية أميال إلى الشرق من طرابلس، وتشكل عرقة بداية فينيقيا، والنهاية الأخيرة لجبل الكرمل، الذي تبدأ منه فلسطين.

ويشطر لبنان فينيقيا عن سورية.

ويجرى فرفر خلال سورية حتى ربله، يعني أنطاكية، حيث يمر عابراً أسوارها، وعلى بعد عشرة أميال عن المدينة، يصب في البحر المتوسط، في ميناء السويدية، أي ميناء القديس سمعان، وذلك على مسافة عشرة أميال عن المدينة.

وعند سفح لبنان، وليس بعيداً عن بانياس، هناك «أر» و«دن» حيث هناك نبعين يصدران عنهما، وتحت جبل جلبوع يتشكل الأردن، الذي فيه تعمد المسيح من قبل يوحنا، ويطلق على الوادي الذي فيه يجري الأردن، من جبل جلبوع إلى بحيرة اسفلت، اسم الغور.

وألون، التي هي كلمة عبرية (الصحيح اغريقية) هو أيضاً الاسم الذي يطلق على السهل الواسع والزراعي، الذي يمتد نزولاً من الجبال، ويتتابع من لبنان إلى صحراء فاران، ويشمل ألون وادي بيسان، يعني الوادي الذي يمتد من بيسان إلى الأردن.

وعبر الأردن إلى الشمال هناك بعل، وبعل معون، وعما مدينتان فخمتان، قد بنيتا من قبل أبناء رأوبين، وإلى الشمال هناك بيت —رام، التي بنيت من قبل سبط جاد.

وفي ألون، فوق الأردن هناك عمون، أي بيت حنينا، التي فيها جرى تعميد يوحنا.

وفي هذه الزاوية لبيت حنينا هناك عشتاروت قرنايم، حيث قالوا بأن يعقوب قد عاش.

ويفصل الأردن الجليل عن أرض بوصترا، ومعنى اسم الأردن هو «المنحدر»، لأنه يجري منحدراً.

ويجري «دن» من نبعه تقريباً تحت الأرض إلى ميدان، التي ليست بعيدة عن ثمان، عاصمة منطقة السواد، وميدان سهل خصب وعريض، فيه يصبح «دن» مرة أخرى مكشوفاً ومرئياً، ولهذا السبب يعرف باسم ميدان، لأن «دن» ينبع في وسطه، وفي اللغة العربية معنى كلمة ميدان «ساحة»، والساحة تعرف باللغة اللاتينية بفوريوم Forum, لكن ميدان عرف بهذا الاسم لأنه يحدث في كل عام اجتماع حشد لايحصى من الناس في هذا السهل، يجلبون أي شيء يريدون بيعه، ويمكثون هناك، ويقوم جيش كبير من الفرثيين والعرب بحراسة هؤلاء الناس، وذلك أثناء رعيهم لقطعانهم في هذه المراعي الغنية، وكلمة ميدان مشكلة من «مي» و«دان»، ومعنى كلمة «مي» بالعربية «الماء»، ومعنى «دان» النهر، وذلك اشتقاقاً من السهل الذي

أتينـا على ذكره، وأصبح نهراً، ويجري خلال السواد.

وجـزء من السواد هو أرض عـوص، وفي السواد هناك قبر يعقـوب، الذي يبجل حتـى الآن من قبل الأرثوذكس والسـوريين، والشعـوب، ومن السواد كان نعمان، التي جاء منها سوفر النعماني.

ويجري دان تحت مدينة جدر (أم قيس)، ويجري إلى جانب الحمامات الطبية (الحمة) وفي سهول الشوك حتى يتحد مع نهر «أر» تحت جلبوع.

وفي سهـول الشوك، وقـع الأمير الثالث للجليل بعـد تانكرد، وكـان اسمـه جـرفـاس أوف باسـوكي Basoches, وكـــان من أصل نبيل، من أسرة فـرنجيـة، وقع أسيراً إثر انتصـار طغتكين ملك سـورية، وقـــد حمل أسيراً إلى دمشق، وعنـدمـا —بعـــد وقـت قصير— سكر طغتكين، حتى لم يعد مع نفسه، أمر بقطع رأسه، فأرسل إلى الرب ذلك الشهيد المشهور، وعندما عاد في الصبـاح إلى نفسه ثانية، حزن وغضب، لأنه كـان من الحماقة قتل مثل ذلك الرجل النبيل، فأمـر بدفنه، لكن من دون رأسـه، حيث عملـه كأسـاً، وزينه بشكل غني بـالذهب والجواهر، واحتفظ به بمثابة تذكار لنفسه، حيث اعتاد أن يشرب منه.

وليس بعيـداً عن بانيـاس يصنع الـ «أر» بنفسـه بحيرة (الحولة)، ثم هناك بعـد ذلك بحر الجليل، الذي يبـدأ بين كفـرناحوم، وبيت صيـدا، ومن بيت صيـدا كـان بطرس وأندرو، وجـون، وجيمس، وجيمس بن ألفيوس.

وعلى مسافـة أربعة أميـال من بيت صيدا هناك كـوروزين، التي فيها سوف ينشأ المسيح الدجال.

وعلى بعد خمسة أميال جدر، التي هي مدينة رائعة جداً، والتي حولها قد قيل: «هو سكن مع سكان جدر»، ومعنى كلمة جدر: «في الظلام».

وعند النهاية القصوى للبحر هناك كفرناحوم، التي كان اخلاصها موضوعاً في وعظ المسيح.

وعلى مسافة ميلين من كفرناحوم، هناك سفح الجبل، حيث وعظ الحشود، وحيث شفى المجذوم، وعلى بعد ميل من هذا السفح، هناك المكان الذي أطعم الرب فيه خمسة آلاف إنسان، ومن هذه الواقعة أطلق على المكان اسم «المائدة»، وتحت ذلك مباشرة يوجد المكان الذي أكل المسيح فيه بعد قيامته.

وفوق ساحل بحر الجليل هناك جرجوسيا، وهو المكان الذي شفى فيه الذين تلبسهم الشياطين.

وعند رأس البحر، على اليسار، هناك في الجبل وادي جنسارت، وهو مكان عثر فيه على الذهب، ومن هنا جاء اسم بحيرة جنسارت.

وعلى ميلين من جنسارت المجدل، المكان الذي جاءت منه مريم المجدلية.

وهذه المنطقة تعرف باسم جليل الأمم، وهي موجودة في ديار سبطي: زبلون، ونفطليم، التي منها جاء طوبياس، وفي مناطق من هذا الجليل، كان هناك عشرون مدينة، هي التي أعطاها سليمان إلى حيرام، ملك صور.

وعلى ميلين من المجدل تقع مدينة كينيرث Kinnereth, التي هي الآن طبرية.

وكان هيرود الأصغر هو الذي أسس طبرية، وسماها طبرية تشريفاً للقيصر طايبيروس.

وهكذا عرفت البحيرة أيضاً باسم طبرية.

وتستغرق الرحلة حول هذه البحيرة حوالي اليوم، ولهذا البحر المزية

الطبيعية التالية، وهي أن يكون نتناً وغير قابل للشرب، مالم تلقى فيه قاذورات المدينة والمزارع المجاورة.

وعلى مسافة أربعة أميال من طبرية تقع مدينة بيت أوليا(★)، التي منها جاءت يودث التي قتلت هولوفرنس.

وتبعد دوثيم أربعة أميال إلى الجنوب من طبرية(★★)، فهنا عثر يوسف على إخوته، وهم تولوا بيعه هناك.

وعلى مسافة إثني عشر ميلاً عن طبرية، تقع الناصرة، التي هي حاضرة الجليل، وهي التي نشأ فيها المسيح، ومعنى كلمة الناصرة «الزهرة».

وفي كنيس الناصرة، فتح يسوع سفر اشعيا، وشرح معانيه إلى اليهود، وعند الجانب الشرقي من الناصرة هناك نبع صغير، منه اعتاد يسوع أثناء طفولته، أن ينضح الماء ليزود أمه ونفسه.

وعلى مسافة ميلين من الناصرة توجد مدينة الصفورية، على الطريق الذي يقود إلى عكا، ونالت المدينة اسمها من صفت الذي أسسها.

وحنة المباركة، أم أم المسيح جاءت من الصفورية.

وعلى مسافة خمسة أميال من الناصرة، هنا قانا الجليل (كفركنا) وهي مدينة قديمة في ديار سبط أشير، وهناك حوّل يسوع الشاب الماء إلى خمرة، ومن قانا جاء سمعان الكنعاني، وفيليب وناثانئيل.

وعلى بعد ميل إلى الجنوب من الناصرة مكان يعرف باسم «السقوط»، وهو قمة جبل، منها رغب أقرباء يسوع أن يلقوه، لكنه اختفى من بينهم.

وعلى مسافة أربعة أميال إلى الجنوب من الناصرة، يوجد جبل الطور،

(★) الاشارة هنا في الحقيقة إلى صفد، ولعل بيت أوليا هي الآن مثليا.

(★★) لعل المقصود هنا خان يوسف، لأن دوثان قرب طولكرم.

وهو في وسط الجليل، وهو مستدير بشكل مدهش ومرتفع، وهنا المكان الذي تغير فيه شكل المسيح، وأظهر مجده إلى خاصته، وعلى طريق النزول من جبل الطور التقى ملكيصادق بابراهيم، وهو عائد من هزيمة أمالك، وقدم إليه خبزاً ونبيذاً.

وعلى بعد ميلين إلى الشرق من الطور هناك جبل حرمون، وعن الجبلين قال صاحب المزامير: «الطور وحرمون باسمك يهتفان» [المزامير: ٨٩/ ١٢]، وهناك حرمون آخر في أدوم، مجاور لسلسلة لبنان الشرقية.

وتباحث ملكيصادق وابراهيم حول العشور تحت الطور.

وعلى بعد ميلين من الطور هناك نين، التي كانت فيما مضى من مدن بني اسرايل، وعند بابها أعاد يسوع إلى الحياة ابن الأرملة.

وهناك فوق نين جبل عين دور، وبين عين دور والطور، في سهل نين توجد قدوميم، أي مجرى جدول قيسون (نهر المقطع)، حيث على ضفته هزم باراخ الأدوميين، وذلك بناء على تحريض من دبوره، وجرى قتل سيسرا من قبل يثيل.

وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الشرق من الطور، هناك شارون [تل صارم، أو سهل ابن عامر].

وعلى مسافة خمسة أميال من الطور هناك يزرعيل، أي زرعين، التي هي مدينة قديمة، وفي يزرعيل حكم اهاب وجيزبل، وجاءت نبوت من يزرعيل، وهي التي رجمت عند مؤامرة جيزبل، ولهذا السبب ماتت، عندما تسبب ياهو بسقوطها، وقبرها مايزال هناك.

وبعد يزرعيل هناك سهل مجيدو، حيث مات يشوع، بعدما جرى خداعه من قبل ملك السامرة، ومن هناك نقل جسده، ودفن في صهيون.

وعلى مسافة ميل من يزرعيل هناك جبل جلبوع (فقوعة)، التي فيها

سقط شاؤول ويوناثان، وفي جبال جلبـوع هناك قرية تحمل اسم جلبوع (جلبون).

وعلى بعـد ميلين من جلبـوع هناك مـدينة بيسـان، التي هي حـاضرة الجليل، وعلى أسوار هذه المدينة جرى تعليق رأس شاؤول.

وفي الجليل قـرية الكوش Elkosh, التي جـاء منهـــا النبي ناحوم.

وعلى بعـد خمسة أميـال عن يزرعيل هناك بلدة جنين، التي منها تبـدأ السامرة.

وبين جنين ومجدو، غـور، وهو مكان فيـه قتل ياهو —ملك اسرائيل أخزيا ملك اليهودية.

وعلى مسافة عشرة أميال من جنين، هناك السامرة، وقد أطلق الاسم أيضاً على المنطقة التي من حولها.

وسنحريب هو الذي أسس المنطقة، ومن السـامرة جاء السـامريون، وبعـدما جـرى تدمير المدينة وتسـويتها بالأرض من قبل أنطوخيـوس، أعيـد بناؤها من قبل هيرود بن أنتباتر تشريفـاً لأغسطس قيصر، وأطلق عليها اسم أوغسـطا، الذي هـو بالاغريقية سبسـطية، ويقال بأن يوحنـا المعمـدان قـد دفن في هذه المدينة بين إيليا وعـوبيديـا، فقـد قطع رأسـه من قبل هيرود عبر الأردن في قلعة مكرون Macheron, وقد قيل بأن جسده قد أحرق من قبل يوليان المرتد، ورمى بالرماد في الريح، وكـان رأسـه قـد نقل منذ زمن بعيـد إلى الاسكندريـة من قبل الكاهن مـارسيلوس، ثم نقل من بعـد ذلك بـوسـاطة فلسيلـوس الراهب إلى أكوتين مع ثلاث أيقونات، في أيام حكم ببن، لأنه حدث له، عندما كان عـائـداً من قتل الوندال، أن أعيـد إلى الحيـاة عشرين فارسـاً كـانوا قـد سقطوا في الحرب، بفضل جون المبارك.

لكن اصبع السبابة، التي أشـار بها إلى يسوع ليقـدم من أجل تعميده، فقد أخـذته العذراء تغـريس Tigris معها عبر الألب، وهو الآن محفـوظ بكل تشريف في الكنيســة في مـورين Maurienne وفي سبسطيـة كانت امـرأة قـد افترست ابنهـا، وقد حملهـا على ذلك الجوع، الأمر الذي وقع أيضاً في القدس لمريم.

وفي السامرة تنبأ اليشع أيضاً، وأطعم مائة نبي في الكهوف.

وفي السامرة، مدينة شونيم Shunem, التي جاءت منها المرأة الشونيمية، ومن السامرة جاء سمعان مجوس.

وعلى مسافة أربعـة أميال من سبسطية تقع شكيم (نابلس) التي بناها عمـور، وسماها شكيـم على اسم واحــد من أولاده، وأطلـق على هذه المدينة فيما بعد اسـم نابلس، أي المدينة الجديدة، وكان أبناء يعقـوب قد دمـروا شكيم، وقتلوا عمـور، لأنهم غضبـوا لاقتراف الزنا مع أختهم، وإلى شكيم أعيــدت عظام يوسف ونقلت مـن مصر، ودفنت في شكيم قرب النبع قرب سفح جـرزيم، وصنع يربعام العجلين الذهبيين، حيث وضع أولهما في دان، والثاني في بيت ايل.

وذهب السـوريون والسـامرة إلى أن هناك أربعـة جبـال تظلل شكيم هي: عيبـال، ودان في الشرق، وبيت إيل، وجــرزيـم في الجنوب، لكن جيروم رأى أن اثنين منهم مـوجودين في أرض الميعـاد فوق أريحا، وهما جبلا عيبال، حيث بنى يوسف مـذبحاً للرب من الحجارة الطبيعية، بناء على أوامر موسى، وجـرزيم على مقربة منه، فمنهما معاً من الممكن سماع أصوات الأشخاص وهـم يتباركون، أو يتلاعنون.

وأسس اليبـوسيـون لوز (خـربة لوزه)، وذلك على مسـافـة ميل من شكيم، وهي تعـرف بالعبرية باسـم ألموس، وهنا أراد ابراهيم، بناء على رسـالة من الملاك، أن يضحي بابنه اسحـق، وانطلق إلى سفح الجبل مع

الشاب ومع الأتان، وفي الحقيقة تمت التضحية بكبش عوضاً عنه، وفي كل عام يقوم المسلمون تقليداً، منهم لإبراهيم بالتضحية، ومثل ذلك يفعل سلطان فارس (الخليفة العباسي) الذي هو الأكثر قوة فيما بينهم، وكذلك أمير ممفيس، فهم يضحون بجمال بأيديهم.

وبعدما نام يعقوب هناك، وحدثت له رؤيا السلم، أطلق من قبله على المكان اسم «بيت ايل» أي بيت الرب، لكن بعدما وضع يربعام هناك العجل الذهبي، صارت تعرف باسم «بيت أون» Bethaven, يعني بيت الصنم، وأطلق إبراهيم على المكان اسم «الرب يرى»، وقد شيد يعقوب عموداً من الحجر هناك.

وعلى بعد ميل من شكيم توجد بلدة عسكر، قرب الحقل الذي أعطاه يعقوب إلى ابنه يوسف، وهناك أيضاً نبع أو بئر يعقوب، الذي فوقه حدثنا الانجيل بأن المسيح تحادث مع امرأة سامرية وذلك حيث تقوم الآن كنيسة هناك، وليس بعيداً عن شكيم مكان البطمة، التي أخفى يعقوب تحتها الأصنام.

وعلى بعد ستة أميال إلى الجنوب من شكيم توجد تمنه هناك، وهي مدينة يوشع، التي بقي فيها ومات، وقبره مازال باقياً هناك.

وعلى مسافة عشرة أميال من شكيم هناك قرية صنجيل وهي (قلعة) نالت اسمها من الكونت صنجيل الذي كان في الجيش الفرنجي، وعسكر هناك في اليوم الذي تقدم على رؤيتهم القدس، الحاضرة الأعظم قداسة في اليهودية.

وعلى بعد أربعة أميال من القدس توجد إفراتا، التي أسسها اليبوسيون، والتي فيما بعد سماها يعقوب بيت لحم، أي «بيت الخبز»، وهي التي فيها ولد المسيح، ومن بيت لحم: بوعز، وعوبيد، والد ايشا أويسي، والد الملك داود، الذي من ذريته انحدر المسيح، ثم بعد مكان

الميلاد في بيت لحم، هناك المزود، الذي تمدد فيه الطفل يسوع، وقد أخذ إلى روما من قبل الملكة هيلانة، وهو محفوظ بتشريف في بازيليكا القديسة مريم الكبيرة.

وعلى مسافة ميل من بيت لحم باتجاه الشمال، أشع النجم للرعاة عند ولادة المسيح، وتم هناك غناء الترنيمة التالية من قبل الملائكة: «المجد للرب في الأعالي»، وإلى بيت لحم جاء المجوس لعبادة الرب، وهناك جرى من قبل هيرود قتل الأولاد، والعدد الأكبر من الأبرياء مستلقين مدفونين هناك، على بعد ثلاثة أميال من بيت لحم إلى الجنوب.

وعلى بعد ميلين إلى الغرب من بيت لحم توجد راما (بيت جالا)، التي عنها قيل: «صوت سمع في راما»، وفي بيت لحم مدفون جسد جيروم المبارك، مع جسدي باولا، ويوستوخيوم.

وعلى بعد أربعة أميال من بيت لحم توجد تقوع، التي جاء منها النبي عاموس، الذي جسده مدفون هناك.

ومن هذه المنطقة جرى حمل حبقوق بوساطة ملاك إلى بابل، وفي تقوع اعتاد كثير من الأنبياء على الاجتماع للبحث في اللاهوت.

وعلى مسافة أربعة أميال من بيت لحم على الطريق إلى حبرون، توجد كنيسة القديس خريطون، وذلك حيث عندما كان ينتقل من هذا العالم، انتقلت الجماعة كلها التي كانت معه أيضاً بالطريقة نفسها.

وعلى بعد ميل من بيت لحم، على الطريق الذي يقود إلى القدس، هناك قبراتا (قبة راحيل، أو قبر راحيل)، وهو المكان الذي عندما مات بنيامين ماتت راحيل حزناً، ودفنت هناك من قبل يعقوب، وقد وضع فوق القبر اثني عشرة حجرة، ماتزال موجودة حتى الآن.

وعلى بعد ميل من قبراتا، وإلى يمين الطريق، وفي منتصف المسافة مابين القدس وبيت لحم يوجد بيت عرقة، حيث هناك قتل الملاك في ليلة

واحدة مائة ألف وخمسة وسبعين ألفاً من جيش سنحريب، ونجا سنحريب وعاد إلى نينوى، وقد قتل هناك من قبل ولديه.

ووفقاً للتقاليد العبرانية كان الولد الأول انجاباً لنوح هو سام، وهو كما قالوا كان ملكيصادق نفسه، الذي كان الأول الذي تولى تأسيس «سالم» بعد الطوفان، وقد حكم عليها بمثابة ملك وكاهن، وقام اليبوسيون بالاستيلاء عليها من بعده، وسموها يبوس على اسم جدهم يبوس الذي كان الابن الثالث لكنعان، ثم جرى دمج الاسمين مع بعضهما، فصارت تعرف باسم يبوس— سالم، وفيما بعد، باتت تدعى من قبل سليمان باسم ييروسوليما (تقريباً يبوس— سالومونيا)، وعرفت لدى الشعراء باسم سوليما، ثم من قبل ايليوس هادريان، عندما أعاد عمارتها، باتت تعرف باسم ايلياء، وهي صهيون، التي تعني بالعبرية «مشهد»، والقدس هي «مشهد السلام».

والقدس هي حاضرة اليهودية، وهي موجودة عند سرة الأرض، أي في وسط العالم، ولذلك قال داود: «لقد عملت خلاصاً في وسط الأرض».

والقدس متفوقة على جميع مدن الدنيا، في الصلاة وأعمال الإحسان.

وحكم داود في القدس ثلاثة وثلاثين عاماً، وذلك بعدما توقف شاول عن كونه ملكاً، وكان اشعيا النبي من القدس، وهو الذي قطع من قبل الملك منشا بمنشار خشب.

وفي القدس جبل موريا، وهو مكان رأى داود الملاك فوقه وهو يقتل [الناس]، وكان واقفاً فوق أرض بيدر أورنان اليبوسي، وهي الأرض التي بنى عليها سليمان فيما بعد الهيكل.

وقد شرع ببناء هيكل الرب، بعد مضي ثلاثة آلاف ومائة عام وعامين من آدم، وألف وأربعمائة عام من الطوفان، وألف ومائتي عام من مغادرة

ابراهيم لبلاد الرافدين، وخمسمائة عام وعامين من مغادرة بني اسرائيل لمصر، ومائتين وأربعين عام على تأسيس صور.

وبنى سليمان الهيكل (أي بيت ايل) والمذبح مقابل نفقات عالية، وكرسه بمهابة وتقوى، لكن في أيام الملك صدقيا، دنسه نبوخذ نصر بصورة كاملة، وشوّهه ونهبه، ودمر المدينة، ثم أمر بصدقيا مع أولاده بالظهور أمامه في ربله (يعني أنطاكية التي تعرف باسمين آخرين هما: حماه وأفامية) [ربلة على العاصي إلى الغرب من حمص، وحماه مدينة تبعد كثيراً عن أنطاكية، وتقع أفامية إلى الغرب من حماه] حيث قتل أولاد صدقيا بحضور والدهم، ثم اقتلع عينيه.

ثم دمر نبوخذ نصر كل من صهيون والهيكل، الذي أعيدت عمارته فيما بعد في ظل حكم قورش، ملك الفرس، من قبل عزرا الكاتب، ونحميا، ثم جرى تدمير هذا الهيكل مرة أخرى من قبل أنطوخيوس، ثم أعيدت عمارته في ظل المكابيين، وجرى تدنيس هذا الهيكل من قبل بومبي، الذي أقام هناك عندما فرّ من أمام يوليوس قيصر، وأخيراً تم تدمير هذا الهيكل الثالث حتى أساساته، في ظل حكم تيتوس وفسبسيان.

وحول هذا الهيكل يقول بعضهم بأنه أعيدت عمارته في ظل حكم الامبراطور قسطنطين من قبل هيلانه، وقال آخرون لابل كان ذلك من قبل الامبراطور هرقل، وقال آخرون بأن ذلك كان من قبل الأغسطس جستنيان، بيد أن آخرين يقولون بأنه بني من قبل أمير ممفيس في مصر تشريفاً لاسم «الكبير»، يعني الرب العلي الأعلى، وهذا معلن من خلال الكتابة العربية المنقوشة، وعلاوة على ذلك، إنه لدى وصول الفرنجة، مامن شيء ظهر في أعمال زينته عن الشريعة، ولاشيء بالاغريقية.

وقد قيل بأن الهيكل الحالي هو الهيكل الرابع، وفي الهيكل الذي كان

قبله جرى ختان الطفل يسوع، وقد تم تقديم غرلته من قبل ملاك في الهيكل إلى شارل الكبير، ومن قبله نقلت إلى غاليا ثم إلى آخن، ونقلت فيما بعد من قبل شارل الجريء إلى منطقة بواتو في أكوتين، إلى كارو Charroux.

وجرى تقديم يسوع في الهيكل من قبل أمه، وتم تسلمه من قبل سمعان، ومن الهيكل طرد يسوع الناس الذين كانوا يبيعون ويشترون، وأطلق سراح المرأة التي اقترفت الزنا، وحررها من أيدي الذين اتهموها، ومن الهيكل جرى إلقاء جيمس المبارك على أم رأسه، وفي الهيكل كانت البشارة التي أعلنها الملاك إلى زكريا حول ولادة ابنه، وفيما بين الهيكل والمذبح مات زكريا بن براخيا، وجرى تحويل هذا المذبح، فيما بعد من قبل المسلمين إلى مزولة حتى يمكن مشاهدته من قبل الجميع، في الساحة في القدس، وإلى جانب القديسة حنه، وليس بعيداً عن الباب الذي يفضي إلى شعفاط هناك بركة الضأن.

وفي وسط القدس أقام يسوع فتاة من الموت، وفي القدس جرى قتل جيمس الثاني بالسيف من قبل هيرود، ثم جرى نقله إلى يافا، ومن هناك فيما بعد إلى اسبانيا.

وفي داخل الهيكل منطقة هي مسكن الفرسان الجدد الذين يحرسون القدس.

وفي القدس Xenodochium أو الـ Nosokomion, ونقلت كلمة Xenodochium الاغريقية وترجمت إلى اللاتينية بمعنى ملجأ للمسافرين والناس الفقراء، أما الـ Nosokomion أي المشفى، فهو المكان الذي يعتني بالناس المرضى، الذي كانوا ينقلون إليه من الساحات والأزقة.

وخلف أسوار القدس، بين برج تانكرد، وباب القديس اسطفان،

هناك مكان اقامة للمجذومين.

وقد قيل بأن الأمير اليهودي هركانوس، كان أول من أقام مشفى، بالأموال التي أخذها من قبر داود.

وفي المنطقة خارج مدينة القدس باتجاه الشرق، هناك وادي أبناء هنوم Hinnom وفيه توفث Topheth, وهو المكان الذي لم يخجل فيه بنو اسرائيل من عبادة أصنام الأمم، وعرف وادي هنوم باسم وادي جهنوم Gehinnom, بسبب أن العبرانيين ذبحوا هناك أبناءهم للشياطين، وأطلق عليه أيضاً اسم وادي الأوثان، لأنهم عبدوا الأوثان هناك، ووادي جثسياني هو وادي شعفاط، ووادي جهنوم متصل بجثسياني.

وفي أيام حكم سليمان بنيت بركة سلوان، التي هي موجودة على سفح صهيون، وتقريباً في وادي شعفاط.

ووفقاً لتقاليد العبرانيين تنبع مياه سلوان في شيلو، ويجري جدول سلوان بصمت لأنه موجود تحت الأرض، وتحت سلوان هناك نبع روجل (عين أم الدرج)، وإلى جانبه جرى دفن اشعيا المبارك، فهذا ماقيل، وبعد نبع روجل هناك «الزاحفة»، وهي صخرة إليها جلب أدونيا الأضاحي للذبح والتقدمة.

وفوق سلوان، إلى الجنوب هناك بركة فولر Fuller والحقل الملاصق لحقل شجرة التين، الذي فيه حق الدم، حيث يجري دفن المسافرين، وفوق حق الدم يوجد جيجون، حيث جرى مسح الملك سليمان، ليكون ملكاً، من قبل صادوق الكاهن.

وقالوا بأن جيمس المبارك جرى دفنه في وادي شعفاط، ومن هناك نقل إلى القسطنطينية، وفي وادي شعفاط جرى دفن الملك شعفاط، في آبدة ذات سقف مائل.

وعلى بعد ميل عن القدس، باتجاه البحر الميت، يوجد بيت عنيا، حيث استقبل سمعان يسوعاً بمثابة ضيف، وهناك استحقت مريم الغفران من الذنوب، وهناك أقام لعازر من الموت.

وبين بيت عنيا وجبل الزيتون يوجد بيت فاجي.

وعلى جبل صهيون غسل يسوع أقدام حوارييه، وتناول العشاء معهم، وفي القدس باع يهوذا يسوع إلى اليهود، وعند منعطف جبل الزيتون، المكان الذي صلى فيه يسوع إلى الأب، وأيضاً حيث قال لبطرس: «أولم يكن بإمكانك أن تسهر معي ساعة»، وهناك عندما رجع يهوذا إلى جشسياني، تمت خيانته لليهود، فقاموا بربط يسوع وقدموه في رواق سليمان إلى حنان وقيافا، ثم اقتادوه إلى صهيون إلى مكان كان اسمه Lithostortos (دار رئيس الكهنة)، وهو مكان مايزال حتى الوقت الحالي يحمل هذا الاسم نفسه خارج باب الكنيسة.

ثم إنهم اقتادوه إلى الجمجمة، وذلك بعد كثير من السخرية، وهناك جرى صلبه بين لصين.

وفي ميدان التجار، هناك كنيسة اسمها «اللاتينية»، وسبب ذلك أن اللاتين كانوا قد تملكوها منذ أيام الرسل، وهذا هو المكان الذي بكت فيه أم الرب على ابنها بعد آلام المسيح، ومثلها فعل الحواري فبكى معلمه.

وتحت موضع الجمجمة إلى اليمين، وأنت داخل إلى الكنيسة، هناك بيعة، وذلك حيث قيل بأن المريمات الثلاث بكين من أجله، عندما كان يتألم على الصليب، وليس بعيداً عن هناك دفن يوسف يسوعاً.

وفي عشية عيد الفصح من كل عام، حيث يستعد كثير من الناس لها، يجري تكريم ضريح الرب بالنار التي تشتعل بشكل رباني، وفي المكان القائم بين الضريح، وموضع الآلام، ظهرت مريم المجدلية ليسوع.

وفي المكان الذي اسمه السجن، انتظر يسوع، أثناء اعداد الصليب من أجله.

وعلى مسافة ثمانية أميال من القدس، هناك يثروبولس Eutheropolis, أي عمواس، فهناك ظهر لاثنين من حوارييه كانا يسيران على الطريق، وفي جبل صهيون ظهر لحوارييه عندما كان توما غائباً، وبعد ذلك أيضاً عندما كان حاضراً.

ومن على جبل الزيتون صعد الى الأب، وهناك جسد بلجيا المباركة مدفون.

وفي جبل صهيون ماتت مريم المباركة، ومن هناك حملت إلى شعفاط من قبل الرسل،وفي جبل صهيون نزلت الروح القدس على الحواريين،وفي جبل صهيون،يقال بأن داود وسليمان،وملوك القدس الآخرين قد دفنوا، وأمام الباب الغربي للقدس، جرى رجم اسطفان المبارك، ومن هناك نقل الى صهيون، ودفن مع نيقوديموس Nicodemus, وبين القدس وشعفاط هناك كنيسة، قالوا بأنها بنيت حيث جلس شاول، عندما قاموا برجم اسطفان.

وليس بعيداً عن القدس هناك كهف، إليه نقل أسد — بناء على أمر من الرب— في ليلة واحدة، اثني عشر ألف شهيد، كانوا قد قتلوا من قبل خسرو (كسرى).

وعلى بعد ميلين هناك الموضع الذي نمت فيه شجرة صليب الرب.

وليس بعيداً عن موضع الجمجمة، يوجد المكان، الذي فيه تم العثور على الصليب.

وكانت هيلانة بعدما فتشت بدقة موضع الجمجة، تسببت بتنظيف الموقع، وحطمت تمثال فينوس، الذي وضعه هادريان هناك لإهانة المسيحيين.

وجبل الزيتون هو متصل بجبل العـدوان، حيث أغوي الملك سليمان من قبل نسائه على عمل تمثال لكموش ومولوك.

وعلى بعـد ثلاثة أميال من القـدس هناك عناتا، التي جـاء منها ارميـا العناتي.

وعلى بعد مسـافة ميل من القـدس، وعلى الطريق نحو جـاجا، هناك مكان اسمه سكوبولوس Scopulus, حيث خرج سبط لاوي لمواجهة الاسكندر.

وعلى بعـد خمسة أميـال إلى الجنوب من القـدس، توجـد البلدة، التي زارت فيهـا مـريم اليـزابث وسلمـت عليهـا، وهناك —كما قيل— ولد جون.

وعلى مسـافة ميلين من القـدس، على الطريق الذي يقـود إلى نابلس، هناك جبل جبعة، ومـدينة فنحاص حيث يقـال بأنه دفن هناك [المتداول هو أن القبر في عورتا إلى الجنوب من نابلس، وجبعة هي تل عاصور].

وعلى بعـد ميل إلى الجنوب من عمواس هنـاك جباتا، حيث حبقـوق مدفون.

ومن جبعة صار شاؤول ملكاً في الجلجـال، في جبعة جرى اغتصاب زوجة أحد اللاويين.

وبين القــدس وعسقـلان، قــرب بيت شمس، هناك ابن— عــزير Eben- ezer, وهو المكان الذي استـولى فيـه الفلسطينيـون على تابـوت الرب، (لعـل الموقع هـودير أبـان إلى الشرق من عين شمـس)، وبيت-هورون Beth- Horon موجـود في ديار أبناء يوسف، وهي المدينة التي إليهـا هزم يوشع القبائل، وهناك بيتـان تحت اسم بيت هورون، هما بيت هورون الفوقا،وبيـت هورون التحتا، وقد بنى سليمان الفوقا، أما التحتا فقد أعطيت إلى اللاويين ليتملكوها.

وفي منطقة بيت هورون ولد النبي يوئيل، وكذلك دفن.

وعلى بعد سبعة أميال من القدس، وعلى الطريق الذي يقود إلى نابلس، هناك جبعون، التي جاء منها الجبعونيون، وهناك جبعون أخرى قرب راماوريمون، وذلك حيث كان سليمان قد نال النبوءة الربانية، وحيث كان يوشع بن نون يقاتل، فتوقفت الشمس، كما يقال.

وفي المنطقة التلية للخليل يوجد موقع زيف (تل زيف)، الذي يعرف أيضاً باسم الكرمل، فهناك كانت قرية نابال الكرملي، والكرمل هذه هي التي طلب فيها داود أرغفة وطعاماً لرجاله من نابال، وكان ذلك عندما هرب من وجه شاؤول، وقابلت أبيجايل داود عندما كان مغادراً للكرمل، وتمكنت من تهدئته بوساطة هدايا سخية، وبعد وفاة نابال اتخذها داود زوجة له.

وهناك زيف أخرى، التي منها جاء الزيفيون، وفي الصحراء العائدة لهذه القرية، اختبأ داود من أمام شاؤول، وزاره يوناثان، وهنا أيضاً المكان حيث استولى داود على كأس شاؤول ورمحه.

وعلى مسافة ثمانية أميال من عمواس، على الطريق الذي يقود إلى الخليل، توجد مدينة كيلا (خربة كيلا) حيث اختبأ داود في إحدى المرات.

وعلى مسافة تسعة أميال من القدس، على الطريق الذي يقود إلى الرملة، يوجد جبل مودين، التي جاء منها ماتياس أبو المكابيين، ولقد كانت هذه في يوم من الأيام مدينة لاترام تقريباً، ومن الممكن رؤية بحرين من هناك، هما: البحر الكبير، والبحر الميت، وفي مودين يرقد ماتياس مع أولاده الأربعة وحفيديه، تحت سبعة اهرامات ماتزال موجودة حتى الآن.

وعلى الطريق النازل من القدس إلى أريحا تقوم أدوميم، وهي تعرف

الآن باسم الصهريج الأحمر (الخان الأحمر)، وقد أتى الرب على ذكر هذا المكان، عندما وصف الرجل الذي وقع بين اللصوص.

وعلى بعد ثلاثة عشر ميلاً من القدس هناك أريحا، وقد انقسم نهر الأردن عند وصول إيليا واليشع، فعندما جرى اعتقال إيليا، رمى رداءه إلى اليشع، وهو الآن محفوظ بالقسطنطينية بمثابة كنز ثمين.

وعندما كان يسوع يسير خلال أريحا، تسلق زكا على شجرة جميز.

وكان في أريحا، في أيام القديس سابا بيتاً للمضافة، فيه كثيراً من المحبة قد أبديت، وكان هو على رأسه، وحدث أنه كان لديه ضيف صديق اسمه توما من مدينة مادبا، وقد أكل الرجلان مع بعضهما وأكل معهما أيضاً الرجلان المقدسان كثيراً: بولص، وثيودور، ووقتها جرى إخبار المبارك سابا أنه ليس لديهم خمرة، ولاأي مشروب مهما كان، باستثناء قليل من مرق الحنظل، الذي فيه يطبخون الخضار من أجل الوجبة، وجلب ذلك السائل إلى أمام سابا، وعندما باركه، تحول إلى خمرة، وكانت كمية وافرة إلى حد أنها كانت كافية إلى جميع الذين كانوا في المضافة، للأيام الثلاثة التالية، وعندما عاد ضيوفه إلى وطنهم أعطى الخمرة إلى توما وأصحابه، واحتفظ ببعضها للذين كانوا مرضى لشفائهم بها عندما يدهنون بها.

وفي أريحا جلس رجل أعمى على الطريق، وقد استحق الشفاء من قبل الرب.

وعند الصوة الثانية من أريحا، هناك المكان الذي صام فيه يسوع أربعين يوماً وأربعين ليلة، وهو مكان يعرف الآن باسم الأربعين (خلف عين السلطان)، وذلك حيث أغواه الشيطان، وقال له: «قل لهذه الحجارة حتى تصبح خبزاً».

وعلى بعد ميلين من الأربعين، باتجاه الجليل هناك جبل مرتفع، من

فوقه مكن الشيطان يسوعاً من رؤية جميع ممالك العالم.

وتحت الأربعين هناك مجرى النبع الذي كـان مـراً، لكن اليشع جعله عذباً، بصب الملح فيه.

وعلى بعـد عشرين ميلاً من القـدس، هناك اللد، التي هي ديوبولس، ومعنى ذلك المدينة المزدوجة.

وفي منطقـة ديوبولس توجد تمنـه، التي كانت فيها مضى قـرية كبيرة، فهناك جـز يهوذا صـوف غنمـه،عندمـا اضطجع مع تامـار، على مفـرق الطرق (وذلك على بعد ميل من تمنه) وقد ولدت له: فارص، ورازح.

وعلى مسافـة أربعة أميال من ديوبولس، هناك أرمـاثا، أي راماثيم— زوفيم، وهي مدينة: القـانه، وصموئيل، وقـد ذكر الانجيل هذا المكان، على أنه المكان الذي دفن فيه يوسف.

والأربطة التي أخذها يوسـف هذا نفسه عندما أنزل يسـوعاً من على الصليب، قـد أخـذهم حـاليـاً أسقف بيت لحم، وحملهم إلى بيت لحم، وكـذلك واحـد من مسـامير الرب، ذلك أن اثنين من هذه المسـامير محفوظين في بيعة ملك القدس.

وعلى بعد ميلين من ديوبـولس باتجاه البحر، توجد قـرية باث، حيث نحت نيقوديموس صورة خشبية لوجه الرب، هي موضع اكرام في لوكا Lucca في ايطاليا.

وعلى مسافـة ميلين من ديوبولس باتجاه البحر، توجد يافـا، التي فيها أعـاد بطرس طابيتـا إلى الحيـاة، وحيث ظهـرت الملاءة لبطرس [أعمال الرسل: ١٠/١١]، ويشـار إلى صخـرة هنـاك، عليهـا أثار أغـلال أندروميدا.

وعلى مسافة ستة أميال من يافا هناك أرسوف، التي بناها سليمان.

وعلى بعـد عشرين ميـلاً إلى الشرق من أرسـوف، توجـد دور (خطأ دور هي الطنطورة قـرب حيفـا)، وهذه هي المدينـة التي سماها هيرود قيسـارية، تشريفـاً منه لأغسطس قيصر، فهناك بني ميناء من الرخـام الأبيض، وهناك عمـد بطرس كـورنيليوس، وحـول بيتـه إلى كنيسـة، ورسمه أسقفـاً، وهناك أيضاً مـدفون أربعـة عذراوات كن نبيـات، وقد قيل كان في قيسـارية هذه يوسبيوس الأستاذ، أسقفاً، وفي قيسـارية كان فيها مضى برج ستراتو، فهناك في هذا المكان جلس هيرود مـرتدياً أثوابه الأرجوانية، فضرب بانتقام رباني ومات.

وفي أيام المسلمين كانـت قيسارية مزدهرة إلى حـد أنها أصبحت جنة بين بابل وبابليـون (أي مـابين بغداد في بلاد فـارس وممفيس في مصر)، وهناك جرى دفن رجـال نبلاء وأقويـاء، وفي جميع المناطق حول المدينة، يوجـد في الحدائق حجارة صغيرة لها فتحـات، من أجل المزج مع وقـود النار والبخـور، وعندمـا كـان يحملـه الهواء، تصبح رائحـة المدينة كلهـا طيبة، وبذلك كان يجري طرد الروائح السيئة، ويصبح المواطنون مبتهجة قلوبهم، لكن الآن كل هذه الأشياء قد دمرت تدميراً كاملاً.

ويوجـد في الأنهار حـول قيسارية تماسيـح، التي هي ثعابين مـرعبـة، ولايشبـه فم التمسـاح أي فـم، لأن الفك العلوي متحـرك، لكن الجزء السفلي يبقى ثابتاً، وليس للتمسـاح مخرج سفلي، وعندما يمتلىء التمساح بالطعـام ينام على ضفـة النهر، ويقصـد مكان استراحتـه المعتـاد، ثم إنه يرتاح على قدميه، ورقبته ممتـدة، وينام وفمه مفتوح ليتمكن من التنفس، وعندما يصبح التمسـاح نائماً، تزحف بعض الديدان فـوقه، وتدخل إلى أمعـائـه، وتتغذى على طعـام التمسـاح، وتعمل إحـدى الديدان بمثـابة بواب للبقيـة، وحـارس، لأنه يخشى أن يستيقظ التمسـاح، ويحبسهم في الداخل، وهكـذا فإنه يلسع ثـم يلسع ثانيـة العـــرق الأسفل في الفك العلوي، وبذلك يجري خداع التمساح من قبل الحيوانات.

ويكره التمساح الإنسان أكثر من كراهيته لأي مخلوق آخر، لكن هناك ثعبان آخر (ابن عرس) اسمه ثعبان الماء، يحب الإنسان أكثر من جميع المخلوقات، وهو يكره التمساح، والتمساح يكرهه، ولذلك يسعى كل واحد منهما على الدوام لاصطياد الآخر، ويخفي ثعبان الماء نفسه في الوحل، ثم يدخل إلى جوف التمساح، لأنه أثناء قيام التمساح بصيد الأسماك، يبتلع سمكتين أو ثلاثة من دون أن يلاحظ، ويقوم ثعبان الماء أثناء وجوده في السجن المغلق عليه، فيسبب الاضطراب في الأجزاء الداخلية للتمساح، ويدمر الكبد، ويجرح القلب، ثم يحدث فتحة في جنبه، ويخرج من هناك وقد مات عدوه.

وسوف أتحدث باختصار عن كيفية حصول التماسيح في قيسارية، وكيف جاءوا إليها، فقد كان هناك في الأيام الخالية أخوان حكما بسلطة متساوية، ولأن الأخ الكبير لم ينفرد لوحده بالسلطة أعدّ فخاً لأخيه، الذي كان معروفاً باصابته بالجذام، وخطط لإحضار زوجين من التماسيح من النيل، ووضعهم في هذه الأنهار، فبذلك يمكن لأخيه (الذي اعتاد في فصل الصيف الاستحمام في النهر) أن يموت، وبالتالي سوف يحكم لوحده، وفي الحقيقة كان هذا ماحدث، وصار الأخ الأكبر الملك لوحده.

وعلى مسافة عشرة أميال إلى الشرق من قيسارية، توجد أسخريط، التي جاء منها يهوذا الخائن، الذي أطلق عليه اسم الأسخريوطي.

وعلى بعد ستة أميال من أسخريط هناك بورفيريوم Porphyrium, عند سفح الكرمل، وهي قد كانت فيما مضى مدينة ممتازة.

وجبل الكرمل هو المكان الذي تحدث فيه ايلياء مع اليشع لمدة طويلة، وحيث قام بحضور أربعمائة وأربعين كاهناً من كهنة بعل، بتقديم أضحية للرب، وأعطيت إليه نار من السماء، وجرى اعتقال

الكهنة، ومـن ثم جـرى نقلهم وهم أسرى مـن هناك عبر قيشـون، وأعدموا بالسيف، وهرب إيلياء من جزبل Jezbel, ووصل من هناك إلى حوريب، وحوريب هو جبل واقع إلى جانب جبل سيناء.

وعلى مسـافة ثلاثة أميـال من الكرمل هناك جبل قاين (تل قيمـون)، وعند نبع واقع عند سفحـه قتل لامخ أخاه قـاين بسهم، وقتل بقوسـه قائده.

وعلى بعد عشرة أميـال من جبل قاين توجد عكـا، التي عرفت باسم بيطولومي من اسم الملك بطليموس الذي أسسها، ويصل إلى هذا الميناء العـدد الأكبر من السفن المسيحيـة، وذلـك أكثـر مما يصل إلى أي مكان آخر، على السـاحل بين عسقلان وجبل طوروس، وهكذا يصل إلى هذا الميناء، وتتجمع البضائع الضرورية للحياة من أفـريقيا، وأوروبا، وآسيا، وهذا هو المكان الـذي يظهـر فيـه نبع في شهـر آب من كـل عـام، على شـاطىء البحـر، في نقطة ليسـت بعيـدة عن الأسـوار الشرقيـة، وتسيل الجداول إلى البحر، ويتحرر الشخص الذي يشرب من هذه الجداول من الإمسـاك إذا مـارغب بذلك، ولهذا السبب يتجمـع خلق كثير في هذه البقعة، ممن يسكنون فيما بين الفرات والنيل.

وعلى بعـد ستـة عشر ميـلاً مـن عكا، تقع صـور، التي عـرفت في العصـور الخاليـة باسم سرّا Sarra صـدوراً عـن اسم نوع من الأسماك مـوجـود بوفـرة هناك، ويطلق السـوريون على هذا السمك، بلغتهم الخاصـة اسم «سر» Sar ومن هنا جـاء أصل اسم هذا السمك «سرّي» Sarrae أو سردين، ويطلـق العبرانيـون على مدينة تير Tyre اسم «صور»، والاسم الشـائع الآن لدى الجميع هو «صور»، وقد أسس الفينيقيون مدينـة صور، عندما جاءوا من البحر الأحمر.

وعلى بعد أربعة عشر ميلاً عن صور، تقع مدينة صيدا، وأسس صيدا صيدون، الابن الأول لكنعان بن حام، ومنه جاء الصيداويون، أو الصيداوي، وحكم في صور وصيدا فونكس Phoenix, أخو كثموس (قدموس) المصري الطيبي، وكان ذلك عندما جاء إلى سورية، ومنه ومن اسمه صار الناس يدعون باسم «الفينيقيين»، وكذلك جميع منطقة فينيقيا، وقد احتلت صور المكان الرئيسي فيها، وحكم حيرام في صور، عندما كان سليمان ملكاً في القدس، ولم ترغب صور باستقبال المسيح، عندما سار على طول الساحل، فهذا مايقوله السوريون ويعلنونه، ولكن بعدما قام يسوع من الموت، استقبلت بولص، حيث بشر بالشريعة وبالانجيل باسمه، ثم إن بولص ركع بعد ذلك على الرمل وصلى من أجل أن تقوم رحمة المسيح بتمتينها في إيمانها.

وليس بعيداً عن صور هناك الصخرة التي يقولون بأن يسوعاً قد جلس عليها، وهي التي بقيت من دون التعرض للأذى وسليمة من زمانه حتى جرى طرد المسلمين من المدينة، ولكن فيها بعد جرت سرقتها من قبل الفرنجة وكذلك من قبل البنادقة، وفي المكان الموجودة فيها، وفوق بقاياها، قد بدأ الآن العمل ببناء كنيسة، جرى تكريسها إلى المخلص.

وقدمت صور —حسبما حدثنا بيد Bede المبجل— كثيراً من الشهداء للرب، لم يستطع بعلمه أن يحصيهم، فالرب وحده فقط هو الذي يستطيع تعدادهم، وفي صور اختبأ أورجين Origen وفيها دفن.

وهاجم الاسكندر الكبير صور، ووصل سورها بالبر، وهو السور الذي يحميها هذه الأيام من جهة البحر.

وقام البطريرك وورموند، صاحب الذكرى المباركة، بفضل نعمة

الرب، وبإذن منه، في أيامنا بحصار صور بشجاعة، والاستيلاء عليها، بمساعدة البنادقة، براً وبحراً.

ومن منطقة صور وصيدا، خرجت المرأة الكنعانية، وجاءت إلى يسوع وقالت له: «ارحمني يابن داوداً، ولدى التجول في تلك المنطقة، وخلال وسط حدود من الديكابولس (المدن العشرة) حتى الجليل، أعاد السمع إلى الرجل الأعمى، والكلام إلى الأخرس.

وعلى بعد ستة أميال من صيدا، على شاطىء البحر، باتجاه صور، هناك صرفند الصيداويين، التي إليها جرى ارسال اليشع من قبل الرب إلى الأرملة الصرفندية، حتى تعطيه طعاماً، وحينما مكثا معاً، شبعا بقليل من زيت الزيتون مع قليل من الطحين، وهنا أقام اليشع من الموت ابن الأرملة أماثوس Amathus, أي يونه، وجمعت المرأة قطعتين من الخشب في الصرفند.

وفي جبال صيدا والصرفند، جاث— حافر (المشهد على ثلاثة أميال من الشمال الشرقي للناصرة)، وهي البلدة التي جاء منها يونه.

ومن صيدا جاء ديدو، الذي بنى قرطاج في أفريقيا.

واستولى الفينيقيون على صيدا، واستمروا يسمونها صيدا، بحكم أن صيدا بلغتهم معناها «سمك».

وعلى مسافة ثمانية عشر ميلاً من صيدا، توجد بيروت، وهي مدينة غنية جداً، وكان في بيروت تمثال لمخلصنا، كان نيقوديموس، قد صنعه بيديه، وحدث بعد وقت قصير من آلام المسيح، وللسخرية منه، أن تم استهزاءً من قبل بعض اليهود، صلب التمثال، فأخرج دماً وماء، ولهذا السبب آمن كثيرون بالمسيح وعاد كل واحد من الناس، على كثرتهم، جرى مسحه بنقطة من التمثال، إلى الصحة التامة ثانية.

وعلى بعد عشرين ميلاً إلى الشرق من بيروت، هناك بيبلوس، التي هي جبيل، وبالعبرية غوبل، فهي كانت الميناء الذي نقل منه خشب لبنان، لبناء بيت الرب في القدس، حيث أنه شحن من جبيل إلى يافا.

وعلى مسافة عشرين ميلاً من جبيل باتجاه الشرق توجد طرابلس، وهي مدينة سكان المنطقة وحاضرتها، وهي محمية بأسوار جبارة وبالبحر.

وعلى بعد اثني عشر ميلاً إلى الشرق من طرابلس ألبانا (أبانا)، الذي هو نهر عرقة، ومن هذا النهر تبدأ مملكة القدس.

والقدس هي المكان الذي تأصلت فيه ثلاثة أشياء: من خلال يهوذا المكابي: الصلاة العامة على الميت، والمنافع العامة، ومن خلال هركانوس، المشفى العام.

وبُني البرج الذي اسمه برج داود من قبل هيرود، وعندما دمر تيتوس وفسبسيان المدينة تركا هذا البرج قائماً بمثابة علامة على النصر.

والقلعة التي بناها داود لنفسه، والتي فيها نظم المزامير، هي بين الكنيسة التي بنيت الآن (وزينت) على صهيون، وبين بيت لحم (الأفضل القول: باتجاه بيت لحم)، وذلك على رابية عالية جداً، وظلت موجودة في هذا الموقع حتى أيام الابن الأصغر لمتاثياس، الذي دمر القلعة والرابية، وعندما دمر تيتوس وفسبسيان المدينة، لم يخلياها من سكانها فقط، بل جرداها من تابوت العهد، والأشياء الموجودة فيه، فقد أخذاهم معهما إلى روما، وذلك حسبما هو ظاهر في النقوش، الموجودة على قوس النصر، الموجود بين البالاديوم Palladium, وتل البالاتاين Palatine, بعد كنيسة القديسة مريم الجديدة.

وأعطيت مفاتيح هذا البرج أولاً إلى الدوق غودفري من قبل البطريرك ديبرت Daybert, ولذلك هيأ كل ماكان بإمكانه

وقدمه إلى البطريرك مع الألقاب في الكنيسة، وكان غودفري مسروراً أنه امتلك اللقب الأول والمرتبة الأعلى، لكن ليس تحت لقب ملك، بل «عبد الرب».

ونذر بالاضافة إلى ذلك، أنه لو سمحت له العناية الربانية بالاستيلاء على عسقلان، فإنه سوف يعطي جميع موارد القدس، ويضعها في أيدي جنود الرب في الضريح المقدس، وتحت سلطة البطريرك، لكن بعد إكماله العام تقريباً، واجه نهايته، وكان من غير الممكن بالنسبة له تجاوزها، وقد دفن وسط نحيب لايوصف أمام الجلجلة، وذلك حيث جرى صلب ربنا، وعلى قبره كتبت هذه الأبيات الشعرية:

هنا يرقد حاج فرنجي، الذي موضع
صهيون المقدس ابتغى وقصد، ونجم رائع هو
الدوق غودفري. فقد أصبح للمصريين سبب
الخوف، وهزم العرب، وأوقع الفرس بالفخ
وانتخب ملكاً، لكنه لم يختر اسم ملك
وكذلك رفض تاج الملك، لكن تحت المسيح
اختار أن يخدم. وكان همه أن يعيد
مرة أخرى شرائع صهيون إليها نفسها (القدس)
وفي العقيدة الكاثوليكية أن يتبع العقيدة الصحيحة
وأن يراها قد اتبعت من الجميع، وجميع الهرطقات
من حوله جرى تدميرها، وساد الحق والصواب
وهكذا توج مع جميع القديسين في عليين

- ٨٧٤٠ -

فخر الجنود، وقوة الشعب، وأمل رجال الدين.

★★★ ★★★ ★★★

وخلفه أخوه بلدوين....

وبلدوين دي بورغ خلفه

وبعد هذا كان فولك المحترم هو الثالث— كونت أوف

أنجو، وأوف سينوماني Cenomani

- ٥ -

مختارات من كتاب حول الأماكن المقدسة
تأليف
بطرس الشماس
(١١٣٧م)

القدس وأماكنها المقدسة:

شيد ضريح الرب، الذي كنا قد تحدثنا عنه من قبل، في وسط الهيكل، والهيكل موجود في مركز المدينة باتجاه الشمال، ليس بعيداً عن باب داود، وخلف القيامة حديقة، فيها تحدثت مريم المقدسة مع الرب، وخلف الكنيسة، وخارجها مركز العالم، وهو المكان الذي عنه قال داود: «أنت عملت خلاصاً في وسط الأرض»، كما وقال نبي آخر: «هذه هي القدس، أنا أقمتها في وسط الأمم».

....وليس بعيداً عن مركز العالم هناك السجن، وهناك جرى وضع الرب في الأغلال، وجلد، وقرب ذلك جرى سلبه، واقتسام ملابسه.

وعلى الجمجمة (أكرا) حيث جرى صلب الرب، هناك صدع بالجبل، ويصعد الإنسان إلى جبل أكرا بوساطة سبع عشرة درجة، وهناك سبعة مصابيح معلقة في ذلك المكان، كل واحد منها له غطاء من الفضة، وتحت هناك الجلجلة إلى حيث سال دم المسيح وسقط على الصدع في الصخرة.

وإلى الشرق، وتحت جبل الجمجمة، هناك هيكل الرب، في جزء آخر من المدينة، وهوالذي بني من قبل سليمان، وهو له أربعة أبواب: الباب الأول موجود على الشرق، والثاني على الغرب، والثالث على الجنوب، والرابع على الشمال، مما يشير إلى الجهات الأربع للعالم، وفي خارجه له ثماني زوايا، والتفاف كل زاوية اثنتي عشرة خطوة، وفي وسط الهيكل

هناك جبل كبير مطوق بالأسوار، فيه كانت موجودة الخيمة، وهناك كان تابوت العهد، الذي بعد تدمير الهيكل، جرى نقله إلى روما من قبل الامبراطور فسبسيان.

وعلى الطرف اليساري من الخيمة، وضع المولى يسوع قدمه، وكان ذلك في مناسبة أخذ سمعان له بين ذراعيه، وماتزال طبعة قدمه موجودة هناك تماماً، وكأنها قد عملت فوق شمع، وعلى الطرف الآخر من الصخرة فتحة الخيمة، التي ينزل إليها الناس بوساطة اثنتين وعشرين درجة، وهناك صلى الرب، وقدم أيضاً زكريا أضحية، وخارج الهيكل، المكان الذي قتل فيه زكريا بن براخيا، وفوق الصخرة، في وسط الهيكل، هناك مصباح ذهبي، يحتوى على دم المسيح، الذي سال من خلال صدع الصخرة.

وليس بعيداً إلى الجنوب، قد بني هيكل سليمان، الذي فيه قد عاش، والذي له خمسة وعشرين باباً، وهناك في داخله ثلاثمائة واثنين وستين عموداً، وليس بعيداً عن هناك، يوجد مهد المسيح وحمامه، وفراش الأم المقدسة للرب، وتحت هيكل الرب ودونه نحو الشرق الباب الجميل، الذي منه جاء الرب داخلاً، وهو جالس على ظهر فلو ابن أتان، وهناك أيضاً شفى بطرس، الرجل الأعرج، وإلى الشمال هناك كنيسة القديسة حنة، وذلك حيث عاشت مريم المباركة لمدة ثلاثة أعوام، وعلى مقربة منها هناك بركة الضأن، التي لها خمس قناطر.

منديل رأس المسيح:

ومنديل الرأس الذي مسح به المسيح وجهه، أو الذي يعرف باسم ورنيقا Veronica, قد جرى حمله إلى روما في أيام القيصر تايبيروس، وكذلك القصب الذي ضرب به رأسه، ونعليه والأربطة التي كان ربط بها، وغرلته، ودمه، فهذا كله محترم في روما.

وادي شعفاط. جبل الزيتون. بيت عنيا:

عبر جدول قدرون هناك كهف، وفوقه كنيسة، أقيمت فوق المكان الذي قام فيه اليهود باعتقال المخلص في يوم الخميس بعد العشاء، وهذا المكان موجود عند رأس وادي شعفاط.

وليس بعيداً عن هناك مكان استشهاد اسطفان المقدس، وليس أيضاً بعيداً عن ذلك المكان يوجد الموقع الذي صلى عليه الرب، وذلك عندما أخذ عرقه يتساقط مثل نقاط من الدم، وعلى الطريق إلى بيت عنيا، القرية التي جلبت منها الأتان.

الخليل:

في الخليل قام بيت داود، حيث جزء منه مازال موجوداً حتى الآن، وإلى هذا اليوم مازال الناس يذهبون إلى الصلاة في القاعة التي عاش فيها، وليس بعيداً عن الخليل، أي على مسافة ثلاثمائة ياردة، في المكان الذي اسم أبراميري Abramiri, يوجد بيت يعقوب، حيث بنيت كنيسة من دون سقف.

....وأبراميري هو كرم، فيه الكهف المدفونة فيه أجساد أحد عشر ولداً من أولاد يعقوب، لأن عظام يوسف دفنت منفردة في كنيسة خاصة بهم، وليس بعيداً عن الخليل قبر أبنير Abner ابن نير Ner.

أريحا. الأردن. البحر الميت:

إذا مارغب إنسان بالذهاب من القدس إلى الأردن، يمضي نازلاً عبر طريق جبل الزيتون، ومن جبل الزيتون صعد المسيح إلى السماء، وكان هناك أنه عمل الصلاة الربانية.

وجبل صهيون هو نحو الجنوب، وهناك ماتت مريم المقدسة، وهناك

تناول الرب العشاء مع حـوارييه، وإلى هناك أيضـاً أرسل الروح القدس إلى حوارييه.

وفي الكنيسـة الموجودة في بيـت لحم، المائدة التي أكلت عليهـا مـريم المقدسـة مع الملوك الثلاثة، الذين جـاءوا يطلبون المسيح ابن الرب، وفي داخل هذه الكنيسة أربعة وستين عموداً، وهناك مدفون الأطفال، الذين قتلهم هيرود، بحثاً عن المسيح وطلباً له.

الجليل:

....جبل حـرمـون، جبل عظيم الارتفـاع، ومن هناك يتوفـر مشهـد يغطي جميع الجليل، وهو مشهـد لانظير لـه بالجمال، لأن السهل الواسع كله هو كروم عنب، وحقول زيتـون، وهناك الحقل الذي أكل فيه الرب مع حـوارييه، ومـازال يمكنك رؤية الصخـرة التي عليها أراح ذراعـه، وليس بعيـداً عن هذا الجبل هناك نبع باركه المخلص، وهو مفيـد للناس المرضى بجميع الأنواع.

وفي قرية نين بيت الأرملة، التي أعيد ابنها إلى الحياة، والذي هو الآن كنيسة، ومكان الدفـن الذي كانوا ذاهبين لتمديده فيـه، مايزال مـوجوداً حتى هذا اليوم.

وفي الناصرة حديقة، اعتاد الرب أن يكون فيها بعد عودته من مصر.

- ٨ -

نقول من رحلة نيقولا أوف بفيرا Veronica
من الدانمارك إلى القدس
[حوالي عام ١١٤٠م]

ومن هناك، أي من روما، توجد عشرة أميال إلى تيـ ..... ام Ti, àm [....] ثم بعـد ذلك هناك سفـر يوم إلى فلورنشـوبورغ Florenciusborg, ثـم يوم آخـر إلى سيبران Separan, وهناك يتدفق نهر غاريليم Garileam, وهو يفصل مملكة روما عن صقليـة، وهنـاك كـامبـانيـا Campania أو بول Pull قائمـة إلى الجنوب الشرقي، وإيطاليا إلى الشمال، ثم إن.... نابورغ [....] naborg على بعـد اثني عشر ميلاً عن سيبران، ثم من هناك ستة أميال إلى جبل مونتاكاسين Montakassin, حيث يوجد هناك دير كبير، وسـور دفاعـي يحيط بعشر كنائس، والأهم بين هذه الكنائس كنيسة بندكتيه، لايمكن للنساء أن يدخلنها، وهناك أيضاً كنيسة مارتين، التي بناها بندكت، وهي التي فيهـا اصبع الرسول متى، وذراع الأسقف مـارتين، وكـذلك هنـاك كنيسـة أندرو، ومثل ذلك كنائـس: مـريم، واسطفـان، ونيقـولا، ثم إنه من هناك سفـر يـومين إلى كـابا Kapa, وتقع جـرمـانـوس— بورغ Germanus- borg بعـد مونتـاكاسين، وبعد ذلـك هناك سفر يومين إلى بينيفينت Benevent التي هي أكبر مدينة في بول Pull, وإلى الجنوب الغربي من هناك توجد ساليرنيبورغ Salerniborg, حيث يوجد أحسن الأطباء، وتقع سيبونت Sepont عند سفح ميخائيلفول Michialsfiall, التي هي ثلاثة أميـال في العـرض وعشرة أميـال بالطول، وهي بعيـدة بعض الشيء عن الجبل، وهناك يوجـد كهف ميخـائيل، وقطعـة القماش

الحريري التـي أعطاها للمكـان، ثم هناك سفــر يـوم إلى بارل Barl, وبعد ذلـك سفر ستة أميـال إلى ترون Traon, ومن هناك أربعة أميـال إلى بيسينوبورغ Bissenoborg, وبعـد ذلـك أربعـــة إلى مالفيتـابورغ Malfetaborg, وبعدها أربعـــة إلى ايفنت Ivent, ثم ستـة إلى نيقـولا Nicholas في بار Bar, حيث هو مدفون.

وفيما يلي طريق آخر، يتجه أكثر غرباً إلى كابا Kapa: من روما بورغ Romaborg إلى ألبانوبورغ Albanusborg, ومن هنا يسـافـر الإنسـان على طول طريق Flaian [إقرأ: Traian] التي يستغـرق السفــر من طرف إلى آخـر ثلاثة أسـابيع، خـلال تخوم وغـابـات، وهي من أعظم المنشئات الإنسـانيـة وأكثـرهـا شهـرة، لأن الإنسان يسـافر طوال اليـوم خلال غـابات، وكل خطوة هي خطوة غير ممكنة، إلاّ عبر طـريق فـلايان Flaian, ثم يصل الإنســـــان إلى تيرينتيانا Terentiana, وهي التي دمرها الرومان، ولذلك هي الآن صغيرة، ثم يصل إلى فـونـديانا Fundiana, ومن بعـــد ذلك إلى غـايدا Gaida, وبعـد ذلك هناك سفر يومين إلى كـــابا، ومن ثم يســافـر الإنســان إلى بينيفنت، ويتـابع من هناك إلى مـــانوبل Manupl, وبعد ذلك إلى برنديزي، ويوجد في ذلك الخليج فينيار Feneyiar, حيث هنـاك عـرش بطركـي، وهناك أيضـــا الآثار المقدسة لمرقص ولوقا.

وعلى مسافة قصيرة من دوراكور Duracur تقوم ماريوهوفن Mariohofn, ثم يصـل الإنســـان إلى فيــــزغـــاردز هـوفن Visgardzhofn, ومن ثم انكلسن Engilsnes, وبعد ذلك هنالك مسافـة قصيرة إلى جزيرة باسينشيا Paciencia أو صقلية، حيث هناك نار بركانية، ومياه تغلي، مثلما هو موجود في آيسلاند

ثم يصل الإنسان إلى البلدة التي اسمها مأخوذ من Tceland, مارتين، وهي موجودة في بلغاريا، وبعد هذا يبحر الإنسان إلى الجزيرة التي اسمها كو Ku, وذلك حيث تلتقي الطرق من بول وميكليغاردر Mikligardr, لكونها واقعة إلى الشمال الغربي من بول، وذلك عبر جزيرة في البحر، ويتابع من كو إلى جزيرة اسمها رودس، ثم على الإنسان الابحار إلى بلاد الاغريق وإلى رودا كاستالي Raudakastali, وبعدها يصل إلى باتيرا Patera, وكان الأسقف نيقولا قد ولد هناك، ومدرسته ماتزال قائمة هناك، ثم يصل إلى ميرابورغ Mireaborg حيث كان أسقفاً، ثم هناك مسافة قصيرة إلى جالادان Jalandanes في أرض الأتراك، ثم يصل بعد سفر يومين في البحر إلى قبرص Kipr, وهناك يوجد خليج يسميه الشماليون Norsemen أتالسفيورد Atalsfiord, لكن الاغريق يسمونه غولّس Gullus [اقرأ Gulfus= خليج]ساتيلا Satalie, وعلى قبرص توجد بلدة يطلق عليها اسم بفّا Baffa [بافوس]، حيث يوجد هناك حصن الفرنجة Varangians, وهناك كان قد مات ايريكر Eirikr ملك الدانماركيين Danes, الذي كان ابن سوين Sveinn أخو كنوتر Knutr المقدس، وقد أوقف مالاً في لوكا Luka, وبناء عليه يمكن لكل رجل يتكلم بالدانماركية، أن يشرب خمرة من دون مقابل بكمية كافية، وقد بني مشفى على بعد مسافة ثمانية أميال من بلازينزوبورغ Plazinzoborg, حيث يقدم الطعام إلى أي واحد، وسمح له البابا باسكال بنقل كرسي رئاسة الأساقفة من ساكسلاند Saxland إلى الدانمارك.

ومن قبرص رحلة يومين في البحر إلى عكا الموجودة في أرض القدس، ثم يصل الإنسان إلى كفر ناحوم، التي كانت تعرف بالعصور

القديمة باسم بولوميدا Polomaida, ثم إلى قيسارية، ثم يصل إلى يافا، التي عملها بلدوين ملك القدس صليبية، بالتعاون مع ملك النيرويج— الملك سيغورور ماغنوسون -Siguror Magnus, son وبعد هذا يصل إلى عسقلان القائمة في أراضي المسلمين، وماتزال غير صليبية، وإلى الشرق من عكا صور، ثم صيدا، وبعد ذلك طرابلس، ثم اللاذقية، وهناك خليج نحن نسميه - Anpekio, Fiord يمتد في قلب الأرض، وهناك في الخليج مدينة أنطاكية، حيث أسس الرسول بطرس كرسي بطركي، وجميع هذه المدن موجودة في سورية، ومنطقة الجليل موجودة في بلاد عكا، وهناك يوجد جبل كبير اسمه الطور، وذلك حيث ظهر موسى وإيليا إلى الرسل، وبعد هذا تأتي الناصرة، حيث جاء الملاك جبرائيل لمقابلة مريم، وحيث عاش المسيح لمدة ثلاثة وعشرين عاماً، ثم تأتي قرية اسمها هناك غيلين ,Gilin وبعدها تأتي Iohannis -Kastali التي عرفت من قبل باسم السامرة، فهناك تمّ العثور على آثار يوحنا المعمدان، وهناك أيضاً بئر يعقوب، الذي منه، طلب المسيح، من امرأة، أن تعطيه شربة ماء، ثم تأتي بعد ذلك نابلس، ثم بعد ذلك Maka Maria.

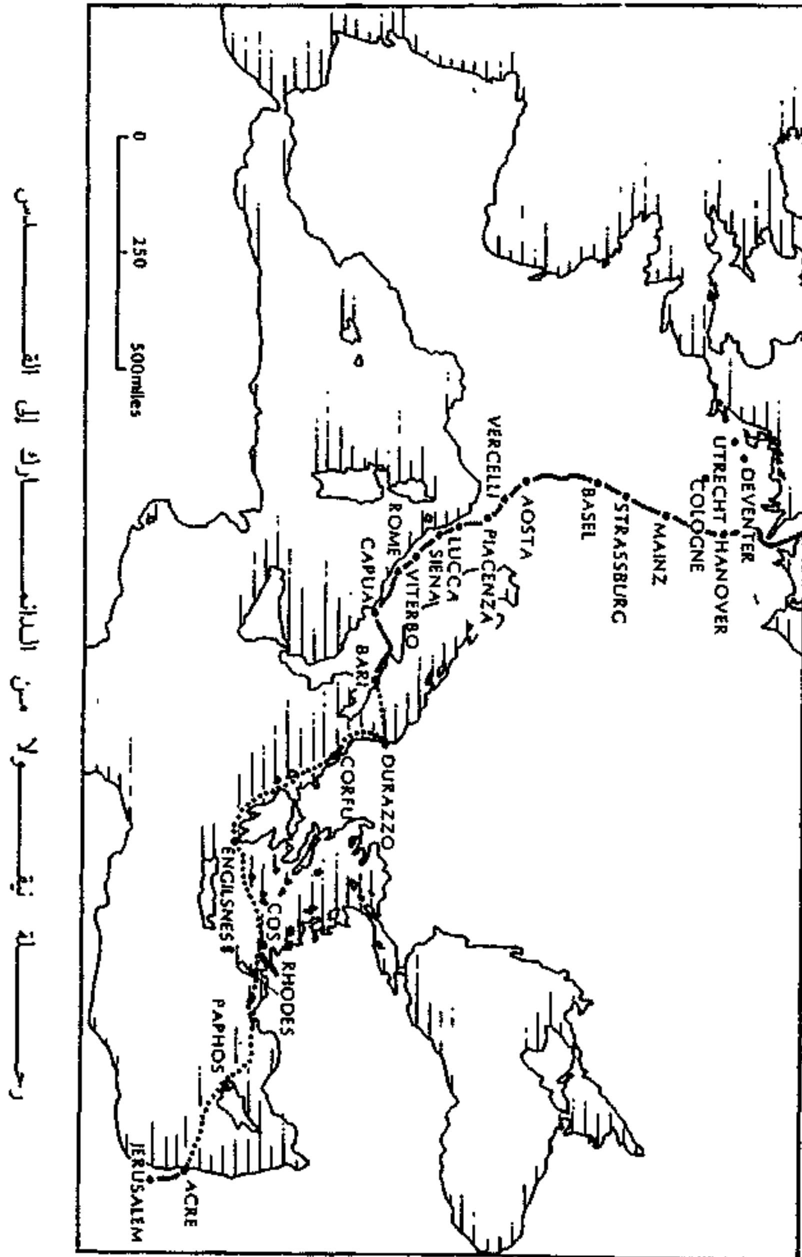
ثم يصل المرء إلى مدينة القدس، التي هي الأعظم بين جميع مدن العالم، وهي مشهورة في الأغاني في كل مكان في العالم المسيحي، بسبب أن العلامات الرائعة لآلام المسيح ماتزال مشاهدة هناك، ويوجد هناك الكنيسة التي فيها ضريح الرب، والمكان الذي وقف فيه صليب الرب، وذلك أنه يمكن للإنسان أن يرى بوضوح دم المسيح على الصخرة، وكأنه سال حديثاً، وهكذا سوف يبقى حتى يوم القيامة، ويتلقى الناس الضوء نازلاً من السماء، عشية عيد الفصح، وهذه الكنيسة تعرف باسم كنيسة الضريح المقدس، وهي مفتوحة فوق الضريح، ومركز الأرض موجود هناك، حيث تشع الشمس مباشرة من السماء في يوم عيد

القديس يوحنا، وهناك يوجد مشفى يوحنا المعمدان، وهذا المشفى هو الأفخم في العالم كله، ثم هناك برج داود، وفي القدس يوجد هيكل الرب، وهيكل سليمان.

وإلى الجنوب الغربي من القدس هناك جبل اسمه جبل صهيون، فإلى هناك نزل الروح القدس على الرسل، وأكل المسيح هناك عشية خميس العهد، والمنضدة التي أكل عليها ماتزال قائمة هناك، وعلى بعد أربعة أميال باتجاه الجنوب، تقوم بيت لحم، وهي بلدة صغيرة وجميلة، فهناك كان المسيح قد ولد، وعلى بعد قليل عن القدس قرية بيت عنيا، حيث أقام المسيح، لعازر من الموت، وإلى الجنوب الشرقي لمدينة القدس توجد بحيرة اسمها البحر الميت، فهناك أغرق الرب مدينتين هما: سدوم، على الطرف الأقصى، وعموره على هذا الجانب، ويصب الأردن هناك لكنه لايمتزج مع مياه البحيرة، لأنه ماء مقدس كثيراً، وإلى الشرق من المدينة هناك جبل، يدعى جبل الزيتون، حيث من عليه صعد المسيح إلى السماء، ويوجد بين جبل الزيتون والقدس الوادي الذي يعرف باسم وادي شعفاط، حيث يوجد هناك قبر الملكة مريم، ثم هناك مسافة طويلة إلى الأربعين، حيث صام الرب، وحيث أغواه الشيطان، ويوجد هناك قرية ابراهيم، كما وقائم هناك أريحا، ويوجد هناك أيضاً بلدة ابراهيم، ثم هناك مسافة قصيرة إلى الأردن، حيث تعمد المسيح، فهو هناك يجري من الشمال الشرقي، إلى الجنوب الغربي، ويوجد فيما وراء النهر Rabitaland, هذا وإن أرض القدس التي يسمونها أرض سورية موجودة على هذا الجانب، ويوجد على ضفة النهر بيعة صغيرة، حيث خلع المسيح ملابسه، وهكذا بقيت هذه البيعة بعد زمان طويل شاهداً على البقعة، وخارج الأردن إذا مااستلقى الإنسان على ظهره فوق أرض مستوية، ثم رفع ركبته بقبضة يده على الرأس، ثم رفع ابهامه من رسغه، من الممكن وقتها رؤية نجم القطب فوق عالياً، لكن ليس عالياً جداً.

وفي العـودة إلى الوطن من عند الأردن، هناك سفـر خمسـة أيام إلى عكا، وبعد ذلك سفر أربعـة عشر يوماً بالبحر من هناك إلى بول Pull, وهي مسافة ١٨٠٠ من الأميال، وبعـد ذلك سفر أربعة عشر يوماً على الأقـدام من باري Bar إلى مـدينة رومـا، ثم سفـر ستـة أسـابيع قصيرة من الجنوب إلى مونديا Mundia, ثم بعد ذلك سفر ثلاثة أشهر باتجاه الشمال إلى هيدابور Heidaboer, لكن بالسفر أكثر شرقاً [إقرأ: غرباً] فإن ايلاين— فيغر Vegr -Ilians, تحتاج إلى تسعة أسـابيع سفر حتى يصل الإنسان إليها، ثم سفـر سبعة أيام من هيـدابور إلى فيبيـورغ Vebiorg, ثم هناك نهر سكـودوبورغ Scoduborg, مـوجود في منتصف الطريق بينهما، ومن فيبيـورغ سفر يومين إلى ألابورغ Alaborg.

وهذا الدليل مع قـائمـة المدن، وجميع هذه المعلومـات قـد كتبت بناء على إمـلاء راعي الدير نيقـولا، الذي كان حكيماً ومشهـوراً، مبـارك مع ذكرى صـالحة، وعالماً بكثير مـن الأشياء، وعاقـلاً وصادقـاً، وهنا أنهى روايته.



رحـــلة نيقـــولا مـن الدانمــــارك إلى القــــدس

- ٩ -

دليل آيسلاندي

(حوالي عام ١١٥٠م)

على الجانب الجنوبي لتلك الكنيسة القائمة فوق موقع الجمجمة (أكرا) باب، وعندما يدخل الإنسان، يوجد على الجانب الأيمن بيعة، حيث تقاطر الدم وسال من صليب الرب، وهناك يمكن للإنسان أن يشاهد الدم، وشرقي البيعة هناك صخرة، وعلى الجانب الشمالي من الصخرة هناك سلم حلزوني فيه تسع عشرة درجة، من أجل الصعود إلى الصخرة، ثم بعد ذلك على مسافة قامة نحو الشرق، المكان الذي وقف فيه الصليب، عندما جرى تعذيب الرب، وتوجد فتحة في الصخرة هناك، ومن هناك تقاطر الدم الى موضع البيعة، وإلى الجنوب منها، على مسافة قامة واحدة إلى الفتحة في الصخرة، وذلك حيث تصدعت الصخرة، وكان ذلك عندما أبعد الرب عن نفسه خشبة الصليب، التي صلب عليها فيما بعد، وإلى الجنوب من هناك، في مواجهة الجدار، هناك مذبح القديس سمعان، حيث الرسالة التي كتبت بأحرف ذهبية جاءت من عليين★، والى غربي باب الكنيسة هناك بيعة خارج الجدار، وهناك موجودة يد آناستاسيا★★ المقدسة، وهي غير مهترئة إلى جانب المذبح، وإلى جانب المذبح في وسط الهيكل تقوم كنيسة Pulcro فوق

★— الاشارة هنا إلى ما عرف باسم الرسالة السماوية، أو رسالة الأحد، وهي كانت مشهورة في العصور الوسطى، في العالم المسيحي، بنصوص مختلفة، والجميع متفقون على الادعاء أنها من المسيح نفسه، لكن هناك من قال بأنها كتبت بدم المسيح، بعصا ذهبية، أو من قبل واحد من الملائكة، والنصوص مختلفة أيضاً في تسمية المكان الذي نزلت عليه أرضاً، وهي دوماً كانت موجودة في المعابد الرئيسية للعالم المسيحي.

★★— من الواضح أن هناك سوء فهم لكلمة القديس أناستاسيا، ذلك أن معنى هذه الكلمنة بالاغريقية «كنيسة القيامة»، أما بالنسبة ليد القديس غير المهترئة، فلربما في ذلك اشارة إلى بعض الآثار المقدسة التي كانت محفوظة في كنيسة القديسة مريم للاتين.

مذبح الرب، وجميع الأبراج مذهبة، وينبغي على الانسان أن يدخلها من الشرق، ومن ثم توجد مسافة قامة واحدة إلى الصخرة التي دحرجت من مدخل الضريح، ومن الممكن للإنسان أن يمشي حولها، وعلى بعد قامة واحدة إلى الغرب، توجد الصخرة التي فيها ضريح الرب، وعندما يدخل الإنسان إلى الضريح، يجد تابوتاً من الحجر على الجهة اليمنى، عليه حجارة رخامية، ويمضي الإنسان نحو الجنوب خارجاً من كنيسة Pulkro, والهيكل مفتوح من الأعلى فوق الكنيسة هناك، وإذا ماكانت المدينة تحت سيطرة المسيحيين، فإن الضوء ينزل من عليين، عشية عيد الفصح، على المصابيح الواقفة هناك أمامه، وهناك يقوم، مع بداية كل صباح، الذين يطبقون القداسات السريانية وجميع طقوسها، بالغناء بأماديح الرب، وإلى الشمال من كنيسة Pulkro, هناك بيعة موجودة على جدار الهيكل، حيث مايزال هناك سلسلة حديدية، وهي التي غلّ بها ربنا، وإلى الشرق من كنيسة Pulkro, وعلى بعد أربع قامات توجد السدة الخارجية، وهي مبنية من الحجارة، ويوجد في السدة مذبح مرتفع، وباب إلى الجانب الغربي، حيث يمكن للإنسان أن يسير طوال الطريق من حول ذلك، ومن زاوية تلك السدة، التي تواجه الجنوب الشرقي، يوجد إحدى عشرة درجة مضاف إلى ذلك عشرين درجة إلى الجنوب من أجل النزول إلى الأرض، حيث توجد بيعة، في المكان الذي عثر فيه على صليب الرب، والصلبان هناك مرسومة على الأرض، على ألواح رخامية، على شكل الصلبان وهي ممددة، وإلى الجنوب من السدة، هناك بيعة قائمة في الجدار الجنوبي، إلى الشرق من الصخرة التي عليها تعذب، وقائم هناك عمود، إليه ربط، وهناك جرى ضربه قبل تعذيبه وصلبه، وفي السدة الموجودة خلف المذبح العالي، هناك مقعد عليه —يقول الناس— جلس الرب، عندما وضع تاج الشوك على رأسه، وضغط عليه قبل أن يصلب، وهناك أبواب إلى الهيكل على كل من جهتي الشرق والغرب، وإلى الغرب من الهيكل هناك بيعة فيها مدفون القديس كاريتاس Karitas

[اقرأ: شارتون Chariton] سليم غير مهترىء.

وهيكل الرب قائم في موقع مرتفع باتجاه الشرق أكثر منه باتجاه مركز مدينة القدس، وتقف في وسط الهيكل صخرة ارتفاعها قامة، وعرضها كثيراً من القامات، فإلى هناك يقول الناس بأن ابراهيم جلب ابنه اسحق ليضحي به للرب، ويوجد هناك طوق حديدي موضوع حول الصخرة، ويوجد داخل الهيكل أعمدة من الحجارة من كلا اللونين الأبيض والأسود، والأحمر، والأزرق، والأخضر، وإلى الشرق من القدس يوجد جبل الزيتون، وعلى هذا الجبل، حيث أعلى نقطة فيه، هناك تقوم كنيسة ميكائيل(كنيسة الصعود)، حيث فيها تقوم صخرة عالية، عليها موجودة الحجرة التي عليها خطا الرب عندما صعد الى السماء، ومن الممكن للإنسان أن يشاهد طبعة قدمه اليسرى، وطولها أربعة عشر إنشاً، وكأنه قد خطا حافياً فوق صلصال، ويوجد بين الجبل والقدس جبل شعفاط، فهناك توجد كنيسة مريم، وعلى الجانب الجنوبي منها يوجد باب، مضاف إليه أربعين درجة للنزول عليها إلى الأسفل إلى أرض الكنيسة، ويقوم في الجزء الآخر من الكنيسة مذبح، وبعده على مسافة قصيرة هناك ناووس مريم، وفوقه غطاء حجري، ويوجد هناك دير مريم، وإلى الشمال من الكنيسة يوجد البيت الذي اعتقل فيه اليهود الرب، ويمكن للانسان أن يشاهد طبعات أصابعه على الصخرة التي ضربها بيديه، عندما قفز الرجال الأشرار عليه، وفي الجنوب، عند سفح جبل الزيتون توجد قلعة بيت عنيا، حيث هناك دير للراهبات، وعلى مقربة من تلك الكنيسة ضريح لعازر، ويوجد من القدس مسافة ميلين إلى بيت عنيا، ويوجد من هناك اثني عشر ميلاً إلى قلعة الروضة Rauda*، ومن هناك ميلين إلى الأردن.

* _ هذه تسمية آيسلاندية صحيحة لقلعة قامت على منتصف الطريق إلى أريحا، لكن إذا حسبنا عدد الأميال المعطاة فهذا يقودنا إلى قلعة كانت موجودة في أريحا اسمها القرنطينا Quarentena.

- ١٠ -

وصف فلسطين والقدس

للشريف الادريسي

(١١٥٤)

يعد الشريف الادريسي—أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد عبد الله بن ادريس، من أعظم الجغرافيين العرب في القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد، ويعد أيضاً بين كبار الرحالة حيث تجول في بلدان المغرب والمشرق، ثم أمضى الشطر الأكبر من حياته في صقلية، وهناك قام بأعمال جغرافية مهمة، منها صنعه لملكها روجر كرة تمثل الأرض من الفضة، وأشهر مؤلفاته الجغرافية كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، وبما أن معلوماته عن فلسطين أيام الحروب الصليبية، يمكن تصنيفها مع ما تركه عنها الحجاج من الغرب الكاثوليكي، قمتُ باثبات هذا الذي كتبه، وفي الحقيقة اتبعت الترتيب نفسه للكتاب الذي نقلت عنه نصوصي الجغرافية الحالية، وهو:

Jerusalem Pilgrimage 1099- 1185, by John Wilkinson with Joyce Hill and W.F Ryan, London 1988.

وأما حدود فلسطين وهي أول أحواز الشام وحدودها مما يلي المغرب مقدار أربعة أيام وذلك من رفح إلى اللجون وعرضها من يافا إلى أريحا مسيرة يومين، وزغر وديار قوم لوط والبحيرة المنتنة وجبال الشراة مضمومة إليها، وهي منها في العمل إلى حدود أيلة.

وديار قوم لوط والبحيرة المنتنة وزغر إلى بيسان وطبرية تسمى الغور لأنها بقعة بين جبلين وسائر مياه الشام تنحدر وتجتمع، فيكون منها

نهـر زخار أوله من بحيرة طبرية، فيأخـذ من طبرية وجميع الأنهار تصب إليه مثـل نهر اليرموك والحدُ، وأنهار بيسان ومـا ينصب من كـور مآب، وجبال بيت المقدس، وجبل قبر إبراهيم عليـه السلام، وجميع ما ينصب أيضاً من نابلس فإنه يجتمع الكل منها حتى يقع في بحيرة زغر، وتسمى بحيرة سـادوم وغامـوراء، وهما كانتـا مـدينتين لقوم لوط، فغـرقهما الله تعالى فعـاد مكانهما بحيرة منتنة، وسميت البحيرة الميتة لأن مـا فيها شيء له روح، لاحـوت، ولا دابة، ولا شيء متكون مثل مـايتكون في سـائـر المياه الراكـدة والمتحركـة وماؤها حار كـريه الرائحة، وفيـه سفن صغار يسـافر بها في تلك الناحيـة، وتحمل عليهـا الغلات، وصنوف التمـر من زغر والدارة إلى أريحا، وسـائر أعمال الغـور، وطول هذه البحيرة ستون ميلاً وعرضها اثنا عشر ميلاً.

ومن ريحا إلى زغر يومان.

ومن زغر إلى جبال الشراة ومن جبال الشراة إلى آخر الشراة يومان.

ومن ريحا إلى بيت المقدس مرحلة.

ومن بيت المقدس إلى عمان، والبلقاء، يومان.

[ومن الرملة إلى قيسارية مرحلة كبيرة]

وريحا المذكورة من أجمل بقـاع الغور، وعمتا، وبيسان، وأكثـر غلات بلاد الغور النيلج، وأهله سمر بل هم إلى السواد أقرب.

والجي بلد من بلاد فلسطين صغير ماؤه حار وهواؤه وخيم.

وأما مـدينة بيسان فصغيرة جـداً، وبها نخل كثير وينبت بها السـامان الذي يعمل منه الحصر السامانية، ولا يـوجد نباته البتة إلا بها وليس في سائر الشام شيء منه.

وفلسـطين ماؤها من الأمـطار والسيول وأشـجارها قليلـة وديـار

فلسطين حسنة البقاع بل أزكى بلاد الشام، ومدينتا الشام هما الرملة، ثم بيت المقدس.

فأما الرملة فهي مدينة حسنة عامرة، وبها أسواق وتجارات ودخل وخرج، ومنها إلى يافا التي على ساحل البحر الملح نصف يوم.

ومن الرملة إلى قيسارية مرحلة كبيرة.

ونابلس مدينة السامرية، وبها البئر التي حفرها يعقوب عليه السلام وبها جلس السيد المسيح وطلب من المرأة السامرية الماء ليشرب، وعليه الآن كنيسة حسنة، ويزعم أهل بيت المقدس أن السامرية لا يوجد أحد منهم إلا بهذه المدينة.

وبآخر مدن فلسطين مما يلي الجفار، وطريق مصر، مدينة غزة وبينهما من الأميال ثلاثون ميلاً.

ومن فلسطين إلى مدينة عسقلان مرحلة كبيرة.

وبين عسقلان وغزة نحو من عشرين ميلاً وهي الآن عامرة بأيدي الروم، ومرسى غزة تيدا.

ومن ميماس إلى عسقلان شرقاً عشرون ميلاً.

والعريش مدينة كانت ذات جامعين مفترقة المباني، والغالب على أرضها الرمال، ولها ثمار وجمل فواكه، وهي على مقربة من البحر.

وأيضاً فإن الطريق من الرملة إلى يبنى(نصف مرحلة ،و منها) إلى يزدود في البر مرحلة، ومن يزدود إلى غزة، وقد تقدم ذكرها مرحلة.

ومن غزة إلى مدينة رفح، وهي مدينة صالحة مرحلة، ومنها إلى العريش مرحلة ومن العريش إلى الورادة وهي منزل قرب البحر مرحلة.

ومن الورادة الى الفرما، وهي مدينة على بحر الشام، مجاورة لبحيرة تنيس مرحلة.

وأما مدينة عسقلان فهي مدينة حسنة ذات سورين وبها أسواق، وليس لها من خارجها بساتين، وليس بها شيء من الشجر، واستفتحها صاحب القدس بعساكر الروم من الإفرنج وغيرهم في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وهي الآن بأيديهم، وعسقلان معدودة في أرض فلسطين، ويقابلها في جهة الجنوب ناحيتان جليلتان وهما: جبال، وشراة، فأما جبال فمدينتها تسمى دراب، وشراة أيضاً مدينتها تسمى أذرح، وهما في غاية الخصب وكثرة أشجار الزيتون واللوز والتين والكروم والرمان وعامة سكانها من قيس.

وكذلك بين جنوب منها وشرق قرية مؤتة، ومنها إلى عمان تمر فيما بين شعبي جبل يقال له الموجب، وهو واد عظيم عميق القعر، ويمر فيها بين هذين الشعبين وليسا بمتباعدين، وذلك يمكن ان يكون بمقدار ما يمكن أن يكلم إنسان إنساناً، وهما واقفان على ضفتي النهر فيسمع بعضهما بعضاً، ينزل فيه السالك ستة أميال ويصعد ستة أميال.

ومن عسقلان الساحلية —المتقدم ذكرها —إلى حصن الماحوز الأول على البحر خمسة وعشرون ميلاً، ويقابله في البرية كوم زنجل، وبيت جبريل، وهما محلان ينزل بهما، ثم إلى الماحوز الثاني خمسة وعشرون ميلاً، ومنها إلى مدينة يافا وهي فرضة بيت المقدس وبينهما مرحلتان خفيفتان.

وبيت المقدس مدينة جليلة قديمة البناء أزلية، وكانت تسمى إيلياء، وهي على جبل يصعد إليها من كل جانب وهي في ذاتها طويلة وطولها من المغرب إلى المشرق، وفي طرفها الغربي باب المحراب، وهذا الباب عليه قبة داود عليه السلام، وفي طرفها الشرقي باب يسمى باب الرحمة، وهو مغلق لا يفتح إلا من عيد الزيتون لمثله، ولها من جهة الجنوب باب يسمى باب صهيون، ومن جهة الشمال باب يسمى باب عمود الغراب، وإذا دخل

الداخل من باب المحراب وهو الباب الغربي— كما قلناه— يسير نحو المشرق في زقاق شارع إلى الكنيسة العظمى، المعروفة بكنيسة القيامة، ويسميها المسلمون قمامة، وهي الكنيسة المحجوج إليها من جميع بلاد الروم التي في مشارق الأرض ومغاربها، فيدخل من باب في غربها فيجد الداخل نفسه في وسط القبة التي تشتمل على جميع الكنيسة وهي من عجائب الدنيا، والكنيسة أسفل ذلك الباب، ولايمكن أحداً النزول إليها من هذه الجهة، ولها باب في جهة الشمال ينزل منه إلى أسفل الكنيسة على ثلاثين درجة، ويسمى هذا الباب باب شنت مرية، وعند نزول الداخل إلى الكنيسة تلقاه المقبرة المقدسة المعظمة ولها بابان وعليها قبة معقودة قد أتقن بنيانها وحصن تشييدها، وأبدع تنميقها، وهذان البابان أحدهما يقابل الشمال، حيث باب شنت مرية، والباب الآخر يقابله من جهة الجنوب، ويسمى باب الصلوبية، وعلى هذا الباب قنبنار الكنيسة ، ويقابلها من جهة الشرق كنيسة عظيمة كبيرة جداً، يقدس فيها إفرنج الروم ويقربون.

وفي شرقي هذه الكنيسة منحرفاً بشيء لطيف إلى الجنوب الحبس الذي حبس فيه السيد المسيح، ومكان الصلوبية، وأما القبة الكبيرة فهي قوراء مفتوحة للسماء، وبها دار الأنبياء مصورون، والسيد المسيح، والسيدة مريم والدته، ويوحنا المعمدان، وعلى المقبرة المقدسة من القناديل المعلقة على المكان خاصة ثلاثة قناديل ذهب، وإذا خرجت من هذه الكنيسة العظمى، وقصدت شرقاً ألفيت البيت المقدس الذي بناه سليمان بن داؤود عليه السلام، وكان مسجداً محجوجاً إليه في أيام دولة اليهود، ثم انتزع من أيديهم وأخرجوا عنه إلى مدة الإسلام، فكان معظماً في ملك المسلمين، وهو المسجد المعظم المسمى بالمسجد الأقصى عندهم، وليس في الأرض كلها مسجد على قدره، إلاّ المسجد الجامع الذي بقرطبة من ديار الأندلس، وفيما يذكر أن مسقف جامع قرطبة أكبر من مسقف الجامع الأقصى، وصحن المسجد الأقصى هو في تربيع، وله مائتا باع في عرض

مائة وثمانين باعاً، نصفه مما يلي المحراب مسقف بأقباء صخر على عمد كثيرة صفوفاً، والنصف الثاني صحن لاسقف له، وفي وسط الجامع قبة عظيمة تعرف بقبة الصخرة، وهذه القبة مرصعة بالفص المذهب والأعمال الحسنة من بناء خلفاء المسلمين، وفي وسطها الصخرة المساة بالواقعة، وهو حجر مربع كالدرقة في وسط القبة رأسها الواحد مرتفع عن الأرض مقدار نصف قامة، أو أشف من ذلك، ورأسها الثاني لاصق بالأرض، وطول هذه الصخرة مقارب لعرضها يكون بضعة عشر ذراعاً في مثلها، وينزل من باطنها وأسفلها إلى سرداب كالبيت المظلم طوله عشرة أذرع في عرض خمسة، وارتفاع سمكه يشف على القامة، ولايدخل إلى هذا البيت إلاّ بمصباح يستضاء به، ولهذه القبة أربعة أبواب، والباب الغربي منها يقابله مذبح كان بنو إسرائيل يقربون عليه القرابين، وبالقرب من الباب الشرقي من أبواب هذه القبة الكنيسة المساة بقدس القدس، وهي لطيفة القدر والقبلي منها يقابله المسقف الذي كان مصلى للمسلمين، فلما استفتحها الروم، وبقي بأيديهم إلى وقت تأليفنا لهذا الكتاب صيروا هذا المسقف من المسجد بيوتاً يسكنها الجيل المعروفون بالداوية، ومعناه خدام بيت الله، ويقابل الباب الشمالي بستان حسن مغروس بأنواع الأشجار، ودائر هذا البستان أعمدة رخام مضفورة بأبدع مايكون من الصنعة، وفي آخر البستان مجلس برسم الغذاء للقسيسين والمدرجين.

وتخرج من هذا المسجد أيضاً شرقاً فتصل إلى باب الرحمة المغلوق، كما قدمنا، وبالقرب من هذا الباب باب آخر مفتوح يعرف بباب الأسباط، عليه الدخول والخروج، وإذا خرجت من باب الأسباط سرت في حدود مقدار رمية سهم فتجد كنيسة كبيرة حسنة جداً على اسم السيدة مريم، ويعرف المكان بالجسمانية، وهناك قبرها يبصر جبل الزيتون، وبينه وبين باب الأسباط نحو ميل.

وفي طريق الصعـــود إلى هذا الجبل كنيســة عظيمــة حسنة متقنة البناء، تسمى كنيسة باتر نصتر [الصلاة الربانية]، وعلى أعلى الجبل كنيسة أخرى حسنة معظمـة وفيهـا رجـال ونسـاء محبـوسـون يبتغـون بذلك أجـر الله سبحـانه، وفي شرقي هذا الجبـل المذكـور منحـرفـاً قليـلاً إلى الجنوب قبر العازر الذي أحياه السيد المسيح، وعلى ميلين من جبل الزيتون القرية التي جلب منهـا الأتان لركوب السيـد المسيح عند دخـوله إلى أورشليم، وهي الآن خراب لاساكن بها.

وعلى قبر العازر يؤخـذ طريق وادي الأردن، وبين وادي الأردن وبيت المقدس مسافـة يوم واحد، ومن قبل أن تصل إلى وادي الأردن مدينة ريحا السـابق ذكـرها، وبينهـا وبين الوادي ثلاثة أميــال، وعلى الوادي المسمى الأردن كنيسـة عظيمة على اسم شنت يوحنا، يسكنهـا رهبان الإغـريقيين، ووادي الأردن يخرج مـن بحيرة طبريـة، ويصـب في بحيرة ســـــادوم وغامـوراء، اللتين كانتا مدينتي قـوم لوط فغرقهما الله بذنوب أهلهما، ومما يلي قبلة وادي الأردن برية متصلة.

وأما مـايلي بيت المقدس في ناحية الجنوب، فـإنك إذا خرجت من باب صهيون وسرت مقدار رميـة حجر وجدت كنيسة صهيـون، وهي كنيسة جليلة حصينة، وفيها العلية التي أكل فيها السيد المسيح مع التلاميذ، وفيه المائدة باقيـة إلى الآن، ولها ميعاد في يوم الخميس، ومن بـاب صهيون تنزل في خندق يعرف بوادي جهنم، وفي طرف الخندق كنيسة على اسم بطرس، وفي هذا الخنـدق عين السلوان، وهي العين التـي أبرأ بها السيــد المسيح الضرير الأعمى، ولم تكن له قبل ذلك عينان، ومن هذه العين المذكورة إلى الجنوب الحقل الذي يدفن فيه الغـرباء، وهي أرض اشتراها السيد لذلك، وبقربها بيـوت كثيرة منقورة في الصخر، وفيهـا رجال قـد حبسوا أنفسهم فيها عبادة.

وأمـا بيت لحم وهو الموضع الـذي ولد فيـه المسيح فبينه وبين القـدس

ستة أميال، وفي وسط الطريق قبر راحيل أم يوسف، وأم ابن يامين ولدي يعقوب عليهم السلام، وهو قبر عليه اثنا عشر حجراً، و فوقه قبة معقودة بالصخر، وبيت لحم هناك كنيسة حسنة البناء متقنة الوضع، فسيحة مزينة إلى أبعد غاية، حتى إنه ماأبصر في جميع الكنائس مثلها بناء، وهي في وطاء من الأرض، ولها باب من جهة المغرب، وبها من أعمدة الرخام كل مليحة، وفي ركن الهيكل من جهة الشمال المغارة التي ولد بها السيد المسيح، وهي تحت الهيكل، وداخل المغارة المزود الذي وسد به، وإذا خرجت من بيت لحم نظرت في الشرق منه كنيسة الملائكة الذين بشروا الرعاة بولادة السيد المسيح.

ومن بيت لحم إلى مسجد إبراهيم في الجنوب، نحو من ثمانية عشر ميلاً وهي قرية ممدنة، وفي مسجدها قبر إبراهيم، وإسحق، ويعقوب عليهم السلام، وكل قبر من قبورهم تجاه قبر امرأة صاحبه، وهذه المدينة في وهدة بين جبال كثيفة الأشجار، أعني شجر الزيتون، والتين والجميز، وفواكه كثيرة.

وليس بشمال بيت المقدس شيء من البناء، ومن مدينة بيت المقدس شمالاً إلى مدينة نابلس يومان، وكذلك من نابلس إلى الرملة يوم كبير.

ومن بيت المقدس إلى عمان والبلقاء يومان وبعض يوم.

ومن بيت المقدس إلى طبرية تسعون ميلاً، وكذلك من طبرية إلى الرملة ثلاث مراحل، وطبرية مدينة الأردن الكبرى، وهي قصبتها، فمنها إلى صور يومان كبيران، ومنها إلى عقبة أفيق نحو يوم، ومنها إلى بيسان بعض يوم، ومنها إلى عمتا مدينة الغور إلى آخر عمل الأردن، ومنها إلى موضع يعرف بالجميلة يوم.

ومن طبرية إلى عكة يومان خفيفان، وهي مدينة جليلة على جبل مطل، طويلة في ذاتها، قليلة العرض، وطولها نحو من ميلين، وأسفلها

من جهة الشرق بحيرة عذبة الماء، طولها اثنا عشر ميلاً في عرض مثلها، وبها مراكب سابحة تحمل فيها الغلات إلى المدينة، ولها سور حصين، ويعمل بها من الحصر السامانية كل عجيبة، وقليلاً ما يصنع مثلها في بلد من البلاد المعروفة وفي هذه المدينة حمامات حامية من غير نار توقد لها، فهي حارة في الشتاء والصيف، وفيها حمام يعرف بحمام الدماقر، وهو كبير عظيم، وماؤه في أول خروجه حار تسمط فيه الجداء والدجاج، ويسلق فيه البيض، وماؤه ملح، وبها حمام اللؤلؤ وهو أصغر من حمام الدماقر، وماؤه حار عذب وهذا الماء الحار يخترق في الدور المجاورة له، وبه يغتسلون ويتصرفون، ومن حماماتها حمام المنجدة، وماؤه حار عذب، وليس فيها حمام توقد له النار، إلاّ الحمام الصغير الذي بها، وذلك أنه بناه أحد الملوك الإسلامية في داره ليدخله هو ومن له من أهل وولد وحاشية، فلما مات أخرج وجعل للناس عامة فهم يدخلونه وماؤه يسخن بالنار وحده، وفي جهة الجنوب منها حمامات كثيرة مثل عين موقعين، وعين الشرف، وغيرهما تصب إليها عيون مياهها حارة مدى الدهر، ويقصد إليها من جميع النواحي أهل البلايا من الناس مثل المقعدين، والمفلوجين، والمرياحين، وأصحاب القروح والجرب، فيقيمون بها في الماء أيام، فيبرؤون بإذن الله من ذلك.

ومدن سواحل فلسطين منها عسقلان، وأرسوف، ويافا، وهذه كلها مدن تتقارب مقاديرها وصفاتها وأحوال أهلها، مع أنها لطاف حصينات كثيرة العمارات، وبها شجر الزيتون والكروم كثيرة جداً، ويافا في ذاتها مدينة ساحلية، وهي فرضة لبيت المقدس، وبينهما ثلاث مراحل خفاف.

وبين يافا والرملة عشرون ميلاً.

وقيسارية بلد كبير عظيم له ربض عامر وحصن منيع حسن.

وبين يافا وقيسارية ثلاثون ميلاً، ومن قيسارية إلى نابلس مرحلة،

وكـذلك من قيسـارية إلى الرملة مـرحلتان خفيفتـان، ومن قيسـارية إلى مدينة حيفا على الساحل يومان.

وحيفـا تحت طرف الكرمل، وهو طرف خـارج في البحـر، وبه مـرسى حسن لإرساء الأساطيل وغيرها، ومدينـة حيفا هي فرضة لطبرية، وبينهما ثلاث مراحل خفاف.

ومن حيفـا إلى مـدينة عكة مـرحلـة في البر، وهي من الأميـال ثلاثون ميـلاً، وفي البحـر رؤوسية ثمانيـة عشر ميـلاً، ومـدينة عكة كبيرة واسعـة الأرجاء، كثيرة الضيـاع ولها مرسى حسن مـأمون، وناسها أخـلاط، فمن طبرية إلى عكة يومـان، ومن عكة إلى حصن الزيب اثنا عشر ميـلاً، وهو حصن حسن على ضفة البحر الملح.

ومنه إلى النواقير وهي ثلاثة جبال بيض شـواهق مطلة على ضفة البحر نحو من ثمانية عشر ميـلاً، ومن وسط النواقير إلى مدينة الإسكندرية خمسة أميال.

ومن الإسكندرية إلى مـدينة صور خمسـة عشر ميلاً وهي مـدينة حسنة على ضفـة البحـر وبها للمـراكب إرسـاء وإقــلاع وهو بلد حصين قـديم والبحـر قد أحـاط به من ثلاثة أركـانه ولهذه المدينة ربض كبير ويعمل بها جيد الزجـاج والفخار، وقد يعمل بها من الثيـاب البيض المحمولة إلى كل الآفـاق كل شيء حسـن، عـالي الصفـة والصنعـة، ثمين القيمـة، وقليـلاً مايصنع مثله في سائر البلاد المحيطة بها هواء وماء.

ومن صور إلى طبرية يومان كبيران، ومنها إلى عدوان، وهوحصن منيع على البحـر، ومنه إلى صرفند عشرون ميـلاً، وهو حصن حسن، ومنه إلى صيدا عشرة أميال، وبين صـور وصرفند يقع نهر ليطة، ومنبعه من الجبال، ويقع هناك في البحـر، ومن مدينـة صور في البر إلى طبرية يومـان كبيزان، ومن صور إلى دمشق أربعة أيام.

- ١١ -

رواية الراهب بيلارد أوف أسكولي Belard of Ascoli

(١١٥٥م أو مابين ١١٤٢-١١٨٧)

تبعد القدس سفر يوم واحد عن البحر الغربي، أي خمسة وعشرين ميلاً أو ثلاثين Perna. وهي موجودة على جبل، وقلعة صهيون تتفوق بارتفاعها على جميع الأماكن المرتفعة في المدينة، وهي مقابل جبل الزيتون إلى الغرب، والغرفة العليا عند قمة هذا الحصن هي المجاورة للسور، وهذه الغرفة العليا، كانت مكاناً واسعاً ومبلطاً، فيه تم العشاء [الأخير]، وفيه ظهر المسيح لتلاميذه، عندما كانت الأبواب مغلقة، وإلى هناك نزلت الروح القدس على الرسل والتلاميذ، وهناك أيضاً ماتت مريم العذراء المباركة.

والهيكل موجود على مكان مستو في المدينة، تحت الحصن إلى الشرق.

وجرى جلد المسيح في قاعة المحكمة، أي... وقرب هذا المكان السجن الذي اقتيد منه بطرس المبارك من قبل الملاك.

وبركة الضأن هي فوق المنطقة المستوية نفسها، مثل الهيكل، وهي على بعد حوالي الربع ميل عن الهيكل، وعرض وادي شعفاط حوالي الغلوة، وموقعه هو أنه بين جبل الزيتون والقدس.

وقمة قبل الزيتون على مسافة عن.....

وبيت فاجي موجودة بين جبل الزيتون وبيت عنيا، التي هي إلى الشرق.

وبركة سلوان موجودة في وادي شعفاط بين صهيون، وجبل الزيتون.

عودة...... جدول قـدرون، الذي هو في الوادي نفسه، وهو يسيل عندما تكون هناك أمطاراً غزيرة.

ومزرعة جثسيماني موجودة عند سفح جبل الزيتون، باتجاه الغرب، والحديقة التي إليها دخل المسيح مع حـوارييـه هي موجـودة في هذه المزرعة نفسها عند رأسها، وفي هذه الحديقة سرداب محفور في صخرة جبل الزيتـون، يمكن أن يستـوعب ثلاثمائـة إنســان، وفي نهاية هذا السرداب هناك سرداب آخر أصغر، مثل قلاية راهب واحد، وفي هذا السرداب الأصغـر غالبـاً مـاوقف المسيح يصلي، وهناك ألقي القبض عليـه، وعنـد مـدخله مـرئي بوضـوح شكل ثلاثة أصـابع من يده المقدسـة، مطبوعـة على صخرة السرداب، وهي التي قيل بأنـه عملها عندما ألقي القبض عليه، وهذا السرداب هو الآن كنيسة.

وعلى بعـد قليل، أمـام هذا السرداب، هناك قبر العذراء المبـاركـة، الذي إليــه ينزل الإنســان بثـلاثين درجــة تحت الأرض، وفي تلك الحديقة يوجـد مكان الصلاة، حيث صار عـرق المسيح مثل نقاط من دم.

وجبل أكـرا قائم بعـد القـدس، وهناك حوالي الثـلاثين خطوة بين هذا المكان، الـذي هو مكان الصلب والجلجلة مـن جـانب، والمكان الذي تم العثور فيه على الصليب، وكذلك ضريح المسيح، وهؤلاء في كنيسة واحدة.

والمكان المعـروف باسم جبل أكرا مكان واسع، وهو يشبـه حزمـة كبيرة من القش، وهـو معمـول مـن الحجـارة، التـي لم تجلب من أي مكان آخر، لكنهـا نابتة بشكل طبيعي مـن الأرض، وعلى قمته هناك فتحة عميقة في الصخرة نفسهـا، فهنا جرى تثبيت الصليب، والفتحة

واسعة ومستديرة، وهي واسعة بقدر حجم رأس إنسان واحد، وعميقة مقدار ثلاثة أشبار أو أربعة.

وعلى مقربة من هذا المكان، على الأرض، وليس فوق الصخرة، جرى صلب اللصين.

وفي صخرة الصلب، ظاهر في جهة اليمين صدع، هو الذي كان له شرف تلقي دم المسيح الذي سال وتساقط من جنبه.

وضريح المسيح هو صخرة كاملة، مربعة في جزئها العلوي، وفي الداخل تشبه المربع، ولها باب يشبه باب الفرن، وهي في الداخل طولها قرابة العشرة أقدام أو أكثر، وحوالي أربعة أقدام بالعرض.

والحجر الذي دحرج إلى باب الضريح كبير جداً، وهو مستدير من الجانب الأول، ومن الجانب الآخر مسطح، وهذا الحجر موجود إلى جانب الضريح.

والجلجلة هي المكان الذي عثر فيه على الصليب، في حفرة عميقة، بعيدة عن مكان الصلب مايزيد على خمس خطوات، وحوالي المسافة نفسها من الضريح.

والناصرة موجودة في مقاطعة الجليل الكبرى، وهي على بعد ستين ميلاً أو أكثر عن القدس، وهي ليست مدينة كبيرة، ومع ذلك لها رئيس أساقفة.

وغرفة سيدتنا، التي إليها جاء الملاك وهي فيها، كانت كهفاً، وهذا الكهف موجود إلى جانب المدينة، في داخلها إلى الشرق، وهو ليس معمولاً من الحجارة، بل محفوراً في الصخر، وطوله أربع خطوات، والشيء نفسه بالعرض.

وهناك طريق مستقيم بين القدس والناصرة، وهو يقود إلى نين، ومجاور لمزرعة اسمها عين دور، وبين الناصرة ونين سهل يدعى فارام Pharam.

وبعد نين هناك السامرة، المدينة والمقاطعة، وبعد هذا كانت مدينة Sychar.

وجبل جلبوع موجود بين نين والسامرة.

وجبل الطور جبل مقدس، عليه تغير شكل يسوع، وهو قريب من الناصرة، على بعد حوالي الميل نحو الشرق.

وبعد Sychar, تبدأ مقاطعة اليهودية، التي في وسطها تقوم مدينة القدس.

وبيت زكريا، الذي فيه حيت العذراء المباركة اليزابث، واقع على مسافة سبعة أميال عن القدس، وذلك إلى الغرب، حيث يوجد الآن كنيسة مكرسة على شرف المبارك يوحنا المعمدان، وقرية عمواس موجودة قرب هذا البيت، وهي على بعد ميل واحد كبير مع زيادة قليلة عن القدس، وبما أن هذين المكانين على مسافة متساوية، فإنه في هذه المزرعة، في المكان الذي ظهر فيه المسيح لاثنين من تلاميذه، يوجد الآن كنيسة.

ومدينة بيت لحم، مدينة صغيرة، وهي على بعد خمسة أميال إلى الجنوب من القدس، وهي التي فيها مهد الرب، وذلك عند الطرف الشرقي من المدينة، وكان المكان كهفاً واسعاً، مع مدخل عريض، وكان الكهف مكاناً يمكن للإنسان أن يلتجيء إليه إذا كان هناك مطر، وذلك مالم يدخل الهواء إلى داخله، ومساحته هو خطوتين جداء

خطوة ونصف الخطوة، وهو محفور في زاوية الصخرة.

ووادي أو موضع الرعاة هو على مسافة ميل واحد إلى الشرق من المهد، ويوجد الآن هناك كنيسة.

...وعلى بعد سفر يوم [ولقد بحثوا عنه وطلبوه] بين معارف العذراء المباركة وبين أقربائها، ولربما كان هؤلاء المعارف والأقرباء زكريا واليزابث.

وعلى ضفة نهر الأردن مكان تعميد المسيح، وهو يبعد خمسة وعشرين ميلاً أو أكثر عن القدس، ويوجد هناك كنيسة مكرسة على شرف جون المبارك.

وحول موضع التعميد سهل الجليل، ومقابلنا مدينة أريحا.

والجبل العالي، وصحراء المسيح على ميل واحد من أريحا، وإذا مارجعنا إلى الخلف، فهناك الطريق التي تأتي عليه من القدس، ففي منتصف هذا الطريق الجبل، حيث فيه ليس عند القمة كهف حفر في الصخر، فيه صام المسيح، ويمكن الوصول إليه من خلال ممر ضيق معلق في وسط الهواء، ومن قمة هذا الجبل جعل الشيطان المسيح يرى جميع ممالك العالم، والكهف هو حوالي أربع خطوات بالطول، والشيء نفسه بالعرض، وذلك لأن شكله مربعاً.

وعند سفح هذا الجبل جدول ماء قام اليشع بتنقية مائه بالملح، وهو واسع بما فيه الكفاية لإدارة طاحون ماء.

وكفرناحوم قائمة على جانب البحر، فهي بلدة إلى جانب بحر الجليل، وهي تبعد حوالي الخمسة عشر ميلاً عن الناصرة.

وبحر الجليل، أو بحر طبرية، أو بحيرة جنسارث هم واحد،

والمكان نفسه، وبعد هذا البحر كفرناحوم، باتجاه الجنوب، يوجد الجبل، الذي غالباً ماقام المسيح بالوعظ فيه، وأعطى بشكل خاص قداساً على الجبل.

وأيضاً في هذا الجبل أطعم الرب خمسة آلاف شخص بخمسة أرغفة، لكن تلك المدينة موجودة عند سفح ذلك الجبل، وفي ذلك المكان الكثير... الأحجار المقطوعة بشكل جيد، وملقاه هناك.

وعلى الطرف الآخر لهذا الجبل، على الجانب الشمالي قرب شاطىء البحر، هناك المكان الذي أكل فيه المسيح مع حوارييه بعد القيامة، وفي هذا المكان هناك كنيسة، وأمواج البحر هي على حوالي ثماني خطوات أو عشر خطوات عن هذا المكان.

وهناك مسافة ميلين إلى المكان الآخر، الذي هو المجدل، بعد البحر، فمن هناك جاءت مريم المجدلية، وعلى بعد أربعة أميال أخرى، بعد البحر، توجد مدينة طبرية.

وقرب طبرية، وإلى جانب البحر، يوجد بيت صيدا، وكذلك كوروزين هي بعد طبريا، وإلى جانب البحر، وجميع هذه المدن هي على بعد سبعين ميلاً عن القدس.

وقرية قانا قائمة بين الناصرة وطبرية، وهي مكان العرس في كهف محفور في الصخر، يمكنه أن يتسع لحوالي الخمسين شخصاً.

وبيت عنيا هي قرية قائمة على جبل الزيتون نحو الشرق، وهي على مسافة حوالي الثلاثة أميال عن القدس، وفي هذه القرية قبر لعازر.

والمكان الذي التقت فيه مريم المجدلية بالرب على طريقه لإقامة

[لعازر] مـوجود خارج القـرية، على بعد ربع ميل، حيث هناك ملتقى طرق واضح.

وفي المكان الموجـودة على جبل الزيتـون، الذي صعـد منه الرب، ظاهر هناك شكل القـدم اليسرى للرب، مطبوع على الصخـر، ومن غير الممكن الرؤية بوضـوح طول وعـرض القدم، فـالذي ظاهر فقط طبعة نهايات الأصابع مع جزء من أخمص القدم.

ومـدينة عكراتون أو عكا، مـوجـودة في منطقـة الجليل إلى جـانب البحر الغربي.

وجبل لبنان مـوجـود في منطقـة الجليل، حيث يوجـد عند سفحـه نبعـان هما: «أر» و«دن»، اللذان يتحـدان ويشكلان نهر الأردن، وهذا هو النهر الذي يتعـرج في منطقة السامرة، وينتهي في منطقـة اليهودية، ليس بعيداً عن القدس، حيث يصب في بحيرة سدوم، وغاموره، ومن هناك يدخل إلى البحر بوساطة طريق سري.

ومدينة أشدود موجودة في منطقة السامرة، بجوار البحر الغربي.

ومـدينة أريحا، مـوجودة في هذه المقـاطعـة على هذا الجانب من نهر الأردن، وبين أريحا ونهر الأردن الجليل.

ومدينة غـزة وكذلك يافـا، موجـودتان في منطقة اليهـودية، بجوار البحر الغربي.

وفي وسط منطقة اليهودية تقع مدينة القدس.

وبيت لحم مدينة موجـودة إلى الجنوب من القدس، باتجاه صهيون، بين هذه المدينة ومدينة الخليل.

وممرا هي قرية صغيرة، حيث هناك رابية عليها بيت ابراهيم، وهذا البيت هو كهف محفور في الصخر، وهو في زاوية مع شجرة قائمة أمام مدخله.

وأنا الراهب بيلاردوس أوف ايسكولوم Belardus of Es-culum, قد رأيت جميع هذه الأشياء، وتفحصتهم، وكتبت ملاحظات حولهم، يمكن أن يكون منها فائدة للآخرين.

- ١٢ -

الدليل السابع

(١١٦٠م)

إذا مارغب أي واحد بالدخول إلى القدس، عليه السير باستمرار نحو الشرق، ووقتها سوف يدخل إليها من باب القديس اسطفان، فهناك خارج الباب قد رجم، وبعد دخوله عليه أن يطلب أماكن القدس بالتتابع.

ويوجد في القدس ضريح الرب، وعند أبواب الدخول للضريح، وخارج الباب، هناك كنيسة أكرا (الجمجمة) وذلك حيث كانت القديسة مريم، وحيث وقف القديس يوحنا، وكان ذلك عندما قال الرب: «انتبهي أيتها المرأة إلى ابنك.... ولد، انتبه إلى أمك» وخارج البوابة، على الجهة اليسرى هناك مذبح القديس يوحنا المعمدان.

وداخل البوابة، ومرة أخرى إلى اليمين، يوجد جبل أكرا (الجمجمة)، حيث جرى صلب الرب، وتحت ذلك، هناك الجلجلة، حيث سقط دم الرب على الصخرة، وهناك يوجد رأس آدم، وهناك أيضاً قدّم ابراهيم أضحيته، وعلى الطرف الآخر، عند سفح جبل أكرا، يوجد مكان مع عمود، فهناك جرى جلد الرب، وعلى مقربة من هناك إلى الشرق، نزولاً أربعين درجة، يوجد المكان الذي تمّ العثور فيه على الصليب المقدس من قبل القديسة هيلانة.

وفي الكنيسة، هناك ضريح الرب، وعلى مقربة من هناك إلى الشرق، في موضع قريب من السدة، يوجد مركز العالم، وذلك حيث تمدد الرب، بعدما أنزله نيقوديموس من على الصليب، وعلى يسار ذلك الموضع يوجد سجن الرب، والمكان التالي لذلك، هو المكان الذي يجري تبجيل الصليب المقدس فيه.

وبعد كنيسة الضريح هناك كنيسة القديسة مريم، التي تدعى «اللاتينية» فهناك —كما قيل— قامت القديسة مريم المجدلية، ومريم زوجة كليفاس بتمزيق شعريها، عندما وضع الرب على الصليب، وهناك أيضاً مشفى القديس يوحنا المعمدان.

ومن ذلك المكان، وعلى بعد رميتي سهم يوجد هيكل الرب، الذي عمل من قبل الملك سليمان، وهو له أربعة مداخل، واثني عشر باباً، وفي وسط الهيكل موجود صخرة كبيرة، عليها كان تابوت العهد قد وضع، والذي فيه الآن عصا هرون، ولوحي الشريعة، والشمعدان الذهبي، والوعاء الذي فيه المن الذي نزل من السماء، وهناك أيضاً نار الأضحية، والزيت مازال يجري، وهو الذي به جرى مسح الملوك والأنبياء، وبعد هذا الموضع الذي جرى فيه تقديم ابن الرب، وهناك رأى يعقوب السلم نازلاً من السماء.

وعلى يسار السدة مكتوب:

يسوع ملك الملوك قد جرى

مرة تقديمه، ابن العذراء الملكة:

وتعمل هذه الذكرى أكثر قيمة

المكان المقدس الذي جلس فيه.

ورأى يعقوب السلم، وذكرى له جرى بناء مذبح، وعلى الجانب الأيمن الموضع الذي ظهر فيه الملاك لزكريا، وتحت ذلك هناك معبد، كان في الأيام الخالية قدس الأقداس، فهناك أطلق الرب سراح المذنبة التي اعتقلت بجريمة الزنا.

كل الشعوب الذين يعترفون بذنوبهم

انني أحللهم الآن من الشرور والآثام

فهناك جرى الإعلان عن ولادة يوحنا المعمدان، وهنا يوجد العمود الذي قام المسلمون بتزيينه، وذلك في المكان، الذي قيل بأن ابراهيم قد رغب أن يضحي بابنه فيه، وهناك أيضاً الكنيسة، حيث جرى رمي القديس جيمس على أم رأسه من أعلى الهيكل، وهناك خارج سور الهيكل مذبح، إلى جانبه جرى قتل القديس زكريا، وقرب باب ساحة الهيكل يوجد الباب الجميل.

وعلى الجانب الآخر من هيكل سليمان، بين الهيكل والباب الذهبي، هناك أشجار، فمن هناك قطع الأطفال الأغصان، عندما جلس الرب على ظهر الأتان، وهناك بعد هيكل سليمان، في زاوية المدينة، يوجد مهد المسيح، وفراش أمه، وحمام، وهناك أيضاً ضريح القديس سمعان.

وإلى الشرق بعد الهيكل هناك باب، وإلى الشمال هناك بركة الضأن، وعلى مقربة من هناك توجد كنيسة القديسة حنة، والبئر الذي ينزل إليه الحجاج، وعلى مقربة من القديسة حنة، توجد كنيسة القديسة مريم المجدلية، وإلى الشرق، بعد كنيسة الضريح، توجد كنيسة القديس شارتون.

وإلى الجنوب هناك جبل صهيون، حيث جرى تأسيس كنيسة جميلة على شرف القديسة مريم، ومنها حملت إلى السماء، أما بالنسبة لجسدها المقدس جداً، فقد أنزل إلى وادي شعفاط، وإلى اليسار من هناك توجد بيعة في المكان الذي كانت فيه قاعة المحكمة، حيث هناك حكم على المسيح، وعلى الجانب اليساري هناك موضع الجليلي، وذلك حيث ظهر الرب إلى سمعان والنساء، وفي الأعلى، بعد السدة، يوجد المكان الذي نزل إليه الروح القدس على الرسل، وفي الكنيسة نفسها توجد المائدة

التي تناول عليها المسيح العشاء، وذلك عندما قال: «خذوا، كلوا، هذا هو جسدي»، وفي الأسفل يوجد الموضع الذي غسل فيه أقدام تلاميذه، والحوض موجود هناك، وهوالحوض الذي حوى الماء، وفي ذلك المكان وقف يسوع عندما قال: «سلام معكم»، وهناك لمس توما جنبه، وعلى الجانب الأيسر، مذبح القديس اسطفان، وذلك حيث دفن.

وخارج الكنيسة هناك كنيسة صغيرة، في المكان الذي كان يوجد فيه قاعة المحكمة، وهو المكان الذي جرى جلد المسيح فيه، وتتويجه بالشوك، والسخرية منه، فهذا كان بيت قيافا، وخلف جبل صهيون، توجد كنيسة في المكان الذي هرب إليه بطرس عندما أنكر الرب عند صياح الديك، وباتجاه الوادي هناك بركة سلوان، وهناك جرى دفن النبي اشعيا.

وبين القديس وجبل الزيتون يوجد وادي شعفاط، حيث جرى دفن القديسة مريم، من قبل الرسل، وهناك جدول قدرون، وهناك أيضاً المزرعة التي عرفت باسم جشيماني، فمن هناك أبعد الرب بطرس وبقية الحواريين، عندما صلى قائلاً: «ياأبا الأب كل شيء مستطاع لك، فأجزعني» وهكذا دواليك، فهنا توجد الحديقة، حيث جرى اعتقاله من قبل اليهود، وعلى بعد رمية حجر من هناك يوجد الموضع الذي صلى فيه، وتقاطر فيه عرقه على الأرض مثل نقاط من الدم، وإلى جانب هذا الموضع، ضريح الملك شعفاط، الذي من اسمه حصل الوادي على اسم «شعفاط»، وهناك توجد كنيسة حيث جرى دفن جيمس، والقديس سمعان الأكبر، وزكريا، وليس بعيداً عن هناك نحو الجنوب، مكان [حقل] حق الدم، أو موضع دفن الغرباء.

ومن على جبل الزيتون صعد الرب إلى الأب، وهناك أمر الحواريين

بالتبشير إلى جميع المخلوقات، وعلى مقربة من هناك، حيث جرى عمل «الصلاة الربانية»، وعلى مسافة ضئيلة من هناك، يوجد ضريح القديس بيلاغيوس، وبين جبل الزيتون، وبيت عنيا، بيت فاجي، إلى حيث أرسل الرب بطرس وجون من أجل جلب الأتان، وليس بعيداً عن هناك بيت عنيا، حيث أقام الرب لعازر، وغفر للمرأة التي كانت مذنبة، وهنا كان أيضاً بيت سمعان المجذوم، وعلى مقربة من هناك الموضع الذي قابلت فيه القديسة مرثا الرب.

ويبدأ الطريق الذي يقود من القدس إلى بيت لحم من باب داود، وينزل إلى كنيسة القديس إلياس، وذلك حيث يقوم، وعلى الطريق هناك قبر راحيل، وفي بيت لحم كان المسيح قد ولد، وهناك يوجد قبر القديس جيروم، والبئر الذي سقط فيه النجم، وهناك رسم للمائدة التي أكلت عليها مريم مع الملوك الثلاثة، وفي هذه المنطقة توجد قبور الأبرياء، وفي كهف العذراء المباركة يوجد مذبح، في المكان الذي ولدت فيه، وليس بعيداً عن بيت لحم توجد الكنيسة التي أقيمت حيث ظهر الملائكة للرعيان، وهناك كنيسة فوق المكان الذي استراحت فيه القديسة مريم عندما كانت حاملة بالرب، وفي النهاية القصوى يوجد الطريق الذي يقود إلى الخليل، التي تبعد خمس مراحل عن القدس.

وفي ذلك المكان خلق الله آدم، وليس بعيداً عن هناك بيت قابيل وهابيل، وليس بعيداً عن هناك المكان الذي ظهر فيه الرب على شكل ثالوث لابراهيم، وإلى الشرق الموضع الذي سلمت فيه القديسة مريم على اليزابث، وعلى مرحلتين من هناك تقوم قرية عمواس.

وخارج الباب توجد كنيسة الصليب المقدس، وذلك حيث جرى قطع خشبة الصليب، وفي القدس المكان الذي وضع فيه القديس

بطرس بالسجن، وفي الهيكل يوجد نبع ماء حي، وهذا هو السبب الذي جعل النبي [حزقيال] يقول: «أنا رأيت مياه تخرج» [حزقيال ٤٧/١].

ومن القدس إلى جبل أربعين مسافة سبع مراحل، وعند سفح هذا الجبل هناك بستان ابراهيم، وعلى مقربة من هناك توجد أريحا، وعلى بعد مرحلتين من هناك يوجد نهر الأردن، ومن النهر إلى جبل سيناء سفر ثمانية عشر يوماً، ومن القدس إلى السامرة، التي اسمها الآن نابلس، اثنتي عشرة مرحلة، وهناك يوجد البئر، حيث تحادث الرب مع المرأة السامرية، وهناك يوجد الجبل، حيث رغب ابراهيم بالتضحية بابنه، ومن هذا المكان إلى سبسطية مسافة مرحلتين، وهنا في هذا المكان جرى قطع رأس يوحنا المعمدان، وبعض رماده مازال محفوظاً هناك.

والمسافة من هناك إلى جبل الطور هي عشر مراحل، فهناك تغير شكل الرب، وإلى جانب ذلك الجبل وملاصقاً له يوجد جبل حرمون، وفي ذلك المكان هناك مدينة نين، وذلك حيث أحيا الرب الولد الوحيد لأمه أمام الباب، وإلى الشرق هناك بحر الجليل، وذلك حيث أشبع الرب خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة مع سمكتين، وإلى الغرب توجد مدينة الناصرة الفخمة، وهناك تلقت العذراء المباركة البشارة من الملاك، فهناك كان يوجد بيتها.

وهذه الأماكن وأماكن أخرى من المتوجب تبجيلها من قبل المؤمنين.

- ١٣ -

الدليل الثاني★

(حوالي ١١٧٠م)

بوساطة الطريق العالي وأنت ذاهب من عسقلان إلى المدينة المقدسة، توجد هناك بلدة الناصرة، وعلى بعد ميلين من هناك يوجد جبل الطور، الذي فيه جرى تغيير شكل المسيح، وعلى مقربة من هناك توجد مدينة طبرية، وهي بجوار بحر الجليل، حيث عمل الرب كثيراً من المعجزات، وعند نهاية البحر هناك المائدة، حيث أعطى الرب الطعام لخمسة آلاف إنسان من خمسة أرغفة مع سمكتين.

ثم تأتي مدينة سبسطية، التي هي مبجلة من أجل آثار القديس يوحنا المعمدان، ثم إنك تذهب إلى نابلس، حيث يوجد البئر الذي جلس عليه الرب، عندما تحادث مع امرأة من السامرة.

ومن هناك تأخذنا الرحلة إلى المدينة المقدسة، وأول شيء إلى كنيسة القديس اسطفان، وذلك حيث جرى رجمه، ومن هناك نذهب إلى كنيسة الضريح المقدس، ونمضي أول كل شيء إلى موضع الجمجمة، حيث تألم، وهنا جرى نصب الصلبان الثلاثة، وتركوا طابعهم، في سبيل أن يتم الاصغاء إلى صلواتنا، ومن أجل عبادة الواحد الذي صلب.

ومن هناك يذهب الإنسان إلى الجلجلة، حيث سال دم الرب من خلال الصخرة المتصدعة، ثم يذهب الإنسان إلى المذبح، الذي من المعتقد أنه أقيم فوق المكان الذي كان فيه قطعة العمود الذي ربط إليه المسيح عندما جرى جلده، وهناك يوجد طريق يقود نزولاً إلى المكان

★— من أجل الدليل الأول، انظر الموسوعة ج٣٩ ص١١-١٤.

الذي اكتشف فيـه الصليب المقـدس، وكان هذا في كهف، و الصخـرة مـاتزال مـرئيـة فـوقـه، والمذبح الموجـود في الوسط هو لتشريف الملكة هيـلانـه، والمذبح اليسـاري هو لتشريـف القـديس قـوريـاكـوس Quriacus, وهذا كـان يهودياً، وهو الذي أبـان الموضع الذي كان فيه الصليب، وكـان عندما شاهد معجزة قيـامة الميت، اهتدى إلى الإيمان، وأصبح أسقف القدس.

وفي وسط سـدة الكهنة النظاميين يوجـد مكان مبجل كثيراً، وهذا كـان بسبب أن المسيـح جـرى تمديده هناك، بعـدمـا أنزل من على الصليب، وذلك قبل أن يـؤخـذ إلى الضريح، ويوجـد هناك مصباح لاينطفىء مطلقـاً، والمذبح الكبير مقـام على شرف القديسـة مـريم، ثم يزور الإنسان الضريح المقدس.

وفي هذا مذبح جنوبي في كنيسة زينت بشكل موائم، فهناك الصليب المقـدس محفوظ، وبعـدها هناك كنيسة أخرى سريانية، فيهـا يحتفظون أيضاً بالصليب المقدس، وتقـريباً عند طرف الكنيسة في الجانب الجنوبي هناك المكان الـذي يدعى السجن، فهناك تمت حـراسـة المسيح أثناء إعداد الصليب على الجبل.

وتحت خمسة أعمدة من أعمدة الكنيسة، جرى دفن الأربعين شهيداً، وشخصيتهم معروفة من خلال حقيقة أنه يحتفل بعيدهم في التاسع من آذار، وبعـد مـوضع الجمجمـة، يوجـد مكان بابه مغلق، فيـه كما قـال جيروم جرى دفن آدم، ويقول بعض الناس بـأن نقاطاً من الدم ملأت فمه، ولهذا السبب قام من الموت.

وبعد الكنيسة الرئيسيـة، هناك ثلاث بيع على الجنوب، البيعة الأولى منهن مكرسـة على شرف.... الثالوث المقدس، والأخيرة، على جـانب السـاحـة، مكرسة على شرف القـديس جيمس الكبير، ولقـد قيل بأن

الرب قد جلس في المقعد الموجود عند المذبح المتوسط، وقام بمباركة جون من على اليمين، وجيمس من على اليسار، وكان ذلك عندما سألت أمهم بوجوب «جلوسهما في مملكته، واحد على يمينه والثاني على يساره»، ويقال بأن القديس جون قد وقف فوق مكان مذبحه، عندما عهد المسيح بأمه إليه.

وأيضاً وقفت العذراء الأكثر قداسة في المكان القائم الآن فيه المذبح الكبير، للكنيسة الرئيسية نفسها، ونظرت إلى ابنها وهو يتألم، وخارج الكنيسة نفسها، على جهة الجمجمة (أكرا) هناك بيعة صغيرة مكرسة على شرف مريم المجدلية، وذلك في المكان الذي وقفت فيه المريمات الثلاث أثناء الآلام.

وهناك كنيسة مكرسة للقديس يوحنا المعمدان، على الجهة المواجهة للكنيسة الرئيسية، وهي ليست مبجلة فقط بسبب آثارها المقدسة كثيراً، بل بسبب أن أعظم الصدقات تعطى فيها، وهناك من الواضح وجود ستة أعمال من الرحمة يجري تنفيذها، وعلى مقربة من هناك كنيسة القديسة مريم للاتين، وهي مشهورة منذ زمن طويل، كما أنها مشهورة أيضاً بسبب الآثار المقدسة التي تحتويها، ومنها هناك: رأس القديس فيليب الرسول، مع بعض من شعر القديسة مريم.

ويوجد مكان على جبل صهيون، فيه ظهرت الروح القدس، ونزلت على الرسل، على شكل ألسنة من اللهب، فأضاءت قلوبهم، وهناك تمت عملية غسل أقدام التلاميذ، والمائدة نفسها موجودة هناك، التي أقيم عليها العشاء، وهذا المكان موجود أمام الأبواب التي عرفت باسم أبواب «الروح القدس»، وإلى الجنوب هناك المكان الذي عرف باسم الجليلي، الذي عنه قيل: «هو سوف يذهب قبلكم إلى الجليل» [مرقص: ١٦/ ٧]، وعلى الجانب المواجه للشمال يوجد المكان الذي ماتت فيه القديسة مريم في هذا العالم.

وفي نهاية هذا الجانب، إلى الشرق، يوجد مذبح مدفون تحته: القديس اسطفان، والقديس جمالإيل، والقديس أبيباس، والقديس نيقوديموس.

وخارج الساحة إلى الشمال هناك كنيسة مقامة على شرف القديس بطرس في السجن، وذلك حيث احتفظ به هيرود سجيناً مغلولاً بسلسلتين.

وعندما نذهب عائدين إلى هيكل الرب، إن المكان الأول الذي يصل الإنسان إليه، هو مكان التقدمة المقدس، ويأتي بعد ذلك المكان الذي نام فيه يعقوب ورأى السلم، وتصارع مع الملاك، وحيث في ذكرى ذلك أقام حجراً، وتحت السدة، إلى الجنوب هناك كهف محفور في الصخر، وهو الذي يدعى باسم «مكان الاعتراف»، وكان سبب ذلك أن امرأة قدمت إلى المسيح، حيث قال لها: «أما دانك أحد»؟ وهكذا إلى آخره (يوحنا ٨/ ١٠).

وعند رأس الهيكل توجد بيعة القديس جيمس، وذلك حيث ألقي به من شاهق على أم رأسه، وقتل بعصا القصار، هذا وكان جيمس بن ألفيوس Alphaeus, الأسقف الأول للقدس.

وليس بعيداً عن هناك الباب الذهبي ظاهر يشار إليه، وهو الباب الذي دخل منه إلى القدس، عندما جاء من جبل الزيتون، وهو على ظهر أتان، والأطفال يصرخون: «أوصينا لابن داود» [متى: ٢١/ ٩، ١٥]، ويفتح هذا الباب فقط في يوم عيد السعف، وفي يوم عيد تمجيد الصليب المقدس.

ومن هناك من الممكن رؤية المكان الذي فيه: المهد، والحمام، وقبر سمعان، وهناك يقال بأن المسيح مكث مع سمعان لمدة سنة ونصف السنة.

وعلى مقربة من الباب المتوجه نحو وادي شعفاط، توجد كنيسة القديسة حنة، أم القديسة مريم، وذلك حيث كانت ساكنة عندما كانت حاملة، ورعته (ورعتها؟).

وعلى مقربة من هناك، توجد بركة الضأن التي لها خمس قناطر، وهذه البركة هي المكان الذي يجري اخبار الذين يزورون، بأن خشبة الصليب قد بقيت هناك لمدة طويلة، ولكن الداوية يرونك بركة أخرى، ويقولون بأنها كانت بركة الضأن.

ومن هناك يذهب الإنسان إلى وادي شعفاط، حيث يوجد قبر القديسة مريم، ويوجد هناك قبل باب الدير مكان اسمه جثسياني، فهنا خانه يهوذا، وهناك على أقل من رمية حجر —حسبما يقولون— ترك طبعة أصابعه، وفي تلك البيعة هناك أربعة أماكن منفصلة عن بعضها، فهناك وجد حوارييه نائمين كل ثلاثة مع بعضهم.

وخارج الساحة، وعلى بعد رمية حجر، توجد كنيسة مكرسة على اسم المخلص، وذلك حيث صلى ثلاث مرات، وتقاطر عرقه منه كأنه نقاط دم.

وبعد منطقة السير في شعفاط يجري جدول قدرون، وفي داخل وادي شعفاط هناك مياه سلوان، وهناك أيضاً حيث يعيش النساك، توجد بيعة مكرسة على شرف القديس جيمس، [وحقل] حق الدم موجود تقريباً على حدود وادي شعفاط، وهو الحقل الذي شري بالثلاثين قطعة من الفضة، من أجل دفن الغرباء هناك، فهناك لايرفض دفن أحد.

ولدى الصعود إلى جبل الزيتون، إن أول كنيسة تواجه الإنسان، هي كنيسة «باترنُصتر» ومرد هذا إلى أن المسيح علم هناك «أبانا»، وعلى رمية حجر من هناك، موجود تحت المذبح المكان الذي كتب

عليه بخط يده «أبانا» بأحرف اغريقية، وبعد ذلك تأتي كنيسة العذراء المقدسة بلجيا، وفي الكنيسة التي بنيت على قمة الجبل، من الممكن هناك رؤية مكان الصعود.

ويلي ذلك، لكن ليس بعيداً، بيت فاجي، ثم تأخذنا الرحلة إلى بيت عنيا، ثم إلى الأردن، حيث يصل الإنسان أولاً إلى أريحا، حيث هناك بستان ابراهيم وحيث من هناك يجري جدول اليشع.... حيث هناك اثني عشر نبعاً، وسبعين شجرة نخيل، وعندما يكون الإنسان زائراً إلى هناك، يجد مكاناً محمياً من قبل أناس رهبان، ويعرف هذا المكان باسم «أربعين»، بسبب أن المسيح صام هناك لمدة أربعين يوماً. وعند قمة الجبل هناك المكان الذي أغواه فيه الشيطان، ومن هناك يذهب الإنسان إلى الأردن.

وهناك مكان يعرف باسم مقبرة الأسد، خارج مدينة القدس، حيث أجساد كثير من القديسين راقدة مدفونة، وبعد ذلك يأتي دير الجورجيين الذي اسمه «عند الجذل» أو «الجذع»، لأنه هناك كانت الشجرة التي قطع منها الصليب المقدس، وفوق مكان «الجذل» يوجد مذبح نصب هناك.

وعلى الطريق الذي يقود إلى بيت لحم قبر راحيل، وهناك المكان الذي جرى فيه تبجيل ايليا، وكذلك كنيسة بنيت من أجله، وفي المكان الذي ولد فيه الرب مطرقة ومسامير صلبه، وهناك دفن جيروم، وهناك كثيراً من آثار الأبرياء المقدسين.

وليس بعيداً عن هناك مكان اسمه «المجد للرب في الأعالي»، لأنه في اللحظة التي ولد فيها الرب سمعت الملائكة وهي تغني مع بعضها: «المجد للرب في الأعالي».

وبين جبل الزيتون وجبل جيجون، مكان اسمه «عند الرعاة»، لأن

الرعـاة عندمـا كـانوا سهـرانين هناك، أشع نور، وغنى الملائكة معلنين بأن المسيح قد ولد.

ولدى الذهاب إلى القديس ابراهيم في حبرون، فإنك تجد أولاً جذر (بلوطة) ممراً، وهناك الآن كنيسة مبنية على شرف الثالوث المقدس.

وإلى جـانب حبرون هناك مكان هو حيث قتل قـابيل أخـاه هابيل، وهناك أيضـاً الجبل الذي عليـه قدم كل واحـد منهما للرب أول ثماره، وهناك الأرض المشار إليها بأن آدم قد خُلق منها.

وفي العودة إنك تسافر مـاراً بكنيسة القديس يوحنا المعمدان، حيث بشر بعماد التـائبين في الصحـراء، وهناك نبع مـاء لايتـوقف، وهذا قـد انبثق عندما بشر وكان يصلي.

ومن هناك تأخـذنا الرحلة إلى القـديس زكـريا، حيث عـاش مع القديسـة إليزابث، ومارس أعمال نسكه، وسلمت هناك مريم المقـدسة على اليزابث، فتحرك الطفل في رحمها فرحاً.

ومن هناك يسافر الرحالة من خلال القلعة التي اسمها عمواس، إلى المدينة المقدسة.

وبعـد المدينة يوجـد مـوضع جيجـون، حيـث يوجـد الآن دير للأرثوذكس، وبعـد جبل الزيتون على اليسار، يوجـد دير للسريان، في الوادي مابين جبل الزيتون وجبل جيجون...

ومن جبل الزيتـون يمكن للإنسـان أن يشـاهد البحيرة التي اسمهـا «البحـر الميت»، وذلك حيث جـرى اغـراق المدن الأربع: سـدوم، وغـامـوره، والبقيـة، وفي هـذه البحيرة يصب الأردن، وهناك يجري ابتلاعه.

وفي المدينة هناك دير لليعـاقبة، حيث يوجد رأس القـديس جيمس،

وذراع القديس اسطفـان رائد الشهداء، ويمتلـك اليعاقبة أيضـاً كنيسة القديسة مريم المجدلية، فهناك يعرضون شعرها.

وفي كنيســة الضريح المقـدس هناك أبواب مواجهـة لبيعـة السريان، التي يحتفظون فيها بالصليب المقدس.

وهناك بوابة، عندها وقفت القديسة مريم المصرية، ولم يكن بإمكانها الدخول من دون توبة صحيحة.

المحتــوى

١٠٤٠	استقالة أسقف درم
١٠٤١	منع مبارزة
١٠٤١	رغبة الملك بانتخاب أخيه أسقف لدرم
١٠٤٢	شكوى حول السرقات المقترفة في انكلترا
١٠٤٨	تدهور سمعة الامبراطور فردريك
١٠٤٨	رسالة قدح ضد الامبرطور
١٠٥٤	مفاسد البلاط الروماني
١٠٥٥	خلاف بين سكان كمبردج والكهنة
١٠٥٥	نجاة الامبراطور من الموت بالسم
١٠٥٧	حزن فردريك وأساه
١٠٥٧	تبديد المؤن في قبرص
١٠٥٨	كيف صالح الملك الفرنسي كثيرين فيما بينهم
١٠٥٩	مراسلة هنري بن فردريك الملك الفرنسي
١٠٥٩	وصول رئيس أساقفة روان إلى انكلترا
١٠٦٠	اجتماع النبلاء في لندن
١٠٦١	رهبان الفرنسيسكان والدومينيكان جباة للبابا
١٠٦١	وفاة رئيس أساقفة منتز
١٠٦٢	انسيوس بن فردريك ينصب كميناً للبارميين
١٠٦٣	هطول غزير للأمطار
١٠٦٣	تحويل جسد ادموند
١٠٦٣	عدد كبير من النبلاء الانكليز يحملون الصليب
١٠٦٤	اخضاع الغسكونيين
١٠٦٥	أسر انسيوس
١٠٦٦	موت ولد لفردريك
١٠٦٦	ارسال بطرس كيوشي إلى أبوليا
١٠٦٦	الرهبان السسترشيان يحصلون على مدارس في الجامعات
١٠٦٧	تتويج بونيفيس

١٠٦٧	تقارير غير مؤكدة
١٠٦٧	عودة أسقف نورويك
١٠٦٨	الاستيلاء على دمياط
١٠٦٨	اجتماع رهبان الطائفة السوداء
١٠٦٨	الحجرة التي حملت طبعة قدم المسيح
١٠٦٩	ولادتان غير طبيعيتان
١٠٦٩	مباراة مقارعة في بريكلي
١٠٧٠	تكريس أسقف درم
١٠٧٠	خلافات بين راعي دير وسيتمنستر ورهبانه
١٠٧٠	خلاف بين راعي دير بيتربورا ورهبانه
١٠٧١	انتخاب جون أوف كاين راعياً لدير بيتربورا
١٠٧١	روبرت باسلو يترك البلاط
١٠٧٢	اعتقال كونت غوزني
١٠٧٣	تكريس كنيسة بيوليو
١٠٧٣	تحول ملك التتار إلى المسيحية
١٠٧٥	موت ملك سكوتلندا
١٠٧٦	موت هوغ برون
١٠٧٦	موت كونت طولوز
١٠٧٧	موت بطرس دي غينور
١٠٧٧	موت المعلم سيمون النورماندي
١٠٧٨	وفاة وليم أوف درم
١٠٧٨	وفاة روجر فتز— جون
١٠٧٨	وفاة عدد من النبلاء الفرنسيين
١٠٧٩	احتفال الملك بعيد الميلاد في وينكستر
١٠٨٠	ولادة كونتسة كورنوول لصبي
١٠٨٠	فرض غرامة على وولترد
١٠٨١	المصالحة بين راعي دير ويتسمنستر ورهبانه

١١٠٢	موت واحد من الأرمن في انكلترا
١١٠٢	ارسال المال إلى الملك الفرنسي
١١٠٣	عودة النبلاء الانكليز
١١٠٤	تقارير زائفة عن الأرض المقدسة
١١٠٤	تكريس كنيسة ونغريف
١١٠٥	قرار رئيس أساقفة كانتربري القيام بزيارات تفقدية
١١٠٦	طغيان رئيس أساقفة كانتربري
١١٠٧	معارضة كنيسة القديس بارثلميو للزيارات التفقدية
١١٠٩	رفض الملك الإصغاء للذهاب إلى الشكاوي
١١١٠	استعداد رئيس الأساقفة للذهاب إلى البلاط الروماني
١١١١	رسالة أسقف لندن إلى راعي دير القديس ألبان
١١١٣	اجتماع هيئة رهبان الدومينيكان
١١١٣	اضطراب بين سكان لندن
١١١٤	صكوك امتيازات جديدة من الملك
١١١٥	اعطاء ختم الملك إلى وولتر أوف كيلكني
١١١٦	متابعة الملك الفرنسي زحفه
١١١٦	الخلافات بين الانكليز والفرنسيين
١١١٧	استراتيجية وليم لونغوسبي
١١٢١	الملك الانكليزي يستخرج المال من جميع المناطق
١١٢٢	طغيان غيوفري لانغلي
١١٢٣	ذهاب رئيس أساقفة كانتربري إلى روما
١١٢٣	موت روبرت أوف ليكسنغتون
١١٢٣	تقارير حول الاستيلاء على القاهرة
١١٢٤	الاستيلاء على دمياط
١١٢٨	عروض السلطان على الصليبيين
١١٢٩	اعلام السلطان بخيانة المتولي للقاهرة
١١٣٠	تحسن أحوال الامبراطور فردريك

١١٩٩	عودة غي أخو الملك من الأرض المقدسة
١٢٠٠	كيف أغنى ملك انكلترا اخوته
١٢٠١	أسقف لندن يقسم على الالتزام بمراسيم رئيس الأساقفة
١٢٠٢	ذهاب البابا إلى بيروسيا
١٢٠٢	شكاوى البنادقة ضد ملك فرنسا
١٢٠٣	اتحاد بعض الرهبان
١٢٠٣	عودة سيمون ايرل ليستر من غسكوني
١٢٠٤	اجراءات الايرل سيمون
١٢٠٥	عودة الايرل سيمون
١٢٠٦	ادخال عبارة دون التقيد في المحاكم العلمانية
١٢٠٧	اطلاق سراح بعض الأسرى الصليبيين
١٢٠٧	تحليل عمدة لندن وكهنتها
١٢٠٨	تقارير حول هنري باث
١٢٠٩	كفالة هنري باث
١٢١١	احصاء نفقات الملك
١٢١١	تأسيس دير للنساء من قبل كونتسة آروندل
١٢١١	جلب أخبار وفاة فردريك إلى الممالك الغربية
١٢١٢	وصية الامبراطور فردريك
١٢١٣	ايقاع عقوبة الحرمان الكنسي بعميد لندن وكهنتها
١٢١٤	موت الايرل وولتر
١٢١٦	ثبات أمير أنطاكية أمام الموت
١٢١٧	قطع أشجار رئيس أساقفة كانتربري
١٢١٧	الحرب بين أولاد ملك الدانمارك
١٢١٨	عودة ايرل ليستر إلى غسكوني
١٢١٩	عقد بارلمان في لندن
١٢٢٠	تثبيت ايثيلمار في كرسي وينكستر
١٢٢٠	وفاة وليم دي كانتيلوب

١٢٢١	اجتماع أساقفة انكلترا في دنستيبل
١٢٢٢	زيارة تفقدية لأسقف لنكولن
١٢٢٣	اخضاع و يلز للقوانين الانكليزية
١٢٢٣	تثبيت أسقفي وينكستر ورروكستر
١٢٢٤	عبور راعي دير ويستمنستر البحر
١٢٢٥	أوضاع أنطاكية البائسة
١٢٢٥	ذهاب عمدة لندن إلى البلاط الروماني
١٢٢٥	اغناء ملك انكلترا الأجانب
١٢٢٦	وفاة الكاردينال وليم أسقف سابينا
١٢٢٧	خلافات بين راعي دير ويستمنستر والرهبان
١٢٢٨	رسالة من ألفونسو ملك قشتالة إلى ملك انكلترا
١٢٢٩	رسالة من البابا
١٢٣٠	وصول الملك إلى سينت ألبان
١٢٣١	اعتقال الفارس روبرت
١٢٣١	وفاة سيسليا دي ساندفورد
١٢٣٣	مغادرة البابا ليون
١٢٣٤	وصول البابا إلى ميلانو
١٢٣٥	عودة راعي دير ويستمنستر
١٢٣٦	فقدان ملك فرنسا للمال في البحر
١٢٣٧	فيضان في فريزلاند
١٢٣٧	عودة هنري أوف باث إلى البلاط
١٢٣٨	عودة أسقف وينكستر من البلاطِ الروماني
١٢٣٩	موت بوينتز بيبر وتأبينه
١٢٤١	وصول راعي دير كلوني إلى انكلترا
١٢٤١	العثور على جثث بعض الرهبان في سينت ألبان
١٢٤٢	وفاة قهرمان الملك
١٢٤٢	استدعاء السماسرة إلى العدالة

١٢٤٤	اجتماع الرعاة وثورتهم في فرنسا
١٢٤٦	وصول رئيس أساقفة كانتربري إلى انكلترا
١٢٤٦	تزايد أعداد الرعاة في فرنسا
١٢٤٧	وصول الرعاة إلى أورلين
١٢٥٠	نهاية الواعظ الثاني للرعاة
١٢٥١	نهاية الواعظ الثالث
١٢٥٢	توبة الحشود الضالة
١٢٥٣	تدمير دمياط
١٢٥٣	ظهور بعض الطيور الغريبة في انكلترا
١٢٥٣	البابا يحلل كثيراً من النبلاء
١٢٥٤	الاستيلاء على كاستيلون في غسكوني
١٢٥٥	معاقبة بعض المنغمسين بالشهوات الجسدية
١٢٥٥	تقارير من الأرض المقدسة
١٢٥٦	وصول الملك إلى سينت ألبان
١٢٥٦	سقوط غزير للأمطار
١٢٥٦	زيارة تفقدية لسينت ألبان
١٢٥٨	رسالة الملك الفرنسي
١٢٦٢	عاصفة مدمرة
١٢٦٣	فيضان البحر
١٢٦٤	عودة ملكة سكوتلندا إلى بلادها
١٢٦٤	مبارزة في روكستر
١٢٦٤	خاتمة العام
١٢٦٥	احتفال الملك بعيد الميلاد في يورك (عام ١٢٥٢)
١٢٦٦	منح الفروسية لملك سكوتلندا
١٢٦٦	زواج ملك سكوتلندا من ابنة ملك انكلترا
١٢٦٧	تقديم ملك سكوتلندا الولاء إلى ملك انكلترا
١٢٦٨	امتياز الايرل مارشال

١٢٦٨	احتفال الزواج
١٢٦٩	الاحتفال بعيد القديس ادوارد في لندن
١٢٧٠	عودة فيليب لوفل إلى الحظوة الملكية
١٢٧١	عاصفة ريح حادة
١٢٧٢	كيف جمع أسقف روكستر الخمس
١٢٧٣	موت نيقولا أوف ساندفورد
١٢٧٣	البابا يحث ملك انكلترا على القيام بالحج
١٢٧٤	البابا يزيد عدد كرادلته
١٢٧٥	ظهور الجواميس في انكلترا
١٢٧٥	رفض الرهبان الفرنسيسكان هدية الملك
١٢٧٦	اتهامات ضد سيمون ايرل ليستر
١٢٧٨	حالة الهواء والمناخ
١٢٧٩	رفض رجال الدين الترقية
١٢٨٠	كيف رفض الفرنسيون اطاعة أوامر ملكهم
١٢٨٢	الملك يقسم على القيام بالحج
١٢٨٣	سلطان مصر يطلب السلام من الملك الفرنسي
١٢٨٤	قسوة الملك نحو رعيته
١٢٨٤	تحسن أوضاع كونراد بن فردريك
١٢٨٥	مصاعب سيمون ايرل ليستر
١٢٨٥	وفاة المعلم جون أوف بيزنغستوك
١٢٨٧	الاتهامات ضد الايرل سيمون
١٢٨٨	اخضاع ويلز إلى القوانين الانكليزية
١٢٨٨	قدوم نبلاء غسكوني إلى انكلترا
١٢٨٩	الاتهامات ضد الايرل سيمون
١٢٩١	سبب مشاكل غسكوني
١٢٩٥	الغسكونيون يتهمون الايرل سيمون
١٢٩٦	رد الايرل سيمون على الاتهامات

١٢٩٧	الحاق الأذى براعي دير رامس من قبل الملك
١٢٩٨	الخطر الذي أحاق بكنيسة القديس ادموند
١٢٩٨	الخلاف حول كنيسة فليمستد
١٣٠٠	موت روبرت باسليف
١٣٠٠	وفاة رتشارد دي ويندوفر
١٣٠١	البابا يمنح بعض السلطات إلى أسقف لنكولن
١٣٠٢	اعاقة مشروع سلام بين البابا وشيعة فردريك
١٣٠٣	منح حق الزيارة التفقدية إلى رئيس أساقفة كانتربري
١٣٠٤	كيف شفى طفل الكثير من الناس
١٣٠٥	عقد سلام بين راعي دير ويستمنستر والرهبان
١٣٠٥	منح امتياز إلى دير ويستمنستر
١٣٠٦	صك ملك انكلترا
١٣٠٦	غضب ملك انكلترا من راعي دير ويستمسنتر
١٣٠٧	أخبار من الأرض المقدسة
١٣٠٨	أخبار أفضل من الأرض المقدسة
١٣٠٩	شكوك حول شروط الهدنة
١٣١٠	موافقة الملك الفرنسي على الهدنة ورسالة حولها
١٣١١	اجتماع بين السلطان والملك الفرنسي
١٣١٣	موت ألفونسو ملك اسبانيا
١٣١٣	مرض ألفونسو أخو الملك الفرنسي
١٣١٤	حزن الملكة الفرنسية بلانشي
١٣١٤	عبور الراهب وليم الألب
١٣١٥	ارسال الايرل سيمون إلى غسكوني
١٣١٦	اعطاء غسكوني إلى ادوارد ابن الملك
١٣١٧	معركة دموية بين الغسكونيين والايرل سيمون
١٣١٩	اجتياح الأجانب لانكلترا
١٣٢٠	حر وجفاف خلال الصيف

١٣٢١	مبارزات المائدة المستديرة
١٣٢٣	ذهاب الملك إلى سينت ألبان
١٣٢٣	وفاة وليم هافرهل
١٣٢٤	النقش على قبر وليم هافرهل
١٣٢٤	مرض مميت بين الماشية
١٣٢٥	تكريس كنيسة إيلاي
١٣٢٦	وفاة الكونتسة مرغريت
١٣٢٨	عقد بارلمان كبير في لندن
١٣٣٠	تهدئة غضب ملك انكلترا
١٣٣١	موافقة الأساقفة على طلب الملك
١٣٣٣	اصرار الملك على نواياه ومقاصده
١٣٣٤	توزيع الملك للموراد الشاغرة
١٣٣٥	سير الملك بالتسلسل
١٣٣٧	رفض الملك الاصغاء إلى المنطق
١٣٣٨	ثبات كهنة وينكستر
١٣٣٨	سكان لندن يدفعون عشرين ماركاً إلى الملك
١٣٣٩	فرض ضريبة عبودية على اللندنيين
١٣٣٩	المعاناة من الأنواء القاسية
١٣٤٠	شؤون غسكوني
١٣٤١	ارفضاض المؤتمر وغضب الملك
١٣٤٢	كلام كونتسة آرونديل
١٣٤٤	البحث في شؤون غسكوني
١٣٤٥	انتهاء المؤتمر
١٣٤٥	مقابلة بين الملك ومقدم الاسبتارية
١٣٤٦	تعيين رينالد دي موهون حافظاً للغابات
١٣٤٧	أخبار جلبها بعض الأرمن
١٣٤٨	وفاة كونتسة وينكستر

١٣٤٨	اطلاق سراح أسرى صليبيين من مصر
١٣٤٩	جلب عظام وليم صاحب السيف الطويل إلى عكا
١٣٤٩	الإجراءات العنيفة لوليم أوف بلنسية
١٣٥١	عمل غير شريف اقترفه غيوفري دي لوزنغنان
١٣٥٢	اتهامات ضد الفارس روبرت دي لي هو
١٣٥٣	الاجراءات القضائية لناظر أساقفة انكلترا
١٣٥٣	وصول ألبيرت موثق البابا إلى انكلترا
١٣٥٥	انشغال ألبيرت بمصالحه
١٣٥٥	وصول رئيس الأساقفة إلى لندن
١٣٥٦	خلاف بين رئيس الأساقفة وأسقف وينكستر
١٣٥٧	إجراءات أسقف وينكستر
١٣٥٨	رفع شكوى إلى رئيس الأساقفة
١٣٦٠	ذهاب رئيس الأساقفة إلى اكسفورد
١٣٦١	اعلان قرار رئيس الأساقفة في اكسفورد
١٣٦٢	موت بلانشي ملكة فرنسا
١٣٦٣	موارد جون مانسيل
١٣٦٣	احصاء موارد الأجانب في انكلترا
١٣٦٤	معاناة رهبان السسترشيان في انكلترا
١٣٦٥	مختصر أخبار العام
١٣٦٦	احتفال الملك بعيد الميلاد في وينكستر
١٣٦٦	تطويب بطرس الدومينيكاني
١٣٦٦	انتخاب برانكليون شيخاً لروما
١٣٦٧	ارسال هدية فخمة من شعب وينكستر إلى الملك
١٣٧٠	مغادرة المعلم ألبيرت
١٣٧١	طرد اليهود من فرنسا
١٣٧١	موت راعي دير القديس أوغسطين في كانتربري
١٣٧٢	خسارة كنيسة القديسة مريم في يورك

١٣٧٢	استباحة مدينة تيفولي
١٣٧٣	زواج ايرل غلوستر من ابنة أخي الملك
١٣٧٤	ادعاء ملك اسبانيا الحق في غسكوني
١٣٧٦	قيود الزيارات التفقدية
١٣٧٦	عبور بعض النبلاء البحر من أجل الزواج المتقدم ذكره
١٣٧٧	ارغام اللنديين على دفع مبلغ من المال
١٣٧٧	مراسيم من أجل تقوية المملكة
١٣٧٩	وفاة رتشارد دي ويتز أسقف شيستر
١٣٨٠	تجدد الاضطرابات بين الغسكونيين
١٣٨٠	نهب بضائع الفقراء
١٣٨١	منح امتياز إلى كنيسة وولتهام
١٣٨٢	الفرنسيون يطلبون مساعدة الايرل سيمون
١٣٨٢ .	دعوة البابا إلى العودة إلى روما
١٣٨٣	عقد بارلمان عظيم
١٣٨٩	عزل الايرل سيمون من ولاية غسكوني
١٣٩٠	عودة هنري أوف باث إلى البلاط
١٣٩١	معجزات عند قبر رتشارد أسقف شيكستر
١٣٩١	انتخاب جون كلبنغي لأسقفية شيكستر
١٣٩١	زيارة تفقدية للطائفة السوداء
١٣٩٢	استعدادات الملك لحملة إلى غسكوني
١٣٩٣	مذبحة في أحواز فلاندرز
١٣٩٣	قيام رئيس أساقفة كانتربري بزيارة تفقدية
١٣٩٤	استقبال مارشال انكلترا لزوجته ثانية
١٣٩٤	مغادرة ملك انكلترا إلى غسكوني
١٣٩٤	وفاة توماس أوف هارتفورد رئيس شمامسة نورثأمبرلاند
١٣٩٦	الكارثة التي نزلت بالجيش الفرنسي
١٣٩٦	وصول ملك انكلترا إلى بوردو

١٣٩٩	مشاعر الشكوك الفرنسية تجاه البواتيين
١٤٠٠	رسالة أسقف لنكولن إلى البابا
١٤٠٤	سخط البابا من الرسالة
١٤٠٥	كرم روبرت أوف سوثدون
١٤٠٥	موت رالف راعي دير رامسي
١٤٠٦	طوفان مدهش
١٤٠٦	احتفال بعيد القديس ادوارد
١٤٠٧	حصول ملك انكلترا على قلاعه في غسكوني
١٤٠٨	ارسال سفراء من عند ملك انكلترا إلى ملك اسبانيا
١٤٠٩	عدوان حاد قام به المسلمون ضد الصليبيين
١٤٠٩	مجاعة كبيرة في غسكوني
١٤١٠	اعفاء دير القديس ألبان من دين مستحق
١٤١٠	انتشار سمعة ملك اسبانيا
١٤١٠	نصيحة ملك اسبانيا إلى ملك انكلترا
١٤١١	مرض أسقف لنكولن
١٤١٤	شكوى أسقف لنكولن من الحبر الروماني
١٤١٥	شكواه من ظلم الكنيسة
١٤١٩	وفاة روبرت أسقف لنكولن
١٤٢٠	موسيقى وأصوات في السموات
١٤٢١	مجاعة كبيرة في غسكوني
١٤٢٢	اطلاق الملك سراح بعض الأسرى
١٤٢٢	وفاة وليم دي فيزي
١٤٢٣	آلام فرسان شروبري
١٤٢٣	تجاوزات بعض المسلمين
١٤٢٤	حملة كونراد بن فردريك
١٤٢٥	خلاف بين رئيس أساقفة كانتربري والهيئة الكهنوتية في لنكولن
١٤٢٦	ذهاب رئيس الأساقفة إلى دير القديس ألبان

١٤٦٨	وفاة هوغ أسقف إيلاي
١٤٦٩	رعد وبرق غير اعتيادي
١٤٦٩	انتخاب توماس أولدبردج لأسقفية كارلأيل
١٤٧٠	وصول نبلاء اغريق إلى بلاط روما
١٤٧١	البابا يمنح مملكة صقلية إلى ملك انكلترا
١٤٧٣	وفاة كونراد ملك صقلية
١٤٧٤	سرور البابا بوفاة كونراد
١٤٧٥	ارسال راهبين من سينت ألبان إلى روما
١٤٧٥	قحط الأرض
١٤٧٦	أسر بعض النبلاء في بواتو
١٤٧٨	وفاة وليم كانتلوب
١٤٧٨	ولاية غير اعتيادية من الملك
١٤٧٩	حول وليم أوف كيلكني
١٤٧٩	انتخاب وليم أوف كيلكني لأسقفية إيلاي
١٤٧٩	موت ثلاثة من رعاة الديرة
١٤٨٠	رعد ومطر
١٤٨٠	اضطرابات في الأنواء
١٤٨٠	حالة الأسى لدى الملك الفرنسي
١٤٨١	تعيين رهبان رجال عدالة
١٤٨١	كيف سدد الملك ديونه
١٤٨٢	الملك يطلب السماح له بالعبور من فرنسا
١٤٨٢	عبور كونتسة كورنوول القنال
١٤٨٣	كيف ظلم أسقف وينكستر رهبانه
١٤٨٥	كيف رهن الملك بطيش نفسه ومملكته للبابا
١٤٨٦	موت البابا انوسنت الرابع
١٤٨٦	رؤيا مرعبة حول هذا البابا
١٤٨٨	تعيين الاسكندر الرابع بابا

١٥٠٥	استمرار تساقط الأمطار
١٥٠٥	تنين بحر مدهش
١٥٠٥	فيل في انكلترا
١٥٠٦	ذهاب الملك إلى كنيسة القديس ألبان
١٥٠٦	مقتل أحد الفرسان من أجل ميراثه
١٥٠٧	المعجزات عند قبر روبرت في لنكولن
١٥٠٨	رؤيا البابا الاسكندر
١٥١٠	الرغبة العامة بعقد تحالف مع ملك انكلترا
١٥١٠	عقد البارلمان العظيم في لندن
١٥١٢	الأنواء القاسية
١٥١٢	وفاة وولتر دي غري
١٥١٣	حمل جسده إلى يورك
١٥١٣	جفاف كبير
١٥١٤	معجزات في كنيستي لنكولن وشيكستر
١٥١٤	تعيين رئيس شهامسة لنكولن محل وليم وولف
١٥١٤	تحطيم جيش البابا
١٥١٧	مظالم بلاط البابا
١٥١٨	مراعاة الامتيازات في انكلترا
١٥١٨	الاتهامات ضد روبرت روس وجون بالأويل
١٥١٩	اتهامات رينالد باث للسكوتلنديين
١٥٢٠	فقر بعض الكنائس في انكلترا
١٥٢١	خسوف غير اعتيادي للقمر
١٥٢١	وفاة وارن دي مونتشينسل
١٥٢٢	مرض جون الفرنسي
١٥٢٢	مغادرة جون دي غري للبلاط
١٥٢٢	ذهاب الملك إلى سكوتلندا
١٥٢٤	خلاف بين جامعة باريس والرهبان الدومينيكان

١٥٢٤	مصالحة جون بالأويل مع الملك
١٥٢٥	عودة الملك من سكوتلندا
١٥٢٥	استيلاء الملك على بعض الأموال
١٥٢٦	تكريس وليم كيلكني أسقفاً على إيلاي
١٥٢٦	وصول أسقف طليطلة إلى لندن
١٥٢٧	زواج ابن ملك فرنسا من ابنة ملك قشتالة
١٥٢٨	تبديد الأموال من قبل ملك انكلترا
١٥٢٨	مشورة سيئة من أسقف هيرفورد
١٥٣٠	خيانته غير الاعتيادية
١٥٣١	وصول زوجة ادوارد إلى دوفر
١٥٣٢	الأوضاع التعيسة لمملكة انكلترا
١٥٣٣	منح ادموند ابن ملك انكلترا مملكة صقلية
١٥٣٤	اعاقة الملك انتخاب رئيس أساقفة يورك
١٥٣٤	صلب اليهود لأحد الصبيان
١٥٣٨	شنق عدد من اليهود
١٥٣٨	وصول المعلم روستاند إلى انكلترا من عند البابا
١٥٣٩	البارلمان الذي عقد إثر مهمة روستاند
١٥٤٠	روستاند يدعو إلى حرب صليبية ضد مانفرد
١٥٤١	هدنة في الأرض المقدسة
١٥٤١	مضايقة الملك لرئيس أساقفة يورك
١٥٤١	انسحاب جون دي غري من البلاط
١٥٤٢	رسالة البابا إلى أسقف هيرفورد
١٥٤٣	عقد مجمع في لندن
١٥٤٦	أسقف هيرفورد يسعى إلى اثارة شقاق ديني
١٥٤٧	عودة ادوارد من غسكوني
١٥٤٧	ترتيبات السلام بين أسقف درم وجون بالأويل
١٥٤٨	اصلاح جامعة باريس

١٥٧٣	رسالة البابا إلى رئيس رهبان دير القديس ألبان
١٥٧٤	اطلاق سراح السجناء اليهود
١٥٧٤	اجتماع أساقفة انكلترا في لندن
١٥٧٤	استدعاء رؤساء رهبان السسترشيان
١٥٧٦	التماس رئيس رهبان ويردون الرحمة من الملك
١٥٧٧	رسالة البابا لصالح السسترشيان
١٥٧٩	اغلاق الموانيء
١٥٧٩	مبارزة في بلايث
١٥٧٩	رسائل وساطة لصالح طائفة السسترشيان
١٥٨٠	اعتدال البابا في مطالبه
١٥٨١	الفتور العام تجاه البابا
١٥٨١	انتخاب جايل لأسقفية سالسبري
١٥٨٢	انتخاب رالف أوف نورويك لرئاسة أساقفة دبلن
١٥٨٢	سفر رئيس رهبان ويستمنستر
١٥٨٢	مرسوم جديد للملك حول تقليد الفرسان
١٥٨٣	اقامة سلام بين الفلمنكيين والألمان والفرنسيين
١٥٨٣	عاصفة ثقيلة
١٥٨٤	مرسوم في ذكرى الملك أوفا
١٥٨٥	المقاطعات التي كانت تحت حكم الملك أوفا
١٥٨٥	ملحق الملك أوفا بدير القديس ألبان
١٥٨٦	اضطرابات في روما
١٥٨٦	معركة عند سوق بوتولف
١٥٨٧	رسالة البابا إلى ملك انكلترا وملكتها
١٥٨٩	طلب رهبان أبنغدون اذن الملك لانتخاب رئيس للرهبان
١٥٩٠	قدوم جون دي ديا من عند البابا
١٥٩٠	تأكيد اقحام رئيس رهبان وينكستر
١٥٩٠	مكوس جديدة على سكان لندن

١٥٩١	الاستيلاء على ممتلكات روبرت دي روس
١٥٩١	تأسيس السلام بين رئيس رهبان القديس ألبان وويستمنستر
١٥٩٢	تكريس سيوول رئيساً لأساقفة يورك
١٥٩٢	سلام بين أسقف ايلاي ورئيس رهبان رامسي
١٥٩٣	فضيحة في دير الثالوث المقدس في لندن
١٥٩٤	الاعتراف بهانفرد ابناً شرعياً للامبراطور فردريك
١٥٩٥	اطلاق سراح شيخ روما
١٥٩٥	قدوم ملك سكوتلندا وملكتها إلى انكلترا
١٥٩٦	ذهاب ملك انكلترا لاستقبال ملك سكوتلندا وملكتها
١٥٩٧	تقديمات ثمينة من الملك إلى كنيسة القديس ألبان
١٥٩٧	خروج ادوارد لاستقبال الملك
١٥٩٨	وصول أخو ملك اسبانيا إلى انكلترا
١٥٩٨	منح هنتغدون إلى ملك السكوتلنديين
١٥٩٩	هدايا رئيس رهبان وينكستر إلى مائدة البابا
١٥٩٩	جريمة عمدة نورثأمبتون
١٦٠٣	أصل الفريضة المقيتة التي فرضت على الأساقفة
١٦٠٤	الرسالة الشائنة للبابا
١٦٠٦	رفض رئيس رهبان ورهبان ديري درم وغيسبون الخضوع
١٦٠٧	تهديد ملك قشتالة بغزو غسكوني
١٦٠٨	احتلال عمادة يورك
١٦١٠	موت بعض الأساقفة
١٦١١	طلب الملك المال من النبلاء
١٦١٢	انتخاب أسقف لإيلاي
١٦١٢	وضع كنيسة القديس ألبان تحت الحرمان
١٢١٣	فضيحة في دير غلاستونبري
١٦١٤	تثبيت رئيسي أساقفة ودبلن
١٦١٤	جباية العشور من قبل أسقف هيرفورد

١٦٣٥	موت بعض النبلاء
١٦٣٦	جمع رؤساء رهبان السسترشيان
١٦٣٧	موت بعض النبلاء
١٦٣٧	رفض الملك قبول أسقف ايلاي
١٦٣٨	ارسال رسل إلى ملك فرنسا
١٦٣٨	حصول أسقف سالسبري على اذن بالاحتفاظ بموارده
١٦٣٨	الوصاية التي منحت إلى الملكة
١٦٣٩	طائفة رهبانية جديدة
١٦٣٩	تعيين شيخ جديد لروما
١٦٣٩	انتخاب روجر دي مولند لأسقفية شيستر
١٦٤١	وصول رئيس أساقفة ميسينا
١٦٤٢	موت بعض الأساقفة والنبلاء
١٦٤٣	زواج بلدوين ايرل ديفون
١٦٤٣	منح الملك إلى كنيسة القديس ألبان
١٦٤٤	أسماء الملوك القديسين لانكلترا
١٦٤٤	اضطرابات في جامعة اكسفورد
١٦٤٥	عودة رئيس رهبان دير ويستمنستر
١٦٤٥	نهب ممتلكات أسقفية ايلاي
١٦٤٦	ذهاب أسقف ايلاي إلى روما
١٦٤٧	معجزات عند قبر القديس ألبان
١٦٤٧	ارسال مبعوثين إلى ملك فرنسا
١٦٤٨	زيادة عدد وصايات الملكة
١٦٤٨	طائفة جديدة من الرهبان
١٦٤٨	موت مرغريت اخت القديس ادموند
١٦٤٩	عقد بارلمان لوداع الايرل رتشارد
١٦٤٩	استدعاء رئيس أساقفة كانتربري إلى روما
١٦٥٠	مرض أسقف هيرفورد

١٦٥٠	طلب الملك المساعدة لابنه ادموند
١٦٥١	كيف تسلم المتطفلون عمادة يورك
١٦٥١	وصول رئيس أساقفة كولون إلى انكلترا
١٦٥٢	أمر بابوي إلى رئيس رهبان القديس ألبان
١٦٥٣	تقديم الولاء إلى الايرل رتشارد
١٦٥٣	تحصين قلاع نورماندي
١٦٥٤	تقديم الولاء للايرل رتشارد من قبل الألمان
١٦٥٤	الأموال التي بددها الملك
١٦٥٤	مغادرة رئيس أساقفة كولون انكلترا
١٦٥٤	مغادرة الايرل رتشارد انكلترا
١٦٥٥	نقص المؤن بين أتباع الايرل رتشارد
١٦٥٥	إلغاء حكم جائر ضد رئيس رهبان دير القديس ألبان
١٦٥٦	الرسالة التي حصل عليها رئيس رهبان دير القديس ألبان من الايرل رتشارد
١٦٥٦	الربح الذي ابتغي استخراجه من أموال الصرافة
١٦٥٧	مغادرة الايرل رتشارد انكلترا إلى ألمانيا
١٦٥٨	النار الرهيبة التي أحرقت معبد محمد (صلى الله عليه وسلم)
١٦٥٩	النهر الملتهب
١٦٥٩	حصول رهبان بيت لحم على مقر في كمبردج
١٦٦٠	وفاة كاترين ابنة الملك
١٦٦٠	الشكوى التي علمها أسقف روكستر في روما
١٦٦٠	الحملات الويلزية ضد الانكليز
١٦٦١	الحصول على جسد مالكولم ملك السكوتلنديين
١٦٦١	ترميم أسوار لندن
١٦٦١	الخلاف بين سيمون ايرل ليستر ووليم دي بلنسية
١٦٦٢	تحليل رهبان درم
١٦٦٣	إلغاء انتخاب أسقف ايلاي
١٦٦٤	تمتين دفاعات نورماندي

١٦٦٥	وعد أساقفة انكلترا بدفع مبلغ إلى الملك
١٦٦٦	وفاة وولتر أسقف نورويك
١٦٦٦	مرسوم جديد في روما حول الانتخابات الرهبانية
١٦٦٧	استعدادات الملك لحملة إلى ويلز
١٦٦٨	وصول الايرل رتشارد إلى ألمانيا
١٦٦٨	تتويج الايرل رتشارد ملكاً على ألمانيا
١٦٦٩	تعيين جون أوف أفني قهرماناً للملك
١٦٦٩	الخصام بين رهبان دير وينكستر ورهبان غلاستونبري
١٦٧٠	موت موريس فارس ايرلاندا
١٦٧٠	موت روبرت أوف سوثندون
١٦٧٠	استيلاء الويلزيين على قلعة عائدة لايرل غلوستر
١٦٧٠	موت أليس رئيس راهبات كيتباي
١٦٧١	وفاة رئيس رهبان نورويك
١٦٧١	مرض الملك
١٦٧١	مقتل مرافق لوليم دي بلنسية
١٦٧٢	وفاة روجر أوف ويستهام
١٦٧٢	معجزة في كنيسة القديس ألبان
١٦٧٣	مغادرة جامعة باريس لمكانها
١٦٧٣	غارات مدمرة للويلزيين
١٦٧٤	خطاب ألقاه للويلين
١٦٧٥	مرض أسقف هيرفورد
١٦٧٦	اتهام روستاند أمام البابا
١٦٧٦	وصول ملك انكلترا مع جيشه إلى شيستر
١٦٧٧	تثبيت سيمون دي وانتون أسقفاً على نورويك
١٦٧٧	ابتعاد عواطف ملك اسبانيا عن ملك انكلترا
١٦٧٨	عودة مخزية للملك
١٦٧٨	ارسال رسل إلى ملك فرنسا

١٦٧٨	موت نيقولا فارنهام
١٦٧٩	خلاف بين ملكي الدانمارك والنيرويج
١٦٧٩	عودة الملك من ويلز
١٦٨٠	خلع رئيس رهبان دير كليرفو
١٦٨٠	مرسوم جديد في روما بشأن الأساقفة
١٦٨١	عودة هنري بن رتشارد ملك ألمانيا إلى انكلترا
١٦٨٢	الحرمان الكنسي لرئيس أساقفة يورك
١٦٨٢	وصول الملكة إلى كنيسة القديس ألبان
١٦٨٣	خصوبة بيترايس كونتسة بروفانس
١٦٨٣	طغيان التتار
١٦٨٤	دمار الحشيشية من قبل التتار
١٦٨٤	تعيين بطرس دي أوريفالي مستشاراً للملك
١٦٨٤	نبلاء سكوتلندا يتحكمون بالملك والملكة
١٦٨٥	المعارك بين جيمس أودلي والويلزيين
١٦٨٦	ادعاء ملك اسبانيا بملك ألمانيا
١٦٨٧	رسالة ملك اسبانيا إلى ملك انكلترا
١٦٨٩	تحويل منطقة الحدود مع ويلز إلى صحراء
١٦٨٩	مختصر أخبار العام
١٦٩١	احتفال ملك انكلترا بعيد الميلاد في لندن
١٦٩١	وصول أسقف ايلاي إلى انكلترا
١٦٩٢	وفاة وليم هيرون عمدة نورثأمبرلاند
١٦٩٣	اتهامات ضد بعض مواطني لندن
١٦٩٣	وفاة جون أوف أفني
١٦٩٣	تواضع البابا للشيخ برانكليون
١٦٩٥	غضب البابا ضد ملك انكلترا
١٦٩٦	عودة روستاند إلى انكلترا
١٦٩٦	تكريس ثلاثة أساقفة في كانتربري

١٦٩٧	ترتيبات حول المؤن في دير القديس ألبان وعقد اتفاقية
١٧٠١	تثبيت الاتفاقية من قبل الملك
١٧٠٢	من الذي كان وراء تحقيق الاتفاقية
١٧٠٢	عودة روستاند من بلاط روما
١٧٠٣	وصول مبعوث بابوي إلى انكلترا
١٧٠٣	وصول سفن محملة بالقمح إلى انكلترا
١٧٠٤	الطبيعة المدهشة للفصل
١٧٠٥	أوضاع رتشارد ملك ألمانيا
١٧٠٥	وصول توماس أوف سافوي إلى انكلترا
١٧٠٥	الغرامة التي فرضت على سكان لندن
١٧٠٥	انتهاء الهدنة بين الانكليز والويلزيين
١٧٠٦	حشد فرسان انكلترا ضد الويلزيين
١٧٠٦	عقد بارلمان في لندن
١٧٠٨	اجتماع الفرسان للزحف ضد الويلزيين
١٧٠٩	تكريس أسقف كارلآيل
١٧٠٩	وفاة رئيس أساقفة أرماغ
١٧٠٩	اضطرابات رئيس أساقفة يورك
١٧١٠	مرض أسقف هيرفورد
١٧١٠	تخلي ادوارد عن عزبه إلى وليم دي بلنسية
١٧١٠	وصول الراهب الفرنسيسكاني مانسيوتوس من عند البابا
١٧١١	جواب البارلمان للملك
١٧١٢	فرض البابا أمراً خداعاً على ملك انكلترا
١٧١٣	موت رئيس أساقفة تريف
١٧١٣	منح الملك مساعدة مالية
١٧١٤	ارسال سيمون باسليف بمهمة لاستخراج الأموال
١٧١٥	ذهاب سيمون باسليف إلى دير القديس ألبان
١٧١٩	خداع سيمون المتقدم ذكره

١٧٢٠	شق الرهبان الفرنسيسكان طريقهم إلى داخل مدينة القديس ادموند
١٧٢١	اكمال أعمال البارلمان
١٧٢٢	الأنواء غير الموسمية
١٧٢٣	بعثة خاصة إلى الملك الفرنسي
١٧٢٣	تأسيس دير رهباني من قبل جون مانسيل
١٧٢٣	وفاة سيوول رئيس أساقفة يورك
١٧٢٤	أقوال وأفعال رئيس الأساقفة المذكور
١٧٢٦	معجزة الماء الذي تحول إلى خمرة
١٧٢٧	مجاعة كبيرة في انكلترا
١٧٢٧	رسالة ملك اسبانيا إلى ملك ألمانيا
١٧٢٩	عودة رئيس رهبان القديس ادموند من البلاط الروماني
١٧٢٩	البارلمان الذي عقد في اكسفورد
١٧٣٣	الخلاف في روما بين البابا والشيخ برانكليون
١٧٣٤	حصول رئيس رهبان دير رامسي على اقامة السوق في سينت ايف
١٧٣٤	وفاة رتشارد رئيس رهبان دير ويستمنستر
١٧٣٥	موت فيليب رئيس رهبان دير ويستمنستر
١٧٣٦	انتخاب رئيس لأساقفة يورك
١٧٣٦	موت بسبب المجاعة
١٧٣٧	مغادرة إخوة الملك لأمه انكلترا
١٧٣٩	مصادرة مبلغ من المال في دوفر
١٧٣٩	رغبة الويلزيين بالتصالح .
١٧٣٩	قبول أهل لندن بالمشاركة بقرارات البارونات
١٧٤٠	تسميم عدد من النبلاء في انكلترا
١٧٤٠	عدم استقرار فولك أسقف لندن
١٧٤١	الكلام القاسي الذي وجهه الملك إلى ايرل ليستر
١٧٤٢	العثور على أوراق مختومة بختم البابا
١٧٤٣	العثور على السم

١٧٤٣	وحشية أسقف وينكستر
١٧٤٤	نقاهة ايرل غلوستر
١٧٤٥	كيف دمر برانكليون بعض حصون قطاع الطرق
١٧٤٥	شكاوى ضد البواتيين
١٧٤٥	السماح للبواتيين بالعودة إلى الوطن عبر فرنسا
١٧٤٦	زيادة المجاعة في انكلترا
١٧٤٧	الإعلان عن صوم
١٧٤٨	وفاة أسقف لنكولن
١٧٤٨	مغادرة مندوب البابا لانكلترا
١٧٤٩	مصادرة أموال أسقف وينكستر
١٧٤٩	قلق ملك فرنسا من أجل إقامة سلام مع انكلترا
١٧٥٠	تعيين أربعة فرسان للبحث في مآسي الفقراء
١٧٥٠	غضب الملك ضد فيليب لوفل
١٧٥٢	إلقاء عمدة نورثأمبتون في السجن
١٧٥٢	وفاة روجر أوف ويكهام
١٧٥٢	وفاة وليم أوف تارنتوم
١٧٥٣	ارسال رسل إلى البابا
١٧٥٣	خيانة ضد الويلزيين
١٧٥٤	تكريس رئيس أساقفة يورك
١٧٥٤	رغبة رئيس أساقفة كانتربري بأداء قداسات في كنيسة القديس ألبان
١٧٥٥	انتخاب أسقف للنكولن
١٧٥٦	تكريس كنيسة سالسبري
١٧٥٦	خلع فيليب لوفل
١٧٥٦	متابعة المراقبة ضد العمد
١٧٥٧	ارسال مندوبين من انكلترا إلى بارلمان كامبري
١٧٥٧	تكريس أسقف لنكولن
١٧٥٨	تتويج مانفرد ملكاً على أبوليا

١٧٥٩	تعيين شيخ جديد لروما
١٧٦٠	عودة رئيس أساقفة يورك من روما
١٧٦٠	حرمان غي دي روشفورت
١٧٦١	اتهام وولتر أوف سكوتني
١٧٦١	سجن وليم دي بوسي
١٧٦١	سفر جوانا زوجة وليم دي بلنسية
١٧٦٢	خلاف بين الباحثين في اكسفورد
١٧٦٢	رغبة الويلزيين بإقامة سلام مع الملك
١٧٦٣	عرض عام لأحداث السنة
١٧٦٤	رؤيا إحدى النساء المقدسات
١٧٦٤	رغبة رتشارد ملك ألمانيا بزيارة انكلترا
١٧٦٥	ادانة اليهود بالخيانة
١٧٦٦	تهريب مبلغ كبير من المال
١٧٦٧	وفاة فيليب لوفل
١٧٦٧	زواج فيليب ابن الملك الفرنسي
١٧٦٧	تطويب رتشارد أسقف شيكستر
١٧٦٧	انتخاب أسقف لوينكستر
١٧٦٨	ارسال مندوبين للقاء رتشارد ملك ألمانيا
١٧٦٩	استقبال الملك لأخيه
١٧٦٩	جواب ملك ألمانيا للمندوبين
١٧٧١	عودة رتشارد ملك ألمانيا إلى انكلترا
١٧٧١	اليمين الذي أداه رتشارد
١٧٧٢	يمين آخر له
١٧٧٢	مغادرة نبلاء ألمانيا إلى بلادهم
١٧٧٣	عقد بارلمان في لندن
١٧٧٤	اعتقال وولتر سكوتني
١٧٧٥	أفاعيل وليم بوسي المقيتة

١٧٧٦	عودة وليم هورتون إلى انكلترا
١٧٧٧	وفاة توماس كونت فلاندرز
١٧٧٨	ارسال وفد إلى بارلمان ملك فرنسا
١٧٧٨	استيلاء الرهبان الدومينيكان على دير دنستيبل
١٧٧٩	موت كونتسة بولون
١٧٨٠	كيف جرى تعيين شخين جديدين في روما
١٧٨٠	الخلافات التي تفجرت في ثلاث جامعات
١٧٨٠	الخلاف بين ايرلي غلوستر وليستر
١٧٨١	العوائق في طريق إقامة سلام بين ملكي فرنسا وانكلترا
١٧٨٢	معركة بين الداوية والاسبتارية
١٧٨٣	حصول البابا على المنصب الامبراطوري للايرل رتشارد
١٧٨٣	وباء حاد
١٧٨٤	ادانة وولتر سكوتني
١٧٨٧	**ذيل تاريخ متى باريس**
١٧٨٧	ترتيبات بين ملكي انكلترا وفرنسا
١٧٨٨	حرمان مانفرد كنسياً
١٧٨٨	تحكم الأجانب بانكلترا
١٧٨٩	وفاة البابا الاسكندر
١٧٨٩	موت يهودي في كنيف
١٧٩٠	تحليل الملك من يمينه
١٧٩٠	صد رجال العدالة في هيرفورد
١٧٩٠	مقتل الفلورنسيين
١٧٩٠	الحرب في هنغاريا
١٧٩١	طرد البواتيين من انكلترا
١٧٩٢	تحرير انكلترا من استغلال الرومان
١٧٩٢	كيف حبس الملك نفسه في برج لندن
١٧٩٣	ارسال مندوبين من عند البارونات إلى الملك

١٧٩٤	التحالف ضد المستشارين الأشرار
١٧٩٤	طرد الامبراطور بلدوين من القسطنطينية
١٧٩٥	مختصر أخبار العام
١٧٩٥	مغادرة الملك لبرج لندن
١٧٩٦	انسحاب الملك من يمينه
١٧٩٦	خضوع الملك والنبلاء إلى تحكيم ملك فرنسا
١٧٩٧	قرار ملك فرنسا ضد البارونات
١٧٩٧	عودة الملك من البارلمان الفرنسي
١٧٩٨	أعمال روجر مورتيمير ضد البارونات
١٧٩٩	إجراءات البارونات
١٨٠٠	توقف انهيار السلام
١٨٠١	تحصين قلعة ويندسور
١٨٠١	اعطاء قلعة ويندسور إلى الايرل سيمون
١٨٠١	اعطاء صقلية إلى الكونتت شارل
١٨٠٤	زحوف الملك والبارونات
١٨٠٤	رسالة البارونات إلى ملك انكلترا
١٨٠٤	جواب الملك على الرسالة
١٨٠٥	رسالة رتشارد ملك ألمانيا إلى البارونات
١٨٠٦	رفض طلب البارونات
١٨٠٧	استراتيجية سيمون دي مونتفورت
١٨٠٨	المعركة بين بارونات انكلترا والملك
١٨٠٨	رغبة البارونات بالسلام
١٨١٠	مآسي وفواجع انكلترا
١٨١١	وصف العام
١٨١٢	إجراءات سيمون دي مونتفورت
١٨١٢	إجراءات أهل تخوم ويلز
١٨١٢	حرمان البارونات كنسياً

★★★ ★★★ ★★★